٣٥ درس

التفسير المحرر للقرآن الكريم

الفاتحة - البقرة

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بالقاهرة

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الأول

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(الفاتحة - البقرة)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية للنشير – القسم العلمي

التفسير المحرر للقرآن الكريم – سورة الفاتحة والبقرة/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – ط٢ – الظهران، ١٤٤١ هـ

٩٢٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٨-٧٤-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير الفاتحة – تفسير ٢- القرآن – سورة البقرة أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤١/٢٣٧٣

رقم الإيداع: ١٤٤١/٢٣٧٣

ردمك: ٨-٧٤-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٤١ هـ – ٢٠٢٠ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣ / فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(الفاتِحة - البَقَرة)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الأول

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الشَّيخ الدكتور
خالِد بن عُثمان السَّبت

الحمدُ للهِ، والصَّلاةُ والسَّلام على رسولِ اللهِ، وعلى آلِه وصَحْبِه وأتْباعِه إلى يومِ الدِّين.

أمَّا بعدُ:

فإنَّه لا يَخفَى كثرةُ المؤلَّفات في التَّفسير، المطبوع منها وغير المطبوع، على تَبَايُنٍ بينها في الأسلوب والمضمون، مع تَكرارٍ كثيرٍ فيما تَحويه هذه الكتُب؛ وذلك يُفَوِّت على مَن رام تَتَبُّعَها الزمانَ الطويلَ في أمرٍ يمكن تَلَافِيه.

ومِن هنا فإنَّ مَن يُطَالِع في كُتُب التَّفسيرِ سَيُوَاجِه جُمْلَةً مِن المُعَوِّقَات، فمن ذلك:

١- الأسلوبُ واللُّغة التي صِيْغَت بها تِلك المؤلَّفات، إضافةً إلى بعض المُصْطَلَحات التي قد يَعْسُرُ فَهمُها على القارئ غيرِ المتخصِّص.

٢- كَثرةُ المعلومات وتداخُلها ما بين مناسبات، ومَرويَّات، وغريب، وإعراب، وقِراءات، وتوجيه لها، ونواحٍ بلاغيَّة، واستنباطات فقهيَّة، وغير ذلك ممَّا تحويه كتُبُ التَّفسير.

٣- ما يُوجَدُ من تفاوُتٍ في مضامين هذه المؤلَّفات من حيثُ صِحَّةُ المادة العلميَّة من عدمها، إضافةً إلى تفاوتها من حيث القيمةُ العلميَّة لتلك المضامين، كما لا يَخفَى.

٤- ما نَجِدُه في كتُب التفسير من ذِكرِ الأقوال والخِلافات الكثيرة والتأويلات البَعيدة، ممَّا يُورِثُ القارئَ حَيْرَةً بحيث لا يتمكَّن من معرفةِ الراجح من المرجوح، إضافةً إلى أنَّ كثيرًا من تلك الأقوال هي مِن قَبيل اختلاف التنوُّع، أو اختلاف التضادِّ الذي يؤول إلى التنوُّع؛ لإمكانِ الجمْع فيه بين تِلك المعاني المذكورة.

٥- هناك نِسبةٌ لا يُستهان بها من المعلومات التي حَوتْها تلك المؤلَّفات تُعَدُّ تَكرارًا لِمَا ذُكر في الكتُب التي سبقتْها، وهذا من شأنه أن يُورِثَ السآمةَ لدَى القارئ حيث يَقضي الوقتَ الطويل؛ ليصلَ إلى معلومة إضافيَّة.

٦- كثرة ما في كتُب التَّفسيرِ من الاستطرادِ والخروجِ عن مقصودِ التفسير.

فهذا وغيرُه اسْتَدْعَى كتابةَ مُؤَلَّفٍ في التفسير يَنْتَظِم أحسنَ ما في تِلك الكتُب، ويُقرِّب ذلك إلى كلِّ راغب في التفسير، من غير تَكرار ولا غُموض، مع ترتيبٍ للمعلومات المتنوِّعة تحتَ عناوينَ بارزة؛ بحيث يجِدُ القارئ بُغْيَتَه مباشرةً، فيقرأ في الجوانب التي يَطلُبها من بيانِ معنًى عامٍّ، أو مُناسَبَة، أو قِراءة، أو مرويَّات صحيحة، أو مُشْكِلٍ في الإعرابِ، أو نواحٍ بلاغيَّة، أو فوائد ذات أبواب متنوِّعة، إلى غيرِ ذلك ممَّا تجده في هذا الكتابِ الذي جَمَع ثمرةَ أهمِّ الكتُب المصنَّفة في التفسير، على تنُوُّع اتِّجاهاتها ومَناهِجِها.

كلُّ ذلك قد صِيغَ بعبارةٍ واضحة، سهلة قريبة، لا تَعْسُر على القارئ، وإنْ لم يكُن له عَهْدٌ بقِراءة كتُب التفسير.

هذا بالإضافة إلى مُراعاة أمورٍ ثلاثةٍ هي في غايةِ الأهميَّة:

الأوَّل: التعبير عن المعنى بعبارةٍ تَجمَعُ المعاني التي يُمكن أن تكونَ مُرَادَةً تحت الآية- ما أمكن.

الثاني: مُرَاعَاة تَرجيحاتِ المُحَقِّقِين في التفسير، وإنْ لم يكُن لبعضهم مُؤَلَّفٌ مُفْرَد فيه، كالإمام ابن جرير، والحافظ ابن كثير، وشيخ الإسلامِ وتلميذِه ابن القيِّم، والشيخ محمد الأمين الشِّنقيطي، والشيخ عبد الرحمن السعدي، رحمهم الله.

الثالث: أنَّ مبناه على عقيدةِ السَّلف الصالح وفَهْمهم، فهو سالمٌ من البِدع الاعتقاديَّة وغيرها.

وخُلاصة القول: إنَّ هذا التفسيرَ المحرَّر جُهْدٌ مُتَميِّز، يَجمَعُ بين صِحَّةِ المعلومة، وسُهولةِ العبارة، مع حُسْن ترتيبٍ وتبويب- تُقَدِّمه هذه المؤسَّسةُ المباركة **الدُّرَر السَّنيَّة** لكلِّ مُسلم يتَطَلَّع إلى الوقوفِ على تفسير القرآن الكريم، واستخراج هِداياتِه أيًّا كان تخصُّصه، أو غرضُه؛ فهو يَفِي بحاجةِ المعلِّمين والمتعلِّمين، ويَنتفع به عُمومُ القرَّاءِ من المتخصِّصين في التَّفسير وغيرهم، فيَقرؤونه مُطْمئنينَ لسَلامتِه من العقائد الفاسِدة، والتأويلات المُسْتَكْرَهة، والبِدع المُحْدَثَة، وتَبقَى تلك المراجعُ وما حوتْه من تِلك الكنوزِ والنَّفائس عُمدةً يَرجِع إليها طلَّابُ العِلمِ ويَنتفعون بها.

هذا، وقد راجعتُ هذا الكتابَ وقرأتُه بإمعانٍ.

فاللهَ أسألُ أن يَنفعَ به، وأن يَتقبَّله بقَبول حَسنٍ، وأن يَجزيَ كلَّ مَن أَسْهم في كِتابتِه، أو إخراجِه، خيرَ الجزاءِ؛ إنَّه سميعٌ مجيبٌ.

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت

أستاذ التَّفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

تقديم الشيخ الدكتور
أحمد سعد الخَطيب

أَحمَدُك ربِّي بجميع المحامد، لا إلهَ إلَّا أنت سبحانك، أَستغفرُك وأتوبُ إليك، وأُصلِّي وأُسلِّم على أكرمِ خَلقِك، وأعظمِ رُسلِك؛ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا أنت، وأنَّ محمدًا رسولُك وعَبدُك، وصفوتُك من خلقك، وأنَّ القرآن خيرُ كتاب أُنزل، على خيرِ نَبيٍّ أُرسل.

أمَّا بعد:

فإنَّ المشتغِلَ بالقرآن الكريم، المنشغِل به قلبًا وقالبًا، يَحتمي بجنابه القويِّ؛ إدراكًا منه بأنه قد آوى إلى رُكنٍ شديد، وحِصن عتيد؛ فلا يكاد يشعر بالأمن إلَّا في رِحابه، ولا يلتذُّ بالعيش إلَّا في جِواره، ولا يرتوي إلَّا منه، ولا يَرضى بغيره بديلًا، ولا ينصرف إلى سواه تحويلًا، فيسعى في كلِّ وقتٍ إلى خِدمته، وكلَّما انتهى مِن واحدةٍ دخل في سواها، ولِـمَ لا؟! وهو الكتاب الذي لا يَشبع منه العلماءُ، ولا يملُّه الأتقياء.

وربَّما سارت الخِدْماتُ بعضها إلى جوار بعض، يشدُّ بعضُها أزرَ بعض، دون كَلل من القائمين على ذلك أو مَلل، بل في سُرور وحبور؛ ابتغاءَ وجه الله العزيزِ الغفور، ثم التزوُّد ليوم النُّشور.

وهذا باختصارٍ هو حال **مؤسَّسة الدُّرَر السَّنيَّة**، التي وهَبتْ نفسها لخِدمة العِلم الشرعي عرْضًا وتأصيلًا، ومن أَجلِّ ذلك خدمة هذا الكتاب العزيز تشرُّفًا بها، ووثوقًا بأنَّ ما اختارته لنفسِها، واختطَّتْه لها هو سببُ الفلاح دُنيا وأخرى؛ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقد آلتْ هذه المؤسَّسة على نفسها، أن تُقدِّم موسوعاتٍ في شتَّى المعارفِ الإسلاميَّة؛ خِدمةً لهذا الدِّين العظيم، وقيامًا بواجبٍ طالمَا تقاصر عن أدائه كثيرون، فقدَّمت لطلَّاب العلم والمعرفة ما يَروي ظمأَهم مهما كان طلبُهم، ومن ذلك إخراجُ موسوعة في التَّفسير، مذلَّلة للطالبِين، تتميَّز بالعُمق والشمول، مع سُهولة العَرْض، فكان هذا "**التَّفسير المُحرَّر للقرآن الكريم**" الذي بين يدَي القارئ منه الآن: تفسير أمِّ الكتاب (سورة الفاتحة) وتفسير (سورة البقرة).

وهو تفسيرٌ محرَّر؛ لأنَّه خالصٌ لوجه الله، عتيقٌ من كلِّ غرض لا يحقِّق رضاه، ثم هو مُحرَّر لدِقَّة عبارته، مع يُسرها وسُهولتها، وخُلوِّها من سِمات التعقيد، ومُشكلات التقعيد.

هذا، وإنَّ **مؤسَّسة الدُّرر السَّنية** بهذا العمل الذي بين أيديكم مُبتداه، وقد عُقِد العزمُ على أن يبلغ بإذن الله على نفْس النَّهجِ منتهاه، تكون قد أَسدتْ معروفًا إلى طلَّاب المعرفة، المبتدئ منهم والمنتهي، فأهدتْهم كتابًا جامعًا في التفسير، متنوِّع الفوائد، ملبِّيًا لحاجيات قارئيه وطالبيه، بما حواه من أفانين العلوم التي طوَّف التفسير حولها؛ وذلك أنَّك واجدٌ فيه المعنى الإجمالي، وتفسير الآيات، وفيه الغريب والإعراب، وفيه البَلاغة واللَّطائف، وفيه الفوائدُ والفرائدُ، وفيه المناسبات والقراءات ذات الأَثَر في التفسير، وفيه كذلك مُقدِّماتٌ رائِعة، وكليَّاتٌ جامِعة، وستقف- أيُّها القارئ- على هذا الجهد إجمالًا حينما تُطالعُ مُقدِّمة الكتاب، وباستفاضةٍ وبيانٍ عندما تُطالِع التفسيرَ ذاته.

والرَّائع حقًّا، أنه قد سِيق ذلك كله- كما أَسلفتُ- بأسلوبٍ مُيسَّر وسَط، رُوعي فيه عدمُ التكلُّف الذي يشقُّ معه فَهمُ المراد،كما رُوعي فيه أيضًا عدمُ الإخلال بما

يجب أن يكون عليه فَهمُ كتاب الله تعالى وتفسيرُه؛ فهو إذن خالٍ من التكلُّف والتساهُل معًا، ودليل ذلك أنك ستجد فيه الآراءَ القويَّة على تزاحمها، والمعاني المترتِّبة على اختلاف القِراءات أو الإعراب على تعدُّدها، مضمَّنةً في عبارته.

وإذا كان ذلك كذلك، فلا يَحيكنَّ في صَدركِ بعضُ الظنِّ بأنَّ سُهولةَ عبارته فارقتْ عُمقَ التناوُل، أو قادتْ إلى التخلِّي عن بعضِ الآراء لحسابِ بعضٍ، لا! بل مضى ذلك كلُّه جنبًا إلى جنب، فتحقَّق بذلك سموُّ الغَرض مع جودة المضمون، وذلك كلُّه بتوفيقٍ من الله وعونٍ منه، ولولا ذلك ما كان ما كان.

وقد مضَى هذا التفسير على نهجٍ واضح في اقتفاء منهجِ أهل السُّنة والجماعة، في آيات العَقائد، بما يَضمنُ السلامةَ في الدِّين، وعدمَ الغلوِّ أو الابتداع فيه؛ فمنهجُ أهل السُّنة والجماعة عاصمٌ من ذلك كلِّه؛ فهو منهج السَّلف الكِرام الذين حمَلوا أمانةَ الدِّين على أعناقهم، وأدَّوْها كما حملوها، دونما زيفٍ أو شَطط، ودونما زيادة أو نقصان.

وكان لي شرفُ المشاركة في هذا العمل مقوِّمًا ومراجعًا، لجهدِ فريق عِلمي متميِّز، قام على أكتافه هذا العملُ المتميِّز، أسأل الله تعالى لي ولهم الأجرَ والمثوبة.

وممَّا أَسعَدني كذلك أنْ صاحبتُ في هذه المراجعة الشَّيخَ الجليلَ الدكتور خالد السبت حفظه الله، وهو صاحبُ جهد متميِّز في التقعيد والتأصيل والضبط لممارسة تفسيرِ القرآن وتدبُّره، وأرجو له أن يُواصِلَ الجهود في هذا الاتِّجاه، وألَّا يَبرحَهُ وقد تميَّز فيه، خصوصًا أنه مجالٌ تفتقر إليه المكتبة القرآنيَّة، وفَّق الله الشَّيخَ وأعانه على بلوغِ آماله.

وختامًا أقول:

إنَّ (**التفسير المُحرَّر للقرآن الكريم**) عملٌ يستحقُّ الثناء، وجهدٌ يستحقُّ الشُّكر، وهدفٌ يستحقُّ البذل، وثمرةٌ نسأل الله تعالى أن نَجنيَها قريبًا.

أ.د. أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

عميد كُليَّة الدِّراسات الإسلاميَّة والعربيَّة للبنين بقنا – جامعة الأزهر

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميَّة بجمهوريَّة مصر العربيَّة

مُقدِّمة التَّفسير

الحمدُ للهِ الَّذي أَنزلَ الفرقانَ على عَبدِه ليكونَ للعالَمين نذيرًا، والصَّلاةُ والسَّلام علَى مَن أَرْسله داعيًا إليه بإذنِه وسِراجًا مُنيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ كتابَ اللهِ (القرآنَ العظيمَ) هو الحقُّ المبين، أنزله على عَبدِه ورسولِه الأمين؛ ليكونَ هدايةً للإنسِ والجنِّ أَجمعين، ويُخرِجهم من ظُلماتِ الباطلِ والشَّكِّ إلى نُورِ الحقِّ واليقين؛ فمَن استمسك به فقد اعتَصَم بالحبلِ القَويم، وهُدِي إلى الصِّراط المُستقيم.

قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥- ١٦].

وكتابُ الله هو أفضلُ الكتُب السَّماويَّة، وأعظمُ وحيٍ أُنزِل على البشريَّة.

قال الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال الحافظ ابنُ كثير رحمه الله: (فهو أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ على كلِّ كتابٍ قَبْله، جعَل الله هذا الكتابَ العظيم- الذي أنزله آخِرَ الكتُب وخاتمها- أشملَها وأعظمَها وأحكمَها، حيث جمع فيه محاسنَ ما قبله، وزاده من الكمالاتِ ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلِّها، وتكفَّل تعالى بحفظه بنفسه

الكريمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩])[١].

وإنَّ سعادةَ كلِّ إنسان مرهونةٌ بهذا القرآن؛ فَهمًا له وتبليغًا، وعملًا به وتحكيمًا.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وقال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢].

وقدْ جُعلت تلاوتُه من أفضلِ الطَّاعات، وتدبُّرُه من أجلِّ وأعلى القُرُبات.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

قال الشيخُ السعديُّ رحمه الله: (﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ﴾، أي: يَتَّبعونه في أوامره فيَمتثِلونها، وفي نواهيه فيَترُكونها، وفي أخبارِه فيُصدِّقونها ويعتقدونها، ولا يُقدِّمون عليه ما خالَفَه من الأقوال، ويَتلُون أيضًا ألفاظه بدراسته ومعانيه، بتتبُّعها واستخراجها)[٢].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

((مَثَل المؤمنِ الذي يَقرأُ القرآنَ كمَثَل الأُتْرُجَّة؛ رِيحُها طيِّب وطَعمُها طيِّب، ومَثَلُ المؤمنِ الذي لا يَقرأ القرآنَ كمَثل التمرةِ؛ لا رِيحَ لها وطعمها حُلو، ومَثَلُ المنافقِ الذي يقرأ القرآن مثلُ الرَّيحانةِ؛ رِيحها طيِّب وطعمها مُرٌّ، ومَثَلُ المنافق الذي لا يَقرأ القرآن كمَثَل الحنظلةِ، ليس لها رِيحٌ وطعمها مُرٌّ))[١].

وإنَّ إجالةَ الخاطرِ في حِكَمه، وتلمُّسِ أسراره ومراميه، بابٌ يُفتح بمعرفةِ تفسيره، والتمعُّن في بديع معانيه.

قال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

قال الزركشيُّ رحمه الله: (ومَن لم يكُنْ له عِلمٌ وفَهمٌ وتقوى وتدبُّرٌ لم يُدركْ من لذَّة القرآن شيئًا)[٢].

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة رحمة الله: (ومِن المعلوم أنَّ كلَّ كلامٍ فالمقصودُ منه فَهمُ معانيه، دون مجرَّد ألفاظه، فالقرآنُ أَوْلى بذلك، وأيضًا فالعادة تمنع أن يَقرأَ قومٌ كتابًا في فنٍّ من العِلمِ كالطبِّ والحساب، ولا يستشرحوه؛ فكيف بكلامِ الله الذي هو عِصمتُهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيامُ دِينهم ودُنياهم؟!)[٣].

وقال العلَّامةُ ابنُ القيِّم رحمه الله: (وبالجملةِ فلا شيءَ أنفعُ للقلب من قِراءة القرآنِ بالتدبُّر والتفكُّر؛ فإنَّه جامعٌ لجميع منازلِ السَّائرين، وأحوالِ العامِلين، ومقامات العارِفين، وهو الذي يُورِثُ المحبَّةَ والشوقَ، والخوف والرجاء،

---

(١) رواه البخاري (٥٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((البرهان)) (٢/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٣/ ٣٣٢).

والإنابة والتوكُّل، والرِّضا والتَّفويض، والشُّكر والصَّبر، وسائر الأحوال التي بها حياةُ القلبِ وكمالِه، وكذلك يَزْجُر عن جميعِ الصِّفاتِ والأفعال المذمومة، والتي بها فسادُ القلب وهلاكه، فلو علِم النَّاسُ ما في قراءةِ القرآنِ بالتدبُّر لاشْتَغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّر حتى مرَّ بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه كرَّرها ولو مِئةَ مرَّة ولو ليلةً؛ فقِراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من قراءة خَتمةٍ بغير تدبُّرٍ وتفهُّمٍ، وأنفعُ للقلب وأدْعى إلى حُصولِ الإيمان، وذَوْق حلاوة القرآنِ)[١].

وقال الإمام ابنُ رجب رحمه الله: (ومِن أعظمِ ما يَتقرَّب به العبدُ إلى الله تعالى مِنَ النَّوافل: كثرةُ تلاوةِ القرآن، وسماعُهُ بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ وتفهُّمٍ)[٢].

وقد كانَ هذا ديدنَ النبيِّ المختارِ عليه الصَّلاة والسَّلام، وأصحابِه الأطهارِ الكِرام.

فعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: ((صلَّى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليلةً فقرأ بآيةٍ حتى أصبح...: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]))[٣].

وعن ابن مَسعودٍ رضي الله عنه، قال: (كان الرَّجل منَّا إذا تعلَّم عَشرَ آياتٍ، لم يُجاوزْهنَّ حتى يَعرِفَ معانيَهنَّ والعملَ بهنَّ)[٤].

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) (٣/ ١٠٨٠).

(٣) رواه النَّسائيُّ (١٠١٠)، وابن ماجه (١٣٥٠)، وأحمد (٢١٥٣٣)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (٤٩٠٥)

جوَّد إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧٥٩)، وقال الألباني في ((أصل صفة الصلاة)) (٢/ ٥٣٤): أقلُّ أحواله أنَّه حسنٌ، وهو صحيح قطعًا بشاهده.

(٤) رواه الطبريُّ في ((التفسير)) (١/ ٤٤)، وابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (٦/ ٢١٢)، والطحاويُّ في ((شرح مشكل الآثار)) (١٤٥٠)، والحاكم (٢٠٤٧)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (٥٢٨٩)

صحَّحه ابنُ جرير الطبري في ((التفسير)) (١/ ٤٤)، وقال الحاكم في ((المستدرك)): صحيح الإسناد، ولم يُخرجاه.

هذا، وإنَّ شرفَ العِلم إنَّما يكونَ على قدْر شرَف المعلوم؛ وعليه فإنَّ أشرفَ العلومِ وأرفعَها قدرًا، وأَوْلاها بالتَّفضيلِ حقًّا وصِدقًا، هو عِلمُ التَّفسير؛ فموضوعُه كلامُ الحكيمِ الخبير.

قال الرَّاغب: (أشرفُ صناعةٍ يَتعاطاها الإنسان، تفسيرُ القرآن)[1].

لكنَّ الناظرَ إلى كتُب التفسير المنشورة ورقيًّا وإلكترونيًّا نظرةً فاحصة يمكنه إدراكُ مدى الحاجة إلى تَفسيرٍ شاملٍ وواضحٍ ومُحرَّر، يَستفيدُ منه جميعُ الفئات والمستويات في هذا العَصر، وأنَّ هذا أمرٌ مُلِحٌّ، ومطلبٌ ضروريٌّ، خصوصًا مع عزوف كثيرٍ من أهل العِلم وطلبتِه عن عِلم التَّفسير، فضلًا عن عُمومِ المسلمين!

والاستفادة المباشرة من كتُب التفسير- التي لا غِنَى عنها- يعوقها أمورٌ، منها:

- اللغة التي كُتِبت بها كثيرٌ من التفاسير، وهي لغةٌ عِلميَّةٌ قد لا تُفهم بسُهولةٍ لدَى القارئ غير المتخصِّص.
- ذِكر الأقوالِ دون ترجيحٍ في كثيرٍ من الأحيان؛ ممَّا يستدعي حيرةَ القارئ.
- كثرة الاستطرادات التي قد تُشتِّت القارئ بعيدًا عن الغاية المنشودة من عِلم التفسير.
- طريقةُ العَرْض غالبًا ما تتداخل فيها المعلومات دون فَصلٍ بين غريبِ الكلماتِ، والبلاغةِ والفوائدِ ومعاني الآيات، وغيرِ ذلك من جوانبِ التَّفسيرِ التي يَحتاج كلٌّ منها إلى ذِكرها مستقلةً عن الأخرى؛ فذلك أدْعَى لفَهمها واستيعابها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (١/ ٣٦).

لذا فقدْ قامت **مؤسَّسةُ الدُّرر السَّنيَّة**- أداءً لرِسالتها، وتحقيقًا لرؤيتها المتمثِّلةِ في نشْر العِلم الشرعيِّ المؤصَّل- بالعملِ على إعداد كتابٍ مُحرَّرٍ في التفسير، حَسَنِ العَرْضِ، سَهَلِ العِبارةِ؛ خِدمةً لكتاب الله تعالى، ولتيسيرِ الاستفادةِ منه على النَّاسِ كافَّةً.

وقد قام بإعداد هذا التفسيرِ ثلَّةٌ من طلبةِ العِلم المتميِّزين بالقِسمِ العِلميِّ بمؤسَّسة الدُّرر السَّنيَّة، بإشراف الشَّيخِ عَلَوي بن عبد القادر السَّقَّاف، وقد قرأَ هذا التفسير وراجَعَه ودقَّقه كلٌّ من:

١ -الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت، أستاذ التَّفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام.

٢- الشيخ الدكتور أحمد بن سعد الخطيب، أستاذ التَّفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بقنا.

وضمَّ هذا التَّفسير ما تفرَّق في التفاسير من المهمَّات، فحوى:

١- أسماء السُّور مع أسبابِ تَسميتِها.

٢- فضائل السُّور وخصائصها.

٣- بيان المكِّي والمدني.

٤- أسباب نُزول السُّور والآيات.

٥- مقاصِد السُّور.

٦- موضوعات السُّور.

٧- غريب الكلمات.

٨- مُشْكِل الإعراب.

٩- المناسبات بين الآيات.

١٠- فضائل الآيات.

١١- النَّاسخ والمنسوخ.

١٢- القِراءات المتواتِرة ذات الأثر في التَّفسير.

١٣- معاني الآياتِ الإجماليَّة والتفصيليَّة.

١٤- الآيات والأحاديث المناسِبة لمعاني الآيات.

١٥- الفوائِد التربويَّة.

١٦- الفوائد العلميَّة واللطائف العامة.

١٧- بلاغَة الآيات.

ضوابط العمل في هذا التفسير:

أوَّلًا: في بَيان المَكيِّ والمَدَنيِّ

١- الاعتِمادُ فيه على الضَّابطِ الزَّمانيِّ، وهو أنَّ ما نزَلَ قَبلَ الهجرةِ فهو مكِّيٌّ، وما نزَل بعدَها فهو مَدَنيٌّ.

٢- ذِكرُ الإجماعاتِ على مكيَّةِ السُّورةِ أو مَدَنيَّتِها، وما يَرِدُ على ذلك مِن استثناءاتٍ وما يقَعُ مِن خِلافٍ.

ثانيًا: في غَريبِ الكَلِماتِ

١- الاقتِصارُ على الكَلِماتِ الغريبةِ التي يُحتاجُ إلى مَعرفةِ معناها.

٢- الاعتِناءُ في التَّعريفِ بذِكرِ معنى الكَلِمة، وأصلِ اشتِقاقِها، والرَّبطِ بينهما- إنْ أمكَنَ.

٣- الاعتِمادُ في بيانِ الغريبِ على أُمَّاتِ كتُبِ الغَريبِ، مِثلُ: ((غريب القرآن))

لابن قُتَيبة، ((غريب القرآن)) للسِّجْستاني، ((مقاييس اللُّغة)) لابن فارس، ((المفردات)) للراغب، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي، ((التبيان)) لابن الهائم، وغيرها، مع الاستِعانةِ بكُتُبِ التَّفسيرِ عند الحاجةِ.

ثالثًا: في مُشكِلِ الإعرابِ

١- الاقتِصارُ على بيانِ المشْكِلِ الذي يَخدُمُ التَّفسيرَ ممَّا خفِيَ إعرابُه، وأَشكَل توجيهُه النَّحْويُّ، أو خالَف في الظَّاهرِ قواعِدَ النُّحاةِ.

٢- جمْعُ المادَّةِ بالاعتِماد على الكتُبِ التَّاليةِ: ((مُشكِل إعراب القرآن)) لمكيٍّ، و((التبيان في إعراب القرآن)) للعُكبري، و((الدُّرُّ المصون)) للسَّمين الحَلَبي، وغيرِها.

رابعًا: في المَعنى الإجماليِّ

مُراعاةُ الاختِصار، وعَدَم التعرُّضِ للتَّفاصيلِ، وهو يُعَدُّ خُلاصةً لِما ذُكِرَ في تفسيرِ الآياتِ.

خامِسًا: في المُناسَباتِ بينَ الآياتِ

١- الاقتِصارُ على ذِكرِ أهمِّ المُناسَباتِ.

٢- الابتِعادُ عن المُناسَباتِ المُتكلَّفةِ.

سادسًا: في القِراءاتِ

١- الاكتِفاءُ بالقِراءاتِ المتواتِرةِ.

٢- الاقتِصارُ على ما له أثرٌ في التَّفسيرِ.

٣- عزْوُ القِراءاتِ إلى كِتاب: ((النشر)) لابن الجَزَري، وعزْوُ معانيها إلى الكتُبِ المَعنيَّةِ بذلك، مِثلُ: ((معاني القِراءات)) للأزهري، ((الحُجَّة في القراءات

السَّبْع)) لابن خَالويه، ((حُجَّة القِراءات)) لابن زنجلة، ((الإبانة عن معاني القِراءات)) لمَكيٍّ، ((الكشف)) لمَكيٍّ، ((تفسير أبي حيان))، ((الدُّر المصون)) للسَّمين الحَلَبي، وغيرِها.

سابعًا: في تَفسيرِ الآياتِ

١- تَجزِئةُ السُّورةِ إلى مقاطعَ تعتَمِدُ على الوَحدةِ الموضوعيَّةِ لمجموعةِ آياتٍ مُتتاليةٍ.

٢- الاعتِمادُ على ما نقَلَه المفسِّرونَ مِن إجماعاتٍ ثابتةٍ وصَحيحةٍ.

٣- الاعتِمادُ في اختيارِ معاني الآياتِ في الجُملةِ على عدَدٍ من المُبَرِّزينَ والمحقِّقينَ في التَّفسير، مثل: ابن جرير، والواحدي، وابن عطية، والقرطبي، وابن تيميَّة، وابن القيِّم، وابن كثير، والبقاعي، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور، والشِّنقيطي، وابن عثيمين، وغيرِهم.

٤- إذا وُجِد خِلافٌ في معنى الآيةِ يُذكَرُ المعنى الرَّاجِحُ غالبًا، مع الإشارةِ إلى الأقوالِ الأخرى إذا كانت قويَّةً ومُحتَمَلةً.

٥- تُذكَرُ أقوالُ السَّلَفِ في الحاشيةِ عند عَرضِ الخِلافِ، مع عزْوِها إلى مَصادِرِها الأصليَّةِ، كتفسير ابنِ جريرٍ، وابنِ أبي حاتمٍ، مع الاستعانةِ ببَعضِ الكتُبِ التي جَمَعت أقوالَهم، كـ((زاد المسير)) لابن الجوزي، و((تفسير ابن كثير))، و((الدُّر المنثور)) للسُّيوطي.

٦- في التَّفسيرِ المجموعِ مِن كلامِ بعضِ أهلِ العِلم، كتفسيرِ ابنِ تيميَّة، وابن القيِّم، وابن رجب: يكونُ العَزْوُ على الكُتُبِ الأصليَّةِ التي جُمِعَ منها التَّفسيرُ، لا على الكِتابِ الوسيطِ الذي جمَعَها.

٧- ذِكرُ ما يُناسِبُ الآيةَ وتفسيرَها مِن الآياتِ والأحاديثِ.

٨- بيانُ النَّاسِخِ والمَنسوخِ في الآياتِ.

٩- ذِكرُ سَبَبِ نُزولِ الآيةِ إن ثبَتَ.

١٠- ذِكرُ ما لبَعضِ الآياتِ مِن فَضائِلَ إن ثبَتَ.

ثامنًا: في الفَوائِدِ التَّربويَّةِ

١- ذِكْرُ ما يَتعلَّق بتَزكيةِ النَّفْسِ وتهذيبِها.

٢- ربطُ كلِّ فائدةٍ بالآيةِ التي استُنبِطَت منها.

٣- عَرضُ الفوائِدِ مرتَّبةً بحسَبِ ترتيبِ الآياتِ.

تاسعًا: في الفَوائِدِ العِلميَّةِ واللَّطائِفِ

١- ذِكرُ فوائِدَ عَقَديَّةٍ أو فِقهيَّةٍ، أو غيرِ ذلك ممَّا يُستنبَطُ من الآياتِ، بالإضافةِ إلى اللَّطائفِ المتعَلِّقةِ بها.

٢- الاقتِصارُ على غُرَرِ الفوائدِ، والنُّكَتِ البَديعةِ، دونَ الواضِحِ أو البَدَهيِّ من ذلك.

٣- ربطُ كلِّ فائدةٍ بالآيةِ التي استُنبِطَت منها.

٤- عَرْضُ الفوائِدِ مرتَّبةً بحسَبِ ترتيبِ الآياتِ.

٥- الاعتِمادُ في استِخراجِ الفوائدِ التربويَّةِ، والفوائِدِ العِلميَّةِ واللَّطائِفِ العامَّة، وكذا المُناسباتُ: على عددٍ من التفاسيرِ مَظِنَّةِ هذِه المسائِل، منها: ((تفسير الرَّازي))، و((تفسير أبي حيَّان))، و((نَظْم الدُّرر)) للبقاعي، و((تفسير السعدي))، و((تفسير المنار))، و((تفسير ابن عاشور))، و((تفسير ابن عُثَيمين)) وغيرها، بالإضافةِ إلى كُتُبِ ابنِ تيميَّةَ، وابنِ القَيِّم، والسيوطيِّ، والشِّنقيطيِّ، وغيرِهم.

عاشرًا: في بَلاغةِ الآياتِ

١- إبرازُ جَمالِ ألفاظِ القُرآنِ ومَعانيها، وحُسْنِ تركيبِ جُمَلِه، وبَيانُ مَدلولاتِها.

٢- عدَمُ ذِكرِ الجوانِبِ البَلاغيَّةِ الصِّناعيَّةِ البَحتةِ مِمَّا يَصلُحُ للمُتخَصِّصِ في البلاغةِ.

٣- ربطُ كلِّ وجهٍ بلاغيٍّ بالآيةِ التي استُنبِطَ منها.

٤- عرضُ الأوجهِ البلاغيَّةِ مرتَّبةً بحسَبِ ترتيبِ الآياتِ.

٥- الاهتِمامُ بتَعريفِ المُصطلَحاتِ البلاغيَّةِ.

٦- الاعتِمادُ في جمْعِ الأوجهِ البلاغيَّةِ على عدَدٍ مِن الكتُبِ المُعتنِيةِ بذلك؛ منها: ((تفسير الزمخشري))، ((تفسير البيضاوي))، ((تفسير أبي حيَّان))، ((تفسير أبي السُّعود))، ((تفسير ابن عاشور))، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدِّين درويش، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل، وغَيرِها.

ومِمَّا اعتُمِدَ عليه في تَعريفِ المُصطَلَحاتِ البَلاغيَّةِ:

((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني، و((مِفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي، و((البُرهان في علوم القرآن)) للزَّركشي، و((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة، و((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب، وغيرها.

حادي عشر: ضوابِطُ عامَّةٌ

١- تجنُّبُ ما يخالِفُ الاعتِقادَ الصَّحيحَ؛ اعتِقادَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ.

٢- الاعتِمادُ على ما صَحَّ من الأحاديثِ المرفوعةِ والموقوفاتِ، وبيانُ مَن صحَّحَها من أهلِ العِلمِ.

٣- مراعاةُ عدَمِ التَّعارُضِ بين المعنى المُختارِ في التَّفسيرِ وبين المعنى الإجماليِّ

والفوائِدِ والبلاغِةِ، وإلَّا فيشارُ إلى أنَّ هذه الفائِدةَ أو الوجهَ البلاغيَّ على أحدِ أوجُهِ التَّفسيرِ.

٤- تعريفُ الكَلِماتِ الغَريبةِ الواردةِ في نُصوصِ الأحاديثِ، وغيرِها من المُصطَلحاتِ العِلميَّةِ.

وقدِ اكتفَيْنا في نهايةِ كُلِّ مُجلَّدٍ بفِهرسٍ مُختصَرٍ للمَوضوعاتِ، على أنْ تُلحَقَ بآخِرِ مُجَلَّداتِ التَّفسيرِ فَهارِسُ تَّفصيليَّةٌ مُتنوِّعةٌ إنْ شاء اللهُ تعالى.

فدُونَكَ- أيُّها القارئ الكريم- هذا الكِتاب، الذي انْتظَمَ فيه ما تناثَرَ من دُررٍ في بطون التَّفاسير، وحوى ممَّا تفرَّق من نفائسِ العلم الشيءَ الكثير، حتى غَدَتْ قريبةَ المنَال، ظاهرةً في غاية الوضوح والتَّيسير.

وختامًا:

نسأل اللهَ العليَّ القديرَ أن يَتقبَّل منَّا جُهدَنا وسَعيَنا، وأنْ يَجعلَ القرآنَ قائدَنا وهادِيَنا، وحُجَّةً لنا لا عَلينا، وأن يَرزُقَنا تلاوتَه وتدبرُّه في جميعِ الأوقات، وأنْ يُكفِّر به عنَّا السَّيِّئات، ويَرفعنا به دَرجاتٍ عاليات.

والحمدُ لله الَّذي بنِعمته تتمُّ الصَّالحات،،

الاستِعاذَة

الاستعاذةُ مشروعةٌ قَبلَ تلاوة القرآنِ[١]؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٢] [النحل: ٩٨].

وقد أجمَع العلماءُ على أنَّ التعوُّذ ليس من القُرآن ولا آية منه، وهو قولُ القارئِ: (أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيم). وهذا اللفظ هو الذي عليه الجمهورُ من العلماء في التعوُّذ[٣].

ومعناها: أستجيرُ وألتجِئ[٤]، بالمعبود الحقِّ سبحانه وتعالى[٥]، مَن كل جانٍّ

---

(١) وجمهورُ العلماءِ على أنَّه مستحبَّةٌ، وحَكَى الإجماعَ على ذلك ابنُ جَرير وغيرُه. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١ / ١١٣) (٤/ ٦٠٢).

(٢) قال ابن جرير: (يقولُ تَعالى ذِكرُه لنبيِّه محمَّد صلىَّ الله عليه وسلَّمَ: وإذا كنتَ يا محمَّد، قارئًا القرآن، فاستعذْ بالله من الشيطان الرجيم) ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٧).

وقال ابنُ تيميَّة: (الشيطان يُريد بوساوسه أن يَشغل القلبَ عن الانتفاع بالقرآن؛ فأمَر الله القارئَ إذا قرأ القرآن أن يستعيذَ منه؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٨، ٩٩]... فإذا عاذ العبدُ بربِّه كان مستجيرًا به، متوكِّلًا عليه، فيُعيذه اللهُ من الشيطان، ويُجيره منه) ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٨٣).

وقال ابنُ كثير: (المشهورُ الذي عليه الجمهور أنَّ الاستعاذة لدفْع الوسواس فيها إنَّما تكون قبلَ التلاوة، ومعنى الآية عندهم: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، أي: إذا أردتَ القراءة) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٤٤)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٤/ ١٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩).

قال ابنُ جَرير: (الله، أصله: الإله؛ أُسقطت الهمزة، التي هي فاء الاسم، فالْتقتِ اللامُ التي هي عينُ الاسم، واللامُ الزَّائدة التي دخلت مع الألِف الزائدة، وهي ساكنةٌ - فأُدغمت في الأخرى =

متمرِّدٍ[١]، مطرودٍ عن كلِّ خيرٍ[٢].

ومِن فوائدِ الاستِعاذةِ ولطائفها:

الالتجاءُ إلى قادرٍ يدفع الآفاتِ عن العبد، لا سيَّما دفْع وساوسِ الشيطان الذي يسعى بشِدَّة إلى صدِّ العبد عن قِراءة القرآن وتدبُّره؛ لأنَّه من أعظم الطاعات، ولأنه لمَّا كان سعيُ الشيطان في الصدِّ عن ذلك أبلغَ، كان احتياجُ العبد إلى مَن يصونه عن شرِّ الشيطان أشدَّ[٣]. ففي الاستعاذة استعانةٌ بالله تعالى، واعترافٌ له

= التي هي عينُ الاسم، فصارتَا في اللفظ لامًا واحدةً مشدَّدة) ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٢٤).
وقال الواحديُّ: (الأكثرون ذهبوا إلى أنَّه مشتقٌّ من قولهم: «أَلَهَ إلاهةً». أي: عبَد عبادةً... ومعناه: المستحقُّ للعبادة، وذو العبادة: الذي إليه تُوجَّهُ العبادةُ وبها يُقْصَدُ) ((التفسير الوسيط)) (١/ ٦٤).

(١) قال ابنُ جرير: (الشيطانُ في كلام العرب: كلُّ متمرِّد من الجنِّ والإنس والدوابِّ، وكلِّ شيء، وكذلك قال ربُّنا جلَّ ثناؤه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فجعل من الإنس شياطينَ، مثل الذي جعل من الجِنِّ... وإنما سُمِّي المتمرِّد من كل شيء شيطانًا؛ لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاقَ سائرِ جِنسه وأفعاله، وبُعدِه عن الخير) ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٩).
وقال ابن كثير: (الشَّيطان في لُغة العرب مشتقٌّ من شطَن إذا بَعُد؛ فهو بعيدٌ بطبعه عن طِباع البشر، وبعيدٌ بفسقه عن كلِّ خير، وقيل: مشتق مِن شاط؛ لأنَّه مخلوق من نار، ومنهم مَن يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأوَّل أصح، وعليه يدلُّ كلام العرب) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٥).

(٢) قال ابنُ جرير: (أمَّا الرجيم فهو فعيل، بمعنى مفعول... وتأويل الرجيم: الملعون، المشتوم. وكل مشتوم بقولٍ رديء أو سبٍّ، فهو مرجومٌ، وأصل الرجم: الرَّمي بقولٍ كان أو بفِعل، ومن الرَّجمِ بالقول: قولُ أبي إبراهيم لإبراهيم صلوات الله عليه: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]. وقد يجوز أن يكون قِيل للشيطان: رجيم؛ لأنَّ الله جلَّ ثناؤه طردَه من سمواته، ورجَمه بالشُّهب الثواقب) ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١١٠).
وقال ابنُ كثير: (الرجيم: فعيل بمعنى مفعول، أي: إنَّه مرجومٌ مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]... وقيل: رجيمٌ بمعنى راجِم؛ لأنَّه يَرجُم الناس بالوساوس والربائث، والأوَّل أشهر) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩).

بالقُدرة، وللعبدِ بالضَّعفِ والعجزِ عن مقاومة هذا العدوِّ المبين الباطني، الذي لا يَقدِر على منعِه ودفعِه إلَّا الله الذي خَلَقه، ولا يَقبل مصانعةً، ولا يُدارَى بالإحسان، بخلاف العدوِّ الإنساني[١].

ومنها: أنَّها طهارةٌ للفم ممَّا كان يتعاطاه العبدُ من اللَّغو والرَّفَث، وتطييبٌ له، وتهيُّؤٌ لتلاوة كلام الله عزَّ وجلَّ[٢].

ومنها: أنَّ الملائكة تَدنو من قارئِ القرآنِ وتَستمِعُ لقراءته. والشيطانُ ضد المَلَك وعدوُّه؛ فأُمِر القارئ أن يَطلبَ من الله تعالى مباعدةَ عدوِّه عنه؛ حتى يحضرَه خاصَّتُه وملائكتُه، فهذه وليمةٌ لا يَجتمع فيها الملائكةُ والشياطين[٣].

ومنها: أنَّ الاستعاذةَ قَبلَ القِراءة عنوانٌ وإعلام بأنَّ المأتيَّ به بعدها القرآن؛ ولهذا لم تُشرع الاستعاذةُ بين يَدي كلامٍ غيره، بل الاستعاذة مُقدِّمة وتنبيهٌ للسامع أنَّ الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامعُ الاستعاذة، استعدَّ لاستماع كلام الله تعالى، وشُرِع ذلك للقارئ، وإنْ كان وحده[٤].

ومنها: أنَّ الشيطان يُجلِب على القارئِ بخيلِه ورَجْلِه؛ حتى يَشغلَه عن المقصود بالقرآن، وهو تدبُّره وتفُّهمه، ومعرفة ما أراد به المتكلِّم به سبحانه؛ فيَحرِص بجهدِه على أن يَحولَ بين قلبه وبين مقصود القُرآن؛ فلا يَكمُل انتفاعُ القارئ به، فأُمِر عند الشروع أن يستعيذَ بالله عزَّ وجلَّ منه[٥].

ومنها: أنَّ الشيطان أحرصُ ما يكون على الإنسان عندما يهمُّ بالخير، أو يَدخُلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٩٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٩٣).

فيه؛ فهو يشتدُّ عليه حينئذ؛ ليقطعَه عنه، وكلَّما كان الفعل أنفعَ للعبد وأحبَّ إلى الله تعالى، كان اعتراضُ الشيطان له أكثرَ؛ فالشيطان بالرَّصْد للإنسان على طريق كلِّ خير، ولاسيَّما عند قِراءة القرآن، فأمَر سبحانه العبدَ أن يُحارِبَ عدوَّه الذى يَقطع عليه الطريق، ويَستعيذَ بالله تعالى منه أولًا، ثم يأخذ فى السَّير، كما أنَّ المسافر إذا عرَض له قاطعُ طريق اشتغل بدفْعه، ثم اندفَع فى سَيرِه[1].

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٣، ٩٤).

تَفسيرُ البَسْملةِ

البَسمَلةُ هي قولُ: بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

ومعناها: باسمِ اللهِ وحْدَه أقرأُ أو أَتْلو، مُتبرِّكًا[١] بالبَداءةِ باسمِ المعبودِ الحقِّ تبارك وتعالى[٢]، ذي الرَّحمةِ الواسعةِ لجميعِ خَلْقه، وذي الرَّحمة الخاصَّة بعِباده المؤمنين[٣]. وقيل: الرَّحمن اسمٌ دلَّ على اتِّصافه بالرَّحمة سبحانه، والرَّحيم اسمٌ دلَّ على وقوعِ الفِعل منه، وهو إيصالُ رَحْمتِه إلى خَلْقِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٢١).
قال ابنُ عُثيمين: (الجار والمجرور متعلِّق بمحذوف؛ وهذا المحذوف يُقدَّر فعلًا متأخرًا مناسبًا؛ فإذا قلتَ: «باسم الله» وأنت تريد أن تأكل؛ تُقدِّر الفعل: «باسم الله آكُل». قلنا: إنه يجب أن يكون متعلِّقًا بمحذوف؛ لأنَّ الجار والمجرور معمولان؛ ولا بدَّ لكل معمولٍ من عامل. وقدَّرناه متأخرًا؛ لفائدتين: الفائدة الأولى: التبرُّك بتقديم اسم الله عزَّ وجلَّ. والفائدة الثانية: الحصر؛ لأنَّ تأخير العامل يُفيد الحصر، كأنَّك تقول: لا آكُل باسم أحد متبركًا به، ومستعينًا به، إلا باسم الله عزَّ وجلَّ. وقدَّرناه فعلًا؛ لأنَّ الأصل في العمل الأفعال. وهذه يَعرِفُها أهلُ النحو؛ ولهذا لا تَعمل الأسماء إلَّا بشروط. وقدَّرناه مناسبًا؛ لأنَّه أدلُّ على المقصود؛ ولهذا قال الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((مَن لم يَذبحْ فلْيَذبحْ باسمِ الله)). أو قال صلَّى الله عليه وسلَّمَ «على اسمِ الله»، فخصَّ الفعل) ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤).

(٢) يُنظر ما تَقدَّم في الاستعاذة.

(٣) الرَّحمن الرَّحيم: اسمان مشتقَّان من الرَّحمة على وجهِ المبالغةِ، ورحمن أشدُّ مبالغةً من رحيم. يُنظر: ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (١/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٢٤، ١٢٦).
ويُنظر لمعنى هذين الاسمين الكريمين: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٢٧-١٢٨)، ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (١/ ٥١). ((تفسير القرطبي)) (١/ ١٥٠))، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ٢٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٥).

(٤) قال ابن القيِّم: (الرحمن دالٌّ على الصِّفة القائمةِ به سبحانه، والرَّحيم دالٌّ على تعلُّقها بالمرحوم؛ فكان الأوَّل للوصفِ والثاني للفِعل؛ فالأول دالٌّ أنَّ الرحمة صفتُه، والثاني دالٌّ على أنَّه يَرحم خَلْقَه برحمته، وإذا أردتَ فَهم هذا فتأمَّل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، =

مِن فوائدِ البَسملةِ ولَطائفِها:

١- لحَذْفِ العامِل- أقرأُ أو قِراءتي، على حسَب التقدير- في (بسمِ الله) فوائدُ عديدةٌ:

منها: أنَّه موطنٌ لا يَنبغي أن يتقدَّم فيه سوى ذِكر الله تعالى؛ فلو ذُكر الفعل- وهو لا يستغني عن فاعله- كان ذلك مناقضًا للمقصود؛ فكان في حَذْفِه مشاكلةُ اللفظ للمعنى؛ ليكون المبدوءُ به اسمَ الله، كما نقول في الصلاة: الله أكبر، ومعناه: مِن كلِّ شيء، ولكن لا نقول هذا المقدَّر، وليكون اللفظ مطابقًا لمقصود الجَنان، وهو أنْ لا يكونَ في القلب إلَّا الله وحده، فكما تجرَّدَ ذِكرُه في قلب المصلِّي، تجرَّد ذِكرُه في لسانه[١].

ومنها: أنَّ الحذفَ أبلغُ؛ لأنَّ المتكلِّم بهذه الكلمة كأنه يدَّعي الاستغناءَ بالمشاهدة عن النُّطق بالفعل، فكأنه لا حاجةَ إلى النُّطق به؛ لأنَّ المشاهدَةَ والحال دالَّةٌ على أنَّ هذا وكلَّ فِعل فإنَّما هو باسمه تبارك وتعالى، والحوالة على شاهدِ الحالِ أبلغُ من الحوالة على شاهد النُّطق[٢].

٢- **ومنها**: أنَّ فيها التبرُّكَ بتقديم اسمِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٣]، وحصْرَ الاستعانةِ به تبارك وتعالى[٤].

= ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجئ قطُّ (رحمن بهم)؛ فعُلم أنَّ الرحمن هو الموصوفُ بالرحمة، ورحيم هو الراحِمُ برحمته) ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٤).

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١/ ١١٩)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤).

٣- وفي ذِكر صِفة الألوهيَّة- التي تُشير إلى القَهرِ والقُدرة- مرَّةً بذِكر اسم «الله»، ثم ذِكْر صِفة الرَّحمة مرَّتين، بذِكر اسمَي «الرحمن» و«الرحيم» عقبَ اسم الله تعالى؛ دلالةٌ على أنَّ رحمتَه أكثرُ من قَهره، وأنَّ رحمتَه تغلب غضبَه[١] سبحانه[٢].

٤- **ومن اللَّطائف**: أنَّ ألف (اسم) حُذفت من قوله: (بسم الله)، وأُثبت في قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]؛ قيل: لسببين:

الأوَّل: أنَّ كلمة (باسم الله) مذكورةٌ في أكثر الأوقات عند أكثرِ الأفعال؛ فلأجْل التخفيف حذَفوا الألف، بخِلاف سائرِ المواضِعِ، فإنَّ ذِكرَها قليل.

والثَّاني: ما ذكَره الخليلُ، حيث قال: إنَّما حُذفت الألف في قوله: (بسم الله)؛ لأنَّها إنما دخلتْ بسبب أنَّ الابتداء بالسِّين الساكنة غيرُ ممكن، فلمَّا دخلت الباء على (الاسم) نابتْ عن الألف، فسقطت في الخطِّ، وإنما لم تسقطْ في قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]؛ لأنَّ الباء لا تنوبُ عن الألِف في هذا الموضِعِ كما في (بسم الله)؛ لأنَّه يُمكن حذفُ الباء من ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ مع بقاء المعنى صحيحًا؛ فإنَّك لو قلتَ: اقرأ اسمَ ربِّك، صحَّ المعنى، أمَّا لو حذفت الباء من (بسم الله) لم يصحَّ المعنى، فظهر الفَرقُ[٣].

هلِ البَسملةُ آيةٌ من سورةِ الفاتحةِ؟

ليستِ البسملةُ بآيةٍ من الفاتحة، وهذا مذهبُ جمهور العلماءِ من الحنفيَّة[٤]،

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ((إنَّ رحْمَتي غلبَتْ غضبي)) رواه البخاري (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزيلعي (١/ ١١٢)، ((مجمع الأنهر)) لشيخي زاده (١/ ١٤٣).

والمالكيَّة[١]، والحنابلة[٢]، وهو قولُ أهلِ المدينةِ من القُرَّاءِ والفقهاءِ[٣]، وذهَب إلى هذا جمْعٌ من المفسِّرين، منهم: ابنُ جَرير[٤]، وابنُ العربيِّ[٥]، وابنُ عطيَّة[٦]، والقُرطبيُّ[٧]، وابنُ تَيميَّة[٨].

لحديث أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن صلَّى صلاةً لم يقرأْ فيها بأمِّ القرآن فهي خِداجٌ[٩]، ثلاثًا، غير تمام. فقيل لأبي هُرَيرة: إنَّا نكونُ وراءَ الإمام؟ فقال: اقرأْ بها في نَفْسِك؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: قال اللهُ تعالى: قسَمْتُ الصَّلاةَ بيني وبين عَبدي نِصفينِ، ولعبدي ما سأَلَ، فإذا قال العبدُ: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال اللهُ: حمِدَني عَبْدي، فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال اللهُ: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال: مجَّدَني عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين

---

(١) يُنظر: ((مواهب الجليل)) للحطاب (٢/ ٢٥١)، ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (١/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((الإنصاف)) للمرداوي (٢/ ٣٦)، ((كشاف القناع)) للبهوتي (١/ ٣٣٥).

(٣) قال ابنُ كثير: (وإنما اختلفوا في البَسملة: هل هي آية مستقلَّة من أوَّلها - كما هو عند جمهور قُرَّاء الكوفة، وقول الجماعة من الصحابة والتابعين، وخَلْق من الخلف - أو بعض آية، أو لا تُعدُّ من أوَّلها بالكليَّة - كما هو قول أهلِ المدينة من القرَّاء والفقهاء) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٤٩).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) (٤/ ٤٥٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٦٠ -٦١)، وقال: (وجمهورُ الفقهاء والقُرَّاء لا يَعدُّونَ البسملةَ آيةً) ((تفسيره)) (١/ ٦١).

(٧) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ٩٤).

(٨) قال ابنُ تَيميَّة: (الأحاديثُ الصَّحيحة تدلُّ على أنها آيةٌ من كتاب الله، وليستْ من الفاتحة، ولا غيرها) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ١٢٢).

(٩) **الخِداج**: النُّقصان؛ يُقال: خَدجَتِ الناقة إذا ألقَتْ ولدَها قبلَ أوانه وإن كان تامَّ الخلق، وأخدجتْه إذا ولدتْه ناقصَ الخَلق وإنْ كان لتمامِ الحمل. وقوله: ((فهي خِداج))، أي: فهي ذاتُ نُقصانٍ، أو فهي نُقْصانٌ؛ فيكون قد وصفَها بالمصدر نفْسه مبالغةً. ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣٠٧ - ٣٠٨)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٢ - ١٣).

عبدي، ولعبدي ما سأَل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأَل))[١].

فلو كانتِ البسملةُ آيةً من سورة الفاتحةِ لَوردتْ في هذِه الرِّوايةِ مَعدودةً ضِمنَ آياتِها، وَلَمَا تحقَّق حينئذٍ التَّنصيفُ بَينَ ما للهِ تعالى، وما للعبدِ؛ فهي سبعُ آيات إجماعًا[٢].

وقيل: إنَّها آيةٌ من الفاتحة مِن وجهٍ دون وجهٍ، أي: إنَّ الخِلافَ فيها راجعٌ إلى اختلافِ القُرَّاء، فمنهم مَن يُثبتها، ومنهم مَن لم يُثبتها[٣].

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((كشاف القناع)) للبهوتي (١/ ٣٣٥).

(٣) قال ابنُ تَيميَّة: (وقد كان كثيرٌ من السَّلف يقول: البَسملةُ آيةٌ منها، وكثيرٌ من السَّلف لا يَجعلُها منها، ويَجعل الآيةَ السَّابعة: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، كما دلَّ على ذلِك حديثُ أبي هُرَيرَةَ الصَّحيح، وكِلا القولين حقٌّ؛ فهي منها مِن وجهٍ، وليستْ منها من وجهٍ، والفاتحةُ سَبْعُ آياتٍ). ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢٢/ ٣٥١).

وقال الشِّنقيطيُّ: (ومِن أحسن ما قِيل في ذلك: الجمعُ بين الأقوال، بأنَّ البَسملةَ في بعضِ القِراءات- كقِراءةِ ابن كثيرٍ- آيةٌ من القُرآن، وفي بعضِ القِراءاتِ ليستْ آيةً) ((المذكرة)) (١/ ٦٦).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الفَاتِحَةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورة الفاتحة

أسماء السورة:

ثبتَت لسورة الفاتحة عدَّةُ أسماء، وهي:

١- فاتحة الكِتاب[١].

٢- أمُّ القرآن[٢].

٣- أُمُّ الكِتاب[٣].

٤- السَّبْع المَثاني[٤].

٥- القُرآن العظيم[٥].

---

(١) قال ابنُ جرير: (سُمِّيت فاتحةَ الكتاب؛ لأنَّها يُفتَتَح بكتابتها المصاحف، ويُقرأ بها في الصلوات؛ فهي فواتح لِمَا يتلوها من سُور القرآن في الكتابة والقِراءة) ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٥).

(٢) قال ابن جرير: (سمِّيت أمَّ القرآن؛ لتقدُّمها على سائر سُور القرآن غيرها، وتأخُّر ما سواها خلفها، في القراءة والكتابة، وذلك من معناها شبيهٌ بمعنى فاتحة الكتاب، وإنَّما قيل لها لكونها كذلك أمَّ القرآن؛ لتسمية العربِ كلَّ جامع أمرًا، أو مُقدَّمًا لأمر، إذا كانت له توابعُ تتبعه، هو لها إمام جامعٌ أُمًّا، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ: أمُّ الرأس) ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٥).

(٣) قال البخاريُّ: (سُمِّيت أمَّ الكتاب؛ لأنَّه يبدأ بكِتابتها في المصاحِف، ويُبدأ بقراءتها في الصَّلاة)) ((صحيح البخاري -كتاب التفسير. باب ما جاء في فاتحة الكتاب)) قبل حديث (٤٧٤٤)، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٥).

(٤) قال ابنُ جرير: (أمَّا تأويل اسمها أنَّها السَّبع؛ فإنَّها سَبعُ آيات، لا خِلاف بين الجميع من القرَّاء والعلماء في ذلك... وأمَّا وصْف النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم آياتِها السَّبعَ بأنهنَّ مثانٍ؛ فلأنَّها تُثنَّى قراءتها في كلِّ صلاة تطوُّع ومكتوبة، وكذلك كان الحسنُ البصري يتأوَّل ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٦-١٠٧).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٣٥).

(٥) قال القرطبيُّ: (سُمِّيت بذلك؛ لتضمُّنها جميعَ علوم القرآن؛ وذلك أنها تشتمل على الثَّناء على الله عزَّ وجلَّ بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاصِ فيها، والاعترافِ بالعجز عن القِيام بشيءٍ منها إلَّا بإعانته تعالى، وعلى الابتهالِ إليه في الهدايةِ إلى الصِّراط المستقيم، وكفايةِ أحوال الناكثين، وعلى بَيانِ عاقبة الجاحِدين). ((تفسير القرطبي)) (١/ ١١٢).

٦- سورة الحَمْد[١].

الأدلَّة:

١- عن عُبادةَ بن الصَّامتِ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا صلاةَ لِمَن لم يقرأْ بفاتحةِ الكِتاب))[٢].

٢- عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: ((كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُخَفِّفُ الرَّكعتَينِ اللَّتَينِ قبلَ صلاةِ الصُّبحِ، حتى إني لأقولُ: هل قرَأ بأمِّ الكتابِ؟!))[٣].

٣- عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((أمُّ القُرآنِ هي السَّبْع المثاني، والقرآنُ العَظيم))[٤].

٤- عن أبي سَعيدِ بن المعلَّى رضي الله عنه، قال: ((مرَّ بي النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأنا أُصلِّي، فدَعاني فلم آتِهِ حتى صلَّيتُ، ثم أتَيتُ فقال: ما منَعك أن تأتيَ؟ فقلتُ: كنتُ أُصلِّي، فقال: ألم يقُلِ اللهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟! ثم قال: ألَا أُعَلِّمُك أعظمَ سورةٍ في القرآنِ قبلَ أن أخرُجَ منَ المسجدِ؟ فذهَب النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ليخرُجَ منَ المسجدِ فذَكَّرتُه، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي السَّبعُ المَثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه))[٥].

فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

لسورةِ الفاتحة فضائلُ كثيرة، وخصائصُ عظيمة، وردَت في السُّنَّة النبويَّة؛ منها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٠١). وسُمِّيت بذلك؛ لكونها مُفتَتحةً بالحَمْد. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ١١١).

(٢) رواه البخاريُّ (٧٥٦)، ومسلِم (٣٩٤).

(٣) رواه البخاريُّ (١١٦٥).

(٤) رواه البخاريُّ (٤٧٠٤).

(٥) رواه البخاريُّ (٤٧٠٣).

١- أنَّها نور، ولم يُؤْتَها نبيٌّ قبل محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، سمِع نقيضًا من فوقه؛ فرفَع رأسَه، فقال: هذا بابٌ من السَّماء فُتِح اليوم، لم يُفتح قطُّ إلَّا اليوم، فنزل منه مَلَك، فقال: هذا ملَكٌ نزل إلى الأرض، لم ينزلْ قطُّ إلَّا اليوم، فسلَّم، وقال: أبشِرْ بنورَينِ أوتيتَهما، لم يُؤتَهما نبيٌّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تَقرأ بحرفٍ منهما إلَّا أُعطيتَه))[(١)].

٢- أنَّه بقِراءتها تحصُل المناجاةُ في الصَّلاة بين العَبدِ وربِّه

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن صلَّى صلاةً لم يقرأْ فيها بأُمِّ القرآن، فهي خداجٌ -ثلاثًا- غير تمام، فقيل لأبي هُرَيرَة: إنَّا نكونُ وراءَ الإمام، فقال: اقرأْ بها في نفسِك؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: قال الله تعالى: قسمتُ الصلاة بَيني وبَين عبدي نِصفين، ولعَبدي ما سأل، فإذا قال العبدُ: الحمدُ لله ربِّ العالَمين، قال الله تعالى: حمَدني عَبدي، وإذا قال: الرَّحمن الرَّحيم، قال الله تعالى: أثْنَى عليَّ عبدي، وإذا قال: مالِك يومِ الدِّين، قال: مجَّدني عبدي، (وقال مرَّة: فوَّض إليَّ عبدي)، فإذا قال: إيَّاك نعبُدُ وإيَّاك نستعين، قال: هذا بَيني وبَين عبدي، ولعَبدي ما سأل، فإذا قال: اهدِنا الصِّراطَ المستقيمَ صِراطَ الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالِّين، قال: هذا لعَبدي، ولعبدي ما سألَ))[(٢)].

٣- أنَّه لا صَلاةَ لِمَن لم يقرأْ بها

عن عُبادةَ بنِ الصامتِ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا

(١) رواه مسلم (٨٠٦).

(٢) رواه مسلم (٣٩٥).

صَلاةَ لِمَن لم يقرأْ بفاتحةِ الكِتابِ))[١].

٤- أنها رقيةٌ شافيةٌ بإذن الله تعالى

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، قال: ((انطلَق نفرٌ من أصحابِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في سَفرةٍ سافروها، حتى نزَلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم فأَبَوْا أن يُضيِّفوهم، فلُدِغ سيِّد ذلك الحيِّ، فسَعَوا له بكلِّ شيءٍ، لا ينفعه شيءٌ، فقال بعضُهم: لو أتيتم هؤلاءِ الرهطَ الذين نزلوا؛ لعلَّه أن يكون عند بعضهم شيءٌ، فأَتَوْهم، فقالوا: يا أيُّها الرهط، إنَّ سيِّدنا لُدِغ، وسَعَينا له بكلِّ شيءٍ، لا ينفعُه؛ فهل عند أحدٍ منكم من شيءٍ؟ فقال بعضهم: نعَمْ، واللهِ إني لأرقي، ولكن واللهِ لقدِ استضفناكم فلم تُضيِّفونا! فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعلًا، فصالَحوهم على قَطيعٍ من الغَنم، فانطلق يتْفُل عليه، ويقرأ: ﴿الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾، فكأنَّما نشِط من عِقال، فانطلَق يمشي وما به قَلَبَةٌ[٢]، قال: فأوْفوهم جُعلَهم الذي صالحُوهم عليه، فقال بعضُهم: اقسِموا، فقال الذي رقَى: لا تَفعلوا حتى نأتيَ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فنذكُرَ له الذي كان، فننظُرَ ما يأمرُنا، فقدِموا على رسولِ الله، فذكروا له، فقال: وما يُدريك أنَّها رُقيةٌ؟! ثم قال: قد أصبتُم، اقسِموا، واضرِبوا لي معكم سهمًا، فضحِكَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم))[٣].

بيان المكي والمدني:

سورةُ الفاتحة سورةٌ مكيَّة، نزلت قبل الهِجرة[٤].

بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[الحجر: ٨٧].

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

(٢) قَلَبَة: ألَمٌ وعِلَّة. ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٩٨).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٢٧٦).

(٤) وهو قول الجمهور، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٣٥).

وجاء عن أبي سَعيدِ بن المُعلَّى رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((... هي السَّبْعُ المثاني، والقرآنُ العظيم الذي أُوتيتُه))[١].

فهذه الآية التي ورَد فيها ذِكر السَّبع المثاني، مكيَّةٌ بالإجماع، وقد جاء النصُّ من النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، بكون السَّبع المثاني هي سورةُ الفاتحة؛ فلزِم من ذلك أن تكون سورةُ الفاتحة مكيَّة[٢].

ومن الأدلة على مكِّيتها كذلك، أنَّ الصلاة لا تصحُّ إلا بها، وقد شُرعت الصلاة بمكة، أي قبل الهجرة[٣].

مقاصد السُّورة:

مِن أهمِّ مقاصدِ سورة الفاتحة:

١- التعريف بالمعبودِ تبارَك وتعالى.

٢- بيان طَريقِ العبوديَّة.

٣- بيان أحوال النَّاس مع هذا الطَّريق[٤].

موضوعات السُّورة:

عرَضتِ السُّورةُ لعددٍ من الموضوعات الرئيسة، وهي:

١- صفات الله عزَّ وجلَّ.

٢- اليوم الآخر.

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٧٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ١١٥)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٠١)، (٤/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١).

٣- إِفراد الله تعالى بالعبادة، ومن ذلك: الاستعانة، والدُّعاء.

٤- التعريف بالصِّراط المستقيم؛ طريقِ المهتدين.

٥- تجنُّب طريق الغاوين من المغضوبِ عليهم والضالِّين.

مناسبة افتتاح القرآن بسورة الفاتحة:

افتَتح الله سبحانه كتابه بهذه السورة؛ لأنَّها جمَعتْ مقاصد القرآن، ولأنَّ فيها إجمالَ ما يحويه القرآن مفصلًا؛ فجميع القرآن تفصيل لِمَا أجملتْه، وفي ذلك براعة استهلال؛ لأنَّها تنزل من سور القرآن منزلَ دِيباجة الخطبة أو الكتاب[1].

(١) يُنظر: ((تناسق الدرر في تناسب السور)) للسيوطي (ص: ٤٩، ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٣٥)، ((البرهان فى تناسب سور القرآن)) للغرناطي (ص: ١٨٧).

الآيات (١-٧)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

يخبر الله تعالى عباده بأنَّ الحمد الكامل مستحقٌّ له وحده، ويرشدهم بما أخبر إلى أن يُثنوا عليه، ويمجِّدوه، ويَحمَدوه بجميع المحامِد التي لا يستحقُّها إلَّا هو، ذو الرَّحمة والمُلك، كما يُرشدهم سبحانَه إلى إفرادِه بالعبادة والاستعانة، وطلبِ الهِداية منه وحْده للطَّريق الواضحة التي لا اعوجاجَ فيها؛ طريق الذين أنعم الله عليهم، لا طريق اليهود المغضوب عليهم، ولا طريق النَّصارى الضالِّين.

غريب الكلمات:

﴿رَبِّ﴾: الرَّب: السيِّد، والمالِك، والمصلِح، والصَّاحب، والمربِّي، والخالِق، والمعبود، وأصله: إصلاح الشيء والقيام عليه[(١)].

﴿الصِّراط﴾: الطَّريق[(٢)].

مشكل الإعراب:

١- **قوله**: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: (إيَّا) ضمير نصْب منفصل، مبني على السكون في محل نصب، مفعول به مقدَّم لـ(نعبد)، ولو تأخَّر عن عاملِه لاتَّصل به، فقيل:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣).

نعبدك، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له، وقيل: الكاف هو الضمير، و(إيَّا) جيء بها؛ لتعتمد عليها الكاف[١].

٢- **قوله**: ﴿غَيرِ﴾: مجرورٌ على البَدل مِن (الذين)، أو على النَّعت لهم، باعتبار (الذين) نكرة؛ لأنَّ (غير) في الأصل نكرة وإن أُضيفت إلى معرفة؛ لأنَّها لا تدلُّ على شيء معيَّن. ومَن قرأ (غيرَ) بالنصب؛ فهي إمَّا حال، أو منصوب على إضمار (أعْني)[٢].

تفسير الآيات:

﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (١)﴾.

هذا خبرٌ من الله عزَّ وجلَّ فيه حمدَ نفسه الكريمة، وفي ضمنه إرشادٌ لعبادِه بأن يحمدوه سبحانه وتعالى[٣].

﴿الْحَمْدُ لله﴾.

أي: جميعُ المحامد للمعبود تبارك وتعالى، لا يستحقُّها إلَّا هو وحده سبحانه، وهو حمدٌ دائم ومستمر.

والحَمْدُ: هو وصفُ المحمود سبحانه بالكَمال، مع محبَّته، وتعظيمِه جلَّ وعلا[٤].

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٦٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٧٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٣٩-١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٢١، ١٢٤، ١٣٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٦٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٤/ ١٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩).

و(الله): اسمٌ ثابتٌ له سبحانه، يتضمَّن صِفةَ الألوهيَّة له عزَّ وجلَّ[١]. ومعناه: المألوه، أي: المعبود[٢].

﴿رَبِّ العالمين﴾.

أي: هو السيِّد، والمالِك، والمدبِّر لجميع العالَمين، وهم كلُّ مَن سِوى اللهِ تعالى، مِن جميع أصناف المخلوقاتِ في كلِّ مكانٍ وزمان[٣].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨].

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا جاء وصْفُ الله سبحانه نَفْسَه بالرُّبوبيَّة، التي تَعني أنَّه السيِّد، المالك، المعبود الذي له مطلق التصرُّف في عِباده، والتي قد يُفهم منها معنى الجبروت والقهر؛ جاء وصفُه بالرَّحمة بعدها؛ لينبسطَ أملُ العبد في العفو إنْ زلَّ، ويَقْوَى رجاؤه إنْ هفَا[٤].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (٥/ ٨٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٢١)، (١/ ١٢٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٦٤)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٤/ ١٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩).
وممن قال بهذا من السلف: ابن عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٤٢-١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣١).
وممن قال من السلف في معنى قوله تعالى ﴿الْعَالَمِينَ﴾ بنحو ما ذُكر: ابن عباس، وسعيد بن جبير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٥).

وأيضًا لما وصف الله تعالى نفسه بالربوبية بيَّن أن تربيته تعالى للعالمين ليست لحاجة به إليهم، كجلْب منفعة، أو دفْع مضرة، وإنما هي لعموم رحمته وشمول إحسانه[١].

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢)﴾.

هما اسمانِ مشتقَّان من الرَّحمة على وجه المبالَغة، ورحمن أشدُّ مبالغةً من رَحيم؛ وذلك لأنَّ (رحمن) على وزن فعلان، وهذه الصيغة تفيد الكثرة والسعة[٢]، فالرَّحْمَن: ذو الرَّحمة الواسِعة لجميع خلقه، والرَّحِيم: ذو رحمةٍ خاصَّة، يختصُّ بها عبادَه المؤمنين[٣].

قال الله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٣)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لما وصف تعالى نفسه بالرَّحمة، وكان هذا قد يؤدِّي بالعبد إلى غلَبة الرَّجاء عليه؛ نبَّه بصفة المُلْك ليوم الدِّين؛ ليكون العبد من عمله على وَجَل، وليعلمَ أنَّ لعمله يومًا تظهر له فيه ثمرته من خيرٍ وشر[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (مادة: رحم)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٢٤، ١٢٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٢٧-١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ١٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥). ((تفسير ابن عثيمين -الفاتحة والبقرة)) (١/ ٥).
وممن قال بهذا من السلف: الضحاك، والعرزمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٢٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٠).

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٣)﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿مَالِكِ﴾ قِراءتان:

١- ﴿مالِك﴾ بالألف مَدًّا، وهو: المتصرِّف بالفِعل في الأشياء المملوكةِ له[(١)].

٢- ﴿مَلِك﴾ بغير ألف قَصْرًا، وهو: المتصرِّف بالقول أمرًا ونهيًا في مَن هو مَلِكٌ عليهم[(٢)].

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٣)﴾.

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو المتصرِّف في جميع خلْقِه بالقول والفِعل[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله﴾ [الانفطار: ١٧-١٩].

وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

وقال أيضًا: ﴿لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ لله الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾.

أي: يوم الجَزاء والحِساب[(٤)].

---

(١) قرأ بها: عاصمٌ، والكِسائيُّ، ويَعْقوب، وخَلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٢٧١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٣-١٣٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٢٧١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٣-١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (١/ ٥٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٩١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٥٧-١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٤).

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٤)﴾.

أي: قولوا: إيَّاك نَعبُد وإيَّاك نستعين[١].

والمعنى: لا نعبُد إلَّا إيَّاك، متذلِّلين لكَ وحْدَك لا شريكَ لك، ولا نستعين إلَّا بك وحْدَك لا شريكَ لك[٢].

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٥)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لما ذُكِرَت العبادة والاستعانة بالله تعالى وحده، جاء سؤال الهداية إلى الطريق الواضح؛ فبالهداية إليه تصح العبادة، فمن لم يهتد إلى السبيل الموصلة لمقصوده لا يصحُّ له بلوغ مقصده[٣].

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٥)﴾.

أي: قولوا: اهدِنا الصِّراطَ المستقيم[٤].

والمعنى: دُلَّنا على الطَّريق الواضِح الذي لا اعوجاجَ فيه، ووفِّقنا لسلوكه، وثبِّتنا عليه[٥].

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (٦)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٣٩-١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٥٩، ١٦٠، ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٤-١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٧٦-١٧٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٨٩).

(٥) قال ابن جرير: (أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه) ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٧٠).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٧٠، ١٧١، ١٧٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٧، ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩).

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كان في الآية السابقة طلبُ الهِداية إلى أشرفِ طَريق، ناسَب ذلك سؤالَ أَحسنِ رفيقٍ[١]، فقال تعالى:

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: طريق الذين أَنعمَ الله تعالى عليهم بالهِداية إلى الصِّراط المستقيم، وهم الذين علِموا الحقَّ وعمِلوا به؛ امتثالًا لِمَا أمَر الله عزَّ وجلَّ، واجتنابًا لِمَا نهى عنه سبحانَه، بإخلاصٍ لله تعالى، ومتابعةٍ للرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩][٢].

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: إنَّ مِن صفات الذين أَنعم الله تعالى عليهم، أنَّهم ليسوا كاليهود، ومَن سلَك طريقتَهم في ترْك العمل بالحقِّ بعد معرفته[٣].

فأخصُّ أوصاف اليهود، الغضبُ، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٧٦-١٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٧٤)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٠/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٧، ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٦، ١٧).

(٣) قال ابنُ أبي حاتم: (لا أعلمُ بين المفسِّرين في هذا الحرْف اختلافًا) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٨٥)، ((تفسير الماوردي)) (١/ ٦١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٧٠) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٧٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٩٥).

عَلَيْهِ﴾[المائدة: ٦٠]، وقال سبحانه أيضًا: ﴿فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾[البقرة: ٩٠].

وعن عَديٍّ بن حاتمٍ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((المغضوب عليهم: اليهود))[(١)].

﴿ولا الضَّالِّينَ﴾.

أي: إنَّ من صِفات الذين أنعمَ الله تعالى عليهم، أنَّهم ليسوا كالنَّصارى، ومَن سلك طريقتَهم ممَّن جهِلوا الحقَّ، فعبَدوا الله تعالى بغير عِلم[(٢)].

فأخصُّ أوصاف النصارى الضلال، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[المائدة: ٧٧].

وعن عديٍّ بن حاتم رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ولا الضالين: النَّصارى))[(٣)].

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّه لما كان أوَّلُ السُّورة مشتملًا على الحمد لله، وتمجيده، والثناء عليه، وآخرُها مشتملًا على الذمِّ للمعرضين عن الإيمان به، والإقرار بطاعته- دلَّ ذلك

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٧٨) (١٩٤٠٠)، وابن حبان (١٦/ ١٨٣) (٧٢٠٦)، والطبراني (١٧/ ١٠٠) (٢٣٧). قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ٢١٠): رجاله رجال الصَّحيح، غير عبَّاد بن حُبَيش، وهو ثِقة، وحسَّن إسنادَه ابن حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٩)، وصحَّحه بمجموع طرقه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٢٦٣).

(٢) قال ابنُ أبي حاتم: (لا أعلم بين المفسِّرين في هذا الحَرْف اختلافًا) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٩٣-١٩٤)، ((تفسير الماوردي)) (١/ ٦١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٤٠، ١٤١).

(٣) رواه أحمد (٤/ ٣٧٨) (١٩٤٠٠)، وابن حبان (١٦/ ١٨٣) (٧٢٠٦)، والطبراني (١٧/ ١٠٠) (٢٣٧). قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ٢١٠): رجاله رجالُ الصَّحيح غير عبَّاد بن حُبَيش وهو ثِقة، وحسَّن إسنادَه ابن حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٩)، وصحَّحه بمجموع طُرقه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٢٦٣).

على أنَّ مَطلع الخيرات، وعُنوان السعادات، هو الإقبالُ على الله عزَّ وجلَّ، ومطلعَ الآفات، ورأس المخالفات، هو الإعراضُ عنه سبحانه، والبعدُ عن طاعته[١].

٢- أنَّ الله تعالى مستحقٌّ للحَمدِ الكامِل، ومختصٌّ به من جميع الوجوه؛ ولذا ينبغي على العبد أن يستشعرَ بأنَّ كلَّ قضاءٍ لله تعالى، فهو محمودٌ عليه جلَّ وعلا[٢].

٣- أنَّ رُبوبية الله عزَّ وجلَّ مبنيَّةٌ على الرحمة الواسعة للخَلق الواصلة؛ لأنَّه تعالى لما قال: ﴿ربِّ العَالَمِينَ﴾ كأنَّ سائلًا يسأل: (ما نوعُ هذه الربوبية؟ هل هي ربوبيَّة أخْذ، وانتقام؛ أو ربوبيَّة رحْمة، وإنعام؟) فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[٣].

٤- أنَّ في قوله: ﴿مالِكِ يَومِ الدِّين﴾ حثَّ الإنسانِ على أنْ يعملَ لذلك اليوم الذي يُدان فيه العاملون[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿إيَّاكَ نَعبُدُ﴾ تبرؤ من الشرك، وقوله: ﴿وإيَّاكَ نَستعينُ﴾ تبرؤ من الحول والقوة، وتفويض إلى الله عز وجل. وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣] ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩] ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]؛ لذا قال بعض السلف: الفاتحة سرُّ القرآن، وسرُّها هذه الكلمة: ﴿إيَّاكَ نَعبُدُ وإيَّاكَ نَستعينُ﴾[٥].

٦- تربية المسلم على اللُّجوء إلى الله عزَّ وجلَّ، ومِن ذلك استعانتُه به على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٤).

العبادة، ودعاؤه دومًا أن يَهديَه الصِّراطَ المستقيم[١].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، تقديم وصْفِ الله تعالى بالألوهيَّة على وصفه بالربوبية؛ وهذا إمَّا لأنَّ (الله) هو الاسمُ العَلَم الخاصُّ به، والذي تتبعه جميع الأسماء؛ وإمَّا لأنَّ الذين جاءتهم الرُّسُل يُنكرون الألوهيَّة فقط؛ ولأن اسم الله تعالى دالٌّ على كونه مألوهًا معبودًا، تؤلِّهه الخلائق محبَّةً وتعظيمًا وخضوعًا، وفزعًا إليه في الحوائج والنَّوائب، وذلك مستلزمٌ لكمال ربوبيَّته ورحمته[٢].

٢- في قوله تعالى: ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ إثباتُ البَعث والجزاء[٣].

٣- إيثار ذِكر إلهيته سبحانه وربوبيته ورحمته وملكه في أوَّل الفاتحة على ذكر سائر الصِّفات؛ لأن هذه الصفات الأربع مستلزمة لجميع صفات كماله عزَّ وجلَّ[٤].

٤- في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ تفصيلٌ بعد إجمال؛ فقولُه تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ مُجمَل، وقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مفصَّل. وفائدتُه: أنَّ النفسَ إذا جاء المُجمَل تترقَّب، وتتشوَّف للتفصيل والبيان، فإذا جاء التفصيلُ ورَد على نفسٍ مستعدَّة لقَبوله، متشوِّفة إليه[٥].

٥- إسنادُ النِّعمة إلى الله تعالى وحْدَه في هِداية الَّذين أنعم عليهم؛ لأنَّها فضلٌ محضٌ من الله[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٦).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣).
(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٦- قدَّم المغضوب عليهم على الضالِّين؛ لأنَّهم أشدُّ مخالفةً للحقِّ من الضالِّين؛ فإنَّ المخالف عن علم يصعُب رجوعُه، بخلاف المخالِف عن جهل[١]، ولأنَّ أخص الموصوفين بـ﴿المَغضُوبِ عَلَيهِمْ﴾ هم اليهود وأخص الموصوفين بـ﴿الضَّالِّينَ﴾ هم النصارى واليهود سابقون على النصارى في الزمن[٢].

بلاغة الآيات:

١- حُسن الافتتاح، وبراعة المطلَع والاستهلال لكتاب الله عزَّ وجلَّ بهذه السُّورة العظيمة، التي اشتملتْ على مقاصِد هذا الكتاب كلِّه، كما افتتح السُّورة نفسَها بجوامع الحَمْد والشُّكر والثَّناء؛ فإن كان أولها بسم الله الرحمن الرحيم- على قول مَن عدَّها منها- فناهيك بذلك حسنًا؛ إذ كان مطلعها، مفتتحًا باسم الله، وإن كان أولها الحمد لله؛ فحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ووصفه بما له من الصِّفات العليَّة أحسنُ ما افتتح به الكلام[٣].

٢- **قوله:** ﴿**الْحَمْدُ لله**﴾ جملة اسمية، وهي تدلُّ على ديمومة الحمْد واستمراره وثباتِه[٤]. والألف واللام في ﴿الْحَمْدُ﴾ للاستغراق[٥]، فتعمُّ كلَّ أنواع الحمد.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٦).

(٥) **الاستغراق**: في اللغة الاستِيعابُ، والإحاطة والشُّمول. واصطلاحًا: هو استيفاء شيء بتمام أجزائه وأفراده، بحيث لا يخرج عنه شيءٌ. ومن أدواته المشهورة: اللَّام الجنسية أو الحقيقيَّة. والاستغراق قِسمان: حقيقي، وعرفي، فالحقيقي: أن تراد حقيقة الشيء الشائعة في الأفراد، دون النظر إلى الدَّلالة على عُموم أو خصوص، ولا يصحُّ أنْ يُستعمل بدلَ اللام كلمة (كلّ)، مثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الآية: ٣٠]؛ فالمراد حقيقة الماء وماهيته، وليس كُلَّ أنواع الماء. والقرينَةُ هي الواقعُ المشاهد. والاستغراق العرفي: أن تُراد الحقيقة في ضِمن جميع الأفراد التي يتناولها اللفظُ بحسب العُرْف، ومنه: قوله: ﴿وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً﴾ [الآية: ٢٨]، أي: وخُلق كلُّ فرد من أفراد جنس الإنسان ضعيفًا، والواقع يشهد لإرادة هذا الاستغراق. =

وقيل: لتعريفِ الجنسِ، ومعناه: الإشارة إلى ما يَعرِف كلُّ أحدٌ أنَّه هو الحمد[١].

واللام في قوله: ﴿لله﴾ تُفيد: الاستحقاق[٢]، والاختصاص، أي: الحمد كله مستحقٌّ لله تعالى، وخاصٌّ به سبحانه دون مَن سواه[٣].

٣- في قوله: ﴿مَـلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تخصيص اليوم بالإضافة؛ إمَّا لتعظيمه وتهويله، أو لتفرُّده تعالى بنفوذ الأمر فيه، وانقطاع العلائق بين الملَّاك والأملاك حينئذٍ بالكليَّة[٤].

٤- في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نواحٍ بلاغيَّة عديدة

- ففيه تقديمٌ وتأخير؛ حيث قدَّم المفعول به في قوله (إِيَّاكَ)، وهو يُفيد القصرَ[٥] والاختصاص، أي: لا نعبُد غيرَك، ولا نستعين بسواك، وهو أيضًا

= يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٢/ ٣١)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٢٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٤٣٧ - ٤٣٨)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٥-٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٢٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٥٩-١٦٠).

(٢) اللام الواقعة بين ذات وذات من شأنها أن تُملَك، تكون للمِلك، كالدار لزيد؛ فإنْ أُضيفت إلى مَن لا يملك، فاللام للاختصاص، كالمِفتاح للدار، وأمَّا اللام الواقعة بين معنًى وذات فهي للاستحقاق، كالحمد لله، وبعضُهم يستغني بالاختصاص عن ذِكر الملك والاستحقاق. يُنظر: ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٢٧٥). ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٨٠)، ((همع الهوامع)) للسيوطي (٢/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٣٠، ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦).

(٥) **القصر**: في اصطلاح البلاغيِّين هو تخصيصُ شيء بشيء وحصره فيه، ويُسمَّى الأمر الأول: مقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنما زيد قائم، و: ما ضربت إلَّا زيدًا. وينقسم إلى قصر حقيقي، وقصر إضافي: فالحقيقي: أن يكون جميع ما سوى المقصور عليه، مثل: لا إله إلا الله. والإضافي: أن يكون المقصور عنه شيئًا خاصًّا يراد بالقصر بيان عدم صحة ما تصوره بشأنه، أو ادعاه المقصود بالكلام، أو إزالة شكه وتردده، إذا كان الكلام كله منحصرًا في دائرة خاصة؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، =

للتَّعظيم والاهتمام؛ لأنَّ العرب تقدِّم الأهم[١].

- وقُدِّمت العبادة على الاستعانة؛ لأن العبادة من أسباب حصول الإعانة وإجابة الحاجة، وأيضًا لكون العبادةِ هي المقصودة والغاية من الخلق، والاستعانة وسيلةٌ إليها، ولتتوافق رؤوس الآي[٢].

- وفيه التفات[٣] من ضمير الغَيبة إلى ضمير الخِطاب، ولو جرى الكلام

= وإنما هو قصرٌ بالإضافة إلى موضوع خاصٍّ يدور حول احتمالين أو أكثر من احتمالات محصورة بعدد خاص، ويستدلُّ عليها بالقرائن. مثل: قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٩)، ((تفسير الرازي)) (١/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (١/ ٣٩-٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٤٢-١٤٣).

قال ابن القيم: (وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه الله ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه الرب فقدَّم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قدَّم اسم الله على الربِّ في أول السورة، ولأنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الربِّ، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى؛ لكونه أولى به، و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد، فكان من الشطر الذي له، وهو ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة). ((مدارج السالكين)) (١/ ٧٥).

(٣) **الالتفات**: هو نقْل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخَر؛ تطريةً واستدرارًا للسامع، وتجديدًا لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملال والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه، كالانتقال الخطاب إلى الغيبة، أو تغيير ضمير المتكلم نفسه تارة بجعله تاءً على جهة الإخبار عن نفسه، وتارةً يجعله كافًا، فيجعل نفسه مخاطبًا، وتارة يجعله هاءً، فيقيم نفسه مقامَ الغائب. وشرطه أن يكون الضمير في المتنقل إليه عائدًا في نفس الأمر إلى الملتفِّ عنه، وللمتكلم والخطاب والغيبة مقامات، والمشهور أن الالتفات هو الانتقال من أحدها إلى الآخر بعد التعبير بالأول. وهذا النوع قد يختص مواقعه بلطائف معان قلما تتضح إلا لأفراد بلغائهم أو للحذاق المهرة في هذا الفن والعلماء النحارير. يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٣١٤)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٠٠ - ٢٠١).

على الأصل لقال: إياه نعبد، وهذا التفنُّن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر من عادة العرب؛ لأنَّ فيه تحسينًا للكلام، وتنشيطًا للسامع، وإيقاظًا له؛ فيكون أكثرَ إصغاءً للكلام، وقد تختصُّ مواقعه بفوائد أخرى غير هذه، ومنها هنا: أنَّ الخطاب فيه استحضار للقُرب من الله تعالى، فكأنه لَمَّا أثنى على الله عز وجل، اقترب وحضَر بين يديه سبحانه[١].

- وفيه تَكرار ﴿إِيَّاكَ﴾، وهذا التَّكرار؛ لأنَّ الفِعلين مختلفان، فاحتاج كلُّ واحدٍ منهما إلى تأكيد واهتمام، فتَكراره للتأكيد على تَخصيصِه تعالى بكلِّ واحدة من العبادة والاستعانة، وإبراز الاستلذاذِ بالمناجاة والخِطاب[٢].

- والمجيء بنون الجَمْع في قوله ﴿نَعْبُدُ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾؛ قيل لأنَّ المقام لَمَّا كان عظيمًا لم يستقلَّ به الواحد؛ استقصارًا لنفسه، واستصغارًا لها، فالمجيءُ بالنون لقصد التواضُع لا لتعظيم النَّفْس، وقيل: يجوز أن تكون للتعظيم، كأنه قيل للعبد: إذا كنت في العبادة فأنت شريف، وجاهك عريض، فقل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وإذا كنت خارج العبادة فلا تقل: نحن ولا فعلنا وغير ذلك[٣]، وقيل: لأنَّ المقام مقام عبودية وافتقار إلى الربِّ تعالى، وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته. أي: نحن معاشر عبيدك مُقرُّون لك بالعبودية، وهذا كما يقول العبد للملك المعظَّم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك، وتحت طاعتك، ولا نخالف أمرك؛ فيكون هذا أحسنَ وأعظمَ موقعًا عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك؛ ولهذا لو قال: أنا وحدي مملوكك، استدعى مقته، فإذا قال: أنا وكل مَن في البلد مماليكك وعبيدك وجند لك،

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٥٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١/ ٢١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٢٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٧).

كان أعظمَ وأفخمَ؛ لأنَّ ذلك يتضمَّن أن عبيدك كثيرٌ جدًّا، وأنا واحد منهم، وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بكَ، وطلب الهداية منك[١].

٥- في قوله: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾

- ﴿اهِدْنا﴾ فِعل أمر، لكن المقصود به الالتِماس والدُّعاء، لا حقيقةَ الأمر؛ لأنَّه طلبٌ من الأدنى - وهو المخلوق - إلى الأعْلى - وهو الخالِقُ سبحانه[٢].

- تعدية الفِعل ﴿اهِدْنا﴾ بنفسِه، وعدَم تعديته بحَرْف الجَرِّ في قولِه سبحانه: ﴿اهْدِنا الصِّراطَ المستقيمَ﴾؛ لأجلِ أن يتضمَّن طلبُ الهداية: هِدايةَ العِلم، وهداية التَّوفيق[٣].

٦- في قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

- تصريحٌ بعد إبهام، وتفصيلٌ بعد إجمال، وفائدتُه تشويق النَّفس، وتهيئتها؛ لتتلقَّى التفسير والتفصيل، فيكون أعونَ على الفَهم، وهذا الأسلوب له من الفائدة مثل ما للتوكيد المعنوي، وأيضًا فيه تقرير حقيقة هذا الصراط، وتحقيق مفهومه في نفوسهم، فيحصل مفهومه مرتين: فيحصل له من الفائدة ما يحصُل بالتوكيد اللفظي[٤].

- وفيه أيضًا توكيدٌ؛ إذ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ...﴾ بدلٌ من ﴿الصِّراطَ المستقيمَ﴾؛ والبدل على نيَّة تَكْرار العامل، كأنَّه قال: اهدِنا الصِّراط المستقيم، اهدِنا صراطَ الذين...، ففيه تثنيةٌ وتكرير، وإشعارٌ بأنَّ الطريق المستقيم بيانُه وتفسيرُه: صراط المسلمين؛ ليكونَ ذلك شهادةً لصراط المسلمين بالاستقامةِ على أبلغ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٢/ ٣٩).
(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٦١)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٩٢).

وجهٍ وآكدِه، ويجوز أن يكون ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ﴾ عَطفَ بيان، وفائدتُه حينئذٍ الإيضاح[١]!

٧- في قوله: ﴿غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ﴾ بعد قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾ التفات أيضًا، حيث صرَّح بالخِطاب عند ذِكر النِّعمة، ثم قال: غير المغضوب عليهم، فزَوَى لفظ الغضب عن الله تعالى؛ أدبًا ولُطفًا، وهذا غايةُ ما يصل إليه البيان[٢].

٨- في قوله: ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، وقوله: ﴿الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تناسُب الفواصِل، وتوافُق رُؤوس الآي، وهو من حسن الكلام، وممَّا تتشنَّف به الأسماع، وقدْ حسُن لاختلافِ الفِقرات في مَعانيها، مع اتِّفاقها في حُروفها الأخيرة[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود))، (١/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي، (٣/ ٣٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (١/ ٧٨).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ البَقَرَةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورَةِ البَقَرَةِ

أسماء السُّورة:

١- سمِّيت هذه السُّورةُ الكريمة، سورةَ البَقرة[١].

فعن أَبي مَسعودٍ عُقبةَ بنِ عَمرٍو رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((مَن قرَأ بالآيتَينِ مِن آخِرِ سورةِ البَقرةِ في ليلةٍ كفَتاه))[٢].

٢- سمِّيت هي وسورة آل عِمران، الزَّهراوينِ[٣].

فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يقول: ((اقْرَؤوا القرآنَ؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ شَفيعًا لأصحابه، اقرَؤوا الزَّهرَاوَيْنِ[٤]: البقرةَ، وسورةَ آلِ عمرانَ...))[٥].

فضائلُ السُّورة وخصائصُها:

لهذه السُّورة الكريمةِ فضائلُ متعدِّدة، منها:

١- أنها تُنفِّر الشيطانَ من البَيت الذي تُقرأ فيه

فعَن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((لا تَجْعَلوا بُيوتَكم مقابرَ؛ إنَّ الشيطانَ ينفِرُ من البيتِ الذي تُقرأ فيه سورةُ البَقرة))[٦].

٢- أنَّها وآلَ عمران تُدافعانِ عن قارئِهما يومَ القيامة، وفي قِراءتِها والعملِ بما فيها حصولُ البَركات لصاحبِها

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٢٤).

(٢) رواه البخاري (٥٠٠٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٢٤).

(٤) الزَّهراوان: أي المنيرتان، واحدتها زَهراء. ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٢١).

(٥) رواه مسلم (٨٠٤).

(٦) رواه مسلم (٧٨٠).

فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يقول: ((اقْرَؤوا القرآنَ؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ شَفيعًا لأصحابه، اقرَؤوا الزَّهرَاوَين: البقرةَ، وسورةَ آلِ عمرانَ؛ فإنَّهما تأتِيان يومَ القِيامةِ كأنَّهما غَمامتانِ[١]، أو كأنَّهما غَيايتانِ[٢]، أو كأنهما فِرْقانِ[٣] من طَيرٍ صوافَّ[٤]، تُحاجَّان عن أصحابِهما، اقرَؤوا سورةَ البقرةِ؛ فإنَّ أَخْذَها بَركةٌ، وتركَها حَسرةٌ، ولا يستطيعُها البَطَلَةُ))، قال معاويةُ ابن سلام -أحد رجال سند الحديث-: بلغَني أنَّ البطلَةَ السَّحرةُ[٥].

٣- تعظيمُ الصَّحابة رضي الله عنهم لقارئِها هي وآل عمران

فعن أَنسٍ رضي الله عنه، قال: ((كان الرجلُ إذا قرَأَ البَقرة وآل عمران، جَدَّ فينا- يعني: عظُم- وفي رواية: يُعَدُّ فينا عَظيمًا، وفي أخرى: عُدَّ فينا ذا شأنٍ))[٦].

بيان المَكِّي والمَدني:

سورة البَقرة سورةٌ مدنيَّة، نزلتْ بعد الهِجرة، ونقَل الإجماعَ على ذلك عددٌ من المفسِّرين[٧].

---

(١) الغَمامة: السَّحابة. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٨٩).

(٢) الغَياية: كلُّ شيءٍ أظلَّ الإنسانَ فوق رأسه كالسَّحابة وغيرها. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٠٣).

(٣) فِرقان:، أي: قِطعتان، مثنَّى الفِرْق، وهو القِطعة من الشيَّء. ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ١٥٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٤٠).

(٤) صَوافَّ: أي: مُصطفَّة متضامَّة؛ لتظلِّل قارئها. ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ١٥٠).

(٥) تقدم تخريجه (ص: ٥٩).

(٦) رواه أحمد (٣/ ١٢٠) (١٢٢٣٦)، وابن حبَّان (٣/ ١٩) (٧٤٤).

صحَّح إسنادَه ابن تَيميَّة في ((الصارم المسلول)) (٢/ ٢٤١)، وقال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (٦/ ١٧٩): على شرْط الشيخين، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الموارد)) (١٢٦٨).

(٧) نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ تيميَّة في ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ١٩٣)، وابنُ كثير في ((تفسيره)) (١/ ١٥٥)، والشِّنقيطي في ((العذب النمير)) (٢/ ٣٦٢).

مقاصِد السُّورة:

مَن أهمِّ المقاصد التي تضمَّنتها سورةُ البقرة:

١- الاهتمامُ بالجانب العَقديِّ؛ فقد بيَّنت السورة الكثيرَ من أصول العقيدة، وأدلَّة التوحيد، وبراهين البعث[١].

٢- بيانُ جوانبَ من التَّشريع الإسلاميِّ، سواءً في العِبادات، أو الأحوال الشخصيَّة، أو المعاملات الماليَّة، أو الحدود، وغير ذلك[٢].

موضوعات السُّورة:

من أَبرزِ الموضوعاتِ التي تناولتْها سورةُ البَقرة:

١- وصْف أصناف النَّاس، حيثُ قسَّمتْهم ثلاثةَ أقسام، هم: المؤمنون، والكافِرون، والمنافقون.

٢- وصيَّةُ الناس كافَّةً بعبادة ربِّهم، مع ذِكر بعض نِعمه الجليلة عليهم، التي تدلُّ على استحقاقِه سبحانَه وتعالى للعبادة وحْده، مع تحذيرهم إنْ لم يمتثلوا هذا الأمر، وتبشير مَن امتثل منهم بما أعدَّه الله تعالى له من النَّعيم المقيم.

٣- بداية خَلْق الإنسان، وحوار الله عزَّ وجلَّ مع ملائكتِه.

٤- قِصَّة استخلاف آدَم في الأرض، وقصَّته مع الشيطان.

٥- عَرْض أبرز الأحداث التي وقعتْ لبني إسرائيل.

٦- قِصَّة ابتلاء إبراهيمَ بالكلمات، وبنائِه الكعبةَ مع ولده إسماعيل، ووصيَّته لأبنائه ويعقوب، ووصية يعقوب لأبنائِه.

٧- عَرْض مجموعة من الأحكام الشرعيَّة في جانب العبادات، تتعلَّق بالصَّلاة

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٣).

والصَّدقة، والصَّوم، والحجِّ، وفي جانب المعاملات، كالرِّبا والدَّيْن، والرَّهن، وكذلك في جانب الأُسْرَة من النِّكاح والطَّلاق والإيلاء والعِدَد، وغير ذلك من أحكام.

٨- عَرْض وقائع في إحياء الله الموتى، ومنها: (قصة قتيل بني إسرائيل، وقصة الذين أصيبوا منهم بصاعقة أماتتهم، وقِصَّة الذين خرَجوا من دِيارهم وهم أُلوف حذرَ الموت، وقِصَّة الذي مرَّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عروشها، وقصَّة إبراهيم عليه السَّلام مع الطَّير).

٩- قِصَّة طالوت وجالوت مع الملأ من بني إسرائيل من بعدِ موسى عليه السَّلام.

١٠- قصَّة الذي حاجَّ إبراهيمَ عليه السَّلام في ربِّه.

الآيات (١-٥)

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾.

غريب الكلمات:

﴿رَيْب﴾: الرَّيب: الشكُّ، أو هو الشكُّ مع الخَوف، ومع تُهمَة المشكوكِ فيه، وتوهُّمُ أمْرٍ ما بالشَّيء، والرَّيب مصدر رابني الشيء: إذا حصل فيه الريبة، وهي قلق النفس واضطرابها[١].

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: الذين يقُون أنفسهم تَعاطي ما يُعاقَب عليه من فِعل أو تَرْك، والتقوى جعْل النفس في وقاية مما تخاف، وأصل الاتِّقاء: الحَجْز؛ كأنَّهم وضعوا بينهم وبين العذاب حاجزًا يقيهم[٢].

﴿يُوقِنُونَ﴾: يعلمون علمًا متمكِّنًا في نفوسهم لا يمكن أن يدخله شكٌّ، وأصل اليقين: زوال الشَّكِّ[٣].

﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: أي: الظَّافرون بما طلبوا، الباقون في الجنة؛ فأصل الفَلَاح: الظَّفَرُ وإدراك البُغية، والبقاء[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

مشكل الإعراب:

١- **قوله:** ﴿الم﴾ حروف لا محلَّ لها من الإعراب[١].

٢- **قوله:** ﴿هُدًى﴾: منصوب على الحال من (ذا، أو الكتاب، أو مِن الهاء في فِيه). ويجوز أن يكون (هدى) مرفوعًا بضمَّةٍ مقدَّرةٍ، على أنَّه مُبتدأ، وخبره: شبه جملة (فيه). أو يُرفع على أنَّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو هدى، أو خبر ثان لاسم الإشارة (ذلك). وعلامة إعرابه في الجميع مُقدَّرة؛ للتعذُّر[٢].

المعنى الإجمالي:

افتُتِحَت هذه السورةُ العظيمة بالحروف المقطَّعة؛ لبيان إعجاز القرآن؛ إذ تُبرِزُ عجزَ الخَلْق عن معارضته بالإتيان بشيءٍ من مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّة التي يتحدَّثون بها!

وهذا القرآن لا شكَّ في أنَّه نزَل من عند الله عزَّ وجلَّ، وهو هُدًى من الضلالة للمتَّقين، المصدِّقين المقرِّين بالغيب، المؤدِّين الصلواتِ على أكملِ وجه، المنفقين من طيِّب ما رزَقهم الله، المصدِّقين بالقرآن وبجميع الكتُب السماويَّة السابقة المنزلَة من عند الله عزَّ وجلَّ، الموقِنين بالبعث والنُّشور، والثَّواب والعِقاب، والحساب والميزان، وغير ذلك ممَّا أعدَّ الله تعالى لخَلْقه يوم القيامة، ثم أخبر الله عزَّ وجلَّ عن هؤلاء المتَّقين المتَّصفين بجميع ما تقدَّم ذِكرُه، بأنَّهم على نورٍ وبُرهان وبصيرة من ربِّهم سبحانه، وأنهم وحْدهم دون غيرهم، هم الفائِزون والناجون.

تفسير الآيات:

﴿الم (١)﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعة التي افتُتِحَت بها هذه السُّورة وغيرها، تأتي لبيان إعجازِ

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٧٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٨٦).

القرآن؛ حيث تُظهِر عجْزَ الخَلْق عن معارضته بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروف العربيَّة التي يتحدَّثون بها[١]!

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كان المرادُ بـ ﴿الم﴾ أنَّ هذا الكتاب من جِنس حُروفكم التي قد فُقتُم في التكلُّم بها سائرَ الخلق، ومع ذلك أنتم عاجزون عن الإتيان بسورةٍ مِن مثلِه؛ لأنَّه كلامُ الله- أشار إلى كمالِه، فأُشير إليه بأداة البُعد في قوله ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾؛ لعلوِّ مقدارِه، وجلالة آثارِه، وبُعد رتبته عن المحرومين. ولما عُلم كمالُه، أشار إلى تعظيمه بالتصريحِ بما يستلزمه ذلك التعظيمُ، فقال: ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾[٢].

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: إنَّ هذا القرآن، لا شكَّ في أنَّه حقٌّ في ذاته، وأنَّه نزَل من عند الله تعالى[٣]، كما أنَّه لا يتضمَّن ما يوجب الرَّيْب[٤].

كما قال تعالى: ﴿الم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ١-٢].

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ القرآن هدًى من الضلالة، ونورٌ وتبيان للذين يتَّقون غضبَ الله تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٧٩).

(٣) قال ابن أبي حاتم: (لا أعلمُ في هذا الحرف-أي: إنَّ الكتاب هو القُرآن-اختلافًا بين المفسِّرين) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٢٣-٢٢٤).

وعقابَه، بامتثال ما أَمَر الله تعالى به، واجتنابِ ما نَهَى عنه[١].

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣)﴾.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

أي: إنَّ مِن صفات المتَّقين أنَّهم يُصدِّقون ويُقِرُّون بالغيب[٢].

والغيبُ هو: كلُّ ما غاب عن العَبد، ومن الإيمان بالغيب: الإيمانُ بالله تعالى، وملائكتِه، وكُتبِه، ورُسلِه، واليومِ الآخِر[٣].

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾.

أي: يؤدُّون الصَّلوات بحدودِها، وفروضِها، وواجباتها، كما أمَر الله عزَّ وجلَّ[٤].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

أي: يُخرِجُون من طيِّب ما أعطاهم ربُّهم من الأموال[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٣٤، ٢٣٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تَيميَّة (١/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٢- ١٦٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٤-١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٤٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٥-١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٧).

ومن المفسِّرين مَن فسَّر الصَّلاةَ المذكورة هنا، بأنَّها جِنس الصلوات المفروضة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٤٨-٢٤٩)، ((الجواب الصحيح)) لابن تَيميَّة (٢/ ٢٧٩).

ومن المفسِّرين مَن أدخل فيها النوافلَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١).

ومنهم مَن أطلق الصلاة ولم يقيِّدها بشيء. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٠)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٨/ ٥٤٥).

ومِن المفسِّرين مَن خصَّص النفقة المذكورة هنا، بالزَّكوات المفروضة، والنَّفقات الواجِبة.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٩). =

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

أي: إنَّ من صِفات المتقين أيضًا، أنَّهم يؤمنون بالقرآن الذي أُنزل إلى محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ويُؤمنون أيضًا بجميع الكتُب السماويَّة السابقة، من قَبل بَعثةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال سبحانه أيضًا: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

أي يؤمنون إيمانًا لايتطرَّق إليه شكٌّ بالبعث والنُّشور، والثواب والعِقاب، والحِساب والميزان، وغير ذلك ممَّا أعدَّ الله تعالى لخلْقِه يومَ القِيامة[(٢)].

﴿أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾.

﴿أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

= ومن المفسِّرين مَن جعَلها شاملةً للصَّدقات الواجبة والمستحبَّة.

يُنظر: ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (١/ ٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٣٥).

ومنهم مَن أطلق النفقة ولم يقيِّدها بشيء. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٥).

وممَّن أطلق القولَ من السَّلف، قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٠-١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٥٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١١/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١).

أي: إنَّ المتَّصفين بجميعِ ما تقدَّم ذِكرُه من صِفات المتقين، على نورٍ وبُرهانٍ وبصيرةٍ من ربِّهم سبحانه[١].

﴿وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: وهم أيضًا فائزونَ بإدراك ما طلَبوا، وبالنَّجاة ممَّا منه هرَبوا[٢].

الفَوائِد التربويَّة:

١- أنَّ التقوى في القلْب هي التي تؤهِّل العبدَ للانتفاع بهذا الكتاب؛ فكلُّ مَن كان أتقى لله تعالى، كان أقوى اهتداءً بالقرآن الكريم؛ لأنَّ الهدى عُلِّق بوصفٍ في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، والحُكم إذا عُلِّق بوصف، كانتْ قوة الحُكم بحسَب ذلك الوصفِ المعلَّق عليه[٣].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، دلالةٌ على أهميَّة الإيمان بالآخِرة؛ لأنَّ الإيمان بها يستلزم الاستعدادَ لها بالأعمال الصَّالحات، وترْك المحرَّمات[٤].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- بيان علوِّ القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾؛ فالإشارة بالبُعد تُفيد علوَّ مرتبته؛ وإذا كان القرآن عاليَ المكانة والمنزلة، فلا بدَّ أن يعود ذلك على المتمسِّك به بالعلوِّ والرِّفعة؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]؛ وكذلك ما وُصِف به القُرآنُ كالكرَم، والعظَمة، فإن للمشتغل به نصيبًا من ذلك[٥].

٢- نفي الرَّيْب عن القرآن في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٨).

[البقرة: ٢]، يدلُّ على ثبوت كمال ضدِّه، فهو يُورث كمال اليقين؛ لما يتضمَّنه من الحجج والبراهين والدَّلائل التي لا تترك في الحقِّ لبسًا. والنفي الوارد في باب صفات الله تعالى، أو الملائكة، أو النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أو القرآن، يدل على ثبوت كمال ضدِّه(١).

٣- في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ﴾ إشارةٌ إلى ما سيؤول إليه أمر القرآن من كونه مكتوبًا ومجموعًا في كتابٍ واحد(٢).

٤- قال تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، ولم يقُل: يفعلون الصَّلاة، أو يأتون بالصَّلاة؛ لأنَّه لا يكفي فيها مجرَّدُ الإتيان بصورتها الظاهرة؛ فإقامة الصَّلاة، إقامتها ظاهرًا بإتمام أركانها، وواجباتها، وشروطها، وإقامتها باطنًا بإقامة رُوحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبُّر ما يقوله ويفعله منها، فهذه الصَّلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وهي التي يترتَّب عليها الثوابُ(٣).

٥- كثيرًا ما يجمع الله تعالى بين الصَّلاة والزَّكاة في القرآن؛ وذلك لأسباب، منها: أنَّ الصَّلاة متضمِّنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنَّفقة متضمِّنة للإحسان إلى عَبيدِه(٤)، وسعادةُ العبدِ دائرةٌ بيَن الأمرَيْن، كما أنَّ الصلاةَ رأسُ العباداتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠).

(٢) قال ابن عاشور: (وفي هذه التسمية معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم بأن ما أوحي إليه سيكتب في المصاحف قال تعالى: ﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وغير ذلك، ولذلك اتخذ النبيء صلى الله عليه وسلم من أصحابه كتابًا يكتبون ما أنزل إليه ومن أول ما ابتدئ نزوله... وقد وجد جميع ما حفظه المسلمون في قلوبهم على قدر ما وجدوه مكتوبًا يوم أمر أبو بكر بكتابة المصحف) ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

البدنيةِ، والزكاةَ رأسُ العباداتِ الماليةِ، والعباداتُ راجعةٌ إلى هذين.

٦- في الإتيان بـ﴿مِن﴾ التي هي للتبعيض في قوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ إيماءٌ إلى كون الإنفاق المطلوب شرعًا، هو إنفاقُ بعض المال؛ لأنَّ الشريعة لم تُكلِّف الناس حرجًا، وهذا البعض يقلُّ ويتوفَّر بحسب أحوال المنفقين(١).

٧- في قوله سبحانه: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾ إشارة إلى أنَّ هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلةً بقوَّتكم وملككم، وإنَّما هي رِزق الله الذي خوَّلكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضَّلكم على كثيرٍ من عباده، فاشكروه بإخراج بعضِ ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانَكم المعدَمين(٢).

٨- في قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الإنفاقَ من غير الزَّكاة لا يتقدَّر بشيءٍ معيَّن؛ لإطلاق الآية، سواء كانت «مِن» للتبعيض؛ أو للبيان(٣).

٩- في قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، لم يذكر المعمولَ (المنفَق ذاته، والمنفَق عليهم)؛ لكثرة أسبابِه، وتنوُّع أهلِه(٤).

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، بدأ بالقرآن مع أنَّه آخِر الكتُب السماوية زمنًا؛ لأنَّه مهيمنٌ على الكتُب السابقة، وناسخٌ لها(٥).

١١- في قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، نصَّ جلَّ وعلا على الإيقان بالآخِرة مع دخولِه في الإيمان بالغيب لأهميَّته؛ لأنَّ الإيمان بها يُحمل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١).

على فِعل المأمور، وترْك المحظور[١].

١٢- في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، دلالةٌ على أنَّ الفلاحَ مرتَّبٌ على الاتِّصاف بما ذُكر؛ فإنِ اختلَّت صفةٌ منها، نقَص من الفلاح بقدْر ما اختلَّ من تلك الصِّفات؛ وذلك لأنَّ الحكمَ المعلَّق على وصفٍ، يزيد بزيادته، وينقص بنقصانه، فالصحيح من قول أهل السُّنة والجماعة، والذي دلَّ عليه العقلُ والنقل، أنَّ الإيمان يَزيد، وينقص، ويتجزَّأ؛ ولولا ذلك ما كان في الجناتِ درجاتٌ[٢].

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه من أوجه البلاغة:

- الإشارة للبعيد في ﴿ذَلِكَ﴾ بإدخال اللام، إشارة إلى علوِّ منزلة هذا الكتاب وشَرَفه، وبُعد مرتبته وعلوِّها على مرتبة كلِّ كتابٍ سواه[٣].

- ﴿الْكِتَابُ﴾ جاء معرَّفًا بالألف واللام؛ للتَّفخيم لأمْره، ولبيان علوِّ شأنه[٤].

- ﴿هُدًى﴾: وُضِع المصدر ﴿هُدًى﴾ موضِعَ اسم الفاعِل (هادٍ)؛ للتأكيد على دَيمومة هِدايتِه واستمرارِها، وجاء منكَّرًا للتعظيم، وللدَّلالة على أنها هداية مُطلَقة لكل متَّقٍ في كلِّ ما يَحتاج إليه الخَلقُ للوصول إلى السعادة في الدَّارين[٥].

- وفي هذه الجُمل الأربع: ﴿الم﴾، ﴿ذلِكَ الْكِتابُ﴾، ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾، ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾: جمالُ بلاغة؛ حيثُ جِيء بها متناسقةً هكذا من غير حرْف

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٧٤) ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٥-٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٥).

عَطْف؛ وذلك لمجيئها متآخيةً آخذًا بعضها بعُنق بعض؛ مع ما في كلِّ جملة مِن نُكتةٍ ذات جَزالة، ففيها ما يُسمَّى عند البَلاغيِّين بـ(الفصْل)[١] -وهو عدم عطف الجمل بالواو-؛ لكمال الاتِّصال بينها[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

- فيه حُسن ترتيب، وتقديمٌ للأهمِّ فالأهم؛ فالإيمانُ بالغيب لازمٌ للمكلَّف دائمًا، والصَّلاةُ لازمة في أكثرِ الأوقات، والنَّفقة لازمة في بعض الأوقات[٣].

- تقديم المفعول ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ على الفِعل ﴿يُنْفِقُونَ﴾: للاهتمامِ به، وللدلالة على كونه أهمَّ، ولإفادة الاختصاص، ولتناسب رُؤوس الآي[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

- في قوله ﴿أُنْزِلَ﴾: عبَّر عنه بلفظ الماضي، وإن كان بعضه مترقَّبًا؛ تغليبًا للموجود على ما لم يوجد، أو تنزيلًا للمنتظَر منزلةَ الواقِع؛ ففي هذا التعبير تغليبُ المحقَّق على المقدَّر، وتنزيل ما في شَرَف الوقوع لتحقُّقه منزلةَ الواقع[٥].

---

(١) **الفصل**: من مباحث عِلم المعاني؛ وهو عدمُ عطفِ الجُمَل بالواو. وهو مقابلٌ للوَصلِ، ولكلٍّ من الفصل والوصل مواضِعُه الواجبة والجائزة. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٤٩ وما بعدها)، ((البلاغة الواضحة)) لعلي الجارم وأحمد أمين (ص: ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٢٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٣٩)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢١).

- ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: فيه تقديم لشِبه الجملة ﴿بِالْآخِرَةِ﴾؛ للاهتمام بأمْرها، والإشعارِ بالحَصْر والاختصاص، كأنَّ ما عدا الإيقانَ بالآخرة ليس بمستأهلٍ للإيقان به، والقطعِ بوقوعِه؛ فهو أساسُ الإيمان ورأسُه[١].

- التأكيدُ بالجُملة الاسميَّة، مع أنَّها معطوفةٌ على جملة فعليَّة، آكَدُ في الإخبار عن هؤلاء بالإيقان، ومُشعِر بالاهتمام بهم. وذكر الضَّمير الظاهر (هم) مع أنَّه موجود في الفِعل (يوقنون)؛ زيادةً في التأكيد[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

- فيه الإتيان بحرْف ﴿على﴾ الذي يُفيد الاستعلاء؛ إشارة إلى تمكُّنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسُّكهم به[٣].

- تنكير ﴿هُدًى﴾؛ ليُفيد ضربًا مُبهمًا لا يُبلَغ كُنْهُه، ولا يُقادَر قَدرُه، كأنه قيل: على أي هدًى، كما تقول: لو أبصرتَ فلانًا لأبصرتَ رجلًا[٤].

- تَكرير اسم الإشارة ﴿أُوْلَـئِكَ﴾ ﴿وَأُوْلَـئِكَ﴾؛ للتَّأكيد، والعِناية بشأن المتَّقين، وللإشارة إلى علو مرتبتهم، وفيه دَلالةٌ على أنَّ كُلًّا من الهدى والفلاح مستقلٌّ بتميزهم به عن غيرهم، بحيث لو انفرد أحدُهما لكفى تميزًا على حِياله[٥].

- الإتيان بحَرْف العطف (الواو) في المبتدأ الثاني؛ لاختِلافِ الخَبرين وجودًا ومقصودًا، واستقلالِ كلٍّ من الهُدَى والفَلاح بتميُّزهم به عن غيرهم، ولو كان الخبر الثاني في معنى الأوَّل، لم يدخل العاطف؛ لأنَّ الشيءَ لا يُعطف على

---

(١) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (١/ ٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٧٤)، ((فتح القدير)) للشوكاني (١/ ٤٤).

نفْسِه، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩][١].

- الإتيان بضَمير الفَصل ﴿هُمْ﴾ للتأكيد والحصر، ورفْع توهُّم مَن يَتشكَّك، أو يتوهَّم التشريك فيه، كأنَّه قال: هم المفلحون لا غيرهم[٢].

- ودخول الألف واللام على الخبر ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ فيه إشعار بالحصْر كذلك، كأنَّهم قد استحقُّوا الوصف الكامل من الفلاح[٣].

- وفي هذه الآياتِ حُسن تقسيم؛ حيث استَوعبت جميعَ الأوصاف المحمودة، والعبادات البَدنيَّة والماليَّة التي يعكُف عليها المؤمِنون[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٧٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٩)؛ فقد أشار إلى ذلك الوجه عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، حيث قال: (وأكَّد بقوله: (هم)، وبالألف واللام، كأنَّ الهداية انحصرت فيهم، وباسم الفاعل؛ ليدلَّ على الثبوت...).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٧).

الآيات (٦-٧)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾.

غريب الكلمات:

﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾: أأعلمتهم بما تحذِّرهم منه، وأصل الإِنْذار: إخبارٌ فيه تخويف، أو الإبْلاغُ[١].

﴿خَتَمَ﴾: طبَع على الشَّيء ووسَمه، وسدَّه وربَطَه، والخاتِم بمنزلة الطَّابع[٢].

﴿غِشَاوَةٌ﴾: غِطاء وسَاتر، مِن غشِي الشَّيءَ، أي: غَطَّاه وسترَه[٣].

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ سواء مبتدأ مرفوع، و﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ مَصدَرٌ مُؤَوَّلٌ مِنَ الهَمزةِ والفِعلِ في محَلِّ رَفعٍ خبرٌ للمُبتَدَأِ، وجملة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ...﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. ويجوز أن يكون ﴿سَوَاءٌ﴾ خبرَ إنَّ، و﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ وما بعده: فاعِلٌ بـ (سواءٌ)، والتقدير: يَستوي عندهم الإنذارُ وتركُه. ويجوز أن يكون خبرُ إنَّ قولَه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وما بينهما اعتراض. وقيل غير ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٥-٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٩).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٧٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري =

المعنى الإجمالي:

يُخبِر الله عزَّ وجلَّ عن الكافرين، بأنَّ الإنذار وعدمَه عندهم سِيَّانِ، فهم سواء أُنذروا أم لم يُنذَروا، لا يُصدِّقون بما جاءهم به محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ من الحق؛ وذلك أنه قد طبَع الله على قلوبهم وسمعِهم؛ فلا ينفعهم الهُدى، وجعَل على أبصارهم غطاءً، فلا يُبصرون ما يَهديهم، وجزاء هؤلاء الكافرين عذابُ النار.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٦)﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الذين كفروا، يتساوى في حقِّهم كِلا الأمرين، الإنذارُ وعدمه، فهم في كِلا الحالين لا يؤمنون بما جِئتَهم به- يا أيُّها الرسولُ- من الحقِّ[(١)].

﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ(٧)﴾.

﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾.

أي: طَبَع اللهُ عليها، فلا يَنتفعون بهُدى[(٢)].

= (١/ ٢١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ١٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٦٢-٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١، ٤٢).

وقد نصَّ ابن تَيميَّة على أنَّ هذا حالُ الكفَّار ما داموا على كُفرهم؛ بسبب موانعَ تمنعهم من الإيمان، وإلَّا فإنَّ إيمانهم ممكنٌ إذا زالت تلك الموانع، بإذن الله تعالى. يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٦/ ٥٨٤-٥٨٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩١).

ونصَّ كثيرٌ من المفسِّرين على أنَّ الآية خاصَّةٌ بقومٍ معيَّنين استمروا على كفرهم، وإلا فإنَّ هنالك من الكفار من آمن بعد نزول هذه الآية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٥٨-٢٥٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٤٨).

(٢) قال القرطبيُّ: (الأمَّة مجمِعة على أنَّ الله تعالى قد وصف نفْسَه بالختم والطَّبع على قلوبِ الكافرين؛ مجازاةً لكفرهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]) ((تفسير =

﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾.

أي: عليها غِطاء، فلا يُبصرون هُدًى[١].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾.

أي: عذابُ النَّار[٢].

الفَوائِد التربويَّة:

على المسلم أن يتفقَّدَ قلبَه؛ فهو محلُّ الوعي، ومَن لا يشعُر بالخوف عند الموعظة، ولا بالإقبال على الله تعالى، فإنَّ فيه شَبهًا من الكفَّار الذين لا يتَّعظون بالمواعظ، ولا يُؤمِنون عند الدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، كما قال سبحانه عنهم: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾[٣].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ...﴾، تسليةٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ حين يردُّه الكفَّار، ولا يَقبلون دعوتَه[٤].

٢- في قوله سبحانه: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، قيل: جمَع القلوب والأبصار، ووحَّد السَّمع لوجوه:

أحدها: أنه وحَّد السَّمع؛ لأنَّ لكلِّ واحد منهم سمعًا واحدًا، كما يقال: أتاني

= القرطبي)) (١/ ١٨٧).

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٦٥-٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٤-١٧٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٦٩-٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧).

برأس الكبشين، يعني رأس كلِّ واحد منهما، يُقال ذلك إذا أُمِن اللبس.

الثاني: أنَّ السَّمع مصدرٌ في أصله، والمصادر لا تُجمع، يقال: رَجُلان صَوْمٌ، ورجالٌ صَومٌ، فرُوعي الأصل؛ ومما يدلُّ على ذلك جمع الأذن في قوله: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥].

الثالث: أن نُقدِّر مضافًا محذوفًا، أي: وعلى حواسِّ سمعهم.

الرابع: أنَّ ما قبل لفظ السَّمع وما بعدَه ذُكر بلفظ الجمع، وذلك يدلُّ على أنَّ المراد منه الجمع أيضًا[١].

بلاغة الآيات:

١- **في قوله**: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

- **في قوله**: ﴿أأنذرتهم﴾ عدَل عن المصدر (إنذارهم) إلى الفعل؛ لما فيه من إيهام التجدد[٢].

- **في قوله**: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ حسُن دخول الهمزة، و(أَمْ)؛ لتقرير معنى الاستواء وتأكيده[٣].

٢- **قال تعالى**: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ **في قوله**: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ تكرَّر حرْف الجر؛ لتأكيد المعنى؛ فهم لا يَسمعون حقَّ السَّمع[٤].

٣- **قوله**: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ جاءت ﴿غِشَاوَةٌ﴾ نكرة؛ للتفخيم والتهويل، وليفيد أنَّ على أبصارهم نوعًا من الأغطية غير ما يتعارفه الناس، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٩٦).

غطاءُ التعامي عن آيات الله تعالى[١].

٤- **في قوله:** ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ تنكير ﴿عَذَابٌ﴾؛ للتفخيم والتهويل والمبالغة، وللإشارة إلى أنَّه نوعٌ منه مجهول الكمِّ والكيف. ووصفُه بـ﴿عَظِيمٌ﴾؛ لتأكيد ما يُفيده التنكيرُ في ﴿عَذَابٌ﴾، ولدفْع الإيهام بقلَّته ونُدرته، ولتأكيد أنَّه بالغٌ حدَّ العظمة، وأنَّ لهم من بين الآلام العِظام نوعًا عظيمًا لا يعلم كُنهَه إلا اللهُ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٩).

الآيات (٨-٢٠)

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ
ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا
تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ
وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ
ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟
ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ
بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا
رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ
أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ
عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ
يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿يُخَادِعُونَ﴾: أي: يُظهِرون غير ما في نُفوسهم. وأصل الإخداع: إخفاء الشَّيء[1].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٨)، ، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٠). ويُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تَيميَّة (٦/ ١٩).

﴿مَرَضٌ﴾: أي: شكٌّ ونفاق، وأصلُ المرض: الفُتور، والخروج عن الاعتدال الخاصِّ بالإنسان[١].

﴿السُّفَهَاءُ﴾: أي: الجهلة، وأصل السَّفه: الجَهْل، والخفَّة في البَدن والعقل، والضَّعْف والحُمق، واستُعمل في خِفَّة النفس؛ لنُقصان العقل[٢].

﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾: رؤوسهم فى الكفر ومردتهم، جمْع شيطان، وهو كلُّ عاتٍ متمرِّد من الجنِّ والإنسِ والدواب، وأصلُه من: شَطَن، إذا تباعد؛ وذلك لبعده عن رحمة الله أو الخير، وقيل: أصله مِن شَاطَ إذا احترَق[٣].

﴿طُغْيَانِهِمْ﴾: عُتُوِّهِم وتكبُّرهم، أو غيهم وكُفْرهم، وأصل الطُّغيان: مجاوزة الحدِّ[٤].

﴿يَعمهون﴾: يتَحيَّرون ويجورون عَن الطَّرِيق؛ فأصل العَمَهِ: التردُّد في الأمْر من التحيُّر[٥].

﴿صُمٌّ﴾: الصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّة السَّمع، وبه يُوصَف مَن لا يُصغِي إلى الحقِّ ولا يَقبله، وأصله: الصَّلَابة، وقيل: السدُّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٤) (٣/ ٢٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨) ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤) ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ٥٣).

﴿بُكْمٌ﴾: جمع أَبْكَم، وهو الذي يُولَد أخرس؛ فكلُّ أبكمَ أخرسُ، وليس كلُّ أخرس أبكمَ، والبَكَم: آفة في اللِّسان مانعةٌ من الكلام[١].

﴿كَصَيِّبٍ﴾: أي مطر، مأخوذٌ من الصَّوب، وأصل الصَّوْب: النُّزُولُ؛ سمِّي به المطر لأنَّه ينزل من السَّماء[٢].

﴿الصَّوَاعِقِ﴾: جمْع صاعِقة، وهي النَّار التي تنزل من السَّماء عندَ اشتداد الرَّعد، وقيل: الصَّوت الشديد من الجوِّ، والوَقعُ الشَّديدُ منَ الرَّعْدِ، أو كلُّ عذاب مُهلك (الموت، والعذاب، والنار)، ومنه: صَعق، إذا مات، وأصل صعق: يدلُّ على شِدَّة الصَّوت[٣].

﴿يَخْطَفُ﴾: يختلس بسرعة، أو يأخذ الشيء بسرعة[٤].

المعنى الإجمالي:

يُخبر الله عزَّ وجلَّ في هذه الآيات عن صِنف من الناس، يدَّعون بألسنتهم أنَّهم مؤمنون بالله، وبالبعث يومَ القِيامة، وهم مع ذلِك غيرُ مقرِّين بالإيمان حقيقةً بقلوبهم، وهم بفِعلهم هذا يَقصِدون مخادعةَ الله والذين آمنوا بادعاء الإيمان لأنفسهم، وإخفاءِ كُفرِهم، لكن بيَّن الله سبحانه أنَّ ما يقومون به ما هو إلَّا خديعة

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤-٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٦).

لأنفسهم، وذلك بِخذلان الله لهم في الدَّارينِ، وهم لا يحسُّون بأنَّهم هم المخدوعون.

في قلوب هؤلاء الصِّنف شكٌّ ونفاق، فزادهم الله شكًّا إلى شكِّهم، ونِفاقًا إلى نفاقهم، ولهم مع ذلك عذاب موجِع؛ جزاءً لكذبهم وإظهارِهم غيرَ الحقيقة، ولتكذيبهم لله تعالى ولرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: لا تُفسدوا في الأرض بالمعاصي، والنِّفاق والكُفر، واتِّخاذ الكافرين أولياءَ، قالوا: ما نقومُ به هو الإصلاح! وكذَبوا في ذلك، بل هم بعيدون عن الإصلاح، بكُفرهم ومعاصيهم، ومع هذا لا يدرون أنَّ ما يقومون به هو فسادٌ في الحقيقة.

وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: آمنوا بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وبما جاء به من ربِّه، كما آمن به أصحابُه رضي الله عنهم، قالوا أنؤمن كما آمن ضعفاء الرأي والعقولِ، ونفعل كما فعلوا؟!- يقصدون بذلك أصحابَ محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام- فأخبرهم الله تعالى أنَّهم هم ضعفاءُ العقول والرأي؛ فهم السُّفهاء في واقِع الأمر، ومع ذلك لا يعلمون بحقيقةِ سفههم.

وإذا لقِي هؤلاء المنافقون المؤمنين أخبروهم- كذبًا- أنَّهم مؤمِنون أيضًا، وإذا انصرفوا إلى رُؤسائهم من سادات الكفَّار والمشركين، والمنافقين، وكانوا معهم في خَلوة، قالوا لهم: إنَّا ما زلنا معكم على دِينكم، إنما نحن ساخِرون بالمؤمنين حين نقول لهم: آمنَّا بالله وباليوم الآخِر.

ثمَّ أخبر الله سبحانه أنَّه يَستهزئ بهم؛ مقابلةً لاستهزائِهم بالمؤمنين، وذلك بأن يُجري عليهم ما على المؤمنين من الأحكام الظاهِرة، كعصمة دِمائهم وأموالهم، ثم في الآخِرة يَلقَون جزاءَهم الأليم وحْدَهم، بأن يُلقَوا في الدَّرك الأسفل من النار، فكان هذا استهزاءً بهم، ويُملي الله لهؤلاء المنافقين بأنْ يتركَهم في عُتوِّهم وتمرُّدهم

بالكُفر، يتردَّدون حيارَى ضُلَّالًا، لا يجدون سبيلًا للخروج ممَّا هم فيه.

هؤلاء الصِّنف من البَشر هم الذين أخذوا الضَّلالة وترَكوا الهدى، فخسِروا وما كانوا راشدين بِفعلهم هذا.

مثَل هؤلاء المنافقين في إيمانهم ثمَّ كُفرهم بعد أن تبيَّن لهم الحق، كمَثَل مَن أوقد نارًا؛ لتضيءَ له، وينتفع بها، فلمَّا أنارتِ النارُ ما حول المستوقِد، فأبصر ما ينفعُه وما يضرُّه، خمَدت النار، وانطفأ النور، فذهب عنهم ما ينفعهم، وهو النور، وبقي ما يضرُّهم وهو الإحراقُ والدُّخَان، هؤلاء المنافقون صمٌّ لا يَسمعون هُدًى، وبكمٌّ لا ينطِقون به، وعميٌ لا يُبصرونه بقلوبهم؛ فهم لذلك لا يعودون إلى الهُدى الذي باعوه بالضَّلالة.

وضرَب الله مثلًا آخَر لصنف آخر من المنافقين، وهو كصاحب مطرٍ منحدرٍ من السَّماء، فيه ظلماتٌ- هي ظلمة اللَّيل، وظلمة السَّحاب، وظلمة المطر- ورَعْد وبَرْق، كلَّما سمعوا صوت صاعقة، غطوا آذانهم بأصابعهم، يتَّقون بذلك سماعَ أصوات الصَّواعق المدوية، حذرًا من أن تصيبَهم فيموتوا، والله محيطٌ بهم قُدرةً وعلمًا؛ فلا يُعجِزونه، ولا يُغني عنهم حذرُهم شيئًا، يوشك البرقُ لشدَّة لمعانه وضعف أبصارهم، أن يَذهب بها فيُعميَها، كلَّما ظهرَ لهم نورُ البرق مشَوْا خُطوات، فإذا أظلم ما حولهم بتوقُّف البرق وقَفوا، ولو أراد الله لأخَذَ أسماعهم وأبصارهم، والله ذو قُدرةٍ بالغة على كلِّ شيء؛ فلا يُعجزه أمر أبدًا.

والمراد بهذا المثَل أنَّ المنافقين إذا سمِعوا القرآن، وتُليت عليهم تكاليفُه ووعيدُه، وما فيه، اتَّقَوا سماع آياته؛ خوفًا من أن يحلَّ بهم الوعيد، وإشفاقًا من عقوبة نِفاقهم، سواء في الدُّنيا أو في الآخِرة، ولن ينفعهم اتقاؤُهم؛ فالله سبحانه محيطٌ بهم قدرةً وعلمًا، يوشك شدَّةُ نور القرآن بما تضمَّنه من البراهين القويَّة أن يرى معه هؤلاء المنافقون الحقَّ واضحًا، لكن لضعف بصائرهم لا يَستفيدون من

ذلك النور، ومع ذلك كلَّما أضاء لهم نورُ الحقِّ، أو لَمَع في قلوبهم، مشَوا على ضوئه خطواتٍ قليلةً في سبيل الانقياد للحقِّ، لكن لا يمكُث ذلك الحقُّ في قلوبهم التي أظلمتْ بالشُّبهات والشكوك القوية أن يَخفِت فتعود لظُلمتها، فيقِفوا حائرين، ثم توعَّدهم الله بإذهاب أسماعهم وأبصارهم؛ عقوبةً لهم على نفاقهم وكُفرهم، والله ذو قُدرة بالغةٍ على كلِّ شيء.

تفسير الآيات:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ(٨)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لما تقدَّم وصفُ المؤمنين في بداية السورة بأربع آيات، ثم عرَّف الله تعالى حال الكافرين بآيتيْن، شرع سبحانه في بيان حال المنافقين الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشتبه على كثيرٍ من الناس؛ أطنب في ذكرهم بصفاتٍ متعددة، كُلٌّ منها نفاق[١] فقال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.

أي: إنَّ المنافقين يقولون بألسنتهم: آمنَّا بالله، وبالبعث يومَ القيامة، قولًا مجرَّدًا ليس معه إيمانٌ حقيقيٌّ[٢].

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ليسوا بمقرِّين بحقيقةِ الإيمان بقلوبِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٦).

(٢) قال ابنُ جَرير: (أجَمع جميعُ أهل التأويل على أنَّ هذه الآية نزلتْ في قوم من أهل النِّفاق، وأنَّ هذه الصِّفةَ صفتُهم) ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٧٥)، ويُنظر (١/ ٢٧٨-٢٧٩) منه، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٦-١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٧).

كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾.

﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾

بإظهارِهم الإيمانَ، وإبطانهم الكفرَ[١].

كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ قراءتان:

١- (وما يُخَادِعُون) قيل: على معنى أنَّ الخِداع وقع من اثنين، فهو واقعٌ منهم وإليهم؛ إذ خدَعوا أنفسهم، وأنفسهم خدَعتْهم[٢].

٢- (وَمَا يَخْدَعُونَ) قيل: على معنى أنَّ الخداع وقع من طرفٍ واحد، فهو واقعٌ منهم على أنفسهم[٣].

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء المنافقين مخدُوعون في الحقيقة بصَنيعهم الذي يَحسَبون أنهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٧).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٠٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٨٧)، ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ٩٣).

(٣) قرأ بها: الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٠٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٩٣).

يخادعون به ربَّهم والمؤمنين، وذلك بخِذلان الله تعالى لهم في الدُّنيا والآخِرة، وهم مع ذلك لا يَدرُون بأنَّهم مخدوعون[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢][٢].

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾.

في قلوبهم شكٌّ ونفاق؛ فزادهم اللهُ تعالى شكًّا ونفاقًا.

فالجزاءُ من جِنس العمل، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥][٣].

﴿وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ قِراءتان:

١- (يَكْذِبُون) بالتَّخفيف، أي: إنهَّم كاذبون في قولهم: ﴿آمَنَّا بالله وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[٤].

٢- (يُكَذِّبُون) بالتَّشديد، أي: يكذِّبون النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والقرآن مرَّةً بعد مرَّة، ومن كذَّب بذلك، فقد كَذَب[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٨٠-٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١).

(٣) نقل الإجماع على أن المراد بالمرض هنا: الشك: ابن جرير، في ((تفسيره)) (١/ ٢٨٦-٢٨٧)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٨٧).
ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤٢).

(٤) قرأ بها: عاصم، وحمزة، والكسائيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٠٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:٨٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٢٨).

(٥) قَرَأَ بها: الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٠٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٦٨-٦٩)، ((حجة =

﴿وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

أي: لهم عذابٌ مؤلِم، أي: موجِع؛ بسبب كذَبِهم في دعواهمُ الإيمانَ، وبسبب تكذيبهم لله تعالى ورسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام[١].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: إذا قيل للمنافقين: لا تفسدوا في الأرض، بمعصية الله تعالى، وبالنِّفاق والكفر، واتِّخاذ الكافرين أولياء، والصَّدِّ عن سبيل الله، والتعويقِ عن طاعتِه وطاعةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، والإرجافِ... إلى غير ذلك[٢].

﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

يدَّعون أنَّ ما يفعلونه من الفَساد، إصلاحٌ[٣].

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾.

أي: هم المخالِفون في الحقيقة أمرَ الله عزَّ وجلَّ بالكُفر والمعاصي، ولكن لا يَدْرُون ولا يَفطنون إلى أنَّ ما يفعلونه هو فسادٌ في الحقيقة[٤].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾.

= القراءات)) لابن زنجلة (ص:٨٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٩١-٢٩٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٩٨-٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٠٠)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾.

أي: إذا قِيل للمنافقين: آمنوا بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وبما جاءَ به من عند الله عزَّ وجلَّ، كما آمن أصحابُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وكلُّ مَن آمن به[١].

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾.

أي: يقولون: أنؤمِنُ كما آمَن ذوو الجهل وضعف الرأي وقلة المعرفة بالمصالح والمفاسد- يعنون الصحابة رضوان الله تعالى عليهم- فنكون نحن وإيَّاهم على طريقةٍ واحدة[٢]؟!

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: هُم السُّفهاء في الحقيقة، فليست لديهم معرفةٌ صحيحةٌ لإقامة نفعٍ حقيقي؛ حيث يُفسِدون في الأرض، ويظنُّون أنَّ ذلك هو عينُ الإصلاح، وهذا هو السَّفَه[٣].

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ (١٤)﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾.

أي: إذا لقِي المنافقون المؤمنين، أظْهَروا لهم الإيمانَ نفاقًا[٤].

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾.

أي: إذا انصَرفوا إلى رُؤسائهم، من سادات الكفَّار والمشركين والمنافقين، خالِين بهم[٥].

---

(١) حكى الواحديُّ إجماع المفسِّرين على أن المراد بالنَّاس في هذه الآية أصحابُ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ والذين آمنوا به. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (١/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٠٢-٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٠٤-٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨١-١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٠٦-٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٠٦)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تَيميَّة (٥/ ١٨٨)، =

﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴾.

أي: نحن معكم على دِينكم، ومِن ذلك التكذيبُ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ومعاداتُه، ومعاداةُ أتباعه، والسُّخريةُ بهم بقولهم لهم: ﴿آمَنَّا بالله وَبِاليَومِ الآخِرِ﴾)[1].

﴿اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾.

﴿اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى أجْرى لهم ما للمؤمنين من الأحكام الظاهِرة، كعِصمة دِمائهم وأموالهم، لكنَّه سبحانه يُميِّز بينهم وبين المؤمنين في الآخِرة، ويُلقي بهم في الدَّرك الأسفل من النار، فكان ذلك استهزاءً بهم[2].

وهذا من الله سبحانه مقابلة لهم على استهزائهم بالمؤمنين؛ فالجزاء من جنس العمل.

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أي: يَزيدهم على وجه الإملاءِ، والتَّرْك لهم في عتوِّهم وتمرُّدهم بالكُفر، يتردَّدون

= ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٢-١٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٤٤).

(١) حكى ابنُ جَرير الإجماع على أنَّ معنى قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ إنَّما نحن ساخِرون. ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣١١).

ويُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (ص: ٩٠)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تَيميَّة (٦/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣١٥-٣١٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢٠/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٣-١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦).

حيارَى ضُلَّالًا، لا يجدون إلى المخرَج من ذلك سبيلًا[١].

﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)﴾.

﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾.

أي: استعاضوا بالضَّلالة عن الهُدَى[٢].

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

أي: خسِر المنافقون بأخْذهم الضَّلالةَ، وتركِهم الهُدى؛ وما كانوا راشدين بصَنيعهم هذا[٣].

ثم ضرب الله لهم مثلًا يصوِّر حالهم، فقال:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧)﴾.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾.

أي: مثَل المنافقين الذين آمَنوا أو أظهروا الإيمان ثم كفَروا، كمثَل مَن أوقَد نارًا؛ لتضيءَ له، وينتفعَ بها، والمراد بذلك تشبيههم بأنَّهم آمنوا أو أظهروا الإيمان[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣١٩-٣٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣).
وممَّن فسَّر قوله تعالى: (يمدُّهم) بـ يَزيدهم: أبو العالية. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٤٨).
وممَّن فسَّر طُغيانهم بكفرِهم: ابن عَبَّاس، والسُّدي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٤٩).
وممَّن فسر يَعمهون بـ يتردَّدون: ابن عبَّاس، ومجاهد، وأبو مالك، وأبو العالية، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن أبَي حاتم)) (١/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٥-١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٢٧٦)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٧٠).
=

﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾.

أي: أنارتِ النارُ ما حولَ المستوقِد، فأبصر بها ما ينفعُه ويَضرُّه[١]، والمراد بذلك أنَّهم أبصَروا الحقَّ[٢]، أو أنهم انتفعوا بها انتفاعًا مؤقَّتًا، حيثُ حقنوا دماءَهم، وأحرزوا أموالَهم[٣].

﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾.

أي: خَمَدت النار، وانطفأ النور، فذهب عنهم ما يَنفعُهم وهو النور، وبقِي لهم ما يضرُّهم وهو الإحراقُ والدُّخَان؛ ذلك بأنَّهم كفروا بعد إيمانهم، فبقِيت في قلوبهم حرارةُ الكفرِ والشُّكوكِ[٤].

﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

أي: بقُوا في عِدَّة ظلمات، منها: ظُلمة اللَّيل، والظُّلمة الحاصِلة بعد فقْد النور، وهي أشدُّ من الظُّلمة الأُولى، والمراد: ما أصْبَحوا فيه من ظُلمات الكُفر، والشُّكوك، والنِّفاق[٥].

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾.

= وممَّن ذهَب إلى نحو هذا القول من السَّلف: مجاهد، وأبو العالية، والرَّبيع بن أنس، وعبد الرحمن ابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٤٠) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٦).

(٢) وهذا اختيار ابن القيم في ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٥١)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ١٨٦-١٨٨)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (١/ ٦٥).

(٣) وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (١/ ٣٤٢)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٩٣-٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٤٢)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٦٣).
وممَّن رُوي عنه هذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس في إحدى الرِّوايات عنه، والسُّدِّي، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٩).

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾.

أي: لا يَسمعون هُدًى، ولا يَنطِقون به، ولا يُبصرونَه بقلوبِهم[١].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال سُبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

أي: لا يَعودُون إلى الهُدى الذي باعوه بالضَّلالة[٢].

ثم ضرب الله لهم مثلًا آخرَ، فقال:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)﴾.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

﴿أَوْ﴾ هنا للتنويع، فبعض المنافقين يشبه المثل الأول، وبعضهم يشبه هذا المثل الثاني، فضربه الله تعالى هاهنا لصنفٍ آخر من المنافقين[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٧، ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٤٨)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (ص: ٢١، ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٧).

وممَّن ذهب إلى هذا القول من السَّلف: ابن مسعود، وابن عبَّاس في إحدى الرِّوايات عنه، وغيرهما من أصحاب رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، و قتادة، والرَّبيع بن أنس والسُّدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٥٣).

(٣) ذهب ابن تيمية في ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٢٧٦)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ١٨٩)، وابن عثيمين في ((تفسير القرآن الكريم.الفاتحة-البقرة)) (١/ ٦٦)، إلى أن ﴿أو﴾ هنا للتنويع، أي أن بعض المنافقين يشبه المثل الأول، وبعضهم يشبه المثل الثاني. =

والمرادُ بالصيِّب: القرآنُ الذي نزَل من عند الله تعالى، والذي يُظهر المنافقون بألسنتِهم إيمانَهم به[١].

﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾.

هي ظُلمة اللَّيل، وظُلمة السَّحاب، وظُلمة المطر، والمرادُ: ما عليه المنافقون من الشكِّ، والكُفر، والنِّفاق[٢].

﴿وَرَعْدٌ﴾.

المراد به: وعيدُ القرآن وزواجره، وأوامِره ونواهيه[٣].

فهُم منها في حالِ خوفٍ وفزعٍ شديد، كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦-٥٧].

﴿وَبَرْقٌ﴾.

= قال ابن كثير: (وذهب ابن جرير الطبري ومن تبعه من كثير من المفسرين أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون «أو» في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بمعنى الواو، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] ، أو تكون للتخيير، أي: اضرب لهم مثلًا بهذا وإن شئت بهذا، قاله القرطبي. أو للتساوي مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، على ما وجهه الزمخشري: أن كلًّا منهما مساو للآخر في إباحة الجلوس إليه، ويكون معناه على قوله: سواء ضربت لهم مثلًا بهذا أو بهذا فهو مطابقٌ لحالهم) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٤). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٥٤-٣٥٦)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٦٩)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٢٧٦)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٦٦).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٥٤، ٣٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٧٤)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٠).

المراد به: حُججُ القرآن وبراهينه التي تُبهرهم[١].

﴿يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾.

﴿الصَّوَاعِقِ﴾.

المرادُ بها: آياتُ القرآن التي تتضمَّن التكاليفَ الشرعيَّة، والوعيدَ، وغيرَه[٢].

﴿يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾.

أي: يضعون أصابعَهم في آذانِهم؛ كي يتَّقوا سماعَ أصوات الصَّواعق، والمرادُ: أنَّهم يتَّقون سماعَ زواجر القُرآن الكريمِ ووعيده[٣].

﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

أي: حذرًا من حلول الوعيد الذي توعَّدهم اللهُ به في القُرآن، وإشفاقًا من حلول عُقوبةِ الله بهم على نِفاقِهم؛ إمَّا عاجلًا في الدُّنيا، وإمَّا آجلًا في الآخِرة[٤].

﴿واللهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ﴾.

أي: محيطٌ بهم قدرةً وعلمًا، فلا يُعجِزونه، ولا يُغني عنهم حذرُهم شيئًا[٥].

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٧٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٧٥-٣٧٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢١٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٧٥-٣٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٧٦-٣٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٦٩).

قَامُوا وَلَوْ شَاء اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾.

أي: يوشك البَرقُ من شِدَّة لَمعانه، وقوَّة ضيائه -مع ضَعْف أبصارهم- أنْ يذهب بها فيُعميها، والمرادُ: أنَّ شِدَّة نور القرآن- بما يحويه من حُججٍ وبراهينَ ساطعة، يرَون معها الحقَّ واضحًا جدًّا- لا تتحمَّله بصائرُهم الضَّعيفة[١].

﴿كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾.

أي: إذا ظهر لهم نورُ الحقِّ، ولَمَع في قلوبِهم مشَوْا على ضوئِه، وخطَوا خُطواتٍ يسيرةً، لكنَّه لا يستقرُّ في قلوبهم المظلِمة بالشُّبهات والشكوك القويَّة، فلا يلبَث أن ينطفِئ، فيقفون حائرين! عائدين إلى تَكذيبهم، فهُم في هذه الحال في شكٍّ وتردُّد[٢]!

﴿وَلَوْ شَاء اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾.

هذا تهديدٌ ووعيدٌ لهم بإذهاب أسماعِهم وأبصارهم؛ عقوبةً لهم على نِفاقهم وكُفرهم[٣].

﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: ذو قُدرةٍ على إيقاع ما أوعد به هذا الصِّنفَ من المنافقين، فلْيحذروا نِقمةَ الله وعذابَه عاجلًا أو آجلًا؛ فإنَّه سبحانه وتعالى لا يُعجزه شيءٌ أبدًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٧٨-٣٧٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٠٤)، ((الوابل الصيب)) (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٨١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٨٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٩٧)، ((تفسير =

الفَوائِد التربويَّة:

١- أنَّ مجرد القول باللِّسان لا ينفع الإنسانَ، فلا بدَّ أن يتطابق القلبُ، واللِّسان على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾. فهنا نفَى اللهُ عنهم الإيمانَ، فدلَّ على أنَّ حقيقة الإيمان ليس مجرد الإقرار باللسان[١].

٢- التحفُّظ من المنافقين فقد قال تعالى عنهم: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾؛ لأنَّه إذا قيل لك: (فلان يخدع) فإنَّك تزداد تحفظًا منه، وأنَّه ينبغي للمؤمن أن يكون يقظًا حذِرًا؛ فلا ينخدع بمِثل هؤلاء[٢].

٣- أنَّ المكر السيِّئ لا يحيق إلَّا بأهله؛ فالمنافقون يُخادعون الله، ويظنُّون أنَّهم قد نجحوا، أو غلَبوا، ولكن في الحقيقة أنَّ الخداع عائدٌ عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾، فالحصر هنا يدلُّ على أنَّ خداعهم هذا لا يضرُّ الله تعالى شيئًا، ولا رسولَه، ولا المؤمنين[٣].

٤- أن الإنسان إذا لم يكن له إقبال على الحق، وكان قلبه مريضًا فإنه يعاقب بزيادة المرض؛ لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾[٤].

٥- أنَّ أسبابَ إضلال الله العبدَ هي من العبد؛ لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللهُ مَرَضًا﴾[٥].

= القرطبي)) (١/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٨٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٦- أنَّ من أعظم البلوى أن يُزَيَّن للإنسان الفسادُ، حتى يَرى أنَّه إصلاح؛ لقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[١].

٧- أنَّه ليس كلُّ مَن ادَّعى شيئًا يُصدَّق في دعواه؛ لأنَّهم قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، فقال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾، وليس كل ما زيَّنته النفس يكون حسنًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨][٢].

٨- العمل السيِّئ قد يُعمي البصيرة؛ فلا يَشعُر الإنسان بالأمور الظاهِرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٣].

٩- أن يُذكرَ للمدعوِّ، من استجاب من الناس للحقِّ؛ ليكون ذلك مشجِّعًا له على قَبوله، لقوله تعالى: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾[٤].

١٠- أنَّ الإنسان قد يظنُّ أنه أحسنَ عملًا وهو قد أساء؛ لأنَّ هؤلاء اشترَوُا الضلالة بالهدى؛ ظنًّا منهم أنَّهم على صواب، وأنهم رابِحون؛ فقال الله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾[٥].

١١- أنَّ للإيمان نورًا، وله تأثيرٌ حتى في قلب المنافق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾[٦].

١٢- أنَّه ينبغي للإنسان أن يسألَ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يُمتِّعه بسَمْعه، وبصره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٥).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٧١).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- قال السَّعديُّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾: (هذا من العجائب؛ لأنَّ المخادع، إمَّا أن ينتج خداعه ويحصُل له ما يريد، أو يسلم، لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعُهم عليهم، وكأنَّهم يعملون ما يعملون من المكر لإهلاكِ أنفسِهم، وإضرارها وكيدها؛ لأنَّ الله تعالى لا يتضرَّر بخداعهم شيئًا، وعباده المؤمنون لا يضرُّهم كيدُهم شيئًا، فلا يضرُّ المؤمنين أنْ أظهر المنافقون الإيمان، فسلمتْ بذلك أموالُهم، وحُقِنت دماؤهم، وصار كيدُهم في نحورهم، وحصَل لهم بذلك الخزيُ والفضيحة في الدُّنيا، والحزن المستمرُّ؛ بسبب ما يحصُل للمؤمنين من القوَّة والنصرة، ثم في الآخِرة لهم العذاب الأليم الموجع المفجِع؛ بسبب كذبِهم وكفرِهم وفجورِهم، والحال أنَّهم مِن جهلهم وحماقتهم لا يشعرون بذلك)[١].

٢- أنَّ الحِكمة كلَّ الحِكمة إنَّما هي الإيمانُ بالله تعالى، واتِّباع شريعته؛ فإنَّ كلَّ من لم يؤمن بالله وخالف شريعته فهو سفيهٌ، فيقتضي أنَّ ضدَّه يكون حَكيمًا رشيدًا؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ إثباتُ صِفة الاستهزاء لله تعالى، وهي صفةٌ فعليَّة خبريَّة، ثابتةٌ لله عزَّ وجلَّ، على وجه المقابَلَة والجزاء؛ لذا فهي صفة كمالٍ له سبحانه[٣].

٤- تأمَّل قوله تعالى: ﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾، كيف جعَل ضوءها خارجًا عنه منفصلًا، ولو اتَّصل ضوءُها به ولابَسه لم يذهب، ولكنه كان ضوءَ مجاورة لا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٥١).
(٣) يُنظر: ((الحجة)) لقوام السنة الأصفهاني (١/ ٨٦١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١١١)، ((مختصر الصواعق لابن القيم)) (٢/ ٤٣).

ملابسة ومخالطة، وكان الضوء عارضًا، والظلمة أصليَّة، فرجع الضوء إلى معدِنه، وبقيت الظلمةُ في معدنها، فرجع كلٌّ منهما إلى أصله اللائق به، حُجَّة من الله قائمة، وحِكمة بالغة، تَعرَّف بها إلى أُولي الألباب من عبادِه(١).

٥- تأمَّل كيف قال الله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ فوحَّده، ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ فجمَعها؛ فإنَّ الحق واحد، وهو صراط الله المستقيم، الذي لا صراطَ يُوصل إليه سواه، وهو عبادته وحْدَه لا شريك له، بما شَرَعه على لسان رسولِه، لا بالأهواء والبِدع وطرقِ الخارجين عمَّا بعث الله به رسوله من الهُدى ودِين الحقِّ، بخِلاف طرق الباطل؛ فإنَّها متعدِّدة متشعِّبة، ولهذا يُفرد سبحانه الحقَّ ويَجمع الباطلَ، كقوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧](٢).

٦- قيل: خصَّ جلَّ ذِكرُه السمعَ والأبصار بأنَّه لو شاء أذهبها من المنافقين دون سائر أعضاء أجسامِهم؛ للذي جرى من ذِكرها في الآيتين، أي: قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ [البقرة: ١٩]، وقوله: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠]، فجرَى ذِكرها في هاتين الآيتين على وجه المَثَل(٣).

بلاغة الآيات:

١- في قوله تعالى حِكايةً عن المنافقين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ صيغة قصر، من قصْر الموصوف على الصِّفة، وهو مفيد للحصر كالنفي والاستثناء، كأنهم قالوا: إنَّ شأننا ليس إلَّا الإصلاح، وإنَّ حالنا متمحِّضة عن شوائب الفساد(٤).

---

(١) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (ص: ٢١).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (ص: ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٤٦)، ((البرهان)) للزركشي =

٢- **في قوله:** ﴿**أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ**﴾ تأكيدٌ على فَسادِهم، وردٌّ بليغ على ما ادَّعوه في قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ حيث قصروا أنفسهم على هذا الوصف، فجاء الرد بليغًا؛ فبدأ بجُملة استئنافيَّة اسميَّة؛ للدَّلالة على الثُّبوت، وافتتحها بـ﴿أَلَا﴾ التي تُفيد التنبيه إلى تحقُّق ما بعدها، و﴿إِنَّ﴾ التي للتأكيد وتقرير النسبة، وأتى بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾، ثم تعريف الخبَر ﴿الْمُفْسِدُونَ﴾؛ لردِّ ما في قصْر أنفسهم على الإصلاح من التعريض بالمؤمنين. ومثلها في التَّأكيد قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفهاء﴾[١].

- ويحتمل ﴿هُمُ﴾ أن يكون تأكيدًا للضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ وإن كان فصلًا[٢].

٣- **في قوله تعالى حِكايةً عن المنافقين:** ﴿**أَنُؤْمِنُ**﴾ استفهام في معنى الإنكار، أو الاستهزاء[٣]، والغرَضُ منه: قصْد التبري من الإيمان على أبلغِ وجْهٍ[٤].

٤- **قوله:** ﴿**لا يَشْعُرُونَ**﴾ و﴿**لا يَعْلَمُونَ**﴾ فيه تغايرٌ في الفواصل، وهو من محاسنِ البلاغة، وله أسرارٌ عجيبة تظهر بتأمُّل السِّياق، وهنا لمَّا كان النِّفاق- وما فيه من بغي وفسادٍ يؤدِّي إلى اشتجار الفتنة- أمرًا دنيويًّا مبنيًّا على العادات، وهو معلوم عند الناس، بل بمنزلة المحسوس عندهم- قال فيه: ﴿لا يَشْعُرُونَ﴾. ولَمَّا ذَكَر السَّفه في الآية الثانية، وهو جهلٌ مطبِق كان ذِكرُ العلم أكثرَ ملاءمةً، فقال: ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾[٥]. فالفرق بين قوله تعالى هنا: ﴿وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، وقوله

= (٤/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٤٤)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٦).

تعالى فيما سبَق: ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أنَّ الإفساد في الأرض أمرٌ حِسيٌّ يدركه الإنسان بإحساسه وشعورِه، وأمَّا السَّفه فأمْر معنويٌّ يُدرَك بآثاره، ولا يُحسُّ به نفسه؛ فنفَى اللهُ تعالى العِلمَ عن المنافقين؛ لكونهم سفهاءَ، بكلمة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ دون ﴿يَشْعُرُونَ﴾؛ لأنَّ اتِّصافهم بالسَّفه ليس ممَّا شأنه الخفاء، حتى يكون العلمُ به شعورًا، ويكون الجهل به نفيَ شعور، بل هو وصفٌ ظاهِر لا يَخفَى[١].

٥- **في قوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾** تأكيدٌ شديدٌ على عدم إيمانهم؛ حيث عدَل عن الفِعل- فلم يقل: (وما آمنوا)- إلى الاسم؛ لإخراج ذواتهم من عِداد المؤمنين، وأكَّده بالباء؛ للمبالغة في نفْي الإيمان عنهم. وتسلُّط النفيِ على اسم الفاعل- الذي ليس مُقيدًا بزمان؛ ليشملَ النفيُ جميعَ الأزمان[٢].

٦- **قوله: ﴿آمَنَّا﴾ ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾** فيه مفارقةٌ بين الجُمَل؛ حيث خاطَبوا المؤمنين بالجملة الفِعليَّة ﴿آمَنا﴾، وخاطَبوا شياطينَهم بالجملة الاسميَّة ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾؛ والجملة الاسميَّة أثبتُ من الجملة الفعليَّة؛ فدلَّ أن إيمانهم قصير المدى لا يَعْدو تحريكَ اللِّسان، أو مدةَ التقائهم بالمؤمنين، وأنَّ رُكونهم إلى شياطينهم دائمٌ ومستمر التجدُّد، وهو أعلقُ بنفوسهم، وأكثر ارتباطًا بما رسَخ فيها[٣].

٧- **قوله: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾** أتى بالفِعل المضارع (يستهزئ)، ولم يقل: (مستهزئ) المطابق لقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ﴾؛ ليُفيد حدوث الاستهزاء وتجدُّده وقتًا بعد وقت، وهكذا كانتْ نكايات الله فيهم، وبلاياه النازِلة بهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - مع حاشية ابن المنير)) (١/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٩٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٠).

٨- (أولاء) في قوله: ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ اسم إشارة، والمشار إليه المنافقون، وجاءتِ الإشارة بصيغة البُعد؛ لبُعد منزلة المنافِق سفولًا[١].

٩- قوله: ﴿نارًا﴾ جاءت مُنكَّرة؛ للتعظيم والتهويل[٢].

١٠- قوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءتْ.. ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ فيه مراعاةُ النَّظير، وهو التناسُب والائتلاف، حيث جمَع بين أمرٍ وما يُناسِبه؛ إذ قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: بضوئهم مقابلَ ﴿أضاءتْ﴾؛ لأنَّ ذِكْر النور أبلغُ؛ لأنَّ الضوءَ فيه دَلالةٌ على النِّور وزِيادة (وهو الحرارة والإحراق) كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، فلو قيل هنا: (ذهَب الله بضوئهم)، لأوهم الذَّهاب بالزِّيادة وبقاءَ ما يُسمَّى نورًا، والغرَض إزالة النُّور عنهم رأسًا، وطَمْسه أصلًا، وليس إزالةَ الضوء الذي هو زائدٌ عن النور؛ فأذهب النور وبَقِيت الزِّيادة (الحرارة والإحراق)[٣].

والإتيان بحرف الجر الباء أفاد أنَّه لم يبقَ مَطمعٌ في عودة ذلك النور إليهم بالكلية، وهذا مِن أسمى ما يصِلُ إليه البيان[٤].

- وأيضًا ففيه سرٌّ بديع، وهو انقطاعُ سرِّ تلك المعية الخاصَّة التي هي للمؤمنين من الله تعالى؛ فإنَّ الله تعالى مع المؤمنين، وإنَّ الله مع الصابرين، وإنَّ الله مع الذين اتَّقوا والذين هم مُحسِنون؛ فذَهاب الله بذلك النورِ انقطاعٌ لمعيَّته التي خصَّ بها أولياءَه، فقطعها بينه وبين المنافقين، فلم يبقَ عِندهم- بعد ذَهاب نورِهم- ولا معهم، فليس لهم نصيبٌ من قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ولا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٧٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٥).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٥).

مِن: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢][١].

١١- **قوله**: ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ**﴾ تنكير (صيِّب) للتعظيم، وإشارة إلى أنَّه نوعٌ من المطر، شديد هائل، كما نُكرت النَّار في التمثيل الأوَّل[٢].

١٢- **وفي الآيات**: حُسن تقسيم؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى ابتدأ هذه السُّورة بالمؤمنين الخُلَّص، ثم الكفَّار الخلَّص، ثم بالمنافقين؛ وذلك لأنَّ التقسيم ممَّا يزيد الإنسانَ معرفةً وفَهمًا، وهو من بلاغة القرآن[٣].

١٣- **وفيها من محاسن البلاغَة**: ضرْبُ الأمثال المحسوسات للأمور المعقولاتِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٢٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٧٨، ٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٤).

الآيات (٢١-٢٥)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿أَنْدَادًا﴾: أي: شركاء أمثالًا، ونظراءَ، واحدهم نِد[1]، والندُّ هو النظير المُناوِئ[2].

﴿وَقُودُهَا﴾: أي: حَطَبُها المجعول للوقود، اسم لِمَا يُوقد، وأصل (وقد): اشتعال النار[3].

المعنى الإجمالي:

أمَر الله تعالى جميعَ النَّاس بعبادته؛ لأنَّه هو الذي أوجدهم من العَدم، لعلَّهم بعبادتهم هذه يصِلُون للتقوى؛ فهو سبحانه الذي جعَل لكم الأرضَ ممهَّدة

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ٤٢٠)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٩/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩).

كالفراش، موطأة مثبَّتة يستقرُّ عليها الإنسان، وجعَل السماءَ سقفًا، وهو سبحانه أنزل من السَّحاب مطرًا، فأنبت للناس أنواعًا من الثِّمار رزقًا لهم.

ثمَّ نهاهم عن الشِّرك، فقال: ولا تتَّخذوا- أيُّها الناسُ- لله سبحانه نظراءَ بزعمكم، تساوونهم معه في العبادة، وأنتم تعلمون أنَّه إلهٌ واحد، لا نِدَّ له، ولا شريكَ.

ثمَّ تحوَّل الخِطابُ إلى الكفَّار والمنافقين، فقيل لهم: إذا كنتم- أيُّها الكفار والمنافقون- في شكٍّ من كون القرآن مُنزَّلًا من عند الله سبحانه على محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأتُوا من عندكم بسورة من مِثل هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بمَن تقدِرون عليه من أعوانكم وشُهدائكم، إنْ كنتم صادقين في زعْمِكم أنَّ القرآنَ كلامٌ مُختلَق.

فإنْ لم تأتوا بما تُحدِّيتم به، ولن تأتوا به أبدًا، فجنِّبوا أنفسكم النارَ التي وقودها الناسُ والحجارة، واتقوها بفِعل ما أُمرتم به، واجتنابِ ما نُهيتم عنه.

وأخْبِرْ يا نبيَّ الله، مَن جمعوا بين التصديقِ والإقرار والانقياد لما جئتَ به، والعملِ الصالح- أخبِرْهم بما يسرُّهم، وهو أنَّ لهم جزاءً أُخرويًّا هو جنَّات، تَجري الأنهارُ من تحت أشجارها وغُرفها، كلَّما أُعطوا ثمرةً من ثمارها، ظنوها نفْسَ الثمرة التي أُعطوها قبلُ في الدنيا أو في وقتٍ سابقٍ في الجنة، وإنَّما هو متشابه فقط في اللَّون والمنظر، لكن الطَّعم مختلف، ولهم أيضًا في تلك الجنان زوجاتٌ مطهَّرات، طهارة حسيَّة ومعنويَّة، وهم فيها باقون على الدَّوام.

تفسير الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾.

أي: اعبُدوا اللهَ تعالى- أيُّها الناس-؛ لأنَّه هو الذي أوجدكم أنتم ومن قبلكم

من العدم؛ وذلك من أجل أن تصلوا إلى مرتبة التقوى[١].

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾.

أي: اعبُدوا ربَّكم أيضًا؛ لأنه هو الذي جعَل لكم الأرض ممهَّدةً كالفِراش، موطأةً مثبَّتةً يستقرُّ عليها الإنسان، وجعَل لكم السماء سقفًا[٢].

قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾.

أي: وهو كذلك أَنزل من السَّحاب مطرًا؛ فأنبت للناس بسببه أنواعًا متعدِّدةً من الثِّمار؛ رزقًا لهم[٣].

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: لا تتَّخذوا له أمثالًا ونظراءَ بزعمكم، وهو الذي خلَقَكم ورزقكم؛ فهو المستحقُّ لأنْ تُخلصوا له العبادة وحده لا شريكَ له، وأنتم تعلمون أنَّه إلهٌ واحدٌ، لا ندَّ له ولا شريكَ له في الخَلْق والرَّزْق وغير ذلك؛ فليس كمثله شيءٌ سبحانه وتعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٨٤-٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٧٢-٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٨٧-٣٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٧٥-٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٩٠-٣٩٥)، ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (١/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥).

كما جاء عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، أنه قال: سألتُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((أيُّ الذنبِ أعظمُ عندَ اللهِ؟ قال: أنْ تجعل للهِ نِدًّا وهو خلقَك...)) الحديث[١].

وهذِه الآية قريبةٌ من قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤][٢].

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾.

أي: إذا كنتم- أيُّها الكفَّار والمنافقون- في شكٍّ من نزول القرآن من عند الله سبحانه على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأتُوا من عندكم بسورةٍ مِثل القرآن، يَتحدَّاهم الله تعالى بذلك[٣].

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: استعينوا على الإتيان بسورةٍ من مثل القرآن، بمن شئتم من غير الله عزَّ وجلَّ، من كل من يشهد لكم فيوافقكم على عدم الإقرار بنزول هذا القرآن من عند الله تعالى، وذلك كأعوانكم وشركائكم، إن كنتم محقِّين في دعواكم أنَّ القرآن كلامٌ مختلَق تقوَّله بشر[٤].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٩٥-٣٩٨)، ((النبوات)) لابن تَيميَّة (٢/ ٨٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٨-٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٠١)، ((النبوات)) لابن تَيميَّة (٢/ ٨٦٠-٨٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٨).

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾.

أي: فإنْ لم تأتوا بسورةٍ من مِثل القرآن، ولن تأتوا بها أبدًا، فاجعلوا بينكم وبين عذاب النار وقايةً بفِعل أوامره سبحانه، واجتناب نواهيه؛ لتنقذوا أنفسكم من النَّارِ التي يُلقَى فيها العصاةُ من الناس، والحجارةُ؛ لإيقادِها وإضرامِها، وقد جُهِّزت وهُيِّئت مسبقًا لكلِّ مَن كفر فترك التصديقَ بالحقِّ والإقرار به والانقياد إليه[1].

﴿وَالْحِجَارَةُ﴾.

قيل: هي حجارةُ الكِبريت، وهي أشدُّ الأحجار حَرًّا إذا حَمِيتْ، وقيل المراد بها: الأصنام[2].

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٠٢-٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٩-٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦).

(٢) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (١/ ٤٠٣)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٢٠١-٢٠٢).

قال ابن رجب: (وأكثر المفسرين على أن المراد بالحجارة حجارة الكبريت توقد بها النار. ويقال: إن فيها خمسة أنواع من العذاب ليس في غيرها من الحجارة: سرعة الإيقاد، ونتن الرائحة، وكثرة الدخان، وشدة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرها إذا أحميت) ((التخويف من النار)) من ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٢٣٥).

وممَّن قال من السلف بأنَّ المقصودَ بالحجارة، حِجارةُ الكِبريت: ابن عبَّاس، وابن مسعود، وغيرُهما من أصحاب رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وابنُ جُرَيج، والسُّدِّي، وأبو جعفر محمَّد بن علي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٦٥).

قال الشنقيطي: (هذه الحجارة قال كثيرٌ من العلماء: إنها حجارة من كبريت. وقال بعضهم: إنها الأصنام التي كانوا يعبدونها. وهذا القول يبينه ويشهد له قوله تعالى: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ((أضواء البيان)) (١/ ١٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٨٤-٨٥).

وممَّن قال من السلف بأن المقصود بالحجارة حجارة الأصنام: الربيع بن أنس. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٤٥).

الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لما ذكر الله تعالى ما أعدَّه لأعدائه الكافرين به وبرسله من العذاب، عطف بذكر حال أوليائه المؤمنين به وبرسله، والذين صدَّقوا إيمانَهم بأعمالهم الصالحة[١]، فقال تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

أي: أخْبِر يا أيُّها الرَّسولُ، الذين آمَنوا بالله عزَّ وجلَّ، وآمَنوا بك، وبما جِئتَ به من عند الله تعالى، وصدَّقوا إقرارَهم ذلك بأعمالهم الصالحة- أخْبِرْهم خبرًا يسرُّهم، بأنَّ لهم في الآخرة بساتين، تجري الأنهارُ من تحت أشجارها وغُروسِها وغُرَفها[٢].

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾.

أي: كلَّما أُعطوا أيَّ ثمرةٍ من أشجار الجَنَّة، ظنُّوا أنَّها نفس الثَّمرة التي أُعطوها سابقًا في الدنيا؛ لمشابهتها إيَّاها في المنظر، أو أنها التي أُعطوها في وقتٍ سابقٍ في الجنة، وإنَّما أُعطُوا الذي رُزِقوا من ثمارِ الجنَّةِ متشابهًا في اللَّون والمنظَر، لكنَّ الطعم مختلفٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٠٥-٤٠٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٠٣-١٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٠٣-٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٠٧، ٤١٢، ٤١٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩١).
وممن قال من السلف أن معنى ﴿من قبل﴾ أي التي أعطوها في الدنيا: ابن عباس، وابن مسعود، وقتادة، ومجاهد، وعلي بن زيد، والسدي، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٦٦). =

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾.

أي: إنَّ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات، لهم في الجنَّاتِ زوجاتٌ مطهَّرات من كلِّ أذًى ومكروه ورِيبة، طهارةً حِسيَّةً ومعنويَّة[١].

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: إنَّ الذين آمَنوا وعمِلوا الصَّالحات، باقونَ في الجنَّات على الدَّوام، آمِنون من الموت، وانقطاع النَّعيم[٢].

الفَوائِد التربويَّة:

١- أوَّل نِداءٍ في المصحَف يوجَّه إلى الناس جميعًا، جاء للأمر بعبادة الله عزَّ وجلَّ وحدَه؛ لأنَّه متَّصفٌ بصفة الخَلْق، فاللهُ هو المستحقُّ لأن يُعبدَ وحدَه؛ لأنَّه هو الخالقُ، الذي أبرَزهم مِن العدمِ إلى الوجودِ، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[٣].

٢- أنَّ التقوى مرتبةٌ عالية لا ينالها، إلَّا مَن أخلص العبادة لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٤].

= وممن قال من السلف أن المقصود ما أُعطوه في وقت سابق في الجنة: يحيى بن أبي كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤١٠).

(١) نقل الماورديُّ الإجماعَ على نحو ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (١/ ٨٧).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤١٩). (الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦) ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٤٩، ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦، ٤٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٣٩) (٨/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٧٤).

٣- في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، استحبابُ بشارة المؤمنين، وتنشيطهم على الأعمال بذِكر جَزائها وثمراتها(١).

٤- استحضار جلالة المبشِّر ومنزِلته، وصِدقه، وعَظمة مَن أرسله بهذه البشارة، وقدْر ما بشَّر به، وضَمِنه للعِباد على أسهل شيء عليهم وأيسره، وقدْ جمَع سبحانه في هذه البِشارة بين نعيم البَدن بالجنَّات، وما فيها من الأنهار والثِّمار، ونعيم النَّفس بالأزواج المطهَّرة، ونعيم القلب وقُرَّة العين بمعرفة دوامِ هذا العَيش أبدَ الآباد، وعدَم انقطاعه، فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٢).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ الإقرارَ بتوحيد الربوبيَّة مستلزمٌ للإقرار بتوحيد الألوهيَّة؛ لقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُم ...﴾(٣).

٢- أنَّ من طريق القرآن أنَّه إذا ذَكر الحُكم ذَكر العِلَّة غالبًا؛ فالحكم: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾؛ والعلَّة كونه ربًّا خالقًا لنا ولِمَن قبلنا؛ ﴿الَّذِي خَلَقَكُم وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(٤).

٣- أنَّ الله عزَّ وجلَّ منعمٌ على الإنسان كافرًا كان، أو مؤمنًا؛ لقولِه تعالى: ﴿لَكُمْ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩٣).
(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٧٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٧٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٧٩).

٤- أنَّه ينبغي لِمَن خاطب أحدًا أن يُبيِّن له ما تقوم به عليه الحُجَّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١].

٥- أنَّ القرآن معجِزٌ كلُّه حتى السُّورة الواحِدة منه، ولو كانتْ قصيرةً؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[٢].

٦- أنَّ النار مخلوقةٌ الآن؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾[٣].

٧- أنَّ الجناتِ أنواعٌ؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ﴾[٤].

٨- لَمَّا كانت مجامعُ اللَّذَّات في المسكَن البَهيِّ، والمطعَم الشَّهيِّ، والمنكَح الوضِيِّ، ذكَرها الله تعالى فيما يُبشَّر به المؤمنون، فوصَف المسكنَ بقوله: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، والمطعَمَ بقوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾، والمنكَحَ بقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾، وقد بدأ بالمسكَن؛ لأنَّ به الاستقرارَ في دار المقام، وثنَّى بالمطعَم؛ لأنَّ به قوامَ الأجسام، ثم ذكَر ثالثًا الأزواج؛ لأنَّ بها تمامَ الالتئام[٥].

٩- أنَّ جزاءَ المؤمنين العاملين للصالحات أكبرُ بكثير ممَّا عملوا، وأعظم؛ لأنَّهم مهما آمنوا وعملوا، فالعُمُر محدود، ويَنتهي، لكن الجزاء لا يَنتهي أبدًا[٦].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أنَّ الجنةَ لا تَفنَى، ولا يفنى مَن فيها فأهل الجنَّة خالدون فيها أبدَ الآباد، وقد أجمَع على ذلك أهلُ السُّنَّة والجماعة[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٨٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٨٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٨٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٩٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٨٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩٣).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٩٥).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾

- فيه التفات، حيث انتقَل من الإخبار عنهم إلى خِطاب النِّداء، وتنويع الخِطاب فيه هزٌّ وتنشيط للسَّامع، واستفتاح آذانه للاستماع، وتأهيل نفْسه للقَبول. وفي الانتقال هنا من الغَيبة إلى الخِطاب حصولُ شرفِ المخاطبة والمكالمة، مع التنبيه على الأدلَّة، وإشعارٌ بأنَّ العبد إذا كان مشتغلًا بالعبوديَّة، فإنَّه يستمر في الترقِّي. وفيه: اهتمامٌ بأمر العبادة، وتفخيم لشأنها[١].

٢- قوله: ﴿اعْبُدوا رَبَّكُمُ﴾ ذكر الرب هنا مع إضافته إلى المخاطبين؛ للتفخيم والتعظيم، لتأكيد موجِب الأمرِ بالإشعار بعليَّتها للعبادة فناسب المقام؛ لأنَّ الربَّ الذي يتصف بصفات الربوبيَّة هو وحده المستحق للعبادة[٢].

٣- قوله: ﴿وأنتم تَعلمُون﴾ مفعول (تعلمون) متروك، أي: وأنتم من أهل العِلم والمعرفة، وهو آكَدُ في التوبيخ، ويجوز تقدير مفعول، حُذِف لفَهمِه من السِّياق، فيكون فيه إيجاز[٣] بالحذف[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٨٨)، ((تفسير الرازي)) (٢/ ٣١٩-٣٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٥٩).

(٣) **الإيجاز**: هو الاختصار والجمْع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وأداء المقصود من الكلام بأقلِّ من عبارات متعارَف الأوساط. ويكون الإيجاز محمودًا إذا لم يخلَّ بالمقصود. قيل: الإيجاز حذف الفُضول، وتقريب البعيد. وقيل عن البلاغة كلها: هي إصابة المعنى وحسن الإيجاز. والحذف: لغة هو الإسقاط. والإيجاز بالحذف: هو حذف ما يُعلم ويُفهم من سياق الكلام بشرط وجود مقدر يدلُّ عليه. فقد يكون الإيجاز بالحذف وغيره. والفرق بين الحذف والإيجاز: أن يكون في الحذفِ مقدَّرٌ، بخِلاف الإيجاز؛ فإنَّه عبارةٌ عن اللَّفظ القليل الجامع للمعاني الجمَّة بنفسه. يُنظر: ((البيان والتبيين)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رشيق (١/ ٢٤٢)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٧٧)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٩٦).

٤- **قوله:** ﴿**فَأْتُوا بِسُورَةٍ**﴾ صِيغتُه أمْر، والمقصود معنى التعجيز[١].

- وتنكيرُ (سورة) لإرادة العموم والشُّمول، والإفراد أو النوعية، أي بسورة واحدة من نوع السور، وذلك صادق بأقل سورة تُرجمت باسم يخصها[٢].

٥- **قوله:** ﴿**فَاتَّقُوا النَّارَ**﴾ فيه إيجاز بديع! بذِكر الكناية عن الأمْر بترْك المعاندة؛ لأنَّ اتِّقاء النار يعني ترْكَ العناد، فأفادتْ مع الإيجاز البديع، تهويلَ شأن العِناد بإنابة اتِّقاء النار منابَه، وإبرازه في صورته، مضيفًا إلى ذلك تهويل صفة النار وتفظيع أمرها[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٠٢).

الآيات (٢٦-٢٩)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩﴾.

غريب الكلمات:

﴿يَنْقُضُونَ﴾: ينبذونه بعدَ القَبول، ويتركون العمل به، والنَّقض ضِدُّ الإِبرام: وهو فكُّ تركيب الشيء وردُّه إلى ما كان عليه أوَّلًا، فنقض البناء: هدمه، ونقض المبرم: حلُّه[١].

﴿مِيثَاقِهِ﴾: الميثاق: عقد مؤكَّد بيمين وعهد، أو العهد المُحكَم، وأصله: العقد والإحكام[٢].

مشكل الإعراب:

في قوله تعالى: ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً﴾

﴿ما﴾: صفة للنكرة قبلها (مثلًا)؛ لتزداد النكرة شياعًا.

﴿بَعُوضَةً﴾: بدَل منصوب من (ما). وثمَّة أقوال أخرى كثيرة[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٨٣-٨٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري =

المعنى الإجمالي:

إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يَستحيي أن يوضِّح ما يريد بواسطة ضرب المثل بأيٍّ من مخلوقاته، ولو كان في حقارته كالبَعوضة، فما فوقَها في الكِبَر أو الصِّغَر، وهنا يتمايز المخاطبون كلٌّ حسب اعتقاده ويقينه؛ فأمَّا المؤمنون، فهُم على يقينٍ أنَّ المثل المضروب حقٌّ؛ لكونه جاء من ربِّهم، وأمَّا غيرهم، فهُم يعترضون على ما يَضرِبُه الله تعالى من أمثال.

وإنَّ الحكمة من ضَرْب الله للأمثال أنْ يتمايزَ المؤمنُ من الكافر، فالأمثال المضروبة من الله تعالى سببٌ لإضلال الكثير، وهدايةِ الكثير، لكن لا يضلُّ به إلَّا الخارجين عن طاعةِ الله من أهل الكُفر والنِّفاق، الذين يُفسِدون العهودَ المأخوذةَ عليهم من الله بعد تأكيدها، ويقومون بقطْعِ كلِّ ما أمر الله بوصلِه كالأرحام، وغيرِها من شرائع الدِّين، ويفسدون في الأرض بالكفر والفسوق والعصيان، هؤلاء الذين ذُكرتْ أوصافُهم قد حَرَموا أنفسهم الرِّبح بنيل رحمةِ الله، والفوزِ بالفلاح الدَّائم.

ثمَّ يُنكر اللهُ على كلِّ مَن كفَر به كفره هذا؛ إذ كيف يَكفُرون مع وضوح الأدلَّة على وجودِه وعظيم قدرته، والحال أنَّهم كانوا عدمًا، ثم نَفَخ فيهم الرُّوح، ثم يَقبِض أرواحهم، ثم يُحييهم للبعث والنُّشور، ثم إليه يعودون يومَ القيامة.

هذا الربُّ جلَّ وعلا هو الذي أوجد لكم كلَّ ما على الأرض كرمًا وفضلًا منه، ثمَّ علا وارتفع قاصدًا إلى خلق السموات، فخَلَقها سبعًا بإتقان، وهو محيطٌ علمًا بكلِّ شيء.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

= (١/ ٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٢٢٤)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ١٧).

أي: إنَّ الله تعالى لا يَستحيي أن يبيِّن الحقَّ عبر التشبيه بأيِّ شيءٍ كائنًا ما كان، ولو كان في الحقارة والصِّغر كالبعوضة فما فوقَها ممَّا هو أكبرُ منها، أو دونها في الصِّغر؛ وذلك لاشتمال الأمثال على الحِكمة، وإيضاح الحقِّ، والله تعالى لا يَستحيي من الحقِّ، ولابتلاء عبادِه واختبارهم بهذه الأمثال؛ ليتميَّز أهلُ الهداية والإيمان، من أهل الضَّلالة والكُفران(١).

ثم شرع في تفصيل مواقف الخلق من ضرب الأمثال في القرآن فقال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

أي: إنَّ الذين أقرُّوا وصدَّقوا بقلوبهم وجوارحهم، يَعلَمون أنَّ هذا المثَل المضروب حقٌّ، حتى لو خفي عليهم تفصيله، فهم يَعلَمون أنَّه حقٌّ في الجُملة؛ لعِلمهم بأنَّ الله لم يضربْه عبثًا، بل لِحكمةٍ بالغة، فيزدادون بذلِك إيمانًا مع إيمانهم(٢).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾.

أي: إنَّ الذين كفروا فلم يقرُّوا بالحق وينقادوا إليه، لم يَفهَموا حِكمةَ المثل المضروب؛ لذا فهم يعترضون ويتحيَّرون، أو فهموه لكنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ فيَزدادون كفرًا إلى كُفرهم(٣).

ثم بيَّن الله تعالى حكمة ضرب المثل في كتابه، فقال:

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٢٥-٤٣٠) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١١١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٠٧-٢٠٨) ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٦).

وعرَّف ابن القيِّم أمثال القرآن بأنَّها: (تشبيه شيءٍ بشيءٍ في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدها بالآخر) ((إعلام الموقعين)) (١/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٦).

أي: إنَّ ضرب المثل في القرآن بمثابة ابتلاء واختبار يتميَّز به المؤمن من الكافر، فهو إضلالٌ لكثيرٍ لم يَفهموه، وهم المنافقون والكفَّار، وهدايةٌ لكثيرٍ فهِموه، وهم المؤمنون(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

أي: لا يُضلُّ اللهُ سبحانه بهذا المَثَل المضروبِ إلَّا الخارجين عن طاعتِه من أهل الكفر والنِّفاق، وهذا ما تقتضيه حِكمتُه وعدلُه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)﴾.

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾.

أي: يصِف اللهُ تعالى الفاسقين الذين يَضلُّون بالمَثل المضروب، فيُخبر أنَّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٣٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٣٤-٤٣٥)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٦/ ٥٨٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٠٩-٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧).

الذين يُفسِدون العهدَ الذي أخذ عليهم من بعد تأكيدِه. وهو وصيةُ الله تعالى بالإيمان به سبحانه وبجميع رُسله- ومنهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ- كما عهد إلى بني إسرائيل بذلك فنقضه كفارهم(١).

كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ...﴾[البقرة: ٨٤ - ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا...﴾ إلى قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ...﴾[المائدة: ١٢- ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾[المائدة: ٧٠].

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾.

أي: يَقطعون كلَّ ما أمر الله تعالى بوَصلِه، كالأرحام، والتَّصديق بالأنبياء، وغير ذلك من شرائع الدِّين(٢).

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: ويفسدون في الأرض بالكُفر والمعاصي(٣).

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٣٦-٤٣٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠١-١٠٢)، ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١ / ٣٧٠).

جاء عن مقاتل بن حيان: (قوله: ﴿مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ في التوراة أن يؤمنوا بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ويصدِّقوه، فكفروا ونقضوا الميثاق الأول) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٧٢).

(٢) نَسبَ ابن عطية هذا القول للجمهور. ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١١٣)، ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٧٢).

وبنحوِ هذا القول، قال السُّدِّي، ومقاتِل بن حيَّان. ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٧٢).

أي: إنَّهم بكُفرِهم وأفعالِهم التي يرتكبونها قد ضلُّوا، فحَرَموا أنفسهم من الرِّبحِ الحقيقيِّ بنَيلِ رحمة الله تعالى، والحصولِ على الفوزِ الأبديِّ[(١)].

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)﴾.

أي: يُنكر الله تعالى على مَن كفر به، مُتعجِّبًا من كُفرهم مع وضوح الأدلَّة على وجودِه سبحانه، وعلى قُدْرته العظيمة، والحال أنَّه أماتهم مرَّتين، وأحياهم مرَّتين؛ وذلك بأنْ يُخرِجَهم من العدَم بعد أنْ كانوا نُطَفًا في أصلابِ آبائهم، فيُحييهم بأنْ ينفُخَ الرُّوح فيهم؛ ليَخرجوا إلى عالم الوجود الدُّنيويِّ، ثم يُميتَهم بقَبْض أرواحهم من أجسادِهم، فتنقضيَ آجالُهم الدنيويَّة، ثم يُحييَهم في قُبورِهم للبَعث والنُّشور، ثم يُخرجَهم من قُبورِهم، ويَحشرَهم إليه يوم القِيامة[(٢)].

كما أخبر تعالى عن الكفَّار، أنَّهم يقولون يومَ القيامة: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٤٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٥٠-٤٥١)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٣٥)، (١/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٧٤-٣٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠٥).

وممَّن قال بهذا من السَّلف: ابن عبَّاس، وابن مسعود، وغيرُهما من أصحاب رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، و أبو مالك، ومجاهدٌ، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٧٣).

أي: أوجَد لكم- من فَضله وكرمِه- جميعَ ما على الأرض؛ للانتفاعِ به، والاستمتاعِ، والاعتبار[١].

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: بعد أنْ خلَقَ اللهُ تعالى الأرض[٢]، علا وارتفع قاصدًا إلى خَلْقِ السَّموات، فخلَقها بإحكامٍ وإتقانٍ، وهو العليم بما يَخلُق، وكيف يَخلقُه، كما أنَّ عِلمه سبحانه محيطٌ بجميع ما خلَق[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠٩-١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٥).

(٣) وممن ذهب إلى أن استوى هنا بمعنى قصد وأراد وأقبل: الواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٩٨)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٢١٣)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٤٨)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠٩-١١٠).

وممن ذهب إلى أن استوى هنا بمعنى علا وارتفع: ابن جرير في ((تفسيره)) (١/ ٤٥٨).

وقال البغوي: (﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَكْثَرُ مُفَسِّري السَّلَف: أي ارْتَفَع إلى السَّماء) ((تفسير البغوي)) (١/ ٧٨).

يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لصالح آل الشيخ (١/ ٥٢٢).

الفَوائِد التَّربويَّة:

١- المؤمِن لا يمكن أن يُعارِض ما أنزل الله عزَّ وجلَّ بعقله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾[١].

٢- أنَّ إضلال مَن ضَلَّ راجع إلى وجود العِلَّة التي كانت سببًا في إضلال الله العبد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: ٢٧]، التَّحذير من نقْض عهد الله من بعد ميثاقِه؛ لأنَّ ذلك يكون سببًا للفِسق[٣].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، دلالةٌ على رحمة الله تعالى بعبادِه حيث يُقرِّر لهم المعاني المعقولة بضَرْب الأمثال المحسوسة؛ لتتقرَّرَ تلك المعاني العظيمة في عقولِهم[٤].

٢- أنَّ القياس حُجَّة؛ لأنَّ كلَّ مَثَل ضربه الله في القرآن، فهو دليلٌ على ثبوت القياس[٥].

٣- إثبات الرُّبوبيَّة الخاصَّة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾[٦].

٤- أنَّ دَيدنَ الكافرين الاعتراضُ على حُكم الله، وعلى حِكمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٠١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٠٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٩٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٠٠).

٥- كثرة الضُّلَّال وكثرة المهديِّين، بالنَّظر إلى كلِّ واحد من القبيلين على حدة، لا بالقياس إلى مُقابليهم؛ فإنَّ المهديِّين قليلون بالإضافةِ إلى أهل الضَّلال، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾[١]

٦- أنَّ الموت يُطلَق على ما لا رُوحَ فيه، وإن لم تسبقْه حياةٌ[٢].

٧- أنَّ الجنين لو خرَج قبل أن تُنفَخ فيه الرُّوح، فإنَّه لا يثبت له حُكم الحيِّ؛ ولهذا لا يُغَسَّل، ولا يُكفَّن، ولا يُصلَّى عليه، ولا يَرِث، ولا يُورث[٣].

٨- أنَّ الأصل الحِلُّ في كلِّ ما في الأرض من أشجار، ومياه، وثمار، وحيوان، وغير ذلك؛ وهذه قاعدة عظيمة، وتمَّ تأكيدُ هذا العموم بقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾[٤].

٩- كمال خَلْق السَّموات؛ لقوله تعالى: ﴿فسوَّاهنَّ﴾[٥].

١٠- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ إثباتُ الأفعالِ لله تعالى، كالاستواءِ[٦].

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ فيه لَفٌّ ونَشْر[٧]؛ لأنَّه لَمَّا تقدَّم

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٦٣-٦٤)، ((الدر المصون)) للحلبي (١/ ٢٣٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٠-٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١١٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١١١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) **اللَّف والنَّشْر**: هو ذكر شيئين أو أشياء، إمَّا تفصيلًا - بالنصِّ على كلِّ واحد، أو إجمالًا - بأن يُؤتى بلفظ يشتمل على متعدِّد - ثم يذكر أشياء على عدَد ذلك، كل واحد يرجِع إلى واحدٍ من المتقدِّم، ويُفوَّض إلى عقل السامع ردُّ كلِّ واحد إلى ما يَليق به. فاللّف يُشار به إلى المتعدِّد الذي يُؤتى به =

ذِكر المثل، وذكَر بعده الفريقين، عقَّبه ببيان أنَّه يُضلُّ به قومًا، ويَهدي به آخَرين[١].

٢- **قوله: ﴿فَأَمَّا الذين﴾** ﴿فأمَّا﴾ حرف فيه معنى الشَّرط، وفائدته في الكلام أن يُعطيَه فَضْلَ توكيد[٢].

٣- **قوله: ﴿يُوصَل﴾** بناء يوصل لِمَا لم يُسمَّ فاعله أبلغُ من بِنائه لِمَا سُمِّي فاعله؛ لأنَّه يَشمل ما أمَر الله بأن يَصِلوه هم، أو يصِله غيرُهم[٣].

٤- **قوله: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، و﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا... وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، و﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾، و﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾** فيها طِباق، ومُقابَلة- وهي تعدُّد الطِّباق في الكلام[٤]. وفائدته: إبراز المعنى وتوضيحه بذِكر الشَّيء وضِده، وهو من محاسِن البيان.

٥- **قوله: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾** جاء ترتيب هذه الصِّلات في غاية من الحسن؛ لأنَّه قد بدأ أولًا بنقض العهد، وهو أخصُّ هذه الثَّلاث، ثم ثنَّى بقَطْع ما أمر الله بوصْله، وهو أعمُّ من نقْض العهد وغيره، ثم أتى ثالثًا بالإفساد الذي هو أعمُّ من

= أوَّلًا. والنشر يُشار به إلى المتعدِّد اللَّاحق الذي يتعلَّق كلُّ واحد منه بواحد من السَّابق دون تعيين. مثل: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا اليهود، وقالت النصارى: لن يدخُل الجنة إلا النصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجمالي. يُنظر: في تفصيل أقسامه وأمثلة على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (١/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٠٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٧٢).

القَطع، وكلُّها ثمرات الفِسق[١].

٦- في قوله: ﴿الفَاسِقُونَ﴾ أتى باسم الفاعل (فاسقون) صِلةً للألف واللام- والتقدير: الذين فسَقوا-؛ ليدلَّ على ثبوتهم في هذه الصِّفة، فيكون وصف الفِسق لهم ثابتًا، وتكون النتائج عنه متجددة متكرِّرة، فيكون الذمُّ لهم أبلغَ؛ لجمعهم بين ثبوت الأصل وتجدُّد فروعه ونتائجه[٢].

٧- قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾

- استفهام عن حال، وصَحِبه معنى التقرير والتوبيخ، أو صحِبه الإنكارُ والتعجُّب؛ فخرَج عن حقيقةِ الاستفهام، وإنكار الحال بـ(كيف) يستلزم إنكارَ الذَّات ضرورةً، وهو أبلغُ[٣].

- ﴿تَكْفُرُونَ﴾: فيه التفات؛ لأنَّ الكلام قبلُ كان بصورة الغَيبة، وهنا بصيغة الخِطاب، ومن فوائده هنا: أنَّ الإنكار إذا توجَّه إلى المخاطَب كان أبلغَ من توجُّهه إلى الغائب؛ لجواز أنْ لا يصلَه الإنكار، كما أنَّ الإنكار على المخاطَب أردعُ له عن أن يقَعَ فيما أُنكر عليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٠٩).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿خَلِيفَةً﴾: الخِلافة النِّيابة عن الغَير، خلف فلان فلانًا: قام بالأمر عنه، إمَّا معه وإمَّا بَعدَه، وأصله: مجيء شيءٍ بعدَ شيء يقوم مقامَه[١].

﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾: أي: يُسيلها، وأصل السَّفك: الصَّبُّ والإراقة؛ يقال: سفَك دمَه: إذا أسالَه[٢].

﴿وَنُقَدِّسُ لك﴾: أي: نُطهِّر الأشياء ارتسامًا لك، أو نصفك بالتقديس، ونثبت ما يَليق بك، ونُقدِّسك ونُقدِّس لك بمعنى واحد، وأصل التقديس: التطهير[٣].

﴿سُبْحَانَكَ﴾: سُبْحَانَ: اسْم وُضِع مَوضِع المصدر، ومعناه التَّنزيه والتبرئة للربِّ- جل ثناؤه- من السُّوء، وأصله: المرُّ السَّريع في عِبادة الله تعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢).

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾: منصوب، مفعول مطلَق لِفعل محذوف وجوبًا، على أنَّه مَصدرٌ، أو اسم مصدر (التسبيح)، أي: نُسبِّحك تسبيحًا. والكاف في محلِّ جرٍّ بالإضافة، ويجوز أن يكون الضمير مفعولًا به أضيف إليه المصدر؛ لأنه هو المُسبَّح، أو فاعلًا أضيف إليه؛ إذ المعنى: تنزَّهْتَ[1].

المعنى الإجمالي:

يُذكِّر الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، بقوله للملائكة بأنَّه سيجعل في الأرض خَلقًا يَخلُف بعضُهم بعضًا، وهو آدَمُ وذريَّته من بعده، فقالت الملائكة مُستعلِمين لا مُعترِضين: أتجعَلُ في الأرض مَن يفسدون فيها، ويَقتُل بعضُهم بعضًا؟! ولم نُستخلفْ نحن مع أنَّنا دائمو التسبيح بحمدك والتقديس لك؟! فأخبرهم تعالى أنَّه يَعلمُ ما لا يعلمون، ممَّا خفِيَ عليهم من الحِكَم والمصالِح بخَلْقه البَشرَ، واستخلافِهم في الأرض.

وعلَّم اللهُ آدمَ عليه السَّلام أسمَاء كلِّ شيء، ثم أظهر الأشياءَ التي علَّمه أسماءها للملائكة، وأمَرهم أن يخبروه عن أسمائها، إنْ كانوا محقِّين في دعواهم العلمَ بالأشياء، وأنَّهم يستحقُّون الأفضلية على آدَم. فحِينها نزَّه الملائكة اللهَ سبحانه وتعالى، وأقرُّوا أنَّهم لا يعلمون شيئًا إلَّا ما علَّمهم سبحانه، وهو العالم بكلِّ شيء، والحَكيم الذي يَضَع الأمورَ في مواضعها.

فأمَر اللهُ تعالى آدمَ أن يُخبر الملائكة بأسماء تلك الأشياء، فأخبَرهم بها، فلمَّا أخبرهم بانَ فضلُه على الملائكة، فقال لهم الله تبارك وتعالى مقرِّرًا بأنه قد سبَق

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٨٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٢٦٥)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ٢٠).

وأخبرهم أنَّه يعلم كلَّ ما يغيب عن الخلق في السَّموات والأرض، كما يعلم ما يُظهِره الملائكةُ وما يُخفُونه.

تفسير الآيات:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

أي: واذكر[١] يا محمَّد، حين قال ربُّك للملائكة أنَّه سيجعل في الأرض خليفةً، وهو آدَمُ عليه السَّلام، وذُريتُه من بعده، يَخلُف بعضُهم بعضًا، جيلًا بعد جِيل[٢].

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

أي: قال الملائكةُ لربِّهم مُستَعْلمين لا مُعْتَرِضين: ما الحِكمةِ من إقامة ذُرِّية آدَم في الأرض، والحال أنَّهم سيُفسدون فيها، ويُعمِلون القَتلَ بينهم، ولم نُستخلفْ نحن في الأرض مع أنَّنا دائمون على تسبيحك تسبيحًا مصحوبًا بالحمدِ لك ودائمون على التقديس لك؟

والتسبيح هو تنزيهُ الله تعالى، أي: يُبعِدون كلَّ نقصٍ وعيب، فلا ينسبونه إلى الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) قال أبو البقاء الكفوي: (كل ما ورد في القرآن: و(إذ)، فـ(اذكر) فيه مُضمَر، أي: اذكر لهم، أو في نفسك كيفما يقتضيه صدرُ الكلام، و(إذ) منصوبٌ به، وعليه اتِّفاق أهل التفسير)) ((الكليات)) (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٧٦-٤٧٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٣٥/ ٤٢-٤٥) ((الصفدية)) لابن تَيميَّة (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠-٢١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١١٢).
وقد حَكى الواحديُّ في ((التفسير الوسيط)) (١/ ١١٣)، والقرطبي في ((تفسيره)) (١/ ٢٦٣)، وابن القيم في ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٢٦)، الإجماعَ على أنَّ المراد بالخليفة هنا آدَمُ عليه السَّلام، ولكن ذهَب ابنُ كثير إلى أنَّ دعوى الإجماع هذه لا تصحُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٦).

والحمدُ هو وصفُ الله المحمودِ بالكمالِ، حبًّا وتعظيمًا له عزَّ وجلَّ.

والتقديس هو التطهيرُ، فيَصِفون الله تعالى بالطَّهارة من جميع الأدناس[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥].

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، سُئِلَ: أيُّ الكلام أفضلُ؟ قال: ((ما اصطَفَى اللهُ لملائكتِه أو لعباده: سُبحانَ اللهِ وبِحَمدِه))[(٢)].

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: أنا العالم بالظَّواهر والسرائر، أعلم ما خفِي عليكم ممَّا يحصُل بخَلْق البَشَر من المصالِح والحِكم، ومِن ذلك: أنَّه يكونُ منهم الرُّسُل والأنبياء والصِّدِّيقون وغيرُهم ممَّن يُحقِّق عبوديةَ الله تبارك وتعالى[(٣)].

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا أَعلم سبحانه الملائكةَ أنَّ الأمر على خِلاف ما ظنُّوا، شرَع في إقامة الدَّليل

---

(١) وقد نفى ابن عطية الخِلافَ في أنَّ معنى التقديس هو التَّطهير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١١٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٩٩، ٥٠٢، ٥٠٤، ٥٠٥)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) لابن تَيميَّة (٧/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١١٣-١١٥).
وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّ التقديس هو التطهيرُ: ابن عبَّاس، والضحَّاك، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٧٩)

(٢) رواه مسلم (٢٧٣١).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٣٧-١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٦-٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص:٤٩).

عليه[١]، فقال:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قد عَلَّم آدَمَ عليه السَّلام أسماءَ كلِّ شيء[٢].

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: أظْهَر الله تعالى تلك المسمَّياتِ للملائكة، وامتحنهم تحديًا لهم، فأمَرهم أن يُخبروه بأسماء ما عَرَض عليهم، إنْ كانوا حقًّا صادقين في دَعواهم بأنَّهم على علمٍ بالأشياء، ومستحَقُّون للأفضلية على آدَم[٣].

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

هذا تنزيهٌ من الملائكة لله عزَّ وجلَّ بنفي علم أي شيءٍ، إلَّا ما علَّمهم الله تعالى، وهو العليم بغِير تعليم، وهو الحكيم الذي يضَعُ الأشياءَ مواضعَها، حكيمٌ في

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٢٤٠).

(٢) نسَبه ابنُ تَيميَّة إلى الجمهور. كما في ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٩٤). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٢٢-٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١١٨-١١٩).

وممَّن قال من السَّلف بذلك: ابن عبَّاس ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقَتادَة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٤١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٨٠).

قال القرطبيُّ: (قال ابنُ خُوَيز مِنداد: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ اللغة مأخوذة توقيفًا، وأنَّ الله تعالى علَّمها آدم عليه السلام جملةً وتفصيلًا، وكذلك قال ابنُ عبَّاس: علَّمه أسماء كلِّ شيء، حتى الجَفْنة والمِحْلَب) ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٨٢).

وقال ابنُ كثير: (يقال: إنَّ هودًا عليه السلام أوَّلُ مَن تكلَّم بالعربية، وزعَم وهب بن منبه أنَّ أباه أوَّلُ من تكلَّم بها، وقال غيرُه: أوَّل مَن تكلم بها نوح، وقيل: آدم، وهو الأشبهُ) ((البداية والنهاية)) (١/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٢٣-٥٢٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤١٢-٤١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١١٩).

خَلْقه وأمْره، وفي تعليم مَن يشاء، فنَفَى الملائكةُ الكرام أصلَ العلم عن أنفسهم، وأثبتوا كمالَ العِلم والحِكمة لله تبارك وتعالى[١].

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

أي: أمَر اللهُ تعالى آدَمَ عليه السَّلام أن يُخبر الملائكةَ بأسماء الأشياء التي علَّمها الله تعالى إيَّاه من قبلُ، وعرَضها سبحانه على الملائكة، فلم يعرفوها، فلمَّا أخبرهم آدَمُ بتلك الأسماء، فسمَّى كلَّ شيء باسمه، ظهَر فضلُه وشرفُه عليه السَّلامُ على الملائكة، فقال الله تعالى مقرِّرًا بأنه قد قال لهم من قَبلُ بأنَّه يعلم كلَّ ما يَغيب عن الخلْق، سواء في السموات أو في الأرض، كما يعلم سبحانه ما يُظهِره الملائكة، وما يُخفونه[٢].

كما قال تعالى إخبارًا عن قولِ الهُدهد لسليمان عليه السَّلام: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

الفَوائِد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، جوازُ امتحانِ الإنسان بما يدَّعي أنَّه مُجيدٌ فيه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٢٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٣٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٢٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٣٨-١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٢٥-٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤١٧-٤١٨).
وقدِ استخرَج ابن القيِّم من هذا المقطع وجوهًا تبيِّن فضلَ العلم، وشرفَ صاحبه. يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٥٢-٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٢١).

٢- جواز التحدِّي بالعبارات التي يكون فيها شيءٌ من الشدَّة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[١].

٣- في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، إشارةٌ إلى تقرير المخاطَب بما لا يُمكنه دفعُه[٢].

٤- عمومُ عِلم الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه يتعلق بالمُشاهَد، والغائِب، وأنَّ الله تعالى عالِم بما في القلوب، سواء أُبدِي أم أُخفي، وهذه المعرفة تَزرع في القلب خشيةَ الله تبارك وتعالى[٣].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- دلَّ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ على أنَّه يَعلم أنَّ آدَمَ يَخرُج من الجَنَّة؛ فإنَّه لولا خروجُه من الجنة لم يَصِرْ خليفةً في الأرض، فإنَّه أمَرَه أن يسكُن الجنة ولا يأكل من الشجرة، ونهاه عن طاعة إبليس، وقد عِلم قبل ذلك أنه يخرج من الجنَّة، وأنَّه إنَّما يخرُج منها بسبب طاعته إبليسَ، وأكْله من الشَّجرة؛ ولهذا قال مَن قال من السَّلف: إنَّه قدَّر خروجه من الجنة قبل أن يأمُرَه بدخولها بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٤].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ إثباتُ القول لله عزَّ وجلَّ، وأنَّه بحَرْف، وصوت؛ وهذا مذهبُ السَّلَف الصَّالح[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٨/ ٤٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١١٦). ويُنظر: ((خلق أفعال العباد)) للبخاري (ص: ٩٤١)، ((رسالة إلى أهل الثغر)) لأبي الحسن الأشعري (ص: ٤١٢)، ((الحجة)) =

٣- في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، جاء ابتِداء خِطاب آدَم بندائه مع أنَّه غيرُ بعيد عن سماع الأمْر الإلهيِّ؛ للتنويه بشأن آدَم، وإظهار اسمه في الملأ الأعلى؛ حتى ينالَ بذلك حُسنَ السُّمعة، مع ما فيه من التكريم عند الآمِر؛ لأنَّ شأن الآمِر والمُخاطِب إذا تَلطَّفَ مع المُخاطَب أن يَذكُرَ اسمَه ولا يَقتصرَ على ضمير الخطاب؛ حتى لا يساويَ بخِطابِه كلَّ خِطاب، ومنه ما جاء في حديث الشَّفاعة بعد ذِكر سجود النبيِّ وحمْدِه اللهَ بمحامدَ يُلهمه إيَّاها، فيقول: ((يَا مُحَمَّدُ، ارفعْ رأسك، سَلْ تُعطَ، واشفعْ تُشفَّع))[١].

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾

- إسنادُ القول إلى الربِّ في هذا المقام في غايةٍ من المناسَبة والبيان[٢].
- وفيه التفاتٌ بتنويع الخِطاب، بخروجه من الخِطاب العام إلى الخِطاب الخاص[٣].

٢- في قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾

- عبَّر بالجُملة الاسميَّة؛ لإفادة الدَّلالة على الدَّوام والثَّبات، أي: هو وصفُهم الملازم لجِبلَّتهم[٤].

= لقوام السنة الأصبهاني (١/ ١٣٣و٢٣٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢١/ ٤٠٣)، (٦/ ٣١٥- ٥٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤١٧)، والحديث أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٢٥)؛ قال أبو حيان: (لأنه لما ذكر أنَّه خلَق لهم ما في الأرض، كان في ذلك صلاحٌ لأحوالهم ومعايشهم؛ فناسب ذكر الرب، وإضافتُه إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم تنبيهٌ على شرفه واختصاصه بخطابه، وهزٌّ لاستماع ما يُذكر بعد ذلك من غريب افتتاح هذا الجنس الإنساني، وابتداء أمره ومآله).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٠٦).

- وتقديمُ المسنَد إليه ﴿نَحْنُ﴾ على الخبَر الفِعلي ﴿نُسَبِّحُ﴾ دون حرْف النَّفي، يحتمل أن يكون للتَّخصيص، بحاصل ما دلَّت عليه الجملةُ الاسميَّة من الدَّوام، أي: نحن الدَّائمون على التَّسبيح والتقديس دون هذا المخلوق[١].

- **قوله:** ﴿**لَا عِلْمَ لَنَا**﴾ النَّكرة فيه مبنيَّة مع (لا)، والنكرة لا تُبنَى على الفتح مع (لا) إلَّا إذا كانت (لا) لنفي الجِنس، فهي نكرةٌ في سياق النفي فتعم، والمعنى: أنَّهم نفَوا جِنسَ العلم من أصله عن أنفسهم، إلَّا شيئًا علَّمهم الله سبحانه إيَّاه، وهؤلاء الرُّسل الكرام عليهم صلواتُ الله وسلامُه- مع ما أعطاهم الله من العِلم والمكانة - يقولون: إنَّهم لا يعلمون من الغيب إلَّا ما علَّمهم الله[٢].

٣- **قوله:** ﴿**فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ**﴾ فيه وضع للمُظهَر ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ موضع الضمير (بها)؛ لبيان شأنه، والاهتمام به[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٨٦-٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٣).

الآيات (٢٤-٢٩)

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿إِبْلِيسَ﴾: أبو الشياطين، وأصل الإبلاس: اليأس، والحُزن المعترِض من شِدَّة اليأس، ومنه اشتقَّ إبليس، وقيل: هو اسمٌ أعجميٌّ[(١)].

﴿رَغَدًا﴾: رِزقًا واسعًا كثيرًا بلا عناء، وأصله: أطيب العيش، وسعة المعيشة[(٢)].

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾: أي: استزلهما، والزلة في الأصل: استرسال الرِّجْل من غير قصد، يقال: زلَّت رِجل تزل، والزلة: الخطأ؛ لأنَّ المخطئ زلَّ عن نهج الصواب، وقيل للذنب من غير قصد: زلَّة؛ تشبيهًا بزلة الرِّجْل[(٣)].

﴿حِينٍ﴾: الحين: وقتُ بلوغ الشيء وحصولِه، أو الدهر، وأصله: الزمان؛ قليله وكثيره[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦، ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٥).

مشكل الإعراب:

قوله ﴿رَغَدًا﴾: منصوب على أنَّه نعت لمصدر محذوف، أي: مفعول مطلق، وتقديره: (كُلَا أَكْلًا رغدًا). أو منصوب على أنَّه حال، وقيل: هو مصدر في موضِع الحال، أي: كُلَا طيِّبينِ مهنَّئينِ[1].

المعنى الإجمالي:

يُذَكِّر الله تعالى رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم بمسارعة الملائكة إلى امتثال أمر ربهم بالسجود لآدم عليه السلام حين أمرهم بذلك، وامتناع إبليس عما أمره به ربُّه سبحانه من السجود له استكبارًا وكفرًا.

وأنه أذِن الله لآدَم وزَوجِه حواءَ عليهما السَّلام بأن يَسكُنَا الجنة، وأباح لهما أنْ يأكلَا منها رِزقًا واسعًا لا عناء فيه، واستثنى شجرةً واحدة عيَّنها لهما، فنهاهما عن الاقترابِ منها؛ فإنْ فعلَا كانا من المتعدين حدودَ الله.

فأَوقعهما الشَّيطانُ في المعصية، وذلك بأنْ وسوس لهما، فكان سببًا لإخراجهما ممَّا هما فيه من النَّعيم، فأمَرَهم الله تعالى بالهبوط إلى الأرض، حيث تَنشَبُ بينهم العداوات، يستقرُّون فيها أحياءً على ظهرها، وأمواتًا في القُبور إلى قيام السَّاعة.

فلقَّن الله آدمَ كلماتٍ تحصُل بها توبتُه من المعصية التي وقعتْ منه، فلَهَج بها آدمُ عليه السَّلام، فتاب اللهُ عليه؛ فهو سبحانه قابلُ التَّوبة، الرَّحيم بعِباده المؤمنين.

وأمَر اللهُ آدمَ وحواءَ وإبليسَ بالهبوط من الجنة جميعًا، وأنبأَهم أنَّه إذا جاءهم منه شيءٌ يُرشدهم إلى الحقِّ من كتاب، أو رسول فاتَّبعوه، أنَّ لهم الأمنَ التامَّ، والسرورَ الدائم، أمَّا مَن جحَد الحقَّ، وكذَّب بالآيات، فهذا من أهل النار، الملازمين لها على الدَّوام.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٨٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٢٨١)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ٢١).

تفسير الآيات:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: يُذكِّر الله تعالى بأمْره لجميع الملائكة بالسُّجود لآدم إكرامًا وتعظيمًا له، وعبوديةً لله تعالى، وأنَّهم بادَروا جميعًا بالسجود، وامتنع إبليسُ من ذلك، وتَكبَّر على أمر الله تعالى، وعلى آدَم، فاتَّصف بكفرٍ عظيم(١).

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: يُبيِّن الله تعالى إكرامَه لآدَمَ وزوجِه حواءَ عليهما السَّلام، بأنْ أذِن لهما في سُكنى الجنَّة، وأباح لهما أن يأكلَا منها رِزقًا واسعًا هنيئًا، لا عناءَ فيه(٢)، ينالانِه فيها حيثُ شاءَا، عدَا شجرةٍ واحدة فقط، عيَّنها لهم الحكيمُ الخبيرُ سبحانه، فنهاهم عن قُربانها، وإلَّا صارَا بالأكْل منها من الظالِمين، باعتدائهما على حدٍّ من حدود الله جلَّ وعلا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٤٤-٥٤٦)، (١/ ٥٥٦-٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٩٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٤/ ٣٤٥، ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٢٦-٤٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٩-٢٩٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٢٥-١٢٧).

(٢) وممَّن فسرَّ الرَّغَدَ بنحو ما ذُكر: ابن عبَّاس، والسُّدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٤٩-٥٥١، ٥٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٣٣-٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٣٣).

والجنة التي أُسْكنها آدَمُ وزوجُه هي جنَّة الخُلد في السماء. ونسبه ابنُ تيمية إلى سلف الأمَّة وأهل السنة والجماعة، وعزاه ابن كثير للأكثرين، وابن عاشور إلى جمهور السلف. يُنظر ((تفسير القرطبي)) (١/ ٣٠٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٣٣) ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿أزلَّهما﴾ قِراءتان:

١- (فأَزَالَهُما) من زالَ يزُولُ، ومعناه: فنحَّاهما[(١)].

٢- (فَأَزَلَّهُمَا) مِن زَلَلت وأزلَّني غيري، أي: أوْقَعهما في الزَّلل[(٢)].

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ قد أوقعهما في المعصية والزَّلل، الذي أبعدهما عن الجَنَّة، وذلك بأكْلِهما من الشجرة، فكان إبليسُ بإغوائه ووسوسته سَببًا في إخراجِهما من الرِّزق الواسع، والعيش الهنِيء، الذي كانَا ينعمان به في الجنَّة[(٣)].

= عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٢٨). ويُنظر في أدلة القائلين بهذا القول والقول الآخر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩).

(١) قرأ بها حمزةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ١٤٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٩٤).

(٢) قرَأ بها الباقون بالحذْفِ والتشْدِيد. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ١٤٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٩٤).

(٣) قال ابنُ عطيَّة: (لا خِلافَ بين العلماء أنَّ إبليس اللَّعين هو متولِّي إغواء آدَمَ، واختُلف في الكيفيَّة، فقال ابنُ عباس وابنُ مسعود وجمهورُ العلماء: أغواهما مشافهةً، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾، والمقاسمة ظاهرُها المشافهة) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٢٨). =

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

أي: أمَر الله تعالى آدَمَ وحواءَ وإبليس بالهبوطِ إلى الأرضِ؛ وأخبر بعداوة بعضهم لبعض(١).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

أي: يستقرُّون على ظهرها أحياءً، متمتِّعين بما يَرزُقهم الله تعالى، إلى أجَلٍ مُعيَّن، وهو انقضاءُ أعمارهم، ويستقرُّون في بطنها مقبورِينَ إلى وقتٍ مُحدَّد، وهو قيام السَّاعة(٢).

= ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٦٠، ٥٧٠، ٥٧١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٣٥-٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٧١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣٢).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المقصود بقوله: ﴿اهْبِطُوا﴾ آدَمُ وحواءُ وإبليسُ: ابن عبَّاس، وأبو صالح، والسُّدِّي، وزاد بعضهم الحيَّة، إلَّا أنَّ ذلك لا يصحُّ؛ فالأخبارُ التي نصَّت على الحَيَّة، إسرائيلياتٌ لا يُعوَّل عليها في تفسير الآية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٧٢) و((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٧٨-٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣٢). =

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

وقال جلَّ وعلا: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤-٢٥].

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى ﴿كَلِمَاتٍ﴾ قراءتان:

١- (كَلِمَاتٌ) على أن الكلمات قد استنقذت آدَمَ بتوفيق الله تعالى له لقوله إيَّاها[(١)].

٢- (كَلِمَاتٍ) على أن آدم هو الذي تلقَّى الكلمات بالقَبول لمَّا علَّمه الله هذه الكلماتِ، وأمره بهن[(٢)].

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لقَّن آدَمَ كلماتٍ تحصُل بها توبتُه ممَّا وقَع من عصيانه لله

= وممَّن قال من السَّلف في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، أي: على ظهرها وهم أحياء: ابن عبَّاس، وأبو العالية، والرَّبيع، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٧٥) و((تفسير ابن أبي حاتم) (١/ ٨٩).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المستقرَّ يعني القرارَ في القُبور: ابن عبَّاس، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٨٩).

وممَّن قال من السَّلف: إن قوله: ﴿مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ يعني: إلى قيامِ الساعة: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٧٨).

(١) قرأ بها ابْنُ كَثِير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١١).

يُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٣٧)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٧٥).

(٢) قَرَأَ بها الْبَاقُونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١١).

يُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٣٧). ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٧٥).

سبحانه، فتلقَّفَها آدَمُ عليه السَّلامُ متلقِّيًا لها بالقَبول، فاعترَف بذنبه، وسألَ اللهَ تعالى مغفرتَه ورحمتَه، فَتَابَ الله عليه ورحِمه، فهو التوَّاب، أي: كثير التَّوْب، بمعنى الرُّجوع على عبدِه بقَبول التوبة، وتوبته بتوفيق عبدِه للتوبة أولًا، وقَبولها منه ثانيًا، وهو الرَّحيمُ بعباده المؤمنين، يختصُّهم برحمته سبحانه(١).

وهذه الكلمات مذكورةٌ في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣](٢).

والآية شبيهةٌ بقوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢١-١٢٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾.

أي: قال الله تعالى لآدَمَ وحواءَ وإبليسَ: اهبطوا من الجَنَّة، مُجتمِعين في هُبوطكم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٧٩، ٥٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٨٦)، ((تلخيص كتاب الاستغاثة لابن تيمية)) لابن كثير (١/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٣٨) ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٤).

وممن قال بهذا من السلف: مجاهد، وسعيد بن جُبَير ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٣١) ((تفسير ابن كثير)) =

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: أخْبر الله تعالى الذين أهبَطهم من الجنَّة، ويدخُل في هذا الخطاب ذرِّيتهم، بأنَّه إنْ جاءهم في أيِّ وقت وحين، كتابٌ أو رسول يبيِّن لهم الطريقَ، ويرشدهم إليه، واتَّبعوه في ذلك، أنَّ لهم الأمنَ التامَّ، والسرور الدائم، فلا يخافون ممَّا يستقبلون، ولا على ما فاتهم من أمور الدُّنيا يحزنون، وبهذا تحصُل لهم السَّعادة الدنيويَّة والأخرويَّة، بإذن الله عزَّ وجلَّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بشَّر المؤمنين الذين اتَّبعوا الهُدى أتْبعَه إنذارَ الكافرين الذين نابَذوه[(٢)] بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

أي: إنَّ مَن لم يتَّبع هُدى الله عزَّ وجلَّ فجَحَد الحقَّ، وكذَّب بالآيات الشرعيَّة أو الكونيَّة، فهو من أهل النارِ الملازمين لها على الدَّوام، لا يَخرُجون منها أبدًا[(٣)].

= (١/ ٢٤٠-٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٤٠-٤٤١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣٧-١٣٨).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المقصودين من قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا﴾ آدَم وحواء وإبليس: أبو صالح، والسُّدي. ومنهم مَن زاد الحيَّةَ، إلَّا أنَّ ذلك لا يصحُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٩٠- ٥٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠).

الفَوائِد التربويَّة:

١- أنَّ الله تعالى قد يَمتحن العبدَ، فينهاه عن شيءٍ قد تتعلَّق به نفسُه؛ ابتلاءً واختبارا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾[١].

٢- أنَّ معصية الله تعالى ظلمٌ للنَّفس، وعدوانٌ عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٢]؛ لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، فوضع الأكل في غير ما يحلُّ ظلم.

٣- الحذَر من وقوع الزَّلل الذي يُمليه الشَّيطان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾[٣]؛ فالشيطان يَغرُّ بني آدَمَ كما غرَّ أباهم حين وسوس لآدَمَ وحواء، وقاسمَهُما إنِّي لكما لمن الناصِحين[٤].

٤- إضافة الفِعل إلى المتسبِّب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[٥].

٥- أنَّه لا دوامَ لبَني آدَم في الدُّنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[٦]؛ وعليه فيَنبغي للمؤمن الزُّهدُ فيها، وعدمُ الاغترار بها.

٦- أنَّ الإنسانَ إذا صدَق في تفويض الأمر إلى الله، ورجوعِه إلى طاعة الله، فإنَّ الله تعالى يتوبُ عليه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٣٣).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٣٦).

٧- أنَّ آدَمَ عليه السَّلام لم يَستغنِ عن التوبة، مع علوِّ شأنه، فالواحد منَّا أَوْلى بذلك[١].

٨- أنَّ مَن اتَّبع هُدى الله، فإنَّه آمِنٌ من بين يديه، ومِن خلفه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢].

٩- أنَّه لا يُتعبَّد لله إلَّا بما شرع؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- قال الله تعالى عن نفْسه: ﴿قُلْنَا﴾ ولم يقل: (قلت)؛ لأنَّ الجبَّار العظيم يُخبِر عن نفسه بفِعل الجماعة؛ تفخيمًا وإشادةً بذِكره[٤].

٢- فضلُ آدَمَ على الملائِكة؛ لأنَّ اللهَ أمَر الملائكةَ أن يسجُدوا له[٥].

٣- تركُ المأمورِ أشدُّ مِن فعلِ المحظورِ؛ فذنبُ آدم عليه السلام كان بفعلِ المحظورِ، فكان عاقبتُه أن اجتباه ربُّه، فتابَ عليه وهدَى، وذنبُ إبليسَ كان بتركِ المأمور فكان عاقبتُه ما ذكَر اللهُ سبحانه تعالى[٦].

٤- أنَّ الجنَّةَ في مكان عالٍ؛ لقوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا﴾؛ والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل[٧].

٥- أنَّه لا يمكن لبَني آدَم العيش إلَّا في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢/ ٤٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٩١)، ويُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٢٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٢٦).
(٦) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٣٩).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣٣).
(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٦- مِنَّة الله سبحانه وتعالى على أبينا آدَمَ، ومِنَّة الله على أبينا هي منَّةٌ علينا في الحقيقة؛ لأن النِّعمة الواصلة إلى الآباء تَلحَق الأبناء[١].

بلاغة الآيات:

١- **قوله تعالى:** ﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ**﴾ الاستكبارُ يعني التزايُدَ في الكِبْر؛ لأنَّ السِّين والتاء في قوله: ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ للمُبالغة لا للطَّلب، وجاءت بصيغة الاستفعال إشارةً إلى أنَّ صاحب صِفة الكِبْر من الناس لا يكون إلَّا متكلِّفًا له، وما هو بكبيرٍ حقًّا[٢].

٢- **الإتيانُ بخبر** ﴿**كَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ**﴾ دون أن يقول:(وكان كافرًا)؛ لأنَّ إثباتَ الوصف لموصوفٍ بعنوان كونِ الموصوف واحدًا من جماعةٍ يَثبُت لهم ذلك الوصفُ- أدلُّ على شدَّة تمكُّن الوصف منه، ممَّا لو أثبتَ له الوصفَ وحْدَه بناءً على أنَّ الواحد يزداد تمسُّكًا بفِعله، إذا كان قد شارَكه فيه جماعةٌ؛ لأنَّه بمقدار ما يرَى من كثرة المتلبِّسين بمِثل فِعله، تبعُد نفْسُه عن التردُّد في سداد عملِها، وعليه جاء قوله تعالى: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتُ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧][٣].

٣- **قوله:** ﴿**وَإِذْ قُلْنَا**﴾ خِطاب بضَمير الجَمْع للتعظيم، وهو معطوفٌ على قوله: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ**﴾؛ ففيه التفاتٌ؛ حيث غير أسلوب إسناد القول إلى الله، فأتى به مسندًا إلى ضمير العظمة ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، وأتى به في الآية السابقة مُسندًا إلى رب النبيِّ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾؛ للتفنُّن؛ ولأنَّ القول هنا تضمَّن أمرًا بفِعل فيه غضاضة على المأمورين، فناسبه إظهارُ عظمة الآمِر، وأمَّا القول السابق، فمُجرَّد إعلام من الله بمراده؛ ليظهر رأيهم، فناسبه الإسنادُ إلى الموصوف بالربوبية المؤذنة بتدبير شأن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣٤-١٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٢٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٢٧).

المربوبين، وأضيف إلى ضمير أشرف المربوبين وهو النبي صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

٤- **قوله**: ﴿**فَسَجَدُوا**﴾ عطف بفاء التعقيب؛ إشارةً إلى مبادرة الملائكة بالامتثال[٢].

٥- **قوله**: ﴿**اسْكُنْ أَنْتَ**﴾ فيه تأكيدٌ وتقرير لَمعنى المُضمَر، حيث أكَّد الضَّميرَ المستَتِر في: ﴿اسْكُنْ﴾ بقوله: ﴿أَنْتَ﴾؛ ليصحَّ العطفُ عليه، ولئلَّا يكون تابعُه المعطوفُ عليه أبرزَ منه في الكلام[٣].

- الأمْر بقوله: ﴿اسْكُنْ﴾ مُستعمَل في الامتنان بالتمكين والتخويل، وليس أمرًا له بأن يسعَى بنفْسه لسُكنى الجنة؛ إذ لا قُدرةَ له على ذلك السعيِ، فلا يُكلَّف به[٤].

٦- **قوله**: ﴿**مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا**﴾ عبر بـ﴿حَيْثُ﴾ التي للمكان المُبهَم -أي: أيُّ مكان- إشارةً إلى إطلاق الأكْل لهما من الجَنَّة على وجه التَّوسِعة البالِغة[٥].

٧- **قوله**: ﴿**وَلَا تَقْرَبَا هذه الشَّجرةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ فيه مبالغة في النهي، وتأكيد عليه؛ حيث علَّق النهي بالقربان منها؛ مبالغةً في تحريمِ الأكل، ووجوبِ الاجتناب عنه، مع أنَّ المنهيَّ عنه هو الأكْلُ من ثِمار الشجرة؛ لأنَّ النهيَ عن مجرَّد القُرْب أبلغُ، وأكَّد هذا النهيَ بالتنبيه على أنَّ القُرب من الشيء يُورِث داعيةً وميلًا يأخُذ بمجامع القلب، وهو مقتضى الألفة، والألفة داعية للمحبة، فلا يرى قبيحًا، ولا يسمع نهيًا، فيُلهيه عمَّا هو مقتضى النَّقل والعقل؛ إذ جَعَل قُربانهما إلى الشجرة

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٢٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٢٩٢).

سببًا لأنْ يكونَا من الظالمين، والسبب الداعي إلى الشرِّ منهيٌّ عنه، كما أنَّ السَّبب الموصل إلى الخير مأمورٌ به[١].

٨- **قوله:** ﴿**مِمَّا كَانَا فِيهِ**﴾ إيهام ذِكر الجَنَّة أو الكرامة والنَّعيم، والتعبير عنها بذلِك (كانا فيه)؛ للإيذان بفَخامتها وجلالتِها وملابستِهما له، أي: من المكان العظيم الذي كانا مستقِرَّيْنِ فيه[٢].

٩- **قوله:** ﴿**مِنِّي**﴾ متعلق بـ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾، وهذا شبيهٌ بالالتفات، لأنَّه انتقل من الضَّمير الموضوع للجمع، أو المعظِّم نفسه، إلى الضمير الخاصِّ بالمتكلِّم المفرد. وحِكمة هذا الانتقال هنا أنَّ الهُدَى لا يكون إلَّا منه وحده تعالى، فناسب الضمير الخاص كونه لا هاديَ إلَّا هو تعالى، فأعطى الخاص الذي لا يُشاركه فيه غيره الضَّميرَ الخاصَّ الذي لا يحتمل غيرَ الله تعالى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٠)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٧٢).

الآيات (٤٠-٤٦)

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿وَأَوْفُوا﴾: أي: أدُّوه وافيًا تامًّا، وأصل الوفاء: تمام الشيء، وإتمام العهد والقيام بمقتضاه، وإكمال الشَّرط[١].

﴿فَارْهَبُونِ﴾: خافوني، وأصل الرهبة والرَّهب: مخافة مع تحرُّز واضطراب[٢].

﴿بِالْبِرِّ﴾: الدِّين والطاعة، وأصله: الصِّدق في المحبَّة[٣].

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾: لثقيلة شاقَّة، وأصل الكِبَر: خِلافُ الصِّغر[٤].

المعنى الإجمالي:

يُذكِّر اللهُ تعالى بَني إسرائيل- والمقصود بإسرائيل المنسوبين إليه، يعقوبُ عليه

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧١).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣- ١٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٢) ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

السَّلام- يُذكِّرهم بنِعمته التي أسبَغها عليهم، ويأمرُهم بالوفاء بالعهد، وبمقابل الْتِزامهم بالعهد، سيُمضي الله ما وعدَهم به، وهو إدخالُهم الجنَّةَ، ثم ذكَّرهم بأنْ يَخشوه ويخافوه.

وأمَرَهم تبارك وتعالى أن يُصدِّقوا بقلوبهم وجوارحهم بالقرآن الذي يُوافق التوراةَ التي معهم، ونهاهم أن يكونوا أوَّلَ مَن يجحَد القرآنَ ومَن أُنزل عليه، ونهاهم أيضًا أن يَبيعوا آياتِه؛ فيَدَعوا الإيمانَ به وبما أرسلَه وأنزله، ويكتموا ما ورَد في كتابهم من الحقِّ مقابلَ الدنيا وشهواتها، ثم أمرهم أن يتَّقُوه وحْدَه سبحانَه.

ونهاهم أن يخلِطوا الحقَّ بالباطل، ونهاهم أيضًا أن يُخفوا الحقَّ، وهم يعلمونه، والحالُ أنَّهم يعرِفون ما يترتَّب على إخفائهم من الضَّرَر، وأمرهم بأن يؤدُّوا الصَّلاةَ بأركانها وواجباتِها، ويعطوا الصدقةَ المفروضةَ، ويُصلُّوا جماعةً مع المؤمنين.

ثمَّ سألهم الله منكرًا عليهم أمْرَهم للنَّاس بالإيمان والخير، وترْكَهم أنفسَهم، وهم يقرؤون التوراةَ، ويعرفون ما فيها، أوَليس عندهم عقولٌ تدلُّهم على ضلالهم؟!

ثم يُرشد سبحانه وتعالى إلى الاستعانة بالصَّبر والصَّلاة في جميع الأمور، وإنْ كانت الصَّلاة ثقيلةً إلَّا على الخاشعين، وهم الذين أيقَنوا بملاقاتهم ربَّهم، وأنَّهم إليه عائِدون يوم القِيامة.

تفسير الآيات:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: يا بَنِي يعقوب كونوا مثلَ أبيكم في متابعة الحقِّ، واذكروا نِعمَ الله تعالى على آبائكم، ومنها النِّعم التي سيأتي ذِكرُها في هذه السُّورة الكريمة، وذِكرُ هذه النعمِ

يستوجب منهم القيامَ بشُكر الله تعالى عليها، بالدُّخول في دِينه ومتابعة رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام[(١)].

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

أي: لا تُخالفوا وصيةَ الله تعالى التي عَهِدَ بها إليكم من الإيمان به سبحانه، وبرسلِه، ومنهم محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، وإقامةِ شرْعه، وبيان الحقِّ الذي تعرفونه، فإنَّكم إن أنفذتُم وصيةَ الله تعالى لكم، أمضَى لكم ما وعدَكم به، وهو تكفيرُ السيئاتِ، ودخولُ الجنَّة، ثم حذَّرهم نفْسَه بعد أن رغَّبهم، فإنْ تحقَّقت فيهم هذه الخشيةُ لله تعالى، فإنَّها تَحمِلهم على الإيفاء بعَهدِه عزَّ وجلَّ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٩٣، ٥٩٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٩٦، ٥٩٨)، ((تلخيص كتاب الاستغاثة لابن تيمية)) لابن كثير (١/ ٣٢١-٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٤).

عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾.

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾.

أي: يأمُر اللهُ تبارك وتعالى بَني إسرائيل بأنْ يُقرُّوا بقلوبهم وجوارحِهم بهذا الذي يُوافِق ما لديهم من التَّوراة، وهو القرآنُ الذي أنزله الله تعالى على محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وفي ضِمن ذلك الإشارةُ إلى أنَّ تكذيبهم للقرآن، هو تكذيبٌ لِمَا معهم من التوراة، التي يدَّعون إيمانَهم بها[(١)].

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾.

أي: نهَى الله تعالى بني إسرائيل عن أن يكونوا أوَّلَ مَن يكفُر بالقرآن ومَن أُنزِل عليه، وهو محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فعندهم من العِلم به ما ليس عند غيرِهم، وإلَّا فإنَّه يَقتدي بهم مَن بعدهم، فيكون إثمُ كُفره عليهم[(٢)].

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أي: نهاهم اللهُ تعالى عن أن يَبيعوا آياتِه؛ فيترُكوا الإيمانَ به سبحانه، ومتابعةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٢-٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠-٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٠١-٦٠٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٣٤)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٦٠).
وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المقصود بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ القرآن: ابن جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٠٢).
وممَّن قال من السَّلف أنَّ المقصود به: محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أبو العالية. قال ابن أبي حاتم: (ورُوي عن الحسن، والسُّدِّي، والرَّبيع بن أنس نحوُ قول أبي العالية) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٩٧).

رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، وبيان ما في كِتابهم من الحقِّ، ومنه ما ورد فيه من أمْر محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، من أجْل الدُّنيا وشهواتها، كالإبقاء على ما يَحظَوْن به من المناصب والأموال، وغير ذلك؛ فإنَّ الدنيا بحذافيرها ثمنٌ قليل لا يُساوي شيئًا بجانب الإيمان بالله تعالى[١].

﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سبحانه وَحْدَه هو المستحقُّ للتقوى دون مَن سواه؛ فإنَّهم إذا اتَّقَوا الله وحْدَه، أوجب لهم ذلك، تقديمَ الإيمان بآياته على كلِّ شهوةٍ فانية[٢].

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: نهَى الله تعالى اليهودَ عن خلْط الحقِّ الذي أنزله الله تعالى بالباطِل الذي افتَرَوه، بحيث لا يتمايزان، أو يُظهروا الباطلَ في صورة الحق، كما نهاهم أيضًا عن كِتمان الحقِّ، والحال أنَّهم يعلمونه، ويعلمون ما في صَنيعهم هذا من الضَّرر العظيم على الناس، ومِن الحقِّ المذكور في هذه الآية، ما يعرِفه اليهودُ مِن أمر نبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٣-٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٢٨-١٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٣٥)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ١٧٦)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تَيميَّة (١/ ٢٠٩-٢١١، ٢١٩-٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٥).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العالية في قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾؛ يقول: ولا تَخلِطوا الحقَّ بالباطل، وأدُّوا النصيحة لعباد الله في أمْر محمَّد (صلَّى الله عليه وسلَّمَ) .... قال أبو محمَّد: ورُوي عن سعيد بن جُبَير، والرَّبيع بن أنس نحوُ ما ذكرنا عن أبي العالية) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٩٨)، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٠٩).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

أي: بعد أن أمَر اللهُ عزَّ وجلَّ اليهودَ باعتناق دِين الإسلام، أمَرهم بأنْ يُقيموا الصَّلاة، أي: يؤدُّوها بأركانها، وواجباتِها على أحسنِ وجه، ويُعطوا الصَّدقةَ المفروضة أهلَها المستحقِّين لها، ويصلُّوا مع المصلين- ومنهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأصحابُه رضي الله عنهم- ويكونوا من جملتهم[(١)].

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: يوبِّخ اللهُ تعالى اليهودَ مُنكِرًا عليهم قُبْحَ صنيعهم في أمْر الناس بالإيمانِ والخيرِ، وتَرْكِ أنفسِهم لا يأمرونها بذلك، والحالُ أنَّهم يقرؤون التوراةَ ويتدارسونها بينهم، ويَعلمون منها ما أُمِروا به من الخير، وما عليهم إنْ قصَّروا في شرْع الله تعالى. أوَليس لهم عقولٌ يدركون بها ضلالهم، وتزجرهم عن الوقوع في ذلك[(٢)]؟!

كما قال تعالى إخبارًا عن شُعَيب عليه السَّلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦١١-٦١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر:))جامع البيان)) (١/ ٦١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٦-٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٥٨).

أي: اطلبوا العونَ على جميع ما تُؤمِّلون من أمور الدُّنيا والآخِرة، وعلى تحمُّل المشاقِّ والمصائبِ بالصَّبر والصَّلاة، والصَّلاةُ ثقيلةٌ وذات مشقَّة على الأنفُس، لكنَّها سهلةٌ وخفيفةٌ على مَن خشَع، فخضَع لله تعالى واطمأنَّ إليه قلبُه، وظهرَ أثرُ ذلك الخشوعِ على جوارحِهِ، وهؤلاءِ الخاشعون هم الموقِنون بعودتهم إلى الله تعالى، والحشرِ إليه يوم القِيامة(١).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

الفَوائِد التربويَّة:

١- أنَّ تذكيرَ العبد بنِعمة الله عليه أدْعَى لقَبوله الحقِّ، وأقومُ للحُجَّة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾(٢).

٢- وجوب إخلاص عِبادة الرَّهبة لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(٣).

٣- أنَّ جميع ما في الدُّنيا قليل(٤)، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦١٧-٦٢٤، ٦٢٧-٦٢٨)، ((القواعد النورانية الفقهية)) لابن تَيميَّة (ص: ٤٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢٨/ ٣١)، ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥١-٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١، ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥-٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٥٠).

[البقرة: ٤١]، فينبغي الزهدُ فيها، وإيثار ما عند الله تعالى؛ فهو خيرٌ وأبقى.

٤- وجوب تقوى الله عزَّ وجلَّ، وإفراده بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[١].

٥- مَن لَبَس الحقَّ بالباطِل، فلم يميِّز هذا من هذا، مع عِلمه بذلك، وكتَم الحقَّ الذي يَعلمه وأُمِر بإظهاره، فهو من دُعاةِ جهنمَ، والعياذ بالله تعالى[٢].

٦- وجوب بيانِ الحقِّ، وتمييزِه عن الباطِل، فيُقال: هذا حقٌّ، وهذا باطلٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ﴾[٣].

٧- مَن أمَر غيرَه بالخير ولم يفعلْه، أو نهاه عن الشرِّ فلم يَتركْه، دلَّ على جهله وعدم عقلِه، خصوصًا إذا كان عالمًا بذلك[٤].

٨- ليس في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أنَّ الإنسان إذا لم يقُمْ بما أُمِر به أنَّه يَترُك الأمرَ بالمعروف، والنهيَ عن المنكر؛ لأنَّها دلَّت على التوبيخ بالنِّسبة إلى الواجبين، وإلَّا فمِن المعلوم أنَّ على الإنسان واجبَينِ: أمْر غيرِه ونهيه، وأمْر نفْسِه ونهيها، فترْك أحدهما، لا يكون رُخصةً في ترْك الآخَر؛ فإنَّ الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنَّقص الكامل أن يتركهما، وأمَّا قيامه بأحدهما دون الآخَر، فليس في رُتبة الأوَّل، وهو دون الأخير، وأيضًا فإنَّ النفوس مجبولةٌ على عدم الانقياد لمن يُخالِف قولُه فِعْلَه، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغُ من اقتدائهم بالأقوال المجرَّدة[٥].

٩- أمرُ اللهِ بالاستعانة بالصَّبر يَشمَل جميعَ أنواعه، وهو: الصَّبر على طاعة الله

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حتى يُؤدِّيَها، والصَّبر عن معصية الله حتى يترُكَها، والصَّبر على أقدار الله المؤلِمة فلا يتسخَّطها[١].

١٠- قوله سبحانه: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ فيه الحث على الصلاة في جماعة[٢].

١١- أنَّ خشوع العبد لله، ممَّا يُسهِّل عليه العبادةَ، فكلما كان لله أخشع كان له أطوع، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥][٣].

١٢- أنَّ المؤمنين يُوقِنون أنَّهم راجِعون إلى الله تعالى، وهذا يستلزم أمورًا:

أولًا: الخوف من الله؛ لأنَّهم ما داموا يعلمون أنَّهم راجعون إلى الله تعالى، فسوف يخافون منه، والخوفُ في القلب؛ يعني: أنهم إذا علِموا أنَّهم سيرجعون إلى الله، فسوف يَخشَونَه في السِّرِّ والعلانية.

ثانيًا: مراقبة الله عزَّ وجلَّ.

ثالثًا: الحياء منه؛ فلا يَفقِدك حيث أمَرَك، ولا يَجِدك حيث نهاك[٤].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ الله تعالى يوجِّه الخطاب للمخاطَب؛ إمَّا لكونه أوعى من غيرِه، وإمَّا لكونه أَوْلى أن يَمتثِل، وهنا وجَّهه لبني إسرائيل؛ لأنَّهم أَوْلى أن يمتثلوا؛ لأنَّ عندهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٧٧).

(٢) قال الواحدي: (وإنما قال: واركعوا بعد قوله: وأقيموا الصلاة لأنه أراد الحث على إقامة الصلاة في جماعة) ((التفسير الوسيط)) (١/ ١٢٩).

وقال السعدي: (قوله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها) ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١). ويُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢٣/ ٢٢٧-٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٦٦).

من العِلم برسالة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأنَّها حقٌّ- ما ليس عند غيرِهم[١].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾: دلالةٌ على أنَّ الصَّلاة واجبةٌ على الأمم السابقة، وأنَّ فيها ركوعًا، كما أنَّ في الصَّلاة التي في شريعتنا رُكوعًا[٢].

٣- أنَّ الأمم السابقة كانت عليهم زَكاة، قال تعالى: مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[٣].

٤- جواز التعبير عن الكلِّ بالبعض إذا كان هذا البعضُ من مباني الكلِّ التي لا يتمُّ إلَّا بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[٤].

٥- توبيخ بني إسرائيل، وأنَّهم جهلةٌ حمْقى ذَوُو غيٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٥].

بلاغة الآيات:

١- **قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا...﴾ إلى قوله: ﴿...مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾** فيها ترتيب عجيبٌ، من حيثُ فصاحةُ الكلام وبنائه بعضه على بعض، مع أنَّها عُطِفت بالواو التي لا تقتضي في الوضع ترتيبًا؛ إذِ افتُتحت بذِكر النِّعم، واختُتمَت بالأمر بالانقياد للمُنعِم، وذُكر بينهما تكاليف اعتقاديَّة، وأفعال بدنيَّة وماليَّة، وفي ذلك ما يدعو إلى محبَّة المنعِم، ووجوب طاعتِه[٦].

٢- **قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ ﴿وَأَوْفُوا﴾** و**﴿أُوفِ﴾** فيه ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٤٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٥٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٥٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٦٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٩٢-٢٩٣).

يُعرَف عند البَلاغيِّين بالتَّعطُّف ويُسمِّيه بعضهم المشاركة؛ حيث علَّق لفظةً من الكلام بمعنًى، ثم كرَّرها بعينها وعلَّقها بمعنًى آخر، وهما مفترقتان؛ كلُّ لفظةٍ منهما في طرَف من الكلام، وفائدته التأكيد[١].

٣- **قوله:** ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، و﴿وَإِيَّايَ فاتَّقونِ﴾ فيه تقديم ضمير الفَصل؛ لإفادة التخصيص، وهو آكَدُ في إفادة التَّخصيص من (وإياي فارهبوا) (وإياي فاتقوا)؛ لِمَا فيه- مع التقديم- من تكرير المفعول وهو الياء في (فارهبون، واتقون) إذ أصله (فارهبوني، واتقوني)[٢].

٤- **قوله:** ﴿تَلْبِسُوا الحَقَّ﴾، **وقوله:** ﴿وَتَكْتُمُوا الحَقَّ﴾ تكرير ﴿الحقَّ﴾ لزيادة تقبيح المنهيِّ عنه؛ إذ في التصريح ما ليس في الضمير من التأكيد[٣].

٥- **قوله:** ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾ الهمزة للتقرير مع التوبيخ، والتعجُّب من حالهم[٤]. وأتى بالمضارع وإنْ كان قد وقَع ذلك منهم؛ لأنَّه يُفهم من المضارع في كثيرٍ من المواضع: الديمومة وكثرة التلبُّس بالفعل؛ فصِيغةُ المضارع تُفيد التجدُّد والحدوث[٥].

٦- **قوله:** ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ عبَّر عن ترْك فِعلهم بالنِّسيان؛ مبالغةً في الترك، فكأنَّه لا يَجري لهم على بال، وعلَّقه بالأنفُس توكيدًا للمبالغة في الغفلة المُفرِطة[٦].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٩٢)، (٤/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٧٥-٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٩٦).
وعلى القول بأنَّ المرادَ بـ(الحق) الأخير ليس عينَ الأول، بل هو نعت النبيِّ صلَّى الله عليهِ وسلم الذي كتَموه وكتبوا مكانه غيرَه-فليس فيه تأكيد.

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٩٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- **قوله:** ﴿**وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ**﴾ جُملة حاليَّة، وتصديرُ الكلام بالضمير ﴿وَأَنْتُمْ﴾، فيه زيادةٌ في المبالغة، وتسجيل لتبكيتهم وتقريعهم وتوبيخهم[(١)].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٩٥).

الآيات (٤٧-٥٧)

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا
هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ
أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا
بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ
أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم
مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ
تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ
ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ
فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ
تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن
طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿لَا تَجْزِي﴾: أي: لا تقضي عنها ولا تُغني، والجزاء: القضاء، وأصله: قِيام الشيء مقامَ غيره ومكافأته إيَّاه[(١)].

﴿عَدْلٌ﴾: أي: فدية، وأصْل العدْل: ضد الجور والظُّلم، والعَدَالَةُ والمُعَادَلَةُ: لفظٌ يقتضي معنى المساواة[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٣٣/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٨-٣٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٦-٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب =

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يُولُونكم، أي: يولونكم إذلالًا واستخفافًا، وقيل: يُرسِلون عليكم، وسامه: كلَّفه العمل الشاق. وأصل السَّوْم: الذَّهاب في ابتغاء الشَّيء[١].

﴿يَسْتَحْيُونَ﴾: أي: يستبقونهنَّ أحياء، والاستحياء: الإبقاء حيًّا، واستفعل فيه بمعنى أفعل[٢].

﴿بَلَاءٌ﴾: أي: اختبار، وأصل البلاء: إخلاقُ الشَّيء، والاختبارُ، ثم صار يُطلق على المكروه والشدَّة، ويُقال: أُبلي بالنِّعمة، وبُلي بالشدَّة[٣].

﴿فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾: فلقناه لكم، والفرق يُقارب الفلق، لكن الفلق انشقاق، والفَرْق انفصال، وأصْل الفَرْق: الفصل والتمييز والتزييل بين الشيئين[٤].

﴿جَهْرَةً﴾: أي: علانية ظاهرًا، وأصله: إعلان الشيء وكشفُه وعلوُّه[٥].

﴿الصَّاعِقَةُ﴾: هي النَّار التي تنزلُ من السَّماء عندَ اشتداد الرَّعد، أو الصَّوت الشديد من الجوِّ، والوَقعُ الشَّديدُ منَ الرَّعْدِ، أو كلُّ عذاب مُهلك (الموت، والعذاب، والنار)، ومنه: صَعق، إذا مات، وأصل صعق: يدلُّ على شِدَّة الصَّوت[٦].

= (ص: ٥٥١-٥٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٣٩-٦٤٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠٣-٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩-٢٥٠، ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، =

﴿الْغَمَامَ﴾: جمع غمامة، وهو سحابٌ أبيضُ يُواري وجْهَ السماء، لكنَّه يُبقيها مستنيرة؛ سُمِّي بذلك لأنَّه يغمُّ السَّماء، أي يَسترُها ويُواريها، وأصل الغَمِّ: ستر الشيءِ[(١)].

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾، ومثله ﴿وَإِذْ آتَيْنَا﴾، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾... وأمثالها: إذْ- في ذلك كُلِّه- ظرف زمان، متعلِّق بفعل محذوف تقديره (اذكروا)، مبني في محلِّ نصب، عطف على ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾، والتقدير: واذكروا إذْ نَجَّيْناكم، واذكروا إذ فَرَقْنا...إلخ[(٢)].

المعنى الإجمالي:

يُخاطِب الله تعالى بَني إسرائيل، ويُذكِّرهم بنِعمه التي أسبغها عليهم، ويَعني بها النِّعمَ التي أَنعم بها على آبائهم، وأنَّه فضَّلهم على سائر الأُمم من أهل زمانهم، ثم بعدَ أنْ ذكَّرهم بنِعمه وفضله عليهم، حذَّرهم وخوَّفهم، وأمرَهم بأنْ يجعلوا بينهم وبين عذاب الله تعالى وقايةً في يوم القيامة، الذي لا تَقضي فيه نفْسٌ عن نفس حقًّا وجَب عليها، ولا تُقبل من نفْس شفاعةٌ لنفس أخرى، إذا كانت كافرةً، ولا يُقبل منها فِداءٌ، ولا أحد يُنقذهم من عذاب الله تعالى.

ثم ذكَّرهم بإنجائه آباءَهم من فرعون وشيعتِه، الذين كانوا يُديمون تعذيبَهم بعذاب سيِّئ شديد، وهو ذبْح الأبناء الذُّكور، واستبقاء الإناث أحياءً؛ لإذلالهنَّ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤-٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥-١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧١)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (ص: ٢٧٥-٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٩٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٦١)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ٢٥).

وإهانتهنَّ، وفي ذلك الإنجاءِ من العذاب نعمةٌ عظيمة لهم من ربِّهم.

ثم ذَكَّر بني إسرائيل بأنَّه فَرَق البحرَ لهم؛ ليسلكوا طريقًا للنجاة، فأنقذهم الله بذلك، وأغْرَق فِرعونَ وقومَه، وبنو إسرائيل ينظرون؛ ليكون أشْفَى لصدورهم، وأنكى لعدوِّهم.

وذَكَّرهم مواعدتَه لموسى أربعين ليلةً، ثم عبادتهم العِجلَ بعد أن فارقَهم موسى، وهم في هذا الفِعل ظالمون بوضعِهم العبادةَ في غير موضعها، ثم تجاوز الله عنهم؛ لعلَّهم يَشكُرونه على هذه النِّعمة.

وذكَّرهم إعطاءَه التوراةَ لموسى؛ ليهتدوا بها باتِّباع ما فيها.

ثمَّ ذكَّرهم مناداةَ موسى لهم، وإخبارهم أنَّهم تعدَّوْا في حقِّ أنفسهم باتِّخاذهم العِجلَ معبودًا، وأنَّ عليهم التوبةَ لخالقهم، بأن يقتُل بعضُهم بعضًا، وأنَّ ذلك أفضلُ لهم عند خالقِهم الذي تابَ عليهم؛ فهو التوَّاب الرَّحيم.

وذكَّرهم حِين قالوا لموسى عليه السَّلام: لن نُقِرَّ بما جِئتَ به، حتى نرَى اللهَ عِيانًا، فعُوقبوا بالصَّعق، ينظر بعضهم لبعض وهم يموتون، ثمَّ بعثَهم الله من بعد موتهم؛ ليشكروه على نِعمته عليهم بإحيائهم.

ثمَّ ذكَّرهم بتظليلهم بسحابٍ أبيضَ رقيق في أيَّام التِّيه؛ ليقيَهم حرارةَ الشَّمس، وبإنزال المنِّ والسَّلوى وأمرِهم بالأكلِ من طيِّب الرِّزق، ثم بيَّن تعالى أنَّهم بجحودهم، وعدمِ شُكرهم ومعصيتهم، لن يضرُّوا الله شيئًا، بل ذلك مضرَّةٌ لهم.

تفسير الآيات:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: يا بَنِي يعقوب كونوا مثلَ أبيكم في متابعة الحقِّ، واذكُروا نِعمه تعالى على آبائكم ذِكرًا يحملكم على شُكرها بالخضوع لله تعالى، وذلك بالدُّخول في دِينه، واتِّباع رسولِه الكريم صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ومنها النِّعم التي سيأتي ذِكرُها في هذه السُّورة الكريمة[١].

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

أي: واذكُروا تفضيلي لكم على سائرِ الأمم من أهل زَمانِكم، من إرسال الرُّسُل منكم، وإنزال الكتُب عليكم، وغير ذلك من النِّعم الخاصَّة[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَّرهم الله تعالى بنِعمه، عطَف على ذلك التحذيرَ من حلول نِقَمه بهم يومَ القِيامة، فقال[٣]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٤-٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥-٥٦).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العالية: ﴿وأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾، قال: بما أُعطوا من المُلك والرُّسل والكتُب، على عالَم مَن كان في ذلك الزَّمان؛ فإنَّ لكلِّ زمان عالمًا. قال أبو محمد: ورُوي عن مجاهد، والرَّبيع بن أنس، وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٠٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٦).

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾.

أي: أمَرهم الله أن يعتقدوا ويَفعلوا ما يكونُ حاجزًا يَقِيهم من عذابِه سبحانه، في يوم القِيامةِ الذي لا تَقضِي فيه نفْسٌ عن نفْس حقًّا وجَب عليها لغيرها، ولا يُغني فيه أحدٌ- كائنًا من كان- عن أيِّ أحدٍ شيئًا، ولو كان من عَشيرته الأقرَبِين، أو كان الشيءُ قليلًا ويسيرًا جدًّا[١].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣].

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾.

أي: لا يُقبَل من أيِّ نفْسٍ شفاعةٌ لنفْسٍ أخرى إذا كانت كافرةً على الإطلاق.

كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وقال سبحانه عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١].

أمَّا المؤمنة فتُقبل منها، إنْ كانت الشفاعةُ بإذن الله تعالى، مع رِضاه سبحانه عن المشفوعِ له[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

---

(١) نقل ابن عطية الإجماع على أنَّ هذه الآية في الكافرين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٣٩). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٣١)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٣٦، ٦٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٦٤).

أي: لا يُقبَل منها فِداءٌ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ [الحديد: ١٥] الآية.

﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

أي: ليس لهم أحدٌ يُنقِذهم من عذابِ الله تعالى[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥-٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٣٩،٦٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي(١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٣٩، ٦٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٦٩).

أي: واذْكُروا يا بني إسرائيل، نِعمتي عليكم بإنجاءِ آبائكم من شِيعة فِرعونَ وقومِه وملئِه، الذين كانوا يُذيقونهم- ويُديمون عليهم- عذابًا سيِّئًا وشديدًا، وهو ذبْح الأبناء الذُّكور، واستبقاء الإناثِ أحياءً؛ لإذلالهنَّ، وإهانتهنَّ، واستضعافهنَّ، وإنجاءُ الآباء إنجاءٌ لهم؛ ولذا وُجِّه الخِطابُ إليهم[١].

﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

أي: وفي إنجائِنا لآبائكم من عدوِّكم نعمةٌ عظيمةٌ لكم من ربِّكم[٢].

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر الله سبحانه وتعالى تسلُّطَ آل فِرعون على بني إسرائيل، ذكَر مآل هؤلاء المتسلِّطين، فقال[٣]:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾:

أي: ذَكَّرَ سبحانه بني إسرائيل بأنَّه فرَق البحر لهم، وبسبب دُخولِهم فيه، ففَصَل بعضَه عن بعض؛ ليسلكوا طريقًا يابسًا بيْن أجزاء البحر، فأنقذهم اللهُ تعالى بذلك من فِرعونَ وقومِه، الذين أغْرَقهم الله تعالى جميعًا، وأمكَن بني

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٤١-٦٤٤)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تَيميَّة (١/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٧٠-٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢).
قال ابنُ أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس: قوله: ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ يقول: نِعمة. ورُوي عن مجاهد، وأبي مالك، والسُّدِّي نحوُ ذلك)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٠٦). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٣).
ويُحتمل أن يكون المراد بـ ﴿ذَلِكُم﴾: أي سوء العذاب. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٧٣-٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٧٨).

إسرائيل من النَّظر إليهم بأبصارهم وهم يَغرَقون، فكان ذلك أشْفَى لصدورهم، وأبلغَ في إهانةِ عدوِّهم[١].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٦].

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَاعَدْنَا﴾ قراءتان:

١- (وَعَدْنَا) على معنى أنَّه وعْدٌ من الله تعالى لموسى عليه السلام، وليس فيه وعدٌ مِن موسى عليه السلام[٢].

٢- (وَاعَدْنَا) على معنى أنَّ المواعدةَ من الله سبحانه لموسى عليه السلام، ومِن موسى عليه السلام لربِّه[٣].

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

أي: واذكُروا يا بني إسرائيلَ مواعدتَنا لموسى تمامَ أربعين ليلةً، ثم عِبادتكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٧٥-٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢).

(٢) قَرَأَ بها أَبُو جَعْفَرٍ، وَالْبَصِرْيَّانِ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٣٩). ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٦٣).

(٣) قَرَأَ بها الْبَاقُونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٣٩). ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٦٣).

العِجلَ من بعد أنْ فارقَكم موسى متوجِّهًا إلى الموعِد، وأنتم ظالمون بوضعِكم للعبادةِ في غير موضعها؛ لأنَّ العبادةَ لا تَنبغي إلَّا لله عزَّ وجلَّ، وأنتم قد اتخذتُمُ العِجل إلهًا، والشركُ بالله تعالى ظلمٌ عظيمٌ(١).

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)﴾.

أي: تجاوزْنا عنكم بمحوِ أثر ذنبِكم بعبادة العِجل، فلم نعاقبْكم؛ لتكونوا من الشاكِرين نعمةَ الله تعالى عليكم بالعَفوِ(٢).

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)﴾.

أي: واذكُروا إعطاءَنا موسى التوراةَ، التي تُفرِّق بين الحقِّ والباطل؛ لتهتدوا بها باتِّباع الحقِّ الذي فيها(٣).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)﴾.

أي: واذكُروا حين نادَى موسى عليه السَّلام قومَه، يؤكِّد لهم ظُلمَهم لأنفسهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٦٦-٦٦٩، ٦٧٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٦١)، ((العذب النمير)) (١/ ٧٧، ٨١-٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٧٥-٦٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٨٥).
قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العالية في قوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يعني مِن بعد ما اتَّخذوا العِجل، ورُوي ذلك عن الرَّبيع بن أنس) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٠٨).

(٣) نقل ابنُ عطية في ((تفسيره)) (١/ ١٤٤) الإجماع على أن المراد بـ ﴿الكتابَ﴾: التوراة.
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٧٦، ٦٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٦١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٨٧-٨٩).
قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العالية في قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَالفُرْقَانَ﴾ قال: فرَّق فيه بين الحق والباطل، ورُوي عن مجاهد، والرَّبيع بن أنس نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٠٩).

باتِّخاذهم العِجلَ إلهًا يعبدونه؛ ولذا فقد وجَبتْ عليهم التوبةُ من هذا الجُرم الشنيع، في حقِّ مَن أَوجدهم من العدَم، فالذي خلقَهم هو من يستحقُّ أن يُعبَد وحده لا شريك له، ثمَّ وصَف لهم كيفيَّةَ توبةِ الله تعالى عليهم بأنْ يَقتُل بعضُهم بعضًا، فذلك خيرٌ لهم عند الله تعالى، الذي تاب عليهم؛ فهو التوَّاب الرَّحيم[1].

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ(٥٥)﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾.

أي: واذكُروا حين قلتُم لموسى عليه السَّلام، لن نصدِّقك ولن نُقرَّ بما جئتَنا به، حتى نرى الله عِيانًا، ننظُر إليه بأبصارنا[2].

كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

---

(١) قال القرطبيُّ: (أجمعوا على أنَّه لم يُؤمَر كلُّ واحد من عَبَدة العِجل بأن يقتُل نفْسَه بيده) ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٠١).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٧٩، ٦٨٥-٦٨٧)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تَيميَّة (٤/ ٣٣-٣٤)، (٧/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٦١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٩٠-١٠٠).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ معنى ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: أن يقتُل بعضهم بعضًا: ابن عبَّاس، وسعيد ابن جُبَير، ومجاهد، وقتادة، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٨٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٠٥-٥٠٧).

وقال ابنُ أبي حاتم: (عن قَتادة في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾، أي: عِيانا. قال أبو محمَّد: وكذا فسَّره الرَّبيعُ بن أنس: عِيانًا) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١١١).

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

أي: فعاقَبَكم الله تعالى بالصَّعْقِ فمتُّم، ينظرُ بعضكم إلى بعضٍ وهم يموتون[١].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)﴾.

أي: ثم أحييناكم من بعد موتكم بالصاعقة التي أهلكتكم؛ لتشكروني على نعمتي عليكم بإحيائكم؛ لتحدثوا توبةً من عظيم ذنبكم[٢].

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر تعالى ما دفعَه عنهم من النِّقم، ذكَّرهم أيضًا بما أسبغَ عليهم من النِّعم، فقال[٣]:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾.

أي: وارَيْنا عنكم وجْهَ السَّماء بالسَّحاب الأبيض الرَّقيق؛ لنَقِيَكم حرَّ الشَّمس في التِّيه[٤].

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾.

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٠٠-١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٩١، ٦٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٠٣، ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٠٧).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس قال: ثم ظَلَّل عليهم في التِّيه بالغمام-قال أبو محمَّد: ورُوي عن ابنِ عُمر، والرَّبيع بن أنس، وأبي مِجْلَز، والضحَّاك، والسُّدِّي، نحوُ قول ابن عبَّاس) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١١٣).

أي: يذكُر الله تعالى لهم أيضًا أنَّه أنزَل عليهم رِزقًا طيِّبًا سهلًا يحصُلون عليه بلا كُلفةٍ، ولا مشقَّة[١].

والمنُّ قيل هو كل ما امتن الله تعالى به عليهم من الطعام والشراب، مما ليس فيه تحصيله كلفة ولا مشقة[٢].

وقيل: هوالتُّرنجبين، وهو شيءٌ أبيضُ ينزِلُ على الشَّجر كالندى، حُلوٌ، يُشبِه العسلَ الأبيض[٣].

والسَّلوى طائر، قيل: هو السُّمَانَى، وقيل: يُشبه السُّمَانَى[٤].

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٢)، ونسبه الشنقيطي لأكثر المفسرين. يُنظر: ((العذب النمير)) (١/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٩٥).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المنَّ هو التُّرنجبين: السُّدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٠١-٧٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٩٥).

قال ابن عطية: (السَّلْوى طير بإجماع من المفسرين، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم.

قيل: هو السُّمَانَى بعينه. وقيل: طائر يميل إلى الحمرة مثل السُّمَانَى، وقيل: طائر مثل الحمام تحشره عليهم الجنوب) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٤٩).

وممن قال أن السَّلوى هو السُّمَانى: ابن عبَّاس - في راوية عنه - ومجاهد، والشعبيُّ، والضحَّاك، والحسن، وعِكرمة، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٠٥).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ السلوى طائرٌ يُشبه السُّمانَى: ابن عبَّاس - في رواية عنه - وابن مسعود، وغيرُهما من أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٠٤).

أي: قلنا لهم: كُلوا من طيِّبات ما رزقناكم، كهذا المنِّ والسَّلوى، وهما طيِّبانِ حسًّا ومعنًى؛ للذاذة طعمهما، وحِلِّيَّتهما شرعًا[١].

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أي: أنعمْنا عليهم هذِه النِّعم، فقابَلوا نِعمَنا بالجحود، بعدم الشُّكر، وارتكاب المعاصي، وما وضَعوا فِعلهم ذلك وعِصيانهم إيَّانا موضعَ مضرَّة علينا، ومنقصة لنا، ولكنَّهم وضَعوه من أنفسِهم موضعَ مضرَّة عليها ومنقصة لها، والمعنى: أنَّ هذا الظلمَ واقعٌ على أنفسهم؛ حيثُ عرَّضوها به لسَخَطِ الله عزَّ وجلَّ وعِقابه، فضررُ فِعلهم عائدٌ إليهم، والله سبحانه وتعالى لا تضرُّه معاصي خَلْقه، ولا تنفعُه طاعاتُهم[٢].

الفَوائِد التربويَّة:

١- نِسبة النِّعَم دائمًا إلى الله عزَّ وجلَّ؛ فهذه النِّعمة على بني إسرائيل لم تأتِ بكَسْبهم، ولا بكدِّهم، ولا بإرثٍ عن آبائهم، وإنَّما هي بنعمةِ الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[٣].

٢- التفكُّر في سَعة حِلم الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه مهما بارَز الإنسانُ ربَّه بالذُّنوب، فإنَّ حِلم الله تعالى قد يَشمله، فيُوفَّق للتوبة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٤].

٣- أنَّ إنزالَ الله تعالى الكتُبَ للناس من نِعَمه وآلائه، بل هو من أكبرِ النِّعم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧١٠-٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٨٢).

لأنَّ الناس لا يمكن أن يستقلُّوا بمعرفة حقِّ الخالق، بل ولا حقِّ المخلوق؛ ولذلك نزلت الكتُبُ تِبيانًا للناس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١].

٤- أنَّ الله تبارك وتعالى يُنزل الكتُب، ويجعلها فُرقانًا؛ لغايةٍ حميدةٍ حقًّا، وهي الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٢]، فمَن أراد الهداية، فلْيطلبها من الوحي الإلهيِّ[٣].

٥- أنَّه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يستعملَ الأسلوبَ الذي يَجذِب إليه الناسَ، ويعطفهم عليه؛ لقوله تعالى حكايةً عن موسى: ﴿يَا قَوْمِ﴾؛ فإنَّ هذا لا شكَّ فيه من التودُّد، والتلطُّف، والتحبُّب ما هو ظاهر[٤].

٦- أنه يَنبغي للداعي إلى الله أن يبيِّن الأسبابَ فيما يحكُم به؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾[٥].

٧- أنَّه يَنبغي التعبيرُ بما يناسب المقام؛ لقوله: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾؛ لأنَّ ذِكر (البارئ) هنا كإقامة الحُجَّة عليهم في أنَّ العِجلَ لا يكون إلهًا؛ فإنَّ الذي يستحقُّ أن يكون إلهًا هو البارئ، أي: الخالق سبحانه وتعالى[٦].

٨- أنَّ التوبة لازمةٌ على الفور؛ لقوله: ﴿فَتُوبُوا﴾؛ لأنَّ الفاء للترتيب، والتعقيب[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٨٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٨٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٩- أنَّ الأمَّة كنَفْس واحدة؛ وذلك لقوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[١].

١٠- إثبات تفاضُل الأعمال؛ لقوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾[٢].

١١- في إثباتِ اسْمَي (التواب)، و(الرحيم) لله سبحانه أمَلٌ ورحمة؛ فينبغي للإنسان أن يتعرَّض لِمَا يقتضيه هذان الاسمانِ من أسماء الله، فيتعرَّض لتوبةِ الله، ورحمتِه[٣].

١٢- أنَّ مَن سأل ما لا يمكن، فهو حريٌّ بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾[٤].

١٣- أنَّ ألم العقوبة، ووقعَها أشدُّ إذا كان الإنسانُ ينظُر إليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[٥].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ قال: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بدون واو، وفي سورة إبراهيم قال سبحانه: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦] فقال: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ بزيادة الواو؛ وذلك لأنه أريد بالآية التي في سورة البقرة تبيين صفات العذاب وتفسيرها؛ لذا فسر سوء العذاب بأنه التذبيح والاستحياء؛ لأنَّه لم يرد الأمر إلا بتذكير جنس النعمة في قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، فسواء كان المراد من سوء العذاب هو الذبح أو غيره كان تذكير جنس

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٨٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

النعمة حاصلًا، وفي سورة إبراهيم دلَّ بسوء العذاب على أنواع غير التذبيح والاستحياء، وعطف التذبيح والاستحياء عليها؛ لأنه لما قال فيها: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾ أي بأياديه ونِعَمِه عليهم ناسب العطف بالواو في قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾؛ ليدلَّ على تعدد النِّعم والأيادي[١].

٢- أنَّ الآل يَدخُل فيهم مَن ينتسبون إليهم؛ فقد قال تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ﴾ ويدخل فيهم فرعون؛ فالرجل حيث أضيف إلى آله دخل فيهم[٢].

٣- أنَّ هلاك عدوِّ الإنسان وهو يَنظُر إليه من نِعمة الله عليه، كما قال تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[٣].

٤- أنَّ الله تعالى سَخِر من فرعون، حيث أهلكه بجِنس ما كان يَفتخِر به، وأَوْرَث أرضَه موسى عليه السلام، فقد كان فرعون يقول: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٤].

٥- قوله جلَّ وعلا: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ عبَّر بالليالي؛ لأنَّها قبل الأيَّام، والمقرَّر في فنِّ العربية أنَّ التاريخ بالليالي؛ لأنَّها قبل الأيام[٥].

٦- نِعمة الله تبارك وتعالى بما هيَّأه لعباده من الظلِّ؛ فقد جعَل الله تعالى الغمامَ ظلًّا على بني إسرائيل[٦].

٧- قوله جلَّ وعلا في هذه الآية: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ فيه الدَّليل الواضحُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٢٥)، ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٧٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٨٠).

(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٨٠-٨١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٩٦).

أنَّ نفْي الفِعل لا يستلزم إمكانَه؛ لأنَّ الله نفى عنه أنَّهم ظلموه، ونفيه جلَّ وعلا عن نفْسه أنَّهم ظلموه، لا يدلُّ على أنه يُمكنهم أن يظلموه، بل نفْي الفِعل لا يدلُّ على إمكانه(١).

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عطفُ الخاص على العام؛ لأنَّ قوله ﴿نِعْمَتِيَ﴾ عمَّ جميع النِّعم؛ لبيان الكمال، والتأكيد على خُصوصيَّة هذه النِّعمة، ومزيد فضلها، وتميُّزها على سائر النِّعم(٢).

٢- في قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾ تنكيرُ اليوم؛ للتهويل والتعظيم، أي: يومًا شديد الهول، عظيم الخطب، وتنكير النَّفس يُفيد العمومَ والإقناط الكُلِّي(٣).

٣- قوله: ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أتى بالجُملة المعطوفة الأخيرة اسميَّةً، مع أنَّ الجمل التي قبلها فعليَّة؛ للمبالغة، وللدَّلالة على الثَّبات والدَّيمومة، أي: إنهم غير منصورين دائمًا، ولا عبرةَ بما يصادفونه من نجاح مؤقَّت(٤).

٤- قوله: ﴿بَلاء﴾ و﴿عَظِيمٌ﴾ التنكير فيهما؛ للتفخيم والتهويل(٥).

٥- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ حذف مفعول الاتِّخاذ الثاني، وتقرير المعنى: اتخذتُم العِجل إلهًا، وهذا المفعول الثاني محذوف في جميع القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥٤] أي:

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٠٠).

إلهًا. وقولِه سبحانه: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]، أي: إلهًا، قال بعض العلماء: النُّكتة في حذفِه التنبيهُ على أنَّه لا يَنبغي لعاقل أن يتلفَّظ بأنَّ عِجلًا مُصطنعًا من حُليٍّ أنَّه إلهٌ[١].

٦- **قوله:** ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه التفات[٢] من التكلُّم الذي يتطلَّبه سياقُ الكلام إلى الغَيبة؛ إذ كان مقتضى المقام أن يقال: (فوفقتكم فتبتُ عليكم)[٣]. ولم يقل: (فتابَ عليهم) مع أنَّ الضَّميرَ للقوم؛ لأن ذلك نِعمةٌ أُريد التذكيرُ بها للمخاطَبين لا لأسلافهم[٤].

٧- **قوله:** ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ... خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ فيه تَكرار للبارئ؛ للتوكيد، ولأنَّها جملة مستقلة؛ فناسَب الإظهار، وللتنبيه على أن هذا الفعل أفضل عند الذي أنشأكم، فكما رأى إنشاءكم، رأى توبتكم بالقتل، فينبغي التسليم له في كلِّ حال، وتلقِّي ما يرِدُ من قِبله بالقَبول والامتثال[٥].

٨- **قوله:** ﴿جَهْرَةً﴾ انتصب على أنَّه مصدر مؤكِّد لـ ﴿أَرِنَا﴾؛ للتأكيد على أنَّهم طلبوا الرؤية العينيَّةَ، ولإزالة احتمال أن تكون الرؤية منامًا، أو عِلمًا بالقلب[٦].

- وعَدَلَ عن أن يقول: (عِيانًا) إلى قوله: (جَهرةً)؛ لأنَّ جهرةً أفصح لفظًا؛ لخفَّته؛ فإنَّه غير مبدوء بحرف حَلق، ولسلامته من حرف العِلَّة، فحسُن وقعها

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٨٢).

(٢) هذا على أن قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ خطاب من الله لهم. وأما على القول بأنه من قول موسى عليه السلام كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم، فلا التفات فيه.

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٤٠)، ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٠٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٣٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٤٠).

في الكلام، وخفَّت على السَّمع، وللقرآن السهم المعلَّى في ذلك، وهو في غاية الفصاحة[١].

٩- **قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾** فيه عدة أوجه بلاغيَّة:

- **فقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾**: فيه التفات؛ إذ انتقل من خِطاب بني إسرائيل إلى الحديث عنهم بضَمير الغَيبة؛ للإيذان باقتضاء جِنايات المخاطبَين للإعراض عنهم، وتَعداد قبائحهم عند غيرهم، ولقصد الاتِّعاظ بحالهم، وتعريضًا بأنَّهم متمادون على غيِّهم، وليسوا مستفيقين من ضلالهم[٢].

- والجمع بين صِيغتَي الماضي والمضارع ﴿**ظَلَمُونَا**﴾ و﴿**يَظْلِمُونَ**﴾؛ للدَّلالة على تماديهم في الظُّلم، واستمرارهم على الكُفر[٣].

- و﴿**ولَكِنْ**﴾ وقعت هنا أحسنَ موقع؛ لأنَّه تقدَّم قبلها نفيٌ، وجاء بعدها إيجابٌ؛ ولأنَّه لَمَّا تقرَّر أنه قد وقَع منهم ظلمٌ، ونُفي وصولُ ذلك الظلم إلى الله تعالى، بقِيت النفسُ متشوِّفةً ومتطلِّعة إلى ذِكر مَن وقَع به الظُّلم، فاستدرك بأنَّ ذلك الظُّلم الحاصل منهم إنَّما كان واقعًا بهم[٤].

- و﴿**أَنفُسَهُمْ**﴾: معمول مُقدَّم على الخبر؛ ليحصلَ بذلك توافُق رؤوس الآي والفواصل، وللاعتناء بالإخبار عمَّن حلَّ به الفعل[٥].

١٠- **وفي هذه الآيات جاء ترتيب النِّعم متناسقًا**، يأخذ بعضه بعُنق بعض، وهي أفعال يتلو بعضها بعضًا؛ فأوَّلها الإنجاءُ من سوء العذاب- ذبْح الأبناء،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥١٢)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٤٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٤٩).

واستحياء النِّساء- بإخراج موسى إيَّاهم من مصر، ثم فَرْق البَحْر بهم وإرائهم عِيانًا هذا الخارق العظيم، ثم وعْد اللهِ لموسى بمناجاته وذَهابه إلى ذلك، ثم إيتاء موسى التوراةَ، والعفوُ عنهم بعد اتِّخاذهم العجل، وقد ختَم كلَّ فصلٍ منها بمناسبِه:

فجاءت هذه الجُمل في غايةِ الفَصاحة لفظًا، والبلاغة معنًى؛ إذ جمعت الألفاظ المختارة، والمعاني الكثيرة، متعلِّقًا أوائل أواخرها بأواخر أوائلها، مع لُطف الإخبار عن نفسه، فحيث ذكَر النِّعم صرَّح بأن ذلك من عنده، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم﴾، وقال: ﴿وظَلَّلْنَا﴾ ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾، وحيث ذكر النِّقم لم ينسبها إليه تعالى، وإن كانت منه حقيقةً، فقال: ﴿فَأَخَذَتْكُم الصَّاعِقةُ﴾، وسرُّ ذلك: أنَّه موضِع تعداد للنِّعم، فناسب نِسبةَ ذلك إليه؛ ليُذكِّرهم آلاءَه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٥٠).

الآيات (٥٨-٦١)

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿حِطَّةٌ﴾: أي: حُطَّ عنَّا ذنوبَنا، وأصل الحطِّ: إنزال الشيء من علو[١].

﴿رِجْزًا﴾: عذابًا، وأصله: الاضطراب[٢].

﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾: ولا تفسدوا، وأصل العيث: الفساد، والعيث والعثي متقاربانِ، إلَّا أنَّ العَيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يُدرك حسًّا[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

﴿بَقْلِهَا﴾: البقل قيل: هو النَّبات الذي لا ساقَ له، وقيل: ما لا ينبت أصلُه وفرعه في الشِّتاء، وقيل غير ذلك[١].

﴿قِثَّائِهَا﴾: القثَّاء: اسم جنس واحده قُثَّاءة- بضمِّ القاف، وكسرها- قيل: هو الخيار المعروف، وقيل غير ذلك[٢].

﴿فُومِهَا﴾: الفوم: قيل: هو الثوم؛ أُبدلت الثاء بالفاء، مثل: جدث وجدف للقبر. وقيل: هو الحنطة، والخبز جميعًا؛ من قولهم: فوَّموا، أي: اختبزوا- وهي لغة قديمة- ويقال: الفوم الحبوب[٣].

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: (حطة): مرفوعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أي: سؤالنا أو رغبتنا حطة، والجملة في محل نصب مفعول به مقول القول. أو مرفوعة على الحِكاية، وهي وحدها المفعول به للقول، ومنع من ظهور علامة النصب اشتغالُ المحلِّ بحركة الحكاية. وعلى قراءة النصب: فـ(حطة) مصدر لِفعل محذوف، أي: حطّ عنا ذنوبنا حِطَّةً[٤].

المعنى الإجمالي:

يُذكِّر الله بني إسرائيل حين أمَرهم أن يدخلوا بيتَ المقدس، ويأكلوا منه رزقًا

---

(١) يُنظر: ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (١/ ٤٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٠).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٩٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٣٧٣)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ٢٧).

واسعًا هنيئًا، وأنْ يخضعوا له سبحانه عند دخولِه بالسُّجود له، وطلَب المغفرة منه جلَّ وعلا، فإذا فعَلوا ذلك فقد وعدَهم الله بمغفرة ذُنوبهم، ويَزيد الله مِن فضلِه مَن أحسن منهم.

فغيَّر الظالمون منهم القولَ الذي أُمِروا بقوله، فأنزل الله على هؤلاء عذابًا من السَّماء؛ بسببِ عِصيانهم.

وذكَّرهم حين طلَب موسى من الله تعالى ماءً يَشرَب منه بنو إسرائيل، فأمَره الله أنْ يضرِبَ بعصاه الحجرَ، فخرجتْ من الحجر اثنتَا عَشرةَ عينًا من الماء، قد علِمتْ كلُّ قبيلة محلَّها الذي تشرَب منه، وأمَرَهم أن يأكلوا ويَشرَبوا من رِزق الله، وألَّا يَسعوا في الأرض بالفساد.

ثمَّ ذكَّرهم الله تعالى حين أَخبروا موسى أنَّهم لن يصبِروا على طعام واحد، وهو المنُّ والسَّلوى، وطلَبوا منه أن يَدْعوَ لهم اللهَ؛ كي يخرجَ لهم بعضَ ما تُنبته الأرض من البَقل، والقِثَّاء، والفُوم، والعدَس، والبَصل، فاستنكر عليهم موسى استبدالَهم الطعامَ الدَّنيءَ بالأطعمةِ الهنيئة، وأمَرهم أن ينزلوا أيَّ مِصرٍ من الأمصار، فسيجِدوا ما طلبوا.

وأصبح الهوانُ والصَّغار مفروضًا عليهم، كما أنَّهم رجَعوا متحمِّلين غضَبَ الله، وهذا الذي جازاهم الله به هو بسببِ جُحودهم آياتِ الله، وتقتيلهم لأنبيائِه بغير حق، وذلِك الجزاء الذي عُوقِبوا به- أو ذلك الكُفر بآيات الله عزَّ وجلَّ والقتْل لأنبيائِه- إنَّما وقَع نتيجةَ عِصيانهم، وتجاوزِهم حدودَ الله تعالى.

تفسير الآيات:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾.

أي: واذكُروا حين أمَرْنَا بني إسرائيل بالدُّخول لبيت المقدِس، وأن يأكُلوا منها من أيِّ مكان فيها رِزقًا واسعًا هنيئًا[١].

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾.

أي: إنَّهم أُمروا أن يَخضعوا له سبحانه بالفِعل والقول عند دُخولِهم أحدَ أبواب بيت المقدس، بأنْ يدخُلوا رُكَّعًا متواضعين، وأن يَطلُبوا من الله تعالى أن يضَعَ عنهم ذُنوبَهم وخطاياهم[٢].

﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: إذا فعلتُم يا بني إسرائيل، ما أمَرَكم الله تعالى، فسيستُر عليكم ذنوبَكم، ويتجاوز عنها، وسيَزيد سبحانه إيمانًا، أو حسناتٍ من فَضلِه- عاجلًا أو آجلًا- مَن أحْسَن في عبادة الله تعالى، ومَن أحسن للخَلْق بوجوه الإحسان المختلِفة[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧١٢-٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١١٠-١١٢).

وممَّن قال من السَّلف أن القرية المذكورة هنا هي بيت المقدس: قَتادةُ، ورُوي عن الرَّبيع بن أنس، والسُّدِّي نحوُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧١٥-٧١٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٣)، ((جامع الرسائل)) لابن تَيميَّة (١/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١١٢-١١٣).

وممَّن قال معنى ﴿سُجَّدًا﴾ أي: رُكَّعًا: ابن عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧١٤).

وممَّن قال من السَّلف بأن معنى: ﴿حِطَّةٌ﴾: مغفرة، أي: استغفِروا، ابن عبَّاس، ورُوي عن عطاء، والحسَن، وقتادة، والرَّبيع بن أنس نحوُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧١٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٢٠-٧٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١١٤-١١٥).

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

أي: فغيَّر الظالمون منهم القولَ الذي أُمِروا أن يقولوه بقولٍ غيرِه، فقالوا بدَلَ حِطَّة: حَبَّة في شَعرة، وإذا بدَّلوا القول مع خِفَّته، فتبديلُهم للفِعل من باب أَوْلى وأحرى؛ ولهذا دخَلوا يَزحَفون على أَدبارِهم[١].

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((قيل لبَني إسرائيلَ: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، فبدَّلوا، فدخلوا يَزحَفون على أَستاهِهم، وقالوا: حبَّةٌ في شَعرةٍ))[٢].

﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

أي: أنزل الله تعالى على هؤلاء- الذين استبدلُوا بالقولِ الذي أُمِروا به قولًا غيرَه- عذابًا من السَّماء؛ بسبب خروجهم عن طاعةِ الله تعالى إلى معصيتِه[٣].

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٢٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١١٥).
قال ابنُ أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس: في قوله: (ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا) رُكَّعًا من باب صغيرٍ يَدخُلون من قِبل أستاههم، وقالوا: حِنطة فهو قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾، ورُوي عن عطاء، ومجاهد، وعكرمة، وقَتادة، والضحَّاك، والحسَن، والرَّبيع، ويحيى بن رافع نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١١٩).

(٢) رواه البخاري (٤٦٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٢٩-٧٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١١٨، ١١٩).
قال ابنُ أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿رجزًا﴾ قال: كلُّ شيء في كتاب الله من الرِّجز يعني به: العذاب، قال أبو محمَّد: ورُوي عن الحسَن، وأبي مالك، ومجاهد، والسُّدِّي، وقَتادة نحوُ ذلك)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٢٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٣٠).

عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)﴾.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾.

أي: واذكُروا حين طلَب منَّا موسى ماءً لبني إسرائيل يَشرَبون منه[١].

﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قد استجاب لطلبِ موسى عليه السَّلام، فأمَره بأن يضرِبَ عصاه بحجرٍ، ففعَل ذلك، فخَرجتْ من الحَجر اثنتَا عَشرةَ عينًا من المياه العَذْبة؛ تيسيرًا لهم، وإنعامًا من اللهِ تعالى عليهم[٢].

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾.

أي: إنَّ كلَّ قبيلةٍ من قبائل بني إسرائيل الاثنتي عَشرة، قد عرَفَتْ محلَّها الذي تَشرَبُ منه من هذه الأعين الخارجة من الحَجر، فلا يُزاحم بعضُهم بعضًا، بل يَشربونه متهنِّئين[٣].

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ﴾.

أي: كُلُوا واشْربوا من هذا الرِّزقِ الإلهيِّ، الذي آتاكم مِن غيرِ كدٍّ ولا تعب. وهذا أمْرَ إباحةٍ وإرشادٍ لهم مِن الله تعالى[٤].

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥-٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٨-٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥١٩).

أي: لا تَسْعَوْا في الأرضِ بالفَسادِ[١].

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾.

أي: واذكُروا يا معشرَ بني إسرائيل حين أخبرتُم موسى عليه السَّلام بضجرِكم وكراهيتِكم للمَنِّ والسَّلوى، وأنْ لا طاقةَ لكم بحَبْس أنفسِكم على تناوُل هذا الطَّعام الذي رزَقَكم الله تعالى رِزقًا هنيئًا سهلًا بلا عناءٍ[٢].

﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

أي: ادعُ لأجْلِنا يا موسى، ربَّك؛ كي يُخرجَ لنا بعض ما تنبته الأرضُ من البَقل والقِثَّاء والفُوم، ومن العَدَس والبَصَل[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٥٢)، ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥١٩-٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٢١).

(٣) قال ابن جرير: (والبقل والقثاء والعدس والبصل، هو ما قد عرفه الناس بينهم من نبات الأرض وحبها) ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥).

وذهب السعدي في ((تفسيره)) (ص: ٥٣)، وابن عثيمين في ((تفسيرالفاتحة والبقرة)) (١/ ٢١١) إلى أنَّ البقل هو النبات الذي لا ساق له. وقال الواحدي: (وهو كل نبات لا يبقى له ساق إذا رعته الماشية) ((التفسير الوسيط)) (١/ ١٤٦).

وقيل القثاء هو نوع من الخضروات. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٦). قال =

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾.

أي: إنَّ موسى عليه السَّلام استنكر عليهم ووبَّخهم بسؤالِهم له طلبَ تلك الأطعمة الدَّنيئة من البقول وغيرها، مع ما لديهم من الطعام الهَنيء، مستبدلين الوضيعَ من العيش بالرَّفيع منه! فقال لهم موسى: أتأخُذون الذي هو أخسُّ قِيمةً وقدرًا من العيش، بدلًا بالذي هو خيرٌ منه قيمةً وقدرًا[(١)]؟!

﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾.

أي: هذه الأطعمةُ التي طلبتُم ليستْ بأمرٍ عزيز، بل هي كثيرةٌ؛ ففي أيِّ بلد دخلتموه ستجدون هذا العيشَ الذي تطلُبون[(٢)].

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾.

= السعدي هو الخيار. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، وقال ابن عثيمين هو صغار البطيخ. يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢١١).

وممن ذهب إلى أن الفوم هو الحنطة: الواحدي وذكر إجماع أهل اللغة على ذلك. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (١/ ١٤٦). ونسبه ابن عطية إلى أكثر المفسرين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٥٣).

وممَّن قال من السَّلف بأن الفوم: الحِنطة: ابن عبَّاس ومجاهد، والحسَن، وأبو مالك، وعِكرمة، وعطاء بن أبي رَباح. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٢٣).

وممن ذهب إلى أن الفوم هو الثوم: السعدي في ((تفسيره)) (ص: ٥٣)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (١/ ٥٢٢)، وابن عثيمين ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢١١).

وممَّن قال من السَّلف بأن الفوم: الثوم: ابن عبَّاس في رواية أخرى، وسعيد بن جبير والرَّبيع والضحاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٩-٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٠-٢٨١) ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨١-٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢١٢).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ قال: مصرًا من الأمصار، ورُوي عن السُّدِّي، وقتادة، والرَّبيع بن أنس نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٢٤). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٢).

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كان الذي جرَى منهم أكبرَ دليل على قِلَّة صبرهم، واحتقارهم لأوامرِ الله ونِعمه، جُوزُوا من جنس عملهم، فقال تعالى[١]:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾.

أي: أصبح الهوانُ والصَّغار مفروضًا عليهم، وأصبح أثرُ مسكنة الفقر والحاجة والحِرص -من المهانة والخضوع على قلوبِهم، أو ظواهر أبدانهم- لازمًا لهم، كما أنَّه قد حلَّ عليهم غضبٌ من الله تعالى، ورجَعوا متحمِّلين سخطَ الله تعالى عليهم[٢].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

أي: هذا الذي جازيناهم من الذِّلَّة والمسكَنة، واستحقاقهم غضبَ الله عزَّ وجلَّ؛ بسبب جحودِهم آياتِ الله تعالى الكونيَّةَ والشرعيَّة، فاستكبروا عن اتِّباع الحقِّ، واعتدَوْا على أنبياء الله تعالى بالقَتْل بلا وجه حقٍّ يخوِّل تلك الأفعالَ الشَّنيعة[٣].

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

أي: ذلك الجزاء الذي جُوزوا به، مِن ضَرْب الذِّلة والمسكنة، وإحلال الغضبِ عليهم، أو ذلِك الكفر بآيات الله عزَّ وجلَّ، والقتْل لأنبيائه، إنَّما سببُه هو عصيانُهم لله تعالى، أي: خروجهم عن طاعته؛ إمَّا بارتكاب المحظور، وإمَّا بترْك المأمور، ومِن أسباب ذلك أيضًا استمرارُهم على تجاوُز حدود الله تعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٦-٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٢٧-٥٢٨).

وممَّن قال من السَّلف بأن المسكنة هي الفاقة: أبو العالية، والسُّدِّي، والرَّبيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٨-٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣١-٣٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٩)، =

الفَوائِد التربويَّة:

١- يَنبغي على مَن نصَرَه الله عزَّ وجلَّ، وفتَح له البلادَ، أن يدخُلَها على وجه الخضوع، والشُّكر لله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾[١].

٢- أنَّ الجهادَ مع الخضوع لله عزَّ وجلَّ، والاستغفارَ سببٌ للمغفرة؛ لقوله تعالى: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، وسببٌ للاستزادة أيضًا من الفَضل؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

٣- أن الإحسان سببٌ للزيادة، سواء كان إحسانًا في عِبادة الله، أو إحسانًا إلى عِباد الله، كما قال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣].

٤- مشروعيَّة الاستسقاء عندَ الحاجة إلى الماء؛ لأنَّ موسى عليه السلام استسقى لقومِه، وشَرْع مَن قبلنا شرْعٌ لنا إنْ لم يرِدْ شرعُنا بخلافه[٤].

٥- أنَّ ما خلق الله تعالى من المأكول والمشروب للإنسان، فالأصلُ فيه الإباحة والحِلُّ، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ﴾[٥].

٦- النِّعمة على الآباء، تلحق الأبناء، والذم الذي يوصف به الآباء يلحق الأبناء إذا كانوا على طريقتهم، فقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى...﴾ فيه الخطابُ لهم بأفعال غيرِهم، ممَّا يدلُّ على أنَّ الأُمَّة المجتمِعة على دِين تتكافَل وتتساعد على

= ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٩).

مصالحها، حتى كأنَّ متقدِّمهم ومتأخِّرهم في وقت واحد، وكأنَّ الحادثَ من بعضهم حادِثٌ من الجميع[١].

٧- أنَّ مَن اختار الأدْنى على الأعلى، ففيه شَبهٌ من اليهود، ومن ذلك هؤلاء الذين يختارون الشيءَ المحرَّم على الشيءِ الحلال[٢].

٨- أنَّ اختيار الأفضل من المآكِل، والمشارب، لا ذَمَّ فيه إذا لم يصِل إلى حدِّ الإسراف[٣].

٩- أنَّ الذي يستبدل الأدنى بالذي هو خيرٌ، يستحقُّ التوبيخَ؛ لأنَّ موسى وبَّخهم، حيثُ قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾[٤].

١٠- أنَّ مِن علوِّ همَّة المرء أن ينظُر للأكملِ والأفضلِ في كلِّ الأمور[٥].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ السُّقيا كما تكون بالمطر النازِل من السَّماء، تكون بالنابع من الأرض، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[٦].

٢- غَطرَسةُ بني إسرائيل، وجفاؤهم؛ لقولهم: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾؛ ولم يقولوا: (ادع لنا ربَّنا)، أو: (ادع لنا الله)؛ كأنَّ عندهم- والعياذ بالله- أَنفَةٌ، مع أنَّهم كانوا مؤمنين بموسى، ومع ذلك يقولون: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، كما قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤][٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢١٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٨).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٥).

٣- أنَّ بَني إسرائيل لا يقومون للمسلمين لو حاربوهم من قِبل الإسلام؛ لأنَّ ضرب الذلة عليهم وقع بسبب المَعصيةِ، فإذا حُورِبوا بالطَّاعة، فلا شكَّ أن الوبالَ سيكون عليهم[١].

٤- يتبين من قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾، أنَّ اليهود قد ضُرِبت عليهم المسكنةُ، وهذا يَشمل فقرَ القلوب الذي هو شِدَّة الطَّمع، بحيث إنَّ اليهوديَّ لا يَشبع، ولا يتوقَّف عن طلب المال، ولو كان من أكثرِ الناس مالًا؛ ويَشمل أيضًا فقرَ المال وهو قِلَّتُه[٢].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ إثباتُ صِفة الغضَب لله عزَّ وجلَّ[٣].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾

- فيه وضْع الظاهر ﴿الَّذِين ظَلَمُوا﴾ موضعَ المضمر فلم يقل: (فأنزلنا عليهم)؛ زيادةً في تقبيح أمرهم، وتهويل ظُلمهم، والمبالغة في ذمِّهم وتقريعهم. وللتأكيد على أهميَّة ذِكره في السِّياق؛ لأنَّهم ظلموا في الوقت الذي أَنعم الله عليهم، وعصَوْا أمْرَ ربِّهم، وأيضًا ليبيِّن أنَّ هذا الرِّجزَ مُنزلٌ عليهم بسببِ ظُلمهم، والضَّمير لا يُعطي هذا[٤].

وعبَّر في سورة الأعراف بالمُضمَر ﴿عَلَيهِمْ﴾؛ لأنَّ آيات الأعراف سِيقت لمجرَّد العِبرة بقصَّة بني إسرائيل، وآيات البقرة سِيقت مساقَ التوبيخ، والقصد

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الحجة في بيان المحجة)) لقوام السنة الأصبهاني (٢/ ٧٥٤)، ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٠٤)، ((العقيدة الطحاوية)) (ص: ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) مع الحاشية (١/ ١٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٦٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٠٩).

فيها بيان سببِ إنزال العَذاب عليهم مرَّتين[١].

- وتنكير ﴿رِجْزًا﴾؛ للتهويل والتَّفخيم[٢].

٢- **قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ﴾** قوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حالٌ مؤكدة؛ ليكسُوَ النهيَ عن الفساد قوةً، ويجعله بعيدًا من أن يُغفل عنه أو يُنسى[٣].

٣- **قوله: ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾** تَقييدٌ؛ لِزيادة التَّشنيع بقُبْح عُدوانهم؛ فإنَّ قتل الأنبياء لا يكون بحقٍّ البتَّةَ[٤].

٤- **قوله: ﴿بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾**

- لم يَعطف الاعتداءَ على العِصيان؛ لئلَّا يفوت تناسبُ مقاطع الآي، وليدلَّ على أنَّ الاعتداء صارَ كالشيء الصادر منهم دائمًا[٥].

- وفيه: لَفٌّ ونشْر؛ حيث ذكر شيئين (يكفرون- ويقتلون)، وقابلهما بشيئين (عصوا- يعتدون)؛ وذلك من محاسن الكلام[٦].

- جوازُ إسناد الشيءِ إلى مكانه لا إلى الفاعل الأوَّل؛ لقولهم ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾؛ والذي يُنبت حقيقةً هو اللهُ سبحانه وتعالى[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٨٢-٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٨٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٨٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٦).

الآيات (٦٢-٦٦)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿وَالصَّابِئِينَ﴾: جمْع صابئ، وهو الخارج من دِينه إلى دينٍ آخَر، وأصله الخروج، يقال: صبأت النُّجُوم خرجت من مطالعها[١]. وهم فِرق؛ منها: الصابئة الحُنفاء[٢].

﴿نَكَالًا﴾: أي: تنكيلًا وعقوبةً، وعِبرةً وعِظةً لمن وراءهم، وأصله: المنع والامتناع؛ وسمِّي النَّكال؛ لأنَّه فعل به ما يمنعه من المعاودة، ويمنع غيرَه من إتيان مِثل صنيعه[٣].

﴿خَاسِئِينَ﴾: أي: باعِدين ومبعدين، وهو إبعاد بمكروهٍ، صاغرين ذَليلين،

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٢٥٠-٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢، ١٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

أو مُنزجِرين، ومنه: خسَأ البَصرُ، أي: انقبَض عن مَهانةٍ[١].

المعنى الإجمالي:

يُخبر تعالى أنَّ الذين آمَنوا من أمَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ومَن كان منهم على الدِّين الحقِّ في وقْته قَبلَ وقوع النَّسخ، أو حدوث التحريفِ، من اليهود، والنَّصارى، والصَّابئين- يخبر أنَّ الذين أحسنوا منهم، وأطاعوا، فلهم ثوابُهم عند ربهم، ولا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يُخلِّفونه، وأمَّا بعد بعثةِ النبيِّ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فلا يَدخُل في هذا الوعدِ بـهذا الأجْر إلَّا مَن آمن به، والْتزَم بشَرعِه.

ثم ذكَّر سبحانه وتعالى بني إسرائيل حين أَخَذ عليهم عهدًا مُؤكَّدًا، بالإيمانِ به وبرُسلِه، والالتزامِ بشَرْعِه، وأنَّه رفَع فوقهم الجبلَ لتخويفهم؛ كي يُقرُّوا بما عُوهدوا عليه، وأمَرَهم بأخْذ التوراة بهِمَّة وحزْم، وأن يذكروا ما فيها، بأنْ يتلوها ويَعمَلوا بما فيها؛ رجاءَ أن يكونوا من المتَّقين.

ثم أخبَرَ سبحانه وتعالى أنَّهم نقَضُوا العهدَ، وأعرضوا عنه، فلولا أنْ أكرمَهم الله تعالى، فتداركهم بالتوبةِ، لكانوا من الهالِكين في الدُّنيا والآخِرة.

وقد عَرفتم يا معشرَ اليهود، الذين تَعدَّوْا حدودَ الله منكم، وتجاوزوا ما أمرهم الله به مِن تَرْك صَيد البَحر يومَ السَّبت، فمَسخَهم الله في صور قِردَةٍ حَقيرينَ ذَليلينَ، فجَعَل الله هذه العقوبةَ رادعةً لِمَن حول الممسوخين، وتذكرةً للمتَّقين؛ ليعتبروا بها.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

في توسط هذه الآية بين آيات ذِكر بني إسرائيل بما أنعم الله عليهم وبما قابلوا به تلك النعم من الكفران وقلة الاكتراث، مناسبة بليغة؛ إذ بيَّن لهم في هذه الآية أنَّ باب الله مفتوح لهم، وأن اللجأ إليه أمر هيِّن عليهم، وذلك بأن يؤمنوا ويعملوا الصالحات، بعدما تقدم من حكاية سوء مقابلتهم لنعم الله تعالى، وما أصابهم من ضرْب الذلة والمسكنة ورجوعهم بغضب من الله تعالى عليهم، وما في هذا من إفزاع لهم[1] فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَر قبائح بني إسرائيل وذمَّهم، بيَّن طائفةً لم يَلحقْها هذا الذمُّ، ولَمَّا كان ذِكرُ بني إسرائيل خاصَّةً يُوهِم اختصاصهم بهذا الفضل، ذكَر سبحانه حُكمًا عامًّا يشمل عددًا من أتباع الشَّرائع الأخرى.

وعنَى بالذين آمنوا: أُمَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّهم هم الذين يستحقُّون الوصفَ بالإيمان المطلَق؛ حيث آمنوا بجميع الكتُب، والرُّسل؛ ولكثرة إيمانهم، وشِدَّة إيقانهم. واليهود هم أتباعُ موسى عليه السَّلام قَبل نَسْخ دِينهم، وقبل تحريفِه، والنصارى أتباعُ عيسى عليه السَّلام قَبل نسْخ دِينهم، وقبل تحريفه، وأمَّا الصابئون فهم فِرق؛ منها: الصَّابئة الحُنفاء، الذين بَقُوا على فِطرتهم بتوحيد الله عزَّ وجلَّ، وتحريم الظُّلم والفواحِش، وغير ذلك، من غير تقيُّد بمِلَّة ولا نِحلة، ودون أن يُحدِثوا كُفرًا.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٣١).

فمَن أحسن مِن هذه الأُمم السالِفة، وأطاع، فإنَّ لهم الثوابَ من عند الله عزَّ وجلَّ، ولهم السَّعادة الأبديَّة، فلا خوفَ عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يُخلِّفونه.

وهذا الحُكم بين هذه الطَّوائف من حيثُ هم؛ فإنَّ هذا إخبارٌ عنهم قَبل بعثةِ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأمَّا بعدَ بعثةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فلا يُعدُّ مؤمنًا، ولا ينال هذا الأجْر مَن لم يؤمنْ برسالة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ولم يعملْ بمقتضاها[1].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣)﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

أي: واذكُروا حِين أخْذنا عليكم عهدًا مؤكَّدًا بالإيمان به وبرُسله، والالتزام بشَرْعه، ورَفعْنا فوقكم الجبلَ لتخويفكم؛ كي تُقرُّوا بما عُوهِدتم عليه، وتَعمَلوا به[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٢-٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٤-٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٣١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢١-٢٢٢).

وما ذكرناه في معنى (الصَّابئين) هو اختيار ابن تيمية في ((الجواب الصحيح)) (٣/ ١٢٣)، وابن القيم في ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ٢٥٠-٢٥٢)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٢٨٧)، وابن عثيمين في ((تفسيره - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢٢).

قال ابن كثير: (وأظهر الأقوال، والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنَّما هم قوم باقون على فِطرتهم ولا دِينَ مُقرَّر لهم يتبعونه ويَقتفونه؛ ولهذا كان المشركون يَنبِزون مَن أسلم بالصَّابئي، أي: أنَّه قد خرج عن سائرِ أديان أهلِ الأرض إذ ذاك) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٧).

وممَّن ذهَب في تفسير الصَّابئة إلى نحو ما ذُكر: ابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦-٤٨)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٤١-٥٤٢).

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

أي: قُلنا لهم: تلقَّوُا التوراةَ التي أعطيناكم إيَّاها، بهمَّةٍ وحَزمٍ، وجدٍّ ونشاط، واذكُروا ما فيها بأنْ تتلوها، وتتعلَّموا ما فيها، وتتدبَّروها، وتعمَلوا بمقتضاها، من أجل أن تكونوا من المتَّقين[١].

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)﴾.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

أي: بعد هذا المِيثاق المؤكَّد أعرضتُم عنه، ونقضتموه بترْك العمل به[٢].

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

أي: لولا أنْ أكرمكم الله تعالى، فتداركَكم بالتوبةِ وإرسالِ الرُّسل، وآخِرهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، لكُنتم من الهالِكين في الدُّنيا والآخِرة[٣].

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥١-٥٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٤٢).
وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المقصود بقوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾: التوراة: الحسن، وأبو العالية، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٥-٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٦، ٥٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٣٨، ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢٦).

أي: قد عرفتُم يا معشرَ اليهود، ما حلَّ بمَن جاوزوا منكم ما أُمِروا به مِن ترْك صيدِ البحر يومَ السَّبت، فاحتالوا على هذا الأمر، مُتعدِّين حدود الله عزَّ وجلَّ[١].

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

أي: لَمَّا فَعلوا ذلك، مَسخَهم اللهُ تعالى، فصيَّرهم بقُدرته سبحانه في صورة القِرَدة، حَقيرينَ ذَليلِين[٢].

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)﴾.

أي: جعَلْنا هذه العقوبةَ رادعًا لِمَن حول أولئك الممسوخين قِردةً، وتذكرةً نافعةً للمتَّقين؛ لينزجِروا بها ويَعتبِروا[٣].

الفَوائِد التربويَّة:

١- إذا ذُكِر الثناءُ بالشرِّ على طائفة، وكان منهم أهلُ خير، فإنَّه ينبغي ذِكرُ أولئك الذين اتَّصفوا بالخير؛ حتى لا يكون قدحًا عامًّا[٤].

٢- مِن ثمرات الإيمان بالله واليومِ الآخِر، حصولُ الأجْر، وانتفاء الخوف ممَّا يُستقبل، وانتفاء الحزن على ما مضَى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٥١-١٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٥٩-١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢٨-٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥-٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٨، ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤).
وممَّن قال: إنَّهم مُسِخُوا على صورة القِردة: ابن عبَّاس، وقتادة. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩، ٧٢، ٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٩١-٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢٩-٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢٤).

وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١].

٣- الأخْذ بالكتاب المُنَزَّل يوجِب التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢].

٤- الإنسان لا يستقلُّ بنفسه في التوفيق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾[٣].

٥- تحريم الحِيَل، وأنَّ المتحيِّل على المحارم لا يخرُج عن العدوان؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾[٤].

٦- أنَّ العقوبات فيها تنكيلٌ حتى لغيرِ الواقِع في الذَّنب؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾، ومن ذلك الحدود الشرعيَّة نكالٌ للفاعل أن يعودَ مرَّةً أخرى إلى هذا الذَّنب، ولغيرِ الفاعل[٥].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- عُتوُّ بني إسرائيل؛ حيثُ لم يؤمِنوا إلَّا حين رُفع فوقهم الطور، كأنَّه ظُلَّة، وظنُّوا أنَّه واقع بهم؛ فحينئذٍ آمنوا[٦].

٢- لُؤم بني إسرائيل؛ لأنَّهم بعد أن رجَع الجبلُ إلى مكانه تولَّوْا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، وهذا من اللؤم[٧].

٣- توبيخُ اليهود الموجودِين في عهد الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ على عدمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٧).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٨).

الإيمان به؛ ووجه ذلك: أنَّهم علِموا ما حلَّ بأسلافِهم من النَّكال بسببِ المخالَفة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ...﴾؛ فكان ينبغي أن يتعظوا بذلك، ويرتدعوا به عن مَعصيةِ الله تعالى ورسولِه عليه السلام[١].

بلاغة الآيات:

١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

- هذه الآية تكررت أيضًا في سورة المائدة وسورة الحج مع اختلاف بتقديم الصُّنوف وتأخيرها، واختلاف في إعراب ﴿الصَّابِئِينَ﴾ حيث نُصِبت هنا وفي سورة الحجِّ أيضًا، بينما رُفعت في سورة المائدة؛ وهذا لفائدةٍ تقتضي ذلك؛ فقيل: لأنَّ النصارى مقدَّمون على الصَّابِئِينَ في الرتبة؛ لأنَّهم أهل كتاب، فقدَّمهم في البقرة. والصابئون مقدَّمون على النصارى في الزمان؛ لأنهم كانوا قبلَهم، فقدَّمهم في الحج. وراعى في المائدة المعنيين فقدَّمهم في اللفظ وأخَّرهم في التقدير؛ لأنَّ تقديره عند البصريِّين، وأكثر الكوفيين: التأخير على معنى والصابئون كذلك[٢].

- **ومن بديع البلاغة**: أنْ قرن مع اليهود في ذلك ذكر بقيةٍ من الأُمم؛ ليكون

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) لتاج القراء الكرماني (١/ ١٤٥).

وقيل: آية البقرة والمائدة هي فيمَن آمن بمحمد صلَّى الله عليه وسلَّم، وأمَّا آية الحج فهي فيمن بقِي على دِينه ولم يؤمن بالنبي محمد صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لذا شملت كلَّ مَن لم يؤمن بدين محمد عليه الصلاة والسلام، بما فيهم المجوس والذين أشركوا، و(الصَّابئين) تأخَّرت عن النصارى؛ لأنهم فِرقة قليلة، لا تمثِّل جمهرة كثيرة كالنصارى، أما الصابئون فهؤلاء لم يكونوا تابعين لدين، ولكنهم سلكوا طريقًا مخالفًا؛ فجاءت هذه الآية لتلفتنا أنَّ هذه التصفية تشمل الصابئين أيضًا، فقدَّمتها ورفعتها لتلفت إليها الآذان بقوة. ((تفسير الشعراوي)) (١/ ٣٦٩). وقيل: إنَّ كل آية من الآيات الثلاث تختصُّ بفترة زمنية؛ فآية البقرة تتحدَّث عن الفِرق الثَّلاث ومصيرها قبل بعثة النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، أمَّا آية المائدة فإنها تخصُّ فترة ما بعد الإسلام منذ بعثة النبي صلَّى الله عليه وسلَّمَ وإلى قيام الساعة، وأمَّا آية الحج فإنَّها تختصُّ بيوم القيامة يوم الفصل بين الخلائق جميعًا.

ذلك تأنيسًا لوحشة اليهود من القوارع السَّابقة في الآيات الماضية، وإنصافًا للصالحين منهم، واعترافًا بفضلهم، وتبشيرًا لصالحي الأُمم من اليهود وغيرهم الذين مضَوْا؛ فقدْ وفَت الآية حقَّ الفريقين من الترغيب والبشارة، وراعت المناسبتين للآيات المتقدِّمة مناسبةَ اقتران الترغيب بالترهيب، ومناسبةَ ذِكْر الضدِّ بعد الكلام على ضدِّه[١].

- ومجيء (إنَّ) هنا لمجرد الاهتمام بالخبر، وتحقيقه لدفع توهُّم أنَّ ما سبق من المذمَّات شامل لجميع اليهود؛ فإنَّ كثيرًا من الناس يتوهم أن سلف الأمم التي ضلت كانوا مثلهم في الضلال[٢].

- وابتُدئ بذكر المؤمنين للاهتمام بشأنهم؛ ليكونوا في مقدمة ذِكر الفاضلين، فلا يذكر أهل الخير إلَّا ويذكرون معهم[٣].

- ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: التعبير في نفي الخوف بالخبر الاسمي؛ لإفادة نفْي جنس الخوف نفيًا قارًّا؛ لدلالة الجملة الاسميَّة على الدوام والثبات، والتعبير في نفي خوف [الحزن] بالخبر الفعلي وهو (يحزنون)؛ لإفادة تخصيصهم بنفي الحزن في الآخِرة بخلاف غير المؤمنين[٤].

وفي ختْم هذه الآية بقوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مناسبة ظاهرة؛ لأنَّ من استقرَّ أجره عند ربه لا يلحقه حزنٌ على ما مضَى، ولا خوف على ما يُستقبل[٥].

٢- **قوله**: ﴿**ميثاقكم**﴾ جاء على صيغة الإفراد ولم يقل: (مواثيقكم)؛ للدَّلالة على أنَّ كل واحد منهم قد أخَذ ذلك، ولبيان أنَّه كأن شيئًا واحدًا أُخذ من كل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٣١)
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٤٠-٥٤١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٠٦).

واحد منهم، كما أُخذ على غيره، فكان كله ميثاقًا واحدًا، ولو قيل: (مواثيقكم) لأشبه أن يكون هناك مواثيق أخذت عليهم لا ميثاق واحد[١].

٣- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُم﴾ اللام في (لقد) لام توكيد، ويحتمل أن تكون جوابًا لقسم محذوف، ولكنه جيء على سبيل التوكيد باللام، و(قد) والقَسم المحذوف؛ لأنَّ مثل هذه القصة يمكن أن يُبهِتوا في إنكارها؛ وذلك لما نال في عقبى أولئك المعتدين من مسخهم قردة، فاحتيج في ذلك إلى توكيد، وأنهم علموا ذلك حقيقة[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٠٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٠١).

الآيات (٦٧-٧٤)

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ
قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ
إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾
قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ
لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ
عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ
وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا
كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ
﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ
ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا
لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿فَارِضٌ﴾: مُسنَّة، والفارض: المسنَّة من البَقر، أو الهَرمة، والفارض هُوَ الضَّخم من كل شَيْء، وأصل الفرض: التأثير في الشيء بقطع أو غيره[١].

﴿بِكْرٌ﴾: أي: صغيرة لم تلد، وأصله: أول الشيء وبدؤه؛ ولذا سُمِّيت التي لم تُفتضَّ بكرًا[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٥، ٩٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠).

﴿عَوَانٌ﴾: أي: نصف بَين الصَّغيرة والمُسِنَّة، والمتوسِّطة بين السِّنينِ[١].

﴿فَاقِعٌ﴾: أي: ناصع صاف؛ يقال: أصفر فاقع: إذا كان صادِقَ الصفرة، كقولهم: أسود حالك، وأحمر قان، وأخضر ناضِر؛ فهذه التوابع تدل على شِدَّة الوصف وخلوصه[٢].

﴿ذَلُولٌ﴾: التي قد أذلَّها العمل، وأصل الذل: الخضوع، والاستكانة، واللين. والذل: ضد العز، وخلاف الصُّعوبة. وقيل: بالضم ما كان عن قَهْر، وبالكسر: ما كان عن تصعُّب، وهو الذلول من الدَّواب[٣].

﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾: أي تقلبها للزراعة، وأصل الإثارة: الاستخراج والقلقلة من مكانٍ إلى مكان[٤].

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: أي: مُخلَّصة، ومبرَّأة من العيوب، وأصْل السلم والسلامة: الصحة والعافية، والتعرِّي من الآفات الظاهرة والباطنة[٥].

﴿لَا شِيَةَ﴾: لا لون فيها سِوى لون جميع جِلدها، والشية: مأخوذة من وشيت الثوب: إذا جعلت فيه أثرًا يُخالف معظمَ لونه، أو نسج على لونين مُخْتَلفين[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٢-٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨١).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨١).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾: أي: تدافعتُم، واختلفتم، أو اختصمتم، وأصل الدَّرْء: دفْع الشيء[١].

مشكل الإعراب:

١- **قوله** ﴿لا فَارِضٌ﴾: **لا**: نافية، لا عمل لها. وفارضٌ: مرفوع، صفة لـ(بقرةٌ) و(لا) معترضة بين الصِّفة والموصوف. ويجوز أن يكون (فارض) خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: لا هي فارض. ومثله ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ ومثله ﴿لَا ذَلُولٌ﴾[٢].

٢- **قوله**: ﴿عَوَانٌ﴾: مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي عوانٌ. ويجوز أن يكون صفة لـ(بقرة) والأول أحسن؛ لبُعد الموصوف[٣].

المعنى الإجمالي:

يُذكِّر اللهُ سبحانه بني إسرائيل بإخبار موسى لآبائهم بأمْر اللهِ تعالى لهم بذْبح بقرة؛ كي يضربوا القتيلَ بجزء منها، فيَحيَا ويُخبر بقاتله، فاستنكروا على موسى ذلك، وتَعنَّتوا كعادتِهم، واتَّهموه بأنَّه يسخَر منهم، فاستعاذ باللهِ أن يكون من السُّفهاءِ الذي يَسخَرون من الناس.

فقالوا لموسى- مشدِّدين على أنفسِهم ومُتعنِّتين-: اسأل ربَّك يَصِفْها لنا؛ لنعرفها، فذكَر لهم موسى بأنَّها بقرةٌ متوسِّطة السنِّ، ليست بالكبيرة الهَرِمة، ولا بالصَّغيرة، وأمرهم أنْ يقومُوا بفعل ما أُمِروا به، فطَلبوا منه أن يسأل ربَّه أيضًا عن لون البقرة! فكان الجوابُ: أنَّها بقرة صفراءُ صافيةٌ، شديدةُ الصُّفرة، تُدخِل السرورَ على مَن نظر إليها.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٨).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٩٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٩٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٤١٩).

فعادوا طالِبين من موسى مُجَدَّدًا أن يسأل ربَّه أن يُبيِّن لهم مزيدًا من أوصافها؛ وحُجَّتهم أنَّ البقرة المطلوبة الْتبَستْ عليهم بين غيرها من البَقر، وأوْضَحوا بأنَّهم بإذن الله سيهتدون.

فقال موسى: إنَّ الله يقول بأنَّ هذه البقرة ليستْ مُذلَّلة بالعمل، لم تُعَدَّ لتقليب الأرض للحَرْث، أو سقي الزَّرع، وهي أيضًا سليمةٌ من جميع العيوب، ولا يُخالِط لونَ جلدِها الأصفر الفاقِع أيُّ لونٍ آخَر.

فقالوا حِينها: اتَّضح الحقُّ الآن، وجئتَ بالصِّفات التي تُميِّزها عن غيرها يا موسى، فوجدوها، وذبحوها، وقد قارَبوا ألَّا يفعلوا!

ثمَّ ذكَّرهم سبحانه حين قتَلوا نفْسًا، ثم تنازَعوا فيها؛ كلٌّ يَدفَع القتلَ عن نفسه، والله سبحانه مُظهِرٌ القاتلَ؛ ليُعلم ما كانوا يُخفونَه، ولينتفيَ النِّزاع بينهم.

فأمَرَهم الله جلَّ وعلا أن يضرِبوا القتيل ببعض البَقرة، ففعلوا، فحَيِيَ بإذن الله، وأخبرهم بقاتله، وكما أحيا الله هذا القتيلَ، كذلك يُحيي الموتى بعد مماتهم، فيبعثهم يومَ القيامة، ويُظهر الله تعالى آياتِه الواضحاتِ؛ لعلَّهم ينزجرون ويمتنعون عن عِصيانه.

ثمَّ غلُظت قلوبُهم، ولم يكن ينبغي لهم ذلك بعدَما عاينوا تِلك الحادثةَ الخارقة للعادة! فصارتْ قلوبهم في غِلظتها كالحجارة، أو أشدَّ صلابةً من الحجارة؛ فإنَّ الحجارة مع قسوتها أفضلُ من قلوب أولئك القوم؛ فإنَّ منها ما يتصدَّع فيخرج منه الماء، ومنها ما يسقُط من علوٍّ إلى سُفول من خشيةِ الله سبحانه، وما الله تبارك وتعالى بغافلٍ ولا ساهٍ عن أفعالهم، بل سيُجازيهم عليها أتمَّ الجزاء.

تفسير الآيات:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾.

أي: واذكروا يا بني إسرائيل، حين أخبَر موسى عليه السَّلام آباءَكم بأمْر الله تعالى لهم بذَبْح بقرة؛ كي يضربوا القتيل بجزء منها، فيَحيا القتيل، ويُخبرهم بقاتله، ولم يُحدِّد الله تعالى لهم بقرةً معيَّنة ولم يخبرهم بأوصاف محدَّدة، بل أي بقَرة ذبَحوها، فإنَّها تُفيد في تحقيق المطلوب[١].

﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾.

أي: إنَّهم استنكروا على موسى عليه السَّلام أمْره بذَبح بقرة، ورأوا أنَّ جوابه غيرُ محقِّقٍ لمقصودهم، فظنوا بموسى عليه السَّلام أنَّه هازئٌ وساخرٌ بهم في ذلك[٢].

﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

أي: إنَّ موسى عليه السَّلام استعاذَ بربِّه عزَّ وجلَّ من أن يكونَ في عِداد السُّفهاء، الذين يَستهزِئون بالنَّاس[٣].

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨)﴾.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾.

أي: يُخبِر سبحانه عن تعنُّت بني إسرائيل، وكثرةِ سؤالهم لموسى عليه السَّلام، وأنَّهم لَمَّا ضيَّقوا على أنفسهم ضُيِّق عليهم، ولو أنَّهم ذَبَحوا أيَّ بقرة لكفتْهم، لكنَّهم شدَّدوا، فشُدِّد عليهم، فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾، أي: اسأل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٢٠، ١٢١، ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٢٤).

لنا ربَّك ما هذه البقرة؟ صفْها لنا؛ لنعرفَها[١].

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

أي: قال لهم موسى عليه السَّلام: إن الله تعالى يقول: إنَّ البقرة التي سألتُم عنها ليستْ في سِنِّها بالكبيرة الهَرِمة، وليست بالصَّغيرة التي لم يَنكِحْها الفحلُ فتلِد، بل هي متوسِّطة في السِّنِّ بين الكبيرة جدًّا، والصغيرة جدًّا. أَمَا وقد أتاكم العلمُ، فاذبحوا البقرةَ التي أُمرتم بذَبْحها؛ لتصِلوا إلى قاتل قتيلكم[٢].

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩)﴾.

أي: طلَب بنو إسرائيل من موسى عليه السَّلام أن يَسألَ ربَّه عن لون البَقرة المطلوب ذبْحها، فجاءَهم الجوابُ بأنَّها بقرةٌ صفراءُ صافية، شديدةُ الصُّفرة، وتُدخِل السُّرورَ على مَن نظَر إليها؛ لشِدَّة حُسنها وجمال منظرها[٣].

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠)﴾.

أي: طلَبوا من موسى عليه السَّلام- من تعنُّتهم- طلبًا ثالثًا بسؤال ربِّه؛ كي يبيِّن لهم المزيدَ من صفات البقرة المطلوبِ ذبحُها، مُتذرِّعين في طلبهم هذا بحُجَّة الْتِباس البقرة المطلوبة من بين غيرها من البَقر، فلم يَهتدوا- بزَعْمِهم- إلى ما يُريدون،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٨٣، ٨٦، ٨٧، ٩٠، ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٩٨-٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٢٥-١٢٨)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٩١-٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٢٨-١٣٠).

وأخَذوا على أنفسهم أنَّهم سيهتدون؛ ولكنَّهم علَّقوا ذلك بمشيئة الله تعالى[١].

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)﴾.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾.

أي: قال لهم موسى عليه السَّلام: إنَّ الله تعالى يقول: إنَّ البَقرة التي أمرتكم بذَبْحها ليستْ مُذلَّلة بالعمَل، فليست بالتي أُعِدَّت لتقليبِ الأرض للحَرْث، أو سَقي الزَّرع، كما أنَّها سليمةٌ من كلِّ عيب، ولا يخالط لونَ جلدها الأصفر الفاقِع أيُّ لون آخَر[٢].

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٩٧-٩٨، ١٠٣-١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٣١-١٣٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠٥-١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠٠ (. ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٣٢-١٣٥).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ معنى ﴿لا ذَلُولٌ﴾، أي: لم يذلِّها العملُ: أبو العالية، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسُّدِّي، والرَّبيع بن أنس، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٤١).

وممَّن قال من السَّلف بنحو قولنا في ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾: السُّدِّي، وأبو العالية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٤٢).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ معنى ﴿مُسلَّمة﴾، أي: لا عيبَ فيها: ابن عبَّاس، وأبو العالية، والرَّبيع ابن أنس. ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٤٢).

وممَّن قال من السَّلَف بمُجمَل ما ذُكر في قوله تعالى ﴿لا شِيَةَ فيها﴾: مجاهد، والحسَن، وأبو العالية، وقتادة، والرَّبيع بن أنس، وابن زيد، وأبو مُسلِم، وعطيَّة العوفي، ووهب بن منبِّه، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١١٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٤٢).

أي: قالوا قد اتَّضح للتوِّ الحقُّ في أمْر البقرة، وجئتَ لنا يا موسى بصِفاتها التي تُميِّزها عن غيرِها، فنستطيع معرفتَها، فوجدوها وذبَحوها، وقد أوشكوا على ترك ذبْحها[١].

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)﴾.

أي: واذكُروا يا بني إسرائيل، حين قتلتم نفسًا، فتنازعتُم واختلفتم فيها، كلٌّ يَدفَع قتْلَها عن نفْسه[٢].

﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى مُظهِرٌ هذا القاتل؛ ليُعلَمَ[٣].

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)﴾.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١١١-١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥).

قال ابن كثير: (يعني: أنَّهم- مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة، والإيضاح- ما ذَبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذمٌّ لهم، وذلك أنه لم يكُن غرضهم إلا التعنُّت؛ فلهذا ما كادوا يَذبحونها)) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠١).

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

فذهب ابن عاشور في ((تفسيره)) (١/ ٥٥٧)، إلى أنَّ المعنى: أنهم أوشكوا حينما أرادوا مباشرةَ ذبحِها على ألَّا يفعلوا، فذبحوها بعد جهْدٍ كالمكرهين. ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١١١-١١٤).

وذهب الشنقيطي في ((العذب النمير)) (١/ ١٤٠-١٤١)، وابن عثيمين في ((تفسيرالفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٣٩)، إلى أن المعنى: قارَبوا ألا يذبحوها في زمن التعنت والأسئلة، فتعنتهم وكثرة أسئلتهم عنها دليلٌ على تباطؤهم عن الفعل منذ بداية الأمر، وعدم وجود رغبة في امتثال ما أمرَهم الله تعالى به.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١١٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٤١-١٤٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٣٩).

أي: أمَرَهم الله جلَّ ثناؤه أن يضربوا القتيلَ ببعض البقرة؛ ليحيا المضروب، فضَربوه، فحيِيَ بإذن الله عزَّ وجلَّ، وأخبرهم بقاتله[١].

﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾.

أي: كما أحيا اللهُ تعالى هذا القتيلَ في الدُّنيا، فكذلك يُحيي الموتى بعد مَماتِهم، فيبعثهم يومَ القِيامة[٢].

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: يُظهر اللهُ تعالى لكم العلاماتِ الواضحةَ على كمال قُدرته في إحيائه الموتى، وبَعثِهم بعد موتهم؛ كي تنزجِروا عمَّا يضرُّكم، وتمتنعوا عن عِصيانه جلَّ وعلا[٣].

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾

أي: جَفَت قلوبُكم وغلُظت، ولم يكن ينبغي أن تكون كذلك من بَعدِ الأمرِ الذي عاينتموه، وهو إحياءُ القتيل، الذي هو سببٌ عظيمٌ لِلين القلوبِ ورِقَّتِها، وانقيادِها للحقِّ؛ فقلوبكم في غِلظتها وشدَّتِها كالحجارة، أو أشدُّ صلابةً من الحجارة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٢٤-١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٤٥، ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٢٨-١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥). =

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾.

أي: إنَّ الحجارةَ مع قسوتها أفضلُ من قلوبِ أولئك القومِ التي لا تَلين ولا تخشع؛ ذلك بأنَّ هناك أنواعًا من الحجارة تَسيل منها أنهارٌ من المياه، ومنها أنواعٌ تلين وتتصدَّع فيَخرُج منها الماء، ومنها ما يَتردَّى من علوٍّ إلى سُفول؛ من خَشيةِ الله تبارك وتعالى(١).

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ الله سبحانه غيرُ غافلٍ عن أفعالهم الخبيثة، ولا ساهٍ عنها، بل هو حافظٌ لها، وسيُجازيهم على ذلك أتمَّ الجزاء(٢).

= واختلف المفسِّرون في معنى ﴿أو﴾ هاهنا، فذهب ابن جرير في ((تفسيره)) (٢/ ١٣١، ١٣٣)، إلى أنَّها على معناها الأصلي وهو الشكُّ، لكنه ليس شكًّا من الله تعالى بل على معنى أنَّ قلوبهم في قسوتها كالحجارة، أو أشدُّ من الحجارة قسوةً عندهم وعِندَ مَن عَرَف شأنهم.

قال ابن عطية: (وقالت فرقة: هي على بابها في الشكِّ، ومعناه: عندكم- أيُّها المخاطبون- وفي نظركم، أنْ لو شاهدتم قسوتَها لشككتُم أهي كالحِجارة أو أشدُّ من الحجارة) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٦٦).

وقيل: ﴿أو﴾ للتنويع، أي:إنَّ قلوب بعضهم كالحجارة، وقلوب البعض الآخَر أشدُّ صلابةً من الحجارة، وهو رأي استحسنه ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٣٣)، واختاره الشنقيطي في ((العذب النمير)) (١/ ١٥٥).

وقيل: هي لتحقيق ما سبَق، أي: إنَّ قلوبهم إن لم تكُن أشدَّ من الحجارة قسوةً فهي مثلها، وهذا اختيارُ السعدي في ((تفسيره)) (ص: ٥٥).

وقيل: هي بمعنى: بل، وهذا اختيارُ الواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١ / ١٥٨)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (١/ ٥٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٣٣-١٣٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٥٩-١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٣٨-١٣٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤٧).

الفَوائِد التربويَّة:

١- أنَّه ينبغي للإنسان أن يمهِّدَ للأمر، أو الخبر الذي يعتزم قوله، بما يؤدِّي إلى قَبوله؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[١].

٢- أنَّ جميع الخَلْق محتاجون إلى الالتجاء إلى الله تعالى، والاعتصام به عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ موسى صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان من أُولي العزمِ من الرُّسُل؛ ومع ذلك فهو محتاجٌ إلى الالتجاء إلى ربِّه تبارك وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾[٢].

٣- أنَّ الاستهزاءَ بالنَّاس من الجَهل، والحُمق، وقلة العقل؛ لقول موسى عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾[٣].

٤- أنَّ مَن شدَّد على نفْسه، شدَّد الله عليه، كما حصَل لبني إسرائيل؛ فإنَّهم لو امتثلوا أوَّلَ ما أُمِروا، فذبَحوا أيَّ بقرة، لكفاهم، ولكنَّهم شدَّدوا، وتعنَّتوا، فشدَّد الله عليهم[٤].

٥- أنَّه ينبغي الاعتناءُ بمعنى القِصَّة، وغرضِها، دون النظر المجرد إلى مَن وقعَتْ عليه؛ لقوله تعالى: ﴿بِبَعْضِهَا﴾ ولم يعينْ لهم ذلك[٥].

٦- أنَّ المُبهَم في أمور متعدِّدة أيسرُ على المكلَّف من المعيَّن؛ وذلك إذا كانوا قد أُمروا أن يَضرِبوه ببعضها فقط[٦].

٧- أنَّ بيانَ الأمورِ الخفيَّة التي يحصُل فيها الاختلاف، والنِّزاع، من نِعمة الله عزَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٣).

وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[١].

٨- أنَّ الله سبحانه وتعالى يُخرِج ما يكتمُه أهلُ الباطل، ويبيِّنه للناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[٢]، فلْيحذرِ الإنسانُ من أن يكتُمَ شيئًا لا يرضاه الله عزَّ وجلَّ[٣].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- تعنُّتُ بني إسرائيلَ، وسوءُ أدبِهم معَ أنبيائِهم؛ حيث قالوا لنبيِّهم عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، وقالوا أيضًا: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾؛ فكأنَّهم يقولون: الآن رَضِينا بوصف هذه البقرة، فقاموا بذبْحها بعد تعنُّتٍ منهم، وكل هذا يدلُّ على استهتارهم بأوامر الله عزَّ وجلَّ[٤].

٢- استكبار بني إسرائيل؛ حيث قالوا لموسى عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، فأمروه أمرًا، ثم أضافوا ربوبيَّة الله عزَّ وجلَّ إلى موسى، كأنَّهم متبرِّئون من ذلك، فلم يقولوا: «ادع ربَّنا»، أو «ادع الله»، وممَّا يدل على استكبارهم كونُهم طلبوا من موسى عليه الصَّلاة والسَّلام، أن يُبيِّن لهم ما هذه البقرة، مع أنَّ البقرة معروفة، وهي عند الإطلاق تَشملَ أيَّ واحدة[٥].

٣- أنَّ قول الرسول قولٌ لمرسِله إذا كان بأمْره؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾[٦].

٤- أنَّ هذه الآية من آيات الله عزَّ وجلَّ، وهي أن تكونَ البقرة التي تفارق الحياةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤١-٢٤٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٣).

سببًا لحياة هذا القتيل؛ إذ لا رابطةَ في المعقول بين أن تُذبَح البقرة، ويُضرَب القتيلُ ببعضها، فيحيا، فلو قِيل بضربِه بجزءٍ مِن بقرة حيةٍ لربما توهَّم متوهمٌ أنَّه استمدَّ الحياةَ مِن حياتها، ولكن أمرهم بضربِه بجزءٍ مِن بقرة ميتة، فعادت له الحياةُ[١].

٥- لؤم بني إسرائيل الذين جاءتهم هذه النِّعم، ومع ذلك فهُم لم يَلينوا للحقِّ، بل قسَت قلوبُهم على ظهور هذه النِّعم[٢]! كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

٦- أنَّ الجماداتِ تَعرِف اللهَ عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[٣].

بلاغة الآيات:

١- **قوله**: ﴿**صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا**﴾ عبَّر عن لونها بالاسم ﴿صَفراء﴾ ولم يُعبِّر بالفعل (يصفر)؛ لأنَّ اللون من الأشياء الثابتة التي لا تتجدَّد، وأفاد ذِكْر اللَّون في ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ التوكيدَ، وهو أبلغُ من قول: (صفراء فاقعة)؛ لأنَّ اللون اسم للهيئة، وهي الصُّفرة[٤].

٢- **قوله**: ﴿**تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**﴾ جاء الوصف بالفِعل ﴿تَسُرُّ﴾؛ ليُشعرَ بالحدوث والتجدُّد. وتأخَّرَ هذا الوصفُ عن الوصف قبله ﴿صفراء﴾؛ لأنَّه ناشئ عنه، أو كالناشئ. وجاء بصِيغة الجمْع في ﴿**النَّاظِرِينَ**﴾، وأدخل الألف واللام التي تدلُّ على الاستغراق؛ ليوضِّح أن أعينَ الناس كلِّهم طامحة إليها، متلذِّذة فيها بالنظر، فليست ممَّا تُعجِب شخصًا دون شخص[٥].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) الشنقيطي (١/ ١٤٧-١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٠)، ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٠٨-٤٠٩).

٣- قوله: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ توسَّط قولُه: ﴿إِنْ شَاءَ اللهُ﴾ بين اسم إنَّ وبين خبرِها؛ ليحصل توافُق رؤوس الآي، وللاهتمام بتعليق الهداية بمشيئة الله، وجاء خبر إنَّ ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ اسمًا؛ لأنَّه أدلُّ على الثبوت، وعلى حُصولِ الهداية لهم، وأُكِّد بحَرفَيِ التأكيد: إنَّ واللام[1].

٤- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾

- **قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾** فيه مناسبة حسَنة، حيث كان حصولُ المعصية منهم- بعدَ رُؤية هذه الخارقة- مُستبعَدَ التصوُّر، فضلًا عن الوقوع[2].

قوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ فيه تشبيه مُرسَل مُجمَل[3] ذُكرت فيه أداة الشَّبه وحُذِف وجهُ الشبه؛ حيث شبَّه قلوبهم في نبوِّها عن الحقِّ، وتجافيها مع أحكامِه بالحجارة القاسية، ثم ترقَّى في التشبيه، فجَعل الحجارة أكثرَ لِينًا من قلوبهم. وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي)) (١/ ٤٧٨).

(٣) **التشبيه**: هو إلحاق شيء بذي وصف في وصفه. وقيل: أن تثبت للمشبه حُكمًا من أحكام المشبه به. وقد اتفق الأدباء على شرفه في أنواع البلاغة، وأنه إذا جاء في أعقاب المعاني أفادها كمالًا، وكساها حلة وجمالًا، وهو جار في كلام العرب بل هو أكثر كلامهم. وينقسم التشبيه عدة تقسيمات باعتبارات عِدَّة؛ فمنه: التشبيه المفرَد. ومنه: التشبيه المركَّب: هو الذي يكون وجه الشبه فيه منتزعًا من متعدِّد، أو من أمورٍ مجموعٍ بعضها إلى بعض، كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتشبيه مركَّب من أحوال الحمار. وخصَّ البيانيون لفظ «التمثيل» بالتشبيه المركَّب. ومنه: التشبيه البليغ: وهو ما كانت أداة التشبيه فيه محذوفة. وينقسم باعتبار آخر إلى: مؤكَّد: وهو ما حُذفت فيه الأداة نحو: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مثل مرِّ السحاب. ومُرْسل: وهو ما لم تُحذف فيه الأداة. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي، (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني.

أيضًا من باب تشبيهُ المعقولِ بالمحسوس؛ فالحجارة أمرٌ محسوس، وقسوة القلب أمرٌ معقول[١].

- ووجه تشبيه قلوبهم بأنَّها كالحجارة في القَسوة ولم يشبهها بالحديد، وهو أشد من الحجارة وأصلب؛ لأنَّ الحديدَ قابلٌ للين بالنار، وقد لان لداود عليه الصَّلاة والسلام، والحجارة ليست قابلةً للين، فلا تلين قط[٢].

- **قوله**: ﴿**أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾ عبَّر بالمصدر الصَّريح، ومصدر الفِعل (قسى)، مع أنَّه ممَّا يخرج منه أفعلُ التفضيل (أقسى)؛ لأنَّ هذا أدلُّ وأبين على فَرط القسوة؛ ولأنَّه قصَد وصف القَسوة بالشدَّة، لا قصدَ معنى الأقسى، كأنَّه قيل: اشتدَّت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشدُّ قسوةً. وفي هذا التعبير أيضًا زيادةُ تقريع مناسِب لسِياق هذه القَصص[٣].

٥- وفي هذه الآيات المتقدِّمة فنُّ التكرير، وهو داخلٌ في باب الإطناب[٤]، كأنهَّم يُكرِّرون السؤالَ استكناهًا لحقيقة البقرة؛ لشدَّة تعنُّتهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (١/ ٩٥)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١١٠)، ((تفسير الخازن)) (١/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) مع الحاشية (١/ ١٥٥).

(٤) **الإطناب**: هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أوساط البلغاء؛ لفائدة تقويته وتوكيده. وينقسم إلى: إطناب بالبسط، وإطناب بالزيادة. يُنظر: ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٠١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٢٤).

الآيات (٧٥-٨٢)

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿يُحَرِّفُونَهُ﴾: يَقلبونه ويُغيِّرونه، وأصل تحريف الشَّيء وانحرافه: إمالته، والعدول به عن الاستقامة[١].

﴿أُمِّيُّونَ﴾: جهلة غَفَلة، أو الذين لا يكتبون ولا يقرؤون من كتاب، وأصل (أم): الأصل والمرجع، فنُسِب الأُمِّي إلى ما عليه جِبلَّة الناس؛ لا يكتب ولا يقرأ على ما وُلِد عليه[٢].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨).

﴿أَمَانِيَّ﴾: جمْع أُمْنِية، وهي تأتي بمعنى التِّلَاوة المُجرَّدة عن المعرفة؛ تَجري عند صاحبها مجرَى أمنية متمنَّاة على التخمين. وتأتي الأماني بمعنى: الأكاذيب، ومَا يتمناه الْإِنْسَان ويشتهيه أَيضًا[١].

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: (إنْ): حرف نفي بمعنى (ما).

و(هم): في محل رفع مبتدأ.

و(يظنون) فعل وفاعل في محل رفع خبر.

و(إلَّا): أداة حصْر؛ لتحقيق النفي، والاستثناء مفرغ. وهكذا كل (إنْ) مكسورة مخفَّفة وبعدها (إلَّا)؛ فإنَّ (إنْ) بمعنى (ما)، نحو: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠] وأمثالها[٢].

المعنى الإجمالي:

يحضُّ الله تعالى المؤمنين على قَطْع أملهم من إيمان اليهود؛ فإنَّ حالهم لا يَقتضي الطَّمع في إيمانهم؛ فإنَّهم يَسمعون كلامَ الله الذي هو التوراة، ثم يُبدِّلونه من بعد ما فَهِموه، وهم يعلمون أنَّهم كاذبون ومُفترون، وإذا قابلوا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأصحابَه أظهروا الإيمانَ بألسنتهم فقط، وحين يَختَلُون بأصحابهم يُنكِر عليهم أصحابُهم إخبارَهم النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأصحابه بأنَّ ما في التوراة من صفات النبيِّ المنتظَر تنطبِق على محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وبما وقع لآبائهم من العقوبات؛ وذلك لئلَّا يكون هذا الاعترافُ حُجَّةً للمؤمنين عليهم يومَ القيامة

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧-٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢ - ٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٠٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٤٤٨-٤٤٩)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ٣٥).

أمام الله، حيث عرَفوا الحقَّ ولم يتَّبعوه، وقال لهم أصحابهم مُنكِرين عليهم: لو كان لديكم إدراكٌ لفَهِمتم هذا الأمر. فأنكر الله تعالى عليهم قولَهم هذا، وهم يعلمون أنَّ الله يعلم ما يُخفونه وما يُعلنونه.

ثم أخبَرَ الله سبحانه أنَّ من اليهود عوامَّ، ليس لهم حظٌّ من التوراة إلَّا تلاوةُ ألفاظها فحَسْبُ؛ فهم لا يفقهون معانيَها، وليس معهم إلَّا مجرَّدُ ظنون.

ثم توعَّد الله عزَّ وجلَّ بالعذاب والهلاك اليهودَ، الذين حرَّفوا التوراةَ ثم يدَّعون أنَّها من عند الله؛ لأجْل الحصول على مكاسبَ دُنيويَّة، فأخْبَرَ أنَّ هؤلاء لهم عذابٌ شديد؛ جزاءَ ما زوَّروه بأيديهم وعلى ما أَخذوه من الحرام.

ثم ذكَر الله تعالى تزكيةَ اليهود لأنفسهم بأنَّ النار لن تلاقيَ أجسامَهم إلَّا أيَّامًا قليلة، فأمر الله نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يسألَهم إنْ كان لديهم ميثاقٌ من الله على ما زَعموه؛ فإنْ كان لهم، فاللهُ لا ينقض ميثاقَه، أم أنَّهم يدَّعونَ على الله كذبًا؟!

فأخبَرهم الله جلَّ شأنُه أنَّ الأمر ليس كما ادَّعَوه؛ فالحُكم أنَّ مَن أشرك بالله، وأَحدقتْ به ذنوبُه، ومات عليها ولم يتُبْ منها، فهؤلاء هم الملازمون للنَّار، لا يخرجون منها أبدًا، وأنَّ مَن آمن بالله وملائكته وكتُبه ورُسله واليوم الآخِر، وعمِل صالحًا، فهؤلاء هم أهلُ الجنة المقيمون فيها، لا يخرجون منها أبدًا.

تفسير الآيات:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن سبحانه أنَّ قلوب اليهود صارت من كثرة المعاصي وتوالي التجرُّؤ على

بارئِها محجوبةً بالرَّيْن، كثيفةَ الطَّبع، بحيث إنَّها أشدُّ قسوةً من الحجارة، وتسبَّب ذلك في بُعدهم عن الإيمان- لَمَّا بيَّن سبحانه ذلِك أَيْئَسَ عبادَه المؤمنين من استجابة اليهود إلى الدِّين الحقِّ[١]، فقال:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾.

أي: أتُعلِّقون الطمعَ بما لا مطمعَ فيه، فترجون أن يؤمنوا لكم؟! أي: يُصدِّقون ويُقرُّون بقلوبهم وألسنتهم وجوارحِهم؛ لأجْل دعوتكم وطلبِكم منهم الإيمانَ[٢]؟!

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ﴾.

أي: والحال أنَّ جماعةً منهم كانوا يَسمعون كلام الله يُتلَى في كتابه التوراة[٣].

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾.

أي: إنَّهم من بعد سماعِهم لكلام الله عزَّ وجلَّ، ومن بعد أن أدْركوه بعقولهم ففهِموه جيِّدًا، يقومون بتبديله، وتغييره، وصرْف معانيه إلى معانٍ أُخرى على غيرِ مُرادِ الله تعالى[٤]!

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: والحال أنَّهم يعلمون أنَّهم حرَّفوه مُبطِلين، ومفترين على الله تعالى الكذبَ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٥٥-١٥٦).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٦٧-١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٦٧-٥٦٨)، ((العذب النَّمير)) للشنقيطي (١/ ١٥٦-١٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦)﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾.

أي: وإذا قابَل منافقو اليهود، المؤمنين -وهم النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأصحابُه- أظْهَروا لهم الإيمان بألسنتهم، بما ليس في قلوبِهم[١].

﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾.

أي: حين ينصرِفُ هؤلاء المنافقون من اليهود، خالين بأصحابِهم في موضعٍ ليس فيه أحدٌ سواهم[٢].

﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: قال أصحابُهم اليهود الذين لم ينافقوا، مُنكِرين على مَن نافق منهم: أُتخبِرون النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأصحابَه، بما أعْلَمَنا الله تعالى به في التوراة وحكم به علينا؟! (وذلك كالإخبار بأنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام هو النبيُّ المنتظَر الذي تَنطبِق عليه الصِّفاتُ المذكورة لدَيْهم، والذي وجب علَيْهم الإيمان به، وكقضائه وحكمه على أسلافهم بما وقع عليهم من العذاب)[٣].

﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾.

= (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٥٦، ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٤٤-١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٤٩-١٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٦٣).

أي: فيكون ذلك الإقرارُ حُجَّةً لهؤلاء المؤمنين علينا عند الله تعالى يوم القيامة، أنَّنا عَرَفْنا الحقَّ وترَكْنا العمل به[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: أليس لكم إدراكٌ بعقولكم؛ فتفهموا أنَّه لا ينبغي لكم إخبارُ أصحاب النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنَّه النبيُّ المنتظَر، فيكون ذلك حُجَّةً لهم عليكم عند الله تعالى يوم القِيامة[٢]؟!

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)﴾.

أي: أيقولون مِثل هذا ولا يعلمون أنَّ إسرارَهم وإعلانهم عند الله جلَّ وعلا سواءٌ؛ فالسِّرُّ عنده علانية؟! فالله تعالى يعلم ما يُسرُّه اليهود من الكفر والتكذيب، وما يُخفونه من التلاوم بينهم على إظهارِهم ما أظهروا للمؤمنين من الإقرار، كما يَعلم ما يُعلنونه للمؤمنين بقولهم لهم: آمنَّا[٣].

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)﴾.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾.

أي: إنَّ من اليهود مَن لا يحسن القراءة والكتابة، وليسوا على عِلمٍ بالتوراة، وإنَّما لديهم مجرَّد أحاديث وأمنيات باطلة اختلقوها من تِلقاء أنفسهم، كقولهم: لن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥٠-١٥١) ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٦٩). والسعدي، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥١-١٥٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٦٣-١٦٤).

يدخُل الجنة إلَّا من كان هودًا أو نصارى، وكقولهم أيضًا: لن تمسَّنا النار إلا أيَّامًا معدودات، إلى غير ذلك من تخرُّصاتهم[١].

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

أي: نفَى عنهم العِلمَ، وبيَّن أنَّهم ليس معهم إلَّا مجرَّد ظنون[٢].

كما قال تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾.

أي: هلاكٌ عظيم، وعذابٌ هائِل سيحُلُّ بدُعاة الضَّلال من اليهود، الذين يُحرِّفون التوراة، فيخطُّون بأيديهم أشياءَ باطلةً مُختلَقة، ثم يدَّعون زُورًا وبهتانًا أنَّها حقٌّ من عند الله تبارك وتعالى[٣].

---

(١) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٢/ ١٥٢-١٥٨)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ١٦١-١٦٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (١/ ٥٧٥)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (١/ ١٦٦-١٦٧).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ معنى أماني: مجرَّد أمنيات باطلة، أي: إنهم يَتمنَّون على الله ما ليس لهم: قتادة، وأبو العالية، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٥٢).

وقيل: المراد أنَّ في اليهود مَن هو بمنزلة الأُميِّين الذين لا يَعرفون القراءة والكتابة؛ إذ لا يَفقهون معانيَ التوراة، وإنَّما حظُّهم منها تلاوةُ ألفاظها فحسبُ. وهذا اختيار ابن تيمية ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢٥/ ١٧٠) (١٧/ ٤٣٢-٤٤٣)، وابن القيم ((الصواعق المرسلة)) (٣/ ١٠٤٩)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٥٦)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧-٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦). والشنقيطي ((العذب النمير)) (١/ ١٦٧).

(٣) وهذا اختيار ابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٣١١)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٥٦)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (١/ ١٦٩-١٧٠). =

﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أي: إنَّهم إنَّما قاموا بذلك الافتراء والتزوير؛ لأجْل غايةٍ خسيسة، وهي الحصولُ على مكاسبَ دُنيويَّة[١].

﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

أي: لهم عذابٌ شديد، وهلاكٌ عظيم؛ جزَّاءَ ما كتبتْه أيديهم من الكذب والافتراء على الله عزَّ وجلَّ، ولهم العذابُ والهلاك أيضًا؛ جزاءً على أخْذهم الحرامَ عوضًا على ما عملتْه أيديهم من التَّزوير والتحريف[٢].

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

بعدَ أنْ ذكَر الله تعالى تحريفَهم التوراةَ، بيَّن سبَب جُرأتهم وعدم اكتراثهم بما يرتكبونه من جرائمَ، وأنَّهم مع ذلك يزكُّون أنفسهم فجَمَعوا بين الإساءة والأمْن[٣]، قال تعالى:

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾.

= وممَّن قال من السَّلف: إنَّ (ويل) كلمة تعني العذابَ: ابن عبَّاس رضي الله عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٣).

وقيل: ﴿ويل﴾: واد في جهنم.

قال الشنقيطي: (وقال بعض العلماء: (ويل): واد في جهنم تستعيذ جهنم من حره. ولو فرضنا صحة هذا القول لكان راجعًا إلى الأول) ((العذب النمير)) (١/ ١٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٦٩-١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٩-١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧).

أي: إنهم قالوا: لن تلاقي أجسادنا نار الآخِرة، إلَّا أيامًا قليلةً، ثم ننجُوا منها[١].

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾.

أي: قُلْ يا محمَّد، لأولئك اليهود الذين ادَّعوا لأنفسهم ما ادَّعوا: هل عندكم مِن الله تعالى ميثاقٌ يُثبت صحَّةَ دعواكم؛ فإنْ كان قد وقَع عهد، فلكم العُذر فيما قلتم؛ فإنَّ الله تعالى لا ينقُض ميثاقه، ولا يُخلِف وعده[٢]؟

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: أوْ هلْ تتقوَّلون على الله تعالى الباطِل، وتَختلِقون الكذبَ جَراءةً عليه سبحانه[٣]؟

﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا قال اليهود: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، كذَّبهم الله تعالى وأخبَرهم بالحُكم الذي لا حُكمَ غيره، لا أمانيهم ودعاويهم الباطِلة[٤]، فقال:

﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾.

أي: ليس الأمر كما تمنَّيتُم يا معشرَ اليهود، ولكن من أشرك بالله تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٧٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٧٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٧٨-١٧٩)، ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تَيميَّة (١/ ٣٨٨)، =

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾.

أي: أحدقت ذنوبُه وخطاياه بقَلبِه من كلِّ جانب، فليس له منفذٌ للخروج منها، ومات عليها قَبلَ التوبة منها(١).

﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: إنَّهم ملازِمون للنار على الدَّوام، لا يخرجون منها أبدًا(٢).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

أي: الذين صَدَّقوا وأقرُّوا بألسنتهم وقلوبهم، وصدَّقوا ذلك بجوارحهم، فعمِلوا الأعمالَ الصالحاتِ بإخلاصٍ لله تعالى، ومتابعةٍ للرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ(٣).

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: هؤلاء هم أهلُ الجنة المقيمون فيها على الدَّوام، لا يخرجون منها أبدًا(٤).

= ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ السيِّئة هنا معناها الشِّرك: ابن عبَّاس، وأبو وائل، ومجاهد، وقَتادة، وعطاء، والرَّبيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٨٢)، ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تَيميَّة (١/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٥-٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٨٢، ١٨٥)، ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تَيميَّة (١/ ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٨٦-١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٨٧).

الفوائد التربويَّة:

١- تَسليةُ الله تعالى لرسوله صلَّى الله عليه وسلَّمَ بما يُذهب عنه الأسى، والحزن؛ حيث بيَّن له حال هؤلاء، وأنَّهم قومٌ عُتاةٌ لا مَطمعَ في إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾[١].

٢- أنَّ مَن كان لا يؤمن بما هو أظهرُ، فإنَّه يبعُد أن يؤمن بما هو أخْفَى؛ لأنَّ مَن يَسمع كلام الله، ثم يُحرِّفه، أبْعَدُ قَبولًا للحقِّ ممَّن لم يسمعه، كما قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

٣- التَّحريف بعد عقْل المعنى أعظمُ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الجاهل قد يُعذَر بجهله؛ لكن العالم الذي عقَل الشيء يكون عملُه أقبحَ؛ لأنَّه تجرَّأ على المعصية مع عِلمه بها[٣].

٤- أنَّ العِلم من الفتح؛ لقولهم: ﴿بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ ولا شكَّ أنَّ العِلم فتْحٌ يَفتح الله به على المرء من أنواع العلوم والمعارف ما يُنير به قلبَه[٤].

٥- في توبيخ الله تعالى لليهود بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ دلالةٌ على أنه يَنبغي للإنسان أن يكون عاقلًا؛ فلا يخطو خُطوةً إلَّا وقد عرَف أين يضع قدمه، ولا يتكلَّم إلَّا وينظر ما سيترتَّب على كلامه، ولا يفعل شيئا إلَّا وينظر ما سيؤول إليه فِعلُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٥٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٥).

٦- ذمُّ مَن لا يَعتني بمعرفة معاني كتاب الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾[١].

٧- أنَّ الإيمان وحده لا يَكفي لدخول الجنة، بل لا بدَّ من العمل الصالح،كما أنَّ العَمل وحده لا يكفي، بل لا بدَّ أن يكون صادرًا عن إيمان؛ لقوله تعالى: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ ولذلك لم ينفعِ المنافقين عَملُهم؛ لفقدهم الإيمانَ في قلوبهم[٢].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ من سجايا اليهود وطبائعهم الغَدرَ والخيانة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ...﴾ الآية؛ لأنَّ في هذا نوعًا من الغَدْر بالمؤمنين[٣].

٢- حُسن مجادلة القرآن؛ لأنَّه حصَر هذه الدعوى في واحدٍ من أمرين، وكلاهما منتفٍ: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤].

٣- في قوله تعالى: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾: أنَّ الله سبحانه وتعالى لن يُخلِفَ وعده؛ وكونه لا يُخلف الوعد يتضمَّن صفتين عظيمتين، هما: الصِّدق، والقدرة؛ لأنَّ إخلاف الوعد إمَّا لكَذِب، وإمَّا لعجز؛ فكون الله جلَّ وعلا لا يُخلف الميعاد يقتضي كمالَ صِدقه، وكمال قُدرته سبحانه وتعالى[٥].

بلاغة الآيات:

١- **قوله**: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ استفهام إنكاري للنَّفي، وفيه معنى التقرير لعدم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٥٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦٤).

إيمانهم، والتعجُّب كذلك، فكأنَّه قيل: فلا تَطمَعوا أن يؤمنوا لكم، أو فاعجبوا من طمَعِكم[١].

٢- **قوله: ﴿عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** فيه تَكرار أفعال متقارِبة في المعنى (عقل- علم)، وفائدته: التأكيد على شِدَّة قسوتهم، وعظمة جَراءتهم؛ إذ عقَلوا مرادَ الله فأوَّلوه تأويلًا فاسدًا، يعلمون أنَّه غيرُ مراد، أو علِموا أنَّ التأويل الفاسد يُكسبهم الوزرَ والعقوبة[٢].

٣- **في قوله: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾** ذِكر الأيدي تأكيدٌ، وهذا الموضع ممَّا يحسن فيه التأكيد، كما يُقال لمن يُنكر معرفة ما كتبَه: هذا ما كتبتَه بيمينك، والقصد منه: تحقيقُ وقوعِ الكتابة، وأنَّهم في ذلك عامِدون قاصِدون[٣].

٤- **في قوله: ﴿فَوَيْلٌ... فَوَيْلٌ لَهُمْ... وَوَيْلٌ لَهُمْ﴾**

- جاء التعبير بالجُملة الاسميَّة؛ دلالةً على الثبوت والدوام[٤].
- ونُكِّرَت كلمة (ويل) للتعظيم والتهويل[٥].
- وفائدة تَكرار ذِكر الويل في الكَسب؛ بيان أنَّ في أخذهم المالَ على ما كتبوه ذنبًا آخَرَ؛ ففيه دفْعٌ للإيهام، وإزالةٌ للشبهة، بأنَّ مجموع الكتابة والكسب يَقتضي الوعيد العظيم دون كلِّ واحدٍ منهما[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٧٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١) في الكلام على قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾.

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٦٥).

- وفيه من البلاغة: الجمع والتقسيم[١]؛ ففي قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ جمْعٌ، وفي قوله: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ تقسيم[٢].

٥- **قوله: ﴿يَكْتُبُونَ... يَقُولُونَ... يَكْسِبُونَ﴾** فيه التعبير بالفِعل المضارِع؛ لاستحضار الصُّورة، كأنَّها حاضرة للعِيان[٣].

٦- **قوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**

- **﴿أَمْ﴾** هذه تُسمَّى أم المعادلة لهمزة الاستفهام، والاستفهام هنا على سبيل التقرير للعِلم بوقوع أحدهما، أو على التقرير والتقريع[٤].

٧- **في قوله: ﴿سَيِّئَةً﴾** جاء التنكير للتعظيم؛ لأنَّ المقصودَ بها الشرك[٥].

٨- **في قوله: ﴿فأولئك﴾، وقوله: ﴿أولئك﴾ كما ورد في هاتيْن الآيتيْن ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**

ذِكر الفاء وحَذفها فيه معنًى لطيف؛ فقد يكون ورودها للدَّلالة على سببيَّة دخول النار بسُوء أفعالهم، وذلك عدلٌ منه سبحانه، وأمَّا دخول الجَنَّة فهو بفَضل الله تعالى ورحمته؛ ولذا حُذِفَت الفاء[٦].

---

(١) **الجمع والتقسيم**: هو جْمع متعدِّد تحت حُكم، ثم تقسيمه، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢]. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٩٠)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١١٤-١١٥).

(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١١٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨٢-٨٦)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿أُسَارَى﴾: جمْع أَسْرى، وأَسْرى جمْعُ أسير؛ فأُسارَى جمْع الجمْع، وأصل الأسر: الحبس والإمساك، ومنه الشدُّ بالقيد، من قولهم: أسرت قَتَب البَعيرِ، وسُمِّي الأسير بذلك، ثم قيل لكلِّ مأخوذٍ ومقيَّد- وإن لم يكن مشدودًا -: أسير[(١)].

﴿خِزْيٌ﴾: هوان، وهلاك، وأصل الخِزي: الإبعاد[(٢)].

مشكل الإعراب:

قَوْله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا الله﴾: الفعل (تعبدون) مرفوع وعلامة رفْعه ثبوت

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة. ورفْعه إمَّا على تقدير (أنْ لَا تعبدوا)، ولَمَّا حُذِفت (أَنْ) ارتفع الفِعْل. أو تكون (لا) نافية لا عمَلَ لها، ويكون النَّفي مقصودًا منه النَّهي. وقيل غير ذلك[١].

المعنى الإجمالي:

يُذكِّرُ اللهُ سبحانه بني إسرائيل بالعهد المؤكَّد الذي أخَذه عليهم، وهو أن يعبدوه وحْدَه، وأن يُحسنوا إلى الوالدين، وإلى جميع مَن تربطهم بهم صِلةُ قرابة، وأن يُحسنوا كذلك إلى مَن فقَدوا آباءهم قبل أن يبلُغوا، وإلى الفقراء، وأن يُحسِنوا القول إلى كلِّ الناس، وأن يأتوا بالصَّلاة تامَّةَ الأركان والواجبات، ويُعطوا الزَّكاة المفروضة لمستحقِّيها، لكنَّهم نقَضوا هذا العهدَ الذي أخذ عليهم، وتولَّوا عنه بلا رَجعة، إلَّا عددًا قليلًا منهم قدْ أوفَوا بعهد الله تعالى.

ثمَّ ذكَّرهم الله أيضًا بعهدٍ آخَر قد أخَذَه عليهم من قبل، وهو أن لا يَقتُلَ بعضُهم بعضًا، ولا يخرج بعضُهم بعضًا من ديارهم بغير حقٍّ، وأنَّهم أقرُّوا بمعرفة هذا العهدِ وصحَّتِه، ولم يغبْ عنهم ولم يُنكروه، لكنَّهم نقضوه وفعَلوا ما نُهوا عنه، فقَتَل بعضُهم بعضًا، وأخرَج بعضُهم بعضًا من دِيارهم، وتعاونوا على أهل مِلَّتهم بالمعصية وتجاوُز حدود الله عزَّ وجلَّ.

وبالرُّغْم من هذا القَتل والإخراج المُحرَّميْنِ، إلَّا أنَّهم إذا أُسِرَ بعضهم يجيءُ الذين قاتلوهم من اليهود من الفريق الآخَر فيُخلِّصونهم من الأَسْر؛ يَمتثلون ما أُمروا به من افتداء الأسرى اليهود، مع أنَّهم مُحرَّم عليهم إخراجُهم، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك؛ إذ كيف يمتثلون بعضًا ممَّا في التوراة، ويتركون بعضًا؟!

ثم أخْبَرَ تعالى أنَّه لا جزاءَ لِمَن يفعل فِعلهم القبيح إلَّا الذلُّ في الدُّنيا، وفي الآخِرة

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٠١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٨٣-٨٤).

لهم من العذاب أشدُّه، والله لا يَخفَى عليه شيءٌ من أعمالهم.

ثم بيَّن أنَّ هؤلاء الصِّنف من اليهود قد استبدَلوا في الحقيقة ما في الدُّنيا من نعيم زائلٍ بنعيم الآخِرَة الدائم؛ وذلك بسبب كُفرهم وتركهم شرائعَ الله تعالى؛ فلن يُخفَّف عنهم ما يستحقُّونه من العذاب يومَ القِيامة، ولن يُنقِذَهم أحدٌ منه.

تفسير الآيات:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣)﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾.

أي: واذكُروا يا معشر اليهود، حين أخَذْنا عليكم عهدًا مؤكَّدًا بعبادة الله وحْدَه لا شريكَ له[(١)].

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾.

أي: وممَّا أُخِذ على بني إسرائيل من العهود المؤكَّدة أن يُحسنوا إلى الوالدين، وهذا يشمل كلَّ أنواع الإحسان القوليَّة والفعليَّة، وممَّا أُخِذ عليهم أيضًا: العهد بالإحسان- بجميع طرقه- إلى أنواع القَرابات كافَّةً، وإلى اليتامى- واليتيم هو مَن فقَدَ أباه قبلَ البلوغ، ذَكَرًا كان أم أُنثى- وإلى المساكين، وهم الفقراء[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ...﴾ الآية [النساء: ٣٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٩١-١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٦٧).

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

أي: ومما أمر الله تعالى به اليهود أن يحسنوا بالقول إلى النَّاس عمومًا، فيكلمونهم بكلام طيب لين، يدخل فيه الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعفو والصفح، وغير ذلك(١).

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

أي: وممَّا أُمِر به اليهودُ أيضًا: إقامةُ الصَّلاة، وإيتاء الزكاة، أي: ائتوا بالصَّلاة تامَّةً بحقوقها الواجبة عليكم فيها، وأعطوا الزكاةَ مستحقِّيها بما فرَض الله تعالى عليكم في أموالِكم(٢).

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

أي: خاطَب اللهُ تعالى اليهودَ الحاضرين في زمن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنَّهم هم وآباؤهم قد ترَكوا ما أخذ الله تعالى عليهم من المواثيق التي ذُكرت في الآية، ترَكوها وراءَ ظهورهم، فنقضوها وأعْرَضوا عنها عن عمْد بعد العِلم بها، إعراضًا لا رجعةَ فيه إليها، عدا عددٍ قليل منهم قد عصمَهم الله تعالى ووفَّقهم، فوفوا بتلك العهود(٣).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٩٣-١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧-٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٨٣)، ((تفسير العثيمين-الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ابن جرير، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٩٩) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٦٩).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾.

أي: واذكروا حين أخَذْنا عليكم وعلى آبائكم من قبل، ألَّا يقتل بعضُكم بعضًا، ولا يُخرِج بعضُكم بعضًا من دِيارهم بغير حقٍّ[(١)].

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

أي: بعد أخْذ هذا الميثاق عليكم، بقيتُم عليه، وقد أقررتُم بمعرفته وصحَّته، وشهدتُم عليه، فهو لديكم باقٍ، لم يغبْ عنكم، ولم تُنكِروه[(٢)].

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)﴾.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾.

أي: إنَّهم من بعد ذلك الميثاقِ، والإقرارِ به، والشهادة عليه، نقَضوا الميثاقَ الذي أُخذ عليهم؛ إذ وقعوا في المخالفة بقَتْل بعضهم بعضًا، وإخراج بعضهم بعضًا من دِيارهم بغير حقٍّ[(٣)].

﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٠٠-٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٨-٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٠٤-٢٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٠٥-٢٠٦، ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٣-٢٧٤).

أي: تتعاونون على أهلِ ملَّتكم بمعصية الله تعالى، وتجاوز حدودِه[١].

﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: (تفادوهم) قِراءتان:

١- (تُفَادُوهُمْ) على معنى أنَّ المفاداة من اثنين؛ لأنَّ الفداء: أن تأخذ ما عنده، وتُعطي ما عندك، فتَفعل به كما يُفعل بك[٢].

٢- (تَفْدُوهُمْ) أي: تشتروهم من العدوِّ وتُنقِذوهم[٣].

﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.

أي: إنَّه بعد أَسْر بعض اليهود من كِلا الفريقيْنِ المتحاربيْنِ يقوم الذين قاتلوهم من أهل مِلَّتهم، بتخليصهم من الأَسر، بعِوض أو بمبادلةٍ بين أسارى الفريقينِ؛ امتثالًا لما أُمِروا به في كتابِهم من افتداءِ الأَسرى منهم، مع أنَّه قد حُرِّم عليهم في كِتابهم أيضًا إخراجُهم من دِيارهم، ولم يجتنبوا هذا النهيَ[٤]!

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٠٦، ٢٠٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٤).

(٢) قرأ بها المدنيَّان، وعاصمٌ، والكسائيُّ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص:٨٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ١٦٤).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص:٨٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٨)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨).
وممَّن قال من السَّلف بنحو ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ﴾: ابن عبَّاس، وأبو العالية. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٦٥).

أي: أنْكَر الله تعالى عليهم ذلك؛ إذ كيف يمتثِلون شيئًا ممَّا أُمروا به في التوراة، وهو فِداء أسراهم من أيدي العدوِّ، بينما يتركون أشياءَ أخرى من نفْس التوراة، وهي ارتكابُ ما نُهوا عنه من قتْل، وإخراج بعضهم بعضًا، ومظاهرة بعضهم العدوَّ على بعض[١]؟!

﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي: ليس لِمَن وقَع في ذلك الانحراف الشَّنيع منكم معشرَ اليهود، سوى الذلِّ؛ عقابًا عاجلًا في الدنيا. وممَّا وقَع لهم من ذلك: تسليطُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ عليهم، فقَتَل منهم مَن قتَل، وسبَى مَن سبَى، وأجْلَى البقيةَ من دِيارهم[٢].

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾.

أي: ويوم تقوم السَّاعة، فيقوم النَّاسُ لربِّ العالمين، يُرَدُّ هؤلاء الذي فعَلوا ذلك منكم- أيُّها اليهود- أي: يرجعون من ذلِّ الدنيا إلى أعظم ما يكون من العُقوبات الأخرويَّة التي أعدَّها الله تعالى لأعدائه[٣].

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: يُهدِّدهم الله تعالى ويتوعَّدهم؛ فلكمالِ عِلمه ومراقبتِه لا يَخفى عليه شيءٌ، ولا يَنسى شيئًا سبحانه وتعالى، بل هو حافظٌ عليهم أعمالَهم، ومحصيها لهم؛ ليجازيَهم بها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢١٥-٢١٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢١٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢١٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٠)، ((تفسير =

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾.

أي: إنَّهم قد استبدلوا نَعيمَ الدُّنيا الفاني بنَعيمِ الآخِرة الباقي، وذلك ببذلهم الكفرَ بالله تعالى وترْك شرائعه، ثمنًا للاستحواذِ على ما يبتغون من حُطام الدُّنيا[١].

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾.

أي: لأجْل إيثارهم الدُّنيا على الآخِرة، لن يُخفَّف عنهم من عذاب يوم القيامة شيءٌ، لا زَمنًا ولا شدَّةً[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩-٥٠].

﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

أي: لا يَستنقِذهم أحدٌ من عذاب الله تعالى[٣].

الفوائد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى

= ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٧).

وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣]، إشارةٌ إلى أنَّ حقَّ ذي القُربى، كالتابع لحقِّ الوالدينِ؛ لأنَّ الإنسان إنما يتَّصل به أقرباؤه بواسطة اتِّصالهم بالوالدينِ، والاتِّصالُ بالوالدين مقدَّم على الاتِّصال بذي القربى؛ فلهذا أخَّر الله تعالى ذِكرَه عن الوالدينِ(١).

٢- أنَّ الأُمَّة كالنَّفْس الواحدة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾(٢).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣]: جاء الأمْر بالإحسان إلى اليتيم بعدَ الأمر بالإحسان إلى الأقارب؛ لأنَّه لصغره لا يُنتفع به، ولخلوِّه عمَّن يقوم بشؤونه، يَحتاجُ إلى مَن يَنفعه، والإنسان قلَّما يرغب في صُحبة مِثل هذا، ولَمَّا كان هذا التكليفُ شاقًّا على النفْس، كانت درجتُه عظيمةً في الدِّين.

وأمَّا المساكين فقد تأخَّرت درجتُهم عن اليتامى؛ لأنَّ المسكين قد يُنتفع به في الاستخدام، فكان المَيلُ إلى مُخالطته أكثرَ من الميل إلى مخالطةِ اليتامى، ولأنَّ المسكين يُمكنه الاشتغالُ بتعهُّد نفْسه ومصالح معيشته، وليس اليتيم كذلك(٣).

٢- إثبات أنَّ صفات الله تعالى ثبوتيَّة، ومنفيَّة، لكنَّ النفي المحضَ لا يُوجَد في صفات الله تعالى، وإنَّما جاء النفيُ الواقع في صفاته؛ لبيان كمال ضدِّ ذلك المنفيِّ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥](٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٨٧-٥٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٩).

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ فيه قصرٌ بالنفي والاستثناء (لا... إلَّا)[١].

- والأسلوب إخباري في معْنى النهي، وهو أبلغُ من صريح النهي؛ لِمَا فيه من إيهام أنَّ المنهيَّ سارع إلى الانتهاء[٢].

٢- **في قوله:** ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ التفات؛ إذ خرَج من ضمير المتكلِّم في ﴿أَخَذْنَا﴾ إلى الاسم الغائب ﴿اللَّهَ﴾. ولو جرَى على نسَقٍ واحد لقال: (لا تعبدون إلَّا إيَّانا)، لكن في العدول إلى الاسم الظاهر من الفخامة، والدلالة على سائر الصفات، والتفرد بالتسمية به، ما ليس في المُضمَر، ولأنَّ ما جاء بعده من الأسماء، إنما هي أسماء ظاهرة، فناسَب مجاورة الظاهر الظاهر[٣].

٣- **قوله:** ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾

- **فيه** التقديم بحسَب الأهمِّ؛ حيث قدَّم عِبادة الله تعالى، ثم قدَّم الأحوج إلى الإحسان ﴿بِالْوَالِدَيْنِ... ذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى... وَالْمَسَاكِينِ﴾. وقدَّم الأمور بحسب الأنفع فيها؛ فقدَّم الإحسان على القول الحسن[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٥٧)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١١٨).

- وقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فيه تأكيدٌ بوضع المصدر (حُسْنًا) موضِعَ الاسم (قولًا حَسَنًا)، وهذا إنَّما يُستعمل للمبالغة في تأكيد الوصف، فكأنَّه نفْس الحُسن، كرجل عدْل[(١)]، أو على أنَّه مصدرٌ وَقَع صفةً لمحذوفٍ تقديرُه: وقولوا للناسِ قَوْلًا حُسْنًا، أي: ذا حُسْن[(٢)].

- وفي قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ التِفات من الغَيبة إلى الخِطاب، حيث انتقل مِن الحديث عن بني إسرائيل القُدامى إلى خِطاب الحاضرين منهم في زمَن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وحكمته: أنَّ الإقبالَ عليهم بالخِطاب أدْعى للقَبول، وأقرب للامتثال؛ إذ فيه الإقبال من الله على المخاطب بالخطاب[(٣)].

- وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عبَّر بالجملة الاسميَّة التي تدلُّ على الثبوت؛ للتأكيد على إعراضهم واستمرارهم فيه[(٤)].

٤- قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ وقوله: ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ حال، أو خبَر نُزِّل فيه الغائِبُ مَنزلةَ الحاضر؛ لأنَّ المرادَ بهم أسلافُهم، وعبَّر بالمضارع؛ لقصد الدَّلالة على التجدُّد والحدوث، وأنَّ ذلك من شأنهم[(٥)].

٥- في قوله: ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾ جاء تنكير الخزي؛ للتهويل والتعظيم[(٦)].

٦- في قوله: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تقديمُ المسنَد إليه ﴿بِغَافِلٍ﴾؛ للتَّخصيص، وتأكيد الوعيد[(٧)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) مع الحاشية (١/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٩١).
(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٤٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٥٧).
(٤) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١١٨).
(٥) يُنظر: ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (١/ ٤٧٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٢٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٤٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٢١).
(٧) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٢١).

الآيات (٨٧-٩٠)

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿وَقَفَّيْنَا﴾: أتْبَعنا وأردفنا على آثارهم، مأخوذ من القفا؛ يقال: قفوت الرجل: إذا سرت في أثره[(١)].

﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: جبريل عليه السلام؛ سمي بذلك لأنه يأتي بما فيه حياة القلوب، أو لأنَّه ينزل بالقدس، أي: بما يُطهر به نفوسنا من القرآن والحِكمة[(٢)].

﴿غُلْفٌ﴾: جمْع أغلف، أي: كأنها في غِلاف لا تفهم، ولا تَعقل شيئًا مما يقال، وأصل الغلف: الغشاوة وغشيان شيءٍ لشيء[(٣)].

﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾: أي: يستنصرون باسم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم وببعثته؛

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

فالاستفتاح: الاستنصار، وطلب الفتح، أي: طلب الظفر[١].

﴿بَغْيًا﴾: أي: حسدًا، وأصل البغي: طلب الشيء، وجنس من الفساد، والظلم، والترفع والعلو، ومجاوزة المقدار[٢].

﴿فَبَاؤُوا﴾: رجعوا، وانصرفوا بذلك، واستوجبوه. ولا يُقال (باء) إلَّا بشر، ويقال: باء بكذا إذا أقرَّ به[٣].

المعنى الإجمالي:

يُخبِر الله سبحانه وتعالى عن إعطائِه التوراةَ لموسى عليه السَّلام، وإرسالِه الرُّسلَ إلى بني إسرائيل مِن بعدِ موسى عليه السَّلام، وأنَّه أعطى عيسى عليه السَّلام معجزاتٍ تُظهِر صِدقَه، وتُثبت نبوَّته، كما قوَّاه وأعانه بجبريل عليه السَّلام.

ثم أنكَر سبحانه على بني إسرائيل ما صَنعوه بمَن جاءهم من الرُّسل عليهم السَّلام، فكلَّما أتاهم رسولٌ من عند الله بأحكامٍ تُخالف أهواءَهم، كذَّبوا طائفةً منهم، وقتَلوا طائفةً أخرى.

ثم إنَّهم يدَّعون كذبًا واستكبارًا أنَّ سببَ عدَمِ إيمانهم هو أنَّ الله تعالى جعَل في قلوبهم أَغطيةً؛ فلا تتمكَّن من الفَهم، ولكن الأمْر ليس كما ادَّعَوا، بل الحقيقة أنَّ الله تعالى طرَدَهم من رحمتِه؛ مجازاةً لهم على جُحودهم بآياته، وتكذيبهم لرسلِه؛ فهم لا يُقِرُّون إلَّا بشيءٍ قليلٍ ممَّا يجب عليهم الإيمانُ به.

وحين جاءَ اليهودَ القرآنُ، وفيه تصديقٌ لِمَا عندهم من التوراة، وقد كانوا قبلَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٢ - ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٠-٢٥٢).

مَبعث رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ومجيئه بالقرآنِ يَستنصِرون على مَن يقاتلهم من المشركين بمبعثِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأنَّ اليهود سيكونون معه، وسيقتلون المشركين، فلمَّا أتاهم وعرَفوه، جَحَدوا به عمدًا؛ فاستحقُّوا الطردَ من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

فما أقبحَ ما استبدلوا به أنفسَهم! وهو الكفرُ؛ إذ اختاروه وبذَلوا أنفسَهم للنَّار؛ وذلك حسدًا منهم لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ كان من غير بني إسرائيل. فاستوجبوا بذلك غضبًا من الله؛ بسبب جُحودِهم لِرسالته صلَّى الله عليه وسلَّمَ، إضافةً إلى ما تحملوه من غضَب الله أولًا؛ بسببِ ذنوبٍ مضَتْ منهم، ولكلِّ جاحد لنبوَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ عذابٌ يُهان فيه ويُذَلُّ.

تفسير الآيات:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾.

أي: أعطى الله تعالى موسى عليه السَّلام التوراة، ومِن بعدِه أرسل أنبياءَ إلى بني إسرائيل، فأتْبع بعضهم بعضًا على منهاج موسى وشريعتِه، بإقامة التوراة، والعملِ بما فيها إلى زمَن عيسى عليه السَّلام.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ الآية [المائدة: ٤٤][1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢١٩-٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨).

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾.

أي: أخبر تعالى أنَّه أعطَى خاتمةَ أنبياء بني إسرائيل، عيسى عليه السَّلام، معجزاتٍ تُظهر صِدقَه، وتُثبت نبوَّتَه، كإحياء الموتى، وإبراء المَرضَى، وغير ذلك(١).

﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

أي: أيَّد الله تعالى عيسى عليه السَّلام بجبريل عليه السَّلام، يُقوِّيه ويُعينه(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

أي: يُنكِر اللهُ تعالى على بني إسرائيل تعامُلَهم الشَّنيع مع رُسله وأنبيائِه عليهم السَّلام، وأنَّهم كلَّما جاءَ نبيٌّ منهم؛ ليلزمَهم بأحكام تُخالِف أهواءهم، شقَّ ذلك عليهم، فتجبَّروا وبغوا عليهم، مقدِّمين هواهم على هُداهم، فكذَّبوا طائفةً منهم، وقتَلوا طائفةً آخرين(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٢١-٢٢٤). ونسَبَه ابنُ تَيميَّة لجمهور المفسِّرين، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ٢٨٤-٢٨٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تَيميَّة (٢/ ١٨١-١٨٥)، ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢١).
وممَّن قال من السَّلف أن روح القدس هو جبريل عليه السلام: ابن مسعود، وابن عبَّاس، وقتادة، والسُّدِّي، والضحاك، والرَّبيع، وإسماعيل بن أبي خالد، وعطية العوفي، ومحمد بن كعب القرظي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٨٣).

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.

أي: إنَّهم يقولون كذبًا بأنَّ الله لم يَفتحْ لهم الطريق إلى معرفة ما جاءت به الرُّسُل والأنبياءُ عليهم السَّلام، بجعْل قلوبِهم داخلةً في غِلاف وأَغطيةٍ فلا تَفهم؛ فكيف تقوم عليهم الحُجَّة[1]؟!

كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥].

﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما ادَّعى هؤلاء كذبًا بأنَّ الله تعالى خلَق قلوبَهم غلفًا لا تَعي، ثم أمرهم بالإيمان، وهم لا يفقهونه، كلَّا! بل حقيقة الأمر أنَّ الله تعالى قد طردَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٣١).

وقال ابن القيم: (الصحيح: قول أكثر المفسرين: إن المعنى قلوبنا لا تفقهه، ولا تفهم ما تقول... هذا هو الصواب في معنى الآية؛ لتكرر نظائره في القرآن، كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾) ((شفاء العليل)) (ص: ٩٣).

وقال السعدي: (اعتذروا عن الإيمان لِمَا دعوتهم إليه- يا أيُّها الرسول- بأنَّ قلوبهم غلف، أي: عليها غِلاف وأغطية؛ فلا تَفقَهُ ما تقول، يعني فيكون لهم- بزَعْمهم- عذرٌ لعدم العلم، وهذا كذب منهم) ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨).

وقال ابن عاشور: (والغُلْف بضم فسكون جمع أغلف، وهو الشديد الغلاف مشتق من غلفه: إذا جعل له غلافًا وهو الوعاء الحافظ للشيء والساتر له من وصول ما يكره له. وهذا كلام كانوا يقولونه للنبيء صلى الله عليه وسلم حين يدعوهم للإسلام قصدوا به التهكم، وقطع طمعه في إسلامهم وهو كقول المشركين: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾) ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٩٩).

وقال الشنقيطي: (فقول اليهود في هذه الآية: قلوبنا غلف كقول كفار مكة: قلوبنا في أكنة؛ لأن الغلف جمع أغلف، وهو الذي عليه غلاف، والأكنة جمع كنان، والغلاف والكنان كلاهما بمعنى الغطاء الساتر) ((أضواء البيان)) (٧/ ٧). ويُنظر: ((تفسير بن عثيمين-الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٨٤).

وممَّن ذهَب إلى ذلك من السَّلف: ابن عبَّاس -في رواية عنه- ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والسُّدِّي، وقَتادة -في رواية عنه-والأعمش، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)).

من رحمته؛ جزاءَ ما اختاروه لأنفسهم من الجحود بآيات الله تعالى وما جاءتْ به رُسلُه وأنبياؤه[١].

﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّهم آمنوا بشيءٍ يسيرٍ مما وجب عليهم الإيمان به، لكنه إيمانٌ لا ينفعهم؛ لأنه مغمورٌ بما كفروا به[٢].

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾.

سبب النزول:

عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخٍ منهم قالوا: (فينا والله وفيهم- أي: الأنصار واليهود- نزلت هذه القصة قالوا: كنا علوناهم دهرًا في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: إن نبيًّا يُبعث الآن نتبعه، قد أظل زمانه، نقتلكم معه قتْلَ عاد وإرم. فلمَّا بعث الله عزَّ وجلَّ رسوله من قريش واتبعناه كفروا به، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾) الآية[٣].

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾.

أي: لَمَّا جاء اليهودَ القرآنُ الذي أَنزله الله تعالى على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٣٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٢٦)، (١٦/ ١٢-١٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٤-٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٣٣-٢٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢٣/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٨٤).

(٣) أخرجه ابن إسحاق في ((سيرة ابن هشام)) (١/ ٥٣٩)، وحسَّنه الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (٢٦).

والمشتمِل على تصديق ما معهم من التوراة[١].

﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: قد كانوا من قَبلِ مجيء الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ بالقرآن يستنصرون بمجيئِه على أعدائهم من المشركين إذا قاتَلوهم، ويتوعَّدونهم بقتْلهم معه[٢].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

أي: لَمَّا أتاهم ما يعرفونه من الحقِّ وصِفةِ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، تَعمَّدوا الجَحدَ به عليه الصَّلاة والسَّلام بعد قِيام الحُجَّة بنبوَّته عليهم[٣].

﴿فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

أي: بسبب ذلك الكُفر؛ طرَدَهم الله تعالى وأبْعَدهم من رحمتِه، وهذا الحكم يعمُّ كلَّ كافر[٤].

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩).
وممَّن قال من السَّلف بأنَّ الكتاب هو القرآن: قَتادة، والرَّبيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٣٦، ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩).
وممَّن ذهب إلى نحو ما ذُكِر من السَّلف: ابن عبَّاس، وأبو العالية، وعلي الأزدي، وقَتادة، والسُّدِّي، وعطاء، مجاهد، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٤٣)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تَيميَّة (١/ ٨٦-٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٤٢-٢٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩٠).

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾.

أي: بئس الشيءُ باعوا به أنفسَهم الكفرُ، يعني: أنَّهم اختاروا الكفرَ وأخذوه، وبذلوا أنفسهم للنَّار؛ لأنَّ اليهود علِموا صِدقَ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأنَّ مَن كذَّبه فالنار عاقبتُه، فاختاروا الكُفر وسلَّموا أنفسهم للنار(١).

﴿بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

أي: إنَّ الذي حمَلهم على اختيار الكفر، حسدُهم لمن شاء الله تعالى أن يَخصَّه بفضله العظيم مِن دون عبادِه، فحسَدوا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ على أنَّه هو الرسولُ المنتظَر؛ لأنَّه كان من ولد إسماعيل، ولم يكُن من بني إسرائيل(٢).

﴿فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾.

أي: رجَع اليهودُ مستوجبين ومستصحبين غضبًا آخَرَ من الله تعالى عليهم؛ بسبب جحودِهم رسالةَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ حسدًا منهم، إضافةً إلى الغضب الأوَّل الذي اكتسبوه لذنوبٍ سلَفتْ منهم(٣).

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٤٣-٢٤٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٤٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٣-١٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩١).

وممَّن قال من السَّلف بأنَّ ﴿بغيًا﴾ هنا تعني (حسدًا): أبو العالية، والرَّبيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٥٠-٢٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٩)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية))لابن تَيميَّة (٢/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩٢).

وممَّن قال من السَّلف بأن ﴿باؤوا﴾ بمعنى استوجبوا: سعيد بن جُبير. يُنظر: ((تفسير ابن حاتم)) (١/ ١٧٣).

أي: وللجاحدين نبوَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ من الناس كلِّهم عذابٌ من الله يُهانون فيه ويُذلَّون[١].

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ المستكبِر يُعاقَب بنقيض حاله؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾؛ فعُوقِبوا بما يَليق بذنوبهم؛ وعلى هذا جرَتْ سُنَّة الله سبحانه وتعالى في خَلْقه[٢].

٢- أنَّ القلوب بفِطرتها ليست غلفاءَ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ﴾، وهذا الإضراب للإبطال، يعني: ليست القلوب غَلفاءَ لا تقبل الحقَّ، لكنْ هناك شيء آخَر هو الذي منَع من وصول الحقِّ؛ وهو لَعْنُ الله إيَّاهم؛ بسبب كُفرِهم[٣].

٣- أنَّ العلم من أعظمِ نِعم الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾[٤].

٤- أنَّ العقوبات تَتراكم بحسَبِ الذُّنوب؛ جزاءً وفاقًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾[٥].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أن مَن بعد موسى مِن الرُّسل مِن بني إسرائيل تبَعٌ له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٥٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٥).

٢- أنَّ من جملة تسخير الملائكة للخلْق أنَّهم يُؤيِّدون مَن أمَرَهم الله تعالى بتأييده، كما قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[١].

بلاغة الآيات:

١- **قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾** فيه تأكيدٌ بالقَسَم؛ والتَّصدير بالجملة القَسَميَّة؛ لإظهار كمالِ الاعتناءِ بموسى عليه السلام وإيتائِه الكِتاب وإرساله[٢].

٢- **في قوله: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾**

- تقديم المفعول (فريقًا) في الموضعيْن؛ ليدلَّ على التَّفصيل، وللاهتمامِ وتشويقِ السَّامعِ إلى ما فعَلوا بهم، وتوخِّيًا لرؤوس الآي[٣].

- بدأ بالتَّكذيب ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ قبل القَتْل ﴿تَقْتُلُونَ﴾؛ لأنَّه أوَّل ما يفعلونه من الشر، ولأنَّه الأمر المُشترَك بين الفريقين: المُكذَّب والمقتول[٤].

- الإتيان بالمضارع في ﴿تَقْتُلُونَ﴾ في غاية الفصاحة؛ إذ هو لبيان فظاعة هذا الأمر، ولاستحضاره في النفوس وتصويره في القلوب، أو للإعلام بأنَّ الأمر مستمرٌّ؛ ففيه إشارةٌ لليهود الذين في زمَن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم؛ لأنَّهم أرادوا قتْله عليه الصَّلاة والسَّلام، لولا أنَّ الله تعالى عَصمَه منهم[٥]، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: ((كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مرضه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٢٦)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٢/ ٢٦٨).

الذي مات فيه: يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم))[١].

- وفيه كذلك مراعاة لفواصِل الآيات[٢].

٣- في قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ التفاتِ من الخطاب الذي في ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ﴾ و﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ و﴿كَذَّبْتُمْ﴾ و﴿تَقْتُلُونَ﴾ إلى الغَيْبة في قوله: ﴿**وَقَالُوا**﴾؛ إشعارًا بإبعادهم عن رُتبة الخِطاب؛ لِمَا فُصِّل من مخازيهم الموجبةِ للإعراض عنهم[٣].

٤- في قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ حُذفت صفة (قليلًا)؛ لدلالة الفعل عليها، والتقدير (فإيمانًا قليلًا). و﴿مَا﴾ صِلة؛ أُتيَ بها للتأكيد والمبالَغة في التقليل[٤].

٥- في قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ﴾ و﴿جَاءكُمْ رَسُولٌ﴾ تنكير (كتاب) و(رسول)؛ للتفخيم، وتعظيمًا لشأنه[٥].

٦- قوله: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فيه وضْعٌ للظاهر موضعَ المُضمَر -على اعتبار الألف واللام للعهد-؛ وذلك للتسجيل عليهم بالكُفر، وللدَّلالة على أنَّ اللَّعنة لحقتْهم بسبب كُفرهم، ولبيان أنَّ هذا الحُكم يعُمُّ كلَّ كافر[٦].

---

(١) أخرجه البزار (١١٥)، والحاكم (٤٣٩٣)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (٢٠٢٠٩)، ورواه البخاري (٤٤٢٨) معلقًا بصيغة الجزم.
قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٧٩٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٢/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٣٥)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٢٦).

(٦) يُنظر: ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (١/ ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٢٩)، ((دليل =

٧- **قوله**: ﴿**وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾ فيه وضْعٌ للظاهر موضعَ المضمر؛ إشعارًا بعِلَّة كون العذاب المهين لهم، وأنَّه هو الكفر، ولو قيل: (ولهم عذاب مهين)، لم يكُن في ذلك تنبيهٌ على العِلَّة. وأيضًا لبيان أنَّ هذا العذابَ يَشمل كلَّ كافر[1].

= البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٩٤)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (١/ ٥١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٥١).

الآيات (٩١-٩٢)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿الطُّورَ﴾: الجبل الشاهق، أو اسم لكلِّ جبل، أو الجبل المنبت، أو اسمُ جبلٍ مخصوصٍ، وأصل طور: الامتدادُ في شيءٍ من مكان أو زمان[1].

المعنى الإجمالي:

يُخبر تعالى عن اليهود أنَّهم حين أُمِروا بالإيمان بالقرآن كان ردُّهم بأنَّ إيمانهم بالتوراة يَكفيهم، وجحَدوا بما جاء بعد التوراة من الكتُب التي أنزلها الله تعالى، مع أنَّ ما فيها حقٌّ موافِقٌ للذي عندهم في التوراة.

فأمَر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يسألهم إنْ كانوا حقًّا مؤمنين بما في التوراة؛ فَلِمَ يَقتُلون أنبياءَ الله الذين جاؤوا بتصديق ما فيها؟!

ثمَّ ذَكَّرهم الله تعالى بما فعَلوه حين أتاهم موسى عليه السَّلام بالآيات الواضحات، الدَّالَّات على صِدق ما جاء به، لكنَّهم جعَلوا العِجل إلهًا يعبدونه

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢، ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (٢/ ٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١، ٣٩٢).

بعد أنْ فارقهم موسى لمناجاة ربِّه، مُتعدِّين بذلك حدودَ الله تعالى.

وذَكَّرهم سبحانه أيضًا بما أَخَذ عليهم من عهد الإيمان به وبرُسله، والالتزام بشَرْعه، وخوَّفهم بأنْ رفَعَ الجبل فوقهم، وقيل لهم: خذوا التوراة التي أعطيناكموها بحَزمٍ وجِدٍّ، واسمعوا كلامَ الله وانقادوا له، فأجاب اليهود بأنَّهم سمِعوا بآذانهم، وعصَوْا بأفعالهم، وقد خالَط حبُّ العجل قلوبَهم؛ بسبب كفرهم، فإنْ كانوا يدَّعون الإيمان ويفعلون كلَّ تلك القبائح، فبِئس ذلك الإيمان الذي ادَّعوْه!

تفسير الآيات:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾.

أي: وإذا قيل لليهود الذين كانوا على عهد رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: آمِنوا بالقرآن الذي أَنزلَه اللهُ تعالى، ردُّوا على ذلك بأنَّه يَكفيهم الإيمانُ بالتوراة[1].

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾.

أي: إنَّ اليهود يَجحدون بما بعد التَّوراة من كتُب الله تعالى التي أنزلها إلى رُسلِه عليهم الصَّلاة والسَّلام، والحال أنَّ ما أنزله الله عزَّ وجلَّ هو الحقُّ الموافِق لِمَا عندهم من التوراة؛ فَلِمَ يؤمنون بما أُنزل عليهم، ويَكفُرون بنظيره؟! هل هذا إلَّا تعصُّب واتِّباع للهوى؟! فكُفرهم بالقرآن، كُفرٌ بما في أيديهم، ونقضٌ له[2].

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٥٤)، ((العقود)) لابن تَيميَّة (ص: ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٥٥-٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ ﴿مَا وَرَاءَهُ﴾، أي: ما بَعدَ التوراة من الكتُب: أبو قتادة، وأبو العالية، والرَّبيع، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٧٤).

أي: قلْ يا محمَّد، لهؤلاء اليهود المتناقضين: إنْ كنتم صادقين في دَعواكم الإيمانَ بالتوراة، فَلِمَ قَتلتُم- والمقصود أسلافُهم[١]- الأنبياءَ الذين جاؤوكم بتصديق التوراة والحُكم بها وعدَم نَسخِها، وأنتم تعلمون صِدقَهم، وقد حرَّم الله عليكم في التوراة قتْلَهم، بل أمرَكم فيها باتِّباعهم وطاعتهم؟! وهذا تكذيبٌ لهم في قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾[٢].

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى كذِبَ اليهود في دعواهم الاكتفاء بالإيمان بالتوراة، مع كُفرهم بالقرآن، ذكر أنَّهم لم يَصْدُقوا حتى في دعواهم الإيمانَ بالتوراة؛ فقد قابَلوا دعوة موسى عليه السَّلام- الذي يزعمون أنَّهم لا يؤمنون إلَّا بما جاءهم به- قابلوا دعوتَه بالكُفر والعِصيان، فقال سبحانه[٣]:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

أي: قد جاءكم يا معشرَ اليهود، موسى عليه السَّلام، بالآيات الواضحاتِ، والأدلَّة القاطعة على صِدقه وصِحَّة رِسالته، كالعصا واليَد، وغيرهما من المُعجِزات المؤيِّدة له[٤].

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

---

(١) وهذا نظيرُ قول العَرَبِ بعضِها لبعضٍ: فَعَلْنا بِكم يومَ كذا، كذا وكذا، وفعلتُم بنا يومَ كذا، كذا وكذا، يَعنُون بذلك: أنَّ أسلافَنا فعَلوا بأسلافِكم، وأنَّ أوائِلَنا فَعَلوا بأوائلكم. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٥٦-٢٥٧، ٢٦٠)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٩).

أي: إنَّكم يا مَعشرَ يهود، كفرتُم بما جاءكم به موسى عليه السَّلام من توحيدِ الله تعالى، فجعلتُم العِجل إلهًا تَعبُدونه، من بعد ذَهاب موسى إلى الطُّور لمناجاة ربِّه سبحانه، وأنتم بهذا قد تَعدَّيتم حدودَ الله عزَّ وجلَّ، وليس لكم أن تفعلوا ذلِك وأنتم تعلمون أنَّه لا معبودَ بحقٍّ سواه، وليس في التوراة- التي تَدَّعون تمسُّككم بها فحسبُ- أمرُكم بعبادة العِجل؛ فدعواكم أنَّكم مؤمنون بالتوراة، باطلةٌ[1].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

أي: واذكُروا يا معشر اليهود، حين أَخذْنا عليكم عهدًا مؤكَّدًا بالإيمان بالله سبحانه وبرُسله، والالتزام بشرعِه، ورَفعْنا فوقكم الجبلَ لتخويفكم؛ كي تقرُّوا بما عُوهِدتم عليه، وتعملوا به[2].

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾.

أي: قلنا لهم تلقَّوُا التوراة التي أعطيناكم إيَّاها، بهِمَّةٍ وحزمٍ، وجِدٍّ ونشاط، واسمعوا لكلام الله تعالى سماعَ قَبول واستجابة وانقياد[3].

﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٦١-٢٦٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦-٤٨)، ((الروح)) لابن القيِّم (ص: ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٤١-٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٠٩-٦١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٢).

أي: كان جوابهم على ما سبق أنْ قالوا: سمِعْنا بآذاننا قولَك، وعصينا بأفعالِنا ما أُمِرْنا به[١].

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾

أي: خالَط حبُّ العِجل وعبادته شغافَ قلوبِهم، وتغلغل في أعماقها، كالماء الذي يَتغلغل في باطِن أعضاء الجسَد، وإنَّما وقع لهم ذلك؛ بسبب جُحودِهم الحقَّ[٢].

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

أي: أنتم تدَّعون الإيمانَ، مع أنَّكم قتلتُم أنبياءَ الله، واتَّخذتم العِجل إلهًا من دون الله، ولم تَنقادوا لكلامِه؛ فما هذا الإيمان الذي تدَّعون؟! فإنْ كان هذا إيمانًا بزعمكم، فبِئس الإيمانُ الداعي صاحبَه إلى الطُّغيان، والكفرِ برُسل الله، وكثرةِ العصيان! فإنَّ الإيمان الصَّحيح يأمُر صاحبَه بكلِّ خير، وينهاه عن كلِّ شر؛ فتبيَّن بهذا كذبُهم، وتناقضُهم[٣].

الفوائد التربويَّة:

١- وجوب تلقِّي شريعة الله تعالى بقوَّة، دون كسَلٍ أو فُتور؛ لقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٦٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٢-٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٦٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٦)، ((الرد على الأخنائي)) لابن تَيميَّة (١/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٣-٣٠٤).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: قتادة، وأبو العالية، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٦٦-٢٦٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٥).

٢- في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]، دلالةٌ على أنَّ الإيمان الصَّحيح يأمُر صاحبَه بالطاعات لا بالمعاصي[١].

٣- في قوله تعالى ذامًّا بني إسرائيل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]، دلالةٌ على وجوب قَبول الحقِّ مِن كلِّ مَن جاء به[٢].

٤- أنَّ الشرَّ لا يُسنده الله تعالى إلى نفْسه، وإنْ كان هو سبحانه الخالِقَ للخير والشرِّ، بل يَذكُره بصيغة المبنيِّ لِمَا لم يُسمَّ فاعله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ﴾[٣].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- ممَّا يُستفاد من قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١]، أن الله تعالى لَمَّا رفَع مقدار بني إسرائيل بالدُّعاء إلى الإيمان بما أُسنِد إلى هذا الاسم العظيم في قوله: ﴿أَنْزَلَ اللهُ﴾ قالوا تسفيلًا لأنفسهم: نؤمِن بما أُنزل عَلَينا، فأَسقطوا اسمَ مَن يُتشرَّف بذِكره، ويُتبرَّك باسمه، وخصُّوا بعضَ ما أنزله سبحانه[٤].

٢- إفحام الخَصْم بإقامة الحُجَّة عليه مِن فِعله؛ ووجه ذلك: أنَّ الله تعالى أقام على اليهود الحُجَّةَ عليهم بفِعلهم؛ لأنَّهم قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾، لكنَّهم قتَلوا أنبياء الله الذين جاؤوهم بالحقِّ من ربِّهم، فعُلم إذًا أنَّ قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ ليس بصحيح؛ لأنَّهم لو كانوا مؤمنين حقيقةً ما قتَلوا الأنبياء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩٩).

٣- مِن دَلائل النبوَّة والمعجِزات العلميَّة، إشاراتُ القرآن إلى العِبارات التي نطَق بها موسى عليه السلام في بني إسرائيل، وكُتبت في التوراة؛ فإنَّ الأمر بالسَّماع تَكرَّر في مواضع مخاطبات موسى لملأ بني إسرائيل بقوله: اسمَعْ يا إسرائيل، وجاء في القرآن: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ٩٣]، فهذا من نُكت اختيار هذا اللَّفْظ للدَّلالة على الامتثال دون غيرِه، وهذا مِثل التعبير بالعهد[١].

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

- الاستفهام للتبكيت والتوبيخ[٢].

- وجاء قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ بصيغة المضارع، مع أنَّ الكلام عن الماضي بدليل قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، ومعلومٌ أنَّه لا يجوز أن يُقال: أنا أضربك أمس؛ وهذا إنما حسُن في هذه الآية؛ لأنَّ ذلك جائز فيما كان بمنزلة الصِّفة اللازمة كقوله تعالى: ﴿واتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢] ولم يقل: ما تَلَت؛ لأنَّه أراد: مِن شأنها التِّلاوة، فأراد هنا: مِن شأنهم القَتْل، وللإعلام بأنَّ الأمر مستمرٌّ؛ ففيه إشارةٌ لليهود الذين في زمَن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم؛ لأنَّهم أرادوا قتْله عليه الصَّلاة والسَّلام، لولا أنَّ الله تعالى عَصمَه منهم. وربَّما يكون خِطابًا لمن كانوا في عهد النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال لهم: لِمَ ترضَوْن بقتْل الأنبياء من قبلُ؟ لأنَّ الراضي بالقتل بمنزلة القاتل، فصحَّ أن يُقال للرَّاضين بالقتل ﴿لِمَ تَقْتُلُونَ﴾[٣].

- وفيه ما يُعرف بالاحتباك[٤]؛ حيث حُذِف الشرطُ الأوَّل، (والتقدير: إن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١٠).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦٠٣-٦٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٩٣).

(٤) **الاحْتِبَاك**: هو الحذفُ من الأوائل لدَلالة الأواخِر، والحذفُ من الأواخر لدَلالة الأوائل، إذا =

كنتم مؤمنين فلم تقتلون أنبياء الله؟)، والجوابُ الأخير، (والتقدير: إن كنتم مؤمنين فلم تقتلونهم؟)[١].

٢- **قوله:** ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فيه تأكيدٌ بالقَسَم؛ للاهتمام بالخبر، أو لتنزيلهم منزلة المنكرين؛ لعدم حِرصهم على موجب العلم[٢].

٣- **قوله:** ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ عبر بالجملة الاسميَّة للدَّلالة على استمرارهم في الظُّلم وثُبوتهم الأصلي عليه[٣].

٤- **قوله:** ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ كرَّر رفْع الطور؛ لِمَا تعلَّق به من زيادة ليست مع الأوَّل وهي قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، مع ما فيه من التوكيد وإيجاب الحُجَّة على الخَصْم على عادة العرب، وتذكارهم بتعداد نِعم الله تعالى عليهم ونِقَمه منهم، ليزدجرَ الأخلاف بما حلَّ بالأسلاف[٤].

٥- **في قوله:** ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾

- جاء التعبير بالفِعل المبنيِّ لِمَا لم يُسمَّ فاعله ﴿أُشْرِبُوا﴾؛ إشارةً إلى أنَّ حبَّهم للعجل بلَغ مبلغ الأمر الذي لا اختيار لهم فيه، كأنَّ غيرهم أشربهم إيَّاه[٥].

- وفيه: إيجاز بالحذف، والتقدير: (حب العجل) أو (حب عبادة العجل)،

= اجتمَع الحذفان معًا، وله في القرآن نظائرُ، وهو من إبداعاتِ القرآن وعناصر إعجازِه، وهو من ألطفِ الأنواع. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٩٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١١).

وحسُن الحذف هنا، وأُسند الإشراب إلى ذات العِجل مبالغةً في حبِّهم له، أو لعبادته[١].

- وفيه: تشبيهٌ بليغ؛ حيث صوَّر قلوبهم لتمكُّن حبِّ العجل منها كأنها تَشرَب؛ وعبر بالشُّرب إشارةً إلى أنَّ تلك المحبة كانت مادَّةً لجميع ما صدَر عنهم من الأفعال، مثلما أنَّ الشُّرب مادةٌ لحياةِ ما تنبته الأرض[٢].

٦- **في قوله:** ﴿**يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ**﴾ جاءت إضافة الأمر إلى إيمانهم من باب التهكُّم؛ إذ الإيمان الحقيقي لا يأمر إلا بخير، وكذلك إضافة الإيمان إليهم؛ لأنَّهم ليسوا بمؤمنين حقيقةً؛ ولإظهار أنَّ الإيمان المذموم هو إيمانُهم، أي: الذي دخَلَه التحريف والاضطراب[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦٠٤)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٥٣).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٤٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٥٦).

الآيات (٩٤-٩٦)

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿يُعَمَّرُ﴾: يطول عُمره، والتعمير: إعطاء العُمر بالفِعل، وأصله: البقاء وامتداد الزمان[١].

﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾: أي: بمُبعِده؛ فأصل الزحزحة: الإبعاد[٢].

المعنى الإجمالي:

لَمَّا زعَم اليهود أنَّ النَّعيم سيكون لهم وحْدَهم، أمَر الله تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يقولَ لهم: إنْ كان الأمر كما زعمتُم، فاجتمِعوا مع المسلمين، ثمَّ ادعُوا بالموت على أيِّ الفريقينِ منكما أكذبُ، لكنَّهم لن يفعلوا ذلك أبدًا؛ بسبب ما اكتسبوه من الكُفر والمعاصي، والله تعالى محيطٌ بهم وبكلِّ ظالم، وسيُجازيهم على أعمالِهم.

ثمَّ أخْبَرَ الله عزَّ وجلَّ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ عن اليهود أنَّه سيجدهم من أكثر الناس حِرصًا على البَقاء على قَيد الحياة، حتى فاقوا المشركين الذين لا يُؤمنون بِبَعثٍ ولا نُشور! يودُّ الشخصُ منهم أن يمكثَ حيًّا ألفَ عام، مع أنَّ هذا

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٥).

المُكث- ولو طال- لن يُبعده عن عذاب الآخِرة، والله تعالى يرَى كلَّ ما يفعله هؤلاء اليهودُ، وسيجازيهم عليه.

تفسير الآيات:

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)﴾.

أي: قلْ يا محمَّد، لهؤلاء اليهود: إنْ كان نعيم الآخرة مقصورًا عليكم وحدكم دون بقيَّة الناس- كما تزعمون- فهناك طريقةٌ تُظهِر المحقَّ في دعاويه من الكاذب المبطِل، وهي المباهلةُ، بأنْ تَدْعُوا بالموتِ على أيِّ الفريقينِ أكذبُ، وسيتبيَّن الأمر[1].

وقد أَرشد الله تعالى رسولَه عليه الصَّلاة والسَّلام، إلى مباهلة وفْد نجران من النَّصارى بعد قِيام الحُجَّة عليهم في المناظرة، وعُتوِّهم وعِنادهم، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥)﴾.

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

أخبَر تعالى عن عِلمه بعَجز اليهود عن تمنِّي ذلك مطلقًا؛ بسبب ما اكتسبوه من كُفرٍ ومعاصٍ، ومن ذلك تكذيبهم النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وكتمانهم صفتَه

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٣٣-٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩-٦٠).
وممَّن ذهب إلى هذا المعنى من السَّلف: ابن عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٧٧).

الموجودة في توراتهم، فهم يعلمون أنَّ الموت طريقٌ إلى مجازاتهم على ما اكتَسبوه؛ ولذا فهم يكرهونه(١).

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

أي: توعَّد اللهُ تعالى اليهود وهدَّدهم- ويدخل في هذا كلُّ ظالمٍ سواهم- بأنَّه سبحانه ذو عِلم بالظالمين، ليس بغافل عنهم ولا ساهٍ، بل هو حافظٌ لأعمالهم، وسيجازيهم على ظُلمهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٦-٧].

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

أي: مِن المؤكَّد يا محمَّد، أن تجِد هؤلاء اليهودَ أشدَّ الناس حرصًا على البقاء في الحياة الدُّنيا، وأشدَّهم كراهةً للموت؛ لعِلمهم بما لهم في الآخِرة من العذاب، وأن تجد حبَّهم للمُكث وطولِ العُمر في الدُّنيا فاق حتى أولئك المشركين الذين لا يُؤمنون بأحدٍ من الرُّسل والكتُب، ولا يُقرُّون بالبعث(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧٢-٢٧٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١٥-٦١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧٤-٢٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧٥-٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١٧). =

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

قيل: يودُّ أحدُ اليهود- وقيل: يودُّ أحدُ المشركين- مِن حِرصه على المُكث في هذه الحياة الفانية، أن يَطولَ عُمُرهُ حتى يبلغَ ألْفَ سَنةٍ[١].

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾.

أي: وما طولُ البَقاء في الدُّنيا لأحدهم بمُبعِده من عذاب الآخِرة؛ لأنَّه مهما طال العمرُ فلا بدَّ له من فَناءٍ[٢].

= وممَّن ذهب من السَّلف إلى أنَّ المقصود بهذه الآية هم اليهود: ابن عبَّاس، وأبو العالية، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧٥).

وممَّن ذهب من السَّلف إلى نحوِ ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: ابن عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧٧).

وقال ابن جرير: (وقيل: إن الذين أشركوا الذين أخبر الله تعالى ذكره أن اليهود أحرص منهم في هذه الآية على الحياة هم المجوس الذين لا يصدقون بالبعث) ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧٦).

وقال ابن عطية: (وقيل إن الكلام تم في قوله ﴿حَيَاةٍ﴾، ثم استؤنف الإخبار عن طائفة من المشركين أنهم يَوَدُّ أَحَدُهُمْ وهي المجوس؛ لأن تشميتهم للعاطس لفظ بلغتهم معناه «عش ألف سنة» فكأن الكلام: ومن المشركين قوم يَوَدُّ أَحَدُهُمْ، وفي هذا القول تشبيه بني إسرائيل بهذه الفرقة من المشركين) ((تفسير ابن عطية)) (١ / ١٨٢).

وقال ابن عثيمين: (قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، أي: الشرك الأكبر؛ واختلف المفسِّرون فيها؛ فمنهم مَن قال: هو مستأنف، والكلام منقطع عما قبله؛ والتقدير: ومِن الذين أشركوا مَن يودُّ أحدهم لو يُعمر ... ؛ وهذا وإنْ كان محتملًا لفظًا، لكنَّه في المعنى بعيدٌ جدًّا؛ ومنهم مَن قال: إنَّه معطوف على قوله تعالى: ﴿النَّاسِ﴾ يعني: ولتجدنَّهم أحرصَ الناس، وأحرصَ مِن الذين أشركوا؛ يعني: اليهود أحْرص من المشركين على الرغم من أنَّ اليهود أهل كتاب يؤمنون بالبعث، وبالجنة، وبالنار؛ والمشركون لا يؤمنون بذلك، والذي لا يؤمن بالبعث يصير أحرصَ الناس على حياة؛ لأنَّه يرى أنه إذا مات انتهى أمرُه، ولا يعود؛ فتجده يحرِصُ على هذه الحياة التي يرَى أنها هي رأسُ ماله؛ وهذا القولُ هو الصَّواب) ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧٧-٢٧٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٩-٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧٩-٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١).

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

هذا توعُّدٌ لأولئك اليهود، وتهديدٌ لهم بالمجازاة على أعمالهم؛ فالله تعالى يرَى كلَّ ما يفعلونه، لا يخفى عليه شيءٌ من ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ طول العُمُر لا يُفيد المرءَ شيئًا إذا كان في معصية الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾(٢).

٢- دِقَّة فَهم السَّلف حين كرِهوا أن يُدْعَى للإنسان بالبقاء على سبيل الإطلاق من غير تقييدٍ بطاعة؛ فإنَّ الإمامَ أحمد كرِه أن يقول للإنسان: (أطال اللهُ بقاءَك)؛ لأنَّ طول البقاء قد ينفع، وقد يضرُّ، والأفضل أن يُقال: (أطال اللهُ بقاءَك على طاعةِ الله)، أو نحو ذلك(٣).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- إثبات عِلم الله تعالى للمستقبل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾؛ فوقَع الأمرُ كما أخبَر به(٤).

٢- جوازُ تخصيص العموم لغرَض؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فخصَّ عِلمه بالظالمين؛ تهديدًا لهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١٢).

٣- أنَّ الناس يتفاوتون في الحِرص على الحَياة؛ لقوله تعالى: ﴿أَحْرَصَ﴾؛ و﴿أَحْرَص﴾ اسمُ تفضيل[١].

بلاغة الآيات:

١- **قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾**

- فيه تقديمُ الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾؛ إشعارًا بالاختصاص والحصر، أو للاهتمام[٢].

- وفي قوله: ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾: تأكيدٌ لمعنى الاختصاص المستفاد من قوله: ﴿لَكُمْ﴾، ومِن قوله: ﴿خَالِصَةً﴾[٣].

٢- **في قوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾** جاء التعبير هنا بحرف النفي (لن)، بينما في سورة الجمعة جاء التعبير بحرف النفي (لا) في قوله: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ﴾؛ وهذا من المناسبات اللَّطيفة، ومن محاسِن المعاني؛ لأنَّهم هنا في سورة البَقرة ادَّعَوْا أنَّ الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وهناك في سورة الجمعة ادَّعَوْا أنَّهم أولياء لله تعالى من دون الناس، والدَّعوى الأولى أعظمُ من الثانية، فبيَّن سبحانه فسادَ قولهم بلفظ: (لن)؛ لأنَّه أقوى الألفاظ النافية، واكتفى في إبطال الثانية بلفظ (لا)؛ لأنَّه ليس في نهاية القوة في إفادة معنى النفي[٤].

٣- **قوله: ﴿واللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾** خبَر مستعمَل في التهديد؛ لأنَّ القَديرَ إذا علِم بظلم الظالم لم يتأخَّر عن معاقبته[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٥٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٥٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١٦).

- **وقوله:** ﴿**بِالظَّالِمِينَ**﴾ فيه وضْع الظاهر موضعَ المُضمر؛ وذلك للتسجيل عليهم بالظُّلم، وقصدًا إلى تعميم الحُكم عليهم وعلى غيرِهم[١].

٤- **في قوله:** ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ تخصيصٌ بعد تعميم- فخصَّص المشركين بالذكر عقب عموم الناس-؛ وذلك للتَّوبيخ العظيم لليهود؛ إذ هم أهل كتاب، ومع ذلك هم أحرصُ على طول البقاء في الدنيا ممَّن لا يُؤمن بكتابٍ ولا يُقِرُّ ببعث[٢]!

- **في قوله:** ﴿**عَلَى حَيَاةٍ**﴾ قيل نُكِّرت (حياة)؛ للدَّلالة على أنَّها حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة - على حذف مضاف، أي: على طول حياة، أو على حذف صفة، أي على حياة طويلة[٣]. أو للدَّلالة على كونهِم أحرصَ الناس على مُطلق حياة؛ لأنَّ من كان أحرص على مطلق حياة، وهو تحققها بأدنى زمان، فلأن يكون أحرص على حياة طويلة أولى، وعليه، فلا حاجة لتقدير محذوف[٤]. وقيل فيه دَلالة على حِرصهم على أدْنى ما يَصدُق عليه أنَّه (حياة) ولو كانت تخلو من أي قيمة أو معنى[٥].

---

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٠٢-٥٠٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١٧).

الآيات (٩٧-١٠٢)

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ
وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا
نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ
ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ
ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ
وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ
أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا
نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا
هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ
وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟
بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ
عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿نَبَذَهُ﴾: تركه ولم يعمل به، أو طرَحه لقلَّة اعتداده به، وأصل النبذ: طَرْح الشيء وإلقاؤه[1].

﴿بِبَابِلَ﴾: اسم بلد، قيل: الكوفة، وقيل: بلد من سواد الكوفة، وقيل:

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧).

نصيبين، وقيل غير ذلك[١]. وينسب إليها السحر والخمر[٢]. وتوجد حاليًّا محافظة بالعراق تسمى بابل.

﴿لَمَثُوبَةٌ﴾: أي: جزاء ثابت، أو ثواب، وهو عبارة عن المنفعة الخالِصة المقرونة بالتعظيم، والمثوبة مختصَّة بالخير، كما أن العقوبة مختصَّة بالشر[٣].

المعنى الإجمالي:

حين أعلن اليهودُ عداوتَهم لجبريلَ عليه السَّلام، وزعَموا أنَّ الذي منَعَهم من الإيمان بالنبيِّ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم هو ولايتُه لجبريلَ عليه السَّلام- أَمَر الله سبحانه نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يُخبرهم بأنَّ جبريل أنزل القرآن بأمْر الله، ولم يَنزل من تلقاء نفْسه، فعداوتهم له إنَّما هي عداوةٌ لله في الواقع، كما أنَّ القرآن الذي نزل به يُصدِّق ما سبقه من الكتُب السماويَّة، وهو دليلٌ على الحق، وفيه الإخبارُ بموعود الله للمؤمنين.

ثم أخبر تعالى أنَّ مَن عادَى اللهَ تعالى، أو ملَكًا من الملائكة، أو رسولًا من الرُّسُل فهو كافر، والله تعالى يُعادي كلَّ كافر.

ثم قال لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنَّه قد أنزل إليه دلائلَ واضحةً على صِدق نبوَّته، وإنَّها- لشدَّة وضوحها- لا يَجحدها إلَّا مَن هو خارجٌ عن الإيمان.

ثمَّ أخبَر الله تعالى أنَّ نقض العهود هو عادةٌ لدى اليهود؛ فكلَّما التزموا بعهدٍ، قام بنقضه جماعةٌ منهم؛ ذلك لأنَّ أكثر اليهود غير مُقرِّين بالحقِّ، ولا يُطبِّقونه قولًا ولا عَملًا.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٨٧-١٩٠) ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((معجم البلدان)) لياقوت (١/ ٣٠٩-٣١١).

(٣) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٧، ٨٨١).

ولَمَّا بُعث محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ من عند الله، وقد وافقتْ صِفتُه ما هو موجودٌ عندهم في التوراة، ترك جماعةٌ من اليهود العملَ بالتوراة التي تحضُّ على الإيمان بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، متجاهلين تعاليمَها، وكأنَّهم لا يعلمون ما تضمَّنتْه من صفاته، والحثِّ على متابعته.

واتَّبع هؤلاء اليهودُ ما اختلقتْه الشياطين في عهد نبيِّ الله سليمانَ عليه السَّلام من السِّحر، ونَسَبوه إليه، زاعمين أنَّه حصَل على مُلك عظيم بهذا السِّحر، واتَّبعوا أيضًا السِّحرَ المنزَّلَ على الملَكين: هاروت وماروت، في بابل بأرض العراق. ولا يقوم هذان المَلَكان بتعليم السحر لأحدٍ من الناس حتَّى يُقدِّما له النصيحةَ بأنَّهما مجرَّد ابتلاء لبني آدم، ويُحذِّراه من الإقدام على الكُفر بالله بتعلُّم السِّحر وممارسته. فمَن لم يَقبَل بنصحهما يتعلَّم السِّحرَ منهما، ويقدر من خلاله على التفريق بين الزَّوجين، ولكن لا يستطيع أن يضرَّ أحدًا إلَّا بمشيئة الله سبحانه، ويتعلَّم هؤلاء من المَلَكينِ ما هو ضررٌ عليهم ولا يعود عليهم بالنَّفع البتَّةَ، وقد علِم اليهودُ أنَّ مَن سلَك هذا الطريق، فليس له في الآخرةِ من نَصيب، ولبئسَ هذا العمل لو كانوا يعلمون مدَى ضررِه عليهم! ولو اختاروا طريقَ الإيمان والتقوى بدَلَ السِّحر، لأثابهم الله تعالى ثوابًا يكون خيرًا لهم من حظوظ الدُّنيا الفانية.

تفسير الآيات:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧)﴾.

سبب النزول:

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((أقبلتْ يهودُ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقالوا: يا أبا القاسم، إنَّا نسألُك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتْنا بهنَّ، عرَفْنا أنَّك نبيٌّ واتبعناك، فأخَذ عليهم ما أخَذ إسرائيلُ على بنيه؛ إذ قالوا: ﴿اللهُ عَلَى مَا

نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، قال: هاتوا، قالوا: أخبِرْنا عن علامة النبيِّ، قال: تنام عيناه ولا ينام قلبُه، قالوا: أخبِرْنا كيف تؤنِّث المرأة وكيف تُذكِّر؟ قال: يَلتقي الماءانِ، فإذا علَا ماءُ الرجُل ماءَ المرأة أذْكَرت، وإذا علَا ماءُ المرأة ماءَ الرجُل آنثَتْ، قالوا: أخبِرْنا ما حرَّم إسرائيل على نفْسه؟ قال: كان يَشتكي عِرق النَّسا فلم يجِد شيئًا يلائمه إلَّا ألبانَ كذا وكذا، [قال عبد الله بن أحمد]: قال أبي: قال بعضُهم: يعني الإبل، قال: فحرَّم لحومها، قالوا: صدقتَ، قالوا: أخبِرْنا ما هذا الرَّعد؟ قال: ملَكٌ من ملائكة الله عزَّ وجلَّ موكَّل بالسَّحاب، بيده أو في يده مِخراق من نار، يزجُر به السحاب يسوقُه حيث أمر الله، قالوا: فما هذا الصوتُ الذي يُسمع؟ قال: صوته، قالوا: صدقتَ، إنَّما بقِيَتْ واحدةٌ، وهي التي نبايعك إنْ أخبرتَنا بها، فإنَّه ليس من نبيٍّ إلَّا له مَلَك يأتيه بالخبَر، فأخبِرْنا من صاحبك؟ قال: جبريلُ عليه السَّلام، قالوا: جبريل! ذاك الذي يَنزل بالحَرْب والقِتال والعذاب! عدوُّنا! لو قلت: ميكائيل، الذي يَنزل بالرحمةِ والنَّبات والقَطر، لكان! فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ إلى آخِر الآية))[1].

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾.

أي: قلْ يا محمَّد، لهؤلاء اليهود الذين زعَموا أنَّ الذي منَعَهم من الإيمان برسالتك، أنَّ وليَّك جبريلُ عليه السَّلام، وأنَّه لو كان وليُّك أحدًا سواه من الملائكة لآمَنوا بك- قل لهم: مَن عادى جبريلَ عليه السَّلام، فليعلمْ أنه هو الذي نزَل بالقرآن على قلبِك، وجبريل لا يَنزل بالأمر من تِلقاء نفْسه، وإنَّما ينزل بأمْر الله

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣١١٧) (جزءًا منه)، وأحمد (١/ ٢٧٤) (٢٤٨٣) واللفظ له.
قال الترمذي: حسنٌ غريب، وذكر ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ١٦) أن له طرُقا يقوِّي بعضها بعضًا. وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٦١)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١١٧).
وقد حَكى ابن جرير الإجماعَ على ذلك، فقال: (أجمع أهلُ العلم بالتأويل جميعًا على أنَّ هذه الآية نزلَتْ جوابًا لليهود من بني إسرائيل؛ إذ زعَموا أنَّ جبريل عدوٌّ لهم، وأنَّ ميكائيل وليٌّ لهم) ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٨٣).

تعالى، وهذا يَعني أنَّهم بقولهم ذلك يُعادُون الله تعالى في الحقيقة؛ أمَّا جبريل فهو رسولٌ محضٌ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّ القرآن نزَل والحال أنَّه متطابق مع الكتُب الإلهيَّة الأخرى التي سبقتْه كالتوراة، وموافِق لها، ومن ذلك ما فيها من الأمر باتِّباع محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو دَلالة على الحقِّ، وبُشرى من الله تعالى للمؤمنين خاصَّةً، وفيه أنواعٌ من البِشارات لهم، ومن ذلك ما أعْلمَهم الله تعالى فيه بما أعدَّ لهم في الآخِرة من النَّعيم المقيم[(٢)].

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾.

سبب النزول:

عن ابنِ أَبي لَيْلَى قال: ((إنَّ يهوديًّا لقِي عُمرَ فقال: إنَّ جبريل الذي يذكُر صاحبُكم عدُوٌّ لنا، فقال عمرُ: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ﴾ إلى ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ قال: فنزلتْ على لسان عُمرَ))[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٤١-٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٩٩-٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠).

(٣) أخرجه ابنُ أبي حاتم في ((تفسيره)) (١/ ١٨٢).
قال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ١٦): له طرُقٌ يقوِّي بعضها بعضًا.

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لله وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ الله عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾.

أي: إنَّ مَن عادى الله تعالى، أو أحدًا ممَّن ذُكروا من الملائكة عمومًا، أو جِبريل وميكال خصوصًا، أو مِن بقيَّة رُسل الله الكِرام من البَشر كمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، مَن عاداهم أو أحدًا منهم فإنَّه كافر، والله تعالى يتَّخذه عدوًّا له؛ لأنَّه سبحانه يُعادي كلَّ كافر(١).

عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ قال: منَ عادَى لي وليًّا، فقد آذنتُه بالحَربِ))(٢).

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)﴾.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

أي: قد أنزلنا إليك- يا محمَّد- فيما أُوحي إليك من القُرآن، آياتٍ هي دلائل واضحة، دالَّةٍ على صِدق نبوَّتك(٣).

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾.

أي: هذه الآيات البيِّنات قد بلَغتْ من الوضوح والدَّلالة على الحقِّ، مَبلَغًا عظيمًا، ووصلتْ إلى حال لا يَجحدها ويمتنع من قَبولها إلَّا مَن خرَج عن دائرة الإيمان، والالتزام بشريعة الرَّحمن(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٠١-٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٤٢-٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٥).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٠٦) ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٩).

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)﴾.

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾.

هذا توبيخٌ وتعجُّبٌ من الله تعالى، مِن صنيع اليهود الذين لا يلتزمون بما عَهِد الله تعالى إليهم، وهو التمسُّك بأوامره سبحانه في التوراة، ومن ذلك الإيمانُ بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ واتِّباعه؛ فكلَّما وعَدوا بالالتزام بعهدٍ من عهود التوراة، نقَضَه جماعةٌ منهم وطرَحوه، تاركين الوفاءَ به[(١)].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ أكثرَ اليهود غير مصدِّقين بالحقِّ اعتقادًا وقولًا وعملًا، وعدَم إيمانهم هو الذي حمَلَهم على نبْذ العهود[(٢)].

لو صَدَق إيمانهم، لكانوا مِثل مَن قال الله فيهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥-٥٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾.

أي: ولَمَّا أتى اليهودَ رسولٌ مرسَلٌ من قِبل الله عزَّ وجلَّ، وهو محمَّدٌ صلَّى الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٠٨-٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣١٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٢٥).

عليه وسلَّمَ، وقد جاءهم بصفته الموافقة لِما في التوراة من صِفاته وإثبات رِسالته، والتي يزعمون أنَّهم متمسِّكون وملتزمون بها فيها[١].

﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ترَك طائفةٌ من اليهود أصحابِ التوراة، العملَ بالتوراة التي أنزلها الله تعالى عليهم، بالدُّخول في دِين محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ترَكوا ذلك متجاهلين، وكأنَّهم لا يعلمون ما في التوراة من البشارة بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وذِكر صِفاته، والأمر باتِّباعه[٢].

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

مَن ترَك ما يَنفعُه مع إمكانيةِ الانتفاعِ به، فإنَّه يُبتَلى بالاشتغال بما يضرُّه، فكذلك هؤلاء اليهودُ؛ فلَمَّا ذكَر الله تعالى أنَّهم نبَذوا كتابَ الله، ذكَر اشتغالَهم بما يضرُّهم، فقال[٣]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠). وممَّن قال من السَّلف بأن المقصود بالرَّسول: محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: السُّدِّي، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠-٦١). ويُنظر: ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ٩٦).

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾.

أي: اتَّبع اليهود ما تختلقُه الشياطينُ وتتقوَّلُه، من السِّحر على عهد سليمان، وتَنسُبه إليه، حيث أخرجت الشياطين للناس السِّحر، وزعَموا كذبًا أنَّ سليمان عليه السَّلام كان يستعمله، وأنه حصَل له به المُلك العظيم[١].

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

أي: إنَّ سليمانَ عليه السَّلام بريءٌ من تُهمة السِّحر التي أَلْصَقَها به اليهود، فلم يكُن كافرًا يمارس السِّحر، أو يُعلِّمه للآخرين؛ وذلك لأنَّ السِّحر كُفر، بل الذين كفروا بسبب السِّحر في الحقيقة هم الشياطين الذين يُعلِّمونه للناس؛ إضلالًا لهم[٢].

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾.

أي: واتَّبع اليهود أيضًا السِّحرَ، الذي أُنزل على الملَكين: هاروت وماروت، في بابل من أرضِ العِراق[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣١٣-٣٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠-٦١).
وممَّن ذهب من السَّلف إلى نحو ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾: ابن عبَّاس، وأبو العالية. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٢٢-٣٢٣) ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٣٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٢٧).

(٣) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٢/ ٣٣٩)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٦١)، وابن عثيمين في ((تفسيرالفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٢٨-٣٢٩). ويُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ١٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٢١-٢٢٢).
وممَّن ذهَب إلى هذا القول من السَّلف ابن عبَّاس، وعبد الله، وقتادة، والسُّدِّي، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٨٨).
أمَّا بالنِّسبة لتفصيل قصَّة المَلَكين: هاروت وماروت، فقد قال ابنُ كثير: (وقد رُوي في قصة هاروت وماروت عن جماعةٍ من التابعين، كمجاهد والسُّدِّي، والحسن البصري، وقَتادة وأبي العالية والزهري، والرَّبيع بن أنس، ومقاتل بن حيَّان، وغيرهم، وقصَّها خَلْقٌ من المفسِّرين من =

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

أي: وما يعلِّم هذانِ الملَكانِ السِّحرَ لأحدٍ من الناس، حتى يَنصحاه فيقولَا له: إنَّما نحن هنا لتعليم السِّحر؛ اختبارًا وابتلاءً لبني آدم، فلا تَكفُرْ بالله؛ بسبب تعلُّم السِّحر وممارسته[١].

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾.

أي: فيتعلَّم الناسُ السِّحرَ من المَلَكينِ بما يَتصرَّفون به تصرُّفاتٍ مذمومةً، من أعظمِها التفريقُ بين الزَّوجين، مع ما بينهما من المودَّة والرَّحمة[٢].

عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ إبليسَ يَضَعُ عرشَه على الماءِ ثمَّ يبعثُ سَراياهُ، فأدْناهم منهُ منزلةً أعظمُهم فِتنةً، يجيءُ أحدُهم فيقولُ: فعلتُ كذا وَكذا، فيقولُ: ما صنعتَ شيئًا! قال: ثمَّ يجيءُ أحدُهم، فيقولُ: ما ترَكتُه حتَّى فرَّقتُ بينَه وبينَ امرأتِه، قال: فيُدنيهِ منهُ، ويقولُ: نِعمَ أنتَ!))[٣].

﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾.

= المتقدِّمين والمتأخِّرين، وحاصلها راجعٌ في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل؛ إذ ليس فيها حديثٌ مرفوع صحيح، متَّصل الإسناد إلى الصَّادق المصدوق المعصوم، الذي لا يَنطِق عن الهوى، وظاهرُ سياق القرآن إجمالُ القِصَّة من غير بسْط ولا إطناب فيها، فنحن نُؤمِن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلمُ بحقيقة الحال) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٦٠).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٥٠)، ((البداية والنهاية) لابن كثير (١/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٣٩-٦٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٥٥-٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٥٧-٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٦٣-٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٥).

(٣) رواه مسلم (٢٨١٣).

أي: وما هؤلاء المتعلِّمون السِّحرَ من الملَكيْن، وفاعِلو تلك الأفعال القَبيحة، بضارِّين بذلِك أحدًا من الخَلْق، إلَّا بإذن الله تعالى الكوني، أي: بقُدرته ومشيئته سبحانه[١].

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾.

أي: إنَّ السِّحرَ الذي يتعلَّمه هؤلاء المشتغِلون به ضررٌ محضٌ عليهم في الدنيا، ليس فيه نفْعٌ مطلقًا[٢].

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾.

أي: قد علِم أولئك اليهودُ أنَّ مَن استبدل السِّحرَ بكتاب الله تعالى ومتابعةِ محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، أنَّه ليس له في الآخِرة حظٌّ ولا نصيبٌ من الجَنَّة[٣].

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولبئس البديلُ السِّحرُ الذي تعلَّموه، بديلًا عن كِتاب الله تعالى، ومتابعة رُسله عليهم الصَّلاة والسَّلام، لو كانوا يَعلمون أنَّهم إنَّما باعُوا أنفسَهم، وحظَّهم من الآخِرة بما يَضرُّهم في الدُّنيا أيضًا، ولا ينفعهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٦١-٣٦٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١١/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: رسالة (الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ من عبادِه العلماءُ﴾) من ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٨٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٢٩).

وقيل: بل ينفعُهم، ولكن ما فيه من المضرَّة عليهم دِينيًّا وأُخرويًّا أكثرُ ممَّا فيه من الفائدة لهم في الدُّنيا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٦٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٨)، ((جامع الرسائل)) لابن تَيميَّة (٢/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٦٢-٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٦٤)، رسالة (الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ من عبادِه العلماءُ﴾) من ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٨٠٤-٨٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٤٧).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾.

أي: إنَّهم لو اختاروا الإيمانَ والتقوى بدلَ السِّحرِ، لكان اللهُ يثيبُهم على ذلك ما هو خيرٌ لهم ممَّا طلبوه في الدُّنيا لو كانوا يَعلمون، فيَحصُل لهم في الدنيا من ثواب الإيمان والتقوى من الخير، الذي هو جَلْب المنفعة ودفْع المضرَّة، ما هو أعظمُ ممَّا يُحصِّلونه بالسِّحر من خير الدُّنيا، مع ما يُدَّخَرُ لهم من الثَّواب في الآخِرة[١].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ الله تعالى قد يُيسِّر أسباب المعصية؛ امتحانًا للناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾[٢].

٢- أنَّه يجب على الإنسان أن يَبذُلَ نُصحَه للناس، وإنْ أوجب ذلك إعراضَهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[٣].

٣- أنَّ الأسباب وإن عظُمت لا تأثيرَ لها إلَّا بإذن الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾، فينبغي اللجوءُ إلى الله دائمًا، سواء في جلْب المنافع، أو دفْع المضارِّ[٤].

٤- في قوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٧١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٦٤)، (الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ من عبادِه العلماءُ﴾) من ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٨٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣٤-٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٣).

كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، دلالةٌ على أنَّ مَن ترَك ما ينفعه، ابتُلي بالاشتغال بما يضرُّه؛ فمَن ترَك عبادة الرحمن، ابتُلي بعبادة الأوثان، ومَن ترك محبَّة الله وخوفَه ورجاءَه، ابتُلي بمحبة غير الله وخوفِه ورجائِه، ومن لم يُنفق مالَه في طاعة الله، أنفقه في طاعة الشَّيطان، ومَن ترَك الذلَّ لربِّه، ابتُلي بالذلِّ للعبيد، ومَن ترَك الحقَّ، ابتُلي بالباطل[١].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قد وعَى القرآنَ وعيًا كاملًا، لا يتطرَّق إليه شكٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾؛ لأنَّ ما نفذ إلى القلب، حلَّ في القلب؛ وإذا حلَّ في القلب، فهو في حِرز مكين[٢].

٢- أنَّ نبْذَ مَن عِنده كتاب وعِلم أقبحُ ممَّن ليس عنده ذلك؛ كما نبذ في قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾؛ لإظهار شدَّة القُبح من هؤلاء في نبْذِهم[٣].

٣- أنَّ هذا النَّبذ الذي كان منهم لا يُرجى بعدَه قَبول؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ لأنَّ النبذ لو كان أمامهم ربَّما يتلقَّونه بعدُ؛ كذلك لو كان عن اليمين والشِّمال، لكن إذا كان وراءَ الظَّهر، فمعناه استبعادُ القَبول منهم[٤].

٤- إثبات الجَزاء، وأنَّه مِن جِنس العمل؛ فإنَّ الكافر لَمَّا لم يجعلْ لله نصيبًا في دُنياه، لم يجعل اللهُ له نصيبًا من نعيم الجَنَّة في أُخراه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ويُنظر: ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٢٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٢٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٤).

٥- أنَّ صاحب العِلم الذي يَنتفِع بعِلمه هو الذي يَحذَر ما يضرُّه؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، فلو كانوا ذَوي عِلم نافع، لَمَا اشترَوا هذا العِلم الذي يضرُّهم، ولا ينفعُهم[١].

بلاغة الآيات:

١- **قوله: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾** فيه إضمار ما لم يَسبق ذكرُه؛ لأنَّه كالمعلوم؛ للدلالة على فخامة شأن صاحبِه؛ حيث يُجعل لفَرط شهرته كأنَّه يدلُّ على نفسه، ويُكتفَى عن اسمه الصريح بذِكر شيء من صفاته، فالهاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُ﴾ تعود على جبريل، والهاء الثانية في: ﴿نَزَّلَهُ﴾ تعود على القرآن[٢].

٢- **قوله: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾**

- فيه وضْع المصدر (هدى وبشرى) موضعَ اسم الفاعل (هاديًا ومبشِّرًا)، على سبيل المبالغة، كأنَّه لَمَّا حصل به الهُدى والبُشرى، جُعِل نفْسَ الهدى والبشرى. أو على حَذْفِ مضافٍ، أي: ذا هُدًى[٣].

- وقدَّم (الهدى) على (البشرى)؛ لوجود الهُدَى قبْل البُشْرى، ولسببيَّته فيها؛ لأنَّ البُشرى عبارة عن الخبر الدال على حُصولِ الخير العظيم، وهذا لا يحصُل إلَّا في حقِّ المؤمنين المهتدين[٤].

٣- **في قوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ﴾** صُدِّر الكلام بذِكر الجليل سبحانه؛ تفخيمًا لشأنهم، وإيذانًا بأن عداوتهم عداوةٌ للهِ عزَّ وجلَّ. وقدم الملائكة على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٠)، ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦١٣).

الرسل، كما قدم الله على الجميع؛ لأنَّ عداوة الرسل بسبب نزول الوحي، ونزوله بتنزيل الملائكة، وتنزيلهم لها بأمر الله، فذكر الله تعالى ومن بعده على هذا الترتيب[١].

٤- **قوله:** ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ فيه عطف الخاص على العام، ويُسمَّى عند البعض (التجريد)[٢]، حيث أُفرد جبريل وميكال بالذِّكر بعد ذكر الملائكة مع أنَّهما من جُملتهم؛ تشريفًا لهما، ولبيان فَضلهما ورفعة شأنهما، كأنَّهما من جنس آخر، تنزيلًا للتغاير الوصفيِّ، منزلة التغاير الذاتي، أو للاعتناء بهم؛ لأنَّ الآية إنما نزلت بسببهما، ودفعًا لإشكال: أنَّ الموجبَ للكُفر عداوة جميع الملائكة، فنبَّه على أن معاداة الواحد والكل سواء في الكُفر[٣].

٥- **قوله:** ﴿فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾

- فيه وضع الظاهر موضعَ المضمر في موضعين: **الأول:** في قوله ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ ولم يقل: (فإنِّي)؛ لأجل حمل العباد على الامتثال لأمره بذكر ما هو أدعى لحصول خشيته ومهابته في نفوسهم. **والثاني:** في قوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل: (لهم)؛ للدلالة على أنَّه تعالى عاداهم بسبب كفرهم، وللدَّلالةِ على أنَّ عداوة الملائكة والرُّسل كُفرٌ، وأن هذا الحكم يشمل كلَّ كافر[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٦٠).

(٢) **التجريد:** هو اعتقاد أنَّ في الشيء من نفسِه معنًى آخَرَ كأنه مباين، له فيخرج ذلك إلى ألفاظه بما اعتقد ذلك كقولهم: لئن لقيت زيدًا لتلقين معه الأسدَ؛ فظاهر هذا أنَّ فيه من نفسه أسدًا، وهو عينه هو الأسد، لا أنَّ هناك شيئًا منفصلًا. ويُطلق عند البعض على عطف الخاصِّ على العام؛ كأنَّ الخاص جُرِّد من العام، وأُفرد بالذِّكر تفضيلًا، كما في هذه الآية. وله إطلاقات أخرى في البديع والمعاني. يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤٤٨) ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٢٤٣ - ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٠)، ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥١٦)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٢/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٩٦)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٢/ ٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٣٤).

٦- في قوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فيه التِفات من الغَيبة إلى الخِطاب لرَسوله عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾؛ إشعارًا بالقرب، وتسليةً له بأنَّ عادةَ هؤلاء نكثُ عُهودهم؛ فلا تبالِ بمَن طريقتُه هذه، وأنَّهم سلَكوا هذه الطريقةَ معك[١].

٧- في قوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾

- استفهام، غرضُه الإنكار، وإعظامُ ما يُقدِمون عليه، وهذا أبلغُ في النكير عليهم، والتبكيت لهم[٢].

- وفي التعبير بقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ دلالة على أنَّ ذلك كالعادة فيهم، وفيه تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عند كُفرهم بما أنزل عليه من الآيات بأنَّ ذلك ليس ببدع منهم، بل هو سجيَّتهم وعادتهم وعادة سلفهم[٣].

- وجاء تنكير (عهدًا)؛ للدَّلالة على التَّكثير، أو للجِنس[٤].

٨- في قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ نُكِّر الرسول للتفخيم، والجار بعده (من عند) متعلِّق بجاء، أو بمحذوف وقَع صِفة لرسول، لإفادة مزيد تعظيمه بتأكيد ما أفاده التنكيرُ من الفخامة[٥].

٩- في قوله: ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا﴾ أدخلت لام التقوية على مفعول مصدق (ما)؛ للدَّلالة على تقوية ذلك التصديق، أي: هو تصديق ثابت محقَّق لا يشوبه شيءٌ من التكذيب ولا التخطئة[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٣٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦١٥).
(٤) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٤١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٣٥)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٦٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٢٢).

١٠- **قوله:** ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فيه تمثيلٌ للإعراض؛ لأنَّ مَن أعرض عن شيء تجاوزه، فخلَّفه وراء ظهره، وإضافة الوراء إلى الظهر؛ لتأكيد بُعْد المتروك بحيث لا يلقاه بعدَ ذلك، فجَعل للظهر، وراءَ وإن كان هو هنا بمعنى الوراء، فالإضافة كالبيانية[١].

١١- **قوله:** ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ فيه تقديم نفي كفر سليمان على إثبات كفر الشياطين؛ لأنَّه الأهمُّ تعجيلًا لإثبات نزاهته وعِصمته عليه السَّلام[٢].

١٢- **في قوله:** ﴿مَا تَتْلُو﴾ ﴿يُعَلِّمُونَ﴾ و﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ و﴿يَقُولَا﴾ و﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ و﴿يُفَرِّقُونَ﴾ و﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ و﴿يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ جاء التعبير فيها بالمضارع مع أنَّه حِكاية للحال الماضية؛ لأنَّه أدْعى لاستحضار ذلك وتصويره في النَّفْس، وللدَّلالة على الاستمرار، وإشارة إلى كثرته وفشوِّه[٣].

١٣- **قوله:** ﴿حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾

- فيه إفرادُ الفتنة مع أنَّ قائل ذلك اثنان، فلم يقل (فتنتان)؛ لكونها مصدرًا، وحملُها عليهما من باب المبالغة كأنَّهما نفسُ الفتنة[٤].

- وفيه: القصرُ بـ(إنَّما)؛ لبيان أنه ليس لهما فيما يتعاطيَانِه شأنٌ سواها؛ لينصرِفَ الناسُ عن تعلُّم السحر[٥].

١٤- **قوله:** ﴿مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ فيه تأكيد ضَرَر السِّحر بعطف جُملة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٣٠)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٧٢-٧٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ على جملة ﴿مَا يَضُرُّهُمْ﴾ عطف تأسيس لا توكيد[١].

١٥- في قوله: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ تنكير الخلاق، مع تأكيد النَّفي بـ(مِن) الاستغراقيَّة؛ للدَّلالة على عِظم جُرم تَعاطي هذا السِّحر؛ فلذلك لم يكن لمتعاطيه أي حظٍّ من الخير في الآخرة[٢].

١٦- قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ... لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

- فيه: تأكيد بالقَسَم؛ لتقرير المعنى المقصود من الآية، أو لتنزيلهم منزلةَ المنكرين؛ لعدم جريهم على مُقتضَى العِلم[٣].

- وفيه: تكرير (علموا) (يعلمون)، وفائدته: التَّسجيلُ عليهم بأنَّهم لا يَعلمون ما هو النَّفْع الحق[٤].

- وفيه: تنزيل العالم منزلةَ الجاهل؛ فصدر الآية يدلُّ على ثبوت العلم بعدم نفع اشتراء السِّحر، وآخر الآية يَنفي عنهم العلمَ[٥].

١٧- قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ﴾ فيه التعبير بالجملة الاسميَّة؛ للدَّلالة على ثبات المثوبة، والجزم بخيريتها، وحذف المُفضَّل عليه (السحر)؛ إجلالًا للمفضَّل (الإيمان والتقوى) من أن يُنسب إليه[٦].

---

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٦٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٥٠).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٥٩-١٦٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٩٨).

الآيات (١٠٤-١١٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ
وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا
ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ
مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥ ۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا
نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ
أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا
نَصِيرٍ ١٠٧ أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ
وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨ وَدَّ كَثِيرٞ
مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ
عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ
بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا
تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠
وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ
هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ
وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢ وَقَالَتِ
ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ
يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿رَاعِنَا﴾: من رعيتُ الرجل: إذا تأمَّلته، وتعرَّفْت أحواله. وكانت اليهود

تقوله للنبي صلَّى الله عليه وسلم، على سبيل التَّهكُّم والسبِّ، يقصدون به رميه بِالرُّعُونَة من رعن، وأصلها هوج واضطراب[١].

﴿نَنْسَخْ﴾: ننقل ونزيل ونُبطل، وأصل النَّسخ: رفْع شيءٍ وإثباتُ غيرِه مكانَه، أو تحويلُ شيءٍ إلى شيء[٢].

﴿وَاصْفَحُوا﴾: الصَّفح: ترْك التثريب واللومِ، والإِعراضُ عن الذَّنب؛ لأنَّه إذا أعرض عنه فكأنَّه قد ولَّاه صَفْحتَه، أي: عُرْضَه، وأصل الصفح: عرض الشَّيء وجانبُه، فصفحة العنق جانبها[٣].

﴿بُرْهَانَكُمْ﴾: حُجَّتكم ودَلالتكم، وأصله: وضوح الشَّيء[٤].

المعنى الإجمالي:

نهى اللهُ المؤمنين أن يقولوا لنبيهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ كلمة (رَاعِنَا)، التي كانت اليهود تقولها، تقصِد بها السُّخريةَ من النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ونسبته إلى الرعونة، وإنْ لم يكُن مرادُ المؤمنين كمراد اليهود، وأبدلَهم لفظةَ (انْظُرْنَا) التي لا تحتمل ما تحتمله كلمة (رَاعِنَا) من معنى سيِّئ، وأمَرَهم أن يستجيبوا لِمَا يأمرهم به، وأعْلَمهم أنَّ للكافرين عذابًا مُوجِعًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٩٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/ ٥٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٨).

ثم يُخبر سبحانَه عبادَه المؤمنين أنَّ الكافرين عمومًا سواء من الكتابيِّين أو المشركين، لا يُحبُّون أن يُنزِّل الله على عباده المؤمنين خيرًا، ومن ذلك القرآنُ الكريم، لكنَّ الله سبحانه يختصُّ برحمته- والتي منها النبوَّة والرِّسالة- مَنْ أراد مِن عبادِه، كما منَحَها نبيَّنَا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

ثم أخبر الله عزَّ وجلَّ أنَّ ما يرفعه من حكم آيةٍ، أو ما يزيله من الآيات فيُمْحى من قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، أو ما يؤخِّر نزوله منها، أنَّه في جميع هذه الحالات يأتِـي سبحانه ببديلٍ عنها يكون أفضلَ لعباده، أو مثلَه، وذلك من تمام قُدرته سبحانه، ومُلكِه النافذ على جميعِ خَلْقه؛ فهو يَحكُم في عبادِه بما يشاء، وليس لهم مَن يَجلِب لهم خيرًا، أو يَدفَع عنهم شرًّا أو ينصرهم دون الله.

ثم حذَّر سبحانه جميعَ الناس؛ مؤمنهم وكافِرهم من سؤال النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ تعنُّتًا،كطلبهم رؤيةَ بعض الآيات، كما فعَل اليهودُ مع موسى عليه السَّلام؛ فإنَّ مَن يختار الكفرَ فقد انحرَفَ عن الطريق القويم.

ثم بيَّن الله سبحانه وتعالى أنَّ كثيرًا من اليهود والنَّصارى يتمنَّوْن أن يترُك المسلمون دِينهم؛ وذلك لحسدِهم المؤمنين على ما مَنَّ اللهُ به عليهم من الهِداية التي جاء بها محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وذلك بعد أن اتَّضح لأهل الكِتاب يقينًا أنَّ ما جاء به هو الحقُّ.

ثمَّ أمرَ اللهُ المؤمنين أن يُعرِضوا عنهم، ويَعْفوا ويَصفحوا حتى يأتيَ الله بحُكمه فيهم، وقد جاء أمرُ الله لاحقًا، بأنْ أمرَ المؤمنين بقِتالهم، إنْ لم يدفعوا الجزيةَ.

ثم حثَّ اللهُ المؤمنين على عِبادته، فأمَرهم أن يؤدُّوا الصَّلاة تامَّة بأركانها وواجباتها، ويؤتوا الزكاة المشروعة، ووعَدهم سبحانه بأنَّ كلَّ ما يفعلونه من خير

سيجدونه عند الله، فهو سبحانه لا يَخفَى عليه شيءٌ، فهو مطَّلع على جميعِ أفعالهم.

ثم أخبرَ سبحانه أنَّ اليهود يدَّعُون أنَّ الجنة لن يَدخُلَها إلَّا من كان يهوديًّا، وأنَّ النصارى يدَّعون أيضًا أنَّ الجنة لن يَدخُلَها إلَّا مَن كان نصرانيًّا، وأخْبَرَ جلَّ وعلا أنَّ تلك الادعاءاتِ إنَّما هي مجرَّد أمانيَّ كاذبةٍ، وأمَر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يَطلُب منهم الحُجَّة على ما يَدَّعون إنْ كانوا مُحقِّين.

بل إنَّ الأمر ليس كما يدَّعون ويتمنَّوْن، بل الحقيقة أنَّ مَن أخلصَ العمل لله تعالى وحده، سائرًا على نهجِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فله ثوابُه عند الله، ولا خوفٌ عليه ممَّا يستقبله من أمور الآخِرة، ولا يحزنُ على ما فاته في الدُّنيا.

ثم أخْبَرَ الله تعالى أنَّ اليهود والنَّصارى يدَّعي كلٌّ منهم أنَّ دِين الآخَر ليس فيه شيءٌ من الحقِّ، مع أنَّهم يتلون كُتُبهم، والتي تتضمَّن تكذيبهم فيما زعَموا، فالإنجيل يتضمَّن صِدق موسى وتقريرَ التوراة، والتوراةُ فيها التبشير بعيسى وصحَّة نبوَّته، وكذا قال بمِثل قولهم أُناسٌ من أهل الجَهل ليس لديهم عِلمُ مَن يتلون الكتاب.

ثم أخبر اللهُ تعالى أنَّه سيَقضي يوم القِيامة بين هؤلاء المختلِفين، والذين قال بعضُهم لبعض: لستُم على شيءٍ من الحقِّ، وسيَجزي اللهُ تعالى كلَّ مُبطِل على باطلِه.

تفسير الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾.

أي: نُهِي المسلمون عن قول هذه الكلِمة التي كانتِ اليهود تقولُها- وإنْ كانت من اليهودِ قبيحةً، ومِن المسلمين ليستْ كذلك- لما فيها من مُشابهةِ الكفَّار،

ولكونها وسيلة إلى بلوغ غرَضهم، فالمسلمون يَعنُون بها طلبَ المراعاة، واليهود يعنون بها الرُّعونةَ؛ سخريةً من النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[١].

﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾.

أي: أمَر الله تعالى عبادَه المؤمنين بلفظةٍ لا تحتمِل إلَّا معنًى حسنًا، بديلًا عن قولهم: راعِنا، للنبي صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهي: انظُرْنا، أي: انتظرنا وأمهِلْنا حتى نفهم عنك ونتعلم منك[٢].

﴿وَاسْمَعُوا﴾.

أي: أمَرَهم الله تعالى أن يَسمعوا لأوامره سَماعَ استجابةٍ وطاعةٍ[٣].

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: أخبَر سبحانه عمَّن جحَد آياتِ الله تعالى من اليهود ومِن غيرهم، أنَّ لهم في الآخرة عذابًا مؤلِمًا موجِعًا[٤].

قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تَيميَّة (١/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي))، (ص: ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣٨).

(٢) ممَّن قال بهذا المعنى: ابن جرير في ((تفسيره)) (٢/ ٣٨٥)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ١٨٧)، وابن عثيمين في ((تفسيرالفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١).

وقيل: انظرنا من النَّظر، بمعنى التدبُّر والنظر في حالهم؛ ليحصُلَ الرِّفقُ والتيسير. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن عطية في ((تفسيره)) (١/ ١٨٩)، والقرطبي في ((تفسيره)) (٢/ ٦٠)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (١/ ٦٥١-٦٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٩ - ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١).

وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)﴾.

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي: لا يحبُّ الكفَّارُ من أهل الكتاب، أو مِن المشركين أن يُنزِّل الله تعالى على المؤمنين أيَّ خيرٍ منه سبحانه، ومِن ذلك الوحيُ المنزَّل على محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: القرآن الكريم[(١)].

﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

أي: إنْ كان الكفَّارُ لا يودُّون لأحدٍ من المؤمنين خيرًا ينزل عليه من الله تعالى، فاللهُ يُريد ذلك؛ فهو الذي يُؤثِر برحماته مَن شاء مِن عباده بعِلمه وحِكمته، ومن ذلك منْح النبوَّة والرِّسالة لمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فهو رحمة له ولغيره، وهو سبحانه ذو العَطاء الواسِع الكثير[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٨٦-٣٨٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٠)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤٠-٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٨٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٥٣-٦٥٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤١).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ معنى ﴿بِرَحْمَتِهِ﴾ النبوَّة: مجاهد، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٩٩).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

أ- في قوله تعالى: ﴿نَنْسَخْ﴾ قِراءتان

١- (نُنْسِخْ) من أنسختُ الكتاب إنساخًا، أي: وجدته منسوخًا[١].

٢- (نَنْسَخْ) من نَسَخَ، بمعنى أزال، وغيَّر[٢].

ب- وفي قوله تعالى: ﴿نُنْسِهَا﴾ قِراءتان

١- (نَنْسَأْها) من التأخير؛ لأنَّ نَسَأَ أي أخَّر[٣].

٢- (نُنْسِهَا) من النِّسيان[٤].

---

(١) قرأ بها ابنُ عامرٍ من غير طريقِ الدَّاجونيِّ عن هِشامٍ. ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٠٩)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٥٧).

(٢) قرأ بها الباقون، وكذا رواه الدَّاجُونيُّ عن أصحابه، عن هِشامٍ. ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٠٩)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٥٧).

(٣) قرأ بها ابنُ كَثير، وأبو عَمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٥٨-٢٥٩).
وذهب ابنُ جرير إلى أنَّ قراءة ﴿نَنْسَأها﴾ أي نؤخِّرها، راجعةٌ إلى معنى قراءة ﴿نُنْسِها﴾ بمعنى التَّرْك عنده؛ لأنَّ كلَّ متروكٍ فهو مؤخَّرٌ، ما دام باقيًا على حال التَّرْك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٩٧).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٥٨-٢٥٩).

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾

أي: ما نرفع من حكم آيةٍ فنبدِّله ونغيِّره[(١)].

﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾

أي: أو ما نُزِلْه من الآيات؛ فنَمْحُه من قلبِ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه رضي الله عنهم[(٢)].

وعلى قراءة: ﴿أَوْ نَنْسأهَا﴾ يكون المعنى: أو ما نؤخِّر نزوله منها[(٣)].

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾.

أي نأتِ بخيرٍ من الذي نسخناه أو محوناه من قلب الرسول صلى الله عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٨٨-٣٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٥٦-٦٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤٦).

(٢) وهذا اختيار الواحدي في ((الوجيز)) (ص: ١٢٣)، وابن تيمية في ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ١٨٣-١٨٧)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٦٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (١/ ٦٥٦-٦٦٠)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤٦).

وممَّن قال بنحو ذلك من السَّلف: ابن عباس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٠٠)، وقال بنحوه أيضًا: قتادة، والحسن، وعبيد بن عمير، والربيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٩١، ٣٩٣).

وذهب ابن جرير إلى أن المراد بالنسيان هنا: الترك، فيكون المعنى: أو نترك نسخها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٩٧).

(٣) وهذا اختيار الواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ١٨٩)، وابن تيمية في ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ١٨٦-١٩٠)، واعتبر ابن عطية، وابن عثيمين أن تفسير النسأ هنا بتأخير النزول، معنىً محتملًا في الآية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤٦).

وممَّن قال من السلف أن النسأ بمعنى التأخير: عُمرُ بن الخطَّاب، وأبو العالية، وعَطاء، ومجاهد، وأبو نجيح، وعطيَّة، وعُبَيد بن عُمَير، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٩٥)، ((تفسر ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٠١).

وسلم وأصحابه رضي الله عنهم أو بمثله في خيريَّته ووجوه نفْعه[١].

وعلى قراءة ﴿ننسأها﴾ يكون المعنى: نأتِ بخيرٍ من الذي نسخناه أو أخَّرنا نزوله أو بمثله في خيريَّته ووجوه نفْعه[٢].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يَنْسَخُ ما يشاء، ويُثبت ما يشاء، ويَحكُم بما يشاء، فهو القويُّ والقادِر على ذلك، ولا يُعجزه شيءٌ أبدًا، والخطاب للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأُمَّتُه تبعٌ له فيه[٣].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: ما دام أنَّ الله تعالى مالكٌ لجميع خلْقه، ومتصرِّف فيهم بما يَشاء؛ إذ له الخَلْق والأمر، فكذلك يحكُم في عباده بما يَشاء، فيُحلُّ ما يشاء، ويُحرِّم ما يشاء، ويُبيح ما يشاء، ويحظُر ما يشاء، وهو الذي يحكُم ما يريد ولا مُعقِّب لحُكمه[٤].

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٠٢-٤٠٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٩٠)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ٥٣-٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٨٩-١٩٠)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ١٨٨-١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٠٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤٧-٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٢).

أي: ما لكم سوى الله عزَّ وجلَّ أيُّ أحدٍ يتولَّاكم، فيَجلِب لكم الخير، وليس لكم سوى الله تعالى أيُّ أحدٍ ينصرُكم، فيدفع عنكم الشرَّ[(١)].

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾.

سبب النزول:

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((قال رافعُ بن حُرَيمِلةَ ووهْبُ بن زيدٍ لرسولِ الله: يا محمَّد، ائتنا بكتاب تُنزله علينا من السَّماء نَقرؤه، أو فجِّر لنا أنهارًا، نَتَّبعْك ونُصدِّقك، فأنزل اللهُ في ذلك: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾))[(٢)].

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾.

نَهى الله تعالى في هذه الآيةِ الناسَ، مؤمنهم وكافرهم، عن سؤال رسولِهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ- الذي أُرسل للناس كافَّةً- أسئلةَ تعنُّتٍ أو اعتراض، أو اقتراحٍ للآيات، كما كان سلَف اليهود يَسألون موسى عليه السَّلام أسئلةً من هذا القَبيل[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠١- ١٠٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٠٧-٤٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥١).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في ((سيرة ابن هشام)) (١/ ٥٤٧)، وابن جرير في ((تفسيره)) (٢/ ٤٩٠)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (١/ ٢٠٢).
جوَّد إسناده ابن حجر في ((العجاب)) (١/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤١٣-٤١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٠-٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٣-٣٥٤).

وقال سبحانه: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٨٩ - ٩٣].

﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كانت المسائلُ المنهيُّ عنها مذمومةً؛ فبعضها كفر، وبعضها قد تصِل بصاحبها إلى الكُفر، حذَّر الله تعالى من ذلك فقال[١]:

﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

أي: مَن أخذ الكفر عِوضًا عن الإيمان، فقد حادَ عن وسَط الطريق، وانحرَف إلى جوانبه التي تُفضِي به إلى طُرق الهلاك[٢].

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤١٤-٤١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨١-٣٨٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٤).

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾.

أي: إنَّ كثيرًا من اليهود والنَّصارى يتمنَّون بكلِّ قلوبهم أن يرتدَّ المؤمنون عن دِينهم، فيَكفروا[١].

وقد سعَوا في ذلك، وأعمَلوا المكايد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

وقال سبحانه عن المنافقين: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾.

أي: إنَّ تلك الأمنيةَ الصادرة عن كثيرٍ من أهل الكتاب؛ سببُها الحسدُ المتمكِّن والمتأصِّل في نفوسهم، للمؤمنين على ما آتاهم اللهُ تعالى من فَضلِه، بالهداية إلى دِينه القويمِ، وهذا الحسَد إنَّما صدَر منهم بعدَ أن تبيَّن لهم الحقُّ المبِين[٢].

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾.

أي: اتركوا عِقابَ أهلِ الكِتاب على مساوئ كلامِهم، وغلِّ قلوبهم، ومكْر أعمالهم؛ واترْكُوا لَومَهم ومعاتبتهم، وأَعْرِضوا عن ذلك كلِّه، وكأنَّ شيئًا لم يكُن[٣].

قال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤١٨-٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٦٩-٦٧٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٢٠-٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧٠-٦٧١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٨).

أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦][(١)].

﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾.

أي: حتى يُحدِث اللهُ تعالى لكم من أمْره فيكم ما يشاء، ويَقضي فيهم ما يُريد، بما يَشفِي غليلَكم، ويُذهِب غيظَ قلوبِكم[(٢)].

وقد أتَى هذا الأمرُ لاحقًا، بقتال الكفَّار مِن أهل الكِتاب، أو أخْذ الجِزيةِ منهم؛ ونُسِخ الأمرُ بالعفو والصَّفح بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩][(٣)].

عن أُسامةَ بنِ زيد رضي الله عنه: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ركِب على حِمارٍ، عليه قَطيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ[(٤)]، وأسامةُ وَراءَه، يعودُ سعدَ بنَ عُبادَةَ في بني حارثِ ابنِ الخَزرَجِ، قبلَ وَقعةِ بدرٍ، فسارَا حتى مرَّا بمجلسٍ فيه عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ، وذلك قبلَ أن يُسلِمَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ، فإذا المجلسُ أخلاطٌ منَ المسلمينَ والمشركينَ؛ عبَدَةِ الأوثانِ، واليهودِ، وفي المسلمينَ عبدُ اللهِ بنُ رَواحَةَ، فلمَّا غَشِيَتِ المجلسَ عَجاجَةُ الدابَّةِ، خمَّر ابنُ أُبَيٍّ أنفَه بِردائِه وقال: لا تُغَبِّروا[(٥)] علينا، فسلَّم

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٥/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢ / ٤٢٣-٤٢٤) ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص:٢١)، ((الصارم المسلول)) لابن تَيميَّة (ص: ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٨).

(٤) فَدَكِيَّة: نِسبة إلى فَدَك، وهي قرية قريبة من المدينة.
يُنظر: ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (١/ ٢٩٠)، ((الأنساب)) للسمعاني (١٠/ ١٥٠).

(٥) عَجاجة الدَّابَّة: هي الْغُبَار. وقَوْله: (لا تُغبرِّوا عَلينا)، أَي: لا تثيروا الْغُبَار. يُنظر: ((عُمدة القاري)) للعيني (٢٢/ ٢١٧).

رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ عليهم، ثم وقَف، فنزَل فدَعاهم إلى اللهِ، وقرَأ عليهمُ القرآنَ، فقال له عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ: أيُّها المرءُ، لا أحسَنَ ممَّا تقولُ إنْ كان حقًّا، فلا تؤذِنا به في مجالِسِنا، فمَن جاءك فاقصُصْ عليه. قال عبدُ اللهِ بنُ رَواحَةَ: بَلى يا رسولَ اللهِ، فاغشَنا في مجالِسِنا؛ فإنَّا نُحِبُّ ذلك، فاستَبَّ المسلمونَ والمشرِكونَ واليهودُ حتى كادوا يتَثاوَرونَ، فلم يزَلْ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يُخَفِّضُهم حتى سكَتوا، ثم ركِب رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ دابَّتَه، فسار حتى دخَل على سعدِ بنِ عُبادَةَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((أيْ سعدُ، ألم تَسمَعْ ما قال أبو حُبابٍ- يريدُ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ- قال كذا وكذا)). فقال سعدُ بنُ عُبادَةَ: أيْ رسولَ اللهِ، بأبي أنت، اعفُ عنه واصفَحْ، فوالذي أنزَل عليك الكتابَ، لقد جاء اللهُ بالحقِّ الذي أَنزَل عليك، ولقدِ اصطَلَح أهلُ هذه البَحرَةِ على أن يُتَوِّجوه ويُعَصِّبوه بالعِصابَةِ، فلمَّا رَدَّ اللهُ ذلك بالحقِّ الذي أعطاك شرِق بذلك، فذلك فعَل به ما رأيتَ. فعَفا عنه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وكان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأصحابُه يَعفُونَ عنِ المشركينَ وأهلِ الكتابِ كما أمَرهمُ اللهُ، ويَصبِرونَ على الأَذى؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الآية. وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، فكان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يتَأَوَّلُ في العفوِ عنهم ما أمَره اللهُ به، حتى أذِن له فيهم، فلمَّا غزا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بدرًا، فقتَل اللهُ بها مَن قتَل من صَناديدِ الكفَّارِ وسادَةِ قريشٍ، فقفَل رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأصحابُه منصورينَ غانِمينَ، معَهم أُسارى من صَناديدِ الكفارِ، وسادَةِ قريشٍ، قال ابنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ ومَن معَه منَ المشركينَ عَبَدَةِ الأوثانِ: هذا أمرٌ قد تَوَجَّهَ، فبايَعوا رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ على الإسلامِ، فأسلَموا))[1].

(١) رواه البخاري (٦٢٠٧).

﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يَفعَل ما يشاء، فهو القويُّ والقادِر على ذلك، ولا يُعجِزه شيءٌ أبدًا[١].

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)﴾.

أي: حثَّ الله تعالى عِباده المؤمنين على الاشتغال بما ينفعُهم أكثرَ، وهو أداءُ الصَّلاة بحدودها وفروضها تامَّةً كما أمَر الله عزَّ وجلَّ، وإيتاء الزَّكاة كما شُرعت، ووعدهم بأنَّهم مهما فعَلوا من خير، فلن يَضيعَ، بل هو محفوظٌ ومدَّخَرٌ لهم عند البصير العليم، الذي لا تَخفى عليه خافيةٌ من أعمالهم الظاهِرة والباطِنة[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧].

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا مَن كان يهوديًّا، وقالت النَّصارى: لن يَدخُل الجَنَّةَ إلَّا مَن كان نصرانيًّا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٢٥-٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٣-٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٢٨-٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢).

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

أي: إنَّ تلك الدَّعاوى التي يُطلقها اليهودُ والنَّصارى، إنَّما هي مجرَّدُ أباطيل وأمانيِّ نفوسٍ كاذبة، يتمنَّونها على الله تعالى بغير حقٍّ(١).

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: هذا أمرٌ من الله تعالى لرسوله محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بدعاء أصحاب تلك الدَّعوى من اليهود والنَّصارى، إلى إحضار الحُجَّة على دَعواهم تلك، إنْ كانوا محقِّين فيما يزعمون(٢).

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾.

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما قال الزَّاعمون بأمانيِّهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، ولكن مَن أخلص العملَ لله تعالى وحْدَه لا شريكَ له، وهو مع إخلاصه فيه مُتَّبِع لشريعة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٢٩-٤٣١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٣١-٤٣٣)، ((الاستقامة)) لابن تَيميَّة (٢/ ٣٠٥-٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣).
وممَّن قال من السَّلف: إنَّ معنى ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾، أي: أخلص لله: أبو العالية، والرَّبيع، وسعيد ابن جُبَير. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٠٨).

﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: إنَّ للمسلمِ وجهَه لله تعالى مُحسِنًا، ثوابَه على ذلك عند الله عزَّ وجلَّ، فهم أهل الجَنَّة وحْدهم، آمِنون؛ فلا خوفَ عليهم ممَّا يستقبلونه من أمور الآخِرة، وهم في سُرور دائم؛ فلا يَحزنون على ما فاتهم من أمور الدُّنيا، فحصَل لهم المرغوب، ونجَوْا من المرهوب[١].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

أي: ضلَّل وكفَّر بعضُهم بعضًا، فادَّعى أهلُ كلِّ دِينٍ منهم، أنَّ دِين الآخَر باطل، ليس فيه شيءٌ من الحقِّ مطلقًا[٢].

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾.

أي: والحال أنَّ هؤلاء المدَّعين من اليهود والنصارى، يَقرؤون كتُبَهم ويعلمون ما فيها من الحقِّ، فيقرأ اليهود التوراة، ويقرأ النَّصارى الإنجيل، وكِلا الكِتابينِ شاهدانِ عليهما؛ فهما يقولان بخِلاف ما يقولون؛ فالإنجيل يَتضمَّن صِدقَ موسى وتقريرَ التوراة، والتَّوراة تتضمَّن التبشيرَ بعيسى وصِحَّة نبوَّته، وكِلاهما يتضمَّنان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٣٣-٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٦٩-٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٣٥-٤٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تَيميَّة (١/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣).

صِدقَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فكيف يدَّعي كلٌّ منهما أنه ليس في دِين الآخر شيءٌ من الحقِّ مطلقًا[١]؟!

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

أي: أخبَر الله تعالى عن قوم نفَى عنهم العِلم بما كانت اليهودُ والنصارى به عالِمين، أنَّهم قالوا -بسبب جهلِهم- نظيرَ ما قاله اليهودُ والنَّصارى بعضُهم لبعض، من أنَّهم ليسوا على شيءٍ من الحقِّ، وهذا تعريضٌ من الله تعالى بهؤلاء اليهود والنَّصارى؛ زيادةً في التشنيع على ما قالوه لبعضهم، حيث اشتَركوا وهم أهلُ كتاب، مع أهلِ الجَهالة في المقالة نفْسها[٢].

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: إنَّ الحَكَم العدل سبحانه وتعالى، يتوعَّد هؤلاءِ المختلِفين- القائِلِ بعضُهم لبعض: لستُم على شيء من الحقِّ- بأن يقضيَ ويَفصِل بينهم يومَ تقومُ الساعة، ويقومُ الناس من قُبورهم، وأنَّه سيَجزي كلَّ مبطل على باطله؛ فإنَّه لا نجاةَ لِمَن لم يؤمِن بجميع الأنبياء والمرسَلين عليهم الصَّلاة والسَّلام[٣].

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ الإيمان مقتضٍ للأخلاق الفاضِلة؛ لأنَّ مراعاة الأدب في اللَّفظ من الأخلاق الفاضِلة، وقد أمَر الله تعالى بها، مخاطبًا بذلك أهلَ الإيمان، فقال: ﴿يَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٣٩-٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٦-٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧٨).

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾[١].

٢- من الأدَب الحِرصُ على اختيار الألفاظ الحسَنة، ومِن ذلك تجنُّب الألفاظ التي تُوهِم سبًّا، وشتمًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾[٢].

٣- أنَّ خيرَ الله تعالى لا يَجلِبه ودٌّ وادٍّ، ولا يردُّه كراهةُ كارهٍ؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[٣].

٤- يجب على المسلم الحذرُ من كلِّ تصرُّف يصدُر عن اليهود والنصارى، والمشركين عمومًا، مع اتِّخاذهم أعداءً؛ ولذا يحرُم على المسلمين أن يُوَلُّوا الكفَّارَ أيَّ قيادة؛ لأنَّهم ما داموا لا يودُّون للمسلمين الخيرَ، فلن يقودوهم له، مهما كان الأمرُ، كما قال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥][٤].

٥- مراعاةُ الأحوال، حيثُ قال تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[٥].

٦- في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ بِشارةٌ للمؤمنين بأنَّ الله سبحانه وتعالى سيغيِّر حالَهم المقتضية للعفو والصَّفح، إلى قوَّةٍ يَستطيعون بها جهادَ العدوِّ[٦].

٧- إقام الصلاة لا يعني مجرَّد أدائها، وإنما هو القيام بحقوقها الرُّوحيَّة في صورتها العَمليَّة، وذلك بالتوجُّه إلى الله سبحانه، ومناجاتِه، والانقطاعِ إليه عمَّا عداه، وإشعار القلْب بعظمته وكبريائه، فبهذا الشُّعور ينمو الإيمان، وتَقوى الثقةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٤٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٢).

بالله تعالى، وتتنزَّه النَّفسُ عن أن تأتيَ الفواحش والمُنكَرات، وتستنير البصيرةُ؛ فتكون أقوى نفاذًا في الحق، وأشدَّ بُعدًا عن الأهواء، فنفوس المصلِّين جديرة بالنَّصر؛ لِمَا تُعطيها الصَّلاة من القوَّة المعنويَّة، ومن الثِّقة بقُدرة الله عزَّ وجلَّ[١].

٨- أنَّ إقامة الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة من أسباب النَّصر؛ لأنَّ الله ذكَرها بعد قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩]؛ وقد جاء ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١][٢].

٩- أنَّ مَن اغترَّ بالأماني، وطمِع في المنازل العالية بدون عملٍ لها، ففيه شَبَهٌ من اليهود، والنَّصارى، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣].

١٠- في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ...﴾ التحذير من التعصب في الدين والترامي بالكفر، وتفريق كلمة المسلمين، والله تعالى قد أمر بالجماعة والائتلاف، ونهى عن الفرقة والاختلاف، وقد امتاز أهل الحق، من هذه الأمة بالسنة والجماعة، عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنَّة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وعما مضى عليه المسلمون[٤].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ أحكام الله سبحانه وتعالى تختلفُ في الخيريَّة من زمانٍ إلى زمان؛ فقد يكون الحُكم خيرًا للعباد في وقت، ويكون غيرُه خيرًا لهم في وقتٍ آخَرَ، كما قال سبحانه

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١/ ٣٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٦٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٢٦).

وتعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[١].

٢- أنَّ القادر على تغيير الأمور الحِسيَّة قادرٌ على تغيير الأمور المعنويَّة كذلك؛ فكما أنَّ الله تعالى قادرٌ على تغيير الأمور الكونيَّة، فهو كذلك قادرٌ على تغيير الأمور الشرعيَّة؛ لقوله تعالى بعد ذِكر النَّسخ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

٣- ذِكر ما يَطمئنُّ به الإنسان حين يُخشى أن يُقلِق الأمرُ فِكرَه ويَشغل قلبَه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾[٣].

٤- تأكيد ذمِّ الأسئلة المتعنِّتة؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولَكُمْ﴾؛ فكأنَّه يعني أنَّه لَمَّا كان رسولكم، فالذي ينبغي منكم تُجاهَه عدمُ إعْناته بالأسئلة[٤].

٥- عِلم اليهود والنصارى بأنَّ الإسلام مَنقبةٌ عظيمة لمتَّبعه؛ لقوله تعالى: ﴿حَسَدًا﴾؛ لأنَّ الإنسان لا يُحسد إلَّا على شيء يكون خيرًا، ومنقبةً عظيمة، ويدلُّ على ذلك، قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥][٥].

٦- بيان خُبث طويَّة هؤلاء الذين يودُّون وقوعَ المسلمين في الكُفر؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾، فليس هذا صادرًا من كتاب، ولا مِن إساءة المسلمين إليهم، ولكنَّه من عند أنفسهم؛ فهي أنفُسٌ خبيثة تودُّ الكفرَ للمسلمين حسدًا[٦].

٧- عدلُ الله عزَّ وجلَّ في مخاطبة عِبادِه، حيث قال سبحانه: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾؛ لأنَّ هذا من باب مراعاة الخَصم، وأنَّه إنْ كان لكم بيِّنة فهاتوها؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذا- لا شكَّ- من أبلغِ ما يكون من العدْل، وإلَّا فالحُكم لله العليِّ الكبير، وهؤلاء لا بُرهان لهم على ما ادَّعَوه بدليل أنَّهم لم يأتوا به[١].

٨- أنَّ أهلَ الجنة هم الذين جمَعوا بين وصفينِ؛ الأوَّل: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾؛ والثاني: اتِّباع شرْعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[٢].

٩- عِظم الثواب؛ لإضافته إلى الله الوهَّاب، في قوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾[٣].

١٠- انتفاء الخوفِ والحزن لِمَن عبَدَ اللهَ عزَّ وجلَّ بهذين الوصفين؛ وهما الإخلاص والمتابعة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٤].

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾: فيه الافتتاح بحسن النِّداء، وإثبات وصْف الإيمان لهم؛ للإعانة على الاستجابة للأمر بعد النِّداء[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٦٦-٥٦٧)؛ فقد قال: (وقد تضمَّنت هذه الآيات الشريفة أشياء؛ منها: افتتاحها بحُسن النداء، وإثبات وصف الإيمان لهم، وتنبيههم على تعلم أدب من آداب الشريعة، بأنْ نُهوا عن قول لفظ؛ لإيهام ما إلى لفظ أنصَّ في المقصود، وأصرحَ في المطلوب. ثم ذكر ما للمخالف من العذاب الذي يذلُّه ويُهينه. ثم نبَّه على أنَّ هذا الذي أُمرتم به هو خير، وأنَّ الكفار لا يودُّون أن ينزل عليكم شيء من الخير. ثم ذكر أنَّ ذلك ليس راجعًا لشهواتهم، ولا لتمنيهم، بل ذلك أمر إلهي يختصُّ به من يشاء، وأنه تعالى هو صاحب الفضل الواسع. ولَمَّا كان صدر الآية فيه انتقال من لفظ إلى لفظ، وأن الثاني صار أنص في المقصود بين أن ما يفعله الله تعالى من النسخ، فإنما ذلك لحكمة منه، فيأتي بأفضل مما نسخ أو بما ماثله. وأن من كان قادرا على كل شيء، فله التصرف بما يريد من نَسْخ وغيره. ونبَّه المخاطَب على عِلمه بقُدرة الله تعالى، وبملكه الشامل لسائرِ المخلوقات، وإنما نحن ما لنا من دونه من مانعٍ يمنعنا منه).

٢- في قوله: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ بُدِئ بالنهي؛ لأنَّه أسهل؛ لأنَّه من باب التروك، ثم أُتي بالأمر بعده الذي هو أشقُّ؛ لحصول الاستئناسِ قبلُ بالنَّهي[١].

٣- قوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- فيه: الإظهار في موضع الإضمار في قوله ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾؛ للدَّلالة على سبَب العذاب، وأنَّ سبَّ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم كُفرٌ، ولبيان أنَّ هذا العذاب يعمُّ كلَّ كافر[٢].

- وفيه: تقديم الجار والمجرور ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾؛ للتَّخصيص أو التقوية[٣].

- وفيه جاء تنكير (عذاب) للتهويل والتخويف، وجاء وصفه بصيغة فعيل ﴿أَلِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على شدَّته، والمبالغة في الوصف[٤].

٤- قوله: ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾

- فيه تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَيْكُمْ﴾؛ للاختصاص، وتقوية المعنى، ولإظهار كامل العناية بشأن المُنزَل والمُنزَل عليه[٥].

٥- في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

- فيه تأكيدُ الخبر بالجملة الاسميَّة (وَاللَّهُ يَخْتَصُّ - وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ) التي تدلُّ على الثُّبوت، والتعبير بالمضارع (يختصُّ) لتحقيقِ الوُقوع واستمراره أيضًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٤٢).
(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٤٨)
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٠).
(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٥٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧٥).

- وفيه: وضْع الظاهر ﴿وَاللهُ ذُو﴾ موضِعَ الضمير (وهو ذو)؛ للتعظيم، ولتحصل خشيةُ الله تعالى، وتقَع هيبتُه في نفوس عباده[١].

٦- في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ...﴾

- الاستفهام في الآيتَينِ دخَل على النَّفي؛ لذا فهو للتقرير[٢].

- والخِطاب في (تعلم) ظاهره للواحِد - وهو النبي صلَّى الله عليه وسلَّم - والمراد إمَّا خطاب لغير معيَّن، بتَشبيه مَن ليس حاضرًا للخطاب (الغائب) منزلةَ المخاطَب، بحيث يصير مخاطبًا؛ لشهرة هذا الأمر، وليعمَّ كلَّ مخاطَب صالح له، فيشمل هذا الخطاب ابتداءً اليهودَ والمشركين، ومَن عسى أن يشتبه عليه الأمر، وتروج عليه الشبهة من ضعفاء المسلمين، وإمَّا المراد به ظاهِره وهو الواحِد، فيكون المخاطَبُ هو النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، لكنَّ المقصودَ منه المسلمون، فينتقل من خِطاب النبيِّ إلى مخاطبة أمَّته على طريق الانتقال الكِنائيِّ، والمقصد من تلك الكِناية التعريضُ باليهود، وهذا أبلغُ وأوجزُ في لفظ الضَّمير من أن يُؤتَى بضمير الجماعة المخاطبين[٣].

- وفيه التفاتان: **أحدُهما**: خروجٌ من خِطاب جماعةٍ في قوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إلى خطاب الواحد في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾، **والثاني**: خروجٌ من ضميرِ المتكلِّم المعظِّمِ نفسَه في قوله: ﴿مَا نَنْسَخْ... نُنْسِهَا نَأْتِ...﴾: إلى الغَيْبَةِ بالاسمِ الظاهر في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ...﴾ فلم يقل: (ألم تعلموا أننا)[٤].

---

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٦٤-٦٦٥).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٢/ ٦٢).

- وفيه وضْع الاسمِ الجليلِ في قوله تعالى: (أنَّ الله) موضعَ الضَّميرِ في (أنَّه)؛ لتربية المهابة[١].

٧- **قوله:** ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ خبر فيه من الوعيد والتهديد ما لا يَخفى[٢]. مع ما فيه من تأكيد الخبر بإنَّ، واسميَّةِ الجملة، وتقديمِ ما حقُّه التأخيرُ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣].

٨- **قوله:** ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ فيه لَفٌّ ونَشْر؛ إذ المعنى: وقالت اليهود: لن يَدخُل الجنة إلا مَن كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلَّا مَن كان نصارى، فلفَّ بين القولين[٤].

٩- **قوله:** ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ جمعَ الخبر (أمانيهم)، مع أن قولهم: (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ) أمنية واحدة؛ لأنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية، ومعاودتهم لها، وتأكدها في نفوسهم جُمِعت، ونظيره قولهم: معًا جياع، فجمَعوا الصفة ومؤدَّاها واحد؛ لأنَّ موصوفها واحد، وهذا من نفائس صناعة البيان[٥]. وقيل: لأنَّ (تلك) كناية عن المقالةِ، والمقالةُ في الأصلِ مصدرٌ، والمصدرُ يقع بلفظِ الإفرادِ للمفردِ والمثنَّى والمجموعِ، فالمرادُ بـ(تلك) الجمعُ من حيث المعنى[٦].

١٠- **قوله:** ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُه عِنْدَ رَبِّهِ﴾ في كلمة ﴿رَبِّهِ﴾ وضع اسم الربِّ مضافًا إلى ضمير (مَن أسلمَ) موضِعَ ضمير لفظ الجلالة

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (١/ ١٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٦٩).

(٦) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٧٠).

(الله)؛ لإظهار مزيد اللطف، وتقرير مضمون الجملة[١].

١١- **قوله**: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه التأكيد باسميَّة الجملة، وبذكر ضَمير الفَصل ﴿هُمْ﴾، وفيه اختصاصٌ وتقويةٌ للحُكم[٢].

١٢- **قوله**: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ خبرٌ مرادٌ به التوبيخ والوعيد، وناسب المجيء بالفاء ﴿فَاللَّهُ﴾؛ لأنَّ التوعُّد بالحكم بينهم يوم القيامة، وإظهار ما أكنته ضمائرهم من الهوى والحسد- متفرِّع عن هذه المقالات ومسبَّب عنها، والجملة تذييل[٣].

- وفيه: تقديم الظرف ﴿فِيهِ﴾ على متعلِّقه ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾؛ للاهتمام به، ولمراعاة فواصل الآيات[٤].

---

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧٨).

والتذييل: هو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها؛ للتوكيد، أو بتعبير آخَر: هو أن يُؤتَى بعد تمام الكلام بكلامٍ مستقلٍّ في معنى الأوَّل؛ تحقيقًا لدلالة منطوق الأوَّل أو مفهومه؛ ليكون معه كالدليل؛ ليظهر المعنى عندَ مَن لا يفهم، ويَكمُل عند مَن فَهِمه، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ ثم قال عزَّ مِن قائل: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ٧١]. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٥٠٢)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٨٦ - ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧٨).

الآيات (١١٤-١١٩)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿فَثَمَّ﴾: أي: هنالك[١].

﴿بَدِيعُ﴾: مُبدِع، ومبتدئ، وأصله: ابتداء الشيء وصُنعه لا عن مِثال سابق[٢].

﴿بَشِيرًا﴾: أي: مبشِّرًا، وأصل (بشر) يدلُّ على ظهور الشَّيء مع حُسن وجمال، ومنه البِشارة، ولا تكونُ البشارة عند إطلاق الكلام إلَّا بالخَير، وقد تُقيَّد وتُحمَل على الشرِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣٩).

﴿نَذِيرًا﴾: أي: مُنذِرًا، وأصل (نذر) يدلُّ على تخويف[١].

المعنى الإجمالي:

يُخبِر الله تعالى أنَّه لا أحدَ أشدُّ تعدِّيًا على حدوده ممَّن منَع ذِكرَه في بيوته، وبذَل جهدًا في إفسادها، وهؤلاء جعَل الله سبحانه وتعالى عقابَهم بأنْ حرَمَهم من دخولها، إلَّا على وجه الخوف من الله، أو من عِباده المؤمنين، ولهم مع ذلك ذلٌّ وعارٌ في الدنيا، وأمَّا في الآخِرة، فلهم عقوبةٌ عظيمة.

ثمَّ أخبَر سبحانه عن عظيم مُلكه، وأنَّ له مُلكَ الدنيا كلها مشرقها ومغربها ومُلك ما بينهما؛ فأينما حوَّل الإنسانُ وجهَه فهناك وجه الله.

ثم ذكَر سبحانه النَّصارى الذين يزعمون أنَّ المسيح ابن الله، تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا، بل له جميعُ ما في السَّموات والأرض، وكلُّهم بلا استثناء عبيدٌ له، مدبَّرون منقادون؛ فكيف يكون له ولدٌ منهم؟! تنزَّهَ عن ذلك وتقدَّسَ.

ثم أخبر أنَّه هو سبحانه مَن أوجد السَّمواتِ والأرضَ على غير مثال سابقٍ؛ فالذي قدَرَ على إيجادهما من العدم مع عظمتِهما، قادرٌ على إيجادِ ما دونهما؛ فكيف يُخرِجون عيسى عن قُدرته وإبداعه، ويَجعلونه جزءًا منه سبحانه؟!

ومِن صِفاته جلَّ وعلا أنَّه إذا أراد شيئًا، فإنَّما يقول له: كن فيكون، فمَنْ يدبِّر الأشياءَ بكلمته جلَّ وعلا لا يحتاجُ إلى توليد الأشياءِ منه؛ فكيف يجعلون عيسى ولدًا له؟! وإنَّما عيسى عليه السَّلام من مخلوقاته التي خلقَها بكلمة «كن».

ثمَّ أخبر تعالى عن مشركِي العرب الأميِّين، الذين ليس لديهم ما لدى أهل الكِتاب من العِلم، أنَّهم قالوا: هلَّا يكلِّمنا الله، أو تأتينا معجزةٌ؟! وذلك ليصدِّقوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فشابهوا بهذا القول الأُممَ السابقةَ من اليهود والنصارى؛ فقد قالوا كقولهم، وذلك نتيجة تشابُه قلوب الكفَّار في ردِّهم الحقَّ وتعنُّتهم، ثم أخبر الله تعالى أنه قد أظْهَر العلاماتِ الدالَّةَ على صِدق رُسله- ومنهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ- بما لا يُحتاج معه إلى سؤال آخَر، لكن ذلك التبيِّن لا يستفيد منه إلَّا الذين يوقِنون.

ثمَّ خاطَب اللهُ عزَّ وجلَّ نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ، بأنَّه قد أرسله بالحقِّ، مبشرًا مَن أطاع بالفلاح والسَّعادة في الدَّارين، ومنذِرًا مَن عصى بالشقاء فيهما، وأعْلَمه أنَّه -بعدَ بيان ما أُمِر ببيانه من الحقِّ- ليس مؤاخذًا بمَنْ بقِي منهم على كُفره.

تفسير الآيات:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾.

أي: لا أحدَ من المانعين شيئًا، أشدُّ جَراءةً وتعدِّيًا على حدود الله عزَّ وجلَّ ممَّن منَعَ العبادة في بيوت الله تعالى، واجتهد وبذَل وُسعَه في إفسادها حسيًّا ومعنويًّا[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٤١، ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥-٦).

واختَلف المفسِّرون فيمَن عنى الله تعالى بهذه الآية الكريمة، وذلك على أقوال؛ منها: أنَّ المعنيِّين بها، مشرِكو قريش الذين صدُّوا الرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ وصحابتَه رضي الله عنهم عن الدخول للمسجد الحرام، يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧٨).

وممَّن قال من السَّلف بهذا القول: ابن عبَّاس -في رواية عنه- وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢١٠).

وقيل: المعنيُّون بها: النصارى؛ وذلك أنَّهم سعَوْا في خراب بيت المقدس، وأعانوا بُخْتُنَصَّر على =

﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾.

أي: قد منَع اللهُ تعالى أولئك الذين يسعَون في خراب بيوت الله تعالى حسيًّا ومعنويًّا، منْ أنْ يدخلوها إلَّا وقلوبهم وجِلة؛ خوفًا من عقوبة إلهيَّة تحلُّ بهم، أو خوفًا من المؤمنين أن يعاقبوهم تسليطًا من الله تعالى لهم(١).

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: لأولئك الذين تقدَّمت صِفتُهم في هذه الآية، ذلٌّ وعارٌ يحلُّ بهم في الدُّنيا، من قَتْلٍ، أو سَبيٍ، أو جزيةٍ، أو فضيحةٍ، أو غير ذلك، أمَّا في الآخرة فلهم عقوبةٌ عظيمة(٢).

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

أي: إنَّ لله تبارك وتعالى مُلكَ الجِهة التي تطلُع منها الشَّمس، ومُلك الجِهة التي تَغيب منها، وله مُلك جميع ما بينهما من الجِهات والمخلوقات(٣).

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

= ذلك، ومنَعوا مؤمني بني إسرائيل من الصَّلاة فيه بعد مُنصرَف بُختنصَّر عنهم إلى بلادِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٤٤).

وممَّن ذهَب إلى هذا القول من السَّلف قتادة، والسُّدِّي، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٤٢). و((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢١٠).

وقيل: الآية على عمومها شامِلة لجميع مَن اتَّصف بذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٤٦)، ((شرح عمدة الفقه-كتاب الصلاة)) لابن تَيميَّة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٨١).

(٢) قال بهذا المعنى: ابن جرير في ((تفسيره)) (٢/ ٤٤٧- ٤٤٨)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٣٩٠)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٥٥-٤٥٦)، ((مختصر الصواعق لابن القيم)) للبعلي (ص: ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٢-١٣).

أي: إنَّكم حيثما كنتم وتوجَّهتم في صلاتكم نحو الجهة التي شرعها الله تعالى، فإنكم تتَّجهون إلى الله عزَّ وجلَّ في الحقيقة؛ لأنَّ المصلِّي إذا توجَّه إلى القبلة، فقد استقبل وجه الله سبحانه حقيقةً[١].

وقيل المعنى: إنَّكم مهما حوَّلتم وجوهَكم إلى ناحيةٍ ما، فهنالك وجهُ الله تعالى، وسواء كان ذلك لأجْل استقبال القِبلة في الصَّلاة أو لا، في الحضَر أو السَّفر، أو لغير ذلك من أحوال[٢].

﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: ختَم الله سبحانه هذه الآيةَ باسمين دالَّين على الإحاطة، فالله عزَّ وجلَّ واسعُ الرَّحمة والمغفرة والعِلم، واسع الجُود والعطاء، وغير ذلك من صِفاته الحُسنى، وهو ذو عِلمٍ محيطٍ بكلِّ شيء، لا يَغيب عن عِلمه شيء أبدًا[٣].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٣-١٤).
ويُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٦/ ١٦-١٧)، ((مختصر الصواعق لابن القيم)) للبعلي (ص: ٤١٦، ٤١٨، ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((مختصر الصواعق لابن القيم)) للبعلي (ص: ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٥٧، ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤).
قال ابن تيميَّة: (هذه الآية تدلُّ على جواز استقبال جميع الجِهات؛ نُسخ ذلك في حقِّ العالم القادِر في صلاة الفرد، فيَبقى في حقِّ الجاهل بالقِبلة والعاجز عن استقبالها لخوفٍ ونحوه في حقِّ المتنفل في السَّفر لم يُنسخ؛ وهذا لأنَّ الأصل جواز استقبال الوجه إلى جميع الجِهات، لكن إذا لم يكُن بُدٌّ من الصَّلاة إلى واحدة منها، عيَّن الله سبحانه لنا استقبالَ أحبِّ الوجوه إليه، وأوْجب ذلك، فإذا تعذَّر ذلك بالجهل وبالعجز، سقَط هذا الوجوب حينئذٍ؛ لأنَّ الإيجاب حينئذ مُحالٌ) ((شرح عمدة الفقه-كتاب الصلاة)) (١/ ٥٤٣-٥٤٤).
ويُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (١/ ٢٠٨)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٧٨).

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾.

أي: قالت النصارى بزعمهم: المسيح ابن الله[(١)].

﴿سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: يتنزَّه الله ويتعالى علوًّا كبيرًا عن أن يكون له ولد، وليس الأمر كما افتروا، فهو سبحانه مالك جميع ما في السموات وجميع ما في الأرض، وهو خالقهم ومصرفهم كيف شاء، هو الغني وهم الفقراء، والجميع عبيد له بلا استثناء، فكيف يكون له ولد منهم؟! والولد إنما يكون متولدًا من شيئين متناسبين، كما أن الولد بعض الوالد وشريكه، فلا يكون مخلوقًا ومملوكًا له؛ لأن المخلوق مملوك مربوب، والابن نظير الأب، فكيف يكون مخلوقه ومملوكه بعضه ونظيره؟ والله تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا مشارك في عظمته وكبريائه، فكيف يكون له ولد[(٢)]؟!

﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾.

أي: إنَّ كلَّ أحد لا يخرُج عن مشيئته وقُدرته ومُلكه سبحانه، بل الجميع- حتى مَن ادُّعِيت بُنوَّتُه لله تعالى كعيسى عليه السَّلام- عبيدٌ مقهورون مُدبَّرون، وهم منقادون وخاضِعون للنواميس الإلهيَّة في أبدانهم وغيرها، طوعًا أو كرهًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٠١).
قال ابن كثير: (اشتملت هذه الآية الكريمة، والتي تليها على الرد على النصارى- عليهم لعائن الله- وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب، ممن جعل الملائكة بنات الله) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٨٥).
وممَّن ذهب من السَّلف إلى نحو هذا القول: ابن عبَّاس، قتادة، ومجاهد، والسُّدِّي، وعكرمة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦٢).

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٨-٦٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ١-٢].

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)﴾.

أي: إنَّ مَن أوجد هذه السَّمواتِ والأرضَ مِن العدم، وأحْسَن خلقهما على غيرِ مِثالٍ سابقٍ مع عِظمهما وآياتهما الباهِرة، فهو قادرٌ على خَلْق ما دونهما؛ فكيف يُخرجون عيسى عليه السَّلام عن قُدرته وإبداعه، ويجعلونه نظيرًا وشريكًا وجزءًا مِنه سُبحانه جلَّ شأنُه؟! فإنَّ مبدِع العالَم العُلويِّ والسُّفليِّ لا يُعجزه أن يخلُق عبدَه بقدرته، من غير أبٍ؛ فكيف يدَّعون أنَّه ولدُه[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

أي: إنَّه سبحانه إذا أراد شيئًا، فحسبُه أن يقول له: كن، فيكون ذلك الشيء

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٩٩).

على وَفقِ ما يُريد الله تبارك وتعالى، ومن ذلك خَلْق المسيح عيسى عليه السَّلام، فقد خلَقَه بكلمة كن، وهذا منافٍ للتوليد؛ فمَن يدبِّر الأشياء بمجرَّد كلمته، ليس كمَن يحتاج إلى توليدِ الأشياء منه، فكيف يُوصَف بالتولُّد سبحانه، وهو في جميع ما يَقضيه إنَّما يقول له: كن، فيكون[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[مريم: ٣٤-٣٥].

وقال سبحانه: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩].

وقال جلَّ وعلا: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[يس: ٨١-٨٢].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾.

أي: قال مُشرِكو العرب: هلَّا أَوحى الله عزَّ وجلَّ إلينا كما أَوحى إلى رُسله؟ أو يكلِّمنا بتصديق رسوله محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ؟ أو تأتينا معجزةٌ دالَّة على صِدق ما جاء به؟ وهذا الطَّلب قد صدَر منهم على سبيل التعنُّت والعِناد، وإلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٧٣)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تَيميَّة (٧/ ٣٧٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٩٩).

فقد جاءتْهم آيات كثيرة دالَّة على صِدق بِعثة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ومنها القرآن الكريم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

أي: قولهم ذلِك مطابقٌ لقول مَن قَبلهم من الأُمم السابقة من اليَهود والنصارى وغيرِهم[٢].

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٨٩).

وممَّن قال من السَّلف بأنَّ المقصودَ بالذين لا يعلمون: مشرِكو العرب: أبو العالية، وقَتادة، والرَّبيع ابن أنس، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٨٩).

أي: قلوبُ الكفَّار متشابهةٌ في ردِّ الحق، والعِناد والتعنُّت؛ ولذا جاءتْ أقوالهم متوافقةً، وإن اختلفت مذاهبُهم وأساليبهم في ذلك[١].

كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

أي: قد أَظهَرْنا ووضَّحنا العلاماتِ الدالَّاتِ على صِدق الرُّسل عليهم السَّلام- ومنهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ- بما لا يُحتاج معها إلى سؤالٍ آخَر، ولكنْ ذلك لِمَن كان اليقين من خِصالهم الدَّائمة؛ فهم يَتثبَّتون ويستوثقون، ويطلُبون معرفةَ حقائق الأشياء إلى درجة اليقين[٢].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

أي: يُخاطب الله تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ، مؤكِّدًا له بأنَّه قد أرسله بالحقِّ، فبِعثتُه حقٌّ، وما جاء به من عند الله عزَّ وجلَّ حقٌّ، وقد أرسله تعالى لعموم المكلَّفين من الإنس والجن، والحال أنَّه مبشِّر مَن أطاعه بنيل السَّعادة في الدنيا والآخِرة، ومحذِّر ومُخوِّف مَن عصاه بالشَّقاوة في الدُّنيا والآخِرة[٣].

﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٠-٦٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٦-٢٧).

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿تُسْأَلَ﴾ قِراءتان:

١- (تَسْأَلْ) بفتح التاء، وجزْم اللام، على النهي عن السُّؤال عن ذلك أي: لا تَسأَلْ يا محمَّدُ، عنهم؛ فقد بَلَغوا غاية العذاب[١].

٢- (تُسْأَلُ) بضمِّ التاء والرَّفْع، أي: إنَّك لا تُسأل عن الكفَّار: ما لهم لم يُؤمِنوا؛ لأنَّ ذلك ليس إليك[٢].

﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾.

أي: إنَّك لستَ مؤاخَذًا يا محمَّد، على بقاء الكفَّار -أصحاب النار الملازِمين لها- على كُفرهم؛ فلن تُسألَ عنهم بعد أنْ بلَّغتَهم بالحقِّ؛ فإنَّما عليك البلاغ فحسبُ، وحِسابهم على الله عزَّ وجلَّ. ولا تَسأَلْ يا محمَّد، عمَّ لأولئك من العذاب؛ فإنَّهم في حالٍ من الفظاعة والشَّناعة لا يتصوَّرها عقلُ إنسان؛ وذلك لشدَّةِ ما أُعِدَّ لهم من العذاب العظيم[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢٠-٢١].

الفوائد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾،

---

(١) قرَأَ بها نَافِعٌ وَيَعْقُوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٦٢). ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٨٩).

(٢) قَرَأَ بها الْبَاقُونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٦٢). ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٧-٢٨).

إشارةٌ إلى أنَّ ذِكر الله تعالى باللِّسان لا بدَّ أن يكون باسمِه، أمَّا ذِكرُه بالضمير المفرَد فبِدعة، وليس بذِكر، مِثل طريقة بعض الصوفيَّة، الذين يقولون: أفضل الذِّكر أن تقول: (هو، هو، هو)[١].

٢- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ الإنسان المصاب إذا رأى أنَّ غيره أُصيب، فإنَّه يتسلَّى بذلك، وتخفُّ عليه المصيبة؛ فالله تعالى يُسلِّي رسوله صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنَّ هذا القول الذي قِيل له قد قِيل لِمَن قبْله، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٢].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله سبحانه: ﴿مَسَاجِدَ اللهِ﴾ [البقرة: ١١٤]، دلالةٌ على شرَف المساجد؛ لإضافتِها إلى الله تعالى[٣].

٢- أنَّه لا يجوز أن يُوضَع في المساجد ما يكون سببًا للشرك؛ لأنَّ ﴿مَسَاجِدَ اللهِ﴾ معناها: موضع السُّجود له؛ فإذا وُضِع فيها ما يكون سببًا للشرك، فقد خرجَتْ عن موضوعها، مثل أن يُقبَر فيها الموتى، فهذا محرم؛ لأنَّه وسيلةٌ إلى الشِّرك[٤].

٣- وجوب تطهير المساجد؛ وذلك لإضافتِها إلى الله عزَّ وجلَّ، وهي إضافة تشريف وتعظيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[٥].

٤- أنَّ الناس في المساجد سواءٌ؛ لأنَّ الله تعالى أضافَها إلى نفْسه: ﴿مَسَاجِدَ الله﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لرشيد ضا (١/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- في قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ إثبات صفة الوجه لله سبحانه وتعالى[١].

٦- أنَّه ليس بين أمْر الله تعالى بتكوين شيءٍ، وتكوُّنه تراخٍ، بل يكون على الفوريَّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾: بالفاء، والفاء تدلُّ على التَّرتيب، والتعقيب[٢].

٧- أنَّ المشركين يُقرُّون بأنَّ الله تعالى يتكلَّم بحرفٍ، وصوتٍ مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾[٣].

٨- أنَّ الأقوال تابعةٌ لِما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ فلتشابُهِ القلوبِ تَشابهت الأقوالُ[٤].

بلاغة الآيات:

١- **قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾** استفهامٌ يراد به النفي والإنكار والاستبعاد[٥].

٢- **قوله: ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾**

- فيه: بِناء الفِعل (يُذْكَر) للمفعول وحذْف الفاعِل؛ للاختصار؛ لأنَّ الذاكرين كثيرون جدًّا[٦].

- وتقديم الجار والمجرور (فيها) على نائب الفاعل (اسمُه)؛ لأنَّ مساجدَ الله

---

(١) يُنظر: ((كتاب التوحيد)) لابن خزيمة (١/ ٥٢)، ((كتاب التوحيد)) لابن منده (٣/ ٦٣)، ((أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)) للالكائي (٣/ ٢١٤)، ((طبقات الحنابلة)) لابن أبي يعلى (١/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٧٣).

مذكورةٌ في اللفظ قبل اسم الله؛ فناسب تقديم المجرور لذلك[١].

٣- قوله: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

- فيه تنكير (خِزي)؛ للتعظيم والتهويل، ويدلُّ على أنَّ الذمَّ واقعٌ في النِّهاية العظمى[٢].

وتنكير (عذاب)؛ للتعظيم والتهويل، ووصفه بصيغة فعيل (عظيم)؛ للمبالغة[٣].

- وفيه: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿لَهُمْ... وَلَهُمْ...﴾ في الموضعيْن مع تكراره؛ للتوكيد، وبيان شِدَّة العذاب[٤].

٤- في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾

- التنصيصُ على ذِكْرِ (المَشْرِقِ والمَغْرِبِ) دونَ غيرِهما؛ لشرَفِهما حيث جُعِلا لله تعالى، أو يكون مِن حَذْفِ المعطوفِ للعِلم، أي: لله المشرقُ والمغربُ وما بينهما، كقوله: ﴿تَقِيكُم الحَرَّ﴾، أي: والبردَ[٥].

٥- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل مقرِّر لمضمون ما قَبلَه، وفيه تأكيدٌ بإنَّ، واسميَّة الجملة[٦].

٦- قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ في لفظ (اتخذ) تعريض[٧] بالاستهزاء بهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٩٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٢/ ٨٠).

(٦) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٦٣).

(٧) **التعريض**: في اللغة ضدُّ التصريح. وفي اصطلاح البلاغيِّين: هو الدلالة على المعنى من طريق المفهوم، أي: تضمين الكلام ما يصلح للدلالة على مقصود المتكلم، ويصلح للدلالة على غير مقصوده؛ إلَّا أنَّ إشعاره بجانب المقصود أتمُّ وأرجح. وقد يُسمَّى تلويحًا؛ لأنه يلوح منه ما يريد. والفرق بين الكناية والتعريض: أن الكناية ذِكر الشيء بذِكر لوازمه، كقولك: فلان طويل =

بأنَّ كلامهم لا يلتئم؛ لأنَّهم أثبتوا ولدًا لله تعالى، ويقولون: اتَّخذه الله؛ والاتخاذ الاكتساب، وهو ينافي الولدية؛ إذ الولدية تأتي بدون صُنع، فإذا جاء الصنع جاءت العبودية لا محالة[١].

٧- في قوله: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾

- جَمَعَ (قانِتون) حَمْلًا على المعنى لأنَّ (كُل) إذا قُطِعَتْ عن الإِضافة جاز فيها مراعاةُ اللفظِ ومراعاةُ المعنى، وحَسُنَ الجمعُ هنا؛ لتواخِي رؤوسِ الآي ومراعاة فواصلِها[٢].

- وفيه: تأكيد الخبر باسميَّة الجملة، وتقديم ﴿له﴾ على ﴿قانتون﴾ فيه تأكيدٌ كذلك[٣].

٨- في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ جاء تقديم الضمير في ﴿يُكَلِّمُنَا﴾ على الفاعل لفظ الجلالة ﴿اللهُ﴾؛ لبيان إمعانهم في المكابرة والعِناد، وعدم الطاعة والانقياد[٤].

٩- في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ جيء بالتأكيد (إِنَّا) وإنْ كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يتردَّد في ذلك؛ لمزيد الاهتمام بهذا الخبر، وتنويهًا بشأن الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام[٥].

= النجاد، كثير الرماد، والتعريض: ذِكر كلام يحتمل مقصود المتكلم ويحتمل غير مقصوده، إلا أنَّ قرائن الأحوال تؤكد حمله على مقصوده. ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٦٩)، ((البرهان)) للزركشي (٢/ ٣١١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٢/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩١).

الآيات (١٢٠-١٢٢)

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿مِلَّتَهُمْ﴾: أي: دينهم، وطريقتهم، ثم نُقِلت على أصول الشرائع، مشتقَّة من أمللت (أي أمليت)؛ لأنَّها تُبنَى على مسموع ومتلوٍّ، فإذا أريد الدين باعتبار الدُّعاء إليه قيل: ملة، وإذا أريد باعتبار الطاعة والانقياد له قيل (دين)[1].

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾:

(**الَّذِينَ**): مبتدأ أوَّل. و(**أُولَئِكَ**). مبتدأ ثانٍ، و(**يُؤْمِنُونَ بِهِ**): خبَرُ المبتدأ الثاني، وجُملة (**أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**) خبَر للمبتدأ الأوَّل (**الَّذِينَ**). و(**يَتْلُونَه**): جملة في محل نصب حال من (**الكِتَاب**)، أو مِن الضَّمير المنصوب في (**آتَيْنَاهُمُ**). ولا يجوز أن تكون جملة (**يَتْلُونَه**) خبَر (**الَّذِينَ**)؛ لأنَّ هذا يُوجِب أن يكونَ كلُّ مَن أوتي الكتاب يتلوه حقَّ تلاوته، وليس هم كذلك، إلَّا إذا كان المقصود بـ(الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ) هم الأنبياء، فيجوز ذلك، وقيل غير ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣ - ٧٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١١١)، =

المعنى الإجمالي:

يُخبر اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنَّ أهلَ الكتاب من اليهود والنَّصارى لن يرضَوْا عنه حتى يَعتنِقَ دِينَهم؛ لأنَّهم يرَوْن أنَّهم على هُدًى، فأعْلَمه الله تعالى بما يردُّ به على هذا الزَّعم، وهو أنَّ الهُدى الحقيقيَّ هو هدى الله، الذي جاء به مِن عند الله عزَّ وجلَّ.

ثمَّ خاطَب اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ- وأمَّتُه تبعٌ له- محذِّرًا من اتِّباع أهواء أهل الكِتاب، من بعد أنْ آتاه اللهُ من العِلم ما يدلُّه على الحقِّ، فإنَّه إنْ فعَل ذلك واتَّبع أهواءَهم، فلن يجدَ حِينها أيَّ أحدٍ يتولَّاه، فيَجلِب له خيرًا، أو أيَّ أَحدٍ ينصُره، فيَدفع عنه شرًّا.

ثم أخْبَرَ تعالى أنَّ مَن اتَّبع كتابه حقَّ الاتِّباع مِن أهل الكِتاب- ومِن اتِّباعه أنَّه لا يُحرِّفه ولا يبدِّل شيئًا ممَّا فيه- فإنَّه يعدُّ مؤمنًا به حقَّ الإيمان، وسيؤدِّي به ذلك الاتِّباعُ إلى الإيمان بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فإنَّ في كتبهم تَصديقًا به، وذِكرًا لصفاته صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأمَّا مَن يكفُر بكتابه منهم- ومِن كُفره به تحريفُه وتبديلُه، وجحْدُ ما ثبَت فيه من نبوَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ- فأولئك هم الخاسِرون.

ثمَّ خاطَب الله تعالى بني إسرائيل وذكَّرهم بنِعمه التي أسْبَغها عليهم، ويعني بها النِّعمَ التي أنعم بها على آبائهم، وأنَّه فضَّلهم على سائرِ الأمم من أهل زَمانهم، ثم بعد أنْ ذكَّرهم بنِعمه وفَضْله عليهم، حذَّرهم وخوَّفهم بأن يتقوا عذاب يوم القيامة، الذي لا تَقضي فيه نفْسٌ عن نفس حقًّا وجَب عليها، ولا يُقبل منها فِداء، ولا تُفيدها شفاعةٌ إذا كانت كافِرة، ولا أحَد يُنقذهم من عذابِ الله تعالى.

= ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٩٤-٩٥).

تفسير الآيات:

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾.

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

أي: ولن تَرضى عنك اليهودُ، حتى تترُكَ دِينَ الإسلام وتعتنقَ دِينَهم، ولن ترضَى عنك النَّصارى، حتى تترُكَ دِينَ الإسلام وتعتنقَ دِينهم[١].

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾.

أي: قل يا محمَّد- إجابةً لهم في عدَم اتِّباع ملَّتهم-: ليس الهُدى ما أنتم عليه كما تدَّعون، بل الذي أُرسلتُ به هو هُدَى الله الحقيقيُّ؛ فإنَّه الدِّينُ المستقيم، والصَّحيح، والكامِل[٢].

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

أي: يُخاطِب اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ- والأمَّة تبَعٌ له في ذلِك- محذِّرًا من اتِّباع أهواء اليهود والنَّصارى، خاصَّةً من بعد إكرام النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأمَّته بالوحي المُنزَّل عليه، وفيه العِلمُ بطريق الحقِّ، والعلمُ بطُرق الضَّلالة والكُفر[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٤)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٩/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٤-٦٩٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٠-٣١).

﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

أي: إنِ اتبعتَ أهواءَهم يا محمَّد، فاعلمْ بأنَّه ليس لك حينذاك أيُّ أحدٍ يتولَّى أمرَك؛ فيجلِب لك خيرًا، أو أيُّ نصيرٍ ينصرُك من الله تعالى؛ فيَدفَع عنك شرًّا[1].

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

هذا مدحٌ لمن أقام كتابَه من أهل الكتاب، فآمن به واتَّبَعه حقَّ الاتباع، ولم يجترئ على تحريفه، وإنكار ما يحمله من البشارة بمحمد صلَّى الله عليه وسلَّم، المذكور فيه بصفته ونعته، فآمن به واتبعه.

وهو مدحٌ لمؤمني أهل الكتاب، في مقابل ذمِّ أولئك الذين يحرِّفون الكلم عن مواضعه منهم[2].

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣١).

(٢) حَكى الإجماعَ على أن ﴿يَتْلُونَهُ﴾ معناه: يتبعونه: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٩٢-٤٩٣).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٧، ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٧).

وممَّن قال من السَّلف بأنَّ ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ معناه: يتَّبعونه حقَّ اتباعه: ابن عبَّاس، وعبدُ الله ابن مسعود، وقيس بن سعد، وعِكرمة، وعَطاء، ومجاهد، وأبو رَزِين، وإبراهيم النَّخَعي، والحسن). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢١٨).

عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا * يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ [القصص: ٥٢-٥٣].

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

أي: إنَّ مَن يكفُر من أهل الكتاب بكتابه الذي أُوتيه من عند الله عزَّ وجلَّ- ومِن ذلك تحريفُه وتبديلُه، وجَحْد نبوَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ الثابتة فيه- فإنَّه قد بخَس نفْسَه حظوظَها من رحمة الله عزَّ وجلَّ[(١)].

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢)﴾.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: يا بَنِي يعقوب كونوا مثلَ أبيكم في متابعة الحقِّ، واذكُروا نِعمه تعالى على آبائكم ذِكرًا يحملكم على شُكرها بالخضوع لله تعالى، وذلك بالدُّخول في دِينه، واتِّباع رسولِه الكريم صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ومنها النِّعم المذكورة في هذه السُّورة الكريمة[(٢)].

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

أي: واذكُروا تفضيلي لكم على سائرِ الأمم من أهل زَمانِكم، بإرسال الرُّسُل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٢٨) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٤-٥٥).

منكم، وإنزال الكتُب عليكم، وغير ذلك من النِّعم الخاصَّة[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَّرهم الله تعالى بنِعمه، عطَف على ذلك التحذيرَ من حلول نِقَمه بهم يومَ القِيامة[٢]، فقال:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾.

أي: أمَرهم الله تعالى أن يعتقدوا ويَفعلوا ما يكونُ حاجزًا يَقِيهم من عذابِه سبحانه، في يوم القِيامةِ الذي لا تَقضِي فيه نفْسٌ عن نفْسٍ حقًّا وجَب عليها لغيرها، ولا يُغني فيه أحدٌ- كائنًا من كان- عن أيِّ أحدٍ شيئًا، ولو كان من عَشيرته الأقرَبين، أو كان الشيءُ قليلًا ويسيرًا جدًّا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٢٩) (٢/ ٤٩٦-٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥-٥٦).
قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العالية: ﴿وأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾، قال: بما أُعطوا من المُلك والرُّسل والكتُب، على عالَم مَن كان في ذلك الزَّمان؛ فإنَّ لكلِّ زمان عالمًا. قال أبو محمد: ورُوي عن مجاهد، والرَّبيع بن أنس، وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٠٤). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٦).

(٣) نقل ابن عطية الإجماع على أنَّ هذه الآية في الكافرين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٣٩).
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٣١) (٢/ ٤٩٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٦٠).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣].

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

أي: لا يُقبَل منها فِداءٌ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية [الحديد: ١٥].

﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾.

أي: لا تنفعُ من أيِّ نفْسٍ شفاعةٌ لنفْسٍ أخرى إذا كانت كافرةً على الإطلاق.

كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وقال سبحانه عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١].

أمَّا المؤمنة فتُقبل منها، إنْ كانت الشفاعةُ بإذن الله تعالى، مع رِضاه سبحانه عن المشفوعِ له[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٣٧، ٦٣٩) (٢/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي(١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٣٧،٦٣٦) (٢/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٦٤).

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

أي: ليس لهم أحدٌ يُنقِذهم من عذابِ الله تعالى[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥-٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ المرء إذا اتَّبع غير شريعة الله، فلا أحدَ يحفظه من الله؛ ولا أحدَ يَنصُره من دونه، حتى لو كثُر أعوانه وجُندُه، واشتدَّت قوته؛ لأنَّ النصر والولاية تكون باتِّباع هُدى الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[(٢)].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، دلالةٌ على أنَّه يجب تعلُّق القلب بالله تعالى وحْده؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٣٩، ٦٤٠) (٢/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٦٩).
قال ابن كثير: (قد تقدَّم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكُرِّرت هاهنا للتأكيد، والحثِّ على اتباع الرسول النبيِّ الأُميِّ الذي يجدون صفتَه في كتبهم، ونعْتَه واسمه وأمره وأمته) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٠٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٧-٦٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣).

خوفًا، ورجاءً؛ لأنَّ المرء متى ما علِم أنَّه ليس له وليٌّ ولا نصيرٌ من دون الله تعالى؛ فلا يتعلَّق إلَّا بالله تعالى وحده[١].

٣- أنَّ للإيمان علامةً، وعلامتُه العمل؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بعدَ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾[٢].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ الكُفر مِلَّة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿مِلَّتَهُمْ﴾، وهو باعتبار مضادَّة الإسلام مِلَّةٌ واحدة، أمَّا باعتبار أنواعه، فإنَّه مِلل[٣].

٢- أنَّ ما عَدا هُدى الله ضلال؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]؛ فكلُّ ما لا يُوافق هُدى الله -كالبِدع- فإنَّه ضلال، وليس ثَمَّة واسطةٌ بين هدى الله، والضَّلال[٤].

٣- أنَّ ما عليه اليهود والنصارى ليس دِينًا، بل هو هوى؛ لقوله تعالى: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾، ولم يقُل: مِلَّتهم كما في الأوَّل، ففي الأوَّل قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾؛ لأنَّهم يعتقدون أنهم على مِلَّة ودِين، ولكن بيَّن الله تعالى أنَّ هذا ليس بدِين، ولا مِلَّة، بل هو هوى، وهم ليسوا على هدًى[٥].

٤- أنَّ مَن اتَّبع الهوى بعد العِلم، فهو أشدُّ ضلالةً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ... ﴾ الآية[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- أنَّ الكافر بالقرآن مهما أصاب من الدُّنيا فهو خاسر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾، فيكون خاسرًا، ولو نال من الدُّنيا ما نال من زِينتها وزخرفها[١].

٦- علوُّ مرتبة مَن يتَّبعون الكتاب حقَّ الاتِّباع؛ للإشارة إليهم بلفظ البعيد: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[٢].

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

- جاء النفي بلن؛ مبالغةً في التأييس[٣].

- ووُحِّدت لفظة المِلَّة (مِلَّتهم)، وإنْ كان لهم ملَّتان؛ لأنَّهما يجمعهما الكُفر، فهي واحدة بهذا الاعتبار، أو للإيجاز! فيكون من باب الجمْع في الضمير؛ لأنَّ النصارى لن ترضى حتى تتبع ملتهم، واليهود لن ترضى حتى تتبع ملتهم[٤].

- وإيراد (لا) النافية بين المعطوفَيْن؛ لتأكيد النفي[٥].

٢- في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾

- الضمير (هو) ضمير فصل، والتعريف في (الهدى) تعريف الجِنس الدالُّ على الاستغراق؛ ففيه حصرٌ من طريقين: هما ضمير الفصل وتعريف الجنس، والجمع بينهما يفيد تحقيق معنى القصر وتأكيده؛ للعناية به، فأيُّهما اعتُبر طريق قصرٍ، كان الآخَر تأكيدًا للقَصر وللخبر أيضًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٥٢-١٥٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٤).

- وفيه: توكيد آخر بـ(إنَّ)؛ جاء اهتمامًا بتأكيد هذا الحكم، ولتحقيق الخبر، وإبطال تردُّد المتردِّد[١].

٣- **قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ... مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾** اشتمل على كثيرٍ من المؤكِّدات؛ تحذيرًا من الطمع في استرضاء اليهود أو النصارى بشيء، فأكَّد ذلك التحذير بعدة مؤكِّدات، وهي[٢]:

- القَسَم المدلول عليه باللام الموطِّئة للقَسم في (وَلَئِن).
- الإجمال ثم التفصيل بذِكر اسم الموصول، وتبيينه بقوله ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾.
- جعْل (الذي جاء)، أي: (الذي أنزل إليه) هو العِلم كلُّه؛ لعدم الاعتداد بغيره لنُقصانه.
- اسمية جملة الجزاء ﴿ما لَكَ مِن اللهِ...﴾.
- تأكيد النفي بـ(مِن) في قوله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾.
- تأكيد النفي بـ(لا) النافية بين المعطوفَيْن.
- تأكيد ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ بعطْف ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾، الذي هو آيِلٌ إلى معناه العام.

٤- **في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾** فَذْلَكةٌ لِمَا تقدَّم، وجوابٌ قاطعٌ لمعذرتهم المتقدِّمة، وهو من باب ردِّ العَجُز على الصدر؛ ولأحد هذين الوجهين جاء الفصل بيْن الجمل، ولم تُعطَف بالواو[٣].

٥- **في قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ... وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾**

- إعادةٌ للتحذير؛ مبالغةً في النصح، وللإيذان بأنَّ ذلك فذلكةُ القضية،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٦).

والمقصودُ من القصة؛ وهو أنَّ نِعم الله عزَّ وجلَّ عليهم أعظمُ، وكفرَهم بها أشدُّ وأقبحُ[(١)].

٦- **قوله تعالى:** ﴿**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ**﴾ اختلف الترتيب بين العدل والشَّفاعة في آيتَي سورة البقرة، فهنالك قال: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، فقدَّم لفظ الشفاعة، وأخَّر لفظ العدل، وهنا قال: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] ، فقدَّم العدل، وأخَّر الشفاعة، مسندًا إليه (تنفعها)، وفائدته نفي سآمة الإعادة بالتفنن في الخطاب، مع حصول التأكيد من التكرير، وأيضًا كل تعبير جاء أنسب لسياقه الوارد فيه لنكتةٍ لطيفة؛ أو أكثر[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٨).

الآيات (١٢٤-١٢٤)

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۖ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿إِمَامًا﴾: هو الذي يأتمُّ به الناس، فيتبعونه، ويأخذون عنه، من أَمَّ، وأصله: الأصل، والمرجع، والجماعة، والدِّين[1].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٦).

﴿مَثَابَةً﴾: أي: مرجعًا لهم، يرجعُون إليه في حجِّهم وعُمرتهم كلَّ عَام، وأصل الثوب: العَودُ والرجوع، وأصل المثابة: الموضِع الذي يُرجَع إليه مرَّةً بعدَ أخرى، ويُقال للمنزل: مثابة. وقيل: مَثابَةً من الثواب، أي: يَحجُّون فيُثابون عليه[1].

﴿سَفِهَ﴾: أصل السفه: ضد الحلم. والسفه، خِفَّة في البدن، واستُعمل في خِفَّة النفس؛ لنقصان العقل[2].

المعنى الإجمالي:

ذكَّرَ الله تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ بما ابتَلى به خليلَه إبراهيم عليه السَّلام، من تكاليفَ فرَضَها عليه، فقام بها حقَّ القيام، فأعْلَمه الله تعالى بأنَّه سيجعله قُدوةً يأتمُّ به الناس، فسأله إبراهيمُ أن يكون مَن بعده مِنَ الأئمَّة من ذُريَّته، فأجابه الله تعالى بأنَّ الإمامةَ في الدِّين لا تُعطى لظالِمٍ.

ثم ذَكَّر الله سبحانه نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ بما جعَل للبيت الحرام من مكانةٍ، وذلك بأن جعَلَه محلًّا يشتاق إليه الناسُ دائمًا، ولو زاروه مرَّاتٍ عديدةً؛ فإنَّهم يَرجعون إليه، وجعَله سبحانه مكانًا يأمَن فيه البشرُ على أنفسهم وأموالهم، بل أمانُه شمِل حتَّى الحيواناتِ والجمادات.

وأمَر الله تعالى باتِّخاذ مقاماتِ إبراهيمَ عليه السَّلام التي هي شعائرُ الحجِّ -كعَرفة، والمزدلفة- أماكنَ للعبادة.

ثم أخبَرَ الله تعالى أنَّه أوصى إبراهيمَ وإسماعيل وصيةً مؤكَّدةً، بالقيام بتطهير البيتِ طهارةً حِسيَّةً ومعنويَّة؛ من الشِّرك، والكفر، والأوثان، ومن الرِّجس،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٠).

والنَّجاسات، وهذا التطهير مِن أجْل مَن يطوفون بالكعبة، ومَن يُقيمون في البيت للعبادة، وللمُصلِّين فيه.

ثم أخبر تعالى عن مسألةِ إبراهيمَ رَبَّه أن يجعل مكَّةَ بلدًا يَحُلُّ فيها الأمنُ الدائم، ويَرزق اللهُ المؤمنين فيها مِن أنواع الثِّمار، فأعْلَمه تعالى أنَّ الرِّزق الدُّنيوي للجميع؛ المؤمِن والكافِر، وليس مقصورًا على عبادِه المؤمنين فحسبُ، لكن هذا الرِّزق الذي سيُرزَقه الكفرةُ، رِزقٌ قليلٌ من حيثُ زمنُه وكميَّتُه، مقارنةً بنعيم الآخِرة الموعودِ به أهلُ الإيمان، ثم سيُلجِئُ الله سبحانه مَن كفَر إلى عذاب النار، وساء مستقرُّه ومصيرُه.

ثم يُذكِّر سبحانه نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ برفْع إبراهيمَ وإسماعيلَ لأُسُسِ الكعبة، وإعلائها؛ لتصيرَ جدارًا، وهما يَدْعُوانِ ربَّهما أن يتقبَّل منهما هذا العمل؛ فهو السَّميع لدُعائهما، والعليم بعملهما ونيَّتهما، وكذلك دعَوَا ربَّهما أنْ يجعلهما خاضعَيْنِ له سبحانه دومًا، ومستسلمَينِ لأمره، وأنْ يُنشِئَ من سُلالتهم جماعةً منقادةً لأوامِره، مُستسلمةً له، وقد أجاب الله عزَّ وجلَّ تلك الدَّعوةَ في المسلمين من العرب.

ودَعوَا ربَّهما أيضًا أنْ يُبيِّن لهما مواضعَ عِبادةِ الحجِّ، ومشاعره، وأنْ يتوبَ عليهما؛ فإنَّه هو الموفِّق للتوبة، والمتقبِّل لها، وهو الرَّحيم الذي يخصُّ برحمته مَن يشاء من عباده.

ودَعوَا ربَّهما أن يُرسل رسولًا إلى ذُريَّتهما من العرب، يقرأ عليهم القرآن، ويقوم بتعليمهم القرآن، والسُّنة، ويُطهِّرهم من أدران الشِّرك، وقد أجاب الله هذه الدعوةَ، فبَعَث محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

ثم أخبَر سبحانه أنَّه لا يَتركُ الحَنيفيَّةَ دِينَ الخليل إبراهيم راغبًا عنها؛ إلَّا مَن كانت له نفسٌ متَّصفة بالجَهل والطيش، وعدم الرشد؛ فقد اختار اللهُ إبراهيمَ

واجتباه في الدُّنيا، وهو في الآخِرة من المفلِحين السُّعداء؛ فقد أمره ربُّه حين اصطفاه أن ينقاد إليه، ويُوحِّده ويُخلصَ له الدِّين، فأجاب هذ الأمرَ فورًا، ووصَّى إبراهيمُ بَنِيه بالإسلامِ لربِّ العالمين، وكذلك فعَل حفيدُه يعقوبُ عليه السَّلام، فوصَّى به أبناءه، وأعْلَمهم أنَّ الله اختار لهم هذا الدِّينَ؛ فلْيلتزموا به في حياتهم، حتى يأتيَهم الموتُ وهم متمسِّكون به.

ثم توجَّه الخِطابُ من اللهِ جلَّ وعلا إلى اليهود والنَّصارى المكذِّبين بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فسألهم: هل كانوا حاضِرين حين أوْشكَ يعقوبُ على الموت، حين سأل بَنِيه إلى مَن سيتوجَّهون بالعبادة مِن بعد موته؟ فأجابوه بأنَّهم سيعبدون الله وحْدَه، الذي هو معبودُ والدِهم يعقوب، ومعبودُ آبائه من قبله إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ولن يُشرِكوا في عبادته أحدًا، وهم له خاضعون مُستسلِمون.

ثم أخبَرَ الله تعالى اليهودَ والنصارى المكذِّبين بنبوَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أنَّ هؤلاء الآباءَ والأجدادَ الصالحِين قد مضَوْا لسبيلهم، ولن ينفعَكم الانتسابُ إليهم، ولن يعودَ عليكم من هُداهم وعمَلِهم الصالح شيءٌ؛ فإنَّما لكم ما عملتُم، ولن تُجازَوْا على ما عمِلوه.

تفسير الآيات:

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾.

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

أي: واذكُر يا محمَّد، ابتلاءَ الله تعالى لعبده وخليله إبراهيمَ عليه السَّلام بتكاليفَ فرَضها عليه ربُّه سبحانه، فأدَّاها إبراهيمُ عليه السَّلام على وجهٍ تامٍّ، موفِّيًا جميعَ ذلك[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٩٨، ٥٠٦-٥٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٠١-٧٠٣).

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

أي: إنِّي مُصيِّرك يا إبراهيم، إمامًا يأتمُّ بك الناسُ، ويَقتدون بك[١].

﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

أي: لَمَّا جعَل الله تعالى إبراهيم إمامًا، سأل ربَّه عزَّ وجلَّ أن تكون الأئمَّةُ من بعده من ذُريَّته[٢].

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

أي: أجاب الله تعالى عن سؤال خليله إبراهيمَ عليه السَّلام، بأنَّه لا يَمنح مرتبةَ الإمامة في الدِّين أحدًا من الظالِمين من ذريَّته؛ لأنَّ الإمامة تُعطَى لأوليائه، وأهلِ طاعته، دون أَعدائِه[٣].

قال تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

وقال سبحانه: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء: ٥٤-٥٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦].

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٠٩-٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤١-٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٣-٤٤).

﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كان من إمامة إبراهيمَ عليه السَّلام اتِّباع الناس له في حجِّ البيت، الذي شرَّفه الله سبحانه ببنائِه- قال سبحانه إثرَ ذلك ناعيًا على أهل الكتاب مخالفتَه وترْكَ دِينه، وموطِّئًا لأمر القِبلة[1]:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

أي: واذكُر يا محمَّد، هذا الأمرَ؛ فقد جعل الله تعالى البيت الحرام محلًّا يَشتاقُ إليه الناسُ على الدوام، فيَرجعون إليه، ولو تردَّدوا إليه عِدَّةَ مرَّات، وهو معاذٌ لهم يأمنون فيه على أنفسهم وأموالهم، وحتى الحيوانات والجمادات تكون آمنةً فيه[2].

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥١٧-٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤).

وممَّن قال في ﴿مثابةً﴾ مثلما ذُكِر: ابن عبَّاس، وأبو العالية، وسعيد بن جُبَير، وعطاء، ومجاهد، والحسن، وعطيَّة، والرَّبيع بن أنس، والسُّدِّي، والضحَّاك، وعَبْدَة بن أبي لُبابة، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥١٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٢٥)

وممَّن قال من السَّلف في قوله تعالى: ﴿أَمْنًا﴾ بنحو ما ذُكر: ابنُ عبَّاس، وأبو العالية، ومجاهد، وعطاء، والسُّدِّي، وقتادة، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٢٥).

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ قراءتان:

١- (اتَّخَذوا) بفتح الخاء، على الخبَر عمَّن كان قبلنا من المؤمنين، أنَّهم اتخَذوا من مقام إبراهيم مصلًّى[(١)].

٢- (اتَّخِذوا) بكسر الخاء، والمعنى: اتَّخِذوا- أيُّها الناس- من مقام إبراهيم مصلًّى تُصلُّون عنده[(٢)].

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

أي: اجعَلوا من مقامات إبراهيمَ عليه السَّلام، وهي شعائرُ الحجِّ، كعرفةَ ومزدلفةَ، ورمْي الجمرات، وغيرها- اجعلوها أماكنَ للعِبادة كالدُّعاء، وقد اتَّخذ الناسُ ذلك مقتدِين بإبراهيم عليه السَّلام، ويدخُل في ذلك، أداءُ ركعتَي الطَّواف خَلْفَ المقام المشهور بمقام إبراهيمَ عليه السَّلام[(٣)].

قال عُمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه: ((وافقتُ ربي في ثَلاثٍ: فقلتُ: يا رسولَ الله، لو

---

(١) قرأ بها نافِعٌ وابنُ عامِرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٣٠)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٦٣).

(٢) قَرَأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٣٠)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تلخيص كتاب الاستغاثة لابن تيمية)) لابن كثير (٢/ ٥٢٤) ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٢٩٩-٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤-٤٥).
ومِمَّن قال من السَّلف بمُجمَل هذا القول: ابن عبَّاس-في رِواية عنه-ومجاهد، وعطاء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن حاتم)) (١/ ٢٢٦).
ومِن المفسِّرين مَن ذهب إلى تخصيص المقام المذكور في الآية بالمعروف بمقام إبراهيمَ عليه السَّلام. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٢٨، ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤١٦-٤١٧).
وممَّن ذهَب إلى هذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس -في رواية أخرى عنه- وسعيد بن جُبَير، والسُّدِّي، وقتادة، والرَّبيع، وسفيان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٢٦).

اتَّخذنا من مقامِ إبراهيمَ مُصلًّى، فأُنزِلتْ: ﴿واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾...))[١].

وفي حديثِ جابرٍ الطويل: (... حتى إذا أَتَيْنا البيتَ معه، استلم الرُّكنَ فرمَل ثلاثًا ومشى أربعًا، ثم نفذ إلى مقامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ. فقرأ: ﴿واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، فجعَل المقامَ بَينه وبين البيتِ- فكان أبي يقول: (ولا أعْلَمُه ذَكرَه إلَّا عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ)- كان يقرأ في الرَّكعتَينِ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾))[٢].

﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾.

أي: أوْحَيْنا إليهم بوصيةٍ مؤكَّدة، أمرناهما فيها بتطهير بيت الله تعالى من الشِّرك، والكُفر والأوثان، ومِن الرِّجس والنَّجاسات، وأنْ يَبْنِياه بِنيَّةٍ خالصةٍ لله عزَّ وجلَّ[٣].

﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

أي: أمَر اللهُ عزَّ وجلَّ بتطهير البيت لأجْل مَن يطوفون بالكعبة، ومَن يُقيمون في البيت مجاورين للعِبادة- فيما يُعرف شرعًا بالاعتكاف- وللمُصلِّين فيه[٤].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٢).

(٢) رواه مسلم (١٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٣٠-٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥-٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٣٤-٥٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٦).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾.

أي: واذكُروا دعوة إبراهيم عليه السَّلام بحلول الأمْن الدَّائم للبلد الأمين: مكَّةَ[١].

عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ إبراهيمَ حرَّمَ مكةَ[٢]، وإنِّي حَرَّمْتُ المدينةَ ما بيَن لابَتَيْها[٣]، لا يُقْطَعُ عِضاهُهَا[٤]، ولا يُصادُ صيدُها))[٥].

وعن عبدالله بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إن إبراهيمَ حرَّم مكةَ ودعا لها، وحَرَّمت المدينةَ كما حرَّم إبراهيمُ مكةَ، ودعوت لها في مُدِّها وصاعِها مثلَ ما دعا إبراهيمُ عليه السَّلامُ لمكةَ))[٦].

﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

أي: سأل إبراهيمُ عليه السَّلام ربَّه سبحانه بأن يرزق مؤمني أهل مكة من أنواع الثمار المختلفة[٧].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٣-٧١٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥١- ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٤٢-٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٢٤-٤٢٥).

(٣) **لابتيها**: يعني: حَرَّتيها من جانبيها؛ لأنَّ المدينة بين حَرَّتين، والحَرَّة، وهي الأرض ذات الحِجارة السُّود. ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٨٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٥٦٠).

(٤) العِضَاه: كلُّ شَجَرٍ عَظيمٍ له شَوْكٌ. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٥٥).

(٥) رواه مسلم (١٣٦٢).

(٦) رواه البخاري (٢١٢٩).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٤٣-٥٤٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥٢).

﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا خصَّ إبراهيم عليه السَّلام في دعائه بالرزق، المؤمنين، وكان رزق الله عزَّ وجلَّ شاملا للمؤمن والكافر[١]، قال تعالى:

﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾.

أي: إنَّ الكافر ينال رزقه الدنيويَّ أيضًا لكنَّه قليلٌ زمنًا ووصفًا، بالنسبة لنعيم الآخرة الكامل، والدائم بلا انقطاعٍ ولا نهاية[٢].

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

أي: أُلجئه وأَدفعه وهو مُكرَه إلى النار، وساء المصيرُ عذابُ النار بعدَ الذي كانوا فيه من متاعِ الدُّنيا[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣-٢٤].

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٤٦-٥٤٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥٢-٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٤٧-٥٤٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥٤).

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾.

أي: واذكر رفْعَ إبراهيم لقواعد الكعبةِ، وإسماعيلُ يُعاونه بنقْل الحجارة، ورفعُ القواعِد يكون بإبرازها من الأرض وإعلائها؛ لتصير جِدرًا، فالبِناء إذا اتَّصل بعضُه ببعض، صار كالشيء الواحد، والجدار إذا اتَّصل بالأساس صار الأساسُ مرتفعًا[١].

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: دعا كلٌّ من إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام ربَّهما سبحانه وتعالى، بأنْ يَتلقَّى بِناءَهما البيتَ بالقَبول والرِّضا عنه؛ فهو الذي يَسمع أقوالهما، ويَعلم أعمالَهما ونيَّاتِهما[٢].

قال عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما: ((... ثم جاء بعدَ ذلك، وإسماعيلُ يَبْرِي نَبْلًا لهُ تحتَ دَوْحَةٍ قريبًا من زمزمَ، فلمَّا رآهُ قام إليهِ، فصنَعَا كما يصنعُ الوالدُ بالولدِ، والولدُ بالوالدِ، ثم قال: إنَّ اللهَ أمرني بأمْرٍ، قال: فاصنعْ ما أمَرَ ربُّكَ، قال: وتُعينني؟ قال: وأُعينُكَ، قال: فإنَّ اللهَ أمَرني أن أبنيَ هاهنا بيتًا، وأشار إلى أَكَمَةٍ[٣] مرتفعةٍ على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعَا القواعدَ من البيتِ، فجعَل إسماعيلُ يأتي بالحجارةِ وإبراهيمُ يَبني، حتى إذا ارتفعَ البناءُ، جاء بهذا الحَجرِ، فوضعَهُ لهُ فقام عليهِ، وهو يَبني، وإسماعيلُ يُناوِلُه الحجارةَ، وهما يقولانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا

---

(١) نقل ابنُ عطيَّة الإجماعَ على أنَّ المراد بالبيت هنا: الكعبة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٤٨، ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٥٦-٥٥٧، ٥٦٣-٥٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥٧-٥٨).

(٣) **الأَكَمة**: تلٌّ، وقيل: شرفة كالرَّابية، وهو ما اجتمع من الحجارةِ في مكانٍ واحد، وربما غلُظ وربما لم يَغلُظ. ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٥٩)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٨).

إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، قال: فجعلَا يَبنيانِ حتى يدورَا حول البيتِ وهما يقولانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾))[١].

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)﴾.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.

أي: دعا كلٌّ من إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام بأن يجعلهما على الدَّوام، خاضعَينِ له سبحانه بطاعته، ومنقادَينِ لحُكمه، ومستسلمَينِ لأمْره[٢].

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾.

أي: دَعَوَا اللهَ ربَّهما أن يَجعلَ من بعض ذريَّتهم جماعةً مستسلمة لله تعالى، طائعةً لأمره، وخاضعةً لحُكمه جلَّ وعلا، وقد استُجِيبت هذه الدعوةُ في المسلمين من العرَب[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٦٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٢٠-٧٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٦٢-٦٣).

وممَّن قال بأنَّ المقصود بالذريَّة هنا: العرب: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٦٥).

قال ابن كثير: (قال السدي: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ يعنيان العرب. قال ابن جرير: والصواب أنه يعم العرب وغيرهم؛ لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

قلت: وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي؛ فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم، والسياق إنما هو في العرب؛ ولهذا قال بعده: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية، والمراد بذلك محمد صلى الله عليه وسلم، وقد بعث فيهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وغير ذلك من الأدلة القاطعة) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٢).

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

أي: بيِّن لنا مشاعرَ الحجِّ، ومواضعَ العبادة فيه، وعرِّفها لنا؛ فنراها[(١)].

﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

أي: وفِّقنا للتوبة، فنرجع من معصيتك إلى طاعتك؛ فأنت وحْدَك سبحانك التوَّاب؛ بتوفيقِ عبدك للتوبة أولًا، وقَبولها منه ثانيًا، وأنت وحْدَك الرَّحِيم؛ فتختصُّ برحمتك عبادَك المؤمنين[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾.

أي: دعا كلٌّ من إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام ربَّهما، بأنْ يبعث رسولًا من ذُريتهما، أي: من العرَب.

وقد استجاب الله تعالى دُعاءَهما، فبعث محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٠-٥٧١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢١٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧١-٥٧٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تَيميَّة (٥/ ٢٢٤-٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٣-٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٤).

وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

أي: يقرأ عليهم كتابَك الذي تُوحيه إليه، ويُعلِّمهم معاني القرآن، ويُعلِّمهم السُّنة؛ فهي التي تبيِّن معاني القرآن وأحكامَه، وتُعين على فَهمِه[١].

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

أي: ويُطهِّرهم من الشِّرك بالله، ويُنمِّيهم ويُكثِّرهم بتوحيد الله تعالى وطاعته[٢].

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: أنت وحْدَك العزيز الذي لا يُعجِزه شيءٌ أراده، فأعطِنا وذُرِّيَّتَنا ما طلبناه منك، وأنت وحْدَك الحكيم، الذي يَضعُ كلَّ شيء في موضعه اللائِق به، فأعطِنا ما يَنفعُنا وينفع ذُريتَنا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٥، ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٣١)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١/ ٦-٧) (١١/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٤)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (٨٤-٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٢٣).
وممَّن قال بأنَّ المراد بالكتاب هنا القرآن: ابنُ زيد، والحسن، ويحيى بن أبي كَثير، ومقاتل بن حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٣٦).
وممَّن قال من السَّلف بأنَّ المقصود بالحِكمة هنا السُّنة: قتادة، والحسن، ويحيى بن أبي كَثير، وأبو مالك، ومقاتل بن حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦).

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾.

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾.

أي: لا أحدَ يعدِل عن الحنيفيَّة؛ دِينِ إبراهيم الخليل عليه السَّلام، إلَّا مَن كانت نفسُه سفيهةً، أي: جاهلة، طائشةً، غير راشدة(١).

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧-٦٨].

﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾.

أي: يؤكِّد الله تعالى اختيارَه واجتباءَه لإبراهيمَ عليه السَّلام في الدُّنيا؛ فقد هداه ووفَّقه للإيمانِ والأعمالِ التي صار بها خليلَ الرحمن، وإمامَ الحنيفيَّة للناس(٢).

قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

---

(١) قال بهذا المعنى: ابن جرير في ((تفسيره)) (٢/ ٥٧٨-٥٧٩)، وابن تيمية ((الجواب الصحيح)) (٣/ ٧٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٤/ ٤٤١-٤٤٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (١/ ٧٢٤-٧٢٦).

وقيل المعنى: إلا من ظلم نفسه وامتهنها بجهله وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال. وقال بهذا المعنى: ابن كثير ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٥)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٦٦)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦-٦٧).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي: إنَّ إبراهيمَ عليه السَّلام من الفائزين السُّعداء في الدار الآخِرة، وفي الرَّفيق الأعلى مع إخوانه المرسَلين والأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام[١].

كما دعَا إبراهيمُ عليه السَّلام بذلك، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣].

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)﴾.

أي: أمَر الله تعالى خليلَه إبراهيمَ عليه السَّلام حين اصطفاه، بأن يُخلص دِينَه وتوحيدَه له سبحانه، وينقادَ إليه بكل ذلٍّ وخضوعٍ ومحَبَّة، فأجاب إبراهيمُ إلى ذلك على الفور[٢].

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)﴾.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾.

أي: عهِد إبراهيمُ عليه السَّلام بهذه الكلمة ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾، والتي تمثِّل الملَّةَ الحنيفيَّة، عهِد بها إلى أبنائه، وكذلك فعَل حفيدُه يعقوب بن إسحاق، فعهِد بها إلى أبنائه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد اجتبَى لكم هذا الدِّين الذي تعرِفونه، فلا تُفرِّطوا فيه، ولا تُفارقوه في حياتِكم، بل الْزَموه وقُوموا به؛ ليرزقَكم الله تعالى الوفاةَ عليه، فمَن عاش على شيءٍ مات عليه[١].

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا قرَّر سبحانه لبني إسرائيل أنَّ أباهم يعقوبَ ممَّن أوصى بنيه بالإسلام، قال مبكِّتًا لهم[٢]:

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾.

أي: هل كنتم يا معشرَ اليهود، المكَذِّبين بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، شهودًا حاضرين حين أتتْ أباكم يعقوبَ عليه السَّلام مقدِّماتُ الموت[٣].

= (١/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٢٧-٧٢٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٤-٥٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٣٦-١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٢٨-٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٥-٥٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٣-٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٠-٧٣١).

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾.

أي: هل شهدتُم يعقوب، وهو يسأل أبناءَه مختبرًا لهم: أيَّ شيءٍ ستعبُدون من بعد وفاتي[١]؟

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾.

أي: أجاب أبناءُ يعقوبَ عليه السَّلام أباهم بأنَّهم يعبُدون معبودَه ومعبودَ آبائه- وهم: جَدُّه إبراهيم، وعمُّه إسماعيل، وأبوه إسحاق- وهو الذي لا مَعبودَ بحقٍّ سواه، لا يُشرِكون به في عبادته أحدًا من دونه[٢].

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: مُستسلِمون ومنقادون لأمْره، خاضِعون لعبادتِه[٣].

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾.

أي: يا معشرَ اليهود والنَّصارى، دَعُوا ذِكر الآباء والأجداد، كإبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ، والمسلمين من أولادِهم؛ إذ لا يَنفعُكم الانتسابُ إليهم وإلى أعمالهم الصالحِة، فخيرُهم لا ينفعُكم إنْ كسبتم شرًّا؛ فإنَّهم جماعةٌ قد مضَتْ لسبيلها، وكلٌّ منكم له عملُه الذي يخصُّه، وتَبِعَتُه، من خيرٍ أو شر، ولا يَلحق الآخَر من ذلك شيءٌ، ولا السُّؤال عنه، فلا تُحاسَبون بأعمال سَلفِكم، وإنَّما تُحاسَبون بأعمالكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٦-٥٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٧٧-٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّه يَنبغي للإنسان أن يَدعوَ لذريَّته بالصَّلاح؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[١].

٢- أهميَّة القَبول، وأنَّ المدار في الحقيقة عليه؛ وليس على مجرَّد العَمل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾[٢].

٣- شدَّة افتقار الإنسان إلى ربِّه؛ حيث كرَّر إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السَّلام كلمة: ﴿رَبَّنَا﴾؛ وأنَّهما بحاجة إلى ربوبيَّة الله الخاصَّة، التي تقتضي عنايةً خاصَّة، وممَّا يفتقر إليه الإنسانُ دائمًا تثبيت الله، وإلَّا هلَك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾؛ فإنَّهما مسلمان بلا شكٍّ، ولكن لا يدوم هذا الإسلامُ إلَّا بتوفيق الله تعالى[٣].

٤- أهميَّة الإخلاص؛ لقوله تعالى حِكايةً عن إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام: ﴿مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: فقولهما: ﴿لَكَ﴾ يدلُّ على إخلاص الإسلام لله عزَّ وجلَّ[٤].

٥- أنَّه يَنبغي التلطُّفُ في الخِطاب؛ لقول إبراهيمَ ويعقوبَ عليهما السَّلام لأبنائهما: ﴿يَا بَنِيَّ﴾؛ فإنَّ نداءهم بالبُنوَّة أدْعى لقَبولِ ما يُلقى إليهم[٥].

٦- أنَّه يَنبغي للإنسان أن يتعاهَدَ نفسه دائمًا حتى لا يأتيَه الموتُ وهو غافل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٦].

= (١/ ٤٤٧-٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٥-٧٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- أنَّ الأعمال بالخواتيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[١].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- فضيلة إبراهيمَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُ﴾؛ حيث أضاف رُبوبيَّته إلى إبراهيم، وهي ربوبيَّة خاصَّة، ولقوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾؛ ولقوله سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[٢].

٢- أنَّ الله سبحانه وتعالى يُثيب العاملَ بأكثر من عمله؛ فإبراهيم صلَّى الله عليه وسلَّمَ لَمَّا أتمَّ الكلمات، جعَله الله تعالى إمامًا للناس، وأمَر الناس أن يتَّخذوا من مقامِه مصلًّى[٣].

٣- أدَبُ إبراهيم صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ حيث لم يُعمِّم في هذا الدعاء؛ ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ﴾؛ خوفًا من أن يقول الله له: (مَن آمَن فأرْزُقه)، كما قال تعالى حين سأله إبراهيمُ أن يجعل مِن ذُريَّته أئمَّة: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فتأدَّب في طلب الرِّزق: أن يكون للمؤمنين فقط من أهل هذا البَلد، لكن المسألة صارتْ بعكس الأُولى: ففي الأولى خصَّص الله دعاءَه، وهنا عمَّم[٤].

٤- التوسُّل إلى الله سبحانه وتعالى بأسمائِه وصِفاته المناسبة لِمَا يدعو به المرء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾[٥].

٥- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، جاء الإتيان بصِفتي العِزة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٧٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٢).

والحِكمة في الدعاء ببَعْثِ الرسول؛ لأنَّ ما يجيء به الرسولُ كلُّه حِكمة، وفيه العِزَّة[١].

٦- أنَّ الأصل في العبادات أنَّها توقيفيَّة، أي: إنَّ الإنسان لا يتعبَّد لله بشيءٍ إلَّا بما شرَع؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[٢].

٧- أنَّ المخالفين للرُّسُل سفهاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، وقوله في المنافقين: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]؛ فإنَّهم وإن كانوا أذكياءَ، وعندهم علمٌ بالصناعة، والسِّياسة، إلَّا أنَّهم في الحقيقةِ سُفهاء؛ لأنَّ العاقلَ هو الذي يتَّبع ما جاءتْ به الرُّسُلُ فقط[٣].

٨- في قوله تعالى حِكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلام: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، مناسبةٌ بين ﴿أَسْلَمْتُ﴾ و﴿رَبِّ﴾، وكأنَّ ذِكر الربوبيَّة هنا عِلَّةٌ لقوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ﴾؛ فإنَّ الربَّ هو وحده الذي يستحقُّ أن يُسْلَم له[٤].

٩- في قوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ﴾، إشارةٌ إلى الوصية عند حضور الأجَل، ويُشترَط أن يكون الموصِي على وعيٍ بما يقول[٥].

١٠- جواز إطلاق اسم الأبِ على العمِّ تغليبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ﴾، وإسماعيل هو عمُّ يعقوب عليهما السلام[٦].

١١- بيانُ عدْل الله سبحانه وتعالى، وأنَّه لا يُؤاخِذ أحدًا بما لم يعملْه؛ لقوله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٦٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ قُدِّم المفعول (إبراهيم) للاهتمام بمَن وقع عليه الابتلاء، ولتشريف إبراهيمَ بإضافة اسم الربِّ إلى اسمه[٢].

٢- قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ في هذه الآية نوعٌ طريفٌ من أنواع الفصاحة يُقال له: المراجعة، وهو أن يحكي المتكلم مراجعة في القول جرَت بينه وبين محاور في الحديث، أو بين اثنين غيره، بأوْجَز عبارة، وأبلغ إشارة، وأرشق محاورة، مع عذوبة اللفظ وجزالته، وسهولة السَّبك، وقد جمعت هذه الآية- التي عِدة ألفاظها ثلاث عشرة لفظة- معانيَ الكلام، من الخبر والاستخبار، والأمر والنهي والوعد والوعيد[٣].

٣- في قوله: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾

- جمع الطائفين والعاكفين جمع سلامة؛ لأنه أقربُ إلى لفظ الفعل بمنزلة يطوفون، أي يُجدِّدون الطواف؛ للإشعار بعِلَّة من علل تطهير البيت، وهو قُرب هذين من البيت بخلاف الركوع والسجود، فإنَّه لا يلزم أن يكونَا في البيت ولا عنده؛ فلذلك لم يُجمعَا جمع سلامة[٤].
- وقدَّم الطائفين على العاكفين؛ لقُرب الطَّواف من البيت واختصاصه به، بخِلاف العكوف؛ فإنه يكون فيه وفي غيره[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٠٠).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (١/ ٤١٦)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٩٥).

٤- في قوله: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

- خصَّ الركوع والسجود بالذِّكر من جميع أحوال المصلي؛ لأنَّهما أقرب أحواله إلى الله[١].

- وقُدِّم الركوع على السجود؛ لتقدُّمه عليه في الزمان[٢].

- وتَرْك حرف العطف بينهما؛ لتقاربهما ذاتًا وزمانًا؛ ولأنَّ المقصود بهما المصلُّون، والرُّكَّعُ والسُّجود، وإنِ اختلفت هيآتهما، فيقابلهما فِعلٌ واحد وهو الصَّلاة، فناسب أنْ لا يُعطف؛ لئلَّا يتوهم أنَّ كلَّ واحد منهما عبادة على حيالها، وليستَا مجتمعتينِ في عبادة واحدة، وليس كذلك، وهذا بخلاف الطَّائِفينَ والعاكفينَ فقد ناسَب معهما العطفُ؛ لفرط التبايُن بينهما[٣].

- وجُمعَا جمْعَ تكسير؛ لمقابلتهما ما قبلهما ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ من جمْعي السَّلامة، فكان ذلك تنويعًا في الفصاحة، وخالف بين وزْنَي تكسيرهما؛ تنويعًا في الفصاحة أيضًا، وكان آخرهما ﴿السُّجود﴾ على فعول، لا على فُعَّل، لأجل كونها فاصلةً[٤].

٥- قوله: ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ في هذه السورة قال: (بلدًا) على التنكير، وقال في سورة إبراهيم: (البلد)؛ وهذا إمَّا لأنَّ الدَّعوة الأولى وقعتْ ولم يكُن المكان قد جُعل بلدًا، والدعوة الثانية وقعتْ وقد جعل بلدًا، فكأنَّه قال: اجعل هذا المكان الذي صيَّرته بلدًا ذا أمْنٍ وسلامة، فيكون كل لفظ مناسبًا لمقامه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦١٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦١٢)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٩٦).

وإمَّا أن تكون الدعوتانِ وقعتَا بعدَما صار المكانُ بلدًا، إلَّا أنَّه تفنَّن في الموضعين، فحَذَف من كلٍّ ما أثبته في الآخَر احتباكًا، والأصْل: ربِّ اجعل هذا البلد بلدًا آمنًا، ويكون التنكيرُ للطلب مع المبالغة[١].

٦- في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ عبَّر بالمضارع في ﴿يَرْفَعُ﴾ مع أنه حكاية عن الماضي؛ لاستحضار الحالة[٢].

- وتأخير عطف ﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ عن المفعول ﴿الْقَوَاعِدَ﴾؛ لعلَّه للإيذان بأنَّ الأصلَ في الرَّفْع هو إبراهيم، وإسماعيل تبعٌ له[٣].

٧- قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

- في ندائهما بلفظ ﴿رَبَّنَا﴾ تلطف واستعطاف بذكر هذه الصفة الدالة على التربية والإصلاح بحال الداعي[٤].

- وفيه: تأكيدُ الجملة بـ (إنَّ)؛ لغرض كمالِ قوةِ يقينِهما بمضمونها، وقصرُ نعْتيِ السمع والعلم عليه تعالى؛ لإظهار اختصاصِ دُعائهما به تعالى، وانقطاعِ رجائهما عما سواه بالكلية[٥].

- وفيه: الإتيان بضمير الفصل (أنت)؛ لبيان كمال الوصفين له تعالى بتنزيل سمع غيره وعلم غيره منزلة العدَم، ويجوز أن يكون قصرًا حقيقيًّا باعتبار متعلِّقٍ خاصٍّ، أي السميع العليم لدعائنا، لا يعلمه غيرك، وهذا قصرٌ حقيقيٌّ مقيَّد[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦١٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٩)؛ قال ابن عاشور: (وهو نوعٌ مغايرٌ للقَصْرِ الإضافي، لم ينبِّه عليه علماءُ المعاني).

٨- في قوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾

- تكرار النداء بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾، وفائدته: إظهار الضراعة إلى الله تعالى، وإظهار أنَّ كلَّ دعوى من هاته الدعوات مقصودةٌ بالذات؛ ولذلك لم يُكرر النداء إلَّا عند الانتقال من دعوةٍ إلى أخرى[١].

- وقوله: ﴿لك﴾ يُفيد الحَصر، أي نكون مسلمين لك لا لغيرك، وهذا يدلُّ على أنَّ كمال سعادة العبد في أنْ يكون مسلمًا لأحكام الله تعالى وقضائه وقدَره، وأنْ لا يكون ملتفتَ الخاطِر إلى شيءٍ سواه[٢].

٩- ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فيه التأكيد باللام في الجملة الأولى (ولقد)، وبـ(إنَّ) وباللام في الثانيَّة (وإنه - لَمِن)؛ وذلك لأجل الاهتمام بالخبر الأخير، ولأنَّ الإخبار عن حالة مغيبة في الآخرة، يحتاج إلى مزيد تأكيد، بخلاف حال الاصطفاء في الدُّنيا؛ فإنه يُشاهد ويُنقل جيلًا بعد جيل[٣].

١٠- قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه التفاتٌ من التكلُّم إلى الغَيبة، ولو جرى على الكلام السابق، لكان: (إذ قلنا له أسلم)[٤]. والالتفاتُ مع التعرُّض لعنوان الربوبيَّةِ والإضافةِ إليه عليه السلام ﴿رَبُّه﴾؛ لإظهارِ مزيدِ اللُّطفِ به، والاعتناءِ بتربيته[٥].

١١- قوله: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ...﴾ فيه مؤكِّداتٌ عديدةٌ للدَّلالة على شِدَّة الاهتمام بهذا الأمر:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٣٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٣).

- فالتعبير بالماضي ﴿وصَّى﴾ لتحقيق الوقوع[١].

- ولفظ الوصية أوكد من الأمْر؛ ولذلك جاء هنا في هذا المقام الذي يكون احتياط الإنسان لدينه أشدَّ وأتمَّ؛ ترغيبًا في قَبول الدِّين[٢].

- وتخصيص بنيه بذلك؛ لأن اهتمامه بذلك كان أشدَّ من اهتمامه بغيره[٣].

- وتعميم الوصية لجميع بنيه؛ يدل أيضًا على شدة الاهتمام[٤].

- وإطلاق هذه الوصية غير مقيَّدةٍ بزمانٍ معيَّن ومكانٍ معيَّن[٥].

- والزَّجر البليغ عن أن يموتوا غير مسلمين؛ للدلالة أيضًا على شدَّة الاهتمام[٦].

١٢- في قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

- جاء إدخال حرف النَّهي على ما ليس بمنهيٍّ عنه؛ لنكتةٍ لطيفة، وهي: إظهار أنَّ موتهم على غير الإسلام موتٌ لا خير فيه، وأنه ليس بموت السُّعداء، وأن من حق هذا الموت أن لا يحلُّ فيهم، وهذا نهيٌ عن تعاطي الأشياء التي تكون سببًا للموافاة على غير الإسلام، فتضمن هذا الكلام إيجازًا بليغًا، ووعظًا وتذكيرًا[٧].

- وفيه: توكيدٌ لمعنى النهي بنون التوكيد المشدَّدة في ﴿تَمُوتُنَّ﴾[٨].

١٣- قوله: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ ...﴾ الآية

- في الآية: نوعٌ من أنواع البلاغة يُسمَّى الاطِّراد[٩]، وهو أن يَطَّرِدَ للمتكلِّم

---

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٣٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٩٠).

(٨) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٨١).

(٩) **الاطراد**: هو الجَرْي على نسق واحد، واطراد الشيء: متابعة بعضه بعضًا، وهو في البلاغة: ذِكر =

أسماءُ الآباء مُرتَّبةً على حُكم ترتيبها في الميلاد[١].

- وفيها: ما يسمى بـ(الاحتراس)[٢]؛ لأنَّه لو وقف عند ﴿آبَائِك﴾ لما اتَّضح صِحَّة المعنى؛ لأن مطلق الآباء يتناول من الأب الأدْنى إلى آدَم وفي آباء يعقوب عليه السلام مَن لا يجب اتباعُ ملته، فاحترس بذكر البدل عمَّا يرد على المُبدَل منه، لو وقْع الاختصار عليه[٣].

١٤- قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

- فيه: التعبير بالجملة الاسمية؛ للتأكيد، ولإفادة ثبات الوصف لهم ودوامه، بعد أن أُفيد بالجملة الفعليَّة المعطوف عليها، معنى التجدُّد والاستمرار[٤].

- وفيه: تقديمُ الجار والمجرور ﴿لَهُ﴾ على الخبَر ﴿مُسْلِمُونَ﴾؛ لتقوية المعنى وزيادة توكيده[٥]، ومراعاةً لفواصل الآيات.

= أسماء آباء الممدوح أو غيره مُرتَّبةً على حُكم ترتيبها في الولادة من غير تكلُّف. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٩٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٩٢)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ١٤٣ - ١٤٤).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٩٢).

(٢) **الاحتراس**: هو التحرُّز من الشيء والتحفُّظ منه، وهو نوعٌ من أنواع إطناب الزِّيادة، وهو أن يكون الكلام محتملًا لشيء بعيد، فيُؤتى بكلام يَدفع ذلك الاحتمال، أو الإتيان في كلام يُوهِم خلاف المقصود بما يَدْفَع ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعض التَّكميل. يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحي لدين درويش (١/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٤).

(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٨١).

الآيات (١٣٥-١٤١)

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مائلًا عن الدِّين الباطل إلى الدِّين الحقِّ، أي: مسلمًا مستقيمًا، وأصل الحنف: الميل[(١)].

﴿الْأَسْبَاطِ﴾: هم ولد يعقوب عليه السلام، سُمُّوا بالأسباط؛ لأنَّه كان من كلِّ واحد منهم سِبط، والسِّبط بمنزلة القبيلة. والسِّبط في اللُّغة: الجماعة يَرجِعون إلى أبٍ واحد، وأصل السِّبط يدلُّ على امتدادِ شيءٍ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٤)، ((تذكرة=

﴿شِقَاقٍ﴾: عَداوة ومباينة، ومخالفة، وأصل الشِّقاق: الانصِداع في الشيء[(١)].

﴿صِبْغَةَ الله﴾: دِينه، وفِطرته لخلقه، وأصل الصِّبغة: تلوين الشيء بلونٍ ما[(٢)].

مشكل الإعراب:

١- قوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾:

﴿مِلَّةَ﴾: منصوبة بفعل مُقدَّر، تقديره: نتبع أو اتَّبعوا، أو الزموا مِلةَ، أو على نزْع الخافض، والتقدير: نقْتدي -أو اقتدوا- بملَّةِ إِبْراهيمَ، فلمَّا حُذِف حرْف الجرِّ انتصب.

﴿حنيفًا﴾: منصوب بفِعل محذوف أيضًا، تقديره: أعني. أو منصوب على الحال مِن ﴿مِلَّة﴾، وذُكِّر حنيفًا مع أنَّ ﴿مِلَّة﴾ مؤنَّث؛ لأنَّ صيغة (فَعيل) يستوي فيها المذكَّر والمؤنَّث، أو أنَّ الملَّة بمعنى الدِّين. وقيل: ﴿حنيفًا﴾ حالٌ من ﴿إبراهيم﴾[(٣)].

٢- قوله: ﴿صِبغةَ اللهِ﴾: منصوبة على أنَّه مفعولٌ مطلَق نائِبٌ عن عاملِه، أي: صبغنا صِبغةَ الله- كما انتصب (وعْدَ الله) بعد قوله: ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللهِ...﴾[الروم: ٥ - ٦] بتقدير: وعَدَهم النَّصرَ- أو على أنَّ (صبغة) بدلٌ من قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، أي: الملة التي جعَلها الله شعارَنا كالصِّبغةِ عند

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ١٣٥-١٣٦).

اليهود والنصارى، أو منصوبًا وصفًا لمصدر محذوف دلَّ عليه فِعل ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾، والتقدير: آمنَّا إيمانًا صِبغةَ الله. وقيل: منصوبة على الإغراء، أي: اتَّبِعوا صِبغةَ الله. وقيل: صبغة منصوبة على التمييز، وهو من التمييز المنقول من المبتدأ(١).

المعنى الإجمالي:

يُخبِر الله تعالى عن قولِ اليهودِ لأهل الإيمان: اتَّبعوا اليهوديَّةَ، تهتدوا. وعن قول قال النَّصارى لهم: اتَّبعوا النصرانيَّة، تهتدوا. فأمَر الله تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يقول لأصحاب المِلَّتينِ: إنَّ الهداية الحقيقيَّة ليستْ في دِياناتكم المحرَّفة، بل هي في اتِّباع دِين إبراهيمَ عليه السَّلام، الذي هو استقامةٌ على التوحيد، وميلانٌ عن الشِّرك.

ثمَّ أمَر الله سبحانه عبادَه المؤمنين أن يَصْدَعوا بإيمانهم به، وبما أنزله إليهم، وبالذي أُنزل على الرُّسُل الذين كانوا من قبلُ: إبراهيم، وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب، وعلى الأنبياء من ذريَّة يعقوب، وأنْ يُؤمنوا بما آتاه اللهُ عزَّ وجلَّ موسى وعيسى من الكتُب المُنزلة إليهما، والمعجزاتِ المؤيِّدة لهما، وأن يؤمنوا بما أعطاه الله لبقيَّة الأنبياء والرُّسُل عليهم السَّلام، من دون أن يُفرِّقوا بين أحد منهم، ولْيُعلنوا خضوعَهم التامَّ له جلَّ وعلا، وإذعانَهم وانقيادهم له سبحانه.

فإنْ آمَن اليهودُ والنَّصارى إيمانًا مِثل إيمانكم من جميع الوجوه، فقدْ سلَكوا سبيلَ الرُّشد، والتوفيق، وحقَّقوا الهداية، وإنْ أعْرَضوا فلْتعلموا أنَّهم إنما يقصدون مُنازعتكم وعداوتَكم، لكن الله متكفِّلٌ بدفْع أذاهم عنكم، وسيَكفيكم أمرهم، فهو سبحانه يَسمعُ ما يقولون، ويَعلم ما يُخفون وما يُعلنون.

---

(١) يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (١/ ٣٨٠ وما بعدها) (باب ما يكون المصدرُ فيه توكيدًا لنفسه نصبًا)؛ فقد فصَّل فيه القول، وهو المعوَّل عليه فيه. وينظر كذلك: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٢-١١٣)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٥٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ١٤٣) ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٢).

فاتَّبِعوا دِين الله والْزموه؛ فلا أحدَ أحسنُ من الله تعالى دِينًا، وكونوا له خاضِعين متذلِّلين.

ثم أمَر الله سبحانه نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يقولَ لأولئك اليهودِ والنَّصارى- الذين يُجادلونه والمؤمنين بغير حقٍّ- مُنكِرًا عليهم: أتُجادلوننا في الله بزَعْمِكم أنَّكم أَوْلى به منَّا؟! فكيف يكون ذلك وربُّ الجميع واحد، ولكلٍّ منَّا أعمالُه التي سيُجازَى عليها؟! فأنتم لستُم بأفضلَ منَّا، بل نحن أَوْلى بالله منكم؛ لأنَّنا لا نُشرِك به شيئًا، وأنتم تُشرِكون.

ثمَّ أنكر الله تعالى على اليهود والنصارى، ووبَّخَهم في زعمِهم أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ كانوا على اليهوديَّة، أو النصرانيَّة، مع أنَّ هاتيْن الدِّيانتيْنِ قد حدَثَتا بعد هؤلاء الرُّسُل المذكورين، فأمَر الله نبيَّه أن يسألَهم: أهُمْ أعلمُ بما كان عليه هؤلاء الرُّسُلُ، أمِ اللهُ؟!

ولا أحدَ أشدُّ ظلمًا في كِتمان الشَّهادة؛ ممَّن يَكتُم ما أنزل الله في كُتبه، والله سبحانه وتعالى ليس بسَاهٍ عن هؤلاء اليهودِ والنَّصارى، بل هو على عِلمٍ بجميع أعمالِهم، ولا يَخفَى عليه منها شيء.

ثم أخْبَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ اليهودَ والنَّصارى المكذِّبين بنُبوَّة محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنَّ هؤلاء الآباءَ والأجدادَ الصالحين، الذين تنتسبون إليهم، قد مضَوْا لسبيلهم، ولن ينفعَكم الانتسابُ إليهم، ولن يعودَ إليكم من صلاحِهم وعملِهم الصالح شيءٌ؛ فإنَّما لكم ما عملتُم، ولن تُحاسَبوا على ما عمِلوه.

تفسير الآيات:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)﴾.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾.

أي: قالت اليهود للمؤمنين: كونوا هودًا، تَهتدوا، وقالت النَّصارى لهم: كونوا نصارى، تَهتدوا؛ فكلٌّ منهم حصَر الهدى في دِينه، بزعم أنَّ مُعتنقَه يصيب طريقَ الحقِّ(١).

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: يا محمَّد، قلْ لهؤلاء اليهود والنصارى: إنَّ الهداية ليستْ في دِينكم من اليهوديَّة، أو النصرانيَّة، وإنَّما الهداية الحقيقيَّة في اعتناق دِين إبراهيم عليه السَّلام، الذي حقيقتُه الاستقامةُ على طريق التوحيد، والميلُ عن طريق الشِّرك، أي: عِبادة الله وحده لا شريكَ له. وإبراهيمُ عليه السَّلام لم يكُن من عبَّاد الأصنام، ولم يكُن يهوديًّا ولا نصرانيًّا(٢).

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩٠-٥٩١، ٥٩٤-٥٩٥)، ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تَيميَّة (١/ ٢٨١-٢٨٢، ٣٩٤- ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧).
وممَّن ذهَب من السَّلف إلى نحو ما ذُكِر في معنى قوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾: محمَّد بن كعب القُرَظي، وعيسى بن جارية، ومجاهد، وخُصَيف الجَزريُّ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٤٢)

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾.

أي: أعْلِنوا- أيُّها المؤمنون- أنَّكم مُقرُّون بقلوبكم وجوارحكم بالله تعالى، وبكلامه، الذي أنزله إليكم[(١)].

عن أبي هُريرَةَ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((كان أهلُ الكتابِ يَقرؤُون التوراةَ بالعَبرانيةِ، ويُفسِّرونها بالعَربيَّةِ لأهلِ الإسلامِ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: لا تُصدِّقوا أهلَ الكتابِ ولا تُكذِّبوهم، وقولوا: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾))[(٢)].

وعن عبدِ الله بن عَبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يقرأ في ركعَتي الفجرِ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾، والتي في آل عمرانَ: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم﴾))[(٣)].

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

أي: صَدَّقْنا وأقرَرْنا بألسنتنا وقلوبِنا بما أنزله الله تعالى على رُسله عليهم الصَّلاة والسَّلام- من قبلِ أن يُبدَّل ويُحرَّف-: إبراهيمَ، وإسماعيلَ، وإسحاقَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧-٦٨).

(٢) رواه البخاري (٤٤٥٨).

(٣) رواه مسلم (٧٢٧).

ويعقوب، وعلى الأنبياء من ذريَّة يعقوب، وبما أعطاه اللهُ تعالى لموسى من التوراة والمعجِزات، وما أعطاه لعيسى من الإنجيل والمعجِزات كذلك، وما أُعطيَه بقيَّةُ الأنبياء عليهم السَّلام[١].

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾.

أي: لا نُؤمِن ببعضٍ ونكفُر ببعض، بل نحن بالجميعِ مؤمنون[٢].

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: ونحن لله تعالى وحْدَه دون مَن سواه، مستسلِمون ظاهرًا وباطنًا، فله خاضِعون بالطَّاعة، ومذعِنون بالعبوديَّة[٣].

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)﴾.

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾.

أي: فإنْ آمَن اليهودُ والنَّصارى إيمانًا مماثلًا من كلِّ الوجوه لإيمانكم- أيُّها المسلمون- ومِن ذلك الإيمانُ بجميعِ كتُب الله تعالى، وبجميع رُسله عليهم الصَّلاة والسَّلام- فقد رَشَدوا ووُفِّقوا للحقِّ والخير[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٥)، ((جامع المسائل)) لابن تَيميَّة (٣/ ٢٩٧-٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٢، ٧٣٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٨٧-٨٨).
وممَّن فسَّر الأسباط بمِثل ما ذُكر: أبو العالية، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس، والسُّدِّي، ومحمَّد بن إسحاق. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٨٨-٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩٩-٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٤٢)، ((تفسير =

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾.

أي: فإنْ أعرَض أولئك اليهودُ والنَّصارى عن الحقِّ بعد إقامة الحُجَّة عليهم، فلم يُؤمِنوا بمِثل إيمانكم، فاعلموا- أيُّها المؤمنون- أنَّهم يَقصِدون المخالفةَ والمنازعةَ والعداوةَ لكم(١).

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: فإنَّ الله تعالى سيَكفيك يا محمد أمْرَ أولئك اليهود والنصارى، الذين يقصدون عداوتَك؛ فإنَّ الله تعالى يَدفع أذاهم عنك وينصُرك عليهم؛ فهو سبحانه السميعُ لِمَا يقولون، والعالِمِ بما يُبطنون وما يُظهرون، من المكائدِ وأنواع الشُّرور(٢).

﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)﴾.

﴿صِبْغَةَ اللهِ﴾.

أي: اتَّبعوا الحَنيفيَّةَ مِلَّة إبراهيم عليه السَّلام، والْزَموا دِينَ الله تعالى الإسلام، وقوموا به خيرَ قِيام(٣).

= السعدي)) (ص: ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٩١-٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٠١-٦٠٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تَيميَّة (٥/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤١-٧٤٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٩٣-٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٠٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨-٦٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٩٦-٩٧).
وممَّن قال من السَّلف: إنَّ ﴿صِبْغَةَ اللهِ﴾ معناها دِين الله: ابن عبَّاس، وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وإبراهيم النَّخَعي، وعبدُ الله بن كثير، والضحَّاك، وقَتادة، وعِكرمة، وعطيَّة، والرَّبيع بن أنس، والسُّدِّي، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٤٥).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾.

أي: لا أحَدَ أحسنُ من الله تعالى دِينًا[١].

﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

أي: ونحن له سبحانه دون مَن سواه، مخلِصون، خاضِعون، ومتذلِّلون، مع المحبَّةِ الواجِبة له سبحانه[٢].

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩)﴾.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾.

أي: قل يا محمَّد، لهؤلاء اليهودِ والنصارَى -الذين يُجادِلونكم بغير حقٍّ- مُنكرًا عليهم صنيعَهم هذا: هل تُجادِلوننا وتُخاصمونني في توحيدِ الله تعالى لإبطالِ دِين الإسلام، بزعْم أنَّكم أَوْلَى بالله منَّا؟! وكيف تدَّعون ذلك وربُّ الجميعِ واحد[٣]؟!

﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾.

أي: وبالإضافةِ إلى أنَّ ربَّنا واحدٌ، ليس ربًّا لكم دُوننا، فلكلٍّ منا أعمالُه التي اكتسبها وسيُجازيه الله تعالى بها؛ فأنتم لستم بأفضلَ منَّا، بل نحن أَوْلى بالله منكم؛ لأنَّنا لا نُشرِك به شيئًا في عبادته، وأنتم تُشرِكون؛ فكيف تدَّعون زُورًا ما نحن أَوْلى به منكم[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٠٧-٦٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٦)، ((تفسير =

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)﴾.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

أي: يُوبِّخ الله تعالى ويُنكِر على اليهود والنَّصارى الذين يحاجُّون في رُسل الله عزَّ وجلَّ بعد محاجَّتهم في دِين الله تعالى، فيَزعُمون أنَّ الرسل المذكورين كانوا على مِلَّتهم، إمَّا اليهوديَّة وإمَّا النصرانيَّة، زاعمين بذلك أنَّهم أَوْلى بأولئك الرُّسُل الكِرام من المسلمين، وهذا مِن سفَههم؛ فكيف يكون هؤلاء هودًا أو نصارى، واليهوديَّة والنصرانيَّة إنَّما حدَثتْ بعدَهم[(١)]؟!

﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ﴾.

أي: قل لهم: يا محمَّد -إنِ ادَّعوا أنَّ إبراهيمَ، وإسماعيلَ، وإسحاقَ، ويعقوبَ، والأسباطَ كانوا هودًا أو نصارى-: هل أنتم أعلمُ بالدِّين الذي كانوا عليه، أم اللهُ[(٢)]؟!

كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ

= السعدي)) (ص: ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٠٨-٦١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٦-٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠٠-١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩).

لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ٦٥-٦٨].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ﴾.

أي: لا أحدَ أشدُّ ظلمًا في كتمان الشهادة، ممَّن كتَموا ما أنزله الله تعالى في كتُبه، من أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ كانوا مُسلِمين، فكتموا ذلك ونَحَلوهم اليهوديَّةَ والنصرانيَّة[١]، وقيل: ما كتموه ممَّا جاء في كتُبهم من العِلم بصِفات رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ وإثبات نبوَّته[٢].

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: هذا تهديدٌ، ووعيدٌ شديدٌ لأولئك اليهود والنَّصارى، الذي يَكتُمون ما أُنزل إليهم من العِلم، بمجازاتِهم على ذلك؛ فاللهُ تعالى ليس بساهٍ عنهم، بل هو مُطَّلعٌ على أعمالِهم، وقد أحصاها صغيرَها وكبيرَها، لا تخفَى عليه منهم خافيةٌ[٣].

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)﴾.

أي: يا معشرَ اليهود والنَّصارى، دَعُوا ذِكر الآباء والأجداد، كإبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ، والمسلمين من أولادِهم؛ إذ لا يَنفعُكم الانتسابُ إليهم وإلى أعمالهم الصالحِة، فخيرُهم لا ينفعُكم إنْ كسبتم شرًّا؛ فإنَّهم جماعة قد مضَتْ لسبيلها، وكلٌّ منكم له عملُه الذي يخصُّه، وتَبِعَتُهُ، من خيرٍ أو شر، ولا يَلحق الآخَر من ذلك شيءٌ، ولا السُّؤال عنه، فلا تُحاسَبون بأعمال سَلفِكم، وإنَّما تُحاسَبون بأعمالكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦١٠، ٦١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٧-٧٤٨).

(٢) وممَّن قال بهذا القول: الواحديُّ في ((الوجيز)) (ص: ١٣٤)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠١-١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦١٣-٦١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٩) (٢/ ٦١٤-٦١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٤)، =

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ أهلَ الباطل يَدْعون إلى ضلالِهم، ويدَّعون فيه الخير؛ لقوله تعالى حِكايةً عن بعضهم أنَّهم يقولون: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وهذه دعوةٌ إلى ضلال، وقولهم: ﴿تَهْتَدُوا﴾ فيه ادِّعاء أنَّ ذلك خير.

فمَثلًا دعاة التبرُّج والسُّفور يقولون: اتركوا المرأةَ تتحرَّر، أعطوها الحُرية، اتركوها تبتهج في الحياة، لا تُقيِّدوها بالغطاءِ، وتركِ التبرُّج، ونحو ذلك، وكذا كلُّ داعٍ إلى ضلالةٍ يزيِّن هذه الضَّلالة بما يَغرُّ البليد[(١)].

٢- أنَّه ينبغي للمؤمن أن يَشعُرَ أنه وإخوانه كنفْسٍ واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، فأتى بضمير الجمْع: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ... وَنَحْنُ...﴾[(٢)].

٣- في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، إشارةٌ إلى التوكُّل على الله عزَّ وجلَّ في الدَّعوة إليه، وفي سائرِ الأمور؛ لأنَّه إذا كان وحده سبحانه وتعالى هو الكافي، فيجب أن يكونَ التوكُّلُ والاعتمادُ عليه وحده؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافيه[(٣)].

٤- عِظَم ذَنب كتْمِ العِلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ﴾؛ فإنَّ العالِمَ بشريعة الله عنده شهادةٌ من الله بهذه الشَّريعة، كما قال الله تعالى:

= ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٧-٤٤٨) (١/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٥-٧٣٦).

قال السعدي: (تقدَّم تفسيرها، وكرَّرها؛ لقطع التعلُّق بالمخلوقين، وأنَّ المعوَّلَ عليه ما اتَّصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرَّد للرجال) ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠).

ويُنظر ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٨٤ - ٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩٥).

﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]؛ فكلُّ إنسان يكتُم علمًا، فقد كتَم شهادةً عنده من الله(١).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ اليهوديَّة والنصرانيَّة المحرَّفتَينِ نوعٌ من الشِّرك؛ لأنَّ مجيءَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في مقابل دَعوتهم إلى اليهوديَّة والنصرانيَّة، يدلُّ على أنَّهما نوعٌ من الشرك(٢).

٢- الإشارة إلى البَداءة بالأهمِّ وإن كان متأخِّرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ مع أنَّ ما أُنزل إلينا متأخِّرٌ عمَّا سبق(٣).

٣- أنَّه لا حُجَّةَ لِمَن تولَّى عن شريعة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلَّا الشِّقاق، والمجادلة بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾(٤).

٤- وقوع الشِّقاق بين أهل الكِتاب والمسلمين؛ وعليه فلا يمكن أن يتَّفق المسلمون وأهلُ الكتاب؛ فتبطُل دعوة أهلِ الضَّلال الذين يَدْعون إلى توحيدِ الأديان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾(٥).

٥- وجوبُ البَراءة من أعمال الكفَّار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾(٦).

٦- ثبوت الصِّفات المنفيَّة؛ وهي ما نفاه اللهُ سبحانه وتعالى عن نفْسِه؛ لقولِه تعالى: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ فإنَّ هذه صفةٌ منفيَّة، وليست ثبوتيَّة،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩٩).

والصِّفات المنفيَّة متضمِّنة لإثبات كمال ضدِّها؛ فلكمالِ مُراقبتِه، وعِلمه سبحانه وتعالى، فليس بغافلٍ عمَّا نعمل[١].

٧- الردُّ على الجَبريَّة الذين يزعُمون بأنَّ الإنسان مُجبَرٌ على عَمَله؛ حيث أضاف سبحانه العملَ إلى العامِل في قوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٢].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾

- فيه التِفاتٌ من الخطاب في قوله: ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلى الغَيبة في هذه الآية: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا...﴾؛ فائدته إبعادهم من مقام المخاطبةِ إعراضًا عنهم، وتعديدُ جناياتهم عند غيرهم[٣].

- و(أو) ليستْ للتخيير؛ فكل فريق يدعو إلى دِينه، ويزعم أنه الهدى؛ فهي تقسيم بعد الجمع؛ لأنَّ السامع يردُّ كلًّا إلى مَن قاله، وموزَّعة عليهما على وجه خاصٍّ يَقتضيه حالُهما اقتضاءً مُغنيًا عن التصريح؛ ففيه لَفٌّ ونَشْر، مثل ما في قوله: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الجنةَ إلَّا من كان هُودًا أَوْ نصارى﴾؛ اعتمادًا على ظهور المرام[٤].

٢- قوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فيه تعريضٌ بأهل الكتاب، وإيذانٌ ببُطلان دعواهم اتباعَه عليه السلام، مع إشراكهم بقولهم: عُزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وهو احتراس؛ لئلَّا يغترَّ المشركون الذين يزعُمون أنَّهم على ملَّة إبراهيم عليه السلام[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ٧٠-٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٦)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٠٧).

٣- في قوله: ﴿قُلْ آمَنَّا﴾ وقوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾ مناسبة حسنة، حيث أفرد الضَّمير في الكلام الذي للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لمزيدِ الاختصاص بمباشرة الردِّ على اليهود والنصارى؛ لأنَّه مبعوث لإرشادِهم وزجرهم، وجمَع الضمير في الكلام الذي للأمَّة؛ لمزيدِ الاختصاص بمضمون المأمور به في سِياق التعليم[١].

٤- قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ﴾ فيه تنزيل المفرد فيها منزلةَ الجمْع في تناوله الآحاد مطابقةً؛ لأنَّ لفظ ﴿أَحَدٍ﴾ في معنى الجَماعة؛ ولذلك صحَّ دخول ﴿بَيْنَ﴾ عليه، ولأنَّ النكرة الواقعة في سِياق النفي تُفيد العموم لفظًا. ولأنَّ ﴿أَحَدٍ﴾ اسم موضوع لمن يصلُح أن يُخاطب ويستوي فيه المفردُ والمثنى والمجموعُ والمذكرُ والمؤنث- إذا كانت همزته أصليَّة، وعلى أنَّها مُبدَلة من الواو فهو بمعنى (واحد)، وعمومُه لوقوعه في حيِّز النفي[٢].

٥- قوله: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾

- فيه تأكيد الجملة الواقعة شرطًا بـ(إنَّ)، وتأكُّد معنى الخبَر بحيث صار ظرفًا لهم، وهم مظروفون له؛ كأنَّ الشقاق مستولٍ عليهم من جميع جوانبهم، ومحيطٌ بهم إحاطةَ البيت بمَن فيه[٣].

- وقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ عطف الجملة بالفاء مشعِرٌ بتعقُّب الكفاية عقيبَ شقاقهم، والمجيء بالسِّين يدلُّ على قُرب وقوع الكفاية؛ لأنَّها أقرب في التنفيس من (سوف)[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) مع الحاشية (١/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٥٣-٦٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٥٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٩٦).

٦- في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾

- الاستفهام هنا معناه النَّفي والإنكار، أي: ولا أحدَ أحسن من الله صبغةً[١].

- و﴿أَحْسَنُ﴾ هنا لا يُراد بها حقيقة التفضيل؛ إذ صِبغة غير الله منتفٍ عنها الحسن، أو يُراد بها التفضيل، باعتبار مَن يظن أنَّ في صِبغةِ غير الله حسنًا، وأنَّ التفضيل إنَّما يَجري بين الصِّبغتين، لا بين الصَّابغين[٢].

٧- قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾

- فيه تقديم الجار والمجرور ﴿لَهُ﴾ على عامله ﴿عابِدون﴾؛ للاهتمام، ورعايةِ الفواصل[٣].

- وفيه: إفادة قصر إضافي، وتعريض بالنَّصارى الذين اصطبغوا بالمعمودية، وعبدوا المسيح[٤].

- على تقدير الجملة اسميَّة؛ ففيه: إشْعارٌ بدَوام العبادةِ. وإذا قدِّرت الجملة فعليَّةً بتقدير فِعل الإغراء (الزموا) بتقدير القول، أي: (الزمَوا صِبغة الله، وقولوا: نحن له عابدون)؛ فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ حينئذٍ يَجري مَجرَى التَّعليل للإغراء[٥].

٨- قوله: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾

- فيه: تقديم الجار المجرور (لنا) و(لكم)؛ للاختصاص، أي: لنا أعمالنا لا أعمالكم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٥٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٦).

- وعطف ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ فيه: احتراس؛ لدفع توهُّم أن يكون المسلمون مشاركين للمخاطبين في أعمالهم، مثل عطْف قوله تعالى: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ على قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ [الكافرون: ٦][(١)].

- والتعبير بالجملة الاسميَّة ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ فيه: دَلالة على الدَّوام على الإخلاص، مع ما في تقديم الظرف (له) من الاختصاص وتقوية المعنى وتأكيده، ومراعاة فواصل الآيات[(٢)].

٩- في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ﴾ جاء الاستفهام للنفي والإنكار، والمعنى: لا أحدَ أظلمُ ممَّن كتَم...[(٣)].

- وفيه كنايةٌ عن عدَم اغترار المسلمين بقول اليهود والنصارى: إنَّ إبراهيم وأبناءه كانوا هودًا أو نصارى، وليس هذا احتجاجًا عليهم[(٤)].

١٠- قوله: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ خبرٌ تضمَّن معنى التخويف والتهديد؛ لأنَّ القادر إذا لم يكن غافلًا، لم يكُن له مانع من العَمل بمقتضى عِلمه[(٥)].

١١- قوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- فيه: حُسن الختام، مع حُسن التَّقْسيم والاتِّساق[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٦).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) قال أبو حيان: (ثم ختم ذلك بأنَّ تلك أمَّة قد خلَت منفردةً بعملها، كما أنتم كذلك، وأنكم غير مسؤولين عمَّا عملوه، وجاءتْ هذه الجمل -من ابتداء ذِكر إبراهيم إلى انتهاء الكلام فيه، على =

- وفيه: تَكرار هذه الجُملة، والتكرار إمَّا لاختِلاف السِّياق؛ لأنَّ ذلك ورد إثْرَ شيءٍ مخالِف لِمَا وردتِ الجُمل الأولى بإِثْرِه، فالتَّكرار حَسَنٌ؛ لاختلاف الأقوال والسِّياق، وإمَّا أن يكون التَّكرار للمبالغة في الزَّجر عمَّا هُم عليه من الافتخار بالآباء والاتِّكال على أعمالهم[1]، أو يكون تكريرًا لنظيره الذي تقدَّم آنفًا؛ لزيادة رسوخ مدلوله في نفوس السَّامعين؛ اهتمامًا بما تضمَّنه؛ لكونه معنًى لم يَسبقْ سماعُه للمخاطبين؛ فلم يُقتنَع فيه بمرَّةٍ واحدة[2].

= اختلاف معانيه، وتعدد مبانيه-كأنَّها جملةٌ واحدة، في حُسن مساقها، ونظْم اتِّساقها، مرتقيةً في الفصاحةِ إلى ذروة الإحسان، مُفصِحَةً أنَّ بلاغتها خارجةٌ عن طبْع الإنسان، مذكِّرة قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٨٨]. ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٦٤-٦٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٨).

الآيات (١٤٢-١٥٠)

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ
وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا
لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ
ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ
لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ
فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾
وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ
وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ
مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ
كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ
أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ
خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا
كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿السُّفَهَاءُ﴾: أي: الجُهَّال، والسَّفه: الجهل، وخِفَّة العقل، والضَّعْف والحُمق[1].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١).

﴿وَلَّاهُمْ﴾: صَرَفهم وحوَّلهم، وأصل الفِعل (ولي)، وإذا عُدِّي بـ(عن) اقتَضى معنى الإعراضِ والتركِ، وإذا عُدِّي بنَفْسه اقتَضَى معنى الولاية[١].

﴿وَسَطًا﴾: عدلًا خيارًا[٢].

﴿عَقِبَيْهِ﴾: مثنَّى العقب: وهو مؤخَّر الرِّجل، وجمْعه: أَعقاب؛ يقال: انقلَب على عَقِبيه، مثل: رجع على حافرته، وارتدَّ على أدباره[٣].

﴿تَقَلُّبَ﴾: التقلُّب: تحوُّل الشَّيءِ عن جِهته[٤].

﴿شَطْرَ﴾: نحوَ، أو جِهَة[٥].

﴿الْمُمْتَرِينَ﴾: المتردِّدين، من المِرية: وهي التردُّد في الأمْر، وهو أخصُّ من الشك[٦].

﴿مُوَلِّيهَا﴾: مستقبِلُها[٧].

﴿فلا تَخْشَوْهُمْ﴾: أي: فلا تخافوهم، والخَشْية: أكثر ما تكونُ عن عِلمٍ بما يُخشَى منه، وقيل: هي خوفٌ يشوبُه تعظيم[٨].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

(٧) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

(٨) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠٨).

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾:

﴿إِنْ﴾: هي المخفَّفة من الثقيلة، واسمها (ضمير الشأن) محذوف.

﴿لكبيرةً﴾: اللَّام للفَرْق بين إن المخفَّفة من الثقيلة وإن النافية. **وكبيرةً**: خبر كان منصوب، واسم كان ضميرٌ مستترٌ تقديره (هي)، دلَّ عليه ما قبله من الكلام، والتقدير: وإنْ كانت التوليةُ، أو الصلاةُ، أو القِبلةُ[1].

المعنى الإجمالي:

أخبَر اللهُ تعالى أنَّ الجاهلين من النَّاس من يهودٍ ومشركين ومنافقين- ممَّن لا يَعرِفون مصالح أنفسهم، بل يُضيعونها- سيتساءلون اعتراضًا- والرِّيبة تملأ قلوبَهم- عن السَّبب الذي صرَف المسلمين عن استقبال بيت المقدِس، فأمَر اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يُجيبهم بأنَّ مُلك المشرق والمغرب وما بينهما هو لله سبحانه وتعالى وحْدَه؛ فله أن يأمُرَ باستقبال أيِّ جِهة أراد؛ فإنَّه يُوفِّق مَن يشاء إلى سلوك الطَّريق القويم في امتثال الأمر بالتوجُّه للكعبة وفي كلِّ ما يأمر به سبحانه.

ومِثلُ هذا التوفيق الذي وفَّقه الله تعالى أمَّةَ محمد صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى أفضل قِبلة، اختيارُ الله سبحانه وتعالى لهم ليكونوا أعدلَ الأُمم وخيرَها؛ ليشهدوا على بقيَّة الأمم التي تقدَّمتهم أنَّ أنبياءهم ورسلَهم أدَّوْا إليهم رسالة ربِّهم جلَّ وعلا، ويكون الرسولُ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ شهيدًا على صِدق هذه الأمَّة فيما أخبَرت به من ذلك.

ثم خاطَب الله عزَّ وجلَّ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنَّه إنَّما شرَع له استقبال بيت المقدس أولًا، ثمَّ نسخَه بالتوجُّه إلى الكعبة؛ امتحانًا؛ لكي يَعلمَ مَن يُطيع

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٢٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ١٥٦).

الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ممَّن يرتدُّ عن دِينه، وإنْ كان أمر تحويل القِبلة شاقًّا على النفوس وعظيمًا، إلَّا على مَن وفَّقه الله لطريق الهداية، ثم طمْأنَ الله سبحانه المؤمنين بأنَّه لا ينبغي له جلَّ وعلا أن يُضيع ثوابَ صلاتهم إلى بيت المقدِس، قبل تحويل القِبلة، بل هو محفوظٌ عنده عزَّ وجلَّ؛ فهو سبحانه عظيم الرحمة بالنَّاس.

ثم قال الله سبحانه لنبيِّه محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنَّه رأى تلفُّتَه الكثيرَ ناحيةَ السَّماء وهو يقلِّبُ وجهَه في جِهاتها، يترقَّب وحيًا يُعلِمه بتحويل القِبلة، ثم أخبره تعالى أنَّه سيوجِّهه إلى قِبلةٍ يُحبها صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأمرَهُ أن يتوجَّه في صلاته إلى جهة الكعبة، وفي أيِّ موضع كانوا، فعليهم أن يَستقبلوا الكعبةَ عند إرادة الصَّلاة، وقد علِم اليهود والنَّصارى مِن خلال كتُبهم أنَّ استقبال الكعبة مِن قِبل النبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنين حقٌّ مفروض من الله تعالى، والله سبحانه لا يَخفَى عليه أمرُ هؤلاء الذين يَعلمون الحقَّ ويُنكرونه ولا يَتَّبعونه.

ثم بيَّن الله سبحانه لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ مدى تعنُّتِ اليهود والنَّصارى وتمسُّكهم بالباطل؛ فلئن جاءهم بكلِّ برهان، وأقام عليهم الحُجج على أنَّ الحقَّ هو ما جاء به من تحوُّل القِبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فإنَّهم لن يتَّبعوه فيما جاء به، ولا هو صلَّى الله عليه وسلَّمَ بمُتابِعِهم على قِبلتهم؛ لتمسُّكه بشَرْع الله، ولا أحدَ منهم يهوديًّا كان أو نصرانيًّا بتابعٍ قِبلةَ الآخَر، ثم حذَّر اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ- وأمَّته تبَع له- مِن اتِّباع أهواء أهل الكتاب بعد أن اتَّضح لهم الحقُّ، فإنَّه إنْ فعَل سيكون معدودًا مع الذين ظَلموا أنفسهم.

ثم أخبَر تعالى أنَّ أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى يَعرِفون النبيَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأنَّه مُرسَلٌ من ربِّه، وأنَّ ما جاء به حقٌّ، ومنه التوجُّه إلى الكعبة، وذلك من خلال كتُبهم- معرفةً يقينيَّة كما يَعرِفون أبناءَهم؛ فلا يشتبهون عليهم بغَيرِهم، ومع ذلك فإنَّ طائفةً منهم يُخفون الحقَّ عمدًا، والحالُ أنَّهم يُوقِنون بصحَّته!

ثمَّ أعْلمَ الله سبحانه نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأن يَعلم أنَّ الحقَّ هو ما جاءَه من ربِّه، ونهاه أن يَتسرَّب إلى قلبِه شكٌّ فيه.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّ لكل أهل مِلَّةٍ قِبلةً يتوجَّهون إليها في صلواتهم، سواء كانت هذه القِبلة ممَّا شرَعه الله لهم، أو كانت ممَّا ابتدعوه من تِلقاء أنفسهم.

وأمَر سبحانه المؤمنين أن يُبادروا ويُسارعوا إلى الطَّاعات، ومن ذلك استقبال القِبلة التي أمرَهم الله بالتوجُّه إليها، ولتَحْفيزِهم على المسارعةِ إلى الطاعات، وأخبَرَهم سبحانه بأنَّه أينما كان موتُهم فإنَّ الله عزَّ وجلَّ سيجمعهم يوم القِيامة، فهو سبحانه لا يُعجِزه شيء؛ لأنه القادر على كلِّ شيء.

ثم أمَر الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يَجعل الكعبة قِبلتَه أينما كان؛ فإنَّ ذلك هو الحقُّ الذي ليس فيه أدْنى شكٍّ، والله سبحانه ليس بساهٍ عن عمل أيِّ أحد، بل مطَّلعٌ على أعمال الجَميع، وسيُجازي أصحابَها بحسَبها.

ثم أعاد سبحانه الأمرَ لنبيِّه عليه الصَّلاة والسلام بأن تكون وِجهتُه في صلاته هي الكعبةَ أينما كان، وكذلك المؤمنون مأمورون بأن يَستقبلوا الكعبةَ في أيِّ موضع كانوا، وذلك التحويل قد وقَع؛ كيلا يحتجَّ اليهودُ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنين بأنَّه ليس لهم عَيبُ دِينهم أو انتقاصُه، ما داموا قد وافقوهم في صلاتِهم نحو بيت المقدِس؛ فبهذا التحويلِ للقِبلة من بيت المقدس إلى الكعبة تُدحَضُ تلك الحُجَّة، ولكن تبقى حُجَّةٌ باطلةٌ لمشرِكي قريش بأنَّ المؤمنين ما داموا قد عادُوا إلى قِبلتهم، فلا بدَّ أن يتَّبعوا أيضًا دِينهم.

فنهى الله تعالى عباده المؤمنين عن أن تُساورَهم خشيةٌ من هؤلاء الظَّلمة، أو مِن حُجَجهم الداحضة، وأمرهم بأن يُفردوه جلَّ وعلا وحْدَه بالخشية، فإنَّه لا يستحقُّها أحدٌ سواه.

ثمَّ أخبَر سبحانه أنَّ مِن أسباب تحويل القبلة، إتمامَ شرائع الدِّين للمؤمنين، ورجاءَ أن يمتثلوا أوامرَ الله، ويسلِّموا بها؛ فينالوا هدايتَه سبحانه.

تفسير الآيات:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا تكرَّر في الآيات السابقةِ التنويهُ بإبراهيم عليه السلام وملَّته، والكعبةِ، وأنَّ مَن يرغب عنها قد سفِه نفْسه، فكانت مثارًا لأنْ يقول المشركون: ما ولَّى محمدًا وأتْباعَه عن قبلتهم التي كانوا عليها بمكَّةَ- أي: استقبال الكعبة- مع أنه يقول: إنَّه على مِلَّة إبراهيم، ويأبى اتِّباع اليهوديَّة والنصرانيَّة؛ فكَيف ترك قِبلةَ إبراهيم واستقبلَ بيت المقدس؟! وقد علم اللهُ تعالى ذلك منهم فأنبأَ رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بقولهم[1].

سبب النُّزول:

عن البَراء بن عازبٍ رضي الله عنه، قال: ((كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ صلَّى نحوَ بيت المقدِس سِتَّةَ عَشرَ، أو سبعةَ عَشرَ شهرًا، وكان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يحبُّ أن يُوَجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ فتوجَّه نحو الكعبة، وقال السفهاء من النَّاس- وهم اليهود -: ﴿مَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥). قال ابن عاشور: (وأَتى فيه بهذا الموقع العجيب وهو أنْ جعَلَه بعد الآيات المثيرة له وقَبل الآيات التي أُنزلت إليه في نَسْخ استقبال بيت المقدس والأمْر بالتوجُّه في الصلاة إلى جِهة الكعبة؛ لئلَّا يكونَ القرآن الذي فيه الأمرُ باستقبال الكعبة نازلًا بعد مقالة المشركين، فيَشمَخوا بأُنوفهم؛ يقولون: غيَّر محمَّدٌ قِبلتَه من أجْل اعتراضنا عليه، فكان لموضع هذه الآية هنا أفضلُ تمكُّن، وأوثقُ ربْط، وبهذا يَظهر وجهُ نزولها قبل آية النَّسْخ، وهي قوله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] الآيات؛ لأنَّ مقالة المشركين أو توقعها حاصلٌ قبل نَسْخ استقبال بيت المقدس، وناشئٌ عن التنويه بمِلَّة إبراهيم والكعبة).

وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لله المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فصلَّى مع النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ رجلٌ، ثمَّ خرَج بعدما صلَّى، فمرَّ على قومٍ من الأنصار في صلاة العصر نحوَ بيت المقدس، فقال: هو يَشهدُ أنَّه صلَّى مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأنَّه توجَّه نحوَ الكعبة، فتَحرَّف القومُ حتى توجَّهوا نحوَ الكعبة))[١].

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.

أي: سيتساءل الجُهَّال وخِفاف العقول من النَّاس- وهم اليهود، وأهل النِّفاق، والمشركون- سيتساءلون عن المسلمين مُعترِضين، بحيرةٍ وارتياب: أيُّ شيء صرَفَهم عن التوجُّه إلى بيت المقدِس في صلاتهم؛ فحوَّلوا وجوههم عنه[٢]؟!

﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

أي: قلْ يا محمَّدُ، لهؤلاء المتسائلين: لله تعالى وحْده دون غيرِه مُلكُ المشرق والمغرب وما بينهما، فكلُّ الجِهات مخلوقةٌ ومملوكة له؛ فله أن يأمُرَ بالتوجُّه إلى أيِّ جِهةٍ شاء سبحانه[٣].

﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يُرشد ويوفِّق بحِكمته مَن يشاء مِن خَلْقه إلى الطَّريق القويم، وقد هدى اللهُ تعالى المؤمنين إلى قِبلة إبراهيمَ عليه السَّلام التي ضلَّ عنها غيرُهم[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٩٩) واللفظ له، ومسلم (٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦١٥-٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠٤-١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٢٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٢٥-٦٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠).

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)﴾.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

أي: مثل هذا الجَعْل الذي جعْلنا لكم، وهو هدايتُكم إلى أفضلِ قِبلة، جعلناكم أيضًا خيرَ الأمم وأعدلَها، وسطًا بيْن الإفراط والتفريط، وبين الغلوِّ والجَفاء[(١)].

كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وعن معاويةَ بن حَيْدةَ القُشيريِّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((أنتُم تُوفُون سَبعينَ أُمَّةً، أنتُم خيرُها وأكرمُها على الله))[(٢)].

وعن أبي سَعيد الخُدريِّ رضي الله عنه، قال: قرأ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: عدلًا))[(٣)].

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((يجيء النبيُّ يومَ القيامة، ومعه الرَّجل، والنبيُّ ومعه الرَّجُلان، وأكثرُ مِن ذلك، فيُدعى قومُه، فيُقال لهم: هل بلَّغكم هذا؟ فيقولون: لا! فيُقال له: هل بلَّغتَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٢٦-٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٨-٢١٩)، ويُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيميَّة (٢/ ١٣٦)، (٥/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤-١٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٠١) بلفظ: ((تُتمُّون)) بدلاً من ((تُوفون))، وابن ماجه (٤٢٨٨) بلفظ: ((إنَّكم وفيتم)) بدلًا من ((أنت وفيتم))، وأحمد (٤/ ٤٤٧) (٢٠٠٢٩) واللفظ له.
حسَّنه الترمذي، وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ١١٢)، وابن باز في ((مجموع فتاواه)) (٥/ ٥٩)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (١١٣٢)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٠٠١).

(٣) رواه البخاري (٧٣٤٩).

قومَك؟ فيقول: نعم، فيُقال له: مَن يَشهد لك؟ فيقول: محمَّد وأمَّتُه، فيُدْعَى وأُمَّته، فيُقال لهم: هل بلَّغ هذا قومَه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما عِلمُكم؟ فيقولون: جاءَنا نبيُّنا، فأخبَرنا: أنَّ الرُّسل قد بلَّغوا، فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] قال: يقول: عدلًا، ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]))[(١)].

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

أي: جعَل الله تعالى هذه الأمَّةَ المحمديَّةَ خيرَ الأُمم وأعدَلَها؛ ليشهدوا على الأُمم الأخرى بأنَّ رُسلَهم وأنبياءَهم عليهم الصَّلاة والسلام قد بلَّغوهم رِسالة ربِّهم عزَّ وجلَّ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((يُدعَى نوحٌ يومَ القِيامة، فيقول: لبَّيْك وسَعديك يا ربِّ، فيقول: هل بلَّغتَ؟ فيقول: نعمْ، فيُقال لأمَّته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير! فيقول: مَن يشهد لك؟ فيقول: مُحمَّدٌ وأمَّتُه، فيَشهدون أنَّه قد بلَّغ، ويكون الرَّسولُ عليكم

---

(١) أخرجه ابنُ ماجه (٤٢٨٤)، وأحمد (٣/ ٥٨) (١١٥٧٥) واللفظ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٠٠٧).
صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢٨٤)، وصحَّح إسنادَه على شرْط الشيخينِ شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين-الفاتحة-البقرة)) (٢/ ١٠٩).

شهيدًا؛ فذلك قولُه جلَّ ذِكرُه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، والوسط: العدْل))(١).

وعن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه، قال: ((مَرُّوا بجَنازةٍ فأثنَوْا عليها خيرًا، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وَجَبَتْ، ثم مَرُّوا بأخرَى فأثنَوا عليها شرًّا، فقال: وَجَبَتْ، فقال عُمَرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه: ما وَجَبَتْ؟ قال: هذا أثنَيتُم عليه خيرًا، فوَجَبَتْ له الجنةُ، وهذا أثنَيتُم عليه شرًّا، فوَجَبَتْ له النارُ؛ أنتم شُهَداءُ اللهِ في الأرضِ))(٢).

﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

قيل: أي: يَشهد محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ على صِدق الأمَّة فيما أخبَرت به عن تبليغ رُسُل الله تعالى رِسالتَه إلى أُممهم، وقيل: يَشهد محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنَّه بلَّغ أمَّته رسالةَ ربِّه، وقيل: يشهد بأنَّهم آمنوا به وبما جاء به من عند الله عزَّ وجلَّ(٣).

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾.

أي: إنَّما شرَعْنا لك يا محمَّد التوجُّه أولًا إلى بيت المقدِس، ثمَّ صرَفْنا هذه القِبلة

---

(١) رواه البخاري (٤٤٨٧).
قال ابن حجر: (قوله: «والوَسَط العَدْل» هو مرفوعٌ من نفْس الخبر، وليس بمُدرَج من قول بعض الرُّواة، كما وهِم فيه بعضُهم) ((فتح الباري)) (٨/ ١٧٢).

(٢) رواه البخاري (١٣٦٧) واللفظ له، ورواه مسلم (٩٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١-٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠-٧١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١١٠).
قال ابنُ أبي حاتم: (عن ابن جُرَيج، قلتُ لعطاء: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾؟ قال: يَشهد أنَّهم قد آمنوا بالحقِّ إذ جاءهم، وقبِلوه وصدَّقوا به. ورُوي عن أبي العالية، وعِكرمة، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٥٠).

عنك إلى الكَعبة؛ امتحانًا؛ لنعلم -عِلمًا تقوم به الحجة على العبد، ويترتَّب عليه الثوابُ والعِقاب- من سيطيعك فيستقبل معك حيثما توجَّهت، ممن يَرتدُّ عن دِينه[١].

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾.

أي: وإن كان الشَّأْن أنَّ واقعة صرْفِنا لك يا محمَّد عن التوجه إلى بيت المقدس، وتوليتنا إيَّاك للكعبة، أمرٌ عظيمٌ، شاقٌّ، وثقيلٌ على النُّفوس، عدَا مَن أرشده الله تعالى للحقِّ، ووفَّقه للعمل به، فصَدَّق الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وتأسَّى به في التحوُّل إلى الكعبة[٢].

عن عبد الله بنِ عُمرَ رضي الله عنهما، قال: ((بَيْنا النَّاسُ بقُباءٍ في صلاةِ الصُّبحِ، إذ جاءهم آتٍ، فقال: إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد أُنزِلَ عليه الليلةَ قرآنٌ، وقد أُمِرَ أن يَستقبِلَ الكعبةَ، فاستقبِلوها، وكانتْ وجوهُهم إلى الشَّأمِ، فاستَداروا إلى الكَعبةِ))[٣].

وعن أنسٍ رضي الله عنه: ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان يُصلِّي نحو بيت المقدِس، فنزلت: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فمرَّ رجلٌ من بني سَلِمة وهم ركوعٌ في صلاة الفجر، وقد صلَّوا ركعةً، فنادى: ألَا إنَّ القِبلة قد حُوِّلت،

---

(١) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيميَّة (ص: ٤٦٦-٤٦٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٧/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (١/ ٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١١٠-١١٢).
وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المقصود بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ﴾ بيتُ المقدس: عطاء، وعطيَّة، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٤٩-٦٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١١٢-١١٣).

(٣) رواه البخاري (٧٢٥١).

فمالوا كما هم نحوَ القِبلة))[١].

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾.

سبب النُّزول:

عن البَراء رضي الله عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم صلَّى إلى بيت المقدِس ستَّةَ عشرَ شهرًا، أو سبعةَ عَشرَ شهرًا، وكان يُعجبه أن تكونَ قِبلتُه قِبلَ البيت، وأنَّه صلَّى أوَّلَ صَلاةٍ صلَّاها صَلاةَ العَصرِ، وصلَّى معه قومٌ، فخرج رجلٌ ممَّن كان صلَّى معه فمرَّ على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهدُ بالله لقدْ صليتُ مع النبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّمَ قِبَل مكةَ، فدارُوا كما هم قِبلَ البيت... [وفيه]: أنَّه ماتَ على القِبْلة قَبلَ أنْ تُحوَّلَ، رِجالٌ قُتِلوا، فلمْ نَدرِ ما نقول فيهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾))[٢].

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يقول عن نفسه بأنَّه لا ينبغي له أن يُضيع ثوابَ صلاتكم إلى بيت المقدس قَبل ذلك، بل هو محفوظٌ عنده سبحانه وتعالى[٣].

﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى عظيم الرَّحمة بالنَّاس؛ ولذا لا يُمكن أن يُضيع أجرَ طاعة عمِلها عبادُه المؤمنون[٤].

---

(١) رواه مسلم (٥٢٧).

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٦) واللفظ له، ومسلم (٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣٥/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨٣). وممَّن قال من السَّلف بأنَّ معنى (إيمانكم) صلاتكم: ابن عبَّاس، والبَراء، وقَتادة، والسُّدِّي، والرَّبيع، وداود بن أبي عاصم، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٤-٦٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١).

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)﴾.

سبب النُّزول:

عن البَراء بن عازبٍ رضي الله عنه، قال: ((كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ صلَّى نحوَ بيت المَقدِس سِتَّة عشرَ أو سَبعةَ عشرَ شهرًا، وكان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يحبُّ أن يُوجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ فتوجَّه نحو الكعبة، وقال السُّفهاء من النَّاس- وهم اليهود -: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فصلَّى مع النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ رجلٌ، ثم خرَج بعدما صلَّى، فمرَّ على قومٍ من الأنصار في صلاة العصر نحوَ بيت المقدس، فقال: هو يَشهدُ أنَّه صلَّى مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأنَّه توجَّه نحوَ الكعبة، فتحرَّف القوم حتى توجَّهوا نحوَ الكعبة))[(١)].

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾.

أي: يُؤكِّد الله تعالى لنبيِّه محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ رُؤيتَه له وهو يتلفَّت محوِّلًا وجهَه في جِهات السماء؛ متلهِّفًا لنزول الوحي بخبَر تحويل القِبلة إلى الكعبة[(٢)].

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾.

أي: فلنوجهنَّك يا محمَّد، إلى قِبلةٍ عظيمةٍ تطمئنُّ إليها، وتحبُّها، وتقبلها[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٣٩٩) واللفظ له، ومسلم (٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٢٣). =

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

أي: أقبِلْ ببدنِكَ، واصْرِفْ وجهَكَ لأجْل الصَّلاة، إلى جهةِ الكعبة من المسجد الحرام[(١)].

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

أي: وفي أيِّ موضعٍ وَجِهةٍ كنتم- أيُّها المؤمنون- فعليكم أن تستقبلوا الكعبةَ وتتوجَّهوا ناحيتَها عند إرادة الصَّلاة[(٢)].

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

أي: إنَّ اليهود والنَّصارى يَعلمون مِن كتُبهم أنَّ استقبال النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنين الكَعبةَ، أمرٌ حقٌّ، قد فرَضه الله سبحانه وتعالى[(٣)].

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

= قال ابن عاشور: (عبَّر بـ﴿تَرْضَاهَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مَيلَه إلى الكعبة ميلٌ لقصْد الخير بناءً على أنَّ الكعبة أجدرُ بيوت الله بأنْ يدلَّ على التوحيد- كما تقدَّم- فهو أجدرُ بالاستقبال من بيت المقدس، ولأنَّ في استقبالها إيماءً إلى استقلال هذا الدِّين عن دِين أهل الكتاب. ولما كان الرِّضا مشعرًا بالمحبَّة الناشئة عن تعقُّل، اختير في هذا المقام دون (تحبُّها) أو (تهواها) أو نحوهما؛ فإنَّ مقام النبيء صلَّى الله عليه وسلَّم يربو عن أن يتعلَّقَ مَيلُه بما ليس بمصلحة راجحة بعد انتهاء المصلحة العارضة لمشروعيَّة استقبال بيت المقدس، ألَا ترى أنه لما جاء في جانب قِبلتهم بعد أن نُسخت جاء بقوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الآية؟) ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٧-٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٨-٢٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٠-٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦٥-٦٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١-٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٢٤-١٢٥).

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ قراءتان:

١- ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالخطاب[(١)].

٢- ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالغيبة[(٢)].

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى ليس بساهٍ عمَّا يعمل هؤلاء الذين يَعلمون الحقَّ، ويُنكرونه ولا يَتَّبعونه؛ فما يَعملونه من سوءٍ محفوظٌ عند الله تعالى؛ ليعاقبَهم عليه، وبالضدِّ؛ يَحفَظ للمؤمنين امتثالَهم لأوامره، فيُجازيهم بذلك[(٣)].

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)﴾.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾.

أي: والله لئن جِئتَ يا محمَّدُ، اليهودَ والنَّصارى بكلِّ برهان، وأقمتَ عليهم كلَّ حُجَّةٍ تُثبت أنَّ الحقَّ هو ما جِئتَهم به، من وجوب التحوُّل من قِبلة بيت

---

(١) قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٣)
وينظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١١٦-١١٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٦٨).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٣)
وينظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١١٦-١١٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٤-٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١).

المقدِس في الصَّلاة إلى التوجُّه شَطرَ المسجد الحرام، فلن يَتركوا أهواءَهم، ويتَّبعوك في ذلك[١].

﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾.

يُنزِّه الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ عن متابعة قِبلة اليهود أو النَّصارى، ويُخبر عن شدَّة متابعتِه لِمَا أمره الله تعالى به؛ فكما أنَّهم مستمسِكون بأهوائهم، فلا اليهوديُّ يتَّبع قِبلة النصرانيِّ، ولا النصرانيُّ يتَّبع قِبلة اليهوديِّ، فهو أيضًا مستمسِكٌ بأمر الله واتِّباع مرضاته، ولا يتَّبع أهواءهم في جميع أحواله، كما أنَّه لا يُمكنه إرضاؤهم بحالٍ؛ لأنَّ الاختلاف فيما بينهم، واقع؛ ولذا فليس بغريبٍ منهم أنْ لا يتَّبعوا كذلك قِبلةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

وفي هذا تَسليةٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنين، وتثبيتٌ لهم على الحقِّ، وإنْ خالفهم مَن خالفَهم، وقطْعُ أطماع أهل الكتاب من متابعة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنين لقِبلتهم[٢].

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

حذَّر الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ- وأمَّته تبعٌ له في ذلك- مِن اتِّباع أهواء اليهود والنَّصارى، بالتوجُّه نحوَ قِبلتهم من بعد مجيء الحقِّ بالتوجُّه قِبل الكعبة؛ فإنَّه إنْ فعَل ذلك فهو معدودٌ مع الظَّالمين أنفسَهم بتَرْك الحقِّ، واتِّباع الباطل[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦٦-٦٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦٧-٦٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٦-٣٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٣٥-١٣٦).

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

أي: إنَّ اليهود والنَّصارى يَعرِفون من توراتهم وإنجيلهم أنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم حقٌّ، وأنَّ ما جاء به- مِثل صِحَّة التوجُّه نحوَ الكعبة في الصَّلاة- حقٌّ؛ يعرفون ذلك عن يقين تامٍّ، يُماثل يقينَهم بأبنائهم؛ إذ لا يَشتبهون عليهم بغيرِهم[(١)].

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ومع وضوح الحقِّ، وتيقُّن معرفتِه، إلَّا أنَّ طائفةً منهم يَكتُمون النَّاس عن عمْد، ما في كتُبهم من صِفة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وما جاء به من التوجُّه نحو الكعبة وهو الحق[(٢)].

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)﴾.

أي: اعلمْ يا محمَّد، أنَّ الحقَّ وحده هو الذي جاءك من ربِّك، لا ما يقوله اليهود أو النَّصارى، أو غيرهم؛ فلا يحصُل لك أدنى تردُّدٍ وريبةٍ فيه[(٣)].

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤٠-١٤١).
قال ابن أبي حاتم: (عن السُّدِّي: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ يعرِفون الكعبةَ أنَّها هي قِبلة الأنبياء كما يعرفون أبناءهم. ورُوي عن قَتادة، والرَّبيع بن أنس، والضحَّاك نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤٣-١٤٤).

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في ﴿مُوَلِّيهَا﴾ قراءتان:

١- (مُوَلَّاهَا) بمعنى موجَّهٌ ومصروفٌ إليها[١].

٢- (مُوَلِّيهَا) بمعنى متوجِّهٌ إليها ومستقبلها[٢].

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾.

أي: إنَّ لكلِّ أهل مِلَّةٍ قِبلةً يستقبلونها في صلاتهم، سواء كانت ممَّا ابتدعوه من تِلقاء أنفسهم، أو كانت ممَّا شرَع الله تعالى لهم[٣].

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كانت توليتُهم وجوهَهم نحوَ القِبلة إنما هو لأجْل تزكيةِ النفس وخلاصِها، وكان ذلك لا يحصُل إلَّا بفعل الخير واجتنابِ الشرِّ؛ قال تعالى[٤]:

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

أي: بادِروا وسارعوا باغتِنام الطاعات، ومن ذلك استقبال القِبلة التي أمَر الله تعالى بها[٥].

---

(١) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٤٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحُجَّة)) لابن خالويه (ص:٩٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٤٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحُجَّة)) لابن خالويه (ص:٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٧٤-٦٧٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٢-٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي =

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾.

مناسبة الآية لِمَا قَبلها:

لَمَّا أمَر الله تعالى بالمسابقةِ إلى الخيرات، وكان أقوى ما يَحُثُّ النفوسَ على المسارعةِ إلى الخير، ويُنشِّطها: ما رتَّب الله عليها مِن الثوابِ؛ قال[1]:

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾.

أي: يحثُّ الله تعالى عبادَه على المسارعة إلى الأعمال الصَّالحات قبل الممات، بإعلامهم أنَّ مرجعهم جميعًا إليه، وسيُحشَرون إليه من أي جِهة ماتوا فيها؛ فهو سبحانه القادِر الذي لا يُعجِزه ذلك، ولا أيُّ شيءٍ سواه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا عَظُم في شأن القِبلة انتشارُ أقوال أهل الكتاب في تنويعِ شغبِهم وجدالِهم، وكانوا أهلَ عِلم وكتاب، وقد مرَّت لهم دهورٌ وهم موسومون بأنَّهم على صواب، فاشرأبَّ لذلك النِّفاق، ودارت رَحَى الباطِل والشِّقاق، كان الحال مقتضيًا لمزيد

= (ص: ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٨٠-٦٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣-٤٤).

تأكيد لأمرها؛ تعظيمًا لشأنها، وتوهيةً لشُبه السُّفهاء فيها، فقال جلَّ وعلا[١]:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

أي: ومِن أيِّ موضعٍ خرجتَ يا محمَّد، في سفرٍ كان أو غيره، فتوجَّهْ نحوَ الكعبة للصَّلاة[٢].

﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

أي: إنَّ توجُّهك نحو الكعبة يا محمَّد، حقٌّ ثابت لا شكَّ فيه[٣].

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى ليس بساهٍ عن عمَل أحد، بل هو مطَّلعٌ على الأعمال جميعِها، وسيُجازي صاحب كلِّ عملٍ بحسب ما قدَّمه، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر[٤].

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا تَقرَّر بما تكرَّر أنَّ تحويل القبلة فرضٌ في حقِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ حتمٌ لا فتورَ عنه، ولا رُخصة فيه؛ إلَّا ما استُثني، أدْخل معه أمَّته؛ ليَعُمَّهم الحُكم، ورَبَأ بالمؤمنين عن أن يكون لأحدٍ عليهم حُجَّة؛ فقال[٥]:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤٩-١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٤-٤٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤٩-١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٥٠-١٥١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٢٣٤).

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

أي: ومِن أيِّ موضعٍ خرجتَ يا محمَّد، في سفرٍ كان أو غيره، فتوجَّهْ نحوَ الكعبة للصَّلاة، وفي أيِّ موضعٍ وَجِهةٍ كنتم- أيُّها المؤمنون- فعليكم أيضًا أن تستقبلوا الكعبةَ وتتوجَّهوا ناحيتَها عند إرادة الصَّلاة(١).

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

أي: حوَّلنا قِبلتَكم إلى الكَعبة؛ كي لا يحتجَّ اليهودُ عليكم قائلين: إنكم ما دُمتم قد وافقتمونا في قِبلتنا نحو بيت المقدس، فلِمَ تَعيبون دِينَنا، ولِـمَ لا تتبعون ملَّتَنا؟ لكن ستبقى حُجَّة الظالمين- وهم مشركو قريش- الذين يحتجُّون عليكم بالباطل قائلين: إنكم ما دُمتم قد عُدتم إلى قِبلتنا، فلا بدَّ أن تتَّبعوا دِيننا(٢).

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾.

أي: لا تخشَوا هؤلاء الظلمةَ المتعنتين، ولا حُجَجهم الباطلة، وأفرِدوا الخشية لي؛ فإنِّي وحْدي المستحقُّ لذلك(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٩، ٦٦٥، ٦٨٢)، ((تفسير السعدي)) (١/ ٧٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٢٣-١٢٤).
قال ابن القيِّم: (ذكر الأمْر بذلك [أي: استقبال القبلة] في كلِّ موطنٍ؛ لاقتضاء السِّياق له، فتأمَّله. والله أعلم) ((بدائع الفوائد)) (٤/ ١٧٢-١٧٣).
ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٨٢-٦٨٥)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيميَّة (١/ ١٠٠-١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٠-٦٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٥٦).

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾.

أي: شرَعت لكم استقبال الكعبة؛ لأُكمل لكم شرائعَ ملَّتكم الحَنيفيَّة[١].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أي: ومن أسباب تحويل القبلة إلى الكعبة أنْ ترجُوا بامتثال أوامر الله تعالى نيلَ هُداه، فتَعلموا الحق وتعملوا به؛ ابتغاءَ رِضاه[٢].

الفوائد التربويَّة:

١- تسلية النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأصحابه رضِي الله عنهم، حيث أخبر الله تعالى أنَّه لن يَعترِض عليه في أمر تحويل القبلة إلَّا سفيهٌ؛ لقوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾[٣].

٢- في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء...﴾، الإخبار بقولهم قبل وقوعه، وفائدته توطين النفس وإعداد ما يبكتهم، فإنَّ مفاجأة المكروه على النفس أشقُّ وأشدُّ، فالمرء يخبر بما يُتوقَّع حدوثُه؛ ليستعدَّ له[٤].

٣- أنَّ الله سبحانه يمتحِن العبادَ بالأحكام الشرعيَّة، إيجابًا، أو تحريمًا، أو غير ذلك؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾؛ فليتنبَّه المرء لهذا[٥].

٤- أنَّ التقدُّمَ حقيقةً إنَّما يكون بتطبيق تعاليم الإسلام، وأنَّ الرجعيَّةَ حقيقةً إنَّما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩١-٦٩٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٥٦-١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠٦)

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١١٧).

تكون بمخالفتها؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾؛ فإنَّ هذا حقيقة الرجوع على غير هدًى؛ لأنَّ الذي ينقلب على عقبيه كالأعمى لا يُبصِر ما وراءه[١].

٥- أنَّ امتثال بعض الأوامر الشرعيَّة، واجتناب بعض النواهي الشرعيَّة فيه مشقَّة على المكلَّفين، لكن بتمام الإيمان تزول هذه المشقَّة، وتكون سهلةً ويسيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾[٢].

٦- مراعاة الشَّريعة اجتماعَ المسلمين على وِجهةٍ واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾؛ فالمسلمون في جميع أنحاء العالم يتَّجهون إلى قِبلة واحدة[٣].

٧- وجوب الانقياد للحقِّ إذا ظهرت آياته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[٤].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ من عرف الله تعالى حقَّ معرفته، فمن المحال أن يرتدَّ، فإن قيل: فقد يوجد من يحصل له معرفة الله ثم يرتدُّ. قيل: إن الذي يقدَّر أنه معرفة، هو ظنٌّ متصوَّرٌ بصورة العلم، فأمَّا أن يحصل له العلم الحقيقيُّ ثم يعقبه الارتداد- فبعيد[٥].

٩- أنَّ الظلم، والعدل، وغير ذلك مقْرُونٌ بالأعمال لا بالأشخاص؛ فليس بيْن الله تعالى وبين أحدٍ من الخلق شيءٌ يُحابيه، ويُراعيه به؛ فكلُّ مَن خالفه فهو ظالم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٠٣).

لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[١].

١٠- بيان أنَّ العلم حقيقةً هو علمُ الشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾: فأتى بـ(أل) المفيدة للكمال، ولا شكَّ أنَّ العلم الكامل الذي هو محلُّ الحمْد والثَّناء هو العِلم بالشَّريعة[٢].

١١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿من بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ على أنَّ توجُّه الوعيد على العلماء أشدُّ من توجُّهه على غيرِهم[٣].

١٢- تحذير الأمَّة من اتِّباع أهواء غير المؤمنين؛ لقوله تعالى ﴿إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإذا كان الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يُوصَف بالظلم لو اتَّبع أهواءَهم، فمَن دُونه مِن باب أَوْلى[٤].

١٣- أنَّ كلَّ شيء خالَف ما جاء عن الله تعالى، فهو باطل؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[٥].

١٤- تَكرار الأمر الهام؛ لتثبيته والثبات عليه، ودفْع المعارضة فيه، وبيان أهميَّته؛ لأنَّه كلَّما كُرِّر كان مقتضاه أنَّ الأمر ثابتٌ مُحكَم يجب الثبوت عليه؛ وذلك لأنَّ الله تعالى كرَّر الأمر باستقبال القِبلة في عِدَّة آيات[٦].

١٥- دفْع ملامة اللائمين ما أمكَن؛ لقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٣٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ١١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥١).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٨).

١٦- أنَّ الظالم لا يَدفع ملامتَه شيء، بمعنى: أنَّه سيلوم وإنْ لم يكُن ثمَّة محلٌّ للوم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[١].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ إثبات عِلم الله تعالى بما سيكون، وتحقُّق وقوع ما أخبر به؛ لأنَّهم قالوا ما أخبر الله تعالى عنهم أنهم سيقولونه[٢].

٢- فضيلةُ هذه الأمَّة، حيث هداها اللهُ إلى استِقبال بيته الذي هو أوَّل بيت وُضِع للنَّاس[٣].

٣- فضْل هذه الأمَّة على جميع الأُمم؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَطًا﴾[٤].

٤- عَدالة هذه الأمَّة؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾؛ والشهيد قولُه مقبولٌ[٥].

٥- أنَّ هذه الأمَّة تشهد على الأُمم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[٦].

٦- في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ العمل من الإيمان، وهذا مذهب أهل السُّنة والجماعة؛ لأنَّ الله تعالى سمَّى الصَّلاة إيمانًا[٧].

٧- في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾، إثبات عُلوِّ الله تعالى؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٥٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٠٦، ١٥٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٢١) ويُنظر: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (ص: ٣٢٣)، ((معارج القبول)) لحكمي (٢/ ٦٠٠).

لأنَّ الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان يُقلِّب وجهَه في السَّماء؛ لأنَّ الوحي يأتيه من السَّماء[١].

٨- أنَّ النَّظر إلى السَّماء ليس سوءَ أدَبٍ مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾، لكن لا يَنبغي للمصلِّي أن يرفع بصرَه إلى السَّماء؛ لورود الوعيد الشَّديد به[٢].

٩- أنَّ الإنسان لا يُؤاخذ بالمخالفة إلَّا بعد قِيام الحُجة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾[٣].

١٠- التلطُّف في الخِطاب للرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لقوله تعالى: ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فلو قُلت لرجل: أنت ظالم، لكان أشدَّ وقعًا من قولك له: أنت من الظالمين[٤].

١١- تقوية الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ على ما هو عليه من الحقِّ- وإنْ كتَمه أهل الكتاب-؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾[٥].

١٢- عِناية الله سبحانه وتعالى بالرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ بذِكره بالربوبيَّة الخاصَّة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾[٦].

١٣- أنَّه قد يُنهَى عن الشيء مع استحالة وقوعه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾؛ فإنَّ النبي صلَّى الله عليه وسلَّمَ لا يمكن أن يكونَ من الممترين[٧].

١٤- عِناية الله سبحانه وتعالى بالرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ بالتثبيت؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٢٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٥)
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قوله تعالى له: ﴿الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يَقتضي ثباته عليه؛ وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ يَقتضي استمرارَه على هذا الثَّبات، ولا شكَّ أنَّ في هذا من تأييد الرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وتثبيتِه ما هو ظاهِر(١).

١٥- في قوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ردٌّ على الجَبريَّة بإضافة العَمل إلى الإنسان(٢).

١٦- أنَّ تنفيذ أوامر الله، وخشيته سببٌ للهداية بنوعيها: هداية الإرشاد؛ وهداية التوفيق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٣).

١٧- في قوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إثبات حِكمة الله سبحانه وتعالى(٤).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾

- فيه الإخبارُ بالشَّيء قبل وقوعه، وفائدتُه: توطين النفس، وإعداد الجواب، وإظهار المعجزة؛ فإنَّ مفاجأة المكروه أشدُّ، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع لما يتقدَّمه من توطين النفس، وأنَّ الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم، وأردُّ لشغبِه(٥).

- وفي قوله: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ وصفَهم بهذا مع كونه معلومًا، وفائدتُه: التنبيه على بلوغهم الحدَّ الأقصى من السَّفاهة بحيث لا يوجد في الناس سفهاء غير هؤلاء؛ فإذا قُسم نوعُ الإنسان أصنافًا، كان هؤلاء صنفَ السُّفهاء، فيُفهم أنه لا سفيهَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١٠).

غيرهم على وجهِ المبالغة[١].

٢- **قوله: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ﴾** استفهامٌ على جِهة الاستهزاء والتعجُّب، وهو مُستعمَل في التعريض بالتخطئة، واضطراب العقل[٢].

٣- **في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾**

- جيء مع الشَّهادة بحَرْف الاستعلاء (على)، ولم يقل (لهم)؛ لأنَّ الشَّهيد كالرقيب والمهيمِن على المشهود له، وقيل: لتكونوا شهداءَ على النَّاس في الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول الأخيار[٣].

- وأُخِّرت صِلة الشَّهادة أولًا في قوله: ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وقُدِّمت آخرًا في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾؛ لأنَّ الغرَض في الأوَّل إثباتُ شهادتهم على الأُمم، وفي الآخر اختصاصُهم بكون الرسول شهيدًا عليهم، فيكون من باب تقديم الأهمِّ؛ لأنَّ المنَّةَ عليهم في الجانبين: ففي الأوَّلِ بثبوت كونهم شهداءَ، وفي الثاني بثبوتِ كونهم مشهودًا لهم بالتزكية[٤].

أو مِن باب الاتِّساع في الكلام للفَصاحة، وللاهتمام بتشريف أمْر هذه الأمَّة، حتى أنَّها تَشهَد على الأمم والرسل، وهي لا يَشهَد عليها إلَّا رسولُها، ولأنَّ ﴿شَهِيدًا﴾ أشبهُ بالفواصل والمقاطع من قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾، فكان قوله: ﴿شَهِيدًا﴾، تمامَ الجملة، ومقطعها دون عليكم، وهذا من بدائع فصاحة القرآن[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩٩-٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩٩-٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٣-١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٠٣).

٤- قوله: ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾

- فيه تذييلٌ، فائدته: التأكيدُ على عدَم إضاعة إيمانهم، وإظهار المِنَّة، والتعليم بأنَّ الحُكم المنسوخ إنما يُلغَى العملُ به في المستقبل لا في ما مضى[١].

- وذِكر اسم الجلالة من باب الإظهار في مقامِ الإضمار؛ للتَّعظيم[٢].

- وتقديم ﴿بِالنَّاسِ﴾ على متعلِّقه وهو ﴿لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾؛ للتنبيه على عِنايته بهم إيقاظًا لهم ليشكروه، مع مراعاة الفواصل أيضًا[٣].

٥- قوله: ﴿قَدْ نَرَى﴾ جيء بالمضارع مع (قد)- التي تكون للتكثير غالبًا إذا دخلت على المضارع؛ للدَّلالة على التجدُّد[٤]، والقاعدة: أن (قد) إذا دخلت على المضارع المسنَد إلى اللهِ تعالى فهي للتحقيقِ دائمًا[٥].

٦- في قوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا...﴾

- الفاء للتعقيب؛ لتأكيد الوعد بالصَّراحة بعد التمهيدِ بالكِناية في قوله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾[٦].

- وفيه إضمار قَسَم باللام الموطِّئة للقَسَم؛ للمبالغة في التأكيد على وقوعِه؛ لأنَّ القَسَم يُؤكِّد مضمون الجملة المُقسَم عليها[٧].

- ومجيء الوعد قبل الأمْر؛ لفرح النفس بالإجابة، ثم بإنجاز الوعْد؛ فيتوالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٥-٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٧).
(٥) يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٣٩٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٧).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٣).

السرورُ مرَّتين، ولأنَّ بلوغ المطلوب بعد الوعدِ به آنسُ في التوصُّل من مفاجأة وقوع المطلوب[١].

- ونُكِّرت القِبلة؛ لأنَّه لم يَجرِ قبلها ما يَقتضي أن تكون معهودةً، فتُعرَّف بالألف واللام[٢].

٧- **قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾** خبرٌ مؤكَّدٌ بمؤكِّدين (إنَّ، واللام)؛ لينفي ما يتبادر من ظاهر حالهم إذ أنكروا استقبالَ الكعبة أنَّهم أنكروه لاعتقادهم بطلانَه، وأنَّ المسلمين يظنُّونهم معتقدين ذلك، وليظهر موقعُ قوله: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ الذي هو تهديدٌ بالوعيد[٣].

٨- **قوله: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾** خبرٌ متضمِّنٌ الوعيد، وفيه التِفاتٌ من الغيبة في قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ﴾ إلى الخِطاب في قوله: ﴿تَعملون﴾؛ ووجهه: أنَّ في خِطابهم بأنَّ الله لا يغفل عن أعمالهم تحريكًا لهم بأنْ يعملوا بما علِموا من الحقِّ؛ لأنَّ المواجهة بالشيءِ تقتضي شدَّةَ الإنكار، وعِظَمَ الشَّيءِ الذَّي يُنْكَر[٤].

٩- **في قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾**

- أَفرد القِبلة في قوله: ﴿قِبْلَتَهُمْ﴾، وإن كانت مثنَّاة؛ إذ لليهود قبلة، وللنَّصارى قبلة مغايرة لتلك القِبلة؛ لأنَّ كلتا القبلتين باطلة مخالفة لقبلة الحقِّ، فكانتَا بحُكم الاتِّحاد في البُطلان قبلةً واحدة[٥]، وحسَّن ذلك المقابلةُ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٥-٢٦).
(٥) وأيضًا لأنَّ (قبلة) هنا مفردٌ مضافٌ إلى الضمير (هم)، وذلك يفيد العموم.

اللفظ؛ لأنَّ قبْلَه ﴿ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾[١].

- وفي هذه الجملة مبالغةٌ في النَّفي بعِدَّة مؤكِّدات، وهي: اسميَّة الجُملة، وتكرُّر الاسم فيها مرَّتين، وتأكيد النفي بالباء في قوله: ﴿بتابع﴾[٢].

١٠- قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

- فيه: لُطفٌ للسامعين، وزيادةُ تحذير، واستفظاعٌ لحال مَن يترك الدَّليل بعد إنارته ويتَّبع الهوى، وتهييجٌ وإلهابٌ للثَّباتِ على الحقِّ؛ إذ قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ﴾ بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ كلامٌ وارد على سبيل الفَرْض والتقدير[٣].

وقيل: إنَّ ظاهر الخِطاب وإنْ كان مع الرسول إلا أنَّ المراد منه غيرُه، بغرضه ألَّا يميل إلى مخاطبتهم ومتابعتهم أحدٌ من الأمَّة، وإنما جاء الخطاب له على سبيل التعظيم لذلك الأمر، والتفخيم لشأنه، حتى يحصُل التباعد منه[٤].

وقيل: تعليق وقوع الشيء على شرط لا يقتضي إمكان ذلك الشرط، ويفهم من ذلك الاستحالة؛ لأنَّ المعلَّق على المستحيل مستحيلٌ. والمعنى: لا تُعَدُّ ظالمًا، ولا تكونه؛ لأنك لا تتَّبع أهواءهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٦-٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٠٣)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٩).

- وفيه: تأكيدُ التهديد، والمبالغة في هذا التحذير أيضًا، باشتمال مجموع الشَّرط والجزاء على عِدَّة مؤكِّدات، وهي: القَسَم المدلول عليه باللام، واللام الموطِّئة للقَسَم؛ لأنَّها تزيد القسم تأكيدًا، وحرف التوكيد في جملة الجزاء (إنَّ)، ولام الابتداء في خبرها، واسميَّة الجملة، وتركيبه من جُملةٍ فِعليَّة وجُملةٍ اسميَّة، وجَعْل حرف الشَّرْط الحرفَ الدالَّ على الشَّك، وهو (إِنْ)، والإتيان بـ(إذن) الدالَّة على الجزائية؛ فإنَّها أكَّدْت ربْط الجزاء بالشرط، والإجمال ثم التفصيل في قوله: ﴿مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ﴾؛ فإنَّه يدلُّ على الاهتمامِ، وجعْل ما نزل عليه هو نفْسُ العلم.

والتعريف في ﴿الظَّالِمِين﴾ للدَّلالة على أنَّ هذا الوصف لهم سجيَّة ثابتة، وصيغة الجمع في ﴿الظَّالِمِينَ﴾، ولم يقل: إنَّك ظالم؛ لأنَّ في الاندراج معهم إيهامًا بحصول أنواع الظلم، والتقييد بمجيء العلم؛ تعظيمًا للحق المعلوم، وتحريصًا على اقتفائه، وتحذيرًا عن متابعة الهوى، واستفظاعًا لصدور الذَّنب عن الأنبياء[(١)].

١١- **قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾** فيه إضمارُ ما لم يَسبق له ذِكر (الرَّسول)[(٢)]؛ لأنَّ الكلام يدلُّ عليه ولا يلتبس على السَّامع، ومثل هذا الإضمار فيه تفخيمٌ وإشعارٌ بأنَّه لشُهرته وكونِه عَلَمًا معلومًا بغير إعلام[(٣)].

أو هو مِن من باب الالتِفات؛ لأنَّه قال تعالى: ﴿قدْ نرى تقلُّب وجهك... فَلَنُوَلِّيَنَّك... فولِّ وجْهَكَ﴾، ثم قال: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ...﴾، فهذه كلُّها ضمائرُ خِطاب لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ثم التفَت عن ضمير الخِطاب

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٧).
(٢) هذا على القول بأنَّ الضَّمير في يعرفونه عائدٌ إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وأمَّا على الأقوال الأُخرى من أنَّه للعِلم، أو القرآن، أو تحويل القِبلة؛ فليس فيه هذا الوجه.
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٢-٣٣).

إلى ضمير الغَيبة، وحِكمته والله أعلم: أنَّه سبحانه لَمَّا فرغ من الإقبال عليه بالخطاب، أقبل على الناس فقال: الذين آتيناهم الكتاب واخترناهم لتحمُّل العلم والوحي، يَعرِفون هذا الذي خاطبناه في الآي السَّابقة وأمرناه ونهيناه، لا يَشكُّون في معرفته...إلخ[١].

١٢- **قوله:** ﴿**كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**﴾ ظاهر لفظ (الأبناء) الاختصاص بالذُّكور؛ فيكونُ ذَكَرهم هنا؛ لأنَّهم أشهرُ وأعرف، وهم لصُحبة الآباء- مباشرةً ومعاشرةً- ألزم، وبقلوبهم ألْصق، ويحتمل أن يُراد بالأبناء: الأولاد (الذُّكور والإناث)، فيكون ذِكرُهم هنا مَن باب التَّغليب[٢].

١٣- **قوله:** ﴿**الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ فيه مبالغةٌ وتأكيدٌ بالنَّهي عن كونه منهم؛ لأنَّه أبلغ من النهي عن نفْس الفِعل. لأنَّ (لا تمترِ) نهيٌ عن الالتباس بالامتراء. وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ نهيٌ عن الكون بهذه الصِّفة، والنَّهيُ عن الكون على صِفةٍ، أبلغُ من النَّهي عن تِلك الصِّفة[٣].

١٤- **قوله:** ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ وَ:﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ**﴾ وَ: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...**﴾

فيه تَكريرٌ؛ لتأكيد أمْر القِبلة وتشديده؛ وفائدته: أنَّ النَّسخَ من مظانِّ الفِتنة والشبهة وتسويل الشَّيطان، والحاجة إلى التَّفصِلة بينه وبين البَداء[٤]، فكرَّر عليهم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٢-٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٠٤)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٥).

(٤) البَداء: ظُهور الشَّيء بعد الخَفاء؛ تقول: بدا لي في الشيء، إذا ظهر لك فيه رأيٌ لم يكن ظاهرًا =

ليثبتوا ويعزموا ويجدُّوا، ولأنَّه نِيط بكلِّ واحد ما لم يُنَطْ بالآخر فاختلفت فوائدها. وأيضًا لَمَّا عظُم في شأن القبلة انتشارُ أقوال السفهاء وتنوُّع شَغَبِهم وجدالهم، كان الحال مقتضيًا لمزيدِ تأكيدٍ لأمرها؛ تعظيمًا لشأنها، وتوهيةً لشبههم، فحصل من تكرير معظم الكلمات تأكيدٌ للحُكم؛ ليترتَّب عليه قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾. وأيضًا كرَّر هذا الحكم؛ لتعدُّد عِلله، فإنَّه تعالى ذكر للتحويل ثلاث عِلل: تعظيم الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم بابتغاء مرضاته، وجرْي العادة الإلهية على أن يولي أهلَ كلِّ مِلَّة وصاحب دعوة وجهةً يستقبلها ويتميز بها، ودفْع حُجج المخالفين، وقرَن بكلِّ علة معلولها، كما يَقرن المدلول بكلِّ واحد من دلائله تقريبًا وتقريرًا، مع أنَّ القبلة لها شأن، وقيل غير ذلك في فائدة التَّكرار، كما أنَّ بعض العلماء قد ذكر في هذه الآيات مخصصاتٍ تُخرجها بذلك عن التأكيد[1].

= لك فتركته لأجْل ذلك.

والفرق بين النسخ والبداء: أن النسخ تحويل العباد من شيء قد كان حلالًا فيُحرم، أو كان حرامًا فيُحلل، أو كان مطلقًا فيُحظر، أو كان محظورًا فيطلق، أو كان مباحًا فيُمنَع، أو ممنوعًا فيُباح؛ إرادةَ الصلاح للعباد، وقد عَلِم الله جلَّ وعزَّ العاقبة في ذلك، وعلم وقت الأمر به أنَّه سينسخه إلى ذلك الوقت... وكان الأول المنسوخ حِكمة وصوابًا، ثم نسخ وأُزيل بحكمة وصواب. وأمَّا البداء فهو تركُ ما عُزم عليه، كقولك: امضِ إلى فلان اليومَ، ثم تقول: لا تمضِ إليه، فيبدو لك عن القولِ = = الأوَّل، وهذا يلحق البشرَ؛ لنقصانهم. ولا يجوز البَداءُ على الله سبحانه وتعالى؛ فهو العليمُ بكلِّ شيء، وما يَنسخُه من الْأَحْكَام ويُثبته إِنَّمَا هُوَ على قدْر المصالح، لا أنَّه يبدو له من الأحوال ما لم يكُن باديًا.

يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٦٢)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٩-٤٠، ٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥).

الآيات (١٥١-١٥٧)

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾.

غريب الكلمات:

﴿يُزَكِّيكُمْ﴾: يطهِّركم، وأصل الزَّكاة: النَّماء والزِّيادة مع التَّطهير[١].

﴿الْحِكْمَةَ﴾: إصابة الحقِّ بالعلم والعقل، وأصل (حَكَم): المنْع، وأوَّل ذلك الحَكْم، وهو المنع من الظُّلم. والإحكام هو الفصل والتمييز، والفرق والتحديد الذي به يتحقَّق الشيء ويحصُل إتقانه؛ ولهذا دخل فيه معنى المنْع كما دخَل في الحدِّ، فالمنع جزءُ معناه لا جميع معناه. والحِكمة اسمٌ للعَقل، وإنَّما سُمِّي حِكمة؛ لأنَّه يمنع صاحبه من الجَهل، وقيل: المقصود بها هنا: السُّنة[٢].

﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾: الشُّكر: ظهورُ أثَر نِعمة الله على لسانِ عبده: ثناءً واعترافًا،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦، ٣٤٧)، ((الإكليل في المتشابه والتأويل)) لابن تيمية (ص: ١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٤).

وعلى قلبه: شهودًا ومحبَّةً، وعلى جوارحِه: انقيادًا وطاعةً، وأصلُه: الثناءُ على صانعِ المعروف، وهو ضدُّ الكُفر[١].

﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾: الكُفْر: السِّتر والتَّغطية، وهو ضدُّ الشُّكر، وكُفر النِّعمة: ستْرُها بترك أداء شُكرها، ونسيانُها[٢].

﴿صَلوَاتٌ﴾: أي: ثناء، وأصل الصَّلَاة: الدُّعاء[٣].

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾:

﴿أَمْوَاتٌ﴾: خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: لا تقولوا: هم أمواتٌ.

﴿بَلْ﴾: حرف إضراب، وعطف.

﴿أَحْيَاءٌ﴾: أيضًا خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: بل هم أحياءٌ، وقد راعى لفظَ (مَنْ)- وهو الإفراد- مرةً فأفردَ في قولِه: ﴿يُقْتَلُ﴾، وراعى معناها مرةً أخرى- وهو العموم- فجمَع في قولِه: ﴿أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾. وجملةُ (هم أموات) في محلِّ نصب بالقول ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾؛ لأنَّها محكيَّة به، وجملة (بل هم أحياء) تحتمل أن تكون ابتدائيَّةً فلا يكون لها محلٌّ من الإعراب، وتحتمل: أن يكون محلها النَّصب بقولٍ محذوف أي: (بل قولوا هم أحياء)، ولا يجوز أن تنتصبَ بالقول الأوَّل ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾؛ لفساد المعنى[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

(٣) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٢/ ١٦٥-١٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ١٨٤)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ٦٥).

المعنى الإجمالي:

حين أَخبَرَ تعالى أنَّ مِن أسباب تحويل القِبلة من بيت المقدِس إلى الكعبة إتمامَ نِعمته ببيان شرائع ملَّة إبراهيم عليه السَّلام، أخبر تعالى أيضًا أنَّ تلك النِّعمة هي مِثل إنعامه من قبلُ بإرسال محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى العَربِ وهو منهم، يَعرِفون نَسبَهُ وأخلاقَهُ الفاضلة، فجاء إليهم ليقرأ عليهم القرآن، ويُطهِّرهم من أدران الشِّرك، وقذَر المعاصي، وسوء الأخلاق، ويوضِّح لهم معانيَ القرآن، ويَنشُر فيهم سُنَّته، ويُعلِّمهم أمورًا لم يكونوا يعلمونها من قبل، من الأخبار الماضية، أو الآتية، وكل ما لا تستقل بمعرفته العقول حيث لا سبيل إلى معرفته إلا من خلال الوحي، وأمر اللهُ عبادَه أنْ يذكروه عزَّ وجلَّ قولًا وعملًا، وسيكونُ جزاءُ ذلك أنْ يَذكُرهم سبحانه، وما أعظمَه من جزاء! كما أمرَهم جلَّ وعلا بشُكره على نِعمه، وعدم جُحودها.

ثم أمَر اللهُ عبادَهُ المؤمنين بالاستعانةِ في جميع أمورهم الدينيَّة والدنيويَّة بالصبر، وهو حبس النَّفْس وكفُّها عمَّا تكره، وأن يَستعينوا بالصَّلاة، مخبرًا سبحانه أنَّه مع الصَّابرين؛ معيَّةً خاصَّةً تَقتضي القُربَ منهم، ومحبَّتهم، ونَصْرهم وإعانتهم.

ونَهى سبحانه وتعالى عن القول الذي يُصاحبه اعتقادٌ بموتِ مَن يُقتلُ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، وأخبر أنَّهم أحياءٌ عند الله تعالى، يتمتَّعون فيها بنعيم الجنَّة، وإنْ كان النَّاسُ لا يَشعُرون بهذا الأمر.

ثمَّ أخبَرَ الله تعالى عبادَهُ المؤمنين أنَّه سيبتليهم بقليل من الخوف، والجوع، وذَهابِ بعضٍ من أموالهم، وموتِ بعضٍ منهم، وحُصولِ نقصٍ من ثمراتهم، وأمَر الله تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم، أن يبشر الصَّابرين على الابتلاء، الذين يقولون عن يقينٍ جازمٍ عندما تُصيبهم المصيبة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، أي: إنَّهم مملكون للهِ، خاضِعون له، وسيَنتقلون إليه بعد موتهم، ومَصيرُهم بين

يديه يومَ القيامة؛ ليجازيَ كلَّ شخصٍ بما عمِل، فأولئك الصَّابرون لهم من اللهِ عزَّ وجلَّ الثناءُ والتنويه بشأنهم، وتتنزَّل عليهم من ربِّهم سُبحانه الرَّحماتُ، وهؤلاء هم الذين أَرشدهم الله عزَّ وجلَّ للحقِّ، ووفَّقهم للعمل به.

تفسير الآيات:

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)﴾.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾.

أي: بيَّنَّا لكم شرائعَ ملَّة إبراهيم الحَنيفيَّة، فأمرْناكم باستقبال الكَعبة؛ نِعمةً من الله تعالى عليكم، مِثل ما أنعم عليكم أيضًا أوَّلَ مرَّة، بإرسال محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ منكم- أيُّها العربُ-؛ إذ يتحدَّث بلِسانكم، وتَعرِفون نَسبَه وخُلُقه؛ وذلك إجابةً لدعوة إبراهيمَ عليه السَّلام[1].

وكان إبراهيم عليه السلام قد دعا ربَّهُ قائلًا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

أي: هذا الرَّسول الذي أنعمْنا عليكم بإرساله فيكم، أتَى ليقرأ عليكم القُرآن، ويُطهِّركم من دَنَس الشِّرك والكُفران، ورَذائل الأخلاق والعِصيان، ويبيِّن لكم السُّنَّة ومعاني كلامِ الرَّحمن[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٤-٦٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤).

﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: ويُنبِّئكم بأخبار مَن سلَف، وأخبار ما يأتي من الغُيوب[١].

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

أي: عليكم بذِكري في مقابل تلك النعم التي تقدَّم ذكرها. وهذا الذِّكر المأمور به عامٌّ يَشمل ذِكر الله قولًا باللِّسان، وعملًا بالقلب وبالجوارح، ورتَّب الله عزَّ وجلَّ على هذا الذِّكر جزاءً عظيمًا، وهو أن يَذكُر هو سبحانَه مَن ذكَره[٢].

فعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((يقول اللهُ تعالَى: أنا عندَ ظنِّ عَبْدي بي، وأنا معه إذا ذَكَرَنِي، فإنْ ذَكَرَنِي في نفسِه ذَكرتُه في نفْسي، وإنْ ذَكَرَنِي في ملأٍ ذَكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم))[٣].

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((وما اجتَمعَ قومٌ في بيتٍ مِن بيوتِ اللهِ، يتْلون كتابَ اللهِ، ويَتدارسونه بينهم، إلَّا نَزلتْ عليهم السَّكينةُ، وغَشِيتْهم الرحمةُ، وحفَّتْهم الملائكةُ، وذَكرَهم اللهُ فيمَن عِنده))[٤].

﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

أي: اشكُروني على ما مَنحتُكم من نِعمٍ باللِّسانِ وبالقلب والجوارح، ولا تجحدوا إحساني إليكم. ومن أعظمِ ذلك: نِعمةُ الإسلام، وإرسالُ محمَّدٍ عليه الصَّلاة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١٣/ ١٣٤-١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٥)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٦٦، ١٦٨).

(٣) رواه البخاري (٧٤٠٥)، واللَّفْظ له، ومسلم (٢٦٧٥).

(٤) رواه مسلم (٢٦٩٩).

والسلام، والهدايةُ إلى الشَّرائع الصَّحيحة، ومنها استقبالُ الكعبة الشريفة[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا فرَغ تعالى من بيان الأمر بالشُّكر، شَرَعَ في بيان الصَّبر، والإرشادِ إلى الاستعانة بالصَّبر والصَّلاة؛ فإنَّ العبدَ إمَّا أن يكونَ في نِعمةٍ فيَشكرَ عليها، وإمَّا في نِقمةٍ فيَصبرَ عليها فقال تعالى[٢]:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

أي: يا مَعشرَ المؤمنين، عليكم بالْتزامِ الصَّبر وأداءِ الصَّلاة؛ فهُما عونٌ لكم على عظيمِ الأعمال. وذلك مِثل تحمُّل الطاعات كالقِتال في سبيل الله، وترْك المحظورات، وعلى ما يُصيب العبدَ من مصيبات[٣].

﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

أي: إنَّه سبحانه وتعالى مع الصَّابرين معيَّةً خاصَّةً تَقتضي قُربَه منهم، ومحبَّتَه لهم، ونصْرهم وتأييدَهم، وإعانتهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٢٦-٢٢٧)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) ((١/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٦٦).

(٢) يُنظر ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٧-٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥١-٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٧٢).

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤)﴾.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ﴾.

أي: ولا تقولوا: إنَّ مَن قُتل في سبيل الله عزَّ وجلَّ، فهو ميِّت[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما ظننتم، فالحقُّ أنَّ الشُّهداءَ من بعد مقتلهم، وحتى قِيامِ السَّاعة، أحياءٌ عند الله تعالى، حياةً برزخيَّةً يتمتَّعون فيها في الجَنَّة، ويُصاحبهم الفرحُ العظيم بما أعطاهم الله تعالى من فضْله، ولكن لا يَشعُر النَّاسُ بهذا الأمر في الدُّنيا؛ فليس لديهم أيُّ إدراكٍ لرؤية ذلك، أو الشُّعور به[(٢)].

عن مَسروق بن الأَجدع، قال: ((سألْنا عبدَ اللهِ (هو ابنُ مسعودٍ) عن هذه الآيةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أمَا إنَّا سألْنا عن ذلك، فقال: أرواحُهم في جوفِ طيرٍ خُضرٍ، لها قناديلُ مُعلَّقةٌ بالعرشِ، تَسرحُ من الجنةِ حيث شاءت، ثمَّ تأوي إلى تِلك القَناديلِ، فاطَّلع إليهم ربُّهم اطِّلاعةً، فقال: هل تَشتهون شيئًا؟ قالوا: أيَّ شيءٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٨-٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٧٥-١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٩، ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٧٦).

نَشتهي، ونحن نسرحُ من الجنةِ حيثُ شِئْنا؟! ففَعَل ذلك بهم ثلاثَ مراتٍ، فلمَّا رأَوا أنَّهم لن يُترَكوا من أن يَسألوا، قالوا: يا ربِّ، نُريد أن تردَّ أرواحَنا في أجسادِنا حتى نُقتَلَ في سبيلِك مرةً أخرى، فلمَّا رأى أنْ ليس لهم حاجةٌ تُرِكوا))[1].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾.

أي: ولَنَختبرنَّكم بشَيءٍ يَسيرٍ يقَع في قلوبِكم من الخوف، وفي أَجسادِكم من الجُوع، ولَنَبتلينَّكم بذَهاب بعض أموالِكم، وموتِ بعضِكم، كأبنائِكم وأَهلِيكم وأقارِبكم، وحُصولِ النَّقْص في ثِمارِكم[2].

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

أي: أخبِرِ الصَّابرين يا محمَّد، خبرًا يَسرُّهم لم يسبقْ أنْ أخبَرهم به أحدٌ من قبلُ[3].

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾.

بيَّن سبحانه هنا مَن الصَّابرون الذين أمَر نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ ببِشارتهم، فأخبَر أنَّهم الذين يقولون- عن اعتقاد ويقين -: إنَّهم عبيدٌ مملوكون لله الذي له مُطلَق التصرُّف فيهم بحِكمته ورحمته، وإنَّهم منتقِلون من هذه الدُّنيا الفانية وممَّا

---

(١) رواه مسلم (١٨٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٠٤-٧٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص:٧٦).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المعنيَّ بهذه الآية المؤمِنون: ابن عبَّاس، وسعيد بن جبير، وعطاء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٠٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٠٥-٧٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٧٩).

فيها من مصائب، وصائِرون إليه وحْدَه يومَ المعاد، فيُجازي كلَّ عاملٍ بعمله[١].

عن أمِّ سَلمةَ رضي الله عنها، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((ما من مُسلمٍ تُصيبُه مُصيبةٌ فيقولُ ما أمره اللهُ: إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجِعون! اللَّهمَّ أْجُرْني في مُصيبتي وأَخْلِفْ لي خيرًا منها- إلَّا أخلف اللهُ له خيرًا منها. قالت: فلمَّا مات أبو سَلمةَ قلتُ: أيُّ المسلمين خيرٌ من أبي سلمةَ؟! أوَّلُ بيتٍ هاجر إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! ثمَّ إنِّي قلتُها، فأخلف اللهُ لي رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ قالت: أرسل إليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حَاطبَ بنَ أبي بَلْتَعةَ يَخطُبُني له، فقلتُ: إنَّ لي بنتًا وأنا غيورٌ، فقال: أمَّا ابنتُها فنَدعو اللهَ أن يُغنيَها عنها، وأَدْعو اللهَ أن يَذْهَبَ بالغيْرةِ))[٢].

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ الصَّابرين المبشَّرين الذين يقولون: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، لهم من الله تعالى ثناءٌ عليهم وتنويهٌ بشأنهم، وتتنزَّل عليهم منه سبحانه الرَّحمات، وهؤلاء هم الذين أرْشدَهم الله تعالى للحقِّ، ووفَّقهم للعمل به[٣].

الفوائد التربويَّة:

١- وجوبُ الشُّكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾؛ و(الشُّكر) يكون بالقلب، وباللِّسان، وبالجوارح؛ ولا يكون إلَّا في مقابلة نِعمة[٤].

٢- تحريم كفر النعمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ولهذا إذا أنعم الله على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٧-٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٧٩).

(٢) رواه مسلم (٩١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٨٢-١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٦٩).

عبده نعمة، فإنه يحبُّ أن يرى أثر نعمته عليه[١].

٣- قرَن الله تعالى بين الصَّبر والصَّلاة في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾؛ لأنهما عونانِ على مصالحِ الدنيا والآخِرة، وذَكَر الصبر ثُم الصلاة؛ لأنَّها تُعين على الصَّبر[٢].

٤- أنَّ في جزاء الصَّبر المذكور تنشيطًا على الأعمال، والثَّبات عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾؛ فإذا آمَن الإنسانُ بأنَّ الله معه، ازداد نشاطًا، وثباتًا[٣].

٥- التَّنبيه على الإخلاص في القِتال؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[٤].

٦- أنَّ ثوابَ الله سبحانه وتعالى للعامل أجَلُّ وأعلى؛ وذلك لأنَّ الشهيدَ عرَّض نفْسه للموت ابتغاءَ ثواب الله، فأثابَه الله تعالى بأنْ جعَله حيًّا بعد موته حياةً برزخيَّةً أكملَ من حياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩][٥].

٧- اشتملتِ الآيتان من قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ....﴾ إلى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ على توطين النُّفوس على المصائب قَبل وقوعها؛ لتخفَّ وتسهُل إذا وقعَتْ، وبيان ما تُقابَل به، وهو الصَّبر، وبيان ما يُعين على الصَّبر، وما للصَّابر من الأجْر[٦].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ...﴾ و﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾: أنَّ للعبد من الصلوات والرحمة بقَدْر ما له من تحقيق الصَّبر، وهكذا كلُّ وصْف رُتِّب عليه خيرٌ وأجرٌ وثواب، وكلُّ وصفٍ نَهى الله عنه ورتَّب

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((عدَّة الصابرين)) لابن القيم (ص ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦)

عليه وعلى الاتِّصافِ به عُقوبةً وشرًّا ونقصًا؛ لأنَّ الحُكم المعلَّق على وصْف يَزيد بزيادته، ويَنقُص بنُقصانه[١].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ كون الرَّسول صلى الله عليه وسلم مِنَّا يَقتضي أنْ تكون قريش أوَّل مَن يُصدِّق به؛ لأنَّهم يعرفونه، ويَعرِفون نَسبَه، ويَعرِفون أمانته؛ ولهذا وبَّخهم الله تعالى على الكُفر به، ووصْفِه بالضَّلال، والجُنون، فقال جلَّ وعلا: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾[النجم: ٢]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢][٢].

٢- أنَّ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ علَّم الأمَّة لفظَ القرآن، ومعناه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾؛ ولهذا كان الصَّحابةُ رضي الله عنهم إذا استشكلوا شيئًا من المعنى، سألوه، فعَلَّمهم، ولكن الغالب أنَّهم لا يَستشكلون؛ لأنَّه نزَل بلُغتهم، وفي عصرهم، يَعرِفون معناه، ومَغزاه، وأسبابه[٣].

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا**﴾ فيه تنكيرُ (الرسول) للتعظيم؛ ولتجري عليه الصِّفات التي كلُّ واحدةٍ منها نِعمةٌ خاصَّة[٤].

٢- **قوله:** ﴿**يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ فيه تكرار الفعل (يعلم)؛ ليدلَّ على أنه جِنسٌ آخَر[٥].

- وقدّم هنا ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ على ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾ عكس ما في الآية السابقة في

(١) يُنظر: ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ١٣)، ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٦٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٦٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١٤).

حِكاية قول إبراهيم عليه السَّلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]؛ لأنَّ المقام هنا للامتنان على المسلمين؛ فقُدِّم فيها ما يُفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم، وهي منفعة تزكية نفوسهم؛ اهتمامًا بها، وبعثًا لها بالحِرص على تحصيل وسائلها، وتعجيلًا للبشارة بها، فأما في دعوة إبراهيم فقد رُتِّبت الجمل على حسب ترتيب حصولِ ما تضمَّنتْه في الخارج، مع ما في ذلك التخالف من التفنُّن[١].

٣- **قوله:** ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْف؛ لأنَّه من كُفر النِّعمة، أي: ولا تكفروا نعمتي، ولو كان من الكفر الذي هو ضدُّ الإيمان، لكان: ولا تكفروا، أو ولا تكفروا بي، والنون نون الوِقاية، حُذفت ياء المتكلم بعدَها تخفيفًا؛ لتناسُب الفواصل[٢].

٤- **قوله:** ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ تذييلٌ في معنى التعليل، أي: اصبروا؛ ليكون الله معكم؛ لأنَّه مع الصابرين[٣].

٥- **قوله:** ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ فيه إيجاز بالحذف؛ حيث حذف المبتدأ (هم)؛ لأهميَّة ذِكر الخبر؛ لأنَّهم ما كانوا يتصوَّرون أنَّهم أحياء[٤].

٦- **قوله:** ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ﴾

- فيه: تقديمُ الوعدِ بالبَلاء قبل كَونِه؛ وإنما أَخبرَ به قبل الوقوعِ ليُوطِّنوا عليه نفوسَهم، ويزدادَ يقينُهم عند مشاهدتِهم له حسبما أَخبرَ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٩-٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) =

- وجيء بكلمة ﴿شَيْءٍ﴾ مفردة، ولم يقل: (بأشياء)؛ لبيان أنَّ كلَّ بلاءٍ أصاب الإنسان- وإنْ جلَّ- ففوقه ما يقلُّ إليه، وليخفِّف عليهم، ويُريَهم أنَّ رحمته معهم في كلِّ حال لا تزايلهم، وليعلموا أنَّه شيءٌ يسير، له عاقبةٌ حميدةٌ. ولئلَّا يوهِم بأشياء من كل واحد، فيدل على ضروب الخوف والتقدير بشيءٍ مِن كذا، وشيء من كذا. أو قلَّله بالنِّسبة إلى ما يُصيب به معانديهم في الآخِرة[١].

٧- **قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾** فيه التوكيد بـ(إنَّ)؛ لأنَّ المقام مقام اهتمام، ولأنه يُنزَّل المصاب فيه منزلةَ المنكر؛ لكونه مِلكًا لله تعالى وعبدًا له؛ إذ تُنسيه المصيبة ذلك، ويَحُول هولُها بينه وبين رُشده، واللام في ﴿لله﴾ للمِلك[٢].

٨- **قول الله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾**

- قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ...﴾ الإشارة بـ (أولئك) الذي فيه معنى البعد؛ للإيذان بعلوِّ رُتبتِهم، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الحكم الذي يرد بعد اسم الإشارة مترتِّبٌ على تلك الأوصاف، وهذا بيانٌ لجزاء صبرهم[٣].

- قوله: ﴿صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾: جاءت ﴿صَلَوَاتٌ﴾ بصيغة الجمع؛ تنبيهًا على كثرتها منه، وأنَّها حاصلةٌ في الدنيا توفيقًا وإرشادًا، وفي الآخرة ثوابًا ومغفرة، وإضافة اسم الرب إلى ضَميرهم ﴿رَبِّهِم﴾؛ لإظهارِ مزيدِ العناية بهم، وأنَّ عليهم رحمةً واسعة فائضةً من مالك أمورِهم، ومبلِّغِهم إلى كمالاتهم اللائقةِ بهم[٤].

= (١/ ١٨٠)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٨٠)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٤-٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٨٠)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٤٣).

- قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾: فيه تكرار اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لإظهارِ كمالِ العناية بهم[(١)].

- وأيضًا في قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾: تأكيدٌ بقوله: ﴿هُمُ﴾ وبالألف واللام، كأنَّ الهداية انحصرت فيهم، وباسم الفاعل؛ ليدلَّ على الثبوت؛ لأنَّ الهداية ليستْ من الأفعال المتجدِّدة وقتًا بعد وقت، فيخبر عنها بالفعل، بل هي وصفٌ ثابت[(٢)].

- والجُملتان الثابتتان في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ تدلَّان على الاعتناء بأمر المخبَر عنه، وبُدئ بالجملة الأولى ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ﴾؛ لأنَّها أهمُّ في حصول الثواب المترتِّب على الوصف الذي قبله، وأُخِّرت جملة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾؛ لأنَّها تنزَّلت ممَّا قبلها منزلةَ العِلَّة؛ لأنَّ ذلك القول المترتِّب عليه ذلك الجزاء الجزيل لا يصدُر إلَّا عمَّن سبقت هدايته[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٩).

الآيات (١٥٨-١٦٢)

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿شَعَائِرِ﴾: جمْع شَعيرَة، وهي مَا جعَله الله تعالى عَلَمًا لطاعتِه[١].

﴿لا جُناحَ﴾: لَا بَأْس، والجُناحَ: الإثم، وأصل الجنوح: المَيل والعدوان[٢].

﴿تَطَوَّعَ﴾: فَعَل خيرًا غيرَ واجب عليه[٣].

﴿يُنْظَرُونَ﴾: يُنتَظرون، ويُؤخَّرون[٤].

المعنى الإجمالي:

أخبَر الله تعالى أنَّ السَّعي بين الصَّفا والمروة من معالِم دِينه الظاهِرة، التي شُرِعت

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨)، .

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٥٣، ٩٧٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١).

في الحجِّ، فمَن قصَدَ البيتَ ناويًا أداء النُّسك من حجٍّ أو عُمرةٍ، فلا يَتحرجنَّ من الطَّواف بينهما؛ لأجْل أنَّهم في الجاهليَّة يَعبُدون الأصنام عِندهما.

وتَرغيبًا في فِعل الطاعة والاستزادة منها أخْبَر تعالى أنَّ مَن يأتي بالطاعات، سواء ما كان منها مَفروضًا أو مستحبًّا، ويَزداد منها؛ فإنَّ الله مُجازيه على عمَله خيرَ الجزاء، فهو سبحانه شاكرٌ لا يُضيع أجْرَ مَن أحسن عملًا، عليمٌ لا يَخفَى عليه ذاك الإحسانُ.

ثم ذكَر الله- في معرِض الذمِّ- عُلماءَ اليهود والنَّصارى الذين يُخفون عن النَّاس ما في التوراة والإنجيل من الأدلَّة الواضحة، التي تُثبِت نبوَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وتبيِّن وصْفَه، وهذا الذمُّ يعمُّ كلَّ مَن فعَل فِعلهم فأخْفى الحقَّ الذي أنزله الله في القرآن الكريم من بعدِ أن بيَّنه سبحانه، هؤلاء جميعًا جزاؤهم الطردُ من رحمة الله تعالى، وأنْ تُلاحِقَهم اللَّعَناتُ من الملائكة والمؤمنين- وقيل: من جميع الخَلق- إلَّا مَن تراجع عن هذا الكِتمان للحق البيِّن، وعاد إلى ربِّه تائبًا مقرًّا بذنبه، وبيَّنَ ما كان أخْفاه من الحقِّ عن النَّاس- فأولئك يتوبُ الله عليهم كما أخبر، فهو سبحانه المتقبِّل لتوبة عِباده، بعد أن يُوفِّقهم لها، رحيمٌ بهم سبحانه وتعالى.

ثم أخبَر جلَّ وعلا أنَّ الذين جَحدوا دِين الله تعالى، فلم يَقبلوا به، ولم يَنقادوا إليه، ولم يتوبوا في حَياتهم، بل استمرُّوا على الكُفر حتى ماتوا عليه- أخْبَر أنَّ أولئك سيطردهم اللهُ تعالى من رحمته طردًا دائمًا، وتُلاحقَهم اللَّعنة من الله والملائكة وجميعِ النَّاس، وسَيُخلَّدون في تلك اللَّعنة والتي ستُصاحبهم في دُنياهم وحتى يوم القِيامة؛ لتظلَّ معهم وتلازمهم في جهنَّم، حيث لا يُخفَّف عنهم عذابُها، ولا هم يُمهلون فيُؤخَّر عنهم العذاب.

ثم أخْبَر تعالى أنَّ الإلهَ المستحِقَّ للعبادة واحدٌ، لا شريكَ له سبحانه، ولا معبودَ سواه، وهو الله سبحانه ذو الرَّحمات، التي أوْصَلها وعمَّ بها كلَّ البريَّات.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

قيل: لَمَّا بيَّن الله تعالى أنه إنما حوَّل القبلة إلى الكعبة، وكان في ذلك إحياءٌ لشرائع إبراهيم ودِينه، وكان السعيُ بين الصفا والمروة من شعائر إبراهيم على ما ذُكِر في قصة بناء الكعبة، وسعي هاجر بين الجبلين- فلما كان الأمر كذلك ذكَر الله تعالى هذا الحُكم.

وقيل: لأنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ...﴾، إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، قال: إنَّ الصَّفا والمروة من شعائر الله؛ وإنَّما جعلهما كذلك لأنَّهما من آثار هاجر وإسماعيل ممَّا جرى عليهما مِن البلوى[1].

سبب النُّزول:

عن عُروةَ بن الزُّبَير قال: ((سألتُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، فقلتُ لها: أَرأيتِ قَوْلَ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؛ فواللهِ ما على أَحَدٍ جُنَاحٌ أنْ لا يطوفَ بالصَّفا والمروةِ، قالت: بَئْسَ ما قلتَ يا ابنَ أختي! إنَّ هذهِ لو كانت كَمَا أَوَّلْتَهَا عليه، كانت: لا جُنَاحَ عليهِ أنْ لا يَتَطَوَّفَ بهما، ولكنَّها أُنْزِلَتْ في الأنصارِ، كانوا قبلَ أن يُسلِموا، يُهِلُّونَ لـمَناةَ الطَّاغية، التي كانوا يَعبُدونها عندَ المُشلَّلِ، فكان مَن أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أنْ يطوفَ بالصَّفا والمروةِ، فلمَّا أسلموا، سألوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن ذلكَ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، إنَّا كُنَّا نتحرَّجُ أن نطوفَ بينَ الصَّفا والمروةِ، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ الآية، قالت عائشةُ رضيَ اللهُ عنها:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ١٣٤).

وقد سَنَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الطَّوافَ بينهما، فليس لِأَحَدٍ أن يترُكَ الطوافَ بينهما، ثم أَخْبَرْتُ أبا بكرِ بنَ عبدِ الرَّحمنِ فقال: إنَّ هذا لَعِلْمٌ ما كنتُ سمعتُهُ، ولقد سمعتُ رِجالًا من أهلِ العِلم يَذكرونَ: أنَّ النَّاسَ- إلَّا مَن ذَكرتْ عائشةُ- ممَّن كان يُهِلُّ بمناةَ، كانوا يطوفونَ كلُّهم بالصَّفا والمروةِ، فلمَّا ذكرَ اللهُ تعالى الطَّوافَ بالبيتِ، ولم يذكُرِ الصَّفا والمروةَ في القرآنِ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، كُنَّا نطوفُ بالصَّفا والمروةِ، وإنَّ اللهَ أنزَلَ الطوافَ بالبيتِ فلمْ يذكُرِ الصَّفا، فهل علينا من حَرَجٍ أن نطوفَ بالصَّفا والمروةِ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ الآيةُ. قال أبو بكرٍ: فأسمعُ هذهِ الآيةَ نزلتْ في الفَريقيْنِ كِلَيهما، في الَّذين كانوا يَتحرَّجونَ أن يَطوفوا بالجاهليةِ بالصَّفا والمروةِ، والذينَ يَطوفونَ ثم تَحرَّجوا أن يَطوفوا بهما في الإسلامِ؛ من أَجْلِ أنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ بالطَّوافِ بالبيتِ، ولم يذكُرِ الصَّفا، حتى ذَكرَ ذلكَ بعدَما ذكرَ الطَّوافَ بالبيتِ))[1].

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾.

أي: إنَّ السَّعي بين الصَّفا والمروة من معالم الدِّين الظاهِرة، التي شرَعها الله تعالى لعباده في الحجِّ[2].

وفي حديث جابرٍ الطويلِ في صِفة حَجَّة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، قال رضي الله عنه: ((ثمَّ خرَج من الباب إلى الصَّفا، فلمَّا دنا مِن الصَّفا قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ أبدأُ بما بدأَ اللهُ به، فبدأ بالصَّفا، فرقِيَ عليه))[3].

﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

(١) رواه البخاريُّ (١٦٤٣)، واللَّفظ له، وروى مسلمٌ بعضَه (١٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧١-٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦).

(٣) رواه مسلم (١٢١٨).

أي: مَن قصَد البيت الحرام لأداء مناسك الحجِّ، أو العمرة، فلا يَتحرَّجَنَّ من الطواف بين الصَّفا والمروة؛ لشُبهة أنَّه من أفعال الجاهليَّة وأنَّهم كانوا يُعظِّمونهما، ويطوفون بينهما(١).

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: مَن أتى بالطَّاعات المفروضة والمستحبَّة وازداد منها، فلْيعلمْ بأنَّ الله تعالى سيُجازيه بإحسانه؛ لأنَّ الله شاكِر لا يُضيع أجْرَ محسِن، عليمٌ لا يَخفى عنه إحسانُه(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾.

أي: إنَّ عُلماءَ اليهود والنَّصارى الذين أخْفَوا عن النَّاس ما في التَّوراة والإنجيل، من دَلائل إثبات مَبعث النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وبيان صِفاته، الذي بيَّنه الله تعالى فيهما بوضوحٍ تامٍّ.

وهذه الآية تعمُّ كلَّ مَن كتَم عن النَّاس ما أوْضحَه الله تعالى في القرآن من البيِّنات، وهي الأدلَّةُ والبَراهين الواضِحة التي تُظهر الحقَّ وتُثبِته، والهدى- وهو العلمُ النَّافع المرشِد لطريق الحقِّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٢٩)، ((جامع المسائل)) لابن تيميَّة (١/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦).

(٢) يُنظر: ((شرح عمدة الفقه-كتاب الطهارة والحج)) لابن تيميَّة (٣/ ٦٣٢-٦٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٦٤-٦٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٨٥-١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٢٩-٧٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٣١)، ((النبوات)) لابن تيميَّة (٢/ ٦٤٠-٦٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧). =

﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾.

أي: يطردُهم الله عزَّ وجلَّ من رحمته، ويطلُب اللاعنون من الله تعالى أن يلعنَهم، واللاعنون قيل: هم الملائكة والمؤمِنون[(١)]، وقيل: هم جميعُ الخلائق، حتى البَهائم تلعنهم[(٢)].

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن سُئِلَ عن علْمٍ علِمَهُ، ثُمَّ كتَمَه، أُلجِمَ يومَ القِيامَة بلِجامٍ من نارٍ))[(٣)].

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: ((يقولون: إنَّ أبا هريرةَ يُكْثِرُ الحديثَ، واللهُ الموعدُ! ويقولون: ما لِلمُهاجرين والأنصارِ لا يُحَدِّثون مثلَ أحاديثِه؟! وإنَّ إخوتي مِن المهاجرين كان يَشْغَلُهم الصَّفْقُ بالأسواقِ، وإنَّ إخوتي مِن الأنصارِ كان يَشْغَلُهم عملُ أموالِهم، وكنتُ امرأً مسكينًا، أَلْزَمُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ على مِلءِ بطني، فأَحْضُرُ حينَ يَغِيبون، وأَعِي حين يَنْسَوْن، وقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يومًا: لن يَبْسُطَ أحدٌ منكم ثوبَه، حتى أَقْضِيَ مقالتي هذه، ثم يَجْمَعَه

= وممَّن ذهب من السَّلف إلى أنَّ المقصود بالآية أهل الكتاب: ابن عبَّاس، ومجاهد، وأبو العالية، وقَتادة، والسُّدِّي، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٣٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٣٢-٧٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٦-٤٧).
وممَّن قال من السَّلف بأنَّ المقصود بـ ﴿اللاعنون﴾ الملائكة والمؤمنون: أبو العالية، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٣٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢٨/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦)، وأحمد (٧٥٦١).
حسَّنه الترمذيُّ، وقال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٢١٨): رُواته كلُّهم ثِقات، وحسَّنه مِن هذا الوجه ابنُ كثير في ((طبقات الشافعية)) (١/ ٤٤١)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٦٥٨)، وحسَّنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٣٧٧)، وقال: رجاله رجال الصحيح.

إلى صَدرِه فيَنْسى من مقالتي شيئًا أبدًا، فبَسَطْتُ نَمِرَةً ليس عليَّ ثوبٌ غيرَها، حتى قضى النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مقالتَه، ثم جَمَعْتُها إلى صدْري، فوالذي بعَثَه بالحقِّ، ما نَسِيتُ مِن مقالتِه تلك إلى يومي هذا، واللهِ لولا آيتانِ في كتابِ اللهِ، ما حدَّثْتُكم شيئًا أبدًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾))[1].

وعن حِمران، قال: ((فلمَّا توضَّأ عثمانُ قال: واللهِ لَأُحَدِّثَنَّكم حديثًا، واللهِ لولا آيةٌ في كتابِ اللهِ ما حَدَّثْتُكُموه! إني سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقولُ: لا يتوضأُ رجلٌ فيُحسِنُ وُضوءَه، ثم يُصلِّي الصَّلاةَ، إلا غُفِرَ له ما بينَه وبينَ الصَّلاةِ التي تَلِيها، قال عُروةُ: الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾، إلى قوله: ﴿اللَّاعِنُونَ﴾))[2].

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾.

أي: استثنى الله عزَّ وجلَّ منهم مَن رجَع عن كِتمانه، معترفًا لله تعالى بذنبه، مُصلحًا حالَ نفْسه، مبيِّنًا للنَّاس ما كتَمَه[3].

﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

أي: هؤلاء الذين فعَلوا هذا الذي وصفتُ منهم، هم الذين أَقبل توبتَهم؛ فأنا التوَّاب- أي: كثير التوب- الذي يوفِّق عباده للتوبة أولًا، ويَقبلها منهم ثانيًا، فضلًا

(١) رواه البخاري (٢٣٥٠).

(٢) رواه مسلم (٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٩٦).

منِّي ورحمة، فبِتَوبتي أغفِر لهم المعاصي والسيِّئات، وبِرَحمتي أُيسِّر لهم الطَّاعات والخيرات[١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا لعَن الله الكاتمين؛ واستثنى منهم التائبين، ذكَر المُصرِّين، معبِّرًا عن كتمانهم بالكُفر؛ لتعمَّ العبارةُ كلَّ كُفر، فقال[٢]:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

أي: إنَّ الكفار الذين ظلُّوا على كفرهم حتَّى مماتِهم، ولم يتوبوا[٣].

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يطردُ أولئك الكفَّار من رحمته، وأمَّا الملائكة وجميع النَّاس فيَسألون الله عزَّ وجلَّ أن يُبعدَهم ويطردَهم من رحمته[٤].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾.

أي: هم خالدون أبدًا في هذه اللَّعنة المستَتْبِعةِ للخلود الأَبديِّ في نار جهنَّمَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٣٨-٧٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٩٦-١٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٠٢).

التي لا يَنقُص فيها عذابُهم زمنًا ولا مِقدارًا؛ فهُم في عذابٍ دائمٍ وشديد[١].

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

أي: لا يُمهلون فيُؤخَّر عنهم العذاب[٢].

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾.

أي: إنَّ معبودَكم واحدٌ، لا معبود بحقٍّ سواه، فهو المنفرِد في ذاته وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه جلَّ وعلا، وهو الذي وسعتْ رحمتُه كلَّ شيء، ومن رحمته: أنْ أَوجَد عباده، وعرَّفهم على نفْسه بآياته وآلائِه[٣].

الفوائد التربويَّة:

دلَّ تقييدُ التطوُّع بالخير في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ على أنَّ مَن تطوَّع

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٣).
وممَّن قال بهذا القول من السلف: ابن مسعود ومقاتل. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ١٢٨).
وقيل الضمير يعود على اللعنة والمراد لازمها وأثرها وجزاؤها، وممن ذهب إلى هذا القول: ابن جرير في ((تفسيره)) (٢/ ٧٤٤)، والقرطبي في ((تفسيره)) (٢/ ١٩٠)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٠٣-٢٠٤).
واختار ابن عاشور في ((تفسيره)) (٢/ ٧٣): أنَّ الضمير يعود على جهنم، وجوَّز القول السابق.
وقال السعدي: (﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللعنة، أو في العذاب، وهما متلازمان) ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧).
وعن أبي العالية أنَّه قال في قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: (خالدين في جَهنَّمَ في اللَّعنة) ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٤٥-٧٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٠٧، ٢٠٩).

بالبِدع، التي لم يَشرَعْها الله ولا رسولُه، أنَّه لا يحصُل له إلَّا العناءُ، وليس في هذا التطوُّع خيرٌ له، بل قد يكون شرًّا له، إنْ كان متعمِّدًا، عالِمًا بعدم مشروعيَّة العمل[١].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- قُبْح هذا الكِتمان الذي سلَكه المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾؛ لأنَّه كتمانٌ بعدَ بيان؛ فليس لهم أن يقولوا: (لم نتكلَّم؛ لأنَّ الأمر مشتبهٌ علينا)؛ فالإنسان الذي لا يَتكلَّم بالشيء لاشتباه الأمْر عليه قد يُعذر، لكن الذي لا يَتكلَّم مع أنَّ الله بيَّنه للناس يكون هذا أعظمَ قُبحًا -والعياذ بالله[٢].

٢- في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[البقرة: ١٦١]، جاء ذِكرُ لعنة الملائكة والنَّاس- مع أنَّ لعنة الله وحده كافيةٌ في خزيهم ونكالهم- قد يكون لبيان أنَّ جميع مَن يعلم حالهم من العوالِم العلويَّة والسُّفليَّة يراهم محلًّا للعنة الله ومقْته، فلا يُرجى أن يَرأف بهم رائِف، ولا أن يَشفَع لهم شافِع[٣].

٣- أنَّ الكافر يلعنه الكافِر؛ لقوله تعالى: ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ وقد أخبَر الله تعالى عن أهل النَّار أنَّه كلَّما دخلتْ أُمَّة لعَنتْ أُختها، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٦] إلخ؛ فالكافِر- والعياذ بالله- ملعونٌ حتَّى ممَّن شاركه في كُفره[٤].

بلاغة الآيات:

١- **قوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾** فيه تأكيدُ الجملة بـ(إنَّ)؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٢/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٠٤).

المخاطبَين متردِّدون في كونهما من شعائر الله، وهم أميلُ إلى اعتقاد أنَّ السَّعي بينهما من أحوال الجاهليَّة[١].

٢- قوله: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

- تذييلٌ لِمَا أفادته الآية من الحثِّ على السَّعي بين الصفا والمروة، ومقصده: الإتيان بحُكمٍ كلِّيٍّ في أفعال الخيرات كلها من فرائض ونوافل، أو نوافل فقط، فليس المقصود من ﴿خَيرًا﴾ خصوص السعي؛ لأنَّ ﴿خيرًا﴾ نكرة في سياق الشَّرط، فهي عامَّة؛ ولهذا عُطِفت الجملة بالواو دون الفاء؛ لئلَّا يكون الخيرُ قاصرًا على الطوافِ بين الصفا والمروة[٢].

- وخُتمت الآية بصِفتين مناسبتَينِ، ووقعتَا الموقع الحَسَن؛ لأنَّ التطوُّع بالخير يتضمَّن الفعل والقصد، فناسَب ذكر الشُّكر باعتبار الفعل، وذِكر العِلم باعتبار القَصد[٣].

٣- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ فيه التعبير بالفعل المضارع في ﴿يَكْتُمُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم في الحال كاتمون للبيِّنات والهدى، ولو وقَع بلفظ الماضي لتوهَّم السامعُ أن المعنيَّ به قومٌ مضَوْا، مع أنَّ المقصود إقامة الحُجَّة على الحاضرين[٤].

٤- في قوله: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾

- اختير اسم الإشارة للبعيد (أُولَئِكَ)؛ ليكون أبعثَ للسامع على التأمُّل فيهم، والالتفات إليهم، أو تحقيرًا لهم؛ لبُعدهم عن رحمة الله تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٦٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٦٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٧).

- وإبراز الخبر في صورة جملتين مع تكرير الفِعل ﴿يَلْعَنُهُم﴾؛ للتوكيد والتعظيم، وأتى بالفِعل المضارع ﴿يَلْعَنُهُم﴾ المقتضي للتجدُّد؛ لتجدُّد مقتضيه، وهو قوله تعالى: ﴿يَكْتُمُونَ﴾[١].

- وفي قوله تعالى: ﴿يَلْعَنُهُمُ اللهُ﴾ التفات، وكان السِّياق يَقتضي بأن يقول: (نلعنهم)، ولكنَّه التفت إلى الغائب؛ للدَّلالة على إظهار السخط عليهم، وليكون الكلام أوغلَ في إنزال اللَّعْن عليهم، وإلحاق الطَّرد بهم، وإبراز اسم الجلالة بلفظ ﴿الله﴾ فيه مِن الفخامة ما لا يكون في الضَّمير[٢].

٥- في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ قُرِنَتِ الجملة ﴿فَأُولَئِكَ...﴾ بالفاء- التي تكون للتعقيب مع السُّرعة-؛ للدلالة على شيءٍ زائد على مفادِ الاستثناء، وهو أنَّ توبتهم يَعقبُها رِضَا الله عنهم[٣].

٦- قوله: ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

- اعتراضٌ تذييليٌّ محقِّقٌ لمضمون ما قبْله[٤].

- وفيه التفاتٌ من الغَيْبة إلى التَّكلُّم؛ وفي هذا الالتفات تلويحٌ ورمزٌ إلى اختلاف المبدأ في فِعْليهِ تعالى السَّابقِ واللَّاحِقِ[٥].

- وجيء بالجُملة الاسميَّة؛ لدَّلالتها على الثَّبات والاستقرار؛ ليكونوا غيرَ آيِسين من التوبة، بخِلاف قوله: ﴿يَلْعَنُهُمُ اللهُ﴾، فالمقصود التجدُّد[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٦٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٨٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٨٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢٢١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٧٤).

٧- **قوله:** ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فيه ترتيبٌ بديع؛ حيث بدأ تعالى بنفسه، وناهيك بذلك طردًا وإبعادًا؛ ولأنَّ لعنةَ الله هي التي تجرُّ لعنة الملائكة والناس. ثم ثنَّى بالملائكة؛ لِمَا في النفوس من عِظم شأنهم، وعلوِّ منزلتهم وطهارتهم. ثم ثلَّث بالناس؛ لأنَّهم من جِنسهم، فهو شاقٌّ عليهم[(١)].

٨- **قوله:** ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فيه إضمار النار قَبل الذِّكر؛ تفخيمًا لشأنها وتهويلًا، أو اكتفاء بدَلالة اللَّعن عليه[(٢)].

٩- **قوله:** ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ فيه توكيد لمعنى الوحدانية، ونفْي الإلهيَّة عن غيره. بنفي كلِّ فردٍ من الآلهة، ثم حصْر ذلك المعنى فيه تبارك وتعالى، فدلَّ قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ على نِسبة الواحديَّة إليه تعالى، ودلَّ قوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ على حصر الإلهية فيه من اللفظ الناصِّ على ذلك، وإن كانت الآية الأولى تستلزم ذلك؛ لدفع توهُّم وجود إلهٍ غيرِه، فأكَّده بقوله: ﴿لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وحُقَّ لهذا المعنى أن يكون مؤكَّدًا، وتُكرَّر عليه الألفاظ؛ إذ هو مبدأ مقصود العِبادة ومُنتهاه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢١٠)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٨٣). وهذا بناءً على القول بأنَّ الضَّمير في (فيها) يعودُ على النَّار، وأمَّا على القول بعودِه على اللَّعنة، فليس فيه هذا الوجه.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٧٥).

الآيات (١٦٤-١٦٧)

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿الْفُلْكِ﴾: السُّفن، وواحده وجمْعه بلفظٍ واحد، وأصل الفَلَك: الاستدارةُ في الشَّيء، ولعلَّ السُّفن سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدار في الماء[١].

﴿بَثَّ﴾: فرَّق ونشَر[٢].

﴿الْمُسَخَّرِ﴾: المُذلَّل، وَالمُيسَّر[٣].

﴿أَنْدَادًا﴾: أمثالًا، ونُظراء مُناوئين، وشركاء[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ٤٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٩/ ٢١٦).

﴿تَبَرَّأَ﴾: تَباعَد وفارَق، ولـ(بَرَأَ) أصلانِ ترجع إليهما فروع معانيه؛ الأوَّل: التقصِّي ممَّا يُكره مجاورتُه، والتباعُدُ من الشيءِ ومزايلتُه، ومنه: البُرء والبَراء والتَّبرِّي والتبرُّؤ. الثاني: الخَلْقُ؛ يُقالُ: بَرَأَ اللهُ الخَلْقَ يَبرؤُهم بَرْءًا[١].

﴿الْأَسْبَابُ﴾: أي: الوصلاتُ، وأصل (سَبَب): الحَبْل يشدُّ بالشَّيْء فيجذب به، ثمَّ جُعِل كلُّ ما جرَّ شَيْئًا (سَببًا)، وسُمِّي كلُّ ما يُتوصَّل به إلى شيءٍ (سببًا)[٢].

﴿كَرَّةً﴾: رَجْعَة إلى الدُّنيا، والكَرُّ: الرُّجوع إلى الشَّيءِ بعدَ المرَّة الأولى، والعطف عليه بالذَّات أو بالفِعل[٣].

﴿حَسَرَاتٍ﴾: الحسراتُ جمْع حَسْرة، وهي أشدُّ النَّدامة على ما فاتَ ولا يُمكن ارتجاعُه؛ والغمُّ عليه، وأصل (حسر): كَشْف الشَّيْء؛ ومِنه الحَسرة، كأنَّه انحسرَ -انكشَف- عنه الجهلُ الذي حمَله على ما ارتكبَه، أو انحسَر قواه من فَرط غمٍّ، أو أدركه إعياءٌ مِن تدارُك ما فرط منه[٤].

المعنى الإجمالي:

عدَّد الله سبحانه وتعالى في مَطلع هذه الآيات بعضًا مِن نِعمه العظيمة، وآلائه الجَزيلة، مخبرًا أنَّ فيها أدلَّةً واضحة، وعلاماتٍ بيِّنة على وَحدانيته جلَّ وعلا، وعلى

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

كمال صِفاته، لكنَّ هذه الدلائلَ والعلامات يَعيها مَنْ مَنَّ الله عليه بعقلٍ يتدبَّر به، فيَفهَم مقصود الله عزَّ وجلَّ منها.

وتِلك النِّعم التي عدَّدها الله عزَّ وجلَّ هي إنشاؤه السَّمواتِ والأرضَ، وما أودَع فيها من العجائب، والتعاقُب الدَّائم لليل والنَّهار، بحيث لا يتَّأخر أحدُهما عن الآخَر، واختلافهما ضِياءً وظُلمة، وحرًّا وبردًا، وطولًا وقِصرًا، والسُّفن التي تشقُّ البحرَ متنقلةً عبرَه من مكان لآخَر بما يعود نفعُه على النَّاس، والمطر الذي أنزله الله سبحانه وتعالى من السَّحاب، والذي بسببه أنبتت الأرض بعدَ أنْ كانت مجدبة، ونشرْه سبحانه في أنحائها الدَّوابَّ بمختلف أنواعها وأشكالها، وتنويعه الرِّيح ركودًا وهبوبًا، وجعْلها تهبُّ من اتجاهات عِدَّة، واختلافها في الشِّدَّة والضَّعف، والنَّفع والضر، وتذليله سبحانه السَّحابَ بين السَّماء والأرض لمصالح خَلْقه.

ثم ذكَر سبحانه أنَّ صِنفًا من النَّاس جعَلوا من بعض خَلق الله نُظراءَ له، يُساوونهم به في المحبَّة، فيُحبُّون هؤلاء النظراءَ كما يحبُّون الله، وأخبر أنَّ الذين آمَنوا حقًّا أكثرُ حبًّا لله من محبَّة هؤلاء لله تعالى وللأنداد.

ثم خاطَب اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لو أبصرَ حال هؤلاء الذين اتَّخذوا الأندادَ مع اللهِ يُحبُّونهم كحُبِّه، وأبصروا هم أيضًا حالَهم تلك، حين يُعاينون عذابَ الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامة، فيَتيقَّنون أنَّ القوةَ والقدرة كلَّها لله تعالى وحده، وأنَّ ما أعدَّه الله من العذاب لِمَن يستحقُّه ممَّن كفر به أو أشرك لشديدٌ.

ويتبرَّأ المتبوعون على الشِّركِ والكفرِ والضلالِ ممَّن اتَّبعهم حين يُعاينون عذابَ الله تعالى، ويتيقَّن الأتباعُ حين يُعاينون العذاب كذلك، أنَّهم سيُعذَّبون فيها لا محالةَ، وتتقطَّع كلُّ وسيلة تمسَّكوا بها من قبلُ للنجاة، ومنها جعْلهم للهِ نُظراءَ يُساوونه بهم في المحبَّة، ويسقط الجميعُ في النار.

ويَتمنَّى حينها الأتباعُ لو تَسنح لهم فرصةٌ أخرى للرُّجوع إلى الدُّنيا؛ ليتبرَّؤوا من هؤلاء المتَّبَعين الذين خذَلوهم وتبرؤوا منهم، بعدَ أنِ اتَّخذوهم أندادًا من دون الله، لكن الله أخبَرَ أنَّه يُريهم أعمالهم الخبيثةَ كما أراهم العذابَ؛ ليتحسَّروا ويندموا، ويُعاتِبوا أنفسَهم: لِمَ فعَلوها، ولِمَ لمْ يَعملوا أحسنَ منها، لكن هذا التحسُّر والندم لا يُفيدهم شيئًا؛ فإنَّهم باقون في النار غير خارجين منها.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

وقَعتْ هذه الآية موقعَ الحُجَّة مِن الدَّعوى؛ فإنَّه لَمَّا ذكر تعالى أنَّه واحد، وأنَّه منفرد بالإلهيَّة، لم يَكتفِ بالإخبار حتى أورد دلائلَ الاعتبار، ثم مع كونها دلائلَ، هي نِعم كذلك من الله على عباده، فكانت أوضحَ لِمَن يتأمَّل، وأبهرَ لِمَن يَعقل؛ إذ التنبيه على ما فيه النَّفع باعثٌ على الفِكر، فقال تعالى[1]:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ في إنشاء السَّموات والأرض وابتداعهما، وما أودَع الله تعالى فيهما من العَجائب[2].

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

أي: تعاقبِها الدَّائم، بحيث يَجيء أحدُهما، ثم يذهب، ويخلُفه الآخَر مباشرةً دون

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨).

أن يتأخَّر عنه لحظة، وكذا اختلافهما في الضِّياء والظُّلمة، والحرِّ والبَرد، والطُّول والقِصَر[١].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾.

أي: السُّفن التي تَسير في البحر، فيَنتفع النَّاسُ بالتنقُّل عبْرَها من مكان لآخَر، وبجلْب البضائع، وصَيد الأسماك، وغير ذلك[٢].

﴿وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

أي: المطر الذي أنزله الله تعالى من السَّحاب، فأنبتتْ بسببه الأرضُ بعدَ أن كانت قاحلةً مُجدِبةً[٣].

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾.

أي: نشَر في أقطارِ الأرض جميعها، كلَّ ما يمشي على وجهِها من مختلف أنواعِ الحيوان[٤].

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾.

أي: تَنويعِها في الركود والهُبوب، وفي الاتِّجاه، والشِّدَّة والنَّفع، فتهبُّ من عِدَّة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٧٨-٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨-٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٨٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١١-١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١٢-٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩).

اتجاهات، وتختلف شِدَّةً وضعفًا، ونفعًا للنَّاس، أو هلاكًا وضرًّا[١].

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: السَّحاب الواقِع في جوِّ السَّماء، المذلَّل بأمْر الله تعالى لمصالح الخَلْق[٢].

﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي: في تِلك الأمور المذكورة، علاماتٌ ودَلالات واضحةٌ على وَحدانية الله تعالى، وعلى كمال صِفاته، وعظيم أفعاله، ولكن لِمَن لديه عقلٌ رشيد، يتدبَّر به، ويَفهم عن الله تعالى مقصودَه[٣].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن الله عزَّ وجلَّ وحدانيته وأدلَّتها القاطعة، وبراهينها السَّاطعة، الموصلة إلى عِلم اليقين، المزيلة لكل شكٍّ، ذكَر هنا أنَّه مع هذا البيانِ التامِّ يوجد من الناس مَن لا يؤمن بوحدانية الله تعالى، فقال[٤]:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٨٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١٨-٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩).

أي: إنَّ بعض النَّاس يجعَلون من بعض الخَلق نُظَراءَ لله سبحانه، بمساواتهم معه في المحبَّة، فيحبُّونهم كما يحبُّون الله تعالى[١].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

أي: إنَّ المؤمنين أشدُّ حبًّا لله عزَّ وجلَّ من محبَّةِ أولئك لله تعالى ولأندادهم[٢].

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿يرى﴾ قراءتان:

١- (تَرَى) ومعناها: ولو ترَى يا محمَّد هؤلاء المشركين عند رُؤيتهم العذابَ[٣].

٢- (يَرَى) ومعناها: ولو رأى الذين كانوا يُشركون في الدنيا عذابَ الآخرة[٤].

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾.

أي: لو عاينتَ يا محمَّدُ، حالَ هؤلاء الَّذين نَقَصوا اللهَ تعالى حقَّه، ونَقَصوا

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيميَّة (٢/ ٢٥٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩-٨٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢١-٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيميَّة (٢/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢٣).

(٣) قرأ بها ابنُ عامر ونافع. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٤٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زَنْجلَة (ص: ١١٩، ١٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢١٢).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٤٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زَنْجلَة (ص: ١١٩، ١٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢١٢).

أنفسهم حقَّها باتِّخاذهم أندادًا يُحبُّونهم كحبِّهم لله، وعاينوا هم أيضًا حالهم تلك، حين يرون عذابَ الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامة فيَعلمون حينها يقينًا أنَّ القوة والقدرة كلَّها لله تعالى وحده، ويَعلمون شِدَّة عذابه لِمَن كفَر أو أشرك به، وأنه ليس للأنداد التي اتَّخذوها شيءٌ من تلك القدرة الإلهيَّة؛ فيتبيَّن لهم عندئذٍ عَجزُها وضعفُها، وأنَّها لا تدفع عنهم ضرًّا، ولا تجلب لهم نفعًا(١).

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)﴾.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾.

أي: أخبر اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ المتبوعين على الكفر والشرك والضلال، يتبرَّؤُون حين يعاينون عذاب الآخرة ممَّن اتبعهم واتخذهم أندادًا يحبهم كحبه لله تعالى، ويتنصَّلون منهم ومن عبادتهم لهم(٢).

كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٤-٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٩٦-٩٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢٨-٢٢٩).
وممَّن ذهب إلى عموم المتَّبعين فيدخل فيهم الملائكة والأنبياء والصالحون وغيرهم: ابن عطية في ((تفسيره)) (١/ ٢٣٥-٢٣٦)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٤٧٧).

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[سبأ: ٣١-٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾[الكهف: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[الأنعام: ٩٤].

﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

أي: عايَن الأتباعُ عذابَ جهنَّم، وأيقَنوا أنهم وارِدوها، لكن لا حيلةَ لهم للفرار منها، وانقطعت كلُّ وسيلةٍ تشبَّثوا بها من قبلُ للنجاة؛ كاتخاذِهم أندادًا يساوونهم بالله تعالى في محبَّتِه، انقطعت بهم انقطاعًا شديدًا، فسقط الجميعُ- أتباعًا ومتبوعين- هالكينَ في النَّار[1].

كما قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾[الكهف:٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩-٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٩٧-٩٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢٨-٢٢٩).

خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا﴾.

أي: تمنَّى أتباعُ الضَّلالة نادمينَ أنْ لو كانت لهم فرصةٌ أخرى للرُّجوع إلى الدُّنيا دارِ العمل؛ لِيتمكَّنوا فيها من التبرُّؤ ممن اتَّخذوهم أندادًا، ولِيُخلِصوا المحبَّةَ والعملَ لله تعالى وحده، ولِيَشْفوا غيظَ قلوبهم من مَتْبوعيهم الذين تبرَّؤوا منهم وخذَلوهم[(١)].

كما قال سبحانه: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٩١-١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨].

﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: أخبَرَ الله تعالى عن شُعورِهم بالنَّدم الشَّديد حين انكشف لهم خُبثُ أعمالِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣١-٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٧-٤٧٨)، ((تفسير السَّعدي)) (ص: ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٦).

وتفريطُهم في جَنْبِ الله تعالى، وقد تبيَّن لهم يقينًا أنَّ ما رأَوْه مِن عملِهم في الدنيا خيرًا قد تلاشى واضمحلَّ هباءً منثورًا، كسرابٍ من الأوهام تعلَّقوا به للنَّجاة، وحين أتَوْه لم يرَوْا من أعمالهم شيئًا، عدا أثرها مِن الحسَرات والعقوبات[١].

﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الذين وصَف الله تعالى حالَهم، لا يَنفعُهم تحسُّرُهم وندمُهم؛ فهم باقون في النَّار، غيرُ خارجينَ منها إلى غيرِ حدٍّ ولا نهاية[٢].

الفوائد التربويَّة:

كلَّما تدبَّر العاقلُ في هذه المخلوقات، وتغلغل فِكرُه في بدائع المبتَدَعات، وازداد تأمُّله للصَّنعة، وما أودع فيها مِن لطائف البِرِّ والحِكَم الباهرات- علِم بذلك أنَّها خُلِقت للحقِّ وبالحقِّ، وأنَّها صحائفُ آيات، وكتُب دلالات[٣].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾، دلالةٌ على أنَّ محبَّةَ الله سبحانه مِن العبادة؛ لأنَّ اللهَ جعَل مَن سوَّى غيرَه به فيها مشرِكًا متَّخذًا لله ندًّا؛ فالمحبَّةُ مِن العبادة، بل هي أساس العبادة؛ لأنَّ أساس العبادة مبنيٌّ على الحبِّ والتَّعظيم[٤].

٢- أنه كلَّما ازداد إيمانُ العبد ازدادت محبَّتُه لله؛ وذلك لأن اللهَ سبحانه وتعالى رتَّب شدَّةَ المحبَّةِ على الإيمان فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، وقد عُلِم أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٢-٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢٥).

الحُكْم إذا عُلِّق على وصفٍ فإنَّه يقوى بقوةِ ذلك الوصف، وينقُصُ بنقصِه؛ فكلما ازداد الإنسانُ إيمانًا بالله عزَّ وجلَّ ازداد حبًّا له[١].

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾

- التأكيد بـ﴿إِنَّ﴾ هنا للاهتمام بالخبَر؛ للفت الأنظار إليه، ويُحتمل أنهم نُزِّلوا منزلةَ مَن يُنكر أن يكونَ في ذلك آياتٌ لقوم يعقلون؛ لأنَّهم لم يجروا على ما تدلُّ عليه تلك الآيات[٢].

- وفي الآية: ترتيبٌ بديع في الذِّكر لهذه الدَّلائل والنِّعم؛ حيث بدأ أولًا بخلق السَّموات والأرض، ثم ثنَّى بذِكر ما نشأ عن العالَم العُلوي، ثم أتى ثالثًا بذِكْر ما نشأ عن العالم السُّفلي، ثم أتى بالمشترَك، ثم ختَم ذلك بما لا تتمُّ النِّعمة للإنسان إلَّا به[٣].

٢- في قوله: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ جعل الصِّفة موصولًا ﴿الَّتِي﴾ صِلتُه ﴿تَجْرِي﴾ بصيغة المضارع؛ للدَّلالة على تجدُّد ذلك الوصف لها في كلِّ وقت يُراد منها، وذكر مكان تلك الصِّفة ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ على سبيل التوكيد؛ إذ مِن المعلوم أنَّها لا تجْري إلَّا في البحر[٤].

٣- في قوله: ﴿لَآيَاتٍ﴾ جاء التَّنكير للتفخيم كمًّا وكيفًا، أي: عظيمة كثيرة[٥].

٤- قوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٨٣ - ٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٥٩).

- فيه حذْف جواب (لو)؛ لقصْد التَّفخيمِ وتهويلِ الأمْر؛ لتذهبَ النفسُ في تصوير العذاب كلَّ مذهب ممكن، ولبيان أنَّه حصَل منهم إذ عاينوا العذابَ يوم القيامة ما لا يدخُل تحتَ الوصف من النَّدم والحسْرة، ووقوع العِلم بظلمهم وضَلالهم[(١)].

٥- **قوله:** ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ**﴾ جيء بالفِعل بعد ﴿**إِذ**﴾ هنا ماضيًا، مع أنَّه سيحصُل في الآخرة، وهو مستقبلٌ في المعنى؛ للتَّنبيه على تحقُّق وقوعه[(٢)].

٦- **قوله:** ﴿**وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾ عدَل عن الجملة الفِعليَّة (وما يخرجون) إلى الجملة الاسميَّة؛ للمبالغة في الخلود، والإقناطِ من الخَلاص والرُّجوع إلى الدنيا، وللدَّلالة على أنَّ هذا الحُكم ثابتٌ، وأنه من صفاتهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٩٠)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٩٤-٩٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٠).

الآيات (١٦٨-١٧٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾.

غريب الكلمات:

﴿الْفَحْشَاءِ﴾: ما عظُم قبُحه وفحُش، مِن الأفعال والأقوال[١].

﴿أَلْفَيْنَا﴾: وجْدنا[٢].

﴿يَنْعِقُ﴾: يَصيح؛ يقال: نعَق بالغنمِ يَنعِق بها إذا صاح بها، فلا تَدري ما يقول لها، إلَّا أنَّها تنزجر بالصَّوت عمَّا هي فيه[٣].

﴿اضْطُرَّ﴾: أُلْجِئَ، والاضْطِرَارُ: يُطلق على حمْل الإنسانِ على ما يَضُرُّهُ وما يكرهه، إمَّا بسببٍ خارج؛ كمَن يُضرَب، أو يُهدَّد، حتى يفعلَ منقادًا، ويُؤْخَذ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

قهرًا، وإمَّا بسببٍ داخل؛ كالقهر بقوَّةٍ يناله بدفعها الهلاك، كمَن اشتدَّ به الجوعُ فَاضْطُرَّ إلى أكْل ميتة[١].

﴿غير بَاغٍ﴾: غير طالبٍ ما ليس له طلبُه[٢].

﴿وَلَا عَادٍ﴾: وَلَا متجاوزٍ الحَدَّ[٣].

المعنى الإجمالي:

يأمُر اللهُ جميعَ البَشر المؤمنَ منهم والكافرَ أنْ يأكلوا مِن كلِّ ما في الأرض نباتًا كان أو حيوانًا إذا توفَّر فيه شرطانِ: أنْ يكونَ ممَّا أحلَّه اللهُ، وأنْ يكون طاهرًا لا ضرَرَ فيه.

ونهاهم أنْ يتَّبِعوا خُطُوات الشيطان؛ وذلك بطاعتِه في تحريمِ ما أحلَّ اللهُ، أو تحليلِ ما حرَّم من المآكل، فإنَّه عدوٌّ لهم، ظاهرُ العداوة، لا يمكن أنْ يريدَ لهم نفعًا، بل يأمُرُهم بكل سيِّئٍ من الأعمال، وبجميع القبائحِ التي بلَغت في القُبح منتهاها، وأن يفتَرُوا على الله الكذبَ؛ باختلاقِ أفعالٍ باطلة، ونِسبتها إلى الله عزَّ وجلَّ بلا علم؛ كتحريمِ الحلالِ، وتحليل الحرام من المأكولات.

ويُخبِر تعالى عن المشركين أنَّهم إذا أُمِروا بالالتزام بما جاء مِن عندِ الله، وأن يكونَ ما يحلُّونه ويحرِّمونه على وَفْقِ الشَّريعة المنزَّلة، كان جوابهم أنَّهم لن يتَّبِعوا إلا ما وجَدوا عليه أسلافَهم، بما فيه من تحليلٍ وتحريم مخالفٍ لِما أراد الله، فأنكَر اللهُ عليهم هذه التبعيَّةَ والتَّقليد الأعمى، فكيف يتَّبِعون آباءهم وهم على حالٍ لا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

تؤهِّلُهم لأنْ يُتَّبعوا؛ فهم لا عقلَ لهم يُرشِدهم إلى الحق، ولا يحمِلون العِلم النَّافع الذي يقوِّم عمَلَهم، ويُنِير طريقهم.

ثم ضرَب الله مثلًا للكفَّار حين يدعوهم الداعي إلى الإيمان، ولا ينتفعون بما يَسمعونه منهم، فمَثَلهم كالبهائمِ التي يُصوِّت لها الراعي ويَصيح بها فتَسمع صوتَه ولا تَفهم ما يقول، فكذلك هؤلاء الكفَّار لَمَّا لم تُؤمن قلوبُهم أولَ مرة، تعطَّل انتفاعهم بحواسِّهم، فلا يسمعون الحقَّ سماعَ فَهم وقَبول، ولا يتكلَّمون به، ولا يُبصرون سبيله، فينتج عن ذلك أنَّهم لا يعقلون شيئًا من الحق.

ثم يأمر اللهُ تعالى المؤمنين أن يكونَ مأكولهم هو الطَّاهِرَ النافع من المطعومات، التي رزقهم إيَّاها، وأنْ يقوموا بشكره جلَّ وعلا بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، فإنْ كانوا ملتزمين بالخضوعِ والطاعةِ لله عزَّ وجلَّ وحْدَه، فسيَمتثِلون هذين الأمرين.

وبَعدَ أنْ ذكَر اللهُ تعالى إباحةَ الأكْل الطيِّب لعباده، عدَّد لهم أجناس المحرَّمات؛ ليجتنبوها، فحرَّم تعالى لحومَ الأنعام التي ماتتْ حتفَ أنفها، ولم تُذكَّ ذكاةً شرعيَّة، والدَّمَ المسفوح، ولحم الخنزير، وما ذُبِحَ على غير اسم الله تعالى، كالذي يُذبَح للأوثان، ويُسمَّى عليه بغير اسمه سبحانه، مع الجهر بذلك، ويُستثنى من تحريم أكْلها مَن ألجأته ضرورةٌ إلى الأكل منها، غيرَ مُتجاوزٍ للقَدْر الذي يَدفَع به الضرورة، فمَن كانت هذه حالتَه، فلا إثمَ عليه لو تناول منها، والله عزَّ وجلَّ غفورٌ، حيث رفع الإثم عنه، رحيمٌ حين وسَّع لعباده وشرَع لهم هذا الاستثناء؛ حتى لا يقعوا في الحرَج.

تفسير الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

يُخاطب اللهُ تعالى جميع النَّاس؛ مؤمنهم وكافرهم، آذِنًا لهم بأن يأكلوا مِن جميع ما في الأرض من نباتاتٍ وحيوانات، بشرْط أنْ يكونَ حلالًا، وطاهرًا غيرَ ضارٍّ(١).

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

أي: لا تسلكوا طريقَ الشَّيطان، ولا تَقتفوا أثرَه الذي أضلَّ فيه أتْباعه، وهو ما دعا إليه ممَّا هو خلاف طاعة الله عزَّ وجلَّ، ومن ذلك: تحريمُ ما أحلَّ اللهُ تعالى من المآكل، وتحليلُ ما حرَّم منها، والدَّعوة إلى تناوُل خبيثها، وتَرْك طيِّبها، لا تُطيعوا هذا العدوَّ الظاهر العدواة، الذي يُريد أنْ يقودَكم شيئًا فشيئًا إلى التَّهلُكة(٢).

كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٠-١٤٢].

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)﴾.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾.

أي: إنَّ الشيطانَ يأمُرُ بالأعمال السيِّئة الآثِمة التي تسُوءُ عاقبتُها، وتسُوء صاحبَها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٧/ ٤٥-٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٨).

كما يأمُرُ أيضًا بما هو أغلظ من ذلك مما يتناهى قُبحُه، ويتجاوزُ حدَّه كالزِّنا[١].

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: يأمُرُ الشَّيطانُ النَّاسَ أيضًا باختلاقِ أعمالٍ باطلة تُنسب مشروعيَّتُها إلى الله عزَّ وجلَّ، كذِبًا وافتراءً عليه جلَّ وعلا، وإلا فليس لهم مستنَدٌ مِن علمٍ صحيحٍ يُثبتُ أمرَ اللهِ تعالى بها، ومن ذلك تحريمُ ما أحلَّ الله تعالى، أو تحليل ما حرَّمه مِن المأكولات[٢].

كما قال سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٤-١١٦].

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧-٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٩-٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٤-١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٠-٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٥).

يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢-٣٣].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾.

أي: إذا قيل للمشركين: التزِموا باتِّباع الوحيِ الإلهيِّ فحسبُ؛ فأحِلُّوا حلالَه، وحرِّموا حرامَه، دون التَّقوُّلِ على الله تعالى بلا عِلمٍ واتِّباعِ الأوهام[١].

﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.

أي: أعرَضوا عن الوحي، وهو العلم النَّافع حقًّا، وأخَذوا بما وجَدوا عليه أسلافهم، فقلَّدوهم فيه، ومن ذلك تحريمُ ما أحلَّ اللهُ تعالى، وتحليلُ ما حرَّمه[٢].

﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

أي: أيتَّبعون آباءَهم حتى لو كانوا على هذه الحالِ التي لا يستحقُّون أنْ يُتَّبعوا فيها؛ إذ ليس لديهم عقلٌ سليم يُرشِدهم إلى اتِّباع الحقِّ، ويزجُرُهم عن اتِّباع الباطل، ولا يحمِلون عِلمًا نافعًا يعمَلون على وَفْقِه عملًا صالحًا؛ فكيف يتَّبعون هؤلاء ومِثْلُهم لا يصلُحُ أنْ يُقتدى بهم[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٣-٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٤٢-٢٤٣).

كما قال سبحانه: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣-١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢٠-٢١].

وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠].

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾.

أي: شبَّه اللهُ تعالى الكفَّارَ عند دعوة الدَّاعي لهم إلى الإيمان -كالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ- شبَّههم بالبهائمِ التي يصوِّت لها راعيها، فتسمَعُ الصَّوت ولا تفهَمُ المعنى، فكذلك حالُ الكفَّارِ الَّذين لا ينتفعون مِن تلك الدَّعوة بشيء، لكنَّهم يسمعون ما تُقام عليهم به الحجَّة(١).

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

أي: إنَّ قلوبهم لَمَّا لم تؤمن، تعطَّل انتفاعهم الحقيقي بحواسِّهم تبعًا لذلك، فلا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٠-٥١)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٧/ ٢٧) (١٦/ ٨)، (٢٨/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١).

يسمعون الحق سماع فَهمٍ وقَبول، ولا ينطقون به، ولا يبصرون طريقه، فقلوبهم لا تعقل شيئًا من الحق[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال أيضًا: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢-٤٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا اللهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٠)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٨٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٤٥).

أي: يأمُرُ اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين بالأكل ممَّا أحلَّ اللهُ تعالى لهم؛ من أنواع المطعوماتِ الطَّاهرة النَّافعة، التي رزَقهم إيَّاها، كما أمَرهم أيضًا بالقيام بشُكره؛ بقلوبهم، وألسنتِهم، وجوارحهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨].

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((أيها النَّاسُ، إنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يقبلُ إلا طيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمر المؤمنين بما أمَر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكَر الرجلَ يُطيلُ السَّفرَ، أشعثَ أغبَرَ، يمدُّ يدَيه إلى السَّماءِ، يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعَمُه حرامٌ، ومشرَبُه حرامٌ، وملبَسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يُستجابُ لذلك؟!))[(٢)].

وعن أنسٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إن اللهَ لَيَرضَى عن العبدِ أنْ يأكلَ الأَكْلَةَ فيحمَدَه عليها، أو يشرَبَ الشَّربةَ فيحمَدَه عليها))[(٣)].

﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

أي: إنْ كنتم تُطيعون الله تعالى حقًّا، وتخضَعون له ممتثلينَ لأوامرِه، ومجتنبين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٢-٥٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١٧/ ١٨٠)، (٢٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٠-٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١).

(٢) رواه مسلم (١٠١٥).

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٤).

لنواهيه، فكُلوا ممَّا رزَقكم اللهُ تعالى، واشكروه على ما أنعَم به عليكم[١].

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا قيَّد سبحانه وتعالى الإذنَ لعباده بالطيِّب من الرِّزق، افتقَر الأمرُ إلى بيان الخبيث منه ليُجتَنَب، فبيَّن صريحًا ما حرَّم عليهم ممَّا كان المشركون يستحلُّونه ويحرِّمون غيرَه، وأفهَم حِلَّ ما عداه، وأنه كثيرٌ جدًّا؛ ليزدادَ المخاطَب شكرًا[٢]، فقال:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾.

أي: قد حرَّم الله تعالى عليكم- أيُّها المؤمنون- الميتةَ التي ماتت حتْفَ أنفها دون ذكاةٍ شرعيَّة، والدَّم المسفوح، ولحم الخنزير- ويدخُل فيه شحمُه- وما ذُبح على غير اسم الله عزَّ وجلَّ، كالذي يُذبَح للأصنام، ويُسمَّى عليه بغير اسمه سبحانه، مع رفْع الصَّوت بذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٣، ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨١-٤٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٥).

((تفسير السعدي)) (ص:٨١-٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٦١).

وقال القرطبي: (ذكَر الله سبحانه وتعالى الدَّم هاهنا مطلقًا، وقيَّده في الأنعام بقوله: ﴿مَسْفُوحًا﴾ وحمل العلماء هاهنا المطلَق على المقيَّد إجماعًا، فالدم هنا يُراد به المسفوح؛ لأنَّ ما خالط اللحمَ فغير محرَّم بإجماع، وكذلك الكبد والطِّحال مُجمَعٌ عليه، وفي دم الحوت المزايل له اختلافٌ) ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٢٢).

وقال الواحدي: (معنى ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ قال ابن عباس: ما ذبح للأصنام وذكر عليه غير اسم الله. وهذا قول جميع المفسِّرين) ((التفسير الوسيط)) (١/ ٢٥٧).

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

أي: مَن ألجأتْه الضرورةُ إلى الأكْل من تلك المحرَّمات وهو غير مبتغٍ لتناولِها مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، وغير متجاوزٍ قدْرَ الضَّرورة، فلا يتناول منها إلَّا بمقدارِ ما يسدُّ جوعه، فمَن كانت حاله كذلك فليس عليه إثمٌ مِن تناولِ تلك المحرَّمات[١].

ثم ذكَر تعالى تعليلَ الحُكمِ بانتفاءِ الإثم، فقال[٢]:

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى يَغفِر ذنوبَ عباده، فيسترها ويتجاوز عن المؤاخذةِ بها، ومن ذلك أنَّه رفَع بمغفرته الإثمَ عنهم في تناوُل ما حرَّمه؛ تجاوزًا منه سبحانه، وهو الرَّحيم بعباده، ومن رحمته أنْ شرَع لهم ذلك توسعةً منه[٣].

الفوائد التربويَّة:

١- أن مَن تعصَّب لمذهبٍ مع مخالفة الدليل ففيه شَبَهٌ من هؤلاء المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، والواجب أنَّ الإنسان إذا قيل له: (اتَّبِعْ ما أنزَل اللهُ) أنْ يقولَ: (سمِعْنا وأطَعْنا)[٤].

٢- أن كلَّ مَن خالَف الحقَّ وما أنزَل اللهُ، فليس بعاقل، وليس عنده هدًى؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٨، ٦٢، ٦٣)، ((الاختيارات الفقهية)) لابن تيميَّة (ص: ٦١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٢١-١٢٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣-٦٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٢١-١٢٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٤٣).

لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠][١].

٣- توجيه المرء إلى طلَب الرِّزق من الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ فإذا كان هذا الرِّزق مِن الله سبحانه وتعالى فلنطُلْبه منه، مع فِعل الأسباب التي أمَرنا بها[٢].

٤- أنَّ الشُّكر لله عزَّ وجلَّ من تحقيق العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٣].

٥- وجوب الإخلاص لله في العبادة؛ يُؤخَذ ذلك من اللام في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾، ومِن تقديم المعمول (إيَّاه) في قوله تعالى: ﴿إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٤].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- إثبات رحمةِ الله سبحانه وتعالى بعباده من وجهين: أولًا: من أمرِه إيَّاهم بالأكل من الطيِّباتِ؛ لأنَّ بذلك حِفظًا لصحَّتِهم، ثانيًا: من قوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ فإنَّ الرِّزقَ بلا شكٍّ من رحمة الله[٥].

٢- أنَّ التحريمَ والتحليل إلى الله تعالى؛ فهو حقٌّ خاصٌّ به وحده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾[٦].

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ فيه أنَّ الشِّركَ- وإن كانت نجاستُه معنويَّة- قد يؤدِّي إلى خُبثِ الأعيان؛ إذ هذه البهيمة التي أُهلَّ لغير الله بها نجسةٌ خبيثة محرَّمة، والتي ذُكِر اسمُ الله عليها طيِّبةٌ حلال[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٤٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٤).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٥).

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ذكر (إنَّ) للاهتمام بالخبر؛ لأنَّ عداوةَ الشيطان معلومة لكل أحد، أو تُجعَل (إنَّ) للتأكيد بتنزيل غير المتردِّد في الحُكم منزلةَ المتردِّد أو المنكِر؛ لأنَّهم لاتباعهم الإشاراتِ الشيطانيَّةَ بمنزلة مَن يُنكر عداوته، وهي تُفيد معنى التعليل والربط في مِثل هذا، وتغني غناء الفاء، وهو شأنها بعد الأمر والنهي[١].

٢- **في قوله:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ جاء بناء ﴿قِيلَ﴾ لِمَا لم يُسمَّ فاعله؛ لأنَّه أخصر؛ فلو ذُكِر الآمرون لطال الكلام؛ لأنَّ الآمِر بذلك هو الرَّسولُ عليه الصلاة والسلام ومَن يتبعه من المؤمنين[٢].

٣- **في قوله:** ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾

- الهمزة للاستفهام المصحوب بالتوبيخ والإنكارِ والتقريع، والتعجُّب من حالهم؛ فهي بمعنى الردِّ لا بمعنى النَّفي، وإنَّما جُعلت همزة الاستفهام لذلك؛ لأنَّها تقتضي الإقرارَ بشيءٍ يكون الإقرارُ به فضيحةً، كما يقتضي الاستفهام الإخبارَ عن المستفهَم عنه[٣].

- وهذا التركيب من بديع التَّراكيب العربيَّة وأعلاها إيجازًا؛ فـ(لو) للشرط، وجوابها محذوف دلَّ عليه الكلامُ السَّابق، تقديره: لاتَّبعوهم، والمستفهَم عنه هو الارتباط الذي بيْن الشَّرْط وجوابه[٤].

٤- **قوله:** ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢١٣)، ((تفسير الرازي)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٦).

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فيه من البلاغة: إيجاز بالحذف على طريقة (الاحتباك)، حيث حذف من الأوَّل ما أثبت نَظيره في الثاني، وحذف من الثاني ما أثبت نَظيره في الأول، والتقدير: ومثل **الأنبياء** والكفار كمثل الذي ينعِق **والذي يُنعَق به**؛ فحذف من الأوَّل الأنبياء؛ لدلالة الذي ينعق عليه، وحذف من الثاني الذي يُنعَق به؛ لدلالة الذين كفروا عليه[١].

٥- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

- فيه إيجازٌ بالحذف بليغ؛ حيث عدَل هاهنا عن ذِكر تعداد المباحات، فأجملها لكثرتها، بينما ذكر في الآية التي تليها تفاصيلَ المحرَّمات لقلَّتها، كما حُذف جواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية، (فاشكروه)، وحذفه شائعٌ في كلام العرب؛ لدلالة السِّياق عليه[٢].

- وفي قوله: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ التفات؛ إذ خرج من ضمير المتكلِّم في ﴿رَزَقْنَاكُمْ﴾ إلى اسم الغائب؛ لأنَّ هذا الاسم الظاهر متضمِّنٌ لجميع الأوصاف التي منها وصْفُ الإنعامِ والرزق، والشُّكرُ ليس على هذا الإذن الخاص، بل يُشكَر على سائر الإنعامات والامتنانات التي منها هذا الامتنان الخاص[٣].

- وفي قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: قدم المفعولَ به ﴿إيَّاه﴾ على الفعل والفاعل ﴿تَعبدُون﴾؛ لإفادة الاختصاص؛ لأنَّه سبحانه مختصٌّ وحده باستحقاق العبادة[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٣٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٠٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٤٢-٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٠٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٤٣).

الآيات (١٧٤ - ١٧٦)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿شِقَاقٍ﴾: أي: عداوةٍ واختلاف، ومباينةٍ ومباعدة، وأصل (شقَّ) يدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيْءِ، ومنه الشِّقاقُ؛ لأنَّه يؤدِّي إلى انصِداع الجماعَة وتفَرُّقها[1].

المعنى الإجمالي:

أخبَر تعالى عن اليهود الذين يُخْفُونَ نبوَّةَ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ التي قد ثبَتَت عندهم في التَّوراة، ويُخْفُونَ كذلك بعضًا من أحكام الله فيها، ويغيِّرونها؛ يبتغون نَيْلَ شيءٍ من الأموال والمناصب وغيرها من عَرَض الدُّنيا- أخبَر أنَّ جزاءَهم أنْ يأكلوا في بطونهم نارًا مقابلَ ما أكَلوه من الحرام عن طريق كِتمان العِلم الذي في كُتبِهم، ولا يكلِّمهم سبحانه وتعالى يوم القيامة كلامَ رضًا، ولا يُطهِّرهم من ذنوبهم، ولا يُثْني عليهم، ولهم فوق هذا كلِّه عذابٌ موجِع.

أولئك الكاتِمون للعِلم قد استبدلوا -بفِعلِهم هذا- بطريقِ الهداية طريقَ الغواية، واستبدلوا بنَيْلِ مغفرة الله تعالى استحقاقَ عذابِه، ثم تعجَّب سبحانه وتعالى مِن جُرأتِهم على هذا الفعل وهم يعلَمون أنَّ عاقبتَه النَّارُ، وكيف حبَسوا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤، ٣٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠-١٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦، ١٠١).

أنفسهم على ارتكابه وهو يوصلهم إلى العذابِ الشديد.

واستحقَّ أولئك العذابَ على ما كتَموه؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أنزَل كتابه عليهم بالحقِّ، فيجبُ ألا يُكتَم، بل الواجب بيان ما فيه؛ لذلك كان الإخفاءُ مخالفًا لمراد الله من إنزال الكتاب.

ثم أخبَر تعالى أنَّ الَّذين آمنوا ببعض الكتاب وكفَروا ببعض، وكتَموا منه أشياءَ، وأظهَروا أشياء- لَفِي جانبٍ بعيدٍ عن الحقِّ.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أي: إنَّ اليهود الَّذين كتَموا أمر نبوَّةِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ الثابتةِ في توراتهم، وكتَموا بعض أحكام الله تعالى فيها، وبدَّلوها- كتحريمهم ما أحلَّ اللهُ عزَّ وجلَّ- يبتغون بهذا الكتمانِ نَيْلَ عَرَضٍ من حُطام الدُّنيا الفاني؛ من الأموال، والرِّئاسات، وغيرها[1].

﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾.

أي: إنَّ جزاءَهم في الآخرة مِن جِنس ما عمِلوه في الدُّنيا، فكما أكَلوا في بطونهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٢٢-١٢٣).
وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ المقصود بهذه الآية هم اليهود: السُّدِّيُّ، وعِكرمة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٤).

ما حرَّم الله تعالى بما اكتَسَبوه من مالٍ حرامٍ؛ لكتمانِهم العِلمَ- فكذلك يُطعَمون يومَ القيامة نارًا في بطونهم؛ جزاءً وِفاقًا[١].

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: لا يُكلِّمهم الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة بكلامِ إكرامٍ ورضًا يسُرُّهم؛ لأنَّه غاضبٌ عليهم، ولا يطهِّرهم من ذنوبهم، ولا يثني عليهم خيرًا؛ لأنَّ قلوبَهم وأعمالَهم دَنِسة، لا تستحقُّ المدحَ والثناء، ولهم مع ذلك كلِّه عذابٌ موجِعٌ، فجمَع الله تعالى لهم بين الألَمِ النَّفسانيِّ والجُسماني[٢].

ولَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى جزاءهم، أتبَعه بترجمةِ حالهم[٣]، فقال:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥)﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾.

أي: إنَّ أولئك الَّذين وصَفهم الله تعالى بكتمانِ العلم، قد استبدلوا- بفِعلهم هذا- بطريقِ الهُدى الذي يقودُهم إلى رضوان الله عزَّ وجلَّ ونعيمِ الآخرة؛ استبدلوا به طُرُقَ الهَوَى التي أضلَّتهم عن الصِّراط المستقيم، وبفِعلهم هذا قد استبدَلوا أيضًا بنَيْلِ مغفرةِ الله تعالى استحقاقَ عذابِه[٤].

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٣٤-٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٣-٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٦٥-٢٦٦).

أي: تعجَّب[١] اللهُ سبحانه وتعالى من أولئك القوم الَّذين كتموا وحيَ الله تعالى، كيف حبَسوا أنفسَهم ووطَّنوها على ارتكاب هذا العمل المودِي بهم إلى عذابٍ شديد، وكيف تجرَّؤُوا على هذا الصَّنيع وهم يعلَمون سوء عاقبته[٢]؟!

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر جلَّ وعلا جزاءهم، ذكَر السَّبب الموجِبَ لهذا العقاب العظيم، فقال[٣]:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: إنَّهم استحقُّوا العذابَ على كتمانهم؛ بسبب أنَّ الله عزَّ وجلَّ أنزل كتابَه عليهم بالحقِّ، فحقُّه ألَّا يُكتَم، بل يبيَّن ما يحويه، وكتمانُهم شيئًا من الكتاب كتمانٌ للحقِّ، وذلك مخالِفٌ لمراد الله تعالى؛ لأنَّ ما يُكتَم مِن الحق يخلُفُه الباطلُ، فحقَّ عليهم العذابُ[٤].

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

أي: إنَّ الَّذين آمنوا ببعض الكتاب وكفَروا ببعض؛ فكتَموا منه أشياءَ، وأظهَروا أشياءَ- قد فارَقوا الحقَّ، وجانَبوا طريقَ الصواب[٥].

---

(١) (ما) في هذه الآية تعجبية على قول جمهور المفسِّرين، ورجَّح ذلك ابن جرير في ((تفسيره)) (٣/ ٧٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٦٦-٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢).

الفوائد التربويَّة:

١- وجوب نشْر العِلم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ...﴾، ويتأكَّدُ وجوب نشْره إذا دعتِ الحاجةُ إليه بالسؤالِ عنه؛ إما بلسان الحال، وإما بلسان المَقال[١].

٢- إقامة العَدل في الجَزاء؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾؛ فجعَل عقوبتَهم من النَّارِ بقَدْرِ ما أكَلوه من الحرام[٢].

٣- أنَّ الاختلافَ ليس رحمة، بل إنه شِقاقٌ وبلاءٌ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[٣].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- إطلاق المسبَّب على السبب؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾؛ فإنَّهم لا يأكلون النَّار، ولكن يأكلونَ المالَ، وهو سببٌ للنار[٤].

٢- في قوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ إثباتُ صفة التعجُّب لله تبارك وتعالى[٥].

٣- إثبات العِلل والأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ﴾، والباء للسببيَّة،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٦٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧٠).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٦، ٦٠٧)، ((إبطال التأويلات)) لأبي يعلى الفراء (ص: ٢٤٥)، ((الحجة)) لقوام السنة الأصبهاني (٢/ ٤٥٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٨١، ٦/ ١٢٣و١٢٤)، ((شرح الواسطية)) للهراس (ص: ٢٠٢).

وقد ذكَر بعض أهلُ العلم أنَّ في القرآن أكثرَ من مئة موضعٍ، كلُّها تُفيدُ إثبات العِلَّة؛ خلافًا للجَبْريَّة الَّذين يقولون: (إنَّ فِعْلَ الله عزَّ وجلَّ ليس لِحكمةٍ، بل لمجرَّد المشيئة)؛ تعالى اللهُ عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا[١].

بلاغة الآيات:

١- **قوله: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾**: فيه تأكيدُ الأكْل وتقريرُه ببيان مقرِّ المأكول؛ فإنَّ ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ متعلِّق بـ﴿يَأْكُلُونَ﴾، وذكَر بطونهم تنبيهًا على شَرَهِهم، وتَقبيحًا لتضييع أعظم النِّعم لأجْل المطعوم، وللتنبيه على مذهبهم، بأنَّهم باعوا آخرتَهم بحَظِّهم من المطعَم الذي لا خطرَ له[٢].

٢- **في قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾**

- (ما) تعجبيَّة، أو استفهاميَّة صحِبَها معنى التعجُّب؛ فهو تعجُّبٌ من حالهم في الْتباسِهم بموجبات النارِ من غير مبالاةٍ منهم. أو: فأيُّ شيءٍ صبَّرهم[٣]؟!

- وفيه: تنزيلُ غيرِ الواقع منزلةَ الواقع؛ لشدَّة استحضار السامع إيَّاه بما وُصِف به من الصِّفات الماضية؛ إذ شأن التعجُّب أن يكون ناشئًا عن مشاهدة صبرهم على العذاب، وهذا الصَّبر غيرُ حاصلٍ في وقتِ نزول هذه الآية[٤].

٣- **في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ﴾** جِيء باسم الإشارة لرَبْط الكلام اللَّاحِق بالسَّابق، على طريقة العرب في أمثاله إذا طال الفصلُ بين الشيء وما ارتبَط به من حُكمٍ أو عِلَّةٍ، أو نحوهما[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٢١-١٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢١٦-٢١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٢٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٦).

٤- **قوله**: ﴿**فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**﴾ فيه الإظهار في موضع الإضمار؛ حيث قال: ﴿فِي الكِتَابِ﴾، ولم يقل: (فيه)، وفائدته: أن يكون التذييلُ مستقلًّا بنفسه؛ لجريانه مجرَى المَثَل[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٢٧)

الآيات (١٧٧ - ١٧٩)

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿البِرَّ﴾: التوسُّع في فِعل الخير، والاتِّساع فِي الْإِحْسَان، ومن أصوله: الصِّدْقُ[١].

﴿بِعَهْدِهِمْ﴾ ﴿عَاهَدُوا﴾: العَهد: حِفظُ الشيء ومراعاتُه، حالًا بعد حال، والمِيثاقُ، فَسمِّي الشيءُ الموثَّقُ الذي يلزم مراعاتُه عهدًا[٢].

﴿عُفِيَ﴾: تُرِك، والعَفْوُ: هو ترْك العقوبة، والتَّجافي عن الذَّنب؛ يُقال: عفوتُ عنه، أي: قصدتُ إزالة ذنبِه صارفًا عنه[٣].

﴿الْقِصَاصُ﴾: مُقابلةُ الفِعل بمثلِه، وتتبُّع الدَّم بالقَوَدِ (أي: قتْل القاتِلِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٣).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

بالقتيل)، وأصل (قصَّ) يدلُّ على تتبُّع الشيءِ، ومن ذلك اشتقاق القِصاص في الجراح؛ لأنَّه يُفعل به مِثل فعله بالأوَّل، فكأنَّه اقتصَّ أثره[١].

﴿أُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أصحابِ العقول الزَّكيَّة؛ واللُّبُّ: العقل الخالص من الشَّوائب؛ وسمِّي بذلك لكونه خالصَ ما في الإنسان من معانيه[٢].

مشكل الإعراب:

١- قوله: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا﴾:

البِرَّ: قُرِئ بالنَّصب والرَّفْع؛ فعَلى قِراءة النصب، فـ ﴿البرَّ﴾ خبَر ﴿ليس﴾ مقدَّم، وقوله: ﴿أَن تُوَلُّوا﴾- وهو مصدر مُؤوَّل، أي: توليتُكم- في محلِّ رفْع اسم ﴿ليس﴾ مؤخَّر.

وأمَّا على قراءة رفع ﴿البر﴾، فلا تقديم ولا تأخير. فـ﴿البر﴾ اسم ﴿ليس﴾، و﴿أن تولوا﴾ خبرُها[٣].

٢- قوله: ﴿وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾:

البِرَّ: إذا كان بمعنى البارِّ، فهو اسم لكنَّ- على قِراءة التَّشديد-، وخبرها ﴿مَن آمَن﴾.

وعلى قراءة تخفيف ﴿لكنْ﴾، فالبِرُّ مبتدأ مرفوع، و﴿مَن آمَن﴾ خبر، ولا إشكال في هذا الوجه.

وأمَّا إذا كان على معناه ﴿البِر﴾، فالتقدير: ولكنَّ البِرَّ بِرُّ مَن آمن، أو: ولكنَّ ذَا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٤٤).

البِرِّ مَن آمن، ثم حُذِف المضاف، وأُعرِب المضافُ إليه إعرابَه[١].

٣- **قوله:** ﴿وَالْمُوفُونَ﴾: مرفوع، وفي رفْعه ثلاثةُ أوجه: إمَّا يكون عطفًا على الضمير في ﴿آمَن﴾، أي: من آمنوا هُم والموفون، أو على (مَن) في قوله: ﴿مَن آمن﴾، أو: يكون خبرًا لمبتدأ محذوف على إضمار (وهم) على المدح للمضمرين، والتقدير: وهم الموفون[٢].

٤- **قوله:** ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾: مفعول به منصوب لِفعلٍ محذوف، تقديره: أمدح، أو أخص، أو أعني. أو يكون معطوفًا على ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾- ولا يتَّجه هذا الوجه إلَّا على القول برفْع ﴿وَالْمُوفُونَ﴾ على العطف على الضَّمير في ﴿آمَن﴾؛ ليكون داخلًا في صلة ﴿مَن﴾؛ لأنه لا يُفصل بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه[٣].

المعنى الإجمالي:

أخبَر الله عزَّ وجلَّ أنه ليس في التمسُّك بالتوجُّه إلى ناحية المشرق أو المغرب برٌّ ولا طاعة، إنْ لم يكن عن أمْرِ الله تعالى، ولكن الخير الحقيقي هو الإيمانُ الجازم بالله تعالى، واليومِ الآخِر، وملائكتِه، وجميعِ كتبه، وكل أنبيائه ورُسلِه، وأنْ يُعطيَ العبدُ المالَ وهو محبٌّ له وحريصٌ عليه، لقرابته، ولليتامى، وللذين لا يجِدون ما يَكفيهم، وللمسافر الذي يمرُّ به وليس معه نفقةٌ توصله لوطنه، وللمستجدي الذي يطلُبُ العطاء، ولأجل فكِّ الرِّقاب.

كذلك من البِرِّ: الإتيانُ بالصَّلاة تامَّة، وإعطاء الزَّكاة المفروضة لمن يستحقُّها،

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٤٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٥٨).

والالتزام بالعهود والوفاء بها، سواء تلك التي مع الله، أو مع الخَلْق.

ومن البِرِّ أيضًا: الصَّبرُ في حال الفقر، والمرض، وحين القتال، وهو أنْ يحبِس المرءُ نفسه عن الجزَع والسَّخَط والشَّكوى؛ فكلُّ مَن اتصف بتلك الصِّفاتِ السالفة الذِّكْر، المشتملة على عقائدَ وأعمالٍ وأخلاق- هم الصَّادقون في إيمانهم، وهم المتَّقون؛ بفِعْلهم المأمورَ، واجتنابهم المنهيَّ عنه.

ثم أعلَم اللهُ المؤمنين بما فرَضه عليهم من المساواة، واعتبارِ المماثَلة في القِصاص بين القتلى، فيُقتل الحرُّ بالحرِّ، والعبدُ بالعبد، والذَّكَر بالذَّكَر، والأُنثى بالأُنثى.

فإذا عفا أولياءُ المقتول عن الدَّم، سقَط القِصاص عن القاتل، ووجبتِ الدِّيَة، ففي هذه الحالة يجب على العافي ألَّا يُتبِع عفوَه المنَّ والأذى، ولا يكلِّفَ القاتلَ ما لم يوجبه الله تعالى، ولا ما فيه مشقَّة، ممَّا لا يدخُل تحت القُدرة، وعلى القاتل أنْ يُؤدِّيَ ما لزِمه إلى أولياء المقتول من غير مَطْلٍ ولا نَقْصٍ مما وجب عليه، ولا يسيء بقولٍ أو فعل لِمَن عفا عنه.

وفي هذه الأحكام التي شرَعها الله عزَّ وجلَّ من إباحةِ العفو عن القاتل، وأخْذ الدِّيَة بدلًا عن القِصاص: تيسيرٌ وتخفيفٌ من الله تعالى لهذه الأمَّة، ورحمةٌ منه بعباده، لكن مَن يتعدَّى حدودَ الله بعد حدوث العفو- كأن يَقتُلَ الوليُّ القاتلَ بعد عفوِه عنه، أو يُكرِّر القاتلُ جنايتَه مرَّةً أخرى- فللمعتدي في هذا الحال عقابٌ موجِعٌ.

ثمَّ أخبَر الله تعالى عبادَه أنَّ لهم في تشريع القِصاص حياةً، وسيتَّضح لهم ذلك إنْ أعمَلوا عقولَهم وتدبَّروا الآثارَ المترتِّبة على هذا التشريع، فإنَّ مَن أراد القتلَ إذا استحضَر أنَّ وراءه قِصاصًا ينتظرُه، سيكفُّ عن القتلِ، وإذا رأى النَّاسُ القاتلَ مقتولًا قِصاصًا، انزَجروا عن تَكرارِ هذا العمل.

تفسير الآيات:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنَّ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ

آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾.

أي: ليس الشَّأن في حصول الخير بلزوم التوجه في الصلاة نحو هذه الجهة أو تلك[(١)].

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾.

أي: مَن اتَّصفَ بهذه الأمورِ الآتيةِ من الاعتقادات والأعمال والأخلاق، فقد أَخَذَ بمجامعِ الخيرِ كلِّه، فأمَّا الاعتقادات فهي الإيمانُ بالله تعالى، ومن ذلك: الإيمانُ بوجوده وربوبيَّته، وأُلوهيَّته، وأسمائه وصفاتِه، والإيمانُ باليومِ الآخر، ومنه: الإيمانُ بالبَعث والحساب، والجنة والنار، وغير ذلك من أمور الآخرة، والإيمانُ بملائكة الرحمن، كالإيمان بوجودِهم وأعمالهم وصِفاتهم، والإيمانُ بالكتب، كالإيمانِ بأنَّ نزولها من عند الله عزَّ وجلَّ، والإيمانُ بأنبيائه عليهم السَّلام، ومن ذلك: الإيمان بأنَّ رسالتهم حقٌّ من عند الله تبارك وتعالى[(٢)].

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾.

أي: ومِن الأعمال الدَّاخلةِ في مسمَّى البِرِّ: أنْ يُعطيَ العبدُ المالَ وهو محبٌّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٧٤-٢٧٥)، ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٨٠-١٠٢).

له وراغبٌ فيه، فيدفعه صدقةً لأقاربِه، وللصِّغار الَّذين فقدوا آباءهم وهم دون البلوغ ولا كاسبَ لهم، وللمساكين الَّذين لا يجِدون ما يَكفيهم ويُغْنيهم، وللمسافر المجتاز يريد نفقةً تُوصلُه لموطنه، وللطَّالبين حاجةً ممَّا يعرِضُ لهم مِن سوء، ولعِتْق الرِّقاب ونحوها[١].

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾.

أي: وأتَوْا بالصَّلاة تامَّةً ومستقيمة، وأعطَوُا الزَّكاة التي فرَضها اللهُ تعالى عليهم إلى مستحقِّيها، وأتمُّوا ما التزموا به من عهودٍ مع الله عزَّ وجلَّ ومع الخَلْق، فلم يَنقُضوها من بعدِ ميثاقها[٢].

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾.

أي: الَّذين حبَسوا أنفسهم عن الجزَع والتسخُّطِ وعمَّا يكرَهُه الله عزَّ وجلَّ، في حال فقرِهم، ومرَضِهم، وفي وقت اشتداد القتال في حربِ الأعداء[٣].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

أي: إنَّ أولئك المتَّصِفين بما سبَق ذِكرُه من عقائدَ وأعمالٍ وأخلاق، هم الصَّادقون في إيمانهم؛ لأنَّ أعمالَهم قد صدَّقت إيمانَهم، وهم المتَّقون؛ لأنَّهم فعَلوا ما أُمروا به، واجتنَبوا ما نُهوا عنه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٦-٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٧٦-٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٨٤-٨٥)،((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٨٦، ٩٠، ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣-٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٩٢-٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٨-٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾.

أي: فُرِض عليكم- أيُّها المؤمنون- تحقيقُ المساواة واعتبارُ المماثَلة في القِصاص بين القتلى، فيُقتَل الحرُّ بالحرِّ، والعبدُ بالعبد، والذَّكَرُ بالذَّكَر، والأُنثى بالأُنثى، فلا تتعدوا بالقصاص إلى غير القاتل والجاني (كما لو قَتلت الأُنثى أُنثى أُخرى، فإنَّ الأنثى الجانية هي التي تُقتل، ولا يَحِلُّ أن يُقتل بهذه الأنثى المقتولة رجلٌ لم يقتلها، ومثل ذلك: الحرُّ بالحرِّ، والعبدُ بالعبد، والذَّكَرُ بالذَّكَر)[1].

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٩٣-٩٥، ١٠١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٩٥-٢٩٦).

قال ابن جرير: (فإن قال قائل: فإنَّه تعالى ذكره قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى﴾ [البقرة: ١٧٨] فما لنا أن نقتصَّ للحرِّ إلَّا من الحرِّ، ولا للأنثى إلا من الأنثى؟ قيل: بل لنا أن نقتصَّ للحرِّ من العبد وللأنثى من الذَّكر، بقول الله تعالى ذِكرُه: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء: ٣٣] وبالنقل المستفيض عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنه قال: ((المسلمون تتكافأ دماؤهم)).) ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٩٤-٩٥).

وقال السعدي: (﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ يدخل بمنطوقها، الذكر بالذكر، ﴿وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى﴾ والأنثى بالذَّكر، والذَّكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدَّمًا على مفهوم قوله: «الأنثى بالأنثى» مع دلالة السُّنة، على أنَّ الذكر يُقتل بالأنثى، وخرج من عموم هذا: الأبوان وإنْ علَوا، فلا يُقتلان بالولد؛ لورود السُّنة بذلك) ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٩٩-٣٠١).

أي: إذا عفا أولياءُ المقتول فلم يُطالِبوا بدَمِه، سقَط القِصاصُ عن القاتل، ووجبت عليه الدِّيَةُ، والواجب على العافي عند قَبضِ الدِّيَة ألَّا يكلِّفَ القاتلَ ما لم يوجِبْه الله تعالى عليه، ولا يشُقَّ عليه بما لا طاقةَ له به، وعلى القاتل أداءُ ما لزِمه لأولياء المقتولِ من غيرِ مماطَلةٍ ولا إنقاصٍ للدِّيَة، ولا صدورِ إساءةٍ فِعليَّةٍ أو قوليَّةٍ منه لهم، فعلى أولياء المقتول حُسنُ الاقتضاء، وعلى القاتل حُسنُ القضاء[١].

﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

أي: إنَّ ما شرَعه اللهُ عزَّ وجلَّ من إباحةِ العفوِ عن القاتل وأخْذِ الدِّيَة عوضًا عن القِصاص- حُكْمٌ فيه تخفيفٌ من الله تعالى لهذه الأمَّة، ورحمةٌ منه بعباده[٢].

﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: مَن تجاوَز ما حدَّه الله تعالى مِن الأحكام السَّابقة للقِصاص- كأنْ يَقتلَ وليُّ المقتولِ القاتلَ بعد العفوِ عنه، أو يعودَ القاتلُ إلى جِنايتِه مرة أخرى- فإنَّ له عقابًا موجعًا، قيل: هو قتلُه في الدنيا، وقيل: عقوبتُه في الآخرة[٣].

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾.

أي: إنَّ في مشروعيةِ القِصاص حياةً، لِمَن أعمَل عقلَه؛ ليتدبَّرَ ويفهمَ عن الله تعالى مرادَه من هذا الحُكم، فينزجِر ويجتنِب القتل؛ فإنَّ مَن أراد القتل إذا علِم أنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٠٩-١١١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٤٥-٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٩٦-٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١١١-١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١١٤، ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤-٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٩٨).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ معنى قوله تعالى: ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ القَتْل: الضَّحَّاك، وسعيد بن جُبَير، وعِكرمة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١١٧).

يُقتَل قِصاصًا بمن قتَله، كفَّ عن القتل؛ فكان في ذلك حياةٌ له ولِمَن أراد قَتْلَه، وإذا رُئي القاتلُ مقتولًا انزَجر بذلك غيرُه، كما أنَّه كان في أهل الجاهليَّةِ مَن إذا قُتل الرَّجلُ مِن قومهم قتَلوا به أكثرَ مِن واحد من عشيرةِ القاتل؛ فشرَع اللهُ تعالى القِصاص، فلا يُقتَلُ بالمقتولِ غيرُ قاتلِه، وفي ذلك حياةٌ لقومِه[1].

الفوائد التربويَّة:

١- في قوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ الترتيب في الإنفاق، فأولى من يتفقده الإنسان بمعروفه أقاربه، ثمَّ اليتامى؛ لأن مواساتهم بعد الأقارب أولى، ثمَّ المساكين الذين لا مال لهم حاضرًا ولا غائبًا، ثمَّ ابن السبيل الذي قد يكون له مالٌ غائب، ثم السائلين الذين منهم صادقٌ وكاذب، ثم ذَكَرَ الرِّقاب الذين لهم أربابٌ يَعُولُونهم. فكلُّ واحدٍ ممن أُخِّر ذكره أقلُّ فقرًا ممن قُدِّم عليه[2].

٢- ينبغي الصَّبرُ على جميع أنواع الضُّر، وقد استوعبتْ هذه الجملة ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ جميعَ أنواع الضرِّ؛ لأنَّه إمَّا يحتاج إلى الصبر في شيءٍ يَعوزُ الإنسانَ أو يُريده فلا يناله، وهو البأساء، أو فيما نال جِسمَه من ألَمٍ وسقمٍ، وهو الضرَّاء، أو في مدافعةٍ مُؤذيةٍ له، وهو البأس[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢٠، ١٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٤٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيِّم (٢/ ٩٦-٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤٤-١٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١-٣٢).
قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العَالية: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ يقول: جعَل اللهُ القِصاصَ حياةً؛ يقول: كم مِن رجل يُريد أن يَقْتُل فيمنعه مخافةُ أن يُقْتَل. ورُوي عن الحسَن، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، والرَّبيع بن أنس، ومقاتل بن حَيَّان، وأبي مالك وقَتادة، نحوُ ذلك)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (١/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (١/ ٣٧٩)، ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٣٩٤).

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ في نصْبِ ﴿الصَّابِرِينَ﴾ -بتقدير: أخصُّ أو أمدَحُ- تنبيهًا على خَصيصيةِ الصَّابرين ومزيَّةِ صفتِهم الَّتي هي الصبرُ[١].

٢- في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ دَلالةٌ على أنَّ تنفيذَ القِصاص من مقتضى الإيمان؛ لأنَّ الخطابَ موجَّهٌ للمؤمنين[٢].

٣- أنَّ فاعلَ الكبيرة لا يخرُجُ مِن الإيمان بالكليَّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾؛ فجعَل اللهُ المقتولَ أخًا للقاتل، ولو خرَج من الإيمانِ لم يكُنْ أخًا له[٣].

٤- أنَّ كونَ القِصاص حياةً يحتاج إلى تأمُّل وعقلٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٤].

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ**﴾ فيه إيجازٌ بحذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مقامَه؛ إذ التقدير: (ولكن البِرَّ بِرُّ مَن آمن)، أو يكون من باب المبالغة إذا جُعِل (البارّ) نفْس البِر[٥].

٢- **قوله:** ﴿**وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى**﴾

- **قوله:** ﴿**عَلَى حُبِّهِ**﴾ أي: مع حبِّ المال، ففيه تَتْميم[٦] وتوكيدٌ واحتراس؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٠٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٥١).

(٦) **التَّتميم**: هو أن يُؤتى في كلامٍ لا يُوهِم غيرَ المراد بفضلةٍ تُفيد نكتةً. أو بعبارة أخرى هو: الإتيانُ =

للمبالغة، وللدَّلالة على عِظمِ الأجْر؛ فإنَّ بذْل الإنسان من الشَّيء الذي يحبُّه أبلغ، وأكثر أجرًا وأدْعى لزيادته[١].

وقوله ﴿ذَوِي﴾ مفعولٌ أوَّل لـ (آتَى) قُدِّم عليه مفعولُه الثاني (المال)؛ للاهتمام به، أو لأنَّ في الثاني معَ ما عُطف عليه طُولًا؛ ولو رُوعي الترتيبُ، لفات تجاوبُ الأطراف في الكلام، وهو الذي اقتضى تقديمَ الحال أيضًا والله أعلم. وقيل: هو المفعولُ الثاني[٢].

٤- في قوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ إيثارُ التعبير بصِيغة الفاعِل في ﴿وَالْمُوفُونَ﴾ وعدم التعبير بالفعل (وأَوفوا)؛ للدَّلالة على وجوب استمرار الوفاءِ[٣].

٥- قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ نُصِب على الاختصاص والمدح، ولم يُعطَف على ما قبله ﴿وَالْمُوفُونَ﴾؛ إظهارًا لفضل الصَّبر في الشدائد، ومواطن القِتال على سائر الأعمال، وحسُن هنا التخالف في إعراب الصِّفات الكثيرة وعدم جعْلها كلِّها جاريةً على موصوفها؛ لأنَّ هذا موضع الإطناب في الوصف، والإبلاغ في القول، فإذا خُولف بإعراب الأوصاف كان المقصود أكمل؛ لأنَّ الكلام عند الاختلاف يَصير كأنَّه أنواع من الكلام، وضروب من البيان، ويُسمَّى ذلك قطعًا؛ لأنَّ تغييرَ المألوفِ يدلُّ على زيادة ترغيبٍ في استماع المذكورِ ومزيدِ اهتمامٍ بشأنه[٤].

= بكلمة أو كلامٍ متمِّم للمقصود، لرَفْع اللبس عنه، وتقريبه للفَهم، أو لزِيادةٍ حسنة، بحيث إذا طُرح من الكلام نقَص معناه في ذاته، أو في صِفاته. يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ١٢٠)، (٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٩٣-١٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٢١)، ((تفسير أبي =

٦- وفي هذه الآية ترتيبٌ حسنٌ بديع:

- ففي قوله: ﴿آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ قدَّم الإيمان بالله واليوم الآخِر على الإيمان بالملائكة والكتُب والرسل؛ لأنَّ المكلَّف له مبدأ، ووسط، ومنتهًى، ومعرفة المبدأ والمنتهى هو المقصود بالذَّات، وهو المراد بالإيمان بالله واليوم الآخِر، وأمَّا معرفة مصالح الوسط فلا تتمُّ إلَّا بالرِّسالة، وهي لا تتمُّ إلَّا بأمورٍ ثلاثة: الملائكة الآتِين بالوحي، والمُوحَى به: وهو الكِتاب، والموحَى إليه: وهو الرَّسول[(١)].

- وقوله: ﴿وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ فالمَلَك يوجد أولًا، ثم يحصُل بوساطة تبليغه نزولُ الكتب، ثم يصل ذلك الكتاب إلى الرَّسول، فقدَّم الملائكة والكتُب على الرُّسل، وإنْ كان الإيمانُ بوجود الملائكة وصِدق الكتُب لا يحصُل إلَّا بواسطة الرُّسل؛ لأنَّ ذلك رُوعي فيه الترتيبُ الوجوديُّ الخارجي، لا الترتيب الذِّهني[(٢)].

- وقدَّم الإيمانَ على أفعال الجوارح، وهو: إيتاءُ المال والصَّلاة والزَّكاة؛ لأنَّ أعمال القلوب أشرفُ من أعمال الجوارح، ولأنَّ أعمال الجوارح النافِعة عند الله تعالى إنَّما تنشأ عن الإيمان[(٣)].

- وفي قوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ قدَّم مَن كان أَوْلى أن يتفقدَّه الإنسان بمعروفه

= حيان)) (٢/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٤).

وهم أقاربه، ثمَّ عقَّبه باليتامى؛ لأنَّ مواساتهم بعد الأقارب أوْلى، ثمَّ ذكَر المساكين الذين لا مالَ لهم يكفيهم حاضرًا ولا غائبًا، ثمّ ذكر ابنَ السبيل الذي قد يكون له مال غائب، ثم ذكر السائلين الذين منهم صادقٌ وكاذب، ثم ذَكَر الرِّقاب الذين لهم أربابٌ يَعولُونهم؛ فكلُّ واحد ممَّن أُخِّر ذِكرُه أقلُّ فقرًا ممَّن قُدِّم ذِكره، والله أعلم[١].

٧- قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾

- فيه تعدية الفعل﴿عُفِي﴾ باللام مع أنَّه يعدى بـ(عن)؛ لأنَّه يتعدَّى بـ(عن) إلى الجاني وإلى الذَّنب، فيقال: عفوت عن فلان وعن ذَنبه، وأمَّا إذا تعدَّى إلى الذَّنب والجاني معًا قيل: عفوت لفُلان عمَّا جنَى، فكأنه قيل: فمن عُفي له عَن جِنايته، فاستُغني عن ذِكر الجناية[٢].

- وتنكير ﴿شَيْءٌ﴾؛ للإشعار بأنَّه إذا عُفي له طرَفٌ من العفو وبعضٌ منه، بأنْ يُعفى عن بعض الدَّم، أو عفا عنه بعضُ الورثة، فقد تمَّ العفو وسقَط القصاص، ولم تجبْ إلَّا الدِّية[٣].

- وفيه تسمية وليِّ الدم أخًا للقاتل؛ اعتبارًا بأُخوَّة الإسلام، أو استعطافًا له عليه، أو لكونه ملابسًا له مِن قِبَلِ أنَّه وليٌّ للدم، ومطالِبٌ به[٤].

٨- التنكير في قوله: ﴿حَيَاةٌ﴾ يفيد التعظيم؛ فيدلُّ على أنَّ في القصاص حياةً متطاولةً[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٢١-٢٢٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٤٨-١٤٩).
(٥) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٨٦).

الآيات (١٨٠ - ١٨٢)

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿جَنَفًا﴾: ميلًا ظاهرًا، وعدولًا؛ يقال: جنَف، إذا عدَل وجار[1].

مشكل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ... الْوَصِيَّةُ﴾:

﴿الْوَصِيَّةُ﴾: مرفوعةٌ بالابتداء، والخبرُ محذوف، أي: فعليكم الوصيةُ. ونائب الفاعل لـ﴿كُتِبَ﴾ حينئذٍ محذوفٌ، تقديره (هو)، أي: الإيصاء، دلَّ عليه قوله: ﴿الْوَصِيَّةُ﴾. أو نائب الفاعل ﴿عَلَيْكُم﴾.

أو تكون ﴿الْوَصِيَّةُ﴾ نائبَ الفاعِل للفِعل ﴿كُتِبَ﴾، وجاز تذكيرُ الفِعل مع أنَّ لفظ الوصية مؤنَّث؛ لأنَّه أراد بالوصية الإيصاء، أو لكونِ القائمِ مقامَ الفاعل ﴿الْوَصِيَّةُ﴾ مؤنَّثًا مجازيًّا، وفُصل بينه وبين مرفوعه بفاصل؛ لأنَّ الكلام لَمَّا طال كان الفاصل بين المؤنَّث والفِعل كالعِوَض من تاء التأنيث، والعرب تقول: حضَر القاضي امرأةٌ، فيُذكِّرون؛ لأنَّ القاضي بين الفِعل وبين المرأة[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٩)، ((تفسير الرازي)) (٥/ ٢٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤٦).

المعنى الإجمالي:

فرَض اللهُ على المؤمنينَ في هذه الآياتِ حين يشرف أحدُهم على الموت، وتأتيه أسبابُه إنْ كان لديه مال: أنْ يوصيَ ببعضِه إلى والديه وأقاربِه، مَن كان منهم غيرَ وارثٍ، مِن غير سرَفٍ ولا تقتير، مراعيًا فيه الأقربَ والأحوجَ، من غير ضررٍ بالوَرَثَة، هذا الأمرُ بالوصيَّة أمرٌ ثابتٌ ومؤكَّدٌ على مَن اتَّصَف بالتَّقوى.

فمَن غيَّر الوصيةَ بعد سماعِه لها من الموصي بالزِّيادةِ أو النقصان، أو غيرِ ذلك، فقد تحمَّل هو الإثمَ، وبرِئَت ذِمَّة الموصي، والله تعالى سميعٌ عليمٌ وسيُجازي كلًّا بما يستحقُّ.

ومَن خشِي أنْ يَميلَ الموصي في وصيَّتِه عن الحقِّ والعدلِ، سواء بالخطأ غيرِ المقصود، أو كان متعمِّدًا، فلا إثمَ عليه أنْ يقومَ بنصيحتِه وتوضيحِ التَّصرُّف الصَّحيح للموصي، أو يقومَ بتعديلها بما يوافقُ الشَّرعَ بعد موتِ الموصي، وبهذا يزولُ فسادُ الوصية، ويحلُّ ما قد يحصُلُ مِن شِقاقٍ بين الموصي والوَرَثَة، أو بين الوَرَثَة مع الموصَى لهم.

تفسير الآيات:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كان في الخِطاب السَّابق ذِكْرُ القَتْلِ، والقِصاص الذي هو حالُ حضور الموتِ، انتظَم به ذِكرُ الوصيَّة؛ لأنَّه حالُ مَن حضَره الموتُ، فقال تعالى[1]:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٣٣).

وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾.

أي: فُرِضَ عليكم- أيُّها المؤمنون- إذا أَتَتْكم أسبابُ الموت ومقدِّماتُه، وكان لديكم مالٌ: أنْ تعهَدوا ببعضِ هذا المال إلى الوالديْنِ اللَّذيْن لا يرثان لمانع، وإلى الأقارب الذين لا يرثون، وذلك مِن غير إسرافٍ ولا تقتير، ولا اقتصارٍ على الأبعدِ دون الأقرب، بل يُرتَّبون على القُربِ والحاجة، ودون إجحافٍ بالوَرَثةِ، فلا تُتجاوَزُ الوصيةُ لأولئك بأكثرَ من ثُلُث المال، وهذا أمرٌ ثابتٌ ومؤكَّدٌ على المتَّصفين بالتَّقوى[1].

عن أبي أمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه، قال: ((سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في خطبتهِ عامَ حجةِ الوداعِ: إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى، قد أعطَى كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فلا وصيةَ لوارثٍ))[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢٣، ١٢٤، ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥)، (٢/ ٣٠٥-٣٠٨).
وحَكَى الماورديُّ والقرطبيُّ: الإجماعَ على أنَّ الخير هنا بمعنى المال. يُنظر: ((النكت والعيون)) (١/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٥٩).
وذهب إلى أنَّ الآيةَ غير منسوخة: ابن جرير في ((تفسيره)) (٣/ ١٢٤)، والنَّحَّاس في ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: ٨٨)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٨٥).
وذهب إلى ذلك أيضًا: الحسن البصري، وطاوس، وقَتادة، والعلاء بن زيد، ومُسلِم بن يَسار. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لِهبة الله بن سلامة (ص: ٤١).
وممَّن قال بأنَّ الآية منسوخة بآية المواريث: الواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٢٦٨-٢٦٩)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٤٩٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٢/ ١٤٩). ورُوي ذلك عن ابن عمر، وأبي موسى الأشعري، وسعيد بن المسيَّب، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبير، ومحمد بن سيرين، وزيد بن أسلم، والربيع بن أنس، وقتادة، والسُّدِّي، ومقاتل بن حيَّان، وإبراهيم النَّخَعي، والضَّحَّاك، والزهري. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٩٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٧٠)، والترمذي (٢١٢٠) واللفظ له، وابن ماجه (٢٧١٣)، وأحمد (٢٢٣٤٨) حسَّنه الإمام أحمد كما في ((بلوغ المرام)) لابن حجر (٢٨٦)، وقال الترمذيُّ: حسن صحيح. وحسَّنه ابن عبد البرِّ في ((التمهيد)) (٢٤/ ٤٣٩)، وقال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٤/ ١٨٩): فيه إسماعيلُ بن عيَّاش؛ مختلَف فيه، ويجب أن يُقال لحديثه: حسن. وصحَّحه الذهبي في ((تنقيح التحقيق)) (٢/ ١٥٧)، وحسَّنه ابن الملقن في ((البدر المنير)) (٧/ ٢٦٣)، وجوَّد إسنادَه ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ١٣٨)، وحسَّنه ابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) =

وعن سعد بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه، قال: ((تشكَّيتُ بمكةَ شكوى شديدةً، فجاءني النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعودني، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ، إني أترك مالًا، وإني لم أترك إلا ابنةً واحدةً، فأوصي بثُلثَيْ مالي وأتركُ الثُّلثَ؟ فقال: لا. قلتُ: فأُوصي بالنِّصفِ وأترك النصفَ؟ قال: لا. قلتُ: فأوصي بالثلثِ وأترك لها الثُّلثين؟ قال: الثُّلثُ، والثُّلثُ كثيرٌ))[1].

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر اللهُ سبحانه وتعالى أمرَ الوصيةِ ووجوبها، وعظَّم أمرها، أتبَعه بما يَجري مجرى الوعيد في تغييرها، فقال تعالى[2]:

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)﴾.

أي: فمَن غيَّر الوصية بعدَما سمعها من الموصي بأنْ زاد فيها أو أنقَص أو غير ذلك، فقد تعلَّق الإثمُ به، أمَّا الموصي من غير جَنَفٍ ولا إثم فقد برِئَتْ ذمَّته، والله تعالى يسمع ويعلَمُ حالَ الاثنينِ، الموصي والمبدِّلِ وصيَّتَه، ويجازي كلًّا بما يستحقُّ[3].

= (٢/ ٣١٥)، وذكر الصنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٣/ ١٦٦) أنَّ له طرقًا، وقال: ولا يخلو إسنادُ كلِّ واحد منها عن مقال، لكن مجموعها ينهض على العملِ به. وقال الشوكاني في ((السيل الجرار)) (٤/ ٤٩٧): لا يوجد عِلَّة يُعلُّ بها. وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٨٧٠): حسن صحيح. وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٥/ ٢٦٧).

(١) رواه البخاري (٥٦٥٩) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) للرازي (٥/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٣٩، ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٥٢).

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢)﴾.

أي: فَمَنْ خاف أنْ يَحيد الموصي في وصيَّته عن الحقِّ، سواءٌ عن غير قصدٍ منه، أو متعمدًا؛ وذلك كأن يوصيَ لغير الورثة بأكثرَ من ثُلث ماله، فهذا لا إثمَ عليه إنْ نصَح الموصي في حياتِه بتبديل الوصيةِ، فبدَّلها، أو قام المصلحُ بتبديلها بعد موته، فعدَّلها على الوجهِ الشَّرعي، وبهذا يزول فسادُ الوصية، ويزول معه أيُّ شِقاقٍ وقَع بين الموصِي والوَرَثة، أو بين الوَرَثة والموصَى لهم[١].

الفوائد التربويَّة:

١- أهميَّة صِلة الرَّحِم؛ حيث أوجب الله الوصيةَ للوالدينِ والأقربين بعد الموت؛ لأنَّ صِلة الرَّحِم من أفضل الأعمال المقرِّبةِ إلى الله تعالى[٢].

٢- أنَّ المتَّقين هم الَّذين يراعون فرائضَ الله؛ ولذلك وجَّه الخطابَ إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[٣].

٣- فضيلة القيام بالإصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾[٤].

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، خَصَّ الوالديْنِ والأقربين بالوصية؛ قيل: لأنَّهم مظنَّة النِّسيان من الموصي؛ لأنَّهم كانوا يُورثون الأولاد أو يوصون لسادة القبيلة، وقدَّم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٥-٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥-٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٥٣-١٥٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣١٢-٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٤).

الوالدينِ للدلالة على أنَّهما أَوْلى وأحقُّ في البَدْءِ بالوصيَّةِ لهما[١].

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ**﴾ فيه تقديمٌ وتأخير، حيث أخَّر (الوصية) الذي هو نائِب فاعل (كُتِب)؛ للتشوُّف إليه[٢]. وهذا بناءً على أنَّ (الوصية) نائب فاعل لـ(كتب)، وأمَّا على كون (الوصية) مرفوعة بالابتداء؛ فليس فيها تقديم ولا تأخير.

٢- **قوله:** ﴿**لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ قدَّم الوالدين؛ للدَّلالة على أنَّهما أرجحُ في الابتداء بالوصية لهما[٣].

٣- **قوله:** ﴿**حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾ فيه تأكيد للوجوب بقوله: ﴿حَقًّا﴾، وكذا قوله: ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾؛ فهو إلهاب وتهييج وتذكير بما أمامه من القدوم على مَن يسأله عن النَّقير والقِطمير[٤].

٤- **قوله:** ﴿**فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ**﴾ فيه حصر، والضَّمير في قوله: ﴿إِثْمُهُ﴾ عائد إلى التبديل، أي: إنَّ إثم ذلك التبديل لا يعود إلَّا إلى المبدِّل[٥].

- وفيه: إقامة الظاهر مقامَ المضمر؛ لزيادة الاهتمام بشأنه، ولو جرَى على نسَق الكلام السابق لقال: (فإنَّما إثمُه عليه وعلى مَن يبدِّله)؛ وذلك للتَّشهير والمناداة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٢٤)، ((تفسير الرازي)) (٥/ ٢٣٦٥-٢٣٦).

بفضائح المبدِّلين، وليشعر بعِلِّيَّة الإثم الحاصل، وهو التبديل[١].

٥- **قوله:** ﴿**إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ في هاتين الصِّفتين: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ للمبدِّلين؛ إذ لا يَخفى عليه تعالى شيءٌ، فهو يُجازيهم على تبديلهم شرَّ الجزاء[٢]، مع ما فيه من تأكيدِ الخبر بـ ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملة، وما في صِيغة (فَعيل) من المبالغة.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٦٦).

الآيات (١٨٢ - ١٨٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿فِدْيَةٌ﴾: عِوض؛ وأصل (فدي): جَعْلُ شَيْءٍ مكانَ شَيْءٍ حِمًى له[1].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩١).

﴿الْفُرْقَانِ﴾: المُخرِج من الشُّبهة، والمميِّز بيْن الحقِّ والباطل، وأصلُه من الفَرْق، وهو الانفصال، والتمييز والتزييل بين شيئين[١].

﴿الرَّفَثُ﴾: المقصود به هنا الجِماع، والرَّفث في الأصل: هو التصريحُ بِمَا يجب أَن يُكنى عَنهُ من ذِكر النِّكَاح، وكلِّ كلامٍ يُستحيا مِن إظهارِه والإفصاح عنه؛ فيشمل الجماعَ ومُقدِّماتِه، وما يتَّصل به من قولٍ وفِعل[٢].

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُم﴾: أي: بمنزلة اللِّباس، وهو كنايةٌ عن شِدَّة المخالطة التي تُوجِبُ قِلَّةَ الصبر عنهنَّ، أو لأنَّ كلًّا منهما يستُر حالَ صاحبِه، ويمنعُه من الفجور؛ فأصلُ اللِّباس: المخالطة والمداخلة، والسِّتر كذلك[٣].

﴿تَخْتَانُونَ﴾: تخونون بارتكابِ ما حُرِّم عليكم، وهو افتِعالٌ من الخِيانة، وهي مخالفة الحقِّ بنقض العهد في السِّرِّ[٤].

﴿عَاكِفُونَ﴾: مُقِيمون، جمْع عاكِف؛ يقال: عكَف على كذا إذا أقام عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٣، ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

﴿تُدْلُوا بها﴾: تُصانِعوا، وتدْفَعوا بها، وأصل (دلي) يدلُّ على مُقاربةِ الشَّيءِ ومُداناتِه بِسُهولةٍ ورِفقٍ[(١)].

مشكل الإعراب:

١- قوله: ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ﴾:

﴿فِدْيَةٌ﴾: مرفوعٌ بالابتداء، وخبرها محذوف، والتقدير: فعَليهِ فِديةٌ.

﴿طَعَامُ﴾: مرفوعٌ، بدلٌ مِن (فِديةٌ)، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: (هي)- على قراءة تنوين (فديةٌ)، أو مجرور مضاف إليه لفِدية على قراءةِ ضم (فديةُ) من غير تنوين[(٢)].

٢- قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾:

﴿قَرِيبٌ﴾: خبرٌ أوَّل لـ (إنَّ).

وجملة ﴿أُجيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾: خبَر ثان لـ (إنَّ)، وليس صفةً له[(٣)].

المعنى الإجمالي:

يُخبِر اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين بفَرْض الصِّيام عليهم؛ من أجلِ تحقيقِ التَّقوى، وأنَّه قد فُرِض أيضًا على الأُمَم السابقةِ من قَبلهم.

ومِن تيسيره سبحانه على عبادِه أنْ فرَض الصيامَ أيَّامًا قليلة، وأنَّ مَن كان مريضًا، أو مسافرًا فأفطَر، فعليه قضاءُ ما أفطره، ثم خيَّر اللهُ تعالى مَن كان قادرًا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٢١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٢٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٥٣).

على الصِّيام، بَيْن الصِّيام والفِطر، فإنْ أفطَر، فعليه إطعامُ مِسكينٍ عن كلِّ يوم أفْطَره، فإنْ أطعَم أكثرَ من مسكين فهو أفضلُ، والصَّوم أفضلُ من جميعِ ذلك؛ فمَن علِم ما فيه مِن الخير، فإنَّه لن يتهاونَ فيه، ثمَّ نسَخ عزَّ وجلَّ هذا التَّخييرَ في حقِّ القادر، فأوجَب عليه الصَّومَ، وبقِي الفِطرُ والإِطعام للعاجِز عن الصِّيام.

ومدَح اللهُ عزَّ وجلَّ شهرَ رمضان، مبيِّنًا إحدى أعظمِ فضائِله، وهي نزولُ القرآن فيه، ووصَفَه بأنَّه يُرشد النَّاس إلى كلِّ خير، وأنَّه مشتملٌ على الآياتِ الواضِحات، ومبيِّنٌ لطُرق الهداية، وفارقٌ بين الحقِّ والباطل، ثمَّ بيَّن جلَّ وعلا وجوبَ صيام هذا الشَّهر العظيم على مَن كان حاضرًا مُقِيمًا، وأمَّا مَن كان مريضًا أو مسافرًا فأفطر، فعليه القضاءُ لإكمالِ عِدَّة ما أفطَر؛ وهذا تيسيرٌ منه سبحانه على عِباده، وهو يحبُّ منهم أنْ يُعظِّموه شاكرينَ له على ما هداهم إليه من نِعمة الصِّيام، وفضْلِه بتيسيرِ الأحكام.

ثمَّ خَاطَب اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم: إذا سألَك عِبادُ الله عن قُربه، فإنَّه قريبٌ، يستجيبُ دعاءَ مَن دَعاه، فعليهم أنْ يُطيعوه وينقادوا له، ويتيَقَّنوا أنَّه يُثِيب مَن أطاع، ويُجيب مَن دعا؛ لعلَّهم يُوفَّقون بهذا إلى الحقِّ.

ثمَّ أخبَر تعالى أنَّه أباح لعباده مُجامَعةَ نسائهم في ليالي الصيام؛ فإنَّ كلًّا من الزَّوجين بمثابةِ اللِّباس للآخَر، وأخبَرهم أنَّه علِم أنَّهم كانوا يُراودون أنفسَهم على مباشرةِ نسائهم ليلًا، وعلى الأكْل بعد النوم، قبل أن يطلُعَ الفجر، بل إنَّ بعضهم قد فعَلَ ذلك، فأباحَ اللهُ لهم الأكْلَ والشُّرب والجِماعَ في ليالي الصوم رحمةً بهم، إلَّا أنَّه سبحانه قد تجاوَز عنهم ما فعَلوه من قبلُ، وتاب عليهم، فأباح لهم ما كان حرامًا من المواقَعة للنِّساء، فلهم الآن أنْ يجامِعوهنَّ، قاصدين بذلك ما قدَّره الله تعالى من الولَدِ، وليلةَ القَدْر التي ينبغي ألَّا تشغَلَهم متعةُ الجِماع

عنها، بل عليهم الحرصُ على طَلَبِها، ومِمَّا أباحه اللهُ لهم أيضًا أنْ يأكلوا ويَشرَبوا في جميع أوقات اللَّيل، حتى يتضحَ بياضُ النَّهارِ من سواد اللَّيل، فحِينَها يجبُ عليهم الإمساكُ عن الأكْل والشُّربِ والجِماع إلى غُروبِ الشَّمس، ثمَّ نهى الله عزَّ وجلَّ المؤمنين عن الجِماعِ وهم معتكِفون في المساجدِ، مبيِّنًا أنَّ الأمورَ التي يجبُ اجتنابُها مِن الأكْل والشُّربِ والجِماع في نهارِ رمضانَ، والجِماع حالَ الاعتكاف في المساجد- محرَّماتٌ يجب أنْ يَجتنبوها، وألَّا يَقرَبوها، وكما بيَّن اللهُ أحكامَ الصِّيام بيانًا تامًّا، يُبيِّن أيضًا باقيَ أحكام الشَّريعة الأخرى في كتابه، وعلى لسانِ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ ليعلَم النَّاسُ كيف يُطيعون الله؛ فِعلًا للمأموراتِ، واجتنابًا للمنهيَّاتِ.

ثمَّ نهاهم اللهُ سبحانه وتعالى عن أكْلِ أموال بعضهم بعضًا بغير حقٍّ، ونهاهم عن الاحتيالِ بأنْ يتوصَّلوا بحُكْم الحاكم إلى أكلِ طائفةٍ من أموال النَّاس بالحرام، مع عِلمهم بأنَّ ما يقُومون به حرامٌ.

تفسير الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾.

أي: يُخبِر اللهُ تعالى المؤمنينَ به وبرسولِه مِن هذه الأمَّةِ بفَرْض عِبادةِ الصِّيام عليهم[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٧٢).

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: (إذا سمعتَ اللهَ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرْعِها سمعك؛ فإنَّه خيرٌ يَأمُر به، أو شرٌّ يَنهى عنه) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٩٦)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١/ ١٣٠)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٦١٩).

والصِّيام: هو التعبُّدُ لله تعالى بالإمساكِ عن الأكْلِ والشُّرب والجِماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس[١].

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

أي: فُرِضَت عليكم عِبادةُ الصِّيام كَما فُرِضت أيضًا على الأُممِ السَّابِقة[٢].

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

أي: من أجل الوصولِ بصِيامِكم إلى مَرتبةِ التَّقوى[٣].

﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢٥/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦).

وقيل: التشبيه فِي أصل فرض الصَّوْم، لا في قدْره وكيفيَّته ووقته. وهذا اختيار ابن القيم في ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٨٤)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٢/ ١٥٦-١٥٧)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣١٦-٣١٧).

وقيل: التشبيه إنما هو في الوقت، ففُرِض على هذه الأمة صوم شهر رمضان كما فرض صومه على الأمم السابقة، وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٣/ ١٥٥).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: الشعبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٣).

وقيل: التشبيه واقع على صفة الصوم الذي كان عليهم مِن مَنْعهم من الأكل والشرب والنِّكاح، فإذا حان الإفطارُ فلا يفعل هذه الأشياء مَن نام، كما كان الأمرُ من قبلُ لدى النصارى.

وممَّن قال بمثل هذا القول: ابن عمر، وابن عبَّاس، وأبو العالية، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، ومجاهد، وسعيد بن جُبير، ومقاتل بن حيَّان، والربيع بن أنس، وعطاء الخراساني، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٠٥).

وقيل: التشبيه في فَرْض صيام ثلاثة أيَّام من كل شهر ويوم عاشوراء، كما كان الأمرُ من قبلُ لدى اليهود.

وممَّن قال بنحو هذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، والضَّحَّاك بن مُزاحِم، وقتادة، وعطاء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٤)، و ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٢٦-٢٢٧)، ((تلخيص كتاب الاستغاثة في الرد على البكري)) لابن تيميَّة (١/ ٢٧٥).

وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)﴾.

﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾.

أي: إنَّ هذا الصِّيامَ مفروضٌ عليكم في أيَّامٍ قليلةٍ، مَحصيَّة ساعاتُها[١]، وهي أيَّامُ شهرِ رَمضانَ[٢].

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

أي: مَن كان مِن المؤمنين في حالِ مرضٍ أو سَفَر، فأفطَر، فعليه أنْ يَقضيَ صيامَ الأيَّام الَّتي أفطَرها في أيَّامٍ أخرى[٣].

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ... وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

الناسخ والمنسوخ:

هذا الحُكمُ المذكور في الآية منسوخٌ؛ إذ لَمَّا فرَض الله تعالى الصَّومَ في صدْر

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٦-١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٦١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٧٦).

وممَّن قال من السَّلف بأنَّ الأيَّام المعدودات هنا، هي شهرُ رمضان: ابنُ أبي لَيلَى، ومُقاتِل بن حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٠٦).

وقيل: المرادُ بها: ثلاثةُ أيَّام من كلِّ شهر، ثم نُسِخَ فرْضُ صِيامها بصيام شهر رمضان. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٧).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، وعطاء، وقَتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٦٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٨).

الإِسلام، كان المسلِمُ يُخيَّر بين الصَّوم وإطعامِ مسكينٍ عن كلِّ يوم أفْطَره، فإنِ اختار الصيامَ كان خيرًا له، ثمَّ نَسَخ اللهُ عزَّ وجلَّ هذا التخييرَ في حقِّ القادِر على الصيام بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، فأوجب عليه الصومَ، وبقِي الفطرُ والإِطعامُ للعاجز عنه(١).

---

(١) قال ابنُ حَزم: (قوله تعالى: ﴿وعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَه فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسكِينٍ﴾ هذه الآية نِصفها منسوخٌ، وناسخها قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْه﴾ يعني: فمَن شهِد منكم الشهرَ حيًّا بالغًا، صحيحًا عاقلًا، فليصمْه) ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: ٢٦).

وقال ابنُ تيميَّة: (إنَّ الصَّحابة والتَّابعين أخْبَروا أنَّ الله رخَّص في هذه الآية للعاجز عن الصَّوم أنْ يُفطِر ويُطعِم، وأنَّ حُكم الآية باقٍ في حقِّه، وهم أعلمُ بالتنزيل والتأويل، وأيضًا فإنَّ ذلك تبيَّن من وجهين:

أحدهما: أنَّ ابن عبَّاس وأصحابَه قرَؤوا (يُطَوَّقونه) و﴿يُطِيقُونَهُ﴾، وهي قراءة صحيحةٌ عنه، والقراءة إذا صحَّت عن الصَّحابة، كان أدْنَى أحوالها أن تَجري مجرَى خبَر الواحد في اتِّباعها، والعملِ بها؛ لأنَّ قارئها يُخبر أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قرأها كذلك، فإمَّا أن يكون حرفًا من الحروف السَّبعة التي نزَل القرآن بها، ويكون بعدَ النَّسخ يَقرأ الآية على حَرفين: (يُطَوَّقونه) و﴿يُطِيقُونَهُ﴾، أو يكون سمِعَها على جِهة التفسير وبيان الحُكم، فاعتقد أنَّها من التِّلاوة، وعلى التقديرين، فيجب العملُ بها، وإنْ لم يُقطع بأنَّها قرآن... ومعنى (يطوَّقونه)؛ أي: يُكلَّفونه، فلا يستطيعونه؛ فكلُّ مَن كُلِّف الصَّوم فلم يُطِقْه، فعليه فِديةٌ طعامُ مِسكين، وإنْ صام مع الجَهد والمشقَّة، فهو خيرٌ له، وهذا معنى كلام ابن عبَّاس في رِواية عطاء عنه.

الثاني: أنَّ العامة تقرأ: ﴿يُطِيقُونَهُ﴾، فكان في صَدر الإِسلام لَمَّا فرَض الله الصومَ، خُيِّر الرَّجُل بين أن يَصومَ وبين أن يُطعِم مكانَ كل يوم مِسكينًا؛ فإنْ صام ولم يُطعم، كان خيرًا له، ثم نَسَخ الله هذا التخييرَ في حقِّ القادر بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، فأوجب الصومَ، ومنَع من الفِطر والإِطعام، وبقِي الفِطر والإطعام للعاجز عن الصَّوم... ويُبيِّن ذلك أنَّ الشيخ والعجوز إذا كانَا يُطيقانِ الصَّوم، فإنَّهما كانَا يكونانِ مخيَّرَيْن بين الصِّيام والإطعام، فإذا عجَزَا بعد ذلك عن الصَّوم، تعيَّن عليهما الإِطعام، ثم نُسِخ ذلك التخيير، وبقِي هذا المعيَّن، وهذا ما تَقدَّم عن معاذ، وابن عبَّاس من رِواية سعيد بن جُبير وغيرِه من التابعين) ((شرح عمدة الفقه- كتاب الصيام)) (١/ ٢٦٢-٢٦٤).

وقال أيضًا: (قد ثبَت باتِّفاق أهل العلم-وهو في كتُب الحديث الصِّحاح، وغيرها، وكتُب التفسير والفقه -: أنَّ الله لَمَّا أوجب رمضانَ كان المقيم مخيَّرًا بين الصوم وبين أن يُطعِم كلَّ يوم مِسكينًا، فكان الواجبُ هو إطعام المسكين، ونَدَب سبحانه إلى إطعامِ أكثرَ مِن ذلك، فقال =

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾.

أي: يجبُ على مَن استطاع الصِّيامَ ولم يصُمْ، أنْ يُقدِّمَ عن كلِّ يومٍ أفطَره طعامًا لمسكينٍ(١).

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾.

أي: مَن أطعَم أكثرَ مِن مسكين، فذلك أفضلُ من إطعامِ مسكينٍ واحدٍ عن كلِّ يومٍ أفطَره(٢).

= تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ ثمَّ قال: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾، فلمَّا كانوا مخيَّرين، كانوا على ثلاثِ دَرجاتٍ: أعلاها الصوم، ويليه أن يُطعِم في كلِّ يوم أكثرَ من مسكين، وأدناها أن يَقتصرَ على إطعام مسكين، ثمَّ إنَّ الله حتَم الصومَ بعد ذلك، وأسقطَ التخيير في الثَّلاثة)) ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣١/ ٢٥٠).

وقال ابنُ كَثير: (روَى البخاريُّ عن سَلمةَ بن الأكوع، أنَّه قال: ((لمَّا نزلت: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان مَن أراد أن يُفطر يَفتدي، حتى نزلت الآيةُ التي بعدَها، فنَسختْها))... وقال البخاريُّ أيضًا: ... عن عطاءٍ سمِعَ ابنَ عبَّاس يقرأ: (وعلى الذين يُطوَّقونه فِديةٌ طعام مسكين)، قال ابن عبَّاس: ليستْ منسوخةً؛ هو للشَّيخ الكبير، والمرأة الكبيرة لا يستطيعانِ أن يصومَا، فيُطعمانِ مكانَ كلِّ يوم مسكينًا))... فحاصل الأمر: أنَّ النسخ ثابتٌ في حقِّ الصَّحيح المقيم بإيجاب الصِّيام عليه، بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، وأما الشيخ الفاني [الهَرِم] الذي لا يَستطيع الصيامَ، فله أن يُفطِر، ولا قضاءَ عليه؛ لأنَّه ليست له حالٌ يَصير إليها يتمكَّن فيها من القضاء)) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٩-٥٠٠).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ الآية منسوخةٌ: ابن عمر، ومعاذ بن جبل، وسَلَمة بن الأَكوع، وعلقمة، وعِكرمة، والحسن البصري، والضَّحَّاك، وعَبِيدة السَّلْماني، والشَّعبي، وعطاء الخُراساني، وزيد بن أَسْلَم، والزُّهري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٧٨، ١٧٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((شرح عمدة الفقه-كتاب الطهارة والحج)) لابن تيميَّة (١/ ٤٦٨)، ((شرح عمدة الفقه-كتاب الصيام)) لابن تيميَّة (١/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٦٨).

وعنِ ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّه قال: (﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ قال: زادَ مِسكينًا آخرَ) رواه النَّسائي (٤/ ١٩٠)، والطبراني (١١/ ١٦٨) (١١٣٨٨)، والدارقطني في ((السنن)) (٢/ ٢٠٥). =

﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

أي: صيامُ ما كُتِبَ لكم، خيرٌ لكم مِن أنْ تُفطِروا وتُطعِموا[١].

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: إذا عرَفتُم ما في الصَّومِ مِن الخيرِ لكم، فإنَّكم لن تتهاونوا في الصِّيام[٢].

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥)﴾.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾.

أي: الأيَّامُ المعدودات هي شهرُ رمضانَ[٣].

﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾.

قيل: المعنى: أنَّ القرآنَ نزَل جُملةً واحدة- أي:كاملًا- مِن اللَّوحِ المحفوظ إلى

= وقال الدارقطنيُّ: إسنادُه صحيحٌ ثابت. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النَّسائي)) (٤/ ١٩٠).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: عَطاء، وطاوس، وهو أحد قولَي مجاهدٍ، والحسنُ، والسُّدِّي، ومقاتِل بن حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٨٣)، و((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٨٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٥٠)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣١/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٦٨-١٦٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٢).

السَّماء الدُّنيا في ليلة القَدْر مِن شَهرِ رمضان[١]، وقيل: المعنى: أنَّ ابتداءَ نزولِ القُرآنِ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان في ليلةِ القَدْر من شهرِ رَمضانَ[٢].

﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾.

أي: إنَّ القرآنَ يُرشد النَّاسَ، ويدُلُّهم على طريقِ الحقِّ[٣].

﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾.

أي: إنَّ القرآنَ مشتمِلٌ على آياتٍ واضحات، وهي دَلائلُ وبراهينُ جليَّةٌ، تبيِّن الحقَّ، وتُرشِد إليه، وتُثبِت صِدقَ ما في القرآن مِن أخبارٍ، وعَدْلَ ما فيه من أحكامٍ، وتَفصِل بين الحقِّ والباطل[٤].

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

أي: فمَن كان حاضرًا مُقِيمًا في بلدِه، فقد وجَب عليه صيامُ ما حضَرَه من أيَّام الشَّهر[٥].

﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٠١).
وقد حَكَى القرطبيُّ في ((تفسيره)) (٢/ ٢٩٧-٢٩٨) الإجماعَ على ذلك.
وممَّن رُوي عنه هذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، وسعيد بن جُبير، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٨٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٢-٣٣٣).
وممَّن رُوي عنه نحو هذا القول: ابن إسحاق. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٩٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٥٠)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٤/ ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٤).

أي: إنَّ مَن كان في حالِ المَرَض أو السَّفر، فأفطَر، فعليه أنْ يقضيَ الصِّيامَ في أيَّامٍ أخرى، بعدَد الأيَّام الَّتي أفطَرها[١].

﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

أي: إنَّما رخَّص اللهُ تعالى في الإفطار لِمَن كان مريضًا، أو مسافرًا، وشرَعَ قضاءَ ما أفطَره؛ لأنَّه يحبُّ أنْ يُخفِّف عن المؤمنين، ويُسهِّل عليهم أحكامَه[٢].

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾.

أي: ويُريد اللهُ تعالى أنْ تُكمِلوا العِدَّة، والمعنى: يريدُ اللهُ شرعًا- أي: يُحِبُّ- أنْ تُكمِلوا عدَّةَ شهر رمضان بقضاءِ الأيَّام الَّتي أفطَرْتموها منه[٣].

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾.

أي: ويُريد اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ تُكبِّرُوه، والمعنى: يُريد اللهُ شرعًا- أي: يُحبُّ- أنْ تُعظِّموه بقول: اللهُ أكبَرُ، وذلك بعد انقضاءِ شهرِ رمضانَ؛ لِمَا أنعَم به عليكم من إرشادكم إلى هذا الشَّهرِ، وتشريع صومه وأحكامه، وتوفيقكم لتحقيق صيامه وإتمامِه[٤].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: من أجْل أنْ تكونوا بتكبيرِكم اللهَ عزَّ وجلَّ، وبالقيام بغير ذلك من أنواع

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٠١، ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٤-٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٣٠٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٦).

شكره كأداء فرائضه وترك محارمه، مِن الشَّاكرين لنِعمة اللهِ تعالى عليكم بصِيام شهرِ رمضانَ، وتيسيرِه أحكامَه عليكم[١].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

أي: إذا سأَلك المؤمنون عن قُرْبي يا محمَّدُ، فأنا قريبٌ منهم، وأستجيبُ لدعاءِ مَن دعاني منهم، سواءٌ كان دعاءَ عبادةٍ فأُثيبهم عليها، أو دعاءَ مسألةٍ فأُعطيهم ما طلبوا[٢].

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

أي: فلينقادوا لي، ممتثِلين أوامري، ومجتَنِبين نواهيَّ، وليؤمنوا بأنِّي أُثيبهم على انقيادِهم لي، وأُجِيب دعاءَهم وتضرُّعَهم لي، من أجل إصابةَ الحقِّ بذلك، والتَّوفيقَ للعِلم النَّافع والعملِ الصالح[٣].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٢٦-٢٢٧)، ((تلخيص كتاب الاستغاثة في الرد على البكري)) لابن تيميَّة (١/ ٢٧٥)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٢٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١٥/ ١١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٢٥)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٣).

بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)﴾.

سبب النُّزول:

عن البَراء رضي الله عنه، قال: ((كان أصحابُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم إذا كان الرجلُ صائمًا، فحضَر الإفطارُ، فنام قبل أنْ يُفطِر، لَم يأكُلْ ليلتَه ولا يومَه حتى يُمسِيَ، وإنَّ قيسَ بنَ صِرْمَةَ الأنصاريَّ كان صائمًا، فلمَّا حضَر الإفطارُ أتى امرأتَه فقال لها: أعندكِ طعامٌ؟ قالت: لا، ولكن أنطلِقُ فأطلُب لك، وكان يومَه يعملُ فغلبتْه عيناه، فقالت: خيبةً لكَ، فلمَّا انتصَف النَّهارُ، غُشِي عليه، فذُكِر ذلك للنبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فنزَلَتْ هذه الآيةُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾، ففرِحوا بها فرَحًا شديدًا، ونزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾))[(١)].

وعن البَراءِ رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نزَل صومُ شهر رمضان، كانوا لا يقرَبون النِّساءَ رمضانَ كلَّه، فكان رجالٌ يخُونون أنفسَهم، فأنزَل اللهُ: ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ الآية))[(٢)].

وعن سَهْلِ بن سعدٍ رضي الله عنه، قال: ((أُنزِلت: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾، ولم ينزل: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، فكان رِجالٌ إذا أرادوا الصومَ ربَط أحدُهم في رِجْليه الخيطَ الأبيضَ والخيطَ الأسود، فلا يزال

(١) رواه البخاري (١٩١٥).

(٢) رواه البخاري (٤٥٠٨).

يأكل ويشرَبُ حتى يتبيَّنَ له رؤيتُها، فأنزَل الله بعدُ: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، فعلِموا أنَّه إنَّما يعني اللَّيلَ والنَّهارَ))[1].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾.

أي: أُبِيح لكم في ليالي الصِّيام الإفضاءُ إلى نسائِكم، أي: مجامعتُهنَّ[2].

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾.

أي: إنَّ كلًّا مِن الزَّوجِ والزَّوجة بمثابةِ اللِّباس للآخَر، وذلك تعبيرٌ عن انضمامِهما متجرِّدَيْنِ، وشدةِ امتزاجِهما ببعضِهما حال الجِماعِ[3].

﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾.

أي: عَلِم اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّكم كنتم- أيُّها المؤمنون- تخُونون أنفسَكم بمعصيةِ الله

---

(١) رواه البخاري (١٩١٧)، ومسلم (١٠٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٦).
وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ الرَّفَث معناه الجِماع: ابن عبَّاس، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وطاوس، والحسن، والضَّحَّاك، وإبراهيم النَّخَعي، وسالم بن عبد الله، والسُّدِّي، وعمرو بن دينار، وقتادة، والزُّهري، ومقاتل بن حَيَّان، وعطاء الخراساني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١٥).

(٣) وقيل المعنى: هُنَّ سكنٌ لهم، وأنتم سكنٌ لهنَّ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٨٦).
ويُنظر لكلا المعنيَيْن: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٣١-٢٣٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٦).
قال ابنُ أبي حاتم: (عن الرَّبيع بن أنس ﴿هنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ قال: هنَّ لحافٌ لكم، وأنتم لحافٌ لهنَّ) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١٦).
وقال ابن أبي حاتم أيضًا: (عن ابن عبَّاس ﴿هنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ قال: هنَّ سكنٌ لكم، وأنتم سكنٌ لهنَّ. ورُوي عن مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وقَتادة، والسُّدِّي، ومقاتل بن حَيَّان، نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١٦).

سبحانه، فلا تَفُون بأمرِ الله تعالى لكم بالامتناعِ عن الجِماعِ لياليَ الصِّيام، إلَّا أنَّه قد تاب عليكم بأنْ أحلَّ لكم هذا الَّذي حرَّم عليكم من قبلُ، وتجاوَز عنكم ما سلَف من التخوُّنِ[١].

﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾.

أي: فالآنَ بعد هذه السَّعةِ بإباحة جِماعِ نسائكم، لكم أنْ تُجامِعوهنَّ، واطلُبوا بجِماعِهنَّ ما قدَّر اللهُ تعالى لكم مِن الولد[٢]، وممَّا كتَب الله تعالى لكم أيضًا ليلة القَدْرِ، مِن ليالي شهرِ رمضانَ، فلا ينبغي لكم أنْ تشتغلوا بلذَّةِ الجِماعِ عنها، فتُفوِّتوا أجرها[٣].

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٨٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٤٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٨).

والقول بأن المراد هو طلب الولد، قولُ جمهور المفسِّرين. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٨٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٥٧).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ المباشرةَ هنا الجِماع: ابن عبَّاس، ومجاهد، وعطاء، والضَّحَّاك، ومقاتل ابن حَيَّان، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، وزيد بن أسلم) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١٧).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ المقصودَ بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ هو طلبُ الولد: ابن عبَّاس -في أحَد قوليه- وأنس، وشُرَيح، والحسن، ومجاهد، وعطاء، والضَّحَّاك، وسعيد بن جُبَير، وعِكْرمة، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، والحَكم بن عُتبة، وقتادة، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حَيَّان، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١٧).

(٣) وممَّن جَمع بين هذا القول وسابقه: ابن جرير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٤٧)، وابن القيِّم في ((تحفة المودود)) (١/ ٨-١٠).

وقيل: المعنى: ابتُغوا الرخصةَ والتوسعة. واستحسنه ابنُ عطية في ((تفسيره)) (١/ ٢٥٧-٢٥٨).

وقيل: ما كتبه اللهُ: هو ما أباحه من مباشرةِ النِّساء في غير وقت الصيام. واختاره ابن عاشور في ((تفسيره)) (٢/ ١٨٣). وأجاز أيضًا أن يكونَ المرادُ بذلك طلبَ الولد.

وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٣١٨).

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾.

أي: أباح تعالى الأكلَ والشُّرب في أيِّ وقتٍ من الليل شاءه الصائمُ، حتى يظهَر ويتميَّز بياضُ النَّهار من سواد اللَّيل، وحينها يجبُ الإمساكُ عن الأكل والشُّربِ والجِماع إلى غروب الشمس[١].

عن عمرَ بنِ الخطَّابِ، رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا أقبَل اللَّيلُ مِن هاهنا، وأَدبَر النَّهار مِن هاهنا، وغربتِ الشَّمسُ، فقد أفطَر الصَّائمُ))[٢].

وعن عَديِّ بن حاتمٍ رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نزلتْ: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنْ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾. عَمَدْتُ إلى عِقَالٍ أسودَ وإلى عِقَالٍ أبيضَ، فجَعلتُهما تحتَ وسَادتي، فجعلتُ أنظرُ في الليلِ فلا يَسْتَبِينُ لي، فَغَدَوتُ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فذكرتُ لهُ ذلكَ، فقالَ: إنَّما ذاكَ سوادُ الليلِ وبياضُ النهارِ))[٣].

﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾.

نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن الجِماعِ حالَ اعتكافهم للعبادة في بيوتِ اللهِ تبارك وتعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٦٠-٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥١٢-٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧).

(٢) رواه البخاري (١٩٥٤) واللفظ له، ومسلم (١١٠٠).

(٣) رواه البخاري (١٩١٦) واللفظ له، ومسلم (١٠٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٦٨، ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص:٨٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٩).

قال ابن أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس، قوله: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾، هذا في الرجل يعتكفُ في المسجد في رمضانَ أو غيره، فحرَّم الله عليه أن ينكحَ النساء ليلًا ونهارًا، حتى يقضي اعتكافه) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١٩).

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾.

أي: هذا الَّذي بيَّنه اللهُ تعالى مِن الأحكامِ في هذه الآيةِ- كتحريمِ الأكلِ، والشُّرب، والجِماعِ في نهار الصِّيام، وغير ذلك مِن محرَّمات- قد عرَّفها اللهُ تعالى لعباده، وبيَّنها، لتفصلها عن الحلالِ، وتتميَّزَ لهم، وعليهم أنْ يُبقُوا أنفسَهم بعيدةً عنها[١].

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

أي: كما بيَّن اللهُ تعالى لعباده أحكامَ الصِّيام أتمَّ تبيينٍ، فكذلك يُبيِّن أيضًا سائرَ الأحكام الأخرى في كتابِه أو على لسانِ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ، ويوضِّحُها لهم أكملَ إيضاح؛ كي يقوموا بأحكامِه؛ فِعلًا لِما أمَر، واجتنابًا لِما نهى[٢].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حذَّر الله تعالى من الجُرأة على مخالفة حُكم الصِّيام غيرِ المأذون فيه في قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، وهو ضربٌ من الأكْل الحرام- عطَف عليه أكلًا آخَرَ مُحرَّمًا، وهو أكلُ المال بالباطل[٣]. وأيضًا لَمَّا سبَق في آيات الصِّيام تحريمٌ لأشياءَ خاصَّة في زمانٍ خاصٍّ- ذكَر عَقِبَه ما تحريمُه عامٌّ في زمانه، وهو أكْل أموال النَّاس بالباطل[٤]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير العثيمين - الفاتحة والقرة)) (٢/ ٣٦٣).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾.

أي: لا يأخُذْ بعضُكم أموالَ بعضٍ بغير الطُّرق التي أباحها اللهُ تعالى لذلك[1].

ثم أفرد الله تعالى بالذِّكر أحدَ أنواع أكْل أموال الناس بالباطل، فقال:

﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾.

أي: لا تتوصَّلوا بحُكم الحاكم إلى أكلِ الأموال بغير حقٍّ؛ وذلك كأن يجحَدَ امرؤٌ الحقَّ الذي عليه، وليس عليه بيِّنة، ثمَّ يُخاصمه عند القاضي، فيطلُب القاضي من المدَّعِي بيِّنةً، فإن لم تكُنْ له بيِّنة طلَب من المدَّعَى عليه اليمينَ، فإذا حلَف بَرِئ، فتوصَّل إلى جَحدِ مالِ غيره بالمحاكمة، أو يتوصَّل إلى ذلك برِشْوة الحاكم بالمالِ؛ ليحكمَ له بتلك الأموالِ بغير حقٍّ[2].

﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فتكونون بذلك آكِلينَ طائفةً مِن أموال النَّاس بالحرامِ، وأنتم تعلَمون أنَّكم واقِعونَ في الحرام[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٧٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٧٦، ٢٧٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٨٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٦٤-٣٦٥).

قال ابن أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس قوله: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ قال: هذا في الرجُل يكون عليه مالٌ وليس عليه فيه بيِّنة، فيجحد المالَ ويُخاصمهم إلى الحُكَّام، وهو يعرِف أنَّ الحقَّ عليه، وقد علِم أنَّه آثمٌ آكِلٌ حرامًا. ورُوي عن مجاهد، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقَتادة، ومقاتل بن حَيَّان، قالوا: لا تُخاصِم وأنت تَعلم أنَّك ظالم) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٢١).

وقيل: إنَّ قوله: ﴿وَتُدْلُوا﴾ مرتبطٌ بالجملةِ السابقة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾؛ فيكون النَّهيُ عن مجموع الأمرين، أي يكون أكلُ أموال النَّاس بالباطلِ خاصًّا في هذه الآيةِ، بأكلِها فقط عبر الحُكَّام، بالرِّشوةِ أو بغيرها، كما سبَق ذِكره. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٩٠، ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢١)، ((تفسير =

الفوائد التربويَّة:

١- النَّظر في حِكمة الله سبحانه وتعالى في تنويعِ العبادات؛ فمِنها ما هو ماليٌّ محضٌ: كالزَّكاة، ومنها ما هو بدنيٌّ محضٌ؛ كالصَّلاة، ومنها ما هو مركَّبٌ منهما: بدَنيٌّ، وماليٌّ: كالحجِّ، ومنها ما هو مِن قَبيل التُّروك: كالصِّيام؛ وذلك ليتمَّ اختبارُ المكلَّف؛ لأنَّ مِن النَّاس مَن يَهُون عليه العملُ البدنيُّ دون الماليِّ، ومنهم مَن يكونُ بعكسِ ذلك، وهكذا[١].

٢- تَسليةُ المكلِّف لِمَن كلَّفه بعمل؛ ليهُون عليه القيامُ به، ومن ذلك: الإشارةُ إلى تكليفِ غيرِه به من قَبلُ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذين مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، ومن ذلك أيضًا: التعبيرُ بكلماتٍ يكونُ بها تهوينُ الأمرِ على المكلَّف؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾[٢].

٣- يَنبغي سلوكُ الأسبابِ الموصِّلة إلى تحقيقِ التَّقوى؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أوجَب الصِّيامَ لهذه الغايةِ في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣].

٤- النَّظَر في حِكمةِ الله سبحانه وتعالى في التدرُّج بالتَّشريع؛ حيث كان الصِّيامُ أوَّلَ الأمرِ على سبيلِ التَّخيير، فإمَّا أنْ يصومَ، وإمَّا أنْ يُطعِمَ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ

= السعدي)) (ص: ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٦٥-٣٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٨، ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٨).

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ثمَّ تعيَّن الصِّيامُ على القادرِ بعد ذلك[١].

٥- أنَّ مِن شرط إجابةِ الدُّعاء أنْ يكونَ الدَّاعي صادقَ الدَّعوة في دعوةِ الله عزَّ وجلَّ؛ بحيث يكون مخلصًا مُشعِرًا نفسَه بالافتقار إلى ربِّه، ومشعِرًا نفسَه بكرَمِ الله وجُودِه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾[٢].

٦- أنَّ الإنسانَ كما يخُون غيرَه قد يخُون نفسَه؛ وذلك إذا أوقَعها في معاصي اللهِ؛ فإن هذا خيانةٌ، وعلى هذا فنفسُ الإنسان أمانةٌ عنده؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧][٣].

٧- أنَّه ينبغي البُعدُ عن المحارمِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[٤].

٨- أنَّ العِلم سببٌ للتَّقوى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، ووجهُه: أنَّه ذكَره عقِبَ قولِه تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾؛ فدلَّ هذا أنَّه كلَّما تبيَّنتِ الآياتُ حصَلت التَّقوى، ويؤيِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فكلَّما ازداد الإنسانُ عِلمًا بآياتِ الله، ازداد تُقًى؛ ولهذا يُقال: مَن كان باللهِ أعرَفَ كان منه أخوَفَ[٥].

٩- في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، إشارةٌ إلى علوِّ مرتبةِ التَّقوى؛ لكونِ الآياتِ تبيَّنُ للناسِ مِن أجلِ الوصول إليها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٢٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- مِن فوائدِ التَّشبيه المذكور في قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: استكمالُ هذه الأمَّةِ للفضائلِ الَّتي سَبَقت إليها الأممُ السَّابقة، وليكون للمسلمين فيه أُسوةٌ، وليجتهدوا في أداءِ هذا الفرض بأكملَ ممَّا فعَله مَن سبَقهم[١].

٢- ثبوتُ تفاضُلِ الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وتفاضُلُ الأعمال يستلزم تفاضُلَ العامل[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إثباتُ صِفة العلوِّ لله تعالى؛ لأنَّه أَنزَل القرآن، والإنزالُ إنَّما يكون من عُلْوٍ[٣].

٤- أنَّ المشقَّةَ تَجلِب التَّيسيرَ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ لأنَّ المرَضَ والسَّفر مَظِنَّةُ المشقَّةِ[٤].

٥- في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ إثباتُ صِفة الإرادةِ لله تعالى، والمرادُ بها هنا: الإرادةُ الشَّرعيَّة، وهي بمعنى المحبَّة[٥].

٦- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي... إِذَا دَعَانِ﴾ تخلَّل الدُّعاء أحكامَ الصيام؛ إشارةً إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدَّة، بل وعند كلِّ فِطر[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣٢)
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣٥).
ويُنظر: ((رسالة لأهل الثغر)) لأبي الحسن الأشعري (ص: ٢١٤)، ((التدمرية)) لابن تيمية (ص: ٢٥)، ((دقائق التفسير)) لابن تيمية (٥/ ١٨٤-١٩٣)، ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٣٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٩).

٧- قيل: إنما قال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ولم يقل: (فقل لهم إني قريب) إيجازًا لظهوره من قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، وتنبيهًا على أنَّ السؤال مفروضٌ غير واقع منهم بالفعل، وفيه لطيفةٌ قرآنية، وهي إيهام أنَّ الله تعالى تولَّى جوابهم عن سؤالهم مباشرةً منه إليهم؛ إذ حذف في اللفظ ما يدلُّ على وساطة النبي صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تنبيهًا على شدَّة قُرب العبد من ربِّه في مقام الدُّعاء، واحتيج للتأكيد بـ(إنَّ)؛ لأنَّ الخبر غريبٌ، وهو أن يكون تعالى قريبًا مع كونهم لا يرونه[١].

٨- قُيِّدَت هذه الآية بالمشيئة ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء﴾، وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فأطلقت فيه إجابة الدعوة دون تقييدٍ بالمشيئة؛ قيل لأنَّ الآية التي قُيِّدت: جاءت في دعاء الكفار، وجاءت الآية الأخرى في دعاء المؤمنين فلم تُقيَّد بالمشيئة؛ لأنَّ دعاء المؤمن لا يُرَد إلا إذا كان بإثمٍ أو قطيعة، وما جرى مجرى ذلك[٢].

٩- قيل: جاء قولُه تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿الدَّاعِ﴾ مع أن الدَّاعي لا يُوصَف بأنه داعٍ إلَّا إذا دعا؛ لأن المراد بقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾: إذا صدق في دعائه إيَّاي؛ بأنْ شعَر بأنَّه في حاجةٍ إلى الله تعالى، وأنَّ الله سبحانه قادرٌ على إجابته، وأخلص الدعاء لله عزَّ وجلَّ بحيث لا يتعلق قلبه بغيره[٣].

١٠- أنَّ الزَّوجةَ سِترٌ للزَّوج، وهو سِترٌ لها، وأنَّ بينهما مِن القُربِ كما بين الثِّيابِ ولابِسِيها، ومِن التَّحصينِ للفُروج ما هو ظاهرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥١).

١١- أنَّه ينبغي أنْ يكونَ الإنسان قاصدًا بوَطْئِه طلَبَ الولَدِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾[١].

١٢- جوازُ أنْ يُصبِح الصائمُ جُنُبًا؛ لأنَّ اللهَ أباح الجِماعَ حتَّى يتبيَّنَ الفجرُ، ولازِمُ هذا أنَّه إذا أخَّر الجِماعَ لَم يغتسِلْ إلَّا بعد طلوعِ الفجرِ، وقد ثبَت عن الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنَّه كان يُصبِح جُنُبًا مِن جِماع أهلِه، ثم يصومُ[٢].

١٣- أنَّ بياضَ النَّهار وسوادَ الليل يتعاقبانِ، فلا يجتمعانِ؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾[٣].

١٤- أنَّ الاعتكافَ مشروعٌ في كلِّ مسجد؛ لعموم قوله تعالى: ﴿فِي الْمَسَاجِدِ﴾[٤].

١٥- استنبط بعضُ أهل العلم أنَّ الاعتكافَ يكون في رمضان في آخره؛ لأنَّ الله تعالى ذكَر حُكْمه عقِبَ آياتِ الصِّيام؛ وهذا هو الذي جاءت به السُّنَّة[٥].

١٦- جاء قولُه سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فلا تقْرَبُوها﴾؛ عقب محرماتٍ، فناسب أن يُنهى عن قربانها، والنهي عن قِربان شيءٍ أبلغُ من النهي عن فعله، وجاء في موضعٍ آخر: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فلا تَعْتَدُوها﴾ عَقِبَ أوامر؛ فناسب أن يُنهى عن مجاوزتها[٦].

١٧- حِرص الشَّارعِ على حِفظ الأموال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٥٤). والحديث أخرجه البخاري (١٩٣١) واللفظ له، ومسلم (١١٠٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١/ ٦٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٥٩).

(٦) يُنظر: ((الدر المصون)) للحلبي (٢/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧).

بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾؛ فالأموالُ تقُوم بها أمورُ الدِّين، وأمورُ الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥][١].

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ فيه تَكرارٌ للنِّداء؛ لإظهارِ مزيدِ الاعتناءِ، ولبيان حُكمٍ آخَر من الأحكام الشرعيَّة، بعدما سبَق تفصيلُه في الآيات الماضية عن القِصاص[٢].

٢- **قوله:** ﴿**كُتِبَ**﴾ مبنيٌّ للمفعول- وكذا أمثاله من المكتوبات- وحُذِف الفاعل للعِلم به؛ إذ هو: الله تعالى-؛ لأنَّها مشاقُّ صعبةٌ على المكلَّف، فناسَب أنْ لا تُنسب إلى الله تعالى، وإنْ كان الله تعالى هو الذي كتَبها، وحين يكون المكتوبُ للمكلَّف فيه راحةٌ واستبشار يُبنى الفعل للفاعِل، كما في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقوله: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، وأمثالها، وهذا من لَطيف عِلم البيان[٣].

٣- **قوله:** ﴿**عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**﴾ فيه تقديمٌ وتأخير، حيث قدَّم شِبه الجملة ﴿عَلَيْكُمُ﴾ على نائب الفاعل ﴿الصِّيَامُ﴾، والأصل تأخيرها عنه؛ لأنَّ البَداءةَ بذِكر المكتوب عليه آكَدُ مِن ذكر المكتوب؛ لتعلُّق الكَتْب بمَن يؤدِّي[٤].

٤- **في قوله تعالى:** ﴿**أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ**﴾ عُبِّر عن رمضانَ بأيَّامٍ، وهي جمْع قِلَّة، ووُصفَت بمَعدوداتٍ، وهي جمْعُ قِلَّة أيضًا؛ تهوينًا لأمرِه على المكلَّفين، والمعدوداتُ كنايةٌ عن القلَّة؛ لأنَّ الشيءَ القليل يُعدُّ عدًّا؛ ولذلك يقولون: الكثيرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٧٧).
(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٦٦).

لا يُعَدُّ، ولأجْل هذا اختير في وصفِ الجمْعِ مجيئُه بلَفْظ ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾، وإنْ كان مجيئُه بلفظ (مَعْدودَة)- على طريقةِ الجمْع المُكسَّر الذي فيه هاءُ تأنيثٍ- أكثرَ[١].

٥- **قوله**: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ فيه حذْف معمول ﴿تَعْلَمُونَ﴾؛ إمَّا للاقتصار، أي: إنْ كنتم مِن ذوي العِلم والتَّمييز، وإمَّا للاختصار؛ للدَّلالة عليه، وفَهمه من السِّياق[٢].

٦- **قوله**: ﴿**فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾ فيه حذْفٌ، ووضْعٌ للمُظهر المتأخِّر مكانَ المضمَر الأوَّل؛ إذ أصله: فمن شهد فيه فليصم فيه؛ فأضمر (فيه) الأولى، وهذا يُفيد التعظيم والمبالَغة في البيان[٣].

٧- **وفي قوله**: ﴿**عَنِّي**﴾ **و**: ﴿**إِنِّي**﴾ من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾: التفاتٌ من غَيْبَة إلى تَكَلُّمٍ؛ لأنَّ قبلَه، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ﴾، والاسمُ الظاهرُ في ذلك كالضميرِ الغائبِ، وفيه ما لا يَخفَى من تشريفِه ورفعِ محلِّه[٤].

- **وقوله** ﴿**فَإِنِّي**﴾: فيه تقريبُ الجواب، وتنبيهٌ على شِدَّة قُرب العبد من ربِّه في مقام الدُّعاء، وإخباره سبحانه وتعالى بنفسه الشريفة دون واسطة؛ إشعارًا بفرط قُربه وحضوره مع كلِّ سائل فقال: ﴿فإنِّي﴾ دون (فقل إني)، فإنَّه لو أثبت (قل)، لأوهم بُعدًا وليس المقام كذلك، ولكان قوله: ﴿فَإِنِّي﴾، موهمًا فيحتاج إلى أن يقال: (إنَّ الله) أو نحوه، ومع ذلك فلا ينفكُّ عن إشكال؛ وإذا كان هذا التلطُّف بالسَّائلين؛ فما ظنُّك بالسالكين السائرين[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٩).

- واحتيج للتأكيد بـ(إنَّ)؛ لتأكيد كونه تعالى قريبًا منهم، مع كونِهم لا يَرَوْنه[١].

٨- **وردَ قوله تعالى: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾** بعد قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ من باب ذِكر الخاصِّ بعد العامِّ، وفائدته: بيان شدَّة شَناعة هذه الصورة، ولأنها جامعةٌ لمحرماتٍ كثيرة[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٨٧).

الآيات (١٨٩ - ١٩٥)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن
تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ
أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ
يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟
فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ
ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿مَوَاقِيتُ﴾: جمْع مِيقات، وهو مِفْعالٌ من الوقت، وهو الوقتُ المضروبُ للشيء، والوعدُ الذي جُعِل له وَقْتٌ، وقد يُقال المِيقَاتُ للمكان الذي يُجعَل وَقْتًا للشيء، كمِيقَاتِ الحجِّ[1].

﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: وجدتُموهم، وظفِرتم بهم، وأصل ثقِف: الحِذق في إدراك الشَّيء وفِعله، وإقامة عِوَج الشيء[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

﴿التَّهْلُكَةِ﴾: الهَلَاك، وهو مصير الشيء بحيث لا يُدرى أين هو[١].

المعنى الإجمالي:

سأَل النَّاسُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ عن الحِكمة من تغيُّر أحوال القمَر صِغرًا وكِبرًا على مراحلَ، فأعلَمه الله سبحانه بالجواب الذي يردُّ به على تساؤلِهم، وهو أنَّ الحكمةَ من خَلْق ذلك أنْ يضبطَ به النَّاس شوؤنهم المؤقَّتة بأوقاتٍ؛ كصومِهم، وفِطرهم، وعدَّة نسائهم، وآجالِ ديونهم، وأوقات حَجِّهم، وغيرها.

ثم أخبَر سبحانه أنَّه ليس من الخير ما كان يفعلُه أهلُ الجاهليَّة من غير القُرَشيين، حيث يمتنعون حالَ إحرامِهم من دخول البيوت من قِبَل الأبواب، وإنَّما من الخَلْف، وأعلَمهم أنَّ البِرَّ والخيرَ في تقوى الله تعالى بامتثال أوامرِه، واجتناب مناهيه، وعليهم أنْ يدخلوا البيوتَ من أبوابها، وأن يلتزموا بالتَّقوى؛ بفعلهم المأمورَ، وتركِهم المنهيَّ عنه، رجاء أنْ يصِلوا بتقواهم تلك إلى الظَّفَر بما يطلُبون، والنَّجاةِ ممَّا يحذَرون.

ثمَّ أمَر الله المؤمنين بالقتال في سبيله، مَن يقاتِلُهم مِن مُقاتِلة الكفَّار، ولا يتجاوزوا ذلك إلى قَتْل النِّساء والأطْفال والشيوخ، وغيرهم ممَّن لم يشتركوا في قتالهم؛ فإنَّ ذلك تعدٍّ، والله تعالى لا يحبُّ المتجاوزين لحدودِ ما شرَع.

ثمَّ أمرَ اللهُ تعالى المؤمنين أنْ يقتلوا الكفَّار المقاتِلين لهم في أيِّ موضعٍ وجَدوهم، وأن يقوموا بإخراجِهم من الأماكن الَّتي أخرَجوا الَّذين آمَنوا منها من قبلُ؛ فإنَّ ما هم فيه من الشِّرك بالله تعالى أعظمُ من إزهاق أنفسِهم، كما أنَّ صدَّ المشركين للمؤمنين عن دِينهم؛ ليصيروا مِثلَهم، أشدُّ مِن أنْ يُقْتَلَ المؤمنون وهم مُتمسِّكون بدِينهم.

ونَهى الله المؤمنين عن ابتداءِ الكفَّار بقَتْلٍ وقِتالٍ في المسجد الحرام، لكن إذا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

ابتدأ الكفَّار فيه بذلك فليقتلهم المؤمنون؛ عُقوبةً لهم مثلما هي عُقوبة كلِّ كافرٍ مُعْتَدٍ، فإنْ تابوا وأسلموا وترَكوا القتالَ، فإنَّ الله يتجاوز عن سيئاتهم، ويرحمهم بتوفيقهم للخير.

ثمَّ كرَّر اللهُ الأمرَ بقتال المشركين؛ لئلَّا يكونَ ثمَّ إشراكٌ باللهِ، وتكون الطَّاعةُ والعبادة لله وحده. فإنْ ترَك هؤلاء المشركون القتالَ، وتابوا إلى الله فقد وجَب الكفُّ عن قتالهم؛ لأنَّه لا يستحقُّ المعاقَبةَ إلا مَن وقع في الظُّلم بشِرك، أو كُفر، أو قَتْل، أو مقاتَلة، وهؤلاء بتوبتِهم قد تخلَّصوا من الظُّلم.

ثم بيَّنَ اللهُ لعباده المؤمنين أنهم إن قاتَلهم المشركون في أحَدِ الأشهر الحُرُم، فليقاتلوهم فيه، فكما انتهكوا للمؤمنين حرمةَ شهرِهم الحرام، فإنَّ للمؤمنين أن يَنتهكوا حُرمةَ شَهرِهم جزاءً عادلًا، ومَن تعدَّى على المؤمنين، فليردُّوا عليه عدوانَه بمِثله، وأمَرَهم بتقواه عزَّ وجلَّ؛ حتَّى لا يتجاوزوا الحدَّ الَّذي رخَّص لهم في المعاقَبة به، وهو العقوبة بالمِثل، وليتيقَّنوا أنَّ اللهَ مع مَن اتَّقاه؛ فامْتَثل المأمورَ وترَكَ المحظورَ.

ثمَّ أمرَ اللهُ المؤمنين بإنفاق المال في أوجهِ القُرَب، ومنها: الإنفاقُ في جهاد أعداء الدِّين؛ إعلاءً لكلمةِ الله تعالى، ونَهاهم عن الوقوعِ فيما يكون سببًا لهلاكهم وعذابهم؛ وذلك بتَرْك ما أمَر الله تعالى به، أو بفِعْل ما نهاهم عنه، ومِنه: بُخْلهم عن الإنفاقِ في سبيل الله، وأمَرهم سبحانه أنْ يتحلَّوا بالإحسانِ في جميع أحوالهم، في معاملتِهم لخالقِهم، وفي تعاملِهم مع المخلوقين مثلهم؛ وذلك لأنَّ الله تعالى يحبُّ مَن كان متَّصفًا بالإحسانِ.

تفسير الآيات:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا أتمَّ الله سبحانه وتعالى البيانَ لِمَا أراده ممَّا شرَعه في شهر الصَّوم ليلًا ونهارًا، وبعض ما تبع ذلك، وكان كثيرٌ من الأحكام يدور على الهلال، لا سيَّما الحجُّ، وكانت الأهلَّة كالحُكَّام تُوجب أشياءَ وتَنفي غيرها؛ كالصِّيام والدُّيون والزَّكوات، قال سبحانه[1]:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.

أي: يسألُك أصحابُك يا محمَّد عن القمرِ حين يبدو هلالًا في بدايات الشَّهر ونهاياته: ما حِكمةُ هذا التغيُّر، خلافًا للشمس الباقية على هَيئةٍ ثابتة؟ فلقَّنه الله تعالى الإجابةَ بأنَّها خُلِقت؛ ليعرفَ النَّاسُ بها أوقاتَ حَجِّهم، وشهر صومهم، ويوم فِطرهم، وعِدَد نِسائهم، وغير ذلك من أحكامهم[2].

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾.

سبب النُّزول:

عن أبي إسحاقَ قال: سمعتُ البَراء رضي الله عنه يقول: ((نزلت هذه الآيةُ فينا، كانت الأنصارُ إذا حجُّوا فجاؤوا لم يدخلوا من قِبَل أبواب بيوتهم، ولكن مِن ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخَل من قِبَل بابه، فكأنَّه عُيِّرَ بذلك فنزلت: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾))[3].

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٩٥-١٩٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٦٩).

(٣) رواه البخاري (١٨٠٣)، ومسلم (٣٠٢٦).

أي: إنَّ هذا العملَ مع اعتقاده قُربةً، ليس مِن الخير في شيء، فنفَى الله تعالى مشروعيَّتَه؛ وذلك أنَّ أهلَ الجاهلية من سوى القُرشيِّين، كانوا إذا أحرَموا بحجٍّ أو عُمرة لم يدخلوا البيوتَ من أبوابها؛ تعبُّدًا لله عزَّ وجلَّ، فإذا احتاجوا منها شيئًا دخلوا من خلفِها، يظنُّون ذلك خيرًا يتقرَّبون به إلى الله عزَّ وجلَّ[١].

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾.

أي: إنَّ البِرَّ الحقيقيَّ هو أنَّ يتَّقيَ العبدُ ربَّه عزَّ وجلَّ؛ بامتثال أوامره، واجتنابِ نواهيه، لا التعبُّد بما لم يشرَعْه الله جل وعلا؛ ولذا أمَر بإتيان البيوتِ مِن أبوابها كما هو الأصلُ الَّذي جرَتْ به العادة؛ إذ لا دليلَ يمنَعُ مِن ذلك حال الإحرام[٢].

﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: افعَلوا ما أمَركم الله تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه، ومن ذلك: تَرْكُ الابتداع، والالتزام بالاتباع، من أجل أنْ تظفَروا بما تطلُبون، وتنجُوا ممَّا تحذَرون[٣].

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)﴾.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٨٨-٢٨٩)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١١/ ٦٣٢-٦٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٦٩-٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٨٨-٢٨٩)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١١/ ٦٣٢-٦٣٣). (٢٠/ ٤٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٧٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٠-٣٧١).

أي: قاتِلوا- أيُّها المؤمنون-؛ لأجلِ الله تعالى وحْده، وإعلاءً لدِينه، وبالطريقة الَّتي شرَعها سبحانه، من يُقاتِلونكم من الكفَّار دون مَن سواهم[١].

﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

أي: لا تتجاوَزوا ما حدَّه اللهُ تعالى لكم ممَّا شرَعه مِن أحكام القتال، ومن ذلك عدمُ قتلِ النِّساء والأطفال والشيوخ، وغيرهم ممَّن لم يُعاونوا بأيِّ وسيلةٍ على قتالِ المؤمنين؛ وذلك لأنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يحبُّ مَن تجاوَز حدودَ ما شرعه، فوقَع في المحرَّمات، سواءٌ في القتال أو غيره[٢].

عن بُرَيدةَ بن الحُصَيب رضي الله عنه: ((أنَّ الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان إذا أمَّرَ أميرًا على جيشٍ أو سَريَّةٍ، أوصاه في خاصَّتِه بتقوَى اللهِ، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: اغْزُوا باسمِ اللهِ في سبيلِ اللهِ، قاتِلوا مَن كفَر باللهِ، اغزوا، ولا تَغُلُّوا، ولا تغدِروا، ولا تُمثِّلوا، ولا تقتُلوا وليدًا، وإذا لقِيتَ عدوَّك مِن المشركين فادعُهم إلى ثلاثِ خِصالٍ- أو خِلالٍ-، فأيَّتهنَّ ما أجابوك، فاقبَلْ منهم، وكُفَّ عنهم))[٣].

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)﴾.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩١-٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٣-٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٧٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٤).

(٣) رواه مسلم (١٧٣١).

أي: اقتُلوا الكفَّارَ الَّذين يُقاتِلون المؤمنين، في أيِّ مكانٍ ظفِرْتم فيه بهم، وإن لم يكونوا في ساحةِ القتال[١].

﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾.

أي: أخرِجوا هؤلاء الَّذين يقاتلونكم مِن دياركم الَّتي أخرَجوكم منها من قبلُ[٢].

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

أي: إنَّ ما هم عليه من الشِّرك بالله تعالى والكفر به، أمرٌ أعظمُ من إزهاق نفوسهم، كما أنَّ محاولاتهم لصدِّ المؤمنين عن دِينهم؛ ليصيروا مِثلهم من المشركين، أشدُّ مِن أنْ يُقتلوا وهم مستمسِكون بدِينهم؛ فالفتنة تتكرَّر أضرارُها، بينما يحدُث ألَمُ القتلِ مرَّةً واحدة، والقتل يقطَع عن الدُّنيا، لكن الفِتنة قد تقطَع عن نعيم الآخرة[٣].

﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ﴾، ﴿يُقَاتِلُوكُمْ﴾، ﴿قَاتَلُوكُمْ﴾ قراءتان لكلٍّ منها:

١- ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ﴾، ﴿يَقْتُلُوكُمْ﴾، ﴿قَتَلُوكُمْ﴾ أي وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْد

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٢-٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٠١-٢٠٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٣-٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٤-٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٧).
ومِمَّن قال من السَّلَف: إنَّ الفِتنة هاهنا تَعني الشِّرك: أبو العالية ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وعِكْرمة، والحسن، وأبو مالك، وقَتادة، والضَّحَّاك، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٢٦).

الْمَسْجِد الْحَرَام حَتَّى يقتلُوا بَعْضكُم، فإنْ قتلوا بَعْضكُم فاقتلوهم[١].

٢- ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ﴾، ﴿يُقَاتِلُوكُمْ﴾، ﴿قَاتَلُوكُمْ﴾ أي لا تحاربوهم حَتَّى يحاربوكم فَإِن حاربوكم فاقتلوهم، والمراد النهي عن قصدِهم بالقتال حتى يكون الابتداء منهم، والقِتَال من اثنين، والقَتْل من الواحد[٢].

﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾.

أي: نهى اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنين عن ابتداءِ الكفَّار بقتلٍ أو قتالٍ في المسجد الحرام حتى يكونوا هم الَّذين يبدَؤون بذلك، فإن قاتَلوكم أو قتَلوكم، فاقتُلوهم دَفْعًا لعُدوانهم عليكم[٣].

﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: كما قرَّرنا القتل جزاءً على من قاتلكم أو قتلكم، فجزاء الكافرين (المعتدين) أيضًا القتلُ، وفي هذا تهديدٌ لهم[٤].

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي. يُنظر: ((النَّشر)) لابن الجزري (ص: ١٥٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٩٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ١٩٥)، ((حجة القراءات)) لابن زَنْجلَة (ص: ١٢٧، ١٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٧٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النَّشر)) لابن الجزري (ص: ١٥٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٩٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ١٩٥)، ((حجة القراءات)) لابن زَنْجلَة (ص: ١٢٧، ١٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٥-٢٩٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٧).

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: فإنْ تركوا القتال وأسلَموا، فإنَّ الله تعالى يتجاوَزُ عن كلِّ ما سلَف منهم من سيِّئات، وبرحمته يوفِّقُهم للخير الَّذي يُثِيبهم عليه حسنات[١].

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)﴾.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾.

أي: قاتِلوا المشركين الَّذين يقاتِلونكم حتى لا يكونَ ثَمَّ شِركٌ بالله تعالى، فتكون العبادة والطَّاعة لله عزَّ وجلَّ وحده دون غيره، فهذا هو المقصودُ مِن القتال[٢].

عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، قال: ((جاء رجلٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: الرجلُ يُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقاتِلُ شَجاعَةً، ويُقاتِلُ رِياءً، فأيُّ ذلك في سبيلِ اللهِ؟ قال: مَن قاتَل لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُليا، فهو في سبيلِ اللهِ))[٣].

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

أي: فإنْ توقَّفوا عن قتالكم وأسلَموا، وأخلَصوا العبادةَ لله تعالى وحده، فقد تخلَّصوا من الظُّلم، فكُفُّوا عنهم؛ فإنَّه لا تحلُّ معاقَبة أحدٍ بقتاله أو قتله، إلَّا لِمَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٨-٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨١).
وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ قوله تعالى: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ يعني: فإن تابوا: مجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٩).

(٢) ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٩٩-٣٠١)، وابنُ كثير في ((تفسيره)) (١/ ٥٢٥). والسعديُّ، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩).
وممَّن فسَّر الفِتنة بالشِّرك من السَّلَف: ابن عبَّاس، وقَتادة، ومجاهد، والسُّدِّي، والرَّبيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٩).

(٣) رواه البخاري (٧٤٥٨) واللفظ له، ومسلم (١٩٠٤).

وقَع منه من ظلمٍ بشِرك أو كُفر أو قَتْل أو مقاتَلة[١].

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((أُمرتُ أنْ أقاتِلَ النَّاسَ حتى يقولوا: لا إلهَ إلا اللهُ، فمن قال: لا إلهَ إلا اللهُ، فقدْ عصَم منِّي نفسَه ومالَه إلَّا بحقِّه، وحسابُه على اللهِ))[٢].

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)﴾.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾.

أي: إنْ قاتَلوكم في أَحدِ الأشهر الحُرُم، فقاتِلوهم فيه، وقيل: المراد أنَّ الشهرَ الحرام الذي قضى فيه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمسلمين معه العُمرةَ (وهو شهر ذي القَعدة) أيضًا، جاء في مُقابِل الشَّهر الحرام (شهر ذي القَعدة) الذي صدَّهم فيه المشرِكون عن العُمرة في العام الَّذي سبَق عمرةَ القضاء[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٢-٣٨٣).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العالية قوله ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يعني: على مَن أبَى أن يقول: لا إله إلا الله. ورُوي عن عِكرمة، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس، نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٢٧).

وممَّن قال من السَّلف إنَّ المراد بالظالم: الظالم بالمقاتلة: مجاهد، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٠٣).

(٢) رواه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢١).

(٣) يُنظر للمعنى الأول: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٤).

ويُنظر للمعنى الثاني: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٩))، ((شرح عمدة الفقه- كتاب الطهارة والحج)) لابن تيميَّة (٣/ ٣٨٠).

وجعَل السعديُّ كِلا المعنيَيْن ممَّا تحتمله الآية. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩).

﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾.

أي: كما انتهكوا لكم حُرمةَ شهرِكم، فقد انتهكتم منهم حرمةَ شهرهم أيضًا، سواءً بسواءٍ، جزاءً عادلًا، وكذا كلُّ شيء يُحترم كالبلدِ الحرام، وغيره من جميع ما أمَر الشرعُ باحترامه، فمن تجرَّأ عليه وانتهك حُرمته، فإنَّه يُقتصُّ منه بمِثله[١].

﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾.

أي: هذا أمرٌ من الله تعالى بالعدلِ حتى في شأنِ المعاقَبة، فيُقتصُّ مِن المعتدي بمِثل عُدوانه، دون زيادة[٢].

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

لَمَّا كانت النفوسُ لا تقف في الغالب على حدِّها الذي رُخِّص لها في المعاقَبة؛ وذلك لرغبتِها في التَّشفِّي قال تعالى[٣]:

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

أي: أمَر تعالى بلزوم تقواه، بعدم تجاوزِ ما وجب لهم من القِصاص، ولْيعلَموا معتقدين جازمين بأن اللهَ عزَّ وجلَّ مع عباده المتَّقين الَّذين يمتثلون أوامرَه، ويجتنبون نواهيَه، فيؤيِّدهم وينصُرُهم ويوفِّقهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٠٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩-٩٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣١٠-٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٥-٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٦).

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)﴾.

سبب النُّزول:

عن حُذَيْفَة رضي الله عنه: ((﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾؛ قال: نَزلَتْ في النَّفَقةِ))[(١)].

وعن أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ رضي الله عنه، قال: ((كنَّا بمدينةِ الرُّومِ، فأَخْرَجوا إلينا صَفًّا عظيمًا من الرُّومِ، فخرج إليهم من المسلمينَ مِثْلُهم أو أكثرُ، وعلى أهلِ مصرَ عُقْبَةُ بنُ عامِرٍ، وعلى الجماعةِ فَضَالةُ بنُ عُبَيدٍ، فحمل رجلٌ من المسلمينَ على صَفِّ الرُّومِ، حتى دخل عليهم، فصاح النَّاسُ وقالوا: سبحانَ اللهِ! يُلْقِي بيَدَيْهِ إلى التهلُكةِ، فقام أبو أيوبَ الأنصاريُّ فقال: يا أَيُّها النَّاسُ، إنَّكم لَتُؤَوِّلُونَ هذه الآيةَ هذا التأويلَ، وإنما نَزَلَت هذه الآيةُ فينا مَعْشَرَ الأنصارِ، لَمَّا أَعَزَّ اللهُ الإسلامَ وكَثُرَ ناصِرُوه، فقال بعضُنا لبعضٍ سِرًّا دون رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ أموالَنا قد ضاعَت، وإنَّ اللهَ قد أَعَزَّ الإسلامَ وكَثُرَ ناصِرُوه، فلو أَقَمْنا في أموالِنا فأَصْلَحْنا ما ضاع منها، فأنزل اللهُ تبارك وتعالى على نَبِيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَرُدُّ علينا ما قُلْنا؛ ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فكانت التَّهْلُكَةُ الإقامةَ على الأموالِ وإصلاحِها، وتَرْكَنا الغَزْوَ، فما زال أبو أيوبَ شاخصًا في سبيلِ اللهِ حتى دُفِنَ بأرضِ الرُّومِ))[(٢)].

ولا تعارضَ بين الرِّوايتينِ، بل إنَّ رِواية أبي أيُّوبَ رضي الله عنه هي مُبيِّنة

---

(١) رواه البخاري (٤٥١٦).

(٢) أخْرَجه الترمذي (٢٩٧٢) واللفظ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٦/ ٢٩٩) (١١٠٢٩)، وابن حِبَّان (١١/ ٩) (٤٧١١).

قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ غريب، وصحَّح إسناده الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٥/ ٣١٩)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٩٧٢).

ومفسِّرة للإجمالِ الوارد في رِواية حُذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه السَّابقة[١].

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

أي: أَنفِقوا قُربةً لله عزَّ وجلَّ في وجوه الطاعات- ومن ذلك: الإنفاق في جهاد أعداء الدِّين؛ لإعلاءِ كلمة الله تعالى- واجتَنِبوا إلْقاءَ أنفُسِكم فيما فيه هلاكُها وعذابُها، وذلك بتَرْك ما أمَر الله تعالى به، أو فِعْل ما نهى عنه، ومن ذلك: تَرْك الإنفاق في الجهاد؛ فليستِ التَّهلكةُ أن يُقتَل الرَّجُلُ في سبيل الله تعالى، ولكنَّ التَّهلكةَ في ترْك الإنفاق في سبيله سبحانه[٢].

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: أمَر اللهُ تعالى عبادَه بأن يُحسنوا في كل شيء؛ في معاملتِهم للخالق عزَّ وجلَّ بعبادته كأنَّهم يرَوْنه، وفي معاملتِهم للمخلوقين؛ بذلًا للمعروف، وكفًّا للأذى؛ وذلك لأنَّ الله تعالى يحبُّ المحسنين[٣].

عن شدَّاد بن أوسٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ كتَب الإحسانَ على كلِّ شيءٍ، فإذا قتلتم فأحسِنُوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسِنُوا الذَّبحَ، ولْيُحِدَّ أحدُكم شفرتَه، فليُرِحْ ذبيحتَه))[٤].

---

(١) ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٢٤-٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: إنَّه ترْك النَّفقة في سبيل الله: ابن عبَّاس، وعِكْرمة، والحسن، ومجاهد، وعَطاء، وسعيد بن جُبَير، وأبو صالح، والضَّحَّاك، والسُّدِّي، ومقاتل بن حَيَّان، وقَتادة. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٩).

(٤) رواه مسلم (١٩٥٥).

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ العاداتِ لا تجعَل غيرَ المشروع مشروعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾، مع أنَّهم اعتادوه واعتقَدوه من البِرِّ، فمن اعتاد شيئًا يعتقده بِرًّا، فإنَّ عليه أنْ يعرِضَه على شريعة الله[١].

٢- أنَّه ينبغي للإنسان أنْ يأتيَ الأمور من أبوابها؛ ليحصلَ على مقصوده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾؛ فإن هذه الآيةَ كما تناوَلتِ البيوت الحسِّيَّة تناولت أيضًا الأمورَ المعنويَّة[٢].

٣- أنَّ الله سبحانه وتعالى إذا نَهَى عن شيءٍ فتَح لعباده مِن المأذون ما يقومُ مقامَه؛ فإنَّه لَمَّا نفى أنْ يكونَ إتيانُ البيوت من ظهورها من البِرِّ، بيَّن ما يقومُ مقامَه؛ فقال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[٣].

٤- أنَّه ينبغي للمتكلِّم أنْ يذكُرَ للمخاطَب ما يهيِّجه على الامتثال؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[٤].

٥- حُسن تعليمِ الله عزَّ وجلَّ؛ حيث يقرنُ الحُكمَ بالحِكْمَة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٥].

٦- فضيلة التَّقوى؛ حيث ينال العبدُ بها مَعيَّةَ الله؛ وإذا كان الله معك فإنَّه ينصُرك، ويُؤيِّدك، ويثبِّتُك، فهذا يدلُّ على فضيلة السَّبب الذي هو التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، وقد أكَّد الله تعالى هذه المعيَّةَ للمتَّقين بقوله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا﴾؛ فلم يقتصر على مجرَّدِ الإخبار بها، بل أمَرنا أنْ نعلَمَ بذلك[١].

٧- الإشارة إلى الإخلاص في العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، ويدخل في هذا: القصد، والتنفيذ؛ بأنْ يكون القصدُ لله، وأن يكون التنفيذُ على حسَب شريعةِ الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧][٢].

٨- أن المعتديَ لا يُجازَى بأكثرَ مِن عدوانه؛ لقوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾، فلا يقول الإنسان: أنا أريد أنْ أعتديَ بأكثرَ للتشفِّي، ومن ثَمَّ قال العلماء: إنه لا يُقتَصُّ مِن الجاني إلَّا بحضرة السلطان أو نائبِه؛ خوفًا من الاعتداء؛ لأنَّ الإنسانَ يريدُ أنْ يتشفَّى لنفسِه، فربما يعتدي بأكثرَ[٣].

٩- في قوله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ الأمر بالإنفاق في سائر وجوه القُربات والطاعات، ومن أهمها: صرف الأموال في قِتال الأعداء، وبذْلها فيما يقوى به المسلمون على عدوِّهم[٤].

١٠- في الأمرِ بالإحسان بعد ذِكْر الأمر بالاعتداء على المعتدي والإنفاق في سبيل الله والنهيِ عن الإلقاء باليدِ إلى التَّهلُكة: إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ هذه الأحوال يلابِسُها الإحسان ويحفُّ بها؛ ففي الاعتداء مثلًا يكون الإحسانُ بالوقوف عند الحدود، والاقتصاد في الاعتداء، وفي الجهاد في سبيل الله يكون الإحسان بالرِّفق بالأسير والمغلوبِ، وبحِفْظ أموال المغلوبين وديارِهم من التَّخريبِ والتحريق، وغير ذلك[٥]. وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ يشمَلُ جميعَ أنواع الإحسان؛ لأنَّه لم يقيِّدْه بشيء دون

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٤٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١٦).

شيء، فيدخل فيه الإحسانُ بالمال، وبالجاه، وبالشَّفاعات، وغير ذلك[١].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- حِرص الصَّحابة رضي الله عنهم على العلم؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾[٢].

٢- بيان عِلم الله، وسَمْعه، ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾؛ علِم اللهُ بسؤالهم، وسمِعه، ورحِمهم بالإجابة[٣].

٣- أنَّ الميقات المعتبرَ هو الذي وضَعه الله للناس- وهو الأهلَّة- فالأصل أنْ يكونَ هو الميقاتَ العالَمي؛ لقوله تعالى: ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾، وأمَّا التوقيتُ بالأشهر الإفرنجيَّة فلا أصلَ له[٤].

٤- إثبات العَدْل لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابن تيميَّة: (وقد بلغني أنَّ الشرائع قبلنا أيضًا إنما علَّقت الأحكام بالأهِلَّة، وإنما بدَّل مَن بدَّل من أتباعهم كما يفعله اليهود في اجتماع القُرصين، وفي جعْل بعض أعيادها بحساب السَّنة الشمسيَّة، وكما تفعله النصارى في صومها حيث تراعي الاجتماعَ القريب من أول السَّنة الشمسيَّة، وتجعل سائر أعيادها دائرة على السَّنة الشَّمسيَّة بحسب الحوادث التي كانت للمسيح، وكما يفعله الصابئة والمجوس وغيرهم من المشركين في اصطلاحات لهم، فإنَّ منهم من يَعتبر بالسَّنة الشمسية فقط، ولهم اصطلاحات في عدد شهورها؛ لأنَّها وإن كانت طبيعية فشهرُها عدَدي وضْعي، ومنهم مَن يَعتبر القمرية لكن يعتبر اجتماع القُرصين، وما جاءت به الشريعة هو أكملُ الأمور وأحسنُها، وأبينها وأصحُّها، وأبعدها من الاضطراب) ((مجموع الفتاوى)) (٢٥/ ١٣٥).

وقال ابن القيِّم: (... فالحِكمة البالغة التي في تقدير السِّنين والشهور بسَير القمر أظهرُ وأنفع وأصلح، وأقلُّ اختلافًا من تقديرها بسير الشمس) ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٦٥).

والجزاء من جِنس العمل[١].

٥- أنَّ ما كان سببًا للضَّرر فإنَّه منهيٌّ عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[٢].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾

- فيه اختصار بليغ؛ إذ نبَّه تعالى بقوله: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ على جميع المنافِع التي تكون في اختلاف أحوال القمر؛ لأنَّ تعديد جميع هذه الأمور يَقضي إلى الإطناب، والاقتصار على البعض دون البعض ترجيحٌ من غير مرجِّح؛ فلم يبقَ إلَّا الاقتصار على كونه ميقاتًا، فكان هذا الاقتصار دليلًا على الفصاحة العظيمة لهذا الكلام البليغ[٣].

- وإفرادُ الحجِّ بالذِّكر لبيان أنَّ الحجَّ مقصورٌ على الأشهُر التي عيَّنها الله تعالى لفرضه، وأنَّه لا يجوز نقْل الحجِّ من تلك الأشهُر إلى أشهرٍ أخرى، كما كانتِ العربُ تَفعَل ذلك في النَّسيء[٤].

٢- قوله: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيه إيجازٌ بديع؛ فقوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ جواب الشرط، وكلُّ سامعٍ يعلم أنَّ وصْف الله تعالى بالمغفرة والرحمة لا يترتَّب على الانتهاءِ، فيَعلم أنَّه تنبيهٌ لحصول المغفرة والرحمة لهم إنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ٢٨٤-٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (١/ ٢١٨)، ((تفسير المنار)) (٢/ ١٦٣).

انتهوا، وهذا من إيجاز الحذْف[١].

٣- قوله: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

- وضع قوله: ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ موضعَ (على المنتهين)، أي: فلا تظلموا إلَّا الظالمين غيرَ المنتهين، فوضَع العِلَّة موضعَ الحُكم، وسمَّى جزاء الظالمين عدوانًا؛ للمشاكلة، والفاء الأُولى للتعقيب، والثانية للجزاء[٢].

- وفي قوله سبحانه ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ نفيٌ عامٌّ يُراد به النَّهي، أي: فلا تعتدوا، وذلك على سبيل المبالغة؛ فالعدول عن النهي إلى النفي المحض العام، ألزمَ في المنع؛ إذ صار من الأشياء التي لا تقع أصلًا[٣].

٤- قوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ فيه الإخبار عن الحُرمات بلفظ ﴿قِصاص﴾، وهو من باب الإخبار بالمصدر للمبالغة[٤].

٥- قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ تفريعٌ[٥] عن قوله: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾، ونتيجةٌ له؛ ففيه من البلاغة: فَذْلَكة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١١).

(٥) **التفريع**: هو إثبات حُكم لمتعلِّق أمرٍ، بعد إثباته لمتعلِّق له آخَر؛ فلا بدَّ إذًا من متعلقين، أي: شيئين منسوبين لأمرٍ واحد، كغلام محمد وأبيه بالنسبة إلى محمدٍ، ولا بدَّ من حُكمٍ واحدٍ يَثبُت لأحد المتعلقين، وهما الغلام والأب، بعد إثباته للآخر، كأن يُقال: غلام محمد فرِح ففرِح أبوه، فالفرح حكمٌ أثبت لمتعلقَيْ محمَّد، وهما غلامه وأبوه، وإثباته للثاني على وجهٍ يُشعر بتفريعه عن الأول. يُنظر: ((علوم البلاغة البيان، المعاني، البديع)) للمراغي (ص: ٣٤١-٣٤٢)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٣٢٢).

التقرير، وسُمِّي جزاءُ الاعتداء اعتداءً؛ مشاكلةً[١].

٦- **قوله:** ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ تذييلٌ للترغيب في الإحسان؛ لأنَّ محبة الله عبدَه غايةُ ما يطلبه الناس؛ إذ محبَّة اللهِ العبدَ سببُ الصلاحِ والخيرِ دُنيا وآخِرة، واللام للاستغراق العُرفي، والمراد المحسنون من المؤمنين[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١٦).

الآيات (١٩٦ - ٢٠٢)

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ
حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ
صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ
حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ
مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا
تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ
فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ
وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ
أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ
أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى
ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى
ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ
سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ
فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۙ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ
إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿أُحْصِرْتُمْ﴾: مُنِعتُم، وأصل الحصْر: الجمْع والحبْس والمنع[1].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩١)، =

﴿اسْتَيْسَرَ﴾: تَيَسَّرَ، وَسَهُلَ[١].

﴿الْهَدْيِ﴾: مُختصٌّ - في هذا الموضِع - بما يُهْدَى إلى البيتِ من الأنعام؛ قربةً إلى الله، وواحدتُه: هديَّة، وهي: كلُّ ما يُهدَى إلى ذِي مَوَدَّةٍ[٢].

﴿مَحِلَّهُ﴾: المَحِلُّ: الموضِع الذي يَحِلُّ فيه نَحْر الهدْي[٣].

﴿أَذًى﴾: مَا يُكره ويُغتمُّ به[٤].

﴿نُسُكٍ﴾: جَمْع نسيكة، وهي الذَّبيحة التي تُوزَّع على فُقراء الحرم، وأصل (نسك): يدُلُّ على عبادةٍ وتقَرُّبٍ إلى اللهِ تعالى؛ ومنه قيل للعابد: ناسِك، واختصَّ بأعمال الحجِّ[٥].

﴿جُنَاحَ﴾: إثْمَ، سمِّي بذلك لِمَيله عن طريق الحقِّ؛ فأصله: جَنَح، إذا مال وتعدَّى[٦].

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤، ١٢٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٤).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨).

﴿أَفَضْتُمْ﴾: دَفعتُم بِكَثْرَة، وأصل الفيض: جَريانُ الشيء بسُهولة[١].

﴿خَلَاق﴾: نصيبٌ، وحظٌّ في الخير[٢].

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾:

﴿فَمَا﴾: الفاء رابطةٌ لجواب الشرط، و(ما) موصولةٌ بمعنى الذي، وهي مبتدأ في محلِّ رفْع، والخبر محذوف، أي: فعليه ما استيسر، ويجوزُ أن تكون (ما) في موضِع نصب مفعول لفِعلٍ محذوف، والتقدير: فلْيُهدِ ما استيسر[٣].

المعنى الإجمالي:

يأمر اللهُ تعالى مَنْ شرعوا في الحجِّ أو العمرة بإتمام ما شَرَعوا فيه منهما، بأركانه وواجباته، مُخلِصين لله تعالى في ذلك، فإنْ مُنعُوا من الوصول للبيت الحرام لمانعٍ من خوفٍ أو مرضٍ أو لسبب آخر، فلْيَذبحوا ما تيسَّرَ لهم من الإبل، أو البقر، أو الغنم، وأمرهم سبحانه ألَّا يحلُّوا من إحرامهم إذا أُحصروا إلَّا بعد أن يَبلُغَ الهديُ الذي أوجبه الله عليهم محلَّ نَحْره، وهو موضع الإحصار- فأمَّا غير المُحصَر فيذبحه في الحرم، وإنْ كان في حجٍّ فينحره في يوم النحر منه- ومَن احتاج إلى حلْق رأسه لمرض، أو كان في رأسه ما يُؤذيه كالقمل، فله أنْ يَحلقَه، فإنْ فعل فهو مخيَّرٌ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٢٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٣١٣)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ٨٢).

بين أن يصومَ عِوضًا عن ذلك ثلاثةَ أيَّام، أو يُطعِمَ سِتَّةَ مساكين، لكلِّ مسكين نصفُ صاع، أو يذبح شاةً.

فإذا زال المانعُ، وقدَروا على الوصول إلى البيت الحرام، فمَنْ أتى بعمرةٍ ثمَّ حلَّ منها متمتِّعًا بذلك الحلِّ إلى أن يَشرَع في أعمال الحجِّ- وكذا مَن قرَن بين الحج والعمرة- فإنَّ عليه ذبحَ ما قدر على ذبْحِه من الإبل، أو البقر، أو الغنم، فمَن لم يجِد، فلْيصُمْ بدلًا من ذلك، عشرة أيام، ثلاثة منها في أثناء الحجِّ، وسبعة إذا عاد إلى أهلِه وموطنِه بعد فراغه من أداء نُسكه، وهذا الحُكم للمتمتِّع الذي ليس أهله من حاضري المسجد الحرام، ثم أمَر سبحانه وتعالى بتقواه، وذلك بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ولْيعلمِ العبادُ أنَّ الله شديدُ العقوبة لمَنْ خالف ما أمرَ به، وارتكبَ ما نهى عنه سبحانه وتعالى.

ثمَّ يخبر عزَّ وجلَّ عن توقيت الحجِّ، وأنه واقعٌ في أشهرٍ معلومة هي شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فمَن أحرم بالحجِّ في تلك الأشهر فعليه أن يجتنبَ جِماعَ النِّساء ومقدِّماته، ولا يتحدَّثَ بذلك في حضرتهنَّ، ويجتنبَ أيضًا جميعَ المعاصي والتي منها محظورات الإحرام، وسبابَ المسلم، ويدَعَ الجدالَ بالباطل، ومنه المجادلة في وقتِ الحجِّ وأحكامه، فقد بيَّنها تعالى أتمَّ بيان وأوضحَه، وعليه أن يدعَ المراءَ والمنازعة والمخاصمة. وأخبر سبحانه عبادَه أنَّ ما يعملونه من خيرٍ فإنَّه به عالمٌ، وسيجزيهم عليه أفضلَ الجزاء، وأمَرَهم بالتزوُّد من الأقوات التي تُعينهم على الوصول إلى البيتِ الحرام، وأداء العبادة، وأعْلمهم أنَّ خيرَ الزاد هو ما أعانهم على الوصول إلى نعيمِ الآخرة، وهو التقوى بامتثال أوامرِه سبحانه وتعالى، واجتناب نواهيه، وأمَر بها أصحابَ العقول الذين يُدركون حقيقةَ التقوى وثمارها.

ثم شرَع سبحانه في بيان بعض أفعال الحجِّ، فأمر الحُجَّاجَ أن يذكروه سبحانه عند المزدلفة بعدَ أن يدفعوا إليها من عَرفات، وهذا الذِّكر الذي أمر الله به يدخُل

فيه الصلاةُ والدعاء عندها، ولْيذكروه سبحانه شُكرًا له على أنْ أرشدهم إلى طريق الهداية وإنْ كانوا من قبلِ أن يرشدهم إليها لفي زيغٍ وضلال، واذكروه كذلك وفقَ الصِّفة المشروعة التي هداكم إليها.

ثم أمَر الله عزَّ وجلَّ عبادَه من الحُمْس[1] وهم قريش الذين كانوا لا يُفيضون من عرفات، أمرهم بالإفاضة منها كما كانتِ العرب قاطبةً تُفيض منها، وأمرَ سبحانه الحجاجَ أيضًا أن يطلبوا منه التجاوزَ عن ذنوبهم، وسترها لأنه جلَّ وعلا غفَّار الذنوب، والرَّحيم بعباده المؤمنين.

ثم خاطَب اللهُ عباده الحجاج أنَّهم إن أتمُّوا مناسك حجهم، وتحللوا من إحرامهم فلْيكثروا من ذكره سبحانه وتعالى، ولْيكن ذكرهم له كذكرهم مآثر آبائهم، بل عليهم أن يذكروه بأشدَّ من ذلك.

ثمَّ أَرشدَ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى دُعائه بعد الأمْر بالإكثار من ذكره؛ فإنَّ ذلك أَحْرى بالإجابة، وذمَّ سبحانه مَن لا يسأله إلَّا متاعَ الدُّنيا، وليس له في ثواب الآخرة أي نصيب، ومدَحَ المؤمنين الذين يسألون الله عزَّ وجلَّ من خيرَيِ الدنيا والآخرة، ويَطلُبون منه سبحانه أن يَصرِفَ عنهم عذابَ النار، فأصحابُ هذا القِسم لهم ثوابٌ عظيم على حَجِّهم الذي قاموا به، وسيُجيبهم الله إلى ما دَعوا به من خيرَيِ الدنيا والآخرة، والله سريعٌ في إحصاء أعمال عبادِه، سريعٌ في مجازاتهم.

ثم أمرَ جلَّ وعلا عبادَه بالتكبير في أيَّام التشريق، ويشمل ذلك التكبيرَ عند ذبح الأضاحي، والتكبيرَ المطلَقَ في سائر الأوقات، والتكبيرَ المقيَّد بعدَ الصلوات المفروضة، والتكبيرَ عند رمي الجِمار، ثم يُخبر تعالى أنه لا حرَجَ على الحاجِّ في تعجُّله

---

(١) **الحُمْس**: هم قريش، ومَن ولدتْه قريش، وكنانة، وجديلة قيس؛ سُمُّوا حمسًا؛ لأنَّهم تحمَّسوا في دِينهم، أي: تشددوا، وقيل: سمُّوا حمسًا بالكعبة؛ لأنَّها حمساء حجرها أبيض يضرب إلى السَّواد. ((شرح مسلم)) للنووي (٨/ ١٩٧).

بخروجه من مِنًى قبل غروب شمس اليوم الثاني من أيَّام التشريق، أو تأخُّره ببقائه فيها إلى اليوم الثالث لرمْي الجمرات، ما دام أنَّه في كلا الأمرين ممتثلٌ ما أمر الله به، مجتنبٌ ما نهاه عنه، ثم أوصى اللهُ عبادَه بتقواهُ بإطاعةِ أوامرهِ والانزجارِ عن نواهيه، وليتيقنوا أنَّهم سيُحشرون إليه سبحانه يوم القيامة.

تفسير الآيات:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)﴾.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.

أي: يا مَن شرَعتم في أعمال الحجِّ والعمرة، عليكم إتمامَهما بأركانِهما وواجباتهما، بإخلاصٍ لله تبارك وتعالى[1].

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

أي: فإنْ منَعكم وحبسكم خوفُ عدوٍّ، أو إصابةٌ بمرض، أو وقوع علَّةٍ أخرى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٤١)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٩٢).
قال ابنُ كثير: (اتَّفق العلماء على أنَّ الشروع في الحجِّ والعُمرة ملزمٌ، سواء قيل بوجوب العُمرة أو باستحبابها، كما هما قولانِ للعُلماء) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٣٠).
وحكَى ابنُ تيميَّة وابنُ عاشور الاتِّفاقَ على أنَّ آية: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ نزلت عام الحُديبية سَنَة ست). ينظر: ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١٧/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١٦).

عن الوصول إلى البيت الحرام، فاذبحوا ما تيسَّر من بهيمة الأنعام، من الإبل أو البقر أو الغنم[١].

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾.

أي: لا تَحِلُّوا من إحرامِكم إذا أُحصِرْتم عن حجٍّ أو عُمرة، حتى يبلغَ الهديُ- الذي أوجبتُه عليكم- محلَّ ذَبْحه، وهو موضع الإحصار[٢].

وحُكم الآية عامٌّ يَشمل غيرَ المُحصَر كذلك، فمحلُّ نَحْره في الحجِّ: في الحَرم يومَ النَّحر، وأمَّا في العُمرة ففي الحرم أيضًا[٣].

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٤٧-٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٩٢-٣٩٨).
وممَّن قال من السَّلف بنحو ما ذُكر في معنى الإحصار: ابن عبَّاس -في رواية عنه- وابن مسعود، وابن الزُّبير، وعلقمة، وسعيد بن المسيَّب، وعروة بن الزبير، ومجاهد، وقتادة، والنَّخَعي، وعطاء، ومقاتل بن حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٣٤).
وممن رُويَ عنه في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ مثلما ذُكر: ابن عباس، وقتادة، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٣٥).

(٢) وهو اختيارُ ابنِ جَرير في ((تفسيره)) (٣/ ٣٥٩-٣٧٥).
وقال البَغويُّ: (والهدايا كلُّها يَختصُّ ذَبحُها بالحرَم، إلَّا هَدْي المُحصَر؛ فإنَّ محلَّ ذَبحِه حيث يُحصَر عند أكثرِ أهل العِلم) ((شرح السُّنة)) (٧/ ٢٨٥).
وقال الشِّنقيطيُّ: (وجمهورُ العلماء على أنَّه يَنحرُه في المحلِّ الذي حُصِر فيه، حِلًّا كان أو حَرَمًا) ((أضواء البيان)) للشِّنقيطي (١/ ٨٣). ويُنظر: ((مختصر فقه الحج)) إعداد القسم العلمي بالدُّرر السَّنية (ص: ٣٨٤).

(٣) وهذا اختيارُ ابن عَطيَّة في ((تفسيره)) (١/ ٣٦٧).
وقال ابنُ تَيميَّة: (الآية عامَّةٌ في هَدْي المُحصَر وغَيرِه؛ لعمومِ لفظِها وحُكمها) ((شرح عمدة الفقه - كتاب الطهارة والحج)) (٢/ ٣٣٢، ٣٧٣ - ٣٧٤).

سبب النُّزول:

عن عبد الرَّحمن بنِ أبي لَيلى أنَّ كعبَ بن عُجْرة حدَّثه قال: ((وقفتُ على رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم بالحُديبيَة ورأسي يتهافت قملًا، فقال: يؤذيك هوامُّكَ، قلت: نَعم، قال: فاحلِقْ رأسَك، أو احلِقْ، قال: فيَّ نزلت هذه الآيةُ: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ إلى آخرِها، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: صُمْ ثلاثةَ أيَّامٍ، أو تصدَّق بفَرَقٍ[١] بين سِتَّةٍ، أو انسُكْ ممَّا تيسرَّ))[٢].

وعن عبد الله بن مَعقِل قال: ((قعدْتُ إلى كعبِ بنِ عُجْرَةَ في هذا المسجدِ- يعني مسجد الكوفة- فسألتُه عن فديةٍ من صيام، فقال: حُمِلْتُ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والقَمْلُ يَتَناثَرُ على وجهي، فقال: ما كنتُ أرى أنَّ الجَهْدَ قد بلَغَ بك هذا، أمَا تَجِدُ شاةً؟ قلتُ: لا، قال: صُمْ ثلاثةَ أيَّامٍ، أو أَطْعِمْ ستَّةَ مساكينَ، لكلِّ مسكينٍ نصفُ صاعٍ مِن طعامٍ، واحلِقْ رأسَك، فنزلت فيَّ خاصَّةً، وهي لكم عامَّة))[٣].

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

أي: إنَّ مَن مرض فاحتاج إلى حلق رأسه، أو كان برأسه أذًى كالقمل فحلَق رأسه، فعليه أن يقومَ- عِوضًا عن هذا الفعل- بصِيام ثلاثة أيَّام، أو إطعام سِتَّة مساكين لكلِّ مسكين نصف صاع، أو ذبح شاة، فهو مخيَّرٌ بين هذه الثلاثة[٤].

---

(١) الفَرَق-بفتحتين -: مكيالٌ ضَخمٌ بالمدينة، واختُلف في مقداره؛ فقيل: يَسَع سِتَّة عشر رطلاً (اثنا عشر مدًّا، أو ثلاثة آصع). وقيل: خمسة أقساط، والقسط: نِصف صاع. فأمَّا الفرْق بالسكون فمِئة وعشرون رطلًا، وهو ما يُعادِل (٠١كغ) تقريبًا. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٣٧)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٦/ ٢٨١)، ((الفقه الإسلامي وأدلته)) للزحيلي (١/ ٣٤١).

(٢) رواه البخاري (١٨١٥)، ومسلم (١٢٠١).

(٣) رواه البخاري (٤٥١٧)، ومسلم (١٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٧٧، ٣٨١، ٣٩١، ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٩٣). =

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

أي: إذا زالتِ الموانعُ وقدَرتُم على الوصولِ إلى البيت الحرام، فمَن أتى منكم بالعمرة متمتِّعًا بحِلِّه منها بما أحلَّه الله تعالى له من محظوراتِ الإحرامِ- إلى أنْ يَشْرَعَ في أعمال الحج- ومِثل ذلك مَن كان قارنًا بين الحجِّ والعُمرة- فعليه ذبحُ ما قدَر عليه من بهيمةِ الأنعام؛ من الإبل، أو البقر، أو الغَنم[1].

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

أي: إنْ لم يَجِد المتمتِّعُ هديًا أو لم يجِدْ ثَمنَه، فعليه أن يصوم عوضًا عن ذلك ثلاثةَ أيَّام في أثناءِ الحج، وسبعةً إذا فرَغ من أعمال الحجِّ ورجَع إلى أهلِه وموطنِه، ثمَّ أكَّد الله تعالى صيامَ هذه الأيام بذِكر كامِلِ عددِها[2].

= ونقَل إجماعَ العلماء على أنَّ المراد بالنسك في هذه الآية، الشاة: ابنُ عطية في ((تفسيره)) (١/ ٢٦٨).
وقال ابنُ عبد البر: (كلُّ مَن ذكر النسك في هذا الحديث مفسِّرًا فإنما ذكَره بشاة، وهو أمرٌ لا خلاف فيه بين العلماء)، ((التمهيد)) (٢/ ٢٣٧).
ونقَل إجماعَ العلماء على أنَّ الكفَّارة هنا على التخيير بين الصيام والإطعام والذبح: ابن جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٧٠٤).
وقال ابن عبد البرِّ: (أجمَعوا أنَّ الفدية ما جاءت به السُّنة في كعب بن عجرة من التخيير في الصيام أو الصدقة أو النسك)، ((الاستذكار)) (٤/ ١٨٤).
والرَّاجح من أقوال أهل العلم أنَّ الصدقة توزَّع على مساكين الحرم.
ونقَل بعضُ أهل العِلم الإجماعَ على أنَّ الصوم يجوزُ أن يكون مفرَّقًا، وأن يكون متتابعًا، وأنَّ له أن يصوم في أيِّ مكانٍ شاءه. يُنظر: ((مختصر فقه الحج)) إعداد القِسم العِلمي بالدُّرر السَّنية (ص: ١٠٨-١٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤١٩، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٩٤).
وممَّن قال من السلف في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ مِثلما ذُكر: ابن عمر، وسعيد بن جُبير، =

﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

أي: إنَّ وجوب الهدي وبدله من الصيام، إنَّما هو للمتمتِّع إنْ كان أهله من غيرِ حاضري المسجد الحرام، وقد قِيل بأنَّ حاضري المسجد الحرام هم مَن حوله ممَّن بينهم وبينه من المسافةِ ما لا تُقصر إليه الصلوات[١]، وقيل: هم أهلُ الحرم فقط[٢].

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أي: امتثِلوا أوامرَ الله عزَّ وجلَّ، واجتنبوا نواهيَه، ومن ذلك: امتثالُ المأموراتِ، واجتنابُ المحظورات المذكورة في هذه الآية، واعتقِدوا جازمين بأنَّه سبحانه شديدُ العقوبةِ لِمَن خالَف أمْرَه، وارتكَب نَهْيَه[٣].

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)﴾.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾.

أي: إنَّ وقتَ الحجِّ واقعٌ في أشهُرٍ معلومات، وهي: شوَّال، وذو القَعدة، وعشرٌ من ذي الحجَّة[٤].

= وأبو العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، والزهري، وقتادة، والربيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٤٢).

(١) اختار هذا القول: ابن جرير في ((تفسيره)) (٣/ ٤٤١-٤٤٢)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٢٩٩-٣٠٠)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٩١)، والشنقيطي في ((أضواء البيان)) (٥/ ١٢٤).

(٢) اختار هذا القول: ابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٩٤-٣٩٥، ٤١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٤٢-٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٤٣، ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١)، ((أضواء =

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ قراءتان:

١- ﴿فَلَا رَفَثٌ وَلَا فُسُوقٌ﴾ على أنَّ لا هنا ناهية، أي يحرم وقوع ذلك[١].

٢- ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ على أنَّ لا هنا نافية، تدلُّ على النفي العام لجميع الرَّفث وجميع الفسوق، وهذا النفي بمعنى النهي[٢].

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾.

أي: إنَّ مَن أحرَم بالحجِّ (ذلك لأن الشُّروعَ فيه يُصيِّره فرضًا ولو كان تطوُّعًا في حقِّه)، فعليه أنْ يجتنبَ جِماعَ النِّساء ومقدِّماته، ولا يتحدَّث بذلك في حَضرتِهنَّ، وعليه اجتنابُ جميع المعاصي، ومن ذلك: محظورات الإحرام، وسِباب المسلِم، ويجتنب الجدالَ بالباطل، ومن ذلك: المجادَلة في وقت الحجِّ وأحكامِه؛ فقد بيَّنها اللهُ عزَّ وجلَّ أتمَّ بيانٍ، وعليه أنْ يترُكَ المِراءَ والمنازَعة والمخاصَمة[٣].

= البيان)) للشنقيطي (٤/ ٤٨١)، (٥/ ١٥٨).

وممَّن قال من السَّلَف بهذا القول: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن الزبير، وابن عبَّاس، وابن عمر، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وإبراهيم، والحسن، والضحَّاك، والسُّدِّي، ومحمد بن سِيرين، والزُّهري، وقتادة، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حَيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٤٤).

(١) قرَأ بها ابنُ كَثير وأبو عَمرٍو وأبو جعفر والبصريان. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٢٨-١٢٩)، ((الكشف)) لمكِّي (١/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٢٨-١٢٩)، ((الكشف)) لمكِّي (١/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٥٣-٤٨٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٠١)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢٦/ ١٠٧-١٠٨)، ((مختصر الفتاوى المصرية)) لابن تيميَّة =

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: سَمعتُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((مَن حجَّ للهِ، فلم يَرفُثْ ولم يَفسُقْ، رجَع كيومَ ولدَتْه أمُّه))[١].

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا نهاهم اللهُ عزَّ وجلَّ عن فِعل الرَّذائل والمنكَرات، حثَّهم على فِعْل الفضائل والخيرات بقوله[٢]:

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾.

أي: كل ما يُقدِّمه العبادُ من الخيرِ من كثيرٍ أو قليل، فالله عزَّ وجلَّ عالمٌ به فيُحصيه لهم، ويَجزيهم عليه بالثَّوابِ الجزيل[٣].

= (ص: ٢٩٣-٢٩٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤١٣-٤١٤).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ معنى ﴿فَرَضَ فِيهِنَّ﴾ أحْرم: ابن عبَّاس، وإبراهيم، وعَطاء، والحسن، وقَتادة يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٥٥).

قال ابن جرير: (وإنَّما قُلنا: إنَّ فَرْض الحجِّ الإحرامُ؛ لإجماعِ الجميع على ذلك) ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٥٦).

وممَّن قال في معنى الرَّفَث بنحو هذا المعنى: ابنُ عُمر، وعطاء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٥٩).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ الفسوق بمعنى المعاصي: عبد الله بن عمر، وابن عبَّاس، ومجاهد، وعَطاء ابن يَسار، وعَطاء بن أبي رَباح، وعِكْرمة، ومحمَّد بن كَعْب، والزُّهري، وسعيد بن جُبَير، والرَّبيع ابن أنس، وعَطاء الخُراساني، ومقاتل بن حَيَّان، وإبراهيم النَّخَعي، وقَتادة، وطاوس، ومكحول، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٤٦).

وممَّن قال من السَّلَف في معنى الجدال بنحو المعنى المذكور: ابن عبَّاس، وأبو العالية، وعطاء، ومجاهد، والضَّحَّاك، وعِكْرمة، وجابر بن زيد، وعَطاء الخُراساني، ومكحول، وعمرو بن دينار، والرَّبيع بن أنس، وقَتادة، والزُّهري، ومقاتل بن حَيَّان، والسُّدِّي، وابن الزُّبير، والحسن، وإبراهيم، وطاوس، ومحمَّد بن كعب. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٤٧).

(١) رواه البخاريُّ (١٥٢١) واللَّفظ له، ومسلم (١٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٤٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٠٢).

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾.

سبب النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((كان أهلُ اليمن يحجُّون ولا يتزوَّدون، يقولون: نحن المتوكِّلون، فإذا قدِموا مكَّةَ سأَلوا النَّاس؛ فأنزَل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾))[(١)].

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾.

أي: تزوَّدوا مِن أقواتكم بما يُعِينكم على الوصولِ للبيت الحرام، وأداءِ مناسِكِ الحجِّ؛ فإنَّ في التزوُّدِ استغناءً عن المخلوقين، وإعانةً للمحتاجين، ولَمَّا أمَرهم الله عزَّ وجلَّ بأخذِ الزَّاد الدُّنيويِّ غذاءً لأجسادهم، أرشَدهم إلى الزَّاد الأخرويِّ الموصل لدار النَّعيم الأبديِّ، غذاءً لقلوبهم، وهو استصحابُ التَّقوى؛ بامتثالِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه[(٢)].

﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

أي: واتَّقونِ يا أصحابَ العُقولِ الصَّحيحة والأفهام السَّليمة، التي تُدركون بها حقيقةَ التَّقوى وثَمرتَها، وتُميِّزون بها بين الحقِّ والباطل[(٣)].

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨)﴾.

---

(١) رواه البخاري (١٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤١٥).

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

سبب النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((كانت عُكاظٌ ومَجَنَّةُ وذو المجاز أسواقًا في الجاهليَّة، فلمَّا كان الإسلامُ تأثَّموا من التِّجارة؛ فأنزَل اللهُ تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ» قرأ ابنُ عبَّاس هكذا))[١].

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي: إنَّه لا حرَجَ على المؤمنين في التكسُّب من التِّجارةِ في مواسم الحجِّ[٢].

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾.

أي: إذا دفَعْتُم مِن عرفاتٍ إلى مزدلفة، فاذكروا اللهَ تعالى عند مزدَلِفة، ويدخُلُ في ذلك الصَّلاةُ والدُّعاء عندها[٣].

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾.

أي: اذكُروا اللهَ عزَّ وجلَّ شُكرًا على هِدايتِه لكم، ومِن ذلك: الإرشادُ إلى مناسِكِ الحجِّ الصَّحيحةِ، واذكروه على الصِّفة الَّتي هداكم لها، أي: وَفْق ما شرَعه سبحانه، وقد كنتم مِن قبلِ هذا الهُدى في ضلالٍ عن الطَّريق المستقيم، كأداءِ مَناسِكِ الحجِّ في الجاهليَّة خلافًا لِما جاء به إبراهيمُ الخليلُ عليه الصَّلاة والسَّلام[٤].

---

(١) رواه البخاري (٢٠٥٠).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٨٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٢٠-٤٢١).
ونفَى الخلافَ بين العلماء في أنَّ المراد بالفضل المذكور في الآية، رِبْح التجارة: القرطبي في ((تفسيره)) (١٢/ ٤١)، والشنقيطي في ((أضواء البيان)) (١/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥١٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٢١-٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٢٣-٥٢٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٠٤)، ((تفسير =

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩)﴾.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾.

أي: أمر الله عزَّ وجلَّ عباده من الحُمْس، وهم قريش الذين كانوا لا يقفون بعرفات، بأن يُفيضوا منها كما كانتِ العربُ كلُّها تُفيض منها[(١)].

عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: ((كانت العربُ تطوف بالبيتِ عُراةً، إلَّا الحُمْسَ، والحُمْسُ قريشٌ وما ولَدَتْ، كانوا يطوفون عُراةً، إلَّا أنْ تعطيَهم الحُمْسُ ثيابًا، فيُعطي الرِّجالُ الرِّجالَ، والنِّساء النِّساء، وكانت الحُمْسُ لا يخرُجون من المزدَلِفة، وكان النَّاس كلُّهم يبلغون عرفاتٍ، قال هشام: فحدَّثني أبي، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: الحُمْسُ هم الَّذين أنزَل الله عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، قالت: كان النَّاسُ يُفِيضون من عرفاتٍ، وكان الحُمْس يُفيضون من المزدلفة، يقولون: لا نُفِيض إلَّا من الحرَم، فلمَّا نزلت: ﴿أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، رجَعوا إلى عرفاتٍ))[(٢)].

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: أمَر اللهُ تعالى حُجَّاج بيته أنْ يطلبوا المغفرةَ منه سبحانه، أي: ستْرَ ذنوبهم،

= ابن كثير)) (١/ ٥٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٤١-٢٤٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٢٣-٤٢٤).

(١) واختار هذا المعنى ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٣/ ٥٣٠-٥٣١). وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٥٥٥)، والشنقيطي في ((أضواء البيان)) (١/ ٨٩-٩٠).

قال ابن جرير: (والذي نراه صوابًا من تأويلِ هذه الآيَة: أنَّه عَنَى بهذه الآية قُريشًا وَمَن كان مُتَحَمِّسًا معها من سائرِ العَرَبِ؛ لإجماعِ الحُجَّة من أهل التأويل على أنَّ ذلك تَأويلُه)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٣٠) يعني بقوله: (بإجماع الحُجَّة) الأكثر، وإلَّا فقد ذكر القول الآخَر بأنَّه إبراهيم عليه السلام، وأنَّ الإفاضة من مُزدلفة؛ لأنَّه ذكر الإفاضة الأولى من عَرفة إلى مزدلفةَ. وهذا اختيارُ السعدي في ((تفسيره)) (ص: ٩٢).

(٢) رواه البخاري (١٦٦٥)، ومسلم (١٢١٩).

والتجاوز عنها؛ فهو سبحانه وتعالى أهلٌ لأنْ يُطلَبَ منه ذلك؛ لأنَّه غفورٌ ورحيمٌ بعباده المؤمنين[١].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠)﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

أي: فإذا أتممتُم أداءَ مناسكِ الحجِّ، وتحلَّلتُم من النُّسك، فأَكْثِروا مِن ذِكْر الله عزَّ وجلَّ؛ شُكرًا له سُبحانه على إنعامِه بالتَّوفيق لأداء هذه العبادةِ العظيمة، وليكُن ذِكرُكم لله تعالى لا يقلُّ عن ذِكركم لآبائِكم، وذِكرِ مآثِرِهم، بل عليكم أنْ تَذكروه بأشدَّ من ذلك[٢].

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾.

مُناسبتُها لِمَا قبلها:

لَمَّا أمَر الله تعالى بذِكره، أرشدَ إلى دُعائه؛ فإنَّه مظنَّةُ الإجابة[٣]، فقال:

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾.

أي: فمِن الناس مَن لا يَسألُ اللهَ تعالى إلَّا مصالحَ دُنياه، فيَسأله متاعَها وزِينتَها، ولا نَصيبَ له في ثواب الآخِرة؛ لرغبتِه عنها، وقُصورِ همَّته على الدُّنيا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٢٨-٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٤١، ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٤٧-٢٤٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٢-٤٣٣).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١)﴾.

أي: ومن النَّاس مؤمِنون يسألون اللهَ تعالى من خيريِ الدُّنيا والآخرة- سواءٌ في مناسِك الحجِّ، أو بعدَ أدائها، أو في غيرِ ذلك من الأوقات- وهذا شاملٌ للعِلم النَّافِع والعمَل الصالح، والرِّزق الحسَن، والعافية، وغير ذلك، وأما حسنةُ الآخرةِ الَّتي يطلُبونها فهي نعيمُ الجنَّة، كما أنَّهم يسأَلون ربَّهم عزَّ وجلَّ أنْ يصرِفَ عنهم عذابَ النَّار[١].

كما قال تعالى حكايةً عن موسى عليه السَّلام: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وعن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عاد رجلًا من المسلمينِ قد خَفَتَ[٢] فصار مِثلَ الفرْخِ، فقال له رسولُ اللهِ صلىَّ اللهُ عليهِ وسلَّمَ: هل كنتَ تدعو بشيءٍ أو تسأله إياه؟ قال: نعم، كنتُ أقولُ: اللهم ما كنتَ مُعاقِبي به في الآخرةِ، فعَجِّلْه لي في الدُّنيا، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: سبحان اللهِ! لا تُطيقُه- أو لا تستطيعُه- أفلا قلتَ: اللهمَّ آتِنا في الدُّنيا حسنةً، وفي الآخرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النارِ؟ قال: فدعا اللهَ له، فشفاه))[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٠).
قال ابنُ عَطيَّة: (اللَّفْظة تَقتضي هذا كلَّه وجميعَ محابِّ الدُّنيا، وحَسَنةُ الآخرةِ الجَنَّةُ، بإجماع) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٧٧).
وممَّن قال من السَّلَف بأنَّ الحَسنة في الآخرة هي الجنة: الحسَن، ومجاهد، والسُّدِّي، ومقاتل بن حَيَّان، وإسماعيل بن أبي خالد. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٥٩).
(٢) **قد خَفَتَ**: أي: ضَعُفَ، ومنه خَفَتَ الصوتُ إذا ضَعُفَ وسَكَنَ، ومنه قيل للميت: قدْ خَفَتَ إذا انقطعَ كلامُه. ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٣)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٢/ ٣١).
(٣) رواه مسلم (٢٦٨٨).

وسأل قَتادةُ أنسًا رضي الله عنه: ((أيُّ دعوةٍ كان يدعو بها النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أكثرُ؟ قال: كان أكثرُ دعوةٍ يدعو بها يقولُ: اللهمَّ آتِنا في الدُّنيا حسنةً، وفي الآخرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النارِ، قال: وكان أنسٌ إذا أراد أنْ يدعوَ بدعوةٍ، دعا بها، فإذا أراد أنْ يدعوَ بدعاءٍ، دعا بها فيهِ))[(١)].

وعن عبد الله بن السَّائبِ رضي الله عنه، قال: ((سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يقول ما بين الرُّكنين: ربَّنا آتِنا في الدُّنيا حسنةً، وفي الآخرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النَّارِ))[(٢)].

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)﴾.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾.

أي: إنَّ أُولئك الَّذين يقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾- لهم ثوابٌ جَزيل على حَجِّهم الَّذي باشَروا معاناتَه بأنفسهم وأموالهم، وسيؤتيهم اللهُ تعالى حظًّا ممَّا سألوه من خيريِ الدنيا والآخرة، وذلك بحسَب أحوالهم، وما تقتضيه حِكمة الله عزَّ وجلَّ[(٣)].

﴿وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أي: إنَّه سبحانه يُحصي أعمالَ العباد بسرعة، دون الحاجة إلى عقد أصابع، أو

---

(١) رواه البخاري (٦٣٨٩)، ومسلم (٢٦٩٠) واللفظ له.

(٢) رواه ابنُ أبي شَيبة (٣/ ٤٤٣)، وأبو داود (١٨٩٢)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٢/ ٤٠٣، رقم ٣٩٣٤)، والحاكم (٢/ ٣٠٤)، والبيهقي (٥/ ٨٤) (٩٥٥٧).
والحديث قال عنه الحاكم: صحيحُ الإسناد ولم يُخرجاه. وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٨٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٤٧-٥٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٤٨-٤٥٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٥-٤٣٦).

استخدام آلةٍ، وبلا حاجةٍ إلى فِكرٍ أو رَوِيَّة، كما يفعَلُ الخَلق، وهو سريع المحاسَبة للخَلْق يوم القيامة دون أنْ يظلِمَ أحَدًا شيئًا، ودون الحاجةِ إلى تذكُّرٍ أو تأمُّلٍ، كما أنَّه سبحانه سريعُ المجازاة لعباده(١).

﴿وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)﴾.

﴿وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾.

أي: أمَر اللهُ تعالى عبادَه- مِن حُجَّاج بيته وغيرِهم- بتكبيرِه في أيَّام منًى، وهي أيَّامُ التَّشريق الَّتي تشمَل ثلاثةَ أيَّام بعد يوم النَّحر، ويتعلَّقُ بذلك التكبيرُ عند ذَبْح الهدي والأضاحيِّ، والتكبير المطلَق في سائر الأحوال، والتكبير المقيَّد بعد الصلوات الخمسِ المفروضة، والتكبير عند رَمْيِ الجِمار(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٦).

وقيل: المراد: سريع مجيء يوم الحساب. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٧٧).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: مقاتل. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ١٦٨).

قال ابن عثيمين: (والسرعة هنا قد تكون سرعةَ الزمن؛ بمعنى: أنَّ حساب الله قريب... وقد يكون المراد سرعةَ محاسبة الله للخلق- أي: إنَّ نفْس حسابه سريع- والثاني أبلغ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يحاسب الخلائق كلَّها في يومٍ واحد، ويُعطي كلَّ إنسان ما يستحقُّه من ذلك الحساب)) ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٦).

(٢) نقَل إجماعَ المفسِّرين على أنَّ المراد بالأيَّام المعدودات أيَّامُ مِنًى: الماورديُّ ((النكت والعيون)) (١/ ٢٦٣)، والقرطبي في ((تفسيره)) (٣/ ١).

ونقَل الإجماعَ على أنَّ المراد بالذِّكر في هذه الآية، التَّكبير، وعلى أنَّ الحاجَّ مخاطَب بهذه الآية: ابنُ العربي في ((أحكام القرآن)) (١/ ١٩٧، ١٩٩)، ونقَل الإجماعَ على الثاني القرطبيُّ في ((تفسيره)) (٣/ ٣).

وقال ابنُ العربي: (فأمَّا غير الحاجِّ؛ فهل يدخُل فيه أم لا؟... فنقول: أجمَع فقهاءُ الأمصار والمشاهير من الصَّحابة والتابعين رضِي الله عنهم، على أنَّ المراد به التَّكبير لكلِّ أحد، وخصوصًا في أوقات الصَّلوات؛ فيُكبِّر عند انقضاء كلِّ صلاة، كان المصلِّي في جماعةٍ، أو وحْده، يُكبِّر =

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾.

أي: إنَّه لاحرَج على الحاجِّ، سواءٌ خرَج من منًى قبل غروب شمس اليوم الثَّاني مِن أيَّام التَّشريق، أو بقِي فيها إلى اليومِ الثَّالث لرَمْيِ الجمَرات، فله أنْ يختارَ ما شاء، ما دام أنَّه ممتثلٌ ما أمَر اللهُ تعالى به، ومجتنبٌ ما نهى عنه، وخاصَّةً فيما يتعلَّقُ بالحجِّ من مأموراتٍ ومحظورات[1]، كما أنَّ كُلًّا من المتعجِّلين والمتأخِّرين إذا اتَّقَوُا اللهَ تعالى في حجِّهم فلم يرفُثوا أو يفسُقوا، خرَجوا من حَجِّهم بلا إثمٍ، طاهرينَ من الذُّنوب كيوم ولَدَتْهم أمَّهاتهم[2].

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر الله عزَّ وجلَّ تفرُّق النَّاس مِن الحجِّ إلى سائر البلدان بعد اجتماعهم في مشاعرِ الحج، ذكَّرهم باجتماعِهم عنده يومَ القيامة، فأمَرهم بما ينفَعُهم في ذلك اليوم فقال[3]:

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

= تكبيرًا ظاهرًا في هذه الأيام) ((أحكام القرآن)) (١/ ١٩٩).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٤٩-٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦١-٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣).

وممَّن فسَّر مِن السَّلَف الأيَّام المعدودة بمِثل ما ذُكر: ابنُ عبَّاس، وابنُ عُمر، وابن الزُّبير، وأبو موسى، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وإبراهيم، والضَّحَّاك، وأبو مالك، وعِكْرمة، وسعيد بن جُبَير، والسُّدِّي، والزُّهري، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس، ومقاتل بن حَيَّان، وعطاء الخراساني، ويَحيى بن أبي كثير. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٦١).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٦٥-٥٦٩).

وهو قول كثيرٍ من السلف. يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٢).

أي: امتثِلوا أوامرَ الله عزَّ وجلَّ، واجتنبوا نواهيَه في الحجِّ وغيرِه، واعْلَموا أنَّكم تُجمَعون إلى الله تعالى يومَ القيامة، فتُجازَوْن بأعمالِكم؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ(١).

الفوائد التربويَّة:

١- وجوب الإخلاص لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾: يعني أتموهما للهِ لا لغيره، لا تُراعوا في ذلك جَاهًا، ولا رُتبةً، ولا ثناءً مِن النَّاس(٢).

٢- تيسير اللهِ على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، والدِّينُ كلُّه مِن أوَّلِه إلى آخرِه مبنيٌّ على اليُسر(٣).

٣- أنَّ العِلمَ بشدَّةِ عقوبةِ الله من أهمِّ العلوم؛ ولهذا أمَر الله سبحانه وتعالى به بخصوصِه؛ لأنَّه يُورِث الخوفَ مِن الله، والهرَبَ مِن معصيَتِه، فقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٤).

٥- أصحاب العقولِ هم أهلُ التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، فكلَّما ضَعُفت التَّقوى، كان ذلك دليلًا على ضَعْفِ العَقل(٥).

٦- تذكير الإنسان بحالِه قبل كمالِه؛ ليعرِفَ بذلك قدرَ نعمةِ الله عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾(٦).

٧- بيَّن الله تعالى أولًا تفصيل مناسك الحج، ثم أمر بعدها بالذكر فقال: ﴿فَإِذَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤١١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤١٩-٤٢٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٧).

أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَّ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ ثم بيَّن أنَّ الأَوْلى أن يترك ذِكر غيره، وأنْ يقتصرَ على ذِكره سبحانه، ثم بيَّن بعد ذلك كيفيةَ الدُّعاء، فقال: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ...﴾ وما أحسنَ هذا الترتيبَ! فإنَّه لا بدَّ من تقديم العبادة لكسْر النفس وإزالة ظُلماتها، ثم بعد العبادة لا بدَّ من الاشتغال بذِكر الله تعالى؛ لتنويرِ القلب، وتجلي نور جلاله، ثم بعد ذلك الذِّكر يشتغل الرجل بالدعاء؛ فإنَّ الدعاء إنما يكمل إذا كان مسبوقًا بالذكر(١).

٨- قرنُ المواعظ بالتخويف؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(٢).

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- لَمَّا كان لفظ القرآن في بيان الرُّخصة، جاء بالأسهل فالأسهل، فقال تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾(٣).

٢- سَعةُ فضلِ الله عزَّ وجلَّ، وتيسيرُه في أحكامه، بوقوع الفِدْية على التَّخيير، وجَعْلِ الأكثرِ من صيام الفِدْيَة بعد رجوعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾، كما جعَل الإنسانَ مخيَّرًا بين أنْ يبقى ثلاثةَ أيَّام، أو يتعجَّل في يومين(٤).

٣- البُعْد حالَ الإحرام عن كلِّ ما يشوِّش الفِكر، ويشغَلُ النَّفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾(٥).

٤- أنَّه ينبغي للإنسان في حالِ بيعِه وشرائه أنْ يكونَ مترقِّبًا لفضلِ الله، لا معتمِدًا على قوَّتِه وكَسْبِه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ٣٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٠٦، ٤١٠، ٤٤٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤١٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٤).

٥- ظهور منَّةِ الله على عباده بما أباح لهم من المكاسبِ، وأنَّ ذلك مِن مقتضى ربوبيَّتِه سبحانه وتعالى؛ حيث قال تعالى: ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾[١].

٦- أنَّ الذِّكر المشروعَ ما وافَق الشَّرع؛ لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾[٢].

٧- قرنُ الحُكم بالعلَّة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وقَرْنُ الحُكم بالعلَّةِ في مِثل هذا يُفيد الإقدامَ والنَّشاطَ على استغفارِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٣].

٨- في الأمر بالذِّكر عند انقضاء النُّسك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ سائرِ العبادات تَنقضي ويُفرَغ منها، وذِكر الله عزَّ وجلَّ باقٍ لا يَنقضي ولا يُفرَغ منه، بل هو مستمرٌّ للمؤمنين في الدنيا والآخرة[٤].

٩- أنَّ الأجدادَ داخِلون في مسمَّى الآباء؛ لأنَّ العربَ كانوا يفتخِرون بأمجادِ آبائهم، وأجدادهم، وقبائلهم، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾[٥].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إثباتُ صِفة السُّرعة لله عزَّ وجلَّ[٦].

١١- أنَّ الأعمالَ الَّتي يُخيَّر فيها العبدُ إنَّما ينتفي الإثمُ عنها إذا فعَلها على سبيل التَّقوى لله عزَّ وجلَّ دون التهاونِ بأوامره؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾؛ فمَن فعَل ما يُخيَّر فيه على سبيل التَّقوى لله عزَّ وجلَّ والأخذ بتيسيره، فهذا لا إثمَ عليه، وأمَّا مَن فعَلها على سبيل التهاونِ، وعدمِ المبالاة، فإن عليه الإثمَ بتَرْك التَّقوى، وتهاونِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٤).

(٦) يُنظر: ((كتاب التوحيد)) لابن منده (٢/ ١٣٧)، ((فتح القدير)) للشوكاني (سورة البقرة الآية: ٢٠٢).

بأوامرِ الله تعالى[١].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾

- في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾؛ حُذف المفعول؛ لأجْل العموم؛ ليشمل مَن لم يجِد الهدي أو ثمنه؛ فاستُفيد زيادة المعنى، مع اختصار اللفظ[٢].

- قوله: ﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾: فيه فذلكة الحِساب[٣]، أي: جِماعُه؛ فقوله: ﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ فَذْلَكَةٌ لقوله: ﴿ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ... وسَبْعَةٍ﴾، وفائدتها: أنَّ الواو قد تجيء بمعنى (أو) التي للتَّخيير، فيحتمل المعنى فِصيام ثلاثة أيام أو سَبعة؛ ففُذْلِكت نفيًا لتوهُّم التخيير، وأيضًا ففائدة الفَذْلكة في كلِّ حساب أن يُعلم العدد جملةً كما عُلِم تفصيلًا؛ ليُحاط به من جِهتين، فيتأكَّد العِلم؛ فإن أكثر العرب لم يُحسنوا الحساب، وفي أمثال العرب: عِلمان خيرٌ من عِلم، وليُعْلَم أنَّ المراد بالسبعة هو العددُ دون الكثرة؛ فإنَّه يطلق لهما. وكذلك ﴿كامِلَةٌ﴾ تأكيدٌ آخَر؛ فهي صِفة مؤكِّدة تُفيد المبالغة في محافظة العدد، أو مبيِّنة كمال العشرة؛ فإنَّه أوَّل عدد كامل؛ إذ به تنتهي الآحادُ وتتمُّ مراتبها، وفيه زيادة توصية بصيامها، وألَّا يُتهاون بها ولا ينقص من عددها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٠٩).

(٣) **الفَذْلكة**: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملة والحوقلة من قولهم: (فذْلَك كذا)، أي: ذَكَر مجُمَل ما فُصِّل أولًا وخلاصته. وقد يُراد بالفذلكة النتيجة لِمَا سبَق من الكلام، والتفريع عليه، ومنها فذلكة الحساب، أي: مُجمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعد قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾. يُنظر: ((كُنَّاشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨-٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٤١-٢٤٢)، ((تفسير الرازي)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير =

- وقوله: ﴿فَصِيَامُ...﴾ خبرٌ معناه الأمر بالصيام، وإنَّما عدَل عن لفظ الأمْر إلى لفظ الخبَر؛ لأنَّ التكليف بالشيء إذا كان متأكِّدًا جدًّا، فالظاهر دخولُ المكلَّف به في الوجود؛ فلهذا السبب عبَّر بالإخبار عن الشيءِ بالوقوع الذي استقرَّ؛ لتأكُّد الأمر به، ومبالغة الشرع في إيجابه[1].

- وفي قوله: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ التفات، وحمْلٌ على معنى (مَن)، أمَّا الالتفات؛ فإنَّ قوله: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾ ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ اسمٌ غائب؛ ولذلك استتر في الفِعلين ضميرُ الغائب، فلو جاء على هذا النَّظم لكان الكلام (إذا رجَع)، وأما الحمل على المعنى فإنَّه أتى بضمير الجمع ﴿رَجَعْتُمْ﴾، ولو راعى اللَّفْظ لأفرد فقال (رجع)[2].

٢- **قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** إظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿اللهَ﴾ في موضِع الإضمار، وتكريره؛ لتربية المهابةِ وإدخالِ الرَّوْعة، ولئلَّا يُفهِم الإضمارُ تقييدَ شديدِ عِقابه بخشية ممَّا مضى فقال: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ تنبيهًا على أن الباعث على المخافة إنَّما هو العلم ﴿أَنَّ اللهَ﴾ أي: الذي لا يُدانِي عظمتَه شيءٌ ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ هذا مع مناسبة هذا الخِتام لِمَا بعده من النهي عن الرَّفث وغيره[3].

٣- **قوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾** ﴿فِي الْحَجِّ﴾ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ؛ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بشأنه، والإشعارِ بعِلَّة الحُكم؛ فإنَّ زيارةَ البيت المعظَّم والتقرُّبَ بها إلى الله عزَّ وجلَّ من موجبات تَركِ الأمورِ المذكورة، وإيثارُ النَّفي على النَّهي للمُبالغة في النَّهي، حتى جُعلت كأنَّها قد نهي الحاج عنها

= البيضاوي)) (١/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٢٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٦٧). وقوله: (إذا رجَع). في المطبوع: (إذا رفَع). وهو تصحيفٌ.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٠٧).

فانتهى، فانتفت أجناسها، وللدَلالة على أنَّ ذلك حقيقٌ بألَّا يكون؛ فإنَّ ما كان مُنْكرًا مستقبَحًا في نفسه، فهو في الحجِّ أقبحُ[١].

٤- **قوله:** ﴿**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ**﴾ عبَّر بـ﴿ثُم﴾ لتفاوت ما بين الإفاضتين (من عرفاتٍ، ومن المزدلفة)، وأنَّ إحداهما صوابٌ (التي من عَرَفات)، والثانية خَطأ (التي من مزدلِفة). ووقوع العطف بحَرْف المهلة ﴿ثُم﴾، الذي يستدعي التراخي مضافًا إلى التغاير، وليس بين الإضافة المطلَقة والمقيَّدة تراخٍ؛ لأنَّ التراخي كما يكون باعتبار الزَّمان، قد يكون باعتبار علوِّ المرتبة وبُعدها في العلوِّ بالنسبة إلى غيرها ويعرف بـ(التراخي الرتبي)[٢]. وهذا بناءً على القول بأنَّ المقصود بالناسِ في الآية هم العرب، وأنَّ الإفاضةَ المقصودةَ هنا هي الإفاضةُ من عَرفات.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري-مع حاشية ابن المنير)) (١/ ٢٤٧).

الآيات (٢٠٤ - ٢٠٧)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿أَلَدُّ الخِصَامِ﴾: أي: شديد الخُصومة، أو أشَدُّهم خصومةً؛ أصل اللَّدد: الشِدَّة؛ والْأَلَدُّ: الخَصيم الشَّديد التَّأبِّي، والخِصام: جمْع خَصم، أو مصدَر خاصَم[1].

﴿الحَرْثَ﴾: الزَّرع، والبساتين والمزارع، وأصْلُه: إلقاء البَذر في الأرض وتهيئتها للزَّرع، والكَسبُ والجَمْعُ[2].

﴿النَّسْلَ﴾: الوَلد والنَّجْل، وهو في الأصل: الانفصالُ عن الشَّيءِ[3].

﴿المِهَادُ﴾: الفِراش، والقَرار، وأصل مَهَد: من توطئة الشيء وتسهيله[4].

﴿يَشْرِي﴾: يَبِيع[5].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٥، ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠، ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٠، ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

المعنى الإجمالي:

يُخبِرُ تعالى أنَّ صِنفًا من النَّاس هم من المنافقين، يستحسنُ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ فصاحتَهم، ويُعجِبه منطقُهم، لكنَّ حديثهم متعلِّق بالدنيا فقط، ولا يتطرَّق لأمور الآخِرة، أو يُعجِبه ظاهرُ حديثهم عن أمور الدِّين، لكنَّه حديثٌ لا ينفع أولئك المنافقين إلَّا في الدُّنيا فقط، ولا يكتفي الواحدُ منهم بحُسن كلامه، بل يُؤكِّده بأنَّ اللهَ يعلَمُ بأن ما في قلبه موافقٌ لِما تكلَّم به، وهو كاذبٌ في ذلك، شديدُ الخصومةِ والمجادلةِ بالباطل، فاجرٌ في خِصامِه، ناطقٌ بالزُّورِ في قوله، فإذا خرَج مِن عند النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ سار في الأرضِ مفسِدًا فيها بالكفر، والظُّلم، والمعاصي؛ كإخافةِ السَّبيل، وقَطْع الطُّرق، ويُتلِف الزروعَ والثمارَ ونسلَ الحيوانات، واللهُ سبحانه لا يحبُّ كلَّ ما كان فسادًا.

وإذا خُوِّف هذا المنافقُ وأُمِر بتقوى اللهِ عزَّ وجلَّ، ومنها تَرْكُ سعيه بالفساد، وإتلاف الزَّرع والحيوانات- استكبَر، وأخذَتْه الحميَّةُ بسبب وقوعه في الإثم، وحملَتْه الأَنَفةُ على ارتكابِ المزيدِ من السيِّئات، فكفى هذا المنافقَ عقوبةً نارُ جهنَّمَ، ولبئس الفراشُ والوِطاءُ جهنَّمُ.

وهناك صِنفٌ من النَّاس يبيعون أنفسَهم، ويبذُلون أرواحَهم من أجلِ أنْ ينالوا رضا الله عزَّ وجلَّ، والله ذو رأفةٍ بعبادِه، وخاصَّة مَن باعوا أنفسَهم له جلَّ وعلا، ومِن رأفته بهم توفيقُه لهم ورضاه عنهم.

تفسير الآيات:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤)﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي: إنَّ بعضَ النَّاس، مِن المنافقين، مَن تستحسنُ يا محمَّد، مَنطقَه وظاهرَ قوله، فتُعجِبك فصاحتُه، لكنه يتحدَّث في شؤون الدُّنيا بعيدًا عمَّا يتعلَّقُ بأمور الآخرة، أو يُعجِبُك ظاهرُ حديثِه عن أمور الدِّين؛ كنُصرةِ الإسلام والمسلمين، وحبِّ الرَّسول عليه الصَّلاةُ والسلام، وغير ذلك، لكنه حديثٌ ينفَعُه في الدنيا فحسب، أما في الآخرة فلا ينتفع به البتَّةَ[1].

﴿وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾.

أي: ويُقرنُ حُسنَ كلامِه ويؤكِّد ظاهرَ حديثِه بأنْ يُخبِرَ أنَّ الله تعالى يعلَمُ بأنَّ ما في قلبه موافقٌ لِما نطَق به، وهو كاذبٌ في ذلك؛ فهو في الحقيقةِ يُبارِزُ اللهَ عزَّ وجلَّ بما ينطوي عليه قلبُه من الكفرِ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾[المنافقون: ١ - ٤].

﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾.

أي: يُشْهِد اللهَ تعالى على أنَّه محقٌّ في قولِه ذلك؛ لشِدَّة خصومتِه، وتجدُّه- لاعتمادِه على فصاحتِه- مُجادِلًا بالباطل، وناطقًا بالزُّور مِن القول، كاذبًا في حديثِه، وفاجرًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٦٥-٢٦٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٢-٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٣).

في خِصامِه؛ فالمُنافِق أسوأُ المخاصِمينَ، وأعوجُهم، وأشدُّهم عداوةً[١].

عن عائشةَ رضي الله عنها، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أبغضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الألدُّ الخَصِمُ))[٢].

وعن عبدِ الله بن عمرٍو رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((أربعُ خلالٍ مَن كُنَّ فيه كان مُنافِقًا خالصًا: مَن إذا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أخلَفَ، وإذا عاهَد غدَرَ، وإذا خاصَمَ فجَر، ومَن كانت فيه خَصلةٌ منهنَّ كانت فيه خَصلةٌ منَ النِّفاقِ حتَّى يدَعَها))[٣].

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥)﴾.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾.

أي: كما أنَّ مقالَه مُعْوجٌّ، واعتقاده فاسدٌ، فأفعاله كذلك سيِّئةٌ وقبيحة، فإذا خرَج وانصرف عنك هذا الذي يُعجِبُك قولُه، سار في الأرض مجتهدًا في إفسادِها بالكفر، والظُّلم، وعمَل المعاصي؛ كقَطْع الطَّريق، وإخافة السَّبيل، وغير ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٧٨، ٥٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٣).
وقد تَعدَّدت الألفاظ التي وردَت عن السَّلف في معنى ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾، وكلُّها داخلة في المعاني التي ذُكرت، وممَّن ورد عنه من السَّلَف في ذلك: ابن عبَّاس، والحسن، ومحمَّد بن كَعْب، ومجاهد، وعطاء الخُراساني، وقَتادة، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٦٥).

(٢) رواه البخاري (٢٤٥٧) واللفظ له، ومسلم (٢٦٦٨).

(٣) رواه البخاري (٣١٧٨)، ومسلم (٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٨٠-٥٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٦٨-٢٦٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٥).

﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾.

أي: هِمَّتُه في إتلاف الحَرْث، وهو: محلُّ نَماء الزُّروع والثِّمار، وإتلاف النسل، وهو: نتاجُ الحيوانات؛ فهذانِ لا قِوام للنَّاس إلا بهما، وبإتلافِهما يختلُّ نظامُ الحياة، كما أنَّه إذا سعى في الأرض فسادًا بالكفرِ والظُّلم والمعاصي، منَع اللهُ تعالى القطرَ من السَّماءِ عقوبةً؛ فتَتْلَف الزُّروع، وتموت الحيوانات[1].

كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يحبُّ تلك الأفعالَ، ولا مَن قام بها، وإنْ قال بلسانه قولًا يُعجِب النَّاسَ[2].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٨٠-٥٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٦٨-٢٦٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٥).

وممَّن قال من السَّلَف في معنى لفظ الحَرْث بنحو ما ذُكر: ابن عبَّاس، وأبو العالية، ومجاهد، وعطاء، وعِكْرمة، والرَّبيع بن أنس، وقَتادة، ومَكحول، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٦٧).

وممَّن قال من السَّلَف في معنى ﴿النَّسْلَ﴾ بنحو ما ذُكر: ابن عبَّاس، وعِكْرمة، وأبو العالية، ومكحول، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٦).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾.

أي: إذا أُمِر هذا المنافقُ بتقوى الله عزَّ وجلَّ؛ بامتثالِ ما أمَر به، واجتنابِ ما نهى عنه، ومِن ذلك: تَرْكُ الإفساد في الأرض بالكفر والظُّلم والمعاصي، وإهلاكِ الزُّروع والحيوانات، إذا أُمر بذلك، استكبَر، وأخذَتْه حميَّةٌ بسبب وقوعِه في الآثام، وحملَتْه هذه الأَنَفةُ على ارتكاب المزيدِ من السَّيِّئاتِ[(١)].

﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

أي: كفاه عقوبةً مِن غيِّه وضلالِه، صَلْيُه نارَ جهنَّمَ، ولبئس الفِراشُ والوِطاءُ جهنَّمُ، الَّتي وطَّأها لنفسِه بنِفاقِه وفُجوره[(٢)].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾.

أي: إنَّ هناك صِنفًا من النَّاس يبيعون أنفسَهم، ويبذلونها ثمنًا لنيلِ مرضاةِ الله عزَّ وجلَّ[(٣)].

﴿وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أي: واللهُ ذو رحمةٍ عظيمة بعباده، ولعبوديَّتِهم له يرأَفُ بهم، وخاصةً مَن يبيعون

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٨٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣١١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٨٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٨٩-٥٩٤)، ((منهاج السُّنة)) لابن تيميَّة (٧/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤).

أنفسَهم له سبحانه، ومِن رأفته بهولاء أنْ يوفِّقَهم لذلك، ويرضى عنهم[١].

الفوائد التربويَّة:

١- الإشارة إلى ذمِّ الجدل والخِصام؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾؛ لأنَّ الخُصوماتِ في الغالب لا يكونُ فيها بركةٌ[٢].

٢- التَّحذير من ردِّ النَّاصحين؛ لأنَّ اللهَ تعالى جعَل هذا مِن أوصاف هؤلاء المنافِقين؛ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾، فمَن ردَّ آمرًا بتقوى الله، ففيه شَبَه مِن المنافقين، والواجب على المرء إذا قيل له: (اتَّقِ الله) أنْ يقولَ: (سمِعْنا وأطَعْنا) تعظيمًا لتقوى اللهِ عزَّ وجلَّ[٣].

٣- الإشارة إلى إخلاص النِّيَّة؛ لقوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾[٤].

٤- الموفَّقون هم الَّذين باعوا أنفسَهم وأرخصوها وبذَلوها طلبًا لمرضاةِ الله، ورجاءً لثوابه، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[٥].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ الأَنَفةَ قد تحمِلُ صاحبَها على الإثمِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٩).

وقال الحاكم: (هذه الآية تدلُّ على أنَّ من أكبر الذنوب عند الله أن يُقال للعبد: اتَّق الله! فيقول: عليك نفسك). يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٨٤).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ...﴾ إثبات عِلم الله عزَّ وجلَّ بما في الصُّدور؛ لأنَّ ما في القلبِ لا يعلَمُه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ[١].

٣- في قوله تعالى:﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ إثبات محبَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ للصَّلاح، فإنَّ نفيَه محبَّةَ الفسادِ دليلٌ على ثبوت أصلِ المحبة[٢].

٤- في قوله تعالى: ﴿مَرْضَاتِ اللهِ﴾ إثبات الرِّضا لله؛ ورضَا اللهِ صفةٌ حقيقيَّةٌ لله عزَّ وجلَّ متعلِّقة بمشيئتِه[٣].

بلاغة الآيات:

١- **قوله تعالى:** ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ**﴾ التعبير بالفعل المبني للمفعول (قِيلَ) فيه بلاغة تامَّةٌ في حذفِ الفاعل؛ ليشمَلَ كلَّ مَن يقول له ذلك؛ فيكون ردُّه لكراهةِ الحقِّ لا للقائل به[٤].

٢- **قوله:** ﴿**أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ**﴾ فيه نوعٌ من البديع يُسمَّى التَّتميم، وهو إرداف الكلام بكلمة ترفع عنه اللَّبس، وتقربه للفَهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ وذلك أنَّ العِزَّة محمودةٌ ومذمومة، فالمحمودة طاعة الله، فلمَّا قال: ﴿بالإثمِ﴾، اتَّضح المعنى وتمَّ، وتبيَّن أنها العزةُ المذمومة المؤثَّم صاحبُها[٥].

٣- **قوله:** ﴿**وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾ تذييل، أي: رؤوفٌ بالعباد الصالحين الذين منهم مَن يشري نفْسَه؛ ابتغاءَ مرضاة الله، ومناسبة هذا التَّذييل للجملة: أنَّ المخبَر

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٣٢- ٣٣٣).

عنهم قد بذلوا أنفسهم لله، وجَعَلوا أنفسهم عَبيدَه[١].

- وعدَل عن الإضمار ﴿بِهِم﴾ إلى الإظهارِ ﴿بِالعِبَادِ﴾؛ ليكونَ هذا التذييلُ بمنزلةِ المَثَل مستقلًّا بنفسه، وهو من لوازم التذييل، وليدلَّ على أن سبب الرأفة بهم أنَّهم جعَلوا أنفسهم عبادًا له[٢].

٤- وفي هذه الآية، والتي قَبلها من عِلم البديع: حُسن التَّقسيم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٧٣-٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٣٦-٣٣٧).

الآيات (٢٠٨ - ٢١٤)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿السِّلْمِ﴾: أي: الإسلام. وأصلُ السِّلم: الصُّلح، والسِّلم ضِدُّ الحرْب، والتَّعرِّي من الآفات الظاهرة والباطنة، والاستسلام والانقياد[1].

﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: أي: سَبيلَه ومَسْلكَه، وآثارَه وعملَه، وخُطوات جمْع خُطْوَة، والخُطْوَة: ما بين القدمين[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١) و(ص: ٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١، ٤٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦، ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٣)، =

﴿زَلَلْتُمْ﴾: الزَّلَّةُ: استرسال الرِّجْلِ من غير قصْد، يقال: زَلَّتْ رِجله تَزِلُّ، والمَزِلَّةُ: المكان الزَّلق، وقيل للذَّنب من غير قصد: زَلَّةٌ؛ تشبيهًا بزلَّة الرِّجل[١].

﴿يَنْظُرُونَ﴾: ينتظرون[٢].

﴿الْغَمَامِ﴾: جمع غمامة، وهو سحابٌ أبيضُ يُواري وجْهَ السماء، لكنَّه يُبقيها مستنيرة؛ سُمِّي بذلك لأنَّه يغمُّ السَّماء، أي يَسترُها ويُواريها، وأصل الغَمِّ: ستر الشيءِ[٣].

﴿بَغْيًا﴾: طُغيانًا وتعديًا بالباطِل، وظلمًا وعدوانًا، وحسدًا، أو نتيجةً للحسد، وأصل البَغْي: طلَب الشيءِ، وجِنس من الفَساد، والظُّلم، والترفُّع والعلو، ومنه قيل للحَسد: بغي؛ لأنَّ الباغي طالبُ الظلم، والحاسد يظلم المحسودَ جَهدَه؛ طلبًا لإزالة نِعمة الله تعالى عنه[٤].

المعنى الإجمالي:

يـأمُرُ اللهُ عبادَه المؤمنين بالعملِ بجميع شرائعِ الإسلامِ، محذِّرًا إيَّاهم مِن طاعة الشَّيطانِ، ومعلِّلًا ذلك بأنَّه عدوٌّ ظاهرٌ لهم؛ فلعداوتِه يُريد أنْ يقودَهم بطاعتِهم له إلى الهلاك، فإنْ وقَعوا في الزَّلل، وخالَفوا تعاليمَ الإسلامِ وشرائعه عامدين،

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١، ١٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥-١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧١)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (ص: ٢٧٥-٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١-٢٥٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٢٨) و(٥/ ٢٨٣)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١٤٢).

وضلُّوا عن الحقِّ المبين- فلْيعلَموا أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يُعجِزه شيءٌ عن الانتقام منهم، ومجازاتهم؛ فإنَّه يقهَرُ مَن يشاء بقوَّتِه، ويعذِّب مَن أراد بمقتضى حِكمته.

ثم يُنكر سبحانه وتعالى على هؤلاء الذين زلُّوا بعد ما جاءتهم البينات، إعراضَهم عن الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنَّ فعلهم هذا يُعَدُّ وكأنَّه انتظارٌ منهم لموعد هلاكهم، وذلك حين إتيان الرَّبِّ عزَّ وجلَّ يوم القيامة وإتيان الملائكة، ليقضي سبحانه فيهم بعدله، فيجازيهم على كفرهم، فيهلكون.

ثم يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنْ يسأَل اليهودَ عمَّا أعطاهم سبحانه وتعالى مِن الحُجَجِ الواضحة، والبراهينِ والدَّلائلِ والمعجزات الَّتي تدلُّ على صِدْقِ ما جاءهم به الأنبياءُ والرُّسلُ عليهم السلام، لكنَّهم كفَروا وكذَّبوا، وأعرَضوا عن تلك الآيات، ثم توعَّد اللهُ مَن يختارُ الكفرَ عِوضًا عن نعمةِ الإسلام بعد أنْ بلَغَتْه- بالعقابِ الشَّديد.

ثم يُخبِرُ تعالى أنَّ الدُّنيا جُمِّلت في أعيُنِ الكفَّارِ وقلوبِهم، فرَضُوا بها، وآثَروها على نعيمِ الآخرة، ومع ذلك يستهزئون بالَّذين آمَنوا؛ لعزوفِهم عن الدُّنيا وزُخرفِها، وغفَل هؤلاء الكفَّارُ عن أنَّ المفاضلةَ الحقيقيَّةَ هي في الآخرة؛ حيثُ إنَّ الَّذين امتثَلوا أوامرَ الله واجتنبوا نهيَه هم أعلى منهم، وفوقهم؛ وذلك بدخولِهم الجنَّة، لهم فيها ما يشتَهون، والَّذين كفَروا تحتهم في النار في عذابٍ دائمٍ لا ينقطعُ عنهم، والله يُعطي المتَّقين من فضلِه في الجنَّةِ بلا إحصاءٍ ولا حَصْرٍ.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ النَّاس كانوا مجتمعينَ منذ عهدِ آدَمَ عليه السلام على دينٍ واحدٍ، وهو الإسلامُ، واستمرُّوا على ذلك الحالِ لمدَّةِ عشرة قرونٍ متواصلة، ثم اختلفوا بعدها في دِينهم حتى عبَدوا الأصنام، فبعَث الله الأنبياءَ ينهَوْن عن الكفر، ويُبشِّرون بالنَّعيم لِمَن أطاعهم، ويُنذِرون بالنَّار مَن عَصاهم، وكان أوَّلَهم نوحٌ عليه السلام، وأنزَل اللهُ مع أنبيائه كتبًا مِن عنده تشتملُ على الأخبارِ الصَّادقة، والأوامر العادلة؛ لتَفْصِل بين النَّاس في كلِّ ما تنازَعوا فيه، وتُوضِّح لهم الحقَّ مِن الضَّلال، والصوابَ

مِن الخطأ؛ لتقومَ بذلك حُجَّةُ اللهِ على عِبادِه، ومع كونِ تلك الكُتُبِ قد أُنزِلت ليتَّفق عليها الَّذين اختَلفوا في دِينهم، فإنَّهم خالَفوا مرادَ الله تعالى، فاختلَفوا فيها أيضًا بعد أنْ علِموا بالأدلَّة القطعيَّةِ أنَّ ما فيها هو الحقُّ، وكان الباعثُ لهم على هذا الاختلافِ، تعدِّيَ بعضِهم على بعض بالباطل، فتنازَعوا فيما بينهم، لكنَّ اللهَ أرشَد المؤمنين إلى الطَّريق المستقيم، ووفَّقهم إلى التمسُّكِ بالحقِّ القويم، الذي اشتملت عليه كتبُ الأنبياء، واللهُ تعالى يُرشِدُ للطَّريق الواضحِ البَيِّن مَن يشاءُ مِن خَلْقِه.

ثمَّ يوجِّهُ اللهُ الخطابَ لعباده المؤمنين ألَّا يظنُّوا أنَّ الطَّريقَ إلى الجنَّة خالٍ من الصُّعوبات والعَقَبات فيه، بل هو طريقٌ وَعْرٌ وشائكٌ، محفوفٌ بالعوائقِ والمِحَن والبلايا، مثلما حصَل للأمم قبلهم؛ فقد اكتوَوْا بشدَّةِ الفقر والحاجة، وأصابتهم الأسقامُ والأوجاع، وخُوِّفُوا مِن قِبَل أعدائِهم بأنواع المخاوفِ، حتَّى بلَغ بهم الحال إلى أنْ يتساءَلَ الرُّسلُ والَّذين آمنوا معهم: متى سيأتي نصرُ اللهِ؟ ليرتاحوا من عناءِ ما يُكابِدونه، ومشقَّةِ ما يجدونه، فأكَّد اللهُ تعالى لعباده المؤمنين أنَّ نصرَه لا محالةَ آتٍ عن قريب.

تفسير الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾.

أي: يا مَعشرَ المؤمنينَ اعْمَلوا بجميع شَرائعِ الإسلام[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٩٧-٦٠١)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٥-٥٦٦).

وممَّن قال من السَّلَف بنحو ما ذُكر في معنى ﴿السِّلْمِ﴾: ابن عبَّاس، وعِكْرمة، وهو أحد قولي مجاهد، والسُّدِّي، والضَّحَّاك، وطاوس، وابن زَيد، وأحدُ قولي قَتادة ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٧٠).

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

لَمَّا أمَر الله تعالى بالعملِ بجميع شرائعِ الإسلام، حذَّر سبحانه ممَّا يمنَعُ مِن الالتزام بذلك، فقال[١]:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

أي: لا تُطِيعوا الشَّيطان؛ فتَسلُكوا طُرقَه، فيقودَكم شيئًا فشيئًا إلى التَّهلُكةِ؛ فهو لكم عَدوٌّ ظاهِرُ العَداوة[٢].

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)﴾.

أي: فإن أخطَأْتم وخالَفْتم شرائعَ الإسلام عن عمدٍ، وضلَلْتُم عن الحقِّ عن عِلمٍ، من بعدِ قيام الحُجَجِ والبراهين عليه، فاعلَموا أنَّ اللهَ تعالى لا يُعجِزُه شيءٌ عن الانتقام منكم؛ إذ يقهَر مَن يشاءُ بقوَّتِه، ويُعذِّبُ مَن يشاء بمقتضى حِكمته؛ فإنَّ مِن حِكمته معاقبةَ العُصاةِ بما يُناسب معصيتَهم له سبحانه[٣].

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)﴾.

أي: ما ينتظر هؤلاء الذين زلُّوا من بعد ما جاءتهم البينات، فكذَّبوا بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وما جاء به، إلَّا إتيان الرَّبِّ عزَّ وجلَّ يوم القيامة في ظُللٍ من الغمام، وإتيان الملائكة، فيقضي الله تعالى بين عباده، ويجازي كل عامل بعمله،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٠٢-٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤).

فجميع أمور الدنيا والآخرة تؤول إلى الله عزَّ وجلَّ وحده، وحينئذ يكونُ الأمرُ قد انتهى وحقَّ عليهم الهلاك[(١)]؟!

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥-٢٦].

وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢١ - ٢٣].

وعن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ((يجمعُ اللهُ الأوَّلين والآخِرين لميقاتِ يومٍ معلومٍ أربعين سَنةً، شاخصةً أبصارُهم إلى السماءِ ينظرون إلى فصلِ القضاءِ، فينزلُ اللهُ من العرشِ إلى الكرسيِّ في ظُلَلٍ من الغمامِ))[(٢)].

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٠٥-٦١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١١-١٤)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (ص: ٢٧٤-٢٧٦).

(٢) أخرجه ابنُ أبي الدنيا في ((صفة الجنة)) (٣١)، ومحمد بن نصر المروزي في ((تعظيم قدر الصلاة)) (٢٧٨)، والطبراني (٩/ ٤١٧) (٩٧٦٣)، والدارقطني في ((رؤية الله)) (١٦٣).
حسَّنه الذهبي في ((العرش)) (٧٦)، وابن القيم في ((حادي الأرواح)) (٢٦٢)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٩١).

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾.

أي: أمَر اللهُ تعالى محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يسأَلَ اليهودَ عمَّا أعطاهم اللهُ تعالى مِن قبلِ مجيئِه عليه الصَّلاة والسَّلام، من دلائلَ ومُعجزاتٍ، وحُجَجٍ واضحات، شاهَدوها على أيدي أنبيائِه ورُسلِه عليهم السَّلام، دالَّات على صِدقهم وصِدْقِ ما جاؤوهم به، ومن ذلك: الإيمانُ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ووجوبُ متابعته على دِينه، لكنَّهم مع ذلك كلِّه أعرَضوا، وكفَروا، وكذَّبوا[١].

﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أي: مَن يترُكْ نعمةَ الإسلام، فيمتنِعْ عن قَبولِها بالدُّخول فيه، والعملِ بجميع شرائعه، ويختار عِوضًا عن ذلك الكفرَ به- فإنَّ اللهَ تعالى سيُعاقبه عِقابًا شديدًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩].

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى مَن يُبدِّل نعمةَ الله مِن بعد ما جاءته، ذكَر السببَ الَّذي لأجله كانتْ هذه طريقتَه، فقال[٣]:

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦١٥-٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٣٦٧).

أي: زُيِّنت الدُّنيا بزُخرفِها ومباهجِها للكفَّار، فتغلغل حبُّها في شغافِ قلوبهم، وقصَروا أنظارَهم عليها، وآثَروها على نعيمِ الآخرة، فعليها يتكالَبون، وفيها يطلُبونَ ما يشتهون، وهم مع ذلك بالمؤمنين يستهزئون، ومنهم يضحَكون؛ وذلك لزُهدِهم في الدُّنيا، وعزوفِهم عن مناصبِها، وتَرْكِهم المفاخرةَ بزينتِها، والاستزادةَ منها[1].

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: إنَّ الَّذين امتثلوا ما أمَر اللهُ تعالى به، واجتنبوا ما نهى عنه، هم الأَعْلَوْن في دار الخلودِ، وسيكونون فوقَ الَّذين كفروا يوم القيامة، بدخولِهم الجنَّةَ، يتمتَّعون فيها ويبتهِجون، ولهم فيها ما يشتهونُ[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٦].

وقال سبحانه: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُعطي المتَّقين في الجنَّةِ مِن نِعَمه وعطاياه الَّتي لا تنتهي، مِن غير أنْ يخشى نفادَ خزائنه، أو وقوعَ نقصٍ من مُلكه، فلا يحتاج إلى حسابِ ما يُعطي،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦١٨-٦١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٩٠)، (٧/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦١٨-٦١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٩٠)، (٧/ ٤١٣).

وإحصاءِ ما يُبقي، بل يُعطيهم ما يشتهون بلا حصرٍ ولا تَعداد؛ فرِزقُه واسعٌ لا نهايةَ له ولا نَفادَ[١].

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى في الآية المتقدِّمة أنَّ سببَ إصرارِ هؤلاء الكفَّارِ على كُفرهم هو حبُّ الدُّنيا- بيَّن في هذه الآية أنَّ هذا المعنى غيرُ مختصٍّ بزمنِ نزول الآية، بل كان حاصلًا في الأزمنة المتقادمة؛ لأنَّ النَّاس كانوا أمَّةً واحدةً قائمةً على الحقِّ، ثم اختلَفوا، وما كان اختلافُهم إلا بسببِ البغيِ والتَّنازُعِ في طلبِ الدُّنيا، فقال سبحانه[٢]:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

أي: إنَّ النَّاس كانوا مجتمعين منذ عهدِ آدمَ عليه السَّلام على دِينٍ واحد، هو دينُ الإسلام، وظلُّوا على ذلك مدَّةَ عشرةِ قرونٍ، فاختلَفوا في دِينهم حتى عبَدوا الأصنام، فبعَث الله النَّبيِّين ينهَوْن عن ذلك الكفرِ، مُبشِّرين مَن أطاعهم بالجنَّةِ، ومُنذِرين مَن عصاهم بالنَّارِ، وكان أوَّلهم نوحٌ عليه السَّلام[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٢-٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٢٥-٦٢٧)، ((منهاج السنة)) لابن تيميَّة (٦/ ٣٠٨-٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨٠-٨١).

=

قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى أنزَل مع النَّبيِّين عليهم السَّلام كُتبًا مِن عنده، مشتملةً على الأخبارِ الصادقة، والأوامرِ العادلة؛ أنزَلها لتفصِلَ بين النَّاس في كلِّ ما اختلَفوا فيه، فيتبيَّن لهم الحقُّ مِن الضَّلال، والصَّواب مِن الخطأ، وتُقامُ بذلك حُجَّةُ اللهِ تعالى على عبادِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى إنزالَه الكتبَ على النَّبيِّين عليهم السَّلام، وكان هذا يقتضي اتِّفاقَ الَّذين اختلَفوا في دِينهم عليها، أخبَر تعالى أنَّهم خالَفوا مرادَ الله تعالى منها، فقال سبحانه[(٢)]:

= وممَّن قال من السَّلَف بنحو ما ذُكر: ابن عبَّاس، وقَتادة، وابن جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٢١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٢٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨-٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥-٩٦).

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾:

أي: إنهم اختلَفوا في تلك الكتب المنزلة، وكان ينبغي أنْ يكونوا أَوْلى النَّاسِ بالاجتماع عليها، والتَّحاكُم إليها، وذلك مِن بعدِ ما علِموا بالأدلَّةِ القاطعات، والحُجَج الباهرات: أنَّ ما فيها هو الحقُّ، وإنَّما حمَلهم على ذلك تعدِّي بعضِهم على بعضٍ بالباطل، ووقوع النِّزاعاتِ والخصومات فيما بينهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤].

﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى أرشَد المؤمنين للحقِّ الَّذي جاءت به كتبُ أولئك الأنبياءِ عليهم السَّلام، واختلَف فيه غيرُهم، ووفَّقهم أيضًا إلى الانقيادِ إلى هذا الحقِّ، والتمسُّك به، بعِلمِه وإرادتِه وتيسيره، ويدخُلُ في هؤلاء المؤمنين أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم قطعًا، ويدخُلُ فيهم أيضًا كلُّ مَن آمَن مِن الأمم السَّابقة؛ كمَن آمَن مِن قوم نوحٍ عليه السلام[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥-٩٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيميَّة (٢/ ٢٥٩-٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٠)، =

﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تبارك وتعالى يُرشِد لطريق الحقِّ الواضح الَّذي لا اعوجاجَ فيه، ويوفِّق للسَّيرِ عليه: مَن يشاء مِن خَلْقه، وهو سبحانه لا يشاءُ إلا ما تقتضيه حِكمتُه البالغة[١].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى اختلافَ الأممِ السَّابقة على ما جاءهم به أنبياؤُهم من الحقِّ، وضلالَهم عنه، وذكَر أنَّه هدى المؤمنين إلى الصِّراط المستقيم، بيَّن اللهُ تعالى هنا أيضًا وَعْثاءَ هذا الطَّريق الَّذي هُدُوا إليه، وما يكتنفُه مِن عقباتٍ، عليهم تجاوزُها، فقال سبحانه[٢]:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

أي: أظننتم- أيُّها المؤمنون- أن تَصِلوا إلى الجنَّةِ دون أنْ تُصيبَكم في الطريق إليها شدائد؟ كلَّا، لا تظنُّوا ذلك، بل لا بدَّ أنْ تعترضَ طريقَكم هذا عوائقُ، وتُصيبَكم فيه مِحَنٌ وبلايا، تُبتلَوْن بها وتمحَّصُون، كما وقَع للَّذين مضَوْا من قبلكم[٣].

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٠-٥٧١)، ((تفسير ابن عثيمين -الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠-٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣١٣-٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣٥-٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣١٣-٣١٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧-٣٩).

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ﴾.

أي: إنَّ مَن مَضى مِن مُؤمِني الأمم السابقة قد أصابهم الفقرُ وشدَّةُ الحاجة، وأصابتهم الأمراضُ والأوجاعُ، وخُوِّفُوا ورُعِبُوا مِن قِبَل أعدائِهم بأنواع المخاوفِ، فأُصيبوا في أموالهم بالبأساءِ، وفي أبدانهم بالضَّرَّاء، وفي قلوبهم بالخوفِ، حتى وصَلَتْ بهم الحال إلى أنْ يتساءَلَ رسلُ اللهِ ومَن آمَن معهم: متى يأتي نصرُ الله تعالى؟ ليخرُجوا ممَّا هم فيه مِن ضيقٍ وكربٍ وشدَّة[(١)].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٩-١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١٠/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧١-٥٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٩-٤٠).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ معنى البأساء الفقرُ: ابن مسعود، وابن عبَّاس، وأبو العالية، والحسن، ومُرَّة الهمذاني، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، والضَّحَّاك، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس، والسُّدِّي، ومقاتل بن حَيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٨٠).

وممَّن قال: إنَّ معنى الضَّراء السُّقم: ابن عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٨٠).

وممَّن قال في معنى ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ بنحو ما ذُكر: ابن عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٨٠).

وعن خبَّاب بن الأَرتِّ رضي الله عنه، قال: ((شكَونا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لهُ في ظلِّ الكعبةِ، قلنا لهُ: ألا تستنصرُ لنا؟ ألا تدعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرجلُ فيمَن قبلكم يُحْفَرُ لهُ في الأرضِ، فيُجْعَلُ فيهِ، فيُجاءُ بالمنشارِ فيُوضَعُ على رأسِهِ فيُشَقُّ باثنتيْنِ، وما يصدُّهُ ذلك عن دِينِهِ ويُمْشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لَحمِهِ من عظمٍ أو عصبٍ، وما يصدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتى يَسيرَ الراكبُ من صَنعاءَ إلى حضرموتٍ، لا يخافُ إلا اللهَ، أو الذئبَ على غنمِهِ، ولكنكم تستعجلونَ))[(١)].

﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾.

أي: أكَّد الله تعالى على أنَّ نصرَه قريب، وأنَّ فرجَه عاجلٌ، فمع العسر يأتي اليُسر، وكلَّما ضاق الأمر اتَّسَع[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

وعن أبي رَزينٍ العُقيليِّ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ضحِك ربُّنا من قُنوطِ عبادِهِ وقُربِ غِيَرِهِ))[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٨١)، وأحمد (١٦٢٣٢).

قال أبو عُبيد القاسم بن سَلَّام لَمَّا سُئل عن هذا الحديث وبعضِ أحاديث الصِّفات الأخرى: (هذه الأحاديثُ حقٌّ لا شكَّ فيها، رواها الثقات بعضُهم عن بعض) ((التمهيد)) لابن عبدالبر (٧/ ١٥٠). وحسنه ابن تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (٣/ ١٣٩)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٨١).

وقوله: ((وقُرْب غِيَرِه)): الغِيَر: بمعنى تغيُّر الحال، وهو الاسْم مِن قولكَ: غَيَّرْت الشَّيءَ فتَغَيَّر، والمراد هنا: قُرْب تغيُّر الحال الذي هم عليه من القُنوط إلى خِلافه من الإغاثة. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٠١)، ((حاشية السِّندي على ابن ماجه)) (١/ ٧٧)، ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني (٧/ ٩٨).

الفوائد التربويَّة:

١- فضل الإيمان؛ لقولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ لأنَّ هذا النداء، نداء تشريف وتكريم[١].

٢- أنَّ الإيمان مقتضٍ لامتثال الأمر؛ لأنَّ الله صدَّر الأمر بهذا النداء؛ والحُكمُ لا يُقرَن بوصف إلَّا كان لهذا الوصف أثرٌ فيه[٢].

٣- حقارة الدنيا؛ لوصفها بالدُّنيا، وهي من الدنوِّ زمنًا، ورتبةً: زمنًا؛ لأنَّها قبل الآخرة. ورُتبةً؛ لأنَّها قليلٌ بالنسبة للآخرة؛ ولهذا لا تجد في الدنيا حال سرور إلَّا مَشوبًا بتنغيصٍ قبله، وبعده؛ لكن هذا التنغيص بالنسبة للمؤمن خير؛ لأنَّ له فيه أجرًا[٣].

٤- أنَّ العبرة بكمالِ النِّهاية؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٤].

٥- رحمة الله عزَّ وجلَّ بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾[٥].

٦- أنَّه كلما قوِي إيمان العبد، كان أقربَ إلى إصابة الحقِّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا...﴾[٦].

٧- أنَّ الإيمان ليس بالتمنِّي، ولا بالتحلِّي؛ بل لا بدَّ من نيَّة صالحة، وصبرٍ على ما ينالُه المؤمن من أذًى في الله عزَّ وجلَّ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) .
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤١).

٨- أنَّ الصَّبر على البلاء في ذاتِ الله عزَّ وجلَّ من أسباب دخول الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا...﴾ الآية[١].

٩- تبشير المؤمنين بالنصر؛ ليتقوَّوا على الاستمرار في الجهاد ترقبًا للنَّصر المبشَّرين به، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[٢].

١٠- لَمَّا كان الفرج عند الشدَّة، وكلَّما ضاق الأمر اتَّسع، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ فهكذا كلُّ مَن قام بالحقِّ، فإنَّه يُمتَحن[٣].

١١- حِكمة الله عزَّ وجلَّ، حيث يبتلِي المؤمنين بمثل هذه المصائب العظيمة؛ امتحانًا حتى يتبيَّن الصادق من غيره[٤].

١٢- أنَّه ينبغي للإنسان ألَّا يسألَ النصر إلَّا من القادر عليه، وهو الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿مَتَى نَصْرُ اللهِ﴾[٥].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- وجوب تَطبيق الشَّرع جملةً وتفصيلًا؛ لقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[٦].

٢- قرن الحُكم بعلَّته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ثم علَّل: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٧).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩).

٣- الوعيد على مَن زلَّ بعد قيام الحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

٤- أنَّه لا تقوم الحجَّة على الإنسان، ولا يستحق العقوبة إلَّا بعد قيام البيِّنة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[٢].

٥- في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ إثبات صفة الإتيان لله عزَّ وجلَّ[٣].

٦- أنَّ الكفَّار لا يزالون يُسلِّطون أنفسهم على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ بالفعل المضارع الذي يفيد التجدُّد والاستمرار[٤].

٧- تثبيت المؤمنين، وترسيخ أقدامِهم في إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: اصبِروا؛ فإنَّ هذا دأبُهم وشأنهم أن يسخَروا منكم؛ فما دمتم تعرِفون أنَّ هذه عادة الكفَّار، فاصبروا؛ فإنَّ الإنسان إذا عرَف أنَّ هذا الشيء لا بدَّ منه فإنَّه يكون مستعدًّا، وقابلًا له، وغير متأثِّرٍ به[٥].

٨- أنَّ مَن يُوصَف بالتبشير إنَّما هم الرُّسل، وأتباعهم؛ وأمَّا ما تسمَّى به دعاة النصرانيَّة بكونهم مبشِّرين، فهم بذلك كاذبون؛ إلَّا أن يُرادَ أنَّهم مبشِّرون بالعذاب الأليم، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٦].

٩- رحمة الله عزَّ وجلَّ بالعباد، حيث لم يكِلْهم إلى عقولهم؛ لأنَّهم لو وُكِلوا إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١١).

(٣) يُنظر: ((رسالة لأهل الثغر)) لأبي الحسن الأشعري (ص: ٢٢٧)، ((شرح الواسطية)) للهراس (ص: ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٢).

عقولهم لفسدتِ السَّموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]؛ فكلُّ إنسانٍ يقول: العقل عندي، والصَّواب معي، ولكنَّ الله تعالى بعث النبيِّين، وأنزل معهم الكتاب؛ ليَحكُمَ بين النَّاس فيما اختلفوا فيه[١].

١٠- أنَّه يجب على المرء الذي هداه الله ألَّا يعجب بنفسه، وألَّا يظنَّ أنَّ ذلك مِن حولِه، وقوته؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللهُ﴾، ثم قال تعالى: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي أمرِه الكوني القدري؛ ولولا ذلك لكانوا مثل هؤلاء الذين ردُّوا الحق بغيًا وعدوانًا[٢].

١١- الإيماء إلى أنَّه يَنبغي للإنسان أن يَسألَ الهداية من الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٣].

بلاغة الآيات:

١- **قوله: ﴿أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** خبرٌ فيه نهايةٌ في الوعيد؛ لأنَّه يجمع من ضروب الخوف ما لا يجمعه الوعيدُ بذِكر العقاب، كما لو قال الوالد لولده: إنْ عصيتني فأنت عارفٌ بي، فيكون هذا الكلامُ في الزَّجر أبلغَ من ذِكر الضرب وغيره[٤].

٢- **قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾**

- ﴿هَلْ...﴾ استفهامٌ إنكاري في معنى النَّفي؛ ولذلك دخَلت (إلَّا)، وكون (هل) بمعنى النَّفي إذا جاء بعدها ﴿إلَّا﴾ كثيرُ الاستعمال في القرآن، وفي كلام العرَب[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ٣٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٨٤).

- وفيه: التِفات؛ حيث أعرَض تعالى عن خِطابهم ﴿زَللتُم﴾، وأخبَر عنهم إخبارَ الغائِبين ﴿يَنظرون﴾؛ مسليًّا لرسوله عن تباطئهم في الدُّخول في الإسلام، وفيه تجديدٌ لنشاط السَّامع[١].

٣- في قوله: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

إظهار اسم الجلالة مع أنَّ مقتضى الظاهر أن يُقال: (فإنَّه شديد العقاب)؛ لإدخال الرَّوع في ضمير السَّامع، وتربية المهابة، ولتكون هذه الجملة كالكلام الجامِع مستقلًّا بنفسه؛ لأنَّها بمنزلة المثل لأمرٍ قدْ علِمه الناس من قبلُ[٢].

٤- في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

- جيء في فِعل التزيين بصيغة الماضي ﴿زُيِّن﴾، وفي فِعل السُّخرية بصِيغة المضارع ﴿يَسْخَرُونَ﴾ للدَّلالة على أنَّ معنى فِعل التزيين أمرٌ مستقرٌّ فيهم؛ لأنَّ الماضي يدلُّ على التحقُّق، وأنَّ معنى ﴿يَسْخَرُونَ﴾ متكرِّر متجدِّد منهم؛ لأنَّ المضارع يُفيد التجدد، ويعلم السامع أن ما هو محقَّق بين الفعلين هو أيضًا مستمرٌّ، وإنَّما اختُير لفِعل التزيين خصوص المضي، ولفعل السخرية خصوص المضارعة؛ إيثارًا لكلٍّ مِن الصِّفتين بالفِعل التي هي به أجدرُ؛ لأنَّ التزيينَ أسبقُ في الوجود، وهو منشأُ السخريَّة، والسخرية مترتِّبة على التزيين وتكرُّرها يَزيد في الذمِّ؛ إذ لا يليقُ بذي المروءة السُّخرية بغيره[٣].

- وفيه وضْع الظاهر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ موضعَ المضمر بِصفة أُخرى ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، ومثله في كتاب الله كثير، وذَكر صِفة الإيمان وصِفة التَّقوى؛ ليظهر به

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٩٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٩٦-٢٩٧).

أنَّ السعادة الكبرى لا تحصُل إلَّا للمؤمن التقي، وليكون بعثًا للمؤمنين على التقوى[١].

- وفي هذه الآية مُفارقةٌ في الجُمل؛ فقدْ عبَّر عن زِينة الحياة الدنيا في نظر الذين كفروا وعن سُخريتهم من المؤمنين بالفِعليَّة إشارة الى الحدوث، وأنَّ ذلك أمر طارئ لا يلبث أن يزول بصوارف متعدِّدة، أمَّا استعلاء الذين اتقوا عليهم فهو أمرٌ ثابت الدَّيمومة لا يطرأ عليه أي تبديل؛ ولذلك عبَّر بالاسميَّة ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾[٢].

٥- قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ خصَّ بالذِّكر ﴿الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ تنبيهًا منه على شَناعة فِعلهم، وقَبيح ما فعلوه من الاختلاف، وأتى بلفظ: ﴿مِن﴾ الدالَّة على ابتداء الغاية، منبِّهًا على أنَّ اختلافهم متَّصل بأوَّل زمان مجيء البيِّنات، لم يقعْ منهم اتفاقٌ على شيء بعد المجيء، بل بنفس ما جاءتهم البيِّنات اختلفوا، لم يتخلَّلْ بينهما فترة[٣].

٦- قوله: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ فيه تقديم لفظ الاختلاف على لفظ الحقِّ؛ للاهتمام به؛ إذ العناية إنَّما هي بذِكر الاختلافِ[٤].

٧- قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى (بل)، وهمزة الاستفهام فيها للتقرير والتوبيخ، وإنكار الحُسبان واستبعاده. وقال لهم على طريقة الالتِفات التي هي أبلغُ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، أي: بل أحسِبتم...[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٢٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٦/ ٣٦٩).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٧٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣١٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣١٦).

الآيات (٢١٥ - ٢٢٠)

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٖ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ
عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٞ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـٔٗا وَهُوَ خَيْرٞ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ
أَن تُحِبُّواْ شَيْـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ
ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرُۢ بِهِۦ
وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ
وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ
عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ
وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ
هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ
﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ
وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ
ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٞ لَّهُمْ خَيْرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ
ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿حَبِطَتْ﴾: أي: بطَلَت؛ فالحبط: البُطلان والألم، وأصلُه: أن تُكثِرَ الدابَّةُ أكلًا حتى ينتفخَ بطنُها[1].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

﴿الْمَيْسِرِ﴾: القِمارُ، وأصله مِن يَسرت: إذا ضربت بالقِداح[١].

﴿الْعَفْوَ﴾: الفَضل، يعني: فضْل المال، يُقال: عفا الشَّيء: إذا كثُر[٢].

﴿لأَعْنَتَكُمْ﴾: ضيَّق عليكم وشدَّد، أي: لأهلكَكم، وأصل العنَت: العَسْف، والحَمْل على المكروه[٣].

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

﴿وَالْمَسْجِدِ﴾: المسجدِ: مجرور، وفي جرِّه أوجهٌ، أقربُها: أنَّه مجرورٌ عطفًا على ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾، أي: وصدٌّ عن سَبيلِ اللهِ وعن المَسجدِ. وعُطِف قوله: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ على ﴿صَدٌّ﴾ قبل أن يَستوفي ﴿صَدٌّ﴾ ما تعلَّق به وهو ﴿والمَسجِدِ الحَرَامِ﴾؛ **وقيل**: هو معطوف على الضَّمير في ﴿به﴾ في قوله: ﴿وكُفْرٌ بِهِ﴾، أي: وكفرٌ به وكفرُ بالمسجِد، وهو من باب عطف الاسم الظَّاهر على الضَّمير من غيرِ إعادة حرف الجرِّ، والرَّاجح جوازُه مطلقًا؛ لكثرةِ السماعِ الوارد به، وضَعْفِ دليل المانعين، واعتضادِه بالقياس. **وقيل**: هو معطوفٌ على ﴿الشَّهرِ الحَرَامِ﴾، أي: يسألونك عن الشهرِ الحرامِ وعن المسجدِ الحرام، ويكون سؤالهم عن شيئين، أحدهما: القتال في الشهر الحرام. والثاني: القتال في المسجد الحرام؛ لأنَّهم لم يسألوا عن ذات الشهر ولا عن ذات المسجد، إنما سألوا عن القِتال فيهما. **وقيل** غير ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٢٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٩٣-٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٢٩).

المعنى الإجمالي:

يقول الله تعالى لنبيِّه عليه الصَّلاة والسَّلام: إنَّ أصحابَك يا محمَّد، يسألونك عن مقدارِ وجنسِ وكيفيَّةِ ما يُخرِجونه نفقةً، وأمَره أن يُجيبَهم على هذا السُّؤال بأنَّ ما ينفقونه من الأموال لا يُشترط فيه شيءٌ معيَّن، ولا مقدارٌ محدَّد، بل يشمل أيَّ مالٍ، قليلًا كان أو كثيرًا، وأنَّ أولى مَن يُعطَى هذه النفقة هم الأقربُ رحمًا، وهم الوالدان ثم بقيَّة الأقارب، الأقرب فالأقرب، ومِن بَعدِ هؤلاء تُصرَف النفقة إلى أشدِّ النَّاس حاجةً؛ وهم الصِّغار الذي فقدوا آباءهم قبل بلوغِهم، وليس لهم مصدر كسْب، ثمَّ للمساكين الذين لا يجدون ما يسدُّ حاجتَهم، وللمسافر المجتاز الذي يحتاج إلى ما يوصله إلى مقصوده، ثم يُخبرهم تعالى أنَّ كلَّ ما يُقدِّمونه من معروفٍ وإحسانٍ فإنَّه ليس بخافٍ على الله سبحانه، بل هو مطَّلعٌ على تلك الأعمال، فيحصيها ويجازيهم عليها.

ثم يُعْلِم الله تعالى عباده المؤمنين بأنَّه فرَض عليهم القتال مع أنَّه مكروهٌ لهم؛ لِمَا فيه من المشقَّة، والتعرُّض للقتل والإصابة بالجروح، وما يحدُث فيه من خوف، لكنَّ الحقيقة أنَّ ما فيه من المنافع أعظم ممَّا ينتج عنه من أضرار، ومن تلك المنافع العظيمة المرجوَّة منه النصر على الأعداء، وغُنْم البلدان والأموال، والإكرام بالشهادة لمن مات محتسبًا، وحصول الأجر العظيم للمقاتلين في سبيل الله. وأمَّا العزوف عن القتال وإن كان محبوبًا وتميل إليه النفوس، إلَّا أنَّ ما فيه من الشرور يفوقُ على مصلحة قعودهم، ومن تلك الشرور المترتِّبة على القعود تسلُّط أعدائهم عليهم، وفَوات الأجر العظيم، وهكذا الحال في جميع أعمال الخير وإن كرِهتها النفوسُ، وأفعال الشرِّ وإن مالت لها النفوس، والله سبحانه وتعالى أعلم بما ينفعكم، وما يضرُّكم، فالتزموا أمره، واتَّبعوا شرعه.

ثمَّ يقول الله تعالى لنبيِّه محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: يسألك المؤمنون عن القتال في الأشهر الحرم، ولقَّنه تعالى جوابَ ذلك بأنَّ القتال فيها عظيم لحرمتها، لكن ما يقومُ به المشركون من ثَنْي النَّاس عن سلوك الطريق القويم، وكفرهم بالله تعالى، ومَنْعهم النَّاسَ من الوصولِ إلى بيت الله الحرام، وإخراج أهلِه المؤمنين منه أعظمُ جُرمًا عند الله؛ فكلٌّ من تلك الخِصال التي يفعلونها بها فِتنة، والفتنةُ أشدُّ من القتل الذي وقَع من المسلمين في شهرٍ حرام. ثم أعلمَ اللهُ عبادَه بمدى حِقدِ الكفَّار عليهم وعلى دِينهم، وأنهم سيظلُّون يقاتلونهم في سبيل تحقيق غاية لهم، وهي أن يُثنوا المؤمنين عن دِينهم؛ ليعودوا كفَّارًا مثلَهم إنْ قدَروا على ذلك، لكنَّهم لن يستطيعوا ذلك أبدًا. ثم أخبر تعالى أنَّ مَن يرجع من المؤمنين عن دِينه، ويعود للكُفر، مستمرًّا عليه حتى موته بدون توبة، فأولئك تَبطُل أعمالُهم وتتلاشى، ولا يبقى لهم عملٌ صالح يُؤجَرون عليه لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، وهم من أهل النار الملازمين لها على الدَّوام.

وأمَّا الذين أقرُّوا بالحقِّ منقادينَ إليه، والذين فارقوا الأوطان؛ فرارًا من مخالطة أهل الشرك، ومحافظةً على دِينهم، والذين قاتلوا أعداءَ الله؛ نُصرةً للدِّين، وإعلاءً لكلمته سبحانه، فأولئك الذين طَمِعوا في رحمة الله ونَيْل كرامته، وسيُكرمون بما رجَوه؛ ذلك بأنَّ الله غفورٌ يستُر ذُنوبَهم ويتجاوز عنها، ورحيمٌ بتوفيقِهم لتلك الأعمال، وبمجازاتهم عليها بالفلاح في الدَّارينِ.

ثم يقول تعالى مخاطبًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنَّ المؤمنين يسألونك يا محمَّد، عن حُكم كلِّ ما أَسْكَر من الشَّراب، وعن حُكم القِمار، وأمَره أنْ يُجيبَهم بأنَّ في شُرْب المسكِر، ولعب القِمار مفاسدَ كثيرة، وآثامًا كبيرة، منها ما يُحدِثانه من عداوة وبغضاء، وصدٍّ عن ذكر الله وعن الصَّلاةِ، وغير ذلك من المنكرات، وفيهما أيضًا منافعُ للناس كالذي تُحدِثه الخمرُ من الطرب والنَّشوة، أو القمارُ من المكاسِب

الماديَّة، لكن عند المقارنة بين المفاسد والمنافع نجد أنَّ المفاسد والآثام المترتِّبة عليهما أكثر من النفع المتحصِّل منهما.

ثمَّ خاطب الله تعالى نبيَّه عليه الصَّلاة والسلام مخبرًا إيَّاه أنَّ المؤمنين يسألونه عن ماهية ما يُنفِقونه من أموالِهم، وأمَره أن يُجيبَهم بأنَّ الفاضلَ عن الاحتياجات الضروريَّة هو المال الذي يُنفق منه صدقةً في سبيل الله تعالى، وأخبره أنهم يسألونه أيضًا عن كيفية التعامل مع اليتامى بعد أنْ شقَّ عليهم التحرُّزُ الشديدُ من أموالهم، فأمره الله سبحانه أن يجيبهم بأنَّ المقصود إصلاح أموالهم، بحفظها واستثمارها لهم، فإنْ فعلوا ذلك لله تعالى دون أن يأخذوا عليه أجرًا فذلك خيرٌ لهم وأعظم أجرًا، وإنْ أخذوا مقابل ما قاموا به شيئًا من أموالهم كأن خالطوهم في طعامٍ أو غيره من الأموال فذلك جائزٌ على وجهٍ لا يضرُّ باليتامى؛ لأنَّهم إخوانهم في الدِّين، والأخ من شأنه أن يخالط أخاه. ومع هذا الإذنِ بالمخالطة تبقى الرِّقابة الإلهيَّة تحذيرًا لمن قد تسوِّلُ له نفسه أكْل أموال اليتامى؛ فالله يعلم مَن نيَّتُه إفساد مال اليتيم، ومَن نيَّته إصلاحه، وسيُجازِي الله تعالى كلًّا بحسب قصده. وهذا التشريع والرخصة من الله عزَّ وجلَّ إنما هي توسعةٌ على عباده، وإزالة للمشقَّة، وإلَّا فإنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يشقَّ عليهم، فيقعوا في الضِّيق والحرج؛ فإنَّه لعزَّتِه لا يُعجزُه شيء، ولحكمتِه سبحانه يضع كلَّ شيءٍ في موضِعه الذي يليق به.

تفسير الآيات:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

أي: يسألك أصحابُك يا محمَّد، عمَّا يُنفَق جنسًا ومقدارًا وكيفيَّةً، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنَّ ما تنفقونه من الأموال لا يُشترط فيه شيء معيَّن، ولا مقدار محدَّد، بل يشمل أيَّ مال، وسواء كان قليلًا أم كثيرًا، وأنَّ أولى وأحقَّ مَن تُنفق عليه الأموال هم أقرب النَّاس رحمًا وهم الوالدان، ثم بقيَّة الأقارب، الأقرب فالأقرب، ثم تصرف إلى أشدِّ النَّاس حاجةً من بعدهم، وهم الصِّغار الذين فقدوا آباءهم قبل بلوغهم ولا كاسب لهم، ثم للمساكين الذين لا يجدون ما يكفيهم ويُغنِيهم، وكذا للمسافرِ المجتاز الذي يحتاج نفقةً تُوصِله لموطنِه[١].

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ كل ما تُقدِّمونه من معروفٍ وبرٍّ وإحسان وطاعة وقربة لله تعالى، فإنَّه لا يخفَى عليه، بل مطَّلِع على أعمالكم، يُحصِيها لكم، ويُجازِيكم عليها[٢].

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾.

أي: فُرِض عليكم- أيُّها المؤمنون- قتال الأعداء من الكفَّار والمشركين، مع أنَّه مكروهٌ لكم، لا تحبُّونه؛ لِمَا فيه من شدَّة ومشقَّة بالغة، ولِمَا يحدُث فيه من التعرُّض للقتل والإصابة بالجراح ووقوع المخاوف[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٣-٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٤٣-٦٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٢-٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦-٩٧).

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾.

أي: إنَّه مع وقوعِ هذه الكراهيةِ في النفوسِ للقتال، إلَّا أنَّ الحقيقة بخلاف ذلك؛ إذ فيه من الخير والمنافع ما هو أكثرُ وأعظمُ ممَّا يقع فيه من أضرار، ومن ذلك ما يَحصُل بسببِه من النَّصرِ على الأعداء، والتمكُّن من البلدان والأموال، وما تقع فيه من الشَّهادة لمن مات منهم محتسبًا، وحصول الحسنات العظيمة لهم، وغير ذلك، فأمَّا ترك القتال الذي هو محبوبٌ للنفوس ففيه من الشرور ما يَزيدُ على مصلحة قعودِهم، ومنها تسلُّط الأعداء، وفوات الأجور العظيمة، وهكذا الأمرُ في جميع أفعال الخير وإنْ كرِهتها النفوس، وأفعال الشرِّ، وإن أحبَّتها النُّفوس[1].

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلم ما هو خيرٌ لكم ممَّا هو شرٌّ لكم، وأعلم منكم بما ينفعكم وما يضرُّكم، فاستجِيبوا له في جميع الأحوال[2].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٤٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢٤/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦-٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧).

سبب النُّزول:

عن جُندُب بن عبد الله رضي الله عنه: ((أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ بعث رهطًا، وبعَث عليهم عبدَ الله بن جحش، فلقُوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يَدرُوا أنَّ ذلك اليوم من رجب، أو من جُمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتُم في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾. الآية، فقال بعضهم: إنْ لم يكونوا أصابوا وزرًا فليس لهم أجْر، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾))[(١)].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾.

أي: يسألك المؤمنون يا محمَّد، عن القِتال في شهرٍ حرام (الأشهر الحرم هي: ذو القعدة، وذو الحِجَّة، ومحرَّم، ورجب)[(٢)]، وقيل: السؤال وقع من المشركين للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ تعييرًا وتشنيعًا على المؤمنين الذين قتَلوا أحد المشركين في شهرٍ حرام، فأمره الله تعالى أن يُجِيب عن ذلك بأنَّ القتال فيه عظيم؛ لعَظمة تلك الأشهر وحُرمتها[(٣)].

﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

---

(١) أخرجه النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٥/ ٢٤٩) (٨٨٠٣)، وأبو يعلى (٣/ ١٠٢) (١٥٣٤)، والطبراني (٢/ ١٦٢) (١٦٧٠).
وثَّق رِجالَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ٢٠١)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((العجاب)) (١/ ٥٣٨)، وصحَّح سندَه الشوكانيُّ في ((فتح القدير)) (١/ ٣٢٤)، وأحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٢٦١).

(٢) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٣/ ٦٤٧-٦٤٨)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٥١، ٥٣).

(٣) وهذا اختيار الواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٣٢١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٢٥).

أي: ولكنْ ما يقومون به مِن مَنْع النَّاس من سُلوكِ طريق الحقِّ، أو من الاستمرار عليه لمن آمَن، وكفرهم بالله تعالى، ومنعِهم النَّاس عن الوصول إلى البيت الحرام لحجٍّ أو عمرة، وإخراج أهله المؤمنين منه، وهم عُمَّارُه والأحقُّ به من المشركين- أعظمُ إثمًا وجرمًا عند الله تعالى؛ فكلُّ واحدٍ منها فِتنة، والفِتنة أعظمُ وأشدُّ من القتل الذي وقع من المسلمين في شهرٍ حرام[١].

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾.

أي: سيظلُّ الكفَّار والمشركون على قتالكم، لا يَهدأ لهم بال، ولا يتوقَّفون عن قتال، لا لغرضٍ دنيويٍّ كالمال؛ بل لأجْل أن ترجِعوا عن دينكم فتُصبِحوا كفَّارًا مثلهم، هذا إن قدروا، لكنَّهم لن يقدروا، فهم عاجزون حقًّا عن ذلك[٢].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: كلُّ مَن يرجِعْ منكم عن دِين الإسلام، فيختار الكفر ويستمرُّ عليه، حتى مماته، ولم يتُب من كفره، فقد بطَلت أعمالُه واضمحلَّت، فلم يبقَ له عملٌ صالح يُؤجَر عليه في الدُّنيا والآخرة، وهو من أهل النَّار الملازمينَ لها على الدوام[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٤٩-٦٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٥١-٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٩١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٥٢-٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٦٥-٦٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٥٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

أعقَب اللهُ عزَّ وجلَّ الإنذارَ بالبشارة، ونزَّه المؤمنين من احتمال ارتدادِهم؛ فإنَّ المهاجرين لم يرتدَّ منهم أحدٌ[(١)].

سبب النُّزول:

عن جُندُبِ بن عبد الله رضي الله عنه: ((أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ بعث رهطًا، وبعَث عليهم عبدَ الله بن جحش، فلقُوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يَدرُوا أنَّ ذلك اليوم من رجب، أو من جُمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتُم في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾. الآية، فقال بعضُهم: إنْ لم يكونوا أصابوا وزرًا فليس لهم أجْر، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾))[(٢)].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)﴾.

أي: إنَّ الذين صدَّقوا وأقرُّوا بالحقِّ منقادينَ إليه، والذين انتقَلوا من موضعٍ إلى آخَرَ فرارًا من مخالطة المشركين ومساكنتِهم، وربَّما فارَقوا بذلك عشائرهم وأوطانهم؛ حفاظًا على دِينهم، والذين بذلوا جهدَهم في مقاتلة الأعداء نصرًا لدين الله تعالى، وإعلاءً لكلمته، فهؤلاء- ذَوُو الطبقة العالية الرفيعة- لائقون

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٣٧).

(٢) سبق تخريجه (ص: ٦١٢).

وجديرون حقًّا بأن يطمعوا في نَيل رحمة الله تعالى لهم، وأنْ يُدخِلَهم دار كرامته، وسيَحظَون بما أمَّلوا وطمِعوا فيه؛ ذلك أنَّ الله تعالى غفورٌ رحيم؛ فبمغفرته ستَر ذنوبهم وتجاوز عنها، وأذهب آثارها وعقوباتها في الدنيا والآخرة، وبرحمته وفَّقهم لتلك الأعمال الجليلة، ويمنحهم في الدَّارين الخيراتِ والمراتبَ النَّبيلة[1].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)﴾.

سبب النُّزول:

عن عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نزل تحريم الخمر قال: اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ قال: فدُعي عمر فقُرئت عليه، فقال: اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فكان منادي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ إذا أقام الصَّلاة نادى أن لا يقربنَّ الصَّلاة سكرانُ، فدُعِي عمر فقُرئت عليه، فقال: اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية التي في المائدة، فدُعيَ عمر فقُرِئَت عليه، فلما بلغ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال: فقال عمر: انتهينا، انتهينا))[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٦٦-٦٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٦٢-٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنَّسائي (٥٥٤٠)، وأحمد (١/ ٥٣) (٣٤٧٨). صحَّحه عليُّ بنُ المَدينيِّ كما في ((شرح ثلاثيات المسند)) للسفاريني (١/ ٧٩٥)، وقال الترمذيُّ: رُوي عن إسرائيل مرسلًا، وهو أصحُّ. وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١/ ١٨٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النَّسائي)) (٥٥٤٠)، وقال الوادعي في ((أحاديث معلة)) (٣١٧): سندُه رجالُ الصحيح، ولكنَّه منقطع.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾.

أي: يسألك المؤمنون يا محمَّد، عن حُكم الخمر- وهي: كلُّ شرابٍ مسكِر يُغطِّي عقل صاحبه- وعن حُكم القِمار(١).

﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾.

أي: قلْ لهم يا محمَّد، بأنَّ في شُرب المسكرات وتعاطِي القِمار إثمًا كبيرًا؛ إذ يُحدِثان عداوةً وبغضاءَ وصدًّا عن ذِكر الله تعالى وعن الصَّلاة، وغير ذلك من آثامٍ ومنكرات، هي أعظم ممَّا يتأتَّى منهما من منافع قد تحصُل في النفس والبدن والمال، كالذي تُحدِثه الخمر لشاربها من طربٍ ولذَّةٍ ونشوةٍ، وتشحيذٍ للذِّهن وغير ذلك، وما يأتي به القمار لصاحبه من مكاسبَ وأموال، ولذَّةٍ في اللعب والمغالبة، وقد ذكر الله تعالى آثامهما قبل منافعهما؛ ليقع في نفس المؤمن الاشمئزاز منهما أوَّلًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٦٩-٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٨).

وممَّن قال من السَّلَف بأنَّ الميسر هو القِمار: ابنُ عمر، وابن عبَّاس، وعبد الله بن مسعود، ومجاهد، وعَطاء، وطاوس، وسعيد بن جُبَير، والحسن، ومحمَّد بن سِيرين، وقَتادة، ومقاتل، والسُّدِّي، وعطاء الخُراساني، ومكحول، وعطاء بن مَيسَرة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٧٥-٦٧٩)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣٢/ ٢٣٠-٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٦٩-٧٠).

أي: يسألك المؤمنون يا محمَّد: أيَّ شيء يُنفقون من أموالهم، فيتصدَّقون به؟ فأجبْهم بأنَّ مَن أراد منهم أن يُنفِق في سبيل الله تعالى، فليتصدَّق ممَّا زاد عن حاجاته الضروريَّة[١].

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...﴾.

أي: كما فصَّل الله تعالى هذه الأحكامَ كحُكم الخمر وغيره، وأوضحها غايةَ الإيضاح، فكذلك يُوضِّح الله جلَّ وعلا لنا بمِثل ذلك البيان سائر آياته وأحكامه الشرعيَّة؛ كي نتفكَّر من خلالها فيما شرَعه الله تعالى من أحكام تتعلَّق بشؤون الدارينِ، ولأجْل أن يقودَنا ما جاء فيها من وعدٍ ووعيد وثوابٍ وعقاب، إلى التفكُّر في الدنيا وسرعة انقضائها، وفي إقبال الآخِرة وبقائها، فنزهَد في الأولى، ونُعمِّر الثانية؛ عملًا بطاعة الله تعالى، وتركًا لشهوات يسيرة فانية[٢].

﴿... وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى السؤالَ عن الخمر والميسر، وكان في تَرْكهما إصلاحُ أحوالهم وأنفسهم، أمَر بالنَّظر في حال اليتامى؛ إصلاحًا لغيرهم ممَّن هو عاجزٌ أن يصلح نفْسَه، فيكون قد جمَعوا بين النَّفع لأنفسهم ولغيرهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٨٦، ٦٩٠، ٦٩٢، ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٥١-٣٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٩٦-٦٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٥٢-٣٥٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٤١٠).

سبب النُّزول:

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((لَمَّا نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ [النساء: ١٠] الآية انطلق مَن كان عنده يتيم فعَزل طعامَه من طعامه، وشرابَه من شرابه، فجعل يفضُل له الشيء من طعامه، فيحبس له حتى يأكلَه، أو يفسد، فاشتدَّ ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾، فخلطوا طعامهم بطعامه، وشرابهم بشرابه))[(١)].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾.

أي: يسألُك المؤمنون يا محمَّد، عمَّا اشتدَّ عليهم فعله مع اليتامى؛ إذ كانوا يعزلون لهم طعامَهم؛ خوفًا من تناوله معهم، فإذا فضَل منه شيءٌ حبسوه لهم حتى يأكلوه أو يتغيَّر، فأخبَر الله تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُجيبهم بأنَّ المقصودَ إنَّما هو إصلاحُ أموال اليتامى، بحفظها، واستثمارها، والاتِّجار فيها لهم، فإنْ لم تأخذوا أجرًا على قيامكم بذلك فذلك خيرٌ لكم وأعظمُ أجرًا، وإن أصبتم من أموالهم شيئًا في مقابل قيامكم بشؤونهم، كأنْ خالطتموهم في طعامٍ أو غيره من الأموال فجائز- على وجهٍ لا يضرُّ باليتامى-؛ لأنَّهم إخوانكم في الدِّين، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه[(٢)].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٧١) واللفظ له، وأحمد (١/ ٣٢٥) (٣٠٠٢)، والحاكم (٢/ ١١٣). احتجَّ به ابن حزم في ((المحلى)) (٨/ ٣٢٦)، وحسَّن إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٥/ ٥)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٨٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٠٤-٧٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٠-٧٢).

أي: إنَّ الله تعالى وإنْ أذِن للمؤمنين في مخالطة اليتامى على ما سبق ذِكرُه، إلَّا أنَّه خوَّفهم وحذَّرهم من أن تُسوِّل لهم أنفسُهم شيئًا من الخداع لأكل أموال اليتامى بالباطل، فالمعوَّل في ذلك على النيَّة، فمَن خلط مال اليتيم بماله يريد مصلحته، فالله يعلم نيَّته وسيُثِيبه على ذلك، وإنْ حصَل أنْ دخل عليه شيءٌ من ماله من غير قصْدٍ، ولا طمعٍ، فلا حرج عليه؛ لأنَّ الله تعالى يعلم نيَّته، وأمَّا مَن قصد بتلك المخالطة التوصُّل بها إلى أكلِ ماله خديعةً، فالله عزَّ وجلَّ يعلم نيَّته، وسيعاقبه على ذلك[1].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ هذا الحُكم إنَّما شُرِع رخصةً من الله تعالى وتوسعةً على عباده؛ وإلَّا فإنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يشُقَّ عليهم بنَهيِهم عن خلط أموالهم بأموال اليتامى؛ وأمْرِهم بتقدير طعامهم تقديرًا دقيقًا، بحيث لا يَزيد عن حاجتهم، ولا ينقص عنها، فيقعوا بذلك في ضيقٍ وحرج؛ ويعاقبهم ربُّهم إنْ تركوا أمره، أو ارتكبوا نهيه؛ ذلك بأنَّ الله تعالى لا يعجزه شيء، وهو قاهرٌ لكلِّ شيء، وَفْق ما تقتضيه حِكمته؛ إذ يضَعُ كلَّ شيءٍ في موضعه اللائق به، فيعاقب مَن يستحقُّ ذلك لعناده، ويشرِّع ما فيه الخير والرحمة لعباده[2].

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّه لا ينبغي للإنسان أن يكون جازمًا بقَبول عمله؛ بل يكون راجيًا؛ حَسن الظنِّ بالله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿أولئك يرجون رحمة الله﴾؛ لأنَّهم لا يغترون

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٠٨-٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٢-٧٣).

بأعمالهم؛ ولا يدلُّون بها على الله؛ وإنَّما يفعلونها وهم راجون رحمة الله تعالى[١].

٢- أنَّ الدِّين الإسلامي جاء بتحصيل المصالح، ودرء المفاسد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[٢].

٣- المقارنة في الأمور بين مصالحها، ومفاسدها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[٣].

٤- مراعاة الإصلاح فيمَن ولاه الله تعالى على أحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾[٤].

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- حِرصُ الصحابة رضي الله عنهم على السُّؤال عن العِلم؛ وقد وقع سؤالهم لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ في القرآن أكثرَ من اثنتي عشرة مرة[٥].

٢- أنَّه لا حرَجَ على الإنسان إذا كرِه ما كُتِب عليه مِن حيثُ الطبيعةُ؛ أمَّا من حيث أمر الشارع به فالواجب هو الرِّضا، وانشراح الصدر به[٦].

٣- ضَعْف الإنسان، وأنَّ الأصل فيه عدم العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٧].

٤- أنَّ الرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ هو مرجِع الصَّحابة في العلم؛ لقوله تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٦٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٧٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٧٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٥، ٧٣).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٥٠).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾[١].

٥- أنَّ الأشهر قسمان: أشهر حُرم، وأشهر غير حرم، ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّ الله يختصُّ من خلقه ما شاء؛ فهناك أماكن حرام، وأماكن غير حرام، وأزمنة حرام، وأزمنة غير حرام، وهناك رسل، وهناك مرسَل إليهم، وهناك صِدِّيقون، وهناك مَن دونهم، والله عزَّ وجلَّ كما يفاضل بين البشر، يفاضل بين الأزمنة والأمكنة[٢].

٦- تقديم ما يُفيد العِلِّيَّة؛ لقوله تعالى: ﴿عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾؛ المسؤول عنه القتال في الشهر الحرام؛ لكنه قدَّم الشهر الحرام؛ لأنَّه العلة في تحريم القتال[٣].

٧- تفاوت الذُّنوب؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ﴾؛ وبتفاوت الذنوب يتفاوت الإيمان؛ لأنَّه كلما كان الذنب أعظم كان نقص الإيمان به أكبر[٤].

٨- أنَّ من كان أقومَ بطاعة الله فهو أحقُّ النَّاس بالمسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾؛ فمع أنَّ المشركين ساكنون في مكَّة؛ لكنَّهم ليسوا أهلَه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤][٥].

٩- الحذر من الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾؛ وكلمة: ﴿لَا يَزَالُونَ﴾ تفيد الاستمرار، وأنه ليس في وقت دون وقت، وأنَّ محاولتهم ارتدادَ المسلمين عن دِينهم مستمرةٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٥٣).
(٢) يُنظر: (((المصدر السابق)) (٣/ ٥٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٥٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٥٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٦٠).

١٠- إطلاق الأخ على مَن هو دونه؛ لأنَّ اليتيم دون مَن كان وليًّا عليه؛ وهذه الأخوة هي أخوَّة الدين[١].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ﴾ فيه تقديم ما حقُّه التأخيرُ، حيث قدَّم قوله: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ فجُعل معطوفًا على ﴿صَدٌّ﴾ قبل أن يَستوفي (صَد) ما تعلَّق به وهو (والمسجدِ الحرامِ)، ومُقتضى ظاهر ترتيب نظم الكلام أن يقال: (وصدٌّ عن سبيل الله وكُفر به وصدٌّ عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله)؛ فجاء بهذا الترتيب؛ للاهتمام بتقديم ما هو أفظعُ من جَرائمهم؛ فإنَّ الكفر باللهِ أفظعُ من الصدِّ عن المسجد الحرام، فكان ترتيب النَّظم على تقديم الأهم فالأهم؛ فإنَّ الصدَّ عن سبيل الإسلام يَجمع مظالمَ كثيرةً[٢].

٢- قوله: ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُم عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ فيه وقع الشَّرط ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ موقعَ الاحتراس ممَّا قد تُوهِمه الغايةُ في قوله: ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ﴾؛ ولهذا جاء الشَّرط بحرف (إنْ) المشعِر بأنَّ شرْطه مرجوٌّ عدمُ وقوعه؛ ففيه استبعادٌ لاستطاعتِهم، وتعريضٌ وإيذان بأنَّهم لا يستطيعون ردَّ المسلمين عن دِينهم، كقول الرجل لعدوِّه: إن ظفرتَ بي فلا تُبقِ عليَّ. وهو واثقٌ أنه لا يظفر به[٣].

٣- في قوله: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٢٩). وهذا الوجه بناءً على أنَّ قوله تعالى: ﴿وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ معطوفٌ على ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾.

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٣١).

- عبَّر بصيغة المطاوعة في (يرتدد)؛ إشارةً إلى أنَّ رجوعِهم عن الإسلام- إن قُدِّر حصوله- لا يكون إلَّا عن محاولةٍ من المشركين؛ فإنَّ مَن ذاق حلاوة الإيمان لا يَسهُل عليه رجوعُه عنه، ومَن عرَف الحق لا يرجع عنه إلَّا بعَناء[١].

- ولم يأت هنا مفعول ثان، حيث لم يقل: (من يرتد عن دِينه إلى دِين كذا)؛ لأنَّه لا اعتبار بالدِّين الذي ارتُدَّ إليه، وإنَّما نِيط الحكم بالارتداد عن الإسلام إلى أيِّ دِين[٢].

- وفيه وضْع الظاهر (عن دينه) وضع المضمر (عنه)، للإشعار بفداحة الموقِف، وفَظاعة الجُرم والهلاك[٣].

٤- **قوله: ﴿وَهُوَ كَافِرٌ﴾** جملةٌ حاليةٌ من ضميرِ ﴿يَمُتْ﴾، وكأنها حالٌ مؤكِّدَةٌ؛ لأنَّها لو حُذِفَتْ لفُهِم معناها؛ لأنَّ ما قبلَها يُشْعِرُ بالتعقيبِ للارتداد، وجيء بالحالِ هنا جملةً؛ مبالغةً في التأكيدِ، مِن حيث تكرُّرُ الضميرِ بخلافِ ما لو جِيء بها اسمًا مفردًا[٤].

٥- **قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا... أُولَئِكَ﴾** فيه تكرار الموصول (الذين)؛ لتعظيم الهجرة والجهاد، كأنَّهما مستقلَّان في تحقيق الرجاء[٥]. أو: لَمَّا كان الإيمان هو الأصل أُفرد به موصول وحده، ولما كانت الهجرة والجهاد فرَعينِ عنه أُفردا بموصول واحد؛ لأنَّهما من حيث الفرعية كالشيء الواحد[٦].

٦- **قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾**

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٣٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢٩٢).
(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٤٠٠-٤٠١).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٣٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٩٤).

- جيء بـ (في) الدَّالة على الظرفية؛ لإفادة شدَّة تعلُّق الإثم والمنفعة بهما؛ لأنَّ الظرفية أشدُّ أنواع التعلُّق، وجُعلت الظرفية متعلِّقة بذات الخمر والميسر للمبالغة، والمراد في استعمالهما[١].

- وفيه: تَنكير المسند (إثم)؛ وذلك للإيذان بفَداحته وخُطورته، ووصفُه بلفظة (كبير) بيان آخَر لفداحته وخطره[٢].

٧- **قوله:** ﴿**وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ**﴾ فيه التِفات من غَيبة إلى خِطاب؛ لأنَّ قبله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾، فالواو ضميرٌ للغائب، وحِكمة هذا الالتفات ما في الإقبال بالخِطاب على المخاطَب؛ ليتهيَّأ لسماع ما يُلقى إليه وقَبوله، والتحرز فيه[٣].

٨- **قوله:** ﴿**إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾

- تذييل لِمَا اقتضاه شرْط (لو) من الإمكان وامتناع الوقوع، أي: إنَّ الله عزيز غالب قادر، فلو شاء لكلَّفكم العنَتَ، لكنَّه حكيم يضع الأشياء مواضعها؛ فلذا لم يُكلِّفكموه.

- وفيه تأكيد الخبر بإنَّ، واسمية الجملة، والتعبير بصِيغة فعيل (عزيز حكيم)؛ للمبالغة في الوصْف مبالغةً محمودة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٤٣-٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٤١١).

(٤) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢٩٥- ٢٩٦).

الآيات (٢٢١ - ٢٢٤)

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿عُرْضَةً﴾: مانعًا[1].

﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾: أي: ألَّا تبرُّوا، وأصل البِر: الصِّدقُ في المَحَبَّة[2].

المعنى الإجمالي:

يَنهَى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن نِكاح المشرِكات، إلَّا إذا دخلْنَ في دين الإسلام، ولَأَنْ يتزوج المؤمن بجارية مملوكة تؤمن بالله وتوحِّده، خيرٌ من تزوُّجه بامرأة حرَّة لكنَّها مشركةٌ، حتى ولو كان فيها ما يجعلهم يميلون إليها؛ من شدَّة حُسن، أو حسَب عظيم، أو نسَب شريف، أو مال كثير، ونهى الله أيضًا عباده

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣).

المؤمنين أن يُزوِّجوا نساءهم من رجال مشركين، إلَّا إذا دخلوا في دين الإسلام، ولَأَنْ يُزوِّجوهنَّ بعبيدٍ مماليكَ يؤمنون بالله خيرٌ من أن يزوجوهنَّ برجال أحرار لكنَّهم مُشرِكون حتى لو كان فيهم ما يعجبهم من حُسن، أو حسَب، أو نسب، أو مال؛ وذلك لأنَّ مَن كان يَدين بدِين الشِّرك يقود مَن يعاشره ويخالطه إلى حبِّ الدنيا، وإيثارها على الآخرة، وإلى العمل بما يُدخِل النارَ، والله سبحانه وتعالى يدعو إلى الجنَّة بما يُعلِّمه لعباده من شَرْعه من مأمورات ومنهيَّات، يقود العمل بمقتضاها لدخول الجنة، والنجاة من النار، كما يحثُّ على التوبة والاستغفار، ولزوم العمل الصالح الذي يكفِّر الآثام، فيتجاوز عنها سبحانه ويسترها. ويُظهِر اللهُ للناسِ براهينه وحُججه، ويوضِّح أحكامه وحِكمها؛ لعلَّهم بذلك أن يتذكروا ما نسُوه من الحق، فيعتبروا ويتَّعظوا.

ثم يُخاطِب الله عزَّ وجلَّ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ مخبرًا إيَّاه أنَّ المؤمنين يسألونه عن حالهم مع زوجاتهم وقت محيضهنَّ، هل يجتنِبونهنَّ مطلقًا أم يجامعوهنَّ، فلقَّنه الله الإجابة التي يجيب بها عليهم، فأمره أن يقول لهم بأنَّ الحيض دمٌ قذر ونجس؛ فليتركوا مجامعة النساء في فروجِهنَّ عند مجيئه، وليستمرُّوا على ذلك حتى ينقطعَ الدم، ويغتسِلْن فإذا فعَلْنَ ذلك فحينئذٍ لهم أن يُجامعوهنَّ في المكان الذي أباح الله تعالى لهم وهو القُبُل. وتشريعُ هذا الأمر من الله عزَّ وجلَّ جاء لأنَّه يحبُّ عباده من الذين يُطهِّرون بواطنَهم بالمداومة على التوبة، ويُطهِّرون ظواهرهم بالماء من الأنجاس والأحداث.

ثم يُخبِر تعالى عباده بأنَّ نساءهم مُزدرَعٌ لأولادهم، يُلقي الرِّجالُ فيهنَّ النطفة فتنزرع في الرحم، وينمو ليكتمل بشرًا بإذن الله تعالى، فلهم أن يجامعوا نساءهم على أيِّ جِهةٍ وكيفيَّة، ما دام في موضِع الحرث وهو القُبُل، وأمرهم سبحانه أن يعدُّوا لأنفسهم الخيرات والحسنات التي تفيدهم في آخرتِهم، ويجعلوا بينهم وبين

غضب الله وعذابه ما يَقِيهم من ذلك بتجنُّب السيِّئات، وليتيقَّنوا أن مردَّهم إلى الله، ثم أمر نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يُبشِّر المؤمنين بما سيجدونه عند الله من الأجر.

ثمَّ نَهى اللهُ عِبادَه أن يجعلوا الحَلِف به سبحانه مانعًا من القيام بفعل الخيرات، كالبرِّ بالوالدين والإحسان للقُربى، أو حاجزًا عن تحقيق التَّقوى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، أو أن يقف ذلك الحَلِفُ بينهم وبين السَّعي للإصلاح بين النَّاس، كمَن يحلف أنْ لا يفعل شيئًا من ذلك، فإنْ طُلب منه احتجَّ عن الامتناع بيمينه، فنهى الله عن ذلك، فإذا حدَث أنْ حلَف أحدهم، فليس ذلك بمانعٍ له من فِعل الخير، بل عليه أن يَحنث ويكفِّر عن يمينه، ويفعل الخير الذي حلَف ألَّا يفعله. والله سميع لجميع الأصوات- التي منها أصواتُ الحالفين- عليمٌ بجميع المقاصد والنوايا- التي منها نيَّة الحالفين؛ هل يقصدون خيرًا أو شرًّا.

تفسير الآيات:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)﴾.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾.

أي: حرَّم الله تعالى على المؤمنين أن يتزوَّجوا بالنِّساء المشركات إلَّا إذا آمنَّ ووحَّدْنَ الله تعالى بدخولهنَّ في الإسلام[1]، ولَأَنْ يتزوَّج المؤمن بأمَة مملوكة لكنَّها

(١) نساء أهل الكتاب غيرُ مرادات بحُكم هذه الآية، سواء قيل: إنهَّنَّ من المشركات فاستُثنِين بآية سورة المائدة، أو قيل بأنَّهنَّ كافرات، لكن لسنَ بمشركات. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧١٤ - ٧١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٢).

مؤمنة، خيرٌ له من أن يتزوَّج امرأة حرَّة مشركة، وإن بلَغ الإعجاب بها مبلغًا؛ لشدَّة حُسنِها، أو عِظَم حسَبِها، أو شَرَفِ نَسبِها، أو كثرةِ مالها[1].

﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.

أي: حرَّم الله تعالى على المؤمنين أن يُزوِّجوا نساءَهم المؤمنات لرجالٍ مشركين، إلَّا إذا آمنوا ووحَّدوا الله تعالى بدخولهم في الإسلام، ولَأَنْ تزوجوهنَّ بعبدٍ مملوك لكنه مؤمنٌ بالله تعالى، خيرٌ من أن تزوجوهنَّ برجلٍ حرٍّ مشرك، ولو بلغ إعجابكم به ما بلغ لحُسنه، أو حسبه، أو نسبه، أو ماله[2].

﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾.

أي: إنَّما حرَّمتُ عليكم- أيُّها المؤمنون- تزوُّجَ المشركات وتزويجَ المشركين بالمؤمنات؛ لأنَّهم في حقيقة الأمر يقودونكم عبر معاشرتهم ومخالطتهم بسماع أقوالهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧١٤-٧١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٦-٧٧).

واختار أنَّ الأمة هنا هي المرأة المملوكة: ابن جرير في ((تفسيره)) (٣/ ٧١٦)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٣٢٧)، وابن عطية في ((تفسيره)) (١/ ٢٩٧)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٢/ ٣٦١).

وقال ابنُ عطية: (وتحتمل الآية عندي أنْ يكون ذِكر العبد والأمَة عبارةً عن جميع الناس؛ حُرِّهم ومملوكهم) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧١٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٧).

واختار أنَّ العبد هنا هو المملوك: ابن جرير في ((تفسيره)) (٣/ ٧١٨)، وابن عطية في ((تفسيره)) (١/ ٢٩٧)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٥٨٤)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٢/ ٣٦٢-٣٦٣)، والشنقيطي في ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٩).

وقال ابنُ عطيَّة: (وتحتمل الآية عندي أنْ يكون ذِكر العبد والأمَة عبارةً عن جميع الناس؛ حُرِّهم ومملوكهم) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٩٧).

ورؤية أفعالهم، ومعايشة أحوالهم إلى حبِّ الدُّنيا، وإيثارها على الآخرة، وإلى العمل بما يُدخِلكم النار؛ فلا تغترُّوا بهم، فيردوكم في التهلُكة، والشقاء الأبدي[(١)].

﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يدعوكم بما يُعلِّمكم مِن شَرْعه من أوامرَ ونواهٍ للعمل بها؛ لتقودَكم لدخول الجنة، وتوجبَ لكم النَّجاةَ من النار بما يمحو من خَطاياكم، التي من آثارها دفْعُ العقوبات، وذلك بالحثِّ على التوبة والاستغفار، ولزومِ العمل الصَّالح الذي يُكفِّر الآثام، فيتجاوز عنها ربُّكم، ويسترها عليكم[(٢)].

﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: يوضِّح براهينه وحُججَه ويُظهِر أحكامه وحِكَمها؛ فيُوجِب لهم ذلك التذكُّر لِمَا نَسُوه من الحقِّ فيعتبروا ويتَّعظوا، ويميِّزوا بين الدعاء إلى النيران، والدعاء إلى الجنَّة ونَيْل الغفران[(٣)].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

هذه الآية عطفٌ على جملة: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١]، بمناسبة أنَّ تحريم نكاح المشركات يؤذِن بالتنزُّه عن أحوال المشركين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧١٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٢٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٨).

وكان المشركون لا يقربون نساءهم إذا كنَّ حُيَّضًا، وكانوا يُفرِطون في الابتعاد منهنَّ مدَّة الحيض، فناسب تحديد ما يَكثُر وقوعه، وهو من الأحوال التي يُخالف فيها المشركون غيرَهم، ويتساءل المسلمون عن أحقِّ المناهج في شأنها[١].

سبب النُّزول:

عن أنسٍ رضي الله عنه: ((أنَّ اليهود كانوا إذا حاضت المرأةُ فيهم لم يواكلوها ولم يجامعوهنَّ في البيوت، فسأل أصحابُ النبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: اصنَعوا كلَّ شيء إلَّا النِّكاح، فبلغ ذلك اليهودَ، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدَع من أمرنا شيئًا إلَّا خالَفَنا فيه؟! فجاء أُسَيد بن حُضَير وعبَّاد بن بِشْر، فقالَا: يا رسول الله، إنَّ اليهود تقول كذا وكذا، فلا نجامعهنَّ؟ فتغيَّر وجهُ رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، حتى ظننَّا أنْ قد وجد عليهما فخرجَا فاستقبلهما هديَّةٌ من لبن إلى النبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرَفَا أن لم يجدْ عليهما))[٢].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾.

أي: يسألُك المؤمنون- يا محمَّد- عن شأنِهم مع زوجاتهم حال حيضهنَّ، هل يجتنبونهنَّ مطلقًا، كما يفعل اليهود، أو يجامعوهنَّ[٣]؟

﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾.

أي: أجابهم الله تعالى بأنَّ الحيض دمٌ قذر، ونجس، وإذا كان كذلك، فمن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٦٤).

(٢) رواه مسلِم (٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٢٠-٧٢١)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٣٩١-٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٦٤).

الحِكمة أن يمنع عباده عنه؛ ولذا نهاهم سبحانه عن جِماع النِّساء في فروجهنَّ[١].

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿يَطْهُرْنَ﴾ قراءتان:

١- ﴿يَطَّهَّرْنَ﴾ أي: حتى يَغتسِلْنَ بالماء بعد انقطاع الدم[٢].

٢- ﴿يَطْهُرْنَ﴾ أي: حتى ينقطعَ الدَّمُ عنهن[٣].

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾.

أي: لا تجامعوا نساءَكم حال حيضهنَّ إلى أنْ ينقطع دم الحيض ويغتسلن، فإذا فعلن ذلك، فحينها لكم أن تُجامعوهنَّ في الموضِع الذي أباحَ الله تعالى فيه ذلِك، وهو القُبُل[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٢٢-٧٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٥-٥٨٦)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي) (ص: ١٠٠).
وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ ﴿أَذًى﴾ تعني: قذَرًا: السُّدِّي، وقَتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٢٣).
وممَّن قال من السَّلَف بنحو ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ عائشة، وأم سلمة، وابن عبَّاس، ومجاهد، ومقاتل بن حَيَّان، والحسن، وعِكْرمة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٢٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٠١).

(٢) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو بكر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٥٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٣٤-١٣٥).

(٣) قرأ بها الباقون ﴿يَطْهُرْنَ﴾. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٥٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٣٤-١٣٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢١/ ٦٢٥-٦٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٩١-٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٨١-٨٢).
وممَّن قال من السَّلَف بنحو ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾: ابن عبَّاس، ومجاهد، =

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

أي: يأمركم الله تعالى بذلك، ويحثُّكم عليه؛ لأنَّه يحبُّ مَن يُطهِّرون بواطنَهم بالمواظبة على كثرة التَّوبة من جميع الذنوب، وإن تكرَّر منهم غشيانها، ويحب مَن يُطهِّرون ظواهرهم بالماء من الأنجاس والأحداث[(١)].

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)﴾.

سبب النُّزول:

عن ابن المُنكَدِر قال: سمعتُ جابر بن عبد الله قال: ((كانتِ اليهودُ تقول: إذا جامَعها من ورائِها جاءَ الولدُ أحولَ، فنزلت: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾)). وزاد في حديث النُّعمان عن الزهري: ((إنْ شاءَ مُجَبِّيَة[(٢)]، وإن شاء غير مُجَبِّية، غير أنَّ ذلك في صِمامٍ واحد))[(٣)].

وعن أبي النَّضر أنَّه قال لنافع مولى ابن عمر: ((قد أُكثر عليك القول: إنَّك تقول عن ابن عُمر: (إنَّه أفْتى بأنْ يؤتى النساء في أدبارهنَّ)! قال نافع: لقدْ كذبوا عليَّ! ولكن سأخبرك كيف كان الأمر: إنَّ ابن عُمر عرَض عليَّ المصحف يومًا وأنا عنده حتى بلغ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾، قال نافع: هل تدري ما أمر هذه الآية؟ إنَّا كنَّا معشر قريش نُجَبِّي النِّساء، فلمَّا دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردْنا منهنَّ ما كنا نُريد من نسائنا، فإذا هنَّ قد كرهن ذلك وأعظمْنه، وكان نساء

= وعِكْرمة، والحسن، ومقاتل بن حَيَّان، والليث بن سعد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٣٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٤٢، ٧٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٨٢).

(٢) مجُبِّية: أي: مُنكَبَّة على وجْهِها، تَشبيهًا بهيْئة السُّجودِ. ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٣٨).

(٣) رواه مسلم (١٤٣٥).

الأنصار إنَّما يؤتَين على جنوبِهنَّ، فأنزل الله سبحانه: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾))[١].

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾.

أي: إنَّ نساءكم مُزدرَعٌ لأولادكم، مثلما تكون الأرض حرثًا للزارع حيث يبثُّ فيها الحَب؛ فينمو ويخرج نباتًا، فكذلك النِّساء حرث يضع فيه الرجال الماء الدافق (المَنِيَّ)، فينزرع في الرَّحم حتى ينمو ويخرج بشرًا سويًّا بإذن الله تعالى. ولكم يا معاشرَ الرِّجال، أن تجامعوا نساءكم على أيِّ جهة، وبأي كيفيَّة شِئتم، شريطةَ أن يكون جماعهنَّ دومًا في موضع الحرث، وهو القُبُل[٢].

﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: أعدُّوا الخيراتِ والحسناتِ لأجْل نفع أنفسكم في الآخرة، واجعلوا بينكم وبين غضب الله تعالى وعذابه حاجزًا يَقِيكم ذلك بتجنُّب الشرور والسيِّئات، وكونوا على يقين تامٍّ من أنكم ستلاقون الله تعالى يوم القيامة، وأنه مُجازٍ كلًّا منكم بعمله، إنْ خيرًا فخير وإنْ شرًّا فشر، وبشِّر المؤمنين يا محمَّد بما يسرُّهم فالمؤمنون الذين يحبُّون لقاء الله تعالى، ويُعِدُّون للأمر عُدَّتَه، سيهنَؤون بلقائه سبحانه، وما يُقدِّموا لأنفسهم من خيرٍ سيجدونه عند الله عزَّ وجلَّ، ويُكرِمهم بدخول جنَّته[٣].

---

(١) أخرجه النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٥/ ٣١٥) (٨٩٧٨)، والطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) (٣/ ٤٢) (٤٠٦٧).
صحَّح إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (١/ ٣٨٣)، والوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٤٥، ٧٥٩)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢٩/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٨٦-٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٦٢-٧٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٧٤-٣٧٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٨٧).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

وعن عُبادة بن الصَّامت رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((من أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءَه، ومن كرِه لقاءَ اللهِ كرِه اللهُ لقاءَه. قالت عائشةُ أو بعضُ أزواجِه: إنَّا لنكرهُ الموتَ، قال: ليس ذاك، ولكنَّ المؤمنَ إذا حضره الموتُ بُشِّر برضوانِ اللهِ وكرامتِه، فليس شيءٌ أحبَّ إليه ممَّا أمامه، فأحبَّ لقاءَ اللهِ وأحبَّ اللهُ لقاءَه، وإنَّ الكافرَ إذا حُضِر بُشِّر بعذابِ اللهِ وعقوبتِه، فليس شيءٌ أكرهَ إليه ممَّا أمامه، فكرِه لقاءَ اللهِ وكرِه اللهُ لقاءَه))[1].

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤)﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

أي: لا تجعلوا الحَلِفَ بالله تعالى حُجَّةً لكم تمنعُكم من القيام بفِعل الخيرات، كبرِّ الوالدين وذِي القربى، أو تمنعكم من تحقيقِ التَّقوى بامتثال ما أمر الله تعالى به واجتناب ما نهى عنه، أو تمنعكم من السَّعي في الإصلاح بين النَّاس بالمعروف، وذلك كأنْ يحلفَ امرؤٌ بالله تعالى على ألَّا يصل رحِمَه، فإذا طُلب منه أن يَفعل ما أمر الله تعالى به من صِلة الرَّحِم، قال: قد حلفتُ ألَّا أفعل ذلك، فيجعل الحلفَ بالله عزَّ وجلَّ حجَّة يتقوَّى بها على ترك الخيرات، فنهى الله تعالى عباده عن ذلك، فإذا حلف أحدُهم فليس له الامتناعُ من ذلك والتعلُّل باليمين، بل عليه أن يَحنثَ، ويكفِّر عن يمينه، ويأتي الذي هو خير[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١١-١٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣٥/ ٢٧٧، ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢٥)، (٥/ ٤٨٧).

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت -كما في حديث الإفك الطويل-: ((... فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ الآيات، فلمَّا أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وكان يُنفِق على مِسْطَح بن أُثَاثة؛ لقَرابتِه منه: والله لا أُنفق على مِسطحٍ شيئًا أبدًا، بعد ما قال لعائشة. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فقال أبو بكر: بلى والله، إنِّي لأحبُّ أن يغفر الله لي! فرجع إلى مسطحٍ الذي كان يُجْرِي عليه))[(١)].

وعن زَهْدَمٍ الجَرْميِّ، قال: ((كنَّا عندَ أبي موسى، وكان بينَنا وبين هذا الحَيِّ من جَرْمٍ إخاءٌ ومعروفٌ، قال: فقدَّمَ طعامَه، قال: وقَدَّمَ في طعامه لَحْمَ دَجاجٍ، قال: وفي القوم رجلٌ من بني تَيْمِ اللهِ، أحمرُ كأنَّه مَوْلًى، قال: فلمْ يَدْنُ، فقال له أبو موسى: ادْنُ؛ فإنِّي قد رأيتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأكلُ منه، قال: إنِّي رأيتُهُ يأكلُ شيئًا قَذِرْتُه، فحَلَفْتُ أنْ لا أَطْعَمَه أبدًا، فقال: ادْنُ أُخْبِرْكَ عن ذلك، أَتَيْنا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم في رَهْطٍ من الأَشْعريِّينَ أَستحمِلُه، وهو يَقْسِمُ نَعَمًا من نَعَمِ الصدقة، قال أيُّوبُ: أَحسبُه قال: وهو غَضْبانُ، قال: واللهِ لا أَحْمِلُكم، وما عندي ما أَحمِلُكم عليه. قال: فانطلقْنا، فأُتِيَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بنَهْبِ إبلٍ، فقيل: أين هؤلاءِ الأشعَريُّونَ؟ فأَتَيْنا، فأَمَر لنا بخَمْسِ ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرَى[(٢)]، قال:

---

(١) رواه البخاري (٢٦٦١).

(٢) قوله: ((**بخَمسِ ذَود غُرِّ الذُّرَى**)): أي: بخمس إبل بيضِ الأَسْنِمَة سِمانِها، والذُّرَى: جمعُ ذِرْوَةٍ، وهي أعلى سَنام البَعير. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥٩).

فانْدَفَعْنا، فقلتُ لأصحابي: أَتَيْنا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم نَستَحمِلُه، فحلف أنْ لا يَحمِلَنا، ثم أرسل إلينا فحَمَلنا، نَسِيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يَمِينَه، واللهِ لَئِنْ تَغَفَّلْنا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَمِينَه لا نُفلحُ أبدًا، ارجِعوا بنا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلْنُذَكِّرْه يمينَه، فرجَعْنا فقلنا: يا رسولَ الله، أَتَيْناكَ نَستحمِلُكَ فحَلَفْتَ أنْ لا تَحمِلَنا، ثم حَمَلْتَنا، فظَنَنَّا، أو: فَعَرَفْنا أنَّك نَسِيتَ يَمِينَك، قال: انطَلِقوا، فإنَّما حَمَلكم اللهُ، إنِّي واللهِ -إنْ شاء اللهُ- لا أَحْلِفُ على يَمينٍ، فأَرَى غيرَها خيرًا منها، إلَّا أَتَيْتُ الذي هو خيرٌ وتَحَلَّلْتُها))[1].

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: ((أعتَمَ رجلٌ عند النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثم رجع إلى أهلِه فوجد الصِّبيةَ قد ناموا، فأتاه أهلُه بطعامِه، فحَلَف لا يأكلُ من أجلِ صِبيتِه، ثم بدَا له فأكل، فأتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فذكر ذلك له. فقال رسولُ اللهِ: مَن حلف على يمينٍ، فرأى غيرَها خيرًامنها، فلْيأتِها، وليكفِّرْ عن يمينِه))[2].

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يسمعُ جميع الأصوات ومن ذلك سماعه لأقوال الحالفين، وهو عزَّ وجلَّ عالِم بجميع المقاصد والنيَّات، ومن ذلك علمُه بمقاصد الحالفين هل يقصدون خيرًا أم شرًّا، وفي ذلك تحذيرٌ للعباد من أن يُظهِروا بألسنتهم، أو يُضمِروا في أنفسهم ما فيه مخالفةٌ لأمر الله تعالى أو ارتكابٌ لنهيه؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ مطلعٌ على ما ظهر وما بطن، لا يَخفى عليه شيء سبحانه[3].

(١) رواه البخاري (٦٧٢١) واللفظ له، ومسلم (١٦٤٩).

(٢) رواه مسلم (١٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٣-١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٠-١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٧٩).

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّه لا ينبغي أن يمتنعَ الإنسانُ من السؤال عمَّا يُسْتَحيَا منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾[١].

٢- تقديم عِلَّة الحُكم عليه حتى تتهيَّأ النفوس لقَبول الحُكم، والطمأنينة إليه؛ ويكون قَبوله فطريًّا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾[٢].

٣- فضيلة التوبة، وأنَّها أمر مطلوب، وأنها من أسباب محبَّة الله للعبد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[٣].

٤- فضيلة الإيمان؛ لأنَّ الله علَّق البشارة عليه؛ فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

٥- الحثُّ على البرِّ، والتقوى، والإصلاح بين النَّاس؛ لأنَّه إذا كان الله تعالى قد نهانا أن نجعل اليمين مانعًا من فعل البرِّ؛ فكيف إذا لم تكُن هناك يمين[٥]؟!

٦- فضيلة الإصلاح بين النَّاس؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾؛ فنصَّ عليه مع أنَّه من البرِّ؛ والتنصيص على الشيء بعد التَّعميم يدلُّ على العناية والاهتمام به[٦].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ الحُكم يدور مع عِلَّته وجودًا وعدمًا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾؛ فدلَّ ذلك على أنَّه متى زال الشرك حلَّ النكاح؛ ومتى وجد الشرك حرم النكاح[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٨٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٧٩).

٢- أنَّ المؤمن خير من المشرك؛ ولو كان في المشرك من الأوصاف ما يُعجب؛ لقوله ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾؛ ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]؛ فلا تغترَّ بالكثرة؛ ولا تغترَّ بالمهارة؛ ولا بالجودة؛ ولا بالفصاحة؛ ولا بغير ذلك؛ وارجِع إلى الأوصاف الشرعيَّة المقصودة شرعًا[١].

٣- تفاضل النَّاس في أحوالهم، وأنهم ليسوا على حدٍّ سواء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ﴾[٢].

٤- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أنَّ محبَّة الله من صفاته الفعليَّة- لا الذاتيَّة-؛ لأنَّها عُلِّقت بالتوبة؛ والتوبة من فِعل العبد تتجدَّد؛ فكذلك محبَّة الله عزَّ وجلَّ تتعلَّق بأسبابها؛ وكلُّ صفةٍ من صفات الله تتعلَّق بأسبابها، فهي من الصِّفات الفعليَّة[٣].

٥- حُسن أسلوب القرآن؛ لأنَّه جمع في هذه الآية بين التطهُّر المعنوي الباطني، والتطهُّر الحسي الظاهري؛ لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾، وهي طهارة باطنة، وقوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، وهي طهارة ظاهرة[٤].

٦- أنَّه ينبغي للإنسان أن يَسعَى لكثرة النَّسل؛ لقوله تعالى: ﴿حَرْثٌ لَكُمْ﴾[٥].

٧- أنَّه ينبغي للإنسان أن يحافظ على امرأته التي سُمِّيت حرثًا له، كما يحافظ على حرث أرضه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٨٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٨٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٨٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٨٩).

٨- من المستحْسَنِ إذا أراد المرءُ إخبار غيره بأمر هامٍّ أن يُقدِّم بين يدي الخبر ما يَقتضي انتباهَه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا﴾؛ وهذا ممَّا يزيد الإنسان انتباهًا وتحسُّبًا[١].

٩- في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ تحذير غير المؤمنين من هذه الملاقاة؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فدل ذلك على أنَّ غير المؤمنين لا بُشرى لهم[٢].

بلاغة الآيات:

١- **قوله: ﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ... وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ﴾**

- **فيه:** تنكير (أَمَة) و(عَبْد) مع التَّصدير بلام الابتداء؛ للمبالغة في النَّهي والزَّجر، واللام تُشبه لامَ القَسَم في التوكيد[٣].

٢- **قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾** فيه إيجاز بالحذف؛ إذ المراد من السُّؤال عن المحيض السُّؤال عن (قِرْبان النِّساء في المحيض)؛ بدَلالة الاقتضاء، وقدْ علِم السائلون ما سألوا عنه، والجواب أَدلُّ شيء عليه[٤].

٣- **قوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾** فيه وضْع المظهَر (النِّساء) موضعَ المضمَر (هُنَّ)؛ للاهتمام، والعناية بترك المأمور به[٥].

٤- **قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾** فيه إبداعُ الإيجاز في الإطناب، حيث عبَّر بلفظ الإتيان (فأتوهنَّ) هنا عن الوطء؛ لبيان المراد بالقِربان المنهيِّ عنه، فقد عبَّر بالاعتزال، ثم قفَّى بالقِربان، ثم قفَّى بالإتيان، ومع كلِّ تعبير فائدةٌ جديدة، وحُكم جديد[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤١٢)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٦٥).

(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢٩٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٦٩).

٥- **قوله:** ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ...﴾ فيه: توكيد الخبر بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة. وفيه: وضع المُظهَر موضعَ المُضمَر، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ﴾، ولم يقل: (إنَّه يحبُّ)؛ لتربية المهابَة[١].

٦- **قوله:** ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ فيه كِناياتٌ لطيفة، وتعريضات مستحسَنة في التعبير عن جِماعِ النِّساء بهذه الألفاظ؛ وهذه وأشباهها في كلام الله آدابٌ حَسنةٌ، على المؤمنين أن يتعلَّموها ويتأدَّبوا بها، ويتكلَّفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم[٢].

- وفيه: تشبيه بليغ في تشبيه النِّساء بالحرث، لِمَا يُلقَى في أرحامهن من النُّطَف التي منها النَّسل بالبذور[٣].

- وفيه: وضْع المُظهَر موضعَ المُضمر؛ للعناية به؛ حيث قال: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ ولم يقل: (فأتوه)[٤].

٧- **قوله:** ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه: تلوين الخِطاب؛ مرَّةً للمؤمنين، ومرةً لرسوله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ مبالغةً في التشريف والتكريم[٥].

---

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٦٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٦٦)، ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٤٢٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٣٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٠٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٢٥ - ٢٣٢)

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ
ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا
يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ
حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا
تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن
يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ
أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ
وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن
يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿بِاللَّغْوِ﴾: اللغو: هو ما يَجري في الكلامِ على غيرِ عَقْد ولا قصْد، ويُعبَّر باللَّغو أيضًا عن الباطِلِ من الكلام[1].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩).

﴿يُؤْلُونَ﴾: يَحلِفون- من الأَلية، وهي اليَمين[١].

﴿تَرَبُّصُ﴾: التَّرَبُّص: الانتِظار والتَّمكُّث[٢].

﴿فَاؤُوا﴾: أي: رجَعوا إلى جِماعِ نِسائهم[٣].

﴿قُرُوءٍ﴾: جمع قُرء، وهو الطُّهر- عند أهل الْحجاز- والحَيْض- عند أهل العرَاق- وهو من الأضدادِ[٤].

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾: أزواجهنَّ، جمْع بَعْل، وبَعْل المَرْأةِ زَوجُها[٥].

﴿تَسْرِيحٌ﴾: التسريح: ما يدلُّ على الانطلاق؛ يقال: أمْر سريح، إذا لم يكُن فيه تعويقٌ ولا مطل[٦].

﴿افْتَدَتْ بِهِ﴾: بذَلتِ الشيءَ لزوجِها عن نفْسِها، وأصل (فدي): جَعْلُ شَيْءٍ مكانَ شَيْءٍ حِمًى له[٧].

﴿أَجَلَهُنَّ﴾: الأجَل: غايةُ الوقت، في الموتِ وغيرِه؛ ومنه: انقضاءُ العِدَّة[٨].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٦)، ((تذكرة الأريب))لابن الجوزي (ص: ٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦).

(٧) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩١).

(٨) يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١).

﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾: العَضْل: الحبْس والمنع؛ يقال: عضَل الرجل أيِّمَه؛ إذا منعَها من التَّزويج[١].

المعنى الإجمالي:

نفى الله تعالى أن يُوقع عقوبةً على عبادِه- سواء كانت دنيويَّة أو أخرويَّة- بسبب ما يجري على ألسنتهم من الحلف على أمور معتادة، دون أن يقصدوا عقد اليمين عليها، ولا على ما يحلفون عليه جازمين بصدقه أو تحقُّق وقوعه، ثمَّ لا يكون الأمر موافقًا لما اعتقدوه، لكنَّ العقوبة على مَن قصد بقلبه الحلِف كاذبًا، وأمَّا مَن حلف ثم حنث في يمينه، فإنَّ عليه حينها أن يُكفِّر عن يمينه في الدُّنيا، وإلَّا فإنَّه معرَّض للعقوبة الأخروية. والله غفور؛ يستر على عباده ما وقع منهم من لغوٍ في أيمانهم، فلا يؤاخذهم بها، حليمٌ؛ فلا يعاجلهم بعقوبة بسبب تقصيرهم في التأدُّب معه بلغوهم في الأيمان، ولا يغضب عليهم لغفلتهم عنه في ذلك.

ثم بيَّن الله تعالى حُكم الإيلاء -وهو أن يحلِف الزوج على ألَّا يجامع زوجتَه- فإن أقصى مدة يحق له فيها الامتناع عن جماعها هي أربعة أشهر فإنْ رجع لجماعِها قبل انتهاء الأربعة الأشهر، أو فور انتهائها فإنَّ له ذلك، والله يغفر له إثمَ حرمان زوجته من الوطء تلك المدة، ورحيم به إذ أبقى له امرأته، ولم يفرض عليه كفارةً كسائر الأيمان. وإن قصد الطلاق عازمًا عليه فليبادرْ به فورًا، ولا يقصد الإضرار بها بتعليقها؛ فإنَّ الله سميع عليم، فيسمع طلاقها منه، ويعلم ما في قلبه من قصد، لا يخفى عليه شيء جلَّ وعلا.

ثم أَخبَر تعالى أنَّ على مَن طُلِّقت مِن النِّساء الحرائر المدخول بهنَّ إذا كنَّ ذوات حيض، ولسنَ بذات حمْل، ألَّا يسارعنَ إلى الزواج، بل ينتظرنَ مدة ثلاثة قروءٍ،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٨) ، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠).

والقرء (الطُّهر، أو الحيض)، ويحرم على المطلَّقات أن يخفين حيضهنَّ أو حملهنَّ؛ لِما يترتب على إخفائهما من مفاسد كثيرة، فإنَّ هذا الكتمان لا يصدر إلَّا ممَّن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وأزواجُهنَّ أولى بإرجاعهنَّ إنْ قصدوا إحداثَ ألفةٍ ومودَّةٍ بينهم، ما دمنَ في عدتهنَّ؛ سواء في حال تربُّصِهن ثلاثة قروءٍ، أو في أيام الحمل إن كانت الزوجة حاملًا، وهذا في حق مَن كان طلاقها رجعيًّا.

ثم أَخبَر تعالى أنَّ للزوجات عمومًا- مطلَّقات وغير مطلَّقات- حقوقًا، وعلى أزواجهنَّ القيام بها، فعليهنَّ حقوقٌ تجاه أزواجهنَّ، وعلى كِلا الطرفين القيام بما عليه من الحقوق بما جرَت به العادة، من غير ظلم ولا مخالفة لأمْر الله تعالى، ولأزواجهنَّ عليهنَّ زيادة في الحقوق؛ لِمَا للرَّجُل من فضلٍ على المرأة. والله تعالى ذو الغلبة التامَّة والقهر، ومن تمام غلبته وقهره انتقامه ممَّن خالف العمل بما شرَعه من الأحكام السابقة، حكيمٌ فيما شرَع وقدَّر.

ثم أخبر تعالى أنَّ للطلاق الذي يحلُّ للزوج إرجاع زوجته بعده حدًّا معينًا، وهو مرتان، فإذا طلَّق الرجل امرأته فإنَّه يُخيَّر ما دامت في العدَّة بأن يردَّها لعصمته ويعاشرها بما جرت به عادة النَّاس بلا ظلمٍ لها، أو يتركها حتى تنقضي عدَّتها، ويُطلِق سراحها محسنًا إليها دون أن يضرَّ بها. وإن اختار الطلاق فلا يحلُّ له أن يأخذ ممَّا أعطاها شيئًا، سواء كان مهرًا أو غيره، إلا عند الخوف -سواء من الزوجين أو أوليائهما- من عدم قيام أحد الزوجين بما له من حقوق تجاه الآخر، فلها حينئذٍ أن تخالعه، بأن تطلب منه مفارقتها مقابل عِوَض تُقدِّمه له، ولا حرجَ عليهما في ذلك، لا في دفعها له، ولا في قَبوله وأخْذه. وتلك الأحكام التي تقدَّمت هي من حدود الله، ومنهيٌّ عن تجاوز ما حدَّه الله تعالى، وقد عرَّفه وبيَّنه، ومَن تجاوزها فهو ظالمٌ حقيقةً، وذلكَ بفعله ما لا ينبغي له أن يفعله.

فإذا طلَّق الرجلُ زوجتَه الطلقةَ الثالثة فإنَّها تحرُمُ عليه، وليس بإمكانه إرجاعُها

إلا إذا تزوَّجت برجل آخر، ووقع بينهما جماع، فإذا طلقها الزوج الثاني وانقضت عدَّتها، فلا حرَجَ أن يُعِيدها الزَّوجُ الأوَّل إلى عِصمتِه بعقدِ نكاحٍ جديدٍ، بشَرْط أن يتيقَّنا أو يغلب على ظنِّهما أن تكون عشرتهما الجديدة بالمعروف، وأن يقوم كلٌّ منهما بما عليه من حقوقٍ تُجاه الآخَر. وما تقدَّم ذِكرُه من أحكام، من جملة شرائع الله تعالى التي يُوضِّحها لمن تَحَلَّوا بالعلم؛ لأنَّهم هم الذين يفهمونه فهمًا صحيحًا فينتفعون، وينفعون به غيرهم.

وإذا طلقتم- أيُّها الرجالُ- نِساءَكم طلاقًا رجعيًّا، فأوشكتْ عِدَّتهنَّ على الانقضاء، فإمَّا أن تُرجعوهنَّ إلى عِصمة النِّكاح عازمين القيامَ بحقوقهنَّ، أو تتركونهنَّ بلا رجعة ولا إضرار بهنَّ، حتى تنتهي عدتهنَّ، وقد نَهَى الله تعالى عن الإضرار بالنِّساءِ بأن يراجعوهنَّ عند اقترابِ انتهاء العِدَّة؛ لئلَّا يتزوَّجنَ غيرهم، أو لإطالة مدَّة العدَّة، أو لابتغاء طلب الخُلْع حتى يفتدينَ أنفسهنَّ؛ فيتجاوز هؤلاء الرِّجال بفعلِهم هذا، الحلال إلى الحرام، ومَن يفعل ذلك فقد أساء إلى نفسه، فالضرر عائدٌ إليه، لكسبِه بسببِ ذلك الإثمَ، واستحقاقه لعقوبة الله.

ثمَّ نهى سبحانه عن اتِّخاذ ما أنزله في كتابه من الأحكام موضعًا للسُّخرية واللعب والاستهزاء، وأمَر عباده أن يذكروا نعمَهُ التي لا تُعدُّ ولا تُحصَى عليهم، ومنها ما أوحاه الله عزَّ وجلَّ إلى نبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهذا شامل لكتاب الله عزَّ وجلَّ، ولسنَّة نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ المشتملة على الحكمة، فيُذكِّرهم الله تعالى وينصحهم بما أنزله فيهما ترغيبًا أو ترهيبًا. وأمرهم جلَّ وعلا بتقواه بأن يفعلوا ما أمرهم به، ويجتنبوا ما نهاهم عنه، ولْيتيقنوا أنَّ الله محيط بكلِّ شيء علمًا، لا يخفى عليه شيء.

ثم نهى اللهُ تعالى أولياءَ النِّساء أن يُضيِّقوا عليهنَّ، بمنعهنَّ من الرجوع إلى أزواجهنَّ الذين طلقوهنَّ طلاقًا رجعيًّا، في حال ما إذا أراد الأزواج إرجاعهنَّ

ورضيت المرأة بذلك، ووقع التراضي على المعاشرة بينهما بالمعروف، وهذا النهي يُذكِّرُ ويُزجر به مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر. وامتثالُ حُكم الله في ردِّ الأولياءِ النِّساءَ إلى أزواجهنَّ وعدم عضلهنَّ هو أفضلُ عند الله، وأطهرُ لقلوبهم من الآثامِ والعَدَاوات والرِّيبة، كما أنَّه أطهرُ للأعراض، والله يعلمُ بما يَنفع عبادَه في الدنيا والآخرة، وأمَّا العباد فلا يعلمون أينَ يكون الخير، إلَّا ما علَّمهم الله تعالى؛ لذا يجب التسليمُ لشرعه سبحانه، وإنْ جاء على خلافِ أهوائهم.

تفسير الآيات:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾.

أي: لا يُعاقب اللهُ تعالى عِبادَه- فلا تلزمهم كفَّارة في الدُّنيا ولا عقوبة تحلُّ بهم في الآخرة- لِما يَجري على ألسنتهم من الحَلِف على أمورٍ معتادةٍ لديهم، دون قصدٍ منهم إلى عَقد اليمين عليها، وكذا ما يَحلِفون عليه جازمين بصِدقه أو تحقُّق وقوعه، ويكون الأمرُ في الحقيقة على خلاف ما اعتقدوه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٣-٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢٠-٤٢١).

وممَّن نصَّ من السَّلَف على المعنى الأوَّل في كلمة ﴿اللَّغْوِ﴾: عائشةُ -في أحد قوليها- وابنُ عمر، وابن عبَّاس - في أحد أقواله - والشَّعبي، وعِكْرمة - في أحد قوليه - وعَطاء، والقاسم بن محمَّد، وعُروة بن الزبير، وأبو قِلابة، والضَّحَّاك -في أحد قوليه - وأبو صالح، والزُّهري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٠٨).

وممَّن نصَّ على المعنى الثاني: عائشة - في أحد قوليها - وأبو هريرة، وابن عبَّاس - في أحد أقواله - وسُليمان بن يَسار، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد - في أحد قوليه - والحسن، وإبراهيم، وزُرارة بن أَوْفى، وأبو مالك، وعَطاء الخُراساني، وبَكْر بن عبد الله، وهو أحَد قولي عِكرمة، وحبيب بن أبي ثابت، والسُّدِّي، ومكحول، ومقاتل، وطاوس، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس، ويَحيى بن سعيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٠٨).

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

أي: إنَّ العقوبة تقعُ على مَن قصد بقلبِه تعمُّد الحلف بالله تعالى كاذبًا، وأما مَن حلف على شيءٍ ثم حنث في يمينه فعليه أن يُكفِّر عنها في الدنيا، فإن لم يفعل فهو مُعرَّضٌ كذلك للعقوبة في الآخرة[١].

﴿وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يستُرُ على عِبادِه، ويتجاوزُ عنهم فيما لغَوا فيه من أَيْمان، فلا يُؤاخذهم بها في الدنيا بكفَّارةٍ، ولا في الآخرة بعقوبة، وكذا ما وجَبَ في الحِنث ببعضِ الأيمان من كفَّارة، جعَلَها الله تعالى مُغنِيةً عن عقوبة الآخرة. ولَمَّا كانت تلك الأيمانُ الواردةُ على سبيل اللَّغو من قبيل التقصيرِ في الأدبِ مع الله تعالى، جاءَ اقترانُ وصف الله عزَّ وجلَّ بمغفرة الذنوب مع وصفه بالحِلم؛ إذ لم يُعاجِلهم بعقوبة؛ جرَّاءَ تقصيرِهم في التأدُّب معه، أو يغضب لغفلتهم عنه في ذلك[٢].

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاؤُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى حُكم مُطلَق اليَمين في الآية السَّابقة ذَكَر بعده الإيلاءَ؛ لأنَّه حَلِفٌ مقيَّدٌ، فقدَّم المطلَق وأعقبه بالمقيَّد[٣]، فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤١-٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٩٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٩٣).
ونقَل ابنُ جرير الإجماعَ على أنَّ معنى قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: ما تعمَّدت. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٢٨٩).

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾.

أي: إنَّ مَن حلف ألَّا يجامع زوجته أكثر مِن أربعة أشهرٍ، فإنَّ أقصى ما يُمكنه انتظارُه أربعة أشهر دونَ جِماعِها[1].

﴿فَإِنْ فَاؤُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: إنْ رجع الزَّوج إلى زوجته فجامعها، فسواء وقع ذلك قبل انتهاء الأربعة أشهر أو فور انتهائها، فإنَّ له ذلك، ويغفر الله تعالى له حرمان امرأته من الوطء تلك المدَّة، فمغفرته سبحانه تُوجِب رفْعَ الإثم عنه، ورحمته عزَّ وجلَّ تُوجِب له بقاء امرأته، وأن تُفرَض عليه الكفَّارة، كما هي الحال في سائر الأيمان التي يُحنَث بها، والجزاءُ من جِنس العمل؛ فكما عاد إلى إرضاءِ زوجتِه، والإحسانِ إليها، عادَ اللهُ تعالى عليه بمغفرتِه ورحمتِه[2].

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كان الحالُ في مدَّة الإيلاء شبيهًا بحال الطَّلاق، وليسَا سواءً، قال سبحانه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٢، ٤٣، ٥١)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣٣/ ٥١-٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١).

قال السعدي: (هذا من الأيْمان الخاصَّة بالزوجة، في أمرٍ خاص وهو حلف الزوج على ترْك وطء زوجته مطلقًا، أو مقيدًا، بأقلَّ من أربعة أشهر أو أكثر. فمَن آلى من زوجته خاصَّة، فإنْ كان لدون أربعة أشهر، فهذا مثل سائر الأَيْمان، إنْ حنَثَ كفَّر، وإن أتمَّ يمينه، فلا شيء عليه، وليس لزوجته عليه سبيل؛ لأنَّه ملكه أربعة أشهر. وإن كان أبدًا، أو مدةً تزيد على أربعة أشهر، ضُربت له مدة أربعة أشهرٍ من يمينه، إذا طلبت زوجته ذلك، لأنه حقٌّ لها، فإذا تمت أُمر بالفيئة وهو الوطء، فإن وطئ، فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين، وإن امتنع، أُجبر على الطلاق، فإن امتنع، طلق عليه الحاكم ولكن الفيئة والرجوع إلى زوجته، أحبُّ إلى الله تعالى) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥١، ٥٢، ٦٠، ٦٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣٣/ ٥١-٥٢)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١).

مبيِّنًا أنَّ الطلاق لا يقعُ بمجرَّد مُضِيِّ الأربعة الأشهر، بل إمَّا أن يَفيء أو يُطلِّق، فإنْ أبى طلَّق عليه الحاكم، فقال سبحانه[1]:

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾.

أي: خيَّر الله تعالى المُولِي من زوجته بين شيئيْن: إمَّا أن يفيء إليها وإما أن يطلِّقها. ولَمَّا كان الرُّجوع إليها، أحبَّ إلى الله تعالى، بدأ به، فإذا قصد الزَّوج طلاقَها بعزمٍ تامٍّ، أي: بعد تأمُّلٍ فيه، واستقرار رأيه على مفارقة امرأته، فإنَّه يجب عليه أن يُطلِّقها مباشرةً، ولْيعلم أنَّ الله تعالى يسمع طلاقه حين يُطلِّق، وأنه مطَّلعٌ على ما في قلبه، فلْيحذر من المخادعة والتلاعب بأمر الله تعالى، بإرادة تعليقها والإضرار بها؛ فإنَّ الله تعالى لا يَخفى عليه شيءٌ، وسيُجازي عباده بأعمالهم، وليس منه مهربٌ جلَّ وعلا[2].

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ختَم الله تعالى آيتَي الإيلاء بالطَّلاق بيَّن عِدَّته، فقال تعالى[3]:

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾.

أي: إنَّ النِّساء الحرائر المدخول بهنَّ إذا كنَّ ذوات حيض وطهرٍ، ولسن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٨٦-٨٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣٣/ ٥٢)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٢٩٤).

بحوامل، وطلقهنَّ أزواجُهنَّ، فعليهنَّ ألَّا يعجلْنَ إلى الزواج، بل يحبسنَ أنفسهنَّ عنه مدَّة ثلاثة قروء. والقُرء قيل: هو الطُّهر، وقيل: هو الحيض[1].

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

أي: الذي نُهيَت المرأةُ المطلَّقة عن كتمانِه مِن مُطلِّقها ممَّا خلَق الله في رحِمها: الحيض، والحمل؛ فكتمان ذلك، يقود إلى شرور كثيرة؛ فإنَّها إذا كتمت حملها، أدَّى ذلك إلى إلحاق الجنين بغير مَن هو له، رغبة فيه، أو استعجالًا لانقضاء العدَّة، فإذا ألحقته بغير أبيه، حصلَتْ مفاسدُ أخرى كقطْع الرَّحِم، والإرث، واحتجاب محارِمه عنه، وربَّما يتزوَّج ذواتِ محارمه، وغير ذلك من المفاسِد. وكتمانُ الحيض، يكون بإخبارِها كذبًا بوجوده، وهذا يؤدِّي إلى انقطاع حق الزَّوج عنها، وإباحتِها لغيره ويتفرَّعُ عن ذلك من الشُّرور مثلُ ما سبَق، أو يكون بإخبارِها كذبًا بعدم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٨٧، ١٠٠-١٠٤)، ((جامع المسائل)) لابن تيميَّة (١/ ٢٥٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٩٦-٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٨٩-٣٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٩٨-٩٩).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ القرء هو الطُّهر: عائشة، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وابن عبَّاس، وسالم ابن عبد الله، والقاسم بن محمد، وعروة بن الزُّبير، وسليمان بن يَسار، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعطاء بن أبي رَباح، وقَتادة، والزُّهري، وأَبان بن عثمان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤١٤).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ القُرء هو الحيض: عمرُ بن الخطَّاب، وعثمان، وعليٌّ، وعبد الله بن مسعود، وابن عبَّاس في-رواية أخرى عنه-وأبو الدرداء، وعُبادة بن الصَّامت، وأبو موسى، وعمرو بن دينار عن أصحاب رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، والحسن، وعِكْرمة، والشَّعبي، وقَتادة-في إحدى الرِّوايات-والرَّبيع بن أنس، ومقاتل بن حَيَّان، والسُّدِّي، وعطاء الخُراساني، والضَّحَّاك، وإبراهيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤١٥).

ولكن ينصُّ بعضهم على انتهاء المُدَّة بالحيض فحسبُ، وبعضهم يقول: بانقطاع الدَّم، وبعضهم يقول: حتى تغتسل.

وجود الحيض؛ كي تطول العِدَّة، فتأخذ منه نفقةً غير واجبة عليه، وقد يُراجعها مُطلِّقُها بعد انقضاء العِدَّة، فيكون ذلك زنًا؛ لأنَّها لا تحلُّ له في هذه الحال؛ فنهاهنَّ الله عزَّ وجلَّ عن كتمانِ الحيض والحمْل، فهذا فِعلُ مَن لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخِر، ولا من أخلاقه، وفي هذا تهديدٌ لهنَّ على قول خلاف الحقِّ، فمَن آمَنت بالله تعالى واليوم الآخِر، وعرَفت أنَّها مجزيَّةٌ عن أعمالها، لم يصدُر عنها شيءٌ من ذلك؛ لأنَّ الإيمان بهما يحمِل الإنسان على فعل المأمورات، واجتناب المحظورات[1].

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾.

أي: إنَّ زوج المطلَّقة أحقُّ وأولى بإرجاعها إلى عصمتِه، ما دامتْ في عِدَّتها، أي: حال تربُّصها ثلاثة قروء، أو في أيَّام حملها إن كانت حاملًا، إذا قصد برجعتِها أن يُحدِث ائتلافًا والتئامًا بينه وبينها. (وهذا في المطلَّقة طلاقًا رجعيًّا، أمَّا البائن فلا رجعةَ له عليها)[2].

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

أي: إنَّ للزَّوجاتِ- سواء كنَّ مُمْسَكات أو مُطلَّقات- حقوقًا، وعلى أزواجهنَّ القيام بها تجاههنَّ، مثلما أنَّ عليهن تُجاه أزواجهن حقوقًا أيضًا، والقيام بها من قِبل الطرفين يكون بما جرت به العادة، من غير وقوع ظلمٍ، أو مخالفةٍ لأمر الله تعالى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١١٢-١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١-١٠٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٩٩-١٠٠).
وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ المنهيَّ عن كِتمانه هو الحَمْل والحيض: ابنُ عُمر، وابن عبَّاس، والشَّعبي، والحَكم بن عُتيبة، ومجاهد، والرَّبيع بن أنس، والضَّحَّاك، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١١٥، ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٠٢-١٠٣).
وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: (﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني في عِدَّتهن، وهذا ما لا خِلافَ فيه بين العُلماء أنَّه عُني به العِدة) ((الاستذكار)) (٥/ ٥٢٠).

ولكنْ للرِّجال عليهن زيادة في الحقوق لِمَا للرجل من فضلٍ على المرأة؛ بسبب الإنفاق عليها وغير ذلك[١].

﴿وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

بعد أنْ بيَّن الله تعالى بعض أحكامه، بيَّن أنَّ له الغلبة التامَّة والقهر، ومن ذلك انتقامه ممَّن خالف العمل بتلك الأحكام، وهو سبحانه حكيمٌ فيما شرع وقدَّر، إذ يضع كلَّ شيءٍ في موضعه اللَّائق به[٢].

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى حقَّ الرجعة الذي يُمكن الزَّوجَ، ذَكَر بعدَه غايةَ الطَّلاق الذي يملكُه الزوجُ من امرأته[٣]، فقال سبحانه:

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.

أي: إنَّ عدد الطَّلَقات التي يحلُّ للزَّوج بعدها رجعة زوجته، مرَّتان، فإذا طلق الرَّجُل زوجته، فإنَّه يُخيَّر بين أمريْن ما دامت عدَّتها باقية، إما أن يردَّها إليه ويعاشرها بما جرت به عادة النَّاس من غير ظلمٍ لها، وإمَّا أن يتركها حتى تنقضي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٢٠-١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠٩-٦١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٠٣-١٠٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٢٤-١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠٠-١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٠٣).

عدَّتها، ويُطلِق سراحها محسنًا إليها، دون أن يظلمها أو يضارَّ بها[١].

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿يَخَافَا﴾ قراءتان:

١- ﴿يُخَافَا﴾ بالبناء للمفعول، وتعني: أنَّ الخوف صادرٌ من غيرهما[٢].

٢- ﴿يَخَافَا﴾ بالبِناء للفاعل، وتعني: أنَّ الخوف صادرٌ من الزوجين[٣].

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾.

أي: إنَّه لا يحِلُّ لكم- أيُّها الرِّجال- إذا أردتم طلاق زَوجاتكم أنْ تأخذوا ممَّا أعطيتموهنَّ شيئًا من المهر أو غيره، إلَّا في حالة واحدة وهي أن يَخشَى الزَّوجانِ، أو أولياؤهما كأقاربهما، من عدمِ قِيام كلِّ واحدٍ منهما بما له على الآخَر من حقوق، وذلك كأنْ تُبغِضَ الزوجةُ زوجَها، ولا تَقدِرَ على مُعاشرتِه؛ لسوء خُلُقه، أو لغير ذلك من أسباب، فتَخشى هي أو غيرها من عدم القيام بحقوق زوجها على الوجه المأمورِ به شرعًا، ويخشى الزَّوج أو غيره من عدم القيام بحقوق زوجته؛ بسبب نُفورِها منه، وبُغضها له، أو تَقصيرِها نتيجةَ ذلك في حقوقه- فلها حينئذٍ أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٢٩-١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦١٠-٦١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٠٤-١٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠٨).

(٢) قرأ بها أبو جعفر، ويعقوب، وحمزةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٥٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٣٥).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٥٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٣٥).

تُخالعه، أي: تطلُب منه فراقَها مُقابلَ عِوَض تُقدِّمه له، ولا حرجَ عليها في دفْعه، ولا حرجَ عليه في قَبوله وأخْذه[١].

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

أي: إنَّ ما تقدَّم من الأحكام التي شرَعها الله تعالى لعباده، فعرَّفها لهم، وبيَّنها، قد أمرهم سبحانه بالوقوف عندها، وعدم تجاوزها إلى نواهيه، فإنَّ مَن تخطَّى أمره ووقع في نهيه، فإنَّه هو الظالِم حقيقةً؛ إذ فَعَل ما لا ينبغي له فعلُه، وتعامل مع أوامر الله عزَّ وجلَّ بما لا تستحقُّه[٢].

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كانت الرَّجعةُ والخُلع لا يصحَّانِ إلَّا قبل الطَّلقة الثالثة، وأمَّا بعدها فلا يبقى شيءٌ من ذلك، ذكَر الله حُكم الرَّجعة، ثم أتْبعه بحُكم الخُلع، ثم ذكر بعد الكلِّ حُكمَ الطلقة الثالثة؛ لأنَّها كالخاتمة لهذا الأمر، فقال تعالى[٣]:

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٣٤-١٣٧، ١٤٦-١٤٧، ١٦٢-١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦١٢-٦١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٤١-١٤٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠٨-١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٤٨).

أي: إذا طلَّق الرَّجُل امرأتَه الطلقة الثالثة، فإنَّها تحرُم عليه، وليس في مقدوره إرجاعُها، إلَّا أنَّها لو تزوَّجت بآخر، بعقدِ نكاحٍ صحيح، وجامعها الزوج الثاني، وكان هذا الزواج واقعًا عن رغبةٍ حقيقية، لا بقصد تحليل المرأة إلى زوجها الأوَّل، فلو طلَّقها زوجُها الثاني وانقضَتْ عِدَّتها، فلا حرجَ حينئذٍ أن يُنشِئَا- الزَّوج الأوَّل والمرأة- عَقْدَ نِكاحٍ جديدًا بينهما، شريطةَ أن يُوقِنا أو يغلب على ظنِّهما أن يتعاشرَا بالمعروف، وأن يقوم كلٌّ منهما بحقوق الآخَر كما ينبغي[(١)].

عن عائشة رضي الله عنها: ((أنَّ رِفاعَةَ القُرَظِيَّ طلَّق امرأتَه فبَتَّ طلاقَها، فتزوَّجَها بعدَه عبدُ الرحمنِ بنُ الزَّبِيرِ، فجاءتِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالتْ: يا رسولَ اللهِ، إنها كانتْ عِندَ رِفاعَةَ فطلَّقها آخرَ ثلاثَ تطليقاتٍ، فتزوَّجها بعدَه عبدُ الرحمنِ بنُ الزَّبِيرِ، وإنَّه واللهِ ما معَه يا رسولَ اللهِ إلَّا مثلُ هذه الهُدبَةِ[(٢)]، لُهدبَةٍ أخذَتْها من جِلبابِها، قال: وأبو بكرٍ جالسٌ عِندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وابنُ سعيدِ بنِ العاصِ جالسٌ ببابِ الحُجرةِ ليُؤذَنَ له، فطَفِقَ خالدٌ يُنادي أبا بكرٍ: يا

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٢١-٦٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٣٣-١٣٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١١٦).

قال ابنُ عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ الآية، المعنى: إنْ طلَّقها المتزوِّج الثاني فلا جُناحَ عليهما، أي: المرأة والزوج الأوَّل؛ قاله ابن عبَّاس، ولا خِلافَ فيه) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٠٩).

وقال القرطبيُّ: (المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الطلقةَ الثالثة، ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾. وهذا مُجمَعٌ عليه لا خِلافَ فيه) ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٤٧).

قال ابنُ جرير: (فمعلوم أنَّ تأويل قوله: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] نكاحًا صحيحًا، ثم يجامعها فيه، ثم يُطلِّقها. فإنْ قال: فإنَّ ذِكر الجِماع غيرُ موجود في كتاب الله تعالى ذكره، فما الدَّلالة على أنَّ معناه ما قلت؟ قيل: الدَّلالة على ذلك إجماع الأمَّة جميعًا على أنَّ ذلك معناه) ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٦٩).

(٢) الهُدْبة: طَرَف الثَّوب ممَّا يلي طُرَّتَه، وأرادتْ بقولها: ((ما معه مِثلُ هُدبة الثَّوب)) مَتاعَه - أي: ذَكَره- وأنَّه رخوٌ مثل طرَف الثَّوب، لا يُغني عنها شيئًا. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٤٩).

أبا بكرٍ، ألا تَزجُرُ هذه عمَّا تَجهَرُ به عِندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ وما يَزيدُ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على التَبَسُّمِ، ثم قال: لعلكِ تُريدينَ أن تَرجِعي إلى رِفاعَةَ، لا، حتى تَذوقي عُسَيلَتَهُ ويَذوقَ عُسَيلَتَكِ))[1].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

لَمَّا بيَّن الله عزَّ وجلَّ تلك الأحكام العظيمة، أشار إلى أنَّها من جُملة شرائعه التي يُوضِّحها توضيحًا كاملًا لمَن كان العلم سجيَّتَهم؛ إذ يملكون الاستعدادَ لفَهمه وقَبوله، فيفهمون الأحكام فهمًا صحيحًا يقودُهم للعمل بها كما ينبغي دون تحيُّل، فينتفعون بها وينفعون غيرهم[2].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

جاءتْ هذه الآية عطفًا على قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا...﴾ الآية، عطفَ حُكمٍ على حُكم؛ لقصدِ زيادة الوصاةِ بحُسن المعاملة في الاجتماع والفرقة، وما يتبع ذلك من تحذير، فقال تعالى[3]:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٨٤) واللفظ له، ومسلم (١٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٢٠-٤٢١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٢١).

أي: إذا طلَّقتم- أيُّها الرِّجال- نِساءَكم، طلاقًا لكم عليهنَّ فيه رجعةٌ- وذلك في التطليقة الواحدة، والتطليقتين- فقاربْنَ انقضاء عدتهنَّ، وأشرفْنَ على بلوغ أجلهن، فإما أن ترجعوهنَّ إلى عصمة النكاح بإشهادٍ على الرَّجعة، والتزامٍ بحُسن الصُّحبة، وطِيب العِشرة بما يتعارف عليه النَّاس، دون إخلالٍ بمأمور، أو وقوعٍ في محظور، أو اتركوهنَّ يَقضين تمام عدتهنَّ، ثم فارِقوهنَّ وأوفوهنَّ تمام حقوقهنَّ عليكم من مهرٍ ومتعةٍ ونفقةٍ، وغير ذلك، من غير مخاصمةٍ، ولا شقاقٍ، ولا إضرار[1].

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

أي: لا يكُن إرجاعُكم لنسائكم مع قُرب انقضاء عِدَّتهن لأجْل المضارَّة بهنَّ؛ لئلَّا يتزوَّجْنَ بغيركم، أو لتطوِّلوا عليهنَّ مدَّة العِدَّة، أو لدفعها إلى ابتغاء طلب الخُلع منكم؛ كي تنالوا منهنَّ فدية في سبيل الخَلاص منكم، فكلُّ ذلك تجاوزٌ لما أمر الله تعالى به من إمساكهنَّ بمعروفٍ أو مفارقتهنَّ بإحسان، ومَن يَقُمْ بتلك الاعتداءات، فالضررُ عائدٌ عليه حقًّا، فبذلك يُكسب نفسه آثامًا، ويستحقُّ عقاب الله تعالى[2].

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٧٨-١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٤٩).

وقال القرطبيُّ: (قوله تعالى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ معنى ﴿بَلَغْنَ﴾ قارَبْن، بإجماعٍ من العلماء) ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٧٨-١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٠٣، ١٤٩).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن مجاهد يَعني قوله: ﴿ولا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ نَهى عن الضِّرار، والضرار في الطلاق: أن يُطلِّق الرجلُ المرأة، ويراجعها ثلاثَ مرَّات عند آخِر يوم يبقَى من الأجَل، حتى يفِي لها تسعةَ أشهر، يضارُّها. قال أبو محمَّد: ورُوي عن مسروق، وقَتادة، والحسن، ومقاتل بن حَيَّان، والرَّبيع بن أنس، والسُّدِّي، نحوُ ذلك. قال أبو محمَّد: ورُوي عن الضَّحَّاك، والرَّبيع بن أنس نحوُه، غير أنَّهما قالا: راجعَها؛ رجاءَ أن تختلعَ منه بمالها) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٢٥).

أي: لا تَجعلوا ما أَنزل اللهُ تعالى لكم في كتابه، من تلك الأحكام العِظام، في موضع السُّخرية والاستهزاء واللَّعب بها، بحيث تتركون العمل بها تجرُّؤًا واستخفافًا؛ فالله تعالى لم يُنزلها عبثًا، بل أنزلها بالحقِّ والصِّدق؛ لأجْل العمل على وَفْقها[١].

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾.

أي: اذكروا نِعَم الله تعالى التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى عليكم، ومن ذلك نِعمة الإسلام وما يَحويه من أحكامٍ عِظام، فيها ما يدعو الزَّوجين لتجديد الوئام، أو المفارقة الحَسَنة بعد تَعذُّر الالتئام، فاذكروه سبحانه باللِّسان حمدًا وشكرًا، وبالقلب اعترافًا وتفكُّرًا، وبالجوارح سعيًا وعملًا، ومن تلك النِّعم ما أنزله الله تعالى من الوحي إلى نبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهذا يَشمل كتابَ الله عزَّ وجلَّ، وسُنَّةَ رسوله عليه الصَّلاة والسلام المشتملة على الحِكمة، ومن ذلك ما فيها من ترغيبٍ وترهيب، والله تعالى يُذكِّركم ويَنصحُكم بما أنزله، إمَّا ترغيبًا بما يُليِّن قلوبَكم للخير، وإمَّا ترهيبًا بما يحذِّركم ويزجركم عن الشرِّ[٢].

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: اتَّقوا الله عزَّ وجلَّ في جميع أموركم، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فالتزموا بأحكامه، ولا تتجاوزوا حدوده، وليكن معلومًا لديكم علمًا يقينيًّا أنَّ الله تعالى محيطٌ بكل شيء علمًا، لا يخفى عليه شيءٌ مطلقًا، فيعلم ما تأتون وما تذرون، ويُجازيكم على ذلك بحسَبه، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر، ومِن كمال

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٨٣-١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٨٥-١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٢٤-١٢٥).

عِلمِه سبحانه أيضًا أنْ شرَع تلك الأحكامَ التي هي في غاية الإحكام، وصالحة في كلِّ زمان ومكان[١].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)﴾.

سبب النُّزول:

عن الحسن البصريِّ، أنَّه قال في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾: حدَّثني مَعقِل بن يَسَار أنَّها نزلت فيه، قال: ((زوَّجت أختًا لي من رجل فطلَّقها، حتى إذا انقضت عِدَّتها جاء يَخطُبها، فقلت له: زوَّجتُك وفرشتُك وأكرمتُك، فطلقتَها، ثم جئتَ تخطبها، لا واللهِ لا تعود إليك أبدًا، وكان رجلًا لا بأس به، وكانت المرأة تُريد أن ترجِع إليه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوَّجها إيَّاه))[٢].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

أي: وإذا طلَّق الرِّجال نساءَهم طلاقًا يمكن إرجاع الواحدة منهن فيه- وذلك في التطليقة الواحدة، والتطليقتين- فانقَضَت عِدَّتُها، وأراد الزوج إرجاعها، ورضيتْ هي بذلك، فحينئذٍ لا يجوزُ لوليِّها- ما دام قد وقَع بينهما التراضي على المعاشرة الحَسَنة، من غير وقوع منكرٍ شرعًا وعُرفًا- أن يُضيِّق عليها بمَنْعها من التزوُّج به؛ غضبًا ونفورًا منه؛ لتطليقِه لها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٢٥).

(٢) رواه البخاري (٥١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٩٣-١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣١)، ((تفسير السعدي)) =

﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

أي: إنَّ نهي الأولياءِ عن عَضْلهنَّ في تلك الحال، إنَّما يُوجَّه إلى مَن يَلين قلبه بالذِّكرى، ويخاف منزجرًا عن الوقوع في الحرام، وهم الذين يؤمنون بالله تعالى وبالدار الآخرة؛ لأنَّ الإيمان بهما يُحقِّقُ خشية الله تعالى، وخوف الحساب والجزاء، فهؤلاء هم الذين ينتفعون حقًّا بتلك الموعظة(١).

﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.

أي: اتِّباعُكم- يا أولياءَ النِّساءِ- شَرْعَ الله عزَّ وجلَّ في رَدِّهنَّ إلى أزواجهنَّ، وتَرْك عضلهنَّ، خيرٌ لكم وأفضلُ عند الله تعالى، وأطيبُ لنفوسكم، وأطهرُ لقلوبكم من الذُّنوب، ومن العداوات، ومن حصول الرِّيبة، وأطهرُ لعِرْضكم كذلك؛ لأنَّه إذا كان بين الزَّوجين حبٌّ ومودَّة، فقد يَتجاوزانِ ذلك إلى الوقوع في الحرام، وقد يَرتاب فيهما وليُّها وهُما بَريئانِ من ذلك(٢).

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فلا تستغربوا أنْ أمركم الله عزَّ وجلَّ بخلاف ما جرت به عادتُكم من عضلهنَّ، بل امتثلوا أمْر مَن هو عالِمٌ بمصالحكم وما فيه خيركم ونقاؤكم وطُهركم في الدُّنيا والآخِرة، وذلك في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه، أمَّا أنتم- أيُّها العبادُ- فلا تعلمون أين الخِيَرة فيما تأتون وتتركون، إلَّا ما علَّمكم الله تعالى(٣).

= (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٣٥-١٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٩٦-١٩٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٩٧-١٩٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٣-١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٩٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٤٠)، ((تفسير =

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ للقلوب كسبًا، كما للجوارح؛ فأمَّا ما حدَّث به الإنسان نفسه دون اطمئنان إليه، فإنَّه لا يؤاخذ به؛ لأنَّه ليس بعمل، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[(١)].

٢- أنَّ رجوع الإنسان عمَّا هو عليه من المعصية سببٌ للمغفرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَاؤُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[(٢)].

٣- أنَّه ينبغي تحذير المؤتَمن- الذي لا يَعلم بأمانتِه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ- من عذاب اليوم الآخِر، إنْ هو لم يقُمْ بواجب الأمانة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[(٣)].

٤- يُستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ اعتبار المفاسد، وسلوك الأهون لدفع الأشدِّ؛ لأنَّ الأخذ من مال الزوجة محرَّم بلا شكٍّ؛ لكن إذا أريد به دفْع ما هو أعظم من تضييع حدود الله عزَّ وجلَّ، صار ذلك جائزًا[(٤)].

٥- الاكتفاء بالظنِّ في الأمور المستقبلة؛ لأنَّ طلب اليقين في المستقبل من باب التكليف بما لا يُطاق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾؛ وقد قال الله-

---

= ابن كثير)) (١/ ٦٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١١٣).

تبارك وتعالى -: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فقال: ((قد فعلتُ)) كما في الحديث[(١)].

٦- أنَّه لا يَعرِف هذه الحدودَ، ويتبيَّنها إلَّا مَن كان من ذوي العِلم؛ فكلَّما كان أعلمَ كانت الحدود في حقِّه أبينَ وأظهر؛ فطالب العلم يتعلَّم من اللَّفظ مسائل أخرى؛ فالعلم يُغذِّي بعضه بعضًا؛ وطالب العلم رابحٌ بكلِّ حال؛ فهو ليس كطالب المال قد يشتري السِّلعة وهو يظنُّ الرِّبحَ، ثم يخسر؛ فطالب العلم إذا تعلَّم مسألة، فإنَّها مفتاح له لأبواب أخرى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[(٢)].

٧- في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾: إغراء المخاطَب باجتناب ظلم غيره؛ لأنَّ الظالم قد يَظنُّ أنَّه منتصرٌ على المظلوم؛ فإذا علِم أنَّه ظالم لنفْسه تهيَّب ذلك، واستقام على العَدل[(٣)].

٨- أنَّ الاتِّعاظ بأحكام الله تزكية للنفس؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ﴾؛ فهو ينمِّي النفس، وينمِّي الإيمان، وينمي الأخلاق، ويُنمِّي الآداب؛ فكلَّما كان الإنسان أشدَّ تطبيقًا لأحكام الله كان ذلك أزكى له[(٤)].

٩- أنَّ تطبيق الأحكام أطهرُ للإنسان، أي: أطهرُ للقلب؛ لأنَّ الأعمال الصالحة تُطهِّر القلب من أرجاسِ المعاصي؛ ولذلك تجد عند الإنسانِ المؤمنِ من الحيوية، والنشاط، والسرور، والفرح ما ليس عند غيرِه؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ﴾[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١١٩).
والحديث أخرجه مسلم (١٢٦) من طريق ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٢٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٢٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٤١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- يُستفاد من قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، عدمُ مؤاخذة العبدِ بما لم يَقصدْه في لفظه؛ وهذه الفائدة تُعَدُّ قاعدة عظيمة تترتَّب عليها مسائلُ كثيرة؛ منها: لو جرى لفظُ الطلاق على لِسانه بغير قصدٍ لم تطلق امرأته؛ ولو طلَّق في حال غضبٍ شديدٍ لم تطلق امرأته؛ ولو قال كفرًا في حال فرحٍ شديد لم يَكفُر[١].

٢- أنَّ الطلاق بيَدِ الزوج؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾؛ والضمير يعود على (الذين يُؤلُون من نِسائهم)[٢].

٣- أنَّ الطلاق لا يقع بمجرَّد تمام مدَّة الإيلاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾[٣]. وفي هذا إشارة إلى أنَّ الفَيْئة أحبُّ إلى الله تعالى من الطلاق[٤].

٤- قوَّة الداعي في المرأة للزواج؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾؛ فكأن النفس تحثُّها على أن تُنهِيَ عَلاقتها بالأول، وتتزوج؛ فقيل: (تربصي بنفسك) أي: انتظري[٥].

٥- استعمال الاحتراز؛ فلا ينبغي الإطلاقُ في موضعٍ يخشى فيه من التعميم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[٦].

٦- أهميَّة النِّكاح، وبيان أنَّه راجع إلى الأسرة كلِّها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٩٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩٧-٩٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٠١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٠٥).

أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾، ولم يقل: فإنْ خافا[١].

٧- عناية الله سبحانه وتعالى بعباده في بيان ما يجب عليهم في عبادتهم، وفي معاملة بعضهم لبعض حتى لا تحصُل الفوضى المؤدِّية إلى النِّزاع[٢].

٨- أنَّه إذا لزِم من فِعل المباح شيء محرَّم صار الشيء المباح حرامًا؛ لأنَّ رجوع الزوجة حلال في الأصل؛ فإذا لم يظنَّ الإنسان أنَّه يقوم بالحدود صار حرامًا؛ وهو في الأصل حلال، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾[٣].

٩- عناية الله عزَّ وجلَّ بعباده في أن يتعاملوا بينهم بالمعروف، سواء في حال الاتِّفاق، أو في حال الاختلاف؛ لأنَّ ذلك هو الذي يُقِيم وَحْدة الأمة؛ فإنَّ الأمَّة إذا لم تتعامل بالمعروف- بل بالمنكر، والإساءة- تفرَّقت، واختلفت؛ فالأمَّة الإسلاميَّة أمَّة واحدة، كما قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣][٤].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا﴾ دلالةٌ على أنَّ المعصية نوع من الاستهزاء بالله عزَّ وجلَّ- وإن كانت لا تُخرِج الإنسانَ من الإسلام[٥].

١١- أنَّ منَّةَ الله علينا بإنزال الكتاب والحِكمة أعظمُ من كلِّ مِنَّة؛ وذلك لتخصيصِها بعد تعميمِ النِّعم؛ لأنَّ التَّخصيص بعد التَّعميم يدلُّ على أهميتها، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٢٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٣٢).

يَعِظُكُمْ بِهِ﴾[١].

١٢- أنَّه لا بدَّ في النِّكاح من وليٍّ؛ فالمرأة لا تزوِّج نفسها؛ لأنَّه لو كانت تملك العقد لنفسها لما كان للعضل أي تأثير؛ ولما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾[٢].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾

- خبَرٌ في مَعْنَى الأمْر، وأصل الكلام: وليتربَّصِ المطلقات، وفائدة إخراج الأمْر في صورة الخبر التأكيدُ للأمر، والإشعار بأنَّه ممَّا يجب أن يُتلقَّى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهنَّ امتثلن الأمر بالتربُّص، فهو يُخبِر عنه كأنَّما وُجِد؛ مثل قولهم في الدُّعاء: رحِمك اللهُ، أُخرج في صورة الخبر؛ ثِقةً بالاستجابة، كأنَّما وُجِدت الرحمة، فهو يُخبِرُ عنها[٣].

- وفيه تقديمُ الاسم (المُطلَّقات) على الفِعل (يَتربَّصْن)، وهذا يُفيد من التأكيد والقوة ما لا يُفيده العكس (يتربَّص المطلقات)[٤].

٢- قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرارًا لِتَعْتَدُوا﴾ هذا كالتوكيد لقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ فنَهاهم ألَّا يكون الإمساكُ ضرارًا[٥].

٣- قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٢٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٤٨٩).

- ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ﴾: فيه إبراز (الحدود) بالاسم الظَّاهر، لا بالضمير؛ للدَّلالة على تعظيم حدود الله تعالى[١].

- وفي تَكرار الإضافة في ﴿حُدُودُ اللهِ﴾ تخصيصٌ لها وتشريف، ويُحسِّن التَّكرارَ بالظاهر كونُ ذلك في جُملٍ مختلفة[٢].

- ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: فيه حصْر الظلم في حدود الله تعالى، وتأكيدٌ بالإتيان به في الجملة الاسميَّة الخبريَّة؛ للدَّلالة على أنَّ التعدِّي لحدود الله ظلم عظيم[٣].

٤- **قوله**: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ﴾ تخصيصٌ بعدَ تعميم؛ إذ هو معطوفٌ على ﴿نِعْمَةَ اللهِ﴾، وهو مِن النِّعمة، وهذا يُسمَّى التجريد[٤].

٥- وقد تضمَّنت هذه الآية: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ...﴾ والتي تليها، أنواعًا من ضروب الفَصاحة والبَلاغة، من عِلم البيان[٥]:

- منها: الطِّباق[٦]: بين الطلاق والإمساك؛ فإنهَّما ضدان، والتسريح طباق

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٤٩١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٩٥).

(٦) **الطِّباق**: هو الجمْع بين متضادين مع مراعاة التقابل، كالبياض والسواد، والليل والنهار، وهو قسمان: لفظي، ومعنوي؛ **فمِن الطِّباق اللفظي**: قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَق بين الضَّحك والبكاء والقليل والكثير. **ومن الطِّباق المعنوي**: قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبنَا يَعْلَمُ إِنا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥-١٦]؛ معناه: ربُّنا يعلم إنَّا لصادقون. ومنه **طباق ظاهر**: وهو ما كان وجه الضدية فيه واضحًا. **وطباق خفي**: وهو أن تكون الضِّديَّة في الصورة متوهَّمة، فتبدو المطابقة خفيَّةً لتعلق أحد الركنيين بما يقابل الآخَر تعلُّقَ السببية أو اللزوم، كقوله =

ثانٍ؛ لأنَّه ضد الإمساك، وبين العِلم وعدَم العلم؛ لأنَّ عدم العلم هو الجهل.

- ومنها: المقابلة[١] في ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾؛ قابَل المعروف بالضرار، والضرار منكَر؛ فهذه مقابلة معنويَّة.

- ومنها: التَّكرار في: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ كرَّر اللفظ لتغيير المعنيين.

- ومنها: الالتِفات في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، ثم التَفت إلى الأولياء، فقال: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾.

= تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإن إدخال النار يستلزم الإحراقَ المضادَّ للإغراق، ومنه: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حياة﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القصاص القتل فصار القتْل سبب الحياة. وهذا من أملح الطِّباق وأخفاه. يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤٥٥-٤٥٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(١) **المقابلة**: هي ذِكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخالفه في بعضها، وهي قريبة من الطِّباق، والفرق بينهما من وجهين: الأول: أنَّ الطباق لا يكون إلا بين الضدين غالبًا، والمقابلة تكون لأكثر من ذلك غالبًا. والثاني: لا يكون الطباق إلَّا بالأضداد، والمقابلة بالأضداد وغيرها؛ ولهذا جعل بعض العلماء الطباقَ أحدَ أنواع المقابلة. وللمقابلة عدة أنواع وتقسيمات. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٣ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤٥٨ وما بعدها).

الآيات (٢٢٢ - ٢٤٢)

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى
ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ
بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ
مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا
سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ
يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ
أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ
أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟
قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ
قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن
قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ
يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ
بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ
وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ
كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ
أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿حَوْلَيْنِ﴾: مثنَّى حَوْل، وهو العام، وأصله: تحرُّك في دَور، وقيل للعام: حولٌ؛ لأنَّه يَحولُ، أي: يدور[١].

﴿وُسْعَهَا﴾: أي: طاقتها، وقُدرتها[٢].

﴿فِصَالًا﴾: فطامًا، وهو التَّفريق بين الصَّبيِّ والرَّضاع؛ يقال: فَصَلتُ الصبيَّ؛ إذا فطمته، ومنه قِيل لولد الناقة إذا قُطِع عن الرَّضاع: فصيل؛ لأنه فُصِل عن أمِّه. وأصل الفَصْل: التفريق، وإبانةُ أحدِ الشَّيئين من الآخَر حتى يكون بينهما فُرجة[٣].

﴿عَرَّضْتُم﴾: التَّعْرِيضُ: الإيماءُ والتَّلويح، من غير كَشْفٍ ولا تصريح[٤].

﴿أَكْنَنتُمْ﴾: سترتُم، وأَضْمَرتُم، مِن أكننتُ الشيء، أي: سترتُه وصُنته[٥].

﴿تَعْزِمُوا﴾: أي: تُوَاقِعوا وتُمضوا، مِن العَزْم والعَزيمة: وهو عقْد القلْب على إمضاء الأمْر[٦].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥).

﴿عُقْدَة﴾: اسم لِمَا يُعقد من نِكاح أو يمين أو غيرهما، وعقْدة كلِّ أمْر: إيجابه وتوثيقه. وأصلُه: الشَّدُّ، وشِدَّة الوثوق[١].

﴿قَانِتِينَ﴾: مُداومين على الطاعة، والقنوت: دوام الطَّاعة، ولزومها مع الخضوع؛ وأصل قنَت: يدلُّ على طاعةٍ وخيرٍ في دِين[٢].

﴿فَرِجَالًا﴾: أي: مُشَاةً؛ جمْع رَاجِل، اشتُقَّ من الرِّجْل للماشي برِجْله[٣].

مشكل الإعراب:

١- قوله: ﴿لا تُضارَّ والدةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾:

﴿لا تُضارَّ﴾: على قراءة فتح الراء مع التَّشديد؛ فـ(لا) ناهية جازمة، و(تضار) مضارع مجزوم، وسُكِّنت الراء الأخيرة للجزم، وقبلها راء ساكنة مُدغمة فيها، فالْتقى ساكنان؛ فحُرِّكت الثانية بالفتح؛ لأجْل الألفِ قبلها. وعلى قراءة رفْع الراء مشدَّدة: فـ(لا) نافية لا عَملَ لها، و(تضارُّ) فعل مضارع مرفوع؛ لأنَّه لم يدخلْ عليه ناصب ولا جازم.

وأصل (تضارَّ): تضارر، ويحتمل في الرَّاء الأولى منه الفتح (تُضارَر) فيكون الفعل مبنيًّا للمفعول، وتكون (والدةٌ) مفعولًا لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه، وحذف الفاعل للعلم به. ويحتمل أن تكون الراء مكسورة (تُضارِر) فيكون الفعل مبنيًّا للفاعل، وتكون (والدةٌ) حينئذٍ فاعلًا، والمفعول على هذا الاحتمال: محذوف، تقديره: لا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥ وما بعدها)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٤).

تُضارِر والدةٌ زوجَها بسبب ولدِها. ولا يُضارِر مولودٌ له زوجتَه بسببِ ولده[١].

٢- **قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ... مَتَاعًا﴾: متاعًا**: منصوب على أنَّه اسم مصدر لفِعلٍ محذوف دلَّ عليه ما قبله (متعوهن)، والتقدير: متعوهنَّ متاعًا. واسم المصدر (متاعًا) جرى مجرَى المصدر (تَمتيع).

ويجوزُ نصبُه على أنه حالٌ من الضَّمير المستكنِّ في (على الموسِع)، والتقدير: قدرُ الموسع يستقرُّ عليه في حالِ كونه متاعًا[٢].

٣- **قوله: ﴿فنِصفُ مَا فَرضتُم﴾**:

﴿**فنِصفُ**﴾: الفاء رابطة لجواب الشَّرط. **ونِصف**: مرفوعةٌ مبتدأ، والخبرُ محذوف، والتقدير: فعليكم نصفُ ما فرضتم. أو خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: فالواجبُ نصفُ...إلخ. وقُرئ بالنَّصب، على أنَّه مفعول به لفِعل محذوف، أي: فأدُّوا نِصفَ ما فرضتُم[٣].

٤- **قوله: ﴿غيرَ إخراجٍ﴾**:

﴿**غيرَ**﴾: منصوب، على أنه نعت لـ﴿مَتَاعًا﴾ أو بدلٌ منه. أو منصوب على أنَّه حال من الزَّوجات، أو على أنَّه حال من الموصِين، والتقدير: غيرَ مخرجاتٍ، أو: غير مُخرِجين لهم. وقيل غير ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٣٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٤٦٧-٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٣٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٣٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٣٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٠٤).

المعنى الإجمالي:

يُرشِد الله تعالى الأُمَّهات إلى أن يقُمنَ بإرضاع أولادهنَّ عامين تامَّيْن، إن اتفَّق مطلوب الأب والأمِّ، أو رغب أحدهما في إكمال الرَّضاعة، وفي حال قيامهنَّ بذلك فعلى الأب أن يُقدِّم للأمِّ ما يقوتها من طعام، وما يكسوها من ملبسٍ، بما يتَعارَف النَّاس عليه، ومن غير سرفٍ ولا إقتارٍ، فلا يُوجِب اللهُ على أحدٍ إلا ما أطاقه، وحرَّم اللهُ على الأمِّ أن ترفض إرضاعَ ولدها، أو تطلب أكثر من أُجرة مثلها إضرارًا بأبيه، وحرَّم كذلك على الأب أن يمنعها من إرضاع ولدها إضرارًا بها. وأوجب سبحانه على وارثِ الطفل الذي تُوُفِّي أبوه مثل ما على الأب من النَّفقة والكُسوة لوالدته وعدم الإضرار بها. وأباح الله للوالدين فطامَ المولود قبل انتهاء العامينِ إذا وقع ذلك عَقب تراضٍ منها على فطامِه وتشاورٍ، بحثًا عن مصلحة المولود. كما أباح الله تعالى للآباء أن يبتَغوا لأولادِهم مُرضعات غير أُمَّهاتهم إن كان لا يقصد الإضرار بهنَّ، وإنما لوجود سببٍ يقتضي ذلك، فلا حرج حينئذٍ في هذا الأمر إذا دفَع الوالد أُجرةَ المرضعة، وأوفاها حقَّها تامًّا غيرَ مماطل فيه. ثم يأمر تعالى بتقواه؛ بامتِثال أمْرِه، واجتناب نهيه، وأن يتيقَّنوا أنَّه لا يَخفى عليه شيء سبحانه.

وإذا تُوُفِّي الزَّوجُ فقد أوجب الله سبحانه على زوجتِه أن تعتدَّ من بعدِه، وذلك بحبْسها نفسَها عن الزواج والطيب والزينة والخروج من البيت لغير ضرورة، لمدَّة أربعة أشهر وعشرة أيام- وهذا لغير الحامل فإن عدَّتها تنتهي بوضعها للحمل- فإذا انقضَت هذه المدَّة فلا حرج حينها على أولياء المعتدَّة فيما تفعله في نفسِها من زينة وطيب، ونكاح حلال ونحوه مما أباحه الله تعالى لها. والله تعالى عالمٌ بالسرائر؛ فالتزموا بأحكامه ولا تخالفوها؛ فإنَّه مجازيكم على ذلك.

ولوجوبِ حبْس المعتدَّات أنفسَهنَّ عن النكاح فترة العدَّة لا يجوز للرجال التَّصريح لهنَّ بالنكاح، لكن لا حرجَ من التَّلميح لهنَّ من غير تصريحٍ بالرغبة في

الزواج منهنَّ، كما أنَّه لا حرج أيضًا فيما انطوت عليه أنفسُ الرجالِ من العزم على نكاح المعتدَّات بعد انقضاءِ زمن عدَّتِهنَّ. فقد علِم الله أنَّهم سيذكرون لمن هنَّ في العدَّة رغبتهم في الزواج بهنَّ علانيةً، أو سيُضمِرون تلك الرغبة في أنفسهم، فرفَع الله الحرج عنهم في ذلك. ونهى الله عن إجراء عقد النكاح على المعتدَّات حتى تنتهي العدَّة، وحذَّر سبحانه مَن يخالفُ أمره مبيِّنًا أنَّه يعلم ما تُضمِره أنفسهم من الرغبة في نكاح المعتدَّات، فليحذروا إضمار نيَّةٍ مخالفة لأمره تعالى خوفًا من عقابه، ورغبةً في ثوابه. وليكونوا على يقين أيضًا من أن الله يستر ذنوبَ عباده ويتجاوز عنها، ولا يسارع بإيقاع العقوبات عليهم لذنوبهم مع قدرته على ذلك بل يمهلهم سبحانه، فلا يَيئسوا ولا يقنَطوا في حال مخالفتهم لِمَا يُرضي ربَّهم، بل عليهم أن يطلبوا منه سبحانه المغفرة.

ولا حرجَ ولا إثمَ على الرجال في طلاق النِّساء بعد العقد عليهنَّ، وقبل جماعِهنَّ والحال أنهم لم يوجبوا لهنَّ مهرًا محدَّدًا، لكن على الأزواج أن يعطوهنَّ ما يتمتَّعن به من أموالهم بحسب قدرتهم، وعلى ما يتعارف عليه النَّاس، جاعلًا سبحانه هذا الأمر أكثر تأكيدًا على مَن تحلَّى بالإحسان إلى نفسه وإلى الآخرين.

كما أنَّه لا حرجَ على الرِّجال إنْ طلَّقوا النساء قبلَ جِماعنَّ وقد حدَّدوا لهنَّ مهرًا، وبذلك يكون للمُطلَّقات نِصفُ المهر المحدَّد، إلَّا إذا تنازلْنَ عنه لأزواجهنَّ، أو عفا الأزواج عن النصف الآخر لهن، وأعطوهنَّ المهر كاملًا. ورغَّب الله تعالى كِلا الزوجين في التنازل، مخبرًا أنَّ مَن عفا عن نصيبه كان هو الأقربَ للتقوى. كما نهى سبحانه وتعالى الزوجين عن الغفلةِ عن الفضلِ والإحسان، وذلك بإعطاء أحدهما للآخر زيادةً على الحقِّ الواجب له من المهر؛ فإنَّ الله مطَّلعٌ على كلِّ أعمال البَشر، فمَن عفا منهم، فله أجرُه، وسيجزيه الله سبحانه على إحسانه بفضلِه وكرمه.

ثم أمَر سبحانه بالحفاظ على الصَّلواتِ المكتوبة عمومًا بالمداومة على أدائها في

أوقاتها، والاهتمام بتأديتِها بشروطها وأركانها، وخصَّ بمزيد تأكيدِ صلاة العصر. آمرًا سبحانه أن يُداوِموا في صلواتِهم على الخشوعِ والطُّمأنينة وترك الكلام في غير ما أمر الله تعالى به فيها من الذِّكر والقرآن.

واستثناءً من الأمر بالقيام بخشوعٍ وطُمأنينة وتركٍ للكلام، ذكر سبحانه حُكم الصَّلاة حال الخوف، ففي هذه الحال عليهم أداء الصَّلاة على أيِّ حالٍ كانوا، سواء ماشينَ على أقدامهم أو راكبينَ على دوابِّهم، مستقبلي القبلةِ أو غير مستقبليها. فإذا زال عنهم الخوف فلْيُقِيموا الصَّلاة على صفتِها التامَّة التي علَّمهم الله إيَّاها من قبلُ، فإن تعليمَه سبحانه لهم ما لم يكونوا يعرفونه من قبل نعمةٌ تستحقُّ أن يُقابِلوها بالشكر، ومنه ذكره سبحانه في الصَّلاة وغيرها.

ثم ذكَر الله تعالى أنَّ على الأزواج أن يُوصُوا قبل وفاتهم إلى ورثتِهم بأن تمكث الزَّوجات في بيوت أزواجهن المتوفَّين مدَّة عام كامل يُمتَّعن فيها بالنفقة والسكنى في منازلهم، دون أن يخرجهنَّ أحدٌ منها. ولا حرج على أولياء الميت إن خرجن وتركنَ الحداد على أزواجهنَّ بأن تجمَّلنَ وتطيَّبنَ ورغِبنَ في النكاح وغير ذلك ممَّا لا يخرج عن حدود الشَّرع والعُرْف. والله عزيزٌ؛ لا يمنعه شيء من انتقامه ممَّن خالف أمره وارتكب نهيه، وحكيم جلَّ وعلا؛ فكلُّ ما شرعه من أحكامٍ في غاية الإتقان.

وهذه الآية منسوخةٌ حُكمًا عند الجمهور بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، وقيل: النفقة المذكورة هنا منسوخة بآية المواريث.

ثم أوجبَ الله تعالى على الأزواجِ أن يُعطوا مطلَّقاتهم ما يتمتَّعن به من كسوةٍ أو غيرها، بما يتعارَف عليه النَّاس وبما لا يخالف شرعَ الله عزَّ وجلَّ، وهذا أمرٌ ثابت على كل مَن طلَّق زوجته، وكما بيَّن الله ما سبق من الأحكام بوضوحٍ، يُبيِّن أيضًا باقي آياته وأحكامه بوضوح حتى يفهمها النَّاس ويعملوا بها.

تفسير الآيات:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)﴾.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾.

أي: أَرْشدَ اللهُ عزَّ وجلَّ الوالدات المطلَّقاتِ إلى أن يرضعنَ أولادهنَّ؛ ذكورًا كانوا أو إناثًا، مدَّة سنتيْنِ تامَّتيْن، إنْ كان كلٌّ من الأب والأم، أو أحدهما يَنشُد كمالَ الرَّضاعة(١).

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

أي: على الوالدِ أن يدفعَ لأُمِّ أولاده ما يَقوتُها من الطَّعام، وما يكسوها من الملبسِ بما يجب لمثلِها على مِثله، ومن غير إسرافٍ أو إقتار، والله تعالى يعلم الغَنيَّ والفقير ومُتوسِّط الحال من خلقِه، ولا يُوجِب على الرِّجال من النفقة إلَّا ما أطاقوه ووجدوا إليه سبيلًا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٩٩-٢٠١، ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣٠-٤٣١)، ويُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣٤/ ٦٣-٦٨).
وممن قال من بأنَّ المقصود بالوالدات هنا، المطلَّقات منهنَّ: مجاهد، والزهري، والربيع بن أنس، وسعيد بن جبير، والسدي، والضحاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٢٨)، وهو قول جمهور السلف. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣٠-٤٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢١١-٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٤)، ((تفسير السعدي)) =

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى * لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٦-٧].

﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾.

القِراءات ذات الأثَر في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿لَا تُضَارَّ﴾ قراءتان:

١- ﴿لَا تُضَارُّ﴾ على أنَّها خبرٌ يُفيد النهيَ المتقرِّر، وهو أبلغُ من مجرَّد النهي[(١)].

٢- ﴿لَا تُضَارَّ﴾ أي على أنَّها نهي[(٢)].

﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾.

أي: يحرُمُ على الأُمِّ الإضرار بالأب، كأنْ تأبى إرْضاعَ مولودها، أو تطلُبَ أكثرَ من أجْرِ مِثلِها، ولا يَحِلُّ للأب أيضًا الإضرارُ بالأُمِّ، كأنْ يَنزِعَ الولدَ من أمِّه، مع رغبتِها في إرضاعه[(٣)].

﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾.

= (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٤٤).

(١) قرأ بها ابنُ كثير، وأبو عمرو، ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٠٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٣٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٩٦).

(٢) قرأ بها الباقون ﴿لَا تُضَارَّ﴾. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٠٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٣٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢١٥-٢٢١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٤١-٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣٣).

أي: ويحرُمُ على الأب أيضًا الإضرارُ بالأُمِّ، كأنْ ينزِعَ الولدَ من أمِّه، مع رغبتها في إرضاعه، ولا يَحِلُّ للأمِّ أيضًا الإضرارُ بالأب، كأنْ تأبى إرْضاعَ مولودها، أو تطلُبَ أكثرَ من أجْرِ مِثلِها[١].

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾.

أي: إنَّ على وارث الطِّفل الذي مات أبوه، مِثلَ ما على الأبِ من النَّفقة والكُسوة لوالدته، وعدم الإضرار بها[٢].

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.

أي: إذا أراد والدُ المولودِ ووالدتُه فِطامَه عن الرَّضاعة، إذا رَأَيا ذلك قبل انقضاء نهايةِ عامَيِ الرَّضاعة وبعد وقوع تَراضٍ منهما وتشاورٍ ونظَر؛ هل في ذلك مصلحةٌ لمولودهما أم لا- فلا حرجَ حينئذٍ في ذلك ولا إثم[٣].

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

أي: إذا أردتم أن تطلُبوا لأولادكم مرضعاتٍ غيرَ أمهاتِهم، على غير قصْد الإضرار بهنَّ، وإنَّما لأسبابٍ تدعو لذلك، كأن تعترضَ الأمُّ على أجرة إرضاع ولدها، ويمتنع الرجلُ من دفْع ما تطلبه، فتمتنع من إرضاعه، فلا حرجَ حينئذٍ ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢١٥-٢٢١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٤١-٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣٣).
وقال الماورديُّ: (قال تعالى: ﴿وَلَا مَولُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ وهو الأب في قول جميعهم، لا يَنزِع الولدَ من أمِّه؛ إضرارًا بها) ((تفسير الماوردي)) (١/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٣٥-٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٤٥).

إثم على الوالدين في ذلك، إذا دفَع الوالد أجرةَ الرَّضاعة المتَّفق عليها للمرضعةِ فأوفاها حقَّها من غير نقصٍ ولا مماطلة[١].

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: امتثِلوا ما أمَرَكم الله تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه، ومن ذلك تلك الحقوق المذكورة في الآيات السَّابقة المتعلِّقة بالأزواج وأولادهم؛ وليكن معلومًا لديكم، علمًا يقينيًّا أنَّ الله تعالى لا يَخفى عليه شيء، فهو يراكم وينظُر ماذا تعملون، فيحفظ أعمالَكم ويُجازيكم عليها؛ فلْيَحذَر العبدُ من أن يراه ربُّه ومولاه حيث نهاه، أو يفقده حيثُ أمره ووصَّاه[٢].

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى عدَّة الطلاق وما اتَّصل بذلك من أحكام الإرضاع عقبَ الطَّلاق، أردفَ ذلك ببيان عدَّة الوفاة، فقال سبحانه[٣]:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

أي: إذا تُوفِّي الزَّوج، فيجبُ على زوجته أن تَعتدَّ من بعده، فتَمكُثَ حابسةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٤٠-٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٤٩-١٥٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٤١).

نفْسَها عن الزَّواج مُدَّةَ أربعة أشهر وعَشرةَ أيَّام[١].

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

أي: إذا انقضت مدَّة عدَّة المرأة المتوفَّى عنها زوجها، فلا حرج على أوليائها فيما تفعله في نفسها من تزيُّن وتطيُّب ونِكاح حلال، وغير ذلك ممَّا أباحه الله تعالى لها[٢].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى عالِمٌ ببواطنكم، ومطَّلعٌ على حقائق أعمالكم؛ فأقِيمُوا أحكامه ولا تخالفوها، فإنَّه مجازيكم عليها[٣].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا تضمَّنتِ الآياتُ السابقة أحكامَ عِدَّة الطلاق وعِدَّة الوفاة، وعُلِم من الآيات أنَّ التزوُّج في مدة الأجَل حرام، ولَمَّا كان التحدُّث في التزوُّج إنما يَقصد منه المتحدِّث حصولُ الزَّواج، وكان من عادتهم أن يتسابقوا إلى خِطبة المعتدة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٤٧-٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٥-٦٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٥٠-١٥١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٥٣-١٥٥).

ويُخَصُّ من عموم حُكم هذه الآية: الحامل؛ فعِدَّتُها بوضع حملِها كما في قوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ولو كان وضعها قبل تمام الأربعة الأشهر وعشرة أيَّام.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٧-٦٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٥٥).

ومواعدتها؛ حرصًا على الاستئثار بها بعد انقضاء العدة، فبيَّنت الشريعة لهم تحريمَ ذلك، ورخَّصت في شيء منه؛ ولذلك قال تعالى[١]:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾.

أي: لا حرَج عليكم- أيُّها الرِّجالُ- أن تَذكُروا للنِّساء المعتدَّات من وفاة أزواجهنَّ في كلامِكم ما يُشير ويُلمِّح لهنَّ من غير تصريحٍ إلى الرغبة في الزواج بهنَّ، ولا حرجَ عليكم كذلك فيما انطوت عليه قلوبُكم أثناءَ عدَّتهنَّ، من عزم نكاحهنَّ[٢].

﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

أي: علِم الله أنَّكم ستذكرون للمعتدَّات رغبتكم في الزواج بهنَّ علانيةً بألسنتكم، أو تُضمِرون ذلك في أنفسكم؛ فأذِن لكم بذلك، ورفَع الحرج عنكم فيه، ونهى الله سبحانه عن التَّصريحِ لهنَّ بالرَّغبة في نِكاحهنَّ، ولكن أحلَّ لهم أن يُلمِّحوا إليهنَّ ويُشيروا فحسْبُ برغبتهم في نكاحهنَّ[٣].

﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾.

أي: لا تقوموا بإجراء عقد النِّكاح على المعتدَّات حتى تنتهي عِدَّتهنَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٦١-٢٧١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٧٤)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٣-٤٥٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٦٠، ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٦٠-١٦١).

=

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾.

أي: ليكن معلومًا لديكم أنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلم ما في أنفسكم من هواهنَّ، والرغبة في نكاحهنَّ، وغير ذلك، فكونوا على حيطةٍ من أن تخالفوا أحكامه في ذلك؛ فإنَّه مطَّلعٌ على ما في نفوسكم فلا تُضمِروا فيها نيَّة مخالفة لأمره تعالى، خوفًا من عقابه ورجاءً لثوابه[1].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: وليكن معلومًا لديكم كذلك بأنَّكم إن أضمرتم في أنفسكم ما لا يرضاه سبحانه فلا تيئسوا ولا تقنطوا، فإنَّ لديكم طريقًا لتصحيحِ الأمر، وهو طلب المغفرة منه سبحانه، فهو الذي يستر ذنوبَ عباده ويتجاوز عنها، ولا يعاجل عبادَه بالعقوبات على ذُنوبهم مع قدرته على ذلك، بل يمهلهم جلَّ وعلا[2].

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا جرَى الكلامُ في الآيات السَّابقةِ على الطلاقِ الذي تجِب فيه العِدَّة، وهو

= وقال القرطبيُّ: (حرَّم الله تعالى عقْد النِّكاح في العِدَّة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾، وهذا من المُحكَم المُجمَع على تأويله، أنَّ بلوغ أجْلِه انقضاءُ العِدَّة) ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٨٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٨٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٦٢).

طلاقُ المدخول بهنَّ، عرَّج هنا على الطَّلاق الواقِع قبل الدُّخول، فقال سبحانه[١]:

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

أي: لا حرجَ عليكم في طلاقِكم النساءَ بعد العقدِ عليهنَّ، وقبل أن تُجامعوهنَّ، وقبل أن تُوجِبوا لهنَّ مهرًا محدَّدًا[٢].

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

لَمَّا كان في طلاقهنَّ قبل جِماعهنَّ، وقبلَ فرْض المهرِ لهنَّ، انكسارٌ لقلوبهنَّ، أمر الله تعالى أزواجهنَّ بتعويضهنَّ بشيءٍ يجبُر خواطرَهنَّ، فقال تعالى[٣]:

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: أَعطوهنَّ- أيُّها الأزواجُ- ما يَتمتعْنَ به من أموالِكم، كلٌّ بحسَب قُدرته وأحوالِه غِنًى أو فقرًا، وبحسَب ما يتعارَف عليه الناس، من غيرِ أن تَظلموهنَّ، وجَعَل الله تعالى هذا الأمرَ أكثرَ تأكيدًا على المتَّصفين بالإحسان إلى أنفسهم وإلى الآخَرين[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٨٦-٢٨٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٥١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٦٧).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ المسَّ هنا بمعنى الجِماع: ابن عبَّاس، وطاوس، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٢٢).

وممَّن قال: إنَّ ﴿فَرِيضَةً﴾ هنا تعني المَهرَ: ابن عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٨٩-٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤١)، ((تفسير =

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)﴾.

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾.

أي: لا حرجَ ولا إثمَ عليكم- أيُّها النَّاس- إنْ طلَّقتُمُ النِّساء قَبلَ جماعِهنَّ وقَدْ قدَّرتُم لهنَّ مهرًا، ولهنَّ في هذه الحالِ نِصفُ هذا المهر[1].

﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

أي: للنِّساءِ نِصفُ المهر في تلك الحال، إلَّا إذا عفونَ عنه لأزواجِهنَّ، فيكون لهم المهر كاملًا، (وذلك إنْ كُنَّ ممن يصحُّ عفوهنَّ) أو أنْ يعفوَ أزواجُهنَّ عن نِصف المهرِ الآخَر لنِسائهِم، فيكون لهنَّ المهرُ كاملًا، ورغَّب الله تعالى كلًّا من الأزواج والزَّوجات في العفو، بأنَّ مَن يعفو أقربُ للتقوى من الآخَر؛ لأنَّ مَن يعفو قد آثَر فِعل ما ندَبه الله تعالى إليه على هوى نَفْسِه، فهو لِمَا أوجبه الله عزَّ وجلَّ عليه أشدُّ امتثالًا، ولِمَا نهاه أشد تجنُّبًا، وذلك هو القُرب من التَّقوى التي تَعني فِعلَ المأمور، واجتنابَ المحظور[2].

= السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٦٧-١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤٢-٦٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٧١).
وقال القرطبيُّ: (قوله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، أي: فالواجب نصفُ ما فرضتم، أي: من المهر، فالنِّصف للزَّوج، والنِّصف للمرأة بإجماع) ((تفسير القرطبي)) (٣/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣١١-٣١٢، ٣٣٢-٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٧٢).
واختار أنَّ المراد بالذي بيده عقدة النكاح: الزوج: ابن جرير في ((تفسيره)) (٤/ ٣٣٢)، =

﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: لا ينبغي أن يترك الزوجانِ الإحسانَ إلى بعضِهم البعض، بإعطاءِ أحدهما للآخَر زيادةً على الحقِّ الواجب له، وذلك بالعفوِ والتسامُحِ عن بقيَّة المهر، فإنَّ الله تعالى يرى كلَّ عمل يصدُر من الناس، فمَن عفا فله أجره، والله تعالى يحفظ عملَه، ويُجازيه على إحسانه بفضله[1].

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾.

أي: يأمر الله تعالى بتعاهُد الصَّلوات المفروضة عمومًا بالمحافظة على مواظبة أدائها في أوقاتها، وحِفظ حدودها، والعناية بأدائها بشروطها وأركانها، وخصَّ الله تعالى من بينها بمزيدِ تأكيد، صلاة العصر[2].

= والواحدي ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٧٥)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٠٥)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٧٢).

وممَّن قال في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾: إنَّه الزَّوج: عليُّ بن أبي طالب، وابن عبَّاس -في إحدى الرِّوايات عنه- وجُبَير بن مُطعِم، وسعيد بن جُبَير، وسعيد بن المسيَّب، وشُرَيح، ومجاهد، والشَّعْبي، وعِكْرمة، ونافع، ومحمَّد بن سِيرين، والضَّحَّاك، ومحمَّد بن كَعب القُرظي، وجابر بن زيد، وأبو مِجلز، والرَّبيع بن أنس، وإياس بن معاوية، ومكحول، ومقاتل بن حَيَّان، وسفيان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٢٤)، و ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٤٥).

وممن قال أنه ولي المرأة: القرطبي في ((تفسيره)) (٣/ ٢٠٧)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٢/ ٤٦٣).

وممَّن قال بهذا القول من السلف: ابن عباس -في رواية أخرى- وعلقمة، والأسود بن يَزيد، والحسن، وعطاء، وطاوس، والزهري، وربيعة، وزيد بن أسلم، والشعبي -في رواية عنه- وأبو صالح، وابن زيد، وإبراهيم النخعي، والسُّدِّي، وغيرهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣١٧)، و ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٣٨-٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤٤-٦٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥-١٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٤٢، ٣٧٢، ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤٥، ٦٤٧، ٦٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٧٧-١٧٨). =

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ الأحزابِ، قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ملأَ اللهُ بُيوتَهم وقُبورَهم نارًا، شغَلونا عنِ الصَّلاةِ الوُسطى حتى غابَتِ الشمسُ))[١].

وعن عبدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، قال: ((حَبسَ المشركونَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن صلاةِ العصرِ. حتى احمرَّتِ الشمسُ أوِ اصفرَّتْ. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: شغلونا عن الصَّلاةِ الوُسطى صلاةِ العصرِ. ملأَ اللهُ أجوافَهم وقبورَهم نارًا أو قال حشا اللهُ أجوافَهم وقبورَهم نارًا))[٢].

وعن البَراءِ بنِ عازبٍ رضي الله عنه، قال: ((نزلت هذه الآيةُ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ﴾. فقرأناها ما شاء اللهُ، ثمَّ نسَخَها اللهُ، فنزلت: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾، فقال رجلٌ كان جالسًا عند شقيقٍ له: هي إذنْ صلاةُ العصرِ. فقال البراءُ: قد أخبرتُك كيف نزلتْ، وكيف نَسخَها اللهُ، واللهُ أعلمُ))[٣].

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

أي: أقيموا الصَّلاة، مواظبين على ذلك، ومداومين فيها على الخُشوع والطُّمأنينة والسُّكوت التامِّ عن سوى ما أمر الله تعالى به فيها من الذِّكر والقرآن[٤].

= وممَّن نصَّ على أنَّ الصلواتِ المقصودةَ هي المكتوباتُ: ابن عبَّاس، والضَّحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٤٧).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ المقصود بالصَّلاة الوُسطى صلاةُ العصر: عليُّ بن أبي طالب، وابن عبَّاس، وأبو هريرة، وابنُ عُمر، وأبو سعيد الخُدريُّ، وعائشةُ، وأبو أيُّوب، والحسن، وإبراهيم، وسعيد بن جُبَير، وزِرُّ بن حُبَيش، وقَتادة، والضَّحَّاك، ومجاهد، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤٨).

(١) رواه البخاري (٢٩٣١).

(٢) رواه مسلم (٦٢٨).

(٣) رواه مسلم (٦٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٨٣-٣٨٤)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢/ ٥٤٧-٥٤٩)، =

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا أمَرَ الله تعالى عبادَه بالمحافظة على الصَّلوات، والقيام بحدودِها، والمداومة عليها، ذَكَر الحال التي يَنشغلُ فيها المرءُ عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي حال الخوف، ولكنَّها ليست عذرًا في ترْك المحافظة على الصَّلوات، فقال سبحانه[1]:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

= ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٥٤-٦٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٧٨-١٧٩).

وعن زَيد بن أَرقمَ رضي الله عنه، قال: ((كنَّا نَتكلَّم في الصَّلاة؛ يُكلِّم أحدُنا أخاه في حاجته، حتى نزلت هذه الآية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾ فأُمِرْنا بالسُّكوت)) رواه البخاري (٤٥٣٤)، ومسلم (٥٣٩).

لكن قال ابنُ كثير معلِّقًا على هذا الأثر: (قد أَشكل هذا الحديثُ على جماعةٍ من العلماء، حيث ثبَت عندهم أنَّ تحريم الكلام في الصَّلاة كان بمكَّةَ، قبل الهجرة إلى المدينة، وبعد الهجرة إلى أرض الحبَشة، كما دلَّ على ذلك حديثُ ابن مسعود الذي في الصَّحيح، قال: كنَّا نُسلِّم على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قبل أن نُهاجر إلى الحبشة وهو في الصَّلاة، فيردُّ علينا، قال: فلمَّا قدِمنا سلمتُ عليه، فلم يردَّ عليَّ، فأخَذَني ما قَرُب وما بَعُد! فلمَّا سلَّم قال: ((إنِّي لم أردَّ عليك إلَّا أني كنتُ في الصَّلاة، وإنَّ الله يُحدِث من أمْره ما يشاء، وإنَّ ممَّا أحْدث ألَّا تَكلَّموا في الصَّلاة)). وقد كان ابن مسعود ممَّن أسلم قديمًا، وهاجر إلى الحبشة، ثم قدِم منها إلى مكَّةَ مع مَن قدِم، فهاجر إلى المدينة، وهذه الآية: ﴿وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾ مدنيَّة بلا خلاف، فقال قائلون: إنَّما أراد زيد بن أرقم بقوله: «كان الرجل يكلِّم أخاه في حاجته في الصَّلاة» الإخبار عن جنس الناس، واستدلَّ على تحريم ذلك بهذه الآية بحسَب ما فهِمه منها، والله أعلم.

وقال آخَرون: إنَّما أراد أنَّ ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة إليها، ويكون ذلك قد أُبيح مرَّتين، وحرِّم مرتين، كما اختار ذلك قومٌ من أصحابنا وغيرهم، والأوَّل أظهر. والله أيضًا أعلم)) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٥٥)، ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٦/ ٣٦٢-٣٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٦٩).

أي: إنْ خِفْتُم أن تُؤدُّوا صلاتَكم على تِلك الصِّفةِ الكاملة، فصَلُّوها على أيِّ حالٍ كنتم، سواء ماشينَ على أقدامِكم أو راكبين على دوابِّكم- ويلزم من ذلك أن يكونوا مستقبلي القِبلة وغير مستقبليها- فإنَّ ذلك يجزيكم حينئذٍ عن القيام قانتينَ[(١)].

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فإذا زال عنكم الخوف، فأقيموا صلاتكم على الصِّفة الكاملة كما علمكم الله من قبلُ، وتعليمُه إيَّاكم ما ينفعكم في دُنياكم وأُخراكم- ومن ذلك إقامة الصَّلاة بتمامها- نعمةٌ عظيمة تقتضي شُكرها بذكره سبحانه في الصَّلاة وغيرها[(٢)].

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٣].

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)﴾.

الناسخ والمنسوخ:

جمهور المفسِّرين على أنَّ هذه الآية منسوخةٌ حكمًا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، وقيل النفقة كذلك منسوخةٌ بآية المواريث[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٨٤-٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٥٥-٦٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٩٥-٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٧٩-١٨٠).

(٣) يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٢٣٩)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٥٨-٦٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦). =

فعن عبد الله بن الزُّبَير رضي الله عنهما، قال: ((قُلْتُ لعثمانَ بن عفَّان: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾. قد نسختْها الآيةُ الأخرَى، فَلِمَ تَكْتُبُها؟ أَوْ تَدَعُها؟ قال: يا ابنَ أخي، لا أُغَيِّرُ شيئًا منه من مكانِه))[(١)].

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾.

أي: إنَّ الأزواج الذين يموتون ويتركون وراءهم زوجاتٍ، فعليهم أن يعهَدوا قبل وفاتهم لورثتهم بأن تمكث زوجاتهم في بيوتهم (أي بيوت الأزواج المتوفَّين) مدَّة عام كامل، يتمتَّعن فيه بالنفقة من أموالهم، والسُّكنى في منازلهم، دون أن يُخرِجَهنَّ أحدٌ منها[(٢)].

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾.

أي: لا حرَج على أولياء الميِّت في خروجهنَّ وتركهنَّ الحدادَ على أزواجهنَّ بالتجمُّل والتطيُّب والتشوُّف للنكاح والتزوُّج، وغير ذلك ممَّا لا يخرج عن حدود الشَّرْع والعُرف[(٣)].

= قال ابن أبي حاتم أيضًا: (عن ابن عبَّاس، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، فكان الرَّجُل إذا مات وترك امرأته، اعتدَّت سَنةً في بيته، يُنفَق عليها من ماله، ثم أنزل الله بعد ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، فهذه عِدَّة المتوفَّى عنها [زوْجُها] إلَّا أن تكون حاملًا، فعِدَّتها أن تضع ما في بطنها، وقال: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ﴾ [النساء: ١٢]، فبيَّن الله ميراثَ المرأة، وترك الوصية والنفقة-ورُوي عن مجاهد، والحسن وعِكْرمة، وقَتادة، والضَّحَّاك، والرَّبيع بن أنس، ومقاتل بن حَيَّان، قالوا: نسختْها ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾) (تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٥٢).

(١) رواه البخاري (٤٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٩٧-٣٩٩، ٤٠٦-٤٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٠٨-٤٠٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٨٥).

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يمنعُه شيءٌ من انتقامه ممَّن خالف أمْره وارتكب نهيه، ومن ذلك إخراج المتوفَّى عنها زوجُها من بيته قبل انقِضاء عامٍ، وهي راغبةٌ في المُكْثِ فيه، كما أنَّ ما شرَعه من أحكام في غاية الإتقان، وهي أحكام صادرة عن عزَّته، وحِكمته، فجعل لكلِّ أمر حُكمَه اللائق به[1].

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى متاعَ المتوفَّى عنهنَّ عقَّبه بذِكر متاعِ المطلَّقات؛ تأكيدًا للحُكم بالتكرير، وتعميمًا بعد تخصيصِ بعض أفراده، فقال تعالى[2]:

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١)﴾.

أي: يجِب على الأزواج أن يُعطوا لمطلَّقاتهم ما يتمتَّعن به من كُسوة أو غيرها، بما يتعارف عليه النَّاس، من غير مخالفة لحدود الله تعالى، وهذا الأمر حقٌّ لهنَّ ثابتٌ ومؤكَّدٌ على كل مطلِّقٍ لزوجته؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يجبُ عليه أن يكون متَّقيًا لله تعالى بفعل ما أمر، واجتناب ما نهى[3].

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٠٩، ٤١٢، ٤١٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣٢/ ٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٥١-١٥٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٨٩-١٩١).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ لكلِّ مطلقةٍ متعةً: أبو العالية، وعطاء، والزُّهري. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٥٤).

أي: كما بيَّن الله عزَّ وجلَّ ما سبق من أحكام ووضَّحها غاية الإيضاح، يبيِّن لكم أيضًا سائر آياته وأحكامه بوضوحٍ تامٍّ حتى لا يبقى فيها خفاءٌ أو لبسٌ؛ لتفهموها وتعملوا بها[١].

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّه يَنبغي استعطافُ المخاطَب بما يَقتضي عطفَه على الشَّيء؛ لقوله تعالى: ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ حيث أضاف الأولاد إلى المرضعاتِ[٢].

٢- أنَّ وساوس القلوب لا يُؤاخَذ بها؛ لأنَّها ليست من الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾[٣].

٣- مراعاة الأحوال في الأحكام؛ فيثبت في كل حال ما يناسبها؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾[٤].

٤- أنَّ الأعمال تتفاضل؛ لقوله تعالى: ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[٥]، ويلزم منه أنَّ النَّاس يتفاضلون في الإيمان؛ لأنَّ تفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل؛ والأعمال من الإيمان[٦].

٥- أنَّه ينبغي للإنسانِ ألَّا ينسى الفضلَ مع إخوانه في معاملته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٧٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٧٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٦- سَعة رحمة الله عزَّ وجلَّ، وأن هذا الدين يسر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾؛ لأنَّ هذا من التيسير على العباد[١].

٧- بيان نقْص الإنسان؛ لكون الأصل فيه الجَهل؛ حيث قال تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾؛ فالأصل في الإنسان الجهل حتى يُعلِّمه الله عزَّ وجلَّ[٢].

٨- أنَّه ينبغي تأكيدُ الحقوق التي قد يتهاون النَّاس بها؛ لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[٣].

٩- أنَّه ينبغي ذِكرُ الأوصاف التي تحمل الإنسان على الامتثال فعلًا للمأمور، وتركًا للمحظور؛ لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ عدم القيام به مخالف للتقوى؛ والقيام به من التقوى[٤].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- يُؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾، ومن قوله سبحانه: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] أنَّ أقلَّ مدَّةٍ للحمل سِتَّة أشهر، وأنَّه يمكن وجود الولد بها[٥].

٢- أنَّ الله عزَّ وجلَّ أرحمُ بخلقِه من الوالدة بولدها؛ لأنَّه أمرها أن ترضعَ مع أنَّ فطرتها، وما جُبِلت عليه تستلزم الإرضاعَ؛ وهذا لأنَّ رحمة الله أعظمُ من رحمة الأمِّ بولدها، ومثله قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]؛ فلأنَّ الله أرحمُ بأولادنا منَّا، أوصانا فيهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٨٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٨٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٩١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٤٧).

٣- عناية الله عزَّ وجلَّ بالرُّضَّع؛ لأنَّه لم يُبِح فطامَهم قبل الحولينِ إلَّا بعد التراضي بين الوالدة، والمولود له، والتشاور؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾[(١)].

٤- امتناع التكليف بما لا يُطاق؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾؛ وهذه القاعدة دلَّ عليها القرآن في عدة مواضع؛ منها قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦][(٢)].

٥- في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ﴾ جاء في الأمن بـ(إذا)- التي تكون لِمَا يقَع غالبًا، وفي الخوف بـ(إنْ)- التي تكون لِمَا لا يقع غالبًا؛ بشارة للمسلمين بأنَّهم سيكون لهم النصر والأمن[(٣)].

٦- أنَّ المسؤولين عن النِّساء هم الرِّجال؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾[(٤)].

٧- الردُّ على المفوِّضة- أهل التجهيل؛ وعلى أهل التحريف- الذين يسمُّون أنفسهم بأهل التأويل؛ لقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾؛ لأنَّ أهل التفويض يقولون: إن الله لم يُبيِّن ما أراد في آيات الصفات، وأحاديثها؛ وأنها بمنزلة الحروف الهجائية التي لا يفهم معناها؛ وأهل التحريف يقولون: إنَّ الله لم يبيِّن المعنى المراد في آيات الصِّفات، وأحاديثها؛ وإنَّما وكَل ذلك إلى عقولنا؛ وإنَّما البيان بما ندركه نحن بعقولنا؛ فنقول: لو كان الأمر كما ذكرتم لكان الله سبحانه وتعالى يبيِّنه؛ فلما لم يبيِّن ما قلتم علم أنَّه ليس بمراد[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٥١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٧٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٨٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٩٣).

٨- أنَّه لا يمكن أن يوجد في الشرع حكمٌ غير مبيَّن؛ لقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾[١].

٩- الثَّناء على العقل، حيث جعله الله غاية لأمر محمود- وهو تبيين الآيات؛ والمراد عقل الرشد السالم من الشبهات، والشهوات، أي: الإرادات السيِّئة؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾

- خبَر في معنى الأمْر المؤكَّد؛ للمبالغة، و﴿كامِلَيْنِ﴾ توكيدٌ كقوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ﴾؛ وإنَّما ذكر الكمال؛ لرفْع التوهُّم من أنَّه على مِثل قولهم: أقام فلان بمكانِ كذا حَولَينِ، وإنَّما أقام حولًا وبعضَ الآخَر؛ وذلك لقطع التنازُعِ بين الزوجين إذا تنازعَا في مدَّة الرَّضاع[٣].

- **وفي قوله: ﴿أَوْلَادَهُنَّ﴾** تصريحٌ بالمفعول مع كونه معلومًا؛ إيماءً إلى أحقيَّة الوالدات بذلك، وإلى ترغيبهنَّ فيه؛ لأنَّ فيه تذكيرًا لهنَّ بداعي الحَنان والشَّفقة[٤].

٢- في قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المولودُ له هو الوالد، وإنَّما عبَّر عنه بهذا ولم يعبِّر بلفظ الوالد، ولا بلفظ الأب؛ ليُعلم أنَّ الوالدات إنما وَلَدْنَ لهم؛ فالأولاد للآباء، يُنسَبون إليهم لا إلى الأُمَّهات؛ فكان عليهم أن يرزقوهنَّ ويكسوهنَّ إذا أرضعْنَ ولدهم، وللتنبيه على أنَّ الولدَ إنَّما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣٠).

يَلتحِقُ بالوالدِ؛ لكونه مولودًا على فِراشه، ولِمَا في ذلك من إعلامِ الأب ما منَحَ الله له وأعطاه، إذ اللام في (له)، معناها شبه التمليك[١].

٣- في قوله: ﴿**لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ**﴾ بناء الفِعل للمَفعولِ، وحذْف الفاعل؛ فيُفيد حذفُه عمومَ الفاعلين، كما يُفيد تنكيرُ ﴿نَفْس﴾ في سِياق النَّفْي عُمومَ المفعول الأوَّل لفِعل ﴿تُكَلَّفُ﴾: وهو الأنفس المكلَّفة[٢].

٤- قوله: ﴿**فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾

- في قوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا﴾ الْتِفات؛ فإنَّه خروجٌ من ضمير الغَيبة إلى الخطاب؛ لهزِّهم إلى الامتثال بما أمروا به. وفيه تكوين في الضمائر؛ فإنَّ ﴿أَرَادَا﴾ ضميرُ تثنية، و ﴿أَرَدْتُمْ﴾ ضمير جمْع، والمرادُ بهما الآباءُ والأمهاتُ أيضًا، وكأنَّه رَجَعَ بهذا الضمير المجموع إلى الوالدات والمولودِ له، ولكنَّه غَلَّب المذكَّرَ وهو المولودُ له، وإنْ كان مفردًا لفظًا[٣].

- ﴿**فِصَالًا**﴾: التنكيرُ للإيذان بأنَّه فصالٌ غير معتاد[٤].

٥- وفي هذه الجُمل الماضية أنواعٌ من عِلم البيان[٥]:

- فمنه: **الفَصْل والوَصْل[٦]**: أمَّا **الفَصْل**- وهو عدَم العطف- بين قوله: ﴿لَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٧٩)، ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٦٠-٤٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣٣-٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٠٨، ٥١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٠٤-٥٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٤٧٠-٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٥٤- ١٥٥).

(٦) **الوَصْل**: من مباحث عِلم المعاني؛ ومعناه العطفُ. وهذا البحث خاصٌّ بعطف الجُمل بالواو =

تُكَلَّفُ نَفْسٌ﴾ وقولِه: ﴿لَا تُضَارَّ﴾؛ فلأن قوله: ﴿لا تضارَّ﴾ كالشَّرح للجملة قبلها؛ لأنَّه إذا لم تكلف النفس إلَّا طاقتها لم يقع ضرر، لا للوالدة ولا للمولود له. وكذلك أيضًا لم يعطف ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ﴾ على ما قبلها؛ لأنَّها مع ما بعدها تفسير لقوله ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وأمَّا **الوصلُ** -وهو العطفُ- بين قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾ وقولِه: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ﴾؛ فلأنَّهما جملتان متغايرتان في كلٍّ منهما حُكمٌ ليس في الأخرى.

- والجملة الأولى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾: أبرزت في صورة المبتدأ والخبر، وجعل الخبر فعلًا؛ لأنَّ الإرضاع ممَّا يتجدَّد دائمًا.

- والجملة الثانية ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ..﴾: أبرزت أيضًا في صورة المبتدأ والخبر، وجعل الخبر جارًّا ومجرورًا بلفظ: ﴿عَلَى﴾ الدالة على الاستعلاء والوجوب، فأكَّد بذلك مضمونَ الجُملة؛ لأنَّ من عادة المرء منْعَ ما في يده من المال، وإهمالَ ما يجب عليه من الحقوق، فأكَّد ذلك.

- وقدَّم الخَبر على سبيل الاعتناء به، وجاء الرِّزق مقدَّمًا على الكُسوة؛ لأنَّه الأهمُّ في بقاء الحياة، والمتكرِّر في كلِّ يومٍ.

- والجملة الثالثة ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾: أبرزت في صُورة الفِعل ومرفوعه، وأتى بمرفوعه نكرةً؛ لأنَّه في سياق النفي، فيعم، ويتناول أولًا ما سِيق لأجله: وهو حُكم الوالدات في الإرضاع، وحكم المولود له في الرزق والكسوة اللَّذينِ للوالدات.

- والجملة الرابعة ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾: كالثالثة؛ لأنَّها في سياق النفي،

= فقط، وهو مقابل **للفصل** الذي هو عدم العَطْف، ولكلٍّ من الفصل والوصل مواضِعه الواجبة والجائزة. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٤٩ وما بعدها)، ((البلاغة الواضحة)) لعلي الجارم وأحمد أمين (ص: ٢٢٨). وقد سبَق تعريفُ الفصل (ص: ٧٢).

فتعمُّ أيضًا، وهي كالشرح للجملة قبلها؛ لأنَّ النَّفْس إذا لم تُكلف إلَّا طاقتها لا يقع ضررٌ لا للوالدة ولا للمولود له، ولَمَّا كان تكليف النفس فوق الطاقة، ومضارَّة أحد الزوجين الآخَر ممَّا يَتجدَّد كلَّ وقت، أتى بالجملتين فعليتين. ونبَّه على محلِّ الشفقة بقوله: ﴿بِوَلَدِهَا﴾، فأضاف الولد إليها، وبقوله: ﴿بِوَلَدِهِ﴾، فأضاف الولد إليه؛ وذلك لطلب الاستعطاف والإشفاق.

٦- **قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** فيه إظهار في موضع الإضمار حيث كرَّر اسم اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لكونِه من جُملتين، فتكريره أفخمُ، وترديدُه في النُّفوس أعظمُ[(١)].

٧- **قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ...﴾** جاءت الآية بصيغة الخبر الذي من شأنه أن يكون قد وُجِد وتمَّ؛ لتأكيد التربُّص؛ مُراعاةً لحقِّ الأزواج، وحِفظًا لقلوب الأقارب، واحتياطًا للنِّكاح[(٢)].

٨- **قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾**

- فائدة عطْف الإكنان على التعريض في نفْي الجناح: أنَّ المراد التنبيه على أن العزم أمرٌ لا يمكن دفعُه ولا النهيُ عنه، ولأنَّ تكلم العازم بما عزَم عليه جِبلَّةٌ في البشر، لضَّعْف الصبر على الكتمان- بيَّن الله موضعَ الرُّخصة أنَّه الرحمة بالناس، مع الإبقاء على احترام حالة العِدَّة، وبيان عِلة هذا الترخيص، وأنه يرجِع إلى نفي الحرج[(٣)].

- وأخَّر الإكنانَ في الذِّكر؛ للتنبيه على أنَّه أفضلُ وأبقَى، على ما للعِدَّة من حُرمة،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٢-٤٥٣).

مع التنبيه على أنَّه نادرٌ وقوعه، وخُولِف مقتضى الظاهر، حيث عطَف ﴿أَكْنَنتُمْ﴾ على ﴿عَرَّضْتُمْ﴾ وليس العكس؛ ليعلم السامع أنَّ هذه المخالفةَ ترمي إلى غرَض، فحصَل بتأخير ذِكر ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ﴾ فائدةٌ أخرى، وهي التمهيدُ لقوله: ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾، وجاء النَّظمُ بَديعًا مُعجِزًا[١].

٩- قوله: ﴿وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ فيه تأكيد بذِكر العزم؛ مبالغةً في النَّهي عن عُقدة النِّكاح في العِدَّة؛ لأنَّ العَزم على الفِعل يتقدَّمه، فإذا نهى عنه كان عن الفِعل أشد نهيًا[٢].

١٠- قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ فيه كنايةٌ لطيفةٌ حسنة؛ حيث كنَّى تعالى بقوله: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ عن المجامعة، وفي هذا تأديبٌ للعِباد في اختيار أحسنِ الألفاظ فيما يَتخاطَبون به[٣].

١١- قوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيه تأكيدُ النهي بالتعبير بالنِّسيان؛ إذ النِّسيان ليس في الوُسع حتى يُنهى عنه، فالمقصود منه التَّرك[٤].

١٢- في قوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾

- النَّقل مِن صِيغة افعلوا (احْفَظُوا) إلى صِيغة فاعِلوا (حَافِظُوا) الدالَّة على غاية العزيمة؛ للمبالغة في رِعاية العمل علمًا وهيئةً، ووقتًا وإقامة، بجميع ما يحصُل به أصلُه، ويتمُّ به عمله[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٢-٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٨٤)، ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٧٢-٤٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٤-٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٥٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٤٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٣٥٩-٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٦٦).

- **قوله:** ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾: فيه ذِكر الخاص بعدَ العامِّ؛ للتَّنبيه على فَضْلِ الخاصِّ على غيره من أفراد العام، وللتأكيد على المحافظة عليه خصوصًا[١].

١٣- قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

- في الآية تفريع على قوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾؛ للتنبيه على أنَّ حالة الخوف لا تكون عذرًا في ترك المحافظة على الصلوات، ولكنَّها عذر في ترك القيام لله قانتين، فأفاد هذا التفريع غرضين: أحدهما بصريح لفظه، والآخر بلازم معناه[٢].

- وفيه: إيراد الشرطيَّة الأولى بكلمة (إن) المفيدة لمشكوكية وقوع الخوف ونُدرته، وتصدير الشرطيَّة الثانية بكلمة (إذا) المنبئة عن تحقيق وقوع الأمْن وكثرته، مع الإيجاز في جواب الأُولى، والإطناب في جواب الثانية، وفيه مِن الجزالة ولُطف الاعتبار ما فيه؛ عِبرةً لأولي الأبصار[٣].

١٤- قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ﴾

- اللام في قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ﴾ لام الاستحقاق، والتعريف في (المطلَّقات) يُفيد الاستغراق، ويجوز أن تكون اللامُ للعهد[٤].

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٤٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٣٦٤).
فائدة في وجهُ ذِكر المحافظةِ على الصَّلاةِ فيما بين حُكْمَيِ الطَّلاقِ والعِدَّة: (أنَّ اللهَ تعالى لا يُخلي شيئًا يَذكرُه ممَّا تعلَّق بالأحكامِ الدُّنيويَّة إلَّا ويقرنُه بحُكمٍ أُخرويٍّ؛ لينبِّههم إلى مُراعاة الآخرةِ في جميعِ أحوالهم وأعمالهم، وأنَّها هي المقصودةُ بالقَصدِ الأوَّل، وسائر ما يُتحرَّى فلأجلها؛ ولأنَّه لمَّا حثَّهم على العفوِ، ورغَّبهم في المحافظةِ على الفضلِ، عرَّفهم أنَّ السُّلوك إلى التَّخصيص بذلك هو المحافظةُ على الصَّلواتِ في كلِّ حالٍ؛ فإنَّ الصَّلاةَ هي الآمرةُ بالمعروفِ، والنَّاهيةُ عن المنكَرِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، ثمَّ صرَف الكلامَ إلى ذِكرِ ما كان بصَددِه، فتمَّمه). ((تفسير الراغب)) باختصار (١/ ٤٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٧٤). فعلى القول الأوَّل فالآية عامَّة للمُطلَّقات كلهنَّ، والمسألة فيها خلاف. ينظر ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤١).

الآيات (٢٤٢ - ٢٥٢)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ
ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾
مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ
وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ
إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ
إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ
بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ
بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ
بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ
فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ
تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا
فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ
مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ
بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ
قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ
لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا

وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ
دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ
وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ
بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿يَقْبِضُ﴾: يُضيِّق ويُمسِك، وقبْضُ اليَدِ على الشَّيءِ: جمعُها بعدَ تناوُله، وقَبضُها عنه: جمْعُها قبلَ تناوُله[١].

﴿الْمَلَأ﴾: أشراف النَّاسِ ووجوههم[٢].

﴿بَسْطَةً﴾: أي: سَعَةً؛ يقال: بسطت الشيء إذا كان مجموعًا: ففتحتَه ووسعتَه، وأصل (بسط): امتداد الشَّيء وسَعَته[٣].

﴿التَّابُوتُ﴾: الصُّندوق والوِعاء، ومنه سُمِّي القَلب تابوت الحِكمة[٤].

﴿سَكِينَةٌ﴾: طُمأنينة، وزوالٌ للرُّعب، وأصْل سَكَن: خلاف الاضطِرابِ والحرَكَة[٥].

﴿فَصَلَ﴾: أي: خرَج[٦].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢، ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٧).

(٦) يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦).

﴿بَرَزُوا﴾: خرَجوا إلى الفَضاء والمتَّسع من الأرض، أصله: ظهور الشيء وبُدوُّه، ومنه سُمِّي الفضاء؛ لأنَّه ظاهرٌ وبادٍ غير خفي[١].

﴿أَفْرِغ﴾: اصْبُبْ علينا، كما يُفرَغ الدَّلوُ، أي: يُصبُّ ما فيه[٢].

المعنى الإجمالي:

يُخبر تعالى عن قصَّة الذين فرُّوا مِن دِيارهم وهم جموعٌ مكوَّنةٌ من آلاف الأشخاص، وقد كان فرارُهم خوفًا من نزول الموت بهم، إما لوباءٍ حلَّ في موطنِهم، أو لعدوٍّ هاجَمَهم في أرضهم، فأَماتَهم الله عزَّ وجلَّ جميعًا؛ معاملةً لهم بنَقيض قصدِهم، ثم أحياهم بعدَ مُدَّة من الزَّمن تفضلًا منه سبحانه وتعالى عليهم؛ فالله جلَّ جلاله صاحب الإحسان والإنعام على النَّاس كافَّةً، لكنَّ أكثرهم لا يُقابِلون ذلك الفضلَ بما يستحقُّه من شُكرٍ.

ثم أمَر الله عباده المؤمنين بقتال أعداء الدِّين لإعلاء كلمته سبحانه، وأنْ يَعْلَموا أنَّ الله سميع لأقوالهم، عليم بأحوالهم، وذلك مدعاةٌ لهم لأن يحذَروا من مخالفة أمره.

ورغَّب سبحانه وتعالى بعدَها في الإنفاق من المال الحلال؛ احتسابًا للأجْر، وطلبًا لمرضاة الله تعالى في أوجه الخير كالجهاد ونحوه، فإنَّ الله يُثِيب فاعل ذلك على عمله، ويزيده مرَّةً بعد مرَّة زيادات كثيرة، وحتى لا يتوهَّم متوهِّم أنَّ الإنفاق مدعاةٌ إلى الافتقار أخبر الله سبحانه أنَّه هو مَن يُوسِّع رِزق مَن يشاء من عباده، ويقبض الرزق عمَّن يشاء، فلْيُنفِقوا ولا يتخوَّفوا؛ فإليه سبحانه الرجوع يوم القيامة فيجازيهم على أعمالهم.

ثم يُخبِر تعالى عن قصَّة مِن قَصص بني إسرائيل جرَت أحداثها من بعد وفاة

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨).
(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢).

موسى عليه السَّلام، حيث اجتمع أشرافُهم ووجهاؤهم طالبينَ من أحد أنبيائهم أن يُعيِّن لهم مَلِكًا يُوحِّد أمرهم، ويُقاتلون جميعًا تحت لوائه أعداءَ الله تعالى، فسألهم نبيُّهم عليه السلام هل يتوقَّعون إنْ فرَض اللهُ عليهم القتالَ أن يَفُوا بها وعَدوا من القيام بالجهاد. فأجابوا بأنَّه لا شيء يحولُ بينهم وبين الجهاد في سبيل الله، وخاصة بعد أنْ أُخرجوا من ديارهم، وسُبي أبناؤهم، فلمَّا فرَض الله عليهم القتالَ لمْ يفوا بالوعد! بل أدْبروا ناكلينَ عن الجهاد إلَّا عددًا قليلًا منهم، والله تعالى يعلم مَن ظلم منهم، وأخلف وعده، وسيجازيه على ظلمه.

ثمَّ أعلمهم نبيُّهم أنَّ الله قد أجابهم إلى ما طلَبوا، وعيَّن لهم طالوتَ ملِكًا عليهم، وكان طالوت رجلًا من عامَّتهم، لا ينتمي إلى سِبط ملوكِ بني إسرائيل، فلم يُسلِّموا لما اختاره الله لهم! بل اعترضوا على ذلك فقالوا: كيف يكون ملِكًا علينا وهو دُوننا في الشَّرف، وهو مع ذلك ليس من أصحاب الأموال، كما هو حال الملوك؟! فأخبرهم نبيُّهم عليه السلام عند ذلك أنَّ الله هو الذي اختاره لهم، واختصَّه مِن بينهم، وأعطاه زيادةً في العِلم، وطولَ قامةٍ، وقوَّةً في الجسد، ثم إنَّ المُلك لله وحْده يؤتيه مَن يشاء، وهو سبحانه واسعُ الفضل والكرم، لا يخصُّ بكرمه شريفًا عن وضيع، أو غنيًّا عن فقير، عليمٌ بكلِّ شيء، ومن ذلك عِلمُه بمَن يصلُح للمُلك من غيره.

وقال لهم نبيُّهم أيضًا: إنَّ العلَامةَ الدالَّة على صحَّة تنصيبِ طالوت ملكًا عليهم هي أن يُردَّ إليهم التابوتُ الذي سُلِب منهم، فتطمئنَّ به قلوبهم، وحاويًا ما يُهدِّئ نفوسهم، وممَّا يحويه أشياء تبقَّت من تَرِكة موسى وهارون عليهما السلام، يحمل هذا التابوتَ إليهم الملائكةُ عليهم السَّلام، وإنَّ في هذا الأمر لعلامةً واضحة لكم على اختيار الله لطالوت؛ ليكونَ ملِكًا عليكم، إنْ كنتم مؤمنين بالله، ومصدِّقين لما أخبرتكم به.

فلمَّا أَذعنوا أخيرًا لِمُلْك طالوت عليهم بعد أنْ جاءهم التابوت، انضمُّوا إليه لقتال عدوِّهم، فلمَّا جاوَزوا موطنهم في طريقهم إلى ملاقاة العدوِّ، أعلمهم طالوت أنَّ الله مختبرُهم بنَهَرٍ؛ ليُظهِر الكاذب من الصادق، ويتميَّز الصابر من الجازع، وأَعلن طالوتُ براءتَه مِن كلِّ مَن يَشربُ منه، وأنَّه لن يَصحبَه مع الجيش إلى القِتال، وأنَّ مَن لم يَطْعَمه- إلَّا أن يَغترِفَ بكفِّه غرفةً واحدة- فإنَّه منه، فشَرِب معظمُهم، ولم يُطعِ الأمر إلا قليلٌ منهم ممَّن وفقهم الله تعالى وثبَّتهم.

فلمَّا تعدَّى طالوت النهر ومَن آمن معه، ممَّن أطاعوه فلم يشربوا من النهر أو شربوا غرفة واحدة- قال بعضُهم لَمَّا رأَوا من كثرة أعدائهم مقارنة بعددهم القليل: لا قُدرةَ لنا هذا اليوم بقتال جالوت وجنودِه؛ لكثرة عددِهم وعَتادهم، فحينها قال لهم الموقِنون برُجوعهم إلى الله تعالى: ما أكثرَ ما تغلبُ الجماعةُ القليلة الجماعةَ الكثيرة! وذلك بمشيئة الله عزَّ وجلَّ؛ فلا تفيد الكثرةُ مَن خَذَله الله، ولا تضرُّ القِلَّةُ مَن وفَّقه الله، والله سبحانه مع الصَّابرين.

ولَمَّا ظهَر المؤمنون- طالوتُ وجُنوده- لجالوتَ وجُنودِه، دعا أهلُ الإيمان ربَّهم أن يُلهِمَهم الصَّبر، ويثبِّت أقدامَهم، وأنْ ينصرَهم على أهل الكفر، فاستجاب الله دُعاءَهم، وغلَب المؤمنون عدوَّهم، وسلَّط اللهُ داودَ عليه السلام على جالوت فقتله، وأعطا الله داودَ المُلكَ والنبوَّة وآتاه من العِلم ما يشاء سبحانه. ولولا أن الله يدفع بالمؤمنين المجاهدين في سبيله كيدَ الكفَّار والفجَّار لحلَّ بالأرض الفساد، ولكن الله ذو فضلٍ واسع على جميع خلقه.

تفسير الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ ذَكَر هذه القصة؛ لأنَّها من عظيم آياته، وبدائِع قدرته، فقال جلَّ وعلا[(١)]:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

أي: ألم تعلمْ يا محمَّد، خبرَ تلك الجموع المؤلَّفة من آلاف الأشخاص، الذين فرُّوا من دُورِهم وموطنِهم ابتغاءَ السَّلامة من الموت، إما حذرًا من إصابتهم بوباءٍ وقع في بلادهم، أو خوفًا من مقاتلة عدوٍّ يدهمهم في أرضهم[(٢)].

﴿فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾.

أي: أمَر الله تعالى أمرًا كونيًّا بأنْ يموتوا، فماتوا، ثم أحياهم اللهُ تعالى بعدَ مُدَّة، فقاموا، فهؤلاء لَمَّا فروا- إمَّا من الوباء، أو مِن مقاتلةِ الأعداء؛ طلبًا لطولِ الحياةِ والبقاء- عُومِلوا بنقيض ما قَصدوا، وجاءهم الموت جميعًا فحُصدوا، وفي هذا حثٌّ للمؤمنين على جِهاد الأعداء، بإعلامهم أنَّ إليه وحده الإماتةَ والإحياء، وأنَّ الفرار من القتال والبقاء في الدُّور للاختباء، ليس بمُنجٍ أحدًا من وقوع القَدَر والقضاء[(٣)].

﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٥٩-٥٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٣٨٥-٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤١٣، ٤٢٣، ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٩٤-١٩٥).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ فرارهم كان من أجْل الطَّاعون: ابن عبَّاس-في رواية عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٥٦).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّهم فرُّوا خوفًا من مقاتلة عدوٍّ: ابن عبَّاس-في رواية أخرى عنه- والضَّحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٥٢-١٥٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٩٥).

أي: إنَّ الله تعالى هو صاحبُ الإحسان والإنعام على عموم النَّاس، ومِن ذلك تفضُّلُه عليهم ببيان آياته، وطريق إحياء أرواحهم بنور الهدى، ومنها إحياء أبدانهم بإنقاذهم من الموت والهلاك، وكان الواجب على النَّاس تقديم الشكر لله تعالى في مقابل تلك النِّعم، إلَّا أنَّ الصفة السَّائدة لديهم هي القيام بجحودِها، بالكفر، أو العصيان، أو الغفلة والنِّسيان[١].

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن سبحانه وتعالى أنَّ الموت لا يصون منه فرارٌ، أمرَ بالجهاد[٢].

وأيضًا لَمَّا بيَّن تعالى بعض ما يتعلَّقُ بالنِّكاح من أحكام، ذكَر حُكم القِتال؛ لأنَّ النكاحَ تحصينٌ للدِّين، والقِتال تحصينٌ للدِّين والأرواح والأموال، فقال تعالى[٣]:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤)﴾.

أي: كما أنَّ الحذر لا يُغني من القدْر، فكذلك الفرار من الجهاد وتجنُّبه لا يُقرِّب أجلًا، ولا يُباعِده، فقاتلوا- أيُّها المؤمنون- أعداءَ دِينكم؛ لإعلاء دين ربِّكم الذي هداكم له، واعلموا أنَّه لا يُفيدكم القعود عن القتال شيئًا، وإنْ ظننتم أنَّ في القعود بقاءَكم، فليس الأمر كذلك؛ فلا تجبُنوا عن لقائهم، وتقعُدوا عن حربِهم؛ فإن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٢٥-٤٢٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٩٥-١٩٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٥٩-٥٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٣٨٥-٣٨٦-٣٨٧-٣٨٨).

بيدي حياتَكم وموتَكم، فلا تخافوا الموت على أنفسكم، واشكروا الله تعالى بطاعة ربِّكم، واعلموا أنَّ الله عزَّ وجلَّ سميعٌ لأقوالكم؛ عليمٌ بأحوالكم؛ فاحذروا من المخالفة، وقوموا بما أوجب الله تعالى عليكم، فإنَّ الله سبحانه يُجازي كلًّا بعمله؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر[(١)].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧-٧٨].

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا حثَّ الله عزَّ وجلَّ على القتال، حثَّ على الإنفاق؛ فإنَّ القِتال يَستدعي أموالًا لتجهيزِ الجيش بالعددِ والعَتاد[(٢)]، فقال تعالى.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٢٦-٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٩٨-١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨١).

القِراءات ذات الأثَر في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ قراءتان:

١- ﴿فَيُضَعِّفه﴾، وتعني: المداومة وتكرير الفِعل، أي يستمر في المضاعفة مرَّةً بعد مرَّة[(١)].

٢- ﴿فَيُضَاعِفه﴾، وتعني: كثرة ما يُضاعف[(٢)].

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

أي: هل ثمَّة أحدٌ يقتطع جزءًا من ماله الحلال، فينفقه احتسابًا للأجْر، وطلبًا لمرضاة الله تعالى، في أوجه الخيرِ كالجِهاد وغيره، طيِّبةً نفسُه بذلك، ودون أن يُتبع نفقتَه منًّا أو أذًى- فإنَّ الله تعالى لا يَقضيه مثله في الأجر وحسب؟ بل يَزيده الغنيُّ الكريم مرَّة بعد مرَّة، زياداتٍ كثيرة، قد تبلغ سبعمئة ضِعفٍ وتزيد[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٢].

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ينزلُ اللهُ في السَّماءِ الدنيا لِشطرِ الليلِ، أو لِثُلُثِ الليلِ الآخرِ، فيقولُ: مَن يدعوني فأَستجيبَ

---

(١) قرأ بها ابنُ كَثيرٍ، وابنُ عامرٍ، وأبو جعفرٍ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٥٩). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٩٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٣٩)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٠٠).

(٢) قرأ بها الباقون . يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٥٩). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٩٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٣٩)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٢٨-٤٣١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٢-٦٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠١-٢٠٣).

له! أو يسألُني فأُعطِيَه! ثم يقولُ: مَن يُقْرِضُ غيرَ عديمٍ ولا ظَلُومٍ ؟))[١].

﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

لَمَّا كان الإنسانُ ربَّما يتوهَّم أنَّه إذا أنفق افتقر؛ دفَع سبحانه هذا الوهم بقوله[٢]:

﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: يُضيِّق الله تعالى الرزق على مَن يشاء من عباده، ويُوسِّعه على مَن يشاء منهم، فالتصرُّف كلُّه بيديه، والأمور كلُّها راجعةٌ إليه؛ فالإمساكُ لا يبسط الرِّزق، والإنفاقُ لا يقبضه، فأنفِقوا- أيُّها العباد- ولا تُبالُوا؛ فالله هو الرزَّاق، وهو مع ذلك غير مضيِّع أعمالكم، بل تجدون ما قدَّمتموه مُوفَّرًا مُضاعَفًا، يوم ترجعون فيه إلى ربِّكم فيُجازيكم بأعمالِكم[٣].

كما أنَّ اللهَ تعالى هو الذي قبَض الرِّزق عمَّن حثَّ على مَعونتِه وإعطائه؛ ليبتليَه بالصبر، وهو الذي بَسط على آخَر؛ ليمتحنه بعمله فيما بسط عليه، ويجازي يوم القيامة كل واحد منهما على قدر طاعتهما له سبحانه فيما ابتلاهما به، من غنًى وفاقةٍ، وسَعَةٍ وضيقٍ[٤].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)﴾.

---

(١) رواه مسلم (٧٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٢-٤٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٢-٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٢).

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا أمَرَ سبحانه المؤمنين بالقتالِ في سبيله، بعد قِصَّة الذين خرَجوا من دِيارهم وهم ألوفٌ حذرَ الموت، أردْف ذلك بأنَّ القتال كان مطلوبًا ومشروعًا في الأمم السابقة، فكانتِ النفسُ أميلَ لقَبوله من التكليف الذي يقَعُ على انفراد، ولِيعلمَ المؤمنون حالَ وعاقبةَ مَن الْتزمَ أمْرَ الله تعالى بالقتال في سبيله، ومَن خالفه، فقال عزَّ وجلَّ[1]:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾.

أي: ألم تَنظُرْ يا محمَّد، إلى شأنَ أشراف بني إسرائيل ووجهائهم، من بعد وفاة موسى عليه السَّلام، حين طلبوا من أحد أنبيائهم أن يُعيِّن لهم ملِكًا يوحِّد أمْرهم على جهاد أعداء الله تعالى[2].

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾.

أي: قال النبيُّ الذي سألوه أنْ يبعث لهم ملكًا؛ ليُجاهدوا معه في سبيل الله: لعلَّكم تَجبُنون عن القِتال إذا فُرِض عليكم[3]؟

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾.

أي: قال الملأ من بني إسرائيل لنبيهم: وأيُّ شيء يمنعنا من الجهاد في سبيل الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٦٧-٥٦٩).

وقد اعتِيد في القرآن ذكر القصص العظام بعد بيان الأحكام؛ لتفيد الاعتبار للسَّامع، فيحمله ذلك على الخضوع والانقياد، وترك التمرُّد والعناد. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٥، ٤٤٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٥-٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٤٢-٤٤٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٧-٢٠٨).

تعالى، وما الذي يبقى لنا إذا تركنا القتال، والحال أنَّنا مضطرُّون إليه؛ فالبلاد قد أُخذت، والأبناء قد سُبيَت، فما دام أنَّ الأمر قد بلغ هذا المبلغ فلا بدَّ حينئذٍ من إقامة الجهاد(١).

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

أي: لَمَّا فُرِض عليهم قتال عدوِّهم ما وَفوا بما وَعدوا، بل أَدبر أكثرُهم ناكلينَ عن القتال، وضيَّعوا فرْضَ الجهاد الذي طلبوه ابتداءً من عند أنفسِهم، فجبنوا، واستولى على أكثرهم الضَّعفُ والخور، وبقِي منهم عددٌ قليل قد عصمهم الله تعالى وثبَّتهم، فالتزموا أمر الله عزَّ وجلَّ، والله سبحانه يَعلم مَن ظَلَم نفْسه منهم ومِن غيرهم، ممَّن أخلف وعْدَه، ونكص عن أمر ربِّه، واللهُ تعالى مجازيه على ظُلمه(٢).

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾.

أي: أخبَرهم نبيُّهم بأنَّ الله تعالى قد أجابهم إلى ما سألوا مِن بعث الملِك لمصلحتهم، يُقاتل ويقاتلون معه، فعيَّن لهم طالوت، وكان رجلًا من عامَّتهم، لا

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨٦-٤٨٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٤٦-٤٤٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٨).

يَنتمي إلى السِّبط الذي فيه المُلْك، فكان الواجب عليهم قَبولَ مَن اختاره الله تعالى، والانقيادَ إليه، فأبوا إلَّا أن يعترِضوا، واستبعدوا مُلكه عليهم، فقالوا: كيف يكون ملكًا يسيطر علينا، وهو دُوننا في الشَّرف والنسب؟! فلماذا لم يأتِ الملِك منَّا، ونحن من سِبط الملوك فنحن أولى منه بذلك؟! ثمَّ هو مع هذا رجلٌ لا يمتلك الكثيرَ من الأموال كما هو شأن الملوك الآخرين[١]!

﴿قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾.

أي: لَمَّا اعتقدوا رأيًا فاسدًا، وهو أنَّ المُلْك يتطلَّب شرف النَّسَب، وكثرة المال، ولم يدركوا الصِّفات الأساسيَّة المقدَّمة على هذين، قال لهم نبيُّهم: إنَّ الله اختاره لكم، واختصَّه من بينكم، والله أعلم به منكم، ولستُ أنا مَن عيَّنه من تلقاءِ نفسي، بل الله تعالى هو الذي عيَّنه لي لَمَّا طلبتم ذلك، فلزِمكم الانقيادُ إليه، وهو مع هذا قد أعطاه الله تعالى زيادة في العلم، الذي يمنحه حنكةً وقدرةً على تدبير الأمور، وأعطاه طول القامة وقوة الجسد اللَّذيْنِ يمنحانِه هيبةً وشجاعة، فتوفَّرت لديه الأسباب الحقيقيَّة لاستحقاق المُلْك دون غيره، فبهاتين القوَّتين: القوة المعنويَّة: قوة العلم والرأي، والقوة الحسيَّة: قوة الجسد، تتمُّ أمور الملك وسياسة الرعية، وتكثر أموال المملكة، ويحصُل النصر على الأعداء، بإذن الله تعالى[٢].

﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ المُلك لله تعالى وحده، وبيده دون غيره، يُؤتيه مَن يشاءُ بحسَب ما تقتضيه حِكمتُه، فيخصه به، فلا تستنكروا يا معشرَ الملأِ من بني إسرائيل أن يبعث

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٤٧-٤٤٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧-١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨٩-٤٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢١٢-٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٥٤-٤٥٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢١٣).

الله طالوت ملكًا عليكم، وإنْ لم يكُن من أهل بيت المُلْك؛ فإنَّ المُلْك ليس بميراث عن الآباء والأجداد، ولكنَّه بإيتاءِ الله وحده، فلا تتخيَّروا على الله تعالى، فهو الحاكم الذي ما شاء فعل، ولا يُسأل عمَّا يفعل وهم يُسألون.

والله تعالى ذو سَعةٍ في جميع صفاته؛ ومن ذلك أنَّه واسعٌ في عِلمه، وواسعٌ في فضله، وكرمه؛ ومِن سَعة فضله أنَّه لا يخصُّ بكرمه شريفًا عن وضيع، أو غنيًّا عن فقير، وأنَّه يُنعم بالمُلْك حتى على مَن لم يكُن من بيت مُلك، وهو سبحانه واسع العلم، عليم بكلِّ شيء؛ ومِن ذلك علمه بمن يصلح للمُلْك من غيره[1].

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨)﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

أي: إنَّ علامة صِحَّة تنصيبِ طالوت ملكًا عليكم، وإن كان من غير سبطِ ملوككم، هي أن يُردَّ إليكم الصُّندوق الذي سُلب منكم، فتطمئنَّ به قلوبكم ويحوي ما يُهدِّئ نفوسكم، وممَّا يحويه أشياء تبقَّت من تركةِ موسى وهارون عليهما السَّلام، قيل: منها بقيةٌ من آثار ألواح التوراة، تحوي العِلم والحِكمة، وميراث الأنبياء عليهم السلام، ويحمل هذا الصندوقَ إليهم ملائكةُ الربِّ عزَّ وجلَّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٥٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢١٣-٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٥٧-٤٥٩، ٤٦٦-٤٦٧، ٤٧٢-٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢١٧-٢١٨).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّ في رجوعِ التابوت إليكم كما وصفتُ لكم، علَامةً على اختيار الله تعالى لطالوت ملكًا عليكم، وستؤمنون بأنَّها دلالة صحيحة لكم على هذا الأمر، إن كنتم مؤمنين بالله تعالى حقًّا، ومصدِّقيَّ فيما أخبرتكم به[1].

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾.

أي: فلمَّا أتاهم التابوت كما أخبرهم نبيُّهم، فصدَّقوه وأذعَنوا لولاية طالوت، انضمُّوا إليه لقتال عدوِّهم، فلما سار طالوت بالجنود متجاوزًا موطنهم، وشاخصًا نحو موضع آخر، أخبرهم أن الله تعالى مختبرهم بماء نَهَرٍ؛ ليتميَّز منهم الكاذب من الصادق، والصابر من الجازع، ويترتَّب عليه مَن يصحب الجيش حيث وجهته، ومَن يفارقه؛ لكونه ليس أهلًا للجهاد في سبيل الله تعالى، فأخبرهم بأنَّ مَن شرِب من هذا الماء فأنا منه بريء، وليس من أهل طاعتي وولايتي وهو بذلك عاصٍ، فلا يتبعنا لمعصيته وعدم ثباته، ومَن لم يذُقْ منه شيئًا سوى ما اغترفه بكفِّه مرَّةً واحدة، فليصحبنا، فإنَّه من أهل طاعتي وولايتي، فكانت نتيجة هذا الامتحان أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٨٠-٤٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٧-٦٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢١٨).

شرِب منه معظمُهم، ونكصوا عن قتال عدوِّهم، ولم يبقَ مع طالوت سوى عددٍ قليل قدِ الْتَزموا ما أمَرَهم به[١]!

عن البَراء بن عازبٍ رضي الله عنه، قال: ((حدَّثني أصحابُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ممَّن شهِد بدرًا: أنهم كانوا عِدَّةَ أصحابِ طالوتَ، الذين جازوا معه النهرَ، بضعةَ عشرَ وثلاثمئةٍ. قال البراءُ: لا واللهِ ما جاوز معه النهرَ إلَّا مؤمنٌ))[٢].

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾.

أي: فلمَّا تعدَّى طالوتُ النَّهرَ، ومَن معه مِن المؤمنين الذين أطاعوه، فلم يشرَبوا شيئًا من مائه، أو شرِبوا غرفةً واحدةً باليد، قال بعضهم لَمَّا شاهدوا قلَّتَهم وكثرةَ عدوِّهم: لا قدرةَ لنا في هذا اليوم بقتال جالوت وجنودِه؛ لكثرة عَددهم وعُددهم[٣].

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

أي: قال الذين يعلمون يقينًا أنهم راجعون إلى الله تعالى وملاقوه، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ منهم، قالوا مُطَمْئِنينَ مثبِّتينَ لباقيهم الذين قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾: ما أكثرَ ما تغلبُ الجماعةُ القليلةُ الجماعةَ الكثيرة! وذلك بقدر الله تعالى وإرادته، فلا تُغنِي الكثرة مع خذلانِه، ولا تضرُّ القِلَّة مع توفيقِه، والله عزَّ وجلَّ مع الحابسين أنفسهم على رِضاه وطاعتِه، وتجنُّب

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٨١-٤٨٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٩-٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٢١).

(٢) رواه البخاري (٣٩٥٧).

(٣) نَسَب ابنُ عطية القولَ بأنَّ الذين تجاوزوا النهر مع طالوت هم مَن ذَكَرنا، إلى جمهورِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٨).

معصيته، وتحمُّل أقداره، فيُعِينهم على الجهاد في سبيله وغير ذلك من طاعاته، ويؤيِّدهم وينصرهم، ويُظهِرهم على أعدائهم الصادِّين عن دينه[١].

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)﴾.

لَمَّا ظهر حزبُ الإيمان- طالوتُ وجنودُه- لجالوتَ وجنودِه، قالوا: ربَّنا أنزِلْ علينا صبرًا، واملأْ به قلوبنا، وقوِّها على جهادهم؛ لتثبتَ أقدامنا فلا تتزلزل فنجبُنَ ونفرَّ، وانصرنا على هؤلاء القوم الذين كفروا بك[٢].

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾.

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾.

أي: فاستجاب لهم ربُّهم دعاءَهم، فغلَب طالوتُ وجنودُه عدوَّهم بقدَرِ الله تعالى وتوفيقه، وباشَر داودُ عليه السَّلام قتْلَ جالوت بنفْسه؛ لشجاعته وقوَّته وصبره، وأعطاه الله السلطان والنبوَّة، وعلَّمه ممَّا يشاؤه سبحانه، ومن ذلك تعليمه صَنعةَ الدروع، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾[٣] [الأنبياء: ٨٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٩٥-٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٩٧-٤٩٨، ٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٠). =

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

أي: لولا أنَّ الله تعالى يدفع بالمجاهدين في سبيله كيد الكفَّار والفجَّار، وإلا لفسَدت الأرض باستيلائهم عليها، وإقامتِهم شعائرَ الكفر ومظاهرَ الفِسق والفجور، ومنعهم من إظهار عِبادة الله تعالى وحده، فتحُلُّ بالأرض وأهلها العقوبات، ويَهلِك الحرثُ والنَّسل؛ فالله سبحانه صاحب الفضل الواسِع على جميع خلقه، ومِن ذلك أنْ شرَع لعباده الجهاد رحمةً بهم ولطفًا؛ إذ فيه سعادتهم، والمدافعة عنهم؛ لتمكينِهم من الأرض(١).

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

أي: هذه الآيات التي أنبأتُك بها يا محمَّد هي علاماتٌ على الله تعالى وتوحيده، وحُجج ودلائل على الهدى، تأتيك بالواقع الذي كان عليه الأمرُ، المطابق لِمَا بأيدي أهل الكتاب من الحقِّ الذي يعلمه علماءُ بني إسرائيل؛ فهي أخبارٌ صادقةٌ لا ريبَ فيها؛ ولذا أكَّد الله تعالى لرسوله عليه الصَّلاة والسَّلام رسالتَه، التي مِن

= وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ معنى الحِكمة: النُّبوَّة: السُّدِّي. يُنظر: (تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥١٤).

(١) وهو اختيار الواحدي في ((الوجيز)) (ص: ١٨١)، وابن عطية في ((تفسيره)) (١/ ٣٣٧، ٣٣٨)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٠٩)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٢/ ٥٠٠-٥٠٣)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٣). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٩).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٨١).

وقيل المراد: لولا دفعُ الله بالمؤمنين والأبرار عن الكافرين والفجار، لأُهلكوا بعقوبة منه سبحانه. وهذا اختيار ابن جرير. ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥١٤-٥١٥)، وقيل هو قول أكثر المفسرين. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٣٨). ويُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ١٣٣).

وممن قال بهذا القول من السلف: ابن عباس، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٨٠).

جملة أدلَّتها ما قصَّه الله عليه من أخبار الأمم الماضين التي لم يَعلمْها، إلَّا بعد إخبار الله تعالى له بذلك، فدلَّ هذا على أنَّه رسول الله حقًّا، ونبيُّه صدقًا[١].

الفوائد التربويَّة:

١- الحثُّ على الإنفاق في سبيل الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافًا كَثِيرَةً﴾؛ فالاستفهام هنا للحثِّ، والتشويق[٢].

٢- إذا طلب الإنسان شيئًا من غيره فعليه أن يذكُرَ له ما يُشجِّعه على إجابة طلبه؛ لقولهم: ﴿نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾؛ فإن هذا يَبعثُ النبيَّ ويُشجِّعه على أن يبعث لهم الملك[٣].

وينبغي كذلك اختيار الألفاظ التي يكون بها إقناع المخاطَب، وتسليمه للأمر الواقع؛ لقول نبيهم: ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ﴾[٤].

٣- أنَّ الإنسان قد يظنُّ أنَّه يستطيع الصبر على ترك المحظور، أو القيام بالمأمور؛ فإذا ابتلي نكص؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ مع أنهم كانوا متحمِّسين للقتال[٥].

٤- أنَّ الإيمان مُوجِب للصبر، والتحمُّل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥١٨-٥١٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢١٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٢٤).

٥- أنَّ الله عزَّ وجلَّ عند الابتلاء يرحَمُ الخلق بما يكون فيه بقاء حياتهم؛ لقوله تعالى هنا: ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غَرْفَةً بِيَدِهِ﴾؛ لأنَّهم لا بدَّ أن يشربوا للنَّجاة من الموت[١].

٦- أنَّ مَن صدَق اللُّجوءَ إلى الله، وأحسن الظنَّ به، أجاب الله دعاءه[٢] حيث قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، فاستجاب الله تعالى دعاءهم فقال: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ﴾.

٧- إسناد الفضل إلى أهله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ﴾[٣].

٨- أنَّ المجيبَ يختار ما يكون به الإقناع بادئًا بالأهمِّ فالأهم؛ لقول نبيِّهم في جوابه: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ؛ فبدأ بذكر ما لا جدالَ فيه -وهو اصطفاء الله عليهم- ثم ذكر بقيَّة المؤهلات: وهي أنَّ الله زاده بَسطةً في العِلم، وتدبير الأمَّة، والحروب، وغير ذلك، وأنَّ الله زاده بَسطةً في الجسم: ويشمل القوة، والطول... وأنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الذي يُؤتِي مُلكَه مَن يشاء، وفعله هذا لا بدَّ وأن يكون مقرونًا بالحِكمة؛ فلولا أنَّ الحِكمةَ تَقتضي أن يكون طالوتُ هو المِلكَ ما أعطاه الله عزَّ وجلَّ المُلْك، وأنَّ الله واسعٌ عليم؛ فهو ذو الفضل الذي يَمدُّه إلى مَن يشاء من عباده؛ فله أن يتفضَّل على مَن يشاء، وأنَّ الله أعلمُ حيث يَجعل رِسالتَه، وأعلمُ أيضًا حيث يجعل ولايتَه[٤].

٩- أنَّ مِن شأن الأمم الاختلافَ في اختيار الرئيس الذي يكون له المُلْك عليها، والاختلاف مدعاةٌ للتفرُّق، فيجب أن يكون هناك مرجِّح يقبله الجمهور من الأمَّة؛ لذلك لجأ الملأ من بني إسرائيل إلى نبيِّهم، وطلبوا منه أن يختار لهم رجلًا يكون ملِكًا عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢١٥).

لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾، وقد جعل الإسلامُ المرجِّحَ لاختيار إمام المسلمين مبايعةَ أُولي الأمر لمن يختارونه من أنفسهم، وهم أهل الحَلِّ والعَقد والمكانة في الأمَّة، الذين هم عون السُّلطان، وقوَّته باحترام الأمَّة لهم، وثقتها بهم[١].

١٠- أنَّ اجتماع أهل الكلمة والحَلِّ والعقد، وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورُهم وفَهمه، ثم العمل به، من أكبرِ الأسباب لارتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقَع لأولئك الملأ من بني إسرائيل، حين راجعوا نبيَّهم عليه السلام في تعيين مَلِك تجتمع به كلمتهم ويلمُّ متفرِّقهم، وتحصل له الطاعة منهم[٢].

١١- أنَّ الحقَّ كلَّما عُورِض وأُوردت عليه الشُّبه ازداد وضوحًا وتميَّز، وحصل به اليقين التامُّ كما جرى لهؤلاء؛ لَمَّا اعترضوا على استحقاق طالوت للمُلك أُجيبوا بأجوبةٍ حصَل بها الإقناع وزوال الشُّبه والريب[٣].

١٢- أنَّ العلم والرأي مع القوة؛ بهما كمالُ الولايات، وبفَقْدهما أو فَقْد أحدهما نُقصانُها وضررها؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[٤].

١٣- أنَّ الاتِّكال على النفس سبب الفشل والخذلان، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر، فالأول كما في قولهم لنبيهم ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ فكأنَّ نتيجةَ ذلك أنَّه لَمَّا كتب عليهم القتال تولوا، والثاني في قوله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٢/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٤- أنَّ من حِكمة الله تعالى تمييزَ الخبيث من الطيِّب، والصادق من الكاذب، والصابر من السَّاخط، وأنه لم يكن ليذرَ العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز[١].

١٥- أنَّ الإنسان إذا ازداد إيمانًا ازداد فهمًا لكتاب الله سبحانه وتعالى، وسُنَّة رسوله صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ الشيء إذا عُلِّق على وصف، فإنَّه يزداد بزيادة ذلك الوصف، وينقص بنقصانه؛ فكلَّما تمَّ الإيمانُ كان انتفاعُ الإنسان بآيات الله أكثرَ، وفَهمُه لها أعظمَ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢].

١٦- أنَّ طاعة الجنود للقائد فيما يأمر به وينهَى عنه شرط في الظفر واستقامة الأمر[٣].

١٧- أنَّ الإيمان بالله تعالى، والتَّصديق بلقائه من أعظمِ أسباب الصَّبر والثبات في مواقفِ الجِلاد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ...﴾ الآيةَ[٤].

١٨- أنَّ القليل من النَّاس هم الذين يصبرون عند البلوى؛ لقوله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[٥].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّه لا فرارَ من قدَر الله؛ لقوله تعالى: ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾[٦].

٢- في قوله تعالى: ﴿مُوتُوا﴾ إثبات أنَّ كلام الله سبحانه وتعالى بحروف

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٢/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٢٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٩٦).

مرتَّبة، وفيه ردٌّ على مَن قال: إنَّ كلام الله هو المعنى القائم بنفْسه[١].

٣- أنَّه سبحانه وتعالى يَمدَح نفْسَه بما أنعم به على عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾؛ فهو سبحانه وتعالى يحبُّ أن يُمدح، ويُحمَد؛ لأنَّ ذلك صِدقٌ، وحقٌّ؛ فإنَّه سبحانه وتعالى أحقُّ مَن يُثنَى عليه، وأحقُّ مَن يُحمَد؛ وهو سبحانه وتعالى يحبُّ الحقَّ[٢].

٤- أنَّ الجزاء على العمل مضمونٌ كضمان القرض لمقرضه، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[٣].

٥- أنَّ فضل الله وعطاءه واسع؛ وأنَّ جزاءه للمحسن جزاء فضل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ مع أنَّ أصْلِ توفيقه للعمل الصَّالح فضلٌ منه[٤].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ إثباتُ صِفة القَبْض والبَسْط لله عزَّ وجلَّ[٥].

٧- الإشارة إلى أنَّ الإنفاق ليس هو سببَ الإقتار والفقر؛ لأنَّ ذِكر هذه الجملة ﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ بعد الحثِّ على الإنفاق، يُشير إلى أنَّ الإنفاقَ لا يستلزمُ الإعدامَ، أو التضييق؛ لأنَّ الأمرَ بيد الله سبحانه وتعالى[٦].

٨- ترهيب المرء من المخالَفة، وترغيبه في طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لأنَّ الإنسان إذا علم أنَّه راجع إلى ربه لا محالة فإنَّه لا بدَّ أن يكون

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٩٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٠٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٠٣).
(٥) يُنظر: ((كتاب التوحيد)) لابن منده (٢/ ٩٣)، ((التدمرية)) لابن تيمية (ص: ٢٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٤).

فاعلًا لِمَا أُمِر به، تاركًا لما نُهِي عنه؛ لأنَّه يخاف من هذا الرجوع[١].

٩- من الفوائد الاجتماعيَّة: أنَّ الأُمم التي تفسد أخلاقها وتضعُف، قد تفكِّر في المدافعة عند الحاجة إليها، وتعزم على القيام بها إذا توفَّرت شرائطها، التي يتخيَّلونها، ثم إذا توفَّرت الشروط يضعُفون ويجبنون، ويزعمون أنَّها غير كافية؛ ليعذروا أنفسهم وما هم بمعذورين، والله عليم بالظالمين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[٢].

١٠- أنَّ مرتبة النبوَّة أعلى من مرتبة الملْك؛ لقولهم: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ يُخاطبون النبيَّ؛ فالنبيُّ له السُّلطة أن يبعث لهم ملِكًا يتولَّى أمورهم ويدبِّرهم[٣].

١١- أنَّ بعض الأسئلة تكون نَكبةً على السائل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١][٤]، وذلك أنَّ بَني إسرائيلَ طلبوا مِن نبيِّهم أنْ يبعثَ لهم مَلِكًا يُقاتلون معه في سبيل الله تعالى، فلمَّا جاءَهم الملِكُ، وفُرِضَ عليهم القتالُ وقَعوا في الظُّلم بالنُّكوص والإعراض عنه.

١٢- أنَّ الله قد يُعطي المُلْكَ مَن لا يترقَّبه[٥]، وذلك أنَّ طالوت لم يكُن من سلالة ملوكهم، ولم يكن يتشوَّف إلى المُلك، فاختاره الله تعالى له لأهليَّته لذلك.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٢/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢١١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢١٤).

١٣- أنَّ تقديرَ الله عزَّ وجلَّ فوق كلِّ تصوُّر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ مع أنَّهم قدَحوا فيه من وجهين: أنَّهم أحقُّ بالمُلك منه، وأنَّه لا يَملك أموالًا كثيرة؛ فبيَّن لهم نبيُّهم أنَّ الله اصطفاه عليهم بما تَقتضيه الحِكمة(١).

١٤- أنَّ مُلك بني آدم ملكٌ لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ فهذا الملِك في مملكته هو في الحقيقة ما مَلَك إلَّا بإذن الله عزَّ وجلَّ؛ فالمُلْك لله سبحانه وتعالى وحده، يُؤتيه من يشاء(٢).

١٥- أنَّ مُلكنا لِمَا نملكه ليس ملكًا مطلقًا نتصرف فيه كما نشاء؛ بل هو مقيَّدٌ بما أذِن الله به؛ ولهذا لا نتصرَّف فيما نملك إلَّا على حسَب ما شرَعه الله؛ فلو أراد الإنسان أن يتصرَّف في ملكه كما يشاء- يُتلِفه ويحرقه، ويعذِّبه إذا كان حيوانًا- فليس له ذلك؛ لأنَّ مُلْكَه تابعٌ لمُلْك الله سبحانه وتعالى، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾(٣).

١٦- أنَّ من الحِكمة اختبارَ الجند؛ ليظهرَ مَن هو أهلٌ للقتال، ومَن ليس بأهلٍ له، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩](٤).

١٧- أنَّه يجبُ على القائد أن يَمنع مَن لا يصلُح للحرب، سواء كان مُخذِّلًا، أو مُرجِفًا، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢١٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٢٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٢٢).

١٨- أنَّ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام ليس عندهم من العلم إلَّا ما علَّمهم الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾؛ فالنبيُّ نفسه لا يعلم الغيب، ولا يعلم الشرع إلَّا ما آتاه الله سبحانه وتعالى؛ ومثل ذلك قول الله تعالى لنبيِّه محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣][(١)].

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى...﴾ استفهام غرضُه التقرير، والتَّعجيب من شأنهم[(٢)].

٢- **قوله:** ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ جملة استفهاميَّة متضمِّنة معنى الطَّلب، فهو استفهام مستعمَل في التحضيض والتهييج على الاتِّصاف بالخير[(٣)].

٣- **وفي قوله:** ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا﴾ جناس مغاير[(٤)]، وصِيغة المفاعلة في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٩٠)، ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٣٧-٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٧٥-٤٧٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٦١-٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨١).

(٤) **الجناس (أو التجنيس)**: هو تشابه لفظين في النطق، واختلافهما في المعنى، وهو من المحاسن اللفظية، وفنٌّ بديعٌ في اختيار الألفاظ التي تُوهِمُ في البدْءِ التكرير، لكنَّها تُفاجِئ بالتأسيس واختلافِ المعنى. وينقسم الجناس إلى نوعين: لفظي-ومعنوي، وكل منهما يندرج تحته أنواع. ومن أنواع الجناس المعنوي: الجِناس المصحَّف، ويُسمَّى أيضًا جِناس الخط: وهو تشابُه اللفظين في الكتابة مع الاختلاف في نقط الحروف، مثل: جنة وحبة، و(يَسْقي) و(يَشفي). في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩-٨٠]. كما ينقسم إلى: جناس (مماثل): وهو الجناس التامُّ، الذي يكون اللَّفظان المتشابهان فيه من نوع واحد من أنواع الكلام، كاسمين، أو فعلين. جناس مغاير «محرَّف»: وهو ما اختلف فيه اللَّفظان في هيئة =

(فَيُضَاعِفَهُ)؛ للمبالغة[١].

٤- قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾

- فيه إيجازٌ بالحذف، والتقدير: فماتوا ثم أحياهم، والعطف بـ(ثم) يدلُّ على تراخي الإحياء عن الإماتة[٢].

- وفيه: طِباق بين الإماتة والإحياء[٣]، وهو يُبرز المعنى ويوضِّحه.

٥- قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فيه الإظهار ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ في موضِع الإضمار (أكثرهم)؛ ليكون أنصَّ على العموم، لئلَّا يدَّعي مدَّعٍ أنَّ المراد بالناس في الموضع الأوَّل أهلُ زمان ما، فيخصُّ الثاني أكثرهم، بل ليشملَ جميعَ النَّاس في أيِّ زمانٍ ومكانٍ كانوا[٤].

- **وجملة ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾** واقعة موقعَ التعليل لجملة ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾، والمقصود منها بَعْثُ خُلُقِ الاعتماد على الله في نفوس المسلمين في جميع أمورهم، وأنَّهم إنْ شَكروا اللهَ على ما آتاهم من النِّعم، زادهم من فضلِه، ويسَّر لهم ما هو صعب[٥].

٦- قوله: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ مدلول (عسى)

= الحروف، واتَّفقَا في نوعها وعددها وترتيبها. وله فروعٌ أخرى. يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤٥٠-٤٥٢)، ((الإتقان)) للسيوطي (٥/ ١٧٥٧)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٨٥، ٤٨٨، ٤٩١، ٤٩٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٢٥ وما بعدها).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٦٧-٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٦٣-٥٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٦٧-٥٦٩)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٦١-٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٦١-٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨٠).

الإنشاء؛ لأنَّها للترجِّي أو للإشفاق، ودخَلَتْ عليها (هل) التي تقتضي الاستفهامَ؛ لأنَّ الكلامَ محمولٌ على المعنى، أي: هل قارَبْتم ألَّا تقاتلوا، فأدخل (هل) مستفهِمًا عمَّا هو متوقَّعٌ عنده ومظنون[١].

٧- **قوله:** ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ﴾ استفهام، معناه الإنكار[٢].

٨- **قوله:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى المَلَأِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ فيه بيان لعِظم إخلالهم بأوامِر الله تعالى، حيث عبَّر عنهم بـ(الملأ)، وهم الأشراف، والإخلالُ من الشريف أقبح، ومِن أولاد الصلحاء أشنع، فقال: ﴿مِن بَنِي إِسْرَائيل﴾. وممَّن تقرَّر له الدِّين، واتَّضحت له المعجزات، واشتهرت عنده الأمور الإلهيات أفْحَش، فقال ﴿مِن بَعْدِ مُوسَى﴾ أي الذي جاءهم بالآيات[٣].

٩- **قوله:** ﴿وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ﴾

- فيه تفصيلٌ بعد إجمال، حيثُ شرَع في تفصيل ما جرى بينه عليه السَّلامُ وبينهم من الأقوال والأفعال بعدَ الإشارةِ الإجماليَّة إلى مصير حالِهم[٤].

- وتكرار الفعل في: ﴿وَقَال﴾؛ للدَّلالة على أنَّ كلامه هذا ليس من بقيَّة كلامه الأوَّل، بل هو حديثٌ آخَر متأخِّر عنه[٥].

١٠- **قوله:** ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ فيه تأكيد الخبر بـ(إنَّ)؛ للإيذان بأنَّ مِن شأنِ هذا الخبر أن يُتلقَّى بالاستغراب والشك، كما أنبأ عنه قولهم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٩٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٧٩-١٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٧١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥١٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٤٠٧-٤٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٤٠)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨٩).

﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾[١].

١١- **قوله: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** فيه ترتيب بليغ؛ إذ سألوا أولًا إفراغ الصَّبر في قلوبهم الذي هو ملاكُ الأمر، ثم سألوا ثباتَ القلب والقدَمِ في مداحِض الحرب، ثم سألوا النصرَ على العدوِّ المترتِّب عليهما غالبًا، والتعبيرُ عن منحهم الصبر بالإفراغ؛ للكَثرة مع التَّعميم والإحاطة[٢].

١٢- **قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾**

- فيه تأكيد بإنَّ واللَّام؛ للاهتمامِ بهذا الخبر. وعبَّر بقوله: ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ دون أن يقول: (وإنَّك لرسولُ الله)؛ للردِّ على المنكِرين بتذكيرهم أنَّه ما كان بِدعًا من الرُّسُل، وأنَّه أرسله كما أرسل مَن قَبْله[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الآية (٢٥٢)

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: جمْع بيِّنة، وهي: الدَّلالة الواضحة؛ يُقال: بانَ الشيءُ وأبان، إذا اتَّضح وانكَشَف[١].

﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾: قوَّيناه، والأَيْد والأدُّ: القوَّة[٢].

﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: جِبريل، وأصْل القُدْس: الطَّهارة[٣].

المعنى الإجمالي:

يُخبِر تعالى أنَّ الرُّسلَ الكِرام، ذَوي المراتب العالية، ليسوا كلُّهم على مَنزلةٍ واحدة في الفضائل؛ فقد جعَل اللهُ تعالى رُتَبَ بعضهم في الفضل مُتقدِّمةً على رُتب الآخرين؛ فمِنهم مَن اختصَّه الله عزَّ وجلَّ بكلامه، ومِنهم مَن رفَعه الله تعالى على غيرِه من الرُّسل درجاتٍ، كمحمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو أفضلُهم وأعلاهم درجةً، وأعطى اللهُ عيسى عليه السَّلام مِن البراهين القاطعة، والمعجزات

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).
(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

الواضِحة، والإنجيلِ الذي أنزله عليه، ما يَدلُّ على صِدْق رِسالته، كما أنَّ الله تعالى قوَّاه وأعانه بجبريلَ عليه السَّلام.

ولو أراد الله تعالى لم يَتقاتَلِ الذين جاؤوا مِن بعدِ كلِّ رسول من الرُّسل عليهم السَّلام، مِن بعد أنْ أتاهم من آيات الله تعالى وبيِّناته ما يَدُلُّهم على الحقِّ، ويُبيِّن لهم طريقَه، ولكن ما أدَّى بهم إلى الاقتِتال فيما بينهم هو اختلافُهم في تلك البيِّنات التي جاءتهم؛ فمنهم مَن آمن، ومنهم مَن أعرض عنه وكَفَر، ولو أراد ربُّك أن يمنعَهم من الاقتتال بعِصمته وتوفيقه لَمَا اقتتَلوا ولا اختلَفوا، ولكنَّ إرادةَ الله هي النافذةُ، وهو يَفعل ما يشاء.

تفسير الآية:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

في مناسبة هذه الآية لما قَبْلها عدَّة أوجه:

- فمنها: أنَّ الله تعالى لَمَّا أنبأ باختبار الرُّسل: (إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السَّلام)، وما عرَض لهم مع أقوامهم، وختَم ذلك بقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾، جمَع ذلك كلَّه في قوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾؛ لفتًا إلى العِبَر التي في قَصصِ هؤلاء الرُّسل عليهم السلام.

- ومنها: أنَّه لَمَّا أُفيض القولُ في القتال، وفي الحثِّ على الجهاد، والاعتبار بقتال الأُمم الماضية - عَقَّب ذلك بأنَّه لو شاء اللهُ ما اختلَف الناسُ في أمرِ الدِّين من بعد ما جاءتهم البيِّناتُ، ولكنَّهم أساؤوا الفَهْم، فجحَدوا البيِّنات،

فأفْضى بهم سوءُ فَهْمهم إلى اشتِطاط الخلاف بينهم، حتى أفضى إلى الاقتِتال[١].

- ومنها: أنَّه لَمَّا ذكَر اصطِفاءَه طالوتَ على بني إسرائيل، وتَفضيلَه لداودَ عليهم؛ بإيتائه الملك والحِكمة، وتعليمه، ثم خاطَب نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنَّه من المرسَلين، وكان ظاهرُ اللَّفظ يَقتضي التسويةَ بين المرسَلين - بيَّن بأنَّ المرسَلين مُتفاضِلون أيضًا[٢].

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾.

أي: إنَّ عمومَ الرُّسلِ الكرام، عليهم الصَّلاةُ والسلامُ، ذَوي المراتِب العَليَّة، ليسوا على منزلةٍ واحدة في الفضائل، بل مايَزَ اللهُ تعالى بينهم؛ فهُم مراتبُ مُتفاوِتة: فمنهم مَن اختصَّه الله تعالى بتكليمه مباشرةً؛ كموسى عليه السَّلام، ومنهم مَن رفَعه الله تعالى على غيره من الرُّسل درجاتٍ؛ كمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو أفْضلُهم، وأعلاهم درجةً[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

أي: أعْطى اللهُ تعالى عيسى عليه السَّلام- الذي هو ابنُ مريمَ عليها السَّلام- من الحُجَج القاطعة، والمعجِزات السَّاطعة، والإنجيل الذي أُنزِل إليه من ربِّه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥١٩-٥٢٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٦).

ما يدلُّ على صِدْق رِسالته، وصحَّةِ ما جاء به، وقد أيَّده الله تعالى بجبريلَ عليه السلام؛ يُقوِّيه ويُعينه[١].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

أي: ولو أراد اللهُ تعالى أنْ لا يَقتَتِلَ أولئك الذين أَتَوا من بعد الرُّسل عليهم السَّلام، مِن بَعْد أنْ جاءهم مِن آيات الله تعالى ما يُوضِّح لهم الحقَّ، ويُرشِدهم إلى طريقِه- لو أراد الله تعالى أنْ لا يَقتتِلوا، ما اقتَتَلوا؛ فالأمرُ إليه وحْده جلَّ وعلا[٢].

﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾.

أي: ولكن السَّبب الذي أَوجَب قتالَهم هو اختلافُهم في تلك البيِّنات الموجِبة لاجتماعهم على الإيمان بالله تعالى ورُسله عليهم السَّلام؛ فمنهم مَن أقرَّ بالحقِّ مُصدِّقًا به، ومُنقادًا إليه، ومنهم مَن جحَده، وأَعرَض عنه مُتعمِّدًا ومُبتغيًا الكُفْرَ، بعدَ قيام الحُجَّة عليه[٣].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

أي: ولو أراد الله عزَّ وجلَّ أن يَحجُزَهم عن القِتالِ بعِصمته وتوفيقِه، لَمَا اقتَتَلوا ولا اختَلَفوا؛ فكلُّ ذلك صادرٌ عن قضاء الله وقَدَره؛ فإرادتُه غالبة، ومشيئته نافذة، وهو سبحانه يَفعل ما اقتضتْه حِكمتُه، فيُوفِّق مَن يشاء فضلًا، ويَخذُل مَن يشاء عدلًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٨-٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢١-٥٢٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٢-٥٢٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٧-٢٣٨).

الفَوائِد التَّربويَّة:

١- أنَّ فضْلَ الله يُؤتيه مَن يشاء، حتى خواصَّ عباده يُفضِّل بعضَهم على بعض؛ لأنَّ الرُّسل هم أعلى أصناف بني آدَم، ومع ذلك يقَع التفاضلُ بينهم بتفضيل الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[١].

٢- أنَّ الفضائل مَراتِبُ ودرجاتٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾، وهذا يشمل الدَّرجاتِ الحسيَّة، والدَّرجاتِ المعنويَّة[٢].

٣- أنَّ البَشَر مهما بلَغوا من قوَّة، فهُم في حاجة إلى مَن يؤيِّدهم ويُقوِّيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[٣].

الفوائد العلمية واللَّطائف:

١- أنَّ كلام الله للإنسان يُعَدُّ رِفْعةً له؛ لأنَّ الله تعالى ساق قولَه: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾ على سبيلِ الثَّناء والمدح[٤].

٢- الردُّ على النَّصارى في زعْمهم أنَّ عيسى إلهٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: أي: قوَّيناه، ولازِمُ ذلك أنَّه يحتاج إلى تقوية، والذي يَحتاج إلى تقوية لا يَصلُح أنْ يكون ربًّا وإلهًا[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: إنَّما وصف عيسى بهذين- مع أنَّ سائر الرُّسل أُيِّدوا بالبيِّنات وبِرُوح القُدُس-؛ للردِّ على اليهود الذين أَنكَروا رسالتَه ومُعجِزاتِه، وللردِّ على النَّصارى الذين غَلَوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤٢).

فزَعموا أُلوهيَّتَه، ولأجْل هذا ذُكِر معه اسمُ أُمِّه- مهما ذُكِر-؛ للتَّنبيه على أنَّ ابن الإنسان لا يكون إلهًا[١].

بلاغة الآية:

١- **قوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾** الألف واللام في (الرُّسُل) للاستغراق، وجاءت الإشارة بـ(تلك) التي للبعيد؛ لبُعد ما بينهم وبيْن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ من الأزمان، أو قُرِن اسم الإشارة (تلك) بكاف البُعد؛ تنويهًا بمراتبهم، وللإيذانِ بعُلُوِّ طبقتِهم وبُعدِ منزلتهم[٢].

٢- **قوله: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾** فيه إبهامُ ذِكر نبيِّ الله محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، حيث عدَل عن التَّصريح بالاسم، أو بالوصف المشهور به؛ لتفخيمِ فضْله، وإعلاءِ قدْره، وللإشارة إلى أنَّه كأنَّه عَلَمٌ لا يَشتبِه، ومُتميِّز لا يَلتبِس، كما يُقال للرَّجل: مَن فعَل هذا؟ فيقول: أحدُكم أو بعضُكم، يريد به الذي تُعورِف واشتَهَر بنحوه من الأفعال، فيكون أفخمَ من التصريح به، وأنوهَ بصاحبه[٣].

٣- **قوله: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾**

- **فيه التفاتٌ** في قوله: ﴿كَلَّمَ اللهُ﴾؛ إذ هو خروجٌ إلى ظاهرٍ غائب من ضمير مُتكلِّم؛ لِمَا في ذِكر هذا الاسم العظيم من التَّفخيم والتَّعظيم، ولزوال قَلَق تكرار

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٤٥-٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥-٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٩٧-٢٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٦/ ٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٧٨-٣٧٩)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٣٦).

ضمير المتكلِّم؛ إذ كان يكون: ﴿فضَّلْنَا﴾، و(كلَّمْنا)، و(رفَعْنا)، و﴿آتَيْنا﴾[١].

- وفيه: تفصيلٌ بعدَ إجمال في قوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[٢].

- وفيه: ذِكرٌ للخاصِّ بعد العامِّ، مع المناسبة الحسَنة في هذا الخاصِّ، حيث خَصَّ موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذِّكر[٣] بعد قوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾؛ وبَدَأ بوصف موسى؛ لأنَّ آياتِه أكثرُ، ولأنَّ أكثرَ السُّورة في بني إسرائيل، وأكثَر ذلك في أتْباعِ موسى عليه الصَّلاة والسَّلام، وثنَّى بعيسى عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّه النَّاسخ لشريعته، وهو آخِر أنبيائهم.

- وفيه: إظهارُ الفضل لنبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه لا نِسبة لِمَا أُوْتِيَ أحدٌ من الأنبياء إلى ما أُوتِيَ، وإبهامه يَدُلُّ على ذلك، من حيث إنَّه إشارةٌ إلى أنَّ إبهامه في الظُّهور والجلاء كذِكْره؛ لأنَّ ما وُصِف به لا يَنصرِف إلَّا إليه[٤].

- وفيه: تَكرار، وتفصيل لِمَا أُجمِل من التَّفضيل؛ لأنَّ المفهوم من قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ هو المفهوم من قوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، وفائدة هذا التَّكرير وهذا التَّفصيل: أنَّ التَّفضيل الأوَّل يدلُّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٠٠-٦٠١).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٣٥).

(٣) وسببُ ذلك: أنَّ معجزاتهما أظهرُ وأقوى من معجزات غيرهما، وأيضًا فأُمَّتهما موجودون حاضِرون في هذا الزمان، وأُمم سائر الأنبياء ليسوا موجودين؛ فتخصيصهما بالذِّكر تنبيهٌ على الطَّعن في أمَّتهما، كأنه قيل: هذان الرسولان مع عُلوِّ درجتهما، وكثرة معجزاتهما، لم يحصُل الانقياد من أُمَّتهما، بل نازعوا وخالفوا، وعن الواجب عليهم في طاعتهما أَعرضوا. وخصَّ عيسى بإيتاء البيِّنات؛ للتنبيهِ على قُبح أفعال اليهود، حيث أنكروا نُبوَّةَ عيسى عليه السلام مع ما ظهَر على يديه من البينات اللَّائِحة. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٥٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٩٨)، ((تفسير الرازي)) (٦/ ٥٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٠٢-٦٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣، ٥-٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٨٨).

إثبات مُجرَّد تفضيل البعض على البعض، وأمَّا التَّفضيل الثاني ففيه دَلالةٌ على درجات ذلك التَّفضيل؛ فحصَل بهذا التَّكرار فائدةٌ زائدة[١].

٤- قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ...﴾ ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلِكَنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيه تَكرار؛ لتأكيد الكلام، ولتكذيب مَن زعَم أنَّهم فعَلوا ذلك الاقتتالَ من عند أنفُسهم، ولم يَجرِ به قضاءٌ ولا قدَرٌ من الله تعالى. والاستدراك بـ(لَكِن)؛ للتَّنبيه على أنَّ اختلافهم ذلِك ليس مُوجِبًا لعدمِ مشيئته تعالى لعدم اقتتالِهم[٢].

ووراء التأكيدِ سرٌّ أخصُّ منه، وهو: أنَّ العرب متى ثبَت أوَّلُ كلامهم على مَقصِد، ثمَّ اعترضها مَقصِد آخَر، وأرادتِ الرُّجوعَ إلى الأوَّل، قصدَتْ ذِكرَه إمَّا بتلك العبارة أو بقريب منها، وذلك عندهم طريقٌ من الفصاحة مسلوك، وفي كتاب الله تعالى مواضِعُ في هذا المعنى، وهنا لَمَّا صُدِّر الكلامُ بأنَّ اقتِتالهم كان على وَفْق المشيئة، ثم طال الكلامُ وأُريدَ بيان أنَّ مشيئة الله تعالى كما نَفَذتْ في هذا الأمر الخاصِّ- وهو اقتتال هؤلاء- فهي نافذةٌ في كلِّ فِعْل واقِع، فطَرأَ ذِكْر تَعلُّق المشيئة بالاقتِتَال لإتيانِه بعدَ عُمومِ تَعلُّق المشيئة؛ لتَناسُب الكلام، وليُعرَف كلٌّ بشكله[٣].

- وقد اشتملت هذه الآية الكريمة من أنواع البلاغَةِ على:

التَّقسيم: في قوله: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾ أي: منهم مَن كلَّمه بلا واسطة،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٩٨)، ((تفسير الرازي)) (٦/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٠٢-٦٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٩٨) مع حاشيته ((الانتصاف)) لابن المنيِّر حيث أشار إلى هذا السِّرِّ، وأنَّه قاطعٌ لحُجج أهل الاعتزال؛ ولذلك جاوزها الزمخشريُّ. وينظر ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٨٨).

ومنهم مَن كلَّمه بواسطة، وهذا التقسيم اقتضاه المعنى، وفي: قوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾، وهذا التقسيم ملفوظٌ به.

الحذف: في قوله: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾، أي: كفاحًا، وفي قوله: ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾؛ يعني: مِن هداية مَن شاء، وضلالة مَن شاء[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٠٤).

الآيات (٢٥٤ - ٢٥٧)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿خُلَّةٌ﴾: مودَّة، وصَداقة مُتناهِية في الإخلاص، وأصلُ الخِلِّ: تَقارُب الفُروع، ومنه الخليلُ الذي يُخالُّك[1].

﴿الْقَيُّومُ﴾: القائمُ الحافِظ لكلِّ شيء، والمعطي له ما به قِوامُه، والذي لا يَزول، والقائم بأمْر الخَلْق، والعالِم بالأشياء، على وزن فَيْعُول، مِن قُمْتُ بالشَّيء: إذا وَلِيتُه[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

﴿سِنَةٌ﴾: النُّعاس من غير نوْم، وابتداؤه يكون في الرَّأس، والسِّنَة: الغفلة، والغفوة أيضًا[١].

﴿كُرْسِيُّهُ﴾: الكُرسيُّ جسمٌ عظيم، مخلوق بين يَدَي العَرْش، والعرش أعظمُ منه، والكرسيُّ موضِع القَدمينِ للبارئ جلَّ وعزَّ[٢].

﴿يَؤُودُهُ﴾: يُثقِله، والوَأْد: الثِّقَل؛ يقال: آدَه الشيءُ يؤوده، وآدَه يَئيده، أي: أَثْقَله[٣].

﴿الرُّشْدُ﴾: الحقُّ، وهو خلاف الغَيِّ، يُستعمَل استعمالَ الهداية، واستقامة الطَّريق[٤].

﴿الْغَيِّ﴾: خِلاف الرُّشدِ، وهو الانهماكُ في الباطل، والضَّلالُ، والجهلُ بالأمر مِن اعتقادٍ فاسدٍ[٥].

﴿بِالطَّاغُوتِ﴾: الطاغوت: الشَّيطان، والأصنام، وكلُّ مُتعدٍّ، وكلُّ معبودٍ يُعبَد مِن دون الله ورضِي بذلك، وأصْل الطُّغيان: تَجاوُزُ الحدِّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٦)، ((العرش)) للذهبي (١/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٨-٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾: العُرْوة: ما يُتعلَّق به، والوُثقَى: المحكَمة[١].

﴿انْفِصَامَ﴾: انقطاع، وانكسار؛ مِن فَصمتُ القدحَ، أي: كسرتُه وقصمتُه[٢].

﴿وَلِيُّ﴾: أصْل هذه المادَّة يدلُّ على القُرْب، سواء من حيثُ: المكان، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[٣].

المعنى الإجمالي:

يأمُر اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين بالإنفاق ممَّا رزَقهم في وجوه الخير، قبل أنْ يأتي يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا تكون فيه تِجارةٌ، ولا يكون فيه صديقٌ حميم يَنصُر، وليس لهم من شافع يَشفَع لهم عند الله فتُفيدُهم شفاعتُه، إلَّا أنْ يشاء الله، وهؤلاء الكُفَّار المكذِّبون بالله تعالى وبرُسله، الجاحِدون للحقِّ هم الظالمون.

ثم يَصِف نفْسَه عزَّ وجلَّ بأنَّه الإله المعبود الذي لا معبودَ بحقٍّ غيرُه؛ فهو وحده المستحقُّ للعبادة، وله سبحانَه الحياةُ الكاملةُ التي لم يَسْبقها عَدَمٌ، ولا يَلحَقها زوالٌ، وهو القائم بنفْسه الذي لا يَحتاج لأحدٍ، والقائمُ بأمور خَلْقه من رزقٍ وغيره، فجميع الخَلْق مُفتَقِر إليه، ومِن كمال حياته وقَيوميَّته تعالى: أنَّه لا يَعتريه نُعاسٌ، ولا يَغلِبه نومٌ، يَملِك سبحانه جميعَ ما في الكون وحده، لا أحدَ يَشفَع عنده إلَّا بعد أن يأذَن سبحانه له، يعلم سبحانه جميعَ أمور العباد؛ ما مضَى منها وما سيأتي، وجميعُ من هم دونه عزَّ وجلَّ لا يَعلمون شيئًا إلَّا ما علَّمهم بمشيئته، ولِعَظمتِه جلَّ وعلا واتِّساع سُلطانه، أحاط وشَمِل كُرسيُّه- الذي هو

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

موضِع قدميه سبحانه- السَّمواتِ والأرضَ، على الرغم من اتِّساع السَّموات والأرض وعظمتهما، ولا يُثقِله ولا يَشقُّ عليه حِفْظ السَّموات والأرض، بل هو أمرٌ سَهْل ويسيرٌ عليه سبحانه، وهو ذو العُلوِّ المطلَق على جميع مخلوقاته، فهو عليٌّ بذاته، وبقهرِه وكمال صِفاتِه، كما أنَّه ذو العظمة المطلَقة في ذاته وصفاته وسُلطانه.

ثم يُخبِر تعالى أنْ لا إكراهَ في الدِّين، فلا ينبغي أن يُرْغَم أحدٌ على اعتِناق الدِّين الإسلامي؛ فإنَّ الدِّين واضح جَلِيٌّ قد تَميَّز من الضَّلال، وتبيَّنت أدلَّتُه، وظهرتْ حقائقُه. ويُخبِر بعدها تعالى أنَّ مَن يَكفُر بالطاغوت- وهو كلُّ ما تَجاوَز به العبدُ حدَّه من معبود، أو متبوع، أو مُطاع- ويُؤمِن بالله تعالى وحْدَه، فقد تمسَّك بالدِّين القويم، والله يَسمَع مَن يُعلِن كُفْرَه بالطاغوت وإيمانَه بالله، ومَن كان حالُه على عكس ذلك، ويَعلم ما يُخفيه صدْرُ كلٍّ منهما، وسيُجازي كلًّا بحسَبه.

ثم يُخبِر تعالى أنَّ مَن كان مؤمنًا به حقًّا، فإنَّه يتولَّاه على الدَّوام، فيكون عونًا له ونصيرًا، ومؤيِّدًا ومُوفِّقًا، ويَنتشِله من ظُلمات الضَّلال إلى نور الإيمان، وأمَّا الكُفَّار، فإنَّ مَن يتولَّاهم هو الطاغوت؛ فهو حليفُهم الذي يؤيِّدهم ويُعينهم، ويُغْويهم، ومن أعظم الطَّواغيت الشيطانُ الرَّجيم؛ فإنَّه يُسَلَّط عليهم عقوبةً لهم، فيُخرِجهم من النور إلى الظُّلمات، هؤلاء هم أهلُ النَّار الملازِمون لها بلا نهاية، وبئس المصيرُ النارُ.

تفسير الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا قدَّم الأمرَ بالقتال، وهو بذْلُ النَّفْس في سبيل الله، أَعقَبه بالأمر بالإنفاق، وهو بَذْل المال، وأيضًا فيه وجه آخَر، وهو أنَّه تعالى أمرَ بالقتال فيما سبَق بقوله:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، ثم أَعقَبه بقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، والمقصود منه: إنفاقُ المال في الجهاد، ثم إنَّه مرَّةً ثانية أكَّد الأمرَ بالقتال، وذكَر فيه قصَّة طالوتَ، ثمَّ أَعقَبه بالأمْر بالإنفاق في الجِهاد[1]، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾.

أي: يُنادي اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين مُنبِّهًا، وحاثًّا لهم على أمرٍ مهمٍّ من مقتضيات إيمانهم، وهو الإنفاقُ في سبيله سبحانه، فأمَرهم الله تعالى أن يُخرِجوا ممَّا أعطاهم من الخير صدقةً؛ واجبة كانت أو مُستحبَّة، ويَشترَوا بها ما عند الله تعالى من نعيم الآخِرة، قبل مجيء اليوم الآخِر الذي يَنقطِع فيه العمل، ولا يَملِك الكُفَّارُ فيه شيئًا يُنفِقونه لله تعالى، ولا مالَ لديهم يَفتدون به من عذابه عزَّ وجلَّ، ليس هذا فحسبُ، بل لا صديقَ حميم يَنصرُهم في ذلك اليوم، ولا ثمَّ شافعٌ يَشْفع لهم عند الله تعالى، فيدفع عنهم ضرًّا، أو يَجلِب لهم خيرًا، فنَفَى الله سبحانه بذلك كلَّ الوسائل التي يُمكِن أن يَنتفِعوا بها في ذلك اليومِ العظيم[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وقال عزَّ وجلَّ حكايةً عن أهل النَّار أنهم يقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٣-٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٧-٢٤٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٤٤-٢٤٦).

صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠ - ١٠٢].

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الكفَّار الذين كذَّبوا بالله تعالى ورُسله عليهم السَّلام، غيرَ مُقرِّين بهم ولا مُنقادِين إليهم، قدْ فعلوا بذلك ما ليس لهم فِعْلُه، ووضَعوا أنفسَهم في غير ما ينبغي أن يكونوا عليه، واختاروا لأنفسهم الكُفْرَ فخسِروها[١].

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾.

فضْل آية الكُرْسي:

وردت عدَّة أحاديث في فضل آية الكرسي[٢] منها:

- عن أُبَيِّ بن كَعْب رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال له: ((يا أبا المنذِرِ، أَتدري أيُّ آيةٍ من كتاب اللهِ معك أَعْظمُ؟. قال: قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: يا أبا المنذِرُ، أَتدري أيُّ آيةٍ من كتاب اللهِ معك أَعْظمُ؟. قال: قلتُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. قال: فضرب في صدري، وقال: واللهِ، لِيَهْنِك العِلمُ[٣] أبا المنذِرِ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٥-٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٤٦-٢٤٧).

(٢) فُضِّلت آيةُ الكرسيِّ على غيرها، حتى ورد في فضلها ما ورد؛ لاشتمالها على توحيد الله، وتعظيمه وتمجيده، وصفاته العظمى، ولا مذكور أعظم من ربِّ العزة، فما كان ذكرًا له كان أفضل من سائر الأذكار. يُنظر: ((جامع مسائل ابن تيمية)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٦٦٢).

(٣) ليهنك العلم: أي ليكن العلم هنيئًا لك. ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٧/ ١٩١).

(٤) رواه مسلم (٨١٠).

- وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: ((وكَّلَني رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بحفظِ زكاةِ رمضانَ، فأتاني آتٍ، فجعَل يَحْثو من الطَّعامِ، فأخذْتُه وقلتُ: واللهِ لأرفعنَّكَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، قال: إني مُحتاجٌ، وعليَّ عِيالٌ، ولي حاجةٌ شديدةٌ، قال: فخلَّيتُ عنه، فأصبَحْتُ، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: يا أبا هُرَيرَةَ، ما فعَل أسيرُك البارِحَةَ؟، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، شَكَا حاجةً شديدةً وعِيالًا، فرحِمْتُه فخلَّيْتُ سبيلَه، قال: أَمَا إنَّه قد كذَبَك، وسيعودُ، فعرَفْتُ أنَّه سيعودُ؛ لقَولِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنَّه سيعودُ، فرصَدْتُه، فجاء يحثو من الطَّعامِ فأخَذْتُه، فقلتُ: لأرفعَنَّك إلى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، قال: دَعْني؛ فإنِّي مُحتاجٌ، وعليَّ عِيالٌ، لا أعودُ، فرحِمْتُه فخلَّيْتُ سبيلَه، فأصبَحْتُ، فقال لي رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: يا أبا هُرَيرَةَ، ما فعَل أسيرُك، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، شَكا حاجةً شديدةً وعِيالًا، فرحِمْتُه فخلَّيْتُ سبيلَه، قال: أَمَا إنَّه كذَبَك، وسيعودُ، فرصَدْتُه الثالثةَ، فجاء يَحْثو من الطعامِ، فأخَذْتُه فقلتُ: لأرفعَنَّك إلى رسولِ اللهِ، وهذا آخِرُ ثلاثِ مراتٍ تزعُمُ لا تعودُ، ثم تعودُ، قال: دَعْني، أُعلِّمْك كلماتٍ ينفَعُك اللهُ بها، قلتُ: ما هو؟ قال: إذا أوَيْتَ إلى فِراشِك، فاقرأ آيةَ الكرسِيِّ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، حتى تَختِمَ الآيةَ؛ فإنَّك لن يزالَ عليك من اللهَ حافِظٌ، ولا يَقربَنَّك شيطانٌ حتى تُصبِحَ، فخلَّيْتُ سبيلَه فأصبَحْتُ، فقال لي رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ما فعَل أسيرُك البارِحَةَ؟، قلتُ: يا رسولَ الله، زعَم أنه يُعَلِّمُني كلماتٍ، ينفَعُني اللهُ بها فخلَّيْتُ سبيلَه، قال: ما هي؟ قلتُ: قال لي: إذا أوَيْتَ إلى فِراشِكَ، فاقرَأْ آيةَ الكرسِيِّ من أوَّلِها حتى تختِمَ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وقال لي: لن يَزالَ عليك من اللهِ حافِظٌ، ولا يقرَبُك شيطانٌ حتى تُصبِحَ- وكانوا أحرصَ شيءٍ على الخيرِ، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أمَا إنَّه

قد صدَقَك وهو كَذوبٌ، تعلَمُ من تُخاطِبُ منذُ ثلاثِ ليالٍ يا أبا هُرَيرَةَ؟ قال: لا، قال: ذاكَ شيطانٌ))[١].

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى أنَّ الكافرين هم الظَّالمون، وكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ بُعِث إلى النَّاس كافَّةً، وكانوا على غير استقامة في شرائعهم وعقائدهم، سواء اليهود والنَّصارى الذين أحْدثوا بِدْعًا في أديانهم وعقائدهم، ونَسبوا اللهَ تعالى إلى ما لا يجوز عليه، أو العرب الذين كانوا قد اتَّخذوا من دون الله أصنامًا آلهةً، وأشركوا بالله، أتى بهذه الآية العظيمة الدَّالة على إفراد الله بالوحدانيَّة، المتضمِّنة صفاتِه العُلا، من: الحياة، وقَيوميَّته، ومُلْكه لما في السَّموات والأرض، وامتناع الشَّفاعة عنده إلَّا بإذنه، وسَعَة عِلْمه، وعدم إحاطة أحدٍ بشيء مِن عِلْمه إلَّا بإرادته، إلى غير ذلك ممَّا تضمَّنته الآية، نبَّههم بها على العقيدةِ الصَّحيحةِ التي هي مَحْض التَّوحيد، وعلى طرَحْ ما سواها[٢].

﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا أحدَ معبودٌ بحقٍّ سوى الله تعالى؛ فهو وحده المستحِقُّ للعبادة حبًّا وتعظيمًا له تعالى؛ لكمال صفاته[٣].

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٢٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٠-٢٥١).

أي: إنَّ الله تبارك وتعالى هو الذي له الحياة الكاملة، التي لم يَسبِقها عَدَمٌ، ولا يَلحَقها زَوال، المُستلزِمة لجميع صِفاتِ الكمال، وهو أيضًا القائم بنفسه؛ فلا يحتاج لأحد، القائمُ بأمور غيره من خَلْقه من الرِّزق وغيره؛ فكلُّ الموجودات إليه مُفتَقِرة، ولا قِوام لها بدونه، وهذه القَيُّوميَّة مُستلزِمةٌ لجميع أفعال الكمال(١).

كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

أي: ومِن كمال حياته وقيُّوميَّته أنَّه لا يَعتريه سبحانه نُعاسٌ، ولا يَغلِبه نومٌ(٢).

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّه يَملِك وحده جميعَ ما في الكون بغير نِدٍّ ولا شريك، والجميعُ عبيده ومملوكون له؛ فلا تنبغي العبادةُ لغيره سبحانه(٣).

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٧-٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥١).
وممَّن قال مِن السَّلف في معنى ﴿القيوم﴾: إنَّه القائم بأمور غيره من خلقه، من الرزق وغيره: الربيع بن أنس، ومجاهد، وقتادة. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٣٠-٥٣٣)، ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٢).
وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّ السِّنة تعني النُّعاس: ابن عبَّاس، وقتادة، والحسن، والضحَّاك، والسُّدِّي، والربيع، ويحيى بن رافع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٣٤-٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٢).

أي: لا أحدَ يتجاسَر على القيام بالشَّفاعة عند الله تعالى إلَّا بعد إذنه جلَّ وعلا[١].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يعلم ما بين أيدي خلقه من الأمور الماضية، ويعلم أيضًا ما خلفهم من الأمور المستقبلة[٢].

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾.

أي: إنَّ سائر من دونه سبحانه لا يعلمون من علم الله تعالى شيئًا البتَّةَ، فلا يعلمون ما بين أيديهم ولا ما خلفهم ولا غير ذلك، إلَّا ما علَّمهم الله تعالى بمشيئته[٣].

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

أي: أحاطَ كرسيُّ المَلِك- تعالى وتقدَّس- بالسَّموات والأرض- على اتِّساعهما وعظمتهما- وشَمِلهما.

والكُرسيُّ: هو موضِع قَدَمَي الربِّ عزَّ وجلَّ[٤].

فعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، قال: (الكرسيُّ موضعُ القدميْنِ، والعرشُ لا يَقْدِرُ أحدٌ قدْرَه)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٢-٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٣٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٣٦)، ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٩- ٦٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٦/ ٥٨٤-٥٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٤-٢٥٥).
وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّ الكرسيَّ هو موضع القدمين: أبو موسى، والسُّدِّي، ومسلم البطين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٣٨).

(٥) أخرجه عبد الرزَّاق في ((تفسيره)) (٣٠٣٠)، وابن خزيمة في ((التوحيد)) (١/ ٢٤٩)، وابن =

﴿وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾.

أي: لا يُثقِله ولا يَشقُّ عليه حِفْظ السَّموات والأرض، بل ذلك سَهْلٌ عليه ويسير[١].

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

أي: إنَّه تَبارك وتقدَّس ذو العُلُوِّ المطلَق على كلِّ مخلوقاته، فهو عليٌّ بذاته فوق عرشه، عليٌّ على خَلْقه بقهره، وكمال صفاته، وهو ذو العَظمة المطلَقة في ذاته وصفاته وسُلطانه، وكلُّ ما سواه حقيرٌ بين يديه، صغيرٌ بالنِّسبة إليه، فلا شيءَ أعظم منه سبحانه وتعالى[٢].

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾.

سبب النزول:

عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: (كانت المرأةُ من نِساء الأنصار تكون مِقلاةً[٣]، فتَجعَل على نَفْسها إنْ عاش لها ولدٌ أن تُهوِّدَه، فلمَّا أُجليتِ النَّضيرُ كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا نَدَع أبناءَنا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ...﴾ الآية)[٤].

= أبي حاتم في ((تفسيره)) (٢٦٠١)، وأبو الشيخ في ((العظمة)) (٢/ ٥٨٢)، والحاكم (٣١١٦). وثَّق رواته الذهبي في ((العلو)) (٧٦)، وصحَّحه موقوفًا ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (١/ ٤٥٧)، والألباني في ((شرح الطحاوية)) (٢٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٤٢، ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٦).

(٣) مِقلاة: أي: قليلة الوَلَد. ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٤٠).

(٤) أخرجه الواحديُّ في ((أسباب النزول)) (ص: ٥٢). =

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا اشتملتْ آيةُ الكُرسيِّ السَّابقة على دلائل الوَحدانيَّة، وعظمة الخالق، وتنزيهه عن شوائبِ ما كَفرتْ به الأمم، كان ذلك من شأنه أنْ يسوق ذوي العقول إلى قَبُول هذا الدِّين الواضِح العقيدة، المستقيم الشَّريعة، باختيارهم دون جَبْرٍ ولا إكراه، ومِن شأنه أن يَجعلَ دوامَهم على الشِّرك بمَحَلِّ السُّؤال: أيُتركَون عليه، أم يُكرَهون على الإسلام؟ فكانت الجملة استئنافًا بيانيًّا[1]، فقال تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

أي: لا ينبغي أن تُرغِموا أحدًا على اعتناق الدِّين الإسلامي؛ إذ لا حاجةَ لذلك؛ فهو أمرٌ واضحٌ وجَلِيٌّ، قدْ تَميَّز من الضَّلال، وتبيَّنت أدلَّته، وظهرتْ حقائقه، فلا خفاءَ فيه ولا غموض، فمَن هداه الله تعالى له، وشرَح صدرَه، دخَل فيه على بيِّنة، ومَن أعمى الله قلبَه، فإنَّه لا يُفيده الدخولُ فيه مُكرَهًا عليه.

والمقصودُ: أنَّ دِين الإسلام من حيث هو، واضحةٌ فيه معالمُ الحقِّ، ويتمايَز بجلاء عمَّا سواه من الباطل، ممَّا يُوجِب اعتناقَه مِن قِبَل كلِّ مُنصِفٍ مُرادُه اقتفاءُ الحقِّ[2].

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾.

أي: إنَّ مَن جحَد ربوبيَّة الطَّاغوت وأُلوهيَّته المزعومتين، فتبرَّأ منه ومن عبادته وطاعته- والطَّاغوت: هو كلُّ ما تَجاوَز به العبدُ حدَّه، من معبود، أو متبوع، أو

= صحَّحه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (٩٣)، وصحَّح إسنادَه ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ١٦٩) وقال: لكن رُوي عن سعيد بن جُبَير مرسلًا. وذكَر الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٨/ ٢١٧): أنه رُوي من طرق جميع رِجاله لا مطعنَ فيهم.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٣-٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٢-٦٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦٤-٢٦٦).

مُطاع- وآمَن بالله تعالى وحده وجودًا ورُبوبيَّةً وأُلوهيَّةً، وبما له من أسماء حسنى، وصفات عُلا، فعبَده وقَبِل خبرَه، وأذْعن لطلبه واتَّقاه، ممتَثِلًا أمره ومجتنبًا نهيه، فإنَّه قد تَمسَّك تمسُّكًا شديدًا بأقوى رِباط، وأَحْكمِ أمر، وهو دِينُ الله تعالى الحقُّ المبرَم، وهو أَوثَق ما يُتمسَّك به لطلب العِصمة والنَّجاة، فيبقى ثابتًا على الحقِّ، مستقيمًا عليه، دون أن يَخشى انقطاعًا وانفكاكًا بخِذلان الله تعالى له وإسلامه إلى التَّهلُكة(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

وعن قَيس بن عبَّاد قال: ((كنتُ بالمدينةِ في ناسٍ فيهم بعضُ أصحابِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فجاء رجلٌ في وجهِه أثرٌ من خشوعٍ، فقال بعضُ القومِ: هذا رجلٌ من أهلِ الجنةِ، هذا رجلٌ من أهلِ الجنةِ، فصلَّى ركعتينِ يتجوَّزُ فيهما، ثم خرَج فاتَّبَعْتُه، فدخل منزلَه، ودخلتُ، فتحدَّثنا، فلمَّا استأنس، قلتُ له: إنَّك لَمَّا دخلتَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٨-٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٣-٦٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦٦-٢٦٧).
وممَّن قال في معنى العروة الوثقى بنحو ما ذُكر: مجاهد، والسُّدِّي، وسعيد بن جُبَير، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٦٠).

قبلُ، قال رجلٌ: كذا وكذا، قال: سبحان اللهِ ما ينبغي لأحدٍ أن يقول ما لا يعلمُ، وسأُحدِّثك لِمَ ذاك، رأيتُ رؤيا على عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقصصتُها عليه، رأيتُني في روضةٍ- ذكَر سَعَتَها وعُشْبَها وخُضْرتَها- ووسَطِ الرَّوضةِ عمودٌ من حديدٍ، أسفلُه في الأرضِ، وأعلاهُ في السَّماءِ، في أعلاهُ عروةٌ، فقيل لي: ارْقَه، فقلتُ له: لا أستطيعُ، فجاءني مِنْصَفٌ- قال ابنُ عونٍ: والمِنْصَفُ: الخادمُ- فقَال بثيابي مِن خَلْفي- وصَفَ أنَّهُ رفعَه من خلفِه بيدِه- فرقِيتُ حتى كنتُ في أعلى العمودِ، فأخذتُ بالعروةِ، فقيل لي: استَمسِك، فلقد استيقظتُ وإنَّها لفي يدي، فقصصتُها على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقال: تلك الرَّوضةُ: الإسلامُ، وذلك العمودُ عمودُ الإسلامِ، وتلك العُروةُ عُروةُ الوُثْقى، وأنتَ على الإسلامِ حتى تموتَ، قال: والرجلُ عبدُ اللهِ بنُ سلَام))[(١)].

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

لَمَّا كان الكُفْر بالطَّاغوت، والإيمانُ بالله تعالى مُتعلِّقًا بالنُّطق باللِّسان، واعتقاد القلب، قال تعالى[(٢)]:

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يسمعُ كلَّ شيء، ومنه سَماعُه إعلان من أعلن الكفرَ بالطاغوتِ، والإيمانَ باللهِ، وإعلان من أعلن خلافَ ذلك، ويعلمُ أيضًا كلَّ شيء سبحانه، ومن ذلك علمه بما في صدور خلقه مِن الإيمانِ والكفرِ؛ فيُجازي كلَّ واحدٍ منهم بحسب ما يَنطِق به لسانه، وما تُضمِره نَفْسه؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٣٨١٣)، ومسلم (٢٤٨٤) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١).

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

أنَّ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ الآية وقع موقِعَ التعليلِ لقوله: ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾؛ لأنَّ الذين كفروا بالطَّاغوت وآمَنوا بالله، قد تَولَّوُا اللهَ فصار وَلِيَّهم؛ فبذلك يَستمرُّ تَمسُّكهم بالعُروة الوُثقى، ويأمَنون انفصامَها، وبعكسهم الذين اختاروا الكُفْرَ على الإسلام، فإنَّ اختيارهم ذلك دلَّ على خَتْمٍ ضُرِبَ على قلوبهم، فلم يهتدوا، فهم يَزدادون في الضَّلال يومًا فيومًا[(١)]؛ لذا قال:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

أي: مَن آمَن بالله حقًّا، فإنَّه جلَّ وعلا يتولَّاه على الدوام، فيكون عونًا له ونصيرًا، ويؤيِّده ويوفِّقه، ويمكِّنه من التوغُّل شيئًا فشيئًا في طريق اليقين الأوحد، فيَخرُج من ظلمات الضَّلال، ويَخترِق حُجُبَ الشُّبهات والشَّهوات المظلِمة، فيَنكشِف له نورُ الإيمان واليقين، ويُؤتَى نَفاذَ البصيرةِ، ويتجدَّد له السموُّ في مقامات الإيمان، والصُّعود في درجات اليقين، فيُبصِر قلبُه حقائقَ الأمور أكثرَ فأكثر[(٢)].

كما قال جلَّ وعلا: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٥-١٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠) وقال: (ولأجْل هذا الازدياد المتجدِّد في الأمرين وقع التعبير بالمضارع في: يُخرجهم، ويخرجونهم).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٧١).

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: إنَّ الكفار يتولَّاهم الطاغوتُ؛ فهو حليفهم الذي يؤيِّدهم ويُعينهم، ويُغوِيهم بدعوى نَصْرهم، وطَلَب فلاحِهم، ومن أعظم الطَّواغيت الشَّيطان؛ فإنَّه يُسلَّط عليهم؛ عقوبةً لهم، فيُزعِجهم إلى الضَّلال إزعاجًا، فيُخرِجهم من الإيمان- إنْ كانوا مؤمنين من قبل- أو يُخرِجهم من نور الفِطرة السَّليمة، أو يُزيِّن لهم مرَّة بعد مرَّة ما هم عليه من الكُفْر والشِّرك، فيَظلُّون باقين في تلك الحُجُبِ المظلِمة التي تزداد كثافةً، وتَحجُب عن أبصارِ قلوبِهم رؤيةَ حقائقِ الإيمان وأدلَّته وطريقه، إلى أنْ يَحينَ انتقالُهم إلى مُستقرِّهم الأخير، فيُلازِمون النَّارَ بلا نهاية، وبئس المصير[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ * أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١-١٢٢].

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا * إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٦٣، ٥٦٦، ٥٦٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠-٣١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٧٢-٢٧٤).

اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٦-١٢١].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٣٩-٤٠].

الفوائد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ الإنفاق من مقتضى الإيمان، وأنَّ البُخْل نقْصٌ في الإيمان؛ ولهذا لا يكون المؤمن بخيلًا؛ المؤمن جَوَادٌ بعِلمه، جَوَاد بجاهه، جواد بماله، جواد ببَدَنه[(١)].

٢- في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا مِنَّةَ للعبد على الله ممَّا أنفقه في سبيله؛ لأنَّ ما أنفقه من رِزْق الله له[(٢)].

٣- التَّنبيه على أنَّ الإنسان لا يُحصِّل الرِّزقَ بمجرَّد كسْبه؛ الكسبُ سببٌ، لكنَّ المسبِّب هو الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ فلا ينبغي أن يُعجَب الإنسانُ بنفسه حتى يجعل ما اكتَسبه من رِزقٍ مِن كسْبه وعمَله، كما في قول القائل: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨][(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٤- تسلية الإنسان على المصائِب، ورِضاه بقضاء الله عزَّ وجلَّ وقَدَرِه؛ لأنَّه متى عَلِم أنَّ المُلْك لله وحده، رضي بقضائه؛ كما في قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١].

٥- التَّحذير من الطُّغيان على الآخَرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾؛ ولهذا قال الله في سورة النِّساء: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]؛ فإذا كنتَ مُتعاليًا في نفْسك فاذكُر عُلُوَّ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وإذا كنتَ عظيمًا في نفْسك فاذكُر عظمةَ الله، وإذا كنتَ كبيرًا في نفْسك فاذكُر كبرياءَ الله[٢].

٦- أنَّه لا يَتِمُّ الإخلاص لله إلَّا بنفي جميع الشِّرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾، فمَن آمَن بالله، ولم يَكفُرْ بالطاغوت، فليس بمؤمن[٣].

الفوائد العلمية واللَّطائف:

١- أنَّ الكافرين لا تَنفَعهم الشفاعةُ؛ لأنَّه تعالى أَعقَب قولَه: ﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ويؤيِّد ذلك قولُه تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨][٤].

٢- قوله: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾: انتفاءُ البيع والخُلَّة والشَّفاعة فيه كِنايةٌ عن تَعذُّر التَّدارك للفائت؛ لأنَّ المرء يُحصِّل ما يَعوزه بطُرُق، هي المعاوضَة المعبَّر عنها بالبيع، والارتفاق من الغير، وذلك بسببِ الخُلَّة، أو بسبب توسُّط الواسطة إلى مَن ليس بخليل، وهي الشَّفاعة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٦٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤).

٣- أنَّ الكُفْرَ أعظمُ الظُّلم؛ ووجه الدَّلالة منه: حَصْر الظُّلم في الكافرين؛ وطريق الحَصْر هنا ضمير الفصل: ﴿هُمْ﴾[١]، ودخول (أل) على الخبر ﴿الظالمون﴾، مما يشعر أنَّهم حصَّلوا الوصف الكامل من الظلم.

٤- قوله سبحانه: ﴿الحَيُّ القَيُّومُ﴾: اسمان كريمان يَدُلَّانِ على سائر الأسماء الحسنى دَلالةَ مطابقةٍ وتضمُّنٍ ولُزومٍ؛ فالحيُّ: مَن له الحياة الكاملة المُستلزمة لجميع صِفات الذَّات، كالسَّمع والبَصر والعِلم والقُدرة، ونحو ذلك، والقيُّوم: هو الذي قام بنَفْسِه وقام به غيرُه، وذلك مستلزمٌ لجميع الأفعال التي اتَّصف بها ربُّ العالَمين مِن فِعله ما يشاء، من الاستواءِ والنُّزول والكلام والقَول والخَلْق والرَّزْق والإماتة والإحياء، وسائرِ أنواع التَّدبير، كلُّ ذلك داخلٌ في قيوميَّة الباري عزَّ وجلَّ[٢].

٥- في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ لم ينفِ الله سبحانه ذكر النوم وحده؛ لئلَّا يُتوهَّم أنَّ السِّنَةَ يجوزُ أن تَطْرُقَه، فيُزيل تمكُّنها بنحو ما يَفعَلُ البَشرُ، من نحو مشيٍ، وضربٍ للوجه بماءٍ وغير ذلك، ولم يَذْكُر السِّنة وحدها؛ لأنَّ النوم ربما يهجم بقوة، دفعة واحدة، من غير تدرُّجِ فتورٍ[٣].

٦- قُدِّمَت السِّنة على النوم، قيل: مراعاةً للترتيب الوجودي، فلتقدُّمها على النوم في الخارج؛ قُدِّمَت عليه في اللفظ[٤]، وقيل: لأجل التعبير بالأخذ الذي معناه القهر والغلبة قُدِّمت السِّنة، كما لو قيل: فلانٌ لا يغلبه أميرٌ ولا سلطان[٥].

٧- احتجَّ بعضُ أهل العلم بقوله تعالى: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠).
(٣) يُنظر: ((الفتح القدسي)) للبقاعي (ص: ٧٢).
(٤) يُنظر: ((روح المعاني)) للألوسي (٢/ ٩)
(٥) يُنظر: ((الفتح القدسي)) للبقاعي (ص: ٧٣).

على أنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ لله تعالى؛ لأنَّ قوله سبحانه: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يتناول كلَّ ما في السموات والأرض، وأفعالُ العِباد من جُملة ما في السَّموات والأرض، فوجب أن تكون مُنتسبةً إلى الله تعالى[١].

٨- أنَّ الحُكْم الشَّرعي بين النَّاس، والفصل بينهم، يجب أنْ يكون مُستنِدًا على حُكْم الله تعالى، وأنَّ اعتماد الإنسان على حُكْم المخلوقين، والقوانين الوضعيَّة نوعٌ من الإشراك بالله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ المُلْك لله عزَّ وجلَّ؛ كما في قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[٢].

٩- إثبات الإذن -وهو الأمْر-؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، وذلك الإذن يتعلَّق بالشَّافع والمشفوع فيه، وبوقت الشَّفاعة؛ فليس يَشفعُ إلَّا مَن أذِن الله له في الشَّفاعة، وليس له أن يَشفَعَ إلَّا بعد أنْ يأذنَ الله له، وليس له أنْ يَشفعَ إلَّا فيمَن أذِن الله تعالى له أن يَشفعَ فيه؛ قال تعالى: ﴿كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقال أيضًا: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾[٣] [يونس: ٣].

١٠- في قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ إثباتُ الشفاعة، والردُّ على الخوارج والمعتزلة؛ فهم ينكرون الشفاعة في أهل الكبائر؛ لأنَّ مذهبَهما أنَّ فاعل الكبيرة مُخلَّدٌ في النار لا تَنفع فيه شفاعةٌ[٤].

١١- في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: ردٌّ على القدرية

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٤/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((معارج القبول)) للحكمي (٢/ ٨٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦٠).

الغلاة؛ فإثبات عموم العِلم يردُّ عليهم؛ لأنَّهم أنكروا عِلمَ الله تعالى بأفعال خَلْقه قَبلَ وقوعِها[١].

١٢- أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يُحاط به عِلْمًا، كما لا يُحاط به سمعًا ولا بصرًا؛ قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[٢] [طه: ١١٠].

١٣- عظمة خالِق الكُرْسيِّ؛ لأنَّ عِظَم المخلوق يَدُلُّ على عظمة الخالق[٣].

١٤- إثبات ما تتضمَّنه هذه الجُملة: ﴿وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾، وهي العِلْم، والقدرة، والحياة، والرحمة، والحِكمة، والقوَّة[٤].

١٥- أنَّ السَّمواتِ والأرضَ تحتاج إلى حِفْظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾، ولولا حِفْظ الله لفَسَدتا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[٥] [فاطر: ٤١].

١٦- في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي: السَّموات والأرض، لم يتعرَّض لذِكر ما فيهما؛ لأنَّ حفظهما مستتبعٌ لحفظه، وخصَّهما بالذِّكر دون الكرسيِّ؛ قيل: لأنَّ حِفظهما أمرٌ مشاهدٌ محسوس[٦].

١٧- في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ ردٌّ على الحُلوليَّة، وعلى المعطِّلة النُّفاة؛ فالحُلوليَّة قالوا: إنَّه ليس بعالٍ؛ بل هو في كلِّ مكان، والمعطِّلة النُّفاة قالوا: لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٦١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٦٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((روح المعاني)) للألوسي (٢ / ١٢)

يُوصَف بعُلوٍّ ولا سُفْل، ولا يمين ولا شِمال، ولا اتِّصال ولا انفِصال[١].

١٨- أفاد قوله تعالى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ أنَّه ليس هناك إلَّا رُشْدٌ أو غيٌّ؛ لأنَّه لو كان هناك ثالث لذُكِر؛ لأنَّ المقام مقام حَصْر، ويَدُلُّ على هذا قولُه تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤][٢].

١٩- أنَّ كلَّ ما عُبِد من دون الله فهو طاغوت؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾، ووَجْه هذا: أنَّه سبحانه وتعالى جعل الكُفْر بالطَّاغوت قسيمًا للإيمان بالله، وقسيم الشَّيء غيرُ الشيء، بل هو مُنفصِل عنه[٣].

٢٠- أنَّه لا نَجاةَ إلَّا بالكُفْرِ بالطَّاغوت والإيمانِ بالله؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[٤].

٢١- أنَّ الأعمالَ تتفاضَل؛ يؤخَذ ذلك مِن اسم التَّفضيل: ﴿الْوُثْقَى﴾[٥]؛ لأنَّ التَّفضيل يقتضي مُفضَّلًا، ومُفضَّلًا عليه؛ ولا شكَّ أنَّ الأعمال تتفاضل بنصِّ القرآن والسُّنة[٦].

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ فيه إطلاقُ العامِّ وإرادة الخصوص به؛ إذ المعنى: ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) الوُثْقى: فُعْلى للتفضيل؛ تأنيث (الأوثق)، كفُضْلى تأنيث (أفْضَل). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦٨).

شفاعة للكُفَّار، أو: ولا شفاعة إلَّا بإذن الله، فعلى الخصوص بالكفَّار: لا شفاعةَ لهم ولا منهم، وعلى تأويلِ الإذن: لا شَفاعة للمؤمنين إلَّا بإذنه[١].

٢- قوله: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾ فيه من أنواع الفصاحة وعِلْم البيان:

- حُسن الافتتاح؛ لأنَّها افتُتِحت بأجلِّ أسماء الله تعالى[٢]؛ فهذا الاسم الكريم إذا ورد على القلب أولًا استبشر به؛ كذلك للتبرك بتقديم ذكر اسم الله عز وجل، ولإظهار المنَّة على هؤلاء بأنَّ الله هو الذي امتنَّ عليهم أولًا، فأخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور[٣].

- تأكيدُ الخبر باسميَّة الجُملة، ونَفْي الأُلوهيَّة عمَّن سوى الله تعالى بـ(لا، وإلَّا)[٤].

- ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: فيه تَكرار حرْف النَّفي (لا)، وفائدته: بيان انتفائهما على كلِّ حال؛ إذ لو أُسقِطتْ (لا) وقيل: (لا تأخذه سِنَةٌ ونومٌ)، لاحتَمَل انتفاؤهما بقَيدِ الاجتماع[٥].

- قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: (ما): للعموم تَشمَل كلَّ موجود، واللام للمِلْك؛ أخبر تعالى أنَّ مظروفَ السَّموات والأرض مِلكٌ له

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٠٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٧٢).
(٤) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٣٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦١٠)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٣٩).

تعالى، وكرَّر (ما)، للتَّوكيد[١]. وفيه توكيد الخبر باسميَّة الجملة، والصِّلة، وتقديم ما حقُّه التأخير (له)[٢]. ويُفيد اختصاص الله تعالى بهذا المُلْك؛ لأنَّ الخبَر حقُّه التَّأخير؛ فإذا قُدِّم أفاد الحصرَ[٣].

- **وقوله**: ﴿**يَعْلَمُ**...﴾: تقرير وتكميل لِمَا تضمَّنه مجموع جُمْلتَي ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، ولما تضمَّنته جملةُ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾؛ فإنَّ جُمْلتَي ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ دلَّتَا على عموم عِلْمه بما حدَث، ووُجِد من الأكوان، ولم تَدلَّا على عِلْمه بما سيكون، فأكَّد وكمَّل بقوله ﴿يَعْلَمُ...﴾ الآية، وهي أيضًا تعليلٌ لجُملة ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، ولأجْل هذين المعنيين فُصِلتْ الجملةُ عمَّا قبلها، أي: لم تُعطَف عليها بالواو[٤].

- وفي هذه الآية العظيمة ترتَّبتِ الجُملُ من غير حرف عطفٍ؛ ففيها ما يُسمَّى بالفَصْل في عِلْم المعاني؛ وذلك لأنَّه ما منها جُملةٌ إلَّا وهي واردةٌ على سبيل البيان لِمَا ترتَّبت عليه، والبيان مُتَّحِد بالمُبين، فلو توسَّط بينهما عاطفٌ لكان كما تقول العرب: بين العصا ولِحائها، فاتَّحد البيانُ بالمُبين في تصوير المُلْك الحقيقيِّ الذي لا يُنازَع فيه، بأرشقِ عبارةٍ، وأدقِّ وصْف[٥].

- وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ قيل: عُطِفت هذه الجملةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦١٠).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٠١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٨٣).

على ما قبلها، وهو قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ لمغايرتها لها؛ لأنَّ هذه تُشعر بأنَّه سبحانه يَعلمُ كلَّ شيءٍ، وتلك تُفيد أنه لا يَعلمُه غَيرُه، ومجموعهما دالٌّ على تفرُّده تعالى بكمال العِلم[١].

- وتضمَّنت الآيةُ كذلك مِن الإيجاز ما لا مَطمحَ فيه لتقليد أو مُحاكاة؛ فقد اشتَملت آيةُ الكُرْسيِّ على ما لم تَشتمِل عليه آيةٌ مِن آياتِ الله سبحانه، وذلك أنَّها مُشتَمِلة على سَبعة عشرَ موضِعًا فيها اسمُ الله تعالى ظاهرًا في بعضها، ومُستكِنًّا في بعضها الآخر، وقد أوصلها البعضُ إلى واحد وعشرين، وهذا مِن أدقِّ مباحث عِلم المعاني[٢].

٣- **قوله:** ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ فيه مَعدولُ الخِطاب[٣]، أي: جاء الخطابُ بصِيغة الخبرِ، لكنَّ معناه الأمْر - إذا كان المعنى لا تُكرِهوا على الدِّين أحدًا[٤].

٤- **قوله:** ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ**﴾ قدَّم ذِكْرَ الكُفْر بالطاغوت على الإيمان بالله؛ لإظهار الاهتمامِ بوجوب الكُفْر بالطاغوت[٥]، ولأنَّه من باب التخلية قبلَ التحلية.

٥- ﴿**وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ فيه التصريحُ بلفظِ الجَلالة (الله)؛ لإدْخال الرَّوعةِ وتربية المهابة، وفيه توكيدُ الخبرِ باسميَّة الجُمْلة، والتعبير بصيغة فعيل (سميع-

---

(١) يُنظر: ((روح المعانى)) للألوسي (٢ / ١٠)

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٨٣).

(٣) **معدول الخطاب (أو تلوين الخطاب)**: هو تغييرُ الأسلوب، وذلك قد يكون بالعدول عن صِيغة إلى صيغةٍ أخرى، أو بالعدول عن خِطاب إلى خِطاب آخَر، كالخطاب بصيغة الخبر الذي معناه الأمْر، وكالخِطاب العامِّ المراد به المعنى الخاص، وعكسه، أو خِطاب الغَيبة إلى خِطاب المواجهة، والالتفاتُ مِن شُعَبِه. يُنظر: رسالة مستقلَّة بعنوان ((تلوين الخطاب)) لابن كمال باشا.

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦١٧).

عليم) للمُبالغةِ في الوَصْف[١].

٦- في قوله: ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

جَمَع الظُّلماتِ وأفْرَد النورَ؛ لسرٍّ بلاغيٍّ عجيب، وهو الإشارة إلى وَحْدة الحقِّ، وتعدُّد أنواعِ الظُّلمات التي هي الضَّلالات، وما أكثرَها! ولأنَّ طريق الحقِّ واضِحةُ المعالم، لا لَبْس فيها، ولا تَشعُّب في مسالكها، أمَّا طريق الضلال؛ فهي مُلتَبِسةٌ على مَن يَسلُكها[٢].

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٤١-٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٨٩).

الآيات (٢٥٨-٢٦٠)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿فَبُهِتَ﴾: انقطع، وذهبتْ حُجَّتُه، ودَهِش وتحيَّر[1].

﴿خَاوِيَةٌ﴾: خالية، وخراب؛ فأصْلُ الخَوَاء: الخلوُّ، والسُّقوط، والخلاء[2].

﴿عُرُوشِهَا﴾: سُقُوفها، وأصْل العَرْش: الارتفاعُ في شيء مبني[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٥)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٣٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

﴿أَنَّى﴾: حرْف للبحث عن الحال والمكان، بمعنى (كيف) و(أين)؛ لتضمُّنه معناهما[١].

﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾: لم يتغيَّر بمرِّ السِّنينَ عليه، مأخوذ من السَّنَهْ، وأصْله يتسنَّن، أُبدِلت النُّونُ هاءً[٢].

﴿نُنْشِزُهَا﴾: نُحْيِيها، ونرفعها إلى مواضِعها، ونُحرِّك بعضَها إلى بعض؛ فأصْل النَّشْزِ: الارتفاع والعُلُوُّ[٣].

﴿فَصُرْهُنَّ﴾: أمِلْهُنَّ إليك، واجْمَعهن، وضُمَّهنَ إليكَ، أو صِحْ بِهِنَّ، وصِرهنَّ- بكسر الصَّاد -: قطِّعهنَّ[٤].

﴿سَعْيًا﴾: السَّعي: المشي السَّريع دون العَدْو، وقيل: المعنى هنا: عَدوًا، ويُقال: مشيًا على أرجُلهنَّ؛ لأنَّه لا يُقال للطَّائر إذا طار: سعَى[٥].

مُشكِل الإعراب:

قوله: ﴿يَأْتِينَكَ سعيًا﴾: سعيًا: مصدرٌ واقِع موقعَ الحال من ضَمير الطَّير، أي:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١).

يأتينك ساعيات، أو ذواتِ سعيٍ، وقيل: هو حالٌ من المخاطَب (إبراهيم عليه السلام) أي: يأتينك وأنتَ تَسعى سعيًا. وقيل غير ذلك[١].

المعنى الإجمالي:

يُخبِر الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ عن قصَّة الرَّجل الذي وهَبه اللهُ المُلكَ حين خاصَمَ نبيَّ الله إبراهيمَ عليه السَّلام، وناظَرَه في وجود الله ورُبوبيَّته وأُلوهيَّته، وما حمَله على ذلك وجرَّأه عليه إلَّا المُلْكُ الذي أعطاه اللهُ له، فاستَكبَر وطغى، وأَنكَر وجودَ الله جلَّ وعلا، فأخبره إبراهيمُ عليه السَّلامُ أنَّ الله يُحيي ويُميت، مُستدِلًّا بذلك عليه السَّلامُ على وجود الربِّ تعالى وربوبيَّته وأحقِّيَّته وحده بالعبادة، فردَّ عليه المَلِك- عنادًا- أنَّه أيضًا يَملِك أن يَفعَل هذا الفِعلَ؛ فالإحياء باستبقاء مَن أراد قتْله، أو الإماتة بقتْل مَن أراد إماتته فردَّ إبراهيم عليه السَّلام عليه أنَّ اللهَ يأتي بالشَّمس كلَّ يوم من جِهة المشرِق، فإنْ كان إلهًا حقًّا، يُحيي ويُميت، فليَجْعلها تَطلُع من جِهة المغرِب، فحينها عَلِمَ ذلك المُحاجِجُ أنه عجَز وانقَطَع عن الإدلاء بحُجَّة، فتحيَّر واندهَش، والله تعالى لا يُوفِّق مَن ظلَم نفسَه بإيثاره الكُفْرَ على الإيمان.

ثم ذكَر الله لنبيِّه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قصَّة الرَّجلِ الذي مرَّ على قرية فارغة، قد مات أهلها جميعًا، وقد خَرِبتْ أَبنيتُها، فتساءل مُستَبعِدًا: كيف يُمكِن أنْ يُعيدَ اللهُ الحياةَ إلى ما كانت عليه سابقًا؟ فقبَض اللهُ رُوحَه مئةَ عامٍ، ثم أحياه بَعدَها، وسأَله عن المدَّة التي لَبِثها في هذا المكان، فكان جوابه: أنَّه لَبِث إمَّا يومًا أو بعضَ يوم، وظنَّ أنَّه كان نائمًا فاستيقظ، فقال له جلَّ وعلا: بل مَكثتَ مئةَ عامٍ، فشَاهِدْ ما معك من طعامٍ وشراب لم يُغيِّره مرورُ كلِّ هذا الوقتِ، مع كَونهما

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٣٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٧٨).

من أسرع الأشياء تغيُّرًا، وشَاهِدْ حمارَكَ وقد مات وبَلِيتْ عِظامُه، وليجعلك الله للناس حُجَّةً على قدْرته سبحانه، وشاهِدِ العِظامَ الباليةَ لحمارك؛ كيف يُحْيِيها الله، ويُغطِّيها باللحم، فلمَّا اتَّضح له، أَمَره اللهُ أنْ يَتيقَّن أنَّ الله قادرٌ على كلِّ شيء، فأقرَّ حينها بيقينِه بذلك.

ثم ذكَر اللهُ لنبيِّه قصَّةَ إبراهيم عليه السَّلام، حين طلَب من ربِّه أن يجعلَه يُشاهِد بعينَيه كيفيَّةَ إحياءِ اللهِ للموتى، فقال له الله تعالى: أَوَلستَ مؤمنًا؟ فأجاب نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام: بأنَّه مؤمن، ولا يَعْتريه أيُّ شكٍّ، ولكنْ أراد أنْ يَزداد طُمأنينةً، فأَمَره تعالى أنْ يأخذ أربعةً من الطُّيور، ويَذبحهنَّ ويُقطِّعهنَّ، ثم يُفرِّقهنَّ على رؤوس عِدَّة جبال، ثم يَدْعوهنَّ فيَجئنَ إليه مُسرِعات، ففعل ذلك فأقْبَلْنَ إليه طائرات، فأَمَره اللهُ تعالى أنْ يتيقَّن أنَّه تعالى عليمٌ حكيم.

تفسير الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾.

مناسبة الآية لِما قبلها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى أنه يُخرِج الذين آمَنوا من الظُّلماتِ إلى النُّور، وأنَّ الطَّاغوت يُخرِجون الذين كفروا من النُّور إلى الظُّلمات، ساق ثلاثةَ شواهدَ على ذلك، هذا أوَّلُها وأجمعها؛ لأنه اشتمَل على ضَلالِ الكافر، وهُدى المؤمن؛ فكان هذا في قوَّة المِثال[1]، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣١).

أي: ألم تَنظُر يا محمَّد، بقلبك مُتعجِّبًا من هذا المَلِك الذي خاصَم إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلام، وناظَرَه في وجود ربِّه ورُبوبيَّته وأُلوهيَّته؟ هل رأيتَ أحدًا مِثْله يُنكِر أن يكون ثَمَّ إلهٌ غيره؟ وما حمَله على هذا التجرُّؤ والتجاهل والمحاجَّة فيما لا يَقبَل الشكَّ، إلَّا طغيانُه وتجبُّره؛ بسبب تملُّكه على رعيَّته مُلْكًا لا يُنازِعه أحدٌ فيه لمدَّةٍ طويلة، فاستكبَر وبغى، فأَنكَر وجودَ العليِّ الأعلى[1].

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾.

أي: ألم ترَ- يا محمَّد- إلى ذلك المُحاجِج في أمرِ الربِّ عزَّ وجلَّ، حين أخبَره إبراهيمُ عليه الصَّلاة والسَّلام بدليلٍ يُثبِت وجودَ الربِّ ورُبوبيَّته وأحقِّيَّته وحده بالعبادة؛ فهو الخالق المالك المدبِّر، المُنفرِد بأنواع التصرُّف، وقد ذكَر إبراهيمُ منها على سبيل الخصوص: الإحياءَ والإماتةَ، وهي مِن أعظم أنواع التَّدابير التي لا يَقدِر عليها أحدٌ سوى الله تعالى، فيُحْيِي ما كان ميتًا ممَّا يَشاء مِن خَلْقه، ويُميتُ مَن أراد إماتتَه من الأحياء، فحدوثُ هذه الأشياء المشاهَدة بعد عَدَمِها، وعدمها بعد وجودها- دليلٌ قاطِع وواضحٌ على وجود الفاعل المختار؛ لأنَّها لم تَحدُث بنفسها، فلا بدَّ لها من مُوجِدٍ أَوجَدَها، وهو الربُّ الذي دعا إبراهيمُ إلى عبادته وحده لا شريكَ له، فحينها ردَّ عليه المَلِك مُستكبِرًا ومُوهِمًا بأنَّه يَملِك فِعْلَ ذلك أيضًا، غير مُنكِر أنَّ الله تعالى يفعله؛ إذ لم يَقصُر الأمرَ على نفْسه، التي ادَّعى لها هذا المقامَ عنادًا ولَجَاجًا بالباطل، مُدَّعيًا أنَّ استبقاءه مَن أراد قتْله، إحياءٌ منه له، وقتْلَه لآخَر إماتةٌ له[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٦٧-٥٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٧٧-٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٧٠)، ((مختصر الصواعق المرسلة)) لابن القيِّم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٧٩-٢٨٠). =

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾.

أي: لَمَّا أصرَّ هذا الكافرُ على المُغالطةِ والمُكابَرة، ردَّ عليه إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام من خلال ما زعَمه، بأنَّه إنْ كان حقًّا صادقًا في دعواه بأنَّه يَملِك القُدرةَ على الإحياء والإماتة؛ فإنَّه ينبغي أن يكون قادرًا كذلك على التصرُّف في الوجودِ كتسخير كواكبه، قائلًا: هذه الشَّمس الظَّاهرة للعِيان يُحرِّكها اللهُ الذي أَعبُده، فيأتي بها كلَّ يوم لتَطلُع من جِهة المَشرِق، فإن كنتَ إلهًا تُحيي وتُميت كما تَزعُم، فاجعلْها تَطلُع من جِهة المغرب[1].

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾.

أي: لَمَّا عَلِم هذا المُحاجِجُ عجزَه وانقطاعَه عن الإدلاء بحُجَّة- إذ لا قِبَل له بإيراد شُبْهة تُشوِّش دليلَ إبراهيم عليه السَّلام، ولا عَرْضِ قادحٍ يَقْدَح فيه- تَحيَّر واندهش، فأُخرِس مغلوبًا، وبَطَلت حُجَّته، وقامت عليه حُجَّة الحقِّ[2].

﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يُوفِّق أهلَ الباطلِ الذين ظلموا أنفسَهم بإيثارهم الكُفْرَ على الإيمان، بل يُبقِيهم على كُفْرهم وضَلالهم، ولو كان قَصْدهم الهدايةَ إلى الحقِّ،

= وممَّن رُوي عنه من السَّلف في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ بمثل ما ذُكر: قتادة، ومجاهد، وعبد الرحمن بن زيد بن أَسلمَ، والربيع، والسُّدِّي، وابن جريج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٧١) وعليه أكثر المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير العثيمين-الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٦)، ((مختصر الصواعق المرسلة)) لابن القيِّم (ص: ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١).
ويُنظر أيضا: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٠، ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٧٠، ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٦)، ((مختصر الصواعق المرسلة)) لابن القيِّم (ص: ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٠،).

لوفَّقهم ويسَّر لهم الوصولَ إليه، فحُجَجهم باطِلة، لا يُمكِن أنْ يُبطِلوا بها حُججَ أهلِ الحقِّ عند المحاجَّة والمُناظَرة[١].

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا قرَّر بالآية السابقة ثبوتَ انفرادِ الله بالإلهيَّة، وذلك أصل الإسلام، أَعْقَب بإثبات البعثِ، الذي إنكاره أصْلُ أهلِ الإشراك[٢] فقال تعالى:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾.

أي: أَلَمْ تَنظُر أيضًا يا محمَّد، مُتعجِّبًا من هذا الرجل الذي مرَّ على قرية فارِغةٍ، قد فَنِي أهلُها فماتوا جميعًا، وقد سقطت سُقُوفُها، وخرَّت الجِدران عليها، فخَرِبتْ أبنيتُها، فأصبحت مُوحِشةً بلا أنيس، مُقْفِرةً بلا عمارة[٣].

﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١، ٩٥٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٧٧، ٥٨١-٥٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٧-٦٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٦-٢٨٩).

وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّ معنى عروشها: سقوفها: الضحَّاك والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٠١).

أي: لَمَّا مرَّ هذا الرجُلُ بذلك الموضِع الخَرِب الذي كان عامرًا بالحياة، مأهولًا بالسُّكان، وقَف عليه مُتفكِّرًا فيما آل إليه حالُ هذا المكان، فتساءل مُستبعِدًا كيف يُمكِن عَوْد الحياة إلى ما كانت عليه سابقًا[1].

﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى أراد أن يُريَه قُدرتَه على ما استَبْعَدَه، بضرْب المَثَل له في نَفْسه، فقبَض اللهُ سبحانه رُوحَه، وظلَّ مَيِّتًا لمدَّة مئة عام كاملة، ثم أحياه الله عزَّ وجلَّ، فسأله عن مدة مُكْثه في هذا المكان، فأجاب- شاكًّا- بأنَّ لُبْثه لن يعدو يومًا كاملًا أو جزءًا من يوم، ظنًّا منه أنَّه كان نائمًا فاستيقظ، قيل: لأنَّه مات في أوَّل النَّهار وبُعِث في آخره بعد مِئة عام، فظنَّ لما رأى آخِرَ النَّهار أنَّه بقيَّة يومه الذي كان فيه حيًّا، أو أنَّه آخِر النَّهار من اليوم التَّالي[2].

﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما ذكرتَ، فلمْ تَمكُث يومًا أو بعضَ يوم، وإنما مكثتَ مئة عام بتمامها، فلْتُشاهِد الآن خوارقَ العادتِ الدَّالَّة على قُدْرة الربِّ عزَّ وجلَّ، فانظُرْ أولًا إلى ما بحوزتك من طعامٍ وشراب، فإنه لم يتغيَّر مُطلَقًا بمرور كلِّ تلك السِّنين، خلافًا لما جرتْ به العادة، فإنَّ الطعامَ والشَّراب من أسرع الأشياء تغيُّرًا[3].

﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٨٦، ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٩٨، ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٦-٣٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩٠-٢٩١).

أي: انظُر بعينَي رأسِك إلى حمارك، وقد مات وتمزَّق لحمُه وجِلدُه، وتفرَّقت أوصالُه، وبَدَتْ عِظامُه النَّخِرة؛ فانظر كيف يُحيِيه اللهُ عزَّ وجلَّ[(١)]؟

﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾.

أي: أَمتْناك مِئةَ عامٍ، ثمَّ بعثناك لنُصيِّرك حُجَّةً ودليلًا وعلامةً مرئيَّةً على قدرة الله تعالى، القادر وحده على فِعْل ما يشاء مِن إحياء وإماتة، وعلى إثبات البعثِ من القبور يوم القيامة؛ مِصداقًا لما أَخبَرتْ به رُسلُ الله عليهم السَّلام، وذلك لمن عرَفه مِن ولدِه وقومه ممن عَلِم موته، فرأوا ذاته وتحقَّقوا صفاتِه، ولعموم النَّاس كذلك[(٢)].

﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

القِراءات ذات الأثَر في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿نُنْشِزُهَا﴾ قراءتان:

١- ﴿نُنْشِزُهَا﴾ من النَّشَز، وهو: ما ارتفع مِن الأرضِ، والمعنى: نجعلُها بعدَ بِلاها وهمودِها ناشزةً، أي: نرفعُ بعضَها إلى بعضٍ[(٣)].

٢- ﴿نُنْشِرُهَا﴾ من الإنشارِ، وهو الإحياءُ، أي: نُحييها بعدَ موتِها[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦١٣-٦١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩١).

(٣) قرأ بها ابن عامر والكوفِيُّون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٢٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٤٤).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٢٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٤٤).

﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

أي: انظُر عيانًا إلى تلك العِظام البالية المتفرِّقة لحمارك، وشاهِدْ كيف نُحْييها، وهي ترتفعُ من الأرض فتتَّصلُ ببعضها، فنردُّها إلى مواضعها من الجسد، ونَستُرها باللَّحمِ بعد التئامها، فأحيا الله عزَّ وجلَّ الحِمارَ بالإعادة، من بعد تَحلُّل جَسدِه(١).

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ قراءتان:

١- قراءة ﴿اعْلَمْ﴾ على معنى أنه أمرٌ من الله عزَّ وجلَّ له بالعلم(٢).

٢- قراءة ﴿أَعْلَمُ﴾ على معنى أنَّ ذلك من مقالة الذي أحياه الله تعالى(٣).

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: فلما اتَّضح له ما كان مُستبعِدًا وقوعه، وظهر له عيانًا، أمره الله سبحانه أن يُدرِك الآن إدراكًا جازمًا بأنَّ الذي فعَل تلك الأشياء العجيبة بقدرته، قادِر أيضًا على أيِّ شيء أراده، فلا يُعجِزه شيء أبدًا، فقال: أُوقِن مطمئنًّا الآن- أكثرَ من أيِّ وقت مضى- بقُدرةِ الله، التي ليستْ لها حدودٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي. ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣١، ٢٣٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٣) قرأ بها الباقون. ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣١، ٢٣٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٢٠، ٦٢٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩٢).
=

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

أنَّ في هذه الآية والتي قبلها دَلالةً على البَعْث المنسوب إلى الله تعالى، في قول إبراهيم للملك الذي خاصمه ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، لكنَّ المارَّ على القريةِ أراه اللهُ ذلك في نفْسِه وفي حماره، وإبراهيم أراه الله ذلك في غيره[(١)].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

أي: واذْكُرْ يا محمَّد، حين طلَب إبراهيمُ عليه السَّلام من ربِّه أنْ يُشاهِد بعينيه كيفيَّةَ إحياء الموتى[(٢)].

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

أي: فقال الله تعالى لخليله عليه السَّلام: أَوَلستَ قد آمنتَ؟ يعني: أنَّه ما دُمتَ قد آمَنتَ فلِمَ تَطلُبُ هذه الرؤيةَ؟ فأجاب نبيُّ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنَّه مؤمن، لا يَعْتري إيمانَه أدنى شكٍّ، ولكنَّه لفَرْط محبَّته للوصولِ إلى مرتبةِ المُعايَنة، رامَ الترقِّي

= وممَّن فسَّرها بناءً على قراءة الأمر (اعلمْ) من السَّلف: ابن عبَّاس، والربيع. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٠٧).

وممَّن رُوي عنه من السَّلف معنى قراءة ﴿أَعْلَمُ﴾: الحسن، وقتادة، والسُّدِّي، والضحَّاك، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٣/ ٢٩٧، ٢٩٨)، ونسَبَه للجمهور، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩٩).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٢٤، ٦٣٠).

من درجة عِلْم اليقين إلى عَين اليقين، حتى يزدادَ إيمانًا، ويزدادَ قلبُه طُمأنينةً[١].

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾.

أي: أجاب اللهُ تعالى طلبَه، فأَمَره أنْ يأخذ أربعةَ طيور، وأنْ يَذبَحهنَّ ويُقطِّعهنَّ؛

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٩)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١١-١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٥، ٩٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٨، ٣٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩٩-٣٠٠).

تنبيه:

قال القرطبيُّ: (وأمَّا قول النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيمَ)) فمعناه: أنَّه لو كان شاكًّا لكنَّا نحن أحقَّ به، ونحن لا نشكُّ؛ فإبراهيمُ عليه السلام أحْرى ألَّا يشك، فالحديث مبنيٌّ على نفي الشكِّ عن إبراهيم... وإحياء الموتى إنما يثبت بالسَّمع، وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلمَ به، يدلُّك على ذلك قوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ فالشكُّ يَبعُد على مَن تثبت قدمه في الإيمان فقط؛ فكيف بمرتبة النبوَّة والخُلَّة؟) ((تفسير القرطبي)) (٣/ ٢٩٨-٢٩٩).

وقال ابن القيم: (طلب إبراهيم أن يكون اليقين عيانًا، والمعلوم مشاهدًا، وهذا هو المعنى الذي عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بالشك في قوله: ((نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم)) حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وهو صلَّى الله عليه وسلَّم لم يَشكَّ ولا إبراهيم، حاشاهما من ذلك، وإنَّما عبَّر عن هذا المعنى بهذه العبارة. هذا أحد الأقوال في الحديث. وفيه قولٌ ثانٍ: أنه على وجه النفي، أي لم يشكَّ إبراهيم حيث قال ما قال، ولم نشكَّ نحن، وهذا القول صحيح أيضًا أي لو كان ما طلبه للشك لكنَّا نحن أحقَّ به منه، لكن لم يطلبْ ما طلَبَ شكًّا، وإنما طلب ما طلبه طُمأنينةً. فالمراتب ثلاث: عِلم يقين يحصُل عن الخبر، ثم تتجلَّى حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر، حتى يصيرَ العلم به عَينَ يقين، ثم يُباشره ويلابسه فيصير حقَّ يقين)، ((مدارج السالكين)) (١/ ٤٦٩).

وقال أيضًا: (ولَمَّا كان بين العلم والعِيان منزلةٌ أخرى، قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم» إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وإبراهيم لم يَشكَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لم يشكَّ، ولكنْ أَوْقَع اسم «الشك» على المرتبة العِلميَّة باعتبار التفاوت الذي بينها وبين مَرتبة العِيان في الخارج، وباعتبار هذه المرتبة سُمِّي العلم اليقيني- قبل مشاهدة معلومِه- ظنًّا؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهذا الظنُّ عِلمٌ جازم، كما قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، لكن بَينَ الخبر والعِيان فرقٌ) ((مدارج السالكين)) (٣/ ٣٥٩).

ليكون ذلك بمرأًى منه، ولِيَتِمَّ الأمرُ على يديه[١].

﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾.

أي: أَمَر اللهُ تعالى إبراهيمَ عليه السَّلام بتفريق أعضاء الطُّيور الأربعة التي قطَّعهنَّ، وقام بتَنْحِيتهنَّ عنه، بتَبدِيدهنَّ أجزاءً على رؤوس عدَّة جبالٍ؛ لتكون ظاهرةً للعِيان، وأَمَره أنْ يدعوهنَّ، ليُقبِلنَ عليه مُسرِعات، ففعل إبراهيمُ عليه السَّلام ذلك، وجئنَ طائراتٍ على أكمل ما يكون من الحياة[٢].

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: اعْلَم يا إبراهيمُ، أنَّ الذي فعَل ذلك له كمالُ العِزَّة، فلا يَغلِبه شيءٌ، ولا يَستعصي عليه شيْء أراده، وأنَّ أفعاله وأقواله وأقداره وشرائعه كلَّها صادرةٌ عن كمال حِكْمته؛ فيَضَع كلَّ شيء في مُوضِعه الصَّحيح، ولا يَفعل - أبدًا - شيئًا عبثًا[٣].

الفوائِد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ دلالةٌ على أنَّ النِّعم قد تكون سببًا للطُّغيان؛ لأنَّ هذا الرجُل ما طغى وأَنكَر الخالقَ؛ إلَّا لأنَّ الله آتاه المُلْك؛ ولهذا أحيانًا تكون الأمراضُ نعمةً من الله على العبد؛ والفقر

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠٠-٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٤٨، ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠١-٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير بن جرير)) (٤/ ٦٤٩، ٦٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠٢).

والمصائب تكون نعمةً على العبد؛ لأنَّ الإنسان إذا دام في نعمة، وفي رَغَدٍ، وفي عيشٍ هَنِيء، فإنَّه ربَّما يَطْغى، وينسى الله عزَّ وجلَّ[١].

٢- أنَّ اللهَ لا يمنع فضلَه عن أحدٍ إلَّا إذا كان هذا الممنوع هو السَّببَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فلظُلْمهم لم يَهدِهم اللهُ، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥][٢].

٣- التَّحذير من الظُّلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ ومن الظُّلم أنْ يَتبيَّن لكَ الحقُّ فتُجادِل لنُصْرة قولِكَ؛ لأنَّ العدل أنْ تَنصاعَ للحقِّ، وألَّا تُكابِر عند وضوحه؛ ولهذا ضَلَّ مَن ضلَّ مِنْ أهل الكلام؛ لأنَّه تَبيَّن لهم الحقُّ، ولكنْ جادَلوا؛ فبَقُوا على ما هم عليه من ضَلالٍ[٣].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: دلالةٌ على أنَّه كلَّما كان الإنسانُ أظلمَ كان عن الهِداية أبعدَ؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ علَّق نَفْي الهدايةِ بالظُّلم؛ وتعليق الحُكْم بالظُّلم يدلُّ على عِلِّيَّتِه؛ وكلما قويتِ العِلَّةُ قوي الحُكْم المُعلَّق عليها[٤].

٥- أنَّ مَن أخَذ بالعدل كان حَرِيًّا بالهِداية؛ لمفهوم المُخالفة في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٥].

٦- جوازُ امتِحان العبدِ في معلوماته؛ لقوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾[٦].

٧- جواز إخبار الإنسان بما يَغلِب على ظنِّه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٦).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٤).

بَعْضَ يَوْمٍ﴾ مع أنَّه لَبِث مئةَ عام[١].

٨- أنَّه ينبغي التَّفكُّر فيما خلَقه الله عزَّ وجلَّ، وأَحدَثه في الكون؛ لأنَّ ذلك يَزيد الإيمانَ، حيث إنَّ هذا الشيء آيةٌ مِن آياتِ الله؛ كما في قوله: ﴿فَانْظُرْ...﴾[٢].

٩- أنَّه ينبغي النَّظر إلى الآيات على وَجْه الإجمالِ والتَّفصيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾: مُطلَق، ثم قال تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا...﴾ إلخ؛ فيقتضي أنْ نتأمَّل أوَّلًا في الكون من حيث العموم، ثُمَّ من حيث التفصيل؛ فإنَّ ذلك أيضًا يَزيدنا في الإيمان[٣].

١٠- أنَّ الإنسان بالتَّدبُّر والتَّأمُّل والنَّظر يَتبيَّن له مِن آياتِ الله، ما لا يَتبيَّن لو غَفَل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ إلخ[٤].

١١- أنَّه يَلزَم من النَّظر في الآيات العلمُ واليقينُ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٥].

الفوائد العلمية واللَّطائف:

١- أنَّ المحاجَّة لإبطال الباطل، ولإحقاق الحقِّ من مقامات الرُّسل؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ...﴾[٦].

٢- في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾، إشارةٌ إلى أنَّه يَنبغي للإنسان أن يتعلَّم طُرُقَ المناظَرة، والمحاجَّة؛ لأنَّها سُلَّم، ووسيلة لإحقاق الحقِّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٧).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨١).

وإبطال البَاطل[١].

٣- أنَّ مُلْك الإنسان ليس مُلْكًا ذاتيًّا من عند نفسه؛ ولكنَّه مُعطًى إيَّاه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾؛ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾[٢].

٤- إثبات الأفعالِ الاختياريَّة لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[٣].

٥- أنَّ الإنسانَ المُجادِل قد يُكابِر فيدَّعي ما يعلم يقينًا أنَّه لا يَملِكه؛ لقول الرجل الطاغية: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾؛ ومعلوم أنَّ هذا إنَّما قاله في مضايقة المحاجَّة؛ والإنسان في مضايقة المحاجَّة ربَّما يَلتزِم أشياء هو نَفْسه لو رجَع إلى نفسه لعَلِم أنَّها غير صحيحة، لكن ضَيق المُناظَرة أَوجَب له أنْ يقول هذا؛ إنكارًا أو إثباتًا[٤].

٦- أنَّ الحقَّ لا تمكن المُجادَلة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[٥].

٧- الردُّ على القَدَريَّة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ لأنَّهم يقولون: إنَّ الإنسانَ حرٌّ: يَهتدي بنفسه، ويَضِلُّ بنفسه؛ وهذه الآيةُ واضحة في أنَّ الهداية بيد الله[٦].

٨- الإشارة إلى أنَّه لا يَنبغي أنْ يَهتمَّ الإنسانُ بأعيان أصحاب القِصَّة؛ إذ لو كان هذا من الأمور المهمَّة، لكان الله يُبيِّن ذلك: يقول: فلان، ويُبيِّن القريةَ، فالعِبْرة بالمعاني والمقاصِد دون الأشخاص[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٣).

٩- إطلاق القرية على المساكن؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾، مع أنَّه يَحتمِل أنْ يُراد بهذه الآية المساكنُ والسَّاكن؛ لأنَّ كونها خاويةً على عروشها يَدلُّ على أنَّ أهلها أيضًا مفقودون، وأنَّهم هالِكون[١].

١٠- أنَّ الإنسانَ إذا استبعَد وقوعَ الشَّيء- ولكنَّه لم يَشُكَّ في قدرة الله على هذا الذي استبعده- لا يَكفُر بهذا؛ لقول الرجل الذي مرَّ على القرية: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[٢].

١١- أنَّ الله قد يَمُنُّ على عبده بأنْ يُريه مِن آياتِه ما يَزداد به يقينُه؛ لقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ...﴾ إلخ[٣].

١٢- أنَّ قُدرةَ الله فوق ما هو مُعتاد من طبيعة الأمور، حيث بقي هذا الطَّعام والشَّراب مئة سَنةٍ لم يتغيَّر[٤].

١٣- أنَّ الله يُحدِث للعبدِ ما يكون عِبْرةً لغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، ومِثْل ذلك قوله تعالى عن مريمَ وابنها عيسى عليهما السَّلام: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٥].

١٤- أنَّ الله عزَّ وجلَّ جعَل اللَّحمَ على العِظام كالكُسْوة؛ بل هو كُسْوة في الواقع؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾؛ ولهذا تَجِد اللَّحمَ يَقي العِظام من الكَسْر والضَّرر؛ لأنَّ الضَّرر في العِظام أشدُّ من الضَّرر في اللَّحم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٦).

١٥- الردُّ على مُنكِري قيام الأفعال الاختياريَّة بالله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ.... ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، وهذه أفعال مُتعلِّقة بمشيئته، واختياره: متى شاء فعَل، ومتى شاء لم يفعلْ[١].

١٦- أنَّ كلام الله عزَّ وجلَّ بحروف، وأصوات مسموعة؛ لقوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾، وقوله تعالى: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ﴾؛ فإنَّ مَقولَ القول حروف بصوت سَمِعه المُخاطَب، وأجاب عليه بقوله: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ ولكنَّ الصَّوتَ المسموع من كلام الله عزَّ وجلَّ ليس كصوتِ المخلوقين؛ الحروف هي الحروفُ التي يُعبِّر بها النَّاسُ؛ لكن الصَّوتَ لا؛ لأنَّ الصَّوتَ صِفةُ الربِّ عزَّ وجلَّ؛ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٢].

١٧- في قوله: ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ﴾ ثُبُوتُ كَراماتِ الأولياء؛ وهي كلُّ أَمْرٍ خارِقٍ للعادة يُجريه الله عزَّ وجلَّ على يدِ أحدِ أوليائه؛ تكريمًا له، وشهادةً بصِدْق الشَّريعة التي كان عليها؛ ولهذا قيل: كل كرامة لِوليٍّ، فهي آية للنبيِّ الذي اتَّبَعه[٣].

١٨- أنَّ التَّوسُّل إلى الله برُبوبيَّته من آداب الدُّعاء التي يَتوسَّل بها الرُّسُلُ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ﴾؛ لأنَّ إجابةَ الدعاء من مُقتضيات الرُّبوبيَّة[٤].

١٩- أنَّه لا حَرَج على الإنسان أنْ يَطلُب ما يزداد به يقينُه، لقوله تعالى: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾؛ لأنَّه إذا رأى بعينه ازداد يقينُه[٥].

٢٠- إثبات الكلام لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً...﴾؛ والله سبحانه وتعالى يتكلَّم بما شاء، متى شاء، كيف شاء،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠٣).

بما شاء: مِن القولِ، متى شاء: في الزَّمن، كيف شاء: في الكيفيَّة[١].

٢١- جوازُ الاقتِصار في الجواب على الحرف الدَّالِّ عليه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَى﴾؛ وعليه فلو قيل للرجل: أَلَمْ تُطلِّق زوجتَك؟ فقال: (بَلَى)، طلقتْ، ولو قيل للرجل عند عَقْد النِّكاح: أَقبِلتَ النِّكاحَ، وقال: (نعم)، انعَقَد النِّكاحُ؛ لأنَّ حرف الجوابِ يُغني عن ذِكْر الجُمْلة[٢].

٢٢- امتِنان الله على العبدِ بما يَزداد به إيمانُه؛ لقوله تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ....﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾[٣].

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

- **في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾**: همزةُ الاستفهامِ لإنكارِ النَّفي، وتقريرِ المنفيِّ، أي: أَلَمْ تَنظُرْ، أو ألم يَنتهِ عِلمُك إلى هذا الطَّاغوت المارِدِ كيف تصدَّى لإضلال النَّاس وإخراجهم من النُّور إلى الظُّلمات؟[٤]، وبلاغة القرآن الكريم في عَرْض الأمور العجيبة مَعرِض التَّقرير والاستفهام؛ لأنَّ (التَّقرير) يَحمِل المُخاطَبَ على الإقرار؛ و(الاستفهام) يُثير اهتمامَ الإنسان؛ فجمع بين الاستفهام والتَّقرير[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥١)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨١).

- النُّكتةُ في الإظهار مقام الإضمار في قوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾؛ لأجل أنْ نقول: كلُّ مَن جادَل كما جادَل هذا الرَّجل فهو كافر، ففيها إثباتُ أنَّ مَن جَحَد الله فهو كافر[١].

- **قوله:** ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه إطناب بالتذييل؛ لتقرير مضمون ما قبله، أي: لا يَهدي الذين ظَلموا أنفسَهم بتعريضِها للعذابِ المُخلَّد؛ بسبب إعراضِهم عن قَبُول الهداية إلى مناهج الاستدلالِ، أو إلى سبيل النَّجاةِ أو إلى طريق الجنَّةِ يوم القيامة[٢]. وفيه توكيدُ الخبر باسميَّة الجملة، والنفي، وإظهارُ لفظة الجلالة (وَاللهُ)؛ لتربية المهابَة[٣].

٢- **قوله:** ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ فيه من بَلاغَة القرآن تنويعُ الأدلَّة، والبراهين على الأمور العظيمة؛ فهذه الآية وما قبلها وما بعدها، كلُّها في سِياق قُدرة الله عزَّ وجلَّ على إحياء الموتى[٤].

٣- **في قوله:** ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أَوْجُه بلاغيَّة؛ منها:

- الاستفهام في ﴿أَنَّى﴾؛ للتَّعجُّب، والاستبعادِ، والاستِعظامِ[٥].

- وفيه تقديم المفعول (هذه) على الفاعل (اللهُ)؛ للاعتناء بها من حيثُ إنَّ الاستبعاد ناشئٌ مِن جِهتِها، لا مِن جِهة الفاعلِ[٦].

- وفيه طِباق بين الإحياء والإماتة[٧]، وهو يُبرز المعنى ويوضِّحه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٩٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٣).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٤- قوله: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عبَّر بصيغةِ المضارعِ (أَعلَمُ)؛ للدَّلالة على أنَّ عِلمَه بذلك مستمِرٌّ ومُتجَدِّد؛ نظرًا إلى أنَّ أصْلَه لم يَتغيَّرْ ولم يتبدَّل، بل إنَّما تَبدَّل بالعِيان وصفُه، إشعارًا بأنَّه إنما قال ما قال بِناءً على الاستبعاد العادي، واستِعْظامًا للأمر[١].

٥- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ... وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾

﴿رَبِّ﴾: كلمة استعطافٍ قُدِّمت بين يدي الدُّعاء مُبالغةً في استِدعاء الإجابةِ[٢].

- ﴿أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: فيه توكيدُ الخبرِ بأنَّ، واسميَّة الجملة، والتَّعبير بصِيغة فَعيل ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ للمُبالَغة في الوصف[٣].

- وفي هذه الآية إيجازٌ بالحذْف، حيث حذَف تتمَّة القصَّة، وحَكَى سبحانه أوامرَه، ولم يَتعرَّض لامتثالِ إبراهيم عليه السَّلام لها؛ لأنَّ ذلك مُدرَكٌ بالبَداهة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٤٧-٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٠٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٤٨).

الآيات (٢٦١- ٢٦٥)

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾.

غريب الكلمات:

﴿أَذًى﴾: ما يُكره ويُغتمُّ به، ولا يُقَرُّ عليه[1].

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: سَترٌ لخَلَّة المسلم وفاقته، وترْك أذيَّته؛ فأصْل الغَفْر: السَّتر، والوقاية[2].

﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾: مراءاةً للناس، أي: فِعل الشَّيء ليراه الناس، وأصْله من الرُّؤية[3].

﴿صَفْوَانٍ﴾: كالصَّفا حَجَر أَمْلس، وهو اسمُ واحدٍ معناه جمعٌ، واحدتُه صَفوانة؛

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٥).

وأصل الصَّفاء: خُلُوص الشَّيء من الشَّوب، ومنه قيل: الصَّفا، للحجارة الصافية[١].

﴿وَابِلٌ﴾: المطر الثَّقيل، أو المطر الشَّديد[٢].

﴿صَلْدًا﴾: صلبًا يابسًا أملسَ، وهو الحجر الصُّلب الذي لا يُنبِت؛ فأصْل الصَّلد: الصَّلابة واليُبْس[٣].

﴿رَبْوَةٍ﴾: المكان المرتفِع من الأرض، وأصْل الرَّبو: العُلُوُّ والزِّيادة والنَّماء[٤].

﴿فَطَلٌّ﴾: الطَّلُّ: أضعفُ المَطر، وأصْل الطلِّ: غَضاضةُ الشَّيء، وحُسْنه ونَضْرته؛ سُمِّي أضعفُ المَطَر به؛ لأنَّه يُحسِّن الأرضَ[٥].

المعنى الإجمالي:

يَضرِب اللهُ المَثَلَ في مضاعفة الحسنات للمُنفِقين في أوجه الخير، بمن بذَر بَذْرةً في أرض طيِّبة، فأَخرجتِ الحبَّةُ سَبْعَ سَنابلَ، في السُّنبلةِ الواحِدة مِئةُ حبَّة، فكان أنْ تَضاعفتِ الحبَّةُ إلى سَبْعمِئة حبَّة، والله يُضاعِف لمن يشاء؛ لأنَّه واسعُ الفَضْل، عليمٌ بمن يَستحِقُّ المضاعفة ممن لا يَستَحِقُّها، ثم يُبيِّن الله تعالى أنَّ الذين يَبذُلون

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٧- ٤٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠٦) و(٤/ ٤٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

أموالَهم في أوجهِ الخيرِ ومرادهم رضا الله تعالى، ثم لا يُلحِقون ما بذَلوه منًّا على مَن أنفقوا عليهم ولا أذًى، فهؤلاء لهم أجرَهم عند الله، ولهم كذلك ألَّا يخافوا فيما يُستقبَل ولا يحزنون على ما مضى.

ثم يُخبِر تعالى أنَّ ردَّ السَّائل بالقول الحَسَن، والدعاء الطَّيِّب له، وغير ذلك من الأقوال التي تُدخِل السُّرورَ على قلبه، وكذلك سَتْر حالته بالمسامحة، والتَّغاضي عمَّا قد يَصدُر من السائل ممَّا لا ينبغي أنْ يَصدُر منه، أفضل مَن أنْ يُقدِّم له صدقةً مصحوبة بالأذِيَّة والإساءة، والله سبحانه غنيٌّ، وهو حليمٌ لا يُعاجِل بالعقوبة مع قُدْرته عليه.

ثم يَنهَى اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين أن يُحبِطوا أجرَ ما بذلوه من صدقاتٍ إذا صدر منهم منٌّ أو أذًى نحو المتصدَّق عليه، فتُشْبِه حالُهم حينها حالَ المُنافِق الذي يُنفِق مالَه من أجْل أن يرى النَّاسُ صنيعَه؛ ليُثْنوا عليه بذلك، وهم لا يعرفون حقيقةَ الأمر، وهو أنَّه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخِر، فلا يَطمَع في الحصول على ثوابٍ جزاءً لعَمَله، فقَلْب هذا المُنافِق في صَلابته وقسوته، وعدم انتفاعه بما يُنفِقه- لعدم إيمانه، وانتفاء إخلاصه- يُشْبِه الحجرَ الأملس يَعْلوه ترابٌ، يَحسَب مَن رآه أنه صالحٌ للإنبات، فيُصيبه مطرٌ غزيرٌ فيذهب بما على الحجر من التراب، فيَتركه صُلبًا كما كان من قبلُ، لا أمل في إنباته، والله تعالى لا يُوفِّق الكافرين لقَبُول الحقِّ.

ثمَّ ضرَب الله سبحانه مثلًا لمَن يَبذُلون أموالَهم في وجوه البِرِّ والخير دون منٍّ أو أذًى، وإنَّما مقصودهم أنْ ينالوا مرضاةَ الله تعالى، وقد بذَلوا أموالَهم مِن تلقاء أنفسهم، ولم يَحمِلهم على ذلك أحدٌ، أو أنفقوا وهم مُوقِنون بوعد الله تعالى على إثابته للمُنفِقين، فمَثَل نفقةِ هؤلاء كبُستانٍ كثير الشَّجر والظِّلال، بمكانٍ مرتفع من الأرض، فكان أكثرَ خُصوبةً، وأفضل نِتاجًا، وسَقْيه إنما هو من السَّماء، فإمَّا أنْ يُصيبه مطرٌ غزيرٌ، فيتضاعَف ما يُنتِجه من ثمر، أو يُصيبه مطرٌ خفيف، فيكفيه

أيضًا ليؤتي ثمارَه مضاعفةً؛ بسبب كَرَم المَنْبتِ، وطيب المَغْرس، وكذا الحال مع نفقة المؤمن؛ فإنَّ الله يُضاعِفها قلَّتْ أو كَثرتْ، ما دام أنها بُذِلتِ ابتغاءَ رِضوان الله، والله تعالى يرى كلَّ ما يعمله النَّاسُ، لا يَخْفى عليه شيءٌ من أعمالهم.

تفسير الآيات:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر قصَّة المارِّ على قرية وقصَّة إبراهيم، وكانا مِن أدلِّ دليل على البَعْث، ذكَر ما ينتفع به يوم البعث، وما يجد جدواه هناك، وهو الإنفاق في سبيله، كما أَعقَب قصَّة الذين خرجوا مِن ديارهم وهم أُلُوفٌ حَذَرَ الموت بقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، وكما أَعقَب قَتْلَ داود عليه السَّلامُ جالوتَ، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾، فكذلك أَعقَب هنا ذِكْر الإحياء والإماتة بذِكْر النَّفقة في سبيله؛ لأنَّ ثمرة النفقة في سبيله إنما تَظهر حقيقةً يومَ البَعْث: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، واستدعاء النَّفقة في سبيل الله مُذكِّرٌ بالبَعْث؛ لأنَّه لو لم يعتقد وجوده، لَمَا كان يُنفَق في سبيل الله[١].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ﴾.

أي: شبَّه الله سبحانه في هذا المَثَل المنفِقَ بالبَاذِر، والنَّفقةَ في سبيله بالبَذْرة؛ فإنَّ مَن يُنفِق في أوجه الخير والبِرِّ ابتغاءَ مَرْضات الله تعالى- ومن ذلك النَّفقة في الجهاد في سبيله- كالذي غيَّب في أرضٍ طيِّبة زكيَّة بَذرةً صالحةً للنُّمو، فأخرجتْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٥٢).

سَبْع سنابل، وقد اشتملت كلُّ واحدة منها على مِئة حَبَّة، فكانت النتيجة سبعَمِئة حبَّة، خرجت من حبَّة واحدة، فكذلك النَّفقة الطَّيِّبة يُنمِّيها الله عزَّ وجلَّ لبَاذِلها، ويُضاعِف له أجرَها سبعمِئة مرَّة[١].

عن عُقْبة بن عمرٍو رضي الله عنه، قال: (جاء رَجلٌ بناقةٍ مَخطُومة، فقال: هذه في سبيل اللهِ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((لك بها يومَ القيامةِ سَبعُمئةِ ناقةٍ، كلُّها مَخطومة[٢]))[٣].

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((كلُّ عملِ ابنِ آدمَ يُضاعَفُ؛ الحسنةُ عشرُ أمثالها إلى سبعمئةِ ضِعفٍ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: إلَّا الصَّومَ؛ فإنَّهُ لي، وأنا أَجزي بهِ...)) الحديث[٤].

﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يُضاعِف هذه المضاعفةَ إلى السَّبعمئة، أو إلى أكثرَ من ذلك، بحسَب مشيئته، وذلك وَفْق ما تَقتضيه حِكمتُه، فإنَّ المنفِقين يتفاوتون إيمانًا وإخلاصًا لله تعالى، وتتفاوت نفقاتُهم كذلك بحسَب حِلِّها ونَفْعها، وشدَّة الحاجة إليها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٥١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير (١/ ٦٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ١١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) **مخطومة**: أي: فيها خِطام، وهو قريب من الزمام، وخِطام البعير أن يُؤخَذ حبل من ليف أو شَعر أو كَتَّان، فيُجعل في أحد طرفيه حلقةٌ ثم يشدُّ فيه الطَّرف الآخر حتى يصيرَ كالحلقة، ثم يُقاد البعير ثم يثنى على مخطمه. وأمَّا الذي يُجعل في الأنف دقيقًا، فهو الزمام. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣ / ٣٨)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢ / ١٢٠).

(٣) رواه مسلم (١٨٩٢).

(٤) رواه مسلم (١١٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٥٣، ٦٥٤)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣، ٩٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠٩).

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ كتب الحسناتِ والسيِّئاتِ، ثُمَّ بيَّنَ ذلِكَ، فمَنْ هَمَّ بحَسنةٍ فلمْ يَعملْها، كَتبَها اللهُ عندَهُ حسَنَةً كامِلَةً، وإنْ همَّ بِها فعَمِلَها كتَبها اللهُ عزَّ وجلَّ عندَه عشرَ حسنَاتٍ إلى سَبعِمِئَةِ ضعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرَةٍ، وإنْ همَّ بسيِّئَةٍ فلمْ يَعملْها، كَتبَها اللهُ عندَهَ حسَنَةً كامِلَةً، وإنْ هَمَّ بِها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللهُ سيئَةً واحِدَةً، وفِي روايَةٍ وزادَ: ومَحاها اللهُ، ولَا يَهْلِكُ علَى اللهِ إلَّا هالِكٌ))[1].

﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى واسعُ الفضل والعطاء؛ ولذا يُضاعِف لمن يشاء هذه المضاعفة أو يَزيد عليها، فلا يَستبعِدنَّ أحدٌ ذلك الأجرَ الكريمَ، أو يتوهَّم أنَّ فيه مُبالَغةً؛ فإنَّ الله تعالى لا يَتعاظمه شيءٌ، ولا يَنقُصه العطاءُ مهما عَظُم، ولكن لا ينبغي أن يُظَنَّ أنَّ سَعَة عطائه سبحانه تقتضي حصولَ تلك الأجور لكلِّ مُنفِق؛ فإنَّه عليمٌ بمن هو أهلٌ لهذا الأجر، ومَن لا يَستَحِقُّه، فإنَّ سَعَة كَرَمه تعالى لا تُناقِض حِكمتَه، بل يَضعُ فضلَه مواضعَه[2].

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا عَظَّم أمرَ الإنفاق في سبيل الله، ورتَّب عليه الثواب المضاعف، أَتْبعه ببيان الأمور التي يجب تحصيلُها حتى يبقَى ذلك الثوابُ، ومنها تَرْكُ المنِّ والأذى[3]، فقال:

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٥٤)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٤٠).

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾.

أي: إنَّ الذي يَبذُل أموالَه في أوجه الخير، ابتغاءَ مرضاة الله تعالى، ثم لا يَمتنُّ على مَن أَنفَق عليه، سواء بقلبه، أو بلسانه كأنْ يُخبِره بأنَّه تفضَّل عليه بمنحه شيئًا، وأنَّه مَدين له لِقاء معروفه، ولا يقول أو يفعل أيضًا مكروهًا للمُنفَق عليه يُنافي ما قدَّمه له من إحسان، فذلك محظورٌ لِمَا فيه من تَكبُّر المُنفِق واستعلائه، واستعباد المُنفَق عليه، وكسْر قلبِه وإذلاله، بل على المُعطي في سبيل الله تعالى أنْ يشهد دائمًا أنَّ المتفضِّل والمُنعِم حقيقةً هو الله تعالى وحده، وعليه أنْ يتفكَّر أيضًا في أنَّ أجْره على الله تعالى بأضعافِ ما أَعطى، فأيُّ حقٍّ بقي له على الآخذ المُحتاج حتى يَمتنَّ عليه، أو يؤذيه بصنائع معروفه[1]؟

عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهم اللهُ يومَ القِيامةِ: المَنَّان الذي لا يُعطي شيئًا إلَّا مِنَّةً، والمُنَفِّق سِلْعتَه بالحَلِف الفاجِر، والمُسبِل إزارَه)). وفي روايةٍ: ((ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهم اللهُ، ولا يَنظُر إليهم، ولا يُزَكِّيهم ولهم عذابٌ أليمٌ))[2].

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الذين يُنفِقون أموالَهم في سبيل الله تعالى بلا منٍّ ولا أذًى، يَستحِقُّون- وحْدَهم دون غيرهم من المنفقين- ثوابًا وجزاءً من الله تعالى وحده، قد تَكفَّل به الكريم مُقابِلَ صنيعهم هذا، فهو مُوفِّيه إيَّاهم لا محالة، ولهم مع ذلك أيضًا ألَّا يَخافوا من المستقبل ومِن ذلك، عدَم خوفهم عند مَقدَمهم على الله تعالى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٥٥)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣١٣).

(٢) رواه مسلم (١٠٦).

حين فِراقِهم للدُّنيا، ولا في أهوال القيامة، فلا يَنالُهم فيها مكروهٌ، ولا يُصيبهم فيها عقابٌ، ولا يحزنون أيضًا على ما مضى، ومن ذلك ما يُخلِّفونه وراءهم في الدنيا من أموالٍ وبنينَ عَقِب موتهم؛ لأنَّهم قد صاروا إلى ما هو خيرٌ لهم من ذلك، فحصَلتْ لهم بذلك الخيراتُ، واندفعت عنهم الشرورُ والسيئات[1].

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)﴾.

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾.

أي: إنَّ تقديم الإحسان للسَّائلِ حاجةً، عَبْر إسدائه قولًا معروفًا تَعرِفه القلوبُ ولا تُنكِره، بردِّه بالقول الجميل والدُّعاء الطَّيِّب له، وغير ذلك ممَّا يُدخِل السُّرورَ على قلبه، أو تقديم الإحسانِ إليه بسَتْر سوء حالته، أو بمسامحته وتَجاوُزِه عمَّا لا ينبغي أنْ يَصدُر من السائل من قول أو فِعْل، كما لو وجَد منه بعضَ الجَفوةِ أو الغِلْظة بسبب ردِّه، وعدم تلبية حاجته، فالقول المعروف والمغفرة أفضلُ مُطلَقًا من تقديم يدِ العون للمحتاج، بمساعدةٍ مصحوبة بأذِيَّته والإساءة إليه[2].

﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

لَمَّا تناولت الآياتُ قبلها الإنفاقَ والحثَّ عليه، وبيانَ ما يُجتنب فيه من المنِّ وإتْباعه بالأذى، ختَم الله تعالى هذه الآيةَ بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾؛ لأنَّ الله غنيٌّ عن هذه الصَّدقات، فضلًا عن التي فيها منٌّ أو أذًى، ولكمال غِناه يخلِف هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٥٧)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣١٣-٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٥٧-٦٥٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣١٦).

الإنفاق، وحليمٌ على مَن عصَى بالمنِّ بالصدقة؛ فهي من كبائر الذُّنوب[١]؛ لذا قال:

﴿وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى غنيٌّ عن خَلْقه، وعمَّا يتصدَّقون به؛ فلن يَنالَه شيءٌ من صدقاتِهم، وإنما نفْعُها عائدٌ عليهم؛ فكيف يمنُّ أحدٌ بصدقته، ويؤذِي بها عبادَ الله تعالى، مع غِنى الله تعالى عنها؟ وهو مع هذا حليمٌ سبحانه، لا يُعاجِلُ هذا المانَّ بالعقوبة مع قُدْرته على ذلك، بل يعفو عنه ويَصفَح، أو يُمهِله ليتوب إليه[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا شرَط في الإنفاق أنْ لا يُتْبَع بمنٍّ ولا أذًى، لم يَكتفِ بذلك حتى جعَل المنَّ والأذى مُبطِلًا للصَّدقة، ونهى عن الإبطال بهما؛ ليُقوِّي اجتنابَ المؤمن لهما؛ ولذلك ناداهم بوصْف الإيمان، ولَمَّا جرى ذِكْر المنِّ والأذى مرَّتين، أعادهما هنا بالألف واللام[٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة-البقرة)) (٣/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٥٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣١٦، ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٦٢).

أي: يُحذِّر اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين، من حُبُوط أجرِ ما يَبذُلونه صدقةً في سبيله سبحانه، إنْ صدَر منهم منٌّ أو أذًى على آخِذ الصَّدقة، فيكون حالُهم حينئذٍ موافِقًا لحال المنافِق الذي يَبذُل مالَه لأجل الله تعالى في ظاهرِ الأمر، بينما ينوي في باطِنِه أن يُرِيَ النَّاسَ صَنيعَه؛ ليَحمَدوه ويُثْنوا به عليه، وهم لا يُدركِون في واقع الأمر، حقيقةَ أنَّه لا يؤمن بالله تعالى ولا بالآخرة، فلا يَطمَع في نيل ما فيها من ثواب لِقاء ما يُقدِّمه في الدنيا من معروف[1].

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾.

أي: إنَّ قلب هذا المنافق الذي يُنفق مالَه رياءً، غيرَ مؤمن بالله ولا باليوم الآخِر، حالُه في صلابته وشِدَّته، وعدم الانتفاع به- لعدم إيمانه وإخلاصِه لله تعالى- تُشبِهُ حالَ حجر أملس، ونفقة هذا المنافق تُشبه ترابًا يعلو هذا الحجرَ، فهو مستندٌ إليه، يَظنُّ مَن يراه أنه أرضٌ طيِّبة صالحة للإنبات، مثلما يظنُّ مَن يشاهد ظاهرَ حال المنافق أنَّ صدقته مبنيَّة على أساس من الإيمان والإخلاص لله عزَّ وجلَّ، فتُثمر له حسناتٍ، وشبَّه الله تعالى تعرُّض التراب لمطرٍ غزيرٍ شديد الوقع، بالمانع الذي أبطل صدقتَه، وذهب بأثرها تمامًا. وكما أصبح الحجر في نهاية الأمر، صلبًا كما عُهِد من قبلُ، وخاليًا لا شيءَ عليه من ترابٍ، ولم يبقَ أملٌ في إنبات نبات، فكذلك صدقات هذا المنافِق تَذهب هباءً، لا تُثمر شيئًا من الحسنات وزيادة الإيمان؛ لأنَّه لا أصل لها تُؤسَّس عليه، ولا لها مقصدٌ طيِّب تنتهي إليه، فكل ما قدَّمه مضمحل.

فإذا كان يومُ القيامة، وجاء وقتُ حصاد الزَّرع وتلقِّي أجور العاملين، وظنُّوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٥٨-٦٥٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٧-٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣١٨-٣٢٠).

أنهم سيَنتفعون بما قدَّموه، لم يجدوا شيئًا يحصدُونه، ولا أجرًا يتلقَّوْنه، فقد اضمحلَّ ما قدَّموه كلُّه؛ لأنَّه لم يكُن لله تعالى، فلا تكونوا- أيُّها المؤمنون- كهؤلاء المنافقين، فتُبطلوا أجورَ صدقاتكم بمنِّكم وأذاكم على مَن تصدَّقتم عليه[١].

﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُوفِّق الكفارَ لقَبُول الحقِّ وإصابته في نَفَقاتهم وغيرها؛ فلأنَّهم للباطل مُؤثِرون، تَركَهم في ضلالتهم يَعمَهون، قد انصَرفوا عن طريق الحقِّ إلى طُرُق الغواية، فصرَف الله عزَّ وجلَّ قلوبَهم عن الهداية[٢].

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى مَثَلَ المنفِق الذي يكون مانًّا ومؤذيًا؛ ذكَر مَثَلَ المُنفِق الذي لا يكون كذلك[٣]، فقال:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

أي: ضرب الله تعالى مثلًا لصِنفٍ آخرَ من المنفِقين، وهم الذين يُنفِقون أموالَهم صدقةً في أوجه الخير والبِرِّ التي يُحبُّها الله تعالى، كالجهاد في سبيله؛ دون منٍّ أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٦٠-٦٦٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٦٧-٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣، ٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢٠-٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٤٨).

أذًى، وإنَّما طلبًا لنيل رِضوان الله عزَّ وجلَّ، وقد أَقدَموا صادِقين على البذل من جِهة أنفسهم، لم يَحمِلهم أحدٌ على القيام بذلك، فأنفقوا بعزائمَ قويَّة، مُتحقِّقين ومُوقِنين بوعد الله تعالى على إثابته المنفقين، فلا يَتقاعَسون أو يتردَّدون في الإنفاق، ولا يَشُكُّون بوعْد الله سبحانه على الثَّواب[1].

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾.

أي: إنَّ نفقة أولئك المنفقين المخلِصين الصادقين، المصدِّقين بوعد ربِّ العالمين، تُشْبِه بُستانًا غزيرَ الأشجار والظِّلال، تُغطِّي ما فيه من كَثْرتها، وهو على مكانٍ مُرتفِع من الأرض فكان خصيبًا جدًّا؛ لأنَّه لَمَّا ارتَفع عن مجرى المسايل والأودية كانتْ أرضه أغلظَ، فكان أحسنَ وأزكى ثمرًا وغرسًا وزرعًا، كما أنَّه بارتفاعه يكون مُعرَّضًا أكثرَ للأهوية والرياح، وبائنًا للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها، فيكون أنضج ثمرًا وأطيبه وأحسنه وأكثره كذلك، وسَقْيه إنَّما يأتي من السَّماء، فإمَّا أنْ يتعرَّض لمطرٍ غزير، فيتضاعف إنتاجُ ثمرِه مرَّتين، الأصل ومثله معه، أو يُصيبه مطرٌ خفيف، كالرَّذاذ، فإنَّه يَكفيه ليُؤتي ثمارَه مضاعفةً؛ بسبب كَرَم مَنْبته وطِيب مَغرَسه، فهذه الجنَّة لا يُعدَم منها حصولُ الخير بحالٍ من الأحوال.

فكذلك المؤمن المنفِق يُضاعِفُ الله تعالى صدقتَه قلَّت أو كَثُرت، فلا تَبور أبدًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢١).

قال ابن القيِّم: (هذا مَثَل الذي مصدر نفقته على الإخلاص والصدق؛ فإنَّ ابتغاءَ مرضاته سبحانه هو الإخلاص، والتثبيت من النفس هو الصِّدق في البذل، فإنَّ المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان، إنْ نجا منهما كان مَثَله ما ذكَره في هذه الآية: إحداهما: طلبُه بنفقته مَحمدةً أو ثناءً، أو غرضًا من أغراضه الدنيوية، وهذا حال أكثرُ المنفقين. والآفة الثانية: ضَعْف نفْسه بالبذل وتقاعُسها وتردُّدها؛ هل يفعل أم لا؟ فالآفة الأولى تزولُ بابتغاءِ مرضاة الله، والآفة الثانية تزولُ بالتثبيت؛ فإنَّ تثبيت النفس تَشجيعُها وتقويتها، والإقدام بها على البذل) ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: ٣٦٩).

فإذا كان قصدُه مرضاة الله عزَّ وجلَّ والتثبيت من نفسه، فهي زاكيةٌ عند الله تعالى، ونامية في جميع الأحوال[١].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ ما تَعمَلونه- أيُّها النَّاس- من الإنفاق وغيره، هو بمَرْأًى مِن الله تعالى، لا يَخْفى عليه، فإنَّه يرى ويعلم مَن المُنفِق منكم بالمنِّ والأذى، ومَن المُنفِق ابتغاءَ مرضاة الله، وتثبيتًا من نفسه، فيُحصي عليكم ذلك وغيرَه من أعمالكم، حتى يُجازيكم عليها، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر[٢].

الفوائِد التربويَّة:

١- الإشارة إلى ضرورة الإخلاص لله في العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وأن يَقصِدوا بعِمَلهم وجهَ الله عزَّ وجلَّ[٣].

٢- أنَّ ثوابَ الله، وفضْلَه أكثرُ من عَمَلِ العاملِ؛ لأنَّه لو عُومِل العاملُ بالعدل لكانت الحسنة بمِثْلها، لكنَّ الله يُعامِله بالفضل والزِّيادة، فتكون الحبَّة الواحدة سبعمئة حبَّة، بل أَزيدَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٤]، ممَّا يَزيد رجاءَ العبدِ في ربِّه.

٣- الحثُّ والتَّرغيب في الإنفاق في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٧٢-٦٧٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٩-٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣١١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣١٢).

٤- أنَّ مَن أَتْبَع نفقتَه منًّا أو أذًى، فإنَّه لا أجْرَ له؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ فإذا أَتْبَع منًّا، أو أذى بطَل أجرُه، كما هو صريحُ قولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾[١].

٥- لقَبُول الصَّدقة شروطٌ سابقة، ومُبطِلاتٌ لاحِقة؛ أمَّا الشُّروط السابقة: فالإخلاص لله تعالى، والمتابَعة، وأمَّا المبطِلات اللَّاحقة: فالمنُّ، والأذى[٢].

٦- في قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ﴾، حثٌّ على المغفرة لمَن أساء إليكَ؛ إلا إذا كانت المغفرة تؤدي إلى مفسدةٍ معتبَرة أو كانت راجحةً على مصلحة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [الشورى: ٤٠][٣].

٧- أنَّ الأعمال الصَّالحة تَتفاضَل، ويَلزَم مِن تَفاضُلها تَفاضُلُ العاملِ، وزيادة الإيمان، أو نُقْصانه؛ كما في قوله: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ...﴾[٤].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، دلالةٌ على أنَّ الواجب أن نَقصِد بأعمالنا أمرين: أولهما: ابتغاء رِضوانه لذاته تعبُّدًا له، وثانيهما: تزكية أنفسنا وتطهيرها من الشَّوائب التي تَعُوقها عن الكمال، كالبخل والمُبالَغة في حبِّ المال، على أنَّ هذا وسيلة لذاك، وفائدة كلٍّ من الأمرين عائدةٌ علينا، والله غنيٌّ عن العالَمين[٥].

٩- أنَّ المنَّ والأذى بالصَّدقة مُنافٍ لكمال الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٥٧).

آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾، كأنَّه يقول: (إنَّ مقتضى إيمانِكم ألَّا تفعلوا ذلك؛ وإذا فعلتُموه صار مُنافيًا لهذا الوَصْف، ومنافيًا لكماله)[١].

١٠- أنَّ مَن راءى النَّاس بإنفاقه، ففي إيمانه بالله وباليوم الآخر نَقْص؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[٢].

١١- بيان ما للنيَّة من تأثير في قَبُول الأعمال واشتراط الإخلاص؛ لقوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾[٣].

١٢- بيان أنَّ تثبيتَ الإنسان لنفسه عند الصدقة ولعَمَلِه، واطمئنانه به من أسباب قَبُوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ لأنَّ الإنسان الذي لا يعمل إلَّا كارهًا فيه خَصْلة من خِصال المنافقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[٤][التوبة: ٥٤].

١٣- فضْلُ الإنفاق على وجه التثبيت من النَّفْس؛ لأنَّه يَندفِع بدافع نفسي؛ لا بتوصية من غيره، أو نصيحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[٥].

الفوائد العلمية واللَّطائف:

١- ضَرْب الأمثال؛ لأنَّ ذلك أقربُ إلى الفَهْم كما في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ...﴾، وقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ...﴾[٦].

٢- الإشارةُ إلى اشتراط مُوافَقة العمل للشَّرع؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٢٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٠٩، ٣٢٢).

لأنَّ ﴿فِي﴾ للظَّرفيَّة، والسبيل: بمعنى الطريق، وطريق الله: شَرْعه؛ والمعنى: أنَّ هذا الإنفاق لا يَخرُج عن شريعةِ الله؛ والإنفاق الذي يكون مُوافِقًا للشَّرع هو ما ذَكَره بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[1] [الفرقان: ٦٧].

٣- إثبات المِلكيَّة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾؛ فإنَّ الإضافة هنا تُفيد المَلكيَّة[2].

٤- إثبات الصِّفات الفعليَّة- التي تتعلَّق بمشيئة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿يُضَاعِفُ﴾؛ و(المُضَاعَفَةُ) فِعْل[3].

٥- أنَّ الله له السُّلطانُ المطلَق في خَلْقه؛ ولا أحد يَعترِض عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[4].

٦- إنَّما كان المنُّ بالصَّدقة مُفسِدًا لها؛ لأنَّ المِنَّةَ لله تعالى وحده، والإحسانُ كلُّه لله، فالعبد لا يَمُنُّ بنعمة الله وإحسانه وفضْله وهو ليس منه، وأيضًا فإنَّ المانَّ مستعبِدٌ لمن يمنُّ عليه، والذُّل والاستعباد لا ينبغي إلَّا لله عزَّ وجلَّ[5].

٧- قوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾: خصَّ الصَّدقةَ بالنِّهي إذ كان المنُّ فيها أعظمَ وأشنعَ[6].

٨- إثباتُ كون القياس دليلًا صحيحًا؛ وَجْه ذلك: التمثيل، والتَّشْبيه؛ فكل تمثيل في القرآن فإنَّه دليل على القياس؛ لأنَّ المقصود به نَقْل حُكْم هذا المُشبَّه به إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣١٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣١١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٦٢).

المُشبَّه، وهذه قاعدة[١].

٩- الإشارة إلى تَحسُّر الذين يُنفِقون أموالَهم رياءً عند احتياجهم إلى العمل، وعَجْزهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾؛ وعجز الإنسانِ عن الشيء بعد محاولة القُدْرة عليه- أشدُّ حسرةً من عَدَمه بالكليَّة[٢].

١٠- أنَّ المنافق كافِر؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٣].

١١- أنَّه لا إنفاقَ نافع إلَّا ما كان مملوكًا للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾؛ فلو أَنْفَق مالَ غيره لم يُقْبَل منه إلا أن يكون بإذن من الشَّارع، أو المالك[٤].

١٢- أنَّ الإنفاق لا يُفيد إلَّا إذا كان على وَفْق الشَّريعة؛ لقوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ﴾[٥].

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

- في هذا التمثيل تصويرٌ للأضعاف كأنَّها حاضرةٌ بين يدَي الناظر[٦].

- وفي الآية من محاسن البلاغة: الإيجازُ بالحَذْف على طريقة الاحتِباك، حيث حذَف من كلِّ جُملةٍ ما دلَّ عليه في الجملة الأخرى، والتَّقدير: مَثَل الذين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢٣، ٣٢٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٢٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٢٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٢٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١٠-٣١١)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٥٧-١٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٧).

يُنفِقون ونفقتهم كمَثَل حبَّة وزارِعها، فذِكْر المنفِق أولًا دليلٌ على حذْف الزارع ثانيًا، وذِكْر الحَبَّة ثانيًا دليلٌ على حذْف النَّفقة أولًا[١].

- وهذا المثَل يتضمَّن التَّحريض على الإنفاق في سبيل الله، وشبَّه الإنفاق بالزَّرع؛ لأنَّ الزَّرع لا يَنقطِع[٢].

- وفيها حذفٌ إمَّا من جانب المشبَّه أو المشبَّه به؛ لتحصيل المناسَبة، أي: وتلك الحبَّة أُلقيتْ في الأرض، ثم أَنْبتتْ سَبْعَ سنابل، ﴿فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ﴾، أي: أنبتتْ ساقًا انشعب سَبْعَ شُعَبٍ، خرج من كلِّ شُعْبة سُنبلةٌ فيها مئة حبَّة، فصارت الحبَّة سبعَمئة حبَّة بمضاعفة الله لها، وهذا المَثَل أبلغُ في النفوس من ذِكْر عدد السَّبعمئة؛ فإنَّ هذا فيه إشارة إلى أنَّ الأعمال الصَّالحة يُنمِّيها الله عزَّ وجلَّ لأصحابها كما يُنمِّي الزَّرعَ لَمن بَذَره في الأرض الطَّيِّبة[٣].

- وحذَف ذلك كلَّه إيجازًا؛ لظهور أنَّ الحبَّة لا تُنْبِت ذلك إلَّا كذلك، فهو مَن تشبيه المعقول بالمحسوس، والمشبَّه به هيئة معلومة، وجعَل أصلَ التمثيل في التضعيف حبَّة؛ لأنَّ تضعيفها مِن ذاتها لا بشيء يُزاد عليها، وحَسُن ذِكْر المضاعفة في حسنة الإنفاق في سبيل الله بأنْ يكونَ سبعمئة؛ لأنَّ المُضاعَفة تُنسَب إلى أصلٍ واحد[٤].

٢- قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١٠- ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٧٥-٧٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٧٨-٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠١-٢٠٢)

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٤١)

- قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ جُمْلة مُستأنِفة؛ جيء بها لبيان كيفيَّة الإنفاق الذي بيَّن فضْلَه بالتَّمثيل المذكور[١]، وأعاد ﴿الَّذِينَ﴾؛ إظهارًا للاهتمام بهذه الصِّلة[٢].

- قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا﴾ عبَّر بـ﴿ثُمَّ﴾[٣]؛ لإظهار التفاوت بين الإنفاق وبين ترْك المنِّ والأذى، ولإظهار عُلُوِّ رُتْبة المعطوف[٤]. ويحْتَمَل أنْ تكون ﴿ثُمَّ﴾ للدَّلالة على دوام الفِعل المعطوف بها، وإرخاء الطول في استصحابِه[٥].

- ﴿مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ إنَّما قدَّم المنَّ لكَثْرة وقوعه، وتوسيط كلمة ﴿لَا﴾؛ للدَّلالة على شُمول النَّفي؛ لإتْبَاع كلِّ واحد منهما[٦].

- في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أُخرج المبتدأ والخبر فيهما مَخرَج الشيء الثَّابت المُستَقِر الذي لا يكاد خبرُه يحتاج إلى تعليقِ استحقاقٍ بوقوع ما قبله، بخلاف ما إذا دخلتِ الفاءُ؛ فإنَّها مُشْعِرةٌ بترتُّب الخبر على المبتدأ، واستِحقاقه به[٧].

- وتَخْلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببيَّة ما قبلها لِمَا بعدها؛ للإيذان بأنَّ ترتيب

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٤٢).

(٣) (ثُمّ)-في الأصل -: تُشعِر بتراخي المعطوف بها عن المعطوف عليه في الزمان، وبُعْد ما بينهما، والزمخشريُّ يحملها على التفاوت في المراتِب والتباعُد بينهما، حيث لا يمكنه حملُها على التراخي في الزمان لسياق يأبى ذلك. كهذه الآية. والحاصل: أنَّها استعيرت من تباعُد الأزمنة لتباعُد المرتبة. ينظر ((تفسير الزمخشري - مع حاشية ابن المنير)) (١/ ٣٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١١-٣١٢)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٤٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠٣-٢٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠٣-٢٠٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٥٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٨٢-٥٨٣).

الأجرِ على ما ذُكِر من الإنفاق، وتَرْك إتباعِ الصَّدقة بالمنِّ والأذى - أَمرٌ بيِّنٌ لا يحتاج إلى التَّصريح بالسَّببيَّة[١].

- في قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا...﴾: تكرير ﴿لا﴾ تنبيه على أنَّ انتفاءَ كلٍّ منهما شَرْطٌ لحصول الأجر ﴿لَهُمْ﴾، ولم يَقْرِنْه بالفاء؛ إعلامًا بأنَّه ابتداءُ عطاء مِن الله؛ تفخيمًا لمقداره وتعظيمًا لشأنه، حيث لم يجعله مسبَّبًا عن إنفاقهم[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾

- تنكير ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ للتَّقليل، أي: أَقَلُّ قول معروف خيرٌ مِن صدقة يَتْبَعُها أذًى، والمراد به القولُ الحسن، وهو ضدُّ الأذى[٣].

- **في قوله:** ﴿يَتْبَعُهَا أَذًى﴾؛لم يُعِد ذِكْرَ المنِّ فيقول: يَتْبَعُها منٌّ وأذى؛ لأنَّ الأذى يشمل المنَّ وغيره، وإنما ذُكِر بالتنصيص في قوله: ﴿لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾؛ لكثرة وقوعه من المُتصدِّقين، وعُسْر تَحفُّظهم منه؛ ولذلك قُدِّم على الأذى[٤].

٤- قول الله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

- **قوله:** ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى﴾ فيه تعريض

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠٣-٢٠٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٤٧).
(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥٨٥)

بأنَّ الرياء والمنَّ والأذى على الإنفاق من صفات الكفَّار، ولا بُدَّ للمؤمن أنْ يتجنَّبها[١].

- وفيه من بلاغة القرآن: النَّهي عن المنِّ، والأذى بالصَّدقة بهذه الصِّيغة التي تُوجِب النُّفور؛ وهي: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾، فإنَّها أشدُّ وقعًا مِن (لا تَمُنُّوا، ولا تُؤذوا بالصَّدقة)[٢]. ولأنَّه لَمَّا كانت النُّفوس مُولَعةً بذِكْر ما يَصدُر عنها من الإحسان للتمدُّح والفَخْر، وكان ذلك مطيَّة الرِّياء، وطريق المنِّ والإيذاء، لا سيما إذا آنس المتصدِّق تقصيرًا في شُكْره على صدقتِه أو احتقارًا لها، فإنَّه لا يكاد يَملِك حينئذ نفسَه ويَكُفُّها عن المنِّ أو الأذى-كان مِن الهُدى القويم ومقتضى البَلاغة أن يُؤتَى في النَّهي عن المنِّ والأذى والرِّياء بعبارات مختلفة؛ لأجل التأثير في التنفير عن ذلك، والحَمْل على تَرْكه[٣].

- **قوله:** ﴿**كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ**﴾ الكاف في قوله: ﴿**كَالَّذِي**﴾ فيه قولان الأول: أنَّه مُتعلِّق بمحذوف، والتَّقدير: لا تُبْطِلوا صدقاتِكم بالمنِّ والأذى كإبطال الذي يُنفِق مالَه رئاء الناس، فبيَّن تعالى أنَّ المنَّ والأذى يُبطِلان الصَّدقة، كما أنَّ النِّفاق والرِّياء يُبطِلانها. والقول الثاني: أنْ يكون الكاف في محل النَّصب على الحال، أي: لا تُبطِلوا صدقاتِكم مماثِلين الذي يُنفِق مالَه رئاء الناس[٤].

- **قوله:** ﴿**كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ**﴾ الغرض مِن هذا التَّشبيه تَفظيعُ المشبَّه به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٤٦-٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٤٨-٤٩).

- **قوله:** ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ فيه تشبيه تمثيليٌّ، فقد شبَّه إنفاقَ الأموال رئاء الناس بالتُّرابِ الذي يُوضَع على الصَّخر الأملس، يأتي عليه الوابلُ من المطر، فيَذْروه ويَذْهب به، ولا يترك له أثرًا. فأذهب عائدَ نفقته كما أذهب بَذْرَ الحارثِ على الصَّفوانِ وابلُ المطرِ، الذي شأنه أن يُصلِح البَذْرَ، هذا على القول بأنَّ الضمير في قوله: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ عائد على ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾؛ لقُرْبه منه ولإفراده، فهو مثل، وتَشْبيه للمُنافِق يُري النَّاسَ أنَّ له أعمالًا كما يُرى التُّرابُ على هذا الصَّفوان، فإذا كان يوم القيامة اضمحلَّت وبطَلَتْ، كما أذهب الوابلُ ما كان على الصَّفوان من التراب.

ويحتمل أن يكون الضَّمير في: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ عائدًا على المانِّ المؤذي، فيكون شُبِّه بشيئين: أحدهما: بالذي يُنفِق مالَه رئاء النَّاس، والثاني: بصَفوان عليه تُراب، ويكون قد عدَل من خِطاب إلى غَيبة، ومن جمْع إلى إفراد، فيكون فيه التفات[(١)].

- **في قوله:** ﴿صَفْوَانٍ﴾ عبَّر بصيغة (فَعْلان) للمُبالغة في وصْف الحجارة المُلْس الصُّلبة، التي لا تَقبَل انصداعَها بالنَّبات[(٢)].

- **قوله:** ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ تذييل مُقرِّر ومؤكِّد لمضمون ما قبْلَه[(٣)]، وهي خبرٌ فيه تعريضٌ بأنَّ الرِّئاء والمنَّ والأذى على الإنفاق من صِفات الكفَّار، ولا بدَّ للمؤمن أن يتجنَّب عنها[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٤٣-٤٤)، ((تفسير أبي حيان))، (٢/ ٦٦٣-٦٦٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٨٠-٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٤٨-٤٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٠).

٥- قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ...﴾ خبرٌ مرادُه التَّحريضُ على تكرير الإنفاق(١).

- وفيه تَشْبيه تَمثيليٌّ، جاءت صُور التشبيه فيه مِن مُتعدِّد؛ فقد شبَّه إنفاقَ الأموالِ الخالصَ من الرِّياء في سبيل الله، وابتغاء مَرضاتِه، بالبُستانِ الوريف الظِّلال، فوق رَبوةٍ عالية، يَكْفيها القليلُ من المطر؛ لتَرْبوَ وتَهتزَّ، وتَمرُع وتَخصَب(٢).

ووَجْه الشَّبه هو الهيئة الحاصِلة من مجموع أشياء تَكامَل بها تضعيفُ المنفعةِ، والهيئة المُشبَّهة هي النَّفقة التي حُفَّ بها طَلَبُ رِضا الله والتصديق بوعده، فضُوعِفت أضعافًا كثيرة، أو دونها في الكَثْرة، والهيئة المُشبَّهة بها هي هيأة الجنَّة الطَّيِّبة المكان التي جاءها المطر، فزكا ثَمرُها وتَزايد، فأكملتِ الثمرةَ، أو أصابها طَلٌّ فكانت دون ذلك، وقد حصل من تَمثيلِ حالِ الذين يُنفِقون أموالَهم في سبيل الله بحَبَّة ثم بجنَّة، جِناسٌ مُصحَّف(٣) بين (حبة وجنة)(٤).

- تخصيص ﴿الْجَنَّةِ﴾ بأنَّها في رَبوة؛ لأنَّ أشجار الرُّبى تكون أحسن منظرًا، وأزكى ثمرًا، فكان لهذا القيد فائدتان: إحداهما: قوة وَجْه الشَّبَه كما أفاده قول ضِعْفين، والثانية: تَحسين المُشبَّه به، الراجع إلى تحسين المُشبَّه في تَخيُّل السامع(٥).

- وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ فيه من البلاغة وحُسُن التَّعليم: تبيينُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥١-٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٧٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤١١).

(٣) الجناس المصحَّف مِن أنواع الجناس، ويسمى أيضًا جناس الخط: وهو تشابُه اللفظين في الكتابة مع الاختلاف في نقط الحروف، مثل: جنة وحبة، و(يَسْقي) و(يشفي) في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩، ٨٠]. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٥/ ١٧٥٧)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٢).

المعقول بالمحسوس؛ وهذا لأنَّه يُقرِّب المعقولَ إلى أذهان النَّاس[١].

- **عطف قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ﴾** على قوله: **﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ﴾**؛ لزِيادة بيان ما بين المرتَبتَين من البَون، وتأكيدًا للثَّناء على المنفقين بإخلاص، وتَفنُّنًا في التَّمثيل؛ فإنَّه قد مثَّله فيما سلف بحَبَّة أنبتت سبع سَنابل، ومثَّله فيما سلف تمثيلًا غير كثير التَّركيب؛ لتَحصُل السرعةُ بتخيُّل مضاعفة الثَّواب، فلمَّا مُثِّل حالَ المنفِق رئاءً بالتَّمثيل الذي مضى، أُعيد تمثيلُ حال المنفِق ابتغاء مرضاة الله بما هو أعجب في حُسْن التخيُّل؛ فإنَّ الأمثال تُبهِج السَّامع كلَّما كانت أكثرَ تركيبًا. وضُمِّنتِ الهيأة المشبَّه بها أحوالًا حَسَنة تُكسِبها حُسْنًا؛ ليَسْري ذلك التحسينُ إلى المُشبَّه، وهذا من جملة مقاصد التَّشبيه[٢].

- **قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ...﴾** فيه إيجاز بالحَذْف؛ إذ لا بدَّ من تقدير مُضاف هنا كما تَقدَّم: إمَّا مِن جانب المُشبَّه أو المُشبَّه به، أي: ومَثَل نفقةِ الذين إلخ، أو كمَثَل غارِس جَنَّة... إلخ؛ رعاية للتَّناسُب[٣].

وفي التَّشبيه وجهان: أحدهما أنَّه مُركَّب، والتَّشبيه لحال النَّفقة بحال الجنَّة بالرَّبوة في كونها زاكية مُتكثِّرة المنافع عند الله كيفما كانت الحال[٤]، والثاني: أنَّ تشبيهَ حالهم بحال الجنَّة على الرَّبوة في أنَّ نَفقتهم- كَثُرتْ أو قلَّت- زاكية زائدة في حُسْن حالهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠٥-٢٠٦).

كما أنَّ الجنَّة يُضعِّف أُكلَها قويُّ المطرِ وضعيفُه، وهذا أيضًا تشبيه مُركَّب، إلَّا أنَّه لُوحظ الشَّبه فيما بين المفردات، وحاصله: أنَّ حالهم في اتِّباع القِلَّة والكثرة: تضعيف الأجر، كحال الجنَّة في إنتاج الوابل والطَّلِّ: تضعيف ثِمارها[١].

- لَمَّا ضرب مَثَلَ مَن أنفق مالَه رئاء النَّاس وهو غير مؤمن، ذكَر ضدَّه بتمثيل محسوس للذِّهن ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾، حتى يتصوَّر السامعُ تفاوتَ ما بين الضِّدين، وهذا مِن بديع أساليب فصاحة القرآن. ولَمَّا وصَف صاحبَ النَّفقة بوصفين، قابَل ذلك هنا بوصفين، فقوله: ﴿ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ﴾ مُقَابِلٌ لقوله: رِئاء النَّاس[٢] وقوله: ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ مُقابِل لقوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ لأنَّ المُراد بالتَّثبيت تَوطين النَّفْس على المحافظة عليه وتَرْك ما يُفسِده، ولا يكون إلَّا عن يقين بالآخرة[٣].

٦- **قوله:** ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ يحتمل أنْ يكون ممَّا لا يُراد به شَفْع الواحد، بل يكون من التشبيه الذي يُقصَد به التَّكثير، وكأنَّه قيل: فآتت أُكلَها ضِعْفين، ضِعفًا بعد ضِعف، أي: أضعافًا كثيرة، وهذا أبلغُ في التَّشبيه للنَّفقة بالجنَّة؛ لأنَّ الحسنة لا يكون لها ثوابُ حسنتينِ، بل جاء: تُضاعَف أضعافًا كثيرة، وعَشْرَ أمثالِها، وسبعمئة وأزيد[٤].

٧- **قوله:** ﴿تَعْلَمُونَ﴾ فيه التفاتٌ من الغَيبة إلى الخِطاب الباعِث على فِعلِ الإنفاق الخالِص لوجه الله، والزَّاجِر عن الرِّياء والسُّمعة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٦٥-٦٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٧١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٩٢)-وهذا على قراءة الجمهور بتاء الخطاب.

الآيات (٢٦٦- ٢٧٤)

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ
إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ
أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ
أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ
وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا
كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ
نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾
إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞
لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ
أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا
تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿أَيَوَدُّ﴾: أيحبُّ ويتمنَّى؛ فالودُّ: محبَّة الشَّيء، وتمنِّي كونَه[١].

﴿إِعْصَارٌ﴾: الإعصار هو: ريح شَديدة تَعصِف، تَرفَع تُرابًا إلى السَّماء، كأنَّه عمودُ نارٍ، أو هو الغُبار الذي يَسطَع مُستديرًا، أو رِيح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السَّماء، ملتفَّة في الهواء، حاملة للتراب، مستديرة كالعمود[٢].

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾: لا تَقصِدوا الرَّديء، ولا تَعمِدوا إليه[٣].

﴿تُغْمِضُوا فِيهِ﴾: تترخَّصوا، وتتسامحوا، وأَصْل الغَمْض: النَّوم العَارِض، ثم استُعير للتَّغافُل والتَّساهُل[٤].

﴿الْفَحْشَاءِ﴾: هي كلُّ شيء مُستقبَح ومُستشنَع، من قولٍ أو فِعلٍ[٥].

﴿الْحِكْمَةَ﴾: العِلم والفِقه، وإصابة الحقِّ بالعِلم والعَقل، وأصل حَكم: المنع، وأوَّل ذلك الحَكْم، وهو المنع من الظُّلم، والإحكام هو الفصل والتمييز، والفرق والتحديد الذي به يتحقَّق الشيء ويحصُل إتقانُه؛ ولهذا دخل فيه معنى المنْع كما

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨).

دخَل في الحدِّ، فالمنعُ جزءُ معناه لا جميع معناه. والحِكمة اسمٌ للعَقل، وإنَّما سُمِّي حِكمة؛ لأنَّه يمنع صاحبه من الجَهل[١].

﴿الْأَلْبَابِ﴾: العقول الزكيَّة، مفردها لُبٌّ، وأصْل اللُّبِّ: الخُلُوص والجَوْدة، والشَّيء المُنتقَى[٢].

﴿نَذْرٍ﴾: إيجابُ المرءِ على نَفْسِه ما ليس بواجبٍ[٣].

﴿تُبْدُوا﴾: تُظهِروا، مِن بدَا بدوًّا وبداءً، أي: ظهَر ظُهُورًا بيِّنًا[٤].

﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾: فنِعمَ شيئًا أو فنِعم الشيءُ هي، وأصْل النِّعمة: التَّرفُّه، وطِيبُ العَيش، والصَّلاح[٥].

﴿يُوَفَّ إِلَيْكُم﴾: تُوفَّوْا أجْرَه، وأصْل التَّوفية: بلوغ التَّمام[٦].

﴿أُحْصِرُوا﴾: أي: مُنِعوا وحُبِسوا عن التَّصرُّف في مَعايِشِهم؛ خَوفَ العَدُوِّ، وأصْل الحَصْر: التَّضييق والمنْع[٧].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((الإكليل في المتشابه والتأويل)) لابن تيمية (ص: ١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٥/ ٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٢).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩).

(٧) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ٣٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

﴿ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾: ذَهابًا فيها، أي: تِجارةً وغيرها كالسَّفر[١].

﴿التَّعَفُّفِ﴾: تَرْك السُّؤال، والكفُّ عمَّا لا ينبغي، والعِفَّة كذلك: حصولُ حالة للنَّفس تَمتنِع بها عن غَلبةِ الشَّهوة[٢].

﴿بِسِيمَاهُمْ﴾: بعلاماتهم وآثارهم؛ فأصْل الوَسْم: الأَثَر والمَعلَم[٣].

﴿إِلْحَافًا﴾: إلحاحًا، وأصْله: الاشتمال والمُلازَمة[٤].

مُشكِل الإعراب:

١- قوله ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾: نِعِمَّا: مركَّبة من (نِعم) و(ما)؛ فأمَّا نِعم: ففعل ماضٍ جامد لا يتصرَّف، مبنيٌّ على الفتْح. وما: نكرة موصوفة بمعنى شيئًا، منصوبة على التمييز. والفاعل ضمير مستتِر في نِعْم، تقديرُه: هي، عائدٌ على الصَّدقات. وقيل: (ما) معرفة تامَّة، فاعل نعم، أي: نِعْم الشيءُ. وهي: ضمير مبنيٌّ في محل رفع مبتدأ، والجملة قبله (نِعما) في محل رفْع خبر له، والتقدير: إن تبدوا الصدقات فهِيَ نِعم شيئًا، أو فهي نعم الشيءُ[٥].

٢- قوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٥) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٤١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٢١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٠٨-٦٠٩).

ويُكفِّرُ: فعل مضارع، يجوز فيه الجزمُ والرَّفْع؛ فمَن جزَمه عطَفَه على موضِع الفاء في قوله: ﴿فَهُوَ خَيرٌ لَكُمْ﴾. ومَن رفَع فعلى القَطْع بتقدير مبتدأ؛ فمَن قرأ بالنون ورفع قدَّره: ونحن نُكفِّرُ، ومَن قرأ بالياء ورفع قدَّره: والله يُكفِّرُ عنكم[1].

المعنى الإجمالي:

أيرغبُ أحدُكم- يا مَن تَمُنُّون وتُراؤون- أن يَملِك بستانًا من أشجار النخيل والعِنَب، تجري فيه الأنهار، وقد احتوى أيضًا على جميع أصناف الثِّمار، وكَبِرت سنُّ صاحبه، فازداد حِرْصُه عليه؛ لضَعْفه عن التَّكسُّب، وكان له ذرية يَعولهم لا يستطيعون لضَعْفهم القيامَ بأمورهم، ومع تلك الحاجة الماسَّة إلى ذلك البُستان، حلَّت عليه كارثةٌ، فاجتاحته ريح قويَّة فيها نار، فأَحرقتْ ذلك البُستانَ، فإذا عايَن صاحبُها ما آل إليه بُستانُه، فكم سيكون في قلبه من الغمِّ والحَسرة، والألمِ والحزنِ، فكذلك حالُ مَن أنفق لوجهِ اللهِ أولًا؛ حتى حقَّق الأجرَ العظيم، ثم أَفسَد ذلك بما يُبطِل أجرَه كالمنِّ والأذى، وفي الوقتِ الذي هو أَحْوجُ ما يكون إليها بعد موته يجِد تلك الأجورَ قد تلاشتْ، وبمِثْل هذا البيان يُوضِّح الله الآياتِ؛ ليتفكَّر العبادُ ويتدبَّروا.

ثم يَحُثُّ الله عبادَه المؤمنين أنْ يُخرِجوا زَكواتِهم وصدقاتِهم من أجود أموالهم التي اكتسبوها بالحلال، وممَّا أخرج الله لهم مِن الأرضِ من ثِمار وزُروع وركِاز ومَعادن، مُتْبِعًا ذلك الحثَّ بنهيهم عن أنْ يَقصِدوا الرَّديءَ من أموالهم ليتصدَّقوا به، ذلك الرَّديءُ من الأموال الذي لو كانوا هم في مقام آخِذ الصَّدقةِ، فلن يأخذوه إلَّا بإغماضِ بعض بَصَرهم عنه، وأمرهم أن يتيقَّنوا أنَّ الله غنيٌّ حميد.

ثم يُخبِر تعالى عبادَه المؤمنين أنَّ الشيطان يُخوِّفهم الفقرَ إنْ هم تَصدَّقوا،

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٤١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٢١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦١٠).

ويأمرهم بالبخلِ وبجميعِ المعاصي والمُنكَرات، والله سبحانه يَعِدُكم- أيُّها المؤمنون- مغفرةً لما يَصدُر منكم، ويَعِدُكم أن يُخلِف عليكم ما تصدَّقتم به، ويَزيد في أجوركم وأرزاقكم، والله واسع عليم؛ يُعطي سبحانه الحِكمةَ مَن يشاء من عباده، ومَن يُكرِمه الله بالحِكمة، فقد أُعْطي خيرًا عظيمًا، ولا يتَّعِظ بمواعظِ الله تعالى- فيذكُر وعْدَه ووعيدَه، فيَمتثِل لِمَا أُمر به، ويَنتهي عمَّا نُهي عنه- إلَّا أصحابُ العقولِ الكاملة.

ثم يُخبِر الله تعالى عبادَه أنَّ أيَّ صَدقةٍ تصدَّقوا بها، أو أي نَذْر أَلزَموا به أنفسَهم، فإنَّ ذلك تحت عِلْم الله، الذي لا يَخْفى عليه شيء، ويُجازيهم عليها، وليس لَمَنْ لم يُنفِق ما وجَب عليه ولم يُوفِ بما نذَره أحدٌ يَنصُره من الله يوم القيامة.

ثم يُخاطِب عبادَه سبحانه بأنَّهم إنْ أَظهَروا الصَّدقاتِ، فأَعطَوها علانيةً فنِعْم الشيء هي، ما دام أنَّها لله، وقد حصَل المقصودُ منها، وإن أَخْفَوا الصَّدقات، وأَعْطَوها الفقراءَ سرًّا فهو أفضل من الإظهار، ويُكفِّر الله السيِّئاتِ بهذه الصَّدقات المُعلَنة منها والمخفيَّة، واللهُ مُطَّلِعٌ على ما يعملون من أعمالٍ، فيُحصيها ويُجازيهم بها.

ثم يتوجَّه الخطابُ إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فيُخبِره تعالى أنَّه ليس عليه هداية الخَلْق هدايةَ التَّوفيق، ولكن عليه البلاغ والإرشاد؛ فالله هو الذي يَهدي مَن يشاء إلى دِينه. ثم يُخبِر تعالى أنَّ ما يتصدَّق به المُنفِقون من خير فنَفْعه الحقيقي عائدٌ عليهم، وأنَّ النَّفقة النَّافعة لصاحبها هي ما كانت خالصةً لله تعالى، وابتغى بها صاحبُها النظرَ إلى وَجْه الله الكريم، وأنَّ ما يتصدَّقون به من مالٍ يؤدَّى إليهم أجْرُه في الآخرة كاملًا، فلا يَضيعُ عند الله شيء.

ثم أَرْشد سبحانه إلى أنْ تُعطى تلك النَّفقات لمن لا يَملِكون شيئًا يَسُدُّ حاجتَهم، ممن حبَسوا أنفسَهم على الجهاد في سبيل الله، وحبَسهم أيضًا تَربُّص

أعدائهم بهم، فلا يستطيعون التصرُّف في أشغال الدُّنيا، ولا الضرب في الأرض طلبًا للرِّزق، يَظُنُّهم مَن يَجهَل أمرَهم، أغنياءَ من شِدَّة تَرْكهم التَّعرضَ لسؤال الناس، وما يُميِّزهم هو آثار الحاجة التي تظهر عليهم، ويَلمَحها ذَوو الفِطنة من خلال ملامح وجوههم، أو نظراتهم، أو بعض عباراتهم، وهم لا يسألون النَّاس مطلقًا، لا مُلْحِفِين مُلِحِّين في المسألة ولا غير مُلِحِّين. ثم أخبَر تعالى أنَّ ما يَبذُلونه من مال قليلًا أو كثيرًا، فإنَّ الله يَعلَمه، وسيُحصيه، وسيَجزيهم عليه أتمَّ الجزاء.

ثم وعَد الله الذين يَبذُلون أموالَهم صدقةً في أيِّ وقت كان، من ليل أو نهار، سواء في السِّرِّ أو العَلَن، بأنَّ لهم يومَ القيامة أجرًا عظيمًا، ولا يُصيبهم خوفٌ على ما يُستقْبَل، ولا يحزنون على ما مضَى.

تفسير الآيات:

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

هذا استئنافٌ بياني أَثارَه ضربُ المثَل العجيب للمُنفِق في سبيل الله بمَثَل حبَّة أنبتت سبع سنابل، ومَثَل جنَّة بربوة، إلى آخِر ما وصف من المثَلين، ولَمَّا أَتْبع بما يُفيد أنَّ ذلك إنَّما هو للمُنفِقين في سبيل الله الذين لا يُتْبِعون ما أنفقوا منًّا ولا أذًى، ثم أَتْبع بالنهي عن أن يُتْبِعوا صدقاتِهم بالمنِّ والأذى، استشرفت نَفْس السامع لتلقِّي مَثَلٍ لهم يُوضِّح حالَهم الذميمة كما ضرَب المَثَل لمن كانوا بضدِّ حالهم في حالة محمودة[1] فقال:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٣).

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

أي: هل يرغب أحدٌ منكم في أن يمتلك بُستانًا ذا أشجارٍ كثيرة، تَستُر ما بداخله من كثرتها، ويحوي أفضلَ أنواعِ الأشجار، وأشرفَ أنواع الثمار، وأكثرها نفعًا، ممَّا لا يوجد عادةً مجتمعًا في موضعٍ واحدٍ، ألَا وهي أشجار النَّخيل والعِنَب، وتجري في أرض هذا البستان المدهش المياهُ العَذْبة المتفرِّقة في أنحائه، فتسقيه بلا تعبٍ ولا مؤونة، ليس هذا فحسبُ، بل يشتمل أيضًا على جميع أصناف الثِّمار الشهيَّة؛ فهو بُستانٌ ذو مشهدٍ عجيب، متكاملٌ من جميع نواحيه، ممَّا يُوجِب لصاحبه الفرح العظيم، والابتهاج الشديد به[1].

﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾.

أي: كبِرتْ سنُّ صاحبِ الجنةِ، فغدا شديدَ التشبُّث بها؛ إذ لم يعُدْ قادرًا بعدُ على مباشرةِ التكسُّب، ومعاناة التجارةِ؛ للحصولِ على قُوته بنفسِه، وقد اشتدَّ حرصُه مع تقدُّمِه في العمرِ، وله عيالٌ يقومُ بحاجاتهم، لا سيَّما وأنهم عاجزون عن القيامِ بذلك بأنفسِهم؛ إمَّا لصغرهم، أو لغير ذلك من أسبابِ العجزِ، فهم كَلٌّ عليه، فكُلُّ هاتيك الشدائدِ مجتمعةً تدفعه نحوَ شدَّةِ التعلُّق بجنَّتِه، فهو أحوجُ ما يكونُ إليها في مِثل هذه الأحوالِ العصيبة، فبينما هو على ذلك إذ حلَّت الكارثةُ بها، حين اجتاحتها ريحٌ عاصفٌ تستديرُ في الأرضِ، ثم ترتفعُ في طبقاتِ الجوِّ كالعمود، وقد احتوت على نارٍ أحرقتْ تلك الجنةَ، فتلفتْ دفعةً واحدةً، فلا تسألْ بعدَها عن فظاعةِ حالِه وسوءِ ما حلَّ به مِن الهمومِ والغمومِ والأحزانِ، وقد أصبح صِفرَ اليدين بلا شيء يملكُه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٧٩-٦٨٠)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٠-٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٥- ٦٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٣٠-٣٣١).

فكذلك مَن أنفق لوجهِ الله تعالى بادئَ الأمرِ، فنفقتُه بمنزلةِ البذرِ للزُّروعِ والثِّمارِ، ولا يزال كذلك حتى يحقِّقَ مِن عملِه هذا حسناتٍ عظيمةً، بمثابة جنةٍ غنَّاء، في غايةِ الحسنِ والبهاءِ، لكنه أفسدَ نفقاتِه بما يُبطلُ الأجرَ، كالمنِّ والأذَى، وذلك بمنزلةِ الإعصارِ الذي فيه نارٌ، فأحرق جنتَه، وهو أحوجُ ما يكون إليها، فكذلك إذا مات أصبح في حالٍ لا يقدرُ معها على العملِ الصالحِ، ولا له نصيرٌ أو شفيعٌ، فيجدُ أنَّ نفقاتِه التي يرجو نفعَها قد صارت هباءً منثورًا[(١)].

عن عُبَيد بن عُمَير قال: قال عمرُ رضي الله عنه يومًا لأصحاب النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: (فيمَ تَرون هذه الآية نزلتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾؟ قالوا: الله أعلم، فغضِب عمرُ، فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عبَّاس: في نفْسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا أخي، قُلْ ولا تَحقِر نَفْسك، قال ابن عبَّاس: ضُربت مَثَلًا لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عبَّاس: لعملٍ. قال عمر: لرجل غني يَعمل بطاعة الله عزَّ وجلَّ، ثم بعث الله له الشيطان، فعمِل بالمعاصي حتى أغرق أعمالَه)[(٢)].

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: كما بيَّن لكم ربُّكم جلَّ وعلا أمرَ النَّفقة في سبيله، كذلك يُبيِّن لكم الآياتِ التنزيليَّة والكونيَّة، فيعرِّفكم أحكامَها وحلالَها وحرامها، ويُوضِّح لكم حُججَها؛ لتتفكَّروا بعقولكم فتتدبَّروا وتعتبِروا وتَفهَموا الأمثالَ والمعاني، وتُنزِلوها على المراد منها؛ لتُطيعوا الله جلَّ وعلا، فلو تَصوَّر مَن له أدنى مُسْكة من عقل هذا المَثَل حقَّ تَصوُّره، وتأمَّلَه كما ينبغي، لم يُقدِم على ما فيه مضرَّته وندامته، ولَمَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٨٠-٦٨١، ٦٨٩-٦٩٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٧٢-٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٤، ٩٥٦، ٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٣١-٣٣٢).

(٢) رواه البخاري (٤٥٣٨).

سوَّلت له نفْسه إحراقَ أعماله الصالحة، وإضاعة أجورها[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

بعد أنْ ذكَر الله عزَّ وجلَّ فضيلةَ الإنفاق في سبيله ابتغاءَ وَجْهه، وسوء العاقبة لمن منَّ بصَدقته، أو أنفق رياءً، حثَّ على الإنفاق؛ مُبيِّنًا ما يُنفَق منه[٢].

سبب النزول:

عن البَراء رضي الله عنه، أنَّه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾: (نزلت فينا -معشر الأنصار- كنَّا أصحابَ نَخْل، فكان الرجلُ يأتي من نخله على قَدْر كَثْرته وقلَّته، وكان الرجلُ يأتي بالقِنْو[٣] والقِنْوين فيُعلِّقه في المسجد، وكان أهل الصُّفَّة ليس لهم طعامٌ، فكان أحدهم إذا جاء أتى القِنْو فضربه بعصاه، فيَسقُط البُسْر والتَّمر فيأكل، وكان ناسٌ ممَّن لا يَرغَب في الخير يأتي الرجل بالقِنْو فيه الشِّيص[٤] والحَشَف[٥] والقِنْو قد انكسر، فيُعلِّقه فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٩٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٤-١١٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٣٨).

(٣) **القِنْو**: العِذْق (السُّباطة) بما فيه منَ الرُّطَب. وهو من النَّخل كالعُنقود من العنب. ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١١٦)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٣/ ١٨٦٦).

(٤) **الشِّيصُ**: التَّمر الذي لا يَشتدُّ نَواه ويَقوَى، وقد لا يكونُ له نوَى أصلاً؛ وإنَّما يَتَشَيَّصُ إذَا لم تُلقح النَّخل. ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٠٤٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٥١٨).

(٥) **الحَشَف**: أَردأُ التَّمر، واليَابِس الفاسِد مِنه. وقيلَ: الضَّعِيفُ الَّذي لا نَوَى له كالشِّيص. ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٣٤٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٩١).

مِنَ الْأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾، قال: لو أنَّ أحدكم أُهْدِي إليه مِثْل ما أَعْطى، لم يأخذْه إلَّا على إغماضٍ أو حياءٍ)، قال: فكنَّا بعد ذلك يأتي الرَّجل بصالح ما عنده))[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾.

أي: يَحُثُّ الله تعالى عبادَه المؤمنين على أن يُزكُّوا ويتصدَّقوا من أجود أموالهم التي اكتسبوها حلالًا بالتِّجارة، وأمرهم أن يُنفِقوا من الثِّمار والزروع والرِّكاز والمعادن التي أخرجها لهم سبحانه من الأرض، فكما منَّ عليهم بتيسير الحصول على ذلك، فلْيُنفِقوا منه شكرًا له عزَّ وجلَّ[٢].

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾.

أي: لا تَقصِدوا الرَّديء من أموالكم فتتصدَّقوا منه، وتُمسِكوا الجيِّد لأنفسكم؛ فإنَّ هذا ليس من العدل في شيء، ولكن تصدَّقوا من الطيِّب الجيِّد، فإنَّكم لو كنتم مكانَ آخذ الصَّدقة والحالة هذه، فلستم بآخذيها إلَّا على وَجْه التَّسامح والتغاضي عن ذلك، فإنَّكم لكَراهتِكم إيَّاه تُغمِضون بَعضَ بَصَركم عنه؛ إذ لا يملأ أعينكم لرداءته، فالله عزَّ وجلَّ أحقُّ أن يُبذَل لأجلِه أطايبُ المال؛ فإنَّه سبحانه طيِّبٌ لا يَقْبل إلا طيِّبًا[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٨٧).
قال الترمذيُّ: حسنٌ غريبٌ صحيح. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٩٨٧)، وقال الوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (١٤٦): حسنٌ غريب.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٩٤-٦٩٦)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥-٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٩٨-٦٩٩، ٧٠٣-٧٠٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم =

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

أي: اعلموا أيُّها النَّاس، أنَّ الله عزَّ وجلَّ غنيٌّ عنكم وعن أعمالكم، ومنها صدقاتكم، فلا حاجةَ له بها، وإنَّما أمركم بها؛ رحمةً منه لكم، فنفْعها عائدٌ إليكم؛ إذ يُغْني بها فقيرَكم، ويُقوِّي بها ضعيفَكم، ويُثيبكم عليها.

واعلموا أيضًا أنَّه سبحانه المحمودُ على جميع صِفاته وأفعاله وأقواله وشَرْعه وقَدَره، ومن ذلك غناه، فإنَّه يُحمَد عليه سبحانه، ومن ذلك أيضًا ما يأمركم به من الأوامر الحميدة، والأخلاق الجميلة، وهو عزَّ وجلَّ يَحمَد مَن يَستحِقُّ الحمد؛ فأثنى على أنبيائه، ورسله، والصالحين من عباده[1].

كما أنَّ غناه وحمْده يَأبيَان قَبُول الرَّديء، فإنَّ مَن يأخذه؛ إمَّا أنْ يَقْبله لحاجته إليه، وإمَّا أنَّ نفسه لا تأباه؛ لعدم كمالها وشرفها، وأمَّا الغنيُّ عنه الكامل الأوصاف سبحانه، فإنَّه لا يَقْبله[2].

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا رغَّب اللهُ في إنفاق أجودِ ما يَملِكه الإنسان، حذَّر بعد ذلك من وسوسة الشَّيطان[3] فقال:

= (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ٩٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٣٩-٣٤٠).

وممَّن قال مِن السَّلف في معنى: ﴿الخبيث﴾ بنحوٍ ممَّا ذُكر: قتادة، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٧٠١).

(١) ينظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥-٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٠-٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٥٥).

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾.

أي: إنَّ الشيطان يخوِّفكم- أيُّها المؤمنون- بالافتقار إن تصدَّقتم، فإذا صوَّر لكم هذه الصورة أَمَركم بالبُخل الذي هو من أقبح الفواحش؛ لتُمسِكوا ما بأيديكم فلا تُنفِقوه في مرضاة الله تعالى، وتشمل الفحشاء أيضًا ما سوى البُخل، من قبائح المعاصي والمنكرات[(١)].

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ يَعِدُكم- أيُّها المؤمنون- بأنْ يَسترَ عليكم ما ارتكبْتُموه مِن فحشاء، ويتجاوزَ عن مؤاخذتِكم بها؛ لما تقدِّمونه مِن صدقاتٍ وغيرِها، وهذا في مقابلةِ أمرِ الشيطانِ لكم بالفحشاءِ،كما يعدُكم اللهُ تعالى بأن يعوِّضَكم عمَّا تصدقتم به، بمنحِكم المزيدَ مِن الأجورِ والأرزاقِ في الدنيا والآخرة، وذلك في مقابلةِ تخويفِ الشَّيطانِ لكم بالفقرِ[(٢)].

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى واسع الفضل، واسع الصِّفات، ومن ذلك سَعَةُ عِلْمه؛ فهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٤-٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٦-٣٤٧).

قال ابن القيِّم: (هذا إجماع من المفسِّرين أنَّ الفحشاء هنا البخل) ((طريق الهجرتين)) (ص: ٣٧٥).

ممَّن قال من السَّلف: إنَّ (الفحشاء) المقصود بها البُخل: ابن عبَّاس في رواية عنه. ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٣٠).

وممَّن قال: إنَّ (الفحشاء) المقصود بها المعاصي: سعيد بن جُبَير، ومقاتل بن حيَّان، وابن المبارك. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٦- ٣٤٧).

عليمٌ بمن يَستحِقُّ فضْله منكم، وعليم بنفقاتكم التي تُنفِقون، فيُحصيها لكم ويُجازيكم بها من سَعَة فضله[١].

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا أمَر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المُشتمِلة على الأسرار والحِكَم، وكانت معرفة ذلك لا تَحصُل لكلِّ أحد، بل لمن منَّ عليه فآتاه الحكمة، ولَمَّا ذَكَر أحوال المنفقين للأموال، وأنَّ الله أعطاهم، ومنَّ عليهم بالأموال التي يُدرِكون بها النَّفقات في مسالك الخيرات، وينالون بها سَنِيَّ المقامات، ذكَر ما هو أفضلُ من ذلك، ولَمَّا كان بذْل النَّفقات المالية التي سبق ذِكْرها، وبذْل الحِكمة العلميَّة، من أفضل ما يتقرَّب به المتقرِّبون إلى الله تعالى، كما جاء عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((لا حسدَ إلَّا في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ مالًا؛ فسلَّطَه على هَلَكَتِه في الحقِّ، ورجلٌ آتاه اللهُ الحِكمةَ؛ فهو يَقضي بها ويُعلِّمُها))[٢]- قال تعالى[٣]:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: يُعطي الوهَّابُ عزَّ وجلَّ مَن يشاء من عباده معرفةَ الحقِّ، ومعرفة المقصود منه، والعمل به، وبذلك يتمكَّن من الإصابة في القول والعمل، وتنزيل الأمور منازِلَها في نفْسه وفي غيره، ووضْعها في مواضِعها اللائقة بها؛ فإنَّ الإصابةَ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٠).

(٢) رواه البخاري (٧٣) واللفظ له، ومسلم (٨١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ٩٥٧).

الأمور إنَّما تكون بفَهْم القرآن والفقه في حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، مع الخشية لله تعالى، والنُّبوة من الحكمة؛ لأنَّ الأنبياء مُسدَّدون، مُفهَّمون، ومُوفَّقون لإصابة الصَّواب[١].

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

أي: إنَّ من يُعطَى تلك الحِكمة من العباد، فيخرج من ظُلْمة الجهل إلى نورِ الهُدى، ومن حُمْق السَّفه والانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصَّواب فيهما، وحصول التَّوفيق والسَّداد، فقد مُنح خيرًا عظيمًا لا يُقدَّر؛ فإنَّ الحكمة أفضلُ الأُعطيات، وهي أجلُّ المنح والهِبات[٢].

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

أي: لا يتَّعظ بما وعظ به الله تعالى في آياتِه المُنفِقين أموالَهم وغيرَهم، فيَذكُر وعدَه ووعيدَه، فيَنزجِر عمَّا زجره عنه ربُّه، ويُطيعه فيما أمره به سبحانه، إلَّا أصحابُ العقول الكاملة، الذين يَعقِلون بها عن الله عزَّ وجلَّ أمرَه ونهيه[٣].

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ الإنفاق يجب أن يكون من أجود المال، ثمَّ حثَّ أولًا: بقوله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٨، ١٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (١ / ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٨، ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢-١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥١).

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾، وثانيًا: بقوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾، حثَّ عليه ثالثًا[١] فقال:

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾.

أيْ: أَيَّ صدقة بذلتموها، أو أيَّ نَذْر نَذرتموه ممَّا أَلزَم المرءُ به نفسَه، فإنَّ الله تعالى لا يَخْفى عليه من ذلك شيء، فيعلم نيَّتكم بها، ويعلم ما قدَّمتم منها، فيُحصيه عليكم ويُجازيكم به، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر[٢].

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

أي: ليس لِمَن لم يُنفِق ما وجب عليه من النَّفقات ولم يوفِّ ما أَوجَبه على نفسه من المنذورات، أو كانت نفقتُه أو نَذْره في غير طاعة الله عزَّ وجلَّ، ما له أحد يَنْصُره من الله يوم القيامة؛ لأنَّه ظالم بوضْعه إنفاقَ ماله أو نَذْرَه في غير موضِعه الصَّحيح، وعلى غير الصِّفة المأمور بها شرعًا[٣].

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أولًا أنَّ الإنفاق منه ما يَتْبَعه المنُّ والأذى، ومنه ما لا يكون كذلك، وذكر حُكْمَ كلٍّ واحد من القِسْمين، ثم ذكر أنَّ الإنفاق قد يكون من جيِّدٍ، أو من رَديء، وذكَر حُكْمَ كلٍّ واحد من القسمين- ذكر في هذه الآية أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٣، ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ٩٥٧، ٩٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٤، ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٣، ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ١١٦، ٩٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٤، ٣٥٥).

الإنفاق قد يكون ظاهرًا، وقد يكون خفيًّا[١] فقال:

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾.

أي: إنْ تُظهِروا الصَّدقاتِ فتُعطوها علانيةً، فنِعْم الشيءُ هي؛ لحصول المقصود بها، ما دام أنَّها لأجْل الله تعالى[٢].

﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

أي: إنْ تَستروا صدقتكم غيرَ المفروضة عليكم، فتُعْطوها الفقراءَ في السرِّ، فإخفاؤكم إيَّاها أفضلُ لكم من إظهارها وإعلانها، ففي إخفائها: السَّترُ على الفقير، وحِفْظ ماء وجهه بعدم تَخجيله وفضيحته بين الناس، وهذا قدْرٌ زائدٌ عن الإحسان إليه بمجرَّد الصَّدقة، مع كونه أَدْعى إلى إخلاص صاحبها، وأَبْعدَ له عن الرِّياء.

وقيَّد تعالى الإخفاءَ بإيتاء الفقراء خاصَّة؛ لأنَّ من الصَّدقة ما لا يُمكِن إخفاؤه كتجهيز الجيش، أو يترتَّب على الإظهار مصلحةٌ راجحةٌ، كإظهار شعائر الدِّين، وحصول اقتداء النَّاس به[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٤)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٤-١٧)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠١-٧٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦، ٩٥٨).

قال ابنُ جرير: (الواجب من الفرائض قد أجمَع الجميع على أنَّ الفضل في إعلانه وإظهاره سِوى الزكاة، التي ذكرنا اختلافَ المختلفين فيها، مع إجماع جميعهم على أنَّها واجبة، فحُكمُها-في أنَّ الفضلَ في أدائها علانيةً-حُكمُ سائر الفرائض غيرها) ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٧).

وقال الواحديُّ: (جمهور المفسِّرين على أنَّ المراد بالصدقات في هذه الآية: التطوُّع، لا الفرض؛ لأنَّ الفرض إظهاره أفضلُ من كتمانه، والتطوُّع كتمانه أفضل) ((التفسير الوسيط)) (١/ ٣٨٥).

وقال ابن عطيَّة: (ذهب جمهور المفسِّرين إلى أنَّ هذه الآية هي في صدقة التطوع) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٦٥).

وقال ابن العربي: (أمَّا صدقة الفرض، فلا خلافَ أنَّ إظهارها أفضل، كصلاة الفرض وسائر =

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((سبعةٌ يُظِلُّهُم اللهُ تعالى في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: إمامٌ عَدْلٌ، وشابٌّ نشأَ في عبادةِ اللهِ، ورجلٌ قلبُه مُعَلَّقٌ في المساجدِ، ورجلانِ تَحابَّا في اللهِ؛ اجتَمَعا عليه، وتفرَّقا عليه، ورجلٌ دعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ، فقال: إنِّي أخافُ اللهَ، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالُه ما تُنْفِقُ يمينُه، ورجلٌ ذَكَرَ اللهَ خاليًا ففاضتْ عَيناه))[(١)].

عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نزلت هذه الآية ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] أو ﴿الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، قال أبو طلحة- وكان له حائط- فقال: يا رسول الله، حائطي لله، ولو استطعتُ أنْ أُسِرَّه لم أُعْلِنه، فقال: اجعلْه في قرابتك أو أقربيك))[(٢)].

﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

القراءات ذات الأثَر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿ويكفِّر﴾ قراءات:

١- قراءة (وَنُكَفِّرُ)، على معنى الإخبارِ مِن الله عزَّ وجلَّ عن نفسِه، على وجهِ التفخيمِ والتعظيمِ[(٣)].

= فرائض الشريعة؛ لأنَّ المرء يُحرِز بها إسلامَه، ويعصم مالَه، وليس في تفضيل صدقة العلانية على السرِّ، ولا في تفضيل صدقة السرِّ على العلانية حديثٌ صحيح يُعوَّل عليه، ولكنَّه الإجماع الثابت. فأمَّا صدقة النفل فالقرآن صرَّح بأنها في السرِّ أفضلُ منها في الجهر؛ بَيدَ أنَّ علماءنا قالوا: إنَّ هذا على الغالب مخرجه، والتحقيق فيه: أنَّ الحال في الصَّدقة تختلف بحال المعطي لها، والمُعطَى إيَّاها، والناسِ الشاهدين لها)) ((تفسير القرطبي)) (١/ ٣١٥).

(١) رواه البخاري (١٤٢٣) واللفظ له، ومسلم (١٠٣١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٩٧)، وأحمد (١٣٧٩٣).

قال الترمذي: حسن صحيح. وقال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٦٢٠): صحيح أو حسن. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٩٩٧).

(٣) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب. ينظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٦). =

٢- قراءة (وَيُكَفِّرُ) بإضمارِ ضميرٍ يعودُ على اللهِ تعالى في الفعلِ؛ لأنَّه هو المكفِّرُ حقيقةً. وهو الراجح بحمله على قراءة (وَنُكَفِّرُ)، وقيل: إنَّه يعودُ على صرفِ الصَّدقاتِ، أي: ويكفرُ صرفُ الصدقاتِ. وقيل: إنَّه يعودُ على الإخفاءِ المفهومِ من قوله: (وإن تخفوها)، ويجوزُ أن ينسب التَّكفيرِ للصرفِ والإخفاءِ؛ لأنَّهما سببٌ للتكفيرِ، وكما يجوزُ إسنادِ الفعلِ إلى فاعلِه، يجوزُ إسنادُه إلى سببِه[(١)].

٣- قراءة (وَنُكَفِّرْ) معطوفًا على جوابِ الشرطِ الثاني في قوله تعالى: (فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)، إيذانًا بدخولِ التكفيرِ للسيئاتِ في الجزاءِ، إنْ أُخفِيت الصدقةُ[(٢)].

﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

أي: إنَّه لَمَّا امتدَح اللهُ تعالى الصدقةَ عَلَنًا كانت أو سرًّا، لا سيَّما إن كانت سرًّا؛ لأنَّها أفضل للمُتصدِّق، وتضمَّن ذلك حصولُ الثَّواب، بيَّن أنَّه يَسْتُر بها السيِّئاتِ جميعَها، أو بعضَها؛ دفعًا للعقاب[(٣)].

= ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٣٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٤٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦١٣).

(١) قرأ بها ابن عامر، وحفص عن عاصم. ينظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٣٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٤٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦١٣).

(٢) قرأ بها نافع، وحمزة، والكسائي. ينظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٣٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٤٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٧).
ذهب الواحديُّ إلى أنَّ ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ويُكفِّر عَنكُم من سيِّئاتِكم﴾ صلة للكلام، أي: جميع سيئاتكم. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (١/ ٣٨٥). =

﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ مُطَّلِعٌ على ما تعملون في صدقاتِكم، من إعلانٍ بها وإسرار، وعلى غير ذلك من أعمالكم، فيُحصيها لكم ويُجازي كلًّا بعمله، فهو سبحانه ذو علمٍ ببواطن الأمور وظواهِرها، لا يَخْفى عليه شيءٌ من أعمالكم ونيَّاتِكم[١].

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)﴾.

سبب النزول:

عن سعيد بن جُبير عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((كانوا يَكْرَهون أن يَرضَخوا[٢] لأنسابهم من المشركين، فسألوا فرُخِّص لهم، فنزلت هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُون﴾))[٣].

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((كان يأمرنا ألَّا نَتصدَّق إلَّا على أهلِ الإسلام، حتى نزلت هذه الآية، فأمَرَنا بالصَّدقة بعدها على كلِّ مَن سألك من كل دِين))[٤].

= وذهب ابن عطيَّة إلى أنها للتبعيض. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨، ١٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦، ٩٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٨).

(٢) **يَرضَخوا**: أي: يعطوهم عطاءً غير كثير، والرَّضْخ. العطية القليلة. ومنه الرَضخ من الغنائم؛ لأنه عطيةٌ دون السهم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٢٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٧/ ٢٥٨).

(٣) أخرجه البزار (٥٠٤٢)، والطبراني (١٢/ ٥٤) (١٢٤٥٣)، والحاكم (٢/ ٣١٣).
صحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٣٢٧)، وصحَّحه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٦٣٠).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٢/ ٥٣٧). =

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: ليس عليك- يا محمَّد- هداية الخَلْق إلى الإسلام هدايةَ توفيقٍ، وإنَّما عليك البلاغ وهو هداية الإرشاد، فلا تَمتنِعْ من بذْل الصَّدقة للكفَّار والمشركين؛ كي يَدخلوا في الإسلام حاجةً منهم إليها، ولكنَّ الله تعالى هو الَّذي يَهدي وحده مَن يشاء من خلْقه إلى الإسلام فيُوفِّقهم له، فلا تمنعهم الصَّدقة ولو لم يهتدوا[(١)].

عن أسماءَ بنت أبي بكرٍ رضي الله عنهما، قالت: (قَدِمتْ أُمِّي وهي مُشرِكَةٌ، في عهدِ قُريشٍ ومُدَّتِهم إذ عاهَدوا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، مع أبيها، فاستَفتَيتُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ فقُلْتُ: إنَّ أُمِّي قَدِمَت وهي راغِبَةٌ؟ قال: نعم، صِلِي أُمَّكِ)[(٢)].

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ﴾.

أي: إنَّ كلَّ ما تَبذُلونه صدقةً من الأموال- قليلةً أو كثيرةً- على أيِّ شخص- مسلمًا كان أو كافرًا- فنفْعُه في الحقيقة عائدٌ إليكم، وليس لله تعالى حاجةٌ به، والنفقة النافعة لصاحبها والمعتدُّ بها، هي ما كانت خالصةً لله تعالى، وطلَب بها صاحبُها الفوزَ في الآخرة بالنظر إلى وجهه الكريم سبحانه، وتلك هي صدقات المؤمن؛ فإنَّ إيمانهم يُحتِّم عليهم الإخلاصَ لله عزَّ وجلَّ، وإذا تَصدَّق بهذه النيَّة فقد وقع أجرُه على الله تعالى، ولا عليه في نَفْس الأمْر لمن أصاب: أَلِبَرٍّ أو فاجرٍ، فهو مُثابٌ في جميع الأحوال على قصْده[(٣)].

= قال ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٤/ ٢٧): غريب. وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٣٢٧)، وحسَّن إسنادَه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦/ ٦٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦، ٩٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٦١-٣٦٢).

(٢) رواه البخاري (٥٩٧٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٠٣).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٨٧-٣٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٦٧-٣٦٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦، ٩٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٦٢).

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((قال رجلٌ: لأتصدَّقنَّ الليلةَ بصدقةٍ، فخرج بصدقتِه فوضعها في يدِ زانيةٍ، فأصبحوا يتحدَّثون: تُصُدِّق الليلةَ على زانيةٍ، قال: اللهمَّ لك الحمد على زانيةٍ، لأَتصدَّقنَّ بصدقةٍ. فخرج بصدقتِه فوضعها في يدِ غَنيٍّ، فأصبحوا يتحدَّثون: تُصُدِّق على غنيٍّ، قال: اللهمَّ لك الحمدُ على غنيٍّ، لأَتصدقنَّ بصدقةٍ. فخرج بصدقتِه فوضعها في يد سارقٍ، فأصبحوا يتحدَّثون: تُصُدِّقَ على سارقٍ، فقال: اللهمَّ لك الحمد على زانيةٍ، وعلى غنيٍّ وعلى سارقٍ، فأُتِيَ فقيل له: أمَّا صدقتُك فقد قُبِلَتْ، أما الزَّانيةُ فلعلَّها تستَعِفُّ بها عن زِناها، ولعلَّ الغنيَّ يَعتَبِر فيُنفِق ممَّا أعطاه اللهُ، ولعلَّ السارقَ يَستعِفُّ بها عن سرقتِه))[1].

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ أيَّ مالٍ تَتصدَّقون به، قليلًا كان أو كثيرًا؛ فإنَّ أجره يُؤدَّى إليكم في الآخرة كاملًا من غير نَقْص؛ فلا يَضيع عنده سبحانه مثقالُ ذرَّةٍ من ذلك[2].

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى في الآيةِ الأولى أنَّه يجوز صَرْفُ الصَّدقة إلى أيِّ فقير كان، بيَّن في هذه الآية مَن هو أشدُّ النَّاسِ استحقاقًا بصرف الصَّدقة إليه[3]، فقال:

---

(١) رواه مسلم (١٠٢٢).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٦٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٦٧) ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٠٤).

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: اجعلوا صدقاتِكم للمُعْدَمين، الخاليةِ أيديهم من أيِّ شيء يقوم بمعيشتهم، لَمن حبَسوا أنفسَهم على الجهادِ في سبيل الله تعالى، فحبَسهم ذلك بدوره- مع خوفهم مِن تَربُّص أعدائهم بهم- عن التَّصرُّف في أشغال الدنيا، فلا يستطيعون تقلُّبًا في الأرض، وسفرًا في البلاد؛ ابتغاءَ المعاش وطلب الرزق[1].

﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

أي: يَحسَبهم الجاهلُ بأمرهم وحالهم ممَّن لا فِطْنة لديه، أغنياء من شدَّة تَرْكهم التَّعرض لما في أيدي الناس، وكِتمانهم حاجتهم صبرًا منهم على البأساء والضَّراء، لكن بإمكان ذوي الألباب تمييزُهم بالتَّوسُّم والتَّفرُّس فيهم، وعلى رأسهم محمد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فيعلمون حقيقةَ حالهم من خلال علاماتهم، وآثار الحاجة البادية عليهم، من ملامِح وجوههم، أو نظراتهم، أو بعض عباراتهم، أو غير ذلك.

ونفَى اللهُ تعالى عنهم بالكلِّيَّة طلبَ حاجةٍ من الناس، وخاصَّةً الطلب المُصاحِب للشَّرَهِ والضَّراعة التي تكون في المُلحِّين، فهم بعيدون عن ذلك تمامًا؛ لأنهم يَستَمِدُّون العَونَ من الله تعالى وحده.

فهذا الصِّنف من الفقراء هو أَوْلى المستحِقِّين للصَّدقة؛ لدَفْع حاجتهم، وإعانتهم على مَقصِدهم، وشكرًا لهم على ما اتَّصفوا به من جميل الأخلاق، وقصْر أنظارِهم على الخلَّاق[2].

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((ليس

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢-٢٥)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦-٣٠)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٧-٣٧٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٦٧-٣٦٩).

المِسكينُ الذي تَرُدُّه التمرةُ والتَّمرتان، ولا اللُّقمةُ ولا اللُّقمتان، إنَّما المِسكينُ الذي يَتَعَفَّفُ، واقرَؤوا إن شِئتُم- يعني قولَه: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾))[١].

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ كلَّ ما تُنفِقونه من أيِّ خيرٍ كان قليلًا أو كثيرًا، فإنَّ الله تعالى يعلمه، ويُحصيه لكم، وسيَجزيكم عليه أتمَّ الجزاء[٢].

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

قيل لَمَّا حضَّ سبحانه وتعالى على النَّفقة، وبيَّن أنَّ أكمل من تُصرَف إليه النفقة من هو، بيَّن في هذه الآية أنَّ أكمل وجوه الإنفاق كيف هو[٣]، فقال:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)﴾.

أي: إنَّ الإنفاق في أيِّ وقتٍ كان ليلًا أو نهارًا، وعلى أيِّ حالٍ وُجِد سرًّا أو علانيةً، فإنَّه سبب الجزاء على كلِّ حال؛ فليبادرْ إليه العبد- ولا يؤخِّره- في جميع الأوقات والأحوال، فإنَّ مَن يقوم بذلك، له يوم القيامة أجرٌ عظيمٌ، ولا يُصيبه خوفٌ على ما يُستقبَل، ولا يَعْتريه حزنٌ على ما مضَى، فيفوز بحصول المرغوب، والنَّجاة من المرهوب[٤].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٣٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٧-٧٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦-٩٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٢).

الفوائد التربويَّة:

١- الحثُّ على التفكُّر فيما يُمكِن الوصول إليه بالتَّفكُّر فيه، كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

٢- أنَّ مِن مُقتضى الإيمان امتثالَ أمر الله، واجتنابَ نهيه؛ ووجْهه أنَّ الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا﴾؛ فلولا أنَّ للإيمان تأثيرًا، لكان تصدير الأمر بهذا الوصف لغوًا لا فائدة منه[٢].

٣- فضيلةُ العقل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ لأنَّ التَّذكُّر- بلا شكٍّ- يُحمَد عليه الإنسان؛ فإذا كان لا يقع إلَّا مِن صاحب العقل دلَّ ذلك على فضيلة العقل[٣].

٤- أنَّه لا يتَّعِظ بالمواعظ الكونيَّة أو الشَّرعيَّة إلَّا أصحابُ العقول، الذين يتدبَّرون ما حصل من الآيات سابقًا ولاحقًا فيَعتبِرون بها، وأمَّا الغافل فلا تَنفْعه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٤].

٥- أنَّه ينبغي للإنسان إذا أَنفَق نفقةً أن يَحتسِب الأجرَ على الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾؛ لأنَّ مَن أنفَق وهو يَشْعُر أنَّ الله يعلم هذا الإنفاقَ، فسوف يَحتسِب الأجرَ على الله[٥].

٦- أنَّ إخفاءَ الصَّدقة أفضلُ من إبدائها؛ لأنَّه أقربُ إلى الإخلاص، وأَسْتر لُلمُتصدِّق عليه؛ لكن إذا كان في إبدائها مصلحةٌ تَرجُح على إخفائِها- مِثْل أن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٣٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٤١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٥٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٥٥).

يكون إبداؤها سببًا لاقتِداء النَّاس بعضهم ببعض، أو يكون في إبدائها دَفْع ملامة عن المُتصدِّق، أو غير ذلك من المصالِح- فإبداؤها أفضل[١].

٧- قوله تعالى: ﴿وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ﴾ فيه تنبيهٌ على الإخلاصِ في كلِّ عملٍ؛ حتى في الإنفاقِ وبذلِ المالِ، وأنَّ الإنفاقَ الذي لا يُبتغى به وجهُ الله لا ينفعُ العبدَ، فالإنفاقُ قد يحملُ عليه محبةُ الظهورِ، ومحبةُ الثناءِ إلى غيرِ ذلك[٢].

٨- الإشارة إلى الفراسة، والفِطْنة؛ لقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾؛ فإنَّ السِّيما هي العلامة التي لا يَطَّلِع عليها إلَّا ذوو الفراسةِ[٣].

٩- في قوله تعالى: ﴿الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ﴾ بيانُ عَداوةِ الشَّيطان للإنسان؛ لأنَّه في الواقع عدوٌّ له في الخبر، وعدوٌّ له في الطَّلب؛ في الخبر: يَعِدُه الفقر؛ وفي الطلب: يأمُره بالفحشاء؛ فهو عدوٌّ مخبرًا وطالبًا، والعياذ بالله[٤].

١٠- أنَّ مَن أَمَر شخصًا بالإمساك عن الإنفاق المشروع، فهو شبيهٌ بالشَّيطان، وكذلك مَن أمَر غيره بالإسراف، فالظَّاهر أنَّه شيطان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧][٥].

١١- أنَّ هذه المغفرةَ التي يَعِدُنا الله بها مغفرةٌ عظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهُ﴾؛ لأنَّ عِظَم العطاءِ مِن عِظَم المُعطي[٦].

١٢- أنَّه ينبغي للمُنفِق أنْ يتفاءل بما وعَد الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾؛ فإذا أَنْفَق الإنسانُ وهو يُحسِن الظنَّ بالله عزَّ وجلَّ أنَّ الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٦٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٧٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٤٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٤٩).

يَغْفِر له الذُّنوبَ، ويَزيده من فضله- كان هذا من خير ما تنطوي عليه السَّريرة[١].

١٣- أنَّ ما في الإنسان من العِلْم والرُّشد فهو فَضْل من الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ فإذا مَنَّ الله سبحانه وتعالى على العبد بعِلم، ورُشْد، وقوَّة، وقُدرة، وسَمْع، وبصر فلا يترفَّع؛ لأنَّ هذه الصفات من الله عزَّ وجلَّ؛ ولو شاء الله لحَرَمه إيَّاها، أو لسَلبه إيَّاها بعد أن أعطاه إيَّاها؛ فقد يسلُب اللهُ العِلْمَ من الإنسان بعد أنْ أعطاه إيَّاه؛ وربما يَسلُب منه الحكمةَ؛ فتكون كلُّ تصرُّفاته طيشًا وضلالًا وهَدَرًا[٢].

١٤- تحذيرُ العبد من المخالَفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ فإنَّ إخبارَه إيَّانا بذلك يَستلزِم أن نخشَى من خِبرته عزَّ وجلَّ؛ فلا يَفقِدنا حيث أَمَرنا، ولا يرانا حيث نهانا[٣].

الفوائد العلمية واللَّطائف:

١- بيانُ تثبيت المعاني المعقولة بالأمور المحسوسة؛ لأنَّه أَقْرب إلى الفَهْم؛ وَجْه ذلك أنَّ الله سبحانه ضرَب مَثَلًا للمانِّ بالصَّدقة بصاحب الجنَّة، كما قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ﴾[٤].

٢- وجوب الزكاة في عُروض التِّجارة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ ولا شكَّ أن عُروض التِّجارة كَسْب؛ فإنَّها كَسْب بالمعاملة[٥].

٣- يُستفادُ من قوله: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾أنَّ المال الحرام لا يُؤمَر بالإنفاق منه؛ لأنَّه خبيث؛ والله تعالى طَيِّب لا يَقْبَل إلَّا طيِّبًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٥٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٦١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٣٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٤١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٤- الردُّ على الجَبْريَّة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ ووَجْه الدَّلالة: أنَّه لو كان الإنسان مُجبَرًا على عملِه لم يَصِحَّ أنْ يُوجَّه إليه الأمر بالإنفاق؛ لأنَّه لا يَقدِر على زعْم هؤلاء الجبرية؛ ولأنَّ الله أضاف الكسبَ إلى المخاطَب في قوله تعالى: ﴿مَا كَسْبْتُمْ﴾؛ ولو كان مُجبَرًا عليه لم يَصِحَّ أن يكون مَن كَسْبه[١].

٥- وجوب الزَّكاة في الخارج من الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾[٢].

٦- في قوله تعالى: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أضاف سبحانه الكسبَ إليهم، وإنْ كان هو الخالقَ لأفعالهم؛ لأنَّه فِعْلُهم القائم بهم، وأَسْنَد الإخراج إليه؛ لأنَّه ليس فِعْلًا لهم، ولا هو مقدورًا لهم، فأضاف مقدورَهم إليهم، وأضاف مفعوله الذي لا قُدْرة عليه إليه، ففي ضِمْنه الردُّ على مَن سوَّى بين النَّوعين، وسلَب قدرةَ العبد وفِعْله وتأثيره عنه بالكُليَّة[٣].

٧- قال تعالى: في قوله تعالى: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، خصَّ سبحانه هذين النَّوعين، وهما: الخارجُ من الأرض، والحاصلُ بكسب التجارة دون غيرهما من المواشي؛ إمَّا بحسَب الواقع؛ فإنَّهما كانَا أغلبَ أموالِ القوم إذ ذاك، فإنَّ المهاجرين كانوا أصحابَ تِجارة وكسْب، والأنصار كانوا أصحابَ حَرْث وزَرعٍ؛ فخصَّ هذين النَّوعين بالذِّكر لحاجتهم إلى بيان حُكْمهما، وعموم وجودهما، وإمَّا لأنَّهما أصولُ الأموال، وما عداهما فعنهما يكون، ومنهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٣).

ينشأ؛ فإنَّ الكسْب يدخل فيه التِّجاراتُ كلُّها، على اختلاف أصنافها وأنواعها من: الملابس، والمطاعم، والرقيق، والحيوانات، والآلات، والأمتعة، وسائر ما تتعلَّق به التِّجارة، والخارج من الأرض يتناول حبَّها وثمارَها، ورِكازها ومَعْدِنها، وهذان هما أصولُ الأموال وأغلبها على أهل الأرض؛ فكان ذِكْرهما أهمَّ[١].

٨- وجوب الزكاة في المعادن؛ لدخولها في عموم قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾[٢].

٩- إثبات القياس؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾؛ يعني إذا كنتَ لا ترضاه لنَفْسك، فلا ترضاه لغيرك، أي: قِسْ هذا بهذا[٣].

١٠- إثبات إغواء الشَّياطين لبني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾، وأنَّ للشَّيطان تأثيرًا على بني آدم إقدامًا، أو إحجامًا؛ أمَّا الإقدام: فيأمره بالزِّنا مثلًا، ويُزيِّن له حتى يُقدِم عليه، وأما الإحجام: فيأمره بالبُخل، ويَعِدُه الفقرَ لو أَنْفق، وحينئذ يُحجِم عن الإنفاق[٤].

١١- من مباحث اللَّفظ في الآية: استعمالُ الوعد في الخير والشَّر، وهو شائع لغة، ثم جرى عُرْف النَّاس أن يَخُصُّوا الوعدَ بالخير، والإيعادَ بالشرِّ، فإذا ذكَروا الوعدَ مع الشرِّ أرادوا به التَّهكُّم، على أنَّ ما يَعِدُ به الشَّيطان من الفقر هو على تقدير الإنفاق، ويلزمه الوعد بالغنى مع البخل الذي يأمر به؛ كما في قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٤٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٤٧، ٣٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٦٣).

١٢- إثبات الحكمة لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الحكمةَ كمالٌ؛ ومُعْطي الكمال أَوْلى به؛ فيُؤخذ من الآية إثباتُ الحِكمة لله بهذا الطَّريق كما في قوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾[١].

١٣- في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾: أنَّ مَن دعا على أخيه وهو ظالم له، فإنَّ الله لا يُجيب دعاءه؛ لأنَّه لو أُجيب لكان نَصْرًا له، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[٢][الأنعام: ٢١].

١٤- قوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾، أي: فنِعْم شيء هي، وهذا مدْح لها موصوفة بكونها ظاهرةً بادية، فلا يَتوهَّم مُبديها بُطلانَ أثرِه وثوابِه، فيمنعه ذلك من إخراجها، وينتظر بها الإخفاء، فتفوت أو تَعترِضه الموانعُ، ويُحال بينه وبين قلبه، أو بينه وبين إخراجها، فلا يؤخِّر صدقتَه العلانيَّة بعد حضور وقتها إلى وقت السرِّ، وهذه كانت حالَ الصحابة[٣].

١٥- في قوله: ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾أَطلَق لفْظَ (الفقراء)، ولم يَقُل: (فقراءكم)، فدلَّ ذلك على أنَّ الصَّدقة تُستَحَبُّ على كلِّ فقير- وإن كان كافرًا- فكما وسَعتْ رحمته الكافرَ فلم يَحرِمه لكُفْره من الرِّزق بسعيه، كذلك لم يُحرِّم عليه الصَّدقةَ عند عجزه عن الكسْب الذي يكفيه[٤].

١٦- تَفاضُل الأعمال، أي: إنَّ بعض الأعمال أفضلُ من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٥٧).
(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٦٠).

١٧- أنَّ هداية الخَلْق لا تَلزَم الرُّسل، والمراد بذلك هداية التوفيق، أمَّا هداية الدَّلالة فهي لازِمة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[١] [المائدة: ٦٧].

١٨- أنَّ الإنسانَ إذا بلَّغ شريعةَ الله بَرِئتْ ذِمَّتُه؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾؛ ولو كانت ذِمَّته لا تَبْرأ لكان مُلزَمًا بأنْ يهتدوا[٢].

١٩- أنَّ أعمالَ الإنسان لا تَنصرِف إلى غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾؛ وليس في الآية دليل على مَنْع أن يتصدَّق الإنسانُ بعمله على غيره؛ ولكنَّها تُبيِّن أنَّ ما عمِله الإنسان فهو حقٌّ له؛ ولهذا جاءت السُّنة صريحة بجواز الصَّدقة عن الميت[٣].

٢٠- الإشارة إلى أنَّ الإنفاق من الحرام لا يُقبَل؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾؛ ووَجْهه: أنَّ الحرام ليس بخير؛ بل هو شر[٤].

٢١- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ﴾ إثبات وجه الله عزَّ وجلَّ؛ وهو وجه حقيقي لا يُماثِل أوجهَ المخلوقين على ما يليق بجلاله وعظمته سبحانه؛ وهو من الصِّفات الذاتيَّة الخبريَّة؛ التي لم يَزْل، ولا يزال مُتَّصِفًا بها[٥].

٢٢- أنَّ الإنفاق يكون سببًا لشَرْح الصَّدر، وطرْد الهمِّ، والغمِّ؛ لقوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]؛ وهذا أمْر مُجرَّب مُشاهَد أنَّ الإنسان إذا أَنْفق يبتغي بها وجهَ الله انشرَح صدرُه، وسُرَّتْ نفْسُه، واطمأنَّ قلبه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٦٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٦٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٦٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٦٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٧٣).

٢٣- في تقديم اللَّيل على النَّهار، والسِّر على العلانية إيذانٌ بتفضيل صدقةِ السرِّ، وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[١].

بلاغة الآيات:

١- ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ فيه عدد من أوجه البلاغة[٢]:

- فيه مناسبةٌ حسَنة، حيث ضرب الله هذا مثلًا في مقابل مَثل النفقة لمرضاة الله والتَّصديق، وهو نفقة الرِّئاء، ووجه الشَّبه هو حصولُ خيبةٍ ويَأْسٍ في وقت تمام الرَّجاء وإشراف الإنتاج، فهذا مقابل قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ [البقرة: ٢٦٥] الآية[٣].

وجاز عطفُ الماضي على المستقبَل -حيث عطف ﴿وَأَصَابَه الكِبَرُ﴾ على ﴿أَيَوَدُّ﴾-؛ لأنَّ (الواو) للحال لا للعطف، ومعناه: أيودُّ أحدكم أن تكون له جَنَّةٌ حالَ ما أصابه الكِبَر، ثم إنَّها تُحرق، أو حُمل العطف على المعنى- لأنَّه يصح أن يقال: وددت أن يكون كذا، ووددت لو كان كذا- كأنَّه قيل: أيودُّ أحدُكم أن تكون له جنَّةٌ-إنْ كان له جَنَّة- وأصابه الكِبَر[٤].

- قوله: ﴿جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ فيه ذكر الخاصِّ بعد العامِّ، حيث خصَّ جنَّة النخيل والأعناب بالذِّكر، مع أنَّهما من ضِمن الجنَّات؛ لأنَّ النخيل والأعناب أكرمُ الشَّجر، وأكثرها منافعَ، وجعل الجَنَّة منهما - وإن كانت محتويةً

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١٣-٣١٤)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٣-٥٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤١١-٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٣-٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٥١).

على سائر الأشجار - تغليبًا لهما على غيرهما، ثم أرْدَفهما ذِكر كلِّ الثَّمرات[١].

- **قوله:** ﴿**فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ**﴾ الإتيان بفعل (أصاب) في هذه الآيات كلِّها: (فأصابه وابل - وأصابه الكبر - فأصابها إعصار)؛ لأنَّه أبلغ وأدلُّ على التأثير بوقوع الفعل على ذلك الشيء، ولو قيل: (وَبِلَ - وكَبِر - وأعصرت)، لم يكُن فيه ما في لفظ الإصابة من المبالَغة[٢].

٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

- **قوله:** ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ...**﴾ في هذه الآية من أنواع البلاغة ما يُعرف بـ(**التتميم**)[٣]، وقد اندرَج التتميم في هذه الآية في صُور كالتالي:

أ- لَمَّا ذكَر سبحانه ﴿الجنة﴾ لم يكتفِ بذكرها مجرَّدةً من كلِّ قيد؛ لأنَّ الجنة في اللغة لفظ يصدُق على كلِّ شجرٍ متكاثِف ملتفٍّ، يَستر مَن يتفيَّأ بظلاله الوريفة، فتمَّم ذلك النقص بقوله: ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، ثم تمَّم ذلك بذكر الأنهار الجارية؛ للدَّلالة على ديمومة الخصب؛ إذ لا فائدةَ منها إذا نضَبتْ فيها الأمواه، وكان مآلها إلى اليبس والذُّبول، ولدفْع الإيهام الذي يُخيَّل الى السَّامعين أنَّ هذه الجنة قد تكون مقتصرةً على هذين الضربين من الثمرات- وهما: النَّخيل والأعناب- تمَّم بقوله:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١٣-٣١٤)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٩٨).

(٣) **التتميم**: هو الإتيان بكلمة أو كلام متمِّم للمقصود، أو لزِيادةٍ حسنة، بحيث إذا طُرح من الكلام نقص معناه في ذاته، أو في صِفاته، أو في صُوَره، مع بقاء الكلام سليمًا. ينظر: ((البحر المحيط في التفسير)) (١/ ١٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحي الدين درويش (١/ ٤٤).

﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾؛ فالحسرة -إذن- على احتراقها أشدُّ، والأسف على فنائها أعمُّ.

ب- ووصف الحادِث المهلِك الذي أدَّى الى فناء الجنة بقوله: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ يجتاح الأخضرَ واليابس، على أنَّ الإعصار مهما يبلغ تأثيره فإنَّه ربما كان مؤجَّلَ الإهلاك، فدفع هذا الإيهام بقوله: ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ فأحرقها بعد أن أوْدَى بأشجارها، ولم يكتفِ بذكر النار؛ لأنَّها قد تأتي على شيء ممَّا تحرقه، ويبقَى بعد ذلك شيءٌ آخر منها، فدفَع هذا الإيهامَ مرةً أخرى بذِكر الاحتراق ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾[1].

- **قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ...﴾** في هذه الآية من طُرق البلاغةِ في الخِطاب: الإفضاء إلى المقصود، حيث أمَر بالصَّدقات بعد أنْ قدَّم بين يديه بمواعظَ وترغيبٍ وتحذير. وهذا من ارتكاب خلاف مقتضى الظاهر في ترتيب الجُمل، ونُكتة ذلك: أنَّه قد شاع بين النَّاس الترغيبُ في الصَّدقة، وتكرَّر ذلك في نزول القرآن، فصار غرضًا دينيًّا مشهورًا، وكان الاهتمامُ بإيضاحه، والترغيبُ في أحواله، والتنفير من نقائصه، أَجدرَ بالبيان[2].

- **قوله: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ... وَلَا تَيَمَّمُوا﴾** فيه تأكيدُ الأمر بالنهي بعده عن ضدِّه، وعبَّر بصيغة التفعُّل (تيمَّموا)، أي: لا تتكلَّفوا أن تقصدوا، وفيه مبالغة أيضًا[3].

- **قوله: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾** فيه تخصيص المكتسَب دون الموروث؛ لأنَّ الإنسان بما يكتسبه أضنُّ به ممَّا يرثه؛ فالموروث معقولٌ من فحواه؛ إذ هو أَوْلى، وهو من محاسن البلاغة[4].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٨٩-٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٧٧).

- **قوله**: ﴿**طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ**﴾ فيه إيجاز بالحذف في ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا﴾، والتقدير: من طيِّبات ما أخرجنا، وحُذِف لدلالة ما قبله وما بعده عليه. وكُرِّر حرف الجرِّ (مِن) على سبيل التوكيد، أو إشعارًا بتقدير عامل آخَر، حتى يكون الأمرُ مرَّتين[١].

- **قوله**: ﴿**مِنْهُ تُنفِقُونَ**﴾ فيه تقديم الجار والمجرور (منه) على الفعل (تنفقون)؛ للتخصيص، لتوبيخهم بما كانوا يتعاطونه من إنفاقِ الخبيث خاصَّةً، لا لتسويغ إنفاقه مع الطيِّب[٢].

- **قوله**: ﴿**إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ**﴾ فيه تأكيد الشيء بما يُشبه ضِدَّه - على قول مَن جعَل النفي هنا بمعنى النهي، أي: لا تأخذوه إلَّا إذا تغاضيتم عن النهي وتجاهلتموه. والتعبير بالإغماض: للمبالغة في التغافُل عن المكروه الشَّديد[٣].

- **قوله**: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ تذييلٌ مقرِّر لمضمون ما قبله، وافتتحه بـ(اعلموا)؛ للاهتمامِ بالخبر، أو نُزِّل المخاطبون الذين نُهوا عن الإنفاق من الخبيث منزلةَ مَن لا يعلم أنَّ الله غني، فأَعطوا لوجهه ما يقبله المحتاج بكلِّ حال، ولم يَعلموا أنَّه يحمد من يُعطي لوجهه من طيِّب الكسب[٤].

- **قوله**: ﴿**حَمِيدٌ**﴾ عبَّر بصيغة (فعيل)؛ للمبالغة، أي: شديد الحمد؛ لأنَّه يُثني على فاعلي الخيرات، ويجوز أن يكون المراد: أنَّه محمود، فيكون حميد بمعنى مفعول، أي: فتخلَّقوا بذلك؛ لأنَّ صفات الله تعالى كمالات[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٥٨).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٩١).

٣- **قوله:** ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ**﴾ قدَّم هنا اسم ﴿**الشَّيْطان**﴾ مسندًا إليه؛ لأنَّ تقديمَه مؤذِنٌ بذمِّ الحُكم الذي سِيق له الكلام، وشؤمه لتحذير المسلمين من هذا الحُكم، ولأنَّ في تقديم المسنَد إليه على الخبر الفعلي تقويَّ الحُكم وتحقيقَه[١].

٤- **قوله:** ﴿**وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ فيه توكيد الجملة الأولى بالجملة الثانية[٢].

- وعطفها على جملة ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾؛ لإظهار الفرق بين ما تدعو إليه وساوسُ الشيطان، وبيْن ما تدعو إليه أوامرُ الله تعالى، والوعد فيه حقيقةٌ لا محالة[٣].

٥- **قوله تعالى:** ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾

- **قوله:** ﴿**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فقد أوتي خيرًا كثيرًا**﴾ الجملة اعتراض وتذييلٌ لِمَا تضمَّنتْه آياتُ الإنفاق من المواعظ والآداب وتلقين الأخلاق الكريمة؛ ممَّا يُكسب العاملين به رجاحةَ العقل، واستقامة العمل[٤].

- والتنكير في **قوله:** ﴿**خَيْرًا كَثِيرًا**﴾: للتعظيم، كأنَّه قال: فقد أُوتي أيَّ خير كثير[٥].

٦- **قوله:** ﴿**وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ**﴾ تذييلٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٠٦).

للكلام السَّابق المسوق للأمْر بالإنفاق وصِفاته المقبولة، والتحذير من المثبِّطات عنه، والمقصود من هذا التذييل: التذكيرُ بأنَّ الله لا يَخفى عليه شيء من النَّفقات وصفاتها، وأدمج النَّذر مع الإنفاق فكان الكلام جديرًا بأن يكون تذييلًا[١].

- **وقوله:** ﴿**فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ**﴾ خبرٌ يُفيد -على اختصاره- الوعدَ العظيم للمطيعين، والوعيدَ الشَّديد للمتمرِّدين[٢]. وتصدير الجملة بـ(إنَّ) لتأكيد مضمونها؛ إفادة لتحقيق الجزاء؛ فإنَّه تعالى يجازيكم عليه ألبتةَ، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر؛ فهو ترغيبٌ وترهيب، ووعْد ووعيد[٣].

٧- **قوله:** ﴿**وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ**﴾

- فيه استعمال العامِّ المراد به الخاصُّ - على القول بأنَّهم هم المشرِكون. أو: هم المنفِقون بالمنِّ والأذى والرِّياء، والمبذِّرون في المعصية. أو: المنفِقو الحرام[٤].

- وإيراد صِيغة الجمْع (أنصار) لمقابلة (الظالمين)، أي: وما لظالم من الظالمين نصيرٌ من الأنصار، والجملة استئنافٌ مقرِّر لـِمَا قبله من الوعيد، مفيدٌ لفظاعة حال مَن يَفعل ما يُفْعَل مِن الظالمين[٥].

٨- **قوله تعالى:** ﴿**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾

- **قوله:** ﴿**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ...**﴾ فيه نوعُ تفصيل لبعض ما أُجمل في الشرطيَّة، وبيان له؛ ولذلك ترك العطف بينهما بالواو[٦]. والألف واللام في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٦٥-٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٦٥-٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠٩-٢١٠).

﴿الصَّدقات﴾ لتعريف الجنس، ومحمله على العموم، فيشمل كلَّ الصَّدقات؛ فرْضَها ونفْلَها، وهو المناسب لموقع هذه الآية عقبَ ذِكر أنواع النفقات[١].

- **وقوله**: ﴿**فنِعِمَّا هِي**﴾ (ما) في (نعما) نكرة غير موصولة ولا موصوفة، في تأويل الشيء، أي: نعم الشيءُ هو، وتمثيله بالنَّكرة أبينُ، والتقدير: نعم شيئًا هي إبداء الصدقات، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه[٢]. وقوله: ﴿فنِعِماَّ هي﴾ فيه جمْع الأمداح المبهَمة؛ لأنَّ (نِعم) كلمة مبالغة تَجمع المدحَ كلَّه، و(ما) كلمة مُبهمَة تجمع الممدوح؛ فتطابقتَا في الإبهام؛ فإنَّ (نِعْم) و(بئس) للمبالغة، فالمراد بهما التناهي في المدح والذمِّ، ولاختصاصهما بهذا المعنى مُنعِتَا التصرُّف، واقتُصر بهما على المعنى؛ لأنَّ المدح والذمَّ إنما يكونانِ متعلِّقينِ بما ثبَت واستقرَّ، ولا يُمدح الإنسانُ بما لم يقعْ منه[٣].

- كذلك قوله: ﴿**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هي...**﴾ استئناف بيانيٌّ ناشئ عن قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾؛ إذ أشْعَر تعميم ﴿مِن نَفقةٍ﴾ بحال الصَّدقات الخفيَّة، فيتساءل السامع في نفسه: هل إبداء الصدقات يُعدُّ رياءً، وقد سمع قبل ذلك قوله: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئاءَ النَّاسِ﴾؛ ولأنَّ قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ قد كان قولًا فصلًا في اعتبار نيَّات المتصدِّقين، وأحوال ما يُظهرونه منها، وما يُخفونه من صَدقاتهم، فهذا الاستئناف يدفَع توهمًا من شأنه تعطيلُ الصَّدقات والنفقات، وهو أن يُمسك المرءُ عنها إذا لم يجد بُدًّا من ظهورها، فيخشى أن يصيبه الرياء[٤].

- **قوله**: ﴿**مِن سيِّئاتكم**﴾ دخول (مِن)؛ لإفادة التبعيض، أي: ونُكفِّر عنكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٦٦-٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٦٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٦٦-٦٧).

بعض سيِّئاتكم؛ لأنَّ السيِّئاتِ كلَّها لا تُكفَّر بذلك، وإنما يُكفَّر بعضها، ثم أَبْهَم الكلامَ في ذلك البعض؛ لأنَّ بيانه كالإغواء بارتكابها إذا عُلِم أنها مكفَّرة، أو تكون (مِن) بمعنى مِن أَجْل، أي: ونكفِّر عنكم مِن أجْل ذنوبكم، كما تقول: ضربتُك من سوء خُلقك، أي: من أجْل ذلك[١].

- **قوله:** ﴿**وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ خبرٌ مرادٌ منه الترغيبُ في الإسرار[٢].

- وفيه مناسبةٌ حسَنة في ختْم هذه الآية بهذه الصِّفة؛ لأنها تدلُّ على العلم بما لَطُف من الأشياء وخفي، فناسَب الإخفاء في قوله: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا﴾ ختْمها بالصِّفة المتعلِّقة بما خفي (خبير)[٣].

٩- قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

- **قوله:** ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ**﴾ فيه الخِطاب بما ظاهره خاصٌّ -وفي ذلك تسلية له صلَّى الله عليه وسلَّمَ- والمراد منه العامُّ؛ فظاهر قوله ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ خطاب للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ولكن المراد به هو وأمَّته، بدليل قوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾، وهذا خطاب عام، ثم قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾، وهو في الظاهر خاصٌّ، ثم قال بعده: ﴿ومَا تُنْفِقُوا من خَيرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾، وهذا عامٌّ؛ فيُفهم من عموم ما قبل الآية وعمومِ ما بعدها عُمومُها أيضًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٦٦).

- **قوله**: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ﴾ تقديم الخبَر المسنَد (عَلَيْكَ) على اسمِ (لَيْسَ) المسنَد إليه (هُداهم)؛ إمَّا لمجرَّد الاهتمام، بنفي كون هُداهم حقًّا على الرسول، تهوينًا للأمر عليه، وإمَّا أن يكون جرى على خِلاف مقتضى الظاهر، بتنزيلِ السَّامعين منزلةَ مَن يَعتقد أنَّ إيجاد الإيمان في الكفَّار يكون بتكوين الله، وبالإلجاء من المخلوق، فقصر هداهم على عدم الكون في إلجاء المخلوقين إيَّاهم، لا على عدم الكون في أنَّه على الله، فيلزم من ذلك أنَّه على الله، أي: مُفوَّض إليه[1].

- **قوله**: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

- **فيه** مع قوله: ﴿هُداهم﴾ جناس مغاير؛ لأنَّ إحدى الكلمتين اسم، والأخرى فِعل[2].

- وجِيء فيه بحرف الاستدراك (لكن)؛ لِمَا في الكلام المنفيِّ من توهُّم إمكان هديهم بالحِرص أو بالإلجاء، فمصبُّ الاستدراك هو الصِّلة (مَن يشاء)، أي: فلا فائدةَ في إلجاء مَن لم يشأ الله هدايته، والتقدير: ولكن هداهم بيدِ الله، وهو يَهدي من يشاء، فإذا شاء أن يَهديهم هداهم[3].

- **وفيه**: تلوينُ الخطاب؛ إذ الجملة معترضة، جيء بها على تلوين الخِطاب وتوجيهه إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، مع الالتفات إلى الغَيبة فيما بين الخِطابات المتعلِّقة بالمكلَّفين؛ مبالغةً في حمْلهم على الامتثال؛ فإنَّ الإخبار بعدم وجوب تدارُك أمرهم على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مؤذنٌ بوجوبه عليهم حسبما ينطق به ما بعدَه من الشرطيَّة. وعلى القول بأنَّ المعنى: ليس عليك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧١-٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٩٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٢).

هُدَى مَن خالفَك حتى تمنعَهم الصَّدقة؛ لأجْل دخولهم في الإسلام، فلا التفاتَ حينئذٍ في الكلام، وضمير الغَيبة للمعهودين من فقراء المشركين، بل فيه تلوين للخطاب فقط[١].

- **قوله**: ﴿**وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ**﴾ أسلوبٌ ظاهره الخبر، ولكن معناه النَّهي، أي: ولا تُنفقوا إلَّا ابتغاءَ وجه الله[٢].

- وتَكرار فِعل النَّفقة - ﴿وَمَا تُنْفِقُوا﴾، ﴿وَمَا تُنْفِقون﴾، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا﴾ - ثلاثَ مرَّات في الآية؛ لمزيدِ الاهتمام بمدلولِه، وجِيء به مرَّتين بصِيغة الشَّرْط عندَ قصْد بيان الملازمة بين الإنفاق والثَّواب، وجِيء به مرةً في صِيغة النَّفي والاستثناء؛ لأنَّه قصد الخبر بمعنى الإنشاء، أي: النَّهي عن أن يُنفقوا إلَّا لابتغاء وجه الله[٣].

- ﴿**وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**﴾: تقديم (وَأَنْتُم) على الخبر الفِعلي (لا تُظْلَمون)؛ لمجرَّد التقوِّي، وزيادة في التنبيه على أنَّهم لا يُظلمون، وإنَّما يَظلمون أنفسهم[٤].

- وجعلت هذه الأحكام جملًا مستقلًّا بعضها عن بعض، ولم تُجعل جملةً واحدةً مقيَّدةً فائدتُها بقيود جميع الجُمل، وأُعيد لفظ الإنفاق في جميعها بصِيغ مختلفة؛ تكريرًا للاهتمام بشأنه؛ لتكون كلُّ جملة مستقلةً بمعناها، قصيرة الألفاظ كثيرة المعاني، فتجري مجرى الأمثال[٥].

١٠- قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٦٦-٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٢-٧٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

- قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه إيجازٌ بالحذف لفَهمِه من السِّياق؛ فالجارُّ (للفقراء) متعلِّق بمحذوف، والتقدير: اعجَبُوا للفقراء، أو اقصدوا الفقراءَ، واجعلوا ما تُنفقون للفقراء[١].

- وفيه كناية، حيث عبَّر بالضَّرب في الأرض عن التِّجارة؛ لأنَّ شأنَ التاجر أن يسافِر ليبتاع ويبيع، فهو يضرب الأرض برجليه أو دابَّته[٢].

- قوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ فيه عِدَّة أوجه بلاغيَّة:

- فقوله: ﴿التَّعَفُّفِ﴾ التعبير بصيغة (التفعُّل) في (التعفُّف)؛ لإفادة الاجتهاد في العِفَّة والمبالغة فيها[٣].

- وقوله: ﴿تَعْرِفُهم بسِيماهُم﴾ الجملة بيانٌ لجملة ﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ﴾، كأنَّه قيل: فبماذا تصِل إليهم صدقاتُ المسلمين إذا كان فقرُهم خفيًّا، وكيف يُطَّلع عليهم؟ فأُحيل ذلك على مظنَّة المتأمِّل[٤].

- وقوله: ﴿بِسِيمَاهُم﴾ جاءَ التعبير بصيغة (فيعال)؛ للمبالغة من السِّمة والوسم، وهي العلامة الخفيَّة التي تتراءى للمستبصر[٥].

- قوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ فيه من بديع البيان: ما يُسمَّى بـ(نفي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١٨)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٥).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٥).

الشيء بإيجابه)، وهو إثبات شيء في ظاهر الكلام، ثم نفْي ما هو مِن سببه؛ ففي هذه الآية: المنفيُّ في ظاهر الكلام هو الإلحاف في السُّؤال، لا نفْس السؤال مجازًا، والمنفيُّ في باطن الكلام حقيقةُ نفْس السؤال؛ إلحافًا كان أو غيرَ إلحاف[١]، وقد يَرِد نفيُ الشيءِ في القُرآن مُقيَّدًا، والمرادُ نفيُه مطلقًا؛ كما نفَى هنا عنهم السُّؤالَ بنفي صورةٍ مستكرَهة، وهي الإلحافُ في المسألة، والمقصود نفيُ السؤال مطلقًا[٢].

- **قوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾** فيه إعادة التحريض على الإنفاق، حيث ذكر مرةً رابعة، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ كنايةٌ عن الجزاء عليه؛ لأنَّ العلم يُكنى به عن أثره كثيرًا، فلمَّا كان الإنفاق مرغَّبًا فيه من الله، وكان عِلم الله بذلك معروفًا للمسلمين، تعيَّن أن يكون الإخبارُ بأنه عليمٌ به، أنه عليم بامتثال المنفِق، أي: فهو لا يُضيِّع أجره؛ إذ لا يمنعه منه مانعٌ بعد كونه عليمًا به؛ لأنَّه قدير عليه، وقد حصَل بمجموع هذه المرَّات الأربع من التحريض ما أفاد شدَّةَ فضْل الإنفاق بأنَّه نفْع للمنفِق، وصِلة بينه وبين ربِّه، ونوال الجزاء من الله، وأنَّه ثابتٌ له في عِلم الله[٣].

١١- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

- **قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾** فيه تقديم اللَّيل على النهار، والسِّرِّ على العلانية، ولعلَّه يدلُّ على تلك الأفضلية؛ فاللَّيل

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٢٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٦-٧٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٢٥-٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٧).

مظنَّة صَدَقة السرِّ، فقُدِّم الوقت الذي كانت الصَّدقة فيه أفضلَ، والحال التي كانت فيها أفضل[١].

- **قوله**: ﴿**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**..﴾ فيه إدخالُ الفاء في خبَر الموصول (الذين)؛ للتنبيه على تسبُّب استحقاق الأجْر على الإنفاق؛ لأنَّ المبتدأ لَمَّا كان مشتملًا على صلة مقصود منها التَّعميم، والتَّعليل، والإيماء إلى عِلَّة بناء الخبر على المبتدأ - وهي ينفقون - صحَّ إدخال الفاء في خبره، كما تدخُل في جواب الشَّرط؛ لأنَّ أصل الفاء الدَّلالةُ على التسبُّب[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٠٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٧).

الآيات (٢٧٥- ٢٨١)

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿الرِّبَا﴾: أصْل الرِّبا الزِّيادة، وخُصَّ في الشَّرع بالزِّيادة على رأسِ المالِ دون وجْه حقٍّ[(١)].

﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾: الخَبْط: الضَّرب على غيرِ استواءٍ[(٢)].

﴿الْمَسِّ﴾: الجُنون، ويُقال لكلِّ أذًى ينال الإنسان: مسٌّ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

﴿مَوْعِظَةٌ﴾: الوعظ: تخويفٌ، أو زجْرٌ مُقترِن بتخويف، وتذكيرٌ بالخيرِ وما يَرِقُّ له القلبُ[١].

﴿يَمْحَقُ﴾: أي: يُذهِب، ويَنقُص؛ وأصْل المحْق: النُّقصان وذَهاب البركة[٢].

﴿فَأْذَنُوا﴾: أي: أَيقِنوا، واعلَموا ذلك، واسْمَعوه، وأذِن: استَمَع، ويُستعمل ذلك في العِلم الذي يُتوصَّل إليه بالسَّماع؛ إذ هو مبدأُ كثيرٍ من العِلم فِينا[٣].

﴿عُسْرَةٍ﴾: العُسر: نقيض اليُسْر، وأصْله: الصُّعوبة والشِّدة[٤].

﴿فَنَظِرَةٌ﴾: أي: انتظار، وإنظار، وأصْل (نظر): تأمُّل الشيء ومعاينتُه، ويقال: نظرتُه، أي: انتظرته[٥].

﴿مَيْسَرَةٍ﴾: الميسرة واليَسار عِبارة عن الغِنى، وأصْله اليُسرُ: ضدُّ العُسر[٦].

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾:

كان: هنا تامَّة غيرُ ناسخةٍ بمعنى وقَع أو حدَث أو وُجِد؛ فلا تحتاج إلى اسمٍ أو خبَر، بل تكتفي بفاعِلها كسائرِ الأفعال. **وذو**: فاعِل كان، مرفوع وعلامة رفْعه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩١-٨٩٢).

الواو؛ لأنَّه من الأسماء الخمسة. **وقيل**: إنَّ (كان) ناقصة، وذو اسمها، وخبرها محذوف، والتقدير: وإنْ كان ذو عُسرةٍ لَكُم عليه حقٌّ. أو: وإنْ كان ذو عُسرةٍ غريمًا، أو نحو ذلك[1].

المعنى الإجمالي:

يُخبِر تعالى عن آكِلي الرِّبا أنَّهم لا يَنهضون يومَ القيامة من قُبورهم للبَعْث إلَّا على هيئة مَن تسلَّط عليه الشيطان فأصابه بالجنون، وهذا الذي يُصيبهم بسبب أنَّهم قالوا: إنَّ البيعَ الذي أَحَلَّه الله مِثْل الرِّبا، كلاهما وسيلتان للتَّكسُّب، فلِمَ حُرِّم هذا وأبيح هذا؟ فكذَّبهم تعالى في زعْمهم هذا، بأنَّ الله أَحَلَّ الأرباحَ التي تَنتُج عن التِّجارة والشراء والبيع، وحرَّم الرِّبا، وليسا سواء؛ فمَن بلغه النَّهي عن الرِّبا، والتحذير من أكْله وتعاطيه، فانزَجَر فله ما أكَل منه وأخَذَ فيما مضى، وشأنه إلى الله تعالى في توفيقه أو خِذلانه فيما يستقبل، ومَن عاد لأكلِ الرِّبا بعد أنْ بلَغَه التحريمُ وأصرَّ على ذلك، فقد استوجب النارَ خالدًا فيها، ما لم يمنعه من الخلود فيها إيمانُه.

ثم أخبر تعالى أنَّه يَمْحَق الرِّبا ويَنزِع بركةَ مال المرابي، وبالمقابل يُنمِّي اللهُ أجرَ الصَّدقات للمُتصدِّق حتى تتضاعَف، والله تعالى لا يحبُّ من كفر بنعمه، واستحلَّ أكْلَ الرِّبا، وتمادَى في الإثم، باستمراره فيما نهاه عنه من أكْلِ الرِّبا.

ثمَّ وعَد الله الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات، وأقاموا الصَّلاة كما ينبغي، وأدَّوا زكاةَ أموالهم لِمَن يَستحِقُّها، بأنَّ ثوابهم عنده تعالى، ولا خوف عليهم مما يَستقبِلون، ولا يحزنون على ما مضى.

ثم يَعِظ الله الذين آمنوا بأمرهم أن يتَّقوه، وأن يتركوا الرِّبا في معاملاتهم التي هي حاضرة وقتَ تلقِّيهم للإنذار، إنْ كانوا صادقين في إيمانهم، فإنْ لم يفعلوا

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٤٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٤٣).

فلْيُعلِموا أنفسَهم وغيرهم أنَّ الله يُوعِدهم بحربٍ منه ومن رسوله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فإنْ تابوا وتركوا الرِّبا فلهم رؤوس أموالهم من الدُّيون التي لهم على النَّاس فقط، لا يَظلِمون النَّاس بأخْذ زيادة رِبويَّة، ولا يُظلَمون هم بإعطائهم رؤوسَ أموالهم ناقصةً؛ وأمَّا إنْ كان الذي عليه الدَّين مُعسِرًا لا يَجِد ما يُسدِّد به إليهم رؤوسَ الأموال التي هي دَينهم عليه، فعليهم أن يُمهِلوه حتى يتيسَّر له الوفاءُ، وأن يتصدَّقوا بإسقاط ما لهم على المَدَين المُعسِر من دَين أو بعضه؛ فهو خيرٌ لهم من إمهاله حتى يتيسَّر له القيامُ بردِّه لهم- إنْ كانوا يعلمون.

ثم يأمر اللهُ الناسَ أن يَحذَروا من يوم يَعودون فيه إلى الله بعد زَوال هذه الدُّنيا بما فيها، في ذلك اليوم الذي تستوفي فيه كلُّ نفْس جزاءَها بالعدل من ربِّها على كلِّ عملٍ صالح أو سيِّئ، لا يُنقَصُون شيئًا من ثواب الحسنات، ولا يُزاد عليهم شيءٌ من عقوبة السَّيِّئات.

تفسير الآيات:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر تعالى الأبرارَ المؤدِّين النَّفقات، المُخرِجين الزَّكوات، المتفضِّلين بالبِرِّ والصِّلات، لذوي الحاجات والقَرابات، في جميع الأحوال- شرَع في ذكْر أكَلَةِ الرِّبا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشُّبهات[1]، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٨).

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾.

أي: إنَّ الذين يأخذون الرِّبا، فينتفعون به بأكلٍ، أو شربٍ، أو لِباسٍ، أو سكَنٍ، أو غير ذلك من وجوه الانتفاع، إنَّما يقومون في الآخرة من قُبورهم لبَعْثهم ونُشُورهم، كهيئةِ المصروعِ الذي أصابه الشيطانُ بالجنونِ، كما كانوا في الدُّنيا كالمجانين في طلَبِ هذا المكسَب الخبيث[1].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾.

أي: هذا الذي يُصيبهم يومَ القيامة، من قُبْح حالهم، ووَحْشة قيامهم من قبورهم؛ من أجل أنهم كانوا في الدنيا يَكذِبون فيقولون اعتراضًا على أحكام الله تعالى في شَرْعه -: إنَّما البيعُ الذي أحلَّه الله لعباده مِثْلُ الرِّبا؛ فمَا الفرق بينهما وكلاهما وسيلتان للتَّكسُّب؛ فلِمَ حُرِّم هذا وأُبيح هذا؟ فكذَّبهم الله في قيلهم هذا؛ بأنَّ الله تعالى المُستحِقَّ للعبادة وحده هو الذي أحلَّ الأرباحَ في التجارة والشراء والبيع، وحرَّم أخْذ الزِّيادة بالباطل، وليسا سواءً، فالأمر أمره، والخَلْق خَلْقه، يَقضي فيهم ما يشاء، ويَستعبِدهم بما يُريد، وعليهم طاعته والتسليم لحُكْمه؛ فهو العالم بحقائق الأمور وما ينفع عباده، فيُبيحه لهم، وما يَضُرُّهم، فينهاهم عنه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٧-٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٤-٣٧٥).
قال ابن عطيَّة: (قال ابن عبَّاس رضي الله عنه، ومجاهد، وابن جُبَير، وقتادة، والربيع، والضحَّاك، والسُّدِّي، وابن زيد: معنى قوله: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ من قبورهم في البَعث يوم القيامة، قال بعضهم: يُجعل معه شيطانٌ يخنُقُه، وقالوا كلهم: يُبعَث كالمجنون؛ عقوبةً له وتمقيتًا عند جمْع المحشَر، ويقوِّي هذا التأويلَ المجمَعَ عليه في أنَّ في قراءة عبد الله بن مسعود: «لا يقومون يوم القيامة إلَّا كما يقوم») ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٧١-٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٢-٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٥).

﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: مَن بلَغه النَّهي عن الرِّبا والتخويف من أكْله وتعاطيه عمومًا، فكَفَّ عنه وانزَجَر، فله ما أكَل منه وأخَذ فيما مضى قبل نزول تحريمه، وشأن آكِله إلى الله تعالى في توفيقه أو خِذلانه، وكذا عفوُه أو عُقوبته، فيما يَستقبِل من زمانه، فإنْ عَلِم مِن قلبه صحَّةَ توبتِه، غفَر له، وإلَّا عاقبه على ذلك.

ومَن عاد لأكلِ الرِّبا بعدَ بلوغِه تحريمُه مستحلًّا له، وعاد إلى القولِ بأنَّ البيعَ مثلُ الرِّبا، وأصرَّ على ذلك، فقد استوجب عقوبةَ اللهِ تعالى بملازمةِ نارِه خالدًا فيها[1].

﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا زجَر الله تعالى عن الرِّبا ورغَّب في الصدقات، وكان الدَّاعي لبعض الناس إلى فِعل الرِّبا طلبَ الزيادة في الأموال، والصارف لبعض الناس عن الصَّدقة الاحترازَ عن نُقصان هذه الأموال؛ بَيَّن تعالى أنَّ الرِّبا في حقيقة الأمر نقصانٌ، وأنَّ الصدقةَ في حقيقة الأمر زيادةٌ[2]، فقال سبحانه:

﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾.

أي: يُذهِب الله تعالى مكاسبَ الرِّبا بالكُليَّة من يد صاحبها، أو يَحرِمه بركتَها؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٩-٧١٠)، ((تفسير البغوي)) (١/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ١٣٧).

وإنْ حُمِلت الآية على المسلِم العاصي آكِل الرِّبا، فيكون المراد بالخلودِ: الخلود المؤقت وهو طولَ المكث في جهنَّمَ؛ لأنَّ الإيمانَ مانعٌ مِن الخلودِ الدائمِ فيها. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٨، ٩٥٩)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن باز (٢٧/ ١٤٢، ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٨٠).

فلا يَنتفِع بها، بل يُعذِّبه بها في الدنيا، ويُعاقِبه عليها يوم القيامة جزاءً مِن جِنْس ما عمِل، بينما يُنمِّي أجرَ الصَّدقات لصاحبها حتى تَتضاعَف[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((مَن تصدَّقَ بعِدْلِ تمرةٍ من كَسْبٍ طَيِّبٍ -ولا يَقبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ- وإنَّ اللهَ يَتقبَّلُها بيمينِهِ، ثم يُربِّيها لصاحبها، كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّه[(٢)]، حتى تكونَ مِثْلَ الجبلِ))[(٣)].

﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يحبُّ كلَّ من كان كثيرَ الكُفْران، مُصرًّا على الكُفْر بنِعَمه، مقيمًا على ذلك، مُستحِلًّا أكْلَ الرِّبا، متماديًا في الإثم فيما نهاه عنه من أكْله وتَعاطِيه، وغير ذلك من معاصيه، لا يَرْعوي عنه، ولا يتَّعِظ بموعظة ربِّه؛ ذلك أنَّ المرابي لا يَرضَى بما قسَم اللهُ تعالى له من الحلال، ولا يَكتفي بما شرَع له من التَّكسُّب المُباح، فهو يَسعى في أكْل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جَحودٌ لما عليه من النِّعمة، ظَلومٌ آثمٌ بأكل أموال الناس بغير وجْه حقٍّ[(٤)].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥-٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧١٣-٧١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٨).

(٢) **الفَلُوُّ**- بوزنِ عَدُوّ، والفِلْو- وزان حِمْل- لُغة فيه: هو المُهْر يُفصَل عن أمِّه، والأُنثى فَلُوَّة. ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٨١).

(٣) رواه البخاري (١٤١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧١٥-٧١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٨-٣٧٩).

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر الله عزَّ وجلَّ أكَلَةَ الرِّبا، وكان من المعلوم أنَّهم لو كانوا مؤمنين إيمانًا ينفعهم لم يَصدُرْ منهم ما صدَر، ذكَر هنا حالةَ المؤمنين وأجرَهم، فإنَّ أكبر الأسباب لاجتِناب ما حرَّم الله تعالى من المكاسب الرِّبويَّة تكميلُ الإيمان وحقوقه، خصوصًا إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ فإنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكَر، والزكاة إحسانٌ إلى الخَلْق، وهذا يُنافي تعاطي الرِّبا، الذي هو ظلمٌ لهم[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذكَر حالَ آكِل الرِّبا، وحالَ مَن عاد بعدَ مجيء الموعظة، ذكَر ضدَّ هؤلاء؛ ليُبيِّن فَرْق ما بين الحالين، فعادة القرآن أنَّه مهما ذكر وعيدًا ذكَر بعده وعدًا[(٢)]، فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)﴾.

أي: إنَّ المؤمنين بما يجب الإيمان به، ومِن ذلك إيمانهم بما أُنزل إليهم من ربِّهم- والذي شَمِل تحريمَ الرِّبا- وعمِلوا الصَّالحات التي أمرهم الله عزَّ وجلَّ بها، وهي المبنيَّة على الإخلاص لله تعالى، والمتابَعة لرسوله صلَّى الله عليه وسلَّمَ- ومنها بذْل الصَّدقات في سبيله تعالى- وأَدَّوُا الصَّلاةَ قويمةً بشروطها وأركانها، وواجباتها وسُنَنها، وأَعْطَوا الزَّكاة المفروضة عليهم في أموالهم لُمستحقِّيها، فأولئك لهم ثوابُهم عند الله جلَّ وعلا، ولا خوف عليهم ممَّا يَستقبِلون، ولا هم على ما مضى يَحزنون[(٣)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧١١)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨-٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٨٠-٣٨١).

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن في الآية المتقدِّمة أنَّ مَن انتهى عن الرِّبا فله ما سَلَف، فقد كان يجوز أن يُظَنَّ أنه لا فرْق بين المقبوضِ منه والباقي في ذِمَّة القوم، وأنَّ الممنوع هو إنشاء عَقدٍ رِبويٍّ بعد التحريم؛ لذا أَزالَ تعالى هذا الاحتمالَ بأنْ أمَر بترك ما بقي من الرِّبا في العقود السابقة، قبل التَّحريم[١]، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨)﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، امتثِلوا ما أَمَركم الله تعالى به، وانتَهُوا عمَّا نهاكم عنه، فاتركوا ما لكم على الناس من الزِّيادة على رؤوس الأموال من المعاملات الحاضِرة التي بأيديكم، بعد هذا الإنذار الذي تلقَّيتُموه، إنْ كنتم صادقين حقًّا في إيمانكم[٢].

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كان مِن حقِّ مَن عَاندَ السِّيدَ الأخْذُ؛ سبَّب عن ذلك قوله[٣]:

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾.

القِراءات ذات الأَثَر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿فَأْذَنُوا﴾ قراءتان[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٨٢-٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٣٩).

(٤) قرأ حمزة وأبو بكر (فَآذِنُوا). وقرأ الباقون (فَأْذَنُوا) بالقَصْر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٦).
=

١- (فَآذِنُوا) من آذنتُه أُوذِنه، إذا أعلنتُه، كقولهم: أَعْلِمُوا مَنْ وراءَكم، فالمعنى: فأَعلِموا غيرَكم أنَّ كلَّ مَن لم يترك الرِّبا فهو حرب، وهذا أعمُّ؛ لأنَّهم إذا أعلَموا غيرَهم بالحرب من الله ورسوله، فقد علِموا هم ذلك.

٢- (فَأْذَنُوا) على أنَّه أمرٌ للمُخاطَبين بترك الرِّبا، أُمِروا أن يَعْلموا ذلك هم أنفسهم، فالمعنى: فإن لم تتركوا الرِّبا، فأَيْقِنوا بحربٍ من الله ورسوله.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾.

أي: إنْ لم تتركوا ما بقي لكم على النَّاس من زيادةٍ على رأس المال، مُستَمرِّين على تَعاطي الرِّبا بعد إنذاركم، فأَعلِموا أنفسَكم وغيرَكم، مُستيقنين أنَّ الله تعالى يتوعَّدكم بحرب وقتْل مِنه ومن رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام[(١)].

﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

أي: إن تُبْتُم فتركتُم أكْلَ الرِّبا، وأَنَبْتُم إلى الله عزَّ وجلَّ، فلكم رؤوس أموالكم من الدُّيون التي لكم على النَّاس دون الزِّيادة التي أحدثتموها على ذلك، فلا تَظْلِمُونَ الناسَ بأخْذ الزِّيادة، وَلا تُظْلَمُون بإعطائكم رؤوسَ أموالكم ناقصةً[(٢)].

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)﴾.

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾.

= ويُنظر لمعنى القراءتين: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٣١-٢٣٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١-٥٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٩٧-٣٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٣-٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

أي: إنْ كان الذي عليه الدَّين مُعسِرًا لا يَجِد ما يَردُّ به حقَّكم- وهو رؤوس أموالكم التي أَسلفتُموه إيَّاها دون زيادة- فعليكم أن تُمهِلوه حتى يتيسَّر له الوفاءُ به[١].

﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ تصدُّقَكم على المدينِ المعسرِ بالتنازلِ والعفو عمَّا لكم عليه أو بإسقاط بعضه، خيرٌ لكم من إمهاله حتى يتيسَّر له القيام بردِّه لكم، فقوموا بذلك إذًا إن كنتم من ذوي العِلْم بفضل الصَّدقة، وما لصاحبها من ثوابٍ عظيم[٢].

عن عبد الله بن أبي قَتادةَ: ((أنَّ أبا قَتادةَ رضي الله عنه، طلَب غريمًا لهُ، فتوارى عنهُ، ثم وجدَه، فقال: إنِّي مُعسِرٌ، فقال: آللهِ؟ قال: آللهِ، قال: فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يقول: مَن سرَّهُ أن يُنجيَه اللهُ من كُرَبِ يومِ القيامةِ، فلينفِّسْ عن مُعسِرٍ، أو يَضعْ عنهُ))[٣].

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((مَن نفَّسَ عن مؤمنٍ كُربةً من كُرَبِ الدنيا، نفَّسَ اللهُ عنه كُرْبةً من كُرَبِ يومِ القيامةِ، ومَن يَسَّرَ على مُعسِرٍ، يسَّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخرةِ، ومَن سترَ مسلمًا، ستره اللهُ في الدنيا والآخرةِ، واللهُ في عونِ العبدِ ما كان العبدُ في عونِ أخيه))[٤].

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦-٥٧، ٦٢-٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣، ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٩٠-٣٩١).

(٣) رواه مسلم (١٥٦٣).

(٤) رواه مسلم (٢٦٩٩).

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

أنَّ ممَّا يُهوِّن على العبدِ التزامَ الأمور الشرعيَّة، واجتنابَ المعاملات الرِّبوية، والإحسانَ إلى المُعسِرين، عِلْمُه بأنَّ له يومًا يَرجِع فيه إلى الله تعالى، ويُوفِّيه عملَه، ولا يظلمه مِثقالَ ذرَّة؛ ففي الآية ترغيبٌ في فِعْل ما أُمِر به أو نُدِب إليه ممَّا سبق؛ لأنَّ في تَرْك المنهيَّات سلامةً من آثامها، وفي فِعْل المطلوبات استكثارًا من ثوابها، والكلُّ يرجع إلى اتِّقاء ذلك اليوم الذي تُطلَب فيه السلامة وكثرة أسباب النجاح، وهو أيضًا صالح للتَّرهيب من ارتكاب ما نهي عنه ممَّا سبَق النَّهي عنه[1]؛ لذا قال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾.

أي: احذروا- أيُّها الناس- يومًا تزول فيه هذه الدنيا وما فيها من الأموال وغيرها، فترجعون إلى الله فتَلقَونه فيه، فاحذروا أن تَرِدوا عليه بسيِّئات تُهلِككم، وبلا حسنات تُنجِيكم، فتَستحِقُّوا عقابَ الله تعالى، وهو يوم مُجازاة الأعمال، فتستوفي فيه كلُّ نَفْس جزاءها بالعدل من ربِّها، على ما قدَّمت واكتسَبتْ من سيِّئ وصالح، لا يُنقَصُون شيئًا من ثواب الحسنات، ولا يُزاد عليهم شيءٌ من عقوبة السيِّئات[2].

الفوائد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: دلالةٌ على أنَّه لابد مع الإيمان من العمل الصالح، وأنَّ العمل لا يُفيد حتى يكون صالحًا؛ والصَّلاح أن ينبني العملُ على أمرين: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، وضده الشِّرك. والمتابعة، وضدها البِدْعة[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧-٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٩٦-٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٨١).

٢- أنَّ أخْذ الرِّبا يُنافي الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١].

٣- رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، حيث حرَّم عليهم ما يتضمَّن الظلم؛ وأكَّد هذا التَّحريم، وأنزل القرآن فيه بلفظ يَحمِل على تَرْك هذا المُحرَّم؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ والحُكْم: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾[٢].

٤- في قوله: ﴿مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ رحمةُ الله سبحانه وتعالى بالعبادِ؛ حيث أَرسَل إليهم الرُّسلَ؛ لأنَّ العقول لا يُمكِن أن تَستقِلَّ بمعرفة ما يَنفَعها ويَضُرُّها على وجه التَّفصيل؛ لقُصُورها، إنَّما تَعرِفه على سبيل الجُمْلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥]؛ فمِن أجْلِ ذلك أَرسَل اللهُ الرُّسلَ؛ فكان في هذا رحمةٌ عظيمة للخَلْق[٣].

٥- مُراعاة العدلِ في معاملة النَّاس بعضهم مع بعض؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[٤].

٦- فضيلة الإبراء من الدَّين، وأنَّه صَدقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ والإبْراءُ سُنَّة، والإنظار واجب، وهنا السُّنَّة أفضلُ من الواجب بنصِّ القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾[٥].

٧- فضيلة العِلم، وأنَّ العِلم يَهدي صاحبَه إلى الخير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٨٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٨٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٨٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٩٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٩٣).

الفوائد العلمية واللَّطائف:

١- أنَّ مَن تَعامَل بالرِّبا فإنه يُصاب بالنَّهْمة العظيمة في طلَبِه كما في قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾[١].

٢- قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾: التَّعبير عنه بالأكْل؛ لأنَّه مُعظَم ما قُصِد به، ولشيوعه في المطعومات، مع ما فيه من زيادة تَشنيعٍ لهم، وهو الزِّيادة في المقدار[٢].

٣- أنَّ الشَّيطان يتخبَّط بني آدم فيَصرَعه؛ ولا عِبْرة بقول مَن أَنكَر ذلك كما في قوله ﴿يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[٣].

٤- مُبالَغة أهل الباطل في ترويج باطلِهم؛ لأنَّهم جعَلوا المقيسَ هو المقيس عليه؛ لقولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾؛ وكان مقتضى الحالِ أن يقولوا: إنَّما الرِّبا مِثْلُ البيعِ[٤].

٥- أنَّ الحُكْم لله- تبارك وتعالى- وحده؛ فما أحلَّه فهو حلال؛ وما حرَّمه فهو حرام، سواء علِمْنا الحِكمةَ في ذلك، أم لم نعلم؛ لأنَّه تعالى ردَّ قولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ بقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾؛ فكأنَّه قال: ليس الأمرُ إليكم؛ وإنَّما هو إلى الله[٥].

٦- أنَّ بين الرِّبا والبيعِ فرقًا أوجب اختلافَهما في الحُكْم؛ فإنَّا نعلم أنَّ الله تعالى لا يُفرِّق بين شيئين في الحُكْم إلَّا وبينهما فرقٌ في العِلَّة، والسبب المقتضي لاختلافهما؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٧٧).

أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[١] [المائدة: ٥٠].

٧- أنَّ ما أخَذه الإنسانُ من الرِّبا قبل العلم فهو حلالٌ له بشَرْط أنْ يتوب، وينتهي؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾[٢].

٨- أنَّه لو تاب من الرِّبا قبل أن يَقبِضه، فإنَّه يجب إسقاطُه؛ لقوله تعالى: ﴿فَانْتَهَى﴾؛ ومَن أخَذه بعد العِلم، فإنَّه لم يَنْتَهِ[٣].

٩- التَّخويف من التَّفاؤل البعيد لمَن تاب من الرِّبا؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾؛ يعني أنَّ الإنسانَ يتفاءل، ويُؤمِّل؛ لأنَّ الأمر قد لا يكون على حَسَب تفاؤله[٤].

١٠- رأفة الله تعالى بمَن شاء مِن عباده؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾؛ وهذه رِبوبيَّة خاصَّة تَستلزِم توفيق العبدِ للتَّوبة، حتى ينتهي عمَّا حرَّم الله عليه[٥].

١١- ولَمَّا كان التَّخويفُ من المُحسِن أردعَ؛ لأنَّ النَّفْس منه أَقْبَلُ قال: ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾: أي: المُربِّي له، المُحسِن إليه بكلِّ ما هو فيه من الخير[٦].

١٢- في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الإشارةُ إلى عظمةِ هذا الثَّواب؛ لأنَّه أضافه إلى نَفْسه- تبارك وتعالى- والمضاف إلى العظيم يكون عظيمًا[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٧٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٨٢).

١٣- أنَّه إذا كان الشيءُ مهمًّا، فإنَّه ينبغي أن يُصدَّر بما يُفيد التَّنبيه من نداء، أو غيره كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾[١].

١٤- قوله ﴿اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾: فيه مناسبةٌ حسنة، حيث أُمِروا بتقوى الله قبل الأمر بترْك الرِّبا؛ لأنَّ تقوى الله هي أصلُ الامتثال والاجتناب؛ ولأنَّ تَرْك الرِّبا من جُمْلتها[٢].

١٥- وجوب ترْك الرِّبا (سواء سمِّي بهذا الاسم الصَّريح، أو سمِّي بغيره كـ«الفائدة»)- وإن كان قد تَمَّ العَقْد عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾؛ وهذا في عَقْدٍ استُوفي بعضه، وبقِي بعضه[٣].

١٦- أنه لا يجوز إنفاذُ العقود المُحرَّمة في الإسلام- وإن عُقِدت في حال الشِّرك؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾[٤].

١٧- الردُّ على الجبريَّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾؛ لأنَّ الجبريَّة يقولون: إنَّ الإنسان لا يستطيع الفِعلَ، ولا الترك؛ لأنه مُجبَر، وحقيقة قولهم تعطيل الأمر والنَّهي؛ لأنَّ الإنسان لا يستطيع أن يفعلَ ما أُمِر به، ولا تَرْك ما نُهِي عنه[٥].

١٨- أنَّ المرابي إذا كان مُعلِنًا الحرب على الله ورسوله، فهو مُعلِن الحرب على أولياء الله ورسوله، وهم المؤمنون؛ وذلك بدَلالة الالتزام؛ لأنَّ كلَّ مؤمن يجب أن يَنتصِر لله، ورسوله؛ فالمؤمنون هم حِزب الله عزَّ وجلَّ ورسوله[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩٣)
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٨٣، ٣٨٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٨٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٨٧).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٩- أنَّه لا يجوزُ أخْذ ما زاد على رأس المال من الرِّبا لأيِّ غرضٍ كان؛ سواء أخذه ليتصدَّق به، أو ليَصرِفه في وجوه البِرِّ تَخلُّصًا منه، أو لغير ذلك؛ لأنَّ الله أمر بتَرْكه؛ ولو كان هنا طريقٌ يُمكِن صَرْفه فيه لبيَّنه الله عزَّ وجلَّ[١].

٢٠- الإشارة إلى الحِكمةِ من تحريم الرِّبا، وهي ما فيه من الظُّلم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[٢].

٢١- حِكمة الله عزَّ وجلَّ بانقسِام الناس إلى مُوسِر، ومُعسِر؛ المُوسِر في الآية: الدائن؛ والمُعسِر: المَدين؛ وحِكمة الله عزَّ وجلَّ هذه لا يُمكِن أن تستقيم أمورُ العباد إلَّا بها[٣].

٢٢- أنَّ الحُكمَ يدور مع عِلَّته وجودًا وعَدَمًا؛ لأنَّه لَمَّا كان وجوب الإنظار مُعلَّلًا بالإعسار، صار مستمرًّا إلى أن تزول العِلَّة- وهي العُسْرة- حتى تجوز مطالبته[٤].

٢٣- تَفاضُل الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وتَفاضُل الأعمال يَستلزِم تَفاضُلَ العامل، وأنَّ العاملين بعضهم أفضل من بعض، وهذا أمرٌ معلوم بالضرورة الشَّرعيَّة والعقليَّة؛ أنَّ العمال يَختلِفون[٥].

٢٤- الردُّ على الجبريَّة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾؛ لأنَّ توجيه الأمْر إلى العبد- إذا كان مجبرًا- من تكليفِ ما لا يُطاق[٦].

٢٥- في قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾؛ أنَّ التَّقوى قد تُضاف لغير الله- لكن إذا لم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٨٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٩١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٩٣).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٩٨).

تَكُن على وجه العبادة؛ فيُقال: اتَّقِ فلانًا، أو: اتَّقِ كذا؛ وهذا في القرآن والسُّنَّة كثير[١]. حيث المراد بها المعنى اللُّغوي.

٢٦- أنَّ الصَّغير يُكتَب له الثَّواب؛ وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾[٢].

بلاغة الآيات:

١- **قوله: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾** فيه تشبيه تمثيلي، حيث شبَّه آكِلي الرِّبا عند خروجهم من أجداثهم بمَن أصابه مسٌّ فاختلَّ طبعُه، وانتكستْ حاله[٣].

- **وقوله: ﴿مِنَ الْمَسِّ﴾** فيه تأكيدٌ؛ ليظهر المرادُ من تخبُّط الشَّيطان؛ فلا يظنُّ أنه تخبُّط مجازيٌّ بمعنى الوسوسة[٤].

٢- **قوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾** فيه تشبيهٌ مقلوب، حيث شبّه البيع بالرِّبا؛ إشارةً إلى أنَّهم عكَسوا الكلام؛ للمبالغة، حتَّى جعلوا الرِّبا أصلًا، والبيع فرعًا فشبَّهوه به، وهو في البلاغة مرتبةٌ عُليا، يُصبح المشبَّه به قائمًا بالمشبَّهِ وتابعًا له[٥].

٣- **قوله: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾** بيْن (الرِّبا) وبين (الصَّدقات) مناسبةٌ من جِهة التضاد؛ وذلك لأنَّ الصَّدقة عبارة عن تنقيص المال بسبب أمْر الله بذلك، والرِّبا عبارة عن طلب الزِّيادة على المال مع نهي الله عنه، فكانَا متضادَّينِ؛ فلمَّا حصَل بين هذين الحُكمين هذا النوع من المناسبة، لا جرمَ ذُكِر عقيب حُكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٢٠-٣٢١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٢٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٣٠).

الصَّدقات حُكمُ الربا[١].

- وفي ذِكر (المَحْق) و(الإرباء) بديعُ الطِّباق، وفي ذِكر (الرِّبا) و(يُربي) بديعُ التَّجنيس المغاير[٢].

٤- **قوله:** ﴿**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**﴾ فيه تغليظُ أمر الرِّبا، وإيذان أنَّه من فِعل الكفَّار لا مِن فِعل أهل الإسلام، وأتى بصيغة المبالغة في الكافِر والآثم (كفَّار- أثيم)، وإنْ كان تعالى لا يحبُّ الكافر؛ تنبيهًا على عِظم أمْر الرِّبا، ومخالفة الله، وأنَّه لا يقول قولَهم ويُسوِّي بين البيع والرِّبا؛ ليستدلَّ به على أكْل الرِّبا، إلَّا مبالِغٌ في الكفر، مبالِغ في الإثم، ومع المبالغة والتوكيد في ﴿أثيم﴾ فقد أفاد ذِكره أيضًا زوالَ الاشتراك الذي في (كفَّار)؛ إذ يقع على الزرَّاع الذين يسترون الأرض[٣].

- ومفاد التركيب: أنَّ الله لا يحبُّ أحدًا من الكافرين الآثمين؛ لأنَّ كلمة (كل) من صيغ العموم؛ فهي موضوعةٌ لاستغراق أفراد ما تُضاف إليه[٤].

٥- **قوله:** ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾ فيه ذِكر الخاصِّ بعد العامِّ؛ حيث خصَّص الصَّلاة والزكاة بالذِّكر مع اندراجهما في الصَّالحات؛ لبيان فضلهما، وعلوِّ منزلتهما على سائرِ الأعمال الصالحة، على طريقةِ ذِكر جبريل وميكال عقيبَ الملائكة عليهم السَّلام[٥].

٦- **قوله:** ﴿**فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ تنكير (حرب)؛ للتعظيم[٦]. وفي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٧٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩١).

(٥) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩٤).

العدول عن إضافة الحرب إلى الله ورسوله حيث لم يقل: (بحرب الله ورسوله)، وإضافة حرف الجر (مِن) سرٌّ بلاغي بديع، حيث أفاد أنَّه نوعٌ من الحرب عظيمٌ من عند الله ورسوله، وأيضًا أفاد أنَّ الحرب مِن الله لهم؛ فالله تعالى هو الذي يحاربهم، ولو قيل: (بحرب الله)، لاحتمل أن تكون الحربُ مضافةً للفاعِل، فيكون الله هو المحارِب لهم، واحتمل أن تكون مضافةً للمفعول، فيكونوا هم المحاربين لله؛ فكونُ الله تعالى محاربَهم أبلغُ وأزجرُ في الموعظة من كونهم محارِبين لله[١].

٧- **قوله**: ﴿**تُرْجَعُونَ**﴾ مَن قرأ بياء الغَيبة (يرجعون) فيكون في التفات؛ ووجهه: أنَّ الله تعالى كأنَّه رفَق بالمؤمنين عن أن يواجههم بذِكر الرَّجعة؛ إذ هي ممَّا تتفطَّر له القلوب، فقال لهم: ﴿وَاتَّقُوا﴾، ثم رجَع في ذِكر الرَّجعة إلى الغيبة رِفقًا بهم فقال: (يرجعون)[٢].

٨- **قوله**: ﴿**ثُمَّ توفَّى**﴾ التعبير بأداة التراخي (ثم) فيه إشارة إلى طول وقوفهم ذلك الموقفَ في مقام الهيبة، وتمادِي حبسهم في مشهد الجلال والعَظمة[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧١٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٤٩).
(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٤٥).

الآيات (٢٨٢- ٢٨٣)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿أَجَلٍ﴾: الأجل: غاية الوقتِ المحدَّدة، والمدَّة المضروبة للشيء، يقال: دَينه مؤجَّل، جُعل له أجَل[(١)].

﴿وَلْيُمْلِلِ﴾: من أَمللتُ الكتابَ، أي: أمليتُ على أحدٍ شَيْئًا يكتبُه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٢٥١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٨٧).

﴿يَبْخَسْ﴾: أي: يَنقُص، وأصْل البَخْس: نَقْص الشيء على سبيل الظُّلم، والشيء الطَّفيف الناقص[١].

﴿وتَسْأَمُوا﴾: أي: تَمَلُّوا، وأصْل السَّآمة: الملالة ممَّا يَكْثُر لُبْثه[٢].

﴿أَقْسَطُ﴾: أي أَعدْلُ وأصحُّ، والقِسْط: هو النَّصيب بالعدل كالنَّصَف والنَّصفة، والعدل، ويقال منه: أَقسط يُقسِط[٣].

﴿وَأَدْنَى﴾: أي: أَقْرَب، والدُّنوُّ: القُرْب بالذَّات، أو بالحُكم، ويُستعمَل في المكان والزَّمان والمنزلة[٤].

﴿تَرْتَابُوا﴾: تَشُكُّوا؛ فأصلُ الرَّيب: الشكُّ والخوف[٥].

﴿تُدِيرُونَهَا بينكم﴾: أي: تَتبايعونها، أو تتداولونها وتتعاطونها من غير تأجيل، وأصْل الدَّوران: إحداقُ الشَّيء بالشَّيء مِن حَوالَيه[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٩)، (غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧، ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٢).

﴿فَرِهَانٌ﴾: جمْع رهْن، وهو ما يُوضَع وثيقةً للدَّين[١]؛ فالرهن: توثقةُ الدَّينِ بعَينٍ يمكنُ استيفاءُ الدَّينِ أو بعضِه منها، أو مِن بعضِها[٢].

مشكل الإعراب:

١- قوله: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾:

فَرَجُلٌ: مبتدأ. **وامرأتانِ**: معطوف عليه، والخبر محذوف، والتقدير: فرجلٌ وامرأتانِ يقومانِ مقامَ الرَّجُلين. وقيل: فرجُلٌ خبرٌ، والمبتدأ محذوف، والتقدير: فالشاهد رجلٌ وامرأتان. وقيل غير ذلك[٣].

٢- قوله: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾:

لا يُضارَّ: على قِراءة فتح الرَّاء مع التشديد؛ فلا ناهية جازمة، و(يضارَّ) مضارع مجزوم. وعلى قراءة رَفْع الرَّاء مشدَّدة؛ فلا: نافية لا عملَ لها، ويضارُّ: فعل مضارع لم يدخلْ عليه ناصب ولا جازم فرُفع. ويحتمل في الرَّاء الأُولى منه أن تكونَ مكسورة (يُضارِر) فيكون الفعل مبنيًّا للفاعل، ويكون (كاتبٌ ولا شهيدٌ) فاعلين نُهيَا عن مضارَّة المكتوب له والمشهود له. ويحتمل أن تكون الراء بالفتح (يُضارَر) فيكون الفعل مبنيًّا للمفعول، ويكون (كاتبٌ ولا شَهيد) نائِب الفاعل، والتقدير- قبل البِناء للمفعول -: لا يُضارِرْ أحدٌ الكاتبَ ولا الشَّهيدَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٢٤-٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٤٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٥٦).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٤٥-١٤٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٧٥-٦٧٦).

٣- قوله: ﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾

فرهانٌ: مبتدأ، **ومقبوضةٌ**: نعت، والخبر محذوف، والتقدير: فرهانٌ مقبوضةٌ تَكفي من ذلك. أو خبَر لمبتدأ محذوف، والتقدير: فالوثيقةُ- أو فالقائم مقامَ ذلك- رِهانٌ مقبوضةٌ. أو مرفوع بفِعل محذوف، أي: فيَكفي عن ذلِك رهانٌ مقبوضةٌ[(١)].

المعنى الإجمالي:

يُرشِد اللهُ عبادَه المؤمنين أنَّهم إذا حصَل بينهم مداينةٌ إلى وقتٍ معلوم، فليُوثِّقوه بالكتابة، وليكن مَن يَكتُب بينهم عارفًا بالكتابة، معروفًا بالعدل والإنصاف، ولا يمتنع مَن يعرف الكتابةَ أن يكتُب بين النَّاس، كما تفضَّل الله عليه بتعليمه، فأمَر بالكتابة، وأنْ يكون من يُملي على الكاتب هو المَدِين، وليَحذَر من عقاب الله في أن يَنقُص صاحبَ الحقِّ شيئًا، وفي حالة كان المَدِين الذي عليه المال جاهلًا، أو لا يُحسِن التصرُّف، أو ضعيفًا لصِغَر أو جنون، أو ليس بمقدوره الإملاءُ لمانعٍ- فلْيَقُم بالإملاء نيابةً عنه مَن يتوَّلى شؤونه، وليتحرَّ الوليُّ الصدقَ، والعدلَ في إملائه. كما أرشد الله عبادَه المؤمنين أن يُشهِدوا شاهدين من الرجال المسلمين العدول، فإنْ لم يكونَا رجُلينِ، فليَشْهَد من الشُّهود المرضيِّين رجلٌ وامرأتان؛ كي تُذكِّر إحداهما الأخرى إنْ وقع منها نسيانٌ، وليس للشُّهداء أن يمتنعوا من تَحمُّل الشهادة أو أدائها إذا دُعُوا إلى ذلك. ويُرشِد الله عباده أيضًا ألا يَمَلُّوا من كتابة كلِّ الدُّيون قليلها وكثيرها إلى وقتها المسمَّى، فإنَّ تقييدَ الدَّين إلى وقته أعدلُ عند الله وأثبت لشهادة الشهود، فلا يقع بينهم خلافٌ؛ لاجتماعهم على ما هو مكتوب، كما أنَّ ذلك أقرب إلى عدم حصول الرِّيبة والتَّنازع، أمَّا إذا كان البائع والمشتري سيَقبِض كلٌّ منهما حقَّه على الفور، فلا حَرَج ولا إثم في تَرْك الكتابة حينها، لكن الإشهاد في حقِّهما مشروع.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٤٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٧٨).

ونهى الله تعالى بعد ذلك أهلَ الحقوقِ من الإضرار بالكاتب والشَّاهد على أيِّ نحوٍ كان ذلك الإضرار، كما أنَّ النَّهي عن الإضرار موجَّهٌ إلى الكاتب والشَّاهد ألَّا يَضُرَّا أحدًا من أهل الحقوق بأيِّ شَكْل؛ لأنَّ ذلك الإضرار خروجٌ عن طاعة الله إلى المعصية، ثم أمرهم الله بتقواه، وأَخبَرهم أنه يُعلِّمهم، والله بكلِّ شيء عليم.

ثم يُرشِد اللهُ عبادَه أنَّهم إنْ كانوا على سفرٍ وتداينوا بدَين إلى وقت معلوم، ولم يجدوا مَن يَكتُب لهم توثيقَ الدَّين ووقَته، فلْيَستبدِلوا بذلك التوثيقِ توثيقًا آخَر، وهو رِهانٌ يَقبِضها الدَّائن تكون عنده حتى يأتيه حقُّه، فإنِ استأمَن الدائنُ المدينَ ورَغِب في أن تكون المداينة بلا رَهْن، فعلى المَدين أن يَرُدَّ الدَّين كاملًا، وليحذر مِن الله أن يُعاقِبه إذا خالَف الأمرَ، وارتكب المنهيَّ عنه في ذلك.

ثم نهى سبحانه عن كِتمان الشَّهادة، وذلك بإنكارها بالكُليَّة، أو بالزِّيادة والنُّقصان فيها، مبيِّنًا جلَّ وعلا أنَّ مَن يَكتُمها فإنَّه فاجرُ القلب، مُكتَسِب للإثم بكِتمانه، والله عليمٌ بكلِّ أعمالِ البشر، يُحصيها ويُجازيهم عليها.

تفسير الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا

يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا اهتمَّ القرآن بنظام أحوال المسلمين في أموالهم، فابتدأ بما به قِوام عامَّتهم من: مواساة الفقير، وإغاثة الملهوف، ووضَّح ذلك بما فيه عِبْرة للمُعتبِر، ثم عطَف عليه التحذير من الرِّبا الذي فيه استغلالٌ للمحتاجين، مع ما في تلك المعاملات من المفاسد- ثلَّث ببيان التَّوثقات الماليَّة من الإشهاد، وما يقوم مَقامَه، وهو الرَّهن والائتمان[1]، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، إذا داين بعضُكم بعضًا على أنْ يكون ردُّ الدَّين في وقت معلوم بينكم، فاكتبوه- للتوثُّق والحِفْظ-؛ لكَثْرة النِّسيان، ولوقوع المُغالَطات، وللاحتراز من الخونة الذين لا يَخْشَون الله تعالى، واكتبوه بواسطة كاتب عارِف بكتابة ما يَحصُل به التوثُّق، معروف بالعدل والإنصاف، لا يجورُ في كتابته على أحد، ولا يكتُب إلَّا ما اتَّفقوا عليه من غير زيادة ولا نُقصان، ولا يَميل مع أحدٍ منهم لقَرابة أو غيرها، ولا على أحد لعداوة ونحوها[2].

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾.

أي: لا ينبغي أن يمتنع مَن يعرف الكتابةَ إذا سُئل أن يكتبَ للنَّاس توثيقَ دُيونهم ووقتَ ردِّها، فكما علَّمه اللهُ ما لم يكن يعلم، فخصَّه بعِلم ذلك، وحرَمه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٩-٧٢، ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٢-٧٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨، ٩٥٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠٣).

عددًا من خَلْقه، فليُحسِن إلى غيره بأن يُبادِر إلى كتابة ذلك بطريقةٍ مُستوفِية لِمَا ينبغي أنْ تكون عليه.

ولْيُمْلِلِ المدينُ على الكاتب ما في ذِمَّته من الدَّين، وليَحذَر عقابَ الله تعالى في أن يَنقُص صاحبَ الحقِّ شيئًا من مقداره أو كيفيَّته، أو نوعه أو أَجَله أو غير ذلك من توابِعه[1].

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾.

أي: إنْ كان المدينُ- الذي عليه المال- جاهلًا بالصَّواب من الخطأ في الَّذي عليه إملاؤه على الكاتب، أو كان لا يُحسِن التصرُّف، أو ضعيفًا لصِغَره أو جُنونه، أو لا يستطيع الإملالَ لِخَرَسه أو عيٍّ لسانه، أو غَيبتِه لسفرٍ أو غيره، فإنَّه ينوبُ عنه في ذلك مَن يتوَّلى شؤونه من أبٍ، أو جدٍّ، أو أخٍ، أو غيرهم، ويَلزَم الوليَّ الإملاءُ بالصِّدق المطابِق للواقع؛ فلا يَزيد، ولا يَنقُص، ولا يَجور على الدائن أو المدين[2].

﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾.

أي: اطْلُبوا أيضًا -لتوثيق حقوقِكم- شهادةَ رَجلين عليها من المسلمين العدول الذين تَرضَونهم، فإنْ لم يكن الشَّاهدان رجُلين، فليشهد رجلٌ وامرأتان على ذلك؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٦، ٧٧، ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠٣-٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٨٢-٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠٤-٤٠٥).

كي تُذكِّر إحدى المرأتين الأخرى، إنْ وقع لها نِسيانٌ[١].

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾.

أي: ليس للشُّهداء أن يَمتنعوا من الإجابة إذا دُعُوا لتحمُّل الشَّهادة أو أدائها[٢].

﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾.

أي: لا تَمَلُّوا- أيُّها الذين تُداينون النَّاس- من كتابة قليل الدَّين أو كثيره إلى أجَله المُسمَّى؛ فإنَّ كتابة ذلك أعدلُ عند الله، وأثبتُ لشهادة الشُّهود؛ فلا يقع بينهم اختلاف في ذلك لاجتماعهم على ما حواه الكتاب، وأَقْربُ إلى عدم وقوع الرِّيبة وحصول التَّنازُع، فلا تَشُكُّون فيما شَهِد به الشهود من الحقِّ والأَجَل.

ولا حَرَج ولا إثم على المُتبايعِينَ منكم في تَرْك كتابةِ ذلك؛ إذا كان كلٌّ من البائع والمشتري، يَقبِض حقَّه فورًا بلا تأخير، فيأخذ المشتري سِلعتَه، ويَقبِض البائعُ أجرَه قبل مُفارَقة بعضهما، فلا حاجةَ لهما حينئذٍ إلى الكتابة والتَّوثيق، لكن الإشهاد على حقِّهما مشروع[٣].

﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾.

نهى الله تعالى أهلَ الحقوقِ عَن إيقاع ضررٍ بأيِّ وَجْه من وجوه الضَّرر على كاتبٍ أو شاهِدٍ على حقوقهم، كما لا يَحِلُّ أيضًا لكاتبٍ أو شاهدٍ أن يَضُرَّا أحدًا من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٨٦-١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨، ١١٩، ٩٦٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠٥-٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٠٠-١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٠٢-١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٩، ٩٦٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠٨-٤٠٩، ٤١٩).

أهل الحقوق بأيِّ ضررٍ كان؛ فإنَّ إحداثَ الضرر في ذلك يُعَدُّ خروجًا عن طاعة الله تعالى إلى معصيته[١].

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: خافوا اللهَ- أيُّها المتداينون- في الكتَّاب والشهود أن تُوقِعوا عليهم ضررًا ما، وراقِبوه في غير ذلك من حدوده فلا تُضيِّعوها، واتَّبِعوا أمرَه، واترُكوا نهيَه، والله تعالى يبيِّن لكم على الدوام أحكامَ شريعته فضلًا منه ونعمةً؛ فهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها، وعِلْمه محيطٌ بجميع الكائنات، كما أنَّه لا يَخْفى عليه شيءٌ من أعمالكم، فيُحصيها عليكم ويُجازيكم بها[٢].

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾.

أي: إنْ كنتم مسافرين وتَداينتُم بدَين إلى أجل مسمًّى، ولم تَعثُروا على كاتب يكتُب لكم توثيقَ الدَّين وأجلَه، فليكُنْ بدلَ الكتابة رِهانٌ يَقبِضها صاحبُ الحقِّ، وتكون وثيقةً عنده حتى يأتيه حقُّه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١١٧-١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠٩-٤١٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٩، ١٢٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٢٤-٤٢٦).

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾.

أي: إنْ كان المَدينُ أمينًا عند صاحب الدَّين فوَثِق فيه، وأحبَّ أن يُعامِله من دون رَهْن، فعلى المَدين أن يردَّ إليه دَينَه كاملًا، غيرَ ظالمٍ له، ولا باخس حقَّه، وليَحذَر ربَّه سبحانه، من أن يُعاقِبه لمخالفته أَمْرَه، وارتكابه نَهْيَه في ذلك[1].

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

أي: لا تُخْفوا- أيُّها الشُّهود- ما شهِدتم به؛ إمَّا بإنكاره بالكُليَّة، أو بالزِّيادة عليه والنُّقصان منه، ولكن أَجيبوا مَن شَهِدتم له إذا دعاكم لإقامة شهادتكم بالصِّدق؛ لإثبات حقِّه على غريمه، ومَن يَكتُم شهادتَه فإنَّه فاجرٌ قلبه، مُكتسِب بكِتمانه إيَّاها الإثمَ؛ لأنَّ الحقَّ مبنيٌّ عليها ولا يَثبُت بدونها، فكِتمانها من أعظم الذنوب، والله بما تعملون- في شهادتكم من القيام بها، أو كِتمانها عند حاجة مَن استشهَدكم إليها، وبغير ذلك من سرائر أعمالكم وعلانيتها- عليمٌ؛ يُحصي عليكم أعمالَكم ليَجزيكم بها، إمَّا خيرًا، وإمَّا شرًّا على قدْر استحقاقكم[2].

الفوائِد التربويَّة:

١- أنَّ التزامَ هذه الأحكام الواردة في آية الدَّين من مقتضى الإيمان؛ لأنَّه لا يوجَّه الخطابُ بوصْف إلَّا لِمَن كان هذا الوصف سببًا لقَبُوله ذلك الحُكْم؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ...﴾[3].

٢- أنَّ مُخالَفة هذه الأحكام نَقْصٌ في الإيمان كأنَّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢٤-١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٠)، ((تفسير العثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢٦، ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٢٦-٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٠).

لإيمانكم افْعَلوا كذا؛ فإنْ لم تفعلوا فإيمانكم ناقِصٌ؛ لأنَّ كلَّ مَن يدَّعي الإيمان، ثم يُخالِف ما يَقتضيه هذا الإيمانُ، فإنَّ دعواه ناقصةٌ؛ إمَّا نقصًا كليًّا، أو نقصًا جزئيًّا[١].

٣- وجوب تقوى الله عزَّ وجلَّ على مَن عليه الحقُّ، وأن يتحرَّى العدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾[٢].

٤- أنَّه ينبغي للإنسان أن يتجنَّب كلَّ ما يكون له فيه ارتيابٌ وشَكٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾[٣].

الفوائد العلمية واللَّطائف:

١- العِناية بما ذُكِر من الأحكام في آية الدَّين؛ وذلك لتصدير الحُكْم بالنِّداء، ثم توجيه النِّداء إلى المؤمنين؛ لأنَّ هذا يدلُّ على العناية بهذه الأحكام، وأنَّها جديرة بالاهتمام بها[٤].

٢- بيان أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ كما يَعتني بالعبادات- التي هي معاملة الخالق- فإنَّه يَعتني بالمعاملات الدَّائرة بين المخلوقين، والردُّ على الذين يقولون: إنَّ الإسلام ما هو إلَّا أعمال خاصَّة بعبادة الله عزَّ وجلَّ، وبالأحوال الشَّخصية، كالمواريث، وما أَشْبهها[٥].

٣- أنَّه تَجوزُ جميعُ أنواع المُداينات من سَلَم[٦] وغيره؛ لأنَّ الله أخبر عن المُداينة التي عليها المؤمنون إخبارًا مقرِّرًا لها، ذاكرًا أحكامها، وذلك يدلُّ على الجواز[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤١٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) وهو تعجيلُ الثَّمن، وتأخير المُثمَن، كأنْ يشتري مِئة صاع من البرُ إلى سَنة، ويُعطي الدراهم؛ فيُسمَّى هذا سَلَمًا؛ لأنَّ المشتري أسلمَ الثمن، وقدَّمه. ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨).

٤- وجوب كتابة الدَّين المؤجَّل؛ لقوله تعالى: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾[١].

٥- حضور كلٍّ من الدائن والمَدين عند كتابة الدَّين؛ لقوله تعالى: ﴿بَيْنَكُمْ﴾؛ ولا تتحقَّق البينيَّةُ إلا بحضورهما[٢].

٦- يُشترط أن يكونَ الكاتب عارفًا بكتابة الوثائق وما يَلزَم فيها كلَّ واحد منهما، وما يَحصُل به التَّوثُّق؛ لأنَّه لا سبيلَ إلى العدل إلَّا بذلك، وهذا مأخوذٌ من قوله: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[٣].

٧- أنَّه يجب على الكاتب أنْ يكتُبَ بالعدل، بحيث لا يُجحِف مع الدائن، ولا مع المدين؛ و(العدل) هو ما طَابَق الشَّرعَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام: ١١٥][٤].

٨- أنَّه لا يُشتَرط تعيينُ كاتب للنَّاس بشخصِه، وأنَّ أيَّ كاتب يتَّصِف بإحسان الكتابة والعدل، فكتابتُه ماضيةٌ نافذة؛ لقوله تعالى: ﴿كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾؛ وهي نكرة لا تُفيدُ التعيينَ[٥].

٩- تذكير الكَتَبة بنِعمة الله، وأنَّ مِن شُكْر نِعمة الله عليهم أن يكتُبوا؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾[٦].

١٠- أنَّ الإنسان لا يَستقِلُّ بالعِلم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾؛ حتى في الأمور الحِسيَّة التي تُدرَك عن طريق النَّظر، أو السَّمع، أو الشَّمِّ، لا يَستطيع الإنسان أن يَعلَمها إلَّا بتعليم الله عزَّ وجلَّ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤١٤).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١١- أنَّ الرُّجوع في مقدار الدَّين، أو نوعه، أو كيفيَّته؛ بل في كلِّ ما يتعلَّق به إلى المدَين الذي عليه الحقُّ- لا إلى الدَّائن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾؛ لأنَّه لو أملى الذي له الحقُّ فربما يَزيد[١].

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ دلالةٌ على أنَّ إقرارَ الإنسان على نَفْسه مقبول؛ لأنَّ الله أَمَر مَن عليه الحقُّ أن يُمْلي على الكاتب، فإذا كتب إقرارَه بذلك، ثبَت مُوجبه ومضمونه، وهو ما أقرَّ به على نفْسِه، ولو ادَّعى بعد ذلك غَلَطًا أو سهوًا[٢].

١٣- أنَّه ينبغي في مقام التَّحذير أن يُذكَر كلُّ ما يكون به التَّحذير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾؛ ففي مقام الألوهيَّة يتَّخِذ التَّقوى عبادة؛ لأنَّ الألوهيَّة هي توحيد العبادة؛ وفي مقام الخوف من الانتقام يكون مشهدُه الرُّبوبيَّة؛ لأنَّ الربَّ عزَّ وجلَّ خالقٌ مالِك مُدبِّر[٣].

١٤- أنَّ أسباب القصور ثلاثة: السَّفَه؛ والضَّعف؛ وعدم الاستطاعة؛ فالسَّفَه: ألَّا يُحسِن التَّصرُّف، والضَّعيف: يَشمَل الصَّغير والمجنون؛ ومَن لا يستطيع: يشمل مَن لا يَقدِر على الإملال لخَرَس، أو عِيٍّ، أو نحو ذلك كما في قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾[٤].

١٥- قَبُول قولِ الوليِّ فيما يُقِرُّ به على مولاه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾[٥].

١٦- ثُبُوتُ الوَلاية في الأموال؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨).

١٧- أنَّ الحقَّ يكون على الصَّغير والسَّفيه، والمجنون والضَّعيف، لا على وَلِيِّهم، كما قال سبحانه: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾[١].

١٨- أنَّ إقرار الصَّغير والسَّفيه، والمجنون والمعتوه ونحوهم، وتصرُّفهم غير صحيح؛ لأنَّ الله جعَل الإملاءَ لوَلِيِّهم، ولم يجعلْ لهم منه شيئًا؛ لطفًا بهم ورحمة؛ خوفًا مِن إتْلافِ أموالهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾[٢].

١٩- قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ...﴾ الآية، فيه مشروعيَّة تعلُّم الأمور التي يتوثَّق بها المتداينون، كلُّ واحد من صاحبه؛ لأنَّ المقصودَ من ذلك هو التوثُّق والعدل، وما لا يتمُّ المشروع إلا به فهو مشروع[٣].

٢٠- أنَّ تَعلُّم الكتابةِ مشروع، بل هو فَرْض كفاية؛ لأنَّ الله أَمَر بكتابة الدُّيون وغيرها، ولا يَحصُل ذلك إلَّا بالتعلُّم[٤].

٢١- أنَّ شهادةَ الصِّبيان غير مقبولة؛ لمفهوم لَفْظ الرَّجُل في قوله: ﴿فَرَجُلٌ﴾[٥].

٢٢- أنَّ شهادة العبد البالِغ مقبولةٌ كشهادة الحُرِّ؛ لعموم قوله: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، والعبد البالِغُ من رِجالنا[٦].

٢٣- أنَّ شهادة الكُفَّار- ذُكورًا كانوا أو إناثًا- غير مقبولة؛ لأنَّهم ليسوا منَّا،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٩).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، ولأنَّ مَبنى الشَّهادة على العَدالة، والكفَّار غير عُدول[١].

٢٤- في قوله ﴿وَامْرَأَتَانِ﴾ فضيلة الرجُل على المرأة، وأنَّ الواحد في مقابلة المرأتين؛ لقوة حِفْظه، ونَقْص حِفْظها، لكن قِصَر حِفْظ المرأة وإدراكها عن حِفْظ الرَّجل، وهذا باعتبار الجنس؛ فلا يُرَدُّ على ذلك بنبوغ بعض النساء، وغفلة بعض الرِّجال[٢].

٢٥- جوازُ شهادة الإنسان فيما نَسِيه إذا ذُكِّر به فذكَر؛ لقوله تعالى: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾؛ فإن ذُكِّر ولم يَذكُر، لم يَشهَد[٣].

٢٦- تسمية المدعوين شُهداءَ باعتبار الأوَّل القريب، وهو المُشارَفة، وكأنَّ في ذلك نُكْتةً عظيمة: وهي الإيماءُ إلى أنَّهم بمجرِّد دعوتهم إلى الإشهاد، قد تعيَّنت عليهم الإجابةُ، فصاروا شهداءَ[٤].

٢٧- أنَّ ما ذُكِر من التوجيهات الإلهيَّة في آية الدَّين فيه ثلاثة فوائد: **الأولى**: أنَّه أَقْسَط عند الله، أي: أعدل عنده؛ لِمَا فيه من حِفْظ الحقِّ لمن هو له، أو عليه. **الثانية**: أنَّه أَقومُ للشَّهادة؛ لأنَّه إذا كُتِب لم يَحصُل النِّسيان. **الثالثة**: أنَّه أَقْربُ لعدم الارتياب[٥].

٢٨- في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ دلالةٌ على العمل بالكتابة، واعتمادها حُجَّة شرعيَّة إذا كانت من ثِقةٍ معروفٍ خطُّه[٦].

٢٩- أنَّ الشَّهاداتِ تتفاوت؛ فمنها الأقوم، ومنها القيِّم، ومنها ما ليس بقيِّم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١١٢)
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٧).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فالذي ليس بقيِّم هو الذي لم تَتِمَّ فيه شروط القَبول؛ والقيِّم هو الذي صار فيه أدنى الواجب؛ والأقوم ما كان أكملَ من ذلك؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾[(١)].

٣٠- أنَّ الأصل في التِّجارة الدَّوران؛ لقوله تعالى: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾[(٢)].

٣١- أنَّ الإشهاد ينبغي أن يكون حين التَّبايُع؛ بمعنى أنه لا يتقدَّم، ولا يتأخَّر؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾؛ لأنَّ العَقدَ لم يتمَّ إذا كان الإشهاد قَبْله؛ وإذا كان بعده فربَّما يكون المبيعُ قد تغيَّر[(٣)].

٣٢- في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ المضارَّة- سواء وقعتْ من الكاتب، أو الشَّاهد، أو عليهما- فُسُوقٌ؛ والفِسْق يترتَّب عليه زوالُ الولايات العامَّة والخاصَّة إلَّا ما استثْنِي؛ والفاسق يُهجَر؛ إمَّا جوازًا، أو استحبابًا، أو وجوبًا- على حسَب الحال- إنْ كان في الهجرِ إصلاحٌ له[(٤)].

٣٣- أنَّ الأصل في الإنسان الجهل؛ والعلم طارئ عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ٧٨][(٥)].

٣٤- عِناية الله عزَّ وجلَّ بحِفْظ أموال عباده؛ يعني أنَّه سبحانه وتعالى ذكَر حتى هذه الصُّورة: أنَّ الإنسان إذا دَاينَ غيرَه، ولم يجد كاتبًا، فإنَّه يَرتَهِن رَهْنًا؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢١).

حِفْظًا لماله، وخوفًا من النِّزاع والشِّقاق في المستقبل[١].

٣٥- أنَّ بعض العلماء استدلَّ بهذه الآية ﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ على لُزومِ القَبْض في الرَّهن[٢].

٣٦- أنَّه إذا حصَل الائتمانُ من بعضنا لبعضٍ لم يجب رَهْنٌ، ولا إشهاد، ولا كتابة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾[٣].

٣٧- أنَّه لو تلِفتِ العينُ بيَدِ الأمين، فإنَّه لا ضَمانَ عليه ما لم يتعدَّ، أو يُفرِّط؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾[٤].

٣٨- الردُّ على غُلاة القَدَريَّة الذين يقولون: إنَّ الله لا يعلم بأفعال العباد إلَّا إذا وقعت؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ يتضمَّن ما قد عمِلْناه بالفعل، وما سنَعمَله[٥].

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ﴾ زاد قَيدَ ﴿بِدَيْنٍ﴾ مع أنَّه مفهوم من قوله: ﴿تَدَايَنْتُمْ﴾؛ للتأكيد، وهو إمَّا يكون من باب الإطناب. وإمَّا يكون معادًا للضمير في قوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾، ولولا ذِكرُه لقال: (فاكْتُبُوا الدَّينَ)، لم يكنِ النظمُ بذلك الحُسن، ولأنَّه أبينُ لتنويع الدَّينِ إلى مؤجَّل وحالٍّ، وليدلَّ على العموم، أي: أيَّ دَين، قليلًا كان أم كثيرًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٣٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤٠-٤٤٢).

٢- **قوله:** ﴿**إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ فيه التأكيد بـ(مسمًّى)، وليعلم أنَّ مِن حقِّ الأجَل أن يكون معلومًا بالتوقيتِ بالسَّنة والأشهر والأيَّام[١].

٣- **قوله:** ﴿**فَلْيَكْتُبْ**﴾ تفريعٌ على قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾، وهو تصريحٌ بمقتضى النهي، وتكرير للأمْر في قوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾؛ إذ يُفيد تأكيد الأمر وتأكيد النَّهي أيضًا، وأُعيد ليرتَّب عليه قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾؛ لبُعد الأمر الأول بما وليه[٢].

وفيه تأكيدٌ أيضًا؛ حيث أمَر بالكتابة المُعلَّمة بعدَ النَّهي عن الإِباء عنها تأكيدًا[٣].

٤- **قوله:** ﴿**وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا**﴾ و﴿**وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ**﴾ فيه تكرار للتأكيد؛ فإنَّه أمَر عند المداينة بالكتابة أولًا، ثم بالإشهاد ثانيًا، ثم أعاد ذلك مرة أخرى على سبيل التأكيد، فأمر بالكتابة[٤].

- وجاء بصيغة النهي ﴿وَلَا يَأْبَ﴾؛ اهتمامًا بما يقع فيه التفريط؛ فإنَّ المتعاقدين يُظنُّ بهما إهمال الإشهاد، فأُمِرَا به، والشهود يُظنُّ بهم الامتناع فنُهوا عنه، وكلٌّ يستلزم ضدَّه[٥].

٥- **التنكير في قوله:** ﴿**كَاتِبٌ**﴾ للعموم؛ إذ هي نكرة في سياق النَّهي، فتعمُّ[٦].

٦- ﴿**شَهِيدَيْنِ**﴾: التعبير بلفظة (شهيد) التي على صِيغة فعيل؛ للمبالغة في المعنى في تحقُّق الوصف بالاستبصار والخبرة، وهو مَن كثُرت منه الشهادة، وفي

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤٠-٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١١٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٢٤).

ذلك إشارة إلى العدالة؛ لأنَّه لا يتكرَّر ذلك من الشَّخص عند الحُكَّام إلَّا وهو مقبولٌ عندهم[١].

٧-**قوله**: ﴿**وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ**﴾ ذكر قوله: ﴿كَاتِبٌ﴾ للتأكيد؛ إذ قد فُهِم من قوله: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾[٢].

٨- **قوله**: ﴿**وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا**﴾ فيه من البَلاغة: تصوير المُجسَّد الحاكي[٣]؛ إذ لفظةُ (بخس)، في الأصل اللُّغوي للعين العوراء، يُقال: بخَسَتْ عينُه، أي: عَوِرت، ولا يَخفى ما في هذا التصويرِ مِن التأكيدِ في الدَّلالة والبيان على مجرَّد البيان القولي[٤].

- **قوله**: ﴿**منه**﴾ فيه إيجازٌ بديع؛ إذ الضمير عائدٌ إلى الحق، وهو حقٌّ لكِلا المتداينين، فإذا بَخَس منه شيئًا أضرَّ بأحدهما لا محالة[٥].

٩- **قوله**: ﴿**وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ... فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ**﴾ فيه تكرار لفظ (الحقُّ)؛ للتأكيد على الدُّعاء إلى اتِّباعه، وأتى بلفظة (على)؛ للإعلام أنَّ لصاحب الحقِّ مقالًا واستعلاء[٦].

١٠- **قوله**: ﴿**أَنْ يُمِلَّ هُوَ**﴾ فيه تأكيد بذِكر الضَّمير (هو) الذي هو تأكيدٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٠١).

(٣) **المجسَّد الحاكي، أو البيان الحاكي للمعاني**: هو التَّصوير بالحركة، أو تشبيه المحسوس بالمعقول، وهو آكدُ في الدَّلالة من البيان القولي الذي تتشكَّل دَلالاته ومعانيه عن طريق التعبير باللُّغة، بسبب ما توفر في ذلك البيان الحاكي من مشاهد متحرِّكة زائدة عن الدَّلالة باللُّغة، يصل بها إلى قِمَّة النفاذ والتأثير في النفس الإنسانية. يُنظر: بحث ((من بلاغة التصوير بالحركة في القرآن الكريم-دراسة في البيان الحاكي)) للدكتور يوسف بن عبد الله الأنصاري.

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤٠-٤٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٠٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٧-٧٤٨).

للضمير المستتر في الفِعل، وفي هذا التوكيد من الفَصاحة ما لا يَخفَى، وفيه التنصيصُ على أنَّه غير مستطيعٍ بنفسه[١].

- وتأكيد الضَّمير المستتر في فِعل (يملَّ) بالضمير البارز (هو) تمهيدٌ لقوله: ﴿فَلْيُمْلِلْ﴾؛ لئلَّا يتوهَّم الناس أنَّ عجزَه يُسقِط عنه واجبَ الإشهاد عليه بما يَستدينه[٢].

١١- **قوله:** ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ﴾ فيه التعبير بالاسم العظيم (الله)؛ ليكون أزجرَ للمأمور، ثم قال: ﴿رَبَّهُ﴾ تذكيرًا بأنَّه لإحسانه لا يأمر إلَّا بخير، وترجيةً للعوض في ذلك إذا أدَّى فيه الأمانة في الكمِّ والكيف من الأجَل وغيره؛ وأكَّد ذلك بقوله: ﴿وَلَا يَبْخَسْ﴾[٣].

١٢- **قوله:** ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ فيه تكرار[٤]. وإظهار (إحداهما) في مقام الإضمار، وفائدته: قصْد استقلال الجملة بمدلولها؛ كيلَا تحتاج إلى كلام آخَر فيه معاد الضمير لو أُضمر، وذلك يُرشِّح الجملة لأنْ تَجريَ مَجرى المَثَل[٥].

- وأيضًا قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ تعليلٌ لاعتبار العدَد في النِّساء، والعلةُ في الحقيقة هي التذكيرُ، ولكنَّ الضلالَ لَمَّا كان سببًا له، نُزِّل منزلتَه.

- **وفي قوله:** ﴿إِحْدَاهُمَا﴾ ثانيةً: تأكيدٌ للإبهام، والمبالغة في الاحتراز عن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١١٠-١١١).

توهُّم اختصاصِ الضَّلال بإحداهما بعينها والتذكير بالأخرى؛ إشارة إلى أنَّهما يتبادلانِ الخطأ والتذكير، والمعنى: أن تضلَّ واحدةٌ منهما؛ فتذكِّر كلُّ واحدة الأُخرى إذا نسيت[(١)].

١٣- **قوله:** ﴿**كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ**﴾ فيه تشبيهٌ، أي: كتابة تُشابه الذي علَّمه الله أن يكتبها، والمراد بالمشابهة المطابقة لا المقاربة، أو تكون الكاف لمقابلة الشيء بمكافِئِه، والعوض بمعوضه، أي: يكتُب كتابةً تكافئ تعليمَ الله إيَّاه الكتابة، فينفع الناس بها؛ شكرًا على تيسير الله له أسبابَ علمها، وينشأ عن هذا المعنى من التشبيه معنى التعليل، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧][(٢)].

١٤- **قوله:** ﴿**وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ**﴾ فيه النَّهي عن شيء، والمراد النَّهي عن أَثرِه، وهو هنا تَرْك الكتابة؛ لأنَّ السَّآمة تَحصُل للنَّفس من غير اختيار، فلا يُنهى عنها في ذاتها، وقيل: السَّآمة هنا كِناية عن الكسلِ والتَّهاون[(٣)].

- **قوله:** ﴿**صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا**﴾: تقديم الصَّغير على الكبير هنا، مع أنَّ مقتضى الظَّاهر العكس؛ لأنَّه قَصَد هنا إلى التَّنصيص على العموم؛ لدَفْع ما يَطرأ من التوهُّمات في قلَّة الاعتناء بالصَّغير، وهو أكثر، أو اعتقاد عدَم وجوب كتابة الكبير لو اقتصَر في اللَّفظ على الصَّغير[(٤)].

١٥- **في قوله:** ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ تكرَّر لفظة الجلالة (الله) في الجُمَل الثلاث؛ لأنَّ الذِّكر أدخلُ في التعظيم من الكِناية؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١١٢)، ((زهرة التفاسير)) لأبي زهرة (٢/ ١٠٧٢).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٠٢-١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١١٤)، ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١١٤).

لإدخال الرَّوْع في القلوب، وإحداث المهابة في النفوس، وترسيخ الحُكم في الأذهان، والإشعار بأنَّه تعالى مطَّلع على السرائر، لا تعزُبُ عنه همساتُ القلوب، وخَلجاتُ الضَّمائر[(١)].

- وفيه غاية المناسبة في ختْم آياتِ هذه المعاملات بصِفة العِلم بعد الأمْر بالتقوى؛ لِما يفعله المتعاملون من الحِيَل التي يجتلب كلٌّ منهم بها الحظَّ لنفسه، والترغيب في امتثال ما أمرهم به في هذه الجُمل بأنَّه من علمه وتعليمه، وهذا الخَتْم جامعٌ لبشرى التعليم، ونذارة التهديد[(٢)].

١٦- **وفي هذه الآية**: إطنابٌ وبسط شديد، وتأكيداتٌ عديدة في حِفظ الأموال في المعاملات؛ حيث قال **أولًا**: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾، ثم قال **ثانيًا**: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾، ثم قال **ثالثًا**: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾، فكان هذا كالتَّكرار لقوله: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾؛ لأنَّ العدل هو ما علَّمه الله، ثم قال **رابعًا**: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ وهذا إعادة الأمر الأوَّل، ثم قال **خامسًا**: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾، وفي قوله: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ كفاية عن قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾؛ لأنَّ الكاتب بالعدل إنَّما يكتُب ما يُملَى عليه. وقال **سادسًا**: ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ وهذا تأكيد، ثم قال **سابعًا**: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ فهذا كالمستفادِ من قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾، ثم قال **ثامنًا**: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾، وهو أيضًا تأكيدٌ لِمَا مضى، ثم قال **تاسعًا**: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٥٩-١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١١٨-١١٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤٠-٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٥٩-١٦٠).

أَلَّا تَرْتَابُوا﴾، فذكَر هذه الفوائد الثلاث لتلك التأكيدات السالِفة، وكلُّ ذلك يدلُّ على أنَّه لَمَّا حثَّ على ما يَجري مجرى سبب تنقيص المال في الحُكمين الأولين، بالَغَ في هذا الحُكم في الوصية بحِفظ المال الحلال، وصونه عن الهلاك والبوار؛ ليتمكَّن الإنسانُ بواسطته من الإنفاق في سبيل الله، والإعراض عن مساخطِ الله من الرِّبا وغيره، والمواظبة على تقوى الله؛ فهذا من وجوه محاسنِ النَّظم الشريف ولطافتِه[١].

١٧- **وفي الآية**: إيجاز بالحذف في مواضعَ عديدة؛ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، حُذِف متعلق الإيمان. وفي قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾، أي: الكتابةَ والخط. وفي قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾، أي: في إملائِه. وفي قوله: ﴿سَفِيهًا﴾، أي: في الرأي، ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾، أي: في البينة. وفي قوله: ﴿مِن رِجَالِكُمْ﴾، أي: المعيَّنين للشهادة المرضيِّين، ﴿فَرَجُلٌ﴾، أي: مرضيٌّ، ﴿وامْرَأَتَانِ﴾ مرضيَّتان، ﴿مِن الشُّهَدَاءِ﴾ المرضيِّين... إلخ[٢].

١٨- **وفيها**: تلوينُ الخِطاب بالالتفات في مواطِن أيضًا؛ في الانتقال من الحُضور إلى الغَيبة، في قوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾، ﴿وَلْيَكْتُبْ﴾، ومن الغَيبة إلى الحضور في قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾، ﴿وَأَشْهِدُوا﴾. ثم انتقل إلى الغَيبة بقوله: ﴿وَلَا يُضَارَّ﴾، ثم إلى الحُضور بقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾، ثم إلى الغَيبة بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا﴾، ثم إلى الحضور بقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣].

١٩- **قوله**: ﴿**وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ فيه جمْع ما بين الاسم الجليل، والنَّعت الجميل؛ للمبالغة في التحذير[٤]، وهو خبرَ، غرَضُه التهديد والتحذير من الإقدام على هذا الكِتمان؛ لأنَّ المكلَّف إذا علِم أنَّه لا يعزُب عن علم الله ضميرُ قلبه، كان

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٨-٧٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٧-٧٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٧-٧٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٣٤).

خائفًا حذرًا من مخالفة أمر الله تعالى؛ لأنَّ القادر لا يَحُول بينه وبين المؤاخذة إلَّا الجهلُ، فإذا كان عليمًا أقام قسطاسَ الجزاء[١].

٢٠- في قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ الجمع بين عنوان الألوهيَّة وصِفة الربوبيَّة، فيه تأكيد، وشدَّة تحذير من المخالفة. وذِكر اسم الجلالة فيه- مع إمكان الاستغناء بقوله: (وَلْيَتَّقِ رَبَّه)-؛ لإدخال الرَّوع في ضمير السَّامع، وتربية المهابة[٢].

٢١- قوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ...﴾ النهي عن كتمان الشهادة كلِّها بعمومه، والتعقيب به بعدَما سبَق من وصاية للشُّهداء، والأمر أن يكتب الشاهد بالعدل، والنهي عن الامتناع من الكتابة بين المتداينين- بمنزلة التذييل لأحكام الشَّهادة في الدَّين[٣].

٢٢- قوله: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ فائدة ذِكر القلب- مع أنَّ جملة الجَسَد هي الآثمة لا القلب وحْده؛ لأنَّ كتمان الشهادة إثم مُقترَف بالقلب، فأُسند إليه؛ لأنَّ إسناد الفعل إلى الجارحة التي يُعمل بها أبلغُ، ويُقال عند التوكيد: هذا ممَّا أبصرتْه عيني، وممَّا سمعته أُذني[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٧)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٢٩-٣٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٢٦).

الآيات (٢٨٤-٢٨٦)

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿غُفْرَانَكَ﴾: أي: اغفِر مغفرتَك، أو نسألك مغفرتَك، والمغفرة: هي السَّتر لخَلَّة المسلم وفاقته، وترْك أذيَّته؛ وأصْل الغَفْر: السَّتر، والوقاية[1].

﴿أَخْطَأْنَا﴾: فاتَنا الصَّواب، وعدَلنا عنه، وسَهَوْنا، من غير تعمُّد -مِن أخْطأ-، وأمَّا إذا تعمَّد الذَّنب، وأثِم، فهو من خَطِئ لا مِن أخطأ. وقيل: هما بمعنًى واحد[2].

﴿إِصْرًا﴾: أي: ثقلًا، وأصْل الأصْرِ: عقْدُ الشَّيء، وحبْسُه بقهره، أو الحَبْس والعَطف[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٢، ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

المعنى الإجمالي:

إنَّ لله وحْده جلَّ وعلا كلَّ ما في السَّموات والأرض، وهو مُطَّلِعٌ على كلِّ ما فيها، لا يَخْفى عليه شيء من أمور العباد، وسيُحاسِبهم على ما أظْهَروه وما أَسرُّوه في أنفسهم، فيَغفِر بعد المحاسبة لَمن يشاء، ويُعذِّب مَن يشاء، والله تعالى لا يُعجِزه شيء؛ فهو على كلِّ شيء قدير.

ثم يُخبِر تعالى أنَّ رسولَه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ آمَن بما أوحاه الله إليه من الكتاب والسُّنَّة، وكذلك فعَل المؤمنون، فكلٌّ من الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنين قد آمن بالله وجميعِ ملائكته وكُتُبِه ورُسُله بلا تفريق بينهم، فلا يؤمنون ببعض ويَكْفرون ببعضٍ، وقال جميع المؤمنين: سَمِعنا قولَ ربِّنا، وقبِلناه، وعمِلنا بمقتضاه، ودَعَوا ربَّهم أن يغفر ذنوبهم، مُعترِفين ومُقرِّين بأنَّ إليه المعاد والمرجع.

ثم امتنَّ الله تعالى على عباده أنه لا يُحمِّل نفسًا فوق طاقتها، فلا يَفرِض عليها من العبادة إلَّا ما كان بمقدورها تحمُّله، ولكل نفْس ما عمِلت من خير، وعليها ما عمِلت من شرٍّ، ثم أمَر عباده أن يَدْعُوه بألَّا يُعاقِبهم عند النِّسيان، أو الخطأ، وألَّا يُحمِّلهم من الأعمال الشَّاقة والثَّقيلة عليهم كما كلَّف بها الأممَ الماضية، وألَّا يُكلِّفهم من الأعمال ما لا يُطِيقون القيام به، وأنْ يغفر لهم ويَرْحمهم، فهو وَلِيُّهم وأنْ ينصُرهم على مَن كفَر به عزَّ وجلَّ.

تفسير الآيات:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لما ضمَّن الله تعالى هذه السُّورة أكثرَ عِلم الأصول والفروع من: دلائل

التَّوحيد، والنُّبوة، والمعاد، والصَّلاة، والزَّكاة، والقِصاص، والصَّوم، والحجِّ، والجهاد، والحيض، والطَّلاق، والعِدَّة، والخُلْع، والإيلاء، والرَّضاعة، والرِّبا، والبيع، وكيفيَّة المُداينة، ناسَب تكليفه إيَّانا بهذه الشرائع أن يذكُر أنَّه تعالى مالكٌ لِمَا في السَّموات وما في الأرض؛ فهو يُلزِم مَن شاء من مملوكاته بما شاء من تعبُّداته وتكليفاته، ولَمَّا كان محل اعتقاد هذه التكاليف هو الأنفُس، وما تنطوي عليه من النيَّات، وثواب مُلتزِمها وعقاب تارِكها إنما يَظهَر في الدَّار الآخرة- نبَّه على صفة العلم التي بها تقَعُ المحاسبةُ في الدَّار الآخرة[1]، فقال:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾.

أي: إنَّ لله تعالى وحده ما في السَّموات والأرض وما بَينهما، خَلْقًا ومُلْكًا وتدبيرًا، وهو المُطَّلِع على مَنْ فيهما، لا يَخفى عليه شيء مُطلَقًا، وسيُطْلِعهم على وجه المحاسبة على إظهارِ ما انطوت عليه نفوسُهم، أو إضماره، ممَّا استقرَّ فيها وثبَت، من الكُفْر والنِّفاق، أو من الأوصاف السيِّئة التي تتَّصِف بها، أو من العزائم المصمِّمة على ارتكاب معصية[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٩). وذكَر أيضًا: أنَّه لَمَّا ذكر الله تعالى أنَّ مَن كتَم الشهادة فإنَّ قلبَه آثم، ذكر ما انطوى عليه الضمير، فكتَمَه أو أبداه؛ فإنَّ الله يحاسبه به، ففيه وعيدٌ وتهديدٌ لمن كتَم الشهادة، ولَمَّا علَّق الإثم بالقلب ذكَر هنا الأنفُس، فقال: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾. وقال الرازي: (عبَّر [أي: في هذه الآية] عن كمال العلم المحيط بالكليَّات والجزئيات بقوله: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾، وإذا حصَل كمال القدرة والعلم، فكان كلُّ مَن في السموات والأرض عبيدًا مربوبين، وُجدوا بتخليقه وتكوينه، كان ذلك غايةَ الوعد للمطيعين، ونهايةَ الوعيد للمذنبين؛ فلهذا السبب ختَم الله هذه السورةَ بهذه الآية). ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢٧-١٢٨، ١٤٣-١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٠، ٩٦١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٣٣).
قال ابن جرير: (أَوْلى الأقوال التي ذكرناها بتأويل الآية قول مَن قال: إنَّها مُحكَمة وليست بمنسوخةٍ) ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٤٣).
=

﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: فيغفر بعد المحاسبة، لِمَن أتى بأسباب المغفرة فضلًا منه، ويُعاقِب مَن يكفُر به، أو يُصِرُّ على المعاصي، في باطنه أو ظاهره عدلًا منه، فالله تعالى لا يُعجِزه شيءٌ،

= وقال النَّحَّاس: (هذا لا يجوز أن يقَع فيه نسخٌ؛ لأنَّه خبر) ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: ٦٦).

وقال ابن رجب: (لَمَّا نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾، شقَّ ذلك على المسلمين، وظنُّوا دخول هذه الخواطر فيه، فنزلت الآية التي بعدها، وفيها قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، فبيَّنت أنَّ ما لا طاقة لهم به، فهو غير مؤاخذ له، ولا مكلَّف به، وقد سمَّى ابن عبَّاس وغيره ذلك نسخًا، ومرادهم أنَّ هذه الآية أزالت الإيهامَ الواقع في النفوس من الآية الأولى، وبيَّنت أنَّ المراد بالآية الأولى: العزائم المصمَّم عليها، ومثل هذا البيان كان السَّلف يُسمُّونه نسخًا) ((جامع العلوم والحكم)) (٢/ ٣٢٤)، ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٨٩-٣٩٠).

وقال ابن عاشور: (أحسنُ كلام فيه ما يأتلِف مِن كلامَي المازريِّ وعِياض، في ((شرحيهما لصحيح مسلم))، وهو- مع زيادة بيان-: أنَّ ما يخطر في النفس إنْ كان مجرَّد خاطر وتَردُّد من غير عزم، فلا خلافَ في عدم المؤاخذة به؛ إذ لا طاقة للمكلَّف بصرفه عنه، وهو موردُ حديث التجاوز للأمَّة عمَّا حدَّثت به أنفُسَها، وإنْ كان قد جاش في النفس عزم، فإمَّا أن يكون من الخواطر التي تترتب عليها أفعال بدنيَّة أو لا، فإنْ كان من الخواطر التي لا تترتَّب عليها أفعال: مثل الإيمان، والكُفْر، والحسد، فلا خِلافَ في المؤاخذة به؛ لأنَّ ممَّا يدخل في طَوقِ المكلَّف أن يَصرِفه عن نفْسه، وإنْ كان من الخواطر التي تترتَّب عليها آثارٌ في الخارج، فإنْ حصَلت الآثار فقد خرَج من أحوال الخواطر إلى الأفعال، كمَن يَعزِم على السَّرقة فيَسرِق، وإنْ عزم عليه ورجَع عن فِعْله اختيارًا لغير مانع منَعه، فلا خلافَ في عدم المؤاخذة به وهو مورد حديث ((مَن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها، كُتِبت له حَسَنةً))، وإنْ رجَع لمانعٍ قهَره على الرجوع ففي المؤاخذة به قولان، أي: إنَّ قوله تعالى: ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾، محمولٌ على معنى يُجازيكم، وأنَّه مُجمَل تُبيِّنه موارد الثواب والعقاب في أدلَّة شرعيَّة كثيرة، وإنَّ مَن سمَّى ذلك نَسْخًا من السَّلف، فإنَّما جرَى على تسمية سبقت ضَبْط المصطلحات الأصوليَّة، فأطلق النَّسخ على معنى البيان، وذلك كثير في عبارات المتقدِّمين، وهذه الأحاديث وما دلَّت عليه دلائلُ قواعدِ الشريعة، هي البيانُ لِمَن يشاء في قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٣٠، ١٣١).

وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّ الآيةَ مُحكَمة، وليست منسوخة: ابن عبَّاس-في رواية عنه-والربيع، والحسن، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٧٤).

ومن تَمام قُدْرته محاسبةُ الخلائق، وإيصالُ ما يَستحِقُّونه من الثواب والعقاب[١].

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إنَّ الله تَجاوَز لأُمَّتي ما حدَّثتْ به أنفسَها، ما لم يتكلَّموا، أو يعملوا به))[٢].

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾.

فضْل خواتيم سورة البقرة:

عن عُقْبة بن عمرٍو رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((مَن قرَأ بالآيتَينِ مِن آخِرِ سورةِ البقرةِ في ليلةٍ كفَتاه[٣]))[٤].

وعَن عبدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، قال: (لمَّا أُسْريَ برسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ انتُهيَ بِهِ إلى سِدرةِ المنتَهَى، وَهيَ في السَّماءِ السَّادسةِ، إليها يَنتَهي ما يُعرَج بِهِ منَ الأرضِ، فيُقبَض منها، وإليها ينتَهي ما يُهْبَطُ بِهِ مِن فوقِها فيُقبَضُ منها، قالَ: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦]، قال: فَرَاشٌ من ذَهَبٍ، قالَ: فأُعْطيَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ثلاثًا: أُعْطيَ الصَّلواتِ الخمسَ، وأُعْطيَ خواتيمَ سورةِ البقرةِ، وغُفِرَ لِمَن لم يُشرِك باللهِ من أمَّتِهِ شيئًا المُقْحِماتُ[٥]))[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٤٥-١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٠، ٩٦١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٣٣).

(٢) رواه مسلم (١٢٧).

(٣) **كَفَتاه**: قيل: كَفَتاه مِن قيامِ تِلك الليلةِ. وقيل: كَفَتاه المكروهَ فيها. ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٥٢).

(٤) رواه البخاري (٥٠٠٨).

(٥) المقحِمات- بكسر الحاء-: هي الذنوب العِظام الكبائر التي تهْلِك أصحابها، وتُورِدهم النار، وتُقحمهم إيَّاها. ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٣).

(٦) رواه مسلم (١٧٣).

وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، قال: (بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، سمِع نقيضًا من فوقِه، فرفع رأسَه، فقال: هذا بابٌ من السَّماءِ فُتِحَ اليومَ، لم يُفتَح قطُّ إلا اليومَ، فنزل منهُ مَلَكٌ، فقال: هذا مَلَكٌ نزل إلى الأرضِ، لم ينزل قطُّ إلا اليومَ، فسلَّم وقال: أبشِر بنورَينِ أُوتِيتَهما لم يُؤتَهما نبيٌّ قبلك: فاتحةُ الكتابِ، وخواتيمُ سورةِ البقرةِ؛ لن تقرأَ بحرفٍ منهما إلَّا أُعطيتَه))[1].

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: لَمَّا نَزلَت على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، قالَ: فاشتدَّ ذلك على أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأتَوْا رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ثمَّ برَكوا علَى الرُّكَبِ، فَقالوا: أيْ رسولَ اللهِ، كُلِّفنا منَ الأَعمالِ ما نُطيقُ؛ الصَّلاةَ والصِّيامَ، والجِهادَ والصَّدقةَ، وقد أُنْزِلَت عليكَ هذه الآيةُ، ولا نُطيقها، قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أتُريدونَ أن تَقولوا كما قالَ أَهْلُ الكتابَينِ من قبلِكُم: سمِعنا وعصَينا؟ بل قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، فلمَّا اقترَأَها القومُ، ذلَّت بها ألسنتُهُم، فأنزلَ اللهُ في إثرِها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، فلمَّا فعَلوا ذلك نسَخها اللهُ تعالى، وأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قالَ: نعَم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾، قالَ: نعَم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، قالَ: نعم، ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، قال: نعَم))[2].

---

(١) رواه مسلم (٨٠٦).

(٢) رواه مسلم (١٢٥).

عن النُّعمانِ بن بَشير رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ كتَب كتابًا قبل أن يَخْلُق السَّمواتِ والأرضَ بأَلْفَي عامٍ أَنْزَلَ منه آيتينِ ختَم بهما سورةَ البقرةِ، ولا يُقرأانِ في دارٍ ثلاثَ ليالٍ فيَقْرَبُها شيطانٌ))[١].

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾، بيَّن أنه لا يَخْفى عليه مِن سِرِّنا وجَهْرنا، وباطننا وظاهرنا شيءٌ البتَّة، ثم إنَّه تعالى ذكَر عقيبَ ذلك ما يَجْري مجرى المدحِ لنا والثَّناء علينا، فقال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾؛ كأنَّه بفضْله يقول: عبدي، أنا وإن كنتُ أعلمُ جميعَ أحوالك، فلا أُظهر من أحوالك، ولا أذكُر منها إلَّا ما يكون مدحًا لك، وثناءً عليك، حتى تعلم أنِّي كما أنا الكامل في المُلْك والعِلْم والقُدرة، فأنا الكامل في الجُودِ والرَّحمة، وفي إظهار الحسنات، وفي السَّتر على السيِّئات.

وأيضًا لَمَّا بيَّن الله تعالى في الآية المتقدِّمة كمالَ المُلْك، وكمال العلم، وكمال القُدرة لله تعالى، وذلك يُوجِب كمال صِفات الرُّبوبيَّة أَتْبَع ذلك بأنْ بيَّن كون المؤمنين في نهاية الانقياد والطَّاعة والخضوع لله تعالى، وذلك هو كمالُ العبوديَّة، وإذا ظهَر لنا كمال الرُّبوبيَّة، وقد ظهر منَّا كمال العبوديَّة، فالمرجوُّ من عميم فضْله وإحسانه أنْ يُظهِر يومَ القيامة في حقِّنا كمالَ العناية والرَّحمة والإحسان[٢].

المناسبة بين فاتحةِ السُّورة وخاتمتِها:

أنَّ الله تعالى مدَحَ في أوَّل السُّورة المتقين، فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٨٢)، وأحمد (١٨٤٣٨)، والدارمي (٣٣٨٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٨٠٣).

حسَّنه الترمذي، وابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٢٧٥)، وجوَّد سنده الشوكاني في ((فتح القدير)) (١/ ٤٦٣)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٠٥، ١٠٦).

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. وبيَّن في آخرِ السورةِ أنَّ الذين مدَحهم في أولِ السورةِ هم أمةُ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾. وهذا هو المرادُ بقولِه في أولِ السورةِ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ثم قال هاهنا: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. وهو المرادُ بقولِه في أولِ السورةِ ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلواةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، ثم قال هاهنا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. وهو المرادُ بقولِه في أولِ السورةِ ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ثم حكَى عنهم هاهنا كيفيةَ تضرُّعِهم إلى ربِّهم في قولِهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إلى آخِرِ السُّورة، وهو المرادُ بقولِه في أولِ السورةِ: ﴿أولئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِمْ وَأولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. فانظرْ كيف حصَلتِ الموافقةُ بينَ أولِ السورةِ وآخرِها[1].

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾.

أي: آمَن رسولُ الله محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأقرَّ وانقاد لِمَا أُوحي إليه من ربِّه من الكتاب والسُّنة، وكذلك آمن المؤمنون، وكلٌّ من الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام والمؤمنين جميعًا يؤمنون حقًّا بالله تعالى وبجميع ملائكته، وجميع كُتُبه، ويُعلِنون إيمانَهم بجميع رُسله عليهم الصَّلاة والسَّلام، دون أيِّ تفريق بين أحدٍ منهم، فلا يؤمنون ببعضٍ، ويَكْفُرون ببعض[2].

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

أي: قال جميع المؤمنين: سَمِعنا قولَ ربِّنا، وأمْره ونهيه، وفَهِمنا ذلك، فقبِلْناه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٤٨-١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٠، ٩٦١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٤١-٤٤٦).

وعمِلْنا بما أَمَر، واجتنبْنا ما عنه زجَر، وقالوا: نسألك يا ربَّنا أن تَستُر لنا على الدوام ذنوبَنا، وتتجاوز عن عِقابنا عليها، وأنت يا ربَّنا مَرجِعُنا في كلِّ أمورنا، وإليك مَعادُنا، ومَعاد كلِّ الخلائق فتَجزيهم بما عمِلوا من خيرٍ وشرٍّ[(١)].

﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾.

سبب النزول:

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نَزلَت علَى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، قالَ: فاشتدَّ ذلك على أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأتَوا رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ثمَّ برَكوا علَى الرُّكَبِ، فقالوا: أيْ رسولَ الله، كُلِّفنا منَ الأَعمالِ ما نُطيقُ: الصَّلاةَ والصِّيامَ، والجِهادَ والصَّدَقةَ، وقد أُنْزِلَت عليكَ هذه الآيةُ ولا نُطيقُها، قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أتُريدونَ أنْ تَقولوا كما قال أَهْلُ الكتابَينِ من قبلِكُم: سمِعنا وعصَينا؟ بل قولوا: سَمِعنا وأطَعْنا، غُفرانَكَ ربَّنا وإليكَ المَصيرُ، فلمَّا اقتَرأَها القومُ، ذلَّت بِها ألسنتُهُم، فأنزلَ اللهُ في إثرِها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، فلَمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٥١-١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٠، ٩٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٤٦).

فعَلوا ذلك نسخَها اللهُ تعالى، وأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قالَ: نعَم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾، قالَ: نعَم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، قالَ: نعم، ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، قال: نعَم))[(١)].

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((لَمَّا نزلت هذِهِ الآيةُ: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾، قال: دخلَ قلوبَهُم منها شيءٌ لم يدخُل قلوبَهُم من شيءٍ، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: قولوا: سَمِعنا وأطَعْنا وسلَّمنا، قالَ: فألقى اللهُ الإيمانَ في قلوبِهِم، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قالَ: قَد فعلتُ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾، قالَ: قد فَعلتُ، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾، قالَ: قد فَعلتُ))[(٢)].

﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

أي: لا يُحمِّل الله تعالى نفسًا فوقَ طاقتِها، فلا يتعبَّدها إلَّا بما يَسَعُها تَحمُّله، فلا يُضيِّق عليها، ولا يُجهِدها بما لا قِبل لها به، وهو وإنْ حاسَب وسأل، لكنَّه لا يُعذِّب بما لا يُمكِن للمرء دفْعُه؛ كوسوسة عَرَضتْ له، أو خَطْرة خطَرتْ بقلبه، ولكلِّ نَفْس ما عمِلتْ من خير، لا يَنقُص منها شيءٌ؛ وعليها ما عمِلتَ من شرٍّ، لا يُزاد عليها شيء[(٣)].

---

(١) تقدَّم تخريجه (ص: ٩٠٢).

(٢) رواه مسلم (١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٥٢-١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥١-٤٥٢).
قال ابن عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ يُريد من الحسَنات، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ يريد =

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

أي: قولوا: يا ربَّنا، لا تُعاقِبْنا إنْ نسِينا القيامَ بفرضٍ، أو تَرْك مُحَرَّم، ولا تُعاقِبنا يا ربَّنا، إنْ أخطأنا الصَّوابَ في العمل، جهلًا منَّا بوجْهه الشَّرعي، أو وقَعْنا في معصيتك جهلًا، عن غير قصْدٍ منَّا، بارتكاب نهيك[١].

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾.

أي: قولوا: يا ربَّنا، لا تُحمِّلنا عهدًا على القيام بأعمالٍ شاقَّةٍ وثقيلةٍ علينا، فنعجِز عن القيام بها، فتَحِلَّ علينا العقوباتُ، كما وقَع لليهود والنصارى وغيرهم ممَّن كُلِّفوا أعمالًا، وأُخِذتْ عليهم العهودُ والمواثيقُ على القيامِ بها، فلم يفعلوا، فعُوقِبوا[٢].

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾.

أي: قولوا أيضًا: يا ربَّنا لا تُكلِّفنا من الأعمال ما لا نُطيق القيامَ به؛ لثِقَل حَمْله علينا، ولا تَبْتلِنا بما لا قِبَل لنا به[٣].

﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾.

أي: يا ربَّنا، تَجاوَز عمَّا بيننا وبينك من تقصيرٍ في أداء ما افترضتَه علينا، واستُر علينا فيما بيننا وبين عبادِك، فلا تُظهِرهم على سيِّئاتنا، وتَجاوَز عنها، وجُدْ علينا بالرحمة حتى لا نَقَع في ارتكابِ محظورٍ، أو تَهاوُنٍ في أداء مأمور، ونجِّنا برحمتك من غضبِك وعقابِك[٤].

= من السيِّئات؛ قاله السُّدِّيُّ وجماعةٌ من المفسِّرين، لا خلافَ في ذلك)) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٥٥-١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٠-١٢١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٥٨، ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٦١-١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٣٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٦٤-١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٣٨)، ((تفسير =

﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

أنت وليُّنا وناصِرُنا دون مَن عاداك وكَفَر بك؛ لأنَّا حِزبُك المؤمنون بك، والمُطيعون لك فيما أَمَرتنا ونَهيتنا؛ فبوَلايتِك الخاصَّة انصُرنا على الكافرين، الذين جَحدوا وحدانيتَكَ، وأَشرَكوا معك، وأَنكَروا رسالةَ نبيِّك، وعبدوا غيرَك، وأطاعوا الشَّيطانَ في معصيتِك، واجعل لنا العاقبةَ عليهم في الدُّنيا والآخرة[١].

الفوائِد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾، تحذيرٌ للعبد مَن أنْ يُخفي في قلبه ما لا يَرضاه الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا علِم بأنَّ الله عالمٌ بما يُبدي وبما يُخفي، فسوف يُراقِب اللهَ سبحانه وتعالى؛ خوفًا مِن أنْ يُحاسَب على ما أخفاه كما يُحاسَب على ما أبداه[٢].

٢- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أنَّ المسلم حين ينتابُه الضَّعفُ البشريُّ الذي لا حيلةَ له فيه، يتوجَّه إلى ربِّه يَطلُب العفو والسَّماح، وليس هو التبجُّح إذن بالخَطيئة، أو الإعراض ابتداءً عن الأمر، أو التَّعالي عن الطاعة والتَّسليم، أو الزَّيغ عن عَمْدٍ وقَصْد[٣].

٣- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، دلالةٌ على أنَّه ينبغي للإنسان

= السعدي)) (ص: ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنْ يسأل اللهَ سبحانه وتعالى العافيةَ، فلا يُحمِّله ما لا طاقةَ له به؛ ففيه ردٌّ على الصُّوفية الذين قالوا: نحن لا نسأل الله تعالى أن يَقِيَنا ما يَشُقُّ علينا؛ لأنَّنا عبيدُه، وإذا حصل لنا ما يَشُقُّ، فإنَّنا نَصبِر عليه؛ لنكسِب أجرًا[١].

٤- أنَّه ينبغي للإنسان سؤالُ الله العفوَ؛ لأنَّ الإنسان لا يخلو من تقصيرٍ في المأمورات، فيسأل الله العفوَ عن تقصيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾، وسؤالُ الله المغفرةَ من ذنوبه التي فعَلها؛ لقوله تعالى: ﴿واغْفِرْ لَنَا﴾؛ لأنَّ الإنسانَ إن لم يُغفَر له تراكمتْ عليه الذُّنوبُ، ورانت على قلبه، وربَّما تُوبِقه، وتُهلِكه[٢].

٥- التوسُّل إلى الله تعالى في الدُّعاء بما يَقتضي الإجابةَ؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ بعد أنْ ذكَر الدُّعاءَ في قوله تعالى: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾[٣].

الفوائد العلمية واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، إثبات صفاتِ الكَمال لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّنا إذا تأمَّلنا في هذا المُلْك الواسع العظيم، وأنه يُدبَّر بانتظام لا مثيلَ له، علِمنا بأنَّ الذي يدبِّره كاملُ الصِّفات؛ فيُؤخَذ منه كل صِفة كمال لله، كالعِلم، والقُدرة، والسَّمع، والبصر، والكلام، والعزَّة، والحِكمة، وغير ذلك من صِفاته عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه لا يُمكِن أن يقومَ بمُلْك هذه الأشياء العظيمة إلَّا من هو مُتَّصِفٌ بصفات الكمال[٤].

٢- عمومُ عِلْم الله وسَعَته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾؛ ولا مُحاسبة إلَّا مِن بعد علمٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٦٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٦١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٣٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٣٧).

٣- أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يُصرِّح بالمعاقبة؛ ولا يَلزَم من المحاسبة المؤاخذةُ؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾[١].

٤- إثبات المشيئة لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ ومشيئته تعالى مقرونةٌ بالحِكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[الإنسان: ٣٠]، وكلُّ شيء أضافه الله إلى مشيئته فهو مقرونٌ بحِكمة؛ لا يَشاءُ شيئًا إلَّا لِحِكْمة، أيًّا كان هذا الشَّيء[٢].

٥- أنَّه بَعدَ المحاسبة إمَّا أنْ يَغفِر الله تعالى للإنسان، وإمَّا أن يُعذِّبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾، فإن كان كافرًا عُذِّب؛ وإنْ كان مُسلِمًا كان تحت المشيئة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء: ٤٨][٣].

٦- أنَّ المؤمنين تَبَعٌ للرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾؛ وَجْه التَّبَعيَّة أنه ذكَر ما آمَن به قبل أن يَذكُر التابعَ- يعني لم يقُل: (آمَن الرسولُ والمؤمنون بما أُنزِل إليه)، وهذا يدلُّ على أنَّهم أتباعٌ للرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ، لا يَستقِلُّون بشريعةٍ دونه[٤].

٧- أنَّه كلَّما كان الإنسان أقوى إيمانًا بالرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان أشدَّ اتِّباعًا له؛ وَجْهه: أنَّه تعالى قال: ﴿أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: والمؤمنون آمَنوا بما أُنزِل على محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ من ربِّه؛ وعليه فكلُّ من كان أقوى إيمانًا كان أشدَّ اتِّباعًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٤٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٤٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٨- في قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ ترتيبٌ في غاية الفصاحة؛ لأنَّ الإيمان بالله هو المرتبة الأولى، والإيمان بملائكته هي المرتبة الثانية؛ لأنَّهم كالوسائط بين الله وعباده، والإيمان بالكتُب- الذي هو الوحي الذي يتلقَّنه المَلَك من الله، يُوصِّله إلى البشر- هي المرتبة الثالثة، والإيمان بالرُّسُل الذين يَقتبِسون أنوارَ الوحي؛ فهم متأخِّرون في الدَّرجة عن الكُتُب، وهي المرتبة الرابعة[١].

٩- قوله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾: فيه مناسبةٌ حسنةٌ بتقديم ذكرِ السَّمعِ والطاعةِ على طَلَب الغُفران؛ لأنَّ تقديمَ الوسيلةِ على المسؤول أدْعى إلى الإجابة والقَبُول، والتَّعرُّض لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافة إليهم (رَبَّنَا)؛ للمُبالغةِ في التضرُّع والجُؤار[٢].

١٠- أنَّ للإنسان طاقةً محدودة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ فالإنسان له طاقة محدودة في كل شيء: في العِلم، والفَهْم، والحِفْظ؛ فيُكلَّف بحسَب طاقته[٣].

١١- في قوله ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾: أنَّ للإنسان ما كسَب دون أن يَنقُص منه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[٤].

١٢- أنَّ الأعمال الصالحة كَسْب؛ وأنَّ الأعمال السيِّئة غُرْم؛ وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿لَهَا﴾، ومن قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا﴾؛ فإنَّ (على) ظاهرة في أنها غُرْم؛ واللام ظاهرة في أنَّها كَسْب[٥].

١٣- وفي الإتيان بـ﴿كَسَبَ﴾ في الخير الدَّال على أنَّ عمل الخير يَحصُل للإنسان

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٧٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بأدنى سعيٍ منه، بل بمُجرَّد نيَّة القلب، وأتى بـ﴿اكْتَسَبَ﴾ في عملِ الشرِّ؛ للدَّلالة على أنَّ عمل الشرِّ لا يُكتَب على الإنسان حتى يعملَه، ويَحصُل سعيُه[١].

١٤- رحمة الله سبحانه وتعالى بالخَلْق، حيث علَّمهم دعاءً يدعونه به، واستجاب لهم إيَّاه في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[٢].

١٥- أنَّه ينبغي للإنسان أن يتوسَّل في الدُّعاء بالوصف المناسِب، مِثْل الرُّبوبيَّة- التي بها الخَلْق، والتدبير؛ ولهذا كان أكثرُ الأدعية في القرآن مصدَّرةً بوصف الرُّبوبيَّة، مِثْل: ﴿رَبَّنَا﴾، ومِثْل: ﴿رَبِّ﴾[٣].

١٦- أنَّ من كان قَبْلنا كانوا مُكلَّفين بأعظمَ ممَّا كُلِّفنا به؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾[٤].

١٧- ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾، هذه الكلمة تَدلُّ على نهاية الخضوع والتذلُّل، والاعتراف بأنَّه سبحانه هو المتولِّي لكلِّ نِعْمة يَصِلون إليها، وهو المعطِي لكلِّ مَكرُمة يفوزون بها، فلا جَرَم أَظهروا عند الدعاءِ أنَّهم في كونهم مُتكلِّمين على فضْله وإحسانه بمنزلة الطِّفل الذي لا تَتِمُّ مصلحته إلَّا بتدبير قَيِّمِه، والعبد الذي لا يَنتظِم شَمْلُ مهمَّاته إلَّا بإصلاح مولاه، فهو سبحانه قَيُّوم السَّموات والأرض، والقائم بإصلاح مهمَّات الكل، وهو المتولِّي في الحقيقة للكلِّ[٥].

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ حُسنُ الختام، وحُسن

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١ / ١٢٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٥٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٥٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٥٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٢٥).

المناسبة؛ لأنَّه سبحانه لَمَّا ذكر أنَّ مَن كتَم الشَّهادة فإنَّ قلبَه آثمٌ، ذكَر ما انطوى عليه الضَّمير، فكتَمَه أو أبداه؛ فإنَّ الله يحاسبه به، ففيه وعيدٌ وتهديد لِمَن كتم الشهادة[١].

- وكذا ناسب ذِكر هذه الآية- بما اشتملتْ عليه من تهديد- خاتمةً لهذه السُّورة؛ فلمَّا جمع في هذه السُّورة أشياءَ كثيرة من أمور التوحيد والنبوَّة والشرائع والتكاليف، كالصَّلاة والزكاة، والصوم والحج، والقصاص والجهاد...إلخ - ختَمها بخلاصة ذلك، وبالأصل الذي يَنبني عليه كلُّ تلك الأمور[٢].

- وهي تعليلٌ واستدلالٌ على مضمون جملة: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾؛ فإذا كان ذلك تعريضًا بالوعد والوعيد، فقد جاء هذا الكلام تصريحًا واستدلالًا عليه، التصريح في جملة ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، والاستدلال في جملة ﴿لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وهي اعتراضٌ بين الجملتين المتعاطفتينِ، أو علَّة لجملة ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ باعتبار إرادة الوعيد والوعد، فالمعنى: أنَّكم عبيدُه، فلا يفوته عملُكم، والجزاء عليه[٣].

٢- **قوله:** ﴿**وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله؛ فإنَّ كمالَ قُدرته تعالى على جميع الأشياء، مُوجِبٌ لقدرته سبحانه على ما ذُكر من المحاسبة، وما فُرِّع عليه من المغفرة والتعذيب[٤].

٣- وقد تَضمَّنت هذه الآية من أنواع الفصاحة، وضروبِ البلاغة أشياء؛ منها:

- الطِّباق في قوله: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾، والتَّكرار في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٠٢-١٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٩-٧٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٣١).

قوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾، حيث كرَّر (ما) الموصولة؛ تنبيهًا وتوكيدًا[١].

- توحيد الضمير في ﴿آمَنَ﴾ مع رجوعه إلى كلِّ المؤمنين؛ لأنَّ المرادَ بيانُ إيمانِ كلِّ فردٍ منهم من غير اعتبار الاجتماعِ، كما اعتُبر ذلك في قوله تعالى ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾، وتغييرُ سبْكِ النَّظم الكريمِ عمَّا قبلَه؛ لتأكيد الإشعارِ بما بين إيمانه صلَّى الله عليه وسلَّم المبنيِّ على المشاهدة والعِيان، وبين إيمانِهم الناشئ عن الحُجَّة والبرهانِ من التفاوت البيِّن، والاختلاف الجليِّ، كأنَّهما مختلفان من كلِّ وجهٍ، حتى في هيئة التركيب الدالِّ عليهما، وما فيه من تكرير الإسناد لِمَا في الحُكم بإيمان كلِّ واحدٍ منهم على الوجْه الآتي من نوعِ خفاءٍ مُحوِجٍ إلى التقوية والتأكيد، أي: كلُّ واحد منهم آمن[٢].

٤- في قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ...﴾ فَذْلكةٌ لجميع ذلك المذكور من قبلُ، وللتأكيد عليه، ولتعظيم نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأتْباعه؛ فإنَّه لَمَّا ذكر الله في هذه السُّورة أحكامًا كثيرة، وقصصًا، ختمَها بقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ...﴾، والجملة استئناف ابتدائي وُضِعت في هذا الموقِع لمناسبة ما تقدَّم، وهو انتقالٌ مؤذِن بانتهاء السُّورة؛ لأنَّه لَمَّا انتقل من أغراض متناسبة إلى غرَض آخَر: هو كالحاصل، والفذلكة، فقد أشْعَر بأنَّه استوفى تلك الأغراض[٣].

٥- قوله: ﴿لا نُفَرِّقُ﴾ يحتمل الالتفات: بأنْ يكون من مقول قول محذوف دلَّ عليه السِّياق وعُطف (وقالوا) عليه، أو النون فيه للجلالة، أي: آمَنوا في حال أنَّنا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٣١-١٣٢).

أمرناهم بذلك؛ لأنَّنا لا نُفرِّق، فالجملة معترِضة[١].

٦- **في قوله:** ﴿**وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ تذييلٌ لِمَا قبله، مقرِّر للحاجة إلى المغفرة؛ لأنَّ الرجوع يكون للحسابِ والجزاء[٢].

٧- **قوله:** ﴿**لَا تُؤَاخِذْنَا**﴾، ﴿**وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا**﴾، ﴿**وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ**﴾ جاءت هذه الأدعية بصِيغة الجمع وقتَ الدُّعاء؛ لبيان أنَّ قَبول الدعاء عند الاجتماع أكملُ؛ وذلك لأنَّ للهِمم تأثيراتٍ، فإذا اجتمعت الأرواح والدَّواعي على شيء واحد كان حصوله أكملَ، وهذه الأدعية كان المطلوبُ فيها الترك، فجاءت مقرونةً بلفظ (ربنا). ولم يذكُر لفظ (ربَّنا) في الأدعية التالية لها (واعف - واغفر - وارحمنا - فانصرنا)؛ لأنَّ النِّداء إنما يُحتاج إليه عند البُعد، أمَّا عند القُرب فلا، وإنَّما حذف النِّداء؛ إشعارًا بأنَّ العبد إذا واظب على التضرُّع نال القربَ من الله تعالى، وهذا سرٌّ عظيم يُطَّلع منه على أسرار أُخَر[٣].

أو لم يُؤتَ مع هذه الدَّعوات بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾؛ لأنَّه تكرَّر ثلاثَ مرات، والعرب تَكرَهُ تكرير اللَّفظ أكثرَ من ثلاث مرَّات إلَّا في مقام التهويل، أو لأنَّ تلك الدعوات المقترنة بقوله: ﴿ربَّنَا﴾ فروعٌ لهذه الدعوات الثلاث، فإذا استُجيب تلك، حصَلت إجابة هذه بالأَولى؛ فلمَّا كان تعميمًا بعد تخصيص، كان كأنَّه دعاء واحد[٤].

٨- **قوله:** ﴿**لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ فيه التفات[٥]، بالعدول عن الخِطاب إلى الغَيبة بذِكر لفظ الجلالة (الله)؛ وفائدته: إظهار التملُّق بأنَّ له من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٧٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤١).

(٥) على القول بأنَّ قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ﴾ من جملة دعاء المؤمنين. ويحتمل أن يكون ذلك من قول الله تعالى جزاءً لهم على قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ وعلى هذا فلا يكون فيه التفاتٌ.

صِفات العظمة ما يَقتضي العفوَ عن ضَعفهم[١].

٩- **قوله:** ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا﴾ جِيء فيه بالفاء للتفريع عن كونه مولًى؛ لأنَّ شأنَ المولى أن ينصُر مولاه، وفي التفريع بالفاء إيذانٌ بتأكيد طلبِ إجابة الدُّعاء بالنصر؛ لأنَّهم جعلوه مرتَّبًا على وصف محقَّق، وهو ولايةُ الله تعالى المؤمنين[٢].

١٠- **قوله:** ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ بينهما مقابلة؛ فقد طابَق بين (لها) و(عليها)، وبين (كسبت) و(اكتسبت)؛ فالفعل الأوَّل يختصُّ بالخير، والفعل الثاني يختصُّ بالشرِّ؛ فإنَّ في الاكتساب اعتمالًا، والشرُّ تَتشهَّاه النفْس وتَجنح إليه بالطبع، بخلاف الخير[٣]. والمقابلة تُبرز المعنى وتُوضِّحه.

- **وأيضًا قوله:** ﴿لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ﴾ صيغة خبر، والمراد الترغيبُ في المحافظة على مواجب التكليف، والتحذيرُ عن الإخلال بها[٤].

١١- **وفي الآية:** حسنُ الختام لهذه السُّورة العظيمة، التي اشتملتْ على العديد من الأحكام، وانطوتْ على التَّشريع والبيان؛ فناسَب أن يتناول ختامها ما ذُكِر فيها[٥].

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ الأوَّل

ويَليه المجلَّدُ الثَّاني، وأوَّله: تفسير سُورة آل عمران

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٧٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٣٢-٣٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٩٩-٧٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٥١).

الفهرس

نسخة إلكترونية **حقوقها للناشر** لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا **(اضغط هنا)**

الفهرس

تقديم الشَّيخ الدكتور خالِد بن عُثمان السَّبت ٥
تقديم الشيخ الدكتور أحمد سعد الخَطيب ٨
مُقدِّمة التَّفسير ١٢
ضوابط العمل في هذا التفسير: ١٨
الاستِعاذَة ٢٤
تَفسيرُ البَسْملةِ ٢٨
مِن فوائدِ البَسملةِ ولَطائفِها: .. ٢٩
هلِ البَسملةُ آيةٌ من سورةِ الفاتحةِ؟ ٣٠
سورة الفاتحة ٣٥
أسماء السورة: ٣٥
فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها: .. ٣٦
بيان المكي والمدني: ٣٨
مقاصد السُّورة: ٣٩
موضوعات السُّورة: ٣٩
الآيات (١-٧) ٤١
المعنى الإجمالي: ٤١
غريب الكلمات: ٤١
مشكل الإعراب: ٤١
تفسير الآيات: ٤٢
الفوائد التربويَّة: ٤٨
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: ٥٠
بلاغة الآيات: ٥١
سُورَةِ البَقَرَةِ ٥٩
أسماء السُّورة: ٥٩
فضائلُ السُّورة وخصائصُها: .. ٥٩
بيان المَكِّي والمَدني: ٦٠
موضوعات السُّورة: ٦١
الآيات (١-٥) ٦٣
غريب الكلمات: ٦٣
مشكل الإعراب: ٦٤
المعنى الإجمالي: ٦٤
تفسير الآيات: ٦٤
الفَوائِد التربويَّة: ٦٨
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: ٦٨
بلاغة الآيات: ٧١
الآيات (٦-٧) ٧٥
غريب الكلمات: ٧٥

مشكل الإعراب: ٧٥
المعنى الإجمالي: ٧٦
تفسير الآيات: ٧٦
الفَوائِد التربويَّة: ٧٧
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: ٧٧
بلاغة الآيات: ٧٨
الآيات (٨-٢٠) ٨٠
غريب الكلمات: ٨٠
المعنى الإجمالي: ٨٢
تفسير الآيات: ٨٥
الفَوائِد التربويَّة: ٩٧
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: ٩٩
بلاغة الآيات: ١٠٠
الآيات (٢١-٢٥) ١٠٥
غريب الكلمات: ١٠٥
المعنى الإجمالي: ١٠٥
تفسير الآيات: ١٠٦
الفَوائِد التربويَّة: ١١١
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ١١٢
بلاغة الآيات: ١١٤
الآيات (٢٦-٢٩) ١١٦
غريب الكلمات: ١١٦
مشكل الإعراب: ١١٦
المعنى الإجمالي: ١١٧
تفسير الآيات: ١١٧
الفَوائِد التَّربويَّة: ١٢٣
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ١٢٣
بلاغة الآيات: ١٢٤
الآيات (٣٠-٣٣) ١٢٧
غريب الكلمات: ١٢٧
مشكل الإعراب: ١٢٨
المعنى الإجمالي: ١٢٨
تفسير الآيات: ١٢٩
الفَوائِد التربويَّة: ١٣٢
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ١٣٣
بلاغة الآيات: ١٣٤
الآيات (٣٤-٣٩) ١٣٦
غريب الكلمات: ١٣٦
مشكل الإعراب: ١٣٧
المعنى الإجمالي: ١٣٧
تفسير الآيات: ١٣٨
الفَوائِد التربويَّة: ١٤٤
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ١٤٥
بلاغة الآيات: ١٤٦

الآيات (٤٠-٤٦) ١٤٩
غريب الكلمات: ١٤٩
المعنى الإجمالي: ١٤٩
تفسير الآيات: ١٥٠
الفَوائِد التربويَّة: ١٥٥
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ١٥٧
بلاغة الآيات: ١٥٨
الآيات (٤٧-٥٧) ١٦١
غريب الكلمات: ١٦١
مشكل الإعراب: ١٦٣
المعنى الإجمالي: ١٦٣
تفسير الآيات: ١٦٤
الفَوائِد التربويَّة: ١٧٤
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: . ١٧٦
بلاغة الآيات: ١٧٨
الآيات (٥٨-٦١) ١٨٢
غريب الكلمات: ١٨٢
مشكل الإعراب: ١٨٣
المعنى الإجمالي: ١٨٣
تفسير الآيات: ١٨٤
الفَوائِد التربويَّة: ١٩١
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ١٩٢
بلاغة الآيات: ١٩٣
الآيات (٦٢-٦٦) ١٩٥
غريب الكلمات: ١٩٥
المعنى الإجمالي: ١٩٦
تفسير الآيات: ١٩٦
الفَوائِد التربويَّة: ٢٠٠
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ٢٠١
بلاغة الآيات: ٢٠٢
الآيات (٦٧-٧٤) ٢٠٥
غريب الكلمات: ٢٠٥
مشكل الإعراب: ٢٠٧
المعنى الإجمالي: ٢٠٧
تفسير الآيات: ٢٠٨
الفَوائِد التربويَّة: ٢١٥
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ٢١٦
بلاغة الآيات: ٢١٧
الآيات (٧٥-٨٢) ٢٢٠
غريب الكلمات: ٢٢٠
مشكل الإعراب: ٢٢١
المعنى الإجمالي: ٢٢١
تفسير الآيات: ٢٢٢
الفوائد التربويَّة: ٢٣٠

الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ٢٣١
بلاغة الآيات: ٢٣١
الآيات (٨٣-٨٦) ٢٣٤
غريب الكلمات: ٢٣٤
مشكل الإعراب: ٢٣٤
المعنى الإجمالي: ٢٣٥
تفسير الآيات: ٢٣٦
الفوائد التربويَّة: ٢٤١
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ٢٤٢
بلاغة الآيات: ٢٤٣
الآيات (٨٧-٩٠) ٢٤٥
غريب الكلمات: ٢٤٥
المعنى الإجمالي: ٢٤٦
تفسير الآيات: ٢٤٧
الفوائد التربويَّة: ٢٥٣
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: . ٢٥٣
بلاغة الآيات: ٢٥٤
الآيات (٩١-٩٣) ٢٥٧
غريب الكلمات: ٢٥٧
المعنى الإجمالي: ٢٥٧
تفسير الآيات: ٢٥٨
الفوائد التربويَّة: ٢٦١
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ٢٦٢
بلاغة الآيات: ٢٦٣
الآيات (٩٤-٩٦) ٢٦٦
غريب الكلمات: ٢٦٦
المعنى الإجمالي: ٢٦٦
تفسير الآيات: ٢٦٧
الفوائد التربويَّة: ٢٧٠
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ٢٧٠
بلاغة الآيات: ٢٧١
الآيات (٩٧-١٠٣) ٢٧٣
غريب الكلمات: ٢٧٣
المعنى الإجمالي: ٢٧٤
تفسير الآيات: ٢٧٥
الفوائد التربويَّة: ٢٨٤
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ٢٨٥
بلاغة الآيات: ٢٨٦
الآيات (١٠٤-١١٣) ٢٩١
غريب الكلمات: ٢٩١
المعنى الإجمالي: ٢٩٢
تفسير الآيات: ٢٩٤
الفوائد التربويَّة: ٣٠٨
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ٣١٠

بلاغة الآيات: ٣١٢
الآيات (١١٤-١١٩)..... ٣١٧
غريب الكلمات: ٣١٧
المعنى الإجمالي: ٣١٨
تفسير الآيات: ٣١٩
الفوائد التربويَّة: ٣٢٧
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ٣٢٨
بلاغة الآيات: ٣٢٩
الآيات (١٢٠-١٢٣)..... ٣٣٢
غريب الكلمات: ٣٣٢
مشكل الإعراب: ٣٣٢
المعنى الإجمالي: ٣٣٣
تفسير الآيات: ٣٣٤
الفوائد التربويَّة: ٣٣٩
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ٣٤٠
بلاغة الآيات: ٣٤١
الآيات (١٢٤-١٣٤)..... ٣٤٤
غريب الكلمات: ٣٤٤
المعنى الإجمالي: ٣٤٥
تفسير الآيات: ٣٤٧
الفوائد التربويَّة: ٣٦٢
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ٣٦٣
بلاغة الآيات: ٣٦٥
الآيات (١٣٥-١٤١)..... ٣٧١
غريب الكلمات: ٣٧١
مشكل الإعراب: ٣٧٢
المعنى الإجمالي: ٣٧٣
تفسير الآيات: ٣٧٤
الفوائد التربويَّة: ٣٨٢
الفوائد العلميَّة واللَّطائف: .. ٣٨٣
بلاغة الآيات: ٣٨٤
الآيات (١٤٢-١٥٠)..... ٣٨٩
مشكل الإعراب: ٣٩١
المعنى الإجمالي: ٣٩١
تفسير الآيات: ٣٩٤
الفوائد التربويَّة: ٤١٠
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: .. ٤١٣
بلاغة الآيات: ٤١٥
الآيات (١٥١-١٥٧)..... ٤٢٣
غريب الكلمات: ٤٢٣
مشكل الإعراب: ٤٢٤
المعنى الإجمالي: ٤٢٥
تفسير الآيات: ٤٢٦
الفوائد التربويَّة: ٤٣١

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: .. ٤٣٣
بلاغة الآيات: ٤٣٣
الآيات (١٥٨-١٦٣)..... ٤٣٧
غريب الكلمات: ٤٣٧
المعنى الإجمالي: ٤٣٧
تفسير الآيات: ٤٣٩
الفوائد التربويَّة: ٤٤٥
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: . ٤٤٦
بلاغة الآيات: ٤٤٦
الآيات (١٦٤-١٦٧)..... ٤٥٠
غريب الكلمات: ٤٥٠
المعنى الإجمالي: ٤٥١
تفسير الآيات: ٤٥٣
الفوائد التربويَّة: ٤٦٠
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: .. ٤٦٠
بلاغة الآيات: ٤٦١
الآيات (١٦٨-١٧٣)..... ٤٦٣
غريب الكلمات: ٤٦٣
المعنى الإجمالي: ٤٦٤
تفسير الآيات: ٤٦٥
الفوائد التربويَّة: ٤٧٣
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: .. ٤٧٤
بلاغة الآيات: ٤٧٥
الآيات (١٧٤ - ١٧٦) ٤٧٧
غريب الكلمات: ٤٧٧
المعنى الإجمالي: ٤٧٧
تفسير الآيات: ٤٧٨
الفوائد التربويَّة: ٤٨١
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: .. ٤٨١
بلاغة الآيات: ٤٨٢
الآيات (١٧٧ - ١٧٩) ٤٨٤
غريب الكلمات: ٤٨٤
مشكل الإعراب: ٤٨٥
المعنى الإجمالي: ٤٨٦
تفسير الآيات: ٤٨٧
الفوائد التربويَّة: ٤٩٢
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: .. ٤٩٣
بلاغة الآيات: ٤٩٣
الآيات (١٨٠ - ١٨٢) ٤٩٧
غريب الكلمات: ٤٩٧
مشكل الإعراب: ٤٩٧
المعنى الإجمالي: ٤٩٨
تفسير الآيات: ٤٩٨
الفوائد التربويَّة: ٥٠١

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: .. ٥٠١
بلاغة الآيات: ٥٠٢
الآيات (١٨٣ - ١٨٨) ٥٠٤
غريب الكلمات: ٥٠٤
مشكل الإعراب: ٥٠٦
المعنى الإجمالي: ٥٠٦
تفسير الآيات: ٥٠٨
الفوائد التربويَّة: ٥٢٣
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: . ٥٢٥
بلاغة الآيات: ٥٢٨
الآيات (١٨٩ - ١٩٥) ٥٣١
غريب الكلمات: ٥٣١
المعنى الإجمالي: ٥٣٢
تفسير الآيات: ٥٣٣
الفوائد التربويَّة: ٥٤٤
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: .. ٥٤٦
الآيات (١٩٦ - ٢٠٣) ٥٥٠
غريب الكلمات: ٥٥٠
مشكل الإعراب: ٥٥٢
المعنى الإجمالي: ٥٥٢
تفسير الآيات: ٥٥٥
الفوائد التربويَّة: ٥٧٠
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: .. ٥٧١
بلاغة الآيات: ٥٧٣
الآيات (٢٠٤ - ٢٠٧) ٥٧٦
غريب الكلمات: ٥٧٦
المعنى الإجمالي: ٥٧٧
تفسير الآيات: ٥٧٧
الفوائد التربويَّة: ٥٨٢
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: .. ٥٨٢
بلاغة الآيات: ٥٨٣
الآيات (٢٠٨ - ٢١٤) ٥٨٥
غريب الكلمات: ٥٨٥
المعنى الإجمالي: ٥٨٦
تفسير الآيات: ٥٨٨
الفوائد التربويَّة: ٥٩٩
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: .. ٦٠٠
بلاغة الآيات: ٦٠٢
الآيات (٢١٥ - ٢٢٠) ٦٠٥
غريب الكلمات: ٦٠٥
مشكل الإعراب: ٦٠٦
المعنى الإجمالي: ٦٠٧
تفسير الآيات: ٦٠٩
الفوائد التربويَّة: ٦١٩

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: .. ٦٢٠
بلاغة الآيات: ٦٢٢
الآيات (٢٢١ - ٢٢٤) ٦٢٥
غريب الكلمات: ٦٢٥
المعنى الإجمالي: ٦٢٥
تفسير الآيات: ٦٢٧
الفوائد التربويَّة: ٦٣٧
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: .. ٦٣٧
بلاغة الآيات: ٦٣٩
الآيات (٢٢٥ - ٢٣٢) ٦٤١
غريب الكلمات: ٦٤١
المعنى الإجمالي: ٦٤٣
تفسير الآيات: ٦٤٦
الفوائد التربويَّة: ٦٦١
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: .. ٦٦٣
بلاغة الآيات: ٦٦٥
الآيات (٢٣٣ - ٢٤٢) ٦٦٨
غريب الكلمات: ٦٦٩
مشكل الإعراب: ٦٧٠
المعنى الإجمالي: ٦٧٢
تفسير الآيات: ٦٧٥
الفوائد التربويَّة: ٦٩٠
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: .. ٦٩١
بلاغة الآيات: ٦٩٣
الآيات (٢٤٣ - ٢٥٢) ٦٩٩
غريب الكلمات: ٧٠٠
المعنى الإجمالي: ٧٠١
تفسير الآيات: ٧٠٣
الفوائد التربويَّة: ٧١٧
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: .. ٧٢٠
بلاغة الآيات: ٧٢٤
الآية (٢٥٣) ٧٢٨
غريب الكلمات: ٧٢٨
المعنى الإجمالي: ٧٢٨
تفسير الآية: ٧٢٩
الفَوائِد التَّربويَّة: ٧٣٢
الفوائد العلمية واللَّطائف: .. ٧٣٢
بلاغة الآية: ٧٣٣
الآيات (٢٥٤ - ٢٥٧) ٧٣٧
غريب الكلمات: ٧٣٧
المعنى الإجمالي: ٧٣٩
تفسير الآيات: ٧٤٠
الفوائِد التربويَّة: ٧٥٣
الفوائد العلمية واللَّطائف: .. ٧٥٤

بلاغة الآيات: ٧٥٨
الآيات (٢٥٨-٢٦٠)..... ٧٦٣
غريب الكلمات: ٧٦٣
مُشكِل الإعراب: ٧٦٤
المعنى الإجمالي: ٧٦٥
تفسير الآيات:..... ٧٦٦
الفوائِد التربويَّة: ٧٧٥
الفوائد العلمية واللَّطائف:.. ٧٧٧
بلاغة الآيات: ٧٨١
الآيات (٢٦١- ٢٦٥) ٧٨٤
غريب الكلمات: ٧٨٤
المعنى الإجمالي: ٧٨٥
تفسير الآيات:..... ٧٨٧
الفوائِد التربويَّة: ٧٩٦
الفوائد العلمية واللَّطائف:.. ٧٩٨
بلاغة الآيات: ٨٠٠
الآيات (٢٦٦- ٢٧٤) ٨٠٩
غريب الكلمات: ٨١٠
مُشكِل الإعراب: ٨١٢
المعنى الإجمالي: ٨١٣
تفسير الآيات:..... ٨١٥
الفوائِد التربويَّة: ٨٣٣
الفوائد العلمية واللَّطائف: . ٨٣٥
بلاغة الآيات: ٨٤٠
الآيات (٢٧٥- ٢٨١) ٨٥٣
غريب الكلمات: ٨٥٣
مشكل الإعراب: ٨٥٤
المعنى الإجمالي: ٨٥٥
تفسير الآيات:..... ٨٥٦
الفوائد التربويَّة: ٨٦٤
الفوائد العلمية واللَّطائف:.. ٨٦٦
بلاغة الآيات: ٨٧٠
الآيات (٢٨٢- ٢٨٣) ٨٧٣
غريب الكلمات: ٨٧٣
مشكل الإعراب: ٨٧٥
المعنى الإجمالي: ٨٧٦
تفسير الآيات:..... ٨٧٧
الفوائِد التربويَّة: ٨٨٢
الفوائد العلمية واللَّطائف:.. ٨٨٣
بلاغة الآيات: ٨٨٩
الآيات (٢٨٤-٢٨٦) ٨٩٧
غريب الكلمات: ٨٩٧
المعنى الإجمالي: ٨٩٨
تفسير الآيات:..... ٨٩٨

الفوائِد التربويَّة: ٩٠٨
الفوائد العلمية واللَّطائف:.. ٩٠٩
بلاغة الآيات:..... ٩١٢
الفهرس ٩١٩

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٣٥ ريال

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة آل عمران

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثاني

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة آل عمران)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٣٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مؤسسة الدرر السنية للنشير - القسم العلمي
التفسير المحرر للقرآن الكريم (المجلد الثاني)/ مؤسسة الدرر السنية للنشر - القسم العلمي - الظهران، ١٤٣٧هـ
٧٦٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ١-٢٨-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٣٦/٨٣١٤

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٨٣١٤
ردمك: ١-٢٨-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net
مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة آل عمران)

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر – قنا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

المجلد الثاني

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ آلِ عِمْرانَ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورَةُ آل عِمْرانَ

أسماءُ السُّورة:

١- سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بسورة: آل عِمْرانَ[١]!

فعن النَّوَّاسِ بن سَمْعانَ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ((يُؤتَى بالقُرْآنِ يومَ القيامةِ وأهلِه الَّذين كانوا يَعمَلون به، تَقدُمُه سورةُ البقرة وآلِ عِمْرانَ))[٢].

٢- سُمِّيتْ هي والبقرةُ بالزَّهْرَاوَيْنِ[٣]!

فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ((اقرَؤوا الزَّهْرَاوَيْنِ[٤]: البقرةَ وسورةَ آلِ عِمْرانَ...))[٥].

فضائلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- سورةُ آل عِمْرانَ تُحاجُّ عن صاحبها يومَ القِيامة مع البقرةِ:

- فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ((اقْرَؤوا القُرْآنَ؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ شفيعًا لأصحابه،

---

(١) قال ابن عاشور: (ووجهُ تسميتها بسورة آل عمران أنَّها ذُكِرت فيها فضائلُ آل عمران) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٣).

(٢) رواه مسلم (٨٠٥).

(٣) سُمِّيت سورة البقرة وآل عمران بالزهراوين؛ لأنَّهما النيِّرتان؛ وذلك إمَّا لهدايتهما قارئَهما بما يزهر له من أنوارهما، أي: من معانيهما. وإمَّا لِمَا يترتَّب على قراءتهما من النور التامِّ يوم القيامة، وقيل غير ذلك. يُنظر ((تفسير الخازن)) (١/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٣).

(٤) الزَّهراوان: أي: المُنيرتان المُضيئتانِ، مُثنَّى زَهْراء، وهي البيضاءُ المُشرِقةُ الوَجهِ، المُستنيرةُ المُشربَةُ بحُمرةٍ. ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٦٧٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٢١)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١١/ ٤٧٩- ٤٨٠).

(٥) رواه مسلم (٨٠٤).

اقرَؤوا الزَّهرَاوَينِ: البقرةَ وسورةَ آلِ عِمْرانَ؛ فإنَّهما تأتِيانِ يومَ القيامةِ كأنَّهما غَمَامتانِ[١]، أو كأنَّهما غَيَايَتانِ[٢] أو كأنَّهما فِرْقانِ[٣] من طيرٍ صوافَّ[٤] تُحاجَّانِ[٥] عن أصحابهما...))[٦].

- عن النَّوَّاس بن سَمْعانَ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ((يُؤتَى بالقُرْآنِ يومَ القيامةِ وأهلِه الَّذين كانوا يعمَلون به، تقدُمُه سورةُ البقرةِ وآلُ عِمْرانَ، وضرب لهما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ثلاثةَ أمثالٍ، ما نسيتُهنَّ بعدُ، قال: كأنَّهما غَمامَتانِ أو ظُلَّتانِ[٧] سَوْداوانِ، بينهما شَرْقٌ[٨]، أو كأنَّهما حِزْقانِ[٩] من طيرٍ صوافَّ، تُحاجَّانِ عن صاحبِهما))[١٠].

٢- تعظيمُ الصَّحابةِ رضِي اللهُ عنهم لقارِئ البقرةِ وآلِ عِمْرانَ:

فعن أنسٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((كان الرَّجُلُ إذا قرأ البقرةَ وآلَ عِمْرانَ، جَدَّ

---

(١) الغَمامة: السَّحابة. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٨٩).

(٢) الغَيَايَة: كلُّ شيءٍ أظلَّ الإنسان فوقَ رأسه كالسَّحابة وغيرها. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٠٣).

(٣) فِرقان: أي: قِطعتان، والفِرق: القِطعة من الشيء. ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ١٥٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٤٠).

(٤) صَواف: أي مُصطفَّة متضامَّة؛ لتظلِّل قارئها. ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ١٥٠).

(٥) تُحاجَّان: أي: السُّورتان تُجادلانِ عن صاحبِهما، فتدْفَعانِ عنهُ ما يَسُوؤُه، والمحاجَّة: المجادلةُ وإظهارُ الحُجَّة. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطيبي (٥/ ١٦٤١)، ((فيض القدير)) للمناوي (٢/ ٦٤)، ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٨/ ١٥٥).

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) ظُلَّتان: أي: سَحابتان. ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٤٦١).

(٨) بينهما شَرْق: أي ضياء ونور. ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٩١).

(٩) حِزْقان: أي: جَماعتانِ أو فِرقتانِ، مُثنَّى حِزْق، والحِزْق والحَزيقة: الجَماعةُ مِن كلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٤٥٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٧٨).

(١٠) تقدم تخريجه.

فينا- يعني: عظُمَ- وفي رواية: يُعَدُّ فينا عَظيمًا، وفي أخرى: عُدَّ فينا ذا شأنٍ))[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ:

سورةُ آل عِمْرانَ سورةٌ مدنيَّةٌ، نزلَتْ بعد الهجرةِ، ونقَل الإجماعَ على ذلك عددٌ من المفسِّرين[٢].

مقاصد السُّورةِ:

مِن أهمِّ المقاصد الَّتي تضمَّنَتْها سورةُ آل عِمْرانَ:

١- إثباتُ وَحْدانيَّةِ الله، وإقامة الأدلَّة والحُجَجِ عليها.

٢- بيانُ أهميَّةِ عقيدةِ الولاءِ والبَراء، والتَّحذيرُ من ولايةِ غيرِ المؤمنين، وتفصيلُ أحوالِ أهلِ الكتاب.

٣- الاهتمامُ بجوانب التَّربيَةِ والإرشادِ والتَّوجيهِ للمؤمنين.

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ الموضوعاتِ الَّتي تناولَتْها سورةُ آلِ عِمْرانَ:

١- بيانُ وَحْدانيَّةِ اللهِ تبارَك وتعالَى المُطلَقةِ، وتقريرُ أنواعِ التَّوحيدِ الثَّلاثةِ:

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٢٠) (١٢٢٣٦)، وابن حبان (٣/ ١٩) (٧٤٤).
صحح إسناده ابن تيمية في ((الصارم المسلول)) (٢/ ٢٤١)، وقال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (٦/ ١٧٩): على شرط الشيخين. وأصله في الصحيحين كما قال ابن حجر في ((الكاف الشاف)) (١٣).

(٢) نقَل الإجماعَ على ذلك: القرطبيُّ، وابنُ تيمية، وابنُ كثير، ومجدُ الدِّين الفيروزابادي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((البداية والنهاية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١)، ((منهاج السنة النبوية)) (٦/ ٤٢٢)، ((البداية والنهاية)) (٣/ ١٠٤)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) (١/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٦).
وقد نزَل صدْرُ سورة آل عِمْرانَ إلى ثلاثٍ وثمانينَ آيةً في وَفْدِ نَجْرانَ؛ ولهذا كان عامَّة السُّورة في شأن المسيح عليه السلام، وكان قُدومُهم سنةَ تِسعٍ من الهجرةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥).

الألوهيَّةِ، والرُّبوبيَّةِ، والأسماءِ والصِّفاتِ.

٢- تقريرُ وَحْدةِ الجِهةِ الَّتي تنزَّلَتْ منها جميعُ الكُتُبِ والدِّياناتِ السَّماويَّةِ.

٣- بيانُ أقسامِ النَّاس مع مُحكَمِ القُرْآنِ ومُتشابِهِه.

٤- تحذيرُ أهلِ الكفرِ المناوئين للهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فالسُّلطانُ والقوَّةُ والجاهُ والولَدُ لن يُغنيَ عنهم شيئًا من عذاب اللهِ وسَطوتِه، وبيان أنَّ نهايتَهم هي الخسرانُ المُبينُ في الدُّنيا والآخرةِ، وضرب لهم الأمثالَ بآلِ فرعونَ ومَن قبلَهم، وكيف كانت نهايتُهم.

٥- الإشارةُ إلى غزوةِ بَدْرٍ الكبرى، وذكرُ تفاصيلِ ما جرى في غزوةِ أُحُدٍ من أحداثٍ.

٦- الإشارةُ إلى أحبِّ الشَّهواتِ النَّفسيَّةِ للإنسانِ، وبيان أنَّ هناك ما هو خيرٌ منها، وهو ما أعَدَّه اللهُ للمتَّقين مِن نعيمٍ مقيمٍ في جنَّاتِ الخُلدِ.

٧- بيانُ أهميَّةِ دِينِ الإسلامِ، وأنَّه دينُ الله الَّذي لا يَقبَلُ غيرَه.

٨- تفصيلُ أحوالِ أهل الكتاب، وفَضْحُ ضلالاتِهم، وما وقَعوا فيه من اختلافٍ في أمرِ دِينهم، وما ارتكَبوه من جرائمَ وموبقاتٍ بتكذيبِهم بآياتِ اللهِ، وقتلِهم أنبياءَه والدُّعاةَ إليه، وامتناعِهم عن التَّحاكُمِ إلى كتابِه، وقِصَّتُهم مع عيسى عليه السَّلام، وكُفْرُهم به، ودعوةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى مُباهَلةِ كلِّ مَن جادَله منهم في شأنِ عيسى عليه السَّلام، وأمرُ اللهِ لرسولِه أنْ يدعوَهم إلى كلمةٍ سواءٍ، وهي كلمةُ التَّوحيد، ومجادلتُهم في إبراهيمَ عليه السَّلام، وبيانُ الحقِّ لهم في شأنِه، وذِكْرُ مجموعةٍ من صفاتهم الَّتي اتَّصفوا بها؛ كإرادتهم إضلالَ المسلمين، وكُفرِهم بآياتِ الله، ولَبْسِهم الحقَّ بالباطل، ولَيِّهم ألسنتَهم بالكتاب بما ليس منه إيهامًا للمؤمنين، وأمرُ اللهِ لنبيِّه بمجادلتِهم، وبيانُ الحقِّ

لهم في أكثرَ مِن موضعٍ من مواضعِ السُّورةِ، وتحذيرُ اللهِ لأوليائه المؤمنين من اتِّباعِهم وطاعتِهم، وإخبارُ اللهِ تبارَك وتعالَى أنَّ أهلَ الكتاب ليسوا سواءً، وثناؤُه على طائفةٍ منهم، وهم الَّذين يتلُون آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيل، ويُؤمنون باليومِ الآخِرِ، ويَأمُرون بالمعروفِ، ويَنهَوْن عن المنكَرِ، وغير ذلك ممَّا يتعلَّقُ بأهلِ الكتابِ.

٩- التنبيهُ على عقيدةِ الولاء والبَراءِ، والتَّأكيدُ عليها، والتَّحذيرُ مِن ولاية غيرِ المؤمنين، واتِّخاذِهم بِطانةً من دونِ المؤمنين.

١٠- بيانُ أنَّ محبةَ الله لها دلائلُ وعلاماتٌ وثمارٌ؛ فمِن دلائلِها: اتباعُ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومِن ثمارِها: محبَّتُه لِمَن أطاع رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

١١- ذِكرُ الأنبياء، وبيانُ علوِّ مراتبِهم، واصطفاءِ الله لهم، وبيان قصَّةِ مريمَ وابنِها عيسى عليهما السَّلام، وقصَّة زكريَّا وابنِه يحيى عليهما السَّلام.

١٢- ذِكرُ مجموعةٍ من الآدابِ التَّربويَّةِ للجماعةِ المسلِمةِ؛ كالوصيَّةِ بالتَّقوى، والاعتصامِ بحبلِ اللهِ، ونَبْذِ الفُرقةِ والاختلافِ، وأمرهم بالدَّعوةِ إلى الخيرِ، وامتنان الله عليهم بأنْ جعَلَهم خيرَ أمَّةٍ أُخرِجت للنَّاسِ، وحثهم على الإنفاقِ، وغيرها من الآدابِ العظيمةِ المنثورة في ثنايا السُّورةِ.

١٣- ذِكرُ بعض الأحكام الشَّرعيَّة؛ كالنَّهيِ عن أكلِ الرِّبا، والنَّهيِ عن الغُلولِ، وعقوبة مانع الزَّكاةِ.

الآيات (١ - ٤)

﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْقَيُّومُ﴾: القائمُ بنَفْسِه الذي لا يَزول، والحافِظُ لكلِّ الأشياءِ، والعالِم بها، المقيمُ غيرَه، والمعطي له ما به قِوامُه؛ فهو القائمُ على أمْر خَلْقه بآجالِهم وأرزاقِهم وأعمالِهم، يَكْلَؤُهم ويَرزُقُهم ويَحفَظُهم، و(قيوم) على وزن (فَيْعُول)، مِن قُمْتُ بالشَّيء: إذا وَلِيته[1].

﴿الْفُرْقَانَ﴾: الذي يَفرُق بَين الحقِّ والباطِل. وأصله من الفَرْق- وهو الانفصالُ والتَّمييزُ بين شَيئينِ- ومنه قيل للحُجَّة والقُرآنِ وغيرِه مِن الكتُب: فُرقانٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣-٤٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢-٦٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:٤٢، ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

قال ابن تيميَّة: (لفظ «الفرقان» يتناولُ ما يفرِّق بين الحقِّ والباطل، مثل الآيات التي بعث بها الأنبياء: كالحيَّة، واليد البيضاء، وانفلاق البحر. والقرآن فرقانٌ بين [كذا، ولعلَّ الصواب: فُرقانٌ مِن] هذا الوجهِ: من جِهة أنَّه آيةٌ عظيمة لنبوَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ وعلم عظيم. وهو أيضًا فرقان باعتبار أنَّه فرق ببيانه بين الحقِّ والباطل كما قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]؛ ولهذا فسَّر جماعة الفرقان هنا به. ولفظ «الفرقان» أيضًا يتناول نصر الله لأنبيائه وعباده المؤمنين، وإهلاك أعدائهم؛ فإنَّه فرق به بين أوليائه وأعدائه، وهو أيضًا من الأعلام؛ قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]) ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٢٧٧).

المَعنَى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ هذه السُّورةَ الكريمةَ بالحروف المقطَّعة؛ لبيانِ إعجاز القرآنِ؛ إذ يَعجِزُ الخَلْقُ عن معارضتِه بالإتيان بشيءٍ من مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّة التي يتحدَّثون بها! ثمَّ ثنَّى سبحانه بالإخبارِ بأُلوهيَّتِه، وأنَّه الإلهُ الَّذي لا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو، الَّذي من صِفاته: أنَّه الحيُّ الَّذي له الحياةُ الكاملةُ المستلزِمةُ لجميع الصِّفات، والقيُّوم الَّذي قام بنفسِه؛ فاسْتغنَى عن جميعِ مَخلوقاتِه، وقام على غيرِه فافتقَرَت إليه جميعُ مخلوقاته، ومِن قيامه بعبادِه ورحمته بهم: أنَّه نزَّل على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ القُرْآنَ مشتملًا على الحقِّ، ومُصدِّقًا للكتبِ السَّابقة، وأنزل التَّوراةَ على موسى، والإنجيلَ على عيسى، من قبلِ إنزال القُرْآنِ، أنزل هذه الكتبَ جميعًا من أجلِ هدايةِ النَّاس، وأنزَل فيها ما يُفرِّقُ بين الحقِّ والباطل، والهُدى والضَّلال؛ فلهذا توعَّد الَّذين كفَروا بآياته بالعذاب الشَّديد يوم القيامة؛ فهو سبحانه لا يُغالَب، ولا يُعجِزه شيءٌ، وهو ذو انتقام ممَّن عصاه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الم (١)﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعة التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآن؛ حيث تُظهرُ عَجْزَ الخَلْقِ عن مُعارضتِه بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّة التي يَتحدَّثون بها[1]!

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢)﴾.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾

أي: لا أحدَ معبودٌ بحقٍّ سِوى الله تعالى؛ فهو وحْدَه المستحِقُّ للعبادة حبًّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

وتعظيمًا له سبحانه؛ لكمالِ صِفاتِه[١].

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تبارَك وتعالَى هو الذي له الحياةُ الكاملة، التي لم يَسبِقها عَدَمٌ، ولا يَلحَقها زَوالٌ، المُستلزِمةُ لجميعِ صِفاتِ الكمال، وهو أيضًا القائمُ بنفْسِه؛ فلا يَحتاج لأحدٍ، القائمُ بأمورِ غيرِه من خَلْقه مِن الرَّزق وغيرِه؛ فكلُّ الموجوداتِ إليه مُفتَقِرةٌ، ولا قِوامَ لها بدونه، وهذه القَيُّوميَّة مُستلزِمةٌ لجميعِ أفعالِ الكَمال[٢].

قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾[الفرقان: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣)﴾.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: أَنزل اللهُ القُرْآنَ عليك- يا محمَّدُ- مُشتملًا على الحقِّ والصِّدق، وأيضًا فنزولُه حقٌّ لا شكَّ فيه؛ فهو منزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تعالى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٠-٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٧-٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥١).
وممَّن قال مِن السَّلف في معنى ﴿القيوم﴾: إنَّه القائمُ بأمور غيرِه مِن خَلْقه، من الرَّزق وغيرِه: الربيع بن أنس، ومجاهد، وقتادة. انظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٢)، والكتاب هنا القرآن باتِّفاق المفسِّرين. يُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤).
الباء في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يجوزُ أن تكون بمعنى أنَّه مُتلبِّس بالحق، أي: مشتملٌ على الحقِّ؛

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

أي: مصدِّقًا للكتُبِ السَّابقةِ المنزَّلةِ قَبله مِن اللهِ على أنبيائه ورُسُلِه[١]؛ وذلك إمَّا باعتبار أنَّها أَخبرتْ به فكان نزولُهُ مصدِّقًا لها، وإمَّا باعتبار أنَّه حاكمٌ عليها بالصِّدق[٢].

﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ﴾.

أي: أنزل التَّوراةَ على موسى عليه السَّلام، والإنجيلَ على عيسى عليه السَّلام، مِن قَبلِ هذا القُرْآنِ الَّذي نزَّله عليك[٣].

﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾.

أي: بيانًا للنَّاسِ عُمومًا مِن اللهِ تعالى[٤].

﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾.

أي: وأنزَلَ في كُتبِه ما يُفرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ[٥]، والهُدى والضَّلال[٦].

فهو نازلٌ بحقٍّ لا بالباطل، ويحتمل أن تكون متعلِّقةً بالتنزيل، يعني: أنَّه نزولٌ حقٌّ ليس بباطل؛ قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١١] بعد: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٣]، والمعنيان صحيحان لا يتنافيان؛ والقاعدة: أنَّ النصَّ إذا دلَّ على معنيين صحيحين لا يتنافيان حُمِل عليهما جميعًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٢)، وهو قول مجاهد وقتادة والربيع، يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ١٨١)، ((نظم الدُّرر)) للبقاعي (٤/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١).

(٥) قال ابنُ جرير: (بعضهم وجَّه تأويلَه إلى أنَّه فصل بين الحقِّ والباطل في أمْر عيسى، وبعضهم: إلى أنَّه فصل بين الحقِّ والباطل في أحكام الشرائع). واختار القول الأوَّل فقال: (معنى «الفرقان» في هذا الموضع: فصَل الله بين نبيه محمد صلَّى الله عليه وسلَّمَ والذين حاجُّوه في أمر عيسى، وفي غير ذلك من أموره، بالحُجَّة البالغة...) ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨٢).

(٦) قال ابنُ جريرٍ في بيان رُجحان هذا القولِ على القول بأنَّ المرادَ بالفُرقان القرآن، قال: (وإنما

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قرَّر اللهُ سبحانه ما يتعلَّقُ بمعرفةِ الإله، وما يَتعلَّقُ بتقريرِ النُّبوَّةِ، أَتْبَع ذلك بالوعيدِ؛ زجرًا للمُعرِضين عن هذه الدَّلائلِ الباهِرة عليهما[١]، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

أي: إنَّ الذين كَفروا بأعلامِ الله، وأدلَّته على توحيدِه، فأَنكَروها، وردُّوها بالباطلِ، لهم عذابٌ شديدٌ يوم القيامةِ[٢].

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

أي: عزيزٌ في سُلطانِه، لا يَمنَعُه مانعٌ ممَّن أراد عذابَه منهم، ولا يحُولُ بينه وبينه حائلٌ، ولا يَستطيعُ أنْ يُعاندَه فيه أحدٌ، وأنَّه ذو انتقامٍ ممَّن جحَد حُجَجَه وأدلَّتَه، وخالَف رُسلَه[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

يُؤخَذُ من قولِه تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أنَّه كلَّما اهتدى الإنسانُ للفروقِ، كان أعظمَ اهتداءً بالكتُب المنزَّلةِ من الله؛ لأنَّ الكتُبَ كلَّها فُرقانٌ، فمَن يُفرِّقُ

قلنا: هذا القول أَوْلى بالصَّواب؛ لأنَّ إخبارَ الله عن تنزيله القرآنَ- قبل إخباره عن تنزيله التوراة والإنجيل في هذه الآية- قد مضى بقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣]، ولا شكَّ أنَّ ذلك «الكتاب»، هو القرآنُ لا غيره، فلا وجهَ لتكريرِه مرَّةً أخرى؛ إذ لا فائدةَ في تكريره ليستْ في ذِكره إيَّاه وخبرِه عنه ابتداءً) ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨٣)، ويُنظر: ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

مثلًا بين الشِّركِ الأصغرِ والأكبر، وبَين النِّفاقِ الاعتقاديِّ والعمليِّ، وبين الحلالِ والحرام- كان أشدَّ اهتداءً بالكتبِ ممَّن لا يُفرِّقُ[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- لَمَّا كان سببُ نزولِ صدْر هذه السُّورةِ هو قضيةَ مجادلةِ نصارى نَجْرانَ حينَ وفَدوا إلى المدينةِ، وبيانَ فضلِ الإسلام على النَّصرانيَّةِ- ناسَب أنْ تُفتَتَحَ السُّورةُ بحروف التَّهجِّي، المرموزِ بها إلى تحدِّي المكذِّبين بهذا الكتابِ[٢].

٢- قولُ الله تبارَك وتعالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيه ردٌّ على النَّصارى في قولِهم بأُلوهيَّةِ عيسى عليه السَّلام؛ فجاء البيانُ هنا أنَّ أحَدًا لا يستحقُّ العبادةَ سوى الله عزَّ وجلَّ[٣].

٣- الجمعُ بين الاسمينِ الكريمينِ ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فيه استغراقٌ لجميعِ ما يوصَفُ اللهُ به بجميعِ الكمالات؛ ففي ﴿الحَيُّ﴾ كمالُ الصِّفاتِ، وفي ﴿القَيُّومُ﴾ كمالُ الأفعال، وفيهما جميعًا كمالُ الذَّات؛ فهو كاملُ الصِّفاتِ والأفعالِ والذَّات[٤].

٤- القرآن نزلَ نُجومًا: شيئًا بعدَ شيءٍ؛ فلذلك قال: ﴿نَزَّلَ﴾ والتنزيلُ مَرَّةً بعدَ مرَّة، والتوراة والإنجيل نَزلَا دفعةً واحدة؛ فلذلك قال: ﴿أَنْزَلَ﴾[٥].

٥- في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إنْ قيل: كيف يكونُ القرآنُ مُصدِّقًا لِمَا بَينَ يَديهِ وهو ناسخٌ لعامَّة أحكامِه؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٥).

قيل: تَصديقُه إيَّاه تحقيقُه أنَّه مِن جِهة الله، ومطابقتُه إيَّاه في كونِه داعيًا إلى التَّوحيدِ وفِعلِ الخيرِ ونحوِ ذلك، وإلى أنواعِ العباداتِ دون قَدْرِها وهَيكلِها، وكيف إيقاعُها[١].

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ جمَع التَّوارةَ والإنجيلَ في إنزالٍ واحدٍ، واستجدَّ للقرآنِ إنزالًا؛ تَنبيهًا على علوِّ رُتبتِه عنهما[٢]، وهذا على القول بأنَّ معنى الفرقان: القرآن.

٧- ذَكَر في قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ هذا القيدَ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾؛ لكي لا يتوهَّم أنَّ هُدَى التوراةِ والإنجيل مُستمرٌّ بعد نزول القرآن، وفيه إشارةٌ إلى أنَّها كالمقدِّماتِ لنزولِ القرآن، الذي هو تمامُ مرادِ الله مِن البَشر؛ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ﴾[٣] [آل عمران: ١٩].

٨- إثباتُ الحِكمةِ للهِ تعالى في أحكامِه الشَّرعيَّة، كما تَثبتُ في أحكامِه الكونيَّةِ؛ لقولِه: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾[٤].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ بيانُ أنَّ جميعَ كتبِ الله تبارَك وتعالَى فُرقانٌ؛ لِما تضمَّنَتْه من تفريقٍ بين الحقِّ والباطل، والصِّدقِ والكذِبِ، والمؤمنِ والكافر، والضَّارِّ والنَّافع[٥].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أنَّ الكتبَ السَّماويةَ لا تَجمعُ بين مُختلفينِ، ولا تُفرِّقُ بَين متماثلينِ أبدًا؛ فهي فُرقانٌ، والفُرقانُ هو الَّذي يُفرِّقُ

(١) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٠٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١).

بين شَيئينِ مختلفينِ، أمَّا شيئانِ لا يَختلفانِ فلا تَفريقَ بينهما، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: إثباتُ القياسِ؛ لأنَّه جمْعٌ بين متماثلينِ، وعَدمُ الأخْذِ بالقياس تفريقٌ بين مُتماثلينِ[١].

١١- الدِّينُ الحَقُّ دينُ الإسلامِ؛ عبادةُ اللهِ وحْدَه لا شريكَ له، وتصديقُ رُسُلِه، كما يدلُّ عليه قولُنا: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وقد جَمَع اللهُ تعالى بين هذينِ الأصلينِ في غيرِ مَوضِعٍ؛ منها قولُه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. ثمَّ قال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ﴾ فذَكَرَ التوحيدَ أوَّلًا، ثمَّ ذَكَرَ النُّبُوَّاتِ المتضمِّنَةِ إنزالَ الكتابِ[٢].

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾، قال سبحانه: ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ ولم يقُلْ: (ذو الانتقام)؛ لأنَّ الانتقامَ ليس من أوصافِ اللهِ المطلَقةِ، وليس من أسمائِه، وإنَّما يُوصَفُ اللهُ به مقيَّدًا؛ فيُقال: المنتقِمُ من المجرِمين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، فقوله ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ لا يُعطي معنى الانتقامِ المطلَقِ؛ لأنَّ (انتقام) نكِرة، فلا تُعطي المعنى على إطلاقِه، بل له انتقامٌ مقيَّدٌ بالمجرِمينَ ونحوِهم[٣].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى**: ﴿**الم**﴾ فيه مِن ضُروبِ الفصاحةِ: حُسنُ الإبهامِ في الافتتاح بـ(الم)؛ ليُنبِّهَ الفِكرَ إلى النَّظر فيما بعدَه من الكلام[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١).
(٢) يُنظر: ((الإخنائيَّة)) لابن تيمية (ص: ٢١٢)
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨).

٢- في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾:

- جِيءَ بالاسمِ العَلَم الجَليل (الله)؛ لتربية المهابة عند سماعِه، ثمَّ أُرْدِفَ بجُملة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهي جملةٌ معترِضةٌ أو حاليَّة؛ ردًّا على المشركين، وعلى النَّصارى خاصَّة[١].

- وأُتْبِعَ بالوَصفينِ (الحي القيُّوم)؛ لنفي اللَّبْس عن مُسمَّى هذا الاسم، والإيماءِ إلى وجه انفرادِه بالإلهيَّة، وأنَّ غيرَه لا يَستأهلُها؛ لأنَّه غيرُ حيٍّ، أو غير قيُّوم[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾:

- قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ﴾ خَبرٌ عن اسمِ الجلالةِ ﴿اللَّهُ﴾ في قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وهذا الخَبرُ مُستعمَلٌ هنا في الامتنانِ، أو هو تَعريضٌ ونِكايةٌ بأهل الكتابِ الذين أَنكروا ذلك، وجِيءَ بهذا الخبَر فِعلًا؛ لإفادةِ تقويةِ الخبرِ، أو للدَّلالةِ- مع ذلك- على الاختِصاصِ، أي: اللهُ لا غيرُه نَزَّل عليكَ الكِتابَ؛ إبطالًا لقولِ المشركين: إنَّ القُرْآنَ من كلامِ الشَّيطان، أو مِن طَرائقِ الكَهانة، أو يُعلِّمه بَشرٌ[٣].

- وقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْكَ﴾؛ للحصرِ والاختِصاص؛ وكأنَّ مُوجِبَ ذلك ادِّعاءُ بعضِهم أنَّه يُوحَى إليه، وأنَّه يَقدِر على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإتيانِ بمِثل هذا الوحي[١]، وللاعتناءِ بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر[٢].

- وعبَّر في قولِه تعالى: ﴿الكِتَابَ﴾ عن (القُرْآنَ) باسمِ الجِنس؛ إيذانًا بكمالِ تَفوُّقه على بقيَّة الأفرادِ في حِيازةِ كمالاتِ الجِنس، كأنَّه هو الحقيقُ بأنْ يُطلَقَ عليه اسمُ الكتاب، دون ما عَداه كما يُلوِّحُ به التصريحُ باسْمي التَّوراةِ والإنجيل[٣].

- وذَكَر الـمُنزَّلَ على نَبيِّنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم بقوله: ﴿عَلَيْكَ﴾، ولم يأتِ في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ بذِكرِ المنزَّلِ عليه التَّوراةُ، ولا المنزلِ عليه الإنجيل (مُوسى وعِيسى عليهما السَّلامُ)؛ تَخصيصًا له وتَشريفًا بالذِّكر لنبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤]، أو أنَّه لم يذكُرِ مُوسى وعِيسى عليهما السَّلامُ؛ لأنَّ الكَلامَ في الكِتابَينِ، لا فيمَن أنزِلَا عليه[٥].

- وأتى بلفظة: (عَلَى)؛ لِمَا فيها من الاستعلاء[٦].

- وجاء بكاف الخِطاب في ﴿عَلَيْكَ﴾؛ لِمَا في الخطاب من المؤانسة[٧].

- ﴿مُصَدِّقًا﴾ حالٌ مؤكِّدة، وفائدةُ تَقييدِ التَّنزيل بها: حثُّ أهلِ الكتابَينِ على الإيمان بالمُنزَّل، وتَنبيهُهم على وجوبِه؛ فإنَّ الإيمانَ بالمصدِّق مُوجِبٌ للإيمانِ بما يُصدِّقه حتمًا[٨].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٥٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤).

- قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ﴾:

- ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾: فيه تَعيينٌ لِمَا بين يديه، وتَبيينٌ لرِفعةِ محلِّه، تأكيدًا لِمَا قبله، وتمهيدًا لِمَا بعده؛ إذ بذلك يترقَّى شأنُ ما يُصدِّقه رِفعةً ونباهةً، ويزداد في القلوب قَبولًا ومهابةً، ويتفاحَش حالُ مَن كفرَ بهما في الشَّناعة، واستتباعِ ما سيُذكَرُ من العذاب الشَّديد والانتقام[١].

- قوله تعالى: ﴿الإِنجِيلَ﴾: وُضِع على صِيغة (إفعيل)؛ لمزيدِ معنَى ما وُضعتْ له هذه الصِّيغة، وزيادتاها مبالغةً في المعنى[٢]، هذا على القولِ بأنَّها عربيَّة، وفي ذلك خلافٌ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ...﴾

فيه: التَّصريحُ بـ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ مع ظهورِ الأمر؛ للمبالغةِ في البيان[٣].

- وتقديم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ على ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾؛ للاهتمام به[٤].

- وخصَّ الهدى بالتَّوراة والإنجيل في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى للنَّاسِ﴾، وإنْ كان القُرْآن هدًى؛ لأنَّ المناظرةَ كانتْ مع النَّصارى، وهم لا يَهتدون بالقُرْآن، بل وُصِف بأنَّه حقٌّ في نفْسه، قَبِلوه أو لم يَقْبَلوه، وأمَّا التَّوراةُ والإنجيلُ فهم يَعتقدون صحَّتهما؛ فلذلك اختصَّا في الذِّكر بالهُدَى[٥].

- وقوله تعالى: ﴿هُدًى للنَّاسِ﴾: فيه إقامةُ المصدرِ ﴿هُدًى﴾ مقامَ اسمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٥٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧).

الفاعل (هاديًا)؛ إمَّا على حذْفِ المضاف، أي: ذَوي هدى، أو عَلى المبالغةِ بأنْ جُعِلَ ما ذُكِر من كتُب هي نفْسَ الهُدى؛ لِمَا فيها من الإرشاد[١].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث قال هنا عن التَّوراة والإنجيلِ: ﴿هُدًى للنَّاسِ﴾، وقال عن القُرْآن: ﴿هُدًى للمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ قوله: ﴿هُدًى للنَّاسِ﴾ خبرٌ مُجرَّد، بَينَما قوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ خبرٌ مقترِنٌ به الاستدعاءُ والصَّرفُ إلى الإيمانِ؛ وذلك لأنَّ الأوَّل ﴿هُدًى للنَّاسِ﴾ هو الهُدَى الَّذي هو الدُّعاء، أو الهدى الَّذي هو في نَفْسِه مُعدٌّ أنْ يَهتديَ به النَّاس، والثاني ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ هو الهُدَى الَّذي هو إيجادُ الهدايةِ في القلْبِ؛ فحَسُن مع القُرآنِ وصْفُ الهُدَى بأنَّه للمتَّقين؛ ليَقعَ من السَّامعِ النَّشاطُ والبدارُ[٢].

- قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّورَاةَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ الفُرْقَانَ﴾: فيه تَكرار لفِعل الإنزال (نزَّل- وأَنْزَل- وأَنْزَل)؛ لاختلافِ الإنزال، وكيفيَّته، وزمانه بآيات الله[٣].

- فيه: تَرتيبٌ بديعٌ في التَّقديم والتأخير، حيث لم يَجيءِ الإخبارُ عن ذلك على حسَب الزَّمان؛ إذ التَّوراة أولًا، ثمَّ الزَّبور، ثمَّ الإنجيل، ثمَّ القُرْآن؛ فقدَّم القُرْآن ﴿الكِتَاب﴾ الذي هو القرآن؛ لشَرفِه، وعِظَم ثَوابِه، ونَسْخِه لِمَا تقدَّم من الكتُب، وبقائِه، واستمرار حُكمه إلى آخِر الزَّمان، وثنَّى بالتَّوراة؛ لِمَا فيها من الأحكامِ الكثيرة، والقَصص، وخفايا الاستنباط، ثمَّ ثلَّث بالإنجيل؛ لأنَّه كتابٌ فيه من المواعِظ والحِكم ما لا يُحصَى، ثمَّ تلاه بالزَّبور- عند القائِلِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨- ٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٠٦).

بأنَّ الفرقان هو الزَّبور-؛ لأنَّ فيه مواعظَ وحِكمًا لم تبلغ مبلغَ الإنجيل[١].

- وعندَ القائلِ بأنَّ ﴿الفُرْقَان﴾ هو القُرْآن؛ فيكون ذِكْر ﴿الفُرْقان﴾ فيه تَكرارٌ لذكر القُرْآن بما هو نعتٌ له ومدحٌ، من كونه فارقًا بين الحقِّ والباطل بعدَما ذَكَره باسمِ الجِنس ﴿الكِتَاب﴾؛ تعظيمًا لشأنِه، وإظهارًا لفضله[٢].

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه إظهارُ ما كان مِن حقِّه الإضمار ﴿الَّذِينَ﴾، وفائدته: إرادةُ تعليقِ الحُكمِ بالوَصف، وهو الكفرُ[٣].

- قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾:

- فيه تَشبيهُ ما يَحصُل للنَّفس من ضِيق العذاب وألَمِه، بالمشدود المُوثَق المُضيَّق عليه[٤].

- وهو وعيدٌ جِيءَ به إثرَ تقريرِ أمْرِ التَّوحيدِ الذاتيِّ والوَصفيِّ، والإشارةِ إلى ما يَنطِقُ بذلك من الكتب الإلهيَّة، حملًا على القَبول والإذعان، وزَجْرًا عن الكفرِ والعِصيانِ[٥].

- وحسُن إطلاقُ العذابِ بَعدَ ذِكْر الفُرقان؛ ليشملَ الكونُ في الدُّنيا نُصرةً للمؤمنين، استجابةً لدُعائهم، وفي الآخرة تصديقًا لقولهم، وزيادةً في سُرورهم ونعيمهم، وتهديدًا لِمَن نَزَل كثير من هذه السُّورة بسببهم، وهم وفدُ نصارى نجران[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٣٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٢-٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢١٦).

- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ، مقرِّرٌ للوعيد، ومؤكِّد له[١]؛ فهي خبَرٌ فيه وعيد، جِيء به بعدَ تقرير التَّوحيد، والإشارةِ إلى ما هو العُمدة في إثبات النبوَّة؛ تعظيمًا للأمر، وزَجْرًا عن الإعراض عنه[٢].

- وتكرَّر اسمُه تعالى ﴿الله﴾ تفخيمًا؛ لأنَّ في ذِكرِ المُظهَرِ من التَّفخيمِ ما ليس في المُضمَر[٣].

- والوصف: بـ(ذو)، أبلغُ من الوصفِ بـ(صاحب)؛ ولذلك لم يَجِئْ في صِفات اللهِ (صاحِب)؛ لأنَّهم ذَكروا أنَّ (ذو) أبدًا لا تكونُ إلَّا مضافةً لاسمٍ؛ فمدلولُها أشرفُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٤٦) (٣/ ٤٠).

الآيات (٥ - ٩)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْأَرْحَامِ﴾: جمْعُ رحِم، وهو بيتُ مَنبَت الولدِ، ووِعاؤه في البَطن، وأصلُه من الرِّقَّة والعَطْف والرَّأفة؛ سُمِّي به رحمُ المرأة؛ لأنَّ منه يكونُ ما يُرحَم ويُرقُّ له من ولدٍ[(١)].

﴿مُحْكَمَاتٌ﴾: واضحاتٌ لا تَحتَمِلُ غيرَ وجهٍ واحدٍ منَ التَّأويل، بحيثُ يظهر المرادُ منها دون الاحتياجِ إلى غيرِها، وقيل غيرُ ذلك. والإحكامُ الإتقانُ، وسمِّيت (محكمات) مِن الإحكامِ، كأنَّه أحكَمها فمَنَع الخَلْق مِن التَّصرُّف فِيهَا؛ لظهورِها ووضوحِ معناهَا، وأصلُ (حكم) منع منعًا لإصلاح[(٢)].

﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾: أصلُ الكِتاب، ويُقال لأصلِ كلِّ شيء ومرجعِه: أمٌّ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٩٧- ٢٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (١/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾: ما احْتَمَلَ منَ التَّأْوِيلِ أَوْجُهًا، بحيث يُحتاج إلى غيرِها في فَهم المرادِ منها، وتُطلق على ما أَشكَل تَفسيرُه؛ لمشابهتِه بغيره، وقيل غيرُ ذلك[١].

﴿زَيْغٌ﴾: جَوْرٌ وميلٌ عن الحقِّ[٢].

﴿الفِتْنَةِ﴾: الشِّرْك والكُفر والشَّرُّ، والفِتنةُ في الأصل: الاختِبارُ والابتلاءُ والامتِحان، مأخوذةٌ من الفَتْن: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جَودتُه من رداءتِه[٣].

﴿الرَّاسِخُونَ في العِلمِ﴾: الثَّابتون فيه، الذين أَتْقنوا عِلْمَهم ووَعَوْه، فحَفِظوه حفظًا لا يدخلُهم في معرفتهم وعِلمهم بما عَلِموه شكٌّ ولا لَبْسٌ، جمْع: راسخ، ورسوخُ الشَّيء في الشَّيء، هو ثبوتُه وولوجُه فيه، وأصلُ (رسخ) يدلُّ على الثباتِ[٤].

﴿يَذَّكَّرُ﴾: يَتذكَّرُ- قُلِبت التَّاء ذالًا، وأُدغِمَت في الذَّال الأخرى، فصارَتْ (يَذَّكَّرُ)- أي: يتَّعظ والذِّكْرُ: تارةً يُقال على استحضارِ الشَّيءِ، وتارةً على حُضورِه بالقلبِ أو بالقولِ، وتارةً على العَلاءِ والشَّرفِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٩٧- ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩-١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ﴾

﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾: الواو استئنافيَّة، و﴿الرَّاسِخُونَ﴾ مرفوعٌ، مبتدأ، وخبرُه جملة: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾؛ وهذا على قِراءة الوقفِ على اسمِ اللهِ تعالى. أو تكونُ الواوُ عاطفةً، و﴿الرَّاسِخُونَ﴾ مرفوعًا، عطفًا على (اللهِ) جلَّ ذِكرُه، والتقدير: وما يَعلَمُ تفسيرَ المتشابهِ وبيانَه، ورَدَّه إلى المُحكَم، إلَّا اللهُ والرَّاسخونَ في العِلم؛ وهذا على قِراءة الوصلِ. وعلى هذا الوجهِ فجُملة ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ حالٌ، أي: يَعلمون تأويلَه حالَ كونِهم قائلين ذلك، أو تكون خبرَ مبتدأٍ محذوف، أي: هُم يقولون...[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

تُرشد الآياتُ إلى كَمال عِلمِ الله تعالى؛ فهو سبحانه لا يغيبُ عن عِلمه شيءٌ في الأرض ولا في السَّموات؛ فهو الَّذي يجعلُكم صُوَرًا في أرحام أمَّهاتِكم على أيِّ كيفيَّةٍ شاء؛ لذا فهو المستحقُّ للإلهيَّةِ وحده لا شريكَ له، وهو العزيزُ في مُلكِه، لا يغلِبُه شيءٌ، ولا يمتنع منه شيءٌ، والحكيمُ في خَلْقِه وصُنعِه وتدبيره، هو الَّذي أنزَل عليك- يا محمَّدُ- القُرْآنَ، منه آياتٌ بيِّنات واضحاتُ الدَّلالة، لا التباسَ فيها، وهي أصلُ هذا الكتاب ومعظَمُه، ومن القُرْآن آياتٌ أُخَرُ يلتبس معناها، أو تشتبهُ دلالتُها على كثيرٍ من النَّاسِ أو بعضِهم، فأمَّا الَّذين في قلوبهم ميلٌ عن الحقِّ وضلالٌ، فيتعلَّقون بالمتشابِهِ من الآيات، ويتركون المُحكَم؛ وذلك طلَبًا للَّبْسِ على المؤمنين وإضلالِهم، وطلبًا لتفسيره على ما يريدون؛ تحريفًا له وَفْقَ أهوائِهم، وما يعلَمُ تفسيرَ المتشابِهِ إلَّا الله تعالى، والثَّابتون في

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٤٩-١٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٣٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٩).

العِلمِ المتمكِّنون منه يعلَمون تفسيرها أيضًا، وإن لم يعلَموا حقائقَ الأمورِ وما تؤولُ إليه؛ لأنَّ اللهَ وحده هو الَّذي يعلَمُها، ويُعلِن الرَّاسخون في العلم إيمانَهم بالمتشابِهِ؛ فكلٌّ من المُحكَمِ والمتشابهِ من عند الله تعالى، وما يتذكَّرُ ويتَّعظُ إلَّا أصحابُ العقول السَّليمة، ويَدعو الراسخون في العلمِ ربَّهم ألَّا يُميلَ قلوبهم عن الهُدى بعد الهداية، وأن يهَبَ لهم رحمةً عظيمة تَزيدُهم إيمانًا وثباتًا؛ فإنَّه واسعُ العطايا والهباتِ، كثيرُ الإحسان، ويقولون: يا ربَّنا، إنَّك تجمعُ النَّاسَ في يوم لا شكَّ فيه، وهو يوم القيامة، للفصلِ بينهم، ومجازاة كلِّ واحدٍ بعمَله، فاغفِرْ لنا يومئذٍ، واعفُ عنَّا، إنَّ اللهَ لا يُخلِفُ وعدَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥)﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يغيبُ عن عِلمِه شيءٌ في الأرض ولا في السَّموات؛ فهو سبحانه عالِمٌ بجميعِ الأشياء على التَّفصيلِ[(١)].

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قرَّر سبحانه إحاطةَ عِلمِه بالمعلومات كلِّها، جلِيِّها وخفِيِّها، ظاهرِها وباطنِها، ذَكَر مِن جملةِ ذلك الأَجِنَّةَ في البطون، الَّتي لا يُدركُها بصرُ المخلوقين،

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٠٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦).

قال ابنُ عاشور: (وقوله: ﴿فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قصَد منه عمومَ أمْكِنة الأشياء، فالمرادُ من الأرض الكُرة الأرضيَّة: بما فيها مِن بِحار، والمرادُ بالسَّماء جِنسُ السَّموات: وهي العوالمُ المتباعِدة عن الأرض)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥١).

ولا يَنالُها عِلمُهم، وهو تعالى يدبِّرُها بألطفِ تدبير، ويقدِّرُها بكلِّ تقدير[١]، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

أي: هو الَّذي يَجعلُكم صُوَرًا في أرحام أمَّهاتِكم، على أيِّ كيفيَّةٍ شاء، فيجعَلُ هذا ذَكَرًا وهذا أُنثى، وهذا أسودَ وهذا أحمرَ، وهذا حَسَنًا وهذا قَبيحًا، وهذا طويلًا وهذا قصيرًا، إلى غير ذلك من الاختِلافاتِ[٢].

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وشرَح النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ كيفيَّةَ التصويرِ في الحديثِ الذي رواه ابنُ مسعودٍ وغيرُه عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أنَّه قال: ((إنَّ أحدَكُم يُجمَعُ خَلقُه في بَطنِ أمِّهِ أربعينَ يومًا، ثمَّ يَكونُ في ذلك عَلقةً مثلَ ذلِكَ، ثمَّ يَكونُ مُضغةً مثلَ ذلِكَ، ثمَّ يُرسَلُ الملَكُ فيَنفخُ فيهِ الرُّوحَ، ويُؤمرُ بأربعِ كلِماتٍ: بكَتبِ رزقِه وأجلِه وعملِه، وشقيٌّ أو سعيدٌ))[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦٤٣).

ودلَّت هذه الآيةُ على أنَّ عيسى ابنَ مريمَ عبدٌ مخلوق، كما خَلَق اللهُ سائرَ البشر؛ لأنَّ اللهَ تعالى صوَّره في الرَّحِم وخَلَقه كما يشاء؛ فكيف يكونُ إلَهًا كما زعمَتْه النَّصارى، وقد تَقلَّب في الأحشاءِ، وتنقَّل من حالٍ إلى حال؛ كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[1] [الزمر: ٦]؛ لذا قال اللهُ تعالى بعد ذلِك مقررًا انفرادَه بالأُلوهيَّة:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: هو المستحقُّ للإلهيَّة وحْدَه لا شريكَ له، العزيزُ في مُلكِه، لا يَغلِبُه شيء، ولا يمتنعُ منه شيءٌ، وما شاء كان بلا ممانعٍ، والحكيمُ في خَلْقِه وصُنعِه وتدبيره[2].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾.

أي: هو الَّذي أنزَل عليك- يا محمَّدُ- القُرْآنَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١).

﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾.

أي: مِن القُرْآن آياتٌ بيِّناتٌ واضحاتُ الدَّلالة، لا التباسَ فيها على أحدٍ من النَّاسِ، ولا شُبهةَ، ولا إشكالَ(١).

﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

أي: وهذه الآياتُ المُحكَماتُ هي أصل هذا الكتابِ، ومُعظَمُه الَّذي يُرجَعُ إليه عند الاشتباهِ(٢).

﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾.

أي: ومِن القُرْآنِ آياتٌ أُخَرُ يَلتبسُ معناها، أو تشتبهُ دَلالتُها على كثيرٍ من النَّاسِ أو بعضهم(٣).

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾.

أي: فأمَّا الَّذين في قلوبِهم مَيْلٌ عن الحقِّ، وانحرافٌ عنه وضلال(٤)، فيَتعلَّقون بالمتشابِهِ من آياتِ القُرْآن، ويأخذون به، ويتركون المُحكَمَ(٥).

قال ابن عطية: (الكتابُ في هذه الآيةِ القرآنُ بإجماعٍ مِن المتأولين) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢).

(٤) وقد قال بنحو هذا القول: ابن عبَّاس، وابن مسعود، ومجاهد، ومحمد بن جعفر بن الزُّبير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢).

﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾.

أي: طلبًا للشُّبهاتِ، واللَّبْسِ على المؤمنين، وإضلالِهم؛ إيهامًا بأنَّهم يحتجُّونَ بالقُرْآن[١].

﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾.

أي: وطلبًا لتفسيرِه على ما يُريدون؛ تحريفًا له وَفْقَ أهوائِهم الفاسدةِ؛ لاحتمالِ لفظِه لِما يصرِفونه إليه[٢].

عَن عَائِشَةَ رضِي الله عنها، قالت: تَلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذه الآيةَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، قالَتْ: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((فإذا رأيتِ الَّذين يتَّبِعون ما تَشابَه منه، فأُولئكِ الَّذين سَمَّى اللهُ، فاحذَرُوهم))[٣].

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾.

أي: وما يعلَمُ عواقِبَ الأمورِ وما تؤولُ إليها، ولا حقائقَها، إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ وحده؛ وذلك كحقائقِ صفاتِ الله وكيفيَّتِها، وحقائق أوصاف ما يكونُ في اليومِ الآخِرِ، ونحو ذلك.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٦١).
وممن قال بنحو هذا القول: مجاهد، ومحمد بن جعفر بن الزبير، ومحمد بن إسحاق. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢١٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٤).

(٣) رواه البخاري (٤٥٤٧)، مسلم (٢٦٦٥).

أمَّا الرَّاسخون في العِلم، المتمكِّنون منه، المُتقِنون له، فيقولون: آمَنَّا وصدَّقْنا بالمتشابهِ من آيِ الكِتابِ، وأنَّه حقٌّ وإن لم نعلَمْ تأويلَه[١]، هذا على قراءة الوقفِ على اسمِ الله[٢].

أمَّا على قِراءة الوصلِ[٣] فيكون المعنى: وما يَعلَمُ تفسيرَ المتشابهِ، وبيانَه، ورَدَّه إلى المُحكَم، ودَفْعَ شُبَهِه، إلَّا اللهُ والرَّاسخون في العِلم، المتمكِّنون منه، المُتقِنون له أيضًا، يعلَمون ذلك، ويقولون: آمَنَّا وصدَّقْنا بالمتشابهِ من آيِ الكتابِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٣٥).

(٢) رجَّح الوقفَ على اسم الله: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٢١٧، ٢٢٠)، والواحديُّ في ((تفسيره)) (١/ ٤١٤)، وابنُ قدامة في ((روضة الناظر)) (١/ ٢١٦)، والشنقيطيُّ في ((تفسيره)) (١/ ١٨٩).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: عائشة، وابن عبَّاس، وهشام بن عروة، وأبو نَهِيك الأسديُّ، وعمر بن عبد العزيز، ومالك، وأبو الشعثاء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٩٩).

وقال أبو عمرو الدَّاني: (وهو قولُ أكثر أهل العلم من المفسِّرين والقرَّاء والنحويِّين)، ((المكتفَى في الوقف والابتدَا)) (ص: ٣٧).

وقال ابن تيمية: (وعليه أصحابُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وجمهورُ التابعين، وجماهير الأمَّة)، ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٢٧٥).

(٣) وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، ومجاهد، والربيع، ومحمد بن جعفر بن الزبير، والضحَّاك. يُنظر ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين -سورة آل عمران)) (١/ ٣٥).

قال الراغب: (الوقفُ على قوله: ﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، ووصله بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ جائز، وأنَّ لكلٍّ واحد منهما وجهًا)، ((المفردات)) (ص ٤٤٥).

وقال ابن تيميَّة: (ولا منافاةَ بين القولينِ عند التَّحقيق)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٣/ ٥٥) وينظر ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٣٥).

﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.

أي: كلٌّ مِن المحكَمِ من الكتاب والمتشابهِ منه، الجميعُ مِن عند ربِّنا، أوحاه إلى نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، يُصدِّقُ كلٌّ منهما الآخَرَ، ويشهَدُ له[١].

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

أي: وما يَتذكَّرُ ويتَّعِظُ ويفهَمُ ويَقبَلُ النُّصحَ إلَّا أصحابُ العقول السَّليمة[٢].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

أي: ويقول الرَّاسخونَ في العِلم أيضًا: يا ربَّنا، لا تُمِلْ قلوبَنا عن الهُدى والحقِّ بعد إذ هديتَنا إليه، فوفَّقْتَنا للإيمانِ بمُحكَمِ كتابِك ومتشابِهه، فلا تَجْعَلْنا كالَّذين في قلوبهم زَيغٌ، ممَّن يتَّبِعُ ما تشابهَ من القُرْآن[٣].

عن عبدِ الله بن عمرٍو رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ قلوبَ بَني آدمَ كلَّها بينَ إصبَعينِ من أصابعِ الرَّحمنِ كقَلبٍ واحِدٍ، يُصرِّفُه حيثُ يشاءُ، ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اللَّهمَّ مُصرِّفَ القلوبِ، صرِّفْ قلوبَنا على طاعتِكَ))[٤].

وعن أُمِّ سلَمةَ رضِي اللهُ عنها قالت: ((كانَ أَكْثرُ دعائِهِ: يا مُقلِّبَ القلوبِ، ثبِّت قلبي علَى دينِكَ، قالَت: فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما أَكْثرَ دُعاءَكَ: يا مقلِّبَ القلوبِ، ثبِّت قَلبي علَى دينِكَ! قال: يا أمَّ سلَمةَ، إنَّهُ لَيسَ آدميٌّ إلَّا وقلبُهُ بينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢).
(٤) رواه مسلم (٢٦٥٤)

أُصبُعَيْنِ من أصابعِ اللهِ، فمَن شاءَ أقامَ، ومن شاءَ أزاغَ)). فَتلا معاذٌ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[١].

﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾.

أي: وأعطِنا يا ربَّنا- تفضُّلًا مِن عندك- رحمةً عظيمةً تَزيدُنا بها إيمانًا وثَباتًا ويقينًا وسَدادًا[٢].

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

أي: إنَّك أنت واسعُ العطايا والهِبَاتِ، كثيرُ الإحسان[٣]، فإنَّنا إنَّما طلَبْنا منك هبةَ الرَّحمةِ؛ لأنَّك أنتَ الوهَّابُ[٤].

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: ويقول الرَّاسخون في العِلمِ أيضًا: يا ربَّنا، إنَّك تبعَثُ النَّاسَ، وتجمَعُهم في يومٍ لا شكَّ فيه، وهو يوم القيامة، وذلك للفصلِ بينهم، ومجازاةِ كلِّ واحد بعمَلِه، فاغفِرْ لنا يومئذٍ، واعفُ عنَّا[٥].

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٢) واللفظ له، وأحمد (٢٦٧٢١)، وأبو يعلى (٦٩٨٦).
حسنه الترمذي، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٣٥٥). وقواه بطرقه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٢٠٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢-٥٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢١).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُخلِفُ وعده؛ أنَّ مَن آمَن به واتَّبَع رسولَه، وعمِل صالحًا، أنَّه يغفِرُ له[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ...﴾ حضٌّ على تربيةِ الإنسان لنفسِه على امتثالِ ما أمَره الله به، واجتنابِ ما نهاه عنه، وأنْ يتيقَّنَ أنَّ عمَلَه لا يَخفَى على الله، بل هو معلومٌ له[٢].

٢- في قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ دليلٌ على أنَّ مِن علامةِ الزَّيغِ اتِّباعَ المتشابِهِ من القُرْآنِ، سواءٌ تبِعه الإنسانُ بالنِّسبة لتصوُّرِه فيما بينه وبين نفسِه، بإيراد الآياتِ المتشابهاتِ عليها، أو كان يتَّبِعُ ذلك بالنِّسبة لعَرْضِ القُرْآن على غيره[٣].

٣- في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾- على قراءةِ الوقفِ- بيانُ أنَّ في القُرْآن ما لا يعلَمُ تأويلَه إلَّا اللهُ (وهي عواقبُ الأمورِ وما تؤولُ إليها حقائقُها)،

قال ابن جرير: (وهذا من الكلام الذي استُغني بذِكر ما ذُكر منه عمَّا ترك ذِكرُه؛ وذلك أنَّ معنى الكلام: ربَّنا إنك جامع الناس ليوم القيامة، فاغفر لنا يومئذ، واعف عنَّا؛ فإنَّك لا تخلف وعدك أنَّ مَن آمن بك واتَّبع رسولك، وعمل بالذي أمرتَه به في كتابك، أنَّك غافره يومئذ. وإنما هذا من القوم مسألة ربهم أن يُثبِّتَهم على ما هم عليه من حُسن بصيرتهم بالإيمان بالله ورسوله، وما جاءهم به من تنزيله، حتى يَقبضَهم على أحسن أعمالهم وإيمانهم، فإذا فعَل ذلك بهم، وجبَتْ لهم الجنة؛ لأنَّه قد وعد مَن فعَل ذلك به من عباده أنه يُدخِلَه الجنة، فالآية وإنْ كانت قد خرَجت مخرجَ الخبر، فإنَّ تأويلها من القوم مسألةٌ ودعاءٌ ورغبة إلى ربهم)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٥).

وفيه امتحانٌ للعباد بتأدُّبِهم مع الله عزَّ وجلَّ، هل يحاولون الوصولَ إلى شيءٍ لا تدركُه عقولُهم، أو يقفون على حدودِ ما تُدركه عقولُهم[١].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فضيلةُ الرُّسوخ في العِلم، وضرورةُ الثَّبات فيه، والتعمُّقِ في أخذِه، والبعدِ عن السَّطحيَّةِ فيه[٢].

٥- الرُّسوخُ في العِلم قدرٌ زائدٌ على مجرَّد العِلم؛ فالرَّاسخُ في العِلم يقتضي أنْ يكون عالِمًا محقِّقًا، وعارفًا مدقِّقًا، قد رسخ قدمُه في أسرارِ الشَّريعةِ؛ عِلمًا وحالًا وعمَلًا[٣].

٦- ينبغي للإنسان أنْ يحرِصَ على أنْ يكون راسخًا في العِلم، لا مُجرَّدَ جامعٍ له؛ فالرُّسوخُ في العِلم يُولِّد عند الشَّخص ملَكةً يستطيعُ من خلالها تقريبَ العِلم بعضِه من بعض، وقياسَ بعضِه على بعض[٤].

٧- لا يَنتفعُ بهذا القُرْآن ولا يتذكَّرُ بآياته إلَّا مَن كان له عقلٌ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، وكلَّما ازداد المرءُ عقلًا، ازداد تذكُّرًا بكلامِ الله، وكلَّما نقَص تذكُّرُه دلَّ ذلك على نقصٍ في عقلِه بناءً على قاعدة: الحكم المعلَّق على وصفٍ يَزيد بزيادته، ويَنقُص بنقصانه[٥].

٨- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ بيانُ أنَّ للقلبِ حالينِ: حالَ استقامةٍ، وحالَ زيغٍ، والإنسان مضطرٌّ إلى أنْ يسأَلَ اللهَ سبحانه وتعالى ألَّا يُزيغَ قلبَه، حتى يكونَ مستقيمًا؛ فهو لا يملِكُ قلبَه؛ لذا لا بدَّ أنْ يلجأَ إلى اللهِ بسؤالِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ألَّا يُزيغَ قلبه، ولا يغترَّ بنفسِه، ويتَّكِلَ على إيمانِه، فكم من مؤمنٍ زلَّ وارتكَس، والعياذُ بالله[١].

٩- القلبُ عليه مدارُ العمَلِ؛ لذلك سلَّط اللهُ فِعْلَ الزَّيغ عليه فقال: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾[٢].

١٠- التَّخليَة تكونُ قبل التَّحليَة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾، ثمَّ قال: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾[٣]، فقدَّم اللهُ تبارَك وتعالَى السُّؤال في تطهير القلبِ عمَّا لا يَنبغي، على طلبِ تَنويرِه بما ينبغي؛ لأنَّ إزالةَ المانع قبل إيجادِ المقتضِي عينُ الحكمة[٤].

١١- في قولِه تعالى عن أوليائِه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ أنَّه إذا سَلِمَ العَبْدُ مِن فِتنةِ الشُّبُهاتِ والشَّهواتِ حصَل له أعظمُ غايتَينِ مطلوبتَينِ، بِهما سَعادتُه وفلاحُه وكمالُه؛ وهُما الهُدَى، والرَّحمةُ[٥].

١٢- نبَّه تعالى بقوله: ﴿هَبْ لَنَا﴾ على أنَّ العبدَ يَنبغي ألَّا يلتفتَ إلى شيءٍ من عمَلِه، ولا أنْ يَطلُبَ العِوَضَ به، بل يَرجو رَجاءَ المفَاليسِ الطَّالبين للتفضُّلِ والهِبَة لا العِوَض[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥)، وانظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٤٩).
(٥) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٨- ١٦٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٣٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله: ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ خصَّ اللهُ تبارَك وتعالَى الأرضَ والسَّماء بالذِّكر؛ لكونِهما مَشهودَينِ لنا، أمَّا ما عدا ذلك فإنَّنا لا نعلَمُه إلَّا عن طريقِ الغيب(١).

٢- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ صفةٌ سلبيَّةٌ، يرادُ بها بيانُ كمالِ العِلم؛ لأنَّ الصِّفاتِ المنفيَّةَ لا يرادُ بها مجرَّدُ النَّفي، وإنَّما يراد بها بيانُ كمال الضِّدِّ(٢).

٣- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ...﴾ فيه ردٌّ على غلاةِ القدريَّةِ الَّذين يَزعُمون أنَّ اللهَ لا يعلَمُ بعمَلِ العبدِ إلَّا بعد وقوعِه(٣).

٤- إحاطةُ علمِ اللهِ بالكلِّيَّات والجزئيَّات؛ وذلك يؤخَذُ من قوله: ﴿شَيْءٌ﴾؛ فهي نكِرةٌ في سياق النَّفي، فأفادت العمومَ(٤).

٥- قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فيه ردٌّ أيضًا على أهلِ الطَّبيعة؛ إذ يجعلونها فاعلةً مستبدَّةً(٥).

٦- لَمَّا ذكَر أنَّ القُرْآن مُحكَمٌ ومتشابِهٌ، نظَر إليه جملةً- كما اقتضاه التَّعبيرُ بالكتابِ- فعبَّر عن ذلك بالإنزالِ دون التَّنزيل فقال: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْكَ﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤)، وينظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٠٠).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٢٣).

٧- قسَّم اللهُ الأدلَّةَ السَّمعية إلى قِسمين: مُحكَمٍ ومتشابهٍ، وجعَل المحكَم أصلًا للمتشابهِ، وأُمًّا له، وأمُّ الشَّيء مرجعُه وأصلُه، فما خالَف ظاهرَ المُحكَم، فهو متشابهٌ، يُرَدُّ إلى المحكَم؛ ولذا قدَّم وصف هذه المحكَمات بقوله: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾؛ ليتبادرَ إلى الذهن أوَّلَ ما يتبادر أنَّه يردُّ المتشابهات إلى المحكَماتِ؛ لأنها كالأمِّ لها؛ فالمحكَماتُ تُفهَم بذواتها، بينما المتشابهات لا تُفهَم إلَّا بالاستعانة بالمُحكَمات[١].

٨- الاشتباه قد يكونُ اشتباهًا في المعنى، بحيث يكون المعنى غيرَ واضح، أو اشتباهًا في التعارضِ، بحيث يظنُّ الظانُّ أنَّ القُرْآن يعارضُ بعضُه بعضًا، وهذا لا يمكن أنْ يكون واقعًا في القرآن؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، والقُرْآن يُصدِّقُ بعضُه بعضًا[٢].

٩- التَّشابُه في التفسيرِ والمعنى أمرٌ نِسبيٌّ؛ فقد يتشابهُ عند هذا ما لا يتشابه عند غيرِه، ولكن ثَمَّ آياتٌ مُحكَماتٌ لا تشابُهَ فيها على أحدٍ، وتلك المتشابهات إذا عُرِف معناها صارَتْ غيرَ متشابهة[٣].

١٠- في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ذكَر اللهُ أشدَّ الميْل، وهو مَيْلُ القلب، وفي إشعارِه ما يلحَقُ بزيغِ القلوبِ من سيِّئِ الأحوال في الأنفُس، وزلَلِ الأفعال في الأعمال، فأنبَأَ عن الأشدِّ، وأبهم ما هو الأضعفُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٤٢)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيِّم (٢/ ٧٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٤٢).

١١- يُؤخَذُ من قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ...﴾ الآيةَ: أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أنزَل المتشابِهَ؛ ليمتحِنَ قلوبَنا في التَّصديق به، للتمييزِ بين الثابت على الحقِّ والمتزلزل فيه، فإنَّه لو كان كلُّ ما ورَد في الكتاب معقولًا واضحًا، لَمَا كان في الإيمان شيءٌ من معنى الخضوعِ لأمرِ الله تعالى والتَّسليمِ لرُسلِه، ولكي يكونَ حافزًا لعقل المؤمنِ إلى النَّظر كيلا يضعُفَ فيموتَ، ولتعويد حَمَلةِ هذه الشَّريعةِ، وعلماءِ هذه الأمَّةِ بالتَّنقيبِ، والبحثِ، واستخراج المقاصدِ من عويصاتِ الأدلَّة، وليظهر فيها فضلُهم، ويزداد حِرصُهم على أن يجتهدوا في تَدبُّرها، وتحصيل العلوم المتوقِّف عليها استنباطُ المراد بها، فينالوا بها، وبإتعابِ القرائحِ في استخراجِ معانيها، والتوفيقِ بينها وبين المُحكَمات الدَّرجاتِ العُلى عند الله تعالى[(١)].

١٢- قال تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، ولم يجمَعْ فيقول: (هنَّ أمَّهاتُ الكتاب)، وقد قال: ﴿هُنَّ﴾؛ لأنَّه أراد: جميعُ الآياتِ المحكَماتِ أمُّ الكتاب، لا أنَّ كلَّ آيةٍ منهنَّ أمُّ الكتاب، ونظيرُ ذلك، قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]، ولم يقُلْ: آيتينِ؛ لأنَّ معناه: وجعلنا جميعَهما آيةً؛ لأنَّ المعنى واحدٌ فيما جُعِلا فيه عبرةً للخَلْقِ[(٢)].

١٣- مُقتضى الرُّبوبيَّة أنَّ اللهَ تعالى يُنزِّل على عبادِه كتابًا، لا يكونُ فيه اختلافٌ يوقِعُهم في الشَّكِّ والاشتباهِ؛ لقوله سبحانه: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أي: المحكَم والمتشابِهُ، وما كان من عندِ الرَّبِّ المعتني بعبادِه بربوبيَّتِه، فلن يكونَ فيه تعارُضٌ ولا تناقُضٌ، بل هو متَّفِق، يصدِّقُ بعضُه بعضًا، ويشهَدُ بعضُه لبعض، فإذا أشكَل

(١) يُنظر: ((السراج المنير)) للشربيني (١/ ٢٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧١).

مجمَلُ المتشابِهِ، فهو مردودٌ يقينًا إلى المحكَمِ[١].

١٤- الدُّعاء غالبًا ما يُصَدَّر بالرَّبِّ؛ لأنَّ الدُّعاءَ يتطلَّبُ الإجابةَ، والإجابةُ من الأفعال، والأفعال علاقتُها بالرُّبوبيَّة أكثر من علاقتها بالألوهيَّة؛ فالربوبيةُ تَقتضي القيامَ بأمورِ العباد وإصلاحِها؛ فكان العبدُ مُتعلِّقًا بمَنْ شأنُه التربيةُ والرفقُ والإحسان[٢].

١٥- قولهم: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ لا يُرادُ به الافتخارُ، بل يرادُ به التَّوسُّل بالنِّعَم السَّابقة إلى النِّعَم اللَّاحقة[٣].

١٦- طلبُهم الرَّحمةَ مِن عندِ الله بقولهم: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ حتى لا يكونَ لأحدٍ عليهم منَّةٌ سواه، ولأنَّها متى ما كانت مِن عندِه كانت عظيمةً؛ فالعطاءُ على قدرِ المعطي[٤].

١٧- في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ إثباتُ اسمِ الله الوهَّاب، وما يتضمَّنُه من صفةِ الهِبَة، وهي صِفةٌ فعليَّةٌ لله تعالى[٥].

١٨- في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا﴾ دليلٌ على أنَّ الهُدى والضَّلال مِن اللهِ تعالى، وأنَّه متفضِّلٌ بما يُنعِم على عبادِه، لا يجبُ عليه شيءٌ ما[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨).
(٢) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٣).
(٥) يُنظر: ((اشتقاق الأسماء)) للزَّجَّاج (ص: ١٢٦)، ((صفات الله عزَّ وجلَّ الواردة في الكتاب والسُّنة)) لعلوي السَّقَّاف (ص: ٤١٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٩٨).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾** استئنافٌ يَتنزَّلُ منزلةَ البيان لوصْفِ الحيِّ؛ لأنَّ عموم العِلم يبيِّنُ كمالَ الحياة[١]؛ فهذه الجملةُ كالدَّليل على كونه حيًّا[٢].

- عبَّر هنا بـ﴿لَا يَخفَى عَلَيهِ شَيءٌ﴾ ولم يقُل: هو عالمٌ بكلِّ شيء؛ لأنَّ ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ أبلغُ مِن قوله: (يعلم) في الأصل، وإنْ كان استعمالُ اللَّفظين فيه يُفيدان معنًى واحدًا[٣].

- وتَنكير ﴿شَيْء﴾؛ ليُفيد العموم والشُّمول، وجِيء بـ(شيء) هنا؛ لأنَّه من الأسماء العامَّة[٤].

- وتقديمُ ﴿الْأَرْض﴾ على ﴿السَّمَاءِ﴾؛ ترقِّيًا من الأَدْنى إلى الأعلى، ولأنَّ المقصودَ بالذِّكر ما اقْترِف في الأَرضِ؛ فكانت أَوْلى بالتَّقديم[٥]، أو ابتدأَ في الذِّكر بالأرض؛ ليتَسنَّى التدرُّجُ في العطفِ إلى الأبعدِ في الحُكم؛ لأنَّ الكثيرَ من أشياءِ الأرض يعلَمُها كثيرٌ من النَّاس، أمَّا أشياءُ السَّماء فلا يعلم أحدٌ بعضَها، فضلًا عن عِلم جميعِها[٦].

٢- **قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥١)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥١)، ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١).

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ استئنافٌ يُبيِّنُ شيئًا من معنى القيُّوميَّةِ؛ فهو كبَدَلِ البعضِ من الكلِّ، وخَصَّ بالذِّكرِ مِن بين شؤونِ القيُّومية تصويرَ البَشر؛ لأنَّه مِن أعجبِ مظاهرِ القدرةِ، ولأنَّ فيه تعريضًا بالرَّدِّ على النَّصارى في اعتقادِهم إلهيَّةَ عيسى عليه السَّلام[١]؛ فهذه الجملةُ كالدَّليلِ على القيوميَّة، والاستدلالِ على أنَّه عالمٌ بإتقانِ فِعْلِه في خَلْقِ الجنينِ وتصويرِه[٢].

- قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: فيه تَكرار قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الذي سبق في مَطلعِ السورة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾؛ للتَّنبيهِ على استقرارِ ذلك في النُّفوس، وللردِّ على مَن زعم أنَّ معه إلهًا غيره[٣].

- وناسَب هنا مَجيءُ ﴿العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ بعدَ الوصفينِ السَّابقين من العِلم والقُدرة؛ إذ مَن هذان الوَصفانِ له هو المتَّصفُ بالإلهيَّة لا غيرُه، ثم أتى بوصْفِ العِزَّة الدالَّة على عدم النَّظير، والحِكمة الموجِبة لتصويرِ الأشياءِ على الإتقان التامِّ[٤].

- وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: تذييلٌ لتقريرِ الأحكام المتقدِّمة[٥].

- وفي افتتاحِ السُّورةِ بهذه الآياتِ بَراعةُ استهلالٍ؛ لنزولها في مجادلةِ نَصارى نجران؛ ولذلك تَكرَّر في هذا الطالع قَصْرُ الإلهيَّة على اللهِ تعالى في قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢١، ٤٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٣).

٣- **في قوله تعالى:** ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ**﴾ تأكيدٌ لقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ﴾[١]، وتمهيد لقوله: ﴿منه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾[٢].

- وفيه: تقديمُ الظَّرف ﴿عَلَيْكَ﴾ على المفعول ﴿الكِتَابَ﴾؛ للاعتناءِ بشأنِ بِشارتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، بتشريفِ الإنزالِ عليه، وللتشويقِ إلى ما أُنزل؛ فإنَّ النفسَ عند تأخيرِ ما حقُّه التقديمُ- لا سيَّما بعدَ الإشعارِ برِفعةِ شأنِه أو بمنفعته- تبقَى مترقبةً لهُ، فيتمكَّنُ لديها عند وُرودِه عليها فضلُ تمكُّنٍ، وليتَّصل به تقسيمه إلى قسيمه، ولِمَا يُفِيدُهُ مِنَ الِاخْتِصَاصِ[٣].

- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ﴾: فيه من بدائع البلاغة: ذِكر فِعل ﴿أَنْزَلَ﴾ في صِيغة القصر- وهي قوله: ﴿هُوَ الَّذِي﴾- لأنَّ تعريفَ جزأَيِ الجملة بالضَّمير والموصولِ يُفيدُ القَصْر- مع أنَّ (الإنزال) مختصٌّ بالله تعالى ولو بدون صِيغة القَصر؛ إذ الإنزالُ يُرادِفُ الوحيَ، ولا يكونُ إلَّا من الله، بخِلافِ ما لو قال: هو الذي آتاك الكِتابَ[٤]، فأفاد التَّأكيد.

٤- **في قوله تعالى:** ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ**﴾ شبَّه القلبَ المائلَ عن القصْد بالشَّيء الزائغ عن مكانه[٥]، وجعَل قلوبهم مقرًّا للزيغ؛ مبالغةً في عُدولِهم عن سَننِ الرَّشاد، وإصرارِهم على الشرِّ والفَساد[٦].

٥- **قوله تعالى:** ﴿**وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾، ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ**﴾ فيه تَكرارُ لَفْظِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٦٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨).

التأويل؛ لاختلافِ التأويلينِ، أو للتَّفخيمِ لشأنِ التأويل[١].

- وجاءَ قوله: ﴿ابْتِغَاءَ﴾ على صِيغة (افتعال)؛ لبيان التكلُّف في شدَّة الطلب[٢].

٦- **قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾** مُقرِّرٌ لِمَا قبلَه ومُؤكِّد له، وفيه: مزيدُ تأكيدٍ بذِكر ﴿عِنْدَ﴾، ولم يقل: (من ربِّنا)؛ لأنَّ الإيمانَ بالمتشابِهِ يُحتاجُ فيه إلى مزيدِ التأكيد[٣]، أو زِيدت كلمة ﴿عِنْدَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ﴿مِنْ﴾ هنا للابتداءِ الحقيقيِّ دون المجازيِّ، أي: هو مُنزَّلٌ مِن وحْيِ اللهِ تعالى وكلامِه[٤].

- قوله: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا﴾: هذا مِن المقول، ومفعول: (يقولون) قوله: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا﴾، وجُعلتْ كلُّ جملةٍ كأنَّها مستقلَّةٌ بالقول؛ ولذلك لم يُشتركْ بينهما بحَرْف العَطف، أو جُعلَا ممتزجينِ في القولِ امتزاجَ الجُملة الواحدة[٥].

٧- **قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾** تذييلٌ سِيقَ مساقَ المدحِ للرَّاسخين، والثناءِ عليهم بجَودةِ الذِّهن، وصَحيحِ الفَهم، وحُسْن النَّظر[٦].

٨- **قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ﴾** فيه تَكرارُ الدُّعاء بـ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ﴾؛ للتنبيهِ على مُلازمتِه، وللتحذيرِ من الغفْلة عنه؛ لِمَا فيه من إظهارِ الافتِقار[٧].

٩- **قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾** التنكِيرُ في قوله: ﴿رَحْمَةً﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٦٩).
(٧) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١).

للتَّعظيمِ، أي: رحمةً عَظيمةً واسعةً[١].

- وشبَّه المعقولَ من الرَّحمة بالمحسوس مِن الأجرام من العِوض والمعوَّض في الهِبة[٢].

- وفيه تأخيرُ المفعول الصَّريح ﴿رَحْمَةً﴾ عن الجارَّينِ ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾؛ للاعتناءِ بالمُقدَّم، والتشويقِ إلى المُؤخَّر؛ فإنَّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تَبقَى النفسُ مترقبةً لوروده، لا سيَّما عند الإشعارِ بكونه من المنافعِ[٣].

١٠- **قوله تعالى**: ﴿**إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ**﴾ الجملةُ هنا استئنافيَّةٌ لتَعليلِ السُّؤال والتَّوسُّل ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ﴾، أو لتعليلِ إعطاء المسؤول في قوله: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾[٤].

- وقوله: ﴿الوَهَّابُ﴾ صِيغةُ مبالغة، وأُطْلِقت ولم تُقيَّد، حيث لم يَقُل مثلًا: (وهَّاب الهداية)؛ ليتناولَ كلَّ موهوبٍ[٥].

- وفيه قَصْرٌ بتَوسيطِ ضَميرِ الفَصلِ ﴿أَنْتَ﴾؛ للمبالغة؛ لأجْلِ كمال الصِّفة فيه تعالى؛ لأنَّ هِباتِ الناس بالنسبة لِمَا أفاض الله من الخيراتِ شيءٌ لا يُعبأ به، وفيه تأكيد بـ(إنَّ)، وبالجملة الاسميَّة، وبطريق القَصر[٦]؛ فإنَّ ضميرَ الفصلِ يأتي لثَلاثِ فوائدَ: الأول: الفصلُ بين الصِّفة والخبر، والثانية: التوكيد،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧١).

والثالثة: الحَصْر والقَصر[١].

١١- **قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيومٍ﴾** فيه إيجازٌ بحَذْفِ المضافِ إليه، وإقامةُ المضافِ مقامَه، والتقدير: يوم الحِسابِ أو يوم الجزاء؛ لكونِ المراد ظاهرًا، وللتهويلِ له، والتفظيعِ لِمَا يقَعُ فيه[٢].

- وفيه التفاتٌ[٣]؛ حيث قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ اللهَ﴾؛ لإبراز كمالِ التَّعظيمِ، والإجلالِ الناشِئ من ذِكرِ اليومِ المَهيب الهائل، ولتنبيهِ المخاطَب بتغييرِ أسلوبِ الكلام؛ وأيضًا لأنَّ الكلام بصيغةِ الغائب أبلغُ في تعظيمِ الله تبارَك وتعالَى[٤].

١٢- **في قوله تعالى: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾** تأكيدٌ لإظهارِ ما هم عليه من كَمالِ الطُّمأنينةِ، وقوَّة اليقينِ بأحوال الآخرة[٥].

١٣- **قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ المِيعَادَ﴾** تعليلٌ لمضمون الجُملة المؤكدةِ، أو لانتفاءِ الرَّيب[٦].

- وفيه مناسبةٌ بليغة؛ ففي هذه الآية قال: ﴿إِنَّ اللهَ﴾، وفي آخِر السُّورة قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ المِيعَادَ﴾، والفرق: أنَّ هذه الآيةَ في مقامِ الهيبة، والإلهيَّة تَقتضي الحشرَ والنَّشرَ؛ لينتصف المظلومون من الظالِمين، فكان ذِكرُه باسمِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥١).

(٣) هذا على القول بأنَّه من تمام حِكاية قول الرَّاسخين في العِلم، وأمَّا على القول بأنَّ الكلام مستأنَفٌ من كلام الله، فلا التفاتَ حينئذ.

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧١).

أَوْلى في هذا المقام، أمَّا قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ المِيعَادَ﴾ في آخِر السُّورة، فذاك المقامُ مقامُ طلَب العبدِ من ربِّه أن يُنعِمَ عليه بفضله، وأنْ يتجاوزَ عن سيِّئاته، فلم يكُن المقام مقامَ الهيبة؛ فناسَبَه ذِكرُ الضَّمير: ﴿إِنَّكَ﴾[1].

- و﴿المِيعَاد﴾: على صِيغة (مِفعال) من الوعد، وجِيء به هكذا؛ لإفادةِ معنى تكرُّره ودوامِه[2]. وأيضًا التعبيرُ بنفيِ الخُلْفِ بلفظة: ﴿المِيعَاد﴾- وهي صيغةٌ تُستعمَلُ كاسمِ زمانٍ واسمِ مكانٍ بحسَبِ سياقِها- أبلغُ؛ لأنَّ نَفْيَ الخُلف في زَمنِ الوعدِ ومكانِه، أبلغُ من نفيِ خلف الوعدِ ذاتِه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان: (١٠ - ١١)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَدَأْبِ﴾: الدَّأْب- بتسكينِ الهَمزة وفتَحِها-: العادةُ المستمرَّة، والشَّأن، أو الأشباه- بلُغة جُرهم-، وأصله: مِن الملازَمة والدَّوام[1].

﴿فِرْعَوْنَ﴾: لقبُ مَلِكِ مِصرَ وطاغيتِها في عَهدِ موسى عليه السَّلام، وقيل لكلِّ عاتٍ وطاغيةٍ: فِرْعَون، واشتُقَّ منه: تَفرْعَن، أي: فعَل فِعْل فِرعونَ[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تبارَك وتعالَى أنَّ الَّذين كفَروا به وبآياتِه، وكذَّبوا الرُّسل وعادَوْهم، وتولَّوْا عن دِين الله، وأعرَضوا عنه، أنَّه لن تنفعَهم أموالُهم ولا أولادهم، ولن تكون سببًا في نجاتهم من عقوبةِ الله إذا حلَّتْ بهم، وأن مصيرَهم إلى النَّارِ؛ فهم وَقُودُها الَّذي تُسعَّر به، وهم الملازِمون لها دائمًا وأبدًا؛ فهذه هي سُنَّةُ اللهِ الَّتي لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ، فشأنُهم في ذلك كشأنِ فِرعون وآلِه، وكشأنِ الأُمَم المكذِّبة بآياتِ الله من قبلِهم؛ إذ كان مصيرَهم أنْ أهلَكهم اللهُ بسببِ ما اقترَفوه من ذنوب، عدلًا منه لا ظلمًا؛ فهو شديدُ الأخذِ، أليمُ العذابِ لِمَن جاء بأسبابِ العذاب.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢)، ((مختار الصحاح)) للرازي (١/ ٢٣٨).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى يومَ القيامة، وتَحقَّق أنَّ يومَ الجمْعِ كائنٌ لا محالةَ، تحقَّق أنَّ مِن نتائجه تَحقيقًا لعزَّتِه سبحانه وتعالى: أنْ يحاسِبَ الَّذين كفروا، وأنْ يَنتقمَ منهم[١].

و أيضًا لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى ما دعَا به المؤمنون: مِن دوامِ الهدايةِ، وسؤالِ الرَّحمة، والفوزِ يومَ القِيامة، ذَكَر حالَ الكافرين في ذلك اليومِ، على عادةِ القُرآن في إردافِ البشارة بالنذارة، وتعقيبِ دُعاءِ المؤمنين، بذِكر حالِ المشركين[٢]، فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّ الَّذين كفَروا باللهِ وآياتِه، وكذَّبوا رُسلَه، وجحَدوا دينَه، لن تُنجيَهم أموالُهم ولا أولادُهم من عُقوبةِ اللهِ إذا حلَّتْ بهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (١/ ١٢٣).
قال الشِّنقيطيُّ: (ولم يُبيِّن هنا؛ هل نفيه لذلك تكذيبٌ لدعواهم أنَّ أموالَهم وأولادَهم تَنفعُهم، وبيَّن في مواضعَ أُخر أنهم ادَّعَوْا ذلك ظنًّا منهم أنه ما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا إلَّا لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك، وأنَّ الآخرة كالدنيا يستحقون فيها ذلك أيضًا، فكذَّبهم في آيات كثيرة، فمن الآيات الدالة على أنهم ادعوا ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]، يعني في الآخرة كما أوتيته في الدُّنيا. وقوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠]، أي: بدليل ما أعطاني في الدنيا، وقوله: ﴿وَلَئِنْ

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ -٨٩].

﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾.

أي: وأولئك هم حطَبُ النَّارِ الَّذي توقَدُ به، الملازِمونَ لها دائمًا أبدًا.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[(١)].

ثمَّ ذكَرَ تعالى مثلًا لهؤلاء الكافرينَ الذين استغْنَوْا بما أُوتوا في الدُّنيا عن الحقِّ، فعارضُوه وناهضُوه حتَّى أَخذهم[(٢)]، فقال:

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

أي: شأنُهم في ذلك كشأنِ فِرْعون[(٣)] وآلِه، والأُمَم المكذِّبةِ بآياتِ الله مِن

رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، قياسًا منه للآخرة على الدنيا، وردَّ الله عليهم هذه الدعوى في آيات كثيرة كقوله هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٠]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦]، وقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ [سبأ: ٣٧]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، إلى غير ذلك من الآيات)، ((أضواء البيان)) (١/ ١٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (١/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ١٩١).

(٣) قال ابنُ كثير: (وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَونَ﴾ قال الضحَّاك، عن ابن عبَّاس: كصنيع آل

قبلِهم؛ كقوم نوحٍ، وقوم هودٍ، وأمثالِهم[١].

﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أي: أهلَكهم اللهُ بسببِ ذُنوبهم، واللهُ شديدُ الأخذِ، أليمُ العذابِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بيانُ أنَّه قد مضَتْ سنَّةُ اللهِ تبارَك وتعالَى بأن يكونَ العقابُ أثرًا طبيعيًّا للذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ، فوجَب الحذرُ منها[٣].

٢- تضمَّن قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ...﴾ الآيةَ: تحذيرًا مِن الغرورِ؛ إذ إنَّ الجحودَ مِن النَّاس نتيجةٌ حتميَّةٌ لغرورِهم بأنفسِهم؛ حيث تُوهِمُهم الاستغناءَ عن الحقِّ[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ...﴾ دليلٌ على

فرعون. وكذا رُوي عن عِكرمة، ومجاهد، وأبي مالك، والضحَّاك، وغيرِ واحد، ومنهم مَن يقول: كسُنَّة آل فرعون، وكفِعل آل فرعون وكشَبَه آل فرعون، والألفاظ متقارِبة) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦).

ويُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير) (٢/ ١٦)) ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٩٧). و((تفسير السعدي)) (١/ ١٢٣).

يقول ابنُ عاشور: (وقد ضرَب الله لهم هذا المَثَل عِبرةً وموعظة؛ لأنَّهم إذا استقْرَوُا الأمم التي أصابها العذاب، وجدوا جميعهم قد تَماثَلوا في الكُفر: بالله، وبرسله، وبآياته، وكفى بهذا الاستقراء موعظةً لأمثال مشركي العرب)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٣٦،٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ الكفَّارَ لا تنفَعُهم أموالُهم ولا أولادُهم، لا في دُنياهم ولا أُخراهم، بخلافِ المؤمنين الَّذين ينتفعون بأموالِهم وأولادِهم، في حياتِهم وبعدَ موتهم[١].

٢- بيانُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه لا ينفعُ منه مالٌ ولا بنونَ، وأمَّا مَن غيرُ الله فقد تُغنِي هذه الأشياءُ منه؛ ويؤخَذُ ذلك من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[٢].

٣- في قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ ردٌّ على الجَبْريَّةِ الَّذين لا ينسُبون فِعْلَ العبدِ إليه؛ فاللهُ قد أضاف الذُّنوبَ إليهم، والفِعلُ لا يُنسَبُ إلَّا لِمَن قام به حقيقةً[٣].

٤- كمالُ العذابِ هو أنْ يَزولَ عنه كلُّ ما كان منتفعًا به، ثمَّ يجتمع عليه جميعُ الأسبابِ المؤلِمة؛ فالأوَّلُ هو المرادُ بقوله تعالى: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾؛ فإن المرءَ عند الشِّدَّة يفزَعُ إلى المالِ والولَدِ؛ لأنهما أقربُ الأمورِ الَّتي يفزَعُ إليها في دفعِ النَّوائب، فبيَّن تعالى أنَّ صفةَ ذلك اليوم مخالِفةٌ لصفةِ الدُّنيا، وإذا تعذَّر عليه الانتفاعُ بالمالِ والولَدِ، وهما أقربُ الطُّرقِ، فما عداه بالتَّعذُّرِ أَولى، وأمَّا الثَّاني مِن أسباب كمال العذابِ، وهو اجتماعُ الأسباب المؤلِمة، فهو المرادُ بقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾، وهذا هو النِّهايةُ في العذاب؛ فإنَّه لا عذابَ أعظمُ مِن أنْ تشتعلَ النَّارُ فيهم كاشتعالِها في الحطَبِ اليابس[٤].

٥- خَصَّ اللهُ آلَ فِرْعون بالذِّكْرِ- من بين بقيَّةِ الأُمَم- في قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾؛ لأنَّ هلاكَهم معلومٌ عند أهلِ الكتاب، بخلاف هلاكِ عادٍ وثمودَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٩٩).

فهو عند العربِ أشهرُ، وقدَّمهم؛ لأنَّهم أكثرُ الأُممِ طغيانًا، وأعظمُهم تعنُّتًا على أنبيائِهم، فكانوا أشدَّ الناسِ عذابًا[١].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾:

- فيه تقديمُ ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ على ﴿أَوْلَادُهُمْ﴾ من باب تقديم الأنسب؛ لأنَّ بالأموالِ قوامَ ما بعدَها، وتمام لذَّاته[٢]، وأيضًا لَمَّا كان المالُ في بابِ المدافعةِ والتقرُّبِ والفتنةِ أبلغَ مِن الأولاد، قُدِّم في هذه الآية[٣].

- والتأكيدُ بإعادة النافي ﴿وَلَا﴾؛ ليفيدَ النَّفي عن كلِّ حالة وعن المجموعِ؛ فيكونَ أصرحَ في المرام[٤].

- وفيه إيجازٌ بالحذفِ في قوله تعالى: ﴿مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾؛ لدلالةِ الكلامِ عليه، والتقدير: (من عَذابِ الله)، فحُذف المضاف، أو تكون ﴿مِنْ﴾ بمعنى (عندَ)، أي: (لن تُغني عندَ اللهِ شيئًا)[٥].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾: جِيءِ بالإشارة (أُولئِك)؛ لاستحضارهم كأنَّهم بحيث يُشارُ إليهم، وللتنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بما سيأتي من الخبَر، وهو قوله: ﴿هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾[٦].

- وعُطفتْ هذه الجملةُ بالواو، ولم تُفصَل؛ لأنَّ المرادَ مِن التي قبلها الوعيدُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥٣- ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٣).

في الدنيا، وهذه في وعيدِ الآخِرة بقرينةِ قوله بعدها: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[١] [آل عمران: ١٢].

- وفيه التأكيدُ بضَمير الفصل ﴿هُمْ﴾[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: تشبيهٌ، وقد صرَّح فيه بذِكر أداة التَّشبيه[٣]، وفي كيفيَّة التشبيهِ وجوه؛ منها: أنَّ جِدَّهم واجتهادَهم في تَكذيبِهم بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وكُفرِهم بدِينه كدأبِ آل فِرعون مع موسى عليه السَّلام، ثم إنَّا أهلكْنا أولئك بذُنوبهم، فكذا نُهلِك هؤلاء، وقيل غير ذلك[٤].

- وهذا إخبارٌ غَرضُه التخويفُ لهم، والوعيدُ بعذاب الدنيا؛ لعِلمهم بما حلَّ بآل فرعون والذين من قَبل آل فِرعون من الأُمم الكافِرة[٥].

٤- قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: بيانٌ وتفسيرٌ لدأبهم الذي فعَلوا، على طريقِ الاستئنافِ المبنيِّ على السؤالِ، كأنَّه قيل: كيف كان دأبُهم؟ فقيل: كذَّبوا بآياتنا[٦].

- وفي قوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، ثم قوله بعد ذلك: ﴿وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ﴾: التفاتٌ؛ فالتكلُّم أولًا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ للجَري على سَنَنِ الكبرياءِ، وإلى الغَيبة ثانيًا بإظهار الجلالة (الله)؛ لتربية المهابةِ وإدخالِ الرَّوعة[٧].

٥- قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: التعبيرُ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٣، ٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٥).
(٥) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٨٨-٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١).

بالأخْذ فيه مبالغةٌ في شِدَّة عذابهم؛ كأنَّ مَن يُنزل به العقابَ يَصير كالمأخوذِ المأسورِ الذي لا يَقدِر على التخلُّص[١].

- وإظهارُ الاسمِ الشَّريفِ ﴿اللهُ﴾ وعدمُ إضمارِه في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ﴾؛ للتهويلِ، وللتنبيهِ على باهِر العظمة. وإظهارُه كذلك في قوله: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ للتنبيهِ على زِيادة العظمةِ في عذابِهم لمزيد اجترائهم[٢].

- ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: إنْ أُريد بها تكذيبُهم بالآيات، فالباء للسببيَّة؛ جِيء بها تأكيدًا لِمَا تُفيده الفاءُ من سببيَّة ما قبلَها لِمَا بعدَها، وإنْ أُريد بها سائرُ ذنوبهم فالباء للملابسة؛ جِيء بها للدَّلالةِ على أنَّ لهم ذنوبًا أُخَر، أي: فأخَذَهم متلبِّسين بذُنوبهم غيرَ تائبين عنها[٣].

- ﴿واللهُ شَدِيدُ العِقَابِ﴾: تذييلٌ مقرِّر لمضمونِ ما قبله من الأخْذ، وتكملةٌ له، وفيه: تهويلٌ للمؤاخذةِ، وزيادةُ تخويفٍ للكَفرة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١).

الآيتان: (١٢ - ١٣)

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُحْشَرُونَ﴾: تُجمَعون؛ والحشرُ: الجمعُ مع سَوْق، والبعثُ والانبعاثُ، وكل جمعٍ حَشْرٌ، أو الجمعُ بكثرة[١].

﴿الْمِهَادُ﴾: الفِراشُ، أو المكانُ الممهَّد المُوطَّأ[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُخبِرَ الكافرين بأنَّهم سيُغلَبون من قِبَلِ المؤمنين في حياتِهم الدُّنيا، وأنَّهم سيُجمَعون يومَ القيامة إلى نارِ جهنَّمَ؛ فهي الفِراشُ الَّذي فرَشوه لأنفسِهم، فبئس الفِراشُ.

ثم يقول تعالى: قد كان لكم علامةٌ ودلالةٌ واضحةٌ في أنَّ الغَلَبَةَ تكونُ للمؤمنين، وأنَّ النَّصرَ حليفُهم، وأنَّ اللهَ مُعزٌّ دِينَه، ومؤيِّدٌ رسولَه، هذه العلامةُ والدَّلالة متمثِّلةٌ في طائفتينِ تَقاتَلَتا، إحداهما مؤمنة تُقاتِلُ في سبيل الله، وهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومَن معه من المسلمين، والأخرى كافرة، وهم مُشرِكو قريشٍ، وذلك في يوم بدرٍ؛ حيث كان المسلمون يرَوْن الكافرين رؤيةً

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧، ٣٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

ظاهرةً بأنَّهم ضِعفُهم في العددِ، حتى يحصُلَ لهم التَّوكُّلُ على الله، ويلجَؤوا إليه في طلبِ الإعانة، والله يُقوِّي بأسباب نصرِه مَن يشاءُ ممَّن تقتضي الحكمةُ نصرَه أو تأييدَه، وفي ذلك التَّأييدِ للفئةِ المسلِمةِ- مع قلَّتِها- عبرةٌ وعِظَةٌ لِمن رُزِق بصيرةً نافذةً وعقلًا كاملًا يوصِلانِه إلى معرفةِ حِكَمِ اللهِ وأفعالِه.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢)﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ قراءتان:

١- قراءة (سَيُغْلَبُونَ) على معنى أنَّ الكُفَّارَ غُيَّبٌ.

وقيل معناه: قلْ لليهود: سيُغلبُ مُشرِكو العربِ، ويُحشرون إلى جَهنَّمَ، فتكونُ المخاطبةُ لليهود، وتكونُ الغلبةُ واقعةً على مُشركي قريش، والتوجيهُ الأوَّل أرجحُ لصريحِ الخِطاب ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[(١)].

٢- قِراءة ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ هي أمرٌ من الله لنبيِّه أنْ يُخاطِبَ الكفَّارَ بهذا، أي: قل لهم- يا محمَّدُ- مواجهًا بالخطاب: ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنَّمَ[(٢)].

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للَّذين كفروا: ستُغلَبون من قِبَلِ المؤمنين في الدُّنيا.

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٣).

كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾، وكما قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[١].

﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ قِراءتان:

١- قِراءة (وَيُحْشَرُونَ) بالياء، على لفظِ الغَيبة[٢].

٢- قِراءة ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ بالتَّاء بالخِطابِ[٣].

﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾.

أي: وتُجمَعون يَومَ القِيامةِ إلى النَّار[٤].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[الأنفال: ٣٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٢).

(٢) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٣).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٣).
ولَمَّا كان الأمرُ كما أخبَر به اللهُ تعالى مِن كونِهم غُلبوا في الدُّنيا، وشاهَد ذلك الناسُ؛ فهذا يُصدِّق الخبرَ الأخير أنَّهم يُحشرون إلى جهنَّم، وبئس المهاد. ((الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح)) لابن تيمية (١/ ٤١٠).

﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾:

أي: وبئس الفِراشُ جهنَّمُ الَّتي تُحشَرون إليها[١].

كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ [الأعراف: ٤١].

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)﴾.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾.

أي: قد كان لكم[٢] علامةٌ ودلالةٌ على أنَّ الغَلَبَةَ تكونُ للمؤمنين، وأنَّ اللهَ مُعزٌّ دِينَه، وناصرٌ رسولَه، ومُظهِرٌ كلمتَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٥).

والمخصوص بالذمِّ محذوف؛ لدلالةِ ما قبله عليه، التقدير: وبئس المهادُ جهنمُ، وكثيرًا ما يُحذف لفَهم المعنى. ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤).

(٢) في المخاطَبين بهذا ثلاثةُ أقوال؛ أحدها: أنهم المؤمنون، رُوي عن ابن مسعود، والحسن. والثاني: الكفَّار، فيكون معطوفًا على الذي قبله، وهو يتخرَّج على قول ابن عبَّاس في الذي قبله. والثالث: أنَّهم اليهود، ذكره الفَرَّاء، وابن الأنباري. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٢٦٢)، واختارَ القول الثالث: أنَّهم اليهود: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٢٤١)، وابنُ كثير في ((تفسيره)) (٢/ ١٧).

قال ابنُ عاشور: (والخِطاب في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ خِطابٌ للذين كفروا، كما هو الظَّاهر؛ لأنَّ المقام للمحاجَّة، فأعقب الإنذار والوعيد بإقامة الحُجَّة؛ فيكون من جملة المقول، ويجوز أن يكونَ الخطاب للمسلمين، فيكون استئنافًا ناشئًا عن قوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾؛ إذ لعل كثرة المخاطبين من المشركين، أو اليهود، أو كليهما، يُثير تعجُّب السامعين من غلبهم، فذكَّرهم الله بما كان يوم بدر)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧).

﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾.

أي: في طائفتينِ لقِي بعضُهما بعضًا للقتالِ فيما بينهما[١]: طائفةٍ تُقاتِلُ في سبيلِ الله، وهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومَن معه من المسلِمين، وطائفةٍ كافرةٍ، وهم مُشرِكو قُريشٍ، وذلك يومَ بَدْرٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾.

أي: يرَى المسلِمون الكافرين[٣] مثلي عدد المسلمين، رؤيةً ظاهرةً لا لَبْسَ فيها؛ حيث تَلحقُهم أبصارُهم، وإنْ كانوا أكثرَ من ذلك في حقيقةِ الأمر[٤]؛

---

(١) لا خِلافَ بين المفسِّرين أنَّ الإشارةَ بهاتين الفِئتين هي إلى يوم بدر. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٥).

قال ابنُ عاشور: (والالتقاء: اللِّقاء، وصِيغة الافتعال فيه للمُبالغة، واللقاء مصادفةُ الشخص شخصًا في مكان واحد، ويُطلق اللِّقاءُ على البروزِ للقتال كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]... وهذه الآية تحتمل المعنيين) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٣).

(٣) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٢٥١)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤١٧)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٢٣)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة آل عمران)) (١/ ٧٩).

وقيل: رأَى الكفَّارُ المسلمينَ يومَ بدرٍ عندَ اللِّقاءِ والتَّلاحمِ مِثْلي عددِهم، فوقَع الرُّعبُ في قلوبِهم.

وممن اختاره ابنُ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٣/ ١٧٧)، والشنقيطيُّ في ((العذب النمير)) (٥/ ٧١).

(٤) قال ابن كثير: (ما الجمعُ بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصَّة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤]؟

ليتوكَّلوا على اللهِ، ويَطلُبوا منه الإعانةَ[١].

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: واللهُ يُقوِّي بنَصرِه مَن يشاء ممَّن تَقتضي الحِكمةُ نَصْرَه أو تأييدَه[٢].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

أي: إنَّ في تأييدِنا الفئةَ المسلِمةَ- مع قلَّتِها في العدَدِ- على الفئةِ الكافرة- مع كثرتها في العدَدِ- لَمُعتبَرًا ومتَّعظًا لِمَن له بصيرةٌ وفهمٌ يَهتدي به إلى حِكَمِ اللهِ وأفعالِه، وقَدَرِه الجاري بنصرِ عباده المؤمنين في هذه الحياة الدُّنيا، ويومَ يقومُ الأشهادُ[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ...﴾ دليلٌ على أنَّه لو رجَع المسلِمون إلى دِينهم حقًّا في العقيدةِ والقولِ والعملِ والأخلاقِ والآداب، وجميعِ أمور

والجواب: أنَّ هذا كان في حال، والآخَر كان في حال أخرى، فعندما عاين كلُّ الفريقين الآخَرَ رأى المسلمون المشركين مِثليهم، أي: أكثر منهم بالضِّعف؛ ليتوكَّلوا ويتوجَّهوا ويَطلُبوا الإعانةَ من ربهم عزَّ وجلَّ. ورأى المشركون المؤمنين كذلك؛ ليحصلَ لهم الرعبُ والخوفُ، والجزع والهلع، ثم لَمَّا حصَلِ التصافُّ والْتقَى الفريقان قلَّل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء؛ ليُقْدِم كلٌّ منهما على الآخَر)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٤٣٨).

قال الواحديُّ: (ترى الفئةُ المسلمة الفئةَ الكافرة، ﴿مِثْلَيْهِمْ﴾، وهم كانوا ثلاثةَ أمثالهم، ولكن الله أرَى المسلمين أنَّ المشركين لا يَزيدون عن مثليهم؛ وذلك أنَّ الله كان قد أعلمَ المسلمين أنَّ المئة منهم تغلب المِئتين من الكفَّار، فأراهم المشركين على قدْر ما أعلَمهم أنَّهم يَغلبونهم لتقوى قلوبُهم) ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٥٣، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٠-٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨).

الدِّين، لحصَلَتْ لهم الغَلَبَةُ على الكفَّار، ويَشهَدُ لهذا تاريخُ المسلِمينَ؛ حيث ملَكوا مشارقَ الأرضِ ومغاربَها[١].

٢- يُؤخَذُ من قوله: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أنَّ القتالَ لا يكون سببًا للنصرِ إلَّا إذا كان في سبيلِ الله؛ إخلاصًا، وموافقةً للشَّرع، واجتنابًا للمحارِمِ، فإذا تمَّتْ هذه الأمورُ الثَّلاثةُ، فهذا هو الَّذي في سبيلِ الله[٢].

٣- إذا كان القتالُ في سبيلِ الله، توجَّهَتْ إليه النَّفسُ بكلِّ ما فيها من قوَّةٍ وشُعورٍ، وما تستطيعُه من تدبيرٍ واستعدادٍ، مع ثقةٍ قويَّةٍ بأن وراءَ قوتها معونةَ اللهِ وتأييدَه[٣].

٤- النَّصرُ ليس بكثرةِ العَدَدِ، ولا بقوَّة العُدَدِ، ولكنَّه من الله؛ لأنَّ اللهَ لَمَّا ضرَب هذا المَثَلَ قال: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[٤]؛ فالنَّاظرُ إلى مجرَّدِ الأسبابِ الظَّاهرة يجزم بأنَّ غلَبَةَ الفئةِ القليلة للفئة الكثيرة مِن المُحالات، ولكن وراءَ هذا السَّبب المُشاهَدِ بالأبصار، سببٌ أعظمُ منه، لا يُدرِكُه إلَّا أهلُ البصائر والإيمانِ والتَّوكُّلِ، وهو نصرُ اللهِ، وإعزازُه لعباده المؤمنين[٥].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ فيه إرشادٌ إلى أنْ نَعتبِرَ بأحوالِ المتقدِّمينَ علَيْنا مِن هذِه الأمَّةِ، كما نعتَبِر أيضًا بأحوالِ مَن قبلَها مِن الأُمَم؛ فاللهُ تعالى لَمَّا ذكَرَ قِصَّةَ فرعونَ، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ١٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٣).
(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٢٦).

٦- انتفاءُ العِبرةِ يدلُّ على ضَعْفِ البَصيرةِ أو عدَمِها بالكلِّيَّةِ، فإذا وجَد الإنسانُ من نفْسِه عدمَ اعتبارٍ واتِّعاظٍ بما يجري، فليعلَمْ أنَّه ضعيفُ البَصيرةِ؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[١].

٧- في قوله: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ دليلٌ على أنَّ توقُّفَ النَّصرِ على تأييدِ اللهِ الَّذي يعطيه مَن يشاءُ، حقيقةٌ قائمةٌ لم تُنسَخْ، وسُنَّةٌ ماضيةٌ لم تتوقَّفْ، فعلى المؤمنين أنْ يطمئنُّوا لهذه الحقيقةِ، ويثِقوا في ذلك الوعدِ، ويَأخُذوا للأمْرِ عُدَّتَه، ويَصبِروا حتى يأذَنَ اللهُ، وألَّا يَستعجلوا أو يَقنَطوا إذا طال عليهم الأمدُ المُغيَّبُ في عِلمِ اللهِ[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- من قولِ الله تعالى لرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿قُلْ﴾ يُعلَم أنَّه عبدٌ تُوجَّه إليه الأوامرُ؛ فهو عبدٌ لا يُعْبَد، ورسولٌ لا يُكَذَّب[٣].

٢- ضَرْبُ الأمثالِ بالأمورِ الواقعةِ أبلغُ في التَّصديقِ والطُّمأنينةِ، فينبغي للواعظِ والدَّاعي إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يضرِبَ المَثَلَ للمدعوِّين بالأمورِ الواقعة؛ لأنَّ ذلك أبلغُ، يؤخَذُ ذلك من قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾[٤].

٣- لا أُلفةَ بين المؤمنين والكافرين؛ لقوله: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾، فمَن حاوَل أنْ يجمَعَ بين المؤمنين والكافرين، فقد حاوَل الجمعَ بين النَّارِ والماء[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٨١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٣).

٤- الرَّدُّ على الجَبْرِيَّةِ في قولِه: ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فأضاف الفِعلَ إليها[١].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾:

- استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقال من النِّذارة إلى التهديد، ومِن ضَرب المَثل لهم بأحوالِ سَلفِهم في الكُفر إلى ضربِ المَثل لهم بسابقِ أحوالهم المؤذِنة بأنَّ أمرَهم صائرٌ إلى زوال، وأنَّ أمْر الإسلام ستندكُّ له صُمُّ الجبال[٢].

- وجِيء في هذا التهديدِ بأطنبِ عِبارةٍ وأبلغِها؛ لأنَّ المقام مقامُ إطناب؛ لمزيد الموعظةِ، والتذكير بوصْف يومٍ كان عليهم، وهم يَعلمون هذا اليومَ، وهو يومُ بدرٍ[٣].

- وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: فيه العدولُ عن الضَّمير (لـهُم) إلى الاسم الظَّاهِر ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ لاستقلالِ هذه النِّذارة، وللإفصاحِ عن التَّشنيعِ بهم في هذا الإنذارِ؛ حتى يُعادَ استحضارُ وصْفِهم بالكفر بأصرحِ عبارة[٤]، وأيضًا لكون ما سيَذكره بَعدَه مُرتَّبًا على هذه الصِّفة.

٢- قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٤)، فالجَبْرِيَّةُ يقولون: إنَّه لا يُضافُ الفِعلُ إلى الفاعل إلَّا على سبيل المجاز، كما نقول: أكلتِ النَّارُ الحطَبَ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٧٥) (٩/ ٣٤٢).

وهذا الوجه بناءً على القولِ بأنَّ المراد بقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم المذكورون في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ...﴾، أمَّا على القول بأنَّ المراد بهم المشركون خاصَّةً، فليس فيه هذا الوجه.

وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾:

- ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ فيه تأكيدٌ؛ لأنَّه جوابُ قسمٍ محذوفٍ، وهو من تمامِ القولِ المأمورِ به؛ جيءَ به لتقريرِ مَضمونِ ما قَبْله وتحقيقِه[١].

- وتقديمُ الظَّرْف ﴿لَكُمْ﴾ على فاعلِ كان ﴿آيَةٌ﴾؛ للاعتناءِ بما قُدِّم، والتشويقِ إلى ما أُخِّر- على القول بأنَّ ﴿كَانَ﴾ تامَّةً- وتركُ تأنيثِ الفعل فلم يقُلْ: (كانت)؛ لأنَّ ﴿آيَةٌ﴾ تأنيثُها غيرُ حقيقيٍّ، وقيل: ردَّها إلى البيان، أي: قد كانَ لكم بيانٌ، فذَهَب إلى المعنى وترَك اللَّفظَ، ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿كَانَ﴾ ناقصةً، والظرفُ ﴿لَكُمْ﴾ خبرٌ، ولتوسُّطه بينَ ﴿كَانَ﴾ وبين اسمِها ﴿آيَةٌ﴾ تُرِك التأنيثُ[٢].

- وفيه من لطائفِ البَلاغة: الاحتباكُ، وذلِك في قوله تعالى: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾؛ حيث حذَف مِن كلِّ جملةٍ من الجُملتين المتقابلتين شيئًا إيجازًا، وذكَر في الجملةِ الأخرى ما يدلُّ عليه، والتقدير: فِئةٌ مؤمنةٌ تُقاتِلُ في سبيل الله، وفِئةٌ أُخرى كافرةٌ تُقاتِل في سبيلِ الشَّيطان[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾:

- فيه إيثارُ صِيغة الجمعِ في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾؛ للدَّلالة على شُمول الرؤيةِ لكلِّ واحدٍ من آحاد الفئة.

- وفيه تأكيدٌ بالمصدر المؤكَّد ﴿رَأْيَ﴾، وهو نص في أنَّ الرؤية بَصَريَّةٌ[٤]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٦٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٦٦).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٣).

والقاعدةُ أنَّ التأكيدَ بالمصدر يَنفي احتمالَ المجاز[١].

- وقوله: ﴿رَأْيَ العَينِ﴾ فيه احتراسٌ؛ لئلَّا يُعتقد أنَّه من رُؤيةِ القَلْبِ[٢].

٤- قوله: ﴿لَعِبْرَةً﴾: التنكيرُ للتَّعظيم، أي: عِبْرة عظيمة، وموعِظة جسيمة[٣].

(١) ينظر ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((فتح البيان في مقاصد القرآن)) لصديق حسن خان (٢/ ١٩٦).

الآيات: (١٤ - ١٧)

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْقَنَاطِيرِ﴾: جمْع قِنطار، وقد اختُلِف في حدِّه على أقوالٍ، وجملةُ القولِ: أنَّه عددٌ كثيرٌ مِن المال[١].

﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾: المضاعَفة، أو المضعَّفة، أو المكمَّلة[٢].

﴿الْمُسَوَّمَةِ﴾: أي: الرَّاعيةِ- مِن السَّوم وهو الرَّعي- أو المعلَّمة بالعَلاماتِ الحِسان- من السِّمة والتَّسويم، أو المطَهَّمة، أي: الـمُحسَّنة، أو المرسَلة وعليها رُكبانُها، أو المعلَّمة في الحَرْبِ بالعَلامةِ، وأصلُ (سوم): طلب الشَّيء[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣).

﴿الْمَآبِ﴾: المرجِع، مِن آبَ يَؤُوب أَوْبًا، إذا رجَع[١].

﴿الْقَانِتِينَ﴾: الخاضِعين، الـمُداومين على طاعةِ الله، والقُنوت: دوامُ الطَّاعة ولزومُها مع الخضوع؛ وأصل (قنت): يدلُّ على طاعةٍ وخيرٍ في دِين، ثم سُمِّي كلُّ استقامةٍ في طريقِ الدِّينِ قنوتًا[٢].

﴿بِالأَسْحَارِ﴾: جمْع سَحَر، وهو آخِرُ اللَّيلِ ومُقدِّمةُ الصُّبح[٣].

المَعنَى الإجماليُّ:

بعدَ أنْ بيَّن تبارَك وتعالَى عقوبةَ الكافرين، وأنَّهم لن تُغنيَهم أموالُهم ولا أولادُهم مِن عذابِ اللهِ وغضَبِه، حذَّر أهلَ الإيمان من أنْ تُلهيَهم زينةُ الدُّنيا وشهواتُها عن الآخرةِ، فذكَر أنَّه زُيِّن للنَّاسِ محبَّةُ عددٍ مِن المشتهَيَاتِ؛ كالنِّساءِ، والبنينَ، وأنواعِ الأموال، وكلُّ هذه المُشْتَهيات ممَّا يُستمتَعُ به في الدُّنيا مِن زينتِها المنتهيَةِ بالزَّوالِ، وعند الله سبحانه حُسْنُ المرجِعِ والثَّوابِ.

ثمَّ أمَر الله نبيَّه أنْ يخبِرَ المؤمنين أنَّ هناك خيرًا من هذه الشَّهواتِ الدُّنيويَّة الزَّائلة، وهي الجنَّاتُ والنَّعيم المُقيم، وما فيها من المنازل الرَّفيعةِ، والأنهار الجارية، والأزواج المُطهَّرة، وأنَّ هذا النَّعيم دائمٌ ليس بمنقطعٍ؛ فهم خالدون فيها خلودًا أبديًّا، مع أكبرِ نعيمٍ وأعظَمِه، وهو الرِّضا من الله تعالى؛ فاللهُ تبارَك وتعالَى بصيرٌ بعبادِه كلِّهم، فيُجازي كلَّ واحدٍ بما يستحقُّ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢، ٤٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤- ٦٨٥)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥ وما بعدها)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٠٠).

ثم بيَّن اللهُ تبارَك وتعالَى أحوالَ المتَّقين الَّذين يستحقُّون هذا النَّعيم، وعدَّد أوصافَهم، فذكَر أنهم هم الَّذين يتوسَّلون إلى اللهِ تبارَك وتعالَى بإيمانِهم به وبكتابِه وبرسولِه أنْ يمُنَّ عليهم بمغفرةِ الذُّنوبِ، والوقايةِ من عذاب النَّارِ، ثمَّ ذكَر من صفاتهم الصَّبرَ، والصِّدقَ، والقنوت، والإنفاق، والاستغفار في أوقات السَّحَرِ؛ حيث وقتُ النُّزول الإلهيِّ، في ثُلُث اللَّيل الآخِرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى في الآياتِ السَّابقة عاقبةَ الكافرين، وأنَّهم لم تُغنِ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم، وعَظ وحذَّر مِن أنْ تُلهيَ زينةُ الدُّنيا وشهواتُها عن الآخرةِ[1]، فقال:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾.

أي: زيَّن اللهُ[2] تعالى للنَّاسِ محبَّةَ المشتهَيات؛ من النِّساءِ، والذُّكورِ من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٨).

(٢) وعليه عامَّة المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (١/ ٣٠٠). وقد أخرج البخاري معلقًا مجزومًا به قبل حديث (٦٤٤١): أنَّ عُمر رضي الله عنه قال: (اللَّهمَّ إنَّا لا نَستطِيع إلَّا أنْ نفرح بما زَيَّنْته لنا، اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك أنْ أُنْفِقَه في حَقِّه). وينظر ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٥٤).
ومعنى تزيينِ الله، أي: بالإيجادِ، والتهيئةِ للانتفاعِ، وإنشاءِ الجبلَّة على الميلِ إلى هذه الأشياء. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٨).
والله تعالى يُزيِّنها ابتلاءً واختبارًا؛ لأنَّه لولا تزيين هذه الأشياء في قلوب الناس ما عُرِفَ المؤمن

الأولاد، والمال الكثير المتضاعف[١]؛ من الذَّهب والفضَّةِ والخيل الرَّاعية[٢]، والإبل والبقَر والغَنَم، والأرض المتَّخذة للزِّراعة[٣].

﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي: جميعُ ما ذُكِر من النِّساء والبنين، والقناطير المقنطَرة مِن الذَّهب والفضَّة،

حقًّا، فإنَّ قَوِيَّ الإيمان لا يقدِّمها على محبة الله عزَّ وجلَّ، ففي حديث السبعة الذين يظلُّهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: ((ورجلٌ دعتْه امرأةٌ ذات مَنْصب وجمال، فقال: إنِّي أخاف الله)). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٥).

(١) وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: الرَّبيع بن أنس، وقَتادة، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٥٩).

وقد اختلف المفسِّرون في مقدار القِنطار على أقوال، وذكر بعضُ أهلِ العِلْم بكلامِ العربِ أنَّ العرب لا تحدُّ القنطار بمقدارٍ معلوم، فالصوابُ أن يُقال: هو المالُ الكثيرُ من غيرِ تحديدٍ لمقداره. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩).

(٢) وممَّن فسَّر المسوَّمة بالرَّاعية: ابن عبَّاس، وسعيد بن جُبَير، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أَبْزَى، والسُّدِّي والربيع بن أنس، وأبو سنان، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١).

وقيل: معنى المسوَّمة: الـمُعلَّمةُ بالشِّيَات، الحِسانُ، ورجَّحه ابن جرير، واستبعَد قولَ مَن قال: إنَّها تعني: المعدَّة في سبيل الله. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٥).

وقال القرطبي بعد أن ذكر الأقوال فيها: (كلُّ ما ذُكِر يحتمله اللفظ، فتكون راعيةً معدَّة حسانًا معلَّمة؛ لتُعرَف من غيرها) ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٤- ٨٩).

قال ابن القيِّم: (أخبَر سبحانه أنَّ هذا الذى زَيَّن به الدنيا من ملاذِّها وشهواتها، وما هو غايةُ أماني طُلَّابها ومُؤثِريها على الآخِرة، وهو سَبعةُ أشياء: النساء اللاتي هنَّ أعظمُ زِينتها وشهواتها وأعظمها فِتنةً، والبنين الذين بهم كمالُ الرجل وفخرُه وكرمُه وعِزُّه، والذهب والفضة، اللَّذين هما مادَّة الشهوات على اختلافِ أجناسِها وأنواعها، والخيل المسوَّمة التى هي عزُّ أصحابها وفخرُهم وحُصونُهم وآلة قَهرِهم لأعدائهم في طلبِهم وهربهم، والأنعام التي منها رَكوبُهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم، وغير ذلك من مصالحهم، والحَرْث الذي هو مادَّة قوتهم وقُوت أنعامهم ودوابِّهم وفاكهتهم وأدويتهم، وغير ذلك) ((عدة الصابرين)) (ص ١٦٧).

والخيلِ المسوَّمة، والأنعام والحَرْث، ممَّا يُستمتَعُ به في الدُّنيا، وهو مع قلَّتِه إلى زوالٍ[١].

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾.

أي: والله عنده حُسنُ المرجعِ[٢] إلى جنَّات تجري من تحتها الأنهارُ، وإلى أزواج مُطهَّرةٍ، ورضوانٍ من الله، وذلك للَّذين اتَّقَوا ربَّهم[٣].

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى متاعَ الدُّنيا، شوَّق عبادَه إلى متاعِ الآخرةِ[٤] فقال:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للنَّاس: أأُخبِرُكم وأُعلِمُكم بخيرٍ وأفضلَ ممَّا زُيِّن لكم في هذه الحياةِ الدُّنيا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٠).

(٢) فإنْ قيل: كيف يكون: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ وعنده يومئذٍ عذابٌ أليمٌ، وعقاب شديد؟ فالجواب: أنَّ ذلك لفئةٍ خاصَّةٍ من الناس، وهم المتَّقون، فيكون المعنى: والله عنده حُسنُ المآب للذين اتقوا ربَّهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيِّم (ص: ١٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٨، تفسير ابن كثير٢/ ٢٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٥).

قال ابنُ جرير: (اختلف أهلُ العربية في الموضع الذي تَناهَى إليه الاستفهامُ من هذا الكلام... وأَوْلى هذه الأقوال عندي بالصَّواب: قول مَن جعَل الاستفهام متناهيًا عند قوله: ﴿بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾، والخبر بعده مبتدأ عمَّن له الجنات بقوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ فيكون

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: للَّذين خافوا اللهَ فأطاعوه؛ بأداء فرائضِه، واجتنابِ معاصيه: عند ربِّهم جنَّاتٌ كثيرةٌ ومتنوِّعة، تجري من تحتِ أشجارِها وقصورِها، ومن أرجائِها أنهارُ العسَلِ واللَّبَنِ والخمرِ والماءِ، وغير ذلك، ماكثين فيها أبدَ الآبادِ، لا يذوقون فيها الموتَ[(١)].

﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾.

أي: ولهم أزواجٌ من نِساء الجنَّةِ، اللَّواتي طهُرْنَ مِن كلِّ أذًى؛ مِن الحَيضِ، والمنِيِّ، والبولِ، والنِّفاس، ومن مساوئِ الأخلاق، وآفاتِ القلبِ واللِّسانِ والجوارحِ، وغير ذلك من كلِّ عيبٍ ظاهرٍ وباطنٍ ممَّا يعتري نساءَ أهلِ الدُّنيا[(٢)].

﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: ولهم رضًا مِن الله تعالى يُحِلُّه عليهم[(٣)].

وفي الحديثِ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضِي اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ تبارَك وتعالَى يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيقولون: لبَّيْكَ ربَّنا وسعدَيْكَ، فيقولُ: هل رضِيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نَرضَى

مخرج ذلك مخرج الخبر، وهو إبانة عن معنى الخير الذي قال: أنبئكم به؟ فلا يكون بالكلامِ حينئذٍ حاجةٌ إلى ضمير)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٠)، وينظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠١). ويُنظر:((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٢).

وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا مِن خَلقِك؟! فيقولُ: أنا أُعطيكم أفضلَ من ذلك، قالوا: يا ربِّ، وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بعده أبدًا))[١].

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أي: واللهُ بصيرٌ بكلِّ العباد- مؤمنِهم وكافرِهم، بَرِّهم وفاجرِهم، مُتَّقيهم وعاصيهم- بَصرَ نظَرٍ؛ فلا يغيبُ عن نظَره شيءٌ، وبصَرَ عِلمٍ؛ فلا يعزُبُ عن عِلمه شيءٌ[٢]، وإذا كان كذلك جازاهم بما يستحقُّون[٣].

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى نعيمَ الآخرة، وأنَّه بصيرٌ بمَن يستحقُّ ما أعدَّ مِن الفوز العظيمِ، والنَّعيم المُقِيم، ذكَر مَن يستحقُّ هذا النَّعيمَ، ومَن هم أهله الَّذين هم أَولى به، وما استحقُّوا ذلك به من الأوصاف، تفضُّلًا منه عليهم بها، وبإيجابِ ذلك على نفسِه؛ حثًّا لهم على التَّخلُّقِ بتلك الأوصافِ[٤]، ففسَّر أحوالَ المتَّقين الموعودين بالجنَّاتِ[٥] فقال:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾.

أي: هم الَّذين يقولونَ: يا ربَّنا، إنَّنا آمنَّا بك، وبكتابِك وبرسولِك؛ فبسببِ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيِّم (ص: ١٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١).

إيمانِنا، استُرْ ذنوبَنا، ولا تُعاقِبْنا عليها[١].

﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

أي: ادفَعْ عنَّا عذابَ النَّار، ولا تُعذِّبْنا بها[٢].

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)﴾.

﴿الصَّابِرِينَ﴾.

أي: على القيامِ بالطَّاعات، وتَرْك المحرَّمات، وعلى أقدارِ الله المؤلِمَة[٣].

﴿وَالصَّادِقِينَ﴾.

أي: في أقوالِهم وأفعالِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٢).

قال ابنُ عثيمين: (والمراد: قِنا العذابَ عند استحقاقنا له، وقِنا العذابَ حتى لا نعملَ العمل الذي يُوصلنا إلى العذاب. ثم هؤلاء إذا هم عمِلوا عمَلَ أهل النار، فالله تعالى يَقيهم ذلك بأمور مُتعدِّدة. وقد ذكر العلماءُ أسباب مغفرة الذنب، فبلغت نحو عشرة أسبابٍ؛ منها: أن يُوفَّق الإنسان للتوبة، فإن تاب الإنسان من الذنب، وقاه اللهُ تعالى عقابَ ذلك الذنب كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]. ومنها الأعمال الصالحة، والصَّدقة، ودُعاء المؤمنين، ومشيئة الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وغير ذلك)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٢).

﴿وَالْقَانِتِينَ﴾.

أي: والمطيعين، الذين يُداومون على الطَّاعةِ، مع مُصاحَبةِ الخشوعِ والخُضوعِ للهِ تعالى[١].

﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾.

أي: مِن أموالِهم في جميعِ ما أُمِروا به من الطَّاعاتِ؛ كأداءِ الزَّكاةِ والصَّدقات، وصلةِ الأرحام والقَرابات، ومواساةِ ذوي الحاجاتِ، وغيرِ ذلك مِن الوجوه الَّتي أذِنَ اللهُ لهم بالإنفاقِ فيها[٢].

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

أي: السَّائلين المغفرةَ في آخِرِ اللَّيل[٣]؛ فهو وقتُ نُزولِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلى سماءِ الدُّنيا؛ ففي الحديثِ عن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليهِ وسلَّم: ((يَنْزِلُ ربُّنا تباركَ وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا، حينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، يقولُ: من يَدعوني فأَستجيبَ له، من يَسْأَلُني فأُعْطِيَه، مَن يستغفرُني فأَغْفِرَ له؟))[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- التَّزهيدُ في الدُّنيا الفانيةِ الذَّاهبةِ، وفي التَّعلُّقِ بهذه الأشياءِ المذكورةِ في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ والترغيبُ في الباقِي الدَّائمِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٥).

(٤) رواه البخاري ١١٤٥ ومسلم ٧٥٨.

والإزراءُ بمَن آثَرَ هذا المزيَّنَ واتَّبَعَه؛ وذلك لقولِه سبحانه: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وكلُّ ما كان للدُّنيا فلا ينبغي للإنسانِ أنْ يُتبِعَه نفسَه؛ لأنَّه زائلٌ، إلَّا شيئًا يستعينُ به على طاعةِ اللهِ[١].

٢- في قوله تعالى: ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذه المتعةَ غايتُها الزَّوالُ، فإمَّا أنْ تزولَ عنها، وإمَّا أنْ تزولَ عنك، ولو اجتمَعَتْ كلُّها للمرءِ فما هي إلَّا متاعُ الحياة الدُّنيا، يتمتَّعُ بها الإنسانُ ثمَّ يُفارقُها أو تُفارِقُه هي[٢].

٣- يُستفاد مِن قوله: ﴿الدُّنْيَا﴾ أنَّ اللهَ قد أَدْنَى مرتبةَ هذه الأشياءِ؛ ليتنبَّهَ الإنسانُ أنَّها متاعُ الحياة الدُّنيا، فينظُرَ إليها نظرةَ جِدٍّ لا نظرةَ شَهوة، فإذا كان ذلك ينفَعُه في الآخِرةِ، فالنَّظرُ إليه طيِّبٌ ونافعٌ، ويكونُ مِن حَسَنة الدُّنيا والآخرة، أمَّا إذا نظَر إليه مجرَّدَ نظَرِ الشَّهوةِ، فإنَّه يُخشى عليه أنْ يُغلِّبَ جانبَ الشَّهوةِ على جانبِ الحقِّ[٣].

٤- في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ الآيةَ: تسليةٌ للفقراءِ الَّذين لا قُدرةَ لهم على هذه الشَّهواتِ، الَّتي يقدِرُ عليها الأغنياءُ، وتحذيرٌ للمغترِّين بها[٤].

٥- حُسن أسلوبِ التَّعليم والدَّعوة، وأنَّه يَنبغي للإنسانِ في مقامِ الدَّعوة أنْ يأتيَ بالألفاظ الَّتي تُوجِبُ الانتباهَ والتَّشويقَ؛ كما في قوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٠١)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص:١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٤).

٦- يُستفاد من قوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ التَّحذيرُ مِن مُخالفةِ أمرِه؛ لأنَّه متى علِم الإنسانُ أنَّ اللهَ بصيرٌ به، فسوف يردَعُ نفسَه عن مخالفة ربِّه؛ لأنَّه إذا خالَف ربَّه فاللهُ بصيرٌ به، وسوف يُجازيه بحسَب مخالَفتِه[١].

٧- ختَم اللهُ الآيةَ بقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾؛ لبيانِ أنَّه ليس كلُّ مَن ادَّعى التَّقوى يكون متَّقيًا، وإنَّما المتَّقي هو مَن يعلَمُ اللهُ منه التَّقوى، وفي ذلك تنبيهٌ وإيقاظٌ للنَّاس لمحاسبةِ نفوسِهم[٢].

٨- يدلُّ قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا...﴾ أنَّ مِن صفاتِ المتَّقين إعلانَهم الإيمانَ باللهِ، واعترافَهم بالعبوديَّة، وعدمَ إعجابِهم بأنفسِهم، واعترافَهم بتقصيرِهم في طلَبِ المغفرةِ من اللهِ[٣].

٩- قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ﴾ في كلِّ صفةٍ من صفاتِ المتَّقين المذكورة تتحقَّقُ سِمةٌ ذاتُ أهميةٍ في الحياة:

- فبالصَّبر يترفَّعُ المؤمنُ على الألَم، ويستعلي على الشَّكوى، وبه يثبُتُ على تكاليفِ الدَّعوة، وأداءِ تكاليف الحقِّ، وبه يُسلِمُ للهِ، ويستسلمُ لِما يُريدُ به من الأمرِ.

- وبالصِّدق يعتزُّ المؤمنُ بالحقِّ، ويترفَّعُ عن الضَّعف؛ فالكذبُ ضَعْفٌ عن كلمةِ الحقِّ؛ اتِّقاءً لضررٍ، أو اجتلابًا لمنفعةٍ.

- وبالقُنوت للهِ يؤدِّي المؤمنُ حقوقَ الألوهيَّة، ويقومُ بواجب العبوديَّةِ، ويحقِّقُ كرامةَ النَّفسِ بقنوتِه للهِ وحده.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٦).

١٠- في قوله: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ قُدِّم ذِكْرُ الصَّبر على ما بعده؛ لأنَّه كالشَّرط لها، وبدونه لا يتمُّ صِدقٌ، ولا قنوتٌ، ولا إنفاقٌ، ولا استغفارٌ في الأسحار[١].

١١- قولُه تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ فيه مشروعيَّةُ ختْمِ الأعمالِ الصَّالحاتِ بالاستغفارِ؛ فإنَّهم قاموا باللَّيلِ وخَتَموه بالاستغفارِ، وخَتَم اللهُ تعالى سورةَ المزَّمِّل- وهي سورةُ قيامِ اللَّيلِ- بقولِه تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠]، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا انصرَفَ من صلاتِه استغفرَ ثلاثًا[٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣] [البقرة: ١٩٨-١٩٩].

١٢- خُصَّص وقتَ السَّحَر بالذِّكر في قوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾؛ لأنَّ العبادةَ فيه أشدُّ إخلاصًا، وأشقُّ على أهلِ البداية؛ لطِيبِ النَّومِ في ذلك الوقتِ، وأروحُ لأهل النِّهايةِ؛ لصفاء النَّفسِ، وفراغِ القلبِ من الشَّواغلِ، ولدَلالتِه على اهتمامِ صاحبِه بأمرِ آخرتِه[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ يدلُّ على أمورٍ ثلاثةٍ مُرتَّبةٍ، أوَّلُها: أنَّ المرء يشتهي أنواعَ المشتَهَيات، وثانيها: أنَّه يُحبُّ شهوتَه لها، وثالثها: أنَّه يعتقدُ أنَّ تلك المحبَّةَ حَسَنةٌ وفضيلةٌ، ولَمَّا اجتمعت الدَّرجاتُ الثَّلاثةُ بلغتِ الغايةَ القُصوى في الشِّدَّةِ والقوَّة، ولا يكاد ينحَلُّ ذلك إلَّا بتوفيقٍ عظيمٍ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٧).
(٢) رواه مسلم (٥٩١).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٩٨) (١١/ ٢٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٥).

الله تعالى[١].

٢- قوَّة التَّعبير القُرْآني، وأنَّه أعلى أنواعِ الكلام في الكمالِ؛ إذ سلَّط الحبَّ على الشَّهواتِ، لا على ذاتِ الأشياء؛ لأنَّ هذه الأشياءَ حبُّها قد يكون محمودًا[٢].

٣- خصَّ اللهُ حُبَّ الذَّكَرِ بالذِّكْرِ دون الأُنثى في قوله: ﴿وَالْبَنِينَ﴾؛ لأنَّ التَّمتُّعَ بهم ظاهرٌ من حيث السُّرورُ والتَّكثُّرُ بهم، إلى غير ذلك[٣].

٤- التَّعبيرُ بـ﴿القَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ﴾ يُشعِر بأنَّ الكثرةَ هي مَظِنَّةُ الافتتانِ؛ لاشتغالِ القلبِ بالتَّمتُّعِ بها، واستغراقِ الوقت في تدبيرِها، حتى لا يكاد يَبقَى في قلبِ صاحبِها حاجةٌ إلى طلَبِ الحقِّ، ونُصرتِه في الدُّنيا، والاستعدادِ لِما أعدَّه الله للمتَّقين في الأُخرى[٤].

٥- في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ...﴾ قدَّم ما تعلُّقُ الشَّهوةِ به أقوى، وهو النِّساءُ، الَّتي فِتنتُهنَّ أعظمُ فِتَنِ الدُّنيا، ثمَّ ذكَر البنين المتولِّدين منهنَّ، وكلاهما مقصودٌ له لذاته، ثمَّ ذكر شهوةَ الأموال؛ لأنَّها تُقصَد لغيرها؛ فشهوتها شهوةُ الوسائل، وقدَّم أشرفَ أنواعها، وهو الذَّهب، ثمَّ الفضَّة بعده، ثمَّ ذكر الشَّهوةَ المتعلِّقةَ بالحيوان، الَّذي لا يُعاشَر عِشْرةَ النِّساءِ والأولاد؛ فالشَّهوةُ المتعلِّقةُ به دونَ الشَّهوةِ المتعلِّقة بها، وقدَّم أشرفَ هذا النَّوع، وهو الخيلُ؛ فإنَّها حصونُ القوم، ومعاقِلُهم، وعِزُّهم، وشرفُهم، ثمَّ ذكَر الأنعامَ وقدَّمها على الحرثِ؛ لأنَّ الجَمَالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٧).

بها والانتفاعَ أظهرُ وأكثرُ مِن الحرثِ، وأيضًا فصاحبُها أعزُّ مِن صاحبِ الحرثِ وأشرفُ، وهذا هو الواقعُ؛ فإن صاحب الحرث لا بدَّ له من نوعِ مذلَّةٍ، فجعَل الحرثَ في آخر المراتبِ؛ وَضْعًا له في موضعِه[١].

٦- قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: العِنديَّةُ هنا: تُفيدُ فضلًا عظيمًا؛ لأنَّها هي القُربُ مِن الله عزَّ وجلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٦]؛ فثواب المتَّقين عند اللهِ، والعِنديَّة تُفيد القُرْب، ولا أقربَ مِن شيء يكونُ سقفُه عرشَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ كالفِرْدَوسِ الأعلى؛ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[٢] [القمر: ٥٤-٥٥].

٧- إضافةُ لفظ (رب) إلى ضَميرِ المتَّقين في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ إشعارٌ بفضلِهم، وعنايةِ مَن ربَّاهم بهم، واهتمامِه بشأنهم[٣].

٨- في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾، قد أُلغِي ما يُقابل شهواتِ الدُّنيا في ذِكرِ نعيمِ الآخرةِ؛ لأنَّ لذَّةَ البنين، ولذَّة المالِ هنالك مفقودةٌ، للاستغناءِ عنها، وكذلك لذَّةُ الخيلِ والأنعامِ، فبَقِي ما يُقابل النِّساءَ والحَرْثَ، وهو الجنَّاتُ والأزواجُ؛ لأنَّ بهما تمامَ النَّعيم والتَّأنُّس- وقيل: نصَّ على أزواج مطهَّرة؛ ليُعرف الفرقُ بين نساءِ الدُّنيا ونساءِ الآخرة- وزِيدَ عليهما رِضوانُ الله، الَّذي حُرِمَه مَن جعَل حظَّه لذَّاتِ الدُّنيا، وأعرَض عن الآخرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم ١/ ٨٤).، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٥٠٥).

٩- عطف ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ على ما أعدَّ للَّذين اتَّقَوا عند اللهِ؛ لأنَّ رِضوانَه أعظمُ من ذلك النَّعيمِ المادِّيِّ؛ لأنَّ رضوانَ اللهِ تقريبٌ رُوحانيٌّ؛ قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1] [التوبة: ٧٢].

١٠- في قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: جوازُ التَّوسُّلِ بالإيمانِ؛ فالفاء هنا للسببيَّةِ، تدلُّ على أنَّ ما بعدَها مُسبَّبٌ عمَّا قبلها[2]، أي: بسببِ إيمانِنا فاغفِرْ لنا؛ لأنَّ الإيمانَ لا شكَّ أنَّه وسيلةٌ للمغفرةِ، وكلَّما قوِيَ الإيمانُ، قوِيَتْ أسبابُ المغفرة، وهذا من بابِ التَّوسُّلِ بالطَّاعةِ لقَبولِ الدُّعاء؛ فهم توسَّلوا إلى اللهِ برُبوبيَّتِه، للإخبارِ بحالِهم في الإيمانِ به، كأنَّهم يقولونَ: ربَّنا آمَنَّا، ولكنَّنا لم نصِلْ إلى الإيمانِ إلَّا برُبوبيَّتِك لنا، تلك الرُّبوبيَّة الخاصَّة المقتضيَة للعنايةِ التَّامَّةِ[3].

١١- في قوله: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ حصرٌ لمقاماتِ السَّالك على أَحسنِ ترتيبٍ؛ فإنَّ معاملتَه مع اللهِ تعالى إمَّا توسُّل، وإمَّا طلَبٌ، والتَّوسُّل إمَّا بالنَّفس، وهو منعُها عن الرَّذائلِ، وحبسُها على الفضائل، والصَّبرُ يَشمَلُهما، وإمَّا بالبدنِ، وهو إمَّا قوليٌّ، وهو الصِّدقُ، وإمَّا فِعْليٌّ، وهو القُنوتُ الَّذي هو ملازمةُ الطَّاعة، وإمَّا بالمالِ وهو الإنفاقُ في سُبلِ الخيرِ، وأمَّا الطَّلب فبالاستغفارِ؛ لأنَّ المغفرةَ أعظمُ المطالبِ، بل الجامعُ لها[4].

١٢- ختَم اللهُ هذه الأعمالَ العظيمة بذِكْرِ الاستغفارِ في الأسحارِ؛ لِمَا في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩).

الاستغفارِ من اعترافٍ بالعجزِ عن القيامِ بالواجب، وذلك هو العُمدةُ في الخَلاصِ[١].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...**﴾ **الآية** استئنافٌ، وفيه مبالغةٌ، حيث عبَّر عن الأعيانِ التي ذَكَرها بالشَّهوات؛ تَخسيسًا لها، ومبالغةً في كونها مشتهاةً، مَحروصًا على الاستمتاعِ بها؛ فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾، ثم جاء بالتفسير، ليقرِّرَ أوَّلًا في النفوس أنَّ المزيَّن لهم حبُّه ما هو إلَّا شهواتٌ لا غيرُ، ثم يُفسِّره بهذه الأجناس، فيكون أقوى لتخسيسها، وأدلَّ على ذمِّ مَن يَستعظمُها ويَتهالَك عليها، ويُرجِّح طلبَها على طلبِ ما عند اللَّه[٢].

٢- **قوله تعالى:** ﴿**وَالقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ**﴾: ﴿**المُقَنْطَرَةِ**﴾ مَبنيَّةٌ على وزن (مُفَنْعلة) أو (مُفَعْلَلة) من القِنطار، وهو للتأكيد، حيث اشتقُّوا منها وصفًا للتوكيد؛ فأُريد بها هنا المضاعفةُ المتكاثِرة؛ لأنَّ اشتقاقَ الوَصْف من اسمِ الشَّيءِ الموصوف إذا اشتهَر صاحبُ الاسم بصفةٍ، يُؤذِن ذلك الاشتقاقُ بمبالغةٍ في الحاصل به[٣].

٣- **قوله تعالى:** ﴿**ذَلِكَ**﴾ إشارةٌ بالبعيدِ إلى جميعِ ما تَقدَّم ذِكرُه من الشَّهوات المفسَّر بهذه الأعيان؛ تأكيدًا لتخسيسِه البعيدِ من إخلادِ ذوي الهِمم إليه؛ ليقطعَهم عن الدَّار الباقية، فأعاد اسمَ الإشارةِ على مُفرَدٍ مُذكَّر، على تقديرِ: ذلِكَ المذكور، فطَوى ذِكرَ هذه السَّبعةِ كلِّها، وكنَّى عنها بالمذكور؛ وذلك لاحتقارِها

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٢)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦١-٦٢)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٢).

بالنِّسبة لنعيم الآخرة[١]. وقيل: أفرَد كافَ الخِطاب في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾؛ لأنَّ الخطاب للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو لغير مُعيَّن، على أنَّ علامةَ المخاطَب الواحد هي الغالبُ في الاقترانِ بأسماء الإشارةِ لإرادة البُعْد، والبُعْد هنا بمعنى الرِّفعةِ والنَّفاسة[٢].

٤- **قوله:** ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ جمَعَ ضميرَ المخاطَب فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ ولم يقُل: (ذلك)؛ لأنَّ المخاطَبَ جميعُ النَّاس، وعظَّمه بأداةِ البُعد وميم الجمْع؛ لعَظمتِه عِندَهم، والزِّيادة في تَعظيم ما يُرشِدُ إليه، والمشار إليه ما سبَق مِن متاع الحياة الدُّنيا بأنواعِها السَّبعةِ، وأُشير إليها بلفظِ المفرَدِ المذكَّر مِن أجلِ طَيِّ ذِكره بشيءٍ واحد، كأنَّه قال: بخيرٍ مِن ذلكم المذكورِ، حتى لا يُشارَ إلى التفصيلِ فيه؛ لأنَّ الدُّنيا كلَّها في الواقعِ ينبغي أنْ يَزهَدَ فيها الإنسانُ، ولا يَحتسبَها شيئًا[٣].

٥- **قوله تعالى:** ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ خبرٌ فيه تحريضٌ على استبدالِ ما عند الله من اللَّذاتِ الحقيقيَّة الأبديَّة، بالشَّهواتِ الفانية[٤].

- وفيه تكريرُ الإسنادِ بجَعْلِ الجلالة ﴿واللهُ﴾ مبتدأً، وإسنادِ الجملة الظرفيَّة إليه؛ زيادةً في التأكيدِ والتفخيمِ، ولمزيدِ الاعتناءِ بالترغيبِ فيما عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ من النَّعيم المقيم، وللتزهيدِ في مَلاذِّ الدُّنيا وطيِّباتها الفانية[٥].

- وفي الآية من البَلاغة: مُراعاةُ النَّظير، حيث جمَع بين كلِّ أمْر وما يُناسِبُه، مع إلْغاء ذِكرِ التضادِّ، فجمَع سبحانه مُعظَمَ وسائلِ النَّعيم الآيِلَةِ بالمرءِ إلى

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٩-٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٣).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥).

الانهماكِ في الفِتنة، والانسياقِ مع دواعي النُّفوس الجَموح، وقد زُيِّنتْ للناس واستهوتْهم بالتعاجيبِ والمفاتِن؛ ابتلاءً لهم[١].

- وفيها مناسبةٌ حسنةٌ؛ حيث بدَأَ بتقديمِ النِّساءِ على البنينِ؛ للإشعارِ بعَراقتهنَّ في معنى الشَّهوة؛ إذ يَحصُل منهنَّ أتمُّ اللذَّات، وثَنَّى بالبَنين؛ للتكثُّرِ بهم، وأمَل قيامِهم مقامَهم من بعدهم، والتفاخُر والزِّينة[٢].

٦- **قوله تعالى:** ﴿**قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ**﴾ افتتَح الاستئنافَ بكلمة ﴿قُلْ﴾ للاهتمامِ بالمقولِ، وهمزةُ الاستفهام في ﴿أَؤُنَبِّئُكُمْ﴾؛ للتقريرِ والعرضِ؛ تشويقًا من نفوسِ المخاطَبين إلى تَلقِّي ما سيُقصُّ عليهم، أي: أَأُخبرُكم بما هو خيرٌ ممَّا فُصِّل من تلك المستلذَّاتِ المزيَّنة لكم[٣].

- وإبهامُ الخيرِ وتَنكيره في قوله: ﴿بِخَيْرٍ﴾؛ لتفخيمِ شأنِه والتشويقِ إليه[٤].

- وقال: ﴿أَؤُنَبِّئُكُمْ﴾ ولم يقُلْ: (أَأُخبركم)؛ لأنَّ النبأَ إنَّما يُقالُ في الأمور المهمَّة؛ كقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١- ٢]؛ ولهذا قيل للنَّبيِّ: (نبيٌّ)، ولم يُقَل: (مخبِر)؛ فهذا أمرٌ مُهِمٌّ يحتاجُ إلى الإنباء عنه[٥].

- وفيه: تفصيلٌ بعدَ إجمال؛ مبالغةً في الترغيبِ، وللتسليةِ عن زخارفِ الدُّنيا، وتقويةً لنفوس تاركها[٦].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٩٢).

- وفيه: التفاتٌ مِن الغَيبة ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ...﴾ إلى الخِطاب ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ﴾؛ للتشريفِ[١].

٧- **قوله:** ﴿**لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عند رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ**﴾ فيه تقديمُ الخبر ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ على المُبتدأِ ﴿جَنَّاتٌ﴾ لإفادةِ الحَصر؛ إذ تقديمُ ما حقُّه التأخيرُ يُفيدُ الحصرَ[٢].

٨- **قوله تعالى:** ﴿**ورِضْوَانٌ**﴾ (رِضوان) اسمُ مبالغةٍ في مَعنَى الرِّضا، والزِّيادةُ في المبنى؛ لبيانِ المبالَغةِ في المعنى، فكأنَّه قال: ورضوانٌ عظيمٌ من الله، لا يشُوبُه ولا يعقُبُه سخطٌ[٣].

وأظهَر اسمَ الجلالة في قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾، دون أنْ يقولَ: (ورضوان منه)، أي: من ربِّهم؛ لِمَا في اسمِ الجلالةِ مِن الإيماءِ إلى عظَمةِ ذلك الرِّضوانِ[٤].

٩- **قوله تعالى:** ﴿**الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا**﴾ فيه تأكيدُ الجُملةِ بـ(إنَّ)؛ لإظهارِ أنَّ إيمانهم ناشئٌ مِن وُفورِ الرَّغبة، وكمالِ النَّشاط[٥].

- وإظهارُ اسمِ الجلالة في قوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾؛ لقصدِ استقلالِ الجُملةِ لتكونَ كالمَثَلِ[٦].

- وفيه بيانُ الوعد، أي: إنَّه عليمٌ بالذين اتَّقوا، ومراتبِ تقواهم؛ فهو يُجازيهم[٧].

- وفيه مع الوعيدِ، تهديدٌ شديدٌ لِمَن تولَّى عن الإسلام، ووعْدٌ بالخيرِ لِمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٤).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٤).

أسلم؛ إذ معناه: إنَّ الله مُطَّلعٌ على أحوالِ عَبيدِه، فيُجازيهم بما تَقتضي حِكمتُه[١].

١٠- **قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾** فيه إسقاطُ أداة النِّداء في ﴿رَبَّنَا﴾؛ إشعارًا بما لهم من القُرب؛ لأنَّهم في حَضرةِ المراقبةِ[٢].

وفيه التأكيدُ بقوله: ﴿إِنَّنَا﴾ بإثباتِ النونِ؛ للمبالغةِ في التأكيدِ[٣].

١١- **قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾** فيه تفخيمٌ للموصوفِ بدخولِ الواو على الصِّفاتِ، مع أنَّ الموصوفَ واحد؛ لأنَّه إيذانٌ بأنَّ كلَّ صفةٍ مستقلَّةٌ بمدح الموصوف؛ فتوسيطُ الواوِ بينها؛ للدَّلالةِ على استقلالِ كلِّ واحدٍ منها، وكمالِهم فيها، أو لتغايُر الموصوفين بها[٤].

قولُه: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ أكملُ من قوله: (الَّذين يَصبِرون ويصدُقون)؛ لأنَّ قوله: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ هذا المعنى عادَتُهم وخُلُقُهم، وأنَّهم لا يَنفَكُّون عنها[٥]؛ فالاسمُ يدلُّ على الثُّبوتِ، والفِعلُ يدلُّ على التجدُّدِ والحدوثِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٠٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦٧).

(٦) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٢/ ٣٧٦).

الآية: (١٨)

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾: أي: يَلِي العَدْلَ بينَ خَلقِه، ويُراعيه ويَحفظُه؛ يُقال: قامَ بهذا الأمْر، أي: أجْراه على الاستقامةِ في جميعِ الأمور. والقِسْطُ العَدْلُ، مِن أقْسَط فهو مُقْسِط[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾

﴿قَائِمًا﴾: منصوبٌ على الحالِ، وهي حالٌ مؤكِّدة مِن الضمير ﴿هُوَ﴾ والعاملُ في الحالِ معنى الجُملة، أي: لا إلهَ إلَّا هو قائمًا بالقِسط، كما يُقال: لا إلهَ إلَّا هو وحْدَه، وقيل: هي حالٌ من اسمِ الجلالةِ ﴿اللهُ﴾ والعاملُ في الحالِ ﴿شَهِدَ﴾، أي: شهِد اللهُ قائمًا بالقسط، وكِلا المعنيين صحيحٌ؛ فعلى الوجه الأوَّل يُعتَبر القِسط في الإلهيَّة؛ فيكون المعنى: «لا إله إلا هو قائمًا بالقسط»، أي: هو وحْدَه الإله قائمًا بالقِسط، كما يُقال: أشهد أنْ لا إلهَ إلَّا الله إلهًا واحدًا أحدًا صمدًا، وهذا الوجهُ أرجحُ؛ فإنَّه يتضمَّن أنَّ الملائكةَ وأُولي العِلمِ يَشهدون له مع أنَّه لا إلهَ إلَّا هو، وأنَّه قائمٌ بالقسط، والوجهُ الآخَرُ لا يدلُّ على هذا. وفائدةُ الفصْل بين صاحِبِ الحالِ وبينها بالمعطوفِ- حيث جاء مُتوسِّطًا بين صاحبِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠، ٦٩٠).

الحال وبينها-: أنَّه لو قال: (شهد الله أنَّه لا إله إلَّا هو قائمًا بالقسط والملائكة وأولو العلم)؛ لأَوْهمَ عطْفَ الملائكةِ وأُولي العِلم على الضَّميرِ في قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، وليس المعنى على ذلِك قطعًا، وإنَّما المعنى على خِلافِه، وهو أنَّ قيامَه بالقسطِ مُختصٌّ به، كما أنَّه مختصٌّ بالإلهيَّة؛ فهو وحْدَه الإلهُ المعبودُ المستحقُّ العبادة، وهو وحْدَه المُجازِي المثيبُ المعاقِبُ بالعدْل. وقيل غيرُ ذلك في توجيهِ نَصْب ﴿قَائِمًا﴾[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

بعد أنْ ذكَر اللهُ ثناءَه على المؤمنين، أتْبَعَ ذلك ببيانِ علاماتِ الإيمان الواضحة، ودلائلِه النَّاصعة، وجاء ليُقرِّر التَّوحيدَ بأعظمِ الطَّرائقِ الموجِبة له، وهي شَهادتُه سبحانه؛ فشهِد أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو، وأتْبَع شَهادتَه بذِكْرِ شَهادةِ ملائكتِه وأُولي العِلم مِن عباده؛ فهو قائمٌ بالعدلِ في جميعِ الأحوال، متَّصِفٌ بالقِسط في كلِّ الأفعال.

ثمَّ أكَّدَ سبحانه وتعالى تفرُّدَه باستحقاقِ العبادة، وتوحُّدَه بالألوهيَّةِ، وبيَّنَ أنَّه عزيزٌ قويٌّ مَتِينٌ، لا يُغلَبُ، ولا يعجِزُ عن شيءٍ أراده، وأنَّه حكيمٌ في كلِّ أقوالِه وأفعالِه.

تَفسيرُ الآية:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٥٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٤٧)، و(٣/ ٢٤٠- ٢٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٧٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٧٥- ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا مدَح اللهُ عزَّ وجلَّ المؤمنين وأثْنى عليهم بقولِه: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٦]، أردَفه بأنْ بيَّنَ أنَّ دلائلَ الإيمانِ ظاهرةٌ جليَّةٌ(١)، فقال:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: عَلِمَ اللهُ تعالى أنَّه لا معبودَ حقٌّ إلَّا هو، وتكلَّمَ بذلك، وأخبر به خلْقَه، وأَمَرَهم وأَلْزَمهم به(٢).

﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾.

أي: وشهِدَتِ الملائكةُ أيضًا بذلك وأصحابُ العِلم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٨).
عبارات السَّلف في ﴿شَهِدَ﴾ تدور على الحُكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار، قال مجاهد: (حَكَم، وقضى، وقال الزجَّاج: بيَّن، وقالت طائفة: أعْلَم وأخبر، وهذه الأقوال كلها حقٌّ لا تَنافي بينها؛ فإنَّ الشهادةَ تتضمَّن كلامَ الشاهد وخبره، وقوله، وتتضمَّن إعلامَه، وإخبارَه وبيانه، فلها أربعُ مراتب، فأوَّل مراتبها: عِلم ومعرفة واعتقاد لصحَّة المشهود به وثبوته، وثانيها: تَكلُّمه بذلك ونُطقه به، وإنْ لم يُعلم به غيرَه، بل يتكلَّم به مع نفْسه ويذكرها، وينطق بها أو يكتبها، وثالثها: أنْ يُعلم غيرَه بما شهِد به ويُخبره به ويُبيِّنه له، ورابعها: أنْ يُلزمَه بمضمونِها ويأمرَه به؛ فشهادةُ الله سبحانه لنفْسِه بالوحدانيَّة والقيام بالقِسط: تَضمَّنتْ هذه المراتبَ الأربعة: عِلم الله سبحانه بذلك، وتَكلُّمه به، وإعلامَه، وإخبارَه لخلقه به، وأمْرَهم وإلزامَهم به، يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٣/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤).
فإن قيل: ما المرادُ بأُولي العِلم الذين عظَّمهم الله تعالى هذا التعظيم؛ حيث جمَعَهم معه ومع الملائكة في الشَّهادة على وحدانيَّته؟ أُجيب: بأنَّ المرادَ بهم أنهم الذين يُثبتون وحدانيته بالحُجج الساطعة، والبراهين القاطعة، من الأنبياء والمؤمنين. ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٠٣)، وينظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٩).

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾.

أي: حالَ كونِه قائمًا بالعَدْلِ، وهو في جميعِ الأحوال كذلك، لم يزَلْ متَّصِفًا بالقِسطِ في أفعالِه وتدبيرِه بين عِبادِه؛ فهو على صراطٍ مستقيمٍ فيما أمَر به ونهى عنه، وفيما خلَقه وقدَّرَه[١]، ثم أعاد تقريرَ توحيدِه، فقال تعالى:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا يستحقُّ العبادةَ غيرُه سبحانه، فهو الإلهُ الحقُّ المعبودُ[٢].

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: القويُّ المتينُ، الَّذي لا يُغلَبُ، ولا يَمتنعُ عليه شيءٌ أراده، ولا يَنتصِرُ منه أحدٌ، أو يَنالُ منه، الحَكيمُ في أقوالِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والحَكيمُ يتضمَّنُ حُكْمَه وعِلْمَه وحِكمتَه فيما يقولُه ويفعلُه، فإذا أمَر بأمرٍ كان حَسَنًا، وإذا أخبرَ بخبَرٍ كان صِدقًا، وإذا أرادَ خَلْقَ شيءٍ كان صوابًا؛ فهو حكيمٌ في إراداتِه وأفعالِه وأقوالِه[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- شَهادةُ اللهِ لنفسِه بانفرادِه بالألوهيَّةِ قد تكونُ قوليَّةً، كما في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقد تكون فعليَّةً فيما يُظهِرُه اللهُ مِن آياته؛ فكلُّ الكائناتِ تشهَدُ لله عزَّ وجلَّ بالوحدانيَّةِ بلسانِ الحال[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٨).

٢- الشَّهادة لا تكونُ إلَّا عن عِلمٍ يقينيٍّ يكونُ بمنزلة المشاهَدة البصريَّةِ، وفي ذلك دليلٌ على أنَّ مَن لم يصِلْ في علمِ التَّوحيد إلى هذه الحالةِ، فليس مِن أُولي العِلم[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيه أنَّه لا يُشترَطُ في الشَّهادةِ لفظُ (أَشْهَد)؛ فمُجرَّد إخبارِه عن نفْسِه إقرارٌ[٢].

٤- في قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾: جعَل اللهُ الملائكةَ في المرتبةِ الأُولى في الشَّهادةِ بالتَّوحيدِ بعدَه سبحانه؛ لبيان فضيلتِهم، ولأنَّهم الملأُ الأعلى، وعِلمُهم كلُّه ضروريٌّ، بخلاف البشَر؛ فإنَّ عِلمَهم ضروريٌّ واكتسابيٌّ[٣].

٥- تأكيدُ الشَّيء المهمِّ، وإن كان المخبِرُ به من أهل الصِّدق؛ حيث صدَّر اللهُ تعالى وحدانيَّته بالشَّهادةِ، وبيَّن أنَّ هذه الشَّهادةَ ليست له وحده، بل له، وللملائكةِ، ولأُولي العِلم[٤].

٦- في قوله: ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ دليلٌ على شرَفِ العِلم و أهله من وجوهٍ، منها:

- تخصيصُ اللهِ لهم بالشَّهادةِ على أَعظمِ مشهودٍ عليه.
- قرَنَ اللهُ شَهادتَهم بشَهادتِه وشَهادةِ ملائكتِه.
- أضافَهم اللهُ إلى العِلم؛ فهم القائمونَ به، المتَّصفون بصِفَتِه.
- جعَلهم اللهُ شُهداءَ وحُجَّةً على النَّاس، وألزَم النَّاسَ العملَ بما شهِدوا به، فكانوا هم السَّببَ في ذلك، فيكونُ كلُّ مَن عمِل بذلك نالهم مِن أجْرِه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٥).
(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن قيم (٣/ ٤٣١-٤٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٢٢).

- أنَّ إشهادَه لهم يتضمَّنُ تزكيتَهم وتعديلَهم[١].

٧- لم يَذكُرِ اللهُ سبحانه شهادةَ رُسلِه مع الملائكة، فيقول: شهِدَ اللهُ أنَّه لا إلهَ إلَّا هو والملائكةُ والرُّسل، وهم أعظمُ شهادةً مِن أُولي العِلم؛ لعِدَّة فوائد:

منها: أنَّ أُولي العِلم أعمُّ من الرُّسل والأنبياء، فيَدخُلون هم وأتباعُهم.

ومنها: أنَّ في ذِكر أُولي العلم في هذه الشهادة، وتعليقِها بهم: ما يدلُّ على أنَّها من مُوجِبات العِلم ومُقتضياتِه، وأنَّ مَن كان من أُولي العِلم فإنَّه يَشهدُ بهذه الشَّهادة... ففي هذا بيانُ أنَّ مَن لم يَشهَدْ له الله سبحانه بهذه الشَّهادة فهو من أعظمِ الجُهَّال، وإنْ عَلِم من أمور الدنيا ما لم يَعلَمْه غيرُه؛ فهو من أُولي الجَهل، لا مِن أُولي العِلم، وإنْ وسَّع القولَ وأكْثَر الجِدال.

ومنها: الشَّهادة من الله سبحانه لأهل هذه الشهادة أنهم أولو العلم[٢].

٨- قوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ «القِسْط»: هو العَدْلُ، فشهِد الله سبحانه: أنَّه قائمٌ بالعدلِ في توحيده، وبالوحدانيَّةِ في عَدْله، والتَّوحيد والعَدْل هما جِماعُ صفات الكمال؛ فإنَّ التَّوحيد يتضمَّنُ تفرُّدَه سبحانه بالكمالِ والجلالِ والمجد والتَّعظيم، الَّذي لا ينبغي لأحدٍ سواه، والعدل يتضمَّنُ وقوعَ أفعاله كلِّها على السَّداد والصَّواب، وموافقة الحِكمة[٣].

٩- ختَم بقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ ليكونَ دليلًا على قِسطِه؛ إذ لا يَصِحُّ أبدًا لذي العزَّةِ الكاملة والحِكمة الشَّاملة أنْ يتصرَّفَ بجَوْرٍ، وليكونَ دليلًا على وحدانيَّتِه؛ لأنَّه لا يصحُّ التفرُّدُ بدون الوصفينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيِّم (١/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٩٢).

١٠- تَضمَّنَتْ هذه الآيةُ وهذه الشَّهادةُ: الدَّلالةَ على وَحدانيَّتِه المنافيةِ للشِّركِ، وعلى عَدْلِه المنافي للظُّلم، وعِزَّتِه المنافيةِ للعجز، وحِكمتِه المنافية للجهلِ والعيبِ؛ ففيها الشَّهادةُ له بالتَّوحيد، والعَدْل، والقُدرة والعِلم والحِكمة؛ ولهذا كانتْ أعظمَ شَهادةٍ[١].

بَلاغَةُ الآية:

١- ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

- قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ... لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيه تَكرار؛ للتأكيدِ، ومزيدِ الاعتناءِ بمعرفةِ أدلَّة التوحيد، والحُكمِ به بعدَ إقامة الحُجَّة، وليبنيَ عليه قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيُعلم أنَّه الموصوفُ بهما، ولئلَّا يَسبِقَ بذِكْرِ العزيزِ الحكيمِ إلى قلْبِ السَّامع تمثيلٌ؛ إذ قد يُوصَفُ بهما المخلوقُ، أو يكون التَّكرارُ من باب تَكرارِ ما صُدِّر الكلامُ به إذا طال عَهدُه[٢].

- والآية استئنافٌ، وتمهيدٌ لقولِه بعدها: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]؛ ذلك أنَّ أساسَ الإسلامِ هو توحيدُ الله، وإعلانُ هذا التوحيدِ، وتَخليصُه من شوائبِ الإشراكِ[٣].

- وفيه: تعريضٌ بالمشركين وبالنَّصارى واليهود، وإنْ تفاوتوا في مراتبِ الإشراك[٤].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٣/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٥- ٣٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٠-١٧١)، ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٩٥-٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- في قولِه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ أنَّ قولَه: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، مفعولُ ﴿شَهِدَ﴾، وفصَلَ بين المعطوفِ عليه ﴿اللهُ﴾ والمعطوفِ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾؛ ليدُلَّ على الاعتناءِ بذِكْر المفعولِ، وليدلَّ على تَفاوُتِ درجةِ المتعاطفَينِ، بحيث لا يُعطفانِ مُتجاورينِ[1].

- وفي الآية ردُّ العَجُزِ على الصَّدر؛ فقد ردَّ ﴿العَزِيز﴾ إلى تفرُّده بالوحدانيَّة التي تَقتضي العِزَّة، وردَّ ﴿الحَكِيم﴾ إلى العدلِ الذي هو القِسطُ؛ فالحكمةُ تلائمُ القيامَ بالقسطِ، فأتى بهما (العزيز الحكيم)؛ لتقريرِ الأمرين (الوحدانية والقيام بالقسط) على ترتيبِ ذكرِهما، وأكَّد ما افتُتحت به السُّورةُ من قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٧٤).

الآيتان (١٩ - ٢٠)

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿الدِّينَ﴾: ما يَدين به المرءُ، والطَّاعةُ، والعادةُ، وأصله: الانقيادُ والذُّلُّ[١].

﴿الْأُمِّيِّينَ﴾: أي: العرَب، جمْع أُمِّيٍّ، وهو الَّذي لا يَكتُب ولا يَقرأ؛ نِسبةً إلى الأُمِّ؛ لأنَّ الكِتابَ كان في الرِّجال دونَ النِّساء، فنُسِبَ مَن لا يكتُب ولا يَخطُّ من الرِّجال إلى أُمِّه في جَهلِه بالكتابةِ دونَ أبيه، أو مَنْسُوبٌ إلى الأُمَّة الأُميَّة، الَّتي هِي على أَصْلِ وِلاداتِ أُمَّهاتها، لم تتعلَّم الكتابةَ ولا قِراءتَها، والأُميَّة: الغَفلةُ والجَهالةُ وقِلَّةُ المعرِفة، وأصْل (أمم): الأَصْلُ والمرجِع[٢].

﴿تَوَلَّوْا﴾: أعرَضوا؛ فالفِعل (ولي)، إذا عُدِّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا- كما هنا- اقتَضى معنى الإعراضِ والتَّركِ، وإذا عُدِّي بنَفْسه اقتَضَى معنى الوِلاية والقُرْب[٣].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ طبيعةَ الدِّين الَّذي يجب أنْ يُدانَ ويُتعبَّدَ له به،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥٣- ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٨، ٣٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧ ٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥١).

وهو دِينُ الإسلام؛ فهو الدِّينُ الَّذي لا يَقبَلُ غيرَه، ولا يَرتضي سِواه.

ثم بَيَّن سبحانه وتعالى أنَّ اختلافَ الَّذينَ أُوتُوا الكِتابَ إنَّما حصَل بعد إقامةِ الحُجَّةِ عليهم من إرسال الرُّسلِ، وإنزالِ الكتُب، وكان الحاملُ لهم على الاختلافِ والتَّفرُّقِ هو ما جرى فيهم مِن بَغيٍ ومجاوزةٍ للحدِّ في العُدوان والظُّلم.

ثمَّ عقَّب اللهُ تبارَك وتعالَى بذِكْر جزاءِ مَن يَكفُرُ بآياتِ الله، وأنَّه سيُحاسبُه على أفعالِه الَّتي أحصاها عليه؛ فهو سريعُ الحسابِ والإحصاءِ.

ثمَّ وجَّه اللهُ خِطابَه لرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّهم إنْ جادَلوك- يا محمَّدُ- بالباطل، وخاصَموك فيما جاءَك من الحقِّ- فأَخبِرْهم أنَّك أخلَصْتَ العملَ لله وحده، وأفرَدْتَ العبادةَ له، أنت ومَن اتَّبَعك على دِينِك، وأمَرَه أنْ يقولَ للَّذين أُوتوا الكتابَ والأُمِّيِّين ممَّن لا كتابَ له مِن المُشركينَ: هل أَسلمتم للهِ وأفرَدْتُموه بالتَّوحيد؟! فإنْ أسلَموا بمِثْل إسلامِكم، واتَّبَعوا دِينكم، وانقادوا لله، وأذعَنوا له- فقد أصابوا الهُدى، ووُفِّقوا لسبيل الحقِّ، وإنْ أعرَضوا عمَّا تَدْعوهم إليه، فليس عليك إلَّا البلاغُ، واللهُ بصيرٌ بجميعِ العباد، عالِمٌ بمَن يَهتدي منهم، ومَن يَضِلُّ عن سواء السَّبيلِ، وإليه مرجعُهم، وعليه حِسابُهم.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قرَّر اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّه الإلهُ الحقُّ المعبود، بَيَّن العبادةَ والدِّينَ الَّذي يتعيَّنُ أنْ يُعبَدَ به ويُدانَ له، وهو الإسلامُ[1]، فقال:

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤ ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٦).

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾.

أي: إنَّ الدِّينَ المقبولَ عند اللهِ، الَّذي لا دِينَ سواه، هو الإسلام[1]؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والإسلامُ هو الانقيادُ لله وحده، ظاهرًا وباطنًا، بما شرَعه على ألْسنةِ رُسله، إلى أنْ خُتِموا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فجميعُ الطُّرقِ مسدودةٌ إلَّا مِن جِهته[2].

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

أي: اختلَف الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ بعدَما قامتْ عليهم الحُجَّة؛ بإرسالِ الرُّسلِ إليهم، وإنزال الكتُب عليهم، وعِلمِهم بالحقِّ، وحَمَلَهم على ذلك مجاوزتُهم

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦٤).
وحمَل بعضُ المفسِّرين الإسلام هنا على معناه الخاصِّ، وهو التعبُّد لله بشرعِ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ. وممَّن اختار ذلك: ابن عاشور في ((تفسيره)) (٣/ ١٨٩)، وابن عثيمين في ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٢٣).

(٢) قال ابنُ تيميَّة: (الإسلامُ هو الاستسلامُ لله وحدَه، فهو يَجمعُ معنيين: الانقياد والاستسلام، والثاني: إخلاص ذلك لله، كما قال تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ أي خالصًا له، ليس لأحدٍ فيه شيء. وإنَّه يُستعمل لازمًا ومتعديًا، فالأول كقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦]، وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ﴾ [آل عمران: ٨٣- ٨٥]، وهو هذا الإسلام الذي هو الاستسلام لربِّ العالمين.
وقد يُستعمل متعديًا في مثل قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، وفي قولِه: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، فهنا لَمَّا كان مُقيَّدًا بإسلام الوجه قرَن به الإحسان؛ لأنَّ إسلامَ الوجه له هو يتضمَّن إخلاصَ القصد له، فلا بدَّ مع ذلك من الإحسان؛ ليكون عملُه صالحًا خالصًا لله)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٠).

الحدَّ بالعدوانِ والظُّلم، وبالتَّفريط وتضييعِ الحقِّ[١].

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أي: ومَن يكفرْ بحُجَج اللهِ وما أنزَل في كتابِه، فإنَّ اللهَ سيُجازيه ويُحاسبه على ذلك؛ فإنَّه يُحصي أعمالَ العبادِ بسرعةٍ، دون الحاجةِ إلى عَقدِ أصابعَ، أو استخدامِ أداةٍ، وبلا حاجةٍ إلى فِكرٍ أو رَوِيَّة، كما يَفعَلُ الخَلقُ، وهو سريعُ المحاسَبة للخَلْقِ يومَ القيامة دون أنْ يَظلِمَ أحَدًا شيئًا، ودون الحاجةِ إلى تذكُّرٍ أو تأمُّلٍ، فيُحاسبُهم على كثرتِهم في وقتٍ وجيزٍ جدًّا، وهو سَريعُ المجازاةِ لعباده، كما أنَّ حسابَه قريبٌ؛ لسرعةِ انقضاءِ هذه الحياةِ الدُّنيا[٢].

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)﴾.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾.

أي: فإنْ جادَلوك وخاصَموك بالباطل، فقُلْ- يا محمَّدُ-: أخلصتُ عملي وعبادتي للهِ وحْدَه لا شريكَ له، أنا ومَن على دِيني، فلا نُوجِّهُ وُجوهَنا إلى غيره[٣].

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾.

أي: وقلْ- يا محمَّدُ- للَّذين أوتوا الكِتابَ مِن اليهودِ والنَّصارى[٤] والأُمِّيِّين الَّذين لا كتابَ لهم مِن مُشرِكي العربِ: أأفرَدْتُم التَّوحيدَ لله وأخلَصْتم له

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ١٧٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٢).

(٤) قال ابن عطية: (والذين أُوتُوا الْكِتابَ في هذا الموضع يَجمع اليهود والنصارى باتفاق) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٤).

العبادةَ؟ والمعنى: أسلِموا للهِ تعالى، ووحِّدوه، وأَخلِصوا له[١].

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾.

أي: فإنِ انقادُوا واستسلَموا للهِ ظاهرًا وباطنًا، فقدِ اهتدَوْا هدايةَ توفيقٍ، وأصابوا سبيلَ الحقِّ[٢].

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾.

أي: وإنْ أَدبَروا مُعرِضين عمَّا تَدْعوهم إليه من الإسلام، وإخلاصِ التَّوحيد للهِ، ولم يَنقادوا بظَواهرِهم ولا ببَواطنِهم، فليس عليك إلَّا تبليغُ رسالةِ ربِّك، وبه وقَعَ أَجرُك على ربِّك، وقامتْ عليهم الحُجَّة[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٣)، و((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٥).

فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿فإنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [آل عمران: ٢٠] عقيب الاستفهام؟ وهل يجوز على هذا في الكلام أن يُقال لرجل: هل تقوم؟ فإنْ تقُم أكرمْك؟ قيل: ذلك جائزٌ إذا كان الكلام مرادًا به الأمر، وإنْ خرج مخرج الاستفهام، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، يعني: انتهُوا، وكما قال جلَّ ثناؤه مخبِرًا عن الحواريِّين أنهم قالوا لعيسى: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢]، وإنما هو مسألةٌ، كما يقول الرجُل: هل أنت كافٍ عنا؟ بمعنى: اكففْ عنَّا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٧).

وأمَّا المعنى الآخَر فهو أنَّ المراد أنَّه يُنادي عليهم بالبلاهة، يعني: أأسلمتُم بعد هذا البيان وهذا الوضوح، أم أنَّكم بُلهاءُ لم تَفقهوا حتى الآن، ولم تُسلموا مع ظهور المعنى ووضوحِه؛ تبكِيتًا لهم وتصغِيرًا لشأنهم في الإنصافِ وقَبول الحقِّ. يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (١/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٣).

وقال ابنُ عطيَّة: (قال الزجاج: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ تهديد، وهذا حسنٌ؛ لأنَّ المعنى أأسلمتُم أم لا؟) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٤).

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أي: مطَّلِع على جميعِ الخَلْق أتمَّ الاطِّلاعِ، ويعلمُ أحوالهم؛ مَن يُطِيع منهم، ومَن يُعرِض، ويتولَّى جزاءَهم[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- على المسلمِ ألَّا يَنظُرَ إلى الآية الَّتي ذَكرتِ الخلافَ الَّذي وقع للَّذين أوتوا الكتابَ كحدَثٍ تاريخيٍّ، بل يتلوها متذكِّرًا أنَّها أُنزلتْ تحذيرًا للمسلمين من الخلافِ في الدِّين، والتَّفرُّقِ إلى شِيَعٍ اتِّباعًا لسَنَنِ مَن قبْلَهم[٢].

٢- في قوله ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه عند مخالفةِ الإنسان غيرَه يَنبغي ألَّا يتطاولَ عليه، وألَّا يكون مقصِدُه بسَوْق الأدلَّةِ والحُجَج المؤيِّدةِ لقولِه، البَغيَ على غيره[٣].

٣- يُستفادُ من قوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أنَّه إذا عَلِم الإنسانُ أنَّ مَن يُحاجُّه إنَّما يَقصِدُ نصْرَ قولِه ولو كان باطلًا، فله الإعراضُ عنه؛ لأنَّه ليس أهلًا للمحاجَّةِ أو الخُصومةِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الآيةَ: تلميحٌ إلى أنَّ هذا الاختلافَ والبغيَ كفرٌ؛ لِمَا أفْضَى إليه مِن نقْضِ قواعدِ أديانِهم، ونُكرانِ دِين الإسلام؛ ولذلك ذيَّله بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٩٩).

٢- في قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ التعبيرُ عنهم بقوله: ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ زيادةُ تَقبيحٍ لهم؛ فإنَّ الاختلافَ بعدَ إتيان الكتابِ أقبحُ، وقوله: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ زيادةٌ أخرى؛ فإنَّ الاختلافَ بعد العِلم أزيدُ في القَباحةِ، وقوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ زيادةٌ ثالثة؛ لأنَّه في حيِّزِ الحَصْر، فيكون أزيدَ في القُبح[١].

٣- الوجهُ أشرفُ الأعضاءِ، ومَجمَعُ الحواسِّ، وبه يكونُ الانقيادُ وعَدَمُه؛ لهذا كان أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه في حالِ سُجُودِه؛ لوَضعِه أشرفَ أعضائِه على مَوطِئِ الأقدامِ، وأيضًا فيه معنى التوجُّهِ والقَصدِ؛ لذا ذَكَرَه اللهُ تعالى في قوله: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾[٢].

٤- في قوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ دليلٌ على أنَّه ليس قولُ أحدٍ من أهل العِلم حُجَّةً على الآخَر؛ فهم كلُّهم تابِعون لا متبوعون[٣].

٥- في إسنادِ الأفعالِ إلى فاعليها ردٌّ على الجَبْريَّة، فإنَّ اللهَ تبارَك وتعالَى قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وقال: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، وكلُّ ذلك يُفيد أنَّ للإنسانِ إرادةً وفعلًا اختياريًّا[٤].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾: عبَّر بـ﴿إِنَّ﴾ بالكسرِ؛ لأنَّ الكلامَ الذي قبلَه قد تمَّ؛ فالجملةُ مُستأنَفة مُقرِّرةٌ مؤكِّدةٌ لمضمونِ ما قَبلَها ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾، وهذا أبلغُ في التقريرِ، وأدخَلُ في المدحِ

(١) يُنظر: ((فتح البيان)) لصديق حسن خان (٢/ ٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((فتح البيان)) لصديق حسن خان (٢/ ٢٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٠).

والثناءِ ،وفائدة التوكيد: بيانُ الدِّين المَرْضيِّ لله تعالى، وأنَّه ليس سوى الإسلامِ الذي هو التَّوحيدُ، والتدرُّعُ بالشريعةِ الشَّريفةِ التي جاءَ بها محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

- وفيه حَصْرٌ بتعريفِ جُزئَي الجملة (الدِّين- الإسلام)، وفيه أيضًا توكيدُ الكلام بـ(إنَّ)، تحقيقًا لِمَا تضمَّنه من حَصْر حقيقة الدِّين عند الله في الإسلام: أي الدِّين الكامل[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا...﴾: فيه وصلٌ- أي: عطفٌ بالواو- وهو مناسبٌ؛ لكونِ الكلامِ المتقدِّم مُشتملًا على تعريضٍ باليهود والنصارى، الذين كذَّبوا بالقرآن، وإبطالٍ لقولِ وفْد نجران، فناسَب أنْ يُنوَّه بعدَ ذلك بالإسلامِ الذي جاءَ به القرآن؛ ولذلك جاءَ العطفُ على قولِه: ﴿إِنَّ الدِّينَ...﴾[٣].

- وحُذِفَ متعلِّقُ الاختلاف في قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾؛ ليَشملَ كلَّ اختلافٍ منهم: مِن مخالفةِ بعضِهم بعضًا في الدِّين الواحدِ، ومخالفةِ أهل كلِّ دِينٍ لأهلِ الدِّين الآخَر، ومخالفةِ جميعِهم للمسلمين في صحَّة الدِّين. وحُذِفَ متعلِّقُ العِلمِ في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ لذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٨، ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٩٨).

٣- قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعدِ مَا جَاءَهُمُ العِلمُ﴾: فيه إطلاقُ اسمِ السَّبب على المسبِّب، حيث عبَّر بالعِلم عن التوراةِ والإنجيل، أو النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم- على الخِلاف[١].

٤- قوله تعالى: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾: فيه إيماءٌ إلى أنَّ البغيَ دائرٌ شائعٌ فيهم، وكلُّ فِرقةٍ منهم تُجاذِب طرَفًا منه[٢]؛ فـ﴿بَيْنَهُمْ﴾ حال لبغيًا، أي: بغيًا مُتفشِّيًا بينهم، بأنْ بغَى كلُّ فريقٍ على الآخَر[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾: خبرٌ؛ غرضُه الوعيدُ الشَّديد، والتهديدُ لِمَن كفَر منهم بأنَّه سيصيرُ إلى اللهِ سريعًا فيَجزيه على كُفره؛ وأيضًا ﴿سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ أي: سريعُ الإحصاءِ مع كثرةِ الأعمال، وهو سريعُ المحاسَبة للخَلْق يومَ القيامة، على كثرتِهم، وهو سبحانه سريعُ المجازاة لعبادِه[٤]، مع ما فيه مِن تأكيدِ الخبر بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة.

- قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، حيثُ لمْ يَقُلْ: (فإنَّه)؛ للتهويلِ عليهم، والتَّهديدِ لهم[٥].

٦- قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾:

- في قوله تعالى: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ الاستفهامُ في معرِض التَّقرير، أو التوبيخِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٢٧).

(٥) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (١/ ٣٧٤).

والتقريعِ، وفيه: الإشارةُ إلى كونِ المخاطَب بليدًا قليلَ الفَهم[١]. أو الاستفهام للتحضيضِ والاستبطاءِ، وجِيء بصِيغة الماضي، ولم يقُل: (أَتُسلِمون) على خِلافِ مُقتضَى الظاهر؛ للتنبيهِ على أنه يرجو تحقُّقَ إسلامِهم، حتى يكونَ كالحاصِلِ في الماضي، أو يكون المقصودُ مِن الاستفهام الأمْرَ؛ فهو بمنزلتِه في طَلَبِ الفعلِ والاستدعاءِ إليه، إلَّا أنَّ فيه معنًى زائدًا، وهو التَّعبيرُ بكونِ المخاطَبِ مُعانِدًا بعيدًا عن الإنصاف[٢].

- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فقَدِ اهْتَدَوْا﴾: عبَّر بصيغةِ الماضي المصحوبِ بـ(قَد) الدالَّة على التحقيقِ؛ مُبالغةً في الإخبارِ بوقوع الهُدى[٣]، وللتنبيهِ على أنَّه يرجو تحقُّقَ إسلامهم، حتى يكونَ كالحاصلِ في الماضي[٤].

- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: في صيغة (افتَعلوا) تلويحٌ بأنَّ الأنفُسَ مائلةٌ إلى الضلال، زائغةٌ عن طريقِ الكمال؛ فلا يَهمَّنك أمرُهم؛ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ﴾، وفي بِنية التفعُّل إيماءٌ إلى أنَّ طُرُقَ الهدى بعد البيانِ تأخُذ محاسنُها بمجامعِ القلوب، وأنَّ الصادفَ عنها بعدَ ذلك قد قهَر ظاهرَ عقلِه، وقويمَ فِطرتِه الأُولى برَجاسةِ نفْسه، واعوجاجِ طَبْعِه[٥].

- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ﴾: فيه قصرٌ بـ(إنَّما)، وهو مِن القصر الإضافيِّ، والتقديرُ فيه: فإنَّما عليك البلاغُ فقط، أمَّا الهدايةُ فليستْ عليك،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٩٧).

وإنَّما هي علينا نحن[١].

- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾: تذييلٌ فيه وعدٌ ووعيد[٢].

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩).

الآيتان (٢١ - ٢٢)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَبِطَتْ﴾: بطَلَتْ، وأصلُ الحبْط: هو أنْ تُكثِر الدَّابَّةُ أكلًا حتَّى يَنتفخَ بطنُها[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تبارَك وتعالَى عن هؤلاء الَّذين كفَروا بآياتِه، ولم يَكتَفُوا بذلك، بل أَمعَنوا في طُغيانهم، وازدادوا في ضَلالِهم، فقتَلوا أنبياءَ الله ورُسلَه بغير جُرمٍ ولا جَريرةٍ، وقتَلوا كذلك مَن يدعو إلى العدلِ، ويأمُرُ بالمعروف، ويَنهى عن المنكر مِن عبادِ الله؛ هؤلاء الذين هذه صفتُهم أخبرْهم يا محمدُ وأعلمْهم بما ينتظرُهم من عذابٍ أليم، وعقابٍ موجِعٍ، جزاءً على كُفرِهم وسيِّئِ أعمالِهم.

وأخبَر سبحانه وتعالى أنَّ أعمالَ هؤلاء باطلةٌ، لا يَنتفعون بها ولا بآثارِها، لا في دُنياهم ولا في أُخراهم ، ولن يَجِدوا نَصيرًا يَنصرُهم، ولا مُنقِذًا من عذابِ الله إذا حلَّ بهم.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَكفُرون بآياتِ الله؛ فيُكذِّبون بها استكبارًا وعِنادًا[١].

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ قِراءتان:

١- قراءة (وَيُقَاتِلُونَ) من القِتال، أي: يُحارِبون الذين يُخالفونهم في كُفرِهم، فالمقاتلةُ مِن اثنينِ[٢].

٢- قِراءة ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ من القتْل؛ فالقتْلُ مِن جانبٍ واحد[٣].

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

أي: ويَقتُلون أنبياءَ الله المرسَلين إليهم، بغيرِ سببٍ، ولا جريمةٍ منهم[٤]!

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾.

أي: ويَقتُلون الَّذين يَأمرون بالعَدلِ مِن النَّاس من غيرِ الأنبياء[٥]، وهو الأمرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير))، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٩).

(٢) قرأ بها حمزة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٤٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٥٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٤٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٥٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٦).
وقيل: قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ يَشمل الأنبياءَ وغيرَ الأنبياء، وعطفُه

بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَر، وقتلُهم لهم هو غايةُ الكِبْر[١]، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ[٢]، وغَمْطُ النَّاس[٣]))[٤].

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: فأخبِرْهم أنَّ لهم عذابًا مؤلِمًا موجِعًا، بالغًا في الشِّدَّةِ[٥].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

أي: الَّذين ذكَرْناهم هم الَّذين بطَلَتْ أعمالُهم في الدُّنيا، فلا يَنتفعون بآثارِها الطَّيِّبةِ في الدُّنيا، ولا يَنالون بها مَحْمدةً ولا ثناءً مِن النَّاس، مع بقاء الذَّمِّ واللَّعنة عليهم، وأمَّا في الآخرةِ، فلا يَنتفعون بثوابِ أعمالِهم، مع ما أعدَّ لهم فيها من العقابِ[٦].

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

أي: وما لهؤلاءِ القومِ مِن ناصرٍ ينصُرُهم مِن الله، ويُنقِذهم من العذابِ إذا هو انتقَم منهم[٧].

على النبيِّين من باب عطف العامِّ على الخاصِّ، وخُصَّ الأنبياءُ بالذِّكر؛ لأنَّ قتْلَهم أعظمُ مِن قتْل غيرهم. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦).

(٢) بطر الحق: هو دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٣) غمط الناس: احتقارُهم وازدراؤُهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٩٠).

(٤) رواه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٨ ، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- جمَع اللهُ لِمَن يَكفُرون بآياته، ويقتُلون أنبياءَه ومَن يأمُرُ بالقِسط مِن عبادِه، ثلاثةَ أنواعٍ من الوعيد؛ الأوَّل: اجتماع أسبابِ الآلامِ والمكروهاتِ في حقِّهم؛ كما في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، والثَّاني: زوال أسبابِ المنافعِ عنهم بالكلِّيَّة؛ كما في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، والثَّالث: لُزُوم ذلك في حقِّهم على وجهٍ لا يكونُ لهم ناصرٌ ولا دافعٌ؛ كما في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[1].

٢- لَمَّا تقدَّم ذِكْرُ معصيتِهم بثلاثةِ أوصافٍ، ناسَب أنْ يكونَ جزاؤُهم بثلاثة؛ ليُقابَلَ كلُّ وصفٍ بمُناسِبه، ولَمَّا كان الكفرُ بآيات الله أعظمَ، كان التَّبشيرُ بالعذابِ الأليم أعظمَ، وقابَل قتلَ الأنبياءِ بحُبوطِ العملِ في الدُّنيا والآخرة؛ ففي الدُّنيا بالقتْلِ والسَّبيِ، وأَخْذِ المال والاسترقاقِ، وفي الآخِرةِ بالعقابِ الدَّائم، وقابَل قتْلَ الآمِرين بالقسط بانتفاءِ النَّاصرين عنهم إذا حلَّ بهم العذابُ، كما لم يكُنْ للآمِرين بالقِسْطِ مَن ينصُرُهم حين حَلَّ بهم قتلُ المعتدين، كذلك المُعتَدُون لا ناصرَ لهم إذا حلَّ بهم العذابُ[2].

٣- في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ...﴾، توبيخٌ للمعاصِرين لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمساوئِ أسلافِهم، وبقائِهم أنفسِهم على فِعلِ ما أمكَنَهم من تلك المساوئِ؛ لأنَّهم كانوا حريصين على قتْلِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[3].

٤- دلَّ قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٤).

الأمرَ بالمعروفِ، والنَّهي عن المنكَرِ، كان واجبًا في الأُممِ المتقدِّمةِ[١].

٥- دلَّ قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على أنَّ القائمَ بالأمرِ بالمعروفِ تَلي منزلتُه في العِظَمِ منزلةَ الأنبياء[٢].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

- قوله تعالى: ﴿يَكفُرونَ﴾ ﴿يَقْتُلُونَ﴾ ﴿يَأْمُرُونَ﴾: جِيءَ في هذه الصِّلاتِ بالأفعال المضارِعة؛ على حِكاية الحالِ الماضية؛ استفظاعًا للقتْل، واستحضارًا لتِلك الحالِ الشَّنيعة للتعجُّبِ منها، وليس المرادُ إفادةَ التجدُّد؛ لأنَّ ذلك وإنْ تأتَّى في قوله: ﴿يَكْفُرونَ﴾، لا يَتأتَّى في قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾؛ لأنَّهم قتَلوا الأنبياءَ والذين يأمرون بالقِسطِ في زمنٍ مضَى، والمرادُ مِن أصحابِ هذه الصِّلات يَهودُ العصرِ النَّبويِّ؛ لأنَّهم الَّذين توعَّدهم بعذابٍ أليم، وإنَّما حَمَلَ هؤلاء تَبِعَةَ أسلافِهم؛ لأنَّهم مُعتقِدون سَدادَ ما فعَلَه أسلافُهم[٣].

وقيل: أُريدُ بالمضارعِ الحالُ والمستقبلُ على حَقيقتِه؛ لأنَّ اليهودَ يَرومُونَ قتْلَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ ولذلك سَحروه وسمُّوه[٤]، وفي ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٦)، (((تفسير القرطبي)) (٤/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٢- ٦٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٦).

(٤) ينظر في سحر النبي صلى الله عليه وسلم ما رواه البخاري في((صحيحه)) (٥٧٦٦)، ومسلم (٢١٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها. ويُنظر في سَمِّ اليهودِ للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم ما

تنبيهٌ على أنَّ عادتَهم قتْلُ أنبيائهم؛ لأنَّ هذا النبيَّ المكتوبَ عندَهم في التوراة والإنجيل- وقد أُمِروا بالإيمانِ به والنصرِ له- يَرُومونَ قتْلَه؛ فكيف مَن لم يكُن فيه تقدُّم عهدٍ من الله؟! فقتلُه عندَهم أَوْلى[١].

- قوله سبحانه: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: فيه تنكيرُ ﴿حَقٍّ﴾؛ لتأكيدِ العموم، أي: لم يكُن هناك حقٌّ لا هذا الذي يَعرِفه المسلمون ولا غيرُه ألبتةَ، ولا صغيرٌ ولا كبيرٌ في نفْس الأمر، ولا في اعتقادِهم[٢].

- وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وصفٌ كاشفٌ مُبيِّن للواقِع وليس وصفًا مُقيدًا؛ فلا يُرادُ به إخراجُ ما خالَف هذه الصِّفة، وإنَّما يُرادُ بها بيانُ الواقِع؛ إذ لا يكونُ قتلُ النَّبيِّين إلَّا بغير حقٍّ، فهذا القتلُ كان عدوانًا وظلمًا، فقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ليس له مفهومٌ؛ لظهورِ عدمِ إرادة التَّقييدِ والاحتراز، والمقصودُ من هذه الحال زيادةُ تشويهِ فِعلهم، وتشنيعُ هذه الحالة الَّتي لا شُبهةَ لصاحبِها، بل صاحبُها أعظمُ النَّاس جُرمًا، وأشدُّهم إساءةً[٣].

- وفيه: إشارةٌ إلى أنَّ قتْلَهم للأنبياء كان بغيرِ حقٍّ في اعتقادِهم أيضًا؛ فهو أبلغُ في التَّشنيعِ عليه[٤].

- وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ مناسبةٌ حسنةٌ لسِياق الآية، حيث جاءَ هنا مُنكَّرًا، وفي البقرة ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١] مُعرَّفًا؛ لأنَّ الجملةَ هنا أُخرجتْ

رواه البخاري (٤٤٢٨) معلَّقًا من حديث عائشة رضي الله عنها، وقد ذكَر ابن حجر مَن وصَلَه في ((تغليق التعليق)) (٤/ ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٦٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٦)، ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٠٠).

مخرجَ الشرط، وهو عامٌّ لا يَتخصَّص؛ فلذلك ناسَب أن تُنكَّر في سياقِ النَّفي ليعمَّ، وأمَّا في البقرةِ فجاءتِ الآيةُ في ناسٍ معهودِين مُشخصِين بأعيانهم، وكان الحقُّ الذي يُقتلُ به الإنسان معروفًا عندهم، فلم يُقصَدْ هذا العمومُ الذي هنا، فجِيء في كلِّ مكانٍ بما يُناسِبُه[١].

وقيل: لأنَّ المقصودَ في سُورةِ آل عِمران هُمُ الَّذين عاصروا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن بني إسرائيل، وشاهدوه، وعاينوا البراهين، وتأكَّدوا أنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلَّم هو مَن أخبر به موسى وغيرُه من الأنبياءِ، وتعدَّدت وكثرت الأدلَّة في ذلك، ومع هذا استمرُّوا في التَّمادي في الكُفرِ والعِناد، وبالمتمادِين منهم على الكُفرِ والضَّلال[٢]؛ فناسَب أنْ يُقال: إنَّهم ارْتَكبوا كُفرَهم بغيرِ شُبهةٍ ولا سَببٍ يُمكِنُ التعلُّقُ به؛ فجاء قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، فكأنَّه مرادفُ ما لو قيل: بغيرِ سببٍ ولا شبهة، وذلك أبلغُ في ذَمِّهم. وأمَّا ما جاء في البقرة فإنما كان في سَلفِهم ممَّن لم يشاهدِ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فهؤلاء وإنْ وقَع التَّصريح بكُفرِهم لِمَا ارْتكَبوه، لكن ورد أنَّ بعضَ هذه المرتكبات عفَا اللهُ عنهم فيها، كما أنَّه لا شكَّ من كون بعضهم سلِم ممَّا وقَع فيه الأكثرُ مِن الكُفرِ كما في قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٢]؛ فحالُهم ليسَ كحالِ مَن عاصَر النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وعانَدَ؛ لذلك ناسَبَ التعبير في البقرة بقوله: ﴿بغير الحقِّ﴾؛ إذ ليس المعرَّف فى قوة المنكَّر المرادف لقولك بغير سبب، وقيل غير ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٩٩).

(٢) والكلام هنا على موضعي آل عمران؛ الآية التي هُنا، والآية الأخرى هي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢].

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٤١- ٤٣)، ((درة التنزيل)) للإسكافي

- ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾.

- (مِن) في قوله: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ إمَّا بيانٌ، وإمَّا للتبعيضِ أي: كلِّهم أو بعضِهم، سواءٌ أكانوا أنبياءَ أمْ لا، وكِلاهما معلومٌ أنَّهم مِن الناس؛ فقوله: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ جارٍ مجرَى التأكيدِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بهذا القَيدِ زيادةَ تَوبيخِهم بأنَّهم يَقتُلون جِنسَهم، الذي مِن حقِّهم أنْ يألفوه ويَسعَوا في بقائِه، وهذا تحقيقٌ لأنَّ قتْلَهم لمجرَّد العُدوان[1].

- قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾: لَمَّا كان ذلك مُومِئًا إلى وجهِ بناء الخبر: وهو أنَّهم إنَّما قتَلوهم؛ لأنَّهم يَأمُرون بالقسطِ، أي: بالحقِّ، فقدِ اكتُفي بها في الدَّلالةِ على الشَّناعة، فلم تحتجْ إلى زيادةِ التشنيع[2].

- وإنَّما كُرِّر الفعل ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾؛ لاختلافِ مُتعلِّقه، أو كُرِّر تأكيدًا، وقيل: المرادُ بأحد القتلينِ تفويتُ الرُّوح، وبالآخَرِ الإهانةُ؛ فلذلك ذُكِر كلُّ واحدٍ على حِدَته، ولولا ذلك لكان التركيبُ (ويقتلون النبيِّين والذين يأمرون)[3]، أو لعلَّ تكريرَ الفعل؛ للإشعارِ بما بين القتلينِ من التفاوت، أو باختلافِها في الوقت[4].

- قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾: زاد الفاء في خَبَر (إنَّ) إيذانًا بأنَّ الموصولَ (الذين)- الذي هو اسمُها- ضُمِّنَ معْنَى الشَّرْط أو الجزاءِ، كأنَّه قيل: الَّذين

(١/ ٤٦- ٢٤٨)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٧٤-٧٥)، ((فتح الرحمن)) لزكريا الأنصاري (١/ ٢٩- ٣٠).

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩).

يَكفُرون فبَشِّرْهم، بمعنى: مَنْ يَكفُرْ فبَشِّرْهم؛ إشارةً إلى أنَّ المقصودِين ليسوا قومًا معيَّنين، بلْ كلُّ مَن يتَّصف بالصِّلة، فجزاؤه أنْ يَعلمَ أنَّ له عذابًا أليمًا، ودخولُ الفاءِ على جوابِ الشَّرط زاد المعنى تأكيدًا[١].

٢- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾:

- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾: جِيءَ باسمِ الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لأنَّهم تميَّزوا بهذه الأفعالِ التي دلَّت عليها صِلاتُ الموصولِ أكملَ تمييزٍ، وللتنبيهِ على أنَّهم أحقَّاءُ بما سيُخبر به عنهم بعدَ اسمِ الإشارة[٢].

- وفي التعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿أُولِئَكَ﴾ أيضًا دلالةٌ على بُعدِ المشارِ إليهم في الضَّلال والفسادِ[٣].

- والإخبارُ بالموصول ﴿الَّذِينَ﴾ أبلغُ من الخبَر بالفِعل؛ لأنَّ فيه نوعَ انحصارٍ[٤].

- في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ جِيء بـ: (مِن) الدَّالَّة على تنصيصِ العموم؛ لئلَّا يترُكَ لهم مدخَلًا إلى التَّأويل، يعني: ما لهم أحدٌ يَنصُرُهم، لا على سبيل الاجتماعِ، ولا على سبيل الانفراد؛ لأنَّ (مِن) الزائدة إذا دخَلَت على النَّكرةِ تجعَلُ النَّفيَ نصًّا في العموم؛ كـ (لا) النَّافيةِ للجنس[٥]. ومجيء الجمعِ ﴿نَاصِرِينَ﴾ هنا أحسنُ من مجيء الإفراد؛ لأنَّه رأسُ آية، ولأنَّه بإزاء

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٢).

مَن للمؤمنين مِن الشُّفعاءِ، الَّذين هم الملائكةُ والأنبياء وصالِحُو المؤمنين، أي: ليس لهم كأمثالِ هؤلاء، والمعنى: أنَّه بانتفاءِ النَّاصرين انتفاءُ ما يَترتَّبُ على النَّصر من المنافع والفوائد، وإذا انتفتْ مِن جمْعٍ، فانتفاؤُها من واحدٍ أَوْلى، وإذا كان جمعٌ لا يَنصُرُ، فأَحْرَى ألَّا يَنصُرَ واحدٌ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٧).

الآيات (٢٣ - ٢٥)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر اللهُ تبارَك وتعالَى عمَّن آتاهم نَصيبًا من الكتاب، وحظًّا من العِلم، وهم اليهود، بأنَّهم حين يُدْعَون إلى التَّحاكُم إلى ذلك الكتاب، الَّذي يُصدِّقون به، ويُؤمنون بحُكمه، وتَطمئنُّ قلوبُهم لِما فيه- يتولَّى فريق منهم، ويُعرِض عن كتابِ الله، ويُدبِر عمَّا فيه، والسَّببُ وراء ذلك الإعراضِ والتَّولِّي والتَّجرُّؤِ على مَعصيةِ الله هو أنَّهم قالوا: لن نُعذَّب في النَّارِ إلَّا أيَّامًا معدودة، وأوقاتًا محدودة، ثمَّ يُخرجنا اللهُ تبارَك وتعالَى منها، فكان هذا الافتراءُ والكذبُ المحضُ الَّذي جاؤوا به من عندِ أنفسهم هو الَّذي غرَّهم في دِينِهم، وأعْمَى قلوبَهم، وأضلَّهم عن سواء الصِّراطِ.

ثمَّ هدَّدهم اللهُ تبارَك وتعالَى وتَوعَّدهم بيومِ الجمْع؛ إذ كيف يكونُ حالُهم يوم يجمعُ الله الأوَّلين والآخرين، ويُوفِّيهم جزاءَهم على ما صنَعوا واقترفوا، في ذلك اليوم الَّذي تُوفَّى فيه كلُّ نفسٍ ما عمِلت من خير أو شرٍّ، وتُجزَى على جميعِ أفعالها وأقوالها دون نقصٍ ولا زيادة، ولا يظلِمُ ربُّك أحدًا؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ(٢٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نبَّه اللهُ تعالى على عِنادِ القومِ بقوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، بَيَّن في هذه الآيةِ غايةَ عنادِهم، وهو أنَّهم يُدْعَون إلى الكتابِ الَّذي يزعُمونَ أنَّهم يؤمنون به، وهو التَّوراةُ، ثمَّ إنَّهم يتمرَّدون، ويتولَّوْن، وذلك يدُلُّ على غايةِ عنادهم(١).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾.

أي: ألم ترَ- يا محمَّدُ- إلى اليهودِ الَّذين أُعطُوا حظًّا من العِلم بالتَّوراة(٢).

﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: يُدْعَون إلى التَّوراةِ لتحكُمَ بينهم(٣)؛ فهم يُقرُّون ويُصدِّقون بها(٤).

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

أي: يَستدبرُ فريقٌ(٥) منهم عن كتابِ الله مُعرِضًا عنه مُنصرِفًا(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٩).

(٣) يحتمل أنْ يكون المرادُ: يَحكُم بينهم في بعض ما تنازعوا فيه هم ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ويحتمل أنْ يكون تنازُعهم الذي دُعوا إلى حُكم التوراة فيه، هو أمْر نُبوَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ويحتمل أنْ يكون المراد إبراهيم خليل الرحمن ودِينه، ويحتمل أنْ يكون ذلك ما دُعوا إليه من أمر الإسلام، والإقرار به، ويحتمل أنْ يكون ذلك التنازُع في حدٍّ؛ فإنَّ كلَّ ذلك ممَّا قد نازعوا فيه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فدَعاهم فيه إلى حُكم التوراة. وأيًّا ما كان فإنَّ المعنى الذي دُعِي إليه حمَلَةُ التوراة هو ممَّا قد وجَب عليهم في دِينهم الإجابةُ إليه، فامتنعوا منه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٥).

(٥) خصَّ الله تعالى بالتولي فريقًا دون الكلِّ؛ لأنَّ منهم مَن لم يتولَّ كابن سَلاَم وغيره. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٦).

عن عبدِ اللهِ بن عمرُ رضِي اللهُ عنهما أنَّ اليهودَ جاؤوا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فذكَروا له أنَّ رجلًا منهم وامرأةً زَنَيا، فقال لهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما تجِدون في التَّوراةِ في شأنِ الرَّجْمِ؟، فقالوا: نفضَحُهم ويُجْلَدُون، فقال عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ: كذَبْتُم، إنَّ فيها الرَّجْمَ، فأتَوْا بالتَّوراةِ فنشَروها، فوضَعَ أحدُهم يدَه على آيةِ الرَّجْمِ، فقَرأَ ما قبلَها وما بعدَها، فقال له عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ: ارفعْ يدَك، فرَفَعَ يدَه، فإذا فيها آيةُ الرَّجْمِ، فقالوا: صدَقَ[1] يا محمدُ؛ فيها آيةُ الرَّجْمِ، فأمَرَ بهما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فرُجِمَا))[2].

وذكَر الله تعالى سبب إعراضِهم فقال:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾.

أي: ذلك التَّولِّي والإعراضُ بسبب قولِهم: لن نُعذَّبَ في النَّار إلَّا أيَّامًا قلائلَ، ثمَّ يُخرِجنا منها ربُّنا[3].

يجوزُ أنْ يَعني بالتولِّي تولِّي فريقٍ من الذين أُوتوا نصيبًا من الكتاب، وبالإعراض جماعتهم، ويجوز أن يكون التولي والإعراضُ جميعًا للفريق، فيكون معنى التولي عنه ترْكَ موالاته، والإعراضُ يكون بالبدن؛ وذلك لئلَّا يحتجَّ عليهم إذا حَضروا فيلزمهم حُجَّة. ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٨٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٤) وقيل: تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦).

وقيل: معناه يتولَّى عن الداعي ويعرض عمَّا دُعِيَ إليه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (١/ ٣٨٣).

(١) أي: صدَقَ عبدُ الله بنُ سَلَام.

(٢) رواه البخاري (٣٦٣٥) ومسلم (١٦٩٩).

وبعضُهم جعَل هذه القصَّةَ سببًا لنزول الآيةِ. يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٨)، ((العجاب في بيان الأسباب)) لابن حجر (٢/ ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٧).

عن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لليهود: ((مَن أهلُ النَّارِ؟ فقالوا: نكونُ فيها يسيرًا، ثمَّ تَخْلُفُوننا فيها، فقال لهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اخسَؤوا فيها، واللهِ لا نَخْلُفُكم فيها أبدًا))[١].

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

أي: ثَبَّتَهم على دِينِهم الباطل ما خدَعوا به أنفسَهم مِن زعمِهم أنَّ النَّارَ لن تمسَّهم إلَّا أيَّامًا معدوداتٍ، وادِّعائِهم أنَّهم أبناءُ الله وأحبَّاؤُه، إلى غيرِ ذلك، وهم الَّذين افترَوْا هذا مِن تلقاءِ أنفسِهم واختَلَقوه[٢].

ثمَّ قال الله تعالى مُتهدِّدًا لهم ومتوعِّدًا:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: فكيفَ يكونُ حالُهم مع ما صنَعوا إذا جمَعَهم اللهُ للفصلِ[٣] بينهم، ولحسابِهم في يومٍ لا شكَّ في مجيئِه ووقوعِه، وهو يومُ القيامة؟! وما أعظَمَ ما يلقَوْنَ من عقوبةٍ[٤]!

---

(١) رواه البخاري (٣١٦٩).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٨).

(٣) اللاَّم في قوله: ﴿لِيَوْمٍ﴾ قيل: بمعنى (في)؛ قاله الكسائي، وقيل: المعنى (لحساب يوم)؛ قاله البصريُّون، وقيل: (لِمَا يَحدُث في يوم)، أو (لِمَا يكون في يوم)؛ قاله ابن جرير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦).

وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إمَّا أنَّه خبر بمعنى النهي؛ والمعنى: لا تَرتابوا فيه، أو أنَّه خبرٌ على حقيقته. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥١).

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾.

أي: وأَعْطَى اللهُ كلَّ نفسٍ جزاءَ ما عمِلَتْ من الخيرِ أو الشَّرِّ كاملًا وافيًا[١].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: لا يُنقَصُ أحدٌ من حَسناتِه، ولا يُزاد في سيِّئاتِه، أو يُعاقَبُ بغير جُرمِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿ولاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف: ٤٩]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[طه: ١١٢].

وفي الحديثِ القُدسيِّ الذي راوه أبو ذرٍّ الغفاريُّ رضِي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فيما روَى عن اللهِ تبارَك وتعالَى أنَّهُ قال: ((يا عِبادي، إنِّي حرَّمْتُ الظُّلمَ على نفْسِي...))[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ دليلٌ على أنَّ الإنسانَ قد يُعطى عِلمًا، إلَّا أنَّه لا يوفَّق للعمل به[٤].

٢- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ بُطلانُ الأمانيِّ، وأنَّ النَّفْس قد تُمنِّي الإنسانَ ما لا يكون؛ لذا يجبُ على الإنسان الحَذرُ

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٥، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٢).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٥).

من الاتِّكالِ على الأمانيِّ؛ فإنَّ هذا الخُلُقَ سِمةٌ من سِمات اليهود والنَّصارى[١].

٣- في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾، دلالةٌ على أنَّ اعتقادَ النَّجاةِ مِن عذابِ الله تعالى على كلِّ حال يحملُ المرءَ على الجُرأة على الإعراض عن الحقِّ، كما أنَّ هذا الاعتقادَ مُؤذِنٌ بسَفالة الهمَّة الدِّينيَّة، فلا تحصُلُ المنافسةُ في تزكية النَّفْس[٢].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بيانُ أنَّ الاغترار بالعمل قصورٌ في النَّظر؛ لأنَّه ليس الشَّأنُ هو القيامَ بالعمل، بل الشَّأنُ كلُّ الشَّأن أنْ يُقبَلَ منه العمل، فكم مِن عاملٍ ليس له مِن عملِه إلَّا التَّعبُ؛ لوجود مُبطِلٍ سابقٍ أو لاحقٍ[٣].

٥- من قوله تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يتَّضح أنَّ المخالفةَ إذا لم تكُن عن غرورٍ، فالإقلاعُ عنها مَرجوٌّ، أمَّا المغرورُ فلا يُترقَّبُ منه إقلاع[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ بيانُ أنَّ الحُكم في كتاب الله يَشمَلُ كلَّ شيءٍ مِن عباداتٍ ومعاملات وأخلاق؛ لأنَّه لم يخصَّص منها شيءٌ، وفي هذا ردٌّ على مَن يزعم أنَّ الشَّرعَ إنَّما جاء في تنظيمِ العبادات فقط، أمَّا المعاملاتُ فهي إلى الخَلْق[٥].

٢- عبَّر بالقولِ عن مُعتقَدِهم فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ ولم يقُل: (اعتقدوا)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٥).

قيل: للدَّلالة على أنَّ هذا الاعتقادَ لا دليلَ عليه، وأنَّه قولٌ مفترًى مدلَّسٌ، وهذا المعتقدُ هو عقيدةُ اليهود[١].

٣- في قوله: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ دليلٌ على أنَّهم يؤمنون بالبعث، إلَّا أنَّه لا فائدةَ في الإيمانِ المجرَّد بوجودِ الله أو اليومِ الآخِر ما لم يَتْبَعْه قَبولٌ وإذعان؛ فمجرَّدُ التَّصديقِ لا يُعدُّ إيمانًا[٢].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾:**

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾: الاستفهامُ للتقرير لِمَا سبقَ من أنَّ اختلافَهم في الإسلام؛ ليكونَ التقريرُ على نفْيِه محرِّضًا للمخاطَب على الاعترافِ به بناءً على أنَّه لا يَرضَى أنْ يكون ممَّن يَجهلُه[٣].

- وفيه إظهارُ ما حقُّه الإضمار - حيث قال: ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾، وكان الموضِعُ أن يُقال: (إليهم)-؛ للدَّلالةِ على أنَّ ضلالهم على عِلمٍ، وأنَّ الذي أُوتوه منه قراءتُهم له بألْسنتِهم، وادِّعاءُ الإيمانِ به[٤].

- وفي قوله: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾: عرَّف المتحدَّثَ عنهم بطريق الموصوليَّةِ ﴿الَّذِينَ﴾ دون لقَبِهم (اليهود)؛ لأنَّ في الصِّلةِ ما يَزيد التَّعجُّبَ من حالهم؛ لأنَّ كونَهم على عِلمٍ من الكتاب قليلٍ أو كثيرٍ مِن شأنِه أنْ يَصُدَّهم عمَّا أخْبر به عنهم، على ما في هذه الصِّلة أيضًا من توهينِ عِلمِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٢-٣٠٣).

المزعومِ[١].

- وتنكيرُ ﴿نَصِيبًا﴾ للتَّعظيم، وقيل: بل لبيان النوعيَّة، وليس للتعظيمِ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تهاونٍ بهم، وقد يكونُ التنوينُ للتَّقليل[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾:

- قوله تعالى: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ﴾: فيه إظهارُ الاسم الشَّريف (الله)، وإضافةُ الكتابِ إليه، ولم يقُل: (كتابهم)؛ احترازًا عمَّا غيَّروا وبدَّلوا؛ ولأنَّهم إنَّما دُعوا إلى كتاب اللهِ الذي أنزل على موسى عليه الصَّلاة والسَّلام، لا إلى ما عساه أنْ يكونَ بأيديهم ممَّا غيروا. وفيه أيضًا إشارةٌ إلى عظيمِ اجترائهم بتولِّيهم عمَّن له الإحاطةُ الكاملة[٣].

- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾: العطف بـ(ثمَّ)- التي تجعلُ الجملةَ المعطوفةَ في حُكمِ المفرد- فيه دلالةٌ على أنَّ تولِّيهم مستمرٌّ في أزمان كثيرة تبعُد عن زمان الدعوة. ودخول (ثم) هنا للدَّلالة على التراخِي الرُّتبي لا التراخي الزَّمني؛ لأنَّهم قد يتوَّلون إثرَ الدعوة، ولكن أُريد التعجُّب من حالهم؛ كيف يتولَّون بعد أنْ أُوتوا الكتاب ونَقَلوه؟! فإذا دُعوا إلى كِتابهم تولَّوْا! والإتيان بالمضارِع في قوله: ﴿يَتَوَلَّى﴾؛ للدَّلالة على التجدُّد[٤].

- وجملة: ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ حال مؤكِّدة لجملة: ﴿يَتَوَلَّى فَرِيقٌ﴾؛ إذ التولِّي هو الإعراض، ولَمَّا كانتْ حالًا لم تكُن فيها دلالةٌ على الدوام

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٠).

والثبات، فكانتْ دالَّةً على تجدُّد الإعراض منهم المفادِ أيضًا من المضارع في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾[١].

٣- **قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾** جِيء فيه بجمْع القِلَّة (أيَّام)؛ لمناسبته للمقام، من حيثُ تَناهِي اجترائِهم على العظائم؛ لاستهانتِهم بالعذابِ لاستقصارِهم لمدَّته، وأُكِّدتْ إرادتُهم لحقيقة القِلَّة بجمْع آخَر للقِلَّة ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾[٢].

- وخصَّ الجمع بهذا الموضع ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾؛ لأنَّه مكانُ تشنيعٍ عليهم بما فعَلوا وقالوا، فأَتَى بلفظ الجمْع؛ مبالغةً في زَجْرهم، وزجْرِ مَن يعملُ بَعمَلِهم[٣].

٤- **في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ﴾** استفهامٌ غرضُه التهويلُ، والاستعظامُ والاستفظاعُ لِمَا أَعدَّ الله لهم في يومٍ عصيبٍ تتقلَّب فيه القلوبُ والأبصار[٤].

- وهو تفريعٌ عن قوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ﴾، أي: إذا كان ذلك غرورًا؛ فكيف حالُهم أو جزاؤهم إذا جمعناهم[٥]؟!

- وفيه إيجازٌ بالحذفِ، والتقديرُ: فكيف صُورتُهم وحالهم إذا جمعناهم؟! وهذا الحذفُ يوجبُ مَزيدَ البلاغة؛ لِمَا فيه من تحريكِ النَّفسِ على استحضارِ كلِّ نوعٍ مِن أنواعِ العذابِ[٦].

- وقال تعالى: ﴿لِيَوْمٍ﴾ ولم يقل: (في يوم)؛ لأنَّ المرادَ: لِجزاء يوم، أو

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١١).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٨٠).

لحساب يوم، فحُذف المضافُ ودَلَّت اللامُ عليه[١].

٥- **قوله تعالى**: ﴿**وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ**﴾ عبَّر بصيغة الماضي ﴿وُفِّيَتْ﴾؛ ليفيدَ أنَّ الجزاء أمرٌ متحقِّق لا بدَّ منه، والبناء للمَفعول؛ للدلالةِ على سهولةِ تلك التوفيةِ عليه سبحانه، وإنْ كانت كثيرةً تفوقُ الحصْرَ[٢].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٦-٣٠٧).

الآيتان (٢٦ - ٢٧)

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُولِجُ﴾: تُدخِل هذا في هذا، إمَّا بالتَّعقيبِ، أو الزِّيادة والنَّقص؛ فما زاد في واحدٍ نقَصَ من الآخَرِ مِثلُه[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾

﴿اللَّهُمَّ﴾: مُنادى مُفرَد عَلَم، ومعناها: يا أللهُ، وهي مِن الأسماءِ التي لَزِمَت النِّداء، وحُذِفَ حرفُ النِّداء (يا)، وعُوِّضَ عنه هذه الميمُ المشدَّدة[2]، وهذا خاصٌّ بهذا الاسمِ الشَّريف؛ فلا يجوزُ تعويضُ الميمِ من حرفِ النِّداء في غيره[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٣).

(٢) قال ابن عاشور: (ولَمَّا كثُر حذف حرف النِّداء معه قال النحاة: إنَّ الميم عوض من حرف النداء؛ يريدون أنَّ لحاق الميم باسم الله في هذه الكلمة لَمَّا لم يقعْ إلَّا عند إرادة الدعاء صار غنيًّا عن جلب حرف النداء اختصارًا، وليس المراد أنَّ الميم تُفيد النداء. والظاهر: أنَّ الميم علامة تنوين في اللُّغة المنقول منها كلمة (اللهم) من عبرانية أو قحطانية، وأن أصلها (لا هم) مرادف (إله)، ويدلُّ على هذا أنَّ العرب نطقوا به هكذا في غير النِّداء، وأنهم نطَقوا به كذلك مع النِّداء، وأنهم يقولون: يا أللهُ كثيرًا) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٢) باختصار.

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٥٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٧).

﴿مَالِكَ﴾: منصوبٌ على أنَّه مُنادى مُضاف، وحُذفتْ أداة النِّداء، والتقديرُ: يا مالكَ الملكِ. وقيل: هو بدَلٌ من (اللهمَّ)، أو عطفُ بيان. وقيل: نعتٌ له[١].

المَعنَى الإجماليُّ:

أمَر اللهُ سُبحانَه وتَعالَى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَدْعوَه معظِّمًا له، مُوكِلًا الأمرَ إليه، قائلًا: يا أللهُ، يا مَن لكَ جميعُ المُلك، وجميعُ الأمْر في الدُّنيا والآخِرة، تُصرِّف جميعَ الممالك وتُدبِّرُها، فتُعطي المُلْك من تشاءُ من عِبادك، وتَنزِعه ممَّن تشاء، وتُعِزُّ مَن تشاءُ منهم، وتُذِلُّ مَن تشاء؛ فأنت الخيرُ كلُّه بيديك، لا يُشارِكك فيه أحدٌ، وأنت قادرٌ على كلِّ شيءٍ، فلا شيءَ يمتنع عليك، ولا يحُول بينك وبين ما تُريد حائلٌ، تُدخِل اللَّيل في النَّهار، وتُدخِل النَّهار في اللَّيل، وتُخرِج المخلوقَ الحيَّ من المخلوقِ الميِّتِ، والمخلوقَ الميِّتَ من المخلوقِ الحيِّ، وتهَبُ مَن تشاء ما تشاء مِن الرِّزقِ الواسعِ الكثيرِ بلا حِسابٍ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أخْبَر تعالى أنَّ الكفَّارَ سيُغلَبون، وأنَّه ليس لهم من ناصرين، كان حالُهم مقتضيًا لأنْ يقولوا: كيف نُغلَبُ مع قوَّتنا وكثرتِنا، وقلَّة أعدائِنا وضَعْفِهم؟ فقال الله تعالى[٢]:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٥٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٥٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٨).

أي: قُلْ- يا محمَّدُ-: يا أللهُ[١]، يا مَن لك الملكُ كلُّه؛ مُلكُ الدُّنيا والآخِرة، فتملِك جميعَ الممالكِ وتُصرِّفها وتُدبِّرها[٢].

ثمَّ فصَّل في بعضِ وجوه تصاريفِه وتدابيرِه في مُلكِه فقال:

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾.

أي: تُعطي المُلكَ مَن تشاءُ أنْ تُعطيَه[٣].

﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾.

أي: وتَنزِعُ الملكَ ممَّن تشاءُ أنْ تنزعَه منه؛ فتُزيلُ عنه وصْفَ المُلكِ[٤].

﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾.

أي: وتُعزُّ مَن تشاء أنْ تُعزَّه بطاعتِك، أو بإعطائِه المُلكَ، وبَسْطِ القدرةِ له، أو نَصْرِه، وغير ذلك[٥].

---

(١) (لا خِلاف أنَّ لفظة (اللهمَّ) معناها يا أللهُ. وقيل: زِيدت الميم للتعظيم والتفخيم. وهذا القولُ صحيح، ولكن يحتاج إلى تتمَّة، وقائله لحَظَ معنًى صحيحًا لا بدَّ من بيانه، وهو أنَّ الميم تدلُّ على الجمْع وتَقتضيه، ومَخرجُها يَقتضي ذلك. وإذا عُلِم هذا من شأن الميم، فهُم أَلْحقوها في آخِر هذا الاسم الذي يُسأل اللهُ سبحانه به في كلِّ حاجة وكلِّ حال؛ إيذانًا بجميعِ أسمائه وصفاتِه؛ فالسائلُ إذا قال: اللهمَّ إني أسألك، كأنه قال: أدعو اللهَ الذي له الأسماء الحسنى والصِّفات العلى بأسمائِه وصفاته، فأتَى بالميمِ المؤذِنةِ بالجمع في آخِرِ هذا الاسم؛ إيذانًا بسؤاله تعالى بأسمائه كلِّها. وهذا القول الذي اخترناه جاءَ عن غيرِ واحدٍ مِن السلف؛ قال الحسن البصري: (اللهمَّ) مَجمَعُ الدعاء، وقال أبو رجاء العطاردي: إنَّ الميم في قوله: (اللهم) فيها تِسعةٌ وتسعون اسمًا من أسماء الله تعالى. وقال النضرُ بن شُمَيل: مَن قال اللهمَّ، فقد دعا الله بجميعِ أسمائه) ((جلاء الأفهام)) لابن القيِّم (ص: ١٤٣) بتصرف.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾.

أي: وتذلُّ مَن تشاءُ أنْ تذلَّه بمعصيتِك، أو بسَلْبِ مُلكِه، وتسليطِ أعدائِه عليه، أو هزيمتِه، وغير ذلك[١].

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾.

أي: الخيرُ كلُّه بيديك، ليس لأحدٍ معك منه شيءٌ[٢].

وفي حديثِ عليِّ بن أبي طالبٍ، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يُثْني على ربِّه في دُعاءِ الاستفتاحِ فيقول: ((لبَّيْكَ وسَعْدَيْك، والخيرُ في يَديك، والشَّرُّ ليس إليك))[٣].

﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ الله قديرٌ على كلِّ شيءٍ، على ما شاءَه وما لم يَشَأْه؛ فلا يمتنعُ عليه أمرٌ من الأمور[٤].

سورة آل عمران)) (١/ ١٥٧).

والإعزازُ سواء قِيل بالطاعة، أو الملك، أو النصر، أو غير ذلك يَنبغي حملُه على التمثيل، وكذلك الإذلال بضد ما ذكَرْنا؛ لأنَّه لا مُخصِّص في الآية، فالذي يقعُ به العزُّ والذلُّ مسكوتٌ عنه. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٨٦)، ((روح المعاني)) للألوسي (٢/ ١١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٨).

فهذه التصرُّفات كلُّها بيده وكلها خير؛ فسَلْبُه الملك عمَّن يشاء، وإذلاله مَن يشاء خيرٌ، وإنْ كان شرًّا بالنسبة إلى المسلوب الذليل؛ فإنَّ هذا التصرف دائر بين العدل والفضل، والحِكمة والمصلحة لا تخرج عن ذلك، وهذا كلُّه خيرٌ يُحمَد عليه الربُّ، ويُثنَى عليه به، كما يُحمد ويُثنى عليه بتنزيهِه عن الشرِّ، وأنَّه ليس إليه. يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ١٧٩).

(٣) رواه مسلم (٧٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٩).

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾.

أي: تُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهار، وتُدخِل النَّهارَ في اللَّيل، فتجعلُ ما نَقَصْتَ من ساعاتِ اللَّيل زيادةً في ساعاتِ النَّهار، وما نَقصْتَ من ساعاتِ النَّهار زيادةً في ساعات اللَّيل[١].

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾.

أي: وتُخرجُ الإنسانَ الحيَّ والأنعامَ والبهائمَ الأحياءَ من النُّطَف الميتةِ، وتُخرج الزَّرعَ من الحَبَّةِ، والنَّخلةَ من النَّواة، والدَّجاجةَ مِن البيضةِ، والمؤمنَ من الكافِر، إلى غيرِ ذلك[٢].

﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾.

أي: وتُخرجُ النُّطفةَ الميِّتة من الإنسانِ الحيِّ والأنعامِ والبهائمِ الأحياءِ، وتُخرجُ الحَبَّةَ من الزَّرع، والنَّواةَ من النَّخلةِ، والبيضةَ من الدَّجاجةِ، والكافرَ من المؤمِن، إلى غير ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٧) وعزاه لجميع المفسِّرين، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٧) وقال: (وتحتمل ألفاظُ الآية أن يَدخُل فيها تعاقبُ الليل والنهار، كأنَّ زوالَ أحدهما ولوجٌ في الآخر).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٤).
لكن يرَى ابنُ جرير: أنَّ تأويلَ مَن تأوَّله بمعنى الحبَّة من السُّنبلة، والسُّنبلة من الحبَّة، والبيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وإنْ كان له

﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: وتُعطي مَن تشاءُ من الخَلْقِ الرِّزقَ الواسعَ، دون تَقتيرٍ أو تضييقٍ أو مُحاسَبةٍ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ...﴾ الآية: تَعليمٌ من الله تعالى لنبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يفوِّضَ الأمرَ إليه، والخِطاب الموجَّهُ له موجَّهٌ لأمَّته، إمَّا عن طريق التَّأسِّي، وإمَّا لأنَّ الخِطاب للإمام خِطابٌ له ولِمَن اتَّبَعه، ما لم يدلَّ الدَّليلُ على أنَّه خاصٌّ به[٢].

٢- في قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ تقديمُ الإيتاءِ على النَّزع إشارةً إلى أنَّ الداعي يَنبغي أن يبدأَ بالترغيبِ، و﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ فيه إشارةٌ إلى إنَّ الدعاء باللِّين إنْ لم يُجدِ ثُنِّي بالترهيب[٣].

٣- من قوله تعالى: ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ يُؤخَذ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى تامُّ الملك والسُّلطان؛ لكونه يُذِلُّ مَن يشاء، ولو بلَغ ما بلغ من العِزَّة البشريَّة؛ فإنَّ يدَ الله فوقَه مهما بلَغ الإنسانُ مِن العزِّ؛ فالله قادرٌ على إذلاله[٤].

٤- أنَّ الله سبحانه وتعالى بيده الخيرُ، فإذا كان كذلك فإنَّه لا يُطلَب الخيرُ إلَّا منه؛ لأنَّه لا أحدَ بيده الخيرُ إلَّا هو؛ قال الله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾[٥].

وجهٌ مفهوم، لكنَّه ليس هو الأغلبَ الظاهر في استعمالِ الناس في الكلام. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- في قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ بيانُ ضَعْفِ الإنسان وحاجتِه؛ فإيلاجُ اللَّيل في النَّهار والعكس، وما يَنتجُ عنه من تقلُّبٍ في الفصول، يُعرِّفُ الإنسانَ بمدَى ضَعْفِه، وافتقارِه إلى ربِّه، فإنْ جاءَ البردُ احتاج إليه، وإنْ جاء الحرُّ احتاج إليه[١].

٦- في قوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ﴾ أنَّ الرِّزقَ بيد الله؛ وعليه فإنَّه يَنبغي للعاقل فضلًا عن المؤمن، ألَّا يَطلُبَ الرِّزق مِن أيدي النَّاس، وإنَّما يَطلُبه من الله عزَّ وجلَّ[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ تعريضٌ بأهلِ الكتاب، بأنَّ إعراضَهم إنَّما هو حسَدٌ على زوالِ النُّبوَّة وانقراضِ المُلكِ منهم، مع الإيماءِ إلى أنَّ الشَّريعةَ الإسلاميَّة مُقارِنةٌ للسُّلطان والمُلك[٣].

٢- في قوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ تسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مقامِ بَيانِ عِنادِ المنكِرين، ومكابَرة الجاحدين، وتذكيرِه بقُدرتِه تعالى على نَصرِه وإعلاءِ كَلمةِ دِينه[٤].

٣- في قوله تبارَك وتعالَى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا تلازُمَ بين العزِّ والمُلك؛ فقد يكون الملِكُ ذليلًا إذا ضَعُف استقلالُه بسوءِ السِّياسةِ وفسادِ التدبير، حتَّى صارتِ الدُّولُ الأخرى تَفْتاتُ عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٢٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٢٣).

٤- في قوله تبارَك وتعالَى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ أنَّ الثناءَ ممَّا يُتوسَّل به إلى الله، وهو في الآية يتضمَّنُ ما تدلُّ عليه هذه الجملةُ، فإذا أثنيتَ على الله بأنَّه يُعِزُّ مَن يشاء، فأنت تسألُه العزَّة[١].

٥- في قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ تنزيهُ اللهِ عن نِسبة الشَّرِّ إليه، بل كلُّ ما نُسِب إليه فهو خيرٌ، والشَّرُّ إنَّما صار شرًّا؛ لانقطاع نسبتِه وإضافتِه إليه، فلو أُضيف إليه لم يكن شرًّا، وهو سبحانه خالقُ الخيرِ والشَّرِّ؛ فالشَّرُّ في بعض مخلوقاتِه لا في خَلقِه وفِعلِه؛ فخَلْقُه وفعلُه وقضاؤُه وقدَرُه خيرٌ كلُّه[٢].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

- ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾: بيانٌ لبعضِ وجوهِ التَّصرُّفِ الذي تَستدعيه مالكيَّةُ المُلك، وفيه تحقيقُ اختصاصِ وجوه التصرُّف هذِه باللهِ تعالى حقيقةً، وكونِ مالكيَّة غيرِه بطريقِ المجاز؛ لأنَّ لفظةَ ﴿تُؤْتِي﴾ تُفْهِم مجرَّدَ الإعطاءِ، بخِلاف لفظةِ (تُملِّك) التي تُؤذِن بثُبوتِ المالكيَّةِ حقيقةً؛ فإنَّ المُلك حقيقةً هو لله وحْدَه. وفي التَّعبير بالإيتاءِ أيضًا؛ دَلالةٌ على أنَّ المُلْك نِيلَ مِن اللهِ تعالى من غيرِ قوَّةٍ وغَلبةٍ، ولا مطاولةٍ فيه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٠٢).

- قوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ لإفادةِ الحَصر، كأنَّه قال: بيَدِك الخيرُ لا بيدِ غيرِك[١].

- وتعريفُ (الخير)؛ للتعميمِ[٢].

- قوله تعالى: ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾، ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾، ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ﴾: فيه تكرار (الـمُلك) في جُمَل عديدة؛ للتَّفخيم والتَّعظيم- إنْ كان المرادُ واحدًا- وإنِ اختَلف المرادُ، كان مِن تَكرار اللَّفْظ فقط[٣].

- قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: هذا كالتأكيدِ لِمَا تقدَّم، من كونِه مالكًا لإيتاءِ المُلك ونَزْعِه، والإعزازِ والإذلال[٤]، مع ما فيه مِن التأكيد بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة، وتقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَى كُلِّ﴾[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿وَتُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾، وقوله: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: فيهما وفي متعلِّقيهما (الليل والنهار- والحي والميِّت) تَكرارٌ أيضًا، وردُّ الأعجازِ على الصُّدور، والصُّدورِ على الأعجازِ، مِثل قولهم: (عاداتُ السَّاداتِ ساداتُ العاداتِ)، وهو مِن مَحاسِن البديعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩٠).
(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤١٠- ٤١١).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٠٦).

الآية: (٢٨)

﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ تبارَك وتعالَى المؤمنين عن اتِّخاذ أهلِ الكُفر أولياءَ يحبُّونهم ويَنصرونهم، ويَتركون موالاةَ أهلِ الإيمان، وتوعَّد الله تبارَك وتعالَى مَن يفعل ذلك أنَّه ليس مِن الله في شيءٍ، وأنَّه بريءٌ منه، ثمَّ استَثْنَى اللهُ تبارَك وتعالَى من ذلك مُداراةَ الكفَّار مداراةً ظاهرةً، وإظهارَ موالاتهم باللِّسانِ مع إضمارِ البُغض والكُره، في حالة الخوفِ من شُرورِهم، ثمَّ حذَّر الله المؤمنين من نفسِه، وأنذَرهم من التعرُّض لِما يُسخِطه؛ من ارتكابِ الموبقات، والاجتراءِ على الذُّنوب والسَّيِّئات، والإقدامِ على موالاة أعدائِه، وبيَّن لهم أنَّه إليه مَرجعُ العِباد بعد موتِهم، فيُحاسبهم على أعمالهم.

تَفسيرُ الآية:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه مالكُ المُلك، وأنَّ بيده مجامعَ الخير، والسُّلطانَ المطلقَ في تصريف الكون، يُعطي مَن يشاء، ويَمنعُ مَن يشاء، ويُعزُّ مَن يشاء، ويُذلُّ مَن يشاء، فإذا كانت العزَّةُ والقوَّة له- عزَّ شأنُه- فمِن الجهلِ والغرورِ

الاعتزازُ بأحدٍ من دونه، أو اللُّجوءُ إلى غيرِ بابِه، أو موالاةُ أعدائه[١].

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: لا تتَّخِذوا- أيُّها المؤمنون- الكفَّارَ أنصارًا وأعوانًا، تحبُّونهم وتظاهرونهم وتوالونهم متجاوزين المؤمنين إليهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

وقال سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤].

ثمَّ توعَّد اللهُ تعالى مَن يفعل ذلك فقال:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾.

أي: ومَن يفعلْ ذلك المذكورَ، فيتَّخِذهم أولياءَ من دون المؤمنين، فقد بَرِئَ مِن اللهِ، وبرِئَ اللهُ منه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٢٢-٣٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٧).

قال ابنُ تيميَّة في سبب نزولِ هذه الآية: (قد اتَّفق المفسِّرون على أنَّها نزلتْ بسبب أنَّ بعض المسلمين أراد إظهارَ مودَّة الكفَّارِ فنُهوا عن ذلك) ((منهاج السنة النبوية)) (٦/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٣).

ثمَّ استثْنَى اللهُ تعالى، فقال:

﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾.

أي: إلَّا أنْ تَخافوا على أنفسِكم مِن شرِّهم، فلَكُم أنْ تتَّقوهم بمداراتِهم، وإظهارِ الوَلايةِ لهم بألْسنتِكم، مع إضمارِ العَداوةِ والبُغضِ لهم، وعدمِ مُشايعتِهم على كُفرِهم، أو إعانتِهم على المسلمين[1].

ثمَّ هدَّد وتوعَّد مَن فعَل ما نَهى عنه، فقال:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

أي: ويُخوِّفُكم اللهُ من نفسِه، فلا تَتعرَّضوا لسَخطِه وعذابِه بركوبِ مَعاصيه، أو موالاةِ أعدائِه[2].

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

أي: إليه المرجعُ بعدَ الموت، فيُجازي كلَّ عاملٍ بعمله؛ فإيَّاكم أنْ تفعلوا مِن الأعمالِ ما تَستحقُّون به العقوبةَ، واعمَلوا ما به يَحصُل الأجرُ والمثوبة[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٣).

وقال ابن القيِّم: (معلومٌ أنَّ التُّقاة ليست بموالاة، ولكن لَمَّا نهاهم عن موالاة الكفار، اقتضى ذلك معاداتهم، والبراءةَ منهم، ومُجاهرتَهم بالعدوان في كلِّ حال، إلَّا إذا خافوا من شرِّهم فأباح لهم التقيةَ، وليستِ التقيةُ موالاةً لهم)، ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٦٩).

ثم إنَّ جواز ذلك مشروطٌ بتسلُّط الكفَّار على المسلمين، وحالِ الخوف على النَّفس؛ لضَعْفِ المسلمين وقوَّة الكفار. ينظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

المداراةُ فيما لا يَهدِم حقًّا، ولا يَبني باطلًا، كِياسةٌ مُستحبَّة، يَقتضيها أدبُ المجالسة ما لم تَنتهِ إلى حدِّ النِّفاق؛ وذلك لقولِه تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ...﴾ علَّق اللهُ حُكم (الموالاة) بالمؤمنين؛ لأنَّ مُقتضى الإيمانِ الحقيقيِّ أنَّ يتَّخذَ الإنسانُ الكافرين أعداءً، ولأنَّ اتِّخاذهم أولياءَ يُنافي أصلَ الإيمان أو كمالَه[٢].

٢- في قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ...﴾ دلالةٌ على أنَّه لا يجوزُ أنْ يولَّى كافرٌ ولايةً من ولاياتِ المسلمين، ولا يُستعانُ به على الأمورِ الَّتي هي مَصالحُ لعمومِ المسلمين[٣].

٣- قوله: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لا مفهومَ له؛ لأنَّه ذُكِرَ لموافقتِه للواقعِ؛ لورودِه في قومٍ بأعيانهم والَوُا الكافرينَ دونَ المؤمنين، وليسَ المرادُ إخراجَ المفهومِ عن حُكم المنطوقِ؛ فمِن مَوانعِ اعتبارِ مفهومِ المخالفةِ كونُ المنطوقِ نازلًا على حادثةٍ واقعة. ومعلومٌ أنَّ اتِّخاذَ المؤمنين الكافرين أولياءَ، ممنوعٌ على كلِّ حالٍ. وفيه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ الحقيقَ بالموالاةِ هم المؤمنون، وفي موالاتهم مندوحةٌ عن موالاة الكفَّار[٤].

٤- في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ذكَر اللهُ في تَحذيره النَّفْس؛ قيل:

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ١١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤).

ليُعلمَ أنَّ الوعيدَ صادرٌ منه، وهو القادرُ على إنفاذِه؛ إذ لا يُعجِزُه شيء[١]. وقيل: جَعَل التَّحذيرَ هنا من نَفْسِ الله- أي ذاتِه- ليكونَ أعمَّ في الأحوال؛ لأنَّه لو قيل: يُحذِّرُكم اللهُ غَضبَه، لتُوهِّم أنَّ للهِ رِضًا لا يَضرُّ معه تعمُّدُ مخالفةِ أوامرِه، والعرب إذا أرادتْ تعميمَ أحوالِ الذَّات علَّقت الحُكم بالذَّات. ونظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ﴾- إلى قوله- ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٢] [الفتح: ٢٥].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ إثباتُ النَّفْسِ لله تعالى، ونَفْسُه هي ذاتُه عَزَّ وجَلَّ[٣].

بَلاغَةُ الآية:

١- قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: فيه تكرارُ لفظ ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإظهارُه في موطنِ الإضمار- حيث قال: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقُل: (من دونهم)-؛ للتأكيدِ[٤].

- قوله: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: (مِن) لتأكيد الظرفيَّة، والمعنى: مُباعِدين المؤمنين[٥].

٢- قوله: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾: تنكيرُ ﴿شَيْءٍ﴾ وتنوينُه؛ للتحقيرِ، أي: ليس في شيءٍ يَصحُّ أن يُطلق عليه اسمُ الولاية أو الدِّين؛ لأنَّ موالاة المتضادِّين ممَّا لا يكادُ يقعُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٢١).
(٣) يُنظر: ((صفات الله عزَّ وجلَّ)) للسقاف (ص: ٣٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٦).
(٦) يُنظر: ((روح المعاني)) للألوسي (٢/ ١١٧).

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾: التعبيرُ عن صَنيعهم بـ(يفعل)؛ للاختصارِ، أو لإيهامِ الاستهجانِ بذِكره[١].

٤- قوله سبحانه: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا﴾: فيه التفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخِطاب، ولو جرَى على سَنن الكلامِ لقال: (إلَّا أنْ يتقوا)، وفي الالتفاتِ هنا سِرٌّ بديع؛ ذلك أنَّ موالاةَ الكفَّار لَمَّا كانتْ مُستقبحةً، لم يواجهِ اللهُ عبادَه بخِطاب النهي، بل جاءَ به في كلامٍ أَسْندَ الفِعلَ المنهيَّ عنه لغَيب، ولَمَّا كانتِ المجاملةُ في الظاهرِ والمحاسَنةُ جائزةً لعُذرٍ، وهو اتِّقاءُ شرِّهم، حسُن الإقبالُ إليهم وخِطابُهم برفْعِ الحرَج عنهم في ذلك[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ﴾: فيه تهديدٌ عظيم، مُشعِرٌ بتناهي النَّهي في القُبح؛ حيثُ جَعَل التحذيرَ هنا مِن نفْس اللهِ سبحانه؛ ليكونَ أعمَّ في الأحوال، وذِكْرُ النَّفْس للإيذانِ بأنَّ له عقابًا هائلًا لا يُؤبَه دونه بما يُحذَرُ من الكَفرةِ[٣].

٦- قوله: ﴿وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ﴾: تذييلٌ مقرِّر لمضمونِ ما قبله، ومُحقِّق لوقوعِه حتمًا[٤].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿وَإِلَى اللهِ﴾؛ للاهتمامِ والاختصاصِ، وفيه تعريضٌ بالوعيد؛ أكَّد به صريحَ التهديدِ الذي قَبْلَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٨٩-٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٢).

- وفيه التأكيدُ باسميَّة الجملة، وقُدِّم فيها الخبر أيضًا لفائدةِ الحصر؛ يعني: (إلى الله لا إلى غيره المصيرُ)، وإيثارُ حرف الجرِّ (إلى)؛ للدَّلالة على انتهاءِ المصير إليه سبحانه وليس لغيرِه شيءٌ منه. ووضْعُ المُظهَر (الله) موضعَ المُضمر (إليه)؛ لكمالِ العنايةِ بتمييزِه وتخصُّصه[1].

٧- وقوله: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللهِ﴾، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾، ﴿وَإِلَى اللهِ﴾:

فيه مِن أنواعِ البلاغةِ:

- تَكرارُ التَّحذير؛ لاقتضاءِ المقامِ ذلك؛ فجُملة ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللهِ﴾ تحذير، وجملة ﴿ويُحَذِّرُكُم...﴾ تصريحٌ بالتحذير كذلك، وقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ تحذيرٌ آخرُ.

- وإظهارُ لفظِ الجلالةِ (الله) وعدمُ إضمارِه- حيث لم يقُل: (ويحذركم نفسه) (وإليه المصير)-؛ لإدخالِ المهابةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤١٤)

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٥).

الآيتان: (٢٩ - ٣٠)

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَؤُوفٌ﴾: شديدُ الرَّحمة، وأصل (رَأَف): الرِّقَّة والرَّحمة[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالَى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقول مُحذِّرًا المؤمنين مِن اتِّخاذِ الكافرين أولياءَ: إنَّكم لو أخفيتُم ما في صُدورِكم، وسترتُم ما في ضَمائرِكم؛ من خيرٍ أو شرٍّ، أو عداوة أو ولاية، أو أبديتُم ذلك بأقوالِكم أو أفعالِكم، فإنَّ الله يعلمُه، فيُجازيكم على جميعِ ذلك؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، أو شرًّا فشرٌّ؛ فهو الَّذي أحاط علمُه بما في السَّموات وما في الأرض، فلا يَخفَى عليه شيءٌ ولا يَغيبُ عنه، وهو ذو القُدرةِ النَّافذةِ على كلِّ شيءٍ، فلا يُعجِزه شيءٌ في السَّمواتِ ولا في الأرض.

ثمَّ ذكَر موعدَ هذه المجازاة، وهو يومُ القيامةِ، يومَ تجِدُ كلُّ نفسٍ ما عمِلَتْه من الخيرِ قليلِه وكثيرِه حاضرًا بتمامِه من غيرِ نقصٍ، موفَّرًا من غيرِ تغييرٍ ولا تبديل، أمَّا ما عمِلَتْه من سوءٍ وشرٍّ، فإنَّها تَتمنَّى لو أنَّ بينَها وبينَ ما عمِلته مِن السُّوء مسافةً بعيدة، ثمَّ يؤكِّد اللهُ تهديدَه ووعيدَه بتحذيرِ عبادِه مِن نفْسِه، وتخويفِهم من عِقابه، مُبيِّنًا أنَّه إنَّما حَذَّرهم لشدَّة رحمتِه بهم، ورأفتِه عليهم.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن اتِّخاذ الكافِرين أولياءَ ظاهرًا وباطنًا، واستَثْنى منه التَّقيَّةَ في الظَّاهر، أتْبَع ذلك بالوعيدِ على أنْ يَصيرَ الباطنُ موافقًا للظَّاهر في وقت التَّقيَّة؛ وذلك لأنَّ مَن أَقْدَم عند التَّقيَّةِ على إظهارِ الموالاة، فقد يصيرُ إقدامُه على ذلك الفعلِ بحسَب الظَّاهر سببًا لحصولِ تلك الموالاةِ في الباطن؛ فلا جَرَم بَيَّن تعالى أنَّه عالمٌ بالبواطن كعِلْمِه بالظَّواهر، فيعلم العبدُ أنَّه لا بدَّ أنْ يجازيَه على كلِّ ما عزَم عليه في قلبه[١]؛ لذا قال:

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ-: إنْ تُخفوا ما في قلوبِكم وضمائرِكم- من الخيرِ أو الشَّرِّ، أو الولايةِ أو العَداوةِ وغير ذلك- أو تُظهروه، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَعلمُه ويُجازيكم عليه[٢].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: وقُلْ لهم أيضًا: إنَّ الله يَعلمُ جميعَ ما في السَّموات، وجميعَ ما في الأرض، لا يغيبُ عنه شيءٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩٤)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٨).

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ قادرٌ على كلِّ شيء؛ فقُدرتُه نافذة، ولا يُعجِزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، ولكمالِ عِلمه وكمالِ قُدرته إذا أراد معاجلةَ أحدٍ بعقوبة، فلن يُفلِتَ من عِقابه، فاحذَروا[١].

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أخبَر الله تعالى عن عِلمه وقُدرته، وفي ضِمنه الإخبارُ بما هو لازمُ ذلك من المجازاةِ على الأعمال، أخبَر عن مَحلِّ ذلك، وهو يومُ القيامة، الَّذي تُوفَّى فيه كلُّ نُفْسٍ ما كسبتْ[٢]؛ فلهذا قال:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾.

يومَ تجِد كلُّ نفْسٍ الَّذي عمِلَتْه من خيرٍ- سواء كان قليلًا أو كثيرًا- قد أُحضِر كاملًا موفَّرًا[٣].

كما قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾.

أي: والَّذي عمِلَتْه كلُّ نفْس من سوء- قلَّ أو كثُر- تُحبُّ وتتمنَّى لو أنَّ بينها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٨).

(٢) يُنظر:((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

وبينه مسافةً بعيدةً، أو زمانًا طويلًا متأخِّرًا[١].

ثمَّ قال تعالى مؤكِّدًا ومهدِّدًا ومتوعِّدًا:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

أي: ويُخوِّفُكم الله مِن نفْسِه[٢].

﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أي: واللهُ رحيمٌ بخَلْقه أشدَّ الرَّحمةِ وأرقَّها؛ لذا حذَّرهم[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله: ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ إرشادٌ إلى تطهيرِ القلوب، واستحضارِ عِلمِ الله كلَّ وقت، فيستحي العبدُ من ربِّه أنْ يرى قلبَه محلًّا لكلِّ فِكرٍ رديءٍ، بل يَشغَلُ أفكارَه فيما يُقرِّبُ إلى الله[٤].

٢- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، أنَّه متى آمَن الإنسانُ بصِفة العِلمِ أوْجَب له ذلك أمرين:

الأوَّل: الهروبُ مِن معصيةِ الله، فلا يَجِده اللهُ عزَّ وجلَّ حيث نهاه.

الثَّاني: الرَّغبةُ في طاعةِ الله، فلا يَفقِده حيثُ أمَرَه؛ لأنَّه يؤمنُ بأنَّ الله تعالى يَعلَمُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١)، ((مفردات القرآن)) للراغب (ص: ٨٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٤).

(٢) تقدمت هذه الجملة في تفسير الآية (٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨١).

٣- ختَم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه قد وسِع كلَّ شيءٍ علمًا وقُدرةً، وأنَّه قادرٌ على الانتقامِ منكم فيما إذا أخفيتُم ما لا يَرضاه، ولكنَّه لحِكمته قد يُؤخِّرُ الانتقام(١).

٤- في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إرشادٌ للإنسانِ إلى أنْ يَتعلَّق بربِّه؛ لأنَّه متى علِم أنَّ اللهَ على كلِّ شيء قديرٌ، فإنَّه لن يمنَعَه مانعٌ من أنْ يلتجئَ إليه سبحانه وتعالى بسؤال ما يُريد(٢).

٥- قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا...﴾ فيه التَّحذيرُ والتَّذكيرُ لهذا اليومِ العظيمِ الَّذي يجِد فيه الإنسانُ ما عمِل من خيرٍ أو سُوء(٣).

٦- في قوله تبارَك وتعالَى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا...﴾ كمالُ قُدرة الله عزَّ وجلَّ بإحضارِ ما عمِلَه الإنسانُ من قليلٍ وكثير؛ لقوله: ﴿مَا﴾ وهي موصولة تُفيد العُمومَ(٤).

٧- في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ...﴾ تنبيهٌ للعبد؛ ليحذَرَ من أعمال السُّوءِ الَّتي لا بدَّ أنْ يحزَنَ عليها أشدَّ الحزن(٥).

٨- في قوله: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ بيانٌ لكراهةِ المسيءِ لِمَا عمِله في ذلك اليوم، وأنَّه يحبُّ أنْ يكونَ بينه وبينه كما بين المشرقِ والمغرب(٦).

٩- ترْكُ كلِّ شهوة ولذَّة- وإنْ عسُر تركُها على النَّفس في هذه الدَّار- أيسرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٧).

مِن معاناةِ تلك الشَّدائدِ، واحتمالِ تلك الفضائِح[١] لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ...﴾.

١٠- أعاد تعالى التَّحذيرَ من نفْسه؛ رأفةً بالعبادِ ورحمةً؛ لئلَّا يطُولَ عليهم الأمدُ فتقسوَ قلوبُهم، وليجمعَ لهم بين التَّرغيب الموجِب للرَّجاء والعملِ الصالح، والتَّرهيبِ الموجِبِ للخوف وترْكِ الذُّنوب[٢].

١١- لَمَّا قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وهو للوعيدِ أتْبعه بقوله: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ وهو للوعدِ؛ ليعلَمَ العبدُ أنَّ وعْدَه ورحمتَه، غالبٌ على وعيدِه وسخَطه[٣].

١٢- أنَّه يَنبغي للإنسان أنْ يعرفَ قدْرَ نفْسِه بالنِّسبة إلى ربِّه، وأنَّه عبدٌ، والعبد يجبُ أنْ يكونَ منقادًا لأمر الربِّ، وأنْ يكونَ ذليلًا له شرعًا، كما أنَّه ذليل له قدَرًا[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- لَمَّا كان الخِطابُ للمؤمنين سَمَّى الموعظة تحذيرًا في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾؛ لأنَّ المحذَّر لا يكونُ متلبسًا بالوقوع في الخطرِ؛ فإنَّ التَّحذير تبعيدٌ من الوقوع، وليس انتشالًا بعد الوقوع[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩٦- ١٩٧)، قال ابن عطية: (وقوله: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبادِ﴾ يحتمل أن يكون إشارةً إلى التحذير؛ لأنَّ تحذيرَه وتنبيهَه على النجاة رأفةٌ منه بعباده، ويحتمل أنْ يكونَ ابتداءَ إعلام بهذه الصفة، فمُقتضى ذلك التأنيس؛ لئلَّا يُفرط الوعيد على نفْس مؤمن، وتَجيء الآية على نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٥]) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٤).

٢- ختَم اللهُ الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ مع أنَّ المقامَ مقامُ تحذيرٍ، والتَّحذيرُ يَقتضي الوعيد؛ وذلك لأنَّ إخبارَ الإنسان بحقيقة الحال من الرَّأفة به، ومن رأفته عزَّ وجلَّ بالعباد أنْ حذَّرهم نفسَه، وأخبرَهم بأنَّ الأمر عظيمٌ[(١)].

٣- التَّعريفُ في العباد في قوله: ﴿رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ للاستغراق؛ لأنَّ رأفةَ الله شاملةٌ لكلِّ النَّاس، مسلمِهم وكافرِهم، ولك أنْ تجعل (أل) عوضًا عن المضافِ إليه، أي: بعِبادِه، فيكون بِشارةً للمؤمنين[(٢)].

٤- جملة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ معطوفةٌ على جملةِ الشَّرط؛ فهي معمولةٌ لفعل ﴿قُلْ﴾، وليستْ معطوفةً على جوابِ الشَّرْط؛ لأنَّ عِلمَ الله بما في السَّموات وما في الأرض ثابتٌ مطلَقًا، غيرُ مُعلَّق على إخفاءِ ما في نُفوسِهم وإبدائِه[(٣)].

٥- في قوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قيل: جمَع السَّموات، وأفرد الأرض لوجهين؛ أحدهما: لفظيٌّ، والآخر: معنويٌّ: أمَّا اللَّفظي: فإنَّ جمْعَ الأرضِ جمْعَ تَكسير (آرُض كأفلُس، أو آراض كأجمال، أو أُرُوض كفُلُوس) مستثقلٌ وينبو عنه السَّمع؛ إذ ليس فيه مِن الفصاحة والحُسن والعذوبة ما في لفظ (السَّموات)؛ ولهذا تفادَوا مِن جمْعِه إذا أرادُوه بثلاثةِ ألفاظٍ تدلُّ على التعدُّد، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، وجَمْع (الْأَرْض) جمع مذكر سالِمًا (أرَضُون) ثقيلٌ، وهو مخالفٌ للقياس، ورُبَّ مفردٍ لم يقعْ في القرآن جمعُه؛ لثقلِه وخِفَّةِ المفردِ، وجمْعٍ لم يقعْ مفردُه كـ(الألباب). أمَّا الفرق المعنوي: الأرضُ فأكثرُ ما تجيءُ مقصودًا بها معنى التَّحت والسُّفل دون أن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٢٢).

يُقصَد ذواتُها وأعدادها. وأيضًا لأنَّ الأرضَ لا نِسبةَ لها إلى السَّموات وسَعتها، بل هي بالنسبةِ إليها كحصاةٍ في صَحراءَ؛ فالأرضُ وإنْ تعدَّدت وتكبَّرت فهي بالنسبةِ إلى السماءِ كالواحدِ القليل، فاختير لها اسمُ الجنس، فإنْ قصَد المخبِرُ إلى جزءٍ من هذه الأرض الموطوءة وعيَّن قطعةً محدودة منها خرجتْ عن معنى السُّفل الذي هو في مقابلةِ العلوِّ، فجاز أن تُثنَّى إذا ضُمَّ إليها جزءٌ آخَرُ، وإذا كان المقصودُ بالسماءِ ذواتِها لا مجرَّد العلوِّ والفوقِ عبَّر عنها بلفظ الجمْع، وأمَّا إذا أُريد الوصفُ الشاملُ للسَّموات، وهو معنى العلوِّ والفوق، أفْردوا ذلك بحسَب ما يتَّصل به من الكلام والسِّياق؛ كقوله: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٦- ١٧]؛ حيث أَفْرَدَ السماءَ هنا لَمَّا لم يُرِدْ سَماءً معيَّنةً مخصوصةً، فحيث أُريدَ العددُ أُتِي بصيغة الجمْعِ الدالَّةِ على سَعةِ العظمةِ والكثرةِ، وجُمعت جمعَ السَّلامة؛ لأنَّ العددَ قليلٌ، وجمعُ السلامة بالقليلِ أَوْلى؛ لقُربِه من التثنيةِ القريبة من الواحِد. وحيثُ أُريد الجهةُ أُتِي بصِيغة الإفرادِ، فجرَى اللفظُ مجرى المَصْدَر الموصوفِ به؛ كقولك: قَوْلٌ عَدْلٌ وزورٌ[(١)] وقيل غير ذلك[(٢)].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- **في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾**: عبَّر بالصُّدور، ولم يقُل:

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) (١/ ١١٣-١١٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٦-٩)، ((الإتقان)) للسيوطي (٢/ ٣٥٥- ٣٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١/ ٤٢٩) و(٦/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٣)، ((درج الدرر في تفسير الآي والسور)) للجرجاني (١/ ٣٢٨)، ((غرائب التفسير)) للكرماني (١/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٣/ ١١٨)، ((حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣- ٤) و(٥/ ٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٦).

(ما في قلوبكم)؛ لأنَّ القلبَ في الصَّدر، فجازَ إقامةُ الصَّدرِ مقام القلْب، وفي هذا تفنُّن في اختلافِ التعبيرِ، بناءً على أنَّ المرادَ بالجميعِ واحد[١]، أو عبر بذلك جريًا على مَعروف اللُّغة مِن إضافة الخواطرِ النَّفسيَّة إلى الصَّدرِ والقلبِ؛ لأنَّ الانفعالاتِ النَّفسانيَّةَ وتردُّدات التَّفكُّر - كلُّها يُشعَرُ لها بحَركاتٍ في الصُّدور[٢].

٢- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾:

- هذا مِن باب ذِكْر العامِّ وهو قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...﴾ بعد الخاصِّ، وهو ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾؛ تأكيدًا له وتقريرًا[٣].

- وقدَّم هنا الإخفاءَ على الإبداءِ، وجَعَل محلَّهما الصُّدور، وجعَل جوابَ الشرط العِلم، بخِلافِ ما في البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]؛ فإنَّه قدَّم فيها الإبداءَ على الإخفاءِ، وجعَل مَحلَّهما النَّفس، وجَعَل جواب الشَّرْط المحاسَبة، وكلُّ ذلك تفنُّنٌ في البلاغةِ، وتنوُّعٌ في الفصاحة[٤].

- وفيه مناسبةٌ حَسنةٌ لكلِّ سِياقٍ؛ حيثُ قال في هذه الآيةِ: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، قدَّم عِلْمَه بما خَفِي، وأخَّر عِلمَه بما بَدَا، وعكَس في آيةِ البقرة حيثُ أخَّر الإخفاءَ وقدَّم الإبداءَ في قولِه: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]؛ ومناسبة

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١١٤)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٣١٠).

ذلك: أنَّه قدَّم عِلمَه تعالى بما يُخفونه على ما يُبدونه في آية آل عمران إيذانًا بافتِضاحِهم، ووُقوعِ ما يَحذَرونه مِن أَوَّلِ الأمرِ، وأيضًا للمبالغةِ في بيانِ شُمولِ عِلمِ الله تعالى المحيطِ بجميعِ المعلومات، كأنَّ عِلمَه بما يُخفونَه أقدمُ مِنه بما يُبدونه، مع كونِهما في الحقيقةِ سواءٌ في عِلمِه تعالى، ويجوز أن يكونَ تقديمُ عِلمِه بما يُخفونَه بناءً على أنَّ مرتبةَ الإخفاءِ والسرِّ مُتقدِّمةٌ على مرتبةِ الإبداءِ والعَلن؛ فما مِن شيءٍ يُعلَنُ ويُبدَا إلَّا وهو مضمرٌ في القلبِ يتعلَّق به الإسرارُ غالبًا؛ فتعلُّقُ عِلمِه تعالى به في حالتِه الأولى وهو في السرِّ مُتقدِّمٌ على تَعلُّقِه لحالتِه الثانية المعلَنِ فيها. وأمَّا في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فقدَّم الإبداءَ؛ لأنَّ الكلامَ عن المحاسبةِ، والأصل أنَّ المحاسبةَ تَتعلَّقُ بالأمورِ الباديةِ دون الخافيةِ(١).

وقيل: إنَّ وجْهَ ذلك: أنَّ إبداءَ الشَّيءِ وإخفاءَ خِلافِه في المعتقَدات صِفةُ المنافقينَ، وبها امتازُوا عن غيرِهم من الكفرةِ، وقدْ أَعلمَ سبحانه أنَّ المنافقين هُم الذين يتَّخذون الكافرينَ أولياءَ مِن دون المؤمنين، وتوعَّدهم على ذلِك بأليمِ العذابِ؛ قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩]، فحذَّر المؤمنين مِن ذلِك في غير آية؛ فلمَّا تقرَّر هذا النهي وتكرَّر، وقد تقدَّم في آية آل عمران قولُه ناهيًا وزاجرًا: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وحذَّر تعالى مِن ذلك أشدَّ التحذيرِ إلَّا عند التقيَّة، فلمَّا نهاهم عن فِعلِ المنافقين كان آكَدَ شيءٍ وأهمَّه إعلامُهم بأنَّه سبحانه يَعلمُ ما يُخفون كعِلْمِه ما يُبدون؛ لبناءِ المنافقين كُفرَهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١١٨- ١١٩).

على ما جَهِلوه مِن عِلمِه سبحانه بخفيَّاتِ ضَمائرِهم وإلحادِهم في ذلك؛ جهلًا بما يجبُ للهِ سبحانه، وتكذيبًا لرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فهذا وجهُ تقديمِ الإخفاءِ في آيةِ آل عمران. أمَّا آية البقرة، فلم يَجرِ فيها ذِكرُ النِّفاق ولا صِفة أهْلِه، وإنَّما الخطابُ فيها وفي آية الدَّينِ قَبْلَها وفيما أُعقِبت به بعدُ للمُؤمنين، فيما يَخصُّهم مِن الأحكامِ؛ فورَد فيها قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] مُقدَّمًا فيها بادِي أعمالِهم بناءً على سلامةِ بواطنِهم وتنزُّهِهم عن صِفةِ المنافقين، والخِطابُ للمؤمنين، وهذا جارٍ مُطَّرد فيما يُلحَقُ بهذا الضرب، كما اطَّرد البدءُ بالإخفاءِ على الإعلانِ حيثُ يَتقدَّم ذِكرُ أهلِ الكُفرِ أو يَنتظم الكلامُ بذِكرهم، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣] بعدَ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وكقولِه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [التغابن: ٤] بعدَ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وغيرِها؛ فاطَّرد ذلك في الطرفينِ على رَعْي الإيمانِ والنِّفاقِ، وجاءَ كلٌّ على ما يُناسِبُ، واللهُ أعلمُ[(١)].

- وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: هو خبرٌ مقصودٌ به غايةُ التَّحذير؛ لأنَّه إذا كان لا يَخفى عليه شيءٌ فيهما؛ فكيف يخفَى عليه الضَّمير[(٢)]؟!

٣- **قوله تعالى: ﴿واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** إتمامٌ للتحذير؛ وذلك لأنَّ العالِم بكلِّ المعلوماتِ عالمٌ بما في القلب، وعالمٌ بمقاديرِ استحقاقِه من الثَّوابِ والعقابِ، ثم لَمَّا بيَّن أنَّه قادرٌ على جميعِ المقدورات، فكان لا مَحالةَ قادرًا على إيصالِ حقِّ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٧٢- ٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٥).

كلِّ أحد إليه؛ فيكون في هذا تمامُ الوعدِ والوعيدِ، والترغيبِ والترهيبِ[١].

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿الله﴾ في موضِعِ الإضمار؛ حيث لم يقُلْ: (وهو على كلِّ شيء قديرٌ)؛ لتربية المهابةِ، وللتَّهويل[٢]، ولتكونَ الجملةُ مستقلَّةً، فتجري مجرَى المَثَل[٣].

٤- ﴿**يَعْلَمْهُ اللهُ**﴾، ﴿**واللهُ عَلَى...**﴾ فيها تَكرارٌ للفظ الجلالةِ، وإظهارُه في موضعِ الإضمارِ حيثُ لم يقُل: (وهو على..)؛ لإدخال المهابةِ أيضًا[٤].

٥- **قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا...﴾**

- فيه تقديمُ الظَّرف ﴿يَوْمَ﴾ على عاملِه ﴿تَوَدُّ﴾؛ لأنَّ اسمَ الزَّمان هنا هو الأهمُّ في الغرَض المسوقِ له الكلامُ، وهو ظرفٌ لشيءٍ من علائقِه، فجِيءَ به منصوبًا على الظرفيَّة، وجُعِل معنى بعضِ ما يَحصُل منه مَصُوغًا في صِيغة فِعلٍ عاملٍ في ذلِك الظَّرْف[٥].

- وهذه الآيةُ من بابِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، ومن تمامِ الكلامِ الذي تَقدَّم، وخُصَّ هذا اليومُ بالذِّكر، وإنْ كان غيرُه من الأيَّام بمنزلتِه في قُدرةِ اللهِ تعالى؛ تَفضيلًا له لعِظَمِ شأنِه[٦].

- قوله تعالى: ﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾: عبر بقوله: ﴿مُحْضَرًا﴾ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٥).

فيه من التهويلِ ما ليس في حاضرًا[١].

٦- **قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا عَمِلَتْ﴾، ﴿وَمَا عَمِلَتْ﴾**: فيه تكرار[٢]؛ للتأكيد.

٧- **قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾**:

قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ تقدَّم في آية (٢٨) وأعادَه هنا؛ لإفادةِ ما يُفيدُه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿واللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾ مِن أنَّ تحذيرَه تعالى من رأفتِه بهم ورحمتِه الواسعةِ، أو أنَّ رأفتَه بهم لا تَمنعُ تحقيقَ ما حذَّرهموه من عِقابِه، وأنَّ تحذيرَه ليس مبنيًّا على تناسي صِفةِ الرَّأفة، بل هو مُتحقِّقٌ مع تحقُّقها أيضًا[٣]، فقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُم اللهُ نَفْسَهُ﴾ في الموضعين يَتعلَّق بما ذُكِر قَبلَه؛ فلا تَكرارَ حِينئذٍ؛ فالأوَّل تحذيرٌ من موالاةِ الكافرين، والثاني تحذيرٌ من أن يَجِدوا يومَ القيامة ما عمِلوا من سوءٍ محضرًا؛ لأنَّه ذكَره بعدَ أنْ ذكَر الجزاءَ الَّذي يكونُ يومَ القِيامةِ[٤].

- وتكريرُ الاسمِ الجليلِ ﴿الله﴾؛ لتربيةِ المهابةِ[٥].

٨- **قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾** هذه الجملة أبلغُ في الوصْف من جملة التخويفِ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾؛ لأنَّ جملةَ التَّخويفِ جُعِلَ فيها التَّحذيرُ مِن نفْسِ اللهِ، أي: ذاتِه؛ ليكونَ أعمَّ في الأحوالِ؛ لأنَّه لو قيل: يُحذِّركم اللهُ غضَبَه لتُوهِّم أنَّ للهِ رِضًا لا يضرُّ معه تَعمُّدُ مُخالفةِ أوامرِه. ولم يَتكرَّر في جملة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ اسمُ الله، وجاءَ المحذَّرُ مَخصوصًا بالمخاطَب

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٩)، ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٧٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤).

فقط ﴿وَيُحَذِّرُكُم﴾. وأمَّا جملةُ ﴿وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾ فجاءتْ اسميَّةً، فتكرَّر فيها اسمُ اللهِ؛ إذِ الوصفُ ﴿رَؤُوفٌ﴾ مُحتمِلٌ ضميرَه تعالى (هو)، وجاءَ المحكومُ به ﴿رَؤوفُ﴾ على وَزنِ (فَعُول) المقتضِي للمبالغةِ والتكثير، وجاءَ بأخصِّ ألْفاظِ الرحَّمة، وهو ﴿رَؤُوف﴾، وجاءَ مُتعلِّقُه عامًّا؛ ليَشْمَلَ المخاطَبَ وغيرَه، وبلفظ ﴿العِبَاد﴾؛ ليدلَّ على الإحسانِ التامِّ؛ لأنَّ المالِكَ مُحسِنٌ لعبدِه، وناظِرٌ له أحسنَ نظَر؛ إذ هو مَلِكُه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور))(٣/ ٢٢١).

الآيتان (٣١ - ٣٢)

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ لمدَّعي محبَّة الله تبارَك وتعالَى: إنَّ آيةَ صِدقِكم وعلامةَ محبَّتكم لله تبارَك وتعالَى هي اتِّباعي، فإنْ كنتُم صادِقين في دعواكم، فيَلزمكم تَصديقي فيما أَتيتُ به من خَبرٍ، وطاعتي فيما أمرتُكم به، واجتنابُ ما نهيتُكم عنه، والاقتداءُ بي؛ فإنَّ بين محبَّةِ الله واتباعي تَلازمًا؛ فهُمَا لا ينفكَّان، فإذا فعلتُم ذلك كان هذا دليلًا قاطعًا على محبَّتكم لله، وحينَها سيكونُ جزاؤُكم جزاءَ المِثل؛ إذ ستنالون محبَّةَ الله لكم، ومغفرتَه لذُنوبِكم؛ فإنَّه غفورٌ لذنوبِ عبادِه، رحيمٌ بهم.

ثمَّ يأمُر الله تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَأمرَهم بطاعةِ الله وطاعةِ رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنْ أعرَضوا وتولَّوا عمَّا أُمِروا به من الطَّاعة، واستنكفوا عن الامتثال لأمْر اللهِ وأمْر رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقد كفروا، وارْتَكبوا ما يُعرِّضهم لسَخَطِ الله وبُغضِه، فإنَّه سبحانه لا يُحبُّ الكافرين، بل يُبغِضُهم.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى الله سبحانه وتعالى عن مُوالاةِ الكفَّارِ ظاهرًا وباطنًا، وكان الإنسانُ ربَّما والَى الكافرَ وهو يدَّعي محبَّةَ الله سبحانه وتعالى، وختَم برأفتِه سبحانه وتعالى بعبادِه، وكانت الرَّأفةُ قد تكونُ عن المحبَّة الموجبة للقُرب، فكان

الإخبارُ بها ربَّما دعا إلى الاتِّكال، ووقَع لأجْلِه الاشتباهُ في الحِزبَينِ، جعَل لذلك سبحانه وتعالى علامةً[١]، فقال:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لِمَن يدَّعون محبَّةَ الله: إنْ كنتُم تحبُّون الله كما ادَّعيتم، فاتَّبِعوني بتصديق خبَري، وطاعةِ أمْري، والاقتداءِ بي[٢].

﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

أي: إنَّكم إنِ اتَّبعتموني يُحبَّكم الله، ويَغفِرْ لكم جميعَ ذُنوبِكم، فَمَن كَانَ محبًّا لله لزِم أنْ يتَّبع الرَّسُول، ومَن اتَّبع الرَّسولَ فقد فعَل ما يُحبُّه الله، فيُحِبه الله[٣].

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ غفورٌ لذنوبِ عِبادِه؛ يسترُها عليهم، ويتجاوزُ عنها، رحيمٌ بهم؛ يَعطِفُ عليهم، ويُحسِن إليهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٣٢).

قال ابن عاشور: (الآية انتقالٌ إلى الترغيبِ بعدَ الترهيب، والمناسبة: أنَّ الترهيب المتقدِّم خُتم بقوله: ﴿وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾، والرأفة تستلزم محبَّةَ المرؤوفِ به الرؤوفَ، فجعْلُ محبَّة الله فِعلًا للشرط في مقام تعليق الأمر باتِّباع الرسول عليه مبنيٌّ على كون الرأفة تستلزم المحبَّة، أو هو مبنيٌّ على أنَّ محبة الله أمر مقطوعٌ به من جانب المخاطبين، فالتعليق عليه تعليق شرط محقَّق، ثم رُتِّب على الجزاء مشروطٌ آخر وهو قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾؛ لكونه أيضًا مقطوعَ الرغبة من المخاطبين؛ لأنَّ الخِطاب للمؤمنين، والمؤمن غايةُ قصده تحصيلُ رِضا الله عنه ومحبته إياه)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٤- ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ١٨٧)، ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٢).

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ-: أطيعوا اللهَ والرَّسول محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ وذلك بامتثالِ الأمْر، واجتنابِ النَّهي[١].

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: فإنْ أعرَضوا عن الطَّاعة، ولم يَنقادوا، فهذا كُفرٌ منهم، والله عزَّ وجلَّ لا يحبُّ الكافرين، بل يُبغِضهم. ولا يغفِرُ لهم[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي: على ما أنا عليه مِن الشَّريعة؛ عقيدةً وقولًا، وفعلًا وتركًا، فمَن اتَّبَع الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذه الأربعة، صدَقَ في اتِّباعه، ومَن خالَف فهو غيرُ صادق[٣].

٢- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، فمن كَانَ محبًّا للهِ لَزِمَ أَن يتَّبعَ الرَّسُولَ فيصدِّقَه فِيمَا أخبرَ، ويُطيعَه فِيمَا أَمَرَ، ويتأسَّى بِهِ فِيمَا فعل؛ ومَن فَعَلَ هَذَا فقد فعل مَا يُحِبُّهُ الله، فَيُحِبُّه الله، فالرَّسُولُ لا يَأْمرُ إلَّا بما يُحِبُّ الله، ولا ينْهَى إلَّا عَمَّا يُبغِضُه اللهُ، ولا يفعلُ إلَّا ما يُحِبُّه الله، ولا يخبرُ إلَّا بما يحبُّ اللهُ التَّصْدِيقَ به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨، ٩٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٩٤).

٣- قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ...﴾ الآيَةَ: حُجَّةٌ على أهلِ الدَّعوى في كلِّ زمانٍ ومكان، فهذه محبَّةٌ امتحَنَ اللهُ بهَا أهلَ دَعْوَى محبَّةِ اللهِ، فَإِنَّ هَذا البابَ يكثرُ فِيهِ الدَّعاوَى والاشتباهُ؛ إذ ما قيمةُ الدَّعوى يُكذِّبها العملُ؟! وكيف يجتمعُ الحبُّ مع الجهلِ بالمحبوبِ، وعدمِ العنايةِ بأمره ونهيه[١]؟!

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- جمَعَت هذه الآيةُ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ...﴾ وجوبَ محبَّة الله، وعلاماتِها، ونتيجتَها وثمراتِها[٢].

٢- بهذه الآية: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ يُوزَنُ جميعُ الخَلْق؛ فعلى حسَب حَظِّهم من اتِّباع الرَّسولِ يكونُ إيمانُهم وحبُّهم لله[٣].

٣- في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ جوازُ مخاطبةِ المدَّعي بالتحدِّي[٤].

٤- مُوافقةُ المحبوبِ من موجِباتِ المحبَّةِ وثَمَراتِها، وليستْ نفسَ المحبَّةِ، بل المحبَّةُ تستدعي الموافقةَ، وكلَّما كانت المحبَّةُ أقوى كانت الموافقةُ أتمَّ، قال الله تعالى: ﴿قُل إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[٥].

٥- يَنبغي للإنسان أنْ يُجيبَ غيرَه بما هو أكثرُ من سؤاله، إذا دعتْ إليه الحاجة؛ لأنَّه لم يقُلْ: فاتَّبعوني تحبُّوا الله، بل قال: ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾، ولا أحدَ يحبُّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٣).

(٥) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٣٠٢).

اللهُ إلَّا وهو يحبُّ اللهَ[١].

٦- كمالُ إحسانِ الله سبحانه وتعالى لجزائِه على العمل أكثرَ منه؛ لأنَّ الَّذي يتَّبِع الرَّسول يحصل له محبَّةُ الله ومغفرةُ الذُّنوب، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٢].

٧- الجمعُ بين الغفور والرَّحيم لفائدةٍ عظيمة؛ قيل: هي الجمعُ بين الوقايةِ والعنايةِ؛ بين الوقايةِ مِن شرِّ الذُّنوب بالمغفرة، والعنايةِ بالتَّيسير لليُسرى وتجنيبِ العُسرى بالرَّحمة[٣].

٨- في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أتى بالواو الدَّالَّة على التَّشريكِ؛ لأنَّ طاعةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما يأمُرُ به مِن الشَّريعةِ من طاعةِ الله[٤].

٩- في قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ ردٌّ على مَن قال: إنَّ السُّنَّة لا يُعمَل بها إلَّا ما وافَق القُرْآن؛ وذلك لأنَّنا لو قلنا: إنَّ الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يُطاعُ إلَّا فيما أمَر اللهُ به، لَمْ يكُنْ للأمر بطاعتِه فائدةٌ؛ لأنَّ كلَّ مَن أمر بما أمَر اللهُ به، فإنَّه مطاعٌ، لا لأمْره، ولكن لأمْر الله؛ فَطاعةُ أمرِ الرَّسول طاعةٌ مُستقلَّة[٥].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: تذييلٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبلَهُ، مع زيادة وعْد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠١).

الرحمةِ، ووضعُ الاسمِ الجليلِ (الله) موضعَ الضَّمير (هو)؛ للإشعارِ باستتباعِ وصْف الأُلوهيَّة للمغفرةِ والرَّحمة[١].

٢- قوله تعالى: ﴿تُحِبُّونَ اللهَ﴾، وقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾، وقوله: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾، وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ﴾، ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾: فيها تَكرارُ الاسمِ الجليل (الله)[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾: فيه إيثارُ الإظهارِ لكلمة ﴿وَالرَّسُول﴾ على إضمارِها بطريق الالتفاتِ من الخِطاب إلى الغَيبة؛ لتعيينِ حَيثيَّة الإطاعة، والإشعارِ بعلَّتها؛ فإنَّ الإطاعةَ المأمورَ بها إطاعتُه عليه الصَّلاة والسَّلام من حيثُ إنَّه رسولُ الله، لا مِن حيثُ ذاتُه، ولا ريبَ في أنَّ عنوانَ الرِّسالة من مُوجباتِ الإطاعةِ ودواعيها[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾

- فيه إظهارُ الاسمِ الجليل (الله)- حيث لم يُضمرْ فيقول: (فإنَّه)-؛ للتعظيمِ وتربيةِ المهابةِ؛ لأنَّ العربَ إذا عَظَّمتِ الشَّيء أعادتْ ذِكرَه[٤]، ولتَعميمِ الحُكمِ لكلِّ الكفرةِ، والإشعارِ بعِلَّتِه[٥].

- وفيه: إيثارُ إظهارِ لفظة ﴿الْكَافِرِينَ﴾ على الإضمارِ- حيث لم يقل: (لا يحبُّهم)-؛ لتعميمِ الحُكمِ لكلِّ الكفَرَة، وللإشعارِ بعلَّته؛ فإنَّ سخطَه تعالى عليهم بسببِ كُفرهم، والإيذانِ بأنَّ التولِّي عن الطاعةِ كفرٌ، وبأنَّ محبَّته عزَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٦٢).
(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤٢٢).

وجلَّ مخصوصةٌ بالمؤمنين[١]، وفيه أيضًا فائدةٌ لفظية وهي مُراعاةُ الفواصِل[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٠٠).

الآيات (٢٢ - ٢٧)

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُحَرَّرًا﴾: عتيقًا لله، مُخلَصًا للعبادة، وأصلُ الحريَّة: خلافُ العبوديَّة، والبَراءةُ من العيبِ والنَّقص[١].

﴿الرَّجِيمِ﴾: المطرودِ عن الخَيرات، وأصل الرَّجم: الرَّميُ بالحجارة، ومنه: رَجمتُ فلانًا بالكلام، إذا شَتمْتَه[٢].

﴿كَفَّلَهَا﴾: ضَمَّها إليه، وأصل الكفالة: تَضمُّن الشَّيءِ للشَّيء[٣].

﴿الْمِحْرَابَ﴾: الموضِعُ العالي الشَّريف، والغُرفة، والمسجدُ، وسيِّدُ المجالس، ومُقدَّمُها وأشرفُها، وصدْرُ المجلس[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)،

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾

﴿ذُرِّيَّةً﴾: مَنصوبةٌ، وفي نصبِها وجهان: الأوَّل: النَّصْبُ على البَدليَّة، والمبدَل منه على هذا الوجه: آدَمُ عليه السَّلام ومَن عُطِف عليه، أو نوحٌ عليه السَّلام ومَن عُطِف عليه، أو الآلانِ فقط (آلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ). الثاني: النَّصبُ على الحاليَّة منهم، وتقديرُه: اصطفاهم حالَ كونِهم مُتناسِبين بعضهم من بعضٍ[(١)].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبر اللهُ تبارَك وتعالَى أنَّه اجتبَى مِن خَلْقِه، واختار من عِبادِه أفرادًا وأُسرًا، امتنَّ عليهم بفضلِه، وأخلَصهم لعبادتِه، فاجتبى آدَمَ ونوحًا عليهما السَّلام فردَينِ، واختارَ إبراهيم وعِمْران وذرِّيَّتهما أُسرتين، فكان هؤلاء هم صفوةَ خَلْقه من العالَمين، وخِيرةَ عباده في الأوَّلين والآخِرين، وجعَلَ الصَّلاحَ والتَّوفيق مُتسلسلًا في ذرِّيَّاتهم؛ فالله تعالى على عِلم تامٍّ بمن يَستحقُّ الاصطفاءَ والاختيارَ من عبادِه؛ فهو السَّميع العليم.

ثمَّ ذكر اللهُ تبارَك وتعالَى نبأ امرأة عِمْران، حيث نذرتْ ما في بطنِها لله متفرِّغًا لعبادته، وخدمةِ بيتِ المقدس، ودَعَتِ الله أنْ يَتقبَّل منها؛ فهو السَّميعُ العليم، فلمَّا ولَدت إذَا بالمولود أُنثى، فاعتذرتْ إلى ربِّها من ذلك؛ لأنَّها كانتْ ترجو أنْ يكونَ مولودها ذكَرًا؛ لأنَّه أقدرُ على الخدمةِ وملازمةِ مكانِ العبادةِ من الأنثى.

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٥٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٥٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٢٩). وينظر كذلك: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٦٤).

ثمَّ أخبرتْ أنَّها سمَّت مولودتَها مريم، وأنَّها تطلُب من الله أنْ يُعِيذَها هي وذرِّيَّتَها من الشَّيطان الرَّجيم، فاستجاب اللهُ دعوتها، وقبِل نذرَها قَبولًا حسَنًا، فأنشأ مريمَ تنشئَةً حسنة، وجعل زكريَّا كافلًا لها، وقائمًا على شؤونها، فكان كلَّما دخَلَ عليها المحرابَ وجَدَ عندها طعامًا وغذاءً، فيتعجَّب من ذلك؛ إذ كيفَ يأتيها هذا الرِّزقُ وهي منقطعةٌ لعبادة الله، حابسةٌ نفسَها على طاعته؟! فيسألها عن ذلك، فتُجيبه أنَّه من عندِ اللهِ، الَّذي يَتفضَّلُ على مَن يَشاء مِن عبادِه بالأرزاقِ والعطايا، ممَّا لا حَصرَ له ولا وإحصاءَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن سبحانه وتعالى أنَّ محبَّته منُوطة باتِّباع الرَّسول، فمَن اتَّبعه كان صادِقًا في دعْوى حبِّه لله، وجَديرًا بأنْ يكونَ محبوبًا منه- جلَّ علاه- أتْبع ذلك ذِكرَ مَن أحبَّهم واصطفاهم، وجَعَل منهم الرُّسلَ الَّذين يُبيِّنون طريقَ محبَّتِه، وهي الإيمانُ به مع طاعته[1]، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ اختار واجتبى آدمَ عليه السَّلام، فخلَقه بيدِه، ونفَخ فيه من رُوحِه، وأَسجدَ له ملائكتَه، وعلَّمه أسماءَ كلِّ شيء، إلى غيرِ ذلك، واختار نوحًا عليه السَّلام، فكان أوَّلَ رسولٍ بعَثه، وجعَل ذُرِّيَّته هم الباقين، واختار إبراهيمَ عليه السَّلام- خليلَ الله- وقومَه[2]، ومنهم الأنبياء الَّذين مِن بعده؛ فهم مِن ذرِّيَّته،

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٣/ ٢٣٧)

(٢) الآل هنا في قوله: ﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ مُتعيِّن للحمْل على رَهْط الرَّجُل وقرابتِه. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣١).

ومنهم محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واختار عِمْرانَ والدَ مريم، وزوجتَه أُمَّ مريم، ومريمَ وابنها عيسى عليه السَّلام؛ اختارَهم وفضَّلهم على العالَمين[(١)].

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾[(٢)] [النساء: ٥٤].

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)﴾.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾.

أي: نَسْلًا بعضُه من بعض، في وراثةِ الاصطفاءِ والإيمانِ، والطَّاعةِ والموالاةِ في الدِّين، والتَّناصُر على الحقِّ[(٣)].

كما قال تعالى لَمَّا ذكَر جملةً من الأنبياء الدَّاخلين في ضِمن هذه البيوتِ الكبار: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[(٤)].

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ يعلَمُ من يستحقُّ الاصطفاءَ فيَصطفيه؛ فهو يسمَعُ أقوالهم، ويَعلَم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

ومعنى قوله: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، أي: على عالَمي زَمانهم، في قول أهل التفسير. وقيل: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: على جميعِ الخَلق كلِّهم؛ وذلك أنَّ هؤلاء رسلٌ وأنبياء؛ فهُم صَفوةُ الخلق. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٦٣).

(٢) هذا المدحُ لهذا المعدن الشريف؛ لِمَا فيهم من الإيمان والعمل الصالح. يُنظر: ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

أحوالَهم، وما في ضَمائرِهم؛ فلذا فضَّلهم واختارَهم[١].

وهذا كقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ﴾[٢] [الدخان: ٣٢].

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾.

أي: واذكُرْ إذ قالت امرأةُ عِمْران: يا ربِّ، إنِّي أوجبتُ على نفْسي أنْ أَجعلَ ما في بطني مفرَّغًا لعبادتك، حبيسًا على خِدمةِ بيتِ المقدس[٣].

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾.

أي: فتقبَّلْ منِّي يا ربِّ، ما نذرتُ لك[٤].

﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّك أنت السَّميعُ لقولي ودُعائي، المستجيبُ له، العليمُ بنيَّتي وقَصْدي[٥].

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)﴾.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٤٨- ٣٤٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ٣٣).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٤).

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾.

أي: فلمَّا ولَدَتِ امرأةُ عِمْران إذَا بالمولودِ أُنثى، فاعتذرتْ قائلةً: يا ربِّ، إنِّي ولَدْتُها أنثى[١].

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَضَعَتْ﴾ قراءتان:

١- (وَضَعْتُ) وتَعني أنَّه من قولِ أمِّ مريمَ وفِعلها[٢].

٢- ﴿وَضَعَتْ﴾ وتَعني الإخبارَ مِن الله عزَّ وجلَّ عن فِعلها[٣].

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

أي: واللهُ أعلمُ مِن كلِّ أحدٍ بما وضعَتْه[٤].

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾.

أي: وليس الذَّكَرُ كالأنثى في القوَّة والجَلَدِ على خِدمةِ بيت المقدس، بالإضافةِ إلى ما يَعتري الأُنثى من الحيضِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٣٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٢) قرأ بها ابن عامر ويعقوب وأبو بكر. ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٣) قرأ بها الباقون. ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٣٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣١)، ((تفسير

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.

أي: وإنِّي جعلتُ اسمَها مريمَ، فأَطلقتْ عليها هذا الاسمَ يومَ ولادتِها[١].

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

أي: وإنِّي أُجيرُها وأولادَها- أي: عيسى عليه السَّلام- بكَ وحْدَك، من الشَّيطانِ المبعَدِ المطرودِ[٢].

وقد استجابَ اللهُ تعالى لها؛ فعن أبي هُرَيرَةَ، رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما من مولودٍ يُولَدُ إلَّا مسَّه الشَّيطانُ حين يُولد، فيستهلُّ صارخًا من مسِّه إيَّاه، إلَّا مريمَ وابْنَها))، ثمَّ يقول أبو هُرَيرَةَ: اقرؤوا إنْ شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٣] [آل عمران: ٣٦].

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

أي: قَبِل اللهُ مريمَ قَبولًا حسَنًا[٤]، ورضِي نَذْرَ أمِّها وإنْ كان أنثى، فيسَّرها

ابن كثير)) (٢/ ٣٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣١)، ((تفسير الخازن)) (١/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٨).

قال ابنُ عثيمينَ: (قالت: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ بناءً على الأصلِ والغالبِ؛ أنَّ الأُنثى تتزوَّج ويكونُ لها ذريةٌ، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ أراد لهذه المرأةِ شيئًا آخرَ).

(٣) رواه البخاري (٣٤٣١) واللفظ له، ومسلم (٢٣٦٦).

(٤) وعُرف هذا القَبول بوحيٍ مِن الله إلى زكريَّا عليه السلام بأنَّه تَقبَّلها؛ ولذلك جعَلوها كما نذَرَتْ.

لليُسرى، وسلَكَ بها طريقَ السُّعداء[١].

﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾.

أي: أنشأَها نشأةً حسنةً في بَدَنِها، وخِلْقتِها، ودِينها، وأخلاقِها[٢].

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ قراءتان[٣]:

١- ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ أي: ضَمَّها اللهُ تعالى إلى زكريَّا[٤].

٢- (وَكَفَلَهَا) أي: ضَمَّها زكريَّا إليه[٥].

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

أي: جعَل اللهُ تعالى نَبيَّه زكريَّا عليه السَّلام كافلًا وضامنًا لها[٦]؛ وذلك بعدَ

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير صديق حسن خان)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢١).

(٣) قال السَّمين الحلبي: (لا مخالفةَ بين القِراءتين؛ لأنَّ الله لَمَّا كَفَّلها إيَّاه كَفَلَها) ((الدر المصون)) (٣/ ١٤٢).

(٤) قرأ بها الكوفيون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٤٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٤٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٤١).

(٥) قرأ بها الباقون. ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٤٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٤٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٤١).

(٦) كان زكريَّا عليه السلام زوجَ خالتها، على ما ذَكره ابنُ إسحاقَ، وابنُ جرير، وغيرهما، وقيل:

أنْ وقَع الخلافُ فيمَن يَكفُل مريم، فاقْتَرعوا، فكانتْ من نصيبِ زكريَّا عليه السَّلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[1] [آل عمران: ٤٤].

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾.

أي: كلَّما دخَلَ عليها زكريَّا عليه السَّلام مكانَ عِبادتها، وجَد عندها طعامًا تتغذَّى به، بلا كَسبٍ ولا تعبٍ؛ فهي منقطعةٌ للعبادة[2]، فيتعجَّبُ ويسألُها عن ذلك؛ كما قال تعالى:

﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾.

أي: قال زكريَّا لمريم: يا مريمُ، مِن أينَ لك هذا الرِّزق[3]؟!

زوج أختها، كما ورد في الصَّحيح: (فإذا بيحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة)، وقد يُطلَق على ما ذكَره ابنُ إسحاق ذلك أيضًا توسعًا، فعلى هذا كانتْ في حضانةِ خالتِها. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٥٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٧).

ذهَب غيرُ واحدٍ من أهل العلم أنَّ معنى ﴿أَنَّى﴾: مِن أين، ومنهم أبو عُبيدة وابنُ عطية وغيرهم. لكن قال النحَّاس: وهذا فيه تساهُلٌ؛ لأنَّ (أين) سؤال عن المواضع، و﴿أَنَّى﴾ سؤال عن المذاهب والجهات. والمعنى: من أيِّ المذاهب، ومن أيِّ الجهات لك هذا. ينظر ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٢). وقال أبو حيَّان: (﴿أَنَّى﴾، سؤال عن الكيفية، وعن المكانِ وعن الزَّمان، والأظهرُ أنَّه سؤالٌ عن الجهة، فكأنَّه قال: من أيِّ جهة لك هذا الرزق؟ ولذلك قال أبو عُبَيدة: معناه من أين؟ ولا يَبعُد أنْ يكون سؤالًا عن الكيفية، أي: كيف تهيَّأ وصولُ هذا الرزق إليك؟) ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٣).

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ هذا الرِّزق مِن عندِ الله؛ فهو الَّذي ساقه إليَّ ورَزَقَنِيه[١].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُعطي الرِّزقَ مَن يشاء من غيرِ إحصاءٍ ولا حصرٍ، ولا عددٍ يُحاسِب عليه[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه اصطفاهم على تمامِ العِلم بهم؛ ترغيبًا في أحوالهم والاقتداءِ بأفعالهم وأقوالِهم[٣].

٢- الحثُّ على طردِ الإعجاب بالنَّفس، وتَرْك الإِدْلالِ على اللهِ بالأعمالِ، وهذا مستفادٌ من قولِ امرأة عِمْران: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾[٤].

٣- كلمة ﴿وَضَعْتُهَا﴾ تُشعِر أنَّ الأمَّ تَتكلَّف الحملَ، وإذا قدَّرنا أنَّ هذا الطِّفلَ الَّذي في بطنِها سيبقَى تِسعةَ شُهور، وهي حاملةٌ له في بطنِها، في أرقِّ ما يكونُ من البدن، قائمةً وقاعدةً، ومستيقظةً ونائمةً، فماذا نَتصوَّر من التَّعب؟! لذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٧)، ((تفسير الماوردي)) (١/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٧)، وينظر أيضًا: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٣) فقد ذكَر في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ثمانيةَ أوجه. وقد ذهَب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ هذه الجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ من قول الله تعالى بعدَ انتهاء كلام مريم، وذهَب آخرون إلى أنَّها من قول مريم. ينظر ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير الماوردي)) (١/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٤٨-٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٧).

فحقُّ الأمِّ على الأولادِ عظيمٌ[١].

٤- اعتذارُ الإنسان عند ربِّه إذا وقَع الأمرُ خلافَ ما أراد[٢]؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾.

٥- لا يَستوي الذُّكورُ والإناث، لا في الطَّبيعة، ولا في الأخلاقِ، ولا في المعاملةِ، بل ولا في الأحكامِ في بعضِ الأحيان[٣]؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾.

٦- بقَدْرِ صلاحِ المربِّي يَكتسبُ مَن يُربِّيه مِن خُلقه وصلاحِه، وفي كفالةِ زكريَّا لمريم فضيلةٌ تَزيدُ من فضائِلها؛ قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[٤].

٧- أعظمُ الشُّكر لرزقِ الله سبحانه وتعالى معرفةُ العبد بأنَّه مِن الله تعالى، إنَّما يَشكُر رِزقَ الله مَن أخَذه مِن اللهِ سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[٥].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- جاء ذكرُ آل إبراهيمَ في قوله: ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ قيل لترغيبِ المعترفين باصطفائِهم في الإيمانِ بنُبوَّة النبيِّ صلَّى الله عليهِ وسلم، واستمالتِهم نحوَ الاعترافِ باصطفائِه بواسطةِ كونِه من زُمرتهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، و((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٥) ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦).

٢- يُؤخذُ من قول أُمِّ مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ جوازُ النَّذرِ في الأمرِ المجهولِ[١].

٣- لَمَّا كان حُسنُ إجابةِ المهتوفِ به الملتجأِ إليه على حسَب إحاطة سَمعِه وعِلمه، علَّلت سؤالَها في التقبُّل بأنْ قصَرَتِ السَّمع والعِلم عليه سبحانه، فقالت: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ أي: وحدَك ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٢].

٤- في قولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ جوازُ تَسميةِ الأطفالِ يومَ الولادةِ، وقبلَ اليومِ السَّابع[٣].

٥- في قولِه تَعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ دلالةٌ على أنَّ للأمِّ تَسميةَ الولدِ إذا لم يَكْرَهِ الأبُ[٤].

٦- مشروعيَّةُ إعاذةِ الإنسانِ أبناءَه بالله عزَّ وجلَّ من الشَّيطان الرَّجيم، ومِن شرِّ الخَلْق؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((المحرر الوجيز)) لابن عطية (١/ ٤٢٥)،
قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((وُلِد لي الليلةَ ولدٌ سميتُه باسمِ أبي إبراهيم)). البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) واللفظ له. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنَّه ذهب بأخيه، حين ولدتْه أمُّه، إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فحنَّكه وسمَّاه عبد الله. البخاري (٥٤٨٠)، ومسلم (٢١٤٤). وقال رجل: يا رسول الله، وُلِد لي ولد، فما أُسمِّيه؟ قال: ((اسم ولدك عبد الرحمن)) البخاري (٦١٨٦). وينظر ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٩).
وهذا على القولِ بأنَّ عمرانَ كان حيًّا وقتَ ولادتِها، وإلا فقد استدلَّ بعضُ أهل العلمِ بانفرادِ امرأة عمرانَ بالتسميةِ على كونِ عمرانَ كان متوفيًا. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٠).

٧- في قوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ بيانُ جوازِ الدُّعاء للمعدوم، فذُرِّيَّتُها لم تأتِ بعدُ[١].

٨- عبَّر عن التَّربيةِ بالإنباتِ في قوله: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ قيل: لبيانِ أنَّ التَّربيةَ فِطريَّةٌ لا شائبةَ فيها[٢].

٩- تطوُّر الإنسانِ في حياتِه بأمرِ الله، وما الغذاءُ والعنايةُ بالطفل إلَّا سببٌ، والله تعالى هو المسبِّبُ، وهو المكوِّنُ للإنسان، والمُنبت له[٣]، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾.

١٠- كلمة ﴿كلَّمَا﴾ تُفيد التَّكرار، وفي ذلك بيانٌ لحُسن كفَالةِ زكريَّا لها، وأنَّه كان يتفقَّدها عند تقديرِ حاجتِها إلى الطَّعام[٤].

١١- في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا...﴾ دليلٌ على إثباتِ كراماتِ الأولياءِ الخارقةِ للعادة[٥].

١٢- في قوله تعالى: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ بيانُ أنَّ الأشياءَ تُضافُ إلى اللهِ وإنْ كان لها سببٌ[٦].

١٣- في قولِ الله تعالى: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، لَمَّا كان الرزقُ لم يأتِ به بشرٌ، ولم يُسْعَ فيه السَّعيُ المعتادُ، قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[٧].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٥٨- ٣٥٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣١).
(٧) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ٦٨-٦٩).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾:**

- ذِكرُ آلِ عمرانَ مع اندراجِهم في آل إبراهيمَ من باب ذِكرِ الخاصِّ بعد العامِّ؛ لإظهارِ مزيدِ الاعتناءِ بتحقيقِ أمْر عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لكمال رُسوخِ الخِلافِ في شأنِه؛ فإنَّ نِسبةَ الاصطفاءِ إلى الأبِ الأقربِ أدلُّ على تحقُّقه في الآل، وأمَّا اصطفاءُ نفْسه عليه الصَّلاة والسَّلام، فمفهومٌ من اصطفائِهم بطريقِ الأَولويَّة، وعدمُ التَّصريحِ به؛ للإيذانِ بالغِنَى عنه لكمالِ شُهرةِ أمرِه في الخُلَّة، وكونه إمامَ الأنبياء، قُدوةَ الرُّسُلُ عليهم الصَّلاة والسَّلام[١].

٢- **قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾** فيه إجمالٌ لـ(بعض) هنا؛ لأنَّ المقصودَ بيان شدَّة الاتِّصال بين هذه الذريَّة؛ فـ(مِن) للاتِّصال لا للتبعيض، أي: بين هذه الذُّرية اتصالُ القَرابة؛ فكلُّ بعضٍ فيها هو متَّصل بالبعض الآخَر[٢].

- وفيها: براعةُ التخلُّص[٣]؛ إذ انتقل من تمهيداتِ سببِ السُّورة إلى واسطةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣١).

(٣) براعة التخلُّص: تعني امتزاجَ آخِر ما يُقدَّم من البَسط في الكلام بأوَّل ما يُستهلُّ به كلام آخَر، ينتقل المتكلِّم انتقالًا رشيقًا دقيقَ المعنى بحيث لا يشعُر السامع بالانتقال من المعنى الأوَّل إلَّا وقد وقع في الثاني؛ لشدَّة الممازجة والالتئام، كأنَّهما أُفرغَا في قالب واحد، أو توطئة بفصل لفصل يُريد أن يأتي به بعده، وإمَّا بنكتة تشير الى معنى الفصل المستقبل. ويُسمَّى معرفة الفصل من الوصل. وهو من أوجُهِ الإعجاز في القرآن، ويَخفى على غير الحذَّاق من ذوي النَّقد. وهو مبثوثٌ في الكتاب العزيز من أوَّله إلى آخره؛ فقد يُوقَف من الكتاب العزيز على مواضعَ تُظنُّ في الظاهر فُصولًا متنافرة، فإذا أُنعم فيها النَّظرُ خصوصًا مع الدُّربة بهذه الصناعة، ظهَر الجمعُ بينهما، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

بين التَّمهيد والمقصِد؛ فهذا تخلُّصٌ لمحاجَّة وفْد نجران؛ فإنَّه سبحانه وتَعالى وطَّأ بهذه الآية إلى سِياق خبَر ميلادِ المسيح عليه السَّلام، فقد خلُص إلى ذِكر امرأة عمران؛ ليسوقَ قِصَّة حمْلها بمريم، وكفالة زكريَّا لها، وذِكْر ولدِه يحيى، وقصَّة حمْلِ مريم بالمسيح، وما تَخلَّل ذلك مِن آياتٍ باهرات، وعِبَرٍ بالغات، وهذا من محاسنِ البَلاغة[١].

٣- **قوله تعالى:** ﴿**رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا**﴾ فيه مناسبةٌ بديعة؛ إذ التعرُّض لوَصفِ الرُّبوبيةِ المنبئةِ عن إفاضةِ ما فيه صلاحُ المربوبِ، مع الإضافةِ إلى ضميرِها، أنسب لإجابة الدُّعاء. وتأكيدُ الجملة بـ(إنَّ)؛ لإبرازِ وفورِ الرَّغبة في مضمونها، وتقديمُ الجارِّ والمجرور لكمالِ الاعتناءِ به[٢].

٤- **قوله عزَّ وجلَّ:** ﴿**إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾ تعليلٌ؛ لاستدعاءِ القَبول لا من حيثُ إنَّ كونَه تعالى سميعًا لدعائها، عليمًا بما في ضميرِها مصحِّحٌ للتقبُّل في الجملة، بل من حيثُ إنَّ عِلمَه تعالى بصحَّة نيَّتها وإخلاصِها مستدعٍ لذلك تفضُّلًا وإحسانًا[٣].

- وفيه تأكيدُ الجملة بـ(إن) و(أنت)؛ لعرضِ قُوَّةِ يَقينها بمضمونِها[٤].

- وفيه قَصرُ صِفتَي السَّمعِ والعلم عليه تعالى؛ لعرْض اختصاصِ دُعائِها

إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ١-٢]...). يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٣٣ وما بعدها)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٤/ ٤٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٩٥-٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

به تعالى، وانقطاعِ حَبل رَجائها عمَّا عداه بالكليَّة؛ مُبالغةً في الضَّراعة والابتهال[١].

٥- **قوله تعالى:** ﴿**إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾ هو تعليلٌ لِمَا قَبلَه، وتحريكٌ لسلسلةِ الإجابة[٢].

٦- **قولها:** ﴿**رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى**﴾ خبرٌ لا يُقصد به الإخبارُ والإعلام، بل التَّحسُّر والتَّحزُّن والاعتذار؛ فهو بمعنى الإنشاءِ[٣].

٧- **قوله تعالى:** ﴿**وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ**﴾ خبَرٌ فيه تعظيمٌ لموضوعها، ومرادٌ منه لازم الفائدة، والقَصدُ منه إفادتُها دون التَّصريح بما سيكون من شأنِ المولودِ الذي لم تَأبَهْ له بادئَ الأمر، وأنَّ الله أعلمُ بالشيءِ الذي وضعتْ، وما علَق من عظائم الأمور، وأنْ يَجعلَه وولدَه آيةً للعالمين، وهي جاهلةٌ بمآلِ أمْرِ هذه المولودة، لا تَعلم منه شيئًا؛ فلذلك تحسَّرتْ[٤].

- وعلى قِراءة ضمِّ التاء في (وضعتُ)، وأنَّه من كلامِ أمِّ مريمَ يكون فيه التفاتٌ من الخِطاب إلى الغَيبة؛ إظهارًا لغاية الإجلال؛ إذ لو جرَتْ على مقتضَى قولها: (رب) لقالت: (وأنت أعلم)[٥].

- وفيه مِن تمامِ البلاغة: الاحترازُ عن كلِّ موهِمٍ لأمرِ خطأ، سواءٌ كان في

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٩٩).

(٥) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٣).

المقال أو في الفِعل، ويُستفاد ذلك من قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ﴾ على قِراءة الضَّمِّ؛ فقد يتوهَّم السَّامع من قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ أنَّها أضافتْ إلى اللهِ عِلمًا لم يكُن حاصلًا له[١].

٨- **قوله:** ﴿**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى**﴾ بدأتْ بذِكْر الأهمِّ في نفْسِها، وإلَّا فسياقُ قصَّتِها يَقتضي أنْ تقولَ: وليستِ الأنثى كالذَّكر، فتَضعُ حرْفَ النَّفي مع الشَّيءِ الَّذي عندها، وانتفَتْ عنه صِفاتُ الكمالِ للغرضِ المراد[٢].

٩- **قوله سبحانه:** ﴿**وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ**...﴾ فيه إطنابٌ، والغرضُ مِن التصريحِ بالتسميَّة التقرُّبُ إلى الله، والازدلافُ إليه بخِدمة بيت المقدس أولًا، ورجاء عِصمتها ثانيًا- فإنَّ مريم في لُغتهم تَعني (العابدة)- وإظهارًا لعزمِها على الوفاءِ بوعْدِها ثالثًا[٣].

١٠- **قوله تعالى:** ﴿**وإنِّي سَمَّيْتُهَا**﴾ ﴿**وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ**﴾ فيه التأكيدُ بقوله: (وإني) وتكرار هذه اللفظة للتأكيد؛ لأنَّ حالَ كراهيتها يُؤذِن بأنها ستُعرِض عنها فلا تشتغل بها، وكأنها أكَّدت هذا الخبر؛ إظهارًا للرِّضا بما قدَّر الله تعالى؛ ولذلك انتقلتْ إلى الدعاءِ لها الدالِّ على الرِّضا والمحبَّة، وأُكِّدت جملةُ أُعيذها مع أنَّها مستعملةٌ في إنشاء الدُّعاء[٤].

١١- **قوله عزَّ وجلَّ:** ﴿**إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ**...﴾ **إلى قوله:** ﴿**وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ تكرَّرت (إنَّ) أربع مرات، وفي الثلاث الأولى كان خبرُها فعلًا ماضيًا (وضعتها- سَمَّيْتُها-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((المحرر الوجيز)) لابن عطية (١/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٤).

نَذَرْتُ)، وفي المرة الرابعة جاءَ الخبرُ بالمضارع، (أُعيذها)، لنُكتة بلاغيَّة، وهي ديمومةُ الاستعاذةِ وتجدُّدها دون انقطاعٍ، بخِلافِ الأخبار السابقة فإنَّها تحقَّقتْ وانقطعت[١].

١٢- قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾:

- قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ جاءتِ الإجابةُ بصِيغة التفعُّل مطابقةً لقولها في الدعاء: ﴿فتقبَّلْ﴾؛ للإشعارِ بالتدرُّج والتطوُّر والتكثُّر، كأنه يُشعِر بأنَّها مزيدٌ لها في كلِّ طور تتطوَّر إليه، ولم تكن إجابته (فقبِلها)، فيكون إعطاء واحدًا منقطعًا عن التواصُل والتتابع؛ فلا تزال بركة تحريرها متجدِّدًا لها في نفسها[٢].

- وقوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾: تفريعٌ على الدُّعاء، مؤذِنٌ بسرعة الإجابة[٣].

- قال سبحانه وتعالى: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ لم يقُل: (فتقبَّلها ربُّها بتقبُّل)؛ لأنَّ ما كان من بابِ التفعُّل فإنَّه يدلُّ على شدَّةِ اعتناءِ ذلك الفاعلِ بإظهارِ ذلك الفِعل، كالتصبُّر والتجلُّد ونحوهما؛ فإنَّهما يُفيدانِ الجدَّ في إظهارِ الصَّبر والجلادة، فكذا هاهنا التقبُّل يُفيد المبالغةَ في إظهارِ القَبول، والعناية العظيمة في تربيتها. فيكون جمَع بين الأمرين: التقبُّل الذي هو الترقِّي في القَبول، والقَبول الذي يَقتضي الرِّضا والإثابة[٤].

- والباء في ﴿بِقَبُولٍ﴾ للتأكيدِ، وأصلُ نظْم الكلام: فتَقبَّلها قَبُولًا حَسنًا، فأُدخِلت الباءُ على المفعول المطلَق؛ ليصيرَ كالآلة للتقبُّل، فكأنَّه شيءٌ ثانٍ،

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١٢).

وهذا إظهارٌ للعناية بها في هذا القَبول[١].

١٣- **قوله عزَّ وجلَّ**: ﴿رِزْقًا﴾ جاء بالتنكير؛ لإفادةِ الشُّيوعِ والكثرة، وأنَّه ليس من جِنسٍ واحد، بل من أجناسٍ كثيرة[٢].

١٤- **قوله**: ﴿إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ...﴾ تعليلٌ لكونِه من عند الله[٣]، مع ما فيه من تأكيدِ الخبر بـ(إنَّ) واسميَّة الجُملةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١٣).

الآيات: (٣٨ - ٤١)

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَصُورًا﴾: أي: لا يَأتِي النساء؛ لعفَّتِه واجتهادِه في إزالةِ الشَّهوةِ، كأنَّه محصورٌ عنهنَّ، أي: محبوسٌ عنهنَّ، وأصلُ الحَصْر: الجَمْعُ والحبْسُ والمنعُ[(١)].

﴿عَاقِرٌ﴾: عقيمٌ، وهي الَّتي لا تَلِد، وأصل العقر: الجرح[(٢)].

﴿رَمْزًا﴾: وحيًا وإيماءً، أو إشارةً، أو تحريك الشَّفتينِ باللَّفظ من غيرِ إبانةٍ بصوتٍ، وقد يكونُ إشارةً بالعينِ والحاجبَينِ[(٣)].

﴿بِالْعَشِيِّ﴾: آخِر النَّهار، أو مِن زوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباح، وقيل: إلى أنْ تَغيبَ الشَّمس[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٥، ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧).

﴿وَالْإِبْكَارِ﴾: أوَّل النَّهار، أو مِن مَطلعِ الفجرِ إلى وقتِ الضُّحى[١].

المَعنَى الإجماليُّ:

حينما رأى زكريَّا عليه السَّلام ما امتنَّ الله به على مريمَ من كرامات، طَمِع في فضْل الله، وتاقتْ نفسُه للولد، فدعا ربه قائلًا: ربِّ، أعطِني مِن عِندك، وهَبْ لي من فَضْلك، ذرِّيَّةً صالحةً طيِّبة؛ إنَّك سميعٌ لدُعائي، مجيبٌ له.

فاستجاب الله له دُعاءَه، فجاءتْه الملائكةُ تبشِّره بمولودٍ يُولد له اسمُه يَحيى، وله صفاتٌ عظيمةٌ، وخصالٌ جليلة؛ فهو مصدِّقٌ بعيسى عليه السَّلام، وسيِّدٌ على قومه، يسُودُهم بما أنعم الله به عليه من خِصالٍ حميدةٍ، وخُلقٍ فاضل، وعِلمٍ ودِين، وهو منقطعٌ للعبادة بكلِّيَّته، مبالغٌ في منْعِ نفْسِه عن التمتُّع بما أحلَّ الله، ممَّا تشتهيه النفوسُ عادةً، حتى الزَّواجِ بالنِّساء، وبشَّرته الملائكةُ أيضًا بأنَّه يكون نبيًّا من الصَّالحين.

وهنا يتعجَّب زكريَّا عليه السَّلام من قُدرةِ اللهِ الكاملة، فيتساءَلُ عن كيفيَّةِ حُصولِ هذا مع كِبَر سنِّه، وكون امرأتِه عاقرًا لا تلِدُ! فيأتيه الجوابُ: إنَّ الله يفعلُ ما يشاء.

ويَطلُب زكريَّا عليه السَّلام من الله آيةً وعلامةً دالَّةً على وجودِ هذا الولد، تحصُل له بها الطُّمأنينةُ، فيُخبره الله تبارَك وتعالَى أنَّ علامة ذلك انحباسُ لِسانِه عن كلام النَّاس، لا عن مَرضٍ ولا آفةٍ، ويتعامَلُ معهم عن طريقِ الإشارة والرَّمز، مدَّةَ ثلاثةِ أيَّام بلياليها، ويأمره أنْ يُكثِرَ من ذِكر ربِّه، وتعظيمِه وتنزيهِه في آخِرِ النَّهارِ وأوَّله.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ(٣٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رأى زكريَّا عليه السَّلام ما منَّ الله سبحانه به على مريمَ، وما أكرمَها به من رِزقه الهَنِيء الَّذي أتاها بغيرِ سعيٍ منها ولا كسبٍ، طمعتْ نفسُه في الولدِ مع كونه شيخًا كبيرًا قد وهَن عَظمُه، واشتعلَ رأسه شيبًا، وكانتِ امرأتُه مع ذلك كبيرةً وعاقرًا[١]؛ قال تعالى:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾.

أي: في ذلك المكانِ الَّذي وجَدَ فيه زكريَّا ذلك الرِّزقَ عند مريم، سأل ربَّه وناداه نداءً خفيًّا[٢].

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

أي: قال: يا ربِّ، أَعطِني من عندك ولدًا[٣] صالحًا مبارَكًا[٤].

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

أي: ذو سَمعٍ لدعاءِ مَن دعاك، ومجيبٌ له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٢).

(٣) الذُّريَّة جمْع، وهي في هذا الموضِع للواحد؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال في موضع آخَر مخبرًا عن دعاء زكريَّا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥] ولم يقل: (أولياء)، فدلَّ على أنه سأل واحدًا، وإنما أنَّث ﴿طَيِّبَةً﴾ لتأنيث الذريَّة. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٢)، ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٣).

قال الله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٢- ٦].

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)﴾.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾.

أي: فاستجاب اللهُ دُعاءَه، وأرسل إليه جماعةً من الملائكة[١]، تُبشِّره بذلك، فنادتْه حالَ قيامِه مُصلِّيًا في مكان عبادتِه[٢].

﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾.

أي: إنَّ الله يبشِّرُك يا زكريَّا بمولودٍ مِن صُلبك اسمُه يحيى[٣].

---

(١) واختار ذلك ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٣٦٥)، والقرطبي في ((تفسيره)) (٤/ ٧٤).
وممَّن قال من السلف بهذا القول: قتادة، والربيع بن أنس، وعكرمة، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٥).
ونَسَب ابنُ عطية إلى جمهور المفسرين القولَ بأنَّ المراد بالملائكة هاهنا: جبريلُ عليه السلام. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٨).
وممَّن قال بهذا القول: مقاتل، والسُّدِّي. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٢٧٨).
وذهَب ابنُ عاشور وابنُ عثيمين إلى أنَّه يجوز أن يكون الذي ناداه جماعةٌ من الملائكة. ويجوز أن يكون الذي ناداه مَلَكًا واحدًا وهو جبريلُ عليه السلام. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٥، ٣٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧).
قيل: إنَّ مُقتضى قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾، والتفريع عليه بقوله: ﴿فَنَادَتْهُ﴾: أنَّ المحرابَ محرابُ مريم، فالله أعلم. يُنظر:((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٩).

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: مُصدِّقًا بعيسى عليه السَّلام[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ...﴾ [النساء: ١٧١]، وقال: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾[٢] [آل عمران: ٤٥].

﴿وَسَيِّدًا﴾.

أي: يسُودُ قومَه، ويَفُوقهم بخِصالِه الجَميلةِ، وعِلمه ودِينه[٣].

﴿وَحَصُورًا﴾.

أي: ممتنِعًا من قُربِ النِّساء[٤]، وعن كلِّ ما تَشتهيه النفوسُ عادةً ممَّا أحلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٤).
وهذا القول هو قولُ أكثر المفسِّرين، يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٣).
وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة والحسن وقتادة والسُّدِّي والرَّقَاشي، وجابر بن زيد، والربيع بن أنس، والضحَّاك. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٤٢).
قال ابن أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس يعني في قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾، قال: عيسى بن مريم صلَّى الله عليه وسلَّمَ كلمةٌ من الله، يعني تكوَّن بكلمةٍ من الله)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٤٢).

(٢) قيل لعيسى عليه السلام: (كلمة); لأنَّ الله أَوْجَده بكلمةٍ هي قوله (كن) فكان. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٥).

(٤) قال ابنُ عطية: (أجمَع مَن يُعتدُّ بقوله من المفسِّرين على أنَّ هذه الصفة ليحيى عليه السلام إنَّما هي الامتناع من وطْء النساء، إلَّا ما حكَى مكي من قول من قال: إنَّه الحصور عن الذنوب، أي:

الله؛ لانقطاعِه لعبادةِ الله[١].

﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي: نبيًّا كائنًا من جملة الصَّالحين، وهذه بِشارةٌ ثانيةٌ بنبوَّةِ يحيى عليه السَّلام، وهي أعْلى مِن البِشارةِ الأُولى بولادتِه[٢].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لمَّا سمِع زكريَّا عليه السَّلام البِشارةَ بوجود الولد، أخَذ يتعجَّبُ من كمال قدرةِ الله[٣].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾.

أي: قال زكريَّا: يا ربِّ، كيف يكون لي غلامٌ[٤]؟

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾.

أي: وقد كبِرْتُ، وبلغتُ سنًّا مَن بلغها لم يولد له[٥].

لا يأتيها)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٤).

أمَّا قول مَن قال: إنَّ الحصور فعول بمعنى مفعول، وأنَّه محصور عن النساء؛ لأنَّه عِنين لا يقدر على إتيانهن، فليس بصحيح؛ لأنَّ العُنَّة عيب ونقص في الرجال، وليست مِن فِعله حتى يُثنَى عليه بها؛ ولأنَّ (فعولًا) في اللغة من صِيغ الفاعلين. ويُنظر: ((تفسير القرطبي))، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٨١).

﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

أي: وامرأتي لا تلِدُ[١].

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

أي: مِثْلَ ذلك الفعلِ، وهو إيجادُ الولدِ مِن الشَّيخ الكبير والمرأة العاقر، يفعل اللَّه ما يشاء مِن الأفعال العجيبة[٢].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)﴾.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾.

أي: قال زكريَّا: يا ربِّ، اجعَلْ لي علامة تدلُّ على وجود الولَد منِّي[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٨١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٥).
وفي معنى هذا الاستفهامِ وجهان: أحدهما أنَّه سأل: هل يكون له الولدُ وهو وامرأتُه على حاليهما، أو يُردَّانِ إلى حال مَن يلد؟ والثاني سأل: هل يُرزق الولد من امرأته العاقِر، أو من غيرها؟ يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٩).
وقال السعديُّ في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: (فهذانِ مانعان، فمن أيِّ طريق- يا رب- يحصل لي ذلك، مع ما ينافي ذلك؟!) ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦٦).
وقال أيضًا في تفسير سورة مريم: (فحينئذٍ لَمَّا جاءتْه البشارةُ بهذا المولود الذي طلبه استغرب وتعجَّب، وقال: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ والحالُ أنَّ المانعَ من وجودِ الولد، موجودٌ بي وبزوجتي؟ وكأنَّه وقتَ دُعائِه لم يستحضر هذا المانع لقوَّة الواردِ في قلبِه، وشِدَّة الحرصِ العظيمِ على الولد، وفي هذه الحالِ- حين قُبِلَتْ دعوتُه- تعجَّب من ذلك) ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٦).

﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾.

أي: قال: العلامةُ الَّتي تدلُّك، أنَّك ينحبِسُ لسانُك، فلا تستطيع النُّطقَ أو مخاطَبَةَ النَّاس إلَّا إشارة[١]، مدَّةَ ثلاثة أيَّامٍ بلياليها، مع كونك سويًّا صحيحًا[٢].

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾.

أي: وأكثِرْ من ذِكر ربِّك؛ فإنك لا تُمنَعُ ذِكرَه[٣].

﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

أي: وعظِّم ربَّك بعبادته، منزِّهًا له عمَّا لا يليق به آخرَ النَّهار وأوَّله[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُؤخذ من قوله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ أنَّ الخَلْقَ كلَّهم- بما في ذلك الأنبياء- مفتقِرون إلى الله، لا يَستغنُون عن دُعائِه[٥].

٢- في قوله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ...﴾ بيان أنَّ الحكمةَ ضالَّةُ المؤمن، وأهل النُّفوس الزَّكيَّة يَعتبرون بما يرَوْن ويسمَعون[٦].

---

(١) وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، وابن إسحاق، ابن زيد، وعبد الله بن كثير، وسعيد بن جُبَير، وأبو عبد الرحمن السلمي والحسن، والضحَّاك، ومحمد بن كعب، وقتادة، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، وزيد بن أسلم. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٨٩)، و((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٨).

٣- على الإنسانِ ألَّا يسألَ مُطلَقَ الذُّرِّيَّة؛ لأنَّ الذُّرِّيَّة قد يكون منها نكَدٌ وفتنةٌ، بل عليه أنْ يسألَ اللهَ الذُّرِّيَّةَ الطَّيِّبة؛ فزكريَّا عليه السلامُ حين سأل ربَّه الوَلَدَ تحرَّزَ فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾، وقال: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[مريم : ٦]، والوَلَدُ إذا كان بهذه الصِّفةِ نَفَعَ أبويه في الدُّنيا والآخرةِ، وخَرَجَ من حدِّ العداوةِ والفتنةِ إلى حَدِّ الـمَسَرَّةِ والنِّعمَةِ(١).

٤- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أنَّه يَنبغي للإنسان أنْ يفعلَ مِن الأسبابِ ما يجعل ذُرِّيَّته طيِّبةً، ومن ذلك الدُّعاء(٢).

٥- التَّوسُّل إلى الله تعالى بأسمائِه المناسِبةِ للحاجةِ؛ وذلك مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾(٣).

٦- على الإنسانِ أنْ يبحثَ عمَّا يَزيدُ به الإيمان؛ لأنَّه مطلوبٌ منه أنْ يقوِّيَ إيمانه بكلِّ وسيلة، وذلك من قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾(٤).

٧- يَنبغي للإنسان إذا انقطَعَ عن النَّاس أنْ يَشغَلَ وقتَه بذِكر الله عزَّ وجلَّ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾(٥).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ إثباتٌ للقياس؛ لأنَّه لَمَّا رأى أنَّ الله يَرزُقَ هذه المرأةَ بدون سببٍ معلوم، علِم أنَّ الَّذي يسُوقُ لها الرِّزق- وهي امرأةٌ منقطعةٌ عن التَّكسُّب في محرابها- قادرٌ أنْ يرزُقَه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٧).

٢- في قوله ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾: أُضيفتِ العِنديَّة إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ليكون أبلغَ وأعظمَ؛ لأنَّ هديَّةَ الكريم أكرمُ[١].

٣- يُؤخذُ من قوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ جوازُ تكليمِ المصلِّي، إلَّا أنَّ المكلَّمَ في صَلاتِه لا يُخاطِب الآخَرَ، وإنَّما يُجيبه إشارةً[٢].

٤- مشروعيَّةُ تبشيرِ الإنسانِ بما يَسُرُّه، ومن ذلك استحبابُ بشارةِ مَن وُلِد له ولدٌ وتَهنِئَتُه؛ وذلك لقول اللهِ تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا﴾[٣].

٥- قوله: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ عاقرٌ: خبَر لامرأتي، وإنَّما جاء بصِيغة المذكَّر، وحقُّه التأنيثُ؛ لأنَّ (عاقر) مشتقٌّ من العقر، وهو مَن لا يُولَد له؛ رجلًا كان أو امرأةً. وقيل: جاء ذلك على النَّسَب، أي: وامرأتي ذات عَقرٍ، وهي بمعنى مفعول، أي: معقورة؛ ولذلك لم تُلحَقْ تاءَ التَّأنيثِ[٤].

٦- بيانُ أنَّ الممكِناتِ داخلةٌ تحت قدرةِ الله تعالى، وإن عزَّ وقوعُها في العادة[٥].

٧- لا حرَجَ أنْ يطلُبَ الإنسانُ ما تطمئنُّ به نفْسُه؛ فزكريَّا عليه الصلاة والسَّلام لم يَشُكَّ في خبَرِ الله، لكن أراد أنْ يَتقدَّم إليه الفرحُ والاستبشار بقوَّة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص:٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٥٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤١، ٢٤٢).

البراهين، وكلَّما ازدادتُ البراهين ازدادت قوَّة اليقين[١] كما في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلَ لِي آيَةً﴾.

٨- جوازُ وصفِ الإنسانِ بما يكرهُ إذا كان المرادُ مجرَّدَ البيان لا القدحِ والعيبِ، كما في قوله: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾[٢].

٩- في قوله ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ بيانُ أنَّ الله كما يمنعُ نفوذَ الأسباب مع وجودِها، فإنَّه يُوجِدها بدون أسبابها؛ ليدلَّ ذلك أنَّ الأسبابَ كلَّها مندرجةٌ في قضائِه وقدَره[٣].

١٠- في قوله: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ دليلٌ على أنَّ الإشارةَ تقومُ مقامَ العبارة[٤].

١١- قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الآية فيها دليلٌ على جوازِ إطلاق السَّيِّدِ على مَن ساد من النَّاس، وقد جاء في الصَّحيحينِ وغيرهما من حديثِ أبي بكرةَ، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال في الحسَنِ بن علي رضِي اللهُ عنهما: ((إنَّ ابْنِي هذا سيِّدٌ...))[٥] الحديث[٦].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى**: ﴿**دَعَا رَبَّهُ**﴾، و﴿**قَالَ رَبِّ**﴾ فيه تكرارُ لاسمِ الربِّ الجليل[٧]، وهو مِن الإظهارِ في موضِع الإضمارِ، وفائدتُه: بيانُ شدَّة تعلُّق زكريا عليه السلام بالله تعالى، ولمناسبةِ ما في الربوبيَّةِ من معاني الإحسانِ المناسبة لمِثل حالتِه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٣).
(٥) رواه البخاري (٢٧٠٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٤).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤٢).

٢- **قوله عزَّ وجلَّ**: ﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ**﴾ عبَّر بالفاء التي للتعقيب في ﴿فَنَادَتْهُ﴾؛ للدلالةِ على السُّرعة في استجابة دَعوتِه[١].

- وعبَّر بالجمع ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾، وإنْ كان المنادِي له واحدًا (جبريل)؛ تعظيمًا له، ولأنَّه عظيمٌ في الملائكة، فأسند النِّداء إلى الكلِّ مع كونِه صادرًا عنه خاصَّةً، وهو من بلاغةِ التعبير، وهذا على القولِ بأنَّ المرادَ بالملائكةِ جبريل[٢]؛ فيكون مِن قَبيلِ العامِّ المرادِ به الخُصوص.

٣- **قوله تعالى**: ﴿**أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ**﴾ في تَكرار اسمِ الله تعالى[٣]، وإظهاره في موضِع الإضمارِ؛ لتربيةِ المهابة.

٤- **قوله عزَّ وجلَّ**: ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ**...﴾ فيه إطنابٌ، وإعادةٌ للكلام؛ وذلك أنَّه ربَّما أعاد السؤالَ ليُعيد ذلك الجواب، فحينئذٍ يلتذُّ بسَماعِ تلك الإجابة مرةً أخرى[٤].

- قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾: استفهامٌ غرضُه الاستبعادُ من حيثُ العادة، أو الاستعظامُ، أو التعجُّبُ قُصِد منه تعرُّفُ إمكان الولد؛ لأنَّه لَمَّا سأل الولدَ فقد تهيَّأ لحصول ذلك، أو يكون استفهامًا حقيقيًّا عن كيفية حُدوثِه[٥].

- في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: عبَّر بهذا التعبير ﴿بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾، ولم يقل: (قدْ كبِرت)؛ لإظهارِ تمكُّن الكِبرِ منه كأنَّه يَتطلَّبه، حتى بلغه[٦].

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٢).

- وقوله سبحانه: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: فيه تأكيدٌ لحالِ الاستبعاد، حيثُ ذكَر زكريَّا عليه السَّلام كِبَرَ نفْسِه، مع كونِ زوجتِه عاقرًا[1].

- وقدَّم زكريَّا عليه السَّلام في هذه السُّورةِ حالَ نفْسِه، وأخَّر حالَ امرأتِه، وفي سورة مريمَ عكَس فقال: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، فقدَّم هنا ذِكر ﴿الكِبَر﴾ على ذِكرِ المرأة، وعكَس في (مريم)؛ لأن الذَّكَر مقدَّمٌ على الأُنثى، فقدَّم كِبَره هنا، ومناسبة ذلك: أنَّ صدْر الآيات في مريم مطابقٌ لهذا التركيب؛ لأنَّه قدَّم وهَنَ عظْمه، واشتعالَ شَيْبه، وخِيفةَ مواليه مِن ورائهِ، وقال: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾، فلمَّا أعاد ذِكرَهما في استفهامٍ آخَر ذكَر الكِبَر؛ ليوافقَ ﴿عتيًّا﴾ رُؤوسَ الآي، وهو بابٌ مقصودٌ في الفصاحةِ يترجَّح إذا لم يُخِلَّ بالمعنى، والعطفُ هنا بالواو، فليسَ التقديمُ والتأخيرُ مُشعِرًا بتقدُّم زمانٍ، وإنَّما هذا من بابِ تقديمِ المناسِب في فَصاحة الكلام، فاستدعتْ مقاطعُ آياتِ سورة مريم وفواصلُها- ﴿... زَكَرِيَّا﴾ ﴿خَفِيًّا﴾ ﴿حَيًّا﴾ ﴿نَبِيًّا﴾- ما يَجري على حُكمها ويُناسبها؛ فاقتضتْ مناسبةُ آي هذه السورة وُرودَ قِصَّة زكريَّا عليه السَّلام على ما تقدَّم[2].

٥- **في قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾** عبَّر عن المولودِ والطِّفل بالغلام- والغلامُ هو الشابُّ الفتيُّ السِّنِّ من الناس، وهو الذي طرَّ شاربُه-؛ على سبيلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((البُرهان في توجيه متشابه القرآن)) للكرماني (ص: ٨٩)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٣٦- ١٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٥٩)، ((فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن)) لزكريا الأنصاري (١/ ٨٥).

التفاؤل بما يؤولُ إليه[١].

٦- **قوله عزَّ وجلَّ:** ﴿**وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا**﴾ أي: في أيَّام الحُبسة، وهو مؤكِّدٌ لِمَا قبله، مُبيِّن للغرضِ منه، وتقييدُ الأمرِ بالكثرةِ يدلُّ على أنَّه لا يُفيد التَّكْرار[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦٠)، وفيهما أنه يُطلق (الغلام) أيضًا على الكهْل باعتبار ما كان عليه.

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦).

الآيات (٤٢ - ٤٤)

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ اقْنُتِي ﴾: دَاوِمِي على الطَّاعةِ، والقُنُوتُ: دوامُ الطَّاعة ولزُومُها مع الخُضوع، وأصل (قنت): يدلُّ على طاعةٍ وخيرٍ في دِين، ثم سُمِّي كلُّ استقامةٍ في طريقِ الدِّينِ قنوتًا[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يَقصُّ الله تبارَك وتعالَى على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما كان من شأنِ مريم عليها السَّلام؛ إذ نادتْها الملائكةُ فقالت لها: يا مريمُ، إنَّ الله اجتباكِ واختاركِ وطهَّركِ في الخُلق والدِّين، وفضَّلكِ على نِساء العالَمين، يا مريم، إنَّ هذا الاصطفاءَ والتَّطهيرَ نعمةٌ كبيرةٌ من الله تستحقُّ منكِ الشُّكر، فلتكنْ عبادتُكِ خالصةً لله وحده، وداوِمِي عليها، وصلِّي مع المصلِّين العابدين الخاشعين.

ثمَّ قال الله تبارَك وتعالَى لرسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ كلَّ ما تقدَّم ذِكرُه من أَنباءٍ وقَصصٍ هي أخبارٌ خَفيَّة غَيبيَّة، لم تكُن تعلمها أنتَ ولا قومُك، ونحن قَصَصْناها عليك؛ لتكونَ شاهدًا وبرهانًا على صِدْق ما جئتَ به، ولم تكن- يا محمَّدُ- حاضرًا حين اجتمع زكريَّا وقومه واقترَعوا في شأنِ مريم؛ لينظروا أيُّهم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢، ٤٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٧) (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤- ٦٨٥)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥ وما بعدها)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

يكفُلُها ويُضمُّها إليه، واختصَموا في أمرها، وإنَّما جاءَك خبرُ هذا بالوحي، وإلَّا لَمَا علمت به، ولا وصَلك نبؤُه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾.

أي: واذكُرْ إذ قالتِ الملائكة: يا مريمُ[(١)].

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ اختارَكِ وطهَّركِ في خُلُقِكِ ودِينكِ[(٢)].

﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: اختارَكِ على نِساءِ العالَمين[(٣)] وفضَّلكِ عليهنَّ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٤).
والمراد بالملائكة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾: الجِنس؛ إذ ليس المرادُ كلَّ الملائكة، بل المراد إما جماعةٌ من الملائكةِ أو واحدٌ منهم، وهو في الغالبِ جبريلُ، وتقدَّم ذكرُ الخلافِ في ذلك.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٥).
وممَّن قال بهذا القول من السَّلف الصالح: مجاهد. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٤٧).

(٣) وهذا الاصطفاء إمَّا على عالَمي زمانها- وعزاه الواحديُّ للأكثر، واختاره ابن جرير- أو مطلقًا، ومشاركة أفراد من النساء في ذلك كخديجة وعائشة وفاطمة، لا يُنافي الاصطفاء المذكور، وقيل: إنْ جعلْنا ﴿الْعَالَمِينَ﴾ عامًّا فيمَن تقدَّم وتأخَّر جعلنا الاصطفاء مخصوصًا في أمر عيسى عليه السلام، وأنَّها اصطُفِيت لتلدَ من غير فحلٍ، وإنْ جعلنا الاصطفاء عامًّا جعلنا قوله تعالى: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ مخصوصًا في عالم ذلك الزمان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان في هذا الاصطفاءِ والتَّطهير لمريمَ من النِّعمة العظيمة، والمِنحةِ الجَسيمةِ، ما يُوجِب لها القيامَ بشُكرها، قالت لها الملائكةُ[1]:

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾.

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾.

أي: قالت الملائكةُ أيضًا: يا مريمُ، أخلِصي الطَّاعة لربِّكِ وحده، وداومِي على عبادتِه[2].

﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

أي: وصَلِّي، وكوني مع الخاشعين العابدين المصلِّين[3].

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

أي: هذه الأخبارُ الَّتي تَقدَّم ذِكرُها عن امرأةِ عِمْران وابنتِها مريم وزكريَّا وابنه

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٧)، ((أعلام الموقعين)) لابن القيِّم (٢/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٧).
وممَّن قال بنحو ذلك من السلف: سعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادة والسُّدِّي. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٩، ٤٠٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٤٨)، ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور)) للسيوطي (٢/ ١٩٥).
قال أبو حيان: (لا خلافَ بينَ المفسِّرين أنَّ المناديَ لها بذلك الملائكةُ الذين تقدَّم ذكرُهم) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٠)، ((تفسير الراغب)) (٢/ ٥٥٦)، ((التفسير القيم لابن القيِّم)) لمحمد أويس الندوي (ص: ٢١٦)، ((تفسر السعدي)) (ص: ٩٦٦).

يحيى عليهما السَّلام من أخبارِ القوم الخفيَّة، الَّتي غابتْ عنكَ وعن قومِك فلم تَطَّلعوا عليها، نقصُّها عليك ونخبرُك بها؛ دليلًا على نُبوَّتِك، وتحقيقًا لصِدْقِك[١].

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

أي: وما كنتُ- يا محمَّدُ- عند زكريَّا وقومِه حين اقترَعوا في شأنِ مريمَ بإلقاء أقلامِهم[٢]؛ ليَنظروا أيُّهم يَكفُلُها، ويَضمُّها إليه[٣].

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

أي: وما كُنتَ عندَهم حالَ اختصامِهم أيُّهم أحقُّ بها، فلولا أنَّ الله أَوحى إليك ذلك لَمَا كان لك علمٌ به[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- كلَّما مَنَّ اللهُ سبحانه وتعالى على إنسانٍ بشيءٍ مِن نِعَمه كان مُطالَبًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦١).

(٢) ظاهر القرآن: أنَّ المرادَ بالأقلامِ الأقلامُ حقيقةً التي يُكتب بها، وقيل: هي التي كانوا يَكتُبون بها التوراةَ كانوا يَقترِعون بها في المشكلات. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٢).

قال ابنُ جرير: (في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤٤] دلالةٌ على محذوف من الكلام، وهو: لينظروا أيُّهم يكفُلُ، وليتبيَّنوا ذلك ويَعلموه).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٣).

الظاهر أنَّ الاختصام كان قَبل إلقاء الأقلام، لكن أُخِّر في الذكر؛ قيل: لمناسبة رؤوس الآيات ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، أو لأنَّ الله سبحانه وتعالى ذكر النتيجة قبل المقدمة وقبل السبب؛ لأنها هي الغاية، فإنَّ إلقاء الأقلام والسهام، هو غاية الاختصام. ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٣).

بالعبادة أكثرَ؛ شُكرًا على ما أنعم اللهُ عليه به[١]؛ كما قال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي..﴾ بعدَ إخبارِها بالاصطفاءِ والتَّطهير.

٢- يُؤخذُ من قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ...﴾ أنَّ مَن اعتقد أنَّه مكرَّمٌ اجتهدَ في المحافظةِ على كرامتِه، وتَباعَد أشدَّ التَّباعُدِ عن كلِّ ما ينقص منها[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في أمر الله نبيَّه أنْ يَذكرَ قصَّة مريم لهذه الأمَّة تعظيمٌ لشأنها[٣].

٢- في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ﴾، ذَكَرَ اللهُ الاصطفاء مرَّتين؛ فالأوَّل يَرجِع إلى الصِّفات الحميدة، والأفعال السَّديدة؛ فهو اصطفاء ذاتيٌّ، وهو جَعلُها منزَّهةً زكيَّة، والثَّاني: يرجع إلى تفضيلها على سائر نساءِ العالَمين، سواءٌ على عالَمِي زمانها، أو مطلقًا، وإن شارَكها أفرادٌ من النِّساء في ذلك؛ فلذلك لم يُعَدِّ الأوَّلَ إلى متعلِّق، وعدَّى الثَّاني[٤].

٣- الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿لِرَبِّكِ﴾ ربوبيَّة خاصَّة، تختصُّ بمن خصَّها اللهُ به، وتُفيد تربيةً واعتناءً واختصاصًا أكثرَ من الرُّبوبيَّة العامَّة[٥].

٤- في النَّصِّ على السُّجودِ والرُّكوع رغمَ دُخولِهما تحت القنوت: بيانٌ لفضيلتِهما، ولدلالتهما على غاية الخضوعِ لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَاسْجُدِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠). وقيل: كرَّر الاصطفاء؛ لأنَّ معنى الأول الاصطفاء لعبادته، ومعنى الثاني لولادة عيسى. ينظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٧).

وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣][(١)].

٥- قدَّم السُّجود على الرُّكوع في قوله: ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾؛ لعدة أوجه:

- منها: أنَّه أبلغُ في القنوت[(٢)].

- ومنها: أنه لَمَّا قدَّم الإخلاص الَّذي هو روحُ العبادة في قوله: ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾، أتبَعَه السُّجود الَّذي هو أشرفُها[(٣)].

- ومنها: أنَّ المقامَ هنا مقامُ شُكر، والسُّجود أدخلُ في الشُّكر، ولأنَّ السُّجود مختصٌّ بنوعٍ من الرُّتبة والفضيلة، وهي كونُ العبد فيه أقرَبَ ما يكون من ربِّه، فقدَّمَه لِفَضْلِه[(٤)].

٦- في قوله: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، ولم يقل: مع الرَّاكعات؛ قيل إشارةً إلى أنَّ الكمالَ في الرِّجال، وكثرة العمل في الرِّجال أظهرُ منها في النِّساء، وأنَّ العُبَّاد من الرِّجالِ أكثرُ من العُبَّاد من النِّساء، أو لأنَّ قوله: ﴿الرَّاكِعِينَ﴾ أعمُّ إذ يشمل الرجال والنساء على سبيل التغليب[(٥)].

٧- في قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ إيماءٌ إلى خلوِّ كتبِهم عن بعض ذلك، وإلَّا لقال: وما كنتَ تتْلو كُتُبَهم[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦١).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢١٨) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٤)، وينظر أيضًا: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٦٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٥).

٨- مِن طُرُق الأَحكام: الحُكمُ بالقُرعةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾؛ فنبيُّ اللهِ زكريَّا استَعْمَل القُرعةَ، وقدِ احتجَّ الأئمَّةُ الأربعةُ بشَرْعِ مَن قَبْلَنا إنْ صحَّ ذلك عنهم[١].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾** فيه تَكريرُ التَّذكيرِ في قولِه: ﴿وَإِذْ﴾[٢]؛ للإشعارِ بمزيدِ الاعتناءِ بما يُحكَى مِن أحكامِ الاصطفاءِ، والتَّنبيهِ على استقلالِها وانفرادِها عن الأحكامِ السَّابقة؛ فإنَّها من أحكامِ التربيةِ الجُسمانيَّة اللائقةِ بحال صِغَر مريمَ، وهذا من بابِ التربيةِ الرُّوحانيَّة بالتكاليف الشرعيةِ المتعلِّقة بحال كِبَرها[٣].

- وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾: فيه تأكيدُ الجُملةِ بـ(إنَّ)، وكَرَّر الاصطفاءَ رفعًا من شَأنِها، أو كرَّره للتَّوكيدِ، أو ليُبيِّن مَنِ اصْطفَاها عليهنَّ، أو كرَّر الاصطفاءَ؛ لأنَّ كِلَا الاصطفائَينِ يَختلِفُ معناهما[٤]، أو كرَّرَ مناقِبَ مَريمَ عليها السَّلام في قولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾؛ لأنَّ أوْصافَ الكمالِ كلَّما كُرِّرتْ ظهَر مِن كَمالِ المَوصوفِ ما لم يكُن مَعلومًا من قَبلُ[٥].

٢- **قوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي﴾** فيه تكريرُ النِّداءِ؛ للإيذانِ بأنَّ

---

(١) يُنظر: ((الطرق الحكمية)) لابن القيم (ص:٢٤٥).

(٢) لأنَّ ﴿إِذْ﴾ منصوبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ معطوفٍ على الفِعلِ المحذوفِ السَّابق عطفَ القِصَّةِ على القِصَّة، أو معطوفٌ على الظَّرف السَّابق ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾، أي: واذْكُر أيضًا من شواهِدِ اصطفائِهم وقتَ قَولِ الملائكةِ عليهم الصَّلاة والسَّلام: ﴿يَا مَرْيَمُ...﴾. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤- ٣٥).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦٩-١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٠).

المقصودَ بكلِّ نداءٍ هو ما يرِدُ بعدَه؛ فالنِّداءُ الأوَّل تذكيرٌ بالنِّعمة، وكان ذِكرُه بمنزلةِ التَّمهيدِ للنِّداء الثاني، الذي هو للتَّكليفِ؛ ترغيبًا في العَملِ بموجبِه[١]. أو أعادَ النِّداء في قولِ الملائكةِ: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي..﴾؛ لقَصدِ الإعجابِ بحالها؛ لأنَّ النِّداءَ الأوَّل كفَى في تحصيلِ المقصودِ من إقبالها لسَماعِ كلامِ الملائكة، فكان النِّداءُ الثَّاني لمجرَّد التَّنبيهِ الَّذي يُنتقل منه إلى لازمِه، وهو التَّنويهُ بهذه الحالةِ، والإعجاب بها[٢].

٣- **قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾** نَفَى فيه مُشاهدتَه صلَّى الله عليه وسلَّم لذلِك بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾، وانتفاءُ هذِه المشاهدةِ معلومٌ بغير شُبهة، وترَك نفْيَ استماعِ الأنباء من حُفَّاظِها، وهو موهوم؛ وفائدته: أنَّه كان معلومًا عند المنكِرين للوحيِ علمًا يقينيًّا أنه ليس من أهل السَّماع والقِراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يَبقَ إلَّا المشاهدةُ، وهي في غايةُ الاستبعادِ والاستحالةِ، فنُفِيتْ على سبيلِ التَّهكُّمِ بالمنكرينَ للوحي مع عِلْمِهم بأنَّه لا سماعَ له ولا قِراءة؛ فأفادَ التقريرَ والتحقيقَ لكونِ تلك الأنباءِ وحيًا من اللهِ تَعالَى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٣٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٦٢)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١٨).

الآيات (٤٥ - ٥١)

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يَمْسَسْنِي﴾: المسُّ: الجِماع[1].

﴿وَجِيهًا﴾: صاحبُ جاهٍ ومنزلةٍ[2].

﴿الْمَهْدِ﴾: مَضْجَعُ الصَّبِيِّ فِي رَضَاعِهِ، وهو ما يُهيَّأ للصَّبي، وأصلُه: التَّوطئةُ للشَّيء وتسهيلُه[3].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠).

﴿كَهْلًا﴾: الكهل: الَّذي انتَهى شبابُه، ومَن وَخَطَه- أي: خالَطَه- الشَّيبُ[١].

﴿الْأَكْمَهَ﴾: الَّذي يُولد أعْمَى، أو هو الَّذي يُولَد مطموسَ العين، أو الأعمى مطلَقًا[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر الله نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمجيء الملائكةِ إلى مريم تَحمِل لها البُشرى بغلامٍ يوجِده الله بكلمةٍ منه، اسمُه المسيحُ عيسى ابنُ مريم، نسبةً إلى أمِّه؛ لأنَّه لا أبَ له، والَّذي سيكون من صِفاته أنَّه ذو وجاهةٍ عالية، ومنزلةٍ رفيعة عند الله في الدُّنيا والآخِرة، ومن المقرَّبين إليه، وأنَّ مِن معجزاته تَكليمَ النَّاس في حال طُفولتِه؛ تَبرئةً لأمِّه، ودَعوةً إلى عِبادةِ الله وحْده لا شريكَ له، ويُكلِّمهم في حال كُهولتِه تَكليمَ المرسلين بما يوحيه اللهُ إليه، وأنَّه من الصَّالحين.

ثمَّ يذكُرُ اللهُ تعالى جوابَ مريم: يا ربِّ، كيف يكون منِّي ولد وأنا لم يمسَسْني بشر؟! فأَخْبَرها سبحانه أنَّ هذا الفِعلَ المستغرَب والخارِقَ للعادة هو مِن فِعل مَن بيده الأمرُ؛ فهو يَخلُق ما يشاءُ، كيفما يُريد، وإذا أراد شيئًا، فإنَّما يقولُ له: كن، فيكون الأمرُ كما أراد سبحانه.

ثمَّ يَذكرُ اللهُ تعالى ما امتنَّ به على عبدِه ورسولِه عيسى عليه السَّلام مِن المِنَن العظيمة؛ مِن تعليمِ الكتابِ والحِكمة، والتَّوراة والإنجيل، وأنَّه سيُرسله إلى بني إسرائيل ليقول لهم: إنِّي قد جِئتُكم بآيةٍ من ربِّكم، وهي أنِّي أُصوِّرُ من

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

الطِّين على شكل الطَّير، ثمَّ أنفخُ فيه، فيكون طيرًا تدِبُّ فيه الرُّوح، بإذن الله سبحانه وتعالى، وأنِّي أَشفي مَن وُلِد أعمى، وَمن به برَصٌ، وأُحيي الموتى بإذن الله، وأُخبركم بما تأكلون من طعام وما تدَّخرونه في بيوتكم، دون أنْ أراها أو يُطلِعني عليها أحدٌ، وفي هذا كلِّه آيةٌ لكم تدلُّكم على صِدق ما جئتُكم به، إنْ كنتم مؤمنين، وأنِّي قد أتيتُكم مقرِّرًا ومثبِتًا لِمَا أُنزل قبلي من التَّوراة، ولأُحِلَّ لكم بعضَ الَّذي حُرِّم عليكم، وجئتُكم بآيةٍ تدلُّ على صِدق ما أقولُه لكم؛ فاتَّقوا اللهَ وأطيعوني فيما دعوتُكم إليه، إنَّ اللهَ ربِّي وربُّكم؛ لذا توجَّهوا إليه بالعبادةِ وحْدَه؛ فهذا هو الطَّريقُ المستقيم الَّذي يُوصلكم إلى الله ورِضوانِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾.

أي: واذكُرْ[(١)] إذ قالتِ الملائكةُ: يا مريمُ، إنَّ الله يُبشِّرُك بولد[(٢)] يكونُ وجودُه بكلمةٍ صادرةٍ من الله، وهي قوله: (كُنْ) فيكون[(٣)].

---

(١) ينظر ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٤).
وقال ابنُ جرير: (يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ٤٥]، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، وما كنتَ لديهم أيضًا ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٦) وردَّه ابن عطية.

(٢) اختار ابن جرير: أنَّ قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾. يعني: برسالة من الله، وخبر من عنده، وهو من قول القائل: ألقى فلان إليَّ كلمة سرَّني بها، بمعنى: أخبرني خبرًا فرحت به، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١]، يعني: بشرى الله مريم بعيسى ألقاها إليها. وما اختاره خلافُ رأي الجمهور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٤).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

أي: يَشتهرُ بأنَّ اسمَه المسيحُ[١] عيسى ابنُ مريم، نِسبةً لُأمِّه؛ لأنَّه لا أبَ له، فنفَى الله بذلك عنه ما أضافَ إليه النَّصارى، مِن إضافتِهم بنوَّتَه إليه عزَّ وجلَّ[٢].

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

أي: حالَ كونه ذا وجاهةٍ ومنزلةٍ عالية ومكانةٍ عند الله: في الدُّنيا؛ لكونِه أحدَ المرسَلين مِن أُولي العزم الَّذين نَشَر الله ذِكرَهم، وفي الآخرة؛ لِمَا له من الشَّفاعة عند الله، والدَّرجات العُليا في الجنة[٣].

﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

أي: من المقرَّبين إلى الله عزَّ وجلَّ في الدُّنيا والآخِرة[٤].

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)﴾.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

أي: ويُكلِّمُ النَّاس طفلًا في الفِراش؛ آيةً من الله، وتبرئةً لأمِّه، ويكلِّمهم أيضًا

وممَّن قال بهذا القول قتادة. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٧)

(١) سُمِّي عيسى عليه السَّلام بالمسيح؛ قال بعضُ السَّلف: لكثرةِ سِياحته. وقيل: لأنَّه كان إذا مَسحَ أحدًا مِن ذوي العاهاتِ بَرَأَ بإذن الله تعالى، وقيل: غير ذلك، حتى بلغَ بها بعضُهم خمسين قولًا. ينظر ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٩).

بالغًا كبيرًا حال كهولتِه، تكليمَ المرسَلين، بعد أنْ يوحيَ اللهُ إليه[١].

كما قال الله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٢٩-٣٣].

﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي: وهو مِنَ الصَّالحين في قولِه وعمَلِه[٢].

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)﴾.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾.

أي: قالت مريمُ: يا ربِّ، كيف يوجَدُ هذا الولد منِّي، ولم يُجامِعْني بَشرٌ لا بنِكاحٍ ولا بزنًا[٣]؟!

﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

أي: قال: مِثْلَ ذلك الخَلْقِ- وهو إيجادُ الولد بدون مسيسٍ- يَخلُقُ الله ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٩).
وممَّن قال بنحو هذا القول: محمَّد بن جعفر بن الزُّبير، وقتادة، والربيع، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٧).

يشاء، ويصنَعُ ما يُريد، فلا يُعجِزه شيءٌ[١].

﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

أي: إذا أراد إيجادَ شيء، فإنَّما يقولُ له: كُنْ، فيوجَدُ كما شاء عَقِيبَ الأمر، فلا يتأخَّرُ شيئًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨)﴾.

أي: ويُعلِّمُ الله عزَّ وجلَّ عيسى عليه السَّلام الكتابةَ[٣]، ويُعلِّمُه السُّنَّة الَّتي يُوحيها إليه في غير كِتابٍ من الشَّرائع ونحوها، ويُعلِّمه التَّوراةَ الَّتي أنزلها على موسى عليه السَّلام، والإنجيل الَّذي يُنزِّله عليه[٤].

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).
وذهَب السعديُّ إلى أنَّه يحتمل أن يكون المرادُ بالكتاب هنا: جِنس الكتب، ويحتمل أن يكون معناه الكتابةَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).
وذهَب ابنُ عثيمين إلى حمْل الآية على كلا المعنيين. فعلَّمه الكتابةَ فكتَب، وعلَّمه الكتب السابقة. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٨)، ((هداية الحيارى)) لابن القيِّم (١/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٧٧).

الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩)﴾.

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

أي: ويَجعلُه رسولًا يُرسلُه إلى بَنِي إسرائيلَ[١].

قائلًا لهم:

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي[٢]: أنِّي[٣] قد جئتُكم بعلامةٍ من ربِّكم، تحقِّقُ قولي، وتصدِّقُ خبَري في كوني مُرسَلًا مِن الله إليكم[٤].

ثم بَيَّن هذه الآيةَ الَّتي جاءَ بها قائلًا:

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٣).

(٢) من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ...﴾. إلى قوله ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ خِطاب لمريم، ومن قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ يحتمل أنْ يكونَ خِطابًا لمريم على معنى: يكون من قولِه لبني إسرائيل، كيت وكيت، ويكون في آخِرِ الكلامِ متروكٌ يدلُّ عليه الظاهر، تقديرُه: فجاء عيسى بني إسرائيل رسولًا، فقال لهم ما تقدَّم ذِكرُه ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ...﴾، ويحتمل أن يكون المتروك مقدرًا في صدْر الكلام بعد قوله: ﴿إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فيكون تقديره، فجاء عيسى كما بشَّر الله رسولًا إلى بني إسرائيل بأنِّي قد جئتُكم، ويكون قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ...﴾ ليس بخِطاب لمريمَ، والأوَّل أظهرُ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٨).

(٣) فتْح الهمزة في قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ لتقديرِ باء الجرِّ، بعد قوله: ﴿وَرَسُولًا﴾، أي: رسولًا بهذا المقال؛ لِمَا تضمَّنه وصفُ ﴿رَسُولًا﴾ من كونِه مبعوثًا بكلام. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٨).

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

أ- في قوله تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ﴾ قراءتان:

١- (إنِّي) بالكَسرِ، وذلك على إضمارِ القولِ، أي: فقلت: إنِّي أَخلُق. أو أنَّه على الاستئناف. أو على التفسير، فَسَّر بهذه الجملةِ قولَه: ﴿بِآيَةٍ﴾ كأنَّ قائِلًا قال: وما الآيةُ؟ فقال هذا الكلامَ[١].

٢- ﴿أَنِّي﴾ بالفتحِ على أَنَّهَا بدلٌ من قَوْله ﴿بِآيَةٍ﴾ فالمعنى: بأَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ. وقيل: إنها بدل من قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾. وقيل: إنها خَبرُ مبتدأٍ مُضمَرٍ، تقديرُه: هي أَنِّي أَخلُق. وقيل غير ذلك[٢].

ب- وفي قوله تعالى: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ثلاثُ قراءات:

١- (... كَهَيْئَةِ الطَّائِرِ... فَيَكُونُ طَائرًا)، أي: إنَّه كان يَخلُق واحدًا ثمَّ واحدًا[٣].

٢- (... كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ... فَيَكُونُ طَائرًا) أي: تُقدِّر هيئةً كهيئةِ الطَّير، فتكونُ الهيئةُ طائرًا، أي: كلُّ هَيئةٍ تُقدِّرها تكونُ واحدًا مِن الطَّير[٤].

---

(١) قَرَأَ بها المدَنِيَّانِ نافع وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٦٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٩١).

(٢) قَرَأَ بها البَاقُونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٦٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٩١).

(٣) قرأ بها أبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر لمعنى القراءتين: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٦٤).

(٤) قرأ بها نافع ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر لمعنى القراءتين: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٢).

٣- ﴿... كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ... فَيَكُونُ طَيْرًا﴾، أي: إنَّ الله تعالى أذِن له أن يَخلُقَ طيرًا كثيرةً، ولم يكُن يَخلُقُ واحدًا فقط[١].

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: أُصوِّرُ لكم من الطِّين شيئًا مقدَّرًا على شكلِ الطَّير، فأنفُخُ فيه فيكون طيرًا له رُوح، يَطيرُ بعِلم الله وتمكينِه لي[٢].

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: وأَشفي مَن يُولد أعْمَى[٣]، ومَن به داءُ البرصِ الَّذي يُصيب الجِلدَ، وأُحيي الموتى بإذنِ الله[٤].

﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

أي: وأُخبِرُكم بما تَأكلونَه، وما تدَّخِرونه في بُيوتِكم فلا تأكلونه، دون أنْ أُعاينَ ذلك، أو يَأتِيَني أحدٌ بخبَرِه[٥].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر لمعنى القراءتين: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).

(٣) وممَّن قال بهذا القول: ابن عبَّاس، والحسن، والضحَّاك، والسُّدِّي، وقتادة. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٢١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٢).
قال ابنُ جرير: (فإنْ قال قائلٌ: وما كان في قوله لهم: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] مِن الحُجَّة له على صِدقِه، وقد رأينا المتنجِّمةَ والمتكهِّنةَ تُخبر بذلك كثيرًا فتصيب؟

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّ في إبراءِ الأَكْمَهِ والأبرصِ، وإحياءِ الموتى، وغيرِ ذلك ممَّا سبق ذِكره، لآيةً تدلُّ على صِدقي، وتَهديكم، وتَنفعُكم، إنْ كنتم مؤمنين، وإلَّا فليستْ هاديةً ولا نافعةً لكم[١].

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠)﴾.

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾.

أي: وجئتُكم مُقررًا ومخبرًا بصِدْق ما قبلي من التَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت على موسى عليه السَّلام[٢].

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: وجئتُكم أيضًا لأحلَّ لكم بعضَ الَّذي حُرِّم عليكم[٣].

﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي: وجئتُكم بحجَّةٍ ودلالةٍ على صِدقي فيما أقولُ لكم[٤].

قيل: إنَّ المتنجِّم والمتكهِّن معلومٌ منهما عند مَن يُخبره بذلك أنهما يُنبئان به عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدِّية إلى عِلمه، ولم يكُن ذلك كذلك مِن عيسى صلواتُ الله عليه ومِن سائرِ أنبياء الله ورسله، وإنَّما كان عيسى يُخبر به عن غيرِ استخراجٍ ولا طلبٍ لمعرفته باحتيالٍ، ولكن ابتداءً بإعلام الله إيَّاه من غير أصلٍ تَقدَّم ذلك؛ احتذاه أو بَنَى عليه أو فزِع إليه، كما يَفزع المتنجِّمُ إلى حِسابِه، والمتكهِّن إلى رِئيه، فذلك هو الفصلُ بين عِلم الأنبياء بالغيوبِ وإخبارهم عنها، وبين عِلم سائرِ المتكذِّبة على اللهِ، أو المدَّعية عِلمَ ذلك) ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

أي: فاتَّقوا الله بفِعلِ ما أمَر به، واجتنابِ ما نهى عنه، وأطِيعوني فيما دعوتُكم إليه[١].

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرَهم بتقوى الله ذَكَر ما هو كالسَّببِ في ذلك[٢]، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾.

أي: إنَّ الله ربِّي وربُّكم، وخالقُنا، ومالكُنا ورازقُنا؛ لذا فاعبُدوه وحده؛ فاستدلَّ بتوحيدِ الرُّبوبيَّة على توحيدِ الألوهيَّة؛ لأنَّه يستلزمُه[٣].

كما قال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

أي: ما سبَق ذِكرُه- من تقوى الله، وطاعة رسولِه، وتحقيق- العبادة له- طريقٌ مستقيمٌ لا اعوجاجَ فيه، مُوصلٌ إلى اللهِ وإلى جنَّتِه[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُؤخذُ من قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أنَّ علامةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٨).

الصَّادق أنْ يكونَ خبرُه من جِنسِ خبر الصَّادقين، يُخبِر بالصِّدق، ويأمُرُ بالعدلِ، من غير تخالُفٍ ولا تناقُضٍ(١).

٢- في قوله: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بيانُ أنَّه لا رتبةَ أعظمُ من كون المرء صالحًا؛ لكونه في جميعِ الأفعال والتُّروك مواظِبًا على النَّهج الأصلح، والطَّريق الأكمل، ومعلوم أنَّ ذلك يتناولُ جميع المقاماتِ في الدُّنيا والدِّين، في أفعال القلوب، وفي أفعال الجوارح(٢).

٣- الإيمانُ يَحمِلُ صاحبَه على قَبول الآياتِ الَّتي جاءت بها الرُّسلُ(٣)؛ كما في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

٤- في قول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ دليلٌ على أنَّ مِن لوازم تقوى الله: طاعةَ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٤).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- مِن حِكمةِ اللهِ أنْ تَدرَّج بأخبارِ العبادِ من الغريبِ إلى ما هو أغربُ منه؛ فذكَر وجودَ يَحيى بن زكريَّا بين أبوين أحدُهما كبيرٌ، والآخَر عاقرٌ، ثمَّ ذكَر أغربَ من ذلك وأعجبَ، وهو وجودُ عيسى عليه السَّلام من أمٍّ بلا أبٍ(٥).

٢- (مِن) في قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ ليستْ للتَّبعيض، بل لابتداءِ الغاية؛ وذلك لعدمِ وجودِ واسطةِ الأبِ في حقِّ عيسى عليه السَّلام، فصارَ تأثيرُ كلمة الله تعالى في تكوينِه وتخليقِه أكملَ وأظهرَ، فكان كونُه كلمةَ الله مبدأً لظهوره ولحدوثه أكملَ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٥- ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٦).

٣- في قول اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ (كِلمة) نكرةٌ في سياقِ الإثباتِ، وهي مُطْلَقَةٌ ليس فيها عمومٌ على سبيلِ الجمعِ، وذلك يقتضي أنَّه كلمةٌ مِن كلماتِ اللهِ، ليس هو كلامَه كلَّه كما يقولُ النَّصارى؛ فالمسيحُ ليس هو مجموعَ الكَلِماتِ، بل خُلِقَ بكلمةٍ منها[١].

٤- بيَّنَ اللهُ تعالى مُرادَه بقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ وأنَّه قال لعيسى عليه السَّلامُ: (كُنْ فيكون) في ثلاثِ آياتٍ؛ في قوله: ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧] وقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٢] [مريم: ٣٤، ٣٥].

٥- في قوله تعالى: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ عبَّر عن العَلَم واللَّقَب والوَصف بالاسم؛ لأنَّ لثلاثتِها أثرًا في تمييزِ المسمَّى[٣].

٦- قدَّم اللَّقبَ في قوله تعالى: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ على الاسمِ؛ لأنَّ المسيحَ لقَبٌ يُفيدُ كونَه شريفًا رفيعَ الدَّرجة؛ كالصِّدِّيقِ والفاروق؛ فذكَره الله أولًا؛ ليُفيدَ علوَّ درجتِه، ثمَّ ذكَره باسمه الخاصِّ[٤].

٧- الضَّمير في قوله: ﴿اسْمُهُ﴾ عائدٌ إلى الكلمةِ، وهي مُؤنَّثة، ومع ذلك فقد ذكَّر الضَّمير؛ لأنَّ المسمَّى بها مُذكَّر[٥].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٣/ ٢٤٦، ٣٠٢) (٤/ ٦٣)، ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٤/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٨- جاء قوله: ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ مع كون الخِطاب لها؛ قيل: إعلامًا لها بأنَّه يُنسَب إليها; لأنَّه مُحدَثٌ بغير الأب، فكان ذلك سببًا لزيادة فضلِه، وعلوِّ درجتِه ودرجتها، وتشريفِها، وتبرئتِها ممَّا رماها به اليهود(١).

٩- خَصَّ تكليمَه بحالَيِ المهدِ والكهولة، مع أنَّه يتكلَّمُ فيما بين ذلك؛ لأنَّ لهما مزيدَ اختصاصٍ بتشريف الله إيَّاه، فأمَّا تكليمُه النَّاس في المهد، فلأنَّه خارقُ عادةٍ؛ إرهاصًا لنبوءتِه، وأمَّا تكليمُهم كهلًا، فمرادٌ به دعوتُه النَّاسَ إلى الشَّريعةِ(٢).

١٠- في قوله: ﴿كَهْلًا﴾ ردٌّ على النَّصارى الَّذين يدَّعون أنَّ عيسى إلهٌ؛ إذ لو كان إلهًا لَمَا كان متقلِّبًا في الأحوال من الصِّبا إلى الكهولة، فالتَّغيُّر على الإله تعالى محالٌ(٣).

١١- عبَّر عن تكوينِ الله لعيسى بفعل ﴿يَخْلُقُ﴾؛ لأنَّه إيجاد كائن من غير الأسباب المعتادةِ لإيجاد مِثله، فكان للفعل ﴿يَخْلُقُ﴾ هنا موقعٌ متعيِّن؛ فهو يدلُّ على الإبداع(٤).

١٢- تضمَّن قوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ في قوله: ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ الرَّدَّ على شُبَه النَّصارى الَّذين يقولون: إنَّ عيسى هو الله، وإنَّه ثالثُ ثلاثةٍ؛ لأنَّ في قوله ﴿يَخْلُقُ﴾ التَّصريحَ بأنَّه مخلوق، فكان هذا قطعًا لدابر قولهم فيه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢١٥، ٣٧٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٩)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٨١)، وينظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤).

١٣- المرادُ بالآية في قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ﴾ الجنس لا الفرد؛ لأنَّه تعالى عدَّد هاهنا أنواعًا من الآيات، وهي: إحياءُ الموتى، وإبراءُ الأَكْمَهِ والأبرص، والإخبارُ عن المغيَّبات[١].

١٤- أنَّ ما فُعِل بأمْر الله، فهو حلالٌ مُباحٌ، وإنْ كان نظيرُه بدون أمرٍ حرامًا؛ كما في قوله: ﴿أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ ثمَّ قال: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٢].

١٥- الإذن في قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إذنٌ كونيٌّ وشرعيٌّ؛ لأنَّ كونه يُصوِّر مضاهيًا لخَلْق الله يحتاج إلى إذنٍ شرعيٍّ؛ لحرمة التَّصويرِ، وكذلك يحتاج إلى إذنٍ كونيٍّ؛ لأنَّ خَلْق هذا الطيرِ حتَّى يطير يكونُ بإذن اللهِ الكونيِّ، فيطير بإذن الله إذنًا كونيًّا[٣].

١٦- في ذِكر هذه المعجزات تعريضٌ بالنَّصارى، الَّذين جعَلوا منها دليلًا على ألوهيَّة عيسى؛ لعدمِ دُخولِها تحت مقدرةِ البشر، وهذا دليلٌ سُفسطائي، أشار اللهُ إلى كشفِه بقوله: ﴿بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ مرَّتين[٤].

١٧- جوازُ النَّسخ في الشَّرائع؛ لقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[٥]، ففيه دلالةٌ على أنَّ عيسى عليه السَّلام نسَخَ بعضَ شريعة التَّوراة، وأنَّ أكثرَ أحكام التَّوراة لم يَنسَخْها الإنجيلُ[٦].

١٨- في التَّعقيب بقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ..﴾ بعد قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تنبيهٌ على أنَّ النَّسخَ لا ينافي التَّصديقَ؛ لأنَّ النَّسخ إعلامٌ بتغيُّر

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).

الحُكم[١].

١٩- في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ جوازُ نِسبة الحُكم إلى مَن بلَّغه وأبانه وأظهره؛ إذ إنَّ الأصلَ في التَّحليل والتَّحريم أنَّه من عندِ الله عزَّ وجلَّ[٢].

٢٠- نُصَّ على الطَّاعة في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ مع أنَّها من التَّقوى؛ وذلك لأنَّ المرادَ هو تقوى خاصَّةٌ فيما جاء به عيسى عليه السلام، كما أنَّ التَّقوى سبيلٌ إلى الاستجابةِ والطَّاعةِ والقَبولِ والانقياد[٣].

٢١- يُؤخذُ من قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أنَّ الطَّاعة أمرٌ مشترَك بين الرُّسل وبين اللهِ عزَّ وجلَّ، وأمَّا التَّقوى فهي خاصَّةٌ بالله[٤].

٢٢- التَّقوى واجبةٌ في كلِّ شريعة، ولكن المتقَى به قد يختلف باختلاف الشَّرائع[٥].

٢٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ فيه ردٌّ على النَّصارى الَّذين يؤلِّهون عيسى عليه السَّلام[٦].

٢٤- قوله تعالى: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ بدأ بنفسِه؛ ليكون أوَّلَ مُذعِنٍ ومنقادٍ لهذا الرَّبِّ عزَّ وجلَّ[٧].

٢٥- مَن أقرَّ بربوبيَّةِ الله، لزِمَه أنْ يُقِرَّ بعبوديَّته؛ ولهذا قال: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾، فأتى بالفاء الدَّالَّة على السَّببيَّة، أي: فبسببِ اختصاصِه بالرُّبوبيَّة يجبُ أنْ تخصُّوه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٤).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٦).

بالعبادةِ[١].

٢٦- في قوله تعالى: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ لَمَّا كان قوله: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ قد لا يُلازم الوجاهةَ بعد الموت، قال: ﴿وَالْآخِرَةِ﴾، ولَمَّا كانتِ الوجاهةُ ثَمَّ مختلفةً، ذكَر أعلاها عاطفًا بالواو، إشارةً إلى تمكُّنِه في الصِّفات فقال: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: عند الله[٢].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا﴾** فيه تعظيمٌ لقدْر عيسى عليه السَّلام، وبيانٌ لفَضلِه على يَحيى عليهما السَّلام؛ إذ لَمَّا وصفَه بهذا الوصفِ الشريف ﴿المَسِيح﴾ ذكَر اسْمَه فقال: ﴿عِيسَى﴾، وفي تَفخيمِ هذا الذِّكر بجَعْلِه نفْسَ الكَلمة وبإبهامِه أولًا ثمَّ تفسيرِه، والتعبيرِ بصِيغة المبالغةِ ﴿وَجِيهًا﴾ للمبالغةِ في وجاهته؛ إذ أصلُ معناه: الوجهُ، وهو الملاحَظُ المحترَمُ بعلوٍّ ظاهر فيه، ثم قال: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، أي: عند الله- وفي كلِّ ذلك تعظيمٌ لقدْر عيسى عليه السَّلام وبيانٌ لفَضلِه، ولم يَجعلْ ليحيى عليه السلام في البشارةِ به مِثلَ هذا الذِّكر[٣].

٢- **قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾** فيه إيثارُ التعبير بصيغة المضارع؛ لدلالته على التجدُّد وقتًا فوقتًا. وفيه تطمينٌ لخاطرها بما يخالف العادة، حيث بَشَّر اللهُ مريمَ بأنَّ هذا يَتكلَّم طِفلًا، ويَعيش ويتكلَّم في حال كُهولته. أو بمعنى يُكلِّم الناس كلامَ الأنبياء من غير تفاوتٍ بين الحالتين: حالة

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠١)، ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٩٧-٣٩٨).

الطفولة وحالة الكُهولة؛ فيكون غايةً في الإعجاز[١].

٣- **قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾:**

- النِّداءُ للتحسُّر (رَبِّ) وليس للخِطاب؛ لأنَّ الذي كَلَّمها هو الـمَلَكُ، وهي قد توجَّهتْ إلى الله[٢].

- والاستفهامُ للإنكارِ والتعجُّب، أو للاستبعادِ العادي، أو استفهامٌ عن أنَّه يكون بتزوُّج أو غيره[٣]؛ ولذلك أُجيب بجوابينِ؛ أحدهما: ﴿كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ لرَفْع إنكارها، والثاني: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا...﴾ لرفْع تعجُّبها[٤].

- وقال هنا: ﴿وَلَد﴾ كما في قول مريم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ ولم يقُل: (غلام) كما في قِصَّة زكريا وقوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ لاستبعادِ مريمَ لمطلق الحَبَل، لا بقَيدِ كونِه ذَكرًا، كما في قِصَّة زكريا عليه السلام؛ لذا قالت ﴿وَلَدٌ﴾، وقالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾؛ لفَهمها ذلك من نِسبته إليها فقط، والولدُ يُطلق على الذَّكر والأنثى، بخلافِ زكريَّا عليه السلام الذي بُشِّر بيحيى عليه السلام[٥].

٤- **قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ...﴾** جوابُ استفهامها، ولم تُعطفْ هذه الجملةُ على التي قبلها؛ لأنَّها جاءتْ على طريقة المحاورات.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٦٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٧٨، ١٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٠٠)

وتقديمُ اسمِ الجلالة على الفِعل؛ لإفادةِ تقوِّي الحُكم، وتحقيقِ الخبَر[١].

- وصرَّح هاهنا بقوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ ولم يقل: (يَفْعَلُ) كما في قِصَّة زكريا؛ لأنَّ أمْر زكريَّا داخلٌ في الإمكانِ العاديِّ الذي يُتعارَف وإنْ قلَّ، وفي قِصَّة مريم قال: ﴿يَخْلُقُ﴾؛ لأنَّه لا يُتعارَف وجودُ ولدٍ من غيرِ والدٍ، فهو إيجادٌ واختراعٌ من غيرِ سببٍ عاديٍّ؛ فلذلك جاءَ بلفظ: ﴿يَخْلُقُ﴾ الدالِّ على هذا المعنى[٢]، فالخَلْقُ المنبِئُ عن الإحداثِ للمُكوَّن أنسبُ بهذا المقام؛ لئلَّا يبقى لمبطِل شُبهةٌ. وأكَّد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، أي: من غير تأخُّر، ولا حاجةٍ إلى سبَب[٣].

٥- **قوله تعالى**: ﴿**وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾ فيه كنايةٌ حسَنة، حيث كنى بالمسِّ عن الوطء، كما كنَّى عنه: بالحَرْث، واللِّباس، والمباشَرة[٤].

٦- **قوله تعالى**: ﴿**إِذَا قَضَى أَمْرًا**﴾ فيه التعبيرُ عن الجَمْع بالمفرد؛ وسرُّ ذلك- والله أعلم- بيانُ سهولةِ قَضاءِ كلِّ الأمورِ وتكوينها عليه سبحانه، كأنَّ الأمورَ كلَّها عنده كأمرٍ واحد، كما قال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨][٥].

٧- **قوله تعالى**: ﴿**وَيُعَلِّمُهُ**﴾ فيه التفاتٌ- على قِراءة (نُعلِّمه) بنون العظمة- والالتفاتُ من ضميرِ الغَيبة إلى ضميرِ المتكلِّم المعظِّمِ نفْسَه؛ إيذانًا بالفخامةِ والتَّعظيم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٨٢)، ((تفسير

٨- **قوله تعالى:** ﴿**وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ... وَمُصَدِّقًا ...**﴾ فيه إيجازٌ بالحذف؛ فقوله: ومصدِّقًا معطوفٌ عليه، والتقديرُ: (وأبعثُه رسولًا إلى بني إسرائيلَ قائلًا: إنِّي قد جئتُكم بآيةٍ، وإنِّي بُعثتُ مصدِّقًا لمَا بينَ يديَّ مِن التَّوراة)؛ وإنما حسُن حذفُ هذه الألفاظ؛ لدلالةِ الكلام عليها[١].

- وتخصيصُ بني إسرائيل في قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ﴾؛ لخصوصِ بَعثتِه إليهم، أو للردِّ على مَن زعَم أنَّه مبعوثٌ إلى غيرِهم[٢].

٩- **قوله تعالى:** ﴿**وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ فيه تكرارُ قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ دفعًا لتوهُّم الألوهيَّة؛ فإنَّ الإِحياء ليس من جِنس الأفعال البشريَّة[٣].

١٠- **قوله تعالى:** ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ**﴾، **وقوله:** ﴿**قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ**﴾، **وقوله:** ﴿**وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾ فيه تكرارُ ذِكر الآيَةِ وإعادتها؛ للتأكيد؛ لأنَّ إخراجَ الإنسانِ عن المألوفِ المعتادِ من قديم الزَّمان عسِرٌ، فأعاد ذِكر المعجزات؛ ليصيرَ كلامُه ناجعًا في قلوبهم، ومؤثِّرًا في طباعهم، وفي هذا التَّكرارِ بيانُ أنَّ الأمورَ المهمَّة- خاصَّةً الخارجةَ عن المألوف المعتادِ- ينبغي تَكرارُها، من أجْل أنْ يَتبيَّن للمُخاطَبِ أهميَّتُها عند المتكلِّم، وأنَّه ذو عنايةٍ بها، ومن أجْل أنْ ترسخَ في الذِّهن، وتؤثِّرَ في القلوب[٤].

١١- **قوله تعالى:** ﴿**أَخْلُقُ**﴾ ﴿**فَأَنْفُخُ**﴾ ﴿**وَأُبْرِئُ**﴾ ﴿**وَأُحيي**﴾ ﴿**وَأُنَبِّئُكُمْ**﴾ أتى بهذه الخوارقِ بلفظِ المضارع؛ دلالةً على تجدُّد ذلك كلَّ وقتٍ طُلِب منه،

ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩١).

وقَيَّد قوله: ﴿أَنِي أَخْلُقُ﴾ بقوله: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾؛ لأنَّه خارقٌ عظيم، فأتَى به دفعًا لتوهُّم الإلهيَّة، ثمَّ قيَّدَ الخارِقَ الثَّالثَ ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَى﴾ بقوله: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾؛ لأنَّه خارقٌ عظيم أيضًا؛ فذَكَر عيسى عليه السَّلام قَيدَ الإذنِ مِن اللهِ ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ في هذَينِ الموضَعينِ؛ لإزالةِ الشُّبهةِ، وتحقيقًا للتَّوحيد، ولرفْعِ توهُّمِ استقلالِه بالفِعلِ في كلِّ آيةٍ أتَى بها عِندَ مَن اعتقدَ فيه الإلهيَّة[١].

- ولم يأتِ بهذا القَيدِ ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيما عُطِف عليه في قوله: ﴿وَأُبْرِئُ﴾، وقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ﴾؛ للتَّنبيهِ على عِظَم ما قبْلَه ﴿أَخْلُقُ﴾ ﴿وَأُحيي﴾، ودفعًا لوَهمِ مَن يَتوهَّمُ فيه الإلهيَّةَ. وقيل: حُذِفَ القيدُ مِن المعطوفينِ هنا؛ اكتفاءً به في الأوَّل[٢].

١٢- **قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾** أمرٌ مرادُه التخويفُ لهم؛ لأنَّ طاعة الرسول مِن لوازمِ تقوى الله تعالى، فبيَّن أنَّه إذا لزِمَكم أنْ تتَّقوا الله، لزِمَكم أن تُطيعوني فيما آمرُكم به عن ربِّي[٣].

١٣- **في قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** تأكيدٌ لقوله الأوَّل: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وعطف بالواو؛ لأنَّه أُريد أن يكونَ من جملة الأخبار المتقدِّمة، ويحصُل التأكيدُ بمجرَّد تقدُّم مضمونه، فتكون لهذه الجملةِ اعتباران يَجعلانِها بمنزلة جُملتين، وليُبنى عليه التفريعُ بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾[٤].

١٤- **قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾** فيه تكرار (رَبِّي وَرَبُّكُمْ)، وهو أبلغُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٣).

في الْتزام العبوديَّة من قوله: (ربُّنا)، وأدلُّ على التبرِّي من الربوبيَّة. ومقصودُه إظهارُ الخضوعِ، والاعتراف بالعبوديَّة؛ لكيلا يتقوَّلوا عليه الباطل، فيقولوا: إنَّه إلهٌ، وابنُ إله؛ لأنَّ إقرارَه لله بالعبوديَّة يَمنعُ ما تدَّعيه جُهَّالُ النَّصارى عليه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧٠).

الآيات (٥٢ - ٥٨)

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَحَسَّ﴾: عَلِم ووجَد، أو رأى وسمِع، والإحساس: العِلم بإحدى الحواسِّ[(١)].

﴿الْحَوَارِيُّونَ﴾: جمْع حوارِيٍّ، وهمْ أصفياءُ عِيسى عليه السَّلام وشِيعتُه وناصِرُوه، وخُلاصةُ أصحابِه، وشاعَ استعماله في الَّذين خَلَصوا وَأَخْلصُوا فِي التَّصْدِيق بالأنبياءِ ونُصرتِهم؛ قيل: سمُّوا بذلك؛ لأنَّهم كانوا يُحوِّرون الثِّياب، أي: يُبيِّضونها، واشتقاقُهُ من حُرْتُ الثوبَ، أي: أَخْلَصْتُ بياضَه بالغَسْل، ومنه يُقال للدَّقيق الأبيضِ النَّقيِّ: حُوَّارى. وقيل: اشتقاقُه مِن حارَ يحورُ: إذا رجَع، فكأنَّهم الرَّاجعونَ إلى الله، وقيل: هو مُشتَقٌّ مِن نقاء القَلْبِ وخُلوصِه وصِدْقه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٥)،

﴿وَمَكَرُوا﴾: المكر: صرْفُ الغيرِ عمَّا يَقصِده بحيلةٍ، وأصل المكر: الاحتيالُ والخِداع[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ﴾

﴿إِلى اللهِ﴾: الجارُّ والمجرورُ في مَوضِعِ الحالِ، وتَتعلَّق ﴿إِلَى﴾ بمحذوفٍ، والتقدير: مَن أنصاري مُضافِينَ إلى اللهِ، أو إلى أَنصارِ الله. وقيل: إنَّ ﴿إِلَى﴾ بمعنى اللام، أي: مَنْ أنصاري للهِ، كقوله: ﴿يَهْدِي إِلَى الحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥] أي: للحقِّ. وقيل: إنَّ ﴿إِلى﴾ بمَعْنى (مَعَ)، أي: مَن أنصاري مع اللهِ، وقيل غير ذلك[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تبارَك وتعالَى أنَّ عيسى عليه السَّلام لَمَّا وجَدَ من بني إسرائيل إعراضًا عن دعوتِه، وعلِم بكُفرهم بنبوَّته، استنصرَ أصحابَه قائلًا: مَن يُعاونني ويَنهضُ معي بالدَّعوة إلى الله ونُصرةِ دِينه، فأجابه صفوةُ أصحابه بأنَّهم أنصارُ دِين الله تبارَك وتعالَى، وأعْلنوا إيمانهم، وأَشهَدوا عيسى عليه السَّلام على إسلامِهم، ودعَوْا ربَّهم متوسِّلين بإيمانهم بما أنزل، واتِّباعهم لعيسى عليه السَّلام، أنْ يَكتُبَهم مع مَن شهِد له بالوحدانية، ولرُسلِه بالصِّدق، واتَّبَعوا أوامرَه، واجتنَبوا نواهيَه.

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٦٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٠٧-٢٠٨).

ثمَّ يُخبر تبارَك وتعالَى عن مَكرِ مَن كَفَر بعيسى عليه السَّلام مِن بني إسرائيل وتَمالُئِهم على قَتْله، ومَكْرِه بهم مُقابلةً لمكرهم؛ حيث أَلْقى شَبَهَ عيسى عليه السَّلام على رجلٍ آخرَ، فقتلوه ظانِّين أنَّه هو، فكان مكرُ الله أقوى من مَكرِهم وأشدَّ، ثمَّ يذكر قوله لعيسى، أنَّه متوفِّيه وفاةَ نوم، ورافعُه إليه برُوحه وبدنِه، ومُخرِجه من بين الَّذين كفروا، ومُنجِّيه منهم، وأنَّه سيجعل الَّذين اتَّبعوه فوقَ الَّذين كفروا بالحُجَّة والبرهان، وبالعزَّة والغَلَبةِ إلى يومِ القيامة، وأنَّ إليه المصيرَ والمرجعَ فيَقضي بينهم؛ فالَّذين كفروا يُعذِّبهم عذابًا أليمًا في الدُّنيا والآخرة، أمَّا عذابُ الدُّنيا فما أَقدَرَه عليهم من قتْلٍ وسَبْيٍ وذِلَّة، وضِيقٍ وضنكٍ وغيره! وأمَّا عذابُ الآخرة فبِنَارِ جهنَّم، وليس لهم مَن يَنصرُهم، أو يمنع عنهم العذابَ الأليم.

وأمَّا أهلُ الإيمانِ والعملِ الصالح فأولئك يُوفِّيهم أجْرَهم دون نقْصٍ: في الدُّنيا بالنَّصرِ والتَّمكين، وفي الآخِرَة بالجنَّة والرِّضوان من الله تبارك تعالى، واللهُ لا يحبُّ الظَّالمين؛ فكيف يظلِمُ خَلْقَه؟!

ثمَّ يقول اللهُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ هذه الأنباء والقصصَ الَّتي أخبر الله بها عن عيسى عليه السَّلام وأمِّه مريم نتلوها عليك- يا محمَّدُ- وهي من العلامات والبراهين الدَّالَّة على صِدقِك ونبوَّتك، ومن القُرْآن المُحكَم المتقَن.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)﴾.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

أي: فلمَّا وجَد عيسى عليه السَّلام من بني إسرائيل- الَّذين أُرسِل إليهم- التَّكذيبَ به، ورأى الإعراضَ عنه، والجَحْد لنبوَّته، والصَّدَّ عن دعوتِه، قال: مَن

أعواني في الدَّعوة إلى اللهِ، ونُصرةِ دِينه، ومَن يُضيفُ نُصرتَه ويَضمُّها إلى نُصرةِ الله لي[١]؟

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.

أي: قال الأنصارُ مِن أصحابِ عيسى عليه السَّلام: نحن أنصارُ دِين الله[٢].

﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

أي: آمنَّا بالله، واشهَدْ- يا عيسى- بأنَّنا مسلِمون[٣].

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)﴾.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾.

أي: قال الحواريُّون أيضًا: يا ربَّنا، آمنَّا بالإنجيل الَّذي أَنزلتَ على عيسى عليه السَّلام[٤].

﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾.

أي: واتَّبعنا رسولَك عيسى عليه السَّلام[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٥).
قبل هذه الآيةِ محذوفٌ به يتمُّ اتِّساق الآيات، تقديره: فجاء عيسى عليه السلام كما بَشَّر الله به، فقال جميعَ ما ذُكر لبني إسرائيل، ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ...﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٨).

﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

أي: أَثبِتْ أسماءَنا مع أسماء الَّذين شهِدوا لك بالوَحْدانيَّة، ولرُسلِك بالصِّدق، ولدِينك بأنَّه الحقُّ، واتَّبَعوا أمرَك ونهيَك- ومنهم أمَّةُ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- فاجعَلْنا في عِدادِهم ومعهم؛ لنفوزَ بمِثْلِ ما فازوا به[1].

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾.

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾.

أي: ومكَر الَّذين كفَروا من بني إسرائيل بعيسى عليه السَّلام، فحاوَلوا قَتْلَه مُتحيِّلين على ذلك، ومَكَر اللهُ بهم؛ فألْقى شَبَهَ عيسى عليه السَّلام على رَجُلٍ آخرَ، فأَخَذوه وقتَلوه، ظنًّا منهم أنَّه عيسى عليه السَّلام[2].

وبَيَّن اللهُ تعالى مكرَهم في قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧]، وبَيَّن مكرَه بهم في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ الآيةَ[3] [النساء: ١٥٧-١٥٨].

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

أي: أقواهم في المكرِ بمن يستحقُّ المكرَ، وأعلمُ بالأسبابِ الَّتي تُحيطُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٥)، ((التفسير الوسيط)) الواحدي (١/ ٤٤١) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢، ٩٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٣) وعزاه لجمهور المفسرين، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠١).

بأعدائِه، وأشدُّ بطشًا، وأنفَذُ إرادةً[١].

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥)﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾.

أي: واذكُرْ[٢] إذ قال اللهُ لعيسى عليه السَّلام: يا عيسى، إنِّي مُتوفِّيك وفاةَ نومٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١٧).

قال ابنُ عاشور: (ويجوز أن يكون معنى ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾: أنَّ الإملاءَ والاستدراج، الذي يُقدِّره للفجَّار والجبابرة والمنافقين... هو خيرٌ محضٌ لا يترتَّب عليه إلَّا الصَّلاح العام، وإنْ كان يؤذي شخصًا أو أشخاصًا، فهو من هذه الجهة مجرَّدٌ عمَّا في المكر من القُبح؛ ولذلك كانتْ أفعالُه تعالى منزهةً عن الوصف بالقُبح أو الشناعة؛ لأنَّها لا تقارنها الأحوالُ التي بها تقبح بعضُ أفعال العباد من دلالةٍ على سفاهة رأي، أو سوء طويَّة، أو جُبن، أو ضَعْف، أو طَمَع، أو نحو ذلك، أي: فإنْ كان في المكر قُبح، فمكرُ الله خيرٌ محض، ولك على هذا الوجهِ أن تجعل ﴿خَيْرُ﴾ بمعنى التفضيل وبدونه) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٧)، ويُحتمل أن تكون (إذ) متعلِّقة بالمكر يَعني: ومَكَرَ الله حين قال لعيسى... واختاره ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٤٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير سورة آل عمران)) لابن عثيمين (١/ ٣٣٩).

والقول بأنَّ المراد بالوفاة هنا: النوم، هو اختيارُ الأكثر كما ذكَر ابن كثير.

وممَّن قال بهذا القول من السلف: الربيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٨).

وقيل: المراد قَبْضُه مِن الأرض حيًّا برُوحه وجسدِه دونَ نومٍ أو موتٍ. وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٤٥٠)، والواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٢١٣)، والقرطبي في ((تفسيره)) (٤/ ١٠٠).

وممَّن قال بنحو هذا القولِ من السَّلف: الحسن، ومطر الورَّاق، وابن جريج، ومحمد بن جعفر ابن الزبير، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٨).

وقيل: هذا مِن المقدَّم الذي معناه التَّأخيرُ، والمؤخَّر الذي معناه التقديمُ، والمعنَى: إذ قال اللهُ:

كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

أي: ورافعُك برُوحِك وبَدَنِك إلى السَّماء[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٩].

وعن أبي هُرَيرَةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ((والَّذي نَفْسِي بِيَدِه، لَيُوشِكَنَّ أنْ يَنزلَ فيكم ابنُ مَرْيَمَ صَلَّى الله عليه وسَلَّم حَكَمًا مُقْسِطًا، فيَكْسِرُ الصَّليبَ، ويَقْتُلُ الخِنزيرَ، ويَضَعُ الجِزْيَةَ، ويَفِيضُ المالُ حتَّى لا يَقْبَلَه أحدٌ))[٢].

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: مخلِّصُك ممَّن كفرَ بك، ومُخرِجك من بينهم، برفعي إيَّاك إلى السَّماء[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ

يا عيسى إنِّي رافعُك إليَّ ومطهِّرك مِن الذين كفَروا، ومُتوفِّيك بعدَ إنْزالي إيَّاك إلى الدُّنيا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٠).

وقيل غير ذلك. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣٢-١٣٦).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢٢). ويُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٤/ ٣٢٣).

(٢) رواه البخاري (٢٢٢٢) ومسلم (١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢٣).

كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: وجاعلٌ أتباعَك يا عيسى فوق الَّذين كفروا، بالحُجَّةِ والبُرهان، وبالعزَّة والغَلَبة[١].

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: ثمَّ يومَ القيامة إليَّ مصيرُكم- أيُّها المختلِفون في عيسى عليه السَّلام جميعًا- فأَقضِي بينكم فيما كُنتُم تَختلفونَ فيه مِن أمْرِه عليه السَّلام[٢].

ثمَّ بيَّن الله تعالى حُكمَه فيهم، وما يَفعلُه بهم فقال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦)﴾.

---

(١) قيل: المراد بالأتباع أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وهو اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٤٥٣)، والواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٢١٣).

وقيل: المرادُ بهم النَّصارى المنتسبون لعيسى عليه السلام إلى أن بَعث الله نبينا محمدًا صلَّى اللهِ عليه وسلم فكان المسلمون هم المتَّبعين لعيسى حقيقةً، فأيَّدهم الله ونصرهم على اليهودِ والنَّصارى وسائرِ الكفَّار. وهذا اختيار السعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٣٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٣/ ٢٦٠)

وقال ابن عطية: (قال جمهورُ المفسِّرين بعمومِ اللفظ في المتبعين، فيدخلُ في ذلك أُمةُ محمَّد؛ لأنَّها متبعةٌ لعيسى، نصَّ على ذلك قتادة وغيره، وكذلك قالوا بعمومِ اللفظِ في الكافرين، فمقتضِى الآيةِ إعلامُ عيسى عليه السَّلامُ أنَّ أهلَ الإيمان به كما يجبُ هم فوقَ الذين كفروا بالحجَّة والبُرهان وبالعزَّةِ والغلبةِ، ويظهرُ مِن قولِ ابن جُريج وغيرِه أنَّ المرادَ المتبعون له في وقتِ استنصارِهِ، وهم الحواريون جعلَهم الله فوقَ الكافرين؛ لأنه شَّرفهم وأبقَى لهم في الصالحين ذكرًا، فهم فوقهم بالحجَّة والبرهانِ) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٠).

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

أي: فأمَّا الَّذين كفروا، فإنِّي أُعذِّبهم عذابًا شديدًا قويًّا في الدُّنيا؛ بالقتلِ والسَّبيِ والذِّلَّة والمسكنةِ، وأخْذِ الأموال، وما يَحصُل لقلوبهم من الضِّيقِ والضَّنك، والقلَقِ والحسرة، وغير ذلك، وفي الآخرةِ بنارِ جهنَّم[١].

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

أي: وليس لهم أحدٌ يَدفَعُ عنهم العذابَ، ولا يمنَعُ عنهم أليمَ العِقاب، لا من الأهلِ، أو الشُّفعاء، أو الأصدقاء، أو غيرِهم[٢].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧)﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

أي: وأمَّا الَّذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحات، فيُتمُّ لهم جزاءَهم من الثَّواب، دون نَقصٍ أو بَخْسٍ في الدُّنيا والآخرة، في الدُّنيا بالنَّصر والظَّفَر، والإعزاز، والحياة الطَّيِّبة، وحُسن الذِّكر، وغير ذلك، وفي الآخِرة بالجنَّةِ والنَّعيمِ المقيم[٣].

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٢).

أي: واللهُ لا يحبُّ مَن ظلَم غيرَه حقًّا له، أو وضَع شيئًا في غير موضعِه، بل يُبغِضهم ويُحِلُّ عليهم غضَبَه وعقابه، فنَفَى اللهُ بذلك عن نفْسِه أنْ يَظلِمَ أحَدًا مِن خلقِه؛ لأنَّه إذا كان لا يحبُّ الظَّالِمين، فكيف يظلِمُ خَلْقَه[١]؟!

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)﴾.

أي: هذه الأنباءُ الَّتي أخبَر اللهُ بها عن عيسى عليه السَّلام وأمِّه مريمَ، وما قصَّه اللهُ من قَصص نقرؤُها عليك- يا محمَّدُ- على لسان جِبريل عليه السَّلام، هذه الأنباءُ والأخبارُ من العلاماتِ والحُجَج الدَّالَّة على صِدقِك ونبوَّتِك، وهي أيضًا من القُرْآن ذي الحِكمةِ؛ فهو مُحكَم مُتقَنٌ وحاكمٌ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- الإعلامُ بأنَّ الآياتِ الكونيَّة وإنْ كثُرت وعظُمت ليست مُفضِيَةً إلى الإيمان حتمًا، وإنَّما يكونُ الإيمان باستعداد المدعُوِّ إليه، وحُسن بيان الدَّاعي بعد توفيقِ الله تعالى وهدايتِه؛ كما في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾[٣].

٢- طلبُ النَّصر لإظهارِ الدَّعوة لله، موقفٌ من مواقفِ الرُّسل، وسُنَّةُ اللهِ في أنبيائِهِ وأوليائه؛ كما في قولِهِ: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[٤].

٣- مِن قوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ يُؤخذُ أنَّه ينبغي على الدَّاعيَة إذا اشتبه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٧)، و((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٥).

الأمرُ أنْ يَطلُبَ المخلِصين، وأنْ ينتدبَ الصَّفوةَ من القوم[١].

٤- لا بدَّ لحصول النَّصرِ مِن تحصيلِ سببِه، كما هي سُنَّة الله[٢]؛ كما في قول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

٥- النَّصر لا يستلزم القتالَ؛ فالعملُ بالدِّين، والدَّعوةُ إليه نصرٌ له[٣].

٦- في قولِ الحواريِّين: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ بيانُ أنَّهم انخلَعوا وانفصَلوا من التَّقاليد السَّابقة، وأخَذوا بالتَّعليم الجديد، وسيَبذُلون مُنتهَى الاستطاعةِ في تأييده؛ فالنَّصر للهِ لا يكونُ إلَّا بذلك[٤].

٧- يُؤخذُ من قوله تعالى: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أنَّ إشهادَ الإنسانِ على نفسِه بالإيمان أو بالإسلام أو ما أَشْبَه ذلك لا يُعَدُّ مِن الرِّياء، لا سيَّما في الأتْباع؛ لأنَّ في ذلك فائدةً، وهي تقويةُ المتبوع[٥].

٨- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ بيانُ أنَّه يجبُ أنْ يكونَ الإيمانُ شاملًا لكلِّ ما أنزَل الله[٦].

٩- على المرءِ أنْ يُعلِنَ اتِّباعه للرَّسولِ بين أئمَّة الكفر؛ كيلَا يداهنَ في دِين الله؛ فالمداهنة في دِين الله والتَّقيَّةُ نِفاق في الواقع[٧]؛ كما في قوله: ﴿وَاتَّبَعْنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١٢).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٨).

الرَّسُولَ﴾.

١٠- في ذِكر الاتِّباع بعد الإيمان في قوله تعالى حِكايةً عن الحواريِّين: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، بيانُ أنَّ العِلم الصَّحيح يستلزم العملَ، والعِلم الَّذي لا أثرَ له في العمل يُشبِهُ أنْ يكونَ مجمَلًا وناقصًا لا يقينًا وإيمانًا، وكثيرًا ما يظنُّ الإنسانُ أنَّه عالمٌ بشيء، حتَّى إذا حاول العملَ به لم يُحسِنْه، فيتبيَّن له أنَّه كان مخطئًا في دعوى العِلم، فالعِلم بالشَّيء يظلُّ مجمَلًا مبهَمًا في النَّفس حتَّى يعمل به صاحبُه، فيكون بالعمل تفصيليًّا، فذِكر الحواريِّين الاتِّباعَ بعد الإيمان يفيد أنَّ إيمانهم كان في مرتبةِ اليقين التَّفصيليِّ، الحاكم على النَّفس، المصرِّف لها في العمل[١].

١١- يُؤخذُ من قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ الحرصُ على صُحبةِ الأخيار[٢].

١٢- المكرُ في مقامِ المكرِ مَدْحٌ، وصفةُ كمالٍ، وهو حَسَنٌ إذا كان على وجهِ المقابلةِ لا على وجهِ الظُّلمِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، والمكرُ في غيرِ موضعِه صفةُ نقْصٍ؛ لأنَّ المكرَ في غيرِ مَوضعِه خيانةٌ، والخيانةُ صفَةُ ذمٍّ[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ﴾ فيه تنبيهٌ أنَّه ظَهَر منهم الكُفْرُ ظهورًا بان للحِسِّ، فضلًا عن التَّفهُّم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروز آبادي (٢/ ١٥٤).

٢- قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، ولم يقل: مَن أنصاري في الله؛ ليكون النَّصرُ مَبنيًّا على الإخلاص؛ لأنَّ (إلى) للغايةِ، فيُريد أنْ يكونَ نصرًا موصلًا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

٣- لَمَّا كان المقصودُ ثباتَ الأنصار معه إلى أنْ يتمَّ أمرُه، عبَّر عن ذلك بصلةٍ دلَّت على تضمينِ هذه الكلمةِ كلمةً توافقُ الصِّلة فقال: ﴿إِلَى﴾ أي: سائرينَ أو واصلين معي بنَصرِهم إلى ﴿اللَّهِ﴾ أي: الملِكِ الأعظمِ[٢].

٤- قوله: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ فيه التَّوسُّلُ إلى الله تعالى بربوبيَّتِه؛ لأنَّ الرُّبوبيَّة تدورُ على ثلاثةِ أشياء، وهي: الخَلْق، والمُلْك، والتَّدبير، وإجابة الدُّعاءِ تدخل في هذه الثَّلاثة؛ فلذلك كان كثيرًا ما يتوسَّل الدعاةُ إلى الله بالربوبيَّة[٣].

٥- حُسن الاحتراز في قول الحواريِّين: ﴿بِمَا أَنْزَلْتَ﴾، ولم يُطلقوا الإيمانَ مَثَلًا بالتَّوراة؛ لأنَّ التَّوراة الَّتي بأيدي اليهود محرَّفةٌ مبدَّلة[٤]

٦- في قوله: ﴿آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ قوله: ﴿بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ عامٌّ، وهو دليلٌ على وجوب الإيمانِ بكلِّ ما أنزل اللهُ مِن كتاب، وأمَّا الاتِّباع فيكونُ للرَّسول الخاصِّ الَّذي أُرسِل إليك؛ لقوله: ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وهو خاصٌّ[٥].

٧- أنَّه إذا كان هناك وَصفانِ، وكان أحدُ الوصفينِ أخصَّ من الآخرِ بالعمل أو بالحال الَّتي أنت فيها؛ فإنَّ الأَولى أنْ تأخذَ بالأخصِّ؛ لقوله: ﴿الرَّسُولَ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٣).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١٣).

لأنَّ الرَّسول مرسَلٌ إلينا، ولم يقولوا: (واتَّبَعْنا النَّبيَّ)[١].

٨- في قوله: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الإسلامَ دِينُ اللهِ على لسان كلِّ نبيٍّ، وإنِ اختلفوا في بعض صُوَرِه وأشكاله، وأحكامه وأعماله[٢]؛ فهو دِينُ الله الَّذي ابتعَث به عيسى عليه السَّلام والأنبياءَ قبله، لا النَّصرانيَّة، ولا اليهوديَّة[٣].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ دليلٌ على عُلوِّ الله تعالى حقيقةً[٤]، وعلى أنَّ اللهَ تعالى ليس في خَلْقِه، ولا خَلْقُه فيه، جلَّ وعزَّ، وتعالى عمَّا يقولُ الظَّالِمونَ علوًّا كبيرًا[٥].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ دلالة على أنَّ عيسى عليه السَّلام في السَّماء حيٌّ[٦].

١١- ذَوو الهِمَم العالية يشتدُّ اهتمامُهم بما يكون عليه خلائفُهم بعدهم من الأحوال؛ لذا بشَّر اللهُ تعالى عيسى عليه السلام في ذلك بما يسُرُّه، فقال: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ...﴾[٧].

١٢- في قوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بِشارةٌ بأنَّ المسلمين لا يَزالون فوق النَّصارى إلى يوم القِيامة، ولكن هذا مقيَّدٌ باتِّباع

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٢٢٦).

(٦) قال ابنُ عطية: (أجمعت الأمَّة على ما تَضمَّنه الحديث المتواتِر من أنَّ عيسى عليه السلام في السماء حيٌّ، وأنه ينزل في آخِر الزمان فيَقتُل الخِنزير، ويَكسِر الصَّليبَ، ويقتُل الدجَّال)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٤).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٢١).

شَرْع الله تعالى؛ فبَقدْرِ اتِّباعهم تكون الفوقيَّة؛ فإنَّ المسلمين هم أتْباعُ المُرسَلين في الحقيقة، وأتْباع جميعِ الأنبياء، لا أعداؤُهم، وأعداؤُهم هم عُبَّادُ الصَّليب[١].

١٣- في قوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ منَّةُ الله سبحانه وتعالى على عِبادِه؛ حيث جعَل هذا الجزاءَ كالأجور اللازمِ وفاؤُها[٢].

١٤- أشار في قوله: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ بأداة البُعد؛ تنبيهًا على عُلوِّ منزلتِه، ورفيعِ قدْرِه[٣].

١٥- في وصْفِ القُرْآن بالحَكيم دليلٌ على أنَّه لا يوجَدُ حُكمٌ دلَّ عليه القُرْآنُ إلَّا وهو في موضعِه اللَّائق به؛ إذ إنَّ الحكيمَ هو الَّذي يضعُ الشَّيءَ في مواضعِه[٤].

١٦- في قوله: ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ فضيلةُ الرَّسول عليه الصلاة والسَّلام، فخصَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتِّلاوة عليه؛ لأنَّه أشرفُ مَن يتلقَّى القُرْآن، وأقومُ النَّاس عملًا به، فكأنَّه هو المخصوصُ بالتِّلاوة عليه ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾[٥].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿**إِلَى اللهِ**﴾ فيه إيجازٌ بالحذفِ، والتقدير: (مَن أنصاري حال التِجائي إلى الله)، أو (مَن أنصاري إلى أنْ أُبيِّن أمر الله) (سائرينَ أو واصلين معي بنَصرِهم إلى اللَّهِ) وقيل غير ذلك[٦].

٢- **في قوله تعالى:** ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ**﴾ نداءٌ غرضُه التضرُّع إلى الله عزَّ

---

(١) يُنظر: ((هداية الحيارى)) لابن القيِّم (١/ ٣٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٤٧).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي(٤/ ٤٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤١٧)..

وجلَّ، والعرْضُ لحالهم عليه تعالى بَعدَ عرضِها على الرَّسول؛ مبالغةً في إظهار أمرِهم[١].

٣- **قوله تعالى:** ﴿**فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ فيه تأكيدُ الأمْر بعدَ إشهادِهم عيسى عليه السَّلام على إسلامِ أنفسِهم، حيث قالوا: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، فأَشْهَدوا اللهَ تعالى على ذلك أيضًا تأكيدًا للأمْر، وتقويةً له، وأيضًا طَلبوا من الله مِثلَ ثواب كلِّ مؤمِن شهِد لله بالتوحيدِ، ولأنبيائه بالنُّبوَّة[٢].

٤- **في قوله سبحانه:** ﴿**واللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ**﴾ إظهارُ الجلالةِ (الله) في موقعِ الإضمار؛ لتربيةِ المهابة، ولأنَّ المقامَ لزيادةِ العظَمة، ولئلَّا يُفهَم الإضمارُ خصوصًا من جهةٍ ما، والجملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله[٣].

٥- **في قوله سبحانه:** ﴿**ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ**﴾ (ثمَّ) للتراخي الرُّتبي؛ لأنَّ الجزاءَ الحاصلَ عند مرجِع الناس إلى الله يومِ القِيامة- مع ما يُقارنه من الحُكمِ بين الفريقينِ فيما اختلفوا فيه- أعظمُ درجةً، وأهمُّ من جَعْل متَّبعي عيسى فوقَ الذين كفروا في الدُّنيا. وعلى حمْل الخِطاب في هذه الآية للنبيِّ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم والمسلمين، لا لعيسى عليه السَّلام ومَن معه، فتكون (ثمَّ) للانتقال من غرَض إلى غرَض؛ زيادةً على التراخِي الرُّتبي، والتَّراخي الزَّمني[٤].

- وفيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ؛ للقصرِ المفيدِ لتأكيدِ الوعدِ والوعيد[٥].

- وعلى القولِ بأنَّ الضَّمير في ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ لعيسى عليه الصَّلاة والسَّلام

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٤).

وغيرِه من المتَّبعين له والكافرين به، يكونُ فيه تَغليبُ المخاطَب على الغائِبِ في ضِمنِ الالتفاتِ؛ فلو جاء النَّظمُ على السِّياق من غير التفات لكان: (ثم إليَّ مرجعهم فأحكُم بينهم فيما كانوا)، ولكنَّه التفتَ إلى الخِطاب؛ لأنَّه أبلغُ في البشارة، وأزجرُ في النَّذارة[١].

٦- **قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ...﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾** فيه تفصيلٌ لِمَا أُجمِل في قوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾[٢]. ففيه تفسيرٌ للحُكم الواقعِ بين الفريقين، وتفصيلٌ لكيفيته. والبدايةُ ببيانِ حالِ الكفرة؛ لأنَّ مساقَ الكلامِ لتهديدهم وزجرِهم عمَّا هُم عليهِ من الكُفر والعِناد[٣].

٧- **قوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾** تذييلٌ للتفصيل كلِّه؛ فهو تذييلٌ ثانٍ لجملة ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بصريحِ معناها، أي: أعذِّبهم؛ لأنَّهم ظالمون، والله لا يحب الظالمين، وتذييل لجملة ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾، بكناية معناها؛ لأنَّ انتفاءَ محبَّة الله الظالمين يستلزمُ أنَّه يحبُّ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات؛ فلذلك يُعطيهم ثوابهم وافيًا[٤].

٨- **في قوله: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾** تنوُّعٌ في الأسلوب، وهو الانتقالُ من ضمير التَّكلُّم إلى ضميرِ الغَيْبة، وفي تغييرِ الأسلوب فائدتانِ: لفظيَّةٌ، وهي الالتفاتُ الَّذي يوجب الانتباهَ، ومعنويَّةٌ، وهي إظهارُ السُّلطة والعَظَمة والعزَّة في باب التَّعذيب، وإظهارُ الفضل والإحسان للعامِلين في باب المَثُوبة[٥].

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٤٨). ويُنظر أيضًا: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٢).

- وعلى قِراءة (فنُوفِّيهم) بالمتكلم وحْدَه المعظِّمِ نفْسَه، يكون ذلك اعتناءً بالمؤمنين، ورفعًا من شأنِهم؛ لَمَّا كانوا مُعظَّمين عنده[١].

٩- **في قوله تعالى**: ﴿**ذَلِكَ**﴾ الإشارة بـ(ذلك) إلى ما سلَف من نبأ عيسى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما فيه من معنى البُعد؛ للدَّلالة على عِظم شأنِ المُشارِ إليهِ، ورِفعة قدْره، وبُعْد منزلتِه في الشَّرف، وعلى كونِه في ظهور الأمرِ ونباهةِ الشأن بمنزلةِ المشاهَد المعايَن[٢].

١٠- **قوله تعالى**: ﴿**نَتْلُوهُ**﴾ يحتمل أنْ يكونَ فيه التفاتٌ من غَيبة إلى تكلُّم؛ لأنَّه قد تقدَّمه اسمٌ ظاهر، وهو قوله: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. ويحتمل أن يكون- ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ جِيء بها اعتراضًا بين أبعاضِ هذه القِصَّة، فلا يكون فيه التفاتٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١٦)

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١٨).

الآيات (٥٩ - ٦٢)

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْمُمْتَرِين﴾: أي الشَّاكِّين، والـمِرْية: التَّردُّد في الأمر، وهي أخصُّ من الشَّكِّ[1].

﴿نَبْتَهِلْ﴾: أي: نتداعَ باللَّعْن، أو نلتعِن؛ يقال: عليه بهلةُ الله، وبَهلْتُه، أي: لعنتُه، وأصل (البَهْل): كونُ الشيءِ غيرَ مراعًى، والبَهْل والابتهال في الدُّعاء: الاسترسالُ فيه والتَّضرُّع[2].

﴿الْقَصَصُ﴾: الأخبارُ المتتبَّعة، والأثَرُ، وأصْل القصِّ: تتبُّعُ الأثَرِ أو الشَّيء[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

﴿كَمَثَلِ﴾: الكافُ حرْف تَشبيه. و(مَثَلِ) مجرورة، وهي هنا بمعنى الحالِ والشأن، أي: إنَّ شأنَ عيسى وحالَه الغريبة كشأنِ آدَم، وقيل: إنَّ المَثَل بمعنى

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧، ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

الصِّفة؛ وقول: صِفةُ عيسى كصِفةِ آدَم كلامٌ مُطَّرد. وقيل غير ذلك.

﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾: جملةٌ مفسرةٌ لوجهِ التَّشبيه بين المَثَلين، لا محلَّ لها من الإِعراب؛ فهي خبرٌ مستأنَفٌ على جِهةِ التَّفسير لحالِ آدَمَ عليه السَّلام، كقولِك: كمَثلِ زيد- تريد أنَّك تُشْبهه في فِعْلٍ ثم تخبرُ بقصَّة زيد، فتقول:- فعَل كذا وكذا. وقيل غير ذلك.

﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾: ﴿فَيَكُونُ﴾ مرفوعٌ على الاستئنافِ، أي: فهو يكون، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿فَيَكُونُ﴾ على بابِه مِنْ كونِه مستقبلًا، والمعنى: فيكونُ كما يأمرُ الله، فيكونُ حكايةً للحالِ التي يكونُ عليها آدم، ويجوز أن يكون ﴿فَيَكُونُ﴾ بمعنى (فكان)؛ لأنَّ الخبرَ عن أمر آدمَ تناهَى عند قوله: ﴿كُنْ﴾، وكلمة ﴿فَيَكُونُ﴾ خبرٌ لمبتدأ، أي: واعلم- يا محمَّد- أن ما قال له ربُّك: كُنْ، فهو كائنٌ[(١)].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُقيم اللهُ تعالى الحُجَّةَ على النَّصارى الَّذي عبَدوا عيسى عليه السَّلام بدَعْوى أنَّه لا أبَ له، فيُشبِّهُ خَلْقَ عيسى عليه السَّلام حين خلَقه من غير أبٍ بخَلْق آدمَ حين خلَقه من ترابٍ بلا أبٍ ولا أمٍّ، ثمَّ قال له: كُنْ، فكان، فخَلْقُ عيسى بلا أبٍ ليس بأعجبَ مِن خَلْق آدمَ.

ثمَّ يقول اللهُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ هذا القولَ الَّذي أخبرتُك به، وقَصصتُه عليك، من أمرِ عيسى- هو الحقُّ مِن عند ربِّك، فلا تكُنْ من الشَّاكِّين، فمَن جادَلك وخاصمَك في عيسى بعدَ ما جاءَك من العِلم والبيان في شأنه، فقُلْ للَّذين يُحاجُّونك: هلمُّوا ندعُ أبناءَنا وأبناءَكم، وزوجاتِنا وزوجاتِكم، وإيَّانا وإيَّاكم، ثمَّ نلتعِنْ فنَجعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الكاذِبِينَ منَّا ومنكم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١٨- ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٤).

ثمَّ قال الله تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ هذا الَّذي قصَصْناه عليك- يا محمَّدُ- في شأنِ عيسى وخبرِه هو الحقُّ البيِّن، وكلُّ ما خالَفه وناقضه فباطلٌ، ولا معبود يستحقُّ العبادةَ بحقٍّ إلَّا اللهُ العزيزُ الحكيم.

فإن أعرَض هؤلاء، وتولَّوا عن الحقِّ، ومالوا إلى الباطِلِ، فهم المفسِدون، واللهُ عليمٌ بهم، وسيُجازيهم على ذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)﴾.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾.

أي: إنَّ شَبَهَ عيسى في خَلْق اللهِ له من غيرِ أبٍ كشَبَهِ آدمَ[1].

﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

أي: خلَق آدمَ من ترابٍ بلا أبٍ ولا أمٍّ، ثمَّ قال له: كُنْ، فكان، فليس خَلْقُ اللهِ عيسى بلا أبٍ بأعجَبَ مِن خَلْق آدمَ؛ فكيف يَستنكِرُ وجودَ عيسى من غيرِ أبٍ، مَن يُقرُّ بوجود آدمَ من غير أبٍ[2]؟!

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)﴾.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

أي: هذا القولُ الَّذي أنبأتُك به مِن خبرِ عيسى هو الحقُّ مِن عند ربِّك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٩)، ويُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٩)، ويُنظر: ((أعلام الموقعين)) لابن القيِّم (١/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٣).

﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

أي: فلا تكُنْ من الشَّاكِّين في شيءٍ ممَّا أخبرك به ربُّك[١].

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)﴾.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾.

أي: فمَن جادَلك- يا محمَّدُ- في المسيحِ عيسى ابنِ مريم[٢].

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

أي: مِن بعدِ ما جاءَك من العِلم الَّذي قد بيَّنْتُه لك أنَّ عيسى عليه السَّلام عبدُ اللهِ ورسولُه[٣].

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾.

أي: فقُلْ لهم: هلمُّوا وأقبِلوا، ولندعُ أبناءَنا وأبناءَكم، وزوجاتِنا وزوجاتِكم، وإيَّانا وإيَّاكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).
قال ابن عثيمين: (والمراد بالمحاجَّة في عيسى ليس في ذاته؛ لأنَّ عيسى معلوم أنه بشَر، لكن في شأنه وقضيته)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٥).
وجائزٌ أنْ تكون لفظة ﴿فِيهِ﴾ في قوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ عائدةً على الحقِّ الذي قال تعالى ذِكرُه: ﴿الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٥).
قال ابن عاشور: (والنساء: الأزواج لا محالةَ، وهو إطلاقٌ معروفٌ عند العربِ إذا أُضيف لفظ

عن سعدِ بنِ أبي وقَّاص قال: ((لما نزلتْ هذه الآيةُ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم عليًّا وفاطمةَ وحسنًا وحُسينًا، فقال: اللهمَّ هؤلاء أهلي))[١].

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

أي: ثمَّ نلتعِنْ، فنَجعَلْ لَعْنَةَ اللهِ وعقوبتَه على الكاذِبينَ منَّا ومنكم[٢].

عن حذيفةَ قال: ((جاء العاقبُ والسَّيدُ صاحبا نَجْران إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدُهما لصاحبِه: لا تفعلْ، فوالله لئنْ كان نبيًّا فلاعنَّا لا نُفْلح نحن، ولا عقِبُنا مِن بعدِنا. قالا: إنَّا نُعطيكَ ما سألْتَنا، وابعثْ معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعثْ معنا إلَّا أمينًا. فقال: لأبعثنَّ معكم رجلًا أمينًا حقَّ أمينٍ. فاستشرفَ له أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: قمْ يا أبا عبيدةَ بنَ الجرَّاح. فلمَّا قام قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم : هذا أمينُ هذه الأُمَّةِ))[٣].

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢)﴾.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾.

النساء إلى واحدٍ أو جماعة دون ما إذا ورد غيرَ مضاف، قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾... والأنفسُ أنفسُ المتكلِّمين وأنفس المخاطبين، أي: وإيَّانا وإيَّاكم)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٦).

(١) رواه مسلم (٢٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

قال ابنُ تيمية: (من المتواتر أنَّ نصارى نجران قدِموا على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ودعاهم إلى المباهلة المذكورة في سورة آل عمران، فأقرُّوا بالجزية ولم يُباهلوه، وصدْرُ آل عمران نزَل بسببِ ما جرَى؛ ولهذا عامَّتُها في أمْر المسيح)، ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٧٧).

(٣) رواه البخاري (٤٣٨٠) ومسلم (٢٤٢٠).

أي: إنَّ هذا الَّذي قصَصْناه عليك من أمرِ عيسى عليه السَّلام، وأنَّه عبدٌ لله ورسوله، هو القَصَصُ الحقُّ، والصِّدقُ، وما خالَفه فهو باطلٌ[١].

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾.

أي: وما من معبود بحقٍّ إلَّا اللهُ؛ فهو الَّذي لا تنبغي العبادةُ إلَّا له[٢].

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ هو الَّذي لا يُغلَب؛ فهو الَّذي قهَر كلَّ شيءٍ وخضع له، ذو الحكمةِ فهو الحاكمُ، ولا حاكمَ غيره، والمُحكِم أي المُتقِنُ لِما حكَم به[٣].

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)﴾.

أي: فإنْ أعرَضوا عن الإقرار بالتَّوحيد، وأنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُه، وعدَلوا عن الحقِّ إلى الباطل، فهُمُ المفسِدون، واللهُ عليمٌ بهم، ويُجازيهم على ذلك شرَّ الجزاء، ويُعاقبُهم أشدَّ العُقوبة[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- كلُّ مَن تولَّى عن دِين الله فهو مُفسدٌ، ولو زعَم أنَّه مصلِحٌ؛ كما في قوله:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٠).
قال ابن عثيمين: (﴿الْقَصَصُ﴾... يحتملُ أن يكونَ مصدرًا بمعنى الفعلِ، ويحتملُ أن يكونَ مصدرًا بمعنى اسمِ المفعولِ أي: إنَّ هذا لهو المقصوصُ الحقُّ، وسواء قُلنا بهذا أو بهذا فالمؤدَّى واحدٌ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾[١].

٢- واجبُنا نحوَ أحكام الله الكونيَّة والشَّرعيَّة التَّسليم والرِّضا والقناعة، وألَّا نطلُبَ سواها؛ لأنَّنا نعلَمُ أنَّها مبنيَّةٌ على الحِكمة[٢]؛ وذلك يؤخذُ من قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- إقامةُ الحُجَّة بمِثل ما يَحتجُّ به الخَصم؛ لأنَّه أقام الحُجَّة على النَّصارى بمِثْل ما احتَجُّوا به؛ كما في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾[٣].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾، إنْ قال قائلٌ: كيف شُبَّه عيسى بآدم وقدْ وُجِد هو مِن غيرِ أبٍ، ووُجِد آدَمُ من غير أبٍ وأمٍّ؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنَّ التَّشبيهَ إنَّما هو في الحالةِ الخارجةِ عن المألوف؛ فقد شُبِّه به لأنَّه وُجِد وجودًا خارجًا عن العادة المستمرَّة، وهما في ذلك نظيران.

الثاني: أنَّ المماثلةَ هي مشاركةٌ في بعض الأوصافِ؛ فعيسى عليه السَّلام مَثيلُ آدَمَ عليه السَّلام في إحْدى الطَّرفين؛ فلا يمنعُ اختصاصُ آدَم عليه السَّلام دونه بالطَّرَفِ الآخَرِ من تشبيهه به.

الثالث: أنَّ الوجودَ من غير أب وأمٍّ أغربُ وأخرقُ للعادة من الوجودِ بغير أبٍ، فشُبِّه الغريبُ بالأغربِ؛ ليكونَ أقطعَ للخَصمِ، وأحسمَ لمادَّة شُبهتِه، إذا نظَر فيما هو أغربُ ممَّا استغربَه[٤]؛ ففي قولِه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير الشربيني))

كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ...﴾ ردٌّ على مَن يدَّعي أُلوهيَّة عيسى عليه السَّلام، فإذا كانوا يقولون: عيسى ابنُ الله- تعالى اللهُ عن ذلك-؛ لأنَّه وُلِد بلا أبٍ، فأَوْلى منه بذلك آدَمُ عليه السَّلام؛ لأنَّه خُلِق بلا أبٍ ولا أمٍّ؛ فإذا لم يكُن آدمُ إلهًا أو ابنَ إلهٍ، فعيسى ليسَ كذلك مِن باب أَوْلى[1].

٣- في قوله: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ إثباتُ القياسِ، وكلُّ مَثَل مضروبٍ في القُرْآن، فإنَّه دليلٌ على ثبوت القياس؛ لأنَّه إلحاقُ الـمُورَدِ بالمضروبِ[2].

٤- قال تعالى: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، المقولِ له: ﴿كُنْ﴾ هو آدَمُ عليه السَّلام؛ وإنَّما قال: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ بعدَ أنْ ذكَر أنَّه ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾- وإنْ كان الترتيبُ الزمنيُّ يَقتضي أن يقول له: ﴿كُنْ﴾ قبل أنْ يَخلقَه لا بعده-؛ لأنَّه خلقَه قالبًا مِن ترابٍ، ثم قال له: كُنْ بَشَرًا. وقيل: الآية ليس فيها ترتيبٌ زمنيٌّ لهذه الأفعال، وإنَّما أخبرَنا اللهُ تعالى أولًا أنَّه خَلَقَ آدمَ مِن غيرِ ذَكَرٍ ولا أُنثى، ثم ابتدأَ خبرًا آخَرَ، أرادَ أنْ يُخبِرَنا به فقال: إنِّي مُخبرُكم أيضًا بعد خَبَري الأوَّل أنِّي قلتُ له: ﴿كُنْ﴾ فكان، فجاءَ بـ﴿ثُمَّ﴾ لمعنى الخبرِ الذي تقدَّم، والخبرِ الذي تأخَّر في الذِّكر؛ لأنَّ الخَلْقَ تقدَّم على قولِه: ﴿كُنْ﴾[3].

(١/ ٢٢١)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٢).

والعربُ تضربُ الأمثالَ لبيان ما خَفِي معناه ودقَّ إيضاحُه؛ فلمَّا خفِي سرُّ ولادة عيسى من غير أب- لأنَّه خالف المعروف- ضرَب الله المَثَلَ بآدَمَ- الذي استقرَّ في الأذهان، وعُلِم أنه أُوجد من غيرِ أب ولا أم- كذلك خَلْقُ عيسى بلا أبٍ. ولا بدَّ من مشاركة معنويَّة بين مَن ضُرِب به المَثَل وبين من ضُرِبَ له المَثَل، من وجهٍ واحدٍ أو من وجوهٍ، ولا يُشترطُ الاشتراكُ في سائرِ الصِّفات. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٢٠- ٢٢١).

٥- في إضافةِ الرُّبوبيَّة إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ فضيلةٌ له؛ لأنَّ الرُّبوبيَّة هذه خاصَّةٌ، والرُّبوبيَّة الخاصَّةُ تُفيد معنًى أخصَّ من الرُّبوبيَّة العامَّة[١].

٦- في قوله: ﴿فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ نهيُه عن الامتراء- وجلَّ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يكون ممتريًا- من باب التَّهييج لزيادة الثَّباتِ والطُّمأنينة[٢].

٧- في قوله: ﴿فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ قاعدةٌ شريفة، وهي أنَّ ما قامت الأدلَّةُ على أنَّه حقٌّ، وجزَم به العبدُ من مسائلِ العقائد وغيرها، وجَب الجزمُ بأنَّ كلَّ ما عارَضه باطلٌ، وكلَّ شُبهة تُورَدُ عليه فاسدة، سواءٌ قدَر العبدُ على حلِّها أو لا؛ لأنَّ ما خالَف الحقَّ فهو باطلٌ[٣].

٨- جواز المخاطبة بالتَّعريض؛ لأنَّ قوله: ﴿فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، لا يعني أنَّ الرَّسول يمكن أنْ يكونَ منهم، بل هو تعريضٌ بهؤلاء، وأنَّهم ذَوو خُلُق سيِّئ[٤].

٩- قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، يدلُّ على أنَّ هناك مهلةً بين العِلم الَّذي جاءه وبين المُحاجَّة الَّتي وقَعَت، بخلاف لو قال: (فمن حاجك فيه بعدما جاءك)، فإنَّها تفيد البَعديَّة، لكن لا تدلُّ على التَّراخي والمباعدة، ومعلوم أنَّ الإنسانَ كلَّما تمعَّن في النَّظر فيما علِم، ازداد به عِلمًا ويقينًا[٥].

١٠- في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، جواز

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٤).
(٢) يُنظر: ((الكشاف)) للزمخشري (١/ ٣٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٥).

طلَب المباهلة عند عنادِ الخَصْم؛ وذلك مقيَّد بأنْ تكونَ بعِلم يقينيٍّ، أمَّا إذا كان الإنسان شاكًّا فلا يجوزُ له[١].

١١- في قوله سبحانه: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾، جمَعَ في الملاعنةِ الأبناءَ والنِّساء؛ لأنَّه لَمَّا ظهَرَتْ مُكابرتُهم في الحقِّ وحبُّ الدُّنيا، عُلِم أنَّ مَن هذه صفتُه يكونُ أهلُه ونساؤُه أحبَّ إليه من الحقِّ[٢].

١٢- في قوله: ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ جوازُ الدُّعاء باللَّعن على مَن خالَف الحقَّ، لكن بالوصفِ لا بالشَّخص؛ لأنَّ الكاذبين وصفٌ[٣].

١٣- من شروط المباهَلة أنْ تكونَ في أمرٍ مهمٍّ، أمَّا الأمور الَّتي ليست مهمَّةً، فلا ينبغي للإنسان أنْ يُعرِّض نفسَه للخطَر، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الآية[٤].

١٤- في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إبطالٌ لإلهيَّة المسيح على حسَب اعتقادِ المخاطَبين من النَّصارى؛ فإنَّهم زعَموا أنَّ اليهودَ قتَلَتْه؛ وذلك ذِلَّةٌ وعجزٌ لا يَلتئمان مع الإلهيَّة، فكيف يكون إلهًا وهو غيرُ عزيزٍ، وهو محكومٌ عليه؟ وهو أيضًا إبطالٌ لإلهيَّتِه على اعتقادِنا؛ لأنَّه كان محتاجًا لإنقاذِه من أيدي الظَّالمين[٥].

١٥- يُؤخذُ من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أنَّ كلَّ عزيزٍ إذا اقترَن في عزَّتِه الحكمةُ والحُكم، كملَتْ عِزَّتُه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦١).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ مَن جَعَل ﴿مَثَلَ﴾ هنا مرادفًا لـ(مِثْل)، كالشَّبَهِ وَالشِّبْهِ، جعَل الجمْعَ بين أداتي تَشبيهٍ على طريقِ التَّأكيد للشبه، والتَّنبيه على عِظَم خطَرِه وقَدْره[١].

٢- **قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾:

- (ثُمَّ) للتراخي الرُّتبي؛ فإنَّ تكوينَه بأمْر (كن) أرفعُ رتبةً مِن (خلْقِه من تراب)، وهو أسبقُ في الوجودِ والتكوين المشارِ إليه بـ﴿كُنْ﴾: هو تكوينُه على الصِّفة المقصودة؛ ولذلك لم يقُل: (كوَّنه من تراب)، ولم يقل: (قال له كن من تراب، ثم أحياه)، بل قال: ﴿خَلَقَه﴾ ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾[٢].

- وعبَّر بقوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ مع كونِه أمرًا قد مضَى، ولم يقل: (فكان)؛ لأنَّ معنى ﴿فَيَكُونُ﴾ فكان، أي: فهو كائنٌ؛ فاسْتُغنى بدَلالةِ الكلام على المعنى وقيل: ﴿فَيَكُونُ﴾، فعطف بالمستقبلِ على الماضي على ذلك المعنى[٣]. وقيل: عبَّر بالمضارعِ عن الماضي لاستحضارِ صورة تكوُّنه، ولا يُحمل المضارعُ في مِثل هذا إلَّا على هذا المعنى، مِثل قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾[٤] [فاطر: ٩].

- والإشارةُ بصيغةِ الافتعالِ ﴿الْمُمْتَرِينَ﴾ إلى أنَّه لا يَشكُّ فيه بعدَ هذا إلَّا مَن أمعن الفِكرَ في شُبه يُثيرها، وأوهامٍ يُزاولها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٢٠- ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٢٨).

٣- **قوله سبحانه:** ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أتى بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا تنبيهًا لهم على خِطابهم في مباهلتِه، كأنَّه يقول لهم: لا تَعْجَلوا وتأنَّوْا؛ لعلَّه أنْ يَظهرَ لكم الحقُّ؛ فلذلك أتى بحرف التَّراخي، وللإشارة أيضًا إلى خَطرِ الأمْرِ، وأنَّه ممَّا يَنبغي الاهتمامُ به، والتَّروِّي له، وإمعانُ النَّظرِ فيه؛ لوخامةِ العاقبةِ، وسُوءِ المُنقلَبِ للكاذبِ [١].

٤- **قوله:** ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ فيه التنبيهُ بـ(ها) والإشارة (ذا) في قوله ﴿هَذَا﴾، والجمعُ بين حرفي التأكيد (إنَّ واللام)، والفَصْل في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾[٢]؛ فأُكِّد الخبرُ بثلاثة مؤكِّدات؛ لأنَّ المقامَ يَقتضي هذا، فمِن بلاغة الكلام أن يكون مطابقًا للواقع، أو موافقًا لمقتضى الحال[٣].

٥- **قوله تعالى:** ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

- قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ﴾: فيه تأكيدُ النَّفي؛ بـ(ما) و(إلَّا)، وذلك أقوى صِيَغ الحَصْر؛ للمبالغةِ في أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ الواحدُ الحقُّ سبحانه وتعالى[٤].

- وصرَّح فيه بـ(مِن) الاستغراقيَّة؛ تأكيدًا للردِّ على النَّصارى في تثليثهم. ودخولها- (مِن)- بعد حرْف النَّفي؛ للتَّنصيصِ على قَصْد نفيِ الجِنس؛ لتدلَّ الجملةُ على التوحيد، ونفْي الشريكِ بالصَّراحة، ودَلالة المطابقة، وأنْ ليس المرادُ نفْيَ الوحدة عن غيرِ الله، فيُوهِم أنَّه قد يكونُ إلَاهانِ أو أكثر في شقٍّ آخَر، وإنْ كان هذا يؤول إلى نفْي الشريك، لكن بدلالة الالتزام[٥].

- وفي قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ﴾: تَكرارُ اسم الله تعالى[٦]،

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) (٣/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠٤).

وإظهارُه في موضِع الإضمار- حيث لم يقُلْ: (وإنه)-؛ لتربيةِ المهابةِ، ولتأكيدِ معنى الألوهيَّة[١].

- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾: فيه- مع التأكيد بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة- إشارةٌ إلى الجواب عن شُبهات النَّصارى[٢].

- والضميرُ في قولِه: ﴿لَهُوَ القَصَصُ﴾ ضميرُ فصلٍ، ودخلتْ عليه لامُ الابتداءِ؛ لزيادةِ التقويةِ التي أفادَها ضميرُ الفصل؛ لأنَّ اللام وحْدَها مفيدةٌ تقويةَ الخبرِ، وضميرَ الفصلِ يُفيد القصرَ، أي: هذا القَصصُ لا ما تَقصُّه كتُبُ النصارى وعقائدُهم[٣].

٦- **في قوله تعالى:** ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوْا**﴾ في الكلامِ التفاتٌ؛ إذ فيه انتقالٌ من خِطابٍ إلى غَيبة- هذا على القولِ بأنَّ الفِعل (تَوَلَّوا) ماضيًا، وأمَّا على القول بأنَّه مضارعٌ أصله (تَتولَّوا) وأُدغمتْ إحْدى التاءين في الأخرى، فليس فيه التِفاتٌ[٤].

٧- **في قوله:** ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ**﴾ وضعُ الظَّاهر موضعَ المُضمَر؛ ليدلَّ على أنَّ التَّولِّيَ عن الحُجَج والإعراض عن التَّوحيد إفسادٌ للدِّين والاعتقاد، المؤدِّي إلى فساد النَّفس، بل وإلى فسادِ العالَم[٥]، ومن فوائده أيضًا: انطباقُ الوصْفِ في هذا المظهَر على مَن يعودُ عليه، ومنها العموم؛ لأنَّه لو جاء الضَّميرُ هنا حسَب السِّياق، فإنَّ اللهَ عليمٌ بهم، لاختصَّ العِلم بهم وحدهم، لكن إذا قال: ﴿بِالْمُفْسِدِينَ﴾ صارَ عامًّا فيهم وفي غيرِهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٣٠- ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٢٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٧).

الآيات (٦٤ - ٦٨)

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَوَاءٍ﴾: أي: عدْل، ونَصَفة، وسواءُ كلِّ شيءٍ: وَسَطُه. وأصله: الاستقامةُ والاعتدالُ[1].

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مُستقيمًا، أو مائلًا إلى الدِّين المُستقيم، والحَنَفُ: مَيلٌ عن الضَّلال إلى الاستقامة، وأصْله: ميلٌ في إبهامَي القَدمين، كلُّ واحدةٍ على صاحبتِها، والأحنف: مَن في رِجْلِه مَيلٌ؛ قيل: سُمِّي بذلك على التَّفاؤل[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤلاءِ حَاجَجْتُمْ...﴾

﴿هَا﴾: للتَّنبيهِ. و﴿أَنْتُمْ﴾: في محلِّ رفْع مبتدأ. و﴿هَؤلاءِ﴾: في محلِّ رفْع

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

خبَر، وعلى هذا فجملةُ ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ في محلِّ نصْب حال، والعاملُ في الحالِ اسمُ الإشارةِ؛ لِمَا فيه مِن معنى الفِعْل. وقيل: إنَّ ﴿هَؤُلاءِ﴾ خبرٌ لكِن على تقديرِ حذْفِ مضاف، تقديرُه: ها أنتم مِثْلُ هؤلاءِ، وجملة ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ في محلِّ نصْب حال أيضًا، لكن العامِل في الحالِ معنى التشبيه، المستفادِ مِن (مِثْل) المحذوفةِ، ويلزَمُ منه الإشارةُ إلى غائبين؛ لأنَّ المرادَ بهم أسلافُهم على هذا، وقد يُقال: إنه نَزَّل الغائِبَ مَنْزِلَةَ الحاضرِ. وقيل: إنَّ جملة ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ مستأنفةٌ مبيِّنةٌ للجملةِ قبلها، أي: أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى، وبيانُ حماقتِكم وقلةِ عقولكم أنَّكم جادلتم فيما لكم به عِلم بما نَطَقَ به التوراة والإنجيل، فلِمَ تُحاجون فيما ليس لكم به علم؟! وقيل: إنَّه منادَى حُذِف منه حرْف النِّداء، والتقديرُ: يا هؤلاءِ[1]، وخبَرُ ﴿أَنْتُمْ﴾ حينئذٍ جملةُ ﴿حَاجَجْتُمْ﴾. وقيل غيرُ ذلك في توجيهِ هذه الآية الكريمة[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يدعوَ أهلَ الكتابِ إلى كَلمةِ عدل، يستوي فيها الجميعُ، ويَجتمعون عليها، وهي كلمةُ التَّوحيد، وإفرادِ الله بالعبوديَّة، وعدمِ الإشراكِ معه غيرَه، وعدمِ اتِّخاذ أربابٍ يُعبَدون من دون الله، أو يُطاعون في تحليل ما حرَّم اللهُ، أو تحريم ما أحلَّ اللهُ؛ فإنْ أعرضوا فأَشْهِدوهم- أيُّها المؤمنون- أنَّكم مُسلِمون، مستمرُّون على هذا الدِّين الَّذي شرَعه الله وارتضاه لكم.

---

(١) وهذا الوجهُ فيه الفصْل بالنِّداء بينَ المبتدأِ وخبرِه، وهذا لا يُجيزه جمهورُ البصريين. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٠٢- ١٠٣، ٢٠٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٨٦، ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٤٧٤- ٤٧٨) و(٣/ ٢٤٠- ٢٤٢).

ثمَّ يُوجِّه اللهُ خِطابَه لأهل الكتاب من اليهود والنَّصارى، حيث يقول لهم: يا أهلَ الكتاب، من اليهود والنَّصارى، لِمَ تُخاصِمون في إبراهيم عليه السَّلام، ويدَّعي كلُّ فريق منكم أنَّه كان يَدينُ بدِينه، وفي حقيقةِ الأمْر أنَّ التَّوراة والإنجيل ما أُنزلت إلَّا بعد موتِه بزمنٍ، أفلا تعقلون أنَّ ما تقولونه باطلٌ؟!

فها أنتم خاصمتُم فيما تَعلمونه مِن أمْرِ دِينكم، وما جاء ذِكْره في كُتبكم؛ فلماذا الجدالُ والمُماراة فيما لم يَصِلْكم عِلمُه من شأنِ إبراهيمَ الخليلِ ودِينه الَّذي كان عليه؟! واللهُ قد أحاطَ عِلمُه بكلِّ شيءٍ ممَّا خَفِيَ عنكم علمُه، أمَّا أنتم فلا تعلمون ما يَعلمُه الله.

ثم يُبيِّن الله لهم الحقيقةَ الواضحةَ من أمْر إبراهيم، حيثُ نفَى الله عنه أن يكونَ يهوديًّا أو نَصرانيًّا، بل أَثْبَتَ أنَّه كان حنيفًا مستقيمًا، مُتَّبِعًا لأمْر الله، مُخلِصًا له، كما أنَّه لم يكُن من المشركين، الذين يَعكُفون على عبادةِ الأصنام وغيرِها.

ثمَّ يذكُر اللهُ بعد ذلك الطائفةَ الَّتي هي أحقُّ النَّاس بإبراهيم ووَلايتِه ونُصرتِه، فبيَّن أنَّهم مَن اتَّبع دِينَه، وسلَك طريقَه، ومنهم محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والَّذين آمنوا به مِن أصحابِه ومَنْ بعدَهم، فهؤلاءِ أحقُّ بولايتِه، واللهُ يتولَّى المؤمنين، ويُؤيِّدهم وينصُرهم على مَن عاداهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نَكَصَ أهلُ الكتاب عن المباهلة بعد أنْ أَوْرَدَ عليهم أنواع الحُجج فانقطعوا،

فلم تبقَ لهم شُبهةٌ، وقَبِلوا الصَّغارَ والجزية، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حريصًا على هداية الخَلق- أمَره الله تعالى أن يقومَ بتكرير دَعوتهم، وإرشادِهم بطريقٍ أخفَّ ممَّا مضى، بأنْ يُؤْنِسَهم فيما يدعوهم إليه بالمؤاساةِ، فيدعو دُعاءً يشملُ المحاجِّين من النَّصارى وغيرِهم- ممَّن له كتابٌ من اليهود وغيرهم- إلى الكلمةِ الَّتي قامت البراهين على حقيَّتها، ونهضت الدَّلائل على صِدقها، على وجهٍ يتضمَّن نفْيَ ما قد يُتَخَيَّلُ من إرادة التفضُّل عليهم والاختصاصِ بأمرٍ دونهم؛ وذلك أنَّه بدأ بمباشرةِ ما دعاهم إليه، ورَضِيَ لهم ما رَضِيَ لنفْسه، وما اجتمعتْ عليه الكتُبُ، واتَّفقت عليه الرُّسلُ، فقال تعالى[(١)]:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لأهل الكِتابِ من اليهود والنَّصارى: يا أهلَ الكتاب، هَلُمُّوا وأَقْبِلُوا إلى كلمةِ عدْل نستوي- نحن وأنتم- فيها[(٢)].

ثمَّ فسَّر هذه الكلمةَ بقوله:

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

أي: نوحِّد الله، ونُفرِده بالعبادة[(٣)].

﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾.

أي: لا نُشرِك بالله شيئًا؛ لا نبيًّا، ولا مَلَكًا، ولا وَلِيًّا، ولا صنمًا، ولا وَثَنًا، ولا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٤٦- ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٧٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٥).

وممَّن قال بأنَّ ﴿كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ تعني: كلمة عدل من السَّلف: ابنُ عبَّاس، وقتادةُ، والرَّبيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٧٨)، ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور)) للسيوطي (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

حيوانًا، ولا جمادًا، ولا غير ذلك[١].

فهذه دعوةُ الرُّسل- كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

أي: ولا يُنْزِلُ بعضُنا بعضًا منزلةَ الرُّبوبيَّة؛ فيُعبد، أو يُسجَد له، أو يُطاع في تحليل ما حرَّم الله، أو تحليل ما أحلَّ الله[٢].

كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١].

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

أي: فإنْ أعْرَضوا عن إجابة ما دُعُوا إليه فقولوا- أيُّها المؤمنون- لهؤلاء المعرِضين: اشهدوا أنَّنا مُستمرُّون على الإسلام، منقادون لشريعتِه، مقرُّون بتوحيد الله، مُخلِصون في عبادتِه[٣].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥)﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٧٤، ٤٨٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٧).

أي: يا أهلَ الكتاب، من اليَهود والنَّصارى، لِمَ تجادلون وتخاصمون في إبراهيمَ خليلِ الرَّحمن، ويدَّعي كلُّ فريقٍ منكم أنَّه كان منهم، ويَدِينُ دِينهم[١].

كما قال تعالى مُبَيِّنًا وجْهَ مُحاجَّتِهم في إبراهيم: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ﴾، وكما قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾.

ثمَّ يُقِيمُ الحُجَّة الداحِضة لدعواهم، والدَّليل المبطِل لقولهم، فيقول:

﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾.

أي: كيف تَدَّعُونَ- أيُّها اليهود- أنَّه كان يهوديًّا، وأيُّها النَّصارى- أنَّه كان نصرانيًّا، وما أُنْزِلَت التَّوراة ولا الإنجيل إلَّا بعد موته بزمن. واليهوديَّةُ ما حَدَثَتْ إلَّا بعد نزول التَّوراة، ولا حدَثت النصرانيَّة إلَّا بعد نزول الإنجيل[٢]؟!

ولَمَّا كان الدَّليل عقليًّا، قال الله مُوَبِّخًا لهم[٣]:

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: أفلا تَعقِلون بُطْلانَ قولَكم؟! فلو عَقَلتم ما تقولون، لم تقولوا ذلك[٤].

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٣).

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾.

أي: ها أنتُم- يا هؤلاء- جادلتُم وخاصَمتُم فيما لكم به عِلمٌ من أمْر دِينكم ممَّا وجدتموه في كُتُبكم[١].

﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾.

أي: فلِمَ تُجادلون وتُخاصِمون في الَّذي لا عِلمَ لكم به من أمْر إبراهيم، وما كان عليه مِن الدِّين[٢]؟!

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: واللهُ يعلمُ ما غاب عنكم، ولم يَأتِكم عِلمُه عن طريقِ رُسله من أمْر إبراهيم عليه السَّلام وغيره من الأمور، وأنتُم لا تعلمونَ ما يَعلمُه اللهُ مِن هذا وغيرِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ﴾.

ثم يُقرِّر الله تعالى ما كان عليه إبراهيمُ عليه السَّلام من الدِّين، فيقول:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾.

أي: لم يكُن إبراهيمُ عليه السَّلام يَهوديًّا على ملَّة اليهود، ولا نصرانيًّا على ملَّة النَّصارى[٤].

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٢). يُنظر:((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٥).

﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾.

أي: ولكن كان إبراهيمُ عليه السَّلام مستقيمًا، مُتَّبِعًا لأمْر الله، مُخْلِصًا له، قد خشَع لله قلبُه، وانقادتْ له جوارحُه، والتزم بأحكامِه[١].

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: لم يكُن إبراهيمُ عليه السَّلام من المشركين، الَّذين يَعبُدون غيرَ الله من الأصنام وغيرها[٢].

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾.

أي: إنَّ أحقَّ النَّاسِ بإبراهيمَ وولايتِه ونُصرتِه، وأقربَهم إليه، هم الَّذين اتَّبعوه على دِينِه وملَّته، وسلَكوا طريقَه[٣].

﴿وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أي: ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والَّذين آمنوا به مِن أصحابِه؛ ومَنْ بعدَهم[٤].

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: والله ناصرُ المؤمنين، ومُعِينُهم، ومؤيِّدهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية ٢٨/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤).

(٥) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُؤخَذ من قوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أنَّه ينبغي للمسلم أن يَعتزَّ بدِينه، وأن يُعلنه ويُشْهِرَه، خِلافًا لضعفاء الشَّخصية، الَّذين يتستَّرون بدِينهم مخافةَ أن يُعَيِّرهم النَّاسُ به[١].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، عُلِّقَت الولايةُ بالإيمان، والحُكم المُعَلَّقُ بوصف يَزدادُ قوَّةً بقوَّة هذا الوصف فيه، وعليه فكلَّما كان الإنسانُ أقوى وأكمل إيمانًا، كانت ولايةُ الله له أتمَّ وأخصَّ وأكملَ[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- إذا صدَّر اللهُ تعالى الشَّيء بـ﴿قُلْ﴾ الموَجَّه للرسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنَّه يَقتضي زيادةَ العناية به؛ لأنَّه أُمِرَ بأنْ يُبلِّغَ هذا الشيءَ بخصوصِه[٣].

٢- الكلمة تُطْلَقُ على الجملة المفيدة كما في قوله: ﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾، ثمَّ قال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا...﴾[٤].

٣- في قوله: ﴿سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ تنزُّل مع الخَصْم لإلزامه بالحقِّ، فمعلومٌ أنَّ الحقَّ مع الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لكن من أجل إلزام الخَصْم وإقامة الحجة عليه تنزَّل معه[٥].

٤- يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا

السعدي)) (ص: ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٩).

وَبَيْنَكُمْ﴾ أنَّه يجبُ العدلُ في المناظرة حتَّى مع العدوِّ الكافر، وإذا كان هذا واجبًا في مناظرةِ المسلمين مع الكفَّار، فهو في مناظرةِ المسلمين بعضِهم مع بعضٍ أوجبُ وأَوكَد[١].

٥- في قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ذَكَر ثلاثةَ أشياء: أولها: ألَّا نعبُد إلَّا الله. وثانيها: ألَّا نُشرك به شيئًا. وثالثها: ألَّا يتَّخِذ بعضُنا بعضًا أربابًا من دون اللهِ، وإنَّما ذَكَر هذه الثلاثة؛ لأنَّ النَّصارى جمَعوا بين هذه الثلاثة[٢].

٦- في قوله: ﴿بَعْضُنَا بَعْضًا﴾ بيانُ أنَّ البعضيَّة تُنافي الإلهيَّة؛ إذ هي تماثُلٌ في البشريَّة، وما كان مِثلَك استحال أن يكون إلهًا[٣].

٧- في قوله: ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ دليلٌ على بُطلان القول بالاستحسانِ المجرَّد الَّذي لا يَستنِد إلى دليلٍ شرعيٍّ، وبُطلانِ القولِ بوجوب قَبُول قولِ الإمام دون إبانةِ مُستنَدٍ شرعي، كما ذهَب إليه الرَّوافض[٤].

٨- لَمَّا كان التَّوجُّهُ إلى غيرِ الله خِلافَ ما تدْعو إليه الفِطرة الأولى، عبَّر بصيغة الافتعال فقال: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾[٥].

٩- في قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أنَّ الحكم بين النَّاس والعبادة مُقترِنان؛ لأنَّ الله قَرَنَ بينهما،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٥٢)، ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٦).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٤٧).

ولأنَّك لن تعبُدَ الله إلَّا بشريعتِه، إذنْ يلزم أنْ يكون المشرِّعُ هو المعبودَ، ولا ينبغي لأحد أن يُشَرِّعَ من دونه[١].

١٠- الإشهادُ في قوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ للتَّسجيل عليهم؛ لئلَّا يُظهروا إعراضَ المسلمين عن الاسترسالِ في مُحاجَّتهم في صورةِ العجزِ والتَّسليم بأحقيَّة ما عليه أهلُ الكتاب[٢].

١١- إشهادُ الخَصم على الحال الَّتي يكون عليها خَصمُه؛ لِمَا في ذلك من الغضاضةِ عليه، وكسْر جَبروته، وعدمِ انقيادِه للحقِّ، كما في قوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٣].

١٢- قَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ يتضمَّن الإسلامَ والإيمانَ العمليَّ، الذي هو تجريدُ القَصْدِ بالحُبِّ والخَوفِ والرَّجاءِ، والتوكُّلِ والإنابةِ، والاستعانةِ والاستغاثةِ، والعبوديَّةِ بالقَلْبِ واللِّسانِ والجوارحِ لله وحْدَه[٤].

١٣- الحثُّ على تعلُّم عِلم التاريخ، وأنَّه طريق لردِّ كثير من الأقوال الباطلة والدَّعاوى الَّتي تخالف ما عُلِمَ من التاريخ، كما جاءت الإشارة في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾[٥].

١٤- في قوله: ﴿لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٦٨)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٠٢- ٤٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤).

مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بيانٌ للاحتجاج بالعقل؛ وإشادةٌ به، وأنَّه لا ينبغي إهمالُ العقل في الاستدلال، وأنَّه لا يَحْمِلُ صاحبَه إلَّا على السَّداد والصَّواب، لكن لا ينبغي الاعتمادُ عليه بالكلِّيَّة، وترْكُ النَّصِّ[١].

١٥- في قوله: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ...﴾: تنزُّلٌ مع الخصم، يعني: لو فرضْنا أنَّ المحاجَّة قُبِلَتْ منكم فيما لكم به علمٌ، فإنَّها لا تُقْبَلُ منكم فيما ليس لكم به علمٌ[٢].

١٦- إقرارُ الإنسان على المحاجَّة بالعِلم، ولكن بشَرْط أنْ يكون قصْدُه حسنًا، بحيث يُريدُ من المجادلةِ الوصولَ إلى الحقِّ، فيُثبت الحقَّ، ويُبطِل الباطلَ[٣].

١٧- قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ فيه النَّهيُ عن الجَدَل بغيرِ عِلمٍ[٤].

١٨- في الآية دليلٌ على أنَّ الأولويات تختلف، أي: إنَّ النَّاس يتفاضلون بالأولويَّة والولاية؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ﴾، و﴿أَوْلَى﴾ اسم تفضيل يدلُّ على المفضَّل والمفضَّل عليه، ولا شكَّ أنَّ الولاية درجات[٥].

١٩- عطف ﴿النَّبِيُّ﴾ على الَّذين اتَّبعوا إبراهيم؛ للاهتمامِ به وتعظيمِه[٦].

٢٠- قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يَقُل: (وَلِيُّهم)؛ تنبيهًا أنَّ مُوالاةَ اللهِ تعالى تُستَحَقُّ بالإيمانِ، وأنَّها ليست بمقصورةٍ على من تقدَّمَ ذِكْرُهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٨، ٣٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٨٤).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٠٩).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٩٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٧).

بل ذلك لكُلِّ مؤمنٍ في كلِّ وقتٍ[١].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿**أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ الأفعالُ الدَّاخلُ عليها أداةُ النَّفي (أَلَّا نَعْبُدَ - وَلَا نُشْرِكَ - وَلَا يَتَّخِذَ...) مُتقارِبةٌ في المعنى، يُؤكِّد بعضُها بعضًا؛ إذ اختصاصُ الله بالعبادة يتضمَّن نفْيَ الاشتراك، ونفْيَ اتخاذِ الأربابِ من دون الله، ولكن الموضِع مَوضِعُ تأكيدٍ وإسهابٍ ونشْرِ كلام[٢].

- وقوله: ﴿أَلَّا نَعبُدَ إلَّا اللهَ﴾﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: فيه تَكرار اسم الله تعالى[٣]، وإظهاره في موضِع الإضمار؛ لتربية المهابة، ولتأكيد معنى الألوهيَّة.

٢- **قوله:** ﴿**اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ عبَّر عن العِلم بالشَّهادة؛ وذلك على سبيلِ المبالغة، إذ خرَج ذلك من حيِّز المعقول إلى حَيِّز المشهود، وهو المحضَر في الحسِّ[٤].

٣- **قوله سبحانه:** ﴿**لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ**﴾، ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ..**﴾، ﴿**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ**﴾: فيه تكرارٌ[٥]؛ حيث تكرَّر اسم الخليل إبراهيم عليه السَّلام ثلاثَ مرَّات في ثلاث آيات؛ للتشريفِ وللتنويهِ بشأنِه، ولإظهارِ علوِّ مقامِه.

٤- **قوله تعالى:** ﴿**فَلِمَ تُحَاجُّونَ**﴾ استفهامٌ مقصودٌ منه التنبيهُ على الغَلَط[٦].

---

(١) ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (٢/ ٦٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٠٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٩٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٢).

٥- **قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾:**

- فيه مناسبةٌ حسَنةٌ، حيثُ بدأ بالنَّفي قبلَ الإثبات؛ للإشارة إلى (التخلية قبل التحلية)، وهو ترتيبٌ موافِق للطبيعة؛ لأنَّك تُخْلِي الشيءَ ممَّا يَشِينُه أوَّلًا، ثمَّ تضيفُ ما يكون به الكمالُ ثانيًا[١].

- وبدأ بنَفْي اليهوديَّة قبل النصرانيَّة في قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾؛ لأنَّ شريعةَ اليهود أقدمُ من شريعة النَّصارى، وكرَّر ﴿لَا﴾، لتأكيدِ النَّفي عن كلِّ واحدٍ من الدِّينَيْنِ[٢].

- ووقعتْ ﴿لَكِنْ﴾ في قوله: ﴿وَلَكِنْ كَانَ حنيفًا مسلمًا﴾ في أحسنِ موقعِها؛ إذ هي واقعةٌ بين النَّقيضينِ بالنِّسبة إلى اعتقادِ الحقِّ والباطل[٣]، وأفادَ الاستدراكُ بعدَ نفْي الضِّدِّ حَصْرًا لحالِ إبراهيمَ فيما يوافق أصولَ الإسلام؛ ولذلك بَيَّن ﴿حنيفًا﴾ بقوله: ﴿مُسْلِمًا﴾؛ لأنَّهم يَعرِفون معنى الحنيفيَّة ولا يُؤمنون بالإسلام؛ فأَعْلَمَهم أنَّ الإسلامَ هو الحنيفيَّة[٤].

٦- **قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾** فيه استدراكٌ بعد نفْي الضدِّ؛ حصرًا لحال إبراهيمَ فيما يُوافِق أصولَ الإسلام؛ ولذلك بيَّن ﴿حَنِيفًا﴾ بقوله: ﴿مُسْلِمًا﴾؛ لأنَّهم يَعرِفون معنى الحنيفيَّة، ولا يُؤمنون بالإسلامِ، فأعْلَمَهم أنَّ الإسلام هو الحنيفيَّة[٥].

- وفيه: قصْرٌ إضافيٌّ بالنسبةِ لليهوديَّة والنصرانيَّة، حيث كان العربُ يَزعُمون

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٥- ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٥٣).

أنَّهم على ملَّةِ إبراهيم، لكنَّهم مشركون[١].

٧- **قوله تعالى:** ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ فيه تعريضٌ بأنَّهم مشركون بقولهم: ﴿عزيرٌ ابنُ اللهِ﴾، و﴿المَسِيحُ ابنُ اللهِ﴾، وردٌّ لادِّعاء المشركين أنَّهم على ملَّةِ إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلام. وخصَّ بالنَّفْي مَن عُرفوا بالشِّرك مع الصلاحِ لكلِّ مَن داخَلَه شِرْكٌ من غيرهم، كمَن أشركَ بعُزيرٍ والمسيحِ عليهما الصَّلاة والسَّلام، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾[٢].

٨- **قوله:** ﴿**وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ تذييلٌ، أي: هؤلاء هم أَوْلى الناس بإبراهيم، والله وليُّ إبراهيم، والذين اتَّبعوه، وهذا النبيُّ والذين آمنوا؛ لأنَّ التذييلَ يشمل المذيَّل قطعًا، ثم يشمل غيرَه تكميلًا، كالعامِّ على سببٍ خاصٍّ[٣].

- وفي قوله: ﴿واللهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِينَ﴾ بعد قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا﴾: تعريضٌ بأنَّ الذين لم يكُن إبراهيمُ منهم ليسوا بمؤمنين[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٩ - ٧١)

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَلْبِسُونَ﴾: تَخلِطون، وأصل اللَّبس: المُخالَطةُ والمداخلة[1].

المَعنَى الإجماليُّ

يُحذِّر اللهُ تعالى عبادَه من مَكْر طائفةٍ خبيثةٍ من اليهود والنَّصارى، أُمنيتُها وغايتُها إضلالُ المسلمين، وإخراجُهم من النورِ إلى الظُّلمات؛ حَسدًا من عند أنفسِهم، إلَّا أنَّ مَكْرَهم هذا لا يَحيقُ إلَّا بهم، وإضلالهم للمسلمين يَرتدُّ عليهم، فيكون جُهدُهم الَّذي يبذلونه في الإضلالِ سببًا في زيادةِ ضلالهم؛ فهُم بهذا السعيِ لا يُضِلُّون إلَّا أنفسَهم، وهم لا يَدْرُون.

ثم يقول الله تبارَك وتعالَى- مُنكِرًا على أهل الكتاب ما يفعلونه-: يا أهلَ الكتاب، ما الَّذي يَحمِلكم على الكُفْرِ بالقرآن، وأنتم تشهدون بصحَّته، وتُوقِنون بصدقه، وأنَّه منزَّلٌ من ربِّكم بالحقِّ؟! يا أهلَ الكتاب، لِمَ تَخْلِطون الحقَّ بالباطل حتَّى يلتبسَ بعضُه ببعض، وتكتمونَ الحقَّ وتُخفونه، وأنتم تعلمونَ أنَّكم تَلبسونَ الحقَّ بالباطلِ، وتكتمون الحقَّ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩)﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧).

يقول اللهُ تعالى محذِّرًا من مَكْرِ هذه الطَّائفة مِن أهل الكتابِ:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾.

أي: تمنَّتْ جماعةٌ من أهل التَّوراة مِن اليهودِ، وأهلِ الإنجيل مِن النَّصارى- أنْ يُخرجوكم من الهُدى إلى الضَّلال، ومِن الإسلامِ إلى الكفرِ[(١)].

كما في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾.

أي: هم بذلك لا يُضِلُّون إلَّا أنفسَهم؛ لأنَّهم ابتعدوا عن الإسلامِ، وانْشَغلوا بمحاولةِ إضلالِ المؤمنينَ عن طلبِ الهِداية[(٢)].

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: وما يَدْرُون، ولا يَعلمون أنَّهم لا يُضِلُّون إلَّا أنفسَهم، وأنَّهم لا يَصِلون إلى إضلالِ المؤمنين[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٩٨).
ومِن المعلوم أنَّ مَن ودَّ شيئًا سعَى بجهدِه لتحصيلِ مرادِه، فهذه الطائفة تَسعى وتبذُل جهدَها في ردِّ المؤمنين وإدخال الشُّبه عليهم بكلِّ طريقٍ يقدرون عليه. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤).
وقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ تحتمل ﴿مِنْ﴾ أن تكون للتبعيض، وتكون الطائفة الرؤساء والأحبار الذين يسكُن الناس إلى قولهم، ويحتمل أنْ تكون لبيان الجِنس، وتكون الطائفةُ جميعَ أهل الكتاب. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٩، ٤٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١١٠).

ثم قال تعالى مُنْكِرًا عليهم:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ختَم الكلامَ في أهل الكتاب بنَفْي شُعورِهم، بَيَّنَ تعالى في مَعرِضِ التبكيتِ أنَّ نفيهم عنه إنَّما هو لأنَّهم معانِدون، لا يَعملون بعِلمهم، بل يعَملون بخِلافه، فقال مستأنِفًا بما يدلُّ على غايةِ التبكيتِ المُؤْذِنة بشديد الغضب[(١)]:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

أي: يا أهلَ الكتاب، ما الَّذي دعاكم إلى الكُفر بالقرآن[(٢)]؟!

﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

أي: وأنتُم تَشهدون بصحَّةِ القرآن، وتعلمون صِدقَه، وأنَّه حقٌّ من عند ربِّكم[(٣)].

فهم يَعلمون نعْتَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الَّذي جاء في كتبهم، وأنَّ ما جاء به حقٌّ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٥٥- ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٢)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيِّم (١/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤).

وقال ابنُ عثيمين: (آياتُ الله تشمل: التوراة والإنجيل والقرآن). ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيِّم (١/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩).

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾.

أي: يا أهلَ الكتاب، لِمَ تَخْلِطون الحقَّ بالباطلِ حتَّى يلتبسَ أحدُهما بالآخَر[١].

ثم ذكَر لازِمَ لَبْسِ الحقِّ بالباطِل، وهو كتمانُ الحقِّ[٢]، فقال:

﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾.

أي: وتُخْفون الحقَّ، ومن ذلك كتمانُهم صفةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الموجودةَ في كتُبهم، ونبوَّتَه[٣].

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: وأنتُم تعلمون أنَّكم تَلْبِسون الحقَّ بالباطل، وأنَّ الَّذي تكتُمونَه من الحقِّ حقٌّ[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ في غَمْرَة الغَلَبَة، أو حبِّ الغَلَبَة، وسَكْرَة حبِّ الظُّهور يَنْسَى، ولا يشعر بضلاله وغوايته[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٣)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيِّم)) (ص: ١٣٤).

(٢) وإنَّما كان اللبسُ مستلزمًا للكِتمان؛ لأنَّ مَن لبس الحقَّ بالباطل، كما فعله أهل الكتاب- حيث ابتدعوا دينًا لم يَشرَعه الله، فأمروا بما لم يأمر به، ونهوا عمَّا لم ينه عنه، وأخبروا بخلاف ما أخبر به- فلا بدَّ له أن يكتم من الحقِّ المنزل ما يناقض بِدعتَه؛ إذ الحقُّ المنزل الذي فيه خبر، بخِلاف ما أخبر به إنْ لم يكتمْه، لم يتمَّ مقصوده، وكذلك الذي فيه إباحةٌ لِمَا نُهي عنه، أو إسقاط لما أُمر به. يُنظر: ((درء التعارض)) لابن تيمية (١/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٠).

٢- في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ المعتدي يُجازَى بمثل عُدوانه، ويُبتلَى بمثل ما ابْتُلِيَ غيره به[١].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الإنسان قد يَعْمَى عن الباطل مع ممارستِه له[٢].

٤- في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أيضًا مبالغةٌ في ذمِّهم، حيث فقَدوا المنفعةَ بحواسِّهم[٣].

٥- يجب الحذرُ من أهلِ الباطل إذا لَبَسوا باطلَهم بالحقِّ، وألَّا نغترَّ بهم إذا زخرفوا القول[٤].

٦- في قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ توبيخٌ لكل مَن لَبَسَ الحقَّ بالباطل، وكتَم الحقَّ، وسلَك هذا المسلك؛ لأنَّ تخصيصَ التوبيخِ لأهل الكتاب ليس تَخصيصًا للشخصِ والعين، بل بالجِنس والنوعِ والوصفِ؛ فمَن كان على شاكلتِهم، فإنَّه يَستحقُّ هذا التوبيخ[٥].

٧- في قوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ دليلٌ على وجوبِ بيان الحقِّ على من عَلِمَه، أمَّا مَن لم يَعلم، فعُذره ظاهرٌ[٦].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ تعزيةُ المسلمين بما يُريده بهم هؤلاء

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٠٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

من الإضلالِ، فكأنَّ الله قال: لا تخافوا منهم؛ فإنَّ الإضلالَ إنَّما يعود عليهم[١].

٢- لانهماكِ أهلِ الكتاب في إضلالِ المسلمين لم يَشعُروا بأنَّه كان صارفًا لهم عن معرفة الحقِّ والهدى؛ لأنَّ المنهمكَ في الشَّيء لا يكادُ يَفطن لعواقبِه وآثاره، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٢]

٣- قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ولم يقُل: (وأنتم تعلمون)؛ لأنَّ الشهادةَ أقوى؛ لكونِها تَقتضي أنْ يكونَ العالِم كالمشاهِد للشيءِ بحسِّه، والمشاهدة بالحسِّ أقوى من المشاهدة بالذِّهن، أو مِن العِلم بالذِّهن[٣].

٤- السَّاعي في إخفاء الحقِّ لا سبيلَ له إلى ذلك إلَّا من أحد وجهين: إمَّا بإلقاء شُبهةٍ تدلُّ على الباطل، وإمَّا بإخفاءِ الدَّليل الَّذي يدلُّ على الحقِّ، فقوله: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ﴾ إشارةٌ إلى المقام الأوَّل، وقوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ إشارة إلى المقام الثَّاني[٤].

٥- خُتِمَت الآيةُ الأولى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، والثانية: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ خُتِمَتْ بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ قيل لأنَّ المنكَرَ عليهم في الآية الأولى هو الكفرُ بآيات الله، وهي أخصُّ مِن الحقِّ؛ لأنَّ آياتِ الله بعضُ الحقِّ، والشهادة أخصُّ من العِلم، فناسَب الأخصُّ الأخصَّ، وذَكَرَ ﴿تَعْلَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٥٦/ ٢٥٧).

مع الحقِّ؛ لأنَّ الحقَّ أعمُّ من الآيات وغيرها، والعِلم أعمُّ من الشهادة، فناسب الأعمُّ الأعمَّ[١].

٦- تلبيسُ الحقِّ بالباطل هو سببُ مَنْشَأ ضلالِ مَنْ ضَلَّ من الأُمم قَبلنا، وهو منشأ البِدع كلِّها؛ فإنَّ البدعَ لو كانت باطلًا محضًا لَما قُبِلَتْ، ولَبادَرَ كلُّ أحد إلى ردِّها وإنكارها، ولو كانتْ حقًّا محضًا لم تكن بدعةً، وكانت مُوافِقةً للسُّنة، ولكنها تشتمل على الحقِّ والباطل، ويَلتبس فيها الحقُّ والباطل، كما قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿**وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ**...﴾ استئنافٌ، و(مِن) هاهنا للتبعيض- على أحدِ الوجهين كما سبَق-، وإنَّما ذَكر بعضَهم ولم يعمَّهم؛ لأنَّ مِنهم مَن آمَن[٣].

٢- **قوله:** ﴿**يَا أَهْلَ الكِتَابِ**﴾ المقصودُ مِن إعادةِ نِدائهم بهذا، هو التوبيخُ، وتسجيلُ باطلهم عليهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠٩- ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣١٧)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيِّم)) للبعلي (ص: ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٩).

الآيات (٧٢ - ٧٤)

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾: أي: صدْرَ النَّهار، أو أوَّله؛ فالوجه أوَّل ما يُسْتَقْبَلُ من الشيء[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾

﴿أَنْ يُؤْتَى﴾: (أنْ) والفِعل في تأويل مصدر (إيتاء)، متعلِّق بقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ على حذْفِ حرفِ الجرِّ، والأصل: (ولا تؤمنوا بأنْ يُؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم إلَّا لِمَن تبع دِينكم)، فيكون في موضِع جَرٍّ أو نصْبٍ على الخلافِ في موضِع (أن) إذا حُذِف حرفُ الجرِّ، ويكون قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ جملةً اعتراضيَّة، أي: ولا تُظهروا إيمانَكم بأنْ يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتُم إلَّا لأهل دِينكم دونَ غيرهم. وقوله: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾: عطفٌ على ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾. والضَّميرُ في ﴿يُحَاجُّوكُمْ﴾ عائدٌ على ﴿أَحَدٌ﴾؛ لأنَّه في معنى الجميعِ، أي: ولا تُؤمنوا لغيرِ أتْباعِكم؛ فإنَّ المسلمين يُحاجُّوكم عندَ ربِّكم بالحقِّ، ويُغالِبونَكم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٥- ٨٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

عندَ الله. وعلى هذا يكونُ قولُه: ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ﴾ مُستثنًى من شيءٍ محذوف، تقديرُه: ولا تُؤمِنوا بأنْ يُؤتَى أحدٌ مِثلَ ما أوتيتُم لأحدٍ مِن الناسِ إلَّا لأشياعِكم دون غيرِهم.

أو يكون قوله: ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ منصوبًا بفِعلٍ مُقدَّر يدلُّ عليه ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ كأنَّه قيل: قل إنَّ الهُدَى هُدَى الله، فلا تُنكروا أنْ يُؤتَى أحدٌ مِثلَ ما أوتيتُم، فـ(لا تُنكروا) ناصبٌ لـ(أن) وما في حَيِّزها، وجازَ حذفُ العامل (فلا تُنكِروا)؛ لوجودِ ما يدلُّ عليه.

أو يكون ﴿هُدَى اللهِ﴾ بدلًا مِن ﴿الهُدَى﴾ الذي هو اسمُ إنَّ، ويكونُ خبر إنَّ: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾، والتقدير: قل: إنَّ هدى الله أنْ يُؤتَى أحدٌ، أي: إنَّ هدى الله إيتاءُ أحدٍ مثلَ ما أوتيتُم، وتكون ﴿أَوْ﴾ بمعنى (حتى)، والمعنى: حتَّى يُحاجُّوكم عند ربِّكم فيَغلبوكم، ويَدْحَضوا حُجَّتكم عند الله، ولا يكون ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ معطوفًا على ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ وداخلًا في حيِّز (أن). وفي هذه الآيةِ أقوالٌ أخرى كثيرةٌ[1].

المَعنَى الإجماليُّ

يُخبر الله تعالى عن طائفةٍ خبيثةٍ أرادتِ المكيدةَ للمسلمين، بالتلبيسِ على الضُّعفاء أمرَ دِينهم، فتشاوروا بينهم أنْ يُظهروا الإيمانَ بما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أوَّل النهار، فإذا جاء آخِرُ النهار كفَروا به؛ ليقول الضعفاءُ من النَّاس: لو كان هذا الدِّين حقًّا، ما ارتدَّ عنه مَنْ آمَن به من أهل الكتاب؛ يُريدون بذلك أنْ يَرجِعَ المسلمون عن دِينهم ويَتركوه.

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٧٠- ٢٧١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٥٢- ٢٥٦).

كما أخْبَر الله تبارَك وتعالَى عنهم بأنَّهم تواصَوْا فيما بينهم بألَّا يؤمنوا إلَّا لِمَن كان على دِينِهم ومِلَّتهم، ثمَّ أَمَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأن يردَّ عليهم، فقال له: قل لهم- يا محمَّدُ-: إنَّ الهُدَى والتوفيقَ مِن الله؛ فهو المتكفِّلُ بهدايةِ المؤمنين إلى الإيمانِ بما أَنزلَه على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

ثم عادَ السِّياقُ إلى كَلامِ اليَهودِ بَعضِهم لبعضٍ، ووصاياهم فيما بَينَهم؛ إذ قالوا: ولا تَطْمئنُّوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تُظهروا سرَّكم وما عندَكم للمُسلمينَ، كراهةَ أن يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتِيتُم مِن العلمِ- لأنَّكم إذا أظهرتُم ما عندَكم مِن العلمِ للمسلمينَ، فإنَّهم يتعلمونه مِنكم، ويحصلُ لهم مِن العلمِ ما حصَل لكم، فيَصيرون مثلَكم- أو يتَّخِذوه حُجَّةً عليكم عندَ الله تعالى، ويَشهَدوا أنَّه قد تبيَّن لكم الهُدَى فلم تتَّبِعوه، فقال اللهُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: قلْ لهم- يا محمَّد-: إنَّ التَّوفيقَ والهِدايةَ والإحسانَ يُعطيها اللهُ مَن أراد مِن عِبادِه؛ فهو واسعُ الفضلِ، كثيرُ الإحسان، عليمٌ بمَن هو أهلٌ للإحسانِ؛ فيَهَبه له، ومَن لا يَستحقُّه فيَحْرِمه منه، وهو يَختصُّ برحمتِه مَن يشاءُ مِن عِبادِه؛ فهو صاحبُ الفضلِ الواسعِ الكثيرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)﴾.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾.

أي: وقالت طائفةٌ من أهل الكتاب من اليهود: أظهِروا الإيمانَ بما جاءَ به محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وادْخُلوا في دِينه أوَّل النهار[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٩)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩).

﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾.

أي: إذا كان آخِرُ النهارِ اكفُروا بدِينهم[١].

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: لعلَّهم يَرجعون عن دِينهم ويَتركونه؛ لأنَّه يُقال: لو كان هذا الدِّين صحيحًا ما خرَج منه مَنْ آمَن به مِن أهلِ الكِتاب[٢].

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣)﴾.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

أي: وقالتْ هذه الطَّائفة أيضًا: لا تثِقوا، ولا تَطْمئنُّوا إلا لمن تبع دينكم، واكتمُوا أمرَكم، ولا تُظهروا سرَّكم وما عندَكم للمُسلمينَ[٣].

فأمَر الله نبيَّه أنْ يردَّ عليهم بهذه الجملةِ الاعتراضيَّة:

﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ-: إنَّ التوفيقَ توفيقُ الله، والبيانَ بيانُه؛ فهو الَّذي يَهدي

وممَّن قال بهذا القول وبنحوه: ابن عبَّاس وقتادة، وأبو مالك، والسُّدِّي، والربيع بن أنس. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

وقيل المعنى: ولا تُصدِّقوا إلَّا من تَبِعَ دِينكم، فكان يهوديًّا. وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٥٠٠)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤٥٠).

المؤمنين إلى الإيمانِ بما نزَّله على نبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنْ فعلتُم ما فعلتُم، فلن يَنفعَكم ذلك شيئًا[١].

ثم عادَ السِّياقُ إلى كلامِ اليهودِ بعضِهم لبعض[٢]:

﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ قِراءتان[٣]:

١- (ءانْ يُؤْتَى) بالمدِّ في (ءَان)، وهو استفهامٌ معناه الإنكار؛ وذلك أنَّ أحبارَ اليهود قالوا لِذَوِيهم: أيُؤتَى أحَدٌ مثلَ مَا أوتيتُم؟ أي: لا يُؤتى أحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ[٤].

٢- ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ من غير مدٍّ في (أنْ)، وهي المصدريَّة، والمعنى: ولا تُؤمنوا إلَّا لِمَن تبع دِينكم ولا تُؤمنوا أنْ يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٨).

(٢) وهذا اختيارُ ابن جريرٍ في ((تفسيره)) (٥/ ٥٠٤)، والواحديِّ في ((تفسيره)) (١/ ٤٥٠) وابنِ كثير في ((تفسيره)) ٢/ ٦٠ والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ١٣٤) وغيرهم.
وهو قولُ مجاهد والأخفش. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٢٩٤).
وقيل: بل إنَّ كلامَ اليهود تامٌّ عندَ قوله: ﴿لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، والباقي مِن قول الله تعالى، لا يَعترِضه شيءٌ من قولِهم، وهو قولُ الحسن، وسعيدِ بن جُبير. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٢٩٤).

(٣) قرأ ابن كثير (ءانْ) بالمد، وقرأ الباقون (أَنْ) من غير مد. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى القراءتين: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٤٧).

(٤) قرأ بها ابن كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٤٧).

(٥) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).

﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾.

أي: كراهةَ أن يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتِيتُم مِن العلمِ؛ لأنَّكم إذا أظهرتُم ما عندَكم مِن العلمِ للمسلمينَ، فإنَّهم يتعلمونه مِنكم، ويحصلُ لهم مِن العلمِ ما حصَل لكم، فيَصيرون مثلَكم، ويُساوُونكم فيه[(١)].

﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾.

أي: أو يتَّخذوه حجةً عليكم عندَ اللهِ تعالى، ويشهدوا أنَّ الحُجة قد قامتْ عليكم، وتبيَّن لكم الهدَى فلم تتَّبِعوه[(٢)].

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

وقيل المعنى: ولا تُصدِّقوا أن يُؤْتَى أحدٌ من البشرِ مِثلَ الَّذي أوتيتُم يا بني إسرائيل. وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٥٠٠)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤٥٠).

وفي الآية أوجهٌ أُخرى:

منها: أنَّ قولَ اليهود انتهى عند قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، وما بَعدَه مِن قولِ الله تعالى كما تقدَّمت الإشارةُ إليه.

ويكون المعنى على ذلك: قل يا محمَّد، إنَّ الهدى هدى الله ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ أنْ بمعنى: الجَحْد، أي: ما يُؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتُم، يا أمَّة محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، وهذا معنى قولِ سعيد بن جُبَير والحسن والكلبي ومقاتل. ((تفسير البغوي)) (١/ ٤٥٧).

أو يكون المعنى: كراهةَ أن يُؤتى أحدٌ مِثلَ ما أوتيتُم وقلتُم ما قلتُم، ودبَّرتم ما دبَّرتم من الخداع، فموضع ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ مفعولٌ من أجله، أو منصوب بفِعل مضمر، تقديره: فلا تُنكروا أن يُؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتُم من الكتاب والنبوة. واستظهر أبو حيَّان هذا المعنى وقال: (ويؤيِّد هذا المعنى قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ...﴾ إلى آخرِه، ويؤيِّد هذا المعنى أيضًا قراءةُ ابن كثير (ءانْ يُؤتَى) على الاستفهام الذي معناه الإنكار عليهم والتقرير والتوبيخ. والاستفهامُ الذي معناه الإنكار هو مُثبَت من حيث المعنى، أي: أَلِمُخافةِ أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم؟ أو يحاجوكم عند ربكم قلتُم ذلك وفعلتموه؟ ويكون: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾، معطوفًا على: ﴿يُؤْتَى﴾، و﴿أَوْ﴾: للتنويع) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢١٢).

وفي الآية أوجهٌ أخرى يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٤)، ((زاد المسير)) (١/ ٢٩٤).

وهذه الآية أشكلُ ما في السُّورة، كما قال غيرُ واحدٍ كالقرطبيِّ في ((تفسيره)) (٤/ ١١٢).

(٢) واختاره ابن كثير في ((تفسيره)) (٢/ ٥٩)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٣٥). وقيل

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: قلْ لهم- يا محمَّدُ-: إنَّ التوفيقَ للإيمانِ، والهدايةَ للإسلامِ، والإحسانِ بشتَّى أنواع الإحسانِ، يُعطيه اللهُ مَن أراد مِن عِبادِه[١]، وقد آتى اللهَ هذه الأمَّةَ ما يَربو بكثيرٍ على الفضائلِ الَّتي آتاها بني إسرائيل[٢].

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ ذو سَعةٍ بفضلِه على مَن يشاءُ، ذو عِلمٍ بمَن يَستحقُّ الفضلَ، وهو له أهلٌ؛ فهو يُؤتي فضلَه عن عِلم وحِكمة سبحانه وتعالى[٣].

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: يَخُصُّ بالنُّبوَّةِ والإسلامِ والقرآنِ مَن يشاء، ممَّن هو أهل لذلك[٤]، وقد خَصَّ هذه الأمَّةَ ونبيَّها بما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ من الفضل[٥].

المعنى: أي: ولا تُصدِّقوا أنَّ أحدًا يجادلكم عند ربِّكم؛ لأنَّكم أصحُّ منهم دِينًا، وأكرمُ على الله منهم. وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٥٠٠)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤٥٠).

وقيل: ويجوزُ أنْ تكون ﴿أَوْ﴾ بمعنى حتَّى فيكون معنى ﴿أَوْ يُحاجُّوكُمْ﴾ أي: حتى يُحَاجُّوكم عند ربكم، على طريق التبعيد، كما يُقال: لا تلقاه أو تقوم الساعة. وتعلَّق به أو يعطيك حقَّك، أي: حتى يعطيَك حقَّك، وهذا قول الكسائي والفرَّاء. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (١/ ٤٠٢) ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٢٥).

وقيل: معنى ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ أي: ما يُؤتى ﴿أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ يا أمَّة محمد إلَّا أنْ يجادلكم اليهودُ بالباطل فيقولوا: نحن أفضلُ منكم، وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، أي: عند فِعل ربكم بكم ذلك، وهذا معنى قول سعيد بن جبير والكلبيِّ ومقاتل والحسن. ينظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٠).

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

أي: واللهُ صاحِبُ الإحسانِ الواسعِ الكثير، الَّذي يَتفضَّلُ به على مَن أحبَّ مِن خلْقه[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ يدلُّ على أنَّ من طَلَب الهُدى والرُّشْد من غير الكتابِ والسُّنَّة ضلَّ، لأنَّ الهدى محصورٌ في هُدى اللهِ الذي أرسَلَ به رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

٢- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾: أنَّ المسلمَ يَرُدُّ كيدَ أهل الباطل بإعلانه أنَّ الهدى هُدى الله، وأنَّهم مهما حاولوا أنَّ يَصُدُّوه عن دِينه، وقد أرادَ اللهُ هدايتَه؛ فإنَّ ذلك لا يَضُرُّه[٣].

٣- يَنبغي للإنسان أن يُعلِّقَ الرجاء بالله؛ خوفًا وطمعًا؛ لقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾[٤].

٤- يَحصُل من مجموعِ قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ...﴾، والآية الَّتي تَليها: أنَّه لا نِهايةَ لمراتب إعزازِ الله وإكرامِه لعِبادِه، وأنَّ قصْرَ إنعامِه وإكرامِه على مراتبَ معيَّنة وعلى أشخاصٍ معيَّنين جَهلٌ بكمالِ اللهِ في القُدرة والحِكمة[٥].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- الفائدةُ في إخبارِ الله تعالى عن تواطئهم على إظهارِ الإيمانِ أوَّلَ النَّهار

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٧)، ((تفسير الراغب)) (٢/ ٦٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤١٠).

(٢) ((فتح الرحيم الملك العلام)) للسعدي (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤١١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٢).

والكفرِ آخرَه كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ...﴾ من وجوهٍ:

الأولُ: أنَّ هذه الحيلةَ كانت مَخفيَّةً فيما بينهم، وما أَطْلعوا عليها أحدًا مِن الأجانب، فلمَّا أَخبر الرسولُ عنها كان ذلك إخبارًا عن الغيبِ، فيكون معجزًا.

الثاني: أنَّه تعالى لَمَّا أطْلَع المؤمنين على تواطئِهم على هذه الحيلةِ لم يَحصُلْ لهذه الحيلةِ أثرٌ في قلوبِ المؤمنين، ولولا هذا الإعلانُ لكان ربَّما أثَّرت هذه الحيلةُ في قلبِ بعضِ مَن كان في إيمانِه ضعفٌ.

الثالث: أنَّ القومَ لَمَّا افتَضحوا في هذه الحيلةِ صارَ ذلك رادعًا لهم عن الإقدامِ على أمثالِها مِن الحيلِ والتَّلبيس[١].

٢- في قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ تعدَّى الإيمانُ باللام؛ لبيان أنَّ التَّصديقَ مضمَّنٌ معنى الثِّقة والرُّكون، فيكون تصديقًا خاصًّا تضمَّن معنًى زائدًا، وفي هذا بيانُ أنَّ اليهود حصَروا الثِّقة بأنفسهم؛ لزَعمِهم أنَّ النبوَّة لا تكون إلَّا فيهم[٢].

٣- وفائِدةُ الاعتراضِ في أثناءِ كلامِهم بقولِه: ﴿قل إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ المـُبادرةُ بما يُفِيدُ ضلالَهم؛ لأنَّ اللَّه حرَمهم التَّوفيقَ[٣] وأيضا فيه الإشارةُ إلى أنَّ كيدَهم غيرُ ضارٍّ لِمَن لَطَف اللهُ تعالى به بالدُّخولِ في الإسلام، أو زيادة التصلُّب فيه. ويُفيد أيضًا أنَّ الهُدى هداه؛ فهو الذي يتولَّى ظُهورَه ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ١٩٢).

٤- في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ...﴾ الآية: زيادةُ تذكيرٍ لهم، وإبطالٌ لإحالتهم أنْ يكون محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رسولًا من الله، وتذكيرٌ لهم على طرْح الحسَد على نِعم الله تعالى[١].

٥- لا اعتراضَ على الله في كونِه يَختصُّ برحمته شخصًا، ويمنع رحمته آخرَ؛ لأنَّ الأمرَ إليه، وهو فضلٌ؛ إنْ شاء أعطاه، وإنْ شاء منَعَه، كما قال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٢] [آل عمران: ٧٤].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى: ﴿وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾** فيه اختصاصٌ لذِكر وجْه النَّهار؛ لأنَّه وقتُ اجتماعِهم بالمؤمنين يُراؤونهم، وآخِره؛ لأنَّه وقتُ خَلوتِهم بأمثالهم من الكفَّار[٣].

٢- **قوله تبارَك وتعالَى: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾** فيه لفٌّ ونشر معكوس؛ فقوله: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ إبطالٌ لقولهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، أي: قلتُم ذلك حسدًا من أن يُؤتَى أحدٌ مِثل ما أوتيتُم، وقوله: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ على طريقة التهكُّم، أي: مرادكم التنصُّل من أنْ يُحاجُّوكم، فجمعتُم بين الإيمان بما آمَن به المسلمون، حتى إذا كان لهم الفوزُ يومَ القيامة لا يُحاجُّونكم عند الله بأنَّكم كافِرون، وإذا كان الفوزُ لكم، كنتم قد

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢١٠).

أخذتُم بالحزم؛ إذ لم تُبطلوا دِينَ اليهوديَّة[١].

٣- **قوله:** ﴿**قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ**﴾ كلامٌ معترض، أُمِر النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يقولَه لهم؛ كنايةً عن استبعادِ حُصول اهتدائِهم، وأنَّ الله لم يَهدِهم؛ لأنَّ هُدى غيره- أي: محاولته هدى الناس- لا يَحصُل منه المطلوبُ إذا لم يُقدِّره الله، فالقصر حقيقيٌّ؛ لأنَّ ما لم يُقدِّره الله، فهو صورةُ الهدى، وليس بهُدى، وهو مقابل قولهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ﴾، و﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾؛ إذ أرادوا صورةَ الإيمان، وما هو بإيمان، وفي هذا الجوابِ إظهارُ الاستغناءِ عن متابعتِهم[٢].

٤- **قوله تعالى:** ﴿**أَحَدٌ**﴾ اسمٌ نكرةٌ غلَب استعمالها في سِياق النَّفي، أو الإنكار؛ فيُفيد العمومَ، وندَر وقوعُه في حيِّز الإيجاب[٣].

٥- **قوله تعالى:** ﴿**قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾:

- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: تذييلٌ لِمَا قبله، مقرِّرٌ لمضمونه، وفيه تأكيدُ الكلامِ بـ﴿إنَّ﴾؛ لتنزيلهم منزلةَ مَن يُنكر أنَّ الفضل بيد الله، ومن يَحْسَبُ أنَّ الفضل تَبَعٌ لشهواتهم[٤].

- قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: فيه تأكيدٌ لتعظيمِ ما لَديه؛ دفعًا لتوهُّم مَن يَظنُّ أنَّ اختصاص البعض لضِيق الرحمة عن العموم. وكرَّر الاسم العظيم (الله)؛ تعظيمًا لِمَا ذُكِر من النِّعم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٧٩- ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٢- ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٣).

ومُشيرًا بذلك كلِّه إلى التمكُّنِ من الإعطاء، وغزارةِ فضلِه[١].

- قوله تعالى: ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ كالتأكيدِ لِمَا تَقدَّم ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، وبينهما فرقٌ؛ فإنَّ هذه الرَّحمةَ ربَّما بلغَتْ في الشَّرفِ وعلوِّ الرُّتبة إلى ألَّا تكون من جِنس ما آتاهم، بل تكونُ أعْلى وأجلَّ مِن أن تُقاس إلى ما آتاهم[٢].

- قوله تعالى: ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾: فيه تأكيدٌ للمَعنى السَّابق أيضًا؛ لأنَّ كونه واسعًا يدلُّ على كمال القُدرة، وكونه عليمًا على كمال العِلم، فيَصحُّ منه لمكان القُدرة أنْ يتفضَّل على أيِّ عبدٍ شاء بأيِّ تفضُّل شاء، ويَصحُّ منه- لمكان كمال العلم- أنْ لا يكون شيءٌ من أفعاله إلَّا على وجه الحِكمة والصَّواب[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٣).

الآيتان (٧٥ - ٧٦)

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِقِنْطَارٍ﴾: القنطارُ؛ اختُلِف في حدِّه على أقوال، وجملةُ القول: أنَّه عددٌ كثير من المال[1].

﴿الْأُمِّيِّينَ﴾: أي: العرَب، والأُميُّون جمْع أُميٍّ، وهْم الَّذين لا يَكتُبون ولا يَقرؤون؛ نِسبةً إلى الأُمِّ؛ لأنَّ الكتابَ كان في الرِّجال دونَ النِّساء، فنُسب مَن لا يكتُب ولا يخطُّ من الرِّجال إلى أمِّه في جَهلِه بالكتابةِ دون أبيه، أو مَنْسُوبٌ إلى الأُمَّة الأُميَّة، الَّتي هِي على أصْلِ وِلاداتِ أُمَّهاتها، لم تتعلَّم الكتابةَ ولا قِراءتَها، والأُميَّة: الغَفلةُ والجَهالة وقِلَّة المعرِفة، وأصْل (أمّ): الأصْل والمرجِع[2].

المَعنَى الإجماليُّ

يُخبر اللهُ تعالى عن معاملات أهل الكتاب الدُّنيويَّة، وأنَّ منهم الأمينَ، الَّذي لو أَمِنْتَه على المالِ الكثير أَدَّاهُ إليك دون نقْص، ومنهم الخائِن، الَّذي لو أَمِنْتَهُ على دينار لم يُؤَدِّه إليك، إلَّا ما دُمتَ قائمًا عليه بالمطالبة والاقتضاء.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥٣- ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٨، ٣٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧ ٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

ثم يُبيِّن الله تبارَك وتعالَى السَّبب الَّذي دعاهم إلى الخيانةِ، واستحلالِ أموال النَّاس، وهو أنَّهم يَزعُمون أنَّه ليس عليهم إثمٌ ولا حرَجٌ في عدم أداء أموال العربِ إليهم؛ فجَمعوا بين جريمتَينِ، وهما: أكْل الحرام، وادِّعاء حِلِّه، وهذا هو الكذبُ الَّذي قالوه على الله مع عِلمهم أنَّهم كاذبون في ذلك.

ثم أَبطَل اللهُ دعواهم تلك، وبيَّن لهم أنَّه ليس الأمر كما يقول هؤلاء الكاذبون، ولكن مَن أَوْفى من أهل الكتاب بعهدِ الله الَّذي عاهَدَهم عليه من الإيمان بمحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتصديقِه فيما جاء به، واتَّقى الله؛ فاجتنبَ ما نهاه عنه، وأطاعه فيما أمره به- فإنَّ الله يحبُّ الَّذين يتَّقونه.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

تعلُّقُ هذه الآيةِ ومناسبتُها لِمَا قَبلَها من وجهين:

الأوَّل: أنَّه تعالى حَكَى عنهم في الآية المتقدِّمة أنَّهم ادَّعوْا أنَّهم أُوتوا من المناصِب الدِّينيَّة، ما لم يُؤْتَ أحدٌ غيرهم مثله، ثمَّ إنَّه تعالى بيَّن أنَّ الخيانة مُسْتقبَحَةٌ عند جميعِ أرباب الأديان، وهم مُصِرُّون عليها؛ فدلَّ هذا على كذبِهم.

والثاني: أنَّه تعالى لَمَّا حكَى عنهم في الآية المتقدِّمة قبائحَ أحوالهم فيما يتعلَّق بالأديان، وهو أنَّهم قالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، حكَى في هذه الآيةِ بعضَ قبائحِ أحوالهم فيما يَتعلَّقُ بمعاملةِ النَّاس، وهو إصرارُهم على

الخِيانةِ والظُّلم، وأخْذِ أموال النَّاس في القليل والكثير[١]، فقال تعالى:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾.

أي: ومِن أهل الكتاب الَّذي إنْ تَأْمَنْه- يا محمَّدُ- على المال الكثير يُؤَدِّه إليك، ويَرُدَّهُ دون نُقصانٍ أو تغيير، ولا يَخُنْكَ فيه، وما دونه يُؤدِّيه من باب أَولى[٢].

ومن الأخبارِ الواردةِ في ذلك: ما رواه أبو هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، عن رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أنَّه ((ذكَر رجُلًا من بني إسرائيل سأَلَ بعضَ بني إسرائيل أن يُسْلِفه ألْفَ دينار، فقال: ائْتِني بالشُّهداءِ أُشْهِدهم، فقال: كفَى بالله شهيدًا! قال: ائتِني بالكفيلِ، قال: كفَى بالله كفيلًا! قال: صَدَقْتَ، فدَفَعها إليه إلى أَجَلٍ مسمًّى، فخرج في البحر فقضى حاجتَه، ثمَّ الْتَمَس مركبًا يَركبُها يَقْدَمُ عليه للأجَلِ الَّذي أَجَّلَهُ، فلم يجِد مركبًا، فأخَذ خشبةً فنَقَرَها فأدْخل فيها ألفَ دِينار، وصحيفةً منه إلى صاحبِه، ثمَّ زَجَّجَ موضعها[٣]، ثمَّ أتى بها إلى البحر، فقال: اللهمَّ إنَّك تعلمُ أنِّي اسْتَسْلَفْتُ فلانًا ألف دينار، فسألني كفيلًا، فقلت: كفَى بالله كفيلًا، فرَضِيَ بك، وسألني شهيدًا، فقلت: كفَى بالله شهيدًا، فرَضِيَ بك، وإنِّي جَهِدْتُ أنْ أجِد مركبًا أبعث إليه الَّذي له، فلم أقدِر، وإني اسْتَوْدَعْتُكها. فرمَى بها في البحر حتَّى وَلَجَتْ فيه، ثمَّ انصرفَ وهو في ذلك يلتمسُ مركبًا يخرج إلى بلدِه، فخرج الرَّجُلُ الَّذي كان أسلفَه يَنظُر لعلَّ مركبًا يَجِيئُهُ بماله، فإذا بالخشبةِ الَّتي فيها المال، فأخَذَها لأهله حَطبًا، فلمَّا كَسَرَها وجدَ المال والصَّحيفة، ثمَّ قَدِم الَّذي كان تَسَلَّفَ منه، فأتاه بألفِ دِينار، وقال: واللهِ ما زِلتُ جاهدًا في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٢٣). وقَصَرَ ابنُ جرير وابنُ كثير أهلَ الكتابِ على اليهود.

(٣) زَجَّجَ مَوْضِعَهَا: أَيْ سَوَّى مَوْضع النَّقْر، وأصلحَه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٩٦).

طلبِ مركبٍ لآتيَك بمالك، فما وجدتُ مركبًا قبل الَّذي أَتَيْتُ فيه، قال: هل كنتَ بعثتَ إليَّ بشيء؟ قال: ألم أُخبِرْك أنِّي لم أجِدْ مركبًا قبل هذا؟ قال: فإنَّ اللهَ قد أدَّى عنك الَّذي بَعثتَ في الخَشبةِ! فانْصَرِفْ بألف دِينار راشدًا))[١].

ثم ذكَر الله تعالى قِسمًا ثانيًا منهم، وهو الخائنُ الَّذي لا يُؤْتَمَنُ، فقال:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾.

أي: ومِن أهلِ الكتاب الَّذي إنْ تَأْمَنْهُ على دِينار يَخُنْكَ فيه، فلا يُؤَدِّه إليك إلَّا ما دُمتَ عليه قائمًا؛ بالمطالبةِ، والاقتضاءِ، والملازمة، والإلحاح في استخلاصِ حقِّك، وهو تاركٌ أداءَ ما فوقَه مِن بابِ أوْلى[٢].

ثم بَيَّن اللهُ عزَّ وجلَّ سببَ استحلالهم أموالَ المسلمين، وخيانتِهم، فقال تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾.

أي: ذلك الجُحودُ للحقِّ، واستحلالُ الخيانة؛ بسببِ أنَّهم قالوا: لا حرجَ علينا ولا إثمَ فيما أَخَذْنا من أموالِ العرب، وأَكَلْنا منها؛ فإنَّ الله أحلَّها لنا؛ لأنَّهم على غير الحقِّ[٣].

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ويقولون الكذبَ على الله بادِّعائهم أنَّه أَحَلَّ لهم خيانتَهم، وترْكَ قضائِهم، وليس ذلك عن جَهْلٍ، بل مع عِلمهم بأنَّهم يكذبون، فجَمعوا بيْن أكْل

---

(١) رواه البخاري مُعلَّقًا (٢٢٩١)، وقد وصَله في (٢٤٠٤) مختصرًا.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٠)، ((أحكام أهل الذمَّة)) لابن القيِّم (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٢٥).

الحرام، والكذب على الله بادِّعاء حِلِّهِ[١].

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)﴾.

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾.

أي: ليس الأمْر كما يقولُ هؤلاء الكاذِبون على اللهِ مِن اليهود، من أنَّه ليس عليهم في أموال الأمِّيِّين حَرَجٌ ولا إثمٌ، ولكنَّ الَّذي أوْفَى بعهد الله منكم يا أهلَ الكتاب، الَّذي عاهدَكم عليه من الإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وصدَّق بما جاء به من الله، وأدَّى الأمانة إلى مَن ائتمنَه عليها، إلى غير ذلك، واتَّقى ما نهاه اللهُ عنه من الكُفرِ به، وسائرِ معاصيه الَّتي حرَّمها عليه، وأطاعه واتَّبَعَ شريعتَه[٢].

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

أي: فإنَّ الله يحبُّ الَّذين يَتَّقونه، فيخافون عقابَه، ويَحذَرون عذابه، باجتنابِ ما نهاهم عنه وحرَّمه عليهم، وطاعتِه فيما أمرَهم به[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- مَن أَوْفى بعهدِه الَّذي عاهد به الله أو النَّاس، واتَّقى الإخلافَ والغَدْر والاعتداء، فإنَّ الله يُحِبُّه، فيعامله بأنْ يَجعلَه محلَّ عنايته ورحمته في الدُّنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٤].

٢- ورودُ الجواب في قوله: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ بهذه العبارة يُفيد

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨١).

قاعدةً عامَّة من قواعد الدِّين؛ وهي أنَّ الوفاءَ بالعهود واتِّقاءَ الإخلاف والابتعادَ عن سائرِ المعاصي والخطايا، هو الَّذي يُقرِّب العبدَ من ربِّه، ويجعله أهلًا لمحبَّته، لا كونه مِن شعب كذا[١].

٣- العهد في قوله: ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ يَشمَل العهد الَّذي بين العبد وربِّه، وهو جميعُ ما أوْجَبَه اللهُ على العبدِ من حقِّه، ويَشمل العهدَ الَّذي بينه وبين العِباد[٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فيه أنَّ الوَفاءَ بالعهودِ من التَّقوى التي يحبُّها اللهُ؛ فهو من جملةِ المأمورِ به، فإنَّ الواجِبَ إمَّا بالشَّرْعِ أو بالشَّرْطِ، وكلُّ ذلك فِعْلٌ مأمورٌ به، كما قال تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقال: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٣].

٥- في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾: حَثٌّ على تقوى الله؛ لأنَّ كل إنسان يحبُّ أن يُحِبَّه الله؛ فإذا أردتَ ذلك فما عليك إلَّا أنَّ تقومَ بتقوى الله؛ لأنَّ محبَّة الله متعلِّقةٌ بالعامل، ومتعلِّقة بالعمل، ومتعلِّقة بالزمن، ومتعلِّقة بالمكان[٤].

٦- التَّقوى في قوله: ﴿وَاتَّقَى﴾ ترجِع في هذا الموضعِ إلى اتِّقاء المعاصي الَّتي بين العبد وربِّه، وبينه وبين الخَلق، فمَن كان كذلك، فإنَّه مِن المتَّقين الَّذين يحبُّهم الله تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٣٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ يُبيِّن أنَّ المشرِكينَ وأهلَ الكِتابِ فيهم المؤتَمَنُ؛ فلهذا جازَ ائتمانُ أحدِهم على المالِ، وجازَ أنْ يَستَطِبَّ المسلمُ الكافرَ إذا كان ثِقةً؛ إذ ذلِك مِن قَبولِ خَبرِهم فيما يَعْلَمونَه مِن أمْرِ الدُّنيا، وائتمانٌ لهم على ذلِك، وهو جائزٌ إذا لم يكُنْ فيه مفسَدةٌ راجحةٌ[١].

٢- استنبطَ بعضُ أهلِ العِلم من قوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ جوازَ السجن؛ لأنَّ الَّذي يقومُ عليه غريمُه، فهو يَمنعُه مِن تَصرُّفاته في غيرِ القَضاء، ولا فَرْقَ بين المنع من التصرُّفات وبين السجن[٢].

٣- جوازُ الاقتصارِ على المثال؛ ليُقاس عليه ما يُشْبِهُه؛ لأنَّ الله ذكَر الدِّينار والقِنطار على سبيل التمثيل[٣].

٤- في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: دليلٌ على أنَّ مَن افترى على الله الكذبَ وهو يَعلم، أشدُّ إثمًا وعدوانًا ممَّن لا يعلم، وإنْ كان كلٌّ منهما على خطأ[٤].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، إشارة إلى أنَّ الجهل المركَّب أقبحُ من الجهلِ البسيط؛ لأنَّ الَّذي يكذب وهو يعلم، أقبحُ مِن الَّذي يَكذِب ولا يَعلم[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٣٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٣٣).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- **قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾:**

- قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ جاء قبل قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ...﴾ إنصافًا لحقِّ هذا الفَريق، ونعيًا عليهم لظُلمهم. وتقديم المسنَد في الموضعين (ومِن أهل الكتاب- ومنهم)؛ للتعجُّب من مضمونِ صِلة المسنَد إليهما؛ ففي الأول: للتعجُّب من قوَّة الأمانة، مع إمكانِ الخيانةِ، ووجودِ العُذرِ له في عادةِ أهل دِينه، وفي الثاني: للتعجُّب من أن يكونَ الخونُ خُلقًا لمتَّبعِ كتابٍ من كتُب الله، ثم يزيد التعجُّب عند قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾، فيكسب المسنَد إليهما زيادةَ عجَب حال[١].

- عدَّى ﴿تَأْمَنْهُ﴾ بالباءِ مع أنَّ مثله يتعدَّى بـ(على)؛ لتضمينِه معنى تُعامِلْه بقنطارٍ؛ ليشملَ الأمانةَ بالوديعة، والأمانةَ بالمعاملةِ على الاستيمانِ[٢].

- قوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائِمًا﴾: فيه مبالغةٌ في مطالبتِه بالتقاضي، والترافُع، وإقامةِ البيِّنة[٣].

٢- **في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾:** الاستفهامُ إنكاريٌّ[٤]، وفيه طِباق معنوي؛ لأنَّ الشهادة إقرارٌ وإظهار، والكفر سَتْر[٥]، وفيه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢١٠).

التفاتٌ مِنَ الغيبةِ إلى خِطاب اليهود[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٩).

الآيات (٧٧ - ٨٠)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٨ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ٨٠ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَلَاق﴾: نصيبٌ، وحظٌّ من الخير، والخَلاقُ: ما اكتسَبَه الإنسانُ من الفضيلةِ بخُلُقه[1].

﴿يَلْوُونَ﴾: أي: يَقلِبون ألْسنتَهم بالتحريف والزِّيادة، وأصل اللَّيِّ: فَتْلُ الحبل، وإمالةُ الشَّيء كذلك[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر اللهُ تبارَك وتعالَى عن عِقاب الَّذين يَستبدلون بعهدِه الَّذي عاهدهم عليه؛ مِن اتِّباع أمْر الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والإيمان به، ويَأخذون بالأيمانِ الكاذبة عوضًا قليلًا خسيسًا من متاع الدُّنيا الزَّائل، فينكثون العهدَ مع

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

الله، ويَحلفون كذبًا وزورًا؛ من أجْل ذلك- يُخبر تعالى أنَّهم لا نصيبَ لهم من الخير يوم القِيامة، ولا يُكلِّمهم، كما أنَّه لا ينظُر إليهم، ولا يمتنُّ عليهم بتطهيرهم من الذُّنوب والأدناس، بل يُجازيهم بعذابٍ أليم موجِع.

ثمَّ يُخبِر الله تبارَك وتعالَى عبادَه المؤمنين أنَّ هناك جماعةً من أهل الكتاب يَعطفون ألسنتَهم، ويُميلونها بالكتاب، فيُحرِّفون لفظَه، ويَعبثون بمعناه، والغايةُ من ذلك هي إضلالُ عبادِه المؤمنين، والتلبيسُ عليهم؛ ليظنُّوا أنَّ ما يقرؤونه من الكتاب، وهو ليس منه، ويقولون عنه: إنَّه ممَّا أنزلَه اللهُ على أنبيائه، وهو ليس كذلك، وإنَّما هو ممَّا ابتدعوه وأحْدثوه من عند أنفسِهم، فهم بهذا يتقوَّلون على الله الكذبَ عمدًا، ويُلحِقون بكتابِه ما ليس منه، وهم يَعلمون في قَرارةِ أنفسِهم أنَّهم كاذِبون مفترون.

ثم يُبيِّن اللهُ سبحانه وتعالى أنَّ مِن الممتنِع، بل مِن أمحلِ المحال، أنْ يُعطي اللهُ بشرًا الكتاب، ويُعلِّمه الحِكمةَ، ويمتنَّ عليه بالنُّبوَّة، ثمَّ هو يدعو النَّاس إلى عبادة نفْسِه، فيقول لهم: اعبدوني من دون الله. بل إذا امتنَّ الله عليه بذلك، فإنَّه يأمرُهم ويقول لهم: كونوا علماءَ، عاملين بالعِلم، مخلِصين لله، عابِدين له، مُعلِّمين للنَّاس ومُربِّين؛ بسببِ تعليمِكم الكتابَ لغيركم، وبسببِ مداومتِكم على قراءتِه وحِفظِه. كما أنَّه يستحيلُ أنْ يأمرَكم باتخاذ الملائكة والنَّبيِّين أربابًا تعبُدونهم من دون الله؛ إذ كيف يأمرُكم بالكفر بالله بعد انقيادِكم له بالطاعة، واستسلامِكم له بالعبوديَّة؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

في تعلُّق هذه الآيةِ ومناسبتها لِمَا قبلها وجوهٌ:

الأول: أنَّه تعالى لَمَّا وصَف اليهودَ بالخيانة في أموال النَّاس- ومِن المعلوم أنَّ الخيانةَ في أموال النَّاس لا تَتمشَّى إلَّا بالأَيْمان الكاذبة- لا جَرَمَ ذكَر عقيبَ تلك الآيةِ هذه الآيةَ المشتملةَ على وعيدِ مَن يُقْدِمُ على الأيمانِ الكاذبة.

الثاني: أنَّه تعالى لَمَّا حكَى عنهم أنَّهم يقولون على الله الكذبَ وهم يعلمون- ولا شكَّ في أنَّ عهدَ الله على كل مُكَلَّفٍ أنْ لا يَكْذِبَ على الله، ولا يخونَ في دِينه- لا جَرَمَ ذكَرَ هذا الوعيد عقيبَ ذلك.

الثالث: أنَّه تعالى ذكَر في الآيةِ السابقةِ خيانتَهم في أموال النَّاس، ثمَّ ذكَر في هذه الآية خيانتَهم في عهْدِ الله، وخيانتَهم في تعظيمِ أسمائِه حين يَحلِفون بها كذبًا[1].

الرابع: أنَّ في خيانةِ الأمانة إبطالًا للعهد وللحِلفِ الَّذي بَينهم وبين المسلمين وقُريش[2].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾.

سببُ النُّزول:

قال عبدُ اللهِ بن مسعود رضي اللهُ عنه: مَن حلَف على يمينٍ يستَحِقُّ بها مالًا، وهو فيها فاجِرٌ، لقِي اللهَ وهو عليه غضبانُ. فأنزَل اللهُ تصديقَ ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا- فقرَأ إلى- عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ثمَّ إنَّ الأشعَثَ بنَ قيسٍ خرَج إلينا فقال: ما يُحَدِّثُكم أبو عبدِ الرحمنِ؟ قال: فحدَّثْناه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٩).

قال: فقال: صدَق، لفِيَّ واللهِ أُنزِلَتْ، كانتْ بيني وبين رجلٍ خُصومةٌ في بئرٍ، فاختصمْنا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((شاهِداك أو يمينُه)). قلتُ: إنَّه إذنْ يحلِفُ ولا يُبالي، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن حلَف على يمينٍ يَستحِقُّ بها مالًا، هو فيها فاجِرٌ، لقِي اللهَ وهو عليه غضبانُ)). فأنزَل اللهُ تصديقَ ذلك، ثمَّ اقترأ هذه الآيةَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فقرَأ إلى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

ووردَ أيضًا عن عبدِ اللهِ بن أَبي أَوْفَى رضِي اللهُ عنهما، أنَّ رجلًا أقامَ سِلْعةً، وهوَ في السُّوقِ، فحلَفَ باللهِ لقدْ أُعْطيَ بهَا ما لم يُعْطَ؛ ليوقِعَ فيها رجلًا من المسلمين، فنزلتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[2].

ولا تعارُضَ بينهما؛ لاحتمالِ نُزولها في كلٍّ مِن القصَّتين إنْ تقارب الزمانُ، أو تكون نازلةً مرَّتيْن[3].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَستبدِلون بما عَهِدَ الله إليهم من الإيمانِ بمحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأداءِ الأمانة، ويَستبدلون بالحلفِ باللهِ كذبًا- استحلالًا لِمَا حرَّم الله

---

(١) رواه البخاري (٢٥١٥، ٢٥١٦) واللفظ له، ومسلم (١٣٨)

وفي روايةٍ: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم: ((مَن حَلَفَ على يمينٍ، وهوَ فاجِرٌ، لِيقْتَطِعَ بها مالَ امرئٍ مسلمٍ، لَقِيَ اللهَ وهو عليه غضبانُ)). قال: فقال الأشْعَثُ بنُ قيسٍ: فيَّ واللهِ كان ذلكَ، كان بيني وبينَ رجلٍ من اليهودِ أرض، فَجَحَدني، فقَدَّمْتُه إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فقال لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: (أَلَكَ بَيِّنَةٌ)، قال: لا، قال: فقال لليَهوديِّ: (احْلِف)، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ إذَنْ يَحْلِفُ ويَذْهَبُ بمَالِي، قالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ تعَالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخِرِ الآيةِ. رواه البخاري (٢٤١٦، ٢٤١٧)، واللفظ له، ومسلم (١٣٨).

(٢) رواه البخاري (٢٠٨٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٢٨٧).

عليهم من أموال النَّاس- يَستبدلون بذلك ويأخذونَ به عِوَضًا قليلًا، وبدلًا يسيرًا خسيسًا من حُطام الدُّنيا، فينكُثون عهدَ الله، ويَحلِفون كذبًا من أجْل ذلك[١].

﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾.

أي: الَّذين يَفعلون ذلك لا حظَّ لهم مِن الخيرِ يومَ القيامة، ولا نصيبَ لهم منه[٢].

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾.

أي: لا يُكلِّمهم اللهُ يومَ القِيامة تَكليمَ رضًا، أو كلامًا يَسُرُّهم، ولكنَّه يُكلِّمهم تكليمَ إهانةٍ وغضبٍ وسَخَطٍ[٣].

﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: ولا يَنظُر إليهم نظرَ رحمةٍ وعطفٍ، ولا نَظرًا يَسُرُّهم[٤].

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾.

أي: ولا يُطَهِّرهم من ذُنوبهم وكُفرهم؛ ممَّا تلوَّثوا به في الدُّنيا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

قال الرازي: (قوله: ﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ فالمعنى لا نصيبَ لهم في خيرِ الآخرةِ ونعيمِها، واعلمْ أنَّ هذا العمومَ مشروطٌ بإجماعِ الأُمَّةِ بعدمِ التوبةِ، فإنَّه إن تابَ عنها سقَط الوعيدُ بالإجماعِ) ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٢).

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: ولهم عذابٌ مُؤلِمٌ موجِعٌ[١].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾.

أي: وإنَّ من أهل الكتابِ جماعةً يَعطِفون ويُمِيلون ألسنتَهم بالكتاب؛ إمَّا بتحريفِ لفظِه، وإمَّا بتحريفِ معناه؛ بتفسيرِه على غيرِ مرادِ الله[٢].

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

أي: يَلْوُون ألسنَتهم بالكتاب؛ لتظنُّوا أنَّ ما يُحَرِّفونه بكلامِهم من كتابِ الله المنزَّل[٣].

﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

أي: وما ذلك الَّذي لَوَوْا به ألسنتَهم من كتابِ الله[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٢).
قال الواحديُّ: (وأكثر المفسِّرين على أنَّ الآية نزلت في اليهود وكِتمانهم أمرَ محمد، صلَّى الله عليه وسلَّم، وإيمانهم الذي بدَّلوه من صفة محمَّد عليه السلام، هو الحقُّ في التَّوراة)، ((الوجيز)) (١/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١).

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: ويقولون عمَّا لَوَوْا به ألْسنتَهم من التحريفِ والكذبِ والباطلِ: هو ممَّا أنزلَه اللهُ على أنبيائِه[١].

﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: وما ذلك- الَّذي لَوَوْا به ألسنتَهم فأحْدَثوه- ممَّا أنزلَه اللهُ إلى أحدٍ من أنبيائه، ولكنَّه ممَّا أحْدَثوه من قِبَل أنفسِهم[٢].

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ويتعمَّدون قولَ الكذبِ على الله، والإلحاقَ بكتابِ الله ما ليس منه، وهم يَعلمون مِن أنفسِهم أنَّهم قد كذَبوا وافترَوْا في ذلك[٣].

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)﴾.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾.

أي: ما يَنبغي لأحدٍ من النَّاس[٤].

﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١)، ((تفسر ابن عطية)) (١/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٦).

أي: يُنَزِّل اللهُ عليه كتابَه، ويُعلِّمه الحِكمةَ، ويُعطيه النُّبوَّة[١].

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

أي: ثمَّ يدْعو إلى عِبادةِ نفْسه، ويقول للنَّاس: اعبدوني من دونِ الله[٢].

﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾.

أي: ولكن إذا آتاه اللهُ ذلك، فإنَّه يقولُ للنَّاس: كونوا عُلماءَ حُكماءَ حُلماءَ، مخلِصين للربِّ، مُتعبِّدين له، مُعَلِّمين للنَّاس، تُربُّونهم بصِغار العِلم قبلَ كِباره[٣].

﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ قراءتان:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٣).

قال ابنُ جرير- بعد أنْ ذكر اختلاف المفسِّرين في معنى كلمة ﴿رَبَّانِيِّينَ﴾ قال: (وأَوْلى الأقوال عندي بالصواب في الربانيِّين: أنَّهم جمْع ربانيٍّ، وأنَّ الربانيَّ المنسوب إلى الرَّبَّان: الذي يرُبُّ الناس، وهو الذي يُصلِح أمورَهم ويرُبُّها، ويقوم بها... فإذا كان الأمرُ في ذلك على ما وصفنا... وكان العالمُ بالفقه والحِكمة من المصلِحين، يَرُبُّ أمورَ الناس بتعليمه إياهم الخير، ودُعائهم إلى ما فيه مصلحتهم، وكان كذلك الحكيمُ التقيُّ لله، والوليُّ الذي يلي أمورَ الناس على المنهاج الذي وَلِيَه المقسِطون من المصلحين أمورَ الخلق بالقيام فيهم، بما فيه صلاح عاجلهم وآجلهم، وعائدة النفع عليهم في دِينهم ودُنياهم؛ كانوا جميعًا مستحقِّين أنهم ممَّن دخل في قوله عز وجل: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾... والرباني: الجامع إلى العِلم والفقهِ البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعيَّة، وما يُصلحهم في دُنياهم ودِينهم) ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٩-٥٣١).

١- ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ من التعليمِ، وكلُّ مُعلِّمٍ عالمٌ بما يُعلِّم، وليس كلُّ عالمٍ بشيءٍ معلِّمًا، فهذا أبلغُ وأمدح[١].

٢- (تَعْلَمُونَ) والمعنى: بعِلْمكم الكتابَ[٢].

﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾.

أي: بسببِ تَعليمِكم الكتابَ لغيرِكم، الْمُتَضَمِّن لعِلمِكم[٣].

﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

أي: بسببِ مُداومتِكم على قِراءتِه، وحِفظِ ألفاظِه[٤].

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نفَى اللهُ تعالى أنْ يكون مَن آتاه الله النُّبوَّةَ مِن البشر داعيًا إلى نفْسه، وأثبت أنَّه يكون-ولا بدَّ- داعيًا إلى الله سبحانه وتعالى؛ أثبت أنَّ ذلك لا بدَّ أن يكون على وجهِ الإخلاص؛ لأنَّ بعضَ الشَّياطين يُحْكِمُ مكره بإبعاد التُّهمة

---

(١) قرأ بها ابن عامر والكوفيون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٤).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٥).

عن نفسه بالدُّعاء إلى غيرِه على وجهِ الشِّرْك، لا سيَّما إنْ كان ذلك الغيرُ ربانيًّا كعيسى عليه الصَّلاة والسَّلام[١]، فقال تعالى:

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾.

أي: وما كان له أيضًا أن يأمرَكم أن تتَّخذوا الملائكة ولا النَّبيِّين أربابًا تُعبَد من دون الله، فما يَنبغي له أنْ يأمرَكم بعبادةِ أحدٍ من الخَلقِ؛ لا نبيٍّ مرسَل، ولا مَلَكٍ مقرَّبٍ[٢].

﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: فلا يُمكن أنْ يأمرَكم بالكفر بعد إذ أنتم مُنقادُون بالطاعةِ، مُتذلِّلون بالعبوديَّة لله، قد تقرَّر إسلامُكم وثَبَتَ[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ....﴾ الآية أنَّ مَن بَلَغَ مِن رقَّة الدِّيانة إلى حدِّ أنْ يَشتريَ بعهد الله وأَيْمانه ثمنًا قليلًا، فقد بلَغ الغاية القُصوى في الجُرْأَة على الله؛ فكيف يُرْجَى له صلاح بعد ذلك[٤]؟!

٢- العمومُ في قوله: ﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ عمومٌ مشروطٌ بعدم التوبة، وذلك بإجماع الأمَّة؛ فإنَّه إنْ تاب عنها، سقَط الوعيدُ بالإجماع[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٦٨-٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٦).

٣- العُهودُ إذا نُكِثَتْ اختلَّ أمر الدِّين، وفسَدت مصالح الدُّنيا؛ لأجْل هذا كان الوعيدُ على نَكْث العهد- ولو كان لأجل المنفعة- أشدَّ ما نطق به الكتاب وأغلظَه، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾[١].

٤- منَ ألْزم النَّاس أو أراد منهم أن يتَّبعوا قولَه مهما كان، فإنَّه قد جعَلهم عِبادًا له؛ لأنَّ طاعة الشَّخص من العبادة، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[٢].

٥- الإشارةُ إلى أنَّه يَنبغي للإنسان أن يكون مُعلِّمًا ربانيًّا؛ لقوله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾، ومَن كان معلمًا لا ربانيًّا فعِلمه قاصر جدًّا؛ لأنَّ فائدة العِلم وثمرته هي العملُ والتأدُّب بآداب العِلم[٣].

٦- المعلِّمُ ليس هو الَّذي يملأ أذهانَ النَّاس عِلمًا فحسبُ، ولكن الَّذي يملأ أفكارَهم أو أذهانَهم علمًا، وأخلاقَهم تربيةً[٤].

٧- في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾، دلالةٌ على أنَّ العِلم والتعليم والدِّراسة توجب كونَ الإنسان ربانيًّا، فمَن اشتغل بالتعلُّم والتعليم لا لهذا المقصود، ضاعَ سعيُه، وخاب عملُه، وكان مَثَله مثلَ مَن غرس شجرةً حَسناءَ مونِقة بمنظرِها، ولا منفعةَ بثمرِها[٥].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا...﴾: هدَّد اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٧٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨٦).

الَّذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا، ومنهم العلماءُ الَّذين يكتمون ما أنزل الله مداهنةً أو مراعاةً، أو من أجْل مال[١].

٢- أضاف العهدَ إلى الله في قوله: ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾؛ لأنَّه تعالى عَهِدَ إلى النَّاس في كتُبه المنزَّلةِ أنْ يلتزموا الصِّدقَ والوفاءَ بما يتعاهدون ويتعاقدون عليه، وأنْ يُؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلها، وأنْ يَعبُدوه ولا يُشركوا به شيئًا ويتَّقوه في جميعِ الأمور، فعهدُ الله يشمل كلَّ ذلك[٢].

٣- يدخُل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كلُّ مَنْ أخذ شيئًا من الدُّنيا في مقابلةِ ما ترَكه من حقِّ الله أو حقِّ عباده، ومَن حلَف على يمين يَقتطع بها مالًا معصومًا[٣]، ويَدخُل فيه أيضًا جميعُ ما أمر الله به، ويدخُل فيه ما نصَب عليه الأدلَّة، ويدخُل فيه المواثيقُ المأخوذةُ من جِهة الرَّسول، ويدخل فيه ما يُلزِم الرَّجُلُ نفْسَه؛ لأنَّ كلَّ ذلك من عهد الله الَّذي يَلْزَم الوفاء به[٤].

٤- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: أنه لَمَّا كان الناكثُ للعهد لا ينكُث إلَّا لمنفعةٍ يجعلها بدلًا منه، عبَّر عن ذلك بالشِّراء، الَّذي هو معاوضة ومبادلة، وسَمَّى العوضَ ثمنًا قليلًا[٥].

٥- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يُؤخذ منه أنَّ اليمينَ الغموس وعدمَ القيام بعهدِ الله من كَبائر الذُّنوب، وهو أمرٌ زائدٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨١).

كونه محرَّمًا؛ لأنَّ الكبيرة أعظمُ من مُطلقِ التَّحريم؛ لأنَّ فيها وعيدًا، وكلُّ ذنب رُتِّب عليه وعيدٌ فهو من كبائرِ الذُّنوب[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ أنَّ حُكم الحاكمِ لا يُحِلُّ المالَ في الباطِن بقضاء الظَّاهر، إذا عَلِم المحكوم له بُطلانَه[٢].

٧- إذا كان مَن اشترى بعهد الله ثمنًا قليلًا أو بيمينه ﴿لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾، فإنَّ مَنْ وفَّى بعهد الله، وحلَف على صِدق، فإنَّه لا يُحْرَمُ النصيب في الآخرة[٣].

٨- قول الله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيه إثباتُ تَكليمِه سبحانه وتعالى لأهلِ الجَنَّة، وخِطابِه لهم، ومُحاضرتِه إيَّاهم؛ فلو كان لا يُكلِّم عِبادَه المؤمنِينَ لكانوا في ذلك هُم وأعداؤُه سواءً، ولم يكُن في تخصيصِ أعدائِه بأنَّه لا يُكلِّمُهم فائدةٌ[٤].

٩- المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ النَّظر الخاصُّ، أمَّا النَّظر العام، فإنَّ الله تعالى لا يُحجَب عن بصره شيءٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٠).

ويدل على ذلك ما جاء عن أُم سَلمةَ زَوجِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّما أنا بشرٌ وأنتم تختصِمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون أَلحنَ بِحُجَّتِهِ من بعض، فأَقضِيَ له على نحو ما أَسمعُ منه؛ فمَن قضيتُ له بشيءٍ من حَقِّ أخيه، فلا يأْخُذَنَّه؛ فإنَّما أقطعُ له قِطْعَةً من النار)). رواه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٤).

(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٦).

١٠- في مجيء الوعيد عقب الصِّلة، وهي ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ..﴾ الآية، إيذانٌ بأنَّ مَن شابههم في هذه الصِّفات، فهو لاحقٌ بهم[١].

١١- لَمَّا نسَب الله فريقًا من أهل الكتاب إلى الكذِب عمومًا في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، نبَّه إلى نوع خاصٍّ منه، هو أكذبُ الكذب، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾[٢].

١٢- لَمَّا كان كلامُ الله سبحانه وتعالى لا يَلتبِس بغيره إلَّا على ضعيفِ العقل، ناقص الفِطرة، عبَّر بالحسبان؛ تنفيرًا عن السَّماع منهم، وتنبيهًا على بُعد ما يَسمَعُه الإنسان من غيره، فقال: ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾[٣].

١٣- لَمَّا كان الكذبُ قد يُطلَق على ما لم يُتعمَّد، بل وقع خطأً، احترز عنه بقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنَّه كذِب، لا يَشكُّون فيه[٤].

١٤- يُستفادُ مِن قوله تعالى: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ...﴾ أنَّه لا تُقبَلُ التَّرجمةُ إلَّا مِن ثقةٍ[٥].

١٥- الأنبياء أكملُ الخَلْق على الإطلاق، فأوامرُهم تكون مناسبةً لأحوالهم، فلا يأمرون إلَّا بمعالي الأمور، وهم أعظمُ النَّاس نهيًا عن الأمورِ القبيحةِ، كما في قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ...﴾[٦].

١٦- مادة (درس) تستلزمُ التمكُّنَ من المفعول؛ فلذلك صار درْس الكتابَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) .
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٤٦٦).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١١٢)
(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦).

بمعنى فَهْمه وإتقانه؛ ولذلك عطف في هذه الآية ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ على ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾[١].

١٧- خصَّ الملائكةَ والنبيِّين بالذِّكر في قوله: ﴿الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ﴾؛ لأنَّ الَّذين وُصِفوا من أهل الكتابِ بعبادةِ غير الله لم يَحكِ عنهم إلَّا عبادةَ الملائكة، وعبادة المسيحِ وعُزَيْر[٢].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

- قوله تعالى: ﴿يَلْوُونَ﴾، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مرَّتين: جِيء بالمضارعِ في هذِه الأفعالِ؛ للدَّلالةِ على تجدُّد ذلك منهم، وأنَّه دأبُهم[٣].

- والضميرُ في قولِه تعالى: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾: يرجِع إلى ما دلَّ عليه ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ وهو الكتابُ المُحرَّف، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ تأكيدٌ لقولهم: ﴿مِنَ الكِتَابِ﴾، وزيادةُ تشنيعٍ عليهم، وتسجيلٌ بالكذبِ، وفيه دلالةٌ على أنَّهم لا يُعرِّضون ولا يُورِّون، وإنَّما يُصرِّحون بأنَّه في التوراةِ هكذا، وقد أنزلَه اللهُ تعالى على موسى كذلك؛ لفَرطِ جراءتِهم على اللَّه، وقساوةِ قلوبهم، ويَئسِهم من الآخرة[٤].

- قوله تعالى: ﴿لتَحْسَبُوهَ مِنَ الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ وَيَقُولونَ هُوَ مِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٧٧)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٦٨- ٢٦٩).

عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: فيه تكريرُ ﴿الْكِتَابِ﴾ في الآية مرَّتين، وتكريرُ اسمِ الجَلالةِ أيضًا؛ لقَصدِ الاهتمامِ بالاسمينِ، وذلك يَجرُّ إلى الاهتمامِ بالخبَرِ المتعلِّق بهما، والمتعلِّقَينِ به، ويُقصَدُ بالتكريرِ أيضًا التَّفخيمُ(١).

- وفيه إظهارُ لفظ ﴿الكِتَابِ﴾، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿اللَّه﴾، في مَحلِّ الإضمارِ- حيثُ قال: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ﴾ ولم يقُل: (وما هو منه)، وقال: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ولم يقُل: (وما هو من عنده)-؛ لتهويلِ ما أَقْدَموا عليه مِن القولِ(٢).

- وقوله: ﴿وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: ردٌّ عليهم في إخبارِهم بالكذب، وتأكيدٌ لقوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ حيث نَفَى أولًا نفيًا أخصَّ؛ إذ التعليل كان لأخصَّ، ونَفَى هنا نفيًا أعمَّ؛ لأنَّ الدَّعوى منهم كانت الأعمَّ؛ لأنَّ كونَه من عند الله أعمُّ مِن أن يكون في التوراة أو غيرها(٣)؛ وذلك لأنَّه ليس كلُّ ما لم يكُن في الكتابِ لم يكُن من عند الله؛ فإنَّ الحُكمَ الشرعيَّ قد ثبَت تارةً بالكتابِ وتارةً بالسُّنةِ، والكلُّ من عند اللهِ، وكذا ما يَرجِع إليهما مِن الإجماعِ والقِياس الصَّحيح(٤).

٢- **قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾** فيه إيجازٌ بالحذف، ومبالغةٌ في نفْي استحقاق أيِّ أحدٍ لذلك القول؛ إذ اللام فيه للاستحقاقِ، وأصل هذا التركيب في الكلام: (ما كان فلان فاعلًا كذا)، فلمَّا أُريدتِ المبالغةُ في النَّفي، عدَل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٤-٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٦٨- ٢٦٩).

عن نفْي الفِعل إلى نفْي المصدَر الدالِّ على الجِنس، وجعَل نفْي الجنس عن الشَّخْص بواسطة نفْي الاستحقاق[١].

٣- **في قوله: ﴿ثُمَّ يقُولَ لِلنَّاسِ﴾** أتى بلفظ: ﴿ثُمَّ﴾ الَّتي هي للمُهلة تعظيمًا لهذا القول، وإذا انتفَى هذا القول بعد المهلة كان انتفاؤه بدونها أَوْلى وأحْرى، أي: إنَّ هذا الإيتاءَ العظيم لا يُجامع هذا القول، وإنْ كان بعد مهلةٍ مِن هذا الإنعام العظيم[٢].

٤- **قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:**

- جِيء بخبرِ كان مضارعًا في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكتاب وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾؛ لإفادةِ الاستمرارِ التجدُّدي[٣].

- وتَكريرُ ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾؛ للإيذانِ باستقلالِ كلٍّ من استمرارِ التعليمِ، واستمرارِ القراءةِ بالفضل، وتحصيلِ الربَّانية[٤].

- وتقديمُ التعليمِ على الدِّراسة؛ لزيادة شرفِه عليها، أو لأنَّ الخطابَ الأولَ لرؤسائهم، والثاني لِمَن دُونهم[٥].

٥- **قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾:**

- قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾: فيه زيادةُ حرف النَّفي ﴿وَلَا﴾ لتأكيدِ معنى النَّفي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٢- ٥٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٣).

في قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾، وليستْ معمولة لـ(أنْ)؛ لاقتضاءِ ذلك أنْ يصير المعنى: لا يَنبغي لبشرٍ أُوتي الكتاب ألَّا يأمرَكم، وهو غيرُ صحيح قطعًا[١]، أو تكون ﴿لَا﴾ لتأسيسِ النَّفْي على معنى أنَّه ليس له أنْ يأمُرَ بعبادتِه، ولا يأمُرَ باتِّخاذ أكفائِه أربابًا، بل يَنهَى عنه[٢].

- في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ تعميمٌ بعد تخصيص، والمعنى: لا يأمُركم بعبادةِ نفْسِه، ولا بعبادةِ أحدٍ من الخَلق من الملائكة والنَّبيِّين وغيرهم[٣].

- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: كلامٌ مستأنَف لخِطاب المؤمنين عن طريقِ التعجُّب من حالِ غيرِهم، والهمزة فيه للاستفهامِ الإنكاريِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٦- ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٥٤٨).

الآيتان (٨١ - ٨٢)

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَأَقْرَرْتُمْ﴾: أأثْبَتُّم واعترفتُم، والإقرارُ ضدُّ الجحود، وأصلُ الإقرار: إثباتُ الشَّيء، أو التمكُّن، وقرَّ في مكانه: إذا ثبَت ثبوتًا جامدًا[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ... لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾

﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ﴾: قُرِئت ﴿لَمَا﴾ بفتْحِ اللام وتَخفيفِ الميمِ، و(مَا) شرطيَّة، ودخَلت عليها لامُ التَّحقيقِ أو التَّوْطِئة كما تدخُل على (إن) الشرطية، إذا كان في جَوابِها القَسمُ، كقوله: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦]، فتقديرُ ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ﴾: لَمَهمَا آتَيْتُكُمْ، أي: أيَّ كتابٍ آتَيْتُكُم لتُؤمنُنَّ به. وموضِعُ (ما) الإعرابيُّ النَّصبُ على المفعولِ به بالفِعلِ الذي بَعدَها، وهو ﴿آتَيْتُكُمْ﴾، وهذا الفِعلُ مُستقبلٌ معنًى؛ لكونِه في حَيِّز الشَّرْط، ومَحلُّه الجزمُ في جوابِ الشرط. وجوابُ الشَّرْط مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ جوابِ القَسمِ في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ عليه، كما سيأتي.

وقيل: إنَّ (مَا) موصولةٌ بمعنى الَّذي، وهي في مَحلِّ رفْع مُبتدأ، واللامُ هي

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

لامُ الابتداء، وقعت جوابًا للقَسمِ المدلولِ عليه مِن معناه ﴿أَخَذَ مِيثَاقَ﴾؛ لأنَّه يكون بالأيمانِ والعهود، وجملة ﴿آتَيْتُكُمْ﴾ صِلة (مَا)، والعائدُ محذوفٌ تقديره: آتيتكموه.

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾: جوابٌ لقوله: ﴿أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ سَدَّ جَوابُ القَسمِ مَسَدَّه، والضميرُ في ﴿بِهِ﴾ عائدٌ على اسمِ الشَّرْط- على الوجه الأوَّل في (ما) أنَّها شرطيَّة.

وأمَّا على الوجهِ الآخَر أنَّ (ما) موصولةٌ؛ فقوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾: جوابُ قَسَمٍ مقدَّر، وهذا القسَمُ المقدَّر وجوابُه خبرٌ للمبتدأ (ما) في ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ﴾، والهاءُ في ﴿بِهِ﴾ تَعودُ على المبتدأ، ولا تعودُ على ﴿رَسُول﴾؛ لئلَّا يلزمَ خُلوُّ الجملة الواقعة خبرًا من رابطٍ يربطها بالمبتدأ. وفيه أقوالٌ وتفصيلات أخرى.

- وقُرِئت (لِمَا) بكسرِ اللام والتَّخفيف، وعليه؛ فاللامُ للتعليل، وهي حرف جرٍّ، و(مَا) حينئذ: مَصدريَّة، والجارُّ والمجرور متعلِّق بـ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾، أو بـ﴿أَخَذَ﴾. والتقدير: لأجْل إيتائي إيَّاكم بعضَ الكتاب والحِكمة، ثم لمجيءِ رسولٍ مصدِّقٍ لتؤمننَّ به. أو يكونُ التقديرُ: لأجْلِ إيتائي إيَّاكم كيتَ وكيتَ أخذتُ عليكم الميثاقَ. وفي الكلامِ حذفُ مضافٍ، تقديره: لِرعايةِ ما آتيتُكم. أو تكون (ما) موصولةً بمعنى الذي، ويكونُ عائدُها محذوفًا. وقيل غير ذلك[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تبارَك وتعالَى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: واذكُرْ- يا محمَّدُ- حينما

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٢٢٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٦٦)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٦٥- ١٦٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٢٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٨٤- ٢٩٠)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ١٤٦).

عَهد الله إلى جميعِ الأنبياء، وأخَذ منهم الميثاقَ المؤكَّد، فقال لهم: بسببِ ما امتنَّ به عليهم من إعطائِهم الكتابَ والحِكمة، ثمَّ جاءَهم وجاء مَن يَتْبعهم من الأمم رسولٌ، يُقِرُّ بما جاؤوا به ويُصدِّقه- وهو الرَّسول محمَّد صلَّى الله عيه وسلَّم- فيجب عليهم الإيمانُ به وتصديقُه، ونُصرته. ثمَّ قال لهم مؤكِّدًا عليهم ومقرِّرًا لهم: أأقررتُم بهذا الميثاقِ والتزمتُم به، وأخذتُم عهدي ومِيثاقي الشَّديدَ عليه؟ فقال الأنبياءُ جميعُهم: أَقرَرْنا وقَبِلنا. فقال لهم تبارَك وتعالَى: فاشْهدوا على أنفسِكم وعلى أَتْباعِكم من الأمم بذلك، وسأكونُ أنا من الشاهِدين عليكم وعلى أُممكم؛ فمَن أَعرَض وتولَّى بعد ذلك عمَّا عاهَد عليه، فأولئك هم الفاسِقون، الخارِجون من دِين اللهِ، والمستكبِرون عن طاعتِه والتِزام أمْره.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾.

أي: واذْكُر- يا محمَّدُ[(١)]- حينَ أخَذَ اللهُ ميثاقَ جميعِ النَّبيِّين وعَهْدَهم المؤكَّدَ[(٢)].

﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾.

---

(١) وقدَّره ابن جرير: واذْكُروا يا أهلَ الكتاب. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦١).

قال ابن عطيَّة: (ويحتمل أن يكون ﴿أَخَذَ﴾ هذا الميثاق حين أخرج بني آدَمَ مِن ظهْر آدم نسمًا، ويحتمل أن يكون هذا الأخْذ على كلِّ نبيٍّ في زمنه، ووقت بَعْثه، ثم جمع اللَّفظ في حكايةِ الحال في هذه الآية) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦٣).

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

أ- في قوله تعالى ﴿لَمَا﴾ قِراءتان:

١- (لِمَا) والمعنى: وإذ أخَذ الله ميثاقَ النبيِّين لِلَّذي آتيتُكم، واللَّام متعلِّقة بـ (أخْذ الميثاق)، فالمعنى أخَذَ الميثاقَ لإيتائِه الكِتابَ والحِكمة[١].

٢- ﴿لَمَا﴾ والمعنى: مهما آتيتُكم من كتابٍ وحكمةٍ، بمعنى الشَّرطِ والجزاءِ[٢].

ب- في قوله تعالى: ﴿آتَيْتُكُمْ﴾ قراءتان:

١- (آتَيْناكُمْ) بلفظ الجمْع، على معنى التعظيمِ لله تبارَك وتعالَى[٣].

٢- ﴿آتَيْتُكُمْ﴾ على معنى إخبارِ المتكلِّم بِفعله عن نَفْسِه[٤].

﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾.

أي: لَمَهْمَا أعطيتُكم- أيُّها النَّبيِّون- من كتابٍ وحِكمةٍ[٥].

﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾.

---

(١) قرأ بها حمزة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١)، وينظر أيضًا: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٨).

(٣) قرأ بها نافع. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧).

أي: ثمَّ جاءَكم- أيُّها النَّبيِّون- وجاء أُممَكم وأتْباعَكم رسولٌ يُصدِّق ما معكم من الكتُب[(١)]، وهو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم[(٢)].

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾.

أي: فعليكم أن تؤمنوا به وتصدِّقوه، وتنصروه على أعدائه، وتُعِينوه على نشْر

---

(١) وثَمَّةَ معنًى ثانٍ، وهو: أنه يقَعُ مصداقًا لِمَا سبَقه من الكتاب؛ لأنَّ الكتُب أخبرت به، فإذا جاء مطابقًا لما أخبرت به صار مصدقًا لها. فيكون على هذا الوجه شهادة لهذا الكتاب بأنَّه حق، ويكون مع الوجه الأول شهادة بأنَّ الكتُب السابقة حقٌّ؛ لأنَّ الله تعالى يقول في النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَامُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فإذا جاء على الوصف الذي جاءتْ به التوراةُ والإنجيل وقع مصداقًا؛ لأنَّها أخبرت بشيءٍ، فجاء هذا الشيءُ فيكون مصدقًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٥)، ((الزهد والورع والعبادة)) لابن تيمية (ص: ١٥٧)، ((هداية الحيارى)) لابن القيِّم (١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٢).

ذهَب عليٌّ وابن عبَّاس رضي الله عنهم إلى أنَّ هذا الميثاق المأخوذ إنَّما هو على الإيمان بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، بينما ذَهَب طاوس والحسنُ البصريُّ إلى أنَّ المراد: أنَّ الله أخَذَ الميثاق على النبيِّين أنْ يُصدِّق بعضهم بعضًا. قال ابنُ كثير: (وهذا لا يُضادُّ ما قاله عليٌّ وابن عبَّاس ولا يَنفيه، بل يستلزمه ويَقتضيه). يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧).

وقال ابن تيمية: (وقوله: ﴿رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾ متناول لمحمَّد بالاتِّفاق... وهل يدخل في ذلك غيُره من الرسل؟ فيه قولان: قيل: إنَّ الله أخذ ميثاق الأوَّل من الأنبياء أن يُصدِّق الثاني وينصره، وأمره أن يأخذ الميثاق على قومه بذلك، وقيل: بل هذا الرسول هو محمَّد خاصَّةً، وهذا قول الجمهور، وهو الصواب؛ لأنَّ الأنبياء قبله إنما كانتْ دعوتهم خاصَّةً لم يكونوا مبعوثين إلى كلِّ أحد، فإذا لم يدخل في دعوته جميعُ أهل زمنهم ومَن بعدهم؛ كيف يدخل فيها مَن أدركهم من الأنبياء قبلهم؟! والله تعالى قد بعث في كلِّ قوم نبيًّا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وكذلك قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾، والنصرة مع الإيمان به هو الجهادُ، ونوح وهود ونحوهم من الرُّسل لم يُؤمَروا بجهاد، ولكن موسى وبنو إسرائيل أُمِروا بالجهاد)، ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٤٥٣).

رسالته[١]، ولا يَحْمِلَنَّكم ما آتيتكم من كتاب وحِكمة على أن تَتركوا متابعتَه، أو تستغنوا بما آتيتكم عمَّا جاء به[٢].

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضِي اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ: ((لَو كَانَ أخِي موسى حيًّا، ما وَسِعَه إلَّا اتِّباعي))[٣].

﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾.

أي: اعترفتُم والتزمتُم بذلك الميثاقِ، وأخذتُم عهدي الثَّقيل، ومِيثاقي الشَّديد المؤكَّد، ووصيَّتي بالإيمانِ بهذا الرَّسول ونُصرته، وقَبِلتُم ذلك ورضيتُموه[٤]؟

﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾.

أي: قالوا: اعترَفنا وقَبِلنا، والتَزمنا بأنْ نؤمِنَ به ونَنصُره[٥].

﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾.

أي: قال اللهُ تعالى للأنبياءِ: فاشَهْدوا على أنفسِكم، وعلى أَتْباعِكم من الأُممِ بذلك[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٤)، ((الزُّهد والورع والعبادة)) لابن تيمية (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((دقائق التفسير)) لابن تيمية (١/ ٣٣٥).

(٣) رواه أحمد (١٥١٩٥)، وابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٢٦٩٤٩)، وابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (١٤٩٧).
صححه ابن الجوزي في ((الموضوعات)) (١/ ٣٢٢)، وحسنه الألباني في ((إرواء الغليل)) (١٥٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦).

﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

أي: وأنا معكم مِن الشَّاهدين عليكم وعلى أُممكم، وكفَى بالله شهيدًا[١].

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)﴾.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾.

أي: فمَن تولَّى وأَعْرَضَ بعد ذلك عن هذا العهدِ والميثاق، بالإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ واتِّباعِه ونُصْرتِه مِن أُممِ هؤلاءِ الأنبياء[٢].

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أي: فأولئك هم الخارِجونَ مِن دِين الله، والمُعرِضون عن طاعتِه[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في أخْذ اللهِ على النَّبيِّين الميثاقَ بالتكليفِ دليلٌ على أنَّهم مَرْبُوبُون، مُتعبَّدون لله عزَّ وجلَّ، كما أنَّ غيرهم كذلك[٤].

٢- في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ...﴾: فضيلةُ نبيِّنا محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعلوُّ مرتبتِه، وجلالةُ قدْره، وأنَّه أفضلُ الأنبياء؛ لكونِ اللهِ أَخَذ على جميعِ الأنبياء الميثاقَ والعهدَ أن يُؤمنوا به ويَنصُروه، وقوَّى هذا العهدِ بهذه التقريرات والإشهادات المختومةِ بقوله: ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، ممَّا يَزيد فَضيلةً لرسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٦)

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٠، ١٣٦)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧٠).

(٥) يُنظر: ((دقائق التفسير)) لابن تيمية (١/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ...﴾ خبرٌ، مقصودٌ منه أمرُ الذين كانوا في زمان الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُؤمنوا به، فإذا دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الله تعالى أوجبَ على جميع الأنبياء أن يُؤمنوا بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، لو كانوا في الأحياء، وأنَّهم لو ترَكوا ذلك لصاروا من زُمرة الفاسقين، فلأنْ يكونَ الإيمان بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم واجبًا على أُممهم- لو كان ذلك- أَوْلى؛ فكان صَرْفُ هذا الميثاق إلى الأنبياء أقوى في تحصيلِ المطلوب من هذا الوجْه[(١)].

٤- يجوزُ، بل يُشْرَع في الأمور المهمَّة، أنْ يُقَرَّر مَن أُخِذ عليه العهد؛ حتَّى يُقِرَّ ويعترف، زيادةً على العقد الأوَّل الَّذي جرَى بينه وبين معاهِده، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[(٢)].

٥- في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ دليلٌ على جواز إشهادِ الإنسان على نفْسِه[(٣)].

٦- لا طَريقَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ لأحدٍ مِن الخَلْقِ إلَّا بمُتابعةِ محمَّدٍ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم باطنًا وظاهرًا، حتى لو أدرَكَه موسى وعيسى وغيرُهما من الأنبياءِ لوَجَبَ عليهم اتِّباعُه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ

عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧١، ٤٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٧٣- ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ...﴾[١].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ فيه ردٌّ على مَن قال بحياةِ الخَضِر، وأنَّه باقٍ إلى الآن؛ إذ لو كان الخَضِرُ حيًّا لوجَبَ عليه أن يأتيَ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيُؤمِنَ به، ويُجاهِدَ معه؛ لأنَّ اللهَ أخَذَ الميثاقَ على الأنبياءِ وأَتْباعِهم بذلك[٢].

٨- في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن تولَّى قبل قيام الحُجَّة عليه، لم يُحْكَم عليه بالفِسق، ويتفرَّعُ على هذا فائدةٌ مهمَّةٌ، وهي: أنَّ الشرائع لا تَلْزَمُ قبل العِلم[٣].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ...﴾:

- قوله تعالى: ﴿آتَيْتُكُمْ﴾ أو ﴿آتَيْنَاكُمْ﴾ فيه: التفاتان؛ أحدهما: الخروجُ من الغَيبة إلى التكلُّم في قوله: ﴿آتَيْنَا﴾ أو ﴿آتَيْتُ﴾؛ لأنَّ قبله ذِكرُ الجلالة المعظَّمة في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ﴾. والثاني: الخروجُ من الغَيبة إلى الخِطاب في قولِه: ﴿آتَيْنَاكُمْ﴾؛ لأنَّه قدْ تقدَّمه اسم ظاهرٌ، وهو ﴿النَّبِيِّينَ﴾؛ إذ لو جرَى على مقتضى تقدُّمِ الجلالة والنبيِّين لكان التركيب: (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لَمَا آتاهم من كتاب... كذا). وقيل: مِثل هذا لا يُسمَّى التفاتًا،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢١٢).
(٢) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ١٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧٤).

وإنَّما يُسمَّى حِكايةَ الحال، ونظيره قول: حلَف زيدٌ ليفعلن ولأفعلن؛ فالغَيبةُ مراعاةً لتقدُّم الاسم الظاهر، والتكلُّمُ حِكايةً لكلام الحالِف، والآية الكريمة من هذا[١].

- في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ...﴾: إيجازٌ بالحذف؛ إذ ذكَر ﴿النَّبِيِّينَ﴾ على سبيلِ المغايبة، ثم قال: ﴿آتَيْتُكُمْ﴾، وهو مخاطبةُ إضمارٍ، والتقدير: وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيين، فقال مخاطبًا لهم: ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾. وقيل: تقدير الآية: وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيِّين لتُبلغنَّ الناس ما آتيتُكم من كتابٍ وحِكمة، إلَّا أنه حذف (لتبلغن)؛ لدلالةِ الكلامِ عليه؛ لأنَّ لامَ القسمِ إنما تقَعُ على الفِعل؛ فلمَّا دلَّت هذه اللام على هذا الفِعل، حذفَه اختصارًا[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾:

- فيه إدخالُ (مع) على المخاطبين؛ لأنَّهم المباشِرون للشَّهادة حقيقةً. وكونُ الله تعالى معهم من الشاهِدين فيه توكيدٌ عظيمٌ للمشهودِ عليه، وتحذيرٌ شديدٌ لِمَن يُخالف مقتضَى هذه الشَّهادة[٣].

- وفيه فائدةٌ أخرى- مع التأكيدِ، وتقوية الإلزام- وهي: أنَّه تعالى وإنْ أَشهَد غيرَه، فليس مُحتاجًا إلى ذلك الإشهاد؛ لأنَّه تعالى لا يَخفى عليه خافيةٌ، لكن لضرب من المصلحة؛ لأنَّه سبحانه وتعالى يعلم السِّرَّ وأخفى، ثم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٤).

إنَّه تعالى ضمَّ إليه تأكيدًا آخر، فقال: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾[١].

٣- **قوله:** ﴿**فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ أسلوبُ حَصْرٌ، ووَجْهُ هذا الحَصْرِ أنَّه للمُبالغةِ؛ لأنَّ فِسقَهم في هذه الحالةِ أشدُّ فِسقًا، فجُعِل غيرُه من الفِسقِ كالعدمِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٠).

الآيات (٨٢ - ٨٥)

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

في هذه الآياتِ يُنكِر اللهُ تعالى على مَن ابتغى دِينًا غير دِينه الَّذي أرسل به رسوله محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: أَيطلُبون دِينًا غيرَ دِين الله، وشريعةً غير شريعته، وله استسلمَ جميعُ مَن في السَّموات والأرض، وانقادوا له طائِعين وكارِهين، وهُم بعدَ مماتِهم راجعون إليه، فيُوفيهم أعمالَهم، ويَجزيهم على أفعالِهم؟!

ثمَّ يُوجِّه الله خِطابَه إلى رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ آمِرًا له أنْ يقولَ لهم إذا أرادوا دِينًا غير دِين الله: آمنَّا باللهِ، وما أَنزله علينا من كِتابٍ وسُنَّة، وبما أنزله على أنبيائِه إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ، وعلى أنبياء بُطُون بني إسرائيل المتشعِّبة من الأولاد الاثني عشرَ ليعقوب، وآمنَّا أيضًا بالتَّوراة والإنجيل والآيات الَّتي أيَّد الله بها موسى وعيسى عليهما السَّلام، وآمنَّا بما أُعْطِيَ جميعُ الأنبياءِ من ربِّهم؛ نؤمِن بهم جميعًا ولا نُفَرِّقُ بينهم في الإيمان، ونحنُ مُسلِمونَ لله، خاضِعون منقادون له في الظَّاهر والباطن.

ثم يُخبِر الله تبارَك وتعالَى أنَّ مَن يَبتغي غيرَ الإسلام دينًا؛ ليَدِينَ به، فلنْ يَقبلَه اللهُ منه، بل سيكونُ مَردودًا عليه، وستكونُ عاقبتُه في الآخِرة هي الخسرانَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى في الآيةِ الأُولى أنَّ الإيمانَ بمحمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام، شرعٌ شرَعه الله، وأَوجبَه على جميع مَن مضى من الأنبياء والأُمم، لَزِمَ أنَّ كلَّ مَن كَرِهَ ذلك، فإنَّه يكون طالبًا دِينًا غير دِين الله[1]؛ فلهذا قال بعده:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾.

أي: أَيطلُبون دِينًا غيرَ دِين الله، وشريعةً غير شريعته[2]؟

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

أي: وله استسلمَ وانقادَ، وخضَع وذلَّ مَن في السَّموات والأرض طائعين: كالملائكةِ والأنبياء والمؤمنين، ومُكَرَهين: كالكفَّار؛ فهم تحتَ قَهْرِ الله وسُلطانِه العظيم، مستسلِمون لقضائِه وقدَره[3].

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[الرعد: ١٥]، وقال أيضًا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٧).
قال ابن تيمية: (وعامَّة السَّلف على أنَّ المراد بالاستسلام استسلامُهم له بالخضوع والذلِّ، لا مُجرَّد تصريف الربِّ لهم) ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢٩).

اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٤٩].

ثم يقولُ تعالى محذِّرًا لهم أن يَلقَى الإنسانُ ربَّه على غير ملَّة الإسلام[١]:

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإليه يَصيرون بعدَ مماتِهم، فيجازي كلًّا بعمله: المحسِنَ بإحسانِه، والمسِيءَ بإساءته[٢].

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى في الآية المتقدِّمة أنَّه إنَّما أخَذَ الميثاقَ على الأنبياء في الإيمان بالرَّسول الَّذي يأتي مصدِّقًا لِمَا معهم، بَيَّن في هذه الآية أنَّ مِن صِفة محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كونَه مصدِّقًا لِمَا معهم[٣]، فقال:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾.

أي: فإنِ ابتغَوْا غير دِين الله، فقل لهم- يا محمَّدُ-: آمنَّا بالله[٤]، والخِطاب للنبيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٣)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٤)، وقال: (فإنِ ابتغَوا غَيرَ دِين الله يا محمَّد، فقل لهم: آمنَّا بالله، فترَك ذِكر قوله: (فإنْ قالوا: نعم)، وذكر قوله: (فإنِ ابْتغَوْا غيرَ دِين الله)؛ لدلالةِ ما ظهَر من الكلامِ عليه).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأمَّته، كما قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُم﴾[(١)] [البقرة: ١٣٦].

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾.

أي: وآمنَّا بما أُنزِل علينا مِن وحْي اللهِ من القرآنِ، ومن سُنَّة نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(٢)].

فالسُّنَّة منزَّلة[(٣)]، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النِّساء: ١١٣].

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾.

أي: وقلْ: وآمنَّا أيضًا بما أُنزل الله على إبراهيمَ، وعلى ابنيْه إسماعيلَ وإسحاقَ، وعلى ابن إسحاقَ يعقوبَ، وعلى أنبياءِ بُطون بني إسرائيل المتشعِّبة من الأولاد الاثني عَشرَ ليعقوب، وهو إسرائيلُ[(٤)].

وقد بيَّن اللهُ تعالى في سورة الأعلى أنَّ المنزَّل على إبراهيم عليه السَّلام إنَّما هو صُحف، وأنَّ مِن جملة ما في تلك الصُّحف: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾[(٥)] [الأعلى: ١٦-١٩].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨٣).

(٥) هذا على القول بأنَّ الضميرَ في﴿هَذَا﴾ يعود على قوله سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٥).

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

أي: وقل: آمنَّا أيضًا بالتَّوراة الَّتي أعطاها اللهُ موسى عليه السَّلام، والإنجيل الَّذي أعطاه الله عيسى عليه السَّلام، وما أيَّدهما الله به من الآيات، وبما أُعطِي جميع الأنبياء من ربِّهم[١].

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾.

أي: لا نُفرِّق بين أحدٍ منهم وآخَرَ في الإيمان؛ فنؤمِن ببعضٍ ونكفُر ببعض، لكن نؤمِن بهم جميعًا، وهذا تعريضٌ باليهود والنَّصارى[٢].

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: ونحن للهِ مستسلِمون ظاهرًا وباطنًا، منقادُون بالطاعة، مُتذلِّلون بالعبوديَّة، لا نَدين بغير دِين الإسلام[٣].

وقد جاءَ التصريحُ في القرآن بأنَّهم امتَثلوا الأمْر في قوله سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وجاء ذِكرُ جَزائِهم على ذلك في قولِه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[٤] [النساء: ١٥٢].

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٥).

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

أي: ومَن يَطلُبْ دينًا غير الإسلام ليَدِينَ به، فلن يُقبَلَ منه ذلك الدِّينُ، وهو مردودٌ عليه[١].

﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

أي: خسِرَ ثوابَ الله ونعيمَه، وصار إلى عذابِه، وبخَس نفْسَه حظَّها من رحمة الله؛ لأنَّه يَعملُ عملًا لن يُقبَل منه[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- وجوب الإقرار بالإيمان باللِّسان، كما هو واجب بالقلب؛ لأنَّ قوله: ﴿قُلْ﴾ يعني: باللِّسان المعبِّر عمَّا في القلب[٣].

٢- في تقديم قوله: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، وجعْل ما بعده معطوفًا عليه، دليلٌ على أنَّ الإيمان بالله هو أصل كلِّ شيء، ومقدَّم على كلِّ شيء[٤].

---

(١) قيل بأنَّ الإسلام هاهنا الاستسلامُ لله تعالى، وتفويضُ الأمر إليه، وذلك أمرٌ مرادٌ من النَّاس في كلِّ زمان، ومِن كلِّ أمَّة، وفي كلِّ شريعة، وهذا اختيارُ ابن عطية في ((تفسيره)) (١/ ٤٦٧)، وابن تيمية في ((الجواب الصحيح)) (٢/ ١٣١)، وفي ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (٢/ ٣٧٠)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٣٧).

وقيل: المرادُ بالإِسلام شريعةُ محمَّد عليه الصلاة والسلام. وهذا اختيار الشنقيطي في ((أضواء البيان)) (١/ ٤٤-٤٥)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٧).

قال الراغب: (وهذا الوجهُ داخلٌ في الأول، فمعلومٌ أنَّ مِن الاستسلام الانقيادَ لأوامر مَن صحَّتْ نبوَّتُه وظهَرَ صِدْقُه) ((تفسير الراغب)) (٢/ ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٤)، ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٩٣).

٣- في قوله: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾: بيانُ أنَّه ليس في الدِّينِ الإسلاميِّ عصبيَّة[١].

٤- فائدةُ الاختصاص في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أنَّه لا يَنبغي أن نستسلم لأحدٍ استسلامًا يُخالفُ الاستسلامَ لله عزَّ وجلَّ[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- مَن ابتغى غيرَ دِين الله، كمَنْ آثَرَ النُّظُمَ والقوانينَ المخالفةَ لشرعِ الله تعالى، فإنَّه مستحقٌّ لهذا التوبيخِ العظيم، كما في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾[٣].

٢- عبَّر بالطَّلبِ في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾- لأنَّ معنى ﴿تَبْغُونَ﴾: تَطلُبونَ، وهو هنا بمعنى: تَدينون؛ لأنهم مُتلبِّسون بدِينٍ غيرِ دِين الله لا طالِبُوه-؛ إشعارًا بأنَّهم في كلِّ الوقتِ باحثون عن الدِّين ومُستخرِجوه ومُبتغوه[٤].

٣- تشريفُ هذا الدِّين الَّذي شرَعه الله؛ لأنَّ اللهَ أضافَه إلى نفْسه، فقال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾[٥].

٤- في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، إقامةُ الحُجَّة على أنَّه لا يَليق بالإنسان أن يَبغيَ دِينًا غير دِين الله، وهو مربوبٌ مملوكٌ لله تعالى[٦].

٥- لَمَّا جاء الجمْع في قوله: ﴿وَالنَّبِيُّونَ﴾ دون التخصيص، جاء بالإيتاء

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧٦)، ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧٦).

دون الإنزال، من أجْل أن يشمل الآيات الَّتي قد يكون أُعطيها بعض النبيِّين[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ..﴾ الآية، ترتيبٌ بديعٌ حسنٌ؛ حيث قدَّم الإيمانَ بالله على الإيمانِ بالأنبياء؛ لأنَّه أصلُ الإيمان بالنبوةِ، وفي المرتبةِ الثانية ذكر الإيمانَ بما أنزل عليه؛ لأنَّ كتبَ سائرِ الأنبياء حرَّفوها وبدَّلوها، فلا سبيلَ إلى معرفةِ أحوالها إلا بما أنْزل اللهُ على محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فكان ما أنزل على محمدٍ كالأصلِ لما أنزل على سائرِ الأنبياء؛ فلهذا قدَّمه عليه، وفي المرتبةِ الثالثةِ ذكر بعضَ الأنبياءِ، وهم الأنبياءُ الذين يعترف أهلُ الكتابِ بوجودهم، ويختلفون في نبوَّتهم[٢].

٧- لَمَّا قال الله في آخر الآية المتقدمة ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أتْبعه بأن بيَّن في هذه الآية أنَّ الدين ليس إلَّا الإسلام، وأنَّ كلَّ دين سوى الإسلام فإنَّه غير مقبول عند الله[٣].

٨- قال تعالى: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ولم يقل: (فلن يَقبل الله منه)؛ ليعُمَّ الرَّفض والرَّد من الله عزَّ وجلَّ، ومن الرَّسول، ومن المسلمين؛ ولهذا لا يجوز للمسلمين أنَّ يُقِرُّوا أحدًا على دِين خِلاف شريعة الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾** الاستفهام للتوبيخ والتَّحذير، واستنكارًا أن يفعلوا ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٠)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤٨٤).

- وفيه تقريرٌ أنَّهم يفعلونه، وموضِع الهمزة هو لفظةُ (يَبْغُونَ)؛ تقديره: (أَيبغون غير دين الله)، وقدَّم المفعولَ الذي هو (غَيرَ) على فِعله ﴿يَبْغُونَ﴾؛ لأنَّه أهمُّ، من حيثُ إنَّ الإنكارَ الذي هو معنى الهمزة متوجِّهٌ إلى المعبود الباطل، وأمَّا الفاء فلعطفِ جُملةٍ على جملة(١).

- قوله تعالى: ﴿يَبْغُونَ﴾: فيه التفاتٌ من الخِطاب إلى الغَيبة(٢)؛ إعراضًا عن مخاطبتِهم إلى مخاطبةِ المسلمين بالتعجُّبِ من أهلِ الكتاب(٣).

- وكله تفريعٌ؛ ذَكَر أحوالَ خلَف أولئك الأُمم؛ كيف اتَّبعوا غيرَ ما أُخذ عليهم العهد به؛ والاستفهام حينئذٍ للتعجُّب(٤).

٢- **قوله تعالى**: ﴿**لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ**﴾ هذا خبرٌ فيه تعريضٌ باليهود والنَّصارى؛ لتفريقِهم بين الأنبياءِ، وحُذِف المعطوفُ، وتقديره: لا نُفرِّق بين أحدٍ وآخَر(٥).

٣- **قوله تعالى**: ﴿**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾ خبرٌ متضمِّن لمعنى التهديدِ العظيم، والوعيدِ الشديد- على اعتبار الجملة مستأنفة- ويجوز أنْ تكون الجملةُ معطوفةً على الجملةِ مِن قوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ فتكون حالًا أيضًا، ويكون المعنى أنَّه نعَى عليهم ابتغاءَ غير دِين مَن أسلم له جميعُ مَن في السَّموات والأرض طائعين ومُكرَهين، ومَن مرجعُهم إليه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٧٩).

(٢) الالتفاتُ على قِراءة ﴿يَبْغُونَ﴾ بالياء- وهي قراءةُ أبي عمرو، وحفص، ويعقوب. وأمَّا على قراءة الجمهور ﴿تَبغونَ﴾ بتاء الخِطاب؛ فهو خطابٌ لأهل الكتاب جارٍ على طريقةِ الخِطاب في قوله آنفًا: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا المَلَائِكَةَ﴾، فليس فيه التفات.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٩٧).

٤- **قوله تعالى:** ﴿**وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ**﴾ فيه إيجازٌ لمناسبةٍ بديعة، حيث جاءَ التعبيرُ هنا بغير إعادة (وما)، كما في قوله في سورة البقرة: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ [الآية: ١٣٦]؛ لأنَّ التي في البقرة لفظُ الخطابِ فيها عامٌّ، ومِن حُكمِ خطابِ العامِّ البَسطُ دون الإيجاز، بخِلافِ الخِطاب هنا؛ فإنَّه خاصٌّ؛ فلذلك اكتفَى فيه بالإيجازِ دون الإطناب[١].

٥- **قوله تعالى:** ﴿**قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾:

- الآية جملة اعتراض واستئناف؛ لتلقين النَّبيِّ عليه السَّلام والمسلمين كلامًا جامعًا لمعنى الإسلام؛ ليدوموا عليه، ويُعلن به للأمم، نشأ عن قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾[٢].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ؛ حيث عدَّى ﴿أُنْزِلَ﴾ في هذه الآية بحرفِ الاستعلاء (على)، وفي سورةِ البقرة عدَّى الفِعل بحرف الانتهاء (إلى)؛ وذلك لوجودِ المعنيين جميعًا؛ لأنَّ الوحيَ يَنزل من فوقُ، ويَنتهي إلى الرُّسُلِ، فجاءَ تارةً بأحدِ المعنيين، وأخرى بالآخَر؛ تفنُّنًا في الفصاحة[٣].

وقيل: لأنَّ الأولى (في البقرة) خِطابٌ للمسلمين، والثانية (التي هنا في آل عمران) خِطابٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، و(إلى) يُنتهَى بها من كلِّ جهة، و(على) لا يُنتهى بها إلَّا من جهةٍ واحدة، وهي العلوُّ، والقرآن يأتي المسلمين من كلِّ جِهة يأتي مبلِّغُه إيَّاهم منها، وإنما أُتي النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم من جِهة العلوِّ خاصَّةً، فناسَب قوله: ﴿عَلَيْنَا﴾؛ ولهذا أكْثَر ما جاء في جِهة النبيِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٨١)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٨١).

صلَّى الله عليه وسلَّم بـ (على)، وأكثر ما جاء في جِهة الأمَّة بـ (إلى)[١].

- قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾: وحَّد الضَّميرَ في ﴿قُلْ﴾ وجمَع في ﴿آمَنَّا﴾؛ لوجوه[٢]:

منها: أنَّه تعالى حين خاطبَه، إنَّما خاطبه بلفظِ الوحدان، وعلَّمه أنَّه حين يُخاطبُ القومَ يخاطبُهم بلفظِ الجمْع على وجهِ التعظيم والتفخيم.

ومنها: أنَّه خاطبه أولًا بخِطاب الوحدان؛ ليدلَّ هذا الكلامُ على أنَّه لا مُبلِّغَ لهذا التكليفِ من الله إلى الخَلق إلَّا هو، ثم قال: آمنَّا؛ تنبيهًا على أنَّه حين يقولُ هذا القولَ فإنَّ أصحابه يُوافقونه عليه.

ومنها: أنَّ الجمعَ في قوله: ﴿آمَنَّا﴾ بعدَ الإفراد في ﴿قُلْ﴾؛ لكونِ الأمرِ عامًّا، والإفراد لتشريفِه عليه الصَّلاة والسلام، والإيذانِ بأنَّه أصلٌ في ذلك، أو الأمْر خاصٌّ بالإخبارِ عن نفْسه الزكيَّة خاصَّة.

والجمْع لإظهارِ جلالةِ قدْره ورِفعة محلِّه بأمره بأنْ يَتكلَّم عن نفْسه على دَيدنِ الملوك.

٦- **قوله تعالى**: ﴿**وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى**﴾ فيه إيثارُ الإيتاءِ على الإنزالِ الخاصِّ بالكتابِ، وتخصيصُهما بالذِّكر مع دُخولِهما فيما سبَق؛ لأنَّ الكلامَ مع اليهود والنصارى[٣].

٧- **قوله**: ﴿**وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ فيه تقديمُ المُتعلِّق على المتعلَّق؛ لإفادة الحَصْر، أي: ونحن له لا لغيرِه مُسلِمون[٤].

---

(١) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٣).

٨- **في قوله تعالى:** ﴿**فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ أتى بالفاء الرابطة؛ إعلامًا بأنَّ ما بعدها مسبَّبٌ عمَّا قبلها، ومربوطٌ به فقال: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾. وأشْعرَ ترتيبُ هذا على السَّبب بأنَّه يُرجى زوالُ السَّبب؛ لأنَّه ممَّا عرَض للعبد، كما جرَى في الرِّدَّة في خِلافة الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه؛ فإنَّه رجَع إلى الإسلامِ أكثرُ المرتدِّين، وحسُنَ إسلامُهم[١].

٩- **قوله تعالى:** ﴿**وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ الجملة حاليةٌ مفيدةٌ لتأكيدِ الإنكار[٢].

١٠- **في قوله تعالى:** ﴿**الإِسْلَامِ**﴾ كرَّر الإسلامَ في هذا السِّياق كثيرًا؛ لكونه في حيِّز الميثاقِ المأخوذِ بمتابعةِ الرَّسول المصدَّق؛ حَثًّا على تمامِ الانقيادِ له[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٨٢-٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٥).

الآيات (٨٦ - ٨٩)

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

المَعنَى الإجماليُّ

يُخبِر الله تبارَك وتعالَى أنَّه لا يَهدي قومًا ارتدُّوا على أعقابِهم، وكفَروا بعدَ إيمانِهم، وشهِدوا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حقٌّ، وجاءتهم البيِّناتُ القاطعاتُ، والبراهين الشاهدةُ على صِدقِه؛ فكيف يَستحقُّ هؤلاء الهداية؟! فالله عزَّ وجلَّ لا يَهدي إلى الحقِّ الَّذين ظلموا أنفسَهم، بترْكهم الحقَّ بعدَ معرفتهم له، واتِّباعهم الباطلَ مع وضوح بُطلانه.

ثمَّ أخبر الله تعالى عن عُقوبةِ هؤلاء الظَّالمين في الدُّنيا والآخرة، وهي الطَّرد والإبعاد من رحمتِه، وأنَّ خلْقَه جميعًا من الملائكةِ والنَّاس يَلعنونهم، وأنَّهم خالدون في هذه اللَّعنةِ والعقوبة، لا يُخَفَّف عنهم من العذاب شيئًا، ولا هم يُمْهَلون أو يُؤَخَّرون.

ثم استثنى اللهُ تعالى مَن تابَ ورجَع إلى الله، وعمِل الصالحات، فهو يَغفر ذَنبَه، ويستُر عيبَه، ويَتجاوز عن خطاياه، وذلك من لُطفه سبحانه وبرِّه، ورأفته ورحمته بخَلقه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ

الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا عظَّم اللهُ تعالى أمْر الإسلام والإيمان بقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، أكَّد ذلك التعظيم بأنْ بيَّن وعيدَ مَن ترك الإسلام، فقال: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾[1].

سبب النُّزولِ:

عن ابن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما، قال: كانَ رجلٌ منَ الأنصارِ أسلمَ، ثمَّ ارتدَّ ولحِقَ بالشِّرْكِ ثمَّ تندَّمَ، فأرسلَ إلى قومِه: سلوا لي رسولَ اللَّهِ، صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، هل لي من توبةٍ؟ فجاءَ قومُه إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فقالوا: إنَّ فلانًا قد ندِمَ، وإنَّهُ أمرنا أنَّ نسألَكَ: هل لَهُ من توبةٍ؟ فنزلَت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأرسلَ إليهِ فأسلمَ[2].

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾.

أي: لا يَهدي اللهُ قومًا ارتدُّوا بعدَ أنْ آمنوا؛ فكيف يستحقُّون الهدايةَ، وقد اختاروا الكُفر والضَّلال، بعدَ أن عَرَفوا الحقَّ، ودخلوا في الإيمان[3]؟!

﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٣).

(٢) رواه النسائي (٤٠٦٨) واللفظ له، وأحمد (٢٢١٨)، وابن حبان (٤٤٧٧)، والحاكم (٨٠٩٢). صححه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٠٥)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ٤٨)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٤٠٦٨)، وصححه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٥٨٥) وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٢).

أي: وبعدَ أنْ أقرُّوا أنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رسولُ الله إلى النَّاس حقًّا، صادقٌ فيما أخبر، عادلٌ فيما حَكم[١].

﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

أي: وجاءتْهم الحُجج من عند الله، وقامتْ عليهم الدلائلُ والبراهين الَّتي تُبيِّن صِدْقَ ما جاء به الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ لا يُوفِّق للحقِّ الَّذين ظلموا أنفسَهم؛ فتركوا الحقَّ بعدما عرَفوه، واتَّبعوا الباطل مع عِلمهم ببُطلانِه[٣].

ثم أخبَر عن عقوبةِ هؤلاءِ المعانِدين الظالمين الدُّنيويَّة والأخرويَّة، فقال:

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧)﴾.

أي: هؤلاء الَّذين كفَروا بعد إيمانِهم، وشهِدوا أنَّ الرَّسول حقٌّ، وجاءَهم البيِّنات- ثوابهم[٤] ومكافأتُهم طَرْدُ الله لهم، وإبعادُهم من رحمتِه، ولعْنُ خلْقِه لهم؛ من الملائكةِ والنَّاس جميعًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٤).

قال الواحديُّ: (وقوله: ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ يجوز أن يُريد ما بيَّن لهم في التوراة والإنجيل، وهو قول ابن عبَّاس. ويجوز أن يُريد: ما أتَى به النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكتاب والآيات والمعجزات) ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٥).

(٤) والثَّوَاب: ما يَرجِع إلى الإنسانِ من جزاءِ أعماله، والثَّواب يُقال في الخير والشر، لكن الأكثر المتعارَف في الخير. يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٥).

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨)﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ماكثِينَ في عُقوبةِ الله ولعنتِه[١].

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾.

أي: لا يُنْقَصون من العذابِ شيئًا، ولا تُهَوَّن عليهم العقوبة[٢].

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

أي: ولا هم يُمْهَلون، ولا يُؤخَّرون، ولا يؤجَّلون[٣].

ثم استثنى - جلَّ ثناؤه - الَّذين تابوا من هؤلاء الَّذين كفروا بعد إيمانهم، فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾.

أي: إلَّا الَّذين رجَعوا إلى الله، وراجَعوا الإيمانَ بالله ورسولِه من بعد كُفرِهم وارتدادِهم، وأصْلَحوا ما أَفْسَدوا، وعمِلوا الصَّالحات[٤].

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: فإنَّ اللهَ يَستُر عليهم الذُّنوب، ويتجاوزُ عنها، ويترُكُ العقوبةَ عليها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٥١٤).

ويتعطَّف عليهم بالرَّحمة، الَّتي تَقتضي الإحسانَ والإنعام[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ الجزاء من جِنس العمل، فإنَّ هؤلاء لَمَّا ارتكبوا ثلاثَ جرائم، أو ثلاثةَ أمورٍ في كُفرهم، كان عليهم لعنةُ الله والملائكةِ والنَّاس، ثلاثٌ بثلاثٍ[٢].

٢- زلَّة العالم أقبحُ من زلَّة الجاهل؛ يُستفادُ ذلك من قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[٣].

٣- في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: دليلٌ على أنَّ التَّوبة تَجُبُّ ما قبلها[٤]، أي: تقْطَعُ وتَمْحو ما كانَ قَبْلَها مِنَ الكُفرِ والمعاصي والذُّنوب.

٤- في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾: دليلٌ على أنَّ التوبة وحدها لا تَكفي؛ إذ لا بدَّ معها من الإصلاح، وهذا واجبٌ في كلِّ مَن يتعدَّى جُرْمُه إلى غيره، أنْ يقومَ بإصلاحِ ما ترتَّب على هذا الجرم[٥].

٥- يَتبيَّن من قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أنَّ التَّوبة الَّتي لا تأثيرَ لها على سلوكِ الإنسانِ وحالِه وأعمالِه، لا شأنَ لها ولا قيمةَ في نظرِ الدِّين؛ ولذلك جرى القرآنُ على عطفِ العملِ الصَّالح عليها عند ذِكرِها، أو وصْفِها بالنَّصوح[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٥).
قال ابن عاشور: (﴿فإنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾ عِلَّة لكلامٍ محذوف، تقديره: اللهُ يغفر لهم؛ لأنَّه غفورٌ رحيم) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- يُستفاد مِن قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾: أنَّ مَن ضلَّ عن بصيرةٍ، فإنَّه يَبعُد أن يُهْدَى، ومَن فَسقَ عن بصيرةٍ فإنَّه يبعُد أنَّ يكونَ من العدول(١).

٢- الجاهِلُ إذا عُرِّفَ وعُلِّم، فهو قريبٌ إلى الانقيادِ والاتِّباع، وأمَّا المعانِدُ فلا دواءَ فيه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

٣- في قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا﴾: استعظَم اللهُ كُفرَ القوم؛ لأنَّه حصل بعد خِصالٍ ثلاث؛ وهي: الإيمان، والشَّهادة بكون الرَّسول حقًّا، وبعدَ مجيءِ البيِّنات؛ فيكون الكفرُ بعدَ هذه الأشياء أقبحَ؛ لأنَّ مثلَ هذا الكفرِ يكون كالمعاندةِ والجحود(٣).

٤- شأنُه سبحانه في كلِّ مَن أَنعَم عليه بنِعمةٍ فكفَرها أنَّه يَسلبُه إيَّاها بعدَ أنْ كانتْ نصيبَه وحظَّه؛ قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وكما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(٤).

٥- لَمَّا كان المقيمُ في الشدَّة قد تَنقُص شدَّتُه إذا طالتْ، نفَى ذلك بقوله: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٦).
(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٤).
(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٨٠)
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٧).

٦- قول الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، استدلَّ به من قال بقَبولِ توبَةِ المرتَدِّ في الجملةِ؛ فاللهُ تعالى أخْبَر أنَّه غفورٌ رحيمٌ لِمَن تابَ بعدَ الرِّدَّة، وذلك يَقتَضي مَغفرتَه له في الدُّنيا والآخرة، ومَن هذه حالُه لم يُعاقَبْ بالقتْلِ[(١)].

٧- في الجمْعِ بين الغفور والرَّحيم زيادةُ معنى على ما يَتضمَّنه الاسمان، وهو أنَّ الله تعالى قد جمَع بين المغفرة الَّتي بها زوالُ المكروه، وآثار الذنب، والرَّحمة الَّتي بها حُصولُ المطلوبِ، وهو النِّعمةُ والإحسان، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[(٢)].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾** هذا استئنافٌ ابتدائيٌّ يُناسب ما سبَقه من التنويهِ بشَرف الإسلام، و﴿كَيْفَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، معناه النَّفي، والمقصودُ استبعاد لأنْ يُرشدَهم الله للصَّواب ويوفِّقهم؛ فإنَّ الحائد عن الحقِّ بعدَما وضَح له، منهمكٌ في الضَّلال، بعيد عن الرَّشاد، وإنكارُ أنْ تحصُل لهم هدايةٌ خاصَّة، وهي إمَّا الهدايةُ الناشئةُ عن عِنايةِ الله بالعبدِ ولُطفه به، وإسنادُها إلى الله ظاهر، وإمَّا الهدايةُ الناشئة عن إعمالِ الأدلَّة والاستنتاجِ منها، وإسنادُها إلى الله؛ لأنَّه موجِدُ الأسباب ومُسبِّباتِها[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) لابن تيمية (ص:٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٣، ٢٨٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٣).

وفيه: تأكيدٌ للتعظيم السابق ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ﴾، حيث بيَّن وعيدَ مَن ترَك الإسلام، وأكَّده هنا بقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾[١].

٢- **قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** فيه تعميمٌ للحُكم بعد ذِكر بعض أفراده؛ فإنَّه قال في أوَّل الآية: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا...﴾ وقال في آخرها: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ﴾ مختصٌّ بالمرتدِّين، ثم إنَّه تعالى عمَّم ذلك الحُكم في المرتدِّ، وفي الكافر الأصلي، فقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ وسمَّى الكافر ظالِمًا؛ لأنَّ الشِّرك ظُلمٌ عظيم[٢].

٣- **في قوله: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ...﴾** أتى باسم الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ على وجهِ البُعد؛ إشارةً إلى انحطاطِ مرتبتهم[٣].

٤- **قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾** أشارَ اللهُ تعالى إلى ما سبَقَ من الكُفر بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، وهي إشارةُ البعيد؛ وذلك لانحطاطِ مَرتبتِه[٤].

٥- **قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** فيه تعليلٌ لِمَا دلَّ عليه الاستثناءُ[٥]، مع ما فيه من تأكيد الخبر بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة، والمبالغة في صِيغةِ فعول وفعيل ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٦).

الآيتان (٩٠ - ٩١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ

يَتوعَّد اللهُ تبارَك وتعالَى الَّذين كفروا وارتدُّوا بعد إيمانهم، ثمَّ ازدادوا كُفرًا، واستمرُّوا عليه إلى أنْ جاءَهم الموت، بأنَّه لن يَقبلَ لهم توبةً؛ فهُم الَّذين خرَجوا عن المنهج الحقِّ إلى طريق الغيِّ والضَّلال في أقوالهم وأفعالهم.

ثم يُخبر تعالى بأنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وهم متلبِّسون بالكفرِ غيرَ تائبين منه، فإنَّه لن يَقبل من أحدٍ منهم شيئًا عمِله، ولو أَنفق تقرُّبًا إليه مِلءَ الأرض ذهبًا، أو افتدَى نفْسَه به، فإنَّه لن يقبلَ منه، بل أُولَئِكَ لَهُمْ عند الله في الآخرة عَذَابٌ موجِعٌ مؤلم، ولن يَجِدوا ناصرًا ينصرُهم ويُنقذهم من عذابِ الله.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رغَّبَ في التوبة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، رهَّب من التواني عنها[1]، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ...﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٨).

سببُ النُّزول:

عَنِ ابنِ عباسٍ أنَّ قومًا أَسلَموا ثمَّ ارتدُّوا ثمَّ أَسلَموا ثمَّ ارتدُّوا، فأرْسلوا إلى قومِهم يَسألَونَ لهم، فذَكروا ذلك لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فنزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾[(١)].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾.

أي: إنَّ الَّذين كفروا وارتدُّوا بعدَ إيمانهم[(٢)].

﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾.

أي: ثمَّ أقاموا على كُفرِهم واستمرُّوا عليه إلى الممات، وتمادَوْا في ضلالهم، وأخَّروا التوبةَ إلى حُضور الموت- فلن يَقبلَ اللهُ لهم توبةً[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨].

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

أي: وهؤلاء الَّذين كفروا بعدَ إيمانهم، ثمَّ ازدادوا كُفرًا، هم الَّذين ضلَّوا

---

(١) رواه البزار كما في ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٢). وجود إسناده ابن كثير.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٠)، وعزاه ابن تيميَّة للأكثرين في ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٢٩).

وقال بعضُ العلماء: معنى ﴿لن تُقبل توبتهم﴾: لن يُوفَّقوا للتوبة، حتى تُقبل منهم، ويَشهد له قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧]، فعدم غفرانه لهم؛ لعدم هدايتهم السبيل الذي يغفر لصاحبه، ونظيرها قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٢).

سبيل الحقِّ، وأخطؤوا الطَّريق القويم في الأقوال والأفعال[١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

أي: إنَّ الَّذين كفَروا، وماتوا على الكُفر[٢].

﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾.

أي: مَن مات على الكُفرِ، فلن يَقبَل اللهُ منه شيئًا مِن عَمِله، ولو كان أنفقَ مِلْءَ الأرض ذهبًا تقرُّبًا إلى الله، وكذلك لو افتَدَى نفْسَه من الله بمِلْءِ الأرض ذهبًا ما قَبِل الله منه[٣].

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ابنُ جُدْعَانَ كان في الجاهلِيَّة يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطعِمُ المِسكينَ؛ فهَلْ ذاكَ نافِعُه؟ قال: ((لا يَنْفَعُه؛ إنَّه لَمْ يَقُلْ يومًا: رَبِّ اغفِرْ لي خَطيئَتي يومَ الدِّين))[٤].

وعن أنسِ بن مالك رضِي اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يقولُ الله تعالى لأَهونِ أهلِ النَّارِ عذابًا يومَ القيامةِ: لو أنَّ لك ما في الأرضِ من شيءٍ أكُنتَ تفتدي به؟ فيقولُ: نعمْ. فيقولُ: أردتُ منكَ أهونَ من هذا، وأنتَ في صُلبِ آدمَ: ألَّا تُشرِكَ بي شيئًا، فأَبَيْتَ إلَّا أنْ تُشرِكَ بي))[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٠))، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٢).

(٤) رواه مسلم (٢١٤).

(٥) رواه البخاري (٦٥٥٧)، ومسلم (٢٨٠٥).

وصرَّح في مواضعَ أُخَرَ بأنَّه لو زِيد بمثلِه لا يُقبَل منه أيضًا فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦]، وبيَّن في مواضع أُخَر، أنَّه لا يُقبل فداءٌ في ذلك اليوم منهم بتاتًا كقوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1] [الحديد: ١٥].

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: هؤلاء الَّذين كفروا، وماتوا وهم كُفَّار، لهم عند اللهِ في الآخِرة عذابٌ موجِعٌ مؤلِم[2].

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

أي: وليس لهم أحدٌ ينصُرهم ويَستنقذُهم من عذابِ الله، أو يُجيرُهم من أليمِ عِقابِه[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾: دليلٌ على أنَّ ازدياد الكُفرِ عبارةٌ عمَّا يُنمِّيه ويقوِّيه من الأعمال الَّتي يقاوم بها الإيمان، فالكفرُ يَزداد قوَّةً واستقرارًا وتمكنًا بالعمل بمقتضاه، كما أنَّ الإيمانَ كذلك[4].

٢- يُؤخذ من قوله تعالى: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أنَّ قَبولَ التوبة المستلزِم لمغفرة الذَّنب ليس من قَبيل العطاء الجُزاف، وإنَّما يكون بموافقةِ سُنن الله في الفِطرة الإنسانيَّة السليمة، فمقتضاها أنْ يُحدِث لها العِلمُ بقُبح الذنبِ وسوءِ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠١).

عاقبتِه ألَمًا يَحمِلُها على ترْكه ومَحْو أثره، بعمل صالح يُحْدِثَ فيها أثرًا مضادًّا لذلك الأثر[١].

٣- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾: دليلٌ على أنَّ السيِّئات يُنتِج بعضها بعضًا، وخصوصًا لِمَن أَقدم على الكُفر العظيم، وترَكَ الصَّراط المستقيم، وقد قامتْ عليه الحُجَّة، ووضَّح اللهُ له الآياتِ والبراهين[٢].

٤- دلَّ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ...﴾ على أنَّ الأمر يسيرٌ على المؤمن؛ لأنَّه يَفتدي من عذاب الله بما هو أقلُّ مِن مِلْء الأرض ذهبًا، وهو الإيمانُ والعملُ الصالح، وأداءُ ما يجِب عليه من الحقوق الماليَّة[٣].

٥- مَن لم تَرتَقِ رُوحُه في الدُّنيا إلى درجةِ الإيمان الصَّحيح؛ فإنَّها لا تَرتقي في الآخرة من الهاويةِ إلى درجةٍ من الدَّرجات العُلا في الجنَّة، ولو افتدَى بمِلْءِ الأرضِ ذهبًا في الآخرة، على فرْض أنْ يملكَه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- أنَّ المرتدَّ إذا بقي على رِدَّته، فإنَّه لا تُقبَل توبتُه عند الموت؛ لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾، وهذا لا يكون إلَّا بالردَّة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠٣- ٣٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢١).

٢- أنَّه كلَّما تمادَى الإنسان في الكفر ولم يتُبْ، فإنَّه يزداد؛ لأنَّ كلَّ وقت يمرُّ عليه يزداد وزرًا إلى وزره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾[١].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- **في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾**: عبَّر عن ذلك بأداة التراخي (ثمَّ)؛ إشارةً إلى تمادِيهم على ذلك، وعدَم مبادرتِهم بالتوبةِ[٢].

٢- **في قوله تعالى: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾** لم تَدخُل الفاءُ في: ﴿لَنْ تُقْبَلَ﴾، ودخلتِ الفاءُ في قوله: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾؛ وذلِك أنَّ ترْكَ الفاءِ مُؤذِنٌ بأنَّ الكلامَ مبتدأٌ وخبرٌ، ولا دَليلَ فيه على التَّسبيبِ، وأمَّا الفاء فمؤذِنةٌ بالاستحقاقِ بالوصفِ السَّابق، ومُؤذنةٌ بأنَّ الكلامَ بُني على الشَّرطِ والجزاءِ، وأنَّ سببَ امتناعِ قَبول الفِديةِ هو الموتُ على الكُفر، وفي الآيةِ بعدَها قال: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، وهنا لم يُصرِّح بهذا القيدِ، ولأنَّه لَمَّا كانوا لا يتوبون إلَّا عندَ إشرافِهم على الهلاك، كنَّى عن عَدمِ توبتِهم بعَدمِ قَبولِها؛ تغليظًا في شأنهم، وإبرازًا لحالهم في صورة حالِ الآيسين من الرَّحمة، أو لأنَّ توبتَهم لا تكونُ إلَّا نفاقًا؛ لارتدادِهم وازديادِهم كفرًا؛ ولذلك لم تدخُلْ فيه الفاءُ[٣].

٣- **قوله تعالى: ﴿وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾**: في فائدةِ ذِكر الواوِ في قوله: ﴿وَلَوِ﴾ وجوه[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٨٢-٣٨٤)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٥٢).

منها: أنَّها للعطف، والتقدير: لو تقرَّب إلى الله بمِلْءِ الأرض ذهبًا، لم ينفعْه ذلك مع كُفره، ولو افتدَى من العذاب بمِلْء الأرض ذهبًا لم يُقبل منه، وهذا أَوْكَدُ في التَّغليظ؛ لأنَّه تصريحٌ بنفي القَبول من جميع الوجوه.

ومنها: أنَّ الواو دخلتْ لبيان التفصيل بعدَ الإجمال الذي في قوله: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا﴾؛ لاحتمالِه لوجوهٍ كثيرة، فنصَّ على نفْي القَبول بجهة الفِدية.

ومنها: أنَّها مبالغةٌ في إظهارِ غضَب الربِّ سبحانه عليهم؛ حيث حَكَم تعالى بأنَّه لا يُقبل منهم ملءُ الأرض ذهبًا، ولو كان واقعًا على سبيل الفداء؛ تنبيهًا على أنَّه لَمَّا لم يكن مقبولًا بهذا الطريق، فبأنْ لا يكونَ مقبولًا منه بسائرِ الطُّرق أَوْلى.

٤- **في قوله تعالى: ﴿مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا﴾**: فيه إيجازٌ بالحذف؛ إذ مِن المعلوم أنَّ الكافرَ لا يملك يومَ القيامة نقيرًا ولا قِطميرًا، وحتى لو مَلَكَهما فلا يَنفعانِ أَلْبَتَّةَ في الدار الآخِرة، فالتقدير: أنَّهم إذا ماتوا على الكُفر، فلو أنَّهم كانوا قدْ أنفقوا في الدُّنيا ملءَ الأرض ذهبًا، لن يَقبل اللهُ تعالى ذلك منهم؛ لأنَّ الطاعةَ مع الكفرِ لا تكون مقبولةً. أو يكون الكلامُ وقَع على سبيلِ الفرْض والتقدير؛ فالذهبُ كنايةٌ عن أعزِّ الأشياء، والتقدير: لو أنَّ الكافرَ يومَ القِيامة قدَرَ على أعزِّ الأشياء، ثُمَّ قدَر على بذْله في غايةِ الكثرة، لعجَز أن يتوسَّل بذلك إلى تخليصِ نفْسِه من عذابِ الله[1].

٥- **قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**: فيه مبالغةٌ في التحذير، وتأكيدٌ على عدمِ العفوِ عنهم، وإقناطٌ؛ لأنَّ مَن لا يُقبل منه الفداء، ربَّما يُعفَى عنه تكرمًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٧- ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٨).

٦- **قوله تعالى:** ﴿**كَيْفَ يَهْدِي**﴾ وقوله: ﴿لَا يَهْدِي﴾: فيه تكرار[١]؛ للتأكيد. أو يكون قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ﴾ مختصًّا بالمرتدِّين، ثمَّ إنَّه تعالى عمَّم ذلك الحُكمَ في المرتدِّ، وفي الكافر الأصليِّ، فقال: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٢]، وعلى هذا؛ ففيه ذِكرُ حُكمٍ عامٍّ بعد حُكمٍ خاصٍّ؛ وهو مفيدٌ للتأكيد أيضًا.

٧- **قوله تعالى:** ﴿**وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ**﴾: فيه تأكيدٌ بضميرِ الفَصْل ﴿هُمْ﴾[٣].

٨- **قوله تعالى:** ﴿**عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾: فيه تنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾؛ للتهويلِ. وفيه زيادةُ مبالغةٍ بوصْفِه بـ﴿أَلِيم﴾ مع العُدولِ من مُفعِل (مؤلم) إلى فَعيل ﴿أَلِيم﴾[٤].

٩- **قوله تعالى:** ﴿**أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ**﴾: الإشارة بـ﴿أُولَئِكَ﴾ وما فيه مِن معنى البُعد؛ للتنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بما يرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ من الحُكم عليهم[٥].

١٠- **قوله تعالى:** ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ**﴾: فيه توكيدٌ لفظيٌّ بالمرادف، وليُبنى عليه التفريعُ بقوله: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ...﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٥٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٠٥).

الآية (٩٢)

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿البِرَّ﴾: التوسُّع في فِعل الخير، والاتِّساع فِي الإحْسَان، ويطلق البِرُّ على الدِّين والطاعَة، وأصلُ (البِر): الصِّدقُ في المحبَّة[1].

المَعنَى الإجماليُّ

يَحثُّ الله تبارَك وتعالَى عبادَه المؤمنين على الإنفاق والبَذل، فيقول لهم: لن تُدركوا البرَّ- وهو الخيرُ الكثير من الله- ولن تَبلغوه، حتَّى تنفقوا وتتصدَّقوا من نفائس أموالكم الَّتي تحبُّها قلوبُكم، وتتعلَّق بها نفوسُكم، ومهما تُنفقوا من شيءٍ مِن أموالِكم، فإنَّ الله يَعْلمُه، فيَجزي صاحبَه عليه في الآخِرة الجزاءَ الأَوْفى.

تَفسيرُ الآية:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه في الآيةِ السابقةِ أنَّ الَّذين كفروا لن يُقبل من أحدِهم أعظمُ ما يُنفقه لتخليصِ نفْسِه في الآخِرة ممَّا يَلحَقه من الشدائد، حضَّ المؤمنين على الإنفاق، وبيَّن أنَّ الأحبَّ منه أجدرُ بالقَبول؛ وأنَّه يَبلُغ بصاحبه إلى مرتبة البرِّ[2]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧- ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥).

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

أي: لنْ تُدركوا الخيرَ الكثيرَ من اللهِ بتفضُّله عليكم، بإدخالِكم الجَنَّةَ، وصَرْفِ العذاب عنكم- الَّذي يُطلَب بطاعة الله وعبادته- حتَّى تُنفقوا وتتصدَّقوا من أموالِكم الَّتي تحبُّها قلوبُكم[١].

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

أي: ومهما تُنفقوا من شيءٍ من أموالِكم، فإنَّ الله ذُو عِلم به، ويُجازي صاحبَه عليه جزاءَه في الآخِرة، ويُثيبه على ما أَنفَقَ[٢].

عن أنسِ بن مالكٍ رضِي اللهُ عنه، قال: كان أبو طلحةَ أَكثرَ أنصاريٍّ بالمدينة مالًا، وكان أحبَّ أموالِه إليه بَيْرَحاءُ- وكانتْ مستقبلةَ المسجِد، وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يدخُلها، ويَشرَب من ماءٍ فيها طيِّب- قال أنس: فلمَّا نزلت: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا ممَّا تُحِبُّونَ﴾، قال أبو طلحة: يا رسولَ اللهِ، إنَّ الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا ممَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بَيرَحاءُ، وإنَّها صدقةٌ لله، أرجو بِرَّها وذُخرَها عند الله تعالى؛ فضعْها يا رسول اللهِ حيث أراك الله تعالى، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((بَخٍ، ذاك مالٌ رابحٌ، ذاك مالٌ رابحٌ، وقد سمعتُ، وأنا أرَى أن تجعلَها في الأقربِينَ))، فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول اللهِ، فقَسمها أبو طلحة في أقاربِه وبَنِي عمِّه[٣].

وعنِ ابنِ عُمَرَ رضِي اللهُ عنهما، قال: أصابَ عُمَرُ أرضًا بِخَيبرَ، فأَتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَسْتأمِرُه فيها، فقالَ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي أَصبْتُ أرضًا بخَيبرَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٧٦٩)، ومسلم (٩٩٨) باختلافٍ يسير، وأحمد (١٢٤٦١) واللَّفظ له.

لم أُصِبْ مالًا قَطُّ هو أَنْفَسَ عندي منه؛ فما تَأْمُرُني به؟ قالَ: ((إنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَها، وَتَصَدَّقْتَ بها، قال: فَتَصَدَّقَ بها عُمَرُ؛ أَنَّهُ لا يُباعُ أَصْلُها، ولا يُبْتاعُ، ولا يُورَثُ، ولا يُوهَبُ، قال: فَتَصَدَّقَ عُمَرُ في الفُقراءِ، وفي القُرْبَى، وفي الرِّقابِ، وفي سَبيلِ اللهِ، وابنِ السَّبيلِ، والضَّيْفِ...)) الحديث[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- الشيء الَّذي تتعلَّق به النَّفسُ كثيرًا هو الَّذي تَشُحُّ النفس في إنفاقه؛ لذا كان إنفاقُه علامةً على قوَّة الإيمان؛ لأنَّه لا يُدفع القويُّ إلَّا بما هو أقوى منه، كما قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢].

٢- في الإنفاقُ من المال المحبوبِ صلاحٌ عظيمٌ للأُمَّة؛ إذ تجود أغنياؤها على فُقرائِها بما تَطمَح إليه نفوسُهم من نفائسِ الأموال، فتشتدُّ بذلك أواصرُ الأُخوَّة، ويَهنأ عيشُ الجميع[٣].

٣- مَا كان أحبَّ إلى المرءِ إذا تَقرَّبَ به إلى اللهِ تعالى كان أَفضلَ له مِن غيرِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٤].

٤- تحرِّي الإخلاصِ في النَّفقة؛ فالله لا يَخفَى عليه شيءٌ من مقاصد المنفِقين، ولا يَعْزُب عنه شيءٌ منه، حتَّى يُجازي صاحبَه عليه جزاءَه في الآخِرة، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[٥].

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣١/ ٢٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ افتتاح الكلام ببيان بعض وسائل البرِّ- إيذانٌ بأنَّ شرائع الإسلام تدور على محور البِرِّ، وأنَّه معنًى عظيمٌ لا يَخْرِم حقيقتَه إلَّا ما يُفضي إلى نقْض أصلٍ من أصول الاستقامة[١].

٢- المقصودُ من قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أمران: أولهما التحريضُ على الإنفاقِ، والتنويهُ بأنَّه من البرِّ، وثانيهما: التنويهُ بالبرِّ الَّذي الإنفاقُ خَصلةٌ من خِصاله[٢].

٣- في قوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ إثباتُ الأسباب، حيث إنَّ الله أثبتَ للبرِّ سببًا، وهو الإنفاق ممَّا نحبُّ[٣].

٤- كلمة (من) في قوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ للتبعيض؛ فمِن فضْل الله تعالى علينا أنِ اكتفى منَّا في نَيل البرِّ بأن نُنفق ممَّا نحبُّ، ولم يَشترطْ علينا أن ننفق جميعَ ما نحبُّ[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ يُوهِم أنَّ إنفاقَ غير هذا المقيَّد غيرُ نافع، فأَتْبَعه بقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾؛ ليُفيد تعميمَ أنواع الإنفاق، فلا يضيِّق عليكم، بل يُثِيبكم عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

٦- يُؤخَذ من قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: إثباتُ الجزاء، وأنَّ كلَّ إنسان سيُجازى بعمله؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرٌّ؛ لأنَّ المراد من إثبات العِلم إثباتُ ما يترتَّب عليه[١].

بَلاغَةُ الآية:

١- **قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾**: فيه- مع التأكيدِ بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة- كنايةٌ لطيفة، وتعريضٌ حسَنٌ؛ فهو خبَرٌ مرادٌ به الوعدُ والتبشيرُ بعِظَم الجزاء، والترغيبُ في إنفاق الجيِّد، والتحذيرُ عن إنفاق الرَّديء. والتقدير: وما تُنفقوا من شيءٍ فإنَّ الله به يُجازيكم، قلَّ أم كثُر؛ لأنَّه عليمٌ به لا يَخفَى عليه شيءٌ منه، فجَعَل كونه عالِمًا بذلك الإنفاقِ كنايةً عن إعطاء الثواب، والتعريضُ في مِثل هذا الموضع أبلغُ من التصريح[٢].

- وهو تعليلٌ لجوابِ الشَّرطِ واقعٌ موقِعَه، أي: فمُجازيكم بحَسَبه، جيدًا كان أو رديئًا؛ فإنَّه تعالى عليمٌ بكلِّ شيءٍ تُنفِقونه علمًا كاملًا، بحيثُ لا يَخفَى عليه شيءٌ من ذاته وصِفاته[٣].

- في قوله: ﴿بِهِ عَلِيمٌ﴾ قدَّم الجارَّ والمجرور على مُتعلِّقه؛ لفائدتين: الأولى لفظيَّة، وهي: مراعاةُ فواصلِ الآيات، والثانية معنويَّة، وهي: بيانُ الاعتناءِ بهذا المقدَّمِ حتَّى كأنَّ الله تعالى حصَرَ عِلمَه به[٤].

٢- **قوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾**: تذييلٌ، قُصِد به تعميمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧- ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٧).

أنواعِ الإنفاق، وتبيينُ أنَّ الله تعالى لا يَخفى عليه شيءٌ من مقاصِد المنفِقين، وقد يكونُ الشيءُ القليل نفيسًا بحسَب حال صاحبِه[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧).

الآيتان (٩٢ - ٩٤)

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿حِلًّا﴾: أي: حلالًا، و﴿حِلًّا﴾ في الأصْل مصدرٌ لحَلَّ يَحِلُّ، ويُطلق على الأشخاصِ مبالغةً؛ ولذلك يَستوي فيه الواحدُ والمثنَّى والمجموع، والمذكَّرُ والمؤنَّث. وأصلُ الحَلِّ: فتْحُ الشَّيءِ، ومنه الحلالُ: ضدُّ الحرام، كأنَّه مِن حللتُ الشَّيءَ، إذا أبحتَه وأوسعتَه لأَمرٍ فيه[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه في الزَّمنِ السَّابق لنُزول التَّوراة على موسى، كانتْ كلُّ أنواع الأطعمة حلالًا لبَني إسرائيل، إلَّا نوعًا واحدًا حرَّمه يعقوبُ على نَفْسه، ولم يُحرِّمه عليه اللهُ تبارَك وتعالَى، واقتَدَى به بنوه تقليدًا له، وهذا النَّوع هو لحومُ الإبل وألبانُها، وبعد نُزول التَّوراة حرَّم الله عليهم فيها ما شاء، وأَحلَّ لهم ما شاءَ وَفقَ حِكمتِه، فكان هذا نَسْخًا لِمَا سبَق مِن حِلِّه جميعَ الأطعمةِ ما عدا لحومَ الإبل وألبانها، ثم أمَر اللهُ نبيَّه أن يَطلُب مِن اليهود أنْ يأتوا بالتَّوراة ويقرؤوها، إنْ كانوا مُحِقِّين في دعواهم، وبعد أنْ أقام عليهم الله تعالى الحُجَّةَ، أَخبَرهم أنَّ مَن تَقوَّل على الله الكَذِبَ بعد ذلك، فأولئك هم الظَّالِمون.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣١١).

تُنَزَّلَ التَّوراة قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوراة فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أخبر اللهُ تعالى أنَّه لا يَنال المرءُ البرَّ إلا بالإنفاق ممَّا يحبُّ في قوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾- فالمشروعُ في الإسلام هو الإنفاقُ في طاعةِ الله مما يُحِبُّه العبدُ ويَشتهيه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨]- ذكَر سبحانه عقبَ ذلك أنَّ يعقوبَ عليه السَّلام، قد حرَّم أحبَّ الأشياءِ إليه وترَكها لله تعالى- وكان هذا سائغًا في شَريعتهم- بجامعِ أنَّ كلًّا منهما فيه تركُ ما يحبُّه الإنسانُ وما يُؤثِرُه على سبيلِ التقرُّب به للهِ سبحانَه وتعالى[(١)]، فقال تعالى:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوراة﴾.

أي: إنَّ كلَّ أنواعِ الأطعمة كان أَكْلُها حلالًا لذُريَّة يعقوب عليه السَّلام، قبل نزولِ التَّوراة على موسى عليه السَّلام، عدا نوعًا واحدًا حرَّمه أبوهم يعقوبُ على نَفْسه، من غير أن يُحرِّمه اللهُ عزَّ وجلَّ عليه، وهو لحومُ الإبل وألبانها، واتَّبعه اليهودُ على ذلك، فلمَّا نزلت التَّوراة بعدُ، حرَّم الله تعالى عليهم فيها ما شاء، وأحلَّ لهم فيها ما شاء وَفقِ حِكمته، فكان هذا نَسْخًا لِمَا سبَق مِن حِلِّه جميعَ الأطعمة لهم، سوى لحوم الإبل وألبانها[(٢)].

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((حضَرتْ عِصابةٌ من اليهود رسولَ الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٧، ٥٨١، ٥٨٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ٩٧٠).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدِّثنا عن خِلالٍ نسألُك عنها، لا يَعلمُهنَّ إلا نبيٌّ، فكان فيما سألوه: أيُّ الطَّعامِ حرَّم إسرائيلُ على نَفْسه قبل أن تُنزَّل التَّوراة؟ قال: فأَنشُدكم بالله الذي أَنزَل التَّوراةَ على موسى، هل تعلمون أنَّ إسرائيل (يعقوب عليه السَّلام) مَرِض مرضًا شديدًا فطال سَقَمُه، فنذَر لله نَذْرًا، لئن شفاه اللهُ مِن سَقَمه، ليُحرِّمنَّ أَحبَّ الشَّراب إليه، وأَحبَّ الطَّعام إليه، فكان أحبَّ الطَّعام إليه لُحمانُ الإبل، وأحبَّ الشراب إليه ألبانُها؟ فقالوا: اللهمَّ نَعَم!))[١].

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، أنَّه قال أيضًا: ((أَقْبَلت يهودُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالوا: يا أبا القاسم، أَخبِرنا عن الرَّعد ما هو؟ قال: مَلَكٌ من الملائكة مُوكَّلٌ بالسَّحاب، معه مَخاريقُ[٢] مِن نار يَسوق بها السَّحابَ حيث شاء الله، فقالوا: فما هذا الصَّوتُ الذي نَسمع؟ قال: زجْرُه بالسَّحاب إذا زجَره، حتى يَنتهيَ إلى حيثُ أُمِر، قالوا: صدقتَ، فأَخبِرنا عمَّا حرَّم إسرائيلُ على نَفْسه؟ قال: اشتكى عِرْق النَّسا[٣]، فلم يَجِد شيئًا يُلائمه إلاَّ لحومَ الإبل وألبانها؛ فلذلك حرَّمها، قالوا: صَدقتَ))[٤].

---

(١) رواه أحمد (٢٤٧١)، والطبري في ((التفسير)) (٧٤٢٠)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٢/ ٢٤٦) (١٣٠١٢).
حسَّن إسنادَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٣٣)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((العجاب)) (٢/ ٧١٦)، وأحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ١٤٠).

(٢) مخاريق: جَمْعُ مِخْراقٍ، وهو في الأصلِ ثوبٌ يُلَف ويَضْرِب بِهِ الصِّبيانُ بَعضُهم بَعْضًا، أراد أنَّه آلَةٌ تَزْجُر بها الملائكةُ السَّحاب وتَسُوقه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٦).

(٣) عرق النَّسا: وجعٌ يبتدئُ مِن مفصِل الوَرِك، وينزلُ مِن خلف على الفخذِ، وربَّما على الكعبِ. قيل: وسمي بذلك؛ لأنَّ ألمَه يُنسي ما سواه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٥١)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٦٦).

(٤) رواه الترمذي (٣١١٧)، وأحمد (٢٤٨٣) والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٩٠٧٢)
قال الترمذي: حسن غريب. ووثق رجاله الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/ ٢٤٤)، وذكر

﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوراة فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ-: جِيئوا بالتَّوراة فاقرؤوها علينا بأنفسكم؛ حتى لا تتَّهِمونا بأنَّا حذَفْنا أو أَضفْنا شيئًا، فاقرؤوها، إنْ كنتم مُحِقِّين في دعواكم[1].

وهذا خبرٌ من الله عزَّ وجلَّ عن كَذِبهم؛ لأنَّهم لا يأتون أبدًا بما يَشهَد على صحَّة دَعواهم، فأَعلَم الله بكَذِبهم نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وجعَل إعلامَه ذلك حُجَّةً عليهم؛ لأنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُمِّيٌّ ومِن غير مِلَّتِهم، فكيف عَلِم بذلك لولا أنَّ الله تعالى هو الذي أَعلَمه إيَّاه بوحيٍ مِن عنده؟! فهذا مِن أعظم الحُجَج عليهم بأنَّه رسول الله تعالى إليهم صِدقًا، وأنَّ النَّسخ واقعٌ حقًّا[2].

﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤)﴾.

أي: فمَن تقوَّل على الله تعالى الكَذِبَ؛ بادِّعاء أنَّ ما حرَّمه إسرائيلُ على نفْسِه كان مُحرَّمًا عليهم كذلك، فهؤلاءِ هم الكافِرونَ القائِلونَ على الله تعالى

ابن حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ١٦) أن له طرقا يقوي بعضها بعضا. وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٦١)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١١٧).

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ٩٧٠).

قيل المراد: إنْ كنتم محقِّين في دعواكم أنَّ الله أنزل تحريمَ لحوم الإبل وألبانها في التوراة. وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٥٨٧).

وقيل المراد: إنْ كنتم محقِّين في دعواكم أنَّ الله تعالى لم يُحرِّم عليكم في التوراة إلَّا ما كان مُحرَّمًا على إسرائيل فحسبُ. وهذا اختيارُ الشنقيطي في ((أضواء البيان)) (١/ ٣٧١).

وقيل غير ذلك. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٦٤)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

الباطلَ، والظالِمونَ أنفسَهم بالعُدُول عن الحقِّ بعدَما تَبيَّن[١].

الفَوائِد التربويَّة:

الحضُّ على اتِّباع الحقِّ متى ظهَر؛ لأنَّه متى ظهَر الحقُّ فحاد الإنسانُ عنه صار أشدَّ ظلمًا؛ وأيُّ ظُلْمٍ أعظمُ مِن ظُلْم مَن يُدْعى إلى تحكيم كتاب الله تعالى فيَمتنِع من ذلك؛ عِنادًا وتَكبُّرًا؟! قال تعالى: ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٢].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله سبحانه: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ﴾؛ أَمْرٌ لهم بإحضارِ كتابهم الذي فيه شَريعتهم؛ ففيه إقامةُ الحُجَّة على الخَصْم بما يَعتقِد صحَّته، ويؤمن به، فهذا أعظمُ محاجَّة؛ لأنَّه تتَبَيَّنُ به الحُجَّة على وجْهٍ لا مفرَّ له منه، إذ لم يبقَ لهم ما يستطيعون أن يَدَّعوه شُبْهةً لهم[٣].

٢- قال: ﴿فَاتْلُوهَا﴾ ولم يَقُل: (نَتْلُوها)؛ دفعًا للتُّهمة بأنَّهم حَذَفوا شيئًا، أو أضافوا شيئًا، فلْيتلُوها هم بأنفسهم؛ حتى يَتبيَّن لهم الحقُّ[٤].

٣- في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوراة﴾ الردُّ على اليهودِ في إنكارِهم وجودَ النَّسخِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٨٧، ٥٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٦، ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ٩٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٣٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٣٧).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- **قوله:** ﴿**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾: هذه الشَّرطيَّة تُفيد كمالَ التَّحدِّي وتَمامَه؛ فقد خرَج الكلامُ على سبيل الاستهزاء بهم، إذ جُعِل هذا الوصفَ ممَّا يُمكِن أنْ يتَّصِفوا به، وهم قد عُلِم كَذِبُهم، كقولك: إنْ كنتَ شُجاعًا فالْقَني، ومعلومٌ عندك أنَّه ليس بشُجاع[١].

٢- **قوله:** ﴿**فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ قوله: ﴿الكَذِبَ﴾، فيه تأكيدٌ للافتراء؛ لأنَّ اسمَ الافتراءِ بمعنى الكَذِب والاختِلاق؛ فكان في إردافِه بقوله: ﴿الكَذِبَ﴾ تأكيدٌ للافتراء[٢].

- والإشارة بقولِه: ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ وما فيه من مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعد مَنزلِتهم في الضَّلالِ والطُّغيان[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٩).

الآيات (٩٥ - ٩٧)

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وُضِعَ﴾: بُنِي[1].

﴿بِبَكَّةَ﴾: يعَني: مَكَّة، فَأُبدلت ميمُها باءً، قالوا: والعربُ تُعاقِبُ بين الباء والميم في مواضع، فتقول: لازم ولازِب. أو أنه اسم لبَطْن مكَّة، أو مكان البَيت، وقيل: أصْل بكَك: الجمعُ بين التَّزاحم والمُغالَبة، والبَكُّ: دقُّ العُنق؛ سُمِّيت مكَّة: بكَّة؛ لأنَّ الناس يَبُكُّ- أي: يَدْفَع- بعضُهم بعضًا في الطَّوافِ بالازدِحام، ويُقال: لأنَّها تَبُكُّ (تَدُقُّ) أعناقَ الجبابرةِ إذا أَلْحَدوا فيها بظُلمٍ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾

﴿مَقَامُ﴾: مرفوعٌ، على أنَّه بدلٌ من ﴿آيَاتٌ﴾، أو على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والتقديرُ: هي مقامُ إبراهيم. و﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ، وهي معطوفة على ﴿مَقَامُ﴾ من حيثُ المعنى؛ لأن قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِنًا﴾ دلَّ على أمْن داخلِه، فكأنه قيل: فيه آياتٌ بيِّناتٌ: مقامُ إبراهيمَ، وأمْنُ داخلِه.

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٤).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل (٥/ ٢٨٥)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦).

وعلى هذين الوَجهينِ يكونُ فيه إبدالُ المفرد ﴿مَقَامُ﴾ من الجمع ﴿آيَاتٌ﴾، والإخبارُ عن الجَمْعِ بالمفرد؛ وجازَ ذلك على القولِ بأنَّ أقلَّ الجَمْعِ اثنان، فعبَّر عن الجمْع ﴿آيَاتٌ﴾ بالمقامِ وبأمْنِ الدَّاخل، أو لأنَّ ﴿مَقَام﴾ وإنْ كانَ مفردًا لفظًا إلَّا أنَّه يَشتمِلُ على آياتٍ كثيرة. وقيل غير ذلك. أو يكون ﴿مَقَامُ﴾ مرفوعًا على أنَّه مبتدأ، والخبر محذوف، أي: مِنها مقامُ إبراهيم، أو خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، لكن التقدير: أحدُها مقامُ إبراهيم، وعلى هذينِ الوجهينِ فلا إشْكالَ في كونِ ﴿مَقَامُ﴾ مفردًا و﴿آيَاتٌ﴾ جمعًا[1].

٢- قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

﴿مَنِ اسْتَطَاعَ﴾: ﴿مَن﴾ موصولةٌ بمعنى الذي، وهي في مَوضِعِ جرٍّ، على أنَّها بدلٌ مِن النَّاس- بدَلُ بعضٍ مِن كُلٍّ[2]، أو بدلُ كلٍّ مِن كل-. وقيل: ﴿مَن﴾ في موضِع رفْعٍ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والتقديرُ: هم مَنِ استطاع، و﴿اسْتَطَاعَ﴾ على هذين الوَجهينِ صِلةُ ﴿مَن﴾ لا محلَّ له من الإعرابِ، وقيل: ﴿مَنْ﴾ شَرْطٌ في موضِع رفْعٍ بالابتداءِ، و﴿اسْتَطَاعَ﴾ في موضِع جزمٍ بـ﴿مَنْ﴾ والجواب محذوفٌ، تقديرُه: فعليه الحجُّ، ودلَّ على ذلك قولُه: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾، وقيل غير ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٦٩)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤١٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣١٧- ٣٢١).

(٢) وبدلُ البعضِ وبدلُ الاشتمالِ لا بدَّ في كلٍّ منهما مِنْ ضميرٍ يعودُ على المُبدَل منه نحو: أَكَلْتُ الرغيفَ ثُلثَه، وسُلِب زيدٌ ثوبُه، وهنا ليس ضَميرٌ، فقيل: هو محذوفٌ تقديرُه: مَنْ استطاع منهم. ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٦٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣٢١- ٣٢٣).

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ لليهود: إنَّ كلَّ ما أَخبَرَ الله تعالى به، وكلَّ ما شرَعه فهو صِدْق، فعليهم أنْ يتَّبِعوا مِلَّة إبراهيم الخليل عليه السَّلام؛ فقد كان مُوحِّدًا، يميل عن الشِّرك، ولم يكُن محسوبًا في عِدادِ المشركين.

ثم يُخبِر تعالى أنَّ أَوَّلَ بيتٍ وُضِع لجميع النَّاس مِن أجْل عِبادة الله فيه، هو البيتُ الحرام، الواقعُ في مكَّة المُكرَّمة، وهو مَوضِعٌ مُبارَك، فيه برَكاتٌ كثيرةٌ من المنافع الدِّينيَّة والدُّنيويَّة: كالأجورِ المضاعَفة، والأرزاقِ الوفيرة، وهو مَنارٌ يَهتدي به جميعُ العالَمين.

في هذا البيتِ أدِلَّةٌ واضِحةٌ على توحيدِ الله سبحانه وحِكْمتِه وعظمتِه وقُدْرتِه، وغير ذلك من صِفاتِه الحُسنى، وعلاماتٌ على شرفِه، ومن تلك العلامات: المواضِعُ التي قام فيها الخليلُ إبراهيمُ عليه السَّلام لأداءِ مناسكِ الحَجِّ، ومنها أيضًا: أنَّ مَن دخَله كان آمنًا مِن كلِّ سوء، وقد فرَض اللهُ قصْدَ البيت الحرام؛ لأداءِ شعائر الحَجِّ، على مَن قَدَر من أهل التَّكليفِ، ومَن جحَد فريضةَ الحجِّ فإنَّ الله غنيٌّ عنه وعن حَجِّه، وعن سائرِ خَلْقه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لأولئك اليهود: إنَّ كلَّ ما أَخبَرَ الله تعالى به وكلَّ ما شرَعه فهو صِدْق، ومِن ذلك: إخبارُه بأنَّه لم يُحرِّم على اليهود شيئًا من الأطعمةِ قبل نُزول التَّوراة، إلَّا ما حرَّمه يعقوبُ عليه السَّلام على نَفْسِه، فجاء ما في التَّوراة مُوافِقًا لِمَا أَخبَرَ الله سبحانه عنه؛ فهُم كَذَبوا، وصدَق اللهُ عزَّ وجلَّ، وممَّا بيَّنه الله تعالى في كتابه الصَّادق مِلَّةَ إبراهيمَ الخليل عليه السَّلام، فإنْ كُنتم صادقينَ في

مَحبَّتِكم واعتزازِكم بالانتسابِ إليه، فاتَّبِعوه على توحيدِه اللهَ سبحانه، ومَيلانِه عن الشِّرك، وما كان إبراهيمُ مِثْلَكم- مَعشَر اليهودِ- في عِدادِ المحسوبين من المشرِكين بالله جلَّ وعلا[1].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرهم الله تعالى باتِّباع مِلَّةِ إبراهيمَ في التَّوحيد، وتَرْكِ الشِّرك، أمَرهم باتِّباعه بتعظيمِ البيتِ الحرام بالحجِّ وغيره؛ فحجُّ البيتِ من أعظمِ شعائر مِلَّة إبراهيمَ، ومِن خصوصيَّات دِينه، وأيضًا فإنَّ اليهود حين حُوِّلت القِبْلةُ إلى الكعبة طعَنوا في نُبوَّة رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقالوا: بيتُ المقدِس أفضلُ وأحقُّ بالاستقبال؛ لأنَّه وُضِع قَبْل الكعبة، وهو أرضُ المحشر، وقِبْلةُ جميعِ الأنبياء، فأكْذَبهم الله في ذلك[2] بقوله:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾.

أي: إنَّ أوَّل بيتٍ وُضِع لجميعِ النَّاس لعبادةِ الله تعالى، فيَطوفون به، ويُصَلُّون إليه، ويَعتكِفون عنده- البيتُ الحرام الواقع في مكَّة، والذي يَزدحِم النَّاس حولَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ٩٧٠، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران))(١/ ٥٤٢-٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

وهو الكعبةُ التي بناها إبراهيمُ الخليلُ عليه السَّلام، الذي يَزعُم كلٌّ مِن طائفتي النَّصارى واليهود أنَّهم على مِلَّته، ومع ذلك لا يَحُجُّون إلى البيتِ الذي بناه، ونادى النَّاس إلى حَجِّه! وهو مَوضِع مُبارَكٌ؛ فيه بركاتٌ كثيرةٌ من المنافعِ الدِّينيَّة والدُّنيويَّة: كالأجورِ المضاعفة، والأرزاقِ الوفيرة، وهو مَنارٌ يُهتدى به، وتَحصُل فيه أنواعُ الهدايات لجميعِ العالَمين، ومِن ذلك: أنَّه قِبْلةٌ يَستقبِلها المسلمون في صَلواتهم، ويَقصِدونه في حَجِّهم وعُمراتِهم[(١)].

عن أبي ذَرٍّ رضِي اللهُ عنه قال: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ مسجدٍ وُضِع في الأرضِ أوَّلُ؟ قال: المسجدُ الحرامُ، قال: قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: المسجدُ الأقصى، قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: أربعونَ سنةً، ثم أينَما أدرَكَتكَ الصَّلاةُ بعدُ فصلِّهِ، فإنَّ الفضلَ فيه))[(٢)].

وعن عليٍّ رضِي اللهُ عنه، قال: (كانتِ البُيوتُ قَبلَهُ، ولكنَّهُ كان أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ لعبادَةِ اللَّهِ)[(٣)].

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾.

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾.

أي: في هذا البيتِ أدِلَّةٌ واضحةٌ على توحيدِه سبحانه، ورحْمتِه وحِكمتِه وعظَمتِه وقُدْرتِه، وغير ذلك من صِفاته الحُسنى، وفيه علاماتٌ ظاهرةٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٩٣، ٥٩٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ٩٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢، ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤٦-٥٤٨).

(٢) رواه البخاري واللفظ له (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٣٨٢٧). صحح إسناده ابن حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٤٧٠)، وقال أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٣٩٢): فيه مجالد بن سعيد، وهو حسن الحديث.

شرَفِ هذا البيت وعظيمِ فضْله، وأنَّه من بِناء إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام، ومن تلك العلامات، المواضِع التي قام فيها الخليلُ عليه السَّلام لأداءِ مناسك الحجِّ: كعَرَفة، ومُزْدَلِفة ومِنًى، ومن مَقاماته: الحَجرُ الذي قام عليه لاستِكمالِ بِناء الكعبة لَمَّا ارْتفَع بُنيانُها[١].

﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾.

أي: إنَّ مِن الآيات البيِّنات الدالَّةِ على شرفِ البيتِ الحرام وفضْلِه، وغير ذلك: أنَّ مَن يدخُل الحرمَ يكون بمعزلٍ عن أنْ ينالَه أحدٌ من الناس بسوءٍ على وجهِ العموم، وهذا امتنانٌ مِن الله تعالى بما تقرَّر في ماضي العصور، وبما هو متقرِّرٌ شرعًا[٢].

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤].

عن ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يوم افْتَتَحَ مكةَ: ((لا هِجرةَ، ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ، وإذا استُنفِرتُم[٣] فانفِروا، فإنَّ هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٩٨، ٦٠٠، ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ١٣٩، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤٨-٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٠٦-٦٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٩، ٩٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥٠-٥٥١).

وممَّن قال من السلف في معنى ﴿مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بنحو ما ذكَرْنا: ابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جبير. انظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٧١١).

(٣) استُنفِرتُم: أي: إذا طُلبَ منكم النُّصرةُ، فأجيبوا وانفروا خارجينَ إلى الإعانةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٩٢)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/ ٢٢٥).

بلدٌ حَرَّمَه اللهُ يومَ خَلَق السمواتِ والأرضَ، وهو حرامٌ بحُرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامةِ، وإنَّه لم يَحِلَّ القتالُ فيه لأحدٍ قَبْلي، ولم يَحِلَّ لي إلا ساعةً من نهارٍ، فهو حرامٌ بحُرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامةِ، لا يعْضَدُ[١] شَوْكُه، ولا يُنَفَّرُ صَيدُه، ولا يلْتَقِطُ لُقطته إلا مَن عرَّفها، ولا يُخْتَلى خَلَاها[٢]، قال العباسُ: يا رسولَ اللهِ، إلا الإذْخِرَ؛ فإنَّه لقَيْنِهم[٣] وبُيُوتِهم، قال: قال: إلا الإذْخِرَ))[٤].

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

أي: إنَّ شعيرةَ حَجِّ بيتِ الله تعالى الحرام فرْضٌ واجبٌ لله عزَّ وجلَّ، على مَن قَدَر مِن أهلِ التَّكليفِ على القصدِ إليه، وذلك بتَوفُّرِ القُدرةِ الماليَّة والبدنيَّة وغيرِهما ممَّا يُحقِّق الاستطاعةَ[٥].

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: ومَن جحَد فرض الحجِّ فأنكر وجوبه وكفر به، فإنَّ الله غنيٌّ عنه، وعن حَجِّه، وعن سائرِ خَلْقه[٦].

---

(١) يُعْضَد أَيْ: يُقْطع. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٥١).

(٢) لا يُختلى خَلاها: أي: لا يُقطع نباتُها الرَّطب. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٧٥).

(٣) لِقَينهم: جمْع قَيْن، وهو الحدَّاد والصائِغ. ومعناه: يحتاج إليه القَينُ في وقود النَّار. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ١٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٣٥).

(٤) رواه البخاري له (١٨٣٤)، ومسلم (٣١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٠٩، ٦١٦، ٦١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة آل عمران)) (١/ ٥٥١-٥٥٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦١٨، ٦٢٤)، ((شرح عمدة الفقه- كتاب الطهارة والحج)) لابن تيمية (٢/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧١)، ((تفسير ابن عثمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥٤-٥٥٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاس، والضَّحَّاك، وعطاء، وعمران القطان، والحسن، ومجاهدٌ، وعِكرمةُ، ومُقاتل. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦١٨)، و((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٣٠٩).

وفي الآيةِ أوجهٌ أُخرى ذكَرها ابنُ الجوزيِّ في ((زاد المسير)) الموضع السابق، والشنقيطيُّ

الفَوائِد التربويَّة:

١- يجبُ على الإنسانِ أنْ يَتَّبعَ الحقَّ أينما كان، سواء كان مِن الرَّسول الذي أُرسِل إليه مُباشرةً، أو مِن الرُّسل السَّابقين؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[١].

٢- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ تعظيمُ بيتِ الله الحرامِ؛ فهو أوَّلُ البُيُوت التي وضَعها الله في الأرض لعِبادتِه، وإقامةِ ذِكْره، وفيه من أنواعِ البركات، والهِدايات، وتنوُّع المصالحِ والمنافعِ للعالَمين شيءٌ كثير، وفضْلٌ غزير، وفيه علاماتٌ بيِّنة تُذكِّر بمقاماتِ إبراهيمَ الخليل، وتَنقُّلاتِه في الحَجِّ، وليس هذا لمكانٍ آخَرَ في الأرض؛ فلذا يَنبغي تعظيمُه ومراعاةُ حُرمتِه[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ الحَضُّ على فريضةِ الحَجِّ [٣]، فينبغي على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ ممَّن يستطيعُ مئونةَ الحجِّ إذا كان مُكلَّفًا أن يبادرَ بذلك، وألَّا يُؤخِّرَه[٤].

٤- الافتقارُ إلى الله، فإذا كان الله غنيًّا عن العالَمين، لَزِم أنْ يكون العالَمون مُفتَقِرين إليه، وليس بهم غِنًى عن الله، وهو كذلك؛ فإنَّ الخَلْق مُفتَقِرون إلى الله تعالى غايةَ الافتقار؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [٥].

في ((أضواء البيان)) (١/ ٢٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران))(١/ ٥٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٦/ ٣٤٧-٣٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦١).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ فيه أنَّ تَقدُّمَ المكان في العبادةِ له أثرٌ في تفضيلِه[١].

٢- قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ فيه أنَّ الآياتِ كما تكون شرعيَّةً، تكون كذلك حِسيَّةً كونيَّة، كما في هذه الآيات التي ذُكِرت للبيت العتيق[٢].

٣- افتتَح اللهُ تعالى إيجابَ الحجِّ بذِكر محاسنِ البيتِ، وعظَّم شأنَه بما يَدْعو النفوسَ إلى قصْدِه وحَجِّه، وإنْ لم يُطلبْ ذلك منها؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾، تَضمَّن ثلاثةَ أمورٍ مُرتَّبة بحسَب الوقائع: أحدها: الموجِبُ لهذا الفرض وهو اللهُ سبحانه فبدأ بذِكْره، والثاني: مُؤدِّي الواجِبِ وهو المفترَض عليه وهم النَّاس، والثالث: النِّسْبة والحقُّ المتعلِّق به إيجابًا وبهم وجوبًا وأداء، وهو الحجُّ[٤].

٥- أنَّ اللهَ تعالى إذا ذكَر ما يُوجِبه ويُحرِّمه يَذكُرُه بلفْظِ الأمْرِ والنَّهي، وهو الأكثرُ، وبلفْظِ الإيجابِ والكتابةِ والتَّحريم، أمَّا في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ فعبَّر عن وجوبِ الحجِّ بعِبارتينِ؛ إحداهما: لامُ المِلْك في قوله ﴿وَلِلَّهِ﴾، وثانيتهما: كلمةُ ﴿عَلَى﴾، وهذا من أَوْكَد ألفاظِ الوجوبِ عند العَرَب، كما قال بعضُ العلماء، فذكَرَ اللهُ سبحانه الحَجَّ بأبلغِ ألفاظِ الوجوبِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٥٧).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

تأكيدًا لحَقِّه، وتعظيمًا لحُرْمَتِه، وتقويةً لفَرْضِه[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ نكَّر السبيلَ في سِياق الشَّرط إيذانًا بأنَّه يجب الحجُّ على أيِّ سبيلٍ تيسَّرت، من قُوتٍ أو مالٍ، فعلَّق الوجوبَ بحصول ما يُسمَّى سبيلًا[٢].

٧- قوله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بيانُ رحمةِ الله تعالى، حيثُ لم يَفرِض على عبادِه ما كان شاقًّا عليهم ولا يَستطِيعونه[٣].

٨- وقوله: ﴿غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾: خبرٌ فيه رمزٌ إلى نزْعِه وَلايةَ الحرمِ من أيدي كفَّار مكَّة؛ لأنَّه لَمَّا فرَض الحجَّ وهم يَصُدُّون عنه، وأَعلَمنا أنَّه غنيٌّ عن النَّاس، فهو لا يُعجِزه مَن يَصُدُّ النَّاسَ عن مُرادِه تعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (١/ ٣٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).
قال ابنُ القَيِّم في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾: (وفي الحَجِّ أتى بهذا النَّظْم الدالِّ على تأكُّدِ الوجوبِ من عَشرةِ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنَّه قدَّمَ اسمَه تعالى وأدخَلَ عليه لامَ الاستحقاقِ والاختصاصِ، ثم ذكَرَ مَن أوجَبَه عليهم بصيغَةِ العمومِ الدَّاخِل عليها حرفُ (على) ثُمَّ أبدَلَ منه أهْلَ الاستطاعةِ، ثم نَكَّرَ السَّبيلَ في سياقِ الشَّرْطِ إيذانًا بأنَّه يجِبُ الحَجُّ على أيِّ سبيلٍ تيسَّرَت مِن قُوتٍ أو مالٍ، فعلَّقَ الوُجوبَ بِحُصولِ ما يُسَمَّى سبيلًا، ثمَّ أتبَعَ ذلك بأعظَمِ التهديدِ بالكُفْر، فقال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾؛ أي: بِعَدَم التزامِ هذا الواجِبِ وتركِه، ثم عَظَّمَ الشَّأنَ وأكَّدَ الوعيدَ بإخبارِه باستغنائِه عنه، واللهُ تعالى هو الغنيُّ الحميدُ، ولا حاجةَ به إلى حَجِّ أحدٍ، وإنَّما في ذِكْرِ استغنائِه عنه هنا من الإعلامِ بِمَقْتِه له وسَخَطِه عليه وإعراضِه بوَجْهِه عنه ما هو مِنْ أعظَمِ التهديدِ وأبلَغِه، ثم أكَّدَ ذلك بذِكْرِ اسْمِ العالَمينَ عمومًا، ولم يَقُلْ: فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنه؛ لأنَّه إذا كان غنيًّا عن العالَمين كُلِّهم فلَهُ الغِنَى الكامِلُ التامُّ مِن كُلِّ وَجهٍ عَن كُلِّ أحَدٍ بكُلِّ اعتبارٍ، وكان أدلَّ على عِظَمِ مَقْتِه لتارِكِ حَقِّه الذي أوجَبَه عليه، ثم أكَّدَ هذا المعنى بأداةِ (إنَّ) الدَّالَّةِ على التوكيدِ؛ فهذه عشرةُ أوجُهٍ تقتضي تأكيدَ هذا الغَرَضِ العظيمِ). ((بدائعُ الفوائِدِ)) (٢/ ٤٥).
(٢) يُنظر: ((بدائعُ الفوائِدِ)) لابن القيم (٢/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (/ ٥٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله: ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ﴾:**

- خبرٌ فيه تعريضٌ بكَذِبهم، أي: ثبَت أنَّ اللهَ صادقٌ فيما أَنزل، وأنتم الكاذِبون[١]؛ لأنَّ صِدْق أحدِ الخبرين المتنافِيين يَستلزِم كَذِبَ الآخَر، فهو مُستعمَلٌ في معناه الأصليِّ والكِنائيِّ[٢].

- ولم يَذكُر الخبرَ الذي حَكَم عليه بالصِّدق، فيكون ذلك عامًّا شاملًا، أي: صدَق اللهُ في كلِّ شيء[٣].

٢- **قوله: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾:** الفاء في ﴿فاتَّبِعُوا﴾ للتَّفريع، وهي تفريعٌ على صِدق اللهِ؛ لأنَّ اتِّباع الصادِق فيما أمَر به مَنْجاةٌ من الخَطَر[٤].

٣- **قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾:** خبرٌ مُتضمِّن للتَّعريض بإشراك اليهودِ، والتَّصريحُ بأنَّ إبراهيمَ عليه السَّلام ليس بَينَه وبَينَهم علاقةٌ دِينيَّةٌ قطْعًا، وهكذا أهلُ الشِّرْكِ في مَكَّةَ، والغرضُ: بيانُ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على دِين إبراهيمَ عليه السَّلام في الأصولِ؛ لأنَّه لا يَدعو إلَّا إلى التَّوحيدِ، والبراءةِ عن كلِّ معبودٍ سواه سبحانه وتعالى، والجُمْلةُ تذييلٌ لِما قبلَها[٥].

٤- **قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾:** كلامٌ واقع مَوقِعَ التَّعليل للأمر في قوله: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ لأنَّ هذا البيتَ المُنوَّهَ بشأنِه كان مَقامًا لإبراهيمَ، ففضائلُ هذا البيت تُحقِّق فَضيلةَ شرْع بانِيهِ في مُتعارَف النَّاس،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٩).

وقد آذَنَ بكونِ الكلامِ تعليلًا مَوقِعُ (إنَّ) في أوَّله؛ فإنَّ التأكيد بـ(إنَّ) هنا لمجرَّدِ الاهتمام، وليس لردِّ إنكارِ مُنكَر، أو شكِّ شاكٍّ، ومِن خصائصِ (إنَّ) إذا وردتْ في الكلام لمجرَّد الاهتمامِ: أن تُغني غَناءَ فاء التَّفريعِ، وتُفيد التَّعليلَ والرَّبطَ[١].

- قوله: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾: عدَل عن تعريفِ البيتِ باسمِه العَلَم بالغَلَبة (الكعبة)، إلى تعريفِه بالمَوصوليَّة بأنَّه (الذي ببكَّة)؛ دفعًا لتوهُّم غيرِه؛ لأنَّ هذه الصِّلةَ صارتْ أشهرَ في تعيُّنه عند السَّامعين؛ إذ ليس في مكَّةَ يومئذٍ بيتٌ للعبادةِ غيرُه، بخلافِ اسمِ الكعبة: فقد أُطلِق اسمُ الكعبةِ على القُلَّيس الذي بناه مَلِكُ الحبشة في صنعاء لدِين النَّصرانيَّة، ولقَّبوه (الكعبة اليَمانِيَة)[٢].

- وقوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ...﴾ استئنافُ ثَناءٍ على هذا البيتِ بما حُفَّ به من المناقِب والمزايا، وغيَّر الأسلوبَ للاهتمام[٣].

٥- **قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾**: ذكَر النَّاس، ثُمَّ أَبدَل عنه ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وفيه ضَرْبان من التَّأكيد؛ لأنَّ الإبدال تثنيةٌ للمُراد وتَكْرير، وذلك يَدلُّ على شِدَّة العِناية؛ ولأنَّه أَجمَلَ أولًا وفصَّل ثانيًا، وذلك يدلُّ على شِدَّة الاهتمام[٤].

- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ في تقديمِ المجرور الأوَّل ﴿وَلِلَّهِ﴾: أنَّ الاسمَ المجرورَ من حيثُ كان اسمًا لله سبحانه، وجَب الاهتمامُ بتقديمِه؛ تعظيمًا لحُرْمةِ هذا الواجبِ الذي أوجبَه، وتخويفًا مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٩٠)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٠).

تضييعه؛ إذ ليس ما أوجبه اللهُ سبحانه بمَنزلةِ ما يُوجِبه غيرُه[١].

٦- **قوله:** ﴿**وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾: جُملةٌ معطوفةٌ مقابلة لقوله: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وقيل: هي جملةٌ مستقلَّة، كالتَّذييلِ، بُيِّن بها عدمُ اكتراثِ الله بمَن كفَر به، وفي ذِكْرِ استغنائِه عنه مِن الإعلامِ بمَقْته وسَخَطه عليه وإعراضِه بوجْهِه عنه ما هو أعظمُ التَّهديد وأَبْلَغه[٢].

- وجاءَ التَّعبير بقوله: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يَقُل: (عنه)؛ مُبالغةً في التَّعميم، وللدَّلالةِ على الاستِغناء عنه بالبُرهان، والإشعار بعِظَم السَّخَط؛ لأنَّ المستغني عن كلِّ العالَمِين أَوْلَى أنْ يكونَ مستغنيًا عن ذلِك الإنسانِ الواحدِ وعن طاعتِه؛ فكانَ ذلك أدلَّ على السَّخَط[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٩١)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٠).

الآيتان (٩٨ - ٩٩)

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿تَبْغُونَهَا﴾: تَطلُبونها[1].

﴿عِوَجًا﴾: أي: زيغًا وتحريفًا، واعوجاجًا في الدِّين؛ فالعِوَج- بالكَسر- يُقال فيما كانَ في أَرضٍ أو دِينٍ أَو مَعاشٍ، والعَوَج- بالفتْح- يُقال فيما يَنْتَصِب كالحائطِ والعُود. ومنهم مَن خَصَّ المكسورَ بالمعاني، والمفتوحَ بالأعيانِ، وأصْل (عوج): الميل في الشَّيء[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَسألَ اليهودَ والنَّصارى مُوبِّخًا لهم: ما الذي يَحمِلهم على إنكارِ حُجَج الله التي أتت بها كُتُبُهم، والتي فيها إثبات نُبوَّته صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وصِدْق ما جاء به، والله تعالى لا يَخْفى عليه شيءٌ من أعمالِهم.

ويأمُره أيضًا أنْ يقول لهم مُوبِّخًا لهم: لمَ يُضِلُّون المؤمنين عن سبيل الله؛ يُريدون بذلك الانحرافَ والميلَ بهذا السَّبيلِ عن استقامتِه، وهم يَعلمون الحقَّ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٠٣)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٩).

ويَعرِفون سوءَ ما يَقومون به، وليس الله بغافلٍ عمَّا يقومون به؟!

تَفسيرُ الآيتين:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨)﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لأصحابِ التَّوراة والإنجيل مُوبِّخًا لهم: يا معشرَ اليهود والنَّصارى، ما الذي يَحمِلكم على جحْد حُجَج الله تعالى التي جاءت بها كُتُبكم، والتي تُثْبِت نبوَّتي وصِدْقَ ما جئتُ به من الله تعالى؛ فلمَ تَجْحَدون ذلك وأنتُم على عِلْم بالحقِّ، والله تعالى شهيدٌ على كُفْركم؟! فإنَّه سبحانه لا يَخفى عليه شيءٌ، وسيُجازيكم على كُفْركم بما تَستحِقُّون[1].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتوبيخِ أهلِ الكتابِ على كُفْرهم القاصِر عليهم، أمَرَه أيضًا بتوبيخِهم على عُدوانهم على الغيرِ، بصدِّهم عن الإيمان[2]، فقال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لأهل الكتاب مُوبِّخًا: يا معشرَ اليهود والنَّصارى لِمَ تُضِلُّون عِبادَ الله المؤمنين عن طريقِ الله الذي جئتُ به من عندِ الله، والمُوصِل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٢٤-٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦١-٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٤).

إلى الله، تُريدون انحرافَ هذا الطريق عن استقامتِه؛ ليَزيغَ بالمؤمنين مِن الهدى إلى الضَّلال، والحال أنَّكم تعلمون الحقَّ؛ مِصداقًا لِما تَجِدونه في كُتُبكم كصِفة محمد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعلَمون سوءَ ما تَصْنعون[١]؟!

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وليس الله عزَّ وجلَّ بغافلٍ- أيُّها اليهود والنَّصارى- عن ضلالِكم وإضلالكِم، بل يُحصي أعمالَكم، وعليها يُجازيكم[٢].

الفَوائِد التربويَّة:

١- في قولِ الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ إثباتُ شهادةِ الله على كلِّ ما يعملُ بنو آدمَ؛ لأنَّ (ما) اسمٌ موصولٌ يُفيد العُمومَ[٣].

٢- في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، الحثُّ على الاستقامة بلُزوم الشَّرع، وتَرْك العِوَج والزَّيغ عن شريعةِ اللهِ تعالى في الأوامرِ بالتَّفريط، والتَّهاون، أو بالغُلُوِّ والإفراط، وفي النَّواهي بانتهاكِها، والتَّهاون بها، وكلُّ إنسانٍ عاقلٍ فإنَّه يَسعى إلى الوصولِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه غايةُ المطالِب، ولا وصولَ إلى الله إلَّا بسلوك شَرْعه وسبيله الذي يُوصِل إليه[٤].

٣- في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٢٥-٦٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٨).

الحَذرُ من التَّثبيطِ عن فِعْل الخير، أو التَّرغيب في فِعْل الشَّرِّ؛ لأنَّ مَن صَدَّ عن سبيلِ الله من المسلمين يكونُ فيه شَبَهٌ من اليهود والنَّصارى؛ فهذا سبيلُهم[١].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ افتَتَح بفِعْل (قُلْ)؛ اهتمامًا بالمقُول[٢].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ يُستَفاد منه أنَّ اللهَ تعالى لا يُحاسِب العبدَ على ما حدَّث به نَفْسَه؛ فالوَساوس التي تكون في الصَّدر لا يُؤاخَذ عليها الإنسانُ إلَّا إذا ترتَّب عليها عملٌ، أو ركَن إليها واعتَقدها، وجعَلَها من أعمالِ القلب، فحينئذٍ يُحاسَب عليها، وكذلك إذا نطَق بها لسانُه، أو عمِل بمقتضاها بجوارحه، فحينئذٍ يُحاسَب عليها[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾؛ إنَّما ذكَر مَنْ آمن مع أنهم يَصُدُّون مَنْ لم يؤمن أيضًا حتى لا يَدخُل في الإيمان؛ وذلك لأنَّ صدَّ مَن آمن أشدُّ عُدوانًا مِن صدِّ مَن لم يؤمن؛ فالبقاءُ على الكُفْر أهونُ من الرِّدة؛ لأنَّ هذا مَنْع، والأوَّل رَفْع، ورَفْع الخيرِ أشدُّ عقوبةً مِن مَنْعه[٤].

٤- ختَم اللهُ تعالى الآيةَ الأولى بقوله: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ﴾، والآية الثانية بقوله ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ وذلك لأنَّهم كانوا يُظهِرون الكُفْرَ بنُبوَّة محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما كانوا يُظهِرون إلقاءَ الشُّبهِ في قلوب المسلمين، بل كانوا يَحتالون في ذلك بضُروب من المكايد والحيل الخفيَّة، التي لا تَروُج إلا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٥).

على الغافل، فلا جَرَم قال فيما أَظهَروه ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ﴾، وفيما أَضمَروه ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١].

٥- قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾؛ أحالَهم في هذا الكلامِ على ما في ضمائرِهم ممَّا لا يَعلَمه إلَّا اللهُ؛ لأنَّ ذلك هو المقصودُ مَن وخْزِ قلوبهم، وانثنائِهم باللائمةِ على أنفسهم[٢].

٦- قوله الله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ يَتضمَّن نَفْي الغَفْلةِ عن الله، وكذلك ثبوتَ كمال المراقبة؛ لأنَّ مَن كان كامِل المراقبة، فإنَّه ليس عنده غَفْلة[٣].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- **قوله:** ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**﴾ فيه تخصيصُ أهلِ الكتاب بالخِطاب؛ للدَّلالةِ على أنَّ كُفْرهم أَقْبح؛ لأنَّ معرفتَهم بالآيات أقوى، ولأنَّ كونهم أهلَ كتابٍ يُوجِب الإيمانَ بما يُصدِّق ما معهم، وهم- وإنْ زعَموا أنهم مؤمنون بالتَّوراة والإنجيل- فهم كافرون بهما[٤].

- وكرَّرها في الآيتين؛ لأنَّ المقصودَ التوبيخُ على أَلْطف الوجوه، وتكريرُ هذا الخطابِ اللَّطيف أقربُ إلى التلطُّف في صَرْفهم عن طريقتِهم في الضَّلال والإضلال، وأدلُّ على النُّصح لهم في الدِّين والإشفاق[٥].

٢- **قوله:** ﴿**لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ**﴾: استفهامٌ للتَّوبيخ والإنكار لأنْ يكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٣).

لكُفْرهم بها سببٌ من الأسباب، وتحقيقٌ لِما يوجِبُ الاجتنابَ عنه بالكُلِّيَّة[١].

٣- **قوله:** ﴿**وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ**﴾ الجملة حالٌ مِن فاعِل ﴿تَكفُرون﴾ وهي مفيدةٌ لتشديد التَّوبيخِ، وتأكيدِ الإنكار[٢].

- وإظهارُ لفْظ الجلالةِ (والله) في موقعِ الإضمار- حيث لم يَقُل: (وهو)-؛ لتربية المهابة، وتهويلِ الخَطْبِ[٣].

- وصيغةُ المبالغةِ في ﴿شهيدٌ﴾؛ للتَّشديدِ في الوعيد[٤].

٤- **قوله:** ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ**﴾: أمرٌ بتوبيخهم بالإضلال إثْر توبيخِهم بالضَّلال، والتَّكريرُ للمُبالَغة في حَمْله عليه السَّلام على تقريعهم وتَوبيخِهم، وتَرْكُ عطفِه على الأمر السَّابِق؛ حيث لم يَقُل: (وقل يا أهل..)؛ للإيذان باستقلالهم، كما أنَّ قطْعَ- أي: عدم عطف- قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ عن قوله تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّ كلَّ واحدٍ مِن كُفْرهم وصدِّهم شناعةٌ على حيالها، مُستقِلةٌ في استتباع اللائمةِ والتَّقريعِ، وتكريرُ الخطابِ بعُنوان أهليَّةِ الكتابِ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾؛ لتَّأكيد الاستقلالِ، وتشديدِ التَّشنيع، فإنَّ ذلك العُنوانَ كما يَستدعي الإيمانَ بما هو مُصدِّقٌ لِمَا معهم، يَستدِعي ترغيبَ النَّاسِ فيه، فصدُّهم عنه في أقصى مراتبِ القَباحةِ[٥].

٥- **قوله:** ﴿**وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾: اعتراضٌ تذييليٌّ، فيه تهديدٌ ووعيدٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥).

شديد، وتذكيرٌ؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ الله يعلم ما تُخفي الصُّدور، وهو بمعنى قوله في موعظتهم السابقة: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾، إلا أنَّ هذا أغلظُ في التَّوبيخ؛ لِما فيه من إبطال اعتقاد غفْلته سبحانه؛ لأنَّ حالهم كانت بمَنزِلة حالِ مَن يَعتقِد ذلك[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٧).

الآيتان (١٠٠ - ١٠١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ﴾: أي: يَمتنعْ بالله، وأصْل العِصمة: الإمساكُ، والمُلازَمةُ والمنعُ، ومنه يُقال: عصَمَه الطَّعامُ، أي: منَعه من الجوعِ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُحذِّر الله تعالى المؤمنينَ مِن طاعةِ طائفةٍ مِنَ الذين أُوتوا الكتابَ، الذين يَحْسُدُون المؤمنينَ على ما آتاهم اللهُ مِن فَضْلِه، مبيِّنًا أنَّهم إن أطاعوهم أخْرَجوهم من الإيمانِ إلى الكُفْرِ، ثُمَّ بيَّن تعالى أنَّ الكُفْر بعيدٌ منهم؛ فمِن أين يتطرَّقُ إليهم الكُفر، والحالُ أنَّ آياتِ الله تَنْزِل على رسولِه ويتلوها عليهم، وبَيْنَ أَظْهُرِهم رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، يُبَيِّنُ لهم ما أُنْزِلَ إليهم ويُثَبِّتُهم، ثم أرشد اللهُ المؤمنينَ إلى الوسيلةِ التي متى تَمَسَّكوا بها عَصَموا أنفُسَهم مِن مَكْر اليهود وغَيرِهم، وهي الاعتصامُ بالله والتوكُّلُ عليه؛ فهي العُمدة في الهداية، والوسيلةُ إلى الرَّشَاد، وطريقُ السَّدَاد، فمن يلتجِئْ إلى اللهِ في كلِّ أحوالِه، ويتَوَكَّلْ عليه حَقَّ التوكُّلِ، ويتمَسَّكْ بدينه، فقد هُدِيَ إلى الطريقِ الذي لا انحرافَ فيه ولا اعوجاجَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا وبَّخ أهلَ الكتاب على كُفْرهم، وصدِّهم عن سبيل الله- وهو الإسلام- وتَمَّ إيذانُه بالسَّخَط على أعدائِه، وأَبلَغَ في إنذارهم عظيمَ انتقامِه إنْ داموا على إضلالهم، وذلك إثْرَ إقامة الحُجَج عليهم، وإزالة شُبُهاتهم- ناسَب أنْ يُخاطِب المؤمنين مُحذِّرًا إيَّاهم من الاغترارِ بالمُضلِّين، ومُبيِّنًا لهم أنَّ مَن كان هذا شأنَهم في الكُفْر، لا ينبغي أن يُطاعوا، ولا أن يُسمَع لهم قولٌ، فإنَّهم دُعاة الفِتْنة وروَّاد الكُفْر[1]، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، إذا أَطعْتم تلك الفئةَ من أهلِ التَّوراة والإنجيل، الحريصةَ على ردِّكم إلى الكُفْر، التي تَسعى جاهدةً بكلِّ ما تَستطيع، وتبذُل محاولاتٍ مُضنِيةً في سبيل ذلك، فقَبِلتم منهم ما يأمرونكم به؛ فإنَّكم ستُحقِّقون لهم ما يَبْتغون بإخراجِكم من الإيمانِ إلى الكفر[2].

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣١-٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٠-٥٧٢).

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾.

أي: كيف تَرتدُّون عن إيمانكم- أيُّها المؤمنون- ومعكم ما يُثبِّتكم عليه، ويمنعكم من الارتداد عنه، وهو القرآنُ الذي تُقرأُ عليكم آياتُه، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الذي بين أَظْهُركم؛ إذ يُبلِّغه ويُبيِّنه لكم؛ فإنَّ الإيمانَ إذا تَغلَغل في شَغافِ القلب لا يَخرُج منه بإذن الله تعالى[١].

﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أي: إنَّ مَن يتعلَّق بأسباب الله، مُتمسِّكًا بدِينِه، مُتوكِّلًا عليه، فقد وُفِّق لطريقٍ واضحٍ غير مُعوجٍّ، فيستقيمُ به حتى يُوصِلَه إلى رِضوان الله، وإلى النَّجاة من عذابِه، والفوزِ بجنَّته سبحانه[٢].

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- معرفةُ فضْلِ الصحابة بالمَنْقبة العظيمة، والمِنَّة الجليلة، وهي وجودُ هذا الرسول العظيم عليه الصَّلاة والسَّلام بينهم، ومشاهدةُ أنواره؛ فكان وجودُه عِصْمةً من ضلالهم، تلك المَزيَّة التي فاز بها الصَّحابةُ المخاطَبون بهذه الآية ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣٣-٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٣-٥٧٥).
قال أبو حيان: (الرَّسول هنا: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم بلا خلافٍ) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣٤-٦٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٩).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فيه أنَّ الاعتصامَ بالله تعبُّدًا واستعانةً، والامتناعَ بقوَّته ورحْمته عن كلِّ شَرٍّ، والاستعانةَ به على كلِّ خيرٍ هو العمدةُ في الهداية، والعُدَّةُ في مُباعدةِ الغَواية، والوسيلةُ إلى الرَّشاد، وطريق السَّداد، ومُوصِل لصاحبه إلى غاية المرغوب[١].

٣- أنَّ التَّمسُّك بكتابِ الله تعالى وسُنَّة رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والإقبال عليهما أعظمُ مانعٍ يَمْنع من الكُفْر، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٢].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- النِّداء في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، مُوجَّه للمؤمنين من بابِ الإغراء؛ لقَبُولِ ما يأتي تصديقًا به إنْ كان خبرًا، وامتثالًا له إنْ كان طلبًا (أمرًا ونهيًا)؛ لأنَّ وصْفَهم بالإيمان يَقتضي أنْ يقوموا بمقتضى هذا الخِطاب الموجَّه لهم[٣].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فيه تَفضُّلُ الله على المؤمنين بأنْ خاطَبهم بغير واسطة؛ فلم يأتِ بلفظ (قُلْ)؛ ليكون ذلك خِطابًا منه تعالى لهم وتأنيسًا لهم، بخلافِ خِطابه لأهلِ الكِتاب؛ إذ قال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾[٤].

٣- في قولِ الله تعالى: ﴿إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص:١٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٧).

أَطلَق الطواعيةَ لتَدلَّ على عمومِ البَدل، أي: إن يَصدُر منكم طواعيةٌ ما في أيِّ شيءٍ كان ممَّا يُحاوِلونه من إضلالِكم[١].

٤- في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾؛ أَبرَز نهيَه عن موافِقتهم وطواعيتِهم في صورةٍ شَرْطيَّة؛ لأنَّه لم تَقَع طاعتُهم لهم[٢].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- **قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** صُدِّر هذا الحُكمُ بالنِّداء، وتصديرُ الحُكْم بالنِّداءِ يتضمَّن تنبيهَ المُخاطَب، والتَّنبيهُ لا يكون إلَّا لأمرٍ مُهمٍّ تَجِب العنايةُ به[٣].

٢- **قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾**: استفهامُ إنكارٍ وتعجُّب؛ لكُفْرهم في حالِ اجتمَعت لهم الأسبابُ الدَّاعية إلى الإيمان الصَّارِفة عن الكُفْر[٤].

٣- **قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾**:

- فيه تلوينٌ للخطاب، وتوجيهٌ له إلى المؤمنين؛ تحذيرًا لهم عن طاعة أهلِ الكتابِ، والافتتانِ بفِتْنتهم، إثرَ توبيخِهم بالإغواء والإضلالِ؛ ردْعًا لهم عن ذلك، وتعليقُ الردِّ بطاعة فريقٍ منهم؛ للمُبالَغة في التَّحذير عن طاعتِهم، وإيجابِ الاجتنابِ عن مصاحبتهم بالكُلِّيَّة؛ فإنَّه في قوَّةِ أنْ يُقال: لا تُطيعوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٨).

فريقًا... إلخ[١].

- وقوله: ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: فيه تأكيدٌ لِما أَفادَه قوله: ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾، والقصدُ من التَّصريحِ به توضيحُ فواتِ نِعمةٍ عظيمةٍ كانوا فيها لو يَكفُرون[٢].

٤- **قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** جاء جوابُ الشَّرط ﴿هُدِيَ﴾ بصيغة الماضي، و﴿قَدْ﴾ المحقِّقة؛ إشارة إلى أنَّ مَن يلتجئ إلى الله تعالى ويَعتصِم بحبْله، فقدْ تَحقَّقت هِدايتُه، وثَبَتت استقامتُه سابقًا وواقعًا، سابقًا في اللَّوح المحفوظ، وفي الكتابةِ حينما تُنفَخ فيه الرُّوح في بطن أُمِّه، وواقعًا؛ لأنَّه اعتَصَم بالله[٣].

- وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: فيه حذْف الفاعلِ؛ ليشملَ كلَّ الهُداة؛ وذلك لتعدُّد طُرُق الهِداية، فأعْلى الهُداة الله عزَّ وجلَّ، ثمَّ الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام، ثمَّ وَرَثةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهم العلماءُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٥).

الآيات (١٠٢ - ١٠٩)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿فَأَلَّفَ﴾: جمَع، وأوْقَع الأُلْفة، والإلفُ: اجتماعٌ مع التِئام، وأصلُه: انضمامُ الشَّيءِ إلى الشَّيء[1].

﴿شَفَا حُفْرَة﴾: أي: حَرْفِ حُفرة؛ فشفَا الشيءِ: حرْفُه، ومنه: أَشْفَى على كذا: إذا أشْرَف عليه[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُر الله عبادَه المؤمنين بتقواه قَدْر الاستطاعةِ، وأنْ يُداوِموا على التَّمسُّك

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

بهذا الدِّين إلى أنْ يأتيَهم الموتُ وهم على ذلك.

كما يأمُرُهم سبحانه بالاجتماعِ والأُلْفة على كلمةِ الحقِّ، وألَّا يفعلوا ما يَدْعوهم إلى الفُرْقة.

وأمَرهم أيضًا أن يَذْكروا ما أَنعَم به عليهم من الاجتماعِ على دِين الإسلام، حتى صاروا بهذه النِّعمة إخوانًا، وقد كانوا مِن قَبْلِ اعتناقهم له أعداءً مُتقاتِلين، وذكَّرهم الله سبحانه أيضًا أنَّهم كانوا على وَشْكِ أنْ يقعوا في النَّار فأنقَذهم منها، كذلك يُوضِّح اللهُ لهم آياتِه؛ لأجْل أنْ تَحصُل لهم الدَّلالةُ على طريقِ الحقِّ والتَّوفيق لسُلوكه.

ثم يأمُر اللهُ عِبادَه المؤمنين أنْ يكون منهم جماعةٌ تقوم بالدَّعوة إلى دِين الله، ويأمرون الناسَ بما أمَرهم به الشَّرع، ويَنْهَوْنهم عن فِعْل ما نهاهم عنه الشَّرع، وأولئك هم المفلِحون.

ونهاهم أنْ يَتفرَّقوا في دِينهم كتَفرُّق الذين من قَبْلهم: كاليهود، والنَّصارى، الذين اختَلَفوا في دِينهم بعد أنْ جاءتهم البيِّناتُ التي تمنعهم مِن التفرُّق، وأولئك لهم عذابٌ من عند الله عظيم، وذلك في يوم تكونُ فيه وُجوه أهلِ السَّعادة بيضاءَ، بينما تَسْودُّ وجوه أهلِ الشَّقاوة. فأمَّا أصحابُ الوجوه المُسودَّة، فيُقال لهم توبيخًا: أَكفَرتم بعد إيمانكم؟! فذوقوا عذابَ الله بسبب كُفْركم، وأمَّا مَن ابيضَّت وجوههم، فهُم في رحمة الله، بما أَعدَّه الله في جنَّاته مِن أنواع النَّعيم، ماكِثين فيه أبدًا.

ثُمَّ خاطَب الله نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ تلك الآياتِ التي تقدَّمت نقرؤها عليك بالحقِّ، والله تعالى لا يَظلِم أحدًا مِن خلْقه مُطلَقًا، وله وحده جميعُ ما في السَّموات والأرض، وإليه تُرجَع جميع الأمور.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حذَّر الله تعالى المُخاطَبِين من الانخداع لوَساوس بعض أهل الكتاب، حرَّضهم على تَمامِ التَّقوى؛ لأنَّ في ذلك زيادةَ صلاحٍ لهم، ورُسوخًا لإيمانِهم[١]، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون ابذُلوا كلَّ جَهْدكم وطاقتكم؛ لتَمتَثِلوا أوامرَ الله عزَّ وجلَّ وتَجتنِبوا نواهيَه، ولتُحقِّقوا تقوى الله تعالى الاتِّقاءَ الحقَّ الواجبَ الثابتَ بقَدْرِ ما تستطيعون[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: داوِموا في حياتِكم على التَّمسُّك بدِين الإسلام، وحافِظوا عليه حتى يأتيَكم الموتُ وأنتم على ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ١٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٨٨).
قال ابن أبي حاتم: (عن عبد الله: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: أنْ يُطاع فلا يُعصى، وأنْ يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر... ورُوي عن مُرَّة الهَمْداني، والربيع بن خُثَيم، وعمرو ابن ميمون، والحسن، وطاوس، وقتادة، وإبراهيم النَّخَعي وأبي سِنَان، والسُّدِّي نحو ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٧٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٨٩).

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى عبادَه المؤمنين بالتَّقوى، أمَرَهم بما يُعِينهم عليها، وهو الاجتماعُ والاعتصامُ بدِين الله[١]، فقال تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

أي: تَمسَّكُوا بدِينه، وعهْدِه إليكم بالأُلفةِ والاجتماعِ على كلمةِ الحقِّ، ولا تَرتكِبوا ما يُفرِّق جمْعَكم عن هذا الدِّين والعَهْد[٢].

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وعن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ يرضَى لكم ثلاثًا، ويَكرهُ لكُم ثلاثًا، فيَرضَى لكُم: أنْ تَعبدوهُ، ولا تُشرِكوا به شيئًا، وأنْ تَعتصِموا بحبلِ اللهِ جميعًا ولا تَفرَّقوا، ويَكرهُ لكم: قيلَ وقالَ، وكثرةَ السُّؤالِ، وإضاعةَ المالِ))[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٤٣، ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٩، ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٤- ٥٩٥).

(٣) رواه مسلم (١٧١٥).

عن زيدِ بن أَرْقمَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ألَا وإنِّي تَارِكٌ فيكم ثَقَلَين: أحدُهما كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ، هو حبلُ اللهِ، مَن اتَّبعه كان على الهُدى، ومَن ترَكه كان على ضلالةٍ..)) الحديث[1].

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

أي: اذكُروا بقلوبِكم وألْسنتِكم- أيُّها المؤمنون- ما أَنعَم الله تعالى به عليكم من الأُلْفةِ والاجتماعِ على دِين الإسلام، فقد كنتُم من قبلِ اعتناقِكم الإسلامَ أعداءً مُتفرِّقين، يُقاتِل بعضُكم بعضًا، في غيرِ طاعةِ الله تعالى، فجَمع الله عزَّ وجلَّ بالإسلامِ قلوبَكم، فجعَل بعضَكم لبعضٍ إخوانًا مُتحابِّين، بلا ضغائنَ ولا أحقادٍ بينكم[2].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

عن عبدِ الله بن زيد رضِي اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا أفاءَ اللهُ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ حُنينٍ، قَسَمَ في النَّاسِ في المؤلَّفةِ قلوبُهم، ولم يُعطِ الأنصارَ شيئًا، فكأنَّهم وجَدوا[3] إذ لم يُصِبْهم ما أصابَ النَّاسَ، فخطَبهم فقال: يا معشرَ الأنصارِ، ألمْ أجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وكنتم مُتفرِّقين فألَّفَكم اللهُ بي،

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٤٩-٦٥١، ٦٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٥).

(٣) وَجَدوا: أي: غضِبوا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٥٥).

وكنتم عالةً[١] فأغْناكم اللهُ بي؟! كلَّما قال شيئًا، قالوا: اللهُ ورسولُه أَمَنُّ ...)) الحديث[٢].

وفي روايةٍ أخرى قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((يا معشرَ الأنصارِ، ألمْ أَجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم اللهُ بي، ومُتفرِّقينَ فجمَعكم اللهُ بي؟!))[٣].

﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.

أي: كنتُم- أيُّها المؤمنون- قبلَ اجتماع قلوبِكم على الإسلام، على وَشْكِ الوقوع في النَّار، إذ لم يَبقَ بينكم وبينها إلَّا أنْ تموتوا على كُفْركم، فأَنقَذَكم اللهُ تعالى منها بهِدايتِكم إلى الإسلام[٤].

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أي: بمِثْل هذا الوضوحِ الذي بيَّن الله تعالى به ما تَقدَّم من الآيات الدَّالَّات على الحقِّ القويم، يُبيِّن أيضًا بوضوحِ بقيَّة الآيات الأخرى؛ لأجْل أن تَحصُل لكم بها الدَّلالةُ على طريق الحقِّ، وتُوفَّقوا لسُلوكه[٥].

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

في الآياتِ المتقدِّمةِ عاب اللهُ تعالى أهلَ الكتاب على شَيئينِ أحدهما: أنَّه

---

(١) عَالة: جمْع عائِل، وهو الفقيرُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٢٣).

(٢) رواه البخاري (٤٣٣٠).

(٣) رواه مسلم (١٠٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٥٧-٦٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٩- ٦٠٠).

عابَهم على الكُفْر، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾، ثُمَّ بعد ذلك عابَهم على سَعْيهم في إلْقاء الغيرِ في الكُفْر، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فلمَّا انتَقَل منه إلى مخاطبة المؤمنين، أمَرَهم أوَّلًا بالتَّقوى والإيمان، فقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، ثم أمَرهم بالسَّعي في إلْقاء الغيرِ في الإيمان والطَّاعة[1]، فقال:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾.

أي: لتوجدْ منكم- أيُّها المؤمنون- فِرْقةٌ مُتصدِّيةٌ للقيام بشأنِ الدَّعوة إلى دِين الله تعالى وبيانِ شرائعِه، وقائمةٌ بواجب أمْر النَّاس بامتِثال ما أمرهم به الشَّرع، ونَهْيِهم عن ارتكابِ ما نهاهم عنه الشَّرع؛ فإنَّ المتَّصِفين بهذه الصِّفات هم الفائزون في الدَّارينِ بما يَرْغَبون، والنَّاجون فيهما ممَّا يَرهَبون[2].

عن حُذيفةَ بن اليَمان رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((والذي نَفْسي بيدِه لتَأمرُنَّ بالمعروفِ، ولتَنهوُنَّ عن المُنكرِ، أو ليُوشِكَنَّ اللهُ أن يَبعثَ عليكمْ عقابًا منهُ فتدعونهُ فلا يَستجيبُ لكمْ))[3].

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٠-٦٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩١، ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥-٨).

(٣) رواه الترمذي (٢١٦٩)، وأحمد (٢٣٣٤٩)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (٢٠١٩٩).
حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧١٥)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢١٦٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

مُناسبةُ قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا ...﴾ بعدَ قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ...﴾ أنَّ الأمَّةَ إذا تَركتِ الدَّعوةَ إلى الخيرِ والأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر فلا بدَّ أنْ تتفرَّق؛ لأنَّه لا يكونُ لهم في هذه الحالِ كلمةٌ جامعةٌ؛ إذ كلُّ واحدٍ يُريد أنْ يعملَ على هواه، فالنُّفوسُ لها نزعاتٌ متباينةٌ[١].

وأيضًا لَمَّا أمَر تعالى بالأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، وذلك ممَّا لا يَتِمُّ إلَّا إذا كان الآمرُ بالمعروف قادرًا على تنفيذ هذا التَّكليف، ولا تَحصُل هذه القُدْرةُ إلَّا إذا حصلتِ الأُلْفةُ والمحبَّةُ بين أهل الحقِّ والدِّين، لا جَرَم حذَّرهم اللهُ تعالى من الفُرْقة والاختلاف؛ لكي لا يصيرَ ذلك سببًا لعَجْزهم عن القيامِ بهذا التَّكليف[٢]، فقال:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

أي: لا تكونوا- يا معشرَ المؤمنين- مُتفرِّقين في دِينكم، كما تَفرَّق الذين مِن قبلكم، كاليهودِ والنَّصارى الذين اختَلَفوا في دِينهم، فأصبحوا أحزابًا مختلفةً، وذلك مِن بعد ما جاءتْهم دلائلُ الحقِّ الواضحات، وعلِموا الحقَّ المبين، فوقَعوا في مُخالفته عامدين، وعلى اللهِ تعالى مُتجرِّئين[٣].

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: لهؤلاء عذابٌ من عند الله عظيمٌ؛ فلا تكونوا مِثْلهم؛ فيكونَ لكم من عِقابِ الله مِثْلُ الذي لهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢، ٩٧١، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨-١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩١)، ((تفسير السعدي))

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى العذابَ العظيمَ الذي سيَقَع على مَن تفرَّقوا في دِينهم شيعًا بعد مجيءِ الحقِّ وظهورِه لهم، بيَّن هنا موعدَ مجيء ذلك العذاب[١]، فقال:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

أي: إنَّ أولئك لهم عذابٌ عظيمٌ في اليومِ الذي تكونُ فيه وجوهُ أهل السعادةِ بيضاءَ، وهم الذين اعتَصَموا بحبلِ الله جميعًا، وائتلَفوا بينهم، وتكونُ فيه وجوهُ أهلِ الشَّقاوة سوداءَ، وهم الذين تَفرَّقوا بعدَ ظهورِ البيِّنات لهم[٢].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

أي: إنَّ الَّذين اسودَّت وجوهُهم، يُقال لهم توبيخًا وتقريعًا: أكفرتُم بعد توحيدِ الله تعالى وعهْدِه الذي أخَذه عليكم بألَّا تُشرِكوا به شيئًا[٣]؟!

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

أي: فذوقوا إذَنْ عذابَ الله تعالى؛ بسببِ كُفْركم هذا[٤].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾.

أي: أمَّا أولئك الذين قد ابيضَّتْ وجوهُهم فهُمْ يتقلَّبون في رحمةِ الله تعالى

(ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩-١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢-١٤٣، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٥-٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٤-٦٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٧-٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٩-٣٠).

بما أعدَّ لهم في جنَّته من أنواعِ النعيم، ماكثين فيه أبدًا بغير نهاية[١].

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨)﴾.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: تلك الآياتُ التي تقدَّمت، ومنها ما ذكره الله تعالى من ثوابِ المؤمنين وعذابِ الكافرين، نقرؤها عليك- يا محمَّدُ- بالصِّدق المُطابقِ للواقع؛ صِدقًا في أخبارها، وعدْلًا في أحكامها[٢].

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يَظلمُ أحدًا مُطلقًا؛ لأنَّه غيرُ مريدٍ للظُّلم سبحانه، ومِن ذلك أنَّه لا ينقص أحدًا شيئًا من الحَسنات، ولا يَزيدُ على أحدٍ شيئًا من السَّيِّئات[٣].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى أنَّه غيرُ مُريدٍ للظُّلم، بيَّن هنا أنَّه لا يَحتاجُ إلى ظُلْم أحدٍ مِن خلْقه[٤]؛ لأنَّه إذا كان له ما في السَّموات وما في الأرض، فهو يُريد صلاحَ حالهم، ولا حاجةَ له بإضرارهم إلَّا للجزاءِ على أفعالهم؛ فلا يريد ظُلمَهم[٥]، لذا قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٤-٦٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٧-٦٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢-٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٧).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو وحْده المالكُ لِجميع مَا في السَّموات وما في الأرض، والخالقُ الرازقُ المدبِّر[١].

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

أي: هو الذي يتصرَّفُ في شؤون عبيدِه، والحاكمُ عليهم في الدُّنيا والآخرة، ومن ذلك رجوعُ النَّاس إليه يومَ القيامة؛ ليُجازيَهم بأعمالهم؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرٌّ[٢].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾، توجيه النِّداء إلى المؤمنين يُشير إلى أنَّ التَّقوى من مقتضيات الإيمان؛ لأنَّه إذا نُودي الإنسانُ بوصْف، فإنَّه يزدادُ وصْفُه هذا بحسب زِيادتِه فيما وُجِّه إليه[٣].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فيه أنَّ على العبادِ البقاءَ على الإسلام والتَّمسُّكَ به، والمحافظةَ عليه في حال الصِّحَّة والسَّلامة حتى يُوافيَهم الموتُ وهم عليه؛ فالمَدار على الخاتِمة[٤].

٣- وجوبُ الاجتماعِ على شَرْع الله تعالى؛ فقد وضَعَ الله تعالى لنا بفضله ورحْمته قاعدةً نَرجِع إليها عند تَفرُّقِ الأهواءِ واختلافِ الآراء، وهي الاعتصامُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٩-٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩١).

بحبله، بالتَّحاكمِ إلى شرْعِه؛ قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[١].

٤- تذكير العبادِ نعمةَ الله تعالى في الأمور الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، بقلوبِهم وألْسنتهم؛ ليَزدادوا شكرًا له ومحبَّة، وليَزيدَهم من فضْله وإحسانه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ...﴾[٢]، والتَّذكير بنِعْمة الله تعالى طريقٌ من طُرُق مواعظ الرُّسل[٣].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾ الحرصُ على الاجتماع والحَذَر من التَّفرُّق؛ فالاجتِماعُ والائتلافُ مِن أعظمِ الأمورِ التي أوْجبَها اللهُ ورسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم، فمِن أكبر نِعَم الله على الأُمَّة أنْ يؤلِّف بين قلوبِها بالاجتماعِ وعدم الفُرْقة؛ فاجتماعُ الأُمَّة الإسلاميَّة عِصمةٌ لها، وفي التَّفرُّقِ زوالُ الوَحْدة التي هي مَعقِدُ العزَّة والقوَّة[٤].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ قوله: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ﴾ والموت لا يُنهى عنه؛ لأنَّه غيرُ داخلٍ تحتَ قُدرة المكلَّف، فيتعيَّن حمْلُه على السببِ الذي يَقتضي حصولَ الموت على الإسلام، وهو تقديمُ الإسلامِ قبلَ ذلك، والثباتُ عليه، فيأتي الموت حينئذٍ والعبدُ على الإسلام،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٢-٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٣٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٧-١٨، ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦٠٣).

والقاعدةُ في مِثل هذا تقول: إذا كان مُتعلِّقُ الخطابِ مقدورًا حُمِلَ عليه، وإنْ كان غيرَ مقدورٍ عليه صُرِفَ الخطابُ إلى ثمرتِه أو سببِه، وهنا حُمِل على السَّبب(١).

٢- قول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، في الآية دليلٌ على أنَّ الأمْرَ بالشَّيء يَستلزِمُ النَّهيَ عن ضدِّه(٢).

٣- قول الله تعالى: ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ولم يَقُل (بينكم)؛ لأنَّ الائتلافَ في القلوب، وهذا هو الذي عليه المدارُ؛ فكم مِن أُمَّةٍ ائتلفتْ بأجسامها وقلوبها مُتفرِّقةٌ! كما قال الله تعالى عن اليهود: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾(٣) [الحشر: ١٤].

٤- في قول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الردُّ على أهلِ البِدع الذين حرَّفوا نُصوصَ الكتاب والسُّنَّة إلى معانٍ لا يدلُّ عليها ظاهرُها، دونَ بيانٍ مِن الله ورسولِه، فتصيرُ هذه النُّصوصُ مبهمةً، وبناءً على طريقتِهم هذه لا يكونُ القرآنُ هدًى ولا بيانًا للنَّاس، وهو خلافُ ما تدلُّ عليه هذه الآيةُ(٤).

٥- في قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إثبات العِللِ في أفعال الله سبحانه وتعالى؛ لأنَّ (لعلَّ) للتَّعليل(٥).

٦- قول الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ لا إلى أنفسِهم؛ ففيه ملاحظةُ الإخلاص؛ لأنَّ بعضَ النَّاس يدعو إلى نَفْسه لا إلى الخيرِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٢)، ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٤٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٠٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٠٧).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٠).

٧- قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾، فيه أنَّ الاختلافَ المنهيَّ عنه هو ما كان ناشئًا عن التَّفرُّق لا كلُّ اختلافٍ[١].

٨- في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ قُدِّم الافتراقُ على الاختلاف؛ للإيذانِ بأنَّ الاختلافَ عِلَّةُ التَّفرُّق، وهذا من المفادات الحاصلةِ من ترتيب الكلامِ، وذِكْر الأشياء مع مُقارناتها[٢].

٩- قول الله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ يُفيد أنَّ الإنسان لا يُؤاخَذ على تَرْك الحقِّ، أو اتِّباع الباطل إلَّا إذا بُيِّن له ذلك حتى يَتبيَّن، أو صار بحيث تَبيَّن له لو نظَر فيه، والجهلُ ليس بعُذْر بعدَ البيان[٣].

١٠- قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ فيه تمثيلُ حال التَّفرُّق في أبشعِ صُورِه المعروفةِ لديهم من مطالعة أحوالِ اليهود، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ تَرْك الأمْر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر يُفضي إلى التَّفرُّق والاختلاف؛ إذ تَكثُر النَّزَعات والنَّزَغات، وتَنشقُّ الأُمَّة بذلك انشقاقًا شديدًا[٤].

١١- قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، فيه أنَّ المكلَّف إمَّا مؤمن وإمَّا كافر، وأنَّه ليس هاهنا مَنزِلةٌ بين المنزِلتين كما يذهب إليه المُعتزِلة، فإنَّ الله تعالى قسَّم أهلَ القيامة إلى قِسْمين: منهم مَن يَبيضُّ وجهُه وهم المؤمنون، ومنهم مَن يسودُّ وجهُه وهم الكافرون، ولم يذكر ثالثًا، فلو كان هاهنا قِسْمٌ ثالث لذكَره الله تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٨).

١٢- في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ إشعار بأنَّ جانب الرَّحمة أغلب وذلك من وجوه:

الأول: أنَّه لم يَنصَّ تعالى على خُلُود أهل النَّار في هذه الآية، مع أنَّه نصَّ على خُلُود أهل الجنَّة؛ وذلك إشعارًا بأنَّ جانب الرَّحمة أغلب.

الثاني: أنَّه لَمَّا ذكَر العذابَ لم يُضِفْه إلى نَفْسه، وذكَر الرحمة مُضافةً إلى نَفْسه.

الثالث: أنَّه لَمَّا ذكَر العذابَ علَّله بفِعْلهم، ولَمَّا ذكَّر الثوابَ علَّله برحمتِه[1].

١٣- لو لم يقُلْ الله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ لكان الوعيدُ مختصًّا بمَن كفَر بعد إيمانِه، فلمَّا ذكَر هذا ثبَتَ الوعيدُ لِمَن كفَر بعد إيمانه، ولِمَن كان كافرًا أصليًّا[2].

١٤- قول الله تعالى: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾؛ (في) للظَّرفية، فرحمةُ الله هنا ليستِ الرَّحمة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾؛ لأنَّ هذه صِفة الله، أمَّا في قوله تعالى ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ فهي مخلوقُ الله، والمُراد بها: الجنَّة، فالرَّحمةُ تُطلَق على غير صِفة الله، بل على مخلوقاتِه، ويَمتنِع أنْ يكون المراد بها الصِّفة؛ لأنَّ الصِّفة لا تكون ظرفًا للبشر، وإذا امتنع أنْ تكون ظرفًا للبشر امتنع أنْ يُراد بالرحمة هنا الرَّحمة التي هي صفةٌ لله تعالى، بل هي الرَّحمةُ المخلوقة لله، وأُطلِق عليها اسمُ الرَّحمة؛ لأنها كانت برحمة الله يَرحَم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢).

الله بها مَن يشاء من عباده [١].

١٥- قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾؛ فيه أنَّ مَن كان وكيلًا عن الغير، فله حُكْمُ ذلك الذي وكَّله؛ لأنَّ الله أضاف التِّلاوة إليه مع أنَّ التَّالي رسوله، فدلَّ هذا على أنَّ حُكْم ما نفَّذه الرَّسول بما أُرسِل به حُكْم ما قاله المُرسِل[٢].

١٦- قول الله تعالى: ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾؛ فيه أنَّ القرآنَ كلامُ الله تعالى؛ لأنَّ الله تعالى أضافه إلى نَفْسه، وما أُضيفَ إلى الله، ولم يكُن عينًا قائمةً بنَفْسها، فهو من صفاتِه[٣].

١٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ يُفيد أنَّ مَن حاوَل أن يُشرِّع للخَلْق شيئًا سِوى ما شَرَعه الله، فقد جعَل نَفْسَه شريكًا مع الله، ووجْه ذلك: أنَّ الله حصَر مَرجِع الأمور إليه[٤].

بَلاغَةُ الآيات:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾:

- فيه تكريرُ الخِطابِ بعُنوان الإيمانِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهو تشريفٌ إثرَ تَشريفٍ[٥].

- وتصديرُ الآية بالنِّداءِ يُشعِر بالعِناية، والاهتمام بالتَّقوى[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٠).

- وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: فيه النَّهيُ عن شيءٍ وإرادةُ النَّهيِ عن لازِمه؛ إذ النَّهيُ عن الموتِ على حالةٍ في الدِّين إلَّا على حالة الإسلام، مقصودٌ منه النَّهيُ عن مُفارَقة الدِّين؛ بالإسلام مدَّةَ الحياة؛ لأنَّ ساعة الموت أمرٌ غير معلوم؛ فالنَّهيُ عن الموت على غير الإسلام، يَستلزِم النَّهيَ عن مُفارَقة الإسلام في سائرِ أحيان الحياة، ولو كان المرادُ به معناه الأصلي، لكان ترخيصًا في مُفارَقة الإسلام إلَّا عندَ حضورِ الموت، وهو معنى فاسدٌ[(١)].

- ومجيءُ جملة ﴿إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ اسميَّةً أبلغُ؛ لتكرُّر الضَّمير، وللمُواجهة فيها بالخِطاب[(٢)].

٢- **قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾** فيه تمثيلٌ لهيئة اجتماعِهم، والتفافِهم على دِين الله ووصاياه وعهوده بهيئةِ استمساكِ جماعةٍ بحبل أُلقي إليهم من مُنقِذٍ لهم؛ مِن غرَقٍ أو سقوطٍ، فشبَّه الوثوقَ بالله، والاعتمادَ على حمايتِه، بحالِ مَن يُمسِك بحبلٍ وثيقٍ، وقد تدلَّى من مكانٍ عالٍ، فهو آمنٌ مِن انقطاعِه وانبتاتِه[(٣)].

- قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ تأكيدٌ لمضمون (اعتصموا جميعًا) ... وقد يكون قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أمرًا ثانيًا؛ للدَّلالة على طلبِ الاتحاد في الدِّين، وقد يُؤكَّد الشيءُ بنفْي ضِدِّه، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٠-٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٠- ٣٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٢).

مُهْتَدِينَ﴾[(١)] [الأنعام: ١٤٠].

٣- قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

- فيه تصويرٌ لحَالِهم التي كانوا عليها؛ ليَحصُل من استفظاعها انكشافُ فائدةِ الحالة التي أُمِروا بأنْ يكونوا عليها، وهي الاعتصامُ جميعًا بجامعةِ الإسلام الذي كان سببَ نَجاتهم من تلك الحالة، وفي ضِمنِ ذلك تذكيرٌ بنِعمة الله تعالى، الذي اختارَ لهم هذا الدِّين، وفي ذلك تحريضٌ على إجابةِ أمْره تعالى إيَّاهم بالاتِّفاق[(٢)].

- وقوله: ﴿شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾:

- فيه تمثيلُ حياتِهم التي يُتوقَّع بعدَها الوقوعُ في النَّار بالقعودِ على حرْفها، مُشرفِين على الوقوع فيها؛ إذ لو ماتوا على ما كانوا عليه مِن الكُفْرِ، لوقعوا في النَّار[(٣)].

- وفيه تنبيهٌ على تَحقير مُدَّة الحياة؛ فإنَّه ليس بين الحياةِ وبين الموتِ المُستلزِم للوقوعِ في الحُفْرة إلَّا ما بين طرف الشَّيء وبين ذلك الشيء[(٤)].

- وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾: إشارةٌ إلى مصدرِ الفعل الذي بعده (يُبيِّن)، أي: مِثْل ذلك التَّبيينِ الواضحِ، وما فيه من معنى البُعد؛ للإيذانِ بعُلُوِّ درجة المُشارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٢-٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٩٥-٣٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٣).

إليهِ، وبُعدِ منزلتِه في الفضل، وكمالِ تميُّزِه به عمَّا عداه، وانتظامِه بسببه في سَلكِ الأمورِ المُشاهَدة، والكافُ لتأكيدِ ما أفادَه اسمُ الإشارةِ من الفخامة[١].

٤- قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾:

- صيغة ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ صِيغةُ وجوب، وهو لتأكيدِ ما كانوا يَفعلونه ووجوبِه؛ لأنَّ ذلك كان حاصلًا بينهم من قبلُ، كما يدلُّ عليه قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وفيه زيادةُ الأمرِ بالدَّعوة إلى الخير، وقد كان الوجوب مُقرَّرًا من قَبلُ بآيات أُخرى، أو بأوامر نبويَّة؛ فالأمرُ لتأكيدِ الوجوب أيضًا؛ للدَّلالة على الدَّوام والثَّبات عليه[٢].

- وفيه عطْف الخاصِّ على العامِّ، حيث عطَف الأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عن المُنكَر على الدَّعوةِ إلى الخيرِ، مع اندراجِهما فيها؛ لمزيدِ العِناية بهما، ولإظهارِ فضْلِهما على سائرِ الخيراتِ[٣].

- وفيه: حذْفُ المفعولِ الصريحِ من الأفعال الثلاثة (يَدْعُون- ويأمرون- ويَنْهون)؛ للإيذانِ بظهوره، أي: يدْعون الناسَ ويأمُرونهم وينهَوْنهم، أو لقصْد إيجاد نفْسِ الفِعْل كما في قولك: فلانٌ يُعطِي ويَمنعُ، أيْ: يفعلون الدعاءَ إلى الخير والأمرَ بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، أو لقَصْد التَّعميم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤-١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤-١٥).

أي يَدْعون كلَّ أحد[١].

- قوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: التَّعريف في (الخير- والمعروف- والمُنكَر)- للاستغراق، وهو يُفيد العمومَ في المعاملات بحسب ما يَنتهي إليه العِلْم والمقدِرة، فيُشْبِه الاستغراقَ العُرْفيَّ[٢].

- وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: الإشارة بـ﴿أُولَئِكَ﴾ وما فيه مِن معنى البُعد؛ للإشعارِ بعلوِّ طبقتِهم، وبُعدِ منزلتِهم في الفضلِ، والإفرادُ في كاف الخطابِ؛ لأنَّ المخاطَب كلُّ مَن يَصلُح للخطاب، أو لأنَّ التعيينَ غيرُ مقصودٍ، أي: أولئك الموصوفون بتلك الصِّفاتِ الكاملة[٣].

٥- **قوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** فيه تأكيدٌ ومبالغةٌ في وعيد المُتفرِّقين، وتشديد في تهديدِ المُتشبِّهين بهم[٤]؛ حيث جاءَ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّة التي تُفيد تأكيدَ الخبر، وتعريف المُسنَد إليه باسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ لتَعيُّنه، وبُعد مَنزِلته في الشرِّ والفساد[٥]، مع ما في تنكيرِ ﴿عَذَاب﴾ من التَّهويل، والتَّأكيد بوصْفِه بصيغةِ المبالغة فعيل ﴿عَظِيم﴾.

٦- **قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾:**

- في تعريفِ هذا اليومِ بحُصولِ بياضِ وجوهٍ وسوادِ وجوهٍ فيه: تهويلٌ لأمْره، وتشويقٌ لِمَا يرِدُ بعدَه من تفصيلِ أصحابِ الوجوهِ المبيضَّة، والوجوه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٧- ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٠-٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٨).

(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٠٦).

المُسودَّة؛ ترهيبًا لفريق، وترغيبًا لفريق آخر[١].

- وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيه تفصيلٌ لأحوالِ الفَريقينِ بعدَ الإشارةِ إليها إجمالًا، وتقديمُ بيانِ هؤلاء؛ لأنَّ المَقام مقامُ التَّحذيرِ عن التَّشبُّه بهم، مع ما فيه من الجمع بين الإجمال والتَّفصيلِ، والإفضاءِ إلى ختْم الكلامِ بحُسن حال المؤمنين، كما بُدِئ بذلك عند الإجمالِ[٢].

- وقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ...﴾ يُسمِّي علماءُ البلاغةِ هذا النَّوعَ من السِّياق لفًّا ونَشرًا غير مُرتَّب؛ إذ جُعِل النَّشرُ في الآية على غيرِ ترتيبِ اللَّفِّ: فذكَر في اللَّفِّ الابيضاضَ قبل الاسوداد، وذكَر في النَّشرِ حُكْمَ مَن اسودَّت وجوهُهم قبل حُكْم مَن ابيضَّت وجوهُهم، فجعل مَطلَع الكلام ومَقطَعه حليةَ المؤمنين وثوابهم، وأَدمَج ذِكْر الآخرين في الأثناء، ونُكْتةُ ذلك: بيان أنَّ المقصودَ من الخَلْقِ الرحمةُ دون العذاب، والتنبيهُ على أنَّ إرادةِ الرَّحمة أكثرُ من إرادةِ الغضبِ[٣].

- وقدَّم عندَ وصْف اليومِ ذِكْرَ البياض، الذي هو شعارُ أهل النَّعيم؛ تشريفًا لذلِك اليوم بأنَّه يومُ ظهورِ رحمةِ الله ونِعْمته، ولأنَّ رحمةَ الله سبَقتْ غضبَه، ولأنَّ في ذِكر سِمَة أهلِ النَّعيم عقِب وعيدِ بالعذاب، حسرةً عليهم؛ إذ يَعلم السامعُ أنَّ لهم عذابًا عظيمًا في يومٍ فيه نعيمٌ عظيمٌ، ثم قدَّم في التَّفصيلِ ذِكرَ سِمَة أهل العذاب؛ تَعجيلًا بمساءتِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٣٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٤).

- وفيه: تلوينُ الخِطاب، وهو أحدُ أنواعِ الالتفات؛ لأنَّ قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ﴾ غَيبة، و﴿أَكَفَرْتُمْ﴾ مُواجَهة[١].

- قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾: جاءَ على صِيغة الأمْرِ، والغرَضُ منه الإهانةُ لهم[٢].

- قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: فيه الجمعُ بين صِيغتي الماضي ﴿كُنْتُمْ﴾ والمستقبل ﴿تَكْفُرُونَ﴾؛ للدَّلالة على استمرارِ كُفرِهم، أو على مُضيِّه في الدُّنيا[٣].

٧- **قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** فيه تفاوتٌ بديعٌ بين التَّقسيمين؛ حيث جمَع لِمَن اسودَّت وجوهُهم بين التَّعنيفِ بالقولِ والعذاب، وهنا جعَلَ من ابيضت وجوههم مُستقرِّين في الرَّحمة، فالرَّحمة ظرْفٌ لهم، وهي شاملتُهم، ولَمَّا أخْبَر تعالى أنَّهم مُستقِرُّون في رحمة الله، بيَّن أنَّ ذلك الاستقرارَ هو على سبيلِ الخُلُود لا زوالَ منه ولا انتقال، وأشار بلفظ (الرَّحمة) إلى سابق عِنايتِه بهم، وأنَّ العبدَ وإنْ كَثُرت طاعته لا يدخُل الجنَّة إلَّا برحمة الله تعالى[٤].

- وقوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن السِّياق، كأنَّه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هُمْ فِيهَا خالدون، لا يَظعَنون عنها ولا يَموتون، وتقديمُ الظرفِ (فيها)؛ للمُحافظة على رؤوس الآي[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٩٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٩).

٨- قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾:

- قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى الآيات المُشتمِلةِ على تنعيمِ الأبرارِ، وتعذيبِ الكفَّارِ، ومعنى البُعدِ في ﴿تِلْكَ﴾؛ للإيذان بعُلُوِّ شأنِها، وسُموِّ مكانِها في الشَّرف[١].

- وقوله: ﴿نَتْلُوهَا﴾: فيه التفاتٌ من الغَيبة إلى التَّكلُّم[٢]، والتَّعبير بنون العظمةِ في ﴿نَتْلُوهَا﴾- مع كون التِّلاوةِ على لِسانِ جبريلَ عليهِ السَّلام-[٣]؛ لإبرازِ كمالِ العناية بالتِّلاوة[٤].

- قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾: تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه؛ فإنَّ تَنكيرَ الظُّلمِ، وتوجيهَ النفيِ إلى إرادتِه بصِيغةِ المضارعِ دونَ نفْسِه، حيث قال: ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا﴾ ولم يقل: (والله لا يظلم)، وتَعليقَ الحكمِ بآحادِ الجَمْع المعرَّف (للعالمين)، والالْتِفاتَ إلى الاسم الجليل (الله)، حيث لم يَقُل: (وما نُريد)؛ إشعارًا بعِلَّة الحُكم- كلُّ ذلك بيانٌ لكمالِ نزاهتِه عزَّ وجلَّ عن الظُّلمِ بما لا مزيدَ عليهِ، أي: ما يُريد فردًا من أفراد الظُّلم لفردٍ من أفراد العالَمين، في وقتٍ من الأوقاتِ، فضلًا عن أنْ يَظلِمَهم؛ فإنَّ المضارعَ كما يُفيد الاستمرارَ في الإثبات يُفيده في النَّفي بحسبِ المقامِ، كما أنَّ الجملةَ الاسميَّة تدلُّ بمعونةِ المقامِ على دوامِ الثُّبوتِ، وعند دخولِ حرفِ النَّفي تدلُّ على دوامِ الانتفاءِ لا على انتفاءِ الدَّوامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٩- ٧٠).

(٣) هذا على قِراءة مَن قرأ ﴿نَتْلُوهَا﴾ بنون العظمة، وأمَّا على قراءة (يَتلوها) بالياء، فليس فيها هذانِ الوجهان.

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٩- ٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٠).

- وفي سِياق هذه الجُملةِ نوعُ إيماءٍ إلى التَّعريض بأنَّ الكفرَةَ هم الظالِمون؛ حيث ظلموا أنفسَهم بتعريضِها للعذابِ الخالد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1] [يونس: ٤٤].

- قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فيه تقديمُ الخبر؛ لإفادةِ الحَصْرِ والتَّخصيص، فالآية تُفيدُ انفرادَ مُلْك الله تعالى بذلك، أي: إنَّ الله وحده هو المالكُ لها، لا غيره[2].

- وأتى بـ (ما) التي لغيرِ العاقل؛ لأنَّهم الأكثرُ فغُلِّبوا، ومِن وجهٍ آخَر أنَّه إذا أُريدت الصِّفة، فإنَّه يُعبِّر بـ (ما) بدَلَ (مَن) ولو في العاقل، مِثْل قوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ولم يَقُل: (مَن طاب)؛ لأنَّه لم يَقصِد عينَ الشَّخص العاقل، بل قصَد الوصفَ والجِنسَ والكمَّ، أي: انكحوا ما طابَ مِن جميلٍ وقبيحٍ وواحدٍ ومُتعدِّدٍ من النِّساء[3].

- وتكريرُ اسم الجلالة (الله) ثلاثَ مرَّات في الجُمَل الثلاث: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ بدون إضمار؛ للقصدِ إلى أنْ تكون كلُّ جُملة مُستقِلَّةَ الدَّلالة بنَفْسها، غير مُتوقِّفة على غيرها، حتى تَصلُح لأنْ يُتَمثَّل بها، وتَستحضِرها النُّفوسُ، وتَحْفظها الأسماع[4].

- قول الله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾؛ الأمور: جمع أمر، وهو مُحلَّى (بأل) فيُفيد العُمُوم، ففيه بيانُ سَعةِ الله تعالى، حيث كانت جميعُ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٧- ٤٨).

الأمور الدَّقيقة والجليلة تُرجَع إليه[١].

- وفيه تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿وَإِلَى اللهِ﴾ على المُتعلِّق ﴿تُرجَعُ﴾؛ لإفادةِ الحَصْر[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٩).

الآيات: (١١٠ - ١١٢)

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾: يُقال: ولَّاهُ دُبُرَه: إذا انهزَم، والتَّولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبال، وأصْل الدُّبر: آخِرُ الشيءِ وخلْفُه، ضد القُبُل[١].

﴿الذِّلَّةُ﴾: الصَّغَار، وأَصْل الذُّلِّ: الخُضُوع، والاستكانة، واللِّين، وهو ضِدُّ العزِّ[٢].

﴿ثُقِفُوا﴾: أُدرِكوا وأُخِذوا، أو وُجِدوا وظُفِر بهم، وأصلُ الثَّقَف: الحِذْقُ في إدراك الشَّيء وفِعله[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٨).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٦).

﴿الْمَسْكَنَةُ﴾: فَقْرُ النَّفْس، من السُّكون والاستكانة، وأصله: الخُضُوع والتَّذلُّل[١].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخاطِب اللهُ أُمَّةَ الإسلام بأنَّهم خيرُ أُمَّة أَخرَجها للنَّاس، وتلك الخيريَّة حازُوها؛ لكونِهم يأمرون بالمعروف ويَنْهون عن المُنكَر، ويُؤمِنون بالله عزَّ وجلَّ.

ولو أنَّ اليهود والنَّصارى آمنوا برسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبما جاء به مِن عند ربِّه تعالى، لكان إيمانُهم خيرًا لهم، لكنَّ مَن آمن منهم قِلَّة، والأكثر استمرُّوا على ما هُمْ عليه، ثمَّ يُخبِر الله أُمَّةَ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ أهلَ الكتاب مهما بلغتْ عداوتُهم لهم، فلن يَضرُّوهم إلَّا أذًى باللِّسان، وإنْ حصَل بينهم وبين المؤمنين قتالٌ يَلوذون بالفِرار، ثم لا يُنصَرون، قد ألْزَمهم الله بالذِّلَّة والصَّغار في أيِّ مكان وُجِدوا فيه، فلا يَستقِرُّون ولا يَطمئنُّون إلَّا بذِمَّة مِن الله، أو بعَهْد من النَّاس، قد استحقُّوا غضَبَ الله، وظهرتْ عليهم آثار الفاقةُ وذُلُّ الحاجة؛ والسببُ كُفْرهم بآيات الله، وقتْلهم الأنبياء ظُلمًا، وما حمَلهم على الكُفْرِ والقتلِ هو عِصيانُهم لله، وتجاوزهم حدودَ ما شرَعه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كانتِ الآيةُ السَّابقة وهي قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٠٥).

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أمرًا منه تعالى لهذه الأُمَّة، والأمرُ قد يَمتثِله المأمورُ ويقوم به، وقد لا يقوم به؛ أَخبَر في هذه الآية أنَّ هذه الأُمَّة المحمديَّة قد قامتْ بما أمَرها الله بالقيام به، وامتَثلتْ أمرَ ربِّها، واستحقَّتِ الفضلَ على سائر الأمم[١]، فقال تعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

أي: أنتم - يا أُمَّة الإسلامِ - قد جُعِلتم خيرَ الأمم وأكرمَها على الله تعالى؛ لأسبابٍ أَنعَم الله بها عليكم، فتميَّزتُم وفُقْتُم مَن سبَقكم، وكنتم أنفع النَّاس للنَّاس[٢].

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

أي: حُزْتم خيريَّتكم بأمركم النَّاسَ بكلِّ ما يأمر به الشَّرعُ، ونهيِكم لهم عن كلِّ ما ينهى عنه الشَّرعُ، ولأنَّكم تُقِرُّون بالله تعالى وجودًا ورُبوبيَّة وأُلوهيَّة وبما له من أسماء وصفات، وتُتْبِعون ذلك بالانقياد لِما أمَر واجتناب ما نهى سبحانه[٣].

فجمَعوا بين تكميلِ الخَلْق، والسَّعيِ في منافعِهم بحسَب الإمكان، وبين تكميلِ النَّفْس بالإيمانِ بالله تعالى، والقيامِ بحقوق الإيمان[٤].

عن مُعاويةَ بن حَيْدَةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّهُ سمِعَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٣-٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣-٩٧٢).

وكان هنا تامَّة، وذهَب إلى ذلك جمْعٌ من المفسِّرين . يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩٤)، وقيل: (كان) هنا ليستْ دالَّةً على زمان، وإنَّما هي مُبيِّنةٌ لاتِّصافِ المبتدأ بالخبر، وتَحقُّق وجودِه فيه. ينظر ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧٦-٦٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣-٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين - آل عمران)) (٢/ ٤٨-٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٢).

يقولُ في قولِهِ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: ((إنَّكم تُتِمُّون سبعينَ أمَّةً، أنتم خيرُها وأكرمُها علَى اللَّهِ))[١].

وعن أَبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّه قال عن قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: (خيرَ النَّاس للنَّاس، تأتون بهم في السَّلاسِلِ في أَعناقِهم، حتى يَدخُلوا في الإسلام)[٢].

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

مناسبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا مدَح الله تعالى هذه الأُمَّةَ على تلك الصِّفات التي نالوا بها الخيريَّة من الإيمان بالله تعالى والأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، شرَع في تأنيبِ أهلِ الكتاب، الذين ذمَّهم في آيةٍ أخرى بقوله سبحانه: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[٣] [المائدة: ٧٩].

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

أي: ولو آمَن أهلُ التَّوراة والإنجيلِ من اليهود والنَّصارى بمحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما جاءَهم به من عند اللهِ عزَّ وجلَّ، لاهتَدَوْا، وكان ذلك خيرًا لهم عندَ الله تعالى في دُنياهم، وآخرتهم[٤].

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجة (٤٢٨٨)، وأحمد (٢٠٠١٥)، وعبد بن حميد (٤٠٩)، والطبري في ((التفسير)) (٧٦٢٢) بألفاظ متقاربة.
حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ١١٢)، وجوَّده ابن تيمية في ((الجواب الصحيح)) (٢/ ٢٣٢)، وقال ابن حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٧٣):حسن صحيح وله شاهد مرسل رجاله ثقات. وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٢٣٠١)، وصحَّحه الوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (١١٣٢).

(٢) رواه البخاري (٤٥٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧٧-٦٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣-٩٧٢).

﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أي: ولكنْ لم يُؤمِنْ منهم إلَّا القليلُ، وأمَّا أكثرُهم فخارجون عن طاعةِ ربِّهم، وخارجون عن دِينِهم، الذي فيه الأمرُ باتِّباع محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبيانُ صفاته[١].

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

هذا استئنافٌ نشأَ عن قولِه: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ لأنَّ الإخبارَ عن أكثرِهم بأنَّهم غير مؤمنين يُؤذِن بمُعاداتِهم للمؤمنين، وذلك مِن شأنه أنْ يُوقِع في نُفُوس المسلمين خَشيةً من بأسِهم[٢]، فقال تعالى:

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾.

أي: لن يَضُرَّكم- يا أُمَّة محمَّد- هؤلاء الفاسقون من اليهود والنَّصارى، في دِينِكم ولا في أبدانِكم، وإنَّما غايةُ ما تَلْقَون منهم أَذيَّةَ اللسان، كإسماعِكم كُفْرَهم، ودُعائِهم إيَّاكم إلى الضَّلالة، ولا يَضرُّونكم بذلك[٣].

﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾.

أي: قد ردَّ الله تعالى كيدَهم في نُحُورهم؛ فإنَّهم لو قاتَلوكم لَلَاذُوا بالفِرار، ثم تستمرُّ هزيمتُهم، ويدومُ ذُلُّهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣-٩٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧٨-٦٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّه لا ينالُ المؤمنين ضررٌ من أهل الكتاب، وأنَّهم لو قاتَلوا المؤمنين لولَّوُا الأدبارَ فِرارًا، فلمَّا أَخبَر عنهم سبحانه وتعالى بهذا الذُّلِّ أَتْبَعه الإخبارَ بأنَّه في كلِّ زمان وكلِّ مكان مُعاملةً منه لهم بضدِّ ما أرادوا، فعوَّضهم عن الحِرصِ على الرِّئاسة إلزامَهم الذِّلَّةَ، وعن الإخلادِ إلى المال ضرْبَ المسكنة عليهم [(١)]، فقال:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾.

أي: أُلزِم اليهودُ الذِّلَّةَ والصَّغار، فجُعِل ذلك أمرًا محتومًا عليهم، لا يُفارِقهم حيثما وُجِدوا وأينما كانوا، لكنَّهم يَأمَنون على أموالِهم وأنفسِهم وذَراريهم بعهدٍ مِن الله تعالى، وعهدٍ من النَّاس [(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨١-٦٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٢- ٦٥).

قيل: المرادُ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ﴾ أي: بذِمَّة من الله، وهو عقدُ الذمَّة لهم، وضرْب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام المِلَّة. وهذا اختيارُ ابن كثير في ((تفسيره)) (٢/ ١٠٤)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٩٧٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٤/ ٥٦).

وقيل: المرادُ بقوله سبحانه: ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: أمان منهم ولهم، كما في المُهادَن والمُعاهَد والأسير إذا أمَّنه واحدٌ من المسلمين. وهذا اختيار ابن كثير في ((تفسيره)) (٢/ ١٠٤).

وقيل المراد: إذا كانوا تحتَ ولاية غيرِهم ونظارتهم أو إذا استنصروا بقبائلَ أو دولٍ أُولي بأس شديد. وهذا اختيارُ السعدي في ((تفسيره)) (ص: ٩٧٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٤/ ٥٦)، واختار ابنُ عثيمين أنَّ ظاهر اللفظ العمومُ فيشمل كِلَا القولين. يُنظر: ((تفسير ابن

﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: قد انصرَفوا مُستحقِّين غضبَ الله عليهم[١].

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾.

أي: كما أُلزِموا قَدَرًا وشرعًا بالذُّلِّ في بَواطنِهم، عُوقِبوا كذلك ببُدوِّ أَثَرِ الحاجةِ وذُلِّ الفاقةِ على ظَواهِرهم[٢].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

أي: وقعتْ عليهم هذه العقوباتُ المذكورة؛ بسببِ كُفْرهم الدَّائم بدلائل الحقِّ بغيًا وعِنادًا، وقتْلِهم المستمرِّ لأنبيائه عليهم السَّلام ظلمًا واعتداء[٣].

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

أي: إنَّما حمَلهم على هذا الكُفرِ والقتلِ أنَّهم مُقيمون على معصيةِ الله عزَّ وجلَّ، ومُستمِرُّون في الاعتداء على حدود شَرْع الله تعالى، فهذا الذي أوصَلهم إلى التجرُّؤ على الكفرِ بالله سبحانه، وقتْلِ أنبيائه عليهم السَّلام[٤].

عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٤-٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٧).
وممَّن فسَّر من السلف ﴿الْمَسْكَنَةُ﴾ بالفاقة: أبو العالية، والسُّدِّي، والربيع. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٧٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٧-٦٨٨))، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٨))، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

الفَوائِد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فيه فضيلةُ الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنَّهما أساسُ خيريةِ الأمَّة وأفضليتها على غيرِها، ومناطُ رِفعتها، وأنَّ خيريَّةَ الأُمَّةِ وفضْلها على غيرِها، تكون بالقيامِ بالأمر بالمعروف والنَّهيِ عن المُنكَر، المُتضمِّن لدعوة الخَلْقِ إلى الله، وجهادِهم على ذلك، ولا توجد الأُمَّةُ وجودًا حقيقيًّا إلا بتوافُر هذه السِّمة، فكلَّما وُجِدتْ هذه الفريضةُ في الأُمَّة وُجِدَ الخيرُ فيها، وكلَّما ضَعُفت فيها ضَعُف الخيرُ[(١)].

٢- قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فيه الحَذَرُ من الكفر بآياتِ الله؛ والمعصية والاعتداء؛ لأنَّها سببٌ للعقوبات، فقد جعَل الله تعالى على اليهودِ الذِّلَّةَ والغضبَ والمسكنةَ لازِمًا لهم؛ بسبب هذه الأفعال[(٢)].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- ذِكْر الحُكم مقرونًا بالوصف المناسِبِ له يدلُّ على كونِ ذلك الحُكم مُعلَّلًا بذلك الوصف، يَقْوَى بقوَّته ويَضعُف بضَعْفه، وفي قول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ حكَمَ تعالى بثُبوت وصْف الخيريَّة لهذه الأُمَّة، ثم ذكَر عُقَيبه هذه الطاعات: الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، والإيمان؛ فوجَب كونُ تلك الخيريَّة مُعلَّلةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٧٣).

بهذه العبادات[١].

٢- تفضيلُ الله لهذه الأمةِ بالأمرِ بالمعروفِ، والنَّهي عن المنكرِ في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فيه ضمانٌ من الله تعالى بأنَّ هذه الشَّعيرةَ لا تَنقطِعُ من المسلمين إنْ شاء اللهُ تعالى[٢].

٣- قول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فيه دليلٌ على حُجِيَّة الإجماع وعِصْمة الأُمَّة من الخطأ؛ فإنَّ (الألف واللام) في لفْظ (بالمعروف) ولفظ (المُنكَر) يُفيدان الاستغراقَ، وهذا يَقتضي كونَهم آمِرين بكلِّ معروف، وناهين عن كلِّ مُنكَر، ومتى كانوا كذلك كان إجماعُهم حقًّا وصِدقًا لا مَحالة[٣].

٤- في قول الله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ قدَّم تعالى الأمرَ بالمعروف والنَّهي عن المنكرِ على الإيمانِ باللهِ لعِدَّة أسباب؛ منها:

- التنويهُ بفضيلةِ الأمْر بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر[٤].

- ولَمَّا كان الكلامُ في خيريَّة هذه الأُمَّة على جميعِ الأمم مُؤمِنهم وكافِرهم قدَّم الوصفَ المُتَّفَق على حُسْنه عندَ المؤمنين والكافرين[٥].

- ولأنَّ الأمرَ بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر سِياجُ الإيمان وحِفاظُه، فكان

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٥٢).

تقديمُه في الذِّكر مُوافِقًا لمعهودٍ عندَ الناس في جَعْل سياجِ كلِّ شيء مُقدَّمًا عليه[١].

- وأيضًا تعريضًا بأهل الكتاب الذين كانوا يَدَّعون الإيمان، ولا يَقدِرون على ادِّعاءِ القيام بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكَر[٢].

- ولأنَّه هو الوصْفُ المؤثِّر في حصولِ هذه الخيريَّة لهذه الأُمَّة؛ إذ الإيمان قدَرٌ مُشترَك بين كلِّ الأمم المحِقَّة، والمؤثِّر في حصول هذه الزِّيادة هو كون هذه الأمَّة أقوى حالًا في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر من سائر الأمم، وأمَّا الإيمانُ بالله فهو شرطٌ لتأثيرِ هذا المؤثِّر في هذا الحُكم؛ لأنَّه ما لم يوجدِ الإيمان لم يَصِرْ شيءٌ من الطَّاعات مؤثِّرًا في صِفة الخيريَّة[٣]، وللدَّلالة على أنَّهم أمَروا بالمعروف ونَهوا عن المنكر إيمانًا بالله، وتصديقًا به، وإظهارًا لدِينه[٤].

٥- قول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ فيه أنَّ العامِلين يَتفاضلون[٥].

٦- قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فيه جوازُ تَعدُّد العِلل لمعْلولٍ واحد[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسر المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٤).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾** استئنافٌ مُبيِّن لكونِهم خيرَ أُمَّة[١]، وتعليل لأمْرهم بالدَّعوة إلى الخيرِ[٢].

- وعبَّر بصِيغة الاستقبال (تأمرون- وتَنْهون)؛ للدَّلالة على الاستمرارِ، والخِطابُ وإنْ كان خاصًّا بمَن شاهَد الوحيَ من المؤمنين، لكنَّ حُكمَه عامٌّ للكلِّ[٣].

- والمراد بـ﴿أُمَّة﴾: عمومُ الأُمم كلِّها- على ما هو المعروفُ في إضافة أفعل التَّفضيل إلى النَّكرةِ أنْ تكون للجِنس، فتُفيد الاستغراق[٤].

- وفيه إيجازٌ؛ حيث اكتفَى بذِكر الإيمان بالله، ولم يذكُر الإيمانَ بالنُّبوَّة مع أنَّه لا بدَّ منه؛ لأنَّ الإيمانَ بالله يَستلزِم الإيمانَ بالنُّبوَّة؛ لأنَّ الإيمانَ بالله لا يَحصُل إلا إذا حصَل الإيمان بكونه صادقًا، والإيمان بكونه صادقًا لا يَحصُل إلَّا إذا كان الذي أَظهَر المعجِزَ على وَفْق دعواه صادقًا، وكان الاقتصارُ على ذِكْر الإيمان بالله تنبيهًا على هذه الدَّقيقة[٥].

٢- **قوله: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾** فيه تعريضٌ بأهلِ الكتابِ من اليهودِ وغيرِهم أنَّهم مُتوقِّفونَ في اتِّباع الإسلام، مع إمكانِ تحصيلِهم على هذا الفضلِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٢).

٣- **قوله:** ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

- الألف واللَّام في ﴿المُؤْمِنُونَ﴾ وفي ﴿الفَاسِقُونَ﴾ للدلالة على المبالَغةِ والكمالِ في الوصفينِ، وذلك ظاهرٌ؛ لأنَّ مَن آمَن بكتابه وبالقرآن فهو كاملٌ في إيمانه، ومَن كذَّب بكتابه؛ إذ لم يتَّبِع ما تَضمَّنه من الإيمانِ برسول الله، وكذَّب بالقرآنِ، فهو أيضًا كامِلٌ في فِسْقه، مُتمرِّد في كُفْره[١].

- قول الله تعالى: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾، لم يَقُل: (منهم مؤمنون)، فـ(أل) للعَهْد الذِّهنيِّ، فالمقصود الإيمان المعهود عندكم- أيُّها المسلمون- وهو الإيمانُ برسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

٤- **قوله:** ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ فيه مُبالَغةٌ في عدمِ مكافحةِ الكُفَّارِ للمؤمنين إذا أرادوا قِتالَهم، وأنَّهم ليسوا ممَّن يَغلِب ويَقتُل وهو مُقبِلٌ على محاربه غيرُ مُدبِرٍ عنه، وهذه الجملة جاءتْ كالمؤكِّدة للجملةِ قَبلها ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾؛ إذ تضمَّنت الإخبارَ أنَّهم لا تكونُ لهم غَلَبَةٌ ولا قَهْر، ولا دولةٌ على المؤمنين؛ لأنَّ حصولَ ذلك إنَّما يكون سَببَه صِدْقُ القتال والثَّبات فيه، أو النَّصرُ المستمدُّ من الله، وكِلاهما ليس لهم[٣].

- وأتى بلفظِ (الأدبار) لا بلفظِ الظُّهور؛ لِمَا في ذِكر الأدبارِ من الإهانة دون ما في الظُّهور، ولأنَّ ذلك أبلغُ في الانهزامِ والهَرَب[٤].

٥- **قوله:** ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ فيه من وجوهِ البلاغةِ ما يأتي:

- في قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ عدولٌ عن جَعْلِه معطوفًا على جُملةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

جوابِ الشرط ﴿يُولُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ إلى الاستئنافِ والإِخْبارِ ابتداءً؛ كأنَّه قيل: ثُمَّ أُخْبِرُكم أنَّهم لا يُنصَرونَ؛ إشارةً إلى أنَّ الخِذْلانَ ديدنُهم وهِجِّيراهُم؛ لأنَّ المقصودَ أنَّهم مع تولِّيهم الآنَ لا يُنصرونَ مُطلقًا قاتلوكم أو لم يقاتلوكم، وفيه تثبيتٌ للمؤمنينَ على أتمِّ وَجْهٍ، ولو عُطِفَ على الجواب﴿يُولُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ لكان مقيَّدًا بمقاتَلَتِهم، ولفظة ﴿ثُمَّ﴾ دلَّت على التَّراخي والمُهْلَةِ الملائمَةِ لِمَا قُصِدَ مِنَ الاستقبالِ، إشارةً إلى أنَّ هؤلاء اليهودَ قومٌ لا يُنصَرون ألبتَّةَ، مهما واتتْهم الإمكاناتُ، ومهما أُغدِقت عليهم المساعدات، و مجيء حرْف العَطفِ (ثمَّ)؛ لأنَّ الكلامَ لو عُطِف بالواوِ مثلًا لظَنَّ قِصارُ النَّظر أنَّ المسلمين إنَّما وُعِدوا بالنَّصر في تلك الحالة ليس غيرُ، فدفَع هذا الظنَّ بكلمة (ثمَّ) التي تَقطُع هذا الشكَّ باليقين، مؤكِّدًا أنَّ النتيجة الحتميَّة هي النَّصر المؤزَّر للمؤمنين؛ فقطع على هؤلاء الظَّانِّين الطريقَ لالتِماس المعاذير للتَّخلُّف عن الجهاد[1]، أو تكون (ثم) هنا ليستْ للمُهْلة في الزَّمان، وإنَّما هي للتَّراخي في الإخبار، فالإخبارُ بتولِّيهم في القتال، وخِذلانهم، والظَّفَر بهم أَبْهجُ وأَسَرُّ للنَّفْس، ثُمَّ أَخبَر بعد ذلك بانتفاء النَّصرِ عنهم مُطلَقًا[2].

٦- **قوله:** ﴿**وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ**﴾ التَّنكيرُ في (بغضب)؛ للتَّفخيم والتهويل، و(مِن) في قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ مُتعلِّقةٌ بمحذوف وقَع صفةً لغضب مُؤكَّدةٌ؛ لِما أفاده التَّنكيرُ من الفخامة والهول، أي كائن من الله عزَّ وجلَّ[3]، فتأكَّد التَّفخيم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٣)، ((خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية)) لعبد العظيم المطعني (١/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٢).

بالوصف في قوله تعالى (مِنَ اللَّهِ)[١].

٧- **قول الله تعالى**: ﴿**بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾ لبيانِ الواقِعِ، والدَّلالةِ على أنَّ هذا القتْلَ كان عُدوانًا وظلمًا، فقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ليس قيدًا، ولكنَّه كشفٌ وإيضاحٌ؛ لأنَّه لو كان قيدًا للزمِ من ذلك أنْ ينقسِمَ قتْلُ الأنبياءِ إلى قِسمين: قسم بحقٍّ، وقِسم بغير حقٍّ، وهذا لا يكون؛ لأنَّ قتْلَ الأنبياءِ كلَّه يكونُ بغيرِ حقٍّ؛ والمقصود بقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ شِدَّةَ التوبيخِ لهؤلاء، وأنَّهم يَقْتُلون أشرفَ الخلقِ بغيرِ حقٍّ، وللدَّلالة أيضًا على أنَّه لم يكُن حقًّا بحسَبِ اعتقادِهم أيضًا[٢].

٨- قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ﴾ مع قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: فيه نشْرٌ ولفٌّ؛ فكُفْرهم بالآيات سببُه العِصيان، وقتْلهم الأنبياء سببُه الاعتداءُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٩- ١٤٠)، (٢/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٧).

الآيات: (١١٢ - ١١٥)

﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: ساعاته، وآناء جمْعٌ، مُفْرده: إِنْيٌ وإِنًى وأَنًا، وأصْله: ساعة من الزَّمان[١].

﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾: أي: فلن يُحرَموه، ولن يَضيعَ ولن يَنقُص ثوابُه ألبتَّةَ، وأصْل الكُفر: السَّتر والتَّغطية[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّ أهلَ الكتاب ليسوا جميعُهم سواءً؛ فكما أنَّ فيهم طائفةً مذمومة، فهناك طائفةٌ هداهم اللهُ فأسْلَموا، فهم مُستمسِكون بالحقِّ، يَقرؤون كتابَ الله في صلواتهم التي يؤدُّونها في ساعاتِ الليل، ويؤمنون بالله تعالى، وباليوم الآخر وما يتعلَّق به، كما يأمرون غيرهم بالمعروف ويَنْهونهم عن المُنْكر، ويُبادِرون إلى فِعْل الخيرات، وهؤلاء الذين يَفعلون هذا الفعلَ هم مِن الصَّالحين، وما يقومون به من عملٍ من أعمال الخير، فلن يَذهب سُدًى، والله سبحانه عالِم بأهل التَّقوى ومُطَّلِع عليهم، وسيَجزيهم على تقواهم.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١) (٥/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣، ٢٦٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى الفِرْقةَ الفاسقةَ من أهل الكتاب، وبيَّن أفعالَهم وعقوباتِهم، بيَّن هاهنا الأُمَّةَ المستقيمة، وبيَّن أفعالَها وثوابَها[1]، فقال:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾.

أي: ليس جميعُ أهلِ الكتاب على حدٍّ سواء، فلا يَستوي مَن تقدَّم ذمُّهم من أهلِ الكتاب، وهؤلاء الذين أَسْلَموا منهم، فإنَّ منهم جماعةً ثابتة على الحقِّ، مُتمسِّكة به، مستقيمةً على هَدْي القرآن والسُّنَّة[2].

﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

أي: يَقرؤون كتابَ الله تعالى في صلاتِهم في ساعات اللَّيل[3].

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى من صِفات تلك الأُمَّة، تَهجُّدها وقيامها، ذكَر ما أَثمَر لهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣-١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٩-٦٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٧-٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٩٥-٦٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٨).

هذا التَّهجُّدُ، وهو الإيمان[١]، فقال:

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾.

أي: يُؤمنون بالله تعالى، وبكلِّ ما يتعلَّق باليوم الآخِر من بعدِ الموت: كالبعث، والحشر، والجزاء على أعمالِهم، ودخولِ الجنَّة أو النَّار وغير ذلك، ولا يَكْتفون بتطهيرِ قلوبِهم وصلاح أنفسهم، بل يَسْعون أيضًا في إصلاحِ الآخَرين، فيأمرونهم بكلِّ ما أمَر به الشَّرع من مُعتقَدات وأعمال، ويَنْهَوْنهم عن كلِّ ما نهى عنه الشَّرعُ مِن مُعتقَداتٍ وأعمال، ويَبتدِرون فِعْلَ الخيرات، ويَنتهِزون الفرصَ إليها؛ خَشيةَ الفَواتِ بحلول وقتِ الممات[٢].

﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ الذين قاموا بهذه الأعمالِ الجليلةِ ممَّن أَسلَم من أهل الكتاب هم في الحقيقةِ من عِداد الصَّالحين[٣].

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ قراءتان:

١- ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ بياءِ الغَيبة، على أنَّ المرادَ الطَّائفةُ المؤمنةُ من أهل الكتابِ التي تقدَّم ذِكْرُها[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٧٧، ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٠).

(٤) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وحفص. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤١).

٢- (وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ تُكْفَرُوهُ) بتاءِ الخطابِ على أنَّ الخطابِ لأُمَّة محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(١)].

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾.

أي: إنَّ كلَّ ما يَعمَله مَن أَسلَم مِن أهل الكتاب، مِن خير (قليلًا كان أو كثيرًا) فلن يُجحَد ويَذهَب سُدًى بلا ثوابٍ ولا مُجازاة، بل سيُشكَرون على ما فَعلوا، ويُجزَون عليه أوفرَ الجزاء[(٢)].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يَخْفى عليه كلُّ مَن قصَد تقواه، وأراد رِضاه، بامتثالِ أوامرِه واجتنابِ نواهيه، وسيُثيبُهم، ولن يُضيعَ أجرَهم[(٣)].

الفَوائِد التَّربويَّة:

١- بيانُ عدْلِ الله تعالى، وأنَّه يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلَمَّا ذمَّ أهلَ الكتاب في الآيات السَّابقة، فقد يتوجَّه الفَهْمُ إلى أنَّ جميعَ أهل الكتاب على هذا الوصفِ مِن أنهم يَكْفُرون بآياتِ الله، ويَقتُلون الأنبياءَ بغير حقٍّ، ويَعْصون الله

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٦٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٧٠-١٧١).

(١) قرأ بها الباقون ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ تُكْفَرُوهُ﴾. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٦٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٧٠-١٧١).

(٢) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٩).
وقيل المراد: من كان على استقامة من أهل الكتاب قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٩-٧٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٧-٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٢، ٩٧٣).

ويَعتَدون على حقِّه وحقِّ عباده؛ فقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: منهم مَن ليس كذلك[١]، فينبغي العدلُ والإنصافُ حتى مع المخالِفين.

٢- قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ فيه أنَّه ينبغي أن يكون اعتناءُ قارئِ القرآنِ بقراءةِ اللَّيلِ أكثرَ، وإنَّما رَجَحَت صلاةُ اللَّيلِ وقراءتُه؛ لكَونِها أجمَعَ للقَلْبِ، وأبعَدَ عن الشَّاغلاتِ والـمُلْهياتِ، والتصرُّفِ في الحاجات، وأصونَ عن الرِّياءِ وغَيْرِه مِنَ الْمُحْبِطات[٢].

٣- قول الله تعالى ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يدلُّ على أهميَّة الأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكَر؛ وذلك لأنَّه بعد تكميلِ المؤمنين أنفسَهم بالإيمانِ ولَوازِمه، يَسْعَون في تكميلِ غيرِهم من النَّاقِصين، وذلك بأمرهم بكلِّ خيرٍ، ونهيهم عن كلِّ شرٍّ، فهذا هو الغاية القُصوى في الكمال[٣].

٤- قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ فيه الحثُّ على التَّقوى، فالأعمالُ ثوابُها تَبَعٌ لِمَا يقوم بقلْب صاحبها من الإيمان والتَّقوى، ولا يفوز عند الله تعالى إلا أهل التَّقوى[٤].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، جاء ذِكْرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في آداب حملة القرآن)) للنووي (ص: ٦٣، ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٥).

الإيمان بالله واليوم الآخِر بعد ذِكْر تِلاوة الآيات؛ لأنَّه لا يُمكِن الإيمان بالشَّيء إلا بعد العِلم به، فهم إذا تَلَوا آياتِ الله، علِموا باليوم الآخر، ثم آمنوا به[١].

٢- في قول الله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ خصَّ ذِكْر الإيمان بالله تعالى؛ لأنَّه يَستلزِمُ الإيمان بجميعِ أنبيائه ورُسله[٢].

- وخصَّ الإيمان باليومِ الآخِر؛ لأنَّ الإيمانَ الحقيقيَّ باليوم الآخِر يَستلزِمُ الحذرُ من المعاصي، فيحثُّ المؤمنَ به على فِعلِ ما يُقرِّبه إلى الله، ويُثاب عليه في ذلك اليوم، وترْكِ كُلِّ ما يُعاقَب عليه في ذلك اليوم[٣].

٣- قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ يدلُّ على أنَّه مَن فعَل خيرًا أُعطي عليه أجرَه كاملًا بلا نَقْص؛ لأنَّ المرادَ بالنَّفي هنا تمامُ الإثبات[٤].

٤- قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ لَمَّا أخْبَر تعالى عن عدمِ الحِرمان والجزاء، أقام ما يَجري مجرَى الدَّليل عليه، وهو أنَّ عدمَ إيصال الثَّواب والجزاء إمَّا أنْ يكون للسَّهوِ والنِّسيان، وذلك مُحالٌ في حقِّه؛ لأنَّه عليمٌ بكلِّ المعلومات، وإمَّا أنْ يكون للعجزِ والبخل والحاجة، وذلك مُحالٌ؛ لأنَّه إلهُ جميع المُحدَثات؛ فاسمُ الله تعالى يدلُّ على عدم العجز والبُخْل والحاجة، وقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ يدلُّ على عدم الجهل، وإذا انتَفتْ هذه الصِّفات امتَنَع المنعُ من الجزاء[٥].

٥- قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ خَصَّ اللهُ تعالى المتَّقِين بالذِّكر

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٥).

مع أنَّه تعالى عالم بكلِّ النَّاس؛ بِشارةً للمُتَّقين بجزيل الثَّواب، ودَلالةً على أنَّه لا يفوز عنده إلا أهل التَّقوى[١].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿**لَيْسُوا سَوَاءً**﴾ استئنافٌ قُصِد به إنصافُ طائفةٍ من أهل الكتاب، بعد الحُكم على مُعظمهم بصِيغة تَعُمُّهم؛ تأكيدًا لِمَا أفاده قوله: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، فالضميرُ في قوله: ﴿لَيْسُوا﴾ لأهل الكتاب المُتحدَّث عنهم آنفًا، وهم اليهود، وهذه الجملةُ تتنزَّل من التي بعدها مَنزِلة التَّمهيد[٢].

٢- **قوله:** ﴿**مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ**﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لكيفيَّة عدمِ تَساويهم، ومُزيلٌ لِمَا فيه من الإبهامِ في قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾، ووضَع ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ مَوضعَ الضَّميرِ العائدِ إليهم حيث لم يَقُل (منهم أُمَّةٌ قائمة)، فأَظهَر في مَوضِع الإضمار، وقال: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ لتحقيقِ ما به الاشتراكُ بين الفريقين، والإيذانِ بأنَّ تلك الأُمَّةَ ممَّن أوتي نصيبًا وافرًا من الكتاب لا مِن أرذالهم؛ اهتمامًا بتِلك الأُمَّة[٣]، وليكون هذا الثَّناءُ شاملاً لصالحي اليهود، وصالحي النَّصارى، فلا يختصُّ بصالحي اليهود[٤].

- وجاءَ باسم الفاعلِ ﴿قَائِمَةٌ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الاستقامةَ وصْفٌ ثابتٌ لتِلك الأُمَّة لا يتغيَّر[٥].

٣- **قوله:** ﴿**يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ**﴾:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٢).

- التَّصريحُ بتِلاوتِهم آياتِ الله في الصَّلاة، مع أنَّها مُشتمِلةٌ عليها قطعًا؛ لزيادة تحقيقِ المُخالفةِ، وتوضيحِ عدمِ المُساواةِ بينهم وبين الذين وُصِفوا آنفًا بالكفرِ بها، وهو السِّرُّ في تقديم هذا النَّعْتِ على نعت الإيمانِ[١].

- وتخصيصُ السُّجودِ في قوله: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ بالذِّكرِ من بين سائرِ أركانِ الصَّلاةِ؛ لكونِه أدلَّ على كمالِ الخضوعِ[٢].

- وجملةُ ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ حالٌ، أي: يتهجَّدون في الليل بتِلاوة كتابِهم- أي: القرآن بعد أنْ صاروا مُسلمين- فقُيِّدتْ تلاوتُهم الكتابَ بحالةِ سجودهم، وهذا الأسلوب أبلغُ وأَبْينُ مِن أنْ يُقال: يتهجَّدون؛ لأنَّه يدلُّ على صورة فِعْلهم[٣].

- والتَّعبير بالجُملةِ الاسميَّة؛ للدَّلالةِ على الاستمرار، وتكريرُ الإسنادِ بتكرُّر الضَّمير، وهو (هم)؛ لتقوية الحُكْمِ وتأكيدِه[٤].

- وصِيغةُ المضارع (يَتْلُونَ- يَسْجُدُونَ)؛ للدَّلالة على التَّجدُّد[٥].

٤- **قال تعالى:** ﴿**وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**﴾ لم يَقُل: (إِلَى الْخَيْرَاتِ) مع أنَّ الفعل (سَارَعَ) يَتعدَّى بـ(إلى)؛ إيذانًا بأنَّهم يُسارعون في أعمالِ الخيرِ، وهم داخلونَ فيها، لا أنَّهم خارجونَ عنها، أو مُنتهون إليها[٦].

٥- **قوله:** ﴿**وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ الإشارةُ بـ﴿أُولَئِكَ﴾ وما فيه من معنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٢٥٠)، ((تفسير المنار)) (٦/ ٣٢١) ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٧٩).

البُعْد؛ للإيذان بعُلُوِّ دَرجتِهم، وسُموِّ طبقتِهم في الفضلِ، وإيثارُه على الضَّميرِ؛ حيث لم يَقُل: (وهم من الصَّالحين)؛ للإشعارِ بعِلَّة الحُكم والمدح، أي: أولئك المنعوتون بتلك الصِّفاتِ الفاضِلة بسببِ اتِّصافِهم بها[١].

٦- **قوله:** ﴿**وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ**﴾ على قراءة ﴿تَفْعَلُوا.. تُكْفَرُوهُ﴾- بالتَّاء- يكون فيه التِفاتٌ من الغَيبة إلى الخِطاب[٢].

- قوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ نكرةٌ في سياق الشَّرط يُفيد العُمُوم؛ ففيه ثُبُوت الثَّواب على عملِ الخير قليلًا كان أم كثيرًا[٣].

٧- **قوله:** ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ**﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبلَه؛ فإنَّ عِلمَه تعالى بأحوالهم يَستدعي تَوْفيةَ أُجورِهم لا محالة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٤).

الآيتان: (١١٦ - ١١٧)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿صِرٌّ﴾: أي: بَرْدٌ شديد، وأصْل الصِّرِّ: الشَّدُّ؛ وأطلِقَ على البردِ الشَّديد؛ لِمَا في البُرودةِ من التَّعقُّد. أو الصرُّ: هو صَوتُ الرِّيحِ الشَّديدة، أو: صوتُ لهبِ النَّارِ التي كانتْ في تِلك الرِّيح، وأصلُه مِن الصَّرير الذي هوَ الصَّوتُ، من قولهم: صرَّ الشَّيءُ، ومنه: الرِّيح الصَّرصر[(١)].

﴿حَرْثَ﴾: أي: زَرْع، والحَرْث: إلقاءُ البَذْر في الأرض وتهيُّؤها للزَّرع، ويُسمَّى المحروث حَرْثًا، وأصْل الحَرْث: الجَمْع والكَسْب[(٢)].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّ الكُفَّارَ لا ينُجِّيهم ما معهم من أموالٍ وأولادٍ من عذابِ الله تعالى، بل هم أصحابُ النَّار المُلازِمون لها أبدًا، وأنَّ ما يُنفِقه هؤلاء الكُفَّار في الدُّنيا من أموال، مَثلُه كمَثل مَن زرَعَ زرعًا يَرجو منفعتَه، لكن أصابتْه رِيحٌ عاصِفٌ شديدةُ البرودة، فأهلكتْ ذلك الزَّرعَ، فلم يَستفِدْ منه شيئًا، ولم يَظلِمِ اللهُ هؤلاء

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٠- ٥٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٤، ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦).

الكُفَّارَ بإحباطه لأعمالهم، لكن هم مَن ظلموا أنفَسهم بكُفْرهم وحِرْصِهم على إطفاءِ نورِ الله.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وصَف الله تعالى مَن آمَن مِن الكفَّارِ بما تقدَّم من الصِّفات الحسنة، أَتْبَعه تعالى بوعيدِ الكفَّار، فذكَر شيئًا من أحوالِ المؤمنين، ثم ذكر شيئًا من أحوال الكافرين؛ ليتَّضِح الفَرقُ بينهما[١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّه لا يَرُدُّ بأسَ الله عن الكفَّار شيءٌ؛ فلا تدفعُ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم- التي حسبوها نافعةً لهم في الشَّدائد والمكاره- لا تدفعُ عنهم شيئًا من عذابِ الله تعالى في الدُّنيا والآخرة، ولا تكون سببًا في رَحْمتهم[٢].

﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: سيَظَلُّون مُلازِمين لنار جَهنَّمَ ما كِثين فيها بلا نهايةٍ[٣].

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٢-٧٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ أموالَ الكفَّار لا تُغْني عنهم شيئًا، ثم إنَّهم ربَّما أَنفَقوا أموالهم في وجوه الخيرات، فيَخطُر ببالِ الإنسان أنهم يَنتفِعون بذلك، فأَزال اللهُ تعالى بهذه الآية تلك الشُّبْهةَ، وبيَّن أنَّهم لا يَنتفِعون بتلك الإنفاقات، وإنْ كانوا قد قصَدوا بها وجهَ الله [(١)]، فقال:

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾.

أي: إنَّ ما يُنفِقه الكفَّارُ من صَدَقاتٍ، وما يُنفِقونه من أموالٍ للصدِّ عن سبيل الله تعالى، نفقاتٌ باطِلة، وثوابها الذي يَرْجونه مُضمَحِلٌّ عند الله عزَّ وجلَّ، وشَبَّه الله تعالى ذلك بهُبوب ريحٍ عاصفٍ شديدةِ البرودةِ، قويَّة الصَّوت، قد سُلِّطتْ على زرع أُناسٍ استَحقُّوا أنْ يُعذِّبَهم الله تعالى بها، فدمَّرت زرعَهم وأصبح يابسًا، بعد أن أَمَّلوا حصادَه، ورَجوا الاستفادةَ من خيراتِه[(٢)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أي: إنَّ ما فعَله الله تعالى بهؤلاء الكفَّار، من إحباطِ ثواب أعمالِهم، إنَّما وضَعَه في مَوضِعه، وفعَل بهم ما هم أهلُه، وهم الذين نقَصُوا أنفسَهم في الحقيقةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٣-٧٠٥)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥-١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٧-٨٩).

ووضَعوها في غيرِ موضِعها الذي يَليق بها[١].

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- معرفةُ تمام قُدْرة الله وسُلْطته على العباد؛ حيث إنَّ الكفار العُتاةَ لا يستطيعون أنْ يدفعوا شيئًا بأموالهم وأولادهم ممَّا قضاه الله عزَّ وجلَّ، يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[٢].

٢- الحَذَرُ من الاغترارِ بالنِّعم، فالمغرورُ إنَّما يَصُدُّه عن اتِّباع الحقِّ، أو النَّظر في دليلِه الاستغناءُ بما هو فيه من النِّعم، وأعظمُها الأموالُ والأولاد، فالذي يرَى نَفْسه مُستغنيًا بمِثْل ذلك قلَّما يُوجِّه نظرَه إلى طلبِ الحقِّ، أو يُصْغي إلى الدَّاعي إليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا...﴾[٣].

٣- نَفْسُ الإنسانِ عنده أمانةٌ يَلحَقها ظُلمُه وغشمُه، ويلحقها برُّه وإحسانُه؛ فيجب أن يرعى هذه الأمانةَ حقَّها؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٤].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ خَصَّ اللهُ تعالى الأموالَ والأولاد بالذِّكر؛ لأنَّهما من أشد الأشياء نفعًا للإنسان، فالمالُ يدفعُ به المرءُ عن نَفْسِه في فِداءٍ أو نحوه، والولدُ يَنصُر أباه ويُدافِع عنه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٩-٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص:١٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٤).

فإذا لم يُغنِ عنه ولدُه لصُلْبه، ومالُه الذي هو نافِذُ الأمر فيه؛ فغير ذلك أبعدُ مِن أن يُغني عنه مِن الله شيئًا[١].

٢- قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ فيه إثباتُ القياس؛ ووجْه ذلك: أنَّ المَثَل إلحاقٌ للأصل بالفرع، وإلحاقٌ للمُشبَّه بالمُشبَّه به، وهذا هو أصلُ القياس- إلحاق فرعٍ بأصلٍ في حُكْمٍ لِعَلَّةٍ جامعة- فكلُّ مِثالٍ ضربَه الله في القرآن ففيه دليلٌ على القياس؛ إذ إنَّه إلحاق المُشبَّه بالمُشبَّه به[٢].

٣- في قولِه: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ تنبيهٌ على أنَّ سَبَبَ إصابةِ هذه الرِّيحِ لحَرْثِهم هو ظُلْمُهم؛ فهو الذي سَلَّطَها عليهم حتى أهلَكَتْ زَرْعَهم وأيبَسَتْه، فظُلْمُهم هو الرِّيحُ التي أهلَكَتْ أعمالَهم ونفقاتِهم وأتْلَفَتْها[٣].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- **قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ إلى ذِكْر وعيدِ المشركين بمناسبةِ ذِكر وعْدِ الذين آمَنوا مِن أهل الكتاب[٤].

- وإنَّما عطَف الأولادَ هنا؛ لأنَّ الغَنَاء في مُتعارَف النَّاس يكون بالمال والولد[٥].

- وكرَّر حرْفَ النَّفي مع المعطوف في قوله: ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾؛ لتأكيدِ عدم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٣)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

غَناءِ أولادِهم عنهم؛ لدفع توهُّم ما هو مُتعارَف من أنَّ الأولاد لا يَقعُدون عن الذَّبِّ عن آبائهم[١].

- وتنكيرُ قوله: ﴿شَيْئًا﴾؛ للتَّقليل[٢]، وهي نَكِرة في سياق النَّفي، والنَّكرة في سياق النَّفي تُفيد العمومَ، فالمعنى: أيُّ شيء كان سواءً كان هذا الشَّيء شديدًا أو ضعيفًا[٣].

- وفيه تحقيقُ مضمون الجملة بـ: التَّأكيدِ بـ(إِنَّ)، ومَوقِع اسم الإشارة، وضمير الفصل (هُمْ)، ووصْف (خَالِدُونَ)، وجُملة (وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) عطْف على جملة (لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)، وجيء بالجملةِ معطوفةً، على خلافِ الغالبِ في أمثالها أنْ يكون بدون عطفٍ؛ لقصْدِ أن تكون الجملةُ مُنصبًّا عليها التَّأكيدُ بحرف (إِنَّ)[٤]، ووقوعها جملةً اسميَّة؛ للدَّلالةِ على الدَّوام والثُّبوت[٥].

٢- **قوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾** استئنافٌ بيانيٌّ، وفي الآية: تشبيهٌ تَمثيليٌّ، حيث شبَّه سبحانه ما أَنفَقوه في عدمِ جدواه، وقِلَّة غَنائه بالحَرْث الذي عصفَتْ به الرِّيحُ الصِّرُّ، والتَّقدير: مَثَل ما يُنفِقون في هذه الحياةِ الدنيا كمَثَل حَرْثِ قومٍ ظلَموا أنفسَهم فأصابتْه ريحٌ فيها صِرٌّ؛ جاء النَّظم هكذا؛ لفائدةٍ جليلة، وهي تقديمُ ما هو أهمُّ؛ لأنَّ الرِّيحَ التي هي مِثْل العذاب ذِكْرها في سياقِ الوعيدِ والتَّهديدِ أهمُّ مِن ذِكْر الحَرْث، فقُدِّمت عِنايةً بذِكْرها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩١).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٤)، ((تفسير أبي

- وفي قوله: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ ما يُعرَف بالتَّتْميم؛ إذ أَفادَتِ المبالغةَ، كما أفادتِ التَّجسيدَ والتَّشخيص، كما تقول: بَرْدٌ بارِد، وليلةٌ ليلاء، ويوم أيوم، ثم قُيِّد الصِّرَّ بالظَّرفيَّة (فيها)؛ لأنَّ الرِّيح مُطلَقة ثم قيَّدها بالظَّرفيَّة، وكلُّ مُقيَّد ظَرْف لمُطلَقه؛ لأنَّ المُطلَق بعض المُقيَّد، فحصل التَّجسيد والتَّشخيص[1].

وأيضًا كأنَّ جِنْسَ الصِّرِّ مَظروفٌ في الرِّيح، وهي تَحمِله إلى الحَرْث، فيُفيد شِدَّةَ بَرْد هذه الرِّيح[2].

٣- **قوله**: ﴿**وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ فيه تقديمُ المفعول ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ على الفِعل وفاعِله ﴿يَظْلِمُونَ﴾، وفائدة التَّقديم: الحصرُ، فالمعنى: أنَّهم ما ظلَموا اللهَ عزَّ وجلَّ، والله- أيضًا- ما ظلَمهم، ولكنَّهم ظلموا أنفسَهم دون غيرِها، ودون أن يَظلِمَهم أحدٌ[3].

السعود)) (٢/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٣-٣٤).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٣-٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٠).

الآيات (١١٨ - ١٢٠)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بِطَانَةً﴾: أي: دُخلاءَ، وبِطانةُ الرَّجُل: أهلُ سِرِّه، الذين يُبطِنون أمْرَه، مِمَّن يسكُن إِلَيهم، ويَثِق بمودَّتهم[١].

﴿من دُونِكُمْ﴾: أي: مِن غيرِ المسلمين، وأصْل الدُّون: المُداناة والمُقاربة[٢].

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: لا يُقصِّرون في فَسادِ دِينكم؛ يُقال: ألوتُ في الشَّيء آلو: إذا قصَّرتُ فيه[٣].

و﴿خَبَالًا﴾: أي: فَسادًا أو شرًّا، وأصْل: الخَبْل: فسادُ الأعضاء، والجُنُون[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤١، ١٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٠، ١٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩، ١٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:

﴿ودُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾: أي: ودُّوا عنَتكم، والمُعانتة: مُعانَدة فيها خوفٌ وهلاك، وأصْل العَنَت: المشقَّة[1].

﴿خَلَوْا﴾: أي: انفَرَدوا؛ يُقال: خلا إليه: انتهى إليه في خَلوةٍ، والخَلاءُ من الشَّيء: الفراغ منه[2].

﴿تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾: أي: تَنلْكُم وتُصبْكم نِعمة، وأصْل المسِّ: جسُّ الشيء باليدِ، والحسَنة: النِّعمة[3].

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى الله عبادَه المؤمنين عن اتِّخاذ أشخاصٍ مُقرَّبين من غير المؤمنين، يُطلِعونهم على أسرارِهم، فإنَّ هؤلاء الكفرةَ والمنافقين لا يؤمَن جانبُهم، لا تَسْنَح لهم فرصةٌ للإضرار بالمؤمنين إلَّا استغَلُّوها، بل يَسْعَون في الإضرارِ بهم بكلِّ طاقتهم، فهم يتمنَّون حصول كلِّ ما فيه مشقَّةٌ على المؤمنين، ومِن شدَّة ما يُضمرونَه من أحقادٍ تُجاهم لم يستطيعوا كِتمانَها، فظهرتْ كراهيتُهم للمؤمنين على فلتاتِ ألْسنتهم، وما بقِي حبيسَ صدورِهم من البغضاء أعظمُ وأكبرُ ممَّا ظهَر، قد وضَّح اللهُ الآياتِ للمؤمنين، وسيُفيدهم ذلك التَّوضيح إنْ عقَلوه وفَهِموه.

ثم يُبيِّن الله بعضًا ممَّا يُوجِب الحذرَ من الكفَّار والمنافقين، فهم من شدَّة

---

٢٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١) (٢/ ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧).

ما في صدورِهم على المؤمنين من الحِقد، لا يُبادِلونهم المشاعر، فالمؤمنون يُحبُّونهم ويَودُّونهم، وهؤلاء الكفَّار يُبغِضونهم، كما أنَّ المؤمنين آمنوا بجميعِ الكتُبِ المنزَّلة من عند الله، بينما هم لا يؤمنون بما أَنزَله الله إلى محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقد حرَّفوا ما أُنزِل إليهم؛ فالأَوْلى بمَن هذا صنيعُه أنْ يُعادَى ويُبغَض، بل إنَّهم إذا قابَلوا المؤمنين أَظهَروا الإيمانَ بأَلْسنتِهم، وإذا انفرَدَ بعضُهم ببعضٍ عضُّوا أطرافَ أصابِعهم من شِدَّة الغيظِ على المؤمنين. ثم أمَر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يقول لهم: ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ إنَّ الله مُطَّلِعٌ على ما تُكِنُّه الصُّدرور، لا يَخفى عليه شيءٌ.

هؤلاء المذكورون من المنافقين والكفَّار إنْ حصَلَ للمؤمنين ما يَسُرُّ ساءَهم ذلك وأَحزَنهم، وإنْ أصاب المؤمنين سوءٌ فرِحوا بذلك، ثمَّ أرشدَ الله المؤمنين لِمَا يُعِينهم على تحمُّل ذلك، وهو الصَّبرُ والتَّقوى؛ فإنَّهم إنْ فعَلوا ذلك فإنه لن يَلحَقهم من ضررِ هؤلاء وكيدِهم شيءٌ، واللهُ مُحيطٌ بجميع ما يفعله هؤلاءِ المنافقون والكفَّارُ، وسيُجازيهم عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا شرَح الله تعالى أحوالَ المؤمنين والكافرين، شرَع في تحذيرِ المؤمنين عن مُخالَطة الكافرين[1]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، لا تَجعلوا مِن خاصَّةِ أصدقائكم والمقرَّبين منكم أُناسًا من غير المؤمنين، كفَّارًا أو منافقين؛ تُطْلِعُونَهم على أسرارِكم، أو تَجعلون لهم مناصبَ ونفوذًا؛ فإنَّ الكافرَ لا يُؤمَن جانبُه؛ لما تنطوي عليه نَفْسُه من الغِشِّ والخداع، وإذاعة أسرار المؤمنين إلى الأعداء، ولا يترك مجالًا يُمكِن أنْ يُفسِد أحوالَكم فيه إلَّا سعَى إليه بكلِّ طاقته، ولا يُقصِّر في إلحاقِ أنواع الضَّررِ بكم[١].

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما بعَث اللهُ مِن نبيٍّ، ولا استَخلَف من خليفةٍ، إلَّا كانتْ له بِطانتان: بِطانةٌ تأمرُه بالمعروفِ وتَحضُّه عليه، وبِطانةٌ تأمرُه بالشرِّ وتحضُّه عليه، فالمعصومُ مَن عصَم اللهُ تعالى))[٢].

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾.

أي: يُحِبُّون ويتمنَّون بكلِّ قلوبِهم وقوعَ الضِّيقِ، وحصولَ المشقَّة عليكم في دِينكم وأموالِكم وأبدانِكم، وكلِّ ما يسوؤكم[٣].

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾.

أي: ظهرتْ على فَلتات ألْسنتهم البغضاءُ لكم، فلم يَستطيعوا كِتمانَها[٤].

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٧-٧٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٦-١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٣).

(٢) رواه البخاري (٧١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٢-٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٨).

أي: إنَّ ما انطوت عليه صدورُهم من الكراهيةِ للإسلامِ وأهلِه أشدُّ وأعظمُ ممَّا بَان على ألْسنتِهم[١].

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: قد أَظهَرْنا لكم بوضوح- أيُّها المؤمنون- آياتِ الله تعالى، ومنها العلاماتُ والبراهين التي تُظهِر لكم أمْرَ هؤلاء الذين حذَّرناكم من اتِّخاذهم بِطانة، تُفسِد عليكم مصالحَكم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، فتتمكَّنوا من خلالها من التَّفْرِقة بين الصَّديق والعَدوِّ إنْ كنتم تَعقِلون عن الله آياتِه؛ فإنَّ ذلك لا يَخفى على لبيبٍ عاقل[٢].

﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)﴾.

﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

أي: ها أنتم- أيُّها المؤمنون- تُحِبُّون هؤلاء الذين نَهيتُكم عن اتخاذِهم بِطانةً، فتودُّونهم وتُريدون لهم الخيرَ، وهم لا يُحِبُّونكم، بل يُبغِضونكم ويُريدون لكم السوءَ والضَّررَ؛ فكيف تُحِبُّونهم[٣]؟!

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٨-٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٥، ٧١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠٠).

أي: إنَّكم تؤمنون بجميعِ الكُتُب التي أَنزَلها الله تعالى، وتَعلَمون أنَّ هؤلاء القومَ لا يؤمنون بما أُنزِل إليكم، وقد حرَّفوا وبدَّلوا ما أُنزِل إليهم، فالأَوْلى بكم إذنْ أن تُعادوهم وتُبغِضوهم[١].

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الذين نهاكم اللهُ أن تتَّخِذوهم بِطانةً، إذا لَقُوكم أَعلَنوا لكم بألْسنتهم إيمانَهم نِفاقًا منهم[٢].

﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾.

أي: إذا صاروا في خَلاءٍ مع أضرابِهم من حيث لا تَرونهم، عَضُّوا أطرافَ أصابعهم من شِدَّة الحَنَق والغيظ على ما يَرون مِن ائتلافكم، واجتماعِ كلمتِكم على الحقِّ[٣].

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاء: لتَهلِكوا بغيظِكم الذي بكم على المؤمنين؛ ذلك أنَّ الله تعالى مُتِمٌّ نِعمتِه على عبادِه، وستَرَوْن من عِزِّ الإسلام وذُلِّ الكُفر ما يسوؤكم، وتموتون بغيظكم، فلا تَضُرُّون بذلك إلَّا أنفسَكم[٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٦، ٧١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ١٤٥، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٨، ٧١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠١-١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠٢).

أي: إنَّ الله سبحانه لا يَخفى عليه ما تَنطوي عليه صدورُ هؤلاء من الغِلِّ والبغضاء لعبادِهِ المؤمنين، ويعلمُ أيضًا ما تحويه صدورُ جميعِ خَلْقه، فيحفظُ عليهم ذلك؛ ليُجازيَ كلًّا منهم بما يُكِنُّه قلبُه من خيرٍ أو شرٍّ[١].

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى شِدَّةَ عداوة أهل الكتاب للمؤمنين، ذكَر هاهنا أحوالًا دالَّةً على ذلك، تَكشِف عمَّا في صدورهم[٢]، فقال:

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾.

أي: إنْ تنالوا- أيُّها المؤمنون- سرورًا بظهوركم على عدوِّكم والنصر عليهم، أو بكَثْرة أنصارِكم، أو بحصولِ العافية لكم، وغير ذلك من أنواع الخيرِ، يَغُمُّهم ذلك ويُحزِنهم[٣].

﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾.

أي: وإنْ يَنَلْكم- أيُّها المؤمنون- ما يسوؤكم؛ كانتصارِ عدوِّكم عليكم، أو حدوثِ اختلاف بينكم، أو وقوع جَدْبٍ في أرضكم، وغير ذلك من أنواع الضُّرِّ، فإنَّهم يُسَرُّون بذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨-١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠) ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢١، ٧٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣).

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى شدَّةَ عداوةِ الكفَّار والمنافقين، وشرَح ما هم عليه من الصِّفات الخبيثة، وجَّه عِبادَه إلى ما يُعينهم على تحمُّل ذلك، ودفْعِ ضرره عنهم[1]، فقال:

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

أي: إن تَصبِروا- أيُّها المؤمنون- على كلِّ ما وجَب عليكم الصَّبرُ عليه، ومن ذلك: أقدارُه سبحانه، وتمتثلوا ما أمَركم الله تعالى به، وتَجتنبوا ما نهاكم عنه؛ فإنَّ استعمالَ هذا الصَّبرِ ولُزومَ هذه التَّقوى يدفعُ عنكم بإذنه كلَّ كيدٍ للأعداء، وكلَّ ضررٍ أرادوا إلحاقَه بكم، فتَسلَموا من أذاهم[2].

قال تعالى عن إنجائه يوسف من كيدِ إخوته وغيرهم: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٨٩-٩٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى محيطٌ بجميعِ ما يقوم به هؤلاء الكفَّار من كيدٍ وضُرٍّ بأهل طاعته، لا يَغيب عنه شيءٌ من ذلك، فهو سبحانه يُحصيه عليهم، ويُجازيهم به[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢٣، ٧٢٤)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢٤، ٧٢٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣).

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- أنَّ تَجنُّب البِطانة السَّيئة من مقتضيات الإيمان؛ لأنَّ الخطاب وُجِّه إلى المؤمنين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾[١].

٢- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ الآية، فيه دلالةٌ على أنَّه ليس كلُّ أحد يُجعل بِطانةً، فإذا ابتُلِي المرءُ بمُخالَطة العدوِّ فينبغي أنْ تكون مُخالَطتُه له في الظاهر، ولا يُطْلِعه على شيءٍ مِن باطنه، ولو تَملَّق له وأَقسَم أنَّه من أوليائِه[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ بيانُ عِناية الله تعالى بعبادِه المؤمنين؛ حيث حذَّرهم من أمورٍ قد تَخفى عليهم كاتِّخاذ البِطانات السِّيئة[٣].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أنَّ أعداءَنا يودُّون لنا ما يَشُقُّ علينا؛ في الدُّنيا أو الدِّين، فيودُّون ما يُدمِّر جيوشَنا، ويودُّون ما يُدمِّر اقتصادَنا، ويودُّون ما يدمِّر معارفَنا، ويودُّون ما يُدمِّر دِينَنا، وهذا الأخيرُ هو الأهمُّ لديهم[٤].

٥- إعمالُ الفِكْرِ والاستدلال، واستعمالُ العقل في تأمُّل الآيات، هو سبيلُ العِلْم والفِطْنة، يُبيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٥].

٦- كلَّما كان الإنسان أقوى عقلًا كان أَفْهَمَ لآيات الله؛ فقد قال تعالى: ﴿قَدْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٥).

بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١].

٧- التَّحذيرُ ممَّن يُبدِي أنَّه ناصحٌ لك وقلْبُه كارهٌ لك؛ لأنَّ المقصودَ من قوله: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولاَءِ تُحِبُّونَهُمْ...﴾ التَّحذيرُ من هؤلاء، فلا تَغترَّ بمَن ظاهِر حالِه النُّصحُ، بل قِسِ الأمور بالأفعال؛ لأنَّ الأفعالَ هي التي تُبيِّن حقيقةَ الأمر، فكم من إنسانٍ يقول لك قولًا وهو على خلافِ ما يقول لك، فالعِبرةُ بالأفعال لا بالأقوال[٢].

٨- أنَّه ينبغي للمسلمِ أنْ يكون قويًّا صارمًا أمام أعدائه؛ لقوله: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾[٣].

٩- في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ...﴾، التَّحذير من تولية اليهود والنَّصارى لأمورِ المسلمين القياديَّة؛ كأنْ يجعلوهم مُدراء أو وزراء أو ما أَشْبه ذلك؛ لأنَّهم لا يألُوننا خبالًا، ويُسَرُّون بما يَسوؤنا، ويُساؤون بما يَسُرُّنا، فكيف نتَّخِذهم بِطانةً نُولِّيهم أمورَنا القياديَّة من: إدارة أو رئاسة أو غيرها[٤]؟

١٠- أنَّ أعداءَنا لا يألون جَهْدًا في الكيدِ لنا، وعلاجُ هذا بالصَّبر والتَّقوى ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾، بالصَّبرِ على كلِّ ما يجبُ الصَّبرُ عليه من أوامِرَ فنقوم بها، أو نَواهٍ فنتركها، أو سياساتٍ فنتَّبِعها، فمَن صبَر واتَّقى كان في حِفْظِ اللهِ عن الآفاتِ والمخافات، فلا يَضُرُّه كيدُ الكافرين، ولا حِيَلُ المُحتالِين[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير الشربيني))

١١- أنَّ الصَّبر والتَّقوى يَدفعانِ الأعداءَ؛ لقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ وما فعلوه عَلنًا إنْ صبَرنا واتَّقينا لا يَضُرُّنا من باب أَوْلى؛ لأنَّ الكيدَ الذي يكون بالمكرِ والخديعةِ إذا كان لا يَضُرُّنا مع الصَّبر والتَّقوى، فما كان ظاهرًا بيِّنًا فهو من باب أَوْلى[١].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- توجيهُ الخِطاب إلى المؤمنين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ له ثلاثُ فوائد:

الأولى: الإغراءُ على الامتِثال كأنَّه يقول: إنْ كنتَ مؤمنًا فافْعَل كذا وكذا، إنْ كنتَ مؤمنًا فلا تفعل كذا وكذا، إنْ كنتَ مؤمنًا فصَدِّق بالخبرِ، ففيه توجيهٌ للمؤمنين وإغراءٌ بالامتثال.

الثَّانية: أنَّ امتثالَه من مقتضياتِ الإيمان؛ لأنَّه لا يُخاطَب الشَّخصُ بوصفٍ ثم يُوجَّه إليه حُكْمٌ مُتعلِّقٌ بهذا الوصف إلَّا كان ذلك دليلًا على أنَّ امتثالَ هذا الحُكم من مُقتضيات الإيمان؛ لأنَّه لا يَصِحُّ أنْ تُوجَّه لكافرٍ كلمةٌ تتعلَّق بالمؤمن.

الثَّالثة: أنَّ الإخلالَ به نَقْصٌ في الإيمان[٢].

٢- في قولِ الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾، نهيٌ عن اتِّخاذ بِطانةٍ كافرة، ثم نبَّه على أشياءَ مَّما هم عليه من ابتغاء الغوائلِ للمؤمنين، ومحبَّة مشقَّتهم، وظهور بُغْضهم، والتَّقييد بالوصف أو بالحالِ يُؤذِن بجوازِ الاتِّخاذ عند انتفائهما[٣].

٣- في قول الله تعالى: ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾؛ إشارةٌ إلى أنَّهم يَهضِمون أنفسَهم،

(١/ ٢٤٢) ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٧).

ويُنزِلونها عن عَلَيِّ دَرجتِها بموادَّتِهم[١].

٤- قول الله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ فيه ذِكْر الأفواهِ دون الألْسنة؛ إشعارًا بأنَّ ما تلفَّظوا به يملأ أفواهَهم، كما يُقال: كلمة تملأ الفمَ إذا تَشدَّق بها[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ولم يَقُل: (إنْ كنتم تعلمون أو تفقهون)؛ لأنَّ العقلَ أعمُّ من العِلْم والفقه، وهذه الآياتُ آياتُ فراسةٍ وتَوسُّم؛ لذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٣].

٦- في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ أنَّ العدوَّ إذا أصابتْ عَدوَّه حسنةٌ ساءتْه، وإذا أصابتْه سيئةٌ فرِح بها، وقد جعل الفقهاء رحِمهم الله هذا ضابطًا في العَداوة، حينما تكلَّموا في باب الشَّهادات على أنَّ العدوَّ لا تُقبَل شهادتَه على عدوِّه، قالوا في ضابط العدوِّ: هو مَن سرَّتْه مساءتُك وساءَه مَسرَّتُك[٤].

٧- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، لم يَقُل: (إنَّ الله محيط بما يعملون)؛ لأنَّه ليس المقصودُ هاهنا بيانَ كَوْنه تعالى عالِمًا، وإنَّما بيان أنَّ جميعَ أعمالهم معلومةٌ لله تعالى، ومُجازيهم عليها[٥].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٤).

خَبَالًا وَدُّوا مَاعَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

- في تصديرِ الخِطابِ بالنِّداءِ في قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ دلالةٌ على أهمِّيَّة ما يأتي بَعْدَه والتَّنبُّه له[١].

- وقوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾، و﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾، وكذلك ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾: جُمَل مُستأنَفةٌ على وجهِ التَّعليل للنَّهي عن اتِّخاذهم بِطانةً للتَّنبيه، وهو أَبلغُ وأَحسنُ من تقديرِ هذه الجُملِ صِفةً للبِطانة[٢]؛ فهي مُبيِّنةٌ لحالِهم، داعيةٌ إلى الاجتناب عنهم، ومؤكِّدةٌ للنَّهي أيضًا، ومُوجِبةٌ لزِيادةِ الاجتنابِ عن المنهيِّ عنه[٣].

- قوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيه حَذْف الجوابِ؛ لدَلالة المذكور عليه، والتَّقدير: إنْ كنتم تَعقِلون ما بُيِّن لكم من الآيات فعملتُم به، أو: إنْ كنتُم عقلاءَ، وقد عَلِمَ تعالى أنَّهم عقلاءُ، لكن علَّقَه على هذا الشرطِ على سَبيلِ الهزِّ للنُّفوسِ، كقولك: إنْ كنتَ رجُلًا، فافعلْ كذا. وقيل: إنْ كُنتُم تعقلونَ فلا تُصافوهم، بل عامِلُوهم معاملةَ الأعداءِ[٤].

٢- **قوله:** ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ فيه خروجُ الأمْرِ عن معناه الحقيقيِّ إلى معنى التَّوبيخِ والتَّقريع، كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وليس هو بأمرٍ جازِم؛ لأنَّه لو كان أمرًا لَمَاتوا من فَورِهم، وليس بدعاءٍ؛ لأنَّه لو أمَرَه بالدعاء لَمَاتوا جميعُهم على هذه الصِّفة؛ فإنَّ دعوتَه لا تُرَدُّ، وقد آمَن منهم بعد

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٥- ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٦).

هذه الآيةِ كثيرٌ، وليس بخبر؛ لأنَّه لو كان خبرًا، لوقَع على حُكمِ ما أَخبَر به، فلم يؤمن أحدٌ بعدُ[١].

٣- **قوله:** ﴿**هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ**﴾ استئنافٌ ابتدائي، قُصِد منه المقابلةُ بين خُلُقِ الفريقين؛ فالمؤمنون يُحِبُّون أهلَ الكتاب، وأهلُ الكتاب يُبغِضونهم، وكلُّ إناء بما فيه يَرشَح[٢].

- وفيه تعجُّبٌ من مجموع الحالين؛ فالعجبُ مِن محبَّة المؤمنين إيَّاهم في حال بُغْضهم المؤمنين، ولا يُذكَر بعد اسمِ الإشارة جملةٌ في هذا التَّركيبِ إلَّا والقصد التَّعجُّب من مضمونِ تلك الجملة[٣].

٤- **قوله تعالى:** ﴿**وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ**﴾:

- قوله: ﴿بِالْكِتَابِ﴾: فيه تعريفُ (الكتاب) للجِنْس؛ تعظيمًا وتكريمًا، وأُكِّد بصيغةِ المفرد (كله) مُراعاة للفظِه[٤].

- قول الله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ في الآية إضمارٌ، والتَّقدير: وتؤمنون بالكتاب كلِّه وهم لا يؤمنون به، وحَسُن الحذفُ؛ لأنَّ الضِّدَّين يُعلمانِ معًا، فكان ذِكْرُ أحدهما مُغنيًا عن ذِكْر الآخَر[٥].

٥- **قوله:** ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ تذييلٌ لقوله: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾، وما بينها كالاعتراض، أي: إنَّ الله مُطَّلِع عليهم، وهو مُطلِعك على دخائلِهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) .

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٧).

٦- **قوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾** ذِكرُ المسِّ مع الحَسنةِ، والإصابةِ مع السيِّئة؛ للإيذانِ بأنَّ مدارَ مَساءتِهم أدْنى مراتبِ إصابةِ الحَسنةِ، ومناطَ فرحِهم تمامُ إصابةِ السَّيئةِ[١]؛ لأنَّ الشَّيءَ المصِيب لشيءٍ هو مُتمكِّنٌ منه، أو فيه، فدلَّ هذا النَّوعُ البليغُ على شِدَّة العداوةِ؛ إذ هو حِقْدٌ لا يَذهَبُ عند نُزولِ الشَّدائد، بل يَفْرحون بنُزولِ الشَّدائدِ بالمؤمنين، وهكَذا هي عداوةُ الحسدِ في الأغلبِ، ولا سيَّما في مِثلِ هذا الأمرِ الجسيمِ الذي هو مِلاكُ الدُّنيا والآخِرة[٢].

- وفي قوله: ﴿حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ و﴿سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ قابَل الحسنةَ بالسيِّئةِ، والمساءةَ بالفرحِ، وهي مقابلةٌ بديعةٌ[٣].

- و﴿حَسَنَةٌ﴾، ﴿سَيِّئَةٌ﴾ نَكِرتانِ في سِياقِ الشرطِ؛ تفيدان العمومَ، أي: أيُّ حَسنةٍ دُنيويَّة أو دِينيَّة أو ماليَّة أو بدنيَّة؛ فأيُّ حسنةٍ تُصيبُ المؤمنينَ فإنَّها تَسوءُهم؛ لأنَّهم أعداءٌ، وكذلك السيِّئة؛ أيُّ سَيِّئةٍ تُصيبُ المؤمنينَ؛ فيما يَسوءُهم في البدنِ أو الأهلِ أو المالِ أو الدِّين، يَفْرَحون بها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠٣)، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٢).

الآيات (١٢١ - ١٢٩)

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿غَدَوْتَ﴾: أي ذهبتَ أوَّلَ النَّهار؛ يُقال: غدا يَغْدو، والغَدْوة والغَداة تكون من أوَّلِ النَّهار[١].

﴿تُبَوِّئُ﴾: تتَّخِذ لهم، وتُوطِّن، وأصْل البَواء: مساواةُ الأجزاءِ في المكانِ، وتَساوي الشَّيئين[٢].

﴿مَقَاعِدَ﴾: أي: مُعسكرًا، ومَصافَّ للقِتال، وأصْل المَقعَد: مكان القُعُود[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١).

﴿تَفْشَلَا﴾: أي: تجبُنَا وتَضعُفَا[١].

﴿أَذِلَّةٌ﴾: قليلون مَقهورون، وأصل الذُّلِّ: الخضوعُ، والاستكانةُ، واللِّين، والذُّلُّ: ضدُّ العزِّ، وخِلافُ الصُّعوبة[٢].

﴿مِنْ فَوْرِهِمْ﴾: أي: مِن وجْهِهم أو مِن ساعتِهم، أو مِن غضَبهم، ، يُقال: فار فائرُه، إذا غضِب، وأصْل الفَوْر: ابتداءُ الأمْر، يُؤخَذ فيه ويُوصَل بآخَرَ؛ يُقال: فَعلَه مِن فَوْره، أي: في بَدْءِ أمْره، قبل أن يَسكُن[٣].

﴿مُسَوِّمِينَ﴾: أي: مُعلِّمين لأنفسِهم أو لخيولِهم بعَلامةِ الحَرب، مأخوذٌ من السَّومة والسِّيماء: وهي العلامة التي تُعلِّم الفارسَ نفْسَه[٤].

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾: أي: ليَقتُل فِرْقةً منهم، أو يُهلِك جماعةً منهم، وأصْل القطع: الفَصْل، وإبانةُ شيءٍ من شيء، وطرَف الشَّيء: جانِبُه، وأصْله: حدُّ الشيءِ وحَرْفه[٥].

﴿يَكْبِتَهُمْ﴾: يَصرَعهم لوجوهِهم ويُهلِكهم، والكَبْت: الإهلاكُ، والردُّ بعُنفٍ وتذليل[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩، ١١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) (٥/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)،

﴿فَيَنْقَلِبُوا﴾: فيَنهزِموا مُنقطِعي الآمال، والانقلابُ: الانصرافُ، ورجوعُ القَهْقَرى، وقلبُ الشيءِ: تصريفُه وصرْفُه عن وجْهٍ إلى وجه[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُذكِّر الله نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بخروجه من بيته للقاءِ الكفَّار يوم أُحدٍ، حين كان يُرتِّب المؤمنين للقتال، كلٌّ في مَقعَده اللائق به، والله سبحانه مُطَّلعٌ على كلِّ شيءٍ، فهو سبحانه السميعُ العليمُ.

ويذكِّره أيضًا حين همَّت طائفتانِ من المؤمنين- وهما بنو سَلِمَةَ وبنو حارثة- بالفشلِ، فثبَّتهما الله تعالى، مُنبِّهًا أنه عليه وحْدَه فليتوكَّل المؤمنون.

ويَمتنُّ الله على عِبادِه بنَصْرِه لهم يومَ بدرٍ وهم ضعفاءُ، فينبغي أنْ يتَّقوه؛ لعلهم يَشكُرونه تعالى لِمَا امتنَّ به عليهم، ثم يُذكِّر الله نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حين قال عليه الصَّلاة والسَّلام لأصحابه مُبشِّرًا لهم، أَلن يَكفِيَكم إمدادُ الله لكم بثلاثة آلاف من الملائكة، يُنزِلهم سبحانه وتعالى من السَّماء؛ ليُشارِكوكم القتالَ يوم بدرٍ، بلى، هو كافٍ لكم، ولكم أيضًا أنْ يُمِدَّكم الله بخمسةِ آلافٍ من الملائكة الذين عليهم علامةُ الشُّجعان في حالِ صَبْركم وتقواكم، ومجيءِ المشركين من الجِهة التي جاؤوكم منها مُسرِعين إليكم.

ويُخبِرهم سبحانه أنَّ إعلامَ الله لهم بأنَّه سيُمِدُّهم بالملائكة هو بُشرى لهم؛ ولتَسكُنَ قلوبهم به، وما النَّصر إلَّا من عند الله العزيز الحكيم، يَنصُرهم سبحانه من أجْل أن يُهلِك بعضَ الكفَّار، أو يُخزي بعضَهم، ويُذِلَّهم، فيعودوا

((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

إلى بلادِهم خائبين لم ينالوا خيرًا، أو أنَّه سبحانه يَهديهم للإسلام، أو يُعذِّبهم بسبب ظُلْمهم، فأمرُهم كلُّه راجعٌ إلى الله سبحانه، ليس للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من الأمر شيء.

ثم يُقرِّر تعالى أنَّ له وحْده كلَّ ما في السَّموات والأرض، يتجاوزُ عن عقوبةِ مَن يشاء مِن عباده، ويُعاقِب مَن يُشاءُ، والله هو الغفورُ الرَّحيم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ سلاحَ الصبر والتقوى يأمنُ بإذنِه المؤمنون من غوائلِ المتربِّصين، ويحصُل به النصرُ على الكافرين، ذكَر هنا مثالًا يَمنعُ تحقُّقَ ذلك الأمْر، إذا تخلَّفتْ بعضُ أسباب النصر تلك[١].

وأيضًا لما حذَّر الله تعالى عِبادَه من اتِّخاذ الأعداءِ بطانةً ذِكر هذه الغزوةِ؛ ليُظهر شيئًا من كيدِ الأعداءِ الذين حذَّر من اتِّخاذهم بطانةً[٢].

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

أي: واذكُر- يا محمَّدُ- حين خرجتَ مِن بيتك مُغادِرًا المدينةَ، للقاءِ المشركين في غزوة أُحُد، وأخذتَ تُنزِل المؤمنين في مَواضِع القتالِ التي يَثبُت فيها الجيشُ، ولا يَنتقِل عنها؛ لأنَّها لائقةٌ بتحرُّكاته، كلٌّ في الموضِع الذي يَصلُح له مَيمنةً أو مَيسرةً وغير ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥-١١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٨٥)، ((تفسير

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سميعٌ لِمَا تتشاورُ فيه أنت ومَن معك حول مَوضِع لقاءِ العَدوِّ، عليمٌ بأصلحِ تلك الآراء لكم، وبما تُخفيه صدورُ المُشيرين من المؤمنين والمنافقين من نيَّات، كما أنَّه سبحانه يسمعُ ويعلمُ غيرَ ذلك من أمورِكم وأمورِ سائر خَلْقه، فيُحصي على عبادِه ما يقولون ويعملون، وبحسَب ذلك يُجازون[1].

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)﴾.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾.

أي: واذكرْ إذْ حدَّث بنو سَلِمةَ وبنو حارثة أنفسَهم بالفِرار، والانصرافِ عن القتال مع رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ أُحُد؛ خوفًا وضَعْفًا من لِقاء العدوِّ، لا شكًّا منهم في الإسلام ولا نفاقًا[2].

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

أي: عصَمهم اللهُ ممَّا همُّوا به، فثبَّتهم برعايته الخاصَّة، وأيَّدهم ووفَّقهم

ابن كثير)) (٢/ ١٠٩-١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٠-٧١).

وممَّن قال من السلف: إنَّ الآية متعلقةٌ بيوم أُحد: ابن عباس، وقتادة، والربيع، والسُّدِّي، وابن إسحاق. انظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦)، و((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٧٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١-١٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢، ١٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١١).

قال ابنُ جرير: (ولا خلافَ بين أهل التأويل أنَّه عنَى بالطائفتين بني سلمة وبني حارثة، ولا خلافَ بين أهل السِّيَر والمعرفة بمغازي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ الذي ذكَر الله من أمرهما إنما كان يومَ أُحُدٍ دون يوم الأحزاب) ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧).

ليَمضوا مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لقتالِ الأعداء[١].

عن جابرِ بن عبدِ الله رضِي اللهُ عنهما، قال: ((فينا نَزَلَتْ: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا﴾، قال: نحن طائفتان: بنو حارِثةَ وبنو سَلِمَةَ، وما نُحِبُّ- وقال سُفيانُ مرةً: وما يَسُرُّني- أنَّها لم تَنزِلْ؛ لقولِ اللهِ: ﴿وَاللهُ وَلِيُّهُمَا﴾))[٢].

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ تعالى وحْده اعتَمِدوا بصِدقٍ- أيُّها المؤمنون- في كلِّ شؤونكم؛ جلبًا للخيرات، أو دفعًا للكريهات[٣].

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ سلاح الصَّبر والتَّقوى يأمَن بإذنه المؤمنون من غوائل المُتربِّصين، ويحصُل به النَّصر على الكافرين، ذكَر هنا مثالًا تحقَّقت فيه للمؤمنين أسبابُ النَّصر هذه، فنصرهم الله تعالى بفضلِه[٤].

كما أنَّه لَمَّا ذكَر حالَهم في غزوة أُحُد، وما جرَى عليهم من المصيبة، أَدخَل فيها تذكيرَهم بنَصْره، ونِعمتِه عليهم يوم بَدْر؛ ليكونوا شاكرين لربِّهم، وليُخفِّف هذا هذا[٥] فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ١٤٦، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١١-١١٢).

(٢) رواه البخاري (٤٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٢-١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٣).

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾.

أي: ولقد أَظهَركم اللهُ على عدوِّكم، فغلَبتموهم في الغزوة التي دارتْ في محلَّة بَدْر، والحال أنَّكم يومئذٍ ضعفاءُ، فقليلٌ عَددُكم وعُددُكم، وكنتم في غير مَنَعَةٍ من النَّاس، وهم كانوا أكثرَ منكم عَددًا وعُددًا، فإنْ تَصبِروا لأمْر الله وتتَّقوه سبحانه يَنصرْكم كما نصرَكم في ذلك اليوم[(١)].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: لأنَّ الله تعالى جعَل لكم الغَلَبة يومَ بدر، فاتَّقوه بامتِثال أوامِره، واجتنابِ نواهيه؛ لتكونوا بذلك من الشَّاكرين له على ما منَّ به عليكم من النَّصرِ على الأعداء، وجَعْلِكم مِن بعد الهوانِ أعزَّاء[(٢)].

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤)﴾.

أي: اذكُر- يا محمَّدُ- حين قلتَ للمؤمنين من أصحابك مُبشِّرًا لهم: أَلَا يكون كافيًا إمدادُ الله تعالى لكم بثلاثة آلاف من الملائكة، يُنزِلهم سبحانه من السماء؛ ليُقاتِلوا معكم المشركين يوم بَدْر[(٣)]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦، ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١١، ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٦).

نسب ابن عاشور لجمهور المفسِّرين أنَّ نزول الملائكة المذكور في هذه الآية كان في غزوة بدر.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٠، ٢٨، ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٢)، ((تفسير

﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)﴾.

﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾.

أي: هذا الإمدادُ يَسُدُّ حاجتكم، ولكن إنِ استعملتُم الصَّبر في كلِّ ما وجب فيه الصَّبر، ولَزِمتُم التَّقوى بامتِثال أوامرِ الله تعالى واجتناب نواهيه، وخرج المشركون عليكم مباشرةً من حيث خرَجوا، مُسرِعين إليكم، في حدَّةٍ وحرارةٍ لقتالكم[(١)].

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قِراءتان:

١- ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ -بكَسرِ الواو على أنَّها اسمُ فاعل- أي: سوَّم الملائكةُ أنفسَهم، أو سوَّموا خُيولَهم[(٢)].

٢- (مُسَوَّمِينَ) -بفَتحِ الواو على أنَّها اسمُ مفعول- أي: إنَّ الملائكةَ قد سُوِّموا[(٣)].

السعدي)) (ص: ١٤٦، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٢، ٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٣٢-١٣٣).

وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿ويأتوكم﴾ أي يأتي المدد لنصرة إخوانهم المشركين يوم بدر. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٥).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، والبصريَّانِ، وعاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٧٣)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥٥-٣٥٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٤).

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

أي: إنَّ ربَّكم الذي له بكم عِناية خاصَّة، يُزوِّدكم بأكثر ممَّا وعدكم من قَبْل بزيادة ألفين من الملائكة، يأتونكم وعليهم أو على خيولهم علامة الشُّجعان الأبطال، دَلالة على أنَّهم لا يَكترِثون بأنْ يَعرِفهم عدوُّهم من شدَّة شجاعتهم[١].

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)﴾.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾.

أي: وما أَخبَركم اللهُ سبحانه بنبأِ إمدادِكم بالملائكةِ إلَّا لإدخالِ السُّرور عليكم[٢].

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾.

أي: جعَل اللهُ تعالى هذا المددَ لكم؛ لحصولِ الطُّمأنينة أيضًا في قلوبِكم، فتَسكُن، ولا يُصيبها الهَلَعُ والانزعاجُ من تفوُّق عدوِّكم عليكم في العَدد والعُدد[٣].

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

أي: لا يتحقَّق لكم الظَّفَرُ بعدوِّكم إلَّا بعَونِ الله وحده، لا من قِبَل المددِ الذي يأتيكم من الملائكة، فعلى الله فتوكَّلوا، وبه فاستَعينوا، لا على ما أُوتِيتم

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٧٣)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥٥-٣٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٦).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٣٣، ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (ص: ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((العذب النمير)) (٤/ ٥٤١).

من أسباب؛ فإنَّه الذي ذَلَّ له كلُّ الخلائق، فهم تحتَ تدبيره وقَهْره، وهو الغالبُ على أمْره، وهو الذي يَضَع الأشياء مَواضِعها، فيتصرَّف في عبادِه بحِكمتِه، ومن ذلك أنَّه يَنصُر أولياءَه كما في بَدْر، أو يُقدِّر هزيمتَهم، كما وقَع في أحدٍ[١].

قال تعالى بعدَ أمْرِه المؤمنين بالقتال: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧)﴾.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: مِن أسبابِ نَصْر الله تعالى لعباده إهلاكُ بعض الكفَّار، كاستئصالِ صناديدِهم، وأسْر بعضِهم، وقتْل آخرين، كما وقَع يومَ بَدْر، أو الاستيلاءِ على أراضيهم وأموالِهم، وغير ذلك[٢].

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾.

أو يُخْزي بعضَهم، ويُصيبهم بالغمِّ والحَزَن، بسببِ رُجوعهم مُحمَّلين بالخيبةِ والفشل الذَّريع؛ إذ لم ينالوا ما أمَّلوا من الانتصارِ عليكم- أيُّها المؤمنون[٣].

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾.

سببُ النُّزول:

عن أنسِ بن مالكٍ رضِي اللهُ عنه، ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٨، ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠، ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨، ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٩).

كُسِرَتْ رَباعيَتُه[١] يومَ أُحُدٍ، وشُجَّ[٢] في رأسِه، فجَعل يَسلُتُ[٣] الدمَ عنه، ويقول: كيف يُفلِحُ قومٌ شجُّوا نبيَّهم وشجُّوا رَبَاعِيَتَه وهو يَدعوهم إلى اللهِ؟! فأنزل اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾))[٤].

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾.

أي: إنَّ شأنَ أولئك الكفَّار راجعٌ إلى اللهِ تعالى لا إليكَ- يا محمَّدُ-؛ فاترُك أمرَهم للهِ عزَّ وجلَّ، وامضِ أنتَ لشأنِكَ في تبليغِ رِسالةِ ربِّك، فإمَّا أنْ يُوفِّقهم الله تعالى للدُّخول في دِينه، فيُسلِموا محضَ فضلٍ منه جلَّ وعلا، أو يُعذِّبهم في الدُّنيا أو الآخِرة عدْلًا منه سبحانه؛ بسببِ وضْعهم أنفسَهم في غيرِ ما خُلِقُوا لأجله، باعتناقِهم الكفرَ، وارتكابِهم المعاصي[٥].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ جميعَ المخلوقات مُلْكٌ لله تعالى وحده، يحكُم فيهم بما شاءَ،

---

(١) الرَّبَاعيَة- بوزن الثمانية-: هي السِّنُّ التي بين الثنية والناب.((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١١٧)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٧).

(٢) شُجَّ في رأسه: أي ضرب بشيء فجرح رأسه وكسر أو شق، فالشج أن يعلو رأس الشيء فيضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقه، ولا يكون الشج إلا في الرأس- في الأصل- ثم استعمل في غيره من الأعضاء. ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٤٥)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/ ٥٤).

(٣) يَسلُت: أي يميط عنه الدَّم، ويَمسحُه لينْظُفَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٨٧)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٤/ ٥٦٤- ٥٦٥).

(٤) رواه مسلم (١٧٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢-٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٩-٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٤٦-١٤٨).

ويتصرَّف فيهم بما أَحبَّ سبحانه[١].

﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: ما دامَ أنَّ له مُلْك كلِّ شيءٍ سبحانه، فعباده دائرون بين مَغفرتِه وتعذيبه، فيَتجاوَز عن عقوبةِ مَن يشاء بحِكمته، فضلًا منه سبحانه، ويُعاقِب مَن يشاء بحِكمته، عدْلًا منه سبحانه[٢].

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: هو الذي يَستُر ذُنوبَ عباده، ويتجاوَز عن المؤاخذة بها، وهو الرَّحيم الذي رحْمته غلبتْ غضبه، ومِن رحمته سَعةُ إحسانِه إلى عباده[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- التَّوفيقُ والعِصمةُ من الله تعالى، ولولا توفيقُه سبحانه وتسديدُه لَمَا تَخلَّص أحدٌ عن ظُلماتِ المعاصي، يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[٤].

٢- أنَّه يَنبغي للقائد أنْ يُبوِّئ أمكنةَ المُقاتِلين، ويُعرِّف كلَّ واحد منهم مكانَه وعملَه؛ حتى لا يَحصُل ازدواجٌ يَضُرُّ بالجيش، كلُّ واحد يُرتِّبه على حسَب ما يَليق به، ويقول: اجلِس مكانَك، وهذا عملُك واستمرَّ عليه؛ لأنَّ في النِّظام- ولا سيَّما في مِثْل هذه المواقف- فائدةً كبيرة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٠-١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢١).

٣- وجُوب التَّوكُّل على الله، وأنَّه مِن مُقتضى الإيمان؛ لقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[١]، وأنَّه ينبغي التوكُّلُ على الله- ولا سيما- في هذه المواطِن التي يَشتدُّ فيها الأمرُ على المسلم، بل على المؤمن ألَّا يَنظُر إلى الأمورِ نظرًا ماديًّا؛ لأنَّ وراء الأمور الماديَّة ما هو أَعظَم منها، وهي قُدْرة الله سبحانه وتعالى التي تَقضي على كلِّ هذه الأمور[٢].

٤- يَنبغي أنْ يَدفَع الإنسانُ ما يعْرِضُ له من مكروهٍ وآفةٍ بالتَّوكُّل على الله تعالى، وأنْ يَصرِف الجَزْع عن نَفْسه بذلك التَّوكُّل، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٣].

٥- أنَّه إذا قوِي الإيمانُ قوِي التَّوكُّل على الله؛ لقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بِناءً على قاعدة معروفة، وهي: أنَّ ما عُلِّق على وصْفٍ يقوى بقوَّته، ويَضْعُف بضَعفه[٤].

٦- يَذكُرُ اللهُ الأسبابَ ويأمُر بألَّا يُعتمَدَ عليها، ولا يُرْجَى إلَّا اللهُ تعالى؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى لَمَّا أنزلَ الملائكةَ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[٥].

٧- في قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أنَّ الإنسان بغير نَصْر الله لا يستطيعُ أن يَنتصِر، وإن عَظُمت الأسباب من كثرة عَدد وقوة عُدَد؛ لأنَّه إذا كان جندُ الله الذين هم أعظمُ جندٍ كانوا على وجْهِ الأرض، وهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومن معه، لم يَنتصِروا بأنفسهم، وإنَّما انتصروا بنصر

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٢).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٥٨).

الله؛ فمَن سواهم مِن باب أَوْلى، ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّنا لا نُعلِّق النَّصر إلَّا بالله سبحانه وتعالى، لا نُعلِّق النَّصرَ بقوَّتنا[١].

٨- أنَّه كلَّما كان الإنسان أذلَّ لله كان أقربَ إلى نصْر الله، وكلَّما كان الإنسان مُستغنيًا عن الله كان أبعدَ عن النَّصر؛ لقوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾، والإنسان إذا رأى مِن نَفْسه العِزَّة وعلا وشمخ فإنَّه يُخذَل، قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[٢] [العلق: ٦-٧].

٩- أنَّ مَنْ مَنَّ الله عليه بنعمةٍ كان ذلك مُوجِبًا لتقوى الله، فالنَّصر سببٌ للتَّقوى والذُّلِّ لله والخضوعِ له والانطراحِ بين يديه، كما فعَل النَّبيُّ عليه السَّلام حين فتَح مكة دخل مُطأطِئ الرَّأس يتْلو كتابَ الله عزَّ وجلَّ، خِلافًا لِمَا يفعله بعضُ النَّاس إذا انتصر جعَل هذا النَّصر سببًا للأَشَر والبَطَر والملاهي والأغاني، وغير ذلك من المعاصي، بل قد يكون بعد النَّصر أكثرَ منه فُسُوقًا ممَّا قبل الحرب، وهذا خلافُ ما أمر الله به؛ لأنَّه قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فأمر بالتَّقوى بعد النَّصر؛ لئلا يَشمَخَ الإنسان بأَنْفه، ويتطاوَل على ربِّه بانتصاره، فيعود إلى ما كان عليه من الفَرَح والبَطَر والأَشَر[٣].

١٠- أنَّ تقوى الله تعالى من الشُّكر لله؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وهذا أمْرٌ لا شكَّ فيه أنَّ التَّقوى من الشُّكر، بل هي الشُّكر حقيقةً؛ لأنَّ التَّقوى اتِّخاذ وقاية من عذاب الله بفِعْل أوامره واجتناب نواهيه، والشُّكر هو القيام بطاعة المُنعِم بالقلب واللِّسان والجوارح[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١١- أفاد قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ ما كان عليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في معاملة أصحابه؛ من إدخال الأمَل في قلوبهم عند اشتدادِ الأزمات، وهذا أدْعى للنَّشاط وطرْح الهمِّ والغمِّ، أمَّا بعض النَّاس فيكون على العكس تَجِده يُدخِلُ على النَّاس التَّشاؤمَ والمروِّعاتِ والمُخيفاتِ، وهذا لا شكَّ أنَّه خلافُ السِّياسة الشَّرعيَّة، بل وخلافُ العقل[١].

١٢- أنَّ الصَّبرَ والتَّقوى سببانِ للنَّصر؛ لقوله: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي: تَصبِروا على الأوامر، وتتَّقوا المحارم[٢].

الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائف:

١- حُسْنُ تدبيرِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الحرب؛ لقوله: ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[٣].

٢- في كلمة ﴿طَائِفَتَانِ﴾ في قول الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ﴾: إشارة لطيفة إلى الكِناية عمَّن يَقَع منه ما لا يُناسِب والسَّتْر عليه، إذ لم يُعيِّن الطائفتين بأنفسهما، ولا صرَّح بمَن هما منه من القبائل؛ سَترًا عليهما[٤].

٣- أنَّ الدِّعايةَ- ولو كانتْ باطلةً- ربما تؤثِّر حتى على المؤمن؛ قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ﴾[٥].

٤- أنَّ الله سبحانه وتعالى يَلطُف بالمؤمن حتى يُثبِّته على الحقِّ؛ لقوله:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٢).

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[١].

٥- قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فيه تنبيهٌ على الوصفِ الذي يَقتضي التَّوكُّلَ، وهو الإيمان، فهو مِن دواعي التَّوكل ومُوجِباتِهِ[٢].

٦- في قول الله تعالى: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ قدَّم لهم الوعدَ بنُزول الملائكة؛ لتَقْوَى قلوبُهم؛ ويَعزِموا على الثَّبات، ويَثِقوا بنصر الله[٣].

٧- أنَّ مَوطِن الملائكة هو السماء، هذا هو الأصلُ؛ لقوله ﴿مُنْزَلِينَ﴾؛ لأنَّ النُّزول إنَّما يكون مِن أعلى إلى أسْفَل، فإذا كان هؤلاءِ الملائكةُ مُنزَلين دلَّ على أنَّ مكانهم في السَّماء، هذا هو الأصلُ، لكن ينزلون إلى الأرضِ كثيرًا حسَب أمْر الله تعالى[٤].

٨- في قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾؛ صرَّح أنَّ البُشرى لهم في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ مع ظهورِ ذلك؛ للدَّلالةِ على تَكرِمةِ الله تعالى إيَّاهم بأنْ بشَّرهم بُشرى لأجْلهم، كما صرَّح بذلك في قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[٥].

٩- إثباتُ الحِكمة لله عزَّ وجلَّ في أفعاله وتشريعاته؛ وذلك لأنَّ اللام للتَّعليل، والتَّعليلُ هو الحكمة، قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢٤/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٤٣).

١٠- في قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾، أنَّ الله سبحانه وتعالى يُسلِّط المؤمنين على الكفَّار؛ ليَقطَع طرفًا من الذين كفروا، وليس كلَّ الذين كفَروا؛ لأنَّ مِن حِكمة الله أنْ يبقى الإيمانُ والكفر متصارعَينِ دائمًا؛ حتى يَتبيَّن المؤمنُ الخالصُ من غيره[١].

١١- في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يَملِك شيئًا من الأمر الكونيِّ، وفي هذه الجملةِ ردٌّ على الذين يتعلَّقون بالرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام في الدُّعاء، والاستعانةِ به، والاستغاثةِ به حتى بعدَ موته[٢].

١٢- في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ﴾، دلالةٌ على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُكلَّف، يأمُره الله سبحانه وتعالى وينهاه؛ وعليه فيكونُ في هذا إبطال لدَعْوى مَن يقولون: إنَّ الإنسان إذا وصَلَ إلى حالة مُعيَّنة من العبوديَّة سقطتْ عنه التَّكاليف؛ فيُقال لهم: إذا كان النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام- وهو أشرفُ الخَلْق- لا يَصِل إلى هذه المرتبةِ؛ فما بالك بمن دونه[٣]؟!

١٣- أنَّ الله سبحانه قد يُعذِّب الكافرين عذابًا ليس للمسلمين فيه يدٌ، بل هو مِن عند الله وحْده؛ لقوله: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾[٤].

١٤- أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُعذِّب إلَّا بذنب؛ لقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، والظالم مُستحِقٌّ لأنْ يُنكِّل اللهُ به؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُحِب الظلم[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٤٨).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:**

- قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾: فيه تخصيصُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالخِطاب خاصَّة، مع عمومِ الخطابِ فيما قبله وما بعدَه، له وللمؤمنين؛ لاختصاصِ مضمونِ الكلامِ هنا به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- قوله: ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾: فيه إطلاقُ العامِّ المرادِ به الخاصُّ؛ إذ المرادُ بـ﴿أَهْلِكَ﴾: بيتُ عائشة رضي الله عنها- على قول الجمهور[٢].

- قوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: الجملةُ اعتراضٌ؛ للإيذانِ بأنَّه قد صدَر عنهم هناك من الأقوالِ والأفعالِ ما لا يَنبغي صدورُه عنهم[٣].

٢- **قوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾:**

- جملةُ ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ اعتراضٌ، ويجوزُ أنْ تكونَ حالًا من فاعل ﴿هَمَّتْ﴾ أو من ضميرِه في ﴿تَفْشَلَا﴾، وهي مفيدةٌ لاستبعادِ فشلِهما، أو همِّهما بهِ مع كونِهما في ولاية الله تعالى[٤].

- وقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ؛ للتَّبرُّك والتَّعليل؛ فإنَّ الأُلوهيَّة من مُوجِبات التَّوكُّلِ عليه تعالى، واللامُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٩).

﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ للجِنْس؛ فيدخلُ فيه الطائفتان دخولًا أوليًّا[١].

- وقُدِّم المجرورُ- وهو لفظُ الجلالة ﴿اللهِ﴾- للاعتناءِ بمن يُتوكَّل عليه[٢].

٣- **قوله:** ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ؛ سِيقتْ لإيجاب الصبرِ والتَّقوى، بتذكير ما ترتَّب عليهما من النَّصر إثرَ تذكيرِ ما ترتَب على عدمهما من الضَّرر[٣].

- قوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ فيه تعريضٌ بأنَّ انهزام يوم أُحُد لا يَفِلُّ حِدَّة المسلمين؛ لأنَّهم صاروا أعزَّةً، والحرب سِجالٌ[٤]، و(الأذِلَّة) جمع قِلَّة، وإنما ذُكِر جمعُ القِلَّة؛ ليَدلَّ على أنَّهم مع ذُلِّهم كانوا قليلين[٥]..

٤- **قوله:** ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ فيه الاقتصارُ على الأمر بالتَّقوى مع كونه مشفوعًا بالصَّبر فيما سبقَ وما لحِق؛ للإشعارِ بأصالتِه، وكونِ الصَّبرِ من مباديه اللازمةِ له؛ ولذلك قُدِّم عليه في الذِّكر، وفي ترتيبِ الأمرِ بالتَّقوى على الإخبار بالنَّصر إيذانٌ بأنَّ نصرَهم المذكورَ كان بسبب تقواهم؛ أي: إذا كان الأمرُ كذلك، فاتَّقوا الله كما اتَّقيتم يومئذ[٦].

٥- **قوله:** ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾، ثم قال بعده: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾: فيه تلوينٌ للخِطاب بتَخصيصِه رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢٤/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٣٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢٤/ ٧٩).

لتشريفِه، والإيذانِ بأنَّ وقوعَ النَّصرِ كان ببِشارتِه عليه السَّلام[١].

- و﴿إِذْ﴾ ظرفٌ لـ﴿نَصَرَكُمْ﴾ قُدِّم عليه الأمر بالتَّقوى؛ لإظهارِ كمالِ العِنايةِ به، والمرادُ به الوقتُ الممتدُّ الذي وقع فيه ما ذكَر بعده[٢].

- وصيغةُ المضارعِ ﴿تَقُولُ﴾؛ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ لاستحضارِ صورتِها أي: نصَركم وقتَ قولِك[٣].

٦- قوله: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾:

- الاستفهامُ في قوله: ﴿أَلَنْ﴾ تقريريٌّ؛ لإثباتِ أنَّ ذلك العددَ كافٍ[٤].

- وجيءَ في النَّفي بحرف (لَنْ) الذي يُفيد تأكيدَ النَّفي؛ للإشعارِ بأنَّهم كانوا يوم بدر لقِلَّتهم، وضَعْفهم، مع كثرةِ عَدوِّهم، وشَوْكته، كالآيسين من كفايةِ هذا المدد من الملائكة، فأَوقَع الاستفهامَ التَّقريريَّ على ذلك؛ ليكون تَلْقِينًا لمَن يُخالِج نَفْسه اليأسُ من كفاية ذلك العدد من الملائكة، بأنْ يُصرِّح بما في نفْسه، والمقصود من ذلك لازمُه، وهذا إثباتُ أنَّ ذلك العدد كافٍ[٥].

- وقوله: ﴿يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ﴾ في إسنادِ الإمدادِ إلى لفظة ﴿رَبُّكُمْ﴾ دون غيرِه من أسماءِ اللهِ: إشعارٌ بحُسْنِ النَّظر لهم، واللُّطف بهم[٦].

- قوله: ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾: فيه وصْف الملائكة بـ﴿مُنْزَلِينَ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٩- ٨٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٣٤).

للدَّلالة على أنهم يَنزِلون إلى الأرض في مَوقِع القتال؛ عِنايةً بالمسلمين[١].

٧- **قوله: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ...﴾:**

- ﴿بَلَى﴾ إبطالٌ للنَّفي، وإثباتٌ لكون ذلك العدد كافيًا[٢].

- قوله: ﴿مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾: لفظ ﴿فَوْرِهِمْ﴾ فيه تأكيدٌ لسرعةِ إتيانِهم، وإمدادِهم، بزيادةِ تعيينِه وتقريبِه، مع تحقُّق الإمدادِ لا محالةَ، سواءٌ أَسرعوا أو أبطؤوا؛ لتحقيقِ سُرعةِ الإمدادِ لا لتحقيقِ أصلِه، أو لبيانِ تحقُّقِه على أيِّ حالٍ فُرِضَ، على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه بتعليقه بأبعدِ التقاديرِ؛ ليُعلم تحقُّقُه على سائرِها بالطَّريق الأوْلى؛ فإنَّ هجومَ الأعداءِ وإتيانَهم بسرعةٍ من مظانِّ عدمِ لُحوقِ المددِ عادةً، فعُلِّق به تحققُ الإمدادِ إيذانًا بأنَّه حيثُ تحقَّقَ مع ما ينافيه عادةً، فلأَنْ يتحقَّقَ بدونه أولى وأحرى[٣].

- وإضافةُ الفَورِ إلى ضميرِ الآتين في قوله تعالى: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ﴾؛ لإفادةِ شدَّة اختصاصِ الفَوْر بهم، أي: شدَّة اتِّصافِهم به حتى صارَ يُعرَف بأنَّه فَوْرهم[٤].

- والإشارةُ بقوله: ﴿هَذَا﴾ إلى الفور؛ تنزيلًا له منزلةَ المُشاهَد القريب[٥].

٨- **قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾:**

- فيه إظهارُ اسمِ الجلالةِ (الله) في مَقامِ الإضمار؛ للتَّنويهِ بهذه العِناية مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهِ بهم[(١)].

- وقد وردتْ في سورةِ الأنفال آيةٌ أُخرى مشابهةٌ لهذه الآيةِ التي في آل عمران، وهي قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]، لكن جاءَ التعبيرانِ فيهما بعضُ الاختلاف؛ ففي هذه الآية قال ﴿بُشْرَى لَكُمْ﴾، بينما في آيةِ الأنفالِ لم يذكُر الجارَّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾، وفي هذه الآية قال: ﴿قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ فأخَّر الجارَّ والمجرور ﴿بِهِ﴾، بينما قدَّمه في الأنفال فقال: ﴿بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾، وفي هذه الآية قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وقال في سورةِ الأنفال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ومن الحِكَم في هذا التغايُرِ ما يأتي[(٢)]:

أ- أمَّا التَّصريح بالجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿بُشْرَى لَكُمْ﴾ فقدْ جاءَ على الأصل، بينما في آية الأنفال لم يُظهَرِ الجارُّ والمجرورُ؛ لأنَّه قد تقدَّم (لَكُمْ) في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، وقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]؛ فأغْنَى عن إعادتِها بلفظها ومعناها، فالتصريحُ بها هنا يُعلَم منه أنَّ جَعْل البشرى لهم، بينما لم يتقدَّم في سورة آل عمران ما يقومُ مقامَ الأُولى؛ لهذا جاءَ بها على الأصلِ.

ولأنَّه لَمَّا تقدَّم في آية آل عمران قوله تعالى: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ﴾ والإخبارُ عن عدوِّهم، فاختلَط ذكرُ الطائفتينِ، وضَمَّهما كلامٌ واحدٌ، فجُرِّدت البشارةُ لِمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للخطيب الإسكافي (١/ ٣٨٩- ٣٩٥)، ((البرهان في توجيه متشابه القرآن)) للكرماني (ص: ٩٢)، ((ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٨٩- ٩٠).

هُدي منهما، وأنَّها لأولياءِ الله المؤمنين، فجيء بضمير خِطابهم ﴿لَكُمْ﴾ متَّصلًا بلام الجرِّ المقتضيةِ الاستحقاقَ، فقيل: ﴿بُشْرَى لَكُمْ﴾، أمَّا آيةُ الأنفال فلم يتقدَّمْ فيها ذِكرٌ لغيرِ المؤمنين؛ فلم يُحتَجْ إلى ذِكْر ضميرِ الخِطاب ﴿لَكُمْ﴾.

ب- وأمَّا تأخيرُ ﴿بِهِ﴾ بعدَ قوله: ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ هنا في آل عمران، وتقديمُها في آية الأنفال؛ فلأنَّه لَمَّا أخَّر الجارَّ والمجرورَ في الكلامِ الأوَّل، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ..﴾، وعطَف الكلامَ الثاني عليه، وقد وقَع فيه جارٌّ ومجرور وجَب تأخيرُهما في اختيار الكلام؛ ليكونَ الثاني كالأوَّل في تقديمِ ما الكلامُ أحوجُ إليه، وتأخيرُ ما قد يُستغنَى عنه، وأمَّا تقديم (به) في آيةِ الأنفال؛ فلأنَّ الأصلَ في كلِّ خبرٍ يُصدَّر بفِعل أنْ يكون الفاعلُ بَعدَه، ثمَّ المفعولُ والجارُّ المجرور، وقد يُقدَّم المفعولُ على الفاعلِ إذا كان اللبسُ واقعًا فيه، وأُريد إزالتُه عنه، ومثله الجارُّ والمجرور، وفي هذا الموضِع لم يعرِضْ في اللَّفظ ما يُوجِب إجراءَ الكلامِ على الأصْل كما كان في سورة آل عمران؛ فإنَّ المعتمدَ بتحقيقه عند المخاطبَين إنَّما هو الإمدادُ بالملائكةِ، وهو الذي أخْبَر الله تعالى عنه أنَّه لم يجعلْه إلَّا بشرى، فوَجَب أنْ يُقدَّم الإمداد، وهو الضَّميرُ بعد الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِهِ﴾ على الفاعِل ﴿قُلُوبُكُمْ﴾، فقال تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾.

وقد يُقال: قَدَّم ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ هُنا وأَخَّر ﴿بِهِ﴾؛ ازدواجًا بَين المخاطبَين، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبكُمْ بِهِ﴾، وقدَّم ﴿بِهِ﴾ في الأنْفال؛ ازدواجًا بَين الغائبين، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبكُمْ﴾.

ج- أمَّا قوله في آية آل عمران: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وقال في سورة الأنفال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ فذلك لأنَّ آيةَ الأنفال تقدَّم فيها أوعادٌ جليلةٌ كقولِه تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ

إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، ثمَّ قال: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]، ثمَّ قال: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]؛ فهذه أوعادٌ عليَّةٌ لم يتقدَّم إفصاحٌ بمِثلها في آية آل عمران فناسَبَها تأكيدُ الوصفين العظيمَينِ من قُدرته سبحانه على كلِّ شيءٍ وحِكمته في أفعالِه، فقال: ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ولَمَّا لم يقعْ في آيةِ آل عمران إفصاحٌ بما في آية الأنفال وردتِ الصفتانِ تابعتَينِ دون تأكيدٍ، وجاء كلٌّ على ما يُناسِب.

وقد يُقال: إنَّه قال في الأنفال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فجاءَ وصفُ اللهِ تعالى بالعِزَّة والحِكمة بلفظِ خبرٍ ثانٍ مستأنَف، وذلك على الأصلِ الواجبِ في توفيةِ كلِّ معنًى حقَّه من البيان؛ لأنَّ القصدَ في الآية إعلامُ المخاطَبين أنَّ النَّصرَ ليس من قِبَل الملائكة، ولا مِن جِهة العدَدِ والعُدَّة وفضْل القوَّة، ولكنَّه من القادِر الذي لا يُغلَب ولا يُمنَع عمَّا يُريد فِعلَه، والحكيمِ الذي يَضعُ النصرَ موضعَه، ففَصَل ذلك في خَبرينِ. وحذف ﴿إِنَّ اللهَ﴾ هاهنا في سورة آل عمران؛ لأنَّ الذي في الأنفال قِصَّةُ بدر؛ وهي سابقةٌ على ما في هذه السُّورة؛ فإنَّها في قصَّة أُحُد، فأخْبَر هناك في الأنفال أنَّ الله عزيز حكيم، فاستقرَّ الخبرُ. وجعَله في هذه السُّورةِ صِفةً؛ لأنَّ الخبَر قد سَبَق.

٩- **قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾** تذييلٌ، أي: كلُّ نَصْر هو من الله لا من الملائكة، وذَكَر وصفَي ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ هنا؛ لأنَّهما أَوْلى بالذِّكر في هذا المقام؛ لأنَّ العزيزَ يَنصُر مَن يُريد نصره، والحكيم يعلم مَن يَستحِقُّ نصرَه وكيف يُعطاه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨).

١٠- **قوله:** ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ تنكيرُ (طرفًا) للتفخيم[١].

- وفيه تشبيه مَن قُتِل منهم وتَفرَّق بالشَّيء المقتَطَع الذي تَفرَّقت أجزاؤه، وانخرم نظامُه[٢].

١١- **قوله:** ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اعتراضٌ وُسِّط بين المعطوف عليه المتعلِّقِ بالعاجل، والمعطوفِ المتعلِّقِ بالآجل؛ لتحقيق أنْ لا تأثير للمنصورين إثرَ بيانِ أن لا تأثيرَ للنَّاصرين، وفي تخصيص النَّفيِ برسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: تلوين الخطاب؛ للدَّلالة على الانتفاءِ من غيره بالطَّريق الأولى، وإنما خُصَّ الاعتراضُ بموقعه؛ لأنَّ ما قبله من القطع والكبْتِ من مظانِّ أن يكونَ فيه لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ولسائر مُباشري القتالِ مدخَلٌ في الجملة[٣].

١٢- **قوله:** ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ تعليلٌ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، مُبيِّنٌ لكون ذلك من جِهَتهم، وجزاءٌ لظُلْمهم[٤].

١٣- **قوله:** ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان اختصاصِ ملكوتِ كلِّ الكائناتِ به عزَّ وجلَّ إثرَ بيانِ اختصاصِ طرَفٍ من ذلك به سبحانه؛ تقريرًا لما سبق وتكملةً له، وتقديمُ الجارِّ (ولله) للقَصْر، وانفراد الله بذلك، وكلمةُ (مَا) من صيغ العُمُوم شاملةٌ للعقلاء أيضًا تغليبًا، أي: له مَا فِيهمَا مِنَ الموجوداتِ خَلْقًا ومُلكًا، لا مدخَلَ فيه لأحد أصلًا؛ فله الأمرُ كلُّه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨- ٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٤- **قوله:** ﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ قولِه تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء﴾ مع زيادة فيه، وفي تخصيصِ التَّذييلِ به دون قرينةٍ اعتناءٌ بشأن المغفرةِ والرَّحمة[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٣).

الآيات (١٢٠ - ١٢٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ عبادَه المؤمنين عن أخْذ الرِّبا أضعافًا مُضاعَفة، كما كانوا يَفعلونه في الجاهليَّة، ويأمُرهم بتقواه سبحانه؛ ليُفلحوا، فينجوا من عذابِه ويُدركوا ثوابَه، ويأمُرُهم أيضًا سبحانه بأنْ يَجعلوا بينهم وبَين النَّار التي هُيِّئت للذين كفروا ما يَقيهم منها، وأنْ يُطيعوا اللهَ ورسولَه، بامتثالِ الأمْر واجتناب النَّهي؛ لعلَّهم إذا فَعلوا ذلك أن يُرحَموا في الدُّنيا والآخِرة.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

وجْهُ الاتِّصالِ بين هذه الآياتِ وما قَبْلَها: أنَّ ما قَبْلَها في بيانِ أنَّ الله نصَرَ المؤمنين وهم أذلَّةٌ، وأنَّهم إنما نُصِروا بتقوى اللهِ وامتثالِ الأمْرِ والنهي؛ ولذلك خُذِلوا في أُحُدٍ عند المخالفةِ، والطَّمعِ في الغنيمةِ، فحثَّهم اللهُ تعالى في هذه الآيةِ على بَذْلِ المالِ في سبيلِ اللهِ، كالدِّفاعِ عن المِلَّةِ والأُمَّة، والتنفيرِ عن الطَّمع فيه، وشرُّه أكْلُ الرِّبا أضعافًا مُضاعفةً؛ لذا ذُكِر في أوَّلِ الكلامِ في هذه الغزوةِ شيءٌ يتعلَّقُ بالمالِ وإنفاقِه، وفي آخِرِها شيءٌ يَتعلَّقُ بذلك[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١٠١).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا تقدَّم وعْدُ الله تعالى للمؤمنين، بأنَّهم إنْ صبَروا واتَّقوا، نَصَرهم على أعدائِهم، فكأنَّ النُّفوسَ اشتاقتْ إلى معرفةِ خِصال التَّقوى التي يَحصُل بها النَّصرُ والفلاحُ والسَّعادة، فذكَر اللهُ في هذه الآياتِ أهمَّ خِصال التَّقوى، التي إذا قام العبدُ بها، فقيامُه بغيرها من باب أَوْلى وأَحْرى، فنهاهم أولًا عن أكْل الرِّبا أضعافًا مُضاعَفة، ثم توالتْ بعد ذلك الأوامرُ الأخرى التي مَن امتَثَلها، فإنَّه يُحقِّق التَّقوى[١].

وأيضًا ناسَب اعتراضَ هذه الجملةِ هنا أنَّه تعالى وعَدَ المؤمنين بالنَّصرِ والإمدادِ مَقرونًا بالصَّبرِ والتقوى، فبدأَ بالأهمِّ منها، وهو: ما كانوا يَتعاطَوْنه من أكْلِ الأموالِ بالباطلِ، وأمَر بالتَّقوى، ثمَّ بالطاعة[٢].

وأيضًا لَمَّا نَهَى اللهُ تعالَى المؤمنين عن اتِّخاذِ بِطانةٍ من غيرِهم، واستطرَدَ لذِكْر قِصَّة أُحُد، وكان الكفَّارُ أكثرُ معاملاتِهم بالرِّبا مع أمثالهم ومع المؤمنين، وهذه المعاملةُ مُؤدِّيةٌ إلى مُخالطةِ الكفَّار؛ نُهوا عن هذه المعاملةِ التي هي الرِّبا قطعًا؛ لِمُخالطةِ الكفَّارِ ومَودَّتِهم، واتِّخاذ أخلَّاء منهم، لا سيَّما والمؤمنون في أوَّل حالِ الإسلامِ ذوو إعسارٍ، والكفَّار من اليهودِ وغيرهم ذوو يسارٍ، وكان أيضًا أكْلُ الحرامِ له مَدخلٌ عظيمٌ في عدم قَبول الأعمالِ الصَّالحة والأدعية، فناسَب ذِكْرَ هذه الآية هنا[٣].

وأيضًا لَمَّا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وبيَّن أنَّ ما فيهما من الموجودات مِلكٌ له، ولا يجوزُ أنْ يُتصرَّفَ في شيءٍ منها إلَّا بإذنه على الوجهِ الذي شَرَعه، وآكِلُ الرِّبا مُتصرِّفٌ في مالِه بغير الوجهِ الذي أَمَر؛ نبَّه تعالى

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٣٩).

على ذلِك، ونهى عمَّا كانوا في الإسلامِ مُستمرِّين عليه من حُكم الجاهليَّة[١]، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، لا تتعاملوا بالرِّبا بعدَ إسلامِكم كما كُنْتم تتعاطَوْنه في جاهليَّتكم؛ فإنَّهم كانوا إذا حلَّ الدَّينُ على المُعسِرِ ولم يتمكَّن مِن سداده في وقتِه، قالوا له: إمَّا أن تَقضِيَ، وإمَّا أنْ تُرْبِيَ، أي: إما أنْ تَقضيَنا ما عليك من الدَّين، أو نَزيدك في المدَّة، وتَزيدنا على القَدْر المطلوب، فربَّما تَضاعَف القليلُ بهذه الطَّريقة حتى يُصبِح كثيرًا جدًّا[٢].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: امتَثِلوا- أيُّها المؤمنون- ما أمَركم الله تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه، ومن ذلك أكْل الرِّبا؛ كي تَظفَروا بما تَطلُبون، وتَنجوا في الدُّنيا والآخرة ممَّا منه تَحْذرون[٣].

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)﴾.

أي: وامتثِلوا أوامرَ الله تعالى، واجتَنِبوا نواهيَه، ومنها: ترْك أكلِ الرِّبا؛ فإنَّه وقايةٌ لكم من النَّار، التي هُيِّئَت مُسْبقًا لكلِّ مَن كفَر بالله العظيم[٤].

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٤-١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٨-١٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦١-١٦٢).

أي: واعمَلوا- أيُّها المؤمنون- بما أمَركم اللهُ تعالى به ورسولُه، وانتَهُوا عمَّا نَهاكم الله ورسولُه عنه من أكلِ الرِّبا وغيرِه من المُحرَّمات؛ لتُرحَموا في الدُّنيا والآخِرة[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في توجيهِ الخِطابِ للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ دَلالةٌ على أنَّ اجتناب الرِّبا من مقتضيات الإيمان، وأنَّ كلَّ مؤمنٍ صادقِ الإيمان، فلا بدَّ أنْ يَتجنَّب أكْلَ الرِّبا[٢].

٢- تقْوى الله هي الحامِلةُ على مُخالَفة ما تعوَّده المرءُ ممَّا نهى الشَّرعُ عنه، وهي سببٌ لرجاء الفلاح والفوز؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٣].

٣- تعليقُ رجاء المؤمنِ لرحمة الله تعالى بتوفُّره على طاعتِه وطاعةِ رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٤].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾، يُقاسُ على الأكلِ بقيَّةُ الإتلافات بالشُّرب واللِّباس، وبِناءِ المساكن وما أَشْبَهها، لكنْ قيل: إنَّه عبَّر بالأكْل؛ لأنَّه أخصُّ وجوه الانتفاع[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٣-١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٩).

٢- في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾، قوله: (أَضْعَافًا) هو جَمْع ضِعْف، وهو جمعُ قِلَّة، ولَمَّا كان جَمْعَ قِلَّة، والمقصودُ الكثرة، أَتْبعه بما يدلُّ على ذلك، وهو الوصف بقوله: ﴿مُضَاعَفَةً﴾[١].

٣- قول الله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾، قوله: (أَضْعَافًا مُضاعَفَةً)، ليس هذا الحالُ - أي هذا القيد بالوصْف ﴿مُضَاعَفَةً﴾- هو مَصبَّ النَّهيِ عن أكْلِ الرِّبا؛ حتى يَتوهَّم مُتوهِّم أنَّه إنْ كان دون الضِّعفِ لم يكن حرامًا، فالحال واردةٌ لحكاية الواقع؛ فلا تُفيد مفهومًا؛ لأنَّ شرطَ استفادة المفهوم من القيود ألَّا يكون القيدُ الملفوظُ به جرى لحكاية الواقع، فلا يَقتصِر التحريمُ بهذه الآية على الرِّبا البالغ أضعافًا كثيرة[٢].

٤- في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ قوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ إخبارٌ عن الماضي، فلا بدَّ أن يكون قد دخَل ذلك الشيءُ في الوجود، فالنَّار مخلوقةٌ الآن[٣].

٥- أنَّ أهلَ النَّار هم الكافرون؛ لقوله سبحانه: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، أمَّا الفُسَّاق الذين يُعذَّبون بالنَّار على قدْرِ أعمالهم، ثم يُخرَجون منها؛ فإنَّ النَّار لم تُعَدَّ لهم[٤].

٦- جوازُ اقترانِ اسم الرَّسول باسمِ الله في الأمْر الذي يكون مُشتركًا بينهما؛ لقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، أمَّا الأمرُ الذي لا يكون مُشتركًا بينهما، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٣).

الأمر الكونيُّ القَدَريُّ، فهذا لا يُذكَر فيه الرَّسولُ مع الله إلَّا بحرفٍ يدلُّ على التَّرتيب ((ما شاء اللهُ، ثمَّ شِئت))، وبهذا نَعرِف الفرقَ بين إسنادِ الشَّيء الشَّرعيِّ إلى اللهِ ورسولِه، وبين إسناد الكونيِّ إلى اللهِ ورسولِه[١].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾:**

- في تصديرِ الخِطاب في شأنِه بالنِّداء تعظيمٌ لشأنِ الرِّبا، وبيانُ خَطرِه[٢].

- وسمَّى أخْذَ الرِّبَا أكلًا في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾؛ لأنَّه يؤولُ إليه؛ فهذا مِن بابِ تسميةِ الشَّيء بما يؤول إليه[٣].

- وتَضمَّن النَّهيُ عن الرِّبا التَّوبيخَ بما كانوا عليه في الجاهليَّة من تضعيفِه؛ إذ كان الرَّجُل منهم إذا بلَغ الدَّين مَحلَّه يقول: إما أنْ تَقْضي حقِّي أو تُربي وأزيدَ في الأَجلِ، فاستَغرَق بالشَّيء الطَّفيف مال المديون[٤]؛ فأكْل الرِّبا مَنهيٌّ عنه قليلًا وكثيرًا، لكنَّها نزلتْ على سببٍ، وهو فِعْلهم ذلك؛ ولأنَّه مقامُ تشنيعٍ عليهم، وهو بالكثيرِ أَليقُ[٥].

٢- **قوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾** فيه تنفيرٌ من النَّار وما يُوقِع فيها، بأنَّها معدودةٌ للكافرين، وتحذيرٌ المسلمين من مشاركتِهم؛ إذ المسلمون لا يَرْضَون بمشاركةِ الكافرين؛ لأنَّ الإسلامَ الحقَّ يُوجِب كراهيةَ ما ينشأ عن الكُفْر،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٤١٠).

(٥) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٠١).

وذاك تعريضٌ واضح في الوعيد على أخْذ الرِّبا، ومقابل هذا التَّنفير التَّرغيب الآتي في قوله: ﴿... وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣][(١)].

- وبِناءُ فِعل ﴿أُعِدَّتْ﴾ للمَفعولِ؛ لزيادةِ التَّرهيبِ، والمُبالَغةِ في الإنذار[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٤٢).

الآيات (١٣٢ - ١٣٦)

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿السَّرَّاءِ﴾: السُّرور والفرَح، ولذَّة في القلبِ عند حصولِ نفْعٍ أو توقُّعه، أو عند رؤيةِ أمْر يُعجِب[1].

﴿الضَّرَّاءِ﴾: سُوء الحالِ، والفقر والقَحْط، والضرُّ: خِلافُ النَّفْع[2].

﴿الْكَاظِمِينَ الغَيْظَ﴾: أي: الحابِسين، أو الممسكِين عن إمضائِه مع قُدرتِهم على مَن أغضبهم؛ يُقال: كظَمْتُ القِرْبةَ، إذا سَددتَ رأسَها[3].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُر الله سبحانه عبادَه المؤمنين بالمُبادَرةِ والمسابقةِ للحُصولِ على مغفرةِ الله سبحانه وتعالى، ومن أجْل دخولِ الجنَّة التي يَبلُغ عرضُها مِثلَ عَرْض السَّموات والأرض لعِظَمها، أُعِدَّت هذه الجنَّة للمُتَّقين، الذين يَبذُلون أموالَهم صدقةً، سواء

---

(١) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨١، ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٣، ٥٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢، ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

في حال رَخائِهم وسُرورهم، أو في حال الضِّيق والضُّرِّ، والذين يَملِكون أنفسَهم حين يَغضَبون، ويَكتُمون الغيظَ الذي في قُلوبِهم، ويَعْفُونَ عن النَّاس حين يَتلقَّوْن الإساءة، وهذه الصِّفات من الإحسان، واللهُ يحبُّ المُتَّصِفين بها.

ومن صِفاتهم أيضًا: أنَّهم إذا ارتَكَبوا فاحشةً من الفواحش، أو وقَعوا في معصيةٍ من المعاصي، ذَكَروا اللهَ، فطَلَبوا منه مغفرةً لذُنوبهم؛ فإنَّه لا يغفرُ الذُّنوبَ أَحدٌ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى، ولم يَستمِرُّوا مُصِرِّين على ذلك الذَّنب، وهم يعلمون أنَّهم عَصَوُا اللهَ، وأنَّهم بذلك مُعرَّضون للعقاب لو أصرُّوا، ويعلمون أيضًا أنَّ التَّوبةَ واجبةٌ إلى الله، وأنَّه يَقبَل توبةَ عبادِه. هؤلاء المذكورة أوصافُهم لهم مَغفرةٌ من الله، وسيَدْخلون جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، ستكون منازلهم أبدًا، ونِعْم أجْرُ العاملين.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)﴾.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي: وليُسابِقْ بعضُكم بعضًا بالمُبادَرة إلى فِعل الخيرات؛ لنيلِ مغفرةِ الله تعالى؛ بسَتْرِ الذُّنوب والتَّجاوزِ عنها [(١)].

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى عِبادَه بالبِدارِ والمسابقةِ إلى مَغفرةِ الله، التي بها زوالُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٥-١٦٦).

المكروه، أمَرَهم عَقِبَ ذلك بالبِدارِ والمسابقة إلى ما يُحقِّق لهم حُصولَ المطلوب؛ فإنَّ الإنسان لا تَتِمُّ سعادتُه إلَّا بهذين الأمرين: زوال ما يَكْره، وحُصول ما يَأمُل[(١)]؛ لذا قال:

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

أي: وليُسابِقْ بعضُكم بعضًا بالمبادرةِ إلى ما يُحقِّق - بإذن الله تعالى - دُخولَكم الجنَّةَ، التي يَبلُغ عَرضُها مِثْلَ عَرْض السَّمواتِ والأرض[(٢)].

قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ الجَنَّة قد هُيِّئَت مُسبقًا للذين اتَّقوا الله تعالى؛ بامتثالِ أوامره، واجتناب نواهيه؛ فهُم أهلُها وساكِنُوها[(٣)].

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٢-٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٧-١٦٩).
والعَرْض في كلامِ العرب يُطلَق على ما يُقابلُ الطُّول، ويُطلَق على الاتِّساع، وقد نَزل القرآنُ بلُغةِ العربِ وعلى معهودِهم في الخِطاب، وقال بعضُ المفسِّرين: إنَّ عرضَها كطولِها؛ لأنَّها قُبَّة تحت العرش، والشيء المقبَّب والمستدير عَرضُه كطوله. والله أعلم بالغيب. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٩)، ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٩-١٧٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى أنَّ أهل الجنَّة هم المتَّقون، أَعقَب ذلك بذِكْر قيام هؤلاء المتَّقِين بأعمالٍ جليلة، أهَّلتْهم لنَيل هذا الفضل العظيم(١).

وأيضًا لما نهى الله عبادَه عن أكْلِ الرِّبا، ابتدأ في صِفات المتَّقِين بضدِّ ذلك، وهو الإنفاقُ في سبيل الله عزَّ وجلَّ(٢)، كما جمَع بينهما في آياتٍ أخرى كقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾.

أي: إنَّ من صِفات المتَّقِين أنَّهم يَتصدَّقون باستمرارٍ، وفي جميع الأحوال، سواء كانوا في حال سُرورٍ- بتوفُّر المال، ورَغَد العيش؛ فلا يُلْهيهم ذلك عن مساعدة الآخرين- أو أصابَهم الضرُّ وضيقُ العيش؛ لِقلَّة ذاتِ اليد، فلا يَصرِفهم ذلك أيضًا عن مواصلةِ العطاء(٣).

فأصبحَ الإنفاقُ سَجِيَّةً دائمةً لهم، لا يَشغَلهم عنه أيُّ حالٍ أصابهم، ولا يَنشأ ذلك إلَّا عن نَفْس طاهرة(٤).

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾.

أي: إنَّ مِن صِفات المتَّقين المُتأصِّلة فيهم، والمستمرَّة معهم: أنَّهم يَمتلِكون السَّيطرةَ التَّامَّةَ على غضبِهم مهما بلغت شِدَّتُه، حتى لو كاد أنْ يخرج منهم من شدَّةِ امتلاءِ نُفُوسهم، وغليانِ قلوبِهم به؛ فإنَّهم يَملِكون أيضًا كتْمَه وحبْسَه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٠-٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٢، ٤٩٣)،

وهذا يدلُّ على عزيمةٍ راسخةٍ في النَّفْس، وقهْرِ قوَّة إرادتِهم للغضبِ وشهوةِ الانتقام، وهذا من أكبرِ قُوى الأخلاقِ الفاضلة[١].

عن أبي هُرَيرَةَ رضي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ليس الشَّديدُ بالصُّرَعَة، إنَّما الشَّديدُ الذي يَملِك نَفْسَه عند الغضبِ))[٢].

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.

أي: ومِن صِفاتهم أيضًا صَفْحُهم، وتَجاوُزهم عن مؤاخذة مَن أساء إليهم- ما لم يتعلَّق بحقٍّ من حقوقِ الله تعالى- مع قُدْرتهم على الانتقامِ منه، فلا تَبقَى بذلك في نُفوسِهم مَوْجِدةٌ على أحد[٣].

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: إنَّ جميعَ ما سبَق ذِكْرُه من صفاتٍ للمتَّقين، فهو داخلٌ في عُمُوم الإحسان، الذي هو سببٌ لنيل محبَّة الله تعالى لِمَن تَحلَّى بها، وصارتْ له طبْعًا وسَجِيَّة[٤].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)﴾.

((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٩، ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١).

(٢) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٣-١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٥-١٧٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى بعضَ صِفات المتَّقين المتعلِّقة بمعاملة الخَلْق، أَعقَب ذلك بذِكر قِيامهم بحقِّ الخالق سبحانه[١].

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا وصَف الجنَّة بأنَّها مُعَدَّة للمتَّقين، بيَّن أنَّ المتَّقِين قِسمان: أحدهما: الذين أَقبَلوا على الطَّاعات والعبادات، وهم الذين وصَفَهم الله بالإنفاقِ في السَّرَّاء والضَّرَّاء، وكَظْمِ الغيظ، والعفوِ عن النَّاس- فذكَر المتَّقين حالَ كمالِهم. وثانيهما: الذين أَذنَبوا ثم تابوا، فذكَرهم حالَ تَدارُكِهم نَقائصَهم، فالمُذنِب إذا تاب صار حالُه كحال مَن لم يُذنِب قطُّ في استحقاقِ المنزلةِ والكرامةِ عند الله[٢].

وأيضًا فإنَّه تعالى لَمَّا ندَب في الآية الأولى إلى الإحسانِ إلى الغيرِ، ندَبَ في هذه الآيةِ إلى الإحسانِ إلى النَّفْس؛ فإنَّ المذنِب العاصي إذا تاب كانتْ تلك التَّوبةُ إحسانًا منه إلى نَفْسه[٣]؛ فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

أي: إنَّ من صِفات المتَّقِين أنَّهم إذا ارتكبوا فَعْلةً قبيحةً، قد تَجاوَزت الحدَّ في الفساد، أو فعلوا بأنفسِهم غيرَ الذي كان ينبغي لهم أنْ يفعلوا بها، من رُكوبِهم عُمومَ معصيةِ الله سبحانه، كبيرةً كانتْ أو صغيرة[٤].

﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠-٦٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٧٩)، (١١/ ٦٩٢)، (٠١٥/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٢).

أي: إنَّهم إنْ وقعوا في ذَنبٍ، ذكَروا رحمتَه سبحانه ونِعَمَه عليهم، وما أَعدَّ للطائعين من ثواب، وذكروا عَظمتَه، وبطْشَه وعقابَه، وغير ذلك، فأَوجَب لهم هذا الحياءَ من الله تعالى والخوفَ منه، ففرُّوا إليه في الحال نادِمين، وطالبين منه السَّترَ وعدمَ المؤاخذة على ذُنوبهم[١].

عن عليٍّ رضِي اللهُ عنه، قال: ((كنتُ إذا سمعتُ من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شيئًا، نَفَعني الله بما شاءَ أن يَنْفَعني منه، وحدَّثَني أبو بكرٍ- وصدَقَ أبو بكرٍ- قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما مَن مُسلمٍ يُذنِب ذنبًا، ثم يَتوضَّأ فيُصلِّي رَكعتينِ، ثمَّ يَستغفرُ اللهَ تعالى لذلكَ الذَّنبِ، إلَّا وغُفِر له، وقرأ هاتين الآيتين: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، ﴿وَالذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهَم﴾ الآية [آل عمران: ١٣٥])) [٢].

﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

أي: لا يَغفر ذُنُوبَ العبادِ أحدٌ غيرُ الله تعالى[٣].

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٠)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٢، ٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٣-١٨٤).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٦)، وابن ماجه (١٣٩٥)، وأحمد (٤٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٢٥٠).

قال ابن عدي في ((الكامل)) (٢/ ١٤٢): أرجو أن يكون صحيحًا، وقال ابن تيمية في ((الاستقامة)) (٢/ ١٨٤) : محفوظ في السنن. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (١/ ٤٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح أبي داود)) (١٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢، ٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٣).

أي: إنَّهم يُقلِعون عن الذَّنبِ ولا يُقيمون عليه- وإنْ تَكرَّر منهم مرَّةً بعد مرَّة- وهم يَعلَمون أنَّ ما ارْتكبوه معصيةٌ، وأنَّهم مُعرَّضون للعُقوبة إنْ أصرُّوا عليها، ويعلمون وجوبَ التَّوبة منها إلى الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه يَقبَلُ التَّوبةَ مِن عبادِه[1].

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أَتَمَّ اللهُ تعالى وصْفَ السَّابقين، وهم المتَّقون، واللَّاحِقين، وهم التَّائبون- أَخبَر بجزائهم[2]؛ فقال:

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

أي: إنَّ أولئك المتَّقين الَّذين ذكَر الله تعالى بعضَ أوصافِهم، لهم أجرٌ كريمٌ مُقابِلَ ما قدَّموه من أعمالِ صالحةٍ، وهو أوَّلًا مغفرةُ الله تعالى لهم بسَتْر ذنوبهم، والتَّجاوز عن المُعاقَبة بها، فيَنجُون بذلك ممَّا كانوا يَحذَرون[3].

﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ويُثابَون ثانيًا بدخولِ الجنَّات التي تَجري من تحتِ أشجارِها وقصورِها الأنهارُ المتنوِّعة، فيَمكُثون فيها بلا نهايةٍ، وبذلك يَفوزُون بما كانوا يأمُلون[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٥-٦٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٠، ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٣، ٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٦-١٨٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٩١-١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩-٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي))

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

أي: ونِعَم جزاءُ العاملين لله تعالى مغفرتُهُ، والخُلودُ في دار كرامتِه[١].

الفوائد التربويَّة:

١- الحثُّ على المسارَعة في أسبابِ المغفرةِ وأسبابِ دخول الجنَّة، بأداء الواجبات، والتَّوبةِ عن جميعِ المَحظورات؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾[٢].

٢- أنَّ التَّخليةَ قبل التَّحلية؛ لأنَّه قال: ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، فبالمغفرة الزحزحةُ عن النَّار التي أَوجَبتْها الذُّنوبُ، ثم يكون دخول الجنَّة، ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[٣].

٣- مُلازَمة السَّخاء وإنفاق المال- الذي هو عزيزٌ على النَّفْس- في العُسْر واليُسْر، والأحوال كلِّها، مِن أشرف الطَّاعات المُوجِبة للجنَّة؛ يُبيِّن ذلك قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾[٤].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ الثَّناءُ على مَن أَنفَق في السَّرَّاء والضَّرَّاء؛ وذلك لأنَّ الإنفاقَ في السَّراء ليس بغريب؛ فكلُّ إنسانٍ يَهُون عليه أن يُنفِق إذا

(ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٩٣-١٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٩٤-١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٤٦).

كان في سرَّاء، لكن الإنفاقَ في الضَّرَّاء هو الذي يَدلُّ على أنَّ الإنسان يُنفِق طلبًا للأجْر، لا زُهْدًا في المال[١].

٥- كَظْمُ الغيظِ وإخفاؤه- بالصَّبر عن إمضائِه مع القُدرة، فلا يَظهَر له أثرٌ- من الأخلاقِ الفاضلة، ومِن أعظمِ العبادة؛ قال تعالى ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾[٢].

٦- الحثُّ على العفوِ عن النَّاس فيما أساؤوا؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[٣]، لكنَّه مُقيَّدٌ بما إذا كان أَصلَحَ[٤].

٧- الحثُّ على الإحسانِ إلى الغير، بإيصال النَّفع إليه، أو بدَفْع الضَّرر عنه؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ فإنَّ كلَّ إنسانٍ يعلم أنَّ الله يُحِب الإحسانَ، سوف يُحسِن، ويتقدَّم إلى الإحسان ويَحرِص عليه؛ لأنَّ محبَّة الله للعبد هي غايةُ ما يُريد[٥].

٨- الحثُّ على الاستغفارِ، والإتيانِ بالتَّوبةِ على الوجه الصَّحيحِ، بالنَّدمِ على فِعْل ما مضَى من الذَّنب، مع العَزْمِ على تَرْك مِثْله في المستقبل؛ فالله تعالى موصوفٌ بسَعة الرَّحمة، وقُرْبِ المغفرة، فلا مَفْزَعَ للمُذنِبين إلَّا فضلُه وكرمُه، والذُّنوب وإنْ جلَّتْ فإنَّ عفوَه أجلُّ، وكرمَه أَعظمُ؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٢-٩٣).

٩- قوله: ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ فيه سرعةُ انتباه هؤلاء المذكورين في الآيات عندَ فِعْل الذُّنوب؛ فيُبادِرون بالتَّوبة، والمبادرة بالتَّوبة من صفات المتَّقِين، وهي واجِبة؛ لأنَّ التَّوبة إذا نزَل الأجلُ لا تُقبَل، والإنسانُ لا يَدري متى يَنزِل أجلُه؛ وعلى هذا فيجب أنْ يتوبَ الإنسانُ من ذُنوبه فورًا ودونَ تأخير[١].

١٠- أنَّه لا أحدَ يَستطيعُ أنْ يَغفِر الذُّنوبَ إلَّا الله؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾، ويَتفرَّع عليها ألَّا يُعتمَدَ على أحدٍ في مغفرة الذُّنوب أو طلَبِ المغفرة، وإنَّما يكونُ الاتِّجاهُ إلى الله عزَّ وجلَّ[٢].

١١- أنَّ الرَّجل إذا أَذنَب فاستَغفَر، ثم أَذنَب فاستغفر، ثم أَذنب فاستغفر، فإنَّه يُغفَر له، وإنْ تَكرَّر الذَّنبُ منه؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ولم يَقُل: (ولم يُعيدوا ما فَعلوا)[٣].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا﴾ استدلَّ به كثيرٌ من الأُصُوليِّين على أنَّ ظاهرَ الأمر يُوجِب الفَورَ، ويَمنَع من التَّراخي[٤].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، إنَّما فصَل بينهما؛ لأنَّ الغُفران معناه إزالةُ العِقاب، والجنَّة معناها إيصالُ الثَّواب؛ فجمَع بينهما للإشعارِ بأنَّه لا بدَّ للمُكلَّف من تحصيلِ الأمرين[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- هذه الآياتُ الكريمات: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ الآيات، من أَدِلَّة أهل السُّنة والجماعة، على أنَّ الأعمالَ تَدخُل في الإيمان، خِلافًا للمُرجئة، ووجْه الدَّلالة إنَّما يَتِمُّ بذِكْر الآيةِ التي في سورة الحديد، التي هي نظيرُ هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، فلم يَذكُر فيها إلَّا لفْظَ الإيمان به وبرُسله، وهنا قال: ﴿أُعِدَّت للمُتَّقين﴾، ثم وصَف المتَّقِين بهذه الأعمال الماليَّة والبَدنيَّة؛ فدلَّ على أنَّ هؤلاء المتَّقِين الموصوفين بهذه الصِّفات هم أولئك المؤمِنون[١].

٤- في قول الله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، دليلٌ على أنَّ الجنَّة مخلوقةٌ الآن[٢].

٥- بدأَ وصفُ المتَّقِين بالإنفاقِ لوجهين: (أحدهما): مُقابلتُه بالرِّبا الذي نُهي عنه في الآية السَّابقة؛ فإنَّ الرِّبا هو استغلالُ الغَنيِّ حاجةَ المـُعوِز، وأكْلُ مالِه بلا مُقابِل، والصَّدقة إعانةٌ له، وإطعامُه ما لا يَستحِقُّه؛ فهي ضدُّ الرِّبا، ولم يَرِد في القرآن ذِكرُ الرِّبا إلَّا وقُبِّح ومُدِحتْ معه الزَّكاةُ والصَّدقة. (ثانيهما): أنَّ الإنفاقَ في السَّرَّاء والضَّرَّاء أدلُّ على التَّقوى، وأشقُّ على النُّفوس، وأنفعُ للبشرِ من سائر الصِّفات والأعمال[٣].

٦- في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، قوله: ﴿فَاحِشَةً﴾، أي: من السَّيِّئات الكِبار، ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، أي: بأيِّ نوعٍ كان من الذُّنوب؛ لتَصير الفاحشةُ موعودًا بغُفرانها بالخُصوص وبالعُموم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٧٣).

٧- في قوله تعالى: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، قيل: وجْه كونِ الإنسان ظالِمًا لنَفْسه، أنَّ نَفْسك عندك أمانةٌ، فإذا فرَّطتَ في هذه الأمانةِ، بأنْ أَقحَمتَ نَفْسَك فيما حرَّم اللهُ عليك، أو تأخَّرتَ عمَّا أَوجَب اللهُ عليك، فقدْ ظَلمتَ نَفْسَك[١].

٨- أنَّ المتَّقِي لا يكونُ معصومًا من فِعْل الفاحشة، أو ظُلْم النَّفْس؛ لأنَّ الله لم يَقُل: (وهم لا يفعلون الفواحشَ أو لا يظلمون أنفسَهم)، بل قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، ففِعْلُ الفاحشة لا يَخدِش التَّقوى إذا استَغفَر الإنسانُ وتاب[٢].

٩- التَّعبير عن (المغفرة والجنَّاتِ) بالأجْر في قوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّهما يُستحقَّان بمقابلة العملِ، وإنْ كان بطريق التفضُّل؛ لمزيدِ التَّرغيبِ في الطَّاعات، والزَّجرِ عن المعاصي[٣].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾:**

- ﴿وَسَارِعُوا...﴾ فيه الوَصْلُ- أي: العطفُ بالواو- بين هذه الجُملةِ، وجُملةِ الأمر بالطَّاعة: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾؛ لكون الأمرِ بالمُسارَعة إلى المغفرة والجنَّة يؤولُ إلى الأمر بالأعمال الصَّالحة، ومَن قرأ (سَارِعُوا) بغير واو، فتتنزَّل جملة (سَارِعُوا) مَنزِلةَ البيان، أو بدلَ الاشتمال، لجملة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾؛ لأنَّ طاعةَ الله والرَّسول مُسارَعةٌ إلى المغفرة

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٧).

والجنَّة؛ فلذلك فُصِلتْ ولم تُعطَف، وعلى هذا يجوزُ الفصلُ والوصلُ في بعض الجُمُل باعتبارين[١].

- وجِيء بصيغة المُفاعَلة مُجرَّدةً عن معنى حُصولِ الفِعلِ من جانبينِ في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا﴾؛ لقصد المُبالَغة في طلبِ الإسراعِ، والعربُ تأتي بما يدلُّ في الوضع على تَكرُّر الفعل، وهم يُريدون التَّأكيدَ والمُبالَغةَ دون التَّكريرِ[٢].

- وتنكيرُ ﴿مَغْفِرَةٍ﴾، وإضافتُها إلى ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في قوله: ﴿مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ لقَصْدِ الدَّلالةِ على التَّكثيرِ والتَّعظيم[٣].

- وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾: استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ذِكْر الجنَّة عَقِب ذِكْر النَّار- الموصوفة بأنَّها ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾- يُثير في نُفوس السَّامعين أنْ يتعرَّفوا مَن الذين أُعِدَّت لهم[٤].

٢- **قوله: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾** فيه التَّعبيرُ بالعامِّ الذي يُراد به الخاصُّ؛ إذ المعنى: والعَافِين عمَّن ظلَّمهم أو أساء إليهم[٥].

٣- **قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** الألف واللامُ في ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ إمَّا للجِنْس، وهم داخِلون فيه (وصْف التَّقوى) دخولًا أَوَّليًّا، فيتناول كلَّ مُحسِن، ويدخل تحتَه هؤلاء المذكورون في الآية، وإمَّا للعهد؛ عبَّر عنهم (أي: الْمُتَّقِينَ) بالمُحسِنِينَ؛ إيذانًا بأنَّ النُّعوتَ المعدودةَ هي من باب الإحسانِ، الذي هو الإتيانُ بالأعمال على الوجه اللائقِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٨٨، ٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٩)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٥٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٦).

- وجملةُ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَها[١]، وهي أيضًا اعتراضٌ بين قوله: ﴿... أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾، وبين قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً...﴾، وهذا الاعتراضُ مشيرٌ إلى ما بينهما من التَّفاوت؛ فإنَّ درجةَ الأوَّلين من التَّقوى أعْلَى مِن درجةِ هؤلاء، وحظَّهم أَوْفى من حظِّهم، أو على نَفْس المتَّقِين، فيكونُ التفاوتُ أكثرَ وأظهرَ[٢].

٤- قوله: ﴿**فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ فيه مِن حُسْن البلاغة: ترتيبٌ بديعٌ؛ حيث رُتِّبتْ هذه الأركانُ في الآية بحسَب شِدَّة تَعلُّقها بالمقصود؛ لأنَّ ذِكْر الله يحصُلُ بعد الذَّنب، فيبعثُ على التَّوبة؛ ولذلك رُتِّبَ الاستغفارُ عليه بالفاء، وأمَّا العِلْمُ بأنَّه ذَنبٌ، فهو حاصلٌ من قبلِ حُصولِ المعصية، ولولا حُصولُه لَمَا كانت الفَعْلةُ معصيةً؛ فلذلك جِيءَ به بعدَ الذِّكر ونَفي الإصرار[٣].

- قوله: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ جُمْلة مُعترِضة بين جملة ﴿فَاسْتَغْفَرُوا﴾ وجملة ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾: وفيها ارتفاقٌ بالنَّفس، وداعيةٌ إلى رَجاءِ اللهِ وسَعَةِ عَفْوِه، ودلالةٌ على اختصاصِه بغُفْران الذَّنب[٤]، ولتقريرِ الاستغفارِ والحثِّ عليه، والإشعارِ بالوعد بالقَبول[٥].

- والاستفهامُ إنكاريٌّ مُستَعمَلٌ في معنى النَّفي، بقرينةِ الاستثناء منه، والمقصودُ تسديدُ مُبادَرتهم إلى استغفارِ الله عَقِب الذَّنب، والتَّعريضُ بالمشرِكين الذين اتَّخذوا أصنامَهم شفعاءَ لهم عند الله، وبالنَّصارى في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٦- ٨٧).

زعْمهم أنَّ عيسى رفَع الخطايا عن بني آدم ببَليَّة صَلْبِه[١].

٥- **قوله:** ﴿**أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ...**﴾ جِيءَ باسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لإفادةِ أنَّ المشارَ إليهم صاروا جَديرينَ بالحُكْم الواردِ بعدَ اسمِ الإشارة؛ لأجْل تلك الأوصاف التي استَوجَبوا الإشارةَ لأجْلها[٢]، إضافةً إلى ما فيه مِن معنى البُعْد؛ إشارةً إلى عُلُوِّ مَرتَبتِهم، وسُمُوِّ درجتِهم.

٦- **قوله:** ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ**﴾، ﴿**ذَكَرُوا اللَّهَ**﴾، ﴿**وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ**﴾، ﴿**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ**﴾، ﴿**وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ**﴾ كلُّ هذا تَكرارٌ للفظِ الجلالة (الله)[٣]، وفيه من تربيةِ المهابةِ والجلالِ وغيرِه ما لا يَخْفى.

٧- **قوله:** ﴿**وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾ تذييلٌ؛ لإنشاءِ مدْحِ الجزاء، مُختَصٌّ بالتَّائبين، وهو مِن عطفِ الإنشاءِ على الإخبار، وهو كثيرٌ في فصيح الكلام، وسُمِّي الجزاء أجرًا؛ لأنَّه كان عن وعدٍ للعاملِ بما عمِل[٤].

- والتَّعريفُ في ﴿الْعَامِلِينَ﴾ للعَهدِ، أي: ونِعْم أجرُ العاملين هذا الجزاءُ، وهذا تفضيلٌ له، وللعمل المُجازَى عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الآيات (١٣٧ - ١٤١)

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿خَلَتْ﴾: مَضَتْ وذَهبَتْ، مِن خلا الزَّمان: إذا مضى وذهَب [(١)].

﴿سُنَنٌ﴾: أي: سِيرٌ وأمثالٌ، وطرائِقُ ومناهجُ، جمْع سُنَّةٍ، وهي الطَّريقةُ المسلوكة، والمنهاجُ المتَّبع. وقيل: معْنى ﴿سُنَنٌ﴾ أُمم، جمْع سُنَّة، وهي الأُمَّة، وأصلُ (سنن): جريانُ الشَّيءِ واطِّرادُه في سُهولةٍ[(٢)].

﴿عَاقِبَةُ﴾: عاقبةُ أمر كذا، أي: آخرُه وما يصيرُ إليه منتهاه، وما يؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تختصُّ بالثوابِ إذا أُطلقت، وقد تُستعملُ في العقوبةِ إذا أُضيفتْ، وأصل (عقب): تأخيرُ شيءٍ وإتيانُه بعدَ غيره[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٠، ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٧- ٤٩٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: أي: لا تَضعُفوا، وأصل الوَهْن: الضَّعْفُ من حيثُ الخَلْقُ، أو الخُلق[١].

﴿قَرْحٌ﴾: الجِراحُ، أو الأثَر من الجِراحةِ من خارج، وأصل القَرْح: ألَمٌ بجراح، أو ما أَشبهها[٢].

﴿نُدَاوِلُهَا﴾: أي: نَجعلُها للمؤمنين مرَّةً، وللكافرين مرَّةً، والدُّولة: اسمُ الشَّيءِ الذي يُتداولُ بعينه، والأصلُ: تحوُّل شيءٍ من مكانٍ إلى مكان[٣].

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: أي: ليُطهِّر، ويَختبر، ويُنقِّي، والتمحيصُ: الابتلاءُ والاختبارُ، وأصلُ المحْص: تُخليصُ الشَّيءِ، وتنقيتُه ممَّا فيه من عَيب[٤].

﴿وَيَمْحَقَ﴾: يُهلك، ويَنقص، وأصل المَحْق: النُّقصانُ، أو نقصانُ الشيءِ قليلًا قليلًا[٥].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخاطب اللهُ المسلمين مسلِّيًا لهم بعدَ الذي أصابهم في أُحُدٍ من هزيمة، مبيِّنًا سبحانه أنَّه قد مضَتْ مِن قبلهم سُننٌ إلهيَّة على الخَلق؛ فسِيروا- أيُّها المسلمون-

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢، ١٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠).

في الأرض؛ لتنظروا من الآثارِ التي تُبيِّن كيف كانت نهاية الكافرين.

ثم يُخبر تعالى أنَّ هذا القرآنَ الكريم بيانٌ للناس كافَّةً؛ يوضِّح لهم الحقَّ من الباطل، وهو مرشِدٌ للمتَّقين إلى الطَّريق القويم، وزاجرٌ لهم عن سُبُلِ الضَّلالة والفساد.

ثم أمَر الله المسلمين ألَّا يَضعُفوا ولا يَحزنوا بسبب تلك الهزيمة التي لحقتهم؛ فإنَّهم هم الأعْلَوْن دائمًا، ما داموا مُتمسِّكين بإيمانهم، فإنْ يكُن قد نالهم جراحٌ وقتْل يوم أُحد، فقد أصاب أعداءَهم من الجراح والقَتْل نحوٌ من ذلك في أُحدٍ وبَدرٍ؛ فقد تساوَوْا، فلا ينبغي أنْ يستمرُّوا على حُزنهم، وهذه سُنَّة الله؛ أنْ يَجعل الأيَّامَ دُوَلًا بين الناس جميعًا؛ مؤمنِهم وكافرهم، فتارةً نصر، وتارةً هزيمة. ومن الحِكَم التي أرادها اللهُ تعالى من ذلك التداوُلِ بين الناس: ظهورُ صادِقي الإيمان من غيرهم، واتِّخاذُ اللهِ من المؤمنين شُهداءَ يُقتَلون في سبيلِه، والله سبحانه لا يحبُّ الظالمين، وحتى يُنقِّي اللهُ المؤمنين من ذُنوبهم بما يُصيبهم من قتْلٍ وجراح، ويُهلِك الكافرين.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

بعدَما سبَق الحديثُ عن غزوة أُحُد، وما أصابَ المسلمين فيها، خاطبَهم الله تعالى بهذه الآية؛ تَعزيةً وتسليةً لهم[1]، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٦).

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾.

أي: قد مضَى على مَن كان قبلكم من الأُمم طرائقُ إلهيَّةٌ جاريةٌ باعتيادٍ على الخَلق، ومِن ذلك: أنْ يكون النصرُ والهزيمة سِجالًا ومداولةً بين المؤمنين والكافرين، ومِن تِلك السُّنن: إمهالُ الكفَّارِ واستدراجُهم حتى يَحين موعدُ إهلاكِهم، وإنجاءُ المؤمنين مِن بعد ابتلائِهم؛ فتلك أمثلةٌ صالحةٌ للعِظةِ والاعتبار(١).

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

أي: فسِيروا على أقدامِكم وبقُلوبِكم، ناظرين ومُتفكِّرين فيما بقِي للأُممِ الكافرةِ السَّابقة من آثارٍ أرضيَّة، تقِف شاهدةً على جريان سُنَّة اللهِ تعالى في الكافرين بعد إمهالِهم واستدراجِهم، حيث كانت نهايتُهم بإهلاكِهم، وتَدميرِهم بأنواعِ العقوبات؛ جزَّاءَ تكذيبهم بآيات الله تعالى ورسلِه عليهم السَّلام(٢).

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)﴾.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾.

أي: إنَّ هذا القُرآنَ العظيم- ومن ذلك: الآيات التي تَقدَّم ذِكرُها- يُبيِّن لعمومِ الناس الأمورَ بوضوحٍ تامٍّ، فيُعرَف به الحقُّ من الباطل، وتنكشفُ به الحقائق، فيتميَّز مِن خلاله أهلُ السَّعادة من أهل الشَّقاوة(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٠، ٧٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٥-٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٩٨-١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٩٩-٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٧، ٩٨)، ((تفسير

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ القرآن يُرشِد أهلَ التَّقوى- الذين دأَبوا على امتثال أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه- إلى طريق الحقِّ والرَّشاد، ويَزجُرهم عن سلوك طُرُقِ الغَيِّ والفساد[1].

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، وقوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾، كالمقدِّمة لقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾؛ كأنَّه قال: إذا بحثتُم عن أحوالِ القرونِ الماضية، علمتُم أنَّ أهلَ الباطلِ وإنِ اتَّفقت لهم الصولةُ، فإنَّ مآلَ أمْرِهم إلى الضَّعفِ والفتور، وصارتْ دولةُ أهل الحقِّ عاليةً؛ وصولةُ أهل الباطل مُندرِسةً؛ فلا ينبغي أنْ تصيرَ صولةُ الكفَّار عليكم يومَ أُحُد سببًا لضعْف قلوبِكم، ولجُبنكم وعجزِكم، بل يجبُ أنْ تَقْوَى قلوبُكم؛ فإنَّ الاستعلاءَ سيحصُل لكم، والقوَّةُ والدولةُ راجعةٌ إليكم[2]؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾.

أي: ولا تَضعُفوا ولا تَتثبَّطوا- أيُّها المؤمنون- عن جِهاد عدوِّكم، ولا يُصيبنَّكم الحزنُ؛ بسببِ الهزيمةِ التي تَعرَّضتم لها من قِبَل عدوِّكم يومَ أُحُد، وما نالَكم فيه من قتْلٍ وجراح؛ فأنتُم الأعلى دائمًا في جميعِ الأحوالِ حتى لو كنتُم مغلوبينَ، ما

ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٦-٢٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧١).

دُمتُم باقين على إيمانكم؛ فإنَّ هذا الوهنَ والحزنَ غيرُ لائقٍ بالمؤمنين[١].

قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)﴾.

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾.

أي: إنْ كنتُم قد أصابتْكم جراحٌ، وقُتِلَ منكم جماعةٌ في غزوة أُحُد، فقد أصابَ أعداءَكم قَريبٌ من ذلك، مِن قتْلٍ وجراحٍ في أُحُد أو بَدْر، فتساويتُم أنتُم وإيَّاهم في ذلك؛ فلا تبتئِسوا[٢].

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يَجعل الأيَّام دُوَلًا بين الناس؛ مؤمنِهم وكافرِهم، فيُصرِّفُها كيف يشاء؛ فمرَّةً يُديل المؤمنينَ على الأعداءِ، فتكونُ لهم الغَلَبَةُ، ومرةً يُديل الأعداءَ على المؤمنين، فتكونُ الغلبةُ لهم؛ ففي بدرٍ كان النصرُ للمُؤمنين، وفي أُحُدٍ كان النصرُ للمُشرِكين[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٦-٧٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦- ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩-١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٩-٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٩-٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢١٩-٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي))

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾.

مُناسَبتها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا سلَّى اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنين عن الهزيمةِ التي وقَعتْ لهم يوم أُحُد، وأنَّ الأيَّامَ دُولٌ بين الناس، شرَع سبحانه في بيان الحِكَم العظيمةِ المترتِّبةِ على ذلك[1]، فقال:

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُصرِّف الأيَّام بين الناس نصرًا وهزيمة؛ ليظهرَ بذلك صادقُ الإيمانِ من غيرِه، كما عَلِمه الله تعالى بسَابِق عِلْمه في الأزلِ؛ فإنَّ المؤمنين لو كانوا دائمًا مَنصورِينَ، فإنَّ الجميعَ سيُظهرون لهم الموالاةَ، ولن يَتميَّز أعداؤُهم من أوليائِهم حقيقةً[2].

﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾.

أي: ومِن أسبابِ إدالةِ اللهِ تعالى الأيَّامَ بين الناس؛ بتمكينِه للكفَّار أحيانًا على بعض المؤمنين: إكرامُ عِبادِه المؤمنين بالشَّهادةِ بالقتْلِ في سبيلِه، كما وقَع

(ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٠-٢٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٨٥-٨٧)، ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢١-٢٢٣).

والعِلم في هذه الآية؛ في قولِه سبحانه وتعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عِلمُ وجود، وعلمٌ يترتَّب عليه الجزاء؛ لأنَّ الله تعالى قد علِم الذين آمنوا قبل أنْ يؤمنوا، فإنَّ عِلْم الله بالأشياء عِلمٌ أزليٌّ قديم، فهو سبحانه وتعالى يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٢)، ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٥٥).

يوم أُحُد، ولولا ذلك لَمَا نالوا تلك الحُظوةَ الرَّفيعة، وذلك المقامَ السَّامي[١].

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ الكافِرين والمنافِقين، الذين وَضَعوا- بالكفر- أنفسَهم في غيرِ ما خُلِقتْ لأجْله، فبَخَسوها حقَّها؛ ولذا أَقعدَ المنافقين يومَ أُحُدٍ عن القتال مع المؤمنين؛ لأنَّه يُبغضُهم، كما أنَّ الله تعالى يُديلُ الكافِرين على المؤمنين أحيانًا، لا لأنَّه يُحبُّهم، بل لِمَا سبَق ذِكرُه من أسباب، وإذا أدالَ المؤمنين عليهم فلأجْل محبَّتِه سبحانه لهم[٢].

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)﴾.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أي: ومِن حِكَم الإدالةِ على المؤمنين تَنقيتُهم من الذُّنوب، سواءٌ بما حصَل لهم مِن قتْل، أو بما أصابَهم من جِراح، ومِن ذلك أنَّهم إنِ انتصروا دائمًا، حصَلَ لنفوسِهم طغيانٌ وضَعْفُ إيمان، يُوجِب لهم العقوبةَ والهوان[٣].

﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: يُهلِكُهم ويُفنيهم؛ فإنَّهم إنِ انتَصروا طَغَوْا وبغَوْا وبطَروا؛ فيكون ذلك سببًا في استئصالِهم بعقوبةٍ تُدمِّرهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٨٧)، ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٣-٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٧-٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي))

الفوائد التربويَّة:

١- الحثُّ على الاعتبارِ بأحوال الأُمم الماضية، وتأمُّلِ عاقبة المكذِّبين للرُّسل، وتعرُّفِ ما حلَّ بهم، فذلك هو الذي يُوصل إلى معرفةِ تِلك السُّنن والاعتبارِ بها؛ قال تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[١].

٢- إثباتُ القياس؛ لأنَّ المقصود بقوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ النَّظرُ والاعتبار، وأنْ يُقاسَ ما حضَرَ على ما مضَى وسلَف[٢].

٣- أنَّ القرآنَ الكريمَ صالحٌ لهدايةِ المؤمِن والكافِر؛ لقوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾، فهو يَشمَل المؤمنَ والكافر[٣].

٤- تسليةُ هذه الأمَّة من وجهٍ، وتحذيرُها من وجهٍ آخَرَ؛ تسليتُها بأنَّ الله سبحانه وتعالى قد عاقَبَ مَن قَبلَها، فعقوبتُه لها في غزوة أُحُد من سُنن الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه لا شكَّ أنَّ ما حصَلَ في أُحُدٍ عقوبةٌ؛ ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾. وفيها أيضًا تحذيرٌ من جِهةٍ أخرى مِن عقوبةٍ أشدَّ؛ لأنَّ الأُممَ السابقة أُهلكوا ودُمِّروا عن آخِرهم[٤].

٥- أنَّ القرآنَ الكريم لا يَنتفعُ به إلَّا المتقون؛ لقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ففيه فضيلةُ التَّقوى، وأنَّها سببٌ للاهتداءِ والاتعاظ[٥].

(ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٠)، ((تفسير المنار)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٨، ٢٠٩).

٦- أنَّ مَن لم يتَّعظ بالقرآن، فليتَّهمْ نفْسَه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١].

٧- في قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾، دلالةٌ على أنَّ الإنسانَ كلَّما ازداد تقوى، ازداد هدًى وموعظةً؛ لأنَّ الحُكمَ المعلَّق بوصف يَقوَى بقوَّته، ويَضعُف بضَعْفِه[٢].

٨- أنَّ صِحَّة الإيمان تُوجِب قوَّةَ القلب والثقةَ بالله تعالى، وقِلَّةَ المبالاةِ بأعدائه؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٣].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾: أنَّه يَنبغي للإنسانِ أن يكون قويَّ العزيمة، ولا يَضعُف ولا يَجبُن، وكم من إنسانٍ ضعُف وجبُن ففاتَه خيرٌ كثير! ولو أقدم لحصَل على خيرٍ كثير؛ لأنَّ المستقبَل لا تُدرى ما النتيجة فيه[٤].

١٠- الحزنُ مِن عوارضِ الطَّريقِ إلى اللهِ تعالى، وليس مِن مقاماتِ الإيمانِ، ولا مِن مَنازِلِ السَّائِرين؛ ولهذا لم يأمرِ اللهُ به في موضعٍ قطُّ، ولا أثْنَى عليه، ولا رتَّب عليه جزاءً ولا ثوابًا، بل نهَى عنه؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٥].

١١- في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: أنَّه كلَّما ازداد إيمانُ الأمَّة ازدادتْ عُلوًّا، وأنَّ للعبدِ مِن العلوِّ بحسبِ ما معَه مِن الإيمانِ؛ لأنَّ الله تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢١٧).
(٥) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٧٨).

رتَّب العلوَّ على الإيمان، والمرتَّبُ على شيءٍ يَزيد بزِيادته، ويَنقُص بنَقْصِه[١].

١٢- في هذه الآياتِ تسليةٌ من الله للمؤمنين عمَّا حصَل لهم من الهزيمةِ في أُحُد، فبيَّن لهم سبحانه الحِكَمَ العظيمة المترتِّبة على ما أصابَهم في تِلك الهزيمة؛ ومنها:

- أنَّ هذه الدارَ يُعطِي اللهُ منها المؤمنَ والكافر، والبَرَّ والفاجر، فيداولُ اللهُ الأيَّامَ بين الناس؛ يومًا لهذه الطائفة، ويومًا للطائفة الأخرى؛ لأنَّ هذه الدارَ الدنيا منقضيةٌ فانية، وهذا بخِلاف الدَّار الآخرة؛ فإنَّها خالصةٌ للذين آمنوا، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

- ومنها: أنَّ اللهَ تعالى يَبتلي عِبادَه بالهزيمةِ والابتلاء؛ ليَتبيَّن المؤمنُ من المنافق؛ لأنَّه لو استمرَّ النصرُ للمؤمنين في جميع الوقائع، لدخَلَ في الإسلامِ مَن لا يُريده، فإذا حصَل في بعضِ الوقائعِ بعضُ أنواع الابتلاء، تبيَّن المؤمنُ حقيقةً، الذي يَرغبُ في الإسلامِ في الضرَّاء والسَّرَّاء، واليُسر والعُسر، ممَّن ليس كذلك؛ قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

- ومنها: اتِّخاذُ الشُّهداء؛ قال تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾؛ لأنَّ الشهادةَ عند الله من أرفعِ المنازل، ولا سَبيلَ لنَيلِها إلَّا بما يَحصُل من وجودِ أسبابها، فهذا من رحمتِه بعباده المؤمنين، أنْ قيَّض لهم من الأسبابِ ما تَكرهه النفوسُ؛ ليُنيلَهم ما يُحبُّون من المنازلِ العالية، والنعيم المقيم.

- ومنها: تمحيصُ المؤمنين من ذُنوبِهم وعُيوبِهم؛ قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ويُمحِّص اللهُ أيضًا المؤمنين من غيرِهم من المنافقين،

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢١٨).

فيَتخلَّصوا منهم، ويَعرِفوا المؤمنَ من المنافق.

- ومنها: أنَّ الله سبحانه يُقدِّر ذلك؛ ليمحقَ الكافرين كما قال تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: ليكون سببًا لمحْقِهم واستئصالِهم بالعقوبة؛ فإنَّهم إذا انتصروا بَغَوا وازدادوا طُغيانًا إلى طُغيانهم، يَستحقُّون به المعاجلةَ بالعقوبةِ؛ رحمةً بعبادِه المؤمنين[١].

١٣- قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾: يَتبيَّن منه أنَّ الله سبحانه وتعالى قد يمتحنُ العبدَ؛ ليعلمَ إيمانَه من عدمِه، يمتحنُه بأنواعٍ من الامتحانات: تارةً بالمصائِب، وتارةً بالمعايب، فهنا ابتلاءٌ بالمصائِب، وإذا يَسَّر اللهُ للإنسانِ أسبابَ المعصية، فهذا ابتلاءٌ بتيسير المعايب[٢].

١٤- قوله: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ جملةٌ معترِضة مسوقةٌ لبيانِ أنَّ الشهداءَ يكونون ممَّن خَلَصوا لله، وأخْلصوا في إيمانهم وأعمالهم؛ فلم يَظلِموا أنفسِهم بمخالفةِ الأمْرِ أو النهي، ولا بالخروجِ عن سُنن اللهِ في الخَلْق، وأنَّه تعالى لا يَصطفي للشهادةِ الظالمين ما داموا على ظُلمهم، وفي ذلك بِشارةٌ للمتَّقين، وإنذارٌ للمقصِّرين؛ فالناسُ قَبل الابتلاءِ بالمِحن والفتنِ يَكونون سواءً؛ فإذا ابتُلوا تَبيَّن المخلِصُ والصادقُ، والظالمُ والمنافِق[٣].

١٥- الظَّالم لا تدومُ له سُلطةٌ، ولا تثبُتُ له دولة، فإذا أصابَ غِرَّةً من أهل الحقِّ والعدل، فكانتْ له دولةٌ في حربٍ أو حُكم، فإنَّما تكونُ دولتُه سريعةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١٢٤).

الزوال، قريبةَ الانحلال والاضمحلال[١].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، أنَّ المصارعةَ بين الحقِّ والباطلِ قد وقعتْ في الأُمم الماضية، وكان أهلُ الحقِّ يَغلِبون أهلَ الباطل، ويُنصَرون عليهم بالصَّبر والتقوى[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا﴾، فيه أنَّ السَّير في الأرض لغيرِ غرَضٍ مشروعٍ مذمومٌ؛ لأنَّ السَّيرَ في الأرضِ من غيرِ غَرضٍ مشروعٍ فيه إتعابٌ للنَّفس، وتعريضُها للهلاك، وإضاعةُ المال، وإضاعةُ الوقت[٣].

٣- أنَّ القرآنَ بيانٌ للناسِ في كلِّ شيء، فهو عامٌّ من حيثُ التَّبيينُ، وعامٌّ من حيثُ المبيَّنُ له؛ يُؤخَذ العمومُ للمُبيَّن له من قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾، والتبيينُ مِن كونِه حَذَف المتعلِّقَ، وحذف المتعلِّق يدلُّ على العمومِ ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ لكلِّ شيءٍ، ويُؤيِّده قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[٤] [النحل: ٨٩].

٤- أنَّ هذه الأمَّةَ هي العُليا، بشَرْط أنْ تؤمن؛ لقوله: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٥].

٥- في قوله: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ التلميحُ بالتوبيخِ إذا حصَل الوهنُ أو

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) انظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((الزهد والورع والعبادة)) لابن تيمية (ص: ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٨).

الحزن لا سيَّما إذا قلنا: إنَّ الواوَ هنا واو الحال؛ يعني: كيف يَليقُ بكم أن تَهِنوا وتحزنوا وأنتم الأعلون؟! لأنَّ الأعلى لا يَليق به أن يهِن أو يَحزَن(١).

٦- بيانُ رأفةِ الله سبحانه وتعالى برسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه بهذه التسليةِ العظيمة؛ ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾(٢).

٧- إنْ قِيل: ما وجهُ الجمعِ بينَ الإفرادِ في قولِه: ﴿قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾، وبينَ التثنيةِ في قولِه: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾[آل عمران: ١٦٥]، فالجواب، والله تعالى أعلم: أنَّ المرادَ بالتثنيةِ قتلُ سبعينَ، وأسرُ سبعين يومَ بدرٍ في مقابلةِ سبعينَ يومَ أُحُد، كما عليه جمهورُ العلماءِ. والمرادُ بإفرادِ المثلِ: تشبيهُ القرحِ بالقرحِ في مُطلقِ النِّكاية والألمِ(٣).

٨- أنَّ الله سبحانه وتعالى جعَل هذه الدنيا دولًا تتقلَّب؛ لئلَّا يركنَ الإنسان إليها؛ لأنَّ الدنيا لو كانتْ دائمًا راحةً ونعمة، لركَن الإنسانُ إليها، ونسي الآخرة، ولو كانت دائمًا محنةً ونقمةً، لكانتْ عذابًا مستمرًّا، ولكن الله جَعَلها دولًا يُدال فيها الناسُ بعضُهم على بعض، وتتداول الأحداثُ على الإنسانِ ما بَين خيرٍ وشرٍّ؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾(٤).

٩- أنَّ عِلمَ الله سبحانه وتعالى بالأشياءِ على قِسمين: عِلمٍ بأنَّها ستوجد، وهذا أزليٌّ، وعِلمٍ بأنَّها وُجِدت، وهذا يكونُ عند الوجودِ؛ وهو علمٌ يترتَّب عليه الجزاء ولهذا قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فإنَّ عِلْم الله بالأشياء عِلمٌ أزليٌّ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٥).

قديم، يعلم سبحانه وتعالى ما كان، وما يكون، والقاعدة أنه: متى عَلَّق الله عِلمَه بالأمور بعد وجودِها، كان المرادُ بذلك: العلمُ الذي يترتَّب عليه الجزاء[١].

١٠- أنَّ اللهَ تعالى قد يُقدِّر المكروهَ للنَّفْس؛ لحِكَمٍ بالغةٍ كثيرة؛ لقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾[٢].

١١- فضيلةُ الشَّهادة، تُؤخذُ من قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ﴾، فكأنَّه سبحانه اصطَفى هؤلاء الشُّهداءَ، واتَّخذَهم لنفسِه[٣].

١٢- قول الله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾: يُستفادُ من هذا أنَّ النعمةَ قد تكون سببًا للنِّقمة؛ فإنَّ انتصارَ الكفَّار يُوجِب فرَحَهم وبطرَهم، حتى إذا بطَروا مُحِقوا[٤].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ**﴾ جِيء بـ﴿قَدْ﴾، الدالَّة على تأكيدِ الخبر؛ تنزيلًا لهم منزلةَ مَن يُنكر ذلك؛ لِمَا ظهَر عليهم من انكسارِ الخواطرِ من جرَّاءِ الهزيمةِ الحاصلةِ لهم من المشركين، مع أنَّهم يُقاتلون لنصرِ دِين الله[٥].

٢- **قوله:** ﴿**هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ تخصيصُ البيانِ للنَّاسِ مع شُمولِه للمتَّقين أيضًا؛ لأنَّ المرادَ به مجردُ البيانِ العاري عن الهُدى والعظةِ، والاقتصارُ على الهُدى والموعِظة في جانبِ المتَّقين مع

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٥)، ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٦).

ترتُّبهما على البيانِ؛ لأنَّهما المقصِدُ الأصليُّ، ويجوز أن يكونَ تعريفُ الناسِ للجِنس، أي: هذا بيانٌ للنَّاس كافةً، وهُدًى وموعظةٌ للمتَّقين منهم خاصَّة؛ لأنَّه لا يَحصُل إلَّا لهم[١].

٣- **قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾** فيه التعبيرُ عمَّا أصاب المسلمين بصِيغة المضارع في ﴿يَمْسَسْكُمْ﴾؛ لقُربِه من زمَنِ الحال، والتعبيرُ عمَّا أصاب المشركين بصيغةِ الماضي؛ لبُعدِه؛ لأنَّه حصَل يومَ بدر[٢].

٤- **قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾:**

- التعبيرُ بأداة البُعد ﴿تِلْكَ﴾ فيه تنبيهٌ على تَعظيمِ الأيَّام[٣].

- وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ﴾ فيه التفاتٌ مِن ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ إلى الغَيبة بإسنادِه إلى اسمِ الذاتِ المستجمِعِ للصِّفات ﴿الله﴾؛ للتعظيم، ولتربية المهابةِ، والإشعارِ بأنَّ صدورَ كلِّ واحدٍ ممَّا ذُكِر بصدد التعليلِ من أفعالِه تعالى باعتبارِ منشأٍ معيَّنٍ من صفاته تعالى، مغايرٌ لمنشأِ الآخَر[٤].

٥- **قوله: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾** اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، ونفيُ المحبَّةِ في إيقاعِه على الظَّالِمين تَعريضٌ بمحبَّته تعالى لمقابِليهم من المؤمنين[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٠).

٦- قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ﴾:

- تَكريرُ اللامِ في ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾؛ للتَّذكيرِ بالتعليلِ السَّابق (ولِيَعلمَ)؛ لوقوعِ الفصلِ بينهما بالاعتراضِ بجملة ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ (الله) في موقِع الإضمار؛ لإبرازِ مزيدِ الاعتناءِ بشأن التَّمحيصِ، وهذه الأمورُ عِللٌ للمداولة المعهودةِ باعتبار كونِها على المؤمنين، وقُدِّمت في الذِّكر؛ لأنَّها المحتاجةُ إلى البيان، ولعلَّ تأخيرَ العِلَّةِ الأَخيرةِ عن الاعترِاض؛ لئلَّا يُتوَهَّمَ اندراجُ المذنبين في الظَّالمين[١].

- ولفظة ﴿الْكَافِرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ﴾ عامٌّ، أُريد به الخصوصُ؛ فالمرادُ بالكافرين هنا طائفةٌ مخصوصة، وهم الذين حارَبوا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه تعالى لم يَمْحَقْ كلَّ كافر، بل كثيرٌ منهم باقٍ على كُفرِه[٢].

- وقابَل في قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ تمحيصَ المؤمنِ بمحْقِ الكافِر؛ لأنَّ التمحيصَ إهلاكُ الذُّنوب، والمحقَ إهلاكُ النُّفوس، وهي مقابلةٌ لطيفةٌ في المعنى[٣].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٥٦).

الآيات (١٤٢ - ١٤٥)

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾: أي: كفرتم، والانقلابُ: الانصرافُ؛ يُقال لِمَن كان على شيءٍ ثم رجَع عنه: قد انقلَبَ على عقِبِه، ومنه قيل للكافرِ بعد إسلامه: مُرتدٌّ، وأصلُ (قلب): صَرْفُ الشَّيء عن وجهٍ إلى وجهٍ، أو ردُّه من جِهةٍ إلى جِهة[1].

و﴿أَعْقَابِكُمْ﴾: جمْعُ عقِب، وهو: مُؤخَّر الرِّجْل، ويُقال: رجَع على عَقِبه: إذا انثنى راجعًا، وأصلُ العقب: يدلُّ على تأخيرِ شيءٍ، وإتيانِه بعد غيرِه[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُنكر اللهُ تعالى على المؤمنين أن يَظنُّوا أنَّهم سيَدخلون الجَنَّة بمجرَّدِ إيمانهم، بل لا بدَّ أن يُبتلَوا؛ حتى يَعلمَ الله المجاهدين حقًّا في سبيلِه، ويعلمَ الصابرين.

ثم يُذكِّرهم تعالى أنَّهم كانوا يَتمنَّون مواجهةَ أعدائهم، ويَطمعون في بلوغِ مرتبةِ الشهادةِ بالموتِ في سبيلِ الله، وهاهم رأَوا بأعينهم يومَ أُحُد ما كانوا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥).

تمنَّوه، فلِمَ لمْ يَثبُتوا ويَصبِروا حتى ينالوا ما كانوا يَطمعون إليه.

ثم يُخبرهم اللهُ تعالى أنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غيرُ مخلَّد في الدُّنيا، فإنَّما هو رسولٌ كباقي رُسل الله الذين من قبلِه؛ قد انقضتْ آجالهم في الدُّنيا بالموت أو القتْل؛ فهل إذا انقضَى أجلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يكون هذا مبرِّرًا ليرتدُّوا عن دِينهم؟! ومَن يَرتدِدْ عن دِينه فلن يضرَّ اللهَ برِدَّته عن الدِّين شيئًا، وسيُثيب الله الشَّاكرين.

ثم يُبيِّن الله أنَّه ما كان لنَفْسٍ أن تموتَ إلَّا بإذن الله، وذلك إذا جاء أجلُها الذي كتَبه الله لها، ثم أَخبر تعالى أنه يُؤتي الناسَ من ثواب الدُّنيا والآخرة ما عَلَقتْ به إرادتُهم؛ فمَن يُردْ ثوابَ الدنيا بعملِه، يُؤتِه منها، ومَن يُرِدْ به ثوابَ الآخِرة، يُؤتِه منها، وسيُثيب الله تعالى الشَّاكرين.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أرشدَ الله تعالى المؤمنين في الآياتِ السَّابقة إلى أنَّه لا يَنبغي لهم أن يَضعُفوا أو يَحزنوا، وبَيَّن لهم حِكمةَ ما أصابهم يومَ أُحد، وأنَّه منطبِقٌ على سُنَّته في مداولة الأيَّام بين الناس، وفي تمحيصِ أهل الحقِّ بالشَّدائد، وفي ذلك من الهِداية والإرشادِ والتَّسلية ما يُربِّي المؤمنَ على الصِّفات التي يَنالُ بها الغَلبةَ والسِّيادةَ بالحقِّ، وهذه مِن سعادةِ الدُّنيا- بيَّن لهم في هذه الآيةِ أنَّ سعادةَ الآخِرة لا تُنالُ أيضًا إلَّا بالجهادِ والصَّبر[1]، فقال:

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١٢٧).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)﴾.

أي: لا تظنُّوا- يا معشرَ المؤمنين- أنْ تنالوا شَرَفَ دخولِ الجنَّة قبلَ أن تُبتَلَوْا، ويرَى اللهُ تعالى- واقعًا ظاهرًا- المجاهدين منكم في سبيلِه، ويرَى كذلك الصَّابرين على الجهادِ، وعلى ما يَنالهم من مَصائبَ وآلامٍ، كما وقَع يوم أُحُد[١].

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)﴾.

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾.

أي: قدْ كنتُم- يا مَعشرَ المؤمنين- قبلَ مجيء غزوةِ أُحُدٍ تَتحرَّقون شوقًا لمناجزةِ الأعداء، وتَطمَعون في الموتِ؛ لنَيلِ الشَّهادة في سَبيلِ الله تعالى، كما وقَع لإخوانِكم يومَ بدر[٢].

﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

أي: ها قدْ حصَل لكم ما تمنَّيتموه من لِقاءِ الأعداءِ، وشاهدتُم بأمِّ أعينِكم يومَ أُحُد الموتَ وأسبابَه وشِدَّته، ومَن يموتُ مِن الناس، أبصرتُم ذلك عِيانًا، فلِمَ لمْ تَثبُتوا وتَصبروا؛ حتى تنالوا ما أردتموه من قبلُ[٣]؟!

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٣-٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٤-٢٣٥).

أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.

أي: إنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غيرُ مخلَّدٍ في الدُّنيا، بل له أُسوةٌ في إخوانِه المرسَلين في انقضاءِ أجلِه الدُّنيوي بالموتِ أو القتْل، كما وقَعَ لهم من قبلُ[(١)].

﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾.

أي: هلْ يَعني انقضاءُ أجَل نبيِّكم محمَّد صلَّى الله عليه وسلِّم بالموت أو القَتْل، أنْ يكونَ مبرِّرًا لكم لترتدُّوا عن دِينكم، فترجعوا من بعد نبيِّكم كفَّارًا[(٢)]؟!

﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّ كلَّ مَن يَرتدُّ عن دِين الله تعالى، فإنَّما يضرُّ نفسَه في الحقيقةِ، ولن يُصيبَ اللهَ سبحانه شيءٌ من ضررِ ذلك؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ غنيٌّ عنه وعن إيمانه، فلن يُوهِن ارتدادُه سُلطانَه، ولن يَنقصَ ذلك شيئًا من مُلكِه، ولن يَنال اللهَ سبحانه وتعالى بأيِّ سوء[(٣)].

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى سيُثيب مَن قاموا بشُكر نِعَمه بقلوبِهم وألْسِنتِهم وجوارحِهم، كالذين ثَبتوا على إيمانِهم، واتَّبعوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حياتِه وبعد مماتِه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٦، ٩٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٨/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي))

عن عائشةَ رضي الله عنها: ((أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه أقبلَ على فَرَسٍ مِن مَسْكنِه بالسُّنُحِ[١]، حتى نزلَ فدخلَ المسجدَ، فلم يُكلِّمِ الناسَ حتى دخلَ على عائشةَ، فتيَمَّمَ[٢] رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو مغشيٌّ بثوبِ حِبَرَةٍ[٣]، فكشفَ عن وجهِه، ثم أكبَّ عليه فقبَّلَه وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمِّي! واللهِ لا يَجمَعُ اللهُ عليك مَوْتَتَيْنِ، أمَّا الموتةُ التي كُتِبَتْ عليك فقد مِتَّها. قال الزهريُّ: حدَّثَني أبو سَلَمَةَ، عن عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ: أنَّ أبا بكرٍ خرجَ وعمرُ بنُ الخَطَّابِ يُكلِّمُ الناسَ، فقال: اجلسْ يا عُمرُ، فأبَى عمرُ أن يَجلِسَ، فأقبلَ الناسُ إليه وتَركوا عمرَ، فقال أبو بكرٍ: أمَّا بعدُ، فمَن كان منكم يَعبُدُ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنَّ محمدًا قد ماتَ، ومَن كان منكم يَعبُدُ اللهَ، فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ؛ قال اللهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ...﴾ إلى قوله: ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤- ١٤٥]. وقال: واللهِ لكأنَّ الناسَ لم يَعلَموا أنَّ اللهَ أنزلَ هذه الآيةَ حتَّى تلاها أبو بكرٍ، فتلقَّاها منه الناسُ كلُّهم، فما أسمعُ بَشرًا مِن الناسِ إلَّا يَتلوها، فأَخبرني سعيدُ بنُ المُسَيَّبِ: أنَّ عمرَ قال: واللهِ ما هو إلَّا أنْ سمعتُ أبا بكرٍ تلاها فعَقِرْتُ[٤]، حتى ما تُقِلُّني[٥] رجلايَ، وحتى أَهْوَيتُ إلى الأرضِ حينَ

(ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٠-٢٤١).

(١) السُّنُحِ- بضمِّ السِّين والنونِ، وقيل: بسُكون النون-: موضِعٌ بعوالي المدينة، فيه منازلُ بني الحارث بن الخزرج. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٠٧).

(٢) فتيمَّم: أي: توخَّاه وقصَدَه دون مَن سواه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ٢٠٦٤).

(٣) الحِبَرة- على وزن عِنَبة-: ثوب يمانيٌّ من قُطن أو كَتَّان، مُخطَّط، يقال: بُردٌ حِبَرةٌ- على الوصف-، وبُردُ حِبَرةٍ- على الإضافة. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١١٨).

(٤) فَعَقِرتُ: أي: أسلمتني قوائمي من الخوف، أو دُهشت ولم أستطِع أَنْ أتقدَّمَ أو أتأخَّرَ من فجأة الرَّوع؛ مأخوذٌ من العَقَر- بفَتْحتين. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٧٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٥٩).

(٥) مَا تُقِلُّني- بِضَم أَوله، وَكسر الْقَاف، وَتَشْديد اللاَّم-: أي ما تحمِلنِي، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧]. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٨/ ٧٢).

سمعتُه تلاها، علمت أن النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد مات))[١].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾.

أي: ولا يَنبغي أن تموتَ نفْسُ أيِّ أحدٍ مِن خَلْق الله تعالى، سواء كان محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أو غيره، إلَّا إذا أذِن الله جلَّ جلاله، وذلك حين يَبلُغ الوقتَ المحدَّد الذي كتَبه اللهُ تعالى لموته، فيَستوفي بذلك المدَّةَ المضروبةَ لحياته الدنيا؛ فأمَّا قبلَ ذلك فلنْ يموتَ أحدٌ لا بكيدِ كائدٍ، ولا بحِيلة محتالٍ، ولو اجتمعتْ حوله جميعُ أسبابِ الموت، فالجُبن لا يَزيد في العُمر، والشجاعةُ والإقدامُ لا تَنقص منه، وفي هذا تقويةٌ للنفوسِ على الجِهاد في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ[٢].

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾.

أي: إنَّ مَن قصَد بأعمالِه وسَعيهِ طلبَ الدنيا فحسبُ، فسيُؤتيه اللهُ تعالى مُبتغاه منها، إنْ شاء، وليس له في الآخِرة من ثوابٍ على تلك الأعمالِ[٣].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٠٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٧، ٥١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٠٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٨-٢٤٩، ٢٥٣-٢٥٤).

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال عز وجل: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾.

أي: وأمَّا مَن قصَد بأعمالِه وسَعيِه طلبَ ثوابها الأُخروي، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُعطيه- بإذنه- ما ابْتغَى[(١)].

ولا يَمنع هذا مِن نَيلِ نَصيبِه الدُّنيويِّ الذي قَسَمه اللهُ تعالى له[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤].

وقال أيضًا: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٠٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٩).

أي: إنَّ الله تعالى سيُثيب كلَّ شاكرٍ؛ فضلًا منه سبحانه[١].

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

الفوائد التربويَّة:

١- حبُّ الله وحبُّ الآخرة لا يتمُّ بالدَّعْوَى؛ فليس كلُّ مَن أقرَّ بدِين الله كان صادقًا، ولكن الفَصل فيه: تسليطُ المكروهات والمحبوبات؛ فإنْ بقِي الحبُّ عند تسليطِ أسباب البلاء ظهَر أنَّ ذلك الحبَّ كان حقيقيًّا؛ يُبيِّن ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، فالصَّبرُ والثباتُ عند جلائلِ المصائبِ أعظمُ دليلٍ على الوثوقِ باللهِ ووعدِه، الذي هو صريحُ الإيمان[٢].

٢- بيانُ أنَّ التمنِّي رأسُ مال المفاليس؛ فالتمنِّي دون فِعلِ السببِ خُسرانٌ، وذلك رأسُ مالِ المفلسِ الذي لنْ يُحصِّل له شيئًا، والجنة لا تُدرك بالتمنِّي؛ لقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[٣].

٣- في قوله ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ الجَنَّةَ أعلى المطالِب، وأفضلُ ما به يتنافسُ المتنافسون، وكلَّما عظُم المطلوب، عظُمت وسيلتُه والعملُ الموصل إليه؛ فلا يُوصلُ إلى الراحةِ إلَّا بترْك الراحة، ولا يُدركُ النَّعيم إلَّا بتركِ النَّعيم، ولكنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٥-٣٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٢).

مكارهُ الدنيا التي تُصيب العبدَ في سبيل الله عند توطينِ النَّفسِ لها، وتمرينِها عليها، ومعرفةِ ما تؤول إليه، تنقلبُ عند أربابِ البصائرِ مِنحًا يُسَرُّون بها، ولا يُبالون بها، وذلك فضلُ الله يُؤتِيه مَن يشاء[١].

٤- أنَّ الجهاد سببٌ لدخول الجنة؛ لقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾، وهذا يدُّل على عِظَمِ مرتبتهِ في دينِ الله، ولا فَرْقَ بين الجِهادِ بالسِّلاح والجِهادِ بالعِلم؛ فكلاهما جهادٌ، بل قد تَحتاج الأمَّةُ الإسلاميَّة إلى جهادِ العلم أكثرَ ممَّا تحتاج إلى جهادِ السِّلاح، وقد يكونُ بالعكس، وقد يتساويان. ولكن لا بدَّ من وجودِهما في الأمَّة الإسلاميَّة[٢].

٥- أنَّ الصَّبرَ سببٌ لدخول الجنَّة؛ لقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، وأنَّ الجزاءَ يكون على قدْر العمل، فإذا كان ثوابُ الصبر الجنةَ، دلَّ على عِظَم مرتبتهِ في دِين الله عزَّ وجلَّ [٣].

٦- يجبُ على المرءِ ألَّا يطلُبَ أمرًا حتى يُفكِّر في عواقبِه، ويَسبُرَ مقدارَ تحمُّله لمصائبه، وأنَّه لا يَنبغي للإنسان أن يتمنَّى المكروه؛ لأنَّه إذا تمنَّاه ووقَع، ربَّما ينكِص، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[٤].

٧- قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾: أفاد أنَّه لا بأسَ أن يُوبِّخ الإنسانُ مَن تحدَّى، واتَّخذ لنفسِه مكانًا عاليًا إذا وجَده قد

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٥).

تخاذَلَ في هذا المكان[١].

٨- قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾: هذه الآية تُنبِّه كلَّ مؤمنٍ إلى الحذرِ من الغرورِ بحديثِ النَّفس والتمنِّي والتشهِّي، وتَهديه إلى امتحانِ نفْسِه بالعملِ الشاق، وعدمِ الثِّقةِ بما دون الجِهادِ والصَّبر على المكارهِ في سَبيل الحقِّ؛ حتى يأمنَ الدعوَى الخادعةَ، بَلْهَ الدعوى الباطِلة، وإنَّما الخادعة أنْ تدَّعي ما تتوهَّم أنَّك صادقٌ فيه مع الغفلةِ أو الجهلِ بعجزك عنه، والباطلةُ لا تَخفى عليك، وإنَّما تظنُّ أنَّها تَخفى على سواك[٢].

٩- ليسَ كلُّ مَن عزَم على شيءٍ عزمًا جازمًا قبلَ القُدرةِ عليه وعدمِ الصَّوارفِ عن الفِعل، تَبقَى تلك الإرادةُ عند القُدرةِ المقارنةِ للصوارفِ؛ يُبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[٣].

١٠- قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ..﴾: فيه عدمُ الاعتمادِ في اتِّباعِ الحقِّ ولزومِه والثباتِ عليه على وُجودِ المعلِّم، بحيث يُترَك الحقُّ بعد ذَهاب المعلِّمِ أو موته[٤].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ... وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، في هذه الآيةِ أعظمُ دليلٍ على فَضيلةِ الصِّدِّيقِ الأكبر أبي بكر، وأصحابِه الذين قاتَلوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٣٣).

المرتدِّين بعدَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّهم هم ساداتُ الشَّاكرين[١].

٢- الاستدلالُ بذِكر النَّظائرِ؛ ليقتنعَ الإنسانُ بما سمِع؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[٢].

٣- إثباتُ أنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خاتمُ الرُّسل؛ لقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ و(أل) هنا للعموم، ولم يقُل: (قد خلتْ من قبله رسل)، بل قال: ﴿الرُّسُل﴾، وإذا كان الرسلُ كلُّهم قد خَلَوْا من قبله، لزِمَ مِن ذلك أنْ يكونَ هو آخِرَهم[٣].

٤- الردُّ على مَن توهَّم أو زعَمَ أنَّ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم حيٌّ في قبره؛ لقوله: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾[٤].

٥- قال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ ولم يَذكُرْ جزاءَهم؛ ليدلَّ ذلك على كثرتِه وعَظمتِه، وليعلمَ أنَّ الجزاءَ على قدْرِ الشُّكر؛ قِلَّةً وكثرةً وحسنًا[٥].

٦- جوازُ الإطلاقِ في الكلامِ إذا جاء مفسَّرًا في موضِع آخَر؛ لقوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾؛ فإنَّ هذه الآيةَ مجملَةٌ لم يُبيِّن الله تعالى كيف يكون هذا الجزاء، ولكنَّه قد بُيِّن في نصوص أخرى، كقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، والشَّريعة يُفسِّر بعضُها بعضًا، ويُقيِّد بعضُها بعضًا، ويُخصِّص بعضُها بعضًا، وهذا يَجعل النَّفْسَ تتطلَّع إلى بيانِ هذا المجمَل، فتَحرِص وتَبحث، وتَقرِن بين الأدلَّة، فيكون المسلمُ ملمًّا بجميع النصوص[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٥).

٧- إثباتُ أنَّ كلَّ شيء- حتى الموت- مخلوقٌ لله في قوله: ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وما كان صادرًا عن إذنٍ فهو مخلوقٌ، ويدلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾[(١)] [الملك: ٢].

٨- أنَّه لا يُمكن أن يَتقدَّم الإنسانُ أو يتأخَّر عن الأجَل الذي قدَّره اللهُ له؛ لقوله: ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾، ويُؤيِّد هذا آياتٌ؛ منها قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، ومنها: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾[(٢)] [المنافقون: ١١].

٩- أنَّ الناسَ لهم مشاربُ، ولكلِّ واحدٍ مسلكٌ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ﴾[(٣)].

١٠- أنَّ الإخبارَ عن الشَّيء، أو عن وقوعِ الشَّيء لا يدلُّ على حِلِّه؛ فقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ لا يدلُّ على حِلِّ إرادةِ الإنسانِ الدُّنيا بعمله، إنَّما هو خبرٌ عن أمْرٍ وقَع، والحِلُّ والحُرمة يُؤخذانِ من دليلٍ آخَر من الشرع[(٤)].

١١- الردُّ على الجَبريَّة؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ حيث أثبتَ للإنسان إرادةً، والجبريَّة يقولون: إنَّ الإنسانَ ليس له إرادةٌ، وإنَّه يفعل بدون اختيارٍ ولا إرادة، ولكنْ كلُّ النُّصوصِ السَّمعيَّة والعقليَّة تردُّ على قولهم[(٥)].

١٢- إيثارُ إرادةِ الآخِرة على الدُّنيا؛ لقوله: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾؛ فإنَّ هذا

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٥٣).

يدلُّ على أنَّ مَن أراد الآخرة، فإنَّه من الشاكرين الذين يَجزيهم اللهُ عزَّ وجلَّ[١].

١٣- إثباتُ الجزاءِ على العمل، وهو دائرٌ بين أمرين، بين عدْلٍ وفَضْل، ويمتنع الأمرُ الثالث، وهو الظُّلمُ بالنِّسبة للهِ عزَّ وجلَّ، ولكنْ لكمال عدْله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[٢].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ**﴾ الهمزةُ فيه للإنكارِ، والاستفهامُ المقدَّر بعدَ ﴿أَمْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّغليطِ والنهيِ؛ ولذلك جاء بـ﴿أَمْ﴾؛ للدَّلالةِ على التغليط، أي: لا تَحْسَبوا أنْ تَدخُلوا الجَنَّةَ دون أنْ تُجاهِدوا وتَصبِروا على عواقِب الجهاد[٣].

٢- **قوله:** ﴿**وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾ فيه تَكرارُ الفِعل (يعلم)؛ إمَّا لاختلافِ المتعلَّق، وإمَّا للتَّنبيهِ على فَضْل الصَّابرِ[٤].

٣- **قوله:** ﴿**وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾ أي: تتمنَّوْن الحربَ ومناجزةَ الأعداء يوم أُحد؛ فإنَّها من مبادِئ الموتِ، أو تتمنَّون الموتَ بالشَّهادة في سبيل الله، وهو خبرٌ فيه توبيخٌ لهم على تمنِّيهم الحربَ، وعلى ما تَسبَّبوا له مِن خروجِ رسولِ اللَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإلحاحِهم عليه، ثمَّ انهزامِهم عنه وقِلَّة ثباتِهم عندَه، كأنَّه قيل: إنْ كُنتُمْ صادقينَ في تمنِّيكم ذلك، فقدْ رأيتُموه معاينينَ له، حِين قُتِلَ بين أيديكم مَنْ قُتل مِن إخوانِكم وأقاربِكم، وشارفتُم أن تُقتلوا، فلِمَ فعلتُم ما فعلتُم. وليس التوبيخُ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨١).

على تمنِّي الشَّهادةِ بناءً على تضمُّنها لغلَبةِ الكفَّارِ؛ لأنَّ مَطلبَ مَن يتمنَّاها نيلُ كرامةِ الشُّهداءِ، من غير أنْ يخطُرَ بباله شئ غيرُ ذلك، فلا يستحِقُّ العتابَ من تلك الجِهة[١].

٤- **قوله:** ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ**﴾ فيه قصرٌ، والقصرُ قلبيٌّ[٢]؛ فإنَّهم لَمَّا انْقَلبوا على أعقابِهم، فكأنَّهم اعتَقدوا أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلام رسولٌ لا كسائرِ الرُّسلِ في أنَّه يخلو كما خَلَوا، ويجب التمسُّكُ بدِينه بعده، كما يجب التمسُّكُ بدِينهم بعدَهم، فردَّ عليهم بأنَّه ليس إلَّا رَسولًا كسائرِ الرُّسلِ، فسَيخْلُو كما خلَوْا، ويجبُ التمسُّكُ بدِينه كما يجبُ التمسُّكُ بدِينهم[٣].

٥- **قول الله تعالى:** ﴿**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ فيه ذِكر ﴿الرُّسُل﴾ بالتَّعريفِ الدالِّ على العُموم، ويُؤخذُ منه التَّفخيمُ للرُّسل، والتنويهُ بهم على مُقتضَى حالِهم مِن اللهِ تعالى[٤].

٦- **قوله:** ﴿**أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ**﴾ همزةُ الاستفهام في ﴿أَفَإِنْ﴾ للإنكار، والفاءُ للسببيَّة، وهذا يؤكِّدُ ما اقتضتْه جملةُ القصر، من التعريضِ بالإنكارِ عليهم في اعتقادِهم خلافَ مضمونِ جُملة القصر؛ فقد حصَل الإنكارُ عليهم مرَّتين: إحداهما بالتعريضِ المستفادِ من جُملة القصر، والأُخرى بالتَّصريحِ الواقِع في هذه الجُملة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٠٧-١١٠).

(٢) القصر القلبي: هو ردُّ المخاطَب إلى إثباتِ ما ينفيه، ونفيِ ما يثبتُه من الحُكم. يُنظر: ((حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٢).

- وقوله: ﴿مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ فيه: تَكرار؛ وقد سوَّغه كونُ العُرفِ في الموتِ خِلافَ العُرْف في القَتْل، وإنْ كان كلاهما واحدًا من حيثُ مفارقةُ الرُّوحِ الجسدَ[١].

٧- **قوله:** ﴿**وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا**﴾ خبرٌ، الغرضُ منه تأكيدُ الوعيد؛ لأنَّ كلَّ عاقلٍ يعلمُ أنَّ الله تعالى لا يَضرُّه كفرُ الكافرين، بل المرادُ أنَّه لا يضرُّ إلَّا نفسَه[٢].

- وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا﴾، أي: شيئًا من الضَّرر، لا قليلًا ولا كثيرًا؛ أفادَ ذلك التَّنكيرُ في ﴿شَيْئًا﴾ حيثُ وقَع في سِياقِ النَّفي[٣].

٨- **قوله:** ﴿**وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ بإتْباعِ الوعيدِ بالوَعْد[٤].

- وفيه: إظهارُ الاسمِ الجليلِ (الله) في موقِعِ الإضمار؛ لإبرازِ مزيدِ الاعتناءِ بشأن جزائِهم[٥].

٩- **قوله:** ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا**﴾ خبرٌ فيه تحريضٌ وتشجيعٌ على القتال[٦].

- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ...﴾ جِيءَ الحُكمُ بصِيغة الجُحود (ما كان)؛ للمبالغةِ في انتفاءِ أنْ يكونَ موتٌ قَبْل الأجَلِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤١).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٤).

- وقوله: ﴿مُؤَجَّلًا﴾: يُؤكِّد معنى ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾؛ لأنَّ قوله: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ يُفيد أنَّ له وقتًا قد يكون قريبًا، وقد يكون بعيدًا[١].

١٠- قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ﴾:

- قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾: خبرٌ فيه تعريضٌ بالذين شَغلتْهم الغنائمُ يومَ أُحُدٍ[٢].

- وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ﴾ فيه تَكرار[٣]، وهو يُفيدُ التأكيدَ على المعنى.

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨١).

الآيات (١٤٦ - ١٤٨)

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَكَأَيِّنْ﴾: لفظةٌ مركَّبةٌ من كافِ التَّشبيهِ و(أيٍّ)، حدَث فيها بَعدَ هذا التركيبِ معنى التَّكثيرِ[١].

﴿رِبِّيُّونَ﴾: أي: جماعاتٌ كثيرة، والواحدُ منها رِبِّيٌّ، ويُقال: الأُلوف، وأصلُه من الرِّبَّة، وهي: الجماعةُ، كأنَّ الرِّبِّيَّ نُسِب إليها[٢].

﴿وما اسْتكَانُوا﴾: أي: ما خشَعوا وما ذَلُّوا، وما خَضعوا للعدوِّ، ومنه أُخذ المستكين، وأصلُ الاستكانة: إظهارُ الضَّعْف[٣].

﴿وَإِسْرَافَنَا﴾: وإفراطَنا، والسَّرَف: تجاوزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يَفعلُه الإنسانُ، وأصلُه: تعدِّي الحدِّ، والإغفالُ للشَّيءِ أيضًا[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٦-١١٧).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ١٠٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣، ٢٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

كلمة ﴿كَأَيِّنْ﴾ مركَّبةٌ من كافِ التَّشبيه و(أيٍّ)[١]، وأمَّا موقعُها الإعرابيُّ: فهو الرَّفْعُ بالابتداءِ، والخبرُ جملة ﴿قَاتَلَ﴾، والتقديرُ: كثيرٌ من الأنبياءِ قاتَلَ. وعلى هذا يكون ﴿مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ جملةً في محلِّ نصْب على الحالِ مِنَ الضمير في ﴿قَاتَلَ﴾، ويجوزُ أن يكونَ ﴿مَعَهُ﴾ وحْدَه هو الحال، و﴿رِبِّيُّونَ﴾ فاعلًا بهذا الظرف الذي وقع حالًا- وعَمِلَ الظرفُ هنا لاعتمادِه على صاحِب الحالِ الذي هو الضَّميرُ في ﴿قَاتَلَ﴾- والتقديرُ: استقرَّ معه رِبيُّون، ولا يحتاج هنا إلى واو الحال؛ لأنَّ الضميرَ الذي في (معه) هو الرَّابط. أو يكون ﴿قَاتَلَ﴾: جملةً في محلِّ جرٍّ، صفة لـ﴿نَبِيٍّ﴾، و﴿مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ هو الخبر، وفيه الوجهان المتقدِّمان في جعْله حالًا، يعني: أن يكون ﴿مَعَهُ﴾ خبرًا مُقدَّمًا و﴿رِبِّيُّونَ﴾ مبتدأً مؤخَّرًا، والجملة خبر ﴿كَأَيِّنْ﴾، أو يكون ﴿مَعَهُ﴾ وحْده هو الخبرُ، و﴿رِبِّيُّونَ﴾ فاعلٌ به ؛ لاعتمادِ الظَّرْف ﴿مَعَهُ﴾ على صاحِب خبر. ويجوزُ أن يكونَ ﴿رِبِّيُّونَ﴾ فاعِلَ ﴿قَاتَلَ﴾، وتكونَ الجملةُ الفِعليَّة ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ خبرًا لـ﴿كَأَيِّنْ﴾. وقيل غير ذلك[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبر اللهُ تعالى أنَّه: كمْ مِن نبيٍّ من الأنبياءِ قاتَل وشارَكه في ذلك من أتْباعه الكثيرُ، فأصابهم ما أصابَهم في سبيلِ الله، لكنَّ ذلك لم يكُن حاملًا لهم على مفارقةِ دِينهم، أو ترْك الجِهادِ في سَبيل الله؛ فما ضعُفتْ أبدانُهم ولا قلوبُهم ولا

---

(١) و(أيٍّ) منوَّنة، وحقُّها أن يُوقفَ عليها بغير نون؛ لأنَّ التنوين يُحذف وقفًا، ولكن ثبَت في المصاحف نونٌ بعد الياء؛ لأنَّها كلمةٌ نُقلت عن أصلِها، فالوقفُ عليها بالنون اتِّباعًا للمصحف، وقيل غير ذلك في بِنيتها الصرفيَّة، وفي لُغاتها. وقيل: إن ﴿كَأَيِّن﴾ كلمة بسيطة غير مركَّبة وأنَّ آخرها نون هي مِن نفس الكلمة لا تنوين، وهذا أسهلُ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٧٥- ١٧٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٢١- ٤٢٦).

هِمَمُهم، ولا لانَتْ عزائمُهم، ولم يَذلُّوا لعدوِّهم، واللهُ تعالى يحبُّ الصَّابرين؛ كهؤلاءِ ومَن على شاكِلتِهم.

ولم يكُن لهم مِن قولٍ يقولونه بعدَ ما حصَل لهم إلَّا أنَّهم طلَبوا المغفرةَ مِن الله لذُنوبِهم، ولتجاوُزِهم ما حدَّه الله تعالى في جميعِ أُمورِهم، وأنْ يُثبِّتَ الله أقدامَهم، وينصرَهم على أعدائِه وأعدائِهم من الكافرين، فأعطاهم اللهُ ثوابَ الدُّنيا مِن نصْرٍ وغنيمةٍ وغيرها، وحُسنَ ثوابِ الآخِرة من رِضَا الله، والخلودِ في جنَّته، واللهُ تعالى يُحبُّ المحسنين.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان من المؤمنين ما كان يومَ أُحُد، وعتَبَ عليهم اللهُ ما وقَع منهم، أخبرَهم أنَّ طريقةَ أتْباعِ الأنبياء المتقدِّمين: الصَّبرُ على الجِهاد، وترْكُ الفرار؛ فكيف يليقُ بكم هذا الفرارُ والانهزام[1]؟!

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿قَاتَلَ﴾ قِراءتان:

١- قِراءة (قُتِلَ) على البِناء للمَفعول[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٨٥).

(٢) قرأ بها نافع وابن كثير والبصريَّان. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥٩)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٤).

٢- قِراءة ﴿قَاتَلَ﴾ على البِناءِ للفاعِل[١].

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

أي: كَثيرون هم الأنبياءُ الذين قاتَلَ جموعٌ كثيرةٌ من أتْباعهم، وقُتِلَ كثيرٌ منهم، فلم يحملْ ذلك بقيَّتهم على التزعزع عن دينهم، أو على أن يتركوا جهاد عدوهم[٢].

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ أبدانَهم لم تضعُفْ، وهمَّتهم لم تتثبَّط، ولم يَجبُنوا عن جِهادِ العدوِّ؛ بسببِ ما نالهم من جِراحٍ، وغيرِ ذلك مِن أذًى في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ[٣].

﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾.

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥٩)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٧٥)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١/ ٥٨-٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١).

وقيل: يحتمل على قراءة (قاتل) أن يكون القتالُ واقعًا من النبيِّ، وأنَّ له أتباعًا كثيرين يقاتلون معه، فلم يقعْ منهم وهنٌ ولا ضعفٌ.

وعلى قراءة ﴿قُتِل﴾ قيل: يحتمل أن يكونَ القتلُ واقعًا على النبيِّ، ولم يكن ذلك سببًا لتراجعهِ ووهنِهم.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١٠، ١١١، ١١٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٠- ٥٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٢٠- ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٢٩-٢٠٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١/ ٥٨ -٦٠)، ((الحسنة والسيئة)) لابن تيمية (ص: ١٢٣-١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٠- ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ٢٥٦-٢٦٠).

وممَّن قال من السَّلف في معنى ﴿ربيُّون﴾ بنحو ما ذُكر: ابن عبَّاس، وابن مسعود، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وهو أحد قولي الحسَن، وعِكرمة، والسُّدِّي، وعطاء الخراساني، وقتادة، والربيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٧٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٠).

أي: إنَّ قلوبهم لم تضعُف، وعَزائمَهم لم تَلِنْ، وقُواهم لم تَخِرْ؛ بسببِ ما أصابهم، ولم يَذلُّوا لعدوِّهم[1].

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

أي: واللهُ تعالى يحبُّ هؤلاءِ وأمثالَهم؛ من الصَّابرين على طاعتِه وجِهادِ أعدائه، ويُحبُّ مَن صبَر عن معصيتِه، وعلى أقدارِه سبحانه[2].

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦١).

فائدةٌ في الفَرْق بَينَ الضَّعف والوهن: أنَّ الضَّعفُ خِلافُ القوَّة، ويكون الضَّعفُ-بفتح الضاد وضمها- في الجَسدِ والرأي والعَقل. والوهن: هو أنْ يفعلَ الإنسان فِعلَ الضعيف؛ يقال: وهن في الأمرِ إذا أخذ فيه أخْذ الضعيف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩]، أي: لا تَفْعلوا أفعالَ الضُّعفاء؛ ويدلُّ على صحة هذا: أنه لا يُقال: خلَقَه الله واهنًا كما يُقال خلقَه الله ضعيفًا. وقد يُستعمل الضعفُ مكانَ الوهن، كقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦]، أي: لم يَفعلوا فِعلَ الضَّعيف. ويجوزُ أن يُقال: إنَّ الوهنَ هو انكسارُ الجَسدِ بالخوفِ ونحوه، والضَّعْف نُقصانُ القوَّة.

وقيل: إنَّ الوهن الضَّعفُ في العَملِ والأمر، وكذلك في العَظم ونحوه؛ يقال: وَهَن العَظمُ، ورجُل واهنٌ في الأمر والعمل، وموهونٌ في العَظْم والبدن.

يُنظر: ((معجم الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٣٣٠- ٣٣١)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١/ ٣٠٦) و(٦/ ٢٣٤)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيده (١/ ٤١١) و(٤/ ٤٢٩).

وقيل: هُما متقارِبان تقاربًا قريبًا من الترادُف؛ فالوهنُ: قِلَّةُ القُدرةِ على العملِ وعلى النُّهوضِ في الأمْر، والضَّعفُ: ضدُّ القوَّة في البَدن؛ فالوهنُ أقربُ إلى خَورِ العزيمة ودَبيبِ اليأس في النفوس والفِكر، والضَّعفُ أقربُ إلى الاستسلامِ والفشلِ في المقاومة. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٨- ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذَكَر ما كان عليه الرِّبِّيُّون من الجَلَد والصبر، وعدمِ الوهنِ والاستكانةِ للعدوِّ، وذلك كلُّه من الأفعالِ النفسانيَّة التي يَظهر أثرُها في الجوارح، ذكَر ما كانوا عليه من الإنابةِ والاستغفارِ، والالْتجاءِ إلى الله تعالى بالدُّعاء[١]، فقال:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾.

أي: ولم يكُن لدَى الربِّيِّين من قولٍ يَنطِقون به، سوى طلبِ المغفرةِ من الله تعالى بسَتْر ذنوبِهم، وسَتْر إفراطِهم في جميعِ شؤونهم، بتجاوُزهم ما حَدَّه اللهُ تعالى فيها، وطلبِهم التجاوزَ عن المؤاخذةِ بذلك[٢].

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾.

أي: ومِن جملةِ دُعائهم: طلبُهم مِن اللهِ تعالى الثباتَ في وجوهِ الأعداءِ لِقتالهم[٣].

﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: ومِن جملةِ ما سألوه ربَّهم سبحانه: أنْ يمنحَهم الفوزَ على الكفَّار[٤].

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا أتمَّ الثناءَ على فِعل الرِّبِّيِّين في الصَّبر، وطريقتِهم في الدُّعاء،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١٩، ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٤-٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٦-٢٦٧).

ذكَر ما سبَّبه لهم ذلك من الجَزاء في الدُّنيا والآخِرة[١]، فقال:

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قد منَحهم بفضله جزاءً في الدنيا، كالنَّصرِ على الأعداءِ، والظَّفر بالغنائمِ، وغيرِ ذلك، وضمَّ لهم مع أجْر الدنيا جزاءَ الآخرة الحَسَن، من الفوز برِضوانِ الله تعالى، والخلودِ في دار السَّعادة الأبديَّة[٢].

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى جازاهم بالإحسان الدُّنيويِّ والأخرويِّ؛ لإحسانِهم العملَ؛ فإنَّ الله تعالى يحبُّ كلَّ محسِنٍ في عِبادتِه سبحانه، وفي تعامُلِه مع مخلوقاتِه[٣].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- التأسِّي بمَن مضَى من صالحِي الأُمم السَّابقة؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ..﴾[٤].

٢- أنَّ مِن طُرُقِ التَّشجيعِ على الشَّيءِ والإغراءِ به، أنْ يُذكَر للإنسانِ سَلفٌ يَقتدي به، ويَتشجَّع للحاقِ به؛ لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾[٥].

٣- الإشارةُ إلى انحطاطِ مرتبةِ الذين يَذِلُّون لأعداءِ الله؛ يُؤخَذ من قوله:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٨-٢٦٩).
قال الماورديُّ: (﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ الجنةُ، في قول الجميع) ((تفسير الماوردي)) (١/ ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٩-٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٢).

﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾؛ وذلك أنَّ الإنسانَ المؤمِن يجبُ أن يكونَ أشمَّ؛ كالطَّودِ العظيمِ بالنِّسبةِ لأعداء الله، حتى إنَّه يجوزُ للإنسانِ الخُيلاءُ، وجرُّ الثوبِ في مقابلةِ الأعداءِ[١].

٤- مَن صبرَ على تحمُّل الشَّدائد في طريق الله، ولم يُظهِر الجزعَ والعجزَ والهلعَ، فإنَّ الله يحبُّه؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[٢].

٥- مَن عَوَّلَ في تحصيلِ مَهمَّاته على نفْسه ذَلَّ، ومَن اعتَصَم بالله بالدعاء، والتضرُّع بطلبِ الإمدادِ والإعانةِ منه تعالى، فازَ بالمطلوب؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٣].

٦- تقديمُ التوبةِ والاستغفارِ في الدُّعاء عند النوائب والمِحَن؛ سواءٌ كان في الجهاد، أو غيرِه، فما نزَل من بلاءِ الدُّنيا إنَّما هو بذنوبٍ من البَشر؛ يُبيِّن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٤].

٧- أنَّ الإنسانَ مُفتقرٌ إلى مغفرةِ الله؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، ولو كان غنيًّا عنها ما سألها، ولكنَّه مفتقرٌ إليها غايةَ الافتقار[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٧).

٨- في قولهم: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، أنَّ الإنسانَ لا يَخلو من الإسرافِ على نفْسه: إمَّا في غُلو، وإمَّا في تقصيرٍ؛ وجه ذلك: أنَّ سؤالهم اللهَ أنْ يغفرَ لهم الإسرافَ يدلُّ على وجودِ هذا الشَّيء، وإذا تأمَّل الإنسانُ نفْسَه، وجَد أنَّه لن يَخلوَ من الإسرافِ[١].

٩- أنَّ الإنسانَ مُفتقرٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في تثبيتِ القدَم؛ لقوله: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾، وهذا يتأكَّدُ في ثلاثةِ مواطنَ: عند مواجهةِ الأعداء، وعندَ الشُّبهاتِ، وعندَ الشَّهوات[٢].

١٠- الإشارةُ إلى خِفَّة شأنِ الدُّنيا بالنِّسبة للآخِرة؛ لقولِ الله تعالى: ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾، فكأنَّ الدنيا ليستْ بشيءٍ حتى يكونَ فيها حُسْن؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ العاقلَ يَنبغي له أن يَعتني بثوابِ الآخِرة الذي هو حسنٌ[٣].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- أنَّ هؤلاءِ الرِّبِّيِّين الذين قاتلوا مع النبيِّ كمُلت منهم الأفعال والأقوال؛ من الأفعال قولُه تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾، ومن الأقوال: أنَّهم لَجَؤوا إلى الله عزَّ وجلَّ بسؤال المغفرةِ؛ مغفرةِ الذنوبِ والإسرافِ في الأمْر؛ لأنَّهم يَعلمون أنَّ ما أصابَهم إنَّما هو بسببِ الذُّنوب[٤].

٢- أنَّه يَنبغي على الإنسانِ أنْ يَدعوَ الله تعالى بهذا الدُّعاء، لا سيَّما عندَ ملاقاة الكفَّار؛ حتى ينتصرَ عليهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٧).

أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[١].

٣- في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، إنَّما قدَّموا قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾؛ لأنَّه تعالى لَمَّا ضمِن النُّصرةَ للمؤمنين، فإذا لم تَحصُل النصرةُ وظهَرتْ أماراتُ استيلاءِ العدوِّ، دلَّ ذلك ظاهرًا على صدورِ ذنبٍ وتقصيرٍ من المؤمنين؛ فلهذا المعنى يجبُ عليهم تقديمُ التوبةِ والاستغفارِ على طلبِ النُّصرة[٢].

وقيل: قدَّموا طلبَهم الاستغفارَ على طلبِ تثبيتِ الأقدام والنُّصرة؛ ليكونَ طلبُهم ذلك إلى الله عن زكاةٍ وطهارةٍ، فيكون طلبُهم التثبيتَ بتقديمِ الاستغفارِ حريًّا بالإجابة[٣].

٤- في قول الله تعالى حكايةً عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، بدؤوا بالتوبةِ عن كلِّ المعاصي، وهو المرادُ بقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، فدخَل فيه كلُّ الذنوب، سواء كانتْ من الصَّغائر أو من الكبائر، ثم إنَّهم خَصُّوا الذنوبَ العظيمةَ الكبيرة منها بالذِّكرِ بعد ذلك؛ لعِظَمها وعِظَم عِقابها، وهو المرادُ من قوله: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾؛ لأنَّ الإسرافَ في كلِّ شيء هو الإفراطُ فيه[٤].

٥- في قول الله تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٠).

قدَّم ثوابَ الدنيا؛ ليكونَ ذلك إعلامًا بتعجيلِ إجابةِ دَعوتِهم لحصولِ خيرَيِ الدُّنيا والآخِرة؛ ولأنَّ ذلك في الزَّمانِ مُتقدِّمٌ على ثوابِ الآخِرة[١].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾** خبرٌ عن السَّابقين، فيه تعريضٌ بالمخاطَبين، بما أصابَهم من الوهنِ والانكسارِ عندَ الإرجافِ بقتْل رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبضَعْفِهم عند ذلك عن مجاهدةِ المشركين، واستكانتِهم لهم[٢].

- قوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾، ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾، ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾: فيه جمْع بين الوهن والضَّعف، وهما مُتقاربان تقاربًا قريبًا من التَّرادُف؛ للتأكيدِ، وأمَّا الاستكانةُ؛ فهي الخضوعُ والمذلَّة للعدوِّ. ومِن اللَّطائف: ترتيبُ هذه الثلاثةِ في الذِّكر على حسَب ترتيبِها في الحُصولِ؛ فإنَّه إذا خارتِ العزيمةُ، فَشِلت الأعضاءُ، وجاء الاستسلامُ، فتبعتْه المذلَّةُ والخضوعُ للعدوِّ[٣].

- وفي الآية: تعريضٌ بتَشبيهِ حالِ أصحابِ أُحُدٍ بحالِ أصحابِ الأنبياءِ السَّالفين؛ لأنَّ محلَّ المَثل ليس هو خُصوصَ الانهزامِ في الحرْب، بل ذلك هو المُمثَّل، وأمَّا التَّشبيه؛ فهو بصبرِ الأَتْباعِ عند حلولِ المصائِب، أو موتِ المتبوع[٤].

٢- **قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾** تذييلٌ مقرِّر لِمَا قبلَه، وإظهارُ الاسمِ الجليل (الله) في موضِعِ الإضمار؛ للثَّناءِ على الصَّابرين بحُسنِ الصَّبرِ، والإشعارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٨- ١١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١١٦).

بعِلَّة الحُكم[١].

- وفيه: توكيدُ الخبرِ باسميَّة الجملة[٢].

٣- **قوله:** ﴿**وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا**﴾ فيه تقديمُ خبر (كان) على اسمِها؛ لأنَّه خبرٌ عن مبتدأ محصورٌ؛ إذ المقصودُ حصْرُ أقوالِهم حينئذٍ في مقالة: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، فالقصرُ حقيقيٌّ؛ لأنَّه قصرٌ لقولهم الصادِر منهم، حين حصولِ ما أصابهم في سبيل الله[٣].

٤- **قوله:** ﴿**وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ**﴾ فيه تخصيصُ ثوابِ الآخِرة بالحُسن؛ للدَّلالة على فضلِه وتقدُّمه، وأنَّه هو المعتدُّ به عنده[٤]؛ وذلك لأنَّ ثوابَ الآخِرة كلَّه في غايةِ الحُسن، فما خصَّه اللهُ بأنَّه حَسنٌ من هذا الجِنس، فانظر كيف يكونُ حُسنُه؟! ولم يَصِفْ ثوابَ الدنيا بذلك؛ لقلَّتِها وامتزاجِها بالمضارِّ، وكونِها منقطعةً زائلة[٥].

٥- **قوله:** ﴿**واللهِ يُحِبُّ المحْسِنينَ**﴾ أي: يحبُّ كلَّ محسن، وهو تذييلٌ، وموقِعُ التذييلِ يدلُّ على أنَّ المتحدَّث عنهم هم مِن الذين أحْسنوا؛ فاللامُ للجِنس المفيدِ معنى الاستغراق[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٥٦).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢١).

الآيات (١٤٩ - ١٥٥)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢ ۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿الرُّعْبَ﴾: أي: الجَزَعَ والهَلَع والخوف، وقيل: الرُّعب هو الخوفُ الذي

يملأُ الصَّدرَ والقلبَ، وقيل: إنَّه أشدُّ الخوفِ، وأصلُ الرُّعب: يدلُّ على الخوفِ، والملءِ، والقَطع[١].

﴿سُلْطَانًا﴾: أي: حُجَّة، وأصْلُ السُّلطان: القوَّة والقَهر، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[٢].

﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾: مرجعُهم الذي يَعُودون إليه، والمَأْوى: مَكَانُ كلِّ شَيْءٍ ومرجعُه الَّذي يعودُ إليه ليلًا أو نهارًا؛ يُقال: أَوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه، وأصْله: التَّجمُّع[٣].

﴿مَثْوَى﴾: أي: مَنزِل، يُقال: ثَوَى يَثْوي ثَوَاءً، والثَّوَاء: الإقامةُ مع الاستقرارِ، وأصلُ (ثوي) يدلُّ على الإقامة[٤].

﴿تَحُسُّونَهُمْ﴾: أي: تَستأصِلونهم قتلًا، أو تقتلونهم، وأصْل حَسَس: غلبةُ الشَّيء بقتْل أو غيره، وحِكايةُ صوت عند توجُّعٍ وشَبَهِه[٥].

﴿فَشِلْتُمْ﴾: أي جَبُنتُم، والفَشل: ضَعْفٌ مع جُبن[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾: أي: تُبعِدون في الهزيمةِ، والصُّعود: الذَّهابُ في المكانِ العالي، وأصْل الصُّعود: ارتفاعٌ ومشقَّة[١].

﴿وَلَا تَلْوُونَ﴾: تُمعِنون في الهزيمةِ، ولا يقِفُ أحدٌ لآخَر، واللَّيُّ: فَتْل الحبلِ، وأصْله: إمالة للشَّيء[٢].

﴿فِي أُخْرَاكُمْ﴾: أي: في آخِرِكم، أو مِن خَلْفِكم، وأصل (أخر): خِلافُ التَّقدُّمِ[٣].

﴿يَغْشَى﴾: يُغطِّي ويَستُر، من غَشِي الشَّيءَ، أي: غطَّاه وسَتَره[٤].

﴿لَبَرَزَ﴾: لظَهَر من الصَّفِّ للمُبارَزة للقتال، والبَرازُ المتَّسَعُ من الأرض، أو الفضاءُ، وأصْله: ظهورُ الشَّيء وبُدوُّه[٥].

﴿مَضَاجِعِهِمْ﴾: جمْعُ مَضْجَع، وهو موضِعُ الضُّجوع، وأصلُ (ضجع): اللُّصوقُ بالأرضِ على جَنْبٍ[٦].

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: أي: ليُطهِّر، ويَختبِر، ويُنقِّي، والتَّمحيص: الابتلاءُ والاختبار، وأصْل المَحْصِ: تَخليصُ الشَّيءِ، وتنقيتُه ممَّا فيه من عَيبٍ[٧].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٦).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٠)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٥٨).

(٧) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٠)،

﴿اسْتَزَلَّهُمُ﴾: طلَبَ زَلَلَهم، والزَّلَّة: الخطأُ، والذَّنب من غيرِ قصدٍ وأصل الزَّلل: استرسالُ الرِّجْلِ من غيرِ قصْدٍ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُحذِّرُ الله تعالى عبادَه المؤمنين من طاعةِ الكفَّار؛ وذلك أنَّ طاعتَهم تؤدِّي بهم إلى ردِّهم إلى الكُفْر، فيَهلِكوا في الدُّنيا والآخِرة؛ فالله سبحانه هو مَن يتولَّى عبادَه، ويَنصُرهم وهو خيرُ مَن نَصرَ.

ثم يُخبِر تعالى أنَّه سيُدخِل الرُّعبَ في قلوب الكفَّار؛ بسبب إشراكِهم بالله بلا حُجَّة ولا دليل، وسيكون مصيرُهم في الآخرة النَّارَ، وبئس المقامُ للظالِمين.

ثم يُذكِّر اللهُ سبحانه عِبادَه المؤمنين بإنجازه لِمَا وعدَهم به من النَّصر يوم أُحُد، بنصرِهم على عدوِّهم في بدايةِ المعركة؛ حيث أَعمَلوا فيهم القتلَ، حتى حان من المسلمين الضَّعفُ والجُبنُ عن القِتال، وحدَث الخلافُ بين رُماتهم، وعَصَوْا أمْرَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حينها حلَّت بالمسلمين الهزيمةُ بعدَ أنْ كانوا رَأوا ما يُفرِحهم من هزيمةِ العدوِّ؛ فبعض المؤمنين ابتَغَوا الدُّنيا، فذَهبوا لجَمْعِ الغنائم، وتركوا أماكنَهم التي أُمِروا بمُلازَمتها، وبعضُهم كانوا يَرغَبون في أجْرِ الآخِرة، فلزِموا أماكنَهم، فصرَف اللهُ بعدَها وجوهَ المؤمنين عن الكفَّار، فكانتْ للكفَّار الغَلَبةُ، وهذا ابتلاءٌ من الله لعباده؛ ليتميَّزَ الطائعُ من العاصي، ولقد تَجاوُز اللهُ عنهم، فهو سبحانه ذو فضلٍ على المؤمنين.

ثم يُذكِّرهم سبحانه بلحظاتِ فِرارِهم، حيث كانوا جادِّين في الفِرار؛ لا أحدَ

((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١).

منهم يَلتفِت إلى غيرِه، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدْعوهم إلى الثَّبات والتَّوقُّف عن الفِرار، وقدْ خلَّفوه عليه الصَّلاة والسلام وراءَ ظُهُورهم، فلم يَستجيبوا، فجازاهم اللهُ بغمٍّ، وهو ما انتشرَ مِن خبرِ مَقتَلِ نبيِّ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، الذي كان أعظمَ مِن بقيَّة الغُمومِ التي حلَّتْ بهم من فواتِ النَّصر والغنيمة، وإصابتِهم بالقتْلِ والجراح، فخفَّفتْ شِدَّةُ ذلك الغمِّ ما سبَقَه من غُموم.

ثمَّ أَنزَل اللهُ على المؤمنين- من بعد الغُمُوم التي أصابتْهم- الأمانَ والطُّمأنينةَ في القلب؛ وذلك بأنْ غَشَّى المؤمنين من الخارجين مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ النُّعَاسَ، وهناك طائفةٌ أخرى ممَّن شارك في هذه الغزوة مِن شِدَّة اضطرابِهم وقلَقِهم على حياتِهم، لم يُغشِّهم النُّعاسَ، وهم من المنافقين، الذين يظنُّون بالله ظنًّا كاذبًا؛ بأنَّه عزَّ وجلَّ لا ينصُر عبادَه، وظنُّهم هذا كظنِّ أهلِ الجهلِ بالله، يقولون: إنَّهم لم يَجِدوا بُدًّا من الخروج، فالقرارُ ليس بأيديهم، فأمَر الله نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقول لهم: إنَّ جميعَ الأمورِ لله تعالى وَحْده، ثم أعاد سبحانه الحديثَ عن صِفةِ هؤلاء المنافقين، فأخْبَر أنَّهم يُسِرُّون في أنفسِهم ما لا يُظهِرونه لنبيِّ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وذلك قولهم فيما بَينهم: إنَّه لو كان لهم نَصيبٌ من الاختيارِ في شأنِ الخروجِ للقِتال، لَمَا اختاروا الخروجَ من المدينة، ولَمَا حصَل ما حصَل في صُفوفِهم من المَقْتَلة.

فأمَر اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُخبِرَهم بأنَّهم لو كانوا في بُيُوتهم، لخرَج الذين كتَب اللهُ عليهم القتلَ إلى الأماكنِ التي فيها مَصارِعُهم، وقد كان تقديرُ خروجِهم من اللهِ؛ ليَميزَ اللهُ تعالى ما في قُلوبِهم من خَبيثٍ وطيِّب، واللهُ عليمٌ بما تَحويه صدورُ العبادِ.

ثم أَخبَر تعالى أنَّ فِرار المُنهزِمين يوم المعركة إنَّما كان نتيجةَ إيقاع الشَّيطان

لهم في تلك الزَّلَّة، وما كان تَسلُّطُه عليهم إلَّا بسببِ بعضِ ذُنوبهم، مُخبِرًا سبحانه أنَّه عفَا عنهم، والله غفورٌ حليمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بطاعتِه المُوجِبةِ للنَّصر والأجْر، وختَم بمحبَّته للمُحسِنين، حذَّر من طاعةِ الكافرين المقتضيةِ للخِذلان؛ رَغبةً في موالاتِهم ومُناصَرتهم[1]، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩)﴾.

أي: احْذَروا- يا عبادَ الله المؤمنين- من طاعةِ الكفَّار فيما يأمرونكم به، وفيما يَنْهونكم عنه، فإنَّ طاعتَهم تَحمِلُكم على الارتدادِ عن الإيمانِ إلى الكفرِ، الذي عاقبتُه الهلاكُ في الدُّنيا والآخرة[2].

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان التَّقديرُ في الآية السَّابقة: فلا تُطيعوهم؛ إنَّهم ليسوا صالحين للولايةِ مُطلَقًا ما دُمْتم مؤمنين، عطَفَ عليه قوله: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ مخبرًا بأنَّه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٤، ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١).

ناصِرُهم، وأنَّ نَصْره لا يُساويه نصرُ أحدٍ سواه[١]، فقال:

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

أي: فلا تُطيعوهم خوفًا منهم، أو طلبًا لنُصْرتهم، واستَغْنُوا عن موالاتهم؛ فهم لن يَنصُروكم، بل عليكم أنْ تُطيعوا اللهَ الَّذي يتولَّاكم بتوفيقِه وتأييده ونَصْره؛ فهو خيرُ مَن يَجلِب لكم النَّصرَ[٢].

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى أبان أنَّه مَوْلى المؤمنين، وأنَّه خيرُ النَّاصرين، وأنَّ مَن نصَره، سبَّب له جميعَ أسبابِ النَّصر، وأزال عنه كلَّ أسباب الخِذلان، فمنَع غيره- كائنًا من كان- من إذلاله، فذكَر هاهنا مِثالًا على وَلايتِه ونُصْرتِه للمؤمنين، وقرَّر ذلك بقوله مُحقِّقًا للوعدِ[٣]:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى بشَّرَ ووعَد عبادَه المؤمنين بأمْرٍ محتومٍ وقوعُه، وقريبٍ حُصولُه، وهو إدخالُ الخوفِ والفزعِ الشَّديد في قلوب الكفَّار[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٣-١٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩١) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

عن جابر بن عبد الله رضِي الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أُعطيتُ خمسًا، لم يُعطَهنَّ أحدٌ منَ الأنبياءِ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شهرٍ..))[١].

﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

أي: إنَّ سببَ قذْفِ الرُّعب في قلوب الكفَّار، هو وقوعُهم في الشِّرك، الذي لا حُجَّةَ ولا دَليلَ على صحَّتِه[٢].

﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾.

أي: إنَّ النَّار ستكون المصيرَ الأخرويَّ لأولئك المشركين[٣].

﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾.

أي: وساءتِ النَّارُ مَقامًا لكلِّ ظالم[٤].

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

وقال الواحديُّ: (قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، أي: حُجَّة وبرهانًا في قول جميع المفسِّرين، يعني الأوثانَ التي عبدوها مع الله) ((التفسير الوسيط)) (١/ ٥٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٩٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا وعَد اللهُ تعالى المؤمنين في الآية المُتقدِّمة إلقاءَ الرُّعبِ في قلوب الذين كفروا، أكَّدَ ذلك بأنْ ذَكَّرهم ما أَنجَزهم من الوعدِ بالنَّصرِ في واقعةِ أُحُد؛ فإنَّه لَمَّا وعدَهم بالنُّصرةِ، بشرْط أنْ يتَّقُوا ويَصبِروا؛ فحينَ أَتَوْا بذلك الشَّرطِ لا جَرَمَ وفَّى اللهُ تعالى بالمشروطِ، وأعطاهم النُّصرةَ، فلمَّا تَركوا الشَّرطَ لا جرَمَ فاتَهم المشروطُ[1]، فقال:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ قد أَنجَز لكم ما وعَدَكم به يومَ أُحدٍ- أيُّها المؤمنون- وهو نصْركم على عَدوِّكم، وكان ذلك في بدايةِ المعركة حين طفِقتُم تَستأصِلونهم بقتْلهم قتلًا ذريعًا، وذلك قد وقَع عن أَمرِ اللهِ تعالى شرعًا وقدَرًا[2].

﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾.

أي: لَمَّا استولَى عليكم الضَّعفُ والخَوَرُ، وجَبُنتم عن القِتال، ووقَع الخلافُ بين رُماتكم؛ هل يَلزَمون ثُغُورَهم- كما عهِد إليهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- أم يتحرَّكون لجمْعِ الغنائم، وعصَى بعضُكم في النِّهاية أمْرَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مِن بعدِ أنْ أَظهَر الله تعالى لكم ما تُحِبُّونه من انهزام الكفَّار، وتوليتهم الأدبار، فلمَّا وقع ذلك كلُّه، حلَّت بكم الهزيمةُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٨-١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٠٤-٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٣٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨٤، ٨٥).

عن البَرَاءِ بن عازبٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((لَقِينا المشركين يومئذٍ، وأجلَسَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جيشًا مِن الرُّماةِ، وأمَّرَ عليهم عبدَ الله، وقال: لا تَبرَحوا[(١)]، إنْ رأيتمونا ظهَرْنا عليهم فلا تَبرَحوا، وإنْ رأيتموهم ظهَروا علينا فلا تُعينونا، فلمَّا لَقِيناهم هرَبوا حتى رأيتُ النِّساءَ يَشتَدِدْنَ في الجبلِ، رفعْنَ عن سُوقِهنَّ، قد بدَتْ خَلاخلُهنَّ، فأخذوا يقولون: الغنيمةَ الغنيمةَ، فقال عبدُ اللهِ: عهِد إليَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ألَّا تَبرَحوا! فأَبَوا، فلمَّا أَبَوْا صُرِفت وجوهُهم، فأُصِيبَ سبعون قتيلًا، وأَشَرَفَ أبو سفيان، فقال: أفي القومِ محمدٌ؟ فقال: لا تُجيبوه، فقال: أفي القومِ ابنُ أبي قُحافَةَ؟ قال: لا تُجيبوه، فقال: أفي القوم ابنُ الخطابِ؟ فقال: إنَّ هؤلاء قُتِلوا، فلو كانوا أحياءً لأجابوا، فلم يَملِكْ عمرُ نفسَه، فقال: كذبتَ يا عدوَّ اللهِ، أبقى اللهُ عليك ما يُخْزِيك، قال أبو سفيان: اعْلُ هُبَلُ! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أجيبوه، قالوا: ما نقولُ؟ قال: قولوا: اللهُ أعلى وأجلُّ، قال أبو سفيانَ: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم! قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أجيبوه، قالوا: ما نقولُ؟ قال: قولوا: اللهُ مولانا، ولا مولى لكم، قال أبو سفيان: يومٌ بيومِ بدرٍ، والحربُ سِجَالٌ[(٢)]، وتجدون مُثْلَةً[(٣)]، لم آمرْ بها ولم تَسؤْني))[(٤)].

---

(١) لا تَبرَحوا: أي: لا تَترُكوا أماكِنَكم وتزولوا عنها؛ يُقال: بَرِحَ مكانَه، أي: زال عنه وصارَ في البَراحِ أي: المتَّسع من الأرضِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣٥٥)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٤٢).

(٢) سِجَالٌ: أي مَرَّة لنا ومَرَّة علينا. وأصْلُه أنَّ المُسْتَقين بالسَّجْلِ يَكُونُ لكُلِّ واحِدٍ مِنهم سَجْلٌ. ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٤٤).

(٣) المُثْلَة: من مَثَلْتُ بالقَتيل، إذا جَدَعْت أنْفَه، أو أذُنَه، أو مَذاكِيرَه، أَوْ شَيْئًا مِنْ أطرافِه، كما فعلوا بحمزة رضي الله عنه، ومَثَّلَ، بالتَّشْديدِ؛ للمبالَغة. ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٢٩٤)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٧/ ١٤٣).

(٤) رواه البخاري (٤٠٤٣).

﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

أي: إنَّ بعضًا منكم- أيُّها المؤمنون- قد ابتَغَوا الدُّنيا، وهم الرُّماةُ الذين تَرَكوا أماكنَهم، وأخَذوا في جمْعِ الغنائمِ والحُطامِ الفاني يَومَ أُحُد، والبعضَ الآخَرَ كانوا يَرغبونَ في أجْرِ الآخرةِ الباقي، وهم الرُّماةُ الذين لزِموا مَقاعدَهم التي أَقعَدَهم فيها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(١)].

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

أي: بعدَ أنِ انصرفَ بعضُ الرُّماة من المؤمنين من أماكنهم، مُنصرِفين بذلك عن طاعةِ رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وانصرَفتْ قلوبُهم للدُّنيا، ردَّ الله وجوهَكم عن الكفَّار، فصارتِ الدَّائرة عليكم؛ امتحانًا مِن الله تعالى لكم، ليَتميَّز الطَّائعُ من العاصي، والصَّابرُ على البلاء من الجازِع[(٢)].

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد تَجاوَز عن عقوبة استئصالِكم جميعًا أيُّها الرُّماة، لمعصيتكم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واستبدَل بها عقوبةً أخفَّ وطأة عليكم، وهي إلحاقُ الهزيمة بكم، وقَتْل بعضكم[(٣)].

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٣٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٣٠٨-٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٣٧).

أي: واللهُ تعالى صاحِبُ الفضلِ على جميعِ المؤمنين؛ لأجْلِ ما معهم من إيمانٍ، ومن ذلك: العَفوُ عمَّا يَقَعُ منهم من عِصيان[١].

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)﴾.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾.

أي: اذكُروا- أيُّها المؤمنون- حين كنتُم تَجدُّون في الفِرارِ، والإبعادِ في الأرض، ولا أحدَ منكم يَلتفِتُ إلى غيره أو يَنظُر إليه؛ إذ لم يكُن لديكم مِن همٍّ سِوى النَّجاةِ من الأعداء[٢].

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾.

أي: إنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد خلَّفتموه وراءَ ظُهورِكم ممَّا يلي جِهةَ العدوِّ، وهو يدعوكم- أيُّها المؤمنون- إلى التَّوقُّفِ عن الفِرار، والثَّبات، فلم تَلتفِتوا إليه[٣].

﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾.

أي: بسببِ ما قُمْتم به من الفِرار وعدمِ الاستجابةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يوم أُحُد، جازاكم اللهُ تعالى بغمٍّ نبأ مَقتَل النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٦-٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٧).

أعظمُ من بقيَّةِ الغُموم التي نالتْكم، كفواتِ النَّصرِ والغنائم، وإصابتِكم بالقَتْل والجراح[١].

﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قد أَصابَكم بغمٍّ سماعِكم إشاعةَ مَقتَل محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو أشدُّ من الغُمُوم الأخرى؛ لئلَّا يُصيبَكم الحَزنُ على ما ذهَب عنكم من النَّصر والغنائم، ولا على ما نالَكم من جراحٍ، وما أصابَ إخوانَكم مِن قتْل، فيُنسيكم سماعُ مقتلِ النَّبيِّ ذلك كلَّه، أو يُخفِّف من وطْأَتِه عليكم[٢].

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو وحْدَه العالمُ ببواطنِ ما تَعمَلونه من خيرٍ أو شرٍّ- أيُّها المؤمنون- ومِن ذلك: ما قُمتُم به في غزوةِ أُحُد، كما أنَّ ما ترتَّبَ عليها من ابتلاءاتٍ ومِحَنٍ وأسرار، إنَّما هو صادرٌ عن كمال عِلْمه ببواطنِ الأمور[٣].

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٩-١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢١-٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٥١-١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢١-٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢١-٣٢٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا وعَد بنصرِ المؤمنين على الكافرين، وهذا النَّصرُ لا بدَّ وأنْ يكون مسبوقًا بإزالةِ الخوف عن المؤمنين- بيَّن في هذه الآية أنَّه تعالى أزالَ الخوفَ عنهم؛ ليصيرَ ذلك كالدَّلالةِ على أنَّه تعالى يُنجِز وعْدَه بنصْرِ المؤمنين[١] فقال تعالى:

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى قدْ أَنزَل عليكم- أيُّها المؤمنون- بعدَ كلِّ تلك الغُمومِ التي أصابتْكم يومَ أُحُد، أنزل عليكم ما به حُلولُ الأمان، وحصولُ الاطمئنانِ في قلوبكم[٢].

﴿نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾.

أي: إنَّ الأمانَ الذي نزَل بقلوبهم مصدره النُّعاس الذي غشي أهلَ الإيمان من بين مَن خرج مع رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأُحد[٣].

عن أنسِ بن مالكٍ، أنَّ أبا طلحةَ رضِي الله عنهما قال: ((رَفعتُ رأسي يومَ أُحدٍ فجعلتُ أَنظُر، وما منهُم يَومئذٍ أحدٌ إلَّا يَميدُ تحتَ حَجفتِهِ[٤] منَ النُّعاسِ، فذلِكَ قَولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا﴾))[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٧).

(٤) الحَجَفَة: التُّرْسُ؛ يُقال للتُّرس- إذا كان من جُلودٍ ليسَ فيه خشَبٌ، ولا عَقَبٌ وهو العَصَبُ الذي تُعمَلُ منه الأوتارُ-: حَجَفةٌ ودَرَقةٌ. ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٣٤١)، (١/ ١٨٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٤٥).

(٥) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٣٤)، و الترمذي (٣٠٠٧)، وقال: هذا حديث حسن

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾.

أي: إنَّ ثمَّة جماعةً أخرى مِن بين مَن خرجَ لأُحد، لم يَغْشَهم النعاسُ مِن شِدَّة قلقِهم واضطرابِهم على حياتِهم، وهم المنافِقون الذين لا همَّ لديهم غيرُ أنفسِهم التي يَحذرون من قتْلِها(١).

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

أي: يظنُّ أفرادُ هذه المجموعةِ ظنونًا كاذبةً، كما هو دَيدنُ أهلِ الجهلِ بالله تعالى، وذلك حين رأوا هجمةَ المشركين على المسلمين، وإعمالَ القتْل فيهم؛ إذ ظنُّوا أنَّ دِينَ الله تعالى مُضمحِلٌّ، وأتباعَه مَهزومون(٢).

قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أي: قال هؤلاء الحريصونَ على سلامةِ أنفسِهم مُستنكِرين، بأنَّهم لم يكونوا يَملِكون شيئًا من قرارِ خُروجِهم للقِتال(٣).

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

صحيح، وصحح إسناده الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٠٠٧) وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٣٦٦): صحيح على شرط مسلم.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٥-١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٤-١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٨-٣٣٠).

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاء المنافقين: إنَّ جميعَ الأمور، مُبتدَأها ومنتهاها لله تعالى وحده لا شريكَ له، فهو الذي يُصرِّفها كيف شاء، ويُدبِّرها كيفما أراد، فجميعُ الأمورِ بقضائِه وقدَره، ومِن ذلك خُروجُكم للقتال، وما يقَعُ فيه من نصْرٍ أو هزيمة، كما أنَّ العاقبةَ في النهاية لدِين اللهِ تعالى وأوليائِه، وإنْ وقَع عليهم ما وقَع[١].

﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾.

أي: يُضمِر أولئك المنافقون في نفوسِهم ما لا يُظهرونه لك- يا محمَّدُ[٢].

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

أي: إنَّ الذي كانوا يُخفونه عنك- يا محمَّدُ- هو قولهم فيما بينهم مُتحسِّرين ونادِمين: لو كان لنا في شَأنِ الخروجِ لهذا القِتال نَصيبٌ من الرأي والاختيارِ في ذلك، لَمَا اتَّخذنا قرارًا بالخروجِ مِن المدينة مُطلقًا، ولَمَا وقعتْ في صُفوفنا مَقتلةٌ[٣].

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لأولئك المنافقين- ردًّا على قولِهم الذي أسرُّوه وأَطْلَعَك اللهُ تعالى عليه-: إنَّما وقَع ما وقَع بقدَر الله تعالى وحْدَه، وهو حُكمٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣٠).
قال أبو حيان: (الخطابُ بقولِه: ﴿قُلْ﴾، متوجهٌ إلى الرسولِ بلا خلافٍ) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣٠-٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣١-٣٣٢).

ماضٍ لا بدَّ أن ينفُذ، فحتى لو كنتُم في بيوتِكم التي ليستْ بمظنَّةٍ لوقوعِ القتْل فيها، فسيخرُج منها مَن كتَب اللهُ تعالى عليه ذلك، ويأتي الموضعَ الذي يَلقَى فيه مصرعَه[١].

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد قدَّر عليكم الخروجَ والقتل؛ ليختبرَ قلوبَكم[٢].

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

أي: وليَميزَ الله تعالى ما في قلوبِكم من خَبيثٍ وطيِّب، ويُظهرَ أمْرَ المؤمِن والمنافِقِ للنَّاس؛ في أقوالهم وأفعالهم[٣].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

أي: واللهُ تعالى ذو عِلمٍ بكلِّ ما تُكنُّه صُدورُ عِبادِه، لا يَخفى عليه شيءٌ من ذلك، ومُجازٍ كلًّا منهم بحسبَه. لكنَّ حِكمتَه اقتضتْ أنْ يُقدِّر من الأسبابِ ما تَتبيَّن به مُخبَّآتُ الصُّدور[٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣٢-٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦).

ويُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾.

أي: إنَّ الذين ولَّوا منكم المشركين أَدْبارَهم، وانْهَزموا عنهم يومَ تَلاقَى جمْعُ المسلمين والمشركين بأُحُد، إنَّما أَوْقَعَهم الشيطانُ في تلك الزَّلَّة، وما تَسلَّط عليهم إلَّا بسببِ بعضِ ذُنوبهم[١].

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى قد تجاوزَ عن معاقبةِ أولئك الذين تَولَّوا، فلم يُؤاخِذْهم على فِرارهم[٢].

عن عثمانَ بن مَوهَبٍ، قال: ((جاء رجلٌ حجَّ البيتَ، فرأى قومًا جلوسًا، فقال: مَن هؤلاء القعودُ؟ قالوا: هؤلاء قريشٌ، قال: مَن الشَّيخُ ؟ قالوا: ابنُ عمرَ، فأتاه فقال:... أَتَعْلمُ أنَّ عُثمانَ بنَ عفَّانَ فرَّ يومَ أُحُدٍ؟ قال: نعَمْ... أمَّا فِرارُه يومَ أُحُدٍ فأَشهدُ أنَّ اللهَ عفا عنه وغفَر له...))[٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الذي يَستُر ذُنوبَ عِبادِه، ويتجاوزُ عن المؤاخذةِ بها، وهو الذي يُمهِلُ عِبادَه؛ ليتوبوا، فلا يُعاجِلهم بالعقوبةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧١-١٧٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٣٥/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٤٠-٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

(٣) رواه البخاري (٤٠٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٤٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فضيلةُ الإيمان، حيثُ يُوجَّه الخطابُ إلى الناس بوصْفِ الإيمان في مقامِ الإرشادِ والتنبيه؛ لأنَّ الإيمانَ مُقتضٍ للامتثال[١].

٢- تحذيرُ المؤمنين من الانقيادِ للعدوِّ، والتذلُّلِ له، وإظهارِ الحاجة إليه، وأنْ يُخامرَهم خاطرُ الدُّخول في صُلح المشركين وأمانهم؛ فإذا مالوا إليهم اسْتدرَجوهم رويدًا رويدًا، بإظهارِ عدمِ كراهية دِينهم المخالِف لهم، حتى يردُّوهم عن دِينهم؛ قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[٢].

٣- التحذيرُ من الشِّرك؛ فهو جالبٌ للشرِّ في الدُّنيا والآخِرة، فالمُشركونَ في الدُّنيا مَرعُوبونَ، وفي الآخرة مُعذَّبونَ؛ وذلك بسببِ إِشْراكهم؛ قال الله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾، فالمُشْرِك يخاف المخلوقينَ ويرجوهم فيحْصُلُ له رعْبٌ، وأما المؤمن الخالِصُ من الشِّرْكِ فيحصُلُ له الأمْنُ؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِيْنَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أَوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُوْنَ﴾[٣] [الأنعام: ٨٢].

٤- أنَّ النِّزاعَ والمعصيةَ سببانِ لفوات النَّصر؛ لأنَّ المسلمين في أوَّل الأمر انْتَصروا وقَتَلوا المشركين، لكن لَمَّا حدَث هذا المانعُ، امتنع أو انتفَى النصرُ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٢) ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٨).

فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ...﴾[١].

٥- الحثُّ على اجتماعِ الكلمة؛ وجهُه: أنَّ النزاعَ سببٌ للخِذلان، فيكون الاتِّفاق سببًا للنَّصر، وهو كذلك؛ فاجتماعُ الناسِ على كَلمةٍ واحدةٍ لا شكَّ أنَّه سببٌ للنصر؛ ولهذا يَنبغي لطلبةِ العِلمِ وللعلماء ألَّا يُظهروا خِلافَهم ونزاعَهم أمامَ العامَّة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ ....﴾[٢].

٦- أنه ينبغي للقائدِ أنْ يكونَ ذا شجاعةٍ في قيادتِه، بحيثُ يثبُت ويدعو إلى الثَّبات؛ لقولِه تعالى: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾؛ لأنَّه لو لم يثبُت وهرَب معهم، لم يكُن صالحًا للقيادة[٣].

٧- التربيةُ العظيمةُ للعِباد، وهي ألَّا يَحزنوا على ما فاتهم، فإذا فاتك ما تظنُّه خيرًا لنفسك، فقل: قَدَّرَ الله وما شاء فَعَل، وكذلك إذا أصابَك ما تَكرَهُ، فقل: قدَّر اللهُ وما شاء فَعَل، واعلمْ أنَّ الحزن لا يَردُّ الغائب أبدًا، وإنَّما يَزيد الإنسان بلاءً، والله عزَّ وجلَّ يحبُّ من عِباده ألَّا يحزنوا؛ لأنَّه دفَعَ الغمَّ بالغمِّ من أجْل ألَّا يحزنوا؛ وذلك لأنَّ الحُزن يُحدِث للإنسان انقباضًا، ربَّما يَمنعُه عن كثيرٍ من المصالح؛ قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾[٤].

٨- أفاد قولُ الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وجوبَ الحذرِ مِن مخالفةِ الله عزَّ وجلَّ؛ ووجهُه: أنَّه إذا كان خبيرًا بعَمَلِنا، فإنَّ ذلك يُوجِب لنا ألَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((أمراض القلوب وشفاؤها)) (ص: ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٥).

نخالِفَه؛ لأنَّنا إنْ خالفْناه عَلِمَ، وإذا عَلِمَ فسوف يُحاسبنا[١].

٩- أنَّ الإنسانَ الذي لا يكونُ له همٌّ إلَّا نفسُه في هذه المواطن قد يُبتلى- والعياذ بالله- بهذه البلوى العظيمة، وهي أنْ يظنَّ باللهِ غير الحقِّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾[٢].

١٠- أنَّ العِبرةَ والمدارَ على القلوبِ التي في الصُّدور؛ لقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾، وقال: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ وكأنَّ هذا- والله أعلم- فيه إشارةٌ إلى أنَّ سببَ الجُبن والنِّزاع والمعصية سوءُ النيَّةِ من بعضِ مَنْ كان فيهم، ويُمكن أن نجعلَ قوله: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ جملةٌ استئنافيَّة تعليليَّة لِمَا حَصَل، ولا شكَّ أنَّ المدارَ كلَّه على ما في القلبِ، وأنَّه متى كان القلبُ صالحًا، صلَح العملُ، ومتى كان فاسدًا، فسَد العملُ[٣].

١١- الحَذرُ لا يَدفعُ القدَر، والتدبيرُ لا يُقاوِم التقديرَ؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾، فالذين قدَّر الله تعالى عليهم القتْلَ لا بدَّ وأن يُقتلوا على جميعِ التقديرات[٤].

١٢- الذَّنبُ يجرُّ إلى الذنب؛ يبيِّن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾، فقد أزلَّهم الشيطان بشُؤمِ بعضِ ما سبَق لهم مِن الذُّنوب، وأوقعَهم في الهزيمةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٨).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّة لله؛ لقوله: ﴿سَنُلْقِي﴾[١].

٢- مِن كمالِ الله عزَّ وجلَّ تجدُّدُ أفعالِه التي تكون تابعةً لإرادتِه وحِكمتِه؛ لأنَّ إلقاءَ الرُّعب في قلوبِ هؤلاءِ حادثٌ؛ ﴿سَنُلْقِي﴾، أي: في المستقبَل[٢].

٣- إثباتُ الأسبابِ؛ لقوله: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾؛ لأنَّ الباءَ للسببيَّةِ، وهو الحقُّ[٣].

٤- في قول الله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، دلالةٌ على أنَّ الرُّعبَ إذا كان يُلقَى في قلوبِ الذين كفروا؛ لإشراكِهم، فإنَّ الأمْنَ يُلقَى في قلوبِ الذين آمَنوا؛ لتوحيدِهم[٤].

٥- أنَّه لا دليلَ لأحدٍ يحتجُّ به على اعتناقِ الشِّرك؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾[٥].

٦- شِدَّةُ عزيمةِ الصحابةِ رضي الله عنهم في طَلَبِ العدوِّ؛ لأنَّه قال: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾، والحسُّ: القتل، أو أشدُّه، كأنَّه يُسمعُ له صوتٌ عند القتْل، وهكذا يَنبغي للمسلمين أنْ يأتوا أعداءَهم الحربيِّين على شِدَّة وغِلظة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ [النساء: ١٠٤]، يعني: لا تَضعُفوا في طلبِهم[٦].

٧- المعصيةُ بعدَ النِّعمة أشدُّ من المعصيةِ قبل النِّعمة؛ لقوله: ﴿وَعَصَيْتُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٩٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٠٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٠٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٣).

مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾، وإلَّا لكان يقول: ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ فقط، لكن كون المعصيةِ تقعُ بعدَ أنْ أراهم اللهُ ما يُحبُّون؛ هذه أعظمُ ممَّا إذا لم يكُن الله قد أراهم ما يحبُّون[١].

٨- في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ...﴾، جاءتِ المخاطبةُ بجمْع ضميرِ المؤمنين في هذه الآيات، وإنْ كان لم يصُدرْ ما يُعاتبُ عليه مِن جميعِهم؛ وذلك على طريقةِ العربِ في نِسبةِ ما يَقع من بعضِهم للجميعِ على سبيلِ التجوُّز، وفي ذلك إبقاءٌ على مَن فعَل، وسَتْرٌ؛ إذ لم يُعيَّن، وزجرٌ لِمَن لم يَفعلْ أن يفعلَ[٢].

٩- أنَّه قد يكونُ في خيرِ القرون مَن يُعاب عليه الفِعل؛ لقوله: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾، ولكنَّ الصحابة رضي الله عنهم بخاصَّة، لهم مِن الفضائل والسَّوابق والصُّحبة ما يُكفِّر ما حصَل منهم مِن الآفات وغيرِها[٣].

١٠- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، وقوله: ﴿لِكَيْلَا﴾، وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ﴾ إثباتُ الحِكمة في أفعال الله؛ فإنَّ اللام هنا للتعليل، فيكون في هذا ردٌّ على الجهميَّةِ ونحوهم ممَّن يُنكرون حِكمةَ الله عزَّ وجلَّ، ويقولون: إنَّ اللهَ يفعل لا لحِكمةٍ، ولكن لمجرَّد مشيئة، ونحن نُؤمِنُ بأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يَفعل شيئًا، ولا يَشرَع شيئًا إلَّا لحِكمة، لكن من الحِكمِ ما هو معلومٌ للبشر، وما هو مجهولٌ لا تَبلغُه العقولُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٣). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٥، ٣٢٤، ٣٣٩).

١١- في تَعقيبِ الملامِ من الله تعالى للذين انهزموا في المعركةِ بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ تسكينٌ لخواطرِهم؛ فما حصَلَ من المؤمنين- من التنازُع، والفشل، والمعصية، وإرادة الدنيا- كلُّه مَحاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ، وفي ذلك تلطُّفٌ معهم على عادةِ القرآن في تقريعِ المؤمنين، وأعظمُ مِن ذلك تقديمُ العفوِ على الملامِ في ملامِ الرَّسولِ عليه السَّلام في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، فتِلك رُتبةٌ أشرفُ من رُتبةِ تعقيبِ الملام بذِكر العفو[١].

١٢- وفي تعقيبِ الملامِ أيضًا دلالةٌ على صِدقِ إيمانهم؛ إذ عجَّلَ لهم الإعلامَ بالعفو؛ لكيلَا تطيرَ نفوسُهم رهبةً وخوفًا من غضَبِ الله تعالى[٢].

١٣- خصَّ سبحانه العملَ في قوله: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وإنْ كان تعالى خبيرًا بجميعِ الأحوال مِن الأعمالِ والأقوالِ والنيَّات؛ تنبيهًا على أعمالهم من توليةِ الأدبار، والمبالغةِ في الفِرار، وهي أعمالٌ تُخشَى عاقبتُها وعِقابُها[٣].

١٤- الردُّ على الجبريَّة مِن قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّه أَضاف العملَ إليهم، والجبريَّةُ يقولون: إنَّ الإنسانَ لا يَعمل، لا يَفعلُ شيئًا باختيارِه وكذلك قوله: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾، وقوله: ﴿تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ فيه ردٌّ عليهم[٤].

١٥- الردُّ على غُلاة القدريَّة من قوله: ﴿خَبِيرٌ﴾؛ لأنَّ غلاة القدرية يُنكِرون عِلمَ الله بفِعل العبدِ، ويقولون: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يعلمُ أفعالَ العبد، لكن إذا فعَلَها علِمَ بها، تعالى الله عمَّا يقولون[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٥، ٣٤٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٥).

١٦- أنَّه لا يَظنُّ أحدٌ بالله ظنًّا غير الحقِّ إلَّا وهو جاهلٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، فكلُّ مَن ظنَّ بالله غيرِ الحقِّ، فإنَّه بلا شكٍّ جاهلٌ، لم يَقدُرِ اللهَ حقَّ قدْره[١].

١٧- إثباتُ أنَّ للشيطان تأثيرًا على العبدِ، حتى في عَملِه الصَّالح، وحتى في الجِهاد؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾[٢].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾** استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِن التوبيخِ واللَّومِ والعِتابِ إلى التحذيرِ؛ ليُتوسَّلَ منه إلى معاودةِ التَّسليةِ على ما حَصَل من الهزيمة[٣].

- وتصديرُ الخِطابِ بالنِّداء والتنبيهِ ﴿يَا أَيُّهَا﴾؛ لإظهارِ الاعتناءِ بما في حَيِّزه، ووصْفُهم بالإيمان؛ لتذكيرِ حالِهم، وتثبيتِهم عليها؛ بإظهارِ مُباينتِها لحالِ أعدائِهم، كما أنَّ وصْفَ المنافقين بالكُفر في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لذلك؛ قَصْدًا إلى مزيدِ التنفيرِ عنهم، والتَّحذيرِ عن طاعتِهم[٤].

٢- **قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾:**

- في قوله: ﴿سَنُلْقِي﴾ التفاتٌ- على قِراءة مَن قرأ (وسَيجزي) بالياء-[٥]،

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٧).
(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٧١).

حيث التفتَ من الغَيبة إلى التكلُّمِ؛ للاهتمامِ بما يُلقيه تعالى في قلوبِهم.

٣- وقوله: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: ما لَا سُلطانَ له، ففيه التَّعبيرُ عن نفْي تنزيلِ السُّلطان، والمرادُ نفيُ وجودِه، فلمْ يَعْنِ أنَّ هناك حُجَّةً إلَّا أنَّها لم تَنزِلْ عليهم؛ لأنَّ الشِّركَ لا يستقيمُ أنْ يقومَ عليه حُجَّةٌ، وإنَّما المرادُ نفيُ الحُجةِ ونزولِها جميعًا؛ لأنَّه لو كان لنزَل، أي: لأَوْحى الله به إلى الناس؛ لأنَّ الله لم يَكتمِ الناسَ الإرشادَ إلى ما يجبُ عليهم من اعتِقادِ على ألْسِنة الرُّسُل، فالتنزيلُ إمَّا بمعنى الوحي، وإمَّا بمعنى نصب الأدلَّة عليهم[(١)].

- وقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ وصفٌ كاشف؛ لأنَّ الإشراكَ لا يُمكن أنْ يكونَ قد نزَلَ بسلطانٍ، ولا يوجدُ ما يُسمِّيه أحدٌ شريكًا إلَّا وهو ممَّا لم يُنزل به الله سُلطانًا، بل ولا حُجَّة به في الواقِع ولا بُرهان[(٢)]، وذلك يُفيد التوكيدَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٥- ٤٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩١)، عند الحديثِ عن آية الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقال ابنُ عاشور في تفسيرِه لآية الأعراف: (فعرَّف الشركاءَ المزعومين تعريفًا لطريقِ الرَّسم بأنَّ خاصَّتهم: أنْ لا سلطانَ على شِركتهم لله في الإلهية؛ فكلُّ صنم من أصنامهم واضحةٌ فيه هذه الخاصَّة، فإنَّ الموصولَ وصِلتَه من طرق التعريف، وليس ذلك كالوصفِ، وليس للموصولِ وصِلتِه مفهومُ مخالفةٍ، ولا الموصولات معدودة في صِيغ المفاهيم، فلا يتَّجه ما أوردَه الفخرُ مِن أن يقول قائلٌ: هذا يُوهم أنَّ مِن بين الشرك ما أنزل الله به سلطانًا واحتياجه إلى دفْع هذا الإيهامِ، ولا ما قَفاه عليه صاحبُ «الانتصاف» من تنظيرِ نفْي السلطانِ في هذه الآيةِ بنحو قولِ امرئ القيس:

عَلى لاحِبٍ لا يُهتدَى بمَنارِه.

ولا يَتَّجه ما نحاهُ صاحبُ «الكشاف» من إجراءِ هذه الصِّلة على طريقةِ التهكُّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠١- ١٠٢)

٤- **قوله:** ﴿**وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ**﴾ فيه وضْعُ الظاهرِ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ موضِعَ المُضمَر- حيث لم يقل: (مثواهم)-؛ للتغليظِ، والإشعارِ بأنَّهم في إشراكِهم ظالِمُون، واضِعُون للشيءِ في غيرِ موضعِه[١]، وللتَّعميمِ وتعليق الحُكم بالوصف[٢].

- والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ؛ للدَّلالة عليه، أي: بِئسَ مثوى الظالِمين النارُ، وفي جَعْلها مثواهم بعدَ جَعْلِها مأواهم نوعُ رَمزٍ إلى خلودِهم فيها؛ فإنَّ المثْوى مكانُ الإقامةِ المنبئةِ عن المُكثْ، وأمَّا المأوى، فهو المكانُ الذي يَأوي إليه الإنسانُ[٣].

٥- **قول الله تعالى:** ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ**﴾ عدَلَ عن ذِكرِ الغنيمةِ باسمِها إلى الموصول ﴿مَا﴾؛ تنبيهًا على أنَّهم عَجِلوا في طلبِ المالِ المحبوبِ[٤].

٦- **قوله:** ﴿**مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ**﴾ فيه تفصيلٌ للإجمالِ الذي في قولِه: ﴿وَتَنَازَعْتُمْ﴾، وتبيينٌ لـ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾، وتخصيصٌ له بأنَّ العاصين بعضُ المخاطَبين المتنازِعين؛ إذِ الَّذين أرادوا الآخِرةَ ليسوا بعاصين؛ ولذلك أُخِّرتْ هذه الجملةُ إلى بعدِ الفِعلين، وكان مُقتضى الظاهرِ أنْ يُعقِّب بها قوله: ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾، وفي هذا الموضعِ للجملةِ ما أغْنى عن ذِكر ثلاثِ جُمَل، وهذا مِن أبدعِ وجوهِ الإعجاز، والقرينةُ واضحةٌ[٥].

٧- **قوله:** ﴿**وَمَنْ يُرِدْ**﴾، و﴿**مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ...**﴾ فيه حُسْنُ تقسيمٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨١).

٨- **قوله:** ﴿**وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ تذييلٌ؛ لتأكيدِ ما اقتضاه قولُه: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾[١].

- وتنكيرُ ﴿فَضْلٍ﴾؛ للتفخيم[٢].

- والإظهارُ ﴿عَلَى المُؤْمِنِينَ﴾ في موقعِ الإضمارِ (عليهم)؛ للتَّشريفِ، والإشعارِ بعلَّة الحُكم، وتعليق الحُكم بالوصف[٣].

٩- **قوله:** ﴿**وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ**﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْف؛ إذ المعنى: ولا يَلوي أحدٌ على أحدٍ، فأوجزَ بالحذف، والمرادُ: على أحدٍ منكم[٤].

١٠- **قوله:** ﴿**غَمًّا بِغَمٍّ**﴾ فيه تنكيرُ (غَمّ)؛ للتكثيرِ[٥].

١١- **قوله:** ﴿**ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا**﴾ فيه التصريحُ بتأخُّر الإنزالِ عنه بقوله ﴿مِنْ بَعْدِ﴾، مع دَلالة ﴿ثُمَّ﴾ عليه وعلى تَراخِيه عنه؛ لزِيادةِ البيانِ، والتذكيرِ بعِظَم النِّعمةِ[٦].

- وقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يدلُّ على تجلُّل النُّعاسِ واستعلائِه وغلبتِه عليهم[٧].

- وقوله: ﴿أَمَنَةً نُعَاسًا﴾: في إبدال ﴿نُعَاسًا﴾ من ﴿أَمَنَةً﴾ إيجازٌ كثيرٌ، يدلُّ على أنَّ الأمنَ والهدوءَ استوليَا عليهم بمجرَّدِ مُخالطةِ النُّعاس، وإنَّما ينعَسُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٠).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩٧).

مَن أمِن، وزايلَه الخوف، والخائِف لا يَنامُ، بل يرَى أعداءَه في كلِّ مكان[١].

- وتقديمُ الظَّرفينِ ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ على المفعولِ الصَّريح ﴿أَمَنَةً﴾؛ للاعتناءِ بشأنِ المقدَّمِ، والتشويقِ إلى المؤخَّر[٢].

- وتَخصيصُ الخوفِ من بين فُنونِ الغمِّ بالإزالة؛ لأنَّه المهمُّ عندَهم حينئذٍ؛ لأنَّ المشركين لَمَّا انصرَفوا كانوا يَتوعَّدون المسلمين بالرُّجوع، فلم يأمنوا رجْعَتَهم إليهم، وكانوا تحتَ الأسلحةِ متأهِّبين للقِتال، فأنزلَ اللهُ تعالى عليهم الأَمنةَ فأَخذَهم النُّعاسُ[٣].

١٢- **قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾** استئنافٌ بيانيٌّ نشأ عن قوله: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾، وفيه تعريضٌ بأنَّهم لم يُزيلوا بعضَ أوصاف الجاهليَّة، ولم يُخلصوا الدِّينَ لله[٤].

- وقوله: ﴿غَيْرَ الحَقِّ﴾: تأكيدٌ لـ﴿يَظُنُّونَ﴾، مثل قولك: هذا القولُ غيرُ ما تقول، وهذا القولُ لا قولك[٥].

١٣- **قوله: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾** ﴿هَلْ﴾ للاستفهامِ الإنكاريِّ بمعنى النَّفي، بقرينةِ زيادة ﴿مِن﴾ قبل النَّكرة، وهي مِن خَصائصِ النَّفي، وهو تبرئةٌ لأنفسِهم من أنْ يكونوا سببًا في مقابلةِ العدوِّ، حتى نَشأَ عنه ما نَشأ، وتَعريضٌ بأنَّ الخروجَ للقتالِ يومَ أُحُدٍ خَطأٌ وغُرور[٦].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٧٩- ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٥).

١٤- **قوله:** ﴿**قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ**﴾ فيه تأكيدُ الخبر بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة.

- و﴿كُلَّهُ﴾- على قِراءة النَّصب- تأكيدٌ لاسم (إنَّ)[١]، فلمَّا أُكِّد في كلامِهم بزيادة (مِن) في قوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾، جاءَ الكلام مؤكَّدًا بـ(إنَّ)، وبُولغ في توكيدِ العمومِ بقولِه: ﴿كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، فكان الجوابُ أبلغَ[٢].

١٥- **قوله:** ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ خبرٌ فيه وعدٌ ووعيد، وتنبيهٌ على أنَّه غنيٌّ عن الابتلاء، وإنما فعَل ذلك؛ لتَمرينِ المؤمنين، وإظهارِ حالِ المنافقين[٣].

١٦- **قوله:** ﴿**يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ**﴾ فيه مِن البلاغة: المخالفةُ في جواب ﴿لَوْ﴾؛ فقد جاء مرَّةً بغيرِ لام ﴿مَا قُتِلْنَا﴾، وجاء مرة مقترنًا بها ﴿لَبَرَزَ﴾، وفي هذا سرٌّ عجيبٌ، والقاعدةُ المعروفةُ هي أنَّ جوابَ (لو) إذا كان منفيًّا بـ(ما)، فالأكثرُ عدمُ اللام، وفي الإيجابِ بالعكس؛ لأنَّ الإيجابَ أحوجُ إلى التَّثبيتِ والترسيخِ[٤].

١٧- **أفاد قوله تعالى:** ﴿**وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ**﴾ أنَّه يَنبغي التأكيدُ من أجْل زيادةِ طُمأنينةِ المخاطَب؛ لأنَّه أكَّد هذه الجملةَ الخبريَّةَ التي تُفيد العفوَ عنهم؛ أكَّدها بقَسَم، ولام، وقدْ؛ من أجْل أنْ تَزدادَ طُمأنينتُهم في هذا العفو[٥].

١٨- **قوله:** ﴿**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾ الجملةُ تعليلٌ لِمَا قَبْلَها على سبيلِ التَّحقيق، وفي إظهارِ لفظ الجَلالةِ (الله) في موضِع الإضمارِ تربيةٌ للمهابةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٧٩- ٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٤٥).

وتأكيدٌ للتَّعليل[١].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٣).

الآيات (١٥٦ - ١٥٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ١٥٨ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿غُزًّى﴾: جمْع غازٍ، مِن: غَزا يَغْزو غَزْوًا، والغزوُ: الخروجُ إلى مُحاربةِ العَدوِّ، وأصلُ (غزو): طلبُ شيءٍ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ عِبادَه المؤمنين عن أنْ يُشابهوا الَّذين كفَروا في قولِهم النَّاشئِ عن الاعتراضِ على قَضاءِ اللهِ وأقدارِه، حين قالوا عن إخوانِهم من الكَفَرة الَّذين ماتوا أو قُتِلوا- وهم بَعيدونَ عن أوطانِهم لغرَض التِّجارة أو القِتال- قالوا: لو كانوا مُقيمينَ معنا في أوطاننا، لَمَا أصابَهم ما أصابهم؛ ليجعلَ اللهُ هذا الاعتقادَ والقولَ منهم حسرةً وندامةً في قلوبهم، واللهُ وحده مَن بيدِه إحياءُ الخَلْق وإماتتُهم، وكلُّ ذلك بمشيئته، لا تموتُ نفسٌ إلَّا حين تستوفي أجَلَها، وهو سبحانه بما يعمَلُ خَلقُه بصيرٌ.

ثمَّ يُخاطِب اللهُ تعالى عبادَه بأنَّ مَن يُقتَل في سبيل الله أو يموت، فما سينالُه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٤).

من مغفرةِ الله ورحمتِه هو خيرٌ من البقاءِ في هذه الدُّنيا، وأفضل ممَّا يجمعه أهلُها منها، ثمَّ يُذكِّرهم أنَّهم إنْ ماتوا أو قُتلوا فإنَّ المصيرَ والمرجِع إليه جلَّ وعلا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله سبحانه وتعالى للمؤمنين أنَّ هزيمةَ مَن تولَّى منهم يوم أُحُدٍ كانت بوَسواسٍ من الشيطان استزلَّهم فزَلُّوا، أراد أنْ يُحذِّرهم من مثلِ تلك الوسوسةِ الَّتي أفسدَ الشَّيطانُ بها قلوبَ الكافرين[1]، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، لا تَصيروا مثلَ الكفَّار الَّذين قالوا قولًا منكَرًا، ناشئًا عن اعتقادٍ فاسدٍ؛ بالاعتراضِ على قضاءِ الله عزَّ وجلَّ وقدَرِه، وهو قولُهم عن إخوانهم من أهلِ الكفرِ، الَّذين خرَجوا من بلادهم سَفرًا لأجل التِّجارة، وطلب المعيشة، أو خرَجوا غُزاةً للقتال، فماتوا في سَفَرهم، أو قُتلوا في غزوهم: لو أقاموا معنا في بِلادِنا، ولم يَخْرُجوا كما فَعَلْنا نحن، لَمَا ماتوا في سفَرِهم، ولَمَا قُتِلوا في غَزوِهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧٥-١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يَجعلُ هذا القولَ وهذا الاعتقادَ ندامةً في قلوبهم وهمًّا، فتزداد مصيبتُهم بذلك[١].

﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو وحْدَه الَّذي يملِكُ الإحياءَ والإماتة، فلن يموتَ أحدٌ أو يُقتَل إلَّا بمشيئتِه سبحانه، وذلك بعدَ استكمالِ أجَلِه الَّذي قدَّره الله عزَّ وجلَّ له[٢].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ قراءتان:

١- (يَعْمَلُونَ) على أنَّها خِطابٌ للكافرين[٣].

٢- ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على أنَّها خِطابٌ للمؤمنين[٤].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ يرى كلَّ ما يَعمَلُه العبادُ، مؤمنُهم وكافرُهم، من خيرٍ أو شرٍّ، قليلٍ أو كثيرٍ، وهو حافظٌ له، وسيُجازيهم عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨٠-١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤).

(٣) قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٧٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦١).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٧٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤).

﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن أنْ يكونوا كالَّذين كفروا، وقالوا ما قالوا في شأنِ مَن مات في سفَرٍ أو غزوٍ- بيَّن لهم ثمرةَ فواتِ أنفسِهم في الجهادِ بالموتِ أو القتْل؛ ليكونَ ذلك موجِبًا لتسليمِ الأمرِ للخالِق، وعدمِ التَّخاذُل عن الغزوِ[١]، فقال تعالى:

﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

أي: إنَّكم إذا قُتِلتم في سبيلِ الله تعالى، أو أصابَكم الموتُ في سبيله أيضًا، فهذا أمرٌ حسَنٌ يَنبغي أنْ تطمَعوا فيه، وتتنافسوا عليه؛ لأنَّه موصلٌ إلى نيلِ مغفرةِ الله تعالى لذُنوبكم، وشمولِ رحمتِه عليكم، وذلك أفضلُ لكم من البقاءِ في هذه الدَّارِ، وجمْعِ حُطامِها الفاني، كما يفعلُ أهلُ الدُّنيا[٢].

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رغَّب اللهُ تعالى المجاهِدينَ في الآيةِ الأُولى بمغفرتِه ورحمتِه، زادَ في إعلاءِ الدَّرجاتِ، فرغَّبهم هاهنا بالحشرِ إليه[٣]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٤).

﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

أي: وإنْ أصابَكم الموتُ أو القتْلُ - أيُّها المؤمنون- فإنَّ مَصيرَكم في النهاية هو العودةُ إلى الله عزَّ وجلَّ، فيُجازيكم بما صنعتُم، فآثِروا ما يُقرِّبكم من اللهِ تعالى، وكونوا مُطمئنِّين ومستبشرين للقائِه سبحانه[١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- عِلمُ الله لا يَتغيَّرُ، وحُكمُه لا ينقلِبُ، وقضاؤُه لا يتبدَّلُ، فلا تأثيرَ لشيءٍ آخرَ في الحياةِ والموت: مَن قُدِّر له البقاءُ لم يُقتَل في الجهاد، ومَن قُدِّر له الموتُ لم يَبقَ، وإنْ لم يجاهد؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[٢].

٢- إثباتُ عمومِ عِلمِ الله عزَّ وجلَّ بكلِّ ما نعمل؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أو (بِمَا يَعْمَلُونَ)، ويَترتَّبُ على هذه الفائدةِ فائدةٌ مسلكيَّةٌ ينتفعُ بها الإنسانُ في سلوكِه وعملِه، وهي أنَّه إذا آمَن بأنَّ اللهَ بَصيرٌ بما يعمل لزِم من ذلك أنْ يستقيمَ على أمْرِه[٣].

٣- إنَّ مصيرَ العالَمين كلِّهم إلى اللهِ تعالى؛ فالموافاةُ على الشَّهادةِ أمثلُ بالمرء؛ ليُحرِزَ ثوابها، ويجِدَه وقتَ الحشر، ذلك خيرٌ له من أنْ يموتَ مِن غيرِ ما فائدةٍ؛ يبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾، فالنهايةُ واحدةٌ: موتٌ أو قتْلٌ في الموعدِ المحتوم، والأَجَلِ المقسوم، ورجعةٌ إلى الله وحشرٌ في يومِ الجَمْعِ والحشر، ومغفرةٌ من الله ورحمةٌ، أو غضبٌ من الله وعذاب؛ فأحْمَقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨٣-١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٠-٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٩،٤٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٥٥).

الحمقَى مَن يختار لنفسِه المصيرَ البائس، وهو ميِّتٌ على كلِّ حال[١]!

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قول الله تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ ذكَرَ الغزوَ بعدَ الضَّربِ في الأرض، وهو داخلٌ فيه؛ قيل: لأنَّ الضَّربَ في الأرض يُراد به الإبعادُ في السَّفر، لا ما يَقرُب منه، وفي الغزو لا فَرقَ بين بعيدِه وقريبِه، فبينهما عمومٌ وخصوص؛ فتغايرَا، فصحَّ إفرادُه. وقِيل: قدَّم الضَّربَ في الأرض على الغزو؛ لكَثرتِه[٢].

٢- في قولِ الله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ قدَّم الموتَ على القتْل؛ قيل: لِمُناسبةِ ما قَبلَه من قوله: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾[٣]، أو باعتبارِ أنَّ الموتَ حتْفَ الأنفِ هو الغالبُ، وليس القتْل[٤].

٣- الرَّدُّ على القدريَّة؛ لقوله: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: أنَّ اللهَ قدَّر أنْ يقولوا هذا القولَ؛ ليجعلَه حَسرةً في قلوبهم[٥].

٤- قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ علَّق ما قال الكافرون بالبصرِ لا بالسَّمعِ، وإنْ كان الصادرُ منهم قولًا مسموعًا لا فِعلًا مرئيًّا، لَمَّا كان ذلك القولُ من الكافِرِ قصدًا منهم إلى عَملٍ يُحاولونه، فخَصَّ البصرَ بذلك[٦].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الرَّدُّ على الجبريَّة، حيث

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٠،٤٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٦، ٤٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٣/ ٩٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٤).

أضافَ العملَ إليهم، والجبريَّةُ لا يُضيفون العملَ إلى الإنسان[١].

٦- قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ قدَّم القتلَ على الموت؛ لأنَّه محلُّ تحريضٍ على الجهاد، فقدَّم الأهمَّ والأشرفَ[٢].

٧- الجَمْع بين المغفرة والرَّحمة؛ ليكملَ للإنسانِ سعادتُه؛ إذ بالمغفرةِ زوالُ المكروه، وبالرَّحمةِ حصولُ المطلوب، قال تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٣].

٨- جوازُ إيقاع التَّفضيلِ بين شيئينِ بينهما بُعدٌ تامٌّ، كما قال تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٤].

٩- قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ قدَّم الموتَ هنا على القتْل؛ قيل: لأنَّها آيةُ وعْظٍ بالآخِرة والحشرِ، وتزهيدٍ في الدُّنيا والحياة، والموتُ فيها مُطلَق لم يقيَّدْ بشيءٍ فقُدِّم لعمومِه، أو لأنَّه أغلبُ في النَّاس من القتْل[٥].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ زيادةُ تسليةٍ للمؤمنين؛ لأنَّ المؤمنَ إذا عَلِم أنَّ مرجعَه إلى الله، فإنَّه سوف يَطمئنُّ ويستبشرُ وينشرحُ صدرُه بذلك[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٥٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦١).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

- في الآية: حِكايةُ الحالِ الماضيةِ؛ لاستحضارِ الصُّورةِ في الذِّهن، وتجسيدِ المعنى المراد، والتَّشخيصِ لِمَا يُراد عَرْضُه؛ فـ: ﴿إِذَا﴾ ظرفٌ للمستقبل، وقد جاء متعلقًا بـ﴿قَالُوا﴾، وهي فِعل ماضٍ، وكان ظاهرُ الكلام يَقضي باستعمال (إذ) المفيدةِ للمُضيِّ، ولكنَّه عدَل عنها إلى ﴿إِذَا﴾؛ لحكايةِ الحالِ الماضية، وفائدتُها استمرارُ الزَّمان المنتظِم للحالِ الَّذي يَدورُ عليه الحديثُ إلى وقتِ التَّكلُّم[١].

- وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: خبرٌ متضمِّنٌ للتَّحذيرِ لهم مِن أن يُضمروا العَوْدَ إلى ما نُهوا عنه[٢].

- وفيه: إظهارُ الاسمِ الجليلِ (الله) في موقعِ الإضمارِ؛ لتربيةِ المهابةِ، وإلقاءِ الرَّوْعةِ، والمبالغةِ في التَّهديد، والتَّشديدِ في الوعيد[٣].

٢- قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فيه تأكيدُ الخبرِ باسميَّةِ الجملة، واللام[٤].

- ووردتْ ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نكرتين، إشارةً إلى أنَّ أيسرَ جزءٍ من

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٤)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٦٧).
(٤) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٦٨).

المغفرة والرَّحمة خيرٌ من الدُّنيا، وأنَّه كافٍ في فوزِ المؤمن[١].

٣- **قوله:** ﴿**وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ**﴾ فيه توكيدُ الخبر باسميَّةِ الجملة، واللام في ﴿لَإِلَى﴾[٢].

- وعبَّر بقوله تعالى: ﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ ولم يقُلْ: (تحشرون إلى الله)، فقدَّم ما حقُّه التَّأخير؛ ليُفيد الحَصرَ، فمعناه: إلى اللهِ يُحشَر العالَمون لا إلى غيرِه، وهذا يدلُّ على أنَّه لا حَاكمَ في ذلك اليومِ، ولا ضارَّ ولا نافعَ إلَّا هو سبحانه وتعالى[٣].

- وقوله: ﴿تُحْشَرُونَ﴾ بُني لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه، مع أنَّ فاعلَ ذلك الحَشرِ هو اللهُ تعالى، وإنَّما لم يقَعِ التَّصريحُ به؛ لأنَّه تعالى هو العظيمُ الكبير، وترك التَّصريح في مِثل هذا الموضعِ أدلُّ على العظَمةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٥).

الآيات (١٥٩ - ١٦١)

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿فَظًّا﴾: كَريهَ الخُلُق، وجافِي الفِعل، من الفظِّ، وهو ماءُ الكَرِش، وأصل الفظاظة: الجَفوة، والكراهةُ والتَّكرُّه[(١)].

﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾: أي: لتَفرَّقوا عنك، ولم يَسكُنوا إليك، والفضُّ: كسْرُ الشَّيءِ، والتَّفريقُ بين بعضِه وبعضِه، وأصلُه: التَّفريقُ والتَّجزئة[(٢)].

﴿عَزَمْتَ﴾: أي: عَقَدْتَ قلبَك على إمضاءِ الأمورِ، وصَحَّحتَ رأيَك فيها، وأصلُ العزم: القطعُ[(٣)].

﴿يَخْذُلْكُمْ﴾: أي: يَترُكْ نُصرتَكم ومعونتكم، وأصل (خذل): ترْكُ الشَّيءِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١- ٦٦٢).

والقعودُ عنه، ومنه الخِذلانُ، وهو تركُ المَعُونة[١].

﴿يَغُلَّ﴾: أي: يَخون في الغنائم، أو يُنسَب إلى الخيانة- على قراءة (يُغَلَّ)-، والغُلول في الغنائم، إخفاءُ الشَّيء، وعدمُ ردِّه إلى القَسم؛ كأنَّ صاحبَه قد غلَّه بين ثِيابِه، وأصل الغُلول: تخلُّل شيءٍ، وثباتُ شيء، كالشَّيء يُغرَزُ[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه بسبب رحمةِ الله تعالى كان لَيِّنًا مع أصحابه، خافضًا لهم جناحَه، لذا اجتمعوا عليه، وامتثلوا أمرَه، ولو كان سيِّئَ الخُلُق ذا قلبٍ قاسٍ لتَركوه ونفَروا منه، وأمَره تعالى بأنْ يَعفوَ عن أخطائِهم وتقصيرِهم، وأنْ يَستغفرَ لهم اللهَ، وأنْ يَستشيرَهم في الأمورِ الَّتي تحتاجُ إلى مشورةٍ، فإذا ترجَّح له أمرٌ بعد الاستشارةِ، فليَمضِ فيه متوكِّلًا على الله، والله سبحانه يحبُّ مَن يتوكَّل عليه.

ثمَّ يخبِرُهم تعالى أنَّه حِين يُقدِّرُ للمؤمنين النَّصرَ فلنْ يَستطيعَ أحدٌ أنْ يَهزمَهم، وإنْ تخلَّى اللهُ عنهم فلا يُمكن لأحدٍ أنْ يَنصُرَهم أبدًا، وعلى اللهِ وحْدهَ فليكُنِ اعتمادُ كلِّ مؤمن.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّه ليس من صِفاتِ الأنبياءِ الغُلولُ- وهو: كتمانُ الغنيمةِ - ولا الخيانةُ عمومًا، فقد صان اللهُ أنبياءَه عن كلِّ ما يُدَنِّسهم، ولا يَنبغي أن يُتَّهموا بذلِك، أو يَخُونَهم أحدٌ، ثمَّ يذكرُ وعيدَ من غلَّ بأنَّه يأتي بما غلَّه يحملُه يومَ القيامةِ على ظهره، ثمَّ تُجزَى كلُّ نفسٍ بما عمِلَتْ، لا يُظلَمُ أحدٌ شيئًا.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وَعَظَ اللهُ تعالى الصَّحابةَ رضي الله تعالى عنهم، أَتْبَعَه تحبيبَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما فعل بهم من الرِّفق واللِّين، مع وجودِ سببِ الغضبِ الموجِبِ للعُنف والسَّطوة؛ من اعتراضٍ على ما أشار به، ثمَّ مخالفتِهم لأمْره في حِفظِ المركزِ والصَّبرِ والتقوى، ثمَّ خِذلانِهم له وتقديمِ أنفسِهم على نفسِه الشَّريفةِ، ثمَّ عدم العطفِ عليه وهو يَدْعوهم إليه، ويأمُرُ بإقبالِهم عليه، ثمَّ اتِّهامِ مَن اتَّهمه، إلى غيرِ ذلك من الأمورِ الَّتي تُوجِبُ لرؤساءِ الجيوشِ وقادةِ الجنودِ اتِّهامَ أَتْباعِهم، وسوءَ الظَّنِّ بهم، الموجِبَ للغضبِ والإيقاعِ ببعضِهم؛ ليكونَ ذلك زاجرًا لهم عن العَودِ إلى مثلِه[1]، فقال تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾.

أي: بسببِ رحمةِ اللهِ تعالى لكَ ولأصحابِكَ- يا محمَّدُ- أَلَانَ قَلبَك لهم، فكنتَ سهلًا ورقيقًا في تعاملِك معهم[2].

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦١-٣٦٣).

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

أي: لو كنتَ- يا محمَّدُ- جافيًا سيِّئَ الخُلُق، قاسيَ القلبِ مع أَتْباعِك، لنفَروا منك وفارَقوك[١].

عن عَطاءِ بنِ يَسارٍ، قال: لقِيتُ عبدَ اللهِ بن عمرِو بنِ العَاصِ رضِيَ اللهُ عنهمَا: قلتُ: أخبِرنِي عن صفةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في التَّورَاةِ، قالَ: ((أَجَلْ، واللهِ إنَّهُ لموصوفٌ في التَّورَاةِ ببعضِ صِفَتِهِ في القرآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وحِرْزًا للأُمِّيِّينَ[٢]، أنتَ عَبْدِي ورَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المُتوكِّلَ، ليسَ بِفَظٍّ ولا غَليظٍ، ولا سَخَّابٍ[٣] في الأسواقِ، ولا يَدْفَعُ بالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، ولكنْ يَعفُو ويغْفِرُ، ولنْ يَقْبِضَه اللهُ حتَّى يُقِيمَ به المِلَّةَ العَوجاءَ، بأنْ يقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويفْتَحُ بها أعيُنًا عُمْيًا، وآذَانًا صُمًّا، وقُلوبًا غُلْفًا))[٤].

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

أي: فتَجاوَزْ عن أصحابِك- يا محمَّدُ- فيما أخطَؤوا أو قَصَّروا فيه من حقِّك، واطلبِ المغفرةَ لهم من اللهِ تعالى فيما أَخطؤوا أو قَصَّروا فيه من حقِّ الله عزَّ وجلَّ، واطلبْ رأيَهم فيما حزَبَك من الأمور العامَّةِ والمشتبِهة؛ وذلك تطييبًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨٦-١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٢) حرزًا: أي: حافظًا، والأميُّون: جمع أُمِّي، وهو الذي لا يكتُب، والمراد بهم هنا: العرب؛ وسمُّوا بذلك؛ لأنَّ الكتابة كانت عندهم قليلة. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٦٨)، ((عمدة القاري)) للعيني (١١/ ٢٤٣).

(٣) سخَّاب- على وزن: فعَّال- مِن السَّخَب: وهو الصَّخبُ والصِّياح. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٤٩)، ((عمدة القاري)) للعيني (١١/ ٢٤٣).

(٤) رواه البخاري (٢١٢٥).

لقلوبهم؛ ليكونوا لك أطوعَ، وفيما يُقدِمون عليه أنشَطَ، وليقتدوا بكَ في ذلك مِن بعدِك[١].

وقد أثنى اللهُ تعالى على المؤمنين بذلك فقال: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ...﴾الآيات [الشورى: ٣٦- ٤٣].

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

أي: إذا صحَّ عزْمُك على أمرٍ من الأمورِ، بعدَ استطلاعِ آراءِ أصحابِك فيه، فامْضِ فيه معتمِدًا على حولِ الله تعالى وقوَّتِه، واثقًا به فحسبُ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يحبُّ اللَّاجئين إليه، والمعتمِدين في جميعِ أمورِهم عليه[٢].

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)﴾.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾.

أي: إذا قدَّر الله تعالى بأنْ يَكونَ النصرُ حليفَكم- أيُّها المؤمنون- فإنَّه لن يَغلِبَكم أحدٌ مُطلَقًا، مهما بلغ قوَّةً وكثرة[٣].

﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨٨-١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٤-٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧٧-٣٧٨).

أي: وإذا ترَكَكم اللهُ تعالى، وخلَّى بينكم وبين عَدوِّكم، ووكَلَكم إلى أنفسِكم، فلا يُمكن لأيِّ أحدٍ مطلقًا أن يَنصُرَكم من بعدِ خِذلانِ اللهِ تعالى لكم[١].

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ تعالى وحْدَه، لا على أيِّ أحدٍ غيرِه، فاعتمِدوا - أيُّها المؤمنونَ - في جلْبِ الخيرِ ودَفْعِ الضُّرِّ، ومِن ذلك النَّصرُ على الأعداءِ، ودفعُ شرِّهم[٢].

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

مناسبةُ هذه الآيةِ لِمَا قَبْلَها من عدَّة وجوه:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حثَّ على الجهادِ أتْبَعَه بذِكرِ أحكامِ الجهاد، ومِن جملتها: المنعُ من الغُلولِ[٣].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ النَّصرَ والخِذلانَ بيده وحْدَه، وذلك يستلزمُ التَّحريضَ على طلَبِ مَرْضاتِه؛ ليكونَ لطيفًا بمَن يُرضُونه، ولَمَّا كان الغُلولُ مِن أعظمِ مُوجباتِ الخِذلانِ، أو أعْظَمَها، والنَّزاهةُ عنه مِن أعظمِ مُوجباتِ النَّصرِ - كان أنسبَ الأشياءِ لتعقيبِ هذه الآيةِ[٤].

وكذلك لَمَّا أمَرَهم اللهُ تعالى بالتوكُّل في الآيةِ السَّابقة، حثَّهم على ألَّا يأتوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٩٢-١٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧٨-٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٤).

بما يَقدَحُ في التوكُّل؛ كالغُلولِ وما يُدانِيه[١].

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿يَغُلَّ﴾ قِراءتان:

١- ﴿يَغُلَّ﴾ أي: ما كان لنبيٍّ أنْ يخُونَ في غنيمةٍ أو غيرها[٢].

٢- (يُغَلَّ)، قِيل معناها: ما كان لنبيٍّ أن يُغِلَّه أحدٌ، أي: يَخُونَه، وقيل: ما كان لنبيٍّ أنْ يُتَّهم بالغُلولِ فيُخوَّن[٣].

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾.

أي: وليس الغُلولُ- وهو كِتمانُ الغنيمة- ولا غيرُ ذلك من أوجهِ الخِيانة، من صِفاتِ الأنبياء؛ فذلك محالٌ وممتنعٌ على مَن اختارهم الله تعالى لمقام النُّبوَّة، ولا يَنبغي شرعًا لأحدٍ أن يخُونَهم، أو ينسُبَ إليهم هذه الصِّفةَ الشَّنيعةَ[٤].

﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: ومَن يخُنْ مِن غنائمِ المسلمين شيئًا، فإنَّه يَجيءُ معه يومَ القيامةِ بنَفْسِ الشَّيءِ الَّذي أخَذه على سَبيلِ الخِيانةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١١١).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وأبو عمرو، وعاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٠).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٩٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٠-١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٠٠-٢٠١)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٢/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٤-٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥١)، ((تفسير السعدي))

عن مُعاذِ بن جبلٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((بعَثَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلمَّا سِرتُ أرسَل في أثَري، فرَددْتُ، فقال: أَتدْرِي لمَ بَعثتُ إليك؟ لا تُصيبَنَّ شيئًا بغيرِ إذني؛ فإنَّه غُلولٌ، ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ لهذا دعَوْتُك فامضِ لعملِك))[(١)].

وعن أبي حُميدٍ السَّاعديِّ رضِي اللهُ عنه، قال: ((اسْتَعْمَل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رجلًا من الأزدِ على صدقاتِ بني سُلَيم، يُدعى ابنَ الأُتْبِيَّةِ، فلمَّا جاءَ حاسبَه، قال: هذا مالُكم، وهذا هديَّةٌ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: فهلَّا جلَستَ في بيتِ أبيك وأمِّك حتَّى تَأتيَك هديَّتُك إنْ كنتَ صادقًا؟! ثمَّ خطبنا، فحمِدَ اللهَ وأثْنى عليه، ثمَّ قال: أمَّا بعدُ، فإنِّي أستعملُ الرجلَ منكم على العَملِ ممَّا ولَّاني اللهُ، فيأتي فيقول: هذا مالُكم وهذا هديَّةٌ أُهدِيتْ لي، أفَلا جلَسَ في بيت أبيه وأمِّه حتَّى تأتيَه هديَّتُه إنْ كان صادقًا؟! واللهِ لا يَأخذُ أحدٌ منكم منها شيئًا بغير حقِّه، إلَّا لقيَ اللهَ تعالى يَحملُه يومَ القيامةِ، فلَأعرفنَّ أحدًا منكم لقيَ اللهَ يَحمِل بعيرًا له رُغاءٌ[(٢)]، أو بقرةٌ لها خُوارٌ[(٣)]، أو شاةٌ تَيْعِرُ[(٤)]،

(ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٦-٣٨٧).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، أي: يأتي به حاملًا له على ظهرِه ورقبتِه، مُعذَّبًا بحملِه وثقلِه، ومرعوبًا بصوتِه، وموبَّخًا بإظهارِ خيانتِه على رؤوس الأشهادِ،... وهذه الفضيحةُ التي يُوقِعُها اللهُ تعالى بالغالِّ نظير الفضيحةِ التي تُوقَع بالغادر، في أن يُنصَب له لواءٌ عندَ اسْتِه بقدرِ غَدرتِه). ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٥٦).

(١) رواه البخاري (٢٠٠).

(٢) الرُّغَاء: صوتُ البَعير. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٤٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٢١٦).

(٣) الخُوَارُ: صَوْتُ البَقر. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٨٧).

(٤) تَيعِرُ: أي: تَصِيحُ، واليُعارُ صَوْتُ الشَّاةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٩٧)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٢١٩).

ثمَّ رفع يدَيه حتَّى رُئيَ بياضُ إِبْطَيه، ثمَّ قال: اللهمَّ هل بلَّغْتُ؟، بصُرَ عيني، وسمِع أُذني))[١].

وعن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((غزا نبيٌّ من الأنبياءِ فقال لقومِهِ: لا يَتْبَعْنِي رجلٌ ملَكَ بُضعَ امرأةٍ[٢]، وهو يُريدُ أن يَبنيَ بها، ولَمَّا يَبْنِ، ولا آخَرُ قد بنَى بُنيانًا، ولَمَّا يرفَعْ سقفَها، ولا آخرُ قد اشترَى غنَمًا أو خَلِفاتٍ[٣]، وهو منتظرٌ ولادَها، قال: فغزَا، فأَدْنَى للقريةِ حينَ صلاةِ العصرِ، أو قريبًا من ذلكَ، فقال للشَّمسِ: أنتِ مأمورةٌ وأنا مأمورٌ، اللهمَّ احبِسْها عليَّ شيئًا، فحُبِستْ عليهِ حتَّى فتَحَ اللهُ عليهِ، قال: فجمَعُوا ما غنِموا، فأقبلتِ النَّارُ لتأكلَه، فأبتْ أنْ تَطْعَمَهُ، فقال: فيكُم غُلولٌ، فليُبايِعْنِي من كلِّ قبيلةٍ رجلٌ، فبايَعوهُ، فلصِقَتْ يدُ رجلٍ بيدِهِ، فقال: فيكُم الغُلولُ، فلتُبايِعْنِي قبيلتُكَ، فبايَعَتْه، قال: فلصِقَتْ بيدِ رَجُلينِ أو ثلاثةٍ، فقال: فيكُم الغُلولُ، أنتُم غلَلْتُم، قال: فأَخْرجوا له مِثلَ رأسِ بقرةٍ من ذَهبٍ، قال: فوضَعُوهُ في المالِ وهو بالصَّعيدِ[٤]، فأقبلتِ النَّارُ فأكلَتْهُ، فلم تحِلَّ الغنائمُ لأحدٍ مِن قبلِنا؛ ذلكَ بأنَّ اللهَ تباركَ وتعالى رأى ضَعْفَنا وعَجزَنا، فطَيَّبها لنا)) [٥].

وعن عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضِي اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ خيبرَ أقبَل نفَرٌ مِن صحابةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالوا: فلانٌ شهيدٌ. فلانٌ شهيد، حتَّى مرُّوا

---

(١) رواه البخاري (٦٩٧٩)، ومسلم واللفظ له (١٨٣٢).

(٢) بضع امرأة: البُضْع يطْلق على عَقْدِ النِّكاحِ والجِماعِ معًا، وعلى الفَرْج. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٣٣)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ٤٣).

(٣) الخَلِفاتُ: جمع خَلِفَة، وهي الحامل من النُّوق. وقيل الخَلِفات: الحواملُ من الإبلِ إلى أنْ يَمضِيَ عليها نِصْفُ أَمَدِها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٨٩).

(٤) بالصَّعيدِ أي: بوَجْه الأرضِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٥٣).

(٥) رواه مسلم (١٧٤٧).

على رجلٍ فقالوا: فلانٌ شهيدٌ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كلَّا، إنِّي رأيتُه في النَّارِ، في بُردَةٍ غلَّها، أو عَباءةٍ، ثمَّ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: يا ابنَ الخطَّابِ، اذهَبْ فنَادِ في النَّاسِ: إنَّه لا يدخُلُ الجنَّةَ إلَّا المؤمنونَ، قال: فخرَجتُ فنادَيتُ: أَلَا إنَّه لا يَدخُلُ الجنَّةَ إلَّا المؤمِنونَ)) (١).

وعن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، قال: ((خرَجْنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ خَيبرَ، فلم نَغنَمْ ذهبًا ولا فِضَّةً، إلَّا الأموالَ والثِّيابَ والمَتاعَ، فأهدَى رجلٌ من بني الضَّبيبِ، يُقالُ له: رِفاعَةُ بنُ زيدٍ، لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غلامًا، يُقالُ له: مِدعَمٌ، فوَجَّه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى وادي القُرَى، حتَّى إذا كان بوادي القُرَى، بينما مِدعَمٌ يَحُطُّ رَحلًا لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا سهمٌ عائِرٌ(٢) فقَتَلَه، فقال النَّاسُ: هَنيئًا له الجنَّةُ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كلَّا، والَّذي نفْسي بيدِه، إنَّ الشَّملةَ الَّتي أخَذها يومَ خَيبرَ من المغانمِ، لم تُصِبْها المَقاسِمُ، لَتَشتَعِلُ عليه نارًا، فلمَّا سَمِعَ ذلك النَّاسُ جاء رجلٌ بشِراكٍ(٣)، أو شِراكَينِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: شِراكٌ من نارٍ، أو: شِراكانِ من نارٍ))(٤).

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عُقوبةَ الغالِّ، وأنَّه يأتي يومَ القيامةِ بما غَلَّه، ولَمَّا أرادَ أنْ

---

(١) رواه مسلم (١١٤).

(٢) سهم عائر: أي: لا يُدرَى مَن رماه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٧٦٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٢٨).

(٣) الشِّرَاكُ: أحد سُيور النَّعْلِ، التي تكون على ظهر القدَم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٦٧-٤٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٢٩).

(٤) رواه البخاري (٦٧٠٧)، ومسلم (١١٥).

يذكُرَ توفيتَه وجزاءَه، وكان الاقتصارُ على الغالِّ يُوهم -بالمفهومِ- أنَّ غيرَه من أنواعِ العاملين قد لا يُوفَّوْن- ناسَب أن يأتيَ بلفظٍ عامٍّ جامعٍ له ولغيرِه[١]، فقال:

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ كلَّ نفسٍ تُعطَى يومَ القيامةِ جزاءَ ما عمِلَتْ، كاملًا غيرَ منقوص، فلا يُنقَصُ من حَسناتِهم، ولا يُزادُ في سيِّئاتهم[٢].

الفَوائدُ التربويَّة:

١- الحثُّ على حُسنِ الخُلق واللِّين؛ فثمرة اللِّين هي المحبَّة والاجتماع، وخلافُه من الجَفوةِ والخشونةِ مُؤدٍّ إلى التَّفرُّق؛ قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٣].

٢- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ الأخلاقُ الحسنة من الرَّئيس في الدِّين، تجذِبُ النَّاسَ إلى دِين الله، وتُرغِّبُهم فيه، مع ما لصاحبِه من المدحِ والثَّواب الخاصِّ، والأخلاقُ السَّيِّئةُ من الرَّئيسِ في الدِّين تُنفِّر النَّاسَ عن الدِّين، وتُبغِّضُهم إليه، مع ما لصاحبِها من الذَّمِّ والعِقابِ الخاصِّ؛ فهذا الرَّسولُ المعصومُ يقولُ اللهُ له ما يقولُ؛ فكيف بغيره[٤]؟!

٣- يجبُ أنْ يكونَ الاعتمادُ على إعانةِ اللهِ وتَسديدِه وعِصمتِه، وألَّا يكونَ للعبدِ اعتمادٌ على شيءٍ إلَّا على الله تعالى في جَميعِ الأمورِ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥١).

٤- ليس التوكُّلُ إهمالَ التَّدبيرِ بالكلِّيَّة، بل بمراعاةِ الأسبابِ الظَّاهرةِ- كالمشاورة- مع تفويضِ الأمرِ إلى الله تعالى، فلا يُعوِّل بقلبِه عليها، بل يُعوِّلُ على عصمةِ الله تعالى؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[١].

٥- ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ الآيةُ صريحةٌ في وجوبِ إمضاءِ العزيمةِ المستكمِلةِ لشُروطِها- وأهمُّها في الأمورِ العامَّةِ حربيَّةً كانتْ أو سياسيَّةً أو إداريَّةً: المشاورةُ- وذلك أنَّ نقضَ العزيمةِ ضعفٌ في النَّفسِ، وزلزالٌ في الأخلاقِ، لا يُوثَقُ بمنِ اعتاده في قولٍ ولا عمَلٍ، فإذا كان ناقضُ العزيمةِ رئيسَ حكومةٍ أو قائدَ جيشٍ، كان ظهورُ نقضِ العزيمةِ منه ناقضًا للثِّقةِ بحكومتِه وبجيشِه، ولا سيَّما إذا كان بعد الشُّروعِ في العملِ[٢].

٦- في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أنَّ العزمَ على الفِعلِ وإنْ كان يكونُ بعد الفكرِ، وإحكامِ الرَّأيِ والمشاورةِ، وأخْذِ الأُهْبةِ، فذلك كلُّه لا يَكفي للنَّجاحِ إلَّا بمعونةِ اللهِ وتوفيقِه؛ لأنَّ الموانعَ الخارجيَّةَ له والعوائقَ دونه لا يُحيطُ بها إلَّا الله- تعالى-، فلا بدَّ للمؤمنِ من الاتِّكالِ عليه، والاعتمادِ على حَولِه وقوَّته، مع فعلِ الأسبابِ[٣].

٧- أنَّه يَنبغي على الإنسانِ إذا عزَم على الأمرِ ألَّا يتردَّدَ؛ لأنَّ التَّردُّدَ يُحيِّر الإنسانَ ويوقِعُه في القلقِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧٣).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- أنَّ التَّفريطَ في حقِّ النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام ذنبٌ عظيمٌ؛ لأنَّ الله لَمَّا أمر نبيَّه بالعفوِ عن حقِّه الخاصِّ قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وهو كذلك؛ فإنَّ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ليس كغيره؛ لأنَّ له حقَّ الإسلام وحقَّ الرِّسالة، ولأنَّه أعظمُ النَّاس حقوقًا علينا؛ فالاعتداءُ في حقِّه أشدُّ من غيره، بل يُكسِبُ الإثمَ[1].

٢- في قولِ الله سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أنَّ المشاورةَ من العباداتِ المتقرَّبِ بها إلى الله[2].

٣- للشُّورى المأمورِ بها في قوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ حِكَمٌ وفوائدُ تترتَّبُ عليها، مِن هذه الحِكَمِ:

- ألَّا يَستبدَّ الرَّئيسُ أو وليُّ الأمرِ برأيه.

- كما أنَّ فيها تعويدَ أفراد الأمَّةِ على النَّظرِ في شؤونهم؛ حتَّى يتمرَّنوا ويُمارِسوا هذا الأمْرَ.

- التَّواضُع ممَّن شاور، فلا شكَّ أنَّه إذا شاوَرَ فهو متواضِعٌ.

- تنشيطُ الأمَّة، حيثُ ترى أنَّه يُرجَعُ إليها في الرَّأي، فتنشطُ وتَعملُ ما فيه الخيرُ العامُّ، بخِلافِ ما إذا استبدَّ وليُّ الأمر في رأيه، فإنَّه وإنْ كان صوابًا ربَّما تشمئزُّ النُّفوس منه.

- أنَّه إذا اجتمعتِ الآراءُ مع حُسنِ النِّيَّةِ، فإنَّ الغالبَ أنَّ اللهَ يُوفِّقُهم للصَّوابِ.

- أنَّ الإنسانَ ربَّما يرَى في هذا الأمرِ مصلحةً، ويفُوته ما يَترتَّبُ عليه من مفسدةٍ، لا سيَّما إذا كان له هوًى؛ فإنَّ الهوى كما قيل: يُعمِي ويُصِمُّ، أحيانًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤).

يكونُ للإنسان هوًى فيرى المصلحةَ، ولا يَرى المفسدةَ في الشَّيء، فإذا حصَل التَّشاورُ تبيَّنتِ المصالحُ من المفاسدِ.

- أنَّ الأمَّةَ إذا اجتمعَتْ على رأيها لم يكُنْ للنَّاسِ اعتراضٌ، ومعلومٌ أنَّ الَّذي يُشاوَر هم أهلُ الأمانةِ، وأهلُ الحَلِّ والعَقدِ والمعرفة[١].

٤- أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَعتريه ما يَعتري البشرَ من التَّردُّدِ في الأمور، ووجهُ الدَّلالةِ: أولًا في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾، وثانيًا في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾؛ فإنَّ العزيمةَ قد يسبِقُها تردُّدٌ، كما هو الواقع[٢].

٥- ليسَ في الوجودِ سَببٌ يستقلُّ بحُكمٍ، بل كلُّ سببٍ فهو مُفتقِرٌ إلى أمورٍ أُخرى تُضَمُّ إليه، وله موانعُ وعوائقُ تَمْنَعُ مُوجِبَه، وما ثَمَّ سببٌ مستقلٌّ بالإحداثِ إلَّا مَشيئةُ اللهِ وحْدَه؛ فمَا شاء كان، وما لم يَشأْ لم يكُنْ، وما شاءَ خَلَقَه بالأسبابِ التي يُحدِثُها ويَصرِفُ عنه الموانعَ؛ فلا يجوزُ التوكُّلُ إلَّا عليه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٣].

٦- في قولِ الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، أنَّ التَّوكُّلَ من مقتضياتِ الإيمانِ؛ لأنَّه علَّق الحُكمَ على وصفٍ، وهو الإيمانُ، فدلَّ ذلك على أنَّه كلَّما قوِيَ الإيمانُ قوِيَ التَّوكُّلُ على اللهِ، وكلَّما ضعُف الإيمانُ ضعُف التَّوكُّلُ على اللهِ[٤].

٧- الخيانةُ مع كلِّ أحدٍ مُحرَّمةٌ، وتخصيصُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بهذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٢).

الحُرمةِ في قوله تعالى في قِراءة: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ) يُستفادُ منه فوائدُ؛ منها: أنَّ المجنيَّ عليه كلَّما كان أشرَفَ وأعظَمَ درجةً كانت الخيانةُ في حقِّه أفحشَ، والرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أفضلُ البشرِ، فكانتِ الخيانةُ في حقِّه أفحشَ، ومنها: أنَّ الوحيَ كان يأتيه حالًا فحالًا، فمَن خانه فربَّما نزَل الوحيُ فيه، فيحصُلُ له مع عذابِ الآخرةِ فضيحةُ الدُّنيا، ومنها: أنَّ المسلِمين كانوا في غايةِ الفقرِ في ذلك الوقتِ، فكانتْ تلك الخيانةُ هناك أفحشَ [(١)].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ**﴾ الفاء للتَّفريعِ على ما اشتمَلَ عليه الكلامُ السَّابقُ الَّذي حُكِي فيه مخالفةُ طوائفَ لأمْرِ الرَّسولِ من مؤمنين ومُنافِقين، وما حُكِي مِن عفوِ اللهِ عنهم فيما صنَعوا[(٢)].

- وتقديمُ المجرورِ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ مفيدٌ للحصرِ الإضافيِّ، أي: برحمةٍ مِن الله، لا بغَيرِ ذلك من أحوالهم، وهذا القصرُ يُفيدُ التَّعريضَ بأنَّ أحوالَهم كانتْ مستوجِبةً الغِلَظَ عليهم، ولكنَّ اللهَ تعالى ألَان خُلُقَ رسولِه، رحمةً بهم؛ لحكمةٍ علِمها اللهُ في سياسةِ هذه الأمَّةِ[(٣)].

- وزِيدَتْ ﴿مَا﴾ بعدَ باء الجرِّ؛ لتأكيدِ الجملةِ بما فيه من القَصرِ، فتعيَّن بزيادتها كونُ التَّقديمِ للحصرِ، لا لمجرَّدِ الاهتمامِ[(٤)].

- وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أُسْنِدت الرَّحمةُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣١)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٤٤).

المتفضِّلُ بها، ولأنَّ إسنادَها إليه يُفيدُ عظَمتَها، وأنَّها رحمةٌ عظيمةٌ[١].

- ودلَّ فِعلُ المُضيِّ في قوله: ﴿لِنْتَ﴾ على أنَّ ذلك وصفٌ تَقرَّر وعُرِف مِن خُلقِه، وأنَّ فِطرتَه على ذلك برَحمةٍ مِن اللهِ؛ إذ خلَقه كذلك[٢].

٢- **قوله:** ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ فيه تمثيلٌ؛ حيث شُبِّهت هيئةُ النُّفورِ منه، وكراهيةُ الدُّخولِ في دِينه بالانفضاضِ مِن حولِه، أي: الفِرار عنه مُتفرِّقين، وهو يُؤذِنُ بأنَّهم حولَه متَّبِعون له[٣].

٣- **قوله تعالى:** ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ**﴾ (الفاء) فيه تدُلُّ على التَّعقيبِ المباشِر؛ فهذا يدُلُّ على أنَّه تعالى أوجَب على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَعفوَ عنهم في الحال[٤].

٤- **قوله:** ﴿**إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ الجملةُ تعليلٌ للتَّوكُّلِ عليه تعالى[٥]، وهو مِن حُسنِ التَّعليل، كما فيها تأكيدُ الخبرِ بـ(إنَّ)، واسميَّةِ الجملة[٦].

- وفيه: وضعُ الاسمِ الظَّاهرِ ﴿إِنَّ اللهَ﴾ موضِعَ الضَّمير (إنَّه)؛ لتربيةِ المَهابةِ[٧].

٥- **في قوله:** ﴿**إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)**﴾:

- جَعَل الجوابَ بقوله: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ دون أن يقول: (لا تُغلبوا)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٥).
(٦) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٧٠).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للتَّنصيصِ على التَّعميمِ في الجواب؛ لأنَّ عمومَ ترتُّبِ الجزاءِ على الشَّرطِ أغلبيٌّ، وقد يكون جزئيًّا، أي: لا تُغلَبوا مِن بعضِ المغالبين، فأُريد بإفادةِ التَّعميمِ دفعُ التَّوهُّمِ(١).

- قوله: ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُم مِنْ بَعْدِهِ﴾: خبرٌ فيه ترغيبٌ في الطَّاعةِ، وفيما يَستحقُّون به النَّصرَ مِن الله تعالى والتَّأييدَ، وتحذيرٌ من المعصية، وممَّا يستوجِبون به العقوبةَ بالخِذلانِ(٢).

- قوله: ﴿فَمَن ذَا الذى يَنصُرُكُم مِنْ بَعْدِهِ﴾: الاستفهامُ إنكاريٌّ، مفيدٌ لانتفاءِ النَّاصرِ ذاتًا وصِفةً بطريق المبالَغةِ(٣).

- وفيه تلطُّفٌ بالمؤمنين حتَّى لا يُصرِّحَ لهم بأنَّه لا ناصرَ لهم، بل أبرَز ذلك في صورةِ الاستفهامِ، الَّذي يقتضي السُّؤالَ عن النَّاصرِ، وإن كان المعنى على نفْيِ الناصرِ، لكن فرقٌ بين الصَّريحِ والمُتضمَّنِ، فلم يُجرِ المؤمنين في ذلك مجرى الكفَّارِ، الَّذي نصَّ عليه بالصَّريحِ أنَّه لا ناصرَ لهم؛ كقولِه: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾(٤) [محمد: ١٣].

- قوله: ﴿وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفعلِ؛ لإفادةِ قصرِه عليه تعالى، والفاءُ لترتيبِه، أو ترتيبِ الأمرِ به(٥).

- والمرادُ بالمؤمنين إمَّا الجنسُ، والمُخاطَبون داخِلونَ فيه دُخولًا أوَّليًّا، وإمَّا هم خاصَّةً بطريق الالتفاتِ، وعلى كِلا الوجهين فيه تَشريفٌ لهم بعنوانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٣- ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٦).

الإيمانِ اشتراكًا أو استقلالًا، وتعليلٌ لتحتُّمِ التَّوكُّلِ عليه تعالى؛ فإنَّ وصفَ الإيمانِ ممَّا يوجِبه قطعًا[١].

٦- **قوله:** ﴿**وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ**﴾ فيه المبالغةُ في النَّهي حيث عبَّر بـ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾، وهي صيغةُ جُحودٍ تُفيد مبالَغةَ النَّفي؛ لأنَّ الغُلولَ أَولى بأن يُبالَغَ فيه[٢].

٧- **قوله:** ﴿**ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ فيه تعميمُ الحُكمِ؛ ليكونَ كالبرهانِ على المقصودِ، وللمبالغةِ فيه؛ فإنَّه إذا كان كلُّ كاسبٍ مَجزيًّا بعملِه، فالغَالُّ مع عِظَمِ جُرمِه بذلك أَولى[٣].

- وجِيءَ بأداةِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾؛ للدَّلالةِ على طولِ مُهلةِ التَّفضيحِ، فزادَ ذلك في تَعظيمِ يومِ القيامة، وتعظيمِ الجزاءِ فيه[٤].

- وبُني الفِعلُ ﴿تُوَفَّى﴾ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه؛ إظهارًا لعظَمتِه تعالى، على طريقِ كلامِ القادِرين[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٩٣-٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١١٣).

الآيات (١٦٢ - ١٦٨)

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بَاءَ بِسَخَطٍ﴾: رجَع، وانْصَرَف بذلك، ولا يُقال (باء) إلَّا بِشَرٍّ، وأصلُه الرجوعُ، يقالُ: باء بكذا، أي رجَع به، وباء إلى المَبَاءَة- وهي المنزلُ- أي رجَع. ومنه قولُهم: باء بذنبه، كأنَّه عاد إلى مباءته محتملًا لذنبه[1].

﴿مَنَّ﴾: أي: أنْعَم وصنَع الصُّنع الجَميل، والمنَّة: النِّعمة الثَّقيلة، وأصل مَنَّ: اصطناعُ الخيرِ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٣٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٠- ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٢).

﴿يُزَكِّيهِمْ﴾: يُطهِّرُهم من الكُفرِ والمَعاصِي والرَّذائل، وأصل الزَّكاة: النَّماءُ والزِّيادةُ، والطَّهارةُ[١].

﴿أَنَّى﴾: هي كلمةٌ للبَحثِ عن الحالِ والمكان، بمعنى: كيفَ وأينَ؛ لتضمُّنها مَعناهما، وهي هنا بمَعْنى: كيفَ[٢].

﴿تَعَالَوْا﴾: أي: هلُمُّوا، و(تَعالَ)، أصلُه أنْ يُدعَى الإنسانُ إلى مَكانٍ مرتفعٍ، ثمَّ جُعل للدُّعاءِ إلى كلِّ مكان، وأصله مِن العلوِّ، وهو ارتفاعُ المنزلةِ، فكأنَّه دعا إلى ما فيه رِفعةٌ[٣].

﴿فَادْرَؤُوا﴾: أي: فادْفَعوا، ودَرَأتُ عنه: دفعت عن جانبِه، ودارأتُه: دافَعْته والدَّرْءُ: الميلُ إلى أحدِ الجانبينِ وأصلُه: دفعُ الشيءِ[٤].

المَعنَى الإجماليُّ:

لا يَستوي مَن كان مبتغاه رِضا اللهِ تعالى، ويَسعى لذلك، ومَن هو واقعٌ في معاصي الله، راجعٌ بسَخَطِه وغَضَبِه، ومَصيرُه جهنَّمُ، وبئس المصيرُ، وكِلا الفريقين مراتبُ متفاوتةٌ، فمَنِ ابتغَوْا رضوانَ الله درجاتٌ مختلفةٌ في العُلوِّ، ومَن باؤوا بسَخَطِ الله درَكاتٌ متفاوتةٌ في السُّفولِ، واللهُ مطَّلعٌ على كلِّ ما يعملُه عبادُه، وسيُجازيهم عليه.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢-٣١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٦-٢٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٤).

ثمَّ أخبَر تعالى أنَّه أنعَمَ على أهل الإيمانِ بإرسال محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليهم من جنسِهم البَشريِّ، يَقرأ عليهم القُرآنَ، ويُطهِّرُهم من الشِّركِ والمعاصي والأخلاقِ الرَّذيلةِ، ويُعلِّمُهم معانيَ القرآنِ، والسُّنَّة النَّبويَّة، وقد كانوا من قَبلِ أن يَأتيَهم في ضلالٍ واضحٍ.

ثمَّ يقولُ اللهُ تعالى للمُؤمنين: أحِينَ أَصابَتْكم المصيبةُ يومَ أُحُدٍ بقَتْلِ سبعين منكم، وأنتُم قد أوقعتُم بعَدوِّكم ضِعفَيْها بقتلِ سبعينَ منهم، وأَسْرِ سبعينَ، أعندَ ذلك تَتساءَلون: مِن أين أصابَنا ما أصابَنا، وكيف وقَعَتْ علينا هذه المصيبةُ، فأمَر اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ لهم: إنَّ ما حَلَّ بكم سببُه من أنفسِكم، حين حصَل مِن بعضِكم التَّنازُعُ فيما بينهم، وعصَوْا أمرَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واللهُ تعالى على كلِّ شيءٍ قادرٌ.

ثمَّ يُخبِرُ اللهُ تعالى المؤمنين أنَّ ما أصابَهم يومَ أُحُدٍ يوم الْتَقى جَمْعُ المسلمين بجَمْعِ المشركين، إنما هو بقَضاءِ الله وقدَرِه، وليَمِيزَ سبحانه المؤمنين، ويمِيزَ أيضًا المنافقين الَّذين هم في صُفوفِ المسلمين، وقد اتَّضَح أمرُهم حين دُعوا للقتالِ في سبيلِ الله، أو من أجْلِ الدَّفع عن البلاد ومَن فيها، فما كان منهم إلَّا أنِ اعتذروا بعُذرٍ قبيحٍ؛ حيث قالوا: إنَّهم لو يعلَمون أنَّه ستكونُ مواجهةٌ بين المسلِمين والمشركين لخرجوا مع المسلِمين، لكنَّهم لا يرَوْن أنَّ هذا سيحصُلُ، فأخبر تعالى أنَّ المنافقين كانوا في تلك الحالِ أقرَبَ إلى الكفرِ منهم إلى الإيمانِ، يُضمِرون في أنفسِهم خلافِ ما يُظهِرونه، واللهُ سبحانه مطَّلِعٌ على كلِّ ما يُخفونه.

هؤلاءِ المنافقون الَّذين تخلَّفوا عن الجِهادِ مع المسلمين قالوا: لو أنَّ قرابتَنا الَّذين قُتِلوا في المعركةِ أَخَذوا بمشورتِنا؛ بترْكِ الخروج للقتال لم يُقتَلوا، فأمَر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ لهم: فادْفَعوا الموتَ عن أنفسِكم

إنْ كنتُم صادقين في أنَّهم لو أطاعوكم ما كانوا قُتِلوا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أَتْبَعَه بتفصيلِ هذه الجملة، وبيَّن جزاءَ المُطيعين ما هو، وجزاءَ المُسيئين ما هو[١].

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه لا يقعُ يومَ القيامة ظُلْمٌ أصلًا، تسبَّبَ عنه الإنكارُ على مَن حدَّثَتْه نفسُه بالأمانيِّ الكاذبة، فظنَّ غيرَ ذلك من استواءِ حالِ المُحسِنِ وغيرِه، أو فعَل فعلًا وقال قولًا يؤدِّي إلى ذلك؛ كالمُنافِقين وكالمُقبِلين على الغنيمةِ[٢]، فقال تعالى:

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢)﴾.

أي: هل مَن ترَك الغُلولَ، وانتهى عن غيرِه مِن المعاصي، وعَمِل بطاعةِ الله تعالى، قاصدًا بذلك نَيْلَ رضا الله سبحانه، هل هو كالَّذي رجَع متحمِّلًا غضَبَ اللهِ عزَّ وجلَّ عليه بوقوعِه في العِصيانِ، أو بترْكِ طاعةِ الرَّحمن، فاستحقَّ بذلك الإقامةَ في جَهنَّمَ، وما أسوأَه مِن مصيرٍ يُرجَع إليه[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١١٣-١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٩٣-٣٩٤).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

وقال سبحانه: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠].

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣)﴾.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ للمتَّبعين رِضوانَ اللهِ تعالى مراتبَ متفاوتةً في العلوِّ، كما أنَّ لِمَن باؤوا بسَخَطِ اللهِ سبحانه دَركاتٍ متفاوتةً في السُّفولِ[(١)].

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ تعالى مطَّلعٌ على كلِّ ما يعمَلُه عبادُه؛ من طاعةٍ أو معصيةٍ، لا يَخفَى عليه شيءٌ من ذلك، وهو حافِظٌ لأعمالهم، وسيُجازي كلًّا منهم بحسَبِها[(٢)].

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا فصَّل اللهُ تعالى أحوالَ النَّاسِ بدأ بالمؤمنين، فذكر ما امتَنَّ عليهم به[(٣)]، فقال:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٩٨-٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١٥).

أي: إنَّ اللهَ تعالى قد أنعَمَ على عِبادِهِ المؤمنين؛ بأنْ أرسَلَ إليهم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من جِنسِهم البشريِّ، فيَألَفونَه ويَفهمون خِطابَه، ويَتمكَّنون من مجالستِه والتَّحدُّثِ إليه [(١)].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥].

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

أي: يقرَأُ عليهم القُرآنَ، ويأمُرُهم بكُلِّ خيرٍ، ويَنهاهم عن كلِّ شرٍّ، حتَّى تطهُرَ نفوسُهم من دَنَسِ الشِّركِ والمعاصي، ورذائلِ الأخلاقِ[(٢)].

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

أي: ويُعلِّمهم معانيَ القرآنِ الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة[(٣)].

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

أي: إنَّ المؤمنين كانوا قَبل بِعثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليهم مُنغمِسينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تيمية (١/ ٢٢٦-٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٠٤-٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٢)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٠٥-٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٢)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨).

في جاهليَّةٍ جَهلاءَ، وحيرةٍ عَمياءَ، وانحرافٍ واضحٍ عن طريق الهُدى[١].

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)﴾.

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾.

أي: أحِينَ حلَّت بكم مُصيبةُ غزوةِ أُحُدٍ بقتلِ سبعينَ رجلًا منكم، مع أنَّكم نِلتُم قبلها في بَدْرٍ ضِعْفَيْ ما نالوا منكم عددًا، بقَتلِ سبعينَ، وأَسْرِ سَبعينَ آخَرين، أحينَها تقولون: مِن أين جرَى علينا هذا الأمرُ، وكيفَ حلَّتْ بنا هذه الكارثةُ[٢]؟!

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للمؤمنين: هذه المصيبةُ الَّتي وقعتْ عليكم في أُحُدٍ إنَّما كنتُم أنتم أنفسُكم السببَ فيها، وذلك حينَ تنازَع بعضُكم فيما بينهم، وعصَوْا أمرَ رسولِهم عليه الصَّلاة والسَّلام[٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى قادرٌ على جميعِ الأشياء، ومِن ذلك: إيقاعُ العقوبةِ بكم أيُّها المؤمنون، كما حدَث في غزوةِ أُحُدٍ، ومِن ذلك أيضًا: قدرتُه على نصرِكم، فلا تظنُّوا بالله تعالى غيرَ الحقِّ، وإنَّما قدَّر ما قدَّر عليكم في أُحُدٍ مِن الهزيمةِ والإصابةِ بالقَتْل والجِراحِ لحِكمتِه سبحانه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٠٨-٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٤-٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤١٣-٤١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤١٤).

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كانتْ نسبةُ المصيبةِ إليهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ ربَّما أوهَمَتْ أنَّ بعضَ الأفعالِ خارجٌ عن مُرادِه تعالى[1]- قال تعالى:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الَّذي وقَع عليكم- أيُّها المؤمنون- من القَتْلِ والجِراحِ والهزيمةِ يومَ الْتَقيتُم أنتم والمشرِكون بأُحُدٍ، إنَّما وقَع بقَضاءِ الله تعالى وقدَرِه[2].

﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّ ما أصابَكم يومَ أُحُدٍ كان لأجلِ تَمييزِ المؤمنين الَّذين صبَروا وثبَتوا مِن غيرهم[3].

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١١٨).
وقيل: (عطف على قولِه: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وهو كلامٌ واردٌ على معنى التَّسليمِ، أي: هَبُوا أنَّ هذه مصيبةٌ، ولم يكُنْ عنها عِوَضٌ، فهي بقدرِ الله، فالواجبُ التَّسليمُ، ثم رجع إلى ذِكر بعضِ ما في ذلك مِن الحكمةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

أي: إنَّ ما أصابكم يومَ أُحُدٍ- أيُّها المؤمنون- كان أيضًا لأجْلِ تمييزِ المُنافِقين المندَسِّين بين المسلِمين، الَّذين لَمَّا دُعوا للقِتالِ في سبيل الله عزَّ وجلَّ يومَ أُحُدٍ، أو لأَجْلِ دفْعِ العدوِّ عن البلادِ والعبادِ، امتنَعوا عن المشاركةِ مُتعلِّلين بعُذرٍ قبيحٍ، وقائلين بكَذِبٍ صريح: لو نعلَمُ أنَّكم تُقاتِلون لَسِرْنا معكم، ولكن لا نَرَى أنَّه سيكونُ بينكم وبينَ المشركين قتالٌ[١].

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

أي: إنَّ أولئك المنافِقين كانوا في تِلك الحالِ الَّتي امتنَعوا فيها عن مشاركةِ المسلِمين في قِتالِ المشركين، كانوا أقرَبَ إلى الكفرِ من الإيمانِ[٢].

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: مِن صِفاتِهم أنَّهم يقولون خلافَ ما يُضمِرون في أنفسِهم[٣]، ومن ذلك قولُهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]؛ فإنَّهم قد علِموا وقوعَ القتالِ[٤].

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

أي: واللهُ تعالى أعلمُ مِن غيرِه بما يكتُمُه هؤلاء المنافِقون، وهو مطَّلِعٌ عليه، ومُظهِرُه للمؤمنين، وسيُجازيهم به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٠-٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٩-١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٢٢-٤٢٣).

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

أي: إنَّ أولئك المنافقين الَّذين قعَدوا عن الجِهادِ مع المسلِمين، قالوا: لو سمِع مَن قُتِل مِن قَراباتِنا بأُحُدٍ مشورتَنا بتَركِ الخروج للقتال- لَمَا قُتلوا هنالك؛ اعتراضًا منهم على قضاءِ اللهِ تعالى وقدَرِه، وطعنًا منهم في طاعةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الَّذي أمَر بالخروجِ[(١)].

﴿قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للقائلين بتلك المقالةِ مِن المُنافِقين: امنَعوا وقوعَ الموتِ عليكم بالقعودِ عن القتالِ، إنْ كنتم صادقين في قولِكم بأنَّ المرءَ يَسلَمُ مِن القتلِ بالقُعود عنه[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- لا يَستوي مَن كان قَصْدُه رِضوانَ ربِّه، والعملَ على ما يُرضيه، ومَن ليس كذلك، ممَّن هو مُكِبٌّ على المعاصي، مُسخِطٌ لربِّه؛ هذان لا يَستويانِ في حُكمِ اللهِ، وحِكمة الله، وفي فِطَرِ عبادِ الله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]؛ ولهذا قال هنا: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾[(٣)].

٢- اللُّجوءُ إلى الله تعالى بطلبِ التَّثبيتِ منه على الإيمان؛ لأنَّه إذا كان هو المانَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٥-٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٠-١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥).

به، فهو الَّذي يملِكُ ثُبوتَه وزوالَه؛ فارجِعْ إليه، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

٣- الخِذلانُ والانهزامُ إنَّما يَحصُلُ بشُؤمِ المعصية؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾[٢].

٤- مِن المستحسَنِ أن يُذَكَّر الإنسانُ بما يُهوِّنُ المصيبةَ عليه؛ لقوله: ﴿أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾[٣].

٥- أنَّه يَنبغي لِمَن أجابَ غيرَه أن يُجيبَه بما يمنَعُ احتجاجَه؛ لقوله: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: أنتم السَّبب[٤].

٦- تَسليةُ المؤمنِ بقضاءِ الله وقدرِه؛ لقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ لأنَّ المؤمِنَ إذا علِم أنَّه مِن عندِ الله رضِيَ وسلَّم[٥].

٧- أنَّ اللهَ تعالى قد يُقدِّرُ على عبدِه المؤمنِ ما يَكرَهُه لحِكَمٍ عظيمة؛ لقوله: ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٦].

٨- أنَّه يَنبغي للإنسانِ أن يَحترسَ في الحُكمِ، وألَّا يُطلِقَه؛ لقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ﴾، فربَّما يُغيِّرُ اللهُ تعالى حالَ قومٍ، فيكون الإيمانُ إليهم أقربَ، فيَنبغي التقييدُ عند الحُكْم على شخصٍ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤١٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٣).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٤).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٨).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- تَتضاعفُ المِنَّةُ بأن يكونَ هذا الرَّسولُ من أنفُسِهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فلم يقُلْ: (منهم)؛ لأنَّ الصِّلةَ بين المؤمنين والرَّسولِ هي صلةُ النَّفسِ بالنَّفس، لا صلة الفرد بالجنس[١].

٢- في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، لم يُعيِّنِ اللهُ تعالى السَّببَ ما هو؛ لُطفًا بالمؤمنين في خطابِه تعالى لهم[٢].

٣- أنَّ الإنسانَ تتغيَّرُ أحوالُه، فيكون في حالٍ أقرَبَ إلى الإيمانِ من الكفرِ، وفي حالٍ أخرى بالعكس؛ لقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾، واستدَلَّ بعضُ العُلماءِ بهذه الآيةِ على زِيادةِ الإيمانِ ونُقصانِه[٣].

٤- التَّنديدُ بهؤلاء الَّذين جمَعوا بين قُبحِ الفعل وقُبحِ القول، يُؤخَذُ مِن قوله: ﴿قَالُوا﴾، ﴿وَقَعَدُوا﴾ قُبْحُ الفِعلِ من كونهم قعَدوا، وقُبحُ القولِ مِن قولِهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[٤].

٥- أنَّه لا يُمكِنُ درءُ الموتِ؛ لأنَّ ما وقَع التَّحدِّي به فإنَّه لا يمكِنُ وقوعُه؛ إذ لو أمكَن وقوعُه لم يكُنْ للتَّحدِّي به فائدة؛ قال تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٢٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٣٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٣٢).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾:

- قوله: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ﴾: همزةُ الاستفهامِ للإنكارِ؛ فالاستفهامُ إنكاريٌّ معناه النَّفي، أي: ليسَ مَن اتَّبَع رِضا الله؛ فامتثَل أوامرَه، واجتنبَ مناهيَه، كمَن عصاه فباءَ بسَخَطِه[١].

- وقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ في موضع الإضمارِ؛ لإدخال الرَّوْعةِ، وتربيةِ المهابةِ[٢].

- وقوله: ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾: فيه تمثيلٌ لحالِ صاحبِ المعاصي بالَّذي خرَج يَطلُبُ ما يَنفَعُه فرجَع بما يضُرُّه، أو رجَع بالخَيبةِ[٣].

٢- **قوله:** ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ، والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ للدَّلالةِ عليه، أي: وبئس المصيرُ جهنَّمُ[٤].

٣- **قوله:** ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فيها تَشبيهٌ بليغٌ؛ حيث جعَلَهم الدَّرجاتِ نفسَها؛ للمبالَغةِ في إظهارِ التَّفاوُتِ لِمَا بينهم في الثَّوابِ والعقاب[٥]، وتقدير الكلام: لهم درجاتٌ عند الله، إلَّا أنَّه حسُنَ هذا الحَذفُ؛ لأنَّ اختلافَ أعمالِهم قد صَيَّرهم بمنزلةِ الأشياءِ المختلفةِ في ذواتها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحي الدين درويش (٢/ ٩٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١٦).

٤- **قوله:** ﴿**بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾ خُصَّ العملُ دون القولِ؛ لأنَّ العملَ يَشملُ عملَ القَلْبِ واللِّسانِ والجوارحِ، والتُّروكَ[١].

٥- **قوله:** ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ فيه تأكيدٌ باللام الَّتي هي جوابٌ لقسَمٍ محذوفٍ، و(قَدْ) الَّتي تُفيد التَّحقيقَ، والكلامُ مُستأنَفٌ مسُوقٌ لتأكيد نزاهةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبيانِ خَطأِ الَّذين نَسَبوا إليه الغُلولَ[٢].

٦- **قوله تعالى:** ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾:

- قوله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ﴾: استفهامٌ يُرادُ به الإنكارُ؛ لإفادة التَّقريرِ والتَّقريع[٣].

- قوله: ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾: الاستفهامُ للتَّقريعِ والتقريرِ، وتذكيرُ اسمِ الإشارةِ (هذا) في ﴿أَنَّى هَذَا﴾ مع كونِه إشارةً إلى المصيبة، ليس لكونِها عِبارةً عن القتلِ ونحوِه، بل لأنَّ إشارتَهم ليستْ إلَّا إلى ما شاهَدوه في المعركةِ من حيثُ هو هو، مِن غيرِ أنْ يَخطُرَ ببالِهم تسميتُه باسمٍ ما، فَضلًا عن تسميتِه باسمِ المصيبةِ، وإنَّما هي عند الحِكايةِ[٤].

- قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: إجابةٌ فيها إنكارٌ وتقريعٌ، وتبكيتٌ لهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشعراوي)) (٣/ ١٨٤٩).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٨-١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٩).

- قوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: الجُملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَها، داخلٌ تحت الأمرِ للرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

- وفيها: توكيدُ الخبرِ بـ﴿إنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ، وتقديم ما حقُّه التَّأخيرُ ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

٧- **قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾** فيه: تكرار فِعل (يَعْلَم)[٣]، وهو يُفيدُ التَّأكيدَ.

- ولفظة ﴿المُؤْمِنِينَ﴾ في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيها دَلالةٌ على كونهم مُستقرِّين على إيمانِهم، متثبِّتين فيه؛ فالاسمُ ﴿المُؤْمِنِينَ﴾ يدُلُّ على تأكيدِ المعنى، وأمَّا لفظ ﴿نَافَقُوا﴾ في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ فيدُلُّ على كونِهم إنَّما شرَعوا في الأعمالِ اللَّائقةِ بالنِّفاقِ في ذلك الوقتِ[٤].

٨- **قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾** ذِكرُ الأفواهِ مع القلوبِ تصويرٌ لنِفاقهم، وأنَّ إيمانَهم موجودٌ في أفواهِهم، مَعدومٌ في قلوبِهم[٥].

٩- **قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾** عبَّر بصيغةِ التَّفضيلِ ﴿أَعْلَمُ﴾؛ لأنَّ بعضَ ما يكتُمونه مِن أحكامِ النِّفاقِ وذمِّ المؤمنين، وتَخطئةِ آرائِهم، والشَّماتةِ بهم وغيرِ ذلك، يعلَمُه المؤمنون على وجْهِ الإجمالِ[٦].

١٠- **قوله: ﴿قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** أمرٌ غرَضُه

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٠).

الاستهزاءُ بهم، أي: إنْ كنتُم رِجالًا دفَّاعين لأسبابِ الموت، فادرَؤوا جميعَ أسبابِه حتَّى لا تموتوا[١].

- وفيه مِن البيانِ: ما يُعرَفُ بـ(الاحتِجاج النَّظَريِّ)[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٢).

وقال أبو حيَّان: (هذا النَّوعُ عند علماءِ البيانِ يُسمَّى: الاحتجاجَ النَّظريَّ، وهو: أن يذكُرَ المُتكلِّمُ معنًى يستدلُّ عليه بضروبٍ من المعقولِ، نحو: ﴿وَلَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢]... وبعضُهم يُسمِّيه: المذهبَ الكلاميَّ). ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٥- ٣٩٦).

الآيات (١٦٩ - ١٧١)

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: يفرَحون، أو يَنالون البُشرى، والاستبشارُ: السُّرورُ بالبِشارة، وأصلُ الاستبشارِ: ظُهورُ الشَّيءِ مع حُسْنٍ وجمالٍ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يظُنَّ أنَّ مَن قُتِل مِن أصحابِه يوم أُحُدٍ، وهم كُثُرٌ، ميِّتون لا يَشعُرون، بل هم أحياءٌ حياةً خاصَّةً عند الله عزَّ وجلَّ، قَريبون منه، يَتنعَّمون في دارِ كرامتِه مِن رِزقِه الواسعِ، مَسرورين بما أعطاهم اللهُ تعالى ممَّا تفضَّلَ به عليهم من النَّعيمِ العظيمِ، فَرِحين بإخوانِهم الَّذين ما زالوا أحياءً يُقاتِلون في سبيل الله؛ بأنَّهم إذا استُشهِدوا سيَلحَقون بهم دون أن يُصيبَهم خوفٌ ولا حُزْنٌ، فَرِحين أيضًا بما أكرَمهم اللهُ تعالى به من النَّعيمِ، والفضلِ العَميمِ، واللهُ لا يُضِيعُ أجرَ المؤمنين.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

سببُ النُّزول:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: قَالَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لَمَّا أُصيبَ إخوانُكم بِأُحُدٍ، جَعَل اللهُ أرواحَهم في أجوافِ طيرٍ خُضرٍ، ترِدُ أنهارَ الجنَّة، وتأكُلُ مِن ثمارِها، وتَأوي إلى قَناديلَ مِن ذهبٍ معلَّقةٍ في ظلِّ العرشِ، فلمَّا وجَدوا طِيبَ مأكلِهم ومَشرَبِهم وَمَقيلِهم[1]، قالوا: مَن يُبلِّغُ إخوانَنا عنَّا أنَّا في الجنَّةِ نُرزَقُ؛ لئلَّا يَزهَدوا في الجِهَاد، ولا يَنكُلوا[2] في الحربِ؟ فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: أنا أُبلِّغُهم عنكم، فأَنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾))[3].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿قُتِلُوا﴾ قِراءتان:

١- (قُتِّلُوا)- بالتَّشديد- وتعني التَّكثيرَ، أي: قُتِل كثيرٌ منهم[4].

---

(١) مقيلهم: أي مأواهم ومستقرهم. يُنظر: ((عون المعبود)) للعظيم آبادي (٧/ ١٤٠).

(٢) ولا يَنكُلوا: أي: لا يَجبُنُوا ولا يَضعُفوا،ولا يَمتنِعوا عن الإقدامِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٨٣٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٦).

(٣) رواه أبو داود (٢٥٢٠)، وأحمد (٢٣٨٨)، و أصلُه في مسلم (١٨٨٧).من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه

حسَّنه ابنُ القطَّان في ((الوهم والإيهام)) (٤/ ٣٣٨)، وصحَّحه ابن الملقِّن في ((شرح البخاري)) (١٧/ ٤٠٣)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٢٣)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٥٢٠).

(٤) قرأ بها ابنُ عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٠)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٤).

٢- ﴿قُتِلُوا﴾- بالتَّخفيف- وتحتملُ التَّقليلَ والتَّكثيرَ، أي: تَعني قُتِل قليلٌ منهم، أو قُتِل كثيرون(١).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾.

أي: لا تظُنَّنَّ- يا محمَّدُ- أنَّ الشُّهداءَ الَّذين قُتِلوا في جِهادِ أعداء الدِّين- كأصحابِك الَّذين قُتِلوا في أُحُدٍ- أمواتًا لا يَشعرون بشيءٍ، ولا يتمتَّعون ويتنعَّمون(٢).

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

أي: هُمْ على خِلافِ ذلك؛ فهم أحياءٌ حياةً خاصَّةً عند الله عزَّ وجلَّ في دارِ كرامتِه، وبالقُربِ منه سبحانه، مُتنعِّمين في رِزقِ الله تعالى الواسِعِ(٣).

عن مَسروقِ بنِ الأجدَعِ قال: ((سَأَلْنا عبدَ اللهِ (هو ابنُ مسعودٍ) عن هذه الآيةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أمَا إنَّا سأَلْنا عن ذلك، فقال: أرواحُهم في جَوفِ طيرٍ خُضْرٍ، لها قناديلُ مُعلَّقةٌ بالعرشِ، تَسرَحُ من الجنَّةِ حيث شاءَتْ، ثمَّ تَأوي إلى تلك القناديلِ، فاطَّلَع إليهم ربُّهم اطِّلاعةً، فقال: هل تشتَهون شيئًا؟ قالوا: أيَّ شيءٍ نَشتهي ونحن نَسرَحُ من الجنَّةِ حيثُ شِئْنا؟ ففعَل ذلك بهم ثلاثَ مراتٍ، فلمَّا رأَوْا أنَّهم لن يُترَكوا مِن أن يُسأَلوا، قالوا: يا ربِّ، نُريدُ أن ترُدَّ أرواحَنا في أجسادِنا حتَّى نُقتَلَ في سَبيلِك مرةً أخرى، فلمَّا رأى أنْ ليسَ لهم حاجةٌ تُرِكوا))(٤).

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٠)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٧-٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٣٦-٤٣٧).

(٤) رواه مسلم (١٨٨٧).

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)﴾.

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ الشُّهداءَ الَّذين قُتِلوا في سَبيلِ الله تعالى، وهم أحياءٌ عنده، مَسرورون بما منَحهم اللهُ تعالى إيَّاه، مِن النَّعيمِ المبهِجِ، والمُتعةِ العظيمةِ، جُودًا وكرَمًا منه سبحانه[1].

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الشُّهداءَ مَسرورون أيضًا بإخوانِهم الَّذين ما زالوا أحياءً في عالَم الدُّنيا يُجاهِدون في سبيلِ الله تعالى؛ فإنَّهم إذا استُشهِدوا لحِقوا بهم، دون أن يُصيبَهم خوفٌ من أيِّ أمرٍ مستقبلٍ، أو حُزنٍ على أيِّ أمرٍ قد مضى، بل هم آمِنون دائمًا، وفَرِحونَ أبدًا[2].

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)﴾.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾.

أي: إنَّ الشُّهداءَ يَفرَحون بما حَبَاهم اللهُ تعالى مِن النَّعيمِ العَظيم، وبما أَسبَغَ عليهم مِن جزيلِ ثوابِه الكريم، وزِيادةِ إحسانِه العميمِ[3].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ﴾ قِراءتان:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٣٧-٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٧).

١- (وَإِنَّ) بكسرِ الهمزةِ، فتكون الجملةُ مُستأنَفةً[١].

٢- ﴿وَأَنَّ﴾ بفتحِ الهمزة على أنَّ قولَه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿بِنِعْمَةٍ﴾[٢]، وهذا يَعني أنَّ الشُّهداءَ يستبشرون أيضًا بأنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المؤمنينَ[٣].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد حَفِظ لأولئك الشُّهداءِ ما قدَّموه مِن الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ، وأعطاهم على ذلك أُجورَهم مِن فَضلِه سبحانه، وهكذا كلُّ مؤمنٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يُثيبُه على ما قدَّم[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- دُخولُ الجنَّةِ فَضلٌ مِن الله تعالى على أهلِها، لا بَعملِ أحدٍ، نستفيدُ ذلك من قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، ولو شاءَ تعالى لَحاسَبَهم على سبيل العَدلِ، ولو فعَلَ ذلك لم يكُنْ لهم شيءٌ؛ لأنَّ أعمالَهم مِن نِعَمِه تعالى عليهم[٥].

---

(١) قرأَ بها الكِسَائِيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٨١).

(٢) ((الدر المصون في علوم الكتاب المكنون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٨٧).
وفيه أنَّها قُرئت بالفتحِ عطفاً على قولِه: ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ لأنَّها بتأويلِ مصدرِ أي: يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ منه، وعدمِ إضاعةِ اللهِ أجرَ المؤمنين.

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٢١،١٢٣).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾، الحثُّ على فرَحِ الإنسانِ بصَلاحِ أحوالِ إخوانِه في اللهِ[١].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآيات، إثباتُ نعيمِ البرزخ[٢].

٢- أنَّه يصحُّ نفيُ الشَّيءِ باعتبارٍ، لا نفيًا مطلقًا؛ لقوله: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾؛ فإنَّ نفيَ كونِهم أمواتًا هنا يُرادُ به الموتُ الَّذي حصَل فيه العدَمُ بلا فائدةٍ، وبدون ثوابٍ[٣].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فيه فضلُ الشَّهداءِ؛ فهُم عندَ ربِّهم يُرزَقونَ، وحياتُهم أكملُ مِن حياتِهم في هذه الدُّنيا، وأتمُّ وأطيبُ، وإنْ كانتْ أجسادُهم متلاشِيَةً، ولحومُهم متمزِّقةً، وأوصالُهم مُتفرِّقةً، وعِظامُهم نَخرةً[٤].

٤- أنَّ هؤلاءِ الشُّهداءَ لهم شعورٌ؛ لقوله: ﴿فَرِحِينَ﴾؛ لأنَّ الفرَحَ مِن الشُّعورِ النَّفسيِّ[٥].

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾؛ عقَّبَ هذا الجزاءَ والحُكمَ لذلك الوصفِ والعملِ بحَرْفِ الفاء، وهي تُفيد السببَ، فدلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٣).

ذلك على أنَّ ذلك التوكُّلَ هو سببُ هذا الانقلابِ بنعمةٍ مِن اللهِ وفضلٍ، وأنَّ هذا الجزاءَ جَزاءٌ على ذلك العملِ[١].

٦- إسنادُ النِّعمةِ إلى مُسْدِيها، وهو اللهُ جلَّ جلالُه؛ فهم لا يرَوْن لأنفسِهم فضلًا، بل يرَوْن المِنَّةَ والفضلَ لله عليهم؛ ولهذا قال: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾[٢].

٧- عِظَمُ النِّعمةِ الَّتي يُعطَوْنَها، ووجهُه أنَّ اللهَ أضافها إليه، وإضافةُ العطاءِ إلى اللهِ يدُلُّ على عظَمتِه. قال تعالى: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾[٣].

٨- إثباتُ عدلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وذلك بعدمِ إضاعتِه أجرَ المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾:

- قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: في التَّعرُّضِ لعنوان الرُّبوبيَّةِ المنبئةِ عن التَّربيةِ، والتَّبليغِ إلى الكمال، مع الإضافةِ إلى ضميرِهم: مزيدُ تكرمةٍ لهم[٥].

- قول الله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قَدَّم صِفةَ الظَّرفِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ على صِفةِ الجملة ﴿يُرْزَقُونَ﴾؛ لأنَّ المعنى في الوصف بالزُّلفى عند اللهِ والقُربِ منه أشرفُ من الوصفِ بالرِّزقِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١١).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٢٩).

- قوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾: فيه تأكيدٌ لكونِهم أحياءً، ووصفٌ لحالهم الَّتي هم عليها من التَّنعُّمِ برزقِ الله[١].

٢- **قول الله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ...﴾** التعبيرُ بصِيغةِ المضارعِ؛ لإفادةِ التجدُّد؛ للدَّلالة على تَجدُّد الاستبشارِ حينًا بعد حِينٍ[٢].

٣- **قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾** كُرِّر الفِعلُ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ للتَّأكيدِ، ولبيانِ أنَّ الاستبشارَ المذكورَ ليس بمجرَّدِ عدمِ الخوفِ والحزنِ، بل به وبما يُقارِنُه من نعمةٍ عظيمةٍ، لا يُقادَرُ قَدْرُها، وهي ثوابُ أعمالِهم[٣].

وقيل: ليس هناك تَكرارٌ؛ لأنَّ الاستبشارَ هو الفرحُ التَّامُّ، فلعلَّ المرادَ حُصولُ الفرَحِ بما حصَل في الحالِ، وحُصولُ الاستبشار بما عرَفوا أنَّ النِّعمةَ العظيمةَ تحصُلُ لهم في الآخرةِ[٤].

- قول الله تعالى: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ فيه جاء التعبيرُ بالتَّنكيرِ، دَلالةً على بعضٍ غيرِ مُعيَّنٍ، وإشارةً إلى إبهام المرادِ؛ تعظيمًا لأمرِه، وتنبيهًا على صعوبةِ إدراكِه، كما جاء في الحديثِ أنَّ فيها: ((ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٩- ٤٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٩- ٤٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٤).

والحديث رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٤- **قوله:** ﴿**أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ فيه تأكيدٌ[١]، وقدَّم الضَّمير (هم) إشارةً إلى اختصاصِهم بانتفاءِ الحُزن، وأنَّ غيرَهم يحزنُ[٢]، والمرادُ بيانُ دوامِ انتفاءِ الخوفِ والحَزَنِ، لا بيان انتفاءِ دوامِهما، كما يُوهِمه كونُ الخَبرِ في الجملةِ الثَّانيةِ مُضارعًا؛ فإنَّ النَّفيَ وإن دخَل على نفس المضارعِ يُفيدُ الدَّوامَ والاستمرارَ بحسَب المقامِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١/ ٢٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٢).

الآيات (١٧٢ - ١٧٦)

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ الَّذين امتَثلوا أمْرَ الله وأمرَ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعد غزوةِ أُحُدٍ مباشرةً؛ بأنْ بادَروا بالاستعدادِ للقِتال مرةً أخرى، على ما بهم مِن آلامٍ جسديَّةٍ نتيجةَ الجِراح، وآلامٍ نَفسيَّةٍ بسببِ ما وقَع من قتْلٍ وهزيمة، للذين أحسنوا مِن هؤلاء عند الله أجرٌ عظيم. هؤلاء لم يُرْهِبْهم تَخويفُ بعضِ النَّاس لهم بأنَّ كفَّارَ قُرَيشٍ استعدُّوا للكَرَّة عليهم، وأنَّهم لا يَستطيعون مواجهتَهم، وما زادهم ذلك التخويفُ إلَّا إيمانًا ويقينًا، وقالوا: حسبُنا اللهُ ونِعمُ الوكيلُ، فرجَعوا من مَنطقةِ (حَمْراء الأسد)، وكانوا خرَجوا إليها لمدافَعةِ المشركين، رجَعوا بنعمةٍ مِن الله وفضلٍ، لم ينَلْهم أيُّ أذًى مِن أعدائِهم، واتَّبَعوا ما يُرضِي اللهَ تعالى باستجابتِهم لله ولرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واللهُ ذو الفَضلِ العظيمِ.

ثمَّ يُخبِرُهم تعالى أنَّ ذلك المخوِّفَ لكم هو الشَّيطانُ، يُريد أنْ يزرَعَ في قلوبكم الخوفَ من أوليائِه، الَّذين هم المشركونَ، ثمَّ نهاهم سبحانه عن الخَوفِ من المشركين، وأمَرهم بالخوفِ مِن اللهِ وحْده، إنْ كانوا مُؤمِنينَ.

ثمَّ يَنهَى اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الحزنِ بسبب الَّذين يسارعون في الكُفرِ ويتوغلون فيه؛ فهؤلاءِ لن يضُرُّوا اللهَ شيئًا بكفرِهم، وإنَّما يُريدُ اللهُ بمسارعتِهم في الكُفرِ ألَّا يجعَلَ لهم أيَّ حظٍّ من نعيمِ الآخِرة، ولهم العذابُ العظيم.

تَفسيرُ الآيات:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذمَّ المنافقين برُجوعِهم من غيرِ أنْ يُصيبَهم قرحٌ، ومدَحَ أحوالَ الشُّهداءِ- ترغيبًا في الشَّهادة- وأحوالَ مَن كان على مِثل حالِهم- ترغيبًا في النَّسج على منوالهم- وختَم بتعليق السَّعادةِ بوصف الإيمان، أخَذ يَذكُرُ ما أثمَر لهم إيمانُهم؛ من المبادَرةِ إلى الإجابةِ إلى ما يَهديهم إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إشارةً إلى أنَّه لم يَحمِلْ على التَّخلُّفِ عن أمْرِه مِن غيرِ عُذرٍ إلَّا صريحُ النِّفاقِ[١].

سببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((لَمَّا انصَرَفَ المشرِكون عن أُحُدٍ وبلَغوا الرَّوحاءَ[٢]، قالوا: لا محمَّدًا قتلتموه، ولا الكواعبَ أردَفْتُم[٣]، وبِئسَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٢٣).

(٢) الرَّوحاءُ: مَوضِعٌ بينَ مكَّة والمدينة، يَبعُد ما بين ثلاثينَ وأربعينَ مِيلاً من المدينة. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٧٦٤).

(٣) المراد: ما أتيتُم بأسيراتٍ من نِساء المسلمين.
والكواعِبُ جمْع كاعِب، أي: نَاهِد، وهي المرأةُ حِين يَبْدُو ثَديُها للنُّهودِ. وأردفتُم، أي: أركبتُم خلْفَكم. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٣٦٣)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٧٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٧٩).

ما صنعتُم، ارجِعوا، فبلَغ ذلك رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فندَب النَّاسَ فانتدبوا[١] حتَّى بلَغوا حمراءَ الأسدِ وبئرَ أبي عِنَبَةَ، فأنزَل اللهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢]...))[٢].

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾.

أي: الَّذين أَجابوا أمْرَ اللهِ تعالى ورَسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام بالنُّهوضِ مجدَّدًا؛ لردِّ هجومٍ مُتوقَّعٍ من المشركين عقبَ غزوةِ أُحُدٍ مباشرةً، على الرَّغم ممَّا ألمَّ بهم من جِراحٍ وآلامٍ جَسديَّةٍ، وأُخرى نَفسيَّةٍ بسببِ القتْلِ والهزيمةِ الَّتي لحِقَتْهم في أُحُدٍ[٣].

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنَّها قالتْ لِعُروَةَ عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: ((يا ابنَ أُختي، كانَ أبَواكَ منهُم: الزُّبَيْرُ وأبو بكرٍ، لَمَّا أصاب رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما أصابَ يومَ أُحُدٍ، وانصَرَفَ عنه المشرِكونَ، خافَ أن يَرْجِعوا، قال: (مَن يَذهَبُ في إثْرِهِم[٤])، فانتدَبَ مِنهُم سَبْعونَ رَجلاً، قال: كان فيهم أبو بكرٍ والزُّبَيرُ))[٥].

---

(١) فانتدبوا: انتَدب: أي: أجابَ؛ يُقال: ندَبَه لأمرٍ فانتدبَ له، أي: بَعَثَه لأمرٍ ودعاه له فأجابَ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٢٢٣)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٣٤).

(٢) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٠٨٣)، والطبراني (١١/ ٢٤٧) (١١٦٣٢)، والمقدسي في ((الأحاديث المختارة)) (٢١٠).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٢٤): رجاله رجال الصحيح غير محمَّد بن منصور الجواز وهو ثقة. وصحَّح إسنادَه الشوكانيُّ كما في ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٥٩٧)، وصحَّحه الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٣٩-٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٦).

(٤) يَذهَبُ في إثْرِهِم: أي: يتَّبِعهم. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٧/ ١٦٢).

(٥) رواه البخاري (٤٠٧٧) واللفظ له، ومسلم (٢٤١٨) مختصرًا.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الَّذين أَحسَنوا منهم في أعمالِهم، وامتثَلوا ما أمَر اللهُ تعالى به، واجتنَبوا ما نهى عنه، لهم ثوابٌ جَزيلٌ، وأجرٌ واسع من اللهِ تبارَك وتعالَى[١].

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾.

أي: خوَّفهم وحَذَّرهم بعضُ النَّاسِ من أنَّ كفَّارَ قُرَيشٍ قد أعدُّوا العُدَّةَ للكَرَّةِ عليهم، وأنَّه لا قِبَلَ لهم الآن بقتالِهم[٢].

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

أي: لم يَجبُنوا ولم يَتزَعْزَعوا، بل منَحهم ذلك التَّخويفُ زيادةً في الطُّمأنينةِ، وقوَّةً في الإيمانِ واليقين، مُعلِنين بأنَّهم وكَلوا أمرَهم إلى اللهِ تعالى وحْدَه؛ ليكفيَهم شرَّ أعدائِهم؛ فهو سبحانه نِعْمَ مَن يُوثَق به في تفويضِ الأمورِ[٣].

عن ابنِ عباسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((حسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، قالها إبراهيمُ عليه السَّلام حينَ أُلْقِيَ في النَّارِ، وقالها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حينَ قالوا: إنَّ النَّاسَ قد جمَعوا لكم فاخشَوْهم، فزادَهم إيمانًا، وقالوا: حسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٦-٤٤٧).

قال محمد رشيد رضا: (وأما النَّاس الذين جمعوا الجموعَ لقتالِ المسلمين فهم أبو سفيان وأعوانُه قولًا واحدًا) ((تفسير المنار)) (٤/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٤٥، ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٤) رواه البخاري (٤٥٦٣).

وعن ابنِ عباسٍ رضِي اللهُ عنهما أيضًا، قال: ((كان آخرَ قولِ إبراهيمَ حينَ أُلْقِيَ في النَّارِ: حسْبي اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ))[١].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((كيف أنعَمُ وقد الْتقمَ صاحبُ القرنِ القرنَ، وحنَى جبهتَه، وأصْغَى سمعَه، ينتظرُ أن يُؤمرَ أن ينفُخَ فينفُخَ، قال المسلمون: فكيف نقولُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: قولوا: حسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، توكَّلْنا على اللهِ ربِّنا، وربَّما قال سفيانُ: على اللهِ توكَّلْنا))[٢].

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى أنَّهم توكَّلوا عليه، كفاهم سُبحانه ما أهَمَّهم، وردَّ عنهم بأسَ مَن أرادَ كيدَهم[٣].

سببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((... وقد كانَ أبو سُفيانَ قال للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَوعدُك مَوسِمُ بَدْرٍ حيث قتلتُم أصحابَنا، فأمَّا الجبانُ فرجَع، وأمَّا الشُّجاعُ فأخَذ أُهْبةَ القِتالِ والتِّجارةِ، فلم يَجِدوا به أحدًا، وتسوَّقوا[٤]، فأنزَل اللهُ تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٤).

(٢) رواه الترمذي (٣٢٤٣)، وأحمد (١١٠٣٩).
حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٣٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧١).

(٤) تَسوَّقوا: أي: باعوا واشتروا. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٤٩٩).

سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤]))[١].

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾.

أي: انصرَفَ الصَّحابةُ الَّذين استجابوا للهِ تعالى ورسولِه تأهُّبًا لردعِ المشركين، انصرَفوا مِن مَنطقةِ حمراءِ الأسدِ دون أن يَلقَوْا بها عَدوًّا، راجعين بأَجْرِ الجهادِ في سبيله، وبالأرباحِ الَّتي نالوها من الاتِّجارِ هناك[٢].

﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾.

أي: لم ينَلْهم أيُّ أذًى أو مَكروهٍ مِن عدوِّهم[٣].

﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾.

أي: رجَعوا أيضًا برِضَا اللهِ تعالى عنهم؛ فقدْ أرْضَوُا اللهَ تعالى باستجابتِهم لِمَا أمَرهم به، وانقيادِهم لرسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام فيما دعاهم إليه مِن اتِّباعِ أثر العدوِّ[٤].

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى صاحبُ الفضلِ الكبيرِ والإحسانِ العميمِ على عِبادِه، في الدُّنيا والآخِرَة، ومِن ذلك تَفضُّلُه على هؤلاءِ الصَّحابةِ الكرامِ بالعودةِ مِن غَزوِهم هذا سالِمين مِن العدوِّ، راجِعين برِضا اللهِ تعالى عنهم، وبما نالوه من

---

(١) تقدَّم تخريجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ((لما انصرف المشركون...)) الحديث.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥٠-٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥١).

الأُجورِ الأُخرويَّة، والمكاسِبِ الدُّنيويَّة[١].

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا جزَى اللهُ تعالى الَّذين استجابوا بالسَّلامةِ والغَنيمة، ورغَّبهم فيما لديه لتولِّيهم إيَّاه، أَتْبَعَ ذلك بما يَزيدُهم بصيرةً؛ من أنَّ المخوِّفَ لهم مَن كَيدُه ضعيفٌ، وأمْرُه هيِّنٌ خفيفٌ، واهٍ سَخيفٌ، وهو الشَّيطان، وساق ذلك مَساقَ التَّعليل لِمَا قبْلَه، مِن حيازتِهم للفضلِ، وبُعدِهم عن السُّوءِ بأنَّ وليَّهم اللهُ، وعدوَّهم الشَّيطانُ، فقال التفاتًا إليهم بزيادةٍ في تنشيطِهم، أو تشجيعِهم وتثبيتِهم[٢]:

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾.

أي: إنَّما المخوِّفُ لكم في الحقيقةِ هو الشَّيطانُ، وقد أرادَ أنْ يُوقِعَ في قلوبِكم الخوفَ مِن أَنصارِه حِزبِ المشركين؛ لترهَبوهم[٣].

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: فلا تَخافوا مِن المشركين أولياءِ الشَّيطان، وخافوا مِن اللهِ تعالى وحْدَه إنْ كُنتم مؤمنين حقًّا؛ فهو الَّذي يَنصُر أولياءَه، ويملأ قلوبَهم أمنًا، ويَكفيهم شرَّ أعدائِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٥-٢٥٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٢٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧).

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا مدَح اللهُ تعالى سبحانه وتعالى المسارِعين في طاعتِه وطاعةِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وختَم ذلك بالنَّهيِ عن الخوفِ من أولياءِ الشَّيطانِ، أعْقَبه بذَمِّ المسارِعين في الكُفرِ، والنَّهيِ عن الحُزنِ مِن أجلِهم[١]، فقال:

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

أي: ولا يُحْزِنْك- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الَّذين يُبادِرون بأقوالِهم وأَفعالِهم مُتعجِّلين الوقوعَ في الكفرِ، أو التَّوغُّلَ فيه[٢].

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ لن يُلحِقوا باللهِ؛ بمسارعتِهم في الكفرِ، أيَّ نوعٍ من أنواعِ الأذى، صغيرًا كان أو كبيرًا[٣].

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾.

أي: يُريدُ اللهُ تعالى بمسارعتِهم في الكُفرِ أنْ يَخذُلَهم، فلا يكونَ لهم أيُّ نصيبٍ مِن نعيم الآخرةِ، قليلًا كان أو كثيرًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٣٢-١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧-١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦١).

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: إنَّهم مع حِرمانِهم من نعيمِ الآخرة، لهم عقوبةٌ كبيرةٌ عند الله تعالى[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- لا تتمُّ استجابةُ العبد لله إلَّا باستجابته للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بتلقِّي الرِّسالة منه، والنَّصيحة له؛ نَستفيدُ ذلك من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[٢].

٢- المصائِبُ محكٌّ لمعرفةِ الرِّجال، فلولا فَضلُ الصَّحابة ومَيزتُهم عن الخَلْق ما خرَجوا بعد أنْ أصابَهم القَرحُ؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾[٣].

٣- على المؤمنِ كلَّما ألَمَّت به المصائبُ أن يلجأَ إلى ربِّه، ويَزدادَ إيمانًا به؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[٤]، فالَّذي يكفي المؤمنين شرَّ النَّاس هو اللهُ تعالى؛ فالواجبُ على المؤمنين المبالَغةُ في التَّوكُّلِ عليه، وربطُ أمورِهم به تعالى[٥].

٤- الإيمانُ يَزيدُ بالطَّاعاتِ، وينقُصُ بالمعصيةِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٩، ٤٣٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٧).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ فيه أنَّ الإيمانَ يزيدُ[١].

٢- أنَّ الحسْبَ هو اللهُ وحده، ولا أحَدَ معه؛ لقوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، ولم يقولوا: حسبُنا اللهُ ورسولُه، بل قالوا: حسبُنا اللهُ وحده؛ فالله وحده هو الحسْبُ، كما أنَّه وحده المتوكَّلُ عليه[٢].

٣- إثباتُ اسم ﴿الْوَكِيلُ﴾ للهِ تعالى؛ لأنَّ تقديرَ الآية: ونِعْمَ الوكيلُ هو، وقد ذكَر اللهُ تعالى في آيةٍ أخرى أنَّه على كلِّ شيء وكيلٌ؛ فـ: (الوكيلُ) مِن أسماء الله تعالى، ومعناه المتكفِّلُ بشؤونِ عباده، وليس معناه القائمَ بالأمرِ نيابةً عنهم[٣].

٤- إثباتُ الرِّضا لله؛ لقوله: ﴿رِضْوَانَ اللَّهِ﴾، والرِّضا: صفةٌ من صفاتِ الله الفِعليَّةِ[٤].

٥- في قولِه تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا عَمِل العملَ وسعَى فيه ولم يُكمِلْه، كُتِب له أجرٌ كاملٌ[٥].

٦- مفهومُ قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أنَّ الكافرَ قد يكونُ له حظٌّ في الدُّنيا، وكُفرُه لا يمنَعُه مِن الحظِّ في الدُّنيا[٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٣).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** (مِن) في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ للبَيانِ وليست للتَّبعيض، والمقصودُ مِن ذِكرِ الوصفينِ المدحُ والتَّعليل لا التقييد؛ لأنَّ المستجيبينَ كلَّهم مُحسِنون مُتَّقون[١]، وعبَّر بـ(مِن) الَّتي تصلُحُ للبيانِ والبعضِ؛ ليدومَ رغَبُهم ورهَبُهم[٢].

٢- **قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾:**

- جِيء في قولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ بإعادةِ الموصولِ (الَّذين) دون أن تُعطَفَ الصِّلةُ على الصِّلةِ الأولى في قولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ اهتمامًا بشأنِ الصِّلة الثَّانية حتَّى لا تكونَ كجُزءِ صِلةٍ[٣].

- وفي قولِه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ التعبيرُ بلفظِ العمومِ معَ إرادةِ الخُصوصِ حيثُ عبَّر بـ﴿النَّاس﴾ والمرادُ بعضُ الناسِ، وليس كلَّهم، وهذا أسلوبٌ لُغَويٌّ لا يخرُجُ عن قواعدِ اللُّغة العربيَّة، والمرادُ بعضٌ من النَّاس[٤].

٣- **قوله: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾** فيه لفٌّ ونَشرٌ مرتَّبٌ، مع طَيِّ ذِكرِ الملفوفِ والمنشورِ، وهما (السَّلامة بالأجسامِ) الَّتي تعودُ إلى قوله: ﴿بِنِعْمَةٍ﴾، و(الرِّبح بالتِّجارة) الَّذي يعودُ إلى قولِه: ﴿وَفَضْلٍ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٣).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٩).
(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١١٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٨٤).

- في قوله: ﴿فَانْقَلَبُوا﴾ إيجازٌ؛ فإنَّه يدُلُّ على أنَّهم خرَجوا للقاءِ العدوِّ، وأنَّهم لم يلقَوْا كيدًا، فلم يلبثوا أنِ انقلَبوا إلى أهليهم، ومِثلُ هذا الحذفِ، الَّذي يدُلُّ عليه المذكورُ بمجرَّدِ ذِكرِه، كثيرٌ في القرآنِ[١].

- قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: وقَع صفةً لـ﴿نِعْمَةٍ﴾؛ تأكيدًا لفخامتِها الذَّاتيَّةِ الَّتي يُفيدها التَّنكيرُ بالفَخامةِ الإضافيَّةِ، أي: نِعمة كائِنة مِن الله تعالى[٢].

٤- **قوله:** ﴿**وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾ خبرٌ فيه تحسيرٌ للمتخلِّفِ وتخطئةُ رأيِه حيثُ حَرَمَ نفْسَه ما فازوا به[٣].

- وكرَّر الاسمَ العظيمَ (الله)؛ لبيانِ عِظَمِ الأمرِ[٤].

٥- **قوله:** ﴿**وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ**﴾ فيه تضمينُ الفِعل ﴿يُسَارِعُونَ﴾ معنى الفِعل (يَقعون)؛ حيث عُدِّي بـ(في)؛ إشارةً إلى استقرارِهم في الكفرِ، ودوامِ ملابَستهم له في مبدأِ المسارَعةِ ومُنتهاها، وأنَّهم يَعجَلون إلى إظهارِه وتأييدِه، والعملِ به عند سُنوحِ الفُرص، ويَحرِصون على إلقائِه في نفوسِ النَّاس، فعبَّر عن هذا المعنى بقوله: ﴿يُسَارِعُونَ﴾، ولو عُدِّي بـ(إلى) لفُهِم منه أنَّهم لم يَكفُروا عند المسارَعة[٥]، وأمَّا إيثارُ كلمة (إلى) في قولِه تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣]؛ فلأنَّ المغفرةَ والجنَّةَ مُنتهَى المسارعةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٤).
(٣) ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٩).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٢- ١٧٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٥-١١٦).

٦- **قوله:** ﴿**إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شيئًا**﴾ تعليلٌ للنَّهي، وتكميلٌ للتَّسلية، بتحقيق نفْيِ ضررِهم أبدًا، أي: لن يضُرُّوا بذلك أولياءَ اللهِ ألبتَّةَ، وتعليقُ نفيِ الضَّررِ به تعالى؛ لتشريفِهم، والإيذانِ بأنَّ مضارَّتَهم بمنزلةِ مضارَّتِه سبحانه، وفيه مزيدُ مبالَغةٍ في التَّسليةِ[١].

- وفيه: تعريضٌ ظاهرٌ باقتصارِ الضَّررِ عليهم، كأنَّه قيل: وإنَّما يضُرُّون أنفسَهم[٢].

- وتَنكيرُ قوله: ﴿شيئًا﴾ مع تنوينِه- الَّذي يَزيد النَّكرةَ شياعًا وتنكيرًا، وقلَّةً وحقارةً-؛ لتأكيدِ ما هم عليه من القلَّةِ والحقارةِ، وضآلةِ الشَّأنِ[٣].

- وموقع (إنَّ) في مِثل هذا المقامِ لإفادةِ التَّعليلِ؛ فإنها تُغني غَناءَ فاء التَّسبُّب[٤].

٧- **قوله:** ﴿**يريدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ**﴾ استئنافٌ مبيِّن لسرِّ ابتلائِهم بما هم فيه مِن الانهماكِ في الكفرِ[٥].

- وعبَّر بصِيغة الاستقبالِ ﴿يُرِيدُ﴾؛ للدَّلالةِ على دَوامِ الإرادةِ واستمرارِها[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٧٧ - ١٨٠)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿نُمْلِي﴾: أَيْ: نُطيلُ لهم المدَّة، وأَمْلَى مأخوذٌ مِن أملَلَ، وأصل الإملاء: الزَّمنُ الطويل، وامتدادٌ في شيءٍ؛ زمانٍ أو غيرِه[(١)].

﴿يَجْتَبِي﴾: يختارُ، وأصلُ الاجتباءِ: جمْعُ الشَّيءِ والتجمُّع؛ يُقال: جبيتُ الماءَ في الحوضِ: جمعتُه[(٢)].

﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾: أَيْ: يَلزمُ أعناقَهم إثمُه، أو يلزمون أعمالَهم مثلَما يلزمُ الطوقُ العنقَ، وأصلُ الطوق: ما يُجعل في العُنقِ، وكلُّ ما استدارَ بشيءٍ فهو طوقٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦، ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾: (يَحسَب) فِعلٌ مضارعٌ يتعدَّى لمفعولَينِ، مبنيٌّ على الفتْح لاتِّصالِه بنونِ التوكيدِ الثَّقيلةِ، وهو في مَحلِّ جزمٍ بـ(لا) الناهية. وقدْ قُرِئ بياءِ الغَيبة، وبتاءِ الخِطاب؛ فعَلَى قِراءة الياء يكون ﴿الَّذِينَ﴾: في محلِّ رفْعِ فاعِل (يحسبن). و﴿أَنَّمَا نُمْلِي﴾: (ما) في ﴿أَنَّمَا﴾ موصولةً بمعنى الذي، وهي في محلِّ نصب، اسم (أنَّ)، ويجوز أنْ تكون (ما) مصدريَّة، والمصدرُ المؤوَّل (ما نملي)- أي: (إملاءنا)- هو اسم أنَّ. و(أنَّ) ومَا اتصلتْ به في محلِّ نصب، سادٌّ مَسدَّ مَفعولَيْ (يحسب)، أو سادٌّ مسدَّ أحدهما، والمفعول الآخَر محذوف، تقديرُه: نافعًا. وعلى قِراءة (وَلَا تَحَسَبَنَّ) بالتاء؛ فالفاعلُ ضميرٌ مستترٌ وجوبًا تقديرُه (أنت)، عائدٌ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، و﴿الَّذِينَ﴾: مفعولٌ أوَّل لـ(تحسبن)، و﴿أَنَّمَا نُمْلِي﴾: في مَحلِّ نصْبِ مفعولٍ ثانٍ، على تَقديرِ حذْفِ مضافٍ، أي: (ولا تحسبن شأنَ الذين كَفروا...)، وفي الآية توجيهاتٌ أخرى[(١)].

٢- قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾: قُرِئ بياءِ الغَيبة، وبتاءِ الخِطاب؛ فعَلى قِراءة الياء يكون ﴿الَّذِينَ﴾: في مَحلِّ رفْعِ فاعِل (يحسبن)، و﴿يَبْخَلُونَ﴾ صِلة له. ويكون ﴿خَيْرًا﴾: مفعولًا ثانيًا، والمفعول الأوَّل محذوفًا تقديرُه: البُخلَ؛ لدلالةِ ما قبله عليه ﴿يَبْخَلُونَ﴾، والتقدير: ولا يَحسبنَّ الذين يَبخلون بما آتاهم اللهُ مِن فَضلِه البُخْلَ خيرًا لهم. وقوله: ﴿هُوَ﴾ ضميرُ فصلٍ، لا محلَّ له مِن الإعراب. وأمَّا على

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٧٩- ١٨٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣١٢- ٣١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٩٦)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ١٧٤).

قِراءة (تَحسبَنَّ) بالتاء؛ فالفاعلُ هو المخاطَب، وهو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، و﴿الَّذِينَ﴾: مفعولٌ أوَّلُ على تَقديرِ حذْفِ مضافٍ، وإقامةِ (الَّذين) مقامَه؛ ليصدقَ الخبرُ على المبتدأ، و﴿خَيْرًا﴾: مَفعولٌ ثانٍ، والتقدير: ولا تَحسبنَّ- يا محمَّدُ- بُخْلَ الذين يَبخلون خَيْرًا لهم. وفي الآيةِ تخريجاتٌ أخرى[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى عن الَّذين استبْدَلوا الكُفرَ بالإيمانِ أنَّهم لن يَضرُّوا بذلك اللهَ شيئًا، ولهم عذابٌ أليمٌ.

يقول الله تعالى: لا تظنَّ يا محمد، ولا يظنَّ الكفارُ كذلك أَنَّ عدمِ مُعاجَلة الله لأهل الكفرِ بالعقوبةِ، وترْكهم يتمتَّعون في الدُّنيا-هو كرامة لهُم وخيْر، بلْ إِنَّ ذلك مِنْ أجْلِ أَنْ يَتحمَّلوا مَزيدًا من الإثمِ ولهُم عذابٌ مُهين.

ثمَّ يخبر الله تعالى أنَّه ليس من حِكمتِه أن يُبقِيَ المؤمنين على الحالِ التي هم عليها مِن اختلاطِ المؤمنين بالمنافقين دون أنْ يَتمايزَا، بلْ لا بدَّ من الابتلاءات التي تُمحِّص وتُميِّز كُلًّا منهما عن الآخر.

كما أنَّه ليس من حِكمتِه أَنْ يُطلِعَ أحدًا منهم على ضَمائرِ قلوبِ العِباد؛ كيْ يُظهِرَ له المؤمنَ من المنافقِ، وإنَّما يُهيِّئُ اللهُ تعالى مِن المِحَن والابتلاءات ما مِن خِلالِه يتمايَز العِباد، ولكِنَّ اللهَ يختارُ بعضًا مِن رُسُله عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ لِيُطلعَهم على بعض الغَيْبيَّات بحِكمتِه وإذْنه، ثمَّ يأمر الله تعالى المؤمنين أن يُحقِّقوا الإيمانَ بِه تعالى وبجميع رُسُله، ووعدَهم بأنَّهم إِنْ قاموا بذلك واتَّقَوْا أنَّ لهم أجرًا عظيمًا.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٨٠- ١٨١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣١٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥١٠).

ثُمَّ يُخاطِب اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أَنْ لا يظنَّ أَنَّ الذين يَبخلون بأموالهم التي رزَقَهم اللهُ تعالى إيَّاها؛ فضْلًا مِنه- أَنَّ بُخلَهم خَيْرٌ لهم من العَطاء، ولا ينبغي أن يظنَّ هؤلاء الذين يَبخلون بالأموال: أَنَّ بُخْلَهم خيْرٌ لهم من العطاء، بل هو شَرٌّ لهم؛ فإنَّ اللهَ تعالى توعَّدَ الباخِلين: أَنَّه سَيجعل المال الذي بخِلوا بإخراجِ حقِّ الله تعالى فيه طَوْقًا يُحيطُ بأعناقِهم، ويُعذَّبون به يومَ القيامة، وللهِ تعالى ميراثُ السَّموات والأرض؛ فتُردُّ إليه كلُّ أملاك الخَلْق بعد فنائِهم، واللهُ خبيرٌ ومُطَّلِعٌ على جميعِ أعمال العبادِ، وسيجازيهم عليها.

تَفسيرُ الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧)﴾.

أَيْ: إِنَّ هؤلاءِ الذين استبدَلوا الإيمانَ بالكفرِ، لا يُصيبون اللهَ تعالى بأيِّ ضرَرٍ كان، وإنَّما يَضرُّون في الحقيقةِ أنفُسَهم؛ فبذلك يَستحِقُّون عُقوبةَ اللهِ تعالى المؤلِمةَ[(١)].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨)﴾.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قِراءتان:

١- (وَلَا تَحْسَبَنَّ) على معنى أنَّ الخِطاب للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٨-٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير السَّعدِيّ)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٤-٤٦٦).

(٢) قرأ بها حمزةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٠).

٢- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ على أنَّها نهيٌ للذين كفروا[١].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾.

أَيْ: ولا تظنَّ- يا مُحمَّدُ- ولا يظنَّ الكفَّارُ كذلك، أنَّ إطالتَنا لهم في أعمارهم، وترْكَهم يَتمتَّعون في دُنياهم، وعدَمَ مُعاجَلَتِهم بالعقوبة- أَنَّه خيْرٌ وكرامةٌ مِن الله تعالى لهم، ودليلٌ على مَحبَّتِه لهم، ورِضاهُ عنهم، كما يبدو في الظَّاهر[٢].

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾.

أَيْ: حقيقةُ الأمْرِ أنَّ ذلك شرٌّ عليهم، وإنَّما منحَهم الله تعالى إطالةَ العُمْرِ، وسَعَةَ الرِّزْق، وحُصولَ النَّصْر وغيْرَ ذلك؛ مِن أَجْل أن يكتسبوا المزيدَ مِن الآثام؛ فتكثُرَ سيِّئاتُهم[٣].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

أَيْ: ولهؤلاء الكفَّار المستكبِرين عُقوبَةٌ تُذِلُّهم وتُهينُهم[٤].

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٧)، ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٢).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٧)، ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٩-٢٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٤٦)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تَيمية (٢/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٨).

بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى عُقوبةَ المنافقين الأُخْرَويَّةَ، أَتْبعَها بوعيدِه للمنافقين بالعقوبةِ الدُّنيويَّةِ؛ التي هي الفضيحةُ والخِزْي بالتمييزِ بينهما؛ لِيُظهرَ المؤمِنَ من المنافِق[1].

وأَيْضًا لَمَّا أَخبرَ اللهُ تعالى عن الأحوالِ التي وقعتْ يومَ أُحُدٍ من القتْل والهزيمة، والتي أَظهرتِ المؤمِنَ مِن المنافِق؛ لأنَّ المنافقين خافوا ورجَعوا وشَمَتوا بكثرة القتْلى، ثمَّ ثبَّطوا وزهَّدوا المؤمنين عن العَوْد إلى الجِهاد- أعقبَ سبحانه وتعالى ذلك ببيانِ أنَّه لا يجوزُ في حِكمتِه أَنْ يَذَرَكم على ما أنتُم عليه من اختلاطِ المنافقين بكم، وإظْهارِهم أنَّهم من أهْل الإيمان؛ فكان إلقاءُ هذه الحوادثِ والوقائع؛ حتَّى يَحصُلَ هذا الامتياز[2]؛ فقال تعالى:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

أَيْ: إنَّه من الممْتَنِع على حِكْمة اللهَ عزَّ وجلَّ أن يدَعَ عبادَه المؤمنين على ذات الحال التي هُم عليها؛ من اختلاطِهم بالمنافِقين تحتَ مُسمَّى (الإسلام) الذي يَجمعهم، من دونِ أَنْ يُعرف هذا مِن هذا، بلْ لا بُدَّ أَنْ يَجعلَ كلَّ واحدٍ منهما مُتميِّزًا عن الآخر، مُنفصِلًا عنه بِلا لَبْسٍ بينهما؛ ولذا يَعقِد الله تعالى أَسبابًا مِن المِحَن يُظهِر فيها ولِيَّه، ويُفضَحُ فيها عدُوُّه، كما فعل بهم يوم أُحُدٍ[3].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧٠-٤٧١).

ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦-٣٧].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾.

أَيْ: مِن الممتَنِع على حِكمَة الله تعالى أيضًا أَنْ يُطلِعَكم على ضَمائرِ قلوبِ عِبادِه؛ كَيْ يُظهرَ لكم المؤمِنَ من المنافِق، ولكِنَّه يَعقِد الأسبابَ التي تَكشِف لكم هذا الأمْرَ، وتَظهرُ بها طَوايا النَّاس[١].

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أَيْ: لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يختارُ بعضَ رُسُله عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ لِيُطلِعَهم على بعض الغيبيَّات بحِكمتِه وإِذْنِه سُبحانَه، ومِن ذلك: إطْلاعُهُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على عددٍ من المنافِقين[٢].

قال سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٥-٢٧].

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

أَيْ: حَقِّقُوا إيمانَكم باللهِ تعالى وجميعِ رُسُله عليهم السَّلامُ بالتَّصديق التَّامِّ، والانقيادِ والاستسلامِ؛ فهذا هو المطلوبُ منكم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧٢-٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧٣-٤٧٤).

﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أَيْ: إنَّكم إذا حقَّقْتم المطلوبَ منكم بالإيمانِ بالله تعالى ورُسُلِه، وامتثَلْتُم ما أمرَكم الله تعالى ورسولُه به، واجتنَبْتُم ما نهاكم اللهُ تعالى ورسولُه عنه، إِنْ قُمْتُم بذلك؛ فقد استحقَقْتُم نَيْلَ ثَوابٍ مِن الله تعالى كبيرٍ[(١)].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حرَّض الله المؤمنين على بَذْل الأرواحِ في الجِهادِ في الآيات السَّابقة، أَرْدَفه بالتحريضِ على بَذْلِ الأموالِ في الجِهادِ وغيرِه، وبيَّن الوعيدَ الشديد لِمَن يَبخلُ[(٢)]، فقال:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قراءتان:

١- قراءة (وَلَا تَحْسَبَنَّ) على الخِطاب للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أَيْ: لا تحسَب- يا مُحمَّدُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧٤-٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٢)، ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥١)، ((نظْم الدُّرَر)) للبقاعي (٥/ ١٣٧).

(٣) قرأ بها حمزةُ. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٦-٣٦٧)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٠).

٢- قراءة ﴿ولا يَحْسَبَنَّ﴾ بإضافةِ الفِعل إلى ما بَعدَه، أَيْ: لا يَحسبنَّ الذين يبخلون[١].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

أَيْ: لا تظنَّنَّ- يا مُحمَّدُ- ولا يظنَّنَّ هؤلاء الذين يشِحُّون بأموالهم التي رزَقهم الله تعالى؛ كرَمًا منه عن أداء حقِّه فيها، أَنَّ بُخلَهم هذا خيْرٌ لهم من العطاء الذي يُنقص المال، كما يبدو في الظاهر[٢].

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾.

أَيْ: ليس الأمرُ كما يَظنُّون؛ فامتناعُهم عن أداءِ حَقِّ الله تعالى فيما رزَقَهم من أموالٍ بُخْلًا منهم، هو في حقيقةِ الأمْرِ شرٌّ من هذا النقْصِ الذي يَبدو لهم، ومضرَّةٌ عليهم في دِينهم ودُنياهم[٣].

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أَيْ: سيَجعل اللهُ تعالى المالَ الذي بَخِل به مَن منَعَ حقَّ اللهِ تعالى فيه، سيجعلُه طَوْقًا يُحيطُ بعُنُقِ صاحبه، ويُعذَّب به يوم القيامة[٤].

عَن أبي هُرَيرَةَ رَضِي الله عنه، أَنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٦-٣٦٧)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٨-٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٠-٤٨١).
وقِيل: يدخُل في الآية أيضًا من بَخِل بجاهِه، أو بعِلْمِه: كأهل الكتاب الذين بَخِلوا ببيان ما في أيْديهم من الكُتُب المُنزَّلة، ومن ذلك: صِفَةُ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٧١، ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٤-١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٢-٤٨٤).

آتاه الله مالًا فَلم يُؤدِّ زَكاتَه، مُثِّلَ له مالُه شُجاعًا أقْرَعَ[١]، لَه زَبِيبَتَانِ[٢] يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ- يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ- يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ)) ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾ إلى آخِرِ الآية[٣].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أَيْ: إنَّ كلَّ أملاكِ الخَلْقِ مَرَدُّها بعدَ فنائِهم إلى اللهِ تعالى وحْدَه؛ فهو المالكُ ذو المَلَكوت، والحيُّ الباقي الَّذي لا يموتُ؛ فأنفِقوا في حياتِكم مِمَّا جعلَكم اللهُ عزَّ وجلَّ مُستَخلَفين فيه، وقدِّموا فيها من أموالِكم ما يَنفعُكُم يومَ تأتون إلى الله سُبحانَه، وليس معكم شيءٌ مِمَّا كنتُم تملكون؛ فلا مَعنى للبُخْل بشيءٍ زائلٍ عنكم، ومُنتقِلٍ إلى غيرْكِم[٤].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

---

(١) شُجَاعًا أقْرَعَ: الشُّجَاعُ بالضَّمِّ والكسْرِ: الحيةُ الذَّكَرُ. وَقِيلَ الْحَيَّةُ مُطَّلَقًا. والأَقْرَع: الذي لا شَعْر على رَأْسِه، يُريد حَيةً قَدْ تَمَعَّطَ جلْد رأسِه؛ لِكثرة سَمِّه وطول عُمْره. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٤٧) (٤/ ٤٥)، ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٧٠).

(٢) الزَّبِيبَتَانِ: مثنَّى زبِيبَة، قيل: هي نُكْتَةٌ سوداءُ فوقَ عَيْنِ الحَيَّة، وقيل: هُما نُقْطَتان بجانبي فمِها، وقيل: هُما الزَّبَدَتان اللَّتان في جانبي شِدْقي الحيَّة من السُّم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٩٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٢٦).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٥٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨-١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٤-٤٨٥).

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ قِراءتان:

١- (يَعْمَلُونَ) على الغَيْبة؛ جرْيًا على ﴿يَبْخَلُونَ﴾ و﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾[(١)].

٢- ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على الالْتفاتِ للمُخاطَب؛ فيكون ذلك خِطابًا للباخِلين[(٢)].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أَيْ: واللهُ عزَّ وجلَّ مُطَّلِعٌ على خفايا أعمال الخلْق، ومُطَّلِعٌ على نيَّاتهم وضمائرهم، وسيجازيهم على أعمالهم ونيَّاتهم بحسَبها، ومن ذلك: هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله تعالى من فَضْلِه؛ فإنَّ الله سبحانَه مُطَّلِعٌ على ما يُخفونَ ويَكنِزون، ويعلمُ إنْ كانوا قد أدَّوا حقَّ الله تعالى فيه أمْ لا، وإنْ خَفِيَ ذلك على غيرِه[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- نِعَمُ الدُّنيا ليستْ دليلًا على رِضا الله تعالى؛ فتِلك النِّعَم قد تكون نِقَمًا وآفاتٍ في الحقيقةِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ فهذا البقاءُ، وهذا

---

(١) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٥٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٥).

الإمهالُ صار وسيلةً إلى الخِزْيِ في الدُّنيا، والعقابِ الدائمِ يومَ القيامة؛ فلم يكُنْ نعمةً حقيقة[١].

٢- في قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يَعتبِر في عُمْره؛ هل أمضاه في طاعةِ الله تعالى، أو أمضاهُ في معصيتِه، فمُجَرَّد طولِ العُمُر ليس خيرًا للإنسانِ إلَّا إذا أحسَنَ عَمَلَه؛ لأنَّه أحيانًا يكونُ طولُ العُمُر شرًّا للإنسانِ وضررًا عليه، فهؤلاءِ الكفَّارُ يُمْلي اللهُ لهم؛ أي: يُمِدُّهم بالرِّزقِ والعافِيَةِ وطولِ العُمُر والبنينَ والزَّوجاتِ، لا لخَيرٍ لهم، ولكنَّه شَرٌّ لهم، والعياذُ بالله؛ لأنَّهم سوف يزدادونَ بذلك إثمًا[٢].

٣- التمايُزُ لا يكون إلَّا بالشَّدائد؛ أمَّا الرَّخاء واليُسْر، وتكليف ما لا مشقَّةَ فيه، فيَقدِر عليه المنافِقون، ويَشتركون فيه مع المُخلِصين الصادقين؛ قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[٣].

٤- البُخل بشيءٍ من الخيراتِ والمنافعِ مذمومٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- البُخلُ قد يكون من الكَبائِرِ الموجِبَةِ للنَّارِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٩)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٣).

يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[١].

٢- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ بيانُ شِدَّة رغبةِ الكفَّار في الكُفر؛ لأنَّهم اشترَوا الكفرَ اشتراءً، والمشترِي طالِبٌ للسِّلعة؛ فهم يأخذون الكفرَ عن رغبةٍ[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾، إشارةٌ إلى أنَّ الإنسان قد يَغترُّ بظاهر الحالِ، ويقول: إنَّ الله لم يُنعمْ عليَّ نعمةً إلَّا لأنَّني أهلٌ لها، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[٣] [القصص: ٧٨].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بيانُ مِنَّةِ الله على عبادِه؛ حيثُ جعَل إثابتَهم على العملِ بمنزلةِ الأَجْر المتقرَّر لهم: كالذي استأجَرَ أُجراءَ، وأعطاهم أجْرَهم فَرضًا، إلَّا أنَّه تعالى هو الذي فرَضَ ذلك على نفْسِه[٤].

٥- الإشارةُ إلى اسم اللهِ (الآخِر)، فإنَّ اللهَ هو الأوَّل والآخِر، وذلك مِن قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فإذا ثبَتَ إرْثُه لهما لزِم مِنْه أنْ يكون هو الآخِر عزَّ وجلَّ[٥].

بَلاغَةُ الآيات:

١- **قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:**

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨٧).

- قوله: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: تكريرٌ لجملة: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ قُصِد به- مع التأكيد- إفادةُ هذا الخبرِ استقلالًا؛ للاهتمامِ به بعدَ أنْ ذُكِرَ على وجهِ التعليل؛ لتسليةِ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

- وفيه: تعريضٌ ظاهرٌ باقتصارِ الضَّررِ عليهم، كأنَّه قيل: وإنَّما يَضُرُّون أنفسَهم[٢].

- وقوله: ﴿وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: جملةٌ مُبتدَأةٌ مُبيِّنة لكمالِ فظاعةِ عذابهم؛ بذِكر غايةِ إيلامِه، بعدَ ذِكْر نهايةِ عِظَمِه[٣].

- والتعبيرُ بصِيغة (فَعِيل) في قوله: ﴿أَلِيمٌ﴾؛ للمُبالَغة في وصْف العَذاب[٤]، مع ما في التنكيرِ من التَّهويل.

- وفي الآية: الفَصلُ -أي: عدَم العطف- بين جملةِ: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ وسابقتِها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا...﴾؛ لوقوعِ هذه بيانًا للسابِقة، بينما وصَل -أي: عطَفَ- بين جملة: ﴿وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وسابقتِها؛ لوقوعِ هذه ابتدائيَّة مبيِّنة لفظاعةِ عذابِ الكفَّار[٥].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ﴾:

- قوله: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ﴾: استئنافٌ واقِعٌ مَوقِعَ التَّعْليل؛ للنهْي عن حُسبان الإملاءِ خيرًا، أيْ: ليس هو بخير؛ لأنَّهم يَزدادون في تلك المدَّة إثْمًا[٦]، ومُبيِّنٌ كذلك لحِكمة الإملاءِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٧).
(٤) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٨٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٨٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٨).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفيه حَصْرٌ، أَيْ: ما نُملي لهم إلَّا لِيزدادوا إِثْمًا، أَيْ: فيكونَ أَخْذُهم به أشدَّ؛ فهو قصْرُ قلْبٍ[١].

- وقوله ﴿خَيْرٌ﴾ وإنْ كانَ بصِيغة المُبالغةِ والتَّفضيلِ، إلَّا أنَّه لنفْي الخيريَّة، لا لنفْي كونِه خيرًا مِن شيءٍ آخَرَ؛ لأنَّ بناءَ المبالغةِ لا يَجوز ذِكْرُه إلَّا عندَ ذِكْر الرَّاجح والمرجوح، فلمَّا لم يَذكُرِ اللهُ هاهنا إلَّا أحدَ الأمرين، دلَّ على أنَّه لنفْي الخيريَّة، لا لنفْي كونِه خيرًا مِن شيءٍ آخَرَ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾:

- قولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ اللَّام في قوله: ﴿لِيَذَرَ﴾ هي المُسمَّاة (لام الجحود)، وعلى القولِ بأنَّ خبرَ كان محذوفٌ، وأنَّ انتصابَ الفِعلِ بعدَ هذِه اللامِ بـ(أنْ) المضمرَة وجوبًا[٣]؛ فاللَّام تتعلَّقُ بالخبرِ المقدَّر لـ﴿كَانَ﴾، والتقديرُ: ما كان اللهُ مُريدًا أو مُتصدِّيًا لأنْ يَذَرَ المؤمنين، أي: ما كان مُريدًا لتَرْكِ المؤمنين، وفي توجيهِ النَّفيِ إلى إرادةِ الفِعلِ تأكيدٌ ومبالغةٌ، ليستْ في تَوجيهِ النَّفي إلى المفعولِ نفْسِه؛ فاللام مُقَوِّيَةٌ لطَلَبِ ذلكَ المَحذُوفِ (مريدًا) لِمَا بَعدَها (أنْ يَذَرَ). وعلى القول بأنَّ خَبَرَ كان هو الفِعلُ (يَذَر)، وأنَّ اللَّام تَعمَلُ بنَفسِها النَّصبَ في المضارعِ[٤]؛ فاللَّام زائدةٌ لتأكِيدِ النَّفْيِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٠).

(٣) وهذا مذهبُ البصريِّين.

(٤) وهذا مذهبُ الكوفيِّين.

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٨- ١١٩).

- وفيه إظهارُ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ في موضِعِ الإضمارِ، حيث قال ﴿لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: الثابتين في وصْفِ الإيمان، ولم يقُل: (ليذركم)؛ لإظهارِ شرَفِ الوصْفِ بالإيمانِ، تعظيمًا لأهلِه[١].

- وقوله: ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ فيه مبالغةٌ في النَّفي؛ حيثُ وقعت (حتَّى) بعدَ (مَا كَانَ)، وهو استعمالٌ خاصٌّ يُسمَّى: (نفْي الجحود)، وتُفيد (حتَّى) فيه تنهِيةَ الاستحالة؛ لأنَّ الجُحودَ أخصُّ من النفْي، فيكونُ حصولُه كالمستحيل؛ فإذا غيَّاه المتكلِّم بغايَةٍ، كانت تلك الغايةُ غايةً للاستحالة المستفادةِ من الجحود، وليست غايةً للنفي؛ حتَّى يكون مفهومها أنَّه بعدَ حصولِ الغاية يثْبُت ما كان منفيًّا[٢].

- قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ تمهيدٌ لبيانِ الميْزِ الموعود، على طريقِ تجريدِ الخِطابِ للمُخلِصين؛ تَشريفًا لهم[٣].

- قوله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ...﴾ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي...﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليل (الله) في الموضِعَينِ؛ لتربية المَهابَة[٤].

٤- قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾:

- قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ فيه إيرادُ ما بخِلوا به بعنوانِ إيتاءِ الله تعالى إيَّاهم مِن فضلِه؛ للمُبالغةِ في بيانِ

(١) يُنظر: ((نظْم الدُّرر)) للبقاعي (٥/ ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٨- ١٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

سُوءِ صَنيعِهم؛ فإنَّ ذلك حقُّه أنْ يكونَ من مُوجِباتِ بَذْلِه في سبيلِه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[١].

- قوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ﴾ فيه تأكيدٌ لنفْيِ كونه خيرًا، وإفادةُ نفْيِ توهُّمِ الواسطةِ بين الخيرِ والشرِّ[٢].

- قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تذْييلٌ لموعظةِ الباخِلين وغيرِهم، بأنَّ المالَ مالُ الله، وما مِن بخيلٍ إلَّا سيذهب ويترُك مالَه، والمتصرِّفُ في ذلك كلِّه هو الله؛ إذْ هو يرِث السَّمواتِ والأرضَ؛ فالآيةُ موعظةٌ، ووعيدٌ ووعْد؛ لأنَّ المقصودَ لازمٌ[٣].

- قوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليل (الله) في مَوضعِ الإضمار[٤]؛ لتربيةِ المَهابة.

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنة؛ حيثُ ختَم بهذه الصِّفة، ومعناها التهديدُ والوعيدُ على قَبيحِ مُرتكَبِهم من البُخل[٥].

- وفيه: التفاتٌ[٦]؛ حيثُ التفتَ من الغَيْبة إلى خِطابِ الباخِلين[٧]، وهو أزجرُ في التهديدِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٨٢- ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٥٣)

(٦) هذا على قِراءة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بتاءِ الخِطاب، وأمَّا على قِراءة (يعملون) بياء الغَيبة؛ جريًا على ﴿يَبْخَلُونَ﴾ و﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾؛ فليس فيه التفاتٌ.

(٧) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٥٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١١٩).

الآيات (١٨١ - ١٨٤)

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بِقُرْبَانٍ﴾: القُربان: ما يُتقرَّبُ به إلى الله عزَّ وجلَّ مِن ذبْح أو غيرِه، وأصل القُرب: خلافُ البعد[١].

﴿وَالزُّبُرِ﴾: الكتُب، جمْع زَبور، وهو: كلُّ كتابٍ ذي حِكمةٍ، مأخوذٌ من الزَّبْر، وهو الكتابةُ والقِراءة، وقيل: مِن زبَرَه، إذا دفَعه[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبر تعالى أنَّه قد سمِع قولَ اليهودِ الذين تجرَّؤوا على اللهِ، وقالوا: إنَّه فقيرٌ- تعالى اللهُ عن ذلك- وهم أغنياءُ، ثُمَّ أخبرَ سبحانَه أنَّه سيَكتُب ما قالوا، وسيَكتُب أيضًا رِضاهم واستحلالَهم لِمَا قام به أسلافُهم من قتْلِ الأنبياء بدون أيِّ عُذْرٍ يُبيح لهم ذلك، وأخبر أنَّه سيقولُ لهم تعالى: ذُوقوا العذابَ المحرِقَ الذي استحقَقتُموه بما اقترَفتم، واللهُ تعالى لا يَظلمُ أحدًا من العبادِ شيئًا.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

هؤلاءِ اليهود الَّذين ادَّعوْا كَذِبًا: أنَّ اللهَ تعالى أوْصَى إليهم بوصيةٍ، وهي ألَّا يُؤمنوا لأيِّ رسولٍ حتَّى يأتيَهم بشَيءٍ يتقرَّب به إلى الله، ولا بُدَّ أنْ تأكلَه النار، فأمَرَ اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يردَّ على زَعْمهم هذا: بأنَّه قد جاءَ أسلافَهم من اليهودِ المتقدِّمين رُسُلٌ مِن الله، معهم الكثيرُ من المعجِزاتِ وبالذي طَلَبوه من القُربانِ الذي تأكلُه النَّار، فلِمَ قاموا بقتْلهم إنْ كانوا صادِقين في أنَّ اللهَ عهِدَ إليهم بالإيمانِ بِمَن جاءَ بذلك؟!

ثمَّ سلَّى الله نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: بألَّا يتأثَّر حُزْنًا ووهنًا إنْ كذَّبَه هؤلاء اليهودُ؛ فإنَّه قد كُذِّب رسُلٌ جاؤوا مِن قبلِه، أتَوا معهم بالمعجزات الباهِرة، وبالكتُب المنزَّلة من الله عزَّ وجلَّ .

تَفسيرُ الآيات:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى المكلَّفين في الآياتِ السَّابقة ببْذلِ النفْسِ وبذْلِ المالِ في سبيلِ الله، شرَعَ بعدَ ذلك في حِكايةِ شُبُهاتِ القومِ في الطَّعْن في نُبُوَّة النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومنها: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَر بإنفاق الأموالِ في سبيلِه قالوا: إنَّه لو طَلب الإنفاقَ في تحصيلِ مَطلوبِه لكان فقيرًا عاجِزًا[1]، فردَّ اللهُ تعالى عليهم في هذِه الآيةِ.

سببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما قال: ((قال أبو بكرٍ رضِي اللهُ عنه لِفِنْحَاص-

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٦).

وكان مِن علماءِ اليهودِ وأحبارِهم-: اتقِّ اللهَ وأسْلِم، فواللهِ إنَّك لَتعلمُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن عندِ الله، جاءَكم بالحقِّ من عندِه، تَجدونَه مكتوبًا عندَكم في التوراة والإنجيل، فقال فِنْحَاصُ: يا أبا بكر! واللهِ ما بنا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِن فَقْرٍ، وإنَّه إلينا لَيفتَقِر، وما نتضرَّع إليه كما يَتضرَّع إلينا، وإنَّا عنه لَأغنياءُ، ولو كان عنَّا غنيًّا لَمَا استقرَضَنا أموالَنا كما يزعُم صاحِبُكم؛ يَنهاكم عن الرِّبا ويُعطِيناه، ولو كان عنَّا غنيًّا ما أعطانا الرِّبا، فغضِب أبو بكْرٍ فضَربَ وجهَ فِنحَاص، فأخبر فِنْحاصُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأبي بكْر: ما حملَك على ما صنعتَ؟ فأخبرَه، فجَحَد ذلك فِنْحَاص، وقال: ما قلتُ ذلك، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] الآية))[١].

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

أَيْ: لقد سمِع اللهُ جلَّ جلالُه قولَ اليهودِ الذين قالوا في الله عزَّ وجلَّ مقالةً شنيعةً؛ بإضافةِ النقْصِ إليه سبحانَه فقالوا: إنَّ الله فقيرٌ إلينا؛ لأنَّه طلَب منَّا أنْ نُقرِضَه مِن أموالِنا! ثُمَّ جعَلوا أنفسَهم أكملَ مِن الله تعالى؛ فقالوا: ونحن أغنياءُ عنه[٢]!

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

أَيْ: سنكتُب ما قالوه في ربِّهم؛ مِن الإفْك والفِريَة عليه، ورِضاهم، واستحلالِهم لِمَا قام به أسلافُهم مِن أفعالٍ فظيعةٍ؛ بقتْلهم الأنبياءَ دون حُجَّةٍ أو عُذْرٍ يُسوِّغ لهم

---

(١) رواه الطبريُّ في ((تفسيره)) (٧/ ٤٤١)، والطحاويُّ في ((شرح مُشكِل الآثار)) (١٨٣٠)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٤٥٨٩).
حسَّن إسنادَه ابن حجَرٍ في ((فتح الباري)) (٨/ ٧٩)، وقال أحمدُ شاكر في ((عمْدة التفسير)) (١/ ٤٤٤): إسناده جيِّد أو صحيح.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨١-٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٨-٤٩١).

فِعْلَ ذلك؛ فسنكتُب ذلك ونحفظُه عليهم؛ لنجازيَهم به[١].

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

أَيْ: ويقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ إهانةً وإذلالًا لأصحابِ تِلك المقالةِ الشَّنيعةِ في حقِّه سبحانَه: ذوقوا عذابَ النَّار المحرِقة[٢].

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢)﴾.

أَيْ: يُقال لهم: إنَّما استحقَقْتُم هذا العذابَ المخزِي؛ بسببِ ما اكتسبتموه في حياتِكم من آثامٍ؛ ولأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حكَمٌ عدْلٌ مع كلِّ أحَدٍ، لا يُجازي كلَّ نفسٍ إلَّا بما كسَبتْ، دون أن يَنقُصَ من حسناتها شيئًا، أو يَزيد على سيِّئاتها شيئًا[٣].

فما قدَّمتْ أيديهم أوجَبَ لهم حُصولَ العذاب، وعدْلُ اللهِ أوجَبَ كوْنَ هذا العذابِ في مِقدارِه المشاهَد من الشِّدَّة؛ حتَّى لا يظنُّوا أنَّ في شدَّته إفراطًا عليهم في التَّعذيب[٤].

ثمَّ ذكر شُبْهةً أخرى لهم، فقال:

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨١-٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩١-٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٣-٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩٧-٤٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٥).

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾.

أَيْ: هؤلاءِ اليهود الَّذين ادَّعَوْا كَذِبًا وافتراءً على اللهِ تعالى، بأنَّه أَوْصاهم بوصيَّةٍ مُؤكَّدَةٍ في كُتُبهم، وعلى ألْسِنة رُسُله تَقضي بألَّا يَنقادوا مؤمِنينَ ومُذعنين لكلِّ مَن يقولُ: إنَّه مُرسَلٌ مِن عند الله تعالى حتَّى يُثبِتَ صِدْقَ رِسالتِه بأمرٍ واحدٍ، وهو: أنْ يَجيءَ بشيءٍ ممَّا يُتقرَّب به إلى اللهِ تعالى من الصَّدقات، فإنْ أكلَتْه النارُ كان ذلك دَلالةً على قَبولِ اللهِ تعالى منه ذلك، وصِحَّة رسالتِه من ربِّه[١].

﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾.

أَيْ: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاء اليهود؛ ردًّا على ما زَعموه مِن افتراءٍ: قد أتَى أسلافَكم- يا مَعشَرَ اليهود- رُسُلٌ مِن اللهِ تعالى مِن قَبْل بَعْثتِي، كانوا مُزوَّدين بالحُجَج، ومُدَعَّمين بالمعجِزات التي تُثبِت صِدْقَ رسالتِهم، وأتَوهم أيضًا بالذي ادَّعيتم من تقديمِهم قرابينَ تَأكُلُها النار، فوقعَتْ على أيديهم هذه المعجِزةُ التي تمسَّكتم بها[٢].

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أَيْ: ما دام أنَّه سبَق وأنْ جاءَتكم الرُّسُلُ بالذي زَعَمتُم أنَّه حُجَّةٌ لتصديقِهم، فلِمَ قام آباؤكم إذنْ بقتْلِهم، إنْ كنتُم مُحقِّين في دَعْواكم الإيمانَ برسولٍ يأتي بقُربان تأكلُه النار؟! فتبيَّن بهذا كَذِبُهم، وعِنادُهم وتناقضُهم، وظهَر أنَّه ليس امتناعُهم مِن اتِّباع مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لعدمِ ظُهورِ هذه المعجِزة[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٥-٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)﴾.

أَيْ: فإنْ كَذَّبَك- يا مُحمَّدُ- هؤلاء اليهودُ، فلا يُوهِنك ولا يَحزُنك ذلك، ولك أُسْوَة بمَن قبلَك؛ فأنتَ لستَ بأوَّلِ مَن يُكذَّب، بل كُذِّب عددٌ من الرُّسُل عليهم السَّلام مع أنَّهم أتَوا أقوامَهم بالحُجَج القاطِعة، والمعجِزات الباهِرة السَّاطعة، وبالكُتُب المنزَّلة مِن الله تعالى، المشتمِلةِ على المَواعِظ والزَواجِر، المضيئةِ لطريق الحقِّ؛ بذكْرِ الأحكامِ العادِلة، والأخبارِ الصَّادِقة[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- تَذكُّر أنَّ الله تعالى يَكتُب على العبادِ أعمالَهم، على وجهٍ لا يَزولُ ولا يُنسى ولا يتغيَّر؛ ليَقرؤوا ذلك في صحائفِ أعمالِهم يومَ القيامة، ولِيُجازوا عليه، كما في قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[٢].

٢- الرِّضا بعِصيان العاصِين، وتصويبُ أعمالِهم يُعدُّ مُشاركةً لهم في ذلك، قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وإنَّما قتَلَهم أسلافُهم، والمتأخِّرون راضون بأفعالِ أولئك المتقدِّمين ومُصوِّبون لهم في كلِّ ما فَعلُوه[٣].

٣- الحذرُ من المعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ

السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٦-٢٨٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٠٧-٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٤٣).

بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فذلك العقابُ حاصِلٌ بسببِ المعاصي، مِن الافتراءِ وقَتْل الأنبياء، وغير ذلك[١].

٤- في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تسليةُ الرسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام، ويتفرَّع عليها أنْ يَتسلَّى الإنسان في كلِّ ما أصاب غيرَه[٢]؛ فالرُّسُل أُوذوا بالتكذيب، والإنسانُ يَكادُ يتقطَّع إذا أَخبرَ بشيءٍ صِدْقٍ، ثمَّ قيل له: كذَبتَ، فكيف وهُم مِن عند الله عزَّ وجلَّ مُؤيَّدون بآياتِه[٣]؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هذا قيْدٌ كاشِفٌ، وليس احترازِيًّا؛ فقتْلهم للأنبياءِ لا يمكن أنْ يكونَ بحقٍّ أبدًا، وإنَّما جِيءَ به مبالَغةً في التشنيعِ عليهم؛ فإنَّهم يَقتُلونهم بغيرِ سببٍ حقٍّ يَدْعو لذلك[٤].

٢- في قول الله تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ عبَّرَ عَن مُباشَرة العذاب بـ﴿ذُوقُوا﴾؛ لأنَّ الذَّوْقَ مِن أبْلغِ أنواع المباشَرة، وحاسَّتُها مُتميِّزة جدًّا[٥].

٣- في قوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أنَّ هؤلاء سوف يَذوقون العذابَ بالألم البدَنِيِّ والألم النفْسِيِّ؛ ففي ﴿الحَرِيقِ﴾: ألَمٌ بَدنِيٌّ، وفي قوله: ﴿ذُوقُوا﴾: ألَمٌ نفسِيٌّ؛ لأنَّ هذا توبيخٌ وإهانة[٦].

٤- في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٠٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٩٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩٦).

أفادت باءُ السببيَّةِ في قوله: ﴿بِمَا﴾ ترتيبَ العقابِ على سَبَبِه، والقرآنُ مملوءٌ من ترتيبِ الأحكامِ الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ والثَّوابِ والعقابِ على الأسبابِ بِطُرُقٍ متنوِّعةٍ، فيأتي بباءِ السببيَّة تارةً، وباللَّامِ تارةً، وبأنْ تارةً، وبِكَيْ تارةً، ويَذْكُر الوصْفَ المقتضِيَ تارةً، ويذكُرُ صريحَ التَّعليلِ تارةً؛ كقوله: ذلك بأنَّهم فعلوا كذا، وقالوا كذا، ويذكُرُ الجزاءَ تارةً[(١)].

٥- أنَّه يَنبغي عند المُخاصمةِ إفحامُ الخَصْم بما يدَّعيه؛ ليكونَ ذلك أبلغَ في دحْضِ حُجَّته، وهذا يُؤخذُ من قوله سبحانه: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾؛ لأنَّه إذا خُوصِم بما يقوله لم يبْقَ له حُجَّة[(٢)].

٦- في قول الله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أنَّ تسلِيَةَ الإنسانِ بمَن قارَبه في الزمانِ أشدُّ تسليةً، وأقوى تثبيتًا[(٣)].

بَلاغَةُ الآيات:

١- **قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾** جاءَ التعبير أوَّلًا بقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ﴾ بصيغة الماضي، ثمَّ قال: ﴿سَنَكْتُبُ﴾، ولَمْ يَقُل: (كُتب أو كَتَبْنا)؛ لأنَّ السَّماعَ أوَّلًا مُؤكَّد بالقَسَم، ثمَّ قال: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ على جِهة الوعيد، والسِّين فيه للتأكيد، بمعنى: لَن يفوتَنا أبدًا إثباتُه وتدوينه، كما لنْ يَفوتَنا قتْلُهم الأنبياء؛ لِكونِه في غايةِ العِظَم والهوْل، وجَعَل قتْلهم الأنبياءِ قرينةً له؛ إيذانًا بأنَّهما في العِظَم أخوانِ، وبأنَّ هذا ليس بأوَّل ما ركِبوه من العظائمِ، وأنَّهم أُصَلاءُ في الكُفْر، ولهم فيه

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٠٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٤٤).

سوابقُ، وأنَّ مَن قتَل الأنبياءَ لَمْ يُستَبعدْ منه الاجتراءُ على مِثلِ هذا القول[١].

٢- **قوله:** ﴿**ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾ الأمْرُ هنا للتوبيخِ والإهانةِ والإذلال، وإلَّا فإنَّهم سيَذوقون عذابَ الحريقِ، قيل لهم ذلك أم لمْ يُقل؛ فهو حقٌّ[٢].

٣- **قوله:** ﴿**ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُم**﴾ فيه إشارةٌ للعذاب المشاهَد يومئذٍ، وفيه تهويلٌ للعذاب، والباء للسببيَّة؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا العذابَ لعِظَم هوله ممَّا يُتساءَل عن سببِه[٣].

- وفيه نِسبةُ ما قدَّموه مِن المعاصي القوليَّة والفعليَّة والاعتقاديَّة إلى الأيدي على سبيلِ التغليب؛ لأنَّ الأيدي تُزاوِل أكثرَ الأعمال؛ فكأنَّ كلَّ عمل واقعٌ بها[٤]، ولِيفيد أنَّ ما عُذِّبوا عليه هو مِن عَملِهم حقيقةً لا مجازًا؛ فإنَّ نسبةَ الفِعلِ إلى يدِ الفاعلِ تُفيدُ مِن إلصاقِه به ما لا تُفيده نِسبتُه إلى ضميرِه[٥].

- وفيه جوازُ إطلاقِ البَعضِ على الكلِّ إذا وُجدت قرينةٌ تدلُّ عليه؛ لِقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؛ فاليدُ بعضٌ من الإنسان، لكن (القرينة) تدلُّ على أنَّ المرادَ الكلُّ، يعني: (بِمَا قدَّمتُم)[٦].

٤- **قوله:** ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ، مُقرِّر لمضمونِ ما قَبْلَها، والتعبيرُ عن ذلك بنَفْي الظُّلم؛ لِبيانِ كمالِ نزاهتِه تعالى عَن ذلك بتصويرِه بصورةِ ما يَستحيلُ صُدورُه عنه سبحانه من الظُّلْم، كما يُعبِّر عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٤٦-٤٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩٣، ٤٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢١٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٠٠).

ترْك الإثابةِ على الأعمالِ بإضاعتِها[١]، وحتَّى يَطمئنَّ الإنسانُ أنَّه لنْ يُجازَى إلَّا بعملِه: إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر[٢].

- والتعبيرُ بصيغةِ المبالَغة ﴿ظَلَّام﴾؛ لِتأكيدِ هذا المعنى بإبرازِ ما ذُكِر من التعذيب بغيرِ ذنبٍ في صُورة المبالَغةِ في الظُّلم. وقيلَ: هي لرِعايةِ جَمعيَّةِ العبيدِ من قولِهم: فلانٌ ظالمٌ لعبدِه، وظلَّام لعبيدِه، على أنَّها للمبالغة كمًّا لا كَيفًا؛ فجاء لفْظ (ظلَّام) بصيغةِ المبالَغةِ المقتضِيةِ للتكثير؛ لأنَّه لَمَّا قُوبِل بالعبيد- وهم كثيرون- ناسَبَ أنْ يُقابِل الكثيرَ بالكثير؛ ولأنَّه إذا نُفِي الظُّلْمُ الكثيرُ يُنفَى القليل؛ لأنَّ الذي يَظلمُ إنَّما يَظْلمُ لانتفاعِه بالظُّلم، فإذا ترَك كثيرَه مع زيادةِ نفْعِه فيمَن يجوزُ عليه النفْعُ والضرُّ -كان لقليلِه مع قلَّةِ نفْعِه أَتْرَكَ[٣].

٥- **قوله**: ﴿**فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ**﴾ تعليلٌ لجواب الشرط، أَيْ: فتَسلَّ؛ فقد كُذِّب رسلٌ من قبلك[٤].

- وتنكير ﴿رُسُل﴾؛ لكثرتِهم وشَياعِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٠٠)

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٦-٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٩).

الآيتان (١٨٥ - ١٨٦)

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبر تَعالى أنَّ كلَّ نفْسٍ لا بُدَّ أنْ يكونَ مصيرُها الموت، وأنَّه لا يُجزَى أحدٌ كامِلَ جزائِه على ما عمِلَ مِن خيرٍ أو شرٍّ إلَّا يومَ القيامة؛ فمَن جُنِّب النَّارَ، وأُدخِلَ الجنَّةَ فقد أفلَحَ، وما الحياةُ الدنيا إلَّا متعةٌ زائلةٌ تَغرُّ صاحبَها وتَخدعُه.

ثمَّ يُخبر اللهُ المؤمنين أنَّهم سيُخْتَبرون في أموالهم، وفي أنفسِهم، وأنَّهم سيَسمعون أذًى كثيرًا مِن أعدائِهم مِن أهلِ الكتابِ والمشركين، كالطعنِ في دينكِم، والاستهزاءِ بشريعتكم فإنْ يَصبروا على ما يُصيبهم مِن ذلك ويتَّقوا، فإنَّ ذلك من الأمورِ التي يُعزَم عليها، وتَحتاج إلى هِمَّةٍ عاليةٍ لِتحقيقِها.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أولئك المفترِين عليه من اليهود المكذِّبين برسولِه، الذين وصَف صِفتَهم، وأخْبَر عَن جراءتِهم على ربِّهم، ذَكر أنَّ مصيرَهم ومصيرَ غيرِهم

إليه؛ لأنَّه قد حتَّم الموتَ على جميعِهم، وفي هذا تَسليَةٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(١)]، قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

أَيْ: كلُّ نفْسٍ لا بُدَّ أنْ يُدركَها الموتُ، فتَنتقلَ بذلك مِن عالَم الفناءِ إلى عالمِ البَقاء[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٨).

قال ابنُ عاشور: (هذه الآيَةُ مرتبطةٌ بأصل الغرضِ المَسُوق له الكلامُ، وهو تسْليَةُ المؤمنين على ما أصابهم يومَ أُحُدٍ، وتَفنيدُ المنافقين في مَزاعمِهم أنَّ النَّاسَ لو استشاروهم في القِتال لأشاروا بما فيه سلامتُهم فلا يَهْلِكوا، فبَعد أَنْ بَيَّن لهم ما يَدْفعُ توَهمَهم أنَّ الانهزامَ كان خِذلانًا مِن اللَّه وتعَجُّبَهم منه كيف يَلحقُ قومًا خرجُوا لنصرِ الدِّينِ، وأنْ لا سَبَب للهزيمة بقوله: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [آل عمرَان: ١٥٥] ثُمَّ بَيَّن لهم أنَّ في تلك الرَّزِيَّةِ فَوائِدَ بقول اللَّه تعالى: ﴿لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى مَا فاتَكُمْ﴾ [آل عمرَان: ١٥٣] وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمرَان: ١٦٦]، ثمَّ أمرهم بالتَّسليم للَّه في كلِّ حالٍ، فقال: ﴿وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمرَان: ١٦٦] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقالُوا لِإِخْوانِهِمْ﴾ [آل عمرَان: ١٥٦] الآيَةَ. وبَيَّن لهم أَنَّ قَتْلَى المؤمنين الَّذين حَزِنوا لهم إنَّما هم أحياءٌ، وأنَّ المؤمنين الَّذين لم يَلحَقُوا بهم لا يُضَيِّعُ اللَّه أجَرَهم ولا فَضْل ثَباتِهم، وبيَّن لهم أَنَّ سلامةَ الكفَّارِ لا ينبغي أَنْ تُحْزِن المؤمنين ولا أنْ تَسُرَّ الكافرين، وأبطَلَ في خِلالِ ذلك مَقالَ المنافقين بقوله: ﴿قُل لَوْ كُنْتُمْ في بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ﴾ [آل عمرَان: ١٥٤] وَبِقَوْله: ﴿الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَقَعَدُوا﴾ إلى قوله: ﴿قُل فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [آل عمرَان: ١٦٨] خَتَم ذلك كلَّه بما هو جامِعٌ للغرضَيْن في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكم يومَ القِيامة﴾ لأنَّ المُصيبَة والحزنَ إنَّما نشَآ على موت مَن اسْتُشْهد مِن خِيرَةِ المؤمنين، يعني أنَّ الموتَ لمَّا كان غاية كلِّ حيٍّ فلو لم يموتوا اليوم لماتوا بعد ذلك، فلا تَأْسَفوا على مَوت قَتْلاكم في سبيلِ اللَّه، ولا يفتِنْكم المنافقون بذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١١).

نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء: ٣٤-٣٥].

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أَيْ: لا يُؤدَّى إليكم كامِلُ الجزاءِ على أعمالِكم- خيرِها وشرِّها- إلَّا في يومِ القيامة(١).

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

أَيْ: فمَن نُحِّي عن النارِ وجُنِّبها، وأُدخِلَ الجنَّة، فقد نجَا وظَفِرَ بعظيمِ كرامةِ الله تعالى(٢).

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

أَيْ: ليستْ هذه الحياةُ الدُّنيا بما فيها مِن لذَّاتٍ وشهواتٍ إلَّا مُجرَّد مُتْعَةٍ زائلةٍ تخدع صاحبَها؛ فلا يَنبغي لعاقلٍ أنْ يَركنَ إليها(٣).

قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[القصص: ٦٠].

عن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ مَوْضِعَ سَوْطٍ في الجنةِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، اقرؤوا إنْ شِئْتُم ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾))(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١١-٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩-١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٨-٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٨-١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٢-٥١٣).

(٤) رواه الترمذيُّ (٣٠١٣) واللفظ له، والدارمي (٢٨٢٠)، والنسائي في ((السُّنن الكبرى)) (١١٠٨٥)، وابن حبَّان (٧٤١٧).

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا سلَّى الرسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، زادَ في تسليَتِه بهذه الآية؛ فبيَّنَ أنَّ الكفَّار بعدَ أنْ آذَوُا الرَّسولَ والمسلمين يومَ أُحُد، فسيُؤذونهم أيضًا في المستقبَل بكلِّ طريقٍ يُمكِنهم: مِن الإيذاءِ بالنَّفس والإيذاءِ بالمالِ، والغرضُ مِن هذا الإعلامِ أَنْ يُوَطِّنوا أنفُسَهم على الصَّبْر وترْك الجزَع[1]؛ لذا قال تعالى:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾.

أَيْ: لَتُختَبرُنَّ في أموالِكم بوقوعِ المصائِب فيها: كتَلفِها، أو حُصولِ النقْص مِنْها، ولَتُمتحَنُنَّ أيضًا في أنفُسِكم: كأمرِكم بالجهادِ في سبيلِ الله، وما يَحصُل فيه مِن خوْفٍ وجِراحٍ وأسْرٍ وقتْلٍ، أو بإصابتِكم بمرَضٍ في أبدانِكم، أو موْتِ أحدِ أبنائِكم[2].

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥].

قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيح، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٠١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٣).

قال ابن عاشور عن هذه الآية: (استئنافٌ؛ لإيقاظ المؤمنين إلى ما يَعترض أهل الحق وأنصار الرسل من البلوى، وتنبيهٌ لهم على أنَّهم إنْ كانوا مِمَّن تُوهِنهم الهزيمةُ، فليسوا أحرياءَ بنصْر الحقِّ) ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٦-٥١٧).

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾.

أَيْ: إنَّ أعداءَكم مِن المشركين وأهْل الكتاب لا بدَّ أنْ يؤذوكم أذًى كثيرًا بألْسنتِهم، ومن ذلك تَكَرُّرُ طعْنِهم في دِينِكم، والنُّطْق بمعتقداتِهم الباطِلة[١].

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

أَيْ: إذا تسلَّحتُم- أيُّها المؤمنون- بسِلاح الصَّبرِ على ما يُصيبكم مِن بلاءٍ في أموالِكم وأنفسِكم، وعلى ما تَسمعونه مِن أذًى في دِينِكم مِن المشركين وأهْل الكِتاب، واستعملتُم التَّقوى بفِعْلِ أوامرِ اللهِ تعالى واجتنابِ نواهِيه- فإنَّ ذلك الصَّبرَ والتقوى مِن الأمورِ التي تَحتاج إلى هِمَّة عالية، ويَنبغي العزمُ والتصميمُ عليها[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٧-٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٨-٥٢١).

والجمهورُ على أنَّ الآية مُحْكَمة. يُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤).

وقال ابنُ تيميَّة: (إنَّ الأمر بالصَّبر على أذاهم وبتقوى اللهِ لا يَمنعُ قتالَهم عندَ المُكْنة، وإقامة حدِّ الله عليهم عند القُدْرة؛ فإنَّه لا خِلافَ بين المسلمين أنَّا إذا سمِعنا مُشْرِكًا أو كتابيًّا يُؤذي اللهَ ورسولَه، فَلا عَهْدَ بيننا وبينه، وجَبَ علينا أنْ نُقاتِلَه ونجاهِدَه إذا أمكن ذلك... وذلك: أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا قَدِم المدينةَ كان بها يهودٌ كثير ومشركون، وكان أهْلُ الأرض إذْ ذاك صِنفَين: مُشرِكًا أو صاحِبَ كتاب، فهادَن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم مَن بها من اليهود وغيرِهم، وأمرَهم الله إذْ ذاك بالعَفْو والصفْح، كما في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾؛ فأمرَه الله بالعفْو والصفْح عنهم إلى أنْ يُظهِر الله دينَه، ويُعِزَّ جُنْدَه، فكان أوَّلَ العزِّ وقعَةُ بدْرٍ؛ فإنَّها أذلَّت رِقابَ أكثرِ الكفَّار الذين بالمدينة، وأرهبَت سائرَ الكفَّار). ((الصارم المسلول)) (ص:٢١٦-٢١٧).

قال الزركشيُّ: (وبهذا التحقيقِ تَبيَّن ضعْفُ ما لهَجَ به كثيرٌ من المفسِّرين في الآياتِ الآمِرَةِ بالتخفيفِ أنَّها منسوخةٌ بآية السيف، وليستْ كذلك، بل هي مِن المُنسأ، بمعنى: أنَّ كلَّ أمرٍ ورَدَ

قال تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

عنْ أسامةَ بن زيْدٍ رضِي اللهُ عنهما: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ركِبَ على حِمارٍ، على قَطِيفةٍ فَدَكِيَّةٍ[١]، وأَرْدَفَ أسامةَ بنَ زيدٍ وراءَه، يعودُ سعدَ ابنَ عبادةَ في بني الحارثِ ابنِ الخَزْرَجِ، قبْلَ وقعةِ بَدْر، قال: حتَّى مرَّ بمجلسٍ فيه عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ ابنُ سَلولَ، وذلك قبلَ أن يُسْلِمَ عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ، فإذا في المجلسِ أخلاطٌ مِن المسلمين والمشركين عَبَدةِ الأوثانِ، واليهودِ والمسلمين، وفي المجلسِ عبدُ اللهِ بنُ رَواحَةَ، فلَمَّا غَشِيَتِ المجلسَ عَجاجَةُ الدَّابَّةِ[٢]، خمَّرَ[٣] عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ أَنفَه بِردائِه، ثمَّ قال: لا تُغَبِّروا علينا، فسَلَّم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليهم ثمَّ وقَفَ، فنزَلَ فدَعاهم إلى اللهِ، وقرَأَ عليهم القرآنَ، فقال عبدُ اللهِ بنِ أبيٍّ ابنُ سَلولَ: أيُّها المرءُ، إنَّه لا أحسنَ ممَّا تقولُ، إنْ كان حقًّا، فلا تُؤْذِنا به في مجالسِنَا، ارجِعْ إلى رَحْلِك، فمَن جاءَكَ فاقصُصْ عليه. فقال عبدُ اللهِ ابنُ رَواحةَ: بلى يا رسولَ اللهِ، فاغْشنَا به في مجالسِنَا؛ فإنَّا نُحِبُّ ذلك. فاستَبَّ المسلمون والمشرِكون واليهودُ حتَّى كادوا يَتَثاورون[٤]، فَلَمْ يَزَلِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُخفِّضُهم حتَّى سَكَنوا، ثمَّ ركِبَ النبيُّ صلَّى اللهُ

يجب امتثالُه في وقتٍ ما لعِلَّة تُوجِبُ ذلك الحُكم، ثم يَنتقل بانتقالِ تلك العِلَّة إلى حُكمٍ آخَر، وليس بنسخٍ إنَّما النسخُ الإزالةُ حتى لا يجوز امتثالُه أبدًا)) ((البرهان في علوم القرآن)) (٢/ ٤٢).

(١) قَطِيفة فَدَكيَّة: القطيفة دِثارٌ مُخمل، أو كِساءٌ غَلِيظ، وجمعها: قطائف. وفدَكيَّة نِسبة إلى فَدَك، وهي بلدةٌ أو قرية بالحِجازِ. يُنظر: ((معجم البلدان)) لياقوت (٤/ ٢٣٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٥٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣١).

(٢) أَيْ: غُبَارُهَا الذي تثيره. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣٢).

(٣) خَمَّرَ: أَي: غَطَّى. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣٢).

(٤) يَتَثَاوَرُونَ: أَي: يَتواثَبون، أي: قاموا بسرعة وانزعاج، وقاربوا أن يثبَ بعضُهم على بعض فيَقتَتِلوا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣٢).

عليه وسلَّمَ دابَّتَه، فسارَ حتَّى دخَلَ على سَعْدِ بنِ عُبادةَ، فقال له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: يا سعدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ ما قال أبو حُبَابٍ- يُريدُ عبدَ اللهِ بنَ أُبيٍّ- قال: كذا وكذا؟! قال سعدُ بنُ عُبادةَ: يا رسولَ اللهِ، اعفُ عنه، واصفَحْ عنه، فوالذي أنزَلَ عليك الكتابَ، لقد جاءَ اللهُ بالحقِّ الذي أنزَلَ عليك، ولقدِ اصطَلَحَ أهلُ هذه البُحَيْرَةِ[١] على أنْ يُتَوِّجُوه فيُعَصِّبُوه بالعِصابةِ[٢]، فلمَّا أبَى اللهُ ذلك بالحقِّ الذي أعْطاك اللهُ شرِقَ[٣] بذلك؛ فَذلِك فَعَلَ به ما رأيتَ، فعَفَا عنه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابُه يَعْفُون عن المشركينِ وأهلِ الكتابِ كما أمرَهم اللهُ، ويَصْبِرون على الأذى، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ الآيةُ، وقال اللهُ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتَأَوَّلُ[٤] العفْوَ ما أمَرَه اللهُ به، حتَّى أَذِنَ اللهُ فيهم، فلمَّا غزَا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بدْرًا، فقَتَلَ اللهُ به صَناديدَ[٥] كفَّارِ قُرَيشٍ، قال ابنُ أبيٍّ ابنُ سَلولَ وَمن

---

(١) البُحَيْرة- بضمِّ الباء مصغَّرة، ويروى بفَتْحها مُكبَّرة-: أصلُها القريةُ، والمقصودُ بها هنا: مدينةُ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (٦/ ١٧٣)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٥٨).

(٢) العصابة: العمامة، ويُعصِّبوه بالعصابة، أي: يُرئِّسوه ويُسوِّدوه، وكانوا يُسمُّون السيِّد المطاع مُعصَّبا؛ لأنَّه يُعصَّب بالتَّاج، أو يعصَّب به أمور الناس، ولما يعصب برأسه من الأمور، أو لأنَّهم يُعصبون رؤوسهم بعصابةٍ لا تنبغي لغيرهم فيمتازون بها. يُنظر: ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازري (٣/ ٤٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣٢).

(٣) شَرِقَ: أي: غُصَّ، وهو كناية عن الحسَد، كأنَّه شيء لم يقدِرْ على إساغته وابتلاعه، فغُصَّ به. يقال: غص بالطعام وشرق بالماء، إذا اعترض شيءٌ من ذلك في الحَلْق فمنعه الإساغة. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٦٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣٢).

(٤) يتأوَّل العَفوَ: التأويل تفسيرُ ما يؤولُ إليه الشَّيء، ويَعني هنا: يأخُذ العفوَ مِن قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣]، ويمتثِلُ به. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٢/ ٢١٧)، ((نخب الأفكار)) للعيني (١٤/ ٢٦٠)، ((شرح القسطلاني)) (٩/ ١١٩).

(٥) صَنَادِيد: جمع صنديد، وَهُوَ السَّيِّد الكَبِير فِي القَوم. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٨/ ١٥٧).

مَعَه مِن المشركين وعَبدةِ الأوثانِ: هذا أمرٌ قد تُوجِّهَ، فبَايَعوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الإسلامِ فأَسْلَمُوا))[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ المقصودُ من هذه الآيةِ: تأكيدُ تسليَةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام، والمبالغةُ في إزالةِ الحزْن مِن قلْبِه، وذلك من وَجهينِ: أحدهما: أنَّ عاقِبةَ الكلِّ الموتُ، وهذه الغمومُ والأحزانُ تَذهبُ وتزولُ، ولا يَبقى شيءٌ منها، والحزنُ متى كان كذلك لمْ يَلتفتِ العاقلُ إليه. والثاني: أنَّ بعدَ هذه الدارِ دارًا يَتميَّز فيها المحسِنُ عن المسيءِ، ويَتوفَّر على عملِ كلِّ واحدٍ ما يليقُ به من الجزاء، وكلُّ واحدٍ من هذينِ الوجهين في غايةِ القوَّةِ في إزالةِ الحُزْنِ والغَمِّ عن قلوبِ العُقلاء[٢].

٢- في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ حثُّ الإنسانِ على المبادرةِ للعملِ الصَّالح؛ لأنَّه إذا كان ميِّتًا ولا مَحالَةَ، وهو لا يَدري متى يموت، فعليه أنْ يُبادرَ، ولا سِيَّما في قضاءِ الواجباتِ، والتخلِّي عن المظالم والسيِّئات[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ فيه التزْهيدُ في الدُّنيا بفنائِها وعدمِ بَقائِها، وأنَّها متاعُ الغُرور، تَفتِنُ بزُخْرُفِها، وتَخدَع بغُرورِها، وتَغرُّ بمَحاسِنها، ثمَّ هي مُنتقِلةٌ، ومُنتقَلٌ عنها إلى دارِ القرارِ، التي تُوفَّى فيها النُّفوسُ ما عمِلَت في هذه الدَّارِ، مِن خيرٍ وشرٍّ[٤].

٤- الدُّنيا متاعُ الغُرور، ويَظْهرُ فسادُها لمن اشْتَراها مِن وجوه: أوَّلُها: أنَّه لو

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٦) واللفظ له، ومسلم (١٧٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩).

حصَل للإنسانِ جَميعُ مُراداتِه، لَكان غمُّه وهمُّه أزيدَ مِن سُرورِه؛ لِأجْل قِصَرِ وقْتِه، وقلَّة الوثوقِ به، وعدَمِ عِلْمِه بأنَّه: هَلْ يَنتَفِعُ به أمْ لا؟ وثانيها: أنَّ الإنسانَ كُلَّما كان وِجدانُه بمُرادات الدنيا أكثرَ، كان حرصُه في طلَبِها أكثَرَ، وكُلَّما كان الحرْصُ أكثرَ، كان تألُّم القلْبِ بسببِ ذلك الحرْصِ أشدَّ؛ فإنَّ الإنسانَ يَتوهَّم أنَّه إذا فازَ بمَقصودِه سَكنَتْ نفسُه، وليس كذلك، بلْ يَزدادُ طلَبُه وحِرْصُه ورغبَتُه. وثالثها: أَنَّ الإنسانَ بِقدْرِ ما يجدُ من الدُّنيا يَبقى محرومًا عَن الآخِرةِ التي هي أعظمُ السَّعاداتِ والخيرات، ومتَى عَرَفْتَ هذه الوجوهَ الثلاثةَ عَلِمْتَ أنَّ الدنيا متاعُ الغُرور، كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[(١)].

٥- في قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسان أنْ يَتفطَّن لِمَا فيه مِن خير وشرٍّ؛ لِيعلمَ أنَّه ابتلاءٌ مِن الله؛ ففي الخيرِ يُبتلى؛ لِيشكر، وفي ضِدِّه يُبتلى؛ لِيصبر[(٢)].

٦- قوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ في إخْبارِه لعباده المؤمنين بذلك عدَّةُ فوائد: منها: أنَّ حِكمتَه تعالى تقتضِي حصولَ ذلك؛ لِيتميَّزَ المؤمِنُ الصادِق مِن غيره، ومنها: أنَّه تعالى يُقدِّر عليهم هذه الأمور؛ لِما يُريده بهم من الخير؛ لِيُعليَ دَرجاتِهم، ويُكفِّرَ مِن سيِّئاتهم، ولِيزدادَ بذلك إيمانُهم، ويُتِمَّ به إيقانَهم؛ فإنَّه إذا أخبرَهم بذلك، ووقَع كما أخبر، ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾، ومنها: أنَّه أَخبرَهم بذلك؛ لِتتوطَّنَ نفوسُهم على وقوعِ ذلك، والصَّبرِ عليه إذا وقَعَ؛ لأنَّهم قد استعدُّوا لوقوعِه؛ فيهونُ عليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٢).

حِمْلُه، وتخِفُّ عليهم مُؤنتُه، ويَلجؤون إلى الصَّبرِ والتقوى[١].

٧- التنبيهُ على فضيلةِ العزْمِ في الأمورِ؛ لِقوله: ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾، وكلَّما كان الإنسانُ عازِمًا في أمورِه، كان ذلك أَنجحَ له وأحسَنَ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ يدلُّ على أنَّ المقتولَ يُسمَّى بالميِّت[٣].

٢- في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بَيَّن تعالى أنَّ تمامَ الأجْرِ والثواب لا يصِلُ إلى المكلَّف إلَّا يومَ القيامة؛ لأنَّ كلَّ مَنفَعةٍ تصلُ إلى المكلَّف في الدُّنيا فهي مُكدَّرةٌ بالغُمومِ والهُمومِ، وبخوفِ الانقطاعِ والزَّوال، والأجرُ التامُّ والثواب الكامِل إنَّما يصلُ إلى المكلَّفِ يومَ القيامة؛ فهناك يَحصُلُ السُّرورُ بلا غمٍّ، والأمْنُ بلا خوْفٍ، واللذَّةُ بلا ألَمٍ، والسَّعادة بلا خَوفِ الانقطاعِ، وكذا القولُ في جانبِ العِقاب؛ فإنَّه لا يَحصُل في الدُّنيا ألَمٌ خالِصٌ عن شَوائبِ اللذَّة، بل يمتزجُ به راحاتٌ وتخفيفات، وإنَّما الألمُ التامُّ الخالِصُ الباقي هو الذي يكون يومَ القيامةِ، نعوذُ بالله مِنْه[٤].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إشارةٌ لطيفةٌ إلى نعيمِ البَرْزَخِ وعذابِه، وأنَّ العامِلين يُجزَون فيه بعضَ الجزاء ممَّا عمِلوه، ويُقدَّم لهم أنموذجٌ ممَّا أسلَفوه، يُفهم هذا مِن قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَيْ: تَوفِية الأعمالِ التامَّة، إنَّما يكونُ يومَ القيامَة، وأمَّا ما دون ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٢).

فيكونُ في البَرْزَخ، بل قد يكونُ قبل ذلك في الدُّنيا، كقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾[١] [السجدة: ٢١].

٤- إنَّما جمَعَ بين ﴿زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ و﴿أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾؛ مع أنَّ في الثاني غُنْيةً عن الأوَّل؛ قيل: ليُعلِّق الفوزَ- وهو نيلُ الحظِّ مِن الخيرِ، والنجاةُ من الشرِّ- على التنحيةِ من النارِ ودُخولِ الجنة[٢]. وقيل: للدَّلالةِ على أنَّ دُخولَ الجنَّةِ يَشتملُ على نِعمتَينِ عظيمتينِ: النَّجاةِ مِن النار، ونعيمِ الجنَّة[٣].

٥- قال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ... أَذًى﴾ ولم يقُلْ ضررًا؛ لأنَّ هذا الذي يَسمُعه المؤمنون يُؤذيهم، ولكن لا يَضرُّهم[٤].

٦- الصَّبرُ عبارةٌ عن احتمالِ المكروه، والتقوى عبارةٌ عن الاحترازِ عمَّا لا ينبغي، وفِعلِ ما يَنبغي فِعلُه؛ فقَدَّم ذِكرَ الصَّبر ثمَّ ذَكَر عَقِبَه التقوى في قولِ الله تبارَك وتعالَى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾؛ لأنَّ الإنسانَ إنَّما يُقدِمُ على الصَّبر؛ لأنَّه يُريدُ الاتِّقاءَ عمَّا لا يَنبغي. وفيه وجهٌ آخر: وهو أنَّ مُقابَلةَ الإساءةِ بالإساءةِ تُفضِي إلى ازديادِ الإساءة، فأَمرَ بالصَّبْر؛ تقليلًا لمضارِّ الدُّنيا، وأمَر بالتقوى؛ تقليلًا لمضارِّ الآخِرة، فكانتِ الآيةُ على هذا التأويلِ جامعةً لآداب الدُّنيا والآخِرة[٥].

بَلاغَةُ الآيات:

١- قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ خبرٌ فيه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٦٠- ٤٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٤).

وعْدٌ للمُصدِّق، ووعيدٌ للمُكذِّب[١].

- وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ فيه: تشبيهٌ بَليغٌ؛ فقد شبَّه الدنيا بالمتاعِ الذي يُدلِّس به بائعُه على طالِبه؛ حتَّى يَنخدعَ ويَشتريَه، وخرَجَ هذا التَّشبيهُ مَخرجَ الإنكارِ على مَن جَعَل دَيْدَنَه الاغترارَ بالدُّنيا، وهي في الواقعِ لا نَفْعَ فيها، ولا طائِل تحتَها[٢].

- وفيه: تأكيدُ الخبرِ باسميَّة الجُملة، والقصْر بـ(مَا) و(إلَّا)[٣].

٢- **قوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَذًى كَثِيرًا﴾** أكَّد الفِعلين (لتبلونَّ- ولتسمعنَّ) بلامِ القَسم، وبنونِ التوكيدِ الشَّديدة؛ لِإفادةِ تحقيقِ الابتلاءِ؛ إذْ نونُ التوكيدِ الشديدةُ أقْوَى في الدَّلالةِ على التوكيدِ مِن الخفيفةِ[٤].

- وفيه: تقديمُ الأموالِ؛ لِكثرة وقوعِ الهلَكةِ فيها[٥].

- وقوله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، أي: من قبلُ إيتائِكم القرآنَ، وهم اليهودُ والنَّصارى؛ عبَّر عنهم بذلِك للإشعارِ بمدار الشِّقاقِ، والإيذانِ بأنَّ بعضَ ما يَسمَعونه منهم مُستنِدٌ على زعْمِهم إلى الكتابِ، والتصريحُ بالقَبْليَّة في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ لِتأكيدِ الإشعارِ وتقويَةِ المدارِ؛ فَإِنَّ قِدَمَ نُزولِ كتابِهم ممَّا يُؤيِّد تمسُّكَهم به[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٢٥)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٣- ١٢٤).

٣- **قوله**: ﴿**وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِك**﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الصَّبر والتَّقوى، وما فيه مِن معنى البُعد؛ لِلإيذانِ بعُلُوِّ درجتِهما، وبُعدِ مَنزِلَتِهما[١].

وتوحيدُ حَرْفِ الخِطاب؛ إمَّا باعتبارِ كلِّ واحدٍ من المخاطَبين، وإمَّا لأنَّ المرادَ بالخِطاب مُجرَّدُ التنبيهِ مِن غيرِ مُلاحَظةِ خُصُوصِيَّةِ أحوالِ المخاطَبين[٢].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (١٨٧ - ١٨٨)

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بِمَفَازَةٍ﴾: أَيْ: بمَنجاةٍ، أو بمَوضِعِ الفوْز، ومِنْه يُقال: فازَ فُلانٌ، أَيْ: نجا، والفوز: الظَّفَرُ بالخيرِ مع حُصولِ السَّلامة، وأصلُه: النَّجاة[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾: وكذلك قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾: قُرِئ بتاءِ الخِطاب فيهما، وبياءِ الغَيبةِ فيهما، وبياءِ الغَيبةِ في الأوَّلِ وتاءِ الخِطابِ في الثَّاني، ولكلِّ قِراءةٍ توجيهُها الإعرابيُّ:

فعَلى قِراءة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ و﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ بالتاء؛ فالفِعلانِ مضافانِ إلى المخاطَب، وهو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو الفاعِلُ. و﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ مفعولٌ أوَّلُ لـ﴿تَحْسَبَنَّ﴾، وحُذِف المفعولُ الثَّاني؛ لدَلالةِ ما بعدَه عليه- وهو ﴿بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾، الذي هو المفعولُ الثاني لـ﴿تَحسَبَنَّهُمْ﴾، وقيل: إنَّ ﴿بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ هو المفعولُ الثاني لـ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ الأوَّلِ على تَقديرِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللُّغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦١، ٦٤٧)، ((التِّبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤).

التَّقديمِ، فيكونُ المفعولُ الثاني لـ(تَحْسَب) الثاني محذوفًا؛ لدَلالةِ الأوَّلِ عليه تقديرُه: لا تَحسبَنَّ- يا محمَّدُ- الذين يَفرحون بما أَتَوْا بمفازةٍ من العذاب، فلا تَحسبنَّهم بمفازةٍ من العذابِ، ثم حُذِف الثاني. و﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾: تأكيدٌ لـ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاءِ أيضًا، أو بَدلٌ جاءَ مشوبًا بمعنى التأكيدِ؛ لاتِّفاقِ الفاعلين والمفعولين، والفاءُ صِلةٌ لا تمنَعُ من البَدلِ.

وعلى قِراءة (لَا يَحْسَبَنَّ) و(فَلَا يَحْسَبَنَّهُمْ) بالياء؛ فـ﴿الَّذِينَ﴾ فاعلٌ، ومَفْعولَا (لَا يَحْسَبَن) محذوفانِ؛ اكتفاءً بمفعولي (فَلَا يَحْسَبَنَّهُمْ)؛ لأنَّ الفاعلَ فيهما واحدٌ، فالفِعلُ الثاني تكريرٌ للأوَّل؛ (فَلَا يَحْسَبَنَّهُمْ): تأكيدٌ لـ(لَا يَحْسَبَن)، أو بدلٌ جاءَ مشوبًا بمعنى التأكيد، ولَمَّا تعدَّى (فَلَا يَحْسَبَنَّهُمْ) إلى مَفعولَينِ استُغني بذلك عن تَعدِّي (لَا يَحْسَبَن)؛ لأنَّ الثاني بدلٌ منه، فاستُغني بتعدِّيه عن تَعدِّي الأوَّل، والتقدير: لا يَحسبَنَّ الفارِحونَ أنفسَهم فائزين؛ فلا يَحسبنَّهم فائِزين.

وأمَّا على قِراءة الأوَّل (لَا يَحْسَبَنَّ) بالياء، والثاني (فَلَا تَحْسَبَنَّ) بالتاء؛ فالإعرابُ كما مرَّ في كلِّ فِعلٍ بحسَبِه، إلَّا أنَّه لا يَحْسُن في الثاني التأكيدُ أو البَدلُ؛ لاختلافِ فاعليهما، ولكن يكونُ مفعولَا الأوَّل حُذِفَا؛ لدلالةِ مفعولَيِ الثاني عليهما، وفي الآيةِ توجيهاتٌ أخرى[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُذكِّر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى عليه وسلَّم؛ حين أخذ سبحانَه عهْدًا مُؤكَّدًا مِن أهْل الكتاب: بأنْ يقوموا بتبيين ما في كُتُبهم للنَّاس، ولا يُخفون شيئًا ممَّا فيها؛ فنَقضوا ذلك العهد، ولم يعملوا به، ومن ذلك أنْ كتموا صِفَة مُحمَّد صلَّى اللهُ

(١) يُنظر في إعرابِ هذه الآية وتوجيهِها: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٨٢- ١٨٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣١٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٢٥- ٥٣٠).

عليه وسلَّمَ الَّتِي في كتُبهم، مُستبدِلين مُقابِلَ ذلك الكتمانِ ما حصلوا عليه من مَكاسِبَ دُنيويَّة حقيرة؛ فبِئس ما صَنَعوا.

ويُخاطِب اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أنْ لا يَظُنَّ الذين يَفرحون بما فَعَلوه من أعمالٍ، ويُحبُّون أنْ يُثنِي عليهم الناسُ بما لم يَعملوه- أنَّهم سيَنجُون من عذابِ الله، بل لهم عذابٌ أليمٌ!

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حكَى اللهُ تعالى عنِ اليَهودِ شُبَهًا طاعِنةً في نُبوَّة مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وأجاب عنه، أتْبَعه بهذه الآيةِ، وذلك؛ لأنَّه تعالى أوجَبَ في التوراةِ والإنجيلِ على أُمَّة موسى وعيسى عليهما السَّلام أنْ يَشرحوا ما في هذين الكِتابَيْن من الدَّلائلِ الدَّالَّةِ على صِحَّة دِينِه، وصِدْقِ نُبوَّته ورِسالَتِه، والمراد منه التعجُّب مِن حالهم، كأنَّه قِيل: كيفَ يَليقُ بكم إيرادُ الطَّعْنِ في نُبوَّته ودِينه مع أنَّ كُتبَكم ناطِقةٌ ودالَّةٌ على أنَّه يجبُ عليكم ذِكْرُ الدَّلائل الدَّالَّة على صِدْق نبوَّته ودِينه[1].

وأيضًا فإنَّه تعالى لَمَّا أوجبَ في الآيةِ المتقدِّمةِ على مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ احتمالَ الأذى مِن أهْلِ الكتاب، وكان مِن جُملة إيذائِهم للرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أنَّهم كانوا يَكتُمون ما في التوراةِ والإنجيلِ مِن الدَّلائل الدَّالَّة على نُبوَّته؛ فكانوا يُحرِّفونها، ويَذكُرون لها تأويلاتٍ فاسِدةً؛ فبَيَّن أنَّ هذا مِن تِلك الجُملةِ الَّتِي يجب فيها الصَّبرُ[2]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾.

أَيْ: واذْكُر - يا مُحمَّدُ- حين عَهِد اللهُ عزَّ وجلَّ إلى اليهودِ وغيرِهم مِن أهل الكتاب عَهْدًا مؤكَّدًا: بأنْ يُبيِّنوا ما في كتُبهم للنَّاس، ولا يُخفونه أبدًا، ومن ذلك صِفةُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإثباتُ رِسالتِه[١].

عنْ أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((من سُئِلَ عن علْمٍ علِمَهُ، ثُمَّ كتَمَهُ، أُلْجِمَ يَومَ القيامَةِ بلِجامٍ من نارٍ))[٢].

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

أَيْ: فكانتِ النتيجةُ أنَّهم نقَضوا هذا العهْدَ، وترَكوا العملَ به، ككِتمانِهم صِفةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الناس[٣].

﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أَيْ: أرادُوا مُقابِلَ نقْضِهم عَهدَ الله تعالى؛ بكِتمانهم ما في كتُبهم- الحصولَ على حُظوظٍ دُنيويَّةٍ خسيسةٍ مِن مَناصِبَ أو أموالٍ، أو غيرِ ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٤-٥٢٥).

(٢) رواه الترمذيُّ (٢٦٤٩) واللفظ له، وأبو داود (٣٦٥٨)، وابن ماجه (٢٦٦)، وأحمد في ((مسنده)) (٨٥١٤).

حسنه الترمذي، وقال ابن القطان في ((بيان الوهم والإيهام)) (٥/ ٢١٨): رواته كلهم ثقات. وصحح إسناده أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (١٥/ ١٩٤)، وصححه الألباني في ((صحيح ابن ماجة)) (٢١٥)، وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٣٧٧): حسن رجاله رجال الصحيح.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٤، ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٥).

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

أَيْ: فبِئستِ الصفْقَةُ صَفْقتُهم، وما أخسرَها مِن تجارةٍ! لأنَّهم اختاروا الدَّنيءَ الخَسيسَ، وترَكوا العاليَ النَّفيس[1].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨)﴾.

سببُ النُّزول:

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ رجالًا مِن المنافقين على عَهْدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كان إذا خرَجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الغَزْوِ تَخَلَّفُوا عنه، وفَرِحُوا بمقعدِهم خِلافَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإذا قَدِمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اعتَذَرُوا إليه وحَلَفُوا، وأحَبُّوا أنْ يُحْمَدوا بما لم يَفْعَلوا، فنزَلَتْ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآيةُ))[2].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾، بَيَّن تعالى هنا أنَّ مِن جُملةِ أنواعِ هذا الأذَى أنَّهم يَفرحون بما أَتَوْا به من أنواعِ الخُبْث، والتلبيسِ على ضَعَفةِ المسلمين، ويُحبُّون أنْ يُحمَدوا بأنَّهم أهْلُ البِرِّ والتقوى والصِّدْق والدِّيانة وغير ذلك، ولا شكَّ أنَّ الإنسانَ يَتأذَّى بمشاهدةِ مِثل هذه الأحوالِ؛ فأمَرَ اللهُ تعالى نَبيَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٤، ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٦-٥٢٧).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٥٦٧)، ومُسلِم (٢٧٧٧).

عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالمصابرةِ عليها وبيَّن ما لهم مِن الوعيدِ[١]، فقال تعالى:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ قِراءتان:

١- قراءة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالخِطابِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وجَعْله الفاعِل، و﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ مفعولًا[٢].

٢- قراءة (لَا يَحْسَبَنَّ) بجَعْل الفاعل: ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾[٣].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾.

أَيْ: لا تظُنَّنَّ يا مُحمَّدُ، ولا يَظُنَّنَّ الَّذين يَفرحون بما فعَلوه من أقوالٍ وأفعالٍ باطِلة: ككِتْمان العِلم مَن سألهم عنه، كاليهود، والتخلُّف عن الغزْو في سبيل الله تعالى، كالمنافقين، وكأعمال المتزيِّنين للنَّاس، المُرائين لهم بما لم يَشرَعْه الله ورسولُه[٤].

عن ثابتِ بنِ الضحَّاك رضِي اللهُ عنه: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ومَن ادَّعى دعَوى كاذبةً؛ لِيتكثَّرَ بها لم يَزدْه اللهُ إلا قِلَّةً))[٥].

﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٦).

(٢) قرأ بها الكوفيُّون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٧).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٩).

(٥) رواه مُسلِم (١١٠).

أَيْ: وهم مع ذلك يُحبُّون أنْ يُثني الناسُ عليهم بالخَيرِ، على طاعاتٍ للهِ تعالى لم يَقوموا بها[(١)].

فجمَعوا بذلك بين فِعْلِ الشَّرِّ والفرَحِ بذلك، ومحبَّةِ حمْدِ النَّاسِ لهم على الخيرِ الذي لم يَفعلوه[(٢)].

عن عَلْقمةَ بنِ وقَّاصٍ ((أنَّ مَرْوانَ، قال: اذْهَبْ يا رافعُ- لبوَّابِه- إلى ابنِ عَبَّاسٍ فقُلْ: لَئِنْ كان كلُّ امْرِئٍ منَّا فَرِحَ بِما أَتَى، وأَحبَّ أنْ يُحْمَدَ بما لم يَفْعَلْ مُعَذَّبًا، لَنُعَذَّبَنَّ أجمعونَ! فقال ابنُ عَبَّاسٍ: ما لكُم ولهذه الآيةِ؟ إنَّما أُنزِلَتْ هذه الآيةُ في أهلِ الكِتابِ، ثُمَّ تَلا ابنُ عبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] هذه الآيةَ، وتَلا ابنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨]، وقال ابنُ عَبَّاسٍ: سألَهُم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن شَيءٍ فكَتَموه إيَّاه، وأخْبَروه بغَيرِه، فخَرَجوا قدْ أَرَوْه أنْ قدْ أخْبَروه بما سَأَلَهُمْ عنه، واسْتَحْمَدوا بذلكَ إليه، وفَرِحوا بِما أَتَوْا مِنْ كِتْمانِهم إيَّاه ما سَأَلَهُمْ عنه))[(٣)].

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ قِراءتان:

١- قراءة (يَحْسَبُنَّهُمْ) بجَعْلِ الفِعلِ للذين يَفرَحون بما أَتوا، ويُحبُّون أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٩-٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠).

(٣) رواه البُخارِي (٤٥٦٨)، ومُسلِم (٢٧٧٨) واللفظ له.

يُحمدوا بما لم يَفعلوا، أَيْ: فلا يَحْسَبون أنفسَهم بمفازةٍ من العذابِ[١].

٢- قِراءة ﴿تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ بجَعْل الفِعل خِطابًا للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

أَيْ: فلا تَظُنَّهم- يا مُحمَّدُ- ولا يظُنَّ أولئك القومُ أنفسَهم أنَّهم في سَلامةٍ ونجاةٍ من عذابِ الله تعالى[٣].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أَيْ: إنَّهم قد استحقُّوا عذابًا مُؤلِمًا، سيَصيرون إليه[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ وجوبُ بيانِ العِلمِ على أهلِ العِلم، ولمْ يَذكرِ اللهُ عزَّ وجلَّ الوسيلةَ التي يَحصُل بها البيان؛ فتكونُ على هذا مُطلقَةً، راجعةً إلى ما تَقتضيه الحالُ، قد يكون البيانُ بالقولِ، وقد يكونُ بالكتابةِ، وقد يكونُ في المجالسِ العامَّة، وقد يكونُ في المجالسِ الخاصَّة، على حسْبِ الحال؛ لأنَّ اللهَ أطلقَ البيانَ، ولم يُفصِّل ولم يُعيِّن[٥].

---

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٧)، ((الكشْف)) لمكي (١/ ٣٧١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٧)، ((الكشْف)) لمكي (١/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٧).

٢- يَنبغي قرْنُ النَّفي بالإثباتِ في الأمور المهِمَّة؛ لِيتحقَّقَ الكمالُ؛ لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾، ووجْه ذلك: أنَّ البيانَ عدمُ الكتمان، لكن لَمَّا قال: ﴿وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ أكَّد البيانَ بأنْ يكونَ كامِلًا، ليسَ فيه أيُّ نوعِ كِتمانٍ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ وقال بعده: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ مع أنَّ البيان ضدُّ الكتمان؛ وذلك لأنَّ المعنى: لَتبيِّنُنَّه بيانًا لا كِتمانَ فيه بأيِّ وجهٍ من الوجوه[٢]، أو يكون المرادُ مِن البيان ذِكْرَ تلك الآيات الدَّالَّة على نُبوَّة محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من التوراة والإنجيل، والمرادُ مِن النهي عن الكِتمان أنْ لا يُلقُوا فيها التأويلاتِ الفاسِدةَ، والشُبهات المعطلة[٣].

٢- الذمُّ القبيح لأهْلِ الكتابِ اليهود والنصارى؛ لِقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ وذلك أنَّه يُلاحَظ شدَّةُ القذْفِ في قوله: ﴿نَبَذُوه﴾، ثمَّ شِدَّةُ الاستكبار في قوله: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾[٤].

٣- دلَّ مفهومُ قوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ على أنَّ مَن أحبَّ أنْ يُحمَدَ، ويُثنى عليه بما فعَلَه من الخيرِ، واتِّباع الحقِّ، إذا لمْ يكُن قصدُه بذلك الرِّياءَ والسُّمْعَةَ- أنَّه غيرُ مذمومٍ، بل هذا من الأمورِ التي جازَى بها اللهُ تعالى خَواصَّ خَلْقِه، وسألوها مِنه، كما قال إبراهيمُ عليه السَّلام: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، وقال: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحْسِنِينَ﴾، وقد قال عِبَاد الرَّحْمن: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

بَلاغَةُ الآيتين:

١ - قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كلامٌ مُستأنَف سِيقَ؛ لِبيان بعض أذياتهم، وهو كِتْمانُهم ما في كِتابِهم من شواهدِ نُبوَّتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وغيرِها[١].

- وفيه: التفاتٌ؛ فقَد انتقلَ من الغَيْبةِ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ...﴾ إلى الخِطابِ في قوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾، ثمَّ عاد إلى الغيْبةِ في قولِه تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ﴾، والفائدةُ مِن ذلك: زيادةُ التَّسجيلِ المباشِرِ عليهم[٢].

- وفيه تأكيدُ إيجابِ بيانِ الكتابِ، واجتنابِ كِتمانه؛ حيثُ قال: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾، ولم يقل: (ولا تكتموه)، ولَم يُؤكِّد بالنون؛ لكونِه مَنفيًّا؛ أو لأنَّه اكتفَى بالتأكيدِ بالنونِ في الأوَّل؛ ولأنَّ هذا الفِعلَ نفسَه تأكيدٌ له[٣].

- قوله: ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ فيه: العطْف بالفاءِ الدَّالَّةِ على التعقيبِ؛ للإشارةِ إلى مُسارَعتِهم إلى ذلك، ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ مُستعمَلةً في لازِم التعقيب، وهو شِدَّةُ المسارَعَة لذلك عند اقتضاءِ الحال إيَّاه، والاهتمامُ به، وصرْفُ الفكرة فيه[٤].

- قوله: ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فيه نهايةُ الجَزالة، والدَّلالةُ على كمالِ فَظاعة حالِهم وغاية قُبْحها، بإيثارِهم الدنيءَ الحقيرَ على الشَّريفِ الخَطير، وتَعكيسِهم بجعلهم المقصِدَ الأصلِيَّ وسيلةً، والوسيلةَ مَقصِدًا؛ حيثُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٢٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩١- ١٩٢).

صوَّر هذه المعاملةَ بعقْدِ المعاوَضَة، لا سيَّما بالاشتراءِ المؤذِن بالرَّغبةِ في المأخوذ، والإعراضِ عن المعطَى، والتعبيرِ عن المُشترَى الذي هو العُمْدةُ في العَقْد، والمقصودُ بالمعامَلة بالثَّمنِ الذي شأْنُه أنْ يكونَ وسيلةً إليه، وجعْلِ الكتابِ الذي حقُّه أنْ يَتنافسَ فيه المتنافِسون مَصحوبًا بالباءِ الدَّاخِلة على الآلاتِ والوسائلِ[(١)].

٢- **قوله**: ﴿**لَا تَحْسَبَنَّ**﴾، ﴿**فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ**﴾ فيه تَكرار الفعل (حسب)، وهو يُفيد التَّأكيد[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٦).

الآيات (١٨٩ - ١٩٥)

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿أَخْزَيْتَهُ﴾: أي: أهْلكتَه وأبعدتَه، وقيل: أَخْزى فلانًا، أي: ألْزمَه الحُجَّةَ وأذلَّه معها، وخزِيَ الرَّجُلُ: لَحِقَه انكسارٌ، والخزاية: النَّكالُ والفضيحةُ، وأصل الإخزاء: الإبعادُ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١ - **قوله:** ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾

﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾: الجارُّ والمجرور متعلِّق بـ﴿وَعَدْتَنا﴾، بتقديرِ مُضافٍ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥، ٤٣٢).

محذوف، والتَّقدير: ما وَعَدْتنا على تَصديقِ رُسلِك مِن الثَّوابِ، أو على ألْسنةِ رُسلِك، ويجوزُ أنْ يتعلَّق بـ﴿آتِنَا﴾، وقيل غير ذلك[١].

٢- قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾

﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ﴾: (أنَّ) المفتوحةُ وما بعدَها مَصدرٌ مؤوَّل، وهو في مَحلِّ نصْبٍ على نزْعِ الخافِض، أو في محلِّ جرٍّ بحَرْف الجرِّ؛ إذ التقدير: (بأنِّي لا أُضيع)، والجارُّ والمجرور متعلِّقان بـ﴿اسْتَجَابَ﴾. وقُرِئ (إنِّي) بالكسر على تَقديرِ: فقَال: إنِّي لا أُضيع، أو على الحِكايةِ بـ﴿اسْتَجَابَ﴾؛ لأنَّ فيه معنى القول، وعليه فـ(إنَّ) وما بعدَها في محلِّ نصْب؛ لأنَّها جملةُ مقول القول[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبر تعالى أنَّه وحَدَه مَن يَملِكُ السَّمواتِ والأرضَ وما فيهما، وهو ذو القُدرةِ التامَّةِ على كلِّ شيء.

ويُخبر أيضًا سبحانه أنَّ في خلقِ السَّموات والأرض من عدمٍ، وصُنعِهما المتقنِ وما فيهما، وتعاقُبِ الليل والنهار، لَدلائلَ واضحةً لذوي العقولِ السَّليمةِ، تدلُّهم على الخالقِ سبحانه وعلى صِفاتِه، هؤلاء هم الذين يَذكُرون الله تعالى دائمًا، وعلى مُختلفِ حالاتِهم؛ قِيامًا وقُعودًا ومُضطجِعين، وتَجُولُ أفكارُهم في خلْقِ السَّمواتِ والأرض، يقولون وهم يتفكَّرون فيها مُخاطِبين الله تعالى: إنَّك يا ربَّنا، لم تَخلقْ هذا الخلقَ عبثًا؛ فأنتَ منزَّهٌ عن العَبثِ واللَّهو، فجنِّبْنا عذابَ النارِ، تِلك النارُ التي مَن أدخلتَه فيها فقدْ أهنتَه، وما للظالمين مِن أنصار، ربَّنا إنَّنا سَمِعنا نبيَّك مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدْعو إلى الإيمانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٢٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٣٧- ٥٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٣٨)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ١٨٠).

بك، فاستجَبْنا له، فتجاوزْ عن ما اقترَفْناه مِن ذنوبٍ، واستُرْها بسَتْرِك، وامْحُها بإيمانِنا بك واتِّباعنا لنبيِّك، واجعَلْنا حينَ تتوفَّانا مِن الصَّالحين، ربَّنا وآتِنا جميعَ ما وعدتنَا به على ألْسِنةِ رُسلِك، ولا تَفضَحْنا بذُنوبِنا أمامَ الخَلْقِ يومَ القيامة؛ إنَّك لا تخلفُ وعدَك.

فأَخبرَ اللهُ تعالى أنَّه استجابَ لهم تلك الدَّعواتِ؛ فهو سبحانه لا يَضيعُ عَملٌ عنده، أيُّ عَملٍ، ومِن أيِّ عاملٍ، سواء كان ذكرًا أو أنثى؛ فلا فَرْقَ بينهم في ذلك، فالذين ترَكوا أوطانَهم- لكونها دارَ كُفرٍ- إلى دارِ الإيمان، أو طَردَهم أهلُ الشِّركِ مِن دِيارهم، وأُوذوا في سبيل الله، وقاتلوا في سبيلِ الله وقُتلوا، سَيمْحُو اللهُ عنهم خَطاياهم، وسيُدخلهم جنَّاتٍ تَجري من تحتِها الأنهارُ؛ جزاءً من عند الله على ما بذَلوا وقدَّموا، واللهُ تعالى عنده حُسنُ الثَّواب.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو وَحْدَه المالكُ لكلِّ شيءٍ؛ فيَملِكُ السَّمواتِ والأرضَ، وجميعَ ما من أصنافِ الخَلْق[1].

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ له كمالُ القُدرةِ على كلِّ شيءٍ، فلا يمتنعُ عليه أحدٌ، ولا يُعجِزُه شيءٌ سبحانه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان المقصودُ من هذا الكتابِ الكريمِ جَذْبَ القلوبِ والأرواحِ عن الاشتغالِ بالخَلقِ إلى الاستغراقِ في مَعرفةِ الحقِّ، والإيمانِ بِهِ وتوحيدِهِ وطاعتِهِ، فلمَّا طال الكلامُ في تقريرِ الأحكامِ، والجوابِ عن شُبهاتِ المبطِلين، عادَ إلى إنارةِ القلوبِ بذِكرِ ما يدلُّ على التوحيدِ والإلهيَّة والكبرياءِ والجلالِ، فذَكَر هذه الآيةَ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى أنَّه مالكُ السَّمواتِ والأرضِ، وذكَر قُدرتَه، ذكَر أنَّ في خَلقِهما دَلالاتٍ واضحةً لذَوي العقولِ[٢]، فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ في إيجاد هذه السَّموات والأرضِ من العدمِ، وابتداعِهما على غيرِ مثالٍ سبَق[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عثمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٦-٥٣٨).

وفي خلقِ السَّموات والأرضِ آياتٌ مِن عدةِ أوجهٍ:

الوجهُ الأوَّل: مِن جهة الكِبَر والسَّعة.

الوجه الثاني: ما فيهما من الحُسن والبهاءِ والجَمال، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥].

الوجه الثالث: في خَلق السَّموات من جهةِ إتقانِها وعدم تخلخلها، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣ - ٤].

الوجه الرابع: في خلقِ السَّموات والأرضِ مما أودع الله فيهما مِن الموادِّ المتعددةِ، المختلفةِ الأنواعِ والأشكالِ والمنافعِ، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ [الرعد:

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

أي: وفي تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ على العبادِ، وتفاوتهما طولًا وقِصَرًا، وغير ذلك[١].

﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

أي: إنَّ في خَلْق تِلكِ المخلوقاتِ العجيبةِ، وما تَحويه من الأشياءِ المبهرةِ العظيمة، لعلاماتٍ لأصحابِ العقولِ السَّليمةِ، التي تُدرِكُ حَقائقَ الأشياء، فتدلُّهم على أنَّ خالقَ ذلك هو الربُّ المعبودُ وحْدَه سبحانه، كما تدلُّهم على صِفاتِ الله تبارَك وتعالَى[٢].

عن ابن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما، قال: ((بِتُّ في بيتِ مَيمونَةَ ليلةً، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِندَها؛ لأنظُرَ كيفَ صلاةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالليلِ، فتحدَّث رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ معَ أهلِه ساعةً ثم رقَد، فلمَّا كان ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، أو بعضُه، قعَد فنظَر إلى السَّماءِ، فقرأ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، ثمَّ قام فتوضَّأ واستَنَّ[٣]،

٤] يعني متجاورات بعضها إلى جوار بعض ولكن بينهما من الاختلاف ما لا يعلمه إلا الله. فيهما أيضًا ما فيهما مِن المنافعِ العظيمةِ للخلقِ؛ فالشمسُ فيها خيرٌ عظيمٌ، والقمرُ كذلك، والأشجارُ وغيرُها كلُّها فيها خيراتٌ عظيمةٌ من آيات الله عزّ وجل. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٧)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عثمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٩-٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٥١)، ((تفسير ابن عثمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤٠).

(٣) استنَّ أي: استاك، والاستنانُ الاستياكُ، وهو دلكُ الأسنانِ بالعُودِ ونحوِه. يُنظر: ((فتح الباري)) (١/ ١٣٤).

ثم صلَّى إحْدَى عشْرةَ ركعةً، ثم أذَّن بلالٌ بالصَّلاةِ، فصلَّى ركعتَينِ، ثمَّ خرَج فصلَّى للناسِ الصُّبحَ))[١].

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ سبحانه وتعالى في الآيةِ السَّابقةِ دَلائلَ الإلهيَّةِ والقُدرةِ والحِكمةِ، وهو ما يتَّصلُ بتَقريرِ الرُّبوبيَّة، ذكَرَ بعدَها ما يتَّصل بالعبوديَّة[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى أنَّ الذين يَنتفعونَ بتلك الآياتِ هم أُولو الألبابِ، شرَعَ في وصْفِهم[٣]، فقال:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾.

أي: إنَّ أُولي الألبابِ هم الذين يُديمون ذِكرَ اللهِ تعالى بقلوبِهم وألْسنتِهم، وفي جميعِ أحوالِهم، في حالِ وُقوفِهم، وحالِ جُلوسِهم، وحالِ اضطجاعِهم[٤].

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وصَفَهم بالذِّكر، وثبَت أنَّ الذِّكرَ لا يَكمُلُ إلَّا مع الفِكر، لا جرمَ قال بَعْدَه[٥]:

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٠).

أي: إنَّ مِن صِفاتِهم أيضًا أنهم يُعمِلون عُقولَهم في خَلْقِ اللهِ تعالى للسَّمواتِ والأرض؛ ليَستدلُّوا بذلك على المقصودِ منها، ويَفهموا ما فيها من الحِكمِ الدالَّةِ على صِفاتِ الخالقِ جلَّ وعلا[١].

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾.

أي: إنَّهم حين يَتفكَّرون في خَلْقِ السَّمواتِ والأرض، يقولون: إنَّك يا ربَّنا، لم تَخلقْ هذا الخَلْقَ عبثًا ولا لهوًا؛ فأنتَ مُنزَّهٌ عن ذلك، ولكنَّك خلقتَه لحِكمةٍ ولأمرٍ عظيمٍ، من تكليفٍ وبعْثٍ، وحسابٍ وجزاءٍ، فتجزي كلَّ أحدٍ بما عمِله من خيرٍ أو شرٍّ[٢].

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

أي: يا مَن خلقتَ الخَلْقَ بالحقِّ والعدل، وأنتَ منزَّهٌ عن النقائصِ والعيوب، أَجِرْنا من عذابِ النار، بأنْ تُوفِّقَنا للأعمالِ الصالحات، وتُجنِّبَنا بفضلِك الذُّنوبَ والسيِّئات[٣].

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤١-٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٠-٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا سألوا ربَّهم أن يَقيَهم عذابَ النار، أتْبعوا ذلك بما يدلُّ على عِظَمِ ذلك العقابِ وشِدَّته، وهو الخزيُ؛ ليكونَ موقعُ السؤال أعظمَ؛ لأنَّ مَن سأل ربَّه أنْ يَفعلَ شيئًا، أو ألَّا يَفعلَه، إذا شرَح عِظمَ ذلك المطلوبِ وقوَّتَه، كانت داعيتُه في ذلك الدعاءِ أكْمَلَ، وإخلاصُه في طلبه أشدَّ، والدُّعاءُ لا يتَّصلُ بالإجابةِ إلَّا إذا كان مقرونًا بالإخلاصِ؛ فهذا تعليمٌ من اللهِ لعبادِه في كيفيَّة إيرادِ الدُّعاء[١].

وأيضًا لَمَّا دَعَوْا أنْ يَقيَهم اللهُ من النار، بيَّنوا سببَ دُعائِهم، وأنَّ سببَ ذلك هو أنَّ النارَ دارُ الخِزي[٢]؛ لذا قالوا:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾.

أي: إنَّ مَن أدخلتَه النارَ يا رَبَّنا، فقدْ أَهنتَه وفَضحْتَه[٣].

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

أي: إنَّهم إنما دخلوا النارَ بظُلمِهم، وليس للظالمِ يَومَ القيامةِ أحدٌ يُنقذُه من عذابِ اللهِ تعالى[٤].

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣)﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٠-٥٥١).

أي: إنَّهم قالوا: يا ربَّنا، إنَّنا قد سمِعْنا داعيًا يَدْعو إلى الإيمانِ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾.

أي: يقولُ للنَّاسِ: آمِنوا بربِّكم، فبَادَرْنا إلى الاستجابةِ له، فأَقرَرْنا بالحقِّ وقبِلْناه، مُنقادِين إليه، ومُذعِنين له[٢].

﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾.

أي: بإيمانِنا واتِّباعِنا نبيَّك، استُرْ علينا ذُنوبَنا، وتجاوزْ عن مُؤاخذتِنا بها[٣].

﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾.

أي: بإيمانِنا واتِّباعِنا نبيَّك، امحُ عنَّا خَطايانا؛ فالحسناتُ يُذهِبْنَ السيِّئاتِ[٤].

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

أي: واجعلْنا إذا قَبضتَ أرواحَنا إليك في عِدادِ الصَّالحين[٥].

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٣-٥٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١). ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٦).

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾.

أي: وأعطِنا- يا ربَّنا- ما وعَدتَنا به على ألْسنةِ رُسلِك عليهم السَّلامُ، من النَّصرِ على الأعداء[١]، ومِن الثوابِ على الأعمالِ الصَّالحة[٢].

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: ولا تَفْضَحْنا بذُنوبِنا على رُؤوسِ الخلائقِ، ولا تُذِلَّنا يومَ القيامةِ[٣].

﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

أي: فإنَّا قد عَلِمْنا بأنَّك لا تُخلفُ وعدَك لعبادِك[٤].

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عنهم مواظبتَهم على الذِّكر، وهو قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا﴾، وعلى التفكُّرِ، وهو قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم حكَى عنهم أنَّهم أثْنَوا على اللهِ تعالى، وهو قولُهم: ﴿رَبَّنَا مَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٦٥).

خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾، ثمَّ حَكَى عنهم أنَّهم بعدَ الثناءِ اشتَغلوا بالدُّعاء وهو مِن قولهم: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾: إلى قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ المِيعَادَ﴾- بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه استجابَ دُعاءَهم[١]، فقال:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.

أي: فأجابَ اللهُ تعالى أولئك الدَّاعين، بأنَّ عمَلَ كلِّ عاملٍ منهم محفوظٌ لديهِ؛ قلَّ أو كثُر، وسواء كان صادرًا مِن ذَكَرٍ أو أُنثى؛ فلا فَرْقَ بينهم في الثَّوابِ وإجابةِ الدعوات، مِثلما أنَّه لا فَرْقَ بينهم في اتِّباع مِلَّةِ الإسلام[٢].

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ قِراءات:

١- قِراءة (وَقُتِلُوا وَقَاتَلُوا) قيل: على معنى أنَّ بعضَهم يُقْتل، فيَقْتُل الباقون مَن بقِي مِن عَدوِّهم، وهذا أبلغُ في مَدحِهم؛ لأنَّهم يُقاتِلون بعد أن يُقْتل منهم، فلم يَهِنوا بعدَ قتْلِ أصحابِهم[٣].

٢- قراءة ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ قيل: على معنى أنَّهم قاتلوا أحياءً ثم قُتِلوا؛ لأنَّ القتْلَ لا يكونُ إلَّا بعدَ قِتال[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٩، ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٦٩).

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٤٢-٥٤٣).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٥).

٣- قراءة (وَقَاتَلُوا وَقُتِّلُوا) بتشديدِ التاء، على معنى التَّكثير[١].

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾.

أي: فالذين غادَروا قومَهم من أهلِ الكُفر، واسْتَوْطَنوا دارَ الإيمانِ مع إخوانِهم في الله، وطرَدَهم المشركونَ، أو ضايقوهم بالأذَى حتى أَلْجؤوهم إلى الخروجِ من بين أَظهرِهم، ووقَعَ عليهم الأذى بسببِ إيمانِهم باللهِ تعالى وطاعتِهم له سبحانه، وقاتَلوا في سبيلِ اللهِ تعالى لإعلاءِ كَلمتِه، وقُتِّلوا تَقتيلًا كثيرًا، مِثل أصحابِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ورضِي اللهُ عنهم[٢].

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

أي: إنَّ أولئك المؤمنين والمؤمنات؛ بسببِ ما حصَل لهم مِن تلك الأشياءِ مِن هِجرةٍ وجِهادٍ وغيرِ ذلك[٣]، يمحو اللهُ تعالى عنهم خَطاياهم[٤].

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: ولأُسكِننَّهم جنَّاتٍ تَجري في خلالِها أنواعٌ من الأنهار؛ جزاءً عظيمًا لهم على ما قدَّموا، وأبْلَوْا في سبيلِ العظيمِ الكريم[٥].

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾.

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٨٧).

(١) قرأ بها ابن كثير وابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٦٩-٥٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٧١-٥٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سوؤة آل عمران)) (٢/ ٥٧٣-٥٧٤).

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ عنده الجزاءُ الحسن لِمَن عمِلَ صالحًا، ممَّا لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمِعَتْ، ولا خَطَر على قلبِ بشَرٍ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- الحثُّ على التأمُّل في خَلْقِ السَّمواتِ والأرض؛ لأنَّ اللهَ ذَكَر أنَّ فيهما آياتٍ، والآياتُ هي: العلاماتُ، وكلَّما ازدادتِ الآياتُ وضوحًا ازدادَ الإيمانُ قُوَّةً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾[٢].

٢- إدامةُ ذِكرِ الله تعالى على كلِّ حال، فالمرادُ بقوله تعالى: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ عُمومُ الأحوال، على أنَّ هذه الأحوالَ هي مُتعارَفُ أحوالِ البَشرِ في السَّلامة، أي: أحوال الشُّغل، والرَّاحة، وقَصْد النَّوم[٣].

٣- أصنافُ العُبوديَّة ثلاثةُ أقسام: التَّصديقُ والإذعانُ بالقلب، والإقرارُ باللِّسان، والعملُ بالجوارحِ؛ فقوله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ اللهَ﴾ إشارةٌ إلى عُبوديَّةِ اللِّسان، وقوله: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ إشارةٌ إلى عُبوديَّةِ الجوارحِ والأعضاء، وقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى عُبوديَّة القلبِ والفِكرِ والرُّوح، والإنسانُ ليس إلَّا هذا المجموع، فإذا كان اللِّسان مستغرقًا في الذِّكرِ، والأركانُ في الشُّكر، والجَنانُ في الفِكر، كان هذا العبدُ مُستغرقًا بجميعِ أجزائِه في العبوديَّة[٤].

٤- أنَّ ذِكرَ اللهِ تعالى لا يَكفي وَحْدَه في الاهتداءِ إلى الآيات، ولكن يُشترَط

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٩).

معه التفكُّرُ في تِلك الآيات؛ فلا بدَّ من الجمْعِ بَينَ الذِّكر والفِكْر، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[١].

٥- في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ تعليمُ العبادِ كيفيَّةَ الدُّعاءِ وآدابَه، وذلك أنَّ من أراد الدُّعاءَ فلْيُقَدِّمِ الثَّناءَ، ثم يَذْكُر بعده الدُّعاءَ، كهذه الآيةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أنْ يَتصرَّفَ في مُلكِه إلَّا على حسَبِ إذْنِ الشَّارع؛ لأنَّ كونَ المُلكِ للهِ يدلُّ على أنَّ تصرُّفَنا فيه إنما يكونُ بطريق الوكالةِ، والوكيلُ يَتقيَّد بما أُذِن له فيه[٣].

٢- أنَّه كلَّما كان الإنسانُ أعقلَ، كان باللهِ وآياتِه أعلمَ؛ لقوله: ﴿لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ والحُكمُ المعلَّقُ على وصْفٍ يَثبُت لثبوتِه، ويُعدَم لعدمِه، فإذا كان أصحابُ العقولِ هم الذين يَنتفعون بهذه المخلوقاتِ، ويَستدلُّون بها على الخالقِ عزَّ وجلَّ، وعلى ما له مِن صِفاتِ الكمال؛ فإنَّ مَن عقْلُه عَقلٌ بهيميٌّ لا يَنتفع بهذه الآيات؛ لأنَّه ليس من ذوي الألباب[٤].

٣- أنَّ ذِكرَ الله عزَّ وجلَّ من لوازمِ العقلِ ومُقتضياتِه؛ لقوله: ﴿لِأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٦/ ١١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٤٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٤٦).

٤- جوازُ ذِكرِ الله تعالى للجُنُب؛ لدُخولِه في عموم قولِه: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[١].

٥- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾: تخصيصُ الأحوالِ المذكورةِ بالذِّكر ليس لتخصيصِ الذِّكرِ بها، بل لأنَّها الأحوالُ المعهودةُ التي لا يَخلو عنها الإنسانُ غالبًا[٢].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أنَّه إذا أثْنى على المتفكِّرين في الخَلْق، فالمُتفكِّرون في الشَّرْعِ مِن باب أوْلى؛ لأنَّ الشرعَ ليس أمرًا مَحسوسًا، فالتفكُّر فيه أبلغُ في الإيمانِ من التفكُّرِ في الخَلق؛ الخلق أمرٌ محسوس، كلُّ إنسان يُدركه، لكنَّ حِكَم الشَّرائعِ وأسرارَها ليس كلُّ أحدٍ يُدركُها[٣].

٧- أنَّ صفوةَ الخَلقِ مُحتاجون إلى الدُّعاءِ للوقايةِ مِن النار؛ لقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٤].

٨- إثباتُ التوسُّل في الدُّعاءِ بصِفاتِ اللهِ؛ يُؤخذ ذلِك مِن قوله: ﴿فَقِنَا﴾؛ لأنَّهم بَنَوْا ﴿فَقِنَا﴾ على قولهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ يعني: أنَّنا نتوسَّلُ إلى الله عزَّ وجلَّ بتنزُّهه عن النقصِ أنْ يَقيَنا عذابَ النار؛ لأنَّنا مؤمنون؛ لقوله: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ويُقرُّون بأنها خُلقتْ بالحقِّ وللحقِّ، ويُنزِّهون اللهَ عزَّ وجلَّ عن كلِّ نقْصٍ وعيبٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٤٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٩- التوسُّلُ إلى الله تعالى بالربوبيَّة حالَ الدُّعاءِ، بتعبيرِهم في دُعائِهم باسمِ الربوبيَّة، أو وصْف الربوبيَّة دون اسمِ الجلالة؛ في قولهم: ﴿رَبَّنَا﴾، لأنَّ الربوبيَّةَ بها الخَلْقُ والمُلك والتَّدبير، والقيامُ بأمورِ العِباد وإصلاحُها، ولِمَا في الربوبيَّة من الدَّلالةِ على الشَّفقةِ بالمربوب، ومَحبَّة الخيرِ له، ومِن الاعترافِ بأنَّهم عبيدُه، فكان العبدُ مُتعلِّقًا بمَن شأنُه التربيةُ والرِّفقُ والإحسانُ، ولتتأتَّى الإضافةُ المفيدةُ التشريفَ والقُرب[١].

١٠- تكرَّر لفظ ﴿رَبَّنَا﴾ خمسَ مرَّات؛ كل ذلك على سَبيلِ الاستعطاف، وتَطلُّبِ رحمةِ الله تعالى بنِدائِه بهذا الاسمِ الشريفِ الدالِّ على التربيةِ والمُلكِ والإصلاح، وفيه أيضًا دَلالةٌ على الإلحاحِ في المسألة، واعتمادِ كثرةِ الطَّلب مِن الله تعالى[٢]، وتَكرارُ الدُّعاءِ من أسبابِ الإجابة[٣].

١١- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ بيان أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذَلَ الجهدَ في دعوةِ الخَلْق إلى الحقِّ؛ لأنَّ النداءَ يكون برفْعِ الصوت، فكأنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاة والسَّلام يدعو الناسَ بأعْلَى صوتِه يُناديهم للإيمانِ[٤].

١٢- أنَّ الكلمات قد يُستغنى بمُجملها عن تفصيلها؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ أي: بكلِّ شيءٍ يجب الإيمان به، فكلُّ ما أخبر اللهُ به، وصَدَّقْنا به، وأَقْرَرْنا به، فهو داخلٌ في الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٥٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٣- الإشارةُ إلى بيانِ عِلَّة الإيمان؛ لقوله: ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾؛ فالربُّ أهلٌ لأنْ يُؤمِنَ به الإنسانُ؛ لأنَّه ربٌّ خالقٌ، مالكٌ، مُدبِّر؛ فهو جديرٌ بأنْ يُؤمِن به العبدُ(١).

١٤- جوازُ التوسُّل في الدعاءِ بالأعمالِ الصالحة؛ لقولهم: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ عطفًا على قولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾، والتوسُّلُ بالأعمالِ الصَّالحة ممَّا ثبَت بالسُّنة أيضًا (٢).

١٥- أنَّه يَنبغي للدَّاعي أنْ يُكثِرَ مِن الثناءِ على اللهِ تعالى بأسمائِه وصِفاتِه؛ لأنَّ هذا مِن وسائلِ إجابةِ الدُّعاءِ، كما قال تعالى حاكيًا عن الدَّاعينَ الذين أَثْنَى عليهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ....﴾(٣).

١٦- يَتبادر سؤالٌ عندَ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ...﴾، وهو أنَّ الخُلفَ في وعْدِ اللهِ محالٌ؛ فكيفَ طلبوا بالدُّعاءِ ما عَلِموا أنَّه لا محالةَ واقعٌ؟ والجوابُ عنه من وجوه:

الأوَّل: أنَّه ليس المقصودُ من الدَّعاء طلبَ الفِعل، بل المقصودُ منه إظهارُ الخضوعِ والذلَّة والعُبوديَّة، وكَمالِ الضَّراعة والابتهال، وقد أُمِرْنا بالدُّعاءِ في أشياءَ نعلمُ قطعًا أنَّها تُوجدُ لا محالةَ، كقوله: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، وقوله: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

الثاني: أنَّ وعْدَ اللهِ لا يتناول آحادَ الأمَّةِ بأعيانهم، بل إنَّما يتناولهم بحسَبِ أوصافهم؛ فإنَّه تعالى وعَدَ المتَّقين بالثواب، ووعَد الفُسَّاقَ بالعقاب، فقوله:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٥٨).

وينظر ما رواه البخاري (٢٢١٥) ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في قصة الثلاثة الذين سدَّت الصخرةُ عليهم الغارَ.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٦٦).

﴿وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا﴾ معناه: وفِّقْنا للأعمالِ التي بها نَصيرُ أهلًا لوعدِك، واعْصِمْنا من الأعمالِ التي نَصيرُ بها أهلًا للعقابِ والخزي، وعلى هذا التقديرِ يكونُ المقصودُ مِن هذه الآيةِ طلَبَ التوفيقِ للطَّاعة، والعِصمةِ عن المعصيةِ، فهذه الدعواتُ ليستْ لخوفِهم من إخلافِ الميعاد، بل لخوفِهم مِن أنْ لا يكونوا مِن جملةِ الموعودِين بسبب تغيُّر الحالِ، وسوءِ الخاتمةِ والمآل؛ فمَرجعُها إلى الدُّعاءِ بالتثبيت.

الثالث: أنَّ اللهَ تعالى وعَدَ المؤمنين بأنْ يَنصُرَهم في الدُّنيا، ويَقهرَ عدوَّهم؛ فهم طلبوا تَعجيلَ ذلك[١].

١٧- قوله تعالى: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ بيان لـ﴿عَامِلٍ﴾، قيل: وجهُ الحاجةِ إلى هذا البيانِ هنا: دفْعُ توهُّمِ أنَّ النساءِ لا حَظَّ لهنَّ في تحقيقِ الوعد، الذي وعَد اللهُ على ألْسنةِ رُسلِه[٢].

١٨- قولُ الله تعالى: ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فيه الإشارةُ إلى عِظَمِ هذا الثوابِ بقَوْله: ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فاللهُ تعالى أضافَه إليه ونَسَبَه إليه؛ ليدُلَّ على أنَّه عظيمٌ؛ لأنَّ العظيمَ الكريمَ لا يُعْطي إلا جزيلًا كثيرًا؛ فالعَطيَّةُ تَعظُمُ بحسَب مُعْطيها، والهِبَةُ تَعظُم بحسَبِ واهبِها[٣].

بَلاغَةُ الآيات:

١- **قوله**: ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ تذييلٌ بوعيدٍ يدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى لا يَخفى عليه ما يَكتمُون مِن أخلاقِهم وطِباعِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٢-١٣٣)..

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٥).

- وفيه تقديمٌ للخبر ﴿لِلَّهِ﴾، وأفادَ هذا التقديمُ أنَّ مُلكَ السَّمواتِ والأرضِ خاصٌّ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه إذا قُدِّم ما حقُّه التأخيرُ، كان ذلك دليلًا على الحَصْر[١].

٢- **قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** تقريرٌ لاختصاصِ مُلكِ العالَمِ به سبحانَه وتعالى؛ فإنَّ كونَه تعالى قادرًا على الكلِّ بحيثُ لا يشِذُّ من ملكوتِه شيءٌ من الأشياء، يَستدعي كونَ ما سواه كائنًا ما كان مَقدورًا له، ومِن ضَرورتِه اختصاصُ القُدرةِ به تعالى، واستحالةُ أنْ يشاركَه شيءٌ مِن الأشياءِ في القُدرةِ على شيءٍ مِن الأشياءِ، فضلًا عن المشاركةِ في مُلكِ السَّمواتِ والأرض[٢].

- وفيه تقريرٌ لِمَا مرَّ مِن ثُبوتِ العذابِ الأليمِ لهم، وعَدمِ نجاتِهم منه[٣].

- وفيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ (وَاللَّهُ) في مَوقعِ الإضمارِ (وهو)؛ لتربيةِ المهابةِ، والإشعارِ بمناطِ الحُكم؛ فإنَّ شمولَ القُدرةِ لجَميعِ الأشياءِ من أحكامِ الأُلوهيَّة، مع ما فيه مِن الإشعارِ باستقلالِ كلٍّ من الجُمَلتين بالتقرير[٤].

٣- **قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾:**

- قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: جملةٌ مُستأنفةٌ سِيقتْ لتقريرِ ما سبَق مِن اختصاصِه تعالى بالسُّلطانِ القاهرِ، والقُدرةِ التامَّةِ، وصُدِّرتْ بكلمة التأكيدِ ﴿إِنَّ﴾ اعتناءً بتحقيق مضمونِها، أي: في إنشائِها على ما هي عليه في ذواتِها وصِفاتِها، من الأمورِ التي يَحارُ في فَهمِ أجلاها العقولُ[٥]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأفاد حرفُ ﴿إِنَّ﴾ أيضًا الاهتمامَ بالخبر[١].

- قوله: ﴿لَآيَاتٍ﴾: التنكيرُ فيه للتفخيمِ كمًّا وكيفًا، أي: لآياتٍ كثيرةً عظيمة[٢].

- قوله: ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: فيه اختصاصٌ[٣]، أفادَ أنَّ أصحابَ العقولِ السليمةِ هم أَوْلى النَّاسِ وأحقُّهم بهذا الوَصْفِ.

٤- **قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** فيه إيجازٌ، حيثُ انطوى تَحتَ هذا الإيجازِ في ﴿خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كلُّ مَا تمخَّض عنه العِلمُ من رَوائعِ المُكتَشفات، وبَدائعِ المُستنبَطات[٤].

٥- **قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾** (هذا) كِنايةٌ عن المخلوق، يعني: ما خَلقتَ هذا المخلوقَ العجيبَ باطلًا، والتعبيرُ بـ﴿هَذَا﴾ ضربٌ من التَّعظيم، كقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٥] [الإسراء: ٩].

- وقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾: اعتراضٌ، فيه تأكيدٌ لمضمونِ ما قَبْلَه، وتمهيدٌ لِمَا بعدَه[٦].

٦- **قوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾** جِيء بفاءِ التعقيب؛ لترتيبِ الدُّعاءِ على ما ذُكِر، وللاستعدادِ لقَبول الدُّعاءِ؛ فالفاءُ لترتيبِ المدعوِّ (الوقايةَ) على ذلك، كأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٨٧).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٣٢)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٦٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٤)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١).

قيل: وإذ قدْ عرَفْنا سِرَّك[١]، وأَطَعْنا أمْرَك، ونزَّهناك عمَّا لا يَنبغي؛ فقِنا عَذابَ النارِ الذي هو جزاءُ الذين لا يَعرِفون ذلك[٢].

٧- **قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾:**

- فيه مبالغةٌ في استدعاءِ الوقايةِ، وبيانٌ لسببِه[٣].

- وتصديرُ الجملةِ بالنِّداء ﴿رَبَّنَا﴾؛ للمبالغةِ في التضرُّعِ[٤].

- وتأكيدُها بـ(إنَّ)؛ لإظهارِ كمالِ اليقينِ بمضمونها، والإيذانِ بشدَّةِ الخوفِ[٥].

- وإظهارُ ﴿النَّار﴾ في موضِع الإضمارِ؛ لتهويلِ أمرِها[٦].

- وذِكرُ الإدخالِ ﴿تُدْخِلُ﴾ في مَوردِ العذابِ؛ لتعيينِ كيفيتِه، وتَبيينِ غايةِ فَظاعتِه[٧].

- وفي قوله: ﴿أَخْزَيْتَهُ﴾: تهويلُ المستعاذِ منه؛ تَنبيهًا على شِدَّة خوفِهم، وطلبِهم الوقايةَ منه، وفيه إشعارٌ بأنَّ العذابَ النَّفسي أفظعُ مِن العذابِ البدنيِّ[٨].

٨- **قوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾** تذييلٌ؛ لإظهارِ نهايةِ فظاعةِ حالِهم،

---

(١) قال أبو السعود: (فإنَّ مَعرفةَ سرِّ خلْقِ العالمِ، وما فيه من الحِكمةِ البالغةِ والغايةِ الحميدةِ، والقيامَ بما تقتضيه مِن الأعمالِ الصالحةِ، وتَنزيهَ الصانعِ تعالى عن العَبَث مِن دَواعي الاستعاذةِ ممَّا يَحيق بالمُخلِّين بذلك، مِن وجهين؛ أحدُهما: الوقوفُ على تحقُّق العذابِ، فالفاءُ لترتيبِ الدُّعاءِ عَلَى ما ذُكِر، والثَّاني الاستعدادُ لقَبول الدعاءِ...). ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٦) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٧) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٨) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٤).

ببيانِ خُلودِ عَذابِهم بفُقدانِ مَن ينصُرهم، ويقومُ بتخليصِهم، وغَرضُه تأكيدُ استدعاءِ الوقايةِ[١].

- وفيه: وضْع الظاهر ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ موضعَ المضمَر- فقد كان مُقتضَى الظاهر أنْ يُقال: (وما لهم) أو (وما له)؛ مُراعاةً لمعنى ﴿مَنْ﴾ (العموم)، أو مُراعاةً للفظِها (الإفراد)- وفائدة هذا الإظهارِ: الإشعارُ بتخصيصِ الخِزي بهم، والإشعارُ بتعليلِ دُخولِهم النارَ بظُلمِهم، ووضعِهم الأشياءَ في غيرِ مواضعِها[٢].

٩- **قوله:** ﴿**رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَانِ**﴾ فيه: تصديرُ مُقدِّمةِ الدُّعاءِ بالنِّداء ﴿رَبَّنا﴾؛ لإظهارِ كمالِ الضَّراعةِ والابتهال[٣].

- وفيه: إيجازٌ، حيث أَوقعَ الفِعلَ على المُسمَع، وحَذَف المسموعَ؛ لدلالةِ وصْفِه عليه، وهو يُفيد مبالغةً ليستْ في إيقاعِه على نفْس المسموعِ[٤].

- وفيه إطنابٌ بالتَّكرار، وهو الجَمْع بين ﴿مُنَادِيًا﴾ و﴿يُنَادِي﴾؛ وذلك أنَّه ذَكَر النِّداءَ في الأوَّلِ مُطلقًا، ثمَّ ذَكَره في الثَّاني مُقيَّدًا بالإيمان؛ وفائدتُه تفخيمُ شأنِ المُنادِي وتعظيمُه؛ لأنَّه لا مُنادِي أعظمُ من منادٍ ينادي للإيمان؛ وذلك لأنَّ المنادِي إذا أُطلق ذهَب الوهمُ إلى منادٍ للحرب، أو لإغاثة المكروبِ، أو الكفايةِ لبعضِ النوازل، فإذا قلت: يُنادي للإيمان، فقد رفعتَ من شأنِ المنادِي وفخَّمته[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١-١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٣٨).

١٠- **قوله:** ﴿**فَآمَنَّا**﴾ فاء التعقيب؛ للدَّلالةِ على المبادرةِ، والسَّبقِ إلى الإيمان، وذلك دليلُ سلامةِ فِطرتِهم مِن الخطأِ والمكابرة، وقد تَوسَّموا أنْ تكونَ مبادرتُهم لإجابةِ دعوةِ الإسلامِ مشكورةً عندَ الله تعالى[١].

١١- **قوله:** ﴿**رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا**﴾ فيه تَكرارٌ؛ للتأكيد، حيث طلَبوا من اللهِ تعالى في هذا الدُّعاءِ غُفرانَ الذُّنوب، وتكفيرَ السيِّئات- على القولِ بأنَّ المرادَ بهما شيءٌ واحد-؛ وإنَّما أُعيدَ ذلك للتأكيدِ؛ لأنَّ الإلحاحَ في الدُّعاءِ والمبالغةَ فيه مندوبٌ[٢].

- والفاء في قوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ لترتيبِ المغفرةِ، أو الدُّعاءِ بها على الإيمانِ به تعالى، والإقرارِ برُبوبيَّته؛ فإنَّ ذلك مِن دواعي المغفرةِ والدُّعاءِ بها[٣].

١٢- **في قوله تعالى:** ﴿**رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ... إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾ ما يُسمَّى بـ(الإسجال)؛ فقد سجَّل المولى سبحانَه على ألْسنةِ عِبادِه تحقيقَ موعودِه على لِسانِ رسولِه، وبتأمُّل قوله: ﴿مَا وَعَدْتَنَا﴾ يتَّضح أنَّ هذا الوَعدَ قد أصبح مُبرَمًا، لا انفكاكَ لإبرامِه[٤].

- وتكريرُ ﴿رَبَّنَا﴾؛ للمبالغةِ في الابتهالِ، والدَّلالة على استقلالِ المطالِب وعُلوِّ شأنها، والإعلامِ بما يُوجِب حُسنَ الإجابة وحُسنَ الإثابةِ، من احتمالِ المشاقِّ في دِين الله، والصبرِ على صُعوبة تكاليفِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٤/ ٦٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤٢)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٦٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٢).

- قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾: تعليلٌ لتحقيقِ ما طلَبوا من الدُّعاء[١].

١٣- قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾:

- صِيغةُ الماضي في قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ هاهنا للإيذانِ بتحقُّقِ الاستجابةِ وتقرُّرها[٢].

- قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ بمعنى أجاب؛ فالسِّينُ والتاءُ للتأكيدِ، و(استجاب) أخصُّ مِن (أجاب)؛ لأنَّ (استجاب) يُقال لِمَن قبِل ما دُعي إليه، و(أجاب) أعمُّ، فيُقال لِمَن أجاب بالقَبول وبالردِّ[٣].

- قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ فيه التفاتٌ إلى التكلُّم والخِطاب؛ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بشأنِ الاستجابةِ، وتَشريفِ الدَّاعين بشَرفِ الخِطاب، والمرادُ تأكيدُها ببيانِ سببِها، والإشعارُ بأنَّ مَدارَها أعمالُهم التي قدَّموها على الدُّعاء، لا مُجرَّد الدُّعاء، وتَعميمُ الوعدِ لسائرِ العاملين- وإنْ لم يَبلُغوا درجةَ أُولي الألباب-؛ لتأكيدِ استجابةِ الدَّعواتِ المذكورة[٤].

- والتعبيرُ عن ترْكِ الإثابةِ بالإضاعةِ ﴿لَا أُضِيعُ﴾؛ لبيانِ كَمالِ نزاهتِه تعالى عن ذلِك بتصويرِه بصورةِ ما يَستحيلُ صدورُه عنه من القَبائح، وإبرازِ الإثابةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٢-١٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٣).

في مَعرِض الأمورِ الواجبةِ عليه[١].

- قوله: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ جملةٌ معترِضة بيَّن بها شركةَ النِّساءِ مع الرِّجالِ فيما وعَد للعمَّال[٢].

- وفيه بيان للتساوي في الأخبارِ المتعلِّقة بضمائرِ المخاطبين، أي: أنتُم في عِنايتي بأعمالِكم سواءٌ، وهو قضاءٌ لحقِّ ما لهم مِن الأعمال الصَّالحةِ المتساوين فيها؛ ليكونَ تمهيدًا لبساطِ تمييزِ المهاجِرين بفَضلِ الهجرةِ الآتي في قوله: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا...﴾ الآيات[٣].

- و﴿مِن﴾ بَيانيَّة، وقيل: إنَّها مؤكِّدة للنَّفي، بمعنى: عَمَل عاملٍ مِنكم ذِكرٍ أو أُنثى[٤].

- قوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: جملة مُعترضة مُبيِّنة لسببِ انتظامِ النِّساءِ في سلكِ الرِّجالِ في الوعد؛ فإنَّ كونَ كلٍّ منهما من الآخَر- لتشعُّبهما من أصلٍ واحد، أو لفَرطِ الاتِّصال بينهما، أو لاتِّفاقهما في الدِّين والعمل- ممَّا يَستدعي الشركةَ والاتحاد[٥].

- قوله: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾: فيه نوعُ تَفصيلٍ لِمَا أُجمل في العملِ، وتَعدادٌ لبعضِ أحاسِن أفرادِه، على وجهِ المدح والتَّعظيم[٦]، وهو تَفريعٌ عن قوله: ﴿لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ﴾، وهو مِن ذِكرِ الخاصِّ بعدَ العامِّ؛ للاهتمامِ بذلك الخاصِّ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٣-١٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٣-٢٠٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٤).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٤).

الآيات (١٩٦ - ٢٠٠)

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مَتَاعٌ﴾: مَنفعةٌ، وكلُّ ما حَصَل التمتُّع والانتفاعُ به على وجهٍ ما، والمتاعُ والمتعة: ما يُنتفعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، بل يَنقضي عن قَريبٍ، وأصل (متع): يدلُّ على مَنفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ[(١)].

﴿الْمِهَادُ﴾: الفِراشُ والقرارُ، والمهدُ: ما يُهيَّأ للصَّبي، وأصلُ المهاد: المكانُ الممهَّد الموطَّأ[(٢)].

﴿نُزُلًا﴾: أي: ثوابًا ورزقًا، والنُّزل: ما يُعدُّ للنازلِ من الزَّاد، أو ما يُهيأ للضَّيف[(٣)].

﴿وَرَابِطُوا﴾: اثبتُوا وداوِموا، وأصلُ المرابطة والرِّباط: ربْطُ كلِّ فريق لخيولهم في الثَّغر، كل يُعِدُّ لصاحبِه؛ فسُمِّي المقامُ بالثغور رباطًا، ومِنه: مُلازمةُ ثَغْرِ العَدُوِّ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٠٩).

كأنَّهم قدْ رُبِطُوا هناك فثَبَتوا به ولازَمُوه، وربْطُ الفرس: شدُّه بالمكانِ للحِفْظ، ومنه: رِباط الخيل، وسُمِّي المكانُ الذي يُخصُّ بإقامةِ حِفظِه فيه: رباطًا، وأصل الرَّبط: الشدُّ والثبات[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَنخدعَ بما عليه الكافرون مِن تقلُّبٍ في البلادِ بأنواعِ التِّجاراتِ والمكاسِب، والغلبةِ في بعضِ الأوقات؛ فإنَّ ذلك مُتعةٌ قليلةٌ، فانيةٌ زائلة، ثم يكونُ مصيرُهم جهنَّمَ، وبئسَ المقرُّ.

أمَّا المتَّقون لربِّهم، فإنَّ لهم جَناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ، هي دارُهم التي يَمكُثون فيها على الدَّوام، أعدَّها اللهُ لهم مَنزلَ ضِيافةٍ، وما عندَ الله تعالى خيرٌ مِن متاعِ الدُّنيا لِمَن أطاع وأَحْسنَ العملَ.

ثم يُخبر تعالى أنَّ مِن أهل الكتاب طائفةً يُؤمنون بالله تعالى، ويُوحِّدونه، ويُؤمنون بما أُنزِلَ على مَحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما أَنزلَ الله إليهم مِن كتُب، خاضِعين لله، لا يُحرِّفون ما في كُتبهم، ولا يَكتمونه، ولا يُبدِّلونه مُقابلَ متاعٍ دُنيويٍّ زائل؛ فهؤلاء لهم عند الله ثوابٌ عظيمٌ، واللهُ سريعُ الحسابِ.

ثم يأمُر الله عِبادَه المؤمنين بالصَّبر، ومغالبةِ أعداءِ الدِّين بالصَّبر، حتى يَنتصروا عليهم، وأنْ يَلزموا الإقامةَ في الأماكنِ التي يُخشَى من وصولِ العدوِّ من خلالِها، وأنْ يَمنعوه من الوصولِ إلى مُبتغاه، وأنْ يتَّقوا اللهَ؛ وذلك مِن أجْل أنْ يفوزوا بمطلوبِهم، ويَنجُوا ممَّا يَرهبونَه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦)﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وعَد اللهُ تعالى المؤمنين بالثَّوابِ العظيم، وكانوا في الدُّنيا في نهاية الفقرِ والشِّدَّة، والكفَّارُ كانوا في النِّعم، ذكَر اللهُ تعالى في هذه الآيةِ ما يُسلِّيهم، ويُصبِّرُهم على تلك الشِّدَّة[١]، فقال:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦)﴾.

أي: لا تَنخدعْ- يا محمَّد- بظاهرِ ما عليه الكفَّارُ من تردُّدٍ على البلاد، وتنقُّلٍ فيها بأنواعِ التِّجاراتِ والمكاسبِ، بِما يجعلُهم في بَحبوحةٍ في العيش، وترَفٍ في الحياةِ، وعِزٍّ وغلبةٍ في بعضِ الأوقات[٢].

قال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾[غافر: ٤].

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)﴾.

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾.

أي: إنَّ هذا الذي عليه الكفَّارُ إنما هو لذائذُ فانيةٌ؛ فزمنُها محدودٌ، وتَنتهي بانقضاءِ أعمارِهم، وهي مُتعةٌ قليلةٌ كمًّا وكيفًا[٣].

﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

أي: إنَّهم مُنتقِلون بعدَ مماتِهم وذَهابِ مُتعِهم، إلى الإقامةِ في نارِ جَهنَّم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٠-٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٢-٥٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٣).

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[لقمان: ٢٤].

﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

أي: وبئس الفراشُ والمقرُّ هي، أي: جهنَّم[١].

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله سبحانه وتعالى الوعيدَ للذين كَفروا، أتْبعَه بالوعدِ بالنُّزُل للذين آمنوا[٢]، فقال:

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾

أي: أمَّا الذين امتَثلوا ما أمَر الله تعالى به، واجتَنبوا ما نهى عنه، فإنَّهم يُمتَّعون في الدارِ الآخِرةِ في جَنَّاتٍ تَجري من تحتها أنواعٌ من الأنهار، وهم ماكثونَ في هذا النَّعيمِ على الدَّوام[٣].

﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قدْ أعدَّ لهم تلك الجنَّاتِ مَنزلَ ضِيافةٍ دائمًا، مِن كرامةِ اللهِ تعالى لهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٥-٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٧-٥٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٠).

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾.

أي: وما عندَ اللهِ تعالى من النَّعيمِ والكرامةِ خيرٌ للطَّائعين- الذين أحْسَنوا العملَ- من متاعِ الدُّنيا القليلِ الزَّائل(١).

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى حالَ المؤمنين- وكان قدْ ذكَر حالَ الكفَّارِ مِن قبلُ بأنَّ مَصيرَهم إلى النَّار- بَيَّن في هذِه الآيةِ أنَّ مَن آمَنَ منهم كان داخلًا في صِفة الذين اتَّقَوا(٢).

وأيضًا لَمَّا حكَى اللهُ تعالى بعضَ مخالفاتِ أهلِ الكتابِ، مِن نبْذِ الميثاق، وتَحريفِ الكتابِ وغيرِ ذلك، سِيقتْ هذه الآيةُ؛ لبيانِ أنَّ أهلَ الكتابِ ليس كلُّهم كمَن حُكيتْ مخالفاتُهم، بل منهم مَن له مَناقبُ جليلةٌ، مثل: عبد الله بن سَلَام وأصحابه(٣).

سببُ النُّزول:

عن أنسٍ رضِي اللهُ عنه، قال: لَمَّا جاء نعْيُ النَّجاشيِّ، قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((صلُّوا عليه، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، نُصلِّي على عَبدٍ حَبشيٍّ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٦).

فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ﴾ الآية))[١].

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾.

أي: وإنَّ طائفةً من أهلِ الكتابِ مِن اليهودِ والنَّصارى يُؤمنون باللهِ تعالى حقَّ الإيمان، ويقرُّون بوحدانيَّته[٢].

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾.

أي: إنَّهم يُؤمنون أيضًا بالقرآن، الذي أُنزل على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣].

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾.

أي: ويُؤمنون أيضًا بالكتُب السابقةِ، التي أَنزلها اللهُ تعالى إليهم، كالتَّوراة[٤].

﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم خاضِعون للهِ تعالى، مُستكينين له ومُتذلِّلين[٥].

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

---

(١) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٠٨٨)، والبزار (٦٥٥٦)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (١٢٨٧)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥١٤٧).
وثَّق رجالَ الطبرانيِّ الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٣/ ٤١)، وصحَّح إسنادَه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٠٤٤)، وقال الوادعيُّ في ((الصحيح المسند من أسباب النزول)) (٧٠): الحديث بمجموع طُرقه يَرتقي إلى الحُجيَّة.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٣-٥٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٥).

أي: لا يُحرِّفون ما في كُتُبِهم، ولا يُبدِّلونه، ولا يَكتمون ما فيها من العِلم- ومِن ذلك البشارةُ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبيانُ صِفتِه للناس-؛ ليَحْصُلوا في مُقابلِ ذلك على متاعٍ دُنيويٍّ زائل، مِن منصبٍ، أو جاهٍ، أو مالٍ، وغير ذلك[١].

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: إنَّ لأولئك القومِ المؤمنين ثوابًا عظيمًا عندَ الله سبحانه[٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أي: إنَّ حسابَ اللهِ عزَّ وجلَّ قريبٌ؛ لسُرعةِ انقضاء الدُّنيا، كما أنَّه سبحانه يُحاسبُ الخلائقَ يومَ القيامة على أعمالِهم في مُدَّةٍ وجيزةٍ جدًّا[٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، اصبِروا على جميعِ ما أمَرَكم اللهُ تعالى بالصَّبرِ عليه، كالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والصَّبرِ عن مَعصيتِه، والصَّبرِ على أقدارِه سبحانه[٤].

﴿وَصَابِرُوا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٣، ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٥-٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٥-٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٠٠-٦٠١).

أي: وغالِبوا بالصبرِ أَعداءَ الدِّين، حتى تَنتصِروا عليهم؛ فلا يكونوا أصْبرَ منكم[١].

﴿وَرَابِطُوا﴾.

أي: والْزَموا الإقامةَ في الثُّغورِ؛ لِمَنْع العدوِّ من الوصولِ إليها، والنفوذِ منها إلى مُبتغاه[٢].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: واستعمِلوا تَقوى اللهِ عزَّ وجلَّ بامتثالِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه، ومِن ذلك: الأوامرُ السَّابقة، مِن الصَّبرِ والمصابرةِ والمرابطةِ في سبيلِه؛ وذلك مِن أجْل تحقيقِ الفوزِ بالمطلوب، والنَّجاةِ من المرهوبِ في الدُّنيا والآخِرة[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- نَهْي المسلمِ عن الاغترارِ بما أُوتي الكفَّار من النِّعمِ والرَّفاهية؛ لقوله: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ﴾؛ لأنَّ ما يُعطيه اللهُ العبدَ من الرَّخاء وسَعة الرِّزق والانطلاقِ في الأرض، ليس دليلًا على رِضاه عن العبدِ، وإنما المقياسُ لرِضا اللهِ عن العبدِ هو اتِّباعُ العبدِ لشرْعِ اللهِ تعالى[٤].

٢- أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد يَستدرجُ المرءَ بإغداقِ النِّعم عليه؛ فِتنةً له، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]؛ ووجه ذلك أنَّ اللهَ مَكَّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٦-٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٨-٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢-١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٧-٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٠٣-٦٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٤).

هؤلاءِ الكفَّارَ من التقلُّبِ في البلادِ كما يَشاؤون؛ فتنةً لهم؛ ليستمرُّوا على ما هم عليه، فيكونَ ذلك شرًّا لهم- والعياذ بالله- كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨][(١)].

٣- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ فيه: أنَّ الإنسانَ وإنْ تكلَّفَ الصَّبرَ والمصابرةَ، إلَّا أنَّ فيه أخلاقًا ذميمةً تَحمِل على أضدادِها، وهي الشهوةُ والغضبُ والحِرصُ، والإنسانُ ما لم يكُن مُشتغلًا طولَ عُمرِه بمجاهدتِها وقَهرِها، لا يُمكنه الإتيانُ بالصبرِ والمصابرةِ؛ فلهذا قال: ﴿وَرَابِطُوا﴾، ولَمَّا كانتْ هذه المجاهدةُ فِعلًا من الأفعال، ولا بدَّ للإنسانِ في كلِّ فِعلٍ يفعله من داعيةٍ وغرَض- وجَب أنْ يكون للإنسانِ في هذه المجاهدةِ غرضٌ وباعثٌ، وذلك هو تقوى اللهِ؛ لنَيل الفلاحِ والنَّجاح؛ فلهذا قال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(٢)].

٤- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فيه: أنَّه لا سبيلَ إلى الفلاحِ بدون الصَّبرِ والمصابرةِ والمرابطةِ؛ فلم يُفلحْ مَن أفلحَ إلَّا بها، ولم يَفُتْ أحدًا الفلاحُ إلَّا بالإخلالِ بها أو ببَعضِها[(٣)].

٥- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فيه علَّم اللهُ تعالى عبادَه كيفيَّةَ حَرْبِ الشَّيطانِ وجهادِه، فجمعها لهم في أربعِ كلماتٍ في هذه الآيةِ، ولا يتمُّ أمرُ هذا الجهادِ إلا بهذه الأمورِ الأربعةِ، فلا يتمُّ له الصَّبرُ إلَّا بمصابرةِ العدُوِّ، وهي مُنازَلَتُه، فإذا صابَرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).

عدوَّه احتاجَ إلى أمرٍ آخَرَ، وهو المرابَطَةُ، وهي لزومُ ثَغْرِ القلب وحراسَتُه؛ لئلَّا يدخُلَ منه العدوُّ، ولزومُ ثَغْرِ العَينِ والأُذُن واللِّسان والبَطْن واليَد والرِّجْل، فهذه الثُّغورُ منها يدخلُ العَدُوُّ، فيجوس خلالَ الدِّيارِ، ويُفسِدُ ما قَدَرَ عليه، فالمرابطةُ لُزومُ هذه الثُّغورِ، ولا يُخْلي مكانَها، فيصادف العدوُّ الثغرَ خاليًا، فيدْخُل منه. وجِماعُ هذه الثَّلاثةِ وعمودُها الذي تقوم به هو تقوى الله، فلا ينفَعُ الصَّبْرُ ولا المصابَرَةُ ولا المرابطَةُ إلَّا بالتَّقوى، ولا تقومُ التَّقوى إلَّا على ساقِ الصَّبرِ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾، إنْ قيل: كيف جازَ أنْ يَغترَّ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذلك حتى يُنهى عنه وعن الاغترارِ به؟ فالجوابُ: إما أنَّ مُقدَّمَ القومِ يُخاطَبُ بشيءٍ، فيقوم خِطابُه مقامَ خِطابهم جميعًا، فكأنَّه قيل: لا يَغُرَّنَّكم. أو أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان غيرَ مغرورٍ بحالهم، فأكَّد عليه ما كان، وثبَت على الْتزامِه، كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] أو يكون الخطابُ لكلِّ أحدٍ[(٢)].

٢- الإشارةُ إلى أنَّ هذا النَّعيمَ الذي يُدركه الكفَّارُ في الدنيا سوف يُنسى بهذا المأوى السيِّئ؛ فإذا كان المأوى هو النارَ، نسُوا كلَّ شيء؛ ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾[(٣)].

٣- قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ هذه الآيةُ المقصودُ منها التسليةُ عمَّا يحصُلُ للَّذين كفروا مِن متاعِ الدُّنيا، وتنعُّمِهم فيها، وتقلُّبِهم في البلادِ بأنواعِ التِّجاراتِ والمكاسِبِ

(١) يُنظر: ((الداء والدواء)) لابن القيم (١/ ٢٢٨- ٢٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٤٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٦).

واللَّذَّات، وأنواعِ العِزِّ، والغَلَبَة في بعضِ الأوقات؛ فإنَّ هذا كلَّه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوتٌ ولا بقاءٌ، بل يتمتَّعونَ به قليلًا ويُعَذَّبون عليه طويلًا[١].

٤- قوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فيه عِظَمُ هذا الجزاءِ والثوابِ الذي يَحصُل لهم؛ لأنَّه نُزُلٌ من عند أكرمِ الأَكْرَمِينَ، وهو الله عزَّ وجلَّ[٢].

٥- مرجِعُ الدِّينِ كُلِّه إلى قواعِدَ ثلاثٍ؛ وهي: فِعْلُ المأمور، وتَرْكُ المحظور، والصَّبْرُ على المقدور؛ وقد ذكر تعالى هذه الأصولَ الثَّلاثةَ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ فكلُّ موضعٍ قُرِنَ فيه التَّقوى بالصَّبرِ اشتملَ على هذه الأمورِ الثَّلاثةِ؛ فإنَّ حقيقةَ التَّقوى فِعْلُ المأمورِ وتَرْك المحظورِ[٣].

٦- في قولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أمَرَهم بالصَّبر وهو حالُ الصَّابِرِ في نفْسِه، والمصابرةِ وهي حالُه في الصَّبر مع خَصْمِه- فهي مقاومةُ الخَصْمِ في مَيدانِ الصَّبرِ؛ فإنَّها مُفاعَلَةٌ تَستدعِي وقوعَها بين اثنينِ، كالمُشاتَمةِ والمُضاربةِ-، والمرابطةِ وهي الثباتُ واللُّزومُ والإقامةُ على الصَّبر والمصابرةِ؛ فقدْ يَصبِرُ العبدُ ولا يُصابِر، وقد يُصابِر ولا يُرابِط، وقد يَصبِر ويُصابِر ويُرابِطُ مِن غيرِ تعبُّدٍ بالتَّقوى؛ فأخْبَر سبحانه أنَّ مِلاكَ ذلك كلِّه التَّقوى، وأنَّ الفَلاحَ موقوفٌ عليها، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤].

٧- ختَم سبحانه السُّورةَ بهذه الوصيةِ للمؤمنين بقولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩١).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٨، ٣١)

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٢١).

آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قيل: لأنَّها هي التي تَتحقَّق بها استجابةُ ذلك الدُّعاءِ، وإيفاءُ الوعدِ بالنَّصرِ في الدنيا، وحُسنُ الجزاءِ في الآخِرة[١].

بَلاغَةُ الآيات:

١- ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ إيرادُ التقوى في حيِّز الصِّلة ﴿الَّذِينَ﴾؛ للإشعارِ بكونِ الخِصال المذكورةِ من بابِ التقوى[٢].

٢- **قوله:** ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ الجملةُ تذييلٌ لِمَا قَبلَها[٣].

- والتعبيرُ عن المتقين بـ(الأبرار)؛ للإشعارِ بأنَّ الصِّفاتِ المعدودةَ من أعمالِ البِرِّ، كما أنَّها من قَبيلِ التقوى[٤].

٣- **قوله:** ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارةٌ إليهم مِن حيثُ اتِّصافُهم بما عُدَّ من صِفاتِهم الحميدةِ، وما فيه من مَعنى البُعد؛ للدَّلالةِ على عُلوِّ رُتبتهم، وبُعدِ مَنزلتِهم في الشَّرفِ والفضيلةِ[٥].

٤- **قوله:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

- قوله: ﴿وصَابِرُوا﴾: عبَّر بصِيغة المفاعَلة، مع أنَّ (المصابرة) بابٌ من الصَّبر الذي ذُكرَ قبلَه في قوله: ﴿اصْبِرُوا﴾؛ تَخصيصًا لشدَّتِه وصُعوبتِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٥)
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٠).

٥- وفي الآية من البَلاغة: حُسنُ الختامِ، وحُسنُ البيانِ؛ حيث جاءَ ختامُ سورةِ آل عمران حَسنًا جدًّا، فكما جاءَ خِتامُ سورةُ البقرةِ مُشتملًا على الدُّعاءِ، جاءَ ختامُ سورة آل عمران مشتملًا على عَددٍ من الوصايا النافعةِ، كالدُّعاءِ وطَلَبِ التَّقوى التي هي ملاكُ الأمْر وزِمامُه، وهذا هو حُسنُ الختامِ؛ ليَبقَى راسخًا في الأسماعِ، وهذا هو حُسنُ البيان[1]؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر في هذه السُّورةِ أنواعًا كثيرةً مِن عُلوم الأصولِ- فيما يَتعلَّقُ بتقريرِ التوحيدِ والعدلِ والنبوَّة والمعاد- والفروع- فيما يتعلَّقُ بالتكاليفِ والأحكامِ نحوَ الحجِّ والجهادِ وغيرهما- ختَم هذه السُّورةَ بهذه الآيةِ المشتملةِ على جَميعِ الآدابِ؛ وذلك لأنَّ أحوالَ الإنسانِ قِسمان: منها ما يَتعلَّق به وحْدَه، ومنها ما يكونُ مُشتركًا بينَه وبينَ غيرِه، أمَّا القِسمُ الأوَّل فلا بدَّ فيه مِن الصَّبر، وأمَّا القِسم الثاني فلا بدَّ فيه مِن المصابَرة[2].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٣).

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرانَ..... ٥
أسماءُ السُّورة: ٧
فضائلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ٧
مقاصد السُّورةِ: ٩
موضوعاتُ السُّورةِ:..... ٩
الآيات (١ - ٤) ١٢
غريبُ الكَلِماتِ: ١٢
المَعنَى الإجماليُّ:..... ١٣
تَفسيرُ الآياتِ:..... ١٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٦
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ١٧
بَلاغَةُ الآياتِ: ١٩
الآيات (٥ - ٩) ٢٦
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٦
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٨
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٢٨
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٢٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٧
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: . ٤٠
بَلاغَةُ الآياتِ: ٤٤
الآيتان: (١٠ - ١١)..... ٥١
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٥١
تَفسيرُ الآيتين:..... ٥٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٥٤
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٥٤
بَلاغَةُ الآيتين: ٥٦
الآيتان: (١٢ - ١٣) ٥٩
غريبُ الكَلِماتِ: ٥٩
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٥٩
تَفسيرُ الآيتين:..... ٦٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٦٤
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٦٦
بَلاغَةُ الآيتين: ٦٧
الآيات: (١٤ - ١٧) ٧٠
غريبُ الكَلِماتِ: ٧٠
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٧١

تَفسيرُ الآياتِ: ٧٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٧٨
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٨١
بَلاغَةُ الآياتِ: ٨٥
الآية: (١٨) ٩٠
غريبُ الكَلِماتِ: ٩٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٩٠
المَعنَى الإجماليُّ: ٩١
تَفسيرُ الآية: ٩١
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٩٣
بَلاغَةُ الآية: ٩٦
الآيتان (١٩ – ٢٠)..... ٩٨
غريبُ الكَلِماتِ: ٩٨
المَعنَى الإجماليُّ: ٩٨
تَفسيرُ الآيتين: ٩٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٠٣
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ١٠٣
بَلاغَةُ الآيتين: ١٠٤
الآيتان (٢١ – ٢٢)..... ١٠٩
غريبُ الكَلِماتِ: ١٠٩
المَعنَى الإجماليُّ: ١٠٩
تَفسيرُ الآيتين: ١٠٩
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: . ١١٢
بَلاغَةُ الآيتين: ١١٣
الآيات (٢٣ – ٢٥) ١١٩
المَعنَى الإجماليُّ: ١١٩
تَفسيرُ الآياتِ: ١١٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٢٣
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ١٢٤
بَلاغَةُ الآياتِ: ١٢٥
الآيتان (٢٦ – ٢٧)..... ١٢٩
غريبُ الكَلِماتِ: ١٢٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٢٩
المَعنَى الإجماليُّ: ١٣٠
تَفسيرُ الآيتين: ١٣٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٣٤
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ١٣٥
بَلاغَةُ الآيتين: ١٣٦

الآية: (٢٨) ١٣٨
المَعنَى الإجماليُّ: ١٣٨
تَفسيرُ الآية: ١٣٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٤١
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ١٤١
بَلاغَةُ الآية: ١٤٢
الآيتان: (٢٩ - ٣٠)..... ١٤٥
غريبُ الكَلِماتِ: ١٤٥
المَعنَى الإجماليُّ:..... ١٤٥
تَفسيرُ الآيتين:..... ١٤٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٤٨
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: . ١٥٠
بَلاغَةُ الآيتين: ١٥٢
الآيتان (٣١ - ٣٢)..... ١٥٩
المَعنَى الإجماليُّ: ١٥٩
تَفسيرُ الآيتين:..... ١٥٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٦١
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ١٦٢
بَلاغَةُ الآيتين: ١٦٣
الآيات (٣٣ - ٣٧) ١٦٦
غريبُ الكَلِماتِ: ١٦٦
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٦٧
المَعنَى الإجماليُّ:..... ١٦٧
تَفسيرُ الآياتِ:..... ١٦٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٧٥
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ١٧٦
بَلاغَةُ الآياتِ: ١٧٩
الآيات: (٣٨ - ٤١)..... ١٨٥
غريبُ الكَلِماتِ: ١٨٥
المَعنَى الإجماليُّ: ١٨٦
تَفسيرُ الآياتِ:..... ١٨٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٩٢
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ١٩٣
بَلاغَةُ الآياتِ: ١٩٥
الآيات (٤٢ - ٤٤) ١٩٩
غريبُ الكَلِماتِ: ١٩٩
المَعنَى الإجماليُّ:..... ١٩٩
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٢٠٠

الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٠٢
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٢٠٣
بَلاغَةُ الآياتِ: ٢٠٥
الآيات (٤٥ - ٥١) ٢٠٧
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٠٧
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٢٠٨
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٢٠٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢١٧
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٢١٨
بَلاغَةُ الآياتِ: ٢٢٣
الآيات (٥٢ - ٥٨) ٢٢٩
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٢٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٣٠
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٢٣٠
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٢٣١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٣٨
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٢٤٠
بَلاغَةُ الآياتِ: ٢٤٣
الآيات (٥٩ - ٦٣) ٢٤٧
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٤٧
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٤٧
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٢٤٨
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٢٤٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٥٢
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٢٥٣
بَلاغَةُ الآياتِ: ٢٥٧
الآيات (٦٤ - ٦٨) ٢٦٠
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٦٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٦٠
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٢٦١
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٢٦٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٦٨
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٢٦٨
بَلاغَةُ الآياتِ: ٢٧٢
الآيات (٦٩ - ٧١) ٢٧٥
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٧٥
المَعنَى الإجماليُّ ٢٧٥
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٢٧٥

الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٧٨
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٢٧٩
بَلاغَةُ الآياتِ: ٢٨١
الآيات (٧٢ - ٧٤) ٢٨٢
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٨٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٨٢
المَعنَى الإجماليُّ ٢٨٣
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٢٨٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٨٩
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٢٨٩
بَلاغَةُ الآياتِ: ٢٩١
الآيتان (٧٥ - ٧٦)..... ٢٩٤
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٩٤
المَعنَى الإجماليُّ..... ٢٩٤
تَفسيرُ الآيتين:..... ٢٩٥
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٩٨
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٣٠٠
بَلاغَةُ الآيتين: ٣٠١
الآيات (٧٧ - ٨٠) ٣٠٣
غريبُ الكَلِماتِ: ٣٠٣
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٣٠٣
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٣٠٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣١٢
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٣١٣
بَلاغَةُ الآياتِ: ٣١٧
الآيتان (٨١ - ٨٢)..... ٣٢١
غريبُ الكَلِماتِ: ٣٢١
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٢١
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٣٢٢
تَفسيرُ الآيتين:..... ٣٢٣
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٣٢٧
بَلاغَةُ الآيتين: ٣٢٩
الآيات (٨٣ - ٨٥) ٣٣٢
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٣٣٢
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٣٣٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٣٧
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٣٣٨
بَلاغَةُ الآياتِ: ٣٣٩

الآيات (٨٦ - ٨٩) ٣٤٤
المَعنَى الإجماليُّ..... ٣٤٤
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٣٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٤٨
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٣٤٩
بَلاغَةُ الآياتِ: ٣٥٠
الآيتان (٩٠ - ٩١) ٣٥٢
المَعنَى الإجماليُّ..... ٣٥٢
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٣٥٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٥٥
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٣٥٦
بَلاغَةُ الآيتين: ٣٥٧
الآية (٩٢) ٣٦٠
غريبُ الكَلِمات: ٣٦٠
المَعنَى الإجماليُّ..... ٣٦٠
تَفسيرُ الآية: ٣٦٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٦٢
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٣٦٣
بَلاغَةُ الآية: ٣٦٤
الآيتان (٩٣ - ٩٤)..... ٣٦٦
غريبُ الكَلِمات: ٣٦٦
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٣٦٦
تَفسيرُ الآيتين:..... ٣٦٦
الفَوائِد التربويَّة: ٣٧٠
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٣٧٠
بَلاغَةُ الآيتين: ٣٧١
الآيات (٩٥ - ٩٧) ٣٧٢
غريبُ الكَلِمات: ٣٧٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٧٢
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٣٧٤
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٣٧٤
الفَوائِد التربويَّة: ٣٧٩
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٣٨٠
بَلاغَةُ الآياتِ: ٣٨٢
الآيتان (٩٨ - ٩٩)..... ٣٨٥
غريبُ الكَلِمات: ٣٨٥
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٣٨٥
تَفسيرُ الآيتين:..... ٣٨٦

الفَوائِد التربويَّة: ٣٨٧
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٣٨٨
بَلاغَةُ الآيتين: ٣٨٩
الآيتان (١٠٠ - ١٠١) ٣٩٢
غريبُ الكَلِمات: ٣٩٢
المَعنَى الإجماليُّ: ٣٩٢
تَفسيرُ الآيتين: ٣٩٣
الفَوائِدُ التربويَّة: ٣٩٤
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٣٩٥
بَلاغَةُ الآيتين: ٣٩٦
الآيات (١٠٢ - ١٠٩) ٣٩٨
غريبُ الكَلِمات: ٣٩٨
المَعنَى الإجماليُّ: ٣٩٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٠٠
الفَوائِد التربويَّة: ٤٠٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٤٠٩
بَلاغَةُ الآياتِ: ٤١٣
الآيات: (١١٠ - ١١٢) ٤٢٣
غريبُ الكَلِمات: ٤٢٣
المَعنَى الإجماليُّ: ٤٢٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٢٤
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٤٣٠
الفَوائِد التربويَّة: ٤٣٠
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٤٣٠
بَلاغَةُ الآياتِ: ٤٣٣
الآيات: (١١٣ - ١١٥) ٤٣٧
غريبُ الكَلِمات: ٤٣٧
المَعنَى الإجماليُّ: ٤٣٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٣٨
الفَوائِد التَّربويَّة: ٤٤٠
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٤٤١
بَلاغَةُ الآياتِ: ٤٤٣
الآيتان: (١١٦ - ١١٧) ٤٤٦
غريبُ الكَلِمات: ٤٤٦
المَعنَى الإجماليُّ: ٤٤٦
تَفسيرُ الآيتين: ٤٤٧
الفَوائِدُ التربويَّة: ٤٤٩
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٤٤٩
بَلاغَةُ الآيتين: ٤٥٠

الآيات (١١٨ - ١٢٠) ٤٥٣
غريبُ الكَلِمات: ٤٥٣
المَعنَى الإجماليُّ: ٤٥٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٥٥
الفَوائِدُ التربويَّة: ٤٦١
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٤٦٣
بَلاغَةُ الآياتِ: ٤٦٤
الآيات (١٢١ - ١٢٩) ٤٦٨
غريبُ الكَلِمات: ٤٦٨
المَعنَى الإجماليُّ: ٤٧٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٧١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤٧٩
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائف: .. ٤٨٢
بَلاغَةُ الآياتِ: ٤٨٥
الآيات (١٣٠ - ١٣٢) ٤٩٤
المَعنَى الإجماليُّ: ٤٩٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٩٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤٩٧
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٤٩٧
بَلاغَةُ الآياتِ: ٤٩٩
الآيات (١٣٣ - ١٣٦) ٥٠١
غريبُ الكَلِمات: ٥٠١
المَعنَى الإجماليُّ: ٥٠١
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٠٢
الفوائد التربويَّة: ٥٠٩
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٥١١
بَلاغَةُ الآياتِ: ٥١٣
الآيات (١٣٧ - ١٤١) ٥١٧
غريبُ الكَلِمات: ٥١٧
المَعنَى الإجماليُّ: ٥١٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٥١٩
الفوائد التربويَّة: ٥٢٥
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٥٢٩
بَلاغَةُ الآياتِ: ٥٣١
الآيات (١٤٢ - ١٤٥) ٥٣٤
غريبُ الكَلِمات: ٥٣٤
المَعنَى الإجماليُّ: ٥٣٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٣٥

الفوائد التربويَّة: ٥٤١
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٥٤٣
بَلاغَةُ الآياتِ: ٥٤٦
الآيات (١٤٦ - ١٤٨) ٥٥٠
غريبُ الكَلِمات: ٥٥٠
مُشكِلُ الإعرابِ:..... ٥٥٠
المَعنَى الإجماليُّ: ٥٥١
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٥٢
الفوائِدُ التربويَّةُ: ٥٥٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٥٥٨
بَلاغَةُ الآياتِ: ٥٦٠
الآيات (١٤٩ - ١٥٥) ٥٦٢
غريبُ الكَلِمات: ٥٦٢
المَعنَى الإجماليُّ: ٥٦٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٦٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٥٨٠
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٥٨٣
بَلاغَةُ الآياتِ: ٥٨٦
الآيات (١٥٦ - ١٥٨) ٥٩٣
غريبُ الكَلِمات: ٥٩٣
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٥٩٣
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٥٩٤
الفَوائِد التربويَّة: ٥٩٧
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٥٩٨
بَلاغَةُ الآياتِ: ٦٠٠
الآيات (١٥٩ - ١٦١) ٦٠٢
غريبُ الكَلِمات: ٦٠٢
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٦٠٣
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٦٠٤
الفَوائِدُ التربويَّة: ٦١٢
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٦١٤
بَلاغَةُ الآياتِ: ٦١٦
الآيات (١٦٢ - ١٦٨) ٦٢٠
غريبُ الكَلِمات: ٦٢٠
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٦٢١
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٦٢٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٦٢٩
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:.. ٦٣١

بَلاغَةُ الآياتِ: ٦٣٢
الآيات (١٦٩ - ١٧١) ٦٣٦
غريبُ الكَلِمات: ٦٣٦
المَعنَى الإجماليُّ: ٦٣٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٣٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٦٤٠
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٦٤١
بَلاغَةُ الآياتِ: ٦٤٢
الآيات (١٧٢ - ١٧٦) ٦٤٥
المَعنَى الإجماليُّ: ٦٤٥
تَفسيرُ الآيات: ٦٤٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٦٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٦٥٤
بَلاغَةُ الآياتِ: ٦٥٥
الآيات (١٧٧ - ١٨٠) ٦٥٨
غَريبُ الكَلِمات: ٦٥٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦٥٩
المَعنَى الإجماليُّ: ٦٦٠
تَفسيرُ الآيات: ٦٦١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٦٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: . ٦٦٩
بَلاغَةُ الآيات: ٦٧٠
الآيات (١٨١ - ١٨٤) ٦٧٥
غَريبُ الكَلِمات: ٦٧٥
المَعنَى الإجماليُّ: ٦٧٥
تَفسيرُ الآيات: ٦٧٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٦٨٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٦٨١
بَلاغَةُ الآيات: ٦٨٢
الآيتان (١٨٥ - ١٨٦) ٦٨٥
المَعنَى الإجماليُّ: ٦٨٥
تَفسيرُ الآيتين: ٦٨٥
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٦٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٦٩٤
بَلاغَةُ الآيات: ٦٩٥
الآيتان (١٨٧ - ١٨٨) ٦٩٨
غَريبُ الكَلِمات: ٦٩٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦٩٨

المَعنَى الإجماليُّ: ٦٩٩
تَفسيرُ الآيتين: ٧٠٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٧٠٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٧٠٦
بَلاغَةُ الآيتين: ٧٠٧
الآيات (١٨٩ - ١٩٥) ٧٠٩
غَريبُ الكَلِمات: ٧٠٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ٧٠٩
المَعنَى الإجماليُّ: ٧١٠
تَفسيرُ الآيات: ٧١١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٧٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٧٢٢
بَلاغَةُ الآيات: ٧٢٦
الآيات (١٩٦ - ٢٠٠) ٧٣٤
غَريبُ الكَلِمات: ٧٣٤
المَعنَى الإجماليُّ: ٧٣٥
تَفسيرُ الآيات: ٧٣٥
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٧٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٧٤٣
بَلاغَةُ الآيات: ٧٤٥
الفهرس ٧٤٧

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٣٥ درهم

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة النساء

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة القصيم

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثالث

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة النساء)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية
التفسير المحرر للقرآن الكريم (سورة النساء) المجلد الثالث/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٣٦هـ
٨١٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٤-٣٠-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن – سورة النساء – تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٦/٨٥٢١

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٨٥٢١
ردمك: ٤-٣٠-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net
مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة النساء)

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر – قنا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

المجلد الثالث

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ
سُورَةِ النِّساءِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ النِّساءِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ النِّساء(١).

فعن مَعْدَانَ بن أبي طَلحةَ اليَعمُريِّ، قال: ((إنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضِي اللهُ عنه خطَب يومَ جمعةٍ، فذكَر نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وذكَر أبا بكرٍ، ثم قال: إنِّي لا أَدعُ بعدي شيئًا أهمَّ من الكَلالةِ، ما راجعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في شيءٍ ما راجعتُه في الكَلالةِ، وما أَغلظَ لي في شيءٍ ما أغلظَ لي فيهِ! حتى طعَنَ بإِصبَعِه في صَدْري، وقال: يا عُمرُ، ألَا تكفيك آيةُ الصَّيفِ التي في آخرِ سورةِ النساءِ؟! وإني إنْ أعِشْ أقضِ فيها بقضيةٍ، يَقضي بها مَن يقرأُ القرآنَ ومَن لا يقرأُ القرآنَ))(٢).

فضائلُ السُّورة وخَصائصُها:

١- عن عبدِ الله بن مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- وهو على المنبر-: ((اقرأْ عليَّ القرآنَ، فقلت: يا رسولَ الله، أقرأُ عليك وعليك أُنْزِل؟! قال: إنِّي أَشتهي أن أسمعَه من غيري، قال: فقرأتُ عليه سورةَ النِّساء حتى بلغتُ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۞ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤١-٤٢]، رفعتُ رأسي، أو غمزني رجلٌ إلى

---

(١) قال ابنُ عاشور: (ووجه تَسميتها بإضافة إلى النِّساء أنَّها افتُتحت بأحكام صِلة الرَّحِم، ثم بأحكام تخصُّ النساء، وأنَّ فيها أحكامًا كثيرة من أحكام النِّساء: الأزواج، والبنات، وخُتِمت بأحكام تخصُّ النساء) ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١١). وأيضًا لتكرر اسم النساء فيها مفردًا ومضافًا مرات عديدة، ومعلوم أن تكرار الاسم من دواعي التسمية به. ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٨)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) رواه مسلم (١٦١٧).

جنبي- وفي رواية: بيده- فرفعتُ رأسي، فنظرْتُ إليه فرأيتُ عينيهِ تسيلُ))[(١)].

٢- عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((مَن أخَذ السَّبْعَ الأُولَ من القرآن، فهو حَبرٌ))[(٢)].

٣- عن واثلةَ بن الأسقعِ رضِي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أُعطِيت مكانَ التوراة السَّبْعَ الطِّوالَ... الحديث))[(٣)].

٤- عن عبدِ اللهِ بن مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، قال: (إنَّ في النِّساء لخمسَ آياتٍ، ما يسرُّني بهنَّ الدُّنيا وما فيها، وقد علِمتُ أنَّ العلماء إذا مرُّوا بها يعرفونها: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟

---

(١) رواه البخاري (٥٠٥٥)، ومسلم (٨٠٠) واللفظ له.

(٢) رواه أحمد (٦/ ٨٢) (٢٤٥٧٥)، والبزار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (٧/ ١٦٥)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٣/ ٤٠٧) (١٣٧٧)، وابن الضريس في ((فضائل القرآن)) (٧٢)، ورواه سعيد بن منصور في ((التفسير)) (٦٩)، والحاكم (١/ ٧٥٢) بلفظ: (فهو خير).

قال ابن الجوزي في ((العلل المتناهية)) (١/ ١١١): لا يصح، وقال ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (١/ ٥٥): غريب، وقال الهيثمي: رجال البزَّار رجالُ الصحيح غير حبيب بن هند الأسلمي، وهو ثقة، ورواه بإسنادٍ آخَرَ رجالُه رجالُ الصحيح. وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٩٧٩).

(٣) رواه أحمد (٤/ ١٠٧) (١٧٠٢٣)، والطبراني (٢٢/ ٧٥) (١٨٦)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢/ ٤٨٧) (٢٤٨٤).

قال البغويُّ في ((تفسيره)) (١/ ٦١)، وابن كثير في ((تفسير القرآن)) (١/ ٥٥): غريب، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٤٩): فيه عمرانُ القَطَّان، وبقيَّةُ رجاله ثقات. وصحَّحه الألبانيُّ بمجموع طرقه في ((السلسلة الصحيحة)) (١٤٨٠).

أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[النساء: ٦٤]، وقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1] [النساء: ١١٠]).

٥- عن حُذيفةَ بن اليمانِ رضي الله عنه، قال: ((صلَّيتُ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذاتَ ليلةٍ، فافتتَحَ البقرةَ، فقلتُ: يركع عند المئةِ، ثم مضى، فقلتُ: يصلي بها في ركعةٍ، فمضى، فقلتُ: يركع بها، ثم افتتح النساءَ فقرأها، ثم افتتح آلَ عمرانَ فقرأها، يقرأ مُترسِّلًا))[2].

بيانُ المَكِّي والمَدنيِّ:

سورةُ النِّساء مدنيَّةٌ؛ حُكي في ذلِك الإجماعُ[3].

ويدلُّ على ذلك ما جاء عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنها قالت: (وما نزلتْ سورةُ البقرةِ والنساء إلَّا وأنا عنده)[4].

ولا خِلافَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إنَّما بَنَى بها بالمدينة[5].

مقاصدُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ المقاصدِ التي تَضمَّنتها سورةُ النِّساء:

١- الاهتمامُ بالعقيدة وتوحيدِ الله سبحانه وتعالى وقضايا الإيمان، والردُّ

---

(١) رواه سعيد بن منصور في ((سننه)) (٤/ ١٢٩٧)، والطبراني (٩/ ٢٥٠) (٩٠٦٩)، والحاكم (٣١٩٤).
قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٤): رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه مسلم (٧٧٢).

(٣) قال الفيروزابادي: (هذه السُّورة مدنيَّة بإجماع القُرَّاءِ) ((بصائر ذوي التمييز)) (١/ ١٦٩).
وقال البقاعي: (سورة النساء مدنيَّة إجماعًا؛ كذا قال بعضهم) ((مصاعد النظر)) (٢/ ٨٦).

(٤) رواه البخاري (٤٩٩٣).

(٥) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٨٧).

على العقائد الباطلة، وإيضاح الحُجَّة على صِحَّة نبوَّة محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والتحذير من المنافقين.

٢- العناية بالأُسرة، وتنظيم العلاقة بين الزوجينِ، وحقوق الأرحام، وبيان نظام الإِرْث، وتقسيم التَّرِكات.

٣- الاهتمام بأُسُس بناء الدولة الإسلاميَّة، ومقوِّماتها، والجهاد في سبيل الله.

٤- الاهتمامُ بحِفظ الدِّماء وأحكامها، وحِفظ الأموال، ورعاية حقوق اليتامى.

موضوعاتُ السُّورةِ:

أبرزُ الموضوعاتِ التي تناولتْها سورةُ النساء:

١- الحديث عن المرأة، ففصَّلت الكثيرَ من أحكامها، وأوضحتْ كثيرًا من حقوقِها، وأطالتِ السورةُ الكلامَ في هذا الجانب.

٢- تنظيم الكثيرِ من العَلاقات القائمةِ بين الرجُل والمرأة؛ ومنها: موضوع القِوامة، وإباحة النِّكاح والتعدُّد فيه للرجل، وحق المرأة في الكرامة الإنسانية والمهر والميراث، وحُرمة عَضْل النساء، وأحكام الرَّضَاع،كما حثَّتْ على الفضيلة، وزجرت عن إتيان الفاحشة، وتطرَّقت أيضًا إلى العَلاقة مع مِلْك اليمينِ، إلى غير ذلك.

٣- الحديثُ عن حقوقِ الأيتام، وكيفيةُ التعامُل مع أموالِهم.

٤- فيما يتعلَّق بالأموالِ، تناولت السورة موضوعَ تحريمِ أكْل أموالِ النَّاسِ بالباطل، والتحذير مِن فِعل ذلك، والحثَّ على الإنفاق في سبيل الله، وتوعُّد الذين يبخلون ويأمرون الناسَ بالبُخل.

٥- تطرَّقت السورةُ إلى بيان الكثير من الأحكام الفقهيَّةِ مع بيان يُسْرِ الشَّريعةِ، وإرادة الله التخفيفَ عن عباده، ومراعاة ضَعْفهم، ومن هذه الأحكام: أحكامُ المواريث، وحُرمة صلاة السَّكران في حالة سُكرِه، ووجوب الاغتسال من الجَنابة لمن أراد الصَّلاة، ومشروعية التيمُّم وأحكامه، كما أَوضحتِ السورةُ بعضًا من أحكام الجناياتِ، والدِّيَات، مع بيان عِظَم حرمة دماء المؤمِن، وجزاء مَن يقتل مؤمنًا متعمِّدًا، وغير ذلك من الأحكام الفقهيَّة.

٦- تحدَّثت السورةُ عن أهلِ الكتابِ، وبيَّنت بعضَ ما هُمْ عليه من الضَّلال، وما حلَّ عليهم من الغضب واللَّعن، وذَكَرت بعضَ تعنُّتِهم، ونَقْضهم للعهود، وكُفْرهم بالآيات، ومعاملتهم السيِّئة لأنبياء الله، التي وصلت إلى قتْل بعضِهم، ثم تناولَتْ دعوتَهم إلى الدِّين الحقِّ، ونهيَهم عن الغلوِّ في الدِّين، ومن ذلك غلوُّهم في المسيح عيسى ابن مريمَ، وقولهم بالتثليث.

٧- تَطرَّقتْ السورة إلى قضيةِ الحُكم في الإسلام، وإلى ما يَنبغي أنْ يقومَ عليه الحُكمُ في الدَّولة الإسلاميَّة، وهو العدلُ، ووجوبُ الطاعةِ لله والرسولِ وأُولي الأمر، وأنْ يكون المرجعُ في التنازع هو شَرْعَ الله، حتى جعلَتِ الإيمانَ مربوطًا بتحكيمِ الشَّرع، والرِّضا والتسليم له.

٨- الحديثُ عن المنافقين، وفضْحُهم، وبيانُ الكثير من أعمالهم، وتصرُّفاتهم، ودَسائسهم، وعقوبتهم، ومكانهم في الآخرة، وأنَّهم في الدَّرْك الأسفل من النار.

٩- ومِن المواضيع التي تحدَّثت عنها السورةُ: الأمْرُ بالقتال في سبيل الله؛ لإعلاء كلمته، ولنُصرة المستضعَفين من المؤمنينَ، موضِّحةً الأجرَ العظيمَ لِمَن يُقاتِل في سبيل الله، والفضل الجزيل للمجاهدين على القاعدين، ومبيِّنةً بعضَ الأحكام التي يحتاج لها المقاتلُ في سبيل الله؛ كالتعامُل مَع مَن يُلقِي السلام، وأحكام صلاة الخوف، والقَصْر للصَّلاة.

١٠- الحضُّ على عمَل الخير، والتخلُّقِ بالأخلاق الفاضلة؛ ومنها: العدل، وأداء الشَّهادة لله كما هي، ولو كانت على النَّفْسِ، أو الوالدينِ أو الأقربين، وتركُ اتِّباع الهوى، ومنها: أداءُ الأمانات، والحثُّ على الإحسانِ للخَلْق، ومراعاة الأقرَبينَ من الوالدينِ والأقاربِ والجيرانِ، وكذلك مراعاةُ المحتاجين من الفُقَراء والمساكينِ والضعفاءِ، والإحسانِ إليهم.

١١- بيانُ العداوة الأزليَّة بين الشيطانِ وبينَ بني آدمَ، وكيف أنَّ الشيطانَ توعَّد بإضلالِ جزءٍ من العِبادِ.

١٢- الحثُّ على الإيمانِ بالله ورُسله وكُتُبِه واليومِ الآخِر، وتوحيد العبادة، وبيانُ خطورةِ الشِّركِ، والنَّهْي عن اتِّخاذِ الكافرينَ أولياءَ من دون المؤمنينَ، والأمرُ بتقوى الله عزَّ وجلَّ، والاعتصام به، والتمسُّك بدِينه.

١٣- ذكرُ بعضِ أنبياءِ الله تعالى، وطرفٍ من خبرِ موسَى وعيسَى عليهما السَّلام.

الآية (١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَبَثَّ﴾: أي: ونشَر، وأصلُ البثِّ: التفريقُ، وكذلك إثارةُ الشَّيءِ وإظهارُه[١].

﴿تَسَآءَلُونَ﴾: تطلُبون حقوقَكم، والسُّؤال يأتي بمعنى الطَّلب والالتماسِ، ويأتي بمعنى الاستفسارِ؛ يُقال: سأل يسألُ سؤالًا ومسألةً[٢].

﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾: أي: القَرابَاتِ، واحِدَتُها رحِم، والرَّحِمُ: عَلاقة القرابَةِ، وأصل (رحم): الرِّقَّةُ والعطفُ والرَّأفة، ثم سُمِّيت رحِمُ الأنثى رَحِمًا مِن هذا؛ لأنَّ منها يكونُ ما يُرحَم ويُرقُّ له من ولدٍ[٣].

﴿رَقِيبًا﴾: أي: حافظًا، عالِمًا، مُطَّلعًا، وأصل رقب: يدلُّ على انتصابٍ لمراعاةِ شيءٍ[٤].

مُشكِل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾:

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

(٢) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠١).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥).

(٤) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

﴿ وَٱلۡأَرۡحَامَ ﴾ قُرِئ بالنَّصب، والجرِّ؛ فعلى قِراءة النَّصب، فهو عَطفٌ على اسمِ الله تعالى، أي: واتَّقوا الأرحامَ أن تَقطَعوها، ويجوزُ أنْ يكونَ عطفُه على موضِع ﴿بِهِۦ﴾ كما في: مررتُ بزيد وعمرًا، بعطف (عمرًا) على موضع بزيد؛ لأنَّه مفعولٌ به في موضِع نصْب، وإنَّما ضعُف الفِعلُ عن التعديةِ بنفْسه، فتعدَّى بحَرْف جَرٍّ.

وعلى قِراء الجرِّ، فهو معطوفٌ على الهاء في ﴿بِهِۦ﴾، من بابِ العَطفِ على الضَّميرِ المجرورِ من غيرِ إعادة الجارِّ[1].

المَعنَى الإجمالي:

يُخاطِبُ الله تعالى جميعَ البَشَر آمرًا إيَّاهم بتقواه؛ فهو الذي أَوجدَهم جميعًا من نفْسٍ واحدة، من أبيهم آدَمَ عليه السَّلام، ومِن آدَمَ أوجد الله سبحانه حوَّاءَ، ونشَر منهما بشرًا كثيرًا من الرِّجال والنِّساء، وأمَرَهم سبحانه أيضًا أن يتَّقوه؛ فإنَّه سبحانه مَن يتساءلون به بينهم لعَظَمَتِه، وأمرهم أن يتَّقوا الأرحامَ فلا يَقْطَعوها؛ فإنَّهم يتساءلون بها أيضًا لِعِظَمِها، فلْيؤدُّوا حقَّها، إنَّ الله سبحانه مطَّلعٌ على جميع أعمالِهم، مراقِبٌ وحافظٌ لها.

تَفسيرُ الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾.

---

(١) ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٨٧-١٨٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٢٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٩٤)، (٣/ ٥٥٤).
والوجه المذكور في قِراءة الجرِّ، وإنْ كان لا يُجيزه البصريُّون، إلَّا أنَّه ينبغي أن يجوز مطلقًا؛ لكثرة السماع الوارد به، واعتضادِه بالقياس، وضَعْفِ دليل المانعين. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٩٤).

مُناسَبةُ افتتاحِ السُّورةِ بالأمْر بالتقوى:

لقدِ اشتملتْ سورةُ النِّساء على أنواعٍ كثيرة من التكاليفِ؛ وذلك لأنَّه تعالى أمَر النَّاسَ في أوَّل هذه السورة بالتعطُّفِ على الأولاد والنِّساءِ والأيتام، والرأفة بهم، وإيصالِ حقوقِهم إليهم، وحِفْظ أموالِهم عليهم، وبهذا المعنى خُتِمت السورةُ، وهو قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾[النساء: ١٧٦]، وذَكَرَ في أثناء هذه السُّورة أنواعًا أُخَر من التكاليف، وهي الأمْرُ بالطهارة والصَّلاة، وقِتال المشركين، ولَمَّا كانت هذه التكاليفُ شاقَّةً على النفوس؛ لثِقَلِها على الطِّباع، لا جرمَ افتتَح السورةَ بالعِلَّة التي لأجلها يجب حمْلُ هذه التكاليفِ الشاقَّة، وهي تقوى الربِّ الذي خلَقَنا، والإلهِ الذي أَوْجَدَنا؛ فلهذا قال[١]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾.

أي: يا أيها الناس[٢] حققوا تقوى الله عزَّ وجلَّ، بامتثالِ أوامره، واجتنابِ نواهيه؛ وذلك لأنَّه ربُّكم، أي: خالِقُكم ومالِكُكم ومُدبِّركم[٣].

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

لَمَّا أمَر الله عزَّ وجلَّ بتقواه، وذكَر السبَّبَ الدَّاعيَ لهذه التَّقْوى، ذكَر سببًا آخرَ موجِبًا لها[٤]، فقال:

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٥).

(٢) قال الألوسي: (لفظ النَّاس يشملُ الذُّكور والإناث بلا نزاع) ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١١-١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).

أي: الذي أوجدَكم جميعًا -أيُّها الناس- من نَفْسٍ واحدةٍ، وهي آدَمُ عليه السَّلام[١].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٨].

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

أي: وأَوجَدَ مِن آدَمَ عليه السَّلامُ امرأتَه حوَّاءَ عليها السَّلام[٢].

كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وعن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((استوصُوا بالنِّساءِ؛ فإنَّ المرأةَ خُلقتْ من ضِلَعٍ[٣]، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضِّلَعِ أعلاه، فإنْ ذهبتَ تقيمُه كَسَرْتَه، وإنْ تركتَه لم يزلْ أعوجَ، فاستوصُوا بالنِّساءِ))[٤].

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٩-٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٠٤).
قال الرازي: (أجمع المسلمون على أنَّ المراد بالنَّفس الواحدة هاهنا هو آدمُ عليه السَّلام) ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٨٩).
وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المقصود من قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواءُ: مجاهد، والسُّدِّي، وقتادة، ومقاتل. ينظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٨٥٣).

(٣) الضِّلَع: مفرد أضلُع وأضلاع وضلوع، وهي عِظامُ الجَنبين. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٦٣).

(٤) رواه البخاري (٣٣٣١) واللفظ له، ومسلم (١٤٦٨).
وقال النوويُّ: (وفيه دليل لِمَا يقوله الفقهاء -أو بعضهم- أنَّ حواء خُلقت من ضِلع آدَم؛ قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وبيَّن النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّها خُلِقت من ضِلَع). ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ٥٧).

أي: ونشَر من آدَمَ وحواءَ عليهما السَّلام في أقطارِ الأرض أعدادًا كثيرةً من الرِّجال والنِّساء، فجميعُهم بنو أبٍ واحدٍ، وأمٍّ واحدةٍ[١].

كما قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠].

ثم ذكَر داعيًا آخرَ من دواعي تقواه جلَّ وعلا[٢]، فقال:

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ ﴾.

أي: امتثِلوا ما أمَرَكم الله تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه؛ فإنَّ تساؤُلَكم به، وتعظيمَكم له سبحانه، من الموجِبِ الدَّاعي لتَقْواه؛ حتى إنَّكُم إذا أرَدْتُم قضاءَ حاجاتِكم، توسَّلْتُم بها بالسُّؤالِ بالله، فيقول مَن يريد ذلك لغيرِه: أسألُك باللهِ أن تفعلَ كذا؛ لعِلمه بما قام في قلب الغيرِ من تَعظيمِ الله الذي يَمنعه أنْ يردَّ مَن سأله بالله؛ فكما عَظَّمتُم الله تعالى بذلك، فلْتعظِّموه أيضًا بتقواه سبحانه[٣].

﴿ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

أنَّ في إخبارِ الله سبحانه بأنَّه خَلَق النَّاسَ من نفسٍ واحدةٍ، وأنَّه بثَّهم في أقطارِ الأرض، مع رُجوعِهم إلى أصلٍ واحدٍ- عَطفًا لقلوبِ بعضِهم على بعضٍ، وترقيقَ بعضِهم على بعض. وقَرَن سبحانه الأمْرَ بتقواه بالأمر ببرِّ الأرحامِ والنهي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٩، ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣-١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).

وقيل المراد بـ ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾: تتعاهدون به وتتعاقدون؛ لأنَّ كلَّ واحد من المتعاقدين في النِّكاح وغيره، يسأل الآخَرَ تسليمَ مطلوبه. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١١٣).

عن قطيعَتِها؛ ليؤكِّدَ هذا الحَقَّ، وأنَّه كما يلزم القيامُ بحقِّ الله تعالى، كذلك يجب القيامُ بحقوق الخَلْق، والأقربين منهم خاصَّة، بل القيامُ بحقوقِهم هو مِن حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ الذي أمر به[١].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ قراءتان:

١- ﴿وَالْأَرْحَامِ﴾ على أنَّها معطوفةٌ على الهاءِ في (به)، أي: تساءلونَ باللهِ، وتَسَاءلون بالأرحامِ، أي: تتوسَّلونَ بها[٢].

٢- ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ على أنَّها معطوفة على لفظ الجلالةِ، أي: واتَّقوا الأرحامَ أن تَقْطَعوها[٣].

﴿وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾.

أي: واحْذروا من أنْ تَقطعوا أرحامَكم، وتُفَرِّطوا في أداءِ حقِّهم[٤]، وكما تتوصَّلونَ بهذه الصِّلة فيما بينكم لعِظَمِها من أجْل قضاءِ حاجةٍ، أو نَيْل مأرب،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٢) قرأ بها حمزة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٥٤).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٩، ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥).
وممَّن قال بنحو هذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، والضَّحَّاك، ومقاتل بن حيَّان، وعِكرمة، والسُّدِّي، ومجاهد- في رواية عنه- والرَّبيع، وابن زيد. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٨٥٤).

فآتوها حقَّها[١].

عن جَرير بن عبد الله رضِي اللهُ عنه، قال: ((كنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في صَدرِ النهارِ، قال: فجاءَه قومٌ حُفاةٌ عُراةٌ مُجتابي النِّمارِ أو العَباءِ[٢]، مُتقلِّدي السيوفِ، عامَّتُهم من مُضَرَ، بل كلُّهم من مُضَرَ، فتمعَّر[٣] وجهُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِمَا رأى بهم من الفاقةِ، فدخَل ثم خرج، فأمَر بلالًا فأذَّن وأقام، فصلَّى ثم خطَب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. والآيةَ التي في الحشرِ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ تصدَّقَ رجلٌ من دينارِه، من درهمِه، من ثوبِه، من صاعِ بُرِّه، من صاعِ تَمْرِه حتى قال: ولو بشِقِّ تمرةٍ ، قال: فجاءَ رجلٌ من الأنصارِ بصُرَّةٍ كادت كَفُّه تَعجِزُ عنها، بل قد عجَزتْ، قال: ثم تتابَعَ الناسُ، حتى رأيتُ كَومَين من طعامٍ وثيابٍ، حتى رأيتُ وجهَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يتهلَّلُ كأنَّه مَذْهَبةٌ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَن سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حسنةً، فله أجرُها، وأجرُ مَن عَمِل بها بعدَه، من غير أن يَنقُصَ من أجورِهم شيءٌ، ومن

---

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥، ١٩).

وممَّن قال من السَّلَف بنحو هذا القول: مجاهد- في رواية عنه- وإبراهيم، والحسَن- في رواية عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٨٥٣).

(٢) النِّمار- بكسر النون-: جمْع نَمرة بفتحها، وهي ثياب صوف فيها تنميرٌ؛ كأنَّها أُخذت من لَونِ النَّمر؛ لِمَا فيها من السَّوادِ والبياض. والعَباء- بالمدِّ وبفتح العين-: جمْع عَباءة وعباية- لُغتان. وقوله: مجتابي النِّمار، أي: خَرَقوها وقوَّروا وسَطَها. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ١٠٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٨).

(٣) فتمعرَّ: أي: تغيَّر، وأصله قِلَّةُ النَّضارة، وعدَم إشراق اللون. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٤٢).

سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سيئةً، كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عمِل بها من بعده، من غير أن يَنقُصَ من أوزارِهم شيءٌ))[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مراقِبٌ لجميع أعمالِكم، وحافِظٌ لها، ومِن جُملةِ ذلك ما أمَرَكم به من تقوى ربِّكم، ورِعايةِ حُرمة أرحامِكم[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- حقُّ الربِّ سبحانه مُقدَّمٌ على حقِّ القَرابةِ والرَّحِم؛ يُبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قدَّم ذِكْرَه هنا على ذِكْرِ غَيرِه من الخَلْقِ، فقد خلق العبدَ وخَلَقَ أبوَيْه وخَلَقَه من أبوَيْه، فالسبب الذي بينه وبين اللهِ هو الخلقيُّ التَّامُّ؛ بخلاف سبَبِ الأَبَوَينِ؛ فإنَّ أصل مادَّتِه منهما، وله مادَّةٌ من غيرهما؛ ثمَّ إنَّهما لم يصوِّراه في الأرحامِ. واللهُ سبحانه هو خالِقُه وبارِئُه ومُصَوِّرُه ورازِقُه وناصِرُه وهاديه[٣].

٢- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾، أنَّ الناس إذا عرَفوا كونَ الكلِّ من شَخْص واحد، ترَكوا المفاخَرةَ والتكبُّر، وأظهروا التواضُعَ وحُسنَ الخُلق[٤].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾، تَقْوى الأرحام:

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٣-١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٧).

تعبيرٌ عجيب، يُلْقي ظلالَه الشعوريَّةَ في النَّفْس! اتَّقوا الأرحامَ، أرْهِفوا مشاعِرَكم للإحساسِ بوشائِجِها، والإحساسِ بحقِّها، وتوقِّي هَضْمِها وظُلْمِها، والتحرُّجِ مِن خَدْشِها ومسِّها، توقَّوْا أن تُؤذُوها، وأن تَجْرَحوها، وأن تُغْضِبوها، أرْهِفوا حساسيتكم بها، وتوقيرَكم لها، وحنينكم إلى نَداها وظلِّها[١].

٤- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ التحذيرُ من مخالفة الله عزَّ وجلَّ، ومَن آمَن بأنَّ الله رقيبٌ عليه، فسيحذرُ من مخالفة الله عزَّ وجلَّ، ويوجِبُ له ذلك مراقبتَه، وشِدَّة الحياءِ منه، بلزوم تقواه[٢].

٥- في قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ تنبيهٌ على مراعاةِ حقِّ الأزواجِ والزَّوجات والقيامِ به؛ لكَوْنِ الزوجاتِ مخلوقاتٍ من الأزواجِ؛ فبينهم وبينهنَّ أقربُ نسَبٍ، وأشدُّ اتصالٍ، وأقرَبُ عَلاقة[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- لَمَّا كان الغالبُ على سُورةِ النِّساءِ مُخاطبةَ النَّاسِ في الصِّلاتِ التي بينهم بالنَّسَبِ والعَقْدِ وأحكامِ ذلك؛ افتتَحها اللهُ تعالى بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ لعُمومِ أحكامِها[٤].

٢- جعَل اللهُ تعالى قولَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ مَطْلعًا لسورتينِ في القرآن: إحداهما: هذه السُّورة، وهي السُّورة الرَّابعة مِن النِّصف الأوَّلِ من القرآن. والثانية: سُورةُ الحج، وهي أيضًا السورة الرَّابعة من النِّصف الثاني من القرآن، ثم إنَّه تعالى علَّل الأمرَ بالتقوى في هذه السُّورة بما يدلُّ على معرفةِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).
(٤) ((المسائل والأجوبة)) لابن تيمية (ص: ٢٠٣).

المبدأِ، وهو أنَّه تعالى خلَق الخَلْقَ مِن نفْسٍ واحدة، وهذا يدلُّ على كمالِ قُدرةِ الخالق، وكمالِ عِلْمه، وكمالِ حِكمتِه وجلالِه، وعلَّل الأمرَ بالتَّقوى في سورة الحجِّ بما يدلُّ على كمالِ معرفةِ المَعادِ، وهو قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، فجعَلَ صدْرَ هاتين السورتين دلالةً على معرفة المبدأِ ومَعْرِفة المعاد[١].

٣- في قوله تعالى: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ دليلٌ على المعادِ؛ لأنَّه تعالى لَمَّا كان قادرًا على أنْ يُخرِجَ من صُلْب شخص واحد أشخاصًا مختلفين، وأنْ يَخلُقَ من قَطرة من النُّطفة شَخصًا عجيبَ التركيبِ، لطيفَ الصُّورة؛ فكيف يُستبعَد إحياءُ الأمواتِ وبعثُهم ونشورُهم؟! فتكون الآية دالَّةً على المعادِ من هذا الوجه[٢].

٤- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ...﴾، في الآية تلويحٌ للمشركينَ بأحقيَّة اتِّباعِهم دعوةَ الإسلامِ؛ لأنَّ الناس أبناءُ أبٍ واحدٍ، وهذا الدِّين يدعو النَّاسَ كلَّهم إلى متابعته، ولم يَخصَّ أمَّةً من الأُمم أو نسبًا من الأنسابِ؛ فهو جديرٌ بأن يكون دينَ جميعِ البشر، بخلاف بقيَّة الشرائعِ، فهي مصرِّحة باختصاصِها بأُمَمٍ معيَّنة[٣].

٥- المَدْحُ والذَّمُّ والثوابُ والعِقابُ إنَّما يترتَّبُ على الإيمانِ والعمل الصَّالِحِ، أو على ضِدِّ ذلك من الكُفر والفُسوق والعصيان؛ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ حيث ذَكَرَ اشتراكَ جميعِ النَّاسِ في الأصل، وأمَرَهم بتقوى اللهِ تعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٥).

(٤) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ٤٤٦)، ((المسائل والأجوبة)) لابن تيمية (ص: ٢٠٣).

٦- في قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ تعريضٌ للمشركين بأنَّ أَوْلَى الناسِ بأن يتَّبِعوه هو محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه مِن ذوي رَحِمِهم[١].

٧- في قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ ردٌّ على الفِكرة المُلْحِدة أنَّ الناس تطوَّروا من القُرُود إلى البشريَّة؛ فالنَّفْسُ هي آدَمَ، الذي نحن مِن نَسْلِه[٢].

٨- التَّذكيرُ بنِعمة الله عزَّ وجلَّ بما خَلَق لنا من الأزواجِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾، و(مِن) هنا للتبعيض، ويجوز أن تكونَ بيانيَّةً للجِنس؛ أي: مِن جِنْسِها، وهذا من النِّعم الكبيرة، فلو كانت أزواجُنا من غَير جِنْسِنا، فلا يمكن أن نركنَ إليها أبدًا؛ بل ننفِرُ منها نفورًا شديدًا؛ لأنَّه لا يركَنُ الإنسانُ إلَّا إلى مَن كان مِن جِنْسِه[٣].

٩- في قولِه تعالى: ﴿رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ خصَّ رجالًا بذكرِ الوصفِ بالكثرةِ دونَ النِّساء، قيل: حذَف وصفَ الثَّاني؛ لدلالةِ وصفِ الأوَّل عليه، والتقديرُ: ونساءً كثيرةً، ولأنَّ الفعل (بَثَّ) يقتضي الكثرةَ والانتشارَ، وقيل: لا يقدَّر الوصفُ، وإن كان المعنى فيه صحيحًا؛ لأنَّه نبَّه بخصوصيةِ الرِّجال بوصفِ الكثرةِ على أنَّ اللائقَ بحالِهم الاشتهارُ والخروجُ والبُروز، واللائقَ بحالِ النِّساء الخمولُ والاختفاءُ، وقيل: لأنَّ كثرة الرِّجالِ أهمُّ من كثرةِ النِّساء؛ فالكثرةُ في الرِّجال عزٌّ وفخرٌ يفتخرُ النَّاس به، بخلافِ النِّساء، فإنَّ الكثرةَ منهنَّ عالةٌ وتعبٌ وعناءٌ، وقيل غير ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧).

١٠- ذُكِرَ (الربُّ) أولًا في قوله ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ وهو الاسمُ الذي يدلُّ على الإحسانِ والتربيةِ، وذُكِرَ ثانيًا (الله) في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ وهو الذي يدلُّ على القَهْر والهَيْبة؛ لأنَّه بنى الأَمْر بالتقوى أولًا على التَّرغيب، وثانيًا على التَّرهيب. كقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، كأنَّه قال: إنَّه ربُّك أحْسنَ إليك، فاتَّقِ مخالفتَه وغَضَبَه وعقابَه؛ فإن لم تتَّقِه لذلك، فاتَّقِه؛ لأنَّه شديدُ العقابِ[١].

١١- في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ تأمَّلْ كيف افتتَح هذه السُّورةَ بالأَمْرِ بالتقوى، وصِلَة الأرحامِ والأزواجِ عمومًا، ثم بعد ذلك فَصَّلَ هذه الأمورَ أتمَّ تفصيلٍ، من أوَّلِ السورة إلى آخِرِها؛ فكأنَّها مبنيَّةٌ على هذه الأمورِ المذكورةِ، مفصِّلَة لِمَا أُجْمِلَ منها، موضِّحَة لِمَا أُبْهِمَ[٢].

بَلاغَةُ الآية:

١- **قوله**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾ الآية، فيه بَراعةُ الاستهلالِ؛ فقد استهلَّ السورةَ بالإشارةِ إلى بَدء الخَلْق والتكوينِ، وألْمَع إلى دَورِ المرأةِ المهمِّ، وأَوْصى بصِلةِ الرَّحِم[٣]؛ حيث تَضمنَّت هذه الآيةُ المفتَتَحُ بها الأغراض الأصلية التي اشتملت عليها السورة، وما أكثرُ السُّورةِ في أحكامِه؛ من نِكاحِ النِّساءِ ومحرَّماتِه، والمواريثِ المتعلِّقَةِ بالأرحام، وأنَّ ابتداءَ هذا الأمر كان بخَلْق آدَمَ، ثم خَلَق زوجَه منه، ثم بَثَّ منهما رِجالًا ونساءً في غاية الكثرة؛ فالآية تمهيدٌ لِمَا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٩٦)

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤٨).

سيُبَيَّن في هذِه السُّورةِ من الأحكامِ المرتَّبةِ على النَّسَبِ والقرابة، فكانتْ بمنزلةِ الدِّيباجةِ[١].

٢- **قوله:** ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾: عبَّر بـ ﴿رَبَّكُمُ﴾، دون الاسم العَلَم (الله)؛ لأنَّ في معنى الربِّ ما يَبعث العبادَ على الحِرص في الإيمانِ بوحدانِيَّتِه؛ إذ الربُّ هو المالك الذي يرُبُّ مملوكَه، أي: يُدبِّر شؤونَه، مع الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطَبين؛ لتأييدِ الأمر، وتأكيدِ إيجاب الامتثالِ به على طريقةِ الترغيبِ[٢].

٣- **قوله:** ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾: إعادة الفِعل (خَلَق)- مع جوازِ عطفِ مفعولِه على مفعولِ الفِعل-؛ لإظهارِ ما بين الخَلقينِ من التفاوُتِ؛ فإنَّ الأوَّلَ بطريقِ التفريعِ من الأَصْل، والثاني بطريقِ الإنشاءِ من المادَّة؛ فإنَّه تعالى خلَقَ حواءَ مِن ضِلَع آدَمَ عليه السلام، وتأخيرُ ذِكْر خَلْقِها عن ذِكرِ خَلْقِهم؛ لأنَّ تذكيرَ خَلقِهم أدخلُ في تحقيقِ ما هو المقصودُ من حمْلِهم على الامتثالِ بالأمْر بالتقوى من تذكير خَلْقِها[٣].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿مِنۡهَا﴾؛ للاعتناءِ ببيانِ مبدئيَّةِ آدَمَ عليه السَّلام لها، مع ما فيه من التشويقِ إلى المؤخَّر، وإيرادُ حواء بعنوان الزوجيَّة تمهيدٌ لِمَا بعده من التناسُل[٤].

٤- **قوله:** ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾

- وإيثارُ (رجالًا- ونساءً) على (ذكورًا- وإناثًا)؛ لتأكيدِ الكثرةِ، والمبالغةِ

(١) ينظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٤- ٢١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٤- ٢١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فيها بترشيح كلِّ فرد من الأفراد المبثوثة لمبدئيَّة غيره[١].

- وترتيب الأمْر بالتقوى على هذه القِصَّة؛ للدَّلالة على القُدرة القاهرةِ التي من حقِّها أنْ تُخشى، والنِّعمةِ الباهرةِ التي تُوجِب طاعةَ مُولِيها[٢].

٥- **قوله:** ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾: فيه تكريرٌ للأمْر بالتقوى، وتذكيرٌ لبعضٍ آخَرَ من مُوجِبات الامتثالِ به؛ فإنَّ سؤالَ بعضِهم بعضًا باللهِ تعالى بأن يقولوا: أَسألُك بالله، وأَنْشُدُك اللهَ، على سبيلِ الاستعطاف، يَقتضي الاتِّقاءَ من مخالفةِ أوامرِه ونواهيه[٣].

- وتعليقُ الاتِّقاءِ بالاسمِ الجليل (الله)؛ لمزيدِ التأكيدِ والمبالغة في الحَمْلِ على الامتثالِ بتربيةِ المهابة، وإدخالِ الرَّوعة؛ لوقوعِ التساؤُلِ به لا بغيرِه من أسمائِه تعالى وصِفاته[٤].

- وفي قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ قَرَنَ اللهُ سُبحانَه الأرحامَ باسْمِه الكَريمِ؛ إيذانًا بأنَّ صِلةَ الأرحامِ مِن اللهِ بمكانٍ عظيمٍ[٥].

٦- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: خبرٌ جارٍ مجرَى التَّعليلِ للأمْرِ، ووُجوبِ الامتثالِ به[٦]، مع ما فيه من التوكيدِ بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة.

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾؛ لتأكيدِه، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٧٦).

(٦) ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٩).

﴿عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لرِعايةِ الفَواصِل[١].

- والتعبيرُ بصِيغة فَعيل في قوله: ﴿رَقِيبًا﴾؛ للمُبالغةِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٩).

(٢) ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٩).

الآيات (٢ - ٦)

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿حُوبًا﴾: أي: إثمًا؛ يقال: فلانٌ يَتَحَوَّبُ من كذا، أي: يتأثَّم، والتَّحوُّبُ التوجُّع، والحَوْبَة الحاجةُ أو المسكَنة، وأصْلُ (حوب): الإثمُ أو الحاجةُ والمسكنةُ، وقيل: مأخوذ من قولهم: حَوْبُ؛ لزَجْرِ الإبل[(١)].

﴿تَعۡدِلُواْ﴾: أي: تَجُوروا وتَميلوا، والعولُ: الميلُ إلى الجورِ في الحكمِ، ويُطلقُ كذلك على ما يُهلِك، وما يُثقِل، وأصْلُه: تركُ النَّصَفة بأخْذ الزِّيادة[(٢)].

﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: أي: اثنتينِ اثنتينِ، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا، وهذه الألفاظُ لا تنصرفُ للعدلِ والوصفِ[(٣)].

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٩)، ((مجمل اللغة)) لابن فارس (ص: ٦٣٧) ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٥،

﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾: أي: مُهورَهنَّ، واحدتُها صَدُقة، وأصل (صدق): القوَّة في الشَّيء قولًا كان أو غيره[١].

﴿نِحۡلَةٗ﴾: أي: هِبة، أو فريضةً عن طِيب نفْس من غيرِ مُطالَبة، وأصل النِّحلة: العَطيَّةُ على سبيل التبرُّع، وهي أخصُّ من الهِبة[٢].

﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾: الهَنِيء: كلُّ ما لا يَلحَق فيه مَشقَّةٌ، ولا يُعقِب وخامةً؛ يُقال: هَنِئ الطَّعام، فهو هَنِيء، وأصل (هنأ): إصابةُ خيرٍ من غير مشقَّة، وقيل: إنَّ الهَنيءَ مُشتقٌّ مِن هَنَأت البعيرَ بالقَطِرانِ: إذا جَرِبَ فعُولِج بِه؛ فإنَّه شفاءٌ من الجَرَبِ. و﴿مَّرِيٓـٔٗا﴾: أي: بلا داءٍ، والمريءُ: المحمودُ العاقبة؛ يُقال: أَمْرأ الطَّعام، إذا انهضَمَ وحُمِدتْ عاقبتُه. فيكون المَعْنَى: فكُلوه دَواءً شافيًا؛ يُقالُ منه: هَنَأَنِي الطَّعامُ ومَرَأَني: أي صارَ لي دواءً وعلاجًا شافيًا[٣].

﴿قِيَٰمٗا﴾: أي: قِوامًا، وهو ما يقومُ به أمْرُكم، وأصل (قوم): مراعاةُ الشَّيء والحِفظُ له، والانتصابُ والعزم[٤].

---

١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥).

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١١٩، ١٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦، ٨٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٩٦٣).

(٤) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦).

﴿ءَانَسۡتُم﴾: أي: وجدتُم وعلِمتُم، وتبيَّنتُم وعَرَفتُم، وأصل الإيناس: الرُّؤية والعِلمُ، والإحساسُ بالشَّيء، وكذلك: ظُهورُ الشَّيء، وكلُّ شيءٍ خالَفَ طريقةَ التوحُّش[١].

﴿رُشۡدًا﴾: عقلًا، أو إصلاحًا، أو خيرًا، والرُّشد يُطلق كذلك على الدِّين والهِداية، وهو خلافُ الغيِّ، وأصل (رشد): استقامةُ الطَّريق[٢].

﴿وَبِدَارًا﴾: مُبادَرة، أو مسارَعة؛ يُقال: بدرتُ إليه وبادرتُ، ويُعبَّر عن الخطأِ الذي يقَعُ عن حِدَّةٍ؛ يُقال: كانتْ من فلان بوادرُ في هذا الأمرِ، وأصل (بدر): الإسراعُ إلى الشَّيء[٣].

﴿فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡ﴾: أي: ليتركْ، ولا يأكُلْ مِن مال اليتيم، والعِفَّة: الامتناعُ عن مقاربةِ المحرَّم، وهي أيضًا: حُصولُ حالةٍ للنَّفس تمتنعُ بها عن غلَبةِ الشَّهوة،، والاستعفافُ: طلبُ العِفَّة، وأصلُ (عفف): الاقتصارُ على تناوُلِ الشَّيءِ القليل[٤].

مُشكِلُ الإعراب:

١- **قوله**: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾

﴿نِحۡلَةٗ﴾: منصوبةٌ على المصدرِ، والعاملُ فيها الفعلُ قَبْلَها؛ لأنَّ ﴿آتُوهُنَّ﴾

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٠، ٢٧٧، ٣٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٢) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦).

(٤) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦).

بمَعْنى انحِلوهُنَّ، وذلِك نحو: قَعَدْتُ جُلوسًا. ويجوز أن تكون ﴿نِحْلَةً﴾ مَصدرًا واقعًا موقعَ الحالِ مِن واو الجماعةِ في قوله: ﴿وَءَاتُواْ﴾، أي: وآتوهنَّ ناحِلينَ، أو مِن ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: مَنحولاتٍ. وقيل غير ذلك[١].

﴿نَفْسًا﴾: منصوبٌ على التَّمييز، وهو هنا منقولٌ من الفاعِل؛ إذ الأصلُ: فإنْ طابتْ أنفسُهن، وجِيء بالتَّمييز هنا مُفردًا، وإنْ كان قبْله ﴿طِبْنَ﴾ وهو جمْعٌ -حيث لم يقُل (أنفسًا)-؛ لعدمِ اللَّبْس؛ إذ مِن المعلومِ أنَّ الكلَّ لَسْنَ مُشتركاتٍ في نفْسٍ واحدة، فالمعنى مفهوم، وحسُن المجيءُ بالتَّمييزِ مُفردًا؛ لأنَّ ﴿نَفْسًا﴾ هنا في مَعْنى الجِنس، فتَعُمُّ المفردَ والجَمْعَ[٢].

٢- قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾

﴿أَنْ يَكْبَرُوا﴾: مصدرٌ مؤوَّل بالصَّريح، أي: (كِبَرَهم)، وإعرابُه فيه وجهان؛ الأوَّل: أنَّه مفعولٌ بالمَصْدَر ﴿وَبِدَارًا﴾، أي: وبِدَارًا كِبَرَهم، كقوله: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ... يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤-١٥]. والثاني: أنَّه مفعولٌ من أجْلِه على حذْفِ مضافٍ، أي: مَخافةَ أنْ يَكبَروا، وعلى هذا فمفعول ﴿بِدَارًا﴾، محذوفٌ[٣].

المَعنَى الإجمالي:

يأمُر اللهُ سبحانه وتعالى الأوصياءَ بإعطاء اليتامَى أموالهم، مُتْبِعًا ذلك الأمرَ بنهْيِهم عن استبدالِ الخبيثِ من المال بالطيِّب منه، وذلك حين يأخذونَ من مال

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٨٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٢٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٢٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٧٣).

(٣) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٨٥- ٥٨٦).

الأيتامِ، ويتركونَ ما أحلَّه الله لهم مِن غَيره، أو أن يجعلوا رَديءَ المالِ لهم بدلَ الجيِّد، كما نهاهم عن ضمِّ أموالِ الأيتامِ إلى أموالهم بقَصْدِ أكلِها بالباطل؛ فإنَّه إثمٌ عظيم.

ثم يُرشِد اللهُ سبحانه وتعالى مَن يخافون ألَّا يعدِلوا- في حال تزوَّجوا بنساءٍ يتامى ممَّن تحت ولايتهم- أو أنْ يُقصِّروا في حقوقهن، يوصيهم أن يَدَعُوهنَّ ويتزوَّجوا غيرهنَّ ممَّن ترتضي نفوسهم، اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا، فإنْ خافوا ألَّا يُقيموا العدلَ في حالة عدَّدوا النساء، فليقتصروا على الزواج بزوجةٍ واحدة، أو الاكتفاء بما يملكون من الجواري؛ فإنَّ ذلك أقربُ إلى ألَّا يَظلموا.

ثم يأمُر الله تعالى مَن أراد الزواجَ بإعطاء النِّساءِ المرادِ الزواجُ منهن مهورَهنَّ عطيَّةً واجبةً، طيِّبة بها نفوسُهم، فإنْ طابت نفوسُ النِّساء عن بعضِ المهر أو كلِّه، فوهبْنَه لأزواجهنَّ، فلا حرَجَ عليهم من أخْذه.

ثم يَنهى اللهُ الناسَ أن يُعطوا أموالَهم التي يقوم بها عيشُهم، مَن لا يُحسِن التصرُّفَ فيها، كذلك نهاهم أن يُعطوا مَن لا يحسنون التصرُّفَ في أموالِهم التي يملكونها، إنْ كانوا أوصياءَ عليهم، ولكن عليهم أن يُنفِقوا عليهم منها فيما يحتاجونه في حياتِهم؛ من طعام وشراب، وملبس ومسكن، وأن يقولوا لهم قولًا طيِّبًا تطيبُ به نفوسُهم.

ثم يأمُر تعالى الأوصياءَ أن يختبِروا الأيتامَ في دِينهم، وعقولِهم وتصرُّفِهم، قبل بلوغهم، فإذا ما بلغوا الحُلُمَ، ورأَوْا فيهم حُسْنَ التصرُّف، والقُدرة على إصلاح المالِ، فلْيعْطوهم أموالَهم، ونهاهم سبحانه عن أنْ يأخذوا مِن أموالِ اليَتامى شيئًا مِن غيرِ حاجةٍ، أو أنْ يُبادِروا بأكْلِها في حال صِغَرِهم؛ قبل أنْ يَكبَروا فيَأخُذوا أموالَهم ويمنعوهم منها، وأمَرَ الله تعالى مَن كان غنيًّا أن يتركَ للأيتام

أموالَهم، ويكتفيَ بما رزقه الله، ومَن كان منهم ذَا حاجةٍ فليأخُذْ ما تعارَفَ عليه الناسُ أنه يسدُّ حاجةَ أمثالِه من الفقراء، وأَرشدَهم اللهُ أن يُشهِدوا على الأيتامِ حين يُسلِّمونَهم أموالَهم، وكفَى باللهِ شهيدًا ومُحاسِبًا، ورقيبًا عليهم.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

مناسبةُ عطفِ الأمْر على ما قَبلَه: أنَّه مِن فروعِ تقوى اللهِ في حقوقِ الأرحام؛ لأنَّ المتصرِّفين في أموال اليتامى في غالبِ الأحوالِ هم أهلُ قَرابتهم[١].

وأيضًا لَمَّا افتَتَح السُّورةَ بذِكر ما يدلُّ على أنه يجبُ على العبدِ أن يكون منقادًا لتكاليفِ الله سبحانه، محترزًا عن مساخِطِه، شرَعَ بعد ذلك في شَرْح أقسامِ التكاليفِ، فبدأ بما يتعلَّق بأموال اليتامى[٢]؛ لأنَّهم صاروا بحيث لا كافِلَ لهم، ففارق حالُهم حالَ مَن له رحِمٌ ماسَّة[٣].

﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾.

أي: أعطُوا- يا مَعشرَ أوصياءِ اليتامى- أموالَهم إليهم كاملةً، إذا بلغوا الحُلُمَ ورَشَدُوا[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٠٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٢٠).

إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النساء: ٦].

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾.

أي: لا تأخذوا مالَ اليتيمِ بغيرِ حقٍّ، وتَتركُوا ما أحلَّ اللهُ تعالى لكُم مِن غيرِ ذلك، ومِن استبدالِ الخبيثِ بالطيِّبِ أنْ يأخُذَ الوليُّ مِن مالِ اليتيمِ النَّفيسَ، ويجعل بدلَه من مالِه الخسيسَ[(١)].

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾.

أي: لا تضُمُّوا أموالَ اليتامَى إلى أموالِكم؛ بقصد أن تأكلوا أموالَهم بالباطلِ[(٢)].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾.

أي: إنَّ ضمَّ أموالِ اليتامى إلى أموالكم بقَصْد أكلِها بالباطل، إثمٌ عظيم[(٣)].

كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠].

﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾.

سببُ النُّزولِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠-٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٢٠).

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنَّ رجلًا كانت له يتيمةٌ فنكَحَها، وكان له عَذْق[١]، وكان يُمسكها عليه، ولم يكُن لها من نفْسِه شيءٌ، فنزلت فيه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾- أحسَبه قال: كانتْ شريكتَه في ذلِك العَذْق وفي مالِه[٢].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾.

أي: وإنْ خِفتُم ألَّا تعدلوا في يتامى النِّساء اللاتي تحتَ ولايتِكم؛ بعدم إعطائِهنَّ مهورَ مثلِهنَّ، أو عدمِ القيامِ بحقوقهنَّ[٣].

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا...﴾ الآية. قالت: أُنزلتْ هذه في الرَّجُل يكونُ له اليتيمةُ، وهو وليُّها ووارِثُها، ولها مالٌ، وليس لها أحدٌ يُخاصِمُ دونها، فلا يَنكحُها حبًّا لمالها، ويَضْرِبها ويُسيءُ صُحبتَها، فقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ يقول: ما أحللتُ لكم، ودَعْ هذه التي تضرُّ بها[٤].

﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾.

أي: فإنْ خَشِيتُم عدَم إقامة العدل معهنَّ، فانكحوا غيرهنَّ ممَّن تطيبُ بهنَّ

---

(١) العَذْق- هُنا بفَتْح العين المُهمَلة-: وهو النَّخلة بكَمالِها. وأمَّا العِذْق- بكسر العين المهملة- فهو الغُصنُ (العُرجُون بما فيه من الشَّماريخ) من النَّخلة، وليس مرادًا هنا. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٣٣) و(١٨/ ١٥٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٩٩).

(٢) رواه البخاري (٤٥٧٣) واللفظ له، ومسلم (٣٠١٨) بنحوه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦).

قال القرطبيُّ: (اتَّفق كلُّ مَن يعاني العلوم على أن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ ليس له مفهوم؛ إذ قد أجمع المسلمون على أنَّ من لم يخف القسط في اليتامى له أن ينكِحَ أكثرَ من واحدة: اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا كمَن خاف. فدلَّ على أنَّ الآية نزلت جوابًا لمن خاف ذلك، وأنَّ حُكمها أعمُّ من ذلك) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٣).

(٤) رواه البخاري (٤٥٧٣) بنحوه، ومسلم (٣٠١٨) واللفظ له.

نفوسكم[١].

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾.

أي: مُباحٌ لكم أن تتزوَّجوا باثنتين من النِّساء، أو بثلاث، أو بأربعٍ[٢].

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾.

أي: فإنْ خَشِيتُم عدمَ إقامَةِ العَدلِ بتَعدادِ النِّساء، فلْتَقْتصروا على التزوُّج بواحدةٍ فحسبُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧-٢٨).

قال الجصاص: (قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم﴾ لا خلافَ أنَّ المراد به العَقْد) ((أحكام القرآن)) (٢/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨-٢٩).

وكلُّ واحد من هذه الأعدادِ يدلُّ على المكرَّر من نوعِه، وعلَّة التكرار هنا (أنَّ الخطاب لجماعةٍ؛ فيجوز لكلِّ واحد منهم أن ينكحَ ما أراد من تِلك الأعداد، فتكرَّرت الأعدادُ بتكرار الناس، والمعنى: انكِحوا اثنتينِ أو ثلاثًا أو أربعًا). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ١٧٨).

قال القرطبيُّ: (اعلم أنَّ هذا العدد مثنى وثلاث ورباع لا يدلُّ على إباحة تسع، كما قال من بعُد فَهمُه للكتاب والسُّنة، وأعرض عمَّا كان عليه سلفُ هذه الأمَّة، وزعم أنَّ الواو جامعة، وعضَّد ذلك بأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم نكَح تِسعًا، وجمع بينهن في عِصمته. والذي صار إلى هذه الجهالة، وقال هذه المقالة الرافضةُ وبعضُ أهل الظاهر، فجعلوا مثنى مثل اثنين، وكذلك ثلاث ورباع. وذهب بعضُ أهل الظاهر أيضًا إلى أقبح منها، فقالوا بإباحة الجمْع بين ثمان عشرة، تمسُّكًا منه بأنَّ العدل في تِلك الصِّيغ يُفيد التَّكرار، والواو للجمع، فجعل مثنى بمعنى اثنين اثنين، وكذلك ثلاث ورُباع. وهذا كلُّه جهل باللِّسان والسُّنَّة، ومخالفة لإجماع الأمَّة؛ إذ لم يُسمعْ عن أحد من الصَّحابة ولا التابعين أنَّه جمَع في عِصمته أكثرَ من أربع) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٧).

وقال محمد رشيد رضا: (آية: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ لم تُنسَخ بالإجماع، فإذًا يلزمُ العملُ بمدلولها ما دام الكتاب) ((تفسير المنار)) (٤/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

أي: أو اقتصِروا على الجواري السَّراري؛ فإنَّه لا يجب عليكم القَسْمُ بينهنَّ[(١)].

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾.

أي: الاقتصارُ على واحدةٍ، أو ملكِ اليمينِ، أقربُ إلى تحقيقِ العَدلِ، والبُعدِ عن الجَور والظُّلْم[(٢)].

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠).

شرَع الله تعالى تعدُّدَ النساء للقادرِ العادلِ لمصالح جَمَّة:

- منها: أنَّ في ذلك وسيلةً إلى تكثير عدد الأمَّة بازدياد المواليد فيها.

- ومنها: أنَّ ذلك يُعين على كفالة النِّساءِ اللائي هنَّ أكثرُ من الرِّجال في كلِّ أمَّة؛ وذلك لأنَّ الأنوثةَ في المواليد أكثرُ من الذكورة، ولأنَّ الرِّجال يَعرِض لهم من أسباب الهلاك في الحروب والشَّدائد ما لا يعرِض للنِّساء، ولأنَّ النساء أطولُ أعمارًا من الرِّجال غالبًا.

- ومنها: أنَّ الشريعة قد حرَّمت الزِّنا، وضيَّقت في تحريمه؛ لِمَا يجرُّ إليه من الفساد في الأخلاق والأنساب ونِظام العائلات، فناسَب أن تُوسِّع على الناس في تعدُّدِ النساء لِمَن كان من الرجال ميَّالًا للتعدُّد، مجبولًا عليه.

- ومنها: قصدُ الابتعاد عن الطَّلاق إلَّا لضَرورة. ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٧٥)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤).

قال الواحديُّ: (ومعنى ﴿تَعُولُوا۟﴾: تَميلُوا وتَجورُوا، عن جميعِ المفسِّرين) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٩).

وما حكاه الواحدي إجماعًا هو في الواقعِ قولُ الجمهور؛ لأنَّ الخلافَ في ذلك واقعٌ بين السَّلف. يُنظر: ((الإجماع في التفسير)) للخضيري (ص: ٢٥٣-٢٥٤).

لَمَّا كان هناك جانبَانِ مُستضعَفانِ في الجاهليَّة: اليتيمُ، والمرأة، وحقَّانِ مغبونًا فيهما أصحابُهما: مالُ الأيتام، ومالُ النِّساء؛ فلذلك حرَسَهما القرآنُ أشدَّ الحراسةِ، فابتدأَ بالوصايةِ بحقِّ مالِ اليتيم، وثنَّى بالوصاية بحقِّ المرأةِ في مال ينجرُّ إليها لا محالةَ، وكان توسُّطُ حُكم النِّكاح بين الوصايتين أحسنَ مناسبةٍ تهيِّئ لعطف هذا الكلام[١].

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾.

أي: وأعطُوا من أَرَدْتم الزواجَ بهنَّ من النساء مهورَهنَّ، عطيةً واجبةً، طيبةً بها نفوسُكم[٢].

﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾.

أي: فإنْ وهَب لكم نساؤُكم- أيُّها الأزواج- مُهورَهنَّ أو بعضًا منها، عن رِضًا وطيبِ نفْس منهنَّ بذلك[٣].

﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾.

أي: فخذوه حلالًا طيِّبًا لكم، لا حرجَ عليكم في ذلك، ولا تَبِعة[٤].

﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥).
وقيل: الخطابُ لأولياءِ المرأة أيضًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

عُطِفتْ هذه الآيةُ على قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾، ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾؛ لبيانِ الحالِ التي يُمنَع فيها السَّفيهُ من مالِه، والحال التي يُؤتَى فيها مالَه، كأنَّه تعالى يقول: إنِّي وإنْ كنتُ أمرتُكم بإيتاءِ اليتامى أموالَهم، وبدَفْع صدقاتِ النِّساء إليهنَّ، فإنَّما قلت ذلك إذا كانوا عاقِلين بالِغين، متمكِّنين من حِفظِ أموالهم، فأمَّا إذا كانوا غيرَ بالغين، أو غير عقلاء، أو إنْ كانوا بالغين عقلاءَ إلَّا أنهم كانوا سفهاءَ مُسرِفين، فلا تدفعوا إليهم أموالهم، وأمسكوها لأجْلهم إلى أن يزولَ عنهم السَّفَهُ[١].

﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾.

أي: لا تُعطوا- أيُّها الناس- أموالَكم التي جعَلَها الله لكم قِيامًا- يقوم بها عيشُكم، وتحقيق مصالحكم- لا تعطوها لِمَن لا يُحسِن التصرُّفَ في المال، والقيام عليه وحِفظه؛ إمَّا لعدم عقْله كالمجنون، أو لعدم رُشده كالصَّغير، أو لغير ذلك من أسباب، حتَّى لو كان هذا المالُ مالَهم على الحقيقةِ، وأنتُم عليه أوصياءُ، فلا تُعطوهم إيَّاه طالَما كانوا سفهاءَ لا يُحسنون التصرُّفَ فيه؛ كي لا يَهلِك، وليكُنْ حرصُكم على أموالهم كحِرصِكم على أموالِكم[٢].

﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾.

أي: ولكنْ أنفِقوا من تلك الأموالِ على طعامِهم وشَرابِهم ومَلابِسهم، وما يتعلَّق بضروراتِ عَيشِهم؛ كمَسكنِهم، وليتَكم تتَّجِرون لهم في مالِهم؛ كي ينموَ ويكونَ الإنفاقُ عليهم من الرِّبح، لا مِن أصلِ المالِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٩٤-٣٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨-٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾.

أي: وقولوا لهم قولًا طيِّبًا، كأنْ تَعِدُوهم إنْ طلبوا أموالَهم، بأنَّها ستُدفَع إليهم بعدَ رُشدهم[1]، أو حينَ إعطائِكم لهم رزقًا أو كسوةً ونحو ذلك، قولوا لهم قولاً هيِّنًا وليِّنًا، بغير منٍّ ولا أذًى[2].

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾.

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾.

أي: واختبِروا عقولَ الأيتامِ ممَّن تحت ولايتِكم، وذلك قُبيلَ وصولِهم سِنَّ البلوغ، واختبِروا أفهامَهم، وصلاحَ دِينهم، وقُدرتَهم على إصلاحِ أموالهم[3].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾

أي: اختبِروهم إلى أن يَصِلوا سِنَّ البلوغِ، فإذا بلغوا الحُلُمَ، وأدركتم منهم حُسنَ تصرُّفٍ، وقدرةً على إصلاح الأموال[4].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾

سورة النساء)) (١/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩-٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤-١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٤-٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢-٤٣).

قال الماوردي: (﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ يعني الحُلُم في قول الجميع) ((تفسير الماوردي)) (١/ ٤٥٣).

[الأنعام: ١٥٢].

﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾.

أي: فأعطوهم في هذه الحالِ أموالَهم كاملةً، ولا تَحبِسوها عنهم[١].

﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا﴾.

أي: ولا تَأخُذوا من أموالِ اليَتامى شيئًا من غيرِ حاجةٍ، فتتجاوزوا في ذلك إلى غيرِ ما أباحَه اللهُ تعالى لكم مِن أموالِهم[٢].

﴿وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ﴾.

أي: لا تأكلوها في حالِ صغرِهم استعجالًا منكم قبل بلوغِهم، وإيناسِ الرُّشدِ منهم ، فيأخذوها منكم، ويمنعوكم منها[٣].

﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡ﴾.

أي: ومَن كان مِن أولياء اليتامى في غنيةٍ عن أموالِهم، لا يحتاجُ إليها، فليكفَّ عن أكلِها- الذي أُبيح له منها- وليستعففْ بمالِه[٤].

﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

أي: ومَن كان ذا حاجةٍ من أولياء اليَتامى، أخَذَ من أموالهم بحسَب ما جرَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣-٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣-٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٤١).

العُرْف على أنَّه يَسدُّ حاجتَه، ويَكفي مِثلَه من الفُقراء[١].

عن عبد الله بن عمرٍو رضِي اللهُ عنهما ((أنَّ رجلًا أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: إنِّي فقيرٌ ليس لي شيءٌ، ولي يتيمٌ؟ قال: فقال: كُلْ من مالِ يتيمِك غيرَ مُسرفٍ، ولا مبادرٍ، ولا مُتَأَثِّلٍ[٢]))[٣].

---

(١) وهذا اختيارُ ابن عاشور في ((تفسيره)) (٤/ ٢٤٥)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة النساء)) (١/ ٤٤).

قال ابنُ عاشور: (وهو تخصيصٌ لعموم النَّهي عن أكْل أموال اليتامى في الآيتين السابقتين؛ للترخيصِ في ضَربٍ من ضروب الأكل، وهو أنْ يأكل الوصيُّ الفقيرُ من مال محجوره بالمعروف، وهو راجعٌ إلى إنفاق بعض مال اليتيم في مصلحتِه؛ لأنه إذا لم يُعطَ وصيُّه الفقير بالمعروف ألْهاه التدبيرُ لقُوتِه عن تدبيرِ مال محجوره، وفي لفظ ﴿المَعْرُوف﴾، حوالةٌ على ما يناسب حالَ الوصي ويتيمه بحسَب الأزمان والأماكن) ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٤٥).

وقال ابنُ عثيمين: (قوله: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، أي: فليأكلْ أكلًا بالمعروف، أي: بما جرَى به العُرف، فلا يأكُل أكْلَ الأغنياء، وإنما يأكُل أكْلَ مثله) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤).

وقال أيضًا: (وظاهرُ الآية أنه يأكل بالمعروف ولو زادَ على قدْر الأجرة...؛ لأنَّ الوليَّ محبوسٌ على التصرُّف لليتيم؛ فلا بدَّ له مِن مَأْكلٍ ومَشربٍ، فليأكل بالمعروف، وأيضًا فإنَّ هذا الوليَّ ليس كالأجير الأجنبي في مراعاة مال اليتيم؛ فلا ينبغي أن نلحقَه بالأجيرِ الأجنبي، لكن المعروف عند الفقهاء أنه يأخُذُ الأقلَّ من أجرته أو كفايته) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦).

واختار ابنُ جرير أنَّ المعنى: أكْل مال اليتيم عندَ الضرورةِ والحاجة إليه على وجهِ الاستقراض منه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٦).

ولكن قال القرطبيُّ: (رُوي عن إبراهيمَ وعطاءٍ والحسنِ البصري والنخعي وقتادةَ: لا قضاءَ على الوصيِّ الفقير فيما يأكل بالمعروف؛ لأنَّ ذلك حقُّ النظر، وعليه الفقهاء؛ قال الحسن: هو طُعمةٌ من الله له؛ وذلك أنه يأكل ما يسدُّ جوعته، ويَكتسي ما يسترُ عورته، ولا يلبس الرفيعَ مِن الكَتَّان ولا الحُلل، والدليل على صِحَّة هذا القول إجماعُ الأمَّة على أنَّ الإمام الناظر للمسلمين لا يجبُ عليه غرمُ ما أكل بالمعروف؛ لأنَّ الله تعالى قد فرَضَ سهمَه في مال الله؛ فلا حُجَّة لهم في قول عمر: فإذا أيسرتُ قضيتُ- أنْ لو صحَّ) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٤٢).

(٢) غير متأثِّل: أي: غير جامع؛ يقال: مال مُؤثَّل، ومجد مؤثَّل، أي: مجموع ذو أصل، وأَثَلَةُ الشيء أصلُه. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ٨٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٣).

(٣) رواه أبو داود (٢٨٧٢)، والنسائي (٣٦٦٨)، وابن ماجه (٢٧١٨)، وأحمد (٧٠٢٢).

وعن عُروةَ بن الزُّبَيرِ رضِي اللهُ عنه، أنَّه سمِع عائشة رضِي اللهُ عنها تقول: ((﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أُنزِلَت في والي اليتيم الذي يُقيم عليه، ويُصلح في مالِه إنْ كان فقيرًا، أكَل منه بالمعروف))[١].

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾.

أي: فإذا سلَّمتُم -يا معشرَ أولياءِ اليتامى- أموالَهم إليهم، فأَشْهِدوا عليهم بقبضها كاملةً منكم؛ لئلَّا يقعَ منهم لاحقًا إنكارٌ لِمَا تَسَلَّموه[٢].

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

أي: وكفَى باللهِ محاسبًا وشهيدًا ورقيبًا على والي اليتيمِ في حالِ نظرِه لليتيمِ، وحالِ دفعِه الأموالَ إليه[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- عِظَم أمْرِ اليَتامَى؛ يُبيِّنه قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[٤].

٢- يجبُ على الإنسانِ الاحتياطُ إذا خاف الوقوعَ في المحرَّم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ يعني: ولا تُعرِّضوا

قال ابن حجر في ((العجاب)) (٢/ ٨٣٣): رِجاله إلى عمرٍو بن شعيب رجالُ الصَّحيح. وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١١/ ١٩٢)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٨٧٢): حسن صحيح.

(١) رواه البخاري (٢٢١٢) واللفظ له، ومسلم (٣٠١٩) بنحوه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٨-٤٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤-٤٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٤/ ١٠٨).

أنفسكم للجَور؛ فالعافيةَ من خيرِ ما أُعطِيَ العبدُ[١].

٣- في قولِه تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ أنَّه سُبحانَه دلَّهم على ما يتخلَّصونَ به مِن ظُلْم اليَتامى، وهو نكاحُ ما طابَ لهم من النِّساءِ البَوالِغِ، وأباح لهم منه، ثم دَلَّهُم على ما يتخلَّصونَ به من الجَوْر والظُّلْم في عَدَمِ التَّسويَة بينهُنَّ، فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، ثُمَّ أخبر سبحانه أنَّ الواحدةَ ومِلْكَ اليمينِ أدنى إلى عَدَمِ المَيل والجَوْر، فقال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾[٢]؛ فالله عزَّ وجلَّ إذا سدَّ بابَ حرامٍ، فتَح أبواب الحلال، وهذا من طريقة القرآن والسُّنة[٣].

٤- تحريمُ الوسائلِ المؤدِّية إلى المحرَّم؛ لقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، فأوجب الاقتصارَ على الواحدة إذا خافَ الإنسانُ عدمَ العدل، وهذه قاعدةٌ عظيمةٌ في أصول الفقه: (أنَّ للوسائِل أحكامَ المقاصِدِ)؛ فما لا يتمُّ الواجب إلَّا به، فهو واجبٌ، وما لا يتمُّ المندوبُ إلا به، فهو مندوبٌ، وما يحصُل به المحرَّم، فهو حرام[٤].

٥- مَن ولَّاه الله على أحدٍ فعليه ألَّا يُغلِظَ له القولَ، بل يقول له القولَ المعروفَ؛ حتى يجمعَ بين الإحسانِ القوليِّ والفِعليِّ؛ قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١).
(٢) ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قدَّم الله تعالى ذِكر الأمْر بالتقوى، وكون الخَلْق بأسْرِهم مخلوقين من نفْس واحدة، وذَكر عَقيبه الأمرَ بالإحسان إلى اليَتامى والنساءِ والضُّعفاءِ؛ قيل: ليَصيرَ ذلك سببًا لزيادة شفقةِ الخَلقِ بعضِهم على بعضٍ[١].

٢- أنَّ اليتيمَ يملك، وملكُه تامٌّ؛ لقولِه تعالى: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾، ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّ الزكاة واجبةٌ عليه؛ لأنَّ الزكاة تبَع للمِلْك؛ قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣]، فإذا ثبتَتِ الملكيَّةُ ثبَت وجوبُ الزكاة، والزكاة ليستْ تكليفًا محضًا، بل هي تكليفٌ لحقِّ الغير، وهم الفقراء، فهي شبيهةٌ بالدَّين؛ ولهذا وجبتْ في أموالِ اليتامى والمجَانينِ، وإنْ كانوا غيرَ مكلَّفينَ[٢].

٣- أنَّ اليتيمَ تَجِب النفقةُ في مالِه على مَن تجِبُ عليه نفقتُه، فالنفقةُ واجبةٌ على كلِّ غنيٍّ لكلِّ فقير، والبلوغ ليس بشَرْط؛ لأنَّ الله تعالى أثبت الماليَّةَ لليتامى في قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، وإذا ثبتت المالية؛ ترتَّب عليها ما يترتَّب على ذوي الأموال[٣].

٤- ليس قيد ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ محطَّ النهيِ، بل النهيُ واقعٌ على أكْلِ أموالهم مطلقًا، سواءٌ كان للآكِل مالٌ يَضمُّ إليه مالَ يتيمِه أم لم يكُنْ، ولكن لَمَّا كان الغالبُ وجودَ أموالٍ للأوصياءِ، وأنَّهم يريدون مِن أكْلِ أموالِ اليتامى التكثُّرَ، ذكَر هذا القيد؛ رعيًا للغالب[٤]، ولأنَّ بعضَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٢١).

الأولياءِ يتستَّرُ، فيُدخِلُ مالَ اليتيمِ في مالِه، ولا يَعلمُ به أحدٌ[١].

٥- في قوله تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ أنَّ اليَمينَ أفضلُ من اليَسارِ؛ لأنَّه أضافَ المِلْكَ إليها، ولا شكَّ أنَّ اليمينَ أفضلُ من اليَسار؛ ولهذا تُعدُّ اليمينُ للإكرامِ، واليَسارُ للإهانةِ؛ فالشيءُ الطيِّب يُتناوَلُ باليمينِ، والشيءُ الخبيثُ يُزال باليَسارِ[٢].

٦- تفاضُل الأعمال؛ فبعضُها أعلى من بعضٍ في الحُسْن، وأَدْنى من بعضٍ في السُّوء؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾؛ لأنَّ الأدْنى اسمُ تفضيلٍ؛ فلا بدَّ أن يكونَ هناك فاضلٌ ومفضولٌ[٣].

٧- أنَّه لا يجوزُ للوليِّ أن يأخذ شيئًا من صَدَاق النِّساء؛ لأنَّه أضاف الصَّدَاقَ إليهن؛ فهو مِلْكُهن، ولأنَّا أُمِرْنا بإيتائهنَّ صدَاقَهنَّ قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾[٤].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾ أنَّه يجِبُ إعطاؤهن الصَّداقَ على وَجْه النِّحلة؛ أي: العطيَّة التامَّة، فلا يكون فيه مِنَّةٌ في المستقبلِ[٥].

٩- العقودُ تصحُّ بكلِّ ما دلَّ على مَقْصودِها مِن قولٍ أو فِعلٍ؛ يدلُّ على ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾، فلم يشترطْ لفظًا مُعَيَّنًا، ولا فِعلًا معَيَّنًا يدلُّ على التَّراضي وعلى طِيبِ النَّفْسِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٣-١٥).

١٠- قولُه تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ حِفْظَ العِلْمِ مِمَّن يُفْسِدُه ويضرُّه أولى، وليس الظُّلْمُ في إعطاءِ غَيْرِ المستحِقِّ بأقَلَّ مِن الظُّلْم في مَنْعِ المستحِقِّ(١).

١١- في إضافتِه تعالى الأموالَ إلى الأولياءِ في قولِه سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾، إشارةٌ إلى أنَّه يجبُ عليهم أنْ يَعمَلوا في أموالِ السُّفهاءِ ما يَفعلونَه في أموالهم؛ من الحِفْظ والتصرُّف، وعدم التعريضِ للأخطارِ(٢).

١٢- في التعبير بـ (فيها) دون (منها) في قوله: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ تنبيهٌ إلى ما يَنبغي من الاتِّجارِ في مالِ اليتيم؛ قصدًا إلى إنمائِه؛ كي لا يَنفدَ بالإنفاقِ والزَّكاة(٣).

١٣- في إضافةِ الأموالِ إلى ضَمير المخاطَبينَ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ -في أوَّل السورة- إشارةٌ بديعةٌ إلى أنَّ المالَ الرائج بين الناس هو حقٌّ لمالكيه المختصِّين به في ظاهر الأمْرِ، ولكنَّه عند التأمُّل تَلُوح فيه حقوقُ الأمَّة جمعاءَ؛ لأنَّ في حصوله منفعةً للأمَّة كلِّها؛ لأنَّ ما في أيدي بعضِ أفرادِها من الثروةِ يعودُ إلى الجميع بالصَّالحة، فمِن تلك الأموالِ يُنفِق أربابُها، ويستأجِرون ويشترون، ويَتصدَّقون، ثم تُورَثُ عنهم إذا ماتوا، فينتقل المالُ بذلك مِن يدٍ إلى غيرها، فينتفع العاجزُ والعاملُ والتاجِر، والفقيرُ وذُو الكَفافِ، ومتى قلَّتِ الأموالُ من أيدي الناس، تقارَبوا في الحاجةِ والخَصاصة، فأصبحوا في ضَنْكٍ وبؤس، واحتاجوا إلى قبيلةٍ أو أمَّةٍ أخرى، وذلك من أسبابِ ابتزازِ عِزِّهم، وامتلاكِ بلادِهم، وتصييرِ منافِعِهم لخِدمة غيرهم؛ فلأجْل هاتِه الحِكمة أضافَ اللهُ تعالى

(١) يُنظر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (١/ ٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤).
(٣) ينظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥١٧- ٥١٨).

الأموالَ إلى جميعِ المخاطبين[١].

١٤- في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ العملُ بالتَّجرِبة؛ لأنَّ الابتلاء يعني: الاختبارَ عِدَّةَ تجارِب[٢].

١٥- الصَّغيرُ المميَّزُ يصِحُّ لَفْظُه مع إذْنِ وَلِيِّه، كما يصِحُّ إحرامُه بالحَجِّ بإذْنِ الوَلِيِّ، وكما يصِحُّ تصرُّفُه في البيع وغيرِه بإذْنِ وَلِيِّه عند أكثَرِ العُلماءِ، كما دل على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ الآية، فأمَرَ بالابتلاءِ قَبْلَ البُلوغِ؛ وذلك قد لا يأتي إلَّا بالبيعِ[٣].

١٦- قَوْلُه تَعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ استدَلَّ به مَن يرى جوازَ الاستئجارِ على تعليمِ القُرآنِ والحديثِ والفِقْه والإمامَةِ والأذانِ، وغيرها ممَّا يختصُّ أن يكون فاعِلُها مِن أهْلِ القُرَب، مع الحاجَةِ؛ دون الغِنَى[٤].

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ إنَّما قال: ﴿حَسِيبٗا﴾ ولم يَقُلْ: (شهيدًا) مع مناسبته؛ تهديدًا للأوصياءِ لِئَلَّا يكتموا شيئًا من مالِ اليتامى، فإذا عَلِموا أنَّ اللهَ يُحاسِبُهم على النَّقير والقِطْمير، ويعاقِبُهم عليه، انزَجَروا عن الكتمانِ. والله تعالى أعلم[٥].

بَلاغَةُ الآيات:

١- **قوله:** ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾: هذا شروعٌ في تَفصيلِ مواردِ الاتِّقاءِ ومظانِّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ٤٨).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٢٠٥- ٢٠٦).
(٥) يُنظر: ((البحر المديد)) لابن عجيبة (١/ ٤٦٦).

بتكليفِ ما يُقابلها أمرًا ونهيًا؛ وتقديمُ ما يَتعلَّق باليتامى؛ لإظهارِ كمال العنايةِ بأمرهم، ولملابستِهم بالأرحام؛ إذ الخطابُ للأولياءِ والأوصياء، وقلَّما تُفوَّضُ الوصايةُ إلى الأجانب[١]، وعبَّر بالإيتاء؛ للإيذان بأنَّه ينبغي أن يكونَ مرادُهم بذلك إيصالَها إليهم، لا مجرَّدَ ترْكِ التعرُّضِ لها[٢].

- وقوله: ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾: فيه تسميةُ الشيء باسم ما كان عليه، حيث سمَّاهم يتامى بعدَ البُلوغِ[٣].

٢- **قوله**: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾: فيه تَكرارٌ؛ حيث نهى عن أخْذ مال اليتيمِ على الوجه المخصوصِ بعدَ النهيِ الضِّمنيِّ عن أخْذه على الإطلاق[٤]، وفي هذا تأكيدٌ على النهيِ.

٣- **قوله**: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾: عبَّر عن أخْذِ أموالِ اليتامى بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟﴾ من بابِ إطلاقِ اسمِ المسبَّبِ على السَّببِ وشِبهه؛ لأنَّ الأخْذ سببٌ للأكْلِ[٥].

- ونهَى عن أكْلِ مالِ اليَتامَى مع أموال المنهيِّين عنها، فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾، مع أنَّه حرَّم عليهم أكْلَ مالِ اليتامَى وحْدَه ومع أموالِهم؛ لأنَّهم إذا كانوا مُستغنِينَ عن أموالِ اليَتامَى بما رزَقهم اللَّهُ من مالٍ حلالٍ، وهم على ذلِك يَطمَعون فيها- كان القبحُ أبلغَ، والذمُّ أحقَّ؛ ولأنَّهم كانوا يَفْعلون كذلك، فنعَى عليهم فِعلَهم وسمَّعَ بهم؛ ليكونَ أزْجَرَ لهم[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٩-١٤٠)، ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٩-١٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٣).

- وفيه مِن أسرارِ البلاغة:

تَخصيصُ الأعْلَى بالنَّهيِ دُونَ الأَدْنى؛ إذ إنَّ أعْلى دَرجاتِ أكْلِ مالِ اليَتيمِ في النَّهيِ أنْ يَأكلَه وهو غنيٌّ عنه، وأدْناها أنْ يأكلَه وهو فقيرٌ إليه- مع أنَّ أهل البيان يقولون: المنهيُّ متى كان درجاتٍ فطَريقُ البَلاغةِ النهيُ عن أدْناها تنبيهًا على الأعْلى- فكان المتبادر أنْ يَنهَى عن أكْل مالِ اليتيمِ مَن هو فقيرٌ إليه؛ حتى يَلزمَ نهيُ الغنيِّ عنه من طريق الأَوْلى، وفائدةُ تخصيصُ الصُّورة العُليا بالنهي في هذه الآية: أنَّ أبلغَ الكلام ما تعدَّدتْ وجوه إفادتِه، والنهي عن الأدْنى وإنْ أفاد النَّهيَ عن الأعْلى إلَّا أنَّ للنَّهي عن الأعْلى أيضًا فائدةً أخرى جليلةً لا تُؤخَذ من النهي عن الأدْنى؛ وذلك أنَّ المنهيَّ كلَّما كان أقبحَ كانتِ النفسُ عنه أنفرَ، والدَّاعية إليه أبْعَد، ولا شكَّ أنَّ المستقرَّ في النُّفوسِ أنَّ أكْلَ مالِ اليتيمِ مع الغِنى عنه أقبحُ صُورِ الأكْل؛ فخُصِّص بالنهي تشنيعًا على مَن يقَعُ فيه، حتى إذا استحكَم نفورُه مِن أكْل مالِه على هذه الصورة الشَّنعاء، دعاه ذلك إلى الإحجامِ عن أكْل ماله مطلقًا؛ ففيه تدريبٌ للمخاطَب على النُّفورِ مِن المحارِم، ولا تكادُ هذه الفائدةُ تحصُل لو خُصِّص النَّهيُ بأكْلِه مع الفقر؛ إذ ليستِ الطِّباعُ في هذه الصُّورة مُعِينةً على الاجتنابِ كإعانتها عليه في الصُّورة الأولى.

ويُحقِّق مراعاةَ هذا المعنى تخصيصُه الأكْلَ، مع أنَّ تناوُلَ مالِ اليتيمِ على أيِّ وجهٍ كان، منهيٌّ عنه، كان ذلك بالادِّخار، أو بالْتباس، أو ببذله في لذَّة النكاح مثلًا، أو غير ذلك، إلَّا أنَّ حِكمة تخصيص النَّهي بالأكل: أنَّ العرب كانت تتذمَّم بالإكثار من الأكْل، وتَعُدُّ البِطنةَ من البهيميَّة، وتعيب على مَن اتَّخذها ديدنَه، ولا كذلك سائرُ الملاذِّ؛ فإنهم ربَّما يتفاخرون بالإكثار من النِّكاح، ويَعدُّونه من زينةِ الدُّنيا، فلمَّا كان الأكلُ عندهم أقبحَ الملاذِّ خُصَّ النهي به، حتى إذا نفرتِ النَّفسُ منه بمقتضَى طبعِها المألوفِ جرَّها ذلك إلى النُّفور مِن صرفِ مالِ اليتيمِ في

سائرِ الملاذِّ أو غيرِها، أكلًا أو غيره[١].

٤- **قوله:** ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾: في وصْف الحوب بالكبير مبالغةٌ في بيان عِظَم ذَنْب الأكْل المذكور، كأنَّه قيل: من كِبار الذُّنوبِ العظيمة لا مِن صِغارها[٢].

٥- **قوله:** ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: عبَّر عن النِّساءِ بـ ﴿مَا﴾ التي لغيرِ العاقلِ غالبًا، ولم يقُل: (مَن طاب) كما هو المتبادَر في استعمالِ (مَن)؛ فإنَّها للعاقِل و(ما) لغيرِ العاقل تَغليبًا، والسرُّ في هذا: أنَّ (ما) تأتي لصِفاتِ مَن يَعقِلُ، وقدْ وصفَ الله النِّساءَ بالطيب، فصَحَّ استعمالُ (ما) هنا؛ فعبَّر عن النِّساءِ بـ﴿مَا﴾ ذَهابًا إلى الصِّفةِ، وقيل: لأنَّ الإناثَ مِن العُقلاءِ يَجرينَ مجرَى غيرِ العقلاءِ؛ لنُقصانِ عقْلِهنَّ[٣].

٦- **قوله:** ﴿أَلَّا تُقْسِطُواْ﴾، **وقوله:** ﴿أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ تَكرارٌ في المعنى[٤]، وهو يُفيد تأكيدَ الأمْرِ بالعدل.

٧- **قوله:** ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ جاءَ العطفُ بالواو دون (أو)؛ لأنَّ الواو تدلُّ على تجويزِ الجَمْعِ بين أنواعِ القِسمةِ، بخِلافِ (أو)؛ إذ لو قيل: (مثْنى أو ثُلاث

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٩). وينظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٨٦)، ((البرهان)) للزركشي (٤/ ٣٩٩- ٤٠٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٥٤-١٥٥).
وهذا على القول المشهورِ بأنَّ (ما) تُغلَّب أو تختصُّ بغير العقلاء، و(مَن) تختصُّ بالعقلاء وربَّما استُعمل كلٌّ منهما في الآخر. وأمَّا على القول بأنَّ (ما) من صِيَغ العموم تقعُ على العاقل وغيرِه وعلى المجموعِ؛ فليس فيه هذا الوجهُ. ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٨٥)؛ حيث رجح أنها للعموم وضعف القول المشهور.

(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).

أو رُباع) لعُلِمَ أنَّه ليس لهم أنْ يَجمَعوا بينها، فيَجْعَلوا بعضَ القسمِ على تَثنيةٍ، وبعضَه على تثليثٍ، وبعضَه على تربيعٍ، أي: لا يجوزُ ذلك إلَّا على أَحدِ هذه الأقسامِ، ولا يجوزُ لهم أنْ يَجمَعوا بين هذِه الأقسامِ، بمعنى: أنَّ بَعضَهم يأتي بالتثنيةِ، والبعضَ الآخَرَ بالتثليثِ والفريقَ الثالث بالتربيع، فلمَّا ذَكَره بحرْف (الواو) أفادَ ذلك أنَّه يجوزُ لكلِّ طائفةٍ أنْ يَختاروا قِسمًا من هذه الأقسام؛ فدلَّت الواو على إطلاقِ أنْ يأخذَ الناكِحون مَن أرادوا نِكاحَها من النساء على طريق الجمْع، إنْ شاؤوا مختلفين في تلك الأعداد، وإنْ شاؤوا متَّفِقين فيها، محظورًا عليهم ما وراء ذلك، ومثاله: قول الرجل للجماعةِ: اقتَسِموا هذا المالَ- وهو ألف- دِرهمين درهمين، وثلاثةً ثلاثة، وأربعةً أربعة، فيجوز لبعضهم أنْ يأخذ درهمين درهمين، ولبعضٍ آخَرينَ أن يأخذوا ثلاثةً ثلاثة، ولطائفةٍ ثالثة أن يأخذوا أربعةً أربعةً[(١)].

- وجاء بصيغة التكرير فى ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾- التي تَعني اثنتين اثنتين، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا-؛ لأنَّ الخِطابَ للجميع فوجَب التكريرُ؛ ليصيبَ كلُّ ناكحٍ يُريد الجمعَ ما أراد من العدد الذى أُطلق له، كما يُقال للجماعة: اقتَسِموا هذا المال- وهو ألف درهم-: درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، ولو أُفْرِد لم يكُن له معنًى[(٢)].

٨- **قوله:** ﴿فَكُلُوهُ﴾: فيه تخصيص الأكْل بالذِّكر؛ لأنَّه معظمُ وجوه التصرُّفات الماليَّة[(٣)].

٩- **قوله:** ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾: صِفتان أُقيمتا مقامَ المَصْدَرينِ؛ كأنَّه قيل: هنأ ومرأ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٨)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٤).

وهذه عبارة عن التَّحليل والمبالغة في الإباحة، وإزالة التبعيَّة[١].

- وإتْباعُ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ بـ ﴿مَّرِيٓـًٔا﴾ ووَصْفه به؛ فيه تأكيدٌ[٢].

١٠- **قوله**: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾: فيه إضافةُ أموال مَن لا رُشدَ لهم إلى الأولياء- على القولِ بأنَّ هذا النَّهيَ للأولياءِ عن أن يُؤتوا الذين لا رُشدَ لهم أموالهم فيُضيِّعوها-؛ تنزيلًا لاختصاصِها بأصحابِها منزلةَ اختصاصِها بالأولياء، فكأنَّ أموالَهم عينُ أموالِهم؛ لِمَا بينهم وبينهم من الاتِّحاد الجنسي والنِّسبي؛ مبالغةً في حمْلِهم على المحافظةِ عليها[٣].

- **وقيل**: أُضيفتِ الأموالُ للأولياء؛ لأنَّها في تصرُّفِ الأولياء، وتحتَ ولايتهم، وهو الملائمُ للآيات المتقدِّمة والمتأخِّرة[٤].

١١- **قوله**: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾: فيه تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿مِّنْهُمْ﴾ على المفعول ﴿رُشْدًا﴾؛ للاهتمام بالمقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر[٥].

- وتنكير ﴿رُشْدًا﴾ وتنوينه؛ لأنَّ معناه نوعٌ من الرشد، ولا يُنتظَر به تمامُ الرُّشد[٦].

١٢- **قوله**: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾: (استعفَّ) أبلغُ من (عفَّ)، كأنَّه يَطلُب زيادةَ العِفَّة من نفْسِه[٧]؛ ففي هذه الآية نوعٌ طريفٌ من أنواعِ البيانِ يُطلَقُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٧١)- ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٥).
(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٧٦)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي السعود))

عليه اسمُ (قوَّة اللَّفظ لقوَّة المعنى)؛ وذلك في قوله ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾؛ فإنَّ (استعفَّ) أبلغُ من (عفَّ)، كأنَّه يَطلُب زيادةَ العِفَّة من نفْسِه؛ هضمًا لها، وحملًا على النَّزاهة، فالألفاظُ دالَّةٌ على المعاني، فإذا زِيدَ في الألفاظِ أوجبتِ الزِّيادةُ زيادةً في المعاني، وهذا النوعُ لا يُستعمل إلَّا في المبالغة[١].

- ولفظ (الاستعفاف) و(الأكْل بالمعروف) مُشعِرٌ بأنَّ الوليَّ له حقٌّ في مال الصَّبيِّ[٢].

١٣- **وقوله:** ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾: فيه تَكرارٌ لقوله: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[٣]. وهو يُفيدُ تأكيدَ الأمْر.

- وتقديم الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيْهِمْ﴾ على المفعول الصَّريح ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾؛ للاهتمامِ به[٤].

١٤- **قوله:** ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾: الجملة تأكيدٌ للأمر بالدَّفع، وتقريرٌ لها، وتمهيدٌ لِمَا بعدَها[٥].

(٢/ ١٤٦).

لكن قال ابنُ المنير- تعقيبًا على قول الزمخشريِّ: إنَّ (استعفَّ) أبلغُ من (عفَّ)، كأنَّه يَطلُب زيادةَ العِفَّة من نفْسِه-: (في هذا إشارةٌ إلى أنَّه من استفعَل بمعنى الطلب، وليس كذلك؛ فإنَّ استفعل الطلبيَّة متعدية وهذه قاصرة. والظاهر أنه ممَّا جاء فيه فَعَل واستفعل بمعنًى، واللَّه أعلم). ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٤٧٦).

(١) ينظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٦١-١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧ - ١٠)

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿سَدِيدًا﴾: أي: قاصدًا إلى الحَقِّ، مِن السَّداد، وهو: الصَّوابُ والقصدُ في القول، وأصله: الاستقامة(١).

﴿سَعِيرًا﴾: أي: نارًا تَتسعَّر، أي: تشتعِل وتتَّقِد وترتفِع، والسَّعير اسمٌ من أسماءِ جهنَّمَ(٢).

المَعنَى الإجمالي:

يُخبر اللهُ تعالى أنَّ للرِّجالِ والنِّساءِ نصيبًا من التَّرِكة التي يُخلِّفها المورِّثُ، من الوالدين أو الأقربينَ، سواء كان الإرثُ قليلًا أو كثيرًا، نَصيبًا واجبًا معيَّنَ المقدار.

ثم أمر تعالى المؤمنين إذا حضَرَ وقتَ تقسيمِ التركةِ الأقاربُ غيرُ الوارثينَ،

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

والأيتامُ وذوو الحاجة، أن يُعْطوهم منها، وأن يقولوا لهم قولًا حسَنًا جميلًا؛ تطييبًا لنفوسِهم.

ثم يأمُر اللهُ تعالى الأوصياءَ أن يخشَوْه ويتَّقُوه في أمْر اليتامى، فيفعلوا بهم مِثل ما يحبُّون أن يُفعَل بذريَّتهم الضِّعافِ بعدَ وفاتهم، وقِيل غير ذلك.

ثم يُخبر الله تعالى متوعِّدًا الذين يأكلونَ أموالَ الأيتام بغير حقٍّ، أنَّهم إنما يأكلونَ في بطونهم نارًا يوم القيامة، وسيكون مصيرُهم نارًا مشتعلةً شديدة الحرِّ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾.

أي: إنَّ الذكورَ والإناث يستوونَ في أصْل الوراثةِ في حُكم الله تعالى؛ فكلٌّ ينالُ من الإرث قِسطًا وحِصَّةً، مما خلَّفَه الميِّت، وإن تفاوتوا بحَسَب ما فرَض الله تعالى لكلٍّ منهم، بما يُدلي به إلى الميِّت من قرابةٍ، أو زوجيَّةٍ، أو وَلاء[1].

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ للرِّجال وللنساءِ نصيبًا من التَّرِكة، ووربما يُتوهَّم أنَّ النساءَ والولدانَ ليس لهم نصيبٌ إلَّا من المالِ الكثير، أزالَ ذلك بقولِه[2]:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥).

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾.

أي: للذُّكورِ والإناث نصيبٌ من الإرث، سواء كان قليلًا أو كثيرًا[١].

﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى أنَّ لكلٍّ من الذكور والإناث نصيبًا في قليلِ الإرثِ وكثيره، بيَّن هنا أنَّ ذلك النَّصيب ليس راجعًا إلى العُرْف والعادة، وليس لهم أن يَتصرَّفوا فيه كما يَشاؤونَ[٢]؛ لذا قال:

﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

أي: ذلك النَّصيب لكلٍّ منهم، حصَّةٌ واجبةٌ، معيَّنةُ المقدار[٣].

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى في الآيةِ الأُولى أنَّ النساءَ كالرِّجال في أنَّ لهنَّ حظًّا من الميراث، وعَلِم تعالى أنَّ في الأقاربِ مَن يرث ومَن لا يرث، وأنَّ الذين لا يرِثون إذا حضروا وقتَ القِسمة، فإنْ تُرِكوا مَحرومينَ بالكليَّة ثقُل ذلك عليهم؛ فلا جرمَ أمَر الله تعالى- على سبيل النَّدبِ- أنْ يُدفَعَ إليهم شيءٌ عند القِسمة؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٠-٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٠).

حتى يحصُل الأدبُ الجميل، وحُسن العِشرة[١]، فقال تعالى:

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ ﴾.

أي: وإذا حضَر توزيعَ الميراثِ الأقاربُ غيرُ الوارثين، والأيتامُ، والمحتاجون[٢].

﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾.

أي: فأعطوهم شيئًا ممَّا تيسَّر من هذه التَّركة؛ برًّا بهم، وإحسانًا إليهم، وجبرًا لخواطرهم بما لا يضُرُّكم؛ فإنَّ نفوسَهم متشوِّفةٌ إليه[٣].

﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى بالإحسانِ إليهم بالفِعل، أمَرَ بعد ذلك بالإحسانِ إليهم بالقولِ[٤]، فقال سبحانه:

﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

أي: فلْتقولوا لهم قولًا حسنًا جميلًا، تَطِيبُ به نفوسُهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤).

قال القرطبيُّ: (قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال سعيد بن جُبير: يقال لهم خُذوا، بورِك لكم. وقيل: قولوا مع الرِّزق: وددتُ أنْ لو كان أكثرَ من هذا. وقيل: لا حاجةَ مع الرِّزق إلى عُذر، نعمْ إنْ لم يصرف إليهم شيءٌ، فلا أقلَّ مِن قولٍ جميل، ونوع اعتذارٍ) ((تفسير

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أعادَ الله تعالى الوصيةَ باليتامى مرةً بعدَ أخرى، وختَم بالأمرِ بإِلَانةِ القول، وكان للتصويرِ في التأثيرِ في النَّفس ما ليس لغيرِه؛ أعادَ الوصيةَ بهم؛ لضعْفِهم، مصوِّرًا لحالِهم[1]، فقال:

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾.

قيل: المعنى: مَن سمِع مُحتضَرًا، قد ظلَم في وصيَّته أو أضرَّ بسببها بوَرَثَته، فعليه أن يتَّقيَ اللهَ تعالى، ويأمرَه بالعدلِ فيها، ويُسدِّدَه للصَّوابِ، كما يحبُّ أن يُصنَعَ بورثتِه إذا خَشِي عليهم الضَّيْعةَ[2].

وقيل: المراد: أنَّ على أولياء اليتامى معاملتَهم في مصالحهم الدِّينيَّة والدنيويَّة، بما يحبُّون أن يُعامَل به ذُرِّيَّتُهم الضِّعافُ من بعدِهم، فلْيتَّقُوا الله تعالى في وِلايتِهم لهم، فكما تحبُّ أن تُعامَل ذرِّيتُك من بعدك، فعامِل الناسَ في ذرِّياتِهم إذا وَلِيتَهُم[3].

القرطبي)) (٥/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤).

وممَّن قال من السَّلف بهذا القول: ابن عبَّاس، وقتادة، والسُّدِّي، وسعيد بن جُبَير، والضَّحَّاك، ومجاهد. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٤٦). و((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٢).

عن سعد بن أبي وقَّاصٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((تشكَّيتُ بمكةَ شكوى شديدةً، فجاءني النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يعودني، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ، إني أترُك مالًا، وإني لم أترُكْ إلَّا ابنةً واحدةً، فأُوصِي بثُلثَي مالي، وأتركُ الثُلثَ؟ فقال: لا، قلتُ: فأُوصِي بالنِّصفِ، وأترك النصفَ؟ قال: لا، قلتُ: فأُوصِي بالثُّلثِ، وأترُك لها الثُّلثينِ؟ قال: الثُّلث، والثلثُ كثيرٌ))[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا طالَ التحذيرُ والزَّجرُ والتهويلُ في شأنِ اليتامى، وكان ذلك ربَّما أوجب النفرةَ من مخالطتهم رأسًا، فتضيع مصالحُهم؛ وصَل بذلك ما بَيَّن أنَّ ذلك خاصٌّ بالظَّالم في سياقٍ موجبٍ لزِيادة التحذيرِ، متوعِّدًا على ذلك بـأشدِّ العذابِ[2]، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا﴾.

أي: إنَّ الذين يأكلون أموالَ اليتامى في الدُّنيا بغير حقٍّ، سيُعاقَبون على ذلك بأنْ تَتأجَّجَ في بطونهم نارٌ يومَ القيامةِ[3].

﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾.

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس- في رواية عنه. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٥١).

(١) رواه البخاري (٥٦٥٩) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥-١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥-١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٢).

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى عِقابَهم بالنارِ في أجوافِهم، ذكَر بعدَها عِقابَهم بالنارِ في ظاهرِ أجسادِهم[١]، فقال:

﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

أي: وسيُحرَقون بنارٍ مشتعلة، متوقِّدة، شديدٍ حرُّها[٢].

عن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((اجتَنِبوا السبعَ الموبقاتِ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما هنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسحرُ، وقتلُ النَّفْسِ التي حرَّم اللهُ إلَّا بالحقِّ، وأكْلُ الرِّبا، وأكْلُ مالِ اليتيمِ، والتولِّي يومَ الزحفِ، وقذفُ المحصناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ))[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- ما جاءَ به الإسلامُ من الآداب العالية، والأخلاق الفاضلة؛ حيث أمَرنا بأن نُعطيَ هؤلاء الذين حضَروا القِسمة؛ لأنَّ قلوبهم تتعلَّق بالمال، وتتشوَّفُ للنَّوال؛ فلهذا أمَرَ الشرعُ بإعطائهم؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾[٤]، يؤخَذُ من المعنى أنَّ كلَّ من له تطلُّعٌ وتشوُّفٌ إلى ما حَضَرَ بين يَدَي الإنسان، ينبغي له أن يُعْطِيَه منه ما تيسَّرَ[٥].

٢- أنَّه يَنبغي لمن أعطى أحدًا شيئًا أن يقول له قولًا معروفًا يُطَيِّب قلْبَه، ويُبعِدُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٥٥-٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٦).

(٣) رواه البخاري (٦٨٥٧) واللفظ له، مسلم (٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥).

من المنِّ بالعطاء؛ لأنَّ المنَّ بالصَّدقة من كبائر الذنوب، وهو مُبطِلٌ للأجْر؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾[1] [البقرة: ٢٦٤].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ﴾ أمرٌ للأوصياء بأنْ يَخشَوُا اللهَ تعالى ويتَّقوه في أمْر اليتامى، فيفعلوا بهم ما يُحبُّون أن يُفعَل بذَراريِّهم الضِّعافِ بعدَ وفاتهم[2]، وفي ترتيب الأمْرِ على هذا: إشارةٌ إلى أنَّ المقصودَ منه، والعِلَّة فيه: أنْ يُحبَّ لأولادِ غيرِه ما يحبُّ لأولاده، وتهديدٌ للمُخالِف بحال أولاده[3]، فيجبُ على المرء أن يُعامِلَ الناس بما يحبُّ أن يعاملوه به؛ لأنَّه إذا كان يَكره لنفْسه أن يَعتديَ أحدٌ على أولاده بعد موته، فكذلك لا يَعتدي هو على أولادِ النَّاسِ، فإذا أراد أنْ يَجنيَ على غيرِه فليتذكَّرْ نفْسَه، فمثلًا إن كان يَهُمُّ بأنْ يَزنيَ بامرأة، فليتذكَّر هلْ يَرضَى أنْ يَزنيَ أحدٌ بإحْدى محارمِه؟! فإذا كان لا يَرضَى؛ فلماذا يرَضَى أنْ يَزنيَ بمحارمِ الناس[4]؟!

٤- في قوله تعالى: ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ﴾ ما يبعثُ الناسَ كلَّهم على أنْ يَغضَبوا للحقِّ مِن الظُّلم، وأنْ يأخُذوا على أَيدي أَولياءِ السُّوءِ، وأنْ يَحرُسوا أموالَ اليَتامى، ويُبَلِّغوا حقوقَ الضُّعفاءِ إليهم؛ لأنَّهم إنْ أضاعوا ذلك يُوشِكُ أنْ يَلحَقَ أبناءَهم وأموالَهم مِثلُ ذلك، وأنْ يأكُلَ قويُّهم ضعيفَهم؛ فإنَّ اعتيادَ السُّوءِ يُنسي الناسَ شَناعتَه، ويَكسِبُ النُّفوسَ ضراوةً على عَملِه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٠- ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- تقديمُ الرِّجالِ على النِّساءِ حتَّى في الأمْر الذي يَشترِكون في الاستحقاقِ فيه، ووجهُ الدَّلالة: قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾، وهذا هو المشروعُ والمعقولُ والفِطري، وقد عَكَس ذلك مَن عكَس اللهُ قلوبَهم مِن الكفرةِ والمبهورين بهم؛ حيث قدَّموا النِّساءَ على الرِّجال، وهذا خطأٌ عظيم؛ لأنَّ الرِّجالَ مُقدَّمون على النِّساء، وهم قوَّامونَ عليهنَّ[١].

٢- أنَّ الأوامرَ قد تكون مُوكَلةً إلى المأمور غيرَ مقدَّرة؛ لقوله: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾، ولم يقل: الثُّلث، ولا الرُّبع، ولا العشر، بل جَعَل هذا مطلقًا؛ فهو يرجع إلى كرَم المعطي من وجهٍ، وإلى كثرة المال من وجهٍ آخَرَ[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾ قدَّمَ أُولي القُربى على اليتامى والمساكين؛ لأنَّ الإحسانَ إلى القَرابةِ أفضلُ من الإحسانِ إلى اليتيمِ والمسكينِ؛ ولهذا لَمَّا أخبرتْ ميمونةُ بنتُ الحارثِ رضِي اللهُ عنها رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّها أعتقتْ جاريةً لها، قال لها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لو أَعطيتِها أخوالَكِ، كان أَعظمَ لأجْرِكِ))[٣]؛ فدلَّ هذا على أنَّ إعطاء ذَوِي الأرحامِ أفضلُ من إعطاءِ البَعيدِ[٤].

٤- أنَّ الجزاء مِن جِنس العمل؛ لأنَّه قابَل أكْلهم بالنار التي يُعذَّبون بها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٥).

(٣) رواه البخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦).

وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾[١].

بَلاغَةُ الآيات:

١- **قوله تعالى:** ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ﴾.

- **قوله:** ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾: فيه إيرادُ حُكمِ النساءِ على الاستقلال دون أن يُقال: (للرِّجال والنِّساء... إلخ)؛ للاعتناء بأمرهنَّ، والإيذان بأصالتهنَّ في استحقاق الإرث، والإشارة من أوَّل الأمْر إلى تفاوت ما بين نصِيبَي الفريقينِ، والمبالغة في إبطال حُكم الجاهليَّة؛ فإنَّهم لم يكونوا يورِّثون النساء والأطفال[٢].

- **قوله:** ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾: فيه إطلاقُ الكلِّ على البعض؛ إذ المراد بـ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ أربابُ الفرائض، وليس كلَّ الأقارب[٣].

- **قوله:** ﴿مَّفۡرُوضٗا﴾: فيه إيجاز بالحذْف، فالفارض هو الله، لكن حُذِف، وبُني الوصفُ للمفعول؛ للعِلم به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: ٢٨]، والذي خلَقَه هو اللهُ عزَّ وجلَّ[٤].

٢- **في قوله تعالى:** ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾: قال: ﴿مِّنۡهُ﴾ ولم يقل: (فيه)؛ لأنَّ هؤلاء يُعطون من رأس المال، ومِن أصله، وأمَّا أموال اليتامى فقال الله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾، فقال: ﴿فِيهَا﴾ ولم يقُل: (منها)؛ لأنَّهم يُرزقون بعدَ الاتِّجار

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢).

بها، فيُعطَون من الرِّبح، وهو إشارةٌ إلى أنه ينبغي لِوليِّ اليتيم أن يتَّجِرَ في ماله حتى يحصُلَ على ما يَرزقُه فيه، أمَّا هنا فقال: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ أي: من هذا المال الذي يُقسَم أمامَهم[١].

٣- **قوله تعالى:** ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾:

- فيه إيجازٌ بالحَذْف؛ حيثُ حُذِفَ مفعولُ ﴿وَلۡيَخۡشَ﴾؛ لتذهبَ نفْسُ السَّامعِ في تقديرِه كلَّ مذهبٍ مُحتمَل؛ فينظر كلُّ سامعٍ بحسَبِ الأهمِّ عنده ممَّا يَخشاهُ أنْ يُصيبَ ذرِّيَّتَه[٢].

- وفيه أيضًا حذْفُ مفعول ﴿خَافُواْ﴾؛ لِتذهبَ النَّفسُ في تقديره كلَّ مذهب، ولِتَفْتَنَّ في تصوير الخوف من المصير المحتوم الذي يَؤُول إليه أمرُ الضِّعاف في هذه الحياة، ويُمكن تقديرُه بمثل الضياع والتشرُّد في مسارب الحياةِ، ومسالِكِها المتشعِّبة، من دون كافلٍ يَكفُلهم، أو مُدبِّرٍ يُدبِّر شؤونَهم[٣].

- وقوله: ﴿فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾: أمَرَهم بالتقوى التي هي غايةُ الخشيةِ بعدَما أمرهم بها؛ مراعاةً للمبدأِ والمنتهى؛ إذ لا يَنفع الأوَّلُ دون الثاني، ثم أمَرَهم أن يقولوا لليتامى مثلَ ما يقولون لأولادهم بالشَّفَقَة وحُسْن الأدب[٤].

- قوله: ﴿وَلۡيَخۡشَ﴾، ﴿وَخَافُوا﴾ فيه تَكرارٌ من جِهةِ المعنى- على قولِ مَن جعَلَهما مُترادِفَينِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).

٤- قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾: استئنافٌ جِيءَ به لتقريرِ مضمونِ ما فُصِّل من الأوامِر والنواهي[١].

- وقوله: ﴿يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا﴾ فيه من أنواع البلاغة ما يلي:

- التَّعريض؛ حيث عرَّض بذِكر البُطون لخِسَّتهم وسُقوطِ هِمَمِهم، والعربُ تذمُّ بذلك[٢].

- تأكيدُ الحقيقةِ بما يَرفع احتمالَ المجازِ، وذلك بقولِه: ﴿فِي بُطُونِهِمۡ﴾[٣].

- الاختِصاص؛ حيثُ خصَّ البُطونَ بالذِّكْر دون غيرِها؛ لأنَّها محلٌّ للمأكولاتِ[٤]، وذِكْر البُطون- مع أنَّه معلوم أنَّ الأكْلَ لا يكونُ إلاَّ في البُطون-؛ للتأكيدِ والمبالغةِ، ولتَجسيدِ بشَاعةِ الجُرم المقترَفِ بأكْل مالِ اليتيمِ؛ حتى يَتأكَّدَ عِند السَّامِع بشاعةُ هذا الجُرمِ بمزيدِ تصويرٍ[٥].

- تأكيدُ هذا التشنيعِ على الظالمِ لليَتيمِ في مالِه بتَخصيصِ ذِكْر الأكْلِ؛ لأنَّه أبشعُ الأحوالِ التي يُتناوَلُ مالُ اليتيمِ فيها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٤٧٩)، ((تفسير الرازي))، (٩/ ٥٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٦٨).

(٦) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

الآيات (١١ - ١٤)

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ ﴾: الوصيةُ: التقدُّمُ إلى الغيرِ بما يَعملُ به مقترنًا بوعْظ، والوصيةُ مِن الله هي الأمرُ المؤكَّد، والتوصية تُعرِب عن تأكيدِ الأمرِ، والاعتناءِ بشأنِ المأمورِ به، وأصل (وصي): يدلُّ على وصْلِ شيء بشيء؛ يقال: وطِئْنَا أرضًا واصية، أي: إنَّ نَبْتها متَّصِلٌ قد امتلأت منه، ومنه الوصية، كأنَّه كلامٌ

يُوصَى؛ أي: يُوصَل[١].

﴿حَظِّ﴾: أي: نصيبٌ مقدَّر، وأصل (حظظ): النَّصيب والجَدُّ[٢].

﴿كَلَٰلَةً﴾: الكَلالة: الذي يموتُ ولا ولدَ له ولا والدَ، مصْدَر مِن: تكلَّله النَّسب، أي: أحاطَ به؛ فالابنُ والأبُ طرفانِ للرَّجُل، فإذا ماتَ ولم يُخلِّفْهما، فقد ماتَ عن ذَهاب طَرَفَيهِ، فسُمِّي مَن ذَهبَ طَرفاه كَلالةً[٣].

مُشكِلُ الإعراب:

١- **قوله تعالى:** ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾

﴿فَرِيضَةً﴾: منصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ مؤكِّد لمضمونِ الجُملةِ السَّابقة مِن الوصيَّة؛ لأنَّ معنى ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ فرَضَ اللهُ عليكم، فصار المعنى: (يُوصِيكُم اللهُ وصيةَ فَرْضٍ)، أو منصوبةٌ بفِعلٍ محذوفٍ مِن لفْظِها على أنَّها مَصدرٌ له، أي: فرَض اللهُ ذلِك فريضةً. وقيل: إنَّها حالٌ؛ لأنَّها ليستْ مصدرًا[٤].

٢- **قوله تعالى:** ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾

﴿كَانَ﴾: يجوزُ هنا أنْ تكونَ ناقصةً، ويكونُ ﴿رَجُلٌ﴾ مرفوعًا على أنه اسْمُها، و﴿يُورَثُ﴾ خبرها في مَحلِّ نصْب، ويجوزُ جعْلُ ﴿كَانَ﴾ تامَّةً- فيُكْتَفى بالمرفوعِ، أي: وإنْ وُجِد أو وَقَع رجلٌ- وَ﴿رَجُلٌ﴾ فاعِلَها، وجملة

---

(١) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٨) ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٢).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦- ١٣٧).

(٤) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٠٦).

﴿يُورَثُ﴾ في محلِّ رفْعٍ صِفَةٌ لـ﴿رَجُلٌ﴾.

﴿كَلَٰلَةً﴾ منصوبةٌ على الحالِ من الضَّميرِ المُسْتَتِرِ في ﴿يُورَثُ﴾، على نيَّةِ حَذْفِ مضافٍ: والتقدير: يُورَثُ ذا كَلالةٍ، والكلالةُ على هذا: اسمٌ للمَيِّتِ الذي لم يَتْرُكْ ولدًا ولا والدًا. وفي إعرابِ ﴿كَلَٰلَةً﴾ توجيهاتٌ إعرابيَّة أخرى بِحَسَب تفسيرها ومعانيها المختلِفة[١].

٣- **قوله تعالى:** ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۚ غَيۡرَ مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾

﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: ﴿وَصِيَّةٗ﴾: منصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ مؤكِّد لِفعلٍ محذوفٍ؛ أي: وصَّى أو يُوصيكم اللهُ بذلك وصيةً، ودلَّ على المحذوفِ قولُه: ﴿غَيۡرَ مُضَآرٍّ﴾، وعلى هذا الوجه فمفعولُ ﴿مُضَآرٍّ﴾ محذوفٌ، والتقدير: غيرَ مضارٍّ ورثتَه بوصيةٍ. وقيل: إنَّ ﴿وَصِيَّةٗ﴾ منصوبةٌ باسمِ الفاعلِ ﴿مُضَآرٍّ﴾ على أنَّه مفعولُه، وجُعلتِ المُضارَّةُ الواقعةُ بالورثةِ كأنَّها واقعةٌ بنفس الوصية؛ مبالغةً في ذلك، ويؤيِّد هذا التخريجَ قِراءةُ الحَسَن: (غَيْرَ مُضارٍّ وَصِيَّةٍ) بإضافةِ اسمِ الفاعِل إليها، وأصله: غيرَ مضارٍّ في وصيةٍ من اللهِ، فاتُّسِعَ في هذا إلى أنْ عُدِّيَ بنفسِه من غيرِ واسطة؛ لِقَصْد المبالَغة. وقيل غيرُ ذلك[٢].

المَعنَى الإجمالي:

يَعهَد اللهُ إليكم في شأنِ ميراثِ أولادِكم من بعدِ موتِكم أن يكون نصيبُ الذَّكر منهم في الميراث مِثلَ نصيب الأُنثيين، فإنْ كانتِ البناتُ زائداتٍ على

(١) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٥-٣٣٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٠٦-٦١٠).

(٢) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦١٣).

اثنتينِ، وليس معهنَّ ذكَرٌ، فلهنَّ ثُلثَا ما ترَك المتوفَّى، وإنْ كانتْ واحدةً فقط فلها النِّصف، ولوالدَيِ الميِّت السُّدسُ من التَّرِكَة إذا كان له ولدٌ، سواء من الذُّكور أو الإناثِ، واحدًا أو جماعةً، فإنْ لم يترك الميِّتُ ولدًا، وكان أبوه وأمُّه وارثَيْهِ، فلأمِّه الثُّلُثُ، ولأبيه ما تبقَّى من مالِ التَّرِكة. وإنْ كان مع الأبوينِ الوارثينِ إخوةٌ للميِّت- أشِقَّاءُ، أو لأبٍ، أو لِأُمٍّ- فتستحقُّ الأمُّ في هذه الحال السُّدسَ من التَّرِكة، وما بقِي فللأب. هذه الفرائِض التي ذكَرها الله سبحانه وتعالى تُعطَى لأهلها مِن بعد أن تُنَفَّذ وصيةُ الميِّت، وتُقضى دُيونُه؛ إنَّكم لا تدرون أَيُّ الأولادِ أو الوالِدين أنفعُ لكم، وأقربُ لحصولِ مقاصدِكم الدِّينيَّة والدنيويَّة، فلو رُدَّ تقديرُ الإرثِ إلى عقولِكم واختيارِكم، لحَصَل من الضَّرر ما اللهُ به عليمٌ؛ فهذا التقسيمُ المذكورُ فرَضَه اللهُ سبحانه على عِباده؛ فهو سبحانه العليمُ الحكيم.

ثم بيَّن اللهُ ميراثَ الزوجينِ؛ فأخبر أنَّ للأزواج النِّصفَ من تركة زوجاتِهم، إذا لم يكُن لهنَّ ولدٌ، سواءٌ من الذكور أو الإناث، واحدًا كان أو أكثر، وفي حالة وجودِ الولد فإنَّ الأزواجَ يستحقُّون الرُّبُعَ من ترِكة الزوجاتِ، من بعد استخراج الوصية التي أَوصينَ بها، وقضاءِ الدُّيون التي عليهنَّ، وللزَّوجاتِ الرُّبُعُ من ترِكة أزواجهنَّ إنْ لم يكُن لأزواجِهنَّ ولدٌ، فإنْ كان هناك ولد، فلهن الثُّمُنُ من الترِكة، من بعد الوصِيَّة وقضاء الدَّين، ثم أوضح الله تعالى حُكمَ مَن تُوفِّيَ بدون أن يترُكَ ولدًا ولا والدًا، وكان له أخٌ أو أخت من جِهة أمِّه؛ فإنَّ لكلٍّ من الأخ أو الأخت في هذه الحال سُدسَ التركة، فإنْ كانوا أكثرَ من واحدٍ فإنَّ نصيبَهم الثُّلُثُ من التركة، يقتسمونه بينهم بالتَّساوي ذُكورًا وإناثًا، وذلك بعد إخراج الوصيَّة وقضاءِ دُيون المتوفَّى، على ألَّا تكون تلك الوصيةُ مقصودًا بها الإضرارُ بالوَرَثَة، هذه الأحكامُ التي ذُكرت هي عَهدٌ مِن الله، يجب التزامُه، فالله سبحانه وتعالى عليمٌ حليم.

ثم يُخبِر تعالى أنَّ ما شرَعه من الفرائض والمقادير هي حدودُه، التي يجب ألَّا يتجاوزَها العبادُ، ويُبيِّنُ جزاءَ مَن يطيعُ الله ورسوله أنَّ له جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، ماكثينَ فيها على الدوامِ، وهذا هو الفلاحُ والرِّبحُ العظيم. وأمَّا مَن يَعصي اللهَ ورسوله، ويتجاوز حدودَ الله، فإنَّ الله سيُدْخِلُه نارًا يَمكُثُ فيها على الدَّوام، وله عذابٌ مُخْزٍ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى الحُكْمَ في مال الأيتامِ، وما على الأولياء فيه، بيَّن كيف يَمْلِك هذا اليتيمُ المالَ بالإرث، ولم يكُن ذلك إلَّا ببيان جملة أحكام الميراث[١].

وأيضًا لَمَّا أثبتَ اللهُ تعالى حُكمَ الميراثِ بالإجمالِ في قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ ﴾ [النساء: ٧]، وأبْهَمَ المقدارَ ومَن يرِثُ- ذكر عَقيب ذلك المجمَل، هذا المفصَّل، فبيَّن المقاديرَ، ومَن يَرِثُ من الأقربينَ[٢].

سببُ النُّزولِ:

عن جابرٍ رضِي الله تعالى عنه، قال: ((عادَني النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٥).

وسلَّم، وأبو بكر في بني سَلِمة ماشِيَينِ، فوجدني النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم لا أعقِلُ، فدعا بماءٍ فتوضَّأ منه، ثم رشَّ عليَّ فأفقْتُ، فقلْتُ: ما تأمُرني أن أصنعَ في مالي يا رسولَ الله؟ فنزَلَت ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾))[١].

وعن جابرٍ أيضًا رضِي اللهُ عنه، قال: ((جاءتِ امرأةُ سعدِ بنِ الرَّبيعِ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بابنتَيها مِن سعدٍ، فقالت: يا رسولَ الله، هاتانِ ابنتَا سعدِ بنِ الرَّبيع، قُتِل أبوهُما معك في أُحدٍ شهيدًا، وإنَّ عمَّهما أخَذَ مالَهما، فلم يَدَعْ لهما مالًا، ولا يُنْكَحَان إلَّا ولهما مالٌ، قال: فقال: يَقضِي اللهُ في ذلك، قال: فنزلتْ آيةُ الميراثِ، فأرسلَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى عَمِّهما، فقال: أعطِ ابنتَي سعدٍ الثُّلُثَينِ، وأُمَّهما الثُّمُنَ، وما بقِي فهو لك[٢]))[٣].

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾.

أي: يَعهَدُ إليكم ربُّكم، ويأمرُكم أمرًا مؤكَّدًا في شأنِ ميراثِ أولادِكم بالتَّسْويةِ بينهم، ذُكورًا وإناثًا في أصْلِ الاستحقاقِ من الميراثِ[٤].

﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٧٧) واللفظ له، ومسلم (١٦١٦).

(٢) قال ابنُ كثير: (الظاهر أنَّ حديث جابر الأوَّل إنما نزل بسببه الآيةُ الأخيرة من هذه السورة... فإنَّه إنما كان له إذ ذاك أخواتٌ، ولم يكن له بنات، وإنما كان يُورث كلالة، ولكن ذكرنا الحديث هاهنا تبعًا للبخاري، رحمه الله، فإنَّه ذكره هاهنا. والحديث الثاني عن جابر أشبهُ بنزول هذه الآية، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٥).

(٣) رواه أبو داود (٢٨٩٢)، والترمذيُّ (٢٠٩٢)، وابن ماجه (٢٧٢٠)، وأحمد (١٤٨٤٠) واللفظ له. قال أبو داود: هذا أصح. وصححه الترمذيُّ، واحتجَّ به ابن حزم في ((المحلى)) (٩/ ٢٥٥)، وحسَّنه ابن عبد البر في ((الاستذكار)) (٤/ ١٣٠)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٠٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٥٦-٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٤).

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالتَّسويةِ بين الأولاد- من الذُّكور والإناثِ في أصلِ الميراثِ- فاوَتَ بين الصِّنفيْن، وذَكر كيفيَّةَ إرْثِهم[١]، فقال:

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

أي: إذا اجتَمَع في أولادِ الميِّتِ ذكورٌ وإناثٌ، فللذكرِ ضِعفُ ما تُعطَى الأنثى، (وذلك إنْ لم يكُن معهم صاحبُ فرضٍ، أو ما أَبقتِ الفروضُ يَقتسمونَه كذلك)[٢].

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى حالةَ اجتماعِ الذُّكور والإناث، أتْبعَ ذلك بذِكر حالةِ انفرادِ الإناثِ[٣]، فقال:

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾.

أي: فإنْ كان بناتُ الميِّت أكثرَ في العدد من اثنتين- مهما بلغ عددُهن- فإنهنَّ يستحققْنَ ثُلُثي التِركة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٤).
وناسَب أن يُعطى الذَّكرُ ضِعْفي ما تأخُذه الأنثى لاحتياجِ الرجُل إلى مُؤنةِ النفقة والكُلْفة، ومعاناة التِّجارة والتكسُّب، وتجشُّم المشقَّة؛ فالرجُلُ باذلٌ، والمرأة آخِذةٌ، فهو مأمورٌ بالنَّفقة عليها، ويبذلُ لها المهر، وترثه إذا ماتَ، وليس من العدلِ التَّسويةُ بينهما. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي))

ولَمَّا بيَّن اللهُ تعالى ميراثَ البناتِ حالَ اجتماعِهنَّ، ذكَر ميراثَ البنتِ الواحدة، فقال:

﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُ﴾.

أي: وإنْ خلَّف الميِّتُ بنتًا واحدةً، فإنَّ لها نصفَ التَّرِكة[1].

ولَمَّا ذكَر اللهُ تعالى مِيراثَ الأولاد، انتقَلَ إلى ذِكر ميراث الأبوين، فقال:

﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾.

أي: ولكلٍّ من والد الميِّت ووالدته السُّدسَ من التركة، إنْ كان للميِّت ولدٌ، ذكرًا كان أو أنثى، واحدًا أو جماعةً[2].

﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾.

أي: فإن لم يكن للميِّت ولدٌ، ذكرًا كان أو أُنثَى، وله أبٌ وأمٌّ، فإنَّ لأمِّه ثُلُثَ التَّركة، وللأبِ ما بَقيَ منها[3].

(ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٥).

قال الواحديُّ: (أجمعتِ الأمَّةُ على أنَّ للبنتين الثلثين، إلَّا ما رُوي عن ابن عبَّاس) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ١٩).

وقال ابنُ عطيَّة: (قوله: ﴿فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ معناه: اثنتين فما فوقهما، تَقتضي ذلك قوَّةُ الكلام، وأمَّا الوقوف مع اللفظ فيسقط معه النصُّ على الاثنتين، ويثبت الثُّلثان لهما بالإجماع الذي مرَّت عليه الأمصارُ والأعصار، ولم يُحفظْ فيه خلافٌ، إلَّا ما رُوي عن عبد الله بن عباس: أنَّه يرى لهما النِّصف) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦١-٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٧-٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦٢-٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٨-٧٠).

عن عبدِ الله بن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أَلْحِقُوا الفرائضَ بأهلِها، فما بَقِيَ فهو لأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ))[١].

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾.

أي: إذا وَرِث الميِّتَ أبواه، وكان له إخوةٌ، سواء كانوا أشقَّاءَ، أو لأبٍ، أو لأمٍّ، وسواء كانوا اثنين أو أكثر، فإنَّ للأمِّ سدسَ التركة، وللأبِ ما بقِي منها[٢].

عن عبد الله بن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أَلْحِقُوا الفرائضَ بأهلِها، فما بَقِيَ فهو لأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ))[٣].

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾.

أي: هذه المواريثُ التي ذَكَرها الله تعالى، إنَّما تُستَحقُّ لأهْلِها ممَّا تبقَّى من تركة الميِّت، بعد تنفيذ وصيَّتِه المشروعةِ الثابتة عنه (على ألَّا تتجاوزَ الوصيةُ ثُلُثَ مال الميِّت- إلَّا إذا أجاز الوَرَثةُ تلك الزِّيادةَ- ولا تكون لوارثٍ، ولا تكون

قال الشنقيطي: (قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾، أي: ولأبيه الثلثان الباقيان إجماعًا) ((أضواء البيان)) (٢/ ٥٦).

وإنَّما كان حظُّ الوالدين من الإرث أقلَّ مِن حظ الأولاد مع عِظَم حقِّهما على الولد; لأنَّهما يكونان في الغالب أقلَّ حاجةً من الأولاد، إمَّا لكبرهما، وقِلَّة ما بقِي من عمرهما، وإمَّا لاستقلالهما، وتمولهما، وإما لوجود مَن تجبُ عليه نفقتهما من أولادهما الأحياء، وأمَّا الأولاد فإمَّا أن يكونوا صغارًا لا يَقدِرون على الكسب، وإمَّا أن يكونوا على كِبرهم محتاجين إلى نفقةِ الزواج، وتربيةِ الأطفال؛ فلهذا وذاك كان حظُّهم من الإرث أكثرَ من حظِّ الوالدين. ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٣٤٠).

(١) رواه البخاري (٦٧٣٥)، ومسلم (١٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦٣-٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٧-٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٠-٧١).

قال الواحديُّ: (أجمعتِ الأُمَّةُ على أنَّ الأخوين يَحجُبان الأمَّ مِن الثُّلث إلى السُّدس، والأخ الواحد لا يَحجُب) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٠).

(٣) تقدم تخريجه.

لشيءٍ محرَّم)، وقضاء دُيونه[١].

عن سعد بن أبي وقَّاصٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((تشكَّيتُ بمكَّةَ شكوى شديدةً، فجاءني النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يعودُني، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ، إنِّي أتركُ مالًا، وإني لم أترُكْ إلا ابنةً واحدةً، فأُوصي بثُلُثَي مالي، وأتركُ الثُلثَ؟ فقال: لا. قلتُ: فأُوصي بالنِّصفِ، وأتركُ النصفَ؟ قال: لا، قلتُ: فأُوصي بالثُّلُثِ، وأتركُ لها الثُلثين؟ قال: الثلثُ، والثلثُ كثيرٌ))[٢].

وعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضِي اللهُ عنه، قال: ((سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في خُطبتِهِ عامَ حجَّةِ الوداعِ: إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى، قد أعطَى كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فلا وصِيَّةَ لوارثٍ))[٣].

﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قسَّم سبحانه الميراثَ على ما اقتضتْه حِكمتُه؛ قطَعَ خطَّ الاعتراضِ على هذه القِسمة بقوله[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٧-١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٣-٧٨).
وحكى ابن جرير الإجماع على أنَّ قضاء الدَّيْن مقدَّمٌ على الوصية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦٩).

(٢) رواه البخاري (٥٦٥٩) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٨).

(٣) رواه أبو داود (٢٨٧٠)، والترمذيُّ (٢١٢٠) واللفظ له، وابن ماجه (٢٧١٣)، وأحمد (٢٢٣٤٨).
حسَّنه الإمام أحمد كما في ((بلوغ المرام)) لابن حجر (٢٨٦)، وقال الترمذيُّ: حسن صحيح، وحسَّنه ابن عبد البر في ((التمهيد)) (٢٤/ ٤٣٩)، وابن الملقن في ((البدر المنير)) (٧/ ٢٦٣)، وابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (٢/ ٣١٥)، وصحَّحه الذهبي في ((تنقيح التحقيق)) (٢/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٨).

﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾.

أي: إنَّما فرَضَ اللهُ تعالى للآباء والأبناء نَصيبَهم من الميراث، كلٌّ بحسَبه؛ لأنَّ الإنسان قد يأتيه مِن أبيه النفعُ- دُنيويًّا كان أو أخرويًّا أو هما معًا- ما لا يأتيه من ابنِه، وقد يكون الأمرُ بالعكس؛ فلا ينبغي أن يُمنَع أحدٌ حقَّه من الإرث؛ فإنَّه لو رُدَّ تقديرُ الإرث إلى عقول الناس واختيارِهم لحَصَل مِنَ الضَّررِ ما اللهُ به عليمٌ؛ لنقصِ العُقولِ، وعَدمِ مَعرفتِها بما هو اللائقُ الأحسن في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فلا يدرون أَيُّ الأولادِ أو الوالِدين أنفعُ لهم، وأقربُ لحصول مقاصدِهم الدِّينيَّة والدنيويَّة[١].

﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: هذا التقسيم المقدَّر للميراث، فرْضٌ من الله تعالى وحده، قد حَكم به على عِبادِه[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى عالمٌ بكلِّ شيء، ومن ذلك عِلمُه بمَن يستحقُّ الأخذَ من الميراث، ومقدارِ ما يستحقُّه كلُّ أحد، وهو الحكيمُ الحاكم على عِبادِه، الذي يَضعُ الأشياءَ في مواضعها اللائقة بها، ومِن ذلك: وضْعُه حقَّ الميراث في أهلِه المستحقِّين له، وتقديرُه ما يستحقُّه كلُّ أحدٍ منهم على أحسنِ تقديرٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٩).

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى ميراثَ الفُروعِ من الأصول، وميراثَ الأصولِ من الفُروع، أخَذ في ذِكْر ميراث المتَّصلين بالسَّببِ لا بالنَّسَب، وهو للزوجيَّة هنا[1]، فقال:

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾.

أي: ولكم- أيُّها الأزواجُ- نصفُ تِركة زوجاتكم بعد وفاتهنَّ، إذا مِتْنَ عن غيرِ ولدٍ، ذَكَرًا كان أو أُنثى، واحدًا أو أكثر[2].

﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾.

أي: فإنْ كان لزوجاتكم ولدٌ، من ذَكَر أو أنثى، واحد أو أكثر، فلكم -أيُّها الأزواج- رُبُع تِركة زوجاتكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٥).

قال ابنُ عطيَّة: (الولد هاهنا بنو الصُّلب، وبنو ذكورهم وإن سَفُلوا، ذُكرانًا وإناثًا، واحدًا فما زاد، هذا بإجماعٍ من العلماء) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾.

أي: ذلك الفَرْض لكم- أيُّها الأزواج- تستحقُّونه ممَّا تبقَّى من تِركة أزواجِكم، بعد تنفيذ وصيتهنَّ المشروعة الثابِتَةِ عنهنَّ، وقضاءِ ديونهنَّ[١].

﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞ﴾.

أي: ولأزواجِكم -أيُّها الأزواجُ- رُبُعُ ما تركتم بعدَ وفاتِكم، إنْ لم يكُن لكم ولدٌ[٢].

﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُم﴾.

أي: فإنْ كان لكم- أيُّها الأزواج- ولدٌ، وأصابَكم الموتُ، فإنَّ لزوجاتِكم ثُمُنَ ما تركتُم[٣].

﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾.

أي: إنَّما تستحقُّ زوجاتُكم ذلك النَّصيبَ ممَّا تبقَّى من تِركتكم، بعد تنفيذ وصيَّتكم المشروعة الثابتة عنكم، وقضاء دُيونكم[٤].

سورة النساء)) (١/ ٩٥-٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٦-٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٧).

اتَّفقتِ الأمَّة على أنَّ الرجُلَ إذا كانتْ له زوجاتٌ: أنهنَّ يَشترِكْنَ في الرُّبُع أو في الثُّمُن من غير زيادة لهنَّ؛ لأنَّ تعدُّد الزوجاتِ بيد صاحبِ المال، فكان تعدُّدهنَّ وسيلةً لإدخال المضرَّة على الورثةِ الآخَرين، بخِلاف تعدُّدِ البنات والأخوات، فإنَّه لا خيارَ فيه لربِّ المال. ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾.

أي: إنْ كان المتوفَّى، رجلًا كان أو امرأةً، قد تُوفِّيَ عن غير ولدٍ ولا والدٍ، وله من جهة الأمِّ أخٌ أو أختٌ، فإنَّ لكلِّ واحدٍ منهما- أي الأخ أو الأخت- سُدُسَ التَّركةِ[(١)].

عن عبدِ اللهِ بن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((كنتُ آخرَ النَّاسِ عَهْدًا بعُمرَ، فسَمِعْتُه يقولُ: القَولُ ما قلتُ، قلتُ: وما قلتَ؟ قالَ: الكلالةُ من لا ولدَ لَهُ ولا والِدَ))[(٢)].

﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾.

أي: فإنْ كان الإخوةُ والأخواتُ من جِهة أُمِّ الميِّت الموروثِ كلالةً -رجلًا كان الميِّت أو امرأةً- أكثرَ من واحد[(٣)]، فلهم جميعًا ثُلُثُ التركة، يقتسمونها

سورة النساء)) (١/ ٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٤-٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٨-٩٩).
قال الواحديُّ: (قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ [النساء: ١٢] يعني: من الأمِّ، بإجماع المفسِّرين) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٤).

(٢) رواه عبد الرزاق في ((المصنف)) (١٩١٨٨)، وابن أبي حاتم في التفسير (٤٩٣٣) واللفظ له. صححه ابن كثير في ((تفسير القرآن))(٢/ ٢٠١)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير))(١/ ٤٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).
قال البغوي: (فيه إجماع أنَّ أولاد الأمِّ إذا كانوا اثنين فصاعدًا يشتركون في الثُّلث ذكرُهم وأُنثاهم)) ((تفسير البغوي)) (١/ ٥٨٢).
وقال ابن العربي: (اتَّفق العلماء على أنَّ التَّشريك يقتضي التَّسوية بين الذَّكر والأنثى) ((أحكام القرآن)) (١/ ٤٥٢).

ذُكورًا وإناثًا بينهم بالتَّساوي[١].

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾.

أي: هذا الذي فرَضَه الله تعالى لأخي الميِّتِ الموروث كلالةً وأخته، أو لإخوته وأخواته، إنَّما يستحقُّونه مِن بعدِ تنفيذِ وصيَّته المشروعةِ الثابتةِ عنه، وقضاءِ دُيونِه[٢].

﴿غَيۡرَ مُضَآرٍّ﴾.

أي: غير مقصودٍ بها الإضرارُ بالوَرَثة، بأيِّ وجهٍ من الوجوه، كأنْ يَحرِمَ بعضَ الورثة حقَّهم، أو يَنقُصه، أو يزيدَ عليه[٣].

﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: هذا الذي ذَكَره الله تعالى من أحكامٍ فيما يجب من ميراثِ مَن مات منكم، عهدٌ مؤكَّدٌ من الله تعالى إليكم، وجَب عليكم أن تَلتزِموا به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٤-٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٩-١٠٠).

قال الرازيُّ: (واعلمْ أنَّ الضرار في الوصية يقع على وجوه: أحدها: أن يُوصِي بأكثرَ من الثلث. وثانيها: أن يُقِرَّ بكلِّ ماله أو ببعضه لأجنبي. وثالثها: أن يُقرَّ على نفْسه بدَين لا حقيقة له؛ دفعًا للميراث عن الورثة. ورابعها: أن يقرَّ بأنَّ الدَّين الذي كان له على غيره قد استوفاه ووصل إليه. وخامسها: أن يبيع شيئًا بثمن بخس، أو يشتري شيئًا بثمن غال، كلُّ ذلك لغرضِ أنْ لا يصلَ المالُ إلى الورثةِ. وسادسُها: أن يوصي بالثُّلُث لا لوجهِ الله، لكن لغرضِ تنقيصِ حقوقِ الورثةِ، فهذا هو وجهُ الإضرارِ في الوصيةِ) ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٧-٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٠٠).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ تعالى ذو عِلمٍ بكلِّ شيء، ولا يَخفى عليه شيءٌ سبحانه، ومن ذلك: عِلمُه بمصالحِ خَلْقِه ومضارِّهم، وعِلمُه بمَن يستحقُّ أن يُعطى من الميراث، ومن يُحرَم، وعِلمُه بقدْر ما يستحقُّه كلُّ واحدٍ منهم، وهو سبحانه الحليمُ الذي لا يُعاجِل مَن عصاه بالعُقوبةِ[1].

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى سِهامَ المواريث، وقد كانوا في الجاهليَّةِ يَمنعون النِّساءَ والأطفالَ من الميراثِ، ذَكَر الوعدَ والوعيدَ ترغيبًا في الطَّاعةِ، وترهيبًا عن المعصيةِ؛ لئلَّا يُغترَّ بوصْف الحَليم، فقال- مُعظِّمًا للأمْر بأداة البُعدِ ﴿تِلْكَ﴾، ومشيرًا إلى جميعِ ما تقدَّم مِن أمْرِ المواريث وغيرها[2]-:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

أي: تِلك الفرائضُ والمقاديرُ التي جعَلها الله تعالى للوَرَثةِ، هي حدودُ اللهِ تعالى التي شرَعَها لعباده؛ فيجبُ الوقوفُ معها، وعدمُ تجاوُزِها[3].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٩-٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٠٨-١٠٩).

أي: ومَن يتَّبعْ أمْرَ اللهِ تعالى وأمْرَ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، ويجتَنِبْ نَهْيَهما، ومِن ذلك ما يَتعلَّق بأحكامِ المواريث، فإنَّ الله تعالى يُدخِلُه جنَّاتٍ تجري من تحت أشجارِها وغُروسِها أنهارٌ متعدِّدةٌ، وهم في هذا النعيمِ ماكثونَ على الدَّوامِ[١].

﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: إنَّ إدخالَ اللهِ تعالى لِمَن أطاعه وأطاعَ رسولَه جِنانَه التي وصَف شيئًا منها، لهُوَ ربحٌ كبير، وفلاحٌ منقطعُ النظيرِ[٢].

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾.

أي: إنَّ مَن يُخالفْ أمْرَ الله تعالى وأمر رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام، فيَترُكِ المأموراتِ، ويرتكِبِ المنهيَّاتِ، ويَتجاوزْ حدودَ ما شرَعه الله سبحانه، تغييرًا لما حكَم اللهُ به، ومضادةً للهِ في حُكمه، أو شكًّا فيما فرَض الله على عبادِه، ومِن ذلك ما يَتعلَّق بأحكامِ المواريثِ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُدخِلُه نارَ جهنَّمَ، ماكثًا فيها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٠٩-١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ١١٨-١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١١٣-١١٤).

والعصيانُ إن أُريد به الكفرُ فالخلودُ على بابِه، وإن أُريد به الكبائرُ، وتجاوزُ أوامرِ اللهِ تعالى، فيكون المرادُ بالخلودِ طُولَ الْمُدَّةِ. ينظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦٨).

قال السعديُّ: (يَدخُل في اسم المعصية الكُفر فما دونه من المعاصي؛ فلا يكون فيها شُبهة

﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

أي: وله عذابٌ مُذِلٌّ يُخزيه[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعًا﴾، يتبيَّنُ لنا قصورُ عِلم الإنسانِ؛ فأقربُ الناسِ إلى الإنسانِ آباؤه وأبناؤه، فإذا كان لا يَدري أيُّهم أقربُ نفعًا؛ فما بالُك بالبعيدِ؟! وهذا لا شكَّ يعود إلى قُصور عِلم الإنسان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فالرُّوح التي هي بين جَنبَيك لا تَعرِفُها؛ لأنَّك لم تُؤتَ من العِلم إلَّا القليلَ[٢].

٢- أنَّه إذا كان الحديثُ عن النِّساء والرِّجال؛ فإنَّ الحكمةَ أن يُقدَّم الحديثُ عن الرِّجالِ؛ لأنَّه سبحانه بدأ بميراثِ الأزواجِ قبل ميراثِ الزَّوْجات، وهذا هو الموافِقُ للفِطرة، خلافًا لِمَن حرف اللهُ فطرتَه، وغيَّرَ سليقتَه، فصار يُقَدِّم النِّساءَ على الرجال في الذِّكْر، قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن

للخوارج القائلين بكُفر أهل المعاصي؛ فإنَّ الله تعالى رتَّب دخول الجنة على طاعتِه وطاعةِ رسوله. ورتَّب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمَن أطاعه طاعةً تامَّةً، دخل الجنة بلا عذاب. ومَن عصى الله ورسوله معصيةً تامَّةً- يَدخُل فيها الشرك فما دونه- دخل النار وخُلِّد فيها، ومَن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسَب ما فيه من الطاعة والمعصية. وقد دلَّت النصوص المتواترة على أنَّ الموحِّدين الذين معهم طاعةُ التوحيدِ، غيرُ مخلَّدين في النَّار، فما معهم من التوحيد مانعٌ لهم من الخلودِ فيها)) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٨٨).

لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾[١].

٣- طاعةُ اللهِ ورسولِه قُطبُ السَّعادةِ التي عليه تَدورُ، ومُستَقَرُّ النَّجاةِ الذي عنه لا تَحورُ؛ يُبيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢].

٤- في ختمِ آياتِ المواريثِ بقولِه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا ...﴾ إشارةٌ إلى عِظَمِ أمرِ الميراثِ، ولزومِ الاحتياطِ والتحرِّي، وعدمِ الظلمِ فيه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- أنَّ الله أرحمُ بالإنسان من والدِيْه؛ لقوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾؛ فالذي يوصيكَ بالشيءِ هو أرحمُ به منك، وأشدُّ عنايةً به منك[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فيه اهتمامٌ بأحكامِ المواريثِ وما يَتعلَّق بها؛ لذا صدَّر تَشريعها بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ﴾؛ لِمَا في الوصيَّةِ من التأكيدِ والحِرص على اتِّباعها؛ لأنَّ الوصايةَ هي الأمرُ بما فيه نفْعُ المأمور؛ لذا عدَل من صيغةِ (يأمُرُكم) إلى ﴿يُوصِيكُمُ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٤) (٣٥/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٦).

٣- بدأ الله تعالى بذِكر ميراثِ الأولاد، وإنما فعل ذلك؛ لأنَّ تعلُّقَ الإنسانِ بولده أشدُّ التعلُّقات، وهم أقربُ النَّاسِ إليه، فقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾[١]، أو لأنَّ الأولاد بَضْعٌ من أبيهم أو أمِّهم؛ فلذلك قدَّم ذِكرَهم على الأبوينِ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ جعَلَ حظَّ الأنثيينِ هو المقدارَ الذي يقدَّر به حَظُّ الذَّكر، ولم يكُن قد تقدَّمَ تعيينُ حظٍّ للأنثيينِ حتى يُقدَّر به، فعُلِمَ أنَّ المرادَ تضعيفُ حظِّ الذَّكرِ من الأولادِ على حظِّ الأنثى منهم، وأوثِرَ هذا التعبيرُ لنُكتةٍ لطيفةٍ، وهي الإيماءُ إلى أنَّ حظَّ الأُنثى صارَ في اعتبارِ الشَّرْعِ أهمَّ من حظِّ الذَّكر؛ إذ كانت مهضومةَ الجانب عند أهل الجاهليَّة، فصار الإسلامُ يُنادي بحظِّها في أوَّل ما يَقرَع الأسماعَ[٣].

٥- في قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ دليلٌ على أنَّ المالَ كلَّه للذَّكرِ إذا لم يكُن معه أنثى؛ لأنَّه جعَل للذَّكر مثلَ ما للأنثيين، وقد جعَل للأنثى النِّصفَ إذا لم يكن معها ذكَرٌ بقوله: ﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُ﴾ فدلَّ على أنَّ للذَّكَرِ حالةَ الانفرادِ مِثْلَيْ ذلك، وَمِثْلَا النِّصفِ هو الكلُّ[٤].

٦- في قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أنَّ الإرثَ شاملٌ لجميع التركةِ من عَقارٍ، ومنقولٍ، وحيوانٍ، ومنافعَ، وحقوقٍ؛ فكلُّ ما ترك فهو داخلٌ في الإرث؛ ولهذا يجب التنبُّه لِمَن كان له وَرَثةٌ في غير البيت الذي هو فيه، فإنَّ من الناس مَن إذا مات ميِّتُهم، وورِثَه آخرونَ خارجَ البيت، يتمتَّع بما في البيتِ مِن طعامٍ وغيره، ويَسكُن أيضًا، وهذا لا يجوزُ إلَّا بعدَ إذن بقيَّة الورثة، وإلَّا فإنَّه يُخصَم مِن ميراثِه، وكذلك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٥).

تُضرَبُ أُجرةٌ على هؤلاء الذين في البيت مِن حينِ موتِ الرَّجُل[١].

٧- قال تعالى: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ أي: ممَّا ورِثه الأبوانِ، ولم يقلْ: (فلأُمِّه الثلثُ ممَّا ترَك) كما قال في السُّدس، فالمعنى أنَّه إذا لم يكنْ له ولدٌ، وكان لأبويه مِن مالِه ميراثٌ، فللأُمِّ ثلثُ ذلك الميراثِ الذي يختصُّ به الأبوان، ويبقَى الباقي للأبِ، ولهذا السرُّ- والله أعلمُ- حيث ذكَر اللهُ الفروضَ المقدَّرةَ لأهلِها، قال فيها: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾، أو ما يدلُّ على ذلك، كقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ ، ليبينَ أنَّ ذا الفرضِ حقُّه ذلك الجزءُ المفروضُ المقدَّر له مِن جميعِ المالِ بعدَ الوصايا والدُّيون، وحيث ذكَر ميراثَ العصباتِ، أو ما يقتسمُه الذُّكور والإناثُ على وجهِ التعصيبِ، كالأولادِ والإخوةِ، لم يقيِّدْه بشيءٍ مِن ذلك؛ ليبينَ أنَّ المالَ المقتسمَ بالتعصيبِ ليس هو المالَ كلَّه، بل تارةً يكونُ جميعَ المالِ، وتارةً يكونُ هو الفاضلَ عن الفروضِ المفروضةِ المقدَّرةِ، وهنا لمَّا ذكر ميراثَ الأبوين مِن ولدِهما الذي لا ولدَ له، ولم يكنِ اقتسامُهما للميراثِ بالفرضِ المحضِ، كما في ميراثِهما مع الولدِ، ولا كان بالتعصيبِ المحضِ الذي يعصبُ فيه الذكرُ والأُنثى، ويأخذُ مثلَيْ ما تأخذُه الأُنثى، بل كانت الأمُّ تأخذُ ما تأخذُه بالفرضِ، والأبُ يأخذُ ما يأخذُه بالتعصيبِ، قال: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ يعني أنَّ القدرَ الذي يستحقُّه الأبوانِ مِن ميراثِه تأخذُ الأمُّ ثلثَه فرضًا، والباقي يأخذُه الأبُ بالتعصيب[٢].

٨- وصْف الوصيَّة بأنَّها ﴿يُوصِي بِهَآ﴾ لتأكيدِ أمرِها، والتَّحقُّقِ من نسبتها إلى الميِّت؛ لأنَّ الحقوقَ يجب التثبُّت فيها[٣]؛ ولئلاَّ يُتوهَّمَ أنَّ المراد الوصيَّةُ التي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٨٥).
(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٣٤٣).

كانت مفروضةً قبل شَرْع الفرائض، وهي التي في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1] [البقرة: ١٨٠].

٩- من الفوائد اللُّغَوِيَّة: أنَّ (كان) في قوله: ﴿كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قد تُسْلَبُ دَلالتَها على الزَّمان؛ لأنَّها لو دلَّت على الزَّمانِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، لكان الربُّ عزَّ وجلَّ الآن ليس عليمًا ولا حكيمًا، لكنَّها أحيانًا تُسلَب دَلالتَها على الزَّمان، ويكون مدلولُها مجرَّدَ الحدَثِ، أو مجرَّدَ الوَصْفِ إذا كان صِفةً[2].

١٠- أُعْقِبَتْ فريضةُ الأزواج بذِكْرِ ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾؛ لئلَّا يَتوهَّمَ متوهِّمٌ أنَّهنَّ ممنوعاتٌ من الإيصاءِ ومِن التَّداينِ، كما كان الحال في زمان الجاهليَّة، وأمَّا ذِكْرُ تلك الجملةِ عَقِبَ ذِكر ميراثِ النِّساء من رجالهنَّ فجريًا على الأسلوبِ المتَّبَعِ في هذه الآيات، وهو أن يعقبَ كلَّ صِنفٍ من الفرائضِ بالتنبيه على أنَّه لا يُستَحَقُّ إلَّا بعد إخراجِ الوصيَّة، وقضاءِ الدَّيْن[3].

١١- أَوْردَ اللهُ تعالى أقسامَ الوَرَثَة في هذه الآياتِ على أَحسنِ التَّرتيباتِ؛ وذلك لأنَّ الوارثَ إمَّا أنْ يكونَ متَّصلًا بالميِّت بغيرِ واسطةٍ أو بواسطةٍ، فإنِ اتَّصلَ به بغيرِ واسطةٍ فسببُ الاتِّصال إمَّا أن يكونَ هو النَّسبَ أو الزوجيَّةَ، فحصَل هاهنا أقسامٌ ثلاثةٌ؛ أشرفُها وأعلاها الاتِّصال الحاصلُ ابتداءً من جِهة النَّسب، وذلك هو قرابةُ الولاد، ويَدخُل فيها الأولادُ والوالدان؛ فاللهُ تعالى قدَّم حُكْمَ هذا القسم. **وثانيها**: الاتِّصالُ الحاصلُ ابتداءً من جِهة الزوجيَّة، وهذا القسمُ متأخِّر في الشَّرفِ عن القِسم الأوَّل؛ لأنَّ الأوَّل ذاتيٌّ، وهذا الثَّاني عَرَضيٌّ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦٣).

والذاتيُّ أشرفُ من العَرَضيِّ. **وثالثها**: الاتِّصالُ الحاصلُ بواسطة الغير، وهو المسمَّى بالكلالة، وهذا القسمُ مُتأخِّرٌ عن القِسمينِ الأوَّلَينِ لوجوه؛ **أحدها**: أنَّ الأولادَ والوالدينِ والأزواجَ والزوجاتِ لا يَعْرِض لهم السُّقوطُ بالكليَّة، وأمَّا الكَلالةُ فقد يَعرِض لهم السُّقوطُ بالكليَّة. **وثانيها**: أنَّ القِسمَينِ الأوَّلينِ يُنسَبُ كلُّ واحدٍ منهما إلى الميِّت بغير واسطةٍ، والكلالةُ تُنسَب إلى الميِّت بواسطةٍ، والثَّابتُ ابتداءً أشرفُ مِن الثَّابتِ بواسطةٍ. **وثالثها**: أنَّ مخالطةَ الإنسانِ بالوالدين والأولاد والزَّوج والزَّوجة أكثرُ وأتمُّ من مخالطتِه بالكلالة، وكثرةُ المخالطةِ مَظِنَّةُ الأُلفة والشَّفقة، وذلك يُوجِبُ شدَّةَ الاهتمام بأحوالهم؛ فلهذه الأسبابِ الثلاثةِ وأشباهِها أخَّرَ الله تعالى ذِكْرَ مواريثِ الكلالةِ عن ذِكر القِسمَينِ الأوَّلين؛ فما أحسنَ هذا الترتيبَ! وما أشدَّ انطباقَهُ على قوانينِ المعقولاتِ[1]!

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، ناسَبَ الخَتْمُ بالعذابِ المهين؛ لأنَّ العاصيَ المتعدِّيَ للحدود بَرَزَ في صورةِ مَنِ اغترَّ وتجاسرَ على معصيةِ الله، وقد تقلُّ المبالاةُ بالشَّدائد ما لم يَنضمَّ إليها الهوانُ؛ ولهذا قالوا: (المنِيَّة ولا الدَّنِيَّة)[2].

بَلاغَةُ الآيات:

١- **قوله**: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ...﴾ الآية: فيه تفصيلٌ بعدَ الإجمالِ الذي في قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾، وتَخصيصُ الذَّكَرِ بالتَّنصيصِ على حَظِّه والابتداءِ به؛ لإظهارِ مزيَّتِه على الأُنثى؛ لأنَّ القصدَ إلى بيانِ فضْلِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥١) ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٢).

والتَّنبيهِ على أنَّ التَّضعيفَ كافٍ للتَّفضيلِ، فلا يُحْرَمْنَ بالكليَّةِ وقد اشتركَا في الجِهة، والمعنى: للذَّكَرِ منهم، فحُذِفَ للعِلم به[١].

- وإيثار اسمَيْ (الذَّكر) و(الأُنثى) على ما ذُكر أوَّلًا من (الرِّجال) و(النِّساء)؛ للتَّنصيصِ على استواءِ الكِبارِ والصِّغارِ من الفريقينِ في الاستحقاقِ، من غَيرِ دخْلٍ للبلوغِ والكِبَر في ذلك أصلًا، كما هو زَعْمُ أهلِ الجاهليَّة؛ حيث كانوا لا يُورِّثون الأطفالَ كالنِّساءِ[٢].

- وقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ دون أن يقولَ: (للأنثى نِصفُ الذَّكَر)؛ لأنَّ الحظَّ والنَّصيب فضلٌ وزيادة، والنِّصف نقص؛ فلهذا قال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، فهو أحسنُ تعبيرًا ممَّا لو قال: (للأُنثى نِصفُ ما للذَّكَر)[٣].

٢- **قوله**: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ **وقوله**: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾: أي: ممَّا ترَكَ الميِّتُ الموروثُ؛ ففيه إعادةُ الضَّمير إلى غيرِ مذكورٍ قَبْلَه، وهو الضَّميرُ المستكِنُّ في الفِعل (ترَكَ)، أي: ترك هو؛ لقوَّةِ الدَّلالةِ على ذلك؛ لأنَّ الآيةَ لَمَّا كانتْ في الميراثِ، عُلِم أنَّ التارِكَ هو الميِّتُ الموروثُ[٤].

٣- **قوله**: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ ﴿مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾: فيه تكرار للوَصيَّةِ والإيصاء[٥]، وهو يُفيد التَّأكيدَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٩)- ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٤)
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥٢).

- وتقديمُ الوصيَّة على الدَّين مع أنَّها متأخِّرَة في الحُكم؛ لأنَّه لَمَّا كانت الوصيَّةُ مُشْبِهَةً للميراث في كونها مأخوذةً من غير عِوَضٍ، كان إخراجها مما يشقُّ على الوَرَثة ويتعاظَمُهم، ولا تطيبُ أنفُسُهم بها، فكان أداؤها مَظِنَّةً للتفريطِ، بخلاف الدَّيْنِ فإنَّ نفوسَهم مطمئنَّةٌ إلى أدائه؛ فلذلك قُدِّمَت على الدَّيْن بعثًا على وجوبِها، والمسارعةِ إلى إخراجِها مع الدَّيْن؛ ولذلك جِيءَ بكلمة (أو) للتَّسويةِ بينهما في الوجوب. وقيل: قُدِّمتِ الوصيةُ أيضًا؛ إذ هي حظُّ مساكينَ وضِعافٍ، وأُخِّر الدَّينُ إذ هو حظُّ غريمٍ يطلُبُه بقوَّة، وهو صاحبُ حقٍّ له فيه، ثم أكَّد ذلك ورغَّبَ فيه بقوله: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾، وهي جملةٌ اعتراضيَّةٌ مؤكِّدة لوجوبِ تنفيذ الوصيَّة[١].

٤- في الآية: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞ...﴾ قدَّم ذِكْر ميراث سببِ الزوجيَّة على ذِكْر الكلالةِ وإنْ كان بالنسب؛ لتواشُجِ ما بين الزوجين واتصالهما، واستغناءِ كلٍّ منهما بعِشْرَةِ صاحبه دون عِشْرَةِ الكَلَالة[٢].

٥- قوله: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ...﴾ ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: فيه تَكرارٌ لاسم الجلالة[٣]، وإظهارُ الاسم الجليل في موضعِ الإضمار؛ لتربيةِ المهابة، وإدخالِ الرَّوعةِ، والمبالغةِ في التهديدِ، والتشديدِ في الوعيد[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٨٣-٤٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٠) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٤).

٦- قوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وقوله: ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾: فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ جمَع ﴿خَٰلِدِينَ﴾ في الطَّائعين، وأفرَد ﴿خَٰلِدًا﴾ في العاصين؛ قِيل: لأنَّ أهلَ الطاعةِ أهلُ الشَّفاعة، وإذا شفَع في غيرِه دَخَلَها؛ فلمَّا كانوا يَدْخُلون هم والمشفُوعُ لهم ناسَبَ ذلِك الجمْعُ، والعاصِي لا يَدخُل النارَ به غيرُه، فبَقِي وحيدًا؛ فناسَبَ ذلِك الإِفرادُ[(١)].

وقيل: في هذِه الآية نوعٌ طريفٌ من أنواع البَلاغة يُطلَق عليه اسم (جمْع المختلفة والمؤتَلِفَة)[(٢)]؛ فقد جمَعَ ضميرَ الخالدينَ في الجنة؛ لأنَّ كلَّ مَن دخل الجنَّة كان خالدًا فيها أبدًا، أمَّا أهلُ النار فعبَّر بالمفرَد (خالدًا)؛ إذ بينهم الخالِدون وغيرُ الخالِدين من عُصاةِ المؤمنين؛ فساغَ الجمعُ هناك، ولم يَسُغْ هنا[(٣)].

وقيل: لَعلَّ إيثارَ الإفراد في ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾- نظرًا إلى ظاهِر اللفظ- واختيارَ الجمْع في ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾- نظرًا إلى المعنى-؛ للإيذان بأنَّ الخلودَ في دار الثَّوابِ بصفة الاجتماعِ أجلَبُ للأنْسِ، ولأنَّ منادمةَ الإخوانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦١٦).

(٢) جمْع المختلفة والمؤتلفة: هو عبارةٌ عن إرادة المتكلِّم التسويةَ بين ممدوحين، فيأتي بمعانٍ مؤتلفة في مدحهما، ثم يُريد بعد ذلك ترجيحَ أحدهما على الآخَر بما لا ينقُص من الآخر، فيأتي لأجْل ذلك الترجيح بمعانٍ تخالف معاني التسويةِ بحسَب تفاوت درَجاتهم، كقوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨- ٧٩]، فسوَّى بينهما في الحُكم والعلم، وزاد فَضْل سليمان عليه السَّلام بالفَهْم.
ينظر: ((تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر)) لابن أبي الإصبع (١/ ٦٦)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (ص: ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٤/ ٤٦٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٧٨).

مِن أعلَى نعيمِ الجنانِ، كما أنَّ الخلودَ في دار العذابِ بصفةِ الانفرادِ أشدُّ في استجلابِ الوَحْشةِ، وهذا الانفرادُ نوعٌ مِن أنواعِ العذابِ والهَوان[١].

٧- **قوله:** ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ فيه تفصيلٌ بعد إجمال؛ للتَّأكيد[٢].

٨- **قوله:** ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾: تنكيرُ لفظ ﴿وَصِيَّةً﴾ وتنوينُه؛ للتفخيم، و﴿مِّنَ﴾ متعلِّقة بمحذوف وقَع صفةً له مؤكِّدَةً لفخامته الذاتيَّة بالفخامة الإضافيَّة، أي: يوصيكم بذلك وصيَّةً كائنةً من الله[٣].

٩- **قوله:** ﴿وَلَهُۥ﴾، أي: للرجل، ففيه تأكيدٌ للإيذان المذكور؛ حيث لم يَتعرَّضْ للأنثى بعدَ جريانِ ذِكْرها أيضًا، وقيل: الضَّميرُ لكلٍّ منهما[٤].

١٠- **قوله:** ﴿وَذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ما مرَّ من دخولِ الجنَّات الموصوفة بما ذُكر على وجهِ الخُلود، وما فيه من معنى البُعد؛ للإيذان بكمالِ علوِّ درجتِهِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١١٨-١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٤).

الآيات (١٥ - ١٨)

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾: أي: الزِّنا، وأصل الفُحْشِ: كلُّ شيءٍ مستقبَح ومستشنَع؛ من قولٍ، أو فِعْل[١].

﴿سَبِيلٗا﴾: فعلًا وطريقًا، والسَّبيل: الطَّريقُ الذي فيه سُهولة، وأصل (سبل): يدُلُّ على إِرْسالِ شيءٍ من عُلُوٍّ إلى سُفْلٍ، وعلى امتدادِ شيءٍ[٢].

﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾: الأذى هنا السَّبُّ والشَّتم، وقد ورَد في القرآن على أحدَ عَشَرَ وجْهًا، وأصلُ الأذى: كل ما يُكرَه، ويُغْتَمُّ به[٣].

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٠).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٧٢، ٧٣).

﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ﴾: أي: لا تُعَيِّرُوهما بالفاحشةِ، والإعراضُ أن تُوَلِّيَ الشيءَ عُرْضَك؛ أي: جانبَك، ولا تُقْبِلَ عليه[1].

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: الجهالةُ: هي فِعلُ الشيءِ بخلافِ ما حقُّه أن يُفعَلَ، وأصل جَهِلَ: خِلافُ العِلم، والخِفَّةُ، وخلافُ الطُّمأنينةِ[2].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾، ومثله قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَا﴾:

﴿وَٱلَّٰتِي﴾: اسمٌ موصول مبنيٌّ في محلِّ رفْعٍ بالابتداء، وخبره جملةُ ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾، وجاز دخولُ الفاءِ زائدةً في الخبَر؛ لأنَّ المبتدأ أشْبَهَ الشَّرطَ في كونه موصولًا عامًّا، صِلتُه فعلٌ مستقبَلٌ، والخبر مستحقٌّ بالصِّلة. وقيل: الخبر محذوف، والتَّقدير: (فيما يُتلى عليكم حُكمُ اللَّاتي)، فـ (فيما يُتلَى) هو الخبر، و(حُكمُ) هو المبتدأ، و(اللاتي): مضافٌ إليه، فحُذف الخبرُ والمضافُ إلى المبتدأ؛ للدَّلالةِ عليهما، وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه، ويكون قوله ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ دالًّا على ذلك الحُكم المحذوف؛ لأنَّه بيانٌ له. ومثله إعراب ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا ...﴾، إلَّا أنَّ ﴿ٱللَّذَانِ﴾: معرَبٌ وليس مبنيًّا؛ لأنَّه مُلحَقٌ بالمثنَّى، فهو مرفوعٌ وعلامةُ رفْعِه الألفُ. وقيل: يجوزُ أن يكون موقعهما الإعرابيُّ النَّصبَ بفِعل مقدَّر؛ لدلالةِ السِّياقِ عليه لا على جِهة الاشتغال، والتقدير: اقصِدوا أو تَعمَّدوا اللاتي يأتِينَ، وقيل: يجوزُ النصبُ على الاشتغالِ كذلك، وفيه بحثٌ

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩١).

(٢) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٩).

وتوجيهٌ طويل؛ يُراجَعُ في مَظانِّه[١].

المَعنَى الإجمالي:

يَأمرُ اللهُ تعالى عِبادَه- وذلك قبل تشريعِ حدِّ الزِّنا- بحَبْسِ مَن يَقعنَ في الزِّنا من نِسائِهم في البيوت، وألَّا يَسمحوا لهنَّ بالخروجِ حتى يأتيَهنَّ الموتُ، أو يجعلَ الله لهنَّ مخرجًا، سواءٌ كُنَّ متزوجاتٍ أو غيرَ متزوِّجاتٍ، بعد أن يَشهدَ عليهنَّ أربعةٌ من الرِّجال المسلمينَ العُدول بوقوعهنَّ في الزِّنا.

كما أمَرَ اللهُ المؤمنين بإيذاءِ مَن زَنَى مَن الرِّجال والنِّساء إيذاءً قوليًّا بالتعييرِ والتوبيخِ وغيرِ ذلك مِن أنواع الإيذاء، فإنْ تابَا من هذا الجُرْمِ العظيمِ، وأصلحَا فَلْيَكُفَّ المؤمنون عن أذيَّتِهما، إنَّ الله كان توَّابًا رحيمًا، وهذه الأحكامُ السَّابقةُ جميعُها منسوخةٌ.

ثم بيَّنَ تعالى أنَّه يَقبَلُ التَّوبةَ ممَّن يقَعُ منهم الذنبُ عن سفَهٍ منهم، ثم يتوبونَ قبل معايَنَتِهم للموت، فهؤلاء يَقبلُ اللهُ توبَتَهم، وكان الله عليمًا حكيمًا. وأمَّا الذين يَقعون في المحرَّمات، ثم إذا عاينوا الموتَ بادروا حينَها بالتَّوبَةِ، فإنَّ اللهَ لا يَقبَلُ توبتَهم تلك، تمامًا كما أنَّه سبحانه لا يَقبَلُ توبةَ مَن مات وهو كافرٌ؛ فكلاهما ميؤوسٌ من قَبولِ توبَتِه، وهؤلاء قد أعدَّ الله لهم عذابًا مؤلِمًا.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا

(١) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٨- ٣٣٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦١٧- ٦١٩).

﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

النَّاسِخُ والمَنسُوخ:

هاتانِ الآيتانِ الكريمتانِ، منسوختانِ بالاتِّفاق(١)، والنَّاسخُ لهما قولُه تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((خُذوا عنِّي، خُذوا عنِّي؛ قد جَعَل اللهُ لهنَّ سبيلًا؛ البِكْرُ بالبِكْر: جَلْدُ مئةٍ، ونَفْيُ سَنَةٍ، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ: جَلْدُ مئةٍ، والرَّجْمُ))(٢).

وعليه؛ يكونُ حُكمُ الجَلْدِ لغيرِ المحصَنين ثابتًا بالقرآنِ، وحُكمُ الرجمِ

---

(١) قال ابنُ الجوزي: (لا يَختلف العلماء في نَسْخ هذين الحُكمين عن الزانيين، أعني: الحبس والأذى، وإنما اختلفوا بماذا نُسِخَا، فقال قومٌ: نسخ بقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]... وقال قومٌ: نُسخ هذان الحكمان بحديث عُبادة بن الصَّامت عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنه قال: «خُذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا: الثيِّب بالثيب جَلْدُ مئةٍ، ورجْم بالحجارةِ، والبِكْر بالبِكر جَلْد مئة، ونَفْيُ سَنَة») ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٣٥٤، ٣٥٦).

وقال ابنُ كثير: (كان الحُكم في ابتداء الإسلام أنَّ المرأة إذا زنت، فثبَت زناها بالبيِّنة العادلة، حُبِسَت في بيتٍ، فلا تُمكَّن من الخروج منه إلى أن تموت؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ يعني: الزنا ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك. قال ابن عبَّاس: كان الحُكم كذلك، حتى أنزل الله سورة النور، فنسخها بالجَلْد، أو الرجم. وكذا رُوي عن عِكرمة، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وعطاء الخُراساني، وأبي صالح، وقَتادة، وزيد بن أسلم، والضَّحَّاك: أنَّها منسوخة، وهو أمرٌ متَّفق عليه) ((تفسير القرآن العظيم)) (٢/ ٢٣٣).

وقال ابنُ تيميَّة: (... مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، وقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((قدْ جعَلَ الله لهنَّ سبيلًا)) فبعض الناس يُسمِّي ذلك نسخًا، وبعضُهم لا يُسمِّيه نسخًا، والخلافُ لفظي) ((الصارم المسلول)) (ص: ٢٣٩).

(٢) رواه مسلم (١٦٩٠).

للمُحصَنين ثابتًا بالسُّنَّة، وكان في آيةٍ مِن القرآنِ، ثم نُسختْ تلاوتُها، وبقِي حكمُها.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه في هذه السُّورةِ الإحسانَ إلى النِّساء، وإيصالَ صَدُقَاتِهِنَّ إليهنَّ، وميراثهنَّ مع الرِّجال، ذكَر التَّغليظَ عليهنَّ فيما يأتينَ به من الفاحشة؛ لئلَّا يَتوهمْنَ أنَّه يَسوغُ لهنَّ تركُ التعفُّفِ[1]، فقال:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾.

أي: إذا وقَع نساؤكم في الزِّنا[2]- متزوِّجاتٍ كنَّ أو غيرَ متزوِّجات- فاطلبوا لإثبات وقوعِهنَّ في الزِّنا أربعةَ رجالٍ من المسلمين العُدُولِ[3].

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾.

أي: فإنْ شهِدَ أربعةٌ من المسلمين العدولِ على وقوعِهنَّ في الزِّنا، فاحبِسُوهنَّ في البيوتِ؛ عقابًا لهنَّ، لا يُمَكَّنَّ من الخروجِ منها إلى أن يَـمُتْنَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٥٠٣).

(٢) قال السمعاني: (أَجمعُوا على أَنَّ المرَاد به [أي بالفاحشة] الزِّنَا) ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٣-١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٤-١٢٥).

قال ابنُ عثيمين: (وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾ يتوفَّاهن: أي: يَقبضهن؛ يُقال: توفيتُ حقِّي من فلان، أي: قبضتُه، وقوله: ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: مَلَك الموت، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ

﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾.

أي: أو يُصَيِّرَ اللهُ تعالى لهنَّ طريقًا ومَخْرجًا للخلاصِ من هذا الإمساك[١]؛ بتشريعِ حُكمٍ لهنَّ، وقد كان؛ فقد جعَل الله لهنَّ سبيلًا، فعن عُبادَةَ بنِ الصَّامتِ رضِي اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((خُذُوا عنِّي، خُذُوا عنِّي؛ قد جَعَل اللهُ لهنَّ سبيلًا؛ البِكْر بالبِكْرِ: جَلْدُ مِئةٍ، ونَفْيُ سَنَةٍ، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ: جَلْدُ مئةٍ، والرَّجْمُ))[٢].

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَا﴾.

أي: إنَّ الرجُلَ والمرأة إذا زَنَيا، فآذوهما بالتَّوبيخ، والتَّعييرِ، وغيرِ ذلك من أنواعِ الإيذاءِ[٣].

﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآ﴾.

ٱلۡمَوۡتِ﴾ [السجدة: ١١]، ولكن قد يُعبَّر عن ذلك بالموت توسعًا)) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١).

قال ابنُ جرير -بعدَ أنْ ذكَر الخِلاف في تفسير قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا﴾- قال: (وأَوْلى هذه الأقوال بالصواب في تأويل قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾: قولُ مَن قال: عُني به البِكرانِ غيرُ المحصنَينِ إذا زَنيَا، وكان أحدهما رجلًا والآخَر امرأة). وينظر: ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٢٥٦).

قال ابن الجوزي: (لا يختلف العلماء في نسْخ هذيْن الحكمين عن الزانيين، أعني: الحبس والأذى)) ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٣٥٤).

أي: فإنْ رجعَا عن الوقوعِ في الزِّنا، ونَدِمَا عليه، وعزمَا على ألَّا يَعودَا إلى اقترافِ ذلك، وأصلحَا دِينَهُما بالعملِ بما يُرضِي الله تعالى، فكُفُّوا عن أذيَّتِهما[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يُوفِّقُ عبادَه للتوبة، ويَقبَلُها منهم، وهو ذو الرَّحمةِ العظيمةِ بعِبادِه، ومِن رحمتِه أنْ هيَّأَهُم للتَّوبة، وقَبِلَها منهم[٢].

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾.

أي: إنَّما يَقبلُ الله تعالى التَّوبة مِمَّن عَمِل عملًا سيِّئًا، صدر عن سَفَهٍ منه، وعملُه السُّوءَ هو الجهالةُ التي جهِلها، فكلُّ عاصٍ لله عزَّ وجلَّ، فهو جاهلٌ، وإنْ كان عالِمًا بالتَّحريمِ[٣].

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يَقبَلُ توبةَ العبد إذا تاب حالَ حياتِه، قبل مُعايَنَةِ الموتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٠٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣١-١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٠٦-٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٧).

قال عبدالرزاق: (أنا معمر، عن قتادة، في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ [النساء: ١٧] قال: اجتمع أصحاب الرَّسول فرأوا أنَّ كلَّ شيءٍ عُصِيَ به اللهُ تعالى فهو جهالة، عمدًا كان، أو غير ذلك) ((تفسير عبد الرزاق)) (١/ ٤٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١-١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٧).

عن ابنِ عُمَرَ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ[١]))[٢].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: فإنَّ هؤلاء الذين يعملون السُّوءَ بجهالةٍ، ثمَّ يتوبونَ من قريبٍ، يَرزُقُهم اللهُ تعالى- دون مَن لم يَتُبْ- إنابةً إلى طاعتِه، ويَتقبَّلُ منهم أَوْبَتَهُم إليه[٣].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى ذو عِلمٍ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك: عِلمُه بمَن تاب إليه مِن عبادِه، وهو الحكيمُ الذي من حِكمتِه توبتُه على مَن تابَ مِن عِبادِه[٤].

﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨﴾

﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾.

أي: إنَّ مَن يرتكبون المحرَّمات لا يقبلُ الله عزَّ وجلَّ توبتهم، إذا تابوا حين يأتيهم الموتُ، ساعة الاحتضار، وبلوغِ الرُّوحِ الحُلْقومَ[٥].

---

(١) ما لم يُغَرْغِرْ: أي: ما لم تبلُغْ رُوحُه حُلقومَه، فيكون بمنزلة الشَّيءِ الذي يَتغَرْغَر به المريضُ. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٦٠).

(٢) رواه الترمذيُّ (٣٥٣٧)، وابن ماجة (٤٢٥٣)، وأحمد (٦١٦٠).
قال الترمذيُّ: حسن غريب. وقال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٤١٢): محتمَل أن يُقال فيه: صحيح. وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٩/ ١٨)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١٥-٥١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٨-١٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٤١-١٤٢).

عن ابن عُمَرَ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ))[١].

﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾.

أي: ولا يَقبَلُ اللهُ تعالى أيضًا توبةَ مَن ماتوا على الكفر[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ الكفَّارَ الذين ماتوا على كُفرِهم أعدَّ الله تعالى لهم عذابًا مُوجِعًا شديدًا[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ حبْسَ المرأةِ في بيتِها من أسبابِ دَرْءِ الفِتنة؛ لقوله: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾؛ لأنَّ هذا نوعٌ من العقوبة من وَجْهٍ، وكفٌّ لأسباب الفِتنة من وجهٍ آخرَ[٤]، قال الله

يُشترط لصِحَّة التوبة أن تكون في الزمن الذي تُقبل فيه التوبة، وذلك قبل حضور الموت، وهو شَرْط من خمسة شروط للتوبة، هي:
- الشَّرْط الأوَّل: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، بأنْ لا يكون الحامل له على التوبة إلَّا محبة الله والقُرب منه، والخوف من عذابه.
- الشَّرط الثَّاني: النَّدم على ما فعل من الذنب.
- الشَّرط الثَّالث: الإقلاع عن الذنب.
- الشَّرط الرَّابع: أن يعزمَ على أنْ لا يعود في المستقبل إلى ما تاب منه.
- الشَّرط الخامس: أن تكون التوبةُ في وقت تُقبَل من التائب، فإنْ كانت في وقت لا تقبل منه - كما لو حضَر الأجَل، أو طلعت الشمس من مغربها؛ فإنَّ التوبة لا تُقبل. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٤٣).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٧).

تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

٢- الإشارة إلى أنَّ البيت خيرٌ للمرأة؛ لقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ﴾، وكما قال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم: ((بيوتُهنَّ خيرٌ لهنَّ)) (١).

٣- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾، أنَّ كلَّ عاملِ سُوءٍ فإنَّما يعمَلُه بجهالةٍ وسَفَه، والسَّفَهُ ضدُّ الرُّشدِ، فمن عَمِلَ سيِّئًا فقدْ فُقِدَ منه الرُّشد(٢).

٤- أَصْلُ ما يُوقِعُ النَّاسَ في السَّيِّئاتِ الجَهلُ، وعَدَمُ العِلمِ بكَوْنِها تضرُّهم ضررًا راجحًا، أو ظنُّ أنَّها تَنفعُهم نَفعًا راجحًا؛ فإنَّ مَن عَمِل بخِلافِ الحقِّ فهو جاهلٌ وإنْ علِمَ أنَّه مخالفٌ للحقِّ؛ كما قال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]؛ فالعِلمُ الحقيقيُّ الرَّاسخُ في القلبِ يَمتنعُ أنْ يَصدُرَ معه ما يُخالفُه من قولٍ أو فِعلٍ؛ فمتَى صدَرَ خلافُه فلا بدَّ مِن غَفْلةِ القلبِ عنه، أو ضَعْفِه في القَلبِ بمقاومةِ ما يُعارِضُه، وتلك أحوالٌ تُناقِضُ حقيقةَ العِلمِ؛ فيصير جهلًا بهذا الاعتبارِ(٣).

٥- وجوبُ المبادرة بالتَّوبة؛ لأنَّ الله علَّق قَبُولَها على أمَدٍ لا يُعلَم، فإذا كان كذلك وجَبَ المبادرةُ بها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٧).
والحديث رواه أبو داود (٥٦٧)، وأحمد (٥٤٦٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. صححه النووي في ((المجموع)) (٤/ ١٩٧)، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (٩١)، وذكر الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٣/ ١٦٠) أنه روي نحوه بإسناد حسن وله شاهد، وصححه أحمد شاكر في تحقيق ((المحلى)) (٤/ ١٩٨)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٩).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٩٠-٢٩١)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٢٥٧).

يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ الرجل أقوى في الشَّهادة من المرأةِ وأثبتُ؛ وذلك لأنَّ الله تعالى لم يعتبِرْ في الزِّنا إلَّا شهادةَ الرِّجالِ[٢].

٢- أنَّ الحدَّ يُدْرَأُ بالشُّبْهَة؛ وذلك لأنَّ اشتراطَ أربعةِ رجالٍ من أجْلِ إثباتِ الشهادة، وشهادةُ النِّساءِ الأربعِ فيها شُبهةٌ؛ لأنَّهنَّ لم يَضْبطْنَ، كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾[٣] [البقرة: ٢٨٢].

٣- سَمَّى اللهُ تعالى الزِّنا فاحشةً في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ دون الكُفر وقتْلِ النَّفْسِ، مع أنَّهما أكثرُ قبحًا من الزنا؛ قيل: لأنَّ القُوى المدبِّرة لبَدَن الإنسان ثلاثة: القوَّة الناطقة، والقوَّة الغضبيَّة، والقوَّة الشهوانيَّة؛ ففسادُ القوَّة الناطقة هو الكفرُ والبِدعة وما يشبههما، وفسادُ القوَّة الغضبيَّة هو القتلُ والغضَبُ وما يُشبههما، وفساد القوَّة الشهوانيَّة هو الزِّنا واللواط والسحاقُ وما أشبهها، وأخسُّ هذه القوى الثَّلاثة: القوَّة الشَّهوانيَّة؛ فلا جَرَمَ كان فسادها أخسَّ أنواعِ الفساد، فلهذا السَّبب خُصَّ هذا العملُ بالفاحشة، والله أعلمُ بمراده[٤].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٢٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٢٨).

ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ قد يُستدلُّ به على أنَّ المُذْنِبَ إذا لم يُعرَفْ فيه حُكمٌ للشَّرْعِ، فإنَّه يُمسَكُ ويُحبسُ، حتى يُعرَفَ فيه الحُكمُ الشرعيُّ، فيُنفَّذَ فيه[١].

٥- إثبات الجَعْل لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، والجَعْل نوعان: جعْل شرعيٌّ، وجعل كونيٌّ قدَرِيٌّ، ومن أمثلة الجعل الشرعيِّ: قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]. وأمثلة الجعل الكونيِّ كثيرة في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۞ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ٩ - ١١][٢].

٦- في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ...﴾ أنَّ لله تعالى أن يوجِبَ على نفسه ما شاء، وليس للعباد أن يوجبوا عليه شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وله أن يُحَرِّم على نفسه ما شاء، قال الله تعالى في الحديث القُدُسيِّ: ((يا عبادي، إني حرَّمتُ الظُّلْمَ على نفسي))[٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، فهذا إلزامٌ وفَرْضٌ، ومنه هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٤].

٧- قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هنا قال: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ﴾، ولم يَقُلْ: على الله؛ لأنَّ هذه التوبة منتفيَةٌ شرعًا، فهي ليست حقيقيَّة[٥].

---

(١) ((المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٥/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٨).
(٣) رواه مسلم (٢٥٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٤١).

بَلاغَةُ الآيات:

١- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾: الجملة تعليلٌ للأمر بالإعراضِ عنهما، وفيها مبالغةٌ في قَبولِ التَّوبة[١]؛ حيث عبَّر بصِيَغ المبالغة فعَّال ﴿تَوَّابًا﴾، وفعيل ﴿رَّحِيمًا﴾، مع ما فيها مِن التأكيدِ بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة.

٢- **قوله تعالى**: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

- قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: إشارة إلى المذكورينَ من حيثُ اتصافُهم بما ذُكِرَ، وما فيه من معنى البُعد باعتبارِ كونهم بانقضاءِ ذِكرهم في حُكم البعيدِ[٢].

- قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾: فيه تكرير الإسناد ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾؛ لتقويةِ الحُكم، وهذا وعدٌ بقبول توبتهم إِثْرَ بيان أنَّ التوبة لهم، والفاءُ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ للدَّلالةِ على سببيَّتها للقَبول[٣].

- قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: الجملة اعتراضيَّة، مقرِّرة لمضمون ما قبلها، وإظهار الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في موضِع الإضمار؛ للإشعارِ بعلَّة الحُكم؛ فإنَّ الألوهيَّة منشأٌ لاتِّصافِه تعالى بصفاتِ الكمال، مع ما في ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ من المبالغة في الاتِّصاف بالعِلم والحكمة[٤].

٣- **قوله**: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ﴾: نفيُ التوبة؛ للمبالغةِ في عدم الاعتدادِ بها في تلك الحالة، وكأنَّه قال: وتوبةُ هؤلاء وعدمُ توبة هؤلاء سواءٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٥).

- وأيضًا في قوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ ...﴾: تصريحٌ بما فُهِمَ من قَصْرِ القَبول على توبة مَن تاب من قريب، وزِيادةُ تعيينٍ له ببيان أنَّ توبة مَنْ عداهم بمنزلة العَدَم، وجمع ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ باعتبار تكرُّرِ وقوعها في الزَّمان المديد؛ لأنَّ المرادَ جميعُ أنواعها، وما مرَّ من السوء نوعٌ منها[١].

٤- **قوله**: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾: ذكر (الآن) لمزيد تعيين الوقت، وإيثار (قال) على (تاب)؛ لإسقاط ذلك عن درجة الاعتبارِ، والتحاشي عن تسميته توبةً[٢].

٥- **قوله**: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: عطف على قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ...﴾، وهم الذين يُسوِّفون، وذَكَرَ هؤلاء الكفَّارَ مع أنَّه لا توبةَ لهم رأسًا؛ مبالغةً في بيانِ عدمِ قُبول توبةِ المُسوِّفين، وإيذانًا بأنَّ وجودَها كعدمها، بل في ذِكرِ حرْف النَّفي (لا) في المعطوف ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ ...﴾ إشعارٌ خفيٌّ بكَوْنِ حال المسوِّفين في عدم استتباع الجدوى أقوى مِن حال الذين يموتون على الكُفر[٣].

٦- **قوله**: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: تأكيدٌ لعدمِ قَبول توبتِهم، وبيانُ أنَّ العذاب أعدَّه لهم مَن لا يُعجزه عذابُهم متى شاء[٤].

- قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الفريقين، وما فيه من معنى البُعد؛ للإيذانِ بترامي حالِهم في الفظاعة، وبُعْدِ منزلتهم في السُّوء[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٧).

- قوله: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: تكريرُ الإسنادِ لتقويةِ الحُكمِ، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ الصَّريحِ؛ لإظهارِ الاعتناءِ بكونِ العذابِ مُعَدًّا لهم، وتنكيرُ ﴿عَذَابًا﴾ ووصْفُه بـ﴿أَلِيمًا﴾؛ للتفخيمِ الذاتيِّ والوصفيِّ[1].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٩ - ٢٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾: أي: ولا تَمنعوهنَّ من التَّزوُّج، أو لا تَحبِسوهنَّ وتقهروهنَّ، وأصل (عضل): المنْعُ والشِّدَّة، والالتواء في الأمْر؛ من عضَلتِ المرأةُ إذا علَق ولدُها في بطنِها، وعَسُر خروجُه[1].

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾: صاحِبوهنَّ وخالِطوهنَّ، وأصل (عشر): يدلُّ على مُداخلةٍ ومخالطةٍ[2].

﴿بُهۡتَٰنٗا﴾: أي: ظلمًا، والبُهتان أيضًا الكذبُ، وكلُّ فِعل مستبشَع يُتعاطَى

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤٥- ٣٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧).

باليَد والرِّجْل، مِنْ تناوُلِ ما لا يجوز، والمشيُ إلى ما يقبُح[١].

﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: يعني الجِماع؛ يُقال: أفضى إلى امرأتِه: انتهى إليها، ولم يكنْ بينهما حاجزٌ، والإفضاءُ الخَلوة، وأصله يدلُّ على انفساحٍ في شيءٍ واتِّساع[٢].

﴿وَمَقْتًا﴾: بُغضًا، والْمَقْتُ: البُغْض الشَّديدُ لِمَن تراه تعاطَى القبيحَ، وأصل (مقت): شناءةٌ وقُبحٌ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾: فيه وجهان: أحدُهما: أن (لا) نافية، والفِعل منصوبٌ عطفًا على ﴿تَرِثُوا﴾؛ أي: لا يَحِلُّ لكم أنْ تَرِثوا النِّساءَ، ولا أنْ تَعْضُلوهُنَّ. والثاني: أنَّ (لا) نَّاهِيَة، والفِعل مَجزومٌ بها؛ فهو مستأنَفٌ، أو من قَبيلِ عَطْفِ الإنشاءِ على الخَبرِ، حيث عُطِفت جملةُ النَّهْيِ على الجملةِ الخبريَّةِ[٤].

المَعنَى الإجمالي:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى المؤمنين مُبَيِّنًا أنَّه محرَّمٌ عليهم أنْ يأخذوا نِساءَ موتاهم

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٢٨-٦٣٠).

بطريقِ الإرثِ، والحالُ أنهنَّ -بلا ريبٍ- مُكرَهاتٌ على ذلك، كما ينهاهم عن قَهْرِ النِّساءِ، والتضييقِ عليهنَّ من أجل أن يفتدينَ أنفُسَهنَّ منهم بمقابلٍ؛ فيفارقوهنَّ، إلَّا إذا وقعْنَ في الزنا أو النُّشوز، فيحلُّ حينئذٍ معاملَتُهنَّ تلك المعاملةَ حتى يفتدينَ أنفُسَهنَّ، كما أمر الله تعالى عباده بحُسْنِ صحبة النِّساء بالمعروف، وألَّا يتعجَّلوا في مفارقتِهنَّ إنْ كَرِهُوهنَّ؛ فعسى اللهُ أنْ يَجعلَ في إمساكهنَّ مع ذلك خيرًا كثيرًا في الدُّنيا والآخِرة.

وإذا أراد الأزواجُ فِراقَ أزواجهنَّ، والتزوُّجَ بغيرهنَّ، فلا يحلُّ للزوجِ أن يأخُذَ مِن مهرِ زوجتِه التي يُريد طلاقَها شيئًا، ولو أمْهَرَها مهرًا كثيرًا؛ فإنَّ أَخْذَهُ هنا بهتانٌ وظُلْم وإثمٌ ظاهر، ولا يوجد ما يُبرِّر أخْذَ شيءٍ من ذلك، وقد حصَل بينهم علاقةُ استمتاعٍ وجِماع، وأَخَذَ الزوجاتُ منهم عهدًا شديدًا مؤكَّدًا، وهو عقدُ النِّكاحِ.

ثم نَهى اللهُ عِبادَه أن يتزوَّجوا زوجاتِ آبائهم مِن بَعْدِهم، إلَّا ما قدْ وقَعَ في أيَّامِ جاهليَّتِهم؛ فإنَّه معفوٌّ عنه، وذلك أنَّ هذا الفعلَ في غايةِ القُبْح، وهو أمرٌ مبغوضٌ من الله ومن النَّاس، وساء هذا الأمرُ طريقًا لِمَن سَلَكَه!

تَفسيرُ الآيات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩ ﴾.

سببُ النُّزولِ:

عن ابن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما قال: ((﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ ﴾ قال: كانوا

إذا مات الرَّجُلُ كان أولياؤه أحقَّ بامرأته، إن شاء بعضهم تزوَّجها، وإن شاؤوا زوَّجوها، وإنْ شاؤوا لم يُزَوِّجوها، فهم أحقُّ بها مِن أهلِها، فنزلتْ هذه الآيةُ في ذلك))[١].

وعن أبي أُمامةَ بنِ سهلِ بن حُنيفٍ، قال: ((لَمَّا تُوُفِّي أبو قَيسِ بنُ الأسلتِ، أراد ابنُه أنْ يتزوَّج امرأتَه، وكان لهم ذلك في الجاهليَّة، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾))[٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾.

أي: يحرُمُ عليكم- أيُّها المؤمنون- أنْ تَستحوِذوا على زَوجاتِ مَن ماتَ مِن آبائكم وأقاربكم، وكأنَّهنَّ مِن جملةِ تركتِهم، وذلك كأنْ تتزوجوهنَّ، أو تُزوِّجوهنَّ لغيركم، أو تمنعوهنَّ من الزَّواج، والحال أنهنَّ كارهاتٌ لذلك، مُكرَهاتٌ عليه[٣].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾.

أي: يحرُم عليكم- أيُّها الأزواج- أن تُضيِّقوا على أزواجكم في العِشْرة، وتقهروهنَّ؛ لتُلجِئوهنَّ إلى افتداء أنفسهنَّ منكم؛ بترك مهورهنَّ أو بعضٍ منها، أو بتنازلهنَّ عن أيِّ حقٍّ آخرَ من حقوقهنَّ؛ لتفارقوهنَّ[٤].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٧٩).

(٢) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٦/ ٣٢١) (١١٠٩٥)، والطبري في ((تفسيره)) (٨/ ١٠٥)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٠٣٠).
حسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٢١-٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥١-١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٠-٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٢).

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾.

أي: يحلُّ لكم- أيُّها الأزواج- عَضْلُ زوجاتكم، والضِّرارُ بهنَّ بالعدل، إذا وقَعْنَ في الزِّنا أو النُّشوز، حتى يَفتدينَ أنفُسَهنَّ منكم؛ بالتنازُلِ عن بعضِ حُقوقهنَّ- كالمهرِ أو بعضِه- من أجْلِ أنْ تفارقوهنَّ[(١)].

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

أي: صاحِبوا- أيُّها الأزواج- زوجاتِكم كما أمرَكم الله تعالى، وذلك بالخُلق الحسَن؛ كالقول الطيِّب، وكفِّ الأذى، وبذْلِ الإحسان، وحُسن الهيئة، وغير ذلك، وصاحبوهنَّ بأداء حقوقهنَّ من النَّفقةِ والكُسوة، وغير ذلك ممَّا أمَرَ الله تعالى به، وبما يَتعارَفُ عليه النَّاس، ولا يُنكِرُه الشَّرعُ[(٢)].

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأهلِهِ، وأنا خَيْرُكُمْ لأهلِي))[(٣)].

﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٢-٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٢-١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٣-١٥٤).

(٣) رواه الترمذي (٣٨٩٥) واللفظ له، والدارمي (٢٢٦٠).

قال الترمذي: حسن غريب صحيح، وصحح إسناده ابن جرير الطبري في ((مسند عمر)) (١/ ٤٠٨)، ورواه ابن حبان في ((صحيحه)) (٤١٧٧)، وصححه الشوكاني في ((فتح القدير)) (١/ ٦٣٥)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٤٧٧)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٨٩٥)، وصححه على شرط الشيخين الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٦١٦).

والحديث روي من طرق عن عبد الله بن عباس وعلي بن أبي طالب وأبي هريرة ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم.

أي: عاشِروا- أيُّها الأزواج- زوجاتِكم بالمعروف، وإنْ كرهتموهنَّ؛ فعسى أن يكونَ صَبْرُكم مع إمساكِكم لهنَّ وكراهيتِهنَّ، فيه خيرٌ كثيرٌ لكم في الدُّنيا والآخِرة؛ كأولادٍ تُرْزَقُونَهُمْ منهنَّ، أو تزولُ كراهتكم لهنَّ، وتَخْلُفُها محبتُهنَّ، وغير ذلك[١].

عن أبي هريرة رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً[٢]؛ إنْ كَرِهَ منها خُلُقًا رضِيَ منها آخرَ، أو قال: غيرَهُ))[٣].

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى كراهيةَ الزَّوجِ لزوجِه في قوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ ولا جَرَمَ أنَّ الكراهيةَ تَعقُبها إرادةُ استبدالِ المكروهِ بضدِّه؛ فلذلك عطَفَ الشَّرْط في قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ...﴾ على الذي قبله استطرادًا واستيفاءً للأحكام[٤].

وأيضًا لَمَّا نهى عن العَضْل تسبُّبًا إلى إذهاب بعض ما أُعْطِيَتْهُ المرأةُ- أَتْبَعَهُ التصريحَ بالنَّهي عن أخْذ شيءٍ منه في غيرِ الحالة التي أُذِنَ فيها في المضارَّة، وهي الفاحشة[٥]، فقال:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٤).

(٢) لا يَفْرَك مُؤمنٌ مُؤمنةً: أي لا يُبغضها، لأنه إن وجد فيها خلقًا يكره، وجد فيها خلقًا مرضيًّا كأنَّه حَثَّ على حُسْنِ العِشرةِ والصُّحْبة. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٤١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ٥٨)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/ ٤٧٤).

(٣) رواه مسلم (١٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣).

أي: وإذا أراد أحدُكم- أيُّها الأزواج- أنْ يُطلِّقَ زوجته، ويتزوَّج بأخرى[١].

﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾.

أي: والحال أنَّكم قد أمهرتموهنَّ مهرًا كبيرًا، فإنَّه لا يحلُّ أخْذُ شيءٍ منه عَنوةً؛ لأنَّه حقُّها، والنهي عن ذلك بالأَوْلى لو كان المهر قليلًا[٢].

﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

أي: أتأخذون ما آتيتموهنَّ من المهور ظلمًا بغير حقٍّ، وإثمًا ظاهرًا، قد أبان أمْرَ آخِذِه أنَّه بأخْذه إيَّاه ظالمٌ لِمَن أخَذَه منه[٣]؟

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾.

أي: على أيِّ وجهٍ تأخذون من نسائكم ما أعطيتُموهنَّ من مهور؟ والحال أنَّه قد حصلت بينكم عَلاقةُ استمتاعٍ وجماعٍ[٤].

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾.

أي: وقد أخذ نساؤكم منكم- أيُّها الأزواج- عهدًا شديدًا مؤكَّدًا، وذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٨-١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٤٠-٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٠).

بعقد النكاح، والقيام بحقوقهنَّ، ومن ذلك: إمساكُهنَّ بمعروفٍ، أو تسريحهنَّ بإحسانٍ[١].

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

سببُ النُّزولِ:

عن ابن عباس رضِي اللهُ عنهما قال: ((كان أهل الجاهلية يُحَرِّمون ما يَحْرُم إلَّا امرأةَ الأب، والجمعَ بينَ الأختين، قال: فأنزل الله ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ ﴾))[٢].

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ ﴾.

أي: لا تَتزوَّجوا- أيُّها المؤمنون- زوجاتِ آبائِكم مِن بَعدِهم، إلَّا ما وقَع منكم من ذلك في جاهليَّتِكم، أو قبل تحريمِه؛ فإنَّه معفوٌّ عنه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٤٢-٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٠-١٦١).

(٢) رواه ابن جرير في ((تفسيره)) (٨/ ١٣٢)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (١٥٢٣).
صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٤٧٩)، وقال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (٧٥): رجالُه رجال الصحيح إلَّا محمد بن عبد الله المخرميَّ، وهو ثقة.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٤٨-٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٥-١٦٧، ١٧٠).
قال الرازي: (أجمعوا [أي المفسِّرون] على أنَّ سبب نزول هذه الآية هو أنَّهم كانوا يتزوَّجون بأزواج آبائهم، وأجمع المسلمون على أنَّ سبب نزول الآية لا بدَّ وأن يكون داخلًا تحت الآية، بل اختلفوا في أنَّ غيره هل يدخل تحت الآية أم لا؟ وأما كون سبب النزول داخلًا فيها فذاك مجمعٌ عليه بين الأمَّة، فإذا ثبت بإجماع المفسِّرين، أنَّ سبب نزول هذه الآية هو العقد لا الوطء، وثبت بإجماع المسلمين أنَّ سبب النزول لا بدَّ وأن يكون مرادًا، ثبت بالإجماع أنَّ

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾.

أي: إنَّ تزوُّجَكم بزوجاتِ آبائِكم لَهُوَ فِعلٌ في غايةِ البَشاعة والقُبح، وهو أمرٌ يُبغِضُه اللهُ تعالى، ويُبغضه الناسُ، وقد يُبغض الابنُ أباه بسببه؛ فإنَّ من تزوَّج بامرأةٍ قد يُبغض مَن كان زوجَها قبلَه[١].

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

أي: وبِئْسَ هذا الأمرُ طريقًا لِمَن سلَكه[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ حثٌّ للأزواج أن يُمسِكوا زوجاتِهم مع الكراهية لهنَّ؛ فإنَّ في ذلك خيرًا كثيرًا؛ من ذلك امتثالُ أمر الله، وقَبولُ وصيَّته التي فيها سعادةُ الدنيا والآخرة، ومنها أنَّ إجبارَه نفسَه- مع عدم محبَّته لها- فيه مجاهدةُ النفس، والتخلُّق بالأخلاقِ الجميلة، وربَّما تزول الكراهيةُ وتخلُفُها المحبَّة، كما هو الواقع، وربما رُزِقَ منها ولدًا صالحًا، نفَعَ والديه في الدنيا والآخرة، وهذا كلُّه مع الإمكان في الإمساك، وعَدَمِ وقوع المحذور[٣].

٢- قد تكونُ المصيبةُ للإنسانِ دواءً نافعًا ساقَه إليه الطبيبُ العليمُ بمصلحتِه،

النَّهي عن العقد مرادٌ من هذه الآية) ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٨).

وقال أبو السعود: (اسمُ الآباءِ ينتظِمُ الأجدادَ مجازًا فتثبُت حرمةُ ما نكحوها نصًّا وإجماعًا) ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ١٦٧-١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢).

الرحيمُ به، وفي عُقبَى هذا الدَّواءِ مِن الشِّفاءِ والعافيةِ والصِّحَّةِ وزوالِ الأَلَم ما لم يَحصُل بدونِه؛ فإذا طالَعَتْ نفْسُه كراهةَ هذا الدَّواءِ ومَرارتَه؛ فلينظُرْ إلى عاقِبَتِه وحُسْنِ تأْثيرِه؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[1].

٣- لَا يَنْبَغِي أَن يَجْعَل العبدُ المعيارَ على مَا يضُرُّه وينفَعُه، مَيْلَه وحُبَّه ونفرتَه وبُغْضَه، بل المعيار على ذلك ما اخْتارَه الله له بأَمْرِه وَنَهْيه، فأنفَعُ الأَشْيَاء له على الإِطْلاق طَاعَةُ ربِّه بِظَاهِرِهِ وباطِنِه، وأضَرُّ الْأَشْيَاء عليه على الإِطلاقِ مَعْصِيَتُه بظاهِرِهِ وباطِنِه، فَإِذا قامَ بِطَاعَتِهِ وعبوديَّتِه مخْلِصًا لَهُ؛ فكلُّ ما يجري عليه ممَّا يكرَهُه يكون خيرًا له، وإذا تخلَّى عن طاعَتِه وعبودِيَّتِه، فكلُّ ما هو فيه من محبوبٍ هو شَرٌّ له؛ فمن صَحَّتْ له معرفَةُ رَبِّه والفِقْهُ في أسمائِه وصفاتِه، عَلِمَ يقينًا أنَّ المكروهاتِ التي تصيبُه والمحَنُ التي تنزِلُ به؛ فيها ضروبٌ من المصالِحِ والمنافِعِ التي لا يُحْصيها عِلْمُه ولا فِكْرَتُه، بل مصلحةُ العبد فيما يكرَهُ أعظَمُ منها فيما يحِبُّ، فعامَّةُ مصالِحِ النُّفوسِ في مكروهاتها، كما أنَّ عامَّةَ مَضارِّها وأسباب هَلَكَتِها في محبوباتِها، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩] فالعبدُ قد يكرَه الْمَرْأَةَ لِوَصْفٍ من أوصافِها، وَله فِي إِمْسَاكِها خيرٌ كثيرٌ لَا يعرِفُهُ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- تحريمُ الحِيَل وبُطلانُها؛ فالمقاصدُ والنيَّاتُ معتبَرةٌ في التصرُّفِ والعاداتِ؛ يدلُّ على ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٧٦- ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٩٩).

أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾؛ فبيَّن تعالى أنَّه إذا عضَلَها لتَفتَدِيَ نفسَها منه، وهو ظالِمٌ لها بذلك، لم يحِلَّ له أخْذُ ما بذلَتْه له ولا يَملِكُه بذلك[١].

٢- قال أهلُ العِلم: (عسى) من الله واجبةٌ، فإذا قال الله: (عسى) فهي واجبة، والأمرُ واجبٌ ويقع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡ﴾ [النساء: ٩٩]؛ وذلك لأنَّ الرجاءَ في حقه عزَّ وجلَّ غيرُ واردٍ؛ إذ إنَّه هو المتصرِّف المدبِّر، والرجاءُ إنَّما يكون مِمَّن لا يملِكُ الشيء فيرجوه من غيره، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ وعدًا من الله أنَّ من صَبَر ابتغاءَ وجه الله على ما يكرهه، واحتسابًا لثواب الله، بأن يجعَلَ الله فيه خيرًا كثيرًا، فإنَّه يتحقَّق له هذا الوعدُ، فإنْ تخلَّفَ هذا الوعدُ فلوجودِ مانعٍ، وإلَّا فإنَّ وعْدَ الله حقٌّ[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا...﴾ الإرشاد إلى إعماقِ النَّظر وتغلغُلِ الرأي في عواقِبِ الأشياء، وعدم الاغترارِ بالبوارقِ الظَّاهرة، ولا بميلِ الشَّهوات إلى ما في الأفعال مِن ملائم، حتى يَسبُرَه بمِسْبَارِ الرأي، فيتحقَّق سلامةَ حُسْنِ الظاهرِ من سُوء خفايا الباطِن[٣].

٤- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا﴾ دَلالةٌ على عدم تحريمِ كثْرَةِ المهرِ، مع أنَّ الأفضلَ واللائق الاقتداءُ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في تخفيفِ المَهْر؛ ووجْهُ الدَّلالة أنَّ الله أخبَرَ عن أمْرٍ يقع منهم، ولم يُنْكِرْه عليهم، فدلَّ على عدم تحريمِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٧٧-٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣).

٥- الإشارةُ إلى سترِ ما بين الزوجين؛ لقوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، وهذا الإفضاءُ معروفٌ أنَّه إفضاء سِرِّيٌّ؛ ولهذا فإنَّ الذي يُفشِي السرَّ فيما كان بينه وبين زوجته مِنْ شَرِّ الناسِ منزلةً عند الله يومَ القيامة(١).

٦- في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، كنَّى الله تعالى عن الجِماعِ بالإفضاءِ، وهو الوصولُ إلى الشَّيءِ من غير واسطةٍ؛ تعليمًا لعباده؛ لأنَّه مِمَّا يُسْتَحْيَا منه(٢).

٧- غِلَظُ عقد النِّكاح، وأنَّه عقدٌ يجب أن يُهتمَّ به؛ لقوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، ويدلُّ على هذا قولُه تعالى في الطلاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، أي: اضبطوها بالحِسابِ، فالآيةُ الكريمةُ تُفيد خطرَ عقْدِ النِّكاح وأهميَّته، وأنَّه يجب أن يُعتنَى به، ويُحتفَظ به وبشروطِه وكلِّ ما يلزم فيه؛ حتى لا يقعَ الإشكالُ بين الرجل وزوجته، وتحصُلَ أمورٌ لا تُحمَد عُقباها(٣).

٨- أنَّ نكاحَ المحارم أشدُّ من الزِّنا؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، وفي الزِّنا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، ولم يَقُل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾؛ ولهذا ذهب كثيرٌ من العلماء إلى أنَّ من زَنَى بامرأةٍ من محارمِه أو تزوَّجها، فإنَّه يُرجَم ولو كان غير مُحصَنٍ؛ لأنَّ نكاحَ ذواتِ المحارمِ أعظمُ من الزِّنا وأشدُّ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧١).

٩- الفاحشةُ تتناولُ الفعلَ القبيحَ، وتتناولُ إظهارَ الفعلِ وأعضاءه، وتتناولُ أيضًا ما فحُش وإن كان بعقدِ نكاحٍ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ﴾ فالفاحِشَةُ تتناوَلُ العقودَ الفاحِشَة، كما تتناوَلُ المباشَرَة بالفاحِشَة؛ فالنهي في الآية يتناول العَقْدَ والوَطْءَ[١].

بَلاغَةُ الآيات:

١- **قوله**: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾: (لا) في قوله: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ لتأكيد النَّفي، يعني: لا يحلُّ لكم أن ترِثوا النِّساءَ ولا أنْ تعضلوهنَّ، أي: ولا تمنعوهنَّ من التَّزويج، أو: ولا أن تُضَيِّقوا عليهنَّ[٢].

٢- **قوله**: ﴿لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾: عبَّر بالذَّهابِ به لا بالأخْذِ ولا بالإذهاب؛ للمبالغةِ في تقبيحِه ببيانِ تضمُّنه لأمرينِ، كلٌّ منهما محظورٌ شنيع، (الأخْذ والإذهاب) منهنَّ؛ لأنَّه عبارةٌ عن الذَّهاب مستصحبًا به[٣].

٣- **قوله**: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾: علَّة للجزاءِ، أُقيمتْ مقامَه؛ للإيذان بقوَّة استلزامها إيَّاه، كأنَّه قيل: (فإنْ كرهتموهنَّ، فاصبروا عليهنَّ مع الكراهة؛ فلعلَّ لكم فيما تكرهونه خيرًا كثيرًا ليس فيما تحبُّونه)[٤].

- وذِكْر الفِعل الأول ﴿تَكۡرَهُواْ﴾ مع إمكان الاستغناءِ عنه، وانحصار العِلِّيَّة في الثاني ﴿وَيَجۡعَلَ ...﴾ للتوسُّلِ إلى تعميمِ مفعوله؛ ليُفيدَ أنَّ ترتيبَ الخيرِ

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٨٢).

(٢) ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٨).

الكثيرِ مِن الله تعالى ليس مَخصوصًا بمكروهٍ دونَ مكروه، بل هو سُنَّة إلهيَّة جاريَةٌ على الإطلاقِ حَسَبَ اقتضاء الحِكمة، وفيه من المبالغةِ في الحَمْلِ على ترْك المفارقةِ، وتعميمِ الإرشادِ ما لا يَخفَى[١].

- وتنكير ﴿خَيْرًا﴾ وتنوينه؛ لتفخيمِه الذاتي، ووصْفُهُ بالكثرةِ بقوله: ﴿كَثِيرًا﴾؛ لبيان فخامتِه الوصفيَّة[٢].

٤- **قوله**: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾: استئنافٌ مَسُوق لتقريرِ النهيِ، والتنفيرِ عن المنهيِّ[٣]، والاستفهامُ إنكارٌ وتوبيخ، أي: تأخذونه باهتِين وآثمِين[٤].

٥- **قوله**: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾: استفهامُ إنكارٍ لأخْذِه إثْرَ الإنكارِ الوارد في قوله تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا﴾، وتنفيرٌ عنه بعد تنفيرٍ، على سبيلِ التعجُّب، أي: بأيِّ وجهٍ تَسْتَحِلُّون المهر، وَقَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ[٥]؟!

- وفيه مبالغةٌ؛ حيثُ وجَّه الإنكارَ إلى كيفيَّة الأخْذِ؛ إيذانًا بأنَّه ممَّا لا سبيلَ له إلى التحقُّق والوقوعِ أصلًا؛ لأنَّ ما يَدخُلُ تحتَ الوجود لا بدَّ أن يكونَ على حالٍ من الأحوال، فإذا لم يكُنْ لشيءٍ حالٌ أصلًا، لم يكُنْ له حظٌّ من الوجودِ قطعًا[٦].

٦- **قوله**: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: في قوله: ﴿أَفْضَىٰ﴾ كنايةٌ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٥٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٩).

حسنة[١]؛ لأنَّ الإفضاءَ إلى الشيءِ عبارةٌ عن المباشَرة له، وعُني بالإفضاءِ في هذا الموضِع الجماعُ[٢].

٧- **قوله**: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾: خُصَّ هذا النِّكاحُ بالنَّهي، ولم يُنْظَمْ في سلكِ نكاحِ المحرَّماتِ الآتيةِ بَعدَه؛ مُبالغةً في الزَّجرِ عنه؛ حيثُ كانوا مُصِرِّين على تعاطِيه مع الاستِهانةِ بذلك، فأفْرَدَه وقدَّمَه؛ تَعظيمًا لحُرمةِ أزواجِ الآباءِ[٣].

٨- **قوله**: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا﴾: تعليلٌ للنهي، وبيانٌ لكون المنهيِّ عنه في غاية القُبح مبغوضًا أشدَّ البُغضِ، وأنَّه لم يَزَلْ في حُكمِ الله تعالى وعِلمه موصوفًا بذلك، ما رُخِّص فيه لأُمَّةٍ من الأمم؛ فلا يُلائِم أن يُوسَّط بينهما ما يُهَوِّن أمْرَه مِن ترْك المؤاخذةِ على ما سَلَف منه[٤].

---

(١) وحمله على الكِناية أبلغُ وأقربُ في هذا المقام؛ لوجوه؛ منها: أنه تعالى ذكر ذلك في معرض التعجب، فقال: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾، والتعجب إنما يتمُّ إذا كان هذا الإفضاء سببًا قويًّا في حصول الألفة والمحبَّة، وهو الجماع، لا مجرد الخلوة؛ فوجب حملُ الإفضاء عليه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥)، ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٥٩).

(٢) ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٥٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٩)، وينظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٠).

الآية (٢٣)

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾: أي: بناتُ نِسائِكم من غيرِكم، والرَّبائب جمْع: رَبيبةٍ، وهي مأخوذةٌ من التربية، وهو إنشاءُ الشيءِ حالًا فحالًا إلى حدِّ التَّمام(١).

﴿فِى حُجُورِكُم﴾: أي: فِي ضَمانِكم وتَربيتكم، والحُجور جمْع حِجر، وحِجْرُ القميص: اسمٌ لِمَا يُجعل فيه الشيءُ فيُمنَع؛ يُقال: فلان في حَجْرِ فلان، أي: في منعٍ منه عن التصرُّف في ماله، وكثيرٍ من أحواله، وأصل الحَجْر: المنعُ، والإحاطة على الشَّيءِ(٢).

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾: أي: أزواجِ البنين، جمْع حَليلة؛ وسُمِّيت الزوجةُ حليلةً، والزَّوجُ حليلًا؛ لنُزولِهما معًا؛ فتَحُلُّ معه ويَحُلُّ معها، أو لحَلِّ كلِّ واحدٍ

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

(٢) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢١).

منهما إزارَه للآخَر، وإمَّا لكونِها حَلالًا له، وأصل (حلَّ): فتْحُ الشَّيء[١].

﴿أَصْلَٰبِكُمْ﴾: أي: ظُهورِكم، جمْع صُلب؛ وسُمِّي الظَّهرُ صلبًا باعتبارِ الصَّلابة والشدَّة، وأصل (صلب): الشِّدَّة والقوَّة، وكلُّ شيءٍ من الظَّهر فيه فَقَارٌ، فهو صلبٌ[٢].

المَعنَى الإجمالي:

يُخبرُ تعالى أنَّه حرَّم على المؤمنين التزوُّجَ بأمَّهاتِهم، وبناتِهم، وأخواتِهم، وعمَّاتِهم، وخالاتِهم، وبناتِ إخوانهم، وبناتِ أَخواتِهم، كما أنَّه حرَّمَ عليهم الزَّواجَ من أمَّهاتهم اللاتي قُمْنَ بإرضاعهم، وأخواتهم من الرَّضاعة، كما حرَّمَ أيضًا التزوُّجَ بأمِّ الزوجة مُطْلَقًا، سواء حصَل الدخولُ بالبنتِ أمْ لم يَحصُل، وحَرَّم كذلك الزواجَ ببنات الزوجات إذا تزوَّجوا أُمَّهاتِهن، وبَنَوْا بهنَّ، فإذا لم يكونوا بَنَوْا بأمهاتهنَّ فيجوزُ نكاحُ بِنتِ الزوجةِ بعدَ فِراق أمِّها، وحرَّم نِكاحَ زوجات الأبناء الذين ولدوهم، سواءٌ دخل الابنُ بزوجته أم لم يدخُلْ، كما أنَّه حرَّمَ الجمْعَ بين الأختين إلَّا ما وقَع في الجاهليَّة، أو حصَل قبلَ تحريمه، فإنَّه لا إثمَ عليهم فيه؛ إنَّ الله كان غفورًا رحيمًا.

تَفسيرُ الآية:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧).

(٢) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٤).

ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى تحريمَ نِكاحِ ما نَكَحَ الآباءُ في الآيةِ السَّابقةِ تخلَّص إلى ذِكرِ باقي المحرَّمات في النِّكاح[1].

وأيضًا لَمَّا ابتدأَ بتعظيمِ الآباءِ واحترامِهم في أنْ يَنكِحَ الأبناءُ أزواجَهم على العمومِ، ثنَّى بخصوص الأمِّ بقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾[2]

سببُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((كان أهلُ الجاهليَّةِ يُحَرِّمون ما يَحْرُم إلَّا امرأةَ الأبِ والجمعَ بين الأختين، قال: فأنزل اللهُ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾))[3].

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ﴾.

أي: حرَّم اللهُ عزَّ وجلَّ عليكم- أيُّها المؤمنون- التزوُّجَ بأمهاتِكم، وبناتِكم، وأخواتِكم، وعمَّاتِكم، وخالاتِكم، وبناتِ إخوانِكم، وبناتِ أخَواتكم؛ فهؤلاء

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي(٥/ ٢٢٨).
(٣) تقدم تخريجه.

محرَّماتٌ على الرجُلِ من جِهة النَّسب[١].

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾.

أي: وحرَّم اللهُ تعالى أيضًا عليكم أيضًا- معشرَ الرِّجال- نِكاح أمَّهاتِكم، وأخواتِكم من جِهةِ الرَّضاعة[٢].

عن عبدِ اللهِ بن عَبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ في بنتِ حمزةَ: ((لا تَحِلُّ لِي، يَحْرُمُ من الرَّضَاعِ ما يَحْرُمُ من النَّسَبِ، هيَ بِنتُ أخِي من الرَّضَاعَةِ))[٣].

وعن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنَّ عمَّها من الرَّضاعةِ، يُسمَّى أفلحَ، استأذنَ عليها فحَجَبَتْهُ، فأخبرتْ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال لها: ((لا تَحْتَجِبي منهُ؛ فإنَّهُ يَحْرُمُ من الرَّضاعةِ ما يَحْرُمُ من النَّسَب))[٤].

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا نكاحَ أمِّ الزوجة مطلقًا، سواءٌ دخَلْتم بابنتِها أو لم تَدْخلوا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٣- ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٢-١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٤-١٧٥).

قال ابنُ جرير: (فكلُّ هؤلاء اللواتي سمَّاهنَّ الله تعالى، وبيَّن تحريمهنَّ في هذه الآية، محرَّماتٌ، غير جائزٍ نِكاحُهنَّ لمن حرَّم الله ذلك عليه من الرجال، بإجماع جميع الأمَّة، لا اختلاف بينهم في ذلك، إلَّا في أمهات نِسائنا اللواتي لم يَدخُلْ بهن أزواجُهن) ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٥).

(٣) رواه البخاري (٢٦٤٥) واللفظ له، ومسلم (١٤٤٧).

(٤) رواه مسلم (١٤٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٥-٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾.

أي: وحرَّمَ عليكم أيضًا نِكاح بناتِ زوجاتِكم اللاتي جامعتموهنَّ[١].

عن أمِّ حبيبةَ- رملةَ بنتِ أبي سُفيانَ- رضِي اللهُ عنهما، قالت: ((دخَلَ عليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقلتُ لهُ: هل لك في أُختي بنتِ أبي سفيانَ؟ فقال: أفعلُ ماذا؟ قلتُ: تنكِحُها، قال: أَوَ تُحِبِّينَ ذلك؟ قلتُ: لستُ لك بِمُخْلِيةٍ[٢]، وأَحَبُّ مَن شَرِكَني في الخيرِ أُختي، قال: فإنَّها لا تحلُّ لي! قلتُ: فإنِّي أُخْبِرْتُ أنَّك تخطبُ دُرَّةَ بنتَ أبي سلمةَ، قال: بنتَ أمِّ سلمةَ؟ قلتُ: نعمْ، قال: لو أنَّها لم تكُنْ رَبيبتي في حِجري، ما حلَّتْ لي؛ إنَّها ابنةُ أخي مِن الرَّضاعةِ، أَرضعَتْني وأباها ثُويبةُ، فلا تَعْرِضْنَ عليَّ بناتِكُنَّ ولا أخواتِكنَّ))[٣].

﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾.

أي: فإنْ لم تكونوا دخلتُم بزوجاتِكم؛ فلم تُجامِعوهنَّ حتى طلَّقتموهنَّ، فلا حرجَ عليكم في نِكاح بناتِهنَّ[٤].

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا نِكاحَ زوجات أبنائِكم، سواءٌ دخلوا بهنَّ أو لم يَدخُلوا، والمرادُ بأبنائكم: الذين ولدتموهم، دونَ أبنائِكم من جِهة الرَّضاعة،

عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٨-٥٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٥-١٧٧).

(٢) ولَسْتُ لك بمُخْلِيَةٍ: أي: لستُ بمنفردةٍ بك، ولا خالية مِن ضرَّةٍ، وليس مِن قولهم: امرأةٌ مُخلية، إذا خَلَتْ من الزوج. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ٢٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٧٤).

(٣) رواه البخاري (٥١٠١، ٥٣٧٢)، ومسلم (١٤٤٩) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٧).

ودونَ الأدعياءِ الذين تبنَّيتموهم في الجاهليَّة[١].

﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا الجمْعَ بين الأختين بنكاحٍ، إلَّا ما وقَعَ منكم في جاهليَّتكم، أو قبل تحريمه، فإنَّه لا إثمَ عليكم فيه[٢].

وفي حديث أمِّ حَبيبةَ رضِي اللهُ عنهما، عندما عرضت على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الزواجَ من أختِها، فقال صلى الله عليه وسلم: ((فإنَّها لا تحلُّ لي!)). ثم قال: ((فلا تَعْرِضْنَ عليَّ بناتِكُنَّ ولا أخواتِكنَّ))[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى غفورٌ، يَستُرُ ذنوبَ عِبادِه، ويَتجاوزُ عنها، ومِن ذلك: عدمُ مؤاخذتِهم على ما وقَع منهم؛ مِن الزواجِ بِمَن حرَّمهنَّ الله تعالى قبلَ نزولِ التحريمِ، وهو الرحيمُ بهم، ومن رحمتِه مغفرتُه لذنوبِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦٠-٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٧-١٧٩).
قال الجصاص: (قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ قد تناول عندَ الجميع تحريمَ حليلةِ ولدِ الولدِ على الجدِّ، وهذا يدلُّ على أنَّ ولد الولد يُطلَق عليه أنَّه من صُلْب الجدِّ؛ لأنَّ إطلاقَ الآيةِ قد اقتضاه عند الجميع) ((أحكام القرآن)) (٢/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٩-١٨٠).
قال ابنُ كثير: (قد أجْمَع العلماءُ من الصَّحابة والتابعين والأئمَّة قديمًا وحديثًا على أنه يحرُم الجمعُ بينَ الأُختين في النِّكاح، ومَن أسلمَ وتحته أُختان خُيِّر؛ فيُمسك إحداهما، ويُطلِّق الأخرى لا محالةَ) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٣).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٨٠-١٨١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قولُه تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ...﴾ الآية، يتناوَلُ ما يسَمَّى بنتًا حتى يَحْرُم عليه بنت بِنْتِه وبِنْتُ ابنِه؛ بخلاف قولِه سبحانه في الفرائِضِ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ فإنَّ هذا إنما يتناوَلُ وَلَدَه ووَلَدَ ابنِه، لا يتناوَلُ ولَدَ بِنْتِه؛ ولهذا لَمَّا كان لفْظُ الابْنِ والبِنْت يتناول ما يُسَمَّى بذلك مُطْلَقًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ لِيُحْرِزَ عن الابنِ المُتَبَنَّى- كزيد- الذي كان يُدْعَى: زيدَ بْنَ مُحمَّد؛ فإنَّ هذا كانوا يسمُّونه «ابنًا» فلو أُطْلِقَ اللَّفْظُ لظُنَّ أنَّه داخِلٌ فيه؛ فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ ليُخْرِجَ ذلك[(١)].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ لَفْظَ (أُمَّهات) عندَ الإطلاقِ إنَّما يُرادُ به الأمُّ مِن النَّسَبِ[(٢)]، فلا يَدخُل فيها الأمُّ مِن الرَّضاعة، ووجهُ ذلك: أنَّه لو كانتِ الأمُّ من الرَّضاع تَدخُل في الأمِّ عندَ الإطلاق، لَمَا احْتِيجَ إلى قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾؛ لأنَّها تدخُل في قولِه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، ويتفرَّع عن هذه الفائدةِ: أنَّ أمَّ الزوجةِ من الرَّضاعِ لا تَدخُل في قولِه: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾؛ لأنَّه عندَ الإطلاقِ لا تدخُلُ فيها الأمُّ من الرَّضاع[(٣)].

٣- أنَّ لبنَ الفحل مُحَرِّمٌ؛ أي: إنَّ الأختَ من الأبِ من الرَّضاعة حرامٌ؛ لعمومِ قوله سبحانه: ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾، وهذا -والله أعلم- من فائدةِ ذِكرِ الأخواتِ دون البناتِ من الرَّضاعة؛ فإنَّ البناتِ مِن الرضاعة لم يُذْكَرْن،

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٤٠).
(٢) ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٨٣).

وكذلك العمَّات لم يُذْكَرْن؛ لأنَّ الأخوات تُغنِي عن العمَّات؛ لأنَّهنَّ حَواشٍ، وهنَّ أقربُ الحواشي إلى الإنسان؛ فيُستفَاد من هذه الآية أنَّ الأخواتِ من الأب، أو الأخواتِ من الأمِّ، أو الأخواتِ من أمٍّ وأب من الرَّضاع؛ كلُّهُن حرامٌ[١].

٤- أنَّ أمَّ الزوجة حرامٌ بدون شرْط؛ لقوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾، فبمجرَّد العقدِ على المرأةِ عقدًا صحيحًا تَحْرُم أمُّها، وكذلك جدَّاتها وإنْ عَلَوْنَ[٢].

٥- جمهورُ الأئمَّة على أنَّ الرَّبيبةَ حرامٌ سواء كانت في حِجْر الرَّجُل أو لم تكُن في حِجره، قالوا: وهذا الخطابُ خرَج مخرجَ الغالب؛ فلا مفهومَ له[٣]، وفائدة التقييد في قوله: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ التنبيهُ على الحِكمة في تحريمِ الرَّبيبة، وأنَّها كانت بمنزلةِ البنت، فَمِنَ المستقبَح إباحتُها، والدلالة على جوازِ الخَلوة بالربيبة وأنَّها بمنزلةِ مَن هي في حجرِه من بناته ونحوهنَّ[٤].

٦- تحريمُ حلائل الأبناء من زوجاتٍ أو مملوكاتٍ؛ لقوله: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾، لكنَّ المملوكة لا تكون حليلةً إلَّا بالوطء؛ ولذلك فلو أنَّ شخصًا اشترى أَمَةً ولم يَطأْها، ثمَّ ملَكها أبوه، فإنَّها تحلُّ لأبيه، لكنْ لو عقَدَ على امرأةٍ ولم يطأْها، ثم طلَّقها، فلا تحلُّ لأبيه؛ لأنَّ المملوكةَ لا تكون حليلةً إلَّا بالوطء، وأمَّا الزوجة فتكون حليلةً بمجرَّد العقد الصحيح[٥].

٧- أنَّ حليلةَ ابنِ الرَّضَاع لا تَحْرُم؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بَلاغَةُ الآية:

١- **قوله:** ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ...﴾ الآية: فيها من البلاغة: حُسْن النَّسَق[١] في ترتيب الجُمل، وعطْف بعضها على بعضٍ كما يَنبغي؛ حيث قدَّم تَحريمَ الأمهات، وعَطَفَ عليه باقيَ الآية[٢].

٢- **قوله:** ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾: فيه كنايةٌ في قوله: ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾؛ إذ هي كنايةٌ عن الجماع، أو الخَلوة[٣].

٣- **قوله سبحانه:** ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾، **وقوله:** ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾: فيهما احتراسٌ؛ حيث احترَزَ في الأوَّل من اللَّاتي لم يُدْخَل بهنَّ[٤]، واحترز في الثَّاني عن المتبَنَّيْنَ، لا عن أبناءِ الولدِ[٥].

٤- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: تعليلٌ لِمَا أفاده الاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، فيتحتَّمُ أنْ يكونَ الاستثناءُ منقطعًا، أي: لكنْ ما قد مضَى لا تُؤاخَذُون به[٦]، مع ما فيه مِن تأكيدِ الخَبَر بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ.

---

(١) حُسن النَّسق: هو مِن محاسن الكلام، وهو إتيانُ الكلماتِ مِن النَّثر والأبيات مِن الشِّعر متتالياتٍ، متلاحماتٍ تلاحمًا سليمًا مُستحسَنًا، لا مَعيبًا مُستهجنًا، والمستحسَنُ من ذلك أن يكونَ كلُّ بيت إذا أُفرد قام بنفْسِه، واستقلَّ معناه بلفظِه، وإنْ رَدِفه مجاورُه صار بمنزلةِ البيت الواحد، بحيث يَعتقدُ السَّامع أنهما إذا انفصلَا تجزَّأ حُسنُهما، ونقَص كمالهما، وتَقسَّم معناهما، وهما ليسَا كذلك، بل حالهما في كمال الحُسن وتمام المعنى مع الانفرادِ والافتراق كحالهما مع الالتئام والاجتماع. ينظر: ((تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر)) لابن أبي الأصبع، (١/ ٨٩)- ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٩٢).

(٢) ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٩٢).

(٤) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٢).

الآيتان (٢٤ - ٢٥)

﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ ﴾: هنَّ ذواتُ الأزواجِ، والمحصَنات أيضًا: الحرائرُ، وإن لم يكُنَّ مزوَّجاتٍ، والعفائف، وأصلُ (حصن): الحِفظ، والحِياطة، والحِرز[1].

﴿ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾: أي: غيرَ زُناة، أو غيرَ مجاهرين بالزِّنا، والسِّفاحُ: الزِّنا، وأصلُه مِن سَفَحْتُ القِربةَ: إذا صبَبْتَها؛ فسُمِّي الزِّنا سِفاحًا؛ لأنَّ الرَّجل يصُبُّ النُّطفةَ، وتصُبُّ المرأةُ النُّطفة، والمسافِحُ: الَّذي يصبُّ ماءَه حيث اتَّفق، وأصْل سفَح: يدلُّ على إراقةِ شيء[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣، ١٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

﴿طَوْلًا﴾: أي: فضلًا وسَعةً، وأصل (طول) يدلُّ على فضلٍ، وامتدادٍ في الشَّيء[١].

﴿طَوْلًا﴾: أي: زوانٍ سرًّا، أو أصدقاء، أو أخلَّاء في السِّرِّ، جمْعُ خِدن، أي: مصاحب، وأكثرُ استعمالِه فيمَن يُصاحبُ بشهوة؛ يُقال: خِدْن المرأة وخَدِينها، ويُطلق كذلك على الحبيبِ والرَّفيق، وأصل (خدن): المصاحَبة[٢].

﴿ٱلْعَنَتَ﴾: الفجور؛ يُقال: عَنَتَ فلان يَعْنَتُ عَنَتًا: إذا وقَع في أمرٍ يَخاف منه التَّلفَ، ويُطلَق العَنَت على: الضَّرَر والفساد، وأصْل (عنت): يَدُلُّ على مَشَقَّةٍ وما أَشْبَه ذلك[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- **قَوْله:** ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾

﴿كِتَٰبَ﴾: منصوبٌ على أنَّه مصدرٌ مؤكِّد لمضمون الجُملة المتقدِّمة قبلَه، وهي قوله: ﴿حُرِّمَتْ﴾، ونصبُه بفعل مُقدَّر، أي: كتَب الله ذلك عليكم كتابًا، وقيل: تَقديرُه: الْزموا كتابَ الله. ويكون قولُه: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ اسمَ فِعل للإغراءِ، حُذِف مفعولُه؛ للدَّلالة عليه، أي: (عليكم ذلك)؛ فيكون أكثرَ تأكيدًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥، ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٩).

وقيل: إنَّ ﴿كِتَٰبَ﴾ منصوبٌ على الإغراء بـ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، والتقدير: عليكم كِتابَ الله، أي: الْزموه، كقوله: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وقيل غير ذلك(١).

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ﴾ مصدر مؤوَّلٌ وهو بدلُ اشتمال مِن ﴿مَّا﴾؛ فيكون في مَحلِّ رفْعٍ على قِراءة ﴿أُحِلَّ﴾ بالبناء للمَفعول؛ لأنَّ ﴿مَّا﴾ حينئذٍ في موضِعِ رفعٍ نائب الفاعِل، والتقدير: أُحِلَّ لكم ابتغاؤُهنَّ بأموالِكم. وعلى قِراءة (أَحَلَّ) بالبناء للفاعِل يكون ﴿أَن تَبۡتَغُواْ﴾ في مَحلِّ نصبٍ؛ لأنَّ ﴿مَّا﴾ حينئذٍ في موضِع نصْب مفعول به، والتقدير: أَحَلَّ لكم ابتغاءَهنَّ بأموالِكم. وقيل غير ذلك(٢).

﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾.

﴿فَرِيضَةٗ﴾: منصوبةٌ على أنَّها حالٌ من ﴿أُجُورَهُنَّ﴾، أي: مفروضةً، أو على أنَّها مصدر مُؤكِّد، أي: فرَض اللهُ ذلِك فريضةً، أو مَنصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ غير الصَّدر، أي: مصدرٌ مِن مَعنى الفِعْلِ الأوَّلِ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾ وليس مَصدرًا من لَفظِه؛ لأنَّه في معناه؛ إذ الإيتاءُ مَفروضٌ، فكأنَّه قيل: فآتوهنَّ أُجورَهنَّ إيتاءً مفروضًا(٣).

٢- **قولُه:** ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٤٨-٦٤٩).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٥٠- ٦٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٥٣).

فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾.

﴿طَوْلًا﴾: مفعولٌ به لـ﴿طَوْلًا﴾.

﴿أَن يَنكِحَ﴾: مصدَرٌ مؤَوَّلٌ، أي: نِكاح، وفي مَوْضِعِه الإعرابيِّ ثلاثةُ أوجُه؛ أحدُها: أنَّه في محلِّ نصبٍ، مفعولٌ به لـلمصدرِ المنوَّنِ ﴿طَوْلًا﴾، والتقديرُ: ومَن لم يَستَطِعْ أنْ ينالَ نِكاحَ المحصناتِ...إلخ. والثاني: أنَّه بدلُ كُلٍّ من كلٍّ مِن ﴿طَوْلًا﴾؛ لأنَّ الطَّوْلَ هو القدرةُ أو الفَضْلُ، والنكاحُ قُدرةٌ وفَضْلٌ. الثالث: أنَّه في محلِّ نصبٍ أو جرٍّ على حَذْفِ حَرفِ الجرِّ (إلى) أو (اللام)، والتقديرُ: طَوْلًا إلى أنْ ينكحَ، أو: طولًا لأنْ يَنكِحَ. وقيل غير ذلك[1].

﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾: الفاءُ رابطَةٌ في جوابِ (مَن) الشَّرطيَّة في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾، و﴿مِنْ﴾ تَبعيضيَّةٌ، و﴿مَّا﴾ موصولةٌ، والجارُّ والمجرورُ (مِن ما) مُتعلِّقٌ بفِعلٍ مقدَّرٍ حُذفَ مفعولُه، والتقديرُ: فلْيَنكِحِ امرأةً أو أَمَةً مِنَ النَّوْعِ الذي مَلَكَتْه أيمانُكم، وهو في الحقيقةِ مُتَعَلِّقٌ بمحذوفٍ وَقَعَ صفةً لذلك المفعولِ المحذوفِ؛ أي: فلْيَنكِحِ امرأةً كائنةً مِن ذلك النَّوعِ، والجملةُ كلُّها في مَحلِّ جزمٍ، جوابُ الشَّرْطِ. وقيل غيرُ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٥٣-٦٥٥).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٨-٣٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٥٥-٦٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٦).

﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ جملةٌ مِن مبتدأٍ وخبرٍ، وهي مُستأنَفةٌ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ[١].

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: مُبْتَدأ، وَمَا بعدَه ﴿لِمَنۡ...﴾ جارٌّ ومجرور في محلِّ رفْع خَبر (ذلك)، أَي: الرُّخْصَة فِي نِكاحِ الإماءِ لِمَن خشِي العَنَت، أي: جائزٌ للخائِف مِنَ الزِّنا. و﴿مِنكُمۡ﴾: جارٌّ ومجرورٌ في محلِّ نصْب، حالٌ من الضَّمير في (خشي)، أي: في حالِ كونِه مِنكم[٢].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه ممَّا يحرُمُ على الرِّجال نِكاحُهنَّ من النِّساء: المتزوِّجاتُ منهنَّ في حالة بقائهنَّ في ذمَّةِ أزواجهنَّ، إلَّا ما ملَكوهنَّ بالسَّبيِ في قتال الكفَّار، فإنَّه يحِلُّ لهم وطؤُهنَّ، حتَّى وإن كنَّ متزوِّجاتٍ، لكن بعد استبرائِهنَّ، ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّ ما سبق تحريمُه في هذه الآيات هو فرضٌ فرَضَه فلْيلزموه، مبيِّنًا تعالى أنَّه أحلَّ لهم نكاحَ ما عدا المذكوراتِ في الآياتِ إذا طلَبوهنَّ بأموالهم؛ إمَّا بالزَّواجِ بمهرٍ معلومٍ، قاصدين العفافَ لهم ولأزواجِهم، وإمَّا بشراء السَّراريِّ، غيرَ مُريدينَ الوقوعَ في الزِّنا، فمن نكَحوهنَّ فجامَعوهنَّ فليُعطوهنَّ مهورَهنَّ مقابلَ ذلك الاستمتاعِ؛ وذلك فرضٌ فرَضه اللهُ تعالى، لا حرجَ على كلا الزَّوجينِ فيما تراضيَا به بعد فرضِ المهرِ؛ من الزِّيادةِ عليه، أو النُّقصانِ، أو الإعفاءِ منه، أو التَّأخيرِ له؛ إنَّ اللهَ كان عليمًا حكيمًا.

ومَن لم يكُنْ بمقدوره زواجُ الحرائرِ المؤمناتِ، فليتزوَّجْ من الإماءِ المؤمناتِ

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٤١، ٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٥٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٥٨-٦٥٩).

المملوكاتِ للمؤمنينَ، واللهُ تعالى يعلَمُ حقيقةَ إيمانِ مَن آمن منكم، جميعُكم من ذرِّيَّةِ آدمَ، وكلُّكم سواسِيَةٌ في البشريَّة، فلا تأنَفوا مِن تزوُّجِ الإماء عند الضَّرورةِ، فتَزوَّجوهنَّ برضا مَن يملِكونهنَّ، وأعطوهنَّ مهورَهنَّ بما شرَعه اللهُ دون بخسٍ منه، أو مماطلةٍ في دَفْعِه، على أن يكُنَّ عفيفاتٍ عن الزِّنا، غيرَ واقعاتٍ فيه علانيةً؛ لا يمتنِعْنَ ممن أراد منهنَّ الفاحشةَ، كذلك غيرَ زوانٍ في السِّرِّ والخفيةِ باتِّخاذِهن أصدقاءَ وأخلَّاءَ يَزْنُونَ بهنَّ في الخفاء، فإذا أُحصِنَ الإماءُ بالزَّواج، ثمَّ وقَعْنَ في الزِّنا، فيجب عليهنَّ مِن الحدِّ نصفُ ما على الحرائرِ اللَّاتي يزنينَ قبل الإحصان بالزَّواج، فيُجلَدْنَ خمسينَ جلدة، وتلك الرُّخصةُ بنكاحِ الإماءِ المؤمناتِ عند عدمِ القدرةِ على مهورِ الحرائرِ إنَّما هي لمن شقَّ عليه الصَّبرُ عن الجِماعِ، وخاف الوقوعَ في الزِّنا، ثمَّ يُرشِد اللهُ تعالى إلى أنَّ الصَّبرَ خيرٌ لهم من نكاحِ الإماء، واللهُ غفورٌ رحيم.

تفسيرُ الآيتين:

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

سَببُ النُّزول:

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ رسولَ اللهُ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ يومَ حُنَينٍ بعَثَ جيشًا إلى أوطاس، فلَقُوا عدوًّا، فقاتَلوهم، فظهَروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكأنَّ ناسًا من أصحابِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ تحرَّجوا من غِشيانِهنَّ من أجلِ أزواجِهنَّ من المشركينَ، فأنزَل

اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، أي: فهنَّ لكم حلالٌ إذا انقضَتْ عدَّتُهنَّ))[١].

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

أي: وحُرِّمَ عليكم أيضًا- معشرَ الرِّجال- نكاحُ ذواتِ الأزواجِ، أي: ما دُمْنَ في ذمَّةِ أزواجِهنَّ[٢].

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

أي: ما عدا مَن ملَكتموهنَّ بالسَّبيِ في قتال الكفَّارِ، فإذا سبَيْتم الكافرةَ ذاتَ الزَّوج، حلَّ لكم وَطْؤُها، لكن بعد أنْ تُستَبْرأَ[٣]، وعلى ألاَّ تكونَ مِن النِّساء المحرَّماتِ السَّابقِ ذِكرُهنَّ[٤].

﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: هذا التَّحريمُ فَرضٌ قد فرَضه اللهُ تعالى عليكم، فالزَموه، ولا تَخرُجوا عن حدودِه[٥].

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٧- ١٩٨).

(٣) الاستبراء: طلبُ براءة رَحِم المرأةِ من الحَمْل، وتبيُّن هل هي حاملٌ أو لا. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١١١)، ((المصباح المنير)) للفيومي (ص: ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٩).

أي: أباح اللهُ تعالى لكم- أيُّها الرِّجال- نكاحَ ما عدا مَن حرَّمهنَّ عليكم من النِّساء، سواءٌ كان بعقدٍ أو مِلكِ يمينٍ[(١)].

﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾

أي: حلالٌ عليكم -أيُّها الرِّجالُ- أن تطلُبوا بأموالِكم نكاحَ مَن سِوى المحرَّماتِ من النِّساء -إمَّا نكاحًا بصداقٍ معلومٍ، أو تسرِّيًا بشراءِ السَّراريِّ- والحال أنَّكم تريدون إعفافَ أنفسِكم وزوجاتِكم عن الحرامِ، غيرَ قاصدينَ الوقوعَ في الزِّنا[(٢)].

﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾

أي: فمَن نكحتموهنَّ نكاحًا شرعيًّا دائمًا، فاستمتعتم بجِماعهنَّ، فآتوهنَّ مهورهنَّ في مقابلِ تلك المتعةِ، وذلك فرضٌ فرَضه اللهُ تعالى عليكم[(٣)].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِ﴾

أي: ولا حرَجَ عليكم- أيُّها الأزواجُ والزَّوجاتُ- فيما تراضَيْتم به، من زيادةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٩-٢٠٢).
قال ابن عثيمين: (هنا أربعُ مُحرَّمات: العَمَّة من الرَّضاع، والخالة مِن الرَّضاع، والجمْعُ بين المرأة وعمَّتها، والجمْعُ بين المرأة وخالتها، وكل ذلك ممَّا جاءت به السُّنة، فيكون مُخصِّصًا لعموم قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾) ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٨٣-٥٨٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٨٤، ٥٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤). وذكَر السعديُّ معنًى آخَرَ لـ﴿فَرِيضَةٗ﴾، وهو: مُقدَّرة قد قدَّرتموها؛ فوجبتْ عليكم.

على المهر، أو نقصٍ، أو إعفاءٍ منه، أو تأخيرٍ له، من بعدِ فرضِ الصَّداقِ[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو علمٍ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك علمُه بما يُصلِحُكم -أيُّها النَّاس- في مَناكِحِكم، وهو سبحانه الَّذي يضعُ كلَّ شيءٍ في موضعِه اللَّائقِ به، بلا خلَلٍ ولا زلَلٍ، ومِن ذلك: هذه الأحكامُ الَّتي شرَعها ممَّا يتعلَّقُ بأمورِ النِّكاح[٢].

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ سبحانه وتعالى مَن يحلُّ ومَن لا يحلُّ، بيَّن فيمن يحلُّ أنَّه متى يحلُّ، وعلى أيِّ وجهٍ يحلُّ، فعطف اللهُ تعالى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ [النساء: ٢٥] على قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] تخصيصًا لعمومه بغيرِ الإماء، وتقييدًا لإطلاقِه باستطاعةِ الطَّولِ[٣].

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢).

أي: ومَن لم يكُنْ لَدَيهِ منكم- معشرَ الرِّجال- سَعةٌ وقدرةٌ على تقديمِ مهرٍ كافٍ لنكاحِ الحرائرِ المؤمناتِ[(١)].

﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

أي: فليتزوَّجْ مِن الإماءِ المؤمناتِ اللَّاتي يملِكُهنَّ المؤمنون[(٢)].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾

أي: إنَّ اللهَ تعالى أعلمُ بإيمانِ مَن آمَن منكم، فيعلَمُ ما إذا كان أولئك الإماءُ اللَّاتي تريدون نكاحَهنَّ مؤمناتٍ حقًّا أم لا، وأمَّا أنتم فليس لكم إلَّا الظَّاهرُ، فَكِلُوا سرائرَهنَّ إلى الله عزَّ وجلَّ[(٣)].

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٩٤-٥٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٩٥-٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٦-٢١٧).

قال ابنُ عثيمين: (قوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ أي: فانكحوا مما ملكتْ أيمانُكم، والخطابُ هنا للجميعِ باعتبارِ المجموعِ، لا باعتبارِ كلِّ فردٍ، وإنَّما قلنا ذلك؛ لأنَّ المالكَ لا يصحُّ أن ينكحَ مملوكتَه، وإنَّما يتسرَّاها؛ لأنَّ الله جعَل مِلكَ اليمينِ معادلًا للزوجيةِ، فقال: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠١-٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٧-٢١٨).

قال ابنُ عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ معناه: أنَّ الله عليمٌ ببواطن الأمور ولكم ظواهرُها، فإذا كانت الفتاةُ ظاهرها الإيمان فنكاحُها صحيحٌ، وعِلمُ باطِنها إلى الله، وإنما هذا لئلا يستريبَ متحيرٌ بإيمانِ بعضِ الإماءِ، كالقريبةِ عهد بالسباء، أو كالخرساء وما أشبهه. وفي اللفظ أيضا تنبيهٌ على أنَّه ربما كان إيمانُ أمةٍ أفضلَ مِن إيمانِ بعضٍ من الحرائر، أي: فلا تعجبوا بمعنى الحرية) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨).

أي: إنَّ الجميعَ متساوونَ في البشريَّةِ، وكلُّهم بنو آدمَ؛ فالحرائرُ والإماءُ من هذه الجهة سواءٌ، فلا تأنَفوا من تزوُّجِ الإماءِ عند الضَّرورةِ[١].

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾.

أي: فتَزوَّجوهنَّ بسماحِ ورضَا أسيادِهنَّ[٢].

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

أي: وأعطوهنَّ مهورَهنَّ بما شرَعه اللهُ تعالى، دون أن تبخَسوهنَّ شيئًا مِن مهورِهنَّ، أو تُماطِلوا في دَفعِه إليهنَّ[٣].

﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾.

أي: فانكِحوهنَّ، والحالُ أنَّهنَّ عفيفاتٌ عن الزِّنا؛ فهذا شرطٌ من شروط نِكاحِهنَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٧-٢١٨).
قال ابنُ عطيَّة: (قوله: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ قالت طائفةٌ: هو رفْعٌ على الابتداءِ والخبر، والمقصدُ بهذا الكلامِ، أي: إنَّكم -أيُّها الناسُ- سواءٌ؛ بنو الحرائرِ وبنو الإماءِ، أَكْرمُكم عندَ اللهِ أتْقاكُم؛ فهَذِه توطئةٌ لنفوسِ العربِ التي كانتْ تستهجنُ ولدَ الأَمَةِ، فلمَّا جاء الشرعُ بجوازِ نِكاحِها، أُعْلِموا مع ذلك أنَّ ذلك التهجينَ لا مَعْنَى له. وقال الطبريُّ: هو رفْعٌ بفِعلٍ، تقديره: فلينكحْ ممَّا مَلَكَتْ أيمانُكم بعضُكم مِن بعضٍ. فعلى هذا في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، وهذا قولٌ ضعيفٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٠-٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٨-٢١٩).
قال النَّحاسُ في تفسير قولِه تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: (فهذا بإجماعِ المهرُ). ((معاني القرآن)) (٢/ ٦١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير))

﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾.

أي: غيرَ الزَّانياتِ علانيةً، اللَّاتي لا يمتنِعْنَ مِن أحَدٍ أرادهنَّ بالفاحشةِ[١].

﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾.

أي: ولا تنكِحوا أيضًا الزَّوانيَ المتستِّراتِ، اللَّاتي يتَّخِذْنَ أخلَّاءَ وأصدقاءَ؛ لاقترافِ الزِّنا معهم خفيةً[٢].

﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾.

القِرَاءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ قراءتان:

١- قِراءة (أَحْصَنَّ)- بفَتحِ الألِفِ والصَّادِ على البِناءِ للفاعلِ- على مَعنى: أنَّ الإماءَ إذا أسلَمْنَ أحصَنَّ فُروجَهنَّ بالإسلام، أي: أعْفَفْنَها، وقيل: أحصَنَّ أنفُسَهنَّ بالتزويجِ، بإسنادِ الفِعْلِ إليهنَّ[٣].

٢- قِراءة (أُحْصِنَّ) على صِيغةِ ما لم يُسَمَّ فاعلُه -والفاعِلُ هو الأزواجُ- على جَعْلِ الإماءِ مَفْعولاتٍ بإحْصانِ أزواجِهنَّ إيَّاهنَّ، وقيل: إنَّه بمعنى أسلمْنَ

(٢/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤).

(٣) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلَف وأبو بكرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٨٥).

فأَحصَنَّ أنفُسَهنَّ بالإسلامِ[١].

﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ﴾.

أي: فإن أُحصِنَ الإماءُ بالزواج، ثمَّ وقَعْنَ في الزِّنا[٢].

﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾.

أي: فعليهنَّ من الحدِّ نصفُ ما على الحرائرِ، اللَّاتي زَنَيْنَ قبل الإحصان بالزَّواجِ، فيكون على الإماءِ خمسونَ جَلدةً[٣].

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾.

أي: ذلك الَّذي أباحَه اللهُ تعالى لكم -مَعشرَ الرِّجال- مِن نِكاحِ الإماءِ المؤمناتِ العفيفاتِ، إنَّما أباحه جلَّ وعلا لِمَن شقَّ عليه منكم الصَّبرُ عن الجِماعِ؛ فخاف الوقوعَ في الزِّنا[٤].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٠١).

(٢) واختار أنَّ الإحصانَ هنا: الزواجُ: ابنُ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٢/ ٢٦٢)، وابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٥/ ١٦)، وابنُ عثيمين في ((تفسير سورة النساء)) (١/ ٢٢٠-٢٢١).
وقيل: المرادُ: الإحصانُ بالإسلامِ أو بالنكاحِ، وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٦/ ٦١٢)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٢-٦١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٢، ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٢١).
قال ابن عطيَّة: (الرجم لا يتنصَّف، فلم يردْ في الآية بإجماع) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٤، ٦١٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨).
قال ابنُ جرير: (وقدْ عمَّ اللهُ بقوله: ﴿لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ﴾ جميعَ معاني العَنَتِ، ويجمعُ جميعَ ذلك الزِّنا؛ لأنَّه يُوجِبُ العقوبةَ على صاحبِه في الدنيا بما يُعنِتُ بَدَنَه، ويكتسبُ به إثمًا ومَضرَّةً

﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ﴾.

أي: وصبرُكم- أيُّها الرِّجالُ- عن نِكاحِ الإماء، إلى أن يتيسَّرَ لكم نكاحُ الحُرَّةِ، أفضلُ لكم[1].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى غفورٌ لِمن تزوَّج الإماءَ؛ إذ تجاوَز عن الإثمِ، فأباح نكاحَهنَّ بشروطِه رفعًا للحَرَج، وهو الرَّحيمُ، الَّذي وسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، ومن ذلك تشريعُه لنكاحِ الإماءِ، فلم يُضيِّقْ على عبادِه، بل وسَّع عليهم غايةَ السَّعةِ[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- ينبغي للمتكلِّمِ أن يخاطِبَ المخاطَبَ بما يهوِّنُ عليه الحُكمَ، ويكون سببًا لقبولِه، وهو ما يُمكنُ أن نُعبِّرَ عنه بتخفيفِ الأمر على المحكوم عليه؛ لقوله: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾؛ وذلك أنَّ العربَ كانوا يأنَفون أَنَفةً كبيرة بالنسبةِ للأرقَّاء، ويرَوْن أنَّ مَن نكح رقيقةً فقد أتى شيئًا فاحشًا عظيمًا، ويقولون: الرَّقيقةُ مملوكةٌ، والبعيرُ مملوكٌ؛ ولهذا أرشَد الله إلى هذا الأمر بقوله: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ

في دِينه ودُنياه، وقدِ اتَّفق أهلُ التأويلِ- الذي هم أهلُه- على أنَّ ذلك معناه). ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٦).

وقال الرازيُّ: (ولم يَختلفوا في أنَّ ذلك راجِعٌ إلى نكاحِ الإماءِ). ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٦-٦١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٢٥).

قال ابنُ عاشور- مُعلِّلًا الأمْرَ بالصبرِ-: (لئلَّا يُوقِعَ أبناءَه في ذُلِّ العبوديةِ المكروهةِ للشارعِ لولا الضرورةُ، ولئلَّا يُوقِعَ نفْسَه في مَذلَّةِ تصرُّفِ الناس في زوجِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٢٥).

بَعۡضٖ﴾؛ لتهوينِ الأمرِ على النَّاس[١].

٢- قوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾: الحكمةُ في ذِكرِ هذه الكلمة أنَّ العربَ كانوا يفتخرون بالأنسابِ، فأعلَمَ في ذِكر هذه الكلمةِ أنَّ اللهَ لا ينظُرُ ولا يلتفِتُ إليه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- إثبات الرِّقِّ؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾، وهذا أمرٌ مجمَعٌ عليه بين المسلمين، ولا يمكن لأحدٍ الإنكارُ؛ لأنَّه في القرآن، وفي السُّنَّةِ، وبإجماعِ المسلمينَ، ولكنْ لا يجوز أن يُسْتَرَقَّ الإنسانُ لأيِّ سببٍ، بل لا بدَّ من سببٍ شرعيٍّ[٣].

٢- صِحَّةُ إطلاقِ البعض على الكلِّ؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾؛ لأنَّ (أيمان) جمعُ (يمين) وهي اليدُ، والمِلك في الحقيقة مِلكٌ للإنسان كلِّه، لكن عبَّر باليمينِ؛ لأنَّ الغالبَ أنَّ الأخذَ والإعطاءَ يكونُ بها[٤].

٣- كتابُ الله سبحانه ينقسِمُ إلى قسمين: كتابٍ شرعيٍّ؛ كما في قوله تعالى في هذا الموضع: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وكتابٍ كَوْنيٍّ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾ [النبأ: ٢٩]، أي: الكتاب القدريَّ، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[٥]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

[الأنبياء: ١٠٥].

٤- أنَّ المحلَّلاتِ من النِّساء أكثرُ من المحرَّماتِ، ويُؤخَذُ من قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، ووجهُ ذلك: أنَّه حصَر المحرَّماتِ، وعمَّمَ في المُحلَّلاتِ؛ لذا فمَن ادَّعى تحريمَ امرأةٍ فعليه الدَّليلُ، فلو خطَب إنسانٌ امرأةً، فقال له بعضُ النَّاس: إنَّ هذه المرأةَ مِن المحرَّماتِ عليك، فلا بدَّ أن يُقيمَ دليلًا على ذلك؛ لأنَّ المحرَّماتِ محصوراتٌ، والمحلَّلاتِ الأمرُ فيهنَّ مُطلَقٌ[١].

٥- وجوبُ بذلِ المال في النِّكاح ؛ لقوله: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾[٢].

٦- تحريمُ المتعة؛ لقوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، وصاحبُ المتعةِ لا يريد الإحصانَ، بل إنَّه يريد السِّفاح؛ لأنَّ مَن أراد الإحصانَ فإنَّ الإحصانَ لا يحصُلُ إلَّا بالملازمةِ، وزواجُ المتعة إنَّما هو للسِّفاحِ فقط، أي: لسَفْحِ هذا الماءِ الَّذي ضيقَ عليه؛ ولذلك فلا يثبُتُ به شيءٌ من أحكام النِّكاحِ؛ فليس فيه طلاقٌ، ولا نسَبٌ، ولا عِدَّة، ولا إحصانٌ، فكلُّ أحكام النِّكاح لا تترتَّبُ عليه، حتَّى عند القائلين بجوازه، فدلَّ هذا على أنَّه سِفاحٌ[٣].

٧- في قوله: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ تسميةُ المهرِ أجرًا، ووجهه: أنَّه عِوَضٌ في مقابلِ منفعةٍ، لا في مقابل عَينٍ، فلو كان في مقابل عينٍ لسُمِّي بيعًا، لكنَّه في مقابلِ المنفعة، وهو استمتاعُ الزَّوج بالزَّوجة، فصار مِثلَ الإجارة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٦، ٢٠٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٤).

٨- في قوله: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أنَّ المهرَ لازمٌ كلزومِ الأُجرة على المستأجِر، ولكن إذا سمَح مَن له الحقُّ فإنَّه يسقُطُ؛ لقوله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾[1] [البقرة: ٢٣٧].

٩- وجوبُ إيتاءِ النِّساءِ مهورَهنَّ؛ لقوله: ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: مفروضًا عليكم أن تؤتوهنَّ أجورَهنَّ[2].

١٠- أنَّه إذا تراضى الزَّوجُ والزَّوجة على زيادةٍ أو نَقْصٍ أو إسقاطٍ، فلا حرجَ؛ لقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾، ونأخُذُ مِن ذلك قاعدةً مهمَّةً، وهي: (أنَّ ما أوجَبه اللهُ عزَّ وجلَّ لحقِّ الإنسانِ، وأسقَط هذا الإنسانُ- صاحبُ الحقِّ - حقَّه، فلا إثْمَ على مَن لم يقُمْ به)[3].

١١- الحثُّ على تزوُّجِ الحرائرِ المؤمناتِ، ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ لم يرخِّصْ في العدولِ عن نكاحِهنَّ إلَّا لحاجةٍ وعُذرٍ؛ لقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ...﴾[4].

١٢- يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ نقْصُ مرتبةِ الرِّقِّ عن مرتبة الحرِّيَّة، وهو كذلك؛ فإنَّ الرَّقيقَ مملوكٌ يُباعُ ويُشترَى، ولا يملِكُ نفسَه، حتَّى إنَّه إذا قُتِل فإنَّ دِيَتَه قيمَتُه، وليس دِيَةَ حُرٍّ[5].

١٣- مِلْكُ الإنسان لِما يملِكُ مِن آدميٍّ أو بهيمةٍ أو عقَارٍ أو غيره ليس

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٩).

مِلكًا تامًّا؛ ولذلك لا يتصرَّفُ الإنسانُ فيما يملِكُ كما يُحبُّ، بل تَصرُّفُه مقيَّدٌ بالشَّرعِ، ولكنَّ العُلماء رحمهم الله جعَلوا مَن مَلَكَ التَّصرُّفَ الَّذي جُعِل له على وجهٍ كاملٍ- جَعَلوه مالكًا، ومَن مَلَكَه على وجهٍ مُقيَّدٍ جَعَلوه مُستأجِرًا مثلًا أو مُستعيرًا، أو ما أشبَهَ ذلك(١).

١٤- أنَّه لا يحِلُّ لِمَن لا يَجِدُ طَوْلَ الحُرَّةِ المؤمنةِ أنْ يَتزوَّجَ أمَةً كتابيَّةً، ويُؤخَذُ من قولِه: ﴿فَنَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾، أي: فلا يحِلُّ أن يتزوَّجَ أمَةً كتابيَّة، وإذا لم يعجِزْ عن طَوْلِ الحُرَّة المؤمنةِ، فلا يتزوَّجُ أمَةً كتابيَّةً من بابِ أَوْلى(٢).

١٥- أمَر الله تعالى بنكاح الإماءِ عند العجزِ عن الحرائرِ، وكانوا في الجاهليَّةِ لا يرضَوْنَ بنكاحِ الأمَة وجعْلِها حَليلةً، ولكن يقضُون منهنَّ شهواتِهم بالبِغاءِ، فأراد الله إكرامَ الإماءِ المؤمناتِ، جزاءً على إيمانهنَّ، وإشعارًا بأنَّ وَحدةَ الإيمانَ قرَّبتِ الأحرارَ من العبيدِ، فلمَّا شرَعَ ذلك كلَّه ذيَّله بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم﴾، أي: بقوَّتِه، فلمَّا كان الإيمانُ هو الَّذي رفَع المؤمنينَ عند الله درجاتٍ، كان إيمانُ الإماءِ مقنِعًا للأحرارِ بتركِ الاستنكافِ عن تزوُّجِهنَّ؛ ولأنَّه رُبَّ أمَةٍ يكونُ إيمانُها خيرًا من إيمانِ رجلٍ حرٍّ(٣).

١٦- تحريم اتِّخاذِ الأخدان من الرِّجال؛ لقوله: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾، وحتَّى لو لم يحصُلِ الزِّنا؛ فإنَّ اتخاذَ الأخدان- يعني: الأصحاب والأصدقاء- سببٌ للزِّنا؛ ولهذا نُهِيَ عن الخَلوة بالمرأة خوفًا من ذلك، ونُهِيَ أن تخضَعَ بالقولِ خوفًا من ذلك(٤).

١٧- أنَّه لا يجوز للحرِّ المُسلمِ نكاحُ أمَةٍ إلَّا بأربعةِ شروطٍ ذكَرها الله:

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٣).

إيمانهن- فلا يجوز التَّزوُّجُ بالأمَةِ الكتابيَّة، سواءٌ كان الزَّوجُ حرًّا أو عبدًا- والعفَّة ظاهرًا وباطنًا، وعدم استطاعة طَوْلِ الحُرَّة، وخوفُ العَنَتِ، فإذا تمَّتْ هذه الشُّروطُ جاز له نكاحُهنَّ[١].

١٨- الرُّجوعُ إلى العُرف، وتؤخَذُ من قوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وهذه قاعدةٌ للشَّيء الَّذي لم يحدِّدْه الشَّرع؛ أن نرجعَ فيه إلى العُرفِ[٢].

١٩- أنَّه لا حدَّ على الأمَةِ إلَّا بعد الإحصانِ؛ لقوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾، أي: فإن زنَتْ قبل الإحصانِ فلا حدَّ عليها، وإنَّما تُجلَدُ جَلدَ تعزيرٍ[٣].

٢٠- أنَّه لا رجْمَ على الأمَة إذا زنَتْ، ولو بعد أن تتزوَّجَ، وجهُ ذلك: أنَّ الرَّجمَ لا يتنصَّفُ، والله عزَّ وجلَّ قال: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ ولهذا اشترط العلماءُ للرَّجمِ أن تكونَ الزَّانيةُ حُرَّةً[٤].

٢١- حُسْنُ التَّرتيبِ في سياق القرآن؛ لأنَّ اللهَ سبحانه ذكَر مسألة الزِّنا بين الشُّروطِ في نكاح الأمَةِ، للإشارةِ إلى أنَّ عند الأمَة مِن دنوِّ المنزلةِ ما لا يمنَعُها من الزِّنا، فهذا من حكمةِ النَّهيِ عن نكاحِ الإماءِ إلَّا بالشُّروطِ[٥].

٢٢- الصَّبر عن نكاحِ الإماء أفضلُ؛ وهذا إذا أمكَن الصَّبرُ، فإن لم يمكِنِ الصَّبرُ عن المحرَّمِ إلَّا بنكاحِهنَّ وجَب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤).

٢٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ﴾ بعدَ إباحتِه نِكاحَ الإماءِ عند عدمِ الطَّوْلِ وخشية العَنَت؛ يدلُّ على أنَّه يمكن الصَّبرُ مع خشيةِ العَنَتِ، وأنَّه ليس إباحةُ نكاحِ الإماءِ كإباحةِ الميتةِ عندَ المَخْمَصةِ؛ فإنَّ الأخيرَ لا يُمكنُ الصبرُ عنه[١].

٢٤- الآية دالَّةٌ على التَّحذيرِ من نكاحِ الإماءِ، وأنَّه لا يجوزُ الإقدامُ عليه إلَّا عند الضَّرورةِ، وذلك لهذه الأسباب:

السَّبب الأوَّل: أنَّ الولدَ يتبَعُ الأمَّ في الرِّقِّ والحرِّيَّة، فإذا كانت الأمُّ رقيقةً عُلِّقَ الولدُ رقيقًا، وذلك يوجِبُ النَّقصَ في حقِّ ذلك الإنسانِ، وفي حقِّ ولدِه، **والثَّاني**: أنَّ الأمَة قد تكون تعوَّدت الخروجَ والبُروزَ والمخالطةَ بالرِّجال، وصارت في غايةِ الوقاحةِ، وربَّما تعوَّدت الفجورَ، وكلُّ ذلك ضررٌ على الأزواجِ، **الثَّالث**: أنَّ حقَّ المولى عليها أعظمُ مِن حقِّ الزَّوجِ، فمِثلُ هذه الزَّوجة لا تخلُصُ للزَّوج كخُلوصِ الحُرَّة، فربَّما احتاج الزَّوجُ إليها جدًّا، ولا يجِدُ إليها سبيلًا؛ لأنَّ السَّيِّدَ يمنَعُها ويحبِسُها، **الرَّابع**: أنَّ المولى قد يبيعُها من إنسانٍ آخرَ، فعلى قولِ مَن يقولُ: بيعُ الأمَةِ طلاقُها، تصير مطلَّقةً، شاء الزَّوجُ أم أبى، وعلى قول مَن لا يرى ذلك فقد يسافِرُ المولى الثَّاني بها وبولدِها، وذلك مِن أعظمِ المضارِّ، **الخامس**: أنَّ مهرَها مِلكٌ لمولاها، فهي لا تقدِرُ على هِبةِ مهرِها من زوجها، ولا على إبرائِه عنه، بخلاف الحُرَّةِ؛ فلهذه الوجوهِ ما أذِن اللهُ في نكاح الأمَةِ إلَّا على سبيل الرُّخصةِ، واللهُ أعلم[٢].

٢٥- أنَّ المباحَ قد يكون مستويَ الطَّرفينِ، كما هو الأصل، وقد يكون

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٤٨).

مرجوحًا، كما هنا؛ لأنَّ اللهَ تعالى أحلَّ لنا نكاحَ الإماء بالشَّرطينِ، لكن قال: ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ﴾[١].

٢٦- أنَّ الأمر بالشَّيء قد يُستفادُ من الثَّناءِ على فاعله؛ لقوله: ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ﴾، فكأنَّه قال: اصبِروا، لكنَّه جعله على وجهِ التَّرغيبِ[٢].

٢٧- صيَّر الفقهاء هذه الآية ﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أصلًا في نُقصانِ حُكمِ العبدِ عن حُكمِ الحُرِّ في غير الحدِّ، وإن كان في الأمورِ ما لا يجبُ ذلك فيه[٣].

بَلاغةُ الآيتين:

١- **قوله**: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾: عطفٌ على قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ ...﴾ إلخ، وتوسيطُ قوله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ بينهما؛ للمبالغةِ في الحَمْلِ على المحافظةِ على المحرَّماتِ المذكورةِ[٤].

- وعلى قِراءة (وأَحَلَّ لَكَمْ) بالبِناءِ للفاعل؛ فالضَّميرُ المستتِرُ عائدٌ إلى اسمِ الجلَالةِ من قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، فيكون فيه إسنادُ التَّحليلِ إلى اللهِ تعالى إظهارًا للمنَّةِ؛ ولذلك خالَف طريقةَ إسنادِ التَّحريم إلى المجهولِ في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾؛ لأنَّ التَّحريم مشقَّةٌ؛ فليس المقامُ فيه مقامَ منَّةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧).

- **قوله**: ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾: إشارة إلى ما ذُكِرَ من المحرَّماتِ المعدودة، وفيه إيثارُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ على التَّعبيرِ بالضَّميرِ؛ حيث لم يقُل (مَا وَرَاءَهُ)، واسمُ الإشارةِ يدلُّ على ذاتِ المشارِ إليه ووَصْفِه، والضَّميرُ يدلُّ على الذَّات فقط؛ فلعَلَّ في هذا تَذكيرًا بما في كلِّ واحدةٍ مِنَ النِّساءِ المحرَّمات مِنَ الصِّفة التي عليها يَدورُ حُكمُ الحُرمةِ؛ فيُفهَم مشاركةُ مَن في مَعناهنَّ لهنَّ فيها بطَريقِ الدَّلالةِ؛ كحُرمةِ الجمْع بينَ المرأةِ وعمَّتها، وبَينَها وبين خالتِها؛ فإنَّها ليستْ بطريقِ العِبارة، بل بطريقِ الدَّلالةِ[1].

٢- **قوله**: ﴿مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾: فيه طباقٌ؛ إذ المُحْصَن الَّذي يمنَعُ فَرْجَه، والمسافِحُ الَّذي يبذُله[2]، وهو يُبرِز المعنى ويوضِّحه، مع ما فيه مِن التَّأكيدِ.

٣- **قوله**: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ احتراسٌ؛ إذ المُحصَنات قد يُراد بها الأنفُس المحصَناتُ، فيدخُل تحتَها الرِّجالُ، فاحترز عن ذلِك بقوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[3].

- وفيه: إطلاقُ المُحصناتِ على النِّساء اللَّاتي يتزوَّجُهنَّ الرِّجال، باعتبار المآلِ الَّذي يُصار إليه، أي: اللَّائي يَصِرْن مُحْصَناتٍ بذلك النِّكاح[4].

- وفيه وصفُ المُحَصنات بالمؤمناتِ؛ جريًا على الغالِبِ[5].

٤- **قوله**: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ الإضافة في قولِه: ﴿أَيۡمَٰنُكُم﴾ وقوله: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾ للتَّقريبِ، وإزالةِ ما بقِيَ في نفوسِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

العربِ من احتقارِ العبيدِ والإماءِ، والتَّرفُّعِ عن نكاحِهم وإنكاحِهم، وكذلك وصْفُ المؤمناتِ[١].

- وقوله: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، و﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فيه تكرارُ لَفْظِ (المؤمنات)[٢]؛ للتَّأكيدِ على وصْف الإيمان.

٥- **قوله:** ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾: جملةٌ مُعترِضة جيءَ بها؛ لتأنيسِهم بنِكاحِ الإماء، واستنزالِهم مِن رُتبةِ الاستنكافِ منه، ببيان أنَّ مناطَ التَّفاضُل، ومدارَ التفاخرِ هو الإيمانُ دون الأحسابِ والأنسابِ[٣].

٦- **قوله:** ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾: تذييلٌ ثانٍ، أكَّد به المعنى الثَّانيَ المراد من قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾[٤].

٧- **قوله:** ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: جاءتْ خاتمةً للآية، وهذا كالمؤكِّد لِمَا ذكَره مِن أنَّ الْأَوْلى تركُ هذا النِّكاح، يعني: أنَّه وإنْ حصَلَ ما يَقتضي المنعَ مِن هذا الكلام، فإنَّه تعالى أباحه لكم؛ لاحتياجِكم إليه، فكان ذلك من بابِ المغفرةِ والرَّحمةِ[٥].

- وفيه مبالغةٌ في وصفِ المغفرةِ والرَّحمة[٦]، مع ما في الجملة الاسميَّة من التَّأكيدِ، والدَّلالةِ على الثُّبوت والدَّوام.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٦).
(٣) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٨).

الآيات (٢٦ - ٢٨)

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿سُنَنَ﴾: أي: طَرائِقَ ومَناهِجَ، جمْع سُنَّةٍ، وهي الطَّريقةُ المسلوكةُ، والمنهاج المُتَّبع[1].

﴿تَمِيلُوا۟ مَيْلًا﴾: أي: تَجورُوا جَورًا، وتَنحرِفوا انحرافًا، والمَيل: العدولُ عن الوسَط إلى أحدِ الجانبَيْن، وأصلُه: الانحرافُ في الشَّيء إلى جانبٍ منه[2].

المَعْنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عبادَه أنَّه يُريد بما يأتي به من أحكامٍ وتشريعاتٍ أن يُبيِّنَ لهم ما يحِلُّ لهم، وما يَحْرُمُ عليهم، كما يُريد أن يُرشِدَهم عزَّ وجلَّ إلى طرائق مَن كان قبلَهم؛ مِن الأنبياءِ، وأتباعِهم، ويريد أنَّ يوفِّقَهم سبحانه وتعالى للتَّوبة ويتقبَّلَها منهم، والله عليمٌ حكيم.

وبمقابل إرادةِ الله للتَّوبةِ على عباده، يريد منهم الَّذين يطلُبونَ لذَّاتِ الدُّنيا، وشهواتِ أنفسهم- مِن الكفرةِ وأهلِ الفِسق- أن يميلوا ميلًا شديدًا من الحقِّ إلى الباطلِ، وعمَّا أحَلَّه اللهُ إلى ما حرَّمه.

واللهُ سبحانه وتعالى يريد التَّيسيرَ على العبادِ فيما يشرَعُه مِن أوامرَ ونواهٍ؛

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٧-٤٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٣).

لعِلْمِه عزَّ وجلَّ بأنَّ الإنسانَ خُلِق ضعيفًا.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر الله عزَّ وجلَّ المحَرَّماتِ من النساء، أخبر أنَّ في ذلك بيانًا وهدًى، حتَّى لا تكونَ شريعةُ هذه الأُمَّةِ دون شرائعِ الأُمَمِ الَّتي قبلها، بل تفُوقُها في انتظامِ أحوالها[1]، فقال تعالى:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾.

أي: يُريد اللهُ تعالى أن يبيِّنَ لكم ما أحَلَّ لكم، وما حرَّم عليكم، ممَّا تقدَّم ذِكرُه في هذه السُّورة وغيرِها[2].

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾.

أي: ويريدُ الله تعالى أن يُرشدَكم إلى سُبل مَن قَبلكم مِن الَّذين أنعَم اللهُ عليهم من النَّبيِّين وأتباعِهم، ويوفِّقَكم لتسلكوا طرائقَهم الحميدةَ، وتتَّبِعوا شرائعَه الَّتي يُحبُّها ويرضاها سبحانه[3].

﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٨-٢٣٩).

أي: ويريد اللهُ عزَّ وجلَّ أن يوفِّقَكم للتَّوْبةِ إليه، ويقبَلَها منكم، فيرجعَ بكم إلى طاعتِه، مما كنتُم عليه مِن معصيتِه؛ ليتجاوزَ لكم بتوبتِكم عما سلَف منكم قبلَ الإنابةِ والتوبةِ(١).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو علمٍ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما يُصْلِح عبادَه في دِينهم ودنياهم، ومن ذلك هذه الأحكامُ والحدودُ الَّتي علَّمهم إيَّاها.

وهو ذو الحِكمة، الَّذي مِن حكمتِه هذه الأحكامُ الَّتي شرَعها لعباده، ومن حكمته أنَّه يتوب على مَن اقتضَتْ حكمتُه ورحمتُه التَّوبةَ عليه، ويخذُلُ مَن اقتضَتْ حكمتُه وعدلُه أنَّه لا يصلُحُ للتَّوبة(٢).

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ٢٧﴾.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ يريد أن يوفِّقَكم للتَّوْبةِ إليه، ويقبَلَها منكم(٣).

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾.

أي: ويريد الَّذين يطلُبون لذَّاتِ الدُّنيا، وشهواتِ أنفسِهم فيها؛ مِن أهل الكفرِ والفسوقِ والعصيانِ، أن تَميلوا ميلًا شديدًا من الحقِّ إلى الباطلِ، وممَّا أحلَّ اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٩).

تعالى لكم إلى ما حرَّم عليكم، فتكونوا أمثالَهم[١].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أعقَب الاعتذارَ الَّذي تقدَّم بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ بالتَّذكير بأنَّ اللهَ لا يزال مراعيًا رِفقَه بهذه الأمَّة، وإرادتَه بها اليُسرَ دون العُسرِ، إشارةً إلى أنَّ هذا الدِّين بيَّن حِفظَ المصالح ودَرْءَ المفاسد، في أيسرِ كيفيَّةٍ وأرفَقِها، فربَّما ألغت الشَّريعةُ بعضَ المفاسِدِ إذا كان في الحَملِ على تركِها مشقَّةٌ، أو تعطيلُ مصلحةٍ، كما ألغت مفاسدَ نكاحِ الإماء نظرًا للمشقَّةِ على غيرِ ذي الطَّول[٢].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡ﴾.

أي: يريد اللهُ عزَّ وجلَّ أن ييسِّرَ عليكم في أوامرِه ونواهيه، ومن ذلك إباحتُه نكاحَ الإماءِ بشروطٍ[٣].

﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾.

أي: خفَّف اللهُ تعالى عنكم؛ لعِلْمِه بضَعف الإنسانِ في نفسِه، وبَدَنه، وضَعْف عَزمه، وهِمَّته، وصَبْره[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢١-٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- مراقبة اللهِ في السِّرِّ والعلانية، وتؤخذ مِن ثبوت صفةِ العِلم؛ لأنَّك متى علمتَ أنَّ اللهَ عالمٌ بك، فإنَّ ذلك يُوجِبُ لك مراقبةَ اللهِ سبحانه؛ فلا يَفْقِدُك حيث أمَرك، ولا يَجِدُك حيث نهاك، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١].

٢- في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إثباتُ اسمِ الله (الحكيم) وصِفةِ الحكمةِ له مما يجعلُ الإنسان مقتنعًا بأنَّ ما يُجريه اللهُ عزَّ وجلَّ من الأحكام مقرونٌ بالحِكْمة، سواءٌ كان هذا في الأحكامِ الكونيَّةِ، أو في الأحكام الشَّرعيةِ، حتَّى المصائبُ الَّتي تنالُ العبادَ لا شكَّ أنَّ لها حِكمةً ينبغي أن يقتنعَ الإنسانُ بوجودِها، ولا يَعترِضَ على اللهِ تعالى بها[٢].

٣- الحَذَرُ من الَّذين يتَّبِعون الشَّهوات؛ لأنَّهم يريدون منَّا أن نَميل ميلًا عظيمًا، والشَّهواتُ قد تكونُ شهوةَ بطنٍ وفَرْجٍ، وقد تكون شهوةَ فِكرٍ وقَلْب، وكِلا الأمرين مرادٌ هنا، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾[٣].

٤- الحَذَر مِن أهل البِدَع؛ لأنَّ أهلَ البِدَع ينقسمون إلى قِسْمين: قسمٍ عندهم شبهاتٌ، وقسمٍ عندهم شهواتٌ؛ فالجاهلُ منهم عنده شبهاتٌ حتَّى يلتبسَ عليه الحقُّ بالباطِلِ، والعالِم منهم عنده شهواتٌ؛ فهو يريد ما لا يريدُ اللهُ ورسولُه، ففي الآية التَّحذيرُ من هؤلاء وهؤلاء[٤].

٥- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ إشارةٌ إلى انحطاط مرتبةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الَّذين يتَّبِعون الشَّهواتِ؛ حيث جعَلهم اللهُ أتباعًا تقُودُهم الشَّهواتُ، ومن الذُّلِّ أن يكونَ الإنسانُ تابعًا للشَّهوات؛ لأنَّ العزَّة أن يكونَ الإنسانُ متبوعًا، فإذا كان تابعًا فمعناه أنَّ شهواتِه ملَكَتْه حتَّى صار تابعًا، وكأنَّه مجبَرٌ على ذلك[١].

٦- أنَّ إرادةَ المتَّبِعين للشَّهواتِ بنا لا تقتصِرُ على أدنى مَيْلٍ، وتؤخَذُ من قوله: ﴿أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾، فإذا كان كذلك فإنَّنا إذا مِلْنا قليلًا تابَعوا حتَّى نميلَ ميلًا عظيمًا، نسأل اللهَ السَّلامةَ[٢]!.

٧- أنَّ الإنسانَ ينبغي له إذا شمَخَتْ به نفسُه، وعلا أنفُه أن يذكُرَ حقيقةَ نفسِه، وهي الضَّعفُ، حتَّى لا يطغَى؛ لقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- سَعةُ رحمةِ الله عزَّ وجلَّ بعباده؛ حيث أراد أن يبيِّنَ لهم؛ لأنَّ مِن لُطفِه وكرَمِه ألَّا يدَعَ النَّاسَ على جهلِهم؛ قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾[٤].

٢- أنَّه ليس في الشَّرع شيءٌ مجهولٌ لكلِّ أحدٍ؛ لقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾؛ فالشَّرعُ لا يُمكِنُ أن يكونَ خفيًّا على كلِّ أحدٍ، لكنَّه يخفى على الإنسانِ لأسباب: إمَّا قلَّة العِلم، وإمَّا قصورُ الفَهم، وإمَّا التَّقصيرُ في الطَّلب، وإمَّا سوءُ القصد، فهذه أربعةُ أسبابٍ لخفاءِ الحُكم الشَّرعيِّ على الإنسانِ[٥].

٣- كمالُ هذه الأمَّةِ وشريعتِها؛ لقوله: ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فما من خيرٍ كانت عليه الأُممُ إلَّا ولهذه الأمَّةِ منه نصيبٌ[١].

٤- تكرَّر ذِكْرُ التوبة في قول الله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ قيل: لأنَّ الشَّهوةَ لَمَّا كانت في هذا البابِ غالبةً فلا بدَّ أن تُوجِبَ ما يُوجِبُ التَّوبةَ، فكرَّر سبحانه وتعالى ذِكْرَ التوبةِ مرَّتين[٢].

٥- في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾أنَّ اليُسرَ أحبُّ إلى اللهِ من العُسرِ؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ففيه الحثُّ على اتِّباعِ رُخَصِ اللهِ؛ لأنَّ الرُّخَصَ من التَّيسيرِ[٣].

٦- أنَّه إذا تعارَضَتِ الأدلَّةُ عند المستدِلِّ بين التَّيسيرِ والتَّعسيرِ، فالْأَوْلى أن يؤخَذَ بالتَّيسيرِ؛ لأنَّ هذا هو مرادُ اللهِ عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾[٤].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وقولُه: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ وقولُه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ له مناسبةٌ حَسَنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا كان العبدُ له في هذا البابِ ثلاثةُ أحوالٍ: حالةُ جَهْلٍ بما يَحِلُّ له ويَحرُمُ عليه، وحالةُ تقصيرٍ وتفريطٍ، وحالةُ ضَعْفٍ وقِلَّةِ صَبْرٍ- قابَل سبحانه جهْلَ عبدِه بالبيانِ والهُدى، وتقصيرَه وتفريطَه بالتَّوبةِ، وضَعْفَه وقِلَّةَ صَبْرِه بالتَّخفيفِ، والله أعلم[٥].

٨- الإشارةُ إلى العلَّة بإرادةِ التَّخفيفِ على العبادِ، وهي قوله: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٣).
(٢) ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٠٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٩).

٩- أنَّ ما كان مكروهًا للعبدِ، فإنَّ الله يُعبِّرُ عنه بالبناءِ للمفعولِ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ولم يقُلْ: خلَق اللهُ، مع أنَّ ذِكرَ اللهِ واردٌ في الجملة الَّتي قبلها، ويؤيِّد هذا قولُ الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، ويؤيِّده أيضًا ما في سورة الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأضاف النِّعمةَ إلى اللهِ، وقال في الغضَب: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يقُلِ: الَّذين غضِبْتَ عليهم، مع أنَّ أوَّلَ مَن غضِب عليهم هو اللهُ عزَّ وجلَّ[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾: تذييلٌ قُصِد منه استئناسُ المؤمنين، واستنزالُ نفوسِهم إلى امتثالِ الأحكامِ المتقدِّمة من أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا؛ فإنَّها أحكامٌ جَمَّةٌ، وأوامرُ ونواهٍ تُفضي إلى خَلْعِ عوائِدَ أَلِفُوها، وصَرْفِهم عن شَهواتٍ استباحُوها، كما أشارَ إليه قولُه بعدَ هذا: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾[٢].

- وهو استئنافٌ مسُوقٌ لتقريرِ ما سبَق من الأحكام، وبيان كونها جاريةً على مناهجِ المهتدينَ من الأنبياءِ والصَّالحين[٣].

- وعبَّر بصيغةِ المضارعِ هنا ﴿يُرِيدُ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ البيانِ واستمرارِه؛ فإنَّ هذه التَّشريعاتِ دائمةٌ مستمرَّةٌ، فيكون بيانًا للمخاطَبينَ، ولِمَن جاء بعدَهم، وللدَّلالةِ على أنَّ الله يُبقي بعدها بيانًا متعاقبًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨-١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨-١٩).

- وزِيدت اللَّامُ في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾؛ للتَّأكيدِ على إرادةِ التَّبيينِ، وكذلك لتأكيدِ معنى الاستقبال اللَّازم للإرادة(١).

٢- **قوله**: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: فيه مبالغةٌ في الوصْفِ بالعِلم بالأشياء، الَّتي مِن جملتِها ما شرَع لكم من الأحكامِ، كما فيه مبالغةٌ في وصْفِه بمراعاةِ الحِكمةِ والمصلحة في جميعِ أفعالِه سبحانه(٢)، مع ما في جمْعِ الوصفينِ من الكَمالِ والمبالغةِ كذلك.

٣- **قوله**: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾: جملةٌ مسُوقةٌ لبيانِ كمالِ منفعةِ ما أراده اللهُ تعالى، وكمالِ مَضرَّةِ ما يريد الفجرةُ، لا لبيانِ إراداتِه تعالى لتوبتِه عليهم؛ حتَّى يكونَ مِن بابِ التَّكريرِ للتقريرِ؛ ولذلك غيَّر الأسلوبَ إلى الجملةِ الاسميَّة؛ للدَّلالةِ على دوامِ الإرادةِ(٣).

- وقد كرَّر قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بعدَ قولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ للتَّأكيدِ والمبالغةِ(٤)، وما في ذلك من سرور المؤمنين، وزيادة نشاطِهم في التَّعرُّضِ لتوبة الله عزَّ وجلَّ، وأيضًا توطئةً وتمهيدًا لقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ ...﴾، والمعنى أنَّ اللهَ له هذه الإرادةُ، وللَّذين يتَّبِعون الشَّهواتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٨- ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

تلك الإرادةُ[١]. وقيل: كَرَّر قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ ليُرتِّبَ عليه قولَه: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾؛ فليس بتأكيدٍ لفظيٍّ، وهذا كما يُعادُ اللَّفظُ في الجزاءِ والصِّفةِ ونَحوِها، كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَا﴾[٢] [القصص: ٦٣].

- وفي قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ تقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ على الخَبرِ الفِعليِّ ﴿يُرِيدُ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّخصيصِ الإضافيِّ، أي: اللهُ وحْدَه هو الذي يُريد أنْ يَتوبَ عليكم، وأمَّا الذين يَتَّبعون الشهواتِ فيُريدون انصرافَكم عن الحقِّ، ومَيْلَكم عنه إلى المعاصِي؛ ففي التعرُّضِ لإرادةِ الذين يتَّبعون الشَّهواتِ تنبيهُ المسلِمينَ إلى دَخائلِ أعدائِهم؛ ليَعْلَموا الفَرْقَ بَينَ مُرادِ اللهِ تعالى مِن الخَلْقِ، ومُرادِ أعوانِ الشياطينِ، وهم الذين يَتَّبِعون الشَّهواتِ[٣].

٤- **قوله**: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مسُوقٌ لتقريرِ ما قبله من التَّخفيفِ بالرُّخصةِ في نكاحِ الإماء، وليس لضعفِ البِنية مدخلٌ في ذلك، وإنَّما الَّذي يتعلَّقُ به التَّخفيفُ في العبادات الشَّاقَّة[٤]، ففيه إظهارٌ لمزيَّةِ هذا الدِّينِ، وأنَّه أليقُ الأديانِ بالنَّاسِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ ولذلك فما مضى من الأديانِ كان مُراعًى فيه حالٌ دون حالٍ[٥]، وحُذِفَ الفاعلُ للعلم به؛ فإنَّ الخالقَ هو الله عزَّ وجلَّ، وذلك معلومٌ بالضَّرورةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النِّساء)) (١/ ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠- ٢١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٩).

- **وقوله**: ﴿ضَعِيفًا﴾ فيه التَّعبيرُ باسمِ ما يؤولُ إليه، أو باسْمِ أصلِه[١].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٧).

الآيات (٢٩ - ٣١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿نُصۡلِيهِ نَارٗا﴾: نُدخِله فيها، ونَشويه بها؛ يقال: صَلَى النارَ، أي: دخَل فيها، وأصلُ (الصَّلَى): الإيقادُ بالنَّار [(١)].

﴿نُكَفِّرۡ﴾: أي: نَغْفِر، ونَمحُ، ونستُر، وأصْل الكَفْر في اللُّغة: سَتْر الشَّيءِ وتَغطيتُه[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَوْله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾.

﴿تِجَٰرَةً﴾: قُرِئت بالنَّصب، وبالرَّفْع؛ فعلى قِراءة النَّصبِ يكون قوله: ﴿تِجَٰرَةً﴾ خبرَ ﴿تَكُونَ﴾، ويكون اسم ﴿تَكُونَ﴾ مُضمرًا فيها، تَقْديره: إِلَّا أنْ تكون الأموالُ أموالَ تِجَارَةٍ، ثمَّ حذف المُضَاف، وَأقَام الْمُضَاف إليه مقَامه، وَقيل: تَقْدِيره إِلَّا أنْ تكون التِّجَارَةُ تِجَارَةً، وَالتَّقْدِير الأوَّل أحسن؛ لتقدُّم ذِكرِ الْأَمْوَال. وأمَّا على قِراءة الرفع، فيكون قوله: ﴿تِجَٰرَةً﴾ فاعلًا، بَجَعْل ﴿

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٢).

تَكُونَ ﴾ تَامَّة بِمَعْنى يَقَع، ومثلُ قولِه: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾ قَولُه: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ فِي النَّصب والرفع. والاستثناءُ هنا منقطِعٌ لوجهينِ؛ أحدُهما: أنَّ التِّجارةَ لم تندَرِجْ في الأموالِ المأكولةِ بالباطلِ حتى يُستثنَى عنها، والثاني: أنَّ المُسْتَثنى كَوْنٌ، والكونُ ليس مالًا من الأموالِ[1].

المَعْنى الإجماليُّ:

ينهى اللهُ المؤمنين أن يأخذ بعضُهم أموالَ بعضٍ بغيرِ حقٍّ، لكنْ إن كان ما يأخُذُه بعضُهم من بعضٍ عن طريقِ التِّجارةِ المبنيَّة على رضا المتبايِعَيْن، فذلك حلالٌ لهم، كما ينهاهم سبحانه عن أن يقتُلَ أحدُهم نفسَه، أو يقتُل أخاه في الدِّين، إنَّه سبحانه كان بهم رحيمًا.

ثمَّ توعَّد سبحانه مَن يأخُذ أموالَ النَّاس بالباطلِ، ويقتُلُ الأنفُسَ الَّتي حرَّمها الله تعالى بغير حقٍّ، متجاوزًا حدودَ الله عن قصدٍ وعلمٍ بكونه محرَّمًا، بأنه سيُحرِقه سبحانه بنارٍ يُدْخِله فيها، وكان ذلك أمرًا سهلًا على الله.

ثمَّ يخاطِبُ اللهُ عباده: أنَّهم إن يبتعدوا عن الوقوع في كبائر السَّيِّئاتِ الَّتي نهى عنها، فإنَّ الله سيتجاوزُ عمَّا يصدُرُ منهم من صغائرِها، ويُدخِلُهم الجنَّةَ دارَ كرامَتِه.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى كيفيَّةَ التَّصرُّف في النُّفوسِ بالنِّكاحِ، بيَّن كيفيَّةَ التَّصرُّفِ في

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٦٣-٦٦٤).

الأموالِ المُوصِلَةِ إلى النِّكاح، وإلى مِلْكِ اليمينِ، وأنَّ المهورَ والأثمانَ المبذولةَ في ذلك لا تكونُ ممَّا مُلِكَت بالباطِلِ[١].

وأيضًا لَمَّا كان غالبُ ما مضى من السُّورة في معاملةِ اليتامى والأقارب والنِّساء، وسائر النَّاس، من أحكامٍ في المواريثِ والنِّكاحِ، وما يُفرَض للنساء وما يجب مِن إيتائِهنَّ أجورَهنَّ، ومن أوامرَ بإيتاءِ ذي الحقِّ في المال حقَّه إلى غير ذلك، وكان مدارُ الكلامِ في تلك المعاملات على المال، وبعد ذِكرِ تلك الأنواعِ من الحقوقِ الماليَّةِ ذكَرَ قاعدةً عامَّةً للتَّعاملِ الماليِّ، وتشريعًا عامًّا في الأموال والأنفُسِ[٢] فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، لا يأخُذْ بعضُكم أموالَ بعضٍ بغيرِ حقٍّ، من وسائلِ الكَسْبِ المحرَّمةِ؛ كالرِّبا والقِمارِ، وغيرِ ذلك من الأمور الَّتي نهاكم اللهُ عزَّ وجلَّ عنها[٣].

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ ﴾.

أي: لكنْ إن كان هذا المالُ الَّذي يأخذُه بعضُكم من بعضٍ، إنَّما يؤخَذُ بسببِ تجارةٍ صادرةٍ عن رضًا بين المتبايِعَيْنِ منكم، فذلك حلالٌ لكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢٦، ٦٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٣٦، ٦٣٧) واقتصر في معنى الآية على النهي على أن يقتلَ بعضُ المسلمين بعضًا، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٨-٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥١-٢٥٣).

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

أنَّ المال لَمَّا كان عديلَ الرُّوح، ونهى عن إتلافِه بالباطلِ، نهى عن إتلافِ النَّفسِ؛ لكونِ أكثرِ إتلافِهم لهما بالغارات لنَهْبِ الأموالِ، وما كان بسببها أو تسبيبها، على أنَّ مَن أُكِل مالُه ثارت نفسُه، فأدَّى ذلك إلى الفِتَن الَّتي ربَّما كان آخرَها القتلُ، فكان النَّهيُ عن ذلك أنسبَ شيءٍ لِما بُنِيَتْ عليه السُّورةُ من التَّعاطُفِ والتَّواصلِ[(١)].

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.

أي: لا يقتُلْ أحدُكم نفسَه الَّتي بين جنبيه، ولا يُلقِ بنفسه إلى التَّهلُكة، بفعلِ ما يُفضي إلى التَّلَف، ولا يقتُلْ أيضًا أخاه في الدِّين، (فمن قتَل غيرَه من إخوانِه في الدِّين، فكأنَّما قتَل نفسَه؛ لأنَّهم أهلُ دِينٍ واحدٍ)[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣].

وعن ثابت بن الضَّحَّاكِ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((... ومَن قَتَلَ نفسَهُ بشيءٍ في الدُّنيا، عُذِّبَ بِه يومَ القيامةِ))[(٣)].

وعن أبي هريرة رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَنْ

قال ابن كثير: (ومن تمام التَّراضي، إثبات خيار المجلس، كما ثبت في الصحيحين [خ: ٢٠٧٩، م: ١٥٣٢]، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرَّقا» وفي لفظ البخاري [٢١١٢]: «إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا»). ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٣٧)، ((تفسير السعدي)) (١/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥٣-٢٥٤).

(٣) رواه البخاري (٦٠٤٧) واللفظ له، ومسلم (١١٠).

قتَلَ نفسَهُ بحديدَةٍ، فحديدتُهُ في يدِهِ يتوَجَّأُ[١] بها في بطنِهِ في نارِ جهنَّمَ، خالدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا، ومَنْ شرِبَ سمًّا فقتَلَ نَفْسَهُ، فهو يتحسَّاهُ[٢] في نارِ جهنَّمَ، خالدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جبَلٍ فقتَلَ نفسَهُ، فهو يتردَّى في نارِ جهنَّمَ، خالدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا))[٣].

وعن جُندُبِ بنِ عبد الله رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((كان فيمن كان قبلكم رجلٌ به جرحٌ، فجَزِع، فأخَذ سِكِّينًا فحزَّ[٤] بها يدَه، فما رقأ الدَّمُ[٥] حتَّى مات، قال اللهُ تعالى: بادَرني عبدي بنفسِه[٦]، حرَّمتُ عليه الجنَّةَ))[٧].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((اجتنِبُوا السَّبعَ الموبِقاتِ. قالوا: وما هنَّ؟ قال: الشِّركُ بالله، والسِّحر، وقتلُ النَّفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ)).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو رحمةٍ بكم أيُّها العبادُ، ومن رحمتِه سبحانه بِكُم: أنْ نهاكم عن قتلِ نفوسِكم، وعن إتيانِ ما فيه هلاكُها، ومن رحمتِه أيضًا: أنْ حرَّم دماءَ بعضِكم على بعضٍ إلَّا بحقِّها، وحظَر أَخْذَ أموالِ بعضِكم من بعضٍ بالباطل، إلَّا عن تجارةٍ برضًا وطِيبِ نفسٍ، ولولا ذلك لهلَكْتم، ولأهلَك بعضُكم بعضًا،

(١) يتوجَّأ: يَطْعُنُ. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٢١)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢٤٨).
(٢) يتحسَّاه: يَشْرَبُه في تمهُّلٍ، ويتجَرَّعُه. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٢١).
(٣) رواه مسلم (١٠٩).
(٤) فحزَّ بها يدَه: الحزُّ: هو القطعُ بغيرِ إبانةٍ. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٩٩).
(٥) فما رَقَأَ الدم: أي: لم ينقَطِعْ. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٥٠٠).
(٦) بادَرَني عبدي بنَفْسِه: هو كنايةٌ عن استعجالِ المذكورِ الموتَ. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٥٠٠).
(٧) رواه البخاري (٣٤٦٣) واللفظ له، ومسلم (١١٣).

قتلًا وسلبًا وغصبًا[١].

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا ﴾.

أي: إنَّ مَن يأكُل أموالَ النَّاس بالباطل، ويقتُل النُّفوسَ الَّتي حرَّم اللهُ تعالى قتلها بغير حقٍّ، متجاوزًا بذلك حدودَ الله تعالى إلى ما حرَّمه، ومتجاسرًا على انتهاكِ ذلك، عن قصدٍ وعلمٍ بتحريمِه، لا عن جهلٍ أو نسيانٍ[٢].

﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ﴾.

أي: فسوف ندخِلُه نارًا عظيمةً تُحرِقه[٣].

﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾.

أي: إنَّ إدخالَه النَّارَ وإحراقَه بها، أمرٌ سهلٌ على الله تعالى، لا يمتنعُ عليه[٤].

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥٩١-٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٤٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦٠).

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى الوعيدَ على فِعلِ بعضِ الكبائر، ذكَر الوعدَ على اجتنابِ الكبائر؛ تبشيرًا للمُجتنب، كأنَّ قائلًا قال عن الوعيدِ المذكور: هذا للفاعل، فما للمُجتنِبِ؟ فقال على وجهٍ عامٍّ[١]:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾.

أي: إذا ابتعدْتُم عن كبائرِ السَّيِّئاتِ الَّتي نُهِيتم عنها[٢].

﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

أي: فإنَّ اللهَ تعالى يتجاوَزُ لكم عن صغائرِ الذُّنوبِ[٣].

﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

أي: ونُدخِلْكم الجنَّةَ[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أضاف الأموالَ إلى الجميعِ، فلم يقُلْ: لا يأكُلْ بعضُكم مالَ بعضٍ؛ للتَّنبيهِ على تكافُلِ الأمَّةِ في حقوقِها ومصالحِها، كأنَّه يقولُ: إنَّ مالَ كلِّ واحد

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٦١)..

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦١- ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦٢).

قال ابنُ عثيمين: (نُدخلكم في مكانِ دخولٍ كريم، بناءً على أنَّ مدخلَ هنا اسمُ مكانٍ، ويجوزُ أن يكونَ مصدرًا ميميًّا، أي: ندخلكم إدخالًا كريمًا، ويجوزُ أن يرادَ بها هذا وهذا، أي: أنَّ الكريمَ وصفٌ للإدخالِ ولمكانِ الدخولِ).

منكم هو مالُ أمَّتِكم، فإذا استباح أحدُكم أن يأكُلَ مالَ الآخَرِ بالباطل، كان كأنَّه أباح لغيرِه أكلَ مالِه، وهَضْمَ حقوقِه؛ لأنَّ المرءَ يُدانُ كما يَدِينُ[١].

٢- يُستفادُ أيضًا من إضافةِ الأموالِ للجميع في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ أنَّ صاحبَ المالِ الحائزَ له يجبُ عليه بذلُه- أو البذلُ منه- للمحتاجِ، فكما لا يجوزُ للمحتاج أن يأخُذَ شيئًا من مالِ غيرِه بالباطل- كالسَّرقةِ والغَصْبِ- لا يجوزُ لصاحبِ المال أن يبخَلَ عليه بما يحتاجُ إليه[٢].

٣- أنَّ مِن مقتضى الإيمانِ تجنُّبَ أكلِ المالِ بالباطل؛ لأنَّه وجَّه الخطابَ إلى المؤمنين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ تحريمُ التَّعامُلِ المحرَّمِ، ولو كان برِضًا من الطَّرَفينِ؛ لأنَّ التَّعاملَ المحرَّمَ أكلٌ للمالِ بالباطل، وعلى هذا فلو تراضى الطَّرفانِ على تعامُلٍ رِبويٍّ فإنَّ ذلك محرَّمٌ[٤].

٢- الأصلُ في العقودِ هو التَّراضي المذكورُ في قَوْلِه سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ ﴾[٥].

٣- يؤخَذُ من قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ ﴾ أنَّه تنعقِدُ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٤/ ٥).

العقودُ بما دلَّ عليها من قولٍ أو فِعل؛ لأنَّ اللهَ شرَط الرِّضا، فبأيِّ طريقٍ حصَل الرِّضا انعقَد به العقدُ[١].

٤- في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾: خصَّ التِّجارة بالذِّكرِ؛ لأنَّ أسبابَ الرِّزق أكثرُها متعلِّقٌ بها[٢].

٥- ذهب جمهورُ الفقهاء إلى عدم جوازِ التَّسعيرِ في الأحوال العاديَّة التي لا يظهَرُ فيها ظُلمُ التجَّار ولا غَلاءٌ في الأسعار، مستدِلِّينَ بقول الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ ووجه الدَّلالة في الآيةِ الكريمة أنَّ النَّاسَ مُسَلَّطون على أموالِهم، والتَّسعيرُ حَجْرٌ عليهم، والإمامُ مأمورٌ برعاية مصلحة المسلمينَ، وليس نظَرُه في مصلحةِ رُخْصِ الثَّمْن أَوْلى مِن نَظَرِه في مصلحة البائِعِ بتوفير الثَّمَن، وإذا تقابل الأمران وَجَب تمكينُ الفريقين من الاجتهادِ لأنفُسِهم، وإلزامُ صاحِبِ السِّلعةِ أن يبيعَ بما لا يرضى به مُنافٍ لقَوْلِ الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[٣].

٦- أنَّ الله عزَّ وجلَّ أرحمُ بالإنسانِ من نفسِه؛ لأنَّه نهاه أن يقتُلَ نفسَه، فصار أرحَمَ به مِن نفسِه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[٤].

٧- أنَّ فِعلَ المنهيَّاتِ المذكورةِ في الآية من كبائر الذُّنوب؛ لأنَّه تُوُعِّدَ عليه بالنَّارِ، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ وكلُّ ذنْبٍ تُوُعِّدَ عليه بالنَّارِ فهو من كبائرِ الذُّنوب[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦١٠).

(٣) ((الحسبة)) لابن تيمية (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦٠).

٨- دلَّتْ إضافةُ ﴿كَبَآئِرَ﴾ إلى ﴿مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ على أنَّ المنهيَّاتِ قسمان: كبائر، ودونها، وهي الَّتي تُسمَّى الصَّغائر، وصفًا بطريقِ المقابلةِ، وقد سُمِّيت هنا سيِّئات[١].

٩- قوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ فيه تفاضُلُ النَّاسِ في الإيمانِ، وجهُه: أنَّ الإيمانَ يزدادُ بزيادة العملِ كَمِّيَّةً أو كيفيَّة أو نوعًا، وهنا قسَّم اللهُ المعاصيَ إلى قسمينِ، وكلَّما كان الإنسانُ في معصيةٍ أشدَّ، كان إيمانُه أنقَصَ وأقلَّ، فيؤخَذُ منه أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقُصُ، وهذا هو الَّذي عليه جمهورُ أهلِ السُّنَّة، بدليلِ الكتاب والسُّنَّةِ والواقع[٢].

١٠- أنَّ الصَّغائرَ تقعُ مُكفَّرةً باجتنابِ الكبائرِ؛ لقوله: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾، أي: فإن لم يَجتنِبِ الكبائرَ أُخِذَ بالصَّغائرِ، لكنَّ الكبائرَ والصَّغائرَ تحت المشيئةِ ما لم تكُنْ كفرًا[٣].

١١- سَعةُ فَضلِ الله سبحانه؛ وذلك بتكفير السَّيِّئاتِ باجتنابِ كبائرِ الذُّنوب، وإلَّا لو جازى النَّاسَ بالعدل لعاقَبهم على الصَّغائر وعلى الكبائرِ، كلٌّ منها بحسَبِه؛ فالكبائرُ عقوبتُها شديدةٌ، والصَّغائرُ دون ذلك، ولكن مِن فَضْله عزَّ وجلَّ جعَل الصَّغائرَ مُكفَّرةً باجتنابِ الكبائرِ[٤].

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ فيه إشارةٌ بألطفِ دَلالةٍ وأدقِّها وأحسنِها إلى أنَّه مَن اجتنبَ الشِّركَ جميعَه كُفِّرتْ عنه كبائِرُه، وأنَّ نِسبةَ الكبائرِ إلى الشِّركِ كنِسبةِ الصَّغائرِ إلى الكبائرِ، فإذا وقعتِ الصَّغائرُ مُكفَّرةً باجتنابِ الكبائرِ، فالكبائرُ تقَعُ مكفَّرةً بإذن الله تعالى باجتنابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥).

الشِّركِ[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: فيه تصديرُ الخِطاب بالنِّداءِ والتَّنبيهِ بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾؛ لإظهارِ كمال العناية بمَضمونِه[٢]، مع ما في وصْفِ الإيمانِ من التَّرغيبِ في الامتثالِ اللَّائقِ بأهلِ هذا الوَصْفِ.

٢- **قوله:** ﴿ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾: خصَّ الأكلَ ها هنا بالذِّكرِ، وإنْ كانت سائرُ التَّصرُّفات الواقعةِ على الوجه الباطل محرَّمةً؛ لأنَّ المقصودَ الأعظمَ من الأموال: الأكلُ؛ إذ إنَّ الأكلَ يعبَّرُ عنه في الانتفاعِ بالشَّيء انتفاعًا تامًّا، لا يعود معه إلى الغير؛ فأكلُ الأموالِ هو الاستيلاءُ عليها بنيَّةِ عدمِ إرجاعها لأربابها، وغالب هذا المعنى أن يكونَ استيلاءَ ظُلمٍ، وقد يُطلقُ على الانتفاعِ المأذون فيه؛ ولذلك غلَب تقييدُ المنهيِّ عنه من ذلك بقيدِ: «بالباطل» ونحوِه[٣].

٣- **قوله:** ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم ... وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: فيه تقديمُ النَّهيِ عن أكلِ الأموالِ على النَّهيِ عن قتلِ الأنفُس، مع أنَّ الثَّانيَ أخطرُ، إمَّا لأنَّ مناسبةَ ما قبله أفضَتْ إلى النَّهيِ عن أكلِ الأموالِ، فاستحقَّ التَّقديمَ لذلك، وإمَّا لأنَّ المخاطَبين كانوا قريبي عهدٍ بالجاهليَّةِ، وكان أكلُ الأموالِ أسهلَ عليهم، وهم أشدُّ استخفافًا به منهم بقتلِ الأنفُس؛ لأنَّه كان يقعُ في مواقعِ الضَّعف، حيث لا يدفَعُ صاحبُه عن نفسه؛ كاليتيمِ والمرأةِ والزَّوجة؛ فآكِلُ أموالِ هؤلاء في مأمنٍ من التَّبعاتِ، بخلاف قَتْلِ النَّفس؛ فإنَّ تبِعاتِه لا يسلَمُ منها أحدٌ، وإن بلَغ من

(١) ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣)

الشَّجاعةِ والعزَّة في قومه كلَّ مبلغٍ[١].- أو لأنَّه أكثرُ وقوعًا، وأفشى في النَّاس من القتلِ، لا سيَّما إن كان المرادُ ظاهرَ الآية، مِن أنَّه نهى أن يقتُلَ الإنسانُ نفسَه، فإنَّ هذه الحالةَ نادرةٌ[٢]. ويُمكن أنْ يكونَ ذلِكَ من بابِ التدرُّجِ مِن الأدْنى إلى الأعْلى- كما هو الغالِبُ.

- والتَّعبير عنهم بالأنفُسِ؛ للمبالَغةِ في الزَّجرِ عن قتلِهم؛ بتصويرِه بصورةِ ما لا يكادُ يفعَلُه[٣].

٤- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا﴾: تعليلٌ للنَّهي بطريق الاستئنافِ، أي: مبالِغًا في الرَّحمة والرَّأفةِ؛ ولذلك نهاكم عمَّا نهى؛ فإنَّ ذلك رحمةٌ عظيمةٌ لكم بالزَّجرِ عن المعاصي، وللَّذين هم في مَعرِضِ التعرُّضِ لهم بحفظِ أموالِهم وأنفسِهم[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٤)
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٢ - ٣٥)

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿مَوَٰلِىَ﴾: أولياء، وهم الورَثة، أو العَصَبة، ويُطلَق المولى على ابنِ العَمِّ والحليف وغير ذلك، وأصل (وَلِي): قَرُب[1].

﴿عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: الأيمانُ: جمعُ يمين، وهو الحَلِف، وعقدُ اليمين: توثيقُها باللَّفظ مع العزمِ عليها، وأصل (عقد): يدلُّ على شدٍّ، وشدَّةِ وُثوقٍ[2].

المَعْنى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ عباده عن تمنِّي ما فضَّلَ به بعضَهم على بعضٍ، مخبرًا أنَّ لكلٍّ من الرِّجالِ والنِّساء جزاءً على ما عمِلوه، إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشرٌّ، ثمَّ أرشَدهم إلى ما هو خيرٌ لهم، فأمَرهم أن يسألوا اللهَ من فضلِه ليُعطيَهم، فهو سبحانه بكلِّ شيءٍ عليم.

ثمَّ أخبر تعالى أنَّه قد جعل لكلِّ إنسان عَصَبةً يرِثونه بعد موته، فيقتسمون ما حصَل هو عليه وراثةً من أبيه وأمِّه وأقاربه، والَّذين بينكم وبينهم ولاءُ حِلْفٍ

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عُبَيدة (١/ ١٢٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٤١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٨٦).

معقودٌ بالأيمانِ المؤكَّدة، فأعطوهم نصيبَهم من الميراثِ، وهذا الحكم قد نُسِخَ. ثم أخبر الله تعالى أنه مُطَّلِعٌ ورقيبٌ على كلِّ شيءٍ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نهاهم الله تعالى في الآيةِ المتقدِّمةِ عن أكْلِ الأموال بالباطل، وعن قتلِ النَّفسِ، نهاهم عن تمنِّي ما فضَّل اللهُ به بعضَهم على بعضٍ؛ فإن التَّمنِّيَ يحبِّبُ للمتمنِّي الشَّيءَ الَّذي تمنَّاه، فإذا أحبَّه أتبَعَه نفسَه، فرَامَ تحصيلَه، وافتَتَن به ووقَع في الحسدِ، وإذا وقَع في الحسدِ وقَع لا محالةَ في أخذِ الأموالِ بالباطلِ، وفي قتْل النُّفوس، فلم يكتفِ بالنَّهيِ عن تحصيلِ المالِ بالباطلِ وقتلِ الأنفُس، حتَّى نهى عن السَّببِ المحرِّضِ على ذلك.

وأيضًا فإنَّ أخذَ المالِ بالباطل، وقَتْلَ النَّفس، من أعمالِ الجوارحِ، فأمَر أوَّلًا بتركِهما؛ ليصيرَ الظَّاهرُ طاهرًا عن الأفعالِ القبيحة، ثمَّ أمَر بَعْده بتركِ التَّعرُّضِ لنفوس النَّاسِ وأموالِهم بالقلبِ على سبيل الحسدِ؛ ليصير الباطنُ طاهرًا عن الأخلاقِ الذَّميمةِ، وليوافِقَ العملُ القلبيُّ العملَ الخارجيَّ، فيستويَ الباطنُ والظَّاهرُ في الامتناعِ عن الأفعالِ القبيحةِ[1].

سَببُ النُّزول:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٨).

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((أتت امرأةٌ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقالت: يا نبيَّ اللهِ، للذَّكَرِ مِثلُ حظِّ الأُنثيَيْنِ، وشَهادةُ امرأتينِ برجُلٍ، أفنحن في العملِ هكذا؟ إن عمِلَتِ المرأةُ حسنةً كُتِبَت لها نصفَ حسنةٍ! فأنزَل اللهُ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ ...﴾ الآية))[١].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾

أي: لا تطمَعوا في أمرٍ قد فضَّل اللهُ تعالى به بعضَكم على بعضٍ؛ كالجهادِ والعِلم، والمال، والولد، وغيرِ ذلك من أمور الدِّين أو الدُّنيا[٢].

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾

أي: كلٌّ له جزاءٌ على عمله بحسَبِه، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ[٣].

﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٢٢٣)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (١١٥). وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧١).

قال ابنُ كثير: (ولا يَرِدُ على هذا ما ثبَتَ في الصحيح: «لا حسدَ إلا في اثنتين: رجل آتاه اللهُ مالًا فسلَّطه على هلكتِه في الحقِّ، فيقول رجلٌ: لو أنَّ لي مثل ما لفلانٍ لعملتُ مثلَه. فهما في الأجرِ سواءٌ»؛ فإنَّ هذا شيءٌ غيرُ ما نهت الآية عنه؛ وذلك أنَّ الحديث حضَّ على تمنِّي مثلِ نعمةِ هذا، والآية نهت عن تمنِّي عينِ نعمةِ هذا) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٧).

وقال ابنُ رجب في معنى الآية: (فُسِّر ذلك بالحسد، وهو تمني الرجلِ نفسَ ما أُعطي أخوه مِن أهلٍ ومالٍ، وأن ينتقلَ ذلك إليه، وفسِّر بتمنِّي ما هو ممتنعٌ شرعًا أو قدرًا، كتمني النساء أن يكنَّ رجالًا، أو يكونَ لهنَّ مثل ما للرجالِ من الفضائل الدينية، كالجهادِ، والدنيوية، كالميراثِ والعقلِ والشهادةِ، ونحو ذلك. وقيل: إنَّ الآية تشملُ ذلك كلَّه) ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٧).

لَمَّا نهاهم اللهُ تعالى عن تمنِّي ما فضَّل به بعضَهم على بعض؛ لأنَّه أمرٌ محتوم، والتَّمنِّي فيه لا يُجدي شيئًا، أرشَدهم إلى ما يُصلحُهم، فقال[١]:

﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْـلِهِۦٓ﴾.

أي: ولكنِ اسألوا الله تعالى من فضله ليُعطيَكم؛ فإنَّه الكريمُ الوهَّاب جلَّ جلالُه[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو علمٍ بكلِّ شيء، ومن ذلك علمُهُ بمن يستحقُّ أن يعطيَه من فضلِه، وبمن يستحقُّ الحِرمان؛ وذلك كقَصرِه القتالَ في سبيله على الرجال؛ لعِلمِه بأنَّهم أقدَرُ عليه وأصلَحُ له[٣].

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، عطَف عليها هذه الجملةَ باعتبارِ كونِه جامعًا لمعنى النَّهي عن الطَّمعِ في مال صاحب المال،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٢- ٢٧٣).

قال ابن عثيمين: (فمثلًا: إذا رأيت شخصًا قد فضلك في المالِ فلا تتمنَّ هذا المالَ الذي أعطاه الله هذا الرجلَ، ولكنِ اسأل الله من فضله، وإذا وجدت رجلًا فضلك في العلمِ فلا تتمنَّ هذا العلمَ الذي أعطاه الله غيرَك، ولكنِ اسألِ اللهَ مِن فضلِه ودعْ علمَه ومالَه يبقَى له) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: (تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨١).

قُصِد منها استكمالُ تبيينِ مَن لهم حقٌّ في المال[١].

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾.

أي: قد جعَل اللهُ تعالى لكلِّ واحدٍ منكم أيُّها النَّاسُ عَصَبةً، كإخوتِه وبني عمِّه، يرِثونه ممَّا ورِثه هو مِن أبيه وأمِّه، وسائرِ قَرابتِه[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾.

النَّاسخ والمَنسوخ:

قيل: هذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وهذا قولُ جمهورِ العلماء[٣]، وقيل: هي مُحكَمةٌ[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾.

قيل: المعنى: وأمَّا الَّذين بينكم وبينهم ولاءُ حِلفٍ معقودٌ بالأيمانِ المؤكَّدة، فأعطوهم نصيبَهم من الميراثِ[٥].

وقيل: المرادُ: أعطوهم نصيبَهم من النُّصرةِ والمناصَحةِ، ونحوِ ذلك[٦].

عن ابنِ عباسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ قال: وَرَثَةً، ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾: كان المُهاجِرونَ لَمَّا قَدِموا المدينةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٣٣).

(٢) يُنظر: (تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٣٦٩).

(٤) وممن ذَهب إلى أنَّها محكمةٌ: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٦/ ٦٧٣، ٦٨٦).

(٥) وهذا اختيارُ الواحديِّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤)، وابُن كثيرٍ في ((تفسيره)) (٢/ ٢٨٨، ٢٩٢)، وابنُ عثيمينَ في ((تفسير سورة النساء)) (١/ ٢٨٢).

(٦) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٦/ ٦٧٣، ٦٨٦)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٧٦).

يَرِثُ المُهاجِرَ الأنصارِيُّ دون ذوي رحِمِه، للأخوَّةِ الَّتي آخَى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بينهم، فلمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ نُسِخَتْ، ثمَّ قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: من النَّصرِ والرِّفادَةِ[١] والنَّصيحةِ، وقد ذهَب المِيراثُ، ويوصِي له))[٢].

وعن جُبَير بن مُطعِمٍ رضِي اللهُ عنه، أنَّه قال: ((لا حِلفَ[٣] في الإسلامِ، وأيُّما حِلفٍ كانَ في الجاهليَّةِ، لم يزِدْه الإسلامُ إلَّا شِدَّةً))[٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ رقيبٌ، شاهدٌ لا يغيبُ عنه شيءٌ، ومطَّلعٌ على كلِّ شيء؛ وذلك بعِلمِه لجميعِ الأمور، وبصَرِه لحركاتِ عبادِه، وسمعِه لجميع أصواتِهم، ومن ذلك: اطِّلاعُه عليكم- أيُّها المؤمنون- في مسألةِ إيتاء الموالي بالحِلفِ نصيبَهم، فيعلَم هل تؤتونهم ذلك أو لا؛ ولذا فاحذَروا من مخالفةِ أمرِه جلَّ وعلا[٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- نهيُ الإنسانِ أن يَتمنَّى ما فضَّل اللهُ به غيرَه عليه؛ لقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾، وهذا النَّهي للتَّحريمِ؛ لأنَّ هذا النَّوع مِن التَّمنِّي هو الحسَدُ بعينه؛ لأنَّه قال: ﴿مَا

---

(١) الرِّفادة- بكَسْرِ الرَّاء- هي الإعانةُ والإعطاء، ورِفادة قُرَيش: تعاونُها على ضِيافةِ الحاجِّ. ينظر: ((مطالع الأنوار)) لابن قرقول (٣/ ١٧٣)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٤٢)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٨/ ١٧٠).

(٢) رواه البخاري (٤٥٨٠).

(٣) الحِلْفُ: هو المعاقدةُ والمعاهدةُ على التَّعاضُدِ والتَّساعُدِ والاتِّفاق. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٤٢٤).

(٤) رواه مسلم (٢٥٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨٣)، وينظر أيضًا: ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٥).

فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾[١]، وقد كان أوَّلُ جُرمٍ حصَل في الأرض نشأ عن الحسدِ، ولقد كثُر ما انتُهِبَتْ أموالٌ، وقُتِلت نفوسٌ؛ للرَّغبةِ في بسطةِ رزقٍ، أو فتنةِ نساء، أو نَوالِ مُلك، والتَّاريخُ طافحٌ بحوادثَ من هذا القَبيلِ[٢].

٢- قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ ...﴾ عامٌّ في النَّهيِ عن تمنِّي ما فضَّل اللهُ بعضَ المؤمنين على بعضٍ من أيِّ أنواعِ التَّفضيلِ؛ في الوظيفةِ والمكانة، وفي الاستعداداتِ والمواهبِ، وفي المال والمتاعِ، وفي كلِّ ما تتفاوَتُ فيه الأنصبةُ في هذه الحياة، لكن يجوزُ أن يتمنَّى الإنسانُ مِثلَ ما فضَّل اللهُ به غيرَه عليه، وجْهُه قوله: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، فنحن لا نقول لك: لا تتمَنَّ أن يعطيَك اللهُ مثلما أعطى فلانًا، بل نقول: لا بأس، ولكن لا تتمَنَّ ما أعطاه اللهُ فلانًا، وبينهما فرق[٣].

٣- إذا مَنَعَ اللهُ عبادَه المؤمنين شيئًا تتعلَّقُ به إرادَتُهم، فتح لهم بابًا أنفعَ لهم منه، وأسهَلَ وأَوْلَى، وهذا من لُطْفِه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ فنهاهم عن تمنِّي ما ليس بنافعٍ، وفتَحَ لهم أبوابَ الفَضْلِ والإحسان، وأمَرَهم أن يسألوه بلسانِ الحالِ[٤].

٤- سَعةُ فضلِ الله عزَّ وجلَّ وكرمِه؛ لقوله: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ فهو سبحانه لم يأمُرْنا بالسُّؤالِ إلَّا ليُعطيَنا؛ لأنَّه لو أمَرنا بالسُّؤالِ مِن غير أن يُعطيَنا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٤).
(٤) يُنظر: ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ١٢٤).

لكان هذا عبَثًا لا فائدةَ منه، ولكنَّه عزَّ وجلَّ كريمٌ، هو الَّذي يتعرَّضُ لعبادِه ويقول: اسألوني[١].

٥- التسليمُ بما حكَم اللهُ به شرعًا أو قدَرًا؛ وذلك لأنَّ العبدَ إذا علم أنَّه صادرٌ عن عِلمِ الله سلَّمت، وقال: لولا أنَّ المصلحةَ في وجود هذا الشَّيء ما فعَله اللهُ؛ لأنَّ اللهَ سبحانه لا يفعَلُ إلَّا عن علمٍ، فيَزيدُه هذا تسليمًا بما قضاه اللهُ شرعًا أو قدَرًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾[٢].

٦- يُستفاد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾وجوبُ مراقبةِ الله؛ لأنَّ العاقلَ إذا علِم أنَّ الله سبحانه عليمٌ به، فسوف يراقبُ ربَّه بلسانِه وجَنانِه وأركانه؛ بلسانِه: بألَّا يقولَ ما حرَّم اللهُ، وجَنانِه: بألَّا يعتقدَ شيئًا حرَّمه اللهُ، أو يقولَ شيئًا حرَّمه اللهُ بالقلب؛ لأنَّ قولَ القلب هو حركتُه وعملُه، وأركانه: جوارحه بألَّا يعملَ ما حرَّمه الله[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- حِكمةُ الله سبحانه في العطاءِ والمنع؛ حيث يفضِّلُ بعضًا على بعض، ولا شكَّ أنَّ هذا صادرٌ عن حِكمة، وليس مجرَّدَ اختيارٍ، خلافًا لِمَن أنكَر حكمةَ الله، وقال: إنَّ فِعلَه لمجرَّدِ الاختيار، بل هو لاختيارٍ صادرٍ عن حكمةٍ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾[٤].

٢- فضَّلَ اللهُ تعالى الذَّكَر على الأنثى في الميراثِ والدِّيَة والشَّهادة والعقيقةِ وغيرِ ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٧٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٧٤).

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ فكان من تفضيله الذَّكَرَ على الأنثى أن خُصَّ الذَّكرُ بجوازِ نكاحِ أكثَرَ من واحدةٍ، والله أعلم[(١)].

٣- إذا كان اللهُ تعالى في قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ نهى عن مجرَّد التمنِّي، فكيفَ بمَن يُنكر الفوارقَ الشرعيَّة بينَ الرَّجل والمرأةِ، ويُنادي بإلغائِها، ويطالبُ بالمساواةِ، ويدعو إليها باسمِ المساواةِ بينَ الرَّجل والمرأةِ؟ فهذه بلا شكٍّ نظريةٌ إلحاديةٌ؛ لما فيها مِن منازعةٍ لإرادةِ اللهِ الكونيَّة القدريَّة في الفوارقِ الخَلقيةِ والمعنويَّة بينهما، ومنابذةٍ للإسلامِ في نصوصِه الشرعيَّة القاطعةِ بالفرقِ بينَ الذَّكر والأُنثى في أحكامٍ كثيرةٍ. ولو حصَلت المساواةُ في جميعِ الأحكامِ مع الاختلافِ في الخِلقةِ والكِفايةِ؛ لكان هذا انعكاسًا في الفطرةِ، ولكان هذا هو عينَ الظلمِ للفاضلِ والمفضولِ، بل ظلمٌ لحياةِ المجتمعِ الإنسانيِّ، لما يلحقُه مِن حرمانِ ثمرةِ قُدراتِ الفاضلِ، والإثقالِ على المفضولِ فوقَ قدرتِه، وحاشا أن يقعَ مثقالُ خردلةٍ مِن ذلك في شريعةِ أحكمِ الحاكمينَ[(٢)].

٤- إثباتُ أنَّ الأحكامَ تدورُ مع عِلَلِها؛ لقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾؛ فنصيبُ الرِّجال يليقُ بهم، ونصيبُ النِّساء يليقُ بهنَّ[(٣)].

٥- أنَّ إثباتَ الإرثِ يكونُ بالنَّسَبِ والسَّببِ: بالنَّسَبِ؛ لقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ

(١) ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٤١).
(٢) ينظر: ((حراسة الفضيلة)) لبكر أبو زيد (ص: ٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٤).

ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾، وبالسَّبب؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾، فإنَّ هذا سببُه فعلُ الإنسان؛ كالزَّوجيةِ؛ فإنَّها سببٌ، وليست بنسَبٍ، والإرث بالعِتق سببٌ، وليس بنسَبٍ(١).

٦- قوله: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ هذه كلمةٌ واسعة، ولم يقُلِ: القَرابات، بل قال: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾؛ لأنَّ الميراثَ يكونُ للأقربِ فالأقرب، حتَّى ذوو الفروضِ يُفضَّل الأقربُ على الأبعد؛ فالبِنتُ مع بنتِ الابنِ لها النِّصفُ، ولبنتِ الابنِ السُّدسُ، والبنتان يُسقطانِ بناتِ الابنِ، والأختُ الشَّقيقةُ مع الأختِ لأبٍ لها النِّصفُ، والأختان الشَّقيقتانِ تُسقطانِ الأخواتِ لأبٍ، وهلُمَّ جرًّا؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ أي: الأقربُ فالأقربُ(٢).

٧- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ إثبات اسم الشَّهيد لله(٣).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾: إن أُريدَ بذِكر الرِّجال والنِّساء هنا قصْدُ تعميمِ النَّاسِ، مثلما يذكر: المشرِق والمغرِب، والبَر والبحر، فالنَّهيُ عن تَمنِّي ما فَضَّل اللهُ به الرِّجالَ على النِّساءِ على عُمومِه، وتكونُ جملةُ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ مسُوقةً مَساقَ التَّعليلِ للنَّهيِ عن التَّمنِّي؛ قطعًا لعُذرِ المتمنِّين، وتَأنيسًا بالنَّهيِ؛ ولذلك فُصِلت- أي: لم تُعطَفْ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٧).

بالواوِ على الَّتي قبلها. وإن أُريدَ بالرِّجال والنِّساء كلٌّ مِن النَّوعينِ بخُصوصِه، بمعنى: أنَّ الرِّجال يَختصُّون بما اكتسَبوه، والنِّساء يَختصِصْن بما اكتسَبْنَ من الأموالِ، فالنَّهيُ المتقدِّمُ مُتعلِّقٌ بالتَّمنِّي الَّذي يُفْضي إلى أكْلِ أموال اليتامَى والنِّساءِ، أي: ليس للأولياءِ أكْلُ أَموالِ مواليهم وولاياهم؛ إذ لكلٍّ مِن هؤلاءِ ما اكتَسَب، وتكونُ هذه الجملةُ عِلَّةً لجملةٍ محذوفةٍ دلَّت هي عليها، تَقديرُها: ولا تتمنَّوْا فتأكُلوا أموالَ مواليكم[١].

- وعبَّر بالاكتِسابِ في قوله: ﴿مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْ﴾ **وقوله:** ﴿مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَ﴾ تأكيدًا لاستحقاق كلٍّ منهما لنصيبِه، وتقويةً لاختصاصِه به، بحيث لا يَتخطَّاه إلى غيرِه؛ فإنَّ ذلك ممَّا يوجِبُ الانتهاءَ عن التَّمنِّي المذكورِ[٢].

٢- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾: تذييلٌ مناسبٌ لهذا التَّكليفِ؛ لأنَّه متعلِّق بعملِ النَّفس، لا يراقبُ فيه إلَّا ربَّه[٣]، مع ما اشتملَتْ عليه من التَّأكيد بـ: (إنَّ) واسميَّة الجملة، وتقديمِ الجارِّ والمجرورِ (بِكُلِّ شَيْءٍ) على خبر كان (عَلِيمًا).

٣- **قوله:** ﴿وَلِكُلٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾: ﴿وَلِكُلٖ﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ ﴿جَعَلۡنَا﴾، قُدِّم عليه؛ لتأكيد الشُّمولِ، ودفْعِ توهُّمِ تعلُّقِ الجَعْلِ بالبعضِ دون البَعض[٤].

٤- **قوله:** ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ ...﴾: جملة مبيِّنةٌ للجملة قبلها، ومؤكِّدةٌ لها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٣).

٥- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾: خبرٌ فيه تهديدٌ على منْعِ نصيبهم[(١)]، مع ما فيه مِن التَّأكيد بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة، وتقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على خبَر كان ﴿شَهِيدًا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٢).

الآيتان (٣٤ - ٣٥)

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿قَوَّٰمُونَ﴾: جمْع قوَّام، وهو مِن القِيامِ على الشَّيءِ، أي: مُراعاته وحِفْظه، وحِياطته بالاجتهادِ، والقِيامِ بمصالحِه، والرَّجُل قيِّم على المرأةِ، أي: هو رئيسُها وكبيرُها، والحاكِمُ عليها، ومؤدِّبها إذا اعوجَّتْ، وأصلُ (قوم): يدلُّ على انتِصابٍ أو عَزْمٍ[1].

﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾: خاضِعاتٌ، مُداوماتٌ على طاعةِ الله، والقُنوت: دوامُ الطَّاعة، ولزومُها مع الخُضوع؛ وأصل (قنت): يدلُّ على طاعةٍ وخيرٍ في دِين، ثم سُمِّي كلُّ استقامةٍ في طريقِ الدِّينِ قنوتًا[2].

﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾: أي: لا يفعَلْنَ في غَيبة الزَّوجِ ما يَكرَهُه الزَّوج، أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٦/ ٦٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢، ٤٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤- ٦٨٥)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥ وما بعدها)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

يحفَظْنَ عهدَ الأزواج عند غَيبتِهن، وأصل (حفظ): مراعاةُ الشَّيء[١].

﴿نُشُوزَهُنَّ﴾: أي: مَعصيَتَهنَّ، وتعاليَهنَّ عمَّا أوجَب اللهُ عليهنَّ من طاعةِ الأزواج، وبُغْضَهنَّ لهم؛ فنُشُوزُ المرأة: بُغْضُها لزَوْجها، ورفْعُ نفْسِها عن طاعتِه، ورفْعُ عَيْنِها عنه إلى غيرِه؛ وأصل النُّشوز: الارتفاع، والنَّشز: المرتفِعُ من الأرْض، ومِنه قيل للمَرأةِ المرتفعةِ على زَوْجِها، التاركةِ لأمْره، المُعْرِضةِ عنه، المبغِضة له: ناشِز[٢].

﴿فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾: أي: فلا تَطلُبوا طريقًا إلى أذاهُنَّ؛ مِن بغيتُ الضالَّةَ: إذا التمستَها، والبَغيُ يُطلَقُ على: طَلَبِ الشَّيء، والظُّلم، والتَّرفُّع والعلوِّ، ومُجاوَزةِ المقدار[٣].

﴿شِقَاقَ﴾: أي: تباعُد، أو خلاف، أو فِراق، والشِّقاق: المخالَفة، وأصل (شقق): انصداعٌ في الشَّيء[٤].

﴿حَكَمًا﴾: أي: ثِقةً يُولَّى أمْرَ الحُكمِ بينهما، ويُوكَّلُ بالنَّظرِ في أمْرِهما، والحَكَمُ: هو المتخصِّصُ بالحُكم. والحُكْم بالشَّيء: القضاءُ بأنَّه كذا، أو ليس بكذا، سواءٌ ألزمتَ ذلك غيركَ، أو لم تُلْزِمْه، وأصل (حَكَم): المنْع، والإحكامُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٥، ٦١٧).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٢، ٨٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨، ١٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٦/ ٧١٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١، ٥٤٣).

هو الفصلُ والتمييز، والفرقُ والتحديدُ الذي به يتحقَّق الشيءُ ويَحصُل إتقانُه؛ ولهذا دخَل فيه معنى المنْعِ كما دخَل في الحدِّ، فالمنع جزءُ معناه لا جميع معناه. والحِكمة اسمٌ للعَقل، وإنَّما سُمِّي حِكمة؛ لأنَّه يمنع صاحبه من الجَهل[(١)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾:

قُرِئ برفْعِ لفْظِ الجلالةِ على أنَّه فاعِلٌ، وقُرِئ بنَصبِه على أنَّه مفعولٌ به؛ فعلى قِراءة الرَّفع يكونُ في ﴿مَا﴾ ثلاثةُ أوجه، أحدها: أنَّها مصدريَّة، والمعنى: حافِظاتٌ للغَيْبِ بحِفْظِ اللهِ إيَّاهنَّ. والثاني: أنْ تكون ﴿مَا﴾ موصولةً بمعنى الذي، والعائِد محذوف، والتَّقدير: بالَّذي حَفِظَه اللهُ لهنَّ مِن مُهورِ أزواجهنَّ والنَّفقة عليهنَّ. والثالث: أن تكونَ ﴿مَا﴾ نكرةً موصوفة، والعائد محذوف أيضًا كما في الموصولةِ التي بمعنى الَّذي، أي: بشَيءٍ حَفِظَه اللهُ تعالى لهنَّ.

وعلى قِراءة النَّصب (بِمَا حَفِظَ اللَّهَ): فلفظُ الجلالةِ مَفعولٌ به على تَقديرِ حَذْفِ مُضافٍ، وفي ﴿مَا﴾ أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّها موصولةٌ بمعنى الَّذي، والثاني: أنَّ ﴿مَا﴾ نَكِرةٌ موصوفةٌ، والفاعِلُ على هَذينِ الوَجهينِ ضَميرٌ مُستتِرٌ في ﴿حَفِظَ﴾ يعودُ على ﴿مَا﴾، والتقديرُ على الأوَّل: حِافظاتٌ للغَيبِ بالْأَمْرِ الَّذي حَفِظَ حقَّ اللَّهِ وأمانةَ اللَّهِ، وهو التعفُّفُ والتحصُّنُ والشَّفقةُ على الرِّجالِ والنَّصيحةُ لهم، أو بالَّذي حَفِظَ دِينَ اللهِ مِن البِرِّ والطَّاعةِ. والتقديرُ على الثاني: بشَيءٍ حَفِظَ دِينَ اللهِ. وقِيل غيرُ ذلك[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((تفسير الطبري)) (٦/ ٧١٩، ٧٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦، ٣٤٧)، ((الإكليل في المتشابه والتأويل)) لابن تيمية (ص: ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٧)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٠٦)، ((التبيان

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ للرِّجالِ القِوامةَ على النِّساء، يُلزِمونهنَّ بحقوقِ اللهِ، ويحجُزونهنَّ عن الشَّرِّ والفسادِ، ويُؤدِّبونهنَّ، وتلك القِوامةُ سببُها ما فضَّل اللهُ به الرِّجالَ من خصائصَ على النِّساءِ، وكذلك بإنفاقِ الرِّجالِ أموالَهم على نسائهم، فالنِّساءُ اللَّاتي استقام دِينُهنَّ مطِيعاتٌ للهِ سبحانه، ولأزواجِهنَّ، وهنَّ أيضًا حافظاتٌ لأنفسهنَّ عند غيابِ أزواجِهنَّ عنهنَّ في فروجهنَّ وأموالِهم وغيرها، وذلك بحفظِ الله وتوفيقِه لهنَّ، ثمَّ يخاطبُ اللهُ الأزواجَ أنَّ النِّساءَ اللَّاتي يخافون ترفُّعَهنَّ عن طاعتِهم، بُغضًا وإعراضًا عنهم، فلْيُذكِّروهنَّ بالله، ويخوِّفوهنَّ وعيدَه لمن عصَتْ زوجَها، ويرغِّبوهنَّ في الطَّاعة بذِكر ما لهنَّ عند الله من ثوابٍ على ذلك، فإن لم يُفِدِ الوعظُ فلا يُجامعوهنَّ، فإن لم يتحصَّلْ مِن الهجرِ المطلوبُ فليضرِبوهنَّ ضربًا غيرَ مبرِّح؛ تأديبًا لهنَّ، فإن أطَعْنَهم فليتركوا عتابَهنَّ على ما كان، ولْيَدَعوا تتبُّعَ كلِّ عثرةٍ تحصُلُ منهنَّ وإن كانت لا تضرُّ، وليس لهم ضربُهنَّ بعد ذلك، وختَمَ الآيةَ ببيان أنَّه سبحانه هو العليُّ الكبير؛ تهديدًا للرِّجال إذا بَغَوْا على النِّساءِ من غير سببٍ.

ثمَّ يخاطبُ اللهُ الحكَّامَ: أنَّهم إنْ خافوا من بلوغ الخلافِ بين الزَّوجين إلى مرحلةِ التباعد بينهما ووقوعِ العداوة، فليُرسلوا إلى الزوجين حَكَمًا من أقارب الزَّوج، وآخرَ من أقارب الزَّوجة، إن يُرِدْ هذانِ الحكَمانِ الإصلاحَ بين الزَّوجين فسيوفِّقُهما اللهُ لِما قصداه، كما سيوفِّقُ سبحانه وتعالى الزَّوجينِ ليعودا إلى الاستقرارِ، وحُسنِ المعاشَرة.

تفسيرُ الآيتين:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ

في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٧٠-٦٧١).

مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى كلًّا من الرِّجال والنِّساء عن تمنِّي ما فضَّل به بعضَهم على بعض، وأرشَدهم إلى الاعتماد في أمر الرِّزق على كَسبِهم، إلى غير ذلك، ولَمَّا كان من جملةِ أسباب هذا البيانِ ذِكرُ تفضيل الرِّجال على النِّساء في الميراثِ والجهاد، كان لسائلٍ هنا أن يسألَ عن سبب هذا الاختصاص، وكان جوابُ سؤالِه قولَه تعالى[1]:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

أي: الرِّجالُ هم القائمون على نسائهم؛ فهم رؤساؤُهنَّ، والحاكمون عليهنَّ، بإلزامهنَّ بحقوقِ الله تعالى وأداء فرائضه، وتأديبِهنَّ، وكفِّهنَّ عن الشُّرور والمفاسد[2].

ثمَّ ذكر اللهُ تعالى السَّبب الموجِبَ لقيام الرِّجال على النِّساء، فقال:

﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

أي: بسببِ تفضيلِ الرِّجال على النِّساء؛ فقد جعَل اللهُ تعالى للرِّجال خصائصَ تفُوقُ ما لدَى النِّساء؛ كقوة البَدنِ، والعقل، وغيرهما[3].

---

(١) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾.

أي: ومن أسباب جَعلِ القِوامةِ للرِّجال على النِّساء، إنفاقُ الرِّجال أموالَهم على نسائِهم، ومِن ذلك: إعطاؤُهنَّ مهورَهنَّ[١].

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾.

أي: إنَّ النِّساءَ المستقيماتِ الدِّينِ، مطيعاتٌ لله تعالى، ولأزواجِهنَّ[٢].

﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾.

أي: ومن صِفاتهنَّ أيضًا: أنهنَّ حافظاتٌ لأنفسِهنَّ عند غَيبة أزواجِهنَّ عنهنَّ في فروجهنَّ وأموالهم، وغير ذلك، وذلك بحفظِ الله تعالى لهنَّ، وتوفيقِه لهنَّ، لا من أنفسِهنَّ؛ فإنَّ النَّفسَ أمَّارةٌ بالسُّوء[٣].

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾.

أي: إنَّ الزَّوجاتِ اللَّاتي تتخوَّفون- يا مَعشرَ الأزواج- من استعلائِهنَّ عليكم، بمخالفتِهنَّ لأوامركم، وتركِهنَّ طاعتكم؛ بُغضًا منهنَّ لكم، وإعراضًا عنكم، فإذا تخوَّفتم من حدوثِ ذلك لظهور أماراته[٤].

سورة النساء)) (١/ ٢٨٩).

وهذا التفضيلُ باعتبار الجنس؛ لأنَّه يوجد من النِّساء من هي أفضلُ من كثيرٍ من الرِّجال، فقوله سبحانه: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ من حيث الجُمْلة، لا باعْتبارِ كلِّ فرْد. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٨٧، ٦٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩٠، ٦٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩٢، ٦٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٠، ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي))

﴿فَعِظُوهُنَّ﴾.

أي: فذكِّروهنَّ باللهِ عزَّ وجلَّ، وخوِّفوهنَّ وعيدَه وعقابَه على معصيةِ أزواجِهنَّ، ورغِّبوهنَّ في طاعتهم؛ بذِكرِ ما لهنَّ في ذلك من ثوابٍ عند اللهِ تعالى[١].

﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾.

أي: فإنْ لم يُجْدِ الوعظُ معهنَّ، فلا تُجامِعوهنَّ، فيضاجعُها الزوجُ، ويُولِّيها ظهرَه[٢]، وقيل: لا يضاجعُها؛ فيكونُ في فراشٍ، وهي في فراشٍ[٣].

﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾.

أي: فإنْ لم يُجْدِ معهنَّ الهِجرانُ في المضاجعِ، فاضرِبوهنَّ ضربًا غيرَ مبرِّح؛ لتأديبِهنَّ[٤].

عن جابرٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ولكم عليهنَّ أن لا يُوطئْن فُرشَكم أحدًا تكرهونه، فإنْ فعلْن ذلك فاضربوهنَّ ضربًا غيرَ مبرِّحٍ))[٥].

﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًا﴾.

(ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٥) رواه مسلم (١٢١٨).

أي: فإنْ حصَل المقصودُ بواحدٍ من هذه الأمور، وأطَعْنكم، فقد حصَل لكم ما تحبُّون؛ فاترُكوا معاتبتَهنَّ على الأمور الماضية، والتَّنقيبَ عن العيوب الَّتي يضرُّ ذِكرُها، فلا سبيلَ لكم عليهنَّ بعد ذلك، وليس لكم ضربُهنَّ[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لما مكَّن الله تعالى الرجلَ مِن ضربِ المرأةِ إذا انَشَزت، وذلك في المرحلةِ الثالثةِ، فربَّما يتعالى عليها ويتكبَّر - أعْلَمه اللهُ أنَّه فوقَه مَن هو أعلى وأكبرُ وهو اللهُ فلا ينبغي للرجلِ أن يتعالى عليها ولا أن يتكبرَ، فقال عزَّ وجلَّ[٢]:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو العُلوِّ المطلَقِ بذاته وصِفاتِه سبحانه، فلا تتعالَوْا على نسائِكم- أيُّها الأزواج-؛ فإنَّ علوَّكم هذا يوجَدُ فوقه ما هو أعلى منه، وهو علوُّ اللهِ عزَّ وجلَّ بذاتِه وصفاتِه، وهو الكبيرُ بذاته وصفاتِه سبحانه، فلا أكبرَ منه ولا أجلَّ ولا أعظمَ، فلا تتكبَّروا عليهنَّ؛ لأنَّ فوقكم مَن هو أكبرُ، وهو الله جلَّ وعلا[٣].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٣).

لَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى ما يفعلُه الزوجُ عندَ نشوزِ امرأتِه مِن وعظٍ ثم هجرٍ ثم ضربٍ، بيَّن أنَّه لم يبقَ بعد الضَّربِ إلَّا المحاكمةُ إلى مَن يُنصِفُ المظلومَ من الظَّالم[١].

وأيضًا لما ذكَر تعالى الحالَ الأوَّل، وهو إذا كان النُّفور والنُّشوزُ مِن الزوجةِ، ذكَر الحالَ الثانيَ، وهو إذا كان النفورُ مِن الزَّوْجينِ[٢]، فقال تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾.

أي: وإن خِفتم- أيُّها الحكَّامُ- أنْ يَصلَ النُّفورُ والخلافُ الواقع بين الزَّوجينِ إلى حدِّ التَّباعُدِ عن بعضِهما، ووقوعِ العداوةِ بينهما[٣].

﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾.

أي: فلتُرْسلوا- أيُّها الحكَّامُ- إلى الزوجينِ حَكَمينِ؛ رجلًا من أقارب الزَّوج، وآخَرَ من أقارب الزَّوجة[٤].

﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾.

أي: إن قصَد الحَكَمانِ الإصلاحَ بين الزَّوجين، يوفِّقِ اللهُ تعالى بين الحكَمينِ، بأن يصادفا الحقَّ، فتلتقيَ أقوالهما دون حدوثِ نزاعٍ بينهما، ويوفِّق اللهُ تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٣).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٤٤-٤٥).
قال القرطبي: (الجمهور من العلماء على أنَّ المخاطب بقوله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ الحكام والأمراء) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٤٥-٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٤).

أيضًا بين الزَّوجين، فييسِّر رجوعَهما إلى المعاشَرة الحسَنة بينهما[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذو علمٍ بجميع الظَّواهرِ والبواطن، ومن ذلك: عِلمُه بنيَّةِ الحكَمَينِ، هل يقصدانِ الإصلاح أو لا، ومن ذلك أيضًا: شَرْعُهُ لهذه الأحكامِ العظيمة، والشَّرائع المُحْكَمة[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

٦- التَّدرُّج في التَّأديب: ﴿فَعِظُوهُنَّ .. وَٱهْجُرُوهُنَّ .. وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾، فابتدأ اللهُ تعالى بالوعظ، الذي هو تليينُ القلبِ بالشَّرعِ، ثمَّ ترقَّى منه إلى الهِجرانِ في المضاجعِ، ثمَّ ترقَّى منه إلى الضَّرب، وذلك تنبيهٌ يجري مجرى التَّصريحِ في أنَّه متى حصَل الغرضُ بالطَّريق الأخفِّ وجَب الاكتفاءُ به، ولم يجُزِ الإقدامُ على الطَّريق الأشقِّ، فإذا أمكن التَّأديبُ بالخطابِ الدِّينيِّ الشَّرعيِّ، فإنَّه لا يرجعُ إلى التَّأديبِ بالفعل المحسوس[٣].

٧- الإشارة إلى أنَّ اللهَ يزَعُ بالسُّلطانِ ما لا يزَعُ بالقرآنِ؛ حيث إنَّه ربَّما لا يُفيد الوعظُ، فينتقل إلى الهجرِ في المضاجع، أو الضَّرب؛ لأنَّه قد يكون أكثرَ نتيجةً[٤].

٨- يؤخَذ من قولِه تعالى: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ بُطلانُ قولِ بعضِ علماء التَّربية

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٢٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٤-٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٨).

المعاصرين الَّذين يقولون: إنَّه لا تحصُلُ التَّربيةُ بالضَّرب، وإنَّما الضَّربُ يقسِّي القلبَ[١].

٩- في قوله: ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ التغاضي عما مضَى، وتركُ الماضي وعدمُ البحثِ فيه أو إثارته؛ لأنَّه ربما يؤدِّي إلى استمرارِ النُّشوز، فالآية تشملُ الماضي، كما تشمل أيضًا المستقبلَ[٢].

١٠- الإشارة إلى أنَّ الَّذي له العلوُّ المطلَقُ هو اللهُ، فلا تتعالَ على غيرِك، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[٣].

١١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ ذِكرُ هاتين الصِّفتينِ (العلوُّ والكبرياءُ لله تعالى) في هذا الموضع في غايةِ الحُسنِ، وبيانُه من وجوه:

الأوَّل: أنَّ المقصودَ منه تهديدُ الأزواج على ظُلم النساءِ، والمعنى أنهنَّ إن ضعُفنَ عن دفعِ ظُلمكم، وعجَزْنَ عن الانتصافِ منكم، فاللهُ سبحانه عليٌّ قاهرٌ كبيرٌ قادرٌ، ينتصفُ لهنَّ منكم، ويستوفي حقَّهنَّ منكم، فلا ينبغي أن تغترُّوا بكونِكم أعلى يدًا منهنَّ، وأكبرُ درجةً منهنَّ.

الثَّاني: لا تبغوا عليهنَّ إذا أطَعْنكم لعلوِّ أيديكم؛ فإنَّ اللهَ أعلى منكم، وأكبرُ من كلِّ شيء، وهو متعالٍ عن أن يكلِّفَ إلَّا بالحقِّ.

الثَّالث: أنَّه تعالى مع علوِّه وكبريائه لا يكلِّفُكم إلَّا ما تُطيقون، فكذلك لا تكلِّفوهنَّ محبَّتكم؛ فإنَّهنَّ لا يقدِرْنَ على ذلك.

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٣، ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٠).

الرابع: أنَّه مع علوِّه وكبريائه لا يؤاخذ العاصيَ إذا تاب، بل يغفِرُ له، فإذا تابت المرأةُ عن نشوزِها، فأنتم أَولى بأن تقبَلوا توبتَها وتتركوا معاقبتَها.

الخامس: أنَّه تعالى مع علوِّه وكبريائِه اكتفى من العبدِ بالظَّواهرِ، ولم يهتِكِ السَّرائرَ، فأنتم أَولى أن تكتفوا بظاهرِ حال المرأة، وألَّا تقَعوا في التَّفتيش عمَّا في قلبِها وضميرها من الحبِّ والبُغض[(١)].

١٢- الإشارةُ إلى حُسن النِّيَّةِ في الإصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾، وأنَّه يجبُ على الإنسان المحكَّمِ أن يكونَ رائدُه الإصلاحَ لا غيرُ، لا إرضاءَ فلان ولا فلان[(٢)].

١٣- أنَّ النِّيَّةَ الطَّيِّبةَ سببٌ لصلاح العملِ؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾[(٣)].

١٤- أنَّ الجزاءَ من جِنس العملِ؛ لأنَّهما لَمَّا أرادا الإصلاحَ أثابهما الله عزَّ وجلَّ بالتَّوفيقِ؛ لقوله: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾[(٤)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- فضلُ الرِّجالِ على النِّساء؛ لأنَّ اللهَ جعَل الرِّجال قوَّامينَ على النِّساء، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾[(٥)].

٢- بيانُ أنَّ أحكامَ اللهِ عزَّ وجلَّ الكونيَّةَ والشَّرعيَّةَ معلَّلةٌ بعِلَلٍ، فيلزم من

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٦).

كونِ أفعالِ أو أحكام الله الشَّرعيةِ معلَّلةً بعِلَل: إثباتُ الحكمةِ، وأنَّ الله تعالى حكيمٌ؛ قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ ...﴾[١].

٣- يُؤخذُ من قوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ أنَّ للمُنفِقِ على المُنفَقِ عليه فضلًا[٢].

٤- كراهةُ سؤالِ النَّاسِ؛ لقوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾، فكونُ المنفِقِ له فضلٌ على المُنفَقِ عليه، فيكون سؤالُك إيَّاه ذلًّا؛ لأنَّك إذا سألتَه فقد أثبَتَّ له فضلًا عليك[٣].

٥- أنَّه لا ولايةَ للنِّساءِ على الرِّجال، لا في قضاءٍ، ولا إمارة، ولا أيِّ شيء؛ لقوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، فمن جعَل للمرأة الولايةَ فقد خالَف سُنَّةَ الله[٤].

٦- أنَّ للزَّوجِ السُّلطةَ على زوجته، وتُؤخذ من قوله: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ﴾[٥].

٧- تحريم نُشوزِ المرأةِ على زوجِها؛ حيث قوبِلَ هذا النُّشوزُ بالموعظة، ثمَّ الهجر، ثمَّ الضَّرب[٦].

٨- أنَّ للهِ الكبرياءَ الَّذي هو الكِبْرُ المعنويُّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجاثية: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وكذلك أنَّ كلَّ شيء بالنِّسبة إلى ذاتِه ليس بشيء، وهذا المرادُ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٩).

بالكبير في قوله: ﴿عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[١].

٩- أنَّ المبعوثَينِ حكَمانِ، وليسا وكيلَيْنِ، كما قاله بعضُ العلماء، لقوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا﴾، والحَكَمُ مستقِلٌّ[٢].

١٠- أنَّه لا بدَّ أن يكونَ عند الحَكمينِ عِلمٌ بالشَّرع؛ لأنَّ الحَكَمَ لا يمكِنُ أن يحكُمَ إلَّا بعد العِلمِ، ولا بدَّ أن يكونَ لديهما أمانةٌ وثقةٌ دينيَّةٌ؛ لأنَّ غيرَ الثِّقةِ لا يؤمَنُ، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، والحاكم مخبِرٌ وملزِمٌ وفاصل؛ فهو مخبِرٌ عن حُكمِ الله، مُلزِم بما يحكُمُ به، فاصلٌ بين الخَصمينِ، فلا بدَّ أن يكونَ عَدْلًا في دِينِه[٣].

١١- جوازُ حُكم القريب لقريبِه أو عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾[٤].

١٢- أنَّ للحَكَمينِ التَّفريقَ والتَّوفيقَ بين الزَّوجين اللَّذينِ خِيفَ الشِّقاقُ بينهما، سواءٌ بعِوَضٍ أو بدون عِوَضٍ، وأنَّ حُكمَهما مُلزِمٌ؛ لأنَّ الله سمَّاهما حَكَمينِ، والحَكَم قولُه لازمٌ وحُكمُه فصْلٌ[٥].

١٣- قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ..﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في جوازِ التَّحكيمِ في سائر الحقوق[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٤٧).

١٤- الإشارةُ إلى أنَّه ينبغي أن يكونَ الحاكمُ عالِمًا بأحوالِ مَن يحكُمُ فيهم؛ لقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾.. ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾؛ لأنَّ الَّذي مِن أهلِه وأهلِها أقربُ إلى العِلم بحالهما من الرَّجلِ الأجنبيِّ، وعلى هذا فلا ينبغي أن يُولَّى قاضٍ على قومٍ لا يعرِفُ طبائعَهم، ولا يعرِفُ لسانَهم، ولا يعرف أحوالَهم؛ فإنَّ هذا يحصل به شيءٌ كثيرٌ من الغلَطِ[١].

١٥- إثبات صفتي العِلمِ والخبرة، من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾، والخبرة أخصُّ من العِلم؛ لأنَّها علمٌ ببواطنِ الأمور، ولا يُستفاد من قوله: ﴿كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أنَّه الآن ليس كذلك، بل كان ولا زال، والمراد بها تحقيقُ الصِّفة؛ فهي مسلوبةُ الزَّمانِ[٢].

بَلاغةُ الآيتين:

١- **قوله:** ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾: كلامٌ مستأنَفٌ مسُوقٌ لبيانِ سببِ استحقاقِ الرِّجالِ الزِّيادةَ في الميراثِ تفصيلًا، إثرَ بيانِ تفاوتِ استحقاقهم إجمالًا، وإيرادُ الجملة اسميَّةً والخبرِ ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ على صِيغة المبالغة (فعَّالون)؛ للإيذانِ بعَراقتِهم في الاتِّصافِ بما أُسند إليهم، ورسوخِهم فيه، أي: شأنهم القيامُ عليهنَّ بالأمرِ والنَّهيِ قيامَ الولاةِ على الرَّعيَّة[٣].

٢- **قوله:** ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ...﴾: وضْع (البعض) موضِعَ الضَّميرينِ- حيث لم يقُلْ: (فضَّلهم الله عليهنَّ)-؛ للإشعارِ بغاية ظهور الأمْر، وعدَم الحاجة إلى التَّصريحِ بالمفضَّلِ والمفضَّلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٣).

عليه أصلًا؛ ولِمِثل ذلك لم يصرِّحْ بما به التَّفضيلُ؛ من صفات كمال الرِّجال، الَّتي هي كمالُ العقل، وحُسن التَّدبير، ورزَانةُ الرَّأي، ومزيدُ القوَّةِ في الأعمال والطَّاعاتِ[١].

- وقوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾ فيه حذْف المفعولِ؛ ليدلَّ على عُمومِ النَّفقةِ[٢].

- وفيه مِن بديعِ الإعجازِ: صَوغُ قولِه: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ في قالَبٍ صالحٍ للمَصدريَّةِ وللمَوصوليَّة؛ فالمصدريَّةُ مُشعِرةٌ بأنَّ القِوامةَ سَببُها تَفضيلٌ مِن اللهِ، وإنفاقٌ، والموصوليَّةُ مُشعِرةٌ بأنَّ سببَها ما يَعلَمه النَّاسُ مِن فَضلِ الرِّجالِ ومِن إنفاقِهم؛ ليَصلُحَ الخِطابُ للفريقين: عالِمِهم وجاهلِهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٣٩).

الآيات (٣٦ - ٤٢)

﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾: أي: الَّذي ليس بينَه وبين جارِه قَرابةٌ، أو مَن يقرُبُ مسكنُه مِن الجارِ، أو الغريبُ، وأصْل الجوار: الميل؛ وسُمِّي الجار جارًا لميلِه إلى جاره، والجنابة: البُعد؛ يُقال: رجلٌ جُنُب، أي: غريبٌ[1].

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾: أي: الصَّاحِبِ إلى الجَنْبِ، القَريبِ مِنْه، ويَدخُل فيه الرَّفيقُ في السَّفرِ وغَيرِه، والمرأةُ، والملازِمُ للمَرءِ رجاءَ نفْعِه؛ لأنَّ كلَّهم بجَنبِ الذي هو مَعَه، وقريبٌ منه، وأصْل (صحب) يدلُّ على مُقارنةِ شَيءٍ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٦، ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٥).

ومُقاربتِه، وأصل (جنب) يدلُّ على النَّاحيةِ[١].

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: المنقطِع الضَّعيف ببلدٍ يُريد بلدًا آخرَ، أو المسافِر البعيد عن منزلِه، والسَّبيل: الطَّريق الَّذي فيه سهولة[٢].

﴿مُخۡتَالٗا﴾: ذا خيلاءَ، أو مُتكبِّرًا يأنَفُ ويَستنكِفُ عن قَراباتِه وجِيرانه وأصحابِه لفقرِهم، والمختالُ البَطِرُ في مِشيتِه[٣].

﴿فَخُورًا﴾: الَّذي يُعدِّد مناقبَه كِبْرًا وتطاولًا، والفَخرُ: المباهاةُ في الأشياءِ الخارجة عن الإنسانِ؛ كالمالِ والجاهِ، وأصل (فخر) يدلُّ على عِظَم وقِدَم[٤].

﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾: من العَتَادِ، وقيل: أصله: أَعدَدْنا، فأبدلَ من إحدى الدَّالين تاء، والعتاد: ادِّخارُ الشَّيءِ قبل الحاجة إليه؛ كالإعداد، والعَتيد: الشَّيء المُعَدُّ، وأصل (عتد) يدلُّ على حُضور وقُرب، ويدلُّ على تهيئة الشَّيء[٥].

﴿رِئَآءَ﴾: أي: مراءاةً، وأصل الرِّياء: فِعلُ شيءٍ ليراه النَّاس[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((تفسير الطبري)) (٧/ ١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٣) و (٣/ ٣٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣، ٣٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦، ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩، ١٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٥، ٥٥٠).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٥).

﴿قَرِينًا﴾: أي: مَقرونًا به لا يُفارقُه، أو مقارنًا لاصقًا، مِن: قرنت الشَّيء بالشَّيء، ويُطلق القرين كذلك على: المصاحِب، وأصل (قرن): جمعُ شيءٍ إلى شيء[١].

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: أي: زِنَةَ نَملةٍ صَغيرة؛ يُقال: هذا على مثقالِ هذا، أي: على وزنِ هذا. وأصل الثِّقَل: ضدُّ الخفَّة، والذَّرَّة هي أصغرُ النَّملِ، وتُطلَق كذلك على ما لا وزنَ له، وما يَرفَعُه الرِّيح من التُّرابِ، وأجزاء الهواء في الكُوَّةِ[٢].

﴿لَّدُنْهُ﴾: أي: عِنده، أو لديه، لكن (لَدُن) أخصُّ من (عند)[٣].

﴿بِشَهِيدٍ﴾: أي: شاهِد، أو مُشاهِد للشَّيء، والشَّهادة: قولٌ صادرٌ عن عِلم حصَل بمشاهدةِ بصيرةٍ أو بصَر، وأصل (شهد): حضور، وعِلم، وإعلام[٤].

﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ﴾: أي لو يُدخَلون فيها حتى تعلُوَهم، أو يكونون ترابًا، فيستوون معها حتَّى يَصيروا وهي شيئًا واحدًا، أو يَهلِكون فيها، وأصل (سوي): استقامةٌ واعتدالٌ بين شيئين[٥].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٥/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٨/ ١٥٧).

(٣) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥- ٤٦٧).

(٥) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عُبيدة (١/ ١٢٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٨/ ٣٣٣).

المَعْنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى عبادَه بعِبادته وَحْدَه، غيرَ مشركين فيها معه غيرَه، كما أمرهم بالإحسانِ إلى الوالدَين، وإلى الأقارب، وأن يُحسنوا إلى اليتامى، وذَوِي الحاجاتِ الَّذين لا يجدون كفايتَهم، وإلى الجار الَّذي تربطهم به القرابة، والجار الَّذي لا قرابةَ بينهم وبينه، وأمرهم كذلك بالإحسان في صحبةِ كلِّ مصاحبٍ ومرافقٍ لهم؛ كرفيق السفر، وكالزَّوجة، وكذلك أن يُحْسِنوا إلى المسافرِ الَّذي يمرُّ بهم مجتازًا، وأن يُحسنوا إلى مَن يملِكونه مِن بَشَرٍ رقيقٍ، فإنَّ الله تعالى لا يحبُّ مَن كان معجَبًا بنفسه، متكبِّرًا على الخَلْق، هؤلاء هم الَّذين يُمسِكون أموالَهم عن الإنفاقِ فيما أمَر الله تعالى، بل ويأمرون غيرَهم بالإمساكِ أيضًا، ويُخفون ما أنعَم اللهُ به عليهم، وأعدَّ اللهُ لهؤلاء الكافرين الَّذين ذكَر صفاتِهم عقابًا مُخزيًا ومُذِلًّا.

وممَّا يتَّصفون به كذلك: أنَّهم يُنفِقون أموالَهم ليراهم النَّاسُ ويُثنوا عليهم، ولا يؤمِنون بالله ولا باليومِ الآخِرِ، سوَّل لهم الشَّيطانُ تلك الأفعالَ، ومَن يكُنْ للشَّيطانِ مُصاحِبًا، فيُطِعْه فيما يُمليه عليه، فبئس الصَّاحبُ هو.

وأيُّ حرجٍ سيُصيبُ هؤلاء لو أنَّهم آمنوا باللهِ وباليوم الآخِرِ، وأنفَقوا ممَّا تفضَّل اللهُ به عليهم، وكان اللهُ بهم عليمًا.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّه لا يظلِمُ أحدًا مِن خَلْقِه شيئًا ولو قلَّ، وإن توجد حسنة فإنَّه تعالى يضاعفُها لفاعلها، ويُعطي مِن عنده ثوابًا عظيمًا.

فكيف تكونُ الحالُ يوم القيامة إذا جاء اللهُ بشهيد مِن كلِّ أمَّةٍ، وهم الأنبياءُ، يشهَدون على أُمَمهم، وإذا جاء اللهُ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم شهيدًا على هذه الأمَّة، ذلك اليوم يتمنَّى مَن كفَر بالله وعصَى رسولَه لو ابتلعَتْهم الأرضُ فلا

يُحاسَبون، وفي ذلك اليومِ يعترفون بكلِّ ما فعَلوه، ولا يُخفونَ عن اللهِ شيئًا.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أرشَد اللهُ سبحانه وتعالى كلَّ واحدٍ من الزَّوجين إلى المعامَلةِ الحسَنة مع الآخَرِ، وإلى إزالة الخصومة، أرشَد في هذه الآيةِ إلى سائرِ الأخلاق الحسَنة، فأمره بالإحسانِ إلى الوالدَيْنِ، وإلى مَن عطَفَه على الوالدَيْنِ ممَّن ذُكر في الآية، فجاءت حثًّا على الإحسانِ، واستطرادًا لمكارمِ الأخلاق، وأنَّ المؤمنَ لا يكتفي مِن التَّكاليفِ الإحسانيَّة بما يتعلَّق بزوجتِه فقط، بل عليه غيرُها من برِّ الوالدَيْنِ وغيرِهم، وافتتح التَّوصُّلَ إلى ذلك بالأمرِ بإفرادِ الله تعالى بالعبادةِ؛ إذ هي مبدأُ الخيرِ الَّذي تترتَّبُ الأعمالُ الصَّالحةُ عليه[1] فقال:

﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾.

أي: وتذلَّلوا لله تعالى، واخضَعوا له بطاعتِه سبحانه، وأَخلِصوا العبادةَ له وحْدَه، دون أنْ تُساووا بينه وبين غيرِه فيما له من حقوقٍ على عباده[2].

قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لمعاذٍ: ((أتَدْري ما حقُّ اللهِ على العِباد؟

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٧-٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٤).

قال: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: أنْ يَعبُدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا، ثمَّ قال: أَتَدْري ما حقُّ العِبادِ على الله إذا فَعَلوا ذلك؟ ألَّا يُعذِّبَهم))[١].

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بعبادته، والقيام بحقِّه، أمَر بالقيام بحقوقِ العبادِ الأقربَ فالأقربَ[٢]، فقال:

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

أي: وأحسِنوا إلى الوالدَيْنِ، بالقولِ الكريمِ، والخطاب اللَّطيفِ، وطاعةِ أمرِهما، واجتنابِ نهيهما، وبغيرِ ذلك من أنواع البِرِّ[٣].

﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

نصَّ على الوالدَيْنِ أوَّلًا، وثنَّى بالقَرابة؛ وذلك لأنَّه لا قرابةَ إلَّا بواسطة الوالدَيْنِ[٤]، فقال سبحانه:

﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٦٢٦٧)، ومسلم (٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٤-٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٥).

أي: وأحسِنوا إلى أقاربِكم[١].

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾.

أي: وأحسِنوا إلى اليتامى (وهم الَّذين فقَدوا آباءَهم ممن دون سنِّ البلوغِ)[٢].

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾.

أي: وأحسِنوا كذلك إلى ذَوي الحاجاتِ، الَّذين لا يَجِدون ما يقومُ بكِفايتِهم[٣].

﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.

أي: وأحسِنوا إلى جارِكم الَّذي بينكم وبينه قَرابةٌ[٤].

﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾.

أي: وأحسِنوا كذلك إلى جارِكم الَّذي ليس بينكم وبينه قرابةٌ[٥].

عن عبدِ الله بن عمرَ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما زالَ جِبريلُ يوصيني بالجَارِ، حتَّى ظنَنتُ أنَّهُ سيورِّثُه))[٦].

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥-٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥-٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠-١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٦).

(٦) رواه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥).

أي: وأحسِنوا صُحبةَ مَن يصحَبُكم ويُرافِقُكم؛ كالرَّفيقِ في السَّفرِ، وكالزَّوجة[١].

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وأحسِنوا إلى المسافرِ، الَّذي يمرُّ عليكم مجتازًا[٢].

﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾.

أي: وأحسِنوا إلى ما تملِكون مِن البشر (وهم الرَّقيق)[٣].

عن خَيْثَمَةَ قال: ((كنَّا جلوسًا مع عَبدِ اللهِ بنِ عمرٍو، إذ جاءَه قَهْرَمانٌ له[٤]، فدخَل. فقال: أعطيتَ الرَّقيقَ قُوتَهم؟ قال: لا. قال: فانطلِقْ فأعطِهم، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كفَى بالمرءِ إثمًا أن يَحبِسَ عمَّن يملِكُ قُوتَه))[٥].

وعن أبي هريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((للمَملوكِ طعامُه وكسْوَتُه، ولا يُكَلَّفُ من العَملِ إلَّا ما يُطيقُ))[٦].

وعن أبي هريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إذا أتَى أَحدَكم خادِمُه بطَعامِه، فإنْ لم يُجلِسْه معَه، فليُناوِلْه لُقمةً أو لُقمتينِ، أو أُكْلةً أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦-١٧)، ((تفسير السعدي)) (١/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨-١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٧-٣٠٨).

(٤) القَهْرَمان: لفظٌ فارسيٌّ معرَّبٌ، وهو الخَازنُ القائِمُ بحَوائجِ الإنسانِ وأُمورِه، والوكيلُ، والحافِظُ لِمَا تحتَ يدِه، وقِيل: هو مِن أُمناءِ المَلِكِ وخَاصَّتِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٢٩)، ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٨٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٣/ ٣٢٢).

(٥) رواه مسلم (٩٩٦).

(٦) رواه مسلم (١٦٦٢).

أُكْلتَينِ؛ فإنَّه ولِيَ علاجَه[١]))[٢].

وعن أبي ذَرٍّ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إخوانُكم خَوَلُكم، جعلَهم اللهُ تحتَ أيديكم، فمَن كان أخوه تحتَ يدِه، فلْيُطعِمْه ممَّا يأكُلُ، وليُلْبِسه ممَّا يَلبَسُ، ولا تُكلِّفوهم ما يَغلِبُهم، فإنْ كلَّفتُموهم فأعينُوهم))[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بالإحسانِ للأصنافِ المذكورةِ وإكرامِهم، كان في العادةِ أنْ ينشأَ عمَّن اتَّصَف بمكارمِ الأخلاقِ أنْ يَجدَ في نفسِه زهوًا وخُيلاءَ، وافتخارًا بما صدَر منه من الإحسانِ، وكثيرًا ما افتخَرتِ العربُ بذلك، وتعاظَمَتْ في نثرِها ونَظْمِها به، فأراد تعالى أن ينبِّهَ على التَّحلِّي بصفةِ التَّواضُعِ، وألَّا يتكبَّرَ على مَن أحسَنَ إليه، وألَّا يفخَرَ عليه؛ كما قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فنفى تعالى محبَّتَه عن المتحلِّي بهذينِ الوصفَينِ[٤].

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى الأمرَ بعبادتِه، والإحسان إلى عبادِه، ذكَر موانعَ هذا الإحسانِ الغالبةَ على البشَرِ[٥]، فقال جلَّ وعلا:

---

(١) قوله: ((وَلِيَ عِلاجَه)) أي: تَولَّى عَمَلَ الطَّعامِ، وقاسَى كُلْفَةَ اتِّخاذِه، وتحمَّلَ مشقَّةَ حَرِّه ودُخَانِه عند الطَّبْخِ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٣/ ١١٤)، ((حاشية السِّندي على البخاري)) (٢/ ٣٩).

(٢) رواه البخاري (٢٥٥٧).

(٣) رواه البخاري (٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٧).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يحبُّ مَن كان ذا خُيَلاءَ، معجَبًا بنفسِه متكبِّرًا على الخَلْق، فلا يقوم بما أوجَبه اللهُ تعالى عليه من حقوقٍ، فَخُور بقولِه، فيُثني على نفسِه، ويمدَحُها على وجهِ الفخرِ والبطَرِ على عباد اللهِ تعالى بما أعطاه من النِّعم[١].

عن عبد الله بن عمر رضِي اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((من جرَّ ثوبَه خُيَلاءَ، لم ينظرِ اللهُ إليه يومَ القيامةِ))[٢].

و أيضًا عن عبد الله بن عمرَ رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((بينما رَجُلٌ يَجرُّ إزارَه من الخُيلاءِ خُسِفَ به، فهو يتجَلْجَلُ[٣] في الأرضِ إلى يومِ القيامةِ))[٤].

وعن عِياضٍ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((وإنَّ اللهَ أَوْحى إليَّ أنْ تواضَعوا؛ حتى لا يَفخرَ أحدٌ على أحدٍ، ولا يَبغيَ أحدٌ على أحدٍ))[٥].

وعن أبي مالكٍ الأشعريِّ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أربعٌ في أمَّتي مِن أمرِ الجاهليَّةِ، لا يَتركونهنَّ- وذَكَر منها-: الفَخْر في الأحسابِ))[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٧).

(٢) رواه البخاري (٣٦٦٥) واللفظ له، ومسلم (٢٠٨٥).

(٣) يَتجَلْجَل: أي: يَغُوصُ في الأَرضِ حينَ يُخسَفُ به، أوْ يتحرَّكُ ويَنزِلُ مُضطَرِبًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٨٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٦٤).

(٤) رواه البخاري (٣٤٨٥).

(٥) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٦) رواه مسلم (٩٣٤).

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧ ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى ذمَّ المُختالِ الفَخور، شرَع في بيان صِفاتِه، فقال جلَّ وعلا[1]:

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ المختالَ الفخورَ الَّذي يُمسِك مالَه عن الإنفاق فيما أمَره الله تعالى به؛ كالإحسانِ إلى الوالدَيْنِ، والأقاربِ واليتامى والمساكين، والجارِ ذي القربى، والجارِ الجُنُب، والصَّاحبِ بالجَنْبِ، وابنِ السَّبيل، وما ملَكتِ الأيمانُ، ولا يدفعون حقَّ الله فيها، ويأمُرون النَّاسَ بالبخلِ أيضًا بأقوالِهم وأفعالِهم، ومِن البُخلِ كذلك: البُخلُ بالعِلم[2].

عن جابرِ بن عبد الله رضِي اللهُ عنهما، قال: ((قال لي رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو قدْ جاء مالُ البحرينِ، لقدْ أعطيتُك هكذا وهكذا- ثلاثًا- فلم يَقدَمْ مالُ البحرينِ حتَّى قُبِض رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلمَّا قدِم على أبي بكرٍ، أمَر مناديًا فنادَى: مَن كان له عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دَيْنٌ أو عِدَةٌ فليأتِني، قال جابرٌ: فجئتُ أبا بكرٍ فأخبرتُه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: لو جاءَ مالُ البحرينِ أعطيتُك هكذا وهكذا- ثلاثًا- قال: فأعطاني، قال جابرٌ: فلقيتُ أبا بكرٍ بعدَ ذلك فسألتُه فلم يُعطِني، ثمَّ أتيتُه فلم يُعطِني، ثمَّ أتيتُه الثَّالثةَ فلم يُعطِني، فقُلْتُ له: قد أتيتُك فلم تُعطِني، ثمَّ أتيتُك فلم تُعطِني، ثمَّ أتيتُك فلم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١، ٢٢، ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٦-٣١٨).

تُعطِني، فإمَّا أن تُعطيَني، وإمَّا أن تبخَلَ عنِّي، فقال: أقُلْتَ: تبخَلُ عني؟ وأيُّ داءٍ أَدْوَأُ من البُخلِ؟! قالها ثلاثًا، ما منعتُك من مرَّةٍ إلَّا وأنا أُريد أنْ أعطيَك! وعن عمرو، عن محمَّد بن علي: سمعتُ جابرَ بن عبد الله يقول: جئتُه، فقال لي أبو بكر: عُدَّها، فعدَدْتُها، فوجدتُها خَمسَ مئةٍ، فقال: خُذْ مِثلَها مرَّتينِ))[١].

﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

أي: إنَّ البَخيلَ بالمالِ يُخفِي عن النَّاسِ ما لَدَيه من أموالٍ، فلا يُظهِر أثَرَ نِعمةِ الله تعالى عليه، ولا تَبِينُ في أكلِه ولا في ملبَسِه، ولا في غيرِهما؛ لأجل ألَّا يطلُبَ أحدٌ مالًا منهم، ولا يَلومهم أحدٌ إذا بَخِلوا، ويُخفي كذلك ما لَدَيه من عِلمٍ، فلا يُظهِرُه للنَّاس ليَسترشِدوا به، ومِن ذلك: إخفاءُ اليهودِ لصفةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وأمْرِ بَعثتِه[٢].

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الكفَّارَ الَّذين يبخَلون، ويأمُرون النَّاسَ بالبُخل، ويكتمون ما آتاهم اللهُ تعالى من فضلِه، قد هيَّأ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم ولكلِّ كافرٍ عقابًا مُذلًّا مخزيًا، جزاءً على كفرِهم، واستكبارِهم على أداء حقوقِ الله تعالى وحقوقِ عباده[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذمَّ سبحانه وتعالى المُقْتِرين، أتبَعَه ذمَّ المسرِفين المبذِّرين، فقال[١]:

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾.

أي: ومِن صفاتِهم أيضًا: أنَّهم يبذُلون أموالَهم من أجلِ أن يراهم النَّاسُ فيُثنوا عليهم، ويمدحوهم بالكرمِ والعطاءِ، لا يُريدون بذلك وجهَ الله تعالى[٢].

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

أي: إنَّهم لا يُؤمِنون باللهِ تعالى؛ فيتقرَّبوا إليه، ولا يؤمِنون باليومِ الآخِرِ؛ فيرجوا ثوابَه[٣].

﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾.

أي: إنَّما حمَلهم على صَنيعِهم القبيحِ هذا، وعدُولِهم عن فِعلِ الطَّاعة على وجهِها: الشَّيطانُ؛ فإنَّه سوَّل لهم وأمْلَى لهم، وقارنَهم فحَسَّن لهم القبائحَ، فمن يكُنِ الشَّيطانُ له خليلًا وصاحبًا يعمَلُ بطاعتِه ويتَّبعُ أمرَه فبئس الصَّاحبُ هو؛ لأنَّه يريدُ إهلاكَ مَن قارَنه، ويَسعى فيه أشدَّ السَّعي؛ إذ يأمُرُه بالمنكَرِ، ويَنهاه عن المعروفِ[٤].

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢١-٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٢-٣٢٣).

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾.

أي: وأيُّ شيءٍ على هؤلاء الذين ينفقونَ أموالَهم رئاءَ الناس، ولا يؤمنونَ باللهِ ولا باليومِ الآخر، وأي حرجٍ ومشقَّةٍ تلحَقُهم لو سلَكوا الطَّريقَ الحميدةَ، فآمنوا باللهِ تعالى، وأخلصوا له، وآمنوا باليومِ الآخِرِ، وأيقنوا أنَّ اللهَ يجازيهم بأعمالِهم، وأنفَقوا ممَّا أعطاهم اللهُ تعالى فيما يحبُّه ويرضاه[١]؟!

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بنيَّاتهم وأحوالِهم وأعمالِهم، وهو حافظٌ لها، ومجازيهم عليها[٢]، وعليمٌ بمن يستحقُّ التَّوفيقَ منهم، فيوفِّقُه ويُلهمُه رُشدَه، ويُقيِّضه لعملٍ صالحٍ يرضى به عنه، وبمن يستحقُّ الخِذلانَ والطَّردَ عن جَنابِه الأعظمِ[٣]، وهو عليمٌ أيضًا بما هم عليه مِن كُفرٍ، ولو آمنوا لعلِم الله سبحانه أيضًا إيمانَهم، وأثابهم عليه[٤].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ فكأنَّه قال: فإنَّ اللهَ لا يظلمُ مَن هذه حالُه مثقالَ ذرَّةٍ، وإن تك حسنةً يضاعِفْها، فرغَّبَ بذلك في الإيمانِ والطَّاعةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٨٠).

وأيضًا لَمَّا أمر اللهُ تعالى بعبادته تعالى، وبالإحسانِ للوالدَيْنِ ومَن ذُكِر معهم، ثمَّ أعقَب ذلك بذمِّ البُخلِ والأوصاف المذكورةِ معه، ثمَّ وبَّخ مَن لم يؤمِنْ، ولم يُنفِقْ في طاعةِ الله، كان هذا كلُّه توطئةً لذِكرِ الجزاءِ على الحسَناتِ والسَّيِّئاتِ، فأخبَر تعالى بصفةِ عدلِه، وأنَّه عزَّ وجلَّ لا يظلِمُ أدنى شيء وبيَّن أنَّه لا يظلِمُ أحَدًا من العاملين بتلك الوصايا، قليلًا أو كثيرًا، بل يُوفِّيه حقَّه بالقِسطاسِ المستقيمِ[(١)]، فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يبخَسُ أحَدًا مِن خَلْقِه حقَّه، ولو قدْرَ وزنِ ذرَّةٍ منه، فلا ينقصُ من حسناتِ عبدِه، ولا يَزيدُ في سيِّئاتِه[(٢)].

قال تعالى حكايةً عن لقمانَ: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ [لقمان: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ * فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٦- ٨].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا يَدخلُ النَّارَ أحدٌ في قلبِه مثقالُ حبَّةِ خردلٍ من إيمانٍ))[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٣) رواه مسلم (٩١).

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا﴾.

أي: وإن توجَدْ حسنةٌ، فإنَّ اللهَ تعالى يضاعِفُها إلى عَشْرِ أمثالِها، إلى سَبعِمائةِ ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرة(١).

﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُعطيه مِن عندِه أيضًا ثوابًا عظيمًا لا يتصوَّرُه إنسانٌ (قيل: هو الجنَّة)(٢).

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ في الآخرةِ لا يجري على أحدٍ ظُلمٌ، وأنَّه تعالى يجازي المحسِنَ على إحسانِه، ويَزيدُه على قدرِ حقِّه- بيَّن تعالى في هذه الآية أنَّ ذلك يجري بشَهادةِ الرُّسلِ الَّذين جعَلهم اللهُ الحُجَّةَ على الخَلْقِ؛ لتكونَ الحُجَّةُ على المسيءِ أبلَغَ، والتَّبكيتُ له أعظمَ، وحسرتُه أشدَّ، ويكونَ سرورُ مَن قَبِلَ ذلك مِن الرَّسول، وأظهَر الطَّاعةَ أعظمَ، ويكونَ هذا وعيدًا للكفَّارِ الَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النساء: ٤٠]، ووعدًا للمُطِيعين الَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا﴾(٣) [النساء: ٤٠].

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾.

أي: فكيف تكون الحالُ يوم القيامة حين يأتي اللهُ تعالى مِن كلِّ أمَّةٍ بشَهيدٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٨٣).

وهم الأنبياءُ عليهم السَّلامُ، فيشهَدون على أُمَمِهم بأعمالِها، وتصديقِ رسلِها، أو تكذيبِهم، وتبليغِهم رسالةَ ربِّهم عزَّ وجلَّ[١]؟

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾.

أي: وكيف تكون الحالُ أيضًا إذا شهِد محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم على أمَّتِه بأنَّه بلَّغ رسالةَ ربِّه سبحانه[٢]؟

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال له: اقْرَأْ عَلَيَّ، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أقرَأُ عليكَ وعليكَ أُنزِلَ؟! قال: نعمْ، فقرأتُ سورةَ النِّساءِ، حتَّى أتيتُ إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: حسْبُكَ الآن، فالتفتُّ إليهِ فإذا عيناه تذْرِفان[٣]))[٤].

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيةُ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ السَّامعَ يتساءلُ عن الحالةِ المبهَمة المدلولة لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١] ويتطلَّبُ بيانَها، فجاءت هذه الجملةُ مبيِّنةً لبعضِ تلك الحالةِ العجيبة، وهي حالُ الَّذين كفَروا حين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧-٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٣) تَذْرِفان: ذَرَفَتِ العينُ تَذْرِف: إذا جرى دَمعُها. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥٩).

(٤) رواه البخاري (٥٠٥٠).

يرَوْن بوارقَ الشَّرِّ: مِن شهادةِ شُهداءِ الأممِ على مؤمنِهم وكافرِهم، ويوقِنون بأنَّ المشهودَ عليهم بالكفرِ مأخوذون إلى العذابِ، فينالُهم مِن الخوفِ ما يوَدُّون منه لو تُسوَّى بهم الأرضُ[١]، قال الله تعالى:

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾.

أي: حينها يتمنَّى مَن كفَر باللهِ تعالى، وعصى رسولَه فلم يمتثِلْ أمرَه، ولم يجتنِبْ نهيَه، أنْ لو تبتلِعُهم الأرضُ، فيُدفَنونَ فيها ولا يَظْهَرون، ويكونون ترابًا منها، فلا يُحاسَبون[٢].

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾.

أي: إنَّهم يَعترفون بما فعَلوه، ويُقرُّون بما عمِلوه، وتَشهَدُ عليهم جوارحُهم بما كانوا يعمَلون[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ تحريمُ الإساءةِ إلى الوالدَيْنِ؛ لأنَّ الأمرَ بالشَّيء نهيٌ عن ضدِّه[٤].

٢- أنَّ مَن لم يُحسِنْ إلى والدَيْه ولم يُسِئْ لهما فهو مُقصِّرٌ؛ لأنَّ اللهَ أمَر بالإحسان، وخلافُ الإحسانِ شيئانِ: إساءةٌ، وعدمُ إساءةٍ وإحسانٍ، وهذا خلافُ ما أمَرنا اللهُ به؛ قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠-٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٧-٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- في الأمرِ بالإحسانِ إلى الأقاربِ في قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ تنبيهٌ على أنَّ مِن سَفالةِ الأخلاقِ أن يستخفَّ أحدٌ بالقريبِ؛ لأنَّه قريبُه، وآمِنٌ من غوائلِه، ويصرِفَ بِرَّه ووُدَّه إلى الأباعدِ؛ ليستكفيَ شرَّهم، أو ليُذكَرَ في القبائل بالذِّكرِ الحسَنِ[١].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ذمُّ مَن يكتُمُ ما آتاه اللهُ من فضلِه، والكتمانُ نوعانِ: كتمانٌ فِعليٌّ، وكتمانٌ قوليٌّ: فالكتمانُ الفِعليُّ: ألَّا يُرَى أثَرُ نعمةِ اللهِ على العبد، فيُعطيه اللهُ المالَ فيخرُجُ إلى النَّاسِ بلباس الفقراءِ، وبمركوبِ الفقراء، لا تعفُّفًا ولكن بُخلًا، والكتمانُ القوليُّ: أن يتحدَّثَ عند النَّاس؛ فيقول: أنا ليس عندي مالٌ، أنا متوسِّطُ الحالِ، أو يزيد ويقول: أنا فقيرٌ، أو ما أشبَهَ ذلك[٢].

٥- أنَّ مَن عدَل عن المشروعِ ابتُلِي بالممنوع؛ وذلك أنَّ الَّذين يبخَلون بما آتاهم اللهُ مِن فضلِه ابتُلوا بإنفاقِ المالِ على وجهٍ لا خيرَ فيه، على أنَّهم يبذلونه رئاءَ النَّاس، وهذا وجهٌ لا خيرَ فيه، بل إذا وقَع تعبُّدًا كان شرًّا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[٣].

٦- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ تنبيهٌ إلى تأثيرِ قُرَناءِ المرءِ في سِيرتِه، وما ينبغي من اختيارِ القَرين الصَّالحِ على قرين السُّوءِ[٤].

٧- في قول الله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ..﴾ الآية:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٨٣).

أنَّ الإنسانَ يجبُ أن يوازِنَ في الأمورِ بين النَّافعِ والضَّارِّ، فينظُرَ ماذا يترتَّبُ على إيمانِه أو على كُفرِه، حتَّى يختارَ خيرَ الطَّريقينِ(١).

٨- أنَّ المُنفِقَ لا يُنفِقُ من كِيسِه، لكنَّه مُنفِقٌ ممَّا رزَقه اللهُ؛ فالفضلُ كلُّ الفضلِ لله عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾(٢).

٩- في قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بيانُ منَّةِ الله سبحانه على عبادِه بما أعطاهم، وأنَّ العطاءَ عطاؤُه، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة: أن تعتمدَ على اللهِ في حصول الرِّزق، ولا يعني هذا ألَّا نفعَلَ الأسبابَ الَّتي نصِلُ بها إلى الرِّزق، بل لا بدَّ أن نفعلَ الأسبابَ، لكن مع الاعتمادِ على اللهِ عزَّ وجلَّ(٣).

١٠- إثباتُ العِلمِ للهِ تعالى بأحوالِ عبادِه؛ لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾، ويتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: الرَّغبةُ والرَّهبةُ؛ وذلك لأنَّ العبدَ إذا علم أنَّ اللهَ عليمٌ به، خاف من مخالفتِه، ورجا في موافقتِه؛ إذ لا يضيعُ شيءٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ، والإيمانُ بعِلمِ اللهِ عزَّ وجلَّ يكسِبُ العبدَ مراقبةَ اللهِ سبحانه تمامًا؛ لأنَّ أيَّ شيءٍ يفعله فهو عليمٌ به، فهذا يحمِلُه على الرَّجاءِ في فعل ما يحبُّه اللهُ، وعلى الخوفِ مِن فعل ما يكرَهُه اللهُ عزَّ وجلَّ(٤).

١١- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيه إرشادٌ إلى أنْ يَشهدَ العبدُ حِكْمَةَ اللهِ سبحانَه في الوَعدِ والوعِيدِ؛ فيَشهدَ عدْلَه تعالى في وَعيدِه، وإحسانَه في وعْدِه، وكلٌّ قائمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٩).

بحِكْمتِه[١].

١٢- أنَّ الحسنةَ تجذِبُ الحسنةَ، وتُؤخَذ من قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لأنَّ هذا الأجرَ قد يكونُ سببُه زيادةَ الحسناتِ بسببِ الحسنةِ الأُولى، فمِن نعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ أنَّ الإنسانَ إذا عمِل العملَ الصَّالحَ وُفِّقَ لعمَلٍ آخَرَ[٢].

١٣- وجوبُ العمل بما في السُّنَّةِ، وإن لم يكُنْ ذلك في القرآنِ، وتؤخذ من قوله: ﴿وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾، فالأوامر الصادرةُ من الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم يجب العملُ بها، وإن لم تكُنْ في القرآنِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- أنَّ الإثباتَ المحضَ لا يدلُّ على التَّوحيدِ، ويُؤخَذُ ذلك مِن أنَّه لَمَّا أمَر بالعبادة قال: ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ﴾؛ وذلك أنَّ الإنسانَ قد يَعبُدُ اللهَ لكن يعبُدُ غيرَه، فإذا عبَد مع اللهِ غيرَه فإنَّه لم يُخلِصِ العبادةَ لله، والمطلوبُ: إخلاصُ العبادةِ له[٤].

٢- وجوبُ الإحسانِ إلى الوالدينِ؛ لقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، ولكنَّ التَّعبيرَ القرآنيَّ يقول: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ ولم يقُلْ: وإلى الوالدين؛ لأنَّ المطلوبَ مباشَرةُ الإنسانِ بالإحسانِ إلى والدَيْه، لا إيصال الإحسانِ فقط، ولو قال: (إلى الوالدينِ إحسانًا) كان المطلوبُ إيصالَ الإحسانِ فقط[٥].

٣- أنَّ أعظمَ حقوقِ البَشر حقُّ الوالدينِ؛ لأنَّ اللهَ جعَله في المرتبةِ الثَّانية بعد حقِّه، ولا يرِدُ على هذا حقُّ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ حقَّ الرَّسولِ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

داخلٌ في حقِّ اللهِ، ووجهُه: أنَّ العبادةَ لا تتمُّ إلَّا بالإخلاصِ لله، والمتابعةِ لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وإذا تحقَّقَت متابعةُ الرَّسول فقد أدَّيْت حقَّه(١).

٤- أنَّ الوالدينِ من الأقاربِ أيضًا، إلَّا أنَّ قَرابةَ الوِلادِ لَمَّا كانت مخصوصةً بكونِها أقربَ القراباتِ، وكانت مخصوصةً بخواصَّ لا تحصُلُ في غيرِها، لا جرمَ ميَّزها اللهُ تعالى في الذِّكرِ عن سائر الأنواعِ، فذكَر في هذه الآيةِ قَرابةَ الوِلادِ، ثمَّ أتبعَها بقرابةِ الرَّحِمِ(٢).

٥- في قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أنَّ الأقربَ فالأقربَ أَولى بالإحسان، ويؤخَذُ مِن أنَّ اللهَ قدَّم الوالدينِ، وهما أقربُ القَرابات، فقياسًا على ذلك نقول: مَن كان أقربَ مِن بقيَّةِ القَرابات فهو أحقُّ، هذا وجهٌ، والوجه الثَّاني: أنَّ المعلَّقَ على وصفٍ يقوَى بقوَّةِ ذلك الوصفِ، ويضعُفُ بضَعفِ ذلك الوصفِ، والحُكمُ هنا معلَّقٌ على القَرابة؛ فكلُّ مَن كان أقربَ كان حقُّه أوكدَ، فصارتِ الدَّلالةُ على أنَّنا نقدِّمُ الأقربَ فالأقربَ من وجهين: الوجهُ الأوَّلُ: قياسيٌّ، والثَّاني: معنويٌّ(٣).

٦- الأمرُ بالإحسانِ إلى المساكين؛ لقوله: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾، ومَن كان منهم أشدَّ مَسكنةً كانت الوصيةُ به أوكَدَ؛ لأنَّه عُلِّق على وصفٍ(٤).

٧- قدَّم اللهُ اليتيمَ على المسكينِ في قوله: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾؛ لأنَّ المسكينَ لكِبَرِه يمكِنُه أن يعرِضَ حالَ نفسِه على الغير، فيجلِب به نفعًا، أو يدفَع به ضررًا، وأمَّا اليتيمُ فلا قُدرةَ له عليه(٥).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٦).

٨- إثباتُ المحبَّةِ للهِ، وتؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾، فهذا وإن كان نفيًّا إلَّا أنَّه لو كانت المحبةُ منتفيةً عن اللهِ مطلقًا ولا تجوزُ عليه، لم يكُنْ لنفيِها فائدةٌ هنا، وعلى هذا فإنَّها تدلُّ على إثباتِ المحبَّةِ لله، ومذهبُ السَّلفِ وأهلِ السُّنَّةِ إثباتُ المحبَّةِ لله حقيقةً، وأنَّه جلَّ وعلا يُحِبُّ، وأنَّ محبَّتَه تتعلَّقُ بالأعمالِ، وتتعلَّقُ بالأشخاصِ، وتتعلَّقُ بالأزمنةِ، وتتعلَّقُ بالأمكنةِ[1].

٩- عنايةُ اللهِ سبحانه بعِبادِه؛ يُستفادُ ذلك من وجوهٍ في هذه الآية: أوَّلًا: مِن جِهة القيامِ بحقِّ الوالدينِ والقَرابات، وثانيًا: من جِهة جَبْرِ النَّقصِ الَّذي يحصلُ على بعضِ النَّاس، مثل: المساكينِ واليتامى، وثالثًا: أنَّ حُسنَ الجوارِ سببٌ للالتحامِ وللالتئامِ بين النَّاس وعدم الكراهيةِ والبَغضاءِ[2].

١٠- أنَّ اللهَ تعالى أرحمُ بالإنسانِ مِن أولاده، ويؤخَذُ مِن قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾؛ حيث أمَر الولدَ أن يُحسِن إلى والدِه، وهذا يدلُّ على أنَّ اللهَ أرحمُ بالإنسانِ من أولادِه، كما أنَّ قولَ الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النِّساء: ١١] يدلُّ على أنَّ اللهَ أرحمُ بالإنسانِ من والديه، وهذا هو الواقعُ[3].

١١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾، إنَّما خصَّ اللهُ تعالى هذينِ الوصفينِ بالذَّمِّ في هذا الموضعِ؛ لأنَّ مَن اتَّصَف بهاتينِ الصِّفتينِ حمَلتاه على الإخلالِ بمَن ذُكِر في الآيةِ ممَّن يكونُ لهم حاجةٌ إليه، فالمختالُ هو المتكبِّرُ، وكلُّ مَن كان متكبِّرًا فإنَّه قلَّما يقومُ برعايةِ الحقوقِ، ثمَّ أضاف إليه ذمَّ الفَخورِ؛ لئلَّا يُقدِمَ على رعايةِ هذه الحقوقِ لأجل الرِّياءِ والسُّمعةِ، بل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٢).

لمحضِ أمرِ اللهِ تعالى، فالفخر هو عدُّ المناقبِ على سبيلِ التَّطاولِ بها، والتَّعاظمِ على النَّاس[١].

١٢- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّه تعالى ذكَر في هذه الآيةِ مِن الأحوالِ المذمومة ثلاثًا: أوَّلها: كون الإنسانِ بخيلًا، وهو المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾، وثانيها: كونهم آمِرين لغيرِهم بالبُخلِ، وهذا هو النِّهايةُ في حبِّ البُخلِ، وهو المراد بقوله: ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾، وثالثها: قوله: ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ فيُوهِمون الفقرَ مع الغنى، والإعسارَ مع اليَسارِ، والعَجْزَ مع الإمكانِ، ثمَّ إنَّ هذا الكتمانَ قد يقعُ على وجهٍ يُوجِبُ الكفرَ، مثل: أن يُظهِرَ الشِّكايةَ عن اللهِ تعالى، ولا يرضى بالقضاءِ والقدَرِ، وهذا ينتهي إلى حدِّ الكفرِ؛ فلذلك قال: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾[٢].

١٣- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ قد تُؤُوِّلَت في البُخلِ بالمال والمَنْع، والبُخْلِ بالعلم ونحوِه، وهي تعمُّ البخل بكل ما ينفَعُ في الدِّين والدنيا؛ من علمٍ ومالٍ وغيرِ ذلك؛ كما تأوَّلوا قولَه: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ النفقَة من المالِ، والنَّفَقَة من العِلْم[٣].

١٤- لم يَجِئْ إعدادُ العذابِ المُهينِ في القرآنِ إلَّا في حَقِّ الكُفَّارِ؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٩).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢١٢).

ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾[١].

١٥- من كانت الشَّياطينُ لهم أولياءَ فإنَّما تَؤُزُّهم إلى المعاصي أزًّا، وتُزْعِجُهم إليها إزعاجًا لا يستقِرُّون معه، ويُزَيِّنون لهم القبائِحَ ويُخَفِّفُونها على قلوبهم، ويُحَلُّونها في نُفوسِهم، ويُثَقِّلون عليهم الطَّاعاتِ، ويُثَبِّطونهم عنها، ويُقَبِّحونها في أعيُنِهم، ويُلْقونَ على ألْسِنَتِهم أنواعَ القبيح من الكلامِ وما لا يُفيدُ، ويُزَيِّنونه في أسماعِ مَن يَسْمَعُه منهم؛ يبيتون معهم حيثُ باتوا ويَقِيلونَ معهم حيث قالوا، ويُشارِكونَهم في أموالِهم وأولادِهم ونسائِهم، يأكلون معهم، ويشربون معهم، ويُجامعونَ معهم، وينامون معهم؛ قال تعالى ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴾[٢].

١٦- انتفاءُ الظُّلم عن اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ﴾، وهذا النَّفيُ يتضمَّنُ إثباتَ كمالِ العدل، وليس المرادُ به مجرَّدَ انتفاءِ الظُّلم؛ لأنَّ مجرَّدَ انتفاء الظُّلمِ لا يدلُّ على كمالٍ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النحل: ٦٠]، أي: الوصفُ الأعلى[٣].

١٧- أنَّ ما ذُكِر على سبيل المبالغةِ لا مفهومَ له؛ لقوله: ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ﴾ فلا يُفهَمُ مِن قوله: ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ﴾ أنَّه يظلِمُ دون ذلك، بل لا يظلِمُ مِثقالَ ذرَّةٍ ولا دونها، لكنَّ عادةَ العربِ ضربُ المثَلِ في الشَّيء الحقيرِ بمِثقالِ الذَّرَّةِ[٤].

١٨- أنَّ رحمةَ اللهِ تعالى سبقَتْ غضَبَه؛ لأنَّ الحسناتِ تُضاعَفُ، والسَّيِّئاتِ

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٢).
(٢) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٦١- ٢٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٣).

لا تُزادُ؛ فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾، فيه نفيُ زيادةِ السَّيِّئاتِ، وقوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ فيه تضعيفُ الحسناتِ، وهو سبحانه يَجزي على الحسنةِ ثوابًا أكثرَ من المقابَلة، فليست الحسنةُ بعَشْرِ أمثالِها إلى سَبعِ مِئةِ ضِعفٍ فقط، بل هناك شيءٌ فوق هذا، وهو قوله: ﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ عبَّر هنا بقوله: ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ بزيادة الباء، وفي سورة البقرة عبَّر بـ﴿ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ بغيرِ الباء في قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [البقرة: ٨٣]، وإعادةُ الباءِ تدلُّ على التَّوكيدِ والمبالغةِ؛ فبُولِغ في آيةِ النساءِ؛ لأنَّها في حقِّ هذه الأمَّة، ولم يُبالغْ في آية سورةِ البقرة؛ لأنَّها في حقِّ بني إسرائيل، والاعتناءُ بهذه الأمَّةِ أكثرُ مِن الاعتناء بغيرها؛ إذ هي خيرُ أمَّة أُخرجت للنَّاس[2].

وقيل: فائدةُ إعادةِ حرفِ الجرِّ ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الإحسانَ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٣، ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٣١).

وقيل: أُعيدتِ الباءُ في سُورة النِّساء دون سورةِ البقرة؛ نظرًا للسِّياق؛ ففي سورة النساء، كان الكلامُ عن القَراباتِ من أوَّلِ السُّورةِ إلى آخِرها، وليس فقط في هذه الآيةِ؛ ففي الآيةِ الأولى من مطلعِ السُّورة قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾، ثم بعدَها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾؛ إذنْ ذِكر (الباء) مع ذِي القُربى في هذه الآيةِ مِن سورة النِّساء كان لمراعاةِ التَّفصيلِ والتوكيدِ، أمَّا في آية سورة البقرة فليس السياقُ في القَرابات؛ فحُذِفت (الباء) في (ذي القربى)؛ مراعاةً للإيجازِ. يُنظر: ((لمسات بيانية)) لفاضل السامرائي (ص: ٢٤١).

إلى القَرابةِ مُستقلٌّ، بمعنى أنَّه لو فُرِض أنَّ الرَّجُلَ ليس له والِدانِ، فحقُّ القرابةِ ثابتٌ، وليس مبنيًّا على حقِّ الوالدينِ، وتابعًا له؛ لأنَّ الوالدينِ قد يَكونانِ ميِّتينِ؛ فحقُّ القَرابةِ باقٍ[١].

وقيل: إنَّ إعادةَ الجارِّ لإفادة التَّنويع[٢].

٢- **قوله:** ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، فيه التَّعبيرُ بالبَعضِ عن الكلِّ؛ حيثُ قال: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ ومعلومٌ أنَّ المرادَ ما ملَكْتُم[٣].

٣- ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾: فيه وَضْعُ الظَّاهر ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ موضِعَ المُضمَرِ (لهم)؛ للإشعارِ بأنَّ مَن هذا شأنُه فهو كافرٌ لنِعمةِ الله، ومَن كان كافرًا لنعمةِ الله، فله عذابٌ يُهينُه، كما أهان النِّعمةَ بالبُخلِ والإخفاءِ[٤].

- والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لِما قبلها[٥].

٤- **قوله:** ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: فيه تقديمُ إنفاقِهم رِئاءَ النَّاسِ على عدمِ إيمانِهم باللهِ واليومِ الآخِرِ، مع كونِ المؤخَّرِ أقبَحَ من المقدَّمِ؛ لرعايةِ المناسبةِ بين إنفاقِهم ذلك وبين ما قبله مِن بُخلِهم وأمرِهم للنَّاس به[٦].

٥- **قوله:** ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا...﴾ الآية: استفهامٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢١٦)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٧).

غرَضُه التَّوبيخُ لهم على الجهلِ بمكان المنفعةِ، والاعتقادِ في الشَّيء على خلافِ ما هو عليه، والتَّحريضُ على الفكرِ لطلبِ الجواب؛ لعلَّه يؤدِّي بهم إلى العِلم بما فيه من الفوائدِ الجليلةِ، والعوائدِ الجميلة[١].

- وفيه تنبيهٌ على أنَّ المدعوَّ إلى أمرٍ لا ضررَ فيه ينبغي أن يُجيبَ إليه احتياطًا؛ فكيف إذا تضمَّن المنافعَ[٢]؟!

- وتقديمُ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخِرِ على الإنفاقِ؛ لأهميَّة الإيمانِ في نفسِه، ولعدمِ الاعتدادِ بالإنفاقِ بدونه[٣].

٦- **قوله**: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: فيه تكرير ﴿لَا﴾ النَّافية، وكذلك تكريرُ الباء؛ للإشعارِ بأنَّ كلًّا منهما منتفٍ على حِدَتِه[٤].

٧- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ...﴾: فيه مبالغةٌ بذِكْر المثقالِ[٥]، مع تأكيدِ الخبَرِ بـ: (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ.

- وفيه: التَّجوُّزُ بإطلاقِ الشَّيءِ على ما يُقارِبُه في المعنى؛ فقد أُطلِقَ الظُّلمُ على انتقاصِ الأجرِ من حيث إنَّ نقصَه عن الموعودِ به قريبٌ في المعنى من الظُّلم[٦].

- وقوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فيه: التَّنبيهُ بما هو أدْنَى على ما هو أعْلَى[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٧).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢١٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٥).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفيه: إبهامٌ؛ إذ لم يُبيِّنْ فيه المضاعَفةَ في الأجرِ[١].

٨- **قوله تعالى:** ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ... ﴾: الاستفهامُ فيه يدلُّ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ[٢].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٦).

الآية (٤٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿جُنُبًا﴾: أي: إنْ أصابتكم الجَنابةُ، وسُمِّيتِ الجَنابةُ بذلك؛ لكونِها سببًا لتجنُّبِ الصَّلاة في حُكم الشَّرع، ولفظ جُنُب اسْمٌ خَرَجَ مَخْرجَ الفِعلِ، فيسْتَوي للواحِدِ والاثْنَيْنِ والجمِيع والمؤنَّثِ، فَيُقَال: هذا جُنُبٌ، وهذانِ جُنُبٌ وهؤلاء جُنُبٌ، فهُو على تَأْويلِ ذَوِي جُنُبٍ، وأصل (جنب): يدلُّ على الناحيةِ، والبُعد[١].

﴿عَابِرِي سَبِيلٍ﴾: أي: مُجتازين في المساجدِ، أو مُجتازين غيرَ مُقِيمين، ولا مُطمئنِّين، أو المسافرين، وأصل (عبر): تجاوزٌ من حالٍ إلى حال[٢].

﴿ٱلۡغَآئِطِ﴾: الحدَث، وأصلُ الغائطِ: المطمئِنُّ مِن الأرض، وكانوا إذا أرادوا قَضاءَ الحاجة أتَوْا غائطًا من الأرضِ ففعَلوا ذلك فيه؛ فكُني عن الحدَثِ بالغائطِ، وأصل (غوط): اطمئنانٌ وغَوْر[٣].

﴿لَٰمَسۡتُمُ﴾: كِنَايَة عَن النِّكَاح والجِماع، وقيل: ملامسة من غير جماع،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

وأصْل (لمس): يدلُّ على تطلُّب شيءٍ، ومسيسِه أيضًا[١].

﴿صَعِيدًا﴾: أي ترابًا، والصَّعيدُ: الغبار الَّذي يصعَدُ، ويُطلَقُ أيضًا على وجهِ الأرض[٢].

المَعْنى الإجماليُّ:

يَنهَى اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين عن إتيانِ المساجد، وعن أداء الصَّلاة وهم في حالِ سُكرٍ، حتَّى يحصُلَ لهم الصَّحوُ الكاملُ، كذلك ينهاهم عن إتيانِ المساجد، وعن أداء الصَّلاة وهم على جنابةٍ، حتَّى يغتسِلوا، إلَّا مَن كان مجتازًا عبْرَ المسجد فقط دون مُكثٍ، فله إتيانُه، ثمَّ يبيِّنُ اللهُ لعباده أنَّ لهم أن يتيمَّموا بدلَ الطَّهارةِ بالماء؛ وذلك بأن يقصِدوا التُّرابَ الطَّاهر النَّظيف، ويمسَحوا وجوهَهم وأكُفَّهم منه، في حالِ كانوا مَرْضَى يَتعذَّرُ استعمالُهم للماء، أو فقَدوا الماءَ وهم مسافرون، أو فقَدوه بعد أن أحدَثوا حَدَثًا أصغرَ ببولٍ أو غائطٍ، أو عقِبَ ملامستِهم للنِّساءِ، إنَّ اللهَ كان عفوًّا غفورًا.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى بعبادتِه وحدَه لا شريكَ له، وأمَر ببرِّ الوالدينِ ومكارمِ الأخلاق، وذمَّ البُخلَ، واستطرَد منه إلى شيءٍ مِن أحوال القيامة، وكان قد

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

وقَع مِن بعضِ المسلِمين تخليطٌ في الصَّلاة الَّتي هي رأسُ العبادةِ بسبب شُربِ الخمر- ناسَب أن تُخَلَّص الصَّلاةُ من شوائبِ الكدَرِ الَّتي يوقِعُها على غيرِ وجهِها، فأمَر تعالى بإتيانِها على وجهِها دون ما يُفسِدها؛ ليجمَعَ لهم بين إخلاصِ عبادةِ الحقِّ، ومكارمِ الأخلاق الَّتي بينهم وبين الخَلْق[١].

وأيضًا لَمَّا وصَف الوقوفَ بين يديه في يومِ العرضِ والأهوال، وتضمَّن وصفُه أنَّه لا ينجو فيه إلَّا مَن كان طاهرَ القلبِ والجوارحِ بالإيمانِ به والطَّاعةِ لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وصَف الوقوفَ بين يديه في الدُّنيا في مقامِ الأُنسِ، وحضرةِ القُدسِ المُنَجِّي من هولِ الوقوفِ في ذلك اليوم، وأمَر بالطَّهارةِ فيه عن الخبائثِ[٢].

وأيضًا لَمَّا أمَر اللهُ تعالى في الآياتِ السَّابقة بعبادتِه، وتَرْكِ الشِّركِ به، وبالإحسانِ للوالدَيْنِ وغيرهم، وتوعَّد الَّذين لا يقُومون بهذه الأوامر والنَّواهي- وقد عرَفْنا مِن سُوَرٍ أخرى أنَّ اللهَ تعالى يأمُرُ بالاستعانةِ بالصَّلاة على القيامِ بأمورِ الدِّين وتكاليفِه- ناسَب ذِكْر الصَّلاةِ هاهنا عقِبَ تلك الأوامرِ والنَّواهي الجامعة[٣].

النَّاسخ والمَنسوخ:

المَنسوخ:

قول الله تعالى: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾[٤] [النساء: ٤٣].

النَّاسخ:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٤٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٩٢).
(٤) قال النحاس: (أكثرُ العلماء على أنَّها منسوخة) ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: ٣٣٦).

ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠][(١)].

الدَّليل:

عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه، قال: (لَمَّا نزَل تحريمُ الخَمرِ، قال عمرُ: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شفاءً، فنزلت الآيةُ الَّتي في البقرة: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ ...﴾ الآية [البقرة: ٢١٩]، قال: فدُعِي عمرُ فقُرِئت عليه، قال: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شفاءً، فنزلت الآيةُ الَّتي في النِّساءِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، فكان مُنادِي رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذا أقيمت الصَّلاةُ ينادي: ألَا لا يقرَبَنَّ الصَّلاةَ سَكرانُ، فدُعِي عُمرُ فقُرِئت عليه، فقال: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شفاءً، فنزلت هذه الآيةُ ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، قال عُمرُ: انتَهَيْنا)[(٢)].

سَببُ النُّزول:

عن عليِّ بن أبي طالبٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((صنَع لنا عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوف رضِي اللهُ عنه طعامًا، فدعانا وسقانا من الخمرِ، فأخذتِ الخمرُ منَّا، وحضرتِ الصَّلاةُ فقدَّموني، فقرأتُ: (قل يا أيَّها الكافرون لا أعبُدُ ما تعبدون ونحن نعبُدُ ما تعبدون)، فأنزَل اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]))[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للزهري (ص: ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩).

(٢) رواه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٥٥٤٠)، وأحمد (٣٧٨).
صحَّحه عليُّ بن المديني كما في ((شرح ثلاثيات المسند)) للسفاريني (١/ ٧٥٩)، وقال الترمذيُّ: رُوي عن إسرائيل مرسلًا وهو أصحُّ. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١/ ١٨٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٦٧٠)، وقال الوادعيُّ في ((أحاديث مُعلَّة)) (٣١٧): سنده رجال الصَّحيح، ولكنَّه منقطع.

(٣) رواه الترمذي (٣٠٢٦) واللفظ له، والبزار في ((البحر الزخار)) (٥٩٨)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٥٣٥٢).

وفي لفظٍ آخرَ: عن عليِّ بن أبي طالبٍ، رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ رجلًا من الأنصارِ دعاه وعبدَ الرَّحمنِ بنَ عوف، فسقاهما قبل أن تحرَّمَ الخمرُ، فأَمَّهم عليٌّ في المغربِ فقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فخلَّط فيها، فنزلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]))[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون لا تقرَبوا المساجدَ، ولا تصلُّوا وأنتم في حالِ سُكرٍ، لا تدرون معه ما تقولون في الصَّلاة، إلى أن يحصُلَ لكم الصَّحوُ التَّامُّ[٢].

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾.

أي: ولا تُصلُّوا أيضًا، ولا تقرَبوا المساجدَ، والحالُ أنَّكم على جَنابةٍ، إلَّا لأجلِ الاجتيازِ عبْرَها فقط، دون مُكثٍ فيها، إلى أن تغتسِلوا[٣].

قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ غريب. وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٩/ ٥٣): في إسنادِه عطاء بن السَّائب، لا يُعرَف إلَّا من حديثه، وقد قال يحيى بن معين: لا يُحتجُّ بحديثِه، وفرَّق مرةً بين حديثه القديم وحديثه الحديث، ووافقه على التفرقة الإمام أحمدُ. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٠٢٦).

(١) رواه أبو داود (٣٦٧١) واللفظ له ، والترمذي (٣٠٢٦)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٠٤١)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٨٢٨).
قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ غريب، وقال الطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (١٢/ ٢٣٧): إن كان منقطعًا في رواية الفريابي عن سفيان؛ فإن غيره من رواة سفيان قد رفعه، ووثَّق رجالَ إسناده البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٦/ ١٩٤)، وصححه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (٣٠٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٨-٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٢-٣٤٥).
قال الرازي: (جميع المفسِّرين اتَّفقوا على أنَّ هذه الآية إنَّما نزلت في شُربِ الخمرِ) ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨-٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٨، ٣١٣)، ((تفسير

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾.

أي: وإنْ كنتم ذوي مَرَضٍ، بحيث يتعذَّرُ معه استعمالُ الماءِ[١].

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

أي: إنْ كنتُم مُسافِرين[٢].

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾.

أي: إنْ أحدَثَ أحدُكم حَدَثًا أصغرَ ببولٍ أو غائطٍ[٣].

﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

قيل: المرادُ الجِماعُ، وقيل المراد: كلُّ لَمسٍ باليدِ أو بغيرِها[٤].

﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

سَببُ النُّزول:

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، زَوجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قالت: ((خرَجْنا مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في بعضِ أسفارِه حتَّى إذا كنَّا بالبَيداءِ، أو

السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩، ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٦).

قال الكيا الهراسي: (قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ يمنعُ مِن التوضُّؤ، وأن يكونَ مِن إمساسِ الماءِ خطرُ الهلاكِ أو فسادُ عضوٍ، وليس المرادُ به مطلقُ المرضِ إجماعًا) ((أحكام القرآن)) (٢/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣-٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٧).

بذاتِ الجيشِ انقطَع عِقدٌ لي، فأقام رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على التماسِه، وأقام النَّاسُ معه، وليسوا على ماءٍ، فأتى النَّاسُ إلى أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضِي اللهُ عنه، فقالوا: ألَا ترى ما صنَعَتْ عائشة؟! أقامَتْ برسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم والنَّاسِ، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ، فجاء أبو بكرٍ، ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم واضعٌ رأسَه على فَخِذي قدْ نام، فقال: حبَسْتِ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم والنَّاسَ، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ! فقالت عائشةُ: فعاتَبني أبو بكرٍ، وقال ما شاءَ اللهُ أن يقولَ، وجعَل يَطعُنُني بيدِه في خاصرتي، فلا يمنَعُني من التَّحرُّكِ إلَّا مكانُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على فخِذي، فقام رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم حين أصبَح على غيرِ ماءٍ، فأنزَل اللهُ آيةَ التَّيمُّمِ، فتيمَّموا، فقال أُسَيدُ بن الحُضَيرِ: ما هي بأوَّلِ بركتِكم يا آلَ أبي بكرٍ، قالت: فبعَثْنا البعيرَ الَّذي كنتُ عليه، فأصَبْنا العِقدَ تحتَه))[(١)].

﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

أي: إنْ حصَلَتْ إحدى الحالاتِ السَّابقِ ذِكرُها -كالسَّفرِ- ففقدتُم الماءَ، فعليكم بقَصْدِ وجهِ الأرضِ الطَّاهرِ النَّظيفِ[(٢)].

﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾.

أي: فامسَحوا مِن هذا الصَّعيدِ الطيِّبِ الوجهَ والكفَّينِ[(٣)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يَعفو عن ذُنوبِ عِبادِه، وتَقصيرِهم في طاعتِه، ويَستُرُ

(١) رواه البخاري (٣٣٤) واللفظ له، ومسلم (٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٨٠، ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٨-٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٩-٣٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٩).

عليهم، ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها سبحانه وتعالى، ومِن عَفوِه عنهم وغَفرِه لهم: أنْ شَرَعَ التَّيمُّمَ، وأباح لهم فِعلَ الصَّلاة به إذا فقَدوا الماءَ، أو تعذَّر عليهم استعمالُه؛ توسعةً عليهم، ورُخصةً لهم[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- أهميةُ الصَّلاةِ، والعنايةُ بها؛ وجهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى صدَّر الحُكمَ المتعلِّقَ بالصَّلاةِ بالنِّداءِ لاسترعاءِ الانتباهِ، وممَّا يدلُّ على العنايةِ بها أنَّ اللهَ صدَّر الخطابَ بذلك بوصفِ الإيمانِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فدلَّ هذا على أهميَّةِ الصَّلاةِ، وعلى العنايةِ بها[٢].

٢- الحثُّ على حُضورِ القلبِ في الصَّلاة؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾، والقلبُ إذا غاب، فإنَّ الإنسانَ لا يعلَمُ ما يقولُ، وإنَّما يقولُ على سبيلِ العادة فقط، وإلَّا لو أنَّه رجَع إلى نفسِه لتَبيَّن له أنَّه لا يَدري ما يقولُ، أي: لا يَدري معنى ما يقولُ، وإنْ كان قد يَدري أنَّه لفظٌ[٣].

٣- في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾، إشارةٌ إلى أنَّه يَنبغي لِمَن أراد الصَّلاةَ أنْ يَقطَعَ عنه كلَّ شاغلٍ يَشغَلُ فِكرَه؛ كمُدافَعةِ الأخبثَيْنِ، والتَّوْقِ لطعامٍ، ونحوِه[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- أنَّه لا حُكمَ لقولِ السَّكرانِ؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾، فإنَّه يدُلُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩).

على أنَّ السَّكرانَ لا يعلَمُ ما يقولُ، وإذا كان لا يعلَمُ ما يقولُ صار قولُه لغوًا لا عبرةَ به[١].

٢- يؤخَذُ مِن المعنى في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ منعُ الدُّخولِ في الصَّلاةِ في حالِ النُّعاسِ المُفرِطِ، الَّذي لا يشعُرُ صاحبُه بما يقولُ ويفعَلُ[٢].

٣- أنَّ الإنسانَ إذا غضِب غضبًا شديدًا حتَّى صار لا يعلَمُ ما يقولُ، فإنَّه لا عبرةَ بقولِه، حتَّى لو كان كفرًا، وحمَلَه على ذلك شدَّةُ الغضبِ، فإنَّه لا عبرةَ بقولِه؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾؛ فدلَّ ذلك على أنَّ جهْلَ الإنسانِ بما يقولُ له أثرٌ في تغيُّرِ الحُكم، وكذلك لو طلَّق في شدَّةِ الغضبِ وهو لا يعلَمُ ما يقول[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ اكتفى بقولِه: ﴿تَقُولُونَ﴾ عن (تفعلون)؛ لظهورِ أنَّ ذلك الحدَّ من السُّكرِ قد يُفضي إلى اختلالِ أعمال الصَّلاةِ؛ إذ العملُ يُسرِعُ إليه الاختلالُ باختلالِ العقلِ قبل اختلالِ القولِ[٤].

٥- تحريمُ مُكثِ الجُنُبِ في المسجدِ؛ لقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾[٥].

٦- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أنَّ العُبورَ ليس كالمُكثِ، وعليه: فإنَّ الإنسانَ لو مرَّ عابرًا بالمسجدِ، فإنَّه لا يَلْزَمُه أن يُصلِّيَ تحيَّةَ المسجدِ؛ لأنَّه عابر، بخِلاف ما إذا مكَث وجَلَس، فإنَّه لا يَجلِسُ حتَّى يُصليَ ركعتينِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٦١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾، استُدِلَّ به على أنَّه لا يجِبُ على الجُنُبِ إلَّا الاغتسالُ ولا يجِبُ عليه الوُضوءُ، وأنَّه إذا اغتَسلَ جازَ له أنْ يَقرَبَ الصَّلاةَ، وأنَّ المغتسِلَ من الجنابةِ ليس عليه نِيَّةُ رفْعِ الحَدَثِ الأَصْغَرِ[(١)].

٨- الإشارةُ إلى القاعدةِ المعروفة المتَّفقِ عليها، وهي: أنَّ المشقَّةَ تجلِبُ التَّيسيرَ، ووجهُه: أنَّ اللهَ تعالى أجاز للمريضِ أن يتيمَّمَ، فقال: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾[(٢)].

٩- أنَّ المسافرَ إذا لم يجِد الماءَ فإنَّه يتيمَّمُ، ولا يَنتظرُ حتَّى يجدَ الماءَ في البلد؛ لقوله: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾[(٣)].

١٠- أنَّ السَّفرَ ليس له حدٌّ معيَّنٌ، ووجهُه: الإطلاقُ في قوله: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ ولم يقُلْ مسافةَ كذا، بل حدُّ السَّفرِ أنْ يَقعَ عليه اسمُ السَّفرِ؛ فإذا وقَع عليه اسمُ السَّفر ثبتَتْ له أحكامُ السَّفر، ولم يحدِّدِ اللهُ ولا رسولُه السَّفرَ بمسافة معيَّنةٍ[(٤)].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لا يجِبُ على المتوضِّئِ أنْ يَتوضَّأ مرَّةً ثانيةً؛ إذ لو كانَ الوضوءُ واجبًا على مَن جاءَ مِن الغائِطِ ومَن لم يَجِئْ، لكانَ ذِكرُ المجيءِ مِن الغَائطِ عبَثًا[(٥)].

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٣٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٤).
(٥) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٣٧٤).

١٢- أنَّ مجامَعةَ النِّساء حدَثٌ؛ لقوله: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، وهو حدَثٌ أكبرُ، كما دلَّت على ذلك آيةُ المائدة، وعلى هذا فيجبُ على الإنسان إذا جامَع المرأةَ أن يغتسلَ، سواءٌ أنزَل أم لم يُنزِلْ[١].

١٣- قولُ الله تعالى: ﴿... أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ استُدِلَّ به عَلَى أنَّ المسافِرَ يُجامِعُ أهْلَه وإنْ لم يَجِدِ الماءَ، ولا يُكْرَهُ له ذلِك[٢].

١٤- أنَّه يُشترَطُ في جواز التَّيمُّمِ عدَمُ الماء، أو التَّضرُّرُ باستعماله، وعدمُ الماء مأخوذٌ من قوله: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ﴾، والتَّضرُّر باستعماله من قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾[٣].

١٥- جواز التَّيمُّمِ على وجهِ الأرض كلِّه؛ من رملٍ، أو حصًى، أو ترابٍ، أو سَبِخةٍ، أو جِصٍّ، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا﴾ ولم يقيِّدْ[٤].

١٦- أنَّه لا بدَّ مع المسحِ من القَصد؛ لقوله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ ﴿فَٱمۡسَحُواْ﴾[٥].

١٧- الحِكمة في التَّشريعِ، ووجه ذلك: أنَّ اللهَ فرَّق بين طهارةِ الماءِ وطهارة التَّيمُّم؛ فطهارةُ الماءِ من الجنابةِ لا بدَّ أن تعُمَّ جميعَ البدنِ، ومِن الحدَثِ الأصغرِ لا بدَّ أن تعُمَّ الأعضاءَ الأربعةَ: الوجهَ، واليدينِ، والرَّأسَ، والرِّجلينِ، أمَّا طهارةُ التَّيمُّمِ فإنَّها لا تكونُ إلَّا في عُضوينِ فقط، وهما: الوجهُ، واليدانِ، ولا فرق فيها بين الطَّهارتينِ الكبرى والصُّغرى، والحكمةُ من ذلك: أنَّ الطَّهارةَ بالماء

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٦).
(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٤٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٨).

فيها تطهيرٌ حسِّيٌّ واضحٌ، وطهارة التَّيمُّمِ فيها تطهير معنويٌّ، وهو كمالُ التَّعبُّدِ والتَّذلُّلِ لله عزَّ وجلَّ، بحيث إنَّ الإنسانَ يمسَحُ بالتُّرابِ وجهَه وكفَّيْهِ، وهذا دليلٌ على كمال التَّعبُّدِ(١).

١٨- وجوب التَّرتيبِ بين مسْح الوجهِ في التَّيمُّمِ ومسح اليدينِ، بحيث يقدَّمُ الوجهُ؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ﴾(٢).

١٩- أنَّه لا يُشرعُ في التَّيمُّمِ مسْحُ الذِّراعِ؛ لقوله: ﴿بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ﴾ وأطلَق، واليدُ عند الإطلاق هي الكفُّ؛ ودليلُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، وقد أجمَع العلماءُ على أنَّ السَّارقَ لا تُقطَعُ يدُه إلَّا مِن مَفصِلِ الكفِّ، ولا تُقطَعُ من المِرفَقِ، وهنا أطلَق اللهُ تعالى اليدَ، كما أطلقها في القطعِ في السَّرقةِ، وإذا أُطلِقت فالمرادُ الكفُّ(٣).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: فيه تصديرُ الكلامِ بحَرْفي النِّداءِ والتَّنبيهِ (يا أيُّها)؛ للمبالغةِ في حمْلِهم على العملِ بموجِبِ النَّهي عن قُربان المساجد حالَ السُّكرِ أو الجَنابةِ(٤).

٢- **قوله**: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فيه إطلاقُ لفظِ الصَّلاةِ على المسجِد، من بابِ حذْفِ المضاف، أي: لا تَقرَبوا موضِعَ الصَّلاةِ؛ فقدْ أراد بالصَّلاةِ مواضعَها، وهي المساجدُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٥).

- وعبَّر بالقُربِ عن التَّلبُّس بالفعلِ، وإنَّما اخْتِير هذا الفِعلُ ﴿لَا تَقۡرَبُواْ﴾ دون (لا تُصلُّوا) ونحوه؛ للإشارةِ إلى أنَّ تلك حالةٌ منافيَةٌ للصَّلاة، وصاحبُها جديرٌ بالابتعادِ عن أفضلِ عملٍ في الإسلام[١].

٣- **قوله**: ﴿وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا﴾: جملةُ ﴿وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ حاليَّة، وهي جُملةٌ اسميَّةٌ؛ فالتَّعبيرُ بها أبلغُ لتكرارِ الضَّمير؛ فالتَّقييدُ بها أبلغُ في الانتفاءِ مِنها من التَّقييدِ بالمفرَدِ الَّذي هو: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾[٢].

٤- **قوله**: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾: فيه تقديمُ المستثنَى ﴿عَابِرِي﴾ قبلَ تمامِ الكلام المقصودِ قصرُه بقوله: ﴿حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾؛ للاهتمامِ به[٣].

٥- **قوله**: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾: فيه تسميةُ الشَّيءِ باسم مكانِه؛ إذ ﴿ٱلۡغَآئِطِ﴾: هو المكانُ المطمئنُّ من الأرضِ، وكان الرَّجلُ إذا أراد قضاءَ الحاجةِ طلَب غائطًا من الأرض يحجُبُه عن أعيُنِ النَّاس، ثمَّ سُمِّي الحَدَثُ نفسُه بهذا الاسمِ[٤]، ومجيئُه من الغائط كنايةٌ عن الحدَثِ بالغائطِ[٥]، ففيه التَّجوُّز بإطلاقِ المحَلِّ على الحالِّ فيه[٦].

- **وفي قوله**: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم﴾: إسنادُ المجيءِ منه إلى واحدٍ من المخاطَبين دونهم كلِّهم؛ حيث لم يقُلْ: (أو جئتم) ونحوه؛ للتَّفادي عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٥٣).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٦٦٥).

التَّصريحِ بنسبتِهم إلى ما يُستحيا منه، أو يُستهجَنُ التَّصريحُ به[١].

- وفيه التفاتٌ من الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ لأنَّه كِنايةٌ عمَّا يُستحيَا مِن ذِكرِه، فلمْ يُخاطِبْهم به[٢].

٦- **في قوله:** ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: إيثارُ الكِنايةِ فيما عُطف عليه على التَّصريحِ بالجِماعِ[٣].

٧- **قوله:** ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ﴾: فيه تغليبُ الخِطابِ؛ إذ قدِ اجتمَع خِطابٌ وغَيبةٌ؛ فالخِطاب في: ﴿كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾، ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، والغَيبةُ في: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ﴾؛ لأنَّه لَمَّا كنى عن الحاجةِ بالغائط، كرِه إسناد ذلك إلى المخاطَبين، فنزَع به إلى لفظِ الغائبِ بقولِه: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ﴾، ولَمَّا كان المرضُ والسَّفرُ ولمسُ النِّساءِ لا يفحُشُ الخِطابُ بها جاءتْ على سَبيل الخِطابِ[٤].

٨- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾: تعليلٌ للتَّرخيصِ والتَّيسيرِ، وتقريرٌ لهما؛ فإنَّ مَنْ عادتُه المستمرَّةُ أنْ يعفوَ عن الخاطئين، ويغفرَ للمُذنبين، لا بدَّ أن يكونَ مُيسِّرًا لا مُعسِّرًا، وقيل: هو كنايةٌ عنهما؛ فإنَّ التَّرفيهَ والمسامحةَ مِن روادفِ العفوِ، وتوابعِ الغُفران[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٩)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٦٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٢١- ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٢١- ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٩)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥١٥)، ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧١).

الآيات (٤٤ - ٤٦)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾: أي: لا سمعتَ، أو مَدعوًّا عليك بصمَمٍ أو موت، أو غيرَ مُجابٍ إلى ما تدعو إليه أو كلامٍ ترْضاه[١].

﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾: تحريفًا بالكذب، واستهزاءً ومحاكاة؛ يقال: لَوَى لسانَه بكذا: كناية[٢] عن الكذب، وتخرُّصِ الحديث، وأصلُه: إمالةٌ للشَّيء[٣].

﴿وَأَقْوَمَ﴾: أي: أخلصَ، وأَسَدَّ، والقيامُ للشيءِ هو المراعاةُ للشيء، والحفظُ له وأصل (قوم): الانتصاب أو العَزم[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

(٢) قال ابن عاشور: (اللَّيُّ أصله الانعطافُ والانثِناءُ، وهو يَحتمِل الحقيقةَ في كلتا الكلمتين: اللَّيُّ، والألسنةُ، أي: إنَّهم يَثنون ألسنتَهم؛ ليكونَ الكلامُ مشبِهًا لُغتين؛ بأن يُشبِعوا حركاتٍ، أو يقصُروا مُشبَعاتٍ، أو يفخِّموا مرقَّقًا، أو يرقِّقوا مفخَّمًا، ليعطيَ اللَّفظُ في السَّمعِ صورةً تُشبِهُ صورةَ كلمةٍ أخرى، فإنَّه قد تخرُجُ كلمةٌ مِن زِنَةٍ إلى زِنَةٍ، ومن لُغةٍ إلى لُغةٍ بمثلِ هذا، ويُحتمَل أن يكون المرادُ: أنَّهم يأتون في كلامِهم بما هو غيرُ مُتمحِّضٍ لمعنى الخيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠)، ((تذكرة

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾

﴿كَفَى﴾: فِعلٌ ماض، والبَاء في ﴿بِٱللَّهِ﴾ صِلة، ولفظُ الجلالة (الله) مجرورٌ لفظًا، وهو فاعلٌ مرفوع محلًّا بـ(كفَى) والتقديرُ: وكفَى اللهُ...، وإنَّما زِيدت الباءُ مع الفاعِل؛ ليؤدِّيَ الكلامُ معنى الأمر؛ إذ التقدير: اكتَفُوا باللَّهِ؛ فدلَّت الباءُ على هذا المعنى، وقيل غير ذلك. و﴿وَلِيًّا﴾: مَنْصُوبٌ على التَّمْيِيزِ. وقيل: على الحَال. ومِثلُه في الإعرابِ قولُه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾[1].

المَعْنى الإجماليُّ:

يخاطِبُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم قائلًا له: ألم تعلَمْ- يا محمَّدُ- بأنَّ الَّذين آتاهم اللهُ حظًّا من الكتاب من اليهود والنَّصارى يختارون الضَّلالةَ عِوضًا عن الهدى، ويُريدون مع ضلالتِهم أن تضلُّوا أنتم معهم، فتتركوا سبيلَ الهدايةِ.

واللهُ تعالى- أيُّها المؤمنون- أعلمُ مِنكم بأعدائِكم، وهو حسبُكم سبحانه، يتولَّاكم بحِفظِه ورعايتِه، كفى به نصيرًا يدافعُ عنكم، وينصُرُكم على عدوِّكم.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ مِن اليهود مَن يُبدِّلُ ما في التَّوراةِ لفظًا أو معنًى، أو يُبدِّلهما معًا، ويقولون لمحمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: سمِعْنا قولَك، وعصَيْنا أوامرَك، ويُسيئون أدبَهم معه صلَّى الله عليه وسلَّم فيقولون له: اسمَعْ منَّا، لا سمِعْتَ؛ استهتارًا منهم واستهزاءً، ويقولون له: راعِنَا، يُظهرون أنَّهم يريدون: أرْعِنا سمعَك، وإنَّما يَعنُون بذلك حقيقةَ الدُّعاءَ على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن يصابَ بالرُّعونةِ؛ وذلك تحريفًا منهم وطعنًا في الدِّين بالقَدْحِ في النَّبيِّ عليه

الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٨٦).

الصَّلاة والسَّلام.

ثمَّ يخبر تعالى أنَّ هؤلاء اليهودَ لو كانوا قالوا: سمِعْنا وأطَعْنا، واسمَعْ منا قولَنا، وانتظِرْنا لنفهمَ عنك قولَك، لكان قولُهم ذلك خيرًا لهم وأصوبَ، ولكنْ أخزاهم اللهُ، وطرَدَهم من رحمتِه، فلا يُؤمِنون إلَّا إيمانًا قليلًا لا يُفيدُهم.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر مِن أوَّلِ هذه السُّورة إلى هذا الموضعِ أنواعًا كثيرةً من التَّكاليفِ والأحكامِ الشَّرعيَّةِ، انتقَل إلى ذِكْر أحوال أعداءِ الدِّين، وأقاصيص المتقدِّمين؛ فالانتقالُ من نوعٍ من العلوم إلى نوع آخر، يُنشِّطُ الخاطرَ، ويدفَع ما يُكدِّره، ويقوِّي القريحةَ[1].

وأيضًا هو استئنافُ كلامٍ راجعٌ إلى الآياتِ الَّتي سبقت من قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦] فإنَّه بعد نِذارةِ المشركين وجَّه الإنذارَ لأهلِ الكتاب، ووقعَتْ آياتُ تحريمِ الخمر وقتَ الصَّلاة، وآياتُ مشروعيَّةِ الطَّهارة لها فيما بينهما، وفيه مناسبةٌ للأمرِ بتركِ الخمر في أوقات الصَّلواتِ، والأمر بالطَّهارة؛ لأنَّ ذلك من الهُدى الَّذي لم يسبِقْ لليهود نظيرُه؛ فهم يحسُدون المسلِمين عليه؛ لأنَّهم حُرِموا مِن مِثلِه، وفرَّطوا في هدًى عظيمٍ، وأرادوا إضلالَ المسلمين عداءً منهم[2]، قال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧١) وينظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٨٨).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

أي: ألَمْ تعلَمْ- يا محمَّدُ- بأنَّ الَّذين أُعطوا حظًّا من التَّوراةِ من اليهود[١].

﴿ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ ﴾.

أي: إنَّهم يَختارون الضَّلالةَ عِوَضًا عن الهُدَى، بالإقامةِ على تكذيبِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتركِهم الإيمان؛ ليَشتروا بذلك ثمنًا قليلًا من حُطام الدُّنيا الفاني[٢].

وهذا باعتبارِ ما يَختارونه لأنفسِهم، ولكنَّ شرَّهم ليس قاصرًا؛ ولذلك قال[٣]:

﴿ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾.

أي: وهم يودُّون أيضًا- أيُّها المؤمنون- أنْ تَنحرِفوا معهم عن طَريقِ الإيمان، واتِّباعِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فتكفروا كما كَفروا، وتَتركوا ما أنتُم عليه من الهُدى والعِلم النَّافعِ[٤].

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٩٨)، ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٢).
ومن المفسرين من ذهب إلى أن المرادَ من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اليهود والنصارى. ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٩٩-١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦١-٣٦٢).

أي: واللهُ تعالى أعلمُ بعَداوةِ أولئك منكم، وما هم مُنطَوون عليه من الغِشِّ والكيدِ والحسَدِ لكم[١].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾.

أي: وحَسْبُكم اللهُ تعالى؛ يتولَّاكم بالحفظِ والرِّعاية، ويُيسِّر لكم ما فيه الفلاحُ والسَّعادةُ[٢].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾.

أي: وحَسْبُكم اللهُ تعالى نصيرًا؛ يُدافِعُ عنكم، وينصُرُكم على أعدائِكم، ويُبيِّن لكم ما ينبغي أنْ تحذَروه منهم[٣].

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عنهم أنَّهم يَشترون الضَّلالة، شرَح كيفيَّةَ تلك الضَّلالةِ، فقال[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٩٢).

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾.

أي: إنَّ مِن اليهود مَن يُبدِّلُ ما جاء في التَّوراةِ؛ إمَّا بتغيير اللَّفظِ، أو المعنى، أو هما جميعًا[١].

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾.

أي: ويقولُ أولئك القومُ: سمِعْنا- يا محمَّد- قولَك، وعصَيْنا أمرَك، فتولَّوْا عن كتابِ اللهِ تعالى بعدما عقَلوه، وهذا أبلغُ في كُفرِهم وعِنادِهم[٢].

﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾.

أي: ويقولون لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: اسمَعْ منَّا ما نقولُ، أصمَّك اللهُ فلا سمِعْتَ، يُسيئون الأدبَ مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ استهزاءً منهم واستهتارًا به[٣].

﴿وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِ﴾.

أي: إنَّهم يُوهِمون أنَّهم بقولهم للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «راعنا»: يعنُون: أرْعِنا سمعَك، وإنَّما قصدُهم الدُّعاءُ عليه صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يُصابَ بالرُّعونةِ؛ وذلك تحريفٌ منهم لهذه اللَّفظةِ عن معناها، أرادوا بذلك الطَّعنَ في الدِّينِ بعيبِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والقدحِ فيه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠١-١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٥-٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٤-١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٩-٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٦-١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧٠-٣٧١).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾.

أي: ولو أنَّ هؤلاءِ اليهودَ قالوا لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: سمِعْنا قولَك، وأطَعْنا أمرَك، واسمَعْ منَّا ما نقول، وانتظِرْنا لنفهمَ عنك ما تقولُ، لو أنَّهم قالوا ذلك، لكان أصوبَ وأعدَلَ في القولِ، وفي غيرِه من أمورِ دِينِهم ودنياهم[١].

﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ تعالى قد أخْزَى أولئك اليَهودَ، فأقصاهم وأبعَدَهم وطرَدَهم من رحمتِه؛ وذلك بسبب كُفرِهم[٢].

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: فلا يُؤمنون إلَّا إيمانًا قليلًا لا ينفَعُهم[٣].

الفوائد التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا ...﴾ الآية: أنَّ مِن النَّاس مَن يؤتى الكتابَ، ويُرزَقُ العِلمَ، ولكنَّه لا ينتفعُ به، مِثل هؤلاء الَّذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، ومع ذلك لم ينتفعوا به، واشتَرَوُا الضَّلالةَ بالهدى، فمن لم ينتفِعْ بعِلمِه فهو شَبيهٌ بهؤلاء المذكورين ولهذا قال سفيانُ بنُ عُيَينةَ رحمه الله: (من فسَد من علمائِنا ففيه شَبَهٌ مِن اليهودِ، ومَن فسَد مِن عُبَّادِنا ففيه شَبَهٌ من النَّصارى)[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧١-٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧٢-٣٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٢).

٢- التَّحذيرُ مِن هؤلاء اليهود أو النَّصارى أو غيرهم؛ لأنَّه إذا حذَّرَنا اللهُ ممَّن أُوتوا نصيبًا من الكتاب، فتحذيرُنا ممَّن هم عُمْيٌ صُمٌّ بُكْمٌ، مِن باب أَولى[١].

٣- في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ تسليةُ المؤمنين، وتقويةُ عزائمهم؛ لكونِ اللهِ أعلمَ بأعدائنا، وأنَّه ناصرٌ لنا، ووليٌّ لنا[٢]، وفيه إشارةٌ إلى التحذيرِ منهم، وتوبيخٌ على الركونِ إليهم، والمعنى: أنَّه تعالى قد أخبَر بعَداوتهم للمُؤمنين، فيجبُ حَذَرُهم؛ كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾[٣].

٤- أنَّ الإنسانَ يُحاسَبُ على ما أراد؛ لقوله: ﴿لَيًّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾، أي: على ما في قلوبِهم؛ قال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ﴾، أمَّا في باب الحكومة والخصومة مع الناس فيُحاسب على الظاهرِ[٤].

٥- أنَّ المنكَرَ إذا أنكَره المُنكِرُ فإنَّ الأولى أن يُرشِدَ إلى البَدَل الذي لا محذورَ فيه؛ لقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ بدل ﴿وَعَصَيۡنَا﴾، ﴿وَٱسۡمَعۡ﴾ دون ﴿غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾، ﴿وَٱنظُرۡنَا﴾ بدل ﴿رَٰعِنَا﴾؛ كما قال تعالى في خطابِ المؤمنين بهذا: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾[٥] [البقرة: ١٠٤].

٦- أنَّ مَن لُعِن وطُرِد عن رحمةِ الله فإنَّه ينقلِبُ عليه الحقُّ باطلًا والباطلُ حقًّا؛ ولهذا لم يَسلُكوا الأحسنَ والخيرَ فيما قالوا؛ لأنَّ اللهَ لعَنهم، ويتفرَّعُ على هذه القاعدةِ: أنَّ العاقلَ لا يتعرَّضُ لِما فيه لعنةُ اللهِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تعرَّض لِما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٥).

فيه لعنةُ اللهِ لُعِن وطُرِد وخُذِل[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- الحذَرُ من هؤلاء الَّذين ذُكِروا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا ...﴾ الآية؛ فإنَّهم لا يُريدون لنا الخيرَ إطلاقًا؛ لقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾[٢].

٢- الثَّناء على المسلمين بكونِهم على السَّبيل؛ لقوله: ﴿أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾، ولولا أنَّهم على السَّبيلِ ما حاوَلوا أن يُضلُّوهم[٣].

٣- أنَّه لا بدَّ للمُسلِمين من عدوٍّ، بل مِن أعداءٍ، وكلُّ مَن كان غيرَ مُسلِمٍ، فإنَّه عدوٌّ للمسلمين، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾[٤].

٤- أنَّ المحرِّفينَ للكلِمِ عن مواضعِه يُشبِهون اليهودَ في طريق استعمالِ الوحيِ[٥].

٥- شدَّةُ عنادِ اليهودِ الَّذين يُحرِّفون الكلِمَ عن مواضعِه؛ لقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فإنَّهم لو قالوا: لم نسمَعْ، أو قالوا: سمِعْنا ولم نفهَمْ، لربَّما قال قائلٌ: إنَّ هذا عُذرٌ، لكن قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فلم يمنَعْهم شيءٌ عن الطَّاعةِ إلَّا مجرَّدُ عصيانٍ[٦].

٦- شدَّةُ حقدِ اليهودِ على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيث كانوا

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٣).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُجيبون بهذه الكلمةِ السَّيِّئة: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾[١].

٧- تَعالِي هؤلاء اليهودِ، حتَّى عند الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لقولهم: ﴿اسمَعْ﴾؛ لأنَّ كلمةَ (اسمَعْ) إنَّما تكونُ في الغالبِ في المخاطَباتِ من الأعْلى إلى الأدْنى[٢].

٨- أنَّ الطَّعنَ في الدِّين يكونُ بالصَّريح، ويكون باللَّازم؛ فالصَّريحُ أن يقولَ: هذا الدِّينُ يوجِبُ لأهلِه التَّأخُّرَ والتَّقهقرَ والتَّزمُّتَ، وما أشبهَ ذلك؛ هذا صريحٌ. الثَّاني: ألَّا يكونَ صريحًا، لكن مِن لازم القول، فهنا إذا نظرتَ إلى كلامِهم لم تشعُرْ بالطَّعنِ على وجهٍ صريحٍ، ولكن من لازمِ القولِ[٣].

٩- قوله تعالى: ﴿وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِ﴾ فيه أنَّ الطَّعنَ في الدِّين من خصالِ اليهودِ؛ فمَن طعَن في الدِّين فهو مُشبِهٌ لليهودِ، والعياذُ بالله[٤].

١٠- أنَّ الكفرَ سببٌ للَّعنِ؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾[٥].

١١- الرَّدُّ على الجَبريَّةِ والقدَريَّةِ؛ فالجبريَّةُ يقولون: إنَّ الإنسانَ مجبَرٌ على عملِه، والقدَريَّةُ يقولون: الإنسانُ مستقِلٌّ بعمَلِه، وليس للهِ فيه تدبيرٌ، والآيةُ ترُدُّ عليهم جميعًا، أمَّا على الجهميَّةِ الَّذين هم الجَبريَّةُ، فلقوله: ﴿بِكُفۡرِهِمۡ﴾، فأضاف العملَ إليهم، وهم يقولون: لا يُضافُ العملُ إلى العامل إلَّا على سبيل المجاز، وإلا فالحقيقة أنَّه ليس فعلَه؛ لأنَّه ليس باختيارِه، أمَّا على القدَريَّةِ: فلإثبات الأسبابِ في قوله: ﴿بِكُفۡرِهِمۡ﴾، وهم يقولون: إنَّ فعلَ الإنسان مستقلٌّ،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٧).

ليس لله فيه تدخُّلٌ إطلاقًا، فأنت تفعَلُ وتترُكُ، وتقومُ وتقعدُ، وتذهَبُ وتجيءُ، وليس لله تعالى فيه أيُّ تعلُّقٍ، وأهلُ السُّنَّة والجماعة يقولون: عمَلُ الإنسان باختيارِه ولا شكَّ، ولكن الَّذي جعَله باختياره هو اللهُ، فيكون ناتجًا عن مشيئةِ الله وخَلْقِ الله، وخالقُ السَّببِ التَّامِّ خالقٌ للمسبَّبِ(١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾: في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام المرادُ به التَّعجُّبُ(٢).

- والتَّعبيرُ بالاشتراء ﴿يَشْتَرُونَ﴾- الَّذي هو عبارةٌ عن استبدالِ السِّلعة بالثَّمنِ، أي: أخْذِها بدلًا منه أخذًا ناشئًا عن الرَّغبةِ فيها، والإعراض عنه-؛ للإيذانِ بكمالِ رغبتِهم في الضَّلالة الَّتي حقُّها أن يُعرَضَ عنها كلَّ الإعراضِ، وإعراضُهم عن الهداية الَّتي يتنافَس فيها المتنافِسون(٣).

- وفيه من التَّسجيلِ على نهاية سَخافةِ عقولهم، وغاية رَكاكةِ آرائِهم ما لا يَخفَى؛ حيث صُوِّرت حالُهم بصورةِ ما لا يَكاد يتعاطاه أحدٌ ممَّن له أدْنى تمييزٍ(٤).

- وعبَّر بصيغةِ المضارع في ﴿يَشْتَرُونَ﴾، و﴿وَيُرِيدُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستمرار التَّجدُّديِّ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٥، ٦٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٨٢).

٢- **قوله:** ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ جملةٌ معترِضةٌ؛ لتقريرِ إرادتِهم المذكورةِ[١].

- وفيها تَعريضٌ؛ فإنَّ إرادتَهم الضَّلالةَ للمؤمنينَ عن عَداوةٍ وحسَدٍ[٢].

- وفيه تهديدٌ للمُشركين وتحذيرٌ لهم[٣]؛ إذ اللهُ يَعلمُهم ويعلمُ ما يَفعلون.

٣- **قوله:** ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾: تذييلٌ؛ لتطمئنَّ نفوسُ المؤمنين بنصرِ الله؛ لأنَّ الإخبارَ عن اليهودِ بأنَّهم يُريدونَ ضلالَ المسلمين، وأنَّهم أعداءٌ للمسلمين، مِن شأنِه أن يُلقيَ الرَّوعَ في قلوب المسلمين؛ إذ كان اليهودُ المحاورون للمسلمين ذَوي عَدَدٍ وعُدَدٍ، وبيدِهم الأموالُ، فكان قولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا﴾ مناسبًا لقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾، أي: إذا كانوا مُضمِرين لكم السُّوءَ، فاللهُ وليُّكم؛ يَهديكم ويتولَّى أمورَكم، شأنُ الوليِّ مع مولاه، وكان قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ مناسبًا لقوله: ﴿بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾، أي: فاللهُ ينصُرُكم[٤].

- وفعل (كَفَى) مُستعمَلٌ في تقويةِ اتِّصافِ فاعلِه بوصفٍ يدلُّ عليه التَّمييزُ المذكورُ بعده، أي: إنَّ فاعل (كَفَى) أجدرُ مَن يتَّصفُ بذلك الوصفِ، ولأجل الدَّلالة على هذا غلَب في الكلامِ إدخالُ باءٍ على فاعلِ فِعل (كفى)، وهي باءٌ زائدةٌ؛ لتوكيدِ الكِفاية، بحيث يحصُلُ إبهامٌ يشوِّقُ السَّامعَ إلى معرفةِ تفصيله، فيأتون باسمٍ يميِّزُ نوعَ تلك النِّسبة؛ ليتمكَّنَ المعنى في

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٢).

ذهنِ السَّامع[١].

- وتكرير الفِعل ﴿وَكَفَىٰ﴾ في الجملتين، مع إظهارِ الجلالة (الله) في مقامِ الإضمار، لا سيَّما في الثَّاني؛ لتقويةِ استقلالها المناسبِ للاعتراض، وتأكيد كفايتِه عزَّ وجلَّ في كلٍّ من الولاية والنُّصرة[٢].

٤- **قوله**: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾: فيه الإبهام، أو الكلام الموجَّه، أو المحتمِل للضِّدَّيْنِ؛ فهو ذو وجهين: وجه يحتمل الذَّمَّ: أي استمِعْ منَّا مدعوًّا عليك بلا سمِعْتَ، أي: أصابَك اللهُ بالصَّمَمِ والموت، ولعلَّه هو المراد هنا؛ لِما انطوَوْا عليه من خِسَّةٍ، ووجه يحتمل المدحَ، أي: اسمَعْ غيرَ مُسمَعٍ مكروهًا[٣].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٢٧).

الآيتان (٤٧ - ٤٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا﴾: أي: نمحوَ تخطيطَ صُوَرِها، أو نمحوَ ما فيها من عينٍ وأنفٍ وحاجبٍ وفمٍ، والطَّمس: إزالة الأثَر، وأصل (طمس): يدلُّ على محوِ الشَّيء ومسحِه[(١)].

﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾: نجعَل وجوهَهم من قِبل أَقفيتهم، أو نجعَل أبصارَهم من ورائهم، أو نجعَل الوجه قَفًا، والقَفَا وَجْهًا، وأصل الردِّ: صرفُ الشيء بذاتِه، أو بحالةٍ من أحواله؛ يقال: رَدَّه عن وجهه: صرفَه. وأصْل الدُّبر: آخِرُ الشيء وخلفُه، ضد القُبل[(٢)].

﴿ٱفۡتَرَىٰٓ﴾: كَذَب واختَلَق، وافترى فلانٌ على فلان: إذا قذَفه بما ليس فيه، أو قذَف أبوَيْهِ، والافتراء الاختلاقُ، وهو ما عظُم مِن الكذبِ، وكذلك استُعمِل في القُرآن في الكَذِب والشِّركِ والظُّلم، وأصل (فرى): قطعُ الشيءِ، والفَرْي هو: قطْعُ الجِلد للخرزِ والإصلاح والإفراءُ للإفسادِ والافتراءُ فيهما، وفي الفساد أكثرُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٨- ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٢٨، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢، ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص:

المَعْنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ أهلَ الكتابِ من اليهود والنَّصارى بالإيمان بالقُرآنِ المنزَّلِ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّ فيه تصديقًا وشَهادةً على ما معهم من الكتب، أمَرهم سبحانه أن يؤمنوا قبل أن يطمِسَ وجوهَهم، فيحوِّلَها إلى جهةِ ظهورهم، أو يطرُدَهم من رحمتِه سبحانه، ويُنكِّل بهم، كما فعَل بأصحاب السَّبتِ الَّذين احتالوا على الاصطياد فيه بعد أن نُهُوا عن ذلك، فمسَخهم اللهُ تعالى قِردةً، وكان أمرُ الله حاصلًا لا مردَّ له.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّه لا يغفِرُ لأيِّ أحدٍ أشرَك معه غيرَه، ويغفِرُ ما دون الشِّركِ من الذُّنوبِ، سواءٌ الكبائرُ والصَّغائرُ، لمن يشاءُ مِن عبادِه، ومَن يُشرِكْ بالله تعالى فقد اختلَق إثمًا عظيمًا.

تفسيرُ الآيتين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عن اليهودِ أنواعَ مَكرِهم وإيذائِهم، ورجَّاهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ ...﴾ الآية- أمَرهم بالإيمانِ، وقرَن بهذا الأمرِ الوعيدَ الشَّديدَ على التَّركِ؛ ليكونَ أدعى لهم إلى الإيمانِ والتَّصديقِ به[1] فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم ﴾.

٦٣٤- ٦٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٧).

أي: يا أيُّها اليهود والنَّصارى الَّذين أُنزِل إليهم التَّوراةُ والإنجيلُ فأُعطُوا العِلمَ، آمِنوا بما أنزَلْنا إلى محمَّدٍ من الفُرقان، مصدقًا للَّذي معكم من التَّوراةِ والإنجيلِ؛ فإنَّ القرآنَ شاهدٌ بما جاءت به تلك الكتبُ، وإنَّه حقٌّ، كما أنَّه مهيمِنٌ على غيرِه من الكتب السَّابقةِ الَّتي قد صدَّقها، فإنَّها قد أخبرَتْ به[١].

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾.

أي: آمِنوا قبل أن نَطمِسَ وجوهَكم، فنحوِّلَها إلى جهةِ الأدبارِ، أي: من قِبَل ظهورِكم.

والمراد بطَمْس الوجوهِ والرَّدِّ على الأدبارِ: قيل: ألَّا يبقى للوجوهِ سمعٌ ولا بصَر ولا أثَر، ونرُدُّها مع ذلك إلى ناحيةِ الأدبارِ، وقيل المراد: نطمِس أبصارَها ونمحو آثارَها، ونجعَل أبصارَها في أقفائِهم، فيمشون القَهْقرى، وقيل غير ذلك[٢].

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾.

أي: أو نطرُدَهم من رحمتِنا، ونوقِعَ بهم من النَّكالِ مثلما وقَع لأصحابِ السَّبتِ الَّذين اعتدَوْا في سَبتِهم بالحيلةِ على الاصطيادِ فيه، فمُسِخُوا قردةً ذليلةً[٣].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٠-٣٨٠).
قال أبو حيان: (و﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ هو القرآن بلا خلاف) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١١٥-١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨١-٣٨٢).

وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٣- ١٦٦].

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

أي: إنَّه تعالى إذا أمَر بأمرٍ، فإنَّه واقعٌ لا محالةَ؛ فأمرُهُ عزَّ وجلَّ لا يُخالَف ولا يُمانَع[(١)].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

مناسبة الآية لما قلبها:

لَمَّا رجَّاهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ ...﴾ الآية، خاطَب مَن يُرجَى إيمانُه منهم بالأمرِ بالإيمان، وقرَن بالوعيدِ البالغِ على تركِه، ثمَّ أزال خوفَهم من سوءِ الكبائرِ السَّابقةِ معلِّلًا لتحقيقِ وعيدهم، مُعلِمًا بوقوعهم في الشِّركِ[(٢)]، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢٠-١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٩٧).

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يغفِرُ لأيِّ أحدٍ من المخلوقين يَلقَى اللهَ سبحانه وقدْ جعَل معه شريكًا في ربوبيَّتِه أو ألوهيَّتِه أو أسمائِه وصفاتِه[١].

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

أي: ويغفِرُ اللهُ تعالى ما دون ذلك الشِّركِ من الذُّنوبِ- صغائرِها وكبائرِها- للَّذي يشاءُ مِن عبادِه مِن أهل الذُّنوبِ والآثام، إذا اقتضَتْ حكمتُه أن يغفِرَ له[٢].

عن أبي ذرٍّ رضِي اللهُ عنه، أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ:... ومن لَقِيَني بقُرابِ الأرضِ خطيئةً لا يشركُ بي شيئًا، لقِيتُهُ بمثلِها مغفرةً))[٣].

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

أي: إنَّ مَن يقع في الإشراكِ باللهِ العظيمِ، فقد اختلَق وِزْرًا عظيمًا، وجُرمًا كبيرًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وعن عبدِ الله بنِ مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((سألتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: أيُّ الذَّنبِ أعظمُ عِندَ اللهِ؟ قال: أنْ تجعَلَ للهِ نِدًّا وهو خلَقَك، قلتُ: إنَّ ذلك لَعظيمٌ...))[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٧-٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٨-٣٨٩).

(٣) رواه مسلم (٢٦٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٩).

(٥) رواه البخاري (٤٤٧٧) واللفظ له، ومسلم (٨٦).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا ...﴾، أقبَل سبحانه على خِطابِ أهل الكتاب، وكذلك شأنُ القُرآن؛ لا يُفوِّتُ فرصةً تعِنُّ مِن فُرَصِ الموعظة والهُدى إلَّا اغتَنَمَها، وكذلك شأن النَّاصحين من الحُكماءِ والخُطباء أن يتوسَّموا أحوالَ تأثُّر نفوسِ المخاطَبين ومظانَّ ارعوائِها عن الباطلِ، وتبصُّرِها في الحق، فيُنجِدوها حينئذٍ بقوارعِ الموعظةِ والإرشادِ[١].

٢- أنَّ ما دون الشِّركِ تحتَ المشيئةِ؛ لقوله: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وليس مجزومًا بمغفرتِه، ولا مجزومًا بالمؤاخَذةِ عليه، وإنَّما هو تحت المشيئةِ، ويتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: ردُّ كلامِ المسوِّفينِ الَّذين يفعَلون ما يفعَلون من المعاصي ثمَّ يقولون: إنَّ الله يغفِرُ ما دون الشِّركِ لمن يشاء، فنقول لهم: ما الَّذي أدراك أن تكونَ أنت ممَّن شاء اللهُ أن يغفِرَ لك؟ فلو فرَضْنا أنَّ عملَك المعصيةَ يمكِنُ أن يُغفَرَ، لكنَّه ليس بمتيقَّنٍ؛ فالمعصيةُ مفسَدةٌ ظاهرةٌ حاصلةٌ، ومغفرتها مصلحةٌ؛ لكنَّها تحت المشيئةِ؛ فقد تحصُلُ، وقد لا تحصُلُ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- إثبات علوِّ اللهِ، ووجهُه قولُه: ﴿نَزَّلۡنَا﴾؛ لأنَّ النُّزولَ إنَّما يكون من الأعلى، وعلوُّ اللهِ عزَّ وجلَّ ينقسِمُ إلى قسمينِ: قسم حِسيٍّ، وقسم معنويٍّ؛ فالقسمُ المعنويُّ: متَّفقٌ عليه بين أهل الملَّة، حتَّى أهلُ التَّعطيلِ يدَّعون أنَّهم يُعطِّلون تنزيهًا للهِ عن النَّقص؛ فالعلوُّ المعنويُّ لا أحدَ يُنكِرُه من أهلِ الملَّةِ؛ فكلُّ أهلِ القِبلة يُقرُّون به، والعلوُّ الحسيُّ الذَّاتيُّ: هو الَّذي أنكَره طوائفُ مِن أهل البدعِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٨٤).

٢- في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾ أنَّ القرآنَ الكريمَ مصدِّقٌ للكتُبِ السَّابقة، يشهَدُ لها بالصِّدقِ، ومصدِّقٌ لها؛ حيث جاء مطابقًا لِما أخبَرَت به؛ فهو لا يتنافى معها ولا يتنافَرُ معها، لكنَّ الشَّرائعَ تختلفُ باختلاف الأممِ، حتَّى باختلاف الأحوال، كما قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [المائدة: ٤٨]، لكنَّ أصولَ المِلَلِ ثابتةٌ واحدة، وهذا الكتابُ العزيز مُصدِّقٌ لِما بين يديه، مُهيمِنٌ على ما سبَق، وإذا كان كذلك لزِم أن يكونَ ناسخًا لِما سبق[١].

٣- أنَّ الإحالةَ على المعلومِ تصِحُّ ولو بلفظِ الإبهام، وتؤخَذُ من قوله: ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِ﴾؛ لأنَّه إذا قال قائل: ما هي اللَّعنةُ الَّتي حلَّتْ بأصحابِ السَّبتِ؟ ومَن هم أصحابُ السَّبتِ؟ فنقول: ذُكِروا هنا على سبيلِ الإجمال؛ لأنَّ أمرَهم معلومٌ[٢].

٤- إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ لله عزَّ وجلَّ، وكثيرٌ من المعطِّلة الأشاعرةِ والمعتزلة ونحوِهم يُنكِرون أنْ يقومَ باللهِ فِعلٌ متعلِّق بإرادته؛ لأنَّهم يقولون: إنَّ الأفعالَ المتعلِّقة بالإرادة حادثةٌ، والحادثُ لا يقومُ إلَّا بحادثٍ، ولا شكَّ أنَّ هذا كذِبٌ في التَّصوُّرِ؛ لأنَّ الشَّيء الحادثَ يمكِنُ أن يقومَ بالأزلِ، كما أنَّ الشَّيءَ الحادث الَّذي حَدَثَ اليومَ يمكن أن يقومَ بمخلوقٍ خُلِقَ قبْلَ خمسين سنةً، فلا يلزمُ مِن حدوثِ الفعلِ أن يكونَ الفاعلُ حادثًا[٣].

٥- التَّوحيدُ هو أصلُ الدِّينِ ورأسُه الذي لا يَقبلُ اللهُ عملًا إلَّا به، ويغفرُ لصاحبِه، ولا يَغفِرُ لِمَن تركَه؛ يُبيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٨٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٩١).

بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾[١].

٦- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ...﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ اليهوديَّ يسمَّى مشرِكًا في عُرفِ الشَّرع، وإلَّا كان مُغايرًا للمُشركِ، فوجَب أنْ يكونَ مغفورًا له؛ ولأنَّ اتصالَ هذه الآيةِ بما قبلها إنَّما كان لأنَّها تتضمَّنُ تهديدَ اليهود؛ فاليهوديَّةُ داخلةٌ تحت اسم الشِّركِ[٢].

٧- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فيه ردٌّ على مَن قال: إنَّ الكبائرَ لا تُغفر، وهم المعتزلةُ، وعلى مَن قال: إنَّ أصحابَ الكبائرِ مِن المسلمين لا يُعذَّبون، وهم المرجئةُ؛ لقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾[٣].

٨- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ نعمةٌ عظيمةٌ من وجهين؛ أحدهما: أنَّها تقتضي أنَّ كلَّ ميِّتٍ على ذنْبٍ دون الشِّرْكِ لا يُقطَع عليه بالعذاب، وإن مات مصرًّا. والثاني: أنَّ تعليقَه بالمشيئةِ فيه نفْعٌ للمسلمينَ، وهو أن يكونوا على خَوفٍ وطَمَع[٤].

٩- في قَوْلِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. قُيِّدَت المغفرةُ بما دون الشِّرْك، وعُلِّقَت على المشيئةِ، بينما أُطْلِقَت وعُمِّمَتْ في قَوْلِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فدلَّ هذا التقييدُ والتَّعليقُ على أنَّ هذا في حَقِّ غيرِ التائبِ؛ ولهذا استدَلَّ أهْلُ السنَّة بهذه الآية على

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٤٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٧٢).
(٣) ينظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٩٣).
(٤) ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٤١٧).

جوازِ المغفِرَة لأهلِ الكبائِرِ في الجملةِ؛ خلافًا لمن أوْجَبَ نفوذَ الوَعيدِ بهم من الخوارِجِ والمعتَزِلَة، وإن كان المخالِفونَ لهم قد أسْرَفَ فريقٌ منهم من المُرْجِئَة حتى توقَّفوا في لُحوقِ الوعيدِ بأحَدٍ مِن أهْلِ القِبلةِ، كما يُذْكَرُ عن غُلاتِهم أنَّهم نَفَوْه مطلقًا، ودينُ الله عزَّ وجلَّ وَسَطٌ بين الغالي فيه، والجافي عنه[١].

بَلاغةُ الآيتين:

١- **قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ اختلفتِ الصِّلةُ فيه عنِ الصِّلة في قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٢٣]؛ لأنَّ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ جاءَ في مقامِ التَّعجبِ والتَّوبيخ، فناسبَتْه صِلةٌ مؤذِنةٌ بتهوينِ شأنِ عِلمهم بما أوتوه مِن الكِتاب، و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ جاءَ في مقامِ التَّرغيبِ، فناسبَتْه صِلةٌ تؤذِنُ بأنَّهم شُرِّفوا بإيتاءِ التَّوراة؛ لتُثير هِممَهم للاتِّسامِ بمِيسَمِ الرَّاسخين في جرَيانِ أعمالهم على وَفْقِ ما يُناسِبُ ذلك، وليس بين الصِّلتينِ اختلافٌ في الواقعِ؛ لأنَّهم أوتوا الكتابَ كلَّه حقيقةً، باعتبار كونِه بين أيديهم، وأُوتوا نصيبًا منه باعتبارِ جرَيانِ أعمالهم على خلافِ ما جاء به كتابُهم؛ فالَّذي لم يَعمَلوا به منه كأنَّهم لم يؤتَوْه[٢].

- وجِيء بالصِّلتينِ في قوله: ﴿بِمَا نَزَّلۡنَا﴾ وقوله: ﴿لِّمَا مَعَكُم﴾ دون الاسمينِ العَلَمين، وهما: القرآنُ والتَّوراة؛ لِما في قوله: ﴿بِمَا نَزَّلۡنَا﴾ مِن التَّذكيرِ بعِظَمِ شأنِ القرآنِ أنَّه منزَّلٌ بإنزالِ اللهِ، ولِما في قوله: ﴿لِّمَا مَعَكُم﴾ من التَّعريضِ بهم في أنَّ التَّوراةَ كتابٌ مستصحَبٌ عندهم لا يعلَمون منه حقَّ عِلمِه، ولا يعمَلون بما فيه[٣].

---

(١) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- **قوله**: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا﴾: خبرٌ فيه تهديدٌ أو وعيدٌ، وهذا تهديدٌ بأن يحُلَّ بهم أمرٌ عظيمٌ(١).

- وفيه تحاشِي التَّعبيرِ بالمواجهةِ عند المؤاخذة، فهنا قال: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا﴾ ولم يقُلْ: (وجوهكم)، وكان مقتضى السِّياقِ أن يقول: (مِن قبْلِ أنَّ نطمِسَ وجوهَكم)؛ لأنَّهم هم المهدَّدون، لكن أتى بها على صيغةِ النَّكرةِ؛ تحاشيًا للمواجهةِ بالمؤاخَذةِ(٢).

- وفي تنكير ﴿وُجُوهٗا﴾ -المفيدِ للتَّكثيرِ- تهويلٌ للخَطْبِ العظيمِ، الَّذي يُثير الخوفَ، وفي إبهامِها لُطفٌ بالمخاطَبين، وحُسنُ استدعاءٍ لهم إلى الإيمانِ(٣).

وقد يقال: إنَّ المرادَ بالتَّنكيرِ هنا التَّعظيمُ، أي: وجوهًا معظَّمةً عندكم فتُطمَس، وهي وجوهُ زعمائِهم الَّذين صدُّوهم عن سبيلِ الله عزَّ وجلَّ(٤).

٣- **قوله**: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ﴾: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ﴾ يَرجِع إلى ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على طَريقةِ الالتفاتِ- على أحدِ وجوهِ التَّأويل(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥١٩).

وقال ابنُ جرير: (يعني بقولِه جلَّ ثناؤُه: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ﴾، أو نَلْعنكم فنُخزيكم ونجعلَكم قردةً... قيل: ذلك على وجه الخِطاب في قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾، كما قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ [يونس: ٢٢]، وقد يُحتمل أن يكونَ معناه: مِن قبلِ أن نطمسَ وجوهًا فنردَّها على أدبارِها، أو نلعنَ أصحابَ الوجوهِ، فجَعل الهاءَ والميم في قولِه: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ﴾، مِن ذِكر أصحاب الوجوه، إذ كانَ في الكلامِ دلالةٌ على ذلك) ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١١٩).

٤- **قوله**: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ، مقرِّر لِما سبق[١].

- ووَضْع الاسمِ الجليلِ موضعَ الضَّمير بطريقِ الالتفاتِ؛ لتربيةِ المَهابةِ، وتعليلِ الحُكم، وتقويةِ ما في الاعتراضِ من الاستقلالِ[٢].

٥- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾: كلامٌ مستأنَفٌ مسُوقٌ لتقريرِ ما قبْلَه مِن الوعيدِ، وتأكيدِ وجوبِ الامتثالِ بالأمر بالإيمان، ببيانِ استحالةِ المغفرةِ بدونِه[٣].

- وجيء في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ بحرف ﴿إِنَّ﴾ لتوكيد الخبرِ؛ لقصدِ دفْع احتمال المجازِ، أو للمبالغةِ في الوعيد، وهو إمَّا تمهيدٌ لِما بعده؛ لتشنيعِ جُرم الشِّرك بالله؛ ليكون تمهيدًا لتشنيعِ حال الَّذين فضَّلوا الشِّركَ على الإيمان، وإظهارًا لمقدارِ التَّعجبِ مِن شأنهم الآتي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النِّساء: ٥١]، أي: فكيف ترضَوْن بحالِ مَن لا يَرضَى اللهُ عنه، والمغفرةُ على هذا الوجهِ يصحُّ حملُها على معنى التَّجاوز الدُّنيويِّ، وعلى معنى التَّجاوز في الآخرةِ على وجهِ الإجمالِ[٤].

- وقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾: فيه إظهارُ الاسمِ الجليل في موضعِ الإضمار؛ لزيادة تقبيحِ الإشراك، وتفظيعِ حالِ مَن يتَّصفُ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٧).

الآيات (٤٩ - ٥٧)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾
ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟
هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ
فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ
يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ
بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم
بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ
فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾: أي: يَمدحُونها ويُثنون عليها، مِن التَّزكية، وأصلُ الزَّكاة: النَّماءُ والزِّيادة[1].

﴿ فَتِيلًا ﴾: الفَتِيل: المفتولُ، وهو: الخيطُ في بطن النَّواة، وسُمِّي ما يكونُ في شَقِّ النَّواة فتيلًا؛ لكونِه على هيئته، وقيل: الفتيل: ما يُفتَلُ بالإصبعِ مِن الوسَخِ الَّذي يخرُجُ منه، ويُضرَبُ به المثلُ في الشيءِ الحقيرِ وأصل (فتل): يدلُّ على ليِّ شيء[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي(٨/ ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٠)،

﴿بِٱلْجِبْتِ﴾: الجِبْت لفظٌ يُستعمل في كُلِّ باطل، ومن ذلك: كلُّ معبودٍ سوى اللهِ جلَّ اسمُه، من صُورةٍ أو شيطان، ويُطلق أيضًا على السَّاحر، والكاهن، والشَّيطان، والكافِر المعاند الَّذي لا خيرَ فيه[١].

﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: الطَّاغُوتُ هو كُلُّ ذِي طُغْيَانٍ عَلَى اللَّهِ، فكلُّ مَعْبُودٍ مِن دُونِ اللَّهِ إذا لم يَكُنْ كارِهًا لذلك: طاغوتٌ: إنَسانًا كان ذلك المعبودُ، أو شَيْطانًا، أو وَثنًا، أو صَنَمًا كَائِنًا ما كان من شيءٍ، والمُطاعُ في معصيةِ اللَّهِ طاغوتٌ، وكذلك السَّاحِرُ والكاهِنُ، واشتقاقُه من الطُّغْيان: وهو الظُّلْم والبغْيُ، يقال طَغَا فُلانٌ يَطْغَى: إذا عَدا قَدْرَه فتجاوَز حَدَّه[٢].

﴿نَقِيرًا﴾: النَّقير: النَّقرة الَّتي في ظَهرِ النَّواة، ويُضرَبُ به المَثَلُ في الشَّيء الطَّفِيف، والنَّقر: قرعُ الشَّيء المفضِي إلى النَّقب[٣].

﴿صَدَّ عَنْهُ﴾: أي: أعرَض وانصرَف عنه، والصَّدُّ قد يكونُ انصرافًا عن الشَّيء وامتناعًا؛ إذا كان لازمًا غيرُ مُتعدٍّ، وقد يكونُ صرفًا ومنعًا؛ إذا كان مُتعدِّيًا بمعنى صَدَّ غيرَه. وأصل (صد): إعراضٌ وعدولٌ[٤].

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٨، ٧٠١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨، ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٢)، ((تفسير الراغب)) (٣/ ١٢٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٠٠) ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧).

﴿نَضِجَتْ﴾: انشوتْ فاحترَقَتْ؛ يُقال: نَضِج اللَّحم: إذا أَدرَك شَيَّه، وأصل (نضج): بلوغ النِّهايةِ في طبخ الشَّيء[(١)].

﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾: قيل: هو الظلُّ الدَّائم الَّذي لا تنسَخُه الشَّمس، وقيل: الَّذي لا بَرْدَ فيه ولا حرَّ ولا ريحَ ولا سَمومَ، وأصل (ظلل): يدلُّ على سَتْر شيءٍ لشيء[(٢)].

المَعْنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: ألَا تتعجَّبُ- يا محمَّدُ- من الَّذين يُثنون على أنفسِهم من اليهود والنَّصارى وغيرهم، ويُبرِّئونها من الذُّنوب والعُيوب، مع أنَّ الأمرَ ليس كما زعَموا، بلِ اللهُ وحده هو الَّذي يُثني على مَن يشاءُ مِن عباده ممَّن هو أهلٌ لذلك، ولا يظلِمُ اللهُ عزَّ وجلَّ أحدًا من الخَلْقِ شيئًا مهمَا قلَّ، انظُرْ كيف يفتري هؤلاء المُثْنون على أنفسِهم الكذبَ، ويَختلِقونه على اللهِ، وكفى بهذا الصَّنيعِ منهم إثمًا ظاهرًا، وذنبًا واضحًا.

ثمَّ قال اللهُ تعالى أيضًا لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ألَا تعجَبُ مِن حالِ اليهود الَّذين آتاهم اللهُ نصيبًا مِن التَّوراةِ، ومع ذلك يؤمِنون بالجِبْتِ، وهو كلُّ ما لا فائدةَ فيه في الدِّين؛ كالسِّحرِ ونحوه، ويؤمنون كذلك بالطَّاغوت، وهو كلُّ ما تجاوَز به العبدُ حدَّه؛ من معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاع، ويقول هؤلاء اليهودِ للكفَّارِ: إنَّهم أقومُ وأعدلُ طريقًا من المؤمنين، أولئك اليهودُ قد طرَدهم اللهُ مِن رحمتِه، ومَن يَطرُدِ اللهُ مِن رحمتِه فلن تجِدَ له- يا محمَّدُ- أحدًا ينصُرُه ويتولَّاه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٧/ ١٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٦).

فهل لهؤلاء اليهودِ نصيبٌ مِن المُلك حتَّى يفضِّلوا مَن شاؤوا بمجرَّدِ أهوائِهم، بل ليس لهم أيُّ نصيبٍ مِن المُلْك، فلو كان لهم لَمَا أعطَوْا أحدًا من النَّاس شيئًا أبدًا مهمَا قلَّ، أم أنَّ الدَّافعَ لهم حسَدُهم للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابِه على ما رزَقه اللهُ مِن النُّبوَّةِ؛ لكونِه مِن العربِ، وليس من بني إسرائيلَ، فلماذا يحسُدونهم، وليس هذا أوَّلَ فضلٍ يتفضَّلُ اللهُ به على عبادِه؟ فقد تفضَّل اللهُ على أسلافِهم من ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ فأعطاهم النُّبوَّةَ، وأنزَل عليهم الكتبَ، والحكمةَ، وآتاهم مُلكًا واسعًا كبيرًا؛ فمِن أهلِ الكتاب مَن آمَن بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وبما أُنزِل إليه مِن قرآنٍ، ومنهم مَن لم يؤمِنْ بذلك، وصدَّ النَّاسَ عن الإيمانِ به، وحسْبُ هؤلاء الكفرةِ جهنَّمُ تُوقَدُ عليهم، ويُحرَقون فيها.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ الكافرينَ بآياتِ الله سوف يُدخِلُهم اللهُ تعالى نارًا تُحرقُهم، كلَّما احترَقَتْ جلودُهم بتلك النَّارِ، أبدَلَهم اللهُ تعالى جلودًا غيرَها ليذوقوا ألَمَ العذابِ، إنَّ اللهَ كان عزيزًا حكيمًا.

وأمَّا مَن آمَن وعمِل صالحًا، فسيُدخلُهم اللهُ تعالى جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، ماكثين فيها على الدَّوامِ، لا انقطاعَ لتنعُّمِهم فيها، لهم فيها زوجاتٌ مطهَّراتٌ طهارةً حِسِّيَّةً من الأدناس، ومعنويَّةً من الأخلاقِ الرَّذيلةِ، والصِّفات النَّاقصة، ويُدخِلُهم اللهُ تعالى ظلًّا ممتدًّا طيِّبًا.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا هدَّد اللهُ سبحانه وتعالى اليهودَ بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ فعند هذا قالوا: لسنا من المشركين، بل نحن خواصُّ اللهِ تعالى؛ كما حكى

تعالى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، وحكى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وحكى أيضًا أنَّهم قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، وبعضُهم كانوا يقولون: إنَّ آباءَنا كانوا أنبياءَ فيشفَعون لنا. وبالجملةِ فالقومُ كانوا قد بالَغوا في تزكيةِ أنفسِهم، فذكَر تعالى في هذه الآيةِ أنَّه لا عبرةَ بتزكيةِ الإنسان نفسَه، وإنَّما العبرةُ بتزكيةِ اللهِ له[1]، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾

أي: ألَا تتعجَّبُ- يا محمَّدُ- مِن حالِ هؤلاء اليهود والنَّصارى- ومَن نحا نحوَهم- في تزكيةِ أنفسهم؛ فيبرئونها من الذُّنوبِ والعيوب، ويزعمون لها من الخصائص والمُمَيِّزات ما ليس لها، افتراءً وكذبًا، ومن ذلك قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[2].

﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما تزعمون، وإنَّما المرجعُ في ذلك إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وحدَه؛ لأنَّه العالمُ بحقائقِ الأمورِ؛ فهو الَّذي يُزكِّي ويُثني على مَن يشاءُ مِن عبادِه ممَّن هو أهلٌ لذلك[3].

قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢٤، ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩١-٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢٨-١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩٣-٣٩٤).
قال ابن عطية: (هذا لفظٌ عامٌّ في ظاهره، ولم يختلف أحدٌ من المتأولين في أنَّ المراد اليهود) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٦٥).

﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾.

أي: لا يظلِمُ اللهُ عزَّ وجلَّ هؤلاء الَّذين أخبَر عنهم أنَّهم يُزكُّون أنفسَهم، ولا غيرَهم مِن خَلقِه شيئًا، فلا يترُكُ لأحدٍ مِن الأجر شيئًا، حتَّى ما يوازنُ مقدارَ الخيطِ الَّذي في شَقِّ النَّواةِ وبطنِها[1].

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبَر تعالى أنَّ التَّزكيةَ إنَّما هي إليه بما له مِن العظَمةِ والعِلمِ الشَّاملِ، وكان ذلك أمرًا لا نزاعَ فيه، وشهِد عليهم بالضَّلالِ- زاد في توبيخهم فقال معجِّبًا لرسولِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم من وقَاحتِهم واجترائِهم على مَن يعلَم كذبَهم، ويقدِرُ على معالجتِهم بالعذاب، مبيِّنًا أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الحضرةِ بعد بيانِ بُعدهم[2]، قال:

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾.

أي: انظُرْ- يا محمَّدُ- كيف يفتري هؤلاء الَّذين يزكُّون أنفسَهم- مِن أهلِ الكتاب وغيرِهم- الكذِبَ والزُّورَ؛ مِن القولِ بتزكيتِهم أنفسَهم، فيختلِقون ذلك على الله جلَّ وعلا[3].

﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

أي: وحسبُهم بهذا الصَّنيعِ ذنبًا ظاهرًا، وافتراءً واضحًا يبيِّنُ كذبَهم لسامعيه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢٩، ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩٤-٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٣-٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٠٢-٤٠٣).

ويوضِّحُ لهم أنَّهم أَفَكَةٌ فَجَرَةٌ، ويكون موجبًا لاستحقاقِهم العقوبةَ البليغةَ، والعذابَ الأليم(١).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾.

سَببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((لَمَّا قدِم كعبُ بن الأشرفِ مكَّةَ، قالت له قريش: أنت خيرُ أهلِ المدينة وسيِّدُهم، قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا ا المُنبَتِرِ(٢) من قومِه، يزعُمُ أنَّه خيرٌ منَّا، ونحن أهلُ الحجيجِ وأهلُ السِّدانةِ(٣)؟ قال: أنتم خيرٌ منه، فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، ونزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ...﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾))(٤).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٣٣-١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٠٣-٤٠٤).

(٢) المُنْبَتِر: هو الذي لا وَلَدَ له. يُنظَر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٩٣).

(٣) السِّدانة: الخِدْمَة، وسِدانةُ الكَعبةِ: خِدْمَتُها وتَوَلِّي أَمْرِها، وفَتْحِ بابِها وإغلاقِه. يُنظَر: ((غريب الحديث)) لابن الجوزي (١/ ٤٧٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٥٥).

(٤) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٦/ ٥٢٤) (١١٧٠٧) واللفظ له، والطبري في ((تفسيره)) (٨/ ٤٦٦)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (١٨٨٢)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٤٤٠)، وابن حبان (٦٥٧٢).

صحح إسناده ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٨/ ٥٢٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الموارد)) (١٤٤٨)، وقال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (٧٧): الراجح إرسالُه.

أي: ألَا تعجَبُ- يا محمَّدُ- مِن حال هؤلاء اليهود الَّذين آتاهم اللهُ تعالى حظًّا من التَّوراة، وقامتْ عليهم الحُجَّةُ، ومع ذلك يؤمِنون بالجِبْتِ والطَّاغوت[١]؟

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾.

أي: يقولُ أولئك اليهودُ عن الكفَّار بأنَّهم أقومُ وأعدَلُ طريقًا من المؤمِنين[٢].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

أي: هؤلاء الذين وصفَهم بأنَّهم أوتوا نصيبًا من الكتابِ، وأنَّهم يؤمنون بالجبتِ والطاغوتِ، قد أبعَدهم اللهُ تعالى، وطرَدهم من رحمتِه[٣].

﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾.

أي: ومَن يطرُدْه اللهُ تعالى من رحمتِه، فلن تجدَ له- يا محمَّدُ- مَن ينصُرُه في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ فيتولَّاه ويقومُ بمصالحِه، ويحفَظُه عن المكارهِ[٤].

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٠٨).
قال ابن عطية: (الآيةُ، ظاهُرها يعمُّ اليهودَ والنَّصارى، ولكن أجمَع المتأولون على أنَّ المرادَ بها طائفةٌ من اليهود، والقصص يبين ذلك) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤١-١٤٢، ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢-١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٠٩-٤١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٠).

لَمَّا كانت النَّفسُ الإنسانيَّةَ لها قوَّتانِ: القوَّةُ العالِمة، والقوَّة العاملة؛ وكمال القوَّة العالِمة: العِلم، ونقصانُها: الجهل، وكمالُ القوَّة العاملة: الأخلاقُ الحميدة، ونقصانها: الأخلاقُ الذَّميمة، وأشدُّ الأخلاقِ الذَّميمة نقصانًا: البُخل والحسَد؛ لأنَّهما مَنشآنِ لعود المضارِّ إلى عباد الله- لذا وصَف الله تعالى اليهودَ في الآية المتقدِّمةِ بالجهل الشَّديد، وهو اعتقادُهم أنَّ عبادةَ الأوثان أفضلُ من عبادة الله تعالى، ووصَفهم في هذه الآية بالبُخلِ والحسَدِ[1] فقال:

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾.

أي: أم لهم حظٌّ من مُلكِ الله تعالى حتَّى يُفضِّلوا مَن شاؤوا بمجرَّدِ أهوائهم، بحيث يمنَعون فضلَ الله سبحانه على نبيِّه وأتباعِه، ويجعلون الفضلَ لهؤلاء الكفَّار؟ والمعنى: ليس لهم حظٌّ من المُلكِ ليفعَلوا ذلك[2].

﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾.

أي: ولو كان لهم حَظٌّ من المُلكِ، لَمَا أعطَوْا أحدًا مِن النَّاس شيئًا ولو كان قليلًا، ولا ما يملأُ النُّقطة الَّتي على ظهرِ النَّواةِ، مِن شدَّة بُخلِهم[3].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤٩، ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٣).

﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ ﴾.

أي: أم الحاملُ لهم على ذلك حَسَدُهم النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابَه على ما رزَقه الله تعالى من النُّبوَّةِ العظيمة؛ لكونه من العربِ، وليس من بني إسرائيلَ[1]؟

﴿ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا ﴾.

أي: ليس هذا أوَّلَ فضلٍ تفضَّلْنا به على عباد الله، بل إنَّ الفضلَ قد وُجِدَ من قبلُ في أسلافِكم من ذُرِّيَّة إبراهيمَ عليه السَّلام؛ حيث أعطاهم اللهُ تعالى النُّبوَّة، وأنزَل عليهم الكتبَ، وآتاهم الحِكمةَ، وهي ما أوحاه اللهُ تعالى إليهم ممَّا سوى الكتبِ الإلهيَّة، وآتاهم الملك الواسِعَ الكبير؛ كمُلك سليمانَ عليه السَّلام[2].

﴿ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُ ﴾.

أي: فمِن أهل الكتاب مَن آمَن بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبالقرآنِ الَّذي أُنزل إليه، ومنهم مَن أعرَض عن ذلك ولم يُؤمِنْ، وسعَى في صَرْف النَّاس عن الإيمانِ بذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٥٣-١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٥٨، ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦١-١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣).

قال الواحديُّ: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾، قال ابنُ عبَّاس، والأكثرون: مِن أهلِ الكتاب مَن آمَن بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٦٨).

وقال ابنُ عطية: (﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ الآية، اختَلف المتأوِّلون في عَوْد الضمير مِن ﴿بِهِۦ﴾؛

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

أي: وحسْبُهم النَّارُ تُوقَدُ عليهم، فيُحرَقون فيها؛ عُقوبةً لهم على كفرِهم[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَما ذكَر الوعيد بالطَّائفة الخاصَّة مِن أهل الكتابِ، بيَّن ما يعُمُّ الكافرين مِن الوعيد فقال[2]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا﴾.

أي: إنَّ الكافرين بآياتِ الله عزَّ وجلَّ- سواءٌ الآياتُ الكونيَّةُ أو الشَّرعيَّة- سيُدخِلُهم اللهُ تعالى النَّارَ؛ فيحترِقون فيها[3].

﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾.

أي: كلَّما انشوَتْ جلودُهم بالنَّارِ فاحترقتْ، أبدَلهم اللهُ تعالى بجلودٍ أخرى؛

فقال الجمهور: هو عائدٌ على القرآنِ الذي في قولِه تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهًا﴾ ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٦٨).

وقيل: فمِنْ آل إبراهيم مَن آمَن بالذي أُوتوه من الكتاب والحِكمة، ومِنهم مَن أَعْرَض عن ذلك، فلم يُؤمِن، وسعَى في صَرْف الناس عن الإيمانِ بذلك. وهو اختيار ابن كثير في ((تفسيره)) (٢/ ٣٣٦)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة النساء)) (١/ ٤٢٠-٤٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢٢-٤٢٣).

فهُم على هذه الحالِ دائِمون[١].

﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾.

أي: ليجِدوا أَلَمَ العذابِ، وكَرْبَه، وشدَّتَه[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الغالبُ القاهرُ، العزيزُ في انتقامِه؛ فلا يقدِر على الامتناعِ منه أحدٌ أراده بضُرٍّ، ولا الانتصارِ منه أحدٌ أحلَّ به عقوبةً، وهو الحكيمُ الَّذي له الحكمةُ في خَلْقِه وقدَرِه، وثوابِه وعقابِه[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى وعيدَ الكفَّار، أعقَب بوعدِ المؤمنين، فقد جرَتْ عادةُ الله تعالى في هذا الكتابِ الكريمِ بأنَّ الوعدَ والوعيدَ يتلازمانِ في الذِّكر على سبيل الأغلبِ[٤]، قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢٤-٤٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٠-٤٣١).

أي: والَّذين آمَنوا بالله ورسوله محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبما أنزل اللهُ عليه، وأدَّوا ما أمرهم الله عزَّ وجلَّ به من الطَّاعات، واجتنَبوا ما حرَّم اللهُ عليهم من المنهيَّات، مخلِصين لله تعالى، ومتَّبِعين في ذلك نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: سوف يُدخِلُهم اللهُ يوم القيامة جنَّاتٍ تجري الأنهارُ في جميع فِجاجِها ومحَالِّها وأرجائِها، ومن تحتِ أشجارِها وقصورِها[٢].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾.

أي: ماكثين في تلك الجنَّاتِ على الدَّوام، بغير نهايةٍ ولا انقطاعٍ[٣].

﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ﴾.

أي: لهم في تلك الجنَّات زوجاتٌ مطهَّرات طهارةً حِسِّيَّة من الأدناسِ؛ كالحيضِ، والغائط، والبول، والحَبَل، والبُصاق، والرَّائحة المنتِنة، وسائر ما يكون في نساء أهلِ الدُّنيا، ومطهَّراتٌ طهارةً معنويَّةً من الأخلاقِ الرَّذيلة، والصِّفات النَّاقصة[٤].

﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٠-٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٧-١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣١-٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٤-٤٣٦).

أي: ونُدخِلُهم ظلًّا كنينًا غزيرًا طيِّبًا ممتدًّا، لا يَستحيلُ ولا ينتقل[١].

كما قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- النَّهيُ عن تزكيةِ النَّفس، والإنكارُ على مَن يزكِّي نفسَه؛ وجه ذلك أنَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، كما صرَّح به في قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[٢] [النجم: ٣٢].

٢- أنَّ تزكيةَ الغيرِ لا بأس بها؛ لأنَّ النَّهيَ أو الإنكارَ مُنصبٌّ على تزكيةِ النَّفس، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، أمَّا لو زكَّى غيرَه فإنَّ ذلك لا بأسَ به، ويَنبغي ألا يُزكِّي غيرَه بمجرَّدِ المَظْهرِ، بل لا بدَّ من خِبرةٍ[٣].

٣- أنَّه يجبُ على الإنسان أنْ يلجأَ في طلب التَّزكيةِ إلى الله؛ لقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾، فأنت إذا علِمتَ أنَّ اللهَ هو الَّذي يزكِّي فاسألِ اللهَ[٤].

٤- تزكيةُ النَّفس تكون بالعملِ الَّذي يجعَلُها زاكيةً، أي: طاهرةً كثيرةَ الخير والبركة، فتزكيةُ النَّفس بالفعل عبارةٌ عن تنميةِ فضائلِها وخَيراتها، ولا يتمُّ ذلك إلَّا باجتنابِ الشُّرور الَّتي تُعارضُ الخيرَ وتعُوقه، وهذه التَّزكيةُ محمودةٌ، وهي المرادةُ بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، أي: نفسَه، وتكون بالقول، وهو ادِّعاءُ الزَّكاءِ والكمال، ومنه تزكيةُ الشُّهود، وقد أجمَع العقلاءُ على استقباحِ تزكيةِ المرء لنفسِه بالقول، ومدحِها ولو بالحقِّ، ولَتزكيتُها بالباطل أشدُّ قُبحًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾، وهذا النَّوعُ مِن التَّزكية

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٩٩).

مصدرُه الجهلُ والغرورُ، ومِن آثاره العتوُّ والاستكبارُ عن قَبولِ الحقِّ، والانتفاعِ بالنُّصحِ[١].

٥- التَّحذيرُ من التَّعرُّض لِلَعنة الله؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تعرَّض لِلَعنة الله، وحقَّت عليه لن يجدَ مَن يَنصُره، قال تعالى: ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾[٢].

٦- بيانُ أنَّ الله أنعَم على هؤلاء الحسَدةِ بما ذكَره في قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ...﴾ الآية؛ فلا وجهَ للحسَدِ مع ما أعطاهم اللهُ تعالى من الفَضْل، وهذا أيضًا مِن الدَّواءِ الَّذي يُداوي به الإنسانُ الحسَدَ، فيقول مثلًا: ما لي أحسُدُ فلانًا، وقد أعطاني اللهُ كذا وكذا[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- الرَّدُّ على القدَريَّةِ، الَّذين يقولون باستقلالِ الإنسانِ في عملِه، ويؤخذ من قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾[٤].

٢- إثباتُ المشيئةِ لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وأنَّ الله سبحانه له مشيئةٌ، يدبِّر الأمرَ بحسَب هذه المشيئة، ولكنَّ هذه المشيئةَ ليست مشيئةً مجرَّدةً عن الحكمة، بل هي مشيئةٌ مقرونة بالحِكمة[٥].

٣- نفيُ الظُّلم عن الله؛ لقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وليس في صِفاتِ الله ما هو نفيٌ محضٌ؛ فكلُّ نفيٍ في صفاتِ الله فهو متضمِّنٌ لإثبات؛ فقوله: ﴿وَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٠٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾، أي: لأنَّ الله كاملُ العدل، ومَن كان كاملَ العدل فإنَّه لا يَظلِمُ فتيلًا[١].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ يدلُّ على أنَّ الله تعالى يَجزي كلَّ عاملِ خيرٍ بعمله، وإنْ كان مشرِكًا؛ لأنَّ لعملِه أثرًا في نفسه يكونُ مناطَ الجزاء، فإذا لم يصِلْ تأثيرُ عملِ المشرِكِ إلى الدَّرجة الَّتي يكون بها النَّجاةُ من العذاب ألبتَّةَ، فإنَّ عمله ينفعُه بكون عذابِه أقلَّ مِن عذابِ مَن لم يعمَلْ من الخير مِثلَ عملِه[٢].

٥- دعوة الإنسانِ إلى العجَبِ فيما يُتعجَّبُ منه، وأنَّ هذا من طُرُقِ القرآن؛ لقوله: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾[٣].

٦- تعظيمُ الكذِبِ على الله؛ لأنَّه لم يؤمَرْ بالتَّعجُّبِ منه إلَّا لأنَّه شيءٌ عظيم؛ ولقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾، يعني: ما أعظَمَه وما أكثَرَه، إذا افترى على الله الكذِبَ أن يأثَمَ هذا الإثمَ[٤]!

٧- بيانُ قُبحِ صَنيعِ المذكورينَ في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ... ﴾ الآية؛ حيث إنَّ اللهَ قد أعطاهم نصيبًا من الكتاب، ومع ذلك قالوا للكفَّار: إنَّهم أهدى من المؤمنين، ومعلوم أنَّ مَن حكَم بخلاف ما يعلَمُ فهو أقبحُ ممَّن حكَم بما لا يعلَمُ، والكلُّ قبيحٌ، لكن الأوَّل أشدُّ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٠٤، ٤٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١١).

٨- بيانُ استحقاقِ مَن آمَن بالجِبْتِ والطَّاغوت، وقال للَّذين كفروا: إنَّهم أهدى من الَّذين آمنوا سبيلًا- لِلَعنةِ الله، وبيانه أنَّ كلَّ مَن قال مِثل هذا القول فإنَّه مستحِقٌّ لِلَعنة الله؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وأحكامُ الله سبحانه الشَّرعيَّةُ والجزائيَّةُ لا تتعلَّقُ بالأشخاص أبدًا، فإذا استحقَّ هؤلاء اللَّعنَ بإيمانِهم بالجِبْتِ والطَّاغوت، وقولِهم: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾؛ فمَن جرى مجراهم استحقَّ ما يستحقُّون من العقاب(١).

٩- قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ...﴾، هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ سببَ لعنِ اللهِ للأُمَمِ هو إيمانُها بالخُرافاتِ والأباطيل والطُّغيان، وأنَّه تعالى إنَّما ينصُرُ المؤمنين باجتنابِهم ذلك، فليُحاسبِ المسلِمون أنفسَهم بها وبما في معناها من الآياتِ؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]؛ ليتبيَّنَ لهم مِن كتابِ ربِّهم صِدقُهم في دعْوى الإيمان من عدمِه، ولعلَّهم يَرجِعون إليه، ويُعوِّلون في أمرِ دِينهم ودُنياهم عليه(٢).

١٠- تأثيرُ الدِّعاية بلَبْس الحقِّ بالباطل، وإلَّا فمن المعلومِ أنَّ الكافرَ فيما يرمي إليه أو فيما يذهب إليه، ليس فيه هدايةٌ إطلاقًا، ومع ذلك قالوا: إنَّهم ﴿أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾. ويتفرَّعُ على هذه الفائدة: ما عليه بعضُ النَّاس اليومَ من قوله: إنَّ الكفَّار أوفى بالعهد من المؤمنين، وإنَّهم أخلصُ مِن المؤمنين، وأنصحُ من المؤمنينَ، وما أشبهَ ذلك، فمَن قال هذا في المسلمين، فإنَّ فيه شَبَهًا من اليهود، ونحن لا نُنكِر أنَّ في المسلمين مَن خالَف طريقَ الإسلامِ بعدمِ الصِّدق

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٢٩).

في القول، وعدمِ الوفاءِ بالعهدِ، وعَدَمِ الوفاء بالوعدِ، وعدم النُّصح في العمل، ولكنْ كلُّ هذه الأخلاق حذَّر منها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أشدَّ التَّحذير؛ فهي أخلاقٌ دخيلة على المُسْلمين، وسببُها ما كان عليه هؤلاء من النَّقصِ في العِلم وفي الإيمان(١).

١١- تحريمُ تفضيلِ الكفَّار على المؤمنين؛ لأنَّ الله تعالى أنكَره بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ... ﴾ إلى آخره(٢).

١٢- قوله: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فيه أنَّ الحسَدَ لا يحصُلُ إلَّا عند الفضيلة، فكلَّما كانت فضيلةُ الإنسان أتمَّ وأكملَ كان حسَدُ الحاسدينَ عليه أعظمَ، ومعلومٌ أنَّ النُّبوَّة أعظمُ المناصبِ في الدِّين، ثمَّ إنَّه تعالى أعطاها لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وضمَّ إليها أنَّه جعَله كلَّ يومٍ أقوى دولةً، وأعظَمَ شوكةً، وأكثرَ أنصارًا وأعوانًا، وكلُّ ذلك ممَّا يوجِبُ الحسَدَ العظيمَ(٣).

١٣- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ فيه بيانُ أنَّ الحسَدَ كما يكونُ على المالِ والجاهِ، يكونُ على الدِّينِ والعِلْمِ(٤).

١٤- في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ المراد بـ ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ كمالُ العِلم، وأمَّا المُلكُ العظيمُ فهو كمالُ القُدرة، وقد ثبَتَ أنَّ الكمالاتِ الحقيقيَّةَ ليستْ إلَّا العِلمَ والقدرةَ؛ فهذا الكلامُ تنبيهٌ على أنَّه سبحانه آتاهم أقصى ما يَليقُ بالإنسانِ من الكمالاتِ، ولَمَّا لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٤).
(٤) ((جامع المسائل)) لابن تيمية (ص:٥٢).

يكُنْ ذلك مستبعَدًا فيهم لا يكونُ مستبعَدًا في حقِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

١٥- وتَضمَّن قوله: ﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ... ﴾ تسليةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم في كونِهم يحسُدونه ولا يتَّبِعونه، فذكَر أنَّهم أيضًا مع أسلافِهم وأنبيائِهم انقسَموا إلى مؤمنٍ وكافرٍ، هذا وَهُم أسلافُهم، فكيف بنبيٍّ ليس هو منهم[٢]؟!

١٦- أنَّ الإحساسَ إنَّما يكونُ في الظَّاهر؛ لقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم ﴾ فهي الَّتي يقعُ عليها العذابُ، والعياذُ بالله، هذا هو الظَّاهرُ[٣].

١٧- إثباتُ الحكمة لله عزَّ وجلَّ في أفعالِه، وتؤخذ من قوله: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ ﴾، وهكذا كلَّما رأيتَ لامَ التَّعليلِ بعد حُكمٍ كونيٍّ أو شرعيٍّ، فإنَّها تُفيدُ إثباتَ الحكمة لله عزَّ وجلَّ[٤].

١٨- في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا ... لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ ﴾ إثباتُ غضَبِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ العذابَ لا يكون عن رضًا، بل عن غضَبٍ، لكن الاستدلالَ بهذه الآية على الغضبِ مِن بابِ الاستدلالِ باللَّازم[٥].

١٩- أنَّ أهلَ الجنَّة يُنعَّمون في الدُّنيا وفي الآخرة؛ لقوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ ﴾؛ لأنَّ السِّينَ تدلُّ على القُربِ، وأنَّ أصحابَ الجنَّة هم في الجنَّة في الدُّنيا وفي الآخرة؛ لأنَّه لا أحدَ أطيبُ عيشًا ممَّن آمَن وعمِل صالحًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٢٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٢٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٣٨).

٢٠- إنَّما قدَّم تعالى ذِكرَ الكفَّار ووعيدَهم، على ذِكرِ المؤمنين ووعْدِهم؛ لأنَّ الكلامَ فيهم، وذِكْر المؤمنين بالعَرَض[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى**: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ في تصدير الجملةِ بـ (بل) تصريحٌ بإبطالِ تزكيتهم، وأنَّ الَّذين زكَّوْا أنفسَهم لا حظَّ لهم في تزكيةِ الله، وأنَّهم ليسوا ممَّن يشاءُ اللهُ تزكيتَه، ولو لم يذكر (بل) فقيل: واللهُ يُزكِّي مَن يَشاء، لكان لهم مطمَعٌ أنْ يكونوا ممَّن زكَّاه الله تعالى[٢].

٢- **قوله**: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ جعَل افتراءَهم الكذبَ لشِدَّة تحقُّقِ وقوعه، كأنَّه أمرٌ مَرئيٌّ ينظرُه النَّاسُ بأعينهم، وإنَّما هو ممَّا يُسمَعُ ويُعقَلُ[٣].

- وفيه تلوينُ الخِطاب في قوله: ﴿يَفۡتَرُونَ﴾؛ حيث أقام المضارعَ مقامَ الماضي؛ إعلامًا أنَّهم مستمرُّون على ذلك[٤].

٣- **قوله تعالى**: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: اسمُ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وما فيه مِن معنى البُعد مع قُربهم في الذِّكر؛ للإشعارِ ببُعدِ منزلتِهم في الضَّلال، والجملةُ مستأنَفةٌ لبيانِ حالِهم، وإظهارِ مصيرِهم ومآلِهم[٥].

٤- **قال تعالى**: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾:

- **قوله**: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾: ﴿أَمۡ﴾ مُنقطعةٌ تُفَسَّرُ بـ(بل) وهمزةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٩).

الاستفهامِ، أي: بلْ أَلَهم، والاستفهامُ فيه إنكاريٌّ، حُكمُه حُكم النَّفي، ومعناه التَّوبيخُ والتَّقريع، وإنكارُ أنْ يكونَ لهم نصيبٌ من المُلْك، وجَحْدٌ لِما زعَمَت اليهودُ مِن أنَّ المُلك سيصير إليهم، ويجوز أن يكون المعنى إنكارَ أنَّهم أوتوا نصيبًا من المُلك على الكِناية، وأنَّهم لا يؤتونَ النَّاسَ شيئًا[١].

- **قوله:** ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾: فائدة (إذًا) تأكيدُ الإنكار والتَّوبيخ؛ حيث يجعَلون ثبوتَ النَّصيبِ سببًا للمنعِ، مع كونه سببًا للإعطاء[٢].

- وفيه: تَعريضٌ؛ حيث عرَّض بشدَّة بُخلِهم[٣].

٥- **قال تعالى:** ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾:

- **قوله:** ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾: ﴿أَمْ﴾ مُنقطعةٌ بمعنى (بل)، وهمزةِ الاستفهامِ لإنكارِ الحسَدِ واستقباحِه[٤].

- **قوله:** ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: فيه إجراءُ الكلام على سَنَنِ الكبرياءِ؛ حيث عبَّر بقوله: ﴿ءَاتَيْنَآ﴾ بطريق الالتِفاتِ؛ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بالأمر[٥].

- **قوله:** ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾: في وصْفِ المُلك بالعِظَم، وتنكيرِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٠).

التَّفخيميِّ مِن تأكيد الإلزامِ، وتشديدِ الإنكار ما لا يَخفَى[١].

٦- **قوله:** ﴿سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾ كلمة (سوف) تُذكَر للتَّهديد والوعيد، وينوبُ عنها السِّين، وقد يُذكرانِ في الوعدِ فيُفيدان التَّأكيد، أي: ندخلُهم نارًا عظيمة هائلةً[٢].

٧- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ واقعٌ موقعَ التَّعليل لِمَا قبله؛ فالعزَّة يتأتَّى بها تمامُ القُدرة في عقوبةِ المجترئ على الله، والحكمة يتأتَّى بها تلك الكيفيَّةُ في إصلائِهم النَّارَ[٣]. مع تأكيد الخبرِ بـ: (إنَّ) واسميَّةِ الجملة.

- وإظهار الاسم الجليلِ (الله) بطَريقِ الالتفات؛ لتهويلِ الأمرِ، وتربيةِ المَهابة، وتعليلِ الحُكم[٤].

٨- **قوله:** ﴿ظِلّٗا ظَلِيلٗا﴾: (ظليلًا) صفةٌ مشتقَّة من الظِّلِّ؛ لتأكيده[٥]؛ للدَّلالةِ على بلوغِه الغايةَ في جِنسِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٠).

الآيتان (٥٨ - ٥٩)

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾: (نِعمَّا) كلمةٌ مركَّبة من (نِعم) و(مَا)، أي: نعمَ شيئًا يعِظُكم به[١].

﴿تَأۡوِيلًا﴾: أي: عاقبةً ومعنًى وثوابًا في الآخِرة، والتَّأويل مِن أَوَل، أي: رجَع إلى الأصل، ومنه قِيل: مَوْئِل، للموضِعِ الَّذي يُرجَع إليه، وهو ردُّ الشَّيء إلى الغاية المرادة منه[٢].

مُشكِلُ الإعراب:

قَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ... أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾

﴿أَن تُؤَدُّواْ﴾: مصدر مؤوَّل بالصَّريح - أي: (تَأْدِية)، ومثله ﴿أَنْ تَحْكُمُوا﴾، أي: حُكْم - وهو في مَوضِع نصْب؛ إمَّا على إسقاط حرف الجرِّ (نزْع الخافض)، وأَصله: بِأَنْ تُؤَدُّوا، وَبِأَنْ تَحكُموا؛ لأنَّ حذفه يطَّرد مع (أنْ)[٣] إذا أُمِن اللَّبس لطولهما بالصِّلة، وإمَّا لأنَّ الفعل (أَمَرَ) يَتعدَّى إلى المفعول الثاني بنفسه، نحو: (أمرتك الخير)[٤].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠، ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٣) وعلى هذا يَجري الخلافُ في محلِّها: أهي في محلِّ نصب، أم جَرٍّ.

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري

﴿أَن تَحۡكُمُواْ﴾: معطوف على ﴿أَن تُؤَدُّواْ﴾، أي: يأمرُكم بتأديةِ الأمانات، وبالحُكمِ بالعَدل، فيكون فيه فصلٌ بين حرْف العطف والمعطوف بالظَّرف[١].

وقيل: ﴿أَن تَحۡكُمُواْ﴾ المذكور مفسِّرٌ للمحذوف مِن عامل ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ حيث إنَّه قد حُذِف فعلٌ، تقديرُه: يأمرُكم أن تَحكُموا إذا حكمتم؛ فلا موضعَ لـ ﴿أَن تَحۡكُمُواْ﴾؛ لأنَّه مُفسِّرٌ للمحذوف، والمحذوف مفعولُ ﴿يَأۡمُرُكُمۡ﴾، ولا يجوز أن يعمل ﴿أَن تَحۡكُمُواْ﴾ في ﴿إِذَا﴾؛ لأنَّ معمولَ المصدر لا يَتقدَّم عليه[٢].

المَعْنى الإجماليُّ:

يأمُر الله عباده بردِّ الأمانات إلى أصحابها، وأن يحكُموا بالعدل إذا حكَموا بين النَّاس، ونِعْم ما يأمرهم اللهُ به من أداء الأمانات والحُكم بالعَدْل بين النَّاس، إنَّ الله كان سميعًا بصيرًا.

ثمَّ أمر الله تعالى عبادَه المؤمنينَ بطاعَتِه سبحانه، وطاعةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنْ يُطيعوا من يتولَّون أمورَهم الدِّينيَّةَ والدُّنيوية، وهم العلماءُ والأمراء، يطيعونهم فيما لا يخالِفُ طاعةَ الله، وطاعةَ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، ويُرشِدُ اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين إلى أنَّه في حال اختلفوا في شيءٍ مِن أَمْر دِينهم، فَلْيطلبوا معرفةَ حُكمِه من كتاب الله تعالى، وسنَّةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، إن كانوا يؤمنونَ بالله واليومِ الآخِر، ذلك خيرٌ لهم، وأفضلُ، في دِينهم ودنياهم وآخِرَتِهم.

(١/ ٣٦٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٩-١٢).

(١) وهي مسألةُ خلافٍ. يُنظر في تفصيلها وتحريرها: ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٤/ ١٠)، وكتُب النحو عمومًا.

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٦٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٩-١٢).

تفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حكى عن أهلِ الكتابِ أنَّهم كتَموا الحقَّ، وذَكَر مِن أحوالِهم في تحريفِهم الكلِمَ عن مواضعه، وليِّهم ألسِنَتَهم، وافترائِهم على الله الكذبَ، وحسَدِهم بإنكارِ فضلِ الله؛ إذ آتاه الرَّسولَ والمؤمنينَ، وقولِهم للَّذين كفروا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ كلُّ ذلك يشتملُ على خيانةِ أمانةِ الدِّين، والعِلم، والحقِّ، والنِّعمة، وهي أماناتٌ معنويَّة- فناسَب أن يُعقِّبَ ذلك بالأمر بأداءِ الأمانة الحسِّيَّة إلى أهلِها، ويتخلَّص إلى هذا التَّشريعِ، فأمَر المؤمنينَ بأداءِ الأماناتِ في جميعِ الأمور، سواءٌ كانت تلك الأمورُ من باب المذاهبِ والدِّياناتِ، أو من باب الدُّنيا والمعاملاتِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى وعْدَ المؤمنينَ، وما لهم من الثَّوابِ العظيم، وذكَر عمَل الصالحاتِ، نبَّه على عملينِ شريفينِ مِن أَجَلِّ الأعمالِ الصالحةِ، مَن اتَّصَفَ بهما كان أحرى أن يتَّصفَ بغيرهما من الأعمال الصَّالحة؛ فأحدُهما: ما يختصُّ به الإنسانُ فيما بينه وبين غيره؛ وهو أداءُ الأمانة، والثَّاني: ما يكونُ بين اثنينِ من الفَصْل بينهما بالحُكْم العدلِ الخالي عن الهوى، وهو مِن الأعمالِ العظيمة الَّتي أمر الله بها رسلَه وأنبياءه والمؤمنينَ، ولَمَّا كان الترتيبُ الصَّحيح أن يبدأَ الإنسانُ بنفسِه في جَلْبِ المنافع ودفعِ المضارِّ، ثمَّ يشتغلَ بحال غيره، أمَر بأداءِ الأمانة أوَّلًا، ثمَّ بعده أَمَر بالحُكم بالحقِّ[2] فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٤)، وينظر ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٨).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾.

أي: إنَّ مَن له الألوهيَّةُ والحُكم عزَّ وجلَّ، يأمركم بأن تردُّوا كلَّ ما اؤْتُمِنْتم عليه إلى أصحابه، سواءٌ كان من حقوقِ الله تعالى، أو مِن حقوقِ عباده؛ فرُدُّوه كاملًا موفَّرًا، من غير نقصٍ، ولا بخسٍ، ولا مماطلةٍ[١].

﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾.

أي: ويأمُرُكم اللهُ تعالى أيضًا بالحُكم بالعدل في كلِّ شيء، ومع كلِّ أحدٍ من النَّاس؛ وذلك بالحُكم بشريعةِ الله تعالى، فهي العدل كُلُّه[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾.

أي: ونِعم الشَّيءُ يعِظُكم به ربُّكم سبحانه وتعالى في أمرِه لكم- أداءُ الأماناتِ إلى أهلها، والحُكمُ بالعدل بين النَّاس[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾.

أي: إنَّه سبحانه سميعٌ لأقوالكم، بصيرٌ بأفعالكم، ومن ذلك أداءُ الأمانات إلى أهلِها، وحُكمُكم بين النَّاس[٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٨-٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٧٣-١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤١).

شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمر سبحانه الرُّعاةَ والوُلاة بالعدلِ في الرَّعيَّة، ورغَّب فيه ورهَّب مِن تَرْكِه، أمَر الرَّعيَّة بطاعة الولاةِ[1].

سَببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، أنَّه قال في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، قال: ((نزَلت في عبدِ الله بن حُذَافةَ بن قيس بن عدي؛ إذ بعَثه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في سَريَّة))[2].

وعن عليٍّ رَضِيَ اللَّه عنه، قال: ((بعَث النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم سَرِيَّةً، فاستعْمَل رَجُلًا مِن الأنصارِ، وأمَرهم أنْ يُطيعوه، فغَضِب، فقال: أليس أمرَكُم النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ تُطِيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجْمعوا لي حَطَبًا. فجَمَعوا، فقال: أوْقِدُوا نارًا. فأوْقَدوها، فقال: ادْخُلوها. فهَمُّوا، وجعَل بعضُهم يُمْسِكُ بعضًا، ويقولون: فرَرْنا إلى النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن النَّارِ. فما زالوا حتَّى خَمَدَتِ النَّارُ، فسكَن غضَبُه، فبلَغ النَّبِيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: لو دَخَلوها ما خَرَجوا منها إلى يومِ القيامةِ، الطَّاعةُ في المعروفِ))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣١٠).
وذلك لأنَّ الطَّاعةَ لهم هي مظهرُ نفوذ العدل الَّذي يحكُمُ به حكَّامهم؛ فطاعة الرَّسول تشتمل على احترام العدلِ المشرع لهم وعلى تنفيذه، وطاعة ولاة الأمور تنفيذٌ للعدل، وأشار بهذا التَّعقيب إلى أنَّ الطَّاعة المأمورَ بها هي الطَّاعةُ في المعروف. ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٦).

(٢) رواه البخاري (٤٥٨٤).

(٣) رواه البخاري (٤٣٤٠) ومسلم (١٨٤٠).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون أطيعوا اللهَ تعالى، وأطيعوا رسوله محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم، وذلك بامتثالِ أمْرِهما، واجتنابِ نَهْيِهما[١].

﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾.

أي: وأطيعوا أيضًا الوُلاةَ عليكم الَّذين يَلُون لكم أمورَ دِينكم ودنياكم، وهم الأمراء والعُلماء؛ فأطيعوهم فيما لم يكُنْ فيه مخالفةٌ لطاعة الله تعالى وطاعةِ رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام[٢].

عن عليِّ بن أبي طالب رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّما الطَّاعةُ في المعروفِ))[٣].

وفي رواية: ((لا طاعةَ في معصيةِ اللهِ، إنَّما الطَّاعة في المعروفِ))[٤].

وعن عُبادة بن الصَّامتِ رضِي اللهُ عنه، قال: ((بايَعْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم على السَّمعِ والطَّاعة في المَنْشَطِ والمَكْرَهِ[٥]، وألَّا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه، وأن نقومَ- أو: نقولَ- بالحقِّ حيثُما كنَّا لا نَخافُ في اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ))[٦].

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

أي: فإن اختلفتم- أيُّها المؤمنون- في شيءٍ مِن أمرِ دِينكم؛ مِن أصولِه وفروعِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٧٤-١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣-١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٧).

(٣) رواه البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠) واللفظ له.

(٤) رواه مسلم (١٨٤٠)، من حديث علي رضي الله عنه.

(٥) المنْشَطِ والمَكْرَه: يعني المحبوب والمكروه. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٦٩).

(٦) رواه البخاري (٧١٩٩) واللفظ له، ومسلم (١٨٤٠).

فاطلبوا معرفةَ حُكمِه من كتابِ الله تعالى، وسنَّةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

أي: افعلوا ذلك إن كنتم مؤمنين بالله تعالى حقًّا، ومؤمنين بالآخرة أيضًا[٢].

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

أي: ردُّكم لِما اختلفتُم فيه إلى الكتاب والسُّنَّة خيرٌ لكم وأفضلُ، في دِينكم ودنياكم وآخرتِكم، وأحسنُ عاقبةً[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- معاملة الإنسانِ إمَّا أن تكونَ مع ربِّه أو مع سائر العبادِ، أو مع نفسِه، ولا بدَّ من رعايةِ الأمانةِ في جميع هذه الأقسام الثَّلاثة، أمَّا رعايةُ الأمانةِ مع الرَّبِّ: فهي في فِعلِ المأمورات وتَرْك المنهيَّاتِ، **وأمَّا القِسْم الثَّاني**: وهو رعايةُ الأمانة مع سائر الخَلْقِ، فيدخُلُ فيه ردُّ الودائع، ويدخُلُ فيه تركُ التَّطفيفِ في الكَيل والوزن، ويدخل فيه ألَّا يُفشيَ على النَّاس عيوبَهم، ويدخلُ فيه عدلُ الأمراء مع رعيَّتِهم، وعدلُ العلماء مع العوامِّ؛ بألَّا يَحْمِلوهم على التَّعصُّبات الباطلة، بل يرشدونهم إلى اعتقاداتٍ وأعمالٍ تنفَعُهم في دنياهم وأخراهم، ويدخل فيه أمانةُ الزَّوجة للزَّوج في حفظِ فرجِها، وفي ألَّا تُلحِقَ بالزَّوج ولدًا يُولَدُ من غيره، وغيرها، **وأمَّا القِسْم الثَّالث**: وهو أمانةُ الإنسان مع نفسِه؛ فهو ألَّا يختارَ لنفسه إلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٤-١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٨-٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٥-٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).

ما هو الأنفعُ والأصلحُ له في الدِّين والدُّنيا، وألَّا يُقدِمَ بسبب الشَّهوة والغضبِ على ما يضُرُّه في الآخرة[١].

٢- وجوبُ أداء الشَّهادة على الشَّاهد كما تحمَّلَها؛ لأنَّ الشَّاهدَ مؤتَمَنٌ، فيجبُ عليه أن يؤدِّيَ الشَّهادةَ كما تحمَّلَها من غير زيادةٍ ولا نقص، وهل يجوز أن يؤدِّيَها بالمعنى؟ الجواب: نَعم، إذا كان عالِمًا بالمعنى، ولم يحدُثْ ما يتغيَّرُ به المعنى، فإنَّه لا بأس أن يؤدِّيَها بالمعنى[٢].

٣- قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ فيه التَّعبيرُ بالعدل دون المساواة، التي شُغِف بالتعبير بها كثيرٌ من العصريِّين، ولا تكادُ تجدُ أحدًا منهم يقول: الدِّينُ الإسلاميُّ دِينُ العَدْلِ، بل يقولُ: الدِّينُ الإسلاميُّ دِينُ المساواة؛ مما جعل المرأة تقول: لا بدَّ أن أُعامَلَ كما يعامَلُ الرَّجلُ، وجعل الرَّجلَ السَّاقطَ الَّذي لا خيرَ فيه يقول: لا بدَّ أن أعامَلَ كما يعامَلُ الشَّريفُ، وهلمَّ جرًّا، لكن إذا استعملنا العَدْلَ، فمعناه أن نُنْزِلَ كلَّ إنسانٍ منزلتَه[٣].

٤- الرَّدُّ إلى اللهِ ورسوله شرطٌ في الإيمانِ؛ فلهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فدلَّ ذلك على أنَّ مَن لم يرُدَّ إليهما مسائلَ النِّزاعِ فليس بمؤمنٍ حقيقةً[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).

ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ...﴾ هاتانِ الآيتانِ هما أساسُ الحُكومة الإسلاميَّةِ، ولو لم يَنزِلْ في القرآن غيرُهما لكَفَتَا المسلِمين في ذلك، إذا هم بنَوْا جميعَ الأحكامِ عليهما[١]، فأداءُ الأماناتِ إلى أهْلِها، والحُكْم بين النَّاس بالعَدْل هما جِماعُ السِّياسة العادِلَة، والوِلاية الصَّالحَة[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ هذه الآيةُ من أمهَّات الأحكامِ؛ تَضَمَّنَت جميعَ الدِّينِ والشَّرْع[٣]، فأداءُ الأماناتِ إلى أهْلِها، والحُكْم بين النَّاس بالعَدْل هما جِماعُ السِّياسة العادِلَة، والوِلاية الصَّالحَة[٤].

٣- وفي قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ دلالةٌ على أنَّها لا تُدفَع وتؤدَّى لغير المؤتَمِن، ووكيلُه بمنزلتِه؛ فلو دفعها لغير ربِّها لم يكُنْ مؤدِّيًا لها[٥].

٤- من الأمانَةِ التي أمَرَ اللهُ تعالى أن تؤدَّى إلى أهْلِها في قَوْلِه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾: أنْ يَقْصِدَ من يتصرَّفُ لغيره؛ مَصْلَحةَ من يتصرَّفُ له، ولا يقصِد هواه[٦].

٥- في قَوْلِه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ الأمرُ بالحُكْمِ بالعَدْلِ، والعدْلُ هو الشَّرْع، وكتابُ الله تعالى هو المُبَيِّنُ للشَّرْع؛ فالكِتابُ والعَدْلُ متلازمان، ومَن حَكَمَ بالعَدْلِ فقد حَكَمَ بالشَّرْع، ولكنَّ كثيرًا من الناس يَنْسُبون ما يقولونَه إلى الشَّرْع، وليس

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٣٦).
(٢) ((السياسة الشرعية)) لابن تيمية (ص: ٦).
(٣) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٥٥).
(٤) ((السياسة الشرعية)) لابن تيمية (ص: ٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣).
(٦) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ٨٣).

من الشَّرْع؛ بل يقولون ذلك إمَّا جهلًا، وإمَّا غَلَطًا، وإمَّا عَمْدًا وافتراءً، وهذا هو الشَّرْعُ المبَدَّل الذي يستحِقُّ أصحابُه العقوبةَ؛ ليس هو الشَّرعَ المنزَّلَ الذي جاء به جبريلُ مِن عِنْدِ الله إلى خاتَم المُرْسَلينَ؛ فإنَّ هذا الشَّرْعَ المنزَّلَ كُلُّه عدلٌ، ليس فيه ظُلْمٌ ولا جَهْلٌ[١].

٦- أنَّ الأحكامَ الشَّرعيَّةَ تُسمَّى موعظةً؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾، مع أنَّه ليس فيها وعيدٌ، وليس فيها تهديدٌ، وإنَّما فيها بيانُ أحكامٍ[٢].

٧- التَّناسقُ بين المأمورِ به من التَّكاليف، وهو أداءُ الأماناتِ، والحُكمُ بالعدل بين النَّاس، وبين كونِ الله سبحانه ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ مناسبةٌ واضحةٌ ولطيفةٌ معًا.. فاللهُ يسمَعُ ويُبصِرُ قضايا العدل وقضايا الأمانة، والعدلُ كذلك في حاجةٍ إلى الاستماع البصير، وإلى حُسن التَّقدير، وإلى مراعاةِ الملابَساتِ والظَّواهر، وإلى التَّعمُّقِ فيما وراء الملابَساتِ والظَّواهر، وأخيرًا فإنَّ الأمرَ بهما يصدُرُ عن السَّميعِ البصيرِ بكلِّ الأمور[٣].

٨- أنَّه تعالى لَمَّا أمَر في هذه الآيات بالحُكمِ على سبيل العدلِ وبأداءِ الأمانة، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، أي: إذا حكمتَ بالعدلِ فهو سميعٌ لكلِّ المسموعاتِ، يسمَعُ ذلك الحُكم، وإن أدَّيْتَ الأمانةَ فهو بصيرٌ لكلِّ المُبصَراتِ، يُبصِرُ ذلك، ولا شكَّ أنَّ هذا أعظمُ أسبابِ الوعد للمُطِيع، وأعظمُ أسباب الوعيد للعاصي[٤].

٩- كلَّما كان احتياجُ العبدِ أشدَّ، كانت عنايةُ الله أكملَ، والقضاةُ والوُلاةُ

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٦٦)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ١٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١١١).

قد فوَّض الله إلى أحكامِهم مصالحَ العباد، فكان الاهتمامُ بحُكمهم وقضائِهم أشدَّ؛ فهو سبحانه مُنزَّه عن الغفلةِ والسَّهو، والتَّفاوت في إبصار المبصَراتِ، وسماعِ المسموعات، ولكن لو فرَضْنا أنَّ هذا التَّفاوتَ كان ممكِنًا، لكان أَولى المواضعِ بالاحترازِ عن الغفلةِ والنِّسيان هو وقتَ حُكمِ الولاة والقضاة، فلمَّا كان هذا الموضعُ مخصوصًا بمزيد العنايةِ، لا جرَمَ قال في خاتمة هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فما أحسَنَ هذه المقاطعَ الموافِقةَ لهذه المطالعِ[١].

١٠- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ إنَّما أُعِيد فِعلُ: (وأطيعوا الرَّسول) مع أنَّ حرفَ العطف يُغني عن إعادته؛ إظهارًا للاهتمامِ بتحصيل طاعةِ الرَّسول؛ لتكونَ أعلى مرتبةً من طاعةِ أُولي الأمر، ولينبِّهَ على وجوب طاعتِه فيما يأمُرُ به، ولو كان أمرُه غيرَ مقترنٍ بقرائنِ تبليغ الوحيِ؛ لئلا يتوهَّمَ السَّامعُ أنَّ طاعةَ الرَّسول المأمورَ بها ترجعُ إلى طاعةِ الله فيما يُبلِّغُه عن الله دون ما يأمُرُ به في غير التَّشريعِ؛ فإنَّ امتثالَ أمرِه كله خيرٌ[٢]، وأيضًا ليفيد بيان الدَّلالتين؛ فالكتاب يدلُّ على أمرِ الله، ثمَّ نعلَمُ منه أمرَ الرَّسول لا محالةَ، والسُّنَّةُ تدلُّ على أمر الرَّسول، ثمَّ نعلَمُ منه أمرَ الله لا محالةَ، فثبَت بما ذكرناه أنَّ قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ يدلُّ على وجوب متابعةِ الكتاب والسُّنَّة[٣].

١١- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فيه الأمرُ بطاعةِ أُولي الأمرِ مِن العُلماءِ والأمراءِ إذا لم يَتنازعوا؛ وهو يَقتضي أنَّ اتِّفاقَهم حُجَّةٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١١٢).

(٤) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٦٧).

١٢- قولُه تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ولم يَقُلْ: وإلى الرَّسولِ؛ فإنَّ الرَّدَّ إلى القرآنِ رَدٌّ إلى اللهِ والرَّسولِ، فما حَكَمَ به اللهُ تعالى هو بِعَيْنِه حُكْمُ رَسولِه، وما يحكُمُ به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم هو بِعَيْنِه حُكْمُ الله؛ فإذا رَدَدْتُم إلى اللهِ ما تنازَعْتُم فيه- يعني كتابَهُ- فقد رَدَدْتُموه إلى رَسُولِه. وكذلك إذا رَدَدْتُموه إلى رسولِه فقد ردَدْتُموه إلى اللهِ، وهذا من أسرارِ القرآنِ[١].

١٣- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، فيه الأمرُ بالردِّ عندَ التنازُعِ إلى اللهِ والرسولِ، فأبطَلَ الرَّدَّ إلى إمامٍ مُقَلَّد، أو قياسٍ عقليٍّ فاضِلٍ[٢].

بَلاغةُ الآيتين:

١- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾: جملةٌ مستأنَفة مُقرِّرة لِما قبلها، متضمِّنةٌ لمزيدِ لُطفٍ بالمخاطَبينَ، وحُسْنِ استدعاءٍ لهم إلى الامتثالِ بالأمرِ، و(إنَّ) فيها لمجرَّدِ الاهتمامِ بالخَبَر؛ لظهورِ أنَّ مِثلَ هذا الخبرِ لا يقبَلُ الشَّكَّ حتَّى يُؤكَّدَ؛ لأنَّه إخبارٌ عن إيجاد شيءٍ لا عن وجوده، فهو والإنشاءُ سواءٌ[٣].

- قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾ فيهِ بيانُ عظَمةِ الله عزَّ وجلَّ؛ وذلك حيث عبَّر عن نفْسِه تباركَ وتعالى بصيغةِ الغائِبِ التي تدُلُّ على التَّعظيمِ[٤].

٢- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ واقع موقعَ التَّحريضِ على امتثالِ الأمرِ، فكان بمنزلة التَّعليلِ، وأغنَتْ (إنَّ) في صَدْرِ الجملة عن ذِكر فاءِ التَّعقيبِ، كما

---

(١) ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٤١).

(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤١).

هو الشَّأن إذا جاءت (إنَّ) للاهتمامِ بالخبرِ دون التَّأكيدِ[١].

٣- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ خبرٌ فيه وعدٌ ووعيدٌ، وإظهارُ الجلالة فيه تأكيدٌ لكلٍّ من الوعدِ والوعيدِ[٢]، مع ما في تأكيدِ الخبر بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجُملةِ.

٤- **قوله**: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾: لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ نكِرة متوغِّلة في الإبهام؛ فهو في حيِّز الشَّرط يُفيدُ العموم، أي في كلِّ شيءٍ، فيصْدُقُ بالتَّنازعِ في الخُصومة على الحقوق، ويصدُقُ بالتَّنازع في اختلاف الآراء عند المشاوَرةِ، أو عند مباشَرةِ عملٍ ما؛ كتنازُعِ ولاةِ الأمورِ في إجراءِ أحوالِ الأمَّةِ، ولقد حسَّن موقعَ كلمةِ (شيءٍ) هنا تعميمُ الحوادثِ وأنواعِ الاختلافِ[٣].

٥- **قوله**: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ شرطٌ، وجوابُه محذوفٌ، أي: فردُّوه إلى اللهِ والرَّسولِ، وهو شرطٌ يُرادُ به الحضُّ على اتِّباع الحقِّ؛ لأنَّه ناداهم أولًا بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فصار نظير: إنْ كُنتَ ابني فأَطِعْني. وفيه إشعارٌ بوعيدِ مَن لم يَرُدَّ إلى اللهِ تعالى والرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم[٤]، وهو تحريضٌ وتحذيرٌ معًا؛ لأنَّ الإيمانَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وازعانِ يَزعانِ عن مُخالفةِ الشَّرعِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٠١).

الآيات (٦٠ - ٦٥)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يَزْعُمُونَ﴾: يَكذِبون، والزَّعم: يُطلَق غالبًا على حِكايةِ قولٍ يكونُ مَظِنَّةً للكذبِ، وعَلَى اعتقادِ الباطِلِ بتقوُّلٍ، والقَولِ مع الظَّنِّ، ويُطلَقُ كذلك على الكَلامِ الذي لا سَنَدَ له، وإنَّما يُحكَى على الْأَلْسُنِ على سَبيلِ البَلاغِ، وقدْ يكونُ الزَّعم حَقًّا، وأصلُ (زعم): القولُ مِن غير صِحَّةٍ ولا يقينٍ[1].

﴿بَلِيغًا﴾: أي: قَويًّا يَبْلُغُ شَغَافَ قلوبِهم لبَلاغَتِه وفَصاحتِه، ومن بلاغةِ الكلامِ أنْ يكون صوابًا في موضوعِ لُغتِه، وطِبقًا للمعنى المقصودِ به، وصِدْقًا

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠)، ((معجم الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ١٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٨).

في نفْسه. وأصل (بلغ): الوُصولُ إلى الشَّيءِ[١].

﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾: أي: فيما اختلَفوا فيه، واختلَط بينهم، والتَّشاجُر: المنازَعةُ، وأصْلُ (شجر): تداخُلُ الشَّيءِ بَعْضِه في بعضٍ[٢].

﴿حَرَجًا﴾: أي: شكًّا وضِيقًا، والحَرَج: الضِّيقُ والإثْمُ، وأصْلُ الحَرَج: تجمُّع الشَّيء وضِيقُه[٣].

المَعْنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: ألَا تتعجَّبُ- يا محمَّدُ- مِن حالِ أولئك الَّذين يدَّعون كَذِبًا أنَّهم يؤمنونَ بالقرآنِ وبِغيرِه من الكُتُب السَّماويَّةِ السَّابقةِ، ومع ذلك يُريدون أن يتحاكَموا إلى غيرِ ما أنزَل اللهُ، وقد أُمِروا أن يكفُروا بالحُكمِ إذا كان كذلك، ويريدُ الشَّيطانُ أن يُغويَهم عن طريقِ الهدايةِ غَوايةً شديدةً.

وإذا قيل لهم: تعالَوْا إلى ما أنزله اللهُ تعالى في كتابه وفي سنَّةِ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، رأيتَ هؤلاءِ المنافقينَ مُعرِضين عنك وعمَّا تَدْعوهم إليه، ويمنَعونَ غيرَهم كذلك عنه.

فكيف سيكونُ حالُ هؤلاء المنافِقينَ إذا حلَّت عليهم مُصيبةٌ بسبب كفرِهم وذُنُوبِهم، ومنه تحاكُمُهم إلى غيرِ ما أنزَل اللهُ تعالى، ثمَّ أتَوْا إلى النَّبيِّ صلَّى الله

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧).

عليه وسلَّم مُعتذرينَ يَحْلِفون بالله كذِبًا أنَّهم ما تَحاكَموا إلى غيرِه إلَّا بقصدِ الإحسانِ إلى المتخاصِمينَ، والتَّوفيقِ بينهم، ولم يكونوا معتقدينَ صحَّةَ تلك الحكومةِ، فأخبَر تعالى أنَّه يعلَمُ ما تنطوي عليه قلوبُهم من نفاقٍ وقصدٍ سيئٍ في فِعْلِهم ذلك، وسيجازيهم على ذلك، وأَمَرَ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بالإعراضِ عنهم، وترغيبِهم في الانقيادِ للهِ ولرسولِه، وحذَّرهم من مخالفةِ ذلك، وأن ينصَحَهم سِرًّا نصيحةً مؤثِّرةً تصِلُ إلى قَرارةِ أنفسِهم.

ثمَّ يُخبِر تعالى أنَّه ما أرسَل رسولًا إلَّا والغرضُ من ذلك الإرسالِ أن يُطيعَه المرسَلُ إليهم، ويتَّبِعوه بتقدير الله وقضائه ومشيئتِه، ولو أنَّهم حين يقَعون في ظُلْم أنفسِهم بالذَّنبِ والخطيئةِ يأتون الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم -في حالِ حياتِه- مُقرِّينَ بذُنُوبِهم، طالبينَ من الله مغفرتَها، وطلَبَ الرَّسولُ مِن الله أن يغفِرَ لهم تلك الذُّنوبَ، حينها سيَجِدونَ من اللهِ الصَّفحَ عن ذنوبِهم تلك، وسيتوبُ عليهم وسيرحَمُهم.

ثمَّ أقسَم تعالى بنفسِه، فقال: فلا وربِّك يا محمدُ لا يؤمن أحدٌ إيمانًا يُقبَل منه حتَّى يُحكِّمَك في جميعِ الأمور الَّتي يحدُثُ فيها التَّنازعُ، ثمَّ لا يَجِدَ في نفسِه ضِيقًا وحرَجًا من الحُكم الَّذي يصدُرُ منك، وينقادَ له، ويُسلِّمَ تسليمًا كليًّا.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أوجَب اللهُ تعالى في الآيةِ الأولى على جميعِ المكلَّفين أن يُطيعوا اللهَ،

ويُطيعوا الرَّسولَ- ذكَر في هذه الآيةِ أنَّ المنافقينَ والَّذين في قلوبهم مرضٌ لا يُطيعونَ الرَّسولَ، ولا يرضَوْن بحُكمِه، وإنَّما يريدونَ حُكمَ غيرِه متعجِّبًا من حالهم مع ادِّعائهم الإيمانَ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَر الله تعالى أنَّ اليهودَ يؤمِنونَ بالجِبْتِ والطَّاغوت... إلخ، وذكَر مِن سوء حالِهم ووعيدِهم ما ذكَر، ثمَّ أمر المؤمنين بعد ذلك بأداءِ الأماناتِ إلى أهلِها، والحُكمِ بالعَدْل، وأَمَرَهم بطاعةِ الله ورسولِه في كلِّ شيءٍ، وطاعةِ أُولي الأمر، وبِرَدِّ ما تنازَعوا فيه إلى اللهِ ورسولِه- بيَّن لنا بعْدَ هذا حالَ طائفةٍ أخرى بين الطَّائفتينِ، وهم المنافقون الَّذين يزعمون أنَّهم آمَنوا، ومن مقتضى الإيمان: امتثالُ ما أُمِر به المؤمنونَ في الآيتين السَّابقتينِ، ولكنَّهم مع هذه الدَّعوى يريدونَ أنْ يَتحاكَموا إلى الطَّاغوتِ الَّذي عليه تلك الطَّائفةُ(٢).

سَببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: كان أبو بَرْزةَ الأسلميُّ كاهنًا يَقضي بين اليهود فيما يَتنافَرون إليه، فتنافر إليه أناسٌ مِن أسلَمَ، فأنزَل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَوْفِيقًا﴾(٣) [النساء: ٦٠-٦٢].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾

أي: ألَا تتعجَّب- يا محمَّدُ- مِن حال أولئك الَّذين يزعُمون أنَّهم يؤمِنونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٨١).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٥٤٧)، والطبراني (١١/ ٣٧٣) (١٢٠٤٥)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (١٤١).

قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٩): رجاله رجال الصَّحيح. وجود إسناده ابن حجر في ((الإصابة)) (٤/ ١٩)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٣٢).

بالقرآن، وبغيره من الكتب الإلهيَّة السَّابقة[١]؟!

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

أي: وهم مع ذلك يودُّون التَّحاكُمَ في فصلِ الخصوماتِ إلى غير الكتابِ والسُّنَّة[٢].

﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم قد أُمروا أن يكفُروا بالحُكم بغيرِ ما أنزَل اللهُ جلَّ وعلا[٣].

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ يريد أن يجُورَ بهؤلاء المتحاكِمينَ إلى الطَّاغوت جَورًا شديدًا بَعِيدًا عن سبيل الحقِّ والهُدى[٤].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر ضلالَهم بالإرادةِ، ورغبتَهم في التَّحاكمِ إلى الطَّاغوت، ذكَر فِعلَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٠-٤٦١).
قال الرازي: (اعلم أنَّ المفسِّرين اتَّفقوا على أنَّ هذه الآية نَزلتْ في بعضِ المنافقينَ) ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٨-١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٨-١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٢).

فيه؛ في نُفرتِهم عن التَّحاكمِ إلى رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقال[١]:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾.

أي: وإذا قيل للمنافقين: هلمُّوا وأقبِلوا على حُكمِ الله تعالى، الَّذي أنزَله في كتابِه وفي سنَّة رسوله محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام[٢].

﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾.

أي: أبصرتَ أولئك المنافقينَ مُعرِضينَ وممتنِعينَ مِن المصيرِ إليك للحُكم بينهم؛ بسبب نفاقِهم، ويمنَعون غيرَهم كذلك[٣].

كما قال تعالى عن المشركين: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [لقمان: ٢١].

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾.

أي: فكيف يكون حالُ هؤلاء المنافقينَ إذا ساقَتْهم المقاديرُ إليك، في مصائبَ حلَّتْ بهم بسبب كُفرِهم وذنوبهم، ومن ذلك تحاكُمُهم إلى غيرِ ما أنزل اللهُ تعالى[٤].

﴿ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).

أي: ثمَّ أتاك هؤلاء المنافقون- يا محمَّدُ- يُقسِمونَ بالله تعالى كذِبًا وزورًا، وجُرأةً على الله عزَّ وجلَّ، معتذرينَ بأنَّهم ما أرادوا بذَهابِهم للتَّحاكُمِ إلى غيرك إلَّا الإحسانَ إلى المتخاصمينَ، والتَّوفيقَ بينهم، ومداراةَ النَّاس ومصانَعتَهم، لا اعتقادًا منهم بصحَّةِ تلك الحكومةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يعلَمُ حقيقةَ ما تُكِنُّه قلوبُهم من النِّفاقِ، والقصدِ السَّيِّئ في احتكامِهم إلى الطَّاغوت، وتركِهم الاحتكامَ إليك، وإن حلَفوا باللهِ ما أرَدْنا إلَّا إحسانًا وتوفيقًا، وسيَجزيهم على ذلك، فإنَّه لا تخفى عليه خافيَةٌ سبحانه، فاكتفِ به- يا محمَّدُ- فيهم؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عالمٌ بهم[(٢)].

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

أي: فدَعْهم، ولا تُبالِ بهم، ولا تعاقِبْهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٦-١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٩).

﴿وَعِظْهُمْ﴾.

أي: ورغِّبهم في الانقيادِ لله تعالى ولرسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، وخوِّفهم وحذِّرهم مِن تَرْكِه(١).

﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾.

أي: انصَحْهم- يا محمَّدُ- سِرًّا فيما بينك وبينهم بكلامٍ بليغٍ مؤثِّر، يصِلُ إلى قرارةِ نفوسِهم؛ ليزجُرَهم ويردَعَهم عمَّا هم عليه(٢).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧١).

ويتَعَلَّقُ قَوْلُه: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بقوله: ﴿قُلْ﴾ وفيه معنيان، الأول أيْ: قُلْ لهم خالِيًا بهم، لا يكونُ معهم أحدٌ. أو: قُلْ لهم في معنى أنفسِهم قولًا يَبْلُغ منهم ما يزجُرُهم عن العوْدِ إلى ما فعلوا. وقيل: إنَّ قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ متعلِّق بقولِه: ﴿بَلِيغًا﴾ على مذهب مَن يجيزُ تقديمَ معمولِ الصِّفة على الموصوفِ. ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦).

قال ابنُ عثيمينَ: (قوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ أي: قل لهم قولًا يصلُ إلى قرارةِ نفوسِهم، ولهذا جُعل ظرفُ القولِ هو النَّفس، ويحتملُ أن يكونَ المعنى ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: في شأنِهم وحالِهم قولًا بليغًا يبلغُ قلوبَهم، والمعنيان لا يتنافيان، وعلى هذا فيكونان جميعًا حقًّا؛ أي: قل لهم في شأنِهم وفي أنفسِهم بأنَّكم فعلتُم كذا وفعلتُم كذا، أو قل لهم قولًا في النَّفس يصلُ إلى النُّفوس، وإلى قرارةِ القلوبِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٤٧٠).

والقولُ البليغُ قيل: هو التوعُّد بالقتلِ إن استداموا حالةَ النِّفاق، قاله الحسنُ. ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٦٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ سبحانه وتعالى بطاعة الرَّسولِ في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، ثمَّ حكى أنَّ بعضَهم تحاكَمَ إلى الطَّاغوتِ، ولم يتحاكَمْ إلى الرَّسول، وبيَّن قُبحَ طريقِه وفسادَ منهجِه- رغَّب بهذه الآية مرَّةً أخرى في طاعةِ الرَّسول؛ فقال[١]:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: لم يبعَثِ اللهُ تعالى الرُّسلَ- ومنهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم- إلَّا لأجلِ أن يُطيعَهم النَّاسُ ويتَّبِعوهم، وذلك بتقديرِ الله تعالى وقضائِه ومشيئتِه[٢].

﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾.

أي: ولو أنَّهم حين يقَعُ منهم الخطأُ والزَّللُ أتَوا إليك- يا محمَّدُ- في حال حياتِك، معترفينَ بذنوبهم، طالبينَ مِن الله تعالى سَترَها، والتَّجاوزَ عن المؤاخَذة بها، وطلبْتَ مِن الله تعالى أن يغفِرَ لهم[٣].

﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴾.

أي: لو فعَلوا ذلك، لتاب اللهُ جلَّ وعلا عليهم بمغفرتِه ظُلْمَهم، ورحِمهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٨٠-٤٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٩-٤٨٠).

بالتَّوفيقِ للتَّوبة وقَبولِها والثَّوابِ عليها، وعدمِ مؤاخَذتِهم بذُنوبهم الَّتي تابوا منها[١].

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

سَببُ النُّزول:

عن عبدِ الله بن الزُّبير رضِي اللهُ عنهما: ((أنَّ رجلًا من الأنصارِ خاصم الزُّبيرَ عند رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، في شِراجِ الحَرَّةِ الَّتي يسقون بها النَّخلَ، فقال الأنصاريُّ: سَرِّحِ الماءَ[٢] يمُرُّ، فأبى عليه، فاختصموا عند رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للزبيرِ: اسْقِ يا زبيرُ، ثمَّ أَرْسِلِ الماءَ إلى جارِك»، فغضب الأنصاريُّ؛ فقال: يا رسولَ اللهِ، أنْ كان ابنَ عمَّتِك! فتلوَّنَ وجهُ نبيِّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ قال: يا زبيرُ، اسْقِ، ثمَّ احبِسِ الماءَ حتَّى يرجعَ إلى الجَدْرِ[٣]، فقال الزُّبيرُ: واللهِ، إنِّي لأحسبُ هذه الآيةَ نزلت في ذلك[٤]: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥).

(٢) سَرِّحِ الماءَ: أي: أرْسِلْه. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٠٧).

(٣) الجَدْر- بفتح الجيم وكسرها-: هو ما رُفع حَوْلَ المَزْرَعَةِ كالجِدار، وقيل هو لُغة في الجِدارِ، وقِيلَ هو أصلُ الجِدار، والمرادُ به: أصلُ الحائِطِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٤٦)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٠٨).

(٤) هذه الصيغة ليست صريحة في كونه سبب النزول.

وقد قال ابنُ جرير: (وهذا القولُ؛ أعني قولَ من قال: عُنِيَ به المحتكِمان إلى الطاغوتِ اللَّذان وصَف الله شأنَهُما في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ٦٠] أَوْلى بالصواب؛ لأن قوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء: ٦٥] في سياق قِصَّة الذين ابتدأ الله الخبرَ عنهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ٦٠] ولا دلالةَ تدلُّ على انقطاع قصتهم؛ فإلحاقُ بعض ذلك ببعضٍ ما لم تأتِ دلالةٌ على انقطاعه أولى، فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ في

بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا ﴾))[١].

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾.

أقسَم تعالى بنفسه الكريمة على أنَّه لا يؤمن أحدٌ- يا محمَّدُ- الإيمانَ المطلوبَ والمقبولَ منه، حتَّى يحكِّمَك في جميع الأمورِ الَّتي يحصلُ فيها اختلافٌ[٢].

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾.

أي: ثمَّ لا يكفي هذا التَّحكيمُ الظَّاهر حتَّى يطيعوك في بواطنِهم أيضًا؛ بأن ينتفيَ الضِّيقُ والحَرَج من قلوبهم ممَّا حكَمْتَ به- يا محمَّدُ[٣].

﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.

أي: وينقادوا لِقَضائك؛ إذعانًا منهم بالطَّاعة، وإقرارًا بحُكْمِك، فيسلِّموا لذلك تسليمًا كلِّيًّا، من غير ممانَعةٍ ولا مدافَعة ولا منازَعة، تسليمًا بانشراحِ صدرٍ، وطمأنينةِ نَفْسٍ، وانقيادٍ بالظَّاهرِ والباطِنِ[٤].

الذي رُوِيَ عن الزبير وابن الزبير من قصَّتِه وقصة الأنصاريِّ في شِراجِ الحَرَّة، وقولُ من قال في خبرهما، فنزلت: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء: ٦٥] ما يُنبِئُ عن انقطاعِ حُكم هذه الآية وقِصَّتها من قِصَّة الآياتِ قبلها، فإنَّه غيرُ مستحيلٍ أن تكون الآيةُ نزلت في قصة المحتكمينَ إلى الطاغوت، ويكون فيها بيانُ ما احتكم فيه الزبيرُ وصاحبه الأنصاريُّ؛ إذ كانت الآيةُ دالةً على ذلك. وإذ كان ذلك غيرَ مستحيلٍ، كان إلحاقُ معنى بعضِ ذلك ببعضٍ أولى ما دام الكلامُ متَّسقةً معانيه على سياقٍ واحد، إلا أن تأتيَ دلالةٌ على انقطاعِ بعضِ ذلك من بعضٍ، فيُعدَلَ به عن معنى ما قبْلَه)) ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٤-٢٠٥).

(١) رواه البخاري (٢٣٥٩)، ومسلم (٢٣٥٧) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين-

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- وجوبُ الإعراضِ حيث لا ينفع الكلامُ؛ لقوله: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾[١].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ هذا دليلٌ على أنَّ مقترِفَ المعاصي وإن أُعرِض عنه فإنَّه يُنصَحُ سرًّا، ويبالَغُ في وعظِه بما يُظَنُّ حصولُ المقصودِ به[٢].

٣- أنَّه يَنبغي للإنسان إذا تَكلَّم أن يتكلَّم بكلامٍ بليغٍ يصِلُ إلى النَّفْس؛ لقوله: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- كمالُ الإسلام والمتمسِّكين به؛ لأنَّ الإسلامَ يأمر النَّاسَ بالإيمانِ بكلِّ ما أنزلَ اللهُ، والمتمسِّكون به كذلك يؤمنونَ بكلِّ ما أنزَل اللهُ؛ فالَّذين اعتنقوا غيرَ الإسلام -كاليهود والنَّصارى- لا يؤمنون بكلِّ ما أنزل الله، أمَّا السَّابقون منهم فإنَّما يؤمنون به إيمانًا حُكميًّا، يعني: يؤمنون بما تأخَّر عن شرائعهم إيمانًا حُكميًّا؛ لأنَّهم لم يُدْركوه، ولكنَّهم يؤمنونَ به، يعني: أنَّ المؤمنين بموسى في وقتِه، والمؤمنين بعيسى في وقتِه، يؤمنونَ بالقرآن؛ لأنَّهم يجدونَ الرَّسولَ مكتوبًا عندهم في التَّوراة والإنجيلِ، لكنَّه إيمانٌ حُكميٌّ، أمَّا إيمانُ المسلمينَ بالقرآن وبالشَّرائع السَّابقة فهو إيمان حقيقيٌّ؛ لأنَّ دينَ الإسلامِ هو المتأخِّر[٤].

٢- أنَّ التَّحاكمَ إلى غيرِ الله ورسولِه تحاكمٌ إلى الطَّاغوتِ؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ

سورة النساء)) (١/ ٤٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٢).

أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾[١].

٣- أنَّ التَّحاكُمَ إلى غير الله ورسولِه كفرٌ، وتؤخَذُ من تكذيبِهم في دعوى الإيمانِ، وذلك في قوله: ﴿يَزۡعُمُونَ﴾؛ لأنَّهم لو كانوا مؤمنِينَ ما أرادوا التَّحاكمَ إلى غَيرِ اللهِ ورسولِه[٢].

٤- أنَّه إذا كانت إرادةُ التَّحاكم إلى الطَّاغوت مُخرِجةً من الإسلام، فالتَّحاكمُ إليه فعلًا من بابِ أَولى؛ ولهذا قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[٣] [النِّساء: ٦٥].

٥- أنَّ الإنسانَ مؤاخَذٌ على كَسْبِ القلبِ، يؤخَذُ ذلك من قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾، فمَن عزَم على المعصيةِ بقلبِه، ووطَّن نفسَه عليها أثِم في اعتقادِه وعزمِه، ويُحمَلُ ما وقَع في قولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ تجاوَز عن أمَّتي ما حدَّثَتْ به أنفُسَها ما لم تعمَلْ أو تتكلَّمْ))[٤] وأمثالِه على أنَّ ذلك فيمَن لم يوطِّن نفسَه على المعصيةِ، وإنَّما مرَّ ذلك بفكرِه مِن غيرِ استقرارٍ، ويسمَّى هذا همًّا، ويُفرَّقُ بينَ الهمِّ والعزمِ[٥].

٦- أنَّنا مأمورونَ بأن نكفُرَ بالطَّاغوت؛ لقوله: ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾، ولا يتمُّ إيمانُنا إلَّا بالكُفْر بالطَّاغوت؛ لقوله: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلا بدَّ من الكُفْر

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٤).
(٤) أخرجه البخاري (٥٢٦٩) ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة.
(٥) ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٦).

بالطَّاغوتِ، وإلَّا لم يصِحَّ الإيمانُ بالله[١].

٧- أنَّ للشَّيطانِ إرادةً، وتؤخَذُ من قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، بل وله أمْرٌ، وتؤخذ من قوله أيضًا: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]؛ فهو يريدُ ويأمر، ويُمكِننا أن نرُدَّ تلك الإرادةَ والأمرَ بالاستعاذةِ بالله منه؛ لأنَّ الله سبحانه يقول: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] فهذا هو العصمةُ منه[٢].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ إثباتُ عِصْمة الرُّسل فيما يبلِّغونَه عن الله، وفيما يأمرونَ به وينهَوْن عنه؛ لأنَّ اللهَ أمَر بطاعتِهم مُطلقًا، فلولا أنَّهم معصومونَ لا يَشْرَعون ما هو خطأٌ؛ لَمَا أمَر بذلك مطلَقًا[٣].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ إثباتُ القضاء والقدَرِ، والحثُّ على الاستعانة بالله، وبيانُ أنَّه لا يمكنُ الإنسانَ- إن لم يُعِنْه اللهُ- أن يطيعَ الرَّسولَ[٤].

١٠- في قولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ ...﴾ زِيدَتْ لفظةُ (مِن) قبلَ المفعولِ به؛ لتأكيدِ العمومِ، والأصلُ: (ما أَرْسَلْنَا رَسُولًا...)، وقد تقرَّر في الأصولِ أنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ إذا زِيدتْ قبلَها لفظةُ (مِن) لتوكيدِ العمومِ، كانتْ نصًّا صريحًا في العمومِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) ينظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٠٧).

١١- إيجابُ طاعة الرَّسول في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ تُشْعِر بأن الرَّسول أخصُّ من النَّبيِّ[(١)].

١٢- ثبوتُ قيام الأفعال الاختياريَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ، بمعنى: أنَّه تتجدَّدُ له الأفعالُ الاختياريَّة حسَب المفعولاتِ، وتؤخَذُ من قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾؛ لأنَّ إرسالَ الرُّسل يتجدَّدُ؛ فأوَّلُهم نوحٌ وآخِرُهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم[(٢)].

١٣- إثباتُ تعليلِ أفعالِ الله، ويؤخَذُ من قوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، وهذا الَّذي عليه أهلُ السُّنَّة والجماعة، أنَّ أفعالَ الله وأحكامَ الله معلَّلةٌ، لكنَّ العلَّةَ قد تكون معلومةً لنا، وقد تكون مجهولةً لنا[(٣)].

١٤- ثبوتُ الإذنِ لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، والإذنُ نوعان: شرعيٌّ، وكونيٌّ، فمِن الأوَّل قولُه تبارك وتعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، أي: شرعًا، ولا يصح حمله على الإذن الكوني؛ لأنَّه وقع، فقد أذِن الله به قدَرًا، لكن لم يأذَنْ به شرعًا، وأمَّا الإِذْنُ الكونيُّ فكثيرٌ، مثل قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾[(٤)] [البقرة: ٢٥٥].

١٥- في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ إنَّما قرن استغفارَهم الَّذي هو عنوان توبتِهم باستغفار الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم; لأنَّ ذنبَهم هذا

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٨٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٨٥).

لم يكن ظلمًا لأنفسهم فقط، فيكفي فيه توبتُهم، بل تعدَّى إلى إيذاء الرَّسول، فكان لا بدَّ في توبتِهم وندمِهم على ما صدر منهم أن يُظهِروا ذلك للرَّسول؛ ليصفحَ عنهم فيما اعتدَوْا به على حقِّه، ويدعو الله تعالى أن يغفِرَ لهم إعراضَهم عن حُكمِه[١].

١٦- استدلَّ أهلُ الغلوِّ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ على أنَّ الإنسان ينبغي له إذا أذنب ذنبًا أن يأتيَ إلى القبر النَّبويِّ فيستغفرَ الله، ويستغفر له الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، والآية تدلُّ على بطلان هذا القول؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ و﴿إِذ﴾ للماضي، ولو قال: إذا ظلموا ربَّما يكون فيها شبهةٌ، على أنَّه لو قال: إذا ظلموا لم يكُنْ فيها دليل؛ لأنَّ قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ يمنَعُ أن يكونَ ذلك بعد موتِه قطعًا؛ إذ إنَّ الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يمكن أن يستغفرَ لهم بعد موته، فالمرادُ به: في حياتِه[٢].

١٧- قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ من المعهود في اللُّغة أنَّ مِثل هذا القسَم يُعدُّ تكريمًا[٣].

١٨- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أنَّ إقسامَه سبحانه بنَفْسِه على نَفْيِ إيمانِ مَن لم يَجمَعْ أمرينِ؛ تَحكيمَه شَرْعَ الله تعالى، وألَّا يجِدَ في نفْسِه حَرَجًا مِن حُكْمِه؛ يُوجِبُ أنَّه ليس في أمْرِه ونَهْيِه ما

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٩١).

يُوجِبُ الحَرَجَ لِمَن امتَثَلَ ذلك[١].

١٩- قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾، التَّحكيمُ في مقام الإسلام، وانتفاءُ الحرَج في مقام الإيمان، والتَّسليم في مقام الإحسان، فمَن استكمل هذه المراتبَ وكمَّلها، فقد استكمل مراتبَ الدِّين كلَّها[٢].

٢٠- الرَّاضي بحُكم الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام قد يكون راضيًا به في الظَّاهر دون القلب، فبيَّن في قوله تعالى:﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ أنَّه لا بدَّ من حصول الرِّضا به في القلب، وليس المرادُ من الآية ميلَ القلبِ ونفرتَه، فهو شيءٌ خارج عن وُسع البشر، بل المرادُ منه أن يحصُلَ الجزمُ واليقين في القلب بأنَّ الَّذي يحكم به الرَّسولُ هو الحقُّ والصِّدقُ، ومَن عرَف بقلبه كونَ ذلك الحُكم حقًّا وصدقًا قد يتمرَّد عن قَبوله على سبيل العناد، أو يتوقَّف في ذلك القَبول، فبيَّن تعالى أنَّه كما لا بدَّ في الإيمان من حصول ذلك اليقين في القلب، فلا بدَّ أيضًا من التَّسليم معه في الظَّاهر، فقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ المرادُ به الانقيادُ في الباطن، وقوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ المراد منه الانقيادُ في الظَّاهر، والله أعلم[٣].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قال تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾:

(١) ((قاعدة في المحبة)) لابن تيمية (ص:١٩٣).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٢٨).

- **قوله**: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾: الاستفهامُ فيه مُرادٌ به التَّعجُّب[١].

- **قوله**: ﴿ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ جِيء باسمِ موصولِ الجماعةِ؛ لأنَّ المقام مقامُ توبيخٍ، كقولهم: ما بال أقوامٍ يقولون كذا؛ ليشملَ المقصودَ، ومَن كان على شاكلتِه[٢].

- قوله: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: وصَفَهم بادِّعاءِ الإيمانِ بالقُرآنِ وبما أُنزِل مِن قبلِه (التَّوراة) حيث قال: ﴿يَزْعُمُونَ﴾؛ لتأكيدِ التَّعجيب، وتشديدِ التَّوبيخِ والاستقباحِ[٣].

٢- **قوله**: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾: استئنافٌ سِيق لبيان محلِّ التَّعجيب، وهذا الاسم ﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾ مشتَقٌّ مِن طَغَى يَطغُو، إذا تعاظَم وترفَّع، وأصلُه مصدرٌ بوزن فَعلوت؛ للمُبالغة[٤].

٣- قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾: (ضلالًا) مصدر مؤكِّد، والضَّلال البعيدُ هو الكفر، ووصْفُه بالبعيدِ؛ لشدَّة الضَّلالِ بتنزيلِه منزلةَ جنسٍ ذي مسافةٍ إذا كان هذا الفردُ منه بالغًا غايةَ المسافةِ[٥].

٤- قوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ ﴿صُدُودًا﴾ مفعولٌ مُطلَقٌ للتوكيدِ، ولقصْدِ التوصُّلِ بتنوينِ ﴿صُدُودًا﴾؛ لإفادةِ أنَّه تنوينُ تعظيمٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٠٤).
(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٠٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٠٦).

٥- قوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ ﴾: الاستفهامُ مستعمَلٌ في التَّهويلِ[١].

٦- قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ إشارةٌ إلى المنافقين، وما في ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ من معنى البُعد؛ للتَّنبيه على بُعدِ مَنزلتِهم في الكُفْر والنِّفاق[٢]، وفي قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ تنبيهٌ على أنَّ المشارَ إليهم جديرونَ بالحُكم الذي سيُذكَر؛ لما تقدَّم من أحوالهم[٣].

٧- قوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ يجوزُ أن يتعلَّق قوله: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ بقوله: ﴿بَلِيغًا ﴾، وإنَّما قدَّم المجرورَ؛ للاهتمامِ بإصلاحِ أنفسِهم، مع الرِّعاية على الفاصلةِ، وفيه أمْرٌ بتهديدِهم على وجهٍ مُبلغ صَميمَ قلوبِهم، ويجوزُ أنْ يَتعلَّق بفِعل ﴿قُلْ لَهُمْ﴾، أي: قُلْ لهم قولًا في شأنِ أنفسِهم، وعلى هذا فقوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ كالشَّرحِ للوعظِ في قوله: ﴿وَعِظْهُمْ ﴾، ولذِكر أهمِّ ما يَعظُهم فيه، وهو نفوسُهم التي عَلِمَ اللَّه ما انطوتْ عليه من المذامِّ، وعلى هذا يكون المرادُ الوعظَ وما يَتعلَّق بِه[٤].

٨- قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ فيه التفاتٌ؛ حيث لم يقُلْ: (واستغفرْتَ لهم)؛ وذلِك تفخيمًا لشَأنِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم- لِمَا في هذا الاسمِ الظاهرِ مِن التَّشريفِ والتنويهِ بوصْفِ الرِّسالة- وتَعظيمًا لاستِغْفارِه، وتنبيهًا على أنَّ شَفاعةَ مَن اسمُه الرَّسولُ مِن اللَّهِ بمكانٍ، وعلى أنَّ مِن حقِّ الرسولِ أنْ يَقبَلَ اعتذارَ التَّائِبِ، وإنْ عَظُم جُرمُه، ويَشْفَعَ له، ومِن مَنْصِبِه أنْ يشفعَ في كبائرِ الذُّنوبِ، وعَلى أنَّ هذا الوَصْفَ الشريفَ- وهو إرسالُ اللهِ إيَّاه- موجبٌ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (١/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٠٨).

لطاعتِه. وفي هذا النَّوعِ مِن الالتِفاتِ خصوصيَّةٌ، وهي اشتمالُه على ذِكرِ صِفةٍ مناسبةٍ (الرِّسالة) لِمَا أُضِيف إليه (الاستغفار لِمَن عَظُمتْ ذُنوبُهم)، وذلك زائدٌ على الالتِفاتِ بذِكرِ الأعلامِ[1]؛ فدَلَّ أيضًا على أنَّ هذا الاستغفارَ له مَزيَّةٌ، وهي كونُه صادرًا عن الرَّسولِ بوَصْفِه (رسولًا).

وقيل: إنَّ نُكتةَ وضْع الاسمِ الظاهِرِ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ موضِعَ الضَّمير، هي أنَّ حقَّ الرَّسولِ عليهم في التحاكُم إليه إنَّما كان له بأنَّه رسولُ اللهِ، وأنَّه مأمورٌ بأنْ يحكُمَ بين الناسِ بما أراه اللهُ في وحْيِه، وما هداه إليه في اجتهادِه، ولو أنَّهم اعتَدَوْا في معصيتِهم على حقوقِه الشخصيَّةِ، كأكْل شيءٍ من مالِه بغير حقٍّ لقال: (واستغفرتَ لهم)؛ فإنَّ التوبةَ عن المعاصي المتعلِّقةِ بحقوقِ الناس لا تكونُ مقبولةً ولا صحيحةً إلَّا بعدَ استرضاءِ صاحِب الحقِّ. وهذا أظهرُ مِن جَعْل نُكتةِ وضْع الظَّاهِر موضِعَ الضمير إجلالَ منصبِ الرِّسالةِ، والإيذانَ بقَبولِ استغفارِ صاحِب هذا المنصب الشريفِ، وعدم ردِّ شفاعته؛ لأنَّ المنصبَ هو هو في شَرفِه وعُلوِّه، ولكنَّ اللهَ لا يَغفِرُ للمنافقينَ إذا لم يتوبوا، وإنِ استغفرَ لهم الرسولُ; لأنَّ اللهَ تعالى قال له فيهم: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[2] [التوبة: ٨٠].

٩- قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾:

- في هذه الآيةِ ألوانٌ مِن البلاغةِ، ومبالغاتٌ عَديدةٌ، وضُروبٌ مِن التأكيدِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (١/ ٥٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٨- ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٩٠).

بلَغَتْ أسْمَى مَراتبِ البيانِ، والغايةُ منها: زيادةُ الوَعيدِ والتَّهديدِ ممَّا ترتعدُ له الفرائصُ، وترتجِفُ منه الأفئدةُ؛ وتَفصيلُ ذلك كما يلي[1]:

- قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه تأكيدٌ بالقَسَمِ بنَفْسِه سبحانه، وإضافةُ الرَّبِّ إلى كافِ الخِطاب؛ لتعظيمِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو التفاتٌ راجِعٌ إلى قوله: ﴿جَآءُوكَ﴾.

- تَصديرُ الجملةِ المقْسَمِ عليها بحرْفِ النَّفيِ المتضمِّنِ لتأكيدِ النَّفْيِ المقسَمِ عليه، وهو في ذلك كتَصديرِ الجُملة المثبَتةِ بـ (إنَّ)؛ فـ (لَا) في قوله: ﴿فَلَا﴾ مَزيدةٌ لتأكيدِ القسَمِ، وقَدَّم (لَا) على القسَمِ؛ اهتمامًا بالنَّفي، ثمَّ كرَّرها بعدُ توكيدًا، وأصل الكلام: (فوربِّك لا يُؤمِنون)، والعرب تأتي بحرفِ النَّفيِ قبلَ القَسمِ إذا كان جوابُ القسمِ مَنفيًّا؛ للتَّعجيلِ بإفادةِ أنَّ ما بعدَ حرْفِ العطفِ قَسَمٌ على النَّفي لِمَا تضمَّنَتْه الجملةُ المعطوفُ عليها؛ فتقديمُ النَّفي للاهتمامِ بالنَّفي.

- أنَّه أتَى بالمقسَم عليه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بصيغةِ الفِعلِ الدالَّةِ على الحُدوثِ، أي: لا يقعُ منهم إيمانٌ ما حتَّى يُحكِّموكَ.

- في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ أتَى في الغايةِ بـ (حتى) -دون (إلَّا)- المُشْعِرةِ بأنَّه لا يُوجَدُ الإيمانُ إلَّا بَعْدَ حُصولِ التحكيمِ؛ لأنَّ ما بعدَ (حتى) يَدخُل فيما قَبلَها.

- أنَّه أتَى المُحكَّمِ فيه بصِيغة الموصولِ الدالَّة على العمومِ، وهو قوله:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٢٨-٥٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٩٢-٦٩٥، ٧٠٨)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١١٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٥٠- ٢٥١).

﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: في جَميعِ ما تَنازَعوا فيه من الأمورِ الدَّقيقةِ والجليلةِ.

- وفي قوله: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾: أتى بـ﴿حَرَجًا﴾ نكرةً في سِياق النفيِ، أي: لا يَجِدون نوعًا مِن أنواعِ الحرجِ البتَّةَ، وأَطلَق اسمَ الحرَج -الَّذي هو من وصْفِ الشَّجْرِ إذا تضايَق- على الأمر الَّذي يشقُّ على النَّفس؛ للمناسبة الَّتي بينهما، وهو من الضِّيق.

- أنَّه أتى بذِكْر ما قَضَى به بصيغةِ العمومِ ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾؛ فإنَّ (ما) إمَّا مَصدريَّة، أي مِن قَضائِك، أو موصولة، أي: مِن الذي قَضيتَه، وهذا يَتناوَلُ كلَّ فردٍ من أفرادِ قَضائه.

- أنَّه سُبحانَه لَمَّا أَقسمَ -أوَّلًا- بنَفْسِه مؤكِّدًا لهذا القَسَمَ بحرْفِ النَّفيِ بأنَّهم لا يُؤمنون، والإيمانُ رأسُ مالِ الصَّالِحين من عِبادِ الله حتَّى تحصُلَ لهم غايةٌ من أشرفِ الغايات، وهي اللُّجوءُ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وتحكيمُه فيما نشَب بينهم من خِلافٍ؛ لم يَكْتفِ سبحانَه بذلِك حتَّى قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾، فضمَّ إلى التَّحكيمِ أمرًا آخرَ، وهو عدَمُ وجودِ أيِّ حرجٍ في صدورهم، فلا يكون مجرَّدُ التَّحكيمِ والإذعانِ كافيًا، بل لا بدَّ أنْ يكون نابعًا من صُدورِهم، صادرًا عن رِضًا واطمئنانٍ وطِيب نفْسٍ، وهذا أجملُ تصويرٍ للعلاقةِ الَّتي يجِبُ أنَّ تترسَّخَ بين رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمنينَ.

ثمَّ لم يَكتفِ سبحانه بهذا كلِّه، بل ضمَّ إليه قوله: ﴿وَيُسَلِّمُواْ﴾، أي يُذعنوا إذعانًا تامًّا، وينقادوا ظاهرًا وباطنًا، لا انقيادًا أعمى، ولكنَّه انقيادُ الواثقِ المطمئنِّ إلى سلامةِ موقفِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فلم يكتفِ منهم بذلك حتى يُضيفوا إليه التسليمَ، وهو قدْرٌ زائدٌ على التَّحكيمِ وانتفاءِ الحرجِ؛ فما كلُّ مَن

حَكَّم انتفى عنه الحرجُ، ولا كلُّ مَن انتفى عنه الحَرَجُ يكونُ مُسلِّمًا منقادًا؛ فإنَّ التسليمَ يَتضمَّنُ الرِّضا بحُكمِه، والانقيادَ له.

وأكَّد فِعلَ التَّسليمِ ﴿يُسَلِّمُوا﴾ بالمصدرِ المؤكِّد ﴿تَسۡلِيمٗا﴾، وهكذا لا يَثْبُت الإيمانُ لعبدٍ حتَّى يقَعَ منه هذا التَّحكيمُ، ولا يجدَ الحرجَ في صدره بما قضى عليه، والتَّسليمُ لحُكم الله وشرعِه تسليمًا لا يخالطه ردٌّ، ولا تشوبه شائبةٌ، فسبحان قائلِ هذا الكلامِ!

الآيات (٦٦ - ٧٠)

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾: جمع صِدِّيق، وهو المُصدِّقُ قولَه بفِعلِه، أو صدَق بقولِه واعتقادِه، وحقَّق صِدْقَه بفِعلِه، أو مَن كَمَل في صِدْقِه وتَصديقِه، وقيل: هو مَن كثُر منه الصِّدق، وقيل: هَو مَنْ لا يَكذِب قطُّ، أو مَن لا يَتأتَّى منه الكذبُ؛ لتعوُّده الصِّدق، وأصل (صدق): يدلُّ على قوَّة في الشيء قولًا وغيرَه[1].

﴿رَفِيقًا﴾: أي: رُفقاء، وأصل (رفق): يدلُّ على موافَقةٍ، ومقاربةٍ بلا عنف[2].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه لو فَرَض على أولئك الَّذين يزعمون أنَّهم آمَنوا بما أُنزِل إلى محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمحتكمين إلى الطَّاغوتِ، لو فَرَض عليهم أن يقتُلَ بعضُهم بعضًا، وأن يفارقوا ديارَهم، فلن يفعل ذلك إلَّا القليلُ منهم، ولو أنَّهم فعَلوا ما يُذَكَّرون به مِن فِعل الأوامرِ، واجتناب ما نُهوا عنه، لكان فعلُهم هذا

(١) ينظر: ((تفسير الطبري)) (٧/ ٢١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٩) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٨).

خيرًا، وأكثرَ تثبيتًا لهم، وسيعطيهم الله تعالى - كما وعد - أجرًا عظيمًا من عنده، وسيُرشِدهم إلى الصِّراط المستقيمِ.

ثمَّ يخبر تعالى أنَّه مَن يُطِعِ اللهَ ورسوله صلَّى الله عليه وسلَّم فإنَّه في الجنَّة مع الَّذين أنعَم الله عليهم بالهدايةِ إلى الصِّراط المستقيم من الأنبياءِ، والصِّدِّيقين، والشُّهداء، والصَّالحين، وحسُن هؤلاء رفقاءَ يُجتمع بهم في جنَّاتِ النَّعيم.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

أي: ولو أنَّا فرضْنا على هؤلاء الَّذين يزعمون أنَّهم آمَنوا بما أُنزل إليك، من المحتكِمين إلى الطَّاغوت - أن يقتُلَ بعضُهم بعضًا، وأمرناهم بذلك[1].

﴿أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾.

أي: أو أمرْناهم بالهجرةِ من ديارِهم إلى ديارٍ أخرى[2].

﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾.

أي: ما استجاب لتلك الأوامرِ إلَّا عددٌ قليلٌ منهم[3].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾.

أي: ولو أنَّ أولئك المنافقينَ فعَلوا ما يُذَكَّرون به من فِعل الأوامرِ، واجتنابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٤٩٠).
(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٤٩٠-٤٩١).

النَّواهي، ومِن ذلك التَّحاكمُ إلى الكتاب والسُّنَّة[١].

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

أي: لو أنَّهم فعلوا ما يُوعَظون به، لكان أفضلَ لهم من مخالفةِ الأمرِ، وارتكابِ النَّهي في عاجلِ دُنياهم، وآجلِ معَادِهم، ولكانوا من الأخيارِ المتَّصفينَ بأوصافِهم[٢].

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

أي: وأثبَتَ لهم في أمورِهم وعزائِمِهم، وأقومَ لهم عليها، وأشدَّ ثباتًا على الحقِّ؛ فالإنسانُ كلَّما ازداد طاعةً لله ازدادَ إيمانًا ويقينًا، وثباتًا عند ورود الفِتَن[٣].

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾.

أي: ولَأَعطيناهم كذلك جزاءً وثوابًا عظيمًا من عندِنا في العاجلِ والآجِل[٤].

﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾.

أي: ولأرشدْناهم ووفَّقْناهم إلى الصِّراط المستقيم[٥].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٠-٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٨-٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٣-٤٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٤).

وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بطاعة الله وطاعةِ الرَّسول بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، ثمَّ زيَّف طريقةَ الَّذين تحاكموا إلى الطَّاغوتِ وصدُّوا عن الرَّسول، ثمَّ أعاد الأمرَ بطاعة الرَّسول مرَّة أخرى فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، ثمَّ رغَّب في تلك الطَّاعة بقوله: ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ۞ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۞ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [النساء: ٦٦- ٦٨] أكَّد الأمرَ بطاعة اللهِ وطاعة الرَّسولِ في هذه الآية مرَّة أخرى(١).

سَببُ النُّزول:

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت: ((جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: يا رسول الله، إنَّك لَأحبُّ إليَّ من نفسي، وإنَّك لأحبُّ إليَّ من ولدي، وإنِّي لأكونُ في البيت فأذكُرُك فما أصبِر حتَّى آتيَ فأنظُرَ إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتَك عرفتُ أنَّك إذا دخلْتَ الجنَّة رُفِعْتَ مع النَّبيِّين، وأنِّي إذا دخلتُ الجنَّة خَشِيتُ ألَّا أَراك، فلم يرُدَّ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم شيئًا حتَّى نزل عليه جبريلُ بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾))(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣٢).

(٢) رواه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٧٧)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٤/ ٢٣٩) حسَّنه الضياء كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٥٢٧)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٠): رجالُه رجالُ الصَّحيح غير عبد الله بن عمران العابديِّ، وهو ثقة. ووثَّق رِجالَه ابنُ حجر في ((العجاب)) (٢/ ٩١٤)، وصحَّحه لغيره أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٣٧)، وذكر الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦/ ١٠٤٤) أن فيه

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾.

أي: ومَن يمتثِلْ أمرَ الله تعالى ورسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، ويجتنِبْ نهيَهما، فهو في الجنَّة مع مَن أنعَم الله تعالى بهدايتِهم إلى الصِّراطِ المستقيم(١).

﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: مِن الرُّسل والأنبياء الَّذين فضَّلهم الله تعالى بوحيِه، والصِّدِّيقين الَّذين كمَلَ صدقُهم وتصديقُهم، فعلِموا الحقَّ، وصدَّقوه بيقينهم، وقاموا به قولًا وعملًا وحالًا، والشُّهداء الَّذين قُتِلوا في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمتِه، والصَّالحين الَّذين صلَحَتْ سرائرُهم وعلانيتُهم(٢).

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت: ((سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ما من نبيٍّ يَمرَضُ إلَّا خُيِّر بين الدُّنيا والآخِرَةِ، وكان في شَكواه الَّذي قُبِض فيه، أخَذَتْه بُحَّةٌ(٣) شديدةٌ، فسمِعتُه يقولُ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾،

عبدُ الله بن عمران صدوق، ويُقوِّيه أنَّ له شواهدَ مُرسلةً. وقال الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (٨٠): له شواهدُ تَزيده قُوَّةً.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦).

وقيل: المعيَّةُ في قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ في الآخِرة وفي الدنيا أيضًا؛ لأنَّ كلَّ مَن اعتنق طريقَ شخص فهو معه في الواقع. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥-١٨٦).

(٣) بُحَّة شَديدة: البُحَّة: هي غِلَظُ الصَّوتِ وخُشُونَتُه. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٢٠٨) ((مرقاة المفاتيح)) للهروي (٩/ ٣٨٤٧).

فعلِمتُ أنَّه خُيِّر))[١].

﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾.

أي: وحَسُنَ هؤلاء- الَّذين وصفَهم اللهُ عزَّ وجلَّ- رُفقاءَ يُجتمَعُ بهم في جَنَّات النَّعيم، ويُؤنَس بقُربهم في جوار الرَّبِّ الرَّحيم[٢].

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو صحيحٌ يقول: إنَّه لم يُقبَضْ نبيٌّ قطُّ حتَّى يرَى مَقْعَدَهُ في الجنَّةِ، ثمَّ يُحَيَّا، أو يُخَيَّرَ، فلمَّا اشتكى وحضرَهُ القبضُ، ورأْسُهُ علَى فخِذِ عائِشَةَ غُشِيَ عليهِ، فلمَّا أفاقَ شخصَ[٣] بَصرُهُ نحوَ سقفِ البيتِ، ثمَّ قال: اللَّهُمَّ في الرَّفيقِ الأعلَى فقُلْت: إذًا لا يُجاوِرُنا، فعرفتُ أنَّه حديثُهُ الَّذي كان يُحَدِّثُنا وهو صحيحٌ))[٤].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: ذلك الإنعامُ الَّذي نالوه عطاءٌ وفضلٌ من اللهِ تعالى عليهم؛ فهو الَّذي برحمتِه أهَّلهم ووفَّقهم لذلك، وأعانَهم عليه، لا بأعمالِهم؛ فقد أعطاهم من الثَّوابِ ما لا تبلُغُه أعمالُهم[٥].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٠٤-٥٠٥).

(٣) شَخَصَ أي: ارتفَعَ، وشُخوصُ البَصَرِ: ارتفاعُ الأجفانِ إلى فوق، وتحديدُ النَّظَر وانزعاجُه. يُنظَر: ((النهاية))لابن الأثير (٢/ ٤٥٠)، ((شرح القسطلاني على البخاري)) (٦/ ٤٦٤).

(٤) رواه البخاري (٤٤٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٦-٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾.

أي: وحسْبُ العبادِ باللهِ عالِمًا بأعمالهم وأحوالهم، فيعلَمُ مَن يستحقُّ منهم الهدايةَ والتَّوفيقَ، والثَّوابَ الجزيل[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي أن يلحَظَ العبدُ ضدَّ ما هو فيه من المكروهات، لتخفَّ عليه العباداتُ، ويزداد حمدًا وشكرًا لربِّه[٢].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ بيان ضَعْفِ الإنسان، وأنَّه لا يستطيعُ أن يتحمَّل كلَّ ما أُمِر به إذا كان لا يلائمه، لا سيَّما مع ضَعْف الإيمان[٣].

٣- أنَّ النَّاجيَ من العِباد قليلٌ؛ لقوله: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾، فهل أنت من هؤلاء القليل أو من الكثير[٤]؟!

٤- أنَّ طاعةَ الله تعالى سببٌ لكلِّ خيرٍ؛ لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[٥].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ

السعدي)) (ص: ١٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٢).

تَثْبِيتًا ﴾ أنَّه ينبغي للعبدِ أن يَنظُرَ إلى الحالة الَّتي يَلزمُه القيامُ بها، وإلى ما وُظِّف عليه في كلِّ وقت بحَسَبه، فيَبذل همَّتَه، ويُوفِّر نفسَه للقيام به وتكميله، إلى أنْ يصلَ إلى ما قُدِّر له مِن العِلم والعمَل في أمر الدِّين والدُّنيا، وهذا بخِلافِ مَن طمَحَتْ نفسُه إلى أمرٍ لم يصِلْ إليه ولم يؤمَرْ به بعدُ، فإنَّه لا يكادُ يصلُ إلى ذلك بسبب تفريقِ الهمَّة، وحُصولِ الكسَل، وعدم النَّشاط[1].

٦- القولُ الثابتُ وفِعلُ ما أُمِرَ به العبدُ، بِهما يُثبِّتُ اللهُ عبْدَه؛ فكلُّ مَن كان أثبَتَ قولًا وأحسنَ فِعلًا، كان أعظم تثبيتًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ وقال سبحانه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[2] [إبراهيم: ٢٧].

٧- الإشارةُ إلى عَظيمِ ما يحصُلُ في المستقبلِ، وأنَّ الإنسانَ يُخشى عليه من الزَّللِ، إلَّا أنْ يُثبِّتَه الله؛ لقوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾؛ لأنَّ التَّثبيتَ على غيرِ مواطنِ الزَّللِ لا يُذكَر، إنَّما يُذكَر التَّثبيتُ في حالِ مواطنِ الزَّلل، ومعلوم أنَّ الإنسانَ يرِدُ عليه في حياته شبهاتٌ، ويرِدُ عليه شهواتٌ؛ فالشُّبهاتُ تدُكُّ العِلم وتُذهِبُه، والشَّهوات تدُكُّ الإرادةَ حتَّى يصبحَ الإنسانُ لا يريد إلَّا ما يهواه فقط، وهذه آفةٌ؛ فالإنسانُ يُحيط به شيئان: شبهةٌ يزولُ بها العِلمُ، وشهوةٌ تزولُ بها الإرادةُ، فإذا لم يثبِّتْه اللهُ بالعِلم، والإرادة الصَّادقة، والعزيمة الجازمة فإنَّه يهلِكُ[3].

٨- أنَّ الإيمانَ يتفاوت؛ لأنَّ قوله: ﴿خَيْرًا ﴾ اسمُ تفضيل، ويَقتضي وجودَ مفضَّل ومفضَّل عليه، وهذا هو التفاوتُ، وكذلك يؤخذ من قوله: ﴿وَأَشَدَّ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥).
(٢) ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٢).

تَثْبِيتًا ﴾[١].

٩- أنَّ الجَزاءَ مِن جِنْسِ العَملِ؛ فالحسنَةُ الثَّانِيَة قد تكون من ثوابِ الأُولى. وكذلك السَّيِّئَة الثَّانية قد تكون من عقوبَةِ الأُولى؛ ولهذا يُجزى الرَّجلُ في الدُّنيا على ما فَعَلَه من خيرِ الهُدى بما يُفتَح عليه من هدًى آخَرَ؛ يُبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[٢].

١٠- في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الحثُّ على توجُّه الإنسانِ إلى ربِّه في سؤالِ مطلوبه، ووجهُه: أنَّه إذا كان الفضلُ من الله، فلا تسأَلِ الفضلَ إلَّا ممَّن بيدِه الفضلُ[٣].

١١- في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ تفويضُ الأمرِ إلى الله، وأنَّ الله تعالى إذا فضَّل أحدًا على أحدٍ، فاعلَمْ أنَّ ذلك عن علمٍ وليس عبثًا؛ ولهذا لَمَّا قال المكذِّبون: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ ردَّ اللهُ عليهم فقال لهم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] أي: وأنتم لستم أهلًا للرِّسالةِ[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- أنَّ قتلَ النَّاسِ بعضِهم بعضًا من أشقِّ ما يكون على النُّفوسِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٣).
(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٤٠) و (١٨/ ١٧٥- ١٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٠٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾[١].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم ﴾ دليلٌ على صعوبةِ الخروج من الدِّيار؛ إذ قرَنه اللهُ تعالى بقتل الأنفس[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾ إنَّما سُمِّي هذا التَّكليفُ والأمرُ وعظًا؛ لأنَّ تكاليفَ الله تعالى مقرونةٌ بالوعد والوعيد[٣].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ دليلٌ على بُطلان قولِ الصُّوفيَّة الَّذين يقولون: اعبُدِ اللهَ للهِ، ولا تعبُدْه لثوابِ اللهِ؛ ووجه الدَّلالة: أنَّه لولا أنَّ لذِكر الثَّواب تأثيرًا في العمل لكان ذِكرُه عبثًا ولغوًا؛ فالله عزَّ وجلَّ لم يذكُرِ الثَّواب، ويُرغِّبْ في العملِ من أجل الثَّواب إلَّا ليُبيِّن أنَّ نيةَ الثَّواب لا تُضعِف العملَ، ولا تنافي الإخلاص، وقد وصَف الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم والَّذين معه بأنَّهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، فقال تعالى: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح: ٢٩]، وجاء في آيةٍ أخرى المدحُ للَّذين يبتغون وجهَ الله، فيكون هذا دليلًا على أنَّك إن أردتَ وجهَ الله فإنَّك مُثابٌ، وإن أردتَ ثواب الله فإنَّك مثابٌ أيضًا[٤].

٥- قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي: ثوابًا، وسمَّى الله تعالى الثَّواب الَّذي جعَلَه على الأعمال أجرًا، ليتبيَّن للإنسان أنَّ هذا الثَّوابَ لا بدَّ من حصوله، كما أنَّه لا

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٥).

بدَّ من حصولِ الأجر لمن استأجر بيتًا أو نحوه، فلا بدَّ أن يحصُلَ على الأُجرة[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ جوازُ عطف الرَّسول على الرَّبِّ عزَّ وجلَّ بالواو في الطَّاعة، وكذلك في المعصية، كما في قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٣٦]؛ لأنَّ أمرَ الرَّسول من أمر الله؛ وشرعَ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم هو شرعُ الله، وكذلك قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التَّوبة: ٥٩]، وهذا إيتاءٌ شرعيٌّ، أمَّا في الأمور الكونيَّة، فإنَّه لا أحدَ يشارك الله تعالى في ربوبيَّته، فلا بدَّ أن يكونَ مذكورًا بحرف العطف الدَّالِّ على التَّرتيب (ثم)[٢].

٧- قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ليس المراد بكون مَن أطاع اللهَ وأطاع الرَّسول مع النَّبيِّين والصِّدِّيقين، كونَ الكلِّ في درجة واحدة؛ لأنَّ هذا يقتضي التَّسويةَ في الدَّرجة بين الفاضل والمفضول، بل المراد كونُهم في الجنَّة، بحيث يتمكَّنُ كلُّ واحد منهم من رؤية الآخَر، وإن بعُد المكانُ، وإذا أرادوا الزِّيارة والتَّلاقيَ قدَروا عليه، فهذا هو المراد من هذه المعيَّة[٣].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ بيانُ أنَّ مَن أطاع اللهَ ورسولَه أنَّه يكونُ مع النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، ليس ذلك فقط، بل ذكَر أنَّه يكون رفيقًا له، والرَّفيق هو الَّذي يُرتَفَق به في الحضَر والسَّفر، فبيَّن أنَّ هؤلاء المطيعين يرتفقونَ بهم، وإنَّما يرتفقونَ بهم إذا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٣)، وينظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٧٢).

نالوا منهم رفقًا وخيرًا، والإنسانُ قد يكون مع غيره ولا يكون رفيقًا له، فأمَّا إذا كان عظيمَ الشَّفقة، عظيمَ الاعتناءِ بشأنِه كان رفيقًا له، فبيَّن تعالى أنَّ الأنبياءَ والصِّدِّيقين والشُّهداءَ والصَّالحين يكونون له كالرُّفقاء، من شدَّةِ محبَّتهم له، وسُرورهم برُؤيته[٤].

٩- الأنبياءُ أفضلُ مِن الأولياءِ؛ يُبيِّن ذلك أنَّ اللهَ سُبحانَه رتَّب عِبادَه السُّعداءَ المُنعَم عليهم أَربعَ مراتِبَ، وبدَأَ بالأنبياءِ لشَرَفِهم وفَضْلِهم؛ فقالَ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[٥].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ...﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ فيه توبيخٌ عظيم؛ وهو مسوقٌ لتوبيخِ الذين يَتقاعَسون عن الاستجابةِ للرَّسول وطاعتِه[٦].

٢- **قوله**: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾: جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في جُملةِ جواب الشَّرط؛ للتَّنبيهِ على جَدارتِهم بمضمون الخبرِ عن اسمِ الإشارة؛ لأجْلِ مضمون الكلام الَّذي قبْل اسمِ الإشارة[٧].

٣- **قوله**: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فيه: تقسيمٌ بليغ[٨]،

---

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣٦).

(٥) ((الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)) لابن تيمية (ص:٨٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٣٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٥٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١١٦).

(٨) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٠٩).

وحُسْنُ تَرتيبٍ في التَّقديمِ والتَّأخيرِ، حيثُ قدَّم الأشرفَ بالفَضيلةِ[١]؛ فمرتبةُ النبوَّةِ أشرفُ وأفضلُ من مرتبةِ الصِّدِّيقيَّة، ومَرتبةُ الصِّدِّيقيَّةِ أشرفُ وأفضلُ من مرتبةِ الشَّهادةِ، ومرتبةُ الشَّهادةِ أشرفُ وأفضلُ من مرتبة الصَّلاح[٢].

- وجاءَ قوله: ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ على صِيغة المبالغةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مُتقدِّمون في تَصديقِهم، مُبالِغون في الصِّدق[٣].

٤- **قوله:** ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لِما قبله، مؤكِّدٌ للتَّرغيبِ والتَّشويق[٤].

- وفيه معنى التَّعجُّب، كأنَّه قيل: وما أحسَنَ أولئك رَفيقًا[٥]!

- وجاء قوله: ﴿رَفِيقًا﴾ مفردًا مع أنَّه صِفة لجمْع؛ لأنَّ الواحدَ في التمييزِ ينوبُ عن الجماعةِ، ولأنَّ الرَّفيقَ والرسولَ والبَريدَ تُعبِّر بها العربُ عن الواحدِ والجَمْع. وقيل: معنى قوله: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾، أي: حسُن كلُّ واحد منهم رفيقًا، كما قال: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[٦] [غافر: ٦٧].

٥- **قوله:** ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ﴾ التعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وما فيه مِن مَعنى البُعد؛ للإشعارِ بعلوِّ رُتبته، وبُعدِ منزلتِه في الشَّرف[٧].

---

(١) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٢٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٩). وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٠٢).
(٦) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣٦).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٩).

الآيات (٧١ - ٧٦)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿فَٱنفِرُواْ﴾: أي: فاخرُجوا إلى الجِهاد، وانفِروا للنُّصرة، وأصل (نفر): يدلُّ على تَجافٍ وتباعُد[١].

﴿ثُبَاتٍ﴾: أي: جماعاتٍ متفرِّقةً، أو جماعةً منفردة، واحدتها ثُبَة، والثُّبَة: الجماعةُ الثَّائب بعضُهم إلى بعض في الظَّاهِر[٢].

﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾: أي: يُثبِّط غيرَه، ويَتأخَّر ويُؤخِّر غيره، والمقصود مَن يتثاقلون ويَتخلَّفون عن الجِهاد[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٢، ١٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢، ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

﴿كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: أي: حِيلَته، والْكَيْدُ: ضربٌ من الاحتيال، وقد يكونُ مذمومًا وممدوحًا، واستعمالُه في المذموم أكثرُ، وأصل (كيد) يدلُّ على مُعالجةٍ لشيءٍ بشدَّة[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾

﴿ٱلظَّالِمِ﴾: مجرورٌ، على أنَّه نعْتٌ سببيٌّ للقريةِ، و(أل) في ﴿ٱلظَّالِمِ﴾ موصولةٌ بمعنى (التي). و﴿أَهۡلُهَا﴾: مرفوعٌ على أنَّه فاعلُ اسم الفاعِلِ ﴿ٱلظَّالِمِ﴾ العامِلِ عمَلَ فِعله، والتقدير: القريةُ التي ظَلَم أهلُها؛ فالظلمُ جارٍ على القرية لفظًا، وهو لِمَا بعدَها ﴿أَهۡلُهَا﴾ معنًى، ولم يُؤنَّث اسمُ الفاعل ﴿ٱلظَّالِمِ﴾- حيث لم يَقُل: (الظالمة)- وإنْ كان نعتًا للقريةِ في اللَّفظِ؛ لإسنادِ ﴿ٱلظَّالِمِ﴾ إلى الاسم الظَّاهِر الذي عَمِلَ فيه (أَهْل) وهو مُذكَّرٌ، كما تقولُ: مِنْ هذِه القَريةِ التي ظَلَم أهلُها؛ لأنَّ كلَّ اسمِ فاعلٍ إذا جرَى على غَيرِ مَن هو له، فتَذكيرُه وتأنيثُه على حسَبِ الاسمِ الظَّاهِر الذي عَمِل فيه[2].

المَعْنى الإجماليُّ:

يَأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنين بأخْذِ الحذَر من أعدائهم، وأنْ يَخرُجوا لجِهادِهم متفرِّقين جماعةً بعدَ جماعةٍ، أو يَخرجوا كلُّهم مجتمعينَ.

ثمَّ يخاطب اللهُ تعالى المؤمنين مبيِّنًا لهم أنَّ في أوساطِهم منافقينَ، يتثاقَلون في الخروج للجهاد، ويتخلَّفون عنه، ويثبِّطون غيرَهم عنه، فإنْ حلَّت بالمؤمنين

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٨-٤٠).

الخارجينَ للجهاد مصيبةٌ، قال هذا المنافقُ المتخلِّفُ، والَّذي يدعو غيره للتَّخلُّف: قد منَّ الله عليَّ بعدم الخروج معهم للقتالِ، وإلَّا لكان حلَّ بي ما حلَّ بهم، وإن انتصرَ المؤمنون على عدوِّهم، وحصلوا منهم على غنيمةٍ، فسيقول هذا المنافقُ، وكأنَّه لم تكُنْ بين المؤمنين وبينه مودَّةٌ: ليتني شاركتُهم الخروجَ للجهادِ، فأُشارِكَهم في الغنائم الَّتي حصلوا عليها من عدوِّهم.

ثمَّ أمر اللهُ بالقتال في سبيله تعالى، ووجَّه الأمرَ لمن رغِبوا فيما عند الله؛ فباعوا الحياة الدُّنيا بالآخرة، ثمَّ وعَد سبحانه مَن يقاتل في سبيله، سواءٌ قتَله الأعداء، أو لم يُقتل، وإنَّما انتصر عليهم: أنَّ اللهَ سوف يعطيه أجرًا عظيمًا.

ثمَّ حثَّ المؤمنينَ على القِتال في سبيله قائلًا لهم: ما الَّذي يمنعُكم من القِتال في سبيل الله لإعلاء كلمَتِه، ومن أجْل استنقاذِ الضُّعفاء من الرِّجال والنِّساء والأطفال الَّذين يَدْعون ربَّهم أن يُخرجَهم من مكَّةَ الَّتي ظلَمهم فيها أهلُها من المشركينَ، ويَدْعون اللهَ أن يجعَلَ لهم من عنده وليًّا، ونصيرًا ينصُرُهم على عدوِّهم؟!

ثمَّ يُخبر تعالى أنَّ الَّذين آمنوا يقاتلون مِن أجل إعلاءِ كلمة الله تعالى، والَّذين كفروا يقاتلون في سبيل الطَّاغوتِ، فأمَر الله بقتالِ من يتولَّى الشَّيطانَ ويُطيعه، مخبرًا سبحانه أنَّ كيدَ الشَّيطانِ كيدٌ واهنٌ وضعيفٌ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

استئنافٌ وانتقالٌ إلى التَّحريضِ على الجهاد بمناسبةٍ لطيفة، فإنَّه انتقَل من طاعة الرَّسول إلى ذِكرِ أشدِّ التَّكاليفِ، ثمَّ ذكَر الَّذين أنعَم اللهُ عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداءِ والصَّالحين، وكان الحالُ أدعى إلى التَّنويهِ بشأنِ الشَّهادة

دون بقيَّةِ الخِلال المذكورة معها الممكنة النَّوالِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى طاعتَه وطاعةَ رسولِه، وكان من أهمِّ الطَّاعات إحياءُ دِين الله، أمَر بالقيام بإحياءِ دِينه، وإعلاء دعوتِه، بالجهاد؛ لأنَّه أشقُّ الطَّاعات، ولأنَّه أعظمُ الأمور الَّتي بها يحصلُ تقويةُ الدِّين، وأَمَرَهم ألا يقتحِموا على عدوِّهم على جَهالةٍ؛ فقال[٢]:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، احذَروا من عدوِّكم، وذلك بالأخْذِ بالأسبابِ الَّتي يُستعانُ بها على قِتالهم ودَفْعِهم[٣].

﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ ﴾.

أي: فاخْرُجوا لِقِتالِ عَدوِّكم متفرِّقينَ، جماعةً بعد جماعةٍ[٤].

﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٠٣)، ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦).

قال ابن عثيمين: (فقولُه تعالى: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ يَشمل كلَّ ما يكون سلاحًا علينا، ومعلوم أنَّنا نأخذ لكلِّ سلاح ما يُناسبه؛ فالذي يُناسب السِّلاحَ الخُلُقي أن يُبصَّر الناس، وتُبيَّن لهم العاقبةُ السيِّئة في دَمار الأخلاق... ويُبيَّن لهم المضارُّ في سوء الأخلاق والفواحِش، وغير هذا. وفي الأفكار: يُبيَّن للناس العقيدةُ السَّليمة التي تَصِلُهم بالله، وتَجعل الإنسانَ دائمًا مع الله عزَّ وجلَّ، يَذكُر اللهَ بقلبه ولِسانِه وجوارحِه، قائمًا وقاعدًا وعلى جنب. والغزو المسلَّح بالسِّلاح، لا بدَّ أن نُعِدَّ له العُدَّة). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٥-٥١٦).

أي: أو انفِروا كلُّكم مجتمعينَ[١].

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾.

أي: وإنَّ في عِدادِكم- أيُّها المؤمنون- منافقينَ، يتثاقَلون ويتخلَّفون بأنفُسِهم عن جهادِ عدوِّكم إذا أنتم نفَرْتم إليهم، ويثبِّطون غيرَهم، فيتخلَّفونَ عن الخروجِ في سبيل الله تعالى[٢].

﴿ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾.

أي: فإنْ حلَّتْ بكم هزيمةٌ وقتلٌ، وظفِر الأعداءُ عليكم في بعض الأحوال لِمَا للهِ تعالى في ذلك من الحِكَمِ[٣].

﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٥-٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٨).

قال ابن عثيمين: (نتيجةُ القتالِ إمَّا أن تكونَ الغنيمةَ والغَلَبَةَ والنُّصرةَ، وإمَّا أن تكونَ العكسَ، فهو إذا أصابَتْكُم مُصيبةٌ... ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ فيتضمَّنُ كلامُه هذا الافتخارَ والاحتقارَ؛ الافتخارَ بنَفْسِه أنَّه لم يشهَدْ هذه المُصيبةَ، والاحتقارَ لِمَن أُصِيبوا بهذه المُصيبةِ، وهذا غايةُ ما يكونُ مِنَ التَّباعُدِ، وهذا الذي يقولُ- وهو منهم- هذا الكلامَ؛ كأنَّه لم يكُنْ بينه وبينهم مَوَدَّةٌ، وكأنَّه مِن أبعَدِ النَّاسِ عنهم، حين افتخَرَ بأنْ نجا من المُصيبةِ التي أصابَتْهم، واحتقَرَ هؤلاء الذين أُصيبوا، وصار كالموَبِّخِ لهم) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٨-٥١٩).

أي: فإنْ أصابَكم ذلك، قال هذا المنافِق الَّذي يَتباطَأُ، ويُبطِّئُ غيرَه عن الجِهاد: قد منَّ الله عليَّ بعدمِ الخُروجِ معهم للقِتال، وإلَّا لَأصابني ما أصابَهم من القَتْلِ أو الهزيمةِ[١].

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: وإنْ أظفرَكم اللهُ بعدوِّكم فانتصرْتم عليهم، ونِلتم منهم غنيمةً[٢].

﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ ﴾.

أي: ليقولَنَّ هذا المنافقُ، وكأنَّه ليس من أهلِ دِينكم- يا مَعشرَ المؤمنينَ- لا يرتبطُ معكم فيه بالتزامِ أحكامِه، ومنها النُّصرةُ لكم[٣].

﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

أي: تمنَّى هذا المنافقُ أن يكونَ مع المؤمنين في الخروج للجهاد، فيُصيبَ معهم من الغنائم الَّتي ظفِروا بها من عدوِّهم[٤].

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٩-٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢١-٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦).

﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذمَّ سبحانه وتعالى المبطِّئين في الجهاد، عاد إلى التَّرغيب فيه، ودلَّهم بهذه الآيةِ على طريقِ تطهير نفوسِهم من ذلك الذَّنبِ العظيمِ؛ ذنبِ القعود عن القتال، مبيِّنًا أنَّ قَصْدَ المجاهد الآخرةُ، وإيثارُ ما عند الله[1]، فقال:

﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

أي: فلْيجاهدْ أعداءَ الله؛ لإعلاءِ كلمة الله سبحانه، المؤمنون الصَّادقون الَّذين يبيعونَ الحياة الدُّنيا بالآخرة، رغبةً فيما عند الله عزَّ وجلَّ[2].

﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾.

أي: ومن يُجاهِدْ أعداءَ الله تعالى لإعلاء كلمتِه جلَّ وعلا، فسواءٌ قتَله الأعداء، أو بقي حيًّا، وانتصَر عليهم[3].

﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

أي: فهو غانمٌ على كلِّ حال؛ إذ سيُعطيه اللهُ تعالى ثوابًا جزيلًا[4].

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٠). ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٢-٢٢٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٣-٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٤-٥٢٥).

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾.

أي: ولِمَ لا تُجاهدون- أيُّها المؤمنون- لإعلاءِ كلمة الله تعالى، وتُجاهِدون للسَّعي في استنقاذِ الرِّجال والنِّساءِ والصِّبيان، الَّذين غُلِبُوا على أنفسِهم؛ بقَهْرهم وإيذائِهم وإذلالِهم وسَومِهم العذابَ، ولا يَستطيعون حيلةً للهجرة، ولا يهتدون إليها سبيلًا[1]؟!

عن عُبَيد اللهِ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ عُتْبَةَ، قال: (سَمِعْتُ ابنَ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما يقولُ: كنتُ أنا وأمِّي مِن المستضعَفينَ، أنا من الوِلدانِ، وأمِّي من النِّساءِ)[2].

وعن عَبدِ الله بن أبي مُلَيكةَ: (أنَّ ابنَ عبَّاسٍ تَلا: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾. قال: كنتُ أنا وأمِّي ممَّن عذَر اللهُ)[3].

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾.

أي: يَدْعون ربَّهم بأن يخرجَهم من مكَّةَ؛ للنَّجاةِ من فتنةِ استضعافِهم من قِبَل مشركِي قريشٍ[4].

﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٤-٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٨-٥٢٩).

(٢) رواه البخاري (١٣٥٧).

(٣) رواه البخاري (٤٥٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٩-٥٣٠).
قال ابنُ عطية: (القريةُ هاهنا مكَّةُ بإجماعٍ من المتأوِّلين) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٧٩).

أي: وسخِّرْ لنا من عندك مَن يتولَّى أمرنا ويُنقذُنا، وسخِّرْ لنا من عندك مَن ينصُرُنا على عدوِّنا[١].

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى وجوبَ الجهاد بيَّن أنَّه لا عبرةَ بصورةِ الجهادِ، بل العبرةُ بالقَصْدِ والدَّاعي، فالأمورُ بمقاصدها وغاياتها؛ فالمؤمنون يقاتِلون لغَرَضِ نُصرةِ دِين الله، وإعلاءِ كلمته، والكافرون يقاتِلون في سبيل الطَّاغوتِ ولم يكتفِ ببيان كونِ القتالِ المأمور به مقيَّدًا بكونه في سبيل الله، وهي سبيلُ الحقِّ والعدلِ، وإنقاذ المستضعَفين المظلومين من الظُّلم، حتَّى أكَّده بإعادةِ ذِكره، مع مقابلتِه بضِدِّه، وهو ما يقاتِلُ الكفَّارُ لأجله[٢]، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: إنَّ المؤمنينَ حقًّا إنَّما يُقاتِلون من أجْلِ إعلاء كلمةِ الله تعالى[٣].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾.

أي: والكافرونَ يُقاتلونَ في طاعةِ الشيطانِ، وطَريقِه ومِنْهاجِه الَّذي شَرَعَه لأولِيائِه من أهلِ الكفرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٢). ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي))

والطَّاغوت: هو كلُّ ما تجاوَز به العبدُ حدَّه؛ من معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاعٍ[١].

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

أي: فقاتِلوا- أيُّها المؤمنون- أولئك الَّذين يتولَّوْن الشَّيطانَ، ويُطيعون أوامرَه[٢].

﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

أي: فلا تهابوا أولياءَ الشَّيطان؛ لأنَّ إمامَهم الشَّيطانَ ذو كيدٍ واهنٍ وضعيفٍ، لا يقوَى على مقاومةِ الحقِّ والتَّغلُّب عليه[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- أنَّه يجب على الإنسانِ أنْ يكونَ كيِّسًا فطِنًا؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾[٤].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ دليلٌ على أنَّ التَّكاسلَ في الخير، والتَّراجعَ عنه من أسباب النِّفاق، وهو كذلك، والتَّباطؤُ عن الخير والتَّكاسل عنه ليس سببًا للنِّفاق فحسبُ، بل هو سببٌ للضَّلال والعمى، والعياذُ بالله! كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال الله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ

(ص: ١٨٧).

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٩-٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٦).

أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾[(١)] [ق: ٥].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ فيه أنَّ هَؤُلَاءِ المُبَطِّئينَ لم يُحِبُّوا لإخوانِهم الْمُؤمنِينَ مَا يحِبُّونَ لأَنْفُسِهِم، بل إِنْ أَصَابَتْهم مُصِيبَة فَرِحوا باختصاصِهم، وَإِن أَصَابَتْهم نعْمَةٌ لم يَفْرَحوا لهم بها، بل أَحبُّوا أَن يكون لهم منها حَظٌّ؛ فهم لَا يفرحون إِلَّا بدُنيا تَحصُل لهم، أَو شَرٍّ دُنْيَوِيٍّ ينْصَرف عَنْهُم؛ إِذْ كَانُوا لَا يحبُّونَ الله وَرَسُولَه وَالدَّارَ الْآخِرَة، وَلَو كانُوا كَذَلِك لأحبُّوا إِخْوَانهمْ وأَحَبُّوا مَا وصَل إليهم مِن فَضْلِه، وتألَّموا بِما يُصيبُهم من المُصِيبَة، وَمن لم يَسرَّه مَا يَسُرُّ المُؤمنِينَ ويَسُوءُه مَا يسوءُ المُؤمنِينَ؛ فليس منهم[(٢)].

٤- قوله تعالى: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ المجاهِدَ ينبغي أن يثبُتَ في المعركةِ، وأن يوطِّنَ نفسَه على أنَّه لا بدَّ من أحدِ أمرين؛ إمَّا أن يقتلَه العدوُّ، فينالَ الشَّهادة، وإمَّا أن يغلبَ العدوَّ ويقهَرَه، ويعودَ بالظَّفَر والغَلَبة، فإنَّه إذا عزم على ذلك لم يفِرَّ عن الخَصم، ولم يُحجِمْ عن المحارَبة[(٣)].

٥- توبيخ مَنْ توانى عن الجهادِ؛ لقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[(٤)].

٦- ذِكْر ما يشجِّعُ على القتال من النَّاحية النَّفسية؛ لقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾؛ لأنَّ ذِكر ما يُثير الإنسانَ ويهيِّجُه أمرٌ مطلوب، ولا شكَّ أنَّ الإنسان إذا قيل له: إنَّ هناك رجالًا مستضعَفين ووِلدانًا ونِساءً لا شكَّ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٢٢).
(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٤).

أنَّه سوف يزداد همَّةً وإقدامًا[١].

٧- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أنَّه بحسَب إيمانِ العبد يكون جهادُه في سبيل الله، وإخلاصُه ومتابعتُه؛ فالجهادُ في سبيلِ الله من آثارِ الإيمانِ ومقتضيَاتِه ولوازِمه، كما أنَّ القِتالَ في سبيل الطَّاغوتِ مِن شُعَبِ الكفرِ ومقتضياتِه[٢].

٨- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أنَّ الَّذي يقاتِلُ في سبيلِ الله ينبغي له، ويحسُنُ منه من الصَّبرِ والجلَدِ ما لا يقوم به غيرُه، فإذا كان أولياءُ الشَّيطانِ يَصبِرون ويُقاتِلون وهم على باطلٍ، فأهلُ الحقِّ أَولى بذلك؛ كما قال تعالى في هذا المعنى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾ الآية[٣].

٩- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أنَّ الَّذي يقاتِلُ في سبيل الله معتمدٌ على ركنٍ وثيقٍ، وهو الحقُّ، والتَّوكُّل على الله؛ فصاحبُ القوَّة والرُّكن الوثيقِ يُطلَب منه من الصَّبر والثَّبات والنَّشاط ما لا يُطلب ممَّن يقاتِلُ عن الباطل، الَّذي لا حقيقةَ له ولا عاقِبةَ حميدةً؛ فلهذا قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[٤].

١٠- بيان أنَّ الإيمانَ يحمِلُ على الإخلاصِ؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٠).

١١- بيان ضَعفِ ما يعملُه الشَّيطان بالكيدِ أو بغير الكيد، لأنَّه إذا كان كيدُه ضعيفًا، فما يكيدُ به أضعفُ؛ لقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[١].

١٢- أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أنْ يَخشى أو يخافَ أولياءَ الشَّيطان؛ لأنَّ أولياءَ الشَّيطان ضُعفاءُ، كما أنَّ الشَّيطانَ الَّذي هو وليُّهم كيدُه ضعيفٌ[٢].

١٣- أنَّ الشَّيطانَ يكيدُ للإنسان؛ لقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فاحذَرْ كيدَه لا يغرَّنَّك، فربَّما يوسوس لك في التَّهاونِ في العبادات المطلوبة، أو في غِشيان الأشياءِ الممنوعة، ويقول: اللهُ غفور رحيمٌ، والأمر سهلٌ، افعَلْ وتُبْ، حتَّى يكيدَ لك فتقعَ في الشِّباك، فاحذَرْ كيدَه[٣]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ وجوبُ أخذِ الحذَر من أعدائنا، وكلُّ عدوٍّ يؤخذ منه الحذرُ فيما يخاف منه؛ فالَّذين يغزوننا بالسِّلاح نأخذ الحذرَ منهم بالسِّلاح، والَّذين يغزوننا بالأفكار نأخذ الحذر منهم بالعِلم، والَّذين يغزوننا بالأخلاق نأخذ الحذر منهم بالتَّرفُّع عن سفاسف الأخلاق، فكلُّ عدوٍّ يقابَلُ بسِلاحه[٤].

٢- في قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ وجوبُ النُّفور للجهادِ في سبيل الله، سواءٌ كنَّا مجتمعين أو متفرِّقين[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ الخِطابُ لعسكرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم المؤمنين منهم والمنافقين، ﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: ليتأخَّرَنَّ وليتثاقَلنَّ عن القتالِ، وهم

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٤١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥١٧).

المنافقون؛ كعبدِ اللهِ بن أُبيٍّ المنافقِ وأصحابِه، وإنَّما قال: (مِنْكم)؛ لاجتماعِهم مع أهلِ الإيمانِ في الجنسيَّةِ والنَّسبِ وإظهارِ الإسلام، لا في حقيقةِ الإيمان(١).

٤- وجوبُ قِتالِ الأعداء؛ لقوله: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ﴾، ووجوبُ إخلاص النِّيَّةِ فيه؛ لقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٢).

٥- أنَّ المقاتلَ في سبيلِ الله ناجحٌ على كلِّ حال؛ لقوله: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ فهو غانمٌ ناجحٌ على كلِّ حال، سواءٌ قُتِل، أو غَلَب، فهو على أجرٍ عظيم(٣).

٦- قوله تعالى: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾، وإنَّما اقتَصَر على القتلِ والغلَبة في قوله: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾، ولم يزِدْ: (أو يؤسَر) إبايةً مِن أن يذكرَ لهم حالةً ذميمةً لا يَرْضاها اللهُ للمؤمنينَ، وهي حالةُ الأَسْر، فسكَت عنها؛ لئلَّا يذكُرَها في معرِض التَّرغيب، وإنْ كان للمسلمِ عليها أجرٌ عظيمٌ أيضًا، إذا بذَل جُهدَه في الحربِ فغُلِب؛ إذ الحربُ لا تَخلو من ذلك، وليس بمأمورٍ أنْ يُلقيَ بيدِه إلى التَّهلُكة، إذا عَلِم أنَّه لا يُجدي عنه الاستبسالُ؛ فإنَّ مِن منافع الإسلامِ استبقاءَ رجالِه لدِفاع العدوِّ(٤).

٧- بيان عظَمة الرَّبِّ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾، وجه ذلك: ضمير الجمعِ؛ لأنَّنا نعلَمُ أنَّ اللهَ إلهٌ واحد، فكلُّ ما أضيفَ إلى الله عزَّ وجلَّ من ضمائرِ الجمع، فالمراد بها التَّعظيمُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٧).

٨- قيل في الفرقِ بينَ المولَى والنَّصير: إنَّ المولَى هو الذي يتولَّى حفظَ الشيءِ في كلِّ حالٍ، والنَّصيرُ هو الذي ينصرُه إذا حزَبه أمرٌ، فكان الوليُّ هو النصيرَ في كلِّ حال، والنَّصير هو المولَى في حالٍ دونَ حالٍ[١].

٩- أنَّ للإنسانِ أنْ يطلُبَ من الله تعالى وليًّا من عنده؛ لقوله: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾، ولا يقال: إنَّه لا بدَّ أن تقول: اللَّهمَّ تولَّني، فأنت إمَّا أن تدعوَ اللهَ بأن يتولَّاك، أو أن ييسِّرَ لك وليًّا، وكذلك يقال في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرٗا﴾[٢].

١٠- بيان علوِّ همَّة هؤلاء؛ حيث قالوا: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ في الوليِّ، و﴿مِن لَّدُنكَ﴾ في النَّصيرِ؛ لأنَّ الوليَّ إذا جاء من عند الله وكذلك النَّصيرُ، فهذا هو الَّذي ينفعُ، أمَّا الوليُّ الَّذي لا يأتي من عند الله عزَّ وجلَّ، وإنَّما حملَتْه الحمِيَّةُ والعصبيَّة، فهذا قد ينفعُ، وقد لا ينفع[٣].

١١- وجوبُ الدِّفاع عن المستضعَفين عند الكفَّار؛ لأنَّ اللهَ تعالى وبَّخ على أمرين: على ترك القتالِ في سبيل الله، وعلى ترك القتالِ في سبيل هؤلاء المستضعَفين لتخليصِهم، وهذا أمرٌ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ- مع القدرة- أن يفُكَّ أسيرَ المسلمينَ، وأن يرفَعَ الظُّلمَ عنهم، بقدر المستطاع؛ لقول الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[٤] [التغابن: ١٦].

١٢- قوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الجهادَ واجبٌ، ومعناه أنَّه لا عذرَ لكم في ترك المقاتَلة، وقد بلغ حالُ المستضعَفينَ من الرِّجال والنِّساءِ

(١) ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (٣/ ١٣٢٤)
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٣٤).

والوِلْدان مِن المسلِمين إلى ما بلَغ في الضَّعفِ؛ فهذا حثٌّ شديدٌ على القتال، وبيانُ العلَّة الَّتي لها صار القتالُ واجبًا، وهو ما في القِتال من تَخليصِ هؤلاء المؤمنين مِن أيدي الكفَرةِ؛ لأنَّ هذا الجمعَ إلى الجهادِ يجري مجرى فَكاكِ الأسير[١].

١٣- في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ ذُكر الوِلْدان تكميلًا للاستعطافِ واستجلابِ المَرْحَمة، وتنبيهًا على تناهي ظُلمِ المشركين؛ بحيث بلغ أذاهم الصِّبيانَ لإرغامِ آبائِهم وأمهاتِهم، وإيذانًا بإجابة الدعاءِ الآتي، واقترابِ زمانِ الخَلاصِ؛ ببيانِ شَرِكَتِهم في التضرُّعِ إلى الله تعالى؛ كلُّ ذلك للمبالغةِ في الحثِّ على القتالِ[٢].

١٤- جواز التَّوسُّلِ بالحال؛ لقوله: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، توسَّلوا إلى الله تعالى بذِكر حالِ أهلِ هذه القرية بأنَّهم ظالمون لهم، وذِكْر الحال أنَّ الإنسانَ مظلومٌ يوجِبُ الرِّقَّة والعَطْف[٣].

١٥- استُدِلَّ بقَوْلِه سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ على أنَّ إسلامَ الوليدِ صحيحٌ؛ لأنَّه جَعَلَه من جملةِ مَن قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ وهو قولُ مَن يَطْلُب الهجرةَ، وطَلَبُ الهجرةِ لا يَصِحُّ إلَّا بعد الإيمانِ، وإذا كان له قولٌ في ذلك مُعتبَر كان أصلًا في ذلك ولم يكن تابعًا؛ بخلافِ الطِّفْل الذي لا تمييزَ له؛ فإنَّه تابعٌ لا قَوْلَ له[٤].

١٦- جوازُ الجهرِ بالسُّوء لِمَن ظُلِم، فتقول: فلان ظلَمني، وفلان أخَذ مالي،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤١).
(٢) ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٤).
(٤) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٦).

وما أشبَهَ ذلك، ولا يُعَدُّ هذا من باب الغِيبةِ؛ لقوله: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[1] [النِّساء: ١٤٨].

١٧- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ هذه الآيةُ كالدَّلالةِ على أنَّ كلَّ مَن كان غرضُه في فِعله رضَا غيرِ الله، فهو في سبيل الطَّاغوت؛ لأنَّه تعالى لَمَّا ذكَر هذه القِسمة، وهي أنَّ القتالَ إمَّا أن يكون في سبيلِ الله، أو في سبيل الطَّاغوت، وجَب أن يكون ما سوى الله طاغوتًا[2].

١٨- أنَّ الكفَّارَ المحاربين من أولياء الشَّيطان؛ لقوله: ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، وكانوا أولياءَه؛ لأنَّهم يمتثِلون لأمرِه ولنهيِه، فإذا أمَرهم بالفحشاء امتثلوا، وإذا نهاهم عن البِرِّ امتثلوا، فبذلك صاروا له أولياءَ[3].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ خبرٌ إنكاريٌّ، وقد جاء التَّأكيدُ بـ: (إنَّ)، وبلام التَّأكيدِ المُزحْلَقة، ونونِ التَّوكيد الثَّقيلة، وفي استعمالِ الفعل المضعَّف- وزيادةُ الحروف زيادةٌ في المعنى- وفي مجموعِ هذه المؤكِّدات: تخويفٌ رهيبٌ لِمَن ثَبَّط نفسَه أو ثبَّط غيرَه[4].

٢- **قوله:** ﴿كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ﴾ اعتراضٌ بين فِعْلِ القَولِ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ومَقولِه وهو: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾؛ للتَّنبيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٠).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٥٩).

على ضَعفِ عَقيدتِهم، وأنَّ قولَهم هذا قولُ مَن لا مواصلةَ بينكم وبينه، وإنَّما يريدُ أن يكونَ معكم لمجرَّدِ المالِ[١].

- وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ شبَّهَ حالَهم في حينِ هذا القولِ بحالِ مَن لم تسبِقْ بينه وبين المخاطَبين مودَّةٌ حقيقيَّة أو صوريَّة؛ فاقتضى التَّشبيهُ أنَّه كان بينه وبينهم مودَّةٌ من قَبلِ هذا القول، ووجهُ هذا التَّشبيه أنَّه لَمَّا تمنَّى أنْ لو كان معهم، وتحسَّر على فواتِ فوْزِه لو حضر معهم، كان حالُه في تفريطِه رُفقتَهم يُشبِهُ حالَ مَن لم يكُنْ له اتِّصالٌ بهم، بحيث لا يشهد ما أزمَعوا عليه من الخروجِ للجهاد، فهذا التَّشبيهُ مسُوقٌ مساقَ زيادة تنديمِه وتحسيرِه، أي إنَّه الَّذي أضاع على نفسِه سببَ الانتفاع بما حصَل لرفقتِهِ من الخير، وثواب النَّصر وفخرِه، ونعمةِ الغنيمة[٢].

- والظَّاهر أنَّه تهكُّم؛ لأنَّ المنافِقين كانوا أعْدَى عدوٍّ للمُؤمنين، وأشدَّهم حَسدًا لهم؛ فكيف يوصَفون بالمودَّةِ إلَّا على وجهِ العكس تهكُّمًا بحالهم[٣]؟!

٣- **قوله:** ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ خِطابٌ للمأمورين بالقِتالِ على طريقةِ الالتفات من الغَيبة إلى الخطابِ؛ مبالغةً في التَّحريض والحثِّ عليه، وهو المقصودُ من الاستفهامِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٣٣).
وهذا على أنَّ المرادَ به هم المنافِقُون، وأمَّا على أنَّ المرادَ ضَعَفةُ المؤمنين؛ فليس فيه هذا الوجهُ. ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠١)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ٩٥).

- والاستفهامُ في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ إنكاريٌّ، أي: لا شيءَ لكم في حالِ لا تُقاتِلون، والمرادُ أنَّ الَّذي هو لكم هو أنْ تُقاتلوا، فهو بمنزلةِ أمرٍ، أي: قاتِلوا في سبيلِ الله لا يَصُدَّكم شيءٌ عن القتال[١].

٤- **قوله:** ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ كلامٌ مبتدَأٌ سِيقَ لترغيب المؤمنين في القِتال، وتَشجيعِهم ببيان كمالِ قوَّتِهم بإمدادِ الله تعالى ونُصرتِه، وغاية ضَعْفِ أعدائهم[٢].

- والفاء في ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ لبيانِ استتباعِ ما قَبْلَها لِمَا بعدَها، وذكَّرهم بهذا العنوان ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك نتيجةٌ لقتالهم في سبيل الشَّيطان، والإشعارِ بأنَّ المؤمنين أولياءُ الله تعالى، لأنَّ قتالَهم في سبيله، وكلُّ ذلك لتأكيدِ رغبة المؤمنين في القتال، وتقوية عزائمِهم عليه[٣].

٥- **قوله:** ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أكَّد الجملةَ بمؤكِّدينِ (إنَّ) و(كَانَ) الدَّالَّة على تقرُّرِ وصْفِ الضَّعفِ لكيد الشَّيطانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠١)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٤).

الآيات (٧٧ - ٧٩)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾: أي: قُصورٍ عاليةٍ، أو حُصونٍ مُطوَّلة، أو البيوتِ الَّتي فوقَ الحُصونِ، وأصل (برج): من الظُّهور والبروزِ مِن: بَرجَتِ المرأة، إذا ظهَرت وبرَزت[1].

﴿ يَفْقَهُونَ ﴾: يفهَمون حقَّ الفَهْم، والفِقْه: هو التَّوصُّل إلى عِلمٍ غائبٍ بعِلم شاهدٍ، وأصل (فقه): يدلُّ على إدراكِ الشَّيء، والعِلمِ به[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾

﴿ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾: الجارُّ والمجرورُ في محلِّ نَصْبٍ، نَعتٌ لمصدرٍ مَحذوفٍ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

أي: خشيةً كخشيةِ اللهِ، أو في محلِّ نصبٍ على الحالِ من الواو في ﴿يَخْشَوْنَ﴾، أي: مُشْبِهينَ لأَهْلِ خَشيةِ اللهِ.

﴿أَشَدَّ خَشْيَةً﴾: ﴿أَشَدَّ﴾ منصوبٌ عطفًا على محلِّ ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، و﴿خَشْيَةً﴾ تمييزٌ منصوبٌ، ويجوز اعتبارُ ﴿خَشْيَةً﴾ مؤخَّرةً مِن تقديمٍ، والأصلُ: يَخْشونَ النَّاسَ مِثلَ خشيةِ اللهِ أو خَشيةً أشدَّ منها؛ وعليه فهي منصوبةٌ بالعطفِ على محلِّ ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، وينتصِبُ ﴿أَشَدَّ﴾ على الحالِ مِن ﴿خَشْيَةً﴾ الذي كان في الأصلِ نعتًا لها، فلمَّا قُدِّم عليها صارَ حالًا منها؛ كقول القائلِ: لِمَيَّةَ مُوحِشًا طَلَلُ، فلو تأخَّرَ (مُوحِشًا) لكان: لِمَيَّةَ طَلَلٌ مُوحِشٌ، ولكان نعتًا للطَّللِ، ولكن لَمَّا تقدَّم أصبحَ حالًا، وعلى هذا الوجهِ فلا ينتصبُ ﴿خَشْيَةً﴾ على التَّمييزِ. وقيل غير ذلك في إعرابِ هذه الآيةِ[1].

المَعْنى الإجماليُّ:

يخاطِبُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم قائلًا له: ألَا تعجَبُ- يا محمَّدُ- من هؤلاء الَّذين قيل لهم: أمسِكوا عن قتال المشركين، وأقيموا الصَّلاة وآتوا الزكاة- وكان بعضٌ ممَّن مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قد سألوا أن يُفرَض عليهم القتالُ- فلمَّا فرَض الله عليهم القتال إذا جماعةٌ منهم يخافونَ من النَّاس كخوفِهم مِن اللهِ أو أشدَّ من ذلك، وقالوا: ربَّنا لِمَ فرضْتَ علينا القتالَ؟! هلَّا أخَّرتَ فرضه إلى وقتٍ آخرَ غيرِ هذا الوقت، فأمر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنَّ ما في الدُّنيا إنَّما هو متاعٌ قليل زائل، وما في الآخرة من نعيمٍ للمتَّقين هو خيرٌ وأفضلُ ممَّا في هذه الدُّنيا، ولا يُظلَمون شيئًا.

ثمَّ يخبِر تعالى أنَّ الموتَ سيُدرك الجميع في أيِّ بقعةٍ كانوا، ولو كانوا

(١) ينظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٧٤)، ((الدر المصون في علوم الكتاب المكنون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤١-٤٢).

محصَّنين في حصونٍ منيعةٍ وعاليةٍ، ويبيِّن تعالى أنَّ المكذِّبين لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إنْ أصابهم خيرٌ يقولون: هذا جاء من عند الله تعالى، وإنْ أصابهم سوءٌ وشرٌّ قالوا: إنَّ ما أصابهم هو بسبب ما جاء به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، فأمَرَ اللهُ نبيَّه عليه الصَّلاة والسَّلام أنْ يقول لهم: إنَّ جميعَ ما أصابهم مِن خيرٍ أو شرٍّ هو بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه؛ فما لِهؤلاءِ القومِ الصَّادرِ منهم هذا القولُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يفهمون حديثًا بالكلِّيَّة، ولا يقرُبون من فهمِه؟!

ثمَّ يخاطب اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم: أنَّ ما أصابه من خير هو من عند الله تعالى، وما ناله من أذًى ومكروه هو بسبب ذنبٍ صدَر منه، ويخبره تعالى أنَّه بعَثه للناس رسولًا بينه وبين الخَلق يبلِّغُهم شَرْعَه سبحانه، وكفى بالله شهيدًا.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

سَببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، ((أنَّ عبدَ الرحمن بنَ عوفٍ وأصحابًا له رضِي اللهُ عنهم أتَوُا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقالوا: يا نبي الله، كنَّا في عزٍّ ونحن مشركونَ، فلمَّا آمنَّا صِرنا أذلَّة، قال: إنِّي أُمرتُ بالعَفْوِ، فلا تقاتلوا القَوْمَ، فلمَّا حوَّله الله إلى المدينة أمَرَه بالقتالِ، فكَفُّوا، فأنزل الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ الآية))[1].

(١) رواه النسائي (٣٠٨٦)، والطبري في ((تفسيره)) (٨/ ٥٤٩)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٦٣٠)، والحاكم (٢/ ٧٦).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾.

أي: ألَا تعجَبُ- يا محمَّدُ- من هؤلاء الَّذين أُمِرُوا بإمساك أيديهم عن حرْبِ أعدائهم المشركين، والامتناعِ عن قتالِهم[١].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: وعليكم بأداء الصَّلاة بحدودِها وفروضها تامَّةً، كما أمَر اللهُ عزَّ وجلَّ، وإيتاءِ الزَّكاة أهلَها المستحقِّين كما شُرِعت[٢].

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾.

أي: فلمَّا فُرِض عليهم القتالُ- الَّذي كانوا قد سألوا أن يُفرَضَ عليهم- في وقتِه المناسبِ لذلك[٣].

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾.

أي: إذا جماعةٌ منهم يخافون النَّاسَ أن يقاتلوهم، خوفًا شديدًا كخوفِهم من اللهِ تعالى، أو[٤] أشدَّ خوفًا[٥].

صحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٠٨٦)، وصحَّحه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٦٣٣) وقال: رجالُه رجالُ الصَّحيح.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧-١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤١-٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٢-٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٠-٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٣).

(٤) (أو) يحتملُ أن تكونَ للتنويعِ أي: أنَّ بعضَهم يخشون النَّاس كخشيةِ الله، وبعضَهم يخشون النَّاس أشدَّ خشيةً، ويحتملُ أن تكونَ (أو) للإضرابِ، فيكون المعنى: بل أشدَّ خشيةً، أو لتحقيقِ ما سبَق، وليست (أو) للشكِّ قطعًا. ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي))

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾.

أي: وقالوا: لِمَ فرَضْتَ علينا القتالَ يا أللهُ[١]؟

﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

أي: هلَّا أخَّرتَ فرضَ القتال مدَّةً أخرى متأخِّرةً عن الوقتِ الحاضر، قيل: يعنونَ بذلك تأخيرَه إلى أن يموتوا على فُرُشِهم وفي بيوتهم[٢].

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ- ردًّا عليهم: ما في الدُّنيا من نِعَمٍ قليلة كيفًا وكمًّا ووقتًا، فهي محدودةٌ وفانية[٣].

﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

أي: وما في الآخِرة من نعيمٍ أعدَّه الله تعالى للمتَّقين خيرٌ وأفضلُ ممَّا في الدُّنيا كيفًا وكمًّا ووقتًا؛ فنعيمُ الآخرة عظيمٌ، وكثيرٌ لا يُعَدُّ، وباقٍ لا يزولُ[٤].

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

أي: إنَّ سعيَكم للآخِرةِ ستَجِدون أجْرَه كاملًا موفَّرًا غيرَ منقوصٍ منه شيئًا[٥].

(ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٤-٥٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٤-٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٣-٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٨-٥٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي))

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ﴾.

أي: في أيِّ مكانٍ كنتم، فإنَّ الموتَ آتِيكم لا مَحالةَ، لا يَنجو منه أحدٌ منكم، سواءٌ في ذلك مَن خرَج للجِهاد في سبيلِ الله تعالى، ومَن قعَدَ عنه[١].

﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾.

أي: إنَّ الموتَ واصلٌ إليكم حتمًا، ولو تَحصَّنتم منه بالحُصونِ المنيعة العاليةِ[٢].

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: وإنْ ينَلِ المكذِّبين لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، رخاءٌ وخصبٌ ورزقٌ وأولادٌ وعافيةٌ وظفَرٌ وفتحٌ وغنائمُ، وغيرُ ذلك من الخيرات؛ فإنَّهم يقولون: هذا قدْ جاء من قِبَل اللهِ تعالى ومِن تَقديرِه، وليس لك علينا في ذلك فَضلٌ يا محمَّدُ[٣].

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾.

أي: وإنْ تنَلْهم شِدَّةٌ؛ كضيقٍ في الرِّزق وقحطٍ وجدبٍ ونقصٍ في الثَّمرات وموتِ أولاد وأحباب، وهزيمةٍ من عدوٍّ، وإصابةٍ بجراحٍ وآلام، وغير ذلك من

(ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٧-٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٨).

شدائدَ ومِحَنٍ، فإنَّهم يقولون: إنَّما أصابَنا ما أصابنا من بلايا بسببِ ما جئتَنا به يا محمَّدُ[(١)].

كما أخبر الله عن قوم فرعونَ في قولهم مثل ذلك لموسى عليه السلام؛ حيث قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وكما قال قومُ صالحٍ عليه السَّلام له: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧].

﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاء القومِ: جميعُ ما أصابكم من حَسنةٍ أو سيِّئة، فهو بقضاءِ الله تعالى وقَدَرِه[(٢)].

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾.

أي: عجبًا لهؤلاء القومِ؛ ما شأنُهم لا يفهمونَ حديثًا بالكلِّيَّة، ولا يَقرُبون من فَهمِه! ومن ذلك حقيقةُ أنَّ كلَّ ما أصابهم فمِن عندِ الله تعالى، بتَقديرِه ومَشيئته، لا يَقدِرُ على ذلك أحدٌ غيرُه[(٣)]؟!

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٨-٥٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٠-٢٤١)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٥/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٩).

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: ما تُؤتاه -يا محمَّدُ- من نِعَم الدِّين والدُّنيا، فهو من فضلِ الله تعالى ورحمتِه[١].

﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾.

أي: وما ينالُكَ من أذًى ومكروهٍ؛ فبسببِ ذنبٍ صَدَر منك[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[الشورى: ٣٠].

﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾.

أي: إنَّما بعثناك- يا محمَّدُ- رسولًا بَينَنا وبين النَّاس عامَّةً، تُبلِّغهم شرائعَ الله تعالى، وما يُحبُّه ويرضاه، وما يكرَهُه ويأباه[٣].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾.

أي: وحَسْبُك اللهُ عزَّ وجلَّ شاهدًا على أنَّه أرسَلك، وشاهدًا على إبلاغِك رِسالتَه، وشاهدًا على مَن أُرسلتَ إليهم في قَبولهم أو رَفْضِهم رسالتَك[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ الإنسانَ قد يتعجَّلُ الشَّيءَ فإذا نزَل به نكَص عنه، وهؤلاء تعجَّلوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٣-٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

القتالَ، فلمَّا أُمِروا به نكَص بعضُهم عنه؛ ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((لا تتمنَّوْا لقاءَ العدوِّ، واسألوا اللهَ العافيةَ، فإذا لقيتموهم فاصبِروا؛ فإنَّ الجنَّةَ تحت ظلال السُّيوفِ))[١].

ويتفرَّعُ من هذه الفائدةِ: أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أنْ يَتدخَّل في أمرٍ يَعجِزُ عن الخروجِ منه؛ لأنَّ فيه إذلالًا للنَّفْس، ووجهُه أنَّ الإنسانَ إذا شرَعَ في الشَّيء ثمَّ عجَز عنه وتأخَّر، نزَلتْ قيمتُه عند النَّاس، وقالوا: هذا رجلٌ مُتسرِّع، مُتعجِّل؛ كيف يَدخُلُ في أمرٍ، وهو لا يَعرِفُ كيف يخرُجُ منه[٢]؟!

٢- أنَّ الإنسانَ إذا كان لا يستطيعُ أن يقومَ بالجِهاد، فليُحسِن الأعمالَ أو العباداتِ الخاصَّةَ؛ لأنَّه أُمِر بها؛ لقوله: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٣].

٣- التَّزهيد في الدُّنيا؛ لقوله: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾[٤].

٤- أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يَستعدَّ للموتِ؛ لأنَّه لا مفرَّ له منه، وإذا كان لا مفرَّ فلْنستعدَّ له، ولْنعمَلْ، قال تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾[٥].

٥- ذمُّ مَن لا فِقهَ عنده؛ لقوله: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾، ويتفرَّعُ على ذلك: مدحُ مَن وفَّقه اللهُ للفِقه في دِين الله[٦].

٦- في قوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ أنَّه يجبُ

---

(١) رواه البخاري (٣٠٢٤)، ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبد الله بن أبي أوفى.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٥١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٥٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٦٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٦٢).

على العاقلِ الرَّشيد أن يطلُبَ فِقهَ القول دون الظَّواهر الحرفيَّة، فمن اعتاد الأخذَ بما يطفو مِن الظَّواهرِ دون ما رسب في أعماقِ الكلامِ، وما تغلغل في أنحائِه وأحنائِه، يبقى جاهلًا غبيًّا طول عمره[١].

٧- أنَّه يجبُ على الإنسانِ إذا أصابتْه الحسنةُ أن يُولِيَها شكرًا لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّها منه تفضُّلًا وإحسانًا، وإذا أصابته السَّيِّئة فلْينظُرْ في نفسِه حتَّى يُحاسِبَها، ويستعتبَ فترتفعَ السَّيِّئةُ، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾[٢]، فما أصابَ العبدَ مِن حُزنٍ وذُلٍّ وشَرٍّ؛ فبِذُنوبِه وخطاياه[٣].

٨- في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ نفيُ الشُّؤم والتَّطيُّر وإبطالُهما؛ ليعلَمَ النَّاسُ أنَّ ما يُصيبهم من السَّيِّئات لا يصيبهم بشؤمِ أحدٍ يكونُ فيهم، وكانوا يتشاءمون ويتطيَّرون في الجاهليَّة، ولا يزال التَّطيُّر والتَّشاؤمُ فاشيًا في الجاهلين من جميع الشُّعوب، وهو مِن الخرافات الَّتي يرُدُّها العقلُ، وقد أبطلها دِينُ الفِطرة؛ قال تعالى في آلِ فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]، فقد جعَل التَّطيُّر من الجهلِ، وفقدِ العِلم بالحقائق[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- الدَّعوة إلى التَّعجُّبِ لِمَا يكونُ محَلَّ تعجُّبٍ؛ لأنَّ الاستفهامَ في الآية للتَّعجيب، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ ...﴾[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٤).
(٣) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢١٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٠).

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ ...﴾ دلَّت الآيةُ على أنَّ إيجاب الصَّلاة والزَّكاة كان مقدَّمًا على إيجابِ الجهاد، وهذا التَّرتيبُ هو المُطابِق لِما في العقول؛ لأنَّ الصَّلاةَ عبارةٌ عن التَّعظيمِ لأمر اللهِ، والزَّكاةَ عبارةٌ عن الشَّفقة على خَلْقِ الله، ولا شكَّ أنَّهما متقدِّمان على الجهاد(١).

٣- ذمُّ مَن خَشِي النَّاسَ كخشيةِ اللهِ أو أشدَّ؛ لقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، وعلامةُ ذلك: أنَّ الإنسانَ يترُكُ ما أوجَب اللهُ عليه خوفًا مِن النَّاس، أو يفعَلُ المحرَّم خوفًا من النَّاس، فإنَّ هذا مذمومٌ، وقد يصِلُ أحيانًا إلى الشِّركِ بالله عزَّ وجلَّ(٢).

٤- في قوله تعالى: ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ قد يُتوهَّمُ مِن ظاهرِ العَطفِ بـ(أو) الشَّكُّ، وذلك محالٌ على علَّام الغيوبِ سُبحانه؛ وجوابُ ذلك مِن وجوه:

الأوَّل: أنَّ المرادَ منه الإبهامُ على المخاطَب، بمعنى أنَّهم على إحدى الصِّفتين من المساواةِ والشِّدَّة؛ وذلك لأنَّ كلَّ خوفينِ فأحدُهما بالنِّسبة إلى الآخَرَ إمَّا أن يكونَ أنقصَ أو مساويًا أو أزيدَ، فبيَّن تعالى بهذه الآيةِ أنَّ خوفَهم مِن النَّاس ليس أنقصَ مِن خوفِهم من الله، بل بقِي، إمَّا أن يكونَ مساويًا أو أزيدَ، فهذا لا يوجِبُ كونَه تعالى شاكًّا فيه، بل يوجِبُ إبقاءَ الإبهام في هذين القِسمينِ على المخاطَبِ.

الثَّاني: أنْ يكون ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو، والتَّقدير: يَخشونهم كخشيةِ اللهِ وأشدَّ خشية، وليس بين هذينِ القِسمينِ منافاةٌ؛ لأنَّ مَن هو أشدُّ خشيةً فمعه من الخشيةِ مِثلُ خشيتِه من الله وزيادةٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٣).

الثَّالث: أنَّ هذا نظيرُ قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، يعني أنَّ مَن يُبصِرُهم يقولُ هذا الكلام، فكذا ها هنا، واللهُ أعلم[(١)].

- قَوْلُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ...﴾ فيه ذمُّ الجُبْنِ، وما في القرآن من الحضِّ على الجهادِ والتَّرغيبِ فيه، وذمِّ النَّاكِلينَ عنه والتَّارِكينَ له؛كلُّه ذمٌّ للجُبْنِ[(٢)].

٥- قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَٰخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، وإنَّما كانت الآخرةُ خيرًا من الدنيا لوجوهٍ:

الأوَّل: أنَّ نِعَمَ الدُّنيا قليلةٌ، ونِعَمَ الآخرة كثيرة. **والثَّاني**: أنَّ نِعَم الدُّنيا منقطعة، ونِعَم الآخرة مؤبَّدة. **والثَّالث**: أنَّ نِعَم الدُّنيا مَشُوبة بالهموم والغُموم والمكارهِ، ونِعَم الآخرة صافيةٌ عن الكدرات. **والرابع**: أنَّ نِعَم الدُّنيا مشكوكةٌ؛ فإنَّ أعظمَ النَّاس تنعُّمًا لا يعرِفُ أنَّه كيف يكون عاقبتُه في اليوم الثَّاني، ونِعَم الآخرة يقينيَّة، وكلُّ هذه الوجوهِ توجِبُ رجحانَ الآخرةِ على الدُّنيا، إلَّا أنَّ هذه الخيريَّةَ إنَّما تحصُلُ للمؤمنين المتَّقين؛ فلهذا المعنى ذكَر تعالى هذا الشَّرطَ، وهو قوله: ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[(٣)].

٦- ذمُّ مَن اعترَض على أحكامِ الله الشَّرعيَّة، كما في هذه الآية: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، والكونيَّةِ؛ لقوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ فإنَّ هذا يشمل

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٣- ١٤٤).

وقيل: (أو) على بابها من الشك في حق المخاطب، وقيل: للتخيير. وقيل: بمعنى بل. وقيل إنها للتنويه، بمعنى: أن منهم من يخشى الناس كخشية الله، ومنهم من يخشاهم خشية تزيد على خشيتهم الله. ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧١٥).

(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٤).

الحُكمَ الكونيَّ والحُكم الشَّرعيَّ، فلا يجوز أن يعترضَ الإنسانُ على أحكام الله الشَّرعيَّة، ولا على أحكام اللهِ الكونيَّة، بل عليه أن يستسلمَ، أمَّا الشَّرعيَّة فمن النَّاس مَن يستسلمُ، ومنهم مَن لا يستسلمُ، وأمَّا الكونيَّةُ فالجميعُ مستسلِمون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]، فهذا السُّجودُ الكونيُّ، كلُّ إنسانٍ ذليلٌ خاضعٌ لحُكم اللهِ الكونيِّ، ولا يمكِنُ أن يُدافِعَه أبدًا[١].

٧- جوازُ التَّفضيلِ بين شَيئينِ مُتباينينِ غايةَ التَّبايُنِ؛ لقوله: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ لأنَّه لا نسبةَ بين الدُّنيا والآخرة، لكن لَمَّا كانت الدُّنيا عاجلةً، والنَّفسُ مُولَعةٌ بحبِّ العاجلِ، صار التَّفضيلُ بينهما مستحسَنًا؛ فالآخرةُ خيرٌ لِمَن اتَّقى[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ جَمَع بينَ التزهيدِ في الدُّنيا، والترغيبِ في الآخِرَةِ، والحضِّ على فِعْلِ الخيرِ، والزَّجرِ عن فِعْلِ الشَّرِّ؛ إذ قولُه: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يَتضمَّنُ حثَّهم على كَسْبِ الخيرِ، وزَجْرَهم عن كسْبِ الشرِّ[٣].

٩- في قوله تعالى: ﴿يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ إسنادُ الإدراكِ إلى الموتِ، ويَتفرَّعُ عليها أنَّ الأسبابَ يصحُّ أن يُسنَدَ إليها الشَّيءُ، لكنْ بشرط أن يعتقدَ أنَّ هذه الأسبابَ لا تؤثِّرُ بنفسِها، وإنَّما هي من الله عزَّ وجلَّ[٤].

١٠- جوازُ حَذْفِ ما يُعلَم، ولا يُعدُّ ذلك خلَلًا في الكلام؛ لقوله: ﴿وَلَوْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٥) وينظر: أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٢٢).

(٣) ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٠).

كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، أي: لأدركَكُم الموتُ، ويَتفرَّعُ مِن هذه الفائدةِ ما يكونُ في عُقودِ البيعِ والإجارةِ والرَّهنِ والوقفِ وما أشبَهَها؛ فمثلًا: إذا قال الإنسانُ: وقفتُ هذا على فلانٍ ولو كان غنيًّا، المعنى: ولو كان غنيًّا فهو وقْفٌ عليه، وعلى هذا فيكونُ الوقفُ ثابتًا لهذا الموقوفِ عليه على كلِّ تقديرٍ[١].

١١- تَلبيسُ أعداءِ الرُّسل على العامَّة بما يقدِّر اللهُ سبحانه من البلاء والامتحان؛ كالجدبِ والفَقْر والمَرَض إذا بعَث الرُّسل، فيكون لله الحِكمةُ فيما قدَّره ليبتليَ العبادَ، أيقبَلون أم لا؟ لكنْ يتَّخذُ أعداءُ الرُّسل مِن هذا ذريعةً للتَّنفير من الرُّسل، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾[٢].

١٢- إقرارُ المكذِّبين للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بتوحيدِ الرُّبوبيَّة، وتؤخَذُ من قولهم: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، فهم يُقرُّون بالله عزَّ وجلَّ، ويُقرُّون بأنَّ ما يحدُثُ في الكونِ فمِنَ الله، وأنَّ اللهَ هو الرَّزَّاق، وأنَّه المحيي المميتُ، يُقرُّون بهذا كلِّه، لكن لا يُقرُّون بلازمِه، وهو توحيدُ الألوهيَّةِ[٣].

١٣- بيانُ أنَّ ما يُصيبُنا من الحسناتِ فهو محضُ فضلٍ من الله؛ لقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، ويدلُّ لذلك: أنَّ الحسنةَ الَّتي تصيبُك إمَّا أن تكونَ ابتداءً، وإمَّا أن تكونَ ثوابًا، فإن كانت ابتداءً فكونُها فضلًا واضحٌ، وإن كانت ثوابًا على عمَلٍ فإنَّ توفيقَنا للعمل الَّذي كانت هذه الحَسنةُ ثوابًا له مِن الله عزَّ وجلَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٤).

١٤- جوازُ إضافةِ الشَّيءِ إلى سَببِه؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[١].

١٥- في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ الرُّسلَ عليهم الصَّلاة والسَّلامُ لا يكونون سببًا لشرٍّ يحدُثُ، هم ولا ما جاؤوا به؛ لأنَّهم بُعِثوا بصلاح الدُّنيا والآخرةِ والدِّين[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ الاستفهامُ هنا معناه التَّعجُّب[٣]، وهو تعجيبٌ لرسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن إحجامِهم عن القِتالِ مَع أنَّهم كانوا قَبلَ ذلكَ راغبِينَ فيه، حِراصًا عليه، بحيثُ كادوا يُباشرونه، كما يُنبئُ عنه الأمرُ بكفِّ الأيدي؛ فإنَّ ذلك مُشعِرٌ بكونِهم بصَددِ بَسْطِها إلى العَدوِّ بحيثُ يَكادون يَسطُونَ بهم[٤].

٢- **قال تعالى**: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾

- دلَّت ﴿إِذَا﴾ الفُجائيَّة على أنَّ هذا الفريقَ لم يكُنْ تُترقَّب منهم هذه الحالةُ؛ لأنَّهم كانوا يظهَرون من الحريصينَ على القتال[٥].

- وقوله: ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ مسُوقٌ مساقَ التَّوبيخِ لهم؛ حيث رغِبوا تأخيرَ العمل بأمر الله بالجهاد؛ لخوفِهم من بأس المشركين؛ فالتَّشبيهُ جارٍ على طريقة المبالَغة؛ لأنَّ حملَ هذا الكلامِ على ظاهر الإخبار لا يلائمُ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٥).

حالَهم من فضيلةِ الإيمان والهجرة[١].

- وفي قوله: ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ تشبيهٌ، أي: يخشَوْنهم مشبِهين لأهلِ خشيةِ الله تعالى[٢].

٣- **قوله**: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: وقَع موقعَ زيادة التَّوبيخ الَّذي اقتضاه قوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، أي: ولا تُنقصون شيئًا من أعمارِكم المكتوبة؛ فلا وجهَ للخوفِ، وطلبِ تأخير فرْض القتال. وقيل: معنى نفي الظُّلم هنا أنَّهم لا يُظلَمون بنقصِ ثوابِ جهادهم، فيكون موقعُه موقعَ التَّشجيعِ؛ لإزالة الخوف[٣].

٤- **قال تعالى**: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾

- قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ﴾ فيه حذفُ جوابِ لو؛ اعتمادًا على دَلالةِ ما قبلَهُ عليهِ، والتقدير: (وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مشيدةٍ يُدرككم الموتُ)، وجملةُ ﴿وَلَوْ كُنتُمْ ...﴾ معطوفةٌ على أُخرى مِثلِها محذوفة، والتقدير: لو لم تكونوا في بُروج مُشيَّدةٍ ولو كُنتُم...إلخ، وقد اطَّردَ حذفُ الجملةِ الأولى المعطوفِ عليها؛ لدِلالة المذكورِ -أي: الجملة الثانية جملة المعطوف ﴿وَلَوْ كُنتُمْ﴾- عليها دَلالةً واضحةً؛ فإنَّ الشَّيءَ إذا تَحقَّقَ عِندَ المانِعِ، فلَأَنْ يَتحقَّقَ عِندَ عَدمِه أَوْلَى، وعلى هذِه النُّكتةِ يَدورُ ما في (لو) الوصليَّةِ من التأكيدِ والمبالغةِ[٤].

٥- **قوله**: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ هذا استفهامٌ معناه التَّعجُّب من هذه المقالة، وهذا النَّوعُ مِن الاستفهامِ يَتضمَّنُ إنكارَ ما استُفْهِم عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٥).

عِلَّتِه، وأنَّه يَنبغي أنْ يوجَدَ مُقابِلُه[١].

- وهو كلامٌ مُعترِضٌ بين المبيَّن وبيانِه، مسُوقٌ من جِهتِه تعالى؛ لتعييرِهم بالجهل، وتقبيحِ حالهم، والتَّعجُّبِ مِن كمال غَباوَتِهم، والفاء لترتيبِه على ما قبله[٢].

٦- **قوله**: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ...﴾ بيانٌ للجوابِ المُجْملِ المأمورِ به في قوله: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وإجراؤُه على لِسان النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ثمَّ سَوْقُ البَيانِ من جهتِه عزَّ وجلَّ بطَريقِ تلوينِ الخطابِ وتوجيهِه إلى كلِّ واحدٍ من النَّاسِ، والالتفاتُ لمزيدِ الاعتناءِ به، والاهتمامِ بردِّ مقالتِهم الباطلةِ[٣].

٧- **قوله**: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ ﴿رَسُولٗا﴾ حالٌ قُصِد بها التأكيدُ أو التَّعميمُ؛ فالتَّأكيدُ إنْ عُلِّق الجارُّ في ﴿لِلنَّاسِ﴾ بالفِعل ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، والتَّعميمُ، إنْ علِّق الجارُّ بها، أي: رسولًا للنَّاس جميعًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾[٤] [سبأ: ٢٨].

٨- **قوله**: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾: اعتراضٌ تذييليٌّ، وفيه التفاتٌ من الخِطابِ إلى الغَيبة-حيث لم يقل: (وكفى بإلهك أو بربِّك شهيدًا)-؛ لتربيةِ المهابةِ، وتَقويةِ الشَّهادةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٥-٢٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٦).

الآيات (٨٠ - ٨٤)

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بَرَزُوا۟﴾: خرَجوا إلى الفَضاءِ، والمتَّسعِ من الأرض، وأصل (برز): ظهور الشَّيء وبُدُوُّه، ومنه سُمِّي الفضاء؛ لأنَّه ظاهرٌ، وبادٍ غيرُ خفيٍّ[(١)].

﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ﴾: أي: دَبَّروا وزوَّروا، أو قالوا وقدَّروا ليلًا، يقال: بيَّت فلان رأيَه: إذا فكَّر فيه ليلًا، وأصل البَيْت: مأوى الإنسان باللَّيل؛ لأنَّه يقال: بات: أقام باللَّيل، ويُطلَق أيضًا على المآبِ، ومجمَع الشَّمل[(٢)].

﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: يتأمَّلون في معانيه، ويَتبصَّرون ما فيه؛ يُقال: تدبَّرتُ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

الأمرَ تَدبُّرًا ، أي: نظرتُ في دُبُرِه، وهو عاقِبتُه وآخِرُه، ودَبَّرتُ الأمرَ تَدبِيرًا، أي: فعلتُه عن فِكرٍ ورَوِيَّةٍ، وأصل (دبر): آخِرُ الشَّيء وخَلْفُه، خلافُ قُبُله[١].

﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾: أي: أشاعُوه وأفشَوْه، وتحدَّثوا به، والإذاعة: الإفشاءُ والتَّفريق، وأصل (ذيع): يدلُّ على إظهارِ الشَّيء، وظُهورِه وانتشاره[٢].

﴿يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾: أي: يَبْحثون ويُنقِّرون عنه ويَستخرجونه، مأخوذٌ من النَّبَطِ، وهو الماءُ يخرُجُ من البِئر أوَّلَ ما تُحفَر، وأصل (نبط): يدلُّ على استخراجِ شيءٍ[٣].

﴿بَأۡسًا﴾: أي: عَذابًا، وشِدَّةً في النِّكايةِ، وأصلُ (بأس): الشدَّة وما ضاهاها[٤].

﴿تَنكِيلًا﴾: أي: نِكايةً في العَدوِّ، وعُقوبةً وتعذيبًا، وهو مَصدَر: نكَّلَ بفُلانٍ يُنكِّل به تَنكيلًا: إذا أوجعَه عُقوبةً، وفعَلَ به ما يَمْنَعُه من المعاودةِ، ويَمْنَعُ غيرَه مِن إتيانِ مِثلِ صَنيعِه، وأصلُ (نكل): يدلُّ على مَنْعٍ وامتناعٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٧)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٧/ ٢٥٥-٢٥٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٧/ ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّ كلَّ مَن أطاع رسولَه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم فقد أطاعه سبحانه، ومَن أعرَض عن طاعةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فلن يُسأَلَ عنه، فإنَّ اللهَ لم يُرسِلْه حافظًا لِما يعمَلُ العبادُ، ولا محاسبًا لهم، وإنَّما أرسَله مبلِّغًا.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ المنافقين يقولون للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: سنُطيعُك ولن نعصيَك، فإذا خرَجوا مِن عنده أضمَر جماعةٌ منهم ليلًا معصيتَه، على غيرِ ما أظهَروه له مِن الطَّاعة، واللهُ يكتُبُ ما يُضمِرون، ويُخفون في أنفسِهم، ثمَّ أمَر اللهُ نبيَّه أن يُعرِضَ عن هؤلاء، وأن يتوكَّلَ عليه، وحسبُه اللهُ وكيلًا يتوكَّلُ عليه.

ثم يدعو الله تعالى إلى تدبر كتابه فيقول: أفلَا يتأمَّلُ ويتفكَّرُ هؤلاء المنافقون في القرآنِ الكريمِ؛ فتتَّضحَ لهم أدلَّتُه، وتظهَرَ براهينُه؟! ولو كان هذا القرآنُ مِن عند غيرِ اللهِ لوجَدوا فيه اختلافًا واضطرابًا كثيرًا.

ثمَّ يُخبِر تعالى أنَّ المنافقين إن أتاهم خبرٌ في مضمونِه أمنُ المؤمنين، أو فيه ما يخوِّفُهم، أشاعوه دون تثبُّتٍ مِن صحَّتِه، ولو ردُّوا هذه الأخبارَ قبل إشاعتِها إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وإلى علمائِهم وأمرائِهم؛ ليرَوْا هل مِن المصلحةِ إذاعتُه أو لا! لو ردُّوها إليهم لعلِم حقيقةَ ذلك الخبرِ: الَّذين يبحثون عنه، ويُعمِلون أفكارَهم لاستخراجِ ما خَفِي مِن معانيه، ولولا فضلُ اللهِ عليكم لكنتم مثلَ المنافقين؛ فاتَّبعتُم الشيطانَ في إذاعة الأخبارِ، باستثناءِ القَليلِ من الإذاعةِ.

ثمَّ أمَر الله نبيَّه بالقتال في سبيله، مبيِّنًا أنَّه عليه ما كُلِّفَه هو، دون ما كُلِّفَه غيرُه، وأَمَرَه كذلك أن يرغِّبَ ويشجِّعَ المؤمنين على القتال؛ لعلَّ اللهَ أن يردَّ عنهم قوَّةَ الكَفَرة وشوكتَهم، واللهُ تعالى أشدُّ قوَّةً وصَولةً مِن أولئك الكفَّارِ، وأشدُّ عقوبةً، وأعظمُ عذابًا ونِكايةً في عدوِّه.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نفَى اللهُ تعالى عِلَل المنافقين في التَّخلُّفِ عن طاعةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى أنْ ختَم بالشَّهادةِ برسالتِه- قال مرغِّبًا مرهِّبًا على وجهٍ عامٍّ يُسكِّنُ قلبَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويخفِّفُ مِن دوَامِ عصيانهم له، دالًّا على عصمتِه في جميعِ حركاتِه وسكَناته[1].

وأيضًا فهذه الآيةُ كالتَّكملةِ لقوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ [النساء: ٧٩] باعتبارِ ما تضمَّنه مِن ردِّ اعتقادِهم أنَّ الرَّسولَ مصدرُ السَّيِّئات الَّتي تُصيبُهم، ثمَّ من قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ إلخ [النساء: ٧٩]، المؤذِن بأنَّ بين الخالقِ والمخلوق فرقًا في التَّأثير، وأنَّ الرِّسالة معنًى آخَرُ، فاحترَس بقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] عن توهُّم السَّامعين التَّفرقةَ بين الله ورسولِه في أمور التَّشريعِ، فأثبَت أنَّ الرَّسولَ في تبليغِه إنَّما يُبلِّغُ عن اللهِ؛ فأمرُه أمرُ الله، ونهيُه نهيُ الله، وطاعتُه طاعةُ الله، وقد دلَّ على ذلك كلِّه قولُه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾؛ لاشتمالِها على إثباتِ كونِه رسولًا، واستلزامِها أنَّه يأمُرُ وينهى، وأنَّ ذلك تبليغٌ لمرادِ الله تعالى[2].

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.

أي: كلُّ مَنْ أطاعَ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم فقد أطاع اللهَ سبحانه؛ لكونِه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٥).

لا يَنطِقُ عن الهوى، إنْ هو إلَّا وحيٌ يُوحَى؛ فهو لا يأمُرُ ولا ينهى إلَّا بأمرِ الله تعالى وشرعِه ووحيِه[١].

عن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن أطاعَني فقد أطاعَ اللهَ، ومَن عصَاني فقد عصَى اللهَ))[٢].

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾.

أي: ومَن أعرَض عن طاعتِك- يا محمَّدُ- فلا عليك منه، ولا تُسأَلُ عنه، إنْ عليك إلَّا البلاغُ؛ فإنَّا لم نُرسِلْك عليهم حافظًا لِما يعمَلون ومُحاسِبًا، بل أرسلناك مبلِّغًا ومبيِّنًا وناصحًا، وقد أدَّيتَ وظيفتَك، ووجب أجرُك على الله عزَّ وجلَّ، سواءٌ أطاعوا أم أعرَضوا[٣].

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾.

أي: ويقولُ المنافقون لك- يا محمَّدُ-: سنُطيعك ولا يكونُ منَّا عِصيانٌ[٤].

﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٥-٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦).

(٢) رواه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٥-١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩).
قال ابن عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ...﴾ الآية نزلت في المنافقين باتفاقٍ من المفسِّرين) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٢).

أي: فإذا خرَجوا مِن عندك- يا محمَّدُ- وخلَوْا في حالةٍ لا تطَّلعُ فيها عليهم[١].

﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾.

أي: استسَرَّ جماعةٌ منهم ليلًا فيما بينهم بغيرِ ما أظهَروه لك، وغيَّروا ما تقولُ لهم؛ واستقرَّ رأيُهم على معصيتِك[٢].

ثم توعَّدهم الله على ما فعَلوا فقال:

﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾.

أي: واللهُ تعالى يحفَظُ عليهم هذا العصيانَ الَّذي بيَّتوه، وسيُجازيهم عليه أتمَّ الجزاء، فلا تحزَنْ عليهم- يا محمَّدُ- ولا تكُ في ضَيقٍ ممَّا يفعَلون، فإنَّ أمرَهم لا يخفى على اللهِ جلَّ وعلا[٣].

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

أي: فأعرِضْ- يا محمَّدُ- عن هؤلاء المُنافِقين، وخَلِّهم وما هم عليه من الضَّلالةِ، ولا تؤاخِذْهم، ولا تخَفْ منهم، ولا تشغَلْ بالَك بهم[٤].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾

أي: واعتمِدْ أنتَ- يا محمَّدُ- على اللهِ تعالى وثِقْ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩-١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠-١١).

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

أي: وحَسْبُك باللهِ سبحانه وليًّا وناصرًا ومُعِينًا[١].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى عن المنافقين أنواعَ مَكرِهم وكيدِهم، وكان كلُّ ذلك لأجلِ أنَّهم ما كانوا يَعتقِدون كونَه محقًّا في ادِّعاء الرِّسالة صادقًا فيه، بل كانوا يعتقدون أنَّه مُفتَرٍ متخرِّصٌ؛ فلا جرَمَ أمَرَهم اللهُ تعالى بأن ينظُروا ويتفكَّروا في الدَّلائلِ الدَّالَّة على صحَّةِ نبوَّتِه، فاحتَجَّ تعالى بالقرآنِ على صحَّةِ نبوَّتِه[٢]، فقال:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

أي: أفلا يتأمَّلُ هؤلاء المنافِقون معانيَ القُرآن، وينظُرون في مبادئِه وعواقِبه، ولوازمِ ذلك؛ فتظهَرَ لهم براهينُ الحقِّ، وتلوحَ أدلَّتُه، ويعلَموا حُجَّةَ اللهِ عليهم في طاعة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، واتِّباعِ أمره[٣]؟

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

أي: ولو كان القرآنُ مفتعَلًا ومختَلَقًا مِن عندِ أحدٍ، لاضطَرَبَتْ أحكامُه، واختلفَتِ اختلافًا كبيرًا، وتناقضت معانيه كثيرًا، وأبان بعضُه عن فسادِ بعضٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩-١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤-٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦-١٧).

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ ﴾.

أي: وإذا أتَى هؤلاء المنافقِينَ خبرٌ يتعلَّقُ بأمْنِ المؤمنين، كأَمْنٍ مِن عدوٍّ، وغلبةٍ عليهم، أو أتاهم خَبرٌ يتعلَّق بتخوُّفِهم مِن عدوٍّ، وإصابتِه منهم[1].

﴿ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾.

أي: أفشَوْه، وأشاعوه على الفورِ، دون تثبُّتٍ وتحقُّقٍ من صحَّتِه أوَّلًا[2].

﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ ﴾.

أي: ولو أَرجَعوا هذا الأمرَ قبل بثِّه، إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وإلى أُمرائِهم وعلمائِهم حتَّى يكونَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أو ذَوُو أمرِهم هم الَّذين يتولَّون الخبرَ عن ذلك، بعد أن ثبتَتْ عندهم صحَّتُه أو كذبُه، إن رأَوْا في إذاعتِه مصلحةً ونشاطًا للمؤمنين، وسرورًا لهم، وتحرُّزًا من أعدائِهم، وإن رأَوْا أنَّه ليس فيه مصلحةٌ، أو فيه مصلحةٌ ولكنَّ مضرَّتَه تزيدُ على مصلحتِه، لم يُذِيعوه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٩).

قال ابن عطية: (قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ ... ﴾ الآية، قال جمهورُ المفسِّرين: الآية في المنافقين حسْبمَا تقدَّم مِن ذِكرهم) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٤-٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن

﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾.

أي: لعَلِمَ حقيقةَ ذلك الخبرِ على الوجهِ المرادِ مِن الأمنِ أو الخوف، الَّذين يَبحَثون عنه، ويَستعلِمونه من معادنِه، ويَستخرجون ما خفِيَ من المعاني بفِكرِهم وآرائِهم السَّديدةِ، وعلومِهم الرَّشيدةِ، حتَّى يصِلوا إلى حقيقةِ الأمرِ بإذنِ الله تعالى[١].

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾.

أي: ولولا إنعامُ اللهِ عليكم- أيُّها المؤمنون- بفضلِه وتوفيقِه ورحمتِه وإحسانِه، وتأديبِكم، وتعليمِكم ما لم تكونوا تعلَمون[٢].

﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

أي: لكُنتُم مِثلَ المنافقين، فاتَّبعتم الشَّيطانَ في إذاعةِ الأخبار، باستثناءِ القليلِ مِن الإذاعةِ[٣].

وقيل: لاتَّبعتُم الشَّيطانَ في كلِّ ما تفعلونه إلَّا قليلًا مِن أفعالِكم وأحوالِكم[٤].

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ

عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣).

وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّ المقصود بأُولي الأمْر في الآية هم العلماءُ: قَتادة، وابن جُرَيج، والحسن. انظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٤٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦١، ٢٦٥، ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢).

﴿بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بالجِهادِ، ورغَّبَ فيه أشدَّ التَّرغيبِ في الآياتِ المتقدِّمة، وذكَرَ في المنافقين قلَّةَ رغبتِهم في الجهاد، بل ذكَر عنهم شدَّةَ سعيِهم في تثبيطِ المسلمين عن الجهاد، وجميع ذلك قد أفاد الاهتمامَ بأمرِ القتال، والتَّحريضَ عليه- عاد في هذه الآيةِ إلى الأمرِ بالجهادِ، وتهيَّأ الكلامُ لتفريع الأمرِ به[1]، فقال تعالى:

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فجاهِدْ- يا محمَّدُ- بنفسِك أعداءَ الله؛ لإعلاءِ كلمة الله جلَّ وعلا[2].

﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ﴾.

أي: ليس لك قدرةٌ على غيرِ نفسِك، وإنَّما عليك ما كُلِّفْتَه، دون ما كُلِّفَه غيرُك[3].

﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾.

أي: وحُضَّهم- يا محمَّدُ- على القتالِ، ورغِّبْهم فيه، وشجِّعْهم عليه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٤-٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩، ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩).

قال السعديُّ: (﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ على القِتال، وهذا يَشملُ كلَّ أمْرٍ يَحصُل به نشاطُ المؤمنين

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: لعلَّ اللهَ تعالى أن يمنَعَ ويرُدَّ عنكم قوَّةَ الكافرين وشوكتَهم، وينصُرَكم عليهم بسببِ القتال في سبيلِ الله تعالى والتَّحريض عليه؛ فبالتَّحريض عليه تنبعِثُ الهِمَمُ على مناجَزةِ الأعداء، والمدافعةِ عن حَوزةِ الإسلام وأهلِه[١].

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا﴾.

أي: واللهُ تعالى أشدُّ قوةً وصَولةً من أولئك الكفَّارِ، وهو قادرٌ عليهم في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾.

أي: وهو سبحانه أشدُّ عقوبةً، وأعظمُ عذابًا ونِكايةً في عدوِّه، من نِكايةِ الكفَّارِ بالمؤمنين[٣].

الفَوائِد التربويَّة:

١- الانقيادُ لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، طاعةٌ للهِ، وانقيادٌ لحُكم اللهِ؛ إذ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم في تبليغِه إنَّما يبلِّغُ عن الله؛ فأمرُه أمرُ الله، ونهيُه نهيُ الله، وطاعتُه طاعةُ الله؛ لذا قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ

وقوَّة قلوبهم، من تقويتِهم، والإخبارِ بضَعْف الأعداء وفَشلِهم، وبما أُعدَّ للمقاتلين من الثَّواب، وما على المتخلِّفين من العِقاب، فهذا وأمثاله كلُّه يدخُلُ في التحريض على القِتال). ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٩٤).

أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[١].

٢- التَّحذيرُ من النِّفاقِ، وأنَّ الإنسانَ يجبُ أن يكونَ صريحًا بيِّنًا لا يَظهَرُ للنَّاسِ بوجهٍ، وإذا اختفَى عنهم أعطاهم وجهًا آخَرَ؛ ولهذا لا أحسَنَ مِن الشَّخصِ الصَّادقِ الَّذي لا يُباري ولا يُماري، ولا تأخُذُه في اللهِ لومةُ لائمٍ، وهذا هو الواجبُ على كلِّ مسلمٍ؛ أن يكونَ ظاهرُه وباطنُه سواءً، ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾[٢].

٣- الإعراضُ عمَّن يئِسْنا من صلاحِه؛ لقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ولكن لا يعني هذا إعراضًا مطلَقًا، بحيث إنَّنا لا نُعيدُ عليه الكَرَّةَ مرَّةً ثانية، وإنَّما نُعرِضُ عنه ما دُمْنا قد أيِسْنا من صلاحِه[٣].

٤- كفايةُ اللهِ سبحانه لِمَن توكَّلَ عليه؛ لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، وهذا كقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٤].

٥- الحثُّ على تدبُّرِ القُرآنِ؛ فقولُ الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يُرشِدُنا إلى تعلُّمِ معاني القرآنِ، وتدبُّرِ تفاصيله، وما فيه من المعاني البديعةِ، وفِقهه وعَقْلِه، والتذكُّرِ به، والتفكُّرِ فيه، ولم يَستثنِ من ذلِك شيئًا؛ فنفيُ الاختلافِ عنه لا يكونُ إلَّا بتدبُّره كلِّه، وإلَّا فتدبُّرُ بعضِه لا يُوجِبُ الحُكمَ بنفي مُخالِفِه، ولو تأمَّل النَّاسُ وتدبَّروا هَدْيَ القرآنِ لحصَل لهم خيرٌ عظيمٌ[٥]. وكلَّما ازداد العبدُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٧-١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧).

تأمُّلًا فيه، ازداد عِلمًا وعملًا وبصيرةً؛ لذلك أمَر الله بذلك، وحثَّ عليه، وأخبر أنَّه هو المقصودُ بإنزال القرآن[١].

٦- مِن فوائد التَّدبُّر لكتاب الله: أنَّه بذلك يصلُ العبدُ إلى درجةِ اليقينِ والعِلمِ بأنَّه كلامُ الله؛ لأنَّه يراه يصدِّقُ بعضُه بعضًا، ويوافق بعضُه بعضًا، فترى الحُكمَ والقِصَّةَ والإخبارات تُعادُ في القرآنِ في عدَّةِ مواضعَ، كلُّها متوافقةٌ متصادِقةٌ، لا ينقُضُ بعضُها بعضًا، فبذلك يُعلَمُ كمالُ القرآن، وأنَّه مِن عندِ مَن أحاط علمُه بجميعِ الأمور؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[٢].

٧- كلُّ شيءٍ في القرآن تظُنُّ فيه التناقُضَ فيما يبدو لك فتدبَّرْه؛ حتى يتبيَّنَ لك؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ فإنْ لم يتبيَّنْ لك، فعليك بطريقِ الرَّاسخينَ في العِلْم الذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، وَكِلِ الأَمْرَ إلى مُنْزِلِه الذي يَعْلَمُه، واعلمْ أنَّ القصورَ في عِلْمِك أو في فَهْمِك، وأنَّ القُرآنَ لا تناقُضَ فيه[٣].

٨- التَّحذيرُ من التَّعجُّلِ في نشر الخبرِ، والحرصُ على عدم إذاعة الشَّيء إلَّا بعد التَّيقُّن من معناه، والمعرفةِ به؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ

(تدبُّرُ كتابِ الله مفتاحٌ للعلومِ والمعارف، وبه يُستنتَجُ كلُّ خيرٍ، وتُستخرَجُ منه جميعُ العلوم، وبه يزدادُ الإيمانُ في القلبِ، وترسَخُ شجرتُه؛ فإنَّه يعرِّفُ بالرَّبِّ المعبود، وما له مِن صفاتِ الكمال; وما يُنزَّهُ عنه من سماتِ النَّقص، ويعرِّفُ الطَّريقَ الموصلةَ إليه وصِفةَ أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّفُ العدوَّ الَّذي هو العدوُّ على الحقيقةِ، والطَّريقَ الموصلةَ إلى العذاب، وصِفةَ أهلِها، وما لهم عند وجودِ أسباب العقاب). ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).

(٣) ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٣١٧).

ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾، وهذا إنكارٌ عليهم، وذمٌّ لهم، ثمَّ أرشَدهم إلى ما هو الأصوب[١].

٩- خوضُ العامَّةِ في السِّياسة وأمور الحربِ والسِّلم، والأمن والخوف، أمرٌ معتادٌ، وهو ضارٌّ جدًّا إذا شُغِلوا به عن عملِهم، ويكونُ ضررُه أشدَّ إذا وقَفوا على أسرار ذلك وأذاعوا به، وهم لا يستطيعون كتمانَ ما يعلَمون، ولا يعرِفون كُنْهَ ضررِ ما يقولون، وأضَرُّه عِلمُ جواسيسِ العدوِّ بأسرار أُمَّتِهم، وما يكونُ وراء ذلك، ومِثلُ أمرِ الخوفِ والأمنِ وسائرِ الأمور السِّياسيَّة والشُّؤون العامَّة الَّتي تختصُّ بالخاصَّةِ دون العامَّةِ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾[٢].

١٠- الرُّجوع إلى الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم في حياتِه، وإلى سنَّتِه بعد وفاته، وإلى أولي الأمر في نَشْرِ الأخبارِ وإذاعتِها؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾[٣].

١١- التَّعمُّقُ في التَّثبُّتِ، ويُؤخذُ من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ ولم يقُلْ: يَعلمونه، وهنا إظهارٌ في موضع الإضمار؛ لأنَّ الأصل: ولو ردُّوه إلى الرَّسول وإلى أُولي الأمرِ منهم لعلِموه، لكنَّه قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾، فأظهَر في موضعِ الإضمار لهذه الحِكمةِ[٤].

١٢- قوله: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ فيه دليلٌ لقاعدةٍ أدبيَّة، وهي أنَّه إذا حصل بحثٌ في أمرٍ من الأمور ينبغي أن يولَّى مَنْ هو أهلٌ لذلك، ويُجعَل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤، ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧).

إلى أهله، ولا يُتقدَّمَ بين أيديهم؛ فإنَّه أقربُ إلى الصَّواب، وأحرى للسَّلامة من الخطأ[١].

١٣- أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يَلجأَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في ابتغاء الفضلِ، لا إلى غيرِه؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾[٢].

١٤- وجوبُ الإخلاصِ؛ لقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وما عدَا سبيلَ اللهِ، فيوصَفُ بأنَّه في سبيلِ الطَّاغوت؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾[٣] [النِّساء: ٧٦].

١٥- أنَّه لا يُكلَّفُ أحدٌ هدايةَ أحدٍ، حتَّى الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم الَّذي هو أهدى الخَلْق وأعظمُهم هدايةً، لا يمكِنُ أن يُكلَّفَ هدايةَ أحدٍ، دليلُه: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، وعليه فإذا دعوتَ إلى اللهِ، أو أمرتَ بمعروفٍ، أو نهيتَ عن مُنكَرٍ، ولم يُستجَبْ لك، فلا حرَجَ عليك[٤].

١٦- أنَّه يجبُ على الإنسان مراعاةُ نفسِه، وقيادتُها للحقِّ؛ لأنَّه مكلَّفٌ إيَّاها؛ لقوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ فأنت مكلَّفٌ بنفسِك، يجب أن تجُرَّها إلى ما فيه الخيرُ، وأن تنهاها عمَّا فيه الشَّرُّ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾[٥] [يوسف: ٥٣].

١٧- أنَّ مَن قام بالواجب في حقِّ نفسِه، فلا ينسَ إخوانه؛ لقوله: ﴿وَحَرِّضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢).

ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: حُثَّهم على القتالِ في سبيل الله، فإن استجابوا فذلك المطلوبُ، وإن لم يستجيبوا فقد أبرأتَ ذمَّتَك[١].

١٨- أنَّ الكافرينَ لهم بأسٌ وقوَّةٌ، لكنَّهم تحت قوَّةِ الله؛ لقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ولكن ينبغي عدمُ الانبهارِ بقوَّةِ الأعداء؛ فإنهم ليسوا عند قدرةِ الله شيئًا[٢].

١٩- قول اللهِ تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ فيه تقويةٌ لقلوبِ المؤمنين؛ إذ إنَّ بأسَ اللهِ أشدُّ مِن بأس الكفَّارِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ مِن أقوى الدَّلائلِ على أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم معصومٌ في جميع الأوامرِ والنَّواهي، وفي كلِّ ما يُبلِّغه عن الله سُبحانَه؛ لأنَّه لو أخطأَ في شيءٍ منها لم تكُنْ طاعتُه طاعةَ الله[٤].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ يدلُّ على أنَّ كلَّ تكليفٍ كلَّف اللهُ به في القرآن، ولم يكُنْ ذلك التَّكليفُ مبيَّنًا في القرآن، فحينئذٍ لا سبيلَ لنا إلى القيام بتلك التَّكاليف إلَّا ببيان الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم[٥].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ يدلُّ على أنَّه لا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

طاعةَ إلَّا للهِ ألبتَّةَ؛ وأنَّه تعالى هو الَّذي يُطاعُ لذاتِه، وذلك لأنَّ طاعةَ الرَّسول لكونِه رسولًا فيما هو فيه رسولٌ لا تكونُ إلَّا طاعة الله، فكانت الآيةُ دالَّةً على أنَّه لا طاعةَ لأحدٍ إلَّا لله؛ لأنَّه ربُّ النَّاس، وإلهُهم، ومَلِكُهم[١].

٤- أنَّ الأصلَ فيما قاله الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسلام أنَّه شَرْعٌ؛ لعمومِ قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٢].

٥- قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ فيه الاحتجاجُ بالسُّنَّة، وأنَّها كالقُرآنِ في وجوبِ العملِ بها، ولكن نحتاجُ في السُّنَّةِ إلى إثباتِ نِسبتِها إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه ما دام أنَّها لم تثبُتْ فإنَّها ليست من كلامِ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم[٣].

٦- أنَّ معصيةَ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم معصيةٌ لله، تؤخَذُ بطريق المفهوم؛ لأنَّه إذا كانت طاعتُه طاعةً لله، فمعصيتُه معصيةٌ لله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٤].

٧- قول الله تعالى: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ﴾ قال: (بيَّت) بالتَّذكير، ولم يقل: (بيَّتَتْ) بالتَّأنيثِ؛ لأنَّ تأنيثَ (طائفة) غيرُ حقيقيٍّ، ولأنَّها في معنى الفريقِ والفَوجِ[٥].

٨- أنَّ المنافقين يَحرِصون على أنْ يُخفُوا أعمالَهم؛ ولهذا يُوقِعونها ليلًا؛ لقوله: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٩-١٥٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢).

٩- بُطلانُ التَّقِيَّة الَّتي يتَّخذُها الرَّافضةُ دِينًا، وتؤخَذُ من تهديدِ الله عزَّ وجلَّ هؤلاء الَّذين يتظاهرون بالطَّاعة، ويُبيِّتون خلافَ الطَّاعة؛ وذلك في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾[١].

١٠- إثباتُ العِلمِ للهِ تعالى؛ لقوله: ﴿يَكۡتُبُ﴾، ولا كتابةَ إلَّا بعد عِلمٍ[٢].

١١- قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ في ذِكر تدبُّرِ القرآنِ دلالةٌ على أنَّ القرآن معلومُ المعنى؛ ففي ذلك ردٌّ على مَن قال مِن الرَّافضة: إنَّ القرآنَ لا يُفهَمُ معناه إلَّا بتفسيرِ الرَّسولِ والإمامِ المعصومِ، ولو كان كذلك لَمَا جاز أن يأمُرَ اللهُ تعالى المنافقين بتدبُّرِ القرآن، وأن يُجعَلَ القرآنُ حُجَّةً في صحَّة نبوَّتِه، ولا أن يُجعَلَ عجزُهم عن مثلِه حُجَّةً عليهم[٣].

١٢- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ المرادُ من التَّقييدِ بالكثير المبالغةُ في إثباتِ الملازَمَة، أي: لو كان من عند غيرِ الله، للزِمَ أن يكونَ فيه اختلافٌ كثيرٌ فضلًا عن القَليلِ[٤]، وإذا كان مِن عندِ اللهِ فلن يَجِدوا فيه اختلافًا ولو قليلًا، لكنْ قولُه: ﴿ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ بيانٌ لواقِعِ ما كان مِن عندِ غيرِ الله، وليس هذا قيدًا في أنَّه لو كانَ مِن عند الله لوَجدوا فيه اختلافًا قليلًا؛ إذ إنَّه لا اختلافَ في كِتابِ الله عزَّ وجلَّ[٥].

١٣- إثباتُ أنَّ القرآنَ كلامُ الله، يؤخَذ من قوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّه يدلُّ على أنَّ القرآن من عندِ الله عزَّ وجلَّ، فإذا كان مِن عند الله صار صفةً

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١٨-٣١٩).
(٥) يُنظَر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧).

من صفاتِه، ولا يمكن أن يكون مخلوقًا؛ لأنَّه صفةٌ، وصفةُ الموصوف لازمةٌ له، ليست بائنةً منه[١].

١٤- إثباتُ العِنديَّة لله، كما في قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: إنَّ الشَّيءَ يكون من عنده، وهو كذلك، لكنَّ العنديَّة قد تكون صفةً، وقد تكون قُربًا؛ فقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ العنديَّةُ هذه عنديَّةُ قُربٍ؛ لأنَّهم ملائكةٌ بائنونَ عن الله عزَّ وجلَّ، وإذا قلت: القرآنُ مِن عند اللهِ، فإن هذه عنديَّةُ صفةٍ[٢].

١٥- ما جرَتْ به العادةُ في أنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا نهى عن شيء بيَّن وجهًا آخرَ غيرَ مَنهيٍّ عنه؛ يؤخذ من قوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾[٣].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ دلَّتْ هذه الآيةُ على أنَّ القياسَ حُجَّةٌ في الشَّرع؛ فالله تعالى أمَر المكلَّف بردِّ الواقعة إلى مَن يستنبطُ الحُكمَ فيها، ولولا أنَّ الاستنباطَ حُجَّةٌ لَمَا أُمِر المكلَّفُ بذلك؛ فثبت أنَّ الاستنباطَ حُجَّةٌ، والقياسُ إمَّا استنباطٌ أو داخلٌ فيه، فوجَب أن يكونَ حُجَّة[٤].

١٧- قول الله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ فيه أنَّ في أحكامِ الحوادثِ ما لا يُعرَفُ بالنَّصِّ، بل بالاستنباطِ[٥]، وأنَّ الاستنباطَ واجبٌ على العلماءِ[٦].

١٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٤).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٢).

يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ فيه أنَّ العاميَّ يجب عليه تقليدُ العلماء في أحكام الحوادث[١].

١٩- قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان مكلَّفًا باستنباطِ الأحكام؛ لأنَّه تعالى أمَر بالرَّدِّ إلى الرَّسولِ، وإلى أولي الأمر، فلم يخصُصْ أولي الأمرِ بذلك دون الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

٢٠- أنَّه ليس أمامَنا إلَّا سبيلانِ: سبيلُ السُّنَّة والرَّشاد، وسبيلُ الضَّلال؛ لقوله: ﴿لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾، فإذًا: لا يوجدُ إلَّا الحقُّ أو الضَّلالُ؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢]، وفي هذا ردٌّ على المعتزلةِ القائلين بالمنزلةِ بين منزلتينِ[٣].

٢١- أنَّ محلَّ التَّحريضِ للقِتال- أي: قِتالِ المشركين- هم المؤمنون؛ لأنَّه لم يقُلْ: حرِّض النَّاس، بل قال: ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ فالمؤمِنُ هو الَّذي ينفع فيه التَّحريضُ على القتالِ في سبيل الله[٤].

٢٢- أنَّه مهما بذَلْنا من الجهدِ والجهاد والإعداد فإنَّ الأمرَ بيدِ الله؛ لقول الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، يعني: بعد اجتهادِك وتحريضِك المؤمنينَ على القتال واستعدادِكم وإعدادِكم، الأمرُ بيدِ الله[٥].

٢٣- الاستدلالُ لأهلِ السُّنَّة بأنَّ أعمالَ العباد مخلوقةٌ لله عزَّ وجلَّ، وتؤخَذ من قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، فنسَب ذلك إليه، مع أنَّه يأتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بِفِعْل المؤمنين، لكن نسَبه اللهُ إليه، وأحيانًا يأتي بغيرِ فِعل المؤمنين، مثل قوله تبارك وتعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥][(١)].

٢٤- ﴿عَسَى﴾ مِن الله في القُرآن واجبةٌ؛ أي: واقعةٌ حتمًا، وليستْ للترجِّي؛ لأنَّ الخلق هم الذين تعرض لهم الشكوك والظنون، والله تعالى منزَّهٌ عن ذلك[(٢)].

٢٥- إثبات البأسِ والتَّنكيلِ للهِ عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾[(٣)].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾

- فيه التعبيرُ عنه صلَّى الله عليه وسلَّم بالاسم الظاهر ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ دونَ التعبيرِ بضَميرِ الخِطابِ- حيثُ لم يَقُلْ: (يُطِعْكَ)-؛ للإيذانِ بأنَّ مَناطَ كونِ طَاعتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طاعةً له تعالى، ليس خُصوصيَّةَ ذاتِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل مِن حَيثِيَّةِ رسالَتِه[(٤)].

- وإظهارُ لفظِ الجلالةِ (الله)؛ لتربيةِ المهابةِ، وتَأكيدِ وُجوبِ الطَّاعةِ بذِكرِ عُنوان الألوهيَّةِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩)، ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- **قوله:** ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾: خبرٌ فيه تعريضٌ بهم، وتهديدٌ لهم بأنْ صَرَفه عن الاشتغالِ بهم، فيُعلَم أنَّ اللهَ سيتولَّى عِقابَهم(١).

- وفيه التفاتٌ؛ حيث خاطَب النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالإعراضِ عن المتولِّين والمُعرضينَ عن طاعةِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على طريقةِ الالتفاتِ مِن الغَيبةِ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾ إلى الخطابِ ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾، مبالغةً في التَّحريضِ والحثِّ عليه(٢).

٣- **قوله:** ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾

- تنكيرُ ﴿طَاعَةٞ﴾؛ للتَّعظيم بالتَّعميمِ(٣)، ورفعُها يدلُّ على ثباتِ الطَّاعةِ واستقرارِها، أي: إنَّ كلَّ طاعةٍ منَّا لك دائمًا، نحن ثابتونَ على ذلك(٤).

- قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ فيه: التهديدُ بإعلامِهم أنَّه لن يُفلِتَهم من عقابِه، فلا يَغُرَّنَّهم تأخُّرُ العذابِ مدَّةً(٥).

- والتعبيرُ بصِيغة المضارعِ في قوله: ﴿يَكۡتُبُ﴾ فيه دَلالةٌ على تجدُّدِ ذلك، وأنَّه لا يُضاع منه شيءٌ(٦).

٤- **قوله:** ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: فيه إظهارُ الجَلالةِ في مقامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٣٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإضمار؛ للإشعارِ بعِلَّة الحُكمِ[١]، مع ما فيه مِن تربيةِ المهابةِ والجلالِ.

٥- **قوله**: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: الاستفهامُ يُرادُ به الإنكارُ والاستقباحُ؛ لعدم تدبُّرهم للقُرآن الكريمِ، فهو استفهامٌ إنكاريٌّ للتوبيخِ والتعجُّبِ منهم في استمرارِ جهلِهم، مع توفُّرِ أسباب التدبُّرِ لدَيهم، وإعراضِهم عن التأمُّل فيما فيه من مُوجِباتِ الإيمان[٢].

٦- **قوله**: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾: كلامٌ مسوقٌ مساقَ التوبيخِ للمُنافقين، واللَّوم لِمَن يَقبَلُ مِثلَ تلك الإذاعة مِن المسلمين الأغرارِ[٣].

- والباء في قولِه: ﴿أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ مزيدةٌ لتوكيدِ اللُّصوق؛ كما في: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾[٤] [المائدة: ٦]، أو لتضمُّن الإذاعةِ معنى التَّحدُّث[٥].

٧- **قوله**: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: فيه تلوينٌ للخطاب، وتوجيهٌ له إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطريق الالتفات، وهو جوابُ شرط محذوفٌ يَنساقُ إليه النَّظمُ الكريم، أي: إذا كان الأمرُ كما حُكي مِن عدمِ طاعة المنافقين وكَيدِهم، وتقصيرِ الآخَرين في مراعاةِ أحكامِ الإسلام، فقاتِلْ أنتَ وحْدَكَ غيرَ مكترِثٍ بما فعلوا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٩).

٨- **قوله:** ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ هذا الأسلوبُ طريقٌ من طُرق الحثِّ والتحريض لغير المخاطَب؛ لأنَّه إيجابُ القِتالِ على الرسول، وقد عُلِم إيجابُه على جميع المؤمنينَ بقوله: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤]؛ فهو أمرٌ للقُدوةِ بما يجب اقتداءُ الناسِ به فيه، وبيَّن لهم عِلَّةَ الأمر، وهي رجاءُ كفِّ بأسِ المشركينَ[١].

٩- **قوله:** ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّر لِمَا قبلها[٢]، وهي جملةٌ خبريَّة، مرادٌ بها التقريعُ والتَّهديد[٣].

- وإظهار الاسم الجليل ﴿الله﴾؛ لتربيةِ المهابة، وتعليلِ الحُكم، وتقويةِ استقلال الجملة[٤].

- وتكرير الخبر (أشدُّ- وأشدُّ)؛ لتأكيد التَّشديد[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٣).

(٣) ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الآيات (٨٥ - ٨٧)

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يَشْفَعْ شَفَٰعَةً﴾: شفَع لفُلانٍ إذا جاء مُلتَمِسًا مَطلبَه، ومُعينًا له، والشَّفاعةُ: الانضمامُ إلى آخَرَ؛ نُصرةً له، وسؤالًا عنه، وأصْلُ الشَّفْع: ضمُّ الشَّيء إلى مِثلِه[١].

﴿كِفْلٌ﴾: أي: نصيبٌ، وأَصْل (كفل): يَدلُّ على تَضَمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ[٢].

﴿مُّقِيتًا﴾: أي: قَدِيرًا ومُقْتدِرًا، وقيل: شاهِدًا وحافِظًا، وحقيقتُه: القائِمُ على كلِّ شيءٍ يَحفظُه ويُقيتُه. وأصلُ (قوت): يَدلُّ على قُدرةٍ على الشَّيءِ، والإمساكِ، والحِفظِ[٣].

﴿حَسِيبًا﴾: أي: رقيبًا، وكَافِيًا ومُقتدرًا، وعالِمًا ومحاسبًا، ومنه: أَحْسَبَني هذا الشَّيءُ، أي: كفاني[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٢) ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٢)، ((تفسير الطبري)) (٧/ ٢٧١- ٢٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥، ٨٧٩).

(٤) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٨، ٤١٣).

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّ مَن يسعَ لمعاونةِ غيرِه في أمرٍ من الأمورِ فيه منفعةٌ وخيرٌ لذلك الغَيْرِ، فإنَّ للساعي حظًّا من ثوابِ الله تعالى، ومَن يسعَ في معاونة غيره على أمرٍ من أمور الشَّرِّ يكُنْ عليه جزءٌ من الإثمِ والوِزر المترتِّبِ على سَعيِه ونيَّته، وكان الله على كل شيءٍ مقتدرًا، وهو على كلِّ شيء حفيظٌ وحسيبٌ.

ثمَّ يأمر اللهُ تعالى مَن حُيِّي بتحيَّةٍ أن يرُدَّ بتحيةٍ أحسَنَ ممَّا حُيِّيَ بها، أو يكون الرَّدُّ بمثلها، إنَّ اللهَ كان على كلِّ شيءٍ- مِن طاعةٍ أو معصيةٍ- حفيظًا ومحصيًا، حتَّى يجازيَ فاعلَها عليها.

ثمَّ يقرِّرُ اللهُ تعالى أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو سبحانه وتعالى، وأنَّه سيحشُر جميعَ الخَلْق إلى موقفِ الحسابِ، لا شكَّ أبدًا أنَّ ذلك الجمعَ واقعٌ، فإنَّه لا أحدَ أصدقُ من الله تعالى في حديثِه وخبَرِه ووعدِه ووعيدِه.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾.

أي: مَن يَسعَ في معاونةِ غيرِه بما يجلِبُ له النَّفعَ والخير، ويدفعُ عنه الضُّرَّ والشَّرَّ[1].

﴿ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٤-٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١).

أي: يكُنْ له حظٌّ من ثواب الله تعالى[١].

عن أَبي موسى الأشعري رضِي اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا جاءَه السائلُ، أو طُلِبَتْ إليه حاجَةٌ، قال: اشفَعوا تؤجَروا، ويَقضي اللهُ على لسانِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما شاء))[٢].

﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾.

أي: ومَن يَسعَ في مُعاونةِ غيرِه على أَمرٍ من الشَّرِّ[٣].

﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾.

أي: يكُنْ عليه وِزرٌ وإثمٌ مِن ذلك الأمرِ الَّذي تَرتَّبَ على سَعيِه ونيَّتِه[٤].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وحفيظٌ وحسيبٌ، فيُجازي كُلًّا بما يستحقُّه[٥].

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١).

(٢) رواه البخاري (١٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧-٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨).

لمَّا أمَر الله المؤمنينَ بالجهادِ أمرهم أيضًا إذا رضي الأعداءُ بالمسالمةِ أن يكونوا هم أيضًا راضين بها، فقولُه: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ كقولِه تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١].

وأيضًا لما كان الرجلُ في الجهادِ يلقاه الرجلُ في دارِ الحربِ أو ما يقاربُها فيسلِّم عليه، فقد لا يلتفتُ إلى سلامِه عليه ويقتلُه، وربَّما ظهَر أنَّه كان مسلمًا، فمنع الله المؤمنينَ عنه، وأمَرهم أن يقابلوا كلَّ مَن يسلِّم عليهم، ويكرمُهم بنوع مِن الإكرامِ- أن يقابلوه بمثلِ ذلك الإكرامِ أو أزيدَ[(١)].

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾.

أي: وإذا سُلِّم عليكم بسلامٍ، وحُيِّيتم بأيِّ تحيةٍ كانت، أو دُعِي لكم بطولِ الحياةِ والبَقاء[(٢)].

﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾.

أي: فرُدُّوا التَّحيةَ والسَّلام، وادْعُوا لِمَن دعَا لكم بأحسَنَ ممَّا حيَّاكم ودعا لكم به وأفضَلَ، لفظًا وبَشاشةً، أو رُدُّوا عليه بمثلِ دُعائِه وتحيَّتِه[(٣)].

عن أبي هُرَيرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((خلَق اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٦٦).
قال القاسمي: (نكتةُ نظمِها مع آياتِ الجهادِ هو التمهيدُ لمنعِ المؤمنين مِن قتلِ مَن ألقَى إليهم السَّلام في الحربِ الآتي قريبًا، ببيانِ أنَّ لكلِّ مسَلِّم حقًّا يؤدَّى إليه؛ وذلك لأنَّ السَّلام نوعٌ مِن الإكرام. والمكرَم يُقابَل بمثلِ إكرامِه أو أزيدَ). ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩-٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩-٤١).

آدمَ على صورتِه، طولُه ستُّونَ ذراعًا، فلمَّا خلَقه، قال: اذهبْ فسلِّمْ على أولئك؛ نفرٍ من الملائكةِ جلوسٍ، فاستمِعْ ما يُحيُّونك؛ فإنَّها تحيَّتُك وتحيَّةُ ذرِّيَّتِك، فقال: السَّلامُ عليكم، فقالوا: السَّلامُ عليك ورحمةُ اللهِ، فزادوه: ورحمةُ اللهِ، فكلُّ مَن يدخلُ الجنَّةَ على صورةِ آدمَ، فلم يزَلِ الخَلْقُ ينقُصُ بعدُ حتَّى الآن))[١].

وعن عِمران بن الحُصين رضِي اللهُ عنه، قال: ((جاءَ رجلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ: السَّلامُ عليكُم، فردَّ عليهِ ثمَّ جلَسَ، فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: عشرٌ، ثمَّ جاءَ آخَرُ فقالَ: السَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّهِ، فردَّ عليهِ ثمَّ جلسَ، فقالَ: عِشرون، ثمَّ جاءَ آخرُ فقالَ: السَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّهِ وبرَكاتُهُ، فردَّ عليهِ فجلسَ، فقالَ: ثلاثونَ))[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ ممَّا يعمَل النَّاسُ من طاعةٍ أو معصيةٍ حفيظٌ ومُحْصٍ له، حتَّى يجازيَهم به[٣].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾.

---

(١) رواه البخاري (٦٢٢٧).

(٢) رواه أبو داود (٥١٩٥)، و الترمذي (٢٦٨٩)، وأحمد في ((المسند)) (١٩٩٤٨)، والدارمي (٢٦٨٢).
قال الترمذيُّ: حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وحسن إسناده البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٨٤٨٠)، وقوى إسناده ابن حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٨)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((تخريج المشكاة)) (٣/ ١٣١٨). وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٠٢٩):حسن على شرط مسلم.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠، ٤٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَر قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]، تلاه بالإعلام بوحدانيَّة الله تعالى، والحشْرِ، والبَعثِ مِن القُبور للحساب[١]، فقال:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى وحْدَه هو المعبود بحقٍّ، فلا يستحقُّ العبادةَ إلَّا هو سبحانه[٢].

﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

أي: واللهِ ليحشرَنَّكم اللهُ تعالى جميعًا إلى موقِفِ الحساب، فيجمَعُ أوَّلَكم وآخِرَكم في صعيدٍ واحد، فيُجازي كلَّ عاملٍ بعمله[٣].

﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾.

أي: لا شكَّ بوجهٍ من الوجوه في حقيقةِ أنَّ الله عزَّ وجلَّ سيجمَعُ النَّاسَ يوم القيامة بعد مماتهم[٤].

﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾.

أي: لا أحدَ أصدقُ منه في حَديثِه وخَبرِه، ووعْدِه ووعِيدِه سبحانه؛ فحديثُه وأخبارُه وأقوالُه في أعلى مراتبِ الصِّدقِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٩-٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي))

الفَوائِد التربويَّة:

١- الحثُّ على التَّعاونِ على البِرِّ والتَّقوى؛ وذلك بإعطاءِ المتعاونين نصيبًا من الأجرِ على ما تعاونوا عليه، قال تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾[١].

٢- الزجرُ عن التعاون على الإثم والعدوانِ، فمن مَن شارَك في عملٍ سيِّئٍ، كان له نصيبٌ منه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾[٢].

٣- التَّحذيرُ مِن الشَّفاعةِ السَّيِّئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾[٣].

٤- أنَّ اللهَ سبحانه مُقِيتٌ على كلِّ شيء، أي: مقتدرٌ عليه، ويلزَمُ مِن هذا أن يحذَرَ الإنسانُ من مخالَفةِ الله؛ لأنَّ الله تعالى حفيظٌ عليه ومقتدِرٌ عليه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ فيه أنَّ الردَّ على المسلم يكونُ بأحسنَ مِن سلامِه أو بما يماثله[٥]، وفي ذلك إشارةٌ إلى حُسنِ العِشرة وآدابِ الصُّحبة، وأنَّ مَن حمَّلك فضلًا زِدتَ على فِعلِه، وإلَّا فلا تنقُصْ عن مِثْله[٦].

(ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٤).

٦- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ إنَّه من توحيدِ الله- سبحانه- وإفرادِه بالألوهيَّةِ تبدأُ خُطُواتُ المنهج الرَّبَّانيِّ- سواءٌ في تربية النُّفوس، أم في إقامةِ المجتمع، ووَضْع شرائعه وتنظيمِه، وسواءٌ كانت هذه الشَّرائعُ متعلِّقةً بالنِّظام الدَّاخليِّ للمجتمع المسلِم، أم بالنِّظام الدَّوليِّ، الَّذي يتعامَلُ هذا المجتمعُ على أساسِه مع المجتمعاتِ الأخرى[١].

الفوائد العلميَّة اللَّطائف:

١- قال تعالى: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَا﴾ من العِبرَةِ في الآيةِ أن نتذكَّرَ بها أنَّ الحاكمَ العادلَ لا تنفعُ الشَّفاعةُ عنده إلَّا بإعلامِه ما لم يكُنْ يعلَمُ من مظلِمةِ المشفوعِ له، أو استحقاقِه لِما يُطلَب له، ولا يقبَلُ الشَّفاعة لأجل إرضاءِ الشَّافعِ فيما يُخالِفُ الحقَّ والعدلَ، وينافي المصلحةَ العامَّة[٢].

٢- الأمرُ بردِّ السَّلام في قوله: ﴿فَحَيُّواْ﴾، يُفيد وجوبَ الرَّدِّ؛ لأنَّ أصلَ صيغةِ الأمرِ أن تكونَ للوجوبِ[٣].

٣- أنَّ ردَّ التَّحيَّة يكونُ على وجهين؛ مجزئٍ وأفضلَ: فالمجزئُ مأخوذٌ من قوله: ﴿أَوۡ رُدُّوهَآ﴾، والأكملُ والأفضل من قوله: ﴿بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾، وقُدِّم الأحسنُ على المِثل؛ لأنَّه أكملُ وأفضلُ، فتقديُم قولِه: ﴿بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ ذلك أفضلُ[٤].

٤- مراعاة الإسلامِ للعدل؛ لقوله: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠).

٥- أنَّه لا يُجزئُ الرَّدُّ بغير السَّلام، فإذا قال المسلم: السَّلام عليك، فقلت: أهلًا وسهلًا، فلا يُجْزئ؛ لأنَّ هذه التَّحيَّةَ ليست مِثلَها ولا أحسنَ منها؛ إذ إنَّ قولَ المسلم: السَّلام عليكم، دعاءٌ لك بالسَّلامةِ مِن كلِّ الآفات البدنيَّة والماليَّة والقلبيَّة وغيرِها[١].

٦- يُستفادُ مِن قوله تعالى: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾، أنَّه يُطلَب من المُسَلَّمِ عليه أن يرُدَّ بأكمَلَ، إمَّا بالكمِّيَّة وإمَّا بالكيفيَّة، فإذا قال: السَّلام عليك. فالأحسنُ: عليك السَّلامُ ورحمة الله، هذا بالكمِّيَّة. أمَّا الكَيفيَّة: فإذا قال: السَّلام عليك، بصوت مرتفعٍ مسموعٍ يدلُّ على التَّواضعِ فقلت: عليك السَّلام، بصوت مثلِه أو أبينَ فهذا ردٌّ صحيحٌ بالكيفيَّة[٢].

٧- يُؤخذ من الآيةِ الكريمةِ ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾: الحثُّ على ابتداءِ السَّلام والتَّحيَّة من وجهين: أحدهما: أنَّ اللهَ أمَر بردِّها بأحسَنَ منها أو مثلِها؛ وذلك يستلزمُ أنَّ التَّحيَّة مطلوبةٌ شرعًا، الثَّاني: ما يستفاد من أفعل التَّفضيلِ، وهو (أحسن) الدَّالُّ على مشاركة التَّحيَّة وردِّها بالحَسن، كما هو الأصلُ في ذلك[٣].

٨- لَمَّا صار لفظُ السَّلامِ تحيَّةَ المسلمين صارتِ التَّحيَّةُ به عنوانًا على الإسلامِ؛ كما في قوله تعالى من هذه السُّورة: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾[٤] [النساء: ٩٤].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾ الفاء

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٥٤).

في قوله (فحيُّوا) تفيد أنَّ الرَّدَّ يكونُ على الفَوْرِ[١].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾، فِعل (كان) يدلُّ على أنَّ ذلك الوصفَ وصفٌ مقرَّرٌ أزَليٌّ[٢].

١١- أنَّ من أسماء الله الحسيب، فهو عزَّ وجلَّ حسيبٌ على كلِّ شيء؛ يحاسِبُ كلَّ مَن عمل عملًا بما يقتضيه عملُه، ويكفي مَن توكَّل عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾[٣].

١٢- التَّوحيدُ والإيمان بالبعث والجزاء في الدَّار الآخرة هما الرُّكنانِ الْأَوَّلانِ للدِّينِ، وإنَّما الرُّسلُ يُبلِّغون النَّاسَ ما يجبُ مِن إقامتِهما ودعمِهما بالأعمال الصَّالحة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾[٤].

١٣- قول الله تعالى: ﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ القيامة والقِيام بمعنًى واحدٍ، وقيل: دخلتِ الهاءُ للمبالغة لشدَّةِ ما يقعُ فيه من الهولِ[٥].

١٤- إثبات الكلامِ لله عزَّ وجلَّ، يؤخَذ من قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، مِن قوله: ﴿أَصۡدَقُ﴾ ومن قوله: ﴿حَدِيثًا﴾، والصِّدقُ إنَّما يوصَفُ به الكلامُ، والحديثُ هو الكلام، وعلى هذا فيكونُ إثباتُ كلامِ الله عزَّ وجلَّ من الكلمتينِ جميعًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢)، ((صفات الله عز وجل)) لعلوي السقاف (ص: ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦، ٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧).

١٥- وجوبُ الإيمانِ بما أخبَر اللهُ به عن نفسِه، وعن أمورِ الغيبِ كلِّها؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾، فإذا أخبر اللهُ عن نَفْسِه بشيء، أو عن الأمور الغائبةِ بشيءٍ، وجَب علينا تصديقُه؛ فكلامُه وخبره صِدقٌ لا كذِبَ فيه بوجهٍ من الوجوه؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ أي: مِن اسم التَّفضيل؛ لأنَّ اسمَ التَّفضيلِ يجعَلُ المفضَّل في قمَّةِ الوصف، وعلى هذا فليس في كلامِ الله سبحانه تعالى شيءٌ من الكذِبِ إطلاقًا[١].

١٦- وصفُ كلامِ اللهِ تعالى بالحَديثِ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ وهو كذلك[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾

- قوله: ﴿نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ و﴿كِفْلٌ مِّنْهَا﴾: فيه مناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ عبَّر عنِ الجزاءِ في جانبِ الشَّفاعة الحسنةِ بأنَّه ﴿نَصِيبٌ﴾؛ إيماءً إلى أنَّه قد يكونُ له أجرٌ أكثرُ مِن ثوابِ مَن شفَع عندَه، وعبَّر بـ﴿كِفْلٌ﴾ عن الجزاءِ في جانبِ الشَّفاعة السيِّئة؛ إشارةً إلى أنَّ مَن يَشفَعُ شفاعةً سيِّئةً يكون له نصيبٌ من وِزْرها مُساوٍ لها في المِقْدارِ من غَيرِ أنْ يَنقُصَ منه شيءٌ؛ فالنصيبُ هو الحظُّ مِن كلِّ شيءٍ، والكِفلُ الحظُّ كذلك، ويُستعمَلُ الكِفلُ بمعنى المِثل؛ فيُؤخذُ من ذلك: أنَّ الكفلَ هو الحظُّ المماثِلُ لحظٍّ آخَر[٣]. وقيل: عبَّر بـ﴿كِفْلٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٤).

عن الجزاءِ في جانبِ الشَّفاعة السيِّئة؛ لأنَّه يُفهَم منه النَّصيبُ ويُفهَمُ أكثرُ مِنه؛ تغليظًا في الزَّجرِ؛ إذ الكِفلُ اسمٌ للنَّصيبِ الذي عليه يَكونُ اعتمادُ الناسِ، في تَحصيلِ المصالحِ لأنفسِهم، ودَفْع المفاسِدِ عن أنفسِهم؛ والغَرضُ من قوله: ﴿كِفۡلٞ مِّنۡهَاۖ﴾ التنبيهُ على أنَّ الشفاعةَ المؤدِّيةَ إلى سُقوطِ الحقِّ وقوَّةِ الباطلِ تكونُ عَظيمةَ العِقابِ عِندَ اللهِ تعالى[١].

٢- **قوله**: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾: تذييلٌ لجملة ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ﴾؛ لإفادةِ أنَّ الله يُجازي على كلِّ عملٍ بما يناسبه مِن حُسنٍ، أو سوءٍ[٢].

٣- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾: تذييلٌ لقصدِ الامتنانِ بهذه التعليماتِ النافعة، وقيل: في هذا التَّذييلِ وَعْدٌ بالجزاءِ الحَسَنِ على قَدْرِ فَضْلِ ردِّ السَّلامِ، أو بالجزاءِ السَّيِّئ على ترْك الردِّ مِن أصلِه[٣]، فهو ترغيبٌ وترهيبٌ، أو للتَّحذيرِ مِن عَدمِ ردِّ التَّحيَّة بمثلِها أو أحسَنَ، فيُحْذَر من التعرُّض لمحاسبةِ الله عزَّ وجلَّ الذي هو على كلِّ شيءٍ حسيبٌ[٤].

- وقد أُكِّد وصفُ الله تعالى بأنَّه حسيبٌ بمؤكِّدين: حرف (إنَّ)، وفِعل (كان) الدالِّ على أنَّ ذلك وصفٌ أزليٌّ[٥].

٤- **قوله**: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾: استئنافٌ ابتدائيٌّ، جمَع تمجيدَ الله، والتهديد، والتحذيرَ من مخالَفَة أمْرِه، والتَّقرير

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٧).

للإيمانِ بيومِ البَعثِ، والردِّ لإشراكِ بعضِ المنافقينَ وإنكارِهم البعث[١].

- وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إمَّا خبرٌ للمبتدأِ ﴿ٱللَّهُ﴾، وإمَّا اعتراضٌ، والخبرُ جُملةُ ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾؛ وجِيءَ بالاعتِراضِ لتَمجيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

- وقوله: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ جوابُ قَسمٍ محذوفٍ، واقِعٌ جميعُه موقعَ الخبرِ عن اسمِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، وأُكِّد هذا الخبر: بلام القَسَم، ونون التوكيد دلالةً على تقديرِ القَسَم؛ لإنكارِ المنكِرين ليوم القيامة؛ لتقويةِ تحقيقِ هذا الخبر؛ إبطالًا لإنكار الذين أنكروا البعثَ[٣].

- وقوله: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ لَمَّا كان التَّدريجُ بالإماتة شيئًا فشيئًا، عبَّر بحرفِ الغاية (إلى)؛ فالمرادُ ليجمعَنَّكم في الموتِ أو القُبورِ إلى يومِ القيامة[٤].

٥- **قوله**: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ هذا استفهامٌ معناه النَّفيُ، والتَّقدير: لا أحدَ أصدقُ مِن الله حديثًا[٥]؛ فالاسْتِفهامُ عن أنْ يَكُونَ أحَدٌ أَصدَقَ مِنَ اللَّهِ تعالى هوَ اسْتِفهامٌ إِنْكَارِيٌّ؛ فهو إنكارٌ أنْ يكونَ أحدٌ أكثرَ صِدقًا منه؛ فإنَّه لا يتطرَّق الكذبُ إلى خبرِ الله تعالى بوجهٍ؛ لأنَّ الكذبَ نقصٌ، وهو على اللهِ تعالى مُحالٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧).

(٦) يُنظَر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٨).

- وفي قوله: ﴿حَدِيثًا﴾ تتميمٌ؛ حيث أَتْبَعَ الكلامَ بهذه الكلمة التي تَزيدُ المعنى تمكُّنًا وبيانًا للمعنى المراد[1].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٥١).

الآيات (٨٨ - ٩١)

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿فِئَتَيْنِ﴾: فِرْقَتينِ مُختلفتينِ، مُثنَّى فِئة، وهي: الجماعة المُتظاهرةُ الَّتي يرجِع بعضُهم إلى بعضٍ في التعاضُد(١).

﴿أَرْكَسَهُم﴾: نَكَّسَهم وردَّهم في كُفرِهم، وأصل الرِّكْسِ: قلبُ الشَّيءِ على رأسِه، وردُّ أوَّله إلى آخره(٢).

﴿يَصِلُونَ﴾: يَنتسِبون، أو يتَّصلون بقوم، مِن قولِهم: اتَّصَلَ الرَّجلُ، بمَعْنَى:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٣) ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢).

انْتَمَى وانْتَسَب، ويُقال: فلانٌ مُتَّصِلٌ بفلان: إذا كان بينهما نِسْبة أو مُصاهرةٌ، والوصلُ: ضِدُّ الهِجرانِ، وأصل (وصل): يدُلُّ على ضَمِّ شيءٍ إلى شيءٍ حتَّى يَعلَقَه[١].

﴿مِّيثَٰقٌ﴾: أي: عقدٌ وعَهْدٌ مؤكَّد بيمينٍ، أو عهدٌ مُحكَم، وأصلُه: العقدُ والإحكام[٢].

﴿حَصِرَتْ﴾: أي: ضاقتْ، والحصْر: التَّضييق، وأصل (حصر): الحَبْسُ والمَنْعُ[٣].

﴿ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾: اجتَنبوُكم وتَنحَّوْا عَنكُم، والاعتزال: تجنُّب الشَّيء؛ بِالبَدنِ كان ذلِك أو بالقَلبِ، وأصلُ (عزل): يدلُّ على تنحيةٍ وإمالةٍ[٤].

﴿ٱلسَّلَمَ﴾: أي: الصُّلح، والسَّلَم اسمٌ بإزاء الحَرْب، وهو أيضًا التَّعرِّي من الآفاتِ الظَّاهرة والباطنة، والاستسلامُ والانقياد، وأصل (سلم): يدلُّ على الصِّحَّة والعافية[٥].

﴿ٱلۡفِتۡنَةِ﴾: أي: الشِّرْكِ والكُفر، والشَّرِّ والعذاب، وهي في الأصْل: الاختِبار والابتلاء والامتِحان؛ مأخوذة من الفَتْن: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١، ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١، ٤٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦، ١٤٢).

من رَداءتِه[١].

﴿سُلْطَٰنًا﴾: أي: حُجَّة، وأصْل السُّلطان: القوَّة والقهر، مِن التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطان سُلطانًا[٢].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخاطب اللهُ تعالى المؤمنين: ما شأنُكم أيها المؤمنون في المنافقين فِئتَينِ مختلفتَينِ؛ فئةً منكم تُكَفِّرُهم، وفئةً أخرى لم تكفِّرْهم، والحالُ أنَّ الله ردَّ هؤلاءِ المنافقين إلى الكُفر، وأوْقَعَهم فيه؛ بما عَمِلُوه واقترفُوه من السَّيِّئات، فلا ينبغي الشكُّ فيهم، فهل يريد الشَّاكُّون في أمرِهم من المؤمنين أن يَهْدُوا مَنْ خَذَلَه الله، ولم يُرِدْ هِدَايَته، بلِ الشَّأْنُ أنَّ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فلا سبيلَ إلى هدايتِه أبدًا.

ثمَّ يُخبِرُ الله تعالى المؤمنينَ أنَّ هؤلاء المنافقين يَرْجُون أن يقع المؤمِنون في الكُفر، كما وقعوا هم، فَيَسْتَوُوا معهم، ناهيًا سبحانه عبادَه المؤمنين أنْ يتَّخذوا من المنافقينَ أولياءَ حتَّى يُؤمِنوا ويُهاجروا في سبيل الله؛ مِنْ دارِ الكفر وأهلِه إلى دار الإسلام وأهلِه، فإنْ أعْرَضُوا عن الإيمانِ والهِجْرة فلْيُقاتِلْهم المؤمنونَ ويأسِرُوهم، ويَقْتُلوهم أينما وَجَدُوهم، ولا يُوالُوا منهم أحدًا، ولا يَتَّخِذوا منهم نصيرًا.

ثمَّ استثْنَى الله تعالى من هؤلاء المنافقينِ الَّذين أوْجَبَ قتالَهُم وأخْذَهم أسْرى، مَنْ لجأ إلى قومٍ بينهم وبينَ المؤمنين هُدْنة بترْك القِتال، فَلْيجْعَلُوا حُكْمَ هؤلاء المنافقين كحُكْمِ هؤلاء المُهَادَنينَ، أو إنْ أتى هؤلاء المنافقونَ المؤمنينَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩- ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

وقد أبغضوا قتالَهم، وأبغضوا القتالَ مع المؤمنين ضدَّ قَوْمِهم، فلا هُمْ مع المؤمنين ولا ضِدُّهم، فَلْيَتْرُكِ المؤمنون قتالَهُم أيضًا، ولو شاء الله لسلَّط هؤلاء المنافقين على المؤمنين فَقَاتلوهم، ولكنْ لِلُطْفه بهم كفَّهُم عنهم، فإنِ انْصَرَف المنافقون عن قتال المؤمنين، وآثروا المُسالمة والصُّلح، فعندها لا يُبيحُ الله للمؤمنين قتلَهُم ولا غُنْمَ أموالهم ولا سَبْيَهم أو سَبْيَ ذَرَارِيِّهم.

ثمَّ يُخبِر اللهُ تعالى المؤمنين أنَّهم سيجِدُون صِنْفًا آخرَ من المنافقين، يُريدون أن يأمَنُوهم فيُظْهِرون الإسلام، ويريدون كذلك أن يَأْمَنوا قَومَهم الكُفَّارَ، فيعبُدون مع قومهم ما يَعْبُدونه مِنْ دُون الله، كَلَّما دُعُوا إلى الشِّرْك والكفْرِ بالله تعالى أجابوا، فازدادوا تعمُّقًا فيهما، فهؤلاء الصِّنفُ من المنافقين إنْ لم يَتْرُكوا قتالَ المؤمنين، ويَمِيلوا للمُسالَمَة والصُّلح، فَلْيُقاتلْهم المؤمنون، وَلْيَأسِرُوهم، وَلْيَقْتُلوهم أينما وَجَدُوهم، وقد جعل الله للمؤمنين حُجَّةً واضِحةً على هؤلاء في استِحْقَاقهم للقتل.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآيةُ تفريعٌ عن أخبارِ المنافقينَ الَّتي تقدَّمَت؛ لأنَّ ما وُصِف من أحوالهم لا يترُكُ شكًّا عند المؤمنين في خُبْثِ طَوِيَّتِهم وكُفْرِهم. وقيل: هي تفريعٌ عن قوله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ فقد حدَّث الله تعالى عنهم بما وُصِف من

سابِقِ الآيِ، فلا يَحِقُّ التَّردُّد في سوءِ نواياهم وكفْرِهم[١].

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾.

فَلِمَ اختلفْتُم- أيُّها المؤمنون- في شأنِ المنافقين على قَوْلَينِ؛ ما بين مُكَفِّرٍ لهم وغَيْرِ مكفِّرٍ[٢]؟

﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾.

أي: والحالُ أنَّ الله تعالى قد ردَّهُم إلى الكُفرِ وأوقَعَهُم فيه؛ بسَببِ ما اقْتَرفوه مِن آثامٍ وسيِّئاتٍ؛ فلا يَنبغي لكم أنْ تَشْتَبِهوا فيهم، ولا تَشكُّوا، بل أمْرُهم واضحٌ غيرُ مُشكِل، فالصَّوابُ مع مَن قال: إنَّهم كافِرون[٣].

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾.

أي: أتودُّون- أيُّها المؤمنون- أنْ تُوَفِّقُوا للإقْرَارِ بدِينِ اللهِ تعالى، والدُّخول فيه مَنْ خَذَلَه اللهُ عنه، فَلَمْ يُوَفِّقْهُ لذلك[٤]؟

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

أي: ومَنْ خَذَلَه الله تعالى عن دِينِه، فلم يوفِّقْه لسُلُوك طريقِ الهدى، فلا طريقَ له إليه، ولا مَخْلصَ له إليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩-٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨٩-٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠).

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال تَعَالى قبل هذه الآية: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ وكان ذلك استفهامًا على سبيل الإنكار- قرَّر ذلك الاستبعادَ بأنْ قال: إنَّهم بلغُوا في الكُفْر إلى أنَّهم يتمنَّوْن أنْ تصيروا- أيُّها المسلمون- كُفَّارًا، فلمَّا بلغُوا في تعَصُّبِهم في الكفر إلى هذا الحدِّ، فكيف تَطْمَعُون في إيمانِهِم[1]؟

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ المنافقِينَ الَّذين اختلفتُم فيهم- أيُّها المؤمنون- إلى فِئتينِ، يتمنَّوْن لكم الوقوعَ في الكُفْر، فتكونون كُفَّارًا مثلَهُم، وتَسْتَوونَ أنتم وهُمْ في ذلك[2].

﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا شرَحَ اللهُ تعالى للمؤمنينَ كفرَ هؤلاء وشِدَّة غُلُوِّهم في ذلك الكُفْر، شَرَح للمؤمنين بعدَ ذلك كيفيَّةَ الْمُخَالطة معهم؛ فقال[3]:

﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فلا تتَّخِذوا منهم أولياءَ وأخِلَّاءَ تُوالُونهم أو يُوالونَكم، حتَّى يُؤمِنوا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٥-٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧٠).

ويقدِّموا إثباتًا على إيمانِهم، بمفارقَةِ دار الشِّرْك وأهلِه إلى دار الإسْلام وأهلِه؛ ابتغاءَ دينِ الله تعالى ومَرْضَاته[١].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

أي: فإنْ أعْرَضُوا عنِ الإيمانِ باللهِ تعالى، وترَكوا الهجرةَ في سَبِيله سبحانه، فاحْمِلوا عليهم بالقِتال، وخُذُوهم أسرى، واقتلُوهم في أيِّ مكانٍ وجدتموهُم فيه[٢].

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

أي: ولا تُوالُوا أيَّ أحدٍ منهم ولا تتَّخذوا منهم خليلًا، يُوالِيكم على أموركم، ويكونُ موضِعَ أسرارِكم ومَشُورتكم ومَحبَّتكم، ولا تطلُبوا من أيِّ أحدٍ منهم نُصْرةً لكم على أعدائِكُم[٣].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمرَ الله سبحانه وتعالى بِقَتْل هؤلاءِ الكُفَّارِ في الآيةِ السَّابقةِ، استثنَى مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٥-٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧١-٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٨).

ذلك ما في هذه الآيةِ[١]، فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

أي: سِوَى مَن لَجَأ من هؤلاء المنافقينَ إلى قومٍ بينكم وبينهم مُهادَنَةٌ وعَهْد ومِيثاقٌ بترْك القتال، فدخلوا فيهم، فاجعلُوا حُكْمَهم كَحُكْمِهم في حَقْنِ الدِّمَاء والأمْوَال[٢].

﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾.

أي: أو أَتَوْكم وقدْ ضاقتْ صُدورُهم عن قِتَالكم، أو قِتَالِ قومِهم، فيُبْغِضُون قِتَالكم، ولا يَهُون عليهم أيضًا قِتَالُ قومِهم معكم؛ فلا هُمْ لكم ولا عليكم، فاتْرُكوا قِتالَ وقَتْلَ هذه الطائفةِ أيضًا[٣].

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الكَفُّ عن هؤلاء ممَّا قد يثْقُل على الْمُسلمينَ؛ لِمَا جرَت عليه عادةُ العرب من الشِّدَّة في أمر الْمُعاهَدِين والْمُحالَفِين وتَكْلِيفهم قتالَ كلِّ أحدٍ يقاتِلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).

قال الشنقيطي: (فالاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ ...﴾ الآية لا يرجع قولًا واحدًا، إلى الجملةِ الأخيرةِ، التي تليه، أعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ لأنَّه لا يجوزُ اتِّخاذ وليٍّ ولا نصيرٍ من الكفارِ أبدًا، ولو وصلوا إلى قومٍ بينكم، وبينهم ميثاقٌ، بل الاستثناءُ راجعٌ للأخذِ والقتلِ في قوله: ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾) ((أضواء البيان)) (٥/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٤-٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).

مُحَالِفِيهم، ولو كانوا من الأهل والأقربين، قال تعالى مخفِّفًا ذلك عنهم، ومؤكِّدًا أمرَ مَنْعِ قتالِ الْمُسالِمِين[١]:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾.

أي: ولو شاءَ الله عزَّ وجلَّ لسلَّط عليكم- أيُّها المؤمنون- هؤلاءِ المنافقين فقاتَلوكم، ولكِنْ مِنْ لُطْفِه بكم أنْ كَفَّهُم عنكم[٢].

قيل المقصود بهم هنا: الطَّائفةُ الثَّانية[٣]، وقيل: كِلتَا الطَّائِفَتينِ الْمُسالِمتَيْنِ الَّلتيْنِ استثنَاهما الله تعالى مِنْ قتالِهم وقتلِهم[٤].

﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾.

أي: فإنِ انْصَرَف عن قِتالِكم هؤلاء الَّذين أمَرْتُكم بالكفِّ عن قِتَالِهم من المنافقين، وآثَرُوا الْمُسَالمة، وصالَحُوكم[٥].

﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

أي: إذا استَسْلَمَ لكم هؤلاء المنافقون صُلحًا منهم لكم، فلم يَجعلِ اللهُ تعالى لكم على أنفسِهم وأموالِهم وذَرَارِيِّهم ونِسائِهم طريقًا مُباحًا إلى قَتْلٍ أو سِبَاءٍ أو غَنِيمة[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٥/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٦-٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٦-٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٢).

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الله تعالى صِفةَ الْمُجِدِّين في إلْقاء السَّلَم، وتركِ قتالِ المسلمينَ، نبَّهَ على طائفةٍ أخرى مُخَادِعَة[1]، فقال:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾.

أي: ستطَّلِعون- أيُّها المؤمنون- على صِنفٍ آخَرَ من المنافقين يُظْهِرون للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ولأصحابه الإسلامَ؛ خوفًا منهم لِيَأْمَنوا بذلك على دِمَائهم وأموالِهم وذَرَارِيِّهم ونسائِهم، ويُصَانِعون قومَهُم الكُفَّارَ في الباطِنِ، فيعبدُون معهم ما يعبُدُون من دونِ الله تعالى؛ لِيَأمَنُوا كذلك عِنْدَهم على دمائِهم وأموالِهم وذرارِيِّهم ونسائِهم[2].

﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَا﴾.

أي: كلَّما عَرَضَتْ لهم فتنةٌ بدَعْوَتهم إلى الكُفْر والشِّرْك بالله تعالى، أجابوا إلى ذلك، فازدادُوا إيغالًا وانْهِماكًا في الكُفْر والشِّرْك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٥).
قال السعديُّ: (فإنَّ الفِرقة الثانية ترَكوا قتالَ المؤمنين احترامًا لهم، لا خوفًا على أنفسهم، وأمَّا هذه الفرقة فتركوه خوفًا لا احترامًا) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٠، ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٥).

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾.

أي: فَهُؤلاء إنْ لم يترُكُوا قتالَكم، ولم يَسْتَسلِمُوا إليكم ويُصَالِحُوكم[(١)].

﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾.

أي: فخُذُوهم أسْرى، وأَعْمِلوا فيهمُ القتْلَ أينما لَقِيتُمُوهم؛ فإنَّ دماءَهم حلالٌ لكم[(٢)].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

أي: وهؤلاء جَعَلْنا لكم حُجَّةً واضحةً في استحقاقِهِم القتلَ[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- الأعمالُ تتوالدُ مِنْ جِنْسِها، فالعملُ الصَّالِح يأتي بزيادةِ الصَّالِحاتِ، والعملُ السَّيِّئُ يأتي بالمعاصِي، فالعملُ سببٌ في بُلُوغ الغاياتِ مِنْ جِنْسِه؛ يرشدنا إلى ذلك قولُ الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ فَقَد جَعَل الله ردَّ الْمُنافقين إلى الكُفْر جزاءً لِسُوءِ اعتِقَادِهِم، وقلَّةِ إخلاصِهِم مع رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم[(٤)].

٢- في قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيد الله، ويتفرَّع على هذه الفائدةِ: ألَّا تُسْأَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٣-٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٩).

الهدايةُ من الضَّلالِ إلَّا من الله عزَّ وجلَّ، وأنْ يُجعلَ السؤالُ لبعضِ النَّاسِ كيف اهتدى، يُجْعل سؤالًا عن السَّبب والطَّريقِ، وأمَّا الَّذي بِيَدِه أزِمَّةُ الأمور فهو الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال الله لنَبِيِّه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1] [القصص: ٥٦].

٣- التَّنْبيه على الإخلاص، نستفيدُ ذلك من قولِ الله تعالى ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقيَّدَ الهجرةَ بكونِها في سبيل الله؛ فإنَّه ربَّما كانتِ الهِجْرةُ مِنْ دارِ الكُفْرِ إلى دار الإسلام، ومِنْ شِعَار الكفر إلى شِعَار الإسلام لغَرَضٍ من أغراضِ الدُّنيا، إنَّما الْمُعتبَر وقوعُ تلك الهِجْرة لأجْلِ أمر الله تعالى[2].

٤- التَّحذيرُ من الوقوعِ في الفِتَن، وأنَّ الإنسان كلَّما وقع في الفتنة أُرْكِسَ فيها، قال تعالى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قولُ الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ في هذه الآية دليلٌ على أنَّ المجتهدَ إذا استَنَد إلى دليلٍ ضعيفٍ ما كان من شأنِه أن يستدِلَّ به العالِمُ؛ لا يكون بعيدًا عن الْمَلَام -في الدُّنيا- على أنْ أَخْطَأَ فيما لا يُخطِئُ أهلُ العِلْم في مِثْلِه[4].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ قد أسند الله -تعالى- فِعْل هذا الإرْكَاس إليه وقَرَنَه بسببِه، وهو كَسْبُ أولئك الْمُرْكَسِينَ للسَّيِّئات والدَّنَايا من قَبْلُ حتَّى فسدت فِطْرَتُهم، وأحاطت بهم خَطِيئتُهم، فأَوْغَلوا في الضَّلال، وبَعُدُوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٩)..
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٠).

عن الْحَقِّ، حتَّى لم يَعُدْ يخطُرُ على بالِهِم، ولا يَجُول في أَذْهَانِهِم إلَّا الثَّباتُ على ما هم فيه، ومقاومةُ ما عداه، مقاومةً ظاهرةً عند القُدرة، وخَفِيَّةً عند العَجْزِ، هذا هو أَثَرُ كَسْبِهم للسَّيِّئات في نفوسهم، وهو أثرٌ طبيعيٌّ، وإنَّما أسندَهُ الله تعالى إليه; لأنَّه ما كان سببًا إلَّا بسُنَّتِه في تأثير الأعمالِ الاختيارِيَّة في نفوسِ العاملين[١].

٣- أنَّ الأعمالَ قد تكونُ سببًا لِرِدَّةِ الإنسانِ بكَثرةِ معاصيهِ، فالسَّيِّئةُ تَجذِبُ السَّيِّئةَ، والصَّغائرُ بَريدُ الكَبائرِ، والكبائِرُ بَريدُ الكُفْر، يُؤخَذُ هذا من قوله: ﴿أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾[٢].

٤- الرَّدُّ على الجبْرِيَّة، ويُؤخَذُ من قوله: ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾، فأثبَتَ لهم كَسْبًا، والْجبريَّة يقولون: إنَّ الإنسان لا كَسْبَ له، وأنه مُجْبَرٌ على عَمَلِه[٣].

٥- الرَّدُّ على القَدَرِيَّة، ويؤخَذُ من قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾، والقَدَرِيَّة يقولون: إنَّ أفعال العباد لا عَلَاقة لتقديرِ الله بها إطلاقًا، وأهلُ السُّنَّة والجماعة يقولون: للإنسان فِعْلٌ يُنْسَبُ إليه حقيقةً، والْمُقَدِّرُ لهذا الفعلِ هو الله عزَّ وجلَّ، وهذا هو الْمُطابِق للمَنْقُول والمعقُول والْمَحْسُوس[٤].

٦- أنَّ الكُفَّارَ يودُّون بكلِّ المحبَّة أن يَكْفُر المؤمنونَ كما كفروا؛ لقوله: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة أنَّهُم إذا كان هذا وُدَّهُم فسوف يَسْعَوْن إليه بكلِّ وسيلةٍ، سواءٌ كانت الوسيلةُ في تدميرِ الاقتصادِ، أو بالسِّلاحِ، أو بنَشْرِ الأخلاق الرَّذِيلةِ السَّافِلَة؛ لأنَّ الأخلاقَ الرَّذيلةَ السَّافِلةَ إذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٣).

انتشَرَتْ في الأُمَّةِ فعليها الوَداعُ[١].

٧- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ أنَّ كثيرًا مِن أَهْلِ المُنْكَر يحبُّون من يوافِقُهم على ما هم فيه، ويُبْغِضون من لا يُوافِقُهم، وهذا ظاهِرٌ في الدِّيانات الفاسِدَة من مُوالاة كلِّ قَوْمٍ لِمُوافِقِيهم، ومعاداتِهم لمُخالِفِيهم. وكذلك في أمورِ الدُّنْيا والشَّهواتِ كثيرًا ما يختارونَ ويُؤْثِرون من يشارِكُهم إمَّا للمُعاوَنَة على ذلك، كما في المتَغَلِّبينَ مِن أَهْلِ الرِّياساتِ وقُطَّاع الطَّريقِ ونحوهم، وإمَّا بالمُوافَقَة، كما في المجْتَمِعينَ على شُرْبِ الخَمْرِ، فإنَّهم يختارونَ أن يَشْرَبَ كُلُّ من حضر عِنْدَهم، وإمَّا لِكَراهَتِهم امتيازَه عنهم بالخَيْرِ: إمَّا حَسدًا له على ذلك؛ لئلَّا يعلوَ عليهم بذلك ويُحْمَدَ دونهم، وإمَّا لِئَلَّا يكون له عليهم حجَّةٌ، وإمَّا لِخَوْفِهم من معاقَبَةٍ لهم بنَفْسِه، أو بمن يَرْفَع ذلك إليهم، ولئلَّا يكونوا تحت مِنَّتِه وخَطَرِه ونحو ذلك من الأسبابِ[٢].

٨- أنَّ بَنِي آدَمَ بطبيعتِهم يَتَسلَّى بعضُهم ببعضٍ، ويَقْوَى بعضُهم ببعضٍ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾[٣].

٩- مِنْ مباحث اللَّفْظ في الآياتِ: أنَّ «الفاءَ» في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ للعَطْفِ لا للجَوَاب؛ كقوله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾[٤].

١٠- تحريمُ اتِّخاذ أولياءَ من الكُفَّار حتَّى يُهاجِرُوا في سبيل الله، فمَنْ تولَّى عن الهجرة في سبيل الله فليس وَلِيًّا لنا، ويجب علينا مُقاتلتُه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٨).
(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٦٩).

نَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ ﴾[١]، ففيها الحذَرُ من مُوَالاةِ المشركينَ والمنافقينَ والْمُشْتَهرين بالزَّنْدَقَة والإلْحَاد؛ وذلك لأنَّ أعَزَّ الأشياءِ وأعْظَمَها عند جميعِ الخَلْقِ هو الدِّينُ؛ فهو الأمر الَّذي به يُتقرَّبُ إلى اللهِ تعالى، ويُتَوَسَّلُ به إلى طَلَبِ السَّعادة في الآخرة، فالعَداوة الحاصِلَة بسببه أعظمُ أنواع العَدَاوة، فهم مُضْمِرُون الكُفْرَ، ويحاولون ردَّ من يستطيعون ردَّه من المسلمين إلى الكفر، قال تعالى ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾[٢].

١١- قوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ يستلزمُ عدمَ مَحبَّتهم؛ لأنَّ الوَلايةَ فرْعُ المحبَّة، ويستلزمُ أيضًا بُغْضَهُم وعداوتَهُم؛ لأنَّ النَّهيَ عن الشَّيء أمرٌ بِضِدِّه، وهذا الأمر مُوَقَّتٌ بهجرَتِهِم، فإذا هاجرُوا جَرَى عليهم ما جَرَى على المسلمينَ[٣].

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقُل: (حتَّى يُهاجِروا عن الكُفْر) مثلًا، بل قال: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وذلك يَتناولُ كلَّ معاني الهجرة، فيدخل فيه مُهاجرة دارِ الكفر، ومهاجَرة شعارِ الكُفْر[٤].

١٣- تمامُ وفاءِ الإسلام بالعهدِ؛ حيثُ حَمَى العهْدَ لِمَن باشَرَ عَقْدَ العَهْدِ معنا، ومَنْ لَجَأ إليه، ويؤخَذُ من قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ الآية[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧٠- ١٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٢).

١٤- أنَّ أفعال العِبَاد واقعةٌ بمشيئة الله؛ لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ﴾، فيُستَفَادُ منها الرَّدُّ على طائفةٍ مُبتدِعَةٍ زائغةٍ، وهُمُ: القَدَرِيَّة، الَّذين يقولون: إنَّ فِعْلَ الإنسان مُسْتَقِلٌّ به، لا علاقة لله به، ودليلُ ذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾[١].

١٥- وفي قوله: ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ الرَّدُّ على الْجَبْرِيَّة؛ حيث نَسَب القتالَ إلى الإنسان، وهم لا ينسبون الفِعْل إلى الإنسان إلَّا على سبيل المجاز، فمثلًا: يقولون: الرَّجُل إذا صلَّى إنَّما صلَّى على سبيل المجاز، وإلَّا في الحقيقة أنَّه أُجْبِر على الصَّلاة[٢].

١٦- أنَّه إذا اعْتَزَلَنَا مَنْ بيننا وبينه عَهْدٌ وأمان، ولم يقاتِلْ، وألقى السَّلَمَ وَجَبَ الكفُّ عنه؛ لقوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ...﴾[٣].

١٧- الحاصِلُ بالمفهوم أنَّهم لو أخذوا منَّا الميثاقَ، ولكنَّهم خانُوا، فقاتَلُونا، فإنَّ العهد ينتقِضُ، ولا يكون بيننا وبينهم عهدٌ، يُؤخَذُ من مفهوم قوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾[٤].

١٨- مَن ألقَى السِّلاح وجَبَ الكفُّ عنه؛ لقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، لكن إنْ خِيفَ أنَّ إلقاءَهُ السِّلاحَ خيانةٌ وخِداعٌ، فإنَّه لا عِبْرَة بإلقائه؛ لأنَّ العَدُوَّ قد يُلْقي السِّلاحَ غَدْرًا وخيانةً، وقد ينهزم أيضًا أمام جيوشنا غَدْرًا وخيانةً، فالواجب التَّثَبُّتُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٣).

١٩- أنَّ الشَّرْع مَنْعًا ودفعًا وإذنًا كلُّه لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ الأمرَ بِيَدِ الله؛ فهو الَّذي يحكم بما شاء من حِلٍّ وحُرْمَةٍ وإيجابٍ وغيرِ ذلك[١].

٢٠- عِلْمُ الله عزَّ وجلَّ بالغيب؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾[٢].

٢١- إثباتُ الإرادة للعبدِ، وتؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾[٣].

٢٢- أنَّه لا يمكن الجمعُ بين الوَلاية والعَدَاوة، ولا يُمْكن أن يكون الإنسانُ وَلِيًّا لأولياءِ الله، ووليًّا لأعداءِ الله؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾، وهذا قالَهُ في مقامِ الذَّمِّ، لا في مقام المدْحِ[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾: الاستفهام للإنكارِ، والتعجُّبِ مِن الانقسامِ إلى فِئتينِ في شأنِ المنافقين؛ والنَّفيُ والخِطابُ لجميعِ المؤمنين، لكنْ ما فيه مِن معنى التَّوبيخِ متوجِّهٌ إلى بعضِهم[٥].

٢- **قوله**: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: استئنافٌ بيانيٌّ، نشأ عن اللَّومِ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٩).

والتعجُّب الذي في قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾؛ لأنَّ السَّامعين يَترقَّبون بيانَ وجْهِ اللَّوم، ويَتساءلون عمَّاذا يتَّخذون نحوَ هؤلاء المنافقين. والاستفهام للإنكار، وقد دلَّ هذا الاستفهامُ الإنكاريُّ المشوبُ باللَّومِ على جملة محذوفةٍ، هي محلُّ الاستئنافِ البيانيِّ، وتقديرُها: إنَّهم قد أضلَّهم الله، أتُريدون أن تَهْدُوا من أضلَّ الله؛ هذا بناءً على أنَّ قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ ليس المرادُ منه أنَّه أضلَّهم، بل المراد منه: أساءَ حالَهم، وسوءُ الحال أمرٌ مُجمَل يفتقرُ إلى البيان، فيكون فصْلُ الجملةِ فصلَ الاستئناف. وأمَّا على أنَّ المعنى: أنَّه ردَّهم إلى الكفر، تكون جملةُ ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ استئنافًا ابتدائيًّا، ووجْه الفَصْل -أي: عدم العطفِ- أنَّه إقبالٌ على اللوم والإنكار بعدَ جملة ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ التي هي خبريَّة؛ فالفصلُ لكمالِ الانقطاع؛ لاختلافِ الغرَضينِ[1].

- وفيه تجريدٌ للخِطاب، وتخصيصٌ له بالقائلين بإيمانِهم مِن الفئتين، وتوبيخٌ لهم على زعْمهم ذلك، وإشعارٌ بأنَّه يؤدِّي إلى محاولة المُحالِ الذي هو هدايةُ مَن أضلَّه الله تعالى؛ وذلك لأنَّ الحُكمَ بإيمانهم، وادِّعاء اهتدائِهم- وهم بمَعْزلٍ من ذلك- سعيٌ في هدايتهم، وإرادةٌ لها[2]

- ووضْعُ الموصولِ (مَنْ) موضعَ ضميرِ المنافقين (تَهْدُوهم)؛ لتشديدِ الإنكارِ، وتأكيدِ استحالةِ الهدايةِ بما ذُكر في حيِّزِ الصِّلةِ[3].

- وفيه توجيهُ الإنكارِ إلى الإرادةِ في قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ﴾، لا إلى مُتعلَّقها- حيث لم يَقُل: (أتهدون... إلخ)-؛ للمبالغةِ في إنكارِه؛ ببيانِ أنَّه ممَّا لا يمكن إرادتُه، فضلًا عن إمكانِ نفْسِه، وحمْل الهدايةِ والإضلالِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٢-٢١٣).

الحُكم بما يأباه[١].

- قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾: فيه توجيهُ الخِطابِ إلى كلِّ واحدٍ من المخاطَبينَ؛ للإشعارِ بشُمول عدمِ الوجدان للكلِّ على طريقِ التفصيلِ. وعلى أنَّ الجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر للإنكارِ السَّابق، ومؤكِّد لاستحالة الهداية؛ فحينئذٍ يجوز أن يكون الخِطاب لكلِّ أحد ممَّن يَصلُح له مِن المخاطَبين أولًا ومِن غيرهم[٢].

٣- **قوله:** ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، مسوقٌ لبيانِ غُلوِّهم، وتمادِيهم في الكُفر، وتصدِّيهم لإضلالِ غَيرِهم إثرَ بيانِ كُفْرهم، وضلالهم في أنفسهم[٣].

٤- **قوله:** ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ جملةٌ جاريةٌ مجرى التَّعليلِ لاستثناءِ الطائفةِ الأخيرةِ مِن حُكم الأخْذ والقَتْل، ونظْمُهم في سلكِ الطائفةِ الأولى الجارِيَة مَجرى المعاهَدِينَ مع عدَمِ تَعلُّقهم بنا، ولا بمَن عاهدونا كالطائفةِ الأولى، أي: ولو شاءَ الله لسلَّطهم عليكم ببَسْطِ صدورهم، وتقويةِ قلوبهم، وإزالة الرُّعْب عنها[٤].

٥- **قوله:** ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ فيه حُسْنُ بلاغة القرآن؛ حيث قال هنا: ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ وهناك في الآيةِ الأولى قال: ﴿حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٤).

اختلافَ الألفاظِ يؤدِّي إلى النَّشَاط، واتفاقها يؤدِّي إلى المَلَل غالبًا[١].

- وعبَّر باسمِ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لزيادةِ تمييزِ هؤلاءِ المنافقين[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٥).

الآيتان (٩٢ - ٩٢)

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ضَرَبْتُمْ﴾: أي: سافرْتُم وسِرْتُم، وخرجتم وتباعدتُم في الأرض، وأصلُ الضَّرْب: إيقاعُ شيء على شيء[(١)].

﴿تَبْتَغُونَ﴾: تَطلُبون؛ يُقال: بَغَى الشَّيءَ، أي: طلبَه، وأصلُ البَغْي: جِنْسٌ من الفساد، ويُطْلَق على طلبِ الشَّيء، والظُّلْم، والتَّرفُّع والعُلُوِّ، ومُجاوَزَة المقدار[(٢)].

﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾: أي: الغَنيمةَ، أو المالَ، ويُطلقُ العَرَضُ على المتاع والحُطام[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١، ٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٣٣٦، ٣٣٩)،

﴿فَمَنَّ﴾: أي: أنْعَم، وصنَعَ الصُّنع الجَميل، والمِنَّة: النِّعمة الثَّقيلة، وأصل (منن): اصطناعُ الخير[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا﴾

﴿إِلَّا خَطَئًا﴾: الاستثناءُ هنا؛ قِيل: إنَّه استثناءٌ منقطِعٌ؛ أي: لكنْ إنْ قتَلَه خَطأً فجزاؤُه ما يُذْكَرُ. وقِيل: إنَّه استثناءٌ متَّصل -إنْ أُريدَ بالنَّفيِ التحريمُ- والمعنى: إلَّا خطأً بأنْ عَرَفَه كافرًا فقتَلَه، ثم ظهَر أنَّه كان مؤمِنًا. وقيل: إنَّه استثناءٌ مُفَرَّغٌ من أحوالٍ عامَّة- أو عِللٍ عامَّة- مَحذوفةٍ، وهو الاستثناءُ النَّاقِصُ المنفيُّ. وفي نَصْبِ ﴿خَطَئًا﴾ أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّه منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ لأجْلِه، أي: ما يَنبغي له أنْ يَقتُلَه لعلَّةٍ من العِلل إلَّا للخطأِ وحدَه. الثَّاني: أنَّه منصوبٌ على الحَالِ، والتقدير: ما يَنبغي أن يَصدُر منه قتلٌ له إلَّا مُخطِئًا في قتْله، أي: ما يَنبغي له أن يَقتُلَه في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالِ الخَطأِ. الثالث: أنْ يكونَ نائبًا عن المفعولِ المُطْلَق؛ أي: إلَّا قَتْلًا خَطأً[2].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخْبِر تعالى أنَّه ليس للمؤمن أن يقتُلَ أخاه المؤمِنَ إلَّا أن يكون ذلك القتلُ صادرًا عن خَطَأ غيرِ مقصودٍ، فإذا ما حصل القتلُ خطأً فعلى القاتل أن يُكَفِّر عن

((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٢٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٢).

(٢) ينظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٨٠)، ((الدر المصون في علوم الكتاب المكنون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٦- ١٥٧)، ((تفسير الجلالين)) (١/ ١١٧).

فعله ذاك بتحريرِ رقَبَة مؤمن أو مؤمنة من الرِّقِّ، وعليه أيضًا دِيَةٌ كاملةٌ تتحمَّلُها عاقِلَتُه، تُدْفَعُ إلى وَرَثَة المقتول، إلَّا أن يَتَصَدَّقوا بإسقاطِ الدِّيَة، فلا تَجِبُ عليه حينَها، فإنْ كان المقتولُ مؤمنًا، لكنَّه من قومٍ كُفَّار حَرْبِيِّينَ، فلا يجب على قاتله خطأً إلَّا تحريرُ رقبةٍ مؤمِن أو مؤمِنة من الرِّقِّ، وإن كان من قوم بين المؤمنين وبينهم عهدٌ وذمَّةٌ أو هُدْنة، وليسوا بحربيِّين، فعلى القاتل دفْعُ دِيَة إلى ورثة المقتول تتحمَّلها عاقلةُ القاتل، وعليه أيضًا تحريرُ رقبةِ مؤمنٍ أو مؤمنةٍ من الرِّقِّ، فمن لم يجد الرَّقَبة لِيُعْتِقَها، أو لم يَجِدْ ثَمَنَها فعليه صيامُ شهرين متتابعينِ، شَرَعَ الله ذلك لعبادِهِ؛ توبةً منه تعالى عليهم ورحمةً، وكان الله عليمًا حكيمًا.

ثمَّ توعَّد اللهُ تعالى مَن يَقتُلُ مؤمنًا عن عَمْدٍ وقصْدٍ لإتلافِ رُوحِهِ- توعَّده بأنَّ عقوبَتَه هي المُكْثُ الطويلُ في جَهنَّم، وغَضِبَ الله عليه، وطَرَدَه من رحمته، وأعَدَّ له عذابًا عظيمًا، وهذه العقوبةُ هي ما يستحقُّه إنْ عاقَبَه الله تعالى.

ثمَّ يُخاطِبُ الله المؤمنينَ آمِرًا إيَّاهم أن يتبيَّنوا إذا خرَجوا للجهادِ في سبيل الله، ويتثبَّتوا في قتْل مَن أَشكَلَ عليهم أمرُه، فلم يتيقَّنوا مِنْ إسلامِهِ أو كُفْرِهِ، ولا يقولوا لِمَن أظهَرَ لهم إسلامَه، واستسلم ولم يُقاتِل: إنَّه ليس مُسلمًا، بل عليهم أن يأخذوا الظَّاهِرَ من حاله، ولا يقتلوه طلبًا لمتاع الحياةِ الدُّنيا، وذلك لسَلْب ما معه من مالٍ، مذكِّرًا إيَّاهم سبحانه أنَّهم كذلك كانوا من قبلُ يُخْفُون إيمانَهُم من قومِهِمُ المشركينَ، فتفضَّلَ الله عليهم بإعزازِ دينِهِ، فأظهروا ما كانوا يُخْفُون، فعليهم أن يتثبَّتوا قبل أن يُقْدِمُوا على قَتْلِ مَنْ أَشْكَلَ أمرُه، إنَّ الله كان بما يعملون خبيرًا.

تفسيرُ الآيتين:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ

مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الكلامُ في قِتالِ المتظاهرين بالإسلام الَّذين ظَهَر نفاقُهم، فلا جَرَمَ أنْ تتشَوَّفَ النَّفسُ إلى حُكم قَتْلِ المؤمنين الخُلَّصِ، فانتَقَلَ من تحديدِ أعمال المسلمين مع العَدُوِّ إلى أحكامِ معاملةِ المسلمينَ بَعضِهم مع بعضٍ: من وجوبِ كفِّ عدوانِ بَعضِهم على بعضٍ، وأحكام قتْل مَن لا يَحِلُّ قَتْلُه من مؤمنٍ ومعاهَدٍ وذِمِّيٍّ، وما يقع مِن ذلك خطأً[1]، فقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗا﴾.

أي: وليس لمؤمنٍ أنْ يقتُل أخاه المؤمنَ، ولا يَحِلُّ له ذلك، كما أنَّه أمْرٌ ممتنِعٌ صدورُهُ من مؤمنٍ؛ لأنَّه منافٍ للإيمان، إلَّا أن يرتكِبَ ذلك غيرَ عامدٍ له، ولا قاصِدٍ إليه[2].

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾.

أي: وإذا ارتكبَ المؤمنُ القتْلَ لمؤمنٍ غيرَ عامدٍ له، ولا قاصِدٍ إليه، فعليه أن يُكَفِّرَ عن ذلك بتحريرِ مؤمنٍ أو مؤمنةٍ من رِقِّ العبوديَّةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٦). ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٤-٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٨-٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٥-٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٩، ٧١).

﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾.

أي: وعلى القاتِل دفْعُ دِيَةٍ كاملة- ولكنْ تتحمَّلُها عاقِلَتُه- إلى ورثَةِ المقتولِ عِوَضًا لهم عمَّا فاتَهُم من قريبهم، وجَبْرًا لقلوبهم، إلَّا إذا تصدَّقُوا بإسقاطِ الدِّيَة، فلا تجب حينئذٍ[(١)].

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾.

أي: فإنْ كان هذا المقتولُ الَّذي قَتَلَه المؤمِنُ خطأً من كُفَّارٍ حربِيِّينَ، لكنَّه مؤمنٌ، فلا دِيَةَ لهم، وعلى القاتل عِتْقُ رقبةٍ مؤمنة لا غيرُ[(٢)].

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ﴾.

أي: وإنْ كان القَتيلُ الَّذي قتَلَه المؤمنُ خطأً من قومٍ بينكم- أيُّها المؤمنونَ- وبينهم عهْدٌ وذمَّةٌ أو هُدْنة، وليسوا أهلَ حربٍ لكم[(٣)].

﴿فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾.

أي: فعَلى القاتِلِ دِيَةٌ- تتحمَّلُها عاقِلَتُه- يدفعها إلى ورثة المقتولِ، وعِتْقُ رقبةٍ مؤمنة، كفَّارةً لقتْلِهِ[(٤)].

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٦، ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣١٨، ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣١٨، ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧١).

أي: فمَن لم يَجِدْ رقبةً مؤمنةً يُعْتِقُها كفَّارةً لخطئه في القتل، أو لم يَجِدْ ثَمَنَها، بأنْ كان مُعْسِرًا، ليس عنده ما يَفْضُل عن حوائجِه الأصليَّة، فعليه صيامُ شهرين، يَسْرُدُ صومَهُما إلى آخرِهِمَا، دون إفطارٍ فيهما[١].

﴿ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: هذه الكَفَّاراتُ الَّتي شَرَعَها اللهُ للمُؤمِنِ الذي قَتَلَ مؤمنًا خطأً؛ توبةً منه على عباده، ورحمةً بهم، وتكفيرًا لما عَسَاه أنْ يَحصُلَ منهم من تقصيرٍ، وعَدَمِ احترازٍ، ولو شاء اللهُ تعالى لشَقَّ عليهم، ولكان الواجبُ بقتلِ الخطأِ أكبرَ من ذلك[٢].

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ومن ذلك عِلْمُه بما يُصلِحُ عباده فيما يكلِّفُهم من فرائِضِه وغير ذلك، وهو سبحانه الحكيم في كلِّ شيء، فيَضَع كلَّ شيء في موضِعِه اللَّائق به، ومن ذلك حِكْمَته فيما يَشْرَعه لعباده من أحكام[٣].

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ الله سبحانه وتعالى حُكْمَ القتل الخطأ ذَكَرَ بعده بيانَ حُكْم القتل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧١).
قال الرازي: (والمراد به بالإجماع من لم يتمكَّن) ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٢).

العَمْد؛ لأنه هو المقصودُ من التَّشْرِيع لأحكام القَتْلِ؛ لأنَّه هو المتوقَّعُ حصولُهُ من النَّاس، وإنَّما أُخِّرَ لتهويلِ أمْرِه[١].

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾.

أي: ومَن يقتُلْ مؤمنًا مُتَعَمِّدًا قتْلَهُ، قاصدًا إتلافَ نفسِهِ، فإنَّما عقوبتُه الَّتي يستحِقُّها- إنْ عَاقَبَهُ الله تعالى- الخُلُودُ في نار جهنَّم- فقد يكون له من توحيدِ الله تعالى وتوبتِهِ وأعمالِه الصَّالِحَة ما يَصْرِف عنه هذه العقوبةَ- وقيل: بلِ المرادُ بالخلودِ هنا الْمُكْث الطويلُ؛ إذ لا يُخَلَّد مَنْ في قلبه إيمانٌ في النَّارِ أبَدَ الآبدينِ[٢].

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾.

أي: وسَخِطَ عليه الجبَّارُ سبحانه، وطَرَدَه، وأبعدَهُ من رحمته جَلَّ وعَلا[٣].

﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾.

أي: وهَيَّأَ اللهُ تعالى له عقوبةً كبيرةً، لا يعلمُ قَدْرَ مَبْلغِها سِواه عزَّ وجلَّ[٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا تَبيَّنَ بهذا المنعِ الشَّديد مِنْ قَتْلِ العمْد، وما في قتلِ الخَطَأ من المؤاخذةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٦، ٣٥٠-٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦، ٣٨٠-٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨١-٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨٢، ٨٩).

الموجِبَة للتثبُّت، وكان الأمر قد بَرَزَ بالقتالِ والقَتْل في الجِهَاد، ومؤكَّدًا بأنواعِ التَّأكيد، وكان ربَّما التبس الحالُ؛ أتبعَ ذلك التَّصريحَ بالأمرِ بالتثبُّتِ، ولَمَّا كان خفاءُ ذلك منوطًا بالأسفارِ قال: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، وإلا فالتثبُّت والتبيُّن لازمٌ في قتلِ من تظاهَرَ بالإسلامِ في السَّفَر وفي الحَضَر[1] فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾.

سَببُ النُّزول:

عنِ ابْنِ عباسٍ رضِي اللهُ عنهما ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ قال: (كان رجلٌ في غُنَيْمَةٍ له فلحِقَه المسلمون، فقال: السَّلامُ عليكم. فقتلوه، وأخذوا غُنَيْمَتَه، فأنزل الله في ذلك إلى قوله: ﴿عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تلكَ الغُنَيْمَة)[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾.

القراءات ذات الأثَرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ قراءتان:

١- ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾: من التثبُّت الَّذي هو خلاف العَجَلَةِ[3].

٢- ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾: من التبيُّن، بمعنى: التَّأنِّي والنَّظَر، والكَشْف عنه حتَّى يتَّضِحَ[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٦٥).

(٢) رواه البخاري (٤٥٩١) واللفظ له، ومسلم (٣٠٢٥).

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٦١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٤).

(٤) قرأ بها الباقون يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٨).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون إذا سِرْتُم في جهادِ أعدائِكم فتأنَّوْا في قتلِ من أشكَلَ عليكم أمرُهُ، فلم تعلموا حقيقةَ إسلامِهِ ولا كُفْره، ولا تَعْجَلُوا فتقتُلُوه قبل أنَّ تتثبَّتوا وتتيقَّنوا أمرَه[(١)].

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾.

القراءات ذات الأثر في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمَ ﴾ قراءتان:

١- ﴿السَّلَمَ﴾ أي: الاستسلامُ والانقياد، فالمعنى: لا تقولوا لمنِ استسلَمَ إليكم وانقاد: لستَ مُسلمًا[(٢)].

٢- ﴿السَّلَامَ﴾ الَّذي هو تحيةُ الإسلام، فالمعنى: لا تقولوا لِمَن حيَّاكم بتحيَّة الإسلام: لستَ مؤمنًا[(٣)].

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾.

أي: ولا تقولوا لِمَنِ استسلم لكم فلم يُقاتِلْكم، مُظْهِرًا لكم أنَّه مُسْلِمٌ مِثْلُكم:

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٦١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨٩-٩٠).

قال الرازي: (أجمع المفسِّرون على أنَّ هذه الآياتِ إنما نزلتْ في حقِّ جماعةٍ من المسلمين لقوا قومًا فأسْلَموا فقَتَلوهم، وزعموا أنَّهم إنَّما أسلموا مِن الخوفِ) ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٨٣).

(٢) قرأ بها المدنيَّان، وابنُ عامرٍ، وحمزةُ وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٥).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٥).

لستَ كذلك، بل خُذُوه بظاهِرِ حاله[١].

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾.

أي: فتقتلُوه لأجْلِ أخْذِ ما لديه من مالٍ، طلبًا لمتاعِ الحياة الدُّنيا. فلا يحمِلَنَّكُمُ العَرَضُ الفانِي القليلُ على ارتكابِ ما لا يَنبغي؛ فيفُوتَكم ما عند الله من الرِّزْق والمغانم الحلال، فما عندَ الله خيرٌ لكم من مالِ هذا[٢].

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾.

أي: قد كنتُم- أيُّها المؤمنون- مِن قَبلُ تُخفُون إيمانَكم في قومِكم من المشركينَ، وأنتم بين أظْهُرِهم، كهذا الَّذي قتلتُمُوه يُسِرُّ إيمانَه ويُخْفِيه من قَوْمِه من المشركين، فتفضَّلَ الله عليكم بإعزازِ دينِه، وإظهارِ ما كنتم تَسْتَخْفُون به، فتثبَّتُوا حتَّى يتَّضِحَ لكم أمْرُه قبل أنْ تقتلوه[٣].

عن أبي ظَبْيَانَ قال: سمعتُ أسامةَ بنَ زيدِ بنِ حارثةَ رضِي اللهُ عنه يُحدِّث، قال: ((بعَثَنا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الـحُرَقةِ[٤] مِن جُهينةَ، فصَبَّحْنا القومَ فهزمناهم، قال: ولحقتُ أنا ورجُلٌ من الأنصارِ رجُلًا منهم، فلمَّا غَشيناه قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، قال: فكفَّ عنه الأنصاريُّ فطعنتُه برُمحي فقَتلتُه، فلمَّا قَدِمْنا بلَغَ ذلك النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: يا أسامةُ، أقتلتَه بعدَما قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٥١، ٣٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٥١-٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٥٢، ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٣-٩٤).

(٤) الحُرَقَة-بضم الحاء وفتح الراء-: بَطْن من جُهَيْنَةَ، وإنَّما سُمُّوا الحُرقة؛ لأنَّهم أَحْرَقوا بني سهم بن مرَّة بِالنَّبلِ. يُنظر: ((توضيح المشتبه)) لابن ناصر الدين (٣/ ١٨٢)، ((تبصير المنتبه)) لابن حجر (١/ ٤٢٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٥/ ١٥٤).

قلتُ: يا رسولَ الله، إنَّما كان مُتعوِّذًا! قال: أقتلتَه بعدَما قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ؟! قال: ما زالَ يُكرِّرها عليَّ حتَّى تمنيتُ أنِّي لم أكُنْ أسلمتُ قبلَ ذلك اليومِ))[١]!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى بكلِّ ما تَعملونه وتَنْوُونَه ذو خبرةٍ وعِلْمٍ به، ومِنْ ذلك قَتْلُكم مَن تَقتُلون، وكَفُّكم عمَّنْ تكفُّون عن قتْلِه، فيَحفَظ عليكم ذلك، ويُجازيكم به[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُرشِدُ قولُ الله تعالى: ﴿وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ إلى فَضيلةِ العَفْو والحضِّ عليه، وأنَّه جارٍ مَجْرى الصَّدَقة، واستحقاقِ الثوابِ الآجِلِ به، دونَ طَلَبِ العَرَضِ العاجِل؛ حيثُ سَمَّى العفوَ صَدَقةً؛ حثًّا عليه، وتنبيهًا على فضلِه[٣].

٢- ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ لم يَرِدْ في أنواع الكبائرِ دونَ الشِّركِ أعظمُ من هذا الوعيد، بل ولا مثلُه، ألَا وهو الإخبارُ بأنَّ جزاءَه جهنَّمُ خالدًا فيها، أي: فهذا الذَّنبُ العظيمُ قد انتَهضَ وَحْدَه أن يُجازَى صاحبُه بجهنَّم، بما فيها من العذابِ العظيم، والخِزْي المُهين، وسَخَطِ الجبار، وفَوَات الفوز والفلاح، وحُصُول الخَيْبَة والخَسَار. فعِياذًا بالله من كُلِّ سببٍ يُبْعِدُ عن رحمته[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٤-٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣).

٣- قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ فيه بيانُ حكمةٍ عظيمة في حِفْظِ الجامعة الدِّينيَّة، وهي بثُّ الثِّقة والأمان بين أفراد الأمَّة، وطرْح ما من شأنه إدخالُ الشَّكِّ؛ لأنَّه إذا فُتِح هذا البابُ عَسُر سَدُّه، وكما يَتَّهِم الْمُتَّهِمُ غيرَه، فللغيرِ أنْ يتَّهِم مَنِ اتَّهَمَه، وبذلك ترتفعُ الثِّقة، ويَسْهُل على ضعفاء الإيمان المُروقُ؛ إذ قد أصبحتِ التُّهْمَة تُظِلُّ الصادقَ والْمُنافِقَ(١).

٤- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ وجوب التثبُّت في الأمور، حتَّى في الجهاد في سبيل الله؛ فالتثبُّت يحصُل فيه من الفوائِد الكثيرة، والكفِّ لشرورٍ عظيمة، ما به يُعرَف دينُ العبد وعقْلُه ورَزَانته، بخلافِ المستعْجِل للأمور في بدايتها قبل أن يتبيَّنَ له حكمُها، فإنَّ ذلك يؤدِّي إلى ما لا ينبغي، كما جرى لهؤلاء الَّذين عاتَبَهم الله في الآية لمَّا لم يتثبَّتوا، وقَتَلوا من سلَّمَ عليهم(٢).

٥- متاعُ الدُّنيا حُطامٌ سريع النَّفَاد، وثوابُ الله تعالى موصوفٌ بالدَّوام والبقاء، كما في قول الله تعالى ﴿تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾(٣).

٦- أنَّ العبدَ يَنبغي له إذا رأَى دَواعيَ نفْسِه مائلةً إلى حالةٍ له فيها هوًى، وهي مُضِرَّةٌ له، أن يُذَكِّرَها ما أعدَّ الله لمن نَهَى نفسَه عن هواها، وقدَّم مرضاةَ الله على رضا نفْسِه، فإنَّ في ذلك ترغيبًا للنَّفْس في امتثالِ أمْرِ الله، وإنْ شَقَّ ذلك عليها، قال تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٤).

٧- قولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ فيه تربيةٌ عظيمةٌ، وهي أنْ يستشعرَ الإنسانُ عندَ مؤاخذتِه غيرَه أحوالًا كان هو عليها تُساوِي أحوالَ مَن يؤاخِذُه كمؤاخَذَة المعَلِّم التِّلميذَ، وكذلك وُلاة الأمورِ وكبار الموظَّفين في معاملةِ صِغارِ الموظَّفين، وكذلك الآباء مع أبنائِهم، إذا بلَغَتْ بهم الحماقةُ أن يَنْتَهِروهم على اللَّعِب المعتادِ أو على الضَّجَر من الآلامِ[(١)].

٨- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تهديدُ الإنسانِ أنْ يعملَ ما لا يُرضي الله عزَّ وجلَّ، يعني: لا تظُنَّ أنَّكَ إذا عَمِلْتَ شيئًا فإنَّه يخفى على الله أبدًا، ومتى آمَنَ الإنسانُ بهذا فإنَّه لن يُقْدِم على شيء لا يرضاه الله؛ لأنَّه يعلم أنَّ الله يعلم بهذا، حتَّى في قلبه؛ يحفَظُ قلْبَه من الانحرافِ والانجراف إذا عَلِمَ بأنَّ الله تعالى خبيرٌ بما يعمل، لكنْ هذه المسائل تحتاج إلى فِطْنةٍ، وأنَّ الإنسان دائمًا يكون مراقِبًا لله سبحانه، خائفًا منه، وكلَّما هَمَّ بشيء ذَكَرَ عظمةَ الله عزَّ وجلَّ وعِلْمَه بما سيعمل حتَّى يمتنع[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- امتناعُ قَتْلِ المؤمِنِ للمؤمِنِ عمْدًا، ويُؤخَذُ من قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾، وإذا جاءت (ما كان) أو (لم يكن) أو (لا ينبغي) أو (ما ينبغي) فإنَّها تفيدُ الامتناعَ، ولكنْ هذا الامتناعَ شرعِيٌّ؛ لأنَّه قَدَرًا يمكن أن يقتله عمدًا لا خطأً[(٣)].

٢- الإيمانُ الصَّحيحُ يَمنَعُ المؤمنَ مِنْ قتْل أخيه الَّذي قد عَقَدَ الله بينه وبينه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٢).

الأُخُوَّةَ الإيمانيَّةَ الَّتي مِنْ مقتضاها محبَّتُه ومُوالاته، وإزالةُ ما يَعْرِض لأخيه من الأذى، وأيُّ أذًى أشدُّ من القتل؟ لذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾[1].

٣- القتْلُ من الكُفرِ العِمليِّ، وأكبر الكبائر بعد الشِّرْكِ بالله، ولَمَّا كان قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ لفظًا عامًّا لجميع الأحوال، وأنَّه لا يصدُرُ منه قتلُ أخيه بوجهٍ من الوجوه، استثنى تعالى قتْلَ الخَطَأِ، فقال: ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ فإنَّ المخطِئَ الَّذي لا يقصِدُ القتلَ غيرُ آثمٍ، ولا مجترِئ على محارِمِ الله، ولكنَّه لَمَّا كان قد فعل فعلًا شنيعًا وصُورَتُه كافيةٌ في قُبْحه، وإن لم يقصِدْه، أَمَرَ تعالى بالكَفَّارة والدِّيَة، فقال: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا ...﴾[2].

٤- أنَّ المؤمِنَ قد يَقتُلُ غيرَ المؤمِنِ عمدًا؛ لقوله: ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾، ولكن هل هذا جائزٌ؟ الجواب: فيه تفصيلٌ: إنْ كان محارِبًا فقتْلُه جائزٌ، ثمَّ قد يَجِب أو لا يجِب على حَسَب ما تَقتضيه الحالُ، وإنْ كان معاهَدًا أو مُسْتأمَنًا أو ذِمِّيًّا فقتْلُهُ حرامٌ[3].

٥- فضيلةُ العِتْقِ وعُلُوُّ منزلتِه؛ لأنَّه صارَ كفَّارةً لهذا الذنبِ، وهو قتْلُ المؤمِنِ؛ قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[4].

٦- تشوُّفُ الشَّارعِ إلى تحريرِ الرِّقاب من الرِّقِّ، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة: الرَّدُّ على من أنكر على المسلمين الاسْتِرْقَاقَ، فيقال: إنَّ الاسترقاقَ جاء نتيجةً

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٣).

لأمرٍ ضروريٍّ، ومع ذلك فإنَّ هناك مُشَجِّعَاتٍ كثيرةً على التَّحْريرِ[١].

٧- اشتراطُ الإيمانِ في عِتْق الرَّقَبة في القتلِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[٢].

٨- جواز إعتاقِ الذَّكَر والأنثَى في كفَّارَةِ القتلِ، وتُؤخَذ من الإطلاقِ في قوله: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ولم يَقُلْ: ذَكَر ولا أنثى، فيكون مُطلقًا[٣].

٩- تعظيمُ القتلِ؛ ولهذا أوجب اللهُ فيه الكَفَّارة، مع أنَّ القاعدةَ الشَّرعيَّة أنَّ المخطِئَ لا كفَّارةَ عليه، وأنَّه مرفوعٌ عنه القَلَمُ، لكنْ تعظيمًا لشأنِ القتل صار الَّذي يصدُرُ منه القتلُ- ولو مخطئًا- عليه الكَفَّارةُ[٤].

١٠- الحِكمةُ تَقتضي أنْ لا يُجزئُ عتقُ المَعِيبِ في الكَفَّارةِ؛ لأنَّ المقصودَ بالعتقِ نَفْعُ العتيقِ، وملْكُه منافعَ نفسِه، فإذا كان يَضيع بعِتْقه، وبقاؤه في الرِّقِّ أنفعُ له فإنَّه لا يُجزئ عِتْقُه، مع أنَّ في قوله: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدلُّ على ذلك؛ فإنَّ التحرير: تخليصٌ مَنِ استحقَّت منافعه لغيرِه أنْ تكون له، فإذا لم يكن فيه مَنافعُ لم يُتَصَوَّرْ وجودُ التَّحرير. فتأمَّلْ ذلك فإنَّه واضح[٥].

١١- أشار قولُ الله تعالى: ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ إلى أنَّ الدِّيَةَ تَرضيةٌ لأهلِ القتيلِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٠).

١٢- أنَّه يجبُ على مَن وجبَتْ عليه الدِّيَةُ أنْ يُوصِلَها إلى أهلِ الميِّت؛ لقوله: ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾، فأهله هُمُ الورثة[١].

١٣- يُؤخَذ مِن قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾، وهو مُستثنًى من قوله: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾، أنَّ العفو عن الدِّيَة من الصَّدقة، وذلك أنَّ الصَّدقة إمَّا إعطاءٌ وإمَّا إبراءٌ، فالإعطاءُ ظاهر، والإبراء هو: أن يُبْرِئ الإنسان شخصًا مَدِينًا من الدَّيْنِ ويُسْقِطه عنه، لكن هذا لا يُجْزئ في الزكاة عن زكاة العَيْنِ[٢].

١٤- في سماحِ المعاهَد للمؤمِنِ بالدِّيَة مِنَّةٌ عليه، والكتابُ العزيز الَّذي وصَفَ المؤمنين بالعزَّة لا يَفتح لهم بابَ هذه المنَّة، ومِن محاسِن نَظْمِ الكلام وتأليفه أن يؤخَّرَ المعطوف الَّذي له متعلَّقٌ على ما ليس له متعلَّق، وما متعلقاتُه أكثرُ على ما متعلقاتُه أقلُّ، وهذه نكتة لفظيَّة لتأخير ذكر الدِّيَةِ في حقِّ المؤمن؛ إذ تعلَّق بها الوصف، وهو قوله: ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾، والاستثناء وهو قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾[٣].

١٥- قول الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ دليلٌ على جواز البراءة من الدَّيْنِ بلفظِ الصَّدقة، وعلى أنَّه لا يُشترطُ القَبولُ في الإبراءِ[٤].

١٦- جوازُ العفْوِ عن الجَانِي، ولكن هذا مقيَّدٌ بما إذا كان في العفْوِ إصلاحٌ؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، فإنْ لم يكن فيه إصلاحٌ فترْكُ العفو أولى، بل قد يجب الأخْذُ بالحقِّ وترْكُ العفو؛ لأنَّ الإصلاحَ أهمُّ من المصلحة الخاصَّة، فالعفو عن الدِّيَة مصلحةٌ خاصَّة، لكنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٣).

الإصلاحَ مصلحةٌ عامَّة، فإذا كان هذا الَّذي قَتَلَ خطأً رجلًا متهوِّرًا لو عَفَوْنا عنه لذَهَب يقتلُ مرَّةً أخرى، وثالثة ورابعة، فإنَّ العَفْوَ عن هذا ليس من الإصلاحِ؛ وعليه فلا ينبغي العفْوُ[(١)].

١٧- أنَّ قتْلَ المعاهَد حرامٌ؛ لأنَّ الله أوجبَ في قتْل مَنْ بيننا وبينهم ميثاقٌ الدِّيَةَ والكَفَّارةَ[(٢)].

١٨- أنَّ دِيَة الكافِرِ المعاهَد ليست كَدِيَة المُسلِم؛ لأنَّه قال: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ﴾ وهذه نكرة، وإعادة الكلمة بلفظ النكرة تدلُّ على أنَّ الثَّاني غير الأول، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾[(٣)] [الشرح: ٥-٦].

١٩- احترامُ الدِّين الإسلاميِّ للعهود والمواثيق؛ ولذلك لم يُهدِرْ حقَّ المعاهدِ الَّذي بيننا وبينه ميثاقٌ، بل أوجب الدِّيَةَ لأهْلِه؛ ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ﴾[(٤)].

٢٠- وجوبُ الكَفَّارة في قتْل مَنْ بيننا وبينهم ميثاقٌ وإنْ كانوا غير مسلمينَ؛ لقولِ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾[(٥)].

٢١- أنَّ مَن لم يجِدِ الرقبةَ أو ثَمَنَها فعليه صيامُ شَهرينِ متتابعينِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾، ومَن لم يَستطعِ الصِّيامَ فلا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
وينظر في القاعدة المذكورة ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٨٦١)
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

شيءَ عليه، لا عِتْق رقبة؛ لأنَّه لا يَجِدُ، ولا صيامَ؛ لأنَّه لا يستطيع، ولا إطعام؛ لأنَّه لم يُذكَر في الآية؛ ولهذا لمَّا أراد الله عزَّ وجلَّ أن يكون الإطعام بدلًا عن الصيام ذكره كما في آيات الظِّهَار[١].

٢٢- قول الله تعالى: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تاب يُطلَق على معنى نَدِم، وعلى معنى قَبِلَ منه، وهي هنا بمعنى قَبِلَ التَّوبة بقرينة تعديته بـ (مِنْ)[٢].

٢٣- في قول اللهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ إثباتُ اسمينِ من أسماءِ الله؛ أحدهما: العليم، والثَّاني: الحُكيم، واللهُ تعالى يَقرِن بين العليمِ والحَكيمِ في مواضعَ كثيرةٍ؛ ليُبيِّن أنَّ ما يَحكُم به سبحانه من الأحكامِ الشَّرعيَّة والأحكامِ الكونيَّة، فإنَّه صادرٌ عن علمٍ وحِكمةٍ لا عن جهلٍ وسَفَهٍ، وأصلُ الخطأِ في الحُكم إمَّا مِن الجَهل، وإمَّا من السَّفَه؛ فإنْ كان عن غير علمٍ فهو من الجهل، وإنْ كان عن غيرِ حِكمةٍ فهو من السَّفَه؛ ولهذا فالآياتُ الَّتي تتضمَّن أحكامًا يَختِمُها الله جلَّ وعلا كثيرًا بهذين الاسمين[٣].

٢٤- قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ومِنْ حِكْمَته أنْ أَوْجَبَ في القتْل الدِّيَةَ ولو كان خطأً؛ لتكونَ رادعةً وكافَّةً عن كثيرٍ من القتل، باستعمالِ الأسبابِ العاصمةِ عن ذلك؛ قال تعالى: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾. ومن حِكْمَته أيضًا أنْ وَجَبَتْ على العاقلةِ في قتْل الخطأِ، بإجماعِ العُلماء؛ لكونِ القاتلِ لم يُذنِبْ، فيَشُقُّ عليه أن يحمل هذه الدِّيَة الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك مَنْ بينه وبينهم المعاونةُ والمُناصرة والمُساعدة على تحصيل المصالحِ وكفِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٩).

المفاسِدِ[١].

٢٥- قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ... ﴾ في هذه الآية الكريمة دليلٌ على أنَّ قتْل المؤمن عَمدًا من كبائرِ الذُّنوب؛ لورودِ الوعيدِ عليه؛ وكل ذنبٍ رُتِّبَ عليه الوعيدُ والعقوبةُ فهو من كبائر الذُّنوب[٢].

٢٦- في قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ إثباتُ الغضَبِ لله عزَّ وجلَّ، والغضبُ صفةٌ من الصِّفات الفعليَّة الَّتي تقَعُ بمشيئةِ الله تعالى، وكلُّ صفةٍ مُرتَّبةٍ على سببٍ؛ فهي من الصِّفاتِ الفِعليَّة؛ لأنَّها تُوجَد بوجودِ ذلك السَّببِ، وتَنتفي بانتفائِه[٣].

٢٧- أنَّ مَن قَتَل مؤمنًا متعمِّدًا فمِنْ جزائِه أنْ يُلْعَنَ، بأنْ يُطرَدَ مِن رحمة الله؛ لقوله: ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾، لكن لا يجوزُ أنْ نلعنَ القاتِلَ بعينِه، ونقول: أنتَ ملعونٌ مغضوبٌ عليك؛ لأنَّه يجوز أن يتوبَ فتزولَ اللَّعنةُ[٤]، فلعنُ المطلَقِ لا يستلزمُ لعنَ المعيَّنِ الذي قام به ما يمنعُ لحوقَ اللعنةِ له[٥].

٢٨- القرآنُ مملوءٌ بِذِكْر سَخَطِ الله وغَضَبِه على أعدائه، وذلك صفةٌ قائمةٌ به، يترتَّبُ عليها العذابُ واللَّعْنَةُ، لا أنَّ السَّخَط هو نفْسُ العذابِ واللَّعْنَة، بل هما أثَرُ السَّخَط والغَضَب ومُوجِبُهما؛ ولهذا يُفَرَّقُ بينهما، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ فَفَرَّقَ بين عذابِه وغَضَبِه ولَعْنَتِه، وجَعَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٨٢).

كُلَّ واحدٍ غيرَ الآخَرِ[١].

٢٩- عِظَمُ عذابِ النَّار؛ لقوله: ﴿عَظِيمًا﴾، والعظيم إذا استعظم الشَّيء صار بقدْرِ عظمة هذا المستعظِم، أي: إنَّه شيء عظيم عِظَمًا كبيرًا[٢].

٣٠- أنَّ الواجِبَ علينا معاملةُ الخَلق بالظَّاهر؛ لقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ ولم يقل: لستَ مسلمًا؛ لأنَّه ألقى السَّلامَ واستسلم، لكن لا تقولوا: لست مؤمنًا، يعني: لم يدخُلِ الإيمانُ في قَلبِك، فلا يجوزُ لنا أنَّ نتعدَّى الظَّاهِرَ الَّذي يبدو من الإنسان، حتَّى وإن وُجِدَت قرائنُ تدلُّ على خلافِ ظاهره، والدَّليل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾[٣].

٣١- قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المقصودُ من التقييدِ بـ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ زيادةُ التَّوبيخِ، والتحقير لعَرَض الدُّنيا بأنَّها نفْعٌ عارضٌ زائل، مع العلم بأنَّه لو قال لمن أظهر الإسلامَ: لستَ مؤمنًا، وقَتَلَه غيرَ آخذٍ منه مالًا لكان حُكمُه أوْلَى ممَّن قصَد أخْذَ الغُنَيْمة[٤].

٣٢- عِلْمُ الله سبحانَه ببواطِنِ الأمور؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، ويدلُّ لذلك قولُه تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[الحديد: ٣]، فقد فسَّر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم الباطِنَ بأنَّه (الَّذي ليس دونه شيءٌ)[٥]؛

---

(١) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٥، ٩٦)، وينظر كذلك: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٨- ١٦٩).

(٥) ينظر ما رواه مسلم (٢٧١٣).

فكلُّ شيءٍ بأمْره، وكلُّ شيء بعِلْمِه، وكلُّ شيءٍ بسَمْعِه، وكلُّ شيء ببَصَرِه، فَعُلُوُّهُ عزَّ وجلَّ فوقَ كلِّ شيءٍ، ولا يمنَعُ مِنْ عِلْمِه بكلِّ شيءٍ[١].

٣٣- الإسلامُ يمنعُ قَتْلَ مَن يُظهر الإسلامَ، ومن يُلْقِي السَّلَم أو السَّلامَ، ومَنْ بينَه وبينَ المسلمين عهدٌ وميثاقٌ إمَّا على المناصَرة، وإمَّا على تَرْكِ القتالِ، ومن اتَّصل بأهلِ الميثاقِ المعاهَدِين، ومن اعتزل القتالَ فلم يساعدْ فيه قومَه المقاتلينَ، وبَعْدَ هذا كلِّهِ رغَّب عن ابتغاء عَرَض الدُّنيا بالقتالِ; ليكون لِمَحْضِ رَفْعِ البغْي والعدوان، وتقرير الحَقِّ والإصلاح، ولا هَمَّ لجميع الدول والأمَمِ الآن إلَّا الرِّبْحُ وجَمْعُ الأموالِ، وهم ينقضُون العهدَ والميثاق مع الضُّعفاءِ، ولا يلتزمونَ حِفْظَ المعاهدات إلَّا مع الأقوياءِ، وهو ما شدَّد الإسلامُ في حفظه، وحافظ عليه النَّبيُّ- صلَّى الله عليه وسلَّم- في عهده، وحافَظَ عليه خلفاؤه الرَّاشِدونَ من بعده، فأين أرقى أمَمِ المدنيَّةِ من أولئك الأئمَّة الْمَهْدِيِّين[٢]!؟

بَلاغةُ الآيتين:

١- **قوله:** ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾: فيه انتقالُ الغرضِ الذي يُعيد نشاطَ السَّامع بتفنُّن الأغراض؛ فقدِ انتقلَ مِن تحديدِ أعمالِ المسلمين مع العدوِّ إلى أحكامِ معاملةِ المسلمين بعضِهم مع بعض، مِن وجوبِ كفِّ عُدوان بعضِهم على بعض[٣].

- وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ جاءَ بصِيغة المبالغةِ في النَّفي ﴿مَا كَانَ﴾، وهي صِيغة الجُحودُ، أي: لا يَنبغي لمؤمنٍ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٦).

يَقتُل مؤمنًا في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالِ الخَطأ، أو أنْ يقتُل قتْلًا من القتْل إلَّا قتْلَ الخطأ، فكان الكلامُ حصرًا، وهو حصرٌ ادِّعائي مُرادٌ به المبالغةُ في النَّهي؛ كأنَّ صِفةَ الإيمانِ في القاتِلِ والمقتولِ تُنافي الاجتماعَ مع القَتْل في نفْسِ الأمرِ منافاةَ الضِّدَّينِ؛ لقصدِ الإيذانِ بأنَّ المؤمِنَ إذا قتَلَ مؤمنًا فقدْ سُلِبَ عنه الإيمانُ، وما هو بمؤمنٍ؛ على نحوِ: ((ولا يَشْرَبُ الخمرَ حينَ يَشرَبُها وهو مؤمنٌ))[1]؛ فتكونُ جملةُ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا﴾ مستقلةً عمَّا بعدَها، غيرَ مرادٍ بها التشريعُ، بل هي كالمقدِّمة للتشريعِ؛ لقصدِ تفظيعِ حالِ قتْلِ المؤمنِ المؤمِنَ قتلًا غيرَ خطأٍ، وتكونُ خبريَّةً لفظًا ومعنًى[2].

- وقيل: إنَّ ﴿مَا كَانَ﴾ خبرٌ مرادٌ به النَّهي؛ فيكون فيه تَنبيهٌ على أنَّ صورةَ الخطأِ لا يَتعلَّقُ بها النَّهي؛ إذْ قد عَلِم كلُّ أحدٍ أنَّ الخطأ لا يتعلَّقُ به أمرٌ ولا نهي، يعني: إنْ كان نوعٌ مِن قتْل المؤمِن مأذونًا فيه للمؤمن، فهو قتْلُ الخطأ، وقد عُلِم أنَّ المخطئَ لا يَأتي فِعلَه قاصدًا امتثالًا ولا عِصيانًا، فرَجَع الكلامُ إلى معنى: وما كان لمؤمنٍ أن يقتُلَ مؤمنًا قتلًا تتعلَّق به الإرادة والقصد بحال أبدًا، فتكون الجملةُ مبدأَ التشريع، وما بعدَها كالتَّفصيلِ لها[3].

---

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٦-١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٧).

وقال ابنُ عاشور: (وعلى هذين الوجهينِ [النفي- والخبر المرادُ به النهي] لا يُشكلُ الاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا خَطَئًا﴾، وذهَب المفسِّرون إلى أنَّ ﴿مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ مرادٌ به النهي، أي: خبرٌ في معنى الإنشاء؛ فالْتجؤوا إلى أنَّ الاستثناءَ منقطِعٌ بمعنى (لكن) [أي: لكنْ إنْ قتلَه خطأً فجزاؤُه ما يُذكَر]؛ فرارًا مِن اقتضاءِ مفهومِ الاستثناءِ إباحةَ أنْ يقتُل مؤمنٌ مؤمنًا خطأً، وقد فهمتَ أنَّه غيرُ متوهَّمٍ هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٧). وينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٩-٢٠)، ((تفسير أبي السعود))

٢- **قوله:** ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ قيل: قَدَّم الدِّيَةَ هنا إشارةً إلى المبادرة بها حِفظًا للعهد، ولتأكيدِ أمْرِ التحريرِ بكونه ختامًا كما كان افتتاحًا في قوله: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾؛ حثًّا على الوفاءِ به؛ لأنَّه أمانة لا طالبَ له إلَّا اللهُ[(١)].

وقيل: قدَّم هنا ذِكْرَ الدِّية، وأخَّرَ ذِكْرَ الكَفَّارة، وعَكَس في قتْل المؤمِن؛ لعلَّه للإشعارِ بأنَّ حقَّ الله تعالى في معاملةِ المؤمنين مُقدَّمٌ على حقوقِ النَّاس؛ ولذلك استثنى هنالك في أمر الدِّيَة فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾؛ لأنَّ مِنْ شأنِ المؤمنِ العَفْوَ والسَّماحَ، واللهُ يُرَغِّبُهم فيما يَليقُ بكرامَتِهم ومكارِمِ أخلاقِهم، ولم يَستثْنِ هنا؛ لأنَّ مِن شأنِ المعاهَدين الْمُشَاحَّةَ والتَّشديدَ في حقوقِهم، وليسوا مُذْعِنين لهدايةِ الإسلام، فيُرَغِّبُهم كتابُه في الفضائل والمكارِمِ[(٢)].

- وتكرَّرت جُملة: ﴿وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾[(٣)]؛ للتَّأكيدِ على تحريرِ الرِّقاب، وحصْر الرِّقابِ المطلوب تحريرُها في الرِّقاب المؤمنةِ فقط.

٣- **قوله:** ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾: في هذه الآية فنُّ مراعاةِ النظير؛ حيث جاءَ التعبيرُ فيها دالًّا على تهديدٍ عظيمٍ بما يُناسِبُ المحتوى؛ إذ قدْ حفِلت هذه الآيةُ بالألفاظِ الدالَّة على الغَضَبِ، والتهديدِ والوعيدِ، والإرعاد والإبراق؛ للإشارةِ إلى أنَّ جريمةَ القتلِ مِن أكبرِ الجرائمِ وأشدِّها إمعانًا في الشرِّ؛ لِمَا يترتَّبُ عليها من هدْمٍ لبناءِ المجتمَع[(٤)].

(٢/ ٢١٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٤) (٤/ ٢٩).

(٤) (تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٠)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ١٣٦)،

- وقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾: عطفٌ على مُقدَّر يدلُّ عليه الشَّرطيَّةُ دَلالةً واضحة، كأنَّه قيل بطريقِ الاستئنافِ تقريرًا وتأكيدًا لمضمونها: حَكَمَ اللهُ بأنَّ جزاءَه ذلك، وغَضِبَ عليه، وهي جملةٌ استئنافيَّة، فيها تأكيدٌ لمضمونِ ما قَبلها من حُكم اللهِ بأنَّ جزاءه ذلك، بالإضافةِ إلى غَضبِ اللهِ عليه(١).

٤- قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾: استئنافٌ ابتدائيٌّ خُوطب به المؤمنون؛ استقصاءً للتحذيرِ مِن قتْل المؤمِنِ بذِكر أحوالٍ قد يُتساهَل فيها، وتَعْرِضُ فيها شُبَهٌ(٢).

- والتَّصدير بالنِّداء للمؤمنين؛ لبيانِ أهميَّةِ الحُكم، وأنَّ امتثالَه من مُقتضياتِ الإيمانِ، وفيه فضيلةُ المؤمنينَ؛ حيث يُخاطبهم الله عزَّ وجلَّ بما شاءَ من أحكام، ولا شكَّ أنَّ مخاطبةَ الله للإنسانِ لشَخْصِه أو لوصفِه- لا شكَّ أنها شَرَف، والنَّاس يَتدافعون عند ملوكِ الدُّنيا، فإذا قال هذا المَلِكُ: كيف أصبحتَ يا فلانُ؟! فإنَّه يَعُدُّهُ شَرفًا، فإذا وجَّه الله الخطابَ للمؤمنينَ كان ذلك شَرفًا لهم(٣).

- قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾: جملة خبريَّة، فيها تعليلٌ للنهي عن ابتغاءِ مالِه بما فيه من الوَعد الضِّمْني؛ كأنَّه قيل: لا تَبتغوا مالَه؛ فعندَ الله

((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٥).

مغانمُ كثيرةٌ يُغنمكموها، فيُغنيكم عن ارتكابِ ما ارتكبتموه[١].

- قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾: تعليلٌ للنهيِ عن القول المذكور، ولعلَّ تأخيرَه لِمَا فيه من نوعِ تفصيلٍ ربَّما يُخلُّ تقديمُه بتجاوُب أطرافِ النَّظم الكريم، مع ما فيه من مراعاةِ المقارنة بين التعليل السابق، وبين ما عُلِّل به، كما في قوله تعالى ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ ...﴾ إلخ [آل عمران: ١٠٦][٢].

- وتقديم خبَر كان ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ للقصرِ المفيدِ لتأكيد المشابهة بين طرفَي التشبيه، والفاء في ﴿فَمَنَّ﴾ للعطف على ﴿كُنتُم﴾ أي: مِثلَ ذلك الذي ألْقى إليكم السلامَ كنتم أنتُم أيضًا في مبادِي إسلامِكم لا يَظهرُ منكم للناسِ غيرُ ما ظهَرَ منه لكم مِن تحيَّة الإسلامِ ونحوِها، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بأنْ قَبِل منكم تلك المرتبةَ، وعصَم بها دماءَكم وأموالكم، ولم يأمُرْ بالتفحُّص عن سرائرِكم[٣].

- وكرَّر قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾؛ تأكيدًا لتعظيم الأمْر، وتَرتيبِ الحُكم على ما ذُكِر من حالهم[٤]، مع ما فيه من التأكيد بصِيغة التفعُّل التي بمعنى الاستفعال- أي: اطلبوا بيانَ الأمْر وثباته، ولا تَتهوَّكوا فيه من غير رويَّة[٥]، مع المبالغة في التَّحذير عن ذلِك الفِعل[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٨-١٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦).

(٥) ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١).

- والتذييلُ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ تعليلٌ لِمَا قَبْلَه بطريقِ الاستئنافِ، وفيه الجمْعُ بين الوعيدِ والوَعْدِ، أي: فيُجازيكم بِحَسَبِها إنْ خيرًا فخيرٌ وإنْ شرًّا فشرٌّ، فلا تَتهاونوا في القَتْلِ واحتاطُوا فيه [(١)]، مع ما في الجملةِ مِن تأكيدِ الخبرِ بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٩).

الآيتان (٩٥ - ٩٦)

﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾: أي: أصحابِ العَجزِ، وأهْلِ العُذرِ بذَهابِ أبصارِهم، والزَّمَانةِ وغيرِ ذلك مِن العِللِ المانعةِ مِن الجِهادِ؛ يُقال: ضريرٌ بيِّنُ الضَّرر، وأصل (ضرر): خلافُ النَّفْع[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾

﴿غَيْرُ﴾: قُرِئت بالرَّفْع، وبالنَّصب، وبالجرِّ؛ فالرَّفْعُ على البَدلِ مِن ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾؛ لأنَّ الكلامَ نفيٌ، والبَدلُ معه أرْجَحُ. والنَّصبُ على الاستثناءِ من ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾؛ لأنَّهم المحدَّثُ عنهم، أو يكون النَّصْبُ على الحالِ مِن ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ أيضًا، وجازُ وقوعُ (غَيْر) حالًا وإنْ كانتْ مضافةً؛ لأنَّها نكرةٌ لا تتعرَّفُ بالإضافةِ. والجرُّ على الصِّفة لـ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وجاز ذلك وإنْ كان لا يَجوزُ اختلافُ النَّعتِ والمنعوتِ تَعريفًا وتنكيرًا، على اعتبارِ أنَّ (المؤمنين) أُريد بهم الجِنسُ؛ فأَشْبَهوا النكرةَ فوُصِفوا كما تُوصَف، أو على أنَّ (غير) قد تَتعرَّفُ إذا وقعتْ بين ضِدَّين[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٦٥- ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبر تعالى أنَّه لا يَستوي مِن المؤمنين مَن قعَدَ عن الجِهادِ فلمْ يخرُجْ، ومَن خرَج للجهادِ في سَبيلِ اللهِ بمالِه ونفْسِه، وأخْبَر سبحانه أنَّه فضَّلَ المجاهدينَ بأموالهم وأنفُسِهم على القاعدينَ درجةً، وكِلَا هَذَينِ الفريقينِ من المجاهدين والقاعدينَ وَعَدَهما اللهُ الجنَّةَ، ولكنْ فضَّلَ المجاهدينَ على القاعِدينَ بأجرٍ عظيمٍ، هذا الأجرُ العظيمُ هو درجاتٌ عاليةٌ يَرفعُهم اللهُ بها في الجِنانِ، ومَغفرةُ ذنوبهم، ورَحمتُهم، وكان الله غفورًا رحيمًا.

تفسيرُ الآيتين:

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا عاتبَهم الله تعالى على ما صَدَر منهم مِن قَتْلِ مَن تَكلَّم بكلمةِ الشَّهادة، فلعلَّه يَقعُ في قلبِهم أنَّ الْأَوْلى الاحترازُ عن الجهادِ؛ لئلَّا يقَعَ بسببه في مِثل هذا المحذورِ، فلا جَرَمَ ذَكَرَ اللهُ تعالى في عَقيبه هذه الآيةَ، وبيَّنَ فيها فَضْلَ المجاهدِ على غيرِه؛ إزالةً لهذه الشُّبْهة، وأيضًا كيلَا يكونَ ذلك اللومُ مُوهِمًا انحطاطَ فضيلَتِهم في بعضِ أحوالِهم، على عادَةِ القُرآنِ في تعقيبِ النِّذَارة بالبِشَارة؛ دَفعًا لليأسِ مِن الرحمةِ عنْ أنفُس المسلمينَ[1].

وأيضًا لَمَّا عاتَبَهم اللهُ تعالى على ما صدَرَ منهم مِنْ قتْل مَنْ تكلَّم بالشَّهادة؛

(١/ ٣٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٧٦-٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٩).

ذكَر عقيبَه فَضيلةَ الجِهاد، كأنَّه قيل: مَن أتَى بالجهادِ فقدْ فاز بهذه الدَّرَجةِ العظيمةِ عندَ اللهِ تعالى، فَلْيَحْتَرِزْ صاحبُها من تلك الهَفْوةِ[١] فقال تعالى:

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

سَببُ النُّزول:

عن سَهلِ بنِ سَعدٍ الساعديِّ، أنَّه قال: رأيتُ مَرْوانَ بنَ الحَكمِ جالسًا في المسجدِ، فأقبلتُ حتَّى جلستُ إلى جَنبِه، فأخْبَرَنا أنَّ زيدَ بنَ ثابتٍ رضِي اللهُ عنه أخْبَره ((أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمْلى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، قال: فجاءَه ابنُ أمِّ مَكتومٍ وهو يُمِلُّها عليَّ، فقال: يا رسولَ اللهِ، لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ- وكان رجلًا أعْمَى- فأَنْزلَ اللهُ تبارَك وتَعالَى على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وفَخِذُه على فَخِذي، فثَقُلَتْ عليَّ حتَّى خِفْتُ أنْ تَرُضَّ فَخِذي[٢]، ثم سُرِّي عنه[٣]، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾))[٤].

وفي روايةٍ أخرى، عنِ البَراءِ، قال: ((لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ادعُ لي فلانًا، فجاءَه ومعه الدَّوَاةُ واللَّوْحُ، أوِ الكَتِفُ، فقال: اكتب ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ وخلْفَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فقال: يا رَسولَ اللهِ، أنا ضَريرٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٢).

(٢) تَرُضَّ- بفَتْح التاءِ وضمِّ الراء، ويجوز العكسُ تُرَضَّ-: أي: تَدُقَّ وتَكسِر، أو تُدَقَّ وتُكْسَر، من الرَّضِّ، وهو: الدقُّ، وكلُّ شيءٍ كَسرتَه فقدْ رَضضتَه. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٤٧٩) و(٨/ ٢٦١)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٨/ ٣٤٤).

(٣) سُرِّيَ: أي: كُشِفَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٦١).

(٤) رواه البخاري (٢٨٣٢).

فنزَلَتْ مَكانَها ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾))[١].

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

أي: لا يَستوي مَن لم يَخرُجْ للجهادِ لتكونَ كلمةُ الله هي العليا- إلَّا مَن تخلَّف عن الجهادِ لعُذْر- مع مَن جاهَدَ من المؤمنين بنَفسِه ومالِه[٢].

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾.

أي: فضَّل اللهُ المجاهدين ببذْلِ أموالِهم وأنفسِهم على القاعدينَ بدرجةٍ رفيعةٍ[٣].

عن أبي هُريرَةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن آمَنَ باللهِ ورسولِه، وأقام الصَّلاةَ، وصامَ رمضانَ، كان حقًّا على اللهِ أن يُدخلَه الجنَّةَ، هاجر في سبيلِ اللهِ، أو جلس في أرضِه الَّتي وُلِدَ فيها. قالوا: يا رسولَ اللهِ، أفلا نُنبِّئُ النَّاسَ بذلك؟ قال: إنَّ في الجنَّةِ مائةَ درجةٍ، أعدَّها اللهُ للمجاهدين في سبيلِه، كلُّ درجتيْنِ ما بينهما كما بين السماءِ والأرضِ، فإذا سألتم اللهَ فسلُوهُ الفردوسَ، فإنَّهُ أوسطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفوقَه عرشُ الرَّحمنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ))[٤].

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٩٤) واللفظ له، ومسلم (١٨٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٦٥-٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٨-١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠١).

(٤) رواه البخاري (٧٤٢٣)، ورواه مسلم (١٨٨٤) بنحوه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أي: وعَدَ اللهُ كُلًّا مِن المجاهِدين بأموالهم وأنفسِهم، والقاعِدين: الجنَّةَ[١].

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: وفضَّل اللهُ المجاهدين بأموالهم وأنفُسِهم على القاعِدينَ جزاءً كبيرًا، وثوابًا جزيلًا[٢].

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾.

أي: إنَّ هذا الأجْرَ العظيمَ يَشملُ رَفْعَهُم دَرجاتٍ في الجِنان العالياتِ، وسَتْرًا للذنوب، وتجاوزًا عن الزلَّاتِ، وحلولَ الرَّحَماتِ والبركات؛ إحسانًا منه سبحانه وتكريمًا، وفضلًا منه وتشريفًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ - ١٢].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الغفورُ الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوزُ عن مُؤاخذتِهم بها، وهو الَّذي يَرحَمُهم، فيتفضَّلُ عليهم بنِعَمِه سبحانه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٨-٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة النساء)) (٢/ ١٠٧-١٠٨).

الفَوائِد التربويَّة:

١- قولُ الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ فيه التَّرغيبُ في الجِهاد، والحثُّ عليه[١].

٢- فَضْلُ الجهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى بالمالِ والنَّفس؛ ووجهُه: أنَّهم أعْلى درجةً من القاعدين الَّذين لا يُجاهدون، قال تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ ...﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ نفْيُ التَّساوي بين النَّاس، والعَجَبُ أنَّنا نسمع مَن يُدندِنُ كثيرًا فيقول: إنَّ دينَ الإسلام دينُ المساواة، وهذا غلطٌ على دينِ الإسلامِ، فدينُ الإسلام ليس دينَ المساواةِ، ولكنَّه دينُ العدلِ، والعدلُ هو: إعطاءُ كلِّ أحدٍ ما يستحقُّه؛ ولذلك تجد أكثرَ ما في القرآنِ نفيَ المساواة، وليس إثباتها؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ فيه حِكمةُ الشَّريعةِ؛ حيث لا تُسَاوِي بين المفترقَيْنِ، كما أنَّها لا تُفَرِّق بين المتساوِيَين؛ فالشَّريعة الإسلامية من لدُنْ حكيمٍ خبيرٍ، فلا يمكن أنْ تجدَ فيها حُكمَينِ متناقضينِ، ولا يمكن أنْ تجد فيها شيئينِ متساويينِ ثمَّ يختلفانِ في الحكم أبدًا، بل إذا تراءى لك أنَّ هذين الشيئين متساويانِ، وقد اختلفا في الحكم شرعًا، فأَعِدِ النَّظَرَ مرَّةً بعد أخرى حتَّى يتبيَّنَ لك، فإنْ لم يتبينْ لك فاتَّهِمْ فَهْمَك، ولا تَتَّهِمِ الأحكامَ الشَّرعيَّة[٤].

٣- نفيُ التساوي أيضًا في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٤).

يُفيدُ التَّذكيرَ بما بينهما مِن التفاوُتِ العَظيم، والبَوْنِ البَعيد؛ ليَأنفَ القاعدُ، ويَترفَّعَ بنَفْسِه عن انحطاطِ منزلتِه، فيهتزَّ للجِهاد، ويَرغبَ فيه وفي ارتفاعِ طبقتِه[١]، كذلك فهذا النفي للتساوي يقتضي العموم، فالقاعدون والمجاهدون لا يستوون مِن كلِّ وجهٍ[٢].

٤- أنَّ مَن قعَد عن الجِهاد لضَرَرٍ، فإنَّه كالذي أتى بالجهاد؛ لقوله: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثمَّ استثنى فقال: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾، فأولو الضَّررِ مُساوُون للمجاهدين، فالمعذورَ يُكتَبُ له مِثلُ ثوابِ الصَّحيحِ إذا كانتْ نِيَّتُه أنْ يفعلَ، وقدْ عمِلَ ما يَقدِرُ عليه[٣].

٥- البِشارةُ بالحُسنَى لعامَّة المؤمنينَ من القاعدين والمجاهدين؛ لقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٤].

٦- عِظَم منَّةِ الله سبحانه على العِباد؛ حيثُ جَعَل إثابتَهُم على الأعمالِ مثلَ الأُجرة الَّتي استحقَّها الإنسان فَرْضًا على الْمُسْتَأجِر؛ لقوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فسمَّاه ﴿أَجْرًا﴾، كأُجرة الأجير، مع أنَّ الفضلَ للهِ تعالى أولًا وآخِرًا؛ فهو الَّذي وفَّق للعمل، وهو الَّذي منَّ بالجزاء عليه[٥].

٧- قوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾، هذا بيانٌ لمفهوم عدمِ استواء المجاهِدين والقاعِدين غيرِ أُولي الضَّرر، وهو أنَّ الله تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٥٣- ٥٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٥٦٩، ٥٧٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٣١) و(٢٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٦).

رَفَعَ المجاهدين عليهم درجةً، وهي درجةُ العمل الَّذي يترتَّبُ عليه دفعُ شرِّ الأعداءِ عن الْمِلَّة والأمَّة والبلاد، وكُلًّا وَعَدَ الله الحُسنى[١].

٨- ذكَر تعالى في الآيةِ فَضْلَ المجاهدينَ في سبيلِ اللهِ على القاعِدين لغيرِ عَجزٍ؛ فعُلِمَ أنَّ العاجِزَ معذورٌ، قال تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ...﴾[٢].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ فرْضَ الجِهاد على الكِفايةِ، وليس على كلِّ واحدٍ بعينه؛ لأنَّه تعالى وَعَدَ القاعدين الحُسنى كما وعَد المجاهدينَ، ولو كان الجِهادُ واجبًا على التَّعيينِ لَمَا كان القاعدُ أهلًا لوعْدِ الله تعالى إيَّاه الحُسْنى[٣].

١٠- عِظَم دَرجاتِ المجاهدين في سَبيلِ الله، وجْهُ ذلك قولُه: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾، فأضافَها إلى نَفسِهِ، ومعلومٌ أنَّ العطاءَ يعظُم بعِظَم المُعطِي[٤].

١١- رفعةُ الدَّرَجات تعود إلى العِلْمِ والجهادِ اللَّذَيْنِ بهما قِوامُ الدِّينِ، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾، وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقد ذُكرت رفعةُ الدَّرجات في أربعةِ مواضِعَ؛ ثلاثة منها لأَهْلِ الإيمانِ الذي هو العِلْمُ النافِعُ، والعمَلُ الصَّالِحُ، والرَّابعُ الرِّفْعَةُ بالجهادِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٧).

(٥) ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٠- ٥١).

١٢- إثباتُ الرَّحمةِ للهِ، والرَّحمةُ الَّتي أضافَها اللهُ تعالى إلى نفْسه نوعانِ: منها صِفةٌ لله، ومنها مخلوقٌ مِن مخلوقاتِ الله سَمَّاه اللهُ تعالى (رحمةً)[١].

١٣- لَمَّا وعَد المجاهدِينَ بالمغفرةِ والرَّحمةِ الصَّادرَتَيْنِ عن اسْمَيهِ الكريمينِ ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ختَم هذه الآيةَ بهما، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢].

بَلاغةُ الآيتين:

١- **قوله**: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾: فيه تعريضٌ بالقاعِدين، وتَشْنيعٌ بحالِهم؛ حيثُ بيَّن أنَّ القاعدَ عن الجِهاد لا يُساوي المجاهِدَ في فَضيلةِ نُصْرة الدِّين، وبهذا يَظهرُ موقعُ الاستثناءِ بقوله: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾؛ كيلَا يَحسبَ أصحابُ الضررِ أنَّهم مقصودونَ بالتَّحريض؛ فيَخرجوا مع المسلمين، فيُكلِّفوهم مَؤونةَ نقْلِهم وحِفظهم بلا جَدْوى، أو يَظنُّوا أنَّهم مقصودونَ بالتعريضِ، فتَنكسِرَ لذلك نفوسُهم، زيادةً على انكسارِها بعَجزِهم، ولأنَّ في استثنائِهم إنصافًا لهم وعُذرًا بأنَّهم لو كانوا قادِرين لَمَا قَعَدوا؛ فذلِك الظنُّ بالمؤمِن؛ فالاستثناءُ مقصودٌ، وله موقعٌ من البلاغةِ لا يُضاعُ، ولو لم يُذكَر الاستثناءُ هنا، لكان تجاوزُ التَّعريضِ أصحابَ الضررِ معلومًا في سياقِ الكلامِ؛ فالاستثناءُ عُدولٌ عن الاعتمادِ على القَرينةِ إلى التَّصريحِ باللَّفْظِ، وهو عدولٌ عن حِراسةِ المقامِ إلى صَراحةِ الكلامِ، وهو مِن البلاغةِ ومِن مراعاةِ مقتضى الحال أيضًا؛ لأنَّ السامعينَ أصنافٌ كثيرةٌ منهم الذَّكيُّ الذي يَفْهَم بالقَرينةِ، ومنهم غيرُه الذي لا يَفْهَم إلَّا بالتَّصريحِ[٣].

- وفيه: تقديمُ المفضولِ ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ في الذِّكرِ على الفاضِلِ ﴿الْمُجَاهِدُونَ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٠).

للإيذانِ مِن أوَّل الأمرِ بأنَّ القصورَ الذي يُنْبئ عنه عدمُ الاستواءِ مِن جِهة القاعِدين، وليس مِن جِهةِ المجاهِدِينَ؛ فإنَّ مفهومَ عدمِ الاستواءِ بين الشَّيئين المتفاوتينِ زيادةً ونقصانًا، وإنْ جاز اعتبارُه بحسَب زيادةِ الزائد، لكن المتبادِر اعتبارُه بحسَب قُصورِ القاصِر، كقولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾[1] [الرعد: ١٦]، وبيانُ ذلك أنَّ الفرقَ بين المتفاوتين في الزِّيادة والنَّقصِ، يُمكن اعتبارُ التفاوتِ بالنِّسبةِ إلى النقصِ في الناقِص، ويمكن اعتبارُه بالنسبةِ إلى الزيادةِ في الزَّائد؛ فقُدِّم الجانبُ الناقِص؛ ليُبيِّنَ أنَّ التفاوتَ الذي حصَل بينهما، إنَّما هو بسببِ النَّقصِ الذي جاءَ منهم لا بسببِ الزيادةِ في الفريقِ الثاني، وفيه زيادةُ تأنيبٍ لجانبِ النقص[2]. وقدْ حَسُنَ هذا الانتقالُ مِن حالةٍ إلى أعْلى منها؛ لأنَّ هذا الانتقالَ مِن حالةٍ إلى أعلى منها عندَ التفضيل والمدْحِ، أو النُّزولِ مِن حالة إلى ما دونها عندَ القدح والذم- أحسنُ لفظًا، وأوقعُ في النَّفْس[3].

٢- **قوله:** ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗ﴾: فيه التفصيلُ بعد الإجمال؛ فإنَّه استئنافٌ مسوقٌ لتفضيلِ ما بين الفَريقينِ مِن التفاضُلِ المفهومِ مِن ذِكر عدمِ استوائِهما إجمالًا، ببيانِ كيفيَّتِه وكمِّيَّته، وهو مبنيٌّ على سؤالٍ ينساقُ إليه المقال، كأنَّه قيل: كيف وقَع ذلك؟ فقيل: فضَّلَ الله... إلخ[4]؛ فجملة: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾ بيانٌ لجُملة: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[5]؛ فلمَّا بيَّن أنَّ المجاهِدين والقاعِدين لا يَستويانِ، وكان عَدمُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٠).
(٢) يُنظر: ((أضواء البيان- تتمة الشيخ عطية سالم)) (٨/ ٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٠- ٢٢١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٠).

الاستواءِ يَحتمِلُ الزِّيادةَ ويَحتملُ النُّقصانَ، وكان نَفيُ المساواةِ سببًا لترقُّبِ كلٍّ مِن الحِزبَينِ الأفضليةَ؛ لأنَّ القاعدَ وإنْ فاتَه الجهادُ، فقدْ تخلَّفَ الغازي في أَهلِه؛ إذ يُحيي الدِّينَ بالاشتغالِ بالعِلمِ ونحوِه- لا جرَمَ كشَفَ اللهُ سُبحانَه عن التَّفضيلِ فقال: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾[1].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ جاءَ هنا تقديمُ الأموالِ على الأنفُس، بَيْنما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١] جاءَ تَقديمُ الأنفسِ على الأموالِ؛ وذلِك لأنَّ النَّفْسَ أشرفُ مِن المالِ، وقد تَبايَن الغَرضانِ في الآيتينِ؛ ولَمَّا كان الكلامُ هنا في سورةِ النِّساءِ عن المجاهِدِ وهو بائعٌ، أَخَّر ذِكرَ الأَنفُس؛ تنبيهًا على أنَّ المضايقةَ فيها أشدُّ؛ فلا يَرضَى بَبذلِها إلَّا في آخِرِ المراتِبِ، وأمَّا في سورةِ التوبةِ فالكلامُ عن الذي يَشتري- وهو اللهُ سبحانه وتعالى- فقَدَّم ذِكْرَ النَّفسِ؛ تَنبيهًا على أنَّ الرَّغبةَ فيها أشدُّ، وإنَّما يرغَب أولًا في الأنفسِ الغالِي[2].

٣- **قوله:** ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: جُملة معترِضة؛ جيءَ بها لبيانِ سَعة فضلِ الله عزَّ وجلَّ، ولكي يَطمئنَّ الأقلُّ درجةً أنَّ له نصيبًا من الأجرِ[3]، وفيها حُسْنُ احتراسٍ أو احتراز؛ فإنَّه سبحانه إذا فضَّلَ شيئًا على شَيءٍ وكلٌّ منهما له فضلٌ، احترز بذِكرِ الفَضلِ الجامعِ للأمرينِ؛ لئلَّا يتوهَّم أحدٌ ذمَّ المُفضَّلِ عليه، أو القَدْح فيه[4].

- وقوله: ﴿وَكُلًّا﴾ مفعولٌ أوَّلُ لـ ﴿وَعَدَ﴾، قُدِّم لإفادةِ القَصرِ؛ تأكيدًا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦- ٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥، ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٥).

للوعدِ، أي: كلَّ واحدٍ من المجاهِدين والقاعِدين[١].

٤- **قوله**: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾: فيه التعبيرُ بالمصدر المؤكِّد لـ﴿فَضَّلَ﴾ على أنَّه بمعنى (أَجَرَ)، وإيثارٌ على ما هو مصدرٌ من فِعله؛ للإشعارِ بكون ذلك التفضيلِ أجرًا لأعمالهم[٢].

٥- **قوله**: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾: جَمَعَ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾؛ لإفادة تعظيم الدَّرجة؛ لأنَّ الجَمْع- لِمَا فيه من معنى الكثرة- تُجعل صِيغتُه لمعنى القُوَّة[٣].

- وفي قولِه في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿دَرَجَةً﴾ بالإفرادِ، ثم قولِه في هذه الآيةِ: ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ بالجمْع، مناسبةٌ حَسنةٌ؛ وذلك مِنْ وجوهٍ[٤]:

الوجه الأوَّلُ: أنَّ قوله: ﴿دَرَجَةً﴾ جِيءَ به بصِيغةِ الإفراد، وليسَ إفرادُها للوَحْدة؛ لأنَّ ﴿دَرَجَةً﴾ هنا جِنسٌ معنويٌّ لا أفرادَ له، فالمرادُ بالدرجة ليس هو الدَّرجةَ الواحدةَ بالعَدَدِ، بل بالجنس، والواحد بالجِنْسِ يدخل تحته الكثيرُ بالنوع، وذلك هو الأجرُ العظيم، والدَّرجاتُ الرفيعةُ في الجنَّة المغفرةُ والرَّحمة؛ ولذلك أُعيد التعبيرُ عنها في الجُملة، التي جاءتْ بعدَها؛ تأكيدًا لها بصِيغة الجَمْع بقولِه: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾؛ لأنَّ الجَمْع أقوى مِن المفرد، وتنوين ﴿دَرَجَةً﴾ للتعظيم، وهو يُساوي مفاد الجمع في قوله الآتي: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾.

الوجهُ الثاني: أنَّ المرادَ بالتفضيلِ بالدرجةِ تَفضيلُهم على القاعِدينَ بعُذر؛ لأنَّ لهم أجرًا لكونهم من الغُزاة بالهمَّة والقَصْد؛ ولهذا قال ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢١- ٢٢٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٢).

أي الجنَّة. والمرادَ بالتفضيلِ بالدَّرجات تفضيلُهم على القاعِدينَ بلا عذرٍ؛ لأنهم مُقصِّرون ومُسيئونَ؛ فكان فضلُ الغزاةِ عليهم دَرجاتٍ؛ لانتفاءِ الفضلِ لهم.

الوجه الثالث: أنَّ هذا من قبيل أُسلوبِ الإبهامِ ثمَّ التَّفسيرِ، والغَرَضُ منه مزيدُ التَّحقيقِ والتقريرِ، فكأنَّه قيل: فضَّلَ اللهُ المجاهدينَ على القاعِدينَ ﴿دَرَجَةً﴾ لا يُقادَر قَدرُها، ولا يُبلَغُ كُنهُها، ولَمَّا كانتْ معرفةُ هذا الفَرْقِ الواسعِ بين الفريقين تُوهِمُ حِرمانَ القاعدينَ، قيل: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ثم أُريدَ تفسيرُ ما أفادَه التنكيرُ بطريقِ الإبهامِ بحيث يقطَعُ احتمالَ كونِه للوَحْدة، فجيءَ بالجمع في قَوْلِه تعالى: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾.

الوجه الرابع: أنَّ التفضيلَ بالدَّرجةِ هو ما فضَّلَ الله المجاهدين في الدُّنيا بدَرجةٍ واحدةٍ، وهي الغنيمةُ، وأما الجَمْعُ فتفضيلُهم في الآخِرَةِ بدرجاتٍ كثيرةٍ في الجنَّة؛ بالفضلِ والرَّحمة والمغفرة.

الوجه الخامس: أنَّ المقصودَ بالمجاهِدِ الأَوَّلِ غيرُ المقصود به في الموضِعِ الثاني؛ لئلَّا يحصُلَ التَّكرارُ، فالمفضَّلون درجةً هم المجاهِدون بأموالِهم وأنفُسِهم كما نصَّت الآية، وأمَّا المرادُ بالثاني وهو المفضَّلُ بالدرجات مَن كان مجاهدًا على الإطلاقِ في كُلِّ الأمور، وهو الجهادُ بالنَّفْس والمال والقلب، وهو أشرفُ أنواعِ المجاهدةِ، وحاصِلُ هذا الجهادِ صَرْفُ القلب من الالتفاتِ إلى غير الله إلى الاستغراقِ في طاعة الله، ولَمَّا كان هذا المقامُ أعلى مما قبله؛ لا جَرَمَ جَعَل فضيلةَ الأول درجةً، وفضيلة هذا الثاني درجاتٍ.

- وقد جاءتِ اللَّفظتان: ﴿مَغْفِرَةً﴾، و﴿رَحْمَةً﴾ على المَصدرِ بإضمارِ فِعلَيْهما (غَفَر - رَحِم)؛ تَرغيبًا في الجِهاد[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٢).

٦- **قوله:** ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: تذييلٌ مقرِّرٌ لِمَا وعَد مِن المغفرةِ والرحمةِ[(١)].

- وجاء لفظ ﴿غَفُورًا﴾ على هيئة صِيغة المبالغة (فعول)؛ مبالغةً في وصْفِه تعالى بالمغفرة؛ لإفادةِ أنَّه يَغفِر له ما فرَط منه من الذُّنوب، التي مِن جملتِها القعودُ عن الهجرةِ إلى وقتِ الخروج، وكذَا جاءَ لفْظُ ﴿رَّحِيمًا﴾ على هَيئةِ صِيغةِ المبالغةِ (فعيل) أيضًا؛ ليدلَّ على المبالغةِ في وصْفِه تعالى بالرَّحمة؛ فيَرحمه بإكمالِ ثَوابِ هِجرتِه[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٠)

الآيات (٩٧ - ١٠٠)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿حِيلَةً﴾: الحِيلةُ ما يُتوصَّلُ به إلى حالةٍ ما، في خُفيةٍ، وأكثرُ استعمالِها فيما في تَعاطِيه خُبثٌ، وقد تُستعملُ فيما فيه حِكمةٌ، وأصل (حول): تغيُّرُ الشَّيءِ وانفصالُه عن غيرِه، والتحرُّك في دَورٍ؛ ومنه الحِيلةُ؛ لأنَّه يُدارُ فيها حوالي الشَّيءِ ليُدْرَكَ[(١)].

﴿مُرَاغَمًا﴾: أي: مُتَزَحْزَحًا عمَّا يَكرَهُه، أو مُتَحوَّلًا، والمُراغَم والمُهاجَر واحدٌ، وأصل (رغم): المَذهبُ والمهرَبُ[(٢)].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر اللهُ تعالى أنَّ الَّذين تَقبِض الملائكةُ أرواحَهم، وهم ظالِمو أنفسِهم بمعصيةِ الله؛ حيثُ أقاموا في دار الكُفر، ولم يُهاجِروا فرارًا بدِينهم، مع أنَّهم لا يَستطيعون إقامتَه في تلك الدَّار، وهم قادِرونَ على الهِجرة، تقولُ لهم الملائكةُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٠، ٣٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦- ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢).

حين قَبْض أرواحِهم موبخةً لهم: لِمَ بقِيتُم في هذا المكانِ، وتركتُم الهِجرةَ؟ فأجابوا أنَّهم كانوا ضُعفاءَ، مقهورِين، ليس لهم القُدرةُ على الهجرةِ، فتقول لهم الملائكةُ حِينَها: قد كانتْ أرضُ اللهِ واسعةً فسيحةً، وقد كان بوُسعِكم الانتقالُ إلى أيِّ مكانٍ منها تستطيعونَ فيه عِبادةَ الله. ثمَّ يُبيِّن اللهُ تعالى أنَّ هؤلاء الَّذين ظلَموا أنفسَهم مَصيرُهم نارُ جهنَّمَ، وقَبُحتْ جهنَّمُ مآبًا ومرجعًا لهم.

واستَثْنَى اللهُ تعالى الَّذين استُضعِفوا حقًّا وقُهِروا، رِجالًا ونساءً ووِلدانًا، فلمْ يَقدِروا على الهِجرة؛ لعجزِهم عن تدبيرِ حِيلةٍ تخلِّصُهم من المشركين، ولا يَعرِفون الطَّريقَ الَّتي يَنبغي المرورُ فيها للخروجِ من دار الكُفرِ إلى دارِ الإسلام، فأولئك وعَدَهم اللهُ بأنْ يعفوَ عنهم، ويتجاوزَ عن مؤاخذتِهم بترْكِ الهجرة، وكان اللهُ عفوًّا غفورًا.

ثمَّ حثَّ اللهُ على الهِجرة ورغَّبَ بها؛ حيثُ أخبرَ أنَّ مَن يهاجرُ في سبيلِ الله فإنَّه يجدُ في الأرض مكانًا يَتزحْزَحُ فيه عمَّا يكرَهُ، وموضعًا فيه سَعةٌ في الدِّين، يمكِنُه إظهارُه فيه، وفيه سَعةٌ في الصَّدرِ، والرِّزق، وكلِّ شيء، وأخبَر تعالى أنَّ مَن يَخرج من بَيتِه مُهاجرًا قاصدًا رضَا الله، واتباعًا وحبًّا لرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ يموتُ قَبلَ أنْ يَبلُغَ دارَ الإسلام الَّتي هاجَر إليها، فقد ثبَت أَجرُهُ على اللهِ، وكان اللهُ غفورًا رحيمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى ثوابَ مَن أقدَمَ على الجِهاد، أتْبَعَه بعِقابِ مَن قعَدَ عن الجِهادِ، وسكَن في بلادِ الكُفرِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى القاعدِينَ عن الجِهادِ من المؤمنين بعُذْرٍ وبدونه، كان حالُ القاعِدِين عن إظهارِ إسلامِهم مِن الَّذين عَزَموا عليه بمكَّةَ، أو اتَّبَعوه ثمَّ صَدَّهم أهلُ مكَّةَ عنه، وفتَنوهم حتَّى أرجَعوهم إلى عِبادةِ الأصنام بعُذرٍ وبدونه، بحيثُ يخطُرُ ببالِ السَّامع أنْ يَتساءلَ عن مَصيرِهم إنْ هم استمرُّوا على ذلك حتَّى ماتوا، فجاءتْ هذه الآيةُ مجيبةً عمَّا يَجيش بنفوسِ السَّامعين من التَّساؤلِ عن مَصيرِ أولئك[٢].

سببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما: ((أنَّ أناسًا من المسلِمين كانوا مع المُشرِكين يُكثِّرون سوادَ المُشرِكين على رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيأتي السَّهمُ يُرمى به، فيُصيبُ أحدَهم فيقتُلُه، أو يُضرَبُ فيُقتَلُ، فأنزَل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾))[٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾

أي: إنَّ الَّذين تَقبِضُ الملائكةُ أرواحَهم، والحالُ أنَّهم اكتَسبوا غضَبَ اللهِ تعالى؛ بسببِ مَعصيتِه بإقامتِهم بينَ ظَهْرَانَيِ المشرِكين، مع عدمِ تمكُّنِهم من إقامةِ الدِّين، وهم قادِرونَ على الهِجرةِ، فلم يُهاجِروا حتَّى ماتوا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٣).

(٣) رواه البخاري (٧٠٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٩).

﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡ﴾.

أي: قالتِ الملائكةُ توبيخًا لهم: لماذا بقِيتُم في هذا المكانِ، وترَكتُم الهِجرةَ[١]؟

﴿قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: قال الَّذين توفَّاهم الملائكةُ ظالِمي أنفسِهم، مُعتذِرين عن تَركِ الهجرةِ: كنَّا ضُعَفاءَ مَقهورينَ، ليس لنا قُدرةٌ على الخُروجِ مِن بين ظَهْرانَيِ المُشركين[٢].

﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾.

أي: قالتْ لهم الملائكةُ: إنَّ أرضَ اللهِ تعالى واسعةٌ، فإذا كان العبدُ في مَكانٍ لا يتمكَّنُ فيه من إظهارِ دِينِه، فإنَّ له متَّسعًا وفُسحةً من الأرضِ، بحيث ينتقلُ إلى الأرض الَّتي يتمكَّنُ فيها من عبادةِ اللهِ تعالى[٣].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾.

أي: فهؤلاء الَّذين تقدَّم ذِكرُهم، ووصْفُ حالِهم، مصيرُهم في الآخرةِ جهنَّمُ، وهي مسكَنُهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٩-١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥-١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٩-٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٠-١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١١).
قال السعديُّ: (قال اللهُ عن هؤلاء الذين لا عُذرَ لهم: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾، وهذا- كما تقدم- فيه ذِكرُ بيان السَّبب الموجِب؛ فقد يترتَّب عليه مقتضاه، مع اجتماعِ شُروطِه

﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

أي: وساءتْ جهنَّمُ لأهلِها الَّذين صاروا إليها مرجعًا ومرَدًّا[١].

﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨﴾.

أي: أمَّا الَّذين استضعَفَهم المشركون من الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلدانِ وقهَروهم، فلم يقدِروا على الهجرةِ من بينِ أظهُرِهم؛ بسبب قلَّةِ الحِيلةِ في التخلُّص من أيدي المشركين، وعدمِ المعرفةِ بالطَّريق الَّتي ينبغي سلوكُها، للخروجِ من أرضِ الشِّرك إلى أرضِ الإسلام[٢].

عن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا قال: سمِع اللهُ لِمَن حمِدَهُ. في الرَّكعةِ الآخِرَةِ من صلاةِ العِشاءِ قنَت: اللَّهمَّ أَنجِ عَيَّاشَ بنَ أبي رَبيعَةَ، اللَّهمَّ أَنجِ الوليدَ بنَ الوليدِ، اللَّهمَّ أَنجِ سلَمَةَ بنَ هِشامٍ، اللَّهمَّ أَنجِ المستضعَفِينَ من المؤمِنينِ، اللَّهمَّ اشدُدْ وَطْأَتَك على مُضَرَ[٣]، اللَّهمَّ اجعَلْها

وانتفاءِ موانعِه، وقد يَمنعُ من ذلك مانعٌ)) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠، ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٧-١١٩).

(٣) اشْدُدْ وَطْأَتَك على مُضَر: أي: اشْدُدْ بأسَك وعقوبتَك، وهو ما أصابَهم من الجوعِ والشِّدَّة. أو خُذْهم أخذًا شديدًا. ومُضَر: هُم أهلُ مَكَّة وما وَالَاها، وهذا إشارةٌ إلى قُريش؛ لأنَّهم مِن أولادِ مُضَر. ينظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٣٥٢)، ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (٨/ ٢٢٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٠٠).

عليهم سِنينَ كسِنِي يوسُفَ[١]))[٢].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ٩٩﴾.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡ﴾.

أي: فهؤلاء مَوْعُودون بأن يصفَحَ اللهُ تعالى عنهم، ويتجاوَزَ عن مؤاخذتِهم بترك الهجرةِ؛ وذلك بمقتضى كرَمِه وإحسانِه سبحانه[٣].

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ قال: كانت أُمِّي ممَّن عذَر اللهُ[٤].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾.

أي: يصفَحُ عن عبادِه، ويستُرُ عليهم ذنوبَهم، ويتجاوزُ عن مؤاخذتِهم بها[٥].

﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رهَّب اللهُ تعالى مِن تركِ الهجرة، رغَّب فيها بما يُسلِّي عمَّا قد يُوسوِسُ

---

(١) سِنين كسِنِي يُوسَفَ: أي: سِنينَ شِدادًا ذواتَ قَحْطٍ وجَدْبٍ وغَلاءٍ، كالسِّبعِ السِّنين الشِّدادِ التي أصابَتْ أهلَ مِصرَ في عَهدِ يُوسُفَ عليه السَّلام، والسَّنَةُ: الجَدْبُ؛ يُقالُ: أَخَذتْهم السَّنةُ إذا أجْدبوا وأقْحطوا. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤١٣-٤١٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ١٧٧)، ((شرح المشكاة)) للطيبي (٤/ ١٢٣٠).

(٢) رواه البخاري (٦٣٩٣)، واللفظ له، ومسلم (٦٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٢).

(٤) رواه البخاري (٤٥٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠).

به الشَّيطانُ مِن أنَّه لو فارَق رفاهيةَ الوطنِ، وقَع في شدَّةِ الغُربة، وأنَّه ربَّما تجشَّمَ المشقَّةَ، فاختُرِمَ قبل بلوغ القصدِ، فذكر ما يترتَّب عليها من وجودِ السَّعةِ، والمذاهبِ الكثيرة؛ ليذهَبَ عنه ما يتوهَّمُ[1]، فقال تعالى:

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ومن يُفارِقْ أرضَ الشِّركِ؛ هربًا بدِينِه إلى أرض الإسلامِ؛ لإقامة دِينِ الله تعالى، ابتغاءَ مرضاتِه سبحانه[2].

﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾.

أي: فإنَّه يجدُ في الأرض مكانًا ومتزحزَحًا كثيرًا يمتنعُ فيه، ويتحصَّنُ ممَّا يكرَهُ، ويغلِبُ فيه أهلَ الشِّرك؛ بابتعادِه عنهم، ويتمكَّنُ فيه من إغاظتِهم وجهادِهم[3].

﴿وَسَعَةً﴾.

أي: ويجد سَعةً في الدِّين بإظهارِ دِينه وعبادةِ ربِّه سبحانه، وسَعةً في الصَّدرِ، وفي الرِّزقِ، وفي كلِّ شيءٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣)، وينظر ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٣-١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٠-٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٤).
قال ابن عثمين: (قوله: ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾ قد تشير إلى تجمُّع القوم؛ لأنَّه كان المتبادَرُ أن يقال: «مراغَمًا عاصمًا»، لكنَّه قال: ﴿كَثِيرًا﴾، ولعلَّ ذلك- والله أعلم- إشارةٌ إلى أنَّه سيجتمع إليه من يكثُرُ بهم) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٠-١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء))

﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وعَد تعالى مَن يُهاجِرُ فيَصِلُ إلى دار الهجرةِ بالظَّفَرِ بما ينبغي من وُجدانِ المراغمِ والسَّعةِ، وعَد مَن يموتُ في الطَّريق قبل بلوغها بأجرٍ عظيمٍ يضمَنُه- عزَّ وجلَّ- له[1].

سبب النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((خرَج ضَمْرَةُ بنُ جُنْدُبٍ مِن بيتِهِ مهاجِرًا فقال لأهلِهِ: احْمِلوني فأخرِجوني مِن أرضِ المشرِكينَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فمات في الطَّريقِ قبل أنْ يصلَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فنزَل الوحيُ: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا ...﴾ الآيَةَ))[2].

﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: ومَن خرَج من منزلِه وموطنِه فرارًا بدِينه؛ ليُقيمَه، ابتغاءَ مرضاةِ الله تعالى، واتِّباعًا لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ونصرًا له[3].

(٢/ ١٢٥-١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٩٣).

(٢) رواه أبو يعلى (٢٦٧٩) والطبراني ١١/ ٢٧٢ (١١٧٠٩).

ورواه الطبري (٧/ ٣٩٨) وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٥٠) بنحوه من حديث عبد الله بن عباس قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٣): رجاله ثقات، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٦٢)،

وذكر الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٧/ ٦٦٦): أن فيه أشعثَ بنَ سوار مختلفٌ فيه، ثم قال: لكن لعلَّه يتقوَّى بروايةِ شَريكٍ، وقال الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (٨٩):رجالهُ ثقاتٌ، وشريكٌ هو ابنُ عبدِ اللهِ القاضي النخعي وفي حفظه ضعفٌ، لكن الحديث له طريقٌ أخرى.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٦).

﴿ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ﴾.

أي: فمات في أثناء الطَّريق بقتلٍ أو غيرِه، قبل بلوغه أرضَ الإسلامِ، ودارَ الهجرةِ[١].

﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: فقد ثبَت له عند اللهِ تعالى ثوابُ مَن هاجَر، وبلَغ دارَ هجرتِه[٢].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى غفورٌ يستُرُ ذنوبَ عبادِه، ويتجاوزُ عن مؤاخذتِهم بها، رحيمٌ بهم، ومِن رحمته أنْ أعطاهم أجرَهم كاملًا، ولو لم يُكمِلوا العملَ، وغفَر لهم ما حصَلَ منهم مِن التَّقصيرِ في الهجرةِ وغيرِها[٣].

الفوائد التَّربويَّة:

١- أنَّ العبرةَ في الأعمالِ بالخواتيم؛ لقوله: ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، يعني: أنَّهم في وقتِ الوفاة ظالِمون لأنفُسِهم؛ فالعبرةُ بالخواتيم؛ ولهذا يجبُ على الإنسانِ أن يكونَ خائفًا من سوءِ الخاتمةِ، وأن يسأَلَ اللهَ سبحانه دائمًا حُسنَ الخاتمةِ، وألَّا يموتَ إلَّا وهو مسلِمٌ[٤].

٢- أنَّ مَن ترَك شيئًا للهِ عوَّضه اللهُ خيرًا منه، وتُؤخَذُ مِن قوله: ﴿يَجِدۡ فِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٢-٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٣).

﴿ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾؛ فقد خرَج مِن الضِّيق فوجَد السَّعة[١].

٣- أنَّ مَن أُذِلَّ بطاعةِ الله صار العِزُّ له في النِّهايةِ، وتُؤخَذُ مِن قوله: ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾؛ فهذا الَّذي أُذِلَّ هو الآن يُذِلُّ أنوفَ الَّذين أذَلُّوه بالأمسِ[٢].

٤- الحثُّ على الهجرةِ والتَّرغيبُ فيها، وبيان ما فيها من المصالح، فوعَد الصَّادقُ في وعدِه أنَّ مَن هاجَر في سبيلِه ابتغاءَ مرضاتِه، أنَّه يجِدُ مُراغَمًا في الأرضِ وسَعةً؛ فالمُراغَمُ مشتمِلٌ على مصالحِ الدِّين، والسَّعةُ على مصالحِ الدُّنيا: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[٣].

٥- كلُّ مَن نوى خيرًا ولم يُدرِكْه، فالله تعالى موفِّيه إيَّاه؛ نستفيدُ ذلك مِن قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، فمن قصَد طاعةَ الله ثمَّ عجَز عن إتمامِها، كتَب اللهُ له ثوابَ تمامِ تلك الطَّاعة[٤].

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ للملائكةِ ذواتًا حقيقيَّةً تقبِضُ الأرواحَ، وتُخاطِب وتتكلَّم، وكلامُها مفهومٌ، خلافًا لِمن يقول: إنَّ الملائكةَ هي القُوَى الخيِّرةُ، وإنَّ الشَّياطينَ هي القُوَى الشِّرِّيرةُ، فإنَّ هذا قولٌ باطلٌ يكذِّبُه القرآنُ والسُّنَّةُ والإجماعُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ...﴾[٥].

٢- مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾ الآيةَ،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٣).

نستفيدُ وجوبَ الهجرةِ من المَوْضِع الَّذي لا يتمكَّنُ المسلمُ فيه من إقامةِ دِينِه، وأنَّ مَن لم يهاجِرْ فإنَّه يموت وقد ظلَم نفسَه، ولكنَّ وجوبَ الهجرةِ مشروطٌ بشروطٍ؛ منها: القُدرة؛ لقوله في الآية الكريمة الَّتي بعد هذه الآيةِ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾؛ ولأنَّ القاعدةَ العامَّةَ العظيمةَ العميقةَ في الشَّريعة الإسلاميَّة: أنَّه لا واجبَ مع العجزِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فيُشترط لوجوب الهجرةِ القدرةُ(١).

٣- أن الظَّالم يحتجُّ بأيِّ حُجَّةٍ كانت؛ لقول هؤلاء: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والواقع أنَّهم غيرُ مستضعَفين؛ لأنَّ الملائكة قالت لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾(٢).

٤- أنَّ الشَّريعة إن منعَتْ بابًا ضيِّقًا فتَحت بابًا أوسعَ، ويؤخَذُ هذا من قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾؛ فاللهُ تعالى لم يحجُرْ عليهم الأرضَ، بل جعَلها واسعةً، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾(٣) [الشرح: ٥- ٦].

٥- أنَّ التَّخلُّفَ عن الهجرة الواجبة من كبائرِ الذُّنوبِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، ووجهُ الدَّلالة: أنَّه ترتَّب عليها عقوبةٌ خاصَّةٌ(٤).

٦- نستفيدُ مِن قول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ أنَّ مِن الرِّجالِ البالغين مَن لا تجبُ عليهم الهجرةُ؛ وذلك لكونهم مستضعَفين(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٤) وينظر ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٠).

٧- قول الله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾، أدخَل الوِلدانَ في جملة المُستثنَيْنَ مِن أهل الوعيد، مع أنَّ الاستثناءَ إنَّما يحسُنُ لو كانوا مستحقِّين للوعيد؛ وذلك لأنَّ سقوطَ الوعيدِ بسبب العجز، والعجزُ تارةً يحصُل بسببِ عدم الأُهْبةِ، وتارةً بسبب الصِّبا، فلا جرمَ حسُنَ هذا[١]، وقيل أيضًا: لَمَّا توعَّد اللهُ تعالى على ترك الهجرة، أتبَعَ ذلك بما زاد القاعدَ عنها تخويفًا بذِكْرِ مَن لم يدخل في المحكوم عليه بالقدرة على صورة الاستثناءِ، تنبيهًا على أنَّهم جديرون بالتَّسويةِ في الحُكمِ لولا فضلُ الله عليهم[٢].

٨- أنَّ الدِّين الإسلاميَّ دِينُ اليُسر والسُّهولة، وأنَّه مع وجود المشقَّة ينتفي الحرَجُ؛ قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾[٣].

٩- ليس كلُّ ما يُسمَّى حِيلةً حرامًا؛ ففي قولِ الله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ أراد بالحِيلةِ التَّحيُّلَ على التخلُّصِ من بين الكفَّارِ؛ وهذِه حِيلةٌ محمودةٌ يُثابُ عليها[٤].

١٠- أنَّ الواجبَ الوصولُ إلى القيامِ بالواجب بأيِّ حِيلةٍ تكونُ؛ لقوله: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴾[٥].

١١- في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ... وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ الإيمانُ بالملائكة ومدحُهم؛ لأنَّ اللهَ ساق ذلك الخطابَ لهم على وجهِ التَّقريرِ والاستحسانِ منهم، وموافقتِه لمحلِّه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٠).
(٤) ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦).

١٢- أنَّه تجبُ الهجرةُ على مَن يقدر عليها من أيِّ سبيلٍ؛ لقوله: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، وسبيلًا: نكرةٌ في سياقِ النَّفي فتعمُّ[١].

١٣- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أنَّه يُرجَى لهؤلاء أن يعفوَ اللهُ عنهم؛ لقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾؛ فالرَّجاءُ هنا باعتبارِ ما يكونُ في قلبِ المخاطَبِ، أمَّا باعتبارِه منسوبًا إلى اللهِ فقال بعضُ السَّلفِ: ﴿عَسَى﴾ مِن الله واجبةٌ، يعني: أنَّ اللهَ وعَدهم أن يعفوَ عنهم[٢]، وقيل: إنَّ ذِكرَ لفظة (عسى) ها هنا مع أنَّ الله تعالى هو فاعلُ العفوِ، وهو عالمٌ بأنَّه يعفو عنهم، وذلك لفائدةِ الدَّلالة على أنَّ تركَ الهجرة أمرٌ مضيَّقٌ لا توسِعةَ فيه، فمثَّل حالَ العفوِ عنهم بحالِ مَن لا يقطَعُ بحصولِ العفوِ عنه، والمقصودُ من ذلك تضييقُ تحقُّقِ عُذرِهم؛ لئلَّا يتساهلوا في شروطِه اعتمادًا على عفوِ الله[٣].

١٤- في قوله: ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾ إثباتُ اسمينِ مِن أسماء اللهِ، هما: العفوُّ، والغفورُ، وإثباتُ الصِّفتينِ الدَّالِ عليهما هذانِ الاسمانِ، والعفوُّ هو: المتجاوزُ عن السَّيِّئات، والغفورُ: هو الماحي لها، لكن إذا اجتمع العفوُّ والغفورُ، صار المرادُ بالعفوِّ ما يقابل تركَ الواجب، والغفورِ ما يقابِلُ فِعلَ المحرَّمِ، أي: عفوٌّ عن التَّفريط في الواجبِ، غفورٌ عن فِعل المحرَّمِ[٤].

١٥- قوله: ﴿مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: فيه عطفُ الرَّسولِ على اسم الجلَالةِ؛ للإشارةِ إلى خصوصِ الهجرة إلى المدينةِ؛ للالتحاقِ بالرَّسولِ وتعزيزِ جانِبِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٢).

لأنَّ الَّذي يُهاجِرُ إلى غير المدينة قد سلِم من إرهاقِ الكُفْر، ولم يحصُلْ على نُصرةِ الرَّسولِ؛ ولذلك بادَرَ أهلُ هجرةِ الحبَشةِ إلى اللَّحاقِ بالرَّسولِ حين بلَغَهم مُهاجَرُه إلى المدينةِ(١).

١٦- أنَّ مَن سعى في الهجرةِ وأدرَكه الموتُ، فإنَّ أجره ثابتٌ كاملٌ، وتؤخذ من قوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ويقاسُ على ذلك بقيَّةُ الأعمال؛ فمن خرَج إلى المسجد يُريدُ الصَّلاةَ فمات في أثناء الطَّريقِ، يُكتَب له أجرُ الصَّلاة(٢).

١٧- قال تعالى: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ولم يقُلْ: وقَع أجرُه على الله ورسولِه، مع أنَّ الهجرةَ كانت إلى اللهِ ورسولِه؛ لأنَّ الهجرةَ إلى الرَّسولِ وسيلةٌ، والغايةُ هي: الهجرةُ إلى الله عزَّ وجل؛ فلهذا كان الَّذي يُثِيب على الهجرةِ ليس الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بل هو اللهُ عزَّ وجلَّ(٣).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: جملةٌ مستأنَفةٌ استئنافًا بيَانيًّا لسائل متردِّدٍ؛ ولذلك فُصِلت- أي: لم تُعطَف بالواو-، وصُدِّرتْ بحرفِ التَّأكيد (إنَّ)؛ فإنَّ حالَهم يوجِبُ شكًّا في أن يكونوا مُلحَقِينَ بالكفَّار(٤).

٢- **قوله**: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: استئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشأ مِن حِكايةِ سُؤالِ الملائكةِ؛ كأنَّه قيل: فماذا قالوا في الجوابِ؟ فقيل: قالوا-مُتجانِفينَ عن الإقرارِ الصَّريحِ بما هُم فيه مِن التَّقصيرِ، مُتعلِّلين بما يوجِبُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٠)
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٦- ١٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٣).

على زَعْمِهم-: إنَّهم كانوا مُستضعَفين في الأرضِ[١].

- قوله: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾: استفهامٌ يرادُ منه التَّوبيخُ والتَّقريعُ، والتَّقرير[٢].

- وقوله: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ وقَعَ جوابًا عن قولهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾؛ لأنَّ معنى قوله: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ للتَّوبيخِ بأنَّهم لم يكونوا في شيءٍ مِن الدِّين؛ حيث قدَروا على المهاجَرةِ ولم يهاجِروا، فقالوا: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ اعتذارًا ممَّا وُبِّخوا به، واعتلالًا بالاستضعافِ، وأنَّهم لم يتمكَّنوا من الهجرةِ حتَّى يكونوا في شيءٍ، فبكَّتَتْهم الملائكةُ بقولهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[٣].

٣- **قوله:** ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ اسمُ الإشارة ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّهم جَديرونَ بالحُكمِ الواردِ بعْد اسمِ الإشارةِ مِن أجلِ الصِّفاتِ المذكورة قَبْلَه؛ لأنَّهم كانوا قادرينَ على التَّخلُّصِ مِن فتنةِ الشِّركِ بالخروج من أرضِه[٤].

٤- **قوله:** ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾:

- الإتيانُ باسم الإشارة ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم جَديرونَ بالحُكمِ المذكور من المغفرةِ[٥].

- وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لِمَا قبلها[٦]

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٠).

مِن مقدرةِ الله عزَّ وجلَّ على العفوِ عنهم، ومغفرةِ ذنوبهم، مع ما فيها من التَّأكيدِ، والمبالغةِ في الوَصْفِ.

٥- **قوله**: ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ كلمة ﴿يُدْرِكْهُ﴾ فيها إشعارٌ بأنَّ المهاجِرَ كالفارِّ الَّذي يريد أن يصِلَ إلى مُهاجَرِه، لكنَّ الموتَ لحِقَه فأدرَكه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٦).

الآيات (١٠١ - ١٠٤)

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿تَقْصُرُوا۟﴾: قَصرُ الصَّلاةِ: جَعْلُها قصيرةً بتركِ بعضِ أركانها تَرخيصًا، وأصلُ (قصر): النَّقصُ، وعدمُ بلوغِ الشَّيء مَدَاهُ ونهايتَه(١).

﴿يَفْتِنَكُمُ﴾: أي: يَقْتُلَكمْ أو يَأسِرَكُم، وتُطلَق الفِتْنةُ كذلك على: الشِّرْك والكُفر، والشَّرِّ والعذاب، وهي في الأصل: الاختِبارُ والابتلاء والامتِحان، مأخوذةٌ من الفَتْن: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جَودتُه من رداءتِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٢- ٦٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠٤)،

﴿وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾: جَمْع مَتَاع، وهو كلُّ ما حصَل التَّمتُّع والانتفاعُ به على وجهٍ ما، وأصلُ المتاع والمُتعةِ ما يُنتَفَعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، بل ينقضي عن قريبٍ، وأيضًا: منفعةٌ، وامتدادُ مدَّة في خيرٍ[(١)].

﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم﴾: أي: يتحامَلون عليكم، والمَيْل: العدولُ عن الوسَطِ إلى أحد الجانبين، وأصل (ميل): انحرافٌ في الشَّيء إلى جانبٍ منه[(٢)].

﴿مَّوْقُوتًا﴾: أي مفروضًا محدَّدًا موقَّتًا بوقت، يقال: وقَّته اللهُ عليهم ووَقَتَهُ، أي: جعَله لأوقاتٍ، والوقتُ: نهايةُ الزَّمانِ المفروض للعمل، وأصل (وقت): يدلُّ على حدِّ شيءٍ، وكُنْهِه في زمانٍ وغيرِه[(٣)].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى لعباده: إنَّهم إذا سافروا فلا حرَجَ عليهم ولا إثمَ في قَصْرِ صلاة الفرضِ، إذا ما خافوا أن يصُدَّهم الكفَّارُ عن دِينهم؛ بحَمْلِهم عليهم وهم في الصَّلاة؛ فإنَّ الكفَّارَ ذوُو عداوةٍ واضحةٍ لهم.

ثمَّ يخاطبُ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أنَّه إذا كان في أصحابِه، وشهِد معهم القتالَ، وأراد أن يُقِيمَ لهم الصَّلاة، فليقسِمْ أصحابه قسمينِ، وبعد ذلك فلتقُمْ طائفةٌ منهم معه في الصَّلاةِ، والطَّائفةُ الأخرى تقفُ في وجه العدوِّ، ولْيَأخذوا أسلحتَهم، فإذا فرغت الطَّائفةُ الَّتي معه من صلاتِها، فلْيَكونوا مِن

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩- ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٢).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥، ٩٤٥).

ورائِه ووراء الطَّائفةِ الَّتي لم تكُنْ صلَّتْ معه الرَّكعةَ الأولى، وكانتْ في مقابِلِ العدوِّ، فإذا ما انصرَفَتِ الطَّائفةُ الأولى للحِراسَةِ، فلتأتِ الطَّائفةُ الَّتي كانت قبلَ ذلك في الحِراسةِ، والَّتي لم تُصَلِّ بعدُ، فَلْيُصَلُّوا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما تبقَّى له من ركعة، ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾؛ فقد تمنَّى الكفَّارُ لو غفَل المسلمون عن أسلحتِهم وأمتعتِهم، فيَحمِلون عليهم، ويَستأصلونَهم بضَربةٍ واحدةٍ.

ثمَّ رخَّص اللهُ لعباده أنْ يَضَعوا أسلحتَهم، نافيًا عنهم الحَرَجَ والإثمَ، إذا ما تأذَّوْا بمطَرٍ، أو كانوا مَرْضَى، لكن لا بدَّ أن يكونوا حَذِرينَ، ثمَّ أخبر تعالى أنَّه أعدَّ للكفَّار عذابًا مُخزيًا في الدَّارينِ.

ثمَّ أمَر اللهُ المسلِمين إذا ما انتهَوْا مِن أداء صلاةِ الخوفِ أنْ يَذكُروه قِيامًا أو قُعودًا أو مُضْطَجِعين على جنوبِهم، فإذا زال الخوفُ عنهم وأمِنوا فليُقِيموا الصَّلاةَ كاملةً، إنَّ الصَّلاةَ كانت على المؤمنينَ فريضةً محدَّدةً بوقتٍ.

ثمَّ يوجِّهُ الله الخِطابَ إلى المسلمين ألَّا يكونوا ضُعفاءَ ولا كُسالى في طلبِهم للعدوِّ؛ فإنَّهم وإنْ كانوا يصيبُهم الألمُ، فإنَّ عدوَّهم أيضًا يتألَّمُ، فلا ينبغي أن يكونوا أضعفَ منهم، وهم مع ذلك يَرْجُون من الله ما لا يَرجو أولئك الكفَّارُ مِن النَّصرِ والثَّوابِ، وكان اللهُ عليمًا حكيمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أوجب اللهُ تعالى السَّفرَ للجهادِ والهجرة، وكان مُطلَقُ السَّفر مظِنَّةَ

المشقَّة، فكيف بسفرِهما مع ما ينضمُّ إلى المشقَّة فيهما من خوفِ الأعداء، ولَمَّا كانت الصَّلاةُ فرضًا لازمًا في كلِّ حالٍ، لا يسقُطُ في وقتِ القتال، ولا في أثناءِ الهجرةِ، ولا غيرِ الهجرةِ من أيَّام السَّفَرِ، ولكن قد تتعذَّرُ أو تتعسَّرُ في السَّفرِ وحالِ الحرب إقامتُها فرادَى وجماعةً، كما أمَر اللهُ- ناسَب في هذا المقام أن يبيِّنَ اللهُ تعالى ما يريد أن يرخِّصَ لعباده فيه من القَصْرِ من الصَّلاةِ في هاتينِ الحالَتينِ[(١)]، فقال:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وإذا سافَرْتُم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ...﴾ الآية [المزمل: ٢٠].

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

أي: فلا حرَجَ ولا إثمَ عليكم[(٣)] في قَصْرِ كيفيَّةِ الصَّلاةِ المفروضةِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٧).

(٣) قال السعديُّ: (قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: لا حرَج ولا إثمَ عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كونَ القصر هو الأفضلَ؛ لأنَّ نفيَ الحرج إزالةٌ لبعض الوهم الواقع في كثير من النُّفوس، بل ولا يُنافي الوجوبَ؛ كما تقدَّم ذلك في سورة البقرة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ...﴾ إلى آخر الآية، وإزالةِ الوهم في هذا الموضع ظاهرةٌ؛ لأنَّ الصَّلاة قد تقرَّر عند المسلمين وجوبُها على هذه الصِّفة التَّامَّة، ولا يُزيل هذا عن نفوسِ أكثرِهم إلا بذِكرِ ما ينافيه)) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢٢-٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤٨، ٢٥٣).

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾.

أي: إنْ خشِيتُم أنْ يصُدَّكم الكفَّارُ عن دِينكم، بقتالِهم إيَّاكم، وبحملِهم عليكم وأنتم في صلاتِكم، فيصدُّوكم عن إقامتِها وأدائِها، ويحُولوا بينكم وبين عبادةِ الله تعالى[1].

﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

أي: إنَّ عداوةَ جميع الكفَّارِ لكم- أيُّها المؤمنون- بيِّنةٌ واضحةٌ، قد أظهَروها لكم[2].

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ

قال الشِّنقيطيُّ: (ومعنى قصر كيفيَّتها أن يجوزَ فيها من الأمور ما لا يجوز في صلاة الأمن؛ كأن يصلِّيَ بعضُهم مع الإمام ركعة واحدة، ويقف الإمام حتى يأتي البعضُ الآخر، فيصلِّي معهم الرَّكعة الأخرى، وكصلاتهم إيماءً رِجالًا وركبًانا وغيرَ متوجِّهين إلى القِبلة؛ فكلُّ هذا من قَصْرِ كيفيَّتِها). ((أضواء البيان)) (١/ ٢٤٨).

وممَّن قال من السلف: إنَّ المقصود بالقصر هنا قصر كيفيَّة الصَّلاة: مجاهد، والضَّحاك، والسُّدِّيُّ؛ يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٣١، ١٤٠).

وقيل: إنَّ قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ متَّصل بما بعدَه مِن صلاةِ الخوفِ، منفصلٌ عمَّا قبلَه... ومثلُه في القرآنِ كثيرٌ؛ أن يجيءَ الخبرُ بتمامِه، ثم ينسَّق عليه خبرٌ آخرُ، وهو في الظَّاهر كالمتَّصل به، وهو منفصلٌ عنه. ينظر: ((تفسير البغوي)) (١/ ٦٨٩)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٣٠٩ وما بعدها)، قال الطبريُّ: (وهذا تأويلٌ في الآيةِ حسنٌ لو لم يكنْ في الكلامِ ﴿إِذَا﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠٤-٤٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٠).

تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ حُكمَ القَصرِ في السَّفرِ عندَ الخوفِ، عقَّبه ببيانِ كيفيَّةِ صلاةِ الخوف[1].

سببُ النُّزول:

عن أبي عيَّاشٍ الزُّرَقيِّ قال: ((كنَّا مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعُسْفانَ، فاستقبَلَنا المشرِكون، عليهم خالدُ بن الوليد، وهم بيننا وبين القِبْلة، فصلَّى بنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الظُّهر، فقالوا: قد كانوا على حالٍ لو أصَبْنا غِرَّتَهم[2]، ثمَّ قالوا: تأتي عليهم الآن صلاةٌ هي أحبُّ إليهم من أبنائِهم وأنفُسِهم، قال: فنزل جبريلُ عليه السَّلام بهذه الآياتِ بين الظُّهرِ والعصرِ ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾، قال: فحضَرَتْ فأمَرهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأخَذوا السِّلاحَ، قال: فصفَفْنا خَلْفَه صفَّيْنِ، قال: ثمَّ ركَع فركَعْنا جميعًا، ثمَّ رفع فرفعْنا جميعًا، ثمَّ سجَد النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصَّفِّ الَّذي يلِيه، والآخَرون قيامٌ يحرُسُونهم، فلمَّا سجَدوا وقاموا جلَس الآخَرون، فسجدوا في مكانهم، ثمَّ تقدَّم هؤلاء إلى مصافِّ هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصافِّ هؤلاء، قال: ثمَّ ركَع فركَعوا جميعًا، ثمَّ رفَع فرفعوا جميعًا، ثمَّ سجد النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والصَّفُّ الَّذي يليه، والآخَرون قيامٌ يحرُسونهم، فلمَّا جلَس جلَس

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٨٩٥).

(٢) أصَبْنا غِرَّتَهم: الغِرَّةُ: الغفلةُ، والمعنى: أصبْناهُم في حالِ كَونِهم غَافِلِينَ عَن حِفْظِ مَقامِهم، وما هُم فيه مِن مُقابلةِ العَدُوِّ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٧٦٨)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٥٥).

الآخَرون، فسجدوا ثمَّ سلَّم عليهم ثمَّ انصرَف، قال: فصلَّاها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مرَّتينِ: مرَّةً بعُسْفانَ، ومرَّةً بأرضِ بني سُلَيمٍ))[١].

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((خَرَجَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فلَقِيَ المشركين بعُسْفانَ، فلمَّا صلَّى رسولُ اللهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الظُّهرَ، فرَأَوْه يَركعُ ويَسجُدُ هو وأصحابُه، قال بعضُهم لبعضٍ: كان هذا فُرصةً لكم، لو أَغَرْتُم عليهم ما عَلِموا بكم حتَّى تُواقِعُوهم، فقال قائلٌ منهم: فإنَّ لهم صلاةً أخرى هي أحبُّ إليهم مِن أهْلِيهم وأموالِهم، فاستَعِدُّوا حتَّى تُغِيروا عليهم فيها، فأنزلَ اللهُ تبارَك وتعالى على نبيِّه: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾ إلى آخِرِ الآيةِ، وأَعْلَمَ ما ائْتَمَرَ به المشرِكون، وذَكَرَ صَلاةَ الخَوفِ))[٢].

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وإذا كنتَ في أصحابِك- يا محمَّدُ- وأردتَ أن تُصلِّيَ بهم صلاةً كاملةً، تُقِيمُها بحدودِها ورُكوعِها وسُجودِها، وتُتمُّ ما يجبُ فيها[٣].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٥٩) (١٦٦٣٠)، وعبد الرزَّاق في ((المصنف)) (٤٢٣٧)، وابنُ أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٨٩٩)، والطبراني (٥/ ٢١٣) (٥١٣٢).
صحَّحه الدارقطنيُّ في ((سننه)) (٢/ ٢٠٠)، وصحَّح إسناده ابن كثير في ((تفسيره)) (٢/ ٣٥٤).

(٢) رواه الطبري في ((تفسيره)) (٩/ ١٥٦)، والحاكم (٣/ ٣٢).
صحَّحه الطبريُّ، وقال ابنُ حجر في ((الكافي الشاف)) (٩٢): أصله في مسلم.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢٣-٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٢).
قال ابنُ عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ ...﴾ الآية، قال جمهور الأمَّة: الآية خطاب للنبيِّ عليه السلام، وهو يتناول الأمراءَ بعده إلى يوم القيامة) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٠٥).
وقال ابنُ كثير: (وأما مَن استدلَّ بهذه الآية على أنَّ صلاة الخوف منسوخةٌ بعد النبي صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾، فبَعْدَه تفُوتُ هذه الصِّفة- فإنَّه استدلالٌ ضعيف، ويُرَدُّ عليه مِثلَ قول مانعي الزَّكاة الذين احتجُّوا بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، قالوا: فنحن لا ندفع زكاتَنا بعده صلَّى الله عليه وسلَّم إلى أحدٍ، بل نخرجها نحن بأيدينا على مَن نراه، ولا ندفعها [إلا] إلى مَن صلاتُه،

﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾.

أي: فلتقُمْ فِرقةٌ مِن أصحابك معك في صلاتك، وليكنْ بقيَّتُهم في وجه العدوِّ(١).

﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾.

قيل: المأمورُ بأخْذِ الأسلحةِ هنا: الطَّائفةُ المُصلِّيَة(٢)، وقيل: بل الطَّائفةُ الأخرى الَّتي في وجه العدوِّ(٣).

﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾.

أي: فإذا فرغَتِ الطَّائفةُ الَّتي قامت معك- يا محمَّدُ- في الصَّلاة من صلاتها، فليتَّخِذْ أفرادُها موضعهم خلفَك، وخلفَ الطَّائفةِ الأخرى الَّتي ستدخُلُ معك

أي: دعاؤه، سكَنٌ لنا، ومع هذا ردَّ عليهم الصحابةُ، وأبَوْا عليهم هذا الاستدلالَ، وأجبَروهم على أداءِ الزَّكاة، وقاتَلوا مَن منَعها منهم)) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٣).

قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾: السِّلاح هو ما يقاتل به دفاعًا أو طلبًا، وينقسم إلى أقسام كثيرة: ثقيل، وخفيفٍ، ومتوسطٍ، وسلاح يكونُ من بعيدٍ، وسلاح يكون من قريبٍ، والآيةُ عامةٌ، فيكون المرادُ: أسلحتهم التي يحتاجون إليها في الدِّفاع عن أنفسِهم، والتي لا تشغَلُهم عن الصلاةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١١٠).

قال ابنُ عطية: (اختلف مَن المأمور بأخذ الأسلحة هنا؟ فقيل: الطائفة المُصلِّيَة، وقيل: بل الحارسة، قال القاضي أبو محمد: ولفظ الآية يتناول الكلَّ، ولكن سلاح المصلِّين ما خفَّ)) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٠٥)، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢٤).

وممَّن قال بهذا القول من السلف: ابنُ عباس رضي الله عنهما، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢٤).

في صلاتِك، ممَّن لم يُصَلِّ معك الرَّكعةَ الأولى[١].

﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾.

أي: ولْتأتِ الطَّائفةُ الَّتي كانت في مقابلِ العدوِّ، ممَّن لم يُصلِّ معك الرَّكعةَ الأولى، وليُصلُّوا معك الرَّكعةَ الَّتي بقِيَتْ عليك[٢].

بعضُ الأحاديثِ الواردة في صلاة الخوف:

عن ابن عمرَ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((صلَّى رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم صلاةَ الخوفِ بإحدى الطَّائفتينِ ركعةً، والطَّائفةُ الأخرى مواجهةُ العدوِّ، ثمَّ انصَرَفوا وقاموا في مقامِ أصحابهم، مُقبِلين على العدوِّ، وجاء أولئك، ثمَّ صلَّى بهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ركعةً، ثمَّ سلَّم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ قضى هؤلاء ركعةً، وهؤلاء ركعةً))[٣].

وعن صالحِ بنِ خوَّاتِ بن جُبيرٍ، عمَّن صلَّى مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ ذاتِ الرِّقاعِ صلاةَ الخوفِ: ((أنَّ طائفةً صفَّت معه، وطائفةٌ وجاهَ العدوِّ، فصلَّى بالَّتي معه ركعةً، ثمَّ ثبَتَ قائمًا، وأتَمُّوا لأنفسِهم، ثمَّ انصَرَفوا فَصفُّوا وِجاهَ العدوِّ، وجاءتِ الطَّائفةُ الأخرى فصلَّى بهم الرَّكعةَ الَّتي بقِيَت مِن صَلاتِه، ثمَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٤).

قال ابنُ عاشور: (وقد أجمَلتِ الآيةُ ما تَصنَعُه كلُّ طائفةٍ في بقيَّة الصَّلاة، ولكنَّها أشارتْ إلى أنَّ صلاة النبي صلَّى الله عليه وسلَّم واحدة؛ لأنَّه قال: ﴿فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾، فجعَلهم تابعين لصلاته، وذلك مؤذِنٌ بأنَّ صلاتَه واحدةٌ، ولو كان يُصلِّي بكلِّ طائفة صلاةً مستقلَّة، لقال تعالى: فلتصلِّ بهم) ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٦).

(٣) رواه البخاري (٩٤٢)، ومسلم (٨٣٩).

ثبَت جالسًا، وأتمُّوا لأنفسهم، ثُمَّ سلَّمَ بهم))[١].

وعن جابرٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((شَهدتُ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صلاةَ الخوف، فصَفَّنا خَلْفَه صفَّيْنِ، والعدوُّ خَلْفَه بيننا وبين القِبْلة، فكبَّر صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وكبَّرْنا جميعًا، ثمَّ ركَع وركعْنا، ثمَّ رفع رأسَه من الركوع، ورفَعْنا جميعًا، ثمَّ انحدر بالسُّجود والصَّفُّ الَّذي يليه، وقام الصَّفُّ المؤخَّرُ في نَحْر العدوِّ، فلمَّا قضَى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ السُّجودَ والصَّفُّ الَّذي يليه، انحدَرَ المؤخَّرُ بالسُّجود، وقاموا، ثمَّ تقدَّم الصَّفُّ المؤخَّر، وتأخَّر الصَّفُّ المقدَّم، ثمَّ ركَع وركَعْنا جميعًا، ثمَّ رفع رأسه من الرُّكوع ورفعنا جميعًا، ثمَّ انحدر بالسُّجود والصَّفُّ الَّذي يليه، وقام الصَّفُّ المؤخَّر في نحر العدوِّ، فلمَّا قضى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ السُّجودَ والصَّفُّ الَّذي يليه، انحدَر المؤخَّرُ بالسُّجود وقاموا، ثمَّ تقدَّم الصَّفُّ المؤخَّر، وتأخَّر الصَّفُّ المقدَّم، ثمَّ ركع وركعنا جميعًا، ثمَّ رفع رأسَه من الركوع ورفعنا جميعًا، ثمَّ انحدَر بالسُّجودِ والصَّفُّ الَّذي يليه الَّذي كان مؤخَّرًا في الرَّكعةِ الأُولى، وقام الصَّفُّ المؤخَّر في نحرِ العدوِّ، فلمَّا قضى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقام الصَّفُّ الَّذي يليه، انحدر الصَّفُّ المؤخَّرُ بالسُّجود، وسجد، ثمَّ سلَّم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وسلَّمْنا جميعًا))[٢].

﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾.

قيل: المأمورُ بأخْذ الأسلحةِ هنا: الطَّائفةُ المُصلِّيَة[٣]، وقيل: بل الطَّائفةُ الأخرى الَّتي في وجْهِ العدوِّ الَّتي صلَّتْ أوَّلًا[٤].

---

(١) رواه البخاري (٤١٢٩)، ومسلم (٨٤٢).

(٢) رواه مسلم (٨٤٠).

(٣) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٧/ ٤٤٠)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٩٨)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة النساء)) (٢/ ١٥١).

(٤) وهذا اختيار الواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٢٨٥).

﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ﴾.

أي: تمنَّى الَّذين كفروا بالله لو تَنشغِلون بصلاتِكم عن أسلحتِكم الَّتي تُقاتلونهم بها، وعن أمتعتِكم الَّتي بها بَلاغُكم في أسفارِكم، فتَسهُون عنها؛ حرصًا منهم على الإيقاعِ بكم[١].

﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾.

أي: فيَحملون عليكم جميعًا، حالَ غَفلتِكم، وانشغالِكم بصلاتِكم عن أسلحتِكم وأمتعتِكم، فيُصيبون منكم غِرَّةً بذلك، ويُجهِزون عليكم بضربةٍ واحدة[٢].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

ولَمَّا كان الخطابُ عامًّا لجميع المحارِبين، وكان يعرِضُ لبعض الناسِ مِن العُذرِ ما يشُقُّ معه حملُ السِّلاح، عقَّبَ على العزيمةِ بالرُّخصةِ لصاحب العُذرِ فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾[٣].

سببُ النُّزول:

عن سعيدِ بن جُبَير، عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنه قال: نزلت ﴿إِن كَانَ بِكُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٤-١٤٥، ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٠٥).

أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ في عبدِ الرَّحمن بن عوفٍ وكان جريحًا[١].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾.

أي: ولا حرجَ عليكم ولا إثمَ- إن نالكم أذًى بسبب مطرٍ تُمطَرُونه، أو أصابكم مرضٌ- في تركِ حملِ أسلحتكم، إن ضعُفْتُم عن حملِها[٢].

﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾.

أي: ولكنْ إن وَضَعتُم أسلحتكم من أذَى مطرٍ أو مرضٍ، فكونوا متيقِّظينَ، واحترِسوا مِن عدوِّكم أن يميلَ عليكم، وأنتم عنه غافلون[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قد هيَّأ للكفَّارِ عذابًا مذِلًّا في الدُّنيا والآخرة[٤].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى بعضَ أحكام صلاة الخوفِ، وكان يقعُ فيها من التَّخفيفِ في أركانها، وغيرِ ذلك ممَّا لا يوجَد في غيرها، أعقَبَه بالأمرِ بذِكره؛ لشدَّةِ تأكُّدِه

---

(١) رواه البخاري (٤٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٥).

في هذا الموطنِ، كذلك فإنَّ ما هُم عليه من الخوف والحَذَر مع العدوِّ جديرٌ بالمواظَبةِ على ذِكر الله والتَّضرُّعِ إليه[١] فقال:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾.

أي: فإذا فرَغْتم- أيُّها المؤمنون- من أداءِ صلاةِ الخوفِ، فاذكُروا اللهَ تعالى في جميعِ أحوالِكم وهيئاتكم؛ من قيامٍ وقعودٍ واضطجاعٍ على جنوبِكم[٢].

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: فإذا أمِنْتم- أيُّها المؤمنون- وزال خوفُكم من عدوِّكم، فأتِمُّوا الصَّلاةَ على الوَجْهِ الأكملِ كما أُمِرْتُم، ظاهرًا وباطنًا، بحدودِها وأركانِها وشروطها، وجميعِ شؤونها[٣].

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾.

أي: إنَّ الصَّلاةَ على المؤمنين فرضٌ مؤقَّتٌ بوقتٍ[٤].

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨).

قال ابن كثير: (يأمر الله تعالى بكثرة الذِّكر عَقِيب صلاة الخوف، وإن كان مشروعًا مرغَّبًا فيه أيضًا بعد غيرها، ولكن هاهنا آكَدُ؛ لِما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب وغير ذلك، مما ليس يوجد في غيرها؛ كما قال تعالى في الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وإن كان هذا منهيًّا عنه في غيرها، ولكن فيها آكدُ؛ لشدَّة حُرمتها وعِظَمها) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٥).

﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كانت آياتُ الجهادِ في هذه السُّورة معلِّمةً للحَذَرِ خوفَ الضَّررِ، مُرشِدةً إلى إتقان المكائد للتَّخلُّصِ من الخطرِ، وكان ذلك مَظِنَّةً لمتابعة النَّفس والمبالغةِ فيها، وهو مظنَّةٌ للتَّواني في أمرِ الجهاد- أتبَع ذلك بما ينبِّهُ على الجِدِّ في أمره[1] فقال:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾.

أي: ولا تضعُفُوا ولا تَكسَلوا في طلب عدوِّكم، بل جِدُّوا في جهادِهم، وانشَطوا لقتالهم[2].

ثمَّ ذكَر سبحانه ما يُقوِّي قلوبَ المؤمنينَ[3]، وبيَّن أنَّه لا وجهَ للوَهَنِ والضَّعفِ في تركِ طلبِهم[4]، فقال تعالى:

﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾.

أي: إنْ كنتم- أيُّها المؤمنون- تتوجَّعون ممَّا ينالُكم من عدوِّكم من جِراحٍ وأذًى في الدُّنيا، فإنَّهم مِثلُكم؛ يتوجَّعون أيضًا ممَّا ينالُهم منكم من جِراحٍ وأذًى، فليس من المعقولِ أن تكونوا أضعفَ منهم، وأنتم وهُم قد تساوَيْتُم في ذلك[5].

كما قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٥-٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٠).

١٤٠].

﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

أي: وأنتم- أيُّها المؤمنونَ- تطمَعون فيما عند الله تعالى من الثَّوابِ والنَّصرِ لدِينه، وهم لا يطمعونَ في شيء من ذلك؛ فأنتم أَولى بالقتالِ منهم، والصَّبرِ على حربِهم، وأشدُّ رغبةً في إعلاءِ كلمة الله عزَّ وجلَّ[(١)].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى له كمالُ العِلم، فلا يخفى عليه شيءٌ مطلَقًا، ومن ذلك عِلمُه بمصالحِ عباده؛ فعرَّفهم عند حضورِ صلاتِهم، ومواجَهةِ عدوِّهم كيفيَّةَ أداء فرضِ الله عليهم، مع السَّلامةِ من عدوِّهم، وله سبحانه كمالُ الحِكمة والحُكم؛ فهو الَّذي يُقدِّر ويُدبِّر كلَّ شيءٍ من أحكامه الكونيَّةِ والشَّرعيَّة، ويضعُ كلَّ شيءٍ منها في موضعه اللَّائقِ به[(٢)].

الفَوائِد التربويَّة:

١- التَّنبيهُ على عظيم قدرِ الصَّلاة؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾؛ فالسِّياقُ يُشير إلى شدَّة الاهتمامِ بشأن الصَّلاة، وأنَّه لا يُسقِطها عن المكلَّف شيءٌ، فلو أن فيها رخصةً بوجهٍ لوضَعَها اللهُ تعالى عن المسلمين في مثل هذه الحالة[(٣)].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ فيه تعليمُ المسلمين أنْ يطلُبوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣-٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٦-٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦١-١٦٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٨).

المسبَّباتِ مِن أسبابها، أي: إن أخَذْتم حِذرَكم أمِنْتُم مِن عدوِّكم[١].

٣- الأمرُ بذِكر الله بعد انتهاء الصَّلاة؛ لقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾[٢].

٤- إذا كنَّا مأمورين بالذِّكرِ على كلِّ حال نكونُ عليها في الحرب، كما يُعطيه السِّياقُ، فأجدَرُ بنا أن نؤمَرَ بذلك في كلِّ حالٍ مِن أحوالِ السِّلم، كما يُعطيه الإطلاقُ على أنَّ المؤمنَ في حربٍ دائمةٍ وجهاد مستمرٍّ، تارةً يجاهدُ الأعداءَ، وتارةً يجاهدُ الأهواءَ، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾[٣].

٥- قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ من فوائدِ تخصيصِ الذِّكر بعد صلاة الخوفِ: أنَّ الخوفَ يوجِبُ مِن قلقِ القلبِ وخوفِه ما هو مَظِنَّةٌ لضَعفِه، وإذا ضعُفَ القلبُ ضعُفَ البدنُ عن مقاومة العدوِّ، والذِّكرُ لله والإكثارُ منه مِن أعظمِ مقوِّيات القلبِ، ومنها: أن الذِّكرَ لله تعالى مع الصَّبرِ والثَّباتِ سببٌ للفلاح والظَّفَرِ بالأعداء؛ كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فأمَر بالإكثارِ منه في هذه الحالِ، إلى غيرِ ذلك من الحِكَم[٤].

٦- ما يُصيبُ المؤمنين في الله تعالى مَقْرونٌ بالرِّضا والاحتسابِ، فإنْ فاتَهم الرِّضا فمُعَوَّلُهم على الصَّبْر، وعلى الاحتسابِ، وذلك يخَفِّفُ عنهم ثِقلَ البلاء ومُؤْنَتَه؛ فإنَّهم كُلَّما شاهدوا العِوَض هان عليهم تحمُّلُ المشاقِّ والبلاء،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨، ١٩٩).

والكُفَّار لا رِضَا عندهم ولا احتِسابَ، وإن صَبَروا فصَبْرُهم كصَبْرِ البهائِم، وقد نبَّه تعالى على ذلك بِقَوْله: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾. فاشْتَرَكوا في الألم، وامتازَ المؤمنونَ برجاءِ الأَجْرِ والزُّلْفى من اللهِ تعالى[١].

٧- المؤمِنون أَولى بالمصابَرة على القتالِ من المُشركين؛ لأنَّ المؤمنين مُقرُّون بالثَّوابِ والعقابِ، والحشرِ والنَّشر، والمشركين لا يقرُّون بذلك، نستفيدُ ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾[٢].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ فيه إرشادٌ للمَرءِ أنْ يَرُدَّ حَرَّ المصيبةِ برَوْحِ التأسِّي بِمَن لَقِيَ مِثلَ ما لَقِي[٣].

٩- أنَّه ينبغي للإنسان إذا عمِل العملَ الصَّالحَ أن يكون راجيًا؛ لقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾، ويكون هذا الرَّجاءُ عند ابتغاء القومِ وطلَبِهم، وهكذا ينبغي للإنسانِ إذا وفَّقه اللهُ للعبادةِ أن يكون راجيًا، أي: راجيًا ثوابَها؛ لأنَّ مِن بشرى الإنسان أن يُوفَّق للعبادةِ؛ فمَن وُفِّق للعبادة على ما يُرضي اللهَ، فهي بُشرى بالقَبولِ، كما أنَّ مَن وُفِّق للدُّعاءِ فهو بشرى بالإجابة[٤].

١٠- أنَّ بني آدمَ في الأمور البشريَّة على حدٍّ سواءٍ، فإذا كان الكافرُ يتألَّم

---

(١) ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٧- ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٥).

(٣) ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥٠٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٥).

فالمؤمنُ يتألَّم، حتَّى الأنبياءُ في الأمور البشريَّة كغيرِهم من النَّاسِ، لكنَّهم يختلفونَ عنهم في الصِّفات المعنويَّةِ؛ كالصَّبرِ، والتَّحمُّلِ، والإقدامِ، والعزيمةِ، وغيرِ ذلك، قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾[1].

١١- أنَّه يجب علينا التَّفويضُ التَّامُّ فيما لا نعلم حكمتَه مِن أحكام الله الكونيَّة أو الشَّرعيَّة؛ وجهُ ذلك: أنَّ الله عز وجل عليمٌ، وحكمتُه صادرةٌ عن علمٍ، وقد يخفى علينا وجهُ الحكمةِ، لقلةِ علمِنا[2].

١٢- قوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾ ذكَر اللهُ تعالى في هذه الآيةِ شيئينِ يُقوِّيانِ قلوبَ المؤمنين:

الأول: أنَّ ما يُصيبُهم من الألم والتَّعبِ والجراح ونحوِ ذلك؛ فإنَّه يصيبُ أعداءَهم، فليس من المروءةِ الإنسانيَّة والشَّهامةِ الإسلاميَّة أن يكونوا أضعفَ منهم، قد تساوَوْا هم وإيَّاهم فيما يوجِبُ ذلك؛ لأنَّ العادةَ الجاريَة ألَّا يضعُفَ إلَّا مَن توالَتْ عليه الآلامُ، وانتصر عليه الأعداءُ على الدَّوامِ، لا مَن يُدالُ مَرَّةً، ويُدالُ عليه أخرى.

الثَّاني: أنَّهم يرجُون من الله ما لا يرجو الكَفَرةُ، فيرجون الفوزَ بثوابِه، والنَّجاةَ من عقابِه، بل خواصُّ المؤمنين لهم مقاصدُ عاليَة، وآمالٌ رفيعةٌ من نصر دِين الله، وإقامةِ شرعِه، واتِّساعِ دائرةِ الإسلام، وهدايةِ الضَّالِّين، وقمعِ أعداء الدِّين؛ فهذه الأمورُ توجِبُ للمؤمن المصدِّقَ زيادةَ القوة، وتضاعُفَ النَّشاطِ، والشَّجاعةَ التَّامَّة؛ لأنَّ مَن يُقاتِلُ ويصبِرُ على نيل عِزِّه الدُّنيويِّ إن ناله، ليس كمَن يُقاتِلُ لنَيل

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٠).

السَّعادةِ الدُّنيويَّة والأُخرويَّة، والفوزِ برضوانِ الله وجنَّتِه[١].

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- الآيتان من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: في السَّفرِ، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أصلٌ في رخصةِ القَصْرِ، وصلاةِ الخوف[٢].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى جعل الضَّربَ في الأرض شرطًا لحصولِ هذه الرُّخصة، فلو كان الضَّربُ في الأرضِ اسمًا لمُطلَق الانتقالِ، لكان ذلك حاصلًا دائمًا؛ لأنَّ الإنسانَ لا ينفكُّ طولَ عمره من الانتقالِ من الدَّار إلى المسجدِ، ومِن المسجد إلى السُّوقِ، وإذا كان حاصلًا دائمًا، امتنع جعلُه شرطًا لثُبوتِ هذا الحُكم، فلمَّا جعَل الله الضَّرب في الأرض شرطًا لثُبوت هذا الحُكم علِمْنا أنَّه في مطلق السَّفرِ[٣].

٣- أنَّ الخوفَ له أثرٌ في تغيير الأحكام؛ لقوله: ﴿أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٤].

٤- حِرصُ الكفَّار على فَتْنِ المُؤمنينَ حتَّى في العبادات؛ لقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٥].

٥- أنَّ جميعَ الكفَّار أعداءٌ لنا؛ لقوله: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأنَّ عداوتَهم لنا بيِّنةٌ ظاهرةٌ[١].

٦- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ...﴾ هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ صلاةَ الجماعة فرضُ عينٍ مِن وجهينِ:

أحدهما: أنَّ اللهَ تعالى أمَر بها في هذه الحالة الشَّديدةِ، وقتَ اشتدادِ الخوفِ من الأعداءِ، وحَذَرِ مهاجمتِهم، فإذا أوجَبَها في هذه الحالة الشَّديدةِ، فإيجابُها في حالة الطُّمأنينَة والأمن مِن باب أَوْلَى وأحرى.

والثَّاني: أنَّ المصلِّين صلاةَ الخوف يتركون فيها كثيرًا من الشُّروط واللَّوازم، ويُعفَى فيها عن كثيرٍ من الأفعال المُبطِلة في غيرها، وما ذاك إلَّا لتأكُّدِ وجوبِ الجماعةِ؛ لأنَّه لا تعارُضَ بين واجبٍ ومستحبٍّ، فلولا وجوبُ الجماعة لم تُترَكْ هذه الأمورُ اللَّازمةُ لأجلِها[٢].

٧- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ...﴾: تدلُّ الآيةُ الكريمة على أنَّ الأَولى والأفضلَ أن يصلُّوا بإمامٍ واحدٍ، ولو تضمَّن ذلك الإخلالَ بشيءٍ لا يُخَلُّ به لو صلَّوْها بعدَّةِ أئمَّةٍ؛ وذلك لأجلِ اجتماعِ كلمةِ المسلِمين، واتِّفاقِهم، وعدمِ تفرُّقِ كلمتِهم، وليكون ذلك أوقعَ هيبةً في قلوبِ أعدائِهم[٣].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مَحمَلُ هذا الشَّرطِ جارٍ على غالب أحوالهم يومَئذٍ من ملازمةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨).

قال ابن كثير: (وما أحسَنَ ما استدل به مَن ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة؛ حيث اغتُفِرَت أفعالٌ كثيرة لأجل الجماعة، فلولا أنها واجبةٌ لَمَا ساغ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨).

لغزواتهم وسراياهم إلَّا للضَّرورة، فليس المرادُ الاحترازَ عن كونِ غيرِه فيهم، ولكن التَّنويه بكون النَّبيِّ فيهم[١].

٩- أنَّ الإمامَ مسؤولٌ عن صلاةِ المأموم، وتؤخَذُ من قوله: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ﴾، كأنَّه يُقِيمُها لهم، وهذا يعني أنَّه يجبُ على الإمام أن يتَّبعَ السُّنَّةَ في صلاتِه، بينما لو كان يصلِّي وحده فله أن يخفِّفَ، وله أن يُثقِلَ حسَبَ ما يريد؛ لقول النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((وإذا صلَّى أحدُكم لنفسِه فليُطوِّلْ ما شاء))[٢].

١٠- وجوبُ صلاة الجماعةِ على الأعيانِ؛ لقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾، وقوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾؛ لأنَّها لو كانت فرضَ كفايةٍ لاكتَفَى بالطَّائفةِ الأُولى، فلمَّا أُمِرَتِ الطَّائفةُ الثَّانية بالصَّلاة جماعةً، دلَّ هذا على أنَّها واجبةٌ على الأعيانِ[٣].

١١- قول الله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، خصَّ آخرَ الصَّلاة بزيادةِ الحذرِ، إشارةً إلى أنَّ العدوَّ في أوَّلِ الصَّلاة قلَّما يَفْطِنون لكونِهم في الصَّلاةِ، بخلاف الآخر؛ فلهذا خُصَّ بمزيد الحذَرِ[٤].

١٢- في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أنَّ السُّجودَ ركنٌ من أركانِ الصَّلاة؛ لأنَّه عبَّر به عن إتمامِ الصَّلاة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٧).

والحديث رواه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٩).

١٣- في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ جوازُ انفرادِ الإنسانِ عن الإمام لعُذرٍ، **وجهه**: أنَّ الطَّائفةَ الأولى انفَردَت وأتمَّت صلاتَها، فإذا حصل للإنسان عذرٌ لا يستطيعُ معه إتمامَ صلاته؛ مِثلُ أن يطرأَ عليه حَقنٌ أو ما أشبهَ ذلك، فله أن ينفردَ ويُكمِلَ صلاتَه- إن كان يستفيدُ مِن هذا الانفرادِ- بحيث لا تكونُ صلاتُه مع الإمام أفضلَ من صلاتِه إذا انفردَ[(١)].

١٤- في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ جوازُ إقامة جماعتينِ في مكان واحدٍ للحاجة، ومثال الحاجة: أن يكون المسجدُ ضيِّقًا؛ كالمساجدِ الَّتي تكون في السُّوقِ المزدَحِم بالباعة والمشتَرِين، فلا يسَعُهم أن يُصلُّوا، ولا يتمكَّنونَ من المتابعة في السُّوقِ، فنقول: لا بأسَ أن تصلِّي جماعةٌ أُولى، ثمَّ تأتي جماعةٌ أخرى[(٢)].

١٥- وجوبُ أخْذ الأسلحةِ في هذه الصَّلاة؛ فقوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أمرٌ، وظاهِرُ الأمر للوجوب، فيقتضي أن يكون أخذُ السِّلاحِ واجبًا[(٣)].

١٦- في قوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ أمَر سبحانه بأخذِ السِّلاحِ، والحذرِ في صلاة الخوفِ، وهذا وإن كان فيه حركةٌ واشتغالٌ عن بعض أحوال الصَّلاةِ، فإنَّ فيه مصلحةً راجحةً، وهي الجمعُ بين الصَّلاةِ والجهادِ، والحَذَرُ من الأعداء الحريصينِ غايةَ الحِرص على الإيقاعِ بالمسلمينَ، والميلِ عليهم وعلى أمتعتِهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٠). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٨).

أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾[١].

١٧- قول الله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ يُرشدُ إلى وجوبِ الحَذَرِ مِن العدوِّ، وعن جميع المضارِّ المظنونةِ، ويُرشِد إلى إتقانِ المكائِد للتَّخلُّص مِن الخطر[٢].

١٨- قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ فيه الرخصة في حملِ النَّجاسةِ إذا دعت الحاجة لذلك؛ لأنَّ الغالبَ أنَّ الأسلحة ولا سيما بعد القتال لا تخلو مِن دماء، وهذا بناءً على القولِ بأنَّ الدمَ نجسٌ[٣].

١٩- يؤخذُ من قوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ ... ﴾ أنَّ الكفَّارَ يحرصونَ على عدم تسلُّحِ المسلمين، وهذا صحيحٌ؛ فالكفَّار يودُّون أن نغفُلَ عن أسلحتِنا، فكيف يُعْطوننا؟! وتدلُّ على شدَّةِ حَنَقِ الكفَّار بالنِّسبة للإغارةِ علينا؛ فإنَّ قوله: ﴿مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ يدلُّ على الحَنَقِ وشدَّةِ الغيظ، وأنَّهم مقبِلون بقوَّةٍ[٤].

٢٠- أنَّ أعداءَ المسلمين يحبُّون الإجهازَ على المسلمينَ بسُرعة، وتؤخذُ من قوله: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾؛ فسياسةُ الكفَّار واحدةٌ مِن أوَّلِ الأمر إلى آخره، يريدونَ القضاءَ على المسلمينَ بسرعة، مرَّةً واحدة؛ لأنَّ التَّباطُؤَ يؤدِّي إلى فواتِ الفرصة عندهم، فيقولون: لا نفوِّتُ الفرصة[٥].

٢١- قول الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ خصَّ رفعَ الجُناح في وَضْع السِّلاحِ بهاتين الحالتين؛ وذلك يُوجِب أنَّ فيما وراء هاتين الحالتين يكونُ الإثمُ والجُناحُ حاصلًا بسبب وضعِ السِّلاح، وهذا يُفيد إيجابَ حملِها عند عدم العُذر[١].

٢٢- قول الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ رخصةٌ لهم في وضعِ الأسلحة عند المشقَّة، وقد صار ما هو أكملُ في أداء الصَّلاة رخصةً هنا؛ لأنَّ الأمورَ بمقاصدها، وما يحصُلُ عنها من المصالح والمفاسد؛ ولذلك قيَّد الرُّخصةَ مع أخذِ الحَذَرِ[٢].

٢٣- قول الله تعالى: ﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾، أي: متَّصفين بالمَرَض، وكأنَّ التَّعبيرَ بالوصف إشارةٌ إلى أنَّ أدنى شيءٍ منه لا يرخِّصُ في وضعِ السِّلاحِ[٣].

٢٤- التَّحذيرُ من الاغترار بما يُبديه الكافرُ من الموالاةِ، **وجهُه**: أنَّ العالِمَ بما في الصُّدورِ، والعالِمَ بكلِّ حالٍ- سبحانه وتعالى- أخبرنا بأنَّ الكافرين كانوا لنا عدوًّا مُبينًا، ولا أحدَ أعلمُ مِن الله بعبادِ الله: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[٤].

٢٥- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾، إنَّما قال (عدوًّا) ولم يقُلْ (أعداء)؛ لأنَّ لفظ العدوِّ يستوي فيه الواحدُ والجمعُ[٥].

٢٦- أنَّ الذِّكرَ بعد الصَّلاة لا يُشترط فيه أن يجلس الإنسانُ حتَّى ينهيَه، بل

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٤).

له أن يذكُرَ ولو كان قد انصرَفَ؛ لقوله: ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾، أي: على أيِّ حال[١].

٢٧- في قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أنَّ الذِّكر لا ينقُصُ إذا قعد الإنسانُ من قيامٍ، أو قام من قعودٍ أو اضطجع، وهذا هو الأصلُ؛ أنَّه لا ينقُصُ بكون الإنسان قائمًا أو قاعدًا أو مضطجعًا، اللَّهمَّ إلَّا أن يترتَّب على ذلك أنَّه إذا كان قائمًا فهو أنشَطُ له، لكنَّ الغالب أن القاعدَ أخشَعُ؛ لأنَّ القائمَ لا يقوم ليقفَ، وإنَّما ليمشيَ[٢].

٢٨- الصَّلواتُ الخمسُ إنَّما كانت مَوْقُوتةً؛ لتكون مذكِّرةً لجميعِ أفراد المؤمنين بربِّهم في الأوقاتِ المختلفة؛ لئلَّا تحمِلَهم الغفلةُ على الشَّرِّ، أو التَّقصيرِ في الخيرِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[٣].

٢٩- قوله سبحانه: ﴿مَّوْقُوتًا﴾ فيه الإشارةُ إلى أنَّ الوقتَ مقدَّمٌ على جميعِ الشُّروط، **وجهه**: أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَر صلاةَ الخوف، ثمَّ صلاةَ الأمنِ- بيَّن أنَّ هذا مِن أجل مراعاةِ الوقتِ؛ ولهذا مَن لم يجدْ ماءً تيمَّم، حتَّى يصلِّيَ في الوقت، وإذا لم يجدْ ماءً ولا ترابًا صلَّى على حسَب حالِه، وإذا لم يجدْ ثوبًا يستُرُ به العورةَ صلَّى على حسَب حاله، ولا ينتظر حتَّى يحصُلَ على ثوبٍ؛ لأنَّ الوقتَ مقدَّمٌ على كلِّ شيءٍ[٤].

٣٠- قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾، الابتغاءُ مصدرُ (ابتغى) بمعنى (بغى) المتعدِّي، أي: الطَّلَب، والمراد به هنا: المبادَأَةُ بالغزو، وألَّا يتقاعَسوا،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٨).

حتَّى يكونَ المشركونَ هم المبتدَئينَ بالغزو، والمُبادِئُ بالغزوِ له رعبٌ في قلوبِ أعدائه[١].

٣١- الإشارةُ إلى أنَّه لا يُشهَدُ للشَّهيدِ بأنَّه في الجنَّة؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾؛ فالرَّجاءُ قد يتحقَّقُ وقد لا يتحقَّق؛ ولهذا نُهِيَ أن نقولَ عن شخص معيَّنٍ بأنَّه شهيد، إلَّا مَن شهد له الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فمن شهِد له الرَّسولُ بالشَّهادة شهِدنا له، وكذلك مَن شهِد له القرآنُ؛ كما في غزوة أُحُدٍ[٢].

٣٢- قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لا يدلُّ على أنَّه كان فمضى؛ لأنَّ ﴿كَانَ﴾ هنا مسلوبةُ الزَّمان، وإنَّما أُتِيَ بها لتحقيقِ هذين الاسمينِ وما تضمَّناه من صفةٍ[٣].

٣٣- إثباتُ كمالِ الله عزَّ وجلَّ في حكمته تعالى؛ حيث قرَنَ بين العِلم والحكمةِ إشارةً إلى أنَّ حكمتَه صادرةٌ عن عِلمٍ، وليست عن صُدفة؛ لأنَّ الإنسانَ قد يفعل الفِعلَ ويكون مُحكَمًا مُتقَنًا، لكن على غيرِ علمٍ، بل صدفةً؛ كما يقال: (رُبَّ رميةٍ مِن غير رامٍ)، لكنَّ حكمةَ الله عزَّ وجلَّ مقرونةٌ بالعِلْم، مبنيَّةٌ عليه[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ جملة مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، مسُوقة لبيان أحكام قَصْرِ الصَّلاة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٠٨).

- وفيه انتقالٌ إلى تشريعٍ آخَرَ بمناسبةِ ذِكْرِ السَّفرِ للخروجِ مِن سُلطةِ الكفر، على عادةِ القرآنِ في تَفنينِ أغراضِه، والتماسِ مُناسباتِها[١].

٢- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾: تعليلٌ لِمَا قَبْله، باعتبارِ تعلُّلِه بما ذُكر، أو لِمَا يُفهَم مِن الكلامِ من كونِ فِتنتِهم متوقَّعةً؛ فإنَّ كمالَ عداوتِهم للمؤمنين من موجِبات التعرُّض لهم بسوء[٢].

٣- **قوله:** ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ ...﴾ الآية، فيها بيانٌ لِمَا قَبْلَها من النَّصِّ المُجمَلِ الواردِ في مَشروعيَّة قَصرِ الصَّلاةِ في قولِه: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ...﴾ الآيةَ، وفيها تَصويرٌ لكيفيَّةِ هذا القَصرِ عند الضَّرورةِ التَّامَّةِ، وتخصيصُ بيانِ القُرآنِ بهذه الصُّورةِ مع الاكتفاءِ فيما عَداها من الصُّورِ بالبيانِ بطَريقِ السُّنَّةِ؛ لمزيدِ حاجتِها إليه؛ لِمَا فيها مِن كثرةِ التَّغييرِ عن الهيئةِ الأصليَّة[٣].

- وفي الآية إيجازٌ بالحذفِ؛ فإنَّه لَمَّا قال: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ علم أنَّ ثمةَ طائفةً أخرى؛ فالضمير في قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ للطَّائفةِ باعتبار أفرادها، وكذلك ضميرُ قوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟﴾ للطَّائفةِ الَّتي مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٤].

- قوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ﴾، وقوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ﴾: فيه تكرار[٥]، وهو يُفيدُ التَّأكيدَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣).

- قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾: لعلَّ زِيادةَ الأَمْرِ بالحذرِ في هذِه المرَّةِ؛ لكونِها مظِنَّةً لوقوفِ الكَفَرة على كونِ الطائفةِ القائمةِ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في شُغلٍ شاغلٍ، وأمَّا قبْلَها فربَّما يَظنُّونَهم قائِمينَ للحربِ، وتكليفُ كلٍّ مِن الطائفتينَ بما ذُكِر؛ لأنَّ الاشتغالَ بالصَّلاة مظنَّةٌ لإلقاءِ السِّلاحِ والإعراضِ عن غيرِها، ومظنَّةٌ كذلك لهجومِ العدوِّ(١).

٤- **قوله**: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ الجملة استئنافيَّةٌ، مسُوقةٌ لتعليل الأمرِ المذكورِ، وهو قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، وفيها: التفاتٌ؛ إذ إنَّ الخِطابَ للفريقين بطريق الالتفاتِ، أي: تمنَّوْا أنْ ينالوا غِرَّةً، ويَنتهزوا فرصةً، فيشدُّوا عليكم شَدَّةً واحدةً(٢).

- قوله: ﴿مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾: استُعمِلتْ صِيغة (المرَّة) هنا للكِناية عن القوَّة والشِّدَّة؛ وذلك أنَّ الفعل الشَّديدَ القويَّ يأتي بالغرَضِ منه سريعًا دون معاودةِ علاجٍ، فلا يتكرَّر الفعلُ لتَحصيلِ الغرض، وأكَّد معنى المرَّة المستفادَ من صِيغة (فَعْلة) بقوله: ﴿وَاحِدَةً﴾؛ تَنبيهًا على قصْدِ معنى الكناية؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المصدرَ لمجرَّد التَّأكيدِ لقوله: ﴿فَيَمِيلُونَ﴾(٣).

- قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: فيه تكرارٌ(٤)، وهو يُفيدُ تأكيدَ نفْيِ الجُناح.

٥- **قَوْلُهُ**: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢).

مُقرِّر لِمَا قبلها؛ من أجْل تشجيعِ المسلمين؛ لأنَّه لَمَّا كرَّر الأمْرَ بأخْذِ السِّلاح والحَذَر، خِيفَ أن تثُورَ في نفوسِ المسلمين مَخافةٌ من العدوِّ؛ من شدَّةِ التَّحذيرِ منه، فعقَّب ذلك بأنَّ اللهَ أعدَّ للكافرين عذابًا مُهِينًا، وهو عذابُ الهزيمةِ والقتلِ والأَسْر، ولِيعلموا أنَّ الأمرَ بالحَذرِ ليس لذلك، وإنَّما هو تعبُّد من اللهِ تعالى بتَعاطي الأسبابِ المشروعةِ[١].

- وقيل: هو تعليلٌ للأمْر بأخْذِ الحذرِ؛ فإنَّه أعدَّ لهم عذابًا مُهِينًا بأنْ يخذُلَهم وينصُرَكم عليهم، فاهتمُّوا بأموركم، ولا تُهمِلوا في مباشرة الأسباب؛ كي يحُلَّ بهم عذابُه بأيديكم، وليعلموا أنَّ الأمر بالحزم ليس لضعفِهم، وغلَبةِ عدوِّهم، بل لأنَّ الواجبَ أن يُحافِظوا في الأمورِ على مراسم التَّيقُّظ والتَّدبُّر فيتوكَّلوا على الله سبحانه وتعالى[٢].

٦- **قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾** تذييلٌ مسُوقٌ مساقَ التَّعليلِ؛ لوجوبِ المحافظةِ على الصَّلاة في أوقاتها حتَّى في وقتِ الخوفِ؛ ولو مع القَصْرِ منها[٣].

- وقوله: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيه إظهارٌ لِمَا كان الأصل فيه الإضمارُ- حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يَقُل: (إنَّها)-؛ تَنبيهًا على عَظيمِ قدْرِ الصَّلاةِ[٤].

٧- **قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ**

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٥).

كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ هذا تشجيعٌ لنفوسِ المُؤْمنين، وتحقيرٌ لأمْرِ الكَفَرة، ثم تأَكَّدَ التشجيعُ بقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وهذا برهانٌ بَيِّنٌ، ينبغي بحَسَبِهِ أنْ تقوى نفوسُ المؤمنينَ[1].

٨- **قوله:** ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ جاءتْ لفظة (عليمًا) و(حَكيمًا) على صِيغة (فعيل)؛ للمبالغةِ في وصْف الله تعالى بالعِلم والحكمة؛ فإنَّه سبحانه يعلم كلَّ شيء، ويعلم الأعمالَ، ويعلَمُ ما في الضمائر[2]، وكذلك متَّصفٌ بالحِكمةِ في كلِّ أفعاله سبحانه، مع ما تُفِيدُه الجملةُ الاسميَّةُ من التَّأكيد.

(١) ((تفسير الثعالبي)) (٢/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٨).

الآيات (١٠٥ - ١٠٩)

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾: أي: مُخاصِمًا تُخاصِمُ عن الخائِنين، وتَدْفَعُ عنهُم مَن طَلَبَهم بِحَقِّه الَّذي خَانوه فيه، فالخَصِيمُ هنا بمعنَى المنتَصِر المدافِع، والخَصيمُ: المبالِغ في الخِصامِ، وأصل (خصم): المنازَعة[١].

﴿يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾: أي يجعلونها خائنةً بارتكابِ الخِيانةِ، ويختانون: يخُونونَ، والاختيانُ: مراودةُ الخيانةِ، وكذلك: تحرُّكُ شهوةِ الإنسانِ لتحرِّي الخيانةِ[٢].

﴿خَوَّانًا﴾: أي: مُبالِغًا في الخيانةِ، مُصِرًّا عليها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣، ١٧٣).

﴿أَثِيمًا﴾: أي: مبالغًا في إثمه، لا يُقلِع عنه، والإثم والآثام: اسمٌ للأفعال المُبَطِّئة عن الثَّواب، أو الذَّنبُ الَّذي يستحقُّ العقوبةَ عليه، وأصل الإثم: البُطء والتَّأخُّر[١].

﴿يُبَيِّتُونَ﴾: يُدبِّرون ليلًا، يقال لكلِّ فعل دُبِّر فيه بالليل: بُيِّتَ، وأصل البيت: مأوى الإنسان باللَّيل؛ لأنَّه يقال: بات: أقام باللَّيل، ويُطلق أيضًا على المآب، ومجمع الشَّمل[٢].

﴿مُحِيطًا﴾: أي: مُحْصِيًا وعالِمًا، لا يَخْفَى عَليهِ شَيْءٌ من أعمالِهم، وحَافِظًا لذلكَ علَيْهم، والإحاطةُ بالشَّيء هي العِلْم بوجودِه، وجِنسِه، وقَدْره، وكيفيَّته، وغرَضه المقصود به، وبإيجاده، وما يكونُ به ومِنه؛ وذلك ليس إلَّا للهِ تعالى، وأصل (حوط) هو الشَّيْءُ يُطِيفُ بالشَّيْءِ، ومنه الحائِط؛ لإحاطتِه بما يدورُ عليه، واستُعمِلَ في القُدرة والعِلم والإهلاكِ[٣].

﴿وَكِيلًا﴾: أي: مانعًا وحافظًا وكفيلًا، ووكيل الرجل في مالِه هو الَّذي كفَله له، وقام به، وأصل (وَكَلَ): يدلُّ على اعتماد غيرِك في أمرِك[٤].

المَعنَى الإجماليُّ:

يخبِرُ الله نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه هو مَن أنزل إليه الكتاب بالحقِّ، ومشتملًا على الحقِّ، ليحكُمَ بين النَّاس بما علَّمه الله تعالى ممَّا أنزله في كتابه،

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١- ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥- ٥٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨، ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

ناهيًا إيَّاه عن المخاصَمة والمدافعة عمَّن علِم خيانتَه، وأمَره تعالى أن يستغفر اللهَ؛ فإنَّه سبحانه غفورٌ رحيم.

ثمَّ نهاه تعالى عن المجادلة والدِّفاع عن الَّذين يخُونون أنفسَهم؛ فإنَّ الله تعالى لا يحبُّ مَن اتَّصف بالخيانةِ، وارتكابِ الإثمِ.

ثمَّ ذكَر الله عن هؤلاء الخائنين أنَّهم يستترونَ عن النَّاس عند ارتكابِهم سيِّئَ العملِ، ولا يستترون من الله، وهو معهم أينما كانوا، مُطَّلِعٌ على كلِّ ما يفعلونه، خصوصًا حين يُدبِّرون ليلًا ما لا يرضاه من القول، والله قد أحاط عِلمًا بجميع أعمالِهم.

ثمَّ يخاطبُ الله عباده قائلًا لهم: هَبْكُم جادلتُم عن هؤلاء الخَوَنة في الحياة الدُّنيا، ونفَعهم جدالُكم عند الخَلْق، فمن الَّذي سيخاصم اللهَ عنهم يومَ القيامةِ حين تقومُ عليهم الحُجَّة، أمَّن سيكون وكيلًا عنهم؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى بمجاهدة الكفَّار بيَّن أنَّ الأمرَ وإن كان كذلك، فإنَّه لا تجوزُ الخيانةُ معهم، ولا إلحاقُ ما لم يفعَلوا بهم، بل الواجبُ في الدِّين أن يُحكَمَ للكافرِ أوْ عليهِ بما أنزَل على رسولِه، وألَّا يلحَقَ الكافرَ حَيْفٌ لأجلِ كُفْره، أو إرضاءً لطرفٍ آخر ينتسب إلى الإسلامِ[1].

وأيضًا لَمَّا أمَر المؤمنينَ بأن يأخذوا حِذرَهم من الأعداءِ، ويستعدُّوا لمجاهدَتِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١١).

حفظًا للحقِّ أن يُؤتَى من الخارج- أمرهم بأن يقوموا بما يحفَظُه في نفسِه، فلا يؤتى من الدَّاخل، وأن يُقِيموه على وجهِه كما أمر اللهُ تعالى، ولا يُحَابُوا فيه أحدًا[(١)]، فقال تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: إنَّا أنزَلْنا إليك- يا محمَّدُ- القرآنَ، وهو حقٌّ مِن الله تعالى، نزل نزولًا متلبِّسًا بالحقِّ، ومشتملًا أيضًا على الحقِّ؛ فأخباره صِدْقٌ، وأوامرُه ونواهيه عَدْلٌ[(٢)].

﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾.

أي: لتقضيَ بين النَّاس، فتفصِلَ بينهم لا بهواكَ، بل بما علَّمك اللهُ ممَّا أنزَلَه إليك من كتابه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٢١).

وقال عن وجه مناسبة هذه الآيةِ لمجموع الآياتِ التي سبقتْها: (وأمَّا اتِّصالها بمجموع ما قبلها فقد علِمْنا مما مرَّ أن أول السُّورة في أحكام النساء والبيوت إلى قوله -تعالى-: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]، ومن هذه الآية إلى هنا تنوَّعت الآياتُ بالانتقال من الأحكام العامة إلى مجادلة اليهود، وبيان حالهم مع النبي صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمنين، وتخلَّل ذلك الأمر بطاعة الله ورسوله، والنَّعي على المنافقين الذين يُريدون أن يَتحاكموا إلى الطاغوت، كاليهود، وتأكيد الأمر بطاعة الرَّسول، وبيان أنه تعالى لم يبعَثْ رسولًا إلَّا ليُطاع، والترغيب في هذه الطَّاعة، ثم انتقل من ذلك إلى أحكام القتال وبيان حال المؤمنين والكافرين والمنافقين فيه، وقد عاد في هذا السياق أيضًا إلى تأكيد طاعة الرَّسول وحال المنافقين فيها، فناسَب أن ينتقل الكلام من هذا السياق إلى بيان ما يجب على الرَّسول نفسِه أن يحكُم به بعدما حتَّم الله التَّحاكم إليه وأمره بطاعته فيما يحكم ويأمر به).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٠-١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩-٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٢).

وقيل: يحتمل قوله تعالى: ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ أيضًا معنى الحُكم على أعمال الناس، فكما

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾.

مناسبتها لما قبلها:

لَمَّا أمَر اللهُ بالحُكم بين النَّاس المتضمِّنِ للعدلِ والقِسط، نهاه عن الجَوْرِ والظُّلم الَّذي هو ضدُّ العدل، فقال[١]:

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾.

أي: ولا تخاصِمْ وتحاجِجْ عمَّن عرفتَ خيانتَه، من مدَّعٍ ما ليس له، أو منكرٍ حقًّا عليه، ولا تدافِعْ عنه[٢].

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾.

أي: واطلُبْ مغفرتَه، وهي سترُ الذَّنب، والتَّجاوُزُ عن المؤاخَذة به[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: فإنَّ الله تعالى هو الَّذي يغفِرُ الذُّنوب، ويرحم كلَّ مَن استَغْفره وطلَب رحمتَه[٤].

يحكُمُ بينهم في فصل الخصومات، يحكُم بينهم أيضًا في أحكام أعمالهم، فيقول: هذا حقٌّ، وهذا باطلٌ، وهذا واجبٌ، وهذا محرَّم، وما أشبه ذلك، وقيل: يحتمل قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أيضًا معنى الحُكم بالاجتهاد. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٧، ٤٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٢-١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٠٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى الله تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الخِصام لكلِّ من وقَعَت منه خيانةٌ ما، أتبَعَه النَّهيَ عن المجادلة عمَّن تعمَّد الخيانةَ، فقال سبحانه وتعالى[1]:

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾.

أي: ولا تُدافِعْ - يا محمَّدُ - عمَّن يخُونون أنفسَهم، فيجعلونها خائنةً بارتكابهم الخيانةَ، فلا تُحاجِجْ وتخاصِمْ عنهم مَن يطالبُهم بحقوقه، وما خانُوه فيه[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُبغِضُ مَن كان من صفاتِه خيانةُ النَّاس، وركوبُ الإثم في ذلك، وفي غيره، ممَّا حرَّمه اللهُ عزَّ وجلَّ عليه[3].

﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨﴾.

﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

أي: إنَّهم حريصونَ على إخفاءِ قبائحهم عن النَّاس، فيتوارَوْنَ منهم تجنُّبًا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٠-٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٢-١٨٣).

للفضيحة بينهم، إمَّا حياءً منهم، أو خوفًا منهم، أو لئلَّا يُنكِروا عليهم سوءَ أعمالهم[١].

﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾.

أي: إنَّهم لا يُبالون بنظرِ الله تعالى إليهم، واطِّلاعِه على قبائحِهم الَّتي يبارزونه بها، وهو الَّذي لا يخفى عليه شيءٌ مِن أعمالهم، وبيدِه العقابُ وتعجيلُ العذابِ؛ فهو أحقُّ أن يُخافَ ويُستحيَا منه جلَّ وعلا[٢].

﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

أي: حيث إنَّهم يُهيِّئون ويدبِّرون ليلًا ما لا يرضاه سبحانه من القولِ؛ كتبرئةِ الجاني، ورميِ البريءِ بالجناية[٣].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى قد أحاط علمًا بأعمالِهم، وأحصاها عليهم، حتَّى يجازيَهم عليها[٤].

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٢-٤٧٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٩).

أي: هَبْ أنَّكم جادَلْتم عنهم في هذه الحياةِ الدُّنيا، ودفَعَ عنهم جدالُكم العارَ والفضيحةَ عند الخَلْق[١].

﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

أي: فمَن هذا الَّذي سيخاصم اللهَ عنهم يومَ القيامةِ، حين تتوجَّه عليهم الحُجَّةُ، ويُقامُ عليهم من الشُّهودِ ما لا يُمكِنُ معه الإنكارُ؟ فيومئذٍ لا يدافعُ عنهم عنده سبحانه أحدٌ فيما يحُلُّ بهم من العذابِ[٢].

﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا﴾.

أي: لا أحدَ يكونُ نائبًا لهؤلاء الخائنينَ في ترويجِ دعواهم عندَ الله تعالى يومَ القيامةِ[٣].

الفَوائِد التربويَّة:

١- يُستفادُ مِن قول الله تعالى: ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ أنَّ الأحكامَ كلَّها من الله تعالى، وأنَّه ليس لأحدٍ أن يحيدَ عن شيءٍ منها طلَبًا لرضَا أحدٍ[٤].

٢- قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ فيه النَّهيُ عن معاونة الآثِم، وهذا مطابقٌ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾[٥] [المائدة:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٧-٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٢-١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٣).

٢].

٣- ترهيبُ المسلِم مِن أن يعلَمَ مِن الظَّالم كونَه ظالِمًا، ثمَّ يُعِينَه على ذلك الظُّلم، ويحمِلَه عليه ويرغِّبَه فيه؛ يُستفادُ ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[١].

٤- النَّهيُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ لم يكُنْ موجَّهًا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خاصَّةً، وإنَّما هو تشريعٌ وُجِّه إلى المكلَّفينَ كافَّةً؛ فهؤلاء الخائنونَ يوجَدون في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وفي جعلِ النَّهيِ بصيغة الخطابِ له- وهو أعدلُ النَّاسِ وأكمَلُهم- مبالغةٌ في التَّحذيرِ مِن هذه الخَلَّةِ المعهودةِ من الحُكَّامِ[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ (الاختيانُ) و(الخيانة) بمعنَى الجِناية والظُّلم والإثم، وهذا يشمَلُ النَّهيَ عن المجادَلةِ عمَّن أذنَب، وتوجَّه عليه عقوبةٌ مِن حدٍّ أو تعزيرٍ، فإنَّه لا يجادَلُ عنه بدفعِ ما صدَر منه من الخيانةِ، أو بدفعِ ما ترتَّبَ على ذلك مِن العقوبةِ الشَّرعيَّة[٣].

٦- أنَّ الخائن لغيرِه خائنٌ في الحقيقة لنفسِه؛ حيث أوقَعها في المآثِمِ والخيانةِ، فلا يظُنَّ الخائنُ الَّذي يكتسب بخيانتِه ما يكتسِبُ أنَّه رابحٌ، بل هو خائنٌ لنفسِه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾[٤].

٧- أنَّ الخيانةَ مِن كبائر الذُّنوب، يؤخذُ مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٣).

مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾؛ لأنَّه إذا رُتِّب على العملِ عقوبةٌ خاصَّة فهو من الكبائرِ[١].

٨- في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ التَّحذيرُ من الخيانةِ؛ لكونِ الله تعالى نفى محبَّتَه للخائن الأثيم، وفيه أيضًا التَّرغيبُ في أداءِ الأمانة؛ لأنَّه إذا وقع الذَّمُّ على وصفٍ لزِم أن يكونَ المدحُ في ضدِّه[٢].

٩- قول الله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ تضمَّنَ الوعيدَ الشَّديدَ والتَّقريعَ البالغَ؛ حيث يرتكبون المعاصيَ مستترينَ بها، مع علمِهم -إن كانوا مؤمنين- أنَّهم في حضرتِه لا سُترةَ ولا غفلةَ ولا غَيبةَ، وكفى بهذا زاجرًا للإنسانِ عن المعاصي[٣].

١٠- أنَّ اللهَ سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ، وأنَّ مَن حاوَل أن يُخفِيَ عن اللهِ شيئًا فإنَّه قد ظنَّ بربِّه ظنَّ السَّوء، ومع ذلك لن ينفَعَه هذا الظَّنُّ؛ لقوله: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- علوُّ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿أَنزَلْنَآ﴾، والنُّزولُ لا يكون إلَّا من عُلْوٍ، والقرآنُ كلامُ اللهِ، فإذا كان القرآنُ نازلًا لزِم أن يكونَ المتكلِّمُ به عاليًا[٥].

٢- في قوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾جوازُ كتابةِ القرآنِ، وهذا أمرٌ متَّفقٌ عليه بين الأمَّة، بل قد تكون كتابتُه واجبةً[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٥).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ فيه دليلُ جوازِ اجتهاد النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ اجتهادَه كالنَّصِّ؛ لأنَّ الله تعالى أخبَر أنَّه يُريه ذلك[١].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ استُدلَّ به على وجوب الاجتهادِ في فهم الشَّريعةِ[٢].

٥- إثباتُ العِلَل في أفعالِ الله الشَّرعيَّة والكونيَّة، وتؤخَذ من قوله: ﴿لِتَحۡكُمَ﴾؛ لأنَّ اللَّامَ للتَّعليل، ولا شكَّ أنَّ تعليلَ أحكام الله عزَّ وجلَّ ثابتٌ ثبوتًا قطعيًّا لا إشكالَ فيه، والحكمةُ من تمامِ صفاتِه سبحانه[٣].

٦- قول الله تعالى: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ (أراك) أي عرَّفك وأوحَى إليك، وأصل (رأى) للرُّؤية البَصريَّة، فأُطلِقت على ما يُدرَكُ بوجه اليقينِ؛ لمشابَهته الشَّيءَ المُشاهَدَ؛ لكونِها جاريةً مجرَى الرُّؤية فى القوَّة والظهورِ، والخُلوص مِن وُجوهِ الريبِ[٤].

٧- إذا ذكرَ اللهُ تعالى لِفِعْلٍ حكمةً لم يَلْزَمْ ألَّا تكونَ له حكمةٌ أخرى- ومثل ذلك كثيرٌ في كلامِ الله عزَّ وجلَّ - لكِنْ لا بدَّ لتخصيصِ تلك الحِكْمَة بالذِّكر في ذلك الموْضِع من مناسبةٍ؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾، وفي إنزالِه أيضًا تبشيرٌ وإنذارٌ، وأمرٌ ونهْيٌ، ووعْدٌ ووعيدٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٢).
(٥) ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٤٣٧- ٤٣٩).

٨- في قوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ دليلٌ على تحريمِ الخصومةِ في باطلٍ، والنِّيابةِ عن المبطِلِ في الخصوماتِ الدِّينيَّة والحقوقِ الدُّنيويةِ[١]. وهو بابٌ في غايةِ الأهميةِ للمُحامين وغيرِهم.

٩- يدُلُّ مفهومُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ على جواز الدُّخولِ في نيابةِ الخصومة لِمَن لم يُعرَفْ منه ظُلْم[٢].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ فيه أنَّه لا يجوزُ الجدالُ عن الخائنِ، ولا يجوزُ للإنسانِ أن يُجادِلَ عن نفْسِه إذا كانتْ خائنةً، لها في السِّرِّ أهواءٌ وأفعالٌ باطنةٌ تَخفَى على النَّاسِ؛ وقدْ قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤- ١٥]؛ فإنَّه يَعتذِرُ عن نفْسِه بأعذارٍ ويُجادِلُ عنها وهو يُبصِرُها بخِلافِ ذلك[٣].

١١- أنَّه يجبُ على الحاكمِ أن يتأنَّى في حُكمِه، وألَّا يتعجَّلَ، بل يتريَّثُ، لا سيَّما مع وجودِ قرائنَ، فمجرد هَمِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومَيلِه إلى هؤلاء فيه شيءٌ من التَّقصيرِ؛ ولهذا قال الله له: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾[٤].

١٢- استنبَط بعضُ العلماءِ: أنَّه ينبغي لمن استُفتِي أن يقدِّمَ بين يدَيْ فتواه الاستغفارَ؛ لأنَّ الله قال: ﴿لِتَحۡكُمَ﴾ ثمَّ قال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾؛ ولأنَّ الذُّنوب تحُولُ بين الإنسانِ وبين معرفةِ الصَّواب[٥].

١٣- قول الله تعالى: ﴿يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ (يختانون) بمعنى يخُونون،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).
(٣) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٤٤-٤٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٨١).

وهو افتعالٌ دالٌّ على التَّكلُّف والمحاولةِ لقصد المبالغةِ في الخيانة[١].

١٤- إثبات الرِّضا لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، ووجهه: أنَّ نفي الرِّضا عن هؤلاء يدلُّ على ثبوتِه لغيرِهم؛ إذ لو كان منتفيًا عن الجميعِ ما حسُنَ أن يُنفى عن هؤلاء[٢].

١٥- أنَّ النَّاسَ قد يتناصَرون بالباطلِ؛ قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٣].

١٦- في قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تحريمُ المحاماةِ إذا علِم المحامي أنَّ صاحبَه مُبطِلٌ، وجهُ ذلك: أنَّ الله أنكَرَ على هؤلاءِ أن يجادلوا عن صاحِبِهم، أمَّا إذا كان المحامي يريدُ أن يدافعَ عن الحقِّ بإثباتِه، فهذا جائزٌ، بل قد يكون واجبًا، كما لو وكَّلك شخصٌ لا يعرفُ ولا يكاد يُبِينُ، أن تدافعَ عنه، فهذا لا بأسَ به[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ الإتيانُ بلفظةِ ﴿خَصِيمًا﴾ على صِيغة (فعيل)؛ للمبالغة مِن خَصَم[٥].

٢- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أتى باللَّفظتين ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ على صيغة (فعيل)؛ للمُبالغةِ في وصْفه سبحانه بالمغفرةِ والرحمةِ لمن يستغفرُه[٦]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) ينظر ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦)، وفيه قال أبو حيَّان: (خصيمًا أي: مخاصمًا، كجليسٍ بمعنى مجالس، ويحتمل أن يكونَ للمبالغة من خصم).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٩).

وفيه تأكيدُ الخبر بـ: (إنَّ)، واسميَّةِ الجملة.

٣- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾: الإتيانُ بصِيغة المبالغة (فعَّال) في الخِيانة، و(فعيل) في الإثم؛ للمبالَغة في شَناعةِ الاتِّصافِ بهذه الأوصافِ؛ فإنَّ قوله: ﴿خَوَّانًا﴾ يعني أنَّه كثيرُ الخيانة، مُفرِطٌ فيها، و﴿أَثِيمًا﴾ يعني أنَّه مُنهمِكٌ في الإثم، وتعليقُ عدمِ المحبَّة المرادُ منه البُغضُ والسَّخَط بصِيغة المبالغةِ[1]، مع ما فيه مِن تَأكيدِ الخبر بـ: (إنَّ)، واسميَّة الجملة.

- وتَقدَّمت صِفةُ الخيانةِ على صِفةِ الإثم؛ لأنَّها سببٌ للإثم، ولمراعاة تواخِي الفواصِل[2].

٤- **قوله**: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾.

- فيه: توبيخٌ عظيمٌ وتقريعٌ؛ حيثُ يَرتكِبون المعاصِيَ مُستترِينَ بها عنِ الناسِ إنِ اطَّلعوا عليها[3].

- وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾: فيه ما يُعرَف في البَلاغة بـ (التَّتميم)؛ للإنكارِ عليهم والتَّغليظِ لقُبْحِ فِعلهم؛ لأنَّ حياءَ الإنسانِ ممَّن يَصحبُه أكثرُ مِن حيائِه وحْدَه[4].

٥- **قوله**: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾: فيه كنايةٌ عن المبالغةِ في الاتِّصافِ بالعلم، وفيه: وعيدٌ من حيث إنَّهم وإنْ كانوا يُخفُون كيفيَّةَ المكرِ والخِداعِ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٦٢).

النَّاس، فإنَّها ظاهرةٌ في عِلْم الله[١].

٦- **قوله:** ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ ﴾ فيه: التفاتٌ؛ فقد انتقَل مِن ضميرِ الغَيبةِ إلى الخِطاب؛ وفيه إيذانٌ بأنَّ تَعديدَ جِنايتِهم يُوجبُ مشافهتَهم بالتَّوبيخ والتَّقريع[٢].

٧- **قَوْله:** ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ ﴾: استفهامٌ معناه النَّفيُ، أي: لا أحدَ يُجادلُ اللهَ عنهم يوم القيامةِ إذا حَلَّ بهم عذابُه[٣]، وهو وعيدٌ محْضٌ، أي: إنَّ الله يعلَمُ حقيقةَ الأمرِ؛ فلا يُمكِن أن يُلبَّسَ عليه بجدالٍ ولا غيرِه[٤].

٨- **قوله:** ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا ﴾: ﴿أَم ﴾ منقطعةٌ للإضرابِ الانتقاليِّ، و﴿مَنْ﴾ استفهامٌ مُستعمَلٌ في الإنكار[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٥/ ١٦٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٥).

الآيات (١١٠ - ١١٢)

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿خَطِيٓـَٔةً﴾: الخَطيئة: فعيلةٌ من الخطأ، وهو العدولُ عن القصدِ والجِهةِ، يقال: خَطِئَ الرَّجلُ يَخْطَأُ خِطْأً-: إذا تعمَّد الذَّنب[1].

﴿بُهْتَٰنًا﴾: أي: ظُلمًا، والبُهْتَانُ كذلك الكذِبُ، أو كلُّ فِعل مستبشَعٍ يُتعاطَى باليدِ والرِّجل مِن تناوُل ما لا يجوزُ، والمَشْي إلى ما يقبُحُ[2].

﴿لَهَمَّت﴾: الهمُّ: جرَيان الشَّيءِ في القلب، وأصل (هَمَم): يدلُّ على ذَوبٍ وجريانٍ ودبيبٍ[3].

المَعنَى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّه مَن يعملْ عملًا يُسيءُ به إلى غيره، أو يكتسِبْ ما يجعلُه يستحقُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

العقوبةَ من الله، ثمَّ يستغفرِ اللهَ تعالى عمَّا اقترَف؛ فإنَّه سيجدُ مِن الله مغفرةً لذنوبه، ورحمةً به، ومَن يقترفْ ذنبًا متعمِّدًا فإنَّما يجني بذلك على نفسِه وبالَ الذَّنبِ وعاقبتَه، وكان الله عليمًا حكيمًا.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّه مَن يصدُرْ منه ذنبٌ غيرَ متعمَّدٍ له، أو يرتكِبْه عامدًا ثمَّ يتَّهِمْ بهذا الذَّنبِ الَّذي اقترفه مَن هو بَريءٌ منه، فقد تحمَّلَ بعَمَله القبيحِ هذا فِرْيَةً على ذلك البريءِ، وإثمًا ظاهرًا بيِّنًا.

ثمَّ يخاطبُ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لولا أنَّ الله تفضَّل عليه فحَفِظَه وعصَمه، لهمَّتْ طائفةٌ مِن الَّذين يختانون أنفسَهم أن يُضلُّوه عن طريق الحقِّ، وما يُضلُّون في الحقيقة إلَّا أنفسَهم، ولا يمكن أن يضرُّوه عليه الصَّلاة والسَّلام بشيءٍ، ثمَّ ذكَّره تعالى بنعمتِه عليه وفضلِه حين أنزل عليه القرآنَ، والسنَّة، ومعرفة أسرار الشَّريعة، وعلَّمه سبحانه وتعالى ما لم يكُنْ يعلَمُه مِن قبلِ تعليمِ الله سبحانه وتعالى له، وكان فضلُ الله عليه عظيمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى عن نُصْرةِ الخائن، وحذَّر منها، ندَب إلى التَّوبة مِن كلِّ سُوءٍ[1] فقال:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾.

أي: ومَن يعمَلْ ما يُسيءُ به إلى غيرِه، أو يظلِمْ نفسَه بإكسابه إيَّاها ما يستحقُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٩٦).

به عقوبةَ الله من شِركٍ ومعاصٍ[١].

﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾.

أي: ثمَّ يطلُبْ مِن الله تعالى أن يستُرَ ما عمِلَ مِن ذنوبٍ، ويتجاوَزَ عن مؤاخَذتِه بها[٢].

﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: فإنَّه يجدُ اللهَ تعالى غفورًا لذنوبِه، رحيمًا به[٣].

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ندَبَ الله تعالى إلى التَّوبة ورغَّب فيها، بيَّن أنَّ ضررَ إثمِ الآثِم لا يتعدَّى نفسَه، حثًّا على التَّوبةِ، وتهييجًا إليها؛ لِمَا جُبِل عليه كلُّ أحدٍ مِن محبَّة نَفْع نفسِه، ودَفْع الضُّرِّ عنها[٤]، فقال:

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

أي: ومَن يَأتِ ذَنبًا عامدًا له، فإنَّما يَجترحُ وبالَ ذلك الذَّنبِ وضُرَّه وخِزيَه وعارَه في الدُّنيا والآخرة على نفسِه دون غيرِه، فلا يَجني أحدٌ على أحدٍ، وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٩٧).

على كلِّ نفسٍ ما عمِلَتْ، لا يَحمِلُه عنها غيرُها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى له العلمُ الكاملُ، والحِكمةُ التَّامَّة، ومِن عِلْمه وحِكمتِه أنَّه يَعلمُ الذَّنبَ وما صدَر منه، والسَّببَ الدَّاعي لفِعلِه، والعقوبةَ المترتِّبةَ على فِعلِه، ويَعلمُ حالةَ المُذنِب، فيوفِّقُ للتوبةِ مَن غلبتْه نفسُه الأمَّارة بالسُّوء، مع إنابتِه إلى ربِّه في كثيرٍ مِن أوقاتِه، ويخذلُ مَن تجرَّأ على المحارمِ تهاونًا، ولا يُوفِّقه للتوبةِ[٢].

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى ما يخصُّ الإنسانَ مِن إثمِه، أتبَعَه ما يُعدِّيه إلى غيرِه[٣]، فقال:

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٦-٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٠-٢٠١).
قال السعديُّ: (لكن إذا ظهرت السيِّئات فلم تُنكَرْ، عمَّت عقوبتُها، وشمِل إثمُها، فلا تخرج أيضًا عن حُكم هذه الآية الكريمة؛ لأنَّ مَن ترَك الإنكارَ الواجب فقد كسَب سيِّئةً) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٩٨).

أي: ومَن يَرتكِبْ ذنبًا غيرَ عامدٍ له، أو يرتكبْ ذنبًا متعمِّدًا له[١].

﴿ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾.

أي: ثم يُلصِقْ ذَنبَه الَّذي ارتكبَه بشخصٍ آخرَ بريءٍ من هذا الذَّنبِ[٢].

﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾.

أي: فقد تحمَّل بهذا الفِعلِ الشَّنيعِ فِريةً وكذبًا على ذلك البَريءِ، وإثمًا ظاهرًا بيِّنًا، يُبِينُ عن أمْرِ مُتحمِّلِه، وجَراءتِه على ربِّه سبحانه وتعالى[٣].

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لـمَّا وعَظ سُبحانه وتعالى في هذه النَّازلةِ، وحذَّر ونهى وأمَر- بَيَّن نِعمَتَه على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في عِصمتِه عمَّا أرادوه مِن مُجادلتِه عن الخائنِ

---

(١) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٧/ ٤٧٧)، والراغب الأصفهاني في ((تفسيره)) (٣/ ١٤٣٣). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٥).
قال العسكريُّ: (الفرقُ بينَ الخطيئةِ والإثمِ: أنَّ الخطيئةَ قد تكونُ مِن غيرِ تعمُّدٍ، ولا يكونُ الإثمُ إلَّا تعمدًا، ثم كثُر ذلك حتى سُمِّيت الذُّنوب كلُّها خطايا). ((الفروق اللغوية)) (١/ ٢٢٢).
وقيل: الخطيئةُ هي الذنبُ الكبير، والإثمُ ما دون ذلك. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١).
وقيل بعكس ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٨-٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٣).

بقوله تعالى[١]:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾.

أي: ولولا أنَّ اللهَ تعالى تَفضَّل عليك- يا محمَّدُ- فحفِظَكَ وعصَمك بتوفيقِه وتبيانِه لك أَمْرَ هذا الخائنِ[٢].

﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾.

أي: لعزَمَتْ فِرقةٌ من أولئك الَّذين يختانونَ أنفسَهم أن يَحْرِفوكَ عن طريق الحقِّ[٣].

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

أي: إنَّ كيدَهم ومكرَهم يعودُ على أنفسِهم، فما يُضلُّونَ بذلك في الحقيقةِ إلَّا أنفسَهم[٤].

﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾.

أي: ولا يمكِنُ أن يُضرُّوك بأيِّ شيءٍ من الأشياءِ[٥].

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

أي: ومِن فَضْلِ اللهِ تعالى عليك- يا محمَّدُ- مع سائرِ ما تفضَّلَ به عليك مِن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٨).

نِعَمِه، أنَّه أنزَل عليك الكتابَ: وهو القرآنُ، والحِكمةَ: وهي السُّنَّة ومعرفةُ أسرارِ أحكامِ الشَّريعة(١).

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

أي: ومِن فَضْله تعالى عليك- يا محمَّدُ- أنْ علَّمَك ما لم تكُنْ تعلَمُه من قبلِ نزولِ الوحيِ عليك(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

أي: إنَّ ما منَحَك اللهُ تعالى إيَّاه من نِعَمٍ وعطايا- يا محمَّدُ- أمرٌ عظيمٌ من لَدُنِ العظيمِ الكريم سبحانه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٠-٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١-٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٩).

الفَوائِد التربويَّة:

١- أنَّ المعاصيَ ظُلْمٌ للنَّفسِ؛ لقوله: ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾، وهذا شيءٌ ثابتٌ مُكرَّرٌ في القرآنِ[١].

٢- أنَّ الإنسانَ تصحُّ توبتُه من الذَّنبِ ولو تكرَّر، ووجهُه: العمومُ في قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ﴾، وهذا عامٌّ فيمَن تكرَّر منه ذلك، أو لم يتكرَّرْ[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ أنَّ الإنسانَ قد يكون عدوًّا لنفسِه، كما أنَّ أقرَبَ النَّاسِ قد يكون عدوًّا له؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، فلْيَحذَرْ كلُّ إنسانٍ نَفْسَه؛ فإنَّها عدوُّه[٣].

٤- تحريم رميِ الغيرِ بما يفعله الإنسانُ من خطيئةٍ، والتَّحذيرُ منه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[٤].

٥- الحذرُ من شَهادة الزُّورِ والبُهتان؛ فصاحبُ البهتان مذمومٌ في الدُّنيا أشدَّ الذَّمِّ، ومعاقَبٌ في الآخرةِ أشدَّ العقابِ؛ يُستفادُ ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[٥].

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ عملُ السُّوءِ عند الإطلاقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٦).

يشمَلُ سائرَ المعاصي، الصَّغيرة والكبيرة، وسُمِّي (سوءًا)؛ لكونه يسُوءُ عاملَه بعقوبَتِه، ولكونِه في نفْسِه سيِّئًا غيرَ حسَنٍ، وكذلك ظُلمُ النَّفسِ عند الإطلاقِ يشمَلُ ظُلمَها بالشِّرك فما دونه، ولكنْ عند اقترانِ أحدِهما بالآخَرِ قد يُفسَّرُ كلُّ واحدٍ منهما بما يُناسِبُه، فيُفسَّرُ عملُ السُّوءِ هنا بالظُّلم الَّذي يسُوء النَّاسَ، وهو ظُلمُهم في دمائِهم وأموالِهم وأعراضِهم، ويُفسَّرُ ظُلمُ النَّفس بالظُّلم والمعاصي الَّتي بين اللهِ وبين عبده[١].

٢- قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ سُمِّيَ ظُلْمُ النَّفْسِ «ظُلْمًا»؛ لأنَّ نَفْسَ العبد ليست مِلْكًا له يتصرَّفُ فيها بما يشاء، وإنَّما هي مِلْكٌ لله تعالى، قد جَعَلَها أمانةً عند العبدِ، وأَمَرَه أن يُقِيمَها على طريقِ العَدْلِ؛ بإلزامِها للصِّراطِ المستقيمِ عِلْمًا وعمَلًا، فيسعى في تعليمِها ما أُمِرَ به، ويسعى في العَمَل بما يجب؛ فسَعْيُه في غير هذا الطَّريقِ ظُلمٌ لنَفْسِه، وخيانةٌ وعدولٌ بها عن العدل، الذي ضِدُّه الجَوْر والظُّلْم[٢].

٣- قول الله تعالى: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: يتحقَّقُ ذلك، فاستُعِيرَ فعل (يجد) للتَّحقُّق؛ لأنَّ فعل (وَجَد) حقيقتُه الظَّفَرُ بالشَّيءِ ومشاهدتُه، فأُطلِقَ على تحقيقِ العفْوِ والمغفرة[٣].

٤- بيان عَدْلِ الله وحَكْمتِه؛ أنَّه لا يعاقِبُ أحدًا بذَنبِ أحدٍ، ولا يعاقِبُ أحدًا أكثرَ من العقوبة النَّاشئةِ عن ذَنبه؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، أي: له العِلمُ الكاملُ والحكمة التَّامَّةُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٤).

(٢) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١).

٥- قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا ﴾ قدَّم البُهتَ؛ لقُربه من قوله: ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا ﴾، ولأنَّه ذنبٌ أفظعُ مِن كَسْبِ الخطيئةِ أو الإثمِ[١].

٦- أنَّ السَّيِّئاتِ تتضاعَفُ بتعدُّدِ أوصافِها؛ لقوله: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾، وهذا هو الواقعُ، وهو العدلُ؛ فمَن قذَف قريبًا له، ومَن قذَف أجنبيًّا عنه، كلاهما قد قذَفَ، لكنِ انضَمَّ إلى قذفِ القريبِ قطيعةُ الرَّحِم، فتكونُ هذه السَّيِّئةُ متضاعِفةً، فلا جرمَ أن يتضاعَفَ إثمُها؛ لأنَّ الأحكامَ مرتَّبةٌ على أوصافِها[٢].

٧- إثباتُ الرَّحمة الخاصَّة، فإنَّ قوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ رحمةٌ خاصَّةٌ لم تكُنْ لغيرِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم[٣].

٨- بيانُ فضلِ اللهِ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّه محتاجٌ لفضلِ اللهِ ورحمتِه، ولولا فضلُ الله عليه ورحمتُه لحصَل له ما يحصُلُ لغيره؛ لقوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ... ﴾[٤].

٩- أنَّ مَن أراد إضلالَ الخَلْقِ، فإنَّه لا يضُرُّ إلَّا نفسَه؛ لقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾؛ لأنَّهم عَمُوا في الواقعِ عن الحقِّ، ودَعَوُا النَّاسَ إلى الباطل، فاكتسَبوا إثمًا إلى آثامِهم، فأضَلُّوا أنفسَهم بذلك[٥].

١٠- ليسَ كلُّ ظُلْمٍ يضرُّ المظلومَ، بل قدْ لا يَضرُّه ظُلمُه شيئًا وإنْ قصَدَ الظالمُ إضرارَه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٠).

مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾، ومعلومٌ أنَّ ذلِك مِنْ ظُلمِهم، ومع هذا فلا يَضرُّونَه، وكقوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾[١].

١١- إثباتُ علوِّ الله؛ لقوله: ﴿أَنْزَلَ﴾، والنُّزولُ يكون مِن أعلى[٢].

١٢- أنَّ القرآنَ (كتابٌ)، على وزن (فِعَال) بمعنى (مفعول)، وهو مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظ، ومكتوبٌ في الصُّحُف الَّتي بأيدي الملائكةِ الكِرام البَرَرة، ومكتوبٌ في المصاحف الَّتي بأيدينا، قال جلَّ وعلا: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[٣].

١٣- فضيلةُ العِلم؛ لأنَّ الله امتَنَّ به على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيث قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾، فَذَكَر سبحانه فضْلَه ونعْمَتَه على خَاتَمِ أنبيائه وَرُسُلِه بما آتاه مِن العِلْم، ولا شكَّ أنَّ العِلمَ أشرفُ ما يُلَقَّاهُ الإنسانُ بعد الإسلامِ؛ فهو خيرٌ مِن المال، وخيرٌ من الأولادِ، وخيرٌ من الأزواجِ، وخيرٌ من الدُّنيا كلِّها[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾: فيه مبالغةٌ في الغُفرانِ، كأنَّ المغفرةَ والرَّحمة مُعدَّانِ لطالبِهما، مُهيَّآن له، متى طلَبهما وجَدَهما، فلا يتخلَّفُ عنه شمولُ مَغفرتِه ورحمتِه زمَنًا. وصِيغةُ ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فيها مبالغةٌ، أي: كثيرَ الغُفران، وكثيرَ الرَّحمةِ؛ وذلك كِناية عن العُمومِ والتَّعجيل؛ فهو عامٌّ المغفرةِ

(١) ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٢٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٣).
(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٣).

والرَّحمة، فلا يخرج منها أحدٌ استغفَره وتابَ إليه[١].

٢- **قوله:** ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

- في لفظةِ (على) في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ دلالةٌ على استعلاءِ الإثمِ على فاعلِه، واستيلائِه وقَهْرِه له[٢].

- قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: التَّعبيرُ بصيغةِ المبالغةِ (فعيل)؛ للدَّلالةِ على المبالَغةِ في الوصْف[٣].

٣- **قوله:** ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

- لفظ (احتَمَل) في قوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا﴾ أبلغُ من (حمَل)؛ لأنَّ افتَعل فيه للتَّسبُّب، كاعْتَمَل[٤]، وأيضًا في (احتمل) تمثيلٌ لحالِ فاعلِه بحالِ عَناءِ الحاملِ ثِقلًا[٥].

- وفي قوله: ﴿بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ﴿مُّبِينًا﴾ صفةٌ لقولِه ﴿إِثْمًا﴾ أي: بيِّنًا فاحشًا، وقد اكتُفِيَ في بيانِ عِظَمِ البُهتانِ بالتنكيرِ التفخيميِّ[٦].

٤- **قول الله تعالى:** ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ (مِنْ) تدُلُّ على العمومِ نصًّا، أي: لا يضرُّونَك قَليلًا ولا كثيرًا[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٠).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦١).

الآيات (١١٤ - ١٢٢)

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿نَّجْوَاهُمْ﴾: أي: المُتَناجِينَ مِن النَّاسِ، وَتَكُون نجْوَى خَرَجَت مَخْرَجَ جَرْحَى ومَرْضَى، أو يكون المراد بـ ﴿نَّجْوَاهُمْ﴾ تَناجِيهم، وأصل النَّجاءِ: الانفصالُ مِنَ الشَّيءِ؛ يُقال: ناجيتُه، أي: سَارَرْتُه، وأصلُه: أنْ تخلوَ به في نَجوةٍ مِن الأرضِ[1].

﴿مَعْرُوفٍ﴾: المعروفُ كلُّ ما كان معروفًا فِعْلُه، جميلًا مستحسَنًا غيرَ مستقبَحٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٢- ٧٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

عند أهل الإيمان، و(عَرَف) في الأصل يدلُّ على السُّكونِ والطُّمأنينةِ، ومنه العُرف والمعروف؛ سُمِّي بذلك؛ لأنَّ النُّفوسَ تسكُنُ إليه[١].

﴿يُشَاقِقِ﴾: يخالِفْ، أو صار في شقٍّ غيرِ شقِّ أوليائه، والشِّقاقُ: المخالَفة، وأصل (شق): يدلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ[٢].

﴿وَنُصْلِهِۦ﴾: أي: نَشْوِهِ بها، وصَلَى النارَ: أي: دخَل فيها، وأصل الصَّلْيِ: الإيقادُ بالنَّار، ويُقال: صَلِيَ بالنَّار وبكذا، أي: بَلِيَ بها[٣].

﴿مَّرِيدًا﴾: أي: ماردًا، يعني: عاتيًا، قد عرِيَ من الخيرِ وظَهَر شرُّه، من قولهم: شجرة مَرْدَاء، إذا سقَط ورقها، فظهَرَتْ عِيدانُها، ومنه غلامٌ أمردُ: إذا لم يكُنْ في وجهه شَعَرٌ، والماردُ والمَريدِ: كلُّ عاتٍ مِن شَياطينِ الجِنِّ والإنسِ، وأصل (مرد): يدلُّ على تَجريدِ الشَّيءِ مِن قِشْره، أو ما يَعْلوه من شَعرِه[٤].

﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾: أي: يُقطِّعُونها ويَشقُّونها، والبَتْكُ: القَطْعُ، ويُستعملُ في قَطْعِ الأعضاءِ والشَّعرِ؛ يُقال: بتَك شَعرَه وأُذنَه[٥].

﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾: يُشوِّهون خَلْقَه بالخِصاءِ، وقطعِ الآذانِ، وفَقْءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٩- ٤٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣).

(٥) يُنظر: ((العين)) للخليل (٥/ ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

العيون، ونَتْفِ اللِّحيةِ، أو: يُبدِّلون حُكمَه ودِينَه، وأصل (غير): اختلافُ شيئينِ، والخَلْقُ أصله: التَّقديرُ المستقيم، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيء من غير أصلٍ ولا احتذاءٍ[١].

﴿غُرُورًا﴾: الغرورُ: الباطل، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، يقال: غَرَرْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَهُ، ونِلتُ منه ما أريدُه، وأصل ذلك من الغَرِّ، وهو الأَثَرُ الظَّاهر من الشَّيء، والغَرور: كلُّ ما يغُرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطانٍ[٢].

﴿مَحِيصًا﴾: أي: مَعْدلًا ومهربًا، وحاص عن الشَّيء: أي: عدَل، وأصل (المَحْص): تخليص الشَّيء، وتنقيتُه ممَّا فيه من عيبٍ[٣].

﴿قِيلًا﴾: قولًا ومقالًا، وأصل القول من النُّطق، ويستعمل على أوجهٍ كثيرة[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾: في هذا الاستثناءِ قولانِ، أحدُهما: أنَّه متَّصلٌ[٥]، على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٣) و(٤/ ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٦- ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣- ٦٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧، ٨٨٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤، ٣٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠، ٧٣٩).

(٥) أي: أنَّ ما بعدَ أداةِ الاستثناءِ (المستثنى) مِن جنسِ ما قَبْلَها (المستثنى منه)، مثال ذلك حضَر الطلابُ إلَّا محمدًا. وما حضر الطلابُ إلَّا محمدٌ - ومحمَّدًا.

المرادَ بالنَّجْوَى: القومُ الَّذين يَتناجَون؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧]، أي: مُتناجُون، وهو مِن إطلاقِ المصدرِ على الَّذي صدَرَ منه، نحو: رجلٌ عَدْلٌ، أي: عادِل. أو على أنَّ في الكَلامِ حذْفَ مُضافٍ، تقديرُه: إلَّا نَجْوَى مَنْ أَمَرَ؛ فعَلَى هذا يَجوزُ أنْ تكونَ ﴿مِّن﴾ في موضعِ جرٍّ بدلًا مِن ﴿نَّجْوَىٰهُمْ﴾، وأنْ تكونَ في مَوضِعِ نَصْبٍ على أَصلِ بابِ الاستثناءِ. والثَّاني: أنَّ الاستثناءَ مُنقطِعٌ[1]، وعليه فالمرادُ بالنَّجْوَى هنا المصدرُ فقط كالدَّعوى، و﴿مَنْ﴾ للأشْخاصِ، وليستْ مِن جِنسِ التَّناجِي، وعليه فـ﴿مَنْ﴾ في موضِع نصْبٍ على الاستِثْناءِ[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لا خيرَ في كثيرٍ ممَّا يُسِرُّه النَّاسُ بينهم من الكلامِ، إلَّا ما كان مِن أمرٍ بالتَّصدُّق، أو أمرٍ بمعروف، أو إصلاحٍ بين النَّاس، ومَن يفعلْ ذلك مخلِصًا لله فسوف يُعطيه اللهُ ثوابًا عظيمًا.

ثمَّ توعَّد سبحانه وتعالى مَن يخالفُ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويعاندُه مِن بعدِ ظهور الحقِّ له، ويتَّبِعُ خلافَ طريق المؤمنين، وينهَجُ غيرَ نهجِهم؛ توعَّده سبحانه بأن يَكِلَه إلى ما اختار لنفسِه، ويُحسِّنَه له استدراجًا له، ويُحرِقَه بنارِ جهنَّمَ، وقبُحَتْ جهنَّمُ مصيرًا.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّه لا يغفِرُ لمن أشرَكَ به، ومات على ذلك، ويغفِرُ ما دون الشِّرك لمن يشاءُ سبحانه وتعالى، ومَن يُشرِكْ بالله فقد ضلَّ عن الحقِّ ضلالًا بعيدًا.

ثمَّ بيَّن أنَّ الذين يُشْرِكونَ بالله ما يَدْعُون إلَّا أصنامًا بمسمَّيَاتٍ مؤنَّثةٍ، وما

(١) أي: أنَّ ما بعدَ أداة الاستثناءِ (المستثنى) ليس مِن جنس ما قَبْلَها (المستثنى منه)، نحو: ما وصل المسافرون إلا سفينةً- بالنصب فقط عند غير بني تميم.

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٨٩).

يَدْعون في حقيقةِ الأمر إلَّا شيطانًا رجيمًا، متمرِّدًا على خالقِه جلَّ وعلا، قد طرَده اللهُ مِن رحمتِه، فقال لربِّه حينها معزِّزًا قولَه بالقَسَمِ: إنَّه سيتَّخذُ مِن عباده جزءًا معلومًا مقدَّرًا، يكونون أولياءَه، وسيُضِلُّهم عن الطَّريقِ المستقيم، ويقذِفُ في أنفسِهم أمانيَّ يعِدُهم بها، تكونُ سببًا في ابتعادِهم عن التَّوحيدِ والطَّاعة، وسيأمُرُهم بتقطيعِ آذانِ الأنعامِ، وتغييرِ خَلْقِ الله وفِطرتِه، ثمَّ أخبَر تعالى محذِّرًا أنَّ مَن يتَّخذ الشَّيطانَ وليًّا مِن دون الله فقد خسِر خسرانًا ظاهرًا واضحًا؛ فإنَّ الشَّيطانَ يعِدُ أولياءَه، ويقذِفُ في نفوسهم الأمانيَّ، وما وعودُه وأمانِيُّه إلَّا باطلٌ وخداعٌ، أولئك الَّذين يتَّخذونه أولياءَ مصيرُهم جهنَّمُ، ولا يجِدون عنها مَهربًا.

وأمَّا الَّذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، فسيُدخِلُهم اللهُ جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، ماكثين فيها أبدًا، وَعْدَ اللهِ الَّذي وعدهم به، ووعدُه الحقُّ، ولا أحدَ أصْدَقُ منه جلَّ وعلا قولًا وخبرًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا لم تَخلُ الحوادثُ الَّتي أشارت إليها الآيُ السَّابقةُ، ولا الأحوالُ الَّتي حذَّرَت منها؛ مِن تناجٍ وتحاورٍ، سرًّا وجهرًا، لتدبيرِ الخيانات وإخفائِها وتبييتِها؛ لذلك كان المقامُ حقيقًا بتعقيبِ جميعِ ذلك بذِكْرِ النَّجوى وما تشتملُ عليه؛ لأنَّ في ذلك تعليمًا وتربيةً وتشريعًا[1]، فقال تعالى:

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٨).

أي: لا خيرَ في كثيرٍ من الكلام الَّذي يُسِرُّه النَّاس بينهم؛ إمَّا لأنَّه لا فائدةَ فيه؛ كفضولِ الكلام المباح، وإمَّا لكونِه شرًّا ومَضرَّةً محضةً؛ كالكلام المُحرَّمِ بجميعِ أنواعه[١].

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾.

أي: عَدَا الأمْرَ بالتَّصدُّقِ، سواءٌ كان بالمال أو بالعِلم، أو بأيِّ نفعٍ كان[٢].

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾.

أي: وعَدَا الأَمْرَ بالمعروفِ، وهو كلُّ ما أمَر الله تعالى به، أو ندَب إليه من أعمالِ البرِّ والخيرِ والإحسانِ والطَّاعة، وكلُّ ما عُرِف في الشَّرعِ والعَقلِ حُسْنُه[٣].

﴿أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

أي: وعَدَا الأمرَ بالإصلاحِ بين المتنازعَيْنِ والمتخاصمَيْنِ؛ ليزولَ ما بينهما من عداوة وبغضاء، ويتراجعا إلى ما فيه الأُلفةُ، واجتماعُ الكلمة على ما أذِن اللهُ تعالى وأمَر به[٤].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ومَن يأمُرْ بصدقةٍ أو معروف، أو يُصلِحْ بين النَّاس؛ طلبًا لرضَا الله تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٨).

بفعله هذا، مخلصًا له فيه، ومحتسبًا ثوابَه عند الله عزَّ وجلَّ[١].

﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: فسوف يُعطيه اللهُ تعالى- جزاءً لِمَا فعَل من ذلك- ثوابًا كثيرًا واسعًا، لا يعلَمُ قدرَه سواه[٢].

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رتَّب الله تعالى الثَّوابَ العظيم على الموافَقةِ، وبيَّن وعدَه بالجزاء الحسَنِ للَّذين يتناجَوْن بالخيرِ، ويبتغونَ بنفعِ النَّاس مرضاةَ الله عزَّ وجلَّ- رتَّب العقابَ الشَّديدَ على المخالَفة والمشاقَقَة، ووكَل المخالِفَ إلى نفسِه[٣] فقال تعالى:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾.

أي: ومَن يُخالِفِ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويعانِدْه فيما جاء به، سالكًا غيرَ طريقِ الشَّريعةِ الَّتي جاء بها الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فصار في جانبٍ، والشَّرعُ في جانبٍ آخرَ[٤].

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨١-٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٦).

أي: وحَصَلتْ منه تِلك المُشاقَّةُ عن عَمْدٍ، بعدَما ظهَر له الحقُّ واتَّضَح[١].

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ومَن يتَّبعْ طريقًا غيرَ طريقِ المؤمنين في عَقائدِهم وأعمالِهم، ويَسلُكْ منهجًا غيرَ منهجِهم[٢].

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾.

أي: إذا سلَك هذه الطَّريقَ نَتخلَّى عنه، ونتركُه إلى ما اختاره لنفْسِه، ونُحسِّنُه له في صدرِه استدراجًا له[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٣-٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٦).

قال ابنُ كثير: (قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ملازِمٌ للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنصِّ الشارع، وقد تكون لِما أجمعت عليه الأمَّة المحمَّدية، فيما علم اتفاقُهم عليه تحقيقًا، فإنه قد ضُمِنت لهم العصمةُ في اجتماعهم من الخطأ، تشريفًا لهم، وتعظيمًا لنبيهم صلَّى الله عليه وسلَّم، وقد وردت في ذلك أحاديثُ صحيحة كثيرة، ... ومن العلماء مَن ادَّعى تواتر معناها، والذي عوَّل عليه الشافعيُّ رحمه الله، في الاحتجاج على كونِ الإجماع حجَّةً تحرُمُ مخالفتُه: هذه الآيةُ الكريمة، بعد التروِّي والفكر الطويل، وهو مِن أحسنِ الاستنباطات وأقواها، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك، واستبعد الدلالةَ منها على ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢-٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٦-٢٢٧).

أي: ونُدخِلْهُ نارَ جهنَّمَ، ونُحرِقْه بها[١].

﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

أي: وما أسوَأَها مِن مرجعٍ ومآلٍ يصيرُ إليه[٢]!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا توعَّد اللهُ تعالى على مُشاقَقةِ الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واتِّباعِ غيرِ سبيلِ المؤمنينَ، وكان فاعلُ ذلك بعد بيانِ الهدى هم أهلَ الكتابِ، ومَن أضلُّوه من المنافقينَ، فردُّوهم إلى ظلامِ الشِّرك والشَّكِّ- حسُنَ إيلاؤُه ببيانِ خطورةِ الشِّرك؛ تعظيمًا لأهلِ الإسلام، وحثًّا على لزوم هديِهم، وذمًّا لِمَن نابَذهم، وتوعُّدًا له[٣]، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يغفِرُ لِمَن أشرَك به، ومات على شِرْكِه[٤].

﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

أي: وما دونَ الشِّرك من الذُّنوبِ والمعاصي فهو تحت المشيئةِ؛ إن شاء اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٣).

غَفَرَه برحمتِه وحِكمتِه، وإنْ شاء عذَّبَ عليه بعَدلِه وحكمتِه[١].

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

أي: ومَن يجعَلْ لله تعالى شريكًا، فقد سلَك غيرَ طريقِ الحقِّ، وانحرَف عن سواءِ السَّبيلِ، وبَعُدَ عن الصَّوابِ بُعدًا شديدًا[٢].

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾.

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾.

أي: ما يَدْعو هؤلاء المشرِكون مِن دونِ الله تعالى إلَّا أوثانًا وأصنامًا مسمَّياتٍ بأسماءِ الإناثِ؛ كاللَّات والعُزَّى ومَنَاةَ، والمؤنَّثُ دون المذكَّرِ في قوَّتِه ومرتبتِه ومقامِه؛ ممَّا يدلُّ على نقصِ المسمَّيات بتلك الأسماءِ، وفَقْدِها لصفات الكمال، فكيف تُتَّخذُ آلهةً تُعبدُ[٣]؟!

﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾.

أي: وما يعبُدُ هؤلاء الَّذين يعبُدون هذه الأوثانَ مِن دونِ الله تعالى- في حقيقةِ الأمر- إلَّا شيطانًا متمرِّدًا على الله سبحانه، هو الَّذي أمَرهم بذلك، وزيَّنه لهم فأطاعوه، مع أنَّه عدوُّهم الَّذي يريدُ إهلاكَهم، ويسعى في ذلك بكلِّ ما يقدِرُ عليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩٠-٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٣-٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٥).

وقيل المعنى: إن يَدْعون إلا شيئًا مثلَ الإناث، لا يدفع عن نفسِه، فكيف يدفع عن غيره، وعلى هذا القول يدخلُ في ذلك الأصنامُ المُذكَّرة، مثل: هُبَلُ؛ فهُبَلُ مُذكَّر، ومع ذلك يُعبد من دون الله. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي))

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ ﴾.

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾.

أي: قد أَقصاه اللهُ تعالى وأبعَدَه، وطرَدَه مِن رحمتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [ص: ٧٧-٧٨].

وكما أبعَدَه اللهُ تعالى من رحمتِه، يسعى في إبعاد العبادِ عن رحمة الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا أخبَر اللهُ عن سعيِه في إغواءِ العباد، وتزيينِ الشَّرِّ لهم والفسادِ[2]؛ فقال تعالى:

﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾.

أي: وقال الشَّيطانُ لربِّه حين لَعَنَه: واللهِ لأتَّخذَنَّ مِن عبادِك جزءًا معلومًا مقدَّرًا، أجعَلُهم أولياءَ لي، أتولَّاهم ويتولَّوْنَني، فيكونون من حزبِي أصحابِ السَّعيرِ[3].

كما قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

(ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٥-٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩١-٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٧-٢٣٨).

قال ابن جرير: (وإنَّما أخبر جلَّ ثناؤُه في هذه الآية بما أخبَر به عن الشَّيطان من قِيلِه: ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾؛ ليعلَمَ الذين شاقُّوا الرَّسول من بعد ما تبيَّن لهم الهدى أنَّهم من نصيبِ الشَّيطان الَّذي لَعنه اللهُ المفروضِ، وأنَّه ممَّن صدَّق عليهم ظنَّه). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩٢).

وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

بعد أن أقسَمَ الشَّيطانُ أنَّه سيتَّخذُ نصيبًا مفروضًا من العِباد، ذكَر ما يعتزمُ فعلَه بهم بقوله[1]:

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾.

أي: واللهِ لأَصُدَّنَّهم عن طريق الحقِّ إلى سُبُلِ الضَّلالِ؛ ضلالٍ في العِلمِ، وضلالٍ في العمل[2].

﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾.

أي: واللهِ لأجعَلَنَّ في نفوسِهم من الأمانيِّ الَّتي أعِدُهم بها، ما يُزيغُهم عن توحيدِك وطاعتِك؛ كأن يُزيِّنَ لهم ما هم فيه من الضَّلالِ، مع تمنِّيهم أن ينالوا ما ناله المهتدونَ، وكأن يُمنِّيَهم بطولِ العمرِ، مع أمرِهم بالتَّسويفِ والتَّأخيرِ في التَّوبةِ حتَّى يَبغَتَهم الموتُ[3].

﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٨).

أي: واللهِ لآمُرَنَّهم بأن يُقطِّعوا آذانَ الأنعامِ من الإبلِ والبقرِ والغَنَم علامةً على أنَّها محرَّمةٌ -قيل: يُقطِّعونها نُسُكًا في عبادةِ الأوثانِ- وهذا يقتضي تحريمَ ما أحَلَّ اللهُ، أو تحليلَ ما حرَّمه[١].

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولآمُرَنَّهم بتغييرِ خِلقتِهم الظَّاهرةِ بالوَشْمِ، والنَّمْصِ، والتَّفلُّجِ للحُسنِ، وغير ذلك[٢]، وتغيير خِلقتِهم الباطنة، فتتغيَّرُ فِطرتُهم الَّتي فُطِروا عليها من التَّوحيدِ إلى الشِّركِ، ومِن اليقينِ إلى الشَّكِّ، ومِن قَبولِ الحقِّ والعملِ به إلى تركِه، والإعراضِ عنه، والتَّمرُّدِ عليه[٣].

عن عبدِ اللهِ بن مسعود رضِي اللهُ عنه، قالَ: ((لعنَ اللهُ الواشمَاتِ والمُتَوشِّماتِ[٤]، والمُتَنَمِّصَات[٥] .....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩٢-٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٠).
قال الواحدي: (قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ البَتْك: القطع، والتبتيك: التقطيع، وهو في هذا الموضع: قطعُ آذانِ البَحِيرة عند جميع أهل التَّفسير). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٢-٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٠-٢٤١).
قال السعديُّ: (وذلك يتضمَّن التَّسخُّطَ من خِلقتِه، والقدحَ في حكمته، واعتقاد أنَّ ما يَصنعون بأيديهم أحسنُ مِن خِلقةِ الرَّحمن، وعدم الرِّضا بتقديره وتدبيره) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٢-٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٠-٢٤١).

(٤) الوَشْم: أن يُعرَزَ الجِلدُ بإبرة، ثم يُحشَى بكُحل أو نيل، فيَزرقَّ أثرُه أو يخضرَّ. وقد وَشَمَتْ تَشِمُ وَشْمًا فهي واشمةٌ. والمستوشِمة والموتشِمة: التي يُفعَل بها ذلِك. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٨٩).

(٥) النَّمْص: نتفُ الشَّعر. والنَّامِصَةُ: الَّتِي تَنْتِف الشَّعَر مِن وجهِها. والمُتَنَمِّصَةُ: الَّتِي تأمُر مَن يَفْعل بِها ذلك. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٠٦٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٩).

والمُتَفَلِّجَاتِ للحُسْنِ[١]، المُغَيِّراتِ خَلْقَ اللهِ، فبلغَ ذلكَ امرأةً من بني أسدٍ يُقالُ لها: أمُّ يعقوبَ، فجاءَت فقالت: إنَّهُ بلغَني أنَّكَ لعَنْتَ كيْتَ وكيْتَ، فقالَ: وما ليَ لا ألعَنُ مَن لعنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومَنْ هوَ في كتابِ اللهِ، فقالت: لقدْ قرأتُ ما بينَ اللَّوحينِ، فمَا وجدْتُ فيه ما تقولُ، قالَ: لئنْ كنتِ قرَأتِيهِ لقد وجَدْتِيهِ، أمَا قرأتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾، قالتْ: بلى، قالَ: فإنَّه قدْ نهَى عنه، قالت: فإنِّي أرَى أهْلَكَ يفعَلونَهُ، قالَ: فاذْهَبي فانْظُرِي، فَذَهَبتْ فَنَظَرتْ، فلمْ تَرَ مِن حاجَتِها شيئًا، فقال: لو كانَتْ كذَلِك مَا جَامَعَتْنا))[٢].

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حكَى عن الشَّيطانِ دَعاويَه في الإغواءِ والضَّلالِ، حذَّر النَّاسَ عن متابعتِه[٣]، فقال:

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ومَن يجعَلِ الشَّيطانَ وليًّا لنفسِه، ونصيرًا دون الله تعالى، فيتَّبِعْه ويُطِعْه[٤].

﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

أي: فقد هلَك في الدُّنيا والآخِرةِ هلاكًا ظاهرًا، يُبِينُ عن عطَبِه وهلاكِه،

---

(١) التفلُّج: التشقُّق، والفَلَج بالتحريك: فُرْجة ما بين الثنايا والرَّبَاعيات، والفرق: فُرجة بين الثنيتين. و(المتفلِّجات للحسن)، أي: النِّساء اللاتي يفعلن ذلك بأسنانهن؛ رغبةً في التحسين. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٢٠٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٦٨).

(٢) رواه البخاري (٤٨٨٦)، واللفظ له، ومسلم (٢١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤١).

فيحصُلُ له الشَّقاءُ الأبديُّ، ويفُوتُه النَّعيمُ السَّرمديُّ[١].

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿يَعِدُهُمْ﴾.

أي: يعِدُ الشَّيطانُ أولياءَه بوعودٍ باطلةٍ لإضلالِهم؛ كأنْ يعِدَهم بأن يكونَ لهم نصيرًا ممَّن أرادهم بسوءٍ، وكأن يعِدَهم بأنَّهم إذا أنفَقوا في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ افتقَروا، وإن جاهَدوا في سبيل الله تعالى قُتِلوا[٢].

كما قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾.

أي: ويُرجِّيهم، ويَفتَحُ أمامَهم الآمالَ الكاذبةَ، والأمانيَّ الباطلةَ؛ كأنْ يُمنِّيَهم بالظَّفَرِ على أعدائِهم، وكأن يُمنِّيَهم بأنَّهم هم الفائزونَ في الدُّنيا والآخرةِ[٣].

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

أي: وما يعِدُ الشَّيطانُ أولياءَه إلَّا باطلًا، وأوهامًا خادعةً لا حقيقةَ لها[٤].

فإنَّه إذا حَصْحَصَ الحقُّ، وصاروا إلى الحاجةِ إليه، قال لهم عدوُّ الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٣-٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤١-٢٤٢).
قال ابنُ جرير: (لأنَّ الشَّيطان لا يملِكُ له نصرًا من الله إذا عاقَبه على معصيته إيَّاه في خلافِه أمرَه، بل يخذُلُه عند حاجتِه إليه) ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٣- ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وكما قال للمُشركين ببدرٍ، وقد زيَّن لهم أعمالَهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وحَصْحَصَ الحقُّ، وعايَن جِدَّ الأمرِ، ونزولَ عذابِ الله بحزبِه، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فصارَتْ عِداتُه إيَّاهم عند حاجتِهم إليه غرورًا، ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾[(١)] [النور: ٣٩].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الَّذين اتَّخَذوا الشَّيطانَ وليًّا مِن دونِ الله تعالى، مصيرُهم الَّذي يَصِيرون إليه، ومآلُهم ومستقَرُّهم يومَ حسابهم: نارُ جهنَّمَ[(٢)].

﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾.

أي: ولا يَجِدون عن جَهنَّمَ ملجأً ولا مفرًّا، ولا خَلاصًا منها، بل هم خالِدون فيها[(٣)].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٦).

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى ما للكفَّار ترهيبًا، أتبَعَه ما لغيرِهم ترغيبًا، فكما رتَّبَ تعالى مصيرَ مَن كان تابعًا لإبليس إلى النَّار؛ لإشراكِه وكفرِه، وتغييرِ أحكامِ الله تعالى، رتَّب هنا دخولَ الجنَّةِ على الإيمانِ وعملِ الصَّالحاتِ[1]، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: إنَّ المؤمنين باللهِ تعالى وملائكتِه وكُتُبِه ورسُلِه واليومِ الآخِرِ، والقَدَرِ خيرِه وشرِّه، على الوجهِ الَّذي أُمِروا به؛ عِلمًا وتصديقًا وإقرارًا، الَّذين يعمَلون الأعمالَ الصَّالحة مِن واجباتٍ ومستحبَّاتٍ على القلب، واللِّسانِ، وبقيَّةِ الجوارحِ، يَعمَلونها خالصةً لله عزَّ وجلَّ، وعلى هَدْيِ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ[2].

﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: سوف يُدخِلُهم اللهُ تعالى يومَ القيامةِ- جزاءً لهم- دارَ النَّعيمِ، الَّتي فيها ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ، تَجري من تحت أشجارِها وقُصورِها أنهارٌ متنوِّعة[3].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

أي: ماكثين فيها أبدًا، بلا زوالٍ ولا انتقالٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤-٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٧-٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤-٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٥-٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾.

أي: هذا وعدٌ مِن الله تعالى واقعٌ لا محالةَ، لا كعِدَةِ الشَّيطانِ الكاذبةِ الَّتي وعَدَها أولياءَه[١].

﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾.

أي: لا أحدَ أصدَقُ مِن الله تعالى قولًا وخبرًا[٢].

الفَوائِد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ فضيلة الصَّدَقةِ، وجهُ ذلك: أنَّه إذا كان الآمِرُ بالصَّدقةِ في أمرِه خيرٌ، ففاعلُ الصَّدقةِ مِن بابِ أَوْلى[٣].

٢- فضيلةُ الأمر بالمعروف؛ حيث قرَنه اللهُ تعالى بالأمر بالصَّدقةِ؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ﴾[٤].

٣- فضيلةُ الأمرِ بالإصلاحِ بين النَّاس؛ قال سبحانه: ﴿أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾[٥].

٤- الإصلاحُ لا يكونُ إلَّا بين مُتنازعَيْنِ مُتخاصمَيْنِ، والنِّزاعُ والخِصامُ والتَّغاضُبُ يوجِبُ مِن الشَّرِّ والفُرقةِ ما لا يمكِنُ حصرُه؛ فلذلك حثَّ الشَّارعُ على الإصلاحِ بين النَّاسِ في الدِّماءِ والأموالِ والأعراضِ، بل وفي الأديانِ فقال

السعدي)) (ص: ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥١-٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٦-٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الله تعالى: ﴿أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾[١].

٥- وجوبُ العناية بالإخلاصِ؛ فمع أنَّ هذه المذكوراتِ في قوله: ﴿أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ أعمالٌ في غاية الشَّرفِ والجلالةِ، والخيرَ وصفٌ ثابتٌ لها؛ لِمَا فيها من المنافعِ؛ ولأنَّها مأمورٌ بها في الشَّرعِ- إلَّا أن الثَّوابَ لا يحصُلُ إلَّا عن فعلِها ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ، ولا ينتفعُ بها المرءُ إلَّا إذا أتى بها لوجه الله؛ فقال: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾، فأمَّا إذا أتى بها للرِّياءِ والسُّمعةِ انقلَبَتْ فصارت مِن أعظمِ المفاسدِ. وأيضًا فكمالُ الأجرِ وتمامُه بحسَب النِّيَّةِ والإخلاص؛ فلهذا ينبغي للعبدِ أن يقصِدَ وجهَ الله تعالى، ويُخلِصَ العملَ لله؛ ليحصُلَ له بذلك الأجرُ العظيمُ[٢].

٦- أنَّ الإيمانَ وحده لا يكفي، بل لا بدَّ من عملٍ، وأنَّ العمَلَ وحده لا يكفي، بل لا بدَّ من إيمانٍ، فلا يستحقُّ الجنَّةَ إلَّا مَن جمَع بين الإيمانِ والعملِ الصَّالح، وإذا ذُكِرَ ثوابُ الجنَّةِ مقيَّدًا أو معلَّقًا بالإيمانِ وحده، فالمرادُ بذلك الإيمانُ المتضمِّنُ للعملِ الصَّالحِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٣].

٧- أنَّ العملَ لا ينفَعُ صاحبَه إلَّا إذا كان صالحًا، والعملُ الصَّالحُ هو: الخالصُ الصَّوابُ، أي: ما ابتُغِيَ به وجهُ الله، وكان على شريعةِ الله؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٠). ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قول الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ الصَّدقةُ، والمعروفُ، والإصلاحُ بين النَّاس، هذه الثَّلاثةُ لو لم تُذكَرْ، لدخَلَتْ في القليلِ من نجواهم، الثَّابتِ له الخيرُ، فلمَّا ذُكِرَتْ بطريقِ الاستثناءِ علِمْنا أنَّ نَظْمَ الكلام جرى على أسلوبٍ بديع، فأخرج ما فيه الخيرُ مِن نجواهم ابتداءً بمفهومِ الصِّفة، ثمَّ أُريدَ الاهتمامُ ببعض هذا القليلِ مِن نجواهم، فأُخرِجَ مِن كثيرِ نجواهم بطريقِ الاستثناءِ، فبقي ما عدا ذلك مِن نجواهم- وهو الكثيرُ- موصوفًا بأنْ لا خيرَ فيه[١].

٢- المعروفُ يَندرجُ تحته الصَّدقةُ والإصلاحُ، لكنَّهما جُرِّدا منه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾، واختصَّا بالذِّكر؛ لعِظَمِ أهميَّتِهما[٢].

٣- الحِكمةُ في كونِ النَّجوى مظِنَّةَ الشَّرِّ في الأكثرِ، هي أنَّ العادةَ الغالبةَ وسُنَّةَ الفِطرةِ المتَّبَعة هي استحبابُ إظهارِ الخيرِ، والتَّحدُّثِ به في الملأِ، وأنَّ الشَّرَّ والإثمَ هو الَّذي يخفى، ويُذكَرُ في السِّرِّ والنَّجوى؛ لذا قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾[٣].

٤- قوله: ﴿مَعْرُوفٍ﴾ المعروفُ هو الإحسانُ والطَّاعةُ، وكلُّ ما عُرِف في الشَّرعِ والعقلِ حُسْنُه، وإذا أُطلِق الأمرُ بالمعروف من غيرِ أن يُقرَنَ بالنَّهيِ عن المُنكَرِ، دخَل فيه النَّهيُ عن المُنكَر؛ وذلك لأنَّ تَرْك المنهيَّاتِ مِن المعروفِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٣١).

وأيضًا لا يتمُّ فعلُ الخيرِ إلَّا بترك الشَّرِّ، وأمَّا عند الاقترانِ فيُفسَّرُ المعروفُ بفعل المأمورِ، والمُنكَرُ بترك المَنْهِيِّ[١].

٥- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ بيانُ أنَّ هذه الأمورَ الثَّلاثةَ فيها خيرٌ، وإن فعَلها الإنسانُ مِن غيرِ استحضارِ نيَّةٍ، وجهُه: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا نفى الخيرَ في كثيرٍ من النَّجوى استثنى هذه الثَّلاثةَ، ثمَّ قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢].

٦- أنَّه يصحُّ إطلاقُ الفعلِ على القولِ، وتؤخذُ مِن قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾، مع أنَّ الَّذي حصَل أمرٌ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ[٣].

٧- في قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أنْ يستعجِلَ الثَّوابَ؛ إذ قد يؤخِّرُ اللهُ الثَّوابَ لحكمةٍ؛ ﴿فَسَوْفَ﴾ دَالَّةٌ على التَّسويفِ، وهي تدلُّ أيضًا على التَّحقيقِ؛ ولهذا لا ينبغي استعجالُ ثوابِ اللهِ، وإجابةِ اللهِ تعالى للدُّعاء[٤].

٨- عِظَمُ ثوابِ مَن فعَل ذلك ابتغاءَ وجهِ الله؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لأنَّ تعظيمَ الشَّيءِ مِن العظيمِ يدلُّ على عظَمتِه[٥].

٩- تحريمُ مُشاقَّةِ الرَّسولِ، وأنَّها مِن كبائر الذُّنوب، وجهُه: أنَّه رتَّب عليها العقوبةَ، وهي: التَّخلِّي عنه، وصَلْيُه جهنَّمَ فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢٤).

الرَّسُولَ...﴾[١].

١٠- العُذْرُ بالجهل؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾، فلو أنكر الإنسانُ شيئًا ممَّا جاء به الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام، وصار يُحاجُّ عليه، لكنَّه جاهلٌ، فإنَّه معذورٌ؛ لأنَّ الآيةَ صريحةٌ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾، ودلَّت الآيةُ أيضًا على أنَّه مع التَّردُّدِ لا تقومُ الحُجَّةُ، لكنْ على الإنسانِ أن يتبيَّنَ، فالذين لا يطلُبون التَّبيُّنَ، هم مُفرِّطون بلا شكٍّ، ولا يُعذَرون بجهلِهم[٢].

١١- أنَّ ما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فهو هُدًى ونورٌ، ويتبيَّنُ بأنْ يتأمَّلَ الإنسانُ ما جاء به الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام من العباداتِ والأخلاقِ والمعاملاتِ وغيرِ هذا، فإذا تأمَّله بعِلمٍ وعدلٍ- يعني: كان مُنصِفًا- تبيَّن له الحقُّ، وعرَفَ أنَّ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو الحقُّ؛ قال تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾[٣].

١٢- قول الله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾، فيه دَلالةٌ على أنَّ الإجماعَ حُجَّةٌ؛ لأنَّه لا يُتوعَّدُ إلَّا على مخالَفةِ الحقِّ[٤]؛ فالأمَّةُ إذا أجمَعَتْ على شيءٍ فإنَّه حقٌّ[٥]، و﴿سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مفردٌ مضافٌ، يشمَلُ سائرَ ما المؤمنونَ عليه من العقائدِ والأعمالِ، فإذا اتَّفقوا على إيجابِ شيءٍ أو استحبابِه، أو تحريمِه أو كراهتِه، أو إباحتِه- فهذا سبيلُهم؛ فمن خالَفهم في شيءٍ من ذلك بعد انعقادِ إجماعِهم عليه، فقد اتَّبَع غيرَ سبيلِهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٣).

١٣- مَن لم يُشاقِقِ الرَّسولَ، واتَّبعَ سبيلَ المؤمِنين، بأن كان قصدُه وجهَ اللهِ، واتِّباعَ رسولِه، ولزومَ جماعةِ المسلمين، ثمَّ صدَر منه مِن الذُّنوبِ أو الهمِّ بها ما هو من مقتضياتِ النُّفوس، وغَلَبات الطِّباعِ، فإنَّ اللهَ لا يُولِّيه نفسَه وشيطانَه، بل يتدارَكُه بلُطفِه، ويمُنُّ عليه بحفظِه، ويعصِمُه من السُّوءِ، دلَّ على ذلك مفهومُ قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[1].

١٤- قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾، يدلُّ على أنَّه يجبُ الاقتداءُ بالرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام في أفعالِه؛ إذ لو كان فعلُ الأمَّةِ غيرَ فعلِ الرَّسول لزِم كونُ كلِّ واحدٍ منهما في شقٍّ آخرَ مِن العمل، فتحصُلُ المُشاقَّةُ، لكنَّ المُشاقَّةَ محرَّمةٌ، فيلزَمُ وجوبُ الاقتداءِ به في أفعاله[2].

١٥- أنَّ سبيلَ المؤمنين طاعةُ الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنه قال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ﴾، ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، إذًا: سبيلُ المؤمنين هي عدمُ المُشاقَّة، وهو كذلك، وكلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا، كان أقوى اتِّباعًا لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[3].

١٦- في قول اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ علَّقَ سبحانه الوعيدَ بمُشاقَّةِ الرسولِ واتِّباعِ غيرِ سَبيلِ المؤمنينَ، مع العِلم بأنَّ مُجرَّد مُشاقَّةِ الرسولِ تُوجِبُ الوعيدَ،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣١).

ولكنْ هما متلازمانِ؛ فلهذا علَّقَه بهما، كما يُعلِّقُه بمعصيةِ اللهِ ورسولِه، وهما متلازمانِ أيضًا[١].

١٧- كرَّر اللهُ تعالى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ مرَّتينِ في هذه السُّورة، وكان بين الآيتين ذِكرُ قتلِ النَّفس، وقد قال أهلُ العلم: إنَّ قاتلَ النَّفس له توبةٌ، واستدلُّوا لذلك بأنَّ الله ذكَر قَتْلَ النَّفس بين آيتين كلتاهما تدلُّ على أنَّ ما سوى الشِّرك فاللهُ تعالى يغفِرُه[٢].

١٨- قوله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾، وفي الآية الأولى: ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾، فيؤخذُ مِن مجموعِ الآيتينِ أنَّ المشركَ مُفترٍ ضالٌّ، وهو كذلك؛ لأنَّ دَعْواه أنَّ لله شريكًا كذِبٌ وافتراءٌ عظيمٌ، وكونُه يَبني على هذه الدَّعوى أن يُشرِكَ بالله ويطبق ذلك في عمله يكونُ هذا ضلالًا[٣].

١٩- قول الله تعالى: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنًا مَّرِيدًا﴾، كنى بالدُّعاءِ عن العبادةِ؛ لأنَّ مَن عبَد شيئًا دعاه عند حوائجِه ومصالحه، وما أنسَبَ التَّعبيرَ لعبَّاد الأوثانِ عن العبادة بالدُّعاءِ، إشارة إلى أنَّ كلَّ معبودٍ لا يُدعى في الضَّروراتِ فيسمَع، فعابدُه أجهلُ الجَهَلةِ[٤].

٢٠- أنَّ الطَّاعةَ تُسمَّى دُعاءً وعِبادةً؛ لقوله: ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنًا مَّرِيدًا﴾[٥].

٢١- التَّحذيرُ مِن الانصياعِ لأوامرِ مَن لَعَنَه اللهُ؛ لأنَّ هذه الجملةَ في قوله:

---

(١) ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٤-٣٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٣).

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ كالتَّعليلِ لذَمِّهم حينما عبَدوا الشَّيطانَ[١].

٢٢- إثباتُ القولِ للشَّيطان، وأنَّه يقولُ كما أنَّه يفعَلُ أيضًا، وقد أخبَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يأكل ويشربُ بشِماله؛ فهو يقولُ ويفعلُ ويُمَنِّي ويعِدُ ويضُرُّ[٢].

٢٣- أنَّ نصيبَ الشَّيطانِ من عباد الله مفروضٌ، أي: مُقدَّرٌ لا بدَّ أن يكونَ؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾[٣].

٢٤- أنَّ الشَّيطانَ أقسَم قَسَمًا مؤكَّدًا أن يُضِلَّ هؤلاء النَّصيبَ الَّذين فُرِضوا له، وهذا القَسَمُ له مدلوله، فيتفرَّعُ عليه أنَّه يجبُ علينا أن نحذَرَ مِن وساوسِ الشَّيطانِ؛ لأنَّها كلَّها ضلالٌ؛ لقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾[٤].

٢٥- أنَّ هذا الإضلالَ الَّذي يقعُ مِن الشَّيطانِ لبني آدمَ مصحوبٌ بالأمنِيَّاتِ، بمعنى أنَّه يُدخِلُ عليهم الأمانيَّ، وأنَّهم ينالون خيرًا، وأنَّ المعاصيَ لا تضُرُّهم، وأنَّ التَّوبةَ قريبةٌ، وما أشبَهَ ذلك[٥].

٢٦- قول الله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾، بدأ بالأمرِ بالتَّبتيكِ، وإن كان مندرجًا تحت عمومِ التَّغييرِ لخَلقِ اللهِ؛ ليكونَ ذلك استدراجًا لِمَا يكونُ بعده من التَّغييرِ العامِّ، واستيضاحًا من إبليسَ طواعيتَهم في أوَّلِ شيءٍ يُلقيه إليهم، فيَعلَمَ بذلك قَبولَهم له، فإذا قبِلوا ذلك أمَرَهم بجميع التَّغييراتِ الَّتي يُريدُها منهم؛ كما يفعلُ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٤).

الإنسانُ بمن يقصِدُ خداعَه: يأمُرُه أوَّلًا بشيءٍ سهلٍ، فإذا رآه قد قبِل ما ألقاه إليه من ذلك، أمَره بجميعِ ما يُريدُ منه[١].

٢٧- قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ بتقطيعِ آذانِها كالبحيرةِ والسائبةِ والوصيلةِ والحام، فنبَّه ببعضِ ذلك على جميعِه، وهو نوعٌ من الإضلالِ يقتضي تحريمَ ما أحلَّ الله، أو تحليلَ ما حرَّم الله، ويلتحقُ بذلك مِن الاعتقاداتِ الفاسدةِ، والأحكامِ الجائرةِ، ما هو مِن أكبرِ الضَّلال[٢].

٢٨- في قوله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ الأصلَ في تغيير خَلْقِ الله المنعُ؛ لأنَّه من أوامرِ الشَّيطانِ[٣].

٢٩- أنَّه لولا وعودُ الشَّيطانِ لَمَا عُنِيَ أولياؤُه بنَشْرِ مذاهبِهم الفاسدةِ وآرائِهم وأضاليلِهم، الَّتي يَبتغون بها الرِّفعةَ والجاهَ والمال، وهؤلاء موجودون في كلِّ زمان، ويُعرَفون بمقاصدِهم، وقد دلَّ على هذا ما قبله، ولكنَّه ذكَره ليصِلَ به قولَه: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٤].

٣٠- الأقوالُ الباطلةُ مَصدرُها وعْدُ الشَّيطانِ وتَمنِّيه؛ فإنَّ الشيطانَ يُمنِّي أصحابَها الظَّفَرَ بالحقِّ وإدراكَه، ويَعِدُهم الوصولَ إليه مِن غيرِ طريقِه؛ فكلُّ مبطلٍ له نصيبٌ من قول اللهِ تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٥].

٣١- في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أنَّ مرجعَ الطَّائعينَ للشَّيطانِ جهنَّمُ، وأنَّه لا يمكِنُ أن يخرُجوا منها، ويكونُ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٢-٧٣).
(٢) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٥١).
(٥) ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٠٧).

على مَن أطاعوه طاعةً مُطلَقةً، أمَّا مَن أطاعوه في بعضِ المعاصي فإنَّ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّهم لا يُخلَّدون في النَّار، وإنَّما يُعذَّبون بقدر أعمالِهم، ثمَّ يُخرَجون من النَّارِ(١).

٣٢- جوازُ الشَّهادة لكلِّ مؤمنٍ عمِل الصَّالحات بأنَّه يدخُلُ الجنَّةَ؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾، وهذا على سبيلِ العموم، فإنَّنا نشهَدُ لكلِّ مؤمنٍ عاملٍ للصَّالحاتِ أنَّه سيدخُلُ الجنَّةَ، لكن لا نُطبِّقُ الشَّهادةَ هذه على جميع أفراد العموم(٢).

٣٣- قول الله تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ أكثَرَ مِن التَّأكيدِ هنا؛ لأنَّه في مقابلةِ وعدِ الشَّيطان، ووعدُ الشَّيطان موافِقٌ للهوى الَّذي طُبِعَتْ عليه النُّفوسُ، فلا تنصرِفُ عنه إلَّا بعُسرٍ شديدٍ(٣).

٣٤- قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾، فصدَق اللهُ العظيمُ الَّذي بلَغ قولُه وحديثُه في الصِّدق أعلى ما يكونُ؛ ولهذا لَمَّا كان كلامُه صِدقًا، وخبرُه حقًّا، كان ما يدلُّ عليه مطابَقةً وتضمُّنًا وملازمةً كلُّ ذلك مرادًا مِن كلامه، وكذلك كلامُ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لكونه لا يُخبِر إلَّا بأمرِه، ولا ينطِقُ إلَّا عن وحيِه(٤).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ فيه: التفاتٌ من الغَيبة في قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥).

ٱللَّهِ﴾ إلى التَّكلُّم بقوله: ﴿نُؤۡتِيهِ﴾ -على قِراءة الجُمهورِ بالنُّونِ-؛ ليُناسِبَ ما بَعدَه من قولِه: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ﴾، فيكون إسنادُ الثوابِ والعِقابِ إلى ضميرِ المتكلِّمِ العَظيمِ، وهو أبلغُ مِن إسنادِه إلى ضميرِ الغائبِ[(١)].

٢- **قوله**: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: فيه عَطْفُ اتِّباعِ غَيْرِ سبيلِ المُؤمنينَ على مُشاقَّةِ الرَّسولِ في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ على سَبيلِ التَّوكيدِ والتَّشنيعِ، وإلَّا فمَن يُشاقِقُ الرَّسولَ هو متَّبِعٌ غيرَ سبيلِ المؤمنين ضرورةً، ولكنَّه بدأ بالأعظمِ في الإثم، وأتْبَعَ بلازمِه توكيدًا، وفائدتُه أيضًا الحَيْطَة لحِفظِ الجامِعةِ الإسلاميَّةِ بعدَ الرسولِ؛ فقد ارتدَّ بعضُ العَرَبِ بعد الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فكانوا ممَّن اتَّبَعَ غيرَ سبيلِ المؤمنينَ ولم يُشاقُّوا الرَّسولَ[(٢)].

٣- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾: استئناف ابتدائيٌّ، جُعِل تمهيدًا لِمَا بعده مِن وصفِ أحوال شِركِهم[(٣)].

- وقوله: ﴿لَا يَغۡفِرُ﴾، و﴿يَغۡفِرُ... لِمَنۡ يَشَاءُ﴾ فيه: تكرارٌ للتَّأكيدِ، والتَّشديدِ[(٤)].

- وقوله: ﴿يُشۡرِكۡ﴾، و﴿وَمَن يُشۡرِكۡ﴾ فيه: تكرارٌ[(٥)]، وهو يُفيدُ التَّأكيدَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٢٢) و(٤/ ٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧) ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).

- وقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾: فيه تأكيدُ الخبرِ بحرف (قد)؛ اهتمامًا به؛ لأنَّ المواجَهَ بالكلامِ هنا المؤمِنون، وهم لا يَشكُّون في تحقُّقِ ذلك[١].

٤- **قوله**: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ بيانٌ وتفصيلٌ بعدَ الإجمال في قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[٢].

- قوله: ﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ إيرادُها بهذا الاسم؛ للتَّنبيهِ على فَرْطِ حماقةِ عَبَدتِها، وتَنَاهِي جهلِهم[٣].

- وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ عبَّر بصيغةِ «فعيل» ﴿مَّرِيدًا﴾- أي: عاتيًا صُلْبًا عاصيًا ملازمًا للعِصيان- الَّتي هي للمُبالغةِ في سياقِ ذمِّهم؛ تنبيهًا على أنَّهم تَعبَّدوا لِمَا لا إلباسَ في شَرِّه[٤].

٥- **قوله**: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لِمَا قبلها؛ فقد دلَّ على أنَّ ما دعاهم إليه الشَّيطانُ: مِن تَبْتِيكِ-أي: تَقطيع- آذانِ الأنعامِ، وتغييرِ خَلْقِ الله، إنَّما دعاهم إليه؛ لِمَا يقتضيه من الدَّلالةِ على استشعارِهم بشِعاره، والتَّديُّنِ بدعوتِه[٥].

٦- **قوله**: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ استئنافٌ لبيانِ أنَّه أنجَز عزمَه، فوعَد ومنَّى وهو لا يزالُ يعِدُ ويُمنِّي؛ فلذلك جِيءَ بالمضارعِ[٦].

- وجملة: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ تأكيدٌ لقوله: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٦).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾[١].

- وفيه تَكرارُ فِعْل ﴿يَعِدُهُمْ﴾[٢]، وهو يُفيد التَّأكيدَ على كثرةِ وعودِه الكاذبةِ.

- وقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾: فيه إظهارٌ لِلَفْظة ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ في موضعِ الإضمار، وكان مُقتضى السِّياقِ أن يقولَ: (وما يعِدُهم إلَّا غرورًا)، لكنَّه أظهرَ في مقام الإضمارِ؛ لإظهارِ عداوتِه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[٣] [فاطر: ٦].

٧- **قوله:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾: جِيءَ باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لتنبيه السَّامعين إلى ما يرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ من الخبرِ، وأنَّ المشارَ إليهم جَديرونَ به عقِبَ ما تَقدَّم مِن ذِكرِ صِفاتهم[٤].

٨- **قوله تعالى:** ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ فيه إسنادُ الفِعلِ إلى نونِ العظَمةِ؛ اعتناءً بأنَّه تعالى هو الَّذي يتولَّى إدخالَهم الجنَّةَ، وتشريفًا لهم[٥].

٩- **قوله:** ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾: كلمة ﴿حَقًّا﴾ مصدرٌ مؤكِّد لمضمونِ جملة: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ إذ هذا في معنى الوَعدِ، أي: هذا الوعدُ أُحقِّقُه حقًّا، أي: لا يتخلَّفُ[٦].

١٠- **قوله:** ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾: الاستفهامُ فيه غَرضُه الإنكارُ، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٢-٧٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٤، ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٧).

لا أحدَ أصدقُ قولًا من اللهِ تعالى[١].

- والجملةُ تذييلٌ للوعدِ، وتحقيقٌ له، وهي جملةٌ مؤكِّدةٌ بليغةٌ، وفائدةُ هذه التَّوكيداتِ معارَضَةُ مواعيدِ الشَّيطانِ الكاذبةِ لقُرنائِه بوعدِ اللهِ الصَّادقِ لأوليائِه، والمبالغةُ في تأكيدِه؛ ترغيبًا للعبادِ في تَحصيلِه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٧).

الآيات (١٢٣ - ١٢٦)

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾: الأمانيُّ: الأكاذيبُ، ومَا يتمنَّاه الإنسانُ ويَشتهيه أيضًا، والأُمْنِيَّة -وهي التِّلَاوةُ المُجرَّدة عن المعرفة- تَجري عند صاحبِها مَجرَى أمنيَّةٍ متمنَّاة على التَّخمينِ[(١)].

﴿وَلِيًّا﴾: أي: نصيرًا، وأصل (وَلِيَ) يدلُّ على القُرْب، سواءٌ من حيث: المكانُ، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِيَ أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[(٢)].

﴿نَقِيرًا﴾: النَّقير: النُّقرة الَّتي في ظَهرِ النَّواة، ويُضرَبُ به المَثَلُ في الشَّيء الطَّفِيف، والنَّقر: قرعُ الشَّيء المُفضِي إلى النَّقب[(٣)].

﴿مِلَّةَ﴾: المِلَّة: الدِّين، والطَّريقة، ويعبَّر بها عن أُصولِ الشَّرائع، مشتقَّة مِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧- ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢- ٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

أملَلْت (أي أملَيْت)؛ لأنَّها تُبنَى على مَسموعٍ ومتلوٍّ، فإذا أُرِيد الدِّينُ باعتبارِ الدُّعاءِ إليه قِيل: مِلَّة، وإذا أُريد باعتبارِ الطَّاعةِ والانقيادِ له قيل: (دِين)[١].

﴿خَلِيلًا﴾: أي وليًّا، والخُلَّةُ: المودَّةُ، ونهايةُ المحبةِ التي تخلَّلَتْ روحَ المحبِّ وقلبَه، حتى لم يبقَ فيه موضعٌ لغيرِ المحبوبِ، فلا تدعُ فيه خللًا إلَّا ملأتْه، وأصل (خلل): دِقَّة أو فُرْجَة[٢].

﴿مُّحِيطًا﴾: أي: عالِمًا، والإحاطةُ بالشَّيء هي العِلْم بوجودِه، وجِنسه، وقَدْره، وكيفيَّته، وغرَضِه المقصودِ به، وبإيجاده، وما يكون به ومِنه؛ وذلك ليس إلَّا لله تعالى[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾

﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ الجارُّ والمجرورُ في محلِّ نصْبٍ خبرُ ﴿لَّيْسَ﴾، واسم ﴿لَّيْسَ﴾ مُضمَر، تقديرُه: (ذلِك)، يَعودُ على الجزاءِ المفهومِ مِن قَوْلِهِ: ﴿يُجْزَ بِهِۦ﴾، أي: ليس الجزاءُ تابعًا لأمانيِّ النَّاسِ ومُشتهاهم، بل هو أمْرٌ مُقَدَّرٌ مِن الله تعالى تقديرًا بِحَسَبِ الأعمالِ، وقيل: يعودُ المُضمَر على ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، أي: ليس يُنالُ ما وعدَ اللَّه من الثَّوابِ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا بأَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ، وقيل غيرُ ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣-٧٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٤٠٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩، ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٩٥-٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٨).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخاطب اللهُ المسلمين قائلًا لهم: إنَّ حصولَ النَّجاة والظَّفَرِ ليس بمجرَّدِ تمنِّيكم لها، ولا هي حاصلةٌ لأهل الكتابِ بمجرَّدِ أمانيِّهم، فإنَّ مَن يعمَلُ سوءًا يُجازى عليه، ولا يجدُ له أحدًا مِن دون الله يواليه، أو ينصُرُه.

ومَن يعمَل الأعمالَ الصَّالحةَ، سواءٌ كان ذكرًا أم أنثى، وهو مؤمنٌ بالله ورسولِه، فأولئك يدخلون الجنَّةَ، ولا يُظلَمون شيئًا ولو قلَّ، حتَّى ولو مقدارَ النُّقرةِ الَّتي تكونُ على ظهر نواةِ التَّمرِ.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّه لا أحدَ أحسنُ دِينًا ممَّن أخلَص لله عزَّ وجلَّ، وهو متَّبِعٌ شرعَ الله تعالى، واتَّبعَ دِينَ وطريقة إبراهيمَ عليه السَّلام، مائلًا عن الشِّركِ، مستقيمًا على التَّوحيدِ، واتَّخَذ اللهُ إبراهيمَ خليلًا.

وللهِ جميع ما في السَّموات والأرضِ، وقد أحاط عِلمُه بكلِّ شيءٍ سبحانه وتعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

أي: لا يَحصُلُ لكم- أيُّها المسلِمون ولا لليهود والنَّصارى- النَّجاةُ والظَّفَرُ بمجرَّدِ تمنِّي ذلك[1].

ومِن أمانيِّ أهلِ الكتابِ الَّتي أخبَر اللهُ تعالى عنها، قولُهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٧-٢٥٨).

إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾[البقرة: ١١١].

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

أي: إنَّ كلَّ مَن يعملُ منكم- أيُّها المسلمون أو مِن أهلِ الكتاب- سوءًا صغيرًا أو كبيرًا، فإنَّه يُجازى به، سواءٌ كان جزاءً قليلًا أم كثيرًا، دُنيويًّا، أم أُخرويًّا[١].

قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة: ٧-٨].

وعن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نزلتْ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ بلغتْ مِن المسلمين مَبلغًا شديدًا، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: قارِبوا وسدِّدوا؛ ففي كلِّ ما يصابُ به المسلمُ كفَّارةٌ، حتَّى النَّكبةِ[٢] يُنكَبُها، أو الشَّوكةِ يُشاكُها))[٣].

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٨).
قال السعدي: (والناسُ في هذا المقام درجاتٌ لا يعلَمُها إلا اللهُ، فمستقلٌّ ومستكثِرٌ، فمن كان عملُه كلُّه سوءًا، وذلك لا يكون إلا كافرًا، فإذا مات من دون توبةٍ جُوزِيَ بالخلود في العذاب الأليم.
ومَن كان عملُه صالحًا، وهو مُستقيمٌ في غالبِ أحواله، وإنما يصدُرُ منه بعضَ الأحيانِ بعضُ الذُّنوب الصِّغارِ؛ فما يُصيبه من الهمِّ والغمِّ والأذَى وبعضِ الآلام في بدنِه أو قلبِه أو حبيبه أو مالِه ونحو ذلك- فإنَّها مُكفِّراتٌ للذُّنوب، وهي ممَّا يُجزَى به على عملِه، قيَّضها اللهُ لُطفًا بعباده، وبَيْنَ هذين الحالينِ مراتبُ كثيرةٌ.
وهذا الجزاءُ على عملِ السُّوء العامِّ مخصوصٌ في غير التَّائبين؛ فإنَّ التَّائبَ مِن الذَّنبِ كمَن لا ذنبَ له؛ كما دلَّت على ذلك النصوصُ) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥).
(٢) النَّكْبَةُ: هي ما يُصِيبُ الإنسانَ مِنَ الحوادثِ. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٣).
(٣) رواه مسلم (٢٥٧٤).

أي: ولا يَجِد الَّذي يَعمل سوءًا أحدًا سوى الله تعالى يَلِي أمرَه، ويُحصِّل له ما يطلبُه، ولا يجِد ناصرًا سوى الله تعالى ينصُرُه، ويدفَعُ عنه ما يحذَرُه[١].

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى الجَزاءَ على السَّيِّئاتِ، وأنَّه لا بدَّ أن يأخُذَ مستحَقَّها مِن العبدِ، إمَّا في الدُّنيا، وهو الأجود له، وإمَّا في الآخرةِ- شرَعَ في بيان إحسانِه وكرَمِه ورحمتِه في قَبولِ الأعمالِ الصَّالحة من عبادِه[٢]، فقال:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾.

أي: ومَن يعمَلِ الأعمالَ الصَّالحة، قلبيَّةً كانت أو بدنيَّةً، مِن ذُكور العِبادِ وإناثهم، وهو مؤمنٌ بي وبرَسولي محمَّد[٣].

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ قِراءتان[٤]:

١- قِراءة ﴿يُدْخَلُونَ﴾ على البِناءِ لـما لم يُسمَّ فاعلُه؛ لأنَّهم لا يَدخُلون الجنَّة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٥-٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦١-٢٦٢).

(٤) قال ابن زنجلة: (اعلمْ أنَّ المعنيينِ متداخِلان؛ لأنهم إذا أُدخِلوا دَخَلوا، وإذا دخَلوا فبإدخالِ الله إيَّاهم يَدخُلون) ((حجة القراءات)) (ص: ٢١٣).

حتَّى يُدخِلَهم اللهُ تعالى[١].

٢- قراءة ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بجَعْلِ الفِعل للدَّاخلين؛ لأنَّهم هم الدَّاخلون بأمرِ الله لهم[٢].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

أي: فإنَّ أصحاب هذه المنزلة العالية الَّذين جمَعوا بين الإيمانِ والعمل الصَّالح إنَّما يدخُلون الجنَّة بإذنِ الله تعالى، ويُنعَّمون فيها[٣].

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾.

أي: ولا يَنقُصُ اللهُ تعالى هؤلاء الَّذين يعمَلون الصَّالحاتِ من ثوابِ عملِهم ولا مقدارَ النُّقرةِ الَّتي تكونُ في ظَهر النَّواة؛ فكيف بما هو أعظمُ من ذلك وأكثرُ؟! فهو سبحانه إنَّما يُوفِّيهم أجورَهم كما وعَدَهم[٤].

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

---

(١) قرأ بها أبو بكر وأبو عمرو وابن كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣١٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣١٨). ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥-٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٦-٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦).

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ أمرَ النَّجاة- بل السَّعادة- منُوطٌ بالعملِ والإيمان معًا، وذكرَ ثواب المؤمنينَ- أعقَبه بتفضيلِ دِينهم، وبيانِ أنَّ صفوةَ الأديانِ الَّتي ينتحلُها النَّاسُ هي مِلَّةُ إبراهيمَ في إخلاصِ التَّوحيدِ، وإحسانِ العملِ، وهو الدِّين القيِّمُ، ودرجةُ الكمالِ في ذلك[١]، فقال:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾.

أي: لا أحدَ أصوبُ طريقًا، وأصلحُ عملًا ممَّن أخلَص للهِ عزَّ وجلَّ، وانْقادَ له بالطَّاعةِ[٢].

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾.

أي: وهو مع هذا الإخلاصِ في العملِ، متَّبعٌ شَرْعَ اللهِ تعالى فيه[٣].

﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾.

أي: واتَّبَع دِينَ وشرْعَ إبراهيمَ عليه السَّلام، مائلًا عن الشِّركِ، وعن التَّوجُّهِ للخَلْق، مستقيمًا على التَّوحيدِ، مقبلًا بكُلِّيَّتِه على الخالقِ جلَّ وعلا[٤].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٨-٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾.

أي: واتَّخَذ اللهُ إبراهيمَ وليًّا قد وصَل إلى غايةِ ما يتقرَّبُ به العبادُ له، وانتهى إلى درجة الخُلَّةِ، الَّتي هي أرفعُ مقاماتِ المحبَّةِ الخالِصةِ لله تعالى[1].

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٠).

قال ابن كثير: (وإنَّما سُمِّي خليلَ الله لشدَّةِ محبَّةِ ربِّه عزَّ وجلَّ له؛ لِما قام به من الطَّاعةِ التي يحبُّها ويرضاها) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٣).

وقال السعديُّ: (وإنَّما اتَّخذ اللهُ إبراهيمَ خليلًا؛ لأنَّه وفَّى بما أُمِر به، وقام بما ابتُلِي به؛ فجعَله الله إمامًا للناس) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦).

وقال ابنُ عثيمين: (الخليل هو ذو المحبَّة الخالصة، وسُمي بذلك؛ لأنَّ المحبَّة شمِلت جميعَ جسده حتى تخلَّلَت عروقَه، وفي ذلك يقول الشاعر:

قَدْ تخلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ منِّي = وبِذَا سُمِّي الخَليلُ خَليلَا).

((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٠)، وينظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٠).

قال ابن جرير: (فإن قال قائلٌ: وما معنى الخلَّةُ الَّتي أُعْطِيَها إبراهيمُ؟ قِيل: ذلك مِن إبراهيمَ عليه السَّلام العداوَةُ في اللَّهِ والبغضُ فيه، والولايَةُ في اللَّهِ والحُبُّ فيه، على ما يُعْرَفُ مِن معاني الخلَّةِ. وأمَّا مِن اللَّه لإبراهِيمَ، فنصرتُه عَلى مَن حاوَله بسُوءٍ، كالَّذي فعَل به إذ أراده نمرُوذُ بما أرادَه به مِن الإحْراقِ بالنَّارِ، فأنْقَذَه منها، وأعْلَى حجَّتَه عليه إذ حاجَّه، وكما فعل ملِكُ مِصرَ إذ أرادَه عن أهْلِه، وتمكينُه مِمَّا أحَبَّ، وَتَصْييرُه إمامًا لمَن بعدَه مِن عِبادِه وقُدْوَةً لمَن خَلَقَه في طاعَتِه وعِبادَتِه ، فذلك مَعْنى مُخالَّتِه إيَّاه). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٩).

قال ابن تيمية: (والخلةُ هي كمالُ المحبَّة المستلزمةِ مِن العَبْدِ كَمالَ العُبودِيَّة لله، ومن الربِّ سبحانَه كمالَ الربوبيةِ لعِبادِه الَّذين يُحِبُّهم ويُحِبُّونه). ((العبودية)) (ص: ١٠٧).

لَمَّا ذكَر الله تعالى الخُلَّة لإبراهيمَ، ذكَر أنَّه مع الخُلَّةِ عبدُ الله، وأنَّ الخُلَّة ليست لاحتياجٍ، كما تكون خُلَّةُ الآدميِّينَ، وكيف يُعقَلُ ذلك وله مُلكُ السَّمواتِ والأرض؟! وما كان كذلك، فكيف يُعقَل أن يكونَ محتاجًا إلى البشر الضَّعيفِ؟! وإنما هي خُلَّةُ تشريفٍ منه تعالى لإبراهيمَ عليه السَّلام، مع بقائِه على العبوديَّة[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَر الله تعالى الوعدَ والوعيدَ، ولا يُمكنُ الوفاءُ بهما إلَّا عند حصولِ أمرين: أحدهما: القدرةُ التَّامَّة المتعلِّقة بجميع الكائنات والمُمكِنات، والثَّاني: العِلم التَّامُّ المتعلِّق بجميع الجزئيَّات والكلِّيَّات حتَّى لا يشتبهَ عليه المُطيعُ والعاصي، والمُحسنُ والمسيءُ- دلَّ على كمال قدرتِه بقولِه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وعلى كمالِ عِلمِه بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾[٢].

وأيضًا لَمَّا تقدَّم ذِكرُ عامل السُّوء وعامِل الصَّالحات، أخبَر بعظيمِ مُلكه، وأنه المالكُ لجميعِ ما في السَّموات، وما في الأرض، والعالَمُ مملوكٌ له، وعلى المملوكِ طاعةُ مالكِه[٣]، فقال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يملِكُ وحْدَه جميعَ ما في السَّمواتِ، وجميعَ ما في الأرضِ؛ فالجميعُ عبيدُه وخلْقُه، وهو المُتصرِّفُ فيهم، المُتفرِّدُ بتدبيرِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦).

قال ابن جرير: (يعني بذلك جلَّ ثناؤُه: واتَّخذ اللهُ إبراهيمَ خليلًا لطاعتِه ربَّه، وإخلاصِه العبادةَ له، والمسارعة إلى رِضاه ومحبَّته، لا من حاجةٍ به إليه وإلى خُلَّته، وكيف يحتاج إليه وإلى خُلَّته، وله ما في السَّمواتِ وما في الأرض من قليلٍ وكثير مُلكًا، والمالك الذي إليه حاجةُ مُلكِه

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا﴾.

أي: لا تَخفى عليه خافيةٌ، ولا يغِيبُ عن عِلمِه مثقالُ ذرَّةٍ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، ولا أصغرُ مِن ذلك ولا أكبرُ، قد أحاط بكلِّ شيءٍ عِلمًا وقُدرةً، وسمعًا وبصرًا، وتدبيرًا وغيرَ ذلك(١).

الفَوائِد التربويَّة:

١- أبطَل اللهُ الأمانيَّ، وأثبَت أنَّ الأمرَ كلَّه معقودٌ بالعملِ الصَّالح، وأنَّ مَن أصلَح عملَه فهو الفائزُ، ومَن أساء عملَه فهو الهالك؛ قال الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا * وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾، فوجَب قطعُ الأمانيِّ، وحسمُ المطامعِ، والإقبالُ على العملِ الصَّالح(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾، الأعمالُ بدون الإيمان كأغصانِ شجرةٍ قُطِع أصلُها، وكبناءٍ بُنِي على موجِ الماءِ؛ فالإيمانُ هو الأصل والأساسُ والقاعدةُ الَّتي يُبنَى عليها كلُّ شيء، وهذا القيدُ ينبغي التَّفطُّنُ له في كلِّ عملٍ أُطلِقَ؛ فإنَّه مُقيَّدٌ به(٣).

٣- أنَّ التَّمنِّيَ لا يُجدي شيئًا؛ لقوله: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ

دون حاجتِه إليه، فكذلك حاجةُ إبراهيم إليه، لا حاجته إليه، فيتَّخِذه من أجلِ حاجته إليه خليلًا، ولكنه اتخذه خليلًا؛ لمسارعتِه إلى رِضاه ومحبَّتِه، يقول: فكذلك فسارِعوا إلى رِضايَ ومحبَّتي لأتَّخِذَكم لي أولياءَ) ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٣-٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥).

ٱلْكِتَٰبِ ﴾[١].

٤- الحذرُ مِن عقوبةِ الذُّنوبِ؛ فمِن النَّاسِ مَن يُعاقَبُ بذُنوبِه؛ إمَّا في الدُّنيا، وإمَّا في الآخِرَة؛ يُبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[٢].

٥- كلُّ ظالمٍ مُعاقَبٌ في العاجِلِ على ظُلْمِه قبل الآجِلِ، وكذلك كلُّ مُذنِبٍ ذنبًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، وربما رأى العاصي سلامةَ بَدَنِه ومالِه، فظَنَّ أنْ لا عقوبةَ، وغَفْلَتُه عمَّا عُوقِبَ به عقوبةٌ[٣].

٦- أنَّ المصائبَ في الدُّنيا كفَّارات؛ لأنَّها نوعٌ من الجزاء، وقد أخبر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه ما من غمٍّ ولا همٍّ ولا حزنٍ يُصيب العبدَ إلَّا كُفِّر به عنه، حتَّى الشوكةُ إذا أصابَتْه فإنَّ اللهَ يُكفِّرُ بها عنه[٤]؛ قال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[٥].

٧- أنَّه لا بدَّ لقَبولِ العمل أن يكونَ صالحًا؛ لقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فإن كان فيه شِرْكٌ لم يُقبَلْ؛ لفواتِ الشَّرطِ، وهو الإخلاصُ، ومَن عمِل عملًا مبتدَعًا بإخلاصٍ تامٍّ، لكن ليس على شريعةِ الرسولِ، فإنَّه لا يُقبلُ منه؛ لأنَّه على غيرِ الاتِّباعِ، فالله تعالى لا يَقبَلُ مِن العَملِ إلَّا ما كان خالصًا لوَجْهِه، مع متابَعَةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيه، وما عدَا ذلك فهو مردودٌ على عامِلِه؛ يُرَدُّ عليه أحوَجَ ما هو إليه هباءً منثورًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٨).

(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٣١٥- ٣١٦).

(٣) ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٦٥).

(٤) ينظر ما رواه البخاري (٥٦٤١) من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦٠).

(٦) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٠٥) و (٢/ ٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة

٨- يُرشِدُ قولُ الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾، إلى أنَّ كمالَ الإيمانِ لا يحصُلُ إلَّا عند تفويضِ جميع الأمورِ إلى الخالقِ، وإظهارِ التَّبرِّي مِن الحَولِ والقوَّة، ويُنبِّهُ على فساد طريقةِ مَن استعان بغيرِ الله تعالى[١].

٩- الحثُّ على الإخلاص؛ لقوله: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾[٢].

١٠- الحثُّ على المتابعة للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[٣].

١١- دلَّ قولُ الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ على أنَّ إبراهيمَ- عليه السَّلام- إنَّما كان بهذا المنصبِ العالي، وهو كونه خليلًا لله تعالى، بسبب أنَّه كان عاملًا بتلك الشَّريعة، وذلك يُفيد التَّرغيبَ العظيمَ في هذا الدِّين، والعملَ بهذا الشَّرعِ للفوز بأعظمِ المناصِبِ في الدِّين[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قول الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ذكَر المسلمينَ في الأمانيِّ؛ لقَصدِ التَّعميمِ في تفويضِ الأمورِ إلى ما حكَم اللهُ ووعَد، وأنَّ ما كان خلافَ ذلك لا يُعتَدُّ به، وما وافقه هو الحقُّ، والمَقْصِد المهِمُّ هو قوله: ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ على نحو: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٥] [سبأ: ٢٤].

النساء)) (٢/ ٢٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٩).

٢- مجرَّدُ الانتسابِ إلى أيِّ دينٍ كان، لا يُفيد شيئًا إن لم يأتِ الإنسانُ ببرهانٍ على صحَّة دعواه؛ فالأعمالُ تُصدِّقُ الدَّعوى أو تُكذِّبُها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾[١].

٣- أنَّ في هاتينِ الآيتينِ ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ و﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من العِبرة والموعظةِ ما يدُكُّ صروحَ الأمانيِّ ومعاقلَ الغرورِ، الَّتي يأوي إليها ويتحصَّنُ فيها الكُسالى والجُهَّال والفُسَّاق من المسلمينَ، الَّذين جعلوا الدِّين كالجنسيَّةِ السِّياسيَّة، وظنُّوا أنَّ الله العزيزَ الحكيمَ يحابي مَن يسمِّي نفسَه مسلِمًا، ويفضِّلُه على مَن يسمِّيها يهوديًّا أو نصرانيًّا بمجرَّد اللَّقَب، وأنَّ العبرةَ بالأسماءِ والألقابِ لا بالعِلم والعَمَل[٢].

٤- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ ...﴾ العَدْلُ بين المتخاصمينِ، حتَّى وإنْ كان أحدُهما على حقٍّ، والثَّاني على باطلٍ؛ فالواجبُ العدلُ، وأنْ يُحكَمَ لكلِّ واحدٍ بما يستحقُّ، وجه ذلك: نفيُ كونِ الشَّيء بالأمانيِّ بالنِّسبة للمُسلمين واليهود والنَّصارى، ثمَّ إثبات أنَّ مَن عمل سوءًا جُوزيَ به، وهذا غايةُ العدلِ[٣].

٥- الباء في قوله: ﴿بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ للملابَسة، وليستْ للسَّببيَّة، أي: ليس الجزاءُ حاصلًا حصولًا على حسَبِ أمانيِّكم[٤].

٦- دلَّ قولُه تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ على أنَّ مَن عمِل سوءًا سيُجزَى به، ولكنَّ اللهَ تعالى قال في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٩).

لِمَن يَشَآءُ ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ مَن عمِل سوءًا قد يغفِرُ اللهُ له. ويُجاب عن ذلك بأنَّ قوله ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ المرادُ به التَّهديدُ، وهو مِن بابِ الوعيدِ، والعفوُ عن الوعيدِ مِن بابِ الكرمِ، وهو مدحٌ وليس بذمٍّ[١].

٧- أنَّ الإنسانَ لا يُجازى بأكثرَ ممَّا عمِل من السُّوء؛ لقوله: ﴿يُجۡزَ بِهِ﴾، والباءُ هنا للعِوَضِ، أو للبدل، بخلاف مَن عمل حسنًا، فإنَّه يعطى أكثرَ؛ كما في آياتٍ أخرى[٢].

٨- أنَّ القرآنَ الكريم- كما وصَفه اللهُ عزَّ وجلَّ- مثاني، أي: تُثَنَّى فيه الأمورُ، فإذا ذُكِر المؤمنُ ذُكِر الكافرُ، وإذا ذُكِر جزاءُ الكافر ذُكِر جزاءُ المؤمن، وهكذا، قال تعالى ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وذلك بعد قوله: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾[٣]

٩- أنَّه لا فرقَ بين الرِّجالِ والنِّساءِ فيما يستحقُّون مِن الجزاء، ووجهُ الدَّلالة: قولُه: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾، ثمَّ ذكَر الجزاء فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾[٤].

١٠- قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ (مِن) الأُولى للتَّبعيض؛ لأنَّ كلَّ واحد لا يتمكَّنُ من عمل كلِّ الصَّالحات، وليس مُكلَّفًا بها[٥]، وقيل «مِن» لبيان جنس العمل المبهَم، في قوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ﴾

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٨)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٣٤).

(فإنْ قال لنا قائلٌ: وما وجهُ دخول «مِن» في قوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النساء: ١٢٤]، ولم يقُلْ: (ومَن يعمل الصالحات)؟ قيل: لدخولها وجهانِ: أحدهما: أن يكونَ اللهُ قد علم أن عبادَه المؤمنين لن يُطِيقوا أن يعمَلوا جميعَ الأعمال الصَّالحات، فأوجب وعدَه لِمَن

فـ «من» هنا بيانيَّة[١].

١١- في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ جواز الشهادة لكلِّ مَن عمل صالحًا وهو مؤمن أنَّه في الجنَّة؛ لأنَّ هذا خبر من الله، والله تعالى لا يُخلِف وعدَه[٢] لكن الشَّهادة على سبيلِ العمومِ لا التَّعيينِ.

١٢- قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾، لَمَّا كان المرادُ الإخلاصَ الَّذي هو أشرفُ الأشياءِ؛ عبَّر عنه بالوجه الَّذي هو أشرفُ الأعضاء[٣].

١٣- فضيلة إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ حيث أُمِرْنا باتِّباعِه، وهذا يعني: أنَّه إمامٌ؛ ولهذا يُطلِق عليه العلماءُ اسمَ أو لقبَ: إمام الحُنفاءِ[٤].

١٤- في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الخُلَّة أعلى رتبةً من المحبَّةِ؛ لاختصاص إبراهيمَ ومحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهما وسلَّمَ بها، ولو كانت بمعنى المحبَّة، أو في مرتبتِها، لكانت ثابتةً لجميع مَن يستحقُّ المحبَّةَ،

عمِل ما أطاق منها، ولم يحرِمْه مِن فضله بسبب ما عجَزَتْ عن عملِه منها قواه، والآخرُ منهما: أنْ يكونَ تعالى ذِكرُه أَوجبَ وعدَه لِمَن اجتنَب الكبائر وأدَّى الفرائض، وإن قصَّر في بعض الواجب له عليه؛ تفضُّلًا منه على عبادِه المؤمنين؛ إذ كان الفضلُ به أَولى، والصَّفحُ عن أهلِ الإيمان به أحرى، وقد تقوَّل قومٌ مِن أهل العربية أنَّها أُدخِلَتْ في هذا الموضعِ بمعنى الحذف، ويتأوَّله: ومَن يعمل الصالحاتِ مِن ذكرٍ أو أُنثى وهو مؤمن، وذلك عندي غيرُ جائز؛ لأن دخولَها لمعنًى، فغيرُ جائزٍ أنْ يكون معناها الحَذْفَ). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٧-٥٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧١).

ومِن المعلوم أنَّه لا يصحُّ أن تقول: إنَّ الله اتَّخذ المؤمنين أخلَّاء؛ لأنَّ الخُلَّة خاصَّة، ومن ثَمَّ نعلم خطأَ من يقول: إبراهيمُ الخليلُ ومحمَّدٌ الحبيب؛ لأنَّ هذا تنقُّصٌ للرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام؛ حيث أنزل مرتبتَه من الخُلَّة إلى المحبَّة الَّتي يشتركُ فيها حتَّى المؤمنُ المتَّقي المقسِط الصَّابر(١).

١٥- إثباتُ أفعالِ الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾، والاتخاذ حادثٌ بعد وجودِ سببِه، فهو تبارَك وتعالى يفعَلُ ما يريدُ، ومتى شاء(٢).

١٦- خَتْمُ هذا السِّياقِ بهذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ لفوائد: (إحداها): التَّذكير بقدرتِه تعالى على إنجاز وعدِه ووعيدِه في الآيات الَّتي قبلها؛ فإنَّ له ما في السَّموات والأرض خَلقًا ومُلكًا، وهو أكرم مَن وعَد، وأقدرُ مَن أوعد، (ثانيها): بيان الدَّليل على أنَّه المستحِقُّ وحده لإسلام الوجهِ له، والتَّوجُّهِ إليه في كلِّ حال، وهذا هو رُوحُ الدِّين وجوهرُه؛ لأنَّه هو المالكُ لكلِّ شيء، وغيرُه لا يملِكُ بنفسِه شيئًا، فكيف يتوجَّهُ العاقلُ إلى مَن لا يملِكُ شيئًا، ويترك التَّوجُّهَ إلى مالكِ كلِّ شيءٍ، أو يُشرِكُ به غيرَه في التَّوجُّهِ ولو لأجلِ قُربِه منه؟! (ثالثها): نفيُ ما قد يَسبِقُ إلى بعضِ الأذهان مِن اللَّوازم العاديَّة في اتِّخاذِ اللهِ إبراهيمَ خليلًا، كأن يتوهَّمَ أحدٌ أنَّ هنالك شيئًا من المناسَبة أو المقارَبة في حقيقةِ الذَّات أو الصِّفات، فبيَّن تعالى أنَّ كلَّ ما في السَّموات والأرض مِلكٌ له، ومِن خَلقِه، مهما اختلفتْ صفاتُ تلك المخلوقات ومراتبُها في أنفُسِها، وبنسبة بعضِها إلى بعض(٣).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٥٩).

١٧- عمومُ مُلكِ الله، ويؤخَذُ ذلك من ﴿مَا﴾ الموصولة في قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾؛ لأنَّ جميعَ أسماءِ الموصول تفيدُ العمومَ[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾: استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للتَّنويهِ بفضائلِ الأعمال، والتَّشويهِ بمساويها[٢].

- وقوله: ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ و: ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ ﴾ فيه: تكرارٌ[٣]، وهو يُفيد التَّأكيدَ.

٢- **قوله:** ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

قوله: ﴿ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ زيادةُ تأكيدٍ؛ لردِّ عقيدةِ مَن يتوهَّم أنَّ أحدًا يُغني عن عذابِ الله[٤]، مع ما يُفيده تكرارُ حرفِ النَّفيِ (لا) من التَّأكيدِ، وما تفيده صيغة فعيل (نصيرًا) من المبالغة.

- قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ ﴾ فيه: تكرار[٥]، وهو يفيد التَّأكيد.

٣- **قوله:** ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

- وبين قوله: ﴿ذَكَرٍ ﴾، وقوله: ﴿أُنثَىٰ ﴾ طِباقٌ يُفيدُ التَّعميمَ، أي: إنَّ المقصودَ البشرُ كلُّهم، بدون تحديد جِنسٍ معيَّنٍ[٦]، كما أنَّه يُبرِزُ المعنى ويوضِّحه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٠).

- قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فيه: اختصاصٌ بذِكْر الإيمانِ[١]؛ إذ الإيمانُ من الشُّروطِ الأساسيَّة لقَبول العمل.

٤- **قوله:** ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾

- قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا ...﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ، أي: لا أحَدَ أحسنُ دِينًا مِمَّن فعل ذلك؛ فهو إنكارٌ واستبعادٌ لأنْ يَكونَ أحدٌ أحسنَ دِينًا ممَّن فعَلَ ذلك أو مُساويًا له[٢]. وفي هذا الاستفهامِ تنبيهٌ على أنَّ ذلك مُنتهَى ما تَبْلُغُه القُوَّةُ البشريَّةُ[٣].

- وقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾: يُفيد الحصرَ، في أنَّه أسلَمَ نفْسَه لله سبحانه، وما أسلَمَ لغيره[٤].

- وفيه كنايةٌ عن تمامِ الطَّاعةِ والاعترافِ بالعبوديَّة، وهو أحسنُ الكنايات؛ لأنَّ الوجهَ أشرفُ الأعضاء[٥].

- قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فيه: اختصاصٌ[٦]؛ حيث خَصَّ مِلَّة إبراهيمَ بالاتِّباع؛ للدَّلالةِ على أحقِّيَّتِها بالاتِّباعِ مِن كلِّ ملَّة.

- وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾: جُملةٌ معترِضةٌ، لا محلَّ لها من الإعرابِ؛ فائدتُها تأكيدُ وجوبِ اتِّباعِ ملَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلام؛ لأنَّ مَن بلَغَ مِن الزُّلْفَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).

عند اللهِ أنِ اتَّخذه خليلًا، كان جديرًا بأنْ تُتَّبعَ مِلَّتُه وطريقتُه[١].

وقيل: إنَّ هذه الجملةَ ليستْ اعتراضيَّة[٢]، بل هي معطوفةٌ على الجُملةِ الاستفهاميةِ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ...﴾ التي معناها الخبرُ- لا أحدَ أحسنُ دِينًا ممَّن أسلمَ وجهَه لله- نَبَّهَتْ على شرفِ المتبوعِ، وأنَّه جديرٌ بأنْ يُتَّبع؛ لاصطفاءِ اللهِ له بالخُلَّة، وعلى فوزِ المتَّبع له[٣].

- وفيه: إظهارُ اسمِ إبراهيمَ عليه السَّلام في موقِع الإضمار؛ لتفخيمِ شأنِه، والتَّنصيصِ على أنَّه الممدوحُ، وتأكيدِ استقلالِ الجملةِ الاعتراضيَّة[٤].

٥- **قوله:** ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جملةٌ تذييليَّةٌ مبتدَأَةٌ، سِيقَت لتقرير وجوبِ طاعةِ الله تعالى على أهلِ السَّموات والأرض[٥].

- وإنَّما قال: ﴿مَا﴾، ولم يقُل (مَن)؛ لأنَّه ذهَب مَذهَبَ الجنسِ، والَّذي يعقِلُ إذا ذُكِر وأُريد به الجنسُ ذُكر بـ: (ما)[٦].

- وفيه اختصاصُ مُلك ما في السَّموات والأرض باللهِ عزَّ وجلَّ، ويُؤخَذ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٩)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٣٠).

(٢) قالوا: لأنَّ الاعتراضَ المصطلحَ عليه في النَّحو لا يُعترض بِه إلاَّ بَين مُفتقرينِ كصلةٍ وموصول، وشرطٍ وجزاءٍ، وقَسَم ومُقسَمٍ عليه، وتابع ومتبوع، وعامل ومعمول. وهذه الجملة ليستْ كذلك.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٧- ٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٩٨- ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٣٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٢).

(ويحتمل أنَّه أتى بـ ﴿مَا﴾؛ ليعمَّ بذلك الأشخاصَ والأوصاف؛ لأنَّ تَعيينَ «مَن» للعقلاء و﴿مَا﴾ لغير العقلاء إنَّما هو في الأعيانِ، لكنَّ ﴿مَا﴾ للأعيانِ والأوصاف). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٢-٢٧٣).

ذلك مِن تقديمِ الخَبر ﴿ وَلِلَّهِ ﴾؛ لأنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ، يفيدُ الحصرَ[١].

- وهو كالاحتراسِ على أنَّ الخُلَّة ليستْ كخُلَّة النَّاسِ المقتضيةِ المساواةَ أو التَّفضيلَ[٢]، أو التي تقتضي الحاجةَ؛ فإنَّ لِلَّهِ ما في السَّموات وما في الأرض، فالكلُّ خَلْقُه وعبيدُه ومُلكه.

٦- **قوله:** ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا ﴾: تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله على الوجوهِ المذكورةِ[٣]، مع ما فيه مِن المبالغةِ في الاتِّصافِ بالعِلمِ بِالشَّيْءِ مِن جميعِ جِهاته[٤]، وما تَضمَّنه من التَّهديدِ والوعيد لِمَن خالَف أمْرَ المحيطِ بكلِّ شيءٍ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).

الآية (١٢٧)

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ ﴾: يَسألُونَك الفُتيا وبيانَ الحُكم؛ يُقال: استفتيتُ عن كذا، إذا سألتَ عن الحُكْمِ، وأفتى الفقيهُ في المسألةِ، إذا بَيَّن حُكمَها، والفُتيا والفَتوى: الجوابُ عمَّا يُشكِلُ من الأحكام، وأصل (فتي): تبيينُ حُكمٍ[(١)].

﴿بِٱلْقِسْطِ ﴾: أي: بالعدلِ، وأصل القِسط يَدلُّ على مَعنيينِ مُتضادَّيْنِ: العَدلِ، والجَوْرِ؛ يُقال: أَقْسَط: إذا عدَل، وقَسَط: إذا جارَ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

﴿وَمَا يُتْلَىٰ ﴾: ﴿ما﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي، وهو مبنيٌّ في محلِّ رفْع، على أنَّه معطوفٌ على ضَميرِ الفاعِل في ﴿يُفْتِيكُمْ﴾ العائدِ على اللهِ تعالى، والتقديرُ: اللهُ يُفتيكم فِيهنَّ والمتلوُّ في الكِتابِ. وقيل غيرُ ذلك[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠).

(٣) وممَّا قيل في محلِّ إعراب ﴿مَا﴾: إنَّه عطفٌ على الضميرِ المجرور بـ﴿فِي ﴾، أي: يُفْتيكم

﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾: مجرورٌ على أنَّه مَعطوفٌ على ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: ما يُتلى عليكم في يَتامَى النِّساء وفي المستضعَفين. وقيل: إنَّه في موضعِ جرٍّ، لكنَّه معْطوفٌ على المجرور في ﴿فِيهِنَّ﴾، وهذا مِن بابِ العَطفِ على الضَّمير المجرورِ من غيرِ إعادة الجارِّ. وقيل: إنَّه في مَوضِعِ نصبٍ عَطفًا على مَوضِعِ ﴿فِيهِنَّ﴾، والتَّقدير: ويُبيِّن لكم حالَ المُستضعَفين، وقيل غيرُ ذلك[1].

﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ ﴿وَأَن تَقُومُواْ﴾ مصدرٌ مؤولٌ، وهو معطوفٌ على ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾، والتقدير: ما يُتلى عليكم في يَتامَى النِّساء، وفي المستضعفينَ، وفي القيامِ لليتامَى بالعَدْلِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿وَأَن تَقُومُواْ﴾ منصوبًا بإضمارِ (يأمُرُكم)، أي: ويأمُرُكم أن تَقوموا، وهو خِطابٌ للأئمَّة بأَنْ ينظُروا إليهم، ويَسْتَوفوا لهم حُقوقَهم، ولا يَدَعُوا أحدًا يَهْتَضِمُ جانِبَهم[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائلًا له: إنَّ أصحابَك يسألونَك عن أحكامِ النِّساءِ، فقُلْ لهم: إنَّ اللهَ يُفتيهم فيما سأَلوا عنه من أحكام النِّساء، ويُفتيهم سبحانه وتعالى أيضًا بما يُتلى عليهم في القرآن في شأنِ اليَتيمات اللَّاتي هنَّ تحتَ وِلايتِهم، فيَظلِمونَهنَّ بمَنْعِهنَّ مِن أخذِ ميراثِهنَّ، أو بمَنْعِهنَّ مِن التَّزوُّجِ؛ لينتفِعوا بأموالِهنَّ، أو بالأخذ من مهورهنَّ الَّتي تزوَّجْنَ بها، أو بغير ذلك، وهذا في

فيهنَّ وفيما يُتْلى، اختاره وصحَّح معناه أبو حيَّان، وضَعَّف هذا الوجهَ الزمخشريُّ والسَّمينُ الحلبي وغيرُهما؛ لاختلالِه من حيثُ المعنى؛ لأنَّه ليس المرادُ أنَّ اللهَ يُفتيكم في شأنِ ما يُتْلى عليكم في الكتاب. ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠١- ١٠٢).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٣-٣٩٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٠-١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦٦).

حالةِ رَغبتِهم عنهنَّ، أو يرغبون فيهنَّ، ويريدون نِكاحهنَّ لجمالهنَّ ومالهنَّ، مع عدمِ إعطائهنَّ حقوقهنَّ مِن المهرِ كاملةً، كما يُفتيهم جلَّ وعلا في شأن المستضعَفين من الوِلدان الصِّغار، ومنه أن يعطوهم حقَّهم من الميراث وغيرِه، وألَّا يستولُوا على أموالهم ظُلمًا وعدوانًا، وأن يعدِلوا مع اليتامى عدلًا تامًّا، ثمَّ أخبر سبحانه أنَّ ما يفعلونه من خيرٍ فإنَّ اللهَ كان به عليمًا، وسيَجزيهم عليه أتمَّ الجزاءِ.

تفسير الآية:

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾.

سببُ النُّزول:

عن عُرْوةَ بنِ الزُّبَيرِ، أنَّه سَأَلَ عائِشَةَ رضِي اللهُ عنها، عن قولِ اللهِ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾، قالتْ: يا ابنَ أُختي، هي اليتيمةُ تكونُ في حَجْرِ وليِّها تُشارِكه في مالِه، فيُعجبه مالُها وجمالُها، فيُريد وليُّها أنْ يَتزوَّجَها بغيرِ أنْ يُقسِطَ في صَدَاقِها، فيُعطيها مِثلَ ما يُعطيها غيرُه، فنُهوا أنْ يَنكحوهنَّ إلَّا أنْ يُقسِطوا لهنَّ، ويَبْلُغوا بهنَّ أعْلَى سُنَّتِهنَّ مِن الصَّدَاق، وأُمروا أنْ يَنكحوا ما طابَ لهم مِن النِّساء، سواهنَّ، قال عُروةُ: قالتْ عائشةُ: ثمَّ إنَّ الناسَ استَفْتَوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعد هذه الآيةِ فيهنَّ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾، قالتْ: والَّذي ذَكَرَ اللهُ تعالَى أنَّه يُتْلَى عليكم في الكِتابِ: الآيةُ الأُولَى الَّتي قال اللهُ فيها: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ

ٱلنِّسَآءِ﴾، قالتْ عائِشَةُ: وقَوْلُ اللهِ في الآيةِ الأُخْرَى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، رَغْبة أحَدِكم عَنِ اليَتِيمَةِ الَّتي تكونُ في حَجْرِهِ، حِينَ تكونُ قَليلَةَ المالِ والجَمالِ، فَنُهُوا أنْ يَنْكِحوا ما رَغِبوا في مالِها وجَمالِها مِنْ يَتامَى النِّساءِ إلَّا بِالقِسطِ؛ مِن أَجْلِ رَغْبَتِهِم عنهُنَّ[١].

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ سبحانه في أوَّلِ هذه السُّورة أنواعًا كثيرةً من الشَّرائع والتَّكاليف، ثمَّ أتبَعها بشرحِ أحوالِ الكافرين والمنافقين، واستقْصَى في ذلك، ثمَّ ختَم تلك الآياتِ الدَّالَّةَ على عظَمةِ جلالِ اللهِ وكمالِ كِبريائِه- عاد بعد ذلك إلى بيانِ الأحكام[٢]، فقال:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾.

أي: ويسألُك أصحابُك -يا محمَّدُ- أنْ تُفتيَهم في أحكامِ النِّساءِ[٣].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾.

قُلْ لهم- يا محمَّدُ-: اللهُ يفتيكم في النِّساء[٤].

---

(١) رواه البخاري (٢٤٩٤)، ومسلم (٣٠١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٣)، وقال في (١١/ ٢٣٢): (اعلَمْ أنَّ عادةَ اللهِ في ترتيب هذا الكتابِ الكريم وقَعَ على أحسنِ الوجوه، وهو أنه يذكُرُ شيئًا من الأحكام، ثم يذكُرُ عَقِيبه آياتٍ كثيرةً في الوعد والوعيد، والتَّرغيب والتَّرهيب، ويخلط بها آياتٍ دالَّةً على كبرياء الله وجلالِ قدرتِه، وعظَمة إلهيَّته، ثم يعود مرةً أخرى إلى بيان الأحكام، وهذا أحسنُ أنواع التَّرتيب، وأقربها إلى التَّأثير في القلوبِ؛ لأنَّ التَّكليفَ بالأعمال الشَّاقَّةِ لا يقعُ في موقع القَبولِ إلا إذا كان مقرونًا بالوعدِ والوعيد، والوعدُ والوعيد لا يؤثِّر في القلب إلا عند القطعِ بغاية كمالِ مَن صدَر عنه الوعدُ والوعيد، فظهَر أن هذا التَّرتيَب أحسنُ التَّرتيبات الَّلائقةِ بالدَّعوةِ إلى الدِّين الحقِّ).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور))

ثمَّ خَصَّ سبحانه بعد التَّعميم، الوصيَّةَ بالضِّعاف من اليتامى والوِلدان؛ اهتمامًا بهم، وزجرًا عن التَّفريط في حقوقِهم، فقال[١]:

﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.

أي: ويُفتيكم أيضًا بِما يُتلَى عليكم في القُرآنِ[٢] في شأنِ اليتامى مِن النِّساءِ اللَّاتي تحتَ ولايتِكم، فتبخَسونهنَّ حقَّهنَّ، وتَظلِمونهنَّ بمَنْعِهنَّ مِن أخْذِ ميراثِهنَّ، أو بمَنْعِهنَّ مِن التَّزوُّجِ؛ لتنتفِعوا بأموالِهنَّ خوفًا من استخراجِها من أيديكم إنْ تزوَّجْنَ، أو بالأخذ من مهورهنَّ الَّتي تزوَّجْنَ بها، أو بغير ذلك، وهذا في حالةِ رَغبتِكم عنهنَّ، أو تَرغبون فيهنَّ لجمالهنَّ ومالهنَّ، ولكن تُعطونهنَّ مِن المهرِ دون ما يستحقِقْنَ[٣].

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾.

أي: ويُفتيكم اللهُ عزَّ وجلَّ، ويُفتيكم ما يُتلى عليكم في القُرآنِ، في شأنِ المستضعَفين من الوِلدانِ الصِّغار، ومن ذلك وجوبُ إعطائِهم حقَّهم من الميراث وغيرِه، وألا تستولُوا على أموالهم ظُلمًا وعُدوانًا[٤].

(٥/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦).

(٢) قال ابن عاشور: (وقوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ عطفٌ على اسم الجلالة، أي: ويُفتيكم فيهنَّ ما يُتلى عليكم في الكتاب، أي القرآن، وإسنادُ الإفتاءِ إلى ما يُتلى إسنادٌ مجازيٌّ؛ لأنَّ ما يُتلى دالٌّ على إفتاءِ اللهِ، فهو سببٌ فيه، فآلَ المعنى إلى: قل الله يُفتيكم فيهن بِما يتلى عليكم في الكِتابِ) ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٣)، وينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٧- ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٧-٢٧٨).

﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾.

أي: ويُفتيكم اللهُ عزَّ وجلَّ، ويُفتيكم ما يُتْلَى عليكم في القُرآن، في أن تقوموا بالعدلِ التَّامِّ مع اليتامَى، ومن ذلك إعطاؤُهم فرائضَهم على ما قَسَم اللهُ تعالى لهم في كتابِه، ومِن ذلك القيامُ عليهم بإلزامِهم بحقوق الله عزَّ وجلَّ على عباده، والقيامُ عليهم في مصالحِهم الدُّنيويَّة[1].

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾.

أي: ومهما يكُنْ منكم- أيُّها المؤمنون- من عدلٍ في أموال اليتامى الَّتي أمَركم اللهُ تعالى أنْ تقوموا فيهم بالقِسطِ، والانتهاءِ إلى أمرِ الله في ذلك، وفي غيره- فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عالمٌ به، ومُحصٍ ذلك كلَّه، وحافظٌ له، وسيجزيكم عليه أوفرَ الجزاءِ وأتمَّه[2].

الفوائد التَّربويَّة:

١- أنَّ كلَّ ما عمِلْناه من خيرٍ، قليلًا كان أو كثيرًا، فإنَّ الله يعلَمُه، ويترتَّب على هذه الفائدة: الحذرُ من الإخلالِ بالواجب؛ لأنَّه إذا كان يعلَمُ الخير الَّذي نعمَلُه، فهو يعلَمُ أيضًا ما لا نعمَلُه من الخيرِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾[3].

٢- الحثُّ على الخيرِ؛ لأنَّك إذا علِمْتَ أنَّ الله يعلَمُه، وأنَّه سيجازيك عليه، نشِطَتْ وقوِيَتْ همَّتُك لفعلِه؛ قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٧-٥٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٨-٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٤).

بِهِۦ عَلِيمًا ﴾[١].

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- حِرصُ الصَّحابة رضِي اللهُ عنهم على معرفةِ الأحكام الشَّرعيَّة؛ لقوله: ﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ ﴾[٢].

٢- اعتناء الصَّحابةِ بشأنِ النِّساء، بل واعتناءُ الله عزَّ وجلَّ فوق ذلك بشأنهنَّ؛ لقوله: ﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ ﴾؛ فالمستفتي الصَّحابةُ، والمفتي هو الله عزَّ وجلَّ، والواسطةُ بين المستفتي والمفتي هو الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام[٣].

٣- الرُّجوعُ إلى ما في كتابِ الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ ما في الكتابِ من الفتوى صادرٌ من عند الله؛ لقوله: ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ وهو كذلك؛ لأنَّ الكتابَ منزَّلٌ من الله عزَّ وجلَّ، هو الَّذي تكلَّمَ به وأنزَله على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأمَره أن يُبلِّغَه النَّاسَ، وهو نفسُه تبارك وتعالى تكفَّل ببيانِه[٤].

٤- في قوله تعالى: ﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ العناية بالنِّساء عمومًا، والعناية بيتامى النِّساء، وهذا أخصُّ؛ لأنَّ يتيمةَ النِّساءِ اجتمعَ في حقِّها الضَّعفُ من حيث الجنسُ؛ فجنسُ النِّساء أضعفُ من الرِّجالِ، والضَّعفُ من حيث فَقْدُ العائلِ، وهو الأبُ؛ فلهذا أوصى اللهُ بها بعنايةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- جبروتُ أهل الجاهليَّةِ؛ وشدة ظُلمهم ليَتامَى النِّساء، بحيث لا يُؤتونهنَّ ما كُتِبَ لهنَّ، ويتحكَّمونَ فيهنَّ وفي مصيرهنَّ؛ لقوله: ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾[١].

٦- أنَّ مهرَ المرأةِ مفروضٌ لها؛ لقوله: ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ [النِّساء: ٤]، وعلى هذا فصاحبُ المهرِ هو المرأةُ، وليس وليَّ المرأةِ، ولو كان أباها، فالمهرُ إليها؛ تقديرُه عددًا، وتعيينُه جنسًا، ولها أن تُبرِئَ منه إذا كانت عاقلةً رشيدةً[٢].

٧- أنَّه يجوزُ للإنسانِ أن يتزوَّجَ مَوْلِيَّتَه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾؛ لأنَّ هؤلاء اليتامى تحت ولاية هؤلاء الَّذين يرغَبون أنْ ينكحوهنَّ، وهو أحقُّ النَّاس بتزويجها، لكنْ عليه بتقوى الله، فلا يَظلِمْها، ولا يَهضِمْها حقَّها[٣].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ العناية بالمستضعَفين من الوِلدان؛ لأنَّ المستضعَفَ من الوِلدان، سواءٌ كان لِصِغَره، أو لمرضِه أو لجنونه، أو لغيرِ ذلك من الأسباب الَّتي صار بها ضعيفًا، فالعنايةُ به لا شكَّ أنَّها دليلٌ على رحمة الإنسان[٤].

٩- وجوبُ القِيامِ لليتامى بالقِسطِ، والقيام بالقسط أمر عام، فيجب على كلِّ إنسان أن يقومَ لله شهيدًا بالقسطِ، لكن اليتامى لهم أمر خاصٌّ للعدل بينهم؛ لأنَّ اليتيمَ ليس له مَن يدافعُ عنه، وربَّما يأكُلُه وليُّه من حيث لا يشعُرُ؛ فلهذا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨٢).

أُوصِيَ بهم؛ قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾[١].

بَلاغةُ الآية:

١- **قوله:** ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾ وعدٌ باستيفاءِ الإجابة عن الاستفتاء، وهو ضربٌ من تَبشيرِ السَّائل المُتحيِّر بأنَّه قد وجَد طَلِبَتَه، وتقديمُ اسمِ الجَلَالةِ للتَّنويهِ بشأنِ هذه الفُتيا[٢].

٢- **قوله:** ﴿وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فيه: إيجازٌ بالحذف؛ حيث إنَّ حَذْفَ حرْفِ الجرِّ بعدَ ﴿وَتَرۡغَبُونَ﴾ -هنا- وقَع موقعًا عظيمًا من الإيجازِ، وإكثارِ المعنى، أي: ترغَبون عن نكاحِ بعضِهنَّ، وفي نكاحِ بعضٍ آخرَ، فإنَّ فِعلَ رَغِبَ يتعدَّى بحرف (عن) للشَّيءِ الَّذي لا يُحَبُّ، وبحرفِ (في) للشَّيء المحبوب، فإذا حُذِفَ حرفُ الجرِّ احتمَل المعنيينِ إن لم يكُنْ بينهما تنافٍ[٣]، وهذا ما يُسمَّى بالكلامِ الموجَّه، وهو الَّذي يحتملُ معنيينِ متضادَّيْنِ؛ فهنَّ إمَّا جميلات أو ذوات مالٍ، فتَرغَبون فيهنَّ، أو دميمات ولا مالَ لهنَّ، فترغَبون عنهن- حسَب تقديرِ الجارِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٢، ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٣٣).

الآيات (١٢٨ - ١٣٠)

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بَعْلِهَا﴾: بَعْلُ المرأةِ: زَوجُها، والبَعْل في الأصل: الصَّاحِبُ[(١)].

﴿نُشُوزًا﴾: أي: بُغضًا، والنُّشوز: بُغضُ المرأةِ للزَّوج، أو بُغضُ الزَّوجِ للمَرأة؛ يُقال: نشَزت عليه، أي: ارتفَعَتْ عليه، والنَّشْز: المرتَفِع من الأرض؛ فأصل النَّشْز: الارتفاعُ والعُلوُّ[(٢)].

﴿وَأُحْضِرَتِ﴾: أي: أُلزِمت، وجُعِلتْ حاضرةً له، مطبوعةً عليه، وأصل (حضَر): إيرادُ الشَّيء، ووُرودُه ومشاهدتُه[(٣)].

﴿ٱلشُّحَّ﴾: وهو الإفراطُ في الحِرص، وأيضًا: بُخْلٌ مع حِرصٍ، ويُطلَقُ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٧).

الظُّلم، وأصل (شحح): المنْع[١].

﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾: المُعَلَّقَةُ هي الَّتي لا تكونُ أيِّمًا، ولا ذاتَ بَعْلٍ، والعَلَقُ: التَّشبُّثُ بالشَّيء، وأصله: أن يُناطَ الشَّيءُ بالشَّيء العالي[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾

قَوْله: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ﴾

﴿إنْ﴾: أداةُ شرطٍ لا يَليها إلَّا الفِعلُ. و﴿ٱمْرَأَةٌ﴾: فاعِل بفِعلٍ محذوفٍ وجوبًا، والتَّقدير: (وإن خافتِ امرأةٌ خافتْ)، واستُغني عن المحذوفِ بـ: ﴿خَافَتْ﴾ المذكور، وقيل: هي فاعل مُقدَّم على فِعلِه، أو مَرفوعةٌ بالابتداءِ[٣].

قوله: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٢٥، ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٧).

والتحقيق: أنَّ القولَ بأنَّها فاعلٌ مُقدَّم ارتفَع بما عادَ إليه من الفِعل من غيرِ تَقديرِ فِعلٍ هو مذهبُ الكوفيِّين، والقولُ بأنَّها مرفوعةٌ بالابتِداءِ محكيٌّ عن أبي الحَسنِ الأخفشِ. ونَسَب السَّمينُ الحلبيُّ جَوازَ وقوعِ المبتدأِ بعدَ (إن) الشرطيَّة للأخفشِ والكوفيِّين معًا، وهذا هو المشهور؛ وهذا لأنَّهم لا يشترطُون أنْ يليَ أداةَ الشرطِ فعلٌ، وإذن فهي مُبتدأٌ على الأصلِ، وأمَّا عندَ جمهور البَصريِّين فإنَّها فاعلٌ، وهي مِن بابِ الاشتغال، ولا يَجوزُ رفعُها بالابتداءِ؛ لأنَّ أداةَ الشَّرطِ لا يَليها إلَّا الفِعلُ عندهم. ينظر: ((الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين)) للأنباري (٢/ ٥٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٧، ٤٦٢).

﴿صُلۡحًا﴾: منصوبٌ، وفي نَصْبِه أوجهٌ بحسَبِ القِراءاتِ في قوله: ﴿يُصَّلِحَا﴾[(١)]؛ فعلى قِراءة (يُصْلِحَا) مِن أصْلَح؛ يكونُ في نصبِ ﴿صُلۡحًا﴾ ثلاثةُ أوجهٍ؛ الأوَّل: أنْ يكونَ منصوبًا على أنَّه نائبٌ عن المفعولِ المُطلَق للفِعلِ المتقدِّم ﴿يُصَّلِحَا﴾؛ لأنَّ ﴿صُلۡحًا﴾ اسمُ مَصْدرٍ أو مَصدرٌ على حَذْفِ الزَّوائد، كالعَطاءِ والنباتِ. الثاني: أن يكونَ مفعولًا مُطلَقًا منصوبًا بفِعلٍ مُقدَّر، أي: فيَصْلُح حالُهما صُلحًا. والمفعولُ به على هذينِ الوجهينِ قولُه: ﴿بَيۡنَهُمَا﴾ اتُّسِع في الظَّرفِ فجُعِل مفعولًا به. الثالث: أنْ يكونَ نَصْبُ ﴿صُلۡحًا﴾ على أنَّه مفعولٌ به إنْ جُعِل اسمًا للشَّيءِ المصطَلح عليه؛ كالعَطاءِ بمعنى المُعطَى، والنَّباتِ بمعنى المُنْبَتِ. وعلى بقيَّةِ القِراءاتِ فيجوزُ أنْ يكونَ ﴿صُلۡحًا﴾ نائبًا عن المفعولِ المطلَق، ويكون واقعًا موقعَ (تصالُحًا، أو اصطلاحًا، أو مصالحةً)، حسَب القِراءات. ويجوزُ أنْ يكون ﴿صُلۡحًا﴾ مفعولًا مُطلَقًا. ويَنتفِي عنه وجهُ المفعولِ به المذكورُ في قِراءة ﴿يُصْلِحَا﴾، وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

قوله: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾: (حَضَر) فِعلٌ يتعدَّى بنَفْسِه إلى مَفعولٍ واحد، و(أَحْضَر) يَتعدَّى بالهمزةِ إلى مَفعولَيْنِ، فلمَّا بُني (أُحْضِرَ) هُنا للمفعولِ حُذِفَ الفاعِلُ، وقامَ المفعولُ الأوَّل ﴿ٱلۡأَنفُسُ﴾؛ مقامَ الفاعِلِ، فرُفِع على أنَّه

---

(١) قوله: ﴿أَن يُصَّلِحَا﴾ قرأ الكوفيون: «يُصْلِحَا» من أصلح، وباقي السبعة «يَصَّالَحَا» بتشديد الصاد بعدها ألف، وقرأ عثمان البَتِّيُّ والجَحْدَريُّ: «يَصَّلِحَا» بتشديد الصاد من غير ألف، وعَبِيدة السَّلماني: «يُصَالِحَا» بضمِّ الياء وتخفيف الصاد وبعدها ألف من المفاعلة، وابن مسعود والأعمش: «أنِ اصَّالَحَا»، فأما قراءة الكوفيِّين فواضحة، وقراءة باقي السبعة أصلها «يَتصالحَا» فأريد الإدغام تخفيفًا، فأبدلت التاء صادًا وأُدغمت، وأمَّا قراءة عثمان فأصلها: «يَصْطَلِحَا» فخفِّف بإبدال الطاء المبدلة من تاء الافتعال صادًا وإدغامهما فيما بعدَها. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٨-١٠٩)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٢٥).

نائبُ فاعلٍ، وانتصبَ المفعولُ الآخَرُ ﴿ٱلشُّحَّ﴾ على أنَّه مفعولٌ به ثانٍ؛ فإنَّ ﴿ٱلْأَنفُسُ﴾ هي الفاعلُ في الأصْل؛ إذ الأصلُ: (حضَرتِ الأنفسُ الشحَّ)، ثمَّ أحْضَر اللَّهُ الأَنفسَ الشُّحَّ. وهذا هو المشهورُ من مذاهبِ النُّحاةِ. وقيل: إنَّ القائمَ مَقامَ الفاعِل هو المفعولُ الثَّاني وهو ﴿ٱلْأَنفُسُ﴾ أيضًا، والأصلُ: وحضَر الشُّحُّ الأنفسَ، ثمَّ أحْضَر اللَّهُ الشُّحَّ الأَنفسَ، فلمَّا بُني الفِعْلُ للمَفعول أُقيمَ المفعولُ الثَّاني، وهو ﴿ٱلْأَنفُسُ﴾، مقامَ الفاعِل، وأُخِّر المفعولُ الأوَّلُ ﴿ٱلشُّحَّ﴾، وبقِي منصوبًا[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى بعضَ الأحكام الَّتي تتعلَّقُ بالزَّوجين، وما يقعُ بينهما من خلافٍ ونُفرةٍ؛ فالمرأةُ إذا خافت ترفُّعَ زوجِها عنها، وعدمَ رغبتِه فيها، فلا حرجَ ولا إثمَ أن يُصلِحَا بينهما صُلْحًا، بأن تُسقِطَ المرأةُ بعضًا من حقوقِها على أن تبقى مع زوجِها؛ فلا حرجَ عليها في إسقاطِه، ولا حرجَ عليه من قَبولِه، والصُّلحُ ببعضِ التَّنازُلاتِ خيرٌ من الفِراقِ الكُلِّيِّ، وقد جُبِلت النُّفوسُ على الحرصِ على حقوقها، ممَّا قد يتعذَّرُ معه التَّصالُحُ، لكن ينبغي على المرءِ أن يحرصَ على تركِ هذا الشُّحِّ جانبًا، والمسامحةِ ببعض الحقِّ، ثمَّ رغَّب اللهُ تعالى في الإحسان عمومًا؛ في عبادتِه، والإحسان إلى الخَلْق، ومنه الإحسانُ إلى الزَّوجات حتَّى ولو كرِهوهنَّ؛ وذلك بالصَّبرِ عليهنَّ، وحُسْنِ العِشرةِ، وإيفائِهنَّ حقَّهنَّ، وأن يتَّقوا اللهَ، فإن فعَلوا ذلك، فإنَّ اللهَ خبيرٌ بكلِّ ما عمِلوه، وسيُجازيهم عليه.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّ الأزواجَ لا يمكِنُ أن يحقِّقوا العدلَ الكامل بين زوجاتِهم،

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١٠).

ولو اشتَدَّ حرصُهم على ذلك، لكن نهى سبحانه عن الميلِ الكُلِّيِّ إلى واحدةٍ بحيث تظلُّ الأخرى كالمعلَّقة الَّتي ليست مطلَّقةً، ولا هي متزوِّجة، وأنَّهم إن يُصلِحوا بينهم وبين زوجاتهم، وبينهم وبين النَّاس، أو بين النَّاس إذا تنازَعوا، ويتَّقوا اللهَ؛ فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ، وإن ينفصلِ الزَّوجانِ عن بعضِهما، بعد تعسُّرِ الصُّلحِ، يُغْنِ اللهُ كلًّا منهما من فضله الواسع، وكان الله واسعًا حكيمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

الآيةُ عَطفٌ لبقيَّةِ إفتاء الله تعالى؛ فهي من جُملة ما أخبَر الله تعالى أنَّه يفتيهم به في النِّساء ممَّا لم يتقدَّمْ ذِكرُه في هذه السُّورة[(١)].

وأيضًا لَمَّا صاروا يَتزوَّجون ذواتِ الأموالِ من اليتامى، ويُضاجِرون بعضَهنَّ، عقَّبَ ذلك تعالى بالإفتاءِ في أحوالِ المشاقَقَةِ بين الأزواج[(٢)].

سببُ النُّزول:

عن عائِشةَ رضِي اللهُ عنها في هذِه الآيةِ ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ قَالَتْ: ((الرَّجلُ تَكونُ عنده المرأةُ ليس بِمُستكْثِرٍ منها يُريدُ أنْ يُفارِقَها، فتقول: أَجْعَلُك مِن شأني في حِلٍّ، فنزلتْ هذه الآيةُ في ذلك))[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٢١).

(٣) رواه البخاري (٢٤٥٠) واللفظ له، ومسلم (٣٠٢١).

وعن هِشامِ بنِ عُروةَ، عن أبيه، قال: قالتْ عائشةُ رضِي اللهُ عنها: ((يا ابنَ أُختي، كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يُفضِّلُ بَعضَنا على بعضٍ في القَسْمِ مِن مُكْثِه عِندنا، وكان قلَّ يومٌ إلَّا وهو يَطوفُ علينا جميعًا، فيَدنو مِن كلِّ امرأةٍ مِن غيرِ مسيسٍ، حتى يَبلُغَ إلى التي هو يومُها فيَبيت عِندَها، ولقدْ قالتْ سَودةُ بِنتُ زَمْعةَ حين أسنَّتْ وفَرِقَتْ[1] أنْ يُفارِقَها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا رسولَ اللهِ، يَوْمي لعائشةَ، فقَبِلَ ذلك رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منها، قالتْ: نقول: في ذلِك أَنزلَ اللهُ تعالى وفي أشباهِها أُراهُ قال: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا﴾))[2].

وعن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالتْ: ((كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذَا أرادَ سفرًا أقْرَعَ بَينَ نسَائِهِ، فأَيَّتُهُنَّ خرجَ سَهْمُهَا خرَجَ بهَا معهُ، وكانَ يَقْسِمُ لكلِّ امرأةٍ منْهُنَّ يومَها وليلَتَها، غيرَ أنَّ سَوْدَةَ بنتَ زَمْعَةَ وهَبَتْ يَومَها وليلَتَها لعائِشَةَ زَوجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَبْتَغِي بذلِكَ رِضَا رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ))[3].

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾.

---

(١) أَسَنَّتْ: أي: كَبِرَتْ. وفَرِقَت: أي: خافَتْ. ينظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٥٥)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٩٢) و(٢/ ٤٧١).

(٢) رواه أبو داود (٢١٣٥)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢٤/ ٣١) (٨١)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢٧٦٠)، والبيهقي (٧/ ٧٤) (١٣٨١٦).

قال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢١٣٥): حسن صحيح. وحسنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٦٢٩).

والحديث بدون ذكر قصة سودة جوَّد إسنادَه ابنُ عبد الهادي في ((المحرر)) (٣٦٨)، وقال ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ١٨٧): إسناده صحيح حسن.

(٣) رواه البخاري (٢٦٨٨) واللفظ له، ومسلم (١٤٦٣).

أي: وإذا خشِيَتِ المرأةُ استعلاءً من زوجها عليها، ونفورًا منها، وانصرافًا عنها، وعدمَ رغبتِه فيها[١].

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾.

أي: فلا حَرَجَ ولا إثمَ عليهما في أن يتَّفِقا على ما يُصلِحُ الأمورَ بينهما؛ فلها أن تُسقِطَ حقَّها أو بعضَه؛ من نفقةٍ أو كسوة، أو مَبِيت، أو غيرِ ذلك من الحقوقِ عليه، على أن تبقى مع زوجها، وله أن يقبَلَ ذلك منها؛ فلا حرجَ ولا إثم عليها في بَذْلِها ذلك له، ولا عليه أيضًا في قَبولِه منها[٢].

﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

أي: إنَّ صُلحَهما على ترْكِ بعضِ حَقِّها للزَّوج، وقَبول الزَّوجِ بذلك؛ استدامةً لعقدِ النِّكاح- خيرٌ من المفارَقة بالكُلِّيَّةِ[٣].

﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾.

أي: إنَّ النُّفوسَ قد جُبِلت على الإفراطِ في الحرصِ على أشيائِها وحقوقِها، وهذا ممَّا يمنَعُ وقوعَ التَّصالُح والاتِّفاقِ؛ فعند النِّزاعِ وطلبِ المصالحة تكونُ الأنفسُ حريصةً جدًّا على ما لها من حُقوقٍ، كلُّ نفسٍ تُريد أنْ يكونَ الصُّلحُ في جانبها وفي مصلحتِها، وكأنَّ اللهَ يقول: دعُوا هذا الشُّحَّ الَّذي جُبِلَتْ عليه الأنفسُ، واطلُبوا الخيرَ في المصالَحةِ، والتَّسامُحِ عن بعض حقوقكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٨-٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور))

﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾.

أي: وإنْ تُحسِنوا- أيُّها الأزواجُ- في أفعالِكم إلى نسائِكم إذا كرِهتموهنَّ؛ بأن تتجشَّموا مشقَّةَ الصَّبرِ عليهنَّ، مع إيفائِهنَّ حقوقَهنَّ، وعِشرتِهنَّ بالمعروف، وتقسِموا لهنَّ أُسوةَ أمثالِهنَّ، وتُحِسنوا أيضًا في عبادة الخالق عمومًا، وتُحسِنوا إلى المخلوقين بجميع طُرقِ الإحسانِ، وتتَّقوا اللهَ تعالى في أزواجِكنَّ؛ بتركِ الجَوْرِ عليهنَّ فيما يجب عليكم من حقوقِهنَّ، وتتَّقوا اللهَ عمومًا، بفعلِ جميع المأمورات، وتركِ جميعِ المحظورات[1].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾.

أي: فإنَّ اللهَ تعالى بما تَعمَلون في أمورِ نِسائِكم- أيُّها الأزواجُ- من الإحسانِ إليهنَّ، والعِشرةِ بالمعروف، وتَرْكِ الجَوْرِ عليهنَّ فيما يجبُ لهنَّ، وغير ذلك ممَّا تعمَلونه، عالِمٌ بظاهرِه وباطنِه، لا يَخفَى عليه منه شيءٌ، يُحصيه، ويحفَظُه لكم، حتَّى يوفِّيَكم جزاءَ ذلك أوفرَ الجزاء[2].

﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها:

لَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى أنَّ الوقوفَ على الحقِّ فضلًا عن الإحسانِ- وإنْ كانت المرأةُ واحدةً- متعسِّرٌ، أتبَعَه أنَّ ذلك عند الجمعِ بين أكثرَ مِن واحدةٍ

(٥/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧).

أعسرُ، فقال تعالى[١]:

﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡ ﴾.

أي: ولنْ تتمكَّنوا- أيُّها الأزواجُ- من إقامة العدلِ التَّامِّ بين زوجاتِكم من جميع الجوانب، ولو كنتم حريصين على ذلك، فإنَّه وإن حصَل القَسمُ الصُّوريُّ بينهنَّ، فلا بدَّ من التَّفاوُتِ في المحبَّةِ والشَّهوةِ والجِماعِ[٢].

﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِ ﴾.

أي: فإذا مِلْتُم إلى واحدةٍ منهنَّ، فلا تبالِغوا في الميل بالكُلِّيَّة، وتميلوا ميلًا كثيرًا، حتَّى يحمِلَكم ذلك على أن تجُوروا على صواحبِها في تركِ أداء الواجب لهنَّ مِن حقٍّ في القَسْمِ لهنَّ، والنَّفقةِ عليهنَّ، والعِشرةِ بالمعروفِ، فتبقى كالمعلَّقةِ الَّتي ليست أيِّمًا ولا متزوِّجةً، فليست بالمطلَّقة الَّتي استراحَتْ، ورزَقها الله تعالى غيرَه، ولا هي بالمتزوِّجةِ الَّتي تسعَدُ بالزَّواجِ كغيرها[٣].

﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾.

أي: وإنْ تُصلِحوا أعمالَكم- أيُّها النَّاس- فتعدِلوا في قَسْمِكم بين أزواجِكم، وما فرَض الله لهنَّ عليكم من النَّفقة والعِشرة بالمعروف، فلا تجُوروا في ذلك، وتُصلِحوا أيضًا فيما بينكم وبين النَّاس، وتُصلِحوا أيضًا بين النَّاس فيما تنازعوا فيه، وتتَّقوا الله عزَّ وجلَّ في الميل الَّذي نهاكم عنه- بأن تميلوا لإحدى الزَّوجاتِ على الأخرى، فتظلِموها حقَّها- وتتَّقوا الله تعالى في جميع أمورِكم وأحوالكم

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٦٦-٥٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٧-٢٩٨).

بفعلِ ما أمَر، واجتنابِ ما نهى عنه وزجَر[١].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: فإنَّ اللهَ تعالى يَستُرُ عليكم ما سلَف منكم مِن مَيْلِكم وجَوْرِكم على زَوجاتِكم، ويتجاوَزُ عن مؤاخذتِكم بذلك، ويستُرُ ويتجاوَزُ عمَّا صدَر منكم من الذُّنوب عمومًا، وكما عطَفْتُم على أزواجِكم ورحمتموهنَّ، فاللهُ تعالى يرحَمُكم، وهو رحيمٌ بكم؛ إذ قبِلَ توبتكم، وتجاوَز عنكم[٢].

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى جواز الصُّلح إن أراد الزَّوجانِ ذلك، ذكَر في هذه الآية جوازَ المفارَقةِ إنْ رغِبَا فيها، ووعَد أن يُغنيَ كلَّ واحدٍ منهما من سَعتِه[٣]، فقال:

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾.

أي: وإذا انفصَل الزَّوجانِ عن بَعضِهما بطَلاقٍ أو فسخٍ أو خُلعٍ أو غير ذلك، فإنَّ اللهَ تعالى يعوِّضُ الزَّوجَ برزقٍ واسعٍ أو بزوجةٍ هي خيرٌ له من زوجته، ويعوِّضُها برزقٍ واسعٍ، أو بزوجٍ هو خيرٌ لها من زوجِها، وذلك مِن فضلِه وإحسانِه الواسعِ سبحانه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٦-٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٢).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى واسعٌ لهما في إغناء كلِّ واحدٍ من الزوجين وغيرهما مِن فضلِه، فهو سبحانه واسعُ الفضلِ، عظيمُ المَنِّ، وهو ذو سَعَةٍ في جميع صفاتِه؛ كالرَّحمة، والمغفرةِ، والعِلم، والقدرة، وغير ذلك مِن صفاتِه العُلى، حكيمٌ في جميع أفعالِه وأقداره وشَرْعِه، ومن ذلك أنَّه يعطي بحكمةٍ، ويمنَعُ لحكمةٍ، ومن ذلك حكمتُه فيما قضى بين الزَّوجين من الافتراق وغيره[١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- في قوله: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الصُّلحَ قد يكون ثقيلًا على النُّفوس، لكنَّ المؤمِنَ يهُونُ عليه ذلك إذا كان يؤمِنُ بأنَّ الصُّلح خيرٌ، فالإنسانُ بطبيعتِه قد يشقُّ عليه التَّنازلُ عن بعضِ حقِّه، لكنْ في المصالحة الَّتي هي خيرٌ لا بدَّ مِنْ ملاحظةِ هذا المعنى حتى يسهُلَ على النَّفس الَّتي أُحضِرتِ الشُّحَّ الموافقةُ على الصُّلحِ[٢].

٢- في قوله: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ ندَب تعالى إلى إحسانِ عِشرة النِّساء حتى مع الكراهة لهن وعدم الرغبة فيهن؛ وأمَر بالتَّقوى؛ لأنَّ الزَّوجَ قد تحمله الكراهةُ للزَّوجة على أذيَّتِها وخصومتِها[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾ يُستفادُ منه أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يستعملَ في خطابه ما يناسبُ المقامَ، فيستعمل أسلوبَ التنفيرِ فيما يُنفِّرُ منه، ويستعملَ أسلوب التَّرغيب فيما يُرغِّبُ فيه؛ فهذا من أسلوبِ الحِكمة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٢-٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٩).

٤- في قوله تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ الاستعطاف في المقامِ الَّذي ينبغي فيه العطفُ؛ لأنَّه إذا تصوَّر الإنسانُ أنَّ هذه الزَّوجةَ الَّتي مال عنها كالمعلَّقةِ بين السَّماء والأرض؛ فإنَّ هذا يوجب العطفَ عليها، والرَّأفةَ بها ورحمتَها[١].

٥- أنَّ الإصلاح والتَّقوى سببٌ للمغفرة، لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ووجهُه ظاهرٌ؛ لأنَّ الإصلاحَ خيرٌ، والحسناتِ يُذهِبْنَ السَّيِّئاتِ، ويجلُبْنَ الرَّحمةَ[٢].

٦- سدُّ باب اليأسِ مِن رحمة الله؛ حيث قال: ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ ولم يقُلْ: (يُغن كلًّا) فقط، بل قال: ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ إشارةً إلى أنَّ فضلَ الله واسع[٣].

٧- في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ إثباتُ الحكمةِ لله عزَّ وجلَّ، ويتفرَّعُ على هذا فائدةٌ عظيمةٌ مسلكيَّةٌ منهجيَّةٌ، وهي الرِّضا بقضاء الله وشرعِه، إذا علِم العبدُ أنَّ هذا صادرٌ عن حكمةٍ، حتَّى وإن كان فيه فواتُ مالٍ أو ولدٍ، فالله عزَّ وجلَّ ذو حكمةٍ عظيمةٍ فيما يُقدِّرُ[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾، عنايةُ الله عزَّ وجلَّ بما يكون بين الزَّوجين، وجهُه: أنَّ الله ذكَر هنا نشوزَ الزَّوجِ، وفي أوَّلِ السُّورة ذكَر نشوز الزَّوجة، ممَّا يدلُّ على عنايةِ الله تعالى بما يكون بين الزَّوجين؛ لأنَّ الزَّوجين هما الرَّابطةُ الَّتي تربِطُ بين الأولاد، وتربط أيضًا بين الصِّهرِ وصِهرِه، وهي أحدُ النَّوعينِ في الرَّبط؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٠٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٠٧).

مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗا ﴾[١] [الفرقان: ٥٤].

٢- العملُ بالقرائن، ويؤخَذ من قوله: ﴿خَافَتۡ﴾ ولم يقُلْ: رأَتْ نشوزًا، بل خافت، ومِن المعلومِ أنَّها لم تخَفْ مِن النُّشوز والإعراض إلَّا بوجودِ القرائنِ، والعملُ بالقرائنِ ثابتٌ بالقرآن[٢].

٣- أفاد قولُه تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا ...﴾ أنَّ عروضَ الخلافِ والكراهة، وما يترتَّب عليها من النُّشوزِ والإعراض، وسوءِ المعاشَرة لِمَن يقِفُ عند حدودِ الله، من الأمور الطَّبيعيَّة الَّتي لا يمكِنُ زوالُها من بين البشَرِ، والشَّريعةُ العادلة الرَّحيمة هي الَّتي تُراعَى فيها السُّنَنُ الطَّبيعيَّةُ، والوقائعُ الفِعليَّةُ بين النَّاس، ولا يُتصوَّرُ في ذلك أكملُ ممَّا جاء به الإسلامُ[٣].

٤- أنَّه يجوزُ أنْ يصطلحَ الزَّوجان فيما بينهما على ما شاءَا- بما لا يخالفُ الشرعَ-؛ لقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗا﴾، ويتفرَّعُ عليها أنَّه يجوز للزَّوجةِ عند المصالَحةِ أن تُسقِطَ حقَّها من القَسْمِ، وأنَّه لا حرجَ على الزوجِ في أنْ تَبقَى عنده، ويُسقِطَ بعضَ الحقِّ، إذا صالحها على إسقاطِه[٤].

٥- في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ ذكَر الله أوَّلًا قولَه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا﴾ فقولُه: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ يوهِمُ أنَّه رخصةٌ، والغايةُ فيه ارتفاعُ الإثم، فبيَّن تعالى أنَّ هذا الصُّلح كما أنَّه لا جُناحَ فيه ولا إثمَ، فكذلك فيه خيرٌ عظيمٌ، ومنفعةٌ كثيرة؛ فإنهما إذا تصالَحَا على شيءٍ، فذاك خيرٌ من أن يتفرَّقَا، أو يُقِيما على النُّشوزِ والإعراض[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٦).

٦- ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾: هذه قاعدةٌ عظيمةٌ من الرَّبِّ سبحانه، وقد يظُنُّ بعضُ النَّاس أنَّه إذا تَنازَلَ عن الحقِّ أنَّ في ذلك غضاضةً وهضمًا لحقِّه، وأنَّ العاقبةَ غيرُ حميدةٍ، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ الَّذي بيده ملكوتُ السَّمواتِ والأرضِ يقول: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾[1].

٧- قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾: يُؤخذُ مِن عمومِ هذا اللَّفظِ والمعنى: أنَّ الصُّلحَ بين مَن بينهما حقٌّ أو منازَعةٌ في جميع الأشياء أنَّه خيرٌ مِن استقصاءِ كلٍّ منهما على كلِّ حقِّه؛ لِمَا في ذلك من الإصلاح، وبقاءِ الأُلفة، والاتِّصاف بصفة السَّماح، والصلحُ جائزٌ في جميعِ الأشياء إلَّا إذا أحَلَّ حرامًا، أو حرَّمَ حلالًا، فإنَّه لا يكونُ صُلحًا، وإنَّما يكونُ جَوْرًا[2].

٨- كلُّ حُكمٍ مِن الأحكام لا يتمُّ ولا يكمُلُ إلَّا بوجودِ مقتَضِيه وانتفاءِ موانعِه؛ فمن ذلك هذا الحُكمُ الكبير الَّذي هو الصُّلح، قال سبحانه: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾، فذكَر المقتضيَ لذلك، ونبَّهَ على أنَّه خيرٌ، والخيرُ كلُّ عاقلٍ يطلُبُه ويرغَبُ فيه، فإن كان- مع ذلك- قد أَمَر اللهُ به وحثَّ عليه، ازداد المؤمنُ طلبًا له ورغبةً فيه[3].

٩- قال تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ التَّعريفُ في قوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ﴾ تعريفُ الجنسِ، وليس تعريفَ العهدِ؛ لأنَّ المقصودَ إثباتُ أنَّ ماهيَّةَ الصُّلح خيرٌ للنَّاس؛ فهو تذييلٌ للأمرِ بالصُّلحِ والتَّرغيبِ فيه، وليس المقصودُ أنَّ الصُّلحَ المذكور آنفًا- وهو الخُلعُ- خيرٌ من النِّزاع بين الزَّوجين؛ لأنَّ هذا- وإن صحَّ معناه- إلَّا أن فائدةَ الوجهِ الأوَّلِ أوفرُ، ولأنَّ فيه التَّفاديَ عن إشكالِ تفضيل الصُّلح على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

النِّزاعِ في الخيريَّةِ، مع أنَّ النِّزاعَ لا خيرَ فيه أصلًا[١].

١٠- الإحسان والتَّقوى والبِرُّ وما أشبَهَ ذلك، إذا أُفرِد أحدهما عن الآخَرِ شمِل الآخَرَ، وإن اقترنا فُسِّر كلٌّ منهما بما يليق به. ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ الإحسانُ بفعل الأوامر، والتَّقوى بترك النَّواهي، أمَّا إذا أُفرد الإحسانُ فإنَّه يشملُ فِعلَ الأوامر، وتركَ النَّواهي، وكذلك التَّقوى إذا أُفرِدَت فإنَّها تشمَلُ هذا وهذا، وهذا يوجد كثيرًا في القرآنِ الكريم، فالمسكين والفقير إذا أُفرِد أحدُهما عن الآخَرِ صار أحدُهما شاملًا للآخَر، وإن قُرِنا صار الفقيرُ له معنًى، والمسكينُ له معنًى؛ فهما ممَّا إذا اجتَمَعا افترَقا، وإذا افترَقا اجتمعا[٢].

١١- القاعدةَ الشَّرعيَّة: أنَّ ما لا يُستطاعُ لا يُلزَمُ به العبدُ. قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ...﴾[٣].

١٢- في قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ نبَّه تعالى على انتفاءِ استطاعةِ العدلِ بين النِّساء فيما لا يملكُه الزوجُ، وفي ذلك عُذْرٌ للرِّجال فيما يقعُ من التَّفاوتِ في الميل القَلْبِيِّ، والتَّعهُّدِ، والنَّظر، والتَّأنيس، والمُفاكَهة؛ فإنَّ العدل بينهنَّ في ذلك محالٌ، خارجٌ عن حدِّ الاستطاعةِ، وعلَّق انتفاء الاستطاعةِ في ذلك الأمر، على تقديرِ وجودِ الحِرص من الإنسانِ على ذلك فلذلك قال: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ وأقام الله ميزانَ العدلِ بقولِه: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾[٤].

١٣- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٨).

نهى سبحانه عن الجَوْرِ على المرغوبِ عنها، بمنعِ قسمتِها من غيرِ رضًا منها، واجتنابُ كلِّ الميلِ داخلٌ في الوُسعِ؛ ولذلك وقَع النَّهيُ عنه، أي: إنْ وقَع منكم التَّفريطُ في شيءٍ مِن المساواة، فلا تجُوروا كلَّ الجورِ[١].

١٤- يقرنُ اللهُ تعالى بين الغفور والرَّحيم في مواضعَ كثيرةٍ؛ وذلك لأنَّ بالمغفرة يزول المكروهُ، وبالرحمة يحصلُ المطلوبُ[٢].

١٥- إن قيل: ما وجهُ قولِه تعالى في الآية الأُولى: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾، وفي الثانيةِ ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ فالجوابُ عن الأُولى: أنَّ معناها: إنْ خافَت امرأةٌ مِن زوجِها ترفُّعًا أو إعراضًا، فلا إثمَ في أن يتَصالحا على أن تتركَ له مِن مهرِها، أو بعضِ أيامِها ما يتراضيان به، والصلحُ خيرٌ مِن أن يُقيما على التباعدِ، أو يصيرا إلى القطيعةِ، ونفسُ كلِّ واحدٍ منهما تشحُّ بما لها قِبَلَ صاحبِها. وقيل: المرادُ: شحُّهنَّ على النُّقصان مِن أموالهنَّ وأنصبائهنَّ مِن أزواجهنَّ، وهذا يقتضي مخاطبةَ الأزواجِ بمجانبةِ القبيحِ، وإيثارِ الحُسنَى في معاملتِهم، فبعَث اللهُ تعالى في هذا المكانِ على فعلِ الإحسانِ.

وأمَّا الثانيةُ فجاءتْ بعدَ قولِه: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ في محبتهنَّ والشهوةِ لهنَّ؛ لأنَّ ذلك ليس إليكم، وإن حرصتُم على التَّسويةِ بينهنَّ ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ بأن تجعلوا كلَّ مبيتِكم وخَلوتِكم، وجميلَ عشرتِكم، وسعةَ نفقتِكم عندَ التي تشتهونها دونَ الأُخرى، فتبقَى تلك معلَّقةً لا ذات زوجٍ ولا مطلَّقة، فاقتضَى هذا الموضعُ أن يحثَّ الأزواجَ على إصلاحِ ما كان منهم بالتوبةِ مما سلَف، واستئنافِ ما يقدرون عليه مِن العدلِ، ويملكونه مِن الخلوةِ، وسعةِ النَّفقة، وحُسنِ العِشرةِ، فقال: ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٩).

(٣) ينظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للخطيب الإسكافي(١/ ٤٠٩).

١٦- في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ رحمة الله عزَّ وجلَّ بعباده، وأنَّ المرأة والرَّجُل إذا انكسَرا بالفِراق بينهما، جبَرهما الله عزَّ وجلَّ بالإغناءِ، فيُغني كلًّا مِن سَعتِه[١].

١٧- في قوله تعالى: ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الفِراقَ قد يكون خيرًا لهما؛ لأنَّ الفِراقَ خيرٌ من سوء المعاشَرة[٢].

١٨- في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾، ناسَب ذِكرُ وصفِ الحكمةِ، وهو وضعُ الشَّيء في موضعِه المناسِب؛ لأنَّ السَّعةَ ما لم تكُنْ معها الحكمةُ كانت إلى فسادٍ أقربَ منها للصَّلاحِ[٣].

١٩- في قوله تعالى: ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ أنَّ هذه السَّعةَ الَّتي وعَد الله تعالى بالإغناء منها مبنيَّةٌ على حكمةٍ، وكأنَّ هذا- والله أعلم- إشارةٌ إلى أنَّه لو تخلَّف هذا الموعودُ، فإنَّه لن يتخلَّفَ إلَّا لحكمةٍ، فقد يمنَعُ الله سبحانه الإنسانَ ما يحِبُّ لحكمةٍ ومصلحةٍ عظيمةٍ[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾

- فيه دلالةٌ على شِدَّةِ التَّرغيبِ في هذا الصُّلح بمؤكِّداتٍ ثلاثةٍ: وهي المصدرُ المؤكِّدُ في قوله: ﴿صُلْحًا﴾، والإظهارُ في مقامِ الإضمار في قوله: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، والإخبار عنه بالمصدرِ أو بالصِّفة المشبَّهةِ؛ فإنَّها تدلُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٦).

على فِعلِ سجيَّةٍ[١].

- وقوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ جملة اعتراضيَّة[٢]، تُفيد التَّرغيبَ في أمرِ الصُّلح، والحثَّ عليه.

٢- **قوله:** ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ مؤكِّدة للمطلوب، وأفاد هذا التَّعبيرُ أنَّ الشُّحَّ حاضرٌ للأنفُس، لا يغيبُ عنها أبدًا، ولا تنفكُّ عنه، يعني: أنَّها مطبوعةٌ عليه[٣].

٣- **قوله:** ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾: فيه كنايةٌ عن وعيدٍ؛ لأنَّ الخبيرَ بفاعلِ السُّوء- وهو قَديرٌ- لا يُعوِزُه أن يُعذِّبَه على ذلك، وأُكِّدت الجملةُ بـ: (إنَّ)، و(كان)[٤].

- قوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فيه: اختصاصٌ؛ حيث خَصَّ العَملَ بالذِّكرِ[٥]؛ إذ هو مناطُ الحساب. وأيضًا فالعَملُ يَشمَلُ الفِعلَ والتَّرك؛ إذ التَّرْكُ فِعلٌ، وأدلَّة ذلك لا تَخفَى من الكِتابِ والسُّنَّة وكَلامِ العرَب[٦].

٤- **قوله:** ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ﴾ التَّعبير بـ: (لن) دون غيرها من حُروفِ النَّفيِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧١)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٦).

(٦) قال الشنقيطي: (الأفعال الاختياريَّة، وهي باستقراءِ الشرع أربعة أقسام: ... الثالث: الترك، والتحقيق أنَّه فِعلٌ، وهو كفُّ النَّفس وصرفُها عن المنهيِّ عنه... والدليلُ على أنَّ التركَ فِعلٌ: الكتابُ والسُّنَّة واللُّغة...). ((مذكرة في أصول الفقه)) (ص: ٤٦) مختصرًا، ويُنظر: ((القواعد الأصولية المؤثرة في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)) لناصر الغامدي (ص ٧٤٩ وما بعدها).

للمبالَغة في النَّفيِ[١].

٥- **قوله**: ﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ فيه: تشبيهٌ[٢]؛ حيث شَبَّه ما يفعَلُه الرَّجُلُ بامرأتِه بعد الزَّواج بأخرى مِن إهمالٍ لها، وعدمِ المراعاةِ لشؤونِها الواجبةِ عليه، بما هو مُعلَّقٌ، فلا هي ذاتُ زوجٍ، ولا هي أَيِّمٌ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٦).

الآيات (١٢١ - ١٢٤)

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ له وحده جميعَ ما في السَّموات، وجميع ما في الأرض، ولقد عهِدَ سبحانه إلى أهل الكُتب السَّابقة، وإلى المسلمين أن يتَّقوه؛ بالتزامِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه، وإن يكفُروا فإنَّ الله غنيٌّ عنهم، ولن يضرُّوا اللهَ سبحانه بذلك؛ وإنَّما يضرُّون أنفسَهم؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ له جميعُ ما في السَّموات والأرضِ، وهو الغنيُّ الحميدُ.

وللهِ ما في السَّمواتِ والأرض، وكفى به قائمًا بتدبيرِ شؤونِ خَلْقِه، إنْ يشَأْ جلَّ وعلا أنْ يُذهِبَ كلَّ النَّاس بإهلاكِهم إذا ما عصَوْه، ويأتيَ بآخرينَ أكثرَ طاعةً له، وكان سبحانه وتعالى على كلِّ شيء قادرًا.

ثمَّ حرَّض اللهُ تعالى النَّاس على أنْ يجعلوا مَقصَدَهم الأعظمَ: الفوزَ بنعيم الآخرة، مبيِّنًا أنَّ مَن كان يُريد ثواب الدُّنيا- كمن يُريد بجهاده الغنيمةَ والمنافع الدُّنيويَّة- فعند اللهِ ثوابُ الدُّنيا والآخرة، فلماذا قصَر الطَّلب على المنافعِ الدُّنيويَّة، مع أنَّ ثوابَ الآخرة خيرٌ وأبقى؟! وكان الله سميعًا لكلِّ ما يجهَرُ به النَّاس ويُسرُّونه، بصيرًا بأحوالهم الظَّاهرة والخفيَّة، وسيُجازيهم بما يستحقُّونه من ثوابٍ أو عقابٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾

مناسبة هذه الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ ذكَر هذه الآيةَ عقِبَها؛ ليُنبِّهَ خَلْقَه على موضعِ الرَّغبة عند فِراق أحدِهم زوجتَه؛ ليفزَعوا إليه عند الجزعِ من الحاجة والفاقة والوَحْشة بفِراق سَكَنِه وزوجتِه، وتذكيرًا منه له بأنه الَّذي له الأشياءُ كلُّها، وأنَّ مَن كان له مُلكُ جميع الأشياء فغيرُ مُتعذِّرٍ عليه أن يُغنيَه، ويُؤنِسَ وَحشتَه[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَر سبحانه أنَّه يُغْني كلًّا مِن سَعتِه، وأنَّه واسعٌ، أشار إلى ما هو كالتَّفسيرِ لكونِه واسعًا، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، يعني مَن كان كذلك، فإنَّه لا بدَّ أن يكونَ واسعَ القُدرة والعِلم والجُود والفضل والرَّحمة[2].

وأيضًا لَمَّا أمَر بالعدلِ والإحسانِ إلى اليتامى والمساكينِ، بَيَّن أنَّه ما أمَر بهذه الأشياءِ لاحتياجِه إلى أعمال العباد؛ لأنَّ مالكَ السَّمواتِ والأرض كيف يُعقَلُ أن يكونَ محتاجًا إلى عملِ الإنسان، مع ما هو عليه من الضَّعفِ والقُصور؟! بل إنَّما أمَر بها رعايةً لِمَا هو الأحسنُ لهم في دُنياهم وأخراهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٨).

(اقتضَتْ حِكمةُ الله في ترتيب كتابِه أنْ يَجيءَ بعد تلك الأحكام العملية في شؤونِ النِّساء واليتامى أو بعدَها وبعد ما قَبلَها من الأحكام المتعلِّقة بأهل الكتاب أيضًا، أن يعقِّبَ عليها

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ولله تعالى وحده مُلكُ جميع ما تَحويه السَّمواتُ السَّبعُ، والأَرَضون السَّبع، وهو الحاكمُ فيها، ومُدبِّرُها بجميع أنواع التَّدبير[١].

﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر سبحانه ما يتعلَّقُ بالرُّبوبيَّة، وهو مُلكُه الواسعُ العامُّ، ذكَر ما يتعلَّقُ بالألوهيَّةِ والعبادة، وهي: التَّقوى، فقال[٢]:

﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾.

أي: ولقد عهِدْنا عهدًا مؤكَّدًا إلى أهلِ الكتب السَّابقةِ، كاليهود والنَّصارى، وإليكم- أيُّها المسلِمون- بأنْ تتَّقوا اللهَ تعالى بطاعةِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه[٣].

﴿ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: وإنْ تترُكوا تقوى اللهِ تعالى، وتُشرِكوا به، فإنَّكم لا تضُرُّون بذلك إلَّا أنفسَكم، ولا تضُرُّونَ اللهَ شيئًا، ولا تنقصون شيئًا من مُلكه، وله عبيدٌ خيرٌ منكم وأعظمُ وأكثرُ، مُطِيعون له، خاضِعون لأمرِه، ولا يمتنعُ عليه شيءٌ أراده؛ من

بآياتٍ في العِلم الإلهيِّ، تُذكِّرُ المخاطَبين بتِلك الأحكامِ بعظَمتِه وسَعةِ مُلكِه واستغنائِه عن خَلقِه، وقُدرتِه على ما يشاءُ من التصرُّفِ فيهم، أو إثابتِهم على طاعتِه فيما شرَعَه لهم لخيرهم ومصلحتهم، تُذكِّرهم بذلك؛ ليزدادوا بتدبُّرِها إيمانًا يَحمِلهم على العملِ بها، والوقوفِ عندَ حدودها). ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٨-٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٨).

إعزازِ مَن أراد إعزازَه، وإذلالِ مَن أراد إذلالَه ومعاقبتَه، وغير ذلك من الأمور كلِّها؛ لأنَّ المُلكَ مُلكُه، والخَلْقَ خَلْقُه، بهم إليه الفاقةُ والحاجةُ، وبه قِوامُهم، وبقاؤُهم وفَناؤُهم(١).

كما قال تعالى إخبارًا عن موسى عليه السَّلام أنَّه قال لقومه: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وقال جلَّ وعلا: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾.

أي: وهو الغنيُّ الَّذي له الجودُ الكامل، والإحسان الشَّامل، الصَّادر من خزائن رحمتِه، الَّتي لا ينقُصُها الإنفاقُ؛ فلا حاجةَ به إلى شيءٍ ولا لأحدٍ، ومِن تمامِ غناه كمالُ أوصافِه سبحانه، وهو المحمودُ على غِناهُ وجميعِ صفاتِه، وعلى جميع ما يُقدِّره ويشرَعُه، قد استحَقَّ منكم- أيُّها الخلقُ- الحمدَ على صنائعِه الحميدةِ إليكم، وآلائِه الجميلة الَّتي أنعَم بها عليكم، وهو الحامدُ لِمَن يستحقُّ الحمدَ مِن عباده(٢).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أعادَ تذكيرَهم بكونِه مالكَ السَّمواتِ والأرضِ؛ أي: العوالمِ كلِّها؛ ليتمثَّلوا عظمتَه، ويستحضروا الدَّليلَ على غناه وحمدِه؛ فيعلَموا أنَّه إذا كان قد توكَّل بإغناءِ كلٍّ مِن الزَّوجين إذا أقامَا حدودَه في تفرُّقِهما، فإنَّه قادرٌ على ذلك، كما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٠-٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧-٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١١-٣١٢).

أنَّه قادرٌ على إنجازِ كلِّ ما وعَد وأوعَد به، فيجبُ أن يكتفوا به في التَّوكُّلِ لهم[١].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾.

أي: وللهِ تعالى مُلكُ جميعِ ما تحويه السَّمواتُ والأرض، القيِّمُ بجَميعِه، الحافظُ والمدبِّرُ له بعلمِه وقدرتِه وحكمتِه، الرَّقيبُ الشَّهيدُ على كلِّ شيءٍ سبحانه[٢].

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ١٣٣﴾

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾.

أي: إنْ يشَأِ اللهُ تعالى يُذهِبْكم- أيُّها النَّاس- بإهلاكِكم وإفنائِكم إذا عصَيْتموه، ويأتِ بناسٍ آخرينَ غيرِكم، هم أتْقَى وأطوعُ للهِ عزَّ وجلَّ منكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٍ جَدِيدٖ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو قُدرةٍ تامَّةٍ على إهلاكِكم وإفنائِكم، واستبدالِ آخرين بكم[٤].

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٠-٥٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٥-٣١٦).

بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان شأنُ التَّقوى عظيمًا على النُّفوس؛ لأنَّها يَصرِفُها عنها استعجالُ النَّاس لمنافعِ الدُّنيا على خيراتِ الآخرة- نبَّهَهم اللهُ تعالى إلى أنَّ خيرَ الدُّنيا بيده، وخير الآخرة أيضًا، فإنِ اتَّقَوه نالُوا الخَيْرَيْنِ[1] فقال:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

أي: مَن كانت هِمَّتُه وإرادتُه دنيَّةً غيرَ متجاوزةٍ ثوابَ الدُّنيا، الَّتي لا يحصُل له منها سوى ما كتَبَ اللهُ له وليس له إرادةٌ في الآخرة، فليعلَمْ أنَّ عند الله تعالى خيرَ الدُّنيا والآخرة، فإنَّه إذا سأَله مِن هذه وهذه أعطاه وأغناه، فلا يقتصِرَنَّ قاصرُ الهمَّةِ على السَّعيِ للدُّنيا فقط، بل ليطلُبْهما منه، ويَسْتَعِنْ به عليهما، مفتقِرًا إليه على الدَّوام[2].

كما قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۞ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى سامعٌ لكلِّ شيء، بصيرٌ مُطَّلِعٌ على كلِّ شيء سبحانه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨).

(٣) يُنظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٢-٣٢٤).
ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨).

الفَوائِد التربويَّة:

١- أهميةُ تقوى الله عزَّ وجل؛ لأنَّه أوصى بها الأوَّلِينَ والآخِرينَ؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[1].

٢- قوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الإخبارُ بأنَّ اللهَ أوصى الَّذين أوتوا الكتابَ من قبلُ بالتقوى: مقصودٌ منه إلهابُ هِمَمِ المسلمين للتَّهمُّمِ بتقوى الله؛ لئلَّا تفضُلَهم الأممُ الَّذين من قبلِهم مِن أهلِ الكتاب؛ فإنَّ للائتساءِ أثرًا بالغًا في النُّفوس؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[2] [البقرة: ١٨٣].

٣- تكرَّرَ كثيرًا في هذه السُّورة الأمرُ بالاتِّقاءِ، وبه افتُتِحَتْ: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ لكثرةِ ما يعرِضُ مِن رعيِ حظوظِ النُّفوس عند الزَّوجية ومع القرابة، ولكونه يدِقُّ ويغمُضُ[3].

٤- قال تبارَك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: التَّقوى المأمورُ بها هنا منظورٌ فيها إلى أساسِها، وهو الإيمانُ بالله ورُسُله؛ ولذلك قُوبِلت بجملة: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وبيَّن بها عدمَ حاجته تعالى إلى تقوى النَّاس، ولكنَّها لصلاح أنفسهم؛ كما قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[4] [الزمر: ٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٠).

٥- في قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ جعَل الأمر بالتَّقوى وصيَّة؛ وهي الأمرُ المؤكَّد، والشَّأنُ في الوصية إيجازُ القول؛ لأنَّها يُقصَد منها وعيُ السَّامع، واستحضارُه كلمةَ الوصيَّة في سائر أحواله، والتَّقوى تجمع الخيراتِ؛ لأنَّها امتثال الأوامر، واجتناب المناهي؛ ولذلك قالوا: ما تكرَّر لفظٌ في القرآن ما تكرَّر لفظ التَّقوى[١].

٦- في هذه الآيةِ كمالُ مراقبةِ الله عزَّ وجلَّ لعباده؛ لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، وأنَّ فيها الكفايةَ عن كلِّ مراقب[٢].

٧- قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ في قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ تبكيتٌ لمن اقتصَر على أحدِ السُّؤالين مع كون المسؤول مالكًا للثَّوابين، وحثٌّ على أن يُطلَبَ منه تعالى ما هو أكملُ وأفضل من مطلوبه؛ فمن طلب خسيسًا مع أنَّه يمكنُه أنْ يطلب نفيسًا فهو دَنيءُ الهِمَّة[٣].

٨- قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ يجوز أن تكونَ الآية تعليمًا للمؤمنين ألا يصُدَّهم الإيمانُ عن طلب ثوابِ الدُّنيا؛ إذ الكلُّ من فضل الله، ويجوز أن تكونَ تذكيرًا للمؤمنين بألَّا يُلهيَهم طلبُ خير الدُّنيا عن طلَب الآخرة؛ إذ الجمعُ بينهما أفضلُ، وكِلاهما من عند الله[٤].

٩- ترتيبُ الثَّوابِ والجزاء على النِّيَّة؛ لقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾، وعلى هذا فيجب على الإنسان أن يصحِّح نيَّتَه تمامًا، وألَّا ينويَ بعمل الآخرة إلَّا الآخرةَ،

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٤/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٣).

أمَّا عملُ الدُّنيا فهو للدُّنيا[١].

١٠- في قوله تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أنَّ الَّذي يعطي الثَّوابَ هو الله عزَّ وجلَّ لا غيرُه؛ فعند الله ثواب الدُّنيا والآخرة، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة: ألَّا نعتمدَ فيما نرجوه من ثواب الدُّنيا والآخرة إلَّا على ربِّنا عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه هو الَّذي بيدِه الأمورُ سبحانه وتعالى[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيه أنَّ الأمرَ بتقوى الله شريعةٌ عامَّةٌ لجميع الأُمَم، لم يلحَقْها نَسْخٌ ولا تبديلٌ، بل هو وصيَّةُ الله في الأوَّلِين والآخِرين[٣].

٢- قال تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾، ومِن تمامِ غناه أنَّه كاملُ الأوصاف؛ إذ لو كان فيه نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، لكان فيه نوعُ افتقار إلى ذلك الكمالِ، بل له كلُّ صفةِ كمالٍ، ومن تلك الصفةِ كمالُها، ومن تمام غناه أنَّه لم يتَّخِذْ صاحبةً ولا ولدًا، ولا شريكًا في مُلكِه ولا ظهيرًا، ولا مُعاونًا له على شيءٍ من تدابير مُلكِه، ومن كمالِ غناه افتقارُ العالَم العُلويِّ والسُّفليِّ في جميع أحوالِهم وشؤونِهم إليه، وسؤالُهم إيَّاه جميعَ حوائجِهم الدَّقيقةِ والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم وأقناهم، ومَنَّ عليهم بلُطفِه وهداهم[٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ والحميدُ من أسماء الله تعالى الجليلةِ، الدَّالُّ على أنَّه هو المستحِقُّ لكلِّ حمد ومحبَّةٍ وثناء وإكرام؛ وذلك لِمَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨).

اتَّصَف به من صفاتِ الحمد، الَّتي هي صفةُ الجمال والجلال، ولِمَا أنعَم به على خَلْقِه من النِّعمِ الجِزال؛ فهو المحمودُ على كلِّ حال[١].

٤- إثباتُ المشيئةِ لله، وتؤخَذُ من قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، والمشيئةُ الثَّابتة لله ليست مشيئةً مطلَقة مجرَّدة عن الحكمة، بل هي مشيئةٌ مقرونةٌ بالحكمة، فكلُّ شيءٍ علَّقه اللهُ بالمشيئة، فالمراد المشيئةُ الَّتي تقتضيها الحكمةُ، بدليلِ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، فدلَّ ذلك على أنَّ مشيئةَ الله مقرونةٌ بالعِلم والحكمة[٢].

٥- في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ الرَّدُّ على الجبريَّة؛ وذلك بإثباتِ الإرادة للعبدِ، والجبريَّةُ يقولون: إنَّ العبدَ ليس له إرادةٌ، وأنَّه مجبَرٌ على عملِه، وهذه الآية وغيرها تردُّ عليهم[٣].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ إثباتُ اسمينِ من أسماء الله، هما (السَّميع) و(البصير)، وإثبات ما يترتَّب عليهما من وصفِ (السَّمع) و(البصر)، وإثبات ما يترتَّب عليهما من أثرٍ، وهو أنَّه يسمَعُ ويُبصِرُ[٤].

٧- قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ يدلُّ على أنَّ الإسلامَ يَهدي أهلَه إلى سعادةِ الدَّارينِ[٥].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٧٠).

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ۞ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

- قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: جملةٌ مستأنَفةٌ منبِّهةٌ على كمالِ سَعتِه، وعِظَم قُدرتِه، وهي كنايةٌ عن عظيمِ سلطانه واستحقاقِه للتَّقوى[1].

- وتَكرَّر قولُه تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ثَلاثَ مرَّاتٍ في آيتينِ مُتتالتَينِ هُما قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ۞ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾؛ وفائدةُ هذا التكرار تقريرُ ثلاثةِ أمورٍ:

الأوَّل: أنَّه تعالى قال: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾، والمرادُ منه كونُه تعالى جوادًا مُتفضِّلًا، فذَكَر عقيبَه قولَه: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، والغرضُ تقريرُ كونِه واسعَ الجودِ والكرمِ؛ ففيه تَنبيهٌ على مَوضعِ الرَّجاءِ لهذَينِ المفترقين.

الثاني: أنَّه قال: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، والمرادُ منه أنَّه تعالى مُنزَّهٌ عن طَاعاتِ المطيعِينَ وعن ذُنوبِ المذنبِينَ؛ فلا يَزدادُ جلالُه بالطاعاتِ، ولا يَنقُصُ بالمعاصِي والسيِّئات، والغرضُ منه تقريرُ كونِه غَنيًّا لذاتِه عن الكلِّ؛ فجاء قولُه: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تَنبيهًا على استغنائِه سبحانَه عن العِباد، ومُقدِّمةً للخبر بكونِه غنيًّا حميدًا.

الثَّالث: أن قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٩-٢٢١)

الموضع الثالث مُقدِّمةٌ للوعيدِ الذي بعدَه وهو قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾، والمرادُ منه أنَّه تعالى قادرٌ على الإفناءِ والإيجادِ؛ فإنْ عَصيْتُموه فهو قادرٌ على إعدامِكم وإفنائِكم بالكُليَّةِ، وعلى أنْ يُوجِدَ قَومًا آخَرين يَشتغِلون بعُبوديَّتِه وتَعظيمِه؛ فالغرضُ هاهنا تقريرُ كونِه سبحانه وتعالى قادرًا على جميعِ المقدوراتِ.

فظهر أنَّ هذا التكريرَ في غايةِ الحُسنِ والكمالِ؛ لأنَّ الدليلَ الواحدَ إذا كان دليلًا على مدلولاتٍ كثيرةٍ؛ فإنَّه يَحسُن ذِكرُ ذلك الدليلِ؛ ليستدلَّ به على أحدِ تلك المدلولات، ثم يَذكُره مرَّةً أخرى ليستدلَّ به على الثاني، ثم يذكره ثالثًا ليستدلَّ به على المدلولِ الثَّالث، وهذه الإعادةُ أَحْسَنُ وأَوْلى مِن الاكتفاءِ بذِكر الدليلِ مَرَّةً واحدة، لأنَّه عند إعادة ذِكر الدليلِ يَخطُر في الذِّهن ما يُوجِبُ العلمَ بالمدلولِ؛ فكان العلمُ الحاصلُ بذلك المدلولِ أقوى وأَجْلَى[1].

٢- **قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾**: التَّعبير بصِيغة (فعيل) ﴿قَدِيرًا﴾؛ للمبالغةِ، وتبيينِ بليغِ القدرةِ، وأنَّه سبحانه لا يُعجِزُه مرادٌ[2].

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٢١-١٢٢)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٩). وينظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩١-٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٣).

الآيات (١٢٥ - ١٢٧)

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ قَوَّٰمِينَ ﴾: جمْع قوَّام، وهو مُبالغةٌ من قائِم، وأصل (قوم): مراعاةُ الشَّيء وحِفظه[1].

﴿ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴾: أي: مَيْلَ النَّفسِ إلى الشَّهوةِ، وأصلُ (هَوِيَ): الخُلوُّ والسُّقوط؛ ولذلك يُقال للآراءِ الزائفة: أهواءٌ[2].

﴿ تَلۡوُۥٓاْ ﴾: تَقْلِبوا الشَّهادةَ، وهو أنْ يلويَ الشَّاهدُ لِسانَه بالشَّهادة إلى غير الحقِّ بالتَّحريفِ والزِّيادة، والميلِ إلى أحدِ الخَصْمين، وأصلُ (اللَّيِّ): فتلُ الحبلِ، وإمالة الشَّيء كذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص:٧٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤، ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((تذكرة الأريب))

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْ﴾

قوله: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾

﴿شُهَدَآءَ﴾: منصوبٌ على أنَّه خبرٌ ثانٍ لـ(كان) في قوله: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ﴾، أو يكون ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ منصوبًا على أنَّه حالٌ من الضَّمير المستكنِّ في ﴿قَوَّٰمِينَ﴾، وقيل: إنَّ ﴿شُهَدَآءَ﴾ نعتٌ لـ: ﴿قَوَّٰمِينَ﴾، و﴿لِلَّهِ﴾: جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّق بـ﴿شُهَدَآءَ﴾[1].

قوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْ﴾

﴿أَن تَعۡدِلُواْ﴾: مصدرٌ مؤوَّلٌ بالصَّريح، أي: (عَدْلَكم)، وهو في محلِّ نصْبٍ على أنَّه مفعولٌ مِن أجلِه، على حَذْف مضاف، والتَّقدير: فلا تتَّبِعوا الهوى إرادةَ أنْ تَعدِلوا عن الحقِّ وتَجورُوا. ويجوزُ أنْ يُعرَبَ على إسقاطِ حرْفِ الجرِّ وحذْف (لا) النَّافية، والأصل: فلا تتَّبِعوا الهوى في ألَّا تعدِلوا، أي: في تَرْكِ العدلِ، فحذف (لا)؛ لدلالةِ المعنى عليها، ولَمَّا حُذِفَ حرفُ الجرِّ مِن (أنْ) جرَى القولانِ الشَّهيران في موقِع إعرابه (النَّصب- والجرُّ)، وقيل غير ذلك[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ المؤمنين أنْ يَعدِلوا في جميعِ أحوالهم؛ في حقوقِ الله تعالى،

لابن الجوزي (ص: ٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٩)، (التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١٣-١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٧-٣٩٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١٧-١١٨).

وفي حقوق الخَلْق، وأنْ يُؤدُّوا الشَّهادة ابتغاءَ وجه الله، ولو كانتِ الشَّهادةُ على أنفسِهم، أو والديهم، أو قَراباتهم، ولا تَستميلهم في أدائها أيُّ دوافع أخرى، فلا يراعوا غنيًّا لغناه، ولا فقيرًا شفقةً به فيجوروا بالشَّهادة، بل أَمرُ كلٍّ مِن الغنيِّ والفقير إلى الله، فهو سبحانه أَوْلى بهما، وأعلمُ بما فيه صلاحهما، ونهى الله المؤمنين أنْ يحملَهم الهوى على مجانبة العدلِ، فإنْ حصَل منهم تحريفٌ أو تغييرٌ متعمَّدٌ للشَّهادة، أو أعرَضوا عنها بكتمانها أو ترْكها، فإنَّ الله تعالى خبيرٌ بما عمِلوه، سيحفَظُه ويجازيهم به.

ثمَّ يأمرُ الله المؤمنين بتَحقيقِ الإيمان به سبحانه وتعالى، وبنبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبالثَّبات والاستمرار عليه، وإكمال ما نقص من الدِّين، وأن يؤمنوا بالقرآنِ الكريم، وما أنزَله الله من الكتب السَّابقة، ومن يكفُرْ بالله تعالى وملائكته وكُتبه ورُسله واليومِ الآخِرِ فقد ضلَّ عن الطَّريق المستقيم، وانحرَف عنه انحرافًا بعيدًا.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّ مَن كان مؤمنًا ثمَّ كفر، ثمَّ عاد للإيمان ليرجعَ بعد ذلك إلى الكفر، ويستمرَّ عليه ويزدادَ كفرًا، لم يكُنِ الله تعالى ليغفرَ له، ولا ليوفِّقَه لطريق الحقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تقدَّم ذِكر النِّساء والنُّشوزِ، والمصالَحة بينهنَّ وبين الأزواج، عَقَّبه بالأمرِ بالقيامِ بأداءِ حقوقِ اللهِ تعالى، وبالشَّهادةِ؛ لإحياءِ حقوق الله[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى طالِبَ الدُّنيا، وأنَّه سبحانه عندَه ثوابُ الدُّنيا والآخرة، ذكَر عَقِيبه هذه الآيةَ، وبيَّن أنَّ كمالَ سعادةِ الإنسانِ في أنْ يكونَ قولُه لله، وفِعلُه لله، وحركَتُه لله، وسُكونه لله[٢].

وأيضًا لَمَّا تقدَّم في هذه السُّورة أمرُ النَّاس بالقِسطِ وبالإشهاد عند دفْع أموال اليتامى إليهم، وأمرُهم بعد ذلك ببَذْل النَّفس والمال في سبيل الله، ثمَّ إنَّه تعالى أمَر في هذه الآيات بالمصالحة مع الزَّوجة، ومعلومٌ أنَّ ذلك أمرٌ من الله لعباده بأن يكونوا قائمينَ بالقِسط، شاهدينَ لله على كلِّ أحد، بل وعلى أنفسهم، فكانت هذه الآيةُ كالمؤكِّدِ لكلِّ ما جرى ذِكرُه في هذه السُّورة من أنواع التَّكاليفِ[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾.

أي: ليكُنْ مِن أخلاقِكم وصفاتكم- أيُّها المؤمنون- القيامُ بالعدلِ في كلِّ أحوالكم، في حقوق اللهِ، وفي حقوقِ عباده[٤].

﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾.

أي: ليكُنْ أداءُ الشهادةِ بالعدلِ ابتغاءَ وجهِ الله تعالى، لا يحمِلُكم على ذلك رياءٌ، ولا سُمعةٌ، ولا غيرُ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٤-٣٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾.

أي: ولو كانت شَهادتُكم على أنفسِكم، أو على والديكم، أو أقربائكم، فقُوموا فيها بالعدل، وقولوا فيها الحقَّ، ولو عاد ضررُها عليكم؛ فإنَّ الحقَّ حاكمٌ على كلِّ أحد، ومُقدَّمٌ على كلِّ أحد(١).

﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا﴾.

أي: فلا تراعوا الغنيَّ لغناه، ولا الفقير لفقرِه؛ شَفقةً عليه، ورحمةً له فتجُوروا؛ فإنَّ أمرَهما إلى خالقِهما ومالكِهما؛ فهو سبحانه أَوْلى وأحقُّ بهما منكم، وأعلمُ بما فيه صلاحُهما(٢).

﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْ﴾.

أي: فلا يَحملَنَّكم هوَى أنفُسِكم المعارضُ للحقِّ على ترْكِ العدل؛ فإنَّكم إنِ اتَّبعتم أهواءَكم عدَلْتُم عن الصَّواب، ووقَعتم في الجَوْرِ والظُّلم(٣).

سورة النساء)) (٢/ ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٥).

قال الرازي: (شهادةُ الإنسانِ على نفْسِه لها تفسيران:

الأوَّل: أن يُقرَّ على نفْسه؛ لأنَّ الإقرارَ كالشهادة في كونه موجِبًا إلزامَ الحقِّ. والثاني: أنْ يكون المرادُ: وإنْ كانت الشهادة وبالًا على أنفسكم وأقاربكم، وذلك أنْ يَشهَدَ على مَن يتوقَّع ضَرره مِن سُلطان ظالِم أو غيره) ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٤-٥٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٥، ٥٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨-٢٠٩).

وقولُه: ﴿أَن تَعۡدِلُواْ﴾ إمَّا مِن العدلِ، وهو القِسْط، ويكونُ التَّقديرُ على ذلك: فلا تتَّبعوا الهوَى كراهةَ أن تعدِلوا بينَ النَّاس. أو مِن العُدولِ عن الحقِّ، ويكونُ التَّقْديرُ: فلا تتَّبعوا الهوَى مخافةَ أن تعدلوا عن الحقِّ، أو كراهةَ أن تعدلوا عن الحقِّ. وقيل غير ذلك. ينظر: ((تفسير أبي حيان))

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

بعدَ أنْ أمَر الله تعالى ونهى وحذَّر، عقَّب ذلك كلَّه بالتَّهديد[١].

وأيضًا لما بيَّن أنَّ الواجبَ القيامُ بالقسطِ نهَى عمَّا يضادُّ ذلك[٢]، فقال:

﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟﴾ قراءتان:

١- قراءة ﴿تَلُوا﴾ من الولاية، والمعنى: إنْ وُلِّيتم إقامةَ الشَّهادة أو وُلِّيتُم الأمرَ[٣].

٢- قراءة ﴿تَلْوُوا﴾ من لويتُ فلانًا حقَّه ليًّا، أي: دافَعْتَه وماطَلْتَه، والمعنى: وإنْ تَلْووا ألسنتكم عن شَهادةِ الحقِّ، أو حكومةِ العَدْل[٤].

﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾.

(٤/ ٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٦٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٨).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٠٨).

(٣) قرأ بها ابن عامر وحمزة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٠)
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٢٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١٨-١١٩)،

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٢٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١٨-١١٩)،

أي: وإنْ تُحرِّفوا الشَّهادة وتُغيِّروها، أو تُعرضوا عنها بكتمانِها وتركِها[١].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾.

أي: فإنَّ الله محيطٌ بما تفعَلون، ويعلَمُ ما ظهَر وما بطَن؛ مِن إقامتِكم الشَّهادةَ بالباطلِ، وتحريفِكم إيَّاها أو كِتمانِكم لها، فيَحفظ ذلك عليكم ويُجازيكم به[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى المؤمنينَ بالقيامِ بالقِسطِ والشَّهادةِ لله، بيَّن أنَّه لا يتَّصِفُ بذلك إلَّا مَن كان راسخَ القدَمِ في الإيمان بالأشياء المذكورة في هذه الآيةِ؛ فالإيمانُ هو الحامِلُ على ذلك، وهو الجامعُ لمعاني القيامِ بالقِسط والشَّهادة لله؛ فأمَر بأن يؤمنوا باللهِ والمُبلِّغ والكتابِ النَّاهج لشرائعه، ويدوموا على إيمانهم، ويَحذَروا مساربَ ما يُخلُّ بذلك[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: حقِّقوا- أيُّها المؤمنون- إيمانَكم بالله تعالى وبمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأكمِلوا ما نقَصَ لدَيكم منه، واثبُتوا واستمرُّوا عليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٢٥، ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٢). ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٣٤). ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين-

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

أي: وآمِنوا أيضًا بالقرآن[١].

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: وآمِنوا أيضًا بالكُتب السَّابقة الَّتي أنزَلها اللهُ تعالى[٢].

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾.

أي: ومَن يكفُرْ بالله تعالى، وملائكتِه، وبما أنزله مِن كتبٍ، وبمَن بعَثهم من الرُّسلِ، وباليوم الآخِرِ، فقد خرَج عن الصِّراط المُستقيم، وانحرَف عن طريقِ الحقِّ والهدى انحرافًا بعيدًا[٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بالإيمانِ، ورغَّب فيه، بيَّن فسادَ طريقةِ مَن يكفُرُ بعد

سورة النساء)) (٢/ ٣٣٠-٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة))

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩).

قال ابن عثيمين: (الضلالُ البعيد يعودُ على كلِّ من كفَر بالأربعِ، أو بواحدٍ منها؛ لأن الذي يؤمِنُ ببعضٍ ويكفُرُ ببعضٍ كالذي كفَرَ بالكلِّ) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٥).

الإيمان، وأنَّه لا يغفِرُ له[١] فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا ﴾.

أي: مَن تَكرَّر منه الكفرُ بعدَ الإيمان، فدَخَل في الإيمان ثمَّ رجع عنه، ثمَّ عاد فيه ثمَّ رجَع عنه، واستمرَّ على كفرِه، وازداد منه[٢].

﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ ﴾.

أي: لم يكُنِ الله تعالى ليستُرَ عليهم كُفرَهم وذُنوبِهم، ويَتجاوزَ عن عُقوبتِهم؛ فإنَّ مَن كان هذا حالَه فهو بعيدٌ من المغفرةِ؛ لإتيانِه بأعظمِ مانعٍ يمنَعُه مِن حُصولها؛ فكُفرُه يكونُ عقوبةً وطبعًا لا يزول حتَّى مماتِه[٣].

﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴾.

أي: ولم يكُنِ اللهُ عزَّ وجلَّ ليُسدِّدَهم لإصابةِ طريق الحقِّ والهدى، فيوفِّقَهم لها[٤].

الفوائد التَّربويَّة:

١- القيامُ بالقِسطِ من أعظم الأمورِ، وأدلُّ على دِينِ القائم به، وورعِه ومقامِه في الإسلام، فيتعيَّنُ على مَن نصح نفسَه، وأراد نجاتَها، أن يهتمَّ له غايةَ الاهتمام،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٩).

وأن يجعَلَه نُصْبَ عينيه، ومحَلَّ إرادتِه، وأن يزيلَ عن نفسه كلَّ مانعٍ وعائق يعُوقُه عن إرادة القِسطِ، أو العمل به، قال تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾[١].

٢- الإشارةُ إلى الإخلاص في أداءِ الشَّهادة؛ لقوله: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، فينبغي أن يُؤدِّيَها المسلمُ قُربةً إلى الله عزَّ وجلَّ، مخلِصًا بها للهِ؛ بامتثال أمرِه بأدائها[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْ﴾ فيه تحريمُ اتِّباع الهوى الَّذي يُخالِفُ العدلَ، والهوى لا يُذَمُّ مطلَقًا، ولا يُحمَدُ مطلقًا، فإذا كان الهوى تبعًا لِمَا جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فهو محمودٌ، وإذا كان مخالِفًا له فهو مذمومٌ[٣].

٤- وجوبُ الثَّباتِ على الإيمانِ، وتَكميلِه؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٤].

٥- أنَّه يجبُ على الإنسان أنْ يَحذَرَ من التَّردُّدِ والتَّقلُّب؛ فإنَّ الغالبَ أنَّ مَن هذه حالُه لا يبارَكُ له في عمره، ولا في عملِه، فكونُه كلَّ يوم له رأيٌ، وكلَّ يومٍ له عَمَل، هذا لا شكَّ أنَّه يضيعُ عليه الوقتُ، ولا يستفيدُ مِن عُمرِه شيئًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾[٥].

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- وجوبُ إقامةِ الشَّهادة؛ لقوله: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣٧).

٢- قال تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ مِن أعظمِ أنواع القِسطِ: القِسطُ في المقالات والقائلين، فلا يَحكُمُ لأحدِ القولين أو أحدِ المتنازعَيْن لانتسابِه أو مَيلِه لأحدِهما، بل يَجعل وِجهتَه العدلَ بينهما، ومن القِسطِ: أداءُ الشَّهادة الَّتي عندك على أيِّ وجهٍ كان، حتَّى على الأحبابِ، بل على النَّفس؛ ولهذا قال: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا﴾[1].

٣- وجوبُ العدلِ في الشَّهادة، بحيث لا يزيدُ فيها ولا يَنقُص، ولا يأبى أن يؤدِّيَها عند الحاجةِ إليها؛ لأنَّ هذا كلَّه داخلٌ في قوله: ﴿قَوَّٰمِينَ﴾[2].

٤- أوجَب اللهُ تعالى العدلَ لكلِّ أحدٍ على كلِّ أحدٍ في كلِّ حالٍ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[3].

٥- وجوبُ الإقرار على مَن عليه حقٌّ؛ لقوله: ﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾، فيجبُ على الإنسانِ أن يُقرَّ بالحقِّ الَّذي عليه، ولو كان مُرًّا[4].

٦- وجوبُ الشَّهادة على الوالدَيْنِ والأقربين بما يلزَمُهم؛ لقوله: ﴿أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾، وعلى هذا فتُقبَلُ شَهادة الولدِ على والدَيْه[5].

٧- قوله: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ جاء هذا التَّرتيبُ في الاستقصاءِ في غايةٍ مِن الحُسنِ والفصاحة، فبدأ بقوله:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٧).

(٣) ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص:٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٨).

﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ لأنه لا شيءَ أعزُّ على الإنسانِ مِن نفسه، ثمَّ ذكَر الوالدَين، وهما أقربُ إلى الإنسان، وسبب وجوده، وقد أمر ببِرِّهما وتعظيمِهما، والحوطة لهما، ثمَّ ذكَر الأقربينَ، وهم مَظِنَّة المحبَّة والتَّعصُّب، وإذا كان هؤلاء أُمِر في حقِّهم بالقِسط والشَّهادة عليهم، فالأجنبيُّ أحرى بذلك[1].

٨- في قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ قدَّم الأمْرَ بالقيام بالقِسط على الأمر بالشَّهادة؛ لوجوهٍ:

الأول: أنَّ أكثرَ النَّاس عادتُهم أنَّهم يَأمرون غَيرَهم بالمعروف، فإذا آلَ الأمرُ إلى أنفسهم ترَكوه، حتَّى إنَّ أقبحَ القبيحِ إذا صدَر عنهم كان في مَحلِّ المسامحةِ، وأَحْسَنَ الحُسنِ إذا صدَر عن غيرِهم كان في محلِّ المنازَعة!

الثاني: أنَّ القيامَ بالقِسط عبارةٌ عن دفعِ ضررِ العقابِ عن الغير، وهو الَّذي عليه الحقُّ، ودفعُ الضَّررِ عن النَّفس مقدَّم على دفعِ الضَّررِ عن الغير.

الثالث: أنَّ القيام بالقِسط فِعلٌ، والشَّهادةُ قولٌ، والفعلُ أقوى من القول[2].

٩- أنَّ اللهَ سبحانه نهى عن المحاباةِ للغِنى أو للفَقْر، وتؤخَذُ من قوله: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا﴾؛ فاللهُ سبحانه هو الوليُّ على كلِّ أحدٍ، فلا تُحابِ أحدًا لغناه ولا لفقره؛ فالله وليُّ الجميعِ[3].

١٠- قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا﴾ المقصودُ من ذلك التَّحذيرُ مِن التَّأثُّر بأحوالٍ يلتبس فيها الباطلُ بالحقِّ لِمَا يحفُّ بها من عوارضَ يُتوهَّمُ أنَّ رعيَها ضربٌ مِن إقامةِ المصالح، وحراسةِ العدالة، فلمَّا أبطَلَتِ الآيةُ الَّتي قبلها وهي قولُه تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٥)

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٨).

عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ التَّأثُّرَ للحمِيَّةِ أُعْقِبت بهذه الآيةِ لإبطالِ التَّأثُّرِ بالمظاهر الَّتي تستجلبُ النُّفوسَ إلى مراعاتِها، فيتمحَّض نظرُها إليها، وتُغضِي بسببِها عن تمييز الحقِّ من الباطل، وتذهل عنه، فمن النُّفوس مَن يتوهَّمُ أنَّ الغنى يربأُ بصاحبه عن أخذِ حقِّ غيره، يقول في نفسه: هذا في غُنْيَةٍ عن أكلِ حقِّ غيره، وقد أنعَم الله عليه بعدم الحاجة، ومِن النَّاس مَن يميل إلى الفقير رقَّةً له، فيحسبه مظلومًا، أو يحسب أنَّ القضاءَ له بمالِ الغنيِّ لا يضرُّ الغنيَّ شيئًا؛ فنهاهم اللهُ عن هذه التَّأثيراتِ بكلمةٍ جامعة، وهي قوله: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا ﴾[1].

١١- في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا ﴾ تحريمُ ما يسمَّى بالاشتراكيَّة؛ لأنَّ دعاة الاشتراكيَّة يقولون: إنَّنا نريد أن نرحَمَ الفقير، فنأخُذ من مالِ الغنيِّ، ونعطيه الفقيرَ رحمةً به، فيقال: إنَّ اللهَ أَوْلى به منكم، والله عزَّ وجلَّ له الحكمةُ في جَعْل النَّاس بعضُهم فقيرٌ وبعضُهم غنيٌّ[2].

١٢- بيَّن الله وجوب القيام بالقِسط، ونهى عمَّا يضادُّ ذلك في قوله: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ ﴾، وهو ليُّ اللِّسان عن الحقِّ في الشَّهادات وغيرِها، وتحريف النُّطق عن الصَّواب المقصود من كلِّ وجه، أو من بعض الوجوه، ويدخُلُ في ذلك تحريفُ الشَّهادة وعدمُ تكميلِها، أو تأويل الشَّاهد على أمرٍ آخَرَ، فإنَّ هذا مِن اللَّيِّ؛ لأنَّه الانحرافُ عن الحقِّ[3].

١٣- الشَّهادةُ لا بدَّ فيها مِن عِلْم الشَّاهدِ وصِدْقِه وبيانِه؛ ولا يَحصُلُ مقصودُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩).

الشَّهادةِ إلَّا بهذه الأمورِ؛ ولهذا ذَمَّ سبحانَه مَن يَكتُمُ ويُحرِّفُ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾[1].

١٤- ذكَر الله تعالى في مراتبِ الإيمان أمورًا ثلاثةً: الإيمان بالله وبالرَّسول وبالكتُب، وذكَر في مَراتبِ الكفر أمورًا خمسةً: الكفر بالله وبالملائكة وبالكتُب وبالرُّسل وباليومِ الآخِر؛ وذلك أنَّ الإيمانَ بالله وبالرُّسل وبالكتُب متى حصَل فقَدْ حصَل الإيمانُ بالملائكةِ واليوم الآخِر لا مَحالةَ؛ إذ ربَّما ادَّعى الإنسانُ أنَّه يؤمِنُ بالله وبالرُّسل وبالكتب، ثمَّ إنَّه ينكِرُ الملائكة، وينكِرُ اليومَ الآخِرَ، ويَزعُم أنَّه يَجعل الآياتِ الواردةَ في الملائكةِ وفي اليوم الآخِرِ محمولةً على التَّأويلِ، فلمَّا كان هذا الاحتمالُ قائمًا، لا جرمَ نَصَّ أنَّ مُنكِرَ الملائكةِ ومُنكِرَ القيامةِ كافرٌ بالله[2].

١٥- قوله: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ فيه أنَّ القرآنَ منزَّل، وأنَّه كلامُ الله؛ لأنَّه نزَل مِن عنده، فيكون كلامَه، وفيه علوُّ الله عزَّ وجلَّ أيضًا؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ﴾، والتَّنزيلُ يكون مِن أعلى إلى أسفلَ[3].

١٦- أنَّ القرآنَ منزَّلٌ على محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، ومنتهى نزوله قلبُ النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾[4].

١٧- أنَّ القرآنَ الكريمَ نزل مُفرَّقًا؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، ويشهد على

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٥).

ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[(١)] [الإسراء: ١٠٦].

١٨- وجوبُ الإيمانِ بالكتب السَّابقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾، فلو أنَّ أحدًا قال: أنا أؤمن بالقرآن، لكنَّ التَّوراةَ والإنجيلَ لم تنزِلْ على رسولِنا فلن أؤمنَ بها، قلنا: إنَّك الآن كافرٌ مرتَدٌّ؛ لأنَّه لا بدَّ أن تؤمنَ بالكتابِ الَّذي أُنزِلَ مِن قبلُ كما أمَرك الله[(٢)].

١٩- أنَّ هذا القرآنَ الكريمَ ختامُ الكتب، وتؤخَذُ من قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ ولم يقُلْ ومن بعدُ؛ إشارةً إلى أنَّه لا كتابَ بعد القرآن الكريم[(٣)].

٢٠- الكفرُ بشيءٍ من هذه المذكوراتِ كالكُفرِ بجَميعها؛ لتلازُمِها وامتناعِ وجود الإيمان ببعضِها دون بعضٍ، فلا يصحُّ الإيمانُ المبعَّضُ؛ لقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾[(٤)].

٢١- أنَّ الضَّلالَ يتفاوتُ، بعضُه أشدُّ من بعضٍ؛ لقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[(٥)].

٢٢- أنَّ المتذبذبَ بين الإيمانِ والرِّدَّةِ يكونُ مآلُه أن يزداد كفرًا؛ لقوله: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾، وذلك -والله أعلم- أنَّ الإيمانَ لم يدخُلْ قلبَه[(٦)].

٢٣- قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٩).

﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ دلَّتِ الآيةُ على أنَّ الكفرَ يقبَلُ الزِّيادة والنُّقصانَ، فوجَب أن يكونَ الإيمانُ أيضًا كذلك؛ لأنَّهما ضِدَّانِ مُتنافيان، فإذا قبِل أحدُهما التفاوتَ فكذلك الآخَر[١].

٢٤- الرَّدُّ على الجبريَّةِ الَّذين يقولون: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عمله، وأن فِعلَه لا يُنسَبُ إليه إلَّا مجازًا؛ فالرَّدُّ عليهم من قوله: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾، فأضاف الأفعالَ إليهم، ففيه ردٌّ على الجبريَّة؛ لأنَّ الجبريَّةَ عندهم أنَّ العبدَ ليس له فِعلٌ اختياريٌّ، بل هو مجبَرٌ على العمل[٢].

٢٥- الرَّدُّ على القدَريَّةِ؛ لقوله: ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلٗا﴾، فدلَّ هذا على أنَّ الهدايةَ بيدِ الله، وليس يستقلُّ بها العبدُ، والقدَريَّة يقولون: إنَّ الإنسانَ مستقلٌّ بفعلِه، وليس لله فيه مشيئةٌ ولا خَلْق[٣].

٢٦- أنَّ اللهَ سبحانه إذا علِم من حالِ العبد أنَّه لن يستقيم، فإنَّه لن يَغْفِرَ له ولن يهديَه؛ لأنَّ هؤلاء: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾، ويَترتَّب على هذه الفائدةِ الَّتي دلَّتْ عليها هذه الآيةُ، ودلَّ عليها قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥] أنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ تجلبُ الأعمالَ الصَّالحة، والأعمالَ السَّيِّئة تجلب الأعمالَ السَّيِّئة، فإذا منَّ اللهُ عليك بعملٍ صالح فأبشِرْ أنَّه سيمُنُّ عليك بعمل آخَرَ تُتبِعُه إيَّاه[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾: جاءت كلمة ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ على صِيغة (فعَّال)؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٢).

للمبالِغة في لزُوم الاتِّصاف بالعدْلِ، وإقامةِ القسطِ في جميع الأمورِ؛ فصِيغة ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ دالَّةٌ على الكثرةِ المرادِ لازِمُها، وهو عدمُ الإخلالِ بهذا القيامِ في حالٍ من الأحوال[١].

٢- **قوله:** ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ مجيء (لو) هنا؛ لاستِقْصاءِ جميعِ ما يمكِنُ فيه الشَّهادة[٢].

٣- **قوله:** ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ استئنافٌ واقعٌ موقعَ العِلَّة[٣].

٤- **قوله:** ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ كنايةٌ عن وعيد؛ لأنَّ الخبيرَ بفاعل السُّوء، وهو قديرٌ، لا يُعوِزُه أن يعذِّبَه على ذلك[٤].

٥- **قوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: تذييلٌ عقَّب به أمرَ المؤمنين بأنْ يكونوا قوَّامين بالقِسطِ شُهداءَ لله، فأمَرَهم اللهُ عقِبَ ذلك بما هو جامعٌ لمعانِي القيامِ بالقِسط والشَّهادةِ لله، الَّذي هو الإيمانُ بالله ورسوله والكتُب[٥].

٦- **قوله:** ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ عبَّر في صِلةِ وصْف الكِتابِ الَّذي نزَّل على رَسولِه بصِيغة التَّفعيل ﴿نَزَّلَ﴾، وفي صِلةِ الكتاب الَّذي أنزل من قبلُ بصيغة الإفعال ﴿أَنزَلَ﴾ تفنُّنًا، أو لأنَّ القرآنَ حينئذٍ بصدد النُّزول نجومًا، والتَّوراة يومئذ قد انقضَى نُزولُها[٦]؛ فقوله:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٢٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٢٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٠).

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ﴾ المرادُ به هنا: القرآن، وعبَّر عنه بقوله: ﴿نَزَّلَ﴾؛ لأنَّه يَنزِلُ شيئًا فشيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وفي قوله: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾... عبَّر عن الكتُب السَّابقة بـ﴿أَنْزَلَ﴾؛ لأنَّها تنزِلُ جُملةً واحدة[١].

٧- **قوله**: ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ﴾ فيه: المبالغةُ في تأكيدِ النَّفيِ[٢]؛ فإنَّ النَّفيَ في قولِه: ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ أبلغُ مِن لو قال: (لا يغفر الله لهم)؛ لأنَّ أصلَ وضعِ هذه الصِّيغة للدَّلالة على أنَّ اسمَ كان لم يُجعَلْ ليصدُرَ منه خبرُها، ولا شكَّ أنَّ الشَّيء الَّذي لم يُجعَلْ لشيء يكون نابيًا عنه؛ لأنَّه ضدُّ طَبْعِه، ولقد أبدَع النُّحاةُ في تسميةِ اللَّام الَّتي بعد كان المنفيَّة (لام الجحود)[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣١-٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٢).

الآيات (١٣٨ - ١٤٢)

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلْعِزَّةَ﴾: الغَلَبة، وهي حالةٌ مانعة للمُتَّصِفِ بها مِن أنْ يُغلَبَ، من قولهم: أرض عَزازٌ، أي: صُلْبة، وأصل (عز): يدلُّ على شدَّة وقوة، وغَلَبة وقهر[١].

﴿وَيُسْتَهْزَأُ﴾: أي: يُسخَر منها، والاستِهزَاءُ: ارتيادُ الهُزْءِ، ويُعبَّر به عن تَعاطِيه، والهُزْء: اللَّعِب والسُّخريَّة، وأصل الهُزْء: مزحٌ في خفية، وقد يقال لِمَا هو كالمزح[٢].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤١).

﴿يَخُوضُواْ﴾: أي: يَتحدَّثوا ويَتفاوَضوا، ويتداخَلَ كلامُهم؛ يُقال: تَخاوَضُوا في الحديثِ والأمرِ، والخوض: هو الشُّروع في الماءِ، والمرورُ فيه؛ يُقال: خُضْتُ الماءَ وغيرَه، وأصل (خوض): توسُّط شيءٍ ودخول[١].

﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾: يَنتظرون، والتَّربُّص: الانتظارُ والتَّمكُّث[٢].

﴿فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أي: نصْرٌ وتأييدٌ وظَفَرٌ وغنيمةٌ، وأصلُ الفتْحِ: إزالةُ الإغلاقِ والإشكالِ[٣].

﴿نَسْتَحْوِذْ﴾: أي: نَغلِبْ ونَستولِ؛ يُقال: حاذَ الإبلَ يَحُوذها، أي: ساقَها سَوْقًا عنيفًا، وأصلُه: الخِفَّةُ والسُّرعةُ، وانكماشٌ في الأمر[٤].

﴿كُسَالَىٰ﴾: أي: مُتثاقلين كالمُكرَه على الفِعل، والكَسلُ: التَّثاقُل عمَّا لا ينبغي التَّثاقُل عنه، وأصله: التَّثاقُل عن الشَّيء، والقعودُ عن إتمامِه أو عنه[٥].

﴿يُرَآءُونَ﴾: أي: يَفعلون الشَّيء ليراه النَّاس، وأصلُه من الرُّؤيةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

﴿مُّذَبۡذَبِينَ﴾: أي: مُتردِّدين بين الإسلامِ والكُفر، أو مُضطرِبين مائِلين، وأصل الذَّبذبة: جَعْلُ الشَّيءِ مُضطربًا[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ﴾

﴿أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ...﴾: ﴿أَنۡ﴾ هي المخفَّفةُ من الثَّقيلة، واسمُها ضميرُ الشَّأن محذوف، أي: أنَّه، والجملةُ الشَّرطيَّةُ ﴿إِذَا سَمِعۡتُمۡ ...﴾ في محلِّ رفعٍ خبرُ أنْ، و(أنْ) وما في حيِّزها مصدرٌ مؤوَّلٌ في موضِعَ نصْبٍ على أنَّه مَفعولٌ به على قِراءة ﴿نَزَّلَ﴾ بفَتْح النُّونِ، والفاعلُ هو الضَّميرُ العائدُ على لفظِ الجلَالة الله تعالى، وفي موضِع رفْعٍ مفعولٌ لم يُسمَّ فاعلُه على قِراءة مَن قرأ (نُزِّل) بالضَّمِّ، أي: وقد نُزِّل عليكمُ المنعُ من مجالستِهم عند سماعِكم الكفرَ بالآياتِ والاستهزاءَ بها[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمرُ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُبشِّرَ المنافقين الَّذين يُظهِرون الإسلامَ، ويُبطِنون الكُفرَ بالعذابِ الأليمِ، هؤلاء المنافقون الَّذين يُوالُون الكفَّارَ من دونِ المؤمنين، فيُحبُّونهم ويَنصرونهم ويُعِينونهم، أيُّ شيءٍ حمَلَهم على ذلك؟ أَيَطلُبون عندَ الكفَّارِ العزَّةَ؟ فلنْ يَجِدوها عندَهم؛ فالعِزَّة لله وحْدَه.

ثمَّ خاطَب اللهُ المؤمنين أنَّه قد أَنزَل عليهم في القرآنِ أنَّهم إذا سمِعوا استهزاءً وكُفرًا بآياتِ الله، فلا يَقعدوا مع هؤلاءِ المتحدِّثين حتَّى يَتحدَّثوا بحديثٍ غيرِ

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٠-٢١١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٨-٣٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٢٠-١٢١)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٢٩).

حديثِ الكُفرِ والاستهزاء، فإذا ما قعَدوا معهم في هذه الحالةِ فإنَّهم مِثلُهم، ثمَّ توعَّد اللهُ المنافقين والكفَّارَ بأنَّه سيجمَعُهم في جَهنَّمَ كلَّهم، هؤلاء المنافقون الَّذين يترقَّبون ما يحلُّ بالمؤمنين من خيرٍ أو شرٍّ، فإنْ فتَحَ الله على المؤمنين فتحًا على عدوِّهم بالنَّصر أو الظَّفَر أو الغنيمة، قال هؤلاء المنافقون للمؤمنين: ألم نكُنْ في صفِّكم، شاهدينَ معكم القتالَ؛ طالبيَن منهم نصيبًا من المَغْنَم، وإن كانت الكِفَّةُ للكفَّار فأصابوا من المؤمنين، قال المنافقون للكفَّار: ألمْ نُساعِدْكم وننصُرْكم، ونَحْمِكُم من المؤمنين؛ فاللهُ سبحانه يحكُمُ بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، فيُجازي المؤمنين بالجنَّة، والمنافقين بدخولِ نارِ جهنَّمَ، ولن يُمكِّنَ اللهُ تعالى الكفَّارَ من التَّسلُّطِ التَّامِّ على المؤمنينَ في الدُّنيا، كما لم يجعَلِ اللهُ للكفَّار حُجَّةً على المؤمنينَ يغلِبونهم بها يومَ القيامة.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ المنافقينَ يخادِعون الله بإظهارهم الإسلامَ، وإبطانِهم الكفرَ، فيعصِمون بذلك دماءَهم وأموالهم، ويظنُّون روَاجَ فِعْلِهم هذا عند الله يوم القيامة، كما راج عند النَّاسِ في الدُّنيا، وهو سبحانه وتعالى خادِعُهم بما حكَم عليهم في الدُّنيا مِن منعِ دمائِهم وأموالِهم مع عِلمِه بهم؛ وذلك ليستدرجَهم في الدُّنيا حتَّى يلقَوْه في الآخرة، فيُدخِلهم جهنَّمَ وبئس المصيرُ، ثمَّ أخبَر تعالى عن المنافقين أنَّهم إذا قاموا إلى الصَّلاةِ قاموا وهم متثاقِلون، متبرِّمون مِن فعلِها، يؤدُّونها ليراهم المؤمنون فيظنُّون أنَّهم منهم، ولا يذكُرونَ اللهَ فيها إلَّا قليلًا، هؤلاء المنافقون متردِّدون حائرونَ بين الإيمانِ والكُفر، فلا هم مع المؤمنين خُلَّصٌ ولا مع الكفَّار خُلَّصٌ، بل مع المؤمنين في الظَّاهر، ومع الكفَّار في الباطن، ومنهم مَن يُخالِجُه الشَّكُّ فيميل إلى هؤلاء أحيانًا، وإلى هؤلاء أحيانًا أخرى، ثمَّ خاطَب اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائلًا له: إنَّ مَن يُضلِلِ اللهُ عن طريق الهُدى، فلن تجِدَ له طريقًا آخَرَ لهدايتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾.

أي: أخبِرْ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الَّذين أظهَروا الإسلامَ، وأبطَنوا الكُفر بأقبحِ بِشارةٍ وأسوئِها، وهي أنَّ لهم عندَ اللهِ تعالى عذابًا مؤلِمًا موجِعًا[١].

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: هؤلاء المنافقونَ الذين صِفتُهم أنَّهم يَجعَلون الكفَّارَ أولياءَ لهم، يُحبُّونهم وينصُرونهم ويُعِينونهم لا عبادَ الله المؤمنين[٢].

ثمَّ قال اللهُ تعالى منكرًا عليهم فيما سلكوه مِن موالاةِ الكافرينَ[٣]:

﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ﴾.

أي: أيُّ شيءٍ حمَلهم على ذلك؟ أَيطْلُبون عندَ الكفَّار المنَعَةَ والقوَّة والغَلَبة باتِّخاذهم أولياءَ من دون المؤمنين[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٢-٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٥-٣٤٦).

(٣) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٦).
قال السعدي: (وهذا هو الواقعُ من أحوال المنافقين؛ ساء ظنُّهم بالله، وضعُف يقينُهم بنصر اللهِ لعباده المؤمنين، ولحَظُوا بعضَ الأسباب التي عند الكافرين، وقَصُرَ نظرُهم عمَّا وراءَ ذلك؛ فاتَّخذوا الكافرين أولياءَ يَتعزَّزون بهم ويَستنصِرون) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩-٢١٠).

﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

أي: فليستِ العِزَّةُ عند الكفَّار، إنَّما العِزَّةُ والمَنَعةُ والنُّصرةُ والقوَّةُ من عند الله تعالى؛ فهو وحده القاهر لكلِّ شيء، الغالب لكلِّ شيء، ذو القَدْرِ العظيم، الَّذي لا يُماثِله شيءٌ، الَّذي يمتنع عليه كلُّ نقص وعيب، يُعِزُّ مَن يشاء، ويُذِلُّ مَن يشاء؛ فالتمِسوا العِزَّة منه سبحانه، وانتظِموا في جملةِ عبادِه المؤمنينَ، واتخِذوهم أولياءَ؛ فإنَّ لهم النَّصرةَ في هذه الحياةِ الدُّنيا، ويومَ يقوم الأشهادُ[1].

كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٧-٨].

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾.

أي: وقد بَيَّن اللهُ تعالى لكم في القُرآنِ- أيُّها المؤمنون- حُكمَه الشَّرعيَّ عند حضورِ مجالسِ الكفرِ والاستهانةِ بآياتِ اللهِ تعالى وأوامرِه ونواهيه[2].

والآيةُ الَّتي أشار اللهُ عزَّ وجلَّ إليها هي قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٦-٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٨-٣٥٠).

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] [الأنعام: ٦٨].

﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾.

أي: فلا تَمكثُوا فيها إلَّا أنْ يأخُذَ المُتحدِّثون في حديثٍ آخَرَ غيرِ حديثِ الكُفْر والاستهزاء[2].

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾.

أي: إنِ ارتكبتُم هذا النَّهيَ بعد بُلوغِه إليكم، ورَضِيتم بالمُكثِ معهم في المكان الَّذي يُكفَرُ فيه بآياتِ الله ويُستهان بها، وأقررتُموهم على ذلك، فقد شاركتُموهم إثمَ ذلك[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى جامعُ الفَريقينِ من الكفَّارِ والمنافقين في نارِ جهنَّمَ يومَ القيامة، فكما أشرَكوهم في الكُفر، واجتمَعوا على عداوةِ المؤمنين، والتَّخذيلِ عن دِينِ الله، كذلك جمَع اللهُ بينهم في الخلودِ في نار جهنَّمَ[4].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٠-٣٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠).

يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾.

أي: إنَّ المنافِقين ينتظرون ما يحلُّ بكم- أيُّها المؤمنون- من خيرٍ أو شرٍّ[١].

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: فإنْ فتَح الله تعالى عليكم فتحًا مِن عَدوِّكم بالنَّصرِ والظَّفَرِ والغنيمةِ[٢].

﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

أي: قال لكم هؤلاء المنافقون: ألم نشهَدْ معكم قتالَ عدوِّكم؟ فأعطُونا إذًا نصيبَنا من الغنيمةِ[٣].

﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾.

أي: وإنْ كان لأعدائِكم من الكافرينَ حَظٌّ منكم؛ بإصابتِهم منكم في بَعضِ الأحيان[٤].

﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ألم نساعِدْكم، ونُحِطْ بكم إحاطةَ العنايةِ والنُّصرة، ونَحْمِكُم من المؤمنين، مِن أنْ ينالوكم بسوءٍ، وصرَفْناهم عنكم بتخذيلِهم، أو بالتَّجسُّسِ عليهم؛ لإبلاغِكم أخبارَهم، أو بإلقاء الأراجيف والفِتَن بين جيوشهم؛ لإضعاف

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٦).

بأسِهم، وبغير ذلك من وجوهِ المنع، حتَّى انتصرتم عليهم؟[١].

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

أي: فإنَّ الله تعالى سيحكُمُ بين المؤمنين والمنافقين، ويفصل بينهم بالقضاءِ الفصل يوم القيامة؛ وذلك بإدخالِ المؤمنين جنَّتَه، وإدخالِ المنافقين مع أوليائِهم الكفَّارِ نارَه[٢].

﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

أي: ولن يُمكِّنَ اللهُ تعالى الكفَّارَ في الدُّنيا مِن التَّسلُّط التَّامِّ على المؤمنين، واستئصالهم بالكُلِّيَّة، بل لا تَزالُ طائفةٌ من المؤمنين على الحقِّ منصورةً، لا يَضرُّهم مَن خذَلهم ولا مَن خالَفهم إلى يومِ القيامة، ولن يَجعلَ اللهُ تعالى للكفَّار حُجَّةً يَغلِبون بها المؤمنين يومَ القيامة، بل يُدخِل عِبادَه المؤمنين الجنَّةَ، ويُدخل الكفَّارَ وأولياءَهم المنافقين النَّارَ؛ فالعاقبة في الدُّنيا والآخرة للمؤمنين[٣].

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

أي: إنَّ المنافقين يُخادِعون الله بإحرازِهم- بما أظهَروه من الإيمان، وأبطَنوه من الكُفران- دماءَهم وأموالَهم؛ إذ يعتقدون لجَهلِهم وقلَّةِ عقلهم أنَّ أمرَهم كما راج عند النَّاس، وجَرَتْ عليهم أحكامُ الشَّريعة ظاهرًا في الدُّنيا، يرُوجُ يوم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

القيامة عند اللهِ سبحانه وتعالى[١].

﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى خادِعُهم بما حَكَم فيهم في الدُّنيا مِن منعِ دمائهم؛ لكونِهم أظهروا الإيمانَ بألسنتِهم، مع علمِه باستبطانِهم الكفرَ؛ وذلك استدراجًا منه لهم في الدُّنيا حتَّى يلقَوْه في الآخرة فيُوردَهم نارَ جهنَّمَ[٢].

﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾.

أي: وإذا قاموا لأداءِ الصَّلاةِ قاموا إليها وهم مُتثاقِلون، مُتبرِّمون مِن فِعلها؛ لأنَّهم لا نيَّةَ لهم فيها، ولا رَغبةَ، وغيرُ مؤمنين بها، ولا موقِنين بمعادٍ ولا ثوابٍ ولا عقابٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤].

ولَمَّا ذكَر الله جلَّ وعلا صِفةَ ظواهرِهم، أعقَبَ ذلك بذِكْرِ صفةِ بواطنِهم الفاسِدة[٤]، فقال:

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾.

أي: إنَّما يُؤدُّون الصَّلاةَ الَّتي يَقومون إليها كُسالى؛ ليراهم المؤمنون فيَحسَبوا أنَّهم منهم؛ وذلك إبقاءً على أنفسهم، وحَذَرًا من المؤمنين عليها؛ كيلَا يُقتلوا أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٧-٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٢-٦١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٨).

تُسلَبَ أموالُهم، ولا إخلاصَ لهم لله تعالى[١].

﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

أي: ولا يذكُرون اللهَ تعالى في صلاتِهم بألسنتِهم، وجوارحِهم، وقلوبِهم، ولا يَخشَعون فيها، ولا يَدْرُون ما يقولون، بل هم في صلاتِهم ساهُون لاهونَ؛ وذلك لامتلاءِ قلوبِهم بالرِّياء[٢].

عن أَنسِ بنِ مالكٍ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ((تلك صلاةُ المنافق، يجلسُ يَرقُبُ الشمسَ، حتَّى إذا كانتْ بين قَرْنَيِ الشَّيطانِ قام فنقَرها أربعًا، لا يذكُرُ اللهَ فيها إلَّا قليلًا))[٣].

﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣﴾.

﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٢-٦١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٠-٣٦١).

وحمل قولَه تعالى: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ على أنَّه في الصَّلاة- ابنُ كثير وابنُ عثيمينَ والشنقيطيُّ في ((أضواء البيان)) (١/ ٣٢٠).

قال ابن جرير: (فلعلَّ قائلًا أنْ يقولَ: وهل مِن ذِكر اللهِ شيءٌ قليل؟ قيل له: إنَّ معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهبتَ، إنَّما معناه: ولا يَذكرون اللهَ إلَّا ذِكرًا رياءً؛ ليدفَعوا به عن أنفسهم القتلَ والسِّباءَ وسَلْبَ الأموال، لا ذِكر موقِنٍ مصدِّقٍ بتوحيد الله، مخلِصٍ له الرُّبوبيَّة؛ فلذلك سماه الله قليلًا؛ لأنه غيرُ مقصودٍ به اللهُ، ولا مُبتغًى به التقرُّبُ إلى الله، ولا مرادًا به ثوابُ الله وما عنده، فهو- وإن كثُر من وجهِ نَصَبِ عاملِه وذاكرِه- في معنى السَّرابِ الذي له ظاهرٌ بغير حقيقةِ ماءٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٣).

(٣) رواه مسلم (٦٢٢).

أي: إنَّ المنافقينَ مُتردِّدونَ مُتحيِّرونَ بين الإيمانِ والكُفر؛ فلا هُمْ مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا، ولا مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا، بل ظواهرُهم مع المؤمنينَ، وبواطنُهم مع الكافرينَ، ومنهم مَن يَعتريه الشَّكُّ، فتارةً يميل إلى هؤلاء، وتارةً يميل إلى أولئك(١).

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَثَلُ المنافقِ كمَثَلِ الشَّاةِ العائرةِ بين الغنمَيْن، تَعيرُ إلى هذه مرَّةً، وإلى هذه مرَّةً(٢))، وفي روايةٍ: ((تكِرُّ في هذه مرَّةً، وفي هذه مرَّةً))(٣).

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

أي: ومَن يَخذُلْه اللهُ تعالى عن طريقِ الهُدَى والحقِّ فلا يُوفِّقه له، فلن تجِدَ له- يا محمَّدُ- طريقًا لهدايتِه، ولا وسيلةً لتركِ غَوايتِه(٤).

الفوائد التَّربويَّة:

١- في قولِه سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، أنَّه يَنبغي للإنسان أنْ يَقطَعَ العلائقَ عن الخلائق، وأنْ يُعلِّقَ قلبَه بالله عزَّ وجلَّ، يبتغي منه العِزَّة، والنَّصر، ودَفْعَ البلاء، ويبتغي منه تيسيرَ الأمور... وهكذا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٦).

(٢) تَعِيرُ إلى هذه مرةً، وإلى هذِه مَرَّةً: أي: تتردَّد وتذهب، والعائرة هي المتردِّدةُ الحائرةُ لا تَدْري لأيِّهما تَتْبع. والرواية الأخرى (تَكِرُّ) بمعنى تعير أيضًا؛ يُقال: كرَّ على الشيء وإليه: عطَف عليه، وكرَّ عنه: ذهب. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (٨/ ٣١٣- ٣١٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٢٨).

(٣) رواه مسلم (٢٧٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٠-٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٨-٣٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٧).

٢- قول اللهِ تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ فيه جعَل القاعدَ المستمِعَ من غيرِ إنكارٍ بمنزلةِ الفاعِل؛ ولهذا يُقال: المستمعُ شريكُ المُغتابِ، والمحرَّم هو الاستماعُ لا السَّماعُ؛ فلو سمِعَ الإنسانُ الكُفْرَ والكَذِبَ والغِيبةَ والغِناءَ مِن غيرِ قصْدٍ منه؛ بل كان مجتازًا بطريقٍ فسَمِعَ ذلك لم يأثمْ بذلك باتِّفاقِ المسلمين، ولو جلَسَ واستمَعَ إلى ذلِك ولم يُنكِرْه لا بقَلبِه ولا بلِسانه ولا يَدِه، كان آثمًا باتِّفاقِ المسلمين[١].

٣- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ فيه وجوبُ مغادرةِ المكان الَّذي يُكفَرُ فيه بآياتِ الله ويُستهزَأُ بها، ولا يجوزُ للإنسانِ أن يبقى ويقولَ: أنا مُنكِرٌ بقلبي[٢].

٤- قوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ فيه أنَّ جليسَ الصَّالحين الَّذين يَعمَلون الصَّالحات مِثلُهم ومنهم، بقياس العكسِ؛ لأنَّه إذا وُزِرَ بالجلوسِ مع العصاةِ؛ أُجِرَ بالجلوس مع الطَّائعين[٣].

٥- يُفيدُنا قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ الحذرَ مِن جُلَساءِ السُّوء، والتَّرغيبَ في جُلَساءِ الصَّلاح[٤].

٦- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ فيه أنَّه لَمَّا اتَّخَذوهم في الدُّنيا أولياءَ، جمَع بينهم في الآخرة في النَّارِ، والمرءُ مع مَن أحَبَّ، وهذا توعُّدٌ منه تعالى تأكَّدَ به التَّحذيرُ من مجالَستِهم ومخالَطتِهم[٥].

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٢١٢- ٢١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٤).

٧- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ فيه أنه يَنبغي للمؤمنِ أنْ يَتحرَّزَ مِن هذه الخَصْلةِ الَّتي ذُمَّ بها المنافِقون، وأنْ يُقبِلَ إلى صلاتِه بنشاطٍ وفراغِ قلبٍ، وتمهُّلٍ في فِعلها، ولا يتقاعَسَ عنها فِعلَ المنافقِ الَّذي يُصلِّي على كُرْهٍ، لا عن طِيبِ نفسٍ ورغبةٍ[١].

٨- الكسَلُ في الصَّلاة مُؤذِنٌ بقلَّةِ اكتراثِ المُصلِّي بها، وزُهدِه في فِعلِها؛ فلذلك كان مِن شِيَمِ المنافِقين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾، ومِن أجلِ ذلك حذَّرتِ الشَّريعةُ مِن تجاوزِ حدِّ النَّشاط في العبادةِ خشيةَ السَّآمةِ[٢].

٩- يُستفادُ مِن وصْفِ اللهِ تعالى للمُنافقين بقولِه: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أنَّ مَن راءَى النَّاسَ بعمله الصَّالحِ ففيه شَبَهٌ بالمنافقين، والرِّياءُ بابه واسعٌ، ليس في الصَّلواتِ أو النَّفَقة أو الصَّوم أو الحجِّ فقط، بل هو أوسعُ مِن هذا، حتَّى الإنسان لو أنَّه لبِس ثيابًا رثَّةً؛ ليَظهَرَ للنَّاسِ بمظهَرِ الزَّاهد فهو مُرَاءٍ، فكلُّ شيءٍ تُظهِرُ فيه للنَّاسِ أنَّك تتقرَّبُ به إلى اللهِ؛ ليراكَ النَّاسُ، فإنَّه رياءٌ- والعياذ بالله[٣].

١٠- قولُه: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فيه أنَّ الطُّمأنينةَ والاستقرار أمرٌ مطلوب؛ ولهذا نجدُ أشدَّ النَّاسِ استقرارًا وطُمأنينةً هم المؤمنون: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾[٤] [البقرة: ٢٦٠].

١١- الإشارةُ إلى اللُّجوء إلى الله عزَّ وجلَّ في طَلَب الهداية؛ لقوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧٠).

١٢- إنَّ الإيمانَ صِلةٌ بالقوَّة الكبرى، الَّتي لا تضعُفُ ولا تفنى.. وإنَّ الكفرَ انقطاعٌ عن تلك القوَّة، وانعزالٌ عنها، ولن تملِكَ قوَّةٌ محدودةٌ مقطوعةٌ منعزلةٌ فانيةٌ أن تغلِبَ قوَّةً موصولةً بمصدر القوَّةِ في هذا الكون جميعًا، غيرَ أنَّه يجبُ أن نفرِّقَ دائمًا بين حقيقةِ الإيمان ومظهرِ الإيمان، إنَّ حقيقةَ الإيمان قوَّةٌ حقيقيَّةٌ ثابتةٌ ثبوتَ النَّواميس الكونيَّة، ذاتُ أثَرٍ في النَّفس، وفيما يصدُرُ عنها من الحركةِ والعمل، وهي حقيقةٌ ضخمةٌ هائلة كفيلةٌ حين تواجهُ حقيقةَ الكُفرِ المنعزلةَ المبتوتةَ المحدودةَ أن تقهَرَها، ولكن حين يتحوَّلُ الإيمانُ إلى مظهَرٍ فإنَّ «حقيقةَ» الكفرِ تغلِبُه إذا هي صدَقَتْ مع طبيعتِها، وعمِلَتْ في مجالها؛ لأنَّ حقيقةَ أيِّ شيءٍ أقوى من «مظهَرِ» أيِّ شيء؛ قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- البِشارة تُستعمَلُ في الخير، وتستعمَلُ في الشَّرِّ بقَيْدٍ، كما في هذه الآيةِ؛ يقول تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[2].

٢- لَمَّا كان التَّظاهرُ بالإيمان، ثمَّ تعقيبُه بالكفر ضربًا من التَّهكُّمِ بالإسلام وأهلِه، جِيءَ في جزاء عملِهم بوعيدٍ مناسبٍ لتهكُّمِهم بالمسلمين، فجاء به على طريقةِ التَّهكُّمِ؛ إذ قال: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ فإنَّ البِشارةَ هي الخبَرُ بما يُفرِحُ المُخبَرُ به، وليس العذابُ كذلك[3].

٣- أنَّه يَنبغي لنا أنْ نصارِحَ المنافقين بأنْ نبشِّرَهم- سواءٌ بلفظ: (أبشِروا)، أو

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٣).

بلفظ: (اعلَموا)- ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ حتَّى يَرتدِعوا عن نِفاقِهم[١].

٤- أنَّ المنافقين مُستحقُّون للعذابِ الأليم؛ لقوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، واللَّام هنا للاستحقاقِ[٢].

٥- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: نَصَّ مِن صفاتِ المنافقين على أشدِّها ضررًا على المؤمنين، وهي: موالاتُهم الكفَّارَ، واطِّراحُهم المؤمنين، ونبَّهَ على فَسادِ ذلك؛ ليدَعَه مَن عسى أنْ يقَعَ في نوعٍ منه من المؤمنين، غفلةً أو جَهالةً أو مُسامَحةً[٣].

٦- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ التَّرهيبُ العظيمُ من موالاةِ الكافرين، وتَركِ موالاةِ المؤمنين، وأنَّ ذلك مِن صفاتِ المُنافقين، وأنَّ الإيمانَ يقتضي محبَّةَ المؤمنين وموالاتَهم، وبُغْضَ الكافرين وعداوتَهم[٤].

٧- لا تَناقُضَ بين قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ لأنَّ القدرةَ الكاملةَ لله، وكلُّ مَن سواه فبإقدارِه صار قادرًا، وبإعزازِه صار عزيزًا؛ فالعِزَّةُ الحاصلة للرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام وللمؤمنين لم تحصُلْ إلَّا من اللهِ تعالى، فكان الأمرُ عند التَّحقيق أنَّ العِزَّةَ جميعًا للهِ[٥].

٨- ظاهرُ الآية ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾- بقَطْعِ النَّظرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٦).

عن آياتٍ أخرى-: أنَّه لا يجبُ الإنكارُ على الكافرِ بآياتِ الله المُستهزِئ بها؛ لأنَّه إنَّما نهى عن القعودِ معهم، ولم يأمُرْ بالإنكارِ عليهم، ولكن يُقال: الجوابُ عن هذا: أنَّ اللهَ تعالى إنَّما أراد أن يُبيِّنَ حُكمَ المشارِكين، ونهيَهم عن ذلك، أي: إنَّ هذا المُنكَرَ يُفهَمُ مِن نهينا عن الجلوسِ معهم ألَّا نُقِرَّ المنكَرَ، فالصَّواب: أنَّ هذه الآيةَ لا تدلُّ على ارتفاع النَّهيِ عن هذا المنكَر، سواءٌ دلَّتْ عليه أو سكتت عنه، فلدينا نصوص أخرى تدلُّ على وجوب إنكار المنكَرِ[١].

٩- أنَّ الأحكامَ تدورُ مع عِلَلِها؛ لقوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾، فلمَّا كانوا يكفُرون بآياتِ الله ويستهزئون بها نُهِي عن القعودِ معهم، ثمَّ أذِن لنا بالقعودِ معهم إذا خاضُوا في حديثٍ غيرِه[٢].

١٠- أنَّ المشارِكَ لفاعل المنكَرِ كفاعل المنكَرِ؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، والآيةُ وإن كانت لا تدلُّ على المشارِك صراحة، وإنَّما تدلُّ على أنَّ الجالسَ معهم له حُكمُ الفاعل، لكن إذا كان الجالسُ- يعني: القاعد- معهم له حُكمُ الفاعل، فالمشارِكُ مِن باب أَولى[٣].

١١- قال تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، فقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، هذا تعليلٌ للنَّهي، أي: إنَّكم إن قعَدْتم معهم تكونوا مِثلَهم وشركاءَ لهم في كفرهم؛ لأنَّكم أقررتموهم عليه، ورضِيتموه لهم، ولا يجتمعُ الإيمانُ بالشَّيء وإقرارُ الكفرِ والاستهزاءِ به، ويؤخذ من الآيةِ أنَّ إقرارَ الكُفر بالاختيار كفرٌ، وأنَّ مَن رضِي بالكفر فهو كافرٌ، ويؤخذُ منه أنَّ إقرارَ المنكَرِ والسُّكوتَ عليه منكَرٌ، وأنَّ مَن رضِيَ بمُنكَرٍ يراه وخالَط أهلَه وإن لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُباشِرْ، كان في الإثمِ بمنزلة المباشِرِ[١].

١٢- قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ فيه الدَّلالةُ الواضحةُ على النَّهيِ عن مجالَسةِ أهلِ الباطل من كلِّ نوعٍ من المبتدِعة والفَسَقةِ عند خوضِهم في باطلِهم[٢].

١٣- قوله تعالى: ﴿جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ﴾ فيه أنَّ النَّارَ لصِنفَيْنِ من العالَم، المنافقين والكافرين، أمَّا الصِّنفُ الثَّالث وهم المؤمنون فلهم الجنَّةُ، وهؤلاء الأصنافُ الثَّلاثةُ هم المذكورون في أوَّلِ سورةِ البقرة[٣].

١٤- بيانُ شدَّةِ عداوةِ المنافقين للمُؤمنين؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾، أي: يَنتظرون السَّاعةَ الَّتي يكونُ فيها الضَّررُ على المؤمنين، لكن قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٤] [الفتح: ٦].

١٥- أنَّ المنافقين لهم حظٌّ من الفَيْءِ، ويُؤخذُ مِن قوله: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾؛ فدلَّ هذا على أنَّ المنافِقَ يُعامَلُ بالظَّاهرِ، فيُعطَى ما يُعطاه المسلِمُ[٥].

١٦- أنَّ المنافقين أشدُّ مِن الكفَّار؛ لأنَّ اللهَ بدأ بهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وجميعُ الآيات الَّتي فيها الجمعُ بين المنافقين والكفَّار يُقدِّمُ اللهُ فيها المنافقين؛ كقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣]، إلَّا في آيةٍ واحدة، بسببٍ، وهي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٧). ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٨).

ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [التحريم: ٩]؛ وذلك لأنَّ جهادَ الكفَّار يكون بالسِّلاحِ عَلَنًا، وجهادَ المنافقين يكونُ بالعِلمِ والبيانِ، وليس بالقتال(١).

١٧- إثباتُ الخِداعِ لله عزَّ وجلَّ، أي: إنَّه جلَّ وعلا يَخدَعُ مَن يُخادِعُه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾(٢).

١٨- اطَّرَدَتْ سُنَّتُه الكونيَّة سبحانه في عبادِه، بأنَّ مَن مَكَرَ بالباطِلِ مُكِرَ به، ومن احتال احْتِيلَ عليه، ومن خادَعَ غيرَه خُدِع. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾(٣).

١٩- في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ أنَّ المنافقين يُصلُّون، لكن لا تُقبَلُ منهم صلاتُهم؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾ [التَّوبة: ٥٤] مع أنَّ النَّفقةَ نفعُها مُتعَدٍّ، ومع ذلك لا تُقبَل، فكيف بالعبادة الَّتي نفعُها غيرُ مُتعدٍّ؟ فإنَّها من بابِ أَوْلى لا تُقبَلُ(٤).

٢٠- مِن صِفاتِ المنافقين أنَّهم إذا أدَّوُا الصَّلاة مراءاةً يؤدُّونها بكسلٍ وبُرودٍ، وعدمِ نشاط؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾(٥).

٢١- أنَّ حالَ المنافقين التَّردُّدُ بين الكُفرِ والإيمان، لكن الحُكم عليهم في الآخرة أنَّهم كفَّارٌ، أمَّا في الدُّنيا فيُعامَلون على ظَواهِرِهم؛ لأنَّ الأحكامَ في الدُّنيا

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦١).
(٣) ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٦٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦٣).

على الظَّواهرِ، قال تعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[1].

٢٢- السَّببُ في تذبذبِ المنافقين كما في قوله تعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أنَّ الفعلَ يتوقَّفُ على الدَّاعي، فإذا كان الدَّاعي إلى الفعلِ هو الأغراضَ المُتعلِّقة بأحوالِ هذا العالَم كثُرَ التَّذبذُبِ والاضطرابُ؛ لأنَّ منافعَ هذا العالَمِ وأسبابَه متغيِّرةٌ، سريعةُ التَّبدُّلِ، وإذا كان الفعلُ تبعًا للدَّاعي، والدَّاعي تبعًا للمقصود، ثمَّ إنَّ المقصودَ سريعُ التَّبدُّل والتَّغيُّر- لزِم وقوعُ التَّغيُّر في الميل والرَّغبة، وربَّما تعارَضت الدَّواعي والصَّوارفُ، فيبقى الإنسانُ في الحيرة والتَّردُّد، أمَّا مَن كانَ مَطلوبُه في فِعلِه إنشاءَ الخيرات الباقية، واكتسابَ السَّعاداتِ الرُّوحانيَّة، وعلِم أنَّ تلك المطالبَ أمورٌ باقيةٌ، بريئة عن التَّغيُّرِ والتَّبدُّلِ، لا جرَمَ كان هذا الإنسان ثابتًا راسخًا؛ فلهذا المعنى وصَف اللهُ تعالى أهل الإيمانِ بالثَّباتِ فقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾[2] [الفجر: ٢٧].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: الجملة استئناف ابتدائيٌّ، مَسُوقٌ للتَّنديدِ بالمنافقين[3].

- وقوله: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ فيه إظهارٌ في موضِعِ الإضمارِ-حيث لم يقل:

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٥٢).

(بَشِّرْهم)-؛ تَعميمًا، وتَعليقًا للحُكمِ بالوصفِ[١].

٢- **قوله:** ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه مجيءُ صِفتِهم بطريقةِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لإفادةِ تَعليلِ استحقاقِهم العذابَ الأليمَ، أي: لأنَّهم اتَّخذوا الكافرينَ أولياءَ مِن دون المؤمنينَ، أي: اتَّخذوهم أولياءَ لأجْلِ مُضادَّةِ المؤمنينَ[٢].

- وأتت ﴿مِن﴾ الدَّالَّة على بُعدِ الصِّلةِ بينهم وبين المؤمنينَ[٣].

٣- **قوله:** ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: الاستفهامُ غرَضُه إنكارُ رأيِهم وإبطالُه، وبيانٌ لخيبةِ رجائِهم، وقطعٌ لأطماعِهم الفارغةِ[٤].

- والجملةُ معترضةٌ، مقرِّرةٌ لِمَا قبلها[٥].

٤- **قوله:** ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾: فيه التفاتٌ؛ حيث خَاطَب المنافقين قبلُ بخِطابِ الغَيبةِ في قوله: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ...﴾ و: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ...﴾ و﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ﴾؛ لإفادةِ تشديدِ التَّوبيخِ الَّذي يَستدعيه تَعْدَادُ جناياتهم[٦]، ثمَّ خاطَب المؤمنين بضميرِ الخِطاب: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾؛ لإفادةِ القُربِ، وليكونَ أسرعَ للقَبولِ.

٥- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

عبَّر في قولِه: ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ﴾ بالضَّميرِ في ﴿مَعَهُمْ﴾، ثمَّ تلاه قولُه:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٤).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، وهو التفاتٌ، فعبَّر بالاسمِ الظَّاهر، والإظهارُ في موضعِ الإضمارِ له فوائدُ، منها: إرادةُ العمومِ[١].

٦- **قوله**: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: تَضمَّنَتْ هذه الآيةُ بلاغةً في اختيار الألفاظِ؛ إذ سُمِّي ظَفَرُ المسلمين (فتحًا)، وظَفَرُ الكافرين (نصيبًا)؛ لتعظيمِ شأنِ المسلِمين، وتَخسيسِ حظِّ الكافرين لخسَّةِ حظِّهم؛ لأنَّ ظَفَرَ المسلمين أمرٌ عَظيمٌ، تبتهجُ له النُّفوسُ، وتَطمئنُّ إليه القلوبُ، وتُفتَحُ لهم أبوابُ السَّماءِ حتَّى ينزِلَ على أوليائِه، وأمَّا ظَفَرُ الكافرين، فما هو إلَّا حظٌّ دَنيٌّ، ولَمْظَةٌ مِن الدُّنيا يُصيبونها[٢]، وكذلك لأنَّه لا يَحصُلُ لهم فَتْحٌ يكونُ مَبدأً لنُصرتهم المستمرَّةِ، بل غايةُ ما يكونُ أن يكونَ لهم نصيبٌ غيرُ مستقرٍّ، حِكمةً مِن الله[٣].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ﴾ تَقريريٌّ، أي: إنَّا قدِ استحوذْنا؛ لأنَّ الاستفهامَ إذا دخَل على نفيٍ قَرَّره[٤].

٧- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾: استئنافٌ ابتدائيٌّ، فيه: زيادةُ بيانٍ لمساويهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٦١).

الآيات (١٤٤ - ١٤٧)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: جمْع وليٍّ، وهو النَّصيرُ، وأصل (وَلِيَ) يدلُّ على القُرْب، سواءٌ من حيث: المكان، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[1].

﴿سُلۡطَٰنٗا﴾: أي: حُجَّة، وأصل السُّلطان: القوَّة والقهر، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[2].

﴿ٱلدَّرۡكِ﴾: مَنزِلٌ من منازلِ أهلِ النَّار، فالنَّار دركاتٌ، أي: طبقاتٌ بعضُها دونَ بعضٍ، والدَّرك: أقْصَى قعرِ البحر، وأصل (درك): هو لحوقُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، ووصولُه إليه[3].

﴿وَٱعۡتَصَمُواْ﴾: استمسَكوا وامتنَعوا به، والاعتصام: التَّمسُّك بالشَّيء، وأصل العِصمة: المنعُ، ومنه يُقال: عَصَمَه الطَّعامُ، أي: منَعَه من الجوعِ، والعِصمةُ أيضًا:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١١) ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤).

الإمساكُ، والملازَمة[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾

﴿مَّا﴾: فيها وجهانِ: أحدهما: أنَّها استفهاميَّةٌ، وعليه تكونُ في محلِّ نصبٍ بـ: (يفعل)، وقُدِّم المفعولُ به؛ لكونِه له صدرُ الكلام، والباءُ على هذا سَببيَّةٌ متعلِّقة بـ: ﴿يَفْعَلُ﴾، والاستفهامُ هنا معناه النَّفي، والمعنى: أنَّ اللهَ لا يَفعلُ بعذابِكم شيئًا؛ لأنَّه لا يجلبُ لنفسِه بعذابكم نفعًا، ولا يدفَعُ عنها به ضرًّا، فأيُّ حاجةٍ له في عذابِكم؟! والوجه الثَّاني: أنَّ ﴿مَّا﴾ نافية، كأنَّه قيل: لا يُعذِّبُكم اللهُ، وعلى هذا فالباءُ زائدةٌ (صلة)، ولا تَتعلَّق بشيءٍ[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ عبادَه المؤمنين عن اتِّخاذِ الكافرينَ أولياءَ يُناصِرونهم، ويُصادِقونهم، ويثِقُون بهم مِن دون المؤمنين؛ فإنَّ ذلك موجِبٌ لأنْ يجعَلوا لله عليهم حُجَّةً، فيستحقُّوا العقوبةَ على ذلك.

ثمَّ أخبَر تعالى أنَّ مَصيرَ المنافقينَ المكانُ الأسفلُ من جَهنَّم، وخاطَب نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لن يجِدَ لهؤلاء المنافقين مَن ينصُرُهم مِن عذابِ الله، إلَّا الَّذين تابوا مِن نِفاقِهم، وأصلَحوا أعمالَهم الظَّاهرةَ والباطنة، واعتَصَموا بالله، وأَخلَصوا له دِينَهم، فأولئك مع المؤمنين، وسوف يُعطي اللهُ المؤمنين

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

(٢) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠١-٤٠٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٣٣)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣١).

ثوابًا عظيمًا.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّه في غِنًى عن عذابِهم، إنْ شكَروا وآمَنوا وكان اللهُ شاكرًا عليمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى أنَّ مِن صفاتِ المنافقين اتِّخاذَ الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين، المستلزمَ للنَّهيِ عن ذلك الاتِّخاذِ، نهى عبادَه المؤمنين أن يتَّصِفوا بهذه الحالةِ القبيحةِ، وأن يُشابهوا المنافِقين، فقال[1]:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

أي: لا تَجعَلوا الكفَّارَ أولياءَ لكم من غيرِ أَهلِ دِينكم مِن المؤمنين، فتُؤازِروهم، وتُصاحِبوهم، وتُسرُّوا إليهم بالمودَّةِ، وتُفشُوا أحوالَ المؤمنين الباطنةَ إليهم، وتَثِقوا بهم، وتَعتمِدوا عليهم[2].

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٠). ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٧-٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧١-٣٧٢).

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾.

أي: هل تُريدون أن تجعَلوا لله تعالى عليكم حُجَّةً واضحةً؛ باتِّخاذِكم الكافرين أولياءَ مِن دون المؤمنين، فتَستوجبوا منه ما استوجَبَه أهلُ النِّفاقِ باستحقاقِ العقوبة[1]؟

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهاهم سبحانه عن فِعلِ المنافقين، استأنَف بَيانَ جزائِهم عنده[2]، فقال:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾.

أي: إنَّ المُنافِقين في قَعرِ جهنَّمَ، وأسفلِ طبقاتِها يومَ القيامة، جَزاءً على كُفرِهم الغليظِ[3].

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

أي: ولنْ تجِدَ لهؤلاء المنافقين- يا محمَّدُ- ناصرًا يَنصُرُهم مِن الله تعالى، فيُنقِذُهم مِن عذابِه، ويَدفَعُ عنهم أليمَ عقابِه[4].

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٤).

مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾.

أي: إلَّا التَّائبين مِن نِفاقِهم، الَّذين رجَعوا للحقِّ، ونَدِموا على سيِّئاتِهم[١].

﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾.

أي: وأصلَحوا أعمالَهم الظَّاهرةَ والباطنةَ؛ فعَمِلوا بما أمَرهم اللهُ تعالى به، وانتهَوْا عمَّا نهاهم عنه، وأصلحوا ما أفسدوه[٢].

﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾.

أي: واعتصَموا برَبِّهم في جَميعِ أمورِهم، والْتَجَؤوا إليه في جَلْبِ مَنافعِهم، ودَفْعِ المضارِّ عنهم[٣].

﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

أي: وقَصَدوا وجهَ اللهِ تعالى بأعمالهم الظَّاهرةِ والباطنةِ، وسَلِمُوا من الرِّياءِ والنِّفاقِ[٤].

﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: فهؤلاء المُنافقون بعدَ تَوبتِهم وإصلاحِهم، واعتِصامِهم بالله تعالى، وإخلاصِهم له، مع المؤمنين في الدُّنيا والآخرةِ، يَكونون في زُمرتِهم يومَ القيامة، ويَدخُلونَ معهم الجنَّةَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢١-٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢٢-٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي))

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: وسوفَ يُعطي اللهُ تعالى المؤمنين ثوابًا عظيمًا، لا يعلَمُ كُنْهَهُ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ممَّا لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ[1].

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان معنى الاستثناءِ في الآيةِ السابقةِ: أنَّه لا يُعذِّبُهم، وأنَّهم يَجِدون الشَّفيعَ بإذنِه- قال مؤكِّدًا لذلك على وجهِ الاستنتاجِ، مُنكِرًا على مَن ظَنَّ أنَّه لا يَقبَلُهم بعد الإغراقِ في المهالِكِ[2]:

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾.

أي: ما يصنَعُ اللهُ تعالى- أيُّها المنافِقون- بعذابِكم، إن شكَرْتموه على نِعَمِه، فقُمتُم بطاعتِه، وآمنتم حقًّا بما يجبُ عليكم الإيمانُ به؟ فإنَّه لا حاجةَ لله سبحانه في أن يُعذِّبَكم؛ إذ لا يَجتلِبُ إلى نفْسِه بعَذابِكم نفعًا، ولا يدفَعُ عنها ضرًّا[3].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى شاكرٌ لِمَن شكَر له؛ فيُثيبُهم على ما عمِلوا، أكثرَ ممَّا عمِلوا، عليمٌ بإيمانِ مَن آمَن قلبُه به، وعليمٌ بمن يستحقُّ الشُّكر مِن عبادِه، ويُجازيه على

(ص: ٢١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢٢-٦٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١-٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢٣-٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٨).

ذلك أوفرَ الجزاء[١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- في قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾: التَّحذيرُ مِن المعاصي؛ فإنَّ فاعلَها يجعَلُ لله عليه سلطانًا مُبِينًا[٢].

٢- أنَّه لا بدَّ لِمَن أفسَد أن يُصلِحَ مُقابلَ إفسادِه، ولا تَكفي التَّوبةُ المجرَّدةُ، فلا بدَّ مِن إصلاحِ ما أفسَد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾[٣].

٣- في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أنَّ مَن كان معتصمًا بغيرِ الله، فإنَّ مِن تحقيقِ توبتِه أن يعدِلَ عن الاعتِصامِ بغير الله إلى الاعتصامِ بالله؛ لأنَّ الدَّاءَ يُداوَى بدواءٍ مقابلٍ؛ فالاعتصامُ بغيرِ الله شِركٌ، يُداوَى بالاعتصامِ بالله عزَّ وجلَّ، ولكلِّ داءٍ دواءٌ يُناسِبُه[٤].

٤- أنَّ مِن تمام التَّوبةِ إخلاصَ المشرِكِ؛ لقوله: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾، والمنافِقون عندهم إشراكٌ؛ لأنَّهم ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، لذا فالإخلاصُ شرْطٌ في توبةِ المنافِقِ؛ لأنَّ ذَنْبَه بالرِّياءِ؛ فالله تعالى قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾، ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾[٥].

٥- قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧٧).

(٥) يُنظر: (((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٠)، (تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٧).

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾، فيه تغليظاتٌ عظيمةٌ على المنافقين؛ وذلك لأنَّه تعالى شرَط في إزالةِ العقاب عنهم أمورًا أربعة: أولها: التَّوبة، وثانيها: إصلاحُ العمل، وثالثها: الاعتصام بالله، ورابعها: الإخلاص، فإذا حصَلت هذه الشَّرائطُ الأربعةُ فعند ذلك قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ولم يقُلْ: (فأولئك مؤمنون)، ثمَّ أوقَع أجرَ المؤمنين في التَّسويفِ؛ لانضمام المنافقين إليهم، فقال: ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾، وهذه القرائنُ دالَّةٌ على أنَّ حالَ المنافق شديدٌ عند الله تعالى[(١)].

٦- خصَّ اللهُ تعالى الاعتِصامَ والإخلاصَ بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ﴾، مع دخولِهما في قوله: ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾، فهما من جملةِ الإصلاحِ؛ وذلك لشدَّةِ الحاجةِ إليهما، خُصوصًا في هذا المقام الحرِج الَّذي يمكِّنُ مِن القلوبِ النِّفاقَ، فلا يُزِيله إلَّا شدَّةُ الاعتصامِ بالله، ودوامُ اللَّجَأِ والافتقارِ إليه في دفعِه، ولكونِ الإخلاصِ منافيًا كلَّ المنافاة للنِّفاق؛ فذَكَرَهما لفضلِهما، وتوقُّفِ الأعمالِ الظَّاهرةِ والباطنة عليهما، ولشدَّةِ الحاجةِ في هذا المقامِ إليهما[(٢)].

٧- الحثُّ على الشُّكْرِ وعِظَمُ فَضْلِه، يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾، فقَرَن سبحانه الشُّكْرَ بالإيمانِ وأخْبَر أنَّه لا غرَضَ له في عذابِ خلْقِه إنْ شَكَروا وآمَنوا به[(٣)].

٨- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٢١١).
(٣) ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص:١١٦).

أنَّ مَن لم يشكُرِ اللهَ، أو مَن لم يُؤمِنْ به فإنَّه عُرْضةٌ للانتقامِ والعذاب؛ لأنَّ اللهَ سبحانه نفى العذابَ عمَّن شكَر وآمَن، وهذا يدلُّ على أنَّ مَن لم يشكُرْ ويؤمِنْ فإنَّه معرَّضٌ لعقابِه، وهذا هو الواقعُ؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[١] [الأنفال: ٢٥].

الفوائدُ العِلميَّة واللَّطائِف:

١- في هذه الآية: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾: دليلٌ على كمالِ عدلِ اللهِ، وأنَّ الله لا يُعَذِّبُ أحَدا قبل قيام الحُجَّةِ عليه[٢].

٢- أنَّ اللهَ سبحانه له سلطانٌ وحُجَّةٌ على مَن خالَفَ أمْرَه، ويدلُّ على هذا قولُه تعالى حين ذكَر إرسالَ الرُّسلِ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، فهنا لو لم يُرسَلِ الرُّسُلَ صارتِ الحُجَّةُ للنَّاسِ على اللَّهِ، وإذا أَرسَل الرُّسلَ وبُيِّنَتِ الأحكامُ صارتِ الحُجَّةُ للهِ على العباد[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه وجوبُ موالاةِ المؤمنين ومُناصرتِهم؛ لأنَّ المؤمنين إخوةٌ، فما أصابَ أحدَهم فقد أصاب الآخَرَ، وما حصَلَ مِن ضررٍ وجَب على جميعِ المؤمنين إزالتُه، على حسَبِ الحالِ والإمكان[٤].

٤- النهيُ عن ائتمانِ أهلِ الشِّركِ والثِّقةِ بهم؛ يُبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٣).

(٤) ((المصدر السابق)).

(٥) ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٤٧٢).

٥- الأعمالُ المشروعةُ لا يُنهَى عنها خوفًا مِن الرِّياء، بل يُؤمَر بها، وبالإخلاصِ فيها، ونحن إذا رأينا مَن يَفعلُها أَقرَرْناه، وإنْ جزَمْنا أنَّه يفعَلُها رياءً؛ فالمنافِقون الَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ فهؤلاء كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمسلمون يُقرُّونَهم على ما يُظْهِرُونه من الدِّينِ، وإنْ كانوا مُرائِينَ، ولا يَنهَوْنَهم عن القيامِ بالظَّاهر؛ لأنَّ الفسادَ في ترْك إظهارِ المشروعِ أعظمُ مِن الفَسادِ في إظهارِه رياءً[١].

٦- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، والسَّببُ في كونِ المنافقِ أشدَّ عذابًا من الكافرِ؛ لأنَّه مِثلُه في الكفر، وضمَّ إليه نوعًا آخَرَ من الكُفرِ، وهو الاستهزاءُ بالإسلامِ وبأهله، وبسببِ أنَّهم لَمَّا كانوا يُظهِرون الإسلامَ يمكِنُهم الاطِّلاعُ على أسرار المسلمين، ثمَّ يُخبِرون الكفَّارَ بذلك، فكانت تتضاعَفُ المِحنةُ مِن هؤلاء المنافقين؛ فلهذه الأسبابِ جعَل اللهُ عذابهم أزيدَ مِن عذابِ الكفَّار[٢] فهم شرُّ أهلِ النَّار بما جمَعوا بين الكفرِ والنِّفاقِ ومُخادعةِ الله والمؤمنين وغشِّهم؛ فأرواحُهم أسفلُ الأرواحِ، وأنفسُهم أخَسُّ الأنفسِ[٣].

٧- إنَّما كان مُستَقرُّ المنافقين ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّ ذلك أخفى ما في النَّار وأستَرُه وأخبَثُه، كما أنَّ كُفرَهم أخْفَى الكُفرِ وأخبثُه وأستَرُه[٤].

٨- في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أنَّ طَبقاتِ النَّار تُسمَّى دركاتٍ، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها مُتدارِكةٌ متتابِعةٌ إلى أسفلَ، كما أنَّ الدَّرجَ متراقيَةٌ

(١) ((سجود التلاوة معانيه وأحكامه)) لابن تيمية (ص:٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٣٩).

إلى فوقَ[١].

٩- أنَّ هؤلاء المنافقين ﴿فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وهذا لا يَعني أنَّ غيرَهم لا يُشاركونهم، بل قد يُشارِكُهم غيرُهم، لكنَّنا نجزِمُ بأنَّ المنافقين ﴿فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ﴾، وأنَّ مَن سواهم قد يكونون فيه، وقد لا يكونون فيه[٢].

١٠- قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لَمَّا كان المُنافِقُ متَّصِفًا بنقائضِ هذه الأوصافِ؛ مِن الكُفرِ وفَسادِ الأعمالِ، والموالاة للكافرين، والاعتزازِ بهم، والمراءاة للمؤمنين- شرَط في تَوبتِهم ما يُناقِضُ تلك الأوصافَ، وهي التَّوبةُ مِن النِّفاقِ، وهي الوصفُ المحتوي على بقيَّةِ الأوصافِ من حيثُ المعنى، ثمَّ فصَّل ما أجمَلَ فيها، وهو الإصلاحُ للعَملِ المستأنَفِ، المقابِلُ لفسادِ أعمالهم الماضية، ثمَّ الاعتصامُ بالله في المستقبَل، وهو المقابلُ لموالاةِ الكافرين، والاعتماد عليهم في الماضي، ثمَّ الإخلاص لدِين اللهِ، وهو المقابلُ للرِّياء الَّذي كان لهم في الماضي[٣].

١١- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾، أنَّ المنافقَ تُقبَلُ توبتُه، وأنَّ مَن اتَّصَف بهذه الصِّفات فإنَّه يكونُ مع المؤمنين، ولو كان قبل ذلك منافقًا؛ لأنَّ هذه الصِّفاتِ تنتشلُه من النِّفاقِ إلى الإيمان، فهذه معيَّةُ المؤمنين، لا شكَّ أنَّها منزلةٌ عالية، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٣).

وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[١].

١٢- لَمَّا ذكَر أنَّ هؤلاء مع المؤمنينَ لم يقُلْ: (وسوف يُؤتيهم أجرًا عظيمًا)، مع أنَّ السِّياقَ فيهم، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾؛ لأنَّ هذه القاعدةَ الشَّريفة لم يزَلِ اللهُ يُبدِئُ فيها ويُعيدُ: إذا كان السِّياقُ في بعضِ الجزئيَّاتِ، وأراد أن يُرتِّبَ عليه ثوابًا أو عقابًا، وكان ذلك مُشتركًا بينه وبين الجِنس الدَّاخِل فيه، رتَّبَ الثَّوابَ في مقابلةِ الحُكمِ العامِّ الَّذي تندرج تحتَه تلك القضيةُ وغيرُها؛ ولئلَّا يُتوهَّمَ اختصاصُ الحُكمِ بالأمر الجُزئيِّ؛ فهذا مِن أسرارِ القرآن البديعةِ؛ فالتَّائبُ مِن المنافقين مع المؤمنين، وله ثوابُهم[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ﴾: استئناف ابتدائيٌّ؛ لأنَّه توجيهُ خِطابٍ بعدَ الانتهاءِ من الإخبارِ عن المنافِقين بطريقِ الغَيبة[٣]، وقد نُهوا عن موالاةِ الكَفَرةِ صَريحًا في هذه الآية، وإنْ كان ما تقدَّمَ في بيانِ حالِ المنافقين، مَزْجرةً عن ذلك؛ مُبالغةً في الزَّجر والتَّحذير[٤].

٢- **قوله**: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾: استئناف بيانيٌّ؛ لأنَّ النَّهيَ عن اتِّخاذِ الكافرين أولياءَ ممَّا يبعَثُ النَّاسَ على معرفةِ جزاء هذا الفِعل، مع قصد التَّشهيرِ بالمنافقين، والتَّسجيل عليهم، أي: إنَّكم إنِ استمررتُم على موالاةِ الكافرين، جعَلتُم للهِ عليكم حُجَّةً واضحةً على فَسادِ إيمانكم، فهذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٦، ٣٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ١٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٦).

تعريضٌ بالمنافقين[١].

- والاستفهام في قولِه: ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ مُستعمَلٌ في معنى التَّحذيرِ والإنذار[٢].

٣- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: جملةٌ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ إذ هي عَودٌ إلى أحوالِ المنافقين، وتأكيدُ الخبر بـ: (إنَّ) لإفادة أنَّه لا مَحِيصَ لهم عنه[٣].

٤- **قوله**: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أتى بـ(سوف)؛ لأنَّ إيتاءَ الأجرِ يكونُ يومَ القيامة، وهو زمانٌ مستقبَل ليس حاضرًا، و(سوف) أبلغُ في التَّنفيسِ من السِّينِ[٤].

٥- قوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾: جملة استئنافيَّةٌ مسُوقةٌ لبيانِ أنَّ مدارَ تعذيبِهم وجودًا وعَدَمًا إنَّما هو كُفرُهم، لا شيء آخَر، فيكون مُقرِّرًا لِمَا قبله من إثابتِهم عن توبتِهم[٥].

- وقوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ -على القولِ بأنَّ ﴿مَّا﴾ استفهاميَّة- مُفيدٌ للنَّفيِ على أَبلغِ وجهٍ وآكَدِه[٦].

- وقوله: ﴿إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾: فيه تقديمُ الشُّكرِ على الإيمان؛ لأنَّ العاقلَ ينظُرُ إلى ما عليه من النِّعمةِ العظيمة في خَلْقِه، وتَعريضِه للمنافعِ، فيشكُرُ شُكرًا مبهَمًا، فإذا انتَهى به النَّظرُ إلى مَعرفةِ المنعِمِ آمَنَ به، ثمَّ شكَر شُكرًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٤٥).

(٦) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

مُفصَّلًا، فكان الشُّكرُ متقدِّمًا على الإيمانِ، وكأنَّه أصلُ التَّكليفِ ومدارُه[١].

٦- **قوله:** ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾: اعْتِرَاضٌ في آخرِ الكلام، وهو إعلامٌ بأنَّ اللهَ لا يُعطِّلُ الجزاءَ الحسَنَ عن الَّذين يُؤمنون به، ويَشكُرون نِعمَه الجمَّةَ، والإيمانُ بالله وصفاتِه أوَّلُ درجاتِ شُكرِ العبدِ ربَّه[٢].

- وأتَى بصِفة الشُّكر ﴿شَاكِرًا﴾ باسمِ الفاعِل بلا مبالغةٍ؛ ليدلَّ على أنَّه يَتقبَّلُ ولو أقلَّ شيءٍ مِن العمل، ويُنمِّيه[٣].

- وأتَى بصفة العِلم ﴿شَاكِرًا﴾ على صِيغةِ (فعيل)؛ للمُبالغةِ في وصْفِه سبحانه بالعِلمِ بجميعِ المعلوماتِ[٤]، وفيه تحذيرٌ، وندبٌ إلى الإخلاصِ للهِ تَعالَى[٥]، مع ما في الجَمْعِ بين صِفتَي ﴿شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ مِن البَلاغةِ والمناسبةِ الحَسنةِ للسِّياق.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٥).

الآيات (١٤٨ - ١٥٢)

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: السُّوء اسمٌ جامعٌ للآفات، ثم استُعمل في كلِّ ما يُستقبحُ، وهو أيضًا كلُّ ما يغمُّ الإنسان(١).

﴿سَبِيلًا﴾: فِعلًا وطريقًا، والسَّبِيلُ: الطَّريق الذي فيه سُهولة، وأصل (سبل): امْتِدَادُ شَيْءٍ(٢).

﴿مُّهِينًا﴾: مُذِلًّا، والهوان: الاستخفاف، أو أن يُذَلَّ الإنسانُ من جهة متسلِّط، مستخِفٍّ به، وأصله يدلُّ على احتقارٍ، وحقارة في الشيء(٣).

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

في هذا الاستثناءِ قولان: أحدهما: أنَّه استثناء منقطع، ويكون المستثنى ﴿مَن﴾ في موضِعِ نصْب، تَقديرُه: لكنْ مَنْ ظُلِمَ له أنْ يَنتصِفَ مِن ظالِمِه بما يُوازي ظُلامتَه. والثاني: أنَّه متَّصل، و﴿مَن﴾ مُستثنًى مِن (أحَد) المُقدَّرِ الذي هو فاعلٌ للمَصدرِ ﴿ٱلْجَهْرَ﴾، والمعنى: لا يحبُّ أن يَجهرَ أحدٌ بالسُّوء إلَّا مَن يُظلَم فيَجهر؛ كأنْ يَدعوَ الله بكشفِ السُّوءِ الذي أصابه، أو يَشكوَ ذلك إلى إمام، أو حاكمٍ، فعلى هذا يجوزُ أن يكونَ المستثنَى ﴿مَن﴾ في موضِع رفْعٍ بدلًا مِن المستثنَى منه المحذوفِ؛ إذ التقديرُ: أنْ يَجهَرَ أحدٌ. وأنْ يكونَ في موضِع نصْب على أصلِ الاستِثْناء مِن (أحد) المقدَّر، والتقديرُ: لا يُحبُّ اللهُ أنْ يَجْهَرَ أحدٌ بالسُّوءِ إلَّا المظلومُ، أو المظلومَ- رفعًا ونصبًا. وقيل غيرُ ذلك[1].

المعنى الإجمالي:

يُخبِر تعالى أنَّه لا يُحبُّ أن يجهرَ أحدٌ مِن عبادِه بالسيِّئ من القول، إلَّا مَن ظُلِم؛ فلا حرَجَ عليه أن يخبر بما أسيء إليه، كأن يشتكيَ ممَّن ظلَمه، أو يقولَ للنَّاس: إنَّه ظالم، أو يَدْعوَ عليه، وكان الله سميعًا عليمًا.

ثم يُخاطب عبادَه قائلًا لهم: إنَّهم إنْ يُظهروا الخير أو يُخفوه، أو يَعفوا عمَّن أساء إليهم؛ فإنَّه جلَّ وعلا عَفوٌّ يصفَحُ عن ذنوب عباده مع قُدرته على معاقبتِهم عليها؛ فلْيَعفوا هم أيضًا عمَّن أساء إليهم.

ثم بيَّن تعالى أنَّ الذين يَكفُرون بالله ورُسله، ويُريدون أن يُفرِّقوا بين الله ورُسُله؛ بالإيمانِ به عزَّ وجلَّ والكُفرِ بالرُّسل، ويقولون: نؤمن ببعض الرُّسل، ونَكفُر ببعضٍ منهم، ويريدون بهذا أن يَسلُكوا طريقًا يُوصلهم إلى اللهِ، فأخبر تعالى أنَّ هؤلاء هم الكافرون حقًّا، ولا ينفعهم ما يَدَّعون من إيمانهم ببعض

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٣٤: ١٣٨)

الرُّسل، وتوعَّدهم تعالى بكونِه أعدَّ للكافرين عذابًا مُخزيًا مُذلًّا.

وأمَّا الذين آمَنوا بالله ورُسُله ولم يُفرِّقوا بَينهم؛ إذْ آمنوا بهم جميعًا، فوعَدهم الله- ووعْدُه الحقُّ- بأنَّه سوف يُعطيهم جزاءَ إيمانهم، وسيُثيبهم عليه، وكان الله غفورًا رحيمًا.

تفسير الآيات:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا شوَّه الله حالَ المنافقين، وشَهَّر بفضائحِهم تشهيرًا طويلًا، كان الكلامُ السَّابق بحيث يُثير في نفوس السَّامعين نُفورًا من النِّفاق وأحواله، وبُغضًا للملموزين به، وخاصَّة بعد أنْ وصفَهم باتِّخاذ الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين، وأنَّهم يَستهزئون بالقرآن، ونَهَى المسلمين عن القعود معهم؛ فحَذَّر اللهُ المسلمين من أن يَغيظهم ذلك على مَن يَتوسَّمون فيه النِّفاق، فيُجاهروهم بقول السُّوء، ورخَّص لِمَن ظُلِم من المسلمين أن يَجهرَ لظالِمِه بالسُّوء؛ لأنَّ ذلك دفاعٌ عن نفسه[1]، فقال تعالى:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يُبغض - أيُّها الناسُ - جَهْرَ أحدٍ منكم بالقول السيِّئ، كالشَّتمِ والقَذْف والسَّبِّ، ونحوِ ذلك[2].

﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣١-٦٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٠).

أي: أمَّا مَن ظُلم؛ فلا حرَجَ عليه أن يُخبِرَ بما أُسيء به إليه، كأنْ يدعوَ على مَن ظلَمَه ويتشكَّى منه، أو أن يقول له: أنت ظلمتني، أو يقول للناس: إنه ظالم، من غير أن يَكذِبَ عليه، ولا يَزيد على مظلمتِه، ولا يَتعدَّى بشَتمِه غيرَ ظالِمِه[١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى سميعٌ لِمَا تَجهرون به من سوءِ القولِ وغير ذلك من أقوالِكم، عليمٌ بما تُخفون منها، وعليمٌ بنِيَّاتكم ومَصدرِ أقوالكم، ومُحْصٍ ذلك كلَّه عليكم، فيُجازي كلًّا منكم بحَسَبه؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرٌّ، فاحْذروا أن تقولوا ما لا يَرضاه، أو أن تُخفوا في قلوبِكم ما لا يحبُّه[٢].

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لـمَّا نَهَى الله سبحانه عن الجَهرِ بالسُّوء، ورخَّص فيه لِمَن ظُلِم، ندَب المرخَّصَ لهم إلى العفوِ وقولِ الخيرِ[٣]؛ فقال:

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾.

أي: إن تُظهروا - أيُّها الناسُ - جميلًا من القول أو الفِعل، أو تتركوا إظهارَه فتُخفوه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨١-٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٢-٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٩).

﴿أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ﴾.

أي: أو تَصْفَحوا عن إساءةِ مَن أساء إليكم بقولٍ أو فِعل[١].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾.

أي: فإنَّ الله تعالى يَصفَح عن ذُنوب عبادِه، مع قُدرتِه على عِقابهم عليها؛ فاعْفوا أنتم أيضًا- أيُّها الناسُ - عمَّن أتى إليكم ظُلمًا، ولا تَجهروا له بالسُّوء من القول، وإنْ قدَرتُم على الإساءةِ إليه، كما يَعفو عنكم ربُّكم مع قُدرتِه على عِقابِكم، وأنتم تَعصونه، والجزاءُ من جِنس العملِ؛ فمَن عفَا للهِ سبحانه عفَا اللهُ تعالى عنه[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

أي: إنَّ الكافرين بالله تعالى وبرُسله عليهم السَّلام مِن اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم[٣].

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

أي: ويُريدون أن يُؤمنوا بالله تعالى، ويَكفُروا برُسُلِه الَّذين أرْسلَهم إلى خَلْقِه؛ فيُكذِّبوهُم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٢-٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٣).

﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾.

أي: ويقولون: نؤمن ببعض الرُّسُل، ونكفُر ببعضهم، كما فعلتِ اليهود؛ فكَفروا بعيسى ومحمَّد صلَّى الله عليهما وسلَّم، وزَعَموا الإيمانَ بموسى عليه السَّلام. وكما فعَلتِ النَّصارى؛ فكفروا بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وزَعَموا الإيمانَ بعيسى عليه السَّلام[١].

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

أي: ويُريدون بإيمانهم ببعض الرُّسل دون بعضٍ سُلوكَ طريقٍ يُوصلهم إلى الله تعالى، ويُنجِّيهم من عذابِه[٢].

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

جاءَ ذِكر هذه الآية عقِبَ ما قَبلَها؛ لئلَّا يُتوهَّم أنَّ مرتبة هؤلا الكفَّار الذين وصَفَهم اللهُ تعالى متوسِّطةٌ بين الإيمانِ والكُفر[٣]، فقال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾.

أي: إنَّ كُفرَ هؤلاء الكفار محقَّقٌ لا محالة، وهم مُستحقُّونَ عذابَ الله تعالى حقًّا؛ فاستيقِنوا ذلك أيُّها المؤمنون، ولا يُشكِّكنَّكم في أمْرِهم انتحالُهم الكذبَ بدَعْوى أنَّهم يُقرُّون ببعض الرسل؛ فلو كانوا مؤمنين حقًّا بِمَن زعَموا الإيمانَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢).

بهم، لآمَنوا بغيرِهم من الرُّسل عليهم السَّلام[١].

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قد هيَّأ لهؤلاء الكفَّار وغيرهم من الكافِرين عذابًا مخزيًا ومُذلًّا لهم، كما تَكبَّروا عن الإيمانِ الحقِّ بالله تعالى، واستهانوا بـِمَن كفَروا به من الرُّسل عليهم السَّلام[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله عزَّ وجلَّ حالَ الذين يؤمنون ببعض، ويَكفُرون ببعض، ذكَر حالَ الذين يَجمعون في الإيمانِ بين الجميع[٣]، فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾.

أي: إنَّ المؤمنينَ بالله تعالى حقًّا، وبجميعِ رُسلِه الكرام عليهم السَّلام، دون أن يُفرِّقوا بينهم بالإيمانِ ببعضهم والكُفرِ ببعضهم[٤].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ المؤمنين بالله تعالى ورُسُله عليهم السَّلام جميعًا، سوف

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢-٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣-٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٧-٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣).

يُعطيهم اللهُ عزَّ وجلَّ جزاءَهم وثوابَهم على إيمانهم به سبحانه وبجَميعِ رُسلِه عليهم السَّلام[١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى غفورٌ لِمَن آمَن به وبجميعِ رُسله، فيَغفِر لهم السيِّئات، رحيمٌ بهم بتفضُّله عليهم بالهدايةِ إلى طريق الحقِّ، وتقبُّل الحسَنات[٢].

الفوائِد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾: حُسْن دِين الإسلام، وأنَّه يدعو إلى التراضي، وعدَمِ الجهر بالسوء، وأنْ لا نفضحَ أحدًا بسوئه؛ ولهذا كانتِ الغِيبةُ من كبائر الذُّنوب، وهي ذِكرُك أخاك بما يكره[٣].

٢- عدالةُ الإسلام، ووجْه ذلك: أنَّه رخَّص للمظلوم أن يجهرَ بالقول، لكن بحسَب مظلمتِه ولا يَزيد؛ قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[٤].

٣- في قوله سبحانه: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾: أنَّ الدينَ الإسلاميَّ لا يَكبِت النفوسَ، بل يوسِّع لها، ويَشرح الصُّدور، وجهُ ذلك: أنَّه رخَّص للمظلوم أن يجهر بالسُّوء بقدر مظلِمته؛ لأنَّ ذلك تنفيسٌ عن نفسِه بلا شكٍّ[٥].

٤- يستفاد من قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أنَّ مَن كان كاملَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإيمان، عاليَ الأخلاق، فلا فَرقَ عنده في إبداء الخير وإخفائِه من جِهة نفْسِه؛ فهو يُرجِّح أحدَ الأمرين على الآخر بنيَّة صالحة، أو منفعة بيِّنة، ومَن ليس كذلك ينبغي أن يُرجِّح الإخفاءَ؛ حتى لا يكون له هوًى فيه، ومن بواعث الإبداءِ قصدُ القدوة، ومن بواعث الإخفاءِ قصدُ السِّتر، وحِفظ كرامة مَن يُوجَّه إليه الخيرُ، كالصدقة على الفقراء المتعفِّفين[١].

٥- أنَّ الإحسانَ إلى النَّاس يكونُ إمَّا بإعطاء الخير ظاهرًا أو خفيًّا، وإمَّا بدفْع السوء، وذلك بالعفوِ عنه؛ لقوله: ﴿أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ﴾؛ فالعفو عن السوء خيرٌ، فيُستفاد من ذلك فضيلةُ العفوِ عن السُّوءِ[٢].

٦- الإشارةُ إلى أنَّ مَن عفَا عن الخَلْق عفوًا في محلِّه فلْيُبشر بعفو الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾[٣].

٧- في قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ... فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾: إرشادٌ إلى التفقُّه في معاني أسماء الله وصِفاته، وأنَّ الخَلْق والأمر صادرٌ عنها، وهي مقتضيةٌ له، ولهذا تُعلَّل الأحكامُ بالأسماءِ الحُسنى؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر عمَلَ الخيرِ، والعفوَ عن المسيء رتَّب على ذلك بأنْ أحالنا على معرفةِ أسمائه، وأنَّ ذلك يُغنينا عن ذِكر ثوابِها الخاصِّ[٤].

٨- قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ فيه استحبابِ العفوِ مع القُدرة، والإشارة إلى أنَّه إذا كان الله تعالى مبالغًا في العفو عمَّن أساء مع كمال قُدرته على المؤاخذة ، فأنتم مِن باب أوْلَى عليكم أن تعفوا؛ لأنَّكم ليس لديكم القدرة

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١ / ٢١٢).

في الانتصار للنَّفس، والانتقام مِن المجرم كالذي عندَ الله عزَّ وجلَّ[١]، وإيرادُه في معرض جواب الشَّرط ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا ...﴾ يدلُّ على أنَّ العمدةَ هو العفوُ مع القُدرة[٢].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- إباحةُ الجهرِ بالسُّوء للمظلومِ أو مشروعيَّته له هو من بابِ الضَّرورات؛ لأنَّه ارتكابُ أخفِّ الضَّررينِ، والضروراتُ تُقدَّر بقَدرِها، كما قال أهلُ الأصول؛ فلا يجوزُ للمظلومِ أن يتَّبع هواه في الاسترسال والتَّمادي في الجهرِ بالسوء، بما لا دَخلَ له في منْع الظلمِ والتَّخلُّص منه، وأَطْر الظالم على الحقِّ[٣].

٢- في ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ بعد ذكر ما يُمنع وما يُباح مِن الكلام: تحذيرٌ مِن التَّكلُّم بما يُغضِب الله، وفيه أيضًا ترغيبٌ في القول الحسَن؛ فهو سبحانه سميعٌ يسمعُ أقوالَكم، وعليمٌ بنيَّاتِكم ومصدرِ أقوالِكم[٤].

٣- أنَّ معاقِد الخيراتِ على كثرتِها محصورةٌ في أمرين: صِدقٍ مع الحقِّ، وخُلُقٍ مع الخَلْق، والذي يتعلَّقُ بالخَلق محصورٌ في قِسمين: إيصالُ نفْعٍ إليهم، ودَفْعُ ضرَرٍ عنهم؛ فقوله: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ إشارةٌ إلى إيصال النَّفْع إليهم، وقوله: ﴿أَوۡ تَعۡفُواْ﴾ إشارةٌ إلى دفْع الضَّرَر عنهم، فدخل في هاتينِ الكلمتينِ جميعُ أنواع الخيرِ وأعمال البِرِّ[٥].

٤- أنَّ عفو الله تعالى أكملُ أنواع العَفو؛ لأنَّه عفوٌ مع القُدرة؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٦/ ٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٤).

ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾[١].

٥- كلمة ﴿قَدِيرًا ﴾ قد أفادتْ بوضعها هنا الدَّلالةَ على عِظمِ الجزاءِ على العمل الذي رغَّبَتْ فيه الآية[٢].

٦- الثَّوابُ والعِقابُ يكونانِ مِن جِنسِ العملِ في قدَرِ اللهِ تعالى وفي شَرْعِه؛ يُبيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ وهَذا مِن العَدْلِ الَّذِي تَقُومُ بِهِ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ[٣].

٧- قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ يتضمن الإيمانَ بكلِّ ما أخبر الله به عن نفْسِه، وبكلِّ ما جاءتْ به الرُّسُلُ من الأخبار والأحكام[٤].

٨- أنَّ الكفر ببعض الرُّسُل كفرٌ بالجميع؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾، ويدلُّ على هذا أيضًا قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥] مع أنَّ نوحًا كان أوَّلَ الرُّسُل، ومع ذلك جعل تكذيب قومِه له تَكذيبًا لجميعِ الرُّسل؛ لأنَّ التكذيبَ بالرسول كأنَّه تكذيبٌ بالجنس، أي: بجِنس الرِّسالة[٥].

٩- إنَّما قال: ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ مع أنَّ التفريق يَقتضي شيئين فصاعدًا، إلَّا أنَّ لفظ (أحَد) يستوي فيه الواحدُ والجمْع، والمذكَّر والمؤنَّث، ويدلُّ عليه وجهان: الأوَّل: صحَّة الاستثناء. والثاني: قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[٦] [الأحزاب: ٣٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٧).
(٣) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٤).

١٠- في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡ﴾ تمام مِنَّة الله سبحانه على العِباد؛ حيث سمَّى الثواب أجْرًا، ومن المعلوم أنَّ الأجر ثابتٌ لزومًا للمُستأجَر، والذي أوجب هذا الأجرَ هو اللهُ تعالى؛ أوجبَه على نفْسِه، وهذا يدلُّ على تمامِ فضْله عزَّ وجلَّ ومِنَّته[١].

بلاغة الآيات:

١- **قوله تعالى:** ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ...﴾: فيه إيجاز بالحَذْف، والتقدير: (لا يحبُّ الله الجهرَ بالسُّوءِ مِن القول ولا الإسرارَ به...) كما يُعلَم مِن نهيِه تعالى عن النَّجْوى بالإثم والعُدوان ومعصية الرَّسول، وأمْره بالتناجي بالبرِّ والتقوى فقط. وإنما خصَّ الجهر هنا بالذِّكر؛ لمناسبةِ بيان مفاسدِ الكفَّارِ والمنافقين في هذا السِّياق، ولأنَّ الجهرَ بالسُّوءِ أشدُّ ضررًا من الإسرارِ به; لأنَّ ضررَه وفسادَه يَفشُو في جمهورِ الناس، حتى لا يكادَ يَسلَمُ منه أحدٌ[٢].

٢- **قوله:** ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾: خبرٌ فيه تهديدٌ وتحذيرٌ مِن التعدِّي في الجهر المأذونِ فيه، يعني فليتَّقِ اللهَ ولا يقُلْ إلَّا الحق، ولا يقذف مستورًا بسوء؛ فإنَّه يصير عاصيًا لله بذلك، وهو تعالى سميعٌ لِما يقوله، عليمٌ بما يضمره[٣]، فيوشك أن يُوقِع العقوبةَ بمَن خالف أمْرَه وعصاه.

٣- **قولُه:** ﴿يَكۡفُرُونَ﴾: جِيء بالمضارعِ هنا؛ للدَّلالة على أنَّ هذا أمرٌ متجدِّد فيهم مستمرٌّ؛ لأنَّهم لو كفروا في الماضي ثم رجعوا لَمَا كانوا أحرياءَ بالذمِّ[٤].

٤- **قوله:** ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾: (حَقًّا) مصدر مؤكِّد لمضمون

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٩).

الجُملة الخبريَّة، أي: هم الذين كفروا كفرًا حقًّا، أي: يَقينًا محقَّقًا[١].

- وأفاد تعريفُ جُزأي الجُملة، والإتيان بضمير الفَصْل (هم)؛ تأكيدَ قصْرِ صفة الكفر عليهم، بتنزيل كُفر غيرِهم في جانب كُفرهم منزلةَ العَدم[٢]. والإتيان بضمير الفَصْل فيه أيضًا؛ لئلَّا يُتوهَّم أنَّ ذلك الإيمانَ ينفعهم[٣].

٥- **قوله**: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾: فيه إظهارٌ في مقام الإضمارِ- حيث قال: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقُل: (لهم)-؛ ذمًّا لهم، وتَجسيدًا لكفرهم كأنَّه بمنزلةِ المرئيِّ بالبصر. والإظهارُ في موضِع الإضمارِ ليس تطويلًا، وزيادة بلا فائدةٍ، بل له فَوائِدُ؛ منها: قصْدُ العموم، وتطبيقُ الوَصْف على أولئك الذين يَعودُ الضميرُ عليهم لو كانَ موجودًا، وكذلك بَيانُ عِليَّة الحُكم، فمثلًا: في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، لو قال: (أَعتَدْنا لهم) لم يَتبيَّن لماذا أعدَّ لهم هذا العذابَ، لكن لَمَّا قال: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، كأنَّ هذا الوصفَ يُفيد العِليَّة، أي: إنَّ العِلَّةَ في إعدادِ العَذابِ المهين لهم هو الكُفرُ[٤].

٦- **قوله**: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ...﴾ **الآية** إلى آخِرها: جِيءَ بها لمقابلةِ المسيئين بالمحسنين، ومقابلةِ النَّذارةِ بالبشارة على عادةِ القرآن[٥]، وهو من محاسنُ بلاغته، فالقرآن مثانٍ، إذا ذكر شيئًا ذكر ضدَّه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٠).

٧- **قوله**: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡ﴾: فيه التعبيرُ باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ تَعظيمًا لهم، وجاءت بصيغة البعيدِ؛ للدَّلالة على علوِّ منزلِتهم[١].

- والتَّصدير بـ(سوف)؛ لتأكيدِ الوعد، والدَّلالة على أنَّه كائن لا محالة، وإنْ تأخَّر[٢].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢ / ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٩).

الآيات (١٥٣ - ١٦٢)

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿جَهْرَةً﴾: أي: علانيةً ظاهرًا، وأصل الجهر: إعلانُ الشيءِ وكشفُه، وعلوُّه[1].

﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: النَّار التي تَنزلُ من السَّماء عندَ اشتداد الرَّعد، أو الصَّوت الشَّديد من الجوِّ، والوَقعُ الشَّديدُ منَ الرَّعْدِ، أو كلُّ عذاب مُهلِك (الموت -العذاب-

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

النار)، ومنه: صَعِق، إذا مات، وأصل (صعق): يدُلُّ على شِدَّة الصَّوت[١].

﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: جمْع بيِّنة، وهي: الدَّلالة الواضحة؛ يُقال: بان الشيءُ وأبان، إذا اتَّضح وانكَشف[٢].

﴿سُلْطَٰنًا﴾: أي: حُجَّة، وأصْل السُّلطان: القُوَّة والقهر، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[٣].

﴿ٱلطُّورَ﴾: اسمُ جبلٍ مخصوصٍ، وهو يُطلق على الجبَل الشَّاهق، أو اسم لكلِّ جبل، أو الجبل المُنبِت، وأصل (طور): الامتدادُ في شيءٍ من مكانٍ أو زمان[٤].

﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾: الميثاق: العقد المؤكَّد بيمينٍ وعهد، أو العهدُ المُحكَم، وأصل (وثق): العقد والإحكام[٥].

﴿لَا تَعْدُواْ﴾: لا تَتعدَّوا وتُجاوزوا ما أُمرتُم به، وأصْل التَّعدِّي: التَّجاوزُ في الشَّيء، والتقدُّم لِمَا يَنبغي الاقتصار عليه[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤-٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢، ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (٢/ ٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١، ٣٩٢).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٦) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢١٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٨).

﴿غَلِيظًا﴾: أَيْ: شَدِيدًا، وخَشنًا، والغِلظة ضد الرِّقَّة[١].

﴿نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾: أي: نبْذِهم إيَّاه بعدَ القَبول به، وتركِهم العملَ به، وأصل النَّقض ضِدُّ الإِبرام: وهو فكُّ تركيبِ الشيء، وردُّه إلى ما كان عليه أوَّلًا؛ فنقض البناء: هدمُه، ونقض المُبرَم: حَلُّه[٢].

﴿غُلْفٌۢ﴾: جمْع أغلف، أي: كأنَّها في غِلاف لا تَفهم، ولا تَعقِل شيئًا ممَّا يُقال، وأصل الغلف: الغشاوة، وغشيان شيءٍ لشيء[٣].

﴿طَبَعَ﴾: ختَم عليها؛ فلا يَصل إليها هُدًى ولا نورٌ[٤].

﴿بُهْتَٰنًا﴾: أي: ظُلمًا، ويُطلَق الْبُهْتَانُ على الكَذِبُ، وعلى كلِّ فِعل مُستبشَع يُتعاطى باليد والرِّجل، مِن تناوُل ما لا يجوز، والمشيِ إلى ما يَقبُح[٥].

﴿ٱلْمَسِيحَ﴾: هو عيسى عليه السَّلام؛ وسُمِّي عيسى بالمسيح؛ لأنَّه كان لا يَمسحُ بيدِه ذا عاهةٍ إلَّا برِئ[٦].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٣)، مقاييس اللغة (٤/ ٣٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (١ / ١٤٨).

(٦) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص:٧٦٧-٧٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥). وثمَّة أقوالٌ أخرى عن سبب تسمية عيسى عليه السلام بالمسيح؛ فمنها: أنَّه سُمي به لسياحته في الأرض. ومنها: لأنَّه خرَج مِن بَطنِ أُمِّه ممسوحًا بالدُّهن. ومنها: لأنَّه كان أمسحَ الرِّجلين، أي: ليس لرِجله أخمص- والأخمص: ما جفا عن الأرض من باطن الرِّجل. يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص:١٢٣).

﴿صَلَبُوهُ﴾: علَّقوه، وشدُّوا صُلبَه على خَشَبٍ؛ ليَقتلوه[١].

﴿شَهِيدًا﴾: شاهدًا على مَن كَفَر به وكذَّبه، ولِمَن آمَن به وصَدَّقه، والشَّهادةُ قولٌ صادرٌ عن عِلمٍ حَصَل بمشاهدة بصيرة أو بصَر[٢].

﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾: أصْل الرِّبا الزِّيادة، وخُصَّ في الشَّرع بالزِّيادة على رأسِ المالِ دون وجْه حقٍّ[٣].

﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾: الثَّابتون، جمْع: راسخ، ورُسوخُ الشَّيءِ في الشَّيء، هو ثبوتُه وولوجُه فيه[٤].

مشكل الإعراب:

١- **قوله**: ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾

﴿جَهۡرَةً﴾: مصدَر، أو مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحال؛ وعليه: فيجوز أن تكون ﴿جَهۡرَةً﴾ من صِفة القول أو السُّؤال، أو من صِفة السَّائلين، أي: فقالوا مُجاهِرين، أو: سألوا مجاهرين؛ فتكون في محلِّ نصْبٍ على الحال، أو منصوبةً على المصدَر مِن نوع الفِعل (أرنا)؛ فإنَّ الجهرة نوعٌ من الرُّؤية، مثل (قعَد القرفصاءَ)، ويجوز أن تكون نعتًا لمصدرٍ محذوفٍ تقديرُه: رؤية جهرة؛ فحينئذٍ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٢٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١ / ٢٨)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٤٦٥)، ((تفسير الخازن)) (١/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

تكون نائبةً عن المفعول المطلَق[١].

٢- **قوله:** ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾.

قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾

﴿رَسُولَ﴾: بدلٌ من ﴿رَسُولَ﴾، أو عطفُ بيان، أو صِفة له، أو صِفة لـ﴿عِيسَى﴾ عليه السَّلام؛ هذا على أنَّ الكلامَ ما زالَ لليهودِ، وقالوه على سَبيلِ التهكُّم والاستهزاءِ، كقولِ فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، ويجوزُ أنْ يَضَعَ اللَّهُ الذِّكرَ الحسَنَ مكانَ ذِكرِهم القبيحِ في الحِكاية عنهم؛ رفعًا لعيسى عمَّا كانوا يَذكُرونه به، وتعظيمًا لِمَا أرادوا بمثلِه، وقيل غيرُ ذلك[٢].

قوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾

﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ﴾: مستثنى مُنقطِع، وهو منصوب؛ لأنَّ اتباع الظنِّ ليس من جِنس العِلم، والنَّصبُ هو أصلُ الاستثناءِ المنقطع في لُغةِ الحجاز، ويَجوزُ في لُغة تميم الإِبدالُ من (عِلمٍ) لفظًا فيجرُّ، أو على الموضِع فيُرفَعُ؛ لأنَّ قولَه: ﴿عِلْمٍ﴾ مَرفوعُ المحلِّ على الابتداءِ، و﴿مِنْ﴾ زائدةٌ فيه[٣].

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٦٤-٤٠٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٣٦٧-٣٦٨) و(٤/ ١٤٠)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٤٥)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٤).

(٣) القول بأنَّ الاستثناء منقطع هو الصَّحيح الذي لم يذكر الجمهورُ غيرَه. وقيل: إنَّه متصل؛ إذ

قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾

﴿يَقِينًا﴾: في نَصْبه أوجه؛ منها: أنَّه حالٌ منصوبة من واوِ الجماعةِ في ﴿قَتَلُوهُ﴾، أي: وما قتلوه مُتيقِّنين لقتْله أنَّه عيسى عليه السَّلام أو غيره. ومنها: أنه نعتٌ لمصدر محذوف، أي: قَتْلًا يَقينًا؛ فيكون نائبًا عن المفعول المطلق. ومنها: أنَّه منصوبٌ بفِعلٍ مِن لفظه، حُذِف للدَّلالة عليه، أي: ما تيقَّنوه يقينًا، ويكون مؤكِّدًا لمضمون الجملة المنفية قبله، وقيل غير ذلك[(١)].

٣- **قوله:** ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾

﴿كَثِيرًا﴾ منصوبٌ على أنه نعتٌ لمفعول به محذوف، أي: أُناسًا كثيرًا. أو على أنَّه نائبٌ عن المفعول المطلَق (وهو المصدر)، أي: صَدًّا كثيرًا. وقيل غير ذلك[(٢)].

٤- **قوله:** ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ﴾: لكِنْ: مخفَّفة، وهي حرفُ استدراكٍ لا عمَلَ لها. والرَّاسخون: مبتدأ مرفوع، وخبره إمَّا قوله ﴿يُؤْمِنُونَ ...﴾ أو قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾ على ما

العِلم والظنُّ يَضمُّهما جِنس أنَّهما من معتقدات اليقين؛ يقول الظانُّ على طريق التجوُّز: (علمي في هذا الأمر كذا)، إنما يريد ظني، ورُدَّ هذا القول بأنَّ الظنَّ ما ترجَّح فيه أحد الطرفين، واليقين ما جُزِم فيه بأحدهما، وعلى تقدير التسليم به فاتباعُ الظنِّ ليس من جنس العِلم، بل هو غيره، فهو منقطع أيضًا، أي: ولكنَّ اتباعَ الظن حاصلٌ لهم. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٤٧)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٤٨)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٥١-١٥٢).

سيأتي بيانُه.

﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾: على قِراءة الجمهور بالياء[١]؛ ففي إعرابه عدَّة أوجه: أظهرُها: أنه منصوبٌ على القطع الذي يُفيد المدح، أي: وأمْدَح - أو: أعني، أو: أخصُّ - المقيمين، وهذا القطع مفيدٌ لبيانِ فضلِ الصلاة، فكثرَ الكلامُ في الوصفِ بأن جعل في جملةٍ أُخرى. وعلى هذا الوجه يجب أن يكونَ خبرُ ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ هو جملة: ﴿يُؤْمِنُونَ ...﴾، وليس: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾؛ لأنَّ القطعَ إنَّما يَكونُ بعدَ تمامِ الكلام.

وقيل: إنَّه مجرورٌ عطفًا على (مَا)؛ أي: يُؤمنون بِـما أُنزل إليك وبالمقيمين الصَّلاة، والمراد بهم: الملائكة أو الأنبياء. وقيل: التقديرُ: وبدِين المقيمين، فيكون المرادُ بهم: المسلمين. وعليه يكون الخبرُ جملةَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾، وتكون جملة (يُؤمِنون بما ...) جملةَ اعتراضٍ؛ لأنَّ فيه تأكيدًا وتسديدًا للكلام، ويكون (يؤمنون) يعود على (الراسخون) و(المؤمنون) جميعًا، ويجوزُ أن تكون جملة (يؤمنون) حالًا منهما. وقيل غير ذلك[٢].

---

(١) وقُرِئ بالواو (والمقيمون)، ولا إشكالَ في إعرابها.

(٢) قال السَّمين الحلبي- بعد حكاية أوجه الإعراب وتخريجاتها في هذه القراءة-: (وقد زعَم قومٌ لا اعتبارَ بهم أنَّها لحن، ونقَلوا عن عائشةَ وأبان بن عثمان أنَّها خطأ من جِهة غلَط كاتِب المصحف، قالوا: وأيضًا فهي في مصحَف ابن مسعود بالواو فقط؛ نقله الفراء، وفي مُصحَف أُبيٍّ كذلك، وهذا لا يصحُّ عن عائشةَ ولا أبان. وما أحسنَ قولَ الزمخشريِّ رحمه الله: ولا يُلتفت إلى ما زَعَموا من وقوعه لحنًا في خط المصحف، وربَّما التفت إليه مَن لم ينظر في الكتاب، ومَن لم يعرف مذاهبَ العرب، وما لهم في النَّصب على الاختصاص من الافتنان، وغَبِي عليه أنَّ السابقين الأوَّلين الذين مَثَلُهم في التوراة ومثَلُهم في الإنجيل كانوا أبعدَ هِمَّةً في الغَيرة عن الإسلام، وذبِّ المطاعن عنه من أنْ يقولوا ثُلمةً في كتاب الله؛ ليسدَّها مَن بعدهم، وخرقًا يرفوه مَن يَلحق بهم) ((الدر المصون)) (٤/ ١٥٥)، وينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩٠)، وينظر أيضًا: ((مفاتيح التفسير)) للدكتور أحمد سعد الخطيب (ص: ٧٠٩-٧٢٨) تحت مصطلح «اللحن»؛ فقد عالج هذه الفريةَ (ادِّعاء اللحن في القرآن الكريم أو في

﴿وَٱلْمُؤْتُونَ﴾: في رفْعه أوجهٌ؛ أظهرها: أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوف، ويكون من باب القَطعِ على المدح المذكور في نَصْب (والمقيمين). ومنها: أنَّه معطوفٌ على الضمير المستكنِّ في (الرَّاسخون)، وجاز ذلِك للفَصل. ومنها: أنَّه معطوفٌ على الضَّمير في (المؤمنون)، أو على الضَّمير في (يؤمنون). ومنها: أنَّه مبتدأٌ أوَّل، وخَبَره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾، فيكون (أولئك) مبتدأً ثانيًا، و (سنؤتيهم) خبرَ المبتدأ الثاني، والجملةُ خبرَ المبتدأِ الأوَّل (المُؤتونَ). وعلى هذا الوجهِ يجبُ أنْ يكونَ خبرُ ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ هو جُملة: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أيضًا.

و﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾: كلٌّ منهما مفعولٌ به لاسم الفاعِل العامِل عمَلَ فِعله (المقيمين) (الْمُؤتُونَ)[1].

المعنى الإجمالي:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنَّ أهل التوارة من اليهود يَطلُبون منك على سبيلِ التعنُّت أن تُنزِّل عليهم كتابًا من السَّماء، فيَنبغي ألَّا تكترثَ لذلك؛ فقد سألوا موسى ما هو أعظمُ من ذلك، بأنْ يُريهم اللهَ عِيانًا، فعُوقبوا بالصَّعق، بسبب ما ارتكبوه، ثم أنْجاهم اللهُ فعادوا لقبيح أفعالهم، فعَبَدوا العِجلَ بعدَما رأوا الآياتِ الواضحةَ التي جاء بها موسى، ثم عفَا الله عن ذلك، وأعطى موسى آياتٍ بيِّناتٍ، وحججًا واضحاتٍ، تدلُّ على صِدق ما جاء به.

ثم أخبَر تعالى أنَّه رفَعَ فوقَهم الجبلَ؛ تخويفًا لهم حين امتنعوا عن العمل بالتوارة التي أُخذَ عليهم العهد الموثَّق أن يلتزموا بها، وأخبر أنَّه أمَرَهم تعالى

بعض قراءاته) من خلال مناقشة الآثار والحُكم عليها، وتوجيه معنى اللَّحن أيضًا.

(١) يُنظر في إعراب هذه الآية وتفصيل الأوجه فيها: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠٧-٤٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٥٢- ١٥٥)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣١).

عند دُخولهم أحدَ أبواب بيت المقدس، أن يَدخُلوه وهم سجودٌ، ونهاهم عن الاعتداء يومَ السبت؛ فيَقعوا فيما حرَّمه عليهم، وأخَذ عليهم سبحانه عهدًا مؤكَّدًا شديدًا أنْ يفعلوا ما أُمروا به، ويَجتنبوا ما نُهوا عنه.

ثم أخبر تعالى أنَّ طَرْدَهم من رحمته كان بسبب نَقْضهم للعهودِ التي عاهدوا اللهَ عليها، وكُفرِهم بآيات الله، وقَتْلِهم الأنبياءَ بلا سببٍ يستوجب قتْلَهم، وبسببِ قولهم: إنَّ قلوبهم في أغلفةٍ وأغطية، فلا يعقلون بها، وقد كذَبوا في ذلك، بل ختَم الله عليها؛ بسببِ كُفرهم، فلا يؤمنون بما طُلب منهم الإيمانُ به إلَّا بشيءٍ يسير، كذلك كان إبعادُهم من رحمته سبحانه وتعالى بسبب كُفرِهم واتِّهامهم مريمَ بالوقوع في الزِّنا كذبًا وافتراءً. وبقولهم: إنَّهم قتَلوا المسيح عيسى ابنَ مريم رسولَ الله تعالى، وما قتلوه وما صَلبوه، ولكن أُلقي شبهُه على شخصٍ آخَرَ فظنُّوه عيسى عليه السَّلام، وأمَّا الذين اختلفوا في شأنِه من اليهود والنصارى فهُم في شكٍّ وحَيرة منه، وليس معهم سوى مُجرَّدِ ظُنون، وما قتلوه متيقِّنِين من أنه عيسى عليه السَّلام، بل رفَعَه الله إليه فلم يَنالوا منه عليه السَّلام، وكان الله عزيزًا حكيمًا.

ثمَّ أخبَر تعالى أنَّه لا يَبقى أحدٌ من أهل الكتاب بعد أن يَنزل عيسى في آخِرِ الزمان إلَّا وسيُؤمن به قبلَ موته، وسيكون عليه السَّلام شاهدًا عليهم يومَ القيامة.

وبيَّن اللهُ سبحانه بعدَ ذلك أنَّه بسببِ ظُلم اليهود وصَدِّهم عن سبيله كثيرًا، حرَّم عليهم بعضَ الطيِّبات التي كان أَحلَّها لهم من قبلُ؛ عقوبةً لهم على ذلك، وعلى أخذهم للرِّبا وقد نُهوا عنه، وعلى استيلائِهم على أموال النَّاس بدون وجهِ حقٍّ، وأعدَّ الله لِمَن كَفَر منهم عذابًا مؤلِمًا.

ثم وضَّح تعالى أنَّه ليس كلُّ اليهود متَّصفين بتلك الصِّفات السيِّئة؛ فالذين ثبَت العلمُ في صُدروهم وانتفعوا به، والمؤمنون منهم باللهِ وكُتبه ورُسله

جميعًا، هؤلاء يؤمنون بما أُنزل إلى رسولِ الله محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو القُرآن، وبما أُنزل من قبله من الكتُب المتقدِّمة، والذين يُقيمون الصَّلاة على أتمِّ الوجوه، ويُعطون الزكاة لِمَن يستحقُّها، والذين يُؤمنون بالله تعالى وباليوم الآخِر وما يكون فيه، أولئك وعَدَ الله أنَّه سيُؤتيهم أجرًا وثوابًا كبيرًا، وهو الجنة.

تفسير الآيات:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى معاذيرَ أهل الكتابين في إنكارهم رِسالةَ محمد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أعقَبَ ذلك بذِكر شيءٍ من اقتراحهم مجيءَ المعجزات على وَفقِ مطالبهم[1]، فقال تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾.

أي: يسألك أهلُ التوراة من اليهود يا محمَّد، على سبيل التعنُّت والعِنادِ أن تُنزِّل عليهم كتابًا من السَّماء جملةً واحدة، مكتوبًا بخطٍّ سماويٍّ، كما كانت ألواحُ التَّوراة، يَشهَدُ لك بالصِّدق، ويأمُرهم باتباعك[2].

﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٨-٦٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣).

أي: لا يَعظُمنَّ عليك- يا محمَّد- سؤالُهم ذلك، ولا تعجبنَّ منه؛ فإنَّه ليس بغريبٍ من أمرهم، بل سبَق لهم طلبُ ما هو أعظمُ من ذلك من موسى عليه السَّلام، الذي يَزعُمون أنَّهم يؤمنون به[١]!

﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾.

أي: فقالوا لموسى عليه السَّلام: نُريد رُؤيةَ الله تعالى عِيانًا نَنظُر إليه؛ كي نُصدِّقَك[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: ٥٥].

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡ﴾.

أي: فعُوقبوا بالصَّعق؛ بسببِ عُدوانهم وعِنادهم فهَلَكوا، ثم أحياهم اللهُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۞ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥ - ٥٦].

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾.

أي: ثم اتَّخذ هؤلاء الذين سألوا موسى رؤيةَ ربِّهم عِيانًا، بعدَما أحياهم اللهُ تعالى من صَعقتِهم، اتخذوا العجلَ إلهًا يعبدونه، مِن بعدِ ما رأوا بأبصارهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٨).

الأدلَّةَ الواضحةَ، والمعجزاتِ الباهرةَ التي جرَت لموسى عليه السَّلام[١]!

﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾.

أي: فعَفوْنا لعبدةِ العجل عن عِبادتهم إيَّاه. وقد جعَل الله تعالى توبتَهم: أن يَقتُل بعضُهم بعضًا[٢].

كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

أي: وأَعطينا موسى عليه السَّلام حُجَّةً واضحة، تُبين عن صِدقه ونبوَّته، وهي الآياتُ البيِّنات، والحُججُ الباهرات التي أُعطيها[٣].

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾.

أي: حين امتَنعوا من العملِ بالتوراة التي عُهِد إليهم الالتزامُ بها عهدًا مؤكَّدًا، رفَعْنَا فوق رؤوسهم جبلًا لتخويفهم؛ كي يُقرُّوا بما عُوهِدوا عليه، ويَعمَلوا به بقوَّة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٨-٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٨-٤١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٠-٤١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٩).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾.

أي: وأمَرْناهم أن يَخضعوا لله سبحانه بالفِعل والقولِ عند دُخولِهم أحدَ أبواب بيت المقدس، بأنْ يدخُلوا رُكَّعًا متواضعين، وأن يَطلُبوا من الله تعالى أن يَضعَ عنهم ذُنوبَهم وخطاياهم(١).

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾.

أي: وقُلنا لهم: لا تَتجاوزوا في يوم السَّبت ما أُبيح لكم إلى ما حُرِّم عليكم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

أي: وأَخذْنا عليهم عهدًا مؤكَّدًا شديدًا؛ بأنْ يَعملوا بما أمرَهم اللهُ تعالى به، ويَنتهوا عمَّا نهاهم عنه(٣).

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٩-٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢١).

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾.

أي: فبسببِ نقضِهم عهودَهم، التي عاهدوا اللهَ تعالى أن يأخذوا بها، طَرَدْناهم وأبعدناهم من رحمتِنا(١).

كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ...﴾ [المائدة: ١٣].

﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وبسبب كُفرهم بالأدلَّة والحُجج والمعجزاتِ، التي شاهدوها دالَّةً على الحقِّ بوضوحٍ(٢).

﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

أي: وبسببِ قيامِهم بقَتْلِ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام بغير سببٍ يَستحقُّون به القتل(٣).

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾.

أي: وبسببِ قولهم: قلوبُنا داخلةٌ في غِلاف وأَغطيةٍ، فلا نَعقِل بها(٤).

كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٥-٦٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٣).

﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما زعَموا من أنَّ قلوبَهم غُلف؛ فقد كذَبوا في ذلك، وإنَّما ختَم الله تعالى على قلوبِهم؛ بسببِ كُفرهم(١).

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: فلا يؤمنون إلا بشيءٍ يسيرٍ ممَّا وجب عليهم الإيمانُ به، لكنَّه إيمانٌ لا ينفعهم؛ لأنَّه مغمورٌ بما كفروا به، كإيمانهم ببعضِ الأنبياء وكُفرهم ببعضهم(٢).

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾.

أي: وبسبب كُفرهم وبسبب افترائِهم على مريمَ عليها السَّلام برَمْيِها بالوقوعِ في الزِّنا(٣).

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وبسببِ دَعواهم قتْل عيسى عليه السَّلام(٤).

---

(١) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٧).

أمَّا قوله: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، فقيل: إنَّها من قول الله تعالى؛ فهم لا يُقرُّون بأنه رسول، لكن الله تعالى قال: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ كأنَّه يقول: إنَّه لا يستحقُّ أن يُقتَل؛ لأنَّه رسول الله.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

أي: والحقُّ أنَّهم لم يَقتُلوا عيسى عليه السَّلام، ولم يَصلِبوه كما يَدَّعون، ولكن أُلقي شبهُه على شخصٍ آخرَ؛ فظنُّوه هو(١).

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾.

أي: وإنَّ الذين اختلفوا من اليهود والنَّصارى في شأنِ عيسى عليه السَّلام- هل هو الذي قُتِل وصُلِب أم غيره- يُخالج نُفوسَهم الشكُّ، وتنتابهم الحَيرةُ من هذا الأمر(٢).

﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾.

أي: مِن غير أن يكونَ لهم عِلمٌ جازم بمَن قتلوه حقًّا؛ أهو عيسى عليه السَّلام أم غيره، وإنَّما غايةُ ما لديهم هو مجرَّدُ ظنونٍ، لا تَرقى إلى درجةِ اليقين(٣).

وقيل: بل هذا من كلامهم، وإنَّما قالوه على سبيل التهكُّم، يعني: الذي يزعم أنه ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ويدَّعي لنفسه هذا المقام، كقول قريش لمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٧).

(١) واختار هذا القولَ في معنى ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾: الواحديُّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٠٠)، والقرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٩)، وابنُ كثير في ((تفسيره)) (٢/ ٤٤٩)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ١٣٢)، والشنقيطيُّ في ((أضواء البيان)) (١/ ٢٠١)، وفي ((العذب النمير)) (٢/ ٤٠٢)، وابنُ عثيمين في ((تفسير سورة النساء)) (٢/ ٤٣٨).

= وقيل: يحتملُ أن يكونَ المعنى: ولكن شُبِّه لليهودِ الأولين والآخرين خبرَ صلبِ المسيحِ، أي: اشتبه عليهم الكذبُ بالصدقِ، فيكونُ من بابِ قولِ العربِ: خُيِّل إليك، واختلطَ على فلانٍ. وليس ثمة شبيهٌ بعيسى. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٦٠)، ((تفسير الواحدي)) (٢/ ١٣٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٩-٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٦١)، ((تفسير الواحدي)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور))

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

أي: وما قتَلوه متيقِّنين أنَّه عيسى عليه السَّلام[١].

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨﴾.

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما ظنُّوا من أنَّهم قتلوه وصلبوه، ولكنَّ الحقيقةَ هي أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد رفَعه إليه في السَّماء؛ فلم يَظفروا به[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى ذو قدْرٍ عظيمٍ، منيع الجَناب، غالبٌ على أمره، قاهرٌ لأعدائه، منتقِمٌ منهم، ذو حكمةٍ في تدبيره وقَضائه؛ فيضع كلَّ شيءٍ في موضعه اللائق به سبحانه، ومِن عِزَّته وحِكمته عزَّ وجلَّ: رفْعُه لعيسى عليه السَّلام، ومنعُ أعدائه من الوصول إليه[٣].

(٦/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤٠-٤٤١).

(١) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٧/ ٦٦١)، والواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٠٠)، وابنِ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٢/ ٤٤٩)، وجعَله ابنُ عاشور أحدَ الاحتمالاتِ في ((تفسيره)) (٦/ ٢٣).
وقيل: أي: عدم قتْل عيسى عليه السَّلام، أمرٌ يَقينيٌّ لا شكَّ فيه. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣).
وذهب ابنُ عثيمينَ إلى حمل الآية على كلا المعنيين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾.

مُناسبةُ هذه الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى فضائح اليهود، وقبائحَ أفعالهم، وأَوْضَح أنَّهم قَصدوا قتْل عيسى عليه السَّلام، وأنَّه ما حصَل لهم ذلك المقصود، وأنَّه حصَل لعيسى أعظمُ المناصب، وأجلُّ المراتب- بَيَّن تعالى أنَّ هؤلاء اليهودَ الذين كانوا مبالغين في عَداوته، لا يخرُج أحدٌ منهم من الدُّنيا إلَّا بعدَ أن يؤمن به[1]، فقال:

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾.

أي: إنَّه لا يَبقى أحدٌ من أهل الكِتاب بعد نُزولِ عيسى عليه السَّلام في آخِر الزَّمان، عند اقترابِ السَّاعة، وظهورِ علاماتها الكِبار، إلَّا آمَن به قبلَ موته عليه السَّلام[2].

عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((والذي نَفْسي بيدِه، ليُوشِكنَّ أن يَنزلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكمًا عدلًا، فيَكسِرَ الصَّليبَ، ويَقتُلَ الخِنزيرَ، ويضعَ الجزيةَ، ويَفيضَ المالُ حتى لا يقبلَه أحدٌ، حتى تكونَ السجدةُ الواحدةُ خيرًا من الدُّنيا وما فيها. ثم يقولُ أبو هريرةَ: واقرؤوا- إنْ شئتم-: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾))[3].

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾.

سورة النساء)) (٢/ ٤٤٨-٤٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٢-٦٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٢).

(٣) رواه البخاري (٣٤٤٨) واللفظ له، ومسلم (١٥٥).

أي: ويوم القِيامة يكونُ عيسى عليه السَّلام شاهدًا على أهل الكِتاب من اليَهود والنَّصارى، الذين تعارَضتْ أقوالُهم فيه؛ بتكذيبِ مَن كفَر به منهم، وتَصديق مَن آمَن به منهم، فيما أتاهم به من عند الله، وبإبلاغِه رسالةَ ربِّه ومولاه، وشاهدًا على أعمالهم التي شاهدَها منهم قَبلَ رفْعِه إلى السَّماء، وبعد نُزوله إلى الأرض[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٨].

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا بَيَّن فَضائحَ أعمالِ اليهودِ، وقبائحَ الكافرين وأفعالَهم، ذكَر عقيبَه تشديدَه تعالى عليهم في الدُّنيا وفي الآخرةِ[٢]، فقال:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾.

أي: فبسبب ظُلم اليهود- بما ارْتكبوه من الذُّنوب العَظيمة- حرَّم الله تعالى عليهم؛ عقوبةً لهم، عددًا من الطيِّبات التي أحلَّها لهم سبحانه من قبلُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٥-٦٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٢-٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي))

كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾.

أي: وبسببِ صدِّهم أنفُسَهم عن اتِّباع الحقِّ، وصدِّهم الناسَ أيضًا عن طريقِ الهُدى صدًّا كثيرًا، فقد قالوا على الله تعالى الباطِل، وبدَّلوا كتابَ الله، وحرَّفوا معانيَه عن وجوهِه، وكتَموا ما فيه- كأمْر مُحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ وبيان صِفته للنَّاس- وقتَلوا خلقًا من الأنبياء، وكذَّبوا عيسى ومحمدًا عليهما الصَّلاة والسَّلام[1].

﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦١﴾.

﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾.

أي: وبسببِ تَناوُلهم الرِّبا، والحال أنَّهم قد نُهوا عن أخْذه، فقامتْ عليهم الحُجَّةُ في ذلك[2].

﴿وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾.

(ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٦).

قال ابنُ كثير في قوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾: (وهذا التحريم قد يكون قدريًّا، بمعنى: أنه تعالى قيَّضهم لأنْ تأوَّلوا في كتابهم، وحرَّفوا وبدَّلوا أشياءَ كانت حلالًا لهم، فحرَّموها على أنفسهم؛ تشديدًا منهم على أنفسِهم، وتضييقًا وتنطُّعًا. ويحتمل أن يكون شرعيًّا، بمعنى: أنه تعالى حرَّم عليهم في التوراة أشياءَ كانت حلالًا لهم قبل ذلك) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٦-٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٧-٤٥٩).

أي: وبسبب استيلائِهم على أموالِ الناسِ بغير حقٍّ[١].

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: وهيَّأْنا للكفَّارِ من هؤلاء اليهود عذابًا موجعًا[٢].

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قبلَها:

لَمَّا ذَكَر الله تعالى معايبَ أهل الكتاب، ذكَر الممدوحين منهم[٣]، فقال:

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: ليس كلُّ اليهود على تِلك الأوصاف السيِّئة؛ فالذين ثبَت العِلمُ النافع في قلوبِهم، ورسَخَ الإيقانُ في أفئدتهم، والمؤمنون بالله تعالى وجميعِ كُتبِه ورُسلِه عليهم السَّلام[٤].

﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٨-٦٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٧-٤٦٨).

وقيل: المراد بالمؤمنين هنا أصحابُ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٨).

وقال ابن عاشور: (وعطف ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ على ﴿الرَّاسِخُونَ﴾ ثناءً عليهم بأنَّهم لم يسألوا نبيَّهم أنْ يُريهم الآياتِ الخوارق للعادة؛ فلذلك قال: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، أي: جميعهم، ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، أي: القرآن، وكفاهم به آيةً، ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ على الرُّسل، ولا يُعادون رسل الله تعصُّبًا وحمية) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨).

أي: يُؤمِنون بالقُرآنِ الذي أُنزل إليك يا محمَّدُ، وبالكتُب السابقة التي أُنزلتْ على الأنبياء عليهم السَّلام من قَبْلك[١].

﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: والذين يُؤدُّون الصلاةَ على وجه الاستقامة والتَّمام، فيأتون بها تامَّةَ الشروط، مستوفيةَ الأركان والواجبات، ويُكمِّلونها بالمستحبَّات[٢].

﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: والذين يُعطون زكاةَ أموالهم أهلَها، المستحقِّين لها[٣].

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

أي: والذين يُؤمنون باللهِ تعالى، ويُؤمنون بالبَعثِ بعد الموت، والجزاءِ على الأعمالِ؛ خيرِها وشرِّها[٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: أولئك الذين هذه صِفتُهم- ممن جمعوا بين العِلم والإيمانِ والعملِ الصالح- سنُعطيهم جزاءً وثوابًا كبيرًا، وهو الجنة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٨). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧١-٤٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٢-٤٧٣).

الفوائِد التربويَّة:

١- النَّظر إلى عاقبة التعنُّت في الدِّين؛ قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ فأخذتْهم الصاعقة بتعنُّتِهم، وسؤالِهم ما ليس لهم أن يَسألوه[١].

٢- أنَّ الذَّنب كلَّما عظُم كان أسرعَ للعقوبة؛ لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾، والفاء تدلُّ على الترتيب والتعقيب؛ ولهذا أخذتْهم الصَّاعقةُ في الحال، فماتوا جميعًا[٢].

٣- أنَّ مَن تحيَّل على محارمِ الله مِن هذه الأمَّة ففيه شبهٌ من اليهود، سواء كان في البَيع أو في الشِّراء، أو فيما أحلَّ الله من الطعام وحرَّم، أو في النِّكاح، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾[٣].

٤- الكُفر المتزايد يَزيد تَعاصي القلوب عن تلقِّي الإرشاد؛ يستفاد ذلك من قول الله تعالى: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٤].

٥- وجوب اقتِناع الإنسان بحُكم الله، ورِضاه بقَدَره، فوجوب اقتناعه بحُكم الله؛ لأنَّه إذا آمن أنه لحِكمةٍ، وجَبَ أن يقتنع به؛ قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ ولهذا كان السَّلف الصالح لا يُقنعون النفوسَ عند الإشكال إلَّا بالنُّصوص، وأمَّا الرِّضا بقضائه، فالمراد: أنْ يرضَى الإنسان بقضاء الله لا بالمقضيِّ؛ لأنَّ المقضيَّ فيه تفصيل، لكن القضاء من حيثُ هو قضاءُ الله يجب عليه أن يَرضَى به، وهذا من تمامِ توحيد الربوبيَّة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٠).

٦- اقتراف الذُّنوب والظُّلم موجبٌ للتَّشديد في الدُّنيا والآخِرة، وجامع لنكد الدَّارين؛ وسبب لحرمان الخير الشرعيِّ والقدريِّ، قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، وفي ذلك بيانُ فُحش الظُّلم، والتقبيح له، والتحذير منه[١].

٧- أنَّ الجزاءَ مِن جِنس العَمل؛ قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾؛ فمُنعوا مستلذَّات تلك المآكِل بما مَنَعوا أنفسَهم وغيرَهم من لذاذةِ الإيمان[٢].

٨- في قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ بيانُ فَضيلةِ العالِمين بأحكام اللهِ تعالى، العامِلين بتِلك الأحكام[٣].

٩- أنَّ العِلم سببٌ للإيمان؛ لقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ولا شكَّ أنَّه كلَّما ازداد الإنسان علمًا، ازداد إيمانًا وبصيرةً بتوفيق الله عزَّ وجلَّ[٤].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ فيه الاستدلالُ على حالتهم بحالةِ أسلافهم، من قَبيل الاستدلال بأخلاق الأُمم والقبائل على أحوالِ العَشائر منهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٢)..

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٤).

٢- دِفاع اللهِ تعالى عن الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّه سلَّاه وقال: لا تتعجَّبْ، ولا تستكبِرْ هذا السؤالَ ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾[١].

٣- أنَّ اليهودَ اتَّخذوا العجل إلهًا عن عِلمٍ، فليس لهم عُذرٌ؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، ومعلوم أنَّ المذنب بعد العِلم أشدُّ من المذنبِ عن غير عِلمٍ[٢].

٤- أنَّ ما جاءت به الرُّسلُ فهو حُجَّة ظاهرة لا تَخفى إلَّا على مَن أعْمَى اللهُ قلبَه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[٣].

٥- إثباتُ الأسباب، وأنَّ لها أثرًا في حُصولِ المسبَّبات؛ لقوله: ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾؛ فإنَّ الباء للسببيَّة[٤].

٦- قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ فيه دليل على العُذر بالجهل[٥].

٧- أنَّ إيمانَ بني إسرائيل إيمانُ إكراه؛ لأنَّ أيَّ قادرٍ يقول: أنا سأُسقط عليك حجارةً من السَّماء إنْ لم تؤمن، فيؤمن المُهدَّدُ على إكراه، وعليه: فالمؤمن على إكراهٍ لا بدَّ أن يكون إيمانه ضعيفًا، إذا زال الإكراهُ ربما يَرجِع إلى الكفر؛ قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ ...﴾[٦].

٨- مِن أحسنِ الطُّرق لمحاجَّة الخصمِ المبطل، أنَّه إذا صدَر منه اعتراضٌ باطلٌ قد يكونُ شبهةً له ولغيرِه في ردِّ الحقِّ- أن يُبيَّن مِن أحواله الخبيثة وأفعاله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤١٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٥).

الشنيعة أقبحُ ما صدَر منه؛ ليَعلمَ كلُّ أحدٍ أنَّ هذا الاعتراضَ ممَّن هذا حاله، وأن له مقدماتٍ ينبغي أن يُجعل معها؛ ليُكتفَى بذلك شرُّهم، وينقمع باطلُهم، فلَمَّا كان المرادُ من تعديد ما عدَّد اللهُ من قبائحهم هذه المقابلة لم يَبسُطْها في هذا الموضِع، بل أشار إليها، وبسَطَها في غير هذا الموضِع، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ...﴾ الآيات[1].

٩- إثباتُ الأسباب الشرعيَّة، وكذلك إثبات الأسباب القدريَّة من باب أَوْلى؛ لقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ والباء للسببيَّة، وإثبات الأسباب المؤثِّرة في مُسبَّباتها من مقتضى حِكمة الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الشيء لو وقَع صُدفةً هكذا لكان سفهًا، والإنسان الذي يفعل الشيءَ اعتباطًا بدون سبب موجب له لا يعدُّ حكيمًا، لكن الذي يفعل الشيء بأسبابه والمؤثرات فيه هذا هو الحكيم، والله عزَّ وجلَّ قد ربط المسبباتِ بالأسبابِ، ولكن لقصورِنا ونقصِنا قد نعلمُ السببَ وقد لا نعلمُه[2].

١٠- أنَّ نقْضَ الميثاق سببٌ لِلَعنةِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الآيةَ على تقديرِ محذوف، وهو: (لعنَّاهم)، أي: فبما نقضهم ميثاقهم.... لعنَّاهم[3].

١١- أنَّ كلَّ مَن احتجَّ بالقَدَر على الشَّرْع، فحُجَّتُه داحضةٌ؛ لأنَّ هؤلاء احتجُّوا بقَدَرِ الله على شَرْعِه، حيث قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ فأبطل اللهُ تعالى حُجَّتَهم بقوله: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فمن كَفَر، ولم يعلمِ اللهُ فيه خيرًا، طبَع على قلبِه؛ فلا يَهتدي أبدًا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] فمَن زاغ عن الحقِّ فهو

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٩).

السبب[١].

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إثباتُ الآيات لله، وآياتُ الله تعالى نوعان: كونيَّة وشرعيَّة؛ فالكونيَّة جميعُ المخلوقات، فكلُّ المخلوقات دالَّةٌ على خالقها عزَّ وجلَّ، وعلى قُدرتِه وعِلمه، وحِكمتِه ورحمته، وغير ذلك ممَّا يتعلَّق بهذه المخلوقات، والآيات الشرعية: هي ما أنزله الله على رسله من الوحي[٢].

١٣- عُتوُّ بني إسرائيل؛ حيث اعْتَدَوْا على مَن أتَوْا بشَرْع يَهدُون الناس به، فقتلوا: ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، بل قتَلوا ﴿ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١] ولو كانوا غيرَ أنبياء[٣]!

١٤- أنَّ قتْلَ الأنبياء لا يُمكن أن يكون بحَقٍّ، وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بيانٌ للواقِع، وليس قيدًا احترازيًّا، وهو كثيرٌ في القرآن[٤].

١٥- أنَّ اليهود باؤوا بإثم قَتْل المسيح أَخْذًا بإقرارهم؛ لأنَّ الله جعَلَ الإقرارَ شهادة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥] ولهذا نقول: اليهود قتَلوا المسيح حكمًا ولم يقتلوه واقعًا؛ لأنهم أقروا بأنهم قتلوه، ولكنهم لم يقتلوه واقعًا في الحقيقة، فحكم قتل المسيح ثابت على اليهود بإقرارهم[٥].

١٦- نِسبة الإنسان إذا لم يكُن له أبٌ إلى أُمِّه، وتُؤخذ من قوله: ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٩، ٤٣٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٣).

١٧- فائدة نحويَّة: أنَّ الإنسان إذا اشتهر بلقبِه، فلا بأس أن يُقدَّم على اسم العَلَم؛ لأنَّه قدَّم المسيح، في قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾، وإلَّا فالأصل أن يُقدَّم الاسم أولًا، ثم اللَّقب، ثم الكُنية، لكن إذا اشتهَر باللَّقب فإنَّه يُقدَّم، مثل أن تقول: (الإمام أحمد بن حنبل)، أو (أحمد بن حنبل الإمام)؛ فالأوَّل مُقدَّم؛ لأنَّه مشتهرٌ به[١].

١٨- سَفاهةُ النَّصارى وقِلَّة تمييزهم؛ إذ إنَّهم يَعبُدون الصَّليب ويُعظِّمونه، ولو كانوا عُقلاءَ لكسروه؛ صليبٌ يُصلَب عليه نبيُّهم، ثم يذهبون إلى تقديسه! لو أُخِذ بظاهر الحال لقِيل: هذا دليلٌ على بُغضهم لعيسى، حيث قدَّسوا ما عُذِّب به، وهو الصَّليب، لكن هم يدَّعون أنَّ هذا تعظيمٌ لعيسى عليه الصَّلاة والسَّلام[٢].

١٩- إثباتُ علوِّ الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾[٣].

٢٠- أنَّ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسَّلام حيٌّ؛ لقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾، وهذا يقتضي رَفْعَه برُوحه وجَسَدِه، كما عُرِج بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ برُوحه وجسَدِه إلى السموات[٤].

٢١- أنَّ الكتابيَّ قد يؤمن إيمانَ اضطرارٍ إمَّا عند موته- على قول-، أو إذا نَزَل عيسى، ولكن النصوص تدلُّ على أنَّ الإيمانَ الاضطراريَّ لا ينفع، وأنَّ الإيمان لا ينفع إذا حضَر الأجلُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨]، ولكن الإيمان الاضطراري في غير هذا الحال قد يَرْسَخُ في قلْبِ المرء،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٤)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فقد يُؤمِنُ أولًا خوفًا من السَّيف، ثم يَرسَخُ الإيمان في قلبه ويثبت، ويكون إيمانًا حقيقيًّا يُثاب عليه، وينجو به من النَّارِ[١].

٢٢- قوله تعالى: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا﴾ فيه التحذيرُ من كلِّ أنواع الصدِّ عن سبيلِ اللهِ؛ فالصَّد لا يتقيَّد بصيغةٍ معيَّنة، بل كلُّ ما فيه صدٌّ عن سبيل الله سواء بالتخذيل، أو بالإرجاف، أو بالإيعاد، أو بالوعد، أو بغير ذلك فإنَّه داخلٌ في التَّحذير من ذلك[٢].

٢٣- في قوله: ﴿وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ جاء الوصف بقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ ليكون أشدَّ في الذمِّ، وإنْ كان لا مفهومَ له؛ لأنهم لو صدُّوا قليلًا، لكان لهم نصيبٌ من الإثم، إنما الغاية هي الكثرةُ[٣].

٢٤- أنَّ المتعاطِين للرِّبا من هذه الأمَّة مُشبهون لليهود؛ لقوله: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾[٤].

٢٥- أنَّ أخْذ الرِّبا مُحرَّمٌ، سواء كان للأكْل، أو للشُّرب، أو للبس، أو للاقتناء، أو لأيِّ غرَضٍ كان؛ لعموم قوله: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[٥].

٢٦- قول الله تعالى: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾ في الآية دليل على أنَّ النهي للتحريم[٦].

٢٧- أنَّ الحُجَّة لا تقوم إلَّا بعدَ بُلوغها، وأنَّ مَن فعَل شيئًا لا يَدري عن

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٤٥).

حُكمه، فهو غير مُؤاخَذٍ به؛ لقوله: ﴿وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾[١].

٢٨- أنَّه لا يمكن أنْ يتمَّ الإيمان إلَّا بالإيمان بما جاء به الرسولُ عليه الصلاة والسَّلام؛ لقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، فكلُّ إنسان يدَّعي أنه مؤمنٌ دونَ أن يُؤمنَ بما أُنزل على محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فإنَّه كافرٌ، وكاذب في دَعواه؛ لأنَّ دِينَ الإسلام الذي جاء به محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ ناسخٌ لجميع الأديان[٢].

٢٩- الإشارة إلى أنَّه لا نبيَّ بَعد محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لقوله: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ ولم يقُلْ: (من بعدك)، وهذا هو الواقع، لكن الآية فيها الإشارةُ، وليس فيها التصريح[٣].

٣٠- فضيلةُ إقامة الصَّلاة وإيتاء الزكاة؛ لأنَّ الله تعالى نصَّ عليهما من بين سائر الأعمال، وإقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة قرينتانِ في كتابِ الله[٤]. وأيضًا لَمَّا كانتِ الصلاةُ أعظمَ دعائم الدِّين، نُصب قولُه: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ على المدحِ من بين هذه المرفوعات؛ إظهارًا لفضلِها[٥].

بلاغة الآيات:

١- **قوله**: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: جيء بالفِعل المضارع هنا ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾؛ إمَّا لقصْد استحضارِ حالتهم العجيبة في هذا السُّؤال، حتى كأنَّ السامعَ يَراهم، وإمَّا للدَّلالة على تَكرارِ السؤالِ، وتجدُّدِه المرةَ بعد الأخرى، بأنْ يكونوا ألَـحُّوا في هذا السؤال؛ لقصد الإعناتِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥٠٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣).

٢- **قوله**: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ﴾: الفاء في (فَقَدْ) فاء الفصيحة، دالَّة على مُقدَّر دلَّت عليه صيغةُ المضارع المراد منها التعجُّب، أي: فلا تعجب من هذا؛ فإنَّ ذلِك شنشنةٌ- أي: عادةٌ- قديمةٌ لأسلافهم مع رسولِهم؛ إذ سألوه معجزةً أعظم من هذا[١].

- وفيه: إسنادُ السُّؤال إليهم، وإن كان وُجِد من آبائهم في أيام موسى عليه السَّلام- وهم النقباء السَّبعون-؛ لأنَّهم كانوا على مذهبهم، وراضين بسؤالهم، ومُضاهين ومُشاكِلين لهم في التعنُّت[٢].

٣- **قوله**: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ فيه عطفُ جملة اتِّخاذهم العجلَ بحرف (ثم) المفيدِ في عطفِه الجُملَ معنى التَّراخي الرُّتبي؛ لأنَّ اتخاذهم العجل إلهًا أعظمُ جُرمًا ممَّا حُكِيَ قبله[٣].

٤- **قوله**: ﴿فَعَفَوْنَا﴾: عبَّر الربُّ الجليل عن نفْسه سبحانه بضمير الجَمْع؛ للتَّعظيم، وليست للتعدد كما زعَم النصرانيُّ الخبيث؛ فإنَّ النصرانيَّ يقول: الآلهة متعدِّدة[٤].

٥- **قولُه تعالى**: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ فيه إيجازٌ بالحذف، حيث نزَع الجارَّ فقال: ﴿فَوْقَهُمُ﴾ ولم يقل: (مِنْ فَوقِهم)؛ لأنَّه لَمَّا كان الطور قد ملأ جِهةَ الفوق بأنْ وارى جميعَ أبدانهم، ولم يسلم أحدٌ منهم من ذلك، نَزَع الجار؛ دلالةً على ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٩)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٢١)، ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٣١٦).

(٣) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥).

(٤) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٧).

(٥) ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٥٦).

٦- **قوله تعالى**: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: فيه مناسبةٌ حسنةٌ؛ فإنَّه قال في سورة آل عمران: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١]؛ فلكونِه هنا في سورة النساء في سِياق طَعنِهم في القُرآنِ، الذي هو أعظمُ الآياتِ، عبَّر- مع جَمْع الكثرة ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وتنكير ﴿حَقٍّ﴾- بالمصدرِ المُفْهِم ﴿قَتْلهم﴾؛ لأنَّ الاجتراءَ على القَتلِ صارَ لهم خُلقًا وصِفةً راسخةً، بخِلاف ما مَضَى في آل عِمران؛ فإنَّه بالمضارع ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ الذي ربَّما دلَّ على العُروضِ[١].

٧- **قوله تعالى**: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ... وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا﴾ فيه عطف قوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ مرةً ثانية على قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾، ولم يَستغنِ عنه بقولِه: ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ وأُعيد مع ذلك حرفُ الجر الذي يُغني عنه حرفُ العطف؛ قصدًا للتأكيد، واعتُبر العطفُ لأجْل بعد ما بين اللَّفظينِ، ولأنَّه في مقام التهويلِ لأمر الكُفر، فالمتكلِّم يَذكُره ويُعيده؛ ليري أنه لا ريبةَ في إناطة الحُكم به[٢].

٨- **قوله**: ﴿وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾: فيه استدراك[٣]؛ لرَفْع التوهُّم، والمستدرَك هو ما أفادَه قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾؛ من كون هذا القولِ لا شُبهة فيه، وأنَّه اختلاق محض؛ فبيَّن بالاستدراك أنَّ أصل ظنِّهم أنهم قتلوه أنَّهم توهَّموا أنَّهم قتلوه[٤].

---

(١) ((المصدر السابق)) (٥/ ٤٦٢).

(٢) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨).

(٣) الاستدراك: هو رفع توهُّم يتولَّد من الكلام السابق رفعًا شبيهًا بالاستثناء، وهو معنى (لكن)، وهو من البديع، ويُشترط فيه زيادة نُكتة طريفة على معنى الاستدراك؛ لتُحسِّنَه وتُدخِلَه في البديع، وإلَّا فلا يعد منه؛ وهو قسمان: قسم يتقدَّم الاستدراك تقريرٌ وتوكيد؛ إمَّا لفظًا أو معنى لما أخبر به المتكلِّم، وهذا هو الأكثرُ الذي بَنى عليه فحول أرباب البديعيات أبياتهم، وقسم لا يتقدَّمه ذلك. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٣٨)، ((أنوار الربيع)) لصدر الدين المدني (١/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠).

٩- **قوله:** ﴿يَقِينًا﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾ فيه تأكيدٌ لقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ كقولك: ما قتلوه حقًّا، أي حقَّ انتفاءُ قتْلِه حقًّا، وفيه تهكُّم؛ لأنَّه إذا نفى عنهم العلمَ نفيًا كليًّا بحرف الاستغراق (ما)، ثم قيل: وما علموه علمَ يقين وإحاطة، لم يكُن إلَّا تهكُّمًا بهم[١]،ونُصب ﴿يَقِينًا﴾ على النِّيابة عن المفعول المطلق المؤكِّد لمضمون جملة قبله؛ لأنَّ مضمون ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ بعد قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ انتفاءَ قتلهم إيَّاه أمرٌ متيقَّن؛ فصحَّ أن يكون يقينًا مؤكدًا لهذا المضمون[٢]، فاليقين هنا عائد إلى نفي القتل، والذي أوجب هذا أنَّ اليهود لهم دِعايةٌ قويَّة فيما يذهبون إليه؛ فمِن أجْل هذه الدِّعاية القوية قُوبلوا بهذه التأكيدات التي تدلُّ على أنَّهم لم يَقتُلوا عيسى، وهذا من رحمة الله وحِكمته، أما كونه من رحمته؛ فلئلَّا يعلق في قلوب المسلمين من هذه الدعاية، وأمَّا كونه من حِكمة الله؛ فلأجْل أن يتبيَّن الأمرُ كما هو، حتى لا يكون ملتبسًا[٣].

١٠- **قوله:** ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: تذييل حسنٌ ومناسبٌ لقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾؛ لأنَّه لَمَّا عزَّ فقد حقَّ لعزه أن يُعزَّ أولياءَه، ولَمَّا كان حكيمًا؛ فقد أتْقن صُنع هذا الرفع، فجعله فِتنةً للكافرين، وتبصرةً للمؤمنين[٤]، وفيه مناسبة حسنة في ختْم الآية بهذَينِ الاسمينِ الكريمين؛ وَجهُها أنَّ هؤلاءِ اليهود جاؤوا مغالبين يُريدون أن يقتُلوا رسولًا من رسل الله عزَّ وجلَّ، فناسب أن يختم الآية بقوله: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فالحَكيمُ هنا محمولٌ على معنى الحُكم، وهو أظهرُ مِن حمْله على مَعْنى الحِكمة؛ فإنَّ الحَكيمَ يأتي لهذا وهذا، يعني: هو الحاكِمُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤).

عزَّ وجلَّ؛ ولذلك منَعَ هؤلاءِ مِن إفسادِهم وقتْلهم النبيَّ[١].

١١- **قوله**: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ...﴾:

- فيه: تنكير (ظلم) للتعظيم[٢].

- وتقديم السَّبب (الظُّلم) على المسبَّب (تحريم الطيِّبات)؛ للتَّنبيه على فُحش الظلم، والتقبيح له، والتحذير منه[٣]، وأيضًا هذا التقديم يُفيد الحصر، أي: حرَّم عليهم ذلك بسبب الظُّلمِ لا بسببٍ آخَرَ، وقد أبهم ما حرَّم عليهم هنا; لأنَّ الغرضَ من السياق العبرةُ بكونه عقوبةً، لا بيانُه في نَفْسِه، كما أبهم الظلم الذي كان سببًا له; ليعلمَ القارئ والسامع أنَّ أيَّ نوع من الظلم يكون سببًا للعقاب في الدُّنيا قبل الآخرة[٤].

- والإظهار في مقام الإضمار- حيث قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، ولم يقل: (فبِظُلمهم)-؛ حتى تأتيَ الضمائر متتابعةً من قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم﴾ إلى آخره؛ ولأنَّ في الموصول وصِلته من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ ما يَقتضي التنزُّهَ عن الظُّلم، لو كانوا كما وَصَفوا أنفسهم، فصدور الظُّلم عن الذين هادُوا محلُّ استغراب[٥].

١٢- **قولُه**: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ فيه استدراكٌ ناشئ على ما يُوهمه الكلام السابق ابتداءً من قوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من توغُّلهم في الضلالة حتى لا يُرجى لأحد منهم خيرٌ وصلاحٌ، فاستدرك بأنَّ الراسخين في العِلم منهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٥٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٦).

ليسوا كما تُوهِّم؛ فهم يؤمنون بالقرآن مِثل عبد الله بن سلام رضي الله عنه[١]، وكان مجيء (لكن) هنا في غايةِ الحُسن؛ لأنَّها داخلةٌ بين نَقيضينِ وجَزائهما، وهم الكافِرون والعذابُ الأليم، والمؤمنونَ والأجرُ العظيم[٢].

١٣- **قوله:** ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فيه ذكر الخَاصِّ بعد العامِّ، فإنَّ الإيمان بهذا داخلٌ في قولِه قبلَه: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ وذلك لأهميَّته؛ فإنَّ مدارَ الإيمان كلِّه على الإيمانِ بالله؛ لأنَّا نؤمن بأنَّ الرُّسل رسل الله، وأنَّ الكتب كتب الله، وأنَّ الملائكة عباد الله، وهلمَّ جرًّا، فالركيزةُ الأولى هي الإيمان بالله عزَّ وجل، وما بعدَه يُعدُّ فروعًا أو جِهاتٍ متعدِّدةً من الإيمان بالله[٣].

١٤- **قوله:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

- فيه: بيان علوِّ مرتبةِ هؤلاء المتَّصفين بهذه الصفات، يُؤخَذ ذلك من الإشارة إليهم بإشارة البعيد، ولم يقل: (هؤلاء)، ولم يقل: (فإننا سنؤتيهم)، بل قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، والإشارة إلى المشار إليه بالبُعد تدلُّ على علوِّ مرتبته، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] مع أنَّه بين أيدينا، لكن لعلوِّ مرتبته أُشير إليه بإشارة البَعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾[٤].

- تنكير ﴿أَجْرًا﴾، ووصفه بـ﴿عَظِيمًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه أجرٌ عظيم لا تُتصوَّر عظمتُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٧٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٧٦).

الآيات (١٦٢ - ١٦٦)

﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾.

غريب الكلمات:

﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾: جمْع سِبْط، وهم ذُرِّيَّةُ يعقوبَ عليه السلام، وهم اثْنَا عشر سبطًا مِن اثْنَي عشر ولدًا ليعقوبَ عليه السلام، وسُمُّوا بالأسباط؛ لأنَّه كان مِن كلِّ واحد منهم سِبطٌ، أي: أمَّة عظيمة، والسِّبطُ بمنزلةِ القبيلةِ، والسِّبط: الجماعةُ يَرجعون إلى أَبٍ واحدٍ، وأصلُ السِّبط: امتدادُ شيءٍ، وقيل: أصلُ السِّبْطِ شَجرةٌ ملتفَّةٌ كثيرةُ الأغصانِ؛ وسُمُّوا الأسباطَ؛ لكثرتهم، فكما أنَّ الأغصانَ مِن شجرةٍ واحدةٍ، كذلك الأسباطُ كانوا مِن يَعقوبَ عليه السلام[(١)].

﴿زَبُورٗا﴾: الزَّبور هو الكِتابُ المنزَّلُ على داود عليه السَّلام، والزَّبور يُطلَقُ على كلُّ كتابٍ ذي حِكمة، من الزَّبر، وهو الكِتابة والقِراءة؛ فأصل (زبر): يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وتوثيقِه، وعلى قِراءةٍ وكتابةٍ وما أشْبَه ذلك[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٩٧- ٢٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٢٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤٩٥)، = = ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٧)، ((تذكرة

﴿حُجَّةٌ﴾: دَلالة مبيِّنة للمَحجَّة، وبُرهان وسُلطان[١].

مشكل الإعراب:

١- **قوله**: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾:

﴿رُسُلًا﴾: قِراءة الجُمهور بالنَّصب في الموضِعين، وفي نصْبه ثلاثة أوجه: الأوَّل: أنَّه منصوبٌ على الاشتغال، أي: بفِعل محذوفٍ، تقديرُه: وقَصصنا رُسلًا، على حَذْف مضاف، أي: قصصنا أخبارَهم، فيكون ﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ﴾ -ومثله ﴿لَّمْ نَقْصُصْهُمْ﴾- لا محلَّ له؛ لأنَّه مفسِّرٌ لذلك العاملِ المضمَر (قصصنا). الثَّاني: أنه منصوبٌ عطفًا على معنى الآية قبلها ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾، أي: أَرسَلنا ونبَّأْنا نوحًا ورَسُلًا. الثالث: أنَّه منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ به لفِعل محذوف، والتقدير: (وأَرْسَلْنا رسلًا)، وعلى الوجهين الأخيرين فيكون ﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ﴾ - ومثله ﴿لَّمْ نَقْصُصْهُمْ﴾ - في محلِّ نصب؛ لأنَّه صِفةٌ لـ﴿رُسُلًا﴾[٢].

٢- **قوله**: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾

﴿رُّسُلًا﴾: منصوبٌ على أنَّه بَدَلٌ من قولِه: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ﴾ في قِراءة النَّصب. أو مَنصوبٌ على القَطع المراد منه المدحُ، وتقديرُه: أعني - أو أمدح - رُسلًا. وقيل: منصوبٌ على الحالِ الموطِّئة[٣]، وقيل: منصوبٌ على أنَّه

الأريب)) لابن الجوزي (١ / ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٣٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٥٩-١٦٠)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٦).

(٣) معنى الحال الموطِّئة، أنَّها ليستْ مقصودةً، إنَّما المقصودُ صِفتُها، مِثل: (مررت بزيدٍ رجلاً صالحًا)، فـ (رجلًا) حالٌ وليستْ مقصودةً، إنَّما المقصودُ وَصْفُها. يُنظر: ((الدر المصون))

مفعولٌ به لِفعل محذوف، أي: أَرْسَلْنا رسلًا[(١)].

المعنى الإجمالي:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ، بأنَّه أَوْحى إليه مِثلَ ما أوحى إلى نوحٍ والأنبياء مِن بعدِه، وأوحى اللهُ إلى إبراهيم وإسماعيل، وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ، وعيسى، وأيُّوب ويُونسَ، وهارون وسُليمان، عليهم جميعًا السَّلام، وأعطى سبحانه وتعالى داودَ عليه السَّلام كتابًا اسمُه الزَّبور.

وأخبره تعالى أنَّه أَوْحى إلى رُسلٍ قد قص عليه نبأهم في القرآن قبلَ أن تنزلَ هذه الآية، وأنَّ هناك رسلًا غيرَهم قد أَوْحى الله إليهم، لكن لم يقصصْ عليه أخبارَهم في كتابِه، وقد كَلَّم الله موسى تكليمًا بدون واسطةٍ.

هؤلاء الرُّسل أرسلهم اللهُ إلى عِباده مبشِّرين لأهل الطاعة بسعادة الدَّارين، ومنذرين للعصاةِ والمكذِّبين بالشَّقاء في الدُّنيا والآخرة؛ وذلك حتى لا يكونَ للناس أيُّ عُذرٍ يحتجُّون به بعدَ إرسال الرسل، وكان الله عزيزًا حكيمًا.

ثم يقول الله لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنْ يكفُرْ بك يا محمَّدُ مَن كفَر، فإنَّ الله يَشهَدُ بما أَنزله عليك من كتاب عظيم، وهو القُرآن الكريم، فإنَّه أَنزله تعالى بعِلمه، والملائكةُ كذلك يَشهدونَ على صِدق ما جِئتَ به؛ فلا يَحْزُنْكَ تكذيبُ مَن كذَّب، ولا كُفرُ مَن كَفَر، وحَسْبُك بربِّك تعالى شاهدًا على صِدق ما أَتيتَ به.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ

للسمين الحلبي (٤/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٣)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦١)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٦).

وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حَكَى الله تعالى أنَّ اليهود سألوا الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يُنزِّل عليهم كتابًا من السَّماء، وذكَر تعالى بعده أنَّهم لا يطلُبون ذلك لأجْل الاسترشاد، ولكن لأجْل العِناد واللِّجاج، وحكى أنواعًا كثيرةً من فضائحهم وقبائحهم، وامتدَّ الكلامُ إلى هذا المقام- شَرَع سبحانه في الجوابِ عن تِلك الشبهة، بأنه لم يكنْ عدمُ إنزالِ الكتابِ على هؤلاء الأنبياءِ المذكورين في الآية دفعةً واحدةً مكتوبًا بخطٍّ سماويٍّ قادحًا في نبوَّتهم، بل كفى في إثبات نبوَّتهم ظهورُ نوعٍ واحدٍ من أنواع المعجزات عليهم، علمنا أنَّ هذه الشبهة زائلةٌ، وأنَّ إصرارَ اليهودِ على طلبِ هذه المعجزةِ باطلٌ[1]، فقال تعالى:

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾.

أي: إنَّا أعلمناك- يا محمدُ- بشرعِنا، كما أعلمنا أيضًا نوحًا ومَن جاء بعدَه مِن الأنبياءِ عليهم السَّلامُ[2].

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٧-٤٧٨).

قال ابن عاشور: (والتشبيه في قوله: ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ تشبيهٌ بجنسِ الوحي، وإن اختلفت أنواعهُ، فإنَّ الوحيَ إلى النبيء صلَّى الله عليه وسلَّم كان بأنواع من الوحي... بخلاف الوحي إلى غيره ممن سمَّاهم الله تعالى فإنَّه يحتمل بعضًا من الأنواعِ، على أنَّ الوحي للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم كان منه الكتاب القرآن، ولم يكنْ لبعضِ مَن ذكر معه كتابٌ) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٣١).

﴿وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

لَمَّا ذكَر سبحانه اشتراكَ النبيين في وحيه إليهم، خصَّ بعضَهم بالذِّكر[١]، فقال:

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾.

أي: وأعلمنا بشرعنا أيضا كلًّا مِن إبراهيمَ وإسماعيلَ، وإسحاقَ ويعقوبَ والأنبياء من ذرية يعقوب، وعيسى، وأيُّوبَ ويونسَ وهارون وسليمانَ عليهم الصَّلاة والسَّلام[٢].

﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾.

أي: وأَعْطينا داودَ عليه السَّلام كتابًا يُسمَّى بالزَّبور[٣].

﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾.

﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: وأَوْحينا إلى رُسلٍ قد أتَيْنا على ذِكرهم لك في القُرآن من قبلِ نُزولِ هذه الآية[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٧-٦٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤-٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٠).

﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

أي: وأَوْحينا أيضًا إلى رُسلٍ آخرين لم نَأتِ على ذِكرهم لك في القُرآن[١].

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

أي: وخاطَب اللهُ عزَّ وجلَّ بكلامِه مُوسى عليه السَّلام دون واسطةٍ، بكلامٍ واضحٍ بحرف وصوت، سِمعه منه مُوسى عليه السلام[٢].

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

أي: أَرسلتُهم رسلًا إلى عِبادي، مبشِّرين مَن أطاعني، وآمَن برُسلي بالسَّعادةِ الدنيويَّة والأُخرويَّة، ومُحذِّرين مَن عصاني وكذَّب رُسلي بشقاوةِ الدَّارين[٣].

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.

أي: لئلَّا يَبقَى لمعتذرٍ عُذرٌ؛ فلا يحتجُّ مَن كفر بالله تعالى، وضلَّ عن سبيله بأنَّ الرِّسالة لم تبلغْه[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٢-٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٢-٦٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٣-٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٤).

إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [القصص: ٤٧].

وعن المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((ولا أَحدَ أحبُّ إليه العذرُ من اللهِ؛ ومن أجْلِ ذلك بعَثَ المبشِّرين والمنذرين...))[(١)].

وعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((وليسَ أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من اللهِ؛ مِن أجْلِ ذلك أَنزلَ الكتابَ، وأرسل الرُّسلَ))[(٢)].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى ذُو عزَّة، ومِن عِزَّته: قَهرُه وانتقامُه ممَّن كفَر به وعصاه بَعدَ بلوغِ رِسالتَه إليه، وهو ذو حِكمةٍ سبحانه، فيَضع كلَّ شيءٍ في موضعِه اللَّائق به، ومِن حِكمته عزَّ وجلَّ: أنْ أَرْسل إلى عِبادِه الرُّسلَ، وأَنزل عليهم الكتُبَ[(٣)].

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦ ﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى أنَّه أَوْحى إلى رسوله محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، كما أَوْحى إلى إخوانِه من المُرسَلين عليهم السَّلام- أخبَر هنا بشهادتِه تعالى على

(١) رواه البخاري (٧٤١٦) واللفظ له، ومسلم (١٤٩٩).
(٢) رواه مسلم (٢٧٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥).

رِسالتِه، وصِحَّة ما جاء به[١]، فقال:

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَ﴾.

أي: وإنْ كفَرَ بك مَن كفَر يا محمَّد، فالله تعالى يَشهَدُ لك بأنَّه أَنزل عليك القرآنَ العظيم[٢].

﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾.

أي: إنَّ إنزالَ الله تعالى للقرآنِ صادرٌ عن عِلم؛ فيعلم بماذا نزَلَ وكَيف نزَل، وعلى مَن نزَل، ويعلم حالةَ الذي أَنزله عليه، وكذلك نزَلَ القرآنُ مشتملًا على عُلومٍ إلهيَّة، وأحكامٍ شرعيَّة، وأخبارٍ غَيبيَّة، ممَّا هو مِن عِلم الله تعالى الذي أراد أن يُطلع العِبادَ عليه[٣].

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ﴾.

أي: ويَشهد لك بصِدقِ رِسالتك، وصِحَّة ما أُنزل عليك، ملائكةُ الله جلَّ وعلا؛ فلا يَحزُنْك تكذيبُ مَن كذَّبك[٤].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

أي: وحَسْبُك بالله شاهدًا على صِدقك دون مَن سواه مِن خَلْقِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٨).

الفوائِد التربويَّة:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ...﴾، فكلُّ محسنٍ له من الثَّناء الحسَن بين الأنام بحسَبِ إحسانِه، والرسل- خصوصًا المسمَّون في هذه الآية- في المرتبةِ العُليا من الإحسان[١].

٢- قوله تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ فيه أنَّه يَنبغي للإنسانِ الدَّاعي إلى الله أن يُعامِل الناسَ بما كانتْ تُعامِلُ به الرُّسلُ أقوامَها؛ فتارةً يُبشِّر، وتارةً يُنذر؛ لأنَّه إنْ سلك سبيلَ البشارة دائمًا أَدخلَ الناسَ في الإرجاء، وإنْ سلَك سبيلَ الإنذار دائمًا أَدْخل الناس في القُنوط واليأس[٢].

٣- بيانُ رَحمةِ الله تعالى بعِباده؛ حيث أَرْسل إليهم الرُّسلَ يُعلِّمونهم ويُرشدونهم، ويَهدونهم إلى دِين الله، ولولا الرحمةُ ما أَرسلَ إليهم، قال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾[٣].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- في ذِكر هؤلاء الرُّسل وتَعدادهم من التنويه بِهم، والثناء الصَّادق عليهم، وشَرْح أحوالهم ما يزدادُ به المؤمنُ إيمانًا بهم، ومحبَّةً لهم، واقتداءً بهَدْيهم، واستنانًا بسُنَّتهم، ومعرفةً بحقوقهم، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾[٤].

٢- خَصَّ بعضَ النبيِّين الذين جاؤوا من بعد نوح بالذِّكر؛ لشهرتِهم، وعلوِّ مقامِهم عند أهل الكتاب، فقال: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤).

وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾[١].

٣- أنَّ أوَّل الرُّسُل نوحٌ عليه السَّلام؛ لقوله: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وهذا هو الحقُّ، وليس قَبلَه رسول، أمَّا النبوَّة فكانتْ قبل نوح؛ فإنَّ آدمَ عليه الصلاة والسَّلام كان نبيًّا[٢].

٤- بدأ اللهُ تعالى بذِكر نوحٍ؛ لأنَّه أقدمُ نبيٍّ مُرسَل ذُكر في كتُب أهلِ الكِتاب، وإنَّما تنهض الحُجَّةُ على الناس إذا كانت مُقدِّماتها معروفةً عندهم[٣].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ... وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ عُطفت جملة ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ على ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، ولم يُعطف اسم داود على بقيَّة الأسماء المذكورة قبله؛ للإيماءِ إلى أنَّ الزبور مُوحًى بأنْ يكون كتابًا[٤]، كسائرِ الكتبِ المنزلةِ.

٦- ما أَخْبَرَ اللهُ به في كتابِه من تكليمِ موسى وسَمْعِ موسى لكلامِ اللهِ؛ يدلُّ على أنَّه كَلَّمَه بصوتٍ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى قال في كتابِه عن موسى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۞ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، ففرَّق بينَ إيحائِه إلى سائرِ النبيِّينَ وبينَ تكليمِه لموسى؛ فلو كان تكليمُه لموسى إلهامًا أَلْهَمَه موسى من غيرِ أن يَسمَعَ صوتًا، لم يكُن فرقٌ بينَ الإيحاءِ إلى غيرِه والتَّكليمِ له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٣٥).

(٥) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٣١-٥٣٢).

٧- إثباتُ التعليل لأحكام الله القدريَّة، كما هو ثابتٌ في الأحكام الشرعيَّة، ويُؤخذ من لام التَّعليل في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾، وهذا ثابتٌ بأدلَّة كثيرة، أوصلها بعضُهم إلى ألف دليلٍ على أنَّ أفعال الله وأحكامه مُعلَّلة، ولو لم يكُن مِن ذلك إلَّا اسم الله (الحَكيم)، لكان هذا كافيًا؛ فكلُّ ما فَعَله فلِحِكمة، وكل ما شرَعه فلِحِكمة[١].

٨- أنَّ الله تعالى يحبُّ الإعذارَ من الناس؛ لأنَّه أرسل الرسل؛ قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾[٢].

٩- الآية: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ مُطلقَة، والمتبادر منها أنَّ مِن حِكمة إرسال الرُّسل قَطْعَ حُجَّة الناس، واعتذارهم بالجهل، عندما يُحاسبهم الله تعالى في الآخِرة، ويَقضي بعذابهم، ومفهومُه ومفهومُ سائرِ الآيات: أنَّه لولا إرسالُ الرُّسل، لكان للناس أن يحتجُّوا في الآخِرة على عذابها، وعلى عذاب الدنيا الذي كان أصابَهم بظُلمهم. واستدلَّ بها كثيرٌ من العلماء على امتناع مؤاخذةِ الله الناس وتعذيبهم على تَرْكِ الهداية التي لا تُعرَف إلَّا من الرُّسلِ عليهم السَّلام، ويستدلُّون بآيةِ الإسراء ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥] على نجاةِ أهلِ الفَترة وكلِّ مَن لم تَبلُغْه الدَّعوة[٣].

١٠- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾ العُذر بالجَهل حتى في أصول الدِّين؛ لأنَّ الرسلَ يأتون بالأصول والفروع، فإذا كان الإنسانُ جاهلًا لم يأتِه رسولٌ، فله حُجَّةٌ على الله، ولا يمكن أن تثبُتَ الحُجَّةُ على الله إلَّا إذا كان معذورًا، لكن العذر بالجهل ليس على إطلاقِه من كلِّ وجهٍ، فيُشترط

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٦٠).

عدمُ التَّفريط في التعلُّم، فإنْ كان مفرِّطًا فلا عذر[١].

١١- إثبات الشَّهادة لله، من قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾، وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، وهو سبحانه وتعالى شاهدٌ على كلِّ أعمال الخلق، وعلى كلِّ ما يَحدُث في السَّماء والأرض[٢].

١٢- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ أنَّ إنزال الله للقرآن كان بعِلمِه، فلا يتطرَّق إليه أيُّ خلل؛ لأنَّه يعلم متى نزل، وبماذا نزل، وكيف نزل، وعلى مَن نزل، ولا يمكن أن يتطرَّق اختلافٌ أو ادِّعاءُ نقْص أو ادِّعاء زيادة؛ لأنَّ الله أنزله بعِلمه؛ أي: أن إنزاله مقرونٌ بعلم الله، فمَن ادَّعى أنَّ فيه زيادةً أو نقصًا، فقد رمى الله تعالى بالجهل؛ لأنَّ الله أنزله بعِلمه سبحانه، وكذلك نزَل القرآنُ بما يعلم الله تعالى أنَّه مُصلِحٌ للخلق[٣].

١٣- في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ﴾ أنَّ الملائكة ذاتُ عقول، فهي تعلمُ، وتسمع، وتقول، خلافًا لِمَن قال: إنَّهم لا عقولَ لهم[٤].

١٤- في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ﴾ عنايةُ الله سبحانه وتعالى برسولِه، وبما أوحاه إليه؛ حيث ذكَر أنَّ الله يشهد به، وكذلك الملائكة، وكثرةُ سِياق الأدلَّة على الشيء تدلُّ على العناية به، وهو كذلك[٥].

١٥- قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَ﴾ الأمورُ العظيمة لا يُستشهد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عليها إلَّا الخواصُّ، كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وكفى بالله شهيدًا[١].

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فيه التأكيد بـ(إنَّ)؛ للاهتمامِ بهذا الخبر، أو لتنزيل المردود عليهم منزلةَ مَن يُنكر كيفيةَ الوحي للرُّسل[٢].

٢- **قوله:** ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ فيه: تشبيهٌ بجِنس الوحي، وإنِ اختلفتْ أنواعه؛ فإنَّ الوحي إلى محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان بأنواع من الوحي، ورد بيانُها في حديثِ عائشةَ في الصحيحِ عن سؤالِ الحارثِ بنِ هشامٍ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم: كيف يأتيك الوحي[٣]؟ بخلاف الوحي إلى غيره ممَّن سماهم الله تعالى؛ فإنَّه يحتمل بعضًا من الأنواع، على أنَّ الوحي لمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان منه الكتابُ (القرآن) ولم يكن لبعضِ مَن ذُكِر معه كتاب[٤].

٣- **قوله:** ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾:

غيَّر الأسلوب: فعدَل عن العَطفِ إلى ذِكر فِعْلٍ آخَر- حيث لم يقل: (وإلى موسى)، أي: وأَوْحينا إلى موسى-؛ لأنَّ لهذا النوعِ من الوحي مزيدَ أهميَّة[٥].

و﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر مؤكِّد لفِعله، والتوكيد بالمصدر يَرجِع إلى تأكيد النِّسبة وتحقيقها، مِثل (قد) و(إن)، وقد أَكَّد هنا بالمصدر؛ دَلالةً على وقوع الفِعل على

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٣١).
(٣) رواه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٣١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٣٥).

حقيقتِه لا على مجازِه؛ فمعنى قوله: ﴿تَكۡلِيمٗا﴾ هنا: أنَّ الله تعالى كلَّم موسى كلامًا حقيقيًّا، بحيث لا يحتمل أنَّ الله أرسل إليه جبريلَ بكلام، أو أَوْحى إليه في نفْسِه[١]. والقاعدةُ: أنَّ التوكيدَ بالمصدرِ يَنفي احتمالَ المجازِ، ويَرْفَعُ تَوهُّمَه[٢].

٤- **قولُه تعالى:** ﴿بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾

لَمَّا كان المرادُ استغراقَ النَّفي لجميع الزمان المتعقَّب للإرسال، أسقط الجارَّ، فقال: ﴿بَعۡدَ﴾ ولم يقل: (مِنْ بَعْد)، أي: انتفى ذلك انتفاءً مستغرقًا لجميعِ الزَّمان الذي يوجد بعد إرسالِ الرُّسل، وتبليغهم للناس[٣].

وفيه: إظهارٌ في مقام الإضمار في **قوله:** ﴿بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ -حيث لم يقُلْ: (بعدهم)-؛ للاهتمام بهذه القضية، وللدلالة على استقلالها في الدَّلالة على معناها؛ حتى تسير مسرَى الأمثالِ[٤].

٥- **قوله:** ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾ فيه: استدراك عن مفهوم ما قبله؛ لأنَّ ما تقدَّم من قوله: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مسوقٌ مساق بيان تعنُّتِهم ومكابرتهم عن أن يشهدوا بصِدق الرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وصِحَّة نِسبة القرآن إلى الله تعالى؛ فكان هذا المعنى يستلزمُ أنَّهم يأبون من الشهادة بصِدق الرسول، وأنَّ ذلك يُحزن الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فجاء الاستدراكُ بقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾، أي: لم يشهدْ أهلُ الكتاب، لكن اللهُ شَهِدَ، وشهادةُ الله خيرٌ من

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسَّبت (١/ ٢٥٣)، وينظر أيضًا: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٣).

شهادتهم[١].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٤).

الآيات (١٦٧ - ١٧٠)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرًا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿وَصَدُّواْ﴾: أَعْرَضوا وعدَلوا، ويُطلق الصدُّ أيضًا على الانصرافِ عن الشَّيءِ، والامتناع عنه، وأصْل (صد): الصَّرْف والمنْع[١].

مشكلُ الإعراب:

قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرًا لَّكُمۡ﴾

﴿خَيۡرًا﴾: منصوبٌ على أنَّه خبرُ (كان) المحذوفةِ مع اسمِها، والتقديرُ: فآمِنُوا يَكُنِ الإيمانُ خيرًا لَكُم[٢]. أو مَنصوبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ واجبِ الإضمارِ، تقديرُه: وأْتُوا أو اقْصُدوا خيرًا لكم؛ لأنَّه لَمَّا أمَرَهم بالإيمان؛ فهو يُريدُ إخراجَهم من أمْرٍ، وإدخالَهم فيما هو خيرٌ منه. وقيل: إنَّه مَنصوبٌ على الحالِ مِن المصدرِ الذي تَضمَّنه الفِعلُ، والتَّقدير: فآمِنوا حالَ كَونِ الإيمانِ خيرًا. وقيل غير ذلِك[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧).

(٢) وقد ردَّ بعضُهم هذا المذهب بأنَّ (كان) لا تُحْذَف مع اسمِها دونَ خبرِها إلاَّ فيما لا بدَّ له منه، وممَّا يُضعِّف ذلك المذهبَ أنَّ (يكن) المقدَّرةَ هنا جوابُ شَرطٍ محذوف؛ فيَصيرُ المحذوفَ الشرطُ وجوابُه، أي: إنَّ التقديرَ: إنْ تُؤمنوا يكنِ الإيمانُ خيرًا، فَحُذِفَ الشرطُ، وهو (إنْ تُؤمِنوا) وجوابُه، وهو (يكُنِ الإيمانُ)، وأُبقِي معمولُ الجواب وهو (خيرًا). ينظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦٤-١٦٥).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩٣)،

المعنى الإجمالي:

يُخبر تعالى أنَّ الذين كفروا، وأعْرَضوا عن سلوك طريق الحقِّ، ومنعوا غيرَهم من سلوكِه، قد ضلُّوا ضلالًا عظيمًا.

ويخبر أيضًا أنَّ الذين كفروا، وظَلموا أنفسَهم بعدمِ إيمانهم لم يكُن الله ليغفر لهم ذُنوبهم، ولم يكن ليُوفِّقَهم لسلوكِ الطَّريق القويم الذي يُوصل لنعيمه، لكن سيَهديهم إلى سلوك طريق الباطِل الموصل لجهنم؛ ليمكثوا فيها أبدًا، وكان هذا الأمرُ على الله هيِّنًا يسيرًا.

ثم خاطَب الله تعالى جميعَ الناس، قائلًا لهم: إنَّ ما أتاهم به رسولُ الله محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ هو الحقُّ من عنده جلَّ وعلا؛ فلْيُؤمنوا به؛ فهذا خيرٌ لهم في الدارين، فإنْ أَبَوْا وكفروا فإنَّ الله غنيٌّ عنهم، فهو الذي يملكُ جميعَ ما في السَّموات والأرض، وكان الله عليمًا حكيمًا.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أخبر سبحانه عن رسالة الرُّسل عليهم الصلاة والسلام، وأخبر برسالة خاتمهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وشهِد بها، وشهِدتْ ملائكتُه- لزم من ذلك ثبوتُ الأمر المقرَّر والمشهود به، فوجَب تصديقُهم، والإيمانُ بهم واتِّباعُهم، لذا أتبع ذلك بوصْفِ مَن كفر بهم، وصدَّ عن سبيل الله زجرًا عن مِثل حاله، وتقبيحًا لِمَا أَبدى من ضلاله[1]، فقال:

((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤١١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦٤-١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٩- ٥٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: إنَّ الكفَّار الذين أعرضوا عن اتِّباع الحقِّ، وسَعَوْا في منْع الناس من اتِّباعه[١].

﴿قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾.

أي: قد انحرَفوا عن طريق الحقِّ، وبَعُدوا منه بعدًا عظيمًا[٢].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ ﴾.

أي: إنَّ الكفَّارَ الظالمين لأنفسِهم بالكُفر، وبالصدِّ عن سبيلِه، ومخالفةِ أوامرِه، وارتِكابِ نواهيه[٣].

﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾.

أي: لم يكُنِ الله تعالى ليسترَ عليهم ذُنوبَهم، ويتجاوزَ عن مؤاخذتِهم بها[٤].

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾.

أي: ولم يكُنِ الله تعالى ليوفِّقَهم لسلوك طريق الحقِّ الذي يَصِلُون به إلى الجنة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٥-٦٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٢-٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٤-٤٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي))

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ١٦٩﴾.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

أي: لكنَّ اللهَ تعالى يَهديهم لسلوك طريق الباطِل، الذي يَصِلون به إلى جهنَّمَ، فيمكثون فيها بلا نهايةٍ[1].

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

أي: إنَّ تخليدَ هؤلاء الكفَّار في جهنَّمَ أمرٌ هيِّنٌ على الله تعالى، الذي لا يَصعُب عليه شيءٌ سبحانه[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرًا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧٠﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا أجاب عن شُبهة اليهودِ على الوجوه الكثيرة، وبيَّن فسادَ طريقتهم، ذكَر خطابًا عامًّا يعمُّهم، ويعمُّ غيرَهم في الدعوة إلى دِين محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام[3]، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾.

أي: يَا أيُّها الناسُ إنَّ ما أتاكم به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ من الله تعالى فهو حقٌّ، وبَعْثَته عليه الصَّلاة والسَّلام حقٌّ[4].

(ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٦-٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾.

أي: فآمِنوا بما جاءكم به محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ واتَّبعوه، فإنَّ الإيمان به خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخرة من الكُفر به[١].

كما قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: وإنْ كفرتُم بالرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ وبما جاء به، فاعْلَموا أنَّ الله تعالى غنيٌّ عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرَّر بكُفركم؛ إذ يملك جميعَ ما في السَّموات وما في الأرض[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى عليمٌ بما أنتم صائرون إليه من الإيمان أو الكفر، عليمٌ بمَن يستحقُّ الهدايةَ منكم فيَهديه، وبمَن يستحقُّ الضلالة منكم فيُضِلُّه، حكيمٌ في جميع أقواله وأفعالِه وشَرْعه وقدَره، فيضع سبحانه كلَّ شيءٍ في موضعِه اللائق به[٣].

سورة النساء)) (٢/ ٤٩٨-٥٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٧-٦٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠١).

الفوائِد التربويَّة:

١- الكُفر والظُّلم من شأنهما أن يُخيِّمَا على القلب بغشاوةٍ تمنعُه من وصول الهُدَى إليه، فليحذرْ منهما، يُرشد إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾[١].

٢- وجوبُ الإيمان بالحقِّ ممَّن جاء به؛ لقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ بعد قوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ﴾[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرًا لَّكُمۡ﴾ أنَّ الإيمانَ كلَّه خيرٌ؛ خيرٌ في الدنيا، وخيرٌ في الآخرة، فالإيمان خيرٌ للمؤمنين في أبدانهم، وقلوبِهم وأرواحهم؛ وذلك لِمَا يَترتَّب عليه من المصالح والفوائد؛ فكلُّ ثوابٍ عاجِلٍ وآجِل فمِن ثمرات الإيمان، فالنَّصر والهُدى، والعلم والعمل الصالح، والسرور والأفراح، والجَنَّة وما اشتملَتْ عليه من النَّعيم، كلُّ ذلك مُسبَّب عن الإيمان، حتى في المعيشة وإنْ كانت ضنكًا، فهي عند المؤمن خيرٌ[٣].

٤- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ نادى الله تعالى جميعَ الناس في سِياق خِطاب أهل الكتاب؛ لأنَّ الحُجَّة إذا قامت عليهم بشهادة الله تعالى بنبوَّة محمد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ووجَب عليهم الإيمانُ به، فبالأَوْلى تقومُ على غيرهم ممَّن ليس لهم كتابٌ ككتابهم[٤].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ مَن آمن واستقام على سبيل الله، ودعا الناسَ إليه فهو على الهُدَى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٣)..

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٦٥).

ويُعرف ذلك من المقابِل والضدِّ؛ فإنَّه إذا ثبَت الحُكم لشيءٍ ثبَتَ نقيضُه لضده؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[١].

٢- إثبات الأفعال الاختياريَّة لله عزَّ وجلَّ؛ يعني: أنَّه يفعل ما يشاءُ بإرادته متى شاء؛ لقوله: ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾، والمغفرة فِعلٌ اختياريٌّ، وهذا الذي عليه السَّلَفُ الصالح أهلُ السُّنة والجماعة[٢].

٣- إثبات الخلودِ الأبديِّ؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، والخلودُ الأبديُّ يتضمَّن أبديَّةَ المكان الذي يكون فيه الخلودُ، وعلى هذا يكونُ في الآية دليلٌ واضحٌ على أبديَّة الخلود في النَّار[٣].

٤- عمومُ رِسالة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ لجميعِ الناس؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾[٤].

٥- إلزامُ قَبول ما جاء به الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ عقلًا، كما هو لازمٌ شرعًا؛ ووجه ذلك قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمۡ﴾، فإذا كان من ربِّنا، وهو مالكُنا وخالقُنا والمتصرِّف فينا كيف يشاء، وجب علينا قَبولُه[٥].

٦- أنَّ ما جاء به الرسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام هو الحقُّ، ولا يصحُّ أن يُقال: كلُّ ما يُنسب للرسول حقٌّ، بل كلُّ ما جاء به؛ لأنَّ هناك أحاديثَ ضعيفةً، وأحاديثَ موضوعة[٦].

٧- إثبات الربوبيَّة العامَّة؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بالإضافة إلى قوله: ﴿مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٩٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٠١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٠٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

رَّبِّكُمْ﴾، وربوبيَّة الله سبحانه وتعالى عامَّة وخاصَّة؛ فالعامة كقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، والخاصة كقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣]، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، والأمثلة على هذا كثيرة(١).

٨- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يفيد أنَّ إرسالَ الرُّسل من مقتضى الربوبيَّة؛ لأنَّه تصرُّفٌ في الخَلق، وفِعل من أفعال الله، وكلُّ ما كان كذلك فهو داخلٌ تحت مضمون الربوبيَّة(٢).

٩- قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا من إقامة العِلَّة مقام المعلول؛ إذ المراد: أنَّ الله تعالى له الغِنى المطلَق، فإنْ تستمرُّوا على كُفرانكم، يكُنْ الكفران شرًّا لكم، ولا يضرُّه تعالى من ذلك شيءٌ(٣).

بلاغة الآيات:

١- **قوله**: ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه -على جَعْلِ الفِعل (صَدَّ) متعدِّيًا- إيجازٌ بالحذف، حيث حذفَ المفعول، وتقديره: (الناسَ)، أي: وصدُّوا الناسَ عن سبيل الله؛ لقصد التَّكثيرِ(٤).

٢- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟...﴾ بيان لجملة ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾؛ لأنَّ السامع يترقب معرفة جزاء هذا الضلال؛ فبينته هذه الجملة(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٧).

وإعادة الموصول وصِلته في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون أن يذكر ضميرهم؛ لتبنى عليه صلة (وظلموا)، ولأنَّ في تكرير الصلة تنديدًا عليهم[١]. وقد يُقصد بـ(الظلم) هنا الشرك، كما هو شائع في استعمال القرآن كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[لقمان: ١٣]؛ فيكون من عطف الأخصِّ على الأعم في الأنواع[٢].

٣- **قوله**: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾: الإتيان بلام الجحود في (ليغفر) أبلغُ من الإتيان بالفعل المجرَّد عنها؛ فالجملةُ التي على صيغةِ جحودٍ تقتضي تحقيقَ النفيِ[٣].

٤- قوله: ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ فيه: استثناء[٤] لتأكيد الشيء بما يشبه ضدَّه؛ لأنَّ الكلام مسوق للإنذار، والاستثناء فيه رائحةُ إطماعٍ، ثم إذا سِمع المستثنى تبيَّن أنَّه من قبيلِ الإنذارِ[٥].

وفيه: تهكُّم؛ لأنَّه استثنى من الطَّريق المعمول لـ(يهديهم)، وليس الإقحامُ بهم في طريقِ جهنَّمَ بهدًى؛ لأنَّ الهدى هو إرشادُ الضالِّ إلى المكانِ المحبوبِ؛ ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي الإقحام بهم في طريق النار ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾؛ إذ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٧).

(٤) الاستثناء: هو المذكور في كتب النحو، وهو: إخراج (بإلاَّ) أو إحدى أخواتها تحقيقًا أو تقديرًا من مذكور أو متروك، والمراد بالمخرج تحقيقًا: المتصل، كقام القوم إلا زيدًا، وبالمخرج تقديرًا: المنقطع، نحو: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾؛ فإنَّ الظنَّ وإن لم يدخل في العلم تحقيقًا؛ فهو في تقدير الداخل فيه؛ إذ هو مستحضر بذكر العلم؛ لكثرة قيامه مقامه، فهو مُخرَج منه تقديرًا، وبالمذكور التام كهذين المثالين، وبالمتروك المفرغ نحو: ما ضربت إلا زيدًا. وشرط كونه من البديع: أن يتضمَّن ضربًا من المحاسن زائدًا على ما يدلُّ عليه المعنى اللغوي. يُنظر: ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لصدر الدين المدني (١/ ١٩١)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٨).

هم عبيدُه يصرفُهم إلى حيثُ يشاء، ولأنَّه لا يُعجزُه شيءٌ سبحانه وتعالى[١].

٥- **قوله**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: فيه: توجيهُ الخِطابِ إلى النَّاس جميعًا؛ ليكون تذييلًا وتأكيدًا لِمَا سبقه؛ إذ قد تهيَّأ من القوارع السالفة ما قامت به الحجةُ، واتَّسعت المحجةُ، فكان المقامُ للأمرِ باتِّباعِ الرسولِ والإيمانِ[٢].

٦- **قوله**: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾:

فيه تعدية الفِعل إلى ضمير المخاطبين في قوله: ﴿جَآءَكُمُ﴾ ترغيبًا لهم في الإيمان؛ لأنَّ الذي يجيء مهتمًّا بناسٍ يكون حقًّا عليهم أنْ يتَّبعوه، وأيضًا في طريقِ الإضافةِ من قوله: ﴿رَّبِّكُمْ﴾ ترغيبٌ ثانٍ؛ لِمَا تدلُّ عليه من اختصاصهم بهذا الدِّين، الذي هو آتٍ مِن ربِّـهم[٣].

- وإيرادهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام بعنوان الرِّسالة ﴿ٱلرَّسُولُ﴾؛ لتأكيدِ وجوبِ طاعتِه، والتعرُّض لعنوان الرُّبوبيَّة مع الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطبين (رَبِّكم)؛ للإيذان بأنَّ ذلك لتربيتِهم وتبليغِهم إلى كمالِهم اللائقِ بهم؛ ترغيبًا لهم في الامتثالِ بما بعدَه مِن الأمرِ[٤].

- وذَكر ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ هاهنا مُعرَّفًا بـ (ال) وهي للعهد الذهني؛ لأنَّ أهل الكتاب قد بُشِّروا به، وكانوا ينتظرون بَعثتَه[٥].

٧- **قوله**: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

- فيه: تعريضٌ بالمخاطَبين، أي: إنَّ كفرَكم لا يُفلتُكم من عِقابه؛ لأنَّكم

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٨-٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٦٥).

عبيدُه؛ لأنَّ له ما في السَّموات وما في الأرض[١].

- ولم يُؤكَّد بتكرير (ما)، وإنْ كان الخطابُ مع المضطربين؛ لأنَّ قيامَ الأدلَّة أوصل إلى حدٍّ من الوضوحِ بشهادةِ الله ما لا مَزيدَ عليه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥١٨).

الآيات (١٧١ - ١٧٥)

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿لَا تَغۡلُواْ﴾: لا تُجاوزوا الحدَّ، وترتفِعوا عن الحقِّ، أو لا تَزيدوا ولا تُفرِطوا فيه، وأصل الغُلوِّ: الإفراط ومجاوزة الحدِّ، والزِّيادة[1].

﴿أَلۡقَىٰهَآ﴾: أمَر بها، أو أَعْلَمَ بها، وأصْلُ الإلقاء: طرْح الشيءِ حيث تَلْقاه[2].

﴿يَسۡتَنكِفَ﴾: يَأنَف، مِن: نكف الدَّمعَ، إذا مَسَحه عن خدِّه بإصبعيه، أنفةً

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٥).

من أن يُرى أثَرُ البكاء عليه، وأصلُ (نكف): يدلُّ على قطْعِ شيءٍ، وتنحيتِه[١].

﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾: يَبعثُهم ويَجمُعهم، والحشر: إخراجُ الجماعة عن مقرِّهم، وإزعاجهم عنه إلى الحربِ ونحوها، وأصلُ (حشر): السَّوْق، والبَعْث والانبعاث[٢].

﴿وَلِيًّا﴾: أصْل (ولي) يدلُّ على القُرْب، سواء من حيث: المكان، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[٣].

﴿نَصِيرًا﴾: ناصرًا، وعونًا، وأصل (نصر): يدلُّ على إتيان خيرٍ، وإيتائِه[٤].

﴿بُرْهَٰنٌ﴾: حُجَّةٌ ودَلالةٌ واضحة، وأصله: وضوحُ الشَّيء[٥].

﴿وَٱعْتَصَمُوا۟﴾: استَمسَكوا، وامتنعوا به، وأصلُ العِصمة: المنْعُ- ومنه يُقال: عَصَمَه الطَّعامُ؛ أي: مَنعَه من الجوع-، والإمساكُ، والملازمةُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢، ٢٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٢٧).

﴿وَفَضْلٍ﴾: أي: عطاءٍ زائِد؛ فأصلُ الفضل الزِّيادة، وكلُّ عَطيَّة لا تلزم مَن يُعطي، يُقال لها: فضل، والإفضالُ: الإحسانُ[١].

مشكلُ الإعراب:

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾.

﴿ثَلَٰثَةٌ﴾: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والجملةُ مِن هذا المبتدأِ والخبرِ في محلِّ نصبٍ بالقولِ أي: ولا تقولوا: «آلهتنا ثلاثةٌ» يدلُّ عليه قوله بعد ذلك: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ وقيل: تقديره: الأقانيمُ ثلاثةٌ أو المعبود ثلاثة، وقيل: تقديُره: اللهُ ثالثُ ثلاثةٍ، ثم حُذف المضاف، وأقيم المضافُ إليه مُقامه، موافقةَ قوله: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾[٢] [المائدة: ٧٣].

قوله: ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾[٣]

﴿خَيۡرٗا﴾ مَنصوبٌ على أنَّه خبرُ (كان) مَحذوفةٍ مع اسمِها، والتقديرُ: انْتَهُوا يَكُنِ الانتهاءُ خيرًا. أو منصوبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ واجبِ الإِضمارِ، تقديرُه: انتُهوا وأْتُوا خيرًا لكم. وقيل غير ذلِك[٤].

المعنى الإجمالي:

يُوجِّه الله تعالى الخِطاب إلى أهل الكتاب بأنْ لَا يُجاوزوا الحقَّ في الدِّين،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٢).

(٢) ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦٦-١٦٧)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٨).

(٣) الكلامُ في إعرابِ هذه الآيةِ مِثل الكلام في إعرابِ قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ وقد تقدَّم.

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤١١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦٤-١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٩-٥٠، ٥٨).

فيُفرِطوا في عقيدتهم، وينهاهم عن الافتراء على الله؛ بنِسبة الصاحبة والولد إليه، ويُؤكِّد لهم أنَّ عيسى رسولٌ من رسل الله، خَلَقه بكلمتِه التي ألقاها إلى مريمَ، وليس ابنًا له، كما يعتقدون؛ فليؤمنوا بالله وجميعِ رُسله، ولا يقولوا: إنَّ الآلهة أو الأرباب ثلاثة، ثم أمرهم أن يَنتهوا عن هذه المقولةِ الشَّنيعة، والاعتقادِ الكُفري، فإن انتهاءهم عن ذلك خيرٌ لهم، فما مِن إله إلَّا إلهٌ واحدٌ هو الله تعالى، تنزَّه أن يكون له ولد؛ فإنَّ جميع مَن في السموات والأرض خَلْقُه وعبيده؛ فكيف يكون له منهم الزوجةُ أو الولد؟! وكفَى به سبحانه وتعالى وكيلًا.

ثم بيَّن تعالى أنَّ عيسى بن مريم عليه السلام لن يأنفَ أن يكون عبدًا لله، ولا الملائكةُ المقرَّبون يأنفون من ذلك، ومَن يأنفْ من عِبادة الله ويمتنع عنها، فإنَّ الله سيحشرهم جميعًا إليه، وسيُعاملهم بما يستحقُّونه؛ فأمَّا مَن آمن وعَمِل الصالحاتِ، فسيؤتيهم اللهُ ثوابَ أعمالهم وافيًا، ويَزيدُهم من فضله الواسع، وأمَّا مَن أَنِف وامتنع وتكبَّر، فسيُعذِّبه الله عذابًا موجعًا، ولن يجدَ مَن يتولَّاه، أو ينصره من دون الله.

ثم وجَّه الله تعالى الخطابَ للناس كافَّةً، أنَّه قد جاءهم منه حُججٌ وأدلَّة قاطِعة تُبيِّن الحقَّ من الباطل، وأنزل إليهم القرآن، نورًا واضحًا يَهتدون به؛ فأمَّا المؤمنون بالله تعالى، والمعتمدون عليه في كلِّ شؤونهم، فسيُدخلهم الله تعالى في رحمته، ويَزيدُهم من فضله الواسع، وسيدلُّهم ويُوفِّقهم لسلوك الطَّريق القويم، الموصل إلى مَرْضاته.

تفسير الآيات:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن

يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لمَّا دحض الله تعالى شُبهات اليهود، وأقام الحُجَّة عليهم، وقدْ غلَوا في تحقير عيسى عليه السلام وإهانته، والكُفرِ به، ففرَّطوا كلَّ التفريط- قفَّى بدَحْض شُبهات النصارى الذين غلَوا في تعظيمه وتقديسه، فأَفرطوا كلَّ الإفراط[1]، فقال عزَّ مِن قائل:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾.

أي: يا أهلَ الإنجيل من النَّصارى، لا تتجاوزوا الحقِّ في دِينكم فتُفْرِطُوا فيه؛ فإنَّهم قد تجاوزوا حدَّ التصديق بعيسى عليه السَّلام، حتى رفَعوه عن مقام النبوَّة والرِّسالة إلى مقام الربوبيَّة، الذي لا يَليقُ بغير الله عزَّ وجلَّ[2].

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

أي: ولا تَفتروا على اللهِ عزَّ وجلَّ بأنْ تَجعلوا له صاحبةً وولدًا[3].

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

أي: ما المسيحُ- أيُّها النصارى الغالُون في دِينهم- ابنٌ لله تعالى، كما تَزْعُمون،

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

ولكنَّه عيسى ابنُ مريم، لا نَسبَ له غير ذلك، فهو عبدٌ من عباد الله تعالى، وخَلْقٌ من خلْقه، ورسولٌ من رُسله[١].

كما قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وعن عُمرَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، قال: ((لا تُطْروني[٢]، كما أطْرَتِ النَّصارى ابنَ مريمَ، فإنما أنا عبدُه، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه))[٣].

عن أنسِ بنِ مالكٍ، أنَّ رجلًا قالَ: يا مُحمَّدُ، يا سيِّدَنا وابنَ سيِّدِنا، وخَيرَنا وابنَ خيرِنا، فَقالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((يا أيُّها الناسُ، عليكُم بقولِكُم، ولا يَستَهْوينَّكمُ[٤] الشَّيطانُ، أَنا مُحمَّدُ بنُ عبدِ الله، عبدُ اللهِ ورسولُه، واللهِ ما أُحبُّ أنْ ترفعوني فوقَ منزلَتي الَّتي أَنزلَني اللهُ عزَّ وجلَّ))[٥].

﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٧-٥٠٨).

(٢) لا تُطرُونِي: أي: لا تُجاوزا الحدَّ في مَدْحي، ولا تكذبوا فيه. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٢٣)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٦).

(٣) رواه البخاري (٣٤٤٥).

(٤) يَستَهْوينَّكمُ الشَّيطانُ: يَذهبنَّ بهواكِم وعُقولِكم، أو يُحيِّرنَّكم، أو يُزيِّنن لكم هَواه فيُغويكم ويُضلكم. ينظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٤٠/ ٣٢٩).

(٥) رواه أحمد (١٢٥٧٣)، وعبد بن حميد في ((المنتخب)) (١٣٠٩)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٠٠٦)، وابن حبان (٦٢٤٠).

صحح إسناده على شرط مسلم، ابن عبد الهادي في ((الصارم المنكي)) (٤٥٩)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٦١١)، وصحح الحديث الألباني في ((غاية المرام)) (١٢٧)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٣٢)

أي: خَلَقه بالكلمة التي أُرسل بها جبريلُ عليه السَّلام إلى مريم[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

أي: إنَّ عيسى عليه السَّلام رُوحٌ مِن خَلْق الله سبحانه؛ فقد أَرسل اللهُ تعالى جبريلَ عليه السَّلام، فنَفَخ في فَرْج مريمَ عليها السَّلام، فحمَلتْ بإذن الله عزَّ وجلَّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وعن عُبادَةَ بنِ الصَّامت رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((مَن شَهِدَ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وأنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منه، والجَنَّةَ حقٌّ، والنَّارَ حقٌّ، أَدْخَله اللهُ الجنةَ على ما كان من العملِ))[٣].

وفي روايةٍ: ((أدخله اللهُ مِن أيِّ أبوابِ الجنَّةِ الثَّمانيةِ شاء))[٤].

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٨-٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٨-٥٠٩).

(٣) رواه البخاري (٣٤٣٥) واللفظ له، ومسلم (٢٨).

(٤) رواه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) واللفظ له.

أي: فآمِنوا بالله تعالى الواحدِ الأحد، الذي لا صاحبةَ له ولا ولدَ، وآمِنوا برُسله، وبما جاؤوكم به من عند الله عزَّ وجلَّ[(١)].

﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾.

أي: ولا تقولوا: الأربابُ ثلاثةٌ، فتجعلوا عيسى وأمَّه شَريكينِ لله سبحانه وتعالى[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ...﴾ الآية [المائدة: ١٧-٧٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ ...﴾ الآية [المائدة: ١١٦].

﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾.

أي: انتَهوا عن قولِ ذلِك واعتقادِه، فإنَّ الانتهاء عن ذلك خيرٌ لكم[(٣)].

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

أي: ما الله سبحانه بثالثِ ثلاثةٍ، ولكن الله تعالى هو المنفردُ بالألوهيَّة، الذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١١).

لا تَنبغي العبادةُ إلَّا له؛ فلا ولدَ له، ولا والدَ، ولا صاحبةَ له، ولا شريكَ[(١)].

﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

أي: تنزَّه وتقدَّس الرَّبُّ عزَّ وجلَّ عن أن يكونَ له ولدٌ[(٢)].

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ جميعَ ما في السَّموات وجميعَ ما في الأرض مُلكه وخَلقُه وعَبيدُه؛ فكيف يكون له منهم صاحبةٌ أو ولد؟![(٣)].

كما قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

أي: وحسْبُ الخلق كلِّهم اللهُ تعالى وحده، فهو القائمُ بشؤون كلِّ شيء، والحافظ لكلِّ شيء والمدبِّر له، فلا يُحتاج معه إلى غيرِه سبحانه؛ من ولدٍ، أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١١-٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٢).

صاحبةٍ، أو غيرهما[١].

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى غلوَّ النصارى في عيسى عليه السَّلام، وذكَر أنَّه عبدُه ورسولُه، ذكر هنا أنَّه لا يستنكفُ عن عبادة ربِّه، لا هو ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فنزَّههم عن الاستنكافِ، ونفْيُ الشَّيءِ فيه إثباتُ ضدِّه[٢] فقال:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾.

أي: لن يأنفَ ويمتنعَ عيسى عليه السَّلام عن عبادة ربِّه عزَّ وجلَّ[٣].

﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

أي: ولن يأنفَ ويمتنع أيضًا من الإقرارِ لله تعالى بالعبوديَّة له وحده، ملائكتُه المقرَّبون[٤].

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٢، ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦-٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٠).

قال ابنُ عُثَيمين: (قوله: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ هل هي صفةٌ كاشفة أو صِفة قَيْد؟ الجواب: يحتمل أن تكون صِفة كاشفة؛ لأنَّ الملائكة مقرَّبون إلى الله عزَّ وجلَّ، ويحتمل أن تكونَ قيدًا، وعلى هذا الاحتمال يكون الملائكةُ فيهم المقرَّبون، وفيهم مَن ليس بمقرب. فالله أعلم) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٠).

أي: ومَن يأنفْ ويمتنعْ عن عِبادة ربِّه، ويَترفَّعْ عنها ويتعالَ عليها[١].

﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

أي: فسيبعثُ الله سبحانه يومَ القيامة المستنكفين والمستكبرين عن عِبادته، فيجمعهم جَمِيعًا عنده، فيفصل بينهم بحُكمه العَدْل[٢].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: فأمَّا الذين جمَعوا بين الإيمان المأمور به، وعَملِ الأعمال الصالحات من واجباتٍ ومُستحبَّات[٣].

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

أي: فيؤتيهم من الثَّواب على قدْرِ إيمانهم وأعمالهم الصَّالحة، جزاءً وافيًا كاملًا[٤].

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: ويَزيدهم على ما لهم من الأجور والثَّواب في الدُّنيا والآخِرة، زيادةً من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٨ - ٧٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ٥٢٠ - ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢١-٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٥).

فضله وإحسانِه، وسَعَةِ كرَمه ورحمتِه سبحانه[١].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾.

أي: وأمَّا الذين أنِفوا وامتنعوا عن عبادةِ الله تعالى، وترفَّعوا عنها، وتعالَوْا عليها[٢].

﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: فسيُعذِّبهم الله تعالى عذابًا موجِعًا لهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

أي: ولا يَجِدون أحدًا من الخَلْق يتولَّاهم فيحصُل لهم ما يَطلُبون، ولا مَن يَنصرُهم فيدفعُ عنهم ما يَحذرون[٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أنْ أزاح الله تعالى شُبهَ جميع المخالفين من سائر الفِرَق: اليهود،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٩-٧١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧).

والنصارى، والمنافقين، وأقام الحُجَّة عليهم، وأقام الأدلَّةَ القاطعة على حَشْر جميع المخلوقات، فثبَتَ أنَّهم كلَّهم عبيدُه- عمَّ في الإرشاد لطفًا منه بهم[١]، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

أي: يا أيُّها الناسُ قد جاءتْكم من الله تعالى حُججٌ قاطعةٌ للعُذر، وأدلَّةٌ واضحةٌ مزيلة للشُّبهات، تُبيِّن الحقَّ وضدَّه[٢].

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾.

أي: وأنزلْنا إليكم ضياءً واضحًا، هو القرآن الذي أنزله اللهُ تعالى على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، يُبيِّن لكم طريقَ الحقِّ الهادي إلى ما فيه الفوزُ الأبديُّ لكم، والنجاةُ من عذاب الله تعالى إنْ سلكتموها، واستنرتم بضَوئِه[٣].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾.

أي: فأمَّا المؤمنون بالله تعالى، المعتمدون عليه في جميعِ أمورِهم[٤].

﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ﴾.

أي: فسيتغمَّدهم الله تعالى برحمةٍ خاصَّة، فيُوفِّقهم للخيرات، ويَجزل لهم

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٢).

المثوبات، ويَدفع عنهم المكروهات، ويُدخلهم الجَنَّة، ويَزيدهم ثوابًا، ورَفعًا في درجاتهم، من فَضْله عليهم، وإحسانه سبحانه إليهم[١].

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

أي: ويُوفِّقهم ويُسدِّدهم لسلوك طريق مَن أنعم الله تعالى عليه من أهل طاعتِه، ولاقتفاء آثارِهم، واتِّباع دِينهم، فيوفِّقهم للعِلم النَّافع، والعمل الصالح[٢].

الفوائِد التربويَّة:

١- أنَّه لا يجوزُ الغلوُّ في الدِّين، سواء ما يتعلَّق بالرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أو بالأعمالِ، يُرشدنا إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾، وعلى هذا: فمَن أحبَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أكثرَ من محبَّةِ الله، فهو غالٍ فيه عليه الصلاة والسَّلام، ومَن نَزَّله منزلةَ الربِّ، وزعم أنَّه يتصرَّف في الكون، فهو غالٍ فيه، ومَن زعَم أنَّ غيره ممَّن هو دونه يتصرَّف في الكون، فهو غالٍ فيه، فالغلوُّ هو مجاوزة الحدِّ في كلِّ شيءٍ[٣]، فينبغي الحَذَرُ مِن الغُلوِّ، وتعدِّي الحدودِ، والإسرافِ، ولُزومُ الاقتصادِ والاعتصامِ بالسُّنَّةِ؛ فعليهما مدارُ الدِّين[٤].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ ما يُوجب للإنسان صِدقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٢-٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٢-٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٣). وينظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥١٩)، (تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٠).

(٤) ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٣١).

الاعتماد على الله عزَّ وجلَّ، وأن يعتمدَ على الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، فمن اعتمد على الله فإنَّ الله كافيه، وهو حسبُه، ومَن كان الله حسْبَه، فقد تمَّ له أمرُه[١].

٣- الترهيب من الكِبر؛ يُرشد إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلِمًا، بما وجَدوا من لذاذة الترفُّع والتكبُّر[٢].

٤- أنَّ مَن آمَن واعتَصَم بالله، فإنَّه سوف ينالُ الرحمةَ العاجلةَ والآجلة؛ لقوله: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ﴾، والسِّين تدلُّ على القُرب، وأنعمُ الناس بالًا، وأشدُّهم انشراحًا في الصُّدور هم المؤمنون المعتصِمون بالله[٣].

٥- في قوله: ﴿بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما يدلُّ على شرف هذا البُرهان وعظمته، حيث كان من ﴿رَّبِّكُمْ﴾ الذي ربَّاكم التربيةَ الدِّينيَّة والدنيويَّة، فمِن تربيته لكم التي يُحمد عليها ويُشكر، أن أوصلَ إليكم البيِّنات؛ ليهديَكم بها إلى الصِّراط المستقيم، والوصول إلى جنَّات النَّعيم[٤].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- إذا نهى الله أُمَّةً عن شيءٍ، وقصَّه علينا فهو عِبرةٌ لنا كما في قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾[٥].

٢- إثبات رِسالة عيسى ابن مريم، وبيان أنَّه لا يستحقُّ من أمر الربوبية شيئًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥٢٥)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٢).

وتُؤخَذ من قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾[١].

٣- إطلاق السَّبب على مُسبَّبه، لقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾؛ فإنَّ عيسى ليس هو الكلمة نفْسَها، لكنَّه خُلِق بالكلمة، فأُطلق السبب، وأُريد المسبَّب[٢].

٤- أنَّ عيسى عليه الصلاة والسَّلام مِن أشرف عباد الله وأكرمهم عليه؛ لأنَّه أضافه إلى نفْسه، فقال: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾، والإضافة للتخصيص والتَّكريم[٣].

٥- قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾: أُمِروا بالإيمان بالله مع كونِهم مؤمنين به؛ لأنَّهم لَمَّا وصفوا الله بما لا يَليق فقد أَفسدوا الإيمان، وليكون الأمرُ بالإيمان بالله تمهيدًا للأمر بالإيمان برسله، وهو المقصود[٤].

٦- قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ﴾ (ثلاثة) خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، وحُذِف؛ ليصلح لكلِّ ما يصلح تقديرُه من مذاهب النَّصارى من التثليثِ؛ فإنَّ النصارى اضطربوا في حقيقةِ تثليثِ الإلهِ[٥].

٧- الاستطراد بذِكر ما يُشارك الشيءَ، وإن لم يكُن له ذِكر؛ لقوله: ﴿وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾؛ فإنَّها ذُكرت إلى جانب المسيح؛ لأنَّ مِن الناس مَن يَعبُد الملائكة، ويدَّعي أنهم بناتُ الله[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٣، ٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٥٩).

(٦) يُنظر: ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٤).

٨- قال تعالى: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ الاستنكاف غيرُ الاستكبار، فالاستنكافُ بالقلب؛ بأنْ يكونَ الإنسان عنده أنفةٌ وكبرياء قلبيَّة عن عبادة الله، والاستكبار أن يدَعَ العبادة، ويستكبر عنها، ويحتقرَها، ويحتقرَ الرسول؛ كقولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾[1] [الفرقان: ٤١].

٩- الردُّ على الجبريَّة؛ يُؤخذ من قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فأضاف العملَ إليهم، والجبريَّة يقولون: إنَّ الإنسان لا يَعمل، ولا يُضاف العملُ إليه إلا مجازًا، وأنَّ عمله ليس باختياره، ولا بقَصدِه[2].

١٠- في قوله تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ بيان مِنَّة الله عزَّ وجلَّ؛ حيث سمَّى الثواب أجرًا، كأنَّه استأجر أُجراءَ يعملون فيأجرهُم، مع أنَّ فائدةَ العملِ للعامل نفْسِه، بينما الأُجراء في غير المعاملة مع الله يكون العملُ لِمَن دفَع الأجرة، أمَّا هذا فالعمل للإنسان، ومع ذلك يَأجُره الله عزَّ وجلَّ[3].

١١- أنَّ ثواب الأعمال الصالحة يَزيد على ما قدَّره الله تعالى مِنْ أنَّ الحسنةَ بعشْر أمثالها، لقوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[4].

١٢- أنَّ القرآن الكريم نازلٌ لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ويترتَّب على هذا عمومُ رسالة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[5].

١٣- في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ أنَّ القرآن الكريم فيه بيانٌ لكلِّ شيء؛ لأنَّ النور لا بدَّ أن تستبينَ به كلُّ الأشياء؛ كالنَّهار إذا طلَع بانتْ به

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٢٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٩).

الأشياء، وكالحُجرة إذا أُسْرِجَتْ فلا بدَّ أن يَبينَ منها ما كان خافيًا، فالقرآن تبيانٌ لكلِّ شيء[١].

١٤- قول الله تعالى: ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ﴾ لعلَّ السِّين ذُكرت؛ لتفيدَ مع تحقيق الوعد الحثَّ على المثابرة، والمداومة على العمل؛ إشارةً إلى عِزَّة ما عنده تعالى[٢].

١٥- أنَّ الرحمة تُطلق صفةً من صفات الله، وتُطلق على ما كان مِن آثارِها، وهذه الآيةُ مِن إطلاقِ آثارِ الصِّفة؛ لأنَّه قال: ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾[٣].

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فيه: تجريدٌ للخطاب، وتخصيص له بالنَّصارى؛ زجرًا لهم عمَّا هم عليه من الكفرِ والضَّلال[٤]، وخُوطبوا بعنوانِ أهلِ الكتابِ تعريضًا بأنَّهم خالفوا كتابَهم[٥].

٢- **قوله:** ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾: فيه عطفُ الخاص ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ - على العامِّ ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾؛ للاهتمام بالنَّهي عن الافتراءِ الشَّنيع[٦].

٣- **قوله:** ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾:

- هي جملة مبيِّنة للحدِّ الذي كان الغلوُّ عنده؛ فإنَّه مُجمَل، ومبيِّنة للمراد من

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٣٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٥١).

قول الحقِّ، ولكونِها تتنزَّل من التي قبلها منزلةَ البيان فُصِلت عنها من غير عطفٍ بالواو[١]، وأيضًا هي جملة مستأنفة؛ مسوقة لتعليل النَّهي عن القول الباطل المستلزم للأمْر بضدِّه وهو الحقُّ، أي: إنَّه مقصورٌ على رُتبة الرِّسالة، لا يتخطَّاها[٢].

- وفيه قصرُ موصوفٍ على صفة، حيثُ قصر المسيحَ على صِفات ثلاث: صفة الرسالة، وصفة كونه كلمةَ الله أُلقيت إلى مريم، وصفة كونه رُوحًا من عند الله؛ والقصدُ من هذا القصرِ إبطالُ ما أحدثه غلوُّهم في هذه الصفات غلوًّا أخرجها عن كُنهها؛ فإنَّ هذه الصفاتِ ثابتةٌ لعيسى، وهم مُثبِتون لها، فلا يُنكَر عليهم وصفُ عيسى بها؛ فأفاد القصرُ أنَّ عيسى مقصورٌ على صفة الرِّسالة، والكلمة، والرُّوح، لا يتجاوز ذلك إلى ما يُزاد على تلك الصِّفات من كون المسيح ابنًا لله، واتِّحاد الإلهية به، وكون مريمَ صاحبةً[٣].

- وقوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ فيه: تقديمُ كونه عليه السَّلام رسولَ الله في الذِّكر مع تأخُّره عن كونه كلمته تعالى، ورُوحًا منه في الوجود؛ لتحقيقِ الحقِّ من أوَّل الأمر بما هو نصٌّ فيه، غير محتملٍ للتأويلِ، وتعيين مآلِ ما يَحتمِله، وسدِّ بابِ التأويلِ الزَّائغ[٤].

٤- **قوله**: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾: فيه احتراسٌ؛ حيث أُريد بالرُّسل: جميعهم، أي: لا تكفروا بواحدٍ من رسله، وهذا بمنزلةِ الاحتراسِ عن أن يتوهَّم متوهِّمون أن يُعرضوا عن الإيمان برسالة عيسى عليه السَّلام مبالغةً في نفْي الإلهية عنه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥١-٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥١-٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٤).

٥- **قوله:** ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: فيه حصْر بـ(إنَّما)؛ للدلالة على انفرادِ الله تعالى بالألوهيَّة، وأنَّ الله تعالى هو الإلهُ وحْدَه، وقوله: ﴿وَٰحِدٌ﴾ زيادة تأكيد لذلك الحصرِ[١].

٦- **قوله:** ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيه تقديم ما حقُّه التأخير ﴿لَّهُۥ﴾؛ لإفادة الحصر في انفراد الله تعالى وحده بالمُلك[٢].

٧- **قوله:** ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾:

- جملة استئنافية، مقرِّرة لِمَا سبق من التنزيه[٣].

- وفي قوله: ﴿عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ أظهرَ الحرفَ الذي تُقدَّر الإضافة عليه، وهو (اللام) في قوله: ﴿لِّلَّهِ﴾؛ لأنَّ التنكيرَ هنا أظهرُ في العبوديَّة، أي: عبدًا من جُملة العبيد، ولو قال: (عبد الله) لأوهمتِ الإضافة أنَّه العبدُ الخِصِّيص (الأخصُّ مِن الخاصِّ)، أو أنَّ ذلك عَلَم له[٤].

- وقوله: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فيه: إيجاز بالحذف، حيث إنَّ المراد: (ولا الملائكة المقربون أن يكونوا عبيدًا لله)[٥].

وفيه: تخصيصُ المقرَّبين لكونِهم أرفعَ الملائكة درجةً، وأعلاهم منزلةً[٦].

٨- قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ... وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ ...﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٤٦).
وهذا على القول بأنَّ قوله: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ صفة مقيِّدة للملائكة، وليستْ صفة كاشفة لهم كلِّهم.

فيه: بيان لحال الفريق المطويِّ ذِكرُه في الإجمال (وهو الفريق الذي لم يستنكف)، قُدِّم على بيان حال ما يُقابله؛ إبانةً لفضله، ومسارعةً إلى بيان كون حشْرِه أيضًا معتبرًا في الإجمال، وإيرادُه بعنوان الإيمان والعمل الصالح، لا بوصف عدم الاستنكاف المناسِب لِما قبله وما بعده؛ للتنبيه على أنه المستتبع لِمَا يعقبُه من الثمراتِ[١]. وتقديمُ ثوابِ المؤمنين على عِقاب المستنكفين؛ لأنَّهم إذا رأوا أولًا ثواب المطيعين، ثم شاهدوا بَعدَه عقاب أنفسهم، كان ذلك أعظمَ في الحسرةِ[٢].

٩- **قوله تعالى**: ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ جاء بصيغة الافتعال؛ للدَّلالةِ على الاجتهاد في ذلك؛ لأنَّ النفس داعيةٌ إلى الإهمال المنتِج للضَّلال[٣].

١٠- **قوله**: ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ فيه: تقديم ذِكر الوعدِ بإدخال الجَنَّةِ على الوعدِ بالهدايةِ إليه، على خِلاف الترتيب في الوجودِ بين الموعودين؛ للمسارعةِ إلى التبشير بما هو المقصدُ الأصليُّ قبلُ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٤٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦٣).

الآية (١٧٦)

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾: يَسألُونَك عن بيانِ الحُكم، ويَطلُبون الفتوى، والفُتيا والفتوى هي الجوابُ عمَّا يُشكِل من الأحكام، وأصل (فتي): تَبيين حُكم[١].

﴿ٱلْكَلَٰلَةِ﴾: هو الرَّجُل يموت ولا ولدَ له ولا والدَ، مصدرٌ من تَكلَّله النَّسَب، أي: أحاط به؛ فالابنُ والأبُ طرفانِ للرَّجُل، فإذا مات ولم يُخلِّفْهما، فقد مات عن ذَهاب طَرفَيْه، فسُمِّي كلالةً؛ لذَهاب طرفيه المحيطينِ به[٢].

﴿هَلَكَ﴾: ماتَ، وأصل (هَلَكَ): يدلُّ على كَسرٍ وسُقوطٍ؛ ولذلك يُقالُ للميِّت: هَلَكَ[٣].

﴿حَظِّ﴾: نصيب مقدَّر، وأصل (حظظ): النَّصِيبُ والجَدُّ[٤].

﴿تَضِلُّوا۟﴾: تَعدِلُوا عن الطريقِ المستقيم، وأصلُ الضلال: خِلافُ الهُدى،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٣٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ١٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٣٦- ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢ / ١٤)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٣٦).

وضَياعُ الشيءِ، وذَهابُه في غيرِ حقِّه[١].

المعنى الإجمالي:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه: يَسألُك أصحابك أن تُبيِّن لهم الحُكم الشرعيَّ في توريث الكلالة، وهو مَن مات وليس له ولدٌ ولا والدٌ يرثه، فقل لهم يا محمَّد: إنَّ الله تعالى هو الذي يفتيكم في ذلك؛ إذا مات شخصٌ ولم يترك والدًا، ولا أولادًا- لا مِن الذُّكور ولا الإناث- وترك أختًا شقيقةً أو لأبٍ؛ فإنَّ نَصيبَها من الميراث في هذه الحالة هو النِّصف، فإذا ماتت الأختُ قبلَ أخيها ولم يكُن لها ولدٌ- ذكرًا كان أو أُنثى- ولا والدٌ يَرثانِها ورث مالَها كلَّه ، فإنْ كان معه صاحبُ فرضٍ- كزوجٍ- أَخَذ فَرْضَه، وما بقِي فلأخِيها.

ثم ذكَر صُورتين أُخريين فقال: فإنْ كانتَا أُختين فأَكْثَر، فإنَّ لهما ثُلُثَيْ ما يترُك أخوهما، وإنْ كان الورثةُ لهذا الأخِ المتوفَّى إخوةً، سواء كانوا ذكورًا وإناثًا، فيأخذ الذَّكرُ مثلَ نَصيبِ اثنتين من الأخواتِ، يُبيِّن الله أحكامَه للنَّاس؛ حتى لا يَضلُّوا، والله بكلِّ شيءٍ عليمٌ.

تفسير الآية:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

عن البَراءِ رضي اللهُ عنه قال: (آخِرُ سورةٍ نزلَتْ: بَراءةٌ، وآخِرُ آيةٍ نزلَتْ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾)[٢].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦) و(٦/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩).

(٢) رواه البخاري (٤٦٠٥).

وعن عُمرَ رضي الله عنهما، قال: ((إنِّي لا أَدَعُ بعدي شيئًا أهمَّ عندي من الكَلَالَة، ما راجعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ في شيءٍ ما راجَعْتُه في الكَلَالَة، وما أَغْلَظَ لي في شيءٍ ما أَغْلَظَ لي فيه، حتى طَعَنَ بإصبعِه في صدري، فقال: يا عمرُ، ألَا تَكْفيك آيةُ الصَّيْفِ التي في آخِرِ سورةِ النِّساء؟ وإنِّي إنْ أَعِشْ أَقْضِ فيها بقضيةٍ، يَقضي بها مَن يقرأُ القُرآنَ، ومَن لا يقرأُ القرآنَ))[١].

سبب النُّزول:

عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنه، قال: ((مرضتُ فأتاني رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأبو بكرٍ يُعوداني ماشيينِ، فأُغمي عليَّ، فتوضَّأ ثم صبَّ عليَّ من وَضوئِه، فأَفقتُ، قلت: يا رسولَ الله، كيف أَقضي في مالي؟ فلمْ يردَّ عليَّ شيئًا حتى نزلتْ آيةُ الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾))[٢].

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾.

أي: يَطلُب الصحابةُ منك- يا محمَّدُ- إخبارَهم عن الحُكم الشرعيِّ للكَلالة[٣].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا محمَّد-: الله عزَّ وجلَّ هو الذي يُخبركم عن حُكم الكَلالة، أي: عمَّن مات وليس له ولدٌ -ذكرًا كان أو أُنثى- ولا والدٌ يَرِثُه[٤].

---

(١) رواه مسلم (٥٦٧).

(٢) رواه البخاري (٦٧٢٣)، ومسلم (١٦١٦) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٥).

قال ابن كثير: (قال ابن جرير: وقد رُوي عن عُمرَ رضي الله عنه، أنه قال: (إنِّي لأستحي أن

﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾.

أي: إذا مات إنسانٌ، وليس له ولدٌ- ذكرٌ أو أُنثى- ولا والدٌ، وله أختٌ شقيقةٌ أو لأبٍ، فإنَّها ترِثُ نِصفَ متروكات أخيها؛ مِن نقود وعَقار وأثاثٍ، وغير ذلك[١].

﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾.

أي: إنَّ الأخَ الشَّقيقَ أو لأبٍ يرِثُ جميعَ ممتلكاتِ أُخته إذا ماتتْ، ولم يكن لها ولدٌ، ولا والد يَرِثها، فإنْ فُرِضَ أنَّ معه مَن له فرض- كزوجٍ، أو أمٍّ، أو أخٍ من أمٍّ-، صُرِفَ إليه فَرْضُه، وصُرِفَ الباقي إلى الأخِ[٢].

فعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((أَلْحِقوا الفرائضَ بأهلها، فما بقِيَ فهو لأَوْلى رَجُلٍ ذَكَرٍ))[٣].

﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.

أي: فإنْ كان لِمَن يموت كلالةً، أُختان شقيقتان أو لأبيه، فلهما ثُلُثَا ما ترَك أخوهما، وكذا ما زاد على الأُختين، فله حُكمهما[٤].

أُخالِفَ فيه أبا بكر). وكان أبو بكر رضي الله عنه، يقول: هو ما عدَا الولدَ والوالد.
وهذا الذي قاله الصِّدِّيق عليه جمهورُ الصَّحابة والتابعين والأئمَّة، في قديم الزمان وحديثه، وهو مذهب الأئمَّة الأربعة، والفقهاء السبعة، وقول علماء الأمصار قاطبة، وهو الذي يدلُّ عليه القرآن، كما أرشد الله أنَّه قد بيَّن ذلك ووضَّحه في قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٢-٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٦-٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٧-٥٣٨).

(٣) رواه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٢٤-٧٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧).

﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾.

أي: وإنْ كان للميِّت إخوةٌ من الذكور والإناث، فنصيبُ الذَّكر منهم من التركة مِثلُ نصيب اثنتين من أَخواتِه، وذلك إذا كان الميِّت يُورَث كلالةً، وكان إخوته وأخواته شقيقات أو لأبيه[١].

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾.

أي: يبيِّن الله تعالى لكم أحكامَه، ومنها قِسمة مواريثكم، وحُكم الكلالة فيها؛ كيلَا تضلُّوا في أمْر المواريث وقِسمتها، فتجوروا عن الحقِّ، وتُخطئوا الصواب[٢].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى عالِمٌ بجميع الأشياء، وما فيه المصلحةُ لعِباده، ومن ذلك: قِسمة مواريثِهم، وما يستحقُّه كلُّ واحدٍ من أقرباء المتوفَّى، ويعلم أيضًا حاجتَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧).

قال القرطبيُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ ...﴾ [النساء: ١٢]: (ذكَر الله عزَّ وجلَّ في كِتابه الكلالة في موضعين: آخِرَ السُّورة، وهنا، ولم يذكر في الموضعين وارثًا غير الإخوة؛ فأمَّا هذه الآية فأجمع العلماءُ على أنَّ الإخوة فيها عنى بها الإخوة للأم، لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾، وكان سعد بن أبي وقَّاص يقرأ: (وله أخٌ أو أخت من أُمِّه)، ولا خلافَ بين أهل العلم أنَّ الإخوة للأب والأمِّ أو الأب ليس ميراثُهم كهذا؛ فدلَّ إجماعهم على أنَّ الإخوة المذكورين في آخِر السورة هم إخوةُ المتوفَّى لأبيه وأمِّه أو لأبيه؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [النساء: ١٧٦]، ولم يختلفوا أنَّ ميراثَ الإخوة للأمِّ ليس هكذا؛ فدلَّت الآيتانِ أنَّ الإخوة كلَّهم جميعًا كلالة). ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨).

إلى العِلم والبيان[١].

الفوائِد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ الحثُّ على العِلم؛ بالرجوع إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّنا لا نعلم بيانَ اللهِ عزَّ وجل إلَّا عن طريق الكتاب والسُّنَّة، وكل إنسان يفرُّ من الضلال ويُريد البيانَ والهدى، فنقول: طريق ذلك أن تَحرِصَ على اتِّباع الكتاب والسُّنَّة[٢].

٢- حقيقٌ بِمَن أُقيم في منصبِ الإفتاءِ أنْ يُعِدَّ له عُدَّتَه، وأن يتأهَّبَ له أُهْبَتَه، وأنْ يعلَمَ قدْرَ المَقامِ الذي أُقيمَ فيه، ولا يكونَ في صَدْرِه حَرَجٌ مِن قولِ الحقِّ والصَّدْعِ به؛ فهو المنْصِبُ الذي تولَّاه بنَفْسِه ربُّ الأربابِ، فقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وكفَى بما تولَّاه اللهُ تعالى بنَفْسِه شَرَفًا وجلالةً[٣].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- قوله تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ ...﴾ فيه حِرصُ الصَّحابة رضي الله عنهم على معرفة الحقِّ[٤].

٢- أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قد يُشكل عليه بعضُ الشيء، فيُفتي اللهُ تعالى به؛ لقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾ ولم يقُلْ: فأفْتِني فأُفْتيَهم[٥].

٣- في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾: إطلاقُ الإفتاء على الله، وهذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٤٣).

(٣) ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٤٠).

فِعلٌ من الأفعال، وإنْ كان هو قولًا، ويجوزُ أن نشتقَّ منه وصفًا لله، ولا يجوز أن نشتقَّ من ذلك اسمًا لله؛ لأنَّ الوصف أوسعُ وأعم[١].

٤- أنَّ ترتيب الآيات توقيفيٌّ، ووجه ذلك: أنَّ هذه الآية لها صِلةٌ بآيات المواريث التي في أوَّل السورة، ولو كان اجتهاديًّا، لكان مقتضى الاجتهاد أن تُربط مع أخواتها، وأنْ تُذكر هناك، لكن لَمَّا كان ترتيبُ القرآن توقيفيًّا في آياته، صار محلُّها هنا[٢].

٥- المرادُ بالأختِ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَ﴾ الأختُ الشقيقةُ أو التي للأبِ فقط، بقرينةِ مخالفةِ نَصيبها لنصيبِ الأُخت للأمِّ المقصودة في آية الكلالة الأُولى، وبقرينة قوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾؛ لأنَّ الأخَ للأمِّ لا يرثُ جميعَ المالِ إنْ لم يكن لأخته للأمِّ ولدٌ؛ إذ ليس له إلَّا السُّدُسُ[٣].

٦- أنَّ الميراث يَدخُل في ملك الوارث شاءَ أم أبى، وتُؤخذ من قوله: ﴿فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَ﴾، وقوله: ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ﴾؛ فاللَّام للتَّمليك[٤].

٧- أنَّ الرقيق المملوك لا يَرِث، وتُؤخذ من اللام التي هي للتمليك؛ إذ إنَّ العبد المملوك لا يملك، فالعبدُ المملوك مُلكُه لسيِّده، ولأنه لو وَرِث الأخ من أخته إذا كان رقيقًا، لكان حقيقة الأمرِ أنَّ سيِّدَه هو الذي ورِثَ، وهو أجنبيٌّ منها[٥].

٨- تفضيل الذَّكَر على الأُنثى في التَّعصيب؛ لقوله: ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ والحِكمة: فضل الذُّكورة على الأُنوثة؛ ولأنَّ الذَّكر عليه مُتطلَّبات في الحياة من

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٤٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نكاحٍ، وإنفاقٍ على غيرِه، وغير ذلك[١].

٩- الردُّ على أهل التفويض في صِفات الله عزَّ وجلَّ، الذين يقولون: إنَّنا لا نعلم معانيَ صفاته عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه يلزمُ من ذلك أنْ لا بيانَ في القرآن، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾، ولأنَّ الضَّلال في بابِ الصِّفات أعظمُ من الضَّلال في بابِ الأحكامِ؛ لأنَّ الضَّلال في باب الصِّفات يَتعلَّقُ بالخالق عزَّ وجلَّ، والضَّلال في الأحكام إنَّما هو في العِبادة، وبينهما فَرْقٌ[٢].

١٠- قال تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ النُّكتة في الاكتِفاء بنَفْي الولد، وعدم اشتراط نفْي الوالد في الآية، مع أنَّه لا بدَّ من كونه- أيضًا- لا والدَ له، تظهر بوجوه:

الوجه الأوَّل: أنَّه داخلٌ في مفهومِ الكلالة لُغةً.

الوجه الثَّاني: أنَّ الأكثر أنَّ الإنسان يموت عن تَرِكة، بعد موت والديه؛ لأنَّ المال الذي يتركُه إمَّا أن يكون وَرِثه منهما، وإمَّا أن يكون اكتسبه، وإنَّما يكون الكسبُ في سِنِّ الشباب والكهولة، ويقلُّ في هذه الحال بقاءُ الوالدين، فلمْ يُراعَ في الذِّكر إيجازًا.

الوجه الثالث- وهو العُمدة-: أنَّ عدم إرث الإخوة والأخوات مع الوالد الذي يُدلون به قدْ عُلِم من آيات الفرائض التي أُنزلت أولًا، وتَقدَّمت في أوائل السورة، ومضَتِ السُّنَّة في بيانها، والعمل بها على ذلِك، وعُلم أيضًا من القاعدة القياسيَّة المأخوذةِ من تلك الآيات، ومِن هذه الآية، وهي كونُ الأصل في الإرث أن يكونَ للذَّكَر مِن كلِّ صِنف مِثلُ حظِّ الأُنثيين، ومن قاعدة حَجْب

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٤٣).

الوالد لأولادِه[١].

١١- قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ عبَّر بالعدد، فقال: ﴿ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ دون (أختين)؛ لأنَّ الكلام في الإخوة، والعِبرة في الفَرْض بالعدد[٢].

١٢- من مباحث اللَّفظ والأسلوب في الآية: أنَّها تدلُّ على أنَّ المعلوم من السِّياق له حُكمُ المذكور في اللَّفظ، حتَّى في إعادة الضمير عليه؛ فلا يَتعيَّن تقديرُ لفظ المرء في بيان مرجِع ضَمير ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾، بل يصحُّ أن نقول: إنَّ المعنى: ﴿وَهُوَ﴾، أي: أخوها، ﴿يَرِثُهَآ﴾... إلخ، ومثله قوله: ﴿فَإِن كَانَتَا﴾: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ﴾[٣].

١٣- قوله تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾ الآية الأخيرة (هذه) ذيلٌ للسورة في فتوى متمِّمة لأحكام الفرائض التي في أوائلها، وأمَّا فائدة الأحكام أو المسائل التي تُجعل ذيلًا أو مُلحَقًا لكتاب أو قانون؛ فهي أنَّ الذهنَ يَتنبَّهُ إليها أفضلَ تنبُّهٍ، فلا يَغفُل عنها، كما يَغفُل عمَّا يكون مندمجًا في أثناء أحكام أو مسائل كثيرة من ذلك النوع، فكأنَّ جَعْل هذه الآية مفردةً على غير فواصل السورة يُراد به توجيهُ النفوس إليها؛ لئلَّا تغفل عنها[٤].

١٤- في هذه السُّورة لطيفةٌ عجيبة، وهي أنَّ أوَّلها مشتملٌ على بيان كمال قُدرة الله تعالى؛ فإنَّه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، وهذا دالٌّ على سَعَة القُدرة، وآخِرَها مشتملٌ على بيان كمال العِلم، وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، وهذان الوصفان هما اللذان بهما تَثبُتُ الرُّبوبيَّة

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٨٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٩٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٩٥).

والإلهيَّة والجلالة والعِزَّة، وبهما يجبُ على العبد أن يكون مطيعًا للأوامر والنواهي، منقادًا لكلِّ التكاليف[١].

بلاغة الآية:

١- **قوله**: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾: عبَّر بصيغة المضارع؛ لأنَّ شأن السُّؤال يتكرَّر، والتعبيرُ بصيغة المضارع في مادَّة السؤال طريقةٌ مشهورة، فشاع إيرادُه بصيغة المضارع، نحو: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقد يغلب استعمالُ بعض صِيغ الفعل في بعض المواقع، ومنه غَلبةُ استعمال المضارع في الدُّعاء في مقام الإنكار: كقول عائشة رضي الله عنها: (يَرْحَمُ اللهُ أبا عبد الرحمن)[٢]- تعني: ابن عمر. وقولهم: (يغفر الله له)، ومنه غلبة الماضي مع لا النافية في الدعاء إذا لم تُكرَّر (لا)، نحو: فلا رجَعَ. على أنَّ (**الْكَلَالَةِ**) قد تكرَّر فيها السؤال قبل نزول الآية وبعدَها[٣].

٢- **قوله**: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾: فيه تقديمُ المسنَد إليه ﴿ٱللَّهُ﴾؛ للاهتمام لا للقَصر؛ إذ قد عَلِم المستفتون أنَّ الرسول لا يَنطِق إلَّا عن وحيٍ؛ فإنهم لَمَّا استفتوه فإنما طلبوا حُكم الله، فإسناد الإفتاءِ إلى الله تنويهٌ بهذه الفَريضة[٤].

٣- **قوله**: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾: فيه إيجازٌ بالحذف؛ إذ التَّقدير: (ويرث الأختَ امرؤٌ إن هلكت أختُه، ولم يكنْ لها ولدٌ)، وعُلم معنى الأُخوَّة مِن قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾، وهذا إيجازٌ بديعٌ، ومع غايةِ إيجازِه فهو في غايةِ الوضوحِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٥).
(٢) رواه البخاري (١٧٧٥)، ومسلم (١٢٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٦٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٦٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٦٧).

٤- **قوله:** ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾: **قوله:** ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ أصله (لئلَّا تَضِلُّوا)، حُذفت منه اللامُ و(لا)، وهو تعليلٌ لـ(يبين)، والمقصودُ التعليلُ بنفيِ الضَّلال لا لوقوعِه؛ لأنَّ البيان يُنافي التضليلَ، فحُذفت (لا) النافية، وحَذْفها موجودٌ في مواقِع من كلامِهم إذا اتَّضح المعنى[١].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تمَّ بحمد الله تعالى المجلَّد الثَّالث

ويليه المجلدُ الرَّابع، وأوَّله

تفسير سورة المائدة

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

تَفْسِيرُ سُورَةِ النِّساءِ ٥
أسماءُ السُّورةِ: ٧
فضائلُ السُّورة وخَصائصُها: ... ٧
بيانُ المَكِّي والمَدنيِّ: ٩
مقاصدُ السُّورةِ: ٩
موضوعاتُ السُّورةِ: ١٠
الآية (١) ١٣
غَريبُ الكَلِمات: ١٣
مُشكِل الإعراب: ١٣
المَعنَى الإجمالي: ١٤
تَفسيرُ الآية: ١٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ٢١
بَلاغَةُ الآية: ٢٤
الآيات (٢ - ٦) ٢٨
غَريبُ الكَلِمات: ٢٨
مُشكِلُ الإعراب: ٣٠
المَعنَى الإجمالي: ٣١
تَفسيرُ الآيات: ٣٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ٤٥
بَلاغَةُ الآيات: ٤٨
الآيات (٧ - ١٠) ٥٥
غريبُ الكلمات: ٥٥
المَعنَى الإجمالي: ٥٥
تَفسيرُ الآيات: ٥٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ٦٣
بَلاغَةُ الآيات: ٦٤
الآيات (١١ - ١٤) ٦٧
غَريبُ الكَلِمات: ٦٧
مُشكِلُ الإعراب: ٦٨
المَعنَى الإجمالي: ٦٩
تَفسيرُ الآيات: ٧١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ٨٥
بَلاغَةُ الآيات: ٨٩
الآيات (١٥ - ١٨) ٩٤

غَريبُ الكَلِمات: ٩٤
مُشكِلُ الإعراب: ٩٥
المَعنَى الإجمالي: ٩٦
تَفسيرُ الآيات: ٩٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٠٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ١٠٤
بَلاغَةُ الآيات: ١٠٦
الآيات (١٩ - ٢٢) ١٠٩
غَريبُ الكَلِمات: ١٠٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ١١٠
المَعنَى الإجمالي: ١١٠
تَفسيرُ الآيات: ١١١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١١٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ١١٨
بَلاغَةُ الآيات: ١٢١
الآية (٢٣) ١٢٤
غَريبُ الكَلِمات: ١٢٤
المَعنَى الإجمالي: ١٢٥
تَفسيرُ الآية: ١٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ١٣٠
بَلاغَةُ الآية: ١٣٢
الآيتان (٢٤ - ٢٥) ١٣٣
غريبُ الكَلِمات: ١٣٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٣٤
المَعْنى الإجماليُّ: ١٣٧
تفسيرُ الآيتين: ١٣٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٤٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ١٤٧
بَلاغةُ الآيتين: ١٥٣
الآيات (٢٦ - ٢٨) ١٥٦
غريبُ الكَلِمات: ١٥٦
المَعْنى الإجماليُّ: ١٥٦
تفسيرُ الآياتِ: ١٥٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ١٦١
بَلاغةُ الآياتِ: ١٦٣
الآيات (٢٩ - ٣١) ١٦٧
غريبُ الكَلِمات: ١٦٧
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٦٧
المَعْنى الإجماليُّ: ١٦٨

تفسيرُ الآياتِ: ١٦٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ١٧٤
بَلاغةُ الآياتِ: ١٧٧
الآيات (٣٢ - ٣٥) ١٧٩
غريبُ الكَلِمات: ١٧٩
المَعْنى الإجماليُّ: ١٧٩
تفسيرُ الآياتِ: ١٨٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ١٨٦
بَلاغةُ الآياتِ: ١٨٨
الآيتان (٣٤ - ٣٥) ١٩١
غريبُ الكَلِمات: ١٩١
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٩٣
المَعْنى الإجماليُّ: ١٩٤
تفسيرُ الآيتين: ١٩٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ٢٠٢
بَلاغةُ الآيتين: ٢٠٥
الآيات (٣٦ - ٤٢) ٢٠٧
غريبُ الكَلِمات: ٢٠٧
المَعْنى الإجماليُّ: ٢١٠
تفسيرُ الآياتِ: ٢١١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ٢٢٧
بَلاغةُ الآياتِ: ٢٣٢
الآية (٤٣) ٢٣٦
غريبُ الكَلِمات: ٢٣٦
المَعْنى الإجماليُّ: ٢٣٧
تفسيرُ الآياتِ: ٢٣٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٤٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ٢٤٣
بَلاغةُ الآياتِ: ٢٤٧
الآيات (٤٤ - ٤٦) ٢٥٠
غريبُ الكَلِمات: ٢٥٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٥١
المَعْنى الإجماليُّ: ٢٥١
تفسيرُ الآياتِ: ٢٥٢
الفوائد التَّربويَّة: ٢٥٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ٢٥٨

بَلاغةُ الآياتِ: ٢٦٠
الآيتان (٤٧ - ٤٨)..... ٢٦٣
غريبُ الكَلِمات: ٢٦٣
المَعْنى الإجماليُّ:..... ٢٦٤
تفسيرُ الآيتين:..... ٢٦٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٢٦٨
بَلاغةُ الآيتين: ٢٧١
الآيات (٤٩ - ٥٧) ٢٧٤
غريبُ الكَلِمات: ٢٧٤
المَعْنى الإجماليُّ:..... ٢٧٦
تفسيرُ الآياتِ:..... ٢٧٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٢٨٨
بَلاغةُ الآياتِ: ٢٩٣
الآيتان (٥٨ - ٥٩)..... ٢٩٦
غريبُ الكَلِمات: ٢٩٦
مُشكِلُ الإعرابِ:..... ٢٩٦
المَعْنى الإجماليُّ:..... ٢٩٧
تفسيرُ الآيتين:..... ٢٩٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٠٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: .. ٣٠٣
بَلاغةُ الآيتين: ٣٠٧
الآيات (٦٠ - ٦٥) ٣٠٩
غريبُ الكَلِمات: ٣٠٩
المَعْنى الإجماليُّ:..... ٣١٠
تفسيرُ الآياتِ:..... ٣١١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٣٢٠
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٢٥
الآيات (٦٦ - ٧٠) ٣٣٢
غريبُ الكَلِمات: ٣٣٢
المَعْنى الإجماليُّ:..... ٣٣٢
تفسيرُ الآياتِ:..... ٣٣٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٣٤٠
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٤٣
الآيات (٧١ - ٧٦) ٣٤٥
غريبُ الكَلِمات: ٣٤٥
مُشكِلُ الإعرابِ:..... ٣٤٦

المَعْنى الإجماليُّ: ٣٤٦
تفسيرُ الآياتِ: ٣٤٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٥٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ٣٥٧
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٦١
الآيات (٧٧ - ٧٩) ٣٦٤
غريبُ الكَلِمات: ٣٦٤
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٦٤
المَعْنى الإجماليُّ: ٣٦٥
تفسيرُ الآياتِ: ٣٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ٣٧٣
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٧٨
الآيات (٨٠ - ٨٤) ٣٨١
غريبُ الكَلِمات: ٣٨١
المَعْنى الإجماليُّ: ٣٨٣
تفسيرُ الآياتِ: ٣٨٤
الفَوائِد التربويَّة: ٣٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ٣٩٦
بَلاغةُ الآياتِ: ٤٠١
الآيات (٨٥ - ٨٧) ٤٠٥
غريبُ الكَلِمات: ٤٠٥
المَعْنى الإجماليُّ: ٤٠٦
تفسيرُ الآياتِ: ٤٠٦
الفَوائِد التربويَّة: ٤١١
الفوائد العلميَّة اللَّطائف: ٤١٢
بَلاغةُ الآياتِ: ٤١٥
الآيات (٨٨ - ٩١) ٤١٩
غريبُ الكَلِمات: ٤١٩
المَعْنى الإجماليُّ: ٤٢١
تفسيرُ الآياتِ: ٤٢٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ٤٣٠
بَلاغةُ الآياتِ: ٤٣٥
الآيتان (٩٢ - ٩٣) ٤٣٩
غريبُ الكَلِمات: ٤٣٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٤٠
المَعْنى الإجماليُّ: ٤٤٠
تفسيرُ الآيتين: ٤٤١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤٤٩

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ٤٥١
بَلاغةُ الآيتين: ٤٥٩
الآيتان (٩٥ - ٩٦)..... ٤٦٥
غريبُ الكَلِمات: ٤٦٥
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٦٥
المَعْنى الإجماليُّ: ٤٦٦
تفسيرُ الآيتين: ٤٦٦
الفَوائِد التربويَّة: ٤٧٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ٤٧٠
بَلاغةُ الآيتين: ٤٧٣
الآيات (٩٧ - ١٠٠)..... ٤٧٩
غَريبُ الكَلِمات: ٤٧٩
المَعنَى الإجماليُّ: ٤٧٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٨٠
الفوائد التَّربويَّة: ٤٨٧
الفوائد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٤٨٨
بَلاغةُ الآياتِ: ٤٩٢
الآيات (١٠١ - ١٠٤) ٤٩٥
غَريبُ الكَلِمات: ٤٩٥
المَعنَى الإجماليُّ: ٤٩٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٩٧
الفَوائِد التربويَّة: ٥٠٩
الفوائد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٥١٣
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٢٠
الآيات (١٠٥ - ١٠٩) ٥٢٥
غَريبُ الكَلِمات: ٥٢٥
المَعنَى الإجماليُّ: ٥٢٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٢٧
الفَوائِد التربويَّة: ٥٣٢
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٥٣٤
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٣٧
الآيات (١١٠ - ١١٣) ٥٤٠
غَريبُ الكَلِمات: ٥٤٠
المَعنَى الإجماليُّ: ٥٤٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٤١
الفَوائِد التربويَّة: ٥٤٧
الفوائد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٥٤٧
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٥٠
الآيات (١١٤ - ١٢٢) ٥٥٢
غَريبُ الكَلِمات: ٥٥٢

مُشكِلُ الإعرابِ: ٥٥٤
المَعنَى الإجماليُّ: ٥٥٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٥٦
الفَوائِد التربويَّة: ٥٦٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ٥٧١
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٧٨
الآيات (١٢٣ - ١٢٦) ٥٨٣
غَريبُ الكَلِمات: ٥٨٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٥٨٤
المَعنَى الإجماليُّ: ٥٨٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٨٥
الفَوائِد التربويَّة: ٥٩٢
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٥٩٤
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٩٩
الآية (١٢٧) ٦٠٣
غَريبُ الكَلِمات: ٦٠٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦٠٣
المَعنَى الإجماليُّ: ٦٠٤
تفسير الآية: ٦٠٥
الفوائد التَّربويَّة: ٦٠٨
الفوائد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٦٠٩
بَلاغةُ الآية: ٦١١
الآيات (١٢٨ - ١٣٠) ٦١٢
غَريبُ الكَلِمات: ٦١٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦١٣
المَعنَى الإجماليُّ: ٦١٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٦١٦
الفَوائِد التربويَّة: ٦٢٢
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٦٢٣
بَلاغةُ الآياتِ: ٦٢٨
الآيات (١٣١ - ١٣٤) ٦٣١
المَعنَى الإجماليُّ: ٦٣١
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٣٢
الفَوائِد التربويَّة: ٦٣٧
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٦٣٩
بَلاغةُ الآياتِ: ٦٤٠
الآيات (١٣٥ - ١٣٧) ٦٤٣
غَريبُ الكَلِمات: ٦٤٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦٤٤
المَعنَى الإجماليُّ: ٦٤٤

تَفسيرُ الآياتِ: ٦٤٥
الفوائد التَّربويَّة: ٦٥١
الفوائد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٦٥٢
بَلاغةُ الآياتِ: ٦٥٨
الآيات (١٣٨ - ١٤٣) ٦٦١
غَريبُ الكَلِمات: ٦٦١
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦٦٣
المَعنَى الإجماليُّ: ٦٦٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٦٥
الفوائد التَّربويَّة: ٦٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ... ٦٧٥
بَلاغةُ الآياتِ: ٦٨٠
الآيات (١٤٤ - ١٤٧) ٦٨٣
غَريبُ الكَلِمات: ٦٨٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦٨٤
المَعنَى الإجماليُّ: ٦٨٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٨٥
الفَوائِد التربويَّة: ٦٨٩
الفوائدُ العِلميَّة واللَّطائِف: ... ٦٩١
بَلاغةُ الآياتِ: ٦٩٤
الآيات (١٤٨ - ١٥٢) ٦٩٧
غريب الكلمات: ٦٩٧
مشكل الإعراب: ٦٩٧
المعنى الإجمالي: ٦٩٨
تفسير الآيات: ٦٩٩
الفوائِد التربويَّة: ٧٠٤
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٧٠٦
بلاغة الآيات: ٧٠٨
الآيات (١٥٣ - ١٦٢) ٧١١
غريب الكلمات: ٧١١
مشكل الإعراب: ٧١٤
المعنى الإجمالي: ٧١٨
تفسير الآيات: ٧٢٠
الفوائِد التربويَّة: ٧٣٣
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٧٣٤
بلاغة الآيات: ٧٤٠
الآيات (١٦٣ - ١٦٦) ٧٤٦
غريب الكلمات: ٧٤٦
مشكل الإعراب: ٧٤٧
المعنى الإجمالي: ٧٤٨

تفسير الآيات: ٧٤٨
الفوائِد التربويَّة: ٧٥٤
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٧٥٤
بلاغة الآيات: ٧٥٨
الآيات (١٦٧ - ١٧٠) ٧٦١
غريبُ الكلمات: ٧٦١
مشكلُ الإعراب: ٧٦١
المعنى الإجمالي: ٧٦٢
تفسير الآيات: ٧٦٢
الفوائِد التربويَّة: ٧٦٦
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٧٦٦
بلاغة الآيات: ٧٦٨
الآيات (١٧١ - ١٧٥) ٧٧٢
غريبُ الكلمات: ٧٧٢
مشكلُ الإعراب: ٧٧٤
المعنى الإجمالي: ٧٧٤
تفسير الآيات: ٧٧٥
الفوائِد التربويَّة: ٧٨٥
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٧٨٦
بلاغة الآيات: ٧٨٩
الآية (١٧٦) ٧٩٣
غريب الكلمات: ٧٩٣
المعنى الإجمالي: ٧٩٤
تفسير الآية: ٧٩٤
الفوائِد التربويَّة: ٧٩٨
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٧٩٨
بلاغة الآية: ٨٠٢
الفهرس ٨٠٥

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٣٥ درس

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة المائدة

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الرابع

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة المائدة)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية
التفسير المحرر للقرآن الكريم (سورة المائدة) المجلد الرابع/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٣٧هـ
ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٨-٣٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن – سورة المائدة – تفسير ٢- القرآن – التفسير الحديث
أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٧/٥٥٠

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٥٥٠
ردمك: ٨-٣٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net
مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣ / فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة المائدة)

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر – قنا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

المجلد الرابع

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ المائِدَةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ المائِدَةِ

أَسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ، سُورةَ المَائدة[١].

فعَن جُبَيرِ بنِ نُفَيرٍ، قال: (حَجَجتُ فدخلتُ على عائشةَ رضِي اللهُ عنها، فقالَت لي: يا جُبَيرُ، تقرأُ المائدةَ؟ فقُلتُ: نَعم، فقالَت: أمَا إنَّها آخِرُ سُورةٍ نزَلَتْ...)[٢].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- سُورةُ المَائدةِ مِن السَّبعِ الطِّوالِ التي أُوتِيَها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مكانَ التَّوراةِ:

فعَن واثلةَ بنِ الأَسقَعِ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أُعطِيتُ مَكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مَكانَ الزَّبورِ المِئِينَ، وأُعطيتُ مَكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفضِّلتُ بالمفَصَّلِ))[٣].

---

(١) سُمِّيتْ هذه السورةُ بهذا الاسم؛ لوُرودِ ذِكر المائدةِ فيها؛ حيث طلَب الحواريُّون مِن عيسى عليه السلام آيةً تدلُّ على صِدق نُبوَّته، وتكون لهم عِيدًا، وقد اختصَّتْ هذه السُّورة بذِكرها.
قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۞ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٢- ١١٥]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٦٩).

(٢) أخرجَه أحمدُ (٢٥٥٤٧)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٠٧٣)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٢١٠).
قال الحاكم (٣٢١٠): صحيحٌ على شرْطِ الشَّيخين. وقال الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (٩/ ٢٠٤): رجاله رجالُ الصَّحيح.

(٣) أخرجه أحمدُ (١٦٩٨٢)، والطَّيالسيُّ في ((المسند)) (١١٠٥)، والطبرانيُّ في ((المعجم الكبير)) (٢٢/ ٧٦) (١٨٧)، والبيهقيُّ في ((شعب الإيمان)) (٢٢٥٥)، وأبو نعيم في ((معرفة

٢- مِن خَصائصِ هذِه السُّورةِ: أنَّها مِن آخِرِ ما نزَلَ مِنَ القُرآنِ[١]:

فعَن عبدِ اللَّهِ بنِ عَمرٍو رضِي اللهُ عنهما، قالَ: (آخِرُ سُورةٍ أُنزِلَت سورَةُ المائدةِ)[٢].

وعن جُبَيرِ بنِ نُفَيرٍ، أن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت له: (يا جُبَيرُ، تَقرَأُ المائدةَ؟ فقال: نَعَم، قالتْ: أمَا إنَّها آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَت)[٣].

٣- مِن خَصائِصِها: أنَّها أجمعُ سُورةٍ في القُرآنِ لفُروعِ الشَّرائعِ، وذُكِر فيها مِن التَّحليلِ والتحريمِ والإيجابِ ما لم يُذكَرْ في غيرِها[٤].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ:

سُورةُ المَائدةِ سُورةٌ مدَنيَّة، نزلَتْ بعدَ الهِجرةِ، ونقَل الإجماعَ على ذلِك عددٌ

الصحابة)) (٦٤٨٥).

قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٤٩): فيه عِمران القطَّان، وبقيَّةُ رِجاله ثقاتٌ. وحسَّنه السيوطيُّ في ((الجامع الصغير)) (١١٧١)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٠٥٩).

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢١).

وقيل: إنَّ سورة المائدة مُحكَمةٌ ليس فيها منسوخٌ، وقد وردَ هذا عن ابنِ عبَّاس وعائشةَ وعمرِو ابنِ شُرَحبيلَ وجمعٍ من السَّلفِ.

قال ابنُ حجر: (حتَّى صحَّ عن ابنِ عبَّاسٍ وعائشةَ وعمرِو بنِ شُرَحبيلَ وجمْعٍ مِن السَّلف: أنَّ سورةَ المائدة مُحكَمةٌ) ((فتح الباري)) (٥/ ٤١٢).

(٢) رواه الترمذيُّ (٣٠٦٣)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٢١١)، والبيهقيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٣٩٧٩)

قال الترمذيُّ: حسنٌ غريبٌ. وحسَّن إسنادَه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (٣٠٦٣).

(٣) تقدم تخريجه

(٤) قال أبو حيَّان: (قد تَضمَّنت هذه السورةُ ثمانيَ عَشْرةَ فريضةً لم يُبَيِّنْها في غيرِها) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٥٧). وقال ابنُ عاشور: (احتوتْ هذه السورةُ على تشريعاتٍ كثيرةٍ تُنْبئُ بأنَّها أُنزلت لاستكمالِ شرائعِ الإسلام) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٧٢)، ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٤٨).

من المفسِّرينَ[١].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أَهمِّ المقاصدِ التي تَضمَّنَتْها سورةُ المائدةِ:

١- التَّأكيدُ على حِفظِ العُهودِ والمواثيقِ والوفاءِ بها[٢].

٢- بيانُ الكَثيرِ من الأحكامِ الشَّرعيَّةِ[٣].

٣- تَنظيمُ العَلاقاتِ بينَ المسلمينَ وغَيرِهم[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أَبرزِ الموضوعاتِ التي تناولَتْها سورةُ المائدةِ:

١- تقريرُ العَقيدةِ الصَّحيحةِ، والاهتمامُ بأمورِ التَّوحيدِ، وتَصحيحُ الكثيرِ مِن المعتقَداتِ الباطلةِ، والتذكيرُ بيومِ القيامةِ.

٢- تقريرُ أنَّ الحُكمَ للهِ تعالى وحدَه، وأنَّه لا حُكمَ أحسنُ مِن حُكمِ الله تعالى، مع بيانِ وجوبِ الحُكمِ بما أَنزلَ اللهُ تعالى، وإلغاءِ حُكْمِ الجاهليَّة وتقبيحِه.

٣- التأكيدُ على عقيدةِ الولاءِ والبراء، والتشديدُ على تولِّي المؤمنين، مع التحذيرِ غايةَ التحذيرِ من تولِّي أهلِ الكُفر، وبيانِ أنَّ الذين في قلوبِهم مرضٌ هم المسارِعونَ في تَوَلِّيهم.

---

(١) وممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية في ((تفسيره)) (٢/ ١٤٣)، والقرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٣٠)، وابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٤- تنظيمُ علاقاتِ المُسلمينَ مع غيرِهم، خاصَّةً اليهودَ والنَّصارى.

٥- بيانُ كثيرٍ من الأحكامِ الشَّرعيَّة وتوضيحُها؛ فمِن ذلك: الأحكامُ الشَّرعيَّة المتعلِّقة بالعباداتِ والمعاملاتِ؛ كأحكامِ العُقود، والذَّبائح، والصَّيد، والإِحرام، ونِكاح الكتابيَّات، والرِّدَّة، وأحكامِ الطَّهارة، وحَدِّ السَّرِقة، وحدِّ البَغي والإفسادِ في الأرضِ (الحِرابة)، وتحريمِ الخَمْر والميسرِ، وكَفَّارة اليَمين، والنَّهي عن قَتْلِ الصَّيدِ في الإِحرام، والوَصيَّةِ عندَ الموتِ؛ إلى غيرِ ذلك.

٦- اشتملتْ سورةُ المائدةِ على بعضِ القِصصِ، ومِن ذلك قِصَّةُ بني إِسرائيلَ مع موسى عليه السلامُ، وقِصَّة ابنَيْ آدَم، وقِصة المائدة.

٧- بيانُ أحوالِ أهلِ الكتابِ، ونقضِهم للعهودِ وتحريفِهم للكتبِ المنزَّلةِ، ومناقشةُ بعض عقائدِهم الزَّائفةِ؛ من نسبةِ الولدِ إلى الله، وإنكار رِسالةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إلى غير ذلِك من عقائدِهم الباطِلة.

الآيتان (١ - ٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أَوۡفُواْ﴾: أدُّوا مع التَّمامِ، وأصلُ الوفاء: تمامُ الشَّيءِ، وإتمامُ العَهدِ، والقيامُ بمقتضاه، وإكمالُ الشَّرط[١].

﴿بِٱلۡعُقُودِ﴾: بالعُهودِ الموثَّقَةِ، وأصل (عقد) يدلُّ على: شَدٍّ، وشِدَّةِ وُثوقٍ[٢].

﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: الإبلُ والبَقَر والغَنَم، والبَهِيمَةُ: كلُّ ما استَبْهَم عن الجَوابِ، أي: استَغلَق، وما لا نُطْقَ له؛ وإنما قيل للأنعامِ: بَهيمة؛ لأنَّها أبهمتْ عن أن تُميِّزَ، والأنعامُ: أصلُها الإبل، ثم استُعمِلَتْ للبقرِ والغَنَم، وأصل كلمة (نعم): يدلُّ على تَرفُّهٍ، وطِيبِ عَيشٍ، وصلاحٍ[٣].

﴿ٱلصَّيۡدِ﴾: أي: الاصطياد، والصَّيد: هو تناولُ ما يُظفَر به، أو ما كان مُمتنِعًا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٦).

ولم يكُن له مالكٌ، وكان حلالًا أكْلُه، وأصلُه: ركوبُ الشَّيءِ رأسَه، ومُضيُّه غيرَ ملتفِتٍ ولا مائلٍ[١].

﴿حُرُمٌ﴾: مُحرِمونَ، جمْع حَرامٍ، وهو بمَعْنَى مُحرِم، مِن: أَحْرم الرَّجلُ بالحجِّ؛ لأنَّه يَحرُم عليه ما كان حلالًا له من الصَّيدِ والنِّساءِ، وغير ذلك، وأصل (حرم): المنْع والتَّشديد[٢].

﴿شَعَٰٓئِرَ﴾: وَاحِدُها شَعيرَة، وهي مَا جعَله الله تعالى عَلَمًا لطاعَتِه، والشَّعائِر: أعلامُ الحجِّ وأَعمالُه، ومشاعِرُ الحجِّ: مواضِعُ المناسِك[٣].

﴿ٱلْهَدْىَ﴾: مُختصٌّ- في هذا الموضِع- بما يُهْدَى إلى البَيتِ من الأنعامِ؛ قربةً إلى الله، والهَديَّة: كلُّ ما يُهدَى إلى ذِي مَوَدَّةٍ[٤].

﴿ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾: ما قُلِّد من الهَدْي، وكانوا يقلِّدونَ البعيرَ من لِحاءِ شَجرِ الحرمِ، فيأمنُ بذلك حيث سلَك، وأصل (قلد): الفَتْل، ويدلُّ على تعليقِ شيءٍ على شيءٍ، وَلَيِّه به[٥].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ١٩٤)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٤٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١ / ٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ٩٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧).

﴿ءَآمِّينَ﴾: قَاصِدينَ وعامِدِين إليه، جمْع آمٍّ، وأصل الأَمِّ: القصدُ المستقيم، أو التوجُّه نحو مقصودٍ[١].

﴿فَضْلًا﴾: عطاءً زائدًا؛ فأصلُ الفَضلِ الزِّيادةُ؛ وكلُّ عطيَّةٍ لا تلزَمُ مَن يُعطي يُقال لها: فضلٌ، والإفضال: الإحسان[٢].

﴿حَلَلْتُمْ﴾: خَرجتُم من إحرامِكم، أو خرجتُم مِن الحرَمِ، وأصل الحَلِّ: حَلُّ العُقدةِ، وفَتْح الشَّيءِ[٣].

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: ولَا يَحمِلنَّكم، أو لا يَكْسِبنَّكم، وجَرَم أَيْ: كَسَبَ؛ لأنَّ الَّذي يَحوزُه فكأنَّه اقْتَطَعه، ويقال: جَرَمَ: إذا أَذْنَبَ وَاكْتَسَبَ الإِثمَ، ولا يكادُ يُقالُ في عامَّةِ كلامِهم للكسْبِ المحمودِ، وأصل (جرم) يدلُّ على القَطعِ[٤].

﴿شَنَـَٔانُ﴾: بَغضاءُ، أو شِدَّةُ البُغض والعداوة؛ يُقال: شَنِئْتُه، أي: تَقذَّرْتُه بُغضًا له[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١، ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١).

مُشْكِلُ الإعراب:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌ﴾.

﴿غَيۡرَ﴾: منصوبٌ على أنَّه حالٌ، واختُلِف في صاحبِ الحال؛ فقيل: هو الضمير المجرور في ﴿لَكُم﴾، وهذا قولُ الجمهورِ، وهو مِثْلُ قولِك: أُحِلَّ لك هذا الشَّيءُ لا مُفَرِّطًا فيه ولا مُتَعَدِّيًا، والمعنى: أُحِلَّت لكم بهيمةُ الأنعامِ إلَّا أن تُحِلُّوا الصَّيدَ في حالِ الإحرام؛ فإنَّه لا يحِلُّ لكم ذلك إذا كنتم مُحْرمينَ. وقيل: الضَّميرُ المجرورُ في ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: إلَّا ما يُتْلى عليكم حالَ انتفاءِ كونكم مُحِلِّين الصَّيدَ. وقيل: هو ضميرُ الجمعِ في ﴿أَوۡفُواْ﴾، والتقديرُ: أوْفُوا بالعقودِ في حالِ انتفاءِ كونِكم مُحِلِّينَ الصيدَ وأنتم حُرُم[1].

﴿ٱلصَّيۡدِ﴾: مجرورٌ لفظًا، منصوبٌ محلًّا من إضافةِ اسمِ الفاعِلِ إلى مفعولِه، وهو مَصدرٌ بمعنى المفعول، أي: الـمَصِيد، ويجوزُ أنْ يكون على بابِه هاهنا؛ أي: غَيرَ مُحلِّين الاصطيادَ في حالِ الإحرامِ[2].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٢٩٨)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٧٨- ١٨٥)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٩).

وقد أورد السَّمين الحلبي مناقشاتٍ كثيرةً في هذه الآية، ثم قال: (وقديمًا وحديثًا استشكل الناسُ هذه الآية؛ قال ابنُ عطيَّة: «وقد خلَط الناسُ في هذا الموضع في نصب (غير) وقدَّروا تقديماتٍ وتأخيرات، وذلك كله غيرُ مُرضٍ؛ لأنَّ الكلام على اطراده فيُمكن استثناء بعد استثناء»، وهذه الآية ممَّا اتضح للفصحاء البُلغاء فصاحتُها وبلاغتها، حتى يُحكَى أنَّه قيل للكندي: أيُّها الحكيم، اعملْ لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعَمْ أَعملُ لكم مِثلَ بعضه، فاحتجب أيَّامًا كثيرة، ثم خرج فقال: واللهِ لا يَقدِر أحدٌ على ذلك؛ إنَّني فتحتُ المصحف فخرجتْ سورة المائدة؛ فإذا هو قدْ نَطَق بالوفاء، ونَهَى عن النَّكث، وحلَّل تحليلًا عامًّا، ثم استثنى استثناءً بعدَ استثناءٍ، ثم أَخبَر عن قُدرته وحِكمته في سَطرين!). ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٨٤- ١٨٥)، وينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤١٥)، ((إعراب القرآن)) للدعاس (١/ ٢٤١).

قوله: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾: مبتدأٌ وخبر، والجملةُ في محلِّ نصبٍ حالٌ من الضَّميرِ المُسْتكِنِّ في ﴿مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾، كأنَّه قيل: أَحْلَلْنا لكم بعضَ الأنعام في حالِ امتناعِكم من الصيدِ وأنتم مُحْرِمون؛ لئلَّا تُحرجَ عليكم[1].

المعنى الإجماليُّ:

أَمَرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ أنْ يُتمُّوا العُهودَ التي بَيْنه وبَيْنهم، والعهودَ التي بينهم وبين الخَلقِ، والتي لا تُخالِف شَرْعَه، وأخبرَهم تعالى أنَّه أحلَّ لهم الإبلَ والبقَرَ والغَنَمَ، إلَّا ما سيُقرأ عليهم تحريمُه منها، وهو ما بيَّنه في قولِه سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ ...﴾، كما يُستثنى أيضًا صَيدُ البَرِّ فيما لو كانوا داخلَ حدودِ الحرَمِ، أو كانوا مُحرِمينَ بحجٍّ أو عُمرةٍ، إنَّه سبحانه وتعالى يَحكُم بما شاءَ، ويَقضي بما أرادَ.

ثمَّ نَهى سبحانه وتعالى عِبادَه المؤمنين أنْ يَتعدَّوا حُدودَه بتحليلِهم حُرُماتِه التي أُمِروا بتعظيمِها، والتي منها شعائرُ الحجِّ، ولا يَنتهِكوا حُرمةَ الأشهُرِ الحُرُم بابتداءِ القِتال فيها، أو التلبُّسِ فيها بظُلمٍ أو ارتكابِ مُحرَّماتٍ، كما نهاهم عن انتهاكِ ما يُهدَى إلى الحَرَمِ من الأنعامِ؛ بأنْ يَذبَحوها قبلَ بلوغِها مَحِلَّها، أو يَمنعوها من الوصولِ إلى محِلِّها، أو يَنتهكوا الهَديَ التي تُجعَلُ القلائدُ في أعناقِها، ونَهاهم أنْ يستحِلُّوا قِتالَ مَن قصَد البيتَ الحرامَ طلبًا لفَضْلِ اللهِ ورِضوانِه، ثم أباح لهم الصَّيدَ بعد الانتهاءِ من إحرامِهم، وإذا خرجوا مِن الحرَمِ، ثم نهاهم جلَّ وعلا أنْ يَحمِلَهم بُغضُهم وكراهيتُهم لأقوامٍ منعوهم من الوُصولِ للمسجدِ الحرامِ، على أنْ يَعْتدوا عليهم، ويقتصُّوا منهم ظلمًا وعدوانًا، وأمَرَهم أنْ يتعاونوا على البِرِّ والتقوى، وألَّا يتعاوَنوا على الإثمِ والعُدوان، وأمَرَهم بتقوى الله؛ فإنَّه شديدُ العقابِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٠١)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٨٥ - ١٨٦).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، قوموا بإتمامِ وإكمالِ جميعِ العُهودِ التي بينكم وبين الخالِق سبحانه، وجميعِ العهودِ التي بينكم وبين المخلوقينَ؛ ما لم تُخالِفْ شَرْعَ اللهِ تعالى[1].

﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾.

أي: قد أحلَّ اللهُ تعالى لأجْلِكم- أيُّها المؤمنون- الإبلَ والبَقر والغنَم؛ فضلًا منه ورحمةً[2].

﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾.

أي: إلَّا ما سيُتلَى عليكم تحريمُه منها في قولِه سبحانه: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ ...﴾[3] [المائدة: ٣].

﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٧).
قال ابنُ جريرٍ: (اختلَف أهلُ التأويلِ في العقودِ التي أمَر الله جلَّ ثناؤُه بالوفاءِ بها بهذه الآيةِ، بعدَ إجماعِ جميعِهم على أنَّ معنى العقودِ: العهودُ) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٤-١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٧-٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨).

أي: ويُستثنى أيضًا مِن حِلِّ بهيمة الأنعامِ لكم صيدُها وأنتم في الحَرَم، أو وأنتم مُحرِمون بحَجٍّ أو عُمرةٍ[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يَقضي في خَلْقِه ما يشاءُ، ومن ذلك تحليلُ وتحريمُ ما يشاءُ، وهو الحكيمُ في جميعِ ما يُقدِّره ويَشْرَعُه من أحكامٍ[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا حرَّم الصيدَ على المُحرِم في الآيةِ الأولى، أكَّدَ ذلك بالنهيِ في هذه الآيةِ عن مخالفَةِ تكاليفِ الله تعالى[٣]، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨-٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩-١٠).

قال القرطبيُّ: (وهذه الآيةُ مما تلوحُ فصاحتُها وكثرةُ معانيها، على قلَّة ألفاظِها، لكلِّ ذي بصيرةٍ بالكلامِ؛ فإنَّها تضمَّنت خمسةَ أحكامٍ: الأولُ: الأمرُ بالوفاءِ بالعقود. الثاني: تحليلُ بهيمةِ الأنعامِ. الثالثُ: استثناءُ ما يلي بعدَ ذلك. الرابعُ: استثناءُ حالِ الإحرامِ فيما يُصادُ. الخامسُ: ما تقتضيه الآيةُ مِن إباحةِ الصَّيد لمَن ليس بمُحرِمٍ). ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٩).

أي: يا أيُّها المؤمنون، لا تَنتَهِكوا ما حرَّمَ الله تعالى عليكم، ولا تُضَيِّعوا فرائضَه، ومِن ذلك مناسِكُ الحجِّ(١).

﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾.

أي: ولا تَنتهِكوا حُرمةَ الأشهُرِ الحُرُم بابتداءِ القِتالِ فيها، وبغيرِ ذلك من أنواعِ الظُّلْم والمحرَّماتِ(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞ﴾ [التوبة: ٣٦].

وعن نُفَيعِ بنِ الحارثِ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ الزمانَ قد استدارَ كهيئَتِه يومَ خلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ؛ السَّنةُ اثنا عشرَ شهرًا، منها أربعةٌ حُرمٌ؛ ثلاثٌ متواليات: ذو القَعدةِ وذو الحِجةِ والمحَرَّمُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨).

قال ابنُ كثير: (وقد ذهب الجمهور إلى أنَّ ذلك منسوخ، وأنه يجوزُ ابتداء القتال في الأشهر الحرم، واحتجُّوا بقوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]، قالوا: والمراد أشهرُ التسييرِ الأربعة، ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾، قالوا: فلم يَستثنِ شهرًا حرامًا من غيره) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٢١٨-٢١٩).

وقال ابن عثيمين: (أمَّا القتالُ في الشهر الحرام، فاختلَفَ فيه العلماء: فمنهم مَن يقول: إنَّه منسوخٌ، ومنهم مَن يقول: إنَّه مُحكَم وليس بمنسوخٍ؛ فالقائلون بأنَّه منسوخٌ يقولون: إنَّ الرسولَ عليه الصلاة والسلامُ قاتَلَ في الشَّهر الحرام؛ فإنَّه بعدَ فَتْح مكَّة- أي: في رمضان- خرَج إلى هوازنَ وثقيفٍ وقاتَلَهم في ذي القَعدة، وكذلك كانت غزوةُ تبوك في الشهر الحرام في مُحرَّم، وهذا يدلُّ على أنَّ القتالَ في الشهر الحرام نُسِخ تحريمُه، ولكنَّ الصَّحيحَ أنه باقٍ، وأنَّه لا يجوزُ القتالُ في الشَّهر الحرام ابتداءً، أمَّا إذا كان دفاعًا أو امتدادًا لغزوةٍ سابقةٍ؛ فإنَّ ذلك جائزٌ، وعليه تُحمَلُ قِصَّة هوازن وتبوك؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إنَّما غزاهم لأنَّه قيل له: إنَّهم قد جمَعوا له، فلا بدَّ من الدِّفاعِ) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥).

ورجبُ مُضَرَ[١]، الذي بين جُمادى وشعبانَ))[٢].

﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾.

أي: ولا تَنتهِكوا ما يُهدَى إلى الحَرَم من إبلٍ أو بقرٍ أو غنمٍ تقرُّبًا إلى الله تعالى، فلا تذبحوه قبلَ بلوغِه مَحِلَّه، ولا تَحُولوا بينه وبين الوصولِ إلى محِلِّه، بل عَظِّموه[٣].

﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾.

أي: ولا تَنتهِكوا أيضًا الهَدْيَ الذي تُجعَل له قلائدُ في عُنقِه؛ وكانت الهدْيُ تُقلَّدُ إظهارًا لشعائِرِ الله تعالى، وحملًا للنَّاسِ على الاقتداءِ، فتَبعَث مَن يراه على الإتيانِ بمثلِه، وتعليمًا لهم للسُّنَّة، وليُعْرَفَ أنه هديٌ فيُحْتَرَم[٤].

﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾.

أي: ولا تستحلُّوا قِتالَ القاصدين إلى بيتِ الله تعالى الحرامِ، الذي مَن دخَلَه

---

(١) ورجبُ مُضرَ: رجَب: هو اسم الشهر الذي بين جُمادى وشَعبان، من رَجِبْتُه، أي: هِبْتُه وعظَّمْتُه، فهو مرجوبٌ؛ ومنه سمِّيَ رجب؛ لأنَّهم كانوا يُعظِّمونه في الجاهليَّة ولا يستحلُّون فيه القِتال، ومضر: اسم قَبيلة، وإنَّما أضيف لهم فقيل: رجَبُ مُضَرَ؛ لأنَّه كان بين بني مُضَر وبين ربيعةَ اختلافٌ في رجب؛ فكانت مُضر تجعَلُ رجبًا هذا الشَّهرَ المعروف الآن، وهو الذي بين جُمادَى وشعبان، وكانوا مُتمسِّكين بتعظيمِه، وكانتْ ربيعةُ تجعلُه رمضانَ؛ فأُضيفَ إلى مُضرَ مبالغةً في إيضاحِه وإزالةً للْبَسْ عنه. وقيل: لأنَّهم كانوا أَشدَّ تَعظيمًا له مِن غيرِهم، فكأنَّهم اختُصُّوا به. ينظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ١٣٣)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٩٧)، ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٦٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٢٥).

(٢) رواه البخاري (٤٦٦٢) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦-٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩).

كان آمنًا، والحالُ أنَّهم طالبونَ فَضلَ الله تعالى بالتِّجارةِ والمكاسِبِ المباحَةِ، أو راغبونَ في رِضوانِه بالحجِّ والعُمرةِ والطَّواف بالبيت، والصَّلاة وغيرِها من أنواعِ العباداتِ، فلا تَصدُّوهم ولا تتعرَّضوا لهم بسوءٍ، ولا تُهينوهم، بل عظِّموا الزَّائرينَ لبيتِ الله عزَّ وجلَّ[(١)].

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾.

أي: وإذا فرَغْتُم مِن إحرامِكم بالحجِّ أو العُمرةِ وأحللتُم منه، وخرجتُم من الحَرَم، فلا حَرَج عليكم في اصطيادِ ما كان محرَّمًا عليكم صيدُه[(٢)].

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾

القِراءاتُ ذاتُ الأَثَر في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ قِراءتان[(٣)]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩-٢٠).

قال السعديُّ: (هذه الآية الكريمة مخصوصةٌ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾؛ فالمشرك لا يُمَكَّن من الدُّخول إلى الحرم) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢-٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠-٢١).

قال ابنُ جريرٍ: (يعني بذلك جلَّ ثناؤه: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ الصيد الذي نهيتُكم أن تحلُّوه وأنتم حرمٌ، يقول: فلا حرجَ عليكم في اصطيادِه واصطادوا إن شئتُم حينئذٍ؛ لأنَّ المعنى الذي مِن أجلِه كنتُ حرَّمته عليكم في حالِ إحرامِكم قد زال، وبما قلنا في ذلك قال جميعُ أهلِ التأويلِ) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢-٤٣).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (إِنْ صَدُّوكُمْ) بكَسْر الهمزة، وقرأ الباقون (أَنْ صَدُّوكُمْ) بفتحها. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٣).

ويُنظر لمعنى القراءتين: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٩٢).

١- قِراءة ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ﴾ بالفتْح على أنَّها عِلَّة للشَّنَآنِ، والمعنى: لا يَحْمِلَنَّكم بغضُكم لقومٍ على الاعتداءِ عليهم؛ لأجْلِ صَدِّهم إيَّاكم عن المسجدِ الحرامِ.

٢- قِراءة ﴿إِنْ صَدُّوكُمْ﴾ بـ (إن) الشرطيَّة، والمعنى: لا يحملنَّكم بُغضُ قومٍ على الاعتداءِ عليهم، إنْ صدُّوكم عن المسجدِ الحرامِ.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾.

أي: ولا يَحملنَّكم- أيُّها المؤمنون- بُغضُ قومٍ على أن تَعْتَدوا عليهم فتقتَصُّوا منهم ظلمًا؛ طلبًا للاشتفاءِ منهم؛ لأجْل أنْ منعوكم من الوصولِ إلى المسجِدِ الحرام؛ فإنَّ العبدَ عليه أن يلتزمَ أمْرَ الله تعالى، ويَسلُكَ طريقَ العَدْلِ، ولو اعتُدِيَ عليه[1].

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾.

أي: ولْيُعِنْ بعضُكم بعضًا- أيُّها المؤمنون- على فِعْل الطَّاعاتِ، وتَرْكِ المحرَّمات[2].

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

أي: ولا يُعِنْ بعضُكم بعضًا- أيها المؤمنونَ- على اقترافِ المعاصي، وارْتِكابِ الظُّلم، والاعتداءِ على حقوقِ الخَلْق[3].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤-٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢١-٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢-١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٣).

أي: وامْتَثِلوا ما أمَرَكم اللهُ تعالى به واجتنِبوا ما نهاكم عنه؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذو عِقابٍ شديدٍ على مَن عصاه، وتجرَّأ على محارمِه[١].

الفوائِد التربويَّة:

١- تصدير الآية بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يدلُّ على فضيلةِ الإيمانِ، وأهميَّة ما يُذكر بعدَ هذا النِّداء، وأنَّه مِن مُقتَضَياتِ الإيمانِ؛ تصديقًا به إنْ كان خبرًا، وعملًا به إنْ كان طَلَبًا، وأنَّ مخالفةَ ذلك نقصٌ في الإيمانِ، وامتثاله يَزيد به الإيمانُ، وفيه إغراءٌ للمخاطَبِ ؛ لأنَّ قولَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كأنَّه يخاطِبُهم بقوله: إنَّ إيمانَكم يحمِلُكم على أنْ تفعلوا كذا وكذا، وأن تتركوا كذا وكذا، حسَبَ السِّياقِ[٢].

٢- وُجوبُ الوفاءِ بالعقود؛ لقوله: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾؛ لأنَّ الأصلَ في الأمرِ أنَّه للوجوبِ لا سيَّما إذا كان متعلِّقًا بحقِّ الآخَرينَ، والعَقْدُ متعلِّقٌ بحقِّ الآخرين؛ لأنَّه إبرامُ شيءٍ بينك وبين الآخر[٣].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ فيه التنبيهُ على الانقيادِ لله تعالى في جميعِ تكاليفِه وأوامِرِه ونواهيه، فلا يُسألُ عن تَخصيصٍ ولا عن تفضيلٍ، ولا غيرِه[٤].

٤- الإشارةُ إلى أنَّه لا يحلُّ للإنسانِ أن يعترضَ على الأحكامِ الشرعيَّةِ؛ وجهُ ذلك: أنَّ الله تعالى ختَمَها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، وذلك بعدَ أنْ ذكَرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة المائدة)) (١/ ٦، ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة المائدة)) (١/ ١١)

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٥١).

أنواعًا من الأحكامِ[١].

٥- الإرشادُ إلى احترامِ أعظمِ المكانِ: الحَرَم، وأكْرَمِ الزَّمان: الشَّهرِ الحرامِ، وما لابَسَهما؛ قال الله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾[٢].

٦- تعظيمُ الشَّعائرِ؛ لأنَّ اللهَ أضافها إلى نفْسِه، في قوله: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، والمضافُ يَشرُف ويَعظُمُ بحسَبِ المضافِ إليه[٣].

٧- جمَع بين التَّحْليَةِ والتَّخلِيَة في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾؛ إذ إنَّ التَّعاوُنَ على البِرِّ والتقوى مِن أركانِ الهدايةِ الاجتماعيَّةِ في القرآن؛ لأنَّه يُوجِبُ على النَّاسِ إيجابًا دِينيًّا أن يُعِينَ بعضُهم بعضًا على كلِّ عملٍ من أعمالِ البرِّ التي تنفَعُ النَّاسَ أفرادًا وأقوامًا في دِينهم ودُنياهم، وكلِّ عَملٍ من أعمالِ التقوى التي يدفعونَ بها المفاسِدَ والمضارَّ عن أنفُسِهم، فجَمَعَ بذلك بين التحلِيَة والتخْلِيَة، ولكنَّه قدَّم التحلِيَة بالبرِّ، وأكَّدَ هذا الأمْرَ بالنَّهيِ عن ضدِّه؛ وهو التعاونُ على الإثمِ بالمعاصي وكلِّ ما يعوقُ عن البرِّ والخيرِ، وعلى العُدوانِ الذي يُغْري الناسَ بعضَهم ببعضٍ، ويجعلُهم أعداءً متباغِضينَ يتربَّصُ بعضُهم الدوائِرَ ببعضٍ[٤].

٨- نَدَبَ اللهُ سبحانَه إلى التَّعاونِ على البِرِّ، وقَرَنَه بالتَّقوى له، فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾؛ لأنَّ في التَّقوى رِضا اللهِ تعالى، وفي البِرِّ رِضا النَّاسِ، ومَن جَمَعَ بين رِضا الله تعالى ورِضا النَّاسِ؛ فقد تمَّتْ سَعادَتُه، وعَمَّتْ نِعمَتُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة المائدة)) (١/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٠٨).

(٥) ينظر: ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٧).

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائفُ:

١- وجوبُ الوفاءِ بالشُّروطِ المشترَطَةِ في العقدِ، فإذا عقَدَ رجلانِ بينهما عقدَ بيعٍ أو غيره، واشترطَا شروطًا، فالأصلُ وجوبُ الوفاءِ بالشُّروط؛ وذلك لأنَّ قولَه: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ يشمَلُ الوفاءَ بالعقدِ نفْسِه، وبأوصافِه التي هي شروطُه، فإذا اشترَطَ المتعاقدانِ شرطًا، وحصَل نِزاعٌ في هذا الشَّرطِ، فالصوابُ أنَّ هذا الشرطَ يصحُّ حتى يُقيمَ المانِعُ دليلًا على المنعِ[١].

٢- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ أنَّ جميعَ العقودِ حلالٌ؛ وجهُ ذلك: أنَّ اللهَ أمَرَ بالوفاءِ بها، واللهُ تعالى لا يأمُرُ بالوفاءِ بالفحشاءِ أبدًا، ولكنَّ هذا ليس على عمومِه؛ إذ يُستثْنَى منها ما حَرَّمه الشَّرعُ؛ كبيعِ الغَرَر، والبيعِ بالرِّبا، والقِمارِ، وما أشْبَهَ ذلك[٢].

٣- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ أنَّ العقودَ تنعقِدُ بما دلَّ عليها مِن قولٍ أو فِعلٍ، بلفظٍ أو إشارةٍ أو كتابةٍ؛ وجْهُ ذلك أنَّ الله جلَّ وعلا أطلَقَ العقدَ، فكلُّ ما كان عقْدًا بين النَّاسِ فهو عقْدٌ[٣].

٤- قوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ مُجمَلٌ؛ لأنَّ الإحْلالَ إنَّما يُضافُ إلى الأفعالِ، وهاهنا أُضيفَ إلى الذَّاتِ، فتعذَّر إجراؤُه على ظاهِرِه؛ فلا بُدَّ من إضمارِ فِعلٍ، وليس إضمارُ الأفعالِ أَوْلى من بعضٍ، فيَحتمِل أن يكون المرادُ إحلالَ الانتفاعِ بجِلْدِها، أو بعَظْمها، أو صُوفِها، أو لَحْمِها، أو المرادُ إحلالَ الانتفاعِ بالأكْلِ، فصارتِ الآيةُ مُجملةً، إلَّا أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] دلَّ على أنَّ المرادَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة المائدة)) (١/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة المائدة)) (١/ ١١-١٢).

بِقَوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ إباحةُ الانتفاعِ مِن كلِّ هذه الوجوهِ، والله أعلم[١].

٥- قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ فيه تعظيمُ الإحرامِ، وأنَّه يحرُمُ على المُحْرِم الصَّيدُ[٢].

٦- تحريُم إحلالِ الشَّهرِ الحرامِ بالقتالِ، وكذلك أيضًا بالمعاصي؛ فإنَّها في هذه الأشهرِ الحُرُم أعظمُ من المعاصي في غيرها، قال تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾[٣].

٧- احترامُ الهَدي وتحريمُ إحلالِه؛ لقوله: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾[٤].

٨- في قوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ حثٌّ على احترامِ الحُجَّاجِ والعُمَّارِ، وهذا يُفيدُ أنَّ العُدوانَ عليهم أشدُّ مِنَ العُدوانِ على غَيرِهم[٥].

٩- الإشارةُ إلى مِنَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ على هؤلاءِ الذين قَصَدوا البيتَ الحرامَ؛ وجْهُ ذلك أنَّ إضافةَ الربوبيَّةِ إليهم في قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ دليلٌ على عنايَتِه تبارك وتعالى بهم، ومن ذلك أنْ وفَّقَهم للحضورِ إلى المسجِدِ الحرامِ، فالربوبيَّة نوعان: عامَّة، وخاصَّة، وإليهما الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١- ١٢٢]، فقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ربوبيَّة عامَّة، وقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ربوبيَّة خاصَّة[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة المائدة)) (١/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة المائدة)) (١/ ٢٨).

١٠- إثباتُ حُرْمة المسجِدِ الحرام؛ لقوله: ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، أي: ذي الحرمةِ والتعظيمِ، وهو أوَّلُ بيتٍ وُضِع للنَّاس ليتعبَّدوا الله فيه[١].

بلاغَةُ الآيتين:

١- **قوْلُه تعالى:** ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾: فيه تعريفُ (العقود) تعريفَ الجِنس؛ للاستغراقِ؛ فشَمِلَ العقودَ التي عاقَد المسلمونَ عليها ربَّهم، وشَمِل العقودَ التي عاقد المسلمون عليها المشركينَ، ويشمَلُ العقودَ التي يتعاقَدُها المسلمونَ بينهم[٢].

٢- **قوله:** ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ تمهيدٌ لِمَا سَيرِدُ بَعدَها من المنهيَّات: كقولِه: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾، وفي الابتداءِ بذِكرِ بَعضِ المباحِ امتنانٌ وتأنيسٌ للمُسلِمين؛ ليتلقَّوا التكاليفَ بنفوسٍ مُطمئِنَّةٍ؛ فهي جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لأنَّها تصديرٌ للكلام بعد عنوانِه، وهو قوله تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾[٣].

- وإضافة البهيمة إلى الأنعامِ للبيانِ مِن إضافةِ العامِّ للخاصِّ، وهي الإضافةُ التي بمعنى «مِن»، ومعناه: البَهيمةُ مِن الأنعام، وفائدتُها: الإشعارُ بعِلَّة الحُكم المشترَكة بين المضافينِ؛ كأنَّه قيل: أُحلَّت لكم البهيمةُ الشَّبيهةُ بالأنعامِ التي بُيِّن إحلالُها فيما سبَق، المماثِلَةُ لها في مَناطِ الحُكم[٤].

- وفي آية أخرى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [الحج: ٣٠]، فالفائدةُ في زِيادة لفظ (البهيمة) في هذه الآية: التأكيدُ؛ إذ المرادُ بالبهيمة وبالأنعام شيءٌ واحد[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢، ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٧٧- ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٧).

- وتقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ على القائمِ مقام الفاعلِ ﴿بَهِيمَةُ﴾؛ لإظهارِ العناية بالمقدَّم؛ لِمَا فيه من تَعجيلِ المسرَّةِ والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ، فإنَّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّرَ تبقى النَّفسُ مترَقِّبةً إلى ورودِه، فيتمكَّن عندها تَمكُّنًا زائدًا[١].

٣- قوله: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ فيه: النَّهيُ عن إحلالِها؛ مبالغةً في النهيِ عن التعرُّضِ للهَدْي[٢]، فلمَّا حرَّم الصيدَ على المُحرِم في الآية الأولى أكَّد ذلك بالنَّهي في هذه الآيةِ عن مخالفةِ تكاليفِ اللهِ تعالى[٣].

- وإضافة قوله: ﴿شَعَـٰٓئِرَ﴾ إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لتشريفِها، وتهويلِ الخَطْب في إحلالِها[٤].

- وقوله: ﴿وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾: عُطِفَت ذواتُ القلائِد مِن الهَدْي على الهَدْيِ؛ مبالغةً في التوصيةِ بها؛ لأنَّها أشرفُ الهَدْيِ، ويُحتَمَل أن يكون النَّهيُ عن التعرُّضِ لنفْسِ قَلائِدِ الهَدي؛ مبالغةً في النَّهيِ عن التعرُّضِ للهَدْي، على معنى: لا تُحِلُّوا قلائِدَها، فضلًا عن أن تُحِلُّوها[٥].

٤- قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ فيه: تنكيرُ قوله: ﴿فَضْلًا﴾، و﴿وَرِضْوَٰنًا﴾؛ للتفخيمِ، وإضافةُ الربِّ إلى ضميرِ الآمِّينَ في قوله: ﴿رَّبِّهِمْ﴾؛ للإيماءِ إلى اقتصارِ التشريف عليهم، وحرمانِ المخاطَبين عنه، وعن نَيْلِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٨٢).

المبتغَى، وفي ذلك من تعليلِ النَّهيِ وتأكيدِه، والمبالغةِ في استنكارِ المنهيِّ عنه؛ ما لا يَخفَى[١].

٥- **قوله**: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ **فيه**: تصريحٌ بمفهومِ قَولِه: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ لقَصْدِ تأكيدِ الإباحةِ[٢].

٦- قوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ فيه: تأكيدٌ لمضمون قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ لأنَّ الأمرَ بالشيءِ وإنْ كان يتضمَّن النهيَ عن ضدِّه، فالاهتمامُ بحُكم الضدِّ يَقتضي النهيَ عنه بخصوصِه[٣].

٧- قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ كرَّر الأمْر بالتقوى مُطلقةً فيه، وإنْ كان قد أمَر بها في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ تأكيدًا لأمْرِها، وإشارةً إلى أنَّها الحاملةُ على كلِّ خيرٍ[٤].

٨- قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فيه: تعريضٌ بالتَّهديدِ والوعيدِ[٥]، مع ما فيه من تأكيدِ الخبرِ بـ (إنَّ)، واسميَّةِ الجملةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٨٨).

الآية (٣)

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾: أي: رُفِع فيه الصَّوتُ بتسميَةِ غيرِ الله، أو ما ذُبِحَ لغيرِ الله، وأصْل (هلل): يَدلُّ على رفْعِ صوتٍ، ومنه قولهم: أهلَّ بالحجِّ: رفَع صوتَه بالتَّلبيَةِ[١].

﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ﴾: التي تموتُ خنقًا، وهو حبسُ النَّفَس، سواءٌ فعَل بها ذلك آدميٌّ، أو اتَّفق لها ذلك في حَجَرٍ أو شجرةٍ أو بحبلٍ أو نحوه، وأصل (خنق): يدلُّ على ضِيق[٢].

﴿وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾: المقتولةُ بالضَّربِ، والوَقْذ: الإيلامُ بالضَّرْب، وأصْل (وقذ): يدلُّ على ضربٍ بخَشَب[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)،

﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾: الواقعةُ من جَبَلٍ أو حائطٍ، أو في بِئر؛ يُقال: تردَّى: إذا سقَط، وأصله يدلُّ على رمْيٍ أو ترامٍ، وما أشبهَ ذلك[١].

﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾: المنطوحةُ التي نطحتْها شاةٌ أو بقرةٌ فماتتْ[٢].

﴿ذَكَّيْتُمْ﴾: ذبَحتُم، فقطعْتُم أوداجَه، وأنهَرْتم دمَه، وذكرتُم اسمَ الله تعالى إذا ذبَحْتُموه، وأصلُ الذَّكاة: تمامُ الشَّيْء[٣].

﴿ٱلنُّصُبِ﴾: الحَجَر، أو الصَّنَم الذي يَذبحونَ عنده، أو يُنصَب للعبادةِ، وجمْعُه أنصابٌ، وقيل: النُّصُب جمعٌ مفردُه نَصِيبٌ، وأصلُ (نصب): يدلُّ على إقامةِ شيءٍ، وإهدافٍ في استواءٍ[٤].

﴿تَسْتَقْسِمُوا۟﴾: تطلُبوا عِلمَ ما قُسِمَ لكم، والاستقسامُ بها: أن يُضربَ بها، ثم يُعمَلَ بما يَخْرُجُ فيها من أمْرٍ أو نهيٍ، وأُخِذ الاستقسامُ من القَسْم، وهو النَّصيبُ، كأنَّه طَلَبُ النَّصيبِ[٥].

((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧) ، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠) و(ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((تذكرة

﴿بِٱلۡأَزۡلَٰمِ﴾: جمْعُ زَلَم وزُلَم، وهي القِداحُ التي كانوا يَضربونَ بها على المَيسرِ ويَستَقْسِمون بها، أو هي سِهامُ العربِ، وأصل (زلم): يدلُّ على نحافةٍ ودِقَّةٍ في مَلاسةٍ[١].

﴿فِسۡقٌ﴾: خروجٌ عن حدودِ الشَّرع؛ من قولهم: فَسَق الرُّطَب، إذا خرَج عن قِشْرِه، والفُسُوق: الخروجُ من الطاعة إلى المعصِيَة، والخروجُ من الإيمانِ إلى الكُفرِ[٢].

﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾: فلا تَخافوهم، والخَشْيةُ: أكثرُ ما تكونُ عن عِلمٍ بما يُخشَى منه، وقيل: هي خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأصل خَشِيَ: فواتٌ بالكليَّةِ يدلُّ على خوفٍ وذُعْرٍ[٣].

﴿مَخۡمَصَةٍ﴾: أي: مجاعةٍ؛ مُشتقَّةٌ من خَمْصِ البَطن، أي: ضُمورِه، وأصلُ (خمص): يدلُّ على الضُّمْرِ والتَّطامُنِ[٤].

﴿مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾: مُنحرِفٍ، مائلٍ إلى ذلك متعمِّدًا، بأنْ يأكُلَ بعدَ زوالِ الضَّرورة، أو يأكُلَ فوقَ الشِّبَع، وأصلُ الجنف: الميلُ ميلًا ظاهِرًا، والعدولُ عن

الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦، ٨١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

الحقِّ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّن اللهُ تعالى لعبادِه المؤمنين أنَّه حرَّم عليهم أكْلَ ما مات من الحيوانِ دون ذَكاةٍ ولا اصطيادٍ، وحرَّم عليهم أكْلَ الدَّمِ المسفوحِ، ولحمِ الخنزيرِ، وأكْلَ ما ذُكِرَ عليه غيرُ اسمِ الله عند ذَبْحه، ثم ذَكَر سبحانه أنواعًا أُخرى مِن المحرَّمات: وهي ما يموت بالاختناقِ من البَهائم، وما ضُرِبَ بشيءٍ ثقيلٍ غيرِ محدَّدٍ حتى مات، والبهيمةُ التي تتردَّى من مكانٍ عالٍ فتموت نتيجةَ سقوطِها، والتي ماتتْ بسبب نطْحِ غيرِها لها، والتي عدَا عليها سَبُعٌ- كأسدٍ أو ذئبٍ وغيرهما- فماتتْ بذلك، إلَّا ما أمكَنَ تدارُكُه بالذَّكاةِ مِن هذه الأنواعِ، وكانت فيه حياةٌ، فإنَّه يجوز أكْلُه، كما حَرَّم عليهم سبحانه وتعالى ما ذُبِحَ عند الأوثان تقرُّبًا لها، وحرَّم عليهم أن يَطلُبوا عِلمَ ما قُسِمَ لهم، باستخدامِ الأقداحِ؛ كما يَفعل أهلُ الجاهليَّة، فإنَّ كلَّ ما سبق ممَّا حرَّمه الله خروجٌ عن طاعة الله إلى معصيته، ثم أخبرَ تعالى أنَّ الكفَّار انقطعَ طمعُهم من أن يرتدَّ المؤمنونَ عن دِينهم يوم عرفةَ في حجَّةِ الوداعِ؛ يومَ نَزَلَت هذه الآيةُ؛ فلا يَنبغي للمسلمينَ أن يخافوهم، بل عليهم أن يخافوا اللهَ تعالى؛ فهو في هذا اليومِ أكْمَلَ للمؤمنين دِينَهم، وأَتَمَّ عليهم نِعمتَه، ورَضِيَ لهم دِينَ الإسلام دينًا يتقرَّبون به إلى الله، فمَن ألجأتْه الضرورةُ إلى أكْل شيءٍ من المحرَّماتِ التي ذَكَرَها الله في الآية، غيرَ مُريدٍ للحرامِ، فله تناوُلُ ما يدفع حاجتَه، واللهُ غفورٌ رحيمٌ.

تفسيرُ الآيةِ:

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٤٨٦)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٢٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٠٢، ١٤٨).

وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قال تعالى في أوَّل السُّورةِ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ثم ذكَر فيه استثناءَ أشياءَ تُتلَى عليهم في قَوْلِه: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾- ذَكَر هنا تلك الصُّورَ المستثناةَ من ذلك العمومِ[1]، فقال:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾.

أي: حرَّم اللهُ تعالى عليكم- أيُّها المؤمنونَ- أكْلَ المَيْتَة، وهي: ما مات مِن الحيوان حتْفَ أنفِه، من غير ذكاةٍ شرعيَّة، ولا اصطيادٍ[2].

﴿وَٱلدَّمُ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا أكْلَ الدَّمِ المسفوحِ[3]، كالذي يخرُج عند الذَّكاةِ، أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣-٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩-٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٥).
ويُستثنى من الميتات الجراد والسمك. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧).
قال ابن جرير: (فأمَّا ما كان قد صارَ في معنى اللَّحْمِ كالكَبِدِ والطِّحال، وما كان في اللَّحمِ غير مُنسفِح؛ فإنَّ ذلك غيرُ حرامٍ؛ لإجماعِ الجميعِ على ذلك) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤).

يخرج عند فصْد العِرْقِ، وما أشبهَ ذلك[١].

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥].

﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أكْلَ الخِنزيرِ؛ إنسيِّه ووحشيِّه، وظاهِره وباطنِه؛ فجميعُ أجزائِه مُحرَّمٌ أَكْلُها[٢].

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا أكْلَ ما ذُبِحَ فذُكر عليه غيرُ اسمِ الله عزَّ وجلَّ[٣].

﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا أكْلَ ما يموتُ بالخَنقِ، سواءٌ بنفسها؛ كإدخالِها رأسَها في شيءٍ ضيِّقٍ، فتعجِز عن إخراجِه حتى تموتَ، أو بخنْقِ غيرِها لها[٤].

﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا أكْلَ الموقوذةِ، وهي التي تُضرَب بشَيءٍ ثقيلٍ غير

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤-٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧-٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٨).

قال ابنُ عطية: (قوله تعالى: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ معناه التي تموتُ خَنقًا، وهو حَبسُ النَّفَس، سواءٌ فَعَل بها ذلِك آدميٌّ، أو اتَّفق لها ذلك في حجرٍ أو شجرةٍ، أو بحبلٍ أو نحوِه، وهذا إجماعٌ)) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٥٠).

محدَّدٍ حتى تموتَ، كالتي تُضرَب بعصًا، أو حصًى، أو خَشبةٍ[١].

عن عَديِّ بن حاتمٍ الطائيِّ رضي الله عنه، قال: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إني أُرسِلُ الكِلابَ المُعلَّمةَ، فيُمْسِكْنَ عليَّ، وأذكرُ اسمَ اللهِ عليه؟ فقال: إذا أرسلتَ كلبَك المُعلَّمَ، وذكَرْتَ اسمَ اللهِ عليه، فكُلْ، قلتُ: وإنْ قتلْنَ؟ قال: وإنْ قتلْنَ! ما لم يَشرَكْها كلبٌ ليس معها، قلتُ له: فإنِّي أَرْمي بالمِعراضِ[٢] الصَّيدَ، فأصيبُ؟ فقال: إذا رَميتَ بالمعراضِ فخَرَق، فكُلْهُ، وإنْ أصابَه بعَرْضِه، فلا تأكُلْه))[٣].

﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا أكْلَ المتردِّيَة، وهي التي تَسقُط من موضعٍ عالٍ فتموتُ بذلك[٤].

﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا أكْلَ المنطوحةِ، وهي التي ماتتْ بسبب نَطْحِ غيرِها لها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٨).

(٢) المِعْراض- بكسر الميم-: سهمٌ بلا رِيش ولا نَصْل، وإنَّما يُصيب بعَرضِه دون حَدِّه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢١٥).

(٣) رواه مسلم (١٩٢٩).
قال ابنُ كثير: (ففرَّق بين ما أصابه بالسَّهم، أو بالْمِزْراق [الرمح الصَّغير] ونحوِه بحَدِّه فأحلَّه، وما أصابَه بعُرْضِه فجعله وقيذًا فلم يُحلَّه، وقد أجمعَ الفقهاءُ على هذا الحُكم هاهنا) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩-٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٨-٣٩).

﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا أكْلَ التي عَدَا عليها سَبُعٌ، كالأسدِ أو الفهد أو النَّمِر وغيرها، فأكَلَ بعضَها فماتتْ بذلك[١].

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

أي: إنَ أمكنَ تَداركُ المُنخَنِقةِ والموقوذةِ والمتردِّيةِ والنَّطيحةِ وما أكَلَ السَّبعُ- إنْ أمكن تَداركُها بذَكاةٍ شرعيَّة، وفيها حياةٌ مستقرَّة؛ فإنَّه يحِلُّ أكلُها[٢].

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا أكلَ ما ذُبِحَ عند الأوثانِ تقربًا لها[٣].

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾.

أي: وحرَّم عليكم- أيُّها المؤمنون- الاستقسامَ بالأزلامِ، وقد كانتِ العربُ في جاهليَّتِها يَتعاطَون ذلك، وهي عبارةٌ عن قِداحٍ ثلاثة، مكتوبٌ على أحدها: «افْعَلْ»، وعلى الآخر: «لا تفعَلْ»، والثالث ليس عليه شيءٌ. وقِيل: كان يُكتَب على الواحِدِ منها: «أَمَرني ربِّي»، وعلى الآخر: «نَهاني ربي»، والثالث ليس عليه شيء، فإذا أجالَها فطَلَع السَّهمُ الآمِرُ فَعَلَه، أو الناهي ترَكَه، وإنْ طلع الفارغُ أعاد الاستقسامَ، حتى يخرجَ أحدُ القَدَحين الآخَرين فيعمل به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٧-٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٩-٤٠).
وأَدْخَل ابنُ جرير فيها: ما أُهلَّ لغير الله تعالى به. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٧-٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٩-٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص:

﴿ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌ﴾.

أي: إنَّ سائرَ الأمورِ التي حرَّمها الله تعالى في هذه الآية- كأكْلِ المَيْتَة والدَّمِ ولحمِ الخنزير، والاستقسامِ بالأزلام، وغيرِ ذلك- خروجٌ عن طاعةِ الله تعالى إلى مَعصِيَته[١].

﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾.

أي: الآنَ (والمرادُ باليومِ يومُ عَرفَةَ في حَجَّةِ الوداعِ) انقطَع طمَعُ الكفَّار والمشركينَ من أن ترتدُّوا عن دِينِكم- أيُّها المؤمنون[٢].

﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ﴾.

أي: فلا تَخافُوا من المشركين، وخافوني[٣].

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾.

أي: اليومَ (وهو يومُ عَرفةَ في حَجَّةِ الوداعِ) أكملتُ لكم دِينَ الإسلامِ- أيُّها المؤمنونَ[٤].

---

٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١-٤٢).

قال ابنُ كثير: (قد أمَر الله المؤمنين إذا تردَّدوا في أمورهم أن يستخيروه بأنْ يَعبُدوه، ثم يسألوه الخِيرَة في الأمْر الذي يُريدونه) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥).

وقال السعديُّ: (فحرَّمه الله عليهم، الذي في هذه الصورة وما يُشبهه، وعوَّضهم عنه بالاستخارة لربِّهم في جميع أمورهم) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢-٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠).

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾.

أي: وأتممْتُ عليكم نِعمتي- أيُّها المؤمنون- بإظهارِكم على المشركينَ، ونفْيِي إيَّاهم عن بلادِكم، وقطعي طمَعَهم في عودِكم إلى الشِّركِ، وإكمالِ دِينِكم(١).

قال ابنُ جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أخبرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ به؛ أنَّه أكمَلُ لهم- يومَ أنزَلَ هذه الآيةَ على نبيِّه- دينَهم، بإفرادِهم بالبَلَدِ الحَرام، وإجلائِه عنه المشركينَ، حتى حجَّه المسلمونَ دونهم، لا يُخالِطُهم المشركونَ، فأمَّا الفرائِضُ والأحكامُ، فإنَّه قد اختُلِفَ فيها، هل كانت أُكمِلَت ذلك اليومَ أم لا؟ ... ولا يدفَعُ ذو عِلمٍ أنَّ الوَحيَ لم ينقطِعْ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى أن قُبِضَ، بل كان الوحيُ قبل وفاتِه أكثَرَ ما كان تتابُعًا، فإذا كان ذلك كذلك، وكان قولُه: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] آخِرَها نزولًا، وكان ذلك من الأحكامِ والفرائِضِ- كان معلومًا أنَّ معنى قولِه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] على خلافِ الوَجهِ الذي تأوَّلَه مَن تأوَّلَه؛ أعني: كمالَ العباداتِ والأحكامِ والفرائِضِ) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٨٢).

وقال ابنُ عَطيَّة: (وهذا الإكمالُ عندَ الجمهورِ، هو الإظهارُ واستيعابُ عُظْمِ الفرائض والتَّحليلِ والتَّحريم. قالوا: وقد نزَل بعدَ ذلك قرآنٌ كثيرٌ، ونزلتْ آية الرِّبا، ونزلت آيةُ الكلالة إلى غير ذلك، وإنَّما كَمَّل عُظْمَ الدِّين، وأمْرَ الحجِّ أنْ حجُّوا وليس معهم مشركٌ) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٥٤).

وقال ابنُ رجب: (إكمال الدِّين في ذلك اليومِ حَصَل من وجوه؛ منها: أنَّ المسلمين لم يكونوا حجُّوا حَجَّةَ الإسلام بعد فَرْض الحجِّ قبل ذلك، ولا أحدٌ منهم، هذا قول أكثرِ العلماء أو كثيرٍ منهم، فكمَّل بذلك دِينَهم؛ لاستكمالهم عملَ أركان الإسلام كلها. ومنها: أنَّ الله تعالى أعاد الحجَّ على قواعد إبراهيم عليه السلام، ونفَى الشركَ وأهلَه، فلم يختلطْ بالمسلمين في ذلك الموقفِ منهم أحدٌ) ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٧٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٠٣-١٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٤).

قال ابنُ رجب: (وأمَّا إتمام النِّعمة فإنما حصَل بالمغفرة، فلا تتمُّ النعمة بدونها، كما قال لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]، وقال تعالى في آية الوضوء: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، ومن هنا استنبط مُحمَّدُ بن كعبٍ القرظيُّ بأنَّ الوضوء يُكفِّر الذنوب، كما وردتِ السُّنة بذلك صريحًا، ويشهد له أيضًا أنَّ النبي صلَّى الله عليه وسلَّمَ سمع رجلًا

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

أي: واخترتُ واصطفيتُ لكم الإسلامَ دينًا، فكما ارتضيتُه لكم؛ فارْضَوْه أنتم لأنفُسِكم، وقوموا به والْزموه، ولا تتَّخذوا دِينًا سواه[١].

عن طارِقِ بنِ شِهابٍ، قال: (جاء رجلٌ مِن اليهودِ إلى عُمرَ، فقال: يا أميرَ المُؤْمِنِينَ؛ آيةٌ في كِتابِكم تَقْرَؤونَها، لو علينا نَزَلتْ- مَعْشرَ اليهودِ- لَاتَّخَذْنا ذلك اليومَ عِيدًا، قال: وأيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فقال عُمرُ: إنِّي لَأعْلَمُ اليومَ الَّذي نَزَلَتْ فيه، والمكانَ الَّذي نزلَتْ فيه، نزلَتْ على رسُولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم بعَرفاتٍ في يومِ جُمُعَةٍ)[٢].

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾.

أي: فمَن ألجأتْه الضرورةُ لأكْلِ شيءٍ من هذه المحرَّماتِ، التي ذَكَرها اللهُ تعالى في هذه الآيةِ[٣].

﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾.

أي: غيرَ مُريدٍ لهذه المحرَّماتِ؛ بألَّا يأكُلَ حتى يُضطَرَّ، ولا يَزيدَ في الأكْلِ

يدعو ويقول: اللهمَّ إنِّي أسالك تمامَ النِّعمة، فقال له: «تمامُ النِّعمة: النجاة من النار، ودخولُ الجنة»، فهذه الآية تَشهَد لِمَا رُوي في يوم عرفةَ أنَّه يوم المغفرة والعِتق من النار) ((لطائف المعارف)) (٢٧٩-٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٨٤-٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٩١-٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠-٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٤-٤٥).

على كِفايتِه[١].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: فله تناولُ ذلك، واللهُ غفورٌ له؛ لأنَّه تعالى يعلَمُ حاجةَ عبْدِه المضطرِّ، وافتقارَه إلى ذلك؛ فيتجاوزُ عن أكْلِ ما حرَّمَه، ورحيمٌ به حيثُ أباحَ له الأكْلَ في هذه الحالِ[٢].

الفوائِد التربويَّة:

١- عِظَم خَطر الشِّرك، وأنَّه يؤثِّرُ حتى في الذبائح؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[٣].

٢- تأثيرُ النيَّة في العملِ؛ لقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ أي: للأصنامِ؛ فإنَّه يكون حرامًا حتى ولو ذُكِرَ اسمُ الله عليه؛ وذلك لتأثير النيَّة، وأنَّ النيَّةَ تؤثِّرُ حتى في حِلِّ الشيءِ وتحريمِه، وكذلك في قوله: ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾[٤].

٣- تحريمُ خَشية الكفَّارِ التي يترتَّب عليها المُداهنةُ في دِينِ الله؛ لقوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ﴾[٥].

٤- التَّحريضُ بأكملِ ما يكونُ على التمسُّكِ بما شرَعَ اللهُ تعالى، وذلك في قولِه سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾؛ لأنَّه قد حصَل لهم اليأسُ مِن دينِكم؛ فإذا صارَ الأمرُ كذلك فيجبُ عليكم ألَّا تَلْتَفِتوا إليهم وألَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٩٣-٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٨، ٥٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٠).

تخافوهم، وأنْ تُقبِلوا على طاعةِ الله عزَّ وجلَّ، والعملِ بشَرائعِه[١].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- قَدْ حرَّم الله الاستقسامَ بالأزلامِ في قوله: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾؛ لأنَّه من الخُرافاتِ والأوهامِ التي لا يَركَنُ إليها إلَّا مَن كان ضعيفَ العقل؛ يَفعلُ ما يَفعلُ من غير بيِّنةٍ ولا بصيرةٍ، ويترُك ما يترُك عن غير بيِّنةٍ ولا بصيرةٍ، ويَجعل نفْسَه أُلعوبةً للكَهَنَة والسَّدَنَة، ويتفاءل ويتشاءم بما لا فأْلَ فيه ولا شُؤْم، فلا غَرْوَ أنْ يُبطِلَ ذلك دِينُ العقْلِ والبصيرة والبرهان، كما أَبطَلَ التطيُّرَ[٢]، والكِهانةَ[٣]، والعِيافةَ[٤]، والعِرافة[٥]، وسائرَ خُرافات الجاهليَّة، ولا يَليق ذلك كلُّه إلَّا بجهلِ الوثنيَّةِ وأوهامِها[٦].

٢- قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ المشارُ إليه كلُّ ما سبَق؛ لأنَّ القاعدةَ: أنَّه إذا أمكن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٨٦).

(٢) التطيُّر: التشاؤم بالشَّيءِ، مِن الطِّيَرة- بكسر الطاء وفتح الياء، وقد تسكن-، وأصلُه: الشيءُ المكروه من قولٍ أو فعلٍ أو مرئيٍّ، وكانوا يَتطيَّرون فيُنفِّرون الظِّباء والطيور، فإنْ أخذت ذاتَ اليمين تبرَّكوا به ومضَوا في سفرهم وحوائجهم، وإنْ أخذت ذاتَ الشمال رجَعُوا عن حاجتهم وسفرهم وتشاءَموا به، فكانت تصدُّهم في كثيرٍ من الأوقات عن مصالحهم، فنَفى الشرع ذلك وأبطَلَه، ونهى عنه، وأخبر أنه ليس له تأثيرٌ بِنَفْعٍ ولا ضُرٍّ. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٢١٨)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٥٢).

(٣) الكَهَانة- بفَتْح الكاف، ويجوز كسرها-: ادِّعاءُ عِلم الغيب، كالإخبارِ بما سيقع في الأرض مع الاستنادِ إلى سببٍ. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢١٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٦/ ٨١).

(٤) العِيافة: زجْر الطير، والتَّفَاؤُل بأسْمائِها وأصْواتها ومَمرِّها. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٣٠)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٤٠)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٤/ ١٩٦).

(٥) العرافة: مِهنة العرَّاف، وهو الذي يستدلُّ على الأمورِ بأسبابٍ ومُقدِّمات يَدَّعي معرفتَها بها، أو مَن يستخرجُ الوقوفَ على المغيَّبات بضربٍ مِن فعلٍ أو قول. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٢٢٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢١٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٢٤).

أن يعودَ اسمُ الإشارةِ أو الضَّميرُ إلى كلِّ ما سبَق، حُمِلَ عليه[١].

٣- قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ الفرق بين الخَشْيَةِ والخوف: أنَّ الخشية تكون عن عِلمٍ، والخوف لا يلزم أن يكونَ عن عِلمٍ، كذلك الخشيةُ تكون مِن عِظَمِ الْمَخْشِيِّ، وإنْ كان الخاشي قويًّا، لكنَّ الْمَخْشِيَّ يكون أقوى منه، والخوف لا يدلُّ على عِظَمِ الْمَخُوفِ، وإنَّما يدلُّ على ضَعْفِ الخائِفِ أمامَ مَن يَخاف منه وإنْ لم يكن قويًّا، وهذا فرقٌ واضِحٌ؛ فالطِّفل الذي له أربعُ سَنواتٍ يَخاف من الطِّفلِ الذي له ثمانِي سنواتٍ، مع أنَّ الثاني ضعيفٌ، لكنَّ الذي يَخشى مِن مَلِك أو صاحبِ سلطانٍ قويٍّ، هذا يُـقال: إنَّه خاشٍ[٢].

٤- قوْلُه تعالى: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ المرادُ من الدِّين دِينُ الإسلامِ، وإضافتُه إلى ضَميرِ المسلمين؛ لتشريفِهم بذلك[٣]، وليَفْخروا ويعتزُّوا بتمسُّكِهم به، ويُدافِعوا عنه[٤].

٥- بيانُ نِعمة الله على هذه الأمَّة- وله الحمدُ والمِنَّة- بإكمالِ الدِّين؛ لقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فهذه أكبَرُ نِعَمِ اللهِ عزَّ وجلَّ على هذه الأمَّةِ؛ حيث أكمَلَ تعالى لهم دينَهم، فلا يحتاجونَ إلى دينٍ غَيرِه، ولا إلى نبيٍّ غيرِ نَبيِّهم- صَلواتُ اللهِ وسلامُه عليه؛ ولهذا جَعَله اللهُ خاتَمَ الأنبياءِ، وبعَثَه إلى الإنسِ والجِنِّ، فلا حلالَ إلَّا ما أحَلَّه، ولا حرامَ إلا ما حَرَّمه، ولا دِينَ إلا ما شَرَعه. وفيه بيانُ شرَفِ ذلك اليوم الذي أُكْمِلَ فيه الدِّينُ؛ لأنَّه لولا ذلك لم يكُن لقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فائدةٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٠).

٦- في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ بيانُ أنَّ الدِّين كاملٌ، فكل مُتكلِّف يزعُمُ أنَّه لا بدَّ للنَّاسِ- في مَعرفةِ عقائدِهم وأحكامِهم - مِن معرفةِ علومٍ غيرِ عِلم الكتابِ والسُّنة، من عِلم الكلامِ وغيره؛ فهو جاهلٌ، مُبطِلٌ في دعواه، قد زعَم أنَّ الدِّين لا يكمُل إلَّا بما قالَه ودعا إليه، وهذا من أعظمِ الظُّلم والتَّجهيلِ لله ولرسولِه[١]، قال الإمامُ مالِكُ بنُ أنسٍ: (مَن أحدَثَ في هذه الأمَّةِ شيئًا لم يكُنْ عليه سَلَفُها؛ فقد زعم أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم خان الرِّسالةَ؛ لأنَّ اللهَ يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾، فما لم يكُنْ يومَئذٍ دِينًا؛ فلا يكونُ اليومَ دِينًا)[٢].

٧- قوْلُه تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ فيه إشارةٌ لى أنَّ نَسْخَ الأحكامِ قد انتهى، وأنَّ هذا الدِّين دينٌ أبديٌّ؛ لأنَّ الشيءَ المختار المدَّخر لا يكونُ إلَّا أَنْفَسَ ما أُظْهِرَ من الأديانِ، والأَنفَسُ لا يُبطِلُه شيءٌ؛ إذ ليس بعده غايةٌ[٣].

٨- أفاد قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ بعد قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ حُكمًا شرعيًّا، وهو أنَّه تعالى غفَر للمضطرِّ الذنبَ بتناوُلِ هذا المحرَّم، ورحمِه بإباحتِه له، فالأحكامِ تؤخَذُ من أسماء الله عزَّ وجلَّ؛ لا سيَّما المتعدِّيَة، فلا بدَّ أن يكونَ لها أثرٌ، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٤] يعني: إذا تاب قُطَّاعُ الطريق قبل القُدرَةِ عليهم سقَطَ عنهم الحدُّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠).

(٢) ينظر: ((الإحكام)) لابن حزم (٦/ ٥٨)، ((الاعتصام)) للشاطبي (١/ ٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٤- ٥٥).

بلاغَةُ الآية:

١- **قوله**: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾: خصَّ المنخنقةَ وما عُطفِ عليها مِن الْمَيتاتِ بالذِّكر- مع كونِها داخلةً في عموم الْمَيتةِ بالمعنى الشَّرعي-؛ لأنَّ بعضَ العربِ في الجاهليَّةِ كانوا يأكلونَها، ولئلَّا يغترَّ أحدٌ باستباحةِ بعضِ أهلِ الجاهليَّةِ لها، ولئلَّا يشتَبِهَ فيها بعضُ النَّاسِ؛ لأنَّ لِمَوتها سببًا معروفًا[١].

٢- **قوْلُه تعالى**: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ... وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ ما ذُبِح على النُّصُبِ جزءٌ مِمَّا أُهِلَّ به لغيرِ اللهِ، لكن خُصَّ بالذِّكر بَعدَ جِنسِه؛ لشُهرةِ الأَمْرِ، وتَعظيمِ النُّفوسِ له[٢]، ولإزالة وَهمِ مَن توهَّم أنه قد يَحِلُّ بقصْدِ تعظيمِ البيتِ الحرامِ إذا لم يُذكَرِ اسمُ غيرِ اللهِ عليه[٣].

٣- **قوله**: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾: اعتراضٌ وقَعَ بين آيةِ المحرَّماتِ المتقدِّمة، وبين آية الرُّخصة الآتية: وهي قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾، وفائدتُه تأكيدُ معنى التحريمِ، وكذلك ما بعده ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ...﴾؛ لأنَّ تحريمَ هذه الخبائِثِ من جُملة الدِّين الكامِلِ والنِّعمةِ التامَّة، والإسلامِ المنعوتِ بالرِّضا دونَ غيرِه من المِلَل[٤].

٤- **قوْلُه تعالى**: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ أفاد مفادَ صِيغةِ الحصر، ولو قيل: (فإيَّاي فاخشون) لجرَى على الأكثر في مقامِ الحَصْر، ولكن عدَل إلى جُملتَي

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١١٤-١١٧-١٢٢).
وكانتِ العرب تعتقد أنَّ هذه الحوادثَ (الخنق والوقذ والتردي والنطح) على المأكول كالذَّكاة، وأنَّ الميتة ما ماتتْ بوجعٍ دون سببٍ يُعرف من هذه الأسباب. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٩٩).

نفيٍ وإثباتٍ؛ لأنَّ مفاد كِلتا الجملتينِ مقصودٌ، فلا يَحْسُن طيُّ إحداهما، وهذا من الدَّواعي الصَّارِفَة عن صيغةِ الحَصْر إلى الإتيان بصِيغتَيْ إثبات ونفي[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٠٢).

الآيتان (٤ - ٥)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٖۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلْجَوَارِحِ﴾: أي: الصَّوائِدِ أو الكَواسِبِ- كالكِلابِ والفُهودِ، والصُّقورِ وأشباهِها- وهي ما صِيدَ به من سِباعِ البَهائِمِ والطَّيرِ، أو كِلابِ الصَّيدِ، وأصلُ الاجتراحِ: الاكتسابُ[١].

﴿مُكَلِّبِينَ﴾: أي: أصحابَ ضَوارٍ وكلابٍ، وَالمُكَلِّبُ: الذي يعلِّم الكلبَ، ويُقال: رجلٌ مُكلِّبٌ وكَلَّابٌ، أي: صاحبُ صيدٍ بالكِلابِ[٢].

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾: ذواتُ الأزواجِ، والمحصناتُ أيضًا: الحرائرُ وإنْ لم يَكُنَّ مزوَّجاتٍ، والعفائفُ، فهي مُحْصَنَة، إما بعفَّتها، أو تزوُّجها، أو بمانِعٍ مِن شَرَفِها وحُرِّيَّتِها، وأصلُ الحِصن: الحِفظُ والحياطةُ والحِرز[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣، ١٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني

﴿مُحْصِنِينَ﴾: أي: متزوِّجين وأعفَّاءَ بالنِّكاحِ، وأصلُ الحِصن: الحِفظُ والحِياطةُ والحِرز[١].

﴿مُسَٰفِحِينَ﴾: جمْعُ مسافِح، وهو الزَّاني، أو المجاهِر بالزِّنا، الذي يَصبُّ ماءَه حيث اتَّفق، مِن سَفَحْتُ القِربةَ: إذا صَببْتَها، وسُمِّي الزِّنا سفاحًا؛ لأنَّه يُسافَحُ فيه، أي: يَصُبُّ الرَّجلُ النُّطفةَ وتَصُبُّ المرأةُ النُّطفةَ، وأصل (سفح): يدلُّ على إراقةِ شيءٍ[٢].

﴿أَخْدَانٍ﴾: جمْع خِدْن، وهو الزَّاني سرًّا، أو مُصاحِبٌ وصَديق، أو خليلٌ في السِّرِّ، ويُطلَقُ كذلك على الحبيبِ والرَّفيق، وأكثرُ ذلك يُستعملُ فيمَن يصاحبُ بشهوةٍ؛ يُقال: خِدْنُ المرأةِ وخَدينُها، وأصل (خدن): المصاحَبة[٣].

﴿حَبِطَ﴾: أي: بطَلَ؛ فالحَبَط: البُطلانُ والألَم، وأصلُه: أن تُكثِرَ الدابَّةُ أكلًا حتى يَنتفخَ بطنُها فتموتَ[٤].

(١/ ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، (ص: ٨٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٦٥، ٤٣٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

مُشْكِلُ الإعرابِ:

﴿مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾.

﴿مُكَلِّبِينَ﴾: منصوبةٌ، حالٌ مِن فاعل ﴿عَلَّمْتُم﴾، والتَّقدير: علَّمتُم الجَوارِحَ حالَ كونِكم مُؤدِّبينَ ومدرِّبين ومُعوِّدينَ لها على كيفيَّة الصَّيدِ.

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾: فعلٌ وفاعلٌ ومفعولٌ، والجملةُ مستأنفة لا محلَّ لها من الإعراب، أو تكون في محلِّ نَصْبٍ، على أنها حالٌ ثانيةٌ من فاعِل ﴿عَلَّمْتُم﴾، أو حالٌ من الضَّميرِ المستترِ في ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ فتكونُ حالًا من حالٍ، وتُسمَّى المتداخِلَةَ، وعلى كلا التقديرينِ فهي حالٌ مؤكِّدةٌ؛ لأنَّ معناها مفهومٌ مِن ﴿عَلَّمْتُم﴾ ومِن ﴿مُكَلِّبِينَ﴾[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنَّ أصحابَك يسألونَك عمَّا يُباحُ لهم أكْلُه من الأطعمةِ، ثم أمَرَه أن يُجيبَهم: أنَّ اللهَ أحلَّ لهم أكْلَ الطيِّباتِ، وأباحَ لهم أكْلَ ما اصطادوه عن طريقِ ما يَصيدُ بِنابِه أو مِخلَبِه من السِّباعِ والطُّيورِ، كالكِلاب والصُّقورِ، إذا عَلَّموها ودَرَّبوها على طريقةِ الصَّيد، يُعلِّمونها ممَّا امتنَّ اللهُ عليهم من العِلم بآدابِ الصَّيد، فلْيَأكلوا ممَّا أمسكْنَه لأجْلِهم؛ ولْيَذكروا اسمَ الله عليها عندَ إرسالها للصَّيد، ولْيتَّقوا اللهَ؛ فإنَّه سريعُ الحسابِ.

ثم أخبرَ تعالى عن بعضِ مظاهرِ إسباغِ نِعمِه وإكمالِ دِينه، وتيسيرِ شَرعِه، ومن ذلك أنَّه سبحانه أحلَّ لهم التمتُّعَ بالطيِّباتِ، وأحلَّ لهم أكْلَ ذبائِحِ أهلِ

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٠٢-٢٠٣)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعَّاس (١/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٨).

الكِتاب من اليهودِ والنَّصارى، وأحلَّ لهم نِكاحَ الحرائرِ العفيفاتِ من المؤمناتِ، والحرائر العفيفاتِ من الكتابيَّات، إذا أعْطَوهُنَّ مُهورَهنَّ، في حالِ كون الأزواجِ مُحصِنين لهنَّ، غير مُعلِنين بالزِّنا، ولا متَّخذين عشيقاتٍ يُعاشرونهنَّ زِنًا في السرِّ، وأَخْبَر الله تعالى أنَّ مَن كفَر به، وكَفَر بما يجبُ الإيمانُ به؛ فقد حَبِطَ عمَلُه، وتوعَّده بأنَّه في الآخِرة من الهالِكينَ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ٤﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى ما حرَّمه في الآيةِ المتقدِّمةِ من الخبائثِ الضارَّة لمُتناوِلِها- إمَّا في بدَنِه، أو في دِينه، أو فيهما- واستثنى ما استَثْناه في حالةِ الضرورةِ[1]- شرَع في بيانِ ما أحلَّه لهم[2]، فقال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾.

أي: يسألُكَ أصحابُك- يا محمَّد- ما الذي أُبيحَ لهم أكْلُه من الأطعِمَةِ[3]؟

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾.

أي: قلْ يا محمَّدُ: أُبيحَ لكم أكْلُ الطيِّباتِ، وهي الحلالُ الذي أَذِنَ لكم ربُّكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٥).

في أكْلِه من كلِّ ما فيه نفعٌ أو لذَّة، من غيرِ ضَررٍ بالبدنِ ولا بالعَقلِ[١].

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾.

أي: وأُبيحَ لكم أيضًا أكْلُ ما اصطادَه لكم سِباعُ البَهائِم والطَّيرِ -كالكِلاب والصُّقور وغيرها- التي علَّمتموها؛ مُؤدِّبينَ لها ومُدرِّبين إيَّاها على كيفيَّةِ اقتناصِ الصَّيدِ[٢].

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

أي: تُؤدِّبون الجوارحَ، وتُدَرِّبونَهنَّ على طلبِ الصَّيدِ لكم، ممَّا منَّ الله تعالى به عليكم من العِلم بآدابِ الصَّيدِ، وذلك كأنْ يسترْسِلَ الجارحُ إذا أُرْسِلَ، ويَنزجرَ إذا زُجِرَ[٣].

﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: فكُلوا- أيُّها الناس- ممَّا أمسكتْ جوارحُكم من الصَّيدِ لأجلِكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٩٩، ١٠٠، ١٠٦)، ((تفسير الواحدي)) (٢/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢-٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٧-٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٠٧، ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢-٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٨).

قال القرطبيُّ: (لا خِلافَ بين العلماء في شَرطينِ في التَّعليم، وهما: أن يأتمرَ إذا أُمِر، ويَنزجِر إذا زُجر، لا خلافَ في هذين الشرطين في الكلاب وما في معناها من سِباع الوحوش، واختُلِفَ فيما يُصادُ به من الطَّير، فالمشهور أنَّ ذلك مَشترَطٌ فيها عند الجمهور) ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٨).

قال ابنُ كثيرٍ: (تلك الآيةُ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ ليستْ على عمومِها بالإجماعِ، بل

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾.

أي: واذكُروا اسمَ الله عندَ إرسالِ الجارِح[١].

عن عَدِيِّ بن حاتمٍ الطائيِّ رضي لله عنه، أنه قال: ((يا رسولَ اللهِ، إنِّي أُرسِلُ كَلبي وأُسَمِّي، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إذا أَرْسَلْتَ كلبَك وسمَّيتَ، فأخَذ فقتَل فأكَل فلا تأكُلْ، فإنَّما أمسَك على نَفْسِه، قُلتُ: إني أُرْسِلُ كلبي فأجِدُ معَه كلبًا آخَرَ، لا أدري أيُّهما أخَذَه؟ فقال: لا تأكُلْ؛ فإنَّما سمَّيْتَ على كلبِكَ ولم تُسَمِّ على غيرِه))[٢].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

مخصوصةٌ بما صِدْن من الحيوانِ المأكولِ، وخرَج مِن عمومِ لفظِها الحيوانُ غيرُ المأكولِ بالاتِّفاقِ)) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠).

قال ابنُ عاشور: (وحرفُ (على) في قوله: ﴿مِّمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بمعنى لام التعليل، كما تقول: سُجن على الاعتداء، وضُرب الصبيُّ على الكذبِ)) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الواحدي)) (٢/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١٨).

الهاء في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ فيها ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُها: أنَّها تعودُ على (مَا عَلَّمْتُمْ)، أي: اذكروا اسمَ الله على الجوارحِ عندَ إرسالِها على الصَّيدِ، ودلَّت عليه السُّنَّة.

والثاني: أنَّها عائدةٌ على المصدرِ المفهومِ من الفعلِ، وهو الأكلُ، كأنَّه قيل: واذكروا اسمَ الله على الأكلِ.

والثالثُ: أنَّها تعودُ على (ما أَمْسَكْنَ) أي: اذكروا اسم الله على ما أدركتم ذكاته مما أمسكته عليكم الجوارح.

يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦١).

(٢) رواه البخاري (٥٤٨٦) واللفظ له، ومسلم (١٩٢٩).

أي: امتثِلوا ما أمَرَكم اللهُ تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي: إنَّ الله سبحانه سريعُ الإحْصاءِ لأعمالِ عبادِه، سريعُ المجازاةِ لهم، يُحاسِبُ الخلائقَ يومَ القيامةِ على أعمالِهم في مدَّةٍ وجيزةٍ جدًّا، وإن حسابَه عزَّ وجلَّ قريبٌ؛ لسرعةِ انقضاءِ الدُّنيا[٢].

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أخبرَ الله تعالى في الآيَةِ المتقدِّمةِ أنَّه أحلَّ الطيِّباتِ، وكان المقصودُ من ذِكره الإخبارَ عن هذا الحُكم، ثم أعاد ذِكرَه في هذه الآيةِ، والغَرضُ من ذِكره أنَّه قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ فبيَّن أنَّه كما أكملَ الدِّين وأتَمَّ النِّعمةَ في كلِّ ما يَتعلَّق بالدِّين، فكذلك أتمَّ النِّعمةَ في كلِّ ما يتعلَّق بالدُّنيا[٣].

وأيضًا لَمَّا كان أهلُ الكتابِ في الأصل أهلَ توحيدٍ، ثم سَرَتْ إليهم نزَغاتُ الشِّركِ ممَّن دخَل في دِينهم من المشركين، ولم يُشدِّدوا في الفصلِ بينهم وبين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٩٣).

ماضيهم، وكان هذا مَظِنَّةَ التشديدِ في مُؤاكلةِ أهلِ الكتابِ ومُناكَحَتِهم، كما شدَّد في أكْلِ ذَبائحِ مشركي العربِ ونِكاح نسائِهم- بيَّن اللهُ في هذه الآيةِ ألَّا نُعامِلَ أهلَ الكتابِ معاملةَ المشركينَ في ذلك، فأحلَّ لنا مؤاكلتَهم، ونِكاحَ نسائِهم[١]، فقال:

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾.

أي: اليومَ أباح اللهُ تعالى لكم- أيُّها المؤمنون- الحلالَ من الذَّبائِحِ والأطعمةِ ممَّا ليس بضارٍّ ولا مُستقذَرٍ، دون الخبيثِ منها[٢].

﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ ﴾.

أي: وذبائحُ أهلِ الكتابِ من اليهودِ والنَّصارى حلالٌ لكم- أيُّها المؤمنون- أكْلُها[٣].

﴿وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡ ﴾.

أي: وذبائِحُكم- أيُّها المؤمنونَ- حلالٌ لليهودِ والنَّصارى؛ فلكم أن تُطْعِموهم مِن ذبائحِكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١٢-١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٥-٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٢٩، ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٦-٦٧).
قال ابنُ جزي: (وأما الطعامُ، فهو على ثلاثةِ أقسامٍ أحدُها: الذبائحُ، وقد اتَّفق العلماءُ على أنها مرادةٌ في الآيةِ) ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٢٣).
والدليلُ على أنَّ المرادَ بطعامِهم ذبائحُهم، أنَّ الطعامَ الذي ليس مِن الذَّبائحِ كالحبوبِ والثِّمارِ ليس لأهلِ الكتابِ فيه خصوصيَّة، بل يُباحُ ذلك ولو كان من طعامِ غيرِهم، وأيضًا فإنَّه أضافَ الطعامَ إليهم. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١)، ((تفسير السعدي))

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

أي: وأحلَّ لكم- أيُّها المؤمنون- نِكاحَ الحرائرِ العفيفاتِ من النِّساءِ المؤمناتِ[١].

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

أي: وأحلَّ لكم- أيُّها المؤمنون- أيضًا نِكاحَ الحرائرِ العفيفاتِ من نِساء اليهودِ والنَّصارى[٢].

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

أي: إذا أعطيتُم مَن نَكحتُم- من مُحصناتِكم ومُحصناتِهم- مُهورَهنَّ[٣].

﴿مُحْصِنِينَ﴾.

أي: حالةَ كونِكم مُحْصِنِينَ لنِسائكم؛ بسببِ حفِظكم لفروجِكم عن غَيرِهنَّ، وعفَّتِكم عن الزِّنا[٤].

﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾.

أي: ولستُم كذلك بالزُّناة المُعلِنين بالزِّنا، الذين يَزنون بأيِّ امرأةٍ كانت، ولا

(ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٢١-١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٣٨-١٣٩، ١٤٦-١٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٢١-١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١-٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٣٩، ١٤٧-١٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٢١ - ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٨).

يردُّون أنفُسَهم عمَّن جاءَهم[١].

﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾.

أي: ولا مِن ذوي العَشيقاتِ الذين لا يَفعلون الفاحشةَ إلَّا خُفيَةً معهنَّ[٢].

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾.

أي: ومَن كفَر بالله تعالى وما يجبُ الإيمانُ به، فقد بطَلَ ثوابُ عملِه الذي كان يَعملُه في الدُّنيا، إنْ مات على كُفرِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

أي: وهو في الآخِرةِ من الهالِكين، الذين خَسِروا أنفُسَهم وأموالَهم وأهليهم يومَ القيامَةِ، وحصَلوا على الشَّقاوةِ الأبديَّة[٤].

الفوائِد التربويَّة:

١- حِرصُ الصَّحابة رضي الله عنهم على العِلم؛ لقوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٤٨-١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٧٠).

أُحِلَّ لَهُمْ ﴾، ومِن هنا نَعرفُ أنَّ ما لم يَسألِ الصحابةُ عنه ممَّا يرِدُ السؤال عنه في عصرِنا من أمورِ الغيبِ، فالسؤال عنه بدعةٌ؛ لأنَّنا نعلم أنه لو كان هناك خيرٌ في العلم به لألْهَم الله الصحابةَ أن يسألوا عنه؛ حتى يَتبيَّنَ الأمرُ(١).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ ﴾ (تعلمونهنَّ) المقصود منه المبالغةُ في اشتراطِ التَّعليمِ، أي: أن يكون مَن يُعلِّم الجوارحَ نِحريرًا في عِلمه، مُدرَّبًا فيه، فقيهًا عالِمًا بالشَّرائط المعتبرَة في الشَّرع لحِلِّ الصيد، ففيه فائدةٌ جليلةٌ، وهي أنَّ على كلِّ طالبٍ لشيءٍ ألَّا يأخذَه إلَّا مِن أجَلِّ العلماءِ به، وأشدِّهم درايةً له، وأغوصِهم على لَطائِفِه(٢).

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ﴾ أنَّ التَّحليلَ والتحريمَ ليس إلى العِباد، بل هو إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وقد حذَّرَنا اللهُ عزَّ وجلَّ من أن نُحلِّل أو نحرِّم بأهوائِنا، فقال: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ [النحل: ١١٦]، وأنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لا يستقلُّ بالتحليلِ أو التَّحريمِ، وجه ذلك: أنَّ الرسولَ لم يُجِبْهم، ولكنَّ الله تعالى أجابَهم، فقال: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾(٣).

٢- أنَّ كلَّ ما أحلَّه اللهُ تعالى فهو طيِّب؛ نافعٌ للبَدَن ونافعٌ للقلب، ونافعٌ للفَرْد ونافعٌ للمجتمع؛ لقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ وأيضًا نأخُذ من المفهومِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٠-٧٠).

أنَّ كلَّ ما حرَّمه الله تعالى فهو خبيثٌ[١].

٣- قول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ نصَّ في هذه الآيةِ ونظائِرِها على إباحةِ المستلذَّات والطيِّبات، فصار هذا أصلًا كبيرًا، وقانونًا مرجوعًا إليه في معرفةِ ما يَحِلُّ ويَحرُم من الأطعمةِ؛ فالطيِّباتُ وصفٌ للأطعمة قُرِن به حُكمُ التحليلِ؛ فدلَّ على أنَّ الطيِّبَ علَّةُ التحليلِ، وأفاد أنَّ الحرامَ ضدُّه، وهو الخبائثُ[٢].

٤- في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ لُطْفُ اللهِ بعباده ورَحمتُه بهم؛ حيث وسَّعَ عليهم طُرُقَ الحلالِ[٣].

٥- جوازُ اقتناءِ كَلب الصَّيدِ، مع أنَّ اقتناءَ الكلب مُحرَّمٌ؛ لأنَّ مِن لازِمِ إباحةِ صَيده وتَعليمِه جوازَ اقتنائِه، وطهارةَ ما أصابه فمُ الكلْبِ من الصَّيد؛ لأنَّ الله أباحه ولم يذكُرْ له غَسلًا؛ فدلَّ على طهارَتِه؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾[٤].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ فضيلةُ العِلم، وأنَّ الجارِحَ المـُعلَّم- بسبب العِلم- يُباحُ صيدُه، والجاهل بالتَّعليمِ لا يُباح صيدُه[٥].

٧- أنَّ الاشتغالَ بتعليمِ الكلبِ أو الطَّيرِ أو نحوهما، ليس مذمومًا، وليس من العبَثِ والباطِلِ، بل هو أمرٌ مقصودٌ؛ لأنَّه وسيلةٌ لحِلِّ صيدِه والانتفاعِ به، يُؤخَذ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١).

مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾[١].

٨- قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ الجوارحُ يَدخُل فيها كلُّ ما يُمكنُ الاصطيادُ به، كالفهدِ والسِّباعِ والعُقابِ والصَّقرِ وغيرها؛ فهذه كلُّها جوارحُ، وإنَّما عبَّر بقوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾؛ لأنَّ المكلِّبَ هو مُؤدِّبُ الجوارحِ ومُعلِّمُها أنْ تصطادَ لصاحبِها، وأصلُ (كلب) يدلُّ على تَعلُّقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ في شِدَّةٍ وشِدَّةِ جَذْبٍ، ومِن ذلك: الكَلْبُ. وإنما اشتُقَّ اسمُ (مُكلِّبين) مِن الكَلْبِ؛ لأنَّ التأديبَ أكثرُ ما يكونُ في الكِلاب؛ فاشتُقَّ منه هذا اللفظُ لكثرتِه في جِنسِه. وأيضًا لأنَّ كلَّ سَبُع فإنَّه يُسمَّى كلبًا. أو يكون قوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ مأخوذًا مِن الكَلَب الذي هو بمعنى الضَّراوةِ والحِرص على الشيء، ولو فُرِض أنَّ المذكور في هذه الآية إباحةُ الصيدِ بالكلْبِ فقط؛ فتخصيصُه بالذِّكرِ لا يَنفي حِلَّ غيره؛ بدليلِ أنَّ الاصطيادَ بالرَّمْي ووضْعِ الشَّبكةِ جائزٌ، وهو غيرُ مذكورٍ في الآيةِ[٢].

٩- قطعُ ما يُوجِبُ الإعجابَ بالنَّفْس؛ لأنَّ قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ فيه إسنادُ التعليمِ إلى البَشرِ، فقدْ يُزهَى الإنسانُ بنفْسِه ويغترُّ ويُعجَب؛ فلهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ عِلمَك الذي تُعلِّمه إيَّاهنَّ مَصدُره مِن عندِ الله عزَّ وجلَّ[٣].

١٠- قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾، فيه توسعةُ الله عزَّ وجلَّ على عبادِه في أسبابِ الرِّزقِ، فقد رَخَّص في الصيد بالجارحةِ؛ لأنَّه يشقُّ على الإنسانِ أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٠٢- ٢٠٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٤١). وينظر أيضًا: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٣٣- ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٢).

يصطادَ الصيدَ بنفسِه في كلِّ وقتٍ وحينٍ؛ لأنَّ المصيدَ ربَّما يكون مَثلًا في جبالٍ أو في سهولٍ أو في أوديةٍ، ولا يستطيعُ أن يَصيدَه بنفسِه[١].

١١- أنَّه يجوزُ أكْلُ ما صادَه الجارحُ، سواء قتَلَه الجارحُ أم لا، قال سبحانه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾، وإنْ أدركَه صاحِبُه، وفيه حياةٌ مستقرَّة، فإنَّه لا يُباحُ إلَّا بتذكيتِه[٢].

١٢- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡ﴾ أنَّ الأصلَ في الأطعمَةِ الحِلُّ، ومن الأدلَّة أيضًا قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩]، فالأصلُ الحِلُّ، ومَن ادَّعى في شيءٍ التحريمَ لزِمَه الدليلُ على ذلك[٣].

١٣- أنَّ مَن سِوى اليهودِ والنَّصارى لا تَحِلُّ ذَبيحتُهم؛ كالمجوسِ والوثنيِّين والشيوعيِّين والمشركينَ ومَن أشبَهَهم؛ يُؤخَذُ ذلِك من مفهومِ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[٤].

١٤- حِلُّ المحصَنات من أهلِ الكتابِ كحِلِّ المحصَناتِ من المؤمنات؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾؛ فالله يُبيِّن أنَّ المحْصَناتِ من المؤمناتِ والمحصناتِ من الذين أُوتُوا الكتابَ سواءٌ في الحِلِّ، ولكنْ لا يلزَمْ من تساويهنَّ في الحِلِّ أن يتساوَيْنَ في الإقدامِ عليهنَّ، قد يكون الشيءُ حلالًا، ولكن نقول:

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٧١).

الأفضلُ ألَّا تُقْدِمَ عليه[١].

١٥- أنَّ المهرَ بمنزلةِ الأُجرةِ؛ لقوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[٢]، وتقييدُ الحِلِّ بإيتاءِ الأُجورِ؛ لتأكيدِ وُجوبها، والحثِّ على ما هُوَ الأَوْلى[٣].

١٦- أنَّ المقصودَ الأعظمَ من النِّكاح هو الإحصانُ؛ لقوله: ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾[٤].

١٧- الإشارةُ إلى أنَّه يَنبغي إعلانُ النِّكاحِ؛ لأنَّه قال: ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾، والأَخدانُ الأخلَّاءُ في السِّرِّ[٥].

١٨- أنَّ الاستمتاعَ بالنِّساءِ ينقسِمُ إلى أقسامٍ في قوله: ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾: تحصين، وسِفاح، واتِّخاذ أخدان، والفرقُ بينها: أنَّ الأوَّل: عَقْد شرعيٌّ، والثاني: زِنًا مُعلَن، والثالث: زِنًا سِرِّيٌّ[٦].

١٩- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾، ومِنْ قَوْلِه: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ طهارةُ بدَنِ الكافر؛ لأنَّه لا بدَّ أن يلامسَ الطَّعامَ، وأيضًا في النِّكاحِ لا بدَّ أن يكونَ مِنَ الزَّوجِ مع زوجته الكتابيَّة ما يَقتضي

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٧٧).

والإحصانُ قيدٌ لازمٌ، وتحقُّقه لاسيَّما في المجتمعاتِ الغربيةِ الكافرةِ عسيرٌ؛ لما عُلم مِن حالِهم، وشيوعِ الفاحشةِ فيهم.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨١).

التنجيسَ لو كانت نجِسةً، وفي الآيةِ أيضًا دليلٌ على أنَّ آنيتَهم طاهرةٌ، إلَّا ما عُلِم نجاستُه منها؛ كأواني المسلمينَ[١].

٢٠- أنَّ الإماءَ مِن أهل الكتابِ لا يُبَاح للمسلمِ الزواجُ بهنَّ ولو خاف العنَتَ؛ دليله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أمَّا الإماءُ من المؤمنات فيحلُّ للمسلمِ الزواجُ بهنَّ عند الضَّرورةِ على حسَب ما ورد في سورة النساءِ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[٢] [النساء: ٢٥].

٢١- قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ جملةٌ معترِضَةٌ بين الجُمل، والمقصود التنبيهُ على أنَّ إباحةَ تزوُّجِ نِساءِ أهلِ الكتابِ لا يَقتضي تزكيةً لحالِهم[٣].

٢٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ تسميةُ المهرِ بالأجْرِ يدلُّ على أنَّ الصَّداقَ لا يَتقدَّرُ، كما أنَّ أقلَّ الأجرِ لا يتقدَّر في الإجاراتِ[٤].

٢٣- ذَكَر الله تعالى حِلَّ المُحصَنات من المؤمناتِ في أثناءِ إباحةِ طعامِ أهلِ الكتاب وإباحةِ تزوُّجِ نسائهم فقال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ إيماءً إلى أنهنَّ أَوْلى بالمؤمنينَ من مُحصَناتِ أهلِ الكِتاب[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٢٣).

بلاغَةُ الآيتين:

١- **قوله**: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾: عبَّر بالمضارعِ في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّد السُّؤالِ، أي: تكرُّره، أو توقُّع تكرُّره[١].

٢- **قوله**: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾:

- تذييلٌ عامٌّ خُتمت به آية الصَّيد، وهو عامُّ المناسَبةِ[٢].

- وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ جملة خبريَّة مؤكَّدة بـ ﴿إِنَّ﴾، والغرضُ منها التخويفُ من اجتنابِ التقوى، وأنَّ مَن لم يتَّقِ الله، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: إنَّ الله تعالى سيُحاسِبكم على أعمالِكم، وقوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يتضمَّن سُرعةَ التنفيذِ من وجهٍ، وسرعةَ الوقتِ من وجهٍ آخَرَ[٣].

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ (الله) في موقعِ الإضمار؛ لتربيةِ المهابة، وتعليلِ الحُكمِ[٤].

٣- **قوله**: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: فيه تَكرارُ (اليوم) للتأكيدِ، وهذا بناءً على أنَّ المرادَ بالأيَّامِ الثلاثةِ وقتٌ واحدٌ[٥]، وفائدةُ إعادةِ ذِكر إحلالِ الطيِّباتِ: التنبيهُ بإتمامِ النِّعمةِ فيما يَتعلَّق بالدُّنيا[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٨٢).

(٦) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الآية (٦)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلۡمَرَافِقِ﴾: جمْع مِرْفَق، وهو مَوْصِلُ الذِّراعِ في العَضُد، وسُمِّي مِرفقًا؛ لأنَّه يُستراحُ في الاتِّكاءِ عليه؛ يُقال: ارتفق الرَّجُل: إذا اتَّكأ على مِرفقِه في جُلوسِه[١].

﴿جُنُبٗا﴾: أي: إنْ أصابتْكم الجَنابة؛ سُمِّيت الجنابةُ بذلك؛ لكونِها سببًا لتجنُّب الصلاةِ في حُكم الشَّرعِ، وأصل (جنب): البُعد[٢].

﴿ٱلۡغَآئِطِ﴾: هو كنايةٌ عن قَضاءِ الحاجةِ؛ والغائطُ المطمئِنُّ من الأرضِ، وجُعِلَ كنايةً عن قضاءِ الحاجةِ؛ لأنَّهم كانوا إذا أرادوا قَضاءَ الحاجةِ أتَوْا غائطًا من الأرضِ، ففَعلوا ذلِك فيه؛ فقِيل لكلِّ مَن قضَى حاجتَه: مُتغوِّط، وأُطْلِقَ الغائطُ على العَذِرَة نفْسِها. وأصْل (غوط): يدلُّ على اطمئنانٍ وغورٍ[٣].

﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾: اقصِدوا وتَعمَّدوا، وأصلُ التيمُّم: قصْدُ الشيء وتعمُّده[٤].

---

(١) يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣٤٩)، ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠)

﴿صَعِيدًا﴾: ترابًا، والصَّعيد: الغُبار الذي يَصعَد؛ من الصُّعود، ويُطلق أيضًا على وجْه الأرض[١].

﴿حَرَجٍ﴾: أي: ضِيق وإثم، وأصل الحرَج: تجمُّع الشيء وضيقُه[٢].

مُشْكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾: قُرِئ بالنَّصب والجرِّ؛ فعلى قِراءةِ النَّصْب تكون معطوفةً على الوجوه والأيدي في ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾؛ أي: فاغْسلوا وجوهَكم وأيديَكم وأرجلَكم. وقيل: هي معطوفةٌ على موضِع ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾، والأوَّل أقوى؛ لأنَّ العطفَ على اللفظ أقوى من العَطف على الموضِع. وأمَّا على قِراءة الجرِّ- وهي مشهورةٌ كشهرة النَّصب- فإنَّها تُعرَب على الجوارِ؛ فتكون معطوفةً على ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ في الإعرابِ، والحُكم مختلفٌ؛ فالرؤوسُ ممسوحةٌ، والأرجلُ مغسولةٌ، ويُمكِنُ أنْ تكونَ مَعطوفةً على ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ لفظًا ومعنًى، أي: إعرابًا وحُكمًا، ويُحمَل مَسْحُ الأَرْجُلِ على بَعضِ الأحوالِ، وهو لُبْسُ الخُفِّ، وقيل غيرُ ذلك[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يَأمُر اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنين إذا أرادوا القيامَ إلى الصَّلاةِ أن يَغسِلوا

(٦/ ١٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٢٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٠٩ : ٢١٦)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٤٤).

وجوهَهم، وأيديَهم من أطرافِ الأصابعِ إلى المِرفقينِ، وأن يَمْسحوا جميعَ الرأسِ، ويَغسِلوا أرجلَهم مِن أطرافِ الأصابعِ إلى الكَعبينِ، ويأمُرهم سبحانه- إنْ أصابتْهم جَنابةٌ- أن يَغتسِلوا إذا ما أرادوا القيامَ إلى الصَّلاة، وإنْ كانوا مَرْضَى يتعذَّرُ عليهم استعمالُ الماء، أو مُسافرين، أو قَضَى أحدهم حاجتَه من بولٍ أو غائط، أو لامَس النِّساءَ، ولم يجدْ ماءً لِيتطهَّرَ به، فلْيقصدْ وجهَ الأرضِ الطاهرَ النَّظيفَ، ولْيَمْسح منه وجهَه وكفَّيه، ثم أخبر تعالى أنَّه شرَع هذه الأحكامَ حتى لا يجعلَ الناسَ في عُسرٍ وحَرَجٍ، فالله سبحانه يُريد أن يُطهِّر عبادَه ظاهرًا بما شرَعه من الوضوءِ والغُسل والتيمُّم، وباطنًا بتكفيرِ السيِّئات، ويُريدُ سبحانه أن يُتِمَّ نِعمتَه على عبادِه بإكمالِ الشَّرائِعِ، وتسهيلها عليهم؛ لعلَّهم يَشْكُرونَه على ذلِك.

تفسير الآية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا افتتَح اللهُ تعالى السُّورةَ بالأمْرِ بإيفاءِ العهودِ، وذكَر تحليلًا وتحريمًا في المطعَمِ والمنكَحِ، واستقصى ذلك، وكان النوعانِ معاملاتٍ دُنيويَّةً بين النَّاس بعضِهم من بعضٍ، استطرَد منها إلى المعاملاتِ الأُخرويَّة التي هي بين العبدِ وربِّه سبحانه وتعالى، ولَمَّا كان أفضلُ الطاعاتِ بعد الإيمانِ الصَّلاةَ، والصلاةُ

لا تُمكن إلَّا بالطَّهارةِ، بدأَ بالطَّهارةِ[١].

وأيضًا قد افتتَحَ الله سبحانه السورةَ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾؛ والعهد نوعان: عهدُ الربوبيَّةِ من الله، وعهد العبوديَّة من العباد، فقدَّم الوفاءَ بعهد الربوبيَّة والكَرَم، ولَمَّا كانت منافِعُ الدُّنيا محصورةً في نوعينِ: لذَّات المطعم، ولذات المنكَح، فاستقصى سبحانَه في بيان ما يَحِلُّ ويَحرُم من المطاعِم والمناكِحِ، ولَمَّا كانت الحاجةُ إلى المطعومِ فوقَ الحاجَةِ إلى المنكوحِ، لا جرَم قدَّمَ بيانَ المطعوم على المنكوح، وعندَ تمام البيان كأنَّه يقول: قد وفيتُ بعهدِ الربوبيَّة فيما يُطلَب في الدُّنيا من المنافِعِ واللذَّات، فاشتغِلْ أنت في الدُّنيا بالوفاءِ بعهدِ العبوديَّة، فلمَّا كان أعظمُ الطَّاعاتِ بعد الإيمان الصلاةَ، ولا يمكن إقامتُها إلَّا بالطَّهارةِ لا جرَم بدأَ الله تعالى بذِكر شرائِطِ الوضوء[٢].

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ ما يتعلَّق بالمطعَم والمنكَحِ، وكان الحَدَثان (الأصغر والأكبر) اللَّذان هما سببُ الطَّهارتين هما أثَرُ الطَّعامِ والنِّكاحِ، فلولا الطعامُ لَمَا كان الغائطُ الموجِبُ للوضوء، ولولا النكاحُ لَمَا كانت ملامسةُ النِّساءِ الموجِبة للغُسل[٣]؛ لذا قال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إذا أردتُم القيامَ إلى الصَّلاةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٩٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) ٢/ ٤٣-٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨٥).

قال ابنُ كثير: (قال آخَرون:... الآية آمرةٌ بالوضوء عند القيام إلى الصَّلاة، ولكن هو في حقِّ المُحدِث على سبيل الإيجاب، وفي حقِّ المتطهِّر على سبيل النَّدبِ والاستحباب) ((تفسير

﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾.

أي: فاغْسلوا الوجهَ، وهو ما تحصُلُ به المواجهةُ، من مَنابِتِ شَعرِ الرَّأس المعتاد، إلى ما انحدَر من اللَّحيينِ والذَّقن طولًا، ومِن الأُذنِ إلى الأُذُن عَرضًا[١].

﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾.

أي: واغْسِلوا اليدَ كاملةً مِن أطرافِ الأصابعِ إلى المِرفَقِ- وهو مِفْصلُ العَضُد مِن الذِّراع- مع غَسْلِه[٢].

﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾.

أي: وامْسَحوا جميعَ الرأسِ[٣].

عن عبدِ اللهِ بنِ زيدٍ رضي الله عنه، أنَّه قال في وصْفِ وُضوءِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((... ثم مَسَحَ رأسَه بيدَيه، فأَقبلَ بهما وأَدْبرَ، بدَأ بمُقَدَّمِ رأسِه حتى

ابن كثير)) (٢/ ٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨٧-٨٨).
قال السعديُّ: (ويَدخُل فيه المضمضةُ والاستنشاقُ، بالسُّنَّة، ويدخل فيه الشعورُ التي فيه، لكن إنْ كانت خفيفةً فلا بدَّ من إيصال الماءِ إلى البَشَرة، وإنْ كانت كثيفةً اكتُفي بظاهرها) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) ٢/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨٨-٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) ٢/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨٩).
قال ابن عثيمين: (يدخل في ذلك الأُذنان؛ أولًا: لأنَّ الاشتقاق يدلُّ على دخولهما، وثانيًا: أنه ثبَت عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنَّه كان يمسح بأُذنيه) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٠).

ذهبَ بهما إلى قَفاه، ثم ردَّهُما إلى المكانِ الذي بدَأَ منه...))[١].

﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ قراءتان:

١- قِراءةُ ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنَّصب عطفًا على الوُجُوهِ والأيدي في قولِه تعالى: ﴿اغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾؛ فالواجبُ غَسلُها إذا كانت مكشوفةً[٢].

٢- قراءة ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ بالجَرِّ عطفًا على (رُؤُوسِكم) في قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾، والمسحُ في كلامِ العَرَبِ يكون غسلًا، ويكون مَسحًا باليَدِ، والأَخْبارُ جاءت بغَسْلِ الأَرْجُلِ ومَسْحِ الرُّؤُوسِ، أو يكون الخفضُ حَمْلًا على العَامِلِ الأَقْرَبِ للجِوَارِ، ومِن أَهْلِ العِلْمِ مَن حَمَلَ قراءةَ الجرِّ على مَسْحِ القَدَمينِ إذا كان عليهما الخُفَّانِ[٣].

﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾.

أي: واغْسِلوا الرِّجلَ كاملةً من أطرافِ الأصابعِ إلى الكَعب- وهو العَظْمُ الناتئُ

---

(١) رواه البخاري (١٨٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٥).

(٢) قرأ بها: نافعٌ، وابن عامر، والكسائيُّ وحفص ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٣). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٢٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٢١، ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩١).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٣). ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٢٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٢١، ٢٢٣)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٩)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩١).

عند مِفصَل السَّاق والقَدَم- مع غَسْله، إذا كانت مكشوفةً، وامسحوا على الخُفِّ إذا كانت مستورةً به[١].

﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ﴾.

أي: وإنْ أصابتْكم جنابةٌ فاغتسلوا قبل أن تَقوموا إلى الصَّلاةِ[٢].

﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾.

أي: وإنْ كُنتم ذَوي مَرَضٍ، يتعذَّرُ معه استعمالُ الماءِ[٣].

﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

أي: وإنْ كُنتم مسافرينَ[٤].

﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾.

أي: أو كنتُم مُحْدِثينَ؛ الحدَثَ الأصغرَ[٥].

﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥١-٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٠-٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩١-٩٢).

قال ابن عثيمين: (الجنب من أنزل مَنِيًّا، وألحقت السُّنة به مَن جامع وإن لم يُنزِل) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٣-٩٤).

أي: أو جامعتُم النِّساءَ[١].

﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾.

أي: إنْ حصَلَتْ إحدى الحالاتِ السَّابقِ ذِكرُها- كالسَّفرِ- ففقدتُم الماءَ، فعليكم بقَصدِ وجهِ الأرضِ الطَّاهرِ النَّظيفِ[٢].

﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ﴾.

أي: فامْسَحوا مِن هذا الصَّعيدِ الطيِّبِ الوجهَ والكفَّينِ[٣].

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾.

أي: لا يُريدُ الله تعالى بما فرَض عليكم من هذه الأحكامِ أن تَقَعُوا في الضِّيقِ والعُسرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٩)، (٢/ ٣١٤-٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣).
وممَّن اختار أنَّه الجماع: ابن جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٢١٣).
وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلف وهو أنَّه الجِماع: ابن عباس، وعليٌّ، وأُبيُّ بن كعب، ومجاهد، وطاوس، والحسن، وعُبَيد بن عُمَير، وسعيد بن جُبَير، والشَّعبي، وقَتادة، ومقاتل بن حيَّان.
ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٩٦١).
وقيل المراد بقوله: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: كُلُّ لَمسٍ باليدِ أو بغيرِها
وممَّن اختار أنَّه اللمس باليدِ: الواحديُّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٥٨).
وممَّن قال بهذا القول من السَّلف أنه ما دون الجماع: عبد الله بن مسعود، وابن عمر، وعَبِيدة، وأبو عُثمان النَّهدي، وأبو عُبَيدة، والشَّعبي، وثابت بن الحجَّاج، وإبراهيم النخعي، وزيد بن أسلم، وعطاء، والحَكَم، وحمَّاد. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٩٦١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٩٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٤-٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣-٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٥-٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٦-٩٧).

﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُريد أن يُطهِّركم بما فرَض عليكم من وضوءٍ أو غُسلٍ أو تيمُّمٍ، فتتطهَّروا ظاهرًا طهارةً حسيَّة لأبدانِكم، وتتطهَّروا طهارةً معنويَّةً بتكفيرِ سيِّئاتِكم، ومَحوِ خطيئاتِكم[١].

﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾.

أي: ويُريد ربُّكم سبحانه أيضًا إتمامَ نِعمَتِه عليكم ببيانِ شرائِعِ دِينه، وتيسيرها لعِبادِه[٢].

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

أي: كي تَشكُروا الله تعالى- بقلوبِكم وألسنتِكم وجوارحِكم- على نِعَمِه عليكم[٣].

الفوائِد التربويَّة:

١- أنَّ الطَّهارةَ من مُقتضياتِ الإيمانِ؛ كأنَّه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لإيمانِكم افعلوا كذا وكذا؛ ومِن ثَمَّ فإنَّ الإيمانَ يَزيد بالطَّهارةِ، وضوءًا كانتْ أو غُسلًا أو تيمُّمًا؛ لأنَّها إذا كانت من مُقتضياتِه لَزِم أن يَزيدَ بزيادتِها، ويَنقُصَ بنُقصانها، وأنَّ الإخلالَ بها منافٍ لكمالِ الإيمانِ[٤].

٢- التَّكنِيَة عمَّا يُستقبحُ ذِكرُه؛ لقولِه: ﴿مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ وقوله: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٨-٢١٩)، ((تفسير الواحدي)) (٢/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٩).

ٱلنِّسَآءَ ﴾[١].

٣- الإشارةُ إلى أنَّه يَنبغي لقاضي الحاجةِ أن يَستترَ حتى يتوارى عن النَّاسِ؛ وجهُه قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾، فالغائط هو المكان المطمَئِنُّ الهابطُ من الأرض، كانوا ينتابونه لقضاءِ الحاجة، ليستتروا به عن النَّاس[٢].

٤- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ وفي قراءةٍ أخرى ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ بالكسرِ، أنَّها جُرَّتْ مُنَبِّهَةً على عدمِ الإسرافِ باستعمالِ الماء؛ لأنَّها مظنَّةٌ لصبِّ الماءِ كثيرًا، فعُطِفَتْ على الممسوح؛ لا لتُمْسَحَ، ولكِنْ لِيُنَبَّهَ على وجوبِ الاقتصادِ في صبِّ الماءِ عليها؛ وأنَّ مِن سُنَنِ الوضوءِ الاقتصادَ في الماء[٣].

٥- التَّرغيبُ في التَّزكيةِ والتطهيرِ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، أي: يُكْمِل نِعمةَ الإسلام بزِيادَةِ أحكامِه الرَّاجِعَة إلى التَّزكيةِ والتَّطهيرِ[٤].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- وجوبُ استيعابِ الوَجْهِ بالغسْلِ؛ لقوله: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾[٥].

٢- وجوب غَسلِ الأيدي من أطرافِ الأصابعِ إلى المرافِقِ؛ لقوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٠٧).

إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ ﴾[١].

٣- وجوبُ غَسلِ الرِّجل إلى الكَعبينِ، والكعبانِ داخلانِ في الغَسْل؛ لقوله: ﴿إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ ﴾[٢].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ ﴾ الفصلُ بالمسحِ بين المغسولاتِ مُعْلِمٌ بوجوبِ الترتيبِ[٣].

٥- التَّثليثُ في أعمالِ الوضوءِ سُنَّةٌ لا واجب، إنَّما الواجب هو المرَّة الواحدةُ، والدَّليلُ عليه أنَّه تعالى أَمَر بالغَسْل، فقال: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ ﴾ وماهيَّةُ الغسل تَدخُل في الوجودِ بالمرَّةِ الواحدةِ[٤].

٦- حِكمةُ الشَّرع في التَّطهيرِ؛ حيث كان الاقتصارُ على أربعةِ أعضاءٍ في الحدَثِ الأصغَرِ؛ لأنَّ هذه الأعضاءَ هي غالبًا أدواتُ العَمَل وآلاتُ العمل، فالبَطشُ باليد، والمشيُ بالرِّجْل، والبَصرُ والشمُّ والكلامُ في الوجه، والسَّمعُ والتخيُّل والتفكيرُ في الرَّأس، فشُرع تطهيرُ هذه الأعضاء الأربعة؛ أمَّا في الجنابة فشُرِعَ للإنسانَ أنْ يُطهِّرَ جميعَ بدنه؛ وذلك لأنَّ الجَنابة تُخلخِلُ البدنَ كلَّه، ولهذا يَضعُف الإنسانُ إذا حصَلت منه الجَنابةُ، ويُؤمَرُ إذا أراد أن يعودَ أن يغتسلَ فإنْ لم يُمْكِنْه فليتوضَّأ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٢٨).

٧- في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ﴾: جاء المخاطَب جماعة، والخبر بصِيغة الإفراد؛ حيث لم يقُل: (إن كنتم جُنُبِين)، بل قال: ﴿جُنُبٗا﴾؛ لأنَّ كلمة (جنب) في اللُّغة الفصحى يستوي فيها المفردُ والاثنان والجَماعةُ[١].

٨- في قوله تعالى: ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾ أنَّ الغُسْلَ لجميعِ البَدن؛ لأنَّه أطْلَقَ ولم يخصَّ الأعضاءَ كما في الوضوء[٢].

٩- أنَّه لا يُشترَط في الغُسل ترتيبٌ، وأنَّ المغتَسِل لو بدأَ مِن أسفلِ بدنِه أو مِن وَسَط بَدَنِه أو من أعلى بَدَنِه وعمَّه بالماءِ؛ كان ذلك مُجزئًا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾ ولم يُفَصِّلْ[٣].

١٠- أنَّ غُسْلَ الجَنابة تُستباحُ به الصَّلاة، وأنَّه لا يجبُ الوضوءُ معه؛ وجهُ الدَّلالة: أنَّ الله قال: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ﴾، ولم يذكر وضوءًا حتى لو لم يَنوِ إلَّا رَفْعَ الحدَث الأكبرِ، فإنَّه يُجزِئه؛ لعمومِ الآية[٤].

١١- أنَّ التيمُّم جائزٌ في الحدَثِ الأصغر وفي الحَدَثِ الأكبر؛ لأنَّ الآيةَ واضحةٌ؛ قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ﴾، ثم قال: ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ﴾ ذَكَرَ الله تعالى التيمُّمَ بعد الوضوءِ وبعد الغُسْلِ من الجنابَةِ، فيكون في ذلك دليلٌ على أنَّ مَن عليه غُسلُ الجنابةِ إذا لم يَجِدِ الماءَ، فإنَّه يتيمَّمُ ويُصلِّي[٥].

١٢- أنَّه لا يجب التطهُّرُ بغيرِ الماء، يعني: لو كان مع الإنسانِ نبيذٌ أو شايٌ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٠٨)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١١٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١١٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٢٦).

أو لَبن، فإنَّه لا يتطهَّر به؛ لأنَّ اللهَ جَعَل آلةَ الطَّهارةِ هي الماءُ؛ فقال تعالى: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ﴾[١].

١٣- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ﴾ يدلُّ على أنَّه كلَّما بقِيَ اسمُ الماءِ المطلَق كان طاهرًا طَهورًا[٢].

١٤- أنَّ الماءَ ما دام يُطلَق عليه اسمُ الماءِ، فإنَّه مُطهِّرٌ ولو تغيَّر بشيءٍ طاهرٍ؛ لعمومِ الآية: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ﴾ و﴿مَآءٗ﴾ نَكِرةٌ في سِياقِ النَّفي؛ فما دام اسمُ الماءِ باقيًا، فإنَّه يجبُ التطهُّرُ به، ولو مع التغيُّرِ[٣].

١٥- وجوبُ طَلَبِ الماءَ؛ لقوله: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ﴾، أي: في الأماكِنِ القريبةِ منه التي لا يَلحَقُه حرَجٌ بطلب الماءِ فيها، وإذا تيقَّنَ عَدَمَ وجود الماءِ حَوْلَه، فلا يجِبُ عليه البحثُ عند كلِّ صلاةٍ؛ لأنَّ هذا عبَثٌ ومنافٍ للحِكمة، ومنافٍ للشَّرْع[٤].

١٦- قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ﴾ فيه أنَّ الدينَ يسرٌ، سواء كان مِن أصلِ المشروعاتِ، أو إذا وُجِد سببٌ للرُّخصةِ؛ لأنَّ المشقَّةَ تجلبُ التيسيرَ، لكنها لا تُسقطُ الواجبَ إلا في حدودِ الشَّرع[٥].

١٧- قوْلُه تعالى: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ فيه أنَّه لا بدَّ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١١٨).

التيمُّمِ من النيَّة؛ فقوله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ أي: اقْصِدوا، فالتيمُّم عبارةٌ عن القَصْدِ[١].

١٨- استُدلَّ بقولِه: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا﴾ على جوازِ التيمُّمِ من الصَّعيدِ الذي على ظَهْرِ الأرض أيًّا كان، سواءٌ كان هذا الصَّعيدُ رمليًّا أو حجريًّا أو سبخةً، أو يابسًا أو رطبًا، يعني: نديًّا، المهمُّ أنَّه يُسمَّى صعيدًا[٢].

١٩- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أنَّه لا بدَّ أن يكونَ الصَّعيدُ الذي يُتَيمَّم منه طيِّبًا وهو الطَّاهِرُ، وضِدُّه النَّجس، وعلى هذا فلا يصحُّ التيمُّمُ على أرض متنجِّسةٍ[٣].

٢٠- وجوبُ استيعابِ الوَجهِ بالمسْحِ في التيمُّمِ؛ لقوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ وهو شاملٌ لجميع الوجه، ومِن ثَمَّ يجبُ أن نُنبِّهَ بعضَ العامَّة الذين إذا تَيمَّموا مَسَحوا الأنفَ وما حوله، وترَكوا الباقِيَ؛ فيُقال: هذا لا شكَّ أنَّه لا يُجزِئُ؛ لأنَّ الآية صريحةٌ؛ فقد قال تعالى: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ أي: كلَّها[٤].

٢١- قوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ فيه رفْعُ الحرَجِ عن هذه الأمَّةِ، وهو تارةً يكون برفْعِ المشروعِ بالكليَّةِ، وتارةً بتخفيفِه، وتارةً بفِعل بدَلِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٢٩).

(٥) أمَّا رفعه بالكلية فمِثل: كفَّارة القتل؛ إذا عجَز الإنسانُ عن صِيام شهرين متتابعين تَسقُط عنه، أي: تُرفَع عنه بالكليَّة. وأمَّا تخفيفه فمِثل: القِيام في الصلاة؛ إذا عجزَ الإنسان عنه، يُخفَّف فيُصلي قاعدًا إذا لم يستطعْ أن يُصلِّي قائمًا. وأمَّا فعل بدله فمثل: أن يكون إلى بدلٍ؛ فالإنسان العاجز

٢٢- قولُ الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ أصلٌ كبيرٌ في الشَّرعِ، وهو أنَّ الأصْلَ في المضارِّ ألَّا تكونَ مشروعةً[(١)].

٢٣- إثباتُ الحِكمةِ في شَرْع الله؛ وجهُ ذلك: التعليلُ في قوله تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، وهذا الذي دلَّ عليه الكتابُ والسُّنة من وجوهٍ لا تُحصَى- أنَّ الله سبحانه وتعالى حكيمٌ في كلِّ ما يَخلُق، وفي كلِّ ما يَشرَع؛ ومِن ثَمَّ فيجبُ الاستسلامُ لقضاءِ الله الشرعيِّ والكونيِّ[(٢)].

٢٤- أنَّ الطَّهارةَ بأقسامِها الثلاثة- الغُسل والوضوء والتيمُّم- نعمةٌ من الله عزَّ وجلَّ على العبادِ؛ لقوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، ولا شكَّ أنَّها نِعمةٌ، ومَن رأى فضائِلَ الوضوءِ وما يُكفِّر من الذُّنوبِ، عَرَف نِعمةَ الله عزَّ وجلَّ بهذا، وكذلك الغُسْلُ من الجَنابة، ولا سيَّما في أيَّام الشِّتاءِ وأيَّامِ المشقَّةِ[(٣)].

٢٥- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ قال فيه بعضُهم: دلَّت هذه الآيةُ على سَبعةِ أصولٍ، كُلُّها مَثْنَى: طهارتانِ: الوُضوءُ والغُسل، ومُطَهِّران: الماءُ والتُّراب، وحُكْمان:

عن الصيام عجزًا مستمرًّا لا يلزمه أن يصومَ، لكن عليه البَدَل، وهو: إطعامُ مِسكين عن كلِّ يوم، فصار الأمر والحمد لله واسعًا، وبناءً على هذه القاعدة فمن عجَز عن الكفَّارات أيًّا كانتِ الكفارة وقتَ الوجوب، فإنَّها تسقط عنه. ينظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ١٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٣٦).

المسحُ والغَسل، وموجِبان: الحَدَثُ والجَنابةُ، ومُبيحانِ: المَرَضُ والسَّفَرُ، وكنايتان: الغائِطُ والمُلامَسةُ، وكَرامتان: تطهيرُ الذُّنوبِ، وإتمامُ النِّعمةِ[١].

٢٦- قولُه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (لعلَّ) هنا للتَّعليلِ، وليست للترجِّي؛ لأنَّ الرجاءَ طلبُ ما فيه عُسر، والله عزَّ وجلَّ لا يتأتَّى في حقِّه ذلك؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ سهْلٌ عليه، فتكون (لعلَّ) هنا للتعليلِ[٢].

بلاغَةُ الآية:

١- **قوله**: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي: إذا أردْتُم القيامَ إلى الصَّلاةِ؛ ففيه: جوازُ التَّعبيرِ عن إرادةِ الفِعل بالفِعل؛ لأنَّ الفعلَ يوجدُ بقُدرةِ الفاعِلِ عليه وإرادَتِه له، وهو قَصْدُه إليه وميلُه وخُلوصُه؛ وذلك لأنَّ الفِعْلَ مسبَّبٌ عن القُدرةِ والإرادة، فأُقيمَ المسبَّبُ مقامَ السَّبَب؛ للملابسةِ بينهما، ولإيجازِ الكلامِ ونحوه، والتَّنبيهِ على أنَّ مَن أراد العبادةَ ينبغي أن يبادِرَ إليها، بحيث لا ينفكُّ الفعلُ عن الإرادةِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ: إذا قَصَدْتم الصَّلاةَ؛ لأنَّ التوجُّهَ إلى الشَّيءِ والقيامَ إليه قَصْدٌ له[٣].

٢- **قوله**: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ فيه كنايةٌ حَسَنَةٌ؛ فالمجيءُ من الغائِط- وهو المطمئنُّ أو المنخفِض من الأرض- كنايةٌ عن الحدَثِ[٤].

٣- **قوله**: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾: فيه التعبيرُ عن نفْي الفِعلِ بنفي الإرادةِ له؛ فالإرادةُ هنا كنايةٌ عن نفْي الجَعْلِ؛ لأنَّ المريدَ الذي لا

---

(١) ينظر: ((حاشية البجيرمي على الخطيب)) (١/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٥)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٠٨)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٨٧).

(٤) يُنظر ما تقدم في غريب الكلمات.

غالبَ له لا يَحُولُ دون إرادَتِه عائِقٌ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣١).

الآيات (٧ - ١١)

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَمِيثَٰقَهُ﴾: الميثاقُ هو العقدُ المؤكَّدُ بيمينٍ وعهدٍ، أو العهدُ المُحكَم، وأَصْلُ (وثق): العقدُ والإحكامُ[١].

﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ﴾: ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ جمعٌ، مفردُه (قوَّام)، بناءُ مبالغةٍ مِن (قائمٍ)، أي: ليتكررْ منكم القيامُ، وأصلُ (قوم): مراعاةُ الشيءِ وحِفظُه[٢].

﴿شُهَدَآءَ﴾: جمع شهيد، والشَّهادة قولٌ صادرٌ عن عِلمٍ حصَل بمشاهدةِ بصيرةٍ أو بصَرٍ[٣].

﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾: بالعدلِ، وأصلُ (قسط) يدلُّ على مَعنيينِ متضادَّينِ: العدلِ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٧٣٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ٦٥)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٤٦٥).

والجَوْرِ؛ يُقال: أَقسَط: إذا عدَل. وقَسَط: إذا جارَ وظَلَم[١].

﴿شَنَـَٔانُ﴾: شِدَّةُ البُغض والعداوة؛ يُقال: شَنِئتُه، أي: تَقذَّرْتُه بغضًا له[٢].

﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: النَّار، وأصْل (جحم): عِظَم الحرارة وشِدَّتها[٣].

﴿يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾: يَمدُّوا إليكم أيديَهم بالصَّوْلةِ والضَّرب، وأصل (بسط): امتدادُ الشَّيءِ، في عَرْض أو غير عَرْض[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَعَدَ﴾: فِعلٌ يَتعدَّى لمفعولَينِ؛ أولهما ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والثَّاني مَحذوفٌ، وجملةُ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ وقعَتْ بيانًا للوعدِ، كأنَّه قال: قَدَّم لهم وعْدًا، فقيل: أيُّ شيءٍ وَعَدَه لهم؟ فقال: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ وعليه فهي مُفسِّرةٌ لمفعولِ ﴿وَعَدَ﴾ الثاني المحذوفِ، لا محلَّ لها من الإعرابِ. وقيل: إنَّ جملةَ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ منصوبةٌ بقولٍ محذوفٍ؛ كأنَّه قيل: وَعَدَهم وقال: لهم مَغفِرةٌ. وقيل: الوعدُ جارٍ مجرَى القولِ؛ لأنَّه ضَرْبٌ منه، وهو واقعٌ على الجملةِ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾؛ فهي منصوبةٌ به؛ كأنَّه قيل: وعَدَهم هذا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

القَولَ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يَأمُر اللهُ المؤمنينَ أن يَذكُروا نعمتَه عليهم، والعهْدَ الذي أخَذَه عليهم بمبايعةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ على متابعَتِه، ونُصْرَتِه، والقيامِ بدِينه والدَّعوةِ إليه؛ حيث الْتَزموا بذلك العهدِ حينها، وقالوا: سمِعْنا وأطَعْنا، ثم أمَرَهم بتقواه عزَّ وجلَّ؛ فإنَّه عليمٌ بكلِّ ما تُكِنُّه الصُّدورُ.

ويأمُر اللهُ المؤمنينَ كذلِك بأنْ يقوموا بحقِّ اللهِ تعالى في كلِّ ما يَلْزَمُهم القيامُ به مخلِصينَ له، وأنْ يُلازِموا العدلَ في شَهادَتِهم، ولا يَحمِلَنَّهم بُغضُهم وكراهِيَتُهم لقومٍ على ألَّا يَعدِلوا، بل عليهم مُلازمةُ العدلِ؛ فإنَّه أقربُ لتحقيقِ كمالِ التَّقوى، ولْيتَّقوا الله؛ فإنَّ الله خبيرٌ بما يعملونَ.

ثم يُخبر تعالى أنَّه وعَدَ المؤمنين الذين يَعملون الأعمالَ الصالحةَ بأنَّ لهم مغفرةً لذنوبهم، وثوابًا كبيرًا، وهو الجنَّة، وأمَّا الذين كَفروا وكذَّبوا بآياتِه فهمُ أصحابُ النارِ المُلازِمون لها.

ثم أَمَر اللهُ المؤمنينَ أن يَذكُروا نِعمتَه عليهم، حين هَمَّ بعضُ أعدائِهم بالبَطْشِ بهم، فصرَفَهم اللهُ عنهم، وحالَ بينهم وبين ما يُريدونَه بهم من سوءٍ، وختَم الآيةَ بالأمرِ بتقواه، وأن يَعتَمِدوا عليه وحْدَه سبحانه وتعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦١٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢١٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر التَّكاليفَ في الآياتِ السَّابِقةِ من بدايةِ السُّورةِ، أرْدَفَه بما يُوجِبُ عليهم القَبولَ والانقيادَ، وذلك من وجهينِ: الأوَّل: كَثرةُ نِعَمِ الله عليهم؛ لأنَّ كثرةَ النِّعَمِ تُوجِبَ على المُنعَمِ عليه الاشتغالَ بخدمةِ المُنعِم، والانقيادَ لأوامِرِه ونواهيه. والوجه الثاني: في السَّبب الموجِبِ للانقيادِ للتَّكاليفِ، وهو الميثاقُ الذي واثقَكم به[1]، فقال:

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾.

أي: واذْكروا- أيُّها المؤمنونَ- نِعمَ اللهِ تعالى عليكم، فتَذكَّروها بقُلوبِكم وألسِنَتِكم، ومنها نِعمةُ الهدايةِ للإسلامِ[2].

﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾.

أي: واذكُروا أيضًا- أيُّها المؤمنونَ- عَهدَه الذي عاهَدَكم به بمبايعةِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ على مُتابعتِه ومُناصَرتِه ومُؤازَرَتِه، والقيامِ بدِينه، وتبليغِه[3].

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۚ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

﴿إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٤٠)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٩، ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٣٨).
قال ابنُ عثيمين: (قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ إنما أمَرَ الله تعالى أن نَذكُر النِّعمة؛ من أجْلِ أن نَعرِفَ فضلَه علينا؛ حتى يسهُلَ علينا الانقيادُ لطاعته؛ لأنَّ الإنسان بمقتضى فِطرته وطبيعتِه لا بدَّ أن يَنقادَ لِمَن أحسن إليه) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٩، ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٣٨-١٣٩).

أي: حيث التَزَمْتُم بهذا العَهْدِ بإعلانِ السَّمعِ والطَّاعة، فقلتم: سَمِعْنا ما دَعوتَنا به- أيُّها الرسولُ الكريمُ- من الآياتِ القرآنيَّةِ والكونيَّةِ، سَمْعَ فَهمٍ وإذعانٍ وانقيادٍ، وأطَعْنا ما أمَرْتَنا به، واجتَنَبْنا ما نهيتَنا عنه[١].

عن جُنادَةَ بنِ أبي أُميَّةَ، قال: دَخَلْنا على عُبادةَ بنِ الصَّامتِ وهو مريضٌ، قُلنا: أصلحَك اللهُ، حَدِّثْ بحديثٍ ينفعُك اللهُ به، سَمِعْتَه مِن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، قال: ((دَعانا النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ فبَايعْناه، فقال فيما أَخَذَ علينا: أنْ بايَعَنا على السَّمْعِ والطَّاعةِ، في مَنْشَطِنا[٢] ومَكْرَهِنا[٣]، وعُسْرِنا ويُسْرِنا، وأَثَرةٍ علينا[٤]، وأنْ لا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه، إلَّا أنْ تَرَوْا كُفرًا بَواحًا عندكم من اللهِ فيه برهانٌ))[٥].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

أي: وامتَثِلوا ما أَمَرَكم اللهُ تعالى به، واجتَنِبوا ما نهاكم عنه في جميعِ أَحْوالِكم[٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦١-٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٣٩).

(٢) مَنشَطنا: المنشَط مَفعَل من النَّشاط، أي: حِين نَشاطِنا. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٥٧)، ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقِّن (٣٢/ ٢٨٤).

(٣) ومَكْرَهِنا: المَكْرَهُ: وهو ما يَكْرَهُه الإنسانُ ويشقُّ عليه؛ أراد في وقتِ الكَسَلِ والمشقَّةِ في الخروج. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٦٨)، ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقِّن (٣٢/ ٢٨٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٧).

(٤) وأَثَرة عَلَينا: الأَثَرة الاسمُ من: آثَر يُوثِر إيثارًا: إذا أعطى، والاستئثار: الانفرادُ بالشيء، والمراد أنَّ طواعِيَتَهم لمن يتولَّى عليهم لا تتوقَّف على إيصالِهم حقوقَهم، بل عليهم الطاعةُ ولو منعَهم حقَّهم. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٨).

(٥) رواه البخاري (٧٠٥٥) واللفظ له، ومسلم (١٨٤٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٣٩).

أي: إنَّه يعلمُ ما يتخالَجُ في الضَّمائِرِ والسَّرائِرِ، وما تَنطوي عليه القُلوبُ من الأَفْكارِ والخواطِرِ؛ فاحذروا أن يَطَّلِعَ من قُلُوبِكم على أمرٍ لا يرضاه، كأنْ تُضْمِروا عدَمَ الوفاءِ بميثاقِ اللهِ[١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حَثَّ على الانقيادِ للتَّكاليفِ، وهي مع كَثْرَتِها محصورةٌ في نوعينِ: التَّعظيم لأمْرِ الله، وهذا ذَكَرَه في قوله: ﴿إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، ثم أعْقَبَه بذكْرِ النَّوعِ الثَّاني وهو الشَّفقَةُ على خَلْقِ الله[٢]، فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، كونوا بمُقتَضَى إيمانِكم ذَوي قِيامٍ بالحقِّ للهِ تعالى وَحْدَه، لا رِياءً ولا سُمْعةً، ولا لنيلِ غَرَضٍ من أغراضِ الدُّنْيا[٣].

﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾.

أي: وكونوا أيضًا شُهَدَاءَ بالعَدْلِ، ولا تَجُوروا في أَحْكامِكم على القَريبِ والبَعيدِ، والصَّدِيقِ والعَدُوِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٣٩-١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٤٢)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي))

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾.

أي: ولا يَحْمِلنَّكم عداوةُ قومٍ وبُغضُهم على ألَّا تَعْدِلوا في حُكْمِكم فيهم، فتَجورُوا عليهم[١].

﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

أي: عليكم بالعَدْلِ- أيُّها المؤمنونَ- مع كلِّ أحدٍ، فاستعمالُ العَدْلِ أقرَبُ إلى التَّقْوى الكاملةِ[٢].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

أي: امتَثِلوا ما أمَرَكم اللهُ تعالى به، واجتَنِبوا ما نهاكم عنه، ومِن ذلك القيامُ بالعَدْلِ، وترْكُ الجَورِ[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو وَحْدَه العالِمُ ببواطنِ ما تَعمَلونَه- أيُّها المؤمنونَ- مِن خَيْرٍ أو شرٍّ ومُجازيكم بها[٤].

(ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤).

قال السعديُّ: (﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: كلَّما حرَصْتُم على العدل، واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقربَ لتقوى قلوبِكم؛ فإنْ تمَّ العدلُ كمَلَتِ التَّقوى) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤).

وقال ابنُ عاشور: (ومعنى ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، أي: للتقوى الكاملة التي لا يَشُذُّ معها شيءٌ من الخير؛ وذلك أنَّ العدل هو ملاكُ كبْح النَّفْس عن الشهوة، وذلك ملاكُ التقوى) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٦-١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي))

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ أوامِرَ ونواهيَ، ذكَر وعْدَه مَن اتَّبَعَ أوامرَه واجتَنَبَ نواهيَه[١].

وأيضا لَمَّا كان الأَمْرُ بالتَّقْوى ممَّا حُتِمَ على الإطلاقِ، بعدَ بيانِ أنَّ العدْلَ هو أقربُ ما يُتَّقَى به عقابُ اللهِ في الدُّنيا والآخِرَة؛ لأنَّه قِوامُ الصَّلاحِ للأفرادِ، والإصلاحِ في الأقوامِ، ولَمَّا عُلِّل هذا الأمرُ المطلَقُ بأنَّ الله خبيرٌ بدقائِقِ الأعمالِ وخَفاياها، وكان هذا التعليلُ يُشيرُ إلى جزاءِ العاملينَ المُتَّقينَ وغَيْرِ المتَّقينَ- قال عزَّ وجلَّ في بيانِ الجزاءِ العامِّ[٢]:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾.

أي: وعَدَ اللهُ عزَّ وجلَّ- الذي لا يُخلِفُ الميعاد- المؤمنينَ الذين عَمِلوا الأَعْمالَ الصَّالِحات مخلصين للهِ تعالى فيها، ومُتابعين شريعَتَه، وَعَدَهم بسَتْرِ ذُنُوبِهم، والتَّجاوُزِ عن مؤاخَذَتِهم بها[٣].

﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

أي: ولهم ثوابٌ كبيرٌ، وعطاءٌ جزيلٌ غيرُ محدودٍ، وهو الجَنَّةُ[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠﴾.

(ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٢٧)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٢-١٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٥-٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢-٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ثوابَ المؤمنينَ العاملينَ للصَّالحاتِ، ثنَّى بذِكر مَن يُقابِلُهم وما لهم من العقابِ[1]؛ فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠﴾.

أي: وأمَّا الكُفَّارُ المكذِّبونَ بالأدلَّةِ الدالَّةِ على الحقِّ، فهُم أهلُ نارِ الجحيمِ الملازِمونَ لها، لا يَخرجُون منها أَبَدًا[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾.

أي: يا مَعْشَرَ المؤمنينَ، تذكَّروا ما أنعمَ اللهُ تعالى به عليكم بقُلوبِكم وألْسِنَتِكم؛ لأجْلِ القيامِ بواجِبِ شُكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ على ذلك[3].

﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ ﴾.

أي: حيث أنعمَ اللهُ تعالى عليكم، بأنْ ردَّ كيدَ أعدائِكم الذين همَّوا بالبَطْشِ بكم، فصَرَفَهم وحَجزَهم عنكم، وحالَ بينهم وبين ما أرادُوه بكم؛ فلم يَسْتَطيعوا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٩)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٩-١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٤).

أن يَنالُوكم بسُوءٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

أي: وافْعلوا ما أمرَكَم اللهُ تعالى به، واجتَنِبوا ما نَهاكم عنه[٢].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

مُناسَبَتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى إنعامَه عليهم بكفِّ أَيدِي أعدائِهم عنهم، وردِّ كَيْدِهم في نُحورِهم- أَمَرَهم بما يَستعينونَ به على الانْتِصارِ على عَدُوِّهم، وعلى جميعِ أُمُورِهم[٣]، فقال:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ تعالى وحْدَه دونَ غيره، فلْيعتمِدِ المؤمنونَ الَّذين آمنوا باللهِ تعالى وبكلِّ ما يَجِبُ عليهم الإيمانُ به، فليعتمدوا عليه في جَلْبِ منافِعِهم ودَفْعِ مَضَارِّهم، ممَّا يتعلَّقُ بِشُؤونِ الدُّنيا والآخِرَةِ؛ ثِقةً به عزَّ وجلَّ، وتفويضًا إليه[٤].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- الحثُّ على التأمُّلِ في نِعَمِ الله تعالى؛ نبَّه على ذلك قولُه: ﴿وَٱذْكُرُواْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٤-١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٥-١٦٦).

نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾[١].

٢- تهديدُ مَن خَرَجَ عن التَّقوى، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، يعني أنَّه لا بدَّ أن تكونَ التَّقوى مبنيَّةً على صَلاحِ القَلْبِ، وليست مُجرَّدَ قَوْلٍ باللِّسانِ، ويُكرِّرُ اللهُ عزَّ وجلَّ التَّقوى في آياتٍ كثيرة؛ لأنَّها في الحقيقَةِ عليها مدارُ الإِسلامِ، فإذا اتَّقى الإنسانُ ربَّه فسوف يقومُ بدِينِ الله تعالى على ما يُريدُ اللهُ جلَّ وعلا[٢].

٣- وجوبُ الإخلاصِ لله عزَّ وجلَّ في الشَّهادَةِ؛ لقولِه: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، ومِن ثَمَّ فلا يكونُ هناك محاباةٌ لقريبٍ أو صَدِيقٍ، ولن يَحمِلَك بُغضُك لشَخْصٍ على أنْ لا تشْهَد له ما دُمتَ مُخلِصًا لله تعالى بالشَّهادَةِ[٣].

٤- وجوبُ الشَّهادَةِ بالقِسْطِ ولو كنتَ كارهًا؛ دلَّ على ذلِك قولُه تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ قد تحمِلُه كراهةُ أن يتَضَرَّرَ الشَّخصُ على كِتمانِ الشَّهادَةِ[٤].

٥- أمَرَ اللهُ تعالى جميعَ الخَلْقِ بأنْ لا يُعامِلُوا أحدًا إلَّا على سَبيلِ العَدْلِ والإنصافِ، وترْكِ المَيْلِ والظُّلْمِ والاعتِسافِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٣٩، ١٤٢، ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٤٢).

٦- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ منها ما يَبعُدُ عن التَّقوى، ومنها ما يَقرُبُ، ويَنبني على تفاضُلِ الأَعمالِ، وتفاضُلُ الأعمالِ قد دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ والعَقْلُ، وأنَّ الأعمالَ تَتَفاوتُ، والعُمَّال يتفاوَتون أيضًا، ويُستَفادُ أيضًا أنَّ الإيمانَ يَزيدُ وكذلك ينقُصُ[١].

٧- أنَّ الإيمان وحْدَه لا يَكفي، بل لا بدَّ مِن عَمَلٍ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ ولهذا فالَّذينَ يُركِّزون على العقيدةِ، فيقولون: عَقِيدتُنا سليمةٌ والحمدُ لله، ولا يَتعرَّضون للعَمَلِ؛ عندهم قُصورٌ، بل لا بدَّ مع العقيدَةِ مِن عَمَلٍ صالحٍ[٢].

٨- وُجوبُ تقوى الله عزَّ وجلَّ عند ذِكْرِ النِّعَمِ؛ حتى لا يَطغى الإنسانُ، ويرتفعَ ويَرْبأَ بنفْسِه؛ لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[٣].

٩- وجوبُ التوكُّلِ على الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه من الإيمانِ؛ لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، فوجَّه الأمرَ إلى المؤمنينَ؛ لأنَّهم هم أَهْلُ التوكُّلِ، ولأنَّ ترْكَ التوكُّلِ على الله نَقْصٌ في الإيمانِ[٤].

الفوائِد العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ ولم يقُل: (نعم الله)؛ لأنَّه ليس المقصودُ منه التأمُّلَ في أعدادِ نِعَمِ الله، بل المقصودُ منه التأمُّلُ في جِنْسِ نِعَمِ الله؛ لأنَّ هذا الجِنْسَ جنسٌ لا يَقْدِرُ غيرُ اللهِ عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٢، ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٩).

٢- أنَّه يجبُ على الإنْسانِ أنْ يَذكرَ الميثاقَ الذي واثَقَ اللهَ عليه، وهو العَهْدُ بالسَّمْعِ والطَّاعَةِ المذكورُ في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾، ويُستَفادُ مِنَ الآيةِ أنَّ السَّمْعَ المجرَّدَ لا يُغني شيئًا، فلا بدَّ أن يكونَ سمعًا واستجابَةً، فأمَّا مجرَّدُ السَّمْعِ فلا؛ وذلك لِقَوْلِه: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾[1].

٣- في قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ إشارةٌ إلى التَّعظيمِ لأَمْرِ اللهِ[2].

٤- ممَّا يُستَفادُ مِن قَوْلِه سبحانَه: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾: أنَّ هناك فَرْقًا بين المساواةِ والعَدْلِ، وأكثَرُ ما ورد في القرآنِ هو نفْيُ المساواةِ، مع إثباتِ العَدْلِ؛ قال تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۞ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[3] [الزمر: ٩].

٥- تأكيدُ الأَمْرِ بالعَدْلِ مع الأعداءِ، والشَّهادةُ لهم به في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ يُفيدُ وجوبَه مع غَيْرِهم من الأَولياءِ بالأَوْلى[4].

٦- من اللَّطائِفِ في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ وقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ في المؤمنينَ جاءتِ الجملةُ فِعليَّةً متضمِّنةً الوعدَ بالماضي الذي هو دليلٌ على الوُقوعِ، فأنْفُسُهم متشوِّقةٌ لِمَا وُعِدُوا به، مُتشوِّفةٌ إليه، مبتهجةٌ طولَ الحياةِ بهذا الوَعْدِ الصَّادِقِ. وفي الكافرينَ جاءت الجملةُ اسميَّةً دالَّةً على ثُبوتِ هذا الحُكْمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٤٣).

لهم، وأنَّهم أصحابُ النَّارِ؛ فهم دائمونَ في عذابٍ؛ إذ حَتَّمَ لهم أنَّهم أصحابُ الجحيمِ، ولم يأتِ بصورةِ الوعيدِ، فكان يكونُ الرجاءُ لهم في ذلك[١].

٧- قولُه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فيه: تقديرُ محذوفٍ، أي: عَمِلُوا الأعمالَ الصَّالحات، ويكون العملُ صالحًا إذا تَضمَّن أمرينِ؛ الأوَّل: الإخلاصُ للهِ كما في قوله: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، والثاني: المتابعةُ لشريعةِ اللهِ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: ((مَن عَمِلَ عَمَلًا ليس عليه أمْرُنا؛ فهو رَدٌّ))[٢].

٨- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ تفضُّلُ اللهِ عزَّ وجلَّ على عبادِه؛ حيث جعَل الثوابَ بمنزلَةِ الأَجْر، كأنَّ العامِلَ أجيرٌ إذا وَفَّى العَمَلَ أُعْطِيَ أَجْرَه، مع أنَّ المِنَّةَ لله عزَّ وجلَّ أولًا وآخِرًا[٣].

٩- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ عِظَمُ ثَوابِ المؤمنينَ العاملينَ الصَّالحاتِ؛ حيث عظَّمَه الله عزَّ وجلَّ، وتعظيمُ العَظيمِ للشَّيءِ يدلُّ على أنَّه عَظيمٌ عَظَمةً لا يتخيَّلُها الإنسانُ ولا يتصوَّرها، وهو كذلك[٤].

١٠- أنَّ القرآنَ الكريمَ مَثانٍ؛ إذا ذَكَر أهْلَ العَمَلِ الصَّالح ذكَرَ أهلَ العَمَلِ السيِّئِ؛ كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ ثم ثَنَّى بعدها بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، وفائدَةُ ذلك: أنْ لا يَغلِبَ جانبُ الرَّجاءِ أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٣).
والحديث أخرجه مسلم (١٧١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٩).

جانبُ الخَوْفِ[١].

١١- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أنَّ الكُفْرَ قد يَصحَبُه التَّكذيبُ، وقد لا يَصحَبُه؛ ولهذا أحيانًا يَذكُرُ اللهُ الكُفْرَ فقط؛ مثل قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وأحيانًا يَذكُرُ التَّكذيبَ فقط؛ قال تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢]، وأحيانًا يَقْرِن بينهما؛ وذلك لأنَّ كلًّا منهما قد يكونُ وَحْده مُوجِبًا للخُلُودِ في النَّارِ، فإذا اجتمعَا جميعًا، صار ذلك أشدَّ وأعظمَ، والعياذُ بالله[٢].

١٢- قوله: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: المرادُ بالآياتِ هنا الآياتُ الشرعيَّةُ[٣] والكونيَّة[٤]؛ فمَن أنكَرَ ربوبيَّةَ الله وخَلْقَه للمَخلوقاتِ، وتصرُّفَه في الكَوْنِ، فهذا مكذِّبٌ بالآياتِ الكونيَّةِ، وقد يُقِرُّ بذلك، لكنَّه يكْفُرُ، ويُكَذِّبُ بالآياتِ الشرعيَّةِ، ويُعْرِضُ عن طاعَةِ اللهِ[٥].

١٣- أنَّ الخلودَ في النَّار ليس إلَّا للكُفَّارِ؛ فقَوْلُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ يُفيدُ الحصرَ، والمصاحَبةُ تقتضي الملازَمَة، كما يُقال: أصحابُ الصَّحراءِ، أي: الملازِمونَ لها[٦].

١٤- قال تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ﴾ الآية، أمَرَ الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٦٢).

(٣) الآيات الشرعيَّة: هي ما جاءتْ به الرُّسُل، وكانتْ آياتٍ دالَّةً على الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ البشرَ لا يُمكن أن يأتوا بمِثلها. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٩).

(٤) الآيات الكونيَّة: وهي هذا الكونُ بما فيه من الشَّمْسِ والقَمَر والنُّجوم، والليلِ والنَّهار، والبحارِ والأنهارِ، وغير ذلك مِن المخلوقاتِ العظيمةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٤٤).

تعالى أن نَذكُرَ نِعْمَتَه، لا مِن أجْلِ مجرَّدِ الذِّكْرِ والخَبَر، ولكن للقيامِ بشُكْرِ هذه النِّعمَةِ؛ لأنَّه لا يَكفي مجرَّدُ أن أقولَ: إنَّ اللهَ سلَّمَني من العدوِّ، أو إنَّ اللهَ نصَرني على العَدُوِّ، هذا لا يَكفي، لا بدَّ أن يكونَ ذلك شُكرًا لله عزَّ وجلَّ، فإنْ كان شكرًا بأنْ كان الإنسانُ يتحدَّثُ بنِعمةِ اللهِ ثناءً على الله، فهذا من الشُّكر[١].

١٥- أنَّه يجِبُ على الإنسانِ أن يَذكُرَ نِعمَةَ اللهِ عليه في جَلْبِ المنافِعِ ودَفْعِ المضارِّ؛ وَجْهُ ذلك: أمْرُ اللهِ جلَّ وعلا بذِكْرِ نِعَمِه بكفِّ أيدي الأعداءِ عنَّا في قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ﴾[٢].

١٦- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ﴾ أنَّ كفَّ الأذى والضَّرَر من النِّعَم، وهو كذلك، وكثيرٌ من النَّاسِ يظنُّونَ أنَّ النِّعَمَ هي الإيجادُ، وهذا قصورٌ؛ النِّعمَةُ: إمَّا إيجادُ معدومٍ، وإمَّا كفُّ موجودٍ؛ ولهذا يُشْكَرُ اللهُ عزَّ وجلَّ على هذا وهذا[٣].

١٧- من فوائِدِ هذا التذكيرِ للمتأخِّرينَ في قَوْلِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ ترغيبُهم في التأسِّي بسلَفِهم في القيامِ بما جاء به الدِّينُ؛ من الحقِّ والعَدْلِ، والبرِّ والإحسانِ، واحتمالِ الجُهدِ، والصَّبرِ على المشاقِّ في هذه السَّبيلِ، وهي سبيلُ اللهِ، وهذا هو المعنى العامُّ للجِهادِ في سبيلِ اللهِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٣١).

بلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ ﴿إِذۡ﴾ في قولِه: ﴿إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ ظرفٌ لـ ﴿وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾، أو ظرفٌ لمحذوفٍ وقَع حالًا منَ الضَّميرِ المجرورِ في ﴿بِهِۦٓ﴾ أو مِنْ ﴿مِيثَاقَهُ﴾، أي: كائنًا وقتَ قَولِكم: سَمِعْنا وأطَعْنا، وفائدةُ التقييدِ به تأكيدُ وجوبِ مراعاتِه بتذكيرِ قَبُولهم، والتزامِهم بالمحافَظَةِ عليه[١].

٢- قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ للتَّحذير مِن إضمارِ المعاصي، ومِن تَوهُّمِ أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ إلَّا ما يبدو منهم، وتعليلٌ للأمْرِ بالاتِّقاءِ؛ فحرف (إنَّ) أفاد أنَّ الجملة عِلَّةٌ لِمَا قَبْلَها على الأُسلُوبِ المقرَّرِ في البلاغَةِ[٢].

- وإظهارُ الاسْمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في موقِع الإضمارِ؛ لتربيةِ المهابَةِ، وتعليلِ الحُكم، وتقويَةِ استقلالِ الجُملة[٣].

٣- قوله: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾: فيه تأكيدٌ شديدٌ على أمْرِ العَدْلِ؛ فقولُه: ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾ تأكيدٌ ثانٍ؛ حيث قد نَهاهم أولًا أنْ تحمِلَهم الضَّغائِنُ على ترْك العَدْلِ، ثم أمَرَهم بقَوْلِه: ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾؛ فصرَّحَ لهم بالأَمْرِ بالعَدْلِ؛ تأكيدًا وتشديدًا، ثم استأنَفَ فذَكَرَ لهم وجْهَ الأمْرِ بالعَدْلِ، وهو قَوْلُه: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾، أي: العَدْلُ أقربُ إلى التقوى، وأَدْخَلُ في مناسَبَتِها. أو أقربُ إلى التَّقوى؛ لكونِه لُطفًا فيها، وفيه تنبيهٌ عظيمٌ على أنَّ وجودَ العَدْلِ مع الكفَّارِ الذين هم أعداءُ اللهِ إذا كان بهذه الصِّفَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢).

من القُوَّةِ؛ فما الظنُّ بوجوبِه مع المؤمنينَ الذين هم أولياؤُه وأحِبَّاؤُه[١]؟!

٤- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ جملةٌ تتَضَمَّنُ التهديدَ بمخالفَةِ التَّقوى، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ﴾ الخبيرُ أدقُّ من العليمِ؛ لأنَّ الخبيرَ من الخُبْر وهو العِلْمُ ببواطنِ الأَمْرِ؛ ولذلك سُمِّيَتِ المزارعةُ مخابرةً؛ وسُمِّي الزَّارِعُ خبيرًا؛ لأنَّه يدسُّ الحَبَّ في الأَرْضِ فيَختفي، فالخبيرُ هو العليمُ بخفايا الأُمورِ[٢].

٥- **قوله**: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾: فيه بيانٌ للوعْدِ بعدَ تمامِ الكلامِ قبْلَه، كأنَّه قال: قدَّمَ لهم وعْدًا، فقِيل: أيُّ شَيءٍ وعَدَه لهم؟ فقيل: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾؛ فجُملةُ ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ فاستُغْنِيَ بالبَيانِ عن المفعولِ الثَّانِي، فصارَ التَّقديرُ: وعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مَغفرةً وأجرًا عَظيمًا لهم، وإنَّما عدَلَ عن هذا النَّظْمِ لِمَا في إثباتِ المغفرةِ لهم بطَريقِ الجُملةِ الاسميَّةِ من الدَّلالةِ على الثَّباتِ والتقرُّرِ[٣].

٦- **قوله**: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾: فيه قصرٌ: وهو إمَّا قَصْرٌ ادِّعائيٌّ؛ لأنهم لَمَّا كانوا أحقَّ النَّاسِ بالجحيمِ، وكانوا خالدينَ فيه، جُعلوا كالمنفردينَ به، أو هو قصرٌ حقيقيٌّ إذا كانت إضافةُ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ مُؤذِنةً بمزيدِ الاختصاصِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٩٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٧، ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٦).

وهذا الوجهُ بناءً على القَوْلِ بأنَّ جملةَ ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ تَفْسيريَّة لا محلَّ لها من الإعرابِ، مُفسِّرة للمفعولِ الثاني لـ ﴿وَعَدَ﴾، وأمَّا على بقيَّةِ أوجه الإعرابِ فليس فيها هذا الوَجْهُ.

بالشَّيءِ كما في مُرادفِها، وهو ذُو كذا، كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]؛ فيكون وجهُ هذا الاختصاصِ أنَّهم الباقونَ في الجحيمِ أبدًا[١].

٧- **قوله:** ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ إظهارُ ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ في موقعِ الإضْمارِ؛ لزِيادَةِ التَّقريرِ، أي: مَنَعَ أيديَهم أنْ تُمَدَّ إليكم عَقِيبَ همِّهم بذلك، لا أنَّه كفَّها عنكم بعدَما مدُّوها إليكم[٢].

٨- **قوله:** ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

جملةُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لمَا قَبْلَهُ[٣].

- وفيه تقديمُ المتعلِّقِ ﴿عَلَى اللهِ﴾ على المتعلَّقِ به: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾؛ لإفادةِ الحَصْرِ، أي: ينبغي أن يتوكَّل المؤمنونَ على اللهِ فقط، لا على غَيْرِه[٤].

- وإظهارُ الاسْمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في مَوْقِعِ الإضمارِ؛ لتعليلِ الحُكْمِ، وتقويَةِ استقلالِ الجُملَةِ التذييليَّةِ[٥].

- وإيثارُ صيغَةِ أمْرِ الغائبِ وإسنادُها إلى المؤمنينَ- حيثُ جاء الأَمْرُ بالتوكُّلِ بصِيغَةِ الغائِبِ ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وليس بصِيغَةِ الخِطابِ، فلم يقُلْ: (تَوكَّلوا) بعد قولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾- لإيجابِ التوكُّلِ على المُخاطَبينَ بالطَّريقِ البُرْهانيِّ، وللإيذانِ بأنَّ ما وُصِفُوا به عند الخِطابِ مِن وَصْفِ الإيمان داعٍ إلى مَا أُمِرُوا بِهِ من التَّوَكُّل والتَّقْوى؛ وازعٌ عن الإخلالِ بهما، ولأجلِ الفاصِلَةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤).

وإشعارًا بالغَلبةِ، وإفادةً لعُمومِ وصْفِ الإيمانِ[١]. وهذا أيضًا التفاتٌ من الخِطابِ إلى الغَيبةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣- ١٤).

الآيات (١٢ - ١٤)

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿نَقِيبًا﴾: ضَمينًا وأمينًا، وشاهدًا، أو كفيلًا، وسُمِّيَ نقيبًا؛ لأنَّه يَعْلَمُ دخيلةَ أمْرِ القَوْمِ، ويَعْلَم مناقِبَهم(١).

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾: أي: نَصَرْتُموهم وأَعَنْتُموهم وقوَّيتُموهم، أو عَظَّمْتُموهم، والتَّعزيرُ: النُّصْرةُ معَ التَّعظيمِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١).

﴿وَأَقْرَضْتُمُ﴾: أي: أنْفَقْتُم في سبيلِ الله، والقَرْضُ: ما يُدفَعُ من المالِ بشَرْط ردِّ بَدلِه، وأَصْلُ القَرْضِ: القَطْعُ؛ ومنه سُمِّيَ القَرْض؛ فكأنَّه شيءٌ قد قَطَعْتَه مِن مالِكَ[١].

﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: قَصْدَ الطَّريقِ ووَسَطه، والسَّواء: الوَسَطُ، والسَّبيلُ الطَّريق[٢].

﴿نَقْضِهِم﴾: أي: نَبْذِهم إيَّاه بعدَ القَبولِ به، وتَرْكِهم العَمَلَ به، وأَصْلُ النَّقْضِ ضِدُّ الإبرامِ: وهو فكُّ تركيبِ الشَّيءِ وردُّه إلى ما كان عليه أوَّلًا؛ فنَقْضُ البِناءِ: هَدْمُه، ونَقْضُ المبرَم: حلُّه[٣].

﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾: طَرَدْناهم وأَبْعَدْناهم مِن رَحْمَتِنا، واللَّعْنُ: الطَّرْدُ والإبعادُ على سبيلِ السَّخَطِ[٤].

﴿خَآئِنَةٍ﴾: خِيانةٍ، أو جماعةٍ خائنةٍ منهم، أو خائنة بمعنى خائِن، كما يقال: رَجُلٌ طاغِيَة[٥].

﴿نَصَٰرَىٰٓ﴾: جمْع نصرانٍ ونصرانة، قيل: هو منسوبٌ إلى قريةِ نَصرة أو نصرانة، وهي قريةٌ نَزَلها عيسى عليه السَّلامُ، وقيل: كلمة النَّصارى في الأصل

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧١، ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩، ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٩، ٨٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩).

مأخوذةٌ مِنْ قَوْلِه: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ثم صار لازِمًا لهم بعدَ نَسْخِ شَريعَتِهم، وأصل (نصر): يدلُّ على إتيانِ خَيْرٍ وإيتائِه[١].

﴿حَظًّا﴾: نصيبًا مقدَّرًا، وَأصل (حظظ): النَّصِيبُ وَالْجَدُّ[٢].

﴿فَأَغۡرَيۡنَا﴾: هيَّجْنَا، أو أَلْزَمْنا، مِن غَرِيَ بكذا، أي: لَهِجَ به ولَصِقَ، وأصلُ ذلك من الغِراء، وهو ما يُلْصَقُ به[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه أخَذَ على مَن تقدَّمَ مِن أَسْلافِ اليَهودِ عهدًا مؤكَّدًا، وأقام عليهم اثْنَي عَشَرَ رئيسًا، يَتلقَّى كلُّ رئيسٍ ممَّن تحتَه المبايعةَ على السَّمْعِ والطَّاعةِ والوفاءِ بعَهْدِ الله تعالى، ويتولَّى توجيهَهم وحثَّهم على القِيامِ به، ومُطالَبَتَهم بذلك، ويُخْبِر تعالى أنَّه قال لبني إسرائيلَ: إنَّه معهم، لَئِنْ قاموا بما واثقَهم عليه، وذلك بأداءِ الصَّلاةِ كما ينبغي، ودَفْعِ الزَّكاة لمن يستحِقُّها، والإيمانِ برُسُلِ الله، ونَصْرِهم على أعدائِهم، والإنفاقِ في سبيلِ اللهِ تعالى ابتغاءَ رِضاه، فإنْ قاموا بذلك، فسيعفو اللهُ عن ذُنُوبِهم، وسيُدْخِلُهم جنَّاتٍ تَجْري الأنهارُ تحت أَشْجارِها وقُصورِها، ومَن كفَر وخالَفَ ذلك الميثاقَ، فقد ضلَّ وغَوَى عن الطَّرِيقِ القَويمِ.

ثم أَخْبَرَ تعالى أنَّه- بسببِ عَدَمِ وفائِهم بِعَهْدِهم، ونَقْضِهم الميثاقَ- طَرَدَهم مِن رَحْمَتِه، وجعَلَ قُلُوبَهم قاسيةً غليظةً لا تتأثَّرُ بالمواعِظِ، ولا خيرَ فيها؛ يُبدِّلونَ

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٨، ٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢ / ١٤)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣).

كلامَ الله في التَّوارة، وتركوا قَدْرًا كبيرًا مما ذُكِّرُوا به من الوَحْيِ متعمِّدينَ، ثم خاطَبَ اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنَّه لا يزالُ يَكْتَشِفُ من اليهودِ المكرَ والخديعةَ، والغَدْرَ والخيانَةَ، إلَّا قليلًا منهم؛ يُوفون بِعُهودِهم التي يُبْرِمونها، ثم أَمرَه أن يَعْفوَ عن إساءَةِ هؤلاءِ القَوْمِ، وأنْ يُعْرِضَ عنهم؛ إنَّ الله يُحِبُّ المحسنينَ.

ثم بيَّن تعالى أنَّه أَخَذَ أيضًا العَهْدَ والميثاقَ مِن الذين ادَّعَوْا أنَّهم نَصَارى بأنْ يُطِيعُوا اللهَ، ويتَّبِعوا رُسلَه، فتَرَكوا قَدْرًا كبيرًا مما ذُكِّروا به مِنَ الوَحْيِ متعمِّدينَ، فعاقبَهم الله أنْ جعَل بينهم التباغُضَ والكراهيةَ والشِّقاقَ إلى يوم القيامَةِ، وسوف يُخْبِرهم سبحانه في ذلك اليَوْمِ بما كانوا يَفْعَلونه في الدُّنيا، وسيُعاقِبُهم عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ بالوَفاءِ بعَهْدِه ومِيثاقِه، الذي أَخَذَه عليهم على لِسانِ عَبْدِه ورسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأَمَرَهم بالقيامِ بالحقِّ والشَّهادَةِ بالعَدْلِ، وذكَّرَهم نِعَمَه عليهم الظَّاهِرةَ والباطِنَةَ، فيما هداهم له من الحقِّ والهُدى؛ شرَعَ يُبيِّنُ لهم كيف أَخَذَ العُهودَ والمواثيقَ على مَن كان قَبْلَهم مِن أَهْلِ الكِتابينِ: اليهودِ والنَّصارى[1]، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

أي: قد أَخَذْنا على مَن تَقَدَّمَ مِن أَسْلافِ اليهودِ عَهدًا ثقيلًا مؤكَّدًا وغليظًا[2].

﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾.

أي: وأَقَمْنا عليهم اثْنَي عَشَرَ رئيسًا، موكولًا إليهم مُهِمَّةُ تَلقِّي مبايعَةِ مَن تَحْتَهم على السَّمْعِ والطَّاعَةِ؛ وفاءً بعهد الله تعالى، ومُهِمَّةُ تَوجيهِهم وحثِّهم على القيامِ به، ومُطالَبَتِهم به[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٣٤-٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٣٥-٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٩-١٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٩-١٧٠).

قال ابنُ عَطيَّة: (اختَلف المفسِّرون في كيفيَّة بَعْثة هؤلاءِ النقباءَ بعدَ الإجماع على أنَّ النقيب كبيرُ

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡ﴾.

أي: وقال اللهُ تعالى لبني إسرائيلَ: إنِّي مَعَكم بالحِفْظِ والعَوْنِ، والنَّصْرِ والتَّأييدِ[١].

ثم ذَكَر اللهُ عزَّ وجلَّ ما وَاثَقَهم عليه[٢]، فقال:

﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: واللهِ إنْ أدَّيتُم- يا مَعْشَرَ بني إسرائيلَ- الصَّلاةَ على نحوٍ مُستقيمٍ ظاهرًا وباطنًا، ودَفَعْتُم الزكاةَ إلى مُستحِقِّيها كما أَمرْتُكم[٣].

﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾.

أي: وإنْ صَدَّقْتُم رُسُلي فيما جَاؤُوكُمْ به مِنَ الوَحْيِ، وأَقَرَرْتُم وأَذْعَنْتُم وانْقَدْتُم لهم، دونَ تفريقٍ بينهم، ومنهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[٤].

﴿وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾.

القوم القائم بأُمورهم، الذي يُنقِّب عنها وعن مصالِحهم فيها) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧٠، ١٧٧).

قال ابن عاشور: (والظاهرُ أنَّ هذا القولَ وقَعَ وعدًا بالجزاء على الوفاء بالميثاق) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٦٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧٠-١٧١).

قال ابنُ عاشور: (وجملة ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾ الآية، استئنافٌ محض ليس منها شيءٌ يتعلَّق ببعض ألفاظ الجملة التي قَبلها، وإنَّما جمعهما العامل، وهو فِعل القول، فكِلتاهما مقول؛ ولذلك يَحسُنُ الوقفُ على قوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ﴾، ثم يستأنف قوله: ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى آخِره) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٤١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) ٦/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧١).

أي: وإنْ نَصَرْتُموهم على أَعْدائِهم[(١)].

كما قال اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا * لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٨-٩].

---

(١) اختار هذا القَوْلَ: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٢٤٤-٢٤٥)، وابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٦٦)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ١٤٢).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: مجاهدٌ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٣).

قال ابنُ جرير: (وأَوْلى هذه الأقوال- عندي في ذلك- بالصَّواب قولُ مَن قال: معنى ذلك: نصرتموهم، وذلك أنَّ الله جلَّ ثناؤه قال في سورة الفتح: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا * لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٨-٩] فالتوقيرُ: هو التعظيمُ، وإذا كان ذلك كذلك، كان القولُ في ذلك إنَّما هو بعضُ ما ذكَرْنا من الأقوال التي حَكيناها عمَّن حَكَيْنا عنه، وإذا فسَد أن يكونَ معناه التعظيمَ، وكان النصرُ قد يكون باليدِ واللِّسان؛ فأمَّا باليد فالذبُّ بها عنه بالسيف وغيرِه، وأمَّا باللِّسان فحُسن الثَّناء، والذَّبُّ عن العِرض- صحَّ أنَّه النصرُ؛ إذ كان النصرُ يحوي معنَى كلِّ قائلٍ قال فيه قولًا ممَّا حكينا عنه) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٤-٢٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (والتعزير: النَّصر؛ يُقال: عزَره مُخفَّفًا، وعزَّره مشدَّدًا، وهو مبالغةٌ في عزَره عزرًا إذا نَصَره، وأصلُه المنع؛ لأنَّ الناصرَ يمنع المعتدي على منصور) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٤٢).

قال الأزهري: (وقال أبو عبيدةَ في قولِه: ﴿وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾ قال: عظَّمتُموهم. وقال غيرُه: ﴿وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾: نَصرتُموهم. وقال إبراهيمُ بن السَّريِّ: وهذا هو الحقُّ، والله أعلم؛ وذلك أنَّ العزْر في اللُّغة: الردُّ، وتأويل عزرت فلانًا، أي: أدَّبته، إنما تأويله: فعلتُ به ما يَرْدَعه عن القبيح؛ كما أنَّ نكَّلت به تأويله: فعلتُ به ما يجب أن يَنكُل معه عن المعاودة؛ فتأويل ﴿عَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾ نَصرتموهم، بأنْ تردُّوا عنهم أعداءَهم، ولو كان التعزيرُ هو التوقيرَ لكان الأجودُ في اللُّغة الاستغناءَ به، والنصرة إذا وجبتْ، فالتعظيم داخلٌ فيها؛ لأنَّ نُصرةَ الأنبياء هي المدافعةُ عنهم، والذبُّ عن دِينهم وتعظيمهم وتوقيرهم) ((تهذيب اللغة)) (٢/ ٧٨).

واختار أنَّ التَّعزير هنا بمعنى: التَّعظيم والتوقير. الواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٣١١)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٢٥).

واختار كِلَا المعنيَيْن: الواحديُّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ١٦٦)، وابن عَطيَّة في ((تفسيره)) (٢/ ١٦٨)، وابنُ تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (١/ ٦٧).

﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

أي: وإنْ أَنْفَقْتُم في سبيلِ الله تعالى عن إخلاصٍ وصِدْقٍ؛ ابتغاءَ مَرْضاةِ الكريمِ الوهَّابِ، واحتسابًا لجزيلِ الأَجْرِ والثَّوابِ[١].

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

أي: لَئِنْ قُمْتُم بهذه الأُمُورِ التي افترَضْتُها عليكم، لأُغَطِّيَنَّ بعَفْوِي عنكم على ذُنوبَكم التي سَلَفَتْ منكم، ولا أُؤَاخِذُكم بها[٢].

﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾.

أي: وسأُدخِلُكم يومَ القيامَةِ جنَّاتٍ تَجري فيها الأنهارُ مِن تحت أَشْجارِها وقُصُورها[٣].

﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: فمَن خالَف هذا الميثاقَ المؤكَّدَ وجَحَدَه، فقد عَدَلَ عن طَريقِ الحقِّ الواضِحِ، وتاهَ عن الصِّراطِ المُستقيمِ[٤].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧١-١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦).
قال ابنُ عُثيمين: (قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أَجعلُها مُكَفَّرةً بالحسنات التي فُعِلَت، من إقامة الصَّلاة وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرُّسل وتعزيرهم، وإقراض الله قرضًا حسنًا؛ فالسيِّئات تُكَفَّر بهذه الحسنات) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧٤-١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٧-٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧٦).

مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾.

أي: فبِسَبَبِ عَدَمِ وفاءِ اليَهودِ بالعَهْدِ المؤكَّدِ الذي أُخِذَ عليهم؛ طَرَدْناهم مِنْ رَحْمَتِنا، وأَبْعَدْناهم عن الحقِّ والهُدى[1].

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفْسيرِ:

في قَوْلِه تعالى: ﴿قَٰسِيَةً﴾ قِراءتانِ[2]:

١- ﴿قَسِيَّةً﴾ بتَشْديدِ الياءِ من غير ألِفٍ، على وَزْنِ (فعيل)؛ للمبالغَةِ، وقيل: لإفادَةِ معنى التَّكريرِ، وهذا أبلغُ في الذَّمِّ والمَدْح من (فاعل)، وقيل: (قَسِيَّة)، أي: رَدِيئة، فتكون القُلُوبُ القَسِيَّةُ هي التي لَيْسَتْ بخالصةِ الإيمانِ، أي قد خالَطَها كُفْرٌ، فهي فاسِدَةٌ[3].

٢- ﴿قَٰسِيَةً﴾ بالأَلِف وتخفيفِ الياءِ، اسمُ فاعِلٍ مِن قَسَا يَقْسُو، والقلوبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٨-١٨٩).

(٢) قال ابن عثيمين: (﴿قَٰسِيَةً﴾ اسم فاعل، و(قَسِيَّة) صفة مُشبَّهة، والصفة المشبَّهة أغلظُ من اسْمِ الفاعِلِ؛ لأنَّها وصفٌ ملازِمٌ... فالصِّفَةُ المشبَّهة ملازِمَةٌ، إذَنْ [في] ﴿قَٰسِيَةً﴾... قِراءتان، وإذا كان في الآية قِراءتان، فالمعنى أنَّ الأمرينِ كِلاهما حاصلٌ؛ فهي قسيَّةٌ وهذا وصفُها الملازِمُ، وقاسية عند وجودِ ما يُوجِبُ لينَ القَلْبِ تقسو، والعياذ بالله؛ فهي قسيَّة وَصْفًا، قاسيةٌ فعلًا) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٩).

(٣) قرأ بها حمزةُ، والكسائيُّ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٣). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٢٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٢٤)، ((الكشف عن وجوه القراءات السبع)) لمكي (١/ ٤٠٨). ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٠٤).

القاسِيَةُ هي الغَلِيظةُ البائِنَةُ عن الإيمانِ، والتي نُزِعَت منها الرَّحمةُ والرَّأفة[١].

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾.

أي: وبِسَبَب عَدَمِ وفائِهم بالعَهْدِ المؤكَّدِ الذي أُخِذَ عليهم، عاقَبْناهم أيضًا بأنْ جَعَلْنا قُلُوبَهم ملازِمةً لِصِفَةِ القَسْوَةِ والغِلْظَةِ، مَنزوعًا منها الخَيْرُ، وإذا ما اتَّعَظوا؛ فإنَّه لا تُجْدِي فيهم المواعِظُ، وإذا تُلِيَتْ عليهم الآياتُ؛ فإنَّهم لا يَنْتَفِعونَ بها، فلا يُرغِّبُهم تشويقٌ، ولا يُرَهِّبُهم تخويفٌ[٢].

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾.

أي: إنَّ قَسْوَةَ قُلوبِهم جَعَلَتْهم يُحرِّفونَ كلامَ ربِّهم في التَّوراةِ التي أَنْزَلَها على نبيِّهم مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فتأوَّلوا كلامَه على غَيْرِ ما أَنْزَلَه، وحَمَلُوه على غيرِ مُرادِه، وقالوا عليه ما لم يَقُلْه تعالى وتَقدَّسَ[٣].

﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾.

أي: ونَسُوا نصيبًا مِن وَحْيِ الله تعالى، فضاعَ منهم، كما أنَّهم أَهْمَلوا- وتَركوا عن عَمْدٍ- نصيبًا منه، فلم يَعْمَلوا به؛ رَغبةً عنه، فضيَّعوا أمْرَ اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف عن وجوه القراءات السبع)) لمكي (١/ ٤٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٩-١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩٠-١٩١).

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

أي: ولا تزالُ- يا محمَّدُ- تكتَشِفُ وتشاهِدُ مِنَ اليَهودِ شيئًا ممَّا هم مُسْتَمِرُّونَ عليه مِنَ المَكْرِ والغَدْرِ، والخيانَةِ والخَديعةِ لك ولأصحابِك، إلَّا قليلًا من اليَهودِ قد سَلِموا من ذلك؛ فهم يُوفُونَ بِمَا عُوهِدُوا عليه[١].

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾.

أي: فتَجَاوَزْ- يا محمَّدُ- عن أولئك القَوْمِ، ولا تُؤاخِذْهم على ذلِك، وأَعْرِضْ عنهم[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: إنَّما أَمَرْناك بالعَفْوِ والصَّفْحِ عن أولئك القَوْمِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُحِبُّ عبادَه المُحسنينَ، الذين مِن إِحْسَانِهم العفوُ والصَّفحُ عمَّن أَسَاءَ إليهم[٣].

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾.

أي: وأَخَذْنا مِنَ الَّذينَ ادَّعَوْا أنَّهم نَصَارى يَنصرُون الحقَّ، ويتَّبِعُونَ المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ عليه السلام؛ أَخَذْنا عليهم العُهُودَ والمواثيقَ على طاعَتِي واتِّباعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥٢-٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥-٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦-٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩٥).

رُسُلِي[١].

﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾.

أي: فنَسُوا نَصيبًا مِن وَحْيِ اللهِ تعالى، فضاع منهم، كما أنَّهم أَهْمَلوا- وتَرَكوا عن عمدٍ- نصيبًا منه، فلمْ يعملوا به؛ رغبةً عنه، فضيَّعوا أَمْرَ اللهِ سبحانه[٢].

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

أي: لَمَّا ترَكَ هؤلاء النَّصارى الوَفَاءَ بعهْدِي، عاقَبْناهم بأنْ جَعَلْنا بينهم الشِّقاقَ والعَدَاءَ والتباغُضَ؛ بالأَهواءِ التي حدَثتْ بينهم، واختلافِهم في قَوْلِهم في المسيحِ، فتَسَلَّط بعضُهم على بعضٍ، فكَفَّرَ بَعْضُهم بعضًا، ولعَن بَعْضُهم بعضًا، ولا يزالونَ كذلك إلى قِيامِ السَّاعَةِ[٣].

﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾.

أي: وسوف يُخْبِرُهم اللهُ عزَّ وجلَّ -عند وُرودِهم عليه في مَعادِهم- بما كانوا يَعْمَلونه في الدُّنيا مِنْ نَقْضِهم ميثاقَه، ونَكْثِهم عَهْدَه، فيُعاقِبُهم على ذلك بحَسَبِ استحقاقِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥٧-٢٦١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٣-٢٠٤).

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أنَّه ينبغي للنَّاسِ أن يتَّخِذوا نُقَبَاءَ يرجعونَ إليهم في أُمُورِهم؛ عند النِّزاع يكونونَ مُصلِحين، وعند الإِشكالِ يكونون مُوَضِّحينَ، وما أشبهَ ذلك[١].

٢- وُجوبُ نُصْرَةِ الرُّسُلِ؛ لقوله: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، فنُصْرَتُهم في حياتهم أن يكونَوا معهم في الجهادِ والدِّفاعِ، وغير ذلك، ونُصْرَتُهم بعد وَفاتِهم أن يَنصُروا شَرَائِعَهم ويُقِيمُوها بين النَّاسِ، فواجِبٌ علينا نحن الآن أن نَنْصُرَ شريعةَ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّمَ[٢].

٣- أنَّه يُبْدَأُ بالنَّجاةِ مِنَ المرْهوبِ قبل بيانِ حُصُولِ المَطْلوبِ؛ لِقَوْلِه: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾، وهو شاهدٌ لِمَا اشْتَهَرَ عند العُلماءِ أنَّ التَّخْلِيَةَ قَبل التَّحْلِيَة، أي: إزالةُ الشَّوائِبِ والعوائِقِ قبل أن يَحصُلَ المَطْلوبُ[٣].

٤- قَوْله: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فيه أنَّ المؤمِنَ اهتدى إلى سواءِ السَّبيلِ؛ أي: وَسَطَها دُونَ حافتَيْها، وجهُ ذلك: أنَّه إذا ثَبَتَ في حُكم الكافِرِ ضلالُ سواءِ السَّبيلِ، فَيَثْبُتُ ضدُّ حُكْمِه للمُؤْمِنِ؛ وذلك لأنَّه إذا تضادَّتِ الأَعْمالُ تضادَّتِ الجزاءاتُ[٤].

٥- يُستَفادُ من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ أنَّ للقُلوبِ أحوالًا: قسوةً ولينًا، وأنَّه كلَّما عصى الإنسانُ ربَّه قَسَا قلبُه، وعلى العكس: كلَّما أطاعَ الإنسانُ ربَّه لانَ قلبُه، وما أكثرَ الذين يَطلُبون أن تلينَ قلوبُهم، ويسألونَ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٦).

هو الدواءُ لقَسْوَةِ القَلْبِ؟ فالجوابُ أنَّ الدَّواءَ لقَسْوَةِ القلب: كثرةُ طاعَةِ الله عزَّ وجلَّ[١]، والإكثارُ مِن الذِّكْرِ، وقراءةُ القرآنِ بتدبُّر.

٦- أنَّ المعاصِيَ سببٌ لقلَّة فَهْم كلام الله عزَّ وجلَّ، أو للعُدْوانِ في فَهمِه؛ لقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، وتحريف الكَلِم عن مواضعه: إمَّا أن يكون سببُه الجهلَ وفَقْدَ العِلم، وإمَّا أن يكون سببُه الاستكبارَ والعدوان، فالمعاصِي سببٌ لعَدَمِ الأخْذِ بالنُّصوصِ، وسببٌ لتَحْريفِها[٢].

٧- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أنَّ قسوةَ القلبِ، وتحريفَ الكَلِم عن مواضعه، ونِسيانَ ما ذُكِّرَ به الإنسانُ؛ مِن خصالِ اليهودِ، وإذا كانتْ من خِصالِهم، فالواجبُ على الإنسانِ أن يبتَعِدَ عنها، وأن يَفِرَّ منها فِرارَه مِنَ الأَسَدِ[٣].

٨- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ حُسْنُ معامَلَةِ الإسلام لعدوِّه، وذلك حين أَمَرَ اللهُ بالعفو عنهم والصَّفْح، ولا سيَّما إذا ظَهَرَ النَّصْرُ لنا، فحينئذٍ يأتي دورُ العَفْوِ؛ لأنَّ العَفْوَ الحقيقيَّ الذي يُمدَحُ عليه صاحِبُه، هو: العَفْوُ مع القُدْرَةِ، أمَّا العَفْوُ مع العَجْزِ، فهذا ليس بِعَفْوٍ، ولا يُحمَدُ عليه الإنسانُ[٤].

٩- قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هذا كالتَّعليلِ لِمَا سبَق مِنْ قَوْلِه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾، أي: إنَّما أَمَرْناك بالعَفْوِ والصَّفْحِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يحبُّ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩٩).

المحسنينَ، وفيه أيضًا أنَّه إذا كان اللهُ يُحِبُّ ذلك فلا ينبغي التأخُّرُ في العَمَلِ به، وفيه الحثُّ على الإِحْسانِ ومَكارِمِ الأخلاقِ الجالِبةِ لحبِّ الله تعالى[١].

١٠- أنَّ عدَمَ المؤاخَذةِ على الذَّنبِ من الإحسانِ؛ لقوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٢].

١١- أنَّ إضاعةَ حقِّ اللهِ مِن أسبابِ إلْقاءِ العَداوةِ والبَغْضِاءِ بين الناس، بمعنى أنَّك متى وجدْتَ عداوةً وبَغْضاءَ بين النَّاس، فهذا بسببِ إعراضِهم عن دِين اللهِ؛ لقوله: ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۖ فَأَغۡرَيۡنَا﴾، فالفاءُ في ﴿فَأَغۡرَيۡنَا﴾ للسَّبَبيَّةِ، والعكْسُ يكون بالعَكْسِ، بمعنى أنَّ النَّاسَ إذا قاموا بِطاعَةِ اللهِ واتَّفَقوا عليها، فإنَّ اللهَ يُلقي بينهم المودَّةَ والمحبَّةَ والولايةَ[٣].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أنَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ مفروضةٌ على الأُمَمِ السَّابقة؛ لِقَوْلِه: ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، فالصَّلواتُ والزَّكوات مفروضةٌ، لكن لا يَلْزَمُ مِن كَوْنِها مفروضةً أن تكونَ مماثِلَةً لِمَا وجَبَ علينا في الكيفيَّةِ والوَقْتِ والمقدار[٤].

٢- بيانُ فَضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ على العِبادِ؛ حيث إنَّه يُعْطِيهم الرِّزْقَ، ثمَّ يقولُ تعالى: ﴿وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾، وهو المُعطي أولًا، والمثيبُ ثانيًا؛ لقوله: ﴿وَأَقۡرَضۡتُمُ﴾، والحكمةُ في التَّعبيرِ عن الإِنْفاقِ في سبيلِ الله بالقَرْضِ، أنَّ اللهَ جعَلَ الإنفاقَ في سبيلِه بمنزلَةِ القَرْضِ الذي يَلْزَم المُستَقْرِضَ أنْ يُوَفِّيَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٥، ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٤).

٣- قوْلُه تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ إشارةٌ إلى إزالةِ العِقابِ، وقولُه: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾ إشارةٌ إلى إيصالِ الثَّوابِ؛ فجَمَعَ لهم بين حصولِ المحبوبِ بالجَنَّةِ وما فيها من النَّعيمِ، واندفاعِ المكروهِ بتكفيرِ السيِّئاتِ، ودفْعِ ما يترتَّبُ عليها من العُقوباتِ[١].

٤- أنَّ نعيمَ الجنَّة نعيمٌ للنَّفْسِ والقَلْب، والسَّمْعِ والبصر، وكلِّ شيءٍ، وذلك حينما ذكَر أنَّ هذه الجَنَّاتِ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وهذا لا شَكَّ أنه يُطْرِبُ السَّمْعَ، فحفيفُ جَريانِ النَّهْرِ يُطْرِبُ السَّمع؛ ولهذا تَجِدُ الإنسانَ يقِفُ عند الشلَّالاتِ متمتِّعًا بالاستماعِ إليها، وكذلك النَّظَر أيضًا، وكذلك القَلْبُ، والنَّفْسُ تستريحُ[٢].

٥- في هذه الآيَةِ ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ لطيفةٌ جليلةٌ، وهي أنَّ الضلالَ بعدَ الإيمانِ أظهَرُ وأعظَمُ؛ لأنَّ الكُفْرَ إنَّما عَظُم قُبْحُه لِعِظم النِّعْمَةِ المكفورةِ، فإذا زادتِ النعمةُ زاد قُبحُ الكُفرِ، وبَلَغ النِّهايةَ القُصْوى[٣].

٦- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ التَّنبيهُ على أنَّ الغالِبَ أنَّ وَسَطَ السَّبيلِ والطَّريقِ هو الحقُّ؛ لأنَّ ﴿سَوَآءَ﴾ بمعنى وَسَط؛ كَقَوْله تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]، أي: في وسَطِها ومستقَرِّها، وهذا هو الغالِبُ؛ أنَّ ما تَطرَّفَ عن الوَسَطِ، فهو ضلالٌ[٤].

٧- قوْلُه تعالى: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا﴾: عبَّر بالماضي ﴿نَسُوا﴾؛ لأنَّ النِّسيانَ لا يتجَدَّدُ، فإذا حَصَلَ مضى، حتى يذكِّرَه مذكِّرٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٤٤).

٨- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ﴾ أنَّ النِّسيانَ يأتي لمعنيينِ: الأوَّل: النِّسيان العَمليُّ، ومعناه التَّرْك، والثَّاني: النسيانُ العِلميُّ، وهو النسيان بعدَ الذِّكْر، والمرادُ مِنَ الآيَةِ كِلاهما(١).

٩- أنَّ هؤلاء قد أُقيمَتْ عليهم الحُجَّة، ولكنَّهم ترَكوا العَمَلَ بعد إقامَةِ الحُجَّةُ؛ لقوله: ﴿مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾(٢).

١٠- أنَّ خِيانةَ اليَهودِ لا تزالُ باقيةً؛ لِقَوْلِه: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، وفي ذلك تسليةٌ له صلَّى الله عليه وسلَّمَ(٣)، وإرشادٌ للمُسلمين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ألَّا يَنخْدِعوا بهم.

١١- إثباتُ المحبَّةِ لله تعالى؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ومحبَّةُ الله عزَّ وجلَّ ثابتةٌ بالكِتابِ والسُّنة وإجماعِ السَّلَفِ(٤).

١٢- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ وكذلك من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وقَوْلِه: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾، أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لم يُغْفِل أُمَّةً من الميثاقِ الذي أخَذَه عليهم؛ فأخَذَ الميثاقَ على اليهودِ، وأخَذَه على النَّصارى، وأخَذَه على هذه الأُمَّة؛ بل أخَذَه على جميعِ بني آدمَ(٥).

١٣- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ التفريقُ بين العَداوَةِ والبَغضاءِ، العداوة: ضِدُّها الوَلاية، والبَغضاء: ضدُّها المحبَّةُ، وهناك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩١).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٤).

فرقٌ بين حبيبٍ ليس وليًّا وبين حبيبٍ هو وَلِيٌّ، وبين بغيضٍ ليس عدوًّا، وبغيضٍ هو عدوٌّ؛ لأنَّ البَغيضَ قد يَعتدي عليك فيكون بذلك بَغيضًا عدوًّا، وقد لا يَعتدي عليك، ولكن يَكْرَهُك فقط، فلا يكون عدوًّا[١].

١٤- الردُّ على الجبريَّة؛ لقوله: ﴿يَصْنَعُونَ﴾، فأضافَ الفعلَ إليهم، والأَصْلُ أنَّ الفِعْلَ إذا أُضيف إلى أحدٍ، فإنَّه قائمٌ به، مختار له، والجَبْرية يقولون: إنَّ الإنسانَ مجبَرٌ على عَمَلِه، حتى في الحرَكاتِ الإراديَّةِ، يقولون: هو مُجبَر، حتى لو أراد الإنسانُ أن يأكلَ أو يشربَ، يقولون: هو مُجبَرٌ على ذلك، ولا شكَّ أنَّ قَوْلَهم هذا يُخالِفُ المحسوسَ والمعقولَ والمنقولَ[٢].

بلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ...﴾

- قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فيه تأكيدُ الخَبَرِ الفِعلي والاهتمامُ به؛ فـ (قَدْ)؛ للاهتمام به، والقَسَمُ الذي دلَّت عليه هذه اللَّامُ الموطِّئة يُفيدُ أنَّ اللهَ تعالى قد أخَذ العهد الموثَّقَ على بني إسرائيلَ لَيَعْمَلُنَّ بالتَّوراةِ التي شرَعها لهم؛ لإفادَةِ تأكيدِ هذا الأَمْرِ وتحقيقِه، والاهتمامِ بما رُتِّب عليه؛ لأنَّ الرَّسولَ قد عُلِّمَه بالوَحْيِ الإلهيِّ، وإنْ لم يَطَّلِعْ على تَوْراتِهم، ولا على شَيءٍ من تاريخِهم[٣].

- ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾: ذكَر الله سبحانه نَفْسَه بالغَيبة؛ تعظيمًا وتكبيرًا له جلَّ وعلا، وَجْهُه أنَّه لم يقُل: (وَلَقَدْ أَخَذْنَا)، وهذا كما يقول الملكُ لجنوده:

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٩).

إنَّ المَلِك يأمرُكم أن تَفْعلوا كذا، لا يقول: إنِّي آمُرُكم، فإظهارُ الاسْمِ الجليل (ٱللَّهُ)؛ لتربيةِ المهابة، وتفخيمِ الميثاقِ، وتهويلِ الخَطْبِ في نَقْضِه، مع ما فيه من رِعاية حقِّ الاستئنافِ المُستدعِي للانقطاعِ عمَّا قَبْلَه[١].

٢- **وقوله**: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾: فيه التفاتٌ، حيث عبَّر بقوله: ﴿بَعَثْنَا﴾ بعد ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾، ولم يقل: (وأَخَذْتُ)؛ للجَري على سَنَنِ الكِبْرياءِ، وقيل: لأنَّ البَعْثَ كان بواسِطَة موسى عليه السَّلام[٢]، فمِن أساليبِ البلاغة الانتقالُ من أسلوبٍ إلى آخَرَ؛ لتنبيهِ المخاطَب، ولا شكَّ أنَّ تغيُّر الأسلوبِ يُوجِبُ الانتباهَ[٣].

- وفيه: تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنْهُمُ﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿ٱثْنَىْ عَشَرَ﴾؛ للاهتمامِ بالمقدَّم، والتَّشويقِ إلى المُؤَخَّر[٤].

٣- وقوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ **فيه**: التفاتٌ أيضًا؛ حيث لم يقُل: (وقُلْنَا) كما قال ﴿وَبَعَثْنَا﴾، وفائدتُه: تربيةُ المهابةِ، وتأكيدُ ما يتضمَّنُه الكلامُ مِنَ الوَعْدِ[٥].

٤- قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾ **فيه**: تقديمُ الصَّلاةِ والزَّكاةِ على الإيمانِ؛ تشريفًا لهما، وقد عُلِمَ وتَقرَّر أنَّه لا ينفعُ عَمَلٌ إلَّا بالإيمانِ[٦]، وأخَّرَ الإيمانَ بالرُّسُلِ عن إقامِ الصَّلاة وإيتاءِ الزكاة، مع أنَّه مقدَّمٌ عليهما؛ لأنَّ اليهودَ كانوا مُقرِّينَ بأنَّه لا بدَّ في حُصولِ النَّجاة من إقامِ الصَّلاةِ وإيتاء الزكاة، إلَّا أنَّهم كانوا مُصِرِّين على تكذيبِ بعضِ الرُّسُل، فذَكَر

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٠٣).

أنَّ بعدَ إقام الصلاة وإيتاء الزكاة لا بدَّ من الإيمانِ بجميعِ الرُّسُل؛ حتى يحصُلَ المقصودُ، وإلَّا لم يكُن لإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزكاة تأثيرٌ في حُصولِ النَّجاة بدونِ الإيمانِ بجميع الرُّسُل[١].

٥- قوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فيه: تخصيصُ الإنفاقِ (الإقراض) بالذِّكْرِ؛ تنبيهًا على شَرفِه وعُلُوِّ مَرتَبَتِه[٢].

- وفائدةُ إعادَةِ قَوْلِه: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالرَّغمِ من أنَّه داخلٌ تحتَ إيتاءِ الزَّكاة؛ لأنَّ المرادَ بالزكاةِ الواجبةُ وبالقرضِ الصَّدقةُ المندوبةُ، وخصَّها تنبيهًا على شَرفِها، وقد نبَّه على الصَّدقاتِ المَندوبَةِ بذِكْرها فيما يترتَّبُ على المجموعِ تشريفًا وتعظيمًا لمَوْقِعِها من النَّفْعِ المتعدِّي[٣].

٦- **قوله**: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾: فيه إيجازٌ بديعٌ، وبيانُ ذلِك: أنَّ العَداوةَ والبغضاءَ اسمانِ لمعنَيينِ مِن جِنسِ الكَراهيةِ الشَّديدةِ؛ فهُمَا ضِدَّانِ للمحبَّةِ، وظاهِرُ عطفِ أَحدِ الاسمينِ على الآخَرِ في القُرآنِ أنَّهما ليسَا من الأسماءِ المترادِفةِ؛ لأنَّ التزامَ العَطفِ بهذا الترتيبِ يَبعُد أنْ يكونَ لمجرَّدِ التأكيد؛ فإذا كان كذلك لم يَصِحَّ اجتماعُ مَعنيي العَداوةِ والبغضاءِ في موصوفٍ واحدٍ في وقتٍ واحدٍ؛ فيتعيَّن أنَ يكونَ إلقاؤُهما بينهما على معنى التَّوزيعِ، أي: أغَرْينا العداوةَ بين بعضٍ منهم والبغضاءَ بين بعضٍ آخَرَ؛ فوقَع في هذا النظم إيجازٌ بديعٌ؛ لأنَّه يرجِع إلى الاعتمادِ على عِلْمِ المخاطَبين بعدَم استقامةِ اجتماعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٦١).

المعْنَيَيْنِ في موصوفٍ واحدٍ؛ إذ إنَّ بين مَعْنَيَي العداوة والبغضاءِ التضادَّ والتبايُنَ؛ فالعداوةُ كراهيةٌ تَصدُر عن صاحِبِها: معاملةٌ بجَفاء، أو قطيعةٌ، أو إضرارٌ؛ لأنَّ العداوةَ مشتقَّةٌ من العَدْوِ، وهو التجاوُز والتباعُدُ. وأمَّا البغضاءُ فهي شدَّةُ البُغْضِ والكراهية، غيرَ مصحوبةٍ بعَدْوٍ، فهي مُضْمَرَةٌ في النَّفْسِ[١].

٧- **قوله:** ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾: خبرٌ فيه توبيخٌ لهم وزجرٌ عمَّا ادَّعَوْه مِن أنَّهم ناصِرو دِينِ الله وأنبيائِه؛ إذ جَعَل ذلك منهم مُجرَّدَ دَعوى لا حقيقة[٢].

- وفيه تعريضٌ؛ حيث يُفيدُ لفظُ ﴿قَالُوٓاْ﴾ بطريقِ التَّعريضِ الكِنائيِّ أنَّ هذا القولَ غيرُ مُوَفًّى به، وأنَّه يَجِبُ أن يُوفَّى به[٣].

٨- قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾: فيه تأكيدُ الكلامِ وتمكينُه في النَّفْسِ بذِكر (مَا)[٤].

٩- قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ التعبيرُ بصِيغة المضارِعِ في قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ﴾؛ للدَّلالة على التجدُّدِ والاستِمْرارِ[٥].

- والجملةُ استئنافٌ لِبَيانِ قَسْوةِ قلوبِهم؛ فإنَّه لا قسوةَ أشدُّ من تغييرِ كلامِ الله سبحانه وتعالى والافتراءِ عليه[٦]، وقيل: حالٌ من مفعول ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾، أي: لعنَّاهم حالَ كونِهم محرِّفين الكَلِم[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٤٧، ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦).

١٠- قوله: ﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾: فيه تأكيدُ الوعيدِ بذِكْرِ كلمةِ (سَوْفَ). والالتفاتُ إلى ذِكر الاسمِ الجليلِ (الله)؛ لتربيةِ المهابَةِ، وإدخالِ الرَّوعةِ؛ لتشديدِ الوعيدِ بعذابِ الآخِرَةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥٠).

الآيتان (١٥ - ١٦)

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾: طُرُقَ السَّلامَة، أو طُرُقَ الجَنَّة، أو طُرُقَ الله، وهي دِينُه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُوجِّه اللهُ الخِطابَ إلى أهْلِ الكتابِ منَ اليهودِ والنصارى مُبيِّنًا لهم أنَّه قد بعَث إليهم رَسُولَه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم الذي يَعرِفونَ أوصافَه في كتُبِهم، يُظْهِرُ كثيرًا ممَّا كانوا يُخْفُونه عن النَّاسِ، ويوضِّحُ ما حرَّفوا وبدَّلوا مِن كلامِ الله، ويَتْرُكُ كثيرًا ممَّا غيَّروه وكَتَموه ممَّا لا فائدةَ مِن بيانه وذِكْرِه، ثم ذَكَّرَهم تعالى بأنَّه قد جاءَهم من اللهِ كتابٌ عظيمٌ، وهو القرآنُ الكريمُ، وهو نورٌ يُستضاءُ به في ظُلُماتِ الجَهْلِ والغَواية، ويبيِّن للخَلْقِ كلَّ ما يحتاجونَه من أمورِ دِينِهم ودُنياهم، ويُرشِدُ اللهُ به مَن أرادَ الوصولَ إلى رِضاه جلَّ وعلا، فيوفِّقُهم لسُلُوكِ طُرُقِ النَّجاةِ والأمْن والسَّلامَةِ في الدُّنيا والآخِرَةِ، حتى يَبلُغوا الجَنَّةَ؛ دارَ السَّلامِ، ويُخرجُهم من ظُلُماتِ الكُفْرِ والمعاصي إلى نورِ الإيمانِ والطَّاعة بمشيئَتِه سبحانه، ويَهديهم إلى الطَّريقِ القَويمِ، وهو دِينُه الحَنيفُ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٥)، ((المفردات)) للرغب (ص: ٣٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عن اليَهُودِ والنَّصارى نقْضَ العَهْدِ، ودَحَضَ حُجَّتَهم، ووَضَّحَ أُكْذُوبَتَهم من ادِّعائِهم أنَّهم ﴿أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ اقتضى ذلك الالتفاتَ إلى وعْظِهم على وَجْهِ الامتنانِ عليهم، وإبطالِ ما عساهم يَظنُّونه حُجَّةً، فدَعاهم إلى الإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[1]، فقال:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا ﴾.

أي: يا أيُّها اليهودُ والنَّصارى- يا من تَعلمونَ مِن التَّوراةِ والإنجيلِ صِفاتِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وثُبوتَ بَعْثتِه- ها قد أتاكم مُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[2].

﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾.

أي: جاءَكم يُظْهِرُ كثيرًا ممَّا كنتم تَكتُمونَه عن النَّاسِ، ويُوضِّحُ ما بدَّلْتُموه وحرَّفْتُموه وأوَّلْتُموه على غيرِ وَجْهِه المُرادِ.

وممَّا كانوا يُخفونَ مِنْ أَحْكامِ التَّوراةِ: رجْمُ الزَّاني المحصَن، ومِن ذلك: ما أخفاه اليهودُ من صِفاتِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ في كتابِهم، وإنكارُهم أنَّهم يَعرفونَ أنَّه هو الرسولُ المُنتظَرُ، ومن ذلك: كتْمُ النَّصارى بِشارةَ عيسى ابنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦١-٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٦).

مريمَ لهم بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[١].

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾.

أي: ويَترُكُ ذِكرَ كثيرٍ ممَّا كَتَمْتموه وغيَّرْتُموه ممَّا لا فائدةَ في بيانِه، ولا ذِكْره[٢].

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: قد جاءَكم- يا أهلَ التَّوراةِ والإنجيلِ- مِنَ اللهِ تعالى القرآنُ العظيمُ، الذي نزَل على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ نورٌ يُستضاءُ به في ظُلماتِ الجَهالة، وعَمَايَةِ الضَّلالة، ويُنيرُ لكم به معالمَ الهِدايَةِ، وهو نورٌ في قلوبِ أَهْلِه المتَّبِعِينَ له، ونورٌ في وُجُوههم، ونورٌ في قُبُورِهم، ونورٌ لهم يومَ القيامَةِ، وهو كتابٌ يُبيِّنُ للخَلْقِ كلَّ ما يحتاجونَ إليه من أُمُورِ دِينِهم ودُنياهم[٣].

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٧٠-٣٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٧-٢٠٨، ٢١٢-٢١٣).

وذهَب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المرادَ بقوله: ﴿نُورٌ﴾ محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقال به قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٢٩).

أي: يُرشِدُ اللهُ عزَّ وجلَّ ويُسدِّدُ بهذا القرآنِ العظيمِ، مَن ابتغى بلوغَ مَرْضاةِ الله تعالى فأَقْبَل عليه، وأسلمَ وآمَنَ بالله ربًّا، وبمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ نبيًّا، فيُرْشِدُه ويوفِّقُه إلى اتِّباع شرائعِ الإسلامِ، التي فيها النَّجاةُ والأمنُ والسَّلامةُ في الدُّنيا والآخِرة، حتى يَستقرَّ في الجَنَّةِ؛ دارِ السَّلامِ، المنزَّهةِ عن كلِّ آفةٍ، والمُؤمَّنَةِ مِن كلِّ مَخافةٍ[١].

﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

أي: ويُخْرِجُ مَن اتَّبَعَ رِضوانَه، وهَدَاه سُبُلَ السَّلامِ، مِن ظُلُماتِ الكُفرِ والشِّركِ والمعاصِي، إلى نورِ الإيمانِ واليقينِ والطَّاعَةِ بمشيئةِ الله عزَّ وجلَّ[٢].

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: ويُرشِدُهم ويُسدِّدُهم إلى طريقٍ لا اعوجاجَ فيه، وهو دِينُ اللهِ القَويمُ[٣].

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّه كلَّما اتَّبَعَ الإنسانُ ما يُرْضي اللهَ، ازدادَ معرفةً بشريعةِ اللهِ؛ لِقَوْلِه: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾، وعلى العَكْسِ؛ فمَن أعْرَضَ عن رِضوانِ الله، فإنَّه لا يُهدَى سُبُلَ الله؛ لأنَّه ليس أهلًا للهِدايةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٤-٢٦٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ١١٨-١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٧٠-٣٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٩-٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢١٥).

٢- يُستفاد مِن قَوْلِه سبحانه: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أنَّ مَن سلكَ سَبيلَ الشريعةِ فقد سَلِم سلامةً مُطلَقةً؛ في عقيدَتِه، وأعمالِه، وجزائِه؛ لأنَّ هذا المسلكَ سيؤدِّي به إلى دارِ السَّلامِ التي يدعو اللهُ تعالى إليها؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[١] [يونس: ٢٥].

٣- أنَّه كلَّما تمسَّكَ الإنسانُ بشريعةِ الله هداه اللهُ تعالى؛ لقوله: ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ فالمعاصي سببٌ للزَّيْغِ، والطَّاعةُ والامتثالُ سببٌ للهِدايَةِ والرَّشَد، وهذا له أمثلةٌ كثيرة في القرآنِ[٢].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- قوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ عبَّر بالمضارعِ في ﴿يُبَيِّنُ﴾ إشارةً إلى أنَّ دِينَه وبيانَه لا ينقَطِعُ أصلًا بحِفْظِ كِتابِه، فكلَّما دَرَسَتْ سُنَّةٌ قيَّضَ الله عالِمًا يردُّ النَّاسَ إليها بالكِتابِ المعْجِز القائِمِ أبدًا؛ فلذلك لا يحتاجُ الأمْرُ إلى نبيٍّ مجدِّدٍ إلَّا عند الفِتنَةِ التي لا يُطيقُها العلماءُ، وهي فتنةُ الدَّجَّالِ ويأجوجَ ومَأْجوجَ[٣]، وينزلُ عيسى عليه السَّلامُ حاكمًا بشريعةِ الإسلامِ، لا نبيًّا برسالةٍ مستقلةٍ، وشريعةٍ ناسخةٍ[٤].

٢- قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: هم اليهودُ والنَّصارى، أضافَهم اللهُ تعالى إلى الكِتابِ، وسمَّاهم أهلًا له؛ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم ونَفْيِ العُذْرِ؛ فعندهم علمُ معرفةٍ؛ ويعرِفونَ الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم كما يعرِفون أبناءَهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٢١).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٧٠).
(٤) ينظر: ((طرح التثريب)) للعراقي (٧/ ٢٦٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٦).

٣- رِفْعةُ شأنِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ وذلك لِقَوْلِه: ﴿رَسُولُنَا﴾، فإنَّ إضافةَ رِسالَتِه إلى الله لا شكَّ أنَّها شَرَفٌ، وكلُّ ما يُضافُ إلى الله فهو شَرَفٌ[١].

٤- أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ مُرسَلٌ إلى أهلِ الكتابِ؛ لِقَوْلِه: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾، وهو كذلك، فهو مُرْسَلٌ إليهم بالقرآنِ والسُّنةِ وإجماعِ المسلمين[٢].

٥- أنَّ أهلَ الكتابِ أهلُ كِتمانٍ للعِلم؛ لقوله: ﴿كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وأنَّ مَن كتَم العِلْمَ مِن هذه الأمَّة ففيه شَبَهٌ باليهودِ والنَّصارى؛ لأنَّ هذا هو دَأْبُهم؛ فمَن كتَم فقد شابَهَهم في أَقْبَحِ خَصلة- والعياذُ بالله- وهي كتمانُ ما جاءَهم مِنَ العِلْم[٣].

٦- قوْلُه تعالى: ﴿مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ...﴾ في هذه الآيَةِ دلالةٌ على صِحَّةِ نُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ إعلامَه بما يُخفونَ مِن كِتابِهم- وقد أخْفَى النَّصارى التوحيدَ، وأخفى اليهودُ كثيرًا من أحكامِ الشَّريعةِ كرَجْمِ الزَّاني، وتحريمِ الرِّبا كافَّةً، كما أَخْفَوا جميعًا خبرَ بَعْثةِ النبيِّ الأميِّ- وهو أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يَكتُب ولا يَصْحَبُ القرَّاءَ؛ دلالةٌ على أنَّه إنما يُعلِّمُه اللهُ تعالى[٤].

٧- قوله: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ لم يَقُلْ: (سَبِيْلَ السَّلام)، مع أنَّ التعبيرَ الغالب أنه يُعبَّر عن طَريقِ الإسلامِ بالإفراد، وعن طُرُقِ الضلال بالجَمْع، لكن هنا لَمَّا قال: ﴿ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ تعيَّن أن يكونَ المرادُ بالسُّبُل هنا شرائعَ الإسلامِ؛ لأنَّه إذا كان متَّبِعًا لرضوان الله فقدِ اهتدى وأسلَمَ وآمَن، لكنَّ الإسلامَ له شرائعُ وله سُبلٌ؛ فلهذا قال: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾، وإضافةُ السُّبل إلى السَّلام من بابِ إضافةِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦).

الشيءِ إلى مُسبَّبِه؛ أي: السُّبلُ التي يَحصُل بها السَّلامُ، فالسَّلام مِن كل شيءٍ، والسَّلامُ من النَّار، والسَّلام من الزيغ، والسَّلام من الشُّبهات، يعني تشمَلُ كلَّ معنًى تحتمِلُه كلمة السَّلام، أمَّا الإسلامُ جملةً فهو سبيلٌ واحد(١).

٨- إثباتُ الرِّضا لله تعالى؛ لقوله: ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾، فالرِّضوانُ بمعنى الرِّضا أو الرِّضا الكثيرِ، والرِّضا: صِفةٌ فعليَّة من صِفاتِ الله عزَّ وجلَّ، تتعلَّق بمشيئته ولها سببٌ، وسببُها عملُ العبدِ بتوفيقِ الله(٢).

٩- قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ فيه الردُّ على القَدَريَّة الذين يقولون: إنَّ اللهَ لا علاقةَ له بفِعل العَبْدِ(٣).

١٠- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ ﴾ أنَّ الشَّريعةَ نورٌ، وهي كذلك؛ هي نورٌ لا شكَّ، ولا يُحِسُّ بذلك إلَّا مَن آتاه الله تعالى إيمانًا ويقينًا كاملًا، وكلَّما كَمُل الإيمانُ ازدادَ الإنسانُ نورًا، وتَبيَّنَ له نورُ الشَّريعة(٤).

١١- قوْلُه تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لفظة ﴿صِرَٰطٍ ﴾ مُفرَدةٌ؛ لأنَّ الحقَّ واحدٌ لِذَاتِه، ومُتَّفِقٌ من جميعِ جِهاتِه، وأمَّا الباطِلُ ففيه كثرةٌ، وكلُّها مُعْوَجَّة(٥).

بلاغَةُ الآيتين:

١- **قوله:** ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾: فيه التفاتٌ إلى خِطابِ الفَريقينِ- اليهودِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٨، ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٢٧).

والنَّصارى[١]، ووحَّد الكِتاب مع أنَّ لكلِّ فريقٍ كِتابًا؛ لأنَّه أراد جِنسَ الكِتابِ[٢].

٢- **قوله**: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ﴾: جملة مُستأنَفةٌ مسوقةٌ لبيانِ أنَّ فائدةَ مجيءِ الرَّسولِ ليستْ منحصرةً فيما ذُكِرَ[٣].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ على الفاعِلِ ﴿نُورٞ﴾ للمُسارَعَةِ إلى بيانِ كَوْنِ المجيءِ من جِهته العاليةِ، والتَّشويق إلى الجائي، ولأنَّ فيه نَوعَ تطويلٍ يُخِلُّ تقديمُه بتجاوُبِ أطرافِ النَّظْم الكريمِ، وتنكيرُ ﴿نُورٞ﴾؛ للتَّفْخيمِ[٤].

- وجملة ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ﴾ بدلٌ مِن جملة ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ بدل اشتمالٍ؛ لأنَّ مَجيءَ الرسولِ اشتمَل على مجيءِ الهُدى والقرآنِ؛ ولذلك فُصِلتْ عنها-أي: لم تُعطَفْ عليها بالواو- وأُعيدَ حرفُ ﴿قَدۡ﴾ الدَّاخِلِ على الجُملةِ المبدَلِ منها؛ زيادةً في تحقيقِ مَضْمونِ جُملةِ البَدل؛ لأنَّ تعلُّقَ بَدَلِ الاشتمالِ بالمُبْدَل منه أضْعَفُ من تَعَلُّقِ البَدَلِ المطابِق[٥].

٣- قوله: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ﴾ فيه: توحيدُ الضَّميرِ في قوله: ﴿بِهِ﴾ مع أنه عائِدٌ على ﴿نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾؛ لأنَّ المرادَ بالنُّورِ والكِتابِ المبينِ واحدٌ: (القرآنُ)، أو لأنَّهما كواحدٍ في الحُكم؛ إذا كان النورُ غيرَ الكِتابِ المُبينِ[٦].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرور (بِه)؛ للاهتمامِ، وإظهارِ لفظ الجلالةِ (الله) في

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨)، ((تفسير الألوسي)) (٣/ ٢٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥١).
(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٩).

موضِع الإضمارِ؛ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بأمْرِ الهِدايةِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨).

الآيات (١٧ - ١٩)

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ﴾: على حِين فُتورٍ من الإرسالِ، وانقطاعِ الوَحْيِ، وأصل الفُتور: السكون بعد الحِدَّة، واللِّينُ بعدَ الشِّدَّة، والضَّعْف بعد القُوَّة[١].

﴿بَشِيرٍ﴾: مُبشِّرٌ مَن أطاعَه، وأصلُ البُشرى: ظهورُ الشيءِ مع حُسنٍ وجمالٍ[٢].

﴿نَذِيرٍ﴾: مُنذِرٌ مَن عصاه، وأصْلُ النِّذارةِ: التخويفُ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبر تعالى مُقْسِمًا أنَّ النَّصارى- القائلين بأنَّ الله هو عيسى ابنُ مريمَ- قد

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

كَفروا، وأمَرَ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يقولَ لهؤلاء النَّصارى على سبيلِ الإِنْكارِ والتَّوبيخ: من ذا الذي يملِكُ مِنْ أَمْرِ الله وإرادته شيئًا يَدْفَعُ به الهلاكَ عن المسيحِ وعن أمِّه وعن سائرِ أهلِ الأرضِ، إن أرادَ الله أن يُهْلِكَهم ويُبِيدَهم، لا أحدَ يَستطيع أنْ يدفع عن نفسِه الهلاكَ، فالجميعُ تحتَ قدرةِ اللهِ وإرادتِه وقهرِه، والمسيحُ وأمُّه في ذلك كسائرِ المخلوقاتِ، فدلَّ ذلك على بُطلانِ أُلُوهيَّة مَن سِوَى اللهِ تعالى، وللهِ وَحْدَه مُلكُ السَّمواتِ والأَرْضِ وما بينهما؛ يَخلُقُ ما يشاء، وهو على كلِّ شيءٍ قادرٌ، لا يُعْجِزُه شيءٌ.

ثم يُخبر تعالى أنَّ كلًّا مِنَ اليَهُودِ والنَّصارى ادَّعَوْا أنَّهم في القُرْبِ من اللهِ بمنزلَةِ أبنائِه، وأحِبَّائِه، وأمَر نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يقولَ لهم: إنْ كنتم حقًّا كما تَدَّعُونَ مِن كَوْنِكم أبناءَ اللهِ وأحباءَه، فلِمَ يُعذِّبُكم بذُنُوبِكم التي تَقْتَرِفونها؟! فالأمْرُ ليس كما تَدَّعُونَ، بل أنتم بشرٌ ممَّن خَلَقَ الله، يَغفِرُ لِمَن يشاءُ، ويُعذِّبُ مَن يشاءُ سبحانه، فله مُلْكُ السَّمواتِ والأرض وما بينهما، وإليه سبحانه المرجِعُ والمصيرُ في الآخِرَةِ.

ثم وجَّه الله الخطابَ إلى أَهْلِ الكتابِ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى، أنَّه قد جاءَهم رَسولُه محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يُوضِّحُ لهم الطريقَ القويمَ، والدِّين الحقَّ، في وقتٍ اشتدَّت الحاجةُ إليه بعد انقطاعٍ من الرُّسُلِ؛ أَرْسَلَه اللهُ تعالى حتى لا يكونَ لهم حُجَّةٌ فيقولوا: ما جاءَنا من بشيرٍ ولا نَذيرٍ، فقد جاءهم بشيرٌ ونذيرٌ هو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، واللهُ على كلِّ شيء قادرٌ، لا يُعْجِزُه شيءٌ، ومن ذلك قُدرتُه على خَلْقِ عيسى عليه السَّلامُ من أمٍّ بلا أبٍ، وقدرتُه على إهلاكِه وأُمَّه وجميعَ مَن في الأرضِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن

يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى أخْذَ الميثاقِ على أهلِ الكِتابينِ، وأنَّهم لم يَقوموا به، بل نَقَضُوه، ذكَر أقوالَهم الشَّنيعةَ، فذكَر قول النَّصارى وردَّ عليهم[1]، فقال:

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾.

أي: أُقْسِمُ على أنَّ الذين ادَّعَوا أنَّ عيسى ابنَ مريمَ هو الله، قد كَفروا[2].

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ النَّصارى الجَهَلَةِ الذين افترَوْا عليَّ، وضلُّوا عن سواءِ السَّبيلِ بقَوْلِهم: إنَّ اللهَ هو المسيحُ ابنُ مريمَ، قل لهم: فمَن الذي يُطيقُ إذَنْ أن يَدْفَعَ مِن أَمْرِ اللهِ جلَّ وعزَّ شيئًا، فيردَّه إذا قَضَاه؟! فلو أراد أن يُهلِكَ المسيحَ ابنَ مريمَ بإعدامِه من الأَرْضِ وإعدامِ أمِّهِ مريمَ، وإعدامِ جميعِ مَن في الأَرْضِ من الخَلْقِ جميعًا؛ فمَن الذي يَقدِرُ على مَنْعِه وصَرفِه عن ذلك؟! وإذا كان المذكورونَ لا امتناعَ عندهم يمنَعُهم لو أرادَ اللهُ أن يُهْلِكَهم، ولا قُدْرَةَ لهم على ذلك- دلَّ على بُطلان إلهيَّةِ مَن لا يمتَنِعُ من الإهلاكِ، ولا في قوَّتِه شيءٌ من الفَكاكِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٢١-٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٦-٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦-٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٢٣-٢٢٥).

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: ولله عزَّ وجلَّ وَحْدَه أمرُ تدبيرِ جميعِ ما في السَّمواتِ وما في الأَرْضِ وما بينهما وتصريفِها؛ فهُم خَلقُه، مملوكونَ له مُدَبَّرون بأمْرِه، فيُهْلِك منهم ما يشاءُ، ويُبْقِي منهم ما يَشاء، ويُوجِدُ ما أراد حتى لو كان من أمٍّ بلا أبٍ، ويُعْدِمُ ما أراد، لا يمنَعُه من ذلك مانِعٌ، ولا يَدفَعُه عنه دافعٌ؛ يُنْفِذُ فيهم حُكْمَه، ويُمْضِي فيهم قضاءَه، ولن يقدِرَ على ذلك أحدٌ غيرُ الله الواحِدِ القهَّار؛ فكيف زَعَمْتُم- أيُّها النَّصارى- أنَّ المسيحَ إلهٌ، وهو لا يُطيقُ شيئًا من ذلك؟! وكيف يكونُ المملوكُ العبدُ إلهًا معبودًا؟! فهذا من أعظمِ المُحالِ[1].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ المعبودَ الحقَّ جلَّ جلالُه هو القادرُ على كلِّ شيء؛ فلا يُعْجِزُه شيءٌ أرادَه، ولا يَغْلِبه شيءٌ طلبَه، ومن ذلك قُدْرَتُه على خَلْقِ عيسى عليه السَّلامُ من أمٍّ بلا أبٍ، وهو القادِرُ أيضًا على إهلاكِ المسيحِ وأمِّه ومن في الأرض جميعًا سبحانه وتعالى[2].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

أي: قال كلٌّ من اليهودِ والنَّصارى: نحن أبناءُ اللهِ وأحبَّاؤه، في مَودَّته وإكرامِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٧-٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٢٥-٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٢٧).

وإعزازِه لنا، وحُنوِّه وعَطْفِه علينا[١].

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾.

أي: قلْ لهم- يا محمَّدُ- إنْ كان الأمرُ كما تَدَّعونَ مِن أنَّكم أبناءُ اللهِ تعالى وأحبَّاؤُه، فأخْبروني- إذنْ- لِمَ أَعَدَّ اللهُ لكم نارَ جهنَّم على كُفْرِكم وافترائِكم وذُنُوبِكم؛ فإنَّ الحبيبَ لا يُعذِّب حَبيبَه، وأنتم مُقرُّون أنَّه مُعذِّبُكم؟!

كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾[٢] [البقرة: ٨٠].

﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما زعمتُم أنَّكم أبناءُ اللهِ وأحباؤُه، بل أنتم خَلقٌ خَلَقَكم اللهُ مثلَما خَلَقَ سائرَ بني آدمَ[٣].

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: يُعامِلُكم كما يعامِلُ سائرَ البَشَرِ، فتجري عليكم بحِكْمَتِه أحكامُه الدَّائرةُ بينَ عَدْلِه وفَضْلِه، ولا تغترُّوا بتلك الأمانيِّ، وبمنازلِ أنبيائِكم وصالحي آبائِكم عندَ الباري؛ فإنَّهم إنما نالوا القُرْبَ منه بطاعتِه، واجتنابِ مَعْصِيَتِه، فجِدُّوا أنتم أيضًا في ذلك[٤].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٩-٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨-٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٣٧).
وينظر أيضًا: ((التفسير الوجيز)) للواحدي (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٠-٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧١-٢٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٣٩).

أي: ولله عزَّ وجلَّ وحدَه أمْرُ تدبيرِ جميعِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ وما بينهما وتَصريفِه، فهم خلقُه ومُلكُه، وإليه وحده سبحانه المرجعُ والمنقلَبُ في الآخرة، فأيُّ شيءٍ خصَّكم بهذه الفضيلةِ التي تَزْعُمونها، وأنتم مِن جُملةِ المماليك، ومِن جُملةِ مَن يرجِعُ إلى اللهِ في الدَّارِ الآخِرَةِ، فيُجازيكم بأعمالِكم، واعلموا- يا مَن تدَّعونَ أنَّكم أبناءُ الله وأحبَّاؤه- أنَّه إنْ عذَّبكم بذُنُوبِكم، لم يكُن لكم منه مانِعٌ، ولا لكم عنه دافِعٌ؛ لأنه لا نسَبَ بينه وبين أحدٍ فيُحابِيَه، فاتَّقوا غَضَبَه وعِقابَه، ولا تغترُّوا بالأمانيِّ وفَضائِلِ الآباءِ[١].

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩ ﴾.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا ﴾.

أي: يا أيُّها اليهودُ والنَّصارى- الذين أنعمَ اللهُ عليكم بالتوراةِ والإنجيلِ، وتَعلمونَ منهما بَعثةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ- ها قدْ أتاكم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[٢].

﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾.

أي: جاءَ يُوضِّحُ لكم الحقَّ، ويُبيِّنُ كلَّ ما تحتاجون إليه من المطالِبِ الإلهيَّةِ، والأحكامِ الشَّرعيَّة، وذلك بعدَ شِدَّةِ حاجةٍ إليه، ومُضِيِّ زمنٍ طويلٍ بين إرسالِ عيسى عليه السَّلام وبَعثةِ محمَّدٍ خيرِ الأنامِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٢-٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٤-٢٤٥).

عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بابنِ مريمَ؛ الأنبياءُ أولادُ عَلَّاتٍ[١]، وليس بَيني وبينَه نبيٌّ))[٢].

وعن عِياضِ بنِ حِمار المُجاشعيِّ، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال ذاتَ يوم في خُطْبَتِه: ((ألَا إنَّ ربِّي أمَرَني أنْ أُعلِّمَكم ما جَهِلتُم ممَّا عَلَّمني يَومِي هذا: كلُّ مالٍ نَحَلْتُه عبدًا حَلالٌ، وإنِّي خَلقْتُ عِبادي حُنفاءَ كلَّهم، وإنَّهم أَتتْهم الشياطينُ فاجْتالَتْهم[٣] عن دِينِهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أَحللْتُ لهم، وأَمَرَتْهم أن يُشرِكوا بي ما لم أُنَزِّلْ به سُلْطانًا، وإنَّ اللهَ نظَرَ إلى أهلِ الأرضِ، فمَقَتَهم عرَبَهم وعَجَمَهم، إلَّا بَقايَا من أهلِ الكتابِ، وقال: إنَّما بَعثتُك لأَبتلِيَكَ وَأبتليَ بك، وأنزلتُ عليكَ كتابًا لا يَغسِلُه الماءُ، تَقرؤُه نائمًا ويَقْظانَ، وإنَّ اللهَ أمَرَني أنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فقلتُ: رَبِّ إذًا يَثْلَغُوا رَأْسي[٤] فيَدَعُوه خُبْزَةً، قال: اسْتَخرِجْهم كما اسْتَخرَجوكَ، واغْزُهم نُغْزِكَ[٥]، وأَنفِقْ فسنُنفِقُ عليك، وابعثْ جَيشًا نَبعثْ

قال الألوسي: (الفترةُ فعلةٌ مِن: فتَر عن عملِه، يفترُ فتورًا. إذا سكَن، والأصلُ فيها الانقطاعُ عمَّا كان عليه مِن الجدِّ في العملِ، وهي عندَ جميعِ المفسِّرين انقطاعُ ما بينَ الرَّسولين) ((تفسير الألوسي)) (٣/ ٢٧٤).

(١) أولاد عَلَّات: العَلَّات- بفتح العين، وتشديدِ اللاَّم-: الضَّرائر، وأصله أنَّ مَن تزوَّج امرأةً ثم تزوَّج أخرى كأنَّه عَلَّ منها، والعَلَل الشُّرْب بعدَ الشُّرب، وأولاد العَلَّات الإخوةُ من الأبِ وأُمَّهاتهم شتَّى. ينظر: ((فتح الباري))لابن حجر (٦/ ٤٨٩)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١١٩).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) واللفظ له.

(٣) فاجْتَالَتْهم: أي: استخفَّتْهم فجالوا معهم في الضَّلال؛ يُقال: جالَ واجتالَ: إذا ذهَب وجاءَ، ومنه الجولانُ في الحَربِ، واجتالَ الشَّيءَ إذا ذَهَب به وساقَه، والجائلُ: الزائلُ عن مَكانِه. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣١٧).

(٤) يَثْلَغوا رأسي: أي: يَشدَخُوه ويشجُّوه، والثَّلغ: الشَّدخ، وقيل: هو ضَربُك الشيءَ الرَّطبَ بالشيءِ اليابسِ حتى يَنشدِخَ. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٢٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٩٨).

(٥) نُغْزِكَ: نُعِنْكَ؛ مِن أغزَيتَه: إذا جَهَّزْتَه للغَزْوِ، وهيَّأْتَ له أسبابَه. يُنظر: ((شرح النووي على

خَمسةً مِثلَه، وقاتِلْ بمَن أطاعَكَ مَن عَصاكَ...)) الحديث[١].

﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾.

أي: أَرْسلناه إليكم؛ قَطْعًا لعُذركم؛ كي لا تَحتجُّوا قائلين بأنَّه لم يأتِنا رسولٌ منذ عهدٍ طويلٍ، يُبشِّر بالخيرِ مَن آمَن به وأطاعَه، ويُنذرُ بالشرِّ مَن كذَّبَ به وعَصاه[٢].

﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞ﴾.

أي: فها قد جاءَكم هذا البَشيرُ والنَّذيرُ؛ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فالآن لا حُجَّةَ لكم، ولا عُذرَ بَقِيَ لديكم[٣].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

أي: لا يُعجِزُ اللهَ تعالى شيءٌ أرادَه، ولا يفوتُه شيءٌ طَلَبَه، ومن ذلك قُدْرَتُه على بَعْثِ الرُّسل وإنزال الكتُبِ، وإثابةِ المؤمنينَ المُطيعينَ، ومعاقبَةِ المكذِّبين العاصينَ[٤].

الفوائِد التربويَّة:

١- أنَّه ينبغي أن يُنادَى المخاطَب بالوَصْفِ الذي يَقتضي أن يقومَ بما وُجِّه إليه؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهذا موجودٌ في اللُّغة العربيَّة، فإذا كنتَ تُخاطِب مؤمنًا تقول: يا أيُّها المؤمِنُ، وإذا كنت تُخاطِب رجلًا تقول: يا أيها الرَّجُلُ، ومن فوائد

مسلم)) (١٧/ ١٩٨) ((مرقاة المفاتيح)) للمُلا الهروي (٨/ ٣٣٦٩).

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٥-٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٥-٢٤٧، ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٧).

ذلك: أولًا: توبيخُ هذا الرَّجُلِ إذا خالف؛ لأنَّه لا يَنبغي أن يُخالِفَ وهو متَّصِفٌ بهذه الصِّفة. ثانيًا: حثُّه على الموافقَةِ باعتباره هذا الوصفَ الذي اتَّصف به[١].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ فيه فائدة لُغويَّة؛ إذ إنَّ (هو) ضميرُ فَصْل، وضميرُ الفَصل يُفيد ثلاثةَ أشياءَ: الأوَّل: الحَصْر، والثاني: التوكيد، والثالث: التمييزُ بين الصِّفة والخَبَر، وهذا الأخيرُ أحيانًا يُستغنَى عنه، ويُعرَفُ الخبر بدونه، لكن يُؤتى به، كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]، وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أكَّدوا تأكيدًا بهذا الضميرِ أنَّ الله هو المسيحُ ابنُ مريم[٢].

٢- جوازُ انتسابِ الإنسانِ إلى أُمِّه إذا لم يكُن له أبٌ؛ لقوله: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[٣].

٣- شِدَّة الردِّ على النَّصارى؛ حيث قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ إذ إنَّ اللهَ إذا أراد شيئًا فإنَّ الشَّرَفَ والجاه والرِّئاسة ولو في الدِّينِ لا تمنع ممَّا أرادَ الله؛ لأنَّ المسيحَ ابنَ مريمَ عليه الصَّلاة والسَّلام مِن أُولي العَزمِ من الرُّسُلِ[٤].

٤- قوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٢٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٣).

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ...﴾ فيه الردُّ على أهلِ الباطِلِ بالأدلَّة السمعيَّة والعقليَّة[١].

٥- أنَّه عند المناظرة يَنبغي أنْ تَبدأَ بأوَّل مَا يَحتجُّ به المناظِرُ، وتُبَيِّن أنَّه على خِلاف ما ناظَرَ عليه؛ ووجهُ ذلك: أنَّ الله بدَأَ بذِكر إهلاكِ المسيحِ وأُمِّه، الذي يعتقِدُ هؤلاءِ أنه إلهٌ، قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٢].

٦- يَنبغي في المُناظَرَةِ إبطالُ حُجَّةِ الخَصْمِ، ثم الإتيان بما يُثْبِتُ خلافَ قَوْلِه، فالله عز وجل قال: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، فنقَض سبحانه دعواهم أن يكونوا أحِبَّةً وأبناءً بأمرين: الأمرُ الأوَّل: أنَّهم أذنبوا. والأمرُ الثاني: أنَّهم عُذِّبوا. فكيف يقولون أنَّهم أبناءُ الله وأحباؤُه، وهم يعْصونه ويُذنبون؟! ثم كيف يكونُ حبيبًا لهم وهو يعذِّبُهم؟! ثم احتجَّ الله عليهم بعدَ أن أَبْطَلَ حُجَّتهم، فقال: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾، أي: كسائرِ البَشَرِ[٣].

٧- لَمَّا بطَل مُدَّعى النَّصارى أُلوهيَّةَ عيسى عليه السَّلام على أتْقَنِ منهاجٍ وأخْصَرِه، وذلك في قولِه تعالى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ حيث وصَفه بما هو في غايةِ الوضوحِ في بطلانِ قولِهم؛ لبعدِه عن رتبةِ الألوهيَّة في الحاجةِ إلى امرأة فقال: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ فهو محتاجٌ إلى كفالتِها بما لها مِن الأمومةِ، وكان ربما دقَّ على بعضِ الأفهام ذلك- أَوضَحَه بِقَوْلِه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٧).

قَدِيرٌ﴾ دالًّا على أنَّ المسيحَ عليه السَّلامُ عبدٌ مملوكٌ للهِ[١].

٨- أنَّ عذابَ اللهِ لبني إسرائيلَ- أي: لليهودِ والنَّصارى- لم ينقطعْ ولن ينقَطِعَ؛ لقوله: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، فلم يقُل: فلِمَ عذَّبَكم؛ ليُستَفاد بذلك أنَّ تَعذيبَ اللهِ تعالى لهم مستمرٌّ؛ لأنَّ الفِعل المضارِعَ يُفيد الاستمرارَ[٢].

٩- الاحترازُ عمَّا يُوهِمُ باطِلًا؛ حيث قال: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، ولم يقُلْ: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ فقط؛ لأنَّه لو قالَها بدون أنْ يَقْرِنَها بقوله: ﴿بِذُنُوبِكُم﴾ لأَوْهَم أنَّ اللهَ تعالى يُعذِّب بغيرِ ذنبٍ[٣].

١٠- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فيه الإشارةُ إلى أنَّ ما بين السَّماءِ والأَرْضِ هو خَلقٌ عظيمٌ، حتى جعَلَه اللهُ عزَّ وجلَّ عديلًا، أو قَسيمًا للسَّمواتِ والأَرْضِ[٤].

١١- قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، وقَبْلَها قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فاختَلَفَ ختْمُ الآيتينِ، فقال في السَّابقَةِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لأنَّ المقام مقامُ ردٍّ على الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، أمَّا هنا فالمقامُ مقامُ تهديدٍ ووعيدٍ، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: إليه وحْدَه المرجِعُ لا إلى غيرِه؛ فقد تقدَّمَ الخبر ﴿وَإِلَيْهِ﴾، وتقديمُ الخبرِ يُفيد الحَصْرَ، إذَن: فليست المسألَةُ مسألَةَ دَعْوى أنَّكم أبناءُ اللهِ وأحبَّاؤه، وإنَّما

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٥).

المسألَةُ مسألةُ عملٍ؛ إمَّا سيِّئ وإمَّا حَسَن[١].

١٢- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا ﴾ فيه إقامةُ الحُجَّة على الأمَّةِ؛ حيث إنَّ محمدًا رسولُ الله، فهو حُجَّةٌ عليه الصَّلاة والسَّلام، فبمُجرَّد أنْ شَهِد اللهُ أنَّه رسولُه، كان ذلك حُجَّةً، وقد قال الله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ ﴾[٢] [النساء: ١٦٦].

١٣- أنه لا حظَّ للرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام في شيءٍ من الرُّبوبيَّة؛ لقَوْلِه: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا ﴾، ووجه ذلك: أنَّه رسولٌ، والرَّسولُ لا يُمكن أن يكون شريكًا للمُرسِلِ فيما يختصُّ به[٣].

١٤- أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مُبَيِّنٌ للخَلْقِ، وأنَّه ليس فيما جاء به شيءٌ من الغُموضِ والإلغازِ؛ لقوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ ﴾، أمَّا غيرُ العربِ من أهل الكتاب فبيانُه يكونُ عن طريق التَّرجمة؛ ولهذا لم يَنتشرِ الإسلامُ في البلادِ الأعجميَّة إلا بواسِطَةِ التَّرجمة، وأنَّه إذا احتجْنا إلى معرفة اللُّغاتِ الأجنبيَّة لبيانِ الشريعة، كان ذلك ممَّا يُثابُ عليه؛ لأنَّ مِن صفاتِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنَّه يُبيِّنُ للنَّاسِ بأيِّ وسيلةٍ، وعلى هذا فمَن تعلَّمَ اللُّغةَ غيرَ العربيَّة مِن أجلِ الدَّعوة إلى الله، كان مُثابًا على ذلك؛ لأنَّها وسيلةٌ لتبيينِ الشَّريعةِ ونَشْرِها[٤].

١٥- رِسالةُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ كانتْ على فترةٍ من الرُّسُلِ؛ ليس بينه وبين عيسى رسولٌ؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾، وكلَّما طال زمنُ الرِّسالةِ صار الناسُ أشدَّ حاجةً إلى الرَّسولِ؛ ولهذا جعَل اللهُ ذلك مِنَّةً عُظمى على أهلِ الكتابِ؛ حيث جاءَهم على فترةٍ، ومِثْل هذا يكونُ أيضًا في الواقعِ المَحْسُوس،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٣٩- ٢٤٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فالإنسانُ الذي يَشرَبُ الماءَ على عطشٍ أشدُّ شوقًا إلى الماءِ والحاجةِ إليه مِن إنسانٍ يَشْرَبُه على رِيٍّ[١].

١٦- إثباتُ الرِّسالاتِ السابقة للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلام؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ والظَّاهِرُ أنَّ هذا يُشيرُ إلى أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ هو آخِرُ الأنبياءِ؛ لقوله: ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ يعني ليس بعدَه رسولٌ، وهذا هو الذي صرَّحَ الله به في كتابِه في قوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقد قال: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ولم يقُل: (وخاتم المُرسَلين) مع أنَّه قال: ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه قد يكون نبيًّا ولا يكون رسولًا، ومحمَّدٌ رسولُ الله صَلَواتُ اللهِ وسلامُه عليه خاتَمُ الأنبياءِ والمُرسَلينَ[٢].

١٧- رحمةُ الله تعالى بالخَلْقِ؛ حيث أَرْسَلَ الرُّسلَ؛ لئلَّا يكونَ لأحدٍ حجَّةٌ عليه سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾، ومِن ثَمَّ فمَن لم تَبْلُغْه الرسالةُ فإنَّه معذورٌ[٣].

١٨- أنَّه لا حُجَّةَ للإنسان بالقَدَرِ على مخالفةِ الرُّسُلِ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ وَجْهُ الدَّلالة: لو كان لهم حقٌّ لم يرتفعْ بإرسالِ الرُّسل، وهو كذلك[٤].

١٩- أنَّه متى احْتِيجَ إلى التوكيدِ، فلا عيبَ في التَّكرارِ؛ لقوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ بعد قوله: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾، ولهذا كان مِن آدابِ الخُطبةِ أنَّ الإنسانَ يُكرِّر في المواضع المهمَّة، وأنَّ هذا لا يُعَدُّ عِيًّا ولا يُعدُّ زيادةً[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٢).

٢٠- ختَم الله عزَّ وجلَّ هذه الآيةَ بالقُدرَةِ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه تبارك وتعالى قادِرٌ على بَعْثِ الرُّسلِ، وقادرٌ على ألَّا يَبْعَثَهم، وأنَّ الأَمْرَ كلَّه بيدِه تبارك وتعالى[١].

بلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾: ﴿فَمَن﴾ استفهامٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ، أي: لا يُوجَدُ أحدٌ يستطيعُ أن يردَّ إرادتَه؛ لأنَّه هو المالكُ لأمرِ الوجودِ كلِّه، ولا يملكُ أحدٌ مِن أمْرِه شيئًا يستطيعُ به أن يَصرِفَه عن عملٍ يُريدُه، أو يَحمِلَه على أمرٍ لا يُريدُه، أو يَستقِلَّ بعملٍ دونَه[٢]، والفاءُ عاطفةٌ للاستفهامِ الإنكاريِّ على قَوْلِهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ﴾؛ للدَّلالَةِ على أنَّ الإنكارَ ترتَّب على هذا القَوْلِ الشَّنيعِ؛ فهي للتَّعقيبِ الذِّكْرِيِّ[٣].

- وتنكيرُ ﴿شَيۡـًٔا﴾ للتَّقليلِ والتَّحقيرِ، ولَمَّا كان الاستفهامُ في قوله: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ﴾ بمعنى النَّفْيِ، كان نفيُ الشَّيءِ القليل مقتضيًا نفيَ الكثيرِ بطريق الأَوْلى[٤].

٢- قوله: ﴿إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ فيه: عَطْفُ العامِّ ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ على الخاصِّ ﴿ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ﴾؛ ليكونَا قد ذُكِرَا مرَّتين: مرَّةً بالنصِّ عليهما، ومرَّة بالاندراجِ في العامِّ، وذلك على سبيلِ التَّوكيدِ والمبالَغَةِ في تعلُّق نَفاذِ الإرادةِ فيهما، وكذلك تأكيدُ عَجْزِ المسيحِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٥٦- ٢٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٥٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠).

٣- **قوله:** ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: تذييلٌ فيه تعظيمُ شأنِ اللهِ تعالى، وردٌّ آخرُ عليهم بأنَّ الله هو الذي خَلَقَ السَّموات والأرضَ، ومَلَكَ ما فيها من قَبْلِ أن يظهرَ المسيحُ؛ فالله هو الإلهُ حقًّا، وأنَّه يَخلُقُ ما يشاء، فهو الذي خَلَقَ المسيحَ خلقًا غيرَ معتادٍ؛ فكان مُوجِبَ ضلالِ مَن نَسَبَ له الأُلوهيَّةَ[١].

- وجملة: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ جملةٌ مؤكِّدةٌ لِقَوْلِه: ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ﴾ ودالَّة على أنَّه إذا أراد فَعَلَ؛ لأنَّ مَن له ذلك المُلْك يَفعلُ في مُلْكِه ما يشاءُ[٢].

٤- **قوله:** ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ **فيه إيجازٌ:** حيثُ إنَّ ظاهِرَ اللَّفظ: أنَّ جميعَ اليهودِ والنَّصارى قالوا عن جميعِهم ذلك، وليس كذلك، بل في الكلامِ لفٌّ وإيجازٌ. والمعنى: وقالت كلُّ فِرقةٍ من اليهودِ والنَّصارى عن نفْسها خاصَّةً: نحن أبناءُ الله وأحبَّاؤُه[٣].

٥- قوله: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ فيه: تعريضٌ أيضًا بأنَّ المسيحَ عليه السَّلام بَشَرٌ[٤].

٦- **قوله:** ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: فيه احتراسٌ؛ لأنَّه لَمَّا رتَّبَ على نَوَالِ العذاب إيَّاهم أنَّهم بشرٌ، دفَع توهُّمَ النَّصارى أنَّ البشريَّة مقتضيةٌ استحقاقَ العذابِ بوراثةِ تبعةِ خَطيئة آدَم، فقال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: مِن

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢١١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥٦).

البَشَرِ، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[١].

٧- **قوله**: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾: فيه إيثارُ الجملةِ الفعليَّة على غيرها؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ البيانِ[٢].

٨- قوله: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾: زِيادَةُ ذِكْرِ ﴿مِنۢ﴾ في الفاعِلِ؛ للمبالغةِ في نفْي المجيء، وتَنكير ﴿بَشِيرٍ﴾ و﴿نَذِيرٍ﴾؛ للتَّقْليلِ[٣].

٩- قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ التنوين في ﴿بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾؛ للتَّفخيمِ، أي: لا تَعتذِروا بذلك؛ فقد جاءَكم بشيرٌ أيُّ بشيرٍ، ونذيرٌ أيُّ نذيرٍ[٤].

- قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلَه، وإظهارُ الاسْمِ الجليلِ﴿وَٱللَّهُ﴾ للتَّعليلِ، وتقويةِ استقلالِ الجُملةِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٠).

الآيات (٢٠ - ٢٦)

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾: أي: المطهَّرةَ المُعظَّمة؛ فالتَّقديسُ: هو التَّطهيرُ والتَّعظيمُ[1].

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾: ولا تَرجِعوا مُدبِرين، والردُّ: صرْفُ الشيءِ بذاتِه، أو بحالةٍ من أحوالِه؛ يُقال: رَددتُه فارتدَّ، والارتدادُ والرِّدَّة: الرُّجوعُ في الطَّريقِ الذي جاء مِنه، ومنه قيل للكافرِ بعدَ إسلامِه: مُرتدٌّ. وأصْل الدُّبُر: آخِرُ الشَّيءِ وخَلفُه، وهو ضِدُّ القُبُل[2].

﴿فَتَنقَلِبُوا۟﴾: أي: فتَرْجِعوا، والانقلابُ: الانصرافُ؛ يُقال لِمَن كانَ على شيءٍ

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨، ١٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٠).

(٢) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٨، ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٧٦، ٩٧٧).

ثُمَّ رجَع عنه: قدِ انقلَب على عَقِبه، وأَصْلُ (قلب): صرْفُ الشَّيءِ عن وجهٍ إلى وجهٍ، أو ردُّه من جِهةٍ إلى جِهةٍ[١].

﴿جَبَّارِينَ﴾: أقوياءَ عِظامَ الأجسامِ، وقيل: طوالًا؛ وُصِفوا بذلك لكثرتِهم وقُوَّتِهم، وعِظَم خَلْقِهم، وطولِ جُثَثِهم، وجبَّارون جمْع جبَّار، وهو القَهَّار، ويُطلَقُ على المتكبِّر المتعالي عن قَبولِ الحقِّ، والمتسلِّطِ، والقَتَّال، وأصلُ (جبر): جِنسٌ مِن العَظمةِ والعُلوِّ[٢].

﴿فَٱفۡرُقۡ﴾: فافْصِل، مِن فرقتُ بين الشَّيئين: إذا فَصلْتَ بينهما، سواءٌ كان ذلك بفَصْلٍ يُدركُه البصرُ، أو بفَصْلٍ تُدركُه البصيرةُ، والفَرْق يُقاربُ الفَلْقَ، لكنَّ الفَلْقَ انشقاقٌ، والفَرْقَ انفصالٌ، وأصْل الفَرْق: الفصلُ والتمييزُ، والتَّزييلُ بين الشَّيئينِ[٣].

﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾: جمْعُ فاسِق، وهو الخارجُ مِنَ الشَّرعِ، والفاسقُ أعمُّ مِن الكافِر، والفُسوقُ: خروجٌ مِنَ الطَّاعةِ إلى المعصيةِ، وخروجٌ مِنَ الإيمانِ إلى الكُفرِ؛ فأصْلُ الفسوق: الخُروجُ، ومنه قولهم: فَسَقَتِ الرُّطبةُ، إذا خرَجتْ عن قِشْرتها[٤].

﴿يَتِيهُونَ﴾: يَحارُونَ ويَضلُّونَ، ويَذهبون مُتحيِّرين؛ مِن تاه يَتيه: إذا تَحيَّر[٥].

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٣).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢، ٦٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

(٤) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦، ٨١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٣).

(٥) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٩)،

﴿فَلَا تَأْسَ﴾: فلا تَحْزنْ؛ يُقال: أَسِيتُ على كذا، أي: حَزِنْتُ، والأسى: الحُزن[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جارٌّ ومجرور في مَحلِّ رفْعٍ، صِفةٌ لـ﴿رَجُلَانِ﴾.

وجُملة ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾: في محل رَفْعٍ، صِفةٌ ثانيةٌ لـ ﴿رَجُلَانِ﴾، وجِيء هنا بأَفصحِ الاستعمالينِ من كونِه قَدَّم الوصفَ بالجارِّ على الوَصفِ بالجُملةِ؛ لقُربه من المفردِ. وقيل: إنَّها جملة مُعترِضةٌ. وقيل: هي حالٌ من الضَّمير في ﴿يَخَافُونَ﴾، أو حالٌ مِن ﴿رَجُلَانِ﴾ وجاءتِ الحالُ مِن النَّكرةِ؛ لتخصُّصِها بالوَصْفِ. أو حالٌ من الضَّميرِ المستترِ في الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾؛ لوقوعِه صِفةً لموصوفٍ، وعلى أنَّها حالٌ، فلا بُدَّ مِن إضمارِ (قَدْ)، أي: قدْ أَنعمَ اللهُ عليهما[٢].

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يقول اللهُ تعالى لنَبيِّه مُحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: واذكرْ- يا محمدُ- توجيهَ موسى عليه السَّلام لبني إسرائيلَ- على سبيلِ النُّصْحِ والإرشادِ- أنْ يتذكَّروا نِعمةَ اللهِ التي أنعمَ بها عليهم، بأنْ جعَلَ فيهم أنبياءَ، وجعَلَهم مُلوكًا، وآتاهم مِن النِّعمِ الدِّينيَّة والدُّنيويَّة ما لم يُعْطِه أحدًا مِن أهلِ زمانِهم.

((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٤).

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٢٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٥٠).

وبعدَ هذا التذكيرِ بالنِّعَم نادَى موسى عليه السَّلامُ قومَه بني إسرائيل، وطَلَب منهم أنْ يَدخُلوا الأرضَ المقدَّسة، التي هي بيتُ المقدِسِ التي كتبَها الله لهم، وأنْ يأخذوها من يدِ أعدائِهم، ونهاهُم عن التَّراجُعِ عن القِتالِ، والنُّكولِ عن الجِهاد؛ فإنَّ ذلك يؤدِّي إلى الخسرانِ في الدُّنيا والآخرةِ، فردُّوا عليه أنَّ في هذه البلدةِ قومًا أشداءَ أقوياءَ ضِخامًا؛ وأنَّه لا طاقةَ لهم بقِتالهم، وأنَّهم لن يَدخلوها ما دامَ هؤلاءِ موجودينَ فيها، وعلى تقديرِ خروجِهم منها فيمكنُ لهم أن يدخلُوها؛ ثم بيَّن الله تعالى أنَّ رجلَيْنِ منهم مؤمنَيْنِ يَخافانِ اللهَ، قدْ أنعم اللهُ عليهما بأنْ وفَّقهم لطاعتِه والخوفِ منه وحْدَه، وأنعَمَ عليهما أيضًا بالصَّبرِ واليقينِ، والرأيِ القويمِ، قد استنكَرا إحجامَ قومِهما عن الجهادِ، فقالَا لبني إسرائيل: إنَّه لا يحولُ بينكم وبينَ غَلَبَةِ هؤلاءِ والنَّصرِ عليهم سوى دُخولِكم بابَ الأَرْضِ المقدَّسةِ، فإنْ دَخَلْتُموها انتصرتُم عليهم؛ فتوكَّلوا على اللهِ، واعتمِدوا عليه إنْ كنتُم مُؤمنينَ.

لكنَّ هذه النصيحةَ لم تَلْقَ قَبولًا من بني إسرائيلَ، وكرَّروا لنبيِّهم نفيَهم دخُولَ الأرضِ المقدَّسةِ أبدًا ما دام هؤلاءِ القومُ فيها، وقالوا لموسى عليه السَّلامُ: إذا كان دخولُ هذه الأرضِ يهمُّك أمرُه، فاذهبْ أنت وربُّك لقتالِ سكَّانِها الجبابرةِ، وأَخْرِجاهم منها.

عندَ ذلك توجَّه موسى عليه السَّلامُ إلى ربِّه يبثُّ إليه الشَّكوى، معتذرًا مِن عصيانِ قَوْمِه، وأنَّه لا يَستطيعُ أن يحمِلَ أحدًا على القِتالِ إلَّا نفْسَه وأخاه هارونَ، ودَعا اللهَ أن يَفصِلَ بينه وبين هؤلاءِ القومِ الفاسقينَ؛ فاستجابَ اللهُ دُعاءَه، وعاقبَهم بأنْ حرَّم عليهم دخولَ الأرضِ المقدَّسةِ أربعينَ سَنةً، يظلُّون ضائعينَ حائرينَ في الأرضِ، لا يَهتدون لطريقٍ، ولا يستقرُّونَ في مكانٍ، ونهى موسى عليه السَّلامُ أنْ يحزنَ عليهم جرَّاءَ تلك العقوبةِ التي استحقُّوها لخروجِهم عن

طاعةِ اللهِ سبحانه.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أقام اللهُ تعالى الحُججَ على بني إسرائيلَ، وأثبتَ لهم رسالةَ نبيِّه محمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ودحَض شُبُهاتِهم، وأبطَلَ دعاويهم، ثمَّ لَمَّا لم يَزِدْهم ذلك كلُّه إلا كُفرًا وعنادًا- بيَّن اللهُ تعالى في هذه الآياتِ واقعةً مِن وقائعِ أسلافِهم مع موسَى عليه السلامُ، وتمرُّدَهم عليه، وعِصيانَهم له، مع تذكيرِه إيَّاهم نِعمَ اللهِ عليهم؛ ليعلمَ الرَّسولُ بهذا أنَّ مكابرةَ الحقِّ ومعاندةَ الرُّسلِ خُلقٌ مِن أخلاقِهم الموروثةِ عن سلفِهم، وأنَّ هؤلاءِ الذين هم بحَضرةِ الرسولِ هم جارُونَ مجرَى أسلافِهم مع موسى عليه السَّلامُ؛ فيكونَ ذلك تسليةً له صلَّى الله عليه وسلم[1].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾.

أي: واذْكر- يا محمَّدُ- حينَ خاطَبَ موسى عليه السَّلامُ بَنِي إسرائيل، أنْ اذكُروا- يا قومي- بقُلوبِكم وألسِنَتِكم نِعمَ اللهِ تعالى عليكُم؛ فإنَّ ذِكرَها داعٍ إلى القيامِ بشُكرِه عليها، وداعٍ إلى محبَّتِه عزَّ وجلَّ، ومُعِينٌ على عِبادتِه سُبحانَه وتعالى[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٦٥)، وينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٦- ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٦- ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٤).
وقال ابنُ عُثَيمين: (هنا هل نقول: إنَّ متعلق «إذ»، «اذكُر»، فيكون هنا الخطابُ موجَّهًا إلى الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، أو أنَّ المراد: اذكُروا، أي: يا أهلَ الكتاب؟ نقول: يحتمل هذا أو هذا) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٤).

ثمَّ بيَّن تعالى هذه النِّعمَ، فقال[١]:

﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾.

أي: فاذْكُروا إنعامَ اللهِ تعالى عليكم بأنْ جعَلَ فيكم أنبياءَ يأتونَكم بوَحيِه، ويُخبرونَكم بآياتِه، كلَّما هلَكَ نبيٌّ قامَ فيكم نبيٌّ آخَرُ، مِن لَدُن إبراهيمَ عليه السَّلامُ وإلى مَن بَعدَه، حتَّى خُتِمُوا بعيسى عليه السَّلامُ[٢].

﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾.

قيلَ المعنى: جعَل لكم مِن غيرِكم خَدمًا وحَشَمًا، سَخَّرَهم ليَخدموكم[٣].

وقيلَ المرادُ: مُلْكُ مَن مَلَك مِن بني إسرائيل؛ لأنَّ الملوكَ شرفٌ في الدُّنيا[٤].

وقيل المعنى: صَيَّركم أحرارًا تَملِكون أمْرَكم ولا تُملَكونَ، بعدَ زوالِ استعبادِ عدوِّكم لكم، الذي كان يَقهَرُكم ويَستخْدِمُكم[٥]، .....

وقال ابنُ عَطيَّة: (المعنى: واذكُرْ لهم- يا محمَّدُ- على جهة إعلامِهم بغير كُتبهم؛ ليتحقَّقوا نبوَّتك، وينتظمَ في ذلك نِعمُ الله عليهم، وتلقِّيهم تلك النِّعم بالكفرِ، وقِلَّة الطاعة والإنابة) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٧- ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٤- ٢٥٥).

قال ابنُ عُثَيمين: (هل المرادُ هنا بالأنبياءِ الرُّسل، أو الأنبياء الذين دونَ الرُّسل؟ يحتملُ هذا وهذا؛ لأنَّ فيهم رسلًا، وفيهم أنبياءُ بلا رسالةٍ) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٥).

(٣) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٨/ ٢٧٨)، والواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٣١٤).

وممن روي عنه من السَّلف مثل هذا القولِ قتادةُ. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٨).

(٤) ذكره ابنُ عطيةَ في ((تفسيره)) (٢/ ١٧٣)، وجعَله ابنُ عاشورٍ وابنُ عثيمينَ مما يشملُه معنى الآية. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) ٦/ ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٥).

(٥) وهذا اختيارُ القرطبيِّ في ((تفسيره)) (٦/ ١٢٣)، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٢٧)، وجعله ابنُ عاشورٍ وابنُ عثيمينَ مما يشملُه معنى الآية. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) ٦/ ١٦١)، و((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٥).

وقيلَ غيرُ ذلِك[١].

﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ومَنحَكم اللهُ- يا معشرَ اليهودِ- مِن نِعَمِه الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، وكراماتِه العَلِيَّة، ما لم يُعطِهِ لأحدٍ سواكم مِن أهلِ زَمانِكم، فَفُقتُموهم شرفًا وفضلًا[٢].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦].

وكما قال عزَّ وجلَّ إخبارًا عن موسى لَمَّا قال قومُه: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۞ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَّر موسى عليه السَّلامُ بني إسرائيلَ بنِعَم اللهِ تعالى عليهم، وكان في طِيَّاتِ ذلك الحثُّ على الوفاءِ بما عاقَدوا اللهَ عليه من الطَّاعة- كان هذا كالتَّمهيدِ لطلبِ امتثالِهم للأمْرِ الذي تَضمَّنتْه هذه الآيةُ، بقِتال الجبَّارين؛ ليهيِّئَ نُفوسَهم

وممن روي عنه من السَّلف نحو هذا القول السُّدِّي. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٨١).

(١) قال جماعةٌ مِن السَّلف: إنَّ كلَّ مَن له امرأةٌ وخادم ومَسكن، فهو مَلِك.
وممَّن رُوي عنه من السَّلف نحوُ هذا القولِ: ابنُ عبَّاس، وعبد الله بنُ عمرِو بن العاصِ، ومجاهدٌ، والحسن، والحَكَم. ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٨٣- ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٥- ٢٥٦).
قال ابنُ كَثيرٍ: (والجمهورُ على أنَّه خِطابٌ من موسى لقومِه، وهو محمولٌ على عالَمِي زمانِهم) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٤).

إلى قَبولِ هذا الأمرِ العَظيمِ عليهم، وليوثِّقَهم بالنَّصرِ إنْ قاتلوا أعداءَهم[١].

﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾.

أي: نادَى موسى عليه السَّلامُ بَني إسرائيل؛ أنْ جاهِدُوا- يا قومي- عَدُوَّكم حتَّى تدخُلوا الأرضَ المطهَّرةَ المعظَّمة- بيتَ المقدِس[٢]- وتُصبِحَ في مُلْككم؛ فقد قضَى اللهُ وقدَّرَ أنْ تكونَ لكم بعدَ أنْ تستنقِذوها مِن أيدي أعدائِكم[٣].

﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾.

أي: ولا تَنكُلوا عن الجِهادِ، وتَرجِعوا القَهْقَرَى؛ فتَخْسَروا دُنياكم بما يَفوتُكم مِن نَصرٍ على الأعداءِ وفَتحٍ لبلادِكم، وتَخْسَروا آخرتَكم بما يفوتُكم مِن ثوابٍ، وما تَستحقُّونه مِن عقابٍ[٤].

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧).

(٢) وهذا اختيارُ ابنِ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٧٤- ٧٥)، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٧٧)، والشِّنقيطيِّ في ((العذب النمير)) (١/ ١١١).
وممَّن رُوي عنه هذا القول من السَّلف: ابنُ عبَّاس، والسُّديُّ، وابنُ زيد، والضحَّاك. ينظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٣٢).
واختار الواحديُّ أنَّها الشَّام. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٣١٤).
واختار ابنُ عاشورٍ أنَّها أرضُ فلسطينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٢).
وقيلَ غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٤- ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٥- ٢٥٦).
واختار الواحديُّ أنَّها سُمِّيت أرضًا مقدَّسةً، أي: مُطهَّرة؛ لأنَّها طُهِّرتْ من الشِّركِ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ١٧٢)، ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٨٧- ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧- ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٩- ٢٦٠).

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ ﴾.

أي: قالوا- جوابًا لطَلَبِه مُنادِين له باسمِه مُجرَّدًا مِن كلِّ ما يدلُّ على تقديرِه وإجلالِه-: يا موسى، في هذه البَلدةِ التي أمَرْتَنا بدخولها، وقِتالِ أهلِها أُناسٌ عَمالقةٌ، ذَوُو خِلقةٍ ضَخمةٍ، وأجسامٍ طويلةٍ، وقُوَّةٍ شديدةٍ؛ فلن نقدِرَ على مقاوَمَتِهم، ولا طاقةَ لنا بحربِهم؛ وهذا مِن ضَعْفِ قلوبِهم، وخَوَرِ نُفوسِهم، وعدمِ اهتمامهم بأمْرِ ربِّهم ورسولِهم[١].

﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا ﴾.

أي: ونحن نُؤكِّد جازِمينَ لك- يا موسى- بأنَّنا مُمتنِعونَ عن الدُّخولِ إليها مُطلقًا، ما دام يَسكُنها أولئك الجبَّارونَ، ولم يَخرجُوا منها[٢].

﴿فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾.

أي: فأمَّا إنِ افترَضْنا خروجَهم منها، ففي هذه الحالِ يُمكِنُنا الدخولُ إليها[٣].

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣ ﴾.

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ﴾.

أي: لَمَّا نَكَل بنو إسرائيلَ عن طاعةِ اللهِ تعالى ومُتابعةِ رسولِه موسى عليه السَّلامُ، قال لهم رجلانِ ممَّن يَخافونَ اللهَ تعالى، قدْ أنعَمَ عليهما بالتوفيقِ لطاعتِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٠- ٢٦١، ٢٧٤).

(٢) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦١).

والخوفِ منه وحْدَه سُبحانَه، فيقولانِ كلمةَ الحقِّ دون أنْ يخافَا في اللهِ تعالى لومةَ لائمٍ، وأنعمَ عليهما أيضًا بالصَّبرِ واليقينِ، والشَّجاعةِ وحَصافةِ الرَّأي[١].

﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ﴾.

أي: قالَا لقومِهم- استنهاضًا لهِمَمِهم، وتشجيعًا لهم على قِتال عدوِّهم-: ليس بَينكم وبينَ نصْرِكم عليهم إلَّا مجرَّدُ دخولِ بابِ الأرضِ المقدَّسة التي يَستوطِنونها؛ فإنَّكم إنْ فعلتُم ذلك كانتِ الغلبةُ لكم عليهم[٢].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ هذانِ الرجلانِ قَومَهما بالأَخْذِ بـالأسبابِ النَّافعةِ، أرْشدَاهُم إلى ألَّا يَعتمِدوا على أنفُسِهم[٣]، فقالاَ:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٩٣، ٢٩٧، ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٦- ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٣- ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٥).

قال ابن عاشور: (و﴿ٱلۡبَابَ﴾ يجوزُ أن يُراد به مدخلُ الأرض المقدَّسة، أي: المسالك التي يُسلَك منها إلى أرض كنعان، وهو الثَّغر والمضيق الذي يُسلَك منه إلى منزل القبيلة يكون بين جَبلَينِ وَعرَينِ؛ إذ ليس في الأرض المأمورين بدخولها مدينةٌ، بل أرض؛ لقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾، فأرادَا: فإذا اجتزتم الثغر ووطِئْتُم أرضَ الأعداء، غَلبتُموهم في قِتالهم في دِيارهم، وقد يُسمَّى الثغر البحري بابًا أيضًا... وحمَل المفسِّرون البابَ على المشهورِ المتعارَف، وهو باب البلد الذي في سُورِه، فقالوا: أرادَا بابَ قريتهم، أي: لأنَّ فتْحَ مدينة الأرض يُعدُّ ملكًا لجميع تلك الأرض...) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٥).

أي: فَوِّضُوا جميعَ أمورِكم إلى اللهِ تعالى وحْدَه، ومنها قِتالُ أعدائِكم، واعتمِدوا عليه اعتِمادًا تامًّا صادقًا، إنْ كان لديكُم إيمانٌ باللهِ تعالى وبصِدقِ وعْدِه[١].

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾.

أي: قال اليهودُ: إنَّا نرفُض- يا موسى- رفْضًا باتًّا ودائمًا، دخولَ تِلك المدينةِ التي يَسْكُنُها الجبَّارونَ ما دامُوا باقينَ فيها[٢].

﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

أي: ولكنِ امضِ- يا موسى- أنتَ وربُّك لقِتالِهم، أمَّا نحنُ فماكِثونَ في هذا المكانِ، ولنْ نَبرحَه معكَ للمضيِّ إليهم[٣].

فلمَّا نَكَلَ بَنو إسرائيل عنِ القِتالِ غَضِبَ عليهم موسى عليه السَّلامُ، فدعا عليهم، قال اللهُ تعالى عنه[٤]:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِي﴾.

أي: قال موسى عليه السَّلامُ: يا ربِّ، لا أقدِرُ أنْ أحمِلَ أحدًا على طاعتِكَ إلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٥- ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٠٢- ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٧).

(٤) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٩).

نفْسي وأخِي هارونَ[(١)].

﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

أي: فافْصِلْ بَينَنا وبينَ هؤلاءِ القومِ الخارجينَ عن طاعتِك، بحُكمٍ وقَضاءٍ مِنكَ تَقضيه فينا وفيهم، فتُبعِدَهم عنَّا[(٢)].

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: فأجاب اللهُ تعالى دُعاءَ موسى عليه السَّلامُ فقال: إنَّ عُقوبتَهم أنْ يُحرَّمَ عليهم دُخولُ الأرضِ المقدَّسةِ التي نَكَصوا عن دُخولِها، مُدَّةَ أربعين سَنةً يَظلُّون فيها ضائعينَ وحائرينَ في الأرضِ، لا يَهتدُونَ إلى طريقٍ، ولا يَبقَوْنَ مُطمئنِّينَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٨).
فإنْ قيل: لم قال: ﴿لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِي﴾، وكان معه الرجلانِ المذكوران؟
قيل: كأنَّه لم يثقْ بهما كلَّ الوثوقِ؛ لِمَا رأى من إطباقِ الأكثرين على التمرُّد، وقيل غير ذلك.
يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٣٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٦٧)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٦- ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٠٥- ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٨).

(٣) وهذا اختيارُ ابنِ جَرير في ((تفسيره)) (٨/ ٣١٤-٣١٥)، وابنِ عطيةَ في ((تفسيره)) (٢/ ١٧٦)، وابنِ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٧٩)، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٢٨)، وابنِ عثيمينَ في ((تفسير سورة المائدة)) (١/ ٢٦٨- ٢٦٩).
قال السعديُّ: (ولعلَّ الحِكمةَ في هذه المدَّة أن يموتَ أكثرُ هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة، الصادرةَ عن قلوبٍ لا صَبرَ فيها ولا ثبات، بل قد أَلِفَتِ الاستعبادَ لعدُوِّها، ولم تكُن لها هِممٌ تُرقِّيها إلى ما فيه ارتقاؤها وعُلوُّها، ولتظهرَ ناشئةٌ جديدةٌ تتربَّى عقولُهم على طلب قَهرِ الأعداء، وعدمِ الاستعباد، والذلِّ المانعِ من السَّعادة) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ويُنظر: ((تفسير

﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا عَلِم اللهُ تعالى أنَّ موسى عليه السَّلامُ في غايةِ الرَّحمةِ على الخَلْقِ- خُصوصًا قومَه- وأنَّه يَحزَنُ عليهم؛ قال تَعالى[1]:

﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

أي: فلا تَحزنْ عليهم -يا موسى- ممَّا عاقَبَهم اللهُ تعالى به؛ فهُم يَستحقُّونَ هذه العقوبةَ؛ لخُروجِهم عن طاعةِ ربِّهم سُبحانَه[2].

الفوائدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ مَن رزَقَه اللهُ عِلمًا فقدْ أنْعمَ عليه نِعمةً عظيمةً، تحتاجُ إلى التذكُّرِ؛ لأنَّ نبيَّهم موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذَكَّرَهم بهذه النِّعمة، مِن خلالِ تَذكيرِهم بنِعمةِ الأنبياءِ فيهم، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾[3].

٢- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ أنَّه ينبغي للداعيةِ أن يُذكِّرَ مَن يُوجِّهُ إليهم الخطابَ بنِعَمِ الله عليه؛ لأنَّ تذكيرَهم

ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٩).

قال القرطبيُّ: (﴿أَرۡبَعِينَ﴾ ظرفُ زمانٍ للتِّيهِ، في قولِ الحسنِ وقتادةَ، قالا: ولم يدخُلْها أحدٌ منهم، فالوقفُ على هذا على ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾. وقال الرَّبيعُ بنُ أنسٍ وغيرُه: إن ﴿أربعين سَنَةً﴾ ظرفٌ للتحريمِ، فالوقفُ على هذا على ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾، فعلى الأوَّل إنَّما دخَلها أولادُهم، قاله ابنُ عبَّاسٍ. ولم يبقَ منهم إلا يوشعُ وكالب، فخرج منهم يوشعُ بذرِّياتِهم إلى تلك المدينةِ وفتَحوها. وعلى الثَّاني فمَن بقي منهم بعدَ أربعينَ سنةً دخَلوها). ((تفسير القرطبي)) (٦/ ١٣٠). وينظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) للأنباري (٢/ ٦١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٩).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٧).

بالنِّعَم يُوجِبُ لهم مَحبَّةَ اللهِ[١].

٣- أنَّه كلَّما أَنعمَ اللهُ على عبدِه بنِعمةٍ وجَبَ عليه مِن السَّمعِ والطَّاعةِ ما لم يجبْ على غيرِه؛ لأمْرِه بدخولِ الأرضِ المقدَّسةِ، بعدَ ذِكرِ النِّعمِ مباشرةً؛ حيث قال: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾[٢].

٤- تقديمُ مقامِ العُلماءِ على الأمراءِ؛ لقوله: ﴿إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ ﴾ ثم قال: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا ﴾، فبَدأَ بالعلماءِ؛ لأنَّهم ورثةُ الأنبياءِ، وذَكَر بَعدَهم الأُمَراء؛ لأنَّهم إمَّا يكونونَ مِن الملوكِ، أو مِن وَرثتِهم أو نُوَّابِهم أو ما أشبهَ ذلِك[٣].

٥- أنَّه ينبغي أن يُذَكَّر الإنسانُ بما خصَّه الله تعالى به مِن النِّعم؛ وذلك لقولِه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٤].

٦- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ أنَّ الإيمانَ شرْطٌ في إخلاصِ التَّوكُّلِ على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ إذ لا يَتوكَّلُ على اللهِ تمامَ التوكُّلِ إلَّا مَن كان عندَه إيمانٌ بما وعَدَ اللهُ به في قولِه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾[٥] [الطلاق: ٣].

٧- أنَّه يَنبغي للدَّاعيةِ أنْ يَذكُرَ ما يُهيِّجُ النُّفوسَ ويُغريها بالقَبولِ؛ لأنَّه ذكَرَ في الآية أنَّ الأرضَ مُقدَّسةٌ؛ هذا الأوَّل، والثاني: أنَّ اللهَ كتبَها لهم. والثالث: قولُه: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ وكأنَّ هذه بشارةٌ بأنَّهم سيَنتصِرونَ، وسوفَ يَدخُلون الأرضَ؛ فالبِشارةُ مِن وجوهٍ ثلاثة[٦].

---

(١) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٦).

(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٧).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٥) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦٧).

(٦) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦٩).

٨- أنَّه يَنبغي للدَّاعيةِ إلى الله أنْ يَذكُرَ عواقبَ السيِّئاتِ؛ مِن أجْلِ تَنفيرِ النُّفوسِ منها، وإنْ كانتِ الدَّعوةُ إلى اللهِ تعالى تَحصُل ببيانِ الحلالِ والحرامِ، لكن إذا ذَكَرَ التَّرغِيبَ والترهيبَ كان في ذلك حَفزٌ للنُّفوسِ على الامتثالِ؛ وجهُ ذلك أنَّ موسى قال لقومِه: ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾[1].

٩- أنَّ التوكُّلَ على اللهِ عزَّ وجلَّ مِن أسبابِ النَّصرِ؛ لقولِ هذين الرَّجُلينِ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾[2].

١٠- أنَّه ينبغي ألَّا يَعتمِدَ الإنسانُ على نفْسِه وعلى السَّببِ الحسِّي فقط؛ لقولِهما بعدَ أنْ وجَّهَا قومَهما إلى أنْ يَدخُلوا عليهم البابَ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾[3].

١١- أنَّ إفرادَ اللهِ بالتوكُّلِ مِنَ الإيمانِ؛ لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ وأنَّ نقْصَ التوكُّلِ على الله نقصٌ في الإيمانِ؛ لأنَّ ما رُتِّبَ على شيءٍ ازدادَ بزيادتِه ونَقَصَ بنَقْصِه[4].

١٢- جوازُ دُعاءِ الإنسانِ ربَّه عزَّ وجلَّ أن يَفصِلَ بينَه وبينَ أهلِ الفُسوقِ والفُجورِ؛ لقوله: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، ويمكن أن يَتفرَّعَ على هذِه الفائدةِ جوازُ هِجرانِ الفَسَقةِ؛ لأنَّ الهجرَ مفارقةٌ[5].

١٣- أنَّ التخلِّيَ عن الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ مِن الفِسقِ؛ لقوله: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[6].

---

(١) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٧٢).
(٢) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٧٦).
(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٧٦).
(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٠).
(٥) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨١).
(٦) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٢).

١٤- إرشادُ الإنسانِ ألَّا يَحزنَ على الفاسقِ؛ لأنَّه إذا بذَلَ جُهدَه فيما يجبُ مِنَ الدَّعوةِ، فإنَّ هِدايةَ الخَلْقِ ليستْ إليه، بل إلى اللهِ، فلا يحزنْ؛ ولهذا قال الله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦][(١)].

الفَوائِدُ العامَّة واللَّطائِف:

١- نِداءُ موسَى عليه السَّلامُ قومَه، في قولِه: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يتضمَّن استعطافًا لهم؛ لأنَّه فرْقٌ بين أنْ يكونَ المخاطَبُ من قومِك أو مِن غيرِ قومِك[(٢)].

٢- الإشارةُ إلى أنَّ وجودَ الأنبياءِ بين الناسِ مِن أكبرِ النِّعمِ، فقال: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾، ولا شكَّ أنَّ حاجةَ الناسِ إلى الأنبياءِ أعظمُ من حاجتِهم إلى الملوكِ، وإنْ كانوا يَحتاجونَ إليهم[(٣)].

٣- في قوله ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فائدةٌ عظيمةٌ؛ وهي أنَّ القومَ وإنْ كانوا جبَّارين، إلَّا أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وعَدَ هؤلاءِ الضَّعفاءَ بأنَّ تِلك الأرضَ لهم، فإنْ كانوا مؤمنينَ مقرِّينَ بصِدقِ موسى عليه السَّلامُ عَلِموا قطعًا أنَّ اللهَ سيَنصرُهم ويُسلِّطهم عليهم؛ فحينئذٍ يُقدِمون على قِتالِهم مِن غَيرِ جُبنٍ ولا خوفٍ ولا هلَعٍ[(٤)].

٤- أنَّ الكتابةَ نوعانِ: شرعيَّةٌ، وقَدَريَّة؛ فالكتابةُ في قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ بمعنى الكتابة القَدَريَّة، وتأتي غالبًا مقرونةً باللَّام، أما الكتابةُ الشَّرعيَّة فتأتي غالبًا لا دائمًا مقرونة بـ(على)؛ بدليل قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ [الحشر:٣] فالكتابةُ هنا: قَدَريَّة[(٥)].

---

(١) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٤).

(٢) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٨).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٦).

(٤) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٣٢، ٣٣٣).

(٥) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٩).

٥- أنَّ بَني إسرائيلَ كانوا أحقَّ بأرضِ الشَّامِ من غيرِهم؛ لقوله: ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ فهم أحقُّ الناسِ بها، وهي مكتوبةٌ لهم حِينَ كانوا مؤمنينَ؛ لا لأنَّهم مِن بني إسرائيلَ، ولا شكَّ أنَّهم في عَهدِ موسى هم أفضلُ أهلِ الأرض، وموسى عليه السَّلامُ يُخاطِبُ قومًا صدَّقُوا وآمَنوا به، وقدْ قال اللهُ: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، إذن فقولُ بني إسرائيلَ: إنَّ هذه أرضُ الميعادِ، نقول: إنْ شاءَ اللهُ هي أرضُ ميعادِ هلاكِكم، أمَّا أنَّها أرضٌ لكم مكتوبةٌ شرعًا فلا، وأمَّا قَدَرًا فيُمكِن، لكنْ شرعًا ليس لهم فيها حقٌّ إطلاقًا؛ قال: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فكما أنَّ اللهَ أَوْرَثَ بني إسرائيل بلادَ فِرعونَ وأرضَه؛ لأنَّهم كانوا مُسلِمينَ، فكذلك المسلمونَ المؤمنونَ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَرِثونَ بَنِي إسرائيلَ(١).

٦- بَيانُ جفاءِ بني إسرائيلَ؛ وذلك أنَّ موسى عليه السَّلامُ كان يُخاطبهم بقولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ بهذا اللَّفظِ، وهم يقولون: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾، ولم يقولوا: يا نَبيَّ اللهِ، أو يا رسولَ الله، وهذا مِن جفائِهم وغِلَظ طَبائعِهم(٢).

٧- سوءُ ظنِّ بَني إسرائيلَ باللهِ؛ وذلك لأنَّ نبيَّهم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وعَدَهم أنَّ اللهَ كتَبَ لهم الأرضَ المقدَّسةَ في قولِه: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، ولكنَّهم اعتَمَدوا على الأمْرِ الماديِّ، فقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ﴾(٣).

٨- بعد أنْ قال قومُ موسى: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ جاءَ

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٧٠).
(٢) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٧٢).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٧٤).

تأكيدُ هذا المعنى بقولهم: ﴿فَإِن يَخۡرُجُواْ﴾ ولم يقولوا: (فإذا خرَجوا)، كأنَّهم يستبعدون خُروجَهم؛ لأنَّ (إنْ) الشَّرطيَّة: تتميَّز عن (إذا) بأنَّ (إنْ) يكونُ فِعلُ الشَّرطِ فيها حاصلًا وغيرَ حاصلٍ؛ فإنَّها للمَشكوكِ فيه، بلْ قد يكونُ مِنَ الأشياءِ المستحيلةِ، لكن (إذا) تكونُ للشَّرْطِ المَقطوعِ بوقُوعِه حَقيقةً أو حُكمًا[١].

٩- بيان جُبنِ بَني إسرائيلَ؛ لقولِهم: ﴿لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾، وهذا غايةُ ما يكون مِن الجُبن؛ لأنَّ الجبانَ هو الذي يقولُ: لا أدخُلُ البلدةَ أو القريةَ أو المدينةَ إلَّا إذا خرَجَ منها أهلُها، ثم أكَّدوا هذا الجُبنَ مرَّةً ثانيةً بقولِهم: ﴿فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾[٢].

١٠- أنَّ مَن غُزِيَ في عُقرِ دارِه فهو ذليلٌ، وهذا مَثَلٌ مشهورٌ: ما غُزِيَ قومٌ في عُقرِ دارِهم إلَّا ذَلُّوا؛ لقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ﴾، وأهل البلدِ مغلوبونَ[٣].

١١- لَمَّا كان يَعلمُ الرَّجُلانِ المذكورانِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أنَّه لا بدَّ مِن دخولِهم عليهم، وإنْ تَقاعَسوا وإنْ طال المدَى؛ لأنَّ اللهَ وعَدَ بنَصرِهم عليهم ووعْده حقٌّ، عبَّرا بأداةِ التحقيقِ (إذا) فقالا: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ﴾، ثم أكَّدا خبرَهما إيقانًا بوعدِ الله فقالَا: ﴿فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ﴾، أي: لأنَّ المَلِكَ معكم دُونَهم[٤].

١٢- قولُه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ناسَب أوَّلُ الآيةِ آخِرَها؛ فبعدَ أنْ أمَرَ القومَ

(١) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦١)، وينظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٧٧).
(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين-سورة المائدة)) (١/ ٢٧٤)، وينظر أيضًا: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٧٢).
(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٧٥).
(٤) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٧٦).

باتِّخاذِ الأسبابِ والوسائلِ أَمرَهم بالتَّوكُّل على اللهِ، والاعتمادِ على وعْدِه ونَصْرِه وخَبرِ رسولِه؛ ولذلك ذيَّلَا بقولهما: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ الشَّكَّ في صِدقِ الرَّسولِ مبطِلٌ للإيمانِ(١).

١٣- إصرارُ بني إسرائيلَ على المعصيةِ، وعلى الجُبن والخَوَرِ؛ لقولهم: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾، وهذا ظاهرٌ في أنَّهم مُصرُّونَ على معصيةِ نبيِّهم الذي قال لهم: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾(٢).

١٤- الغَطرسةُ العظيمةُ في بني إسرائيلَ؛ حيث قالوا لموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، حتَّى قولهم: «اذْهَبْ» -بهذه الصِّيغة كأنَّهم آمِرونَ لموسى- أيضًا فيه استعلاءٌ واستكبارٌ، ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ يعني: ما رَجَوْه رجاءً وقالوا: ألَا تذهبُ يا رسولَ اللهِ، أو يا نبيَّ اللهِ، أو ما أشبهَ ذلك، وجه ثالثٌ مِن الغطرسة في قولهم: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، أي: لا نَتحرَّكُ ولا نذهبُ معَكم، لم يقولوا مثلًا: إنَّنا رِدْءٌ لك نَحمِيكَ مِن ظَهرِك، وما أشبهَ ذلك! ففيها أيضًا مُنتهَى الغطرسةِ مِن بني إسرائيلَ(٣).

١٥- في قولِه تَعالَى: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ مواجهةٌ لنبيِّهم في هذا المقامِ الحرجِ الضيِّق، الذي قد دعَتِ الحاجةُ والضرورةُ فيه إلى نُصرةِ نبيِّهم، وإعزازِ أنفسِهم، وبهذا وأمثالِه يظهرُ التفاوتُ بين سائرِ الأُممِ وأُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ حيث قال الصحابةُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- حين شاورَهم في

(١) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٥) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٢٠).

(٢) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٠).

القِتالِ يومَ «بدر» مع أنَّه لم يُحَتِّمْ عليهم-: يا رسولَ اللهِ، لو خُضتَ بِنا هذا البحرَ لخُضناهُ معَك، ولو بلغتَ بِنا بَرْكَ الغُمادِ[١] ما تخلَّفَ عنك أحدٌ، ولا نقولُ كما قال قومُ موسى لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكِنْ اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتِلَا إنَّا مَعكُما مقاتلونَ، مِن بَينِ يَديكَ ومِن خَلْفِكَ، وعن يَمينِكَ وعن يَسارِكَ[٢].

١٦- أنَّ التحريمَ يُطلَقُ على المنعِ القَدَريِّ؛ لقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾؛ فاللهُ تعالى لم يُرِدْ أنَّه حرَّمَ عليهم دخولَها شَرْعًا، لكنْ قَدَرًا، والتحريمُ يكون كونيًّا، ويكون شرعيًّا، فمِن التحريمِ القدَريِّ الكونيِّ: قولُه تعالى: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ﴾ [القصص: ١٢]، ومِن التحريمِ الشرعيِّ: قولُه تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾[٣] [المائدة: ٣].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ (إِذْ) ظَرْفٌ في مَحلِّ نصْبٍ على أنَّه مَفعولٌ لِفعلٍ مُقدَّرٍ، أي: واذْكُرْ وقْتَ قولِ موسَى لقومِه ناصحًا لهم ومُستميلًا لهم بإضافتِهم إليه ﴿يَٰقَوۡمِ ...﴾؛ فتوجَّه الأَمْرُ بالذِّكر إلى الوقتِ دونَ ما وقَعَ فيه مِن الحوادثِ، مع أنَّها المقصودةُ بالذَّات؛ للمبالغةِ في إيجابِ ذِكرِها؛ لأنَّ إيجابَ ذِكرِ الوقتِ إيجابٌ لذِكرِ ما وقَعَ فيه

---

(١) بَرْك الغُماد -تُفتح الباءُ وتُكسَر، وتُضمُّ الغينِ وتُكسَر-: هو اسمُ موضِعٍ أو بَلَدٍ باليَمنِ، وقيل: هو موضعٌ وراءَ مكَّةَ بخَمسِ ليالٍ ممَّا يلِي البَحر. والبَرْك: حِجارةٌ مِثلُ حِجارةِ الحرَّة، خَشِنة يَصعُب المسلكُ عليها، وعرةٌ. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٢١)، ((معجم البلدان)) لياقوت (١/ ٣٩٩- ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨).

وينظر ما أخرجه مسلمٌ (١٧٧٩) من حديثِ أنسٍ رضي الله عنه، وما أخرجه البخاريُّ (٣٩٥٢) من حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٣).

بالطريقِ البُرهانيِّ[١].

٢- وفي قوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ فيه- على أحدِ وُجوهِ التفسيرِ المذكورةِ-: تَشبيهٌ بليغٌ، حيث جعَلَهم كالملوكِ في تصرُّفِهم في أنفُسِهم، وسلامتِهم من العبوديَّةِ التي كانتْ عليهم للقِبط، أو استُعمل فِعل (جَعَلَكُمْ) في معنى الاستقبال، مِثل قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]؛ قصدًا لتحقيقِ الخبر، فيكونُ الخبرُ بشارةً لهم بما سيكونُ لهم[٢].

٣- قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾: كرَّر النِّداءَ الذي ابتدأَ به مَقالتَه، وهو النِّداءُ بـ﴿يَٰقَوْمِ﴾؛ اهتمامًا بشأنِ الأمرِ، ومبالغةً في حثِّهم على الامتثالِ به[٣].

٤- قوله: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾: فيه تأكيدٌ؛ حيثُ أكَّدوا الامتناعَ الثاني من الدُّخولِ بعدَ المحاورةِ أشدَّ توكيدٍ؛ دلَّ على شِدَّتِه في العربية بثَلاثةِ مؤكِّداتٍ: (إنَّ)، و (لن)، وكلمة (أبدًا)، حيثُ أكَّدوا نَفيَهم للإقدامِ عليهم بقولِهم: ﴿إِنَّا﴾، وَعظَّموا تأكيدَهم بقولهم: ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ﴾، وزادوه تأكيدًا بقولِهم: ﴿أَبَدًا﴾[٤].

٥- قوله: ﴿فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾: فيه تصريحٌ بمَفهومِ الغايةِ التي في قولِه: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾؛ لقصدِ تَأكيدِ الوَعدِ بدُخولِها إذا خلَتْ مِنَ الجبَّارينَ الذين فيها[٥]؛ فأكَّدوا على دُخولهم إذا خرَج منها هؤلاءِ القومُ الجبَّارونَ بقولِهم: ﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾-فهو مُؤكَّد بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجُملة- وهذا لا يَحتاجُ إلى توكيدٍ، لكن يَدلُّ على شِدَّةِ بلاهتِهم؛ لأنَّ المعروف أنَّه متى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٢).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٣).

خلَتِ البلادُ مِن الأعداء فخرَجُوا منها، فالدُّخولُ في هذه الحالة لا يَحتاجُ إلى تأكيدٍ[١].

٦- قوله: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ﴾: فيه تعريضٌ؛ حيثُ يجوزُ أن يكونَ المرادُ بالخوفِ: الخوفَ مِن الله تعالى، أي: كان قولهما لقومِهما: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ ناشئًا عن خوفِهما مِن الله تعالى، فيكون تعريضًا بأنَّ الذين عَصَوهما لا يخافونَ اللهَ تعالى[٢].

٧- قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾: فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على المفعولِ به ﴿ٱلۡبَابَ﴾؛ للاهتمامِ بالمقدَّم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤).

الآيات (٢٧ - ٣٢)

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿نَبَأَ﴾: النَّبَأُ: الخبرُ الذي له قَدرٌ، وفائدةٌ عظيمةٌ، ويَحصُل به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، وأَصْلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ؛ وسُمِّيَ الخبرُ نبأً؛ لانتقالِه مِن مكانٍ إلى مكانٍ[1].

﴿قُرۡبَانٗا﴾: ما يُتقرَّبُ به إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِن ذِبْحٍ أو غيرِه، وصارَ اسمًا للنَّسيكةِ التي هي الذَّبيحةُ، وأصلُ القُرب: خِلافُ البُعدِ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨- ٧٨٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٠)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٦٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٣٣).

﴿بَسَطتَ﴾: مَدَدْتَ، والبَسطُ في الشيءِ: فتْحُه وتَوسعتُه، وقيل: إمدادُه في جميعِ جِهاتِه[١].

﴿تَبُوٓأَ﴾: أي: تَرجِعَ، أو تَنقلِبَ وتَنصرِفَ، ولا يُقال: (باء) إلَّا بشَرٍّ، ويُقال: باءَ بكذا إذا أقرَّ به[٢].

﴿بِإِثۡمِي﴾: أي: بإثمِ قتْلي، والإثمُ والآثام: اسمٌ للأفعالِ المبطِّئةِ عن الثَّوابِ، أو الذَّنبِ الذي تُستَحقُّ العقوبةُ عليه، وأصل الإثم: البُطءُ والتأخُّر[٣].

﴿فَطَوَّعَتۡ﴾: سهَّلَتْ وزَيَّنتْ، أو طاوَعتْ وأعانَتْ، وأجابتْ وانقادَتْ، وأصْل الطَّوع: الانقيادُ والإصحابُ، ويَضادُّه الكُرهُ[٤].

﴿يَبۡحَثُ﴾: يَحْفِرُ، والبَحْثُ: طَلَبُ الشَّيءِ في التُّرابِ، ويُطلَقُ كذلك على الكَشفِ والطَّلبِ[٥].

﴿يُوَٰرِي﴾: يَستُر، مِن واريتُ كذا: إذا سَترتَه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٢٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٠- ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٥، ٥٢٩، ٥٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٣، ٥٨٧).

(٥) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٣/ ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٥).

(٦) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٥).

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾: يا فَضيحَتَاه! والويلُ: كلمةُ دُعاءٍ بالهلاكِ والعذابِ، وتُطلَق كذلِك على حُلولِ الشرِّ، وتُستعمَلُ في التَّحسُّرِ، والويلةُ: الفَضيحةُ والبليَّةُ[١].

﴿سَوۡءَةَ أَخِي﴾: السَّوْءةُ: العورةُ، وما لا يَجوزُ كَشْفُه مِن الجَسدِ، والمُرادُ هنا بَدَنُه وجيفتُه، وأَصْلُ (سوء): يدلُّ على القُبحِ[٢].

﴿ٱلنَّٰدِمِينَ﴾: جمْعُ نادمٍ، وهو المتحسِّرُ مِن تغيُّرِ رأيٍ في أمْرٍ فائتٍ، مِن نَدِم: إذا تَفطَّنَ لشيءٍ قد كان[٣].

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: جمْع بيِّنة، وهي: الدَّلالةُ الواضِحةُ؛ يُقال: بانَ الشيءُ وأبانَ، إذا اتَّضحَ وانكَشَف[٤].

﴿لَمُسۡرِفُونَ﴾: لمُفرِطون، والسَّرَف: تَجاوزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يَفعلُه الإنسانُ، وأصلُه: تَعدِّي الحدِّ، والإغفالُ للشَّيء أيضًا[٥].

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يَأمرُ اللهُ تعالى نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَقصُصَ على اليهودِ وغيرِهم خبرَ ابنَي آدَمَ، وهو خبرٌ حقٌّ؛ إذ أخرجَ كلُّ أخٍ منهما شيئًا يتقرَّبُ به إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى، فقبِلَ الله قُربانَ أحدِهما، ولم يَقبَلْ مِن الآخَر، فحسَد الذي لم يَتقبَّلِ اللهُ قُربانَه أخاه، فتوعَّده بالقَتْلِ، فقال له أخوه: إنَّما يتقبَّلُ الله

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٨/ ٣٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٥).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٢/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

من المتَّقينَ، وقال له: إنْ مددْتَ إليَّ يدَك لتقتُلَني، فلنْ أمدَّ يَديَ إليك لأقتلَك، والَّذي يَمنعني مِن ذلِك هو خَوفي مِن اللهِ تعالى، وأنِّي أُريدُ أن تتحمَّلَ أنتَ إثمَ قتْلي مع إثمِ ما ارْتكبْتَه مِن قبلُ من المعاصِي، فتكون- بسببِ ذلك- من أصحابِ النار، وهذه هي عقوبةُ كلِّ ظالمٍ.

فسهَّلتْ له نفْسُه قتْلَ أخيه فقتَلَه؛ فأصبح مِن الذين خَسِروا دُنياهم وآخِرتَهم، فلمَّا قتَلَه تحيَّر كيف يصنعُ بأخيه المقتولِ؟! حينها بعَثَ اللهُ غُرابًا يَحفِرُ في الأرضِ ويُثير الترابَ؛ ليشاهدَه القاتلُ، فيفطِنَ للطريقةِ التي مِن خلالها يُغطِّي بدنَ أخيه، فلام القاتلُ نفْسَه، وقال: عجبًا، كيف لم أَقدِرْ على فِعلِ ما فَعلَه هذا الغرابُ فأُغطِّيَ بدنَ أخي؟! فأصبحَ مِنَ النادمينَ.

ثم أَخبر تعالى أنَّه مِن أجلِ تِلك الجريمةِ التي ارتكبها ولدُ آدَمَ بقَتْلِه أخاه ظلمًا؛ حَكَمَ تعالى على بَني إسرائيل أنَّه مَن قتَلَ نفْسًا واحدةً دون أن تكونَ مُستحِقَّةً للقتْلِ- بسببِ قِصاصٍ أو فَسادٍ في الأرض- فهو بفِعْلِه ذلك مِثلُ مَن استحلَّ دِماءَ جميعِ النَّاس، ومَن أحياها فهو مِثلُ مَن أحيا الناسَ جميعًا، ولقدْ جاءتْ رسلُ اللهِ إلى بني إسرائيل بالبيِّناتِ، ثم إنَّ كثيرًا منهم يَعملون المعاصي، ويرتكبون ما حرَّم اللهُ تعالى، مُنتهِكين حُدودَه.

تَفْسيرُ الآياتِ:

مُناسَبةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ هذه القِصَّةِ والتي قَبلَها مُناسَبةُ تماثُلٍ ومُناسَبةُ تضادٍّ؛ فأمَّا التماثُلُ، فإنَّ في كِلتَيهما عدَمَ الرِّضا بما حَكَم الله تعالى؛ فإنَّ بني إسرائيل عصَوْا أمْرَ رسولِهم إيَّاهم بالدُّخولِ إلى الأرض المقدَّسةِ، وأحد ابنَيْ آدَمَ عصَى حُكمَ الله تعالى بعدَمِ قَبولِ قُربانِه؛ لأنَّه لم يكُنْ مِن المتَّقين، وفي كِلتَيهما جُرأةٌ على اللهِ بعدَ المعصية؛ فبنو إسرائيل قالوا: فاذْهَبْ أنتَ ورَبُّك، وابنُ آدَمَ قال: لأقتُلنَّ الذي

تَقبَّل اللهُ مِنه. وأمَّا التضادُّ، فإنَّ في إحْديهما إقدامًا مذمومًا مِن ابنِ آدَمَ، وإحجامًا مذمومًا من بني إسرائيل، وإنَّ في إحْدَيهما اتفاقَ أَخوينِ هما موسى وأخوه على امتثالِ أمْرِ الله تعالى، وفي الأُخرى اختلاف أَخوينِ بالصَّلاحِ والفَسادِ[1].

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: واقْصُصْ - يا محمَّدُ - خبرَ ابنَي آدَمَ لصُلبِه[2] على هؤلاءِ اليَهودِ وغيرِهم، بالصِّدقِ الثابتِ الذي لا لَبْسَ فيه ولا كَذِبَ، ولا وَهْم ولا تَبديلَ، ولا زِيادةَ ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٨).

قال أبو حيَّان: (فتقدَّم قولُه أوائلَ الآيات: ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾، وبَعدَه ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وقوله: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ ثم قِصَّة محاربة الجبَّارين، وتبيَّن أنَّ عدمَ اتِّباع بني إسرائيل محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم إنَّما سبَّبه الحسدُ، هذا مع عِلمِهم بصِدقه، وقِصَّة ابْنَي آدمَ انطوتْ على مجموعِ هذه الآيات مِن بَسْط اليَدِ، ومِن الإخبارِ بالمغيب، ومِن عدمِ الانتفاعِ بالقُرب، ودَعواه مع المعصية، ومِن القتْل، ومن الحسَد). ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٢٧).

(٢) وقد نقَلَ ابنُ جريرٍ الإجماعَ على ذلك، فقال: (إجماعُ أهلِ الأخبارِ والسِّيَرِ والعِلمِ بالتأويلِ على أنَّهما كانَا ابنَي آدم لصُلبِه، وفي عهدِ آدَمَ وزمانِه) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٢٥).

ونَسبَه ابنُ كثير وغيرُه إلى جمهورِ العلماء. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٧١).

وقال ابنُ كَثيرٍ: (... فهذه أقوالُ المفسِّرين في هذه القصَّة، وكلُّهم مُتَّفقون على أنَّ هذين ابنَا آدَمَ لصُلبه، كما هو ظاهرُ القرآن، وكما نطَقَ به الحديثُ في قوله: «إلَّا كان على ابنِ آدَمَ الأوَّلِ كِفلٌ مِن دَمِها؛ لأنَّه أوَّلُ مَن سَنَّ القَتْل»، وهذا ظاهرٌ جليٌّ) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٩٠).

والمشهورُ أنَّ اسمَهما: هابيل وقابيل. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٧١).

نُقصانَ[١].

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾.

أي: حين أَخرجَ كلُّ واحدٍ من الأخوينِ شيئًا؛ يُتقرَّبُ به مِنَ اللهِ تعالى، فقُبِلَ مِن أحدِهما دُونَ الآخَرِ[٢].

﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

أي: فلمَّا قُبِلَ مِن أَحدِهما قُربانُه، ولم يُقبَلْ مِن الآخِرِ، وعَلِم الذي لم يُقبَلْ مِنه بذلِك، حسَدَ أخاه، فتوعَّدَه بالقتلِ[٣].

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: ردَّ عليه أخوه بقَولِه:إنما يُتقبَّل الله العملَ ممَّن اتَّقى الله فيه؛ فعَمِلَه خالصًا لله، موافقًا لأمر الله؛ فمَن اتَّقاه في عَملٍ تقبَّله منه[٤]، فأيُّ ذَنبٍ لي يُوجِبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣١٧- ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨١- ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٥- ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٦- ٢٨٧).

قال ابنُ كَثيرٍ: (ثم المشهورُ عندَ الجمهور أنَّ الذي قَرَّبَ الشاةَ هو هابيلُ، وأنَّ الذي قرَّبَ الطعامَ هو قابيل، وأنَّه تُقبِّل من هابيلَ شاتُه، حتى قال ابنُ عبَّاس وغيرُه: إنَّه الكبشُ الذي فُدِي به الذَّبيحُ، وهو مناسبٌ، والله أعلمُ، ولم يُتقبَّل مِن قابيل، كذلك نصَّ عليه غيرُ واحدٍ مِن السَّلفِ والخلفِ) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩).

(٤) وهذا اختيارُ ابنِ تَيميَّة في ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٣٢٢)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٢٩).

واختارَ تفسيرَ التقوى هاهنا بأنَّها امتثالُ الأوامرِ واجتنابُ النَّواهي: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٣٢٧)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (١/ ٢٨٧).

وقال ابنُ عاشور: (وقد أفاد قولُ ابنِ آدَمَ حصرَ القَبولِ في أعمال المتقين؛ فإذا كان المرادُ من ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ معناه المعروف شرعًا المحكيَّ بلفظه الدالِّ عليه مرادُ ابنِ آدم، كان مفادُ الحصر أنَّ

لك قتْلي، إلَّا أنِّي اتقيتُ اللهَ الذي تقواه واجبةٌ عليَّ وعليكَ؟! فكنْ أنتَ من المتقين حتَّى يُتقبَّلَ منك أيضًا[١].

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ ﴾.

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ ﴾.

أي: لو مَددتَ إليَّ يدَك مِن أجْلِ أنْ تَقتُلَني، فلنْ أُقابِلَك على صَنيعِك الفاسدِ بمِثلِه[٢].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

أي: لا أُريدُ أنْ أُقدِمَ على قتْلِك؛ لأنَّني أخافُ غضَبَ وعقابَ اللهِ، الَّذي نتوجَّه إليه وحْدَه بالعِبادة، والخالِقِ المالِك لجميعِ الخلائقِ ومُدبِّرها سُبحانَه[٣].

عمَلَ غيرِ المتَّقي لا يُقبل، فيحتمل أنَّ هذا كان شريعتَهم، ثم نُسِخ في الإسلام بقَبول الحسناتِ مِن المؤمِن وإنْ لم يكن متقيًا في سائرِ أحواله، ويحتمل أنْ يُراد بالمتَّقين المُخلِصون في العمل؛ فيكون عدمُ القَبول أمارةً على عدم الإخلاص، وفيه إخراجُ لفظ التقوى عن المتعارَف، ويحتمل أنْ يُريد بالتقبُّل تقبُّلًا خاصًّا، وهو التقبُّلُ التام الدالُّ عليه احتراقُ القُربان، فيكون على حدِّ قولِه تعالى: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، أي: هدًى كاملًا لهم، وقوله: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، أي: الآخرة الكاملة، ويحتمل أن يُريد تقبُّلَ القرابين خاصَّةً، ويحتمل أن يُراد ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ بالقُربان، أي: المريدين به تقوى الله، وأنَّ أخاه أراد بقُربانِه [المباهاة]، ومعنى هذا الحصرِ أنَّ الله لا يَتقبَّل من غيرِ المتَّقين، وكان ذلك شرعُ زمانِهم) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٢٨-٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص:

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾.

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾.

أي: إنِّي أُريدُ أن ترجِعَ مُتحمِّلًا إثمَ قَتْلي، مع إثمِك الذي اكتسبتَه من مَعاصٍ سابقةٍ[١].

﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فتكونَ بذلِك مِن سُكَّانِ الجحيمِ الملازِمينَ لها، وهذا عقابُ كلِّ ظالمٍ[٢].

﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾.

﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾.

أي: فسَوَّلتْ له نفْسُه وسَهَّلت عليه قتْلَ أخيه، الذي يَقتضي الشَّرعُ والطبعُ احترامَه والرأفةَ به، فاستجابَ لنَفْسِه الأمَّارةِ بالسُّوءِ، فقَتَلَ أخاه[٣].

﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

فصارَ بقَتْلِ أخيه مِن الذين خابوا وخَسِروا دُنياهم وآخِرتَهم[٤].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال:

---

٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٨).

(١) وقد نقَل ابنُ جرير الإجماعَ على هذا المعنى. ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٣٢). ويُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٣٦- ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٩).

((لا تُقتَلُ نفسٌ ظُلمًا، إلَّا كانَ على ابنِ آدمَ الأوَّلِ كِفلٌ من دَمِها[١]؛ لأنَّه أولُ مَن سَنَّ القَتْلَ))[٢].

ولَمَّا قتَل أخاه حارَ كيفَ يَصنعُ بأخيه المقتولِ[٣]، قال تعالى:

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾.

أي: فأَرسل اللهُ تعالى له غُرابًا يَحفِرُ في الأرضِ، ويُثير الترابَ -قيل: ليدفن غرابًا ميتًا[٤]-؛ ليشاهدَه القاتلُ، فيتفطَّنَ مِن خلال ذلِك إلى الطريقةِ التي يَستُرُ بها بدَنَ أخيه[٥].

---

(١) كِفلٌ من دَمِها: أي: ضِعْفٌ من إثمِها، أو: جزءٌ ونصيب من إثمها. ينظر: ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (١/ ٣٤٦)، ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٦٦)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٧١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٥٨٨).

(٢) رواه البخاري (٣٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩).
قال الشوكانيُّ: (قيل: إنَّه لما قتَل أخاه لم يَدرِ كيف يُواريه؛ لكونِه أوَّل ميتٍ مات مِن بني آدمَ) ((فتح القدير)) (٢/ ٣٧).

(٤) وهذا اختيارُ ابنِ جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٣٤٠)، والواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٣١٦)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٢٩).
وقال ابنُ عُثَيمين: (قولُه: ﴿يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ذكَر المفسِّرون أنَّ غُرابين اقتتلَا، فقَتَل أحدُهما الآخَرَ، فبَحَث القاتلُ في الأرض ثم دفَن الغراب، ولكن ظاهر الآية خلافُ ذلك؛ لأنَّ الله يقول: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا﴾، ولم يقُل: غُرابين) ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٤٠، ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٠).

﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي﴾.

أي: فقال القاتلُ حينئذٍ لائمًا وموبِّخًا لنَفْسِه: كيف لم أقْدِرْ على مِثلِ ما فعَلَه الغرابُ فأسترَ بذلِك بدَنَ أخِي[1]؟!

﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

أي: فصارَ نادمًا على قَتْلِه لأخيه[2].

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾.

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾.

أي: بسببِ جَريرةِ قتْلِ ابنِ آدَمَ أخاه ظُلمًا وعُدوانًا، حَكَمْنا على بني إسرائيلَ بأنَّه مَن تَجرَّأَ منهم فقتَل نفْسًا واحدةً بغير سببٍ مِن قِصاصٍ، أو فسادٍ في الأرضِ- فإنَّ النفسَ إذا قَتَلَت نفْسًا بغيرِ حقٍّ استحقَّتِ القتلَ بها قِصاصًا، وكذا إذا كان منها فسادٌ في الأرض كقَطعِ الطَّريقِ وإخافةِ السَّبيلِ- فهو مِثلُ مَن استحلَّ دِماءَ جميعِ النَّاسِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٤٥- ٣٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩).

وقال ابنُ عُثَيمين: (هذا القاتلُ أصبح مِن النَّادمين على قتلِ أخيه، وعلى عجزِه عن مواراةِ سوأةِ أخيه، فجمَع النَّدم للأمرينِ جميعًا) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٤٧- ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٤- ٣٠٧).

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

أي: مَن حرَّم قتْلَ مَن حرَّم اللهُ تعالى قتْلَه، ولم يُقدِمْ على قتْلِه، فقدْ حَيِيَ الناسُ كلُّهم بسَلامتِهم منه[١].

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: قدْ أتَى رُسلُنا بني إسرائيل ومعهم البراهينُ الظاهرةُ، والدلائلُ الواضحةُ، التي لا يَبقَى معها حُجَّةٌ لأحدٍ[٢].

﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

أي: ثمَّ إنَّ كثيرًا من بني إسرائيلَ بعدَ مَجيءِ رُسلِنا إليهم بالبيِّناتِ القاطعةِ للحُجَّة، الموجِبةِ للاستقامةِ؛ عاملونَ في الأرضِ بالمعاصي؛ مخالفةً للهُدَى واتِّباعًا للهَوَى، فارْتكبوا محارمَ الله تعالى، وانتهكوا حدودَه سُبحانَه بعدَ عِلْمِهم بها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩).

قال ابنُ عُثَيمين: (قولُه: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾، أي: أنْقذَها من الموتِ أو القتْل، وليس المعنى: أنه نفخ فيها الرُّوح؛ لأنَّ ذلك لا يكون إلَّا لله عزَّ وجلَّ، وهذا يشمل أشياء:

أولًا: لو هَمَّ الإنسانُ بقتْل شخص فطوَّعت له نفسُه قتْلَ أخيه، ثم استيقظ ورأى أنَّ ذلك حرام، ثم كفَّ عن هذا القتْل، يكون قد أحيا هذه النفس، فبعدَ أن طوَّعت له نفسُه قتْلَه تراجَع.

ثانيًا: الدَّفْع: دفْع الصَّائل الذي يريد أن يقتُل شخصًا، فيدفعه، ويكون بهذا أحيا نفْسًا، أي: أنقذَها من القتْل.

ثالثًا: ... أن يقَعَ شخصٌ في هلكة كحريق أو غرَق أو هدم، فيأتي شخصٌ آخر فينقذه)) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٨- ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير السعدي))

الفوائدُ التَّربويَّة:

١- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾ أنَّه قد يشتركُ الرَّجُلانِ في عمل، ويكونُ بينهما مِن الفَرقِ كما بَينَ السَّماءِ والأرضِ؛ إمَّا في ردِّ عَملِ الثاني، وإمَّا في زيادةِ ثوابِ الأوَّل، وإنْ لم يُحرَمِ الثاني مِن الثَّوابِ، وفي هذه القِصَّةِ أنَّ الثانيَ حُرِمَ مِنَ الثَّوابِ[١].

٢- أنَّه لا حرَجَ على الإنسانِ أنْ يُخبِرَ بوصفٍ محمودٍ إذا لم يَقصِدِ الفَخرَ، وإنَّما قَصَدَ مصلحةَ الغَيرِ؛ لقول هذا الذي تُقبِّلَ منه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ هذه الجملةَ تصلُحُ لأنْ يكونَ القائلُ يُريدُ أنْ يحُثَّ هذا على التَّقوى[٢].

٣- أنَّ الإنسان يَنبغي له إذا امتَنَع مِن شيءٍ محرَّم، أنْ يُبيِّنَ لصاحبِه أنَّه إنما امتَنَعَ لا عجزًا ولا خوفًا، ولكن للمعنى الذي مِن أجْلِه امتَنعَ، وذلك لقولِه: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٣].

٤- أنَّ الخوفَ مِن الله هو أقوى الأسبابِ الرادعةِ عن مَعصيتِه؛ لقولِه: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٤].

٥- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ الحذرُ مِن النَّفسِ الأمَّارةِ بالسُّوء؛ لأنَّها قد تُطوِّعُ للإنسانِ أكبرَ المعاصي، فيجب على الإنسانِ أن يكونَ حازمًا بالنسبةِ لنفْسِه ويَقِظًا، فلا يَتَّبِعها فيما تُطوِّعُه له مِن معاصِي الله[٥].

(ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٨).

٦- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أنَّ كلَّ إنسانٍ حسَدَ أخاه، وحاوَلَ أنْ يَحُولَ بينَه وبينَ التوفيقِ، فإنَّ الخَسارةَ ستعودُ على هذا الحاسدِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- أهميَّةُ هذه القِصَّة؛ وجهُ ذلك: أنَّ اللهَ أمَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمرًا خاصًّا أنْ يَتلُوَها؛ فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾[٢].

٢- أنَّه ينبغي لنا أنْ نعرِفَ أخبارَ مَن سبَقَ، لا سيَّما فيما فيه مصلحةٌ؛ لنأخذَ منها العِبَرَ[٣].

٣- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى- له الحُكمُ في القَبولِ والرَّدِّ؛ يَتقبَّلُ أو لا يَتقبَّل، ولكنْ مِن المعلومِ أنَّ اللهَ جعَلَ للقَبولِ ميزانًا، وجعَل للردِّ ميزانًا[٤].

٤- أنَّ الله سُبحانَه وتعالى موصوفٌ بصِفاتِ الأفعالِ؛ لقولِه: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾، ولقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٥].

٥- قولُه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ على قولِ الخَوارجِ والمعتزلة لا تُقبل حَسنةٌ إلَّا ممَّن اتَّقاه مطلقًا، فلم يأتِ كبيرةً، وعند المرجئةِ إنَّما يَتقبَّل ممَّن اتَّقى الشِّرْك؛ فجَعَلوا أهلَ الكبائر داخلينَ في اسمِ المتَّقين، وعند أهل السُّنَّة والجماعة يُتقبَّل العملُ ممَّن اتَّقى الله فيه فعَمِلَه خالصًا لله، موافقًا لأمر الله؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٥- ٢٩١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٣).

فمَن اتَّقاه في عَملٍ تقبَّله منه، وإنْ كان عاصيًا في غيرِه، ومَن لم يتَّقِه فيه لم يتقبَّلْه منه، وإنْ كان مطيعًا في غيرِه(١).

٦- يُستفادُ من قولِه: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ﴾ إثباتُ الإرادةِ للعَبدِ، وأنَّ هذا معلومٌ منذ خُلِق البَشرِ، فيكونُ في ذلِك ردٌّ على الجَبريَّةِ الذين يقولون: إنَّ الإنسانَ ليس له إرادةٌ، وإنَّما يَفعَلُ الشيءَ قهرًا وجبرًا(٢).

٧- أنَّ مَن أُريد قتلُه ولم يُدافِعْ عن نَفْسِه خوفًا مِن الإثمِ(٣)، فإنَّه لا حرَجَ عليه؛ لقوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ﴾(٤).

٨- قولُه تَعالَى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ يدلُّ على أنَّ اللهَ عزَّ ذِكرُه قد كان أمَرَ ونَهَى آدَمَ بعدْ أنْ أَهبطَه إلى الأرضِ، ووعَد وأَوْعَد، ولولا ذلِك ما قال المقتولُ للقاتلِ: فتكونَ مِن أصحابِ النارِ بقَتْلِك إيَّاي، ولا أخْبَره أنَّ ذلك جزاءُ الظَّالمين(٥).

٩- في قولِه تَعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ إن قيل: كيف يُعقَلُ أن يبوءَ القاتلُ بإثم المقتولِ مع أنَّه تعالى قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [فاطر:

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٦).

(٣) قال ابنُ عُثيمين: (لأنَّه ربَّما يَقتُلُ الصَّائِلَ فيتعَجَّلُ؛ لأنَّ الواجِبَ في دَفعِ الصَّائِلَ أن يُدافَعَ بالأسهَلِ فالأسهَلِ، فإن رجَعَ عن صَولِه بالتَّهديدِ لم يُضْرَب، وإن رجَعَ بالضَّربِ اليَسيرِ لم يُضرَبْ كثيرًا، وإن رجع بالضَّربِ الكثيرِ لم يُقتَل، وإن لم يندفِعْ إلا بالقَتلِ فالحُكم أنَّه يُقتَل، إلَّا أنَّ العُلماءَ- رَحِمَهم اللهُ- استثنَوْا من ذلك مسألةً، وقالوا: ما لم يَخَفْ أن يبادِرَه بالقَتلِ، فإن خاف أن يبادِرَه بالقتلِ، فلا بأسَ أن يقتُلَه لأوَّلِ وَهلةٍ، كما لو كان هذا الصَّائِلُ معه سلاحٌ أشهَرَه على صاحِبِه، وصاحِبُه يخاف أن يُطلِقَه عليه فيقتُلَه، فحينئذٍ لا حَرَجَ أن تبادِرَه بالقَتلِ؛ لأنَّ هذا الصَّائِلَ ربَّما لا يعطيكَ فُرصةً أن تدفَعَه بيدِك مثلًا، أو تصيحَ به، أو ما أشبَهَ ذلك، وحينئذٍ لا بأسَ أن تَبدُرَه بالقَتلِ) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٣٣).

١٨]، فالجواب: أنَّ المرادَ تحملُ إثْمَ قتلي وإثمِك الذي كان مِنك قبلَ قَتْلي، وهذا بحَذْفِ المضافِ، أو أن يكونَ المرادُ ترجِع إلى اللهِ بإثمِ قتْلي وإثمك الذي مِن أجْلِه لم يُتقبَّل قُربانُك[١].

١٠- إذا قيل: كيف جازَ أن يقولَ: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ مع أنَّه لا يجوزُ للمسلمِ أن يُريد من غيرِه أن يَعصيَ اللهَ؟ فالجواب من عِدَّة وجوه:

الأوَّل: أنَّ المعنى إنِّي أُريد أن تبوءَ بإثمِ قتْلي إنْ قتَلْتَني؛ لأنِّي لا أَقتُلك، فإنْ أنتَ قتلتَني فإنِّي مريدٌ أنْ تبوءَ بإثمِ مَعصيتِك اللهَ في قتْلِك إيَّاي، وهو إذا قتَلَه فهو لا محالةَ باءَ به في حُكمِ الله، فإرادتُه ذلك غيرُ موجِبةٍ له الدُّخولَ في الخطأ.

الثاني: أنَّ المراد: إنِّي أُريد أن تبوءَ بعقوبةِ قتْلي، ولا شكَّ أنه يجوزُ للمظلومِ أن يُريد مِن الله عقابَ ظالِمِه.

الثَّالث: أنَّه رُوِيَ أنَّ الظالم إذا لم يجِدْ يوم القيامة ما يُرضِي خَصمَه أُخِذ مِن سيِّئات المظلومِ وحُمِلَ على الظالم؛ فعلى هذا يجوزُ أن يُقال: إنِّي أُريدُ أن تبوءَ بإثمي في أنَّه يُحمَلُ عليك يومَ القيامة إذا لم تجِدْ ما يُرضيني، وبإثمِك في قتْلِك إيَّاي[٢].

١١- قولُه تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا ...﴾ الآية، أصلٌ في دفنِ الميِّت[٣].

١٢- أنَّ أفعالَ الحيوانِ كأفعالِ الإنسانِ؛ مخلوقةٌ للهِ وبإرادتِه؛ لقولِه تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٩).

١٣- أنَّ الحيواناتِ قد تكونُ مُرشِدةً للبَشرِ كما في هذه القِصةِ؛ الغراب أرْشدَ ابنَ آدَمَ إلى أنْ يَحفِرَ لأخيه ويَدفنَه، وصارتْ سُنَّةَ البَشرِ إلى يومِنا هذا، إلَّا مَن ضلَّ عنِ الصِّراطِ المستقيمِ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا﴾[١].

١٤- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا﴾ أنَّ الله سُبحانَه تعالى يُيسِّرُ للإنسانِ إذا ضاقتْ به الأرضُ ما لم يطرأْ له على بالٍ؛ فإنَّ هذا الرَّجُلَ ضاقتْ عليه الأرضُ؛ ماذا يَصنَعُ بأخيه الذي قتَلَه؟ إلى أن بعَث اللهُ هذا الغرابَ[٢].

١٥- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أنَّ الواجبَ في الدَّفْنِ ما تُوارَى به السَّوأةُ، أي: ما يُغطَّى به الجِسمُ، لكنَّ العلماء رحِمهم الله زادوا على ذلِك شرطًا لا بدَّ منه، وهو أن يكونَ الدفنُ مانعًا من وصولِ السِّباع إليه، ومن خروجِ رائحَتِه[٣].

١٦- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أنَّ بدَنَ الميِّتِ كلَّه عورةٌ؛ لأنَّ القبر يُواري البدنَ كلَّه؛ ولهذا قال العلماءُ رحمهم الله: إنَّ بدَنَ الميِّتِ كلَّه عورةٌ، لكن هذا بالنسبة إلى وجوبِ تَعميمِ الكفنِ لا بالنِّسبةِ للنَّظَرِ[٤].

١٧- في قولِه تعالَى: ﴿كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ مَشهدٌ عظيمٌ؛ وهو مشهدُ أوَّلِ حَضارةٍ في البَشر، وهي مِن قَبيلِ طلبِ سَتْرِ المشاهِدِ المكروهةِ، وهو أيضًا مشهدُ أوَّلِ عِلمٍ اكْتَسبَه البشرُ بالتَّقليدِ وبالتَّجرِبةِ، وهو أيضًا مَشهدُ أوَّلِ مظاهرِ تلقِّي البشرِ معارفَه من عوالمَ أضعفَ منه، كما تَشبَّه الناسُ بالحيوانِ في الزِّينةِ، فلَبِسوا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٩٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) .

الجلودَ الحسنةَ الملوَّنة، وتَكلَّلوا بالرِّيشِ المُلوَّن، وبالزُّهورِ والحجارةِ الكريمةِ[١].

١٨- يُستفادُ مِن قَوْلِه: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ أنَّ فاعلَ المعصيةِ إذا لم يتُبْ فإنَّه يُجازَى بالخسرانِ والنَّدمِ، وضِيقِ النَّفْس[٢].

١٩- قولُه تَعالَى: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ فيه دليلٌ على أنَّ القتلَ يجوزُ بأحدِ أمرينِ: إمَّا أن يَقتُل نفْسًا بغيرِ حقٍّ متعمِّدًا في ذلك، فإنَّه يَحِلُّ قتْلُه، إنْ كان مُكلَّفًا مُكافِئًا، ليس بوالدٍ للمقتولِ، وإمَّا أنْ يكونَ مُفسِدًا في الأرض، بإفسادِه لأديانِ الناسِ أو أبدانِهم أو أموالِهم، كالكفَّارِ المرتدِّينَ والمحاربينَ، والدُّعاةِ إلى البِدعِ الذين لا ينكَفُّ شَرُّهم إلَّا بالقَتْلِ، وكذلك قُطَّاعُ الطريقِ ونحوُهم، ممَّن يَصولُ على الناس لقَتْلِهم، أو أخْذِ أموالِهم[٣].

٢٠- إثباتُ العلةِ للأحكامِ الشرعيَّة؛ لقوله: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ وهذه مِن أقوى صِيَغ التَّعليلِ، وإثباتُ العلَّة والحكمةِ لا شكَّ أنَّها مِن كمالِ الله عزَّ وجلَّ، فاللهُ تعالى لا يُشرِّع شيئًا إلا لحكمةٍ، ولا يُقدِّر شيئًا إلا لحكمةٍ[٤].

٢١- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ضاعَفَ العقوبةَ على كلِّ مَن قتَلَ نفسًا بغير نفْسٍ أو فسادٍ في الأرضِ؛ حيث جعَلَه كالذي قتَل الناسَ جميعًا[٥].

٢٢- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩).
(٤) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٩).
(٥) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١٢).

قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ...﴾ جوازُ تخصيصِ مُعيَّنٍ في الحُكم وإنْ كان عامًّا؛ لكونِه أكثرَ الناسِ عملًا به؛ وجْهُه أنَّ الله خصَّ هذه الكتابةَ على بني إسرائيل مع أنَّها عامَّة؛ لأنَّهم هم أكثرُ مَن انتَهَكوا حُرماتِ اللهِ عزَّ وجلَّ بقتْلِ النُّفوسِ[١].

٢٣- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أنَّ الفسادَ في الأرض مبيحٌ لقتْل النَّفْس، ولكنَّه مقيَّدٌ بالأدلَّة الأخرى الدالَّةِ على أنَّه ليس كلُّ فسادٍ يُبيح قتْلَ النَّفسِ، بل منه ما يُبيحُ القتلَ، ومِنه ما يُبيح دونَه، فتُحمَل هذه الآيةُ على النُّصوصِ الدالَّة على التَّخصيصِ[٢].

٢٤- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أنَّ إنقاذَ المعصومِ كإنقاذِ جميعِ المعصومينَ؛ اعتبارًا بالجِنس، فمَن أنقَذَ معصومًا من هَلَكةٍ، فكأنَّما أنقذَ النَّاسَ جميعًا باعتبارِ الجِنس، كما أنَّ مَن كذَّب رسولًا، فكأنَّما كذَّب جميعَ الرُّسلِ[٣].

٢٥- قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ﴿رُسُلُنَا﴾: الَّذين أرسلَهم اللهُ عزَّ وجلَّ، فأضافَ الرُّسلَ إليه؛ لأنَّه هو الذي أرْسلَهم، وربَّما نقول: وتشريفًا لهم؛ لأنَّ الرسولَ يَشْرُفُ بشرفِ مُرسِله، فاللهُ عزَّ وجلَّ شرَّفهم بإضافةِ رِسالتهم إليه جلَّ وعلا، وقد تأتي الرسالةُ مضافةً إلى المرسَل إليهم، مِثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٠١]، ولا تناقُضَ بينهما، فهم رسلُ اللهِ؛ لأنَّه هو الذي أرسلَهم، ورسلٌ إلى الخَلْق؛ لأنَّهم بلَّغوهم رسالاتِ

(١) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣١٥).

(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).

اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

٢٦- أنَّ مَن لم تَبْلُغْه الرسالةُ فهو معذورٌ؛ لقولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، وهذا لإقامةِ الحُجَّة عليهم، والنُّصوصُ في هذا واضحةٌ؛ قال الله تعالى:﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[٢] [النساء: ١٦٥].

٢٧- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ مَحبَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ للإعذارِ وإقامةِ الحُجَّةِ؛ حيثُ جعَل مع كلِّ رسولٍ آيةً بيِّنةً يُؤمِنُ على مِثلِها البشرُ، حتَّى لا يقولَ الناسُ: مَن قال: إنَّ هذا رسولٌ؟ أينَ البيِّنةُ على أنَّ هذا رسولٌ؟ فإذا جاءَ بالآياتِ البيِّناتِ قامتِ الحُجَّةُ[٣].

٢٨- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ العلمُ بشراسةِ بني إسرائيلَ، وأنَّهم أهلُ الغَطْرسةِ والاستكبارِ والتَّكذيب، وأنَّ بني إسرائيلَ مع الرُّسلِ المبيِّنينَ لم يَهتدوا، بل كثيرٌ منهم- بعدَ هذا البيانِ، وبعدَ هؤلاءِ الرُّسلِ- مُسرِفونَ مُتجاوِزونَ للحدِّ[٤].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

- فيه إيجاز بالحذف، والتقدير: كأنَّه قال: لِمَ تقتلُني؟ قال: لأنَّ قُربانك صار

(١) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٨).
(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣١٦).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١٨).

مقبولًا، فقال: وما ذنبي؛ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[١]؟!

- وفيه تعريض؛ إذ المعنى: إنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المتَّقين، لا مِن غَيرِهم، وإنَّما تقبَّلَ قُرباني، وردَّ قُربانَك لِمَا فينا من التَّقوى وعَدمِه، أي: إنما أُتِيتَ من قِبَلِ نفْسِك لا مِن قِبَلي؛ فلماذا تَقتُلني؟! ولم يُصرِّحْ بذلك؛ بل سَلَك مَسْلَكَ التَّعريضِ حَذَرًا من تهييجِ غَضَبِه، وحملًا له على التقوى، والإقلاعِ عمَّا نواه[٢].

٢- **قوله:** ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ﴾: جملة اسميَّه مُصدَّرة بـ(ما) الحجازيَّة المفيدة لتأكيد النَّفي بما في خبرها ﴿بِبَاسِطٍ﴾ من الباء؛ للمبالغة في إظهار براءتِه عن بَسْطِ اليد، وللتبرِّي عن هذا الفِعل الشَّنيع رأسًا، والتحرُّز من أن يُوصَفَ به، ويُطلَق عليه[٣].

٣- **قوله:** ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ فيه تشبيهٌ؛ حيثُ شبَّه قَتْلَ أخيه بشيءٍ مُتعاصٍ عنه ولا يُطيعه؛ بسببِ معارضةِ التعقُّلِ والخشيةِ؛ وشُبِّهتْ داعيةُ القتْلِ في نفْسِ القاتِلِ بشخصٍ يُعِينُه، ويُذلِّلُ له القتْلَ المتعاصِي[٤].

- وفيه: إطنابٌ حسَنٌ، وكان مقتضَى الإيجازِ أنْ يَحذف ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾، ويَقتصر على قولِه: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾، لكن عدَلَ عن ذلك؛ لقصدِ تفظيعِ حالةِ القاتلِ في تصويرِ خواطرِه الشِّرِّيرة، وقَساوة قلبِه؛ إذْ حدَّثه بقَتْلِ مَن كان شأنُه الرحمةَ به والرِّفقَ[٥].

---

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٢٨).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦، ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٠).

(٣) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٢).

(٥) ينظر: ((المصدر السابق)).

٤- **قوله:** ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾: الاستفهامُ فيه للإنكارِ والنَّفي[١].

٥- **قوله:** ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ **فيه:** تشبيهٌ تَمثيليٌّ، ومناطُ التَّشبيهِ اشتراكُ فِعلَي القتْلِ في هتْك حُرمةِ الدِّماءِ والتجرُّؤِ على الله، وتَشجيعِ النَّاس على القتلِ، والمقصودُ مِن تشبيهِ قتلِ النَّفسِ الواحدةِ بقتْلِ النُّفوسِ: المبالغةُ في تَعظيمِ أمرِ القَتْلِ العَمْدِ العُدوانِ، وتَفخيمُ شأنِه، يعني كما أنَّ قَتْلَ كلِّ الخَلقِ أمرٌ مُستعظَمٌ عند كلِّ أحدٍ، فكذلك يجبُ أن يكونَ قتلُ الإنسانِ الواحدِ مُستعظَمًا مَهيبًا، فالمقصودُ مشاركتُهما في الاستعظامِ، لا بيانُ مشاركتِهما في مِقدارِ الاستعظامِ[٢].

والتشبيهُ بين قاتِلِ النَّفسِ وقاتِلِ الكلِّ قد يَحصُل مِن ثلاث جِهاتٍ لا مِن جميعها. إحداها: القَوَد-القِصاص-؛ فإنَّه واحدٌ. والثانية: الوعيدُ؛ فقد وعَدَ اللهُ قاتلَ النَّفسِ بالخلودِ في النَّار. والثالثة: انتهاكُ الحُرمةِ؛ فإنَّ نفسًا واحدةً في ذلك وجميعَ الأنفسِ سواءٌ، والمنتهِك في واحدةٍ ملحوظٌ بعينِ مُنتَهِكِ الجميعِ[٣].

٦- قوله: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ **فيه:** تشبيهٌ؛ حيث شبَّه الواحدَ بالجميعِ وجعَل حُكمَه كحُكمِهم؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يُدلَى بما يُدلَى به الآخرُ من الكرامةِ على الله، وثبوتِ الحُرمةِ، فإذا قُتِل فقدْ أُهينَ ما كَرُم على اللهِ، وهُتِكتْ حُرمتُه، وعلى العكس؛ فلا فرقَ إذَنْ بين الواحدِ والجميعِ في ذلك، والفائدةُ في ذِكْر ذلك هي: تعظيمُ قَتْلِ النَّفْسِ وإحيائِها في القلوبِ؛ ليشمئزَّ الناسُ عن الجَسارةِ عليها، ويَتراغَبوا في المحاماةِ على حُرمتِها؛ لأنَّ

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٣).

(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٤٦٣).

(٣) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٣٨).

المتعرِّض لقَتْلِ النَّفسِ إذا تَصوَّرَ قتْلَها بصورةِ قتْلِ الناسِ جميعًا عَظُمَ ذلك عليه؛ فثبَّطَه، وكذلِك الذي أرادَ إحياءَها[١].

٧- قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾: تَذييلٌ لحُكمِ شَرْعِ القِصاصِ على بَني إسرائيلَ، وهو: خبرٌ مُستعمَلٌ في الكِنايةِ عن إعراضِهم عن الشَّريعة، وأنَّهم- مع ما شُدِّد عليهم في شأنِ القتلِ- لم يَزالوا يَقتُلون، كما أشْعَر به قولُه: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: بعدَ أنْ جاءتْهم رسُلُنا بالبيِّناتِ، وحُذِف مُتعلِّق (مُسْرِفون)؛ لقَصدِ التَّعميمِ، والمرادُ: مُسرِفون في المفاسدِ التي مِنها قتْلُ الأنفسِ[٢].

- وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾: فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على الخبرِ ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾؛ للاهتمامِ، وهو يُفيدُ زيادةَ تفظيعِ الإسرافِ فيها مع أهميَّةِ شأنها[٣].

- وفيه مِن الفَصاحةِ: تأكيدُ الخبر؛ إذ الحاجةُ تدْعو إلى تَأكيدِ الخبرِ، والمقامُ يَدعو إلى توكيدِ الخبرِ، وإنْ كان المخبِرُ من أهلِ الصِّدق، حتَّى يَطمئنَّ المخاطَبُ، وقد أُكِّدَ هذا الخبرُ بمؤكِّدين، وهما: ﴿إِنَّ﴾ واللام في ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾[٤].

---

(١) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٢٦).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٩).

(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٢٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣١٨).

الآيتان (٣٣ - ٣٤)

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يُصَلَّبُوٓاْ﴾: يُعلَّقُوا، وتُشدَّ أَصلابُهم على خَشَبٍ للقَتْلِ[١].

﴿مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾: أي: يُخالَفُ بين الأيدي والأرْجُلِ في القَطعِ؛ فتُقطَعُ اليدُ اليُمنَى مع الرِّجلِ اليُسرى، والعكس[٢].

﴿يُنفَوۡاْ﴾: أي: يُطْرَدوا، وقِيل: يُسجَنُوا ويُحبَسُوا؛ لأنَّ المحبوسَ بمنزلةِ المطرودِ مِن الدُّنيا، وأَصْلُ (نفي): الطَّردُ، وتَعريةُ شيءٍ مِن شيءٍ، وإبعادُه منه[٣].

﴿خِزۡيٞ﴾: هوانٌ وهلاكٌ، وأصل الخِزي: الإبعادُ[٤].

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ جزاءَ مَن يُبارِزونَ اللهَ بالعداوةِ، ويَعْتَدونَ على أحكامِ دِينِه،

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٨/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

ويُفسِدون في الأرضِ بالكُفرِ وعَمَلِ المعاصي؛ مِن إخافةِ السُّبُل، ومِن قَطْعٍ للطُّرق، واغتصابٍ للأموالِ، وانتهاكٍ للحُرُماتِ- يُخبِرُ أنَّ جزاءَهم القَتْلُ، أو الصَلْبُ، أو أنْ تُقطَّعَ أيديهم اليُمنى مع الأَرْجُل اليُسرى، أو يُطْرَدوا مِن البلدِ الذي هم فيه إلى غَيرِه، تِلك العقوبةُ لهم ذُلٌّ وفضيحةٌ في الدنيا، ولهم في الآخِرة عذابٌ عظيمٌ؛ هو عذابُ جَهنَّم.

واسْتَثنى الله تعالى مِنهم مَن تاب، وترَكَ محاربةَ اللهِ والسَّعيَ في الأرضِ بالفسادِ مِن قَبلِ أنْ يَقدِرَ عليهم أُولو الأمرِ، فإنْ أتوْا تائِبينَ نادمينَ، فاعلموا- أيُّها المؤمنون- أنَّ اللهَ غفورٌ؛ فلن يُؤاخِذَهم بذُنُوبهم لا في الدُّنيا ولا في الآخِرة، بلْ يَغفِرُها لهم، ورحيمٌ؛ إذ عفا عنهم، ورفَع عنهم العِقابَ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ في الآيةِ الأُولى تغليظَ الإثمِ في قَتْلِ النَّفسِ بغيرِ حقٍّ،، أتْبعَه ببيانِ الفسادِ الذي يُوجِبُ القتلَ؛ فإنَّ بعضَ ما يكون فسادًا في الأرضِ لا يُوجِبُ القتلَ، فقال[1]:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: إنَّ جزاءَ مَن يُبارزونَ اللهَ تعالى ورسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالكُفرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٤٥) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٠٣).

والعداوةِ، ويُضادُّونَ اللهَ ورسولَه بالاعتداءِ على أحكامِ الدِّين، فيفعلون المنهياتِ، ويَترُكون المأموراتِ على وجهِ الاستكبارِ والعِنادِ[١].

﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾.

أي: ويُسارِعونَ في عمَلِ المعاصي في أرضِ الله؛ مِن إخافةِ سُبلِ المؤمنين، أو سُبلِ أهلِ ذِمَّتِهم، وقَطْعِ طُرُقهم، واغتصابِ أموالِهم، وانتهاكِ حُرَمِهم[٢].

﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾.

أي: جزاءُ أولئك الذين يَفعلونَ ذلك؛ القتلُ[٣].

﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾.

أي: أو[٤] يُوضَعَ الجناةُ مَشدودينَ على خَشبةٍ ونحوها؛ قيل: لقَتْلِهم، وقيل:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩-٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣١٩).
قال ابنُ الجوزي: (وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: أراد بالمحاربةِ للهِ ورسولِه، الكفرَ بعدَ الإسلامِ، وقال مقاتلٌ: أراد بها الشِّرك) ((زاد المسير)) (١/ ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣١٩).
قال ابنُ جريرٍ: (عن مجاهدٍ: ﴿ويسعون في الأرض فسادا﴾ قال: الفسادُ: القتلُ، والزِّنا، والسَّرقة) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٧٢).
قال ابنُ الجوزيِّ: (قولُه تعالى: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ فيه أربعةُ أقوالٍ: أحدُها: بالمعاصي، قاله ابنُ عبَّاس، ومُقاتل) ((زاد المسير)) (١/ ٥٦٧).
قال السعدي: (والمشهورُ أنَّ هذه الآية الكريمةَ في أحكامِ قطَّاع الطريقِ، الذين يَعرِضون للنَّاس في القُرَى والبوادي، فيَغْصبونهم أموالَهم، ويقتلونهم، ويُخيفونهم، فيمتنعُ النَّاس مِن سُلوكِ الطَّريق التي هم بها، فتنقطعُ بذلك) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٠).

(٤) اختَلف أهلُ العِلم في معنى ﴿أَوۡ﴾ التي تَكرَّرت في هذه الآيةِ الكريمة، فقِيل: هي للتخييرِ،

بلْ يُصلَبوا بعدَ قتْلِهم، وقيل غيرُ ذلك[١].

﴿أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾.

أي: أو تُقطَّعَ أيديهم اليُمنَى وأَرْجُلهم اليُسرى؛ ويكونُ القطعُ في اليدِ مِن

فيفعلُ الإمامُ أو نائبُه ما رآه المصلحةَ مِن هذه الأمورِ المذكورة.

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ ﴿أَوۡ﴾ هنا للتخييرِ: ابنُ عبَّاس -في رواية عنه- ومجاهد، وإبراهيم، وعطاء، ورِواية عن الحسن، وسعيد بن المسيَّب. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٧٨).

وقيل: للتَّنويع، وأنَّ هذه العقوباتِ تختلفُ بحسبِ الجرائمِ.

وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّ ﴿أَوۡ﴾ هنا للتَّنويعِ: ابنُ عبَّاس -في روايةٍ عنه- وإبراهيمُ، وأبو مِجْلَز، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، وعطاء الخُراساني، وسعيد بن جُبَير، والربيع، ومُورِّق العِجلي. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٧٣).

قال ابنُ جرير: (وأَوْلى التأويلين بالصَّواب في ذلك عندنا: تأويلُ مَن أوجبَ على المحاربِ مِن العقوبةِ على قدْرِ استحقاقِه، وجعَل الحُكم على المحاربين مختلفًا باختلافِ أفعالِهم) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٨١).

ينظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٩٤-٣٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٨٩-٤٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٣- ٣٢٤).

(١) قال ابنُ عَطيَّة: (أمَّا صَلبُه فجمهورٌ مِن العلماء على أنَّه يُقتَل ثم يُصلَب نكالًا لغيره، وهذا قول الشافعيِّ، وجمهورٍ مِن العلماء على أنه يُصلَبُ حيًّا، ويُقتَل بالطَّعن على الخَشبةِ، ورُوي هذا عن مالكٍ وهو الأظهرُ من الآية، وهو الأَنْكَى في النَّكَال) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٨٥)، وينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨٣).

وقال الشنقيطي: (الظاهر أنه يُصلَب بعد القتل زمنًا يحصُل فيه اشتهارُ ذلك؛ لأنَّ صَلْبَه رَدعٌ لغيره) ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٩٦).

وقال ابنُ عُثَيمين: (قولُه: ﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ يعني: يُصلَّبون، وهل المراد الصَّلب بعد القتْل؛ فيكون الجمع بين الأمرين؟ أو هو صلبٌ فقط دون قتْل؟ ظاهرُ الآيات الكريمة الثاني أن يُصلَب حتى يفتضح بجنايتِه، ثم بعدَ ذلك يَنظر وليُّ الأمر فيه بما يراه مناسبًا، لكن المعروف أنَّ الصلب يكون بعدَ القتل، وقيل: يُصلَّبون قبلَ القتل، فالأقوالُ ثلاثة: الرأي الأوَّل: يُصلَّبون بعد القتْل، والرأي الثاني: يُصلَّبون قبْلَ القتْل، والرأي الثالث: أنَّ الصَّلبَ عقوبةٌ منفردةٌ، يعني: ليست مركَّبة مع القتل، وهذا القولُ هو ظاهرُ الآية) ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٣٢٠- ٣٢١).

مَفْصِلِ الكفِّ مِن الذِّراع، ويكونُ القطعُ في الرِّجلِ من مَفْصِل القدَمِ من العَقبِ[١].

﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: أو يُطرَدُوا مِن البلدِ الذي هُم فيه إلى بلدٍ غيرِه[٢].

﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾.

أي: هذا الجزاءُ الذي جُوزُوا به؛ ذُلٌّ وعارٌ وفَضيحةٌ لهم في الدُّنيا[٣].

﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: ولهم مع ذلك عذابٌ أُخْرويٌّ، وهو عذابُ جهنَّمَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٨٣- ٣٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢١).

(٢) فيُطرَد مِن البَلد الذي حارَب فيه اللهَ ورسولَه، وسعى فيه بالفساد، وهذا اختيارُ ابنِ عطيةَ في ((تفسيره)) (٢/ ١٨٥)، والقرطبيِّ في ((تفسيره)) (٦/ ١٥٣)، وابنِ عثيمينَ في ((تفسير سورة المائدة)) (١/ ٣٢١، ٣٢٤).

وقيل: بل المرادُ إخراجُه من وطنِه؛ لأنَّ مفارقة الأوطان أمرٌ شاقٌّ على النفوس، وهذا اختيارُ ابن عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ١٨٤)، والشنقيطي في ((أضواء البيان)) (١/ ٣٩٦). ونَسبَه لابن جرير. لكن قال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوال في ذلك عندي بالصَّواب قولُ مَن قال: معنى النَّفي من الأرض في هذا الموضع: هو نفيُه مِن بلدٍ إلى بلدٍ غيرِه، وحبْسُه في السجن في البلدِ الذي نُفِي إليه، حتى تظهرَ توبتُه من فُسوقِه، ونُزوعُه عن معصيتِه ربَّه) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٨٩). ولم يُحدِّد البلدَ التي يُنفى منها.

وممَّن قال من السَّلف نحوَ هذا القول: سعيدُ بن جُبَير. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٨٧).

وقيل: يُحبس في البلدة التي نُفي إليها، وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٣٨٩).

وقيل: معنى النَّفي من الأَرض: الحبسُ في السِّجن؛ لأنَّ المسجونَ بمنزلةِ المُخرَجِ من الدُّنيا، وهذا اختيارُ الواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣١٧).

وقِيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٠- ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: ما عدَا مَن رجَعُوا إلى اللهِ تعالى، وكفُّوا عن مُحاربةِ اللهِ ورسولِه وعن سَعيِهم في الأرضِ بالفسادِ، فوَضَعوا السِّلاحَ، وكفُّوا عن قَطْعِ الطَّريقِ من تِلقاءِ أنفسِهم، قبلَ أن تَقْدِروا عليهم[1].

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: فاعْلَموا- أيُّها المؤمنون- أنَّ اللهَ تعالى غيرُ مُؤاخِذٍ مَن تاب منهم بذُنوبه، ولكنَّه يَسترُها، ويَتجاوزُ عن المؤاخذةِ بها، في الدُّنيا والآخِرة، فيُسقِطُ عنه ما وجَب عليه من عُقوباتٍ، وهو رحيمٌ به إذْ عفَا عنه، ورفَع ما عليه مِن عقابٍ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠١- ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٢).
قال الرازي: (لا خلافَ أنَّ هذا الاستثناءَ راجعٌ إلى ما تقدَّم من أوَّل الآيةِ، وأنَّ التوبةَ حاصلةٌ لهؤلاء جميعًا) ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٢).
قال السعديُّ: (فيَسقُطُ عنه ما كان للهِ، مِن تحتُّمِ القتْلِ والصَّلْبِ والقَطعِ والنَّفي، ومِن حقِّ الآدميِّ أيضًا، إنْ كان المحاربُ كافرًا ثم أسْلَم، فإنْ كان المحاربُ مُسلمًا فإنَّ حقَّ الآدميِّ لا يسقُطُ عنه من القَتْل وأخْذ المالِ، ودلَّ مفهومُ الآية على أنَّ توبة المحارب- بعد القُدرة عليه- أنها لا تُسقِط عنه شيئًا، والحكمة في ذلك ظاهرة) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠).
وقال الشنقيطي: (الإجماعُ على سقوطِ حدودِ الله عنهم بتوبتِهم قبلَ القُدرة عليهم) ((أضواء البيان)) (١/ ٣٩٩).

ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ ...﴾ الآية: عِظمُ جريمةِ محاربةِ اللهِ ورسولِه، وأنَّ الإنسانَ إذا حاربَ الله ورسوله فإنَّه يُخشَى عليه؛ وذلك لعِظَمِ العقوبةِ، فإنَّ عِظَمَ العقوبةِ يدلُّ على عِظَم الجريمةِ[١].

١- قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ ...﴾ يقتضي وُجوبَ عِقابِ المحارِبين بما ذكر الله فيها، لأنَّ الحصرَ يفيدُ تأكيدَ النِّسبةِ[٢].

٢- يُفيدُ قولُه: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ ...﴾ الآية: أنَّ اللهَ تعالى يُريدُ مِن عِبادِه أنْ يُطهِّروا الأرضَ مِن الفساد؛ ولذلك عاقَبَ الذين يَسعَونَ في الأرضِ فسادًا بهذه العقوبةِ العظيمةِ[٣].

١- ممَّا تُفيدُه الآيةُ أنَّ قُطَّاعَ الطريقِ يُجمَعُ لهم بين العُقوبةِ في الدُّنيا والآخِرَةِ؛ لقولِه: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٤].

٣- أنَّ هؤلاءِ المجرِمينَ مع عِظَمِ جُرمِهم إذا تابوا قبلَ القُدرةِ عليهم سقَطَ عنهم الحدُّ[٥]، ويُؤخَذُ سقوطُ الحدِّ من قولِه تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٦].

٢- استُدلَّ بقولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ أنَّه إذا كانتِ التوبةُ قَبلَ القُدرةِ عليه تَمنَعُ من إقامةِ الحدِّ في الحَرابةِ؛ فغيرها مِن الحدودِ- إذا تاب مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٢٧).
(٥) يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٧/ ١٣٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٧)

فِعلها قبلَ القُدرةِ عليه- مِن باب أَوْلى[١].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قولُه: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ ...﴾: كلامٌ مُستأنفٌ سِيقَ لبيانِ حُكمِ نوعٍ من أنواعِ القتلِ، وما يَتعلَّقُ به من الفسادِ بأَخْذ المالِ ونظائرِه، وتَعيينِ موجِبِه العاجلِ والآجلِ، إثرَ بيانِ عِظَمِ شأنِ القَتلِ بغيرِ حقٍّ في قولِه: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾، وأُدرِجَ فيه بيانُ ما أُشيرَ إليه إجمالًا من الفَسادِ المبيحِ للقَتْل[٢].

٢- قوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ ...﴾ التعبيرُ بصِيغة التفعُّل في هذه الأفعالِ؛ للمُبالغةِ في العُقوباتِ (القتل، والصلب، والقطع)، وقد قُصِد من المبالغةِ هنا إيقاعُه بدون لِين ولا رِفق؛ تشديدًا عليهم[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ خِزۡيٌ﴾ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ ليفيدَ أنَّه خاصٌّ بهم دونَ الأفرادِ الذين يَعملونَ مِثلَ عَملِهم مِن غيرِ أن يكونوا مُحارِبينَ، ومُغترِّين بالقوَّةِ والعصبيَّة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠).
لا خلافَ بينَ الفقهاءِ في أنَّ حدَّ قطَّاع الطريقِ يسقطُ بالتوبةِ إذا تحقَّقت قبلَ القدرةِ عليهم، أما بقية الحدود فمذهبُ الحنفيةِ والشافعيةِ في مقابلِ الأظهرِ، والحنابلةِ في روايةٍ أنَّها تسقطُ بالتوبةِ أيضًا قبلَ أن تُرفعَ للحاكمِ. ينظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٧/ ١٣٣، ١٣٤).
وقطَّاعُ الطريقِ وإن سقطتْ عنهم حدودُ الله تعالى بالتوبةِ قبلَ القُدرةِ عليهم، لكن يبقَى عليهم القصاصُ في النَّفس والجراحِ، وغرامةِ المالِ، والدِّية لما لا قصاصَ فيه، إلا أن يُعفى لهم عن ذلك، وهذا لا خلافَ فيه بينَ أهلِ العلمِ. ينظر ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ١٥١).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣١).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٠١).

الآيات (٢٥ - ٢٧)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ﴾: واطْلُبوا، مِن بغَى الشَّيءَ، أي: طَلَبَه[1].

﴿ٱلۡوَسِيلَةَ﴾: القُربَة، والزُّلفَى؛ يقال: تَوسَّل إليَّ بكذا، أي: تَقرَّب، وحقيقةُ الوَسيلَةِ إلى اللهِ تعالى: مُراعاةُ سَبيلِه بالعِلمِ والعِبادَةِ، وتحرِّي مكارمِ الشَّريعةِ، وأصلُ الوسيلةِ: التوصُّلُ إلى الشيءِ برغبةٍ[2].

﴿لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ﴾: لِيَتحامَوْا ببذلِه، والفِدَى والفِداء: حِفظُ الإنسانِ عنِ النائبةِ بما يَبذُلُه، والبَدَلُ من الشَّيءِ؛ صيانةً له، وأَصْلُ (فدي): جَعْلُ شَيءٍ مكانَ شَيءٍ حِمًى له[3].

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يَأمُرُ اللهُ المؤمنينَ بتَقواه، وطلَبِ القُربِ منه، والجهادِ في سَبيلِه؛ حتَّى يُفلِحوا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (٢/ ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

بأنْ يَنجُوا ممَّا يخافون، ويَحصُلوا على ما يَطْمَعونَ، ويَسعَدوا سَعادةً أبديَّةً.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّ الكُفَّارَ لو أنَّهم يَملِكونَ كلَّ ما في الأرضِ ومِثلَه معه، وأرادوا أنْ يُقدِّموه فِديةً مقابلَ تخلُّصِهم من عذابِ الآخِرةِ؛ فلنْ يَتقبَّلَ اللهُ منهم ذلِك الفِداءَ، ولهم عذابٌ مؤلِم موجِع، يُريد هؤلاء الكفَّار أنْ يَخرُجوا من النَّارِ بعد أن ذاقوا عذابَها، ولن يَخرُجوا منها أبدًا، ولهم عذابٌ دائمٌ.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥ ﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى جزاءَ مَن حارَبَ اللهَ ورسولَه، وسعَى في الأرضِ فسادًا من العقوباتِ الأربَعِ، والعذابِ العظيمِ المُعَدِّ لهم في الآخِرةِ- أمَرَ المؤمنين بتقوى اللهِ، وابتغاءِ القُرباتِ إليه؛ فإنَّ ذلك هو المُنجِي من المحاربةِ، والعِقابِ المعَدِّ للمحارِبينَ[1]، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾.

أي: يا مَعشرَ المؤمنين، امتثِلوا ما أمَرَكم اللهُ تعالى به، واجتَنِبوا ما نَهاكم عنه، واطْلُبوا القُربَ مِنه، والحظوةَ لديه بالعملِ بما يُرضيهِ عزَّ وجلَّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٢- ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٢).

قال ابن كثير في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾: (عن ابنِ عبَّاس: أي القربةَ. وكذا قال مجاهدٌ وعطاء وأبو وائلٍ، والحسنُ، وقتادةُ، وعبدُ الله بنُ كثيرٍ، والسُّدي، وابنِ زيدٍ. وقال قتادةُ: أي تقرَّبوا إليه بطاعتِه، والعملِ بما يُرضيه. وقرأ ابنُ زيد: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ

ثمَّ خصَّ- تبارَك وتعالى- مِن العباداتِ المقرِّبةِ إليه: الجهادَ في سَبيله؛ فهو مِن أَجلِّ الطَّاعاتِ، وأفضلِ القُرُبات، ومَن قامَ به، فهو على القيامِ بغيره أَحْرَى وأَوْلى[١]، فقال:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

أي: وجاهِدوا- أيُّها المؤمنون- أعداءَ اللهِ تعالى؛ لإعلاءِ كلمتِه سُبحانَه بأموالِكم، وأنفسِكم، وألْسِنتِكم؛ كي تَنجُوا ممَّا تَرْهَبون، وتَظفَروا بما تَرْغَبون، وتُدركوا السَّعادةَ الأبديَّة في جَنَّاتِه[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تبارَك وتَعالَى عِبادَه المؤمنين أنْ يَتَّقوا اللهَ، ويَبْتغوا إليه الوسيلةَ، ويُجاهدوا في سَبيلِه، وبَيَّن عاقبةَ هذا بأنَّه الفلاحُ- بَيَّن عاقبةَ مَن لم يَقُمْ بذلك من الكفَّار، فقالَ تعالى[٣]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾.

أي: لو كانَ للكُفَّارِ مُلكُ ما في الأرض كلِّها، ومَلَكوا ضِعْفَه معه[٤].

يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمَّةُ لا خلافَ بينَ المفسِّرين فيه) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٣٧). يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي))

﴿لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

أي: وأَرادوا أنْ يُقدِّموا ذلك كلَّه يومَ القِيامةِ فِديةً؛ ليتخلَّصوا بها مِن عذابِ الآخِرةِ(١).

﴿مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أي: لَمَا تَقبَّل اللهُ تعالى منهم ذلِكَ الفِداءَ مهما بذَلُوا، وقدْ حقَّ عليهم عذابٌ مؤلمٌ، مُوجِع(٢).

كما قال تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

وعن أنسِ بنِ مَالكٍ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يُجاءُ بالكافرِ يومَ القِيامةِ فيُقالُ له: أَرأيتَ لو كان لك مِلءُ الأرضِ ذهبًا، أكُنتَ تَفتدي به؟ فيقولُ: نعمْ، فيُقالُ له: قدْ كُنتَ سُئِلتَ ما هو أيسرُ من ذلِك!))(٣).

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَا﴾.

أي: يُريدُ هؤلاءِ الذين كفَروا بربِّهم أنْ يَخرُجوا مِنَ النَّارِ بعدَ دُخولِها، ولكنْ

(ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٥-٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٣٨).

(٣) رواه البخاري (٦٥٣٨) واللفظ له، ومسلم (٢٨٠٥).

أنَّى لهم ذلِك؟! فلن يَخرجُوا منها أبدًا[١].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [الحج: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٧].

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾.

أي: ولهم عَذابٌ دائمٌ ثابتٌ، لا يزولُ عنهم، ولا يَنتقِلُ مطلقًا؛ فهم ماكثونَ فيه أبدًا[٢].

الفوائِدُ التَّربويَّة:

١- توجيهُ النِّداءِ إلى المؤمنين في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يدلُّ على أنَّ امتثالَ الأمرِ الذي يَعقُبه من مقتضياتِ الإيمانِ، وأنَّ مُخالفتَه نقصٌ في الإيمانِ[٣].

٢- يُستفادُ مِن قولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ... ﴾ أنَّه يَنبغي إغراءُ الشخصِ المخاطَبِ بما يَحملُه على الامتثالِ؛ لأنَّ وصْفَ الإنسانِ بالشيءِ الذي يَحملُه على الفِعلِ والامتثالِ لا شكَّ أنَّه يُغريه، ويَزيده نشاطًا، فنقول مثلًا: يا أيُّها الكريمُ، أكْرِمِ الضَّيفَ؛ فإن ذلك يكونُ دافعًا له على إكرامِ الضَّيف[٤].

٣- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ أنَّه كلَّما كانتِ العبادةُ تُقرِّبُ إلى اللهِ أكثرَ، كان الاهتمامُ بها أكثرَ؛ لأنَّ الحُكمَ يَدورُ مع عِلَّته، فإذا قيل: اسلكِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٠- ٣٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الطريقَ المقرِّبَ إلى اللهِ، فإنَّ مِنَ المعلومِ أنَّ ما يكون أقربَ أو أشدَّ تقريبًا فهو أَوْلى[١].

٤- الإشارةُ إلى الإخلاصِ؛ لقوله: ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾ حيث أضافَه إلى نفْسِه عزَّ وجلَّ؛ إشارةً إلى أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يكونَ جهادُه في سبيلِ اللهِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ جملة اعتراضيَّة بين آياتِ وعيدِ المحاربينَ وأحكامِ جَزائِهم، وبين ما بَعدَه مِن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾، وهذه عادةُ القُرآنِ في تخلُّل الأغراضِ بالموعظةِ، والترغيبِ والترهيبِ[٣].

٢- لَمَّا أمَرَ الله بتَرْك ما لا يَنبغي بقولِه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وهو شاقٌّ ثقيلٌ على النَّفسِ، وأمر بفِعل ما يَنبغي، بقوله: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، وكان الانقيادُ لذلك من أشقِّ الأشياءِ على النَّفسِ، وأشدِّها ثقلًا على الطَّبع؛ فلهذا السببِ أردفَ ذلك التكليفَ بقوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٤].

٣- قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ فيه التَّنبيهُ إلى مَجامِع التَّكليفِ؛ فإنَّها محصورةٌ في نَوعينِ لا ثالثَ لهما؛ أحدُهما: تَرْكُ المنهيَّات، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وثانيهما: فِعْل المأموراتِ، وإليه الإشارةُ بقولِه تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، ولَمَّا كان تَرْكُ المنهيَّات مُقدَّمًا على

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٦).
(٣) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨٧).
(٤) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٣١)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣١٣).

فِعلِ المأموراتِ بالذَّاتِ؛ لا جرمَ قدَّمه تعالى عليه في الذِّكر؛ لأنَّ التَّرْكَ عبارةٌ عن بقاءِ الشَّيءِ على عَدمِه الأصليِّ، والفِعل هو الإيقاعُ والتَّحصيلُ، ولا شكَّ أنَّ عدَم جميعِ المحدَثاتِ سابقٌ على وجودِها، فكان التركُ قبلَ الفِعل لا محالةَ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ معناه ابتغوا التقرُّبَ إلى الله، وليس المرادُ بالوسيلةِ ما هو معروفٌ عند المتأخِّرينَ، بأنْ يتَّخِذَ الإنسانُ وسائلَ في دُعائِه أو نحو ذلِك؛ فبعض المُحرِّفينَ قال: المرادُ بالوسيلةِ: الوليُّ أو النبيُّ، أو جاهُ النبيِّ أو جاهُ الوليِّ، وهذا تحريفٌ باطِلٌ[٢].

٥- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أنَّ مدارَ النَّجاةِ والفلاحِ على ما في نفْسِ الإنسانِ، لا على ما هو خارجٌ عنها، كما يَتوهَّم الكفَّارُ في أمْرِ الفِديةِ[٣].

٦- استدلَّ أهلُ السُّنة بقولِه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ على أنَّ اللهَ تعالى يُخرِجُ مِن النَّارِ مَن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ مخلصًا؛ لأنَّه تعالى جعَل هذا المعنى مِن تهديداتِ الكفَّار، وأنواعِ ما خوَّفَهم به، ولولا أنَّ هذا المعنى يختصُّ بالكفَّارِ لَمَا كان لتخصيصِ الكفَّارِ به معنًى، ويُؤكِّده قولُه: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾، وهذا يُفيدُ الحصرَ، فكأنَّ المعنى: ولهم عذابٌ مقيمٌ لا لغيرِهم[٤].

٧- أنَّ الكفَّارَ الذين هم أهلُ النَّار لن يَخرُجوا منها البتةَ؛ لقولِه: ﴿وَمَا هُم

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٤٩).
(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٣١).
(٣) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣١٢).
(٤) ينظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣١٧).

بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَا ﴾ وهذا خبرٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وخبرُ اللهِ حقٌّ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾ فيه إشارةٌ إلى ما هو لازِمٌ لهم في الدُّنيا والآخِرةِ مِن الآلامِ النَّفسيَّة: غمًّا وحَزَنًا، وقسوةً وظُلمةَ قَلْبٍ، وجَهلًا، فإنَّ للكُفرِ والمعاصي من الآلامِ العاجِلةِ الدَّائمةِ ما اللهُ به عليمٌ، ولهذا تجِدُ غالِبَ هؤلاء لا يُطيِّبونَ عَيشَهم إلَّا بما يُزيلُ العَقلَ، ويُلهي القَلبَ: مِن تناوُلِ مُسكِرٍ، أو رُؤيةِ مُلْهٍ، أو سَماعِ مُطرِبٍ، ونحوِ ذلك، وبإزاءِ ذلك قولُه في المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٧١] فإنَّ اللهَ يُعَجِّلُ للمُؤمنينَ مِنَ الرَّحمةِ في قلوبِهم، وغيرِها بما يَجِدُونَه من حلاوةِ الإيمانِ، ويَذوقونَه مِن طَعمِه، وانشراحِ صُدورِهم للإسلامِ، إلى غير ذلك مِنَ السُّرورِ بالإيمانِ، والعِلمِ والعَمَلِ الصَّالحِ، بما لا يُمكِنُ وَصفُه[٢].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ... ﴾ فيه مِن البلاغة: استعمالُ ما يكونُ به التَّنبيهُ في الأمورِ الهامَّة؛ وجهُه: أنَّ اللهَ صدَّرَ هذِه الأوامرَ الثلاثةَ المهمَّة بالنِّداءِ[٣].

٢- **قوله**: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ **فيه**: تقديمُ المجرورِ ﴿إِلَيۡهِ ﴾ على متعلَّقه ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ للحصر، أي: لا تتوسَّلوا إلَّا إليه لا إلى غَيرِه؛ فيكون تعريضًا بالمشركين؛ لأنَّ المسلمينَ لا يُظنُّ بهم ما يَقتضي هذا الحصرَ[٤].

٣- قوله: ﴿جَمِيعٗا ﴾ فيه: توكيدٌ لـ (ما) الموصولة، في ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[٥].

---

(١) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٣).

٤- قوله: ﴿لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡ﴾ **فيه**: إيجازٌ بالحذفِ؛ حيثُ إنَّ في الكلامِ جملةً محذوفةً، والتقدير: وبَذَلوه وافتَدَوْا به ما تُقبِّلَ منهم؛ إذ لا يَترتَّبُ انتفاءُ التقبُّلِ على كَينونةِ ما في الأرض ومِثلِه معه، إنَّما يترتَّبُ على بذْلِ ذلك، أو الافتداءِ به[١].

٥- **قوله**: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ حالِهم في أثناءِ مُكابدةِ العذابِ، مَبنيٌّ على سُؤالٍ نشأ ممَّا قَبلَه؛ كأنَّه قِيلَ: فكيف يكونُ حالُهم؟ أو ماذا يَصنعونَ؟ فقيل ﴿يُرِيدُونَ ...﴾[٢].

٦- **قوله**: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَا﴾ **فيه**: إيثارُ الجُملةِ الاسميَّةِ على الفِعليَّةِ، مع تصديرِها بـ(ما) الحِجازيَّةِ الدالَّةِ- بما في خبرِها مِن الباءِ- على تأكيدِ النَّفي، والمبالغةِ؛ لبيانِ كَمالِ سوءِ حالِهم باستمرارِ عَدمِ خُروجِهم منها؛ فإنَّ الجملةَ الاسميةَ الإيجابيَّةَ كما تُفيدُ- بمعونةِ المقامِ- دوامَ الثُّبوتِ، تُفيدُ السلبيةُ أيضًا بمعونتِه دوامَ النَّفيِ لا نفْيَ الدَّوامِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٤٤).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٤).

(٣) ينظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٢٦).

الآيات (٢٨ - ٤٠)

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿نَكَٰلًا﴾: أي: عُقوبةً وتنكيلًا، وعِبرةً وعِظَةً لِمَن وراءَهم، وأَصْلُ (نكل): المنعُ والامتناعُ؛ وسمِّي النَّكال؛ لأنَّه فعَلَ به ما يَمنعُه مِن المعاودةِ، ويَمنعُ غيرَه مِن إتيانِ مِثلِ صَنيعِه[1].

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يَأمرُ اللهُ تعالى بقَطْعِ يدِ السَّارقِ والسَّارقةِ مقابلَ ما اقترفاهُ مِن أخْذِ المالِ الحرامِ، وعقوبةً رادعةً مِن اللهِ تعالى لهما، وزَجرًا لغيرِهما عن الوقوعِ في هذا الجُرمِ الخَطير، واللهُ سُبحانَه عزيزٌ حكيمٌ.

فمَن تابَ مِنَ السَّرقةِ التي ظلَمَ بها نفْسَه وغيرَه، ورجَع إلى اللهِ وأصْلَحَ عَملَه؛ فإنَّ اللهَ يَقبَلُ توبتَه؛ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

ثم ذَكَرَ اللهُ تعالى ما يدلُّ على عظمةِ مُلكِه ونفاذِ أمرِه قائلًا: أَلَمْ تَعْلَمْ أيُّها المخاطَبُ أنَّ اللهَ تعالى هو مَن يملِكُ السَّمواتِ والأرضَ؛ يُعذِّب مَن يُريد، ويَغفِرُ لِمَن يُريد، وهو على كلِّ شيءٍ قادرٌ لا يُعجِزُه شيءٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢، ١٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

في مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها وجهانِ:

الأوَّل: أنَّه تعالى لَمَّا أوجبَ في قوله: ﴿أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ قَطْعَ الأيدي والأَرجُلِ عند أخْذِ المالِ على سَبيلِ المحارَبةِ؛ بَيَّن في هذه الآيةِ أنَّ أخْذَ المالِ على سبيلِ السَّرِقةِ يُوجِبُ قَطعَ الأَيدي فقط، وجاءتِ السُّنَّةُ بقَطْعِ الأَرجُلِ أيضًا في السَّرِقةِ[1]؛ إذِ السَّرقةُ أيضًا حِرابةٌ من حيثُ المعنى؛ لأنَّ فيها سعيًا بالفَسَادِ إلَّا أنَّ تِلك تكونُ على سبيلِ الشَّوْكةِ والظُّهورِ[2].

الثاني: أنَّه تعالى لَمَّا ذكَر تعظيمَ أمْرِ القتْلِ في قولِه: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾؛ ذكَر بعدَ هذا الجناياتِ التي تُبيحُ القَتْلَ والإيلامَ، فذكَر أولًا: قطْعَ الطَّريق، وثانيًا: أمْرَ السَّرِقةِ[3].

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾.

أي: ومَن سرَق- رجلًا كانَ أوِ امرأةً- فاقْطَعوا أيُّها النَّاسُ[4] يدَه اليُمنى (فتُقطَعُ

---

(١) ينظر: ((إرواء الغليل)) للألباني (٨/ ٨٥) فما بعدها.

(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٩٦).

(٣) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥١).

(٤) قال ابنُ عُثَيمين: (قوله: ﴿فاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾...: الخطاب للأمَّة جميعًا، لكن المقصود بالذات والعين هو الإمامُ أو نائبُه، لكن المسؤوليَّة على الجميع، بمعنى: لو تهاون الإمامُ وجَبَ على

مِن مَفْصِل الكَفِّ)[١].

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾.

أي: جاءَ هذا الحُكمُ بالقطعِ مُجازاةً للسَّارقِ والسَّارقةِ على ما اكتسَباهُ من المالِ الحرامِ[٢].

﴿نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾.

أي: وجاءَ الحُكمُ بالقطعِ أيضًا عقوبةً رادعةً لهما على لُصوصيَّتِهما، وزجرًا لهما عنِ اعتيادِ هذا الجُرْم، وزجرًا لغيرِهما عن الإقدامِ عليه[٣].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ ذو القَهرِ والغَلبةِ، العزيزُ في انتقامِه من هذا السَّارقِ وهذه السَّارقةِ، وغيرِهما من أهلِ معاصيه، وهو الحكيمُ في حُكمِه فيهم، وقَضائِه عليهم، وفي غيرِ ذلِك مِن أوامرِه ونَواهيهِ وشَرائعِه وأقدارِه؛ فحُكمُه في الجميعِ نافذٌ، وكلُّ شيءٍ يَضعُه في موضعِه اللَّائق[٤].

الأمَّة أن تُطالِبَ بقطْعِ يدِ السارق) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٦- ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٧- ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٤- ٣٤٩).

قال ابنُ كَثيرٍ: (عن عامرِ بن شراحِيلَ الشَّعبيِّ، أنَّ ابن مسعود كان يقرؤها: «والسَّارِقُ والسَّارِقةُ فاقْطَعُوا أيمانَهما»، وهذه قراءة شاذَّة، وإنْ كان الحُكم عند جميع العلماء موافقًا لها، لا بها، بل هو مستفادٌ من دليلٍ آخَر، وقد كان القطع معمولًا به في الجاهلية، فقُرِّر في الإسلام وزِيدت شروطٌ أُخر... هي مِن تمامِ المصالح) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٩- ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٩- ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص:

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾.

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِ﴾.

أي: فمَن رجَعَ- بَعدَ سَرقتِه التي ظَلَمَ بها نَفْسَه وغيرَه- إلى اللهِ تعالى، وأَصلحَ عمَلَه وما أفْسدَه بظُلمِه؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَقبَلُ توبتَه[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويتجاوزُ عن مؤاخذتِهم بها، وهو رحيمٌ بهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُوفِّقُهم للتوبةِ، ويَقبَلُها منهم[2].

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٠﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أَوْجبَ اللهُ تعالى قَطْعَ اليدِ، وعِقابَ الآخِرَةِ على السَّارقِ قبلَ التوبةِ، ثم ذَكَر أنَّه يَقبَلُ توبتَه إنْ تابَ- أَرْدَفَه سُبحانَه ببيانِ أنَّ له أنْ يَفعلَ ما يشاءُ، ويَحكُمَ ما يُريدُ؛ فيُعذِّبَ مَن يشاءُ، ويغفرَ لِمَن يشاءُ[3]، فقال:

---

٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٠- ٣٧١).

قال ابنُ كَثيرٍ: (فأمَّا أموالُ الناس فلا بدَّ مِن ردِّها إليهم أو بدلَها- عند الجمهور) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٢- ٣٧٤).

(٣) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٧).

قال ابنُ عثيمين: (وأتى بهذه الآيةِ في مكانِها اللائقِ؛ لأنَّ ما سبَق مِن الآياتِ كان في إقامةِ الحدودِ، فلعلَّ النفسَ تقولُ: لماذا كلُّ هذه الشدَّة، لماذا هذه الغلظةُ، فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ألَمْ تَعلَمْ[1] أنَّ اللهَ تعالى هو المالكُ لجَميعِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، وهو المَلِكُ المتصرِّفُ فيه بما يشاءُ سُبحانَه[2].

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

أي: يُعذِّبُ مَن يشاءُ مِن خَلقِه بعَدْلِه، ويَغفرُ لِمَن يشاءُ منهم بفَضْلِه؛ فكلُّ العبادِ ملْكُه وإليه أمْرُهم، ولا نَسبَ بينه وبين أحدٍ منهم فيُحابِيَه، وإنَّما يُعذِّبُ ويغفرُ بحسَبِ ما اقتضتْه حِكمتُه سُبحانَه[3].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ قادِرٌ على كلِّ شيءٍ أرادَه، لا يُعجِزُه شيءٌ أبدًا، ومِن ذلك قُدرتُه على تعذيبِ مَن أراد تَعذيبَه مِن عبادِه، والغُفرانِ لمَن أرادَ أنْ يَغفرَ له منهم[4].

الفوائدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ فِعلَ المعاصي، وترْكَ الواجباتِ ظُلْمٌ؛ لقولِه: ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾؛

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾. ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٣٧٧).

(١) قيل: المخاطب هو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقيل: الْخِطَابُ للنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ بِهِ الْجَمِيعُ، وقيل: المخاطبُ هو كلُّ مكلَّف، ومَن يصحُّ توجُّه الخطاب إليه، وقيل: للمجترئ على السَّرقة وغيرها مِن المحظوراتِ. ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ١٧٦)، ((تفسير البغوي)) (١/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٢- ٤١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٨٠).

وذلك أنَّ النَّفْسَ عندَ الإنسانِ أمانةٌ، يجبُ أن يَسعَى لها بما هو الأصلحُ والأنفعُ، فإذا خالفَ فهو ظالمٌ، خائنٌ للأمانةِ[١].

٢- حثُّ الإنسانِ على التوبةِ حتَّى لو ظَلَمَ؛ لقول اللهِ تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ واللهُ تعالى لم يقُلْ هذا لمجرَّدِ الخبرِ؛ بل لأجْلِ الحثِّ على التوبةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- مِن الحِكم في الابتداءِ بالسارقِ في قوله: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا ﴾، وبالزانيةِ في قوله: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي ﴾ [النور: ٢] أنَّ السَّرِقةَ مبناها على القُوَّة والجَلَد والنَّشاط والجُرْأة، والرِّجالُ أخصُّ مِن النِّساء في هذا، فبدَأ بهم؛ ولذلك نجِد السُّرَّاقَ مِن الرجالِ أكثرَ مِن النِّساءِ، أمَّا الزِّنا فبالعكس؛ لأنَّ الزِّنا سِلعُ البَغايا- والعياذ بالله- فبدأ بالزَّانيةِ؛ لأنَّ أكثرَ ما يُوجد سببُه من النِّساءِ، ولأنَّ أثرَ الزِّنا يظهرُ عليها في الحبَل، وإزالةِ العُذرةِ؛ فهو في حقِّها أشنعُ، وقيل غير ذلك[٣].

٢- ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا ﴾ وجوبُ قطعِ أيديهما بأيِّ سرقةٍ، لكن السُّنَّة قَيَّدتْ عُمومَ هذه الآيةِ من عِدَّةِ أوجه[٤]:

منها: الحِرْز؛ فإنَّه لا بدَّ أنْ تكونَ السرقةُ مِن حِرْز، وحِرزُ كلِّ مالٍ: ما يُحفَظُ به عادةً، فلو سَرَق مِن غيرِ حِرْزٍ فلا قَطْعَ عليه.

ومنها: أنَّه لا بدَّ أن يكونَ المسروقُ نِصابًا، وهو رُبعُ دِينارٍ، أو ثلاثةُ دَراهمَ، أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٦).
(٣) ينظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٢٤)، ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (٤/ ٣٤٤)، ((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) (١/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٦).
(٤) ينظر: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ١٠٤).

ما يُساوي أحدَهما؛ فلو سرَقَ دونَ ذلك فلا قَطْعَ عليه.

ومنها: أنه يُشترط أيضًا أن يكونَ المسروقُ مالًا مُحترَمًا.

ومنها: اشتراطُ انتفاءِ الشُّبهة[١].

٣- قوله: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ﴾ استُدِلَّ بِه على أنَّه يجبُ على الأمَّةِ أن يَنصِبوا لأنفسِهم إمامًا معيَّنًا؛ لأنَّه تعالى أوجبَ بهذه الآيةِ إقامةَ الحدِّ على السُّرَّاقِ، فلا بدَّ من شخصٍ يكون مخاطَبًا بهذا الخِطابِ، وأجمعتِ الأُمَّةُ على أنَّه ليس لآحادِ الرعِيَّة إقامةُ الحدودِ على الأحرارِ الجُناةِ إلَّا الإمام، فلمَّا كان هذا تكليفًا جازمًا، ولا يُمكنُ الخروجُ من عُهدتِه إلَّا بوجودِه وجَبَ نصْبُه؛ لأنَّ ما لا يأتي الواجبُ إلَّا به، وكان مَقدورًا للمُكلَّف، فهو واجبٌ[٢].

٤- قَطعُ يدِ السَّارقِ والسَّارقةِ يكونُ لليُمنى، كما أجْمَع عليه العلماءُ، وفَسَّر ذلك قراءةُ عبدِالله بن مسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه: (فاقْطَعوا أيمانَهما)، فالغالِبُ أنَّ الأخْذَ والإعطاءَ والسَّرِقةَ باليَمينِ؛ فنَاسَبَ أنْ تُقطَعَ اليُمنى دُونَ اليُسرَى، فتُقطَع اليدُ اليُمنى برُبعِ دِينارٍ؛ بعدَ دَرْء الشُّبُهاتِ المنصوصِ عليها في كتُبِ الفِقهِ[٣].

٥- جعَلَ اللهُ حدَّ السرقةِ قطعَ اليدِ؛ لتناوُلِها المالَ؛ لقولِه: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾، ولم يجعلْ حدَّ الزِّنا قَطْعَ الذَّكرِ معَ موافقةِ الفاحشةِ به؛ لأمورٍ: أحدها: أنَّ للسَّارقِ مِثلَ يَدِه التي قُطِعتْ، فإنِ انزجَرَ بها اعتاضَ بالباقيةِ، وليس للزَّاني مِثلُ ذَكرِه إذا قُطِع، ولم يَعتَضْ بغيرِه لو انزَجَر بقَطعِه. الثاني: أنَّ

(١) ينظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٣٢).

(٣) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٣٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٥٩- ٣٦٣).

الحدَّ زجرٌ للمحدودِ ولغيرِه، وقطْعُ يدِ السارقِ ظاهرٌ، وقَطعُ الذَّكرِ في الزِّنا باطنٌ. الثالث: أنَّ قَطْعَ الذَّكرِ إبطالٌ للنَّسلِ، وليس في قطعِ اليدِ إبطالٌ للنَّسْل[١].

٦- قوله: ﴿بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه ردٌّ ظاهرٌ على الجبريَّة، ووجهٌ آخَرُ معنويٌّ، وهو: أنَّه لو كان السارقُ والسارقةُ مُجبرَينِ ما صحَّ أنْ يُعاقَبَا؛ لأنَّ المُجْبَرَ لا حُكمَ لِفِعْله، حتَّى المُكرَهُ على الكُفرِ إذا كان قلبُه مُطمئنًّا بالإيمان، فإنَّه لا يَكفُرْ[٢].

٧- أنَّ الحدودَ كفَّارةٌ؛ لقوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ ولا يُضاعِفُ اللهُ عليه الجزاءَ[٣].

٨- في قولِه تعالى: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ توضيحٌ للحِكمةِ في إيجابِ الحدودِ، والنَّكالُ يكونُ للغيرِ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، فإنَّ مَن عَلِمَ أنَّ يدَه سوف تُقطَعُ بالسَّرقةِ سوف يَنكُلُ عنها ولا يَسرِقُ[٤].

٩- حُسْن الخِتامِ في الآياتِ الكريمةِ، وأنَّها مطابِقةٌ تمامًا للأحكامِ التي خُتِمت بها، فالعِزَّة مِن معناها الغَلَبةُ، ولا شكَّ أنَّ إيجابَ قَطْعِ الأيدي يدلُّ على العِزَّةِ والغَلبةِ وكمالِ السُّلطة، كما أنَّ الحِكمةَ أيضًا تُنَاسِبُ القطعَ؛ لأنَّ فيها حُكمًا صارمًا، وفيها أيضًا حِكمةٌ بالغةٌ؛ فلذلك كانتِ الجملة: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مطابِقةً تمامًا لِمَا ذُكِر في الآية الكريمةِ مِن قطعِ يدِ السَّارق[٥]، وقد رُوِيَ أنَّ بعضَ الأعرابِ سَمِع قارئًا يقرأُ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ إلى آخِرها، وختَمَها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: (تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٨).

بقوله: (وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فقال: ما هذا كلامٌ فصيحٌ! فقيل له: ليس التلاوةُ كذلك، وإنَّما هي ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فقال: بخٍ بخٍ؛ عزَّ فحَكَم فقَطَع[١]!

١٠- في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ردٌّ على كلِّ ناعقٍ يقولُ: إنَّ قطْعَ الأيدي وحشيَّةٌ، وأنَّ ذلك يستلزمُ أن يكونَ نصفُ الشَّعبِ أشلَّ، ليس له إلَّا يدٌ واحدةٌ؛ فيُقال: بل هذِه هي عينُ الحِكمةِ وعينُ الصَّوابِ؛ فاللهُ تعالى أَوجبَ قطْعَ يدِ السَّارقِ لحِكمتَينِ: ليطهِّرَ صاحبَها من هذه الرذيلةِ الدنيَّةِ الخبيثةِ، وكذلك ليردَعَ الناسَ عن أموالِ الناس؛ لأنَّ المالَ هو شَريانُ الحياةِ، وبه قِوامُ شُؤونِها، فأَمَرَ بقَطْعِ يد السَّارقِ؛ محافظةً على أموالِ المجتمَع؛ لأنَّه لو تُرِك النَّاسُ لحصلتِ الفوضى، وابتزازُ الأموالِ، والسَّطْوُ على الآمنينَ، فكان قطْعُ اليدِ لا شكَّ أنَّه هو الحِكمةُ[٢].

١١- الفائدةُ من ذِكر قوله: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ ...﴾ بعدَ قوله: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ هي أنَّ السارقَ قدْ تُقطَعُ يدُه، ومعلومٌ أنَّ إقامةَ الحدِّ تُكفِّرُ ذنبَه، لكنَّه إذا كان في قَرارةِ نفْسِه يُريد أن يَسرِقَ إذا سَنحَتْ له الفُرصةُ، فهو في هذه الحال لم يتُبْ، فإنَّ الحدودَ كفارةٌ لِمَا مضَى، وأمَّا ما يبقَى في قلبِه من إرادةِ المعصيةِ، فلا بدَّ أن يتوبَ منها[٣].

١٢- في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أن السارقَ إذا تابَ قبلَ القطعِ تابَ اللهُ عليه، واستُدلَّ بها على أنه يَسقطُ عنه الحدُّ؛ لأنَّ ذِكْرَ الغفورِ الرَّحيم في آخِرِ هذه الآيةِ يدلُّ على سقوطِ العقوبةِ عنه، والعقوبةُ المذكورةُ في هذه الآيةِ هي الحدُّ، فظاهِرُ الآيةِ

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٥٥).

(٢) ينظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٨١ - ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٠).

يَقتضي سُقوطَها[١].

١٣- يقترنُ قولُه: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثيرًا في القرآن؛ لأنَّ بالأوَّلِ زوالَ المكروهِ، وبالثاني حُصولَ المحبوبِ؛ فالأوَّلُ غفورٌ، يعني: للذُّنوبِ، والثاني رحيمٌ، يعني: أنَّه يُوصِلُ الخيرَ إلى عِبادِه بمُقتضَى رحمتِه سُبحانَه وتعالى[٢].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾: فيه دفْعُ توهُّمٍ؛ حيث ذَكَر (السَّارِقَة) مع (السَّارِق)؛ لدفْع توهُّمِ أنْ يكونَ صِيغةُ التذكيرِ في ﴿وَٱلسَّارِقُ﴾ قيدًا بحيث لا يُجرَى حدُّ السَّرِقةِ إلَّا على الرِّجال، وقد كانتِ العربُ لا يُقيمونَ للمرأةِ وَزْنًا؛ فلا يُجرونَ عليها الحدودَ، وهو الدَّاعي إلى ذِكر الأُنْثى في قولِه تعالى في سورة البقرة: ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ﴾[٣] [البقرة: ١٧٨].

٢- **قوله:** ﴿جَزَآءَۢ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لِفعلِه الذي يدلُّ عليه ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ﴾، أي: فجازُوهما جزاءً[٤]، على أحدِ الأوجهِ في الإعرابِ.

٣- **قوله:** ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أكِّدت الجملةُ بـ(إنَّ)؛ مِن أجْلِ طُمأنينةِ العبدِ التائبِ بأنَّ توبتَه لن تَذهبَ سُدًى[٥].

- وجاءَ بلفظتَيْ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على هيئةِ صِيغةِ المبالغةِ؛ للمُبالغةِ في وصْفِه بالمغفرةِ والرحمةِ؛ ولذلك يَقبلُ توبتَه، وهو تعليلٌ لِمَا قَبلَه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٢).
(٣) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٩٠، ١٩١).
(٤) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٢).
(٦) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٥).

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾؛ للإشعارِ بعِلَّة الحُكم، وتَأييدِ استقلالِ الجُملةِ[١].

٤- قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ لتقريرِ العِلم، والجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ؛ جوابٌ لِمَن يسألُ عن انقلابِ حالِ السَّارقِ مِن العقابِ إلى المغفرةِ بعدَ التوبةِ، مع عِظمِ جُرْمِه: بأنَّ اللهَ هو المتصرِّفُ في السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما؛ فهو العليمُ بمواضعِ العِقابِ، ومواضعِ العَفْوِ[٢].

٥- قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فيه: مناسبةٌ حسنةٌ؛ حيثُ قُدِّمُ التعذيبُ على المغفرةِ؛ لأنَّه في مُقابلةِ تَقدُّمِ السَّرِقةِ على التوبةِ، ولأنَّ الكلامَ هنا عن الحدودِ والعقوباتِ؛ فناسَب أن يُقدَّمَ التعذيبُ على المغفرةِ[٣].

٦- **قوله**: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ **فيه**: إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ -حيث قال: (والله)، ولم يقُلْ: (وهو)-؛ لإظهارِ كمالِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والجملةُ تذييلٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبلها[٤].

---

(١) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٩٤).

(٣) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٣٢)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٣٣).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٦).

الآيات (٤١ - ٤٢)

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: أَي: اليهود، وهَادَ فلان: إذا تحرَّى طَريقةَ اليَهُود في الدِّين؛ قيل: أَصْلُ (يَهُود) مِن: ﴿هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، أي: تُبْنَا، وكان اسمَ مَدحٍ، ثم صارَ بعدَ نَسْخِ شَريعتِهم لازمًا لهم، وإنْ لم يكُنْ فيه معنَى المدحِ، وقيل: كَانَتِ اليَهُود تُنْسَب إلى يَهوذا بنِ يَعْقُوبَ[1].

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾: قابِلونَ ومُصغُونَ له بكثرةٍ، مبالغة مِن (سامِعون)، وأَصْلُ (سمع): إيناسُ الشيءِ بالأُذُن[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٥)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٨٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٢، ١٣٩)،

﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾: مُطيعون لَهُم، أو عُيونٌ لهم، وجواسيسُ يَتجسَّسون لهُم الأخبارَ[١].

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾: يَقلِبونَ ويُغيِّرونَ ألْفاظَ التوراةِ، أو حدودَ اللهِ في التوراةِ، بإزالتِها وإثباتِ غيرِها، وأصْلُ التَّحريفِ والانحرافِ: إمالةُ الشَّيءِ والعدولُ به عن الاستقامةِ. والكَلِم جمع كلمة، وأَصْلُ (كلم): يدلُّ على نُطْقٍ مُفهِمٍ بالنَّظرِ إلى أحدِ مَدْلولَيهِ[٢].

﴿فِتۡنَتَهُۥ﴾: ضَلالتَه، وتُطلَقُ الفِتنةُ على الشِّرْكِ والكُفرِ، والشَّرِّ والعذابِ، وهي في الأصلِ: الاختِبارُ والابتلاءُ والامتِحانُ، مأخوذة مِن الفَتْن: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه من رَداءتِه[٣].

﴿خِزۡيٞ﴾: هوانٌ وهلاكٌ، وأصلُ الخِزي: الإبعادُ[٤].

﴿لِلسُّحۡتِ﴾: السُّحتُ هو الرِّشَا، أو كَسْبُ ما لا يَحِلُّ، أو كُلُّ مالٍ حَرَامٍ يَلزَمُ

((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠، ١٥١)، ((حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٢، ١٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠، ١٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢) و(٥/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٨، ٧٢٢، ٧٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٦٥، ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢-٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٢٩، ١٣٩-١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

آكِلَه العارُ، وأصلُ (سحت): الاستِئصالُ، ومِنه سُمِّي المالُ الحرامُ سُحْتًا؛ لأنَّه لا بَقاءَ له[١].

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: بالعَدلِ، وأصْل القِسطِ يدلُّ على مَعنيين مُتضادَّينِ: العَدْلِ، والجَوْرِ؛ يُقال: أقْسَطَ: إذا عدَل، وقَسَطَ: إذا جارَ[٢].

﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾: يُعرِضونَ بعدَ الإقبالِ، فالفِعل (تولَّى) إذا عُدِّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا- كما هنا- اقتَضى معنى الإعراضِ، وتركِ قربِه، وأصْلُ هذه المادَّة يدلُّ على القُرْب، سواءٌ من حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[٣].

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مُخاطِبًا نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لا يَحْزُنْك- يا محمدُ- الذين يُسارعونَ إلى الدُّخولِ في الكُفرِ؛ من المنافقينَ الذين أَظْهَروا الإيمانَ بألسِنَتِهم، بينما خلَتْ قلوبُهم منه، ومِنَ اليهودِ؛ فهم يُصغُونَ للكذبِ- الذي يَصدُرُ مِن أحبارِهم ورُؤسائِهم- بكثرةٍ، وهم يَخضعونَ لأوامرِ قومٍ آخرينَ مِنَ الأحبارِ والرؤساءِ الذين أَعْرَضوا عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلا يأتونَ مجلسَه؛ هؤلاءِ الأحبارُ والرؤساءُ المعرِضونَ عن مَجلسِك يُحرِّفونَ كلامَ اللهِ تعالى عن المعنى الذي يدلُّ عليه، ويتأوَّلونه على غيرِ تأويلِه مُتعمِّدِينَ، وهم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٩-٤٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥- ٨٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

يعلمون الحقَّ، ويقولون لأتْباعِهم: تَحاكَموا إلى محمَّدٍ، فإنْ حَكَم لكم بما يُوافِقُ أهواءَكم فاقْبلوه، وإنْ لم يَحكُم بذلك فلا تأخُذوا بحُكمِه.

ثم أخْبَر تعالى أنَّه مَن يُرِدْ أن يَفتنَه ويُضِلَّه فلنْ يملكَ له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن اللهِ شيئًا يَستنقذُه ممَّا أرادَه اللهُ له من الضَّلالةِ، وأمَّا أولئك اليهودُ الذين لا يَقبَلون من الحقِّ إلَّا ما وافَقَ هوًى لهم لم يُرِدِ اللهُ أنْ يُطهِّرَ قلوبَهم من الكُفرِ والشِّركِ؛ لهم في الحياةِ الدنيا ذلٌّ وهوانٌ، ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ هو عذابُ النار.

هؤلاءِ اليهودُ سمَّاعونَ للباطل، مُستجيبونَ له، يأكلونَ المالَ الحرامَ بكثرةٍ، ثم أرشَدَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى أنَّهم إذا جاؤُوه يَحتكِمون إليه، فله أن يَحكُمَ بينهم إنْ شاء، أو يُعرِضَ عن الحُكم بينهم، وأخبره تعالى أنَّه إنْ يُعرِضْ عنهم فلن يَضرُّوه شيئًا، وإنِ اختار أنْ يحكُمَ بينهم فليَحْكُم بينهم بالعَدلِ، والله يحبُّ المتَّصفينَ بالعدلِ بينَ الناس في أحكامِهم.

ثم يقولُ اللهُ لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كيف يُنَصِّبك هؤلاءِ اليهودُ حَكمًا، وهم في حقيقةِ الأمر يُكذِّبونك، وعندهم كتابُ اللهِ التوارةُ فيها حُكمُ الله؟! لكنَّهم أعْرَضوا عنه، وطَلَبوا حُكمًا غيرَ ما عندهم؛ لعلَّه يُوافِقُ أهواءَهم، وَمَا أُولَئِكَ الذين هذا صنيعُهم؛ بالمؤمنينَ.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ

فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه وتعالى بعضَ التكاليفِ والشَّرائعِ، ومنها أحكامُ الحِرابةِ والسَّرقة، وكان في ذِكرِ المحارِبينَ أنَّهم يُحارِبونَ اللهَ ورسولَه، ويَسعَون في الأرضِ فسادًا، وكان الله قد عَلِم مِن بعضِ الناسِ كونَهم متسارِعينَ إلى الكفرِ- لذا صبَّرَ رسولَه على تحمُّل ذلك، وأمَرَه تعالى ألَّا يحزنَ ولا يَهتمَّ بأمْرِ المنافقين وأمْرِ اليهودِ؛ مِن تعنُّتهم وتربُّصهم به وبمَن معه الدَّوائرَ، ونَصبِهم له حبائلَ المكروهِ، وما يَحدُث منهم من الفَسادِ في الأرض، ونصْب المحاربةِ للهِ ولرسولِه، وغير ذلك مِن الرَّذائِلِ الصادرةِ عنهم[1].

وأيضًا لَمَّا تَقرَّرَ في الآيةِ السَّابقةِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، كان من غيرِ شكٍّ عِلةً لعدم الحزنِ على شيءٍ من أمْرِهم، ولا مِن أمْرِ غيرِهم ممَّن عصَى اللهَ في شيءٍ من هذه الأحكامِ[2].

سبَبُ النُّزولِ:

عنِ البَراءِ بن عازبٍ رضِيَ اللهُ عنه قال: ((مُرَّ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيهوديٍّ محمَّمًا[3] مجلودًا، فدَعاهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: هكَذا تَجِدون حدَّ الزاني في كِتابِكم؟ قالوا: نعَم، فدَعا رجلًا من عُلمائِهم، فقال: أَنشُدُك باللهِ الذي أنزلَ التوراةَ على موسى، أهكذا تَجِدون حدَّ الزَّاني في كتابِكُم؟ قال: لا،

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٨).

(٢) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٣٨).

(٣) محمَّمًا: اسمُ مَفعولٍ، أي: مُسْودَّ الوجه، من الحُمَمَة، وهي الفَحْمَة، وجمعها حُمَمٌ، والتَّحميمِ بمعنى التَّسويدِ. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٤٤٤).

ولولا أنَّك نَشدْتَنِي بهذا لم أُخْبِرْكَ؛ نجدُه الرَّجمَ، ولكنَّهُ كثُرَ في أشرافِنا، فكنَّا إذا أخَذْنا الشَّريفَ ترَكْناهُ، وإذا أخَذْنا الضعيفَ أقَمْنا عليهِ الحدَّ! قلنا: تَعالَوْا فلنجتمعْ على شيءٍ نُقيمُه على الشَّريفِ والوَضيعِ، فجعَلْنا التَّحميمَ والجلْدَ مكانَ الرَّجمِ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اللهمَّ إنِّي أولُ مَن أحيا أمْركَ إذْ أماتوهُ، فأمرَ بهِ فرُجِمَ، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾، يقول: ائتوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنْ أمَرَكم بالتَّحميمِ والجَلْدِ فخُذوه، وإنْ أفتاكم بالرَّجمِ فاحْذروا، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ في الكُفَّارِ كلِّها))[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾.

أي: لا تَجعلْ -يا محمَّدُ- هؤلاءِ المنافقين، الذين يَتسابقون إلى الكُفرِ، يُدْخِلُون الحزنَ على نفسِكَ بما يَفعلونَه[2].

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾.

أي: الَّذين أَظهَروا الإيمانَ بألْسنتِهم، وقلوبُهم في الحقيقةِ خاويةٌ منه[3].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

---

(١) رواه مسلم (١٧٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٨- ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة المائدة)) (١/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٩٧).

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾.

أي: ولا تَجعلِ الحُزْنَ يُصيبكَ أيضًا بسببِ اليهودِ[١].

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾.

أي: يُكثرونَ الإصغاءَ إلى الكَذِبِ الصادرِ مِن أحبارِهم ورُؤسائِهم، فيَحْفِلون به، ويَقبلونَه منهم، ومِن ذلك: تَقليدُهم في قولهم: إنَّ محمَّدًا ليس بنبيٍّ، وفي قولهم: إنَّ حُكمَ الزاني المحصَنِ في التوراة: التَّحميمُ والجَلْدُ، وليس الرَّجمَ[٢].

قيل: المرادُ بهؤلاء المنافقونَ مِن اليهودِ، وقيلَ: المرادُ بهم اليهودُ فقط، وقيل: المنافقونَ واليهودُ[٣].

﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَ﴾.

أي: يَستجيبونَ لأوامرِ أقوامٍ آخَرين من الأحبارِ والرؤساءِ المُعرِضينَ عن الإتيانِ إلى مجلسِك- يا محمَّدُ[٤].

---

(١) وهذا اختيارُ ابنِ جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٤١٩)، وابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ١١٣)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ١٩٨- ١٩٩). فيكون الوقفُ على قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾.
وقيل: الابتداءُ من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، أي: ومِن الذين هادوا قومٌ سمَّاعون للكذب، ويكون الأمرُ للرسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلام بعدمِ الحزن على مسارعةِ المنافقين في الكُفر، لا المنافقين واليهود. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٦/ ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٩٧- ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٩-٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٩٨).

(٣) اختار ابنُ جرير أنَّهم المنافقون من اليهود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٠). واختار أنَّهم اليهود: ابنُ عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (١/ ٣٩٨)، واختارَ أنَّهم المنافقون واليهود: ابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ١٩٩).

(٤) وهذا اختيارُ ابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ١١٣)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٣١)، وابن

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ القومَ الآخَرينَ مِن أحبارِ اليهودِ الذين يَتَّبِعُهم العامَّةُ، يَصرِفونَ كلامَ الله عن معناه الحقيقيِّ عمدًا، ويتأوَّلونه على غيرِ تأويلِه، وهم يَعلمون الحقَّ، فيقولون: المرادُ كذا وكذا، على خلافِ ما أرادَ اللهُ ورسولُه[١].

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾.

أي: إنَّ أولئك الأحبارَ الذين يَتَّبِعُهم العامَّةُ، يقولون لأتْباعِهم: تَحاكَمُوا إلى محمَّدٍ؛ فإنْ حَكَم لكم بما يُوافِقُ أهواءَكم فاقبلوا حُكمَه، وإنْ لم يحكُمْ لكم به فاحْذروا مِن قَبولِه، واتِّباعِه على ذلك[٢]؛ ومن ذلك ما يَتعلَّقُ بحَدِّ الزَّاني[٣].

ثم يقول الله تعالى مسلِّيًا لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلم، ومخفِّفًا عنه مِن ثِقَلِ حُزنِه على مسارعتِهم في الكُفْر[٤]:

عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ١٩٩- ٢٠٠).

(١) واختار أنَّ التحريف صِفةٌ للقومِ الآخَرين الذين لم يأتوا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم: السعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٣١)، وابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ٢٠٠)، وابنُ عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (١/ ٣٩٩).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السَّلف: ابنُ زيد: يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١١٣٢).

واختارَ ابنُ جرير أنَّ التحريفَ صفةٌ للذين يُسارِعون في الكفرِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٩٩).

قال ابنُ عاشور: (وإنَّما قالوا: فاحذروا؛ لأنَّه يفتحُ عليهم الطعنَ في أحكامِهم التي مضَوا عليها، وفي حُكَّامهم الحاكِمين بها) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠٠).

(٣) قال ابنُ عُثَيمين: (وهذا مثالٌ وليس حصرًا لمعنى الآية، بل المراد أنَّهم يُعيِّنون- أي: الأحبار- أحكامًا لعامَّتهم، ويقولون: إنْ حَكَمَ بها محمَّدٌ فاقبلوها، وإنْ لم يَحكُمْ فاحذروا) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٦٢). قال ابنُ جرير في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: إذا حتَّم اللهُ تعالى على أَحدٍ أنَّه لا يتوبُ مِن ضلالتِه، ولا يَرجِعُ عن غيِّه ممَّن هو أهلٌ لذلك؛ فلن تملكَ له- يا محمَّدُ- مِن اللهِ تعالى استنقاذًا ممَّا هو فيه من الحَيرةِ والضَّلالةِ، فليس بمقدورِكَ هدايتُه[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ﴾.

أي: إنَّ أولئك اليَهودَ الذين لا يَقبَلون من الحقِّ إلَّا ما وافَق أهواءَهم، لم يُرِدِ الله تعالى أن يُطهِّر قلوبَهم مِن دَنسِ الكُفرِ، ووسَخِ الشِّركِ وغير ذلك، بطهارةِ الإسلامِ، ونظافةِ الإيمانِ، فيتوبوا؛ فلذلك صَدَر منهم ما صَدَر[2].

﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: لهم في الحياةِ الدُّنيا ذلٌّ وهوانٌ، وفَضيحةٌ وعارٌ، ولهم في الآخِرة غضبُ

فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾: (وهذا تسليةٌ من الله تعالى ذِكرُه نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم من حُزنه على مسارعة الذين قصَّ قصَّتَهم من اليهود والمنافقين في هذه الآية، يقول له تعالى ذِكرُه: لا يحزنك تسرُّعهم إلى جحودِ نبوَّتك؛ فإنِّي قد حتَّمتُ عليهم أنهم لا يتوبون من ضلالتهم، ولا يَرجعون عن كُفرهم للسابق من غضبي عليهم، وغيرُ نافعِهم حُزنُك على ما ترى مِن تسرُّعهم إلى ما جعلتُه سبيلًا لهلاكهم واستحقاقِهم وعيدي... فلا تُشعِرْ نفْسَك بالحزنِ على ما فاتَك من اهتدائِه للحقِّ) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠١).

قال الرازي: (لفظ الفتنة محتملٌ لجميع أنواع المفاسِد، إلَّا أنَّه لَمَّا كان هذا اللفظُ مذكورًا عقيبَ أنواع كُفرهم التي شرحَها اللهُ تعالى، وجَبَ أن يكون المرادُ من هذه الفتنةِ تلك الكُفرياتِ التي تَقدَّم ذِكرُها، وعلى هذا التقديرِ فالمرادُ: ومَن يُرِدِ اللهُ كُفرَه وضلالتَه فلن يقدِرَ أحدٌ على دفْع ذلك عنه). ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠١).

الجبَّار، وعذابُ النَّار[١].

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٤٢﴾.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء اليهودَ الذين وصفتُ لك- يا مُحمَّدُ- صِفتَهم؛ سمَّاعون للباطِلِ، مُستجيبونَ له، مِثل قولِ بعضِهم لبعضٍ: محمَّدٌ ليس بنبيٍّ، وكقول بعضهم: إنَّ حُكْمَ الزَّاني المحصَنِ في التوراة الجلدُ والتحميمُ، وغير ذلِك من الأباطيلِ[٢].

﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر سُبحانَه ما يَدخُلُ في آذانِهم وقلوبِهم مِنَ الكلامِ؛ أَتْبَعَ ذلك بذِكرِ ما يَدخُلُ في أفواهِهم وبُطُونِهم من الطَّعامِ، وهما غذاءانِ خَبيثانِ[٣]، فقال:

﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾.

أي: ومِن صفاتِهم أنهم كثيرًا ما يأكلونَ المالَ الحرامَ؛ كالرَّشاوى وغيرِها[٤].

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾.

أي: فإنْ أتاكَ هؤلاءِ اليهودُ- يا محمَّدُ- للاحتكامِ إليك، فلك أنْ تحكُمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠١- ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٩٦- ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١١- ٤١٢).

بينهم إنْ شئتَ، أو تَدعَ ذلك إنْ شئتَ، فالخيارُ إليك في ذلِك؛ فهم لا يَقصِدون بتَحاكُمهم إليك اتِّباعَ الحقِّ، بل يَطلُبون ما وافَقَ أهواءَهم[١].

﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: وإنْ تُعرِضْ- يا محمَّدُ- عن هؤلاءِ المحتكِمينَ إليك من اليهودِ، وتَخْتَرْ تَرْكَ الحُكم بينهم، فلن يَقدِروا على إلحاقِ أيِّ ضررٍ بك في أمْرِ دِينٍ ولا دُنيا[٢].

﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾.

أي: وإنِ اخترتَ الحُكمَ بينهم- يا محمَّدُ- فاحكمْ بينهم بالحقِّ والعدل، وإنْ كانوا في الحقيقةِ أعداءً وظَلَمةً، خارجينَ عن طريقِ العدل[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يحبُّ العادلينَ في حُكْمِهم بينَ النَّاس[٤].

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٢- ٤١٣).
قال ابنُ عُثَيمين: («أو» هنا هل هي للتَّنويعِ أو للتخيير؟ الجواب: هذه للتَّخيير، وإذا كانتْ للتخييرِ؛ فهل هو تخييرُ تشَهٍّ أو مصلحةٍ؟ نقول: هو تخييرُ مصلحةٍ) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٣)،
والقاعدةُ تقول: إذا خُيِّرَ العبدُ بين شيْئيْنِ فأكثر، فإنْ كانَ التَّخييرُ لمصلحتِه فهو تخييرُ تشهٍّ واختيار، وإن كانَ لمصلحةِ غيره فهو تخييرُ اجتهادٍ في مصلحةِ غيره. يُنظر: ((قواعد التفسير عند المفسرين)) لخالد السبت (ص: ٨٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤٥ - ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٤١٣- ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٥).

((إنَّ المُقسِطينَ عندَ الله على منابرَ مِن نورٍ، عن يَمينِ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ- وكِلتَا يديهِ يمينٌ- الذين يَعدِلونَ في حُكمهِم وأَهليهِم وما وَلُوا[١]))[٢].

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾.

أي: كيف يَجعلُك هؤلاءِ اليهودُ- يا مُحمَّدُ- حَكَمًا بينهم وهم يُكذِّبونَك، وعندهم التوراةُ التي أُنزِلَتْ على موسى، والتي فيها حُكم اللهِ على ما يُريدون، ومِن ذلك حُكمُ الله فيها على الزاني المحصَن بالرَّجْمِ؟! ومع هذا أَعْرضوا عن حُكْمِها، وهم يَعلمون أنَّه الحقُّ، وطَلَبوا حُكمَ غيرِها؛ لاحتمالِ موافَقَتِه لأهوائِهم بظَنِّهم الفاسِدِ[٣].

﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: إنَّهم ليسوا مِن أهلِ الإيمانِ؛ فإنَّ ذلك ليس مِن صَنيعِهم ودأْبِهم، أمَّا هؤلاء فقد جَعَلوا آلهتَهم أهواءَهم، وجَعَلوا أحكامَ الشَّرْعِ تابعةً لها، ولو كانوا مؤمنِينَ عاملينَ بما يَقتضيهِ الإيمانُ لم يَعدِلوا عن حُكمِ اللهِ في التوراةِ التي بين أيديهم[٤].

---

(١) وَمَا وَلُوا- بفَتْح الواو وضمِّ اللام المخفَّفة-: أي: ما كانتْ لهم عليه ولايةٌ مِن النَّظر إلى اليتيمِ، أو وقْفٍ، أو حِسبة، ونحو ذلك، ورُوي (وُلُّوا)- بضمِّ الواو وتشديد اللام-: أي ما جُعِلوا والينَ عليه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٢١١)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٤٠٤).

(٢) رواه مسلم (١٨٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤٧-٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٩- ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٠- ٤٢١).

الفوائدُ التَّربويَّة:

١- في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ تعليمٌ وتأديبٌ للمؤمنينَ ألَّا يُخاطِبوا رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم باسْمِه، وأنْ يُخاطِبوه بوصْفِه[١].

٢- الإشارةُ إلى أنَّ المدارَ في الإيمانِ والصَّلاحِ والفسادِ، على القلبِ؛ لقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾، وقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ﴾، فالإيمانُ باللِّسانِ ليس إيمانًا حتَّى يكونَ مبنيًّا على إيمانِ القَلبِ، وإلَّا فإنَّه لا يَنفعُ صاحبَه؛ فالإيمانُ محلُّه القلبُ[٢]. وفي الحديثِ: ((أَلَا وإنَّ في الجسدِ مضغةً، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجسدُ كلُّه))[٣].

٣- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أنَّ مَن حَرَّف الكلمَ عن مواضعِه من هذه الأمَّة ففيه شَبَهٌ مِن اليهود، فيَقتضي هذا التحذيرَ مِن تحريفِ الكَلِمِ عن مواضعِه؛ لئلَّا يقعَ الإنسانُ في مشابهةِ اليهودِ[٤].

٤- أنَّ التحريفَ المذموم، هو الذي يقعُ بعدَ معرفةِ الإنسان للحقِّ؛ لقولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾، وفي الآيَةِ الأخرى: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، فهم يُريدون أن يُزيلوا الكلمَ عن مواضعِه، أمَّا الإنسانُ الذي تأوَّل بتأويلٍ سائغٍ؛ فإنَّه لا يُذمُّ، ولا يُعدُّ فِعلُه تحريفًا يأثَمُ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٣، ٤٠٩، ٤١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٠٥).

٥- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ ذمُّ أولئك الذين لا يَقبلون مِن الحقِّ إلَّا ما وافَق أهواءَهم، وإذا لم يوافقْ أهواءَهم ذهَبوا يتطلَّبون الرُّخَصَ من هذه الأمَّة(١).

٦- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يسألَ اللهَ دائمًا أن يُطهِّرَ قلبَه، وأنْ يَعتنيَ بأعمالِ القَلب، واعتناءُ المرء بأعمال القلب يجبُ أن يكونَ أشدَّ من اعتنائِه بعَملِ الجَسَد؛ لأنَّ عمَلَ الجسدِ يقعُ مِن كلِّ إنسانٍ؛ من مؤمنٍ ومنافقٍ، لكنَّ عمَلَ القلبِ هو المهمُّ(٢).

٧- أنه يجبُ على الإنسانِ المستدِلِّ أن ينظُرَ إلى النُّصوصِ مِن جميعِ الجوانِبِ، وذلك أنَّك إذا نظرتَ إلى قَوْلِه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ لقُلْتَ: إنَّ إرادةَ اللهِ تعالى لتطهيرِ القلب مجرَّدُ مشيئةٍ، لكن إذا قيَّدْتَها بالنُّصوصِ الأخرى عَرَفْتَ أنَّ عدمَ إرادةِ اللهِ تطهيرَ قلوبِ هؤلاء؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا لذلك، كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(٣) [الصف: ٥].

٨- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الوعيدُ لهؤلاء لعلَّهم يَرجِعون؛ فإنَّ الوعيدَ على المعصيةِ مِن أسباب العُدول عنها، بحيثُ لا يُقدِمُ عليها، وإذا أَقدمَ استعتَبَ وتاب(٤).

٩- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ التحذيرُ من هذا الوصفِ القبيحِ، وهو الاستماعُ للكذب، أو نَقْلُ الكذب؛ لأنَّ اللهَ أكَّد بيانَ هذا الوصفِ القبيحِ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١٠).

من اليهود[١].

١٠- التحذيرُ من أكْل المالِ بالباطل؛ لقوله: ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾، والله عزَّ وجلَّ لم يذكُرْ هذا الوصفَ إلَّا لنَحْذرَه[٢].

١١- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أنَّ مَن اكتَسَب المالَ الحرامَ ففيه شَبَهٌ من اليَهود؛ فآكِلو الرِّبا مُشابِهونَ لليهود، وآكِلو الأموالِ بالغشِّ مشابِهون لليهود، وآكِلو الأموالِ بالحَلِف الكاذبِ مشابِهون لليهود؛ فكلُّ مَن اكتسب مالًا بغير حقٍّ بطريقٍ محرَّمٍ فهو مشابهٌ لليهود، كالرَّاشي والمرتشي، فالرِّشوة شائعةٌ في اليهودِ[٣].

١٢- أنَّه لا يجوزُ للإنسان أن يُراعيَ في حُكمه قريبًا ولا صديقًا، ولا غنيًّا ولا فقيرًا؛ لقوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، وهذا يعني: أن يَنظُرَ إلى القضيةِ من حيث هي قضيةٌ، لا من حيثُ إنَّها قضيةُ فلانِ بن فلان[٤].

١٣- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ الحثُّ على الإقساطِ، أي: العَدْلِ؛ وجْه ذلك: كونُ الله يُخبِرُ أنَّه يحبُّ المُقْسطين يتضمَّن الحثَّ على العَدْلِ، فهذا ليس مُجرَّدَ خَبَر، بل هو خبرٌ يُرادُ به الحثُّ والإغراءُ على العَدْل[٥].

١٤- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ أنَّ مَن استفتَى عالِمًا طلبًا للرُّخصةِ، ففيه شَبَهٌ من اليهودِ[٦].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- نِداؤه تعالى له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ هنا، وفي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) .
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٢١).

ٱلنَّبِيُّ ﴾ في مواضعَ أخرى تشريفٌ وتعظيمٌ وتفخيمٌ لِقَدْرِه، ونادَى غيرَه من الأنبياء باسمِه، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ ﴾ [البقرة: ٣٥]، و﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ * قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٥]، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾[1] [مريم: ١٢].

٢- تقويةُ قلبِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتسليتُه بقولِه: ﴿لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾[2].

٣- أنَّ النَّاسَ يَختلفونَ في الكُفرِ؛ فمِنهم مَن يُسارِع فيه بخُطًى حثيثة، ومنهم مَن هو دونَ ذلك؛ لأنَّه قَسَّم، فقال: ﴿لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾، يعني: وهناك أناسٌ لا يُسارِعون فيه، فالداعيةُ إلى الكفرِ مسارِعٌ فيه، وغيرُ الداعيةِ غيرُ مسارِعٍ[3].

٤- قال تعالى هنا: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾، وفي آيةٍ أخرى قال: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٦]؛ لأنَّ آيةَ سورةِ النِّساءِ في وصْفِ اليهودِ كلِّهم، وتحريفِهم في التوراةِ، فهو تغييرُ كلامِ التوراةِ بكلامٍ آخَرَ عن جهْلٍ أو قصْدٍ، أو خطأٍ في تأويلِ معاني التَّوراةِ أو في ألفاظِها، فكان إبعادًا للكَلامِ عن مواضعِه، أي: إزالةً للكلامِ الأصليِّ سواءٌ عُوِّضَ بغيره أو لم يُعوِّض، وأمَّا هذه الآية ففي ذِكر طائفةٍ معيَّنةٍ أبطلوا العملَ بكلامٍ ثابتٍ في التَّوراة؛ إذ ألْغَوا حُكمَ الرَّجْمِ

---

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٨) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٢).

الثابتَ فيها دون تعويضِه بغيرِه من الكلامِ، فهذا أشدُّ جرأةً من التَّحريف الآخَر؛ فكان قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أبلغَ في تحريفِ الكلامِ؛ لأنَّ لفظ (بعد) يَقتضي أنَّ مواضعَ الكلمِ مُستقرَّة، وأنَّه أبطلَ العملَ بها مع بقائِها قائمةً في كِتابِ التوراةِ[١].

٥- أنَّ اليهودَ لا يَقْبَلون من الحقِّ إلَّا ما وافقَ أهواءَهم؛ لقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ﴾[٢].

٦- شِدَّةُ كَراهةِ أحبار اليهودِ للحقِّ؛ لقوله: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ﴾ لم يقولوا: (فلا تأخذوه)، بل قالوا: ﴿فَٱحۡذَرُواْ﴾، وهذا أشدُّ وقعًا مِن قَوْلِهم: (فلا تأخذوه)، وكان مُقتضى المقابلة أن يُقال: وإنْ لم تؤتوه فلا تأخُذوه[٣].

٧- يُستفادُ من قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ﴾ أنَّ الثيِّبَ الذِّميَّ يُرجَم، وهو مذهبُ الشافعيِّ رحمه الله؛ قال: لأنَّه صحَّ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنه أمَرَ برجْمِه، فإنْ كان الأمرُ برجْمِ الثيِّب الذميِّ مِن دِينِ الرسولِ فقد ثبَت المقصودُ، وإنْ كان إنَّما أمَرَ بذلك بناءً على ما ثبَتَ في شريعةِ موسى عليه السَّلامُ وجَب أن يكونَ ذلك مشروعًا في دِيننا، ويدلُّ عليه وجهان: الأول: أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَمَّا أفتى على وَفقِ شريعةِ التَّوراةِ في هذه المسألةِ كان الاقتداءُ به في ذلك واجبًا، والثاني: أنَّ ما كان ثابتًا في شَرْعِ موسى عليه السَّلامُ، فالأصلُ بقاؤُه إلى طَرَيانِ النَّاسِخ، ولم يوجدْ في شَرْعِنا ما يدلُّ على نسْخ هذا الحُكمِ؛ فوجَب أنْ يكون باقيًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ٩٨)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٩).

٨- في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ و﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ﴾ ردٌّ على القَدَريَّة والمعتزلةِ، الذين يَنْفُون مشيئةَ اللهِ لأفعالِ العبادِ، فدلَّت الآيةُ على أنَّ الله تعالى غيرُ مريدٍ إسلامَ الكافرِ إرادةً كونيَّة، وأنَّه لم يُطهِّرْ قلْبَه من الشكِّ والشِّرْكِ، ولو فعَلَ ذلك لآمَنَ[١].

٩- عُتوُّ اليهودِ، وأنَّهم بعدَ أن يَتبيَّنَ لهم الحقُّ يتولَّوْن؛ لقوله: ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ﴾؛ لأنَّ ﴿ثُمَّ﴾ تدلُّ على الترتيبِ والتَّراخي[٢].

١٠- في قوله ﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗا﴾ نفي لضَرَرِه صلَّى الله عليه وسلَّم، لكنْ قد يُؤذونَه، فالأذيةُ لا يلزم منها الضررُ؛ فقد قال تعالى ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقال في الحديث القدسي: ((يا عِبادي، إنَّكم لن تَبلُغوا ضُرِّي فتضروني))[٣]، فنفَى أن يضرَّه أحدٌ، أمَّا الأذيَّة فقد أثبتَها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقوله في الحديثِ القُدسي: ((يُؤذِيني ابنُ آدَم؛ يسبُّ الدهر))[٤]، فالضرر منفيٌّ عن الله عزَّ وجلَّ، والأذيَّة ثابتةٌ[٥].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لتهوينِ تألُّبِ المنافقينَ واليهودِ على الكَذِبِ والاضطرابِ في

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٦٢). ((تفسير الرازي))(١١/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٣).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٤) رواه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٥) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٣- ٤١٤).

معاملةِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وسوءِ طواياهم معه[١].

- وفيه كنايةٌ في قوله: ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ﴾؛ حيث إنَّ نهيَه عن أنْ يحصُلَ له إحزانٌ مسنَدٌ إلى الَّذين يُسارِعونَ في الكُفرِ، والإحزانُ فِعلُ الذين يُسارِعون في الكُفر، والنهيُ عن فِعلِ الغيرِ إنَّما هو نهيٌ عن أسبابِه، أي: لا تجعلْهم يُحزِنونك، أي: لا تهتمَّ بما يَفعلونَ ممَّا شأنُه أن يُدخِلَ الحزنَ على نفْسِك[٢].

٢- **قوله:** ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ **فيه:** تَكرار؛ تأكيدًا لِمَا قبله، وتمهيدًا لِمَا بعده، وتقريرًا للمعنى، ولإفادة اهتمامِ المتكلِّم به، و﴿سَمَّٰعُونَ﴾ من صِفات المبالغة[٣].

٣- **قوله:** ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ هذا التركيبُ يدلُّ على انتفاءِ الحِيلة في تحصيلِ أمرٍ ما، أي: لا تَقدِر على أقلِّ شيءٍ من الله، أي: لا تستطيعُ نَيْلَ شيءٍ من تيسيرِ اللهِ؛ لإزالةِ ضلالةِ هذا المفتون؛ لأنَّ مادَّةَ المِلْك تدلُّ على تمامِ القُدرةِ[٤].

- وتنكيرُ ﴿شَيْـًٔا﴾ للتقليلِ والتحقيرِ، ويدلُّ على انتفاءِ مِلكِ الشيءِ القليلِ، ويَقتضي انتفاءَ مِلْك الشَّيء الكثيرِ بطَريقِ الأَوْلى[٥].

٤- **قوله:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ **فيه:** إشارةٌ إلى

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٩٤).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٩٧).

(٣) ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٧- ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٧٦).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٠١).

(٥) ينظر: ((المصدر السابق)).

المذكورين مِن المنافقين واليهودِ، وما في اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من معنى البُعد؛ للإيذانِ ببُعدِ منزلتِهم في الفسادِ[١].

٥- قوله: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: تكرير ﴿لَهُمْ﴾ مع اتِّحادِ المرجع؛ لزيادةِ التقريرِ والتأكيدِ، وتنكيرُ ﴿خِزْيٌ﴾ للتفخيم[٢]، مع ما يُفيد تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُمْ﴾ من القصرِ والحصرِ، وما يُفيده تنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾ مِن التَّفخيم والتهويل كذلك، ووصْفه بـ﴿عَظِيمٌ﴾ بصِيغة المبالَغة.

٦- قوله: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ الاستفهامُ للتعجُّب؛ إذْ مِنَ العجيبِ أنَّهم يَتركُونَ كتابَهم ويُحكِّمونك، وهم غيرُ مؤمنينَ بك، ثم يتولَّون بعدَ حُكمِك إذا لم يُرْضِهم، والجملةُ استئنافيَّة، مسوقةً لبيانِ أنَّ عندَهم ما يُغْنيهم عن التَّحكيم[٣].

٧- قوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تذييلٌ مُقرِّر لفحوى ما قَبْلَه، ووضْع اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ موضع ضميرهم (هُمْ)؛ للقصدِ إلى إحضارِهم في الذِّهن بما وُصِفوا به مِن القبائِح؛ إيماءً إلى عِلَّة الحُكم[٤]، وأتى بـ «أولاء» مقرونةً بالكافِ الدالَّةِ على بُعدِ المشار إليه، وهذا لدنوِّ منزلتِهم وليس لعُلوِّها، يعني: ما هؤلاءِ المنحطُّون الذين نزلوا إلى أسفلِ السَّافلين بالمؤمنين، وأتَى بحَرْفِ الجرِّ في قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ للتَّوكيدِ[٥].

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٨).

(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٠- ٤٢١).

الآيتان (٤٤ - ٤٥)

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾: جمْع ربَّانيٍّ، مَنسوبٌ إلى الرَّبِّ أو إلى الرَّبَّان، وهو الجامِعُ إلى العِلمِ والفِقهِ البَصرَ بالسِّياسةِ، والتَّدبيرَ، والقيامَ بأُمورِ الرَّعيَّة وما يُصلحُهم في دُنياهم ودِينهم، ويَشمَلُ ذلك: العَالِمَ الحَكيمَ، والفَقيهَ التَّقيَّ العابِدَ، والمُعلِّمَ المُصلِحَ، والذي يُربِّي الناسَ بصِغارِ العِلمِ قَبل كِبارِه، وأصل (ربّ): يدلُّ على إصلاحِ الشَّيءِ والقِيامِ عليه ولُزومِه، وضمِّ الشَّيءِ للشَّيءِ[(١)].

﴿وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾: العُلماءُ، وهنا تَختصُّ بعُلماءِ اليهودِ من ولدِ هارون، جمْع حَبْر، وأَصْلُ (حبر): يدلُّ على الأثرِ في حُسنٍ وبهاءٍ[(٢)].

﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾: استُودِعوا، والحِفظُ هو التَّعاهُدُ، وقلَّةُ الغَفْلة، ويُستعملُ في كلِّ تفقُّدٍ وتعهُّدٍ ورِعايةٍ، وهو نَقيضُ النِّسيانِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٩-٥٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨١- ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص:٣٣٦- ٣٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦، ١٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٣/ ١٩٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٤)،

﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ﴾: الخَشيةُ: خوفٌ يَشوبُه تَعظيمٌ، وهي: أشدُّ مِن الخوفِ وأَخصُّ مِنَه؛ فهي خوفٌ مَقرونٌ بمعرفةٍ، وأكْثرُ ما تكونُ الخَشْيةُ عن عِلمٍ بالمَخوفِ منه، وهي مأخوذةٌ مِن قولِهم: شَجرةٌ خاشيةٌ: أي يابسةٌ، وأَصْلُ (خشِي): يدلُّ على خَوفٍ وذُعْر[1].

﴿قِصَاصٌ﴾: وهو: مُقابلةُ الفِعل بمثلِه، وتتبُّع الدَّم بالقَوَدِ، كقَتْلِ القاتِل بَدلَ القَتيلِ، وأصلُ القَصِّ: تتبُّع الشَّيءِ والأَثَرِ، ومنه اشتُقَّ القِصاصُ في الجِراح؛ لأنَّه يُفعَل به مِثلُ فِعلِه بالأوَّل، فكأنَّه اقتصَّ أثَرَه[2].

﴿كَفَّارَةٌ﴾: الكفَّارة: ما يُغطِّي الإثمَ، وأصْل الكفر: السَّترُ والتَّغطية[3].

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يُخبرُ تعالى أنَّه أنزلَ التوراةَ مشتملةً على الهُدى والنُّور؛ يَحكمُ بها بين اليهود أنبياؤُهم الذين استَسلموا وخضَعوا للهِ تعالى، ويَحكُمُ بها أيضًا بينهم الربَّانيُّون والأحبار؛ وذلك لِكَونِهم مستأمَنينَ على كتابِ الله، مأمورينَ بتبليغِه، وشهداءَ عليه، ثم نهى اللهُ علماءَ اليهودِ أنْ يخافوا من النَّاسِ في تنفيذِ أحكامِه، بل يخافونه وحْدَه، ونهاهم عن أنْ يتركوا الحُكمَ بما في كتابِه مِن أجْلِ مَتاعِ الدُّنيا القليلِ الزائل، وأخبر أنَّ مَن لم يَحكُم بما أنْزَلَه تعالى فأولئك هم الكافِرون.

ثمَّ بيَّن تعالى أنَّه فرَض على اليهودِ في التَّوارة القصاصَ بأنْ تُقتَلَ النفسُ

((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧١- ٦٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٧).

إذا قَتَلتْ نفسًا أخرى عَمْدًا بغير حقٍّ، وكذا العينُ مقابلَ العينِ، والأنفُ مقابلَ الأنفِ، والأذنُ مقابلَ الأُذُنِ، والسِّنُّ مقابلَ السِّنِّ، كما فرَض القِصاصَ في الجُرُوح؛ فللمجروحِ أن يقتصَّ بالمِثل ممَّن جرَحَه ظُلمًا، فمَن تنازَلَ عن حقِّه من القِصاصِ فيما سبَق فعَفَا عمَّن تَعدَّى عليه، فسيُكفِّر اللهُ ذنوبَه جزاءَ عَفْوِه عنه، وأخبَر تعالى أنَّ مَن لم يَحكُمْ بما أنزَلَه فأولئك هم الظَّالِمون.

تَفْسيرُ الآيتين:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وصَف اللهُ عزَّ وجلَّ التوراةَ بأنَّ فيها حُكمَه سُبحانَه في قوله: ﴿ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ﴾ وتضمَّن ذلك مدْحَ التَّوراةِ؛ صرَّح بذلك هنا، فأثْنى عليها وعلى الحاكمينَ بها، تأكيدًا لذمِّ اليهودِ في الإعراضِ عمَّا دعَتْ إليه مِن أصلٍ وفرعٍ، وتحذيرًا من مِثل حالِهم[1]، فقال:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ ﴾.

أي: نحنُ نزَّلنا التوراةَ على موسى عليه السَّلامُ، وفيها ما يَهدي إلى الحقِّ، وما يُستضاءُ به في ظُلماتِ الشَّهوات والشُّبهاتِ[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٤٤). ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٤).

﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾.

أي: يَحكُمُ بحُكمِ التوراةِ الأنبياءُ الكِرامُ سادةُ الأنامِ عليهم السَّلامُ، الذين استَسلَموا للهِ تعالى ظاهرًا وباطنًا، فيَحكُمون بها بينَ اليهودِ، لا يَخرُجون عن حُكْمِها، ولا يُبدِّلونها ولا يُحرِّفونها[1].

﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ويَحكُمُ بالتَّوراةِ وأحكامِها أيضًا الرَّبَّانيُّونَ (وهم العلماءُ الحكماءُ العُبَّاد، الذين يُربُّون الناسَ بصغارِ العلمِ قبلَ كبارِه)، والأحبارُ (وهم العلماءُ الكبارُ ذَوو العلمِ الواسِع، المُحْكِمُون لعِلْمِهم)؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى جعَلَهم أُمَناءَ على كِتابِه؛ استودَعهم إيَّاه، وأمَرَهم أن يُظْهِروه ويَعملوا به، وأوجب عليهم حِفظَه من الزِّيادةِ والنُّقصانِ والكِتمان[2].

﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾.

أي: شُهداءَ على أنَّه كتابُ الله، نزَل من عندِ اللهِ، وفيه حُكمُ الله، وهم مؤتَمَنون على تبليغِه، وحِفظِه من التَّبديلِ والتَّحريفِ والكِتمان، ومِن ذلك الحُكمُ برجْمِ الزاني المُحصَن، وإثباتُ أنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ هو الرسولُ المنتظَر المذكور في التوراةِ[3].

﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٤- ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٥١- ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢- ٢٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٥- ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠٩- ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٦، ٤٣١).
وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السَّلفِ ابن عباس في رواية عنه. ينظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٥٢).

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا قرَّرَ فيما سبَقَ أنَّ النبيِّين والربَّانيِّين والأحبارَ كانوا قائمينَ بإمضاءِ أحكامِ التَّوراةِ من غيرِ مبالاةٍ؛ خاطَب اليهودَ الذين كانوا في عصْر النبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّمَ، ومنَعَهم مِنَ التَّحريفِ والتَّغييرِ[1]، فقال:

﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾.

أي: فما دُمتُم قدِ استُحْفِظْتُم على كتابِ اللهِ تعالى- يا علماءَ اليهودِ[2]- فلا تَخشَوُا النَّاسَ في تنفيذِ حُكمي وإمضائِه عليهم؛ فإنَّهم لا يَقدِرون على ضرِّكم ولا نَفعِكم إلَّا بإذني؛ فإنَّ الحفيظَ على الشَّيءِ، الأمينَ حقَّ الأمانةِ لا يَخشى أحدًا في القيامِ بوجهِ أمانتِه، ولكنَّه يَخشى الذي استأمنَه، فلا تُخِلُّوا بها استرضاءً لأهواءِ النَّاس- ككِتمانِ حُكم الرَّجمِ، الذي حَكَم به اللهُ تعالى في التوراةِ على الزاني المحصَن وتبديلِه بغيره، وكِتمانِ صِفةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- ولكنِ اخْشَوني دون كلِّ أحدٍ مِن خَلقي، واقصُروا أنظارَكم على رِضاي؛ فإنَّ النفعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٤٩).

(٢) هذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٨/ ٤٥٥)، والواحديِّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ١٩٠)، وابنِ عطيةَ في ((تفسيره)) (٢/ ١٩٦) أنَّ الخطابَ لعلماءِ اليهودِ.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السَّلفِ: ابنُ عباس رضي الله عنهما. ينظر: ((زاد المسير)) (١/ ٥٥٢).

وذكَر ابنُ عطيَّة أنَّه يحتمل أنْ يكون قولُه: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ خِطابًا لأمَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم.

وذهَب ابنُ عاشور إلى جواز أن يكون الخطابُ بقوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾ ليهودِ زمان نزولِ الآية، والفاء للتفريع عمَّا حُكي عن فِعل سَلف الأنبياء والمؤمنين؛ ليكونوا قدوةً لخلَفهم من الفَريقين، وتكون الجملةُ على هذا الوجه معترضةً، وذهب أيضًا إلى جواز أن يكونَ الخطاب للنبيِّين والربانيِّين والأحبار؛ فهي على تقديرِ القول، أي: قلنا لهم: فلا تَخشَوُا الناس. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٠).

والضرَّ بيدي، وخافوا عِقابي على كِتمانكم أو تبديلِكم ما استُحْفِظْتُم مِن كتابي[١].

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أي: ولا تَتركوا الحُكمَ بآياتِ كتابي- أيُّها العلماءُ- فتكتموا الحقَّ، وتُظهِروا الباطلَ؛ لأجْلِ متاعٍ قليلٍ، وعِوَضٍ خسيس- كطلب بقاءِ جاهٍ وسيادةٍ، أو طَلَبِ مال يُبذَل رِشوةً[٢].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا منَعَهم مِن خَشيةِ النَّاس، وأن يشترُوا بآياتِه ثمنًا قليلًا؛ أتْبعَه بالوعيدِ الشَّديدِ[٣].

سبَبُ النُّزولِ:

عن البَراءِ بن عازبٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((مُرَّ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيهوديٍّ محمَّمًا مجلودًا، فدَعاهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: هكَذا تَجِدون حدَّ الزاني في كِتابِكم؟ قالوا: نعَم، فدَعا رجلًا من عُلمائِهم، فقال: أَنشُدُك باللهِ الذي أنزلَ التوراةَ على موسى، أهكذا تَجِدون حدَّ الزَّاني في كتابِكُم؟ قال: لا، ولولا أنَّك نَشدْتَنِي بهذا لم أُخبِرْكَ؛ نجدُه الرَّجمَ، ولكنَّهُ كثُرَ في أشرافِنا، فكنَّا إذا أخَذْنا الشَّريفَ تركْناهُ، وإذا أخَذْنا الضعيفَ أقَمْنا عليهِ الحدَّ! قلنا: تَعالَوْا فلنجتمعْ على شيءٍ نُقيمُه على الشَّريفِ والوَضيعِ، فجعَلْنا التَّحميمَ والجلْدَ مكانَ الرجمِ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اللهمَّ إنِّي أولُ مَن أحيا أمْرَكَ إذْ أماتوهُ، فأمرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٤٩).

بِهِ فرُجِمَ، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾، يقول: ائتوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنْ أمَرَكم بالتَّحميمِ والجَلدِ فخُذوه، وإنْ أَفتاكم بالرَّجمِ فاحْذروا، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ في الكُفارِ كلِّها))[1].

﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

أي: إنَّ الذين لم يَحكُموا بما أَنزلَ اللهُ تعالى في كِتابِه من اليهودِ وغيرِهم، فبدَّلوا حُكمَه، وكتَموا الحقَّ الذي أنزلَه في كتابِه، وحَكَموا بالباطل؛ هؤلاءِ همُ الكافرونَ[2].

---

(١) رواه مسلم (١٧٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٥٦، ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٤٢٧).

والحُكم بغير ما أَنزل اللهُ قدْ يكونُ كفرًا أكبر يُخرجُ من المِلَّة في بعضِ الأحوالِ، ككراهيةِ حُكمِ الله تعالى، أو ظَنِّ أنَّ حُكمَ غيرِه مِثلُه أو أحسنُ منه، أو اعتقادِ أنَّ حُكمَ اللهِ تعالى غيرُ صالحٍ في في بَعضِ الأزمانِ كزَمانِنا هذا، أو استبدالِ قَوانينَ وأنظمةٍ عامَّة بحُكمِ اللهِ تعالى، تخالف حكمَ الله؛ فتحلُّ ما حرَّم الله وتحرِّم ما أحلَّ الله، هذا مع تحقُّقِ وجودِ شُروطِ التكفيرِ وانتفاءِ موانعِه، وقد يكونُ في أحوالٍ أخرى كُفْرًا أصغر لا يُخرِجُ مِن الملَّة، كمَن يَحكُم في قضيةٍ معيَّنة بخلافِ حُكمِ اللهِ تعالى لشهوةٍ أو رِشوةٍ، فيكونُ كبيرةً من كَبائرِ الذُّنوبِ.

ينظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٨-٢٥٩).

قال السعديُّ: (﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الحقِّ المبين، وحَكَم بالباطلِ الذي يعلمه؛ لغرضٍ من أغراضِه الفاسدة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فالحكمُ بغير ما أنزل الله مِن أعمال أهل الكُفر، وقد يكون كُفرًا يَنقُل عن الملَّة، وذلك إذا اعتقَد حِلَّه وجوازَه، وقد يكون كبيرةً من كبائر الذنوب ومِن أعمالِ الكفر؛ قد استحقَّ مَن فعلَه العذابَ الشديد) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٣).

وقال الشِّنقيطيُّ: (فالخطابُ للمُسلمين كما هو ظاهرٌ متبادَر من سِياق الآية؛ وعليه: فالكفرُ إمَّا كُفرٌ دون كُفر، وإمَّا أن يكون فعل ذلك مستحلًّا له، أو قاصدًا به جحْدَ أحكام اللهِ وردَّها مع العِلم بها، أمَّا مَن حَكم بغير حُكم اللهِ، وهو عالمٌ أنَّه مرتكبٌ ذنبًا، فاعلٌ قبيحًا، وإنما حمَله

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ

على ذلك الهوى، فهو من سائرِ عصاة المسلمين) ((أضواء البيان)) (١/ ٤٠٧).

وقال أيضًا: (واعلم أنَّ تحرير المقام في هذا البحث: أنَّ الكفر، والظلم، والفسق، كل واحدٍ منها ربما أطلق في الشرع مرادًا به المعصيةُ تارةً، والكفرُ المخرِجُ من الملَّة أخرى: ومَن لم يحكم بما أنزل الله؛ معارضةً للرُّسل، وإبطالًا لأحكام الله، فظلمُه وفِسقُه وكفرُه كلُّها كفرٌ مخرِجٌ عن الملَّة، ومَن لم يحكُمْ بما أنزل الله معتقدًا أنه مرتكبٌ حرامًا، فاعل قبيحًا، فكفرُه وظلمُه وفسقُه غيرُ مخرجٍ عن الملَّة) ((أضواء البيان)) (١/ ٤٠٧- ٤٠٨).

قال ابن عثيمين: (من لم يحكُمْ بما أنزَل الله استخفافًا به، أو احتقارًا له، أو اعتقادًا أنَّ غيره أصلحُ منه، وأنفعُ للخلقِ، فهو كافرٌ كفرًا مخرجًا عن الملَّة، ومِن هؤلاء مَن يضعون للنَّاس تشريعاتٍ تخالفُ التشريعاتِ الإسلاميةَ؛ لتكون منهاجًا يسيرُ النَّاس عليه، فإنَّهم لم يضعوا تلك التشريعاتِ المخالفةَ للشريعةِ الإسلاميَّة إلا وهم يعتقدون أنَّها أصلحُ وأنفعُ للخلقِ، إذ مِن المعلومِ بالضرورةِ العقليَّة، والجِبلَّة الفطريَّة أنَّ الإنسانَ لا يعدلُ عن منهاجٍ إلى منهاجٍ يخالفُه إلَّا وهو يعتقدُ فضلَ ما عدَل إليه، ونقصِ ما عدَل عنه). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ١٤٣).

وقال أيضًا: (والحُكمُ بغَيرِ ما أنزَلَ اللهُ ينقَسِمُ إلى قِسمَينِ:

أحدُهما: أن يستبدِلَ هذا الحُكمَ بحُكمِ اللهِ تعالى، بحيث يكونُ عالِمًا بحُكمِ اللهِ، ولكِنَّه يرى أنَّ الحُكمَ المخالِفَ له أَوْلى وأنفَعُ للعبادِ مِن حُكمِ الله، أو أنَّه مُساوٍ لِحُكمِ الله، أو أنَّ العُدُولَ عن حُكمِ اللهِ إليه جائِزٌ، فيجعَله القانونَ الذي يجِبُ التَّحاكُمُ إليه؛ فمِثلُ هذا كافِرٌ كُفرًا مُخرِجًا عن المِلَّةِ؛ لأنَّ فاعِلَه لم يَرْضَ باللهِ ربًّا، ولا بمحمَّدٍ رسولًا، ولا بالإسلامِ دينًا، وعليه ينطَبِقُ قولُه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

الثاني: أن يستبدِلَ بحُكمِ الله تعالى حُكمًا مخالِفًا له في قضِيَّةٍ مُعَيَّنةٍ، دون أن يجعَلَ ذلك قانونًا يجِبُ التَّحاكُمُ إليه؛ فله ثلاثُ حالاتٍ:

الأولى: أن يفعَلَ ذلك عالِمًا بحُكمِ اللهِ تعالى، مُعتَقِدًا أنَّ ما خالَفَه أَوْلى منه وأنفَعُ للعِبادِ، أو أنَّه مُساوٍ له، أو أنَّ العُدولَ عن حُكمِ اللهِ إليه جائِزٌ؛ فهذا كافِرٌ كُفرًا مُخرِجًا عن المِلَّةِ؛ لِمَا سَبَقَ في القِسمِ الأوَّلِ.

الثانية: أن يفعَلَ ذلك عالِمًا بحُكمِ اللهِ، مُعتَقِدًا أنَّه أَوْلى وأنفَعُ، لكِنْ خالَفَه بقصدِ الإضرارِ بالمحكومِ عليه، أو نَفْعِ المحكومِ له، فهذا ظالِمٌ وليس بكافِرٍ، وعليه يتنَزَّلُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

الثالثة: أن يكونَ كذلك، لكِنْ خالَفَه لِهوًى في نفسِه، أو مصلحةٍ تعودُ إليه؛ فهذا فاسِقٌ وليس بكافِرٍ، وعليه يتنَزَّلُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾) ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين))(٢/ ١٤٥).

وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى في التوراةِ أَحْكَامَ حَدِّ الزِّنَى، وأنَّ حُكمَ الزاني المحصَن هو الرجمُ، وأنَّ اليهودَ غيَّروه وبدَّلوه- ذكر في هذه الآيةِ أنَّه تعالى بيَّن في التوراةِ أَحْكَامَ القِصَاصِ، لكنَّ اليهودَ غيَّروها أيضًا[1]، فقال تعالى:

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾.

أي: وفرَضْنا على اليهودِ في التَّوراةِ أنَّ النَّفس تُقتلُ قِصاصًا، إذا قَتلتْ نفسًا أخرى عَمْدًا بغير حقٍّ، وكذا العينُ تُفقَأُ بالعَينِ، والأنفُ تُجدعُ بالأنفِ، والأُذنُ تُقطَعُ بالأُذنِ، والسِّنُّ تُقلَعُ بالسنِّ، ويُقتصُّ للمجروحِ ممَّن جرَحه ظلمًا وعدوانًا بمِثل الجُرحِ الذي جرَحه[2].

وقال أيضًا: (الأدلَّة دلَّت على أنَّ هذا [أي: التكفير] مقيَّد بشروط:
الأوَّل: أن يكون الحاكمُ عالِمًا بحُكم الله، والثاني: أن يكونَ عالِمًا بمخالفة هذا الحُكم لحُكمِ الله، والثالث: أن يَجعلَه بديلًا عن حُكم الله، والرابع: ألَّا يرضَى بحُكم الله، فإذا تمَّت هذه الشروط صارَ حينئذٍ خارجًا عن الملَّة) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٣٥- ٤٣٦).
قال الرازي: (أجمَع المفسِّرون على أنَّ هذا الوعيدَ يتناولُ اليهودَ بسببِ مخالفتِهم حكمَ الله تعالى في واقعةِ الرَّجم) ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٦٨).
وممَّن ذهب مِن السَّلف أنَّ الآيةَ في اليهودِ، وتشملُ كذلِك هذه الأمَّةَ: ابنُ مسعود، وإبراهيمُ النَّخَعي، والحسن، والسُّدِّيُّ. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٦٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٥٢).

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٦٨) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٧٠، ٢٧١) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤٦٨- ٤٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٠- ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين)) (١/ ٤٣٩- ٤٤٨).

وهذا من جملة أحكامِ التوراة، التي يَحكُم بها النبيُّون الذين أَسلموا للذين هادُوا، ويَحكُم بها الربَّانيُّون والأحبارُ، ومع ذلِك يُخالفُها اليهودُ عمدًا؛ فهُم بترْكِ حُكمِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بينهم أَحْرى وأَوْلى[(١)].

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾.

أي: فمَن تنازَلَ عمَّا وجَبَ له مِن حقٍّ بالقِصاص في النَّفْس، وما دونها من الأطرافِ والجُروحِ فعفَا عن الجاني، تُكفَّرُ عنه ذنوبُه؛ جزاءً لعَفْوه وتنازُلِه[(٢)].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قال السعديُّ: (ومِثل هذه ما أشبَهها من الأطرافِ التي يُمكن الاقتصاصُ منها بدون حيفٍ) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٣).

قال النَّحاسُ: (﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ فهذا الضميرُ لليهودِ بإجماعٍ). ((إعراب القرآن)) (١/ ٢٦٩).

وقال الرازي: (أجمع العلماءُ على أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ حكمُه باقٍ في شرعِنا) ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٩-٣٦٠).

وقال القرطبيُّ: (أجمَع العلماءُ على أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ أنَّه في العمدِ) ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٣- ٢١٥).

(٢) واختار هذا القولَ ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٤٧٩- ٤٨٠)، واختارَه ابنُ العربيِّ في ((أحكام القرآن)) (٢/ ١٣٦)، وذكَر أنَّ عليه أكثرَ الصحابة، واختاره القرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٢٠٨) وقال: إنَّه الأظهرُ. واختاره ابنُ تيميَّة في ((مجموع الفتاوى)) (٣٠/ ٣٦٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ٢١٦- ٢١٧)

وممَّن قال من السَّلف بنحوِ هذا القولِ: ابنُ مسعود، وعبدُ الله بن عَمرٍو، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ- في أحد قوليه- والحسن، وقتادة، والشَّعبي، وأبو إسحاق الهمدانيُّ. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١١٤٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٥٤).

وقيل: كفارةٌ للجاني، فإذا عفا المجنيُّ عنه كان عفوُه كفارةً لذنبِ الجاني، كما القِصاصُ منه كفَّارَةٌ له. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٧٥).

واختار السعديُّ أنه كفَّارةٌ للعافي وللجاني أيضًا؛ لأنَّ المجني عليه عفا عن حقِّه، والله تعالى أحقُّ وأَوْلى بالعفوِ عن حقِّه، يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٣).

أي: إنَّ الذين لم يَحكُموا بما أَنزلَ اللهُ تعالى في كتابِه من اليهودِ وغيرِهم، فبدَّلوا حُكمَه، وكتَموا الحقَّ الذي أَنزله في كتابِه، وحكَموا بالباطلِ في أحكامِ القِصاصِ وغيرِها، فهم ممَّن جارَ على حُكمِ اللهِ وتعدَّى حُدودَه، ووضَع فِعلَه في غَيرِ مَوضعِه الذي جعَله اللهُ تعالى له[1].

الفوائدُ التَّربويَّة:

١- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ ﴾ أنَّ العِبرةَ بالاهتداء بالدِّين، وأنَّه لا ينفعُ أهلَ الانتماءِ إليه إذا لم يُقيموه؛ إذ لا يَستفيدونَ من هِدايتِه ونورِه إلَّا بإقامتِه والعَمَلِ به، وأنَّ إيثارَ أهلِ الكتابِ أهواءَهم على هدايةِ دِينِهم هو الذي أعماهم عن نورِ القُرآنِ، والاهتداءِ به[2].

٢- أنَّ أهلَ العِلم ورثةُ الأنبياءِ في إظهارِ حُكمِ اللهِ والدَّعوةِ إلى شريعتِه؛ لقوله: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ ﴾، عطفًا على الأنبياءِ في قولِه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤٨٢).
واختارَ ابنُ عاشور أنَّ المراد بالظالمين الكافرون؛ لأنَّ الظلم يُطلق على الكفر؛ فيكون هذا مؤكِّدًا للذي في الآية السابقة، ويحتمل أنَّ المرادَ به الجَوْرُ، فيكون إثباتُ وصفِ الظلمِ لزيادةِ التشنيع عليهم في كُفرهم؛ لأنَّهم كافِرون ظالمون. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٧).
واختار ابنُ عُثَيمين: أنَّ قوله سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، في مَن حَكَم وهو يعتقدُ أنَّ حُكمَ اللهِ هو الحقُّ، وأنه أنسبُ للعباد من حُكم الطاغوتِ، لكنَّه أراد أن يَعتديَ على المحكومِ عليه لعداوةٍ بينه وبينه، فهذا ظالمٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٥٧).
ممَّن قال بنحوِ هذا القولِ: ابنُ عبَّاس. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٦٧)
قال ابنُ جرير:(عن عليِّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباسٍ رضي الله عنه، قوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] قال: مَن جحد ما أنزَل اللهُ فقد كفَر، ومن أقرَّ به ولم يحكمْ فهو ظالمٌ فاسقٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٦٧).
وتقدَّم أنَّ الظُّلم يُطلَق ويُراد به المعصيةُ تارةً، ويُراد به الكفرُ المخرجُ مِن الملَّة تارةً أخرى. ينظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٠٧)
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٢٨).

ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾[١].

٣- الثَّناءُ على أهلِ العِلم، وأنَّهم هم حَفَظةُ شريعةِ الله؛ لقوله: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ فهم وَرَثةُ الأنبياءِ، وهم الذين يَلزمُهم الدَّعوةُ إلى الله على بصيرةٍ، ونشْرُ شريعةِ الله[٢].

٤- تحريمُ خَشيةِ الناس في إضاعةِ شريعةِ الله؛ لقوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾[٣].

٥- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ أنَّ المنحرِفَ عن الدِّينِ وعن نشْر العِلم ينحرفُ لأحدِ سببينِ: السَّبب الأوَّل: خشيةُ النَّاسِ، والسبب الثاني: الطَّمعُ في الدُّنيا، وطلَبُ الدُّنيا والرِّئاسةِ والمالِ، وما أشْبَه ذلك[٤].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ نهيٌ عن جميعِ المكاسِبِ الخبيثةِ بالعِلم، والتحيُّل للدُّنيا بالدِّين، وهذا المعنى بعينه يتناول علماءَ هذه الأمَّة وحُكَّامَها[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- شرفُ التوراة؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾؛ حيث إنَّ اللهَ تعالى أنْزَلَها مِن عنده، لكنَّ المرادَ بالتوراة: التي لم تُغيَّرْ ولم تُبدَّلْ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٣٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٩٦)
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٨).

٢- أنَّ في التوراةِ هدًى ونورًا؛ لقوله: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، وكذلك في القرآنِ الكريمِ؛ قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فالقرآن كلُّه هدًى وكلُّه نورٌ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وفي هذه الآية قال الله تعالى في التوراة: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، وهذا التعبيرُ بينه وبينَ التعبيرِ القرآنيِّ بالنسبة للقرآن الكريم فرْقٌ عظيم؛ لأنَّ التوراةَ جُعِل فيها هدًى ونورٌ، والقرآن جَعَله هو الهُدى والنُّور[١].

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ فذكَر أنَّ في التوراة نورًا، بينما قال في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، فوصَفَها بأنَّها ضياءٌ، والضياء: هو النورُ الذي يَحصُل فيه نوعُ حرارةٍ وإشراق، كضياءِ الشَّمس، بخِلافِ القمر؛ فإنَّه نورٌ محْضٌ، فيه إشراقٌ بغيرِ إحراقٍ؛ وذلك لأنَّ الغالبَ على شريعتِهم الضياءُ؛ لِما فيها من الآصارِ والأغلالِ والأثقالِ، ووَصَف شريعةَ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنها نورٌ لِمَا فيها مِن الحنيفيَّة السَّمْحةِ؛ قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾[٢].

٤- أنَّ التوراةَ أصلٌ للأنبياءِ مِن بني إسرائيل الذين جاؤوا من بعدِ موسى عليه وعليهم السَّلام؛ لقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾[٣].

٥- وصْفُ الأنبياءِ بالإسلامِ؛ لقوله: ﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾، والمرادُ هنا: الاستسلامُ الظاهرُ والباطِنُ، وفيه الإشارةُ إلى شَرفِ الإسلامِ وفَضلِه؛ إذ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٨).
(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٤- ٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٩).

كان دِينَ الأنبياءِ[١].

٦- وجهُ وصفِ النبيِّينَ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ مع أنَّ كلَّ نبيٍّ لا بدَّ أن يكونَ مسلمًا، أنَّه وصَفَهم بذلك على سَبيلِ المدحِ والثَّناءِ، لا على سبيلِ التَّفصيل والتَّوضيح؛ فإنَّ الأنبياءَ كلَّهم مسلِمون، وقيل: بل في ذلك إعظامُ صفةِ الإسلامِ بعِظَمِ موصوفِها وهم الأنبياءُ، وقيل: يُحتَمَل أن يكون المرادُ هو محمدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وذلك لأنَّه حَكَم على اليهوديَّيْنِ بالرَّجم، وكان هذا حُكْمَ التَّوراةِ، وإنما ذُكِر بلفظِ الجَمْعِ ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾ تعظيمًا له[٢].

٧- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ أنَّه لا عُذرَ لليهود في الخروجِ عن شريعةِ الله؛ لأنَّ اللهَ تعالى قيَّض لهم الأنبياءَ الكثيرين يَحكُمون لهم بالتوراةِ، لكنَّهم عاندوا وكفروا[٣].

٨- مِن اللَّطائف: أنَّه جازَ التبديلُ على أهلِ التوراةِ، ولم يَجُزْ على أهلِ القُرآنِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال في أهلِ التوراة: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، فوكَل الحِفظَ إليهم، وقال في القرآنِ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فتَعهَّد اللهُ بحِفظِه؛ فلم يَجُزِ التبديلُ على أهلِ القرآنِ[٤].

٩- في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ لَمَّا قدَّم الخوفَ -لأنَّه أقوى تأثيرًا- أتْبعَه الطَّمَعَ، فقال: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ﴾،

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٤٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٦٥، ٣٦٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠٩).

ولَمَّا كان الاشتراءُ معناه اللَّجاجة في أخْذِ شيءٍ بثمنٍ، وكان المُثْمَنُ أشرفَ مِن الثَّمنِ من حيثُ إنَّه المرغوبُ فيه- جعَل الآياتِ مُثْمنًا وإنِ اقترنَتْ بالباء، حتَّى يُفيدَ الكلامُ التعجُّبَ مِن الرغبة عنها، وأنَّها لا يصحُّ كونُها ثمنًا، فقال: ﴿بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾[1].

١٠- قوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ ...﴾ الآية: استُدلَّ به على أنَّ شَرْعَ مَن قَبْلَنا شرْعٌ لنا، إذا حُكي مُقرَّرًا ولم يُنسَخْ؛ حيثُ كان الحُكمُ عندنا على وَفقِها في الجناياتِ عندَ جميعِ الأئمَّة[2].

١١- يُستفادُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ أنَّ القصاصَ ثابتٌ في النُّفوسِ، ولو اختَلفَ النَّاسُ في السِّنِّ والطُّولِ والقِصَر والعِلمِ والعَقْلِ والذَّكاء، وغير ذلك؛ وَجْه ذلك: العمومُ؛ ولهذا لو أنَّ رجلًا شابًّا عالِمًا كريمًا حسيبًا قتَلَ طفلًا في المهدِ، فإنَّه يُقتَلُ به؛ لأنَّه لا عِبرةَ بالاختلافِ في هذه الأشياءِ؛ وذلك للعمومِ[3].

١٢- الاقتصارُ على ذِكر هذه الأعضاءِ دونَ غيرِها مِن أعضاءِ الجسدِ؛ كاليدِ والرِّجلِ والإصبَع؛ لأنَّ القطعَ يكونُ غالبًا عندَ المضاربةِ بقصدِ قطْعِ الرَّقبةِ، فقد ينبو السيفُ عن قطعِ الرَّأس، فيُصيب بعضَ الأعضاءِ المتَّصلةِ به مِن عينٍ أو أنفٍ أو أُذُن أو سِنٍّ، وكذلك عندَ المصاولةِ؛ لأنَّ الوجهَ يُقابِلُ الصائلَ[4].

١٣- لا بدَّ من المماثَلَة في القِصاص؛ فاليُمنى باليُمنى، واليُسْرى باليُسرى؛ لأنَّ التعريفَ في قوله: ﴿وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ﴾ يدلُّ على أنَّ الثانيَ هو الأوَّل،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٤٥) وينظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٤).

وهذا يَقتضي المماثلةَ، ولأنَّه جاء بالباءِ الدالَّة على البَدَل، والبَدل لا بدَّ أن يكون مُساويًا للمُبْدَل منه[١].

١٤- قوله تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ فيه الحثُّ على العَفْوِ عن الجاني[٢].

١٥- قال تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ المرادُ مِن التصدُّقِ العفوُ؛ لأنَّ العفوَ لَمَّا كان عن حقٍّ ثابتٍ بيَدِ مُستحِقِّ الأخْذِ بالقِصاصِ، جَعَل إسقاطَه كالعطيَّةِ؛ ليشيرَ إلى فَرْطِ ثوابِه، وبذلك يَتبيَّنُ أنَّ معنى ﴿كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ أنَّه يُكفِّر عنه ذُنوبًا عظيمةً؛ لأجْلِ ما في هذا العَفْوِ من جَلْبِ القلوبِ، وإزالةِ الإِحَنِ، واستبقاءِ نُفوسِ وأعضاءِ الأمَّةِ[٣].

١٦- قال اللهُ تعالى في الموضع الأوَّل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ لأنَّ اليهود جَحَدوا حُكمَ اللهِ قصدًا منهم وعنادًا وعَمدًا، وقال في الموضعِ الثَّاني: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنَّهم لم يُنْصِفوا المظلومَ مِن الظَّالمِ في الأمْرِ الذي أمَر اللهُ بالعدلِ والتسويةِ بين الجميعِ فيه، فخالَفوا وظَلموا، وتَعدَّى بعضُهم على بعضٍ[٤].

١٧- في قولِه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عاد سُبحانَه وتعالى فحذَّر مِن مخالفةِ حُكمِ اللهِ؛ ليُنَبِّهَ على أنَّ الترغيبَ في العفوِ لا يَقتضي الاستخفافَ بالحُكمِ، وإبطالَ العملِ به؛ لأنَّ حُكمَ القِصاصِ شُرِعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٥٦).
قال السُّيوطيُّ: (فيه استجابُ العفوِ عن القصاصِ إن أُريد بـ(من): المجنيُّ عليه، وأنَّ القصاصَ كفارة الذنب إن أُريد به الجاني) ((الإكليل في استنباط التنزيل)) (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٦)، (٦/ ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٠).

لحِكَمٍ عظيمة: منها الزَّجرُ، ومنها جبرُ خاطرِ المعتدَى عليه، ومنها التَّفادي من ترصُّدِ المعتدَى عليهم للانتقامِ مِن المعتدينَ أو مِن أقوامِهم؛ فإبطالُ الحُكمِ بالقِصاصِ يُعطِّلُ هذه المصالحَ، وهو ظلمٌ؛ لأنَّه غمصٌ لحقِّ المُعتدَى عليه أو وليِّه، وأمَّا العفوُ عن الجاني فيُحقِّقُ جميعَ المصالحِ، ويَزيد مصلحةَ التحابُبِ؛ لأنَّه عن طِيبِ نفْسٍ، وقد تَغشى غباوةُ حُكَّام بني إسرائيل على أَفهامِهم، فيجعلوا إبطالَ الحُكمِ بمنزلةِ العَفْو، فهذا وجهُ إعادةِ التحذيرِ عقبَ استحبابِ العفو[١].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- **قوله:** ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ سِيق لبيانِ عُلوِّ شأنِ التَّوراة، ووجوبِ مراعاةِ أحكامِها، وهو يَتضمَّنُ تعظيمَ التوراةِ وتَفخيمَ شأنِها[٢]، وفيه التأكيد بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجُملةِ.

٢- قوله: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾:

- قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ فيه: رفْعٌ لشأنِ المسلِمين، وتعريضٌ باليهود، وأنَّهم بمعْزِلٍ مِن الإسلامِ والاقتداءِ بدِينِ الأنبياءِ عليهم السَّلام[٣].

- وقوله: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: فيه من البَلاغةِ ما يُعرف بالاحتباك؛ حيثُ ترَك أولًا ذِكْر ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾؛ لدلالةِ ما ذُكر بعدَ ذلك عليه، وتَرَكَ ذِكْرَ الإسلامِ بعدَ ذلك؛ لدلالة ذِكْره أولًا عليه، والتقدير: (يَحكُم بها النبيُّون

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٧).
(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩).
(٣) ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤١).

الذين أسْلَموا بما استُحفظوا... للذين هادوا، والربَّانيُّون والأحبارُ الذين أسْلَموا بِما استُحفظوا)، وإنَّما خصَّ الأوَّل بذِكرِ الإسلامِ؛ لأنَّ الأنبياءَ أحقُّ به، وهو داعٍ إلى الحِفظ قَطعًا، وخصَّ الثاني بالاستِحفاظ؛ لأنَّ الأتْباع أَوْلى به، وهو دالٌّ على الإسلام[١].

- وفي إبهامِ ذِكْرِ التوارةِ أولًا في قوله: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾، ثمَّ بيانِها ثانيًا بقولِه تعالى: ﴿مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ تَفخيمٌ وإجلالٌ لها ذاتًا وإضافةً، وتأكيدٌ لإيجابِ حفظِها والعَملِ بما فيها، وإيرادُها بعنوان (الكتاب)؛ للإيماءِ إلى إيجابِ حِفظِها عن التَّغييرِ من جِهة الكتابةِ[٢].

٣- قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ فيه: التفاتٌ؛ إذ إنَّه خطابٌ لرؤساءِ اليهودِ وعُلمائهم- على هذا المعنى- بطَريقِ الالتفاتِ، وأمَّا حُكَّامُ المسلمين فيتناولُهم النهْيُ بطريقِ الدَّلالةِ دون العِبارةِ[٣].

٤- **قوله:** ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ الجملة تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبلَها أبلغَ تقريرٍ، وتحذيرٌ عن الإخلالِ به أشدَّ تحذيرٍ؛ حيث علَّق فيه الحُكمَ بالكفرِ بمجرَّد ترْك الحُكمِ بما أنزل اللهُ تعالى؛ فكيف وقد انضمَّ إليه الحُكمُ بخِلافِه -لا سيَّما مع مباشرةِ ما نُهوا عنه من تحريفِه- ووضْعُ غيرِه موضِعَه، وادِّعاءُ أنَّه مِن عندِ الله؛ ليشتروا به ثمنًا قليلًا[٤]؟!

- وجاءَ ضميرُ الفصلِ ﴿هُمُ﴾؛ لإفادةِ الحَصرِ والتوكيدِ، وضميرُ الفصل له ثلاثُ فوائدَ، الأولى: إفادةُ الحَصْر، والثانية: التوكيدُ، والثالثة: التمييزُ بين

(١) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٤٥).
(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤١).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢).
(٤) ينظر: ((المصدر السابق)).

الخبر والصِّفة؛ ولهذا سُمِّيَ ضميرَ فصْلٍ[١].

٥- **قوله:** ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ التعبيرُ بصِيغةِ التفعُّل في ﴿تَصَدَّقَ﴾؛ للمُبالغة في الترغيبِ فيه[٢].

٦- قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الجملةُ تذييلٌ مُقرِّرٌ لإيجابِ العملِ بالأَحْكامِ المذكورة[٣].

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٧).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٣).

(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٤٦ - ٤٧)

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَقَفَّيْنَا﴾: أي: أتْبَعْنا، وأَرْدَفْنا، مأخوذٌ من القَفا؛ يُقال: قَفَوْتُ الرجلَ: إذا سرتَ في أثَرِه[١].

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾: أي: على آثارِ الأنبياءِ، وأثَرُ الشيءِ: حُصولُ ما يدلُّ على وجودِه، وأَصْلُ (أثر): رَسْمُ الشَّيءِ الباقِي[٢].

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: لِمَا قبْلَه، أو لِمَا كان مُتقدِّمًا له من الإنجيلِ ونحوِه[٣].

﴿وَمَوْعِظَةً﴾: الموعظةُ والوَعْظُ: التخويفُ، أو الزجْرُ المُقترِنُ بتَخويف، أو التَذكيرُ بالخَيرِ وما يَرِقُّ له القَلبُ، وقيل: ما يَدْعُو إلى الصَّلاحِ بطريقِ الرَّغبةِ والرَّهْبةِ؛ فالوَعْظُ هو الأمرُ أو النَّهيُ المقترِنُ بما يَحمِلُ على الامتِثالِ مِن التَّرغيبِ أو التَّرهيب[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿مُصَدِّقًا﴾: منصوبٌ على أنَّه حالٌ مِن عِيسَى عليه السَّلام.

﴿فِيهِ هُدًى﴾: جملةٌ في مَحلِّ نَصبٍ، حالٌ مِنَ ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾.

﴿وَمُصَدِّقًا﴾: مَنصوبٌ عَطفًا على مَحلِّ ﴿فِيهِ هُدًى﴾، والمعطوفُ على الحالِ حالٌ؛ فهي في حُكمِ الحال أيضًا مِن ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً﴾: اسْمانِ مَعطوفانِ على ﴿وَمُصَدِّقًا﴾؛ فهُما في حُكمِ الحالِ مِن ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ أيضًا، أي: وآتيناهُ الإنجيلَ هاديًا وواعظًا، أو مَعطوفانِ على ﴿مُصَدِّقًا﴾ الأُولى؛ فهُما في حُكمِ الحالِ مِن (عِيسَى)، أي: ذا هُدًى وذا مَوعظةٍ. ويَجوزُ أن يكونَ (هُدًى) مَفعولًا مِن أجلِه والعامِلُ فيه مُقدَّرٌ؛ كأنَّه قيل: وللهُدَى والموعظةِ آتيناهُ الإنجيلَ[1].

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أَتْبعَ الأنبياءَ والمرسَلين -الذين يَحكُمون بالتوارةِ- بعِيسى ابنِ مريمَ عليه السَّلامُ، مُؤمِنًا بما في التوارةِ، ومُؤيِّدًا لها، وشاهدًا على أنَّ التوارةَ حقٌّ، وآتاه اللهُ الإنجيلَ فيه هدًى ونورٌ، شاهدًا وموافقًا لِمَا في التوارة، وبيانًا للحقِّ، وزاجرًا للمتَّقينَ عن ارتكابِ المحرَّماتِ والآثامِ.

---

(١) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٣٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٨٣- ٢٨٥) ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (١/ ٢٣١).

ويأمر اللهُ سُبحانَه أنْ يَحكُمَ النصارى بما أنزَل في الإنجيل، فالله عز وجل أنزَله على عيسَى عليه السَّلام؛ ليُقيموه ويتحاكموا إليه، ويؤمنوا بجميعِ ما فيه، ومنه البشارةُ ببعثةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والأمرُ بالإيمانِ به واتباعِه، وأخْبَر تعالى أنَّ مَن لم يحكُمْ بما أَنزلَ اللهُ فأولئك هم الفاسِقون.

تَفْسيرُ الآيتين:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى أنَّ التوراةَ يَحكُم بها النَّبيُّون، ذكَر أنَّه قفَّاهم بعِيسى؛ تَنبيهًا على أنَّه من جُملةِ الأنبياء، وتنويهًا باسمِه، وتنزيهًا له عمَّا يدَّعيه اليهودُ فيه، وأنَّه من جملة مصدِّقي التوراةِ[1]، فقال:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

أي: وأتْبَعْنا هؤلاءِ الأنبياءَ والمرسَلين، الذين يَحكُمون بالتَّوراة، بعيسى عليه السَّلامُ، فبعثناه عَقِبَهم نبيًّا رسولًا شاهدًا على أنَّ التوراة حقٌّ، مؤيِّدًا لها ومؤمنًا بها، وحاكِمًا بشريعتها فيما لم يَنسخْه الإنجيلُ[2].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٣- ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٥٧- ٤٥٨).

قال ابنُ عُثَيمين: (وتَصديقُه لِمَا بين يديه مِن التَّوراةِ له معنيانِ: المعنى الأوَّل: أنَّه يُصدِّق التَّوراةَ، ويَشهَد أنَّها حقٌّ. المعنى الثاني: أنَّه يُصدِّقُ خبرَها، ويشهد بوقوعِ ما أخبرتْ به، حيث كان عيسى ابنُ مريمَ عليه السَّلام مذكورًا فيها) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٥٨).

أي: وأَنزلْنا إليه كِتابَنا المسمَّى بالإنجيلِ، فيه هُدًى إلى الحقِّ، ونورٌ يُستضاءُ به من ظُلماتِ الشُّبهاتِ، وعمَى الجَهالةِ[١].

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

أي: مثبِتًا وشاهدًا وموافِقًا لها، ومشتمِلًا على أحكامِها، إلَّا ما نسخَه منها[٢].

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: وجعَلْنا الإنجيلَ هدًى وبيانًا للحقِّ، وزاجرًا عن ارتكابِ المحارم والمآثمِ للمتَّقينَ الذين يمتَثِلون ما أمرَ اللهُ تعالى به، ويجتَنِبون ما نهَى عنه؛ فهم الذين ينتفعونَ بالهدَى، ويتَّعظونَ بالمواعظِ، ويرتدعونَ عمَّا لا يَنبغي[٣].

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ قراءتان[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٢- ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤).

(٤) قال ابنُ جرير: (والذي يَتراءَى في ذلك: أنَّهما قِراءتانِ مَشهورتانِ متقاربتَا المعنى، فبأيِّ ذلك قرأَ قارئٌ فمصيبٌ فيه الصوابَ؛ وذلك أنَّ الله تعالى لم يُنزل كتابًا على نبيٍّ من أنبيائه إلَّا لِيَعمَلَ بما فيه أهلُه الذين أُمروا بالعملِ بما فيه، ولم يُنزله عليهم إلَّا وقد أمَرَهم بالعمل بما فيه) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٤).

١- ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ بجَعْل اللامِ لامَ (كي)، فالمعنى: أنَّ الله عزَّ وجلَّ أنزل الإنجيلَ؛ لكي يحكُمَ أهلُ الإنجيلِ بما فيه[١].

٢- ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ بِجَعْل اللامِ (لامَ الأمر)، فالمعنى: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَمَرَ أهْلَ الإنجيلِ بالحُكْمِ بما أنزَلَه في الإنجيلِ[٢].

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾

أي: وآتَيْنا عيسى عليه السَّلامُ الإنجيلَ لِيَحْكُمَ أهلُ ملَّته به، فلْيؤمِنوا بجميعِ ما فيه، ولْيُقيموا ما أُمِرُوا به فيه، وممَّا فيه البشارةُ ببَعثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والأمرُ بالإيمانِ به واتِّباعِه[٣].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

أي: إنَّ الذين لم يَحكُموا بما أَنزلَ اللهُ تعالى في كِتابِه من النَّصارى وغَيرِهم، خارجونَ عن طاعةِ ربِّهم، تارِكونَ للحقِّ، مائِلونَ إلى الباطلِ[٤].

---

(١) قرأ بها حمزة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٣)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٣١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٣١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٤- ٤٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٦٣- ٤٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٧).
وقال ابنُ عُثَيمين: (قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾... هل الفسقُ هنا فِسقُ معصيةٍ أو فِسق كُفر؟ لأنَّ الفسقَ قد يكون فِسقَ كُفرٍ وفِسقَ مَعصيةٍ؛ هذا على حسبِ الحال... فمَن حَكَم بغير ما أنزل الله عادلًا عن حُكمِ الله، زاعمًا أنَّه يُساوي حُكم الله أو أنفعُ، فهذا كافرٌ، ... ومَن حَكَم بغير ما أنزل الله لهوًى في نفسه، فهذا فاسقٌ) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٦٤).

الفوائدُ التَّربويَّة:

الحثُّ على التقوى، وأنَّها سببٌ لكلِّ خيرٍ، ولكلِّ عِلمٍ؛ لقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ولا شكَّ أنَّ التَّقوى: هي أساسُ العملِ؛ لأنَّ مَن لم يتَّقِ اللهَ لا يعمَل، ومَن اتقى الله عمِلَ بأوامرِ الله حسَبَ ما عنده من التَّقوى[١]، لذا خصَّ الهُدَى والموعظةَ بكونهما للمُتَّقينَ؛ لأنَّهم هم الذين يَنتفعونَ بهما، وكلَّما زادتِ التَّقوى في الإنسانِ زاد اتِّعاظُه بالكتُب السَّماويَّة[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- أنَّ عِيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ آخِرُ الأنبياءِ؛ لقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، وليس بعدَه نبيٌّ يقفوه إلَّا محمدُ بنُ عبد اللهِ الهاشميُّ القرشيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ ولهذا جعله قافيًا لمن سبَقَه، ولو كان هناك نبيٌّ بعدَ عيسَى عليه السلامُ لكان هو المقَفَّى[٣].

٢- أنَّ مَن ليس له أبٌ يُنسَبُ إلى أمِّه؛ لقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ فنُسِبَ عيسى ابنُ مريم إلى أمِّه؛ لأنَّه ليس له أبٌ، ومن أمثلة الذي ليس له أب: أنْ يزنيَ رجلٌ بامرأةٍ فتأتي منه بولدٍ؛ فهنا الولدُ ليس للزاني، ومنها: أنْ يُلاعِنَ الرجلُ امرأتَه لاتِّهامِه إيَّاها بالزِّنا، ويَنتفي مِن وَلَدِها، فيقول: ليس الولدُ منِّي، فحينئذٍ يكون له أمٌّ وليس له أبٌ[٤].

٣- في نِسبة عيسى عليه السَّلامُ إلى أمِّه في قولِه: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا والدَ له؛ تكذيبًا لليهودِ فيما افْتَرَوه على أُمِّه مريمَ،

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٦٣).
(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٦٠)، وينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨).
(٤) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٧٨).

وإشارةٌ إلى أنَّه عبدٌ مربوبٌ؛ تكذيبًا للنَّصارى في إضافتِهم بنوَّتَه إلى اللهِ سبحانَه وتعالَى، فهو عليه السَّلام ابْنُ أُمِّه مَرْيَمَ[١].

٤- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ التنويهُ بعظمةِ التوراة وفضلِها وشرَفِها؛ لأنَّه ذُكِر في هذه الآية: أنَّ عيسى مصدِّقٌ لِمَا بين يَدَيه من التوراة، وأنَّ الإنجيلَ أيضًا مصدِّقٌ لِمَا بين يديه من التوراةِ[٢].

٥- أنَّ الإنجيلَ مُنْزَلٌ من عند الله؛ لقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وهو صريحٌ جدًّا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۞ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣-٤]، وعلى هذا فيكونُ الإنجيلُ من كلامِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه نزَلَ مِن عنده، وهو كلامٌ مُوحًى، والكلامُ إذا أُضيفَ إلى المتكلِّمِ فهو كلامُه[٣].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- **قوله**: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ في ذِكْرِ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ تأكيدٌ لمدلولِ فِعل (قَفَّيْنَا)، وإفادةُ سُرعةِ التَّقْفِيَةِ[٤].

٢- قوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ﴾ فيه: إيجازٌ بالحذفِ، والتقدير: وقُلْنا: ليَحكُمْ أهلُ الإنجيل؛ فيكونُ هذا إخبارًا عمَّا فُرِض عليهم في ذلِك الوقت من الحُكم بما تَضمَّنه الإنجيلُ، ثم حُذِف القول؛ لأنَّ ما قَبلَه مِنْ قَوْلِه: ﴿وَكَتَبْنَا﴾

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٥٨)

(٢) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٦٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٦١).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٦٦).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٨).

﴿وَقَفَّيْنَا﴾ يدلُّ عليه، وحَذْفُ القولِ كثيرٌ[١].

٣- قوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فيه: وضْعُ الموصولِ (ما) موضعَ الضَّميرِ (به) في قولِه: ﴿بِمَآ﴾؛ للتنبيهِ على عِلِّيَّةِ ما في حيِّزِ الصِّلةِ للحُكم، وفيه التفاتٌ بإظهارِ الاسمِ الجليلِ؛ لتربيةِ المهابةِ، والإشعارِ بعِلَّة الحُكم[٢].

٤- قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الجملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون الجُملة السابقة، ومؤكِّدٌ لوجوبِ الامتثالِ بالأَمْرِ[٣].

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٧٠).
(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٥).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٤).

الآيات (٤٨ - ٥٠)

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَمُهَيْمِنًا﴾: أي: شاهدًا ورَقيبًا، وأَمينًا ومؤتمَنًا، وحاكمًا[(١)].

﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾: جمْعَ هوًى: وهو مَيلُ النَّفسِ إلى الشَّهوةِ، وأصلُه: الخلوُّ والسقوطُ، ومنه قيل للآراء الزَّائفةِ: أهواءٌ[(٢)].

﴿شِرْعَةً﴾: أي: سُنَّةً وطَريقَةً، والشَّرعُ: نهجُ الطريقِ الواضِح، وكُلُّ ما شُرِع فيه مِن شَيءٍ فهو شَريعةٌ، ومِنه الشِّرْعَةُ والشَّريعةُ: وهي الطريقةُ الظاهرةُ، ومنه قيل لشريعةِ الماءِ (نهر- أو واد) شريعة؛ لأنَّها أظهرُ طُرقِه إليه، وأصل (شرع): شيءٌ يُفتَح في امتدادٍ يكونُ فيه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١، ١٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)،

﴿وَمِنۡهَاجٗا﴾: طَرِيقًا وَاضحًا، والمنهاجُ: الطَّرِيقُ المستمرُّ، وأصل النَّهج: الطريقُ الواضِح[١].

﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾: أي: لِيَختبِرَكم ولِيَمتَحِنكم، وأَصْلُ (بلي): الامتحانُ والاختبارُ، ويكون البلاءُ في الخيرِ والشرِّ[٢].

﴿ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾: نِسبةً إلى الجاهِل، والمرادُ بالجاهليَّة: ما كان في الفترةِ قبلَ الإسلامِ من الجَهلِ باللهِ ورسولِه وشرائعِ الدِّين- وقد يُوصَفُ بها مَن تَشبَّه ببعضِ أحوالِها- وأَصْلُ (جهل): خِلافُ العِلمِ، ويُطلَقُ الجهلُ على: خلوِّ النَّفْس من العِلم، وعلى اعتقادِ الشيءِ بخِلافِ ما هو عليه، وعلى فِعلِ الشيءِ بخِلافِ ما حقُّه أن يُفعَل، سواءٌ اعتَقَد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا[٣].

﴿يَبۡغُونَ﴾: أي: يَطلُبون، وأصل (بغي): طلَب الشَّيءَ[٤].

﴿يُوقِنُونَ﴾: يَعلمُونَ عِلمًا مُتمكِّنًا في نفوسِهم، لا يمكن أن يَدخُلَه شكٌّ، وأصلُ اليقين: زوال الشكِّ[٥].

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢، ٤٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٢٠٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٢٣)، ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٦).

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

﴿لِكُلٍّ﴾: اللامُ فيها مُتعلِّقةٌ بـ ﴿جَعَلْنَا﴾، وتقديمُها عليه للتَّخصيص.

﴿جَعَلْنَا﴾: فِعلٌ وفاعلٌ، والفِعلُ (جَعَل) يَحتمِل أنْ يَتعدَّى لمفعولٍ واحدٍ، أو يَتعدَّى لمفعولَينِ- كما سيأتي.

﴿مِنكُمْ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ وقَع صِفةً للاسْمِ المحذوفِ الذي عُوِّضَ عنه بتنوينِ العِوَضِ في ﴿كُلٍّ﴾؛ أي: لكُلِّ أمَّةٍ مِنكم جَعَلْنا...، ولا ضَميرَ في توسُّط ﴿جَعَلْنَا﴾ بَينَ الصِّفة والموصوفِ، ونَظيرُه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ الآية [الأنعام: ١٤]؛ لأنَّه فصَل بين الجلالةِ وصِفتِها بالعَملِ في المَفعولِ الأوَّل.

﴿شِرْعَةً﴾: مفعولٌ به لـ ﴿جَعَلْنَا﴾ المتعدِّي لمفعولٍ واحد، ويَحتمل أنْ يكونَ الفِعلُ ﴿جَعَلْنَا﴾ متعدِّيًا لاثنينِ بمعنى (صَيَّرْنا)؛ فيكون ﴿لِكُلٍّ﴾ مَفعولًا ثانيًا مقدَّمًا، ويكون قوله: ﴿شِرْعَةً﴾ مفعولًا أوَّلَ[1].

٢- قوله: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾.

﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾: مَصدرٌ مؤوَّل بالصَّريح (فِتنتهم إيَّاك)، وفي إعرابِه وجهان؛ الأوَّل: أنَّه مفعولٌ مِن أجلِه، أي: احْذَرهم مَخافةَ أنْ يَفْتِنوك. والثاني: أنَّه بدلُ اشْتِمالٍ من المفعولِ؛ كأنَّه قال: واحْذَرْهُمْ فِتنتَهم؛ كقولك: أعجبَني زيدٌ عِلمُه[2].

---

(١) ينظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٥).

(٢) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٢٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٤٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٩٤-٢٩٥) ((الجدول في إعراب القرآن)) (٦/ ٣٦٩).

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائلًا له: أنزَلْنَا إليك القرآنَ بالحقِّ، شاهدًا بصِدْقِ الكتُبِ السَّماويَّة التي سبقَتْه، وأمينًا عليها، وحافظًا لها، مُشتمِلًا على ما اشتمَلَتْ عليه وزيادة، وناسخًا وحاكمًا عليها، وأمَرَه الله سُبحانَه بعدَها أن يَحكُم بين أهلِ الكتابِ وغيرِهم بما أنزَلَه اللهُ من القُرآن، ونهاه عن اتِّباعِ أهوائِهم التي تُعارِض ما جاءَه من الحقِّ، وقد جعَل اللهُ لكلِّ أهل مِلَّةٍ سبيلًا وسُنَّةً يتَّبِعونها، ولو شاءَ سُبحانَه لجعَلَ النَّاسَ جميعًا على شريعةٍ ومنهاجٍ واحدٍ، لكنَّ اللهَ جعَلَ الشَّرائِعَ مختلفةً ليختبرَ عبادَه، ثم أمَر تعالى بالمبادَرَةِ والمسابقةِ إلى فِعلِ الخيراتِ؛ فإنَّ المعادَ والمرجِعَ إليه، فيُخبِر العبادَ بالذي كانوا يَختلِفون فيه.

وأمَر اللهُ نبيَّه أن يَحكُمَ بينهم بما أنزَلَه إليه في القُرآنِ، ولا يَتَّبع أهواءَهم، ولْيكُنْ حَذِرًا منهم أن يَصدُّوه عن بعضِ ما أَنزلَ اللهُ إليه في كتابه، فإنْ أعرَضوا عما حَكَمَ به عليهم، فليعلمْ أنَّ سببَ تولِّيهم هي إرادةُ الله تعالى أن يُعاقِبَهم ببعضِ ما اقترفوه من ذنوبٍ، وأخبره تعالى أنَّ كثيرًا من النَّاسِ خارجونَ عن طاعةِ ربِّهم.

ثم يقولُ تعالى لنبيِّه: أيُريدُ هؤلاء اليهودُ وغيرُهم الأحكامَ المخالِفَةَ للحقِّ، المبنيَّة على الجهلِ والظُّلم؟! ثم بيَّن تعالى أنَّه لا أحدَ أحسنُ حُكمًا منه سُبحانَه، يَتبيَّن ذلك ويتَّضِحُ لِمَن أَيقنَ باللهِ تعالى وآمَنَ به.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ

لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى التوراةَ التي أنزَلَها على موسَى عليه السَّلامُ، ومدَحَها وأثْنَى عليها، وأمَر باتِّباعِها؛ حيثُ كانتْ سائغةَ الاتِّباعِ، وذكَر الإنجيلَ ومدَحَه، وأمَر أهْلَه بإقامَتِه واتِّباع ما فيه؛ شَرَع تعالى في ذِكرِ القرآنِ العظيم، ومكانِه من الكتُب التي قَبلَه، وهو الذي أنزلَه على عبدِه ورسولِه الكريمِ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مُقرِّرًا لنبوَّته وكتابِه؛ لأنَّ اليهودَ والنَّصارى يُنكِرونَ نُبوَّتَه وكتابَه، وأنَّ حِكْمتَه تعالى اقتضَتْ تعدُّدَ الشَّرائعِ ومناهجِ الهداية؛ فتلك مُقدِّماتٌ ووسيلةٌ، وهذا هو المقصِدُ والنتيجة[1]، فقال:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: وأَنزلْنا إليك- يا محمَّدُ- القرآنَ العظيمَ الذي نزولُه حقٌّ من عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ونزلَ مُتضمِّنًا للحقِّ، فأخبارُه صِدْقٌ، وأحكامُه عَدلٌ، فلا كَذِبَ فيه ولا جَورَ، ولا ريبَ أنَّه مِن عندِ اللهِ تبارَك وتعالى[2].

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

أي: وأنزلْناه شاهدًا للكتُبِ الإلهيَّةِ السابقةِ بصِدقها، وموافقًا لها، ومطابِقًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٥- ٤٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٦٩، ٤٧٥).

لأخبارِها وأصولِ شرائعها، وفي وجودِه أيضًا دَلالةٌ على صِدقها؛ لأنَّها أَخبرتْ بنُزولِ القُرآن[١].

﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

أي: وأنزلْناه أمينًا على الكتُبِ الإلهيَّة السابقة، حافظًا لها، مشتملًا على ما اشتملَتْ عليه الكتُبُ السَّابقَة وزيادة، وناسخًا لها، وحاكمًا عليها كلِّها، فما شهِد له القرآنُ منها بالصِّدقِ فهو مقبولٌ، وما شهِد له بالردِّ فهو مردودٌ، قد دخلَه التحريفُ والتبديلُ، وإلَّا فلو كان من عندَ اللهِ تعالى، لم يُخالِفْه[٢].

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

أي: وما دام أنَّ هذه هي حالُ القرآن؛ فاحكمْ إذنْ- يا محمَّدُ- بينَ أهلِ الكتاب وغيرِهم بهذا القرآنِ العظيم، في كلِّ ما احتكموا فيه إليك[٣].

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: لا تَترُكَنَّ تحكيمَ كتابي بَينهم- يا محمَّدُ- متابعةً منك لأهوائِهم الفاسدةِ المعارِضةِ للحقِّ، فتحكمَ بها إرضاءً لهم بدلًا عن الحُكمِ بما أتاك من الحقِّ الذي هو أحقُّ أن يُحكمَ به[٤].

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٩١- ٤٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٠- ٤٧١).

أي: لكلِّ أهلِ ملَّةٍ منكم- أيُّها الأممُ- جعَلْنا سبيلًا تَسلُكونَه، وسنَّةً واضحةً تتَّبعونها[١].

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾.

أي: ولو شاء اللهُ لجَمَعَكم- أيُّها النَّاسُ- على دينٍ واحدٍ، وجعل شَرائِعَكم شريعةً واحدةً؛ لا يختلِفُ متأخِّرُها عن مُتقدِّمها، ولكنَّه تعالى خالَفَ بينها؛ لِيَختبرَكم وينظرَ كيف تَعملون[٢]، فيبتلي كلَّ أُمَّةٍ بحسَب ما تَقتضيه حِكمتُه، ويُؤتي كلَّ أحدٍ ما يَليقُ به، وليحصلَ التنافسُ بين الأُمم؛ فكلُّ أمَّةٍ تحرِصُ على سَبْقِ غيرِها[٣].

﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان في الاختبارِ أعظمُ تهديدٍ في قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾ سبَّب عنه قولَه: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ ليحُثَّ على السَّبقِ للخَيرِ[٤]؛ فقال

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٩٢- ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧١).
قال السعديُّ: (وهذه الشرائعُ التي تختلف باختلاف الأُمم، هي التي تَتغيَّرُ بحسَب تغير الأزمنة والأحوال، وكلُّها ترجع إلى العدل في وقتِ شِرعتها، وأمَّا الأصولُ الكِبار التي هي مصلحةٌ وحِكمةٌ في كلِّ زمان، فإنَّها لا تختلفُ، فتُشرَعُ في جميعِ الشرائع) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤).
وقال ابنُ عاشور: (فمنهاجُ المسلمين لا يُخالفُ الاتِّصال بالإسلام، فهو كمنهاج المهتدين إلى الماء، ومنهاج غيرِهم منحرفٌ عن دِينهم، كما كانتِ اليهودُ قد جَعلتْ عوائدَ مخالفة لشريعتِهم، فذلك كالمنهاج الموصل إلى غير المورود، وفي هذا الكلامِ إبهامٌ أريد به تنبيهُ الفريقين إلى الفَرق بين حاليهما، وبالتأمُّل يظهر لهم) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٩٨- ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٢).
(٣) ينظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤).
(٤) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٨٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٧).

تعالى:

﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾.

أي: فبادِروا- أيُّها الناسُ- إلى الطاعاتِ والأعمالِ الصالحاتِ، وسارِعوا إليها وَفقًا لشرعِه ونهْجِه الذي أنزلَه في كتابِه القرآنِ[١].

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾.

أي: معادُكم- أيُّها الناسُ- مِن جميعِ الأُمم، ومصيرُكم إلى الله تعالى وحْدَه يومَ القيامة[٢].

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾.

أي: فيُخبِرُكم بما اختلفتُم فيه من الحقِّ، وحينئذٍ يحصُلُ الفصلُ بالعدلِ، ويَتبيَّنُ المحِقُّ مِن المبطِلِ، ويُثابُ أهلُ الحقِّ، ويُعاقَبُ أهلُ الباطِلِ[٣].

﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٢).

وقال ابنُ عُثَيمين: (هل المرادُ: المرجعُ في الدُّنيا أو في الدُّنيا والآخِرة؟

الجواب: مرجعُنا إلى اللهِ في الدنيا والآخرة، أمَّا في الدُّنيا فإنَّ مرجعنا إلى الله: هو الذي يَحكُم بيننا، وهو الذي يَحكُم علينا، ويحكم فينا، وأمَّا في الآخرة فكذلك يَفصِلُ بيننا يومَ القيامة؛ فريق في الجَنَّة، وفريق في السَّعير) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٣).

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الأمرُ بالحُكمِ فيما مضَى مِنْ قَوْلِه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ﴾ لكونِه مُسبَّبًا عمَّا قَبلَه من إنزالِ الكتابِ على الأحوالِ المذكورة؛ أعادَ الأمرَ به سُبحانَه مصرِّحًا بذلك لِذاتِه لا لشيءٍ آخَر؛ ليكونَ الأمرُ به مؤكَّدًا غايةَ التأكيدِ بالأمرِ به مرَّتين: مرَّةً لأنَّ اللهَ أمَرَ به، وأخرى لأنَّه على وَفْقِ الحِكمة، فقال تأكيدًا له وتنويهًا بعظيمِ شأنِه، ومحذِّرًا من الأعداءِ فيما يُلقُونه من الشُّبَه للصدِّ عنه[1]:

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

أي: واحْكُمْ بينهم إذا تنازَعوا إليك- يا مُحمَّدُ- بحُكمِ الله تعالى الذي أنزلَه إليكَ في القرآنِ، ولا تَحكُمْ بما عندَهم[2].

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

أي: والْزمِ العملَ بالقرآنِ الذي أُنزِلَ إليك- يا محمَّدُ- ولا تتَّبعْ أهواءَ اليهودِ، ولا أهواءَ غيرِهم[3].

﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

أي: وإيَّاك- يا محمَّد- والاغترارَ بهؤلاء الأعداءِ من اليهودِ وغيرِهم ممَّن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٨٣)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٩).
قال السعدي: (هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّه إذا حكَم، فإنَّه يحكمُ بينهم بما أنزل الله مِن الكتابِ والسُّنَّة، وهو القسطُ الذي تقدَّم أنَّ الله قال: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ ودلَّ هذا على بيانِ القسطِ، وأنَّ مادتَه هو ما شرَعه الله مِن الأحكامِ، فإنَّها المشتملةُ على غايةِ العدلِ والقسطِ، وما خالف ذلك فهو جورٌ وظلمٌ) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠١).

يَحتكِمون إليك، فكنْ على حَذرٍ من أنْ يصدُّوك عن بعضِ ما أنزَلَ اللهُ تعالى إليك من أحكامِ القُرآنِ، فيَحْملوك على ترْكِ العملِ بها، واتِّباعِ أهوائِهم[١].

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾.

أي: فإنْ أعرَضَ هؤلاءِ الذين يَحتكِمون إليك- يا محمَّدُ- من اليهودِ وغيرِهم عن العملِ بما حَكمتَ به عليهم، فاعلمْ أنَّهم لم يَتولَّوا عن حُكْمِك وقد قضيتَ بالحقِّ إلَّا بقَدَرِ اللهِ تعالى وحِكْمَتِه فيهم؛ مِن أجلِ أنَّه يُريدُ صرْفَهم عن الهُدى، وتعجيلَ عُقوبتِهم في الدنيا؛ لِمَا صدَرَ منهم من ذُنوبٍ اقتضتْ إضلالَهم ونَكالَهم[٢].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾.

أي: وإنَّ كثيرًا من الناسِ خارجونَ عن طاعةِ ربِّهم، مخالِفونَ للحقِّ، فالفِسْقُ طبيعةٌ لهم وسجيَّة[٣].

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

أي: أفيَطلُبُ هؤلاءِ اليهودُ وغيرُهم الأحكامَ المخالِفةَ للحقِّ، المبنيَّةَ على الجهلِ والظُّلمِ، والتي وضَعَها الناسُ بلا مُستنَدٍ من شريعةِ اللهِ تعالى، بحسَب

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤- ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٠).

قال ابنُ عُثَيمين: (قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ الجملةُ هذه كالتسليةِ للرسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لكي لا يحزنَ؛ لأنَّ كثيرًا من النَّاس فاسقون) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٠).

آرائِهم وأهوائِهم؛ أفيَطلُبون ذلك وعندهم كتابُ اللهِ فيه الهدى والنُّور، والعَدْلُ والحقُّ المُبِينُ الذي لا يجوزُ خِلافُه، ومع ذلِك يَعدِلون عنه[١]؟!

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

أي: لا أحدَ أحسنُ وأعدلُ مِن الله تعالى في حُكمِه، ولكنَّ ذلك يَتبيَّن لِمَن أيقنَ باللهِ تعالى وأسمائِه وصِفاتِه- ومن ذلك أنَّه أحكمُ الحاكِمينَ سُبحانَه- فعَرَف الفرقَ بين حُكمِه سُبحانَه وحُكمِ الجاهليَّة، وميَّز بإيقانِه ما في حُكمِ الله عزَّ وجلَّ من الحُسن، ودَفعَه يقينُه إلى العملِ به[٢].

الفوائِدُ التَّربويَّة:

١- أنَّه يَنبغي لِمَن نهَى عن شيءٍ قبيحٍ أن يُبيِّنَ قُبْحَه، وأنْ يَنقُل النَّاسَ إلى ما هو خيرٌ منه؛ لقوله: ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، فكأنه قال: لا تتَّبعْ أهواءَهم، واتَّبع ما جاءَك من الحقِّ[٣].

٢- أنَّه يجِبُ على المسلمينَ أنْ تكونَ لهم شخصيَّةٌ قائمةٌ بعزَّة الإِسلامِ، وألَّا يكونوا أذنابًا لأعداءِ الله؛ لقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ موجَّهٌ مِن الله عزَّ وجلَّ إلى رسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، مع أنَّنا نعلمُ عِلمَ اليقينِ أنَّه لن يَفعلَ ذلك؛ لكن لِيَعتبرَ النَّاسُ أنَّه إذا كان محمَّدٌ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ينهاه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٧- ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ربُّه ومُرسِلُه عن اتِّباعِ أهوائِهم عمَّا جاءَه من الحقِّ، فكيف بغَيْرِه[١]؟!

٤- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أنَّه لا بدَّ لبني آدَمَ من الاختلافِ، وهذا هو الواقِعُ[٢].

٥- أنَّ الذنوبَ لها آثارٌ سيِّئة، مِن أعظمِها التولِّي عن دِينِ اللهِ وعمَّا أنزَلَ الله؛ فالإنسانُ كلَّما عصَى اللهَ ابتعَدَ عن قَبولِ الوحي والشَّريعةِ؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾[٣].

٦- الحَذرُ الشَّديدُ مِن موافقةِ الكفَّارِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾[٤].

٧- أنَّ حُكمَ اللهِ أحسنُ الأحكامِ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾، ويترتَّبُ على هذا أنَّ الإنسانَ إذا آمَن بأنَّ حُكمَ اللهِ أحسنُ الأحكامِ، استسلمَ لحُكمِ الله ورضِيَ به تمامًا، سواءٌ علِم الحِكمةَ أم لم يعلمْ، وهذا حقٌّ؛ فأيُّ إنسانٍ يرى أنَّ حُكمَ أحدٍ هو أحسنُ الأحكام فسوف ينقادُ له، ولا يُعارِض ولا يمانِع[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- الثَّناءُ على القرآن؛ لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنَّ جميعَ ما في القرآن حقٌّ، إنْ كان خبرًا فهو صِدْق، وإنْ كان قَصَصًا فهو نافعٌ، وإنْ كان أحكامًا فهو عَدْلٌ[٦].

٢- القرآنُ مهيمِنٌ على الكتُبِ؛ لأنَّه الكتابُ الذي لا يصيرُ منسوخًا ألبتةَ، ولا يتطرَّقُ إليه التبديلُ والتحريفُ؛ على ما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٨٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٥).

وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وإذا كان كذلِك كانتْ شهادةُ القرآن على أنَّ التوراةَ والإنجيلَ والزبورَ حقٌّ وصدقٌ باقيةً أبدًا، فكانتْ حقيقةُ هذه الكتُبِ معلومةً أبدًا؛ قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾(١).

٣- أنَّ القرآنَ ناسِخٌ لِمَا قبْلَه من الكتُب؛ لقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾(٢).

٤- وجوبُ الحُكم بما أنزلَ اللهُ في القرآنِ إذا تحاكَم إلينا أهلُ الكتابِ؛ لقوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾، وهذا الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لكن يَشمَلُ الأمَّةَ(٣).

٥- قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ ولم يقُلْ: (شريعتهم أو نحوها)؛ لأنَّهم على هوًى، وليسوا على هُدًى، فكُفرُهم بما جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن هوًى، ليس عن عقلٍ ولا عن شَرْعٍ(٤).

٦- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أنَّ ما جاءَ به الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حقٌّ لا يُمكِنُ العدولُ عنه إلى غيرِه؛ لأنَّه لم يقل: (عمَّا جاءَك) أو (عمَّا نزَل) فقط، بل أضافَ: ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾(٥).

٧- أنَّ المرجِعَ إلى اللهِ تبارك وتعالى شَرْعًا وقدَرًا؛ لقولِه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ فالمرجِعُ إلى اللهِ شرعًا؛ هو الذي يَحكُم بيننا، وقدَرًا؛ فإنَّ الأمرَ كما قال الله: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾(٦) [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

---

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٧).

٨- في قولِه تعالى: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ...﴾ هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ الخطأَ والنِّسيانَ جائزانِ على الرَّسولِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾، والتعمُّدُ في مِثل هذا غيرُ جائزٍ على الرَّسولِ، فلم يَبقَ إلَّا الخطأُ والنِّسيان[١].

٩- وجوبُ الحَذرِ مِن اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم؛ لقوله: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ﴾[٢].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ مِن أكبرِ غاياتِ اليهودِ والنَّصارى أن يَفتِنوا المسلمينَ عمَّا أنزلَ اللهُ إليهم، وإذا كانَ اللهُ تعالى قد تَكلَّمَ في هذا في عهدِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فالأمرُ في وقتِنا أشدُّ؛ لأنَّهم الآن يَرَوْن أنَّهم أقوى منَّا في المادَّةِ الحِسيَّة، فيكونُ حِرصُهم على صَدِّنا عن سبيلِ الله أشدَّ[٣].

١١- في قولِه: ﴿بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾ أبْهَم الذنوبَ؛ زيادةً في استدراجِهم وإضلالِهم، وتحذيرًا لهم من جميعِ مساوي أعمالِهم؛ لئلَّا يَعلموا عينَ الذنبِ الذي أُصيبوا به، فيحملَهم ذلك على الرجوعِ عنه، ويَصيرَ ذلك كالإلجاءِ[٤].

١٢- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ أنَّ كلَّ حُكمٍ مخالفٍ لحُكمِ الله فهو حُكمٌ جاهليٌّ[٥].

١٣- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ

---

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٨).

يُوقِنُونَ﴾ أنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أن يُعارِضَ أحكامَ الشَّرع بعقلِه، هذا في العمليَّات الفقهيَّات، وفي العَقَديَّات العِلميَّات مِن باب أَوْلى؛ لأنَّه إذا كان لا يجوزُ للإنسان أن يُعارِضَ الشرعَ في الأمورِ العمليَّةِ التي يَدخُلها القياسُ، فالأمورُ العِلميَّةُ الخبريَّة من باب أَوْلى[1].

١٤- قولُه تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيه الإنكارُ على من خَرَجَ عن حُكمِ اللهِ المُحكَم، المشتَمِل على كلِّ خيرٍ، النَّاهي عن كلِّ شَرٍّ، وعَدَلَ إلى ما سواه مِنَ الآراءِ والأهواءِ والاصطلاحاتِ، التي وضَعَها الرِّجالُ بلا مُستنَدٍ مِن شريعةِ اللهِ، كما كان أهلُ الجاهليَّةِ يحكُمونَ به من الضَّلالاتِ والجَهالات، مِمَّا يضعونَها بآرائِهم وأهوائِهم، وكما كان يحكُمُ به التَّتارُ مِنَ السِّياساتِ المَلَكيَّةِ المأخوذةِ عَن مَلِكِهم جنكيزخان، والتي اقتبَسَها مِن شرائِعَ شتَّى، من اليهوديَّةِ والنَّصرانيَّةِ والملَّةِ الإسلاميَّةِ، وفيها كثيرٌ مِنَ الأحكامِ أخَذَها من مجرَّدِ نَظَرِه وهواه، فصارَتْ في بَنِيه شَرعًا مُتَّبعًا، يُقَدِّمونها على الحُكمِ بكِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فمَن فعل ذلك فهو كافِرٌ يجِبُ قِتالُه، حتى يرجِعَ إلى حُكمِ اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا يُحكِّمُ سواه في قليلٍ ولا كثيرٍ[2].

١٥- أنَّه لا يَعرِف حُسنَ أحكامِ اللهِ إلَّا مَن عنده يقينٌ، وكلَّما كان الإنسانُ أشدَّ يقينًا، كان بيانُ حُسنِ أحكامِ الله عنده أكثرَ وأشدَّ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٠).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٩٠)

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فيه: إظهارٌ في محلِّ الإضمار بقولِه: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لبيانِ أهميَّته، وأنَّه المرجعُ والملاذُ والمعتصَم إذا حَزَبَ الأمرُ[١].

- وفي قوله هنا: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، وقوله عن التوراة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ وقوله عن الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ... وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾، لطيفةٌ ومناسبةٌ حسنةٌ في كلِّ سِياق؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر تعالى أنَّه أنزلَ التوراةَ فيها هدًى ونورٌ في قولِه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ لم يَذكُرْ مَن أَنزلها عليه؛ لاشتراكِ كلِّهم في أنَّها نزلتْ على موسى؛ فترَك ذِكْرَه للمَعرفةِ بذلك، ثم ذكَر عيسى وأنَّه آتاهُ الإنجيلَ في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾، فذَكَره ليُقرُّوا أنَّه من جُملةِ الأنبياء؛ إذ اليهودُ تُنكِر نبوَّتَه، وإذا أنكرتْه أنكرتْ كِتابَه، فنصَّ تعالى عليه وعلى كِتابِه، ثمَّ ذكَر إنزالَ القُرآنِ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فذَكَر الكتابَ ومَن أَنزلَه، مُقرِّرًا لنبوَّته وكِتابِه؛ لأنَّ الطائفتَينِ يُنكرون نُبوَّتَه وكتابَه، وجاءَ هنا ذِكرُ المُنزَلِ إليه بكَافِ الخِطاب؛ لأنَّه أنصُّ على المقصودِ[٢].

٢- **قوله:** ﴿**لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ**﴾ تعريفُ الكِتاب للجِنس؛ لأنَّه عنَى به جِنسَ الكتُبِ المنزلَة، ويجوزُ أن يُقال: هو للعَهد؛ لأنَّه لم يُرَدْ به ما يقعُ عليه اسمُ الكتاب على الإطلاقِ، وإنَّما أُريد نوعٌ معلومٌ منه، وهو ما أُنزِلَ من السماء سِوى القرآنِ[٣]، وقيل: لَمَّا كانتِ الكتُبُ السَّماويَّة مِن شدَّةِ تَصادُقِها كالشيءِ الواحدِ عبَّر تعالى عنها بالمفردِ؛ فقال: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٣٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٨٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٧٨).

٣- **قوله:** ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ **وفيه:** الخطابُ بطريق التلوينِ والالتفاتِ للنَّاس كافَّةً؛ ولكن ليس للموجودينَ خاصَّةً، بل للماضين أيضًا بطريق التَّغليبِ[١].

- وقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾: فيه حذف، والتقدير: لكلِّ أمَّة منكم أيُّها النَّاس، أو لكلِّ نبيٍّ مِنكم أيُّها الأنبياءُ، وعلى هذا الوجهِ يكون فيه تنبيهٌ لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، أي: فاحفظْ شِرعتك ومِنهاجَك؛ لئلَّا تستزلَّك اليَهودُ وغيرُهم في شيءٍ منه[٢].

- وهو كالتَّعليلِ للنَّهي؛ أي: إذا كانتْ أهواؤُهم في متابعةِ شريعتِهم أو عَوائدِهم؛ فدَعُوهم وما اعتادُوه، وتمسَّكوا بشَرعِكم[٣].

- وعلى القولِ بأنَّ الشِّرعة والمنهاجِ عِبارتان عن معنًى واحدٍ- والمرادُ بهما الدِّين- فيكونُ فيه تكريرٌ بعطفِ أحدِ المترادفَينِ على الآخَر، أو ما هو قَريبٌ منه في المعنى؛ لقَصدِ التَّأكيد[٤].

٤- **قوله:** ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ استئنافٌ في معنى التَّعليلِ؛ لأمْرِه تعالى باسْتِباقِ الخيراتِ؛ كأنَّه يقول: يَظهَرُ ثمرةُ استباقِ الخيراتِ والمبادرةِ إليها في وقتِ الرجوعِ إلى اللهِ تعالى ومُجازاتِه[٥].

٥- قوله: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيه: إظهارُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٨٣- ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٨٤)، ((البرهان)) للزركشي (٢/ ٤٧٢- ٤٧٣).

(٥) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٨٥).

الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لتأكيدِ الأمرِ بتهويلِ الخَطب[١].

٦- قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾: تأكيدٌ لِمَا تقدَّم مِن الأمرِ بذلك في الآيةِ السَّابقة، والنهيِ عن خِلافِه[٢]، وكرَّر النهيَ عن اتِّباع أهوائِهم في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾؛ لشدَّةِ التحذير منها، ولأنَّ ذلك في مقامِ الحُكم والفتوى، وهو أوسعُ، وهذا في مقامِ الحُكم وحْدَه، وكلاهما يلزمُ فيه ألَّا يتَّبعَ أهواءَهم المخالفةَ للحقِّ[٣].

٧- **قوله**: ﴿بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾ **يعني**: بذَنْبِ التَّولِّي عن حُكْمِ اللَّه، وإرادةِ خِلافِه، فوَضَعَ ﴿بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾ مَوضِعَ ذلك، وأرادَ أنَّ لهم ذُنوبًا جمَّةً كثيرةَ العددِ، وأنَّ هذا الذَّنبَ- مع عِظَمه- بعضُها وواحدٌ منها؛ وهذا الإبهام لتعظيمِ التولِّي، واستسرافِهم في ارتكابِه، وجَسامَته وفَداحةِ التطاوُلِ به؛ فما أخسرَ صفقتَهم، وما أبشعَ ما اقترَفوه! واستعمالُ (بعض) في الإبهامِ واردٌ كثيرًا في كلامِ العرب[٤].

٨- **قوله**: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلَه؛ ليَهُون عِندَه بَقاؤهم على ضَلالِهم؛ إذ هو عادَةُ أكثرِ النَّاس، وفيه كِنايةٌ عن كون أكْثرِ اليهودِ فاسِقين[٥].

٩- قوله: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ، وتقديمُ المفعول ﴿أَفَحُكۡمَ﴾ على فِعله ﴿يَبۡغُونَ﴾؛ للتخصيصِ المفيدِ لتأكيدِ الإنكارِ والتعجُّب[٦]،

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٦).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤).

(٤) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٧).

(٥) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢٧).

(٦) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢٧).

ولإفادةِ الحَصرِ، يعني: كأنَّ هؤلاءِ لا يُريدون إلَّا الحُكمَ الجاهليَّ المبنيَّ على الجهلِ أو الجهالةِ[١].

١٠- قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيه ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بـ(الإيغال)[٢]، ونوعه: الإيغالُ التَّخييريُّ؛ إذ إنَّ المعنى قد تمَّ بقَولِه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾، ولَمَّا احتاجَ الكلامُ إلى فاصلةٍ تُناسِبُ ما قَبلَها وما بَعدَها، أتتْ هذه الفاصلةُ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لتُفيدَ معنًى زائدًا، لولاها لم يَحصُل؛ وذلك أنَّه لا يَعلَمُ أنَّ حُكمَ الله أحسنُ مِن كلِّ حُكمٍ إلَّا مَن أَيقنَ أنَّه واحدٌ حكيمٌ عادلٌ، وعدَلَ عن قوله: (يَعْلمونَ) إلى قولِه: ﴿يُوقِنُونَ﴾؛ ليكون عِلمُهم برَبِّهم عِلْمَ قَطعٍ ويقينٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٥).

(٢) الإيغال: هو استكمالُ الكلام قبل الإتيانِ بمقطعِه، فإذا أُريدَ الإتيانُ بذلك أُتي بما يُفيد معنى زائدًا على معنى ذلك الكلام، وهو ضربان:

١- إيغال تخيير: كما في هذه الآية.

٢- إيغال احتياط: وهو استكمال معنى الكلام قبل قَطْعِه، فإذا أُريد الإتيانُ بذلك أُتي بما يُفيد معنى زائدًا تتمَّةً للمبالغة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [النمل: ٨٠]، ثم علم عزَّ وجلَّ أنَّ الكلام يحتاج إلى فاصلةٍ تماثل مقاطعَ ما قبلها وما بعدها، فأتى بها مفيدةً معنى زائدًا على معنى الكلام، حيث قال: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾، فإنْ قيل: ما معنى مُدبرين؟ وقد أغنى عنها ذِكرُ التولِّي؟ قيل: ذلك لا يُغني عنها؛ إذ التولِّي قد يكون بجانبٍ دون جانب، كما يكون الإعراض. ينظر: ((تحرير التحبير))، لابن أبي الإصبع (ص: ٢٢٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٠٠- ٥٠١).

(٣) ينظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٠٠- ٥٠١).

الآيات (٥١ - ٥٢)

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أَوۡلِيَآءُ﴾: أي: أصدقاءَ ونُصراءَ، والوِلايةُ النُّصرةُ، وأَصْلُ (ولي) يدلُّ على القُرْب، سواء مِن حيث: المكان، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[١].

﴿مَرَضٞ﴾: أي: شكٌّ ونِفاقٌ، وأصلُ المرض: الفُتورُ، والخروجُ عن الاعتدالِ الخاصِّ بالإنسانِ[٢].

﴿أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾: أي: أنْ يَدورَ علينا الدَّهرُ بمكروهٍ فلا يُبايعونا، فنحتاج إليهم وإلى مُعاونتهم، وأَصْلُ (دور) يدلُّ على إحداقِ الشيءِ بالشيءِ مِن حَواليهِ[٣].

﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: أي: اجتَهَدوا في الحَلِفِ والأَيمانِ، أو هو كنايةٌ عن أغلظِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣).

الأيمانِ، وأَصْلُ (جهد): المشقَّة. و﴿أَيْمَٰنِهِمْ﴾: جمْع يمين: وهو القَسَمُ والحَلِف[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾.

﴿جَهْدَ﴾: منصوبٌ، وفي نَصبِه ثلاثة أوجهٍ؛ الأوَّل: أنَّه مَصدرٌ مؤكِّدٌ، وناصبُه (أَقْسَمُوا) فهو مِن معناه لا مِن لَفظِه، والمعنى: أَقْسَموا إقْسامَ اجتهادٍ في اليَمين. الثاني: أنَّه منصوبٌ على الحالِ من ضَميرِ (أَقْسَمُوا) على تأويلِ المَصْدَرِ باسْمِ الفاعِلِ، أي: جاهِدِينَ، والتَّقديرُ: وأقْسَموا باللهِ جاهِدينَ أنفُسَهم في أَيمانِهم؛ أي: بالغِينَ بها أقْصى الطَّاقَةِ، وإضافةُ ﴿جَهْدَ﴾ إلى ﴿أَيْمَٰنِهِمْ﴾ على هذا الوَجهِ إضافةٌ على مَعْنى (من)، أي: جَهدًا ناشِئًا عن أيمانِهم. الثالث: أنَّه منصوبٌ على المفعولِ المُطلَق الواقِعِ بدلًا مِن فِعْلِه، والفعلُ المُقَدَّر في مَوضِعِ الحالِ من ضَمير (أقْسموا)، والتقدير: أقسموا يَجْهَدون أيمانَهم جَهْدًا، وإضافة ﴿جَهْدَ﴾ إلى ﴿أَيْمَٰنِهِمْ﴾ على هذا الوجه من إضافةِ المصدرِ إلى مفعولِه[٢].

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يَنهى اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ عن مُناصرةِ اليهودِ والنَّصارَى ومعاوَنَتِهم على غيرِهم، وأخبَرَ أنَّ اليهودَ يوالي بعضُهم بعضًا، والنَّصارى يوالي بعضُهم بعضًا، ومَن يُناصِر اليهودَ والنصارى من المسلمين فإنَّه منهم؛ إنَّ الله لا يَهدي القومَ الظَّالمين بتولِّيهم لأهلِ الكتابِ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦) (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٤٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٠٥) (٨/ ٤٣٢) ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٧).

ثم قال اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: فترى- يا محمَّدُ- المنافقينَ الذين في قلوبِهم شكٌّ ورِيبةٌ يُبادِرونَ إلى مُناصرةِ اليهودِ والنَّصارى ومُعاونتِهم؛ قائلين- ليُبرِّروا قُبحَ صَنيعهم-: إنَّما يُسارِعونَ في موالاتِهم خشيةَ أن تُصيبَهم دائرةٌ، كأنْ يكونَ لهؤلاء الكفَّارِ النصرُ على المسلمين، فيكون لهم أيادٍ عندَهم تنفعُهم حينَها، فردَّ اللهُ عليهم ذلك العُذرَ الواهيَ، فقال: لعلَّ اللهَ يأتي بالنَّصرِ على اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم، أو يأتي بأمرٍ يكونُ فيه هلاكُ المنافقينَ، أو فَضحُهم، فيُصبِحَ هؤلاء المنافقون الموالونَ لليهودِ والنَّصارى على ما أسرُّوا في نفوسِهم نادمينَ.

ويقول المؤمنون- مُتعجِّبين مِن حالِ المنافقين بعدَ أنْ ظهرَ ما أسرُّوه في أنفُسِهم-: أهؤلاءِ الذين حلَفوا باللهِ كَذِبًا مؤكِّدينَ حَلِفَهم أنَّهم معنا في الإيمانِ والنُّصرةِ والمحبَّة؟! بطَلَتْ أعمالُهم؛ فأصبحوا خاسِرينَ.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبرَ اللهُ عن اضطرابِ اليهود في دِينهم، ومحاولتِهم تضليلَ المسلمينَ، وتقليبَ الأمورِ للرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبَيَّن عِنادَهم وعداوتَهم لأهلِ هذا الدِّين في الآياتِ السابقةِ- تهيَّأت نُفوسُ المؤمنينَ لقَبولِ النَّهي عن موالاةِ أهلِ الكتابِ؛ لأنَّ الوَلايةَ تَنبني على الوِفاقِ والوِئام والصِّلةِ، وليس أولئك بأهلٍ لوَلاية المسلمينَ؛ لبُعدِ ما بينَ الأخلاقِ الدِّينيَّة، ولإضمارِهم الكيدَ للمسلمين،

فأَقبلَ عليهم بالخِطابِ، فنهى مَن اتَّسم بالإيمانِ عن موالاتِهم[١]، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ إيَّاكم أنْ تُناصِروا اليهودَ والنَّصارى، أو تُعاوِنُوهم على غيرِهم[٢].

﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾.

أي: إنَّ بعضَ اليهودِ أولياءُ بعضٍ، وبعضَ النصارى أولياءُ بعضٍ؛ فأهلُ كلِّ ملَّةٍ يتناصرون ويتعاضَدونَ فيما بينهم، ويكونون يدًا واحدةً على مَنْ سِواهم[٣].

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾.

أي: ومَن يتولَّ اليهودَ والنَّصارى، ويَنصُرْهم على المسلمين، ويُظاهِرْهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩- ١٠).
قال ابنُ عُثَيمين: (الوَلاية التي نهى الله سبحانه وتعالى أن نتولَّى بها اليهود والنصارى هي المناصرةُ؛ سواء ناصرناهم على مسلمين أو على كافِرين، فلا يحلُّ لنا أن نناصرَهم على كافرين، ما لم يكُن في مناصرتنا إيَّاهم على هؤلاء الكافرين مصلحةٌ للإسلام، فإنْ كان فيه مصلحة مثل أن تقومَ حرب بين كَافِرينَ وكافِرينَ، ويكون الطرفُ الثاني أكثرَ إساءةً للمسلمين من الطرف الآخَر، فهنا لا بأسَ أن نناصرهم، لا لمصلحتِهم، ولكن لمصلحة المسلمين؛ لأنَّ هذا من باب دفْع أشرِّ الأمرين بأخفِّهما) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩) بتصرف يسير.

(٣) وهذا اختيارُ ابنِ جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٥٠٧-٥٠٨)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ٢٢٩).
ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٢).
واختار ابنُ عُثَيمين أنَّ الآية تَعني التعاونَ بين أهل الملَّة الواحدة، وتعني أيضًا التناصُرَ والتعاون بين اليهود والنصارى على أعدائهم. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠).
قال ابنُ عثيمين: (اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض، وهل المراد الملَّة الواحدة، أم كِلتا الملَّتين؟ المرادُ العمومُ؛ الملَّة الواحدة وكِلتا المِلَّتين؛ يدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣]) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣).

عليهم؛ رغبةً فيهم، ورِضًا بدِينهم، فهو مِن أهلِ دِينِهم وملَّتهم، وحُكمُه حُكمُهم[(١)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: إنَّ مَن يتولَّاهم منكم فهو مِن جُملةِ الظالمين الذين وَضَعَوا الولايَةَ في

(١) ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٩٤) (١٨/ ٣٠٠- ٣٠١) (٢٨/ ٦٤٤- ٦٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٢- ٤١٣).

قال ابنُ جرير: (يَعني تعالى ذِكرُه بقولِه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [المائدة: ٥١]: ومَن يتولَّ اليهودَ والنصارى دون المؤمنين فإنَّه منهم؛ يقول: فإنَّ مَن تولَّاهم ونصَرَهم على المؤمنين، فهو من أهلِ دِينهم ومِلَّتهم؛ فإنَّه لا يتولى متولٍّ أحدًا إلا وهو به وبدِينه وما هو عليه راضٍ، وإذا رَضِيَه ورضِيَ دِينَه فقد عادَى ما خالفَه وسَخِطه، وصار حُكمُه حُكمَه) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠٨).

وقال ابنُ حزم: (وصحَّ أنَّ قولَ الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [المائدة: ٥١] إنَّما هو على ظاهرِه بأنه كافرٌ من جملة الكفَّار فقط- وهذا حقٌّ لا يَختلِفُ فيه اثنانِ من المسلمين) ((المحلى)) (١/ ٣٨٦).

وقال ابنُ القيِّم: (... أنَّه سبحانه قد حَكَم- ولا أحسنَ مِن حُكمِه- أنَّه مَن تولَّى اليهودَ والنصارى فهو منهم: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [المائدة: ٥١]، فإذا كان أولياؤُهم منهم بنصِّ القرآنِ، كان لهم حُكمُهم) ((أحكام أهل الذمة)) (١/ ١٩٥).

وقال الشِّنقيطيُّ: (قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ ذكَر في هذه الآية الكريمة، أنَّ مَن تولى اليهود والنصارى من المسلمين، فإنَّه يكون منهم بتولِّيه إيَّاهم... وبيَّن في موضِعٍ آخَرَ: أنَّ محلَّ ذلك فيما إذا لم تكُن الموالاةُ بسببِ خوفٍ وتقيَّة، وإنْ كانت بسبب ذلك فصاحبُها معذورٌ، وهو قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فهذه الآيةُ الكريمةُ فيها بيانٌ لكلِّ الآياتِ القاضية بمنْعِ موالاةِ الكفَّار مطلقًا، وإيضاح لأنَّ محلَّ ذلك في حالة الاختيارِ، وأمَّا عند الخوفِ والتقيَّة، فيُرخَّص في موالاتهم، بقدْر المداراةِ التي يَكتفي بها شرَّهم، ويُشترَط في ذلك سلامةُ الباطن من تلك الموالاة... ويُفهم من ظواهرِ هذه الآيات أنَّ مَن تولَّى الكفَّارَ عمدًا اختيارًا؛ رغبةً فيهم: أنَّه كافرٌ مثلُهم) ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٢- ٤١٣).

وقال ابنُ باز: (وقد أجمعَ عُلماءُ الإسلامِ على أنَّ مَن ظاهَرَ الكفَّارَ على المسلمين، وساعدَهم عليهم بأيِّ نوعٍ مِن المساعدةِ، فهو كافرٌ مثلُهم، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾) ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١/ ٢٦٩).

غيرِ مَوْضِعِها، ونَقَصوا أنفسَهم حقَّها بما ارتَكبوا مِن كفرٍ أو عِصيانٍ؛ فلا يُوفِّقُهم الله تعالى لاتِّباعِ الحقِّ[١].

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾.

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾.

أي: فترَى- يا محمَّدُ- الَّذين في قُلوبِهم شَكٌّ ونِفاقٌ يُسارعونَ في موالاةِ اليهودِ والنَّصارى، ومودَّتِهم ومصانَعتِهم[٢].

﴿يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾.

أي: يقولُ هؤلاء المنافقون: إنَّما نسارعُ في موالاةِ هؤلاء اليهودِ والنصارَى؛ خوفًا من أنْ تقعَ علينا نائبةٌ من نوائبِ الدَّهرِ فنَهلِكَ- كما لو لَحِقتْنا هزيمةٌ بظَفَرِ الكفَّارِ بالمسلمين- فتكونُ لنا أيادٍ عندَهم فتَنفَعُنا؛ لذا نتَّخذُهم أصدقاءَ نُحافظُ على صداقتهم؛ فننالُ منهم ما يُؤمِّلُ الصديقُ من صَديقِه[٣].

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾.

أي: فلعلَّ اللهَ أن يأتيَ بالنَّصرِ الذي يُعزُّ به الإسلامَ وأهلَه على الكفَّارِ؛ من اليهود والنصارى وغيرِهم، أو يأتيَ بأمرٍ يكونُ فيه هلاكُ المنافقينَ بقَتْلهم، أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١- ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٢-٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠).

فَضْحِهم وبيانِ مَخازيهم[١].

﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾.

أي: فيُصبِحَ هؤلاءِ المنافِقون الذين والَوُا اليَهودَ والنَّصارَى على ما أضْمَروا في نُفوسِهم من موالاتهم نادِمين، فحين يأتي نصرُ اللهِ للمسلمين، ويُذِلُّ ويَقهرُ الكافِرينَ، لا تُجْدِي عنهم تلك الموالاةُ شيئًا، ولا تَدفعُ عنهم محذورًا، فيحصُلُ لهم من الغمِّ ما اللهُ تعالى به عليمٌ[٢].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾.

أي: ويقولُ المؤمنونُ متعجِّبين مِن حالِ أولئك القومِ بعدَ أن ظهَرَ ما أَضْمَروه، وتبيَّن ما أسرُّوه: أهؤلاءِ الذين حلَفوا لنا باللهِ، وأكَّدوا حَلِفَهم، وغلَّظوه بأنواعِ التأكيدات: أنَّهم معنا في الإيمانِ، وما يلزمُه من نُصرةٍ ومحبَّةٍ[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٣- ٥١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٣-٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣).

قال ابنُ عَطيَّة: (ويظهر أنَّ هذا التقسيم إنما هو لأنَّ الفتحَ الموعودَ به هو ما [يترتَّب] على سعيِ النبيِّ وأصحابه، ويُسبِّبه جدُّهم وعملهم، فوعد الله تعالى إمَّا بفتْح بمقتضى تلك الأفعال، وإمَّا بأمرٍ من عنده يُهلِك أعداءَ الشرع، هو أيضًا فتحٌ لا يقع للبشر فيه تسبيبٌ) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٤- ٥١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٦-٥١٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥- ٢٧).

قال ابنُ عَطيَّة: (ذهَب كثيرٌ من المفسِّرين إلى أنَّ هذا القول من المؤمنين إنَّما هو إذا جاء

﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

أي: بطَلَتْ أعمالُهم التي عَمِلوها في الدُّنيا، فلا ثوابَ لها ولا أجرَ، فخابتْ صفقَتُهم، وفاتَهم مقصودُهم، وحضرَهم الشقاءُ والعذابُ فهلَكوا(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- تصدير الخِطاب بالنِّداء، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ فيه بيانُ أهميَّة تجنُّبِ اتِّخاذِ الأولياءِ من اليهودِ والنَّصارى، وأنَّ تجنبَ ذلك مِن مقتَضَياتِ الإيمان، وأن اتِّخاذَهم أولياءَ يُوجِبُ نقصَ الإيمان، وربَّما يُوجِبُ محوَ الإيمانِ وزوالَه كلِّه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾(٢).

٢- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ بيانُ أنَّ النصارى واليهود وسائرَ الكفَّار بعضُهم أولياءُ بعضٍ في مضادَّة المسلمين -على أحد الأقوال في التفسير- ومِن ثَمَّ فيجبُ على المسلمين الحذرُ من أعدائِهم، وأن يَدَعُوا الخلافاتِ التي بينهم؛ حتى يكونوا يدًا واحدةً على أعدائِهم(٣).

٣- يُستفادُ من قولِه: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أنَّه يجوزُ للمرءِ أن يُجري الكلامَ على سبيلِ التعجُّبِ فيمَن يستحقُّ العَجَب منه، ولا يُعدُّ ذلك مِن بابِ الغِيبة؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذكَر هذا عن المؤمنينَ، ولم يُنكِرْه عليهم(٤).

الفتحُ حصلتْ ندامةُ المنافقين، وفضَحَهم الله تعالى، فحينئذٍ يقول المؤمنون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ ...﴾ الآية) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧- ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٢، ١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ ...﴾ الآية، فيه انقطاعُ الموالاةِ بينَ المسلمينَ والكفَّار، فلا توارُثَ بينهم ولا عَقل، ولا ولاية نكاحٍ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعليلٌ للوعيدِ في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، وبيانٌ لسببه؛ وهو أنَّ مَن يُوالي أعداءَ المؤمنين الذين نَصَبوا لهم الحربَ، وينصرُهم أو يستنصرُ بهم فهو ظالمٌ بوضْعه الوَلايةَ في غيرِ موضعها، ولن يَهتديَ مثلُه إلى الحقِّ والنَّجاة أبدًا[٢]، إذا أصرَّ على ذلك.

٣- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أنَّ كلَّ مَن يُسارِعُ في موادَّةِ الكافرينَ وفي مناصرتِهم ففي قلبِه مَرَضٌ، ويَنبني على ذلك أنَّ هذا المَرَض ربَّما يتضاعَفُ حتى يصلَ إلى الكُفْر- والعياذُ باللهِ[٣].

٤- يُستفاد من قولِه: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أنَّ الذين في قُلوبهم مرضٌ- وهم المنافِقون- يُسارِعونَ في مُوادَّةِ الكافِرين[٤].

٥- أنَّ مَن أشار على وُلاةِ الأمورِ بالمسارعةِ في موادَّة الكفَّارِ وفي مناصرتِهم، فإنَّ فيه شبهًا من هؤلاء المنافقينَ؛ لقوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ...﴾[٥].

٦- ضعْفُ توكُّلِ المنافقينَ على اللهِ وأنَّهم إنَّما يتوكَّلون على الأمورِ المادِّيَّة التي يظنُّون فيها النصرَ؛ لقوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥).

نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾[١].

٧- بشارةُ المؤمنينَ بأنَّ الفتحَ والنَّصر سيكونُ لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾؛ فـ(عَسَى) مِن الله واجبةٌ؛ لأنَّ الكريم إذا أطْمَعَ في خيرٍ فَعَلَه، فهو بمنزلةِ الوعدِ؛ لتعلُّقِ النَّفسِ به ورَجائِها له[٢].

٨- أنَّ المنافِقَ لا بدَّ أن يَفضحَه اللهُ؛ لقوله: ﴿أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾[٣].

٩- تحذيرُ المنافقين ممَّا سيقعُ بهم مِن النَّدمِ على ما أسرُّوا في أنفسِهم؛ لقوله: ﴿فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾[٤].

١٠- لَمَّا كان الإسرارُ لا يكون إلَّا لِمَا يُخشَى من إظهارِه فسادٌ، وكان يُطلَقُ على ما دار بين جماعةٍ خاصَّة على وجهِ الكِتمانِ عن غيرهم- بيَّن أنَّه أدقُّ من ذلك، وأنَّه على الحقيقةِ مَنَعَهم خوفُهم من غائلتِه وغِرَّته عندَهم أن يُبرزوه إلى الخارجِ، فقال: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾[٥].

١١- ممَّا يُستفادُ مِن الآياتِ: كذبُ المنافقين، وأنَّهم يُروِّجون باطلَهم ونفاقَهم بالأيمانِ؛ قال تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۙ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾[٦].

١٢- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۙ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ أنَّ المنافقين يُقسِمون باللهِ ويُظهِرون تعظيمَ الله، كما أنَّهم يَذكُرون

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤).

(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٨٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧).

اللهَ ويُصلُّون ويتصدَّقون، لكنْ كلُّ هذا لا يَنفعُهم؛ فعَمَلُهم حابطٌ لعدمِ الإيمانِ في قلوبِهم[١].

١٣- أنَّ المنافقَ مهما ظنَّ من الرِّبحِ فإنَّه خاسرٌ؛ لقوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾، ووجه ذلك: إنْ فضَحَه اللهُ في الدُّنيا تبيَّن وخَسِر، وصارَ مكروهًا عندَ الناس، وإنْ لم يَفضَحْه اللهُ في الدُّنيا ففي الآخِرة، وحينئذٍ لا يكونُ منتفعًا بدُنياه؛ لأنَّه خسِرَ الدُّنيا والآخِرة[٢].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ الجملةُ مستأنَفةٌ مَسوقةٌ لتعليلِ النَّهي، وتأكيدِ إيجابِ الاجتنابِ عن المنهيِّ عنه[٣].

٢- قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ الإجمالُ فيه مبالغةٌ في التَّحذيرِ مِن موالاتِهم في وقتِ نُزولِ الآيةِ، وفيه: تشبيهٌ بليغٌ، أي: فهو كواحدٍ منهم في استحقاقِ العذابِ- على أحدِ الوجوهِ في التفسيرِ[٤].

٣- قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تذييلٌ للنهي، وموقعُ الجملةِ يَقتضي أنَّ اليهودَ والنصارى مِن القومِ الظالِمينَ بطريقِ الكِناية[٥].

٤- قوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ إيثارُ التعبيرِ بـ﴿فِيهِمْ﴾ على (إلى)؛ للمبالغةِ في بيانِ رغبتِهم فيها وتهالُكِهم عليها، فكلَّما سنَحتْ لهم فرصةٌ لتوثيقِ وَلائِهم وتأكيدِه ابتَدَروها؛ وللدَّلالةِ على أنَّهم مستقرُّون في الموالاةِ، وإنَّما مسارعتُهم

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٨)
(٣) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٩١).
(٤) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٠).
(٥) ينظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٣١).

من بعضِ مراتبها إلى بعضٍ آخَر منها، فهم يُسارِعونَ في أعمالِ موالاتِهم مسارعةَ الداخلِ في الشَّيء، الثابتِ عليه، الرَّاغِبِ فيما يَزيدُه تمكُّنًا وثباتًا، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٦١]، لا أنَّهم خارجُون عنها متوجِّهون إليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾[1] [آل عمران: ١٣٣].

٥- قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ ...﴾ الاستفهامُ في ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ مُستعمَل في التعجُّب مِن نفاقهم، والعجب هو قَسمُهم أنَّهم معهم، وقد دلَّ هذا التعجُّبُ على أنَّ المؤمنين يظهر لهم مِن حالِ المنافقينَ يومَ إتيانِ الفتْحِ ما يَفتضحُ به أمرُهم، فيعجبونَ مِن حَلِفهم على الإخلاصِ للمؤمنين[2].

٦- قوله: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ فيه ما يُعرَف في البَلاغة بالإغرابِ والطرفة أو النوادر[3]، والآيةُ الكريمة مِن قسم لا يكون الإغرابُ في معناه ولا في ظاهرِ لفظِه، بل في تأويلِه، ففي هذه الآية قد يتوهَّم متوهِّمٌ أنَّ لفظة ﴿أَصْبَحُوا﴾

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٥٦).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٣).

(٣) الإغراب: هو أنْ يكون المعنى ممَّا لم يُسبق إليه على جهةِ الاستحسان، وهو على ثلاثة أقسام:
الأول: الإغرابُ في اللفظ، وهو كثيرٌ.
الثاني: الإغراب في المعنى، كقول المتنبي:

يُطعِّمُ الطَّيرَ فيهم طولُ أكْلِهِمُ ... حتَّى تكادَ على أحيائِهم تَقَعُ

فإنَّه عمَد إلى المعنى المعروفِ مِن كَون الطيرِ إنَّما تقعُ على القتْلى وتَتْبَع الجيوشَ؛ ثِقةً بالشِّبع، فتجاوزَه بزيادة المبالغة المستحسنة؛ لاقترانِها بـ(تكاد) إلى ما قال، فحصَل في بيته من الإغراب والطرفة ما لا يَحصُل لغيره.
الثالث: الإغراب في تأويلِ الكلامِ، وهو الذي إذا حُمِل على ظاهرِه كان الكلامُ مَعيبًا، وإذا تُؤوِّل ردَّه التأويلُ إلى نمطٍ مِن الكلام الفصيح، فأماط عن ظاهرِه العيب.
ينظر: ((نقد الشعر)) لقدامة بن جعفر (١/ ٥٤)، ((تحرير التحبير))، لابن أبي الإصبع (ص: ٥٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٠٤- ٥٠٥).

في الظَّاهر حشوٌ لا فائدةَ فيه؛ فإنَّ هؤلاءِ المُخبَرَ عنهم بالخُسران قد أمْسَوْا في مِثل ما أصبحوا، ومتى قلت: أصبح العسلُ حُلوًا، كانت لفظة (أصبح) زائدةً، من الحَشوِ الذي لا فائدةَ فيه؛ لأنَّه أمْسَى كذلك، والتأويل الذي تَحصُل به الفائدةُ الجليلة التي لولا مجيءُ (أصبح) لم تحصُلْ، هي: لَمَّا كان العليلُ الذي قد بات مُكابدًا آلامًا شديدةً تُعتبر حالُه عند الصَّباح، فإذا أصبح مُفيقًا مُستريحًا من تلك الآلام رُجِيَ له الخيرُ، وغلَب على الظَّنِّ بُرؤُه وإفاقتُه من ذلك المرض، وإذا أصبح كما أمْسَى تَعيَّن هلاكُه، بجَريانِ العادةِ بهيجانِ الإعلالِ في اللَّيل، وسُكونِه عند الصَّباح، وشُبِّهت حالُ الأشقياءِ بالعَليلِ الذي أَصبحَ من الألَم على ما أمْسى؛ فهو ممَّن يُيْئَس من إصلاحِه، وعلى هذا تكونُ لفظة ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ قد أفادتْ معنًى حَسنًا جميلًا، وخرجَتْ عن كونِها حشوًا غيرَ مفيد، ولَمَّا أخبر الله سبحانه بأنه ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ عُلِم بالقطع أنَّهم أصبحوا خاسرينَ، فلفظة ﴿أَصۡبَحُوا﴾ لا يَصلُح غيرُها في موضعها، ولا يتمُّ المعنى إلَّا بها[1]، وقيل: لَمَّا كانتِ المصيبةُ عند الإصباحِ أَعظمَ عبَّر به، وإنْ كان المرادُ التَّعميمَ[2].

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٠٤ - ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٨٩).

الآيات (٥٤ - ٥٦)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يَرْتَدَّ﴾: أي: يَرجِعْ مِن الإسلامِ إلى الكُفر، مِن الرِّدَّة والارتدادِ، والرِّدَّةُ تختصُّ بالكُفر، والارتداد يُستعمَلُ فيه وفي غَيرِه[١].

﴿أَذِلَّةٍ﴾: أي: لَيِّنِين لهم، مِن قولهم: دابَّةٌ ذَلولٌ، أي: مُنقادةٌ ليِّنةٌ سهلةٌ، وأصلُ الذُّلِّ: الخُضوعُ والاستكانةُ واللِّين، وهو ضِدُّ العِز[٢].

﴿أَعِزَّةٍ﴾: يُغالِبونَ الكفَّارَ ويمانعونهم، يُقال: عزَّه يعُزُّه عزًّا إذا غَلَبه؛ من العَزازِ: وهي الأرض الصُّلبة، وأصل العِزَّة: الشِّدَّة والقوَّة وأمثالهما مِن الغَلبة والقَهر[٣].

﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾: عطاؤُه، وأصلُ الفضل الزِّيادة؛ وكلُّ عطيةٍ لا تَلزمُ مَن يُعطِي، يُقال لها: فضلٌ، والإفضالُ: الإحسانُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (١/ ٣٤٩).

(٢) يُنظَر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٨- ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٢).

﴿حِزْبَ ٱللَّهِ﴾: أي: أنصارَ اللهِ، أو جُنْدَه وجموعَه، والحزبُ: جماعةٌ فيها غِلَظ، وقيل: الحزب: الوليُّ، واشتقاقُه من قولهم: تحزَّب القومُ، أي: اجتَمَعوا، وأَصْلُ (حزب): يدلُّ على تجمُّعِ شيءٍ[1].

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يُبيِّن اللهُ سُبحانَه للمُؤمنين أنَّ مَن يَرجِعْ منهم عن دِينِه الحقِّ إلى الكُفر، فسوف يأتي اللهُ- عِوَضًا عمَّنِ ارتدَّ- بقومٍ خيرٍ منهم، مِن صفاتهم أنَّهم يحبُّهم اللهُ سبحانه وتعالى ويُحبُّونه، وأنهم رحماءُ بإخوانهم المؤمنين، مُتواضِعون لهم، أشدَّاءُ على الكافِرين، يُقاتلونَ في سبيلِ اللهِ ولإعلاء كلمته، وإعزازِ دينه، وأنَّهم في حِرصِهم على ما يُرضي اللهَ سبحانه لا يَخافون لومًا من أيِّ لائمٍ، ثم بيَّن تعالى أنَّ ما هم فيه مِن الصِّفاتِ الحميدة، والمناقِب الجَليلةِ المذكورةِ هي مِن فضْلِه جلَّ وعلا، وفضلُ اللهِ يُؤتيه مَن يشاء، وهو سبحانه واسعٌ عليمٌ.

ثم بَيَّن سبحانَه مَن تجِبُ موالاتُهم، بعدَ النَّهى عن تولِّى مَن تجبُ معاداتُهم، فقال: إنَّما وليُّكم الله- فلا ناصرَ لكم إلَّا هو سبحانه وتعالى، فهو المرجوُّ وحدَه في الشَّدائدِ- ورسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- الذي أخرجكم الله به مِن الكفرِ إلى الإيمانِ- والمؤمنونَ الذين يُقيمونَ الصَّلاةَ على وجهِها، ويُعطون الزكاةَ لمستحقِّيها، وهم خاضعونَ ذليلون للهِ، ثم بيَّن سبحانه حُسنَ عاقبةِ الذين يوالون اللهَ ورسولَه والمؤمنين بأنَّ مَن يتَّخذِ اللهَ ورسولَه والمؤمنينَ أولياءَ فإنَّه من أنصارِ الله، وأنصارُه عزَّ وجلَّ هم الغالِبون.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢).

عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نهَى تعالى عن موالاةِ اليهودِ والنَّصارى، وبيَّن أنَّ موالاتَهم مستدعيةٌ للارتدادِ عن الدِّين بقولِه: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾- شرَع في بيانِ حالِ المرتدِّين على الإطلاقِ[١].

وأيضًا لـمَّا نهَى اللهُ تعالَى عن مُوالاةِ اليهودِ والنَّصارى، وأخبَر أنَّ فاعلَها منهم- عقَّب ذلك بالإشارةِ إلى أنَّ اتخاذَ اليهودِ والنَّصارى أولياءَ ذريعةٌ للارتدادِ، وأنبأَ المتردِّدين ضعفاءَ الإيمانِ بأنَّ الإسلامَ غنيٌّ عنهم، إن عزموا على الارتدادِ إلى الكُفْرِ[٢]، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، مَن يرجِعْ منكم عن دِينِ الحقِّ إلى الباطلِ، فيُبدلْه بدخولِه في الكفرِ كأنْ يتهوَّدَ أو يتنصَّر[٣].

﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

أي: فلن يَضرَّ اللهَ شيئًا، وإنَّما يضرُّ نفْسَه؛ فإنَّ الله تعالى سيأتي بدلًا من الَّذين ارتدُّوا بقومٍ خيرٍ منهم، أكملَ منهم أوصافًا، وأحسنَ أخلاقًا، وأقوى نفوسًا؛ أجلُّ صِفاتهم أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُحِبُّهم، وأنَّهم يُحبُّونَه سبحانه وتعالى[٤]،

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٧- ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن

(كأبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه، وأصحابِه الذين قاتلوا المرتدِّين)[١].

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم رُحَماءُ بإخوانِهم المؤمنين، ذَوُو رأفةٍ ورفقٍ بهم، وشفقةٍ وحُنوٍّ عليهم، وتواضعٍ لهم[٢].

كما قال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: ومِن صِفاتهم أيضًا أنَّهم أشدَّاءُ على الكافرينَ، ذَوُو قَسوةٍ وغِلظةٍ عليهم، يُظْهِرون للكفَّارِ القُوَّةَ والعِزَّةَ بما هم عليه من الدِّين[٣].

﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

أي: ومِن صِفاتهم أيضًا أنَّهم يُقاتلونَ أعداءَ اللهِ تعالى بأموالِهم وأنفسِهم وأقوالِهم وأفعالِهم؛ لتكونَ كلمتُه سبحانه هي العُليا، لا يردُّهم عن هذا المقصدِ رادٌّ، ولا يَصدُّهم عن هذا المطلبِ صادٌّ، بل يُقدِّمون رِضا ربِّهم، والخوفَ مِن

عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠- ٣١).

(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١).
قال السعديُّ: (ولا تَمنَعُ الغلظةُ عليهم والشِّدةُ دعوتَهم إلى الدِّينِ الإسلاميِّ بالتي هي أحسنُ، فتَجتمِعُ الغلظةُ عليهم واللِّينُ في دعوتهم، وكِلا الأمرين مِن مصلحتِهم، ونفْعُه عائدٌ إليهم) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦).

لومِه على لومِ المخلوقين[١].

عن عُبادةَ بنِ الصَّامت رَضِيَ الله عنه، قال: (بايَعْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم على السَّمْعِ والطاعةِ في المَنْشَطِ والمَكْرَهِ، وألَّا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه، وأن نقومَ- أو نقولَ- بالحقِّ حيثُما كُنَّا، لا نَخافُ في اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ[٢])[٣].

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا مدَحَهم اللهُ تعالى بما مَنَّ به عليهم مِنَ الصِّفاتِ الجليلةِ، والمناقِبِ العالِيَة، المستلزِمة لِمَا لم يُذكَرْ مِن أفعالِ الخيرِ- أخبرَ أنَّ هذا مِن فضلِه عليهم وإحسانِه؛ لئلَّا يُعجَبوا بأنفسِهم، ولِيَشكروا الذي مَنَّ عليهم بذلك؛ ليزيدَهم من فضلِه، وليعلمَ غيرُهم أنَّ فضلَ الله تعالى ليس عليه حجابٌ[٤]، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: هذه الصِّفاتُ التي نَعتَهم بها اللهُ تبارك وتعالى؛ فضلٌ منه وإحسانٌ تَفضَّلَ به عليهم، وتوفيقٌ منه لهم، واللهُ يُؤتي فضلَه مَن يشاءُ مِن خلقِه، بما تَقتضيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١- ٣٢).

(٢) قال ابنُ القيِّم: (ونحن نَشهَدُ [بالله] أنَّهم وَفَّوْا بهذه البيعة، وقالوا بالحقِّ، وصدَعوا به، ولم تأخُذْهم في الله لومةُ لائم، ولم يَكتُموا شيئًا منه مخافةَ سوطٍ ولا عصًا، ولا أميرٍ ولا والٍ، كما هو معلومٌ لِمَن تأمَّله من هَدْيِهم وسِيرَتِهم؛ فقد أنكر أبو سعيدٍ على مَرْوانَ، وهو أميرٌ على المدينة، وأنكر عُبادةُ بن الصامت على معاويةَ، وهو خليفةٌ، وأنكر ابنُ عمر على الحَجَّاج مع سطوتِه وبأسِه، وأنكر على عمرِو بن سعيد، وهو أميرٌ على المدينة، وهذا كثيرٌ جدًّا من إنكارِهم على الأُمَراء والولاة إذا خرَجوا عن العَدْلِ؛ لم يخافوا سوطَهم ولا عُقوبتَهم) ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) (٤/ ١١٠).

(٣) رواه البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (١٨٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦).

حِكمتُه سبحانه[١].

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ تعالى واسعٌ في جميعِ صِفاتِه، ومِن ذلك سَعةُ عَطائِه وفَضلِه وإحسانِه، عليمٌ بمَن يستحقُّ ذلك فيُعطِيه[٢].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى عن ولايةِ الكفَّارِ من اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم، وذكَر مآلَ تولِّيهم أنَّه الخسرانُ المُبين- أخبر تعالى بمَن يجبُ ويتعيَّن تولِّيه، وذَكَر فائدةَ ذلك ومصلحَتَه[٣]، فقال:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: ليس لكم- أيُّها المؤمنون- ناصرٌ إلَّا اللهُ تعالى ورسولُه عليه الصَّلاة والسَّلام والمؤمنون، فأمَّا اليهودُ والنَّصارى، فليسوا لكم بأولياءَ ولا نُصَراءَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٢٨-٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥١).

قال ابنُ عثيمينَ: (فإنْ قال قائلٌ: ولايةُ الله عزَّ وجلَّ صالحةٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، لكن كيفَ ولايةُ الرَّسول؟

الجواب: أمَّا ما كان في حياتِه؛ فالولايةُ واضحةٌ ظاهرةٌ، وأمَّا بعدَ وفاتِه فإنَّ تمسُّكَنا بسنَّته مِن تولِّيه لنا؛ لأنَّنا نُنْصَر بها، ونُعان بها، فكأنَّه عليه الصلاةُ والسَّلام معنا يناصرُنا ويُعينُنا) ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١١]. وقال سبحانه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٧١].

ثمَّ ذكَر اللهُ تعالى صِفاتِ المؤمنينَ الذين تَنبغي ولايتُهم، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: وهم الذين اتَّصفوا- بالإضافةِ إلى إيمانِهم- بأداءِ الصَّلاةِ بشُروطِها وواجباتِها وأركانِها ومستحبَّاتها، وببَذْلِ الزكاةِ من أموالِهم، لأهلِها المستحقِّين لها[(١)].

﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾.

أي: ومِن صِفاتهم أيضًا: أنَّهم للهِ تعالى خاضِعون ذَليلون، وله مُنقادُون[(٢)].

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: أيُّ امرئٍ يتَّخذِ اللهَ تعالى ورسولَه وعِبادَه المؤمنينَ أولياءَ له[(٣)].

ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥١- ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦).

قال ابنُ عثيمين: (فإنْ قال قائل: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ﴾؛ هل اللهُ في حاجة لأنْ يتولَّاه أحد؟

﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

أي: فإنَّه مِن أنصارِ اللهِ تعالى، وأنصارُه هم المُفْلِحون المنصورون، الذين لهم العاقبةُ في الدُّنيا والآخِرة[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الثَّناءُ على مَن كان ذليلًا على المؤمنين، وهو الذي يَخفِضُ جناحَه لهم ويتطامَن ويتواضَع؛ فإنَّ هذه من الصفاتِ التي يحبُّها الله عزَّ وجلَّ، أما ترفُّعُ الإنسانِ على إخوانِه المسلمينَ فليس محمودًا عندَ اللهِ، بل ولا عندَ الخَلْق؛ وكلَّما ازدادَ الإيمان ازدادَ التواضع، وكلَّما ازدادَ العِلمُ ازدادَ التواضعُ[2].

٢- قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا

الجواب: الله عزَّ وجلَّ ليس بحاجة لأنْ يتولَّاه أحد، لكنَّ الدِّين بحاجة إلى أن يتولَّاه أهلُه، ومَن تولى دِينَ الله فقد تولَّى اللهَ كما قال الله عزَّ وجلَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ومن المعلوم أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يحتاجُ إلى نصرٍ، لكن ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: تنصروا دِينَه ﴿يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقوله: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام يحتاج إلى مَن يتولَّاه في حياته، ويتولَّى سُنَّته ويدافع عنها بعد وفاتِه، فيكون تولِّي الرسولِ بمعنى تولِّي سُنَّته ونَصْرها، كما قلنا: إنَّ تولِّي الله يعني تولِّي دِينه، ونُصرةَ دِينه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تولِّي المؤمنين إلى يوم القيامة؛ لأنَّه لا تزال طائفةٌ من هذه الأُمَّة على الحقِّ حتى تقومَ الساعةُ، وحتى يُقبضوا قبلَ قيام الساعة؛ لأنَّ الساعة لا تقومُ إلَّا على شِرار الخَلْق) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣).

يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ...﴾ يُفهم من هذه الآياتِ أنَّ المؤمنَ يجبُ عليه ألَّا يَلينَ إلَّا في الوقتِ المناسِب للِّين، وألَّا يشتدَّ إلَّا في الوقتِ المناسب للشدَّة؛ لأنَّ اللِّينَ في مَحلِّ الشدَّةِ ضَعْفٌ وخَوَرٌ، والشدَّةَ في محلِّ اللِّين حُمقٌ وخَرَق، وقد قال أبو الطيب المتنبي:

إذا قِيلَ حِلْـمٌ قُلْ فلِلْحِلْـمِ مَوضِعُ وحِلْمُ الفَتَى في غَيرِ مَوْضِعِه جَهْلُ[1]

وفيها إيماءٌ إلى أنَّ صِفاتِهم تُسيِّرُها آراؤُهم الحصيفةُ؛ فلَيْسُوا مُندفِعين إلى فِعلٍ ما إلَّا عن بصيرةٍ، ولَيْسُوا ممَّن تنبعِثُ أخلاقُه عن سَجيَّةٍ واحدةٍ بأنْ يكون ليِّنًا في كلِّ حالٍ، وهذا هو معنى الخُلُق الأقوم، وهو الذي يكونُ في كلِّ حالٍ بما يُلائِم ذلك الحالَ[2].

٣- قَوْلُه: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه الثناءُ على عِزَّة النَّفسِ وقوَّة الشخصيةِ أمامَ الكفَّار، وأنْ نكونَ أعِزَّةً عليهم، نرى في أنفسنا العلوَّ عليهم، والظهورَ عليهم لا بذَواتِنا، ولكن بما معنا من الدِّين[3].

٤- الإشارةُ إلى الإخلاصِ؛ لقوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الجهاد -وهو القِتالُ- يحملُ عليه عِدَّةُ أسباب، والجهادُ المحمودُ هو الجهادُ في سبيلِ اللهِ[4].

٥- أفاد قوله تعالى: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ بعد قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أنَّه لا بدَّ أنْ يقترنَ بهذه الأعمالِ الصالحةِ الذلُّ والخضوعُ للهِ عزَّ وجلَّ، بحيث يَشعرُ الإنسانُ أنَّه مُتعبِّدٌ للهِ خاضعٌ له، وهذا يَفوتُ كثيرًا من النَّاسِ؛ فيؤدِّي الواحدُ منهم العبادةَ على أنَّها مفروضةٌ عليه فقط، ولا يَشعُرُ بأنَّه متعبِّدٌ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٨)
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥).

لله بذلك[١].

٦- قوله: ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، لم يقُلْ عزَّ وجلَّ: (ومَن يتولَّ اللهَ ورسولَه والذِين آمنوا فإنَّه الغالب)، بل قال: ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾؛ ليكون دالًّا على شَيئين: الشيء الأوَّل: أنَّ مَن تولَّى اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فهو مِن حزبِ اللهِ. الشيء الثاني: إرادةُ العمومِ أنَّ حزبَ اللهِ لا بدَّ أن يكون غالبًا؛ لأنَّ دِينَ الله لا بدَّ أن يكون غالبًا، فالمتمسِّك بدِين الله؛ هو مِن حِزبِ الله، وهو غالبٌ ولا بدَّ، لكنَّ الغَلَبَة قد تكونُ في حالِ الحياةِ، وقدْ تكون بعدَ الموتِ؛ ولهذا نجِدُ الأئمَّةَ الذين لم يُقدَّرْ لهم أن يَظهروا ظهورًا كاملًا في حياتِهم؛ ظَهَروا ظهورًا كاملًا بعدَ وفاتِهم؛ كالإمام أحمد، وابن تيميَّة، وغيرِهما من العلماءِ والأئمَّة، الذين لَحِقَهم من الإهانةِ مِن وُلاةِ السُّوءِ ما لَحِقَهم، وكانتِ الغَلَبَةُ لهم؛ إمَّا في الحياةِ، وإمَّا بعدَ الممات[٢].

٧- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ أنَّ للهِ تعالى حِزبًا، وحزبُه الذي يُقابِلُ حَربَه؛ لأنَّ اللهَ له حِزبٌ وله حَرْبٌ، فمَن أقام على شريعتِه فهو حِزبُه، ومَن خالَفَ شريعتَه فهو حَربُه، فإعلانُ المخالفةِ حربٌ لله، لا سيَّما فيما نصَّ على أنه حربٌ لله عزَّ وجلَّ، كالرِّبا وقَطْع الطريقِ، وما أشبهها[٣].

٨- في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ بشارةٌ عظيمة لِمَن قام بأمْرِ الله وصارَ مِن حِزبِه وجُندِه، أنَّ له الغَلَبَةَ، وإنْ أُديلَ عليه في بعض الأحيان لحِكمةٍ يُريدها الله تعالى، فآخِرُ أمرِه الغَلَبَةُ والانتصارُ، ومَن أصدقُ من الله قيلًا[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- التَّحذيرُ مِن الرِّدَّة؛ لقوله: ﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ...﴾[(١)].

٢- يُستفادُ من قولِه: ﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ أنَّ الله غنيٌّ عن العِباد؛ فلو ارتدَّ قومٌ جاء الله بقومٍ آخرينَ؛ كما قال الله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾[(٢)] [محمد: ٣٨].

٣- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ ...﴾ مِن أدلِّ الدَّلائلِ على فسادِ مذهبِ الإماميَّة مِن الرَّوافضِ؛ فمذهبُهم أنَّ الذين أقرُّوا بخِلافة أبي بكرٍ وإمامَتِه كلهم كَفَروا وصاروا مرتدِّينَ، فنقول: لو كان كذلك لجاءَ اللهُ تعالى بقومٍ يُحارِبونهم ويَقهرونهم ويردُّونهم إلى الدِّين الحقِّ؛ بدليل قوله: ﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ ...﴾ إلى آخِرِ الآية، وكلمةُ (مَن) في معرضِ الشَّرْط للعمومِ، فلو كان الذين نَصَّبوا أبا بكر للخلافةِ قد ارتدُّوا لوجَبَ بحُكم الآيةِ أنْ يأتيَ اللهُ بقومٍ يقهرونهم، ويُبطِلون مَذهبَهم، ولَمَّا لم يكُنِ الأمرُ كذلك، بل الأمرُ بالضدِّ؛ فإنَّ الروافضَ هم المقهورونَ المَمْنوعونَ عن إظهارِ مَقالاتِهم الباطلةِ أبدًا منذ كانوا- عَلِمْنا فسادَ مَقالتِهم ومذهبِهم، وهذا كلامٌ ظاهرٌ لِمَن أَنصَفَ[(٣)].

٤- أنَّ المرتدِّين مَبغوضونَ عندَ اللهِ؛ لقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[(٤)].

٥- قوله: ﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ ...﴾ مِن الكائناتِ التي أَخْبَر عنها في القرآنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٤).

قبلَ كونِها، وقد وقَع المخبَرُ به على وَفْقِها، فيكون معجزًا[١].

٦- إثباتُ أفعالِ اللهِ الاختياريَّة، يعني: التي يَفعلُها سُبحانَه باختياره؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي﴾ وسوف: للمُستقبَل[٢].

٧- إثباتُ المحبَّةِ مِن اللهِ وللهِ؛ مِن اللهِ في قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾، وللهِ في قوله: ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وهذه الآية جمَعتْ بين محبَّة اللهِ لعبادِه الصالحين، ومحبَّةِ العبادِ الصالحين للهِ[٣].

٨- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ ألَّا تأخذَه في اللهِ لومةُ لائمٍ؛ فما دام على حقٍّ، فلا يُهمَّنَّه أحدٌ؛ لأنَّه لا بدَّ لكلِّ عابدٍ من عدوٍّ، لكن ذلك مع وجوبِ الحِكمة؛ لأنَّ التهوُّرَ يَحصُل منه انعكاسُ المقصودِ[٤].

٩- قولُه: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ فيه أنَّ خوفَ الملامةِ ليس عذرًا في تركِ أمرٍ شرعيٍّ[٥].

١٠- يُستفادُ من قولِه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أنَّ الوصفَ بالمحبَّة، والذلَّة، والعِزَّة، والمجاهَدة، وانتفاءِ خوفِ اللائمة- حصَل بفضلِ الله تعالى، وهذا يدلُّ على أنَّ طاعاتِ العبادِ مخلوقةٌ للهِ تعالى[٦].

١١- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾، ولم يقُل: (أولياؤكم) للتنبيهِ على أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ١٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٧).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١١٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٩٥).

الولايةَ للهِ على الأصالةِ، ولرسولِه وللمؤمنينَ على التَّبَع؛ إذ التقديرُ: إنَّما وليُّكم اللهُ وكذا رسولُه والمؤمنونَ، ولو قيل: (إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا) لم يكُن في الكلامِ أصلٌ وتبَعٌ[١].

١٢- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فضيلةُ الصَّلاةِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ دائمًا في المقدِّمة، فهي أفضلُ العبادات بعدَ التوحيدِ، والشهادةِ بالرِّسالة[٢].

١٣- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أنَّ مرتبةَ الزكاةِ في دِينِ الإسلامِ بعدَ مرتبةِ الصَّلاةِ، وهكذا في الآياتِ الكريمةِ وفي الأحاديثِ النبويَّة؛ تأتي الزكاةُ بعد الصَّلاةِ[٣].

١٤- لَمَّا كان لقَبُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يشملُ كلَّ مَن أسلمَ في الظاهرِ، وصَفَ هؤلاء الأولياءَ بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾، أي: دون المنافقين الذين قالوا آمنَّا بأفواهِهم، ولم تُؤمنْ قلوبُهم، والذين يأتون بصورةِ الصَّلاةِ دون رُوحِها ومعناها، فإذا قاموا إليها ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[٤] [النساء: ١٤٢].

١٥- الثَّناءُ التامُّ على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى المؤمنين، وأنَّ تولِّيَهم من أسبابِ الغَلَبَة، أمَّا تولي اللهِ فهو شأنٌ فوقَ ذلك؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٩٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا ((٦/ ٣٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٨).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١ - **قوله:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ ﴾ جملةٌ معترِضة بين ما قَبلَها وبين قوله: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ دعَت لاعتراضِها مناسبةُ الإنذارِ في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾[(١)].

٢ - **قوله:** ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

- فيه مناسَباتٌ حَسنةٌ لطيفةٌ في التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ حيث قَدَّمَ مَحبَّةَ اللهِ تعالى لهم ﴿يُحِبُّهُمۡ﴾ على مَحبَّتهم له ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾؛ لشَرفِ مَحبَّةِ الله لهم، وسَبْقِها على مَحبَّتهم إيَّاه. وقدَّمَ الوَصْفَ بالمحبَّةِ مِنهم ولهم على وَصْفِهم بأذلَّةٍ على المؤمِنين، وأَعِزَّة على الكافِرين؛ لأنَّهما ناشِئتانِ عن المحَبَّتَينِ. ولَمَّا كان الوصفُ الذي بَينَ المؤمِن وربِّه أشرفَ مِن الوصفِ الذي بَينَ المؤمِن والمؤمِن؛ لِذَا قدَّم قولَه: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ على قولِه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. وقدَّمَ وَصْفَهم المتعلِّقَ بالمؤمِنينَ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على وصْفِهم المتعلِّقِ بالكافرينَ ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لأنَّ المتعلِّقَ بالمؤمِنينَ آكَدُ وألزَمُ من المتعلِّقِ بالكافِرين، ولشَرفِ المؤمنِ أيضًا[(٢)].

- ووقَعَ الوَصفُ في جانبِ المحبَّةِ بالجُملةِ الفِعليَّة ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾؛ لأنَّ الفعلَ يَدُلُّ على التجدُّدِ والحدوثِ، وهو مُناسبٌ؛ فإنَّ محبَّتهم للهِ تعالى تُجَدِّدُ طاعاتِه وعبادتَه كلَّ وقتٍ، ومَحبَّةُ اللهِ إيَّاهم تُجَدِّدُ ثوابَه وإنعامَه عليهم كلَّ وقتٍ، بَيْنَمَا وقَع الوَصفُ في جانبِ التواضُعِ للمُؤمنين والغِلظة على الكافِرينَ بالاسمِ الدالِّ على المبالَغةِ؛ دَلالَةً على ثُبوتِ ذلك واستقرارِه،

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٤).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٩٧، ٢٩٩)، ((الدر المصون)) للحلبي (٤/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٨٨).

وأنَّه عزيزٌ فيهم؛ فالاسمُ يدلُّ على الثُّبوتِ والاستقرارِ[١].

- ولَمَّا كان ذلُّهم هذا إنَّما هو الرِّفقُ ولِينُ الجانبِ لا الهوانُ، كان في الحقيقةِ عِزًّا، فأشارَ إليه بحَرْفِ الاستعلاءِ (على)، في قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ ففيه مناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث جاء التعبير بـ ﴿عَلَى﴾ وليس باللام، فلم يقل: (أذلَّة للمؤمنين)؛ لأنَّه قد ضُمِّن الذُّلُّ معنى الشَّفقة والحُنوِّ والعطَف، مُبيِّنًا أنَّ تواضُعَهم عن علوِّ منصبٍ وشرفٍ، كأنَّه قيل: عاطِفين عليهم على وجْه التَّذلُّلِ والتواضُع، أو: أنَّهم مع شَرفِهم وعلوِّ طبقتِهم وفضلِهم علَى المؤمنينَ خافِضونَ لهم أجنِحَتَهم[٢].

٣- وقوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ **فيه:** تعريضٌ بالمنافقين؛ فإنَّهم كانوا إذا خرَجوا في جيشِ المسلمين خافوا أولياءَهم اليهودَ، فلا يكادون يَعمَلون شيئًا يَلحَقُهم فيه لَوْمٌ من جِهَتِهم[٣].

- وفي تنكيرِ ﴿لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ مبالغةٌ، كأنَّه قيل: لا يَخافون شيئًا قطُّ مِن لومٍ أحدٍ من اللُّوَّام[٤]، و﴿لَوْمَةَ﴾ للمرَّة الواحدةِ من اللَّومِ، وهي نَكِرةٌ في سياقِ النفي؛ فَتَعُمُّ؛ فهم لا يَخافون جميعَ أنواعِ اللَّومِ مِن جميعِ اللَّائِمين[٥].

٤- قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ تذييلٌ، وفيه إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٩٩)، ((الدر المصون)) للحلبي (٤/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٩١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٢).

(٣) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٢).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٨).

(٥) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٨).

من الأوصافِ الجليلةِ، والتعبيرُ باسم الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وما فيه من معنى البُعد؛ للإيذانِ ببُعد منزلتِها في الفَضلِ[١].

٥- **قوله**: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّر لِمَا قبله، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في موضِع الإضمار؛ للإشعارِ بالعِلَّة، وتأكيدِ استقلالِ الجُملةِ الاعتراضيَّة[٢].

- وقوله: ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الواسِع فيه إشارةٌ إلى كَمالِ القُدرة، والعليمُ فيه إشارةٌ إلى كمالِ العِلمِ، وجاء على صِيغة (فعيل)؛ للمبالغة في وصْفه بالعِلم بجميعِ الأشياء التي مِن جُملتِها مَن هو أهلٌ للفضل والتوفيق؛ فلمَّا أخبر الله تعالى أنَّه سيجيء بأقوامٍ هذا شأنُهم وصِفتُهم، أكَّد ذلك بأنَّه كاملُ القُدرةِ؛ فلا يَعجِزُ عن هذا الموعودِ، كاملُ العلم؛ فيمتنع دخولُ الخُلفِ في أخبارِه ومواعيدِه[٣].

٦- **قوله**: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ... فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ **فيه**: وضْعُ الظاهرِ موضعَ المضمَر- حيث لم يقُل: (فإنَّهم هم الغالبون)- وفائدة وضْع الظاهرِ موضعَ المضمَرِ هنا الإضافةُ إلى اللهِ تعالى، فيُشرَّفون بذلك، ويَصيرون بذلِك أعلامًا، وفيه تنبيهٌ على البُرهان عليه، فكأنَّه قيل: ومَن يتولَّ هؤلاءِ فهم حزبُ اللهِ، وحزبُ اللهِ هم الغالبون؛ ففيه تنويهٌ بذِكرهم، وتَعظيمٌ لشأنِهم، وترغيبٌ في ولايتِهم، وتعريضٌ لِمَن يُوالي غيرَ هؤلاء بأنَّه حزبُ الشَّيطانِ[٤].

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٩).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٢).

(٣) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٢).

(٤) ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٠١) ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٩٤).

وهذا الوجه بناءً على القول بأنَّ جوابَ ﴿مَنْ﴾ هو قوله: ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ...﴾، وأمَّا على القَولِ

الآيات (٥٧ - ٦١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ٥٩ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَدۡ دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ٦١ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿هُزُوًا﴾: أي: سُخريًّا واستِهزاءً وتلعبًا[1].

﴿تَنقِمُونَ﴾: تَكْرَهُونَ وتُنكِرون وتَعيبون، مِن نَقِمْتُ الشَّيءَ: إذا أنكرْتَه، إمَّا باللِّسانِ، وإمَّا بالعقوبةِ، وأَصْلُ (نقم): يدلُّ على إنكارِ شيءٍ وعَيبِه[2].

﴿أُنَبِّئُكُم﴾: أُخْبِرُكم، والنَّبأ: الخبرُ الذي له قَدرٌ، وفائدةٌ عظيمةٌ، ويحصُل به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، وأَصْلُ (نبأ): الإتيانُ من مكانٍ إلى مكانٍ؛ وسُمِّي الخبَرُ نبأً لانتقالِه من مكانٍ إلى مكانٍ[3].

بأنَّ جوابَ ﴿مَنْ﴾ محذوفٌ؛ لدلالةِ ما بَعدَه عليه، أي: يكُن مِن حزبِ اللهِ ويَغْلِب؛ فليس فيه هذا الوجهُ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٣٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٨٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)،

﴿مَثُوبَةً﴾: أي: جزاءً ثابتًا، أو ثوابًا، وهو عبارةٌ عن المنفعةِ الخالِصةِ المقرونةِ بالتعظيمِ، والمثوبةُ مختصَّةٌ بالخيرِ؛ كما أنَّ العقوبةَ مختصَّةٌ بالشرِّ(١).

﴿لَّعَنَهُ﴾: طَردَه وأبْعَدَه، واللَّعْن: الطردُ والإبعادُ على سَبيل السَّخطِ(٢).

﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾: الطَّاغُوتُ هو كُلُّ ذِي طُغْيَانٍ عَلَى الله، فكلُّ مَعْبُودٍ مِن دُونِ الله إذا لم يَكُنْ كارِهًا لذلك: طاغوتٌ؛ إنسانًا كان ذلك المعبودُ، أو شَيْطانًا، أو وَثنًا، أو صَنَمًا كَائِنًا ما كان من شيءٍ، والمُطاعُ في معصيةِ اللَّهِ طاغوتٌ، وكذلك السَّاحِرُ والكاهِنُ، واشتقاقُه من الطُّغْيان: وهو الظُّلْم والبغْيُ، يقال طَغَا فُلانٌ يَطْغَى: إذا عَدا قَدْرَه فتجاوَز حَدَّه(٣).

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾

﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾: قُرِئ بالنَّصب وبالجرِّ؛ فعلى النَّصب فهو عطفٌ على ﴿ٱلَّذِينَ﴾

((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨- ٧٨٩).

(١) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٧، ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٠٠) ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

وقال ابنُ القيِّم: (والطاغوتُ: كلُّ ما تَجاوَزَ به العبدُ حَدَّه مِن معبودٍ، أو مَتبوعٍ، أو مطاعٍ؛ فطاغوتُ كلِّ قومٍ مَن يَتحاكَمون إليه غيرِ اللهِ ورسولِه، أو يَعبُدونه مِن دون الله، أو يَتَّبعونه على غيرِ بصيرةٍ مِن الله، أو يُطيعونه فيما لا يَعلمون أنَّه طاعةٌ لله؛ فهذه طواغيتُ العالمِ ...) ((أعلام الموقعين)) (١/ ٤٠).

المنصوبة في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا...﴾، أي: لا تَتَّخِذوا المُسْتَهْزئينَ ولا الكُفَّار أولياءَ؛ فيَخرُجون مِن الوَصفِ بالهزْء واللَّعبِ. وعلى الجرِّ فهو عَطفٌ على ﴿ٱلَّذِينَ﴾ المجرورةِ في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ ومعناها: أنَّه نَهاهُم أن يَتَّخِذوا المُستهزئينَ أولياءَ، وبيَّنَ أنَّ المُستهزئينَ صِنفانِ: أهلُ كِتابٍ مُتقَدِّمٍ؛ وهم اليَهودُ والنَّصارى، وكُفَّارٌ عبَدَةُ أوثانٍ؛ فيكونونَ موصوفينَ باللَّعب والهزء، كما وُصِف به الَّذين أُوتوا الكِتابَ؛ والمعنيانِ صَحيحانِ[1].

٢- قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾

﴿أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ﴾: ﴿أُنَبِّئُكُم﴾ فِعلٌ وفاعِلٌ، والكاف مَفعولٌ أوَّلُ، و﴿بِشَرٍّ﴾ جارٌّ ومَجرورٌ، وهو في مَحلِّ نَصبٍ مَفعولٌ ثانٍ لـ(أُنَبِّئ)[2].

﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾: ﴿مَن﴾: موصولةٌ بمَعْنَى الذي، وقد حَمَلَ على لفظِها فأفرَدَ في قوله: ﴿لَّعَنَهُ﴾ و﴿عَلَيْهِ﴾، ثمَّ حَمَل على معناها فجَمَع في قوله: ﴿مِنْهُمُ القِرَدَةَ﴾. ويجوزُ في إعرابِ ﴿مَن﴾: أنْ يكونَ في محلِّ رفْع على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو مَن لَعَنه اللهُ. ويجوز أنْ يكون ﴿مَن﴾ في موضِعِ جرٍّ على البَدلِ مِن لَفْظِ ﴿بِشَرٍّ﴾ بدَلَ الشَّيءِ من الشَّيء، والتقدير: (أُنَبِّئُكُمْ بِمَنْ لَعَنَهُ اللهُ). ويجوزُ أنْ يكونَ في مَوضِع نصْبٍ على البَدلِ مِن مَحلِّ قولِه:

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٤٦)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٦٣).

(٢) وذلِك لأنَّ أصْلَ الفِعل (نَبَّأ وأنبأ) يَتعدَّى لمفعولَينِ؛ فيتعدَّى إلى المفعولِ الأوَّل بنَفْسِه، وإلى الثَّاني بحَرْفِ الجرِّ كما هنا، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾، وقدْ يُحْذَفُ الجارُّ تَخفيفًا، نحوُ قولِه تعالى: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾، وقد يُحذَفُ المفعولُ الأوَّل؛ للدَّلالةِ عليه، كقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾، حيثُ تعدَّى لمفعولَينِ حُذِفَ أوَّلُهما، والثاني مجرورٌ بالباء، أي: نَبَّأتْ بِه غيرَها. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٦٤).

﴿بِشَرٍّ﴾؛ إذ محلُّه النَّصبُ، أو في مَوضِع نَصْبٍ بفِعلٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿أُنَبِّئُكُم﴾، أي: أُعرِّفكم مَن لَعَنَه اللهُ[1].

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يَنهَى اللهُ تعالى المؤمنينَ عن اتِّخاذِ أعدائِهم حُلفاءَ وأنصارًا وأعوانًا، الذين مِن صِفاتهم أنَّهم يَستهزِئونَ بشعائرِ الدِّينِ القويم ويَحتقرونها؛ مِن اليهودِ والنصارى وغيرِهم من الكفَّارِ، ثم يَأمُرُهم بتقواه في ذلك، إنْ كانوا حقًّا مؤمنينَ.

ثم يُخبِرُ اللهُ تعالى المؤمنين عن بعض مظاهرِ استهزاءِ هؤلاء الأعداءِ بالدِّين، فهم إذا سمِعوا الأَذانَ يُنادَى للصَّلاةِ اتَّخذَها هؤلاءِ الكفارُ من اليهودِ والنصارى، والمشركين سُخريةً ولعبًا؛ وذلك لكونِهم قومًا لا يَعقلونَ.

ثم يَأمُرُ اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ لأهلِ الكتابِ: يا أهلَ الكتابِ إنَّكم بمعاداتِكم لنا، وحَرْبِكم علينا، ما تَكْرَهون منَّا، ولا تَعِيبونَ علينا إلا إيمانَنا باللهِ، وبالقرآنِ الذي أُنزِل علينا، وإيمانَنا بما أُنْزِلَ مِن قبلُ كالتَّوراةِ والإنجيلِ، وأنَّ أكثرَكم فاسقونَ.

ويأمُرُ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَقولَ لهم أيضًا: هل أُخْبِرُكم- يا معشرَ اليهودِ والنَّصارى- بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ الذي نقَمْتُم فيه علينا ثوابًا وجزاءً، مع التنزُّلِ معكم؟ مَن طردَهم اللهُ مِن رَحْمتِه، وأنزل عليهم غضبَه، ومسخَ بعضَهم إلى قرودٍ وخنازيرَ، وجعَل منهم مَن عَبَدَ الطاغوتَ؛ هؤلاء الذين عدَّد اللهُ أوصافَهم هم شرٌّ منزلةً في الدُّنيا والآخِرة من المؤمنينَ الذين نقَموا عليهم إيمانَهم.

ثم يُخبرُ اللهُ الذين آمنوا أنَّ المنافقين من اليهودِ إذا أَتَوهم قالوا لهم كَذِبًا:

---

(١) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٢٦).

إنَّهم آمنوا، والحقيقة أنـَّهم متمسِّكون بكُفرِهم، قد دخلوا بكُفرِهم عليكم، وخرَجوا به كما قد دَخَلوا، لم ينفعْهم ما يَسمَعونه عندَكم من العِلم والمواعِظ، واللهُ تعالى هو أعلمُ بما يُسرُّونه ويُخفونَه.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَ﴾.

أي: لا تتَّخذوا- أيُّها المؤمنونَ- الَّذين يَستهزِئون بشعائرِ دِينكم، ويَرمُقونها بعينِ الاحتقارِ والسُّخرية، ويعتقدونها ضَربًا من الَّلهوِ والعبثِ في نظرِهم الفاسدِ؛ مِن اليهودِ والنَّصارى ومن سائرِ الكفَّارِ والمشركين- لا تتَّخذوا هؤلاءِ ولا هؤلاءِ أنصارًا لكم وحُلفاءَ وأعوانًا[1].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا نهَى الله تعالى المؤمنين عن اتِّخاذِ أهلِ الكتابِ والكفَّار أولياءَ، أمَرَهم بتقواه؛ فإنَّها هي الحاملةُ على امتثالِ الأوامرِ، واجتنابِ النواهي، أي: اتَّقوا اللهَ في موالاة الكفَّار، ثم نبَّه على الوصفِ الحاملِ على التقوى، وهو الإيمانُ[2]، فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٦٢- ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٠٢).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

أي: امتَثِلوا ما أمَرَكم اللهُ تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه، ومن ذلك ترْكُ اتِّخاذِ هؤلاءِ الأعداءِ لكم ولدِينِكم أولياءَ، إنْ كنتم مؤمنين حقًّا بشَرْعِ اللهِ عزَّ وجلَّ الذي اتَّخذَه هؤلاءِ هُزُوًا ولعبًا[١].

﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى في الآيةِ الأُولى عن أهلِ الكِتابِ والكفَّارِ أنَّهم اتَّخذوا دِينَ المسلمين هُزوًا ولعبًا، ذكَر هاهنا بَعضَ ما يتَّخِذونه مِن هذا الدِّينِ هُزوًا ولعبًا[٢]، فقال:

﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾.

أي: وإذا أذَّنْتُم للصَّلاة- أيُّها المؤمنون- سَخِرَ منها هؤلاءِ الكفَّارُ من اليهود والنصارى والمشركين، واعتقدوها ضَربًا من اللَّهوِ والعبثِ[٣].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾.

أي: إنَّما تقَعُ منهم السُّخريةُ بالصَّلاةِ، ويَتَّخذونُها لَعبًا؛ لعدمِ عَقلِهم، ولجهلِهم العظيمِ بربِّهم، وبمعاني عِبادَتِه وحَقيقةِ شرائِعِه، وإلَّا فلو كانتْ لهم عقولٌ راشدةٌ لعظَّموا هذه العبادةَ العظيمةَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٥- ٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦- ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٦٤).

(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حَكَى تعالى عنهم في الآيةِ السَّابقةِ أنَّهم اتَّخذوا دِينَ الإسلامِ هُزوًا ولَعِبًا، أمَرَ بسؤالهم: ما الذي تَنقِمون من هذا الدِّينِ، وما الذي تَجِدون فيه ممَّا يوجِبُ اتخاذَه هُزوًا ولعبًا[1]؟! فقال تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ الذين اتَّخذوا دِينكم هزوًا ولعبًا من أهل الكِتابِ: يا معشرَ اليهودِ والنَّصارى، ما لكم علينا مِن مطعَنٍ أو عيبٍ إلَّا إيمانُنا باللهِ تعالى وبالقرآنِ الذي أُنزِلَ إلينا وبالكتُبِ الإلهيَّة السابقةِ التي أُنْزِلَت مِن قبلنا، وإلَّا إيمانُنا بأنَّ أكثرَكم خارجونَ عن طاعةِ اللهِ العظيم، ناكِبون عن الطَّريق المستقيم؛ فهل يُعدُّ هذا عيبًا؟! وكيف تَعيبوننا بهذا الذي هو أوجبُ الواجباتِ، وأعظمُ المهمَّات[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البروج: ٨-٩].

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

سورة المائدة)) (٢/ ٦٩- ٧٠).

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٧- ٥٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٧٦- ٧٩).

لَمَّا بكَّتَ اللهُ اليهودَ والنصارَى، وأقامَ الحُجَّة على هُزْئهم ولَعِبِهم بما تقدَّم، انتقَل عزَّ وجلَّ إلى ما هو أشدُّ تبكيتًا وتشنيعًا عليهم، بما فيه مِن التذكيرِ بسوءِ حالهم مع أنبيائهم، وما كان من جزائِهم على فِسقِهم، وتمرُّدِهم بأشدِّ ما جازَى اللهُ تعالى به الفاسقينَ الظَّالِمين لأنفسِهم، وهو اللَّعنُ والغَضَب، والمسخُ الصوريُّ أو المعنويُّ، وعبادةُ الطاغوتِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَر أنَّ أهلَ الكتابِ يعيبونَ المسلمينَ بالإيمانِ باللهِ ورُسُلِه- ذكَر عيوبَ أهلِ الكتابِ في مقابلةِ ذلك ردًّا عليهم[٢]، فقال:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- هل أنبِّئكم يا أهلَ الكتابِ بشرٍّ عندَ اللهِ مِن الذي نَقَمتُم فيه علينا ثوابًا وجزاءً[٣]؟

﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾.

أي: هو مَن طَرَدَه اللهُ تعالى وأَبْعَدَه مِن رَحمتِه، وأحلَّ عليه غضبَه[٤].

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾.

أي: ومَسَخَ بعضَهم إلى قردةٍ وخنازيرَ؛ خِزيًا ونكالًا في الدُّنيا[٥].

﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

---

(١) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٧٠)

(٢) ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٠٤) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٨٢- ٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٨٤).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسير:

في قولِه تعالى: ﴿عَبَدَ﴾ قِراءتان:

١- ﴿عَبُدَ﴾ بجَعْل ﴿عَبُد﴾ اسمًا مُفردًا ليس بجَمْع، على وزن (فَعُل)، الذي يُفيدُ معنى المبالغةِ والكثرةِ؛ فالعَبُدُ هو المبالِغُ في العُبوديةِ المنتهِي فيها؛ كما يُقال: فَطُن وحَذُر، للبليغِ في الفِطنة والحَذَر، فيكون (وَعَبُدَ) اسمًا مُضافًا إلى الطَّاغوتِ، وهو منصوبٌ عطفًا على ﴿ٱلْقِرَدَةَ﴾[1]، وقيل: إنَّ (عَبُد) جمْع (عَبْد)، أي: خَدَمًا للطَّاغوتِ[2].

٢- ﴿عَبَدَ﴾ بجَعْل ﴿عَبَدَ﴾ فعلًا ماضيًا عطفًا على ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ ونُصِبَ ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ به[3].

﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

أي: ومَن عبَدوا الطَّاغوتَ، (وهو كلُّ ما تجاوزَ به العبدُ حَدَّه مِن معبودٍ أو مَتبوعٍ أو مطاعٍ ورضِي بذلك)[4].

---

(١) قرأ بها حمزة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٣١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤١٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٢٧) ((إبراز المعاني)) (٢/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤١)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٣٣).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٦).
قال ابنُ خالويه: (الحُجَّة لِمَن فتَح الباء: أنه جعله فعلًا ماضيًا مردودًا على قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ ومَن عبَدَ الطاغوتَ) ((الحجة)) (ص: ١٣٣).
وقال مكيُّ بن أبي طالبٍ: (وحُجَّة مَن فتَح الباء والتاء [أي التاء في كلمة الطاغوت] أنَّه جعَله فعلًا ماضيًا، وعطَفَه على فِعلٍ ماض، وهو غضِبَ ولَعَن وجَعَل، ونصب الطاغوتَ به). ((الكشف)) (١/ ٤١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤٤)، ((أعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٨٥- ٨٧).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: هؤلاءِ الذين وصَفَهم اللهُ تعالى هُم في الحَقيقةِ شرٌّ مكانًا ومنزلةً في الدُّنيا والآخِرة عند اللهِ تعالى مِنَ المؤمنين؛ الذين نَقَمتُم عليهم إيمانَهم باللهِ وبما أُنزل إليهم وبما أُنزل مِن قَبلِهم، وهم أيضًا أشدُّ بُعدًا عن الطَّريقِ القويم[١].

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَدۡ دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ٦١﴾.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَدۡ دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ﴾.

أي: وإذا جاءَكم- أيُّها المؤمنون- هؤلاءِ المنافقون من اليهودِ[٢]، قالوا لكم بألسنتِهم كذبًا ومكرًا: آمنَّا، والحالُ أنَّهم دخلوا وهم مُقيمونَ على كُفْرِهم الذي تَنطوي عليه قلوبُهم[٣].

قال ابنُ تَيميَّة: (فـ: «جعَل» معطوف على «لعَن»، ليس المراد: وجعَل منهم مَن عبَدَ الطاغوت، كما ظنَّه بعضُ الناس، فإنَّ اللَّفظ لا يدلُّ على ذلك والمعنى لا يناسبه، فإنَّ المراد ذَمُّهم على ذلك لا الإخبار بأنَّ الله جعَلَ فيهم مَن يَعبُد الطاغوت؛ إذ مجرَّد الإخبار بهذا لا ذمَّ فيه لهم، بخِلاف جعْله منهم القردةَ والخنازير، فإنَّ ذلك عقوبةٌ منه لهم على ذُنوبهم، وذلك خزيٌ لهم، فعابَهم بلعنة الله وعقوبته بالشِّرْك الذي فيهم، وهو عبادةُ الطاغوت) ((منهاج السنة النبوية)) (١/ ٤٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤٥- ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٣- ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٨٧- ٩٠).

وقيل: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ جوابٌ مِن الله تعالى، وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٥٤٥-٥٤٦)، وابنُ عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (٢/ ٨٧).

وقيل: ذلِك من كلام المؤمنين. وممَّن اختار هذا القول: ابنُ كثير في: ((تفسيره)) (٣/ ١٤٣).

(٢) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٥٤٦)، والواحدي في ((الوجيز))، (ص: ٣٢٦)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ٢٤٧)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (٢/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي))

﴿وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾.

أي: وقدْ خرَجوا بالكُفرِ مِن عندِكم كما دَخَلوا به عليكم، لم يَرجِعوا بمجيئِهم إليكم عن كُفرِهم الكامِنِ فيهم، فلم يَنتفعوا بما قد سَمِعوا منكم من العِلم، ولا نجعتْ فيهم المواعظُ[١].

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾.

أي: واللهُ عالمٌ بما انطوتْ عليه قلوبُهم، وإنْ أظهروا للناسِ خلافَ ذلك؛ فإنَّ عالمَ الغيبِ والشَّهادة أعلمُ بهم منهم، وسيُجازيهم على ذلك[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- التَّحذيرُ التَّامُّ مِن اتِّخاذِ أهلِ الكتابِ والكفَّارِ أولياءَ، وذلك بإثارة الحميَّة والغَيرةِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾؛ لأنَّ أيَّ إنسانٍ يشعرُ بأنَّ شخصًا يَهْزَأُ به في دِينه ويقول: هذا الدِّين لعبٌ لا فائدةَ منه؛ لا شكَّ أنَّه سيثورُ[٣].

٢- أنَّ العِلمَ قد يكون وبالًا على صاحبِه؛ لقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فإنَّ هؤلاءِ أُعطُوا العِلْمَ، ووُصِفَ لهم الرسولُ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم في التَّوراة والإنجيل وصفًا يَجعلهم يَعرِفونه كما يَعرِفون أبناءَهم، ومع ذلك لم ينفعْهم هذا العلمُ[٤].

(ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٦٦).

٣- أنَّ الإيمانَ الحقيقيَّ مُقتضٍ للتَّقْوى؛ لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[١].

٤- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ تعظيمُ الصَّلاةِ حيث يُنادَى لها، وحتى يَعلمَ الناسُ دُخولَ وقتِها؛ فيُصلُّوا ويحضُروا إنْ كانوا ممَّن يجِبُ عليهم الحضورُ للجماعة[٢].

٥- أنَّ القيام بالصَّلاة دليلٌ على كمالِ العقل، وأنَّ مَن لم يهتمَّ بها فإنَّ ذلك دليلٌ على نقْصِ عقلِه؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ فتكونُ إقامةُ الصلاةِ مِن تمامِ العقولِ، والتهاونُ بها مِن نقصِ العقولِ، كما أنَّه نقصٌ في الدِّينِ[٣].

٦- أنَّه ينبغي للمؤمِنِ أن يكونَ صريحًا، فلا يُداهِن؛ لقوله: ﴿وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾، وهذه مقابلةٌ صريحةٌ بوصفهم بالفِسْق[٤].

٧- أنَّ العِبرةَ إنَّما تكون بالمنزلةِ عندَ الله لا عند النَّاس؛ لقوله: ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، ويتفرَّع على هذا: أنَّه يَنبغي لنا ألَّا ننظُرَ إلى منزلتنا عند النَّاسِ، وإنما ننظُرُ إلى منزلتِنا عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وإذا صحَّحنا ذلك كفانا اللهُ مؤونةَ النَّاسِ[٥].

٨- يُستفادُ مِن قَوْلِه: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ التَّحذيرُ مِن المنافقين؛ لأنَّ اللهَ لم يَقصَّ علينا قَصَصَهم أو حالَهم إلَّا لنحْذرَ، لا لنعلمَ فقط[٦].

٩- أنَّه ليس لنا أن نَحكُمَ إلَّا بما ظهَر؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩٨).

لأنَّ اللهَ لم يُخبِرْنا إلَّا لنحذرَ، ولو أنَّنا بَقِينا على ما يَبدو لنا لكانَ هؤلاءِ مؤمنينَ حسَبَ ما يقولون، لكنَّ اللهَ أخبَرَنا بهذا لنحذرَهم[١].

١٠- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ تحذيرُ المرءِ مِن أن يُبطِنَ في قلبِه ما يُخالِفُ لسانَه، وهذه مسألةٌ يجب علينا أن نُعالِجَ أنفسَنا منها، احذرْ أن تُضمرَ في قلبِك ما يُخالِفُ ما تَنطِقُ به بلسانِك، أو تفعله بجوارحِك؛ يجب أن تُصفِّيَ القلبَ أوَّلًا، وتُطهِّر القلبَ، ثم بعدَ ذلك تَبني أعمالَك على حسَبِ هذه التصفيةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾ إظهارُ عداوةِ هؤلاءِ الكفَّار من أهل الكتاب والكفَّار للإسلام، وأنَّ عداوَتَهم ظاهرةٌ[٣].

٢- مشروعيَّةُ النِّداءِ للصَّلاةِ؛ لقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، والنداء يعني الأذانَ، ففيه دلالةٌ على ثُبوتِ الأذانِ بنصِّ الكتابِ لا بالمنامِ وحْدَه[٤].

٣- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أنَّه إذا كان النِّداءُ للصَّلاة مشروعًا، كان عبادةً يتقرَّب به المنادي إلى اللهِ، وهو كذلك، فالأذانُ مِن أفضلِ الأعمالِ[٥].

٤- قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾ أصلٌ في تكفيرِ المُستهزئ بشيءٍ من

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٦)

(٤) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٨٨)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٠٢)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١١٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٧١)

الشَّريعةِ[١].

٥- في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ سؤال: كيف يَنقِم اليهودُ على المسلمين مع كونِ أكثرِ اليهودِ فاسقين؟ والجواب من وجوه:

الأوَّل: قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ تخصيصٌ لهم بالفِسق، فيدلُّ على سبيلِ التعريض أنَّهم لم يتَّبعوهم على فِسقهم، فكان المعنى: وما تَنقِمون منَّا إلَّا أنَّ آمنَّا، وما فسَقْنا مثلَكم.

الثاني: لَمَّا ذكَر تعالى ما يَنقِمُ اليهودُ عليهم مِن الإيمانِ بجميعِ الرُّسل، وليس ذلك ممَّا يُنقَم، ذكَر في مقابله فِسقَهم، وهو ممَّا يُنقَم، ومِثل هذا حسنٌ في الازدواج؛ يقول القائل: هل تنقم منِّي إلَّا أني عفيفٌ وأنك فاجرٌ، وأنِّي غنيٌّ وأنت فقيرٌ، فيَحسُن ذلك لإتمامِ المعنى على سبيلِ المقابلة.

والثَّالث: أنْ يكونَ الواو بمعنى (مع)، أي: وما تَنقِمون منَّا إلَّا الإيمانَ بالله مع أنَّ أكثرَكم فاسقون، فإنَّ أحدَ الخَصمين إذا كان موصوفًا بالصفات الذميمةِ، واكتسب الثاني شيئًا كثيرًا من الصِّفات الحميدة، كان اكتسابُه للصفات الحميدة مع كونِ خصمِه مكتسِبًا للصفات الذَّميمة أشدَّ تأثيرًا في وقوعِ البُغض والحسَد في قلبِ الخَصم.

والرابع: أن يكونَ على تقديرِ حذْفِ المضافِ، أي: واعتقاد أنَّكم فاسقون.

الخامس: أن يكونَ التقدير: وما تنقمون منَّا إلَّا بأنْ آمنَّا بالله وبأنَّ أكثرَكم فاسقون، يعني بسبب فِسقكِم نَقَمتُمُ الإيمانَ علينا.

السادس: يجوز أن يكون تعليلًا معطوفًا على تعليلٍ محذوف، كأنَّه قيل: وما

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١١٣).

تَنقِمون منَّا إلَّا الإيمانَ؛ لقلَّة إنصافِكم، ولأجْلِ أنَّ أكثرَكم فاسقون[١].

٦- يُستفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ فضيلةُ هذه الأمَّة، وأنَّ هذه الأمَّةَ لها فَضلٌ ومَزيةٌ على الأُمم السَّابقة؛ لأنَّها تؤمنُ بالله وما أُنْزِلَ إليها وما أُنْزِلَ من قبلُ، وهذا لا يوجدُ في أممٍ آخرين؛ لا يُوجد إلَّا في هذه الأُمَّة[٢].

٧- قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ النبأ إنما يُرادُ به الشيءُ المهمُّ العظيمُ؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧]، بخلاف الخَبَر، الذي قد يكونُ في أمورٍ تافهةٍ، لكنَّ النبأَ لا يكون إلَّا في أمورٍ مهمَّة؛ ولعلَّ ذلك- واللهُ أعلم- لأنَّ أحد اشتقاقاتِه مِن النَّبْوَة، والنَّبوة: بمعنى الارتفاعِ[٣].

٨- في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ...﴾ الآية، قد يتساءَلُ متسائلٌ: المثوبةُ مختصَّةٌ بالإحسان؛ فكيف جاءتْ في الإساءةِ؟ فالجواب: أنَّ هذا مِن الكلامِ الذي يُقصَد به الاستهزاءُ الزائد في غَيظِ المستهْزَأِ به كما يقول الرجلُ لعدوِّه: أبْشِرْ بقتْلِ ذُرِّيَّتِك ونهْبِ مالك! فهي على سبيلِ التهكُّم، أو لأنَّ المثوبةَ هنا وُضِعتْ موضِعَ عُقوبة[٤].

٩- مسَخ بعضَهم إلى قِرَدةٍ وخنازيرَ، كما في قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ لما لنوعَي القِردةِ والخنازيرِ مِن الخسَّة والحَقارة، وما لهما في صدورِ الدَّهماءِ والخاصَّة من القُبحِ والتشويهِ، وشَناعةِ المنظَر، ونذالَة النَّفْس،

---

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٨٩)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨١).

(٤) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٥١-٦٥٢)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٠) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤١٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٣).

وحقارة القَدْر، ووضاعة الطَّبْع، وقُبح الصوتِ، ودناءةِ الهمَّة، ممَّا ليس لغيرِهما مِن سائرِ أنواع الحيوانِ[١].

١٠- لا نَسْلَ لِمَن مُسِخوا قردةً وخنازيرَ[٢]، فعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، ((أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ اللهِ، القردةُ والخنازيرُ، هي ممَّا مُسِخَ؟ فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يُهلِكْ قومًا، أو يُعذِّب قومًا، فيجعل لهم نَسلًا، وإنَّ القردةَ والخنازيرَ كانوا قبلَ ذلك))[٣].

١١- أنَّ اسمَ التَّفضيل قد يقَعُ بين شيئين لا يَشترِكان في أصلِ المعنى، فيكون المرادُ به مطلقَ الاتصاف، لا معنى التفضيل؛ لقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ لأنَّ المعنى: بأشرَّ مِن ذلك، وكذلك في الخَيرِ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾ [الفرقان: ٢٤]، ولا خيرَ في مستقرِّ أهلِ النارِ[٤]. وقيل: إنَّ مكان هؤلاء في الآخرة شرٌّ وأضلُّ من مكان المؤمنين في الدنيا؛ لِمَا يَلحقُهم فيها من الشرِّ والضلال الحاصلِ لهم بالهموم الدنيويَّة، كسماع الأذى وغيرِه، أو أنَّ ذلك على سبيلِ التنزُّلِ والتسليمِ للخَصمِ على زعْمِه إلزامًا بالحُجَّة[٥]؛ فيكون فيه إخراجُ الكلامِ على حسَبِ قولِهم واعتقادِهم؛ لأنَّهم لَمَّا حَكموا بأنَّ دينَ الإسلام شرٌّ، فقيل لهم: هَبُوا الأمرَ كذلك، ولكنْ لَعنةُ الله تعالى وغضبُه، والإبعادُ عن رحمتِه، والطردُ من ساحة رِضاه، ومَسْخُ الصورةِ إلى أقبحِ أنواعِ الحيوانِ وأرذَلِه، شرٌّ مِن ذلك الذي تَزعُمون أنَّه شرٌّ[٦].

---

(١) ينظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٨٤- ٨٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٤).

(٦) ينظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥١٤).

١٢- إثباتُ الغَضبِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾، وهو من الصِّفات الفعليَّة[١].

١٣- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أنَّ كلَّ مَن عبدَ غيرَ الله فقد عبدَ الطاغوت، يعني: عبَد عِبادةَ الطاغوت، يعني الطغيانَ[٢].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَ﴾

- الجُملةُ استئنافيَّة، جاءتْ لتأكيدِ بَعضِ مضمونِ الكلامِ الذي قَبْلَها[٣].

- وقد رتَّب النَّهيَ عن موالاتِهم على اتِّخاذهم دِينَهم هزوًا ولعبًا؛ إيماءً إلى العلَّة، وتنبيهًا على أنَّ مَن هذا شأنُه بعيدٌ عن الموالاةِ، جديرٌ بالمعاداةِ والبغضاءِ[٤].

٢- قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ فيه: بيانٌ للمُستهزئين، والتعرُّض لعنوانِ إيتاءِ الكِتابِ؛ لبيانِ كَمالِ شَناعتِهم، وغايةِ ضلالتِهم؛ لأنَّ إيتاءَ الكتابِ وازعٌ لهم عن الاستهزاءِ بالدِّين المؤسَّسِ على الكتابِ المصدِّقِ لكتابِهم[٥].

٣- **قوله:** ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗا...﴾ هذه الآيةُ كالتوكيدِ للآيةِ قَبلَها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩٦).
(٣) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤١).
(٤) ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣١).
(٥) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٣).
(٦) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٠٣).

- وفيه: بيانٌ لاستهزائِهم بحُكم خاصٍّ من أَحكامِ الدِّينِ، بعدَ بيان استهزائِهم بالدِّين على الإطلاقِ؛ إظهارًا لكَمالِ شَقاوتِهم[(١)].

٤- قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾:

- في هذه الآيةِ نوعٌ طَريفٌ مِن البَلاغة، وهو توكيدُ المدحِ بما يُشبِه الذمَّ[(٢)]، وهو ذائعُ الشُّهرة، ولكنَّه قَليلُ الأمثلةِ، ومنه هذه الآيةِ؛ فإنَّ الاستثناءَ بعدَ الاستفهامِ الجاري مَجرَى التوبيخِ على ما عابوا به المؤمنين مِن الإيمان يُوهِم بأنْ يأتي بعدَ الاستفهامِ ما يجب أن يُنقَمَ على فاعِلِه بما يُذَمُّ به، فلمَّا أتى بعد الاستفهامِ ما يُوجِبُ مدْحَ فاعِلِه، كان الكلامُ متضَمِّنًا تأكيدَ المدحِ بما يُشْبِه الذمَّ؛ فكأنَّه قال: أنتُم لا تَعيبونَ علينا شيئًا هو عيبٌ، بل تَعيبونَ علينا شيئًا هو كمالٌ، وهو الإيمانُ باللهِ وبما أُنزل إلَيْنا[(٣)]!

- وفي قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ أمرٌ لرَسولِ الله بطريقِ تلوينِ الخِطابِ حيثُ قال: ﴿قُلْ﴾ مُخاطبًا الرَّسول، بعدَ نهي المؤمنينَ عن تولِّي المستهزئينَ، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ...﴾ [المائدة: ٥٧] فأمَرَه أنْ يُخاطِبَهم، ويُبيِّن أنَّ الدِّينَ مُنزَّهٌ عَمَّا يُصحِّح صدورَ ما صدَر عنهم من الاستهزاءِ، ويُظهِرُ لهم سَببَ ما ارتكبوه،

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٣).

(٢) تأكيدُ المدحِ بما يُشبه الذمَّ- أو بعبارة أَتْقَن: تأكيد الشَّيءِ بما يُشبه ضِدَّه-: وهو عند عُلماءِ البلاغةِ استِثناءُ صِفة مَدْحٍ مِن صِفةِ ذمٍّ منفيَّةٍ عن الشَّيء، بتقديرِ دُخولِها في صِفة الذمِّ المنفيَّة. ينظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٥١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥١١).

(٣) ينظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٧٧).

ويُلْقِمهم الحجرَ! أي: قُلْ لأولئك الفَجَرةِ[١].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿هَلۡ تَنقِمُونَ﴾ إنكاريٌّ وتعجُّبي؛ فالإنكارُ دلَّ عليه الاستثناءُ، والتعجُّبُ دلَّ عليه أنَّ مفعولاتِ ﴿تَنقِمُونَ﴾ كلَّها محامِدُ لا يحقُّ نَقمُها، أي: لا تجِدون شيئًا تنقِمونه غير ما ذُكِر[٢].

٥- قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ...﴾

- فيه عرْضُ الخِطابِ بصِيغةِ الاستفهام ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُم﴾؛ لأنَّ ذلك أمكَنُ في النَّفْسِ، وأحضَرُ للقلب[٣].

٦- قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ فيه: وضْعُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ موضعَ الضَّمير؛ لتربيةِ المهابةِ، وإدخالِ الرَّوعةِ، وتهويلِ أمْر اللَّعن وما تبِعه، والموصول ﴿مَن﴾ عبارةٌ عن المخاطبَين؛ حيث أبعدَهم اللهُ تعالى من رحمتِه، وسَخِط عليهم بكُفرِهم وانهماكِهم في المعاصي بعدَ وضوحِ الآياتِ[٤].

٧- قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ جُعِلتِ الشَّرارةُ للمَكانِ، وهي لأهْلِه؛ ليكونَ أبلغَ في الدَّلالةِ على شَرارتِهم؛ ففي قوله: ﴿شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ مبالغةٌ ليستْ في قولِ: (أولئك شرٌّ وأضلُّ)؛ لدخولِه في بابِ الكِنايةِ[٥].

- واسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ عبارةٌ عمَّن ذُكِرت صفاتُهم الخبيثةُ، وما فيه مِن معنى البُعد؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنْزلتِهم في الشَّرارةِ[٦].

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٣- ٥٤).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩٠)

(٤) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٥).

(٥) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٦).

(٦) ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٦).

٨- قوله: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ﴾: أفاد دخولُ ﴿قَدۡ﴾- مع إفادتِها تقريبَ الماضي مِن الحالِ؛ ليصحَّ أن يقعَ حالًا لِمَا فيها من التوقُّع-: أنَّ أمارةَ النِّفاقِ كانتْ لائحةً عليهم[(١)].

٩- **قوله:** ﴿وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ فيه تأكيد وصْفِهم بالكُفر بتكرار المسنَدِ إليه ﴿وَهُمۡ﴾؛ تَنْبيهًا على تحقُّقهم بالكُفْر، وتماديهم عليه؛ وأنَّ رُؤيةَ الرَّسولِ- إن كان الخطاب في ﴿جَآءُوكُمۡ﴾ للرسول- لم تُجْدِ معهم، ولم يتأثَّروا لها، وكذلك إنْ كان ضميرُ الخطاب في: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ للمؤمنين؛ كان يَنبغي لهم أن يُؤمنوا ظاهرًا وباطنًا لِمَا يرونَ مِن المؤمنين من التصديقِ للرَّسولِ، والاعتمادِ على الله تعالى، والرَّغبة في الآخرة، والزُّهد في الدُّنيا، وهذه حالُ مَن ينبغي موافقتُه؛ فكان يَنبغي لهم ألَّا يَخرُجوا بالكفر؛ لأنَّ رُؤيتَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كافيةٌ في الإيمانِ، ألَا ترى إلى قولِ بعضِهم حين رأى الرسولَ: علمتُ أنَّ وجْهَه ليس بوجهِ كذَّابٍ، مع ما يَظهَرُ لهم مِن خوارقِ الآياتِ، وباهِرِ الدَّلالاتِ، فكان المناسبُ أنَّهم وإنْ كانوا دخلوا بالكفر ألَّا يَخرُجوا به، بل يخرجون بالرسولِ مُؤمِنِينَ ظاهرًا وباطنًا، وكان ينبغي إذْ شاهدوهم أن يَتَّبعوهم على دِينهم، وأن يكونَ إيمانُهم بالقولِ موافقًا لاعتقاد قلوبِهم[(٢)]. وفيه- مع تأكيد إضافةِ الكُفرِ إليهم- نفْيُ أن يكونَ من النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في ذلك فِعلٌ[(٣)].

١٠- قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ خبرٌ الغرضُ منه المبالغةُ فيما في

---

(١) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٥٢)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣١)

(٢) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١٠، ٣١١).

(٣) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٢).

قلوبِهم من الجدِّ والاجتهادِ في المكرِ بالمسلمين، والكيدِ بهم، والبُغض والعداوةِ لهم[١]، وفيه: وعيدٌ شديدٌ لهم؛ فعِلمُه محيطٌ بهم وسَيجزيهم عليه[٢].

(١) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤١١).

الآيات (٦٢ - ٦٤)

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿مَغْلُولَةٌ﴾: مُمسِكَةٌ مُنقبِضةٌ عن العَطاء، وأصل الغَلَلِ: تدرُّعُ الشيءِ وتوسُّطه، ويدلُّ على تَخلُّلِ شيءٍ، وثَباتِ شيءٍ، كالشَّيءِ يُغرَز؛ يقال: غَلَل الشَّيءَ في الشَّيءِ، إذا أثْبَتَه فيه، كأنَّه غَرَزَه[١].

﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾: أي: مَمدوتانِ بالبَذلِ والإعطاءِ، وأَرزاقِ عِبادِه، وأقواتِ خَلْقِه، وأَصْلُ (بسط): يدلُّ على امتدادِ الشَّيءِ، في عَرْض أو غيرِ عَرْض[٢].

﴿طُغْيَانًا﴾: أي: مُجاوزةً للحدِّ في العِصيان[٣].

﴿ٱلْعَدَٰوَةَ﴾: أي: اختلافَ القلوبِ والنِّيَّات والتباعُد بها، والعَداوةُ أخصُّ من البَغضاء؛ لأنَّ كلَّ عَدوٍّ مبغِضٌ، وقد يُبغَض مَن ليس بعدوٍّ، مأخوذةٌ مِن عَدْوَتي الجَبل، وهما طَرَفاه؛ سُمِّيَا بذلك لبُعد ما بينهما، وقيل: مِن عدا، أي: ظَلَم[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥-٣٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٣- ٥٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((التبيان))

﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾: أي: البُغض، وهو نفارُ النَّفسِ عن الشيءِ الذي تَرغَبُ عنه، وأصلُ البُغض: خلافُ الحبِّ[1].

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يقولُ اللهُ تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ترى- يا محمَّدُ- كثيرًا من اليهودِ يُبادرونَ إلى ارْتِكابِ المعاصي، والاعتداءِ على حقوقِ الخَلْقِ، وأكْلِ الأموالِ بالباطِلِ؛ لَبِئسَ هذا العملُ الذي يعملونه! هلَّا يَنهاهم الربَّانيُّون منهم، وأحبارُهم عن قولِهم الإثمَ وأكْلِهم المالَ الحرامَ! لبئسَ هذا الصنيعُ مِن هؤلاءِ العلماءِ في ترْكهم نهيَ اليهودِ عن أفعالِهم المنكَرة!

ثمَّ يُخبِرُ تعالى عن اليهودِ- قاتلَهم اللهُ- أنَّهم وصَفوا اللهَ تعالى بالبُخل، وزَعَموا أنَّ يدَه مقبوضةٌ عن الإنفاقِ، تعالى اللهُ عن ذلِك علوًّا كبيرًا، فردَّ عليهم سبحانه قائلًا: قُبِضتْ أيديهم، وطُرِدُوا من رحمةِ اللهِ بما قالوه من كذب وافتراءٍ؛ فالأمْر ليس كما زعَمُوا، بل يداه مبسوطتانِ بالبذلِ والعطاءِ، يُنفِقُ كما أراد.

ثمَّ أخبر اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ ما أنزله إليه مِن القرآن، إذا سمعه اليهودُ سيَزيدُهم تجاوزًا لحدودِ اللهِ وكُفرًا، وأخبر عزَّ وجلَّ أنَّه جَعَل بين اليهودِ عَداوةً وتباغضًا، ولا يزال ذلك مُستمرًّا بينهم إلى يَومِ القيامةِ، وأنَّهم كلَّما أرادوا إشعالَ حَربٍ؛ أطفأَها اللهُ سُبحانَه، وأنَّ اليهودَ يُسارعون في نشْرِ الفسادِ في الأرض، واللهُ سُبحانَه لا يحبُّ المفسِدين.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟

لابن الهائم (ص: ٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٤٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩).

يَعۡمَلُونَ ﴿٦٢﴾.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَ﴾.

أي: وتُبصِر - يا محمَّدُ - كثيرًا من هؤلاءِ اليهودِ يَتسابَقون في ارتكابِ معاصِي اللهِ لا يَتحاشَوْنَ شيئًا منها، ويُبادرون إلى تعدِّي حدودِه؛ ممَّا أحلَّ لهم وحرَّمَ عليهم، ومن ذلك: الاعتداءُ على حقوقِ المخلوقين، وأكْلُ الأموالِ بالباطلِ، كالرَّشاوَى التي يتلقَّوْنَها[1].

﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: واللهِ لَبِئسَ العملُ ما كانَ هؤلاءِ اليهودُ يَعملونه في مسارعتِهم في الإثمِ والعُدوانِ، وأكْلِهم السُّحتَ[2].

﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَ﴾.

أي: هلَّا يَنهاهم الربانيُّون (وهم العلماءُ الحُكماءُ العُبَّاد الذين يُربُّون الناسَ بصغارِ العلمِ قبلَ كبارِه)، والأحبارُ (وهم العلماءُ الكبارُ ذَوو العلمِ الواسِع، المحكِمُون لعِلمهم) عنِ الوقوعِ في الكذبِ والزُّورِ؛ ومِن ذلك قولُهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٞ﴾، وأكْل المالِ الحرامِ، كالرِّشوة![3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤٨- ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤٧- ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩٩- ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠٠- ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص:

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

أي: واللهِ لَبِئسَ الصَّنيعُ ما كان يَصنعُه هؤلاءِ الربَّانيُّونَ والأحبارُ في ترْكهم نهيَ كثيرٍ من اليهودِ- الذين يُسارِعونَ في الإثمِ والعدوانِ وأكْلِ السُّحتِ- عن تعاطِي ذلك[١].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

أي: وقالتِ اليهودُ- عليهم مِن الله ما يستحقُّون-: إنَّ اللهَ يَبخَلُ علينا، ويَحبِسُ عطاءَه، ويَقبِضُ خيرَه عنَّا، تعالى اللهُ عمَّا قال أعداءُ اللهِ عُلوًّا كبيرًا[٢].

ثم قال اللهُ تعالى على وجه الإخبارِ[٣]:

---

٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠١).

وقال ابنُ عُثَيمين: (الإثمُ الذي يقولونه أعظمُه وأشدُّه أنَّهم يُنكرون رسالةَ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وأعظمُ مِن ذلك أنهم يقولون: إنَّ عُزيرًا ابنُ الله، والمسيحَ ابنُ الله، والقائل: عزيرٌ ابن الله اليهودُ، والقائل: المسيحُ ابن الله النَّصارى؛ هذا قولُ الإثم، كذلك يقولون الكَذِب، كما سبَق أنهم يقولون لعوامِّهم قولًا يُكذِّبون به الرسولَ، ويَستمِعون للكذبِ، وقوله: ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ يعني: أكْل المال المحرَّم، سواء بالرِّشوة أو بالرِّبا، أو غير ذلك) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٢- ٥٥٣)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤١٢- ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٥- ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠٨).

(٣) قال ابنُ عُثيمين: (هذا خبرٌ وليس دعاءً؛ لأنَّه صادرٌ من عند الله عزَّ وجلَّ، والله سبحانه وتعالى

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾.

أي: قُبِضتْ أيديهم عن العَطاءِ والخَيرِ والإحسانِ، وطُرِدوا من رَحمةِ اللهِ تعالى؛ وهذا الغَلُّ لأَيديهم، ولَعْنُهم؛ جَزاءٌ لهم بسَببِ ما قالوه مِن كُفرٍ وافتراءٍ على اللهِ عزَّ وجلَّ[1].

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

أي: ليسَ الأمرُ كما يَزعُمون، بل يداه سبحانه مبسوطتانِ بالبذلِ والعطاء، غير مقبوضتَينِ، فهو الواسعُ الفضلِ، الجزيلُ العطاءِ، لكنَّه يُعطي ويمنعُ بحسَبِ ما تَقتضيه حِكمتُه سبحانه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وعن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ((إِنَّ

يُخبر ولا يدعو، هذا هو الأصلُ؛ أنَّ ما أخبر الله به عن نفْسِه فهو خبرٌ عن نفْسه ووقوعٌ- أي: وقوع الشيء- إلَّا إنْ دلَّ دليلٌ... على أنَّ الله جلَّ وعلا عَلَّمَ العبادَ أن يَدْعُوا، وأمَّا أن يسألَ نفسَه أن يفعلَ؛ فلا يَرِد) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠٩)، وينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٣) ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠٩).

قال ابنُ كثيرٍ: (... وهكذا وقَعَ لهم؛ فإنَّ [ما] عندهم من البُخلِ والحسدِ والجُبن والذِّلَّة أمرٌ عظيمٌ، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٣-٥٥]، وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٢]) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠٩- ١١٠).

يَمِينَ اللهِ مَلأى، لا يَغيضُها[١] نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ[٢] اللَّيْلَ وَالنَّهارَ، أَرَأَيْتُم ما أَنْفَق مُنْذُ خَلَق السَّمَواتِ والأرْضَ ، فإِنَّه لم يَنْقُصْ ما في يَمينِه))[٣].

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾.

أي: إنَّ كثيرًا من هؤلاءِ اليهودِ- يا محمَّدُ- يَزدادون بسماعِهم القرآنَ العظيمَ تجاوُزًا لحُدودِ اللهِ تعالى، وكفرًا بالحقِّ[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

---

(١) لا يَغيضها: أي لا يَنقُصُها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٠١).

(٢) سحاءُ: أي: دائمةُ الصَّبِّ والهَطْل بالعَطاءِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٤٥)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/ ٤٥٩).

(٣) رواه البخاري (٧٤١٩)، واللفظ له، ومسلم (٩٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٧-٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١٠، ١٦١).

قال السعديُّ: (تكونُ لمِثل هذا زِيادةَ غيٍّ إلى غيِّه، وطُغيانٍ إلى طُغيانه، وكفرٍ إلى كُفره؛ وذلك بسببِ إعراضه عنها، وردِّه لها، ومعاندتِه إيَّاها، ومعارضته لها بالشُّبه الباطلة) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨).

وقال ابنُ عاشور: (وهذا بيانٌ للسبب الذي بعثَهم على تلك المقالة الشَّنيعة، أي: أعماهم الحسدُ، فزادهم طغيانًا وكفرًا، وفي هذا إعدادٌ للرسول عليه الصَّلاة والسَّلام لأخْذِ الحذرِ منهم، وتسليةٌ له بأنَّ فَرْطَ حَنقِهم هو الذي أنطقَهم بذلك القولِ الفظيع) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٥١).

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: وجعَلْنا بين اليهودِ عداءً لبعضِهم بأفعالِهم، وتباغضًا بينَهم بقلوبِهم، ولا يزالونَ كذلك إلى وقوعِ القِيامة(١).

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾.

أي: كلَّما عقَدَ اليهودُ أسبابًا وأمورًا لحربِ أعدائِهم أبْطَلَها اللهُ عزَّ وجلَّ، فانحلَّ عزْمُهم، وكلَّما أقاموا حَرْبًا ردَّ اللهُ تعالى كَيدَهم في نُحورِهم، فانْخَذلوا وانْهَزموا(٢).

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾.

أي: ويُسارِعونَ ويَجتهِدون في اكتسابِ الفسادِ بالكُفرِ، وعمَلِ المعاصي، ومحاربةِ الإسلامِ وأهلِه، ونشْرِ الباطِلِ، وغير ذلك من الأعمالِ الفاسِدة(٣).

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١١- ١١٢).

قال ابنُ تَيميَّة: (﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ فهذا اللفظُ أصلُه: أنَّ المحاربين يُوقدون نارًا يجتمع إليها أعوانُهم، ويَنصُرون وليَّهم على عدوِّهم، فلا تتمُّ محاربتُهم إلا بها، فإذا طُفِئت لم يجتمعْ أمرهم، ثم صار هذا كما تُستعمل الأمثالُ في كلِّ محاربٍ بطَل كيدُه) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨٢، ١٨٣، ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١٢).

أي: واللهُ تعالى لا يُحبُّ هؤلاءِ؛ لأنَّهم مُفسِدونَ، ولا يحبُّ كلَّ مُفسدٍ من اليهودِ وغيرِهم، بل يُبغضهم، وسيُجازِيهم على ذلك[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ مَن سارَعَ في الإثمِ والعُدوانِ وأكْلِ السُّحت ففيه شَبَهٌ من اليهود؛ لقولِه: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾[٢].

٢- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ التحذيرُ مِن الكسْبِ المحرَّم؛ وجهه: أنَّ اللهَ سمَّاه سُحتًا؛ فاحْذرْ أن تخسرَ الدُّنيا والآخِرةَ بأكْلِ المحرَّم[٣].

٣- أنَّه لا حرَجَ أنْ نذُمَّ الأفعالَ المكروهةَ بقَطْعِ النَّظرِ عن فاعِليها؛ لقولِه تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٤].

٤- عِظمُ مسؤوليَّة المربِّين والعلماءِ؛ لقوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾، فجعَلَ اللهُ اللومَ على الربانيِّين والأحبارِ؛ لأنَّهم لم يقوموا بما أوجبَ اللهُ عليهم مِن نَهْيِ هؤلاءِ عن قولِهم الإثمَ وأكْلِهم السُّحتَ، فيجبُ على العُلماءِ أن يُبيِّنوا الحقَّ بقطْعِ النَّظرِ عن مكانتِهم الشخصيَّة، حتى لو فُرِض أنهم أُهينوا أو أُذلُّوا بسببِ ذلك، فالعاقبةُ لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٥] [هود: ٤٩].

٥- قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ فيه توبيخُ العُلماءِ التَّاركينَ للأمرِ بالمَعروفِ، والنَّهيِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٠٣، ١٠٤).

عن المنكرِ؛ فليَفتَحِ العُلماءُ لهذه الآيةِ مَسامِعَهم، ويُفرِجُوا لها عن قُلوبِهم؛ فإنَّها قد جاءَتْ بما فيه البَيانُ الشَّافي لهم: بأنَّ كَفَّهم عن المعاصي مع تَرْكِ إنكارِهم على أهلِها؛ لا يُسمِنُ ولا يُغني مِن جُوعٍ، بل هم أشَدُّ حالًا، وأعظَمُ وبالًا مِنَ العُصاةِ، فرَحِمَ اللهُ عالِمًا قام بما أوجَبَه اللهُ عليه مِن فريضةِ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنكَرِ؛ فهو أعظَمُ ما افترَضه اللهُ عليه، وأوجَبُ ما أوجَبَ عليه النُّهوضُ به[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- عبَّر بالأكْلِ في قولِه: ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾؛ لأنَّه هو الغالبُ؛ ولأنَّ أعْلى ما يمكن أن ينتفعَ به الإنسانُ بالمالِ هو الأكلُ؛ لأنه يُغذِّي البَدن ويُنمِّيه، بخلاف اللِّباسِ والمساكِن والنِّكاح؛ فعبَّر به لهذا الوجهِ[٢].

٢- قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ فيه دلالةٌ على كونِ الكفِّ فِعلًا؛ فترك الربانيِّين والأحبارِ نهيَهم عن قولِ الإثمِ وأكْلِ السُّحتِ سمَّاه اللهُ جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة صُنعًا، في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾، أي: وهو تركُهم النهيَ المذكورَ، والصنع أخصُّ مِن مُطلقِ الفِعلِ؛ فصراحةُ دَلالةِ هذه الآيةِ الكَريمةِ على أنَّ الترْكَ فِعلٌ في غايةِ الوُضوحِ[٣].

٣- بيانُ عُدوانِ اليهودِ، وأنَّهم يُصرِّحون بالعدوانِ والاعتداءِ، حتى في حقِّ الخالِقِ عزَّ وجلَّ؛ لقولِهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[٤].

---

(١) ينظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/ ٦٤).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٨).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١٢).

٤- يُستفادُ من قولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾ أنَّ اليهودَ يُقرُّون بصِفات اللهِ عزَّ وجلَّ الحقيقيَّة؛ لأنَّه لا يُقال: يدُ أحدٍ مغلولةٌ إلَّا لِمَن له يدٌ[١].

٥- يُستفادُ من قولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾ الإشارةُ إلى حِرصِ اليهودِ على المالِ؛ وجه الدَّلالة: أنَّهم لم يَحملْهم على هذا القولِ إلَّا الجشعُ والطمعُ[٢].

٦- في قوله: ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ﴾ لم يُبيِّن اللهُ عزَّ وجلَّ مَن اللاعِنُ؛ لإفادةِ العُمومِ؛ أنَّ اللهَ يَلعَنُهم ويَلعنُهم اللاعِنون أيضًا[٣].

٧- قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ ...﴾ الآية أصلٌ في تكفيرِ مَن صدَر منه في جانبِ الباري تعالى ما يُؤذِنُ بنقْصٍ[٤].

٨- إثباتُ اليدينِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لقوله سبحانه: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[٥].

٩- كثرةُ عطاءِ اللهِ وَجُودِه؛ لقوله: ﴿مَبۡسُوطَتَانِ﴾ لا يُمكن أن تُقبضَا بالنسبةِ للعطاء، وأنَّ عطاءَ اللهِ ومَنْعَه تابعٌ لمشيئتِه؛ لقولِه: ﴿يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾[٦].

١٠- قال تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مُتعلِّق بـ ﴿أُنزِلَ﴾، وإنَّما قَيَّدَ إنزالَ القُرآنِ بكونِه مِن الرَّبِّ تعالى؛ ليدلَّ على أنَّ القُرآنَ نزَلَ مِنه سُبحانَه لا مِن غَيرِه من مَخلوقاتِه، وأنَّ نُزولَ القرآنِ ليسَ كنُزول غيرِه، فقَدْ فرَّق اللهُ تعالى بين ما نَزَّله منه وما نَزَّله مِن بعضِ المخلوقاتِ كالمطرِ، بأنْ قال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الرعد: ١٧]، فذَكَر المطرَ في غيرِ موضعٍ، وأخبر أنَّه

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١٢).
(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٤) ينظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١١٣).
(٥) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١٥).
(٦) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٨).

نَزَّلَه مِن السَّماء، وأخبَر بتنزيل مُطلَق في مِثل قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وأمَّا القرآنُ فأَخْبَر أنَّه مَنزَّلٌ منه، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وروحُ القُدسِ هو جبريلُ؛ فبَيَّن أنَّ جِبريلَ نزَّلَه مِنَ اللهِ لا مِن هواه ولا مِن لَوحٍ ولا مِن غيرِ ذلك، وكذلك سائرُ آياتِ القرآنِ فقدْ بَيَّن في غير موضِعٍ أنَّه مُنزَّلٌ مِن الله، كقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]؛ فمَن قال: إنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ مِن بعضِ المخلوقاتِ كاللَّوحِ أو الهواء، فهو مُفتَرٍ على الله، مُكذِّبٌ لكتاب الله، مُتَّبِعٌ لغير سبيل المؤمنين(١).

١١- تحريمُ الفَسادِ في الأَرضِ؛ لقوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وهكذا كلُّ شيءٍ نفَى اللهُ مَحبَّته فإنَّه حرامٌ؛ فالفسادُ في الأرضِ حرامٌ(٢).

١٢- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أنَّ الشيء إذا ثبَت لوصفٍ، ثبَت ضدُّه لضدِّ ذلك الوَصف، فعلى هذا نقول: إذا كان اللهُ لا يحبُّ المفسِدين، فإنَّه يحبُّ المصلِحين(٣).

١٣- عنايةُ اللهِ عزَّ وجلَّ بالرسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وذلك بقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ فإنَّ هذه الربوبيَّةَ خاصَّةٌ، تَقتضي العنايةَ التامَّةَ والأقْوى والأشدَّ(٤).

١٤- أنَّ اللهَ تعالى أَلْقَى العَداوةَ والبَغضاءَ بين اليهود؛ لقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]، ولذلك هم أحزابٌ شتَّى، وحتى داخلَ الحزبِ الواحدِ مُتفرِّقون؛ لأنَّهم لا يُمكن أن يجتمِعوا وقد أَلْقَى اللهُ بينهم العداوةَ والبغضاءَ، فاجتماعُهم الآن ليس

(١) ينظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٤٠-٤٣)، ((مجموع الفتاوى)) ابن تيمية (١٢/ ١٢٨).
(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٢٥).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٦).
(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٢).

لأنَّهم متحابُّون متآلِفون، لكنَّهم اجتمعوا لهدفٍ واحدٍ ومصلحةٍ واحدةٍ ضدَّ عدوٍّ واحدٍ للجميع، وهذا الاجتماعُ لا شكَّ أنَّه اجتماعٌ ظاهريٌّ فقط، مقصودٌ لغيرِه، وليس مقصودًا لذاتِه[١].

١٥- قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ في هذا الخَبرِ الإيماءُ إلى أنَّ اللهَ عاقبَهم في الدُّنيا على بُغضِهم المسلمين، بأنْ أَلْقَى البغضاءَ بين بعضِهم وبعضٍ؛ فهو جزاءٌ من جِنس العملِ، وهو تسليةٌ للرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ألَّا يُهمَّه أمرُ عداوتِهم له؛ فإنَّ البغضاءَ سجيَّتُهم حتى بينَ أقوامِهم، وأنَّ هذا الوصفَ دائمٌ لهم، شأنُ الأوصافِ التي عَمِيَ أصحابُها عن مُداواتِها بالتخلُّق الحسَنِ[٢].

١٦- لَمَّا كان الإخبارُ باجتماعِ كَلمتِهم على شقاوةِ الكفرِ- في قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾- ربَّما أحْدَث خوفًا من كيدِهم، نفَى ذلك بقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾، ولَمَّا كانتِ العداوةُ ربَّما زالتْ بزوالِ السَّبب، أفاد أنَّها لازمةٌ لا تنفكُّ بقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[٣].

١٧- في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ سُمِّي ذلك اليَومُ الآخِرُ بيومِ القِيامة لوجوهٍ ثلاثة؛ الوجه الأوَّل: أنَّ الناس يقومون فيه مِن قُبورِهم لربِّ العالَمِين. الوجه الثاني: أنَّه يُقامُ فيه العدلُ. والثالث: أنَّه يُقام فيه الأشهادُ؛ تُستشهَدُ الرُّسلُ، ثم الأُممُ، ثم الجلودُ والأعضاءُ، ويَتبيَّن الأمرُ وينكشِف، ويَظهرُ ما في الصُّدور؛ فلذلك سُمِّي يومَ القيامةِ[٤].

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٣)

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٥١).

(٣) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٢٢).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٤).

١٨- البُشرى التامَّة للمسلمين بأنَّ اليهود لن تقومَ لهم قائمةٌ في الحروب؛ لأنَّهم: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ ولم ينالوا بها مقصودَهم، وإنْ كانوا قد يَنالون بعضَ الشيء، لكنَّهم لن ينالوا المقصودَ الذي يُريدونه بإشعالِ نارِ الحربِ[١].

١٩- إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّة للهِ عزَّ وجلَّ؛ لقولِه: ﴿أَطۡفَأَهَا﴾، وإطفاؤُها يكون بعدَ إيقادِها، وهذا فعلٌ مُتجدِّد[٢].

٢٠- محبَّةُ اليهودِ للفسادِ في الأرضِ، وسَعيُهم في ذلك سعيًا حثيثًا؛ لقوله: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗا﴾[٣].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

- قوله: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ...﴾ عبَّر هنا بلفظ (المسارعة)- مع أن أكثرَ استِعمالِه يكونُ في الخَيرِ- ولم يُعبِّر بلفظ (العجلة) مع أنه يكون في الشَّرِّ في الأغلب؛ قيل: للإشارة إلى أنَّ هذه المعاصي كأنها عِندَهم مِن قَبيل الطاعاتِ؛ فلذلك يُسارِعونَ فيها، أو إلى أنَّهم كانوا يُقدِمون على هذه المنكراتِ كأنَّهم مُحقُّون فيها[٤].

- وقال تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي﴾ ولم يقُل: (يُسارعون إلى)؛ ذلك لأنَّ المسارعَ إلى الشيءِ يكون خارجًا عنه، فيُقبِلُ عليه بسرعةٍ، وهؤلاءِ غارقونَ

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٥).
(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٤) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٢) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١١) ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٩).

في الإثمِ والعُدوان، وإنَّما يُسارِعون في جزئيَّات وقائعِهما، كلَّما قدَروا على إثمٍ أو عُدوانٍ ابْتَدَروه[(١)].

- وقوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾ خصَّ ﴿ٱلۡعُدۡوَٰنَ﴾ و﴿ٱلسُّحۡتَۚ﴾ بالذِّكر مع اندراجِهما في الإثمِ، وهو يَتناولُ جميعَ المعاصي والمنهيَّات؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذينِ النَّوعينِ أعظمُ أنواعِ المعصية، وللمبالغةِ في التَّقبيح[(٢)].

٢- قوله تعالى: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾

- قوله: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ...﴾ فيه تَحضيضٌ مُرادٌ منه هنا التَّوبيخُ والتَّنديمُ لعُلمائِهم على سُكوتِهم عنِ النَّهيِ عن معاصِي اللهِ تعالى[(٣)].

---

(١) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢١٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٧٣).

(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٢) ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١١) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤٨).

(٣) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤٨).

(لولا) التَّحضيضيَّة حَرْفٌ يَدلُّ على طَلَبِ الفِعل بِحَثٍّ وحضٍّ، وهي تَنقسِمُ قِسمين؛ الأولى: أنْ تَدخُل على فِعلٍ مضارعٍ، أو فِعلٍ يَكونُ مُمكنًا تَداركُه، مُمكنًا فِعلُه؛ فهذه تُفيدُ التحضيضَ فقط. الثانية: أنْ تَدخُل على فِعلٍ ماضٍ أو فِعلٍ فاتَ تَداركُه، ولم يَبقَ فِعلُه مُمكنًا؛ لأنَّ فُرصتَه ضاعَتْ ومَضَتْ، ولم يُمكِنْ تَداركُه؛ ولم يَبقَ مُمكِنًا أبدًا؛ فهذه يَنقلِبُ تَحضيضُها إلى التوبيخِ والتنديم؛ وتارةً يُوبَّخ بها موجودٌ، كقولِه للَّذين تَكلَّموا في عائشةَ وصفوانَ رضِي الله عنهما: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٦]؛ لأنَّهم قدْ تكلَّموا بما لا يَليقُ، فكأنَّه يُوبِّخُهم ويُندِّمُهم على ما فَرَط منهم. وتارةً يكونُ الموبَّخُ بها قدْ ماتَ، وليس موجودًا، كقوله: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام: ٤٣]؛ لأنَّ وقتَ نُزولِ الآيةِ هؤلاءِ الأممُ قدْ ماتوا وَانْقَضَوْا في أزمانٍ متناهيةٍ، قد مَضَوْا في الزَّمانِ الماضي؛ فلا يُمكنُ حُصولُ الفعلِ منهم، وليسوا مَوجودِينَ حتَّى يَسمَعوا التوبيخَ، ولكنَّ المقصودَ مِن توبيخِ هذا الذي غَابَ وماتَ؛ ليعتبرَ به غيرُه؛ ولذا كان من الحَسن أن يُوبَّخ أولئك؛ لنعتبرَ بتَوبيخِهم، فنَجتَنِبَ ذلِك الأمرَ الذي استحقُّوا التَّوبيخَ مِن أجْلِه. يُنظر: ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٣٦١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٤٨).

- وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ اقتَصَر في تَوبيخِ الرَّبَّانيِّين على تَرْك نَهيِهم عن قَولِ الإثمِ وأكْلِ السُّحتِ، ولم يَذكُر العُدوانَ؛ إيماءً إلى أنَّ العُدوانَ يَزجُرهم عنه المسلِمون، ولا يَلتجِئون في زَجْرِهم إلى غيرهم؛ لأنَّ الاعتِمادَ في النُّصرةِ على غير المجنيِّ عليه ضَعفٌ[1].

٣- قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾: فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر قوله: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ...﴾ ختَم بقولِه: ﴿يَعْمَلُونَ﴾، ولَمَّا ذَكَر قولَه: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ...﴾ ختَم بقولِه: ﴿يَصْنَعُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ في الأُولى مَعاصِي العوامِّ، وهي مِن قبيلِ ما يَحصُل بالطَّبعِ؛ لأنَّه اندفاعٌ مع الشَّهوةِ بلا بَصيرةٍ، أمَّا الثانيةُ فهي مَعصيةُ العلماءِ بترْك النَّهيِ عن المنكَرِ والأمرِ بالمعروفِ، وهذا مِن قَبيلِ الصناعة المتكلَّفة لفائدةٍ للصانعِ فيها، يلتمسها ممَّن يَصنَعُ له؛ فما ترَكَ العلماءُ النهيَ عن المنكَرِ وهم يعلمون ما أَخَذ اللهُ عليهم من الميثاقِ، إلَّا تكلُّفًا لإرضاءِ النَّاس، وتحاميًا لتَنفيرِهم منهم؛ فهو إيثارٌ لرِضا النَّاسِ على رِضوانِ اللهِ وثَوابِه، والأقربُ أن يكونَ ﴿يَصْنَعُونَ﴾ مِن الصُّنع، لا مِن الصِّناعة، وهو العَملُ الذي يُقدِّمه المرءُ لغيرِه يُرضيه به[2]، والصُّنع أيضًا عَملُ الإنسان بعدَ تدرُّب فيه، وتَروٍّ وتحرِّي

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤٨).

(٢) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢١٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٧٣).

قال ابنُ عُثيمين: (وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ الصُّنع والفعل بينهما خصوصٌ وعموم مُطلَق؛ لأنَّ الصنع إنما يكون فِعلًا بترتيبٍ، وإعدادٍ للقول أو للفعل، بخلاف الفِعل المجرَّد، فالفعل يُطلق على كلِّ فِعل، سواء كان عن قصدٍ أو عن غيرِ قصد، حتى البهيمة لو أكَلَتْ قلنا: إنها فعلت، لكن الصُّنع لا يكونُ إلَّا بتدبيرٍ وتنسيقٍ وإصلاح؛ وذلك أنَّ هؤلاء الربانيِّين والأحبار يصنعون ما يصنعون مِن كتمان الحقِّ وعدم الأمر به؛ يُريدون أن يَبقَوا وجهاءَ في قومهم؛ لأنَّ الشيطان يقول لهم: إنْ نهيتموهم صِرتُم أعداءً لهم، ولم تحصُل لكم الرئاسةُ؛ فلذلك تجدهم

إجادةٍ؛ ولذلك ذُمَّ به خَواصُّهم (الربَّانيُّون والأحْبار)، ولأنَّ ترْكَ الحِسْبةِ أقبحُ من مُواقعةِ المعصية؛ لأنَّ النفسَ تلتذُّ بها وتَميل إليها، ولا كذلك تركُ الإنكارِ عليها، فكان جديرًا بأبلغِ الذمِّ[(١)].

- والجمْع بين صِيغتي الماضي ﴿كَانُوا۟﴾ والمستقبل ﴿يَصْنَعُونَ﴾؛ للدِّلالةِ على الاستمرارِ[(٢)].

٤- قوله: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ فيه: تمثيلٌ وكنايةٌ حسَنة؛ حيث عبَّر بإيقادِ النار عن إظهارِ الحقدِ والكيدِ والمكرِ بالمؤمنين والاغتيالِ والقتالِ، فشبَّه به حالَ التهيُّؤ للحربِ والاستعدادِ لها، والحزامةِ في أمرها، بحالِ مَن يُوقِدُ النارَ لحاجةٍ بها فتنطفئ، وعبَّر بإطفائِها عن صَرْفِ الله عنهم ذلك، وتفرُّقِ آرائهم، وحلِّ عزائمِهم، وتفرُّق كلمتِهم، وإلقاءِ الرُّعبِ في قلوبِهم؛ فشبَّه حالَ انحلالِ عزمِهم، أو انهزامِهم وسُرعة ارتدادِهم عنها، وإحجامِهم عن مقاتلةِ أعدائِهم، بحالِ مَن انطفأتْ نارُه التي أوقدَها[(٣)].

٥- قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ فيه: بيانُ فظاعةِ سوءِ أدبِ اليهود؛ حيث عبَّروا عن إمساكِ الإحسانِ بأنَّه صادرٌ من مقهورٍ على الإمساكِ؛ فإنَّ لفظةَ ﴿مَغْلُولَةٌ﴾ تدلُّ على القَهر؛ إذ لا يغلُّ إلَّا المقهورُ[(٤)].

يعملون هذا العملَ عن ترتيبٍ وعن سياسةٍ - كما يقولون) ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ١٠٢).

(١) ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣١).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٧).

(٣) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٢٠).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١٤).

٦- **قوله**: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾: ثُنِّيت اليدُ هنا، بالرغمِ مِن كونها أتتْ مفردةً في قولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾؛ ليكونَ ردُّ قولهم وإنكارُه أبلغَ وأدلَّ على إثباتِ غاية السَّخاءِ له، ونفْي البُخل عنه سبحانه؛ وذلك أنَّ غاية ما يبذله السخيُّ بماله مِن نفْسه، وأنْ يُعطيه بيديه جميعًا[(١)].

٧- **قوله**: ﴿يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ جملةٌ مستأنَفَة واردةٌ لتأكيدِ كمالِ جُودِه، وللتنبيهِ على سرِّ ما ابتُلوا به من الضِّيقِ الذي اتَّخذوه- من غايةِ جهلِهم وضلالِهم- ذَريعةً إلى الاجتراءِ على الله بهذه المقالة الشنيعة، والمعنى أنَّ ذلك ليس لقصورٍ في فيضِه، بل لأنَّ إنفاقَه تابعٌ لمشيئتِه، المبنيَّةِ على الحِكَمِ، التي عليَها يدورُ أمرُ المعاشِ والمعادِ، ففي قوله: ﴿يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ دلالةٌ على أنَّه لا ينفقُ إلَّا على مقتضى الحِكمةِ والمصلحةِ[(٢)].

٨- **قوله**: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ...﴾ جُملةٌ واقعةٌ في جَوابِ القَسمِ؛ وعليه فالجُملةُ مُؤكَّدةٌ بثَلاثةِ مؤكِّدات: القَسَم المقدَّر تقديره: (وَاللَّهِ)، واللام، ونُون التَّوكيد؛ وإنَّما أكَّد اللهُ ذلك لأهميَّتِه، ولئلَّا يُنكِرَ مُنكِرٌ أنْ يكونَ النازلُ شِفاءً لِمَا في الصُّدور- وهو القرآن- يَزيدُ هؤلاءِ طُغيانًا وكفرًا[(٣)].

- وفيه تقديمُ المفعولِ ﴿كَثِيرًا﴾ على الفاعِلِ ﴿مَّآ﴾- بمعنى الذي-؛ للاعتناءِ

---

(١) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١٥).
مع تقرير أنَّ لله تعالى يَدينِ حقيقيتينِ تليقانِ بكمالِه وجلالِه، وهذه الآية كغيرها من آياتِ الصِّفات عندَ أهل السُّنة والجماعةِ؛ تُمَرُّ كما جاءتْ مِن غيرِ تعطيلٍ أو تحريفٍ، ومن غيرِ تمثيلٍ أو تكييفٍ، وغالبُ البلاغيِّين والمفسِّرينَ من أَهلِ الكلامِ يتَّجهونَ في هذا الموضِعِ إلى نَفْيِ هذِه الصِّفةِ بالتأويلِ المخالِفِ لاعتقادِ أهلِ السُّنةِ والجماعةِ، ولهم في ذلِك تأويلاتٌ متعدِّدة، كلُّها مردودةٌ.
(٢) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١٠).

به، وتخصيصُ الكثيرِ منهم بهذا الحُكمِ؛ لأنَّ بعضَهم ليس كذلك[١].

- وتأخيرُ قولِه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ عن ﴿إِلَيْكَ﴾ مع أنَّ حقَّه أن يَتقدَّم؛ لاقتِضاءِ المقامِ الاهتمامَ ببيانِ المنتهي؛ لأنَّ مدارَ زِيادةِ طُغيانِهم وكُفرِهم هو النُّزولُ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[٢] [النمل: ٦٠].

- والتعرُّض لعنوانِ الرُّبوبيَّة مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قوله: ﴿رَّبِّكَ﴾؛ لتشريفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣].

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٨).
(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٨).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٥ - ٦٨)

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾: عادلةٌ غيرُ غاليةٍ ولا مُقصِّرةٍ، أو مؤمنةٌ، والاقتصادُ: الاستواءُ في العملِ من غيرِ إفراطٍ ولا تفريطٍ[(١)].

﴿سَآءَ﴾: أي: قَبُحَ، والسُّوء: اسمٌ جامعٌ للآفاتِ، ثم استُعمِلَ في كلِّ ما يُستقبَحُ، وهو أيضًا كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ[(٢)].

﴿يَعْصِمُكَ﴾: يَمنَعُك، وأصلُ العِصمةِ: المنعُ- ومنه يُقال: عَصَمَه الطَّعامُ؛ أي: منَعَه من الجوعِ-، والإمساكُ والملازمةُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ١٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٢٧).

﴿تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾: أي: تُوفُّوا حُقوقَهما بالعِلمِ والعَملِ؛ وإِقَامَةُ الشيء: توفية حقِّه[1].

﴿فَلَا تَأۡسَ﴾: أي: لا تَحزَنْ؛ يُقال: أسيتُ على كذا، أي: حزنتُ، فأنا آسَى أسًى، والأَسى: الحُزنُ[2].

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: لو آمَن أهلُ الكِتابِ من اليهودِ والنَّصارى حقًّا، واتَّقَوا ربَّهم سبحانه؛ لَمَحَا اللهُ عنهم ما اقتَرفوه من سيِّئاتٍ، ولأدخَلَهم الجَنَّة، ولو عمِلوا بما في التوارةِ والإنجيلِ والقرآنِ، لأفاض عليهم بركاتِ رِزقه، وعمَّهم الخيرُ مِن كلِّ جهةٍ؛ بأن يُرسِلَ عليهم المطرَ من السَّماء، ويُخْرِجَ لهم الثمراتِ من الأرضِ، ثمَّ أخبَر تعالى أنَّ مِن أهلِ الكتابِ جماعةً مستقيمةً على طريق الحقِّ، قائمةً بالواجبِ الذي كُتِب عليها، مقتصرةً عليه، وأنَّ كثيرًا منهم قدْ أساؤوا العملَ.

ثم أمَر اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُبلِّغَ كلَّ ما أنزلَه إليه، فإنْ لم يفعلْ ذلك، فما امتثل أمْرَه عزَّ وجلَّ بتبليغِ رِسالتِه، وطَمْأنَه سبحانه بأنَّه سيَمْنَعُه مِن الناسِ؛ فلا ينبغي أن يَثْنِيَه عن إبلاغِ شريعةِ اللهِ خوفُه من المخلوقينَ؛ إنَّ اللهَ لا يَهدي القومَ الكافرينَ. وأمَرَه أيضًا أنْ يقولَ لأهلِ الكتابِ: إنَّهم ليسوا على شيءٍ ممَّا يَدَّعون أنَّهم عليه من الدِّينِ، حتى يَعملوا بالتوارةِ والإنجيلِ والقرآنِ، وأخْبَره تعالى أنَّ كثيرًا من اليهود يَزدادون بسماعِ القرآن تجاوزًا لحدودِ اللهِ وكفرًا، فلا تحزنْ- يا نبيَّ اللهِ- على القومِ الكافرين.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠، ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بالَغَ اللهُ تعالى في ذمِّ أهلِ الكتابِ، وفي تَهجينِ طريقتِهم؛ بَيَّن أنَّهم لو آمَنوا واتَّقَوْا لوجَدوا سعاداتِ الآخرةِ والدُّنيا[١].

وأيضًا لَمَّا أثبتَ بقولِه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أنَّهم كانوا كَفرةً قبلَ إتيانِ هذا الرسولِ عليه السَّلامُ، وكرَّر ما أعَدَّه لهم من الخِزْيِ الدائمِ على نحوِ ما أخبرَهم به كتابُهم؛ وعَظَهم ورَجَّاهم سبحانه؛ لئلَّا يَيْئسوا من رَوحِ اللهِ على عادةٍ منه في رحمتِه لعبادِه، ورأفتِه بهم[٢]، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾.

أي: ولو أنَّ أهلَ التَّوراةِ والإنجيلِ آمَنوا حقًّا بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به- ومِن ذلك: الإيمانُ باللهِ تعالى وبرسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- وفَعَلوا ما أمَرَهم اللهُ تعالى به، واجتَنبوا ما نهاهم عنه[٣].

﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾.

أي: لَمَحوْنا عنهم ذُنوبَهم، ولو كانتْ ما كانت، فغطَّيْنا عليها، ولم نَفْضَحْهم بها[٤].

---

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٧).

﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

أي: ولأدْخلناهم في الآخِرةِ جَنَّاتٍ تَنعَمُ فيها قلوبُهم وأبدانُهم بأنواعِ النَّعيم، ممَّا تَشتهيه الأنفسُ، وتلَذُّ الأعينُ[(١)].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رغَّبهم اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ في مَوعودِ الآخِرةِ؛ مِن تَكفيرِ السيِّئاتِ، وإدخالِهم الجَنَّة- رغَّبهم عقبَ ذلك في موعودِ الدُّنيا؛ ليجمَعَ لهم بين خَيْرَيِ الدُّنيا والآخِرَةِ[(٢)]، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

أي: ولو أنَّ اليهودَ والنَّصارى عمِلوا بما في التوراةِ والإنجيلِ، وعَمِلوا بالقُرآنِ الذي أُنزِلَ إليهم مِن اللهِ تعالى، فصدَّقوا به، وامْتَثلوا أوامرَه واجتنبوا نواهيَه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٧- ١٣٨).

(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦٢- ٥٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٧- ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٠- ١٤١).

قال ابنُ جرير: (فإنْ قال قائلٌ: وكيف يُقيمون التَّوراةَ والإنجيل وما أُنزل إلى محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، مع اختلافِ هذه الكتُب ونَسْخ بعضها بعضًا؟ قيل: وإنْ كانت كذلك في بعض أحكامها وشرائعها، فهي متَّفقةٌ في الأمْر بالإيمان برُسل اللهِ، والتَّصديقِ بما جاءتْ به من عند الله؛ فمعنى إقامتِهم التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِل إلى محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم تصديقُهم بما فيها، والعملُ بما هي متَّفقةٌ فيه، وبكلِّ واحدٍ منهما في الحِين الذي فُرِض العملُ به) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦٢- ٥٦٣).

﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم﴾.

أي: لأدرَّ اللهُ تعالى عليهم الرِّزقَ؛ بأنْ يُرسِلَ عليهم المطرَ من السَّماءِ، ويُخرِجَ لهم الثَّمراتِ من الأرضِ[١].

كما قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وكإِخْبارِه تعالى عن نُوحٍ عليه السَّلام أنَّه قالَ لقَومِه: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۞ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۞ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

﴿مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا كان ما مضى قبلَ هذه الآيةِ مِن ذمِّ أهلِ الكتابِ ربَّما أَفْهَم أنَّه لِكُلِّهم، قال- مستأنفًا جوابًا لِمَن يسألُ عن ذلك[٢]:

﴿مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞ﴾.

أي: مِن أهلِ الكِتابِ جَماعةٌ قائمةٌ بالواجبِ الذي عليها، فتَمتثِلُ ما أُمِرَتْ به، وتجتنِبُ ما نُهيَتْ عنه، بلا زيادةٍ على ذلِك ولا نَقصٍ[٣].

﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨- ٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٦).

(٢) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٢).

أي: وكثيرٌ من اليَهودِ والنَّصارى قدْ أساؤوا العملَ[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ... وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ وعَلِم أنَّ مَن أُريدتْ سَعادتُه يُؤمِنُ ولا بدَّ، ومَن أُريدتْ شقاوتُه لا يُؤمِنُ أصلًا، وكان ذلك ربَّما أدَّى إلى الفُتورِ عن الإبلاغ؛ لذا أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه بالإبلاغِ وحثَّه عليه[٢].

وأيضًا لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى في الآياتِ السَّابقةِ ما كان عليه أعداءُ الإسلامِ- سواء مِن أهل الكتاب من اليهودِ والنَّصارى، أو مِن المنافقين- مِن دَسائسَ، ومِن استهزاءٍ بتعاليمِ الإسلامِ، ومِن حِقْدٍ على المؤمنين، ومِن سوءِ أدبٍ مع الله، وكان الفريقان متظاهرَين على الرسول صلى الله عليه وسلم: فريق مجاهر، وفريق متستر- أتبَعه بتوجيهِ نِداءٍ إلى الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأمَرَه فيه بأنْ يَمضِي في تبليغِ رِسالتِه إلى النَّاسِ، دون أن يَلتفِتَ إلى مكرِ الماكرين، أو حِقْد الحاقِدين؛ فإنَّه سبحانه قد حماهُ وعَصَمه منهم[٣]، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

أي: يا محمَّدُ، أبلِغْ جميعَ ما أَرسلَك اللهُ تعالى به، فلا تترُكْ ولا تكتُمْ شيئًا منه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٢).

(٢) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٢٩).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٤/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٧).

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها قالت: ((مَن حدَّثكَ أنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كَتَم شيئًا ممَّا أُنزِلَ عليه فقَدَ كذَبَ؛ واللهُ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ الآية))[١].

وعنها رضِي اللهُ عنها، قالت: ((ولوْ كانَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ كاتِمًا شيئًا ممَّا أُنْزِلَ علَيهِ، لَكَتَمَ هذِهِ الآيَةَ: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]))[٢].

وعن جابرٍ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال في حَجَّة الوداع: ((تركتُ فيكم ما لَنْ تَضِلُّوا بعدَه إنِ اعتصمتُم به: كتابَ اللهِ، وأنتُم تُسألونَ عنِّي، فما أنتُم قائلونَ؟ قالوا: نَشهَدُ أنَّكَ قد بلغْتَ وأدَّيتَ ونَصحْتَ، فقال بإِصبَعِه السبَّابةِ، يَرفعُها إلى السَّماءِ، ويَنكتُها إلى الناسِ[٣]: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ! ثلاثَ مراتٍ))[٤].

﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾.

أي: وإنْ لم تُؤدِّ إلى الناسِ جميعَ ما أُرْسِلتَ به، فما امتثلتَ أمْرَه[٥].

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

أي: بلِّغْ أنتَ رِسالةَ اللهِ تعالى، واحْرِصْ على تَبليغِها، ولا يَثْنِيَنَّكَ عن ذلِك

(١) رواه البخاري (٤٦١٢).
(٢) رواه مسلم (١٧٧).
(٣) يَنْكُتُها إلى النَّاسِ: أي: يشيرُ بها إليهم، كالذي يَضرِبُ بها الأرضَ. يُنظر: ((مِرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٥/ ١٧٧٣).
(٤) رواه مسلم (١٢١٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٨).

خوفٌ من المخلوقينَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَحفَظُك، ويمنعُ أعداءَك مِن أن ينالوكَ بسوءٍ، أو أن يَضرُّوك بشيءٍ(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

أي: بلِّغْ أنتَ؛ فما عليكَ إلَّا البَلاغ، واللهُ تعالى لا يُوفِّقُ للحقِّ الكافرينَ المصرِّين على كُفْرِهم؛ بسببِ كُفرِهم، وإعراضِهم عنِ الهُدى والحقِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتبليغِ، سواءٌ طابَ للسَّامعِ أو ثَقُل عليه، أمَرَه أنْ يَقولَ لأهلِ الكِتابِ هذا الكلامَ، وإنْ كان ممَّا يَشقُّ عليهم جدًّا(٣)، فقال:

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

أي: قل يا مُحمَّدُ: يا أهلَ التَّوراةِ والإنجيلِ، لستُم على شيءٍ ممَّا تَدَّعون أنَّكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥١- ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠١).

عليه من الدِّين، إلى أنْ تُؤمِنوا حقًّا- معشرَ اليهودِ- بالتوراةِ، ومَعشرَ النَّصارى بالإنجيلِ، وتَعمَلوا بما فيهما- ومِن ذلك اتِّباعُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- وحتى تُؤمِنوا بالقرآنِ أيضًا وتَعمَلوا به؛ فقد جاءَ مِن ربِّكم الذي أنعمَ عليكم بإنزالِه؛ فالواجبُ عليكم أن تَقومُوا بشُكرِ اللهِ تعالى على ذلِك بأنْ تُؤمِنوا بالقرآنِ وتَتَّبِعوه[1].

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾.

أي: إنَّ كثيرًا مِن هؤلاءِ اليَهودِ والنَّصارى- يا محمَّدُ- يَزدادونَ بسَماعِهم القرآنَ العظيمَ تجاوزًا لحدودِ اللهِ تعالى، وكُفرًا بالحقِّ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: فلا تحزنْ- يا محمَّدُ- على هؤلاءِ الكفَّارِ مِن اليهودِ والنَّصارى الذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٥٥- ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٧، ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٥٧، ١٥٨).

كذَّبوك، وردُّوا رِسالتَك، وإنَّما أدِّ ما عليك، وبلِّغِ الرسالةَ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قولُه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بالرغمِ مِن أنَّ الإيمانَ وحْدَه سببٌ مستقلٌّ لتكفيرِ السيِّئات، وإعطاءِ الحَسنات، إلَّا أنَّه ضَمَّ شَرطًا آخَرَ، وهو التقوى؛ لأنَّ المرادَ من الإيمانِ تحقيقُ التقوى والطاعة، لا لغرضٍ آخَر من الأغراضِ العاجلةِ، كما يفعله المنافِقون[٢].

٢- أنَّ التائبَ مِن الذَّنبِ يُثاب ثَوابَينِ: ثواب الدُّنيا، وثواب الآخرة: أمَّا ثواب الآخِرة؛ فلقولِه: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وأمَّا ثواب الدُّنيا؛ فلقوله: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[٣].

٣- يُستفادُ من قولِه: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أنَّه يجوزُ ترغيبُ النُّفوسِ البَشريَّة في فِعل الطاعاتِ بما يُذكَر من ثوابِ الدُّنيا، وعلى هذا فلو أنَّ إنسانًا عمِلَ عملًا صالحًا يُريد أن يَنالَ حُسنَ الدُّنيا والآخِرة، فإنَّه لا يُلامُ؛ لأنَّه لو كان هناك لَوْمٌ، ما ذَكَر اللهُ سبحانه وتعالى ما يَحصُل من ثوابِ الدُّنيا؛ يَبقَى ذِكرُه شبيهًا باللفظِ الذي ليس له معنًى، وعلى العكسِ مِن هذا المحرَّماتُ، تجِدُ أنَّ الله تعالى جعَلَ لها روادعَ تَردَعُ عنها؛ حتى لا يَفعلَها الإنسانُ، فتجد الرجلَ قد يترُكُ الزِّنا مثلًا خوفًا من العقوبةِ، ولولا هذا لَمَا كان للعقوبةِ فائدةٌ[٤].

٤- يُستفادُ من قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وجوبُ إبلاغِ الشَّريعةِ على أهلِ العِلم؛ وجه ذلك: أنَّ العلماءَ وَرَثةُ الأنبياءِ، وإذا كانوا ورثةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٣٤).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٩).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٣).

الأنبياءِ وجَبَ عليهم أن يَقوموا بحقِّ الإرثِ، فيُبلِّغوا ما علِموا مِن شريعةِ اللهِ وجوبًا؛ إمَّا بالقولِ وإمَّا بالفِعل، إمَّا بالكتابةِ وإمَّا بالإشارة؛ بأيِّ وسيلةٍ، يجب عليهم أن يُبلِّغوا ما أُنزِلَ إلى الرسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام[١].

٥- الإشارةُ إلى أنَّ القلوبَ بِيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّ أفعالَ الخَلقِ تابعةٌ لإرادةِ الله؛ لقوله: ﴿يَعْصِمُكَ﴾؛ لأنَّ عِصمةَ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم من الناس تنقسِمُ إلى قِسمين: إمَّا عدَم الإرادة: بأنْ يصرفَ اللهُ القلوبَ عن قتْلِه، وإمَّا بالعجزِ: بأنْ يُحاولَ الفاعلُ ولكن يَعجِز[٢].

٦- يُستفادُ من قولِه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أنَّ العبرةَ للمُسلمِ في الآيةِ أنْ يعلمَ أنَّ المسلِمينَ لا يكونونَ على شيءٍ يُعتدُّ به مِن أمْرِ الدِّين حتى يُقيموا القرآنَ، وما أُنزِلَ إليهم مِن ربِّهم فيه، ويهتدوا بهدايتِه؛ فحُجَّةُ اللهِ على جميعِ عِبادِه واحدةٌ، فإذا كان اللهُ تعالى لا يَقبَلُ مِن أهلِ الكِتاب قَبْلَنا تلك التقاليدَ التي صَدَّتْهم عمَّا عندَهم مِن وحيِ اللهِ تعالى على ما كان قد طرَأَ عليه من التَّحريفِ بالزِّيادةِ والنُّقصانِ، فألَّا يَقْبَلَ منَّا مِثلَ ذلك مع حِفظه لكتابِنا أَوْلى[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قُدِّم الإيمانُ في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ لأنَّه أساسُ جميعِ الأعمال، فقدَّمه إعلامًا بأنَّه لا نجاةَ لأحدٍ إلَّا بتصديقِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

٢- كمالُ عدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّ كلَّ مَن آمَن واتَّقى ولو بَعدَ الكفرِ والعنادِ؛

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٥١).
(٢) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٤).
(٣) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٩٤).
(٤) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٢٤).

فإنَّ اللهَ تعالى يتوبُ عليه؛ لقولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[١].

٣- قولُه سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ فيه دلالةٌ على سَعةِ رَحمةِ اللهِ تعالى، وفتْحِه بابَ التوبةِ لكلِّ عاصٍ، وإنْ عَظُمتْ معاصيه، وبلَغتْ مبالغَ سيِّئاتِ اليهودِ والنَّصارى[٢].

٤- إنَّ الإسلامَ يَهدِم ما قَبْلَه من السيِّئاتِ وإنْ جَلَّتْ وعَظُمتْ؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾[٣].

٥- يُفيدُ قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أنَّ الكتابيَّ لا يَدخُل الجنَّةَ ما لم يُسلِمْ[٤].

٦- إثباتُ أفعالِ اللهِ سبحانه وتعالى الاختياريَّةِ؛ لقوله: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ لأنَّ هذا التَّكفيرَ يكونُ بعدَ إيمانِهم وتَقواهم، فيكونُ فيه دليلٌ على إثباتِ أفعالِ اللهِ الاختياريَّة؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ يَفعَلُ ما يشاءُ في أيِّ وقتٍ، وعلى أيِّ كيفيَّةٍ[٥].

٧- أنَّ الجزاءَ يكونُ بالنَّجاةِ من المرهوبِ، وحُصولِ المطلوب؛ يشيرُ إلى الأوَّل قولُه: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، وإلى الثاني قولُه: ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ فالأوَّل به النجاةُ من المرهوبِ، والثاني فيه حُصولُ المطلوبِ[٦].

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٩).

(٢) ينظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٥).

(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٥) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٩).

(٦) ينظر: ((المصدر السابق)).

٨- أنَّ إقامةَ الشريعةِ في كلِّ زمان سببٌ لكلِّ خير؛ لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ...﴾ إلى آخره[١].

٩- أنَّه يجب على أهلِ الكتابِ أنْ يُقيموا القرآنَ، كما يجبُ أنْ يُقيموا التوراةَ والإنجيل؛ لقولِه: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وهو كذلِك؛ ولهذا نقولُ لأهلِ الكتابِ الذين يَدَّعون أنَّهم مؤمِنون باللهِ واليومِ الآخِر: إنَّكم إنْ لم تؤمنوا بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ما نفَعَكم ذلك الإيمانُ؛ لأنَّكم لم تُتِمُّوا إيمانَكم[٢].

١٠- إقامةُ الدَّليلِ على أهلِ الكِتاب أنَّه يلزمُهم أنْ يُؤمِنوا بالقرآنِ؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ فإنَّ لازمَ كونِه ربًّا لهم أنْ يقوموا بأمْرِه، ويَلْتَزِموا بحُكمِه؛ لأنَّه ربٌّ، والربُّ لا بدَّ له من مربوبٍ، وهو سبحانه وتعالى السيِّدُ؛ والإنسانُ عبدٌ؛ فلا بدَّ أنْ يقوموا بمقتضى هذه الرُّبوبيَّة، فيُؤمنوا بما أَنزلَ اللهُ تعالى على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[٣].

١١- انقسامُ أهلِ الكِتابِ إلى قِسمين: قِسمٍ مُقتصدٍ؛ قائمٍ بالواجبِ، تاركٍ للمُحرَّمِ، ولكن ليس عندَهم سَبْقٌ إلى الخيرات، وقِسمٍ آخَر: سيِّئٍ مُسيءٍ في عملِه؛ إمَّا بترْك الواجباتِ، وإمَّا بفِعل المحرَّماتِ؛ لقوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[٤].

١٢- في قوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ جعَلَ أعْلى مقاماتِ أهلِ الكتابِ الاقتصادَ، وهو أوسطُ مَقاماتِ هذه الأمَّة، وفوق ذلك رتبةُ السَّابقينَ؛ كما في قولِه تعالى:

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٣).

(٢) ينظر: ((تفسير المنار))، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٧)، (٦/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٤).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٥).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٦).

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ... ﴾[1] [فاطر: ٣٢-٣٣]؛ فدلَّ على فَضْلِ هذه الأمَّةِ على غيرِها من الأُمَم.

١٣- التعبيرُ في قولِه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ بالعملِ؛ لأنَّهم يَزعُمون أنَّه لا يَصدُرُ منهم إلَّا عن عِلمٍ، وهم الذين حرَّفوا الكلمَ عن مواضعِه، وارْتكبوا العظائمَ في عداوةِ اللهِ ورسولِه[2].

١٤- يُستفادُ مِن تصديرِ الخطابِ بالنِّداءِ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ الدلالةُ على الاهتمامِ بالخطابِ والعنايةِ به، كذلك قولُه تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾[3].

١٥- قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ وصَفَه بالرِّسالةِ إشارةً إلى أنَّ هذا الوصفَ مقتضاه- وإنْ لم يُؤمَرْ بالإبلاغِ- أنْ يكون مُبلِّغًا[4].

١٦- قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فيه عنايةُ الله عزَّ وجلَّ بالرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والإشارة إلى أنَّ كونَه مربوبًا لله عزَّ وجلَّ يستلزمُ أن يُبلِّغ، وأيضًا لأنَّ رُبوبيةَ اللهِ عزَّ وجلَّ لرسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ رُبوبيَّةٌ خاصَّة[5].

١٧- شِدَّةُ تأكيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ على إبلاغِ شَريعتِه؛ لأنَّ هذه الجملةَ: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ﴾ شديدةٌ جدًّا؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يَرضَى لعِبادِه

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٩).

(٢) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٢٨).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٦، ١٥١).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٦).

(٥) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٧، ١٥١).

أن يتركوا شريعتَه غيرَ مبلَّغةٍ[١].

١٨- أنَّ كتْمَ شيءٍ من الشريعةِ كَكَتْم جميعِها؛ لقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[٢].

١٩- عنايةُ اللهِ تعالى بالرسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في عِصمتِه من الناسِ؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[٣].

٢٠- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنَّ مَن عَلِمَ اللهُ تعالى منه الكفرَ فإنَّه لا يُهدَى ولا يُوفَّق؛ فتكون هذه الآية كقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٤] [الصف: ٥].

٢١- أنَّه لا تتمُّ إقامةُ التوراةِ والإنجيلِ إلَّا بإقامةِ القرآن؛ لأنَّ اللهَ اشترَط ثلاثةَ أشياء: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فمَن ادَّعى أنَّه مُقيمٌ للتوراةِ وهو كافرٌ بالإنجيل، قلنا: هذا غيرُ صحيحٍ، ودعواه باطلةٌ، ومَن ادَّعى أنَّه مؤمنٌ بالإنجيلِ ولم يُؤمِن بالقرآنِ، قلنا: هذه دَعوَى باطلةٌ[٥].

٢٢- أنَّه يلزمُ مَن أقرَّ بالربوبيَّةِ أنْ يُقرَّ بالألوهيَّةِ والشريعةِ؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: مِن ربِّكم الذي لا تُنكِرون رُبوبيَّتَه، وإذا كنتم لا تُنكِرون رُبوبيَّتَه لزِمَكم أن تَقوموا بأمْرِه[٦].

---

(١) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٢).

(٢) ينظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير المنار)) (٦/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٥٣).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٥٣).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٥٥).

(٥) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٩).

(٦) ينظر: ((المصدر السابق)).

٢٣- قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فيه إضافةُ ربوبيَّة اللهِ للكافرين، لكنْ هذه الإضافةُ ليستْ إضافةَ تشريفٍ، ولكنَّها إضافةٌ لإقامةِ الحُجَّة عليهم؛ لأنَّه إذا كان اللهُ هو ربَّكم، لزِمكم أن تقيموا ما أَنزَل إليكم منه؛ لأنَّه ربُّكم وسيِّدكم وإلهُكم[١].

٢٤- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ﴾ أنَّ كثيرًا مِن أهلِ الكتابِ لا يَزدادون بالقُرآنِ إلَّا طُغيانًا وكفرًا؛ إمَّا بالتكذيبِ، وإمَّا بالعِصيانِ، ويُفهَم منه أيضًا أنَّ بَعضَهم لا يَزيدُه طغيانًا وكفرًا، بل لا يَزيده إلَّا إيمانًا[٢].

٢٥- العدلُ في كلامِ اللهِ وعدمُ المجازفةِ؛ لقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم﴾ ولم يقُل: (كلهم)؛ لأنَّ الواقعَ أنَّ بعضَهم يزدادُ بالقرآن إيمانًا[٣].

٢٦- جوازُ توكيدِ الكلامِ بما يُثبت صِدقَه، وإنْ كان في الأصلِ صِدقًا؛ لقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم﴾، مع أنَّ خبر الله وإنْ لم يكُن مؤكَّدًا فهو صدقٌ بلا شكٍّ، ووجهُ تأكيده: أنَّه قد يُستغرَبُ أن يكونَ هذا القرآنُ الذي هو هدًى للناس لا يَزيد هؤلاءِ إلا طغيانًا وكفرًا، فلمَّا كان هذا محلَّ استغرابٍ، أكَّده اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ تأكيدَ الكلامِ إذا كان صادرًا من صادقٍ لا بدَّ أن يكون له سببٌ، وإلَّا لكان التوكيدُ لغوًا[٤].

٢٧- أنَّ الكفرَ يَزيد ويَنقُص، وجهه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ﴾، وفيه دليلٌ على أنَّ الإيمانَ يَزيد ويَنقُص؛ لأنَّ الكفرَ إذا كان يَزيدُ ويَنقُص فبإزائِه الإيمانُ؛ فلا بدَّ أن يكون مِثلَه يَزيدُ ويَنقُص، والذي عليه

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٦٠).
(٢) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٦٠، ١٦١).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٦٠).
(٤) ينظر: ((المصدر السابق)).

أهلُ السُّنَّة والجماعة أنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُص، سواء بالأقوالِ أو بالأفعالِ أو باليَقينِ[١].

٢٨- الفَرْقُ بين نِسبةِ إنزالِ القُرآنِ إلى الرَّسولِ في قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، ونِسبة إنزالِه إليهم في أوَّل الآيةِ في قولِه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، هو أنَّ خِطابهم بإنزالِ القرآنِ إليهم يُراد به أنَّهم مخاطَبون به، ومَدْعوُّون إليه، وأمَّا إسنادُ إنزالِه إلى الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فليس لإفادةِ أنَّه أُوحي إليه فقط، بل يُشعر مع ذلك بأنَّ إنزالَه إليه سببٌ لطُغيانهم وكُفرهم، وأنَّهم لم يَكفُروا به لأجْلِ إنكارِهم لعقائدِه وآدابِه وشرائعِه، أو استقباحِهم، بل لعَداوةِ الرَّسولِ الذي أُنزِلَ إليه، وعداوةِ قومِه العربِ. وقيل: إنَّه يُفيد براءتَهم منه، وأنَّه لا حظَّ لهم فيه[٢].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: ذَكَرَ اليهودَ والنَّصارى بقوله: ﴿أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تأكيدًا للتشنيعِ؛ فإنَّ أهليَّةَ الكتاب تُوجِبُ إيمانَهم به، وإقامتَهم له لا محالةَ، فكفرُهم به وعدمُ إقامتِهم له، وهم أهلُه، أقبحُ مِن كلِّ قبيحٍ، وأشنعُ من كلِّ شَنيعٍ[٣].

- وتكريرُ اللَّامِ في ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ﴾؛ لتأكيدِ الوعدِ[٤].

---

(١) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٦١).

(٢) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٩٤)

(٣) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٩).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)).

- وفيه: تعريضٌ؛ حيثُ عقَّب نَهيَهم وذمَّهم بدَعوتِهم للخيرِ[١].

٢- **قوله:** ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾:

في هذه الآيةِ حذفانِ بَليغانِ: الأوَّل: حذْفُ المضافِ في قوله: ﴿أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، والمرادُ أحكامُ التوراةِ والإنجيلِ وحُدودُهما، وما انطوى تحتَهما من حِكَمٍ بالِغة، وعِبَر شائِعة. والثاني: حذفُ المفعولِ به في قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾؛ لقصْدِ التَّعميم، أو للقصدِ إلى نَفْسِ الفِعل، كَما في قَولِه: (فُلانٌ يُعطي ويَمنَعُ) بعد (أو للقصدِ إلى نَفْسِ الفِعل)[٢].

٣- **قوله:** ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ **فيه:** إيجازٌ بالحذفِ؛ حيث حُذِف مُتعلِّقُ ﴿بَلِّغْ﴾؛ لقصدِ العموم، أي: بلِّغْ ما أُنزِلَ إليك جميعَ مَن يحتاجُ إلى معرفتِه، وهو جميعُ الأمَّة[٣].

٤- **قوله تعالى:** ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ يُفيد المبالغةَ التامَّة، يعني: أنَّه لا يُمكنُ أن يُوصَفَ ترْكُ التبليغِ بتهديدٍ أعظمَ من أنَّه تَرْكُ التبليغِ، فكان ذلك تنبيهًا على غايةِ التهديدِ والوعيدِ[٤].

٥- **قوله:** ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾ أتَى بصيغة المضارع في ﴿يَعْصِمُكَ﴾؛ لأنَّ المضارع يدلُّ على الديمومةِ والاستمرارِ[٥].

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٥٢).

(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٥٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٢٢- ٥٢٣).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٥٨).

(٤) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٠).

(٥) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٢٣).

٦- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ **فيه:** تعليلٌ لعِصمتِه تعالى له صلَّى الله عليه وسلَّم، وإيماءٌ إلى أنَّ سببَ عَدَمِ هِدايَتِهم هو كُفْرُهم.

- وإيرادُ الآية الكريمةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ ...﴾ في تَضاعيفِ الآياتِ الواردةِ في حقِّ أهل الكتاب؛ لأنَّ الكلَّ قوارعُ يَسوءُ الكفَّارَ سماعُها، ويَشُقُّ على الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم مشافَهَتُهم بها، وخصوصًا ما يَتْلُوها من النصِّ النَّاعي عليهم كمالَ ضلالتِهم[١].

٧- **قوله:** ﴿لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ تنكيرُ ﴿شَيۡءٍ﴾ يُفيد التَّقليلَ والتحقيرَ، أي: لستُم على شيءٍ يُعتدُّ به حتى تُقيموا أحكامَ التوراةِ والإنجيلِ، وفي هذا التعبيرِ من التَّحقيرِ والتصغيرِ ما لا غايةَ وراءَه[٢].

٨- **قوله:** ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ مبيِّنةٌ لشِدَّةِ شَكيمتِهم، وغُلوِّهم في المكابرةِ والعنادِ، وعدمِ إفادةِ التبليغِ نفعًا، وتصديرُها بالقَسَم- الذي دلَّت عليه اللامُ في (لَيَزِيدَنَّ)-؛ لتأكيد مضمونِها، وتحقيقِ مدلولِها، ونِسبةُ الإنزالِ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم مع نِسبتِه فيما مرَّ إليهم؛ للإنباءِ عن انسلاخِهم عن تِلك النِّسبة[٣].

٩- قوله: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ **فيه:** إقامةُ الظاهرِ مَقامَ المضمَر- حيثُ قال: ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ولم يقُل: (عَلَيهم)- وفائدتُه: التنبيهُ على العِلَّة الموجِبةِ لعدمِ التأسُّف[٤].

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦١).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٢٥).

(٣) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٢).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٢).

الآيات (٦٩ - ٧١)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾: هم قومٌ لا دِينَ لهم، وإنَّما بَقُوا على فِطرتِهم، يَقولون: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وليس لهم دِينٌ مُقرَّرٌ لهم يتَّبعونَه، وقِيل: هم قومٌ يَعبُدون المَلائكةَ، وقيل: هم طائفةٌ مِن أهلِ الكِتابِ، والصَّابِئون جمْعُ صابِئ، وهو الخارجُ من دِينِه إلى دِينٍ آخَرَ، وأصلُه: الخُروجُ؛ يُقال: صَبأتِ النُّجُومُ، إذا خرجتْ من مطالِعِها[(١)].

﴿تَهْوَىٰٓ﴾: تميلُ، والهوى: ميلُ النَّفسِ إلى الشَّهوةِ، وأصلُه: الخلوُّ والسُّقوط، ومنه قِيلَ للآراء الزَّائِفة: أهواءٌ[(٢)].

﴿فِتْنَةٌ﴾: أي: شرٌّ وعذابٌ، وتُطلَق الفِتنةُ أيضًا على الضَّلال والشِّرْك والكُفر، والفِتنةُ في الأصلِ: الاختِبارُ والابتلاءُ والامتِحانُ، مأخوذةٌ من الفَتْن: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جَودتُه مِن رَداءتِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤، ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس

﴿فَعَمُواْ﴾: أي: لم يَعْمَلوا بما سَمِعوا، فصارُوا كالعُمْيِ، والعَمَى يُقال في افتِقادِ البَصرِ والبَصيرةِ[١].

﴿وَصَمُّواْ﴾: أي: لم يُصْغوا إلى الحقِّ، فصاروا كالصُّمِّ، والصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّةِ السَّمع، وبه يُوصَفُ مَن لا يُصغِي إلى الحقِّ، ولا يَقبلُه، وأصلُه: الصَّلَابةُ، وقيل: السَّدُّ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

﴿الصَّابِئونَ﴾: مَرفوعٌ على أنَّه مُبتَدأٌ، وخبرُه محذوفٌ؛ لدَلالةِ خَبرِ ﴿إِنَّ﴾ عليه- وهو جُملةُ الشَّرطِ وجوابِه كما سيأتي- والنيَّةُ به التأخيرُ؛ والتقديرُ: إنَّ الذينَ آمَنُوا والذين هادُوا والنَّصارى مَنْ آمَنَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ... إلى آخِرِه، والصَّابئونَ كذلِك، وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ مع خَبَرِه المحذوفِ (كَذلِك) جُملةٌ اسميَّةٌ مَعطوفةٌ على جُملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الاستئنافيَّة؛ فلا محلَّ لها مِن الإعرابِ، كما لا مَحلَّ للتي عُطِفَتْ عليها. وَقيلَ: إنَّه مرفوعٌ عطفًا على محلِّ اسمِ (إنَّ): ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لأنَّه قبلَ دُخُولِها مرفوعٌ بالابتداءِ. وقِيل غيرُ ذلك.

﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾: ﴿مَنۡ﴾ اسمُ شَرْطٍ، وهو في محلِّ رفعٍ مُبتدأٌ، وجملة ﴿ءَامَنَ﴾ خَبَر ﴿مَنۡ﴾، وجملة

(٤/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٢٩، ١٣٩-١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٢).

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ٥٣).

﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ جوابُ الشَّرْطِ، وجملةُ الشَّرْطِ وجوابِه في محلِّ رفْع خبر ﴿إِنَّ﴾، والرابطُ مُقدَّر، أي: مِنهم[(١)].

٢- قوله: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾.

﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾: فِعلٌ وفاعلٌ، وفِعل (حَسِب) يأتي بمعنى الشَّكِّ، ويأتي بمعنى اليَقين.

﴿أَلَّا تَكُونَ﴾: ﴿أَلَّا﴾ مُكوَّنةٌ من (أنْ) و(لا)، و﴿تَكُونَ﴾ فِعلٌ مُضارعٌ تامٌّ بمعنى تَقَع أو تُصِيب، وقدْ قُرِئَ بالنَّصبِ والرَّفع؛ فعَلى قِراءة النَّصبِ؛ فـ(أَنْ) مَصدريَّةٌ ناصبةٌ للفِعل، و﴿تَكُونَ﴾ منصوبٌ بها، وعلى هذا ففِعلُ ﴿حَسِبُوا﴾ بمعنى الظَّنِّ والشَّكِّ. و﴿فِتۡنَةٞ﴾: فاعِلُ ﴿تَكُونَ﴾، والتَّقديرُ: ظَنُّوا ألَّا يَقَعَ مِنَ الله عزَّ وجَلَّ ابتلاءٌ واختِبارٌ بالشَّدائدِ. أو: لا تُصيبُهم فتنةٌ نتيجةَ فِعلِهم المذكورِ في الآيةِ السَّابقة.

وعلى قِراءةِ (تَكُونُ) بالرَّفع، فـ(أَنْ) هي المخفَّفةُ مِن الثَّقيلةِ، واسمُها ضَميرُ الشأنِ محذوفٌ، والتقديرُ: أنَّه، و(لَا) نافيةٌ، و﴿تَكُونَ﴾ فِعلٌ مُضارعٌ مرفوعٌ، وهو تامٌّ أيضًا، و﴿فِتۡنَةٞ﴾ فاعلُه، وجُمل (تَكُونُ فِتْنَةٌ) في مَحلِّ رفْعٍ خبَرُ (أنْ)؛ فهي مُفسِّرةٌ لضَميرِ الشأنِ، وعلى هذا ففِعل (حَسِب) هنا لليَقينِ لا للظَّنِّ والشَّكِّ[(٢)]، وعلى كِلَا التَّقديرينِ فإنَّ (أَنْ) وما بَعدَها سَدَّ مَسدَّ مَفعولَيْ ﴿حَسِبُوا﴾[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٥٠-٤٥٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٥٣، ٣٦٣)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٦٨).

(٢) لأنَّ (أن) المخفَّفة مِن الثقيلة لا تأتي مع أفعالِ الشكِّ والطَّمع، ولا تَأتي (أنْ) النَّاصبة للفِعل مع (عَلِمت) وما كان في معناها. ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٥٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٧٢)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٦٨).

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّ المسلمين مِن أمَّة محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واليهودَ قبلَ نسْخِ دِينهم، والصَّابئة الحُنفاءَ الذين بقُوا على فِطرتِهم بتوحيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، محرِّمين للظلمِ والفواحِشِ، وغير ذلك، ولم يتقيَّدوا بمِلَّةٍ ولا نِحلةٍ، والنَّصارى قَبلَ نَسْخِ دِينهم؛ هؤلاءِ الأصنافُ الأربعةُ مَن آمَن منهم باللهِ واليومِ الآخِرِ وعمِلَ عَملًا صالحًا، فلا خوفٌ عليهم ممَّا يَستقبِلونه، ولا هم يَحزنون على ما يُخلِّفونه.

ثمَّ أخْبَرَ تعالى أنَّه أخَذَ العَهدَ المؤكَّدَ من بَني إسرائيل بالإيمانِ باللهِ تعالى والقيامِ بما أَوْجبَه عليهم، وأرسلَ إليهم بذلِك رُسلَه، لكنَّهم قابلوا ذلك بأنَّهم كلَّما جاءَهم رسولٌ بما لا يُوافِقُ أهواءَهم ورغباتِهم، كذَّبوا بعضًا من المرسَلين، وقتَلوا آخَرين.

وظنُّوا ألَّا تَحيقَ بهم فِتنةٌ وعُقوباتٌ وشرٌّ نتيجةَ ما فعلوه؛ فاستمرُّوا على طُغيانهم، فعَمُوا عن رؤيةِ الحقِّ، وصَمُّوا عن سماعِه، ثم تابَ اللهُ عليهم، ثم بعدَ ذلك رجَعَ كثيرٌ منهم لحالتِهم السيِّئةِ الأولى، وعادُوا لضلالِهم السَّابقِ، فعَمُوا مُجدَّدًا عن رؤيةِ الحقِّ، وصمُّوا عن سَماعِه، واللهُ مطَّلِعٌ على جميعِ أعمالِهم، وسيُجازيهم عليها.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ أهلَ الكِتابِ ليسُوا على شيءٍ ما لم يُؤمِنوا؛ بَيَّن أنَّ هذا الحُكمَ عامٌّ في الكلِّ، وأنَّه لا يَحصُلُ لأحدٍ فضيلةٌ ولا مَنقَبَةٌ إلَّا إذا آمَن باللهِ

واليومِ الآخِرِ، وعَمِلَ صالحًا[١].

وأيضًا لَمَّا كان ما مَضَى في هذِه السُّورةِ غالبًا في فَضائحِ أهلِ الكتابِ لا سيَّما اليهود، وبيانِ أنَّهم عَضُّوا على الكُفرِ، ومَرَدُوا على الجَحدِ، وتمرَّنوا على البُهت، وعَتَوْا عن أوامرِ الله- أخْبَرَ أنَّ البابَ مفتوحٌ لهم ولغيرِهم من جميعِ أهلِ المِلل، وأنَّه إذا أَخْلَصوا أُذِن في دُخولِهم، ونُودِي بقَبولِهم[٢]، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾.

أي: إنَّ المسلمين- وهم أمَّةُ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- واليهودَ قَبل نَسْخِ دِينهم، وقبلَ تحريفِه، والصَّابئين- وهم فِرقٌ؛ منها: الصَّابئة الحُنفاءُ، الذين بَقُوا على فِطرتِهم بتوحيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وتحريم الظُّلمِ والفواحِش، وغيرِ ذلك، من غير تَقيُّدٍ بمِلَّة ولا نِحلة، ودون أنْ يُحدِثوا كُفرًا- والنَّصارى قَبلَ نَسْخ دِينهم، وقبل تحريفِه[٣].

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

أي: مَن آمَن مِن أتْباعِ هذه المِللِ باللهِ تعالى حقًّا، وآمَن بالمعادِ والجزاءِ يومَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٥)، ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٦٣- ١٦٥).
واختارَ تفسيرَ الصابئة بنحوِ ما ذُكر: ابنُ تيمية في ((الجواب الصحيح)) (٣/ ١٢٣)، وابن القيم في ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ٢٥٠- ٢٥٢)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٢٨٧)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢٢).
قال ابنُ كَثيرٍ: (وأظهرُ الأقوالِ- والله أعلم- قولُ مجاهدٍ ومتابعيه، ووهْبِ بن مُنبِّه: أنَّهم قومٌ ليسوا على دِينِ اليهود ولا النصارى ولا المجوسِ ولا المشركين، وإنَّما هم قومٌ باقون على فِطرتهم، ولا دِينٌ مُقرَّرٌ لهم يتَّبعونه ويَقتفونه؛ ولهذا كان المشركون يَنبِزون مَن أسلم بالصابئيِّ، أي: إنَّه قد خرَج عن سائرِ أديان أهلِ الأرضِ إذ ذاك) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٧). وممَّن ذهَب من السلفِ في تفسيرِ الصَّابئة إلى نحوِ ما ذُكر: ابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٦).

الدِّين، وعمِلَ عملًا صالحًا، بأنْ يكون خالصًا لله تعالى، مُوافقًا لشريعتِه التي وجَبَ عليه اتِّباعُها[١].

وهذا الحُكمُ بينَ هذه الطَّوائفِ مِن حيثُ هي؛ فكلُّ مَن اتَّبع رسولَه المرسَلَ إليه في زَمانِه- قَبل بَعثةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ- فهو على هُدًى ونجاةٍ، فأمَّا بعدَ بَعثةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فلا يُعدُّ مُؤمنًا مَن لم يُؤمنْ برِسالتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولم يَعملْ بمقتضاها[٢].

﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

أي: فلا خَوفٌ عليهم ممَّا يَستقبِلونه، ولا هُم يَحزنونَ على ما يُخلِّفونَه[٣].

﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ٧٠﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كانتِ البِشارةُ في الآيةِ السابقةِ مُوجِبةً للدُّخولِ في الإيمانِ، والتعجُّبِ ممَّن لم يُسارعْ إليه، وكان أكثرُ أهلِ الكتابِ إنَّما يُسارِعون في الكُفرِ، كان الحالُ مقتضيًا لتذكُّرِ ما مضَى مِن أخْذِ الميثاقِ عليهم، وزِيادةِ العَجَبِ منهم مع ذلِك، فأعادَ سبحانه الإخبارَ به مؤكِّدًا له؛ تحقيقًا لأمْره، وتفخيمًا لشأنه، مُلتفِتًا مع التذكيرِ بأوَّلِ قَصصِهم في هذه السُّورةِ إلى أوَّلِ السُّورةِ ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾[٤]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٦٦- ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦) (١/ ٢٨٤- ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٤٣) وينظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٤).

[المائدة: ١]، فقال:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾.

أي: واللهِ لقدْ أخَذْنا على اليهودِ عهدًا ثَقيلًا مؤكَّدًا، بالإيمانِ باللهِ تعالى وتوحيدِه، والقيامِ بما أوجبَه عليهم، وأرسَلْنا إليهم بذلك رُسلًا، يَتوالَون عليهم بالدَّعوة، ويتعاهدونهم بالتوجيهِ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1] [المائدة: ١٢].

﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

أي: كلَّما أتاهم رسولٌ مِن أولئك الرُّسلِ الكِرامِ عليهم السَّلام، بما لا تَشتهيه نُفوسُهم، ولا يُوافق رَغباتِهم، نقَضوا تلك العُهودَ والمواثيقَ، وعانَدوا تِلك الرُّسلَ وعادَوْهم، فقاموا بتكذيبِ بعضِهم، وقتَلوا بعضًا آخَرين[2].

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.

أي: وظنَّ بنو إسرائيلَ ألَّا يترتَّبَ- جرَّاءَ ما كانوا يَفعلونَ مِن نَقضِ المواثيقِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٨٢- ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٨٣- ١٨٤).

وتكذيبِ رُسلِ الله تعالى وقتْلهم- شرٌّ وعُقوباتٌ تَحيقُ بهم[١].

﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾.

أي: فترتَّبَ على ظنِّهم الفاسدِ هذا: أنِ استمرُّوا على طُغيانهم، فَعَمُوا عن رُؤيةِ الحقِّ، وَصَمُّوا عن سَماعِه، فلا يَسمعونَ حقًّا، ولا يَهتدُون إليه[٢].

﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: ثمَّ وفَّقهم اللهُ تعالى للتَّوبةِ، وقَبِلَها منهم، ورفَعَ عنهم الفتنةَ التي عاقَبَهم بها، فأنابوا ورَجَعوا عمَّا كانوا عليه من الهَوى إلى الهُدَى[٣].

﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ﴾.

أي: ثمَّ بعدَ توبةِ اللهِ تعالى عليهم، واستنقاذِهم من الهَلَكةِ لم يَستمرَّ كثيرٌ منهم على التَّوبةِ، فانقلبوا إلى حالِهم القبيحةِ الأولى، وعادوا إلى ضلالِهم القديمِ، فعَمُوا مجدَّدًا عن رؤيةِ الحقِّ، وصمُّوا عن سماعِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٨٨- ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٧).

قال ابنُ عاشور: (وقد وقَف الكلامُ عند هذا العَمى والصَّمم الثاني، ولم يذكرْ أنَّ الله تابَ عليهم بعده؛ فدلَّ على أنهم أعرضوا عن الحقِّ إعراضًا شديدًا مرةً ثانيةً، فأصابتهم فتنةٌ لم يتُبِ اللهُ عليهم بعدها) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٧).

وقال الشِّنقيطيُّ: (ذكَر تعالى في هذه الآية الكريمة أنَّ بني إسرائيل عَمُوا وصمُّوا مرَّتين، تَتخلَّلهما توبةٌ من الله عليهم، وبيَّن تفصيلَ ذلك في قوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُطَّلِعٌ على جميعِ أَعمالِهم لا يَخفَى عليه شيءٌ منها، ويُجازِيهم عليها يومَ القيامةِ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُستفادُ من قولِه: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أنَّ ثواب اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَنبني على حَسَبٍ ولا نَسبٍ، وإنَّما يَنبني على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2] [الحجرات: ١٣].

٢- يُستفادُ من قولِه: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا

لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا * فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا * ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا * إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤-٧]، وبيَّن التوبةَ التي بينهما بقولِه: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا﴾، ثم بيَّن أنَّهم إنْ عادُوا إلى الإفساد عاد إلى الانتقام منهم بقوله: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَا﴾ [الإسراء: ٨]، فعادوا إلى الإفسادِ بتكذيبه صلَّى الله عليه وسلَّم، وكتْم صِفاته التي في التوراة، فعاد اللهُ إلى الانتقام منهم، فسلَّط عليهم نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم فذَبح مُقاتِلةَ بني قريظة، وسبَى نساءَهم وذراريَّهم، وأجْلى بني قَيْنُقاع وبني النَّضير، كما ذكَر تعالى طرفًا من ذلك في سورة الحشر، وهذا البيانُ الذي ذَكَرْنا في هذه الآية ذكَرَه بعضُ المفسِّرين، وكثيرٌ منهم لم يَذكُرْه، ولكن ظاهر القرآن يَقتضيه؛ لأنَّ السياق في ذِكر أفعالهم القبيحة الماضية، من قتْل الرسل، وتكذيبهم؛ إذ قبل الآية المذكورة: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾ ((أضواء البيان)) (١/ ٤١٧- ٤١٨) وينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٧- ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٠).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٧٠).

﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ التَّحذيرُ ممَّا فعلتْ بنو إسرائيلَ مِن تكذيبِ الرُّسلِ والعُدوانِ عليهم؛ لأنَّ اللهَ لم يقُصَّ قَصصَ الأنبياءِ وقَومِهم للعِلمِ بالتَّاريخِ فقط؛ بل للاعتبارِ بها؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1] [يوسف: ١١١].

٣- الحذرُ مِن هوى النَّفْس، وأنَّ هوى النَّفْسِ قد يؤدِّي إلى الهلاكِ، وإلى فِعْلِ ما يَقبُحُ شرعًا وعقلًا؛ لقوله: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟﴾[2].

٤- التحذيرُ مِن الأمنِ مِن مَكْرِ اللهِ، وأنَّ ذلك مِن خُلُقِ اليهودِ؛ وذلك بأنْ يأمنَ الإنسانُ مِن مكرِ الله، ويظنَّ أنَّ معصيتَه لا يَعقبُها عقابٌ؛ لقوله: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[3].

٥- أنَّ الله تعالى قد يتوبُ على المرءِ بعدَ عَمَاهُ وصَمَمِه؛ لقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بعدَ أنْ ذكَر أنَّهم عَمُوا وصمُّوا[4].

٦- الحذرُ مِن بَطَرِ النِّعمةِ بالعَوْدِ إلى الفُسوقِ والكُفرانِ؛ لأنَّ اللهَ هدَّدَهم بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[5].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- يُستفادُ مِن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ أنَّه يَنبغي التعبيرُ عن اليهودِ بـ(اليهود) وعن النَّصارى بـ(النَّصارى)؛ لأنَّ ذلك

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٨٦).
(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٩١).
(٤) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٥) ينظر: ((المصدر السابق)).

استخدامُ القُرآنِ واستعمالُه[١].

٢- قال تعالى في سُورةِ البَقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٣]، وهنا قال في سورةِ المائدة: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾؛ فإنَّ النصارى أفضلُ مِن الصَّابئين، فلمَّا قُدِّموا عليهم نصبَ لفظ (الصَّابئين)، ولكن (الصَّابئون) أقدمُ في الزَّمان فقُدِّموا هاهنا؛ لتقدُّمِ زمنِهم، ورُفِعَ اللَّفظ؛ ليكونَ ذلك عَطفًا على المحلِّ؛ فإنَّ المعطوفَ على المحلِّ مرتبتُه التأخيرُ؛ ليُشعِرَ أنَّهم مؤخَّرون في المرتبةِ، وإنْ قُدِّموا في الزمنِ واللَّفظ[٢].

٣- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ أنَّه مِن رحمةِ اللهِ تبارَك وتعالى بعبادِه أنَّه لم يَكِلْهم سبحانه وتعالى إلى ما عَلِموه بفِطَرِهم، بل أرسلَ إليهم الرُّسلَ؛ لتؤكِّدَ ذلك[٣].

٤- أنَّ المتكلِّمين الذين بنَوا أصولَ عَقيدتِهم على العقلِ فيهم شَبَهٌ من اليهود؛ لقوله: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ﴾ إلى آخِرِه؛ فإنَّهم إذا أتاهم النصُّ بما لا يَرَون كذَّبوه إنِ استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، أو حرَّفوه إنْ لم يستطيعوا إلى ذلِك سبيلًا؛ لأنَّهم يرون مرجعَ ما أخبَر الله به عن نفْسِه العقلَ، فإذا جاءَ النصُّ بما لا يَهْوَونَ حسَبَ عقولهم كذَّبوه وأَنكروه[٤].

٥- في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ لطيفةٌ جليلةٌ؛ حيث بُدِئ بالعَمى لأنَّ أوَّلَ ما يَعرِض للمُعرِض عن الشَّرائعِ أنْ لا يُبصِر مَن أتاه بها

(١) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٠).
(٢) ينظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٣٠٤).
(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٨٥)
(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٨٦).

مِن عند الله، ثم لو أبْصَره لم يَسمَعْ كلامَه، فعرَض لهم الصَّممُ عن كلامِه، ولَمَّا كانوا قبلَ ذلك على طريقِ الهدايةِ، ثم عرَضَ لهم الضَّلالُ، نُسِبَ الفعلُ إليهم وأُسْنِد لهم، فقال: ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾، ولم يقُلْ سبحانَه وتعالى: (فأَعْماهُم اللهُ وأصمَّهم)[1].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ فيه: تقديمٌ وتأخير- على أحدِ أوجهِ الإعرابِ في الآية-، كأنَّه قيل: إنَّ الذين آمنوا والذين هادُوا والنَّصارى حُكمُهم كذا، والصَّابِئون كذلك، وفائدتُه: التنبيهُ على أنَّ الصَّابئين يُتابُ عليهم إنْ صَحَّ مِنهم الإيمانُ والعَملُ الصَّالح؛ فما الظنُّ بغَيرِهم[2]؟!

٢- قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه: تكريرٌ؛ حيث قال في أوَّل الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ثم قال في آخِرها: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، وفي هذا التكريرِ فائدتان؛ الأولى: أنَّ المنافقين كانوا يَزعُمون أنَّهم مؤمنونَ، فالفائدةُ في هذا التكريرِ إخراجُهم عن وعْدِ عدمِ الخوفِ، وعدمِ الحُزن. الفائدة الثَّانية: أنَّه تعالى أطْلَقَ لفْظَ الإيمان، والإيمان يَدخُلُ تحتَه أقسامٌ، وأشرفُها الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخِر، فكانتِ الفائدةُ في

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٢٨).

(٢) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٠).

وهذا الوجْهُ على القَولِ بأنَّ الصَّابئين مِن المشرِكينَ كانوا يَعبُدون الملائكةَ أو الكواكبَ؛ فيكون الصَّابئونَ أشدَّ الفِرَقِ المذكورينَ في هذِه الآيةِ ضلالًا، فكأنَّه قيل: كلُّ هؤلاء الفِرق إنْ آمنوا وعمِلوا صالحًا قَبِلَ اللهُ توبتَهم وأزالَ ذَنبَهم، حتى الصَّابئون؛ فإنَّهم إنْ آمنوا كانوا أيضًا كذلك. ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٢).

وأمَّا على القولِ بأنَّ الصابئةَ حُنفاءُ مِن الذين بَقُوا على فِطرتهم بتوحيدِ اللهِ تعالى؛ فليس فيه هذا الوجهُ.

الإعادةِ التنبيهَ على أنَّ هذينِ القِسمينِ أشرفُ أقسامِ الإيمانِ[١].

٣- **قوله:** ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ استئنافٌ عادَ به الكلامُ على أحوالِ اليهودِ وجَراءتِهم على اللهِ وعلى رُسلِه، وفيه: تعريضٌ باليأس مِن هَديهِم بما جاء به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبأنَّ ما قابَلوا به دَعوتَه ليس بِدْعًا منهم، بل ذلك دأْبُهم جيلًا بعدَ جيلٍ[٢].

٤- قوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾: عبَّر أوَّلًا بالفِعلِ الماضي ﴿كَذَّبُواْ﴾ لتقريرِ الأمْرِ الواقِع، ثمَّ عبَّر بالفِعل المضارعِ ﴿يَقْتُلُونَ﴾ على حِكايةِ الحالِ الماضية؛ استفظاعًا للقتْلِ، واستحضارًا لتِلك الحالِ الشَّنيعةِ؛ للتعجُّب منها، وللتَّنبيهِ على أنَّ ذلك دَيْدنُهم المستمِرُّ؛ ففيه تصويرُ جُرمِ القَتلِ الشَّنيع، واستحضارُ هَيئتِه المنكَرَة كأنَّه واقعٌ في الحال؛ للمبالغة في النَّعيِ عليهم، والتوبيخِ لهم؛ فقد أفادت الآيةُ أنَّهم بلغوا من الفسادِ، واتِّباعِ أهوائهم مبلغًا كبيرًا، حتى لم يَعُدْ يؤثِّر في قلوبِهم وعْظُ الرسل وهديُهم، بل صارَ يُغريهم بزيادةِ الكُفر والتكذيبِ، وقتْل أولئك الهُداةِ الأخيارِ، وفيه إشارةٌ إلى استمرارِ قتْلِهم للأنبياءِ، وأنه أصبح دَيدنَهم المستمرَّ؛ لأنَّ الفعلَ المضارع يدلُّ على الاستمرارِ. أو يكونُ الفِعل المضارع ﴿يَقْتُلُونَ﴾ حالًا على حقيقتِه؛ لأنَّهم حاوَلَوْا قتْلَ نَبيِّنا مُحمَّدٍ عليه أفضلُ الصلاةُ والسَّلام؛ فيكونُ في هذا- والله أعلم- إشارةٌ إلى أنَّهم لا يَزالون يَقتُلون الأنبياءَ حتى آخِرهم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهو محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم. وفي التعبيرِ بالفِعلِ المضارعِ ﴿يَقْتُلُونَ﴾ أيضًا مُحافظةٌ على رُؤوس الآي الكريمةِ[٣].

---

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٤).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٢).

(٣) ينظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (١/ ٦٦٢- ٦٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٤)، ((تفسير

- وقوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أيضًا فيه نوعٌ مِنَ الالتِفات، وهو التفاتٌ مِن الإخبارِ بالفِعل الماضي إلى الإخبارِ بالفِعلِ المضارع، وهذا مِن أدقِّ الأمورِ، ولا يُتاحُ في الاستعمالِ إلَّا للعارفِ برموزِ الفصاحةِ والبلاغةِ[١].

- وتقديمُ المفعولِ ﴿فَرِيقًا﴾ في الموضعَينِ؛ للاهتِمامِ به، وتشويقِ السَّامعِ إلى ما فَعَلوا به لا للقَصر[٢]؛ فقدَّم المفعولَ هنا؛ لأنَّ التقديمَ إنَّما يكونُ لشِدَّة العنايةِ؛ فالتكذيبُ والقتلُ وإنْ كانَا مُنكَرينِ إلَّا أنَّ تكذيبَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وقتلهم أقبحُ، فكان التقديمُ لهذه الفائدةِ[٣].

٥- **قوله**: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ **فيه**: إيجازٌ بديعٌ؛ لأنَّه ثَمَّةَ مجرورٌ مُقدَّرٌ دالٌّ عليه السِّياق، أي: ظنُّوا ألَّا تَنزِلَ بِهم مَصائبُ في الدنيا، فأَمِنوا عِقابَ الله في الدنيا، بعد أن استخفُّوا بعذاب الآخِرة، وتوهَّموا أنَّهم ناجون منه؛ لأنَّهم أبناءُ اللهِ وأحباؤه، وأنَّهم لن تمسَّهم النارُ إلَّا أيامًا معدودة؛ فمِن بديع إيجاز القرآن أنْ أوْمَأَ إلى سُوءِ اعتقادِهم في جزاءِ الآخِرة، وأنَّهم نبَذوا الفِكرةَ فيه ظِهريًّا، وأنَّهم لا يُراقبون اللهَ في ارْتِكابِ القبائحِ، وإلى سوءِ غَفلتِهم عن فِتنة الدُّنيا، وأنَّهم ضالُّون في كِلا الأمْرَينِ[٤].

- وعطَف ﴿فَعَمُواْ﴾ على ﴿حَسِبُوا﴾ بالفاءِ؛ للدَّلالةِ على تَرتيبِ ما بعدَها

ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٨٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٣٠)، وينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٥).

(١) ينظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٣٠).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٣).

(٣) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٥).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٦).

على ما قَبْلَها، أي: أمِنوا بأسَ الله تعالى، فتمادَوا في فُنونِ الغَيِّ والفساد، وعمُوا عن الدِّينِ بعدما هداهم الرُّسل إلى معالِمه الظَّاهرة، وبيَّنوا لهم مناهِجَه الواضِحَة[١].

- وعطَفَ قولَه: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ الأوَّل بالفاءِ، وعَطَفَ قولَه: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ الثاني بـ(ثم)، وهو معنًى حَسَنٌ؛ ففي العَطفِ بالفاءِ دليلٌ على أنَّهم عَقيبَ الحُسبانِ، حصَل لهم العَمى والصَّمم من غيرِ تراخٍ، وفي العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ دليلٌ على أنَّهم تَمادَوْا في الضلالِ زمانًا إلى أنْ تابَ اللهُ عليهم[٢].

- وأَسْنَدَ الفِعلَ الحسَنَ الشَّريفَ ﴿تَابَ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ إلى نَفْسِه سُبحانَه، ولم يقُل: (تَابُوا)؛ إظهارًا للاعتناءِ بهم، ولُطفِه تعالى بِهم. وأَسْندَ الفِعلَينِ ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ إليهم، بخِلافِ قولِه: ﴿فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٣]؛ لأنَّ هذا فيمَن لم يَسْبِقْ له هِدايةٌ[٣].

٦- قوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾: الجُملةُ تذييلٌ أُشيرَ به إلى بُطلانِ حُسبانِهم المذكورِ، ووقوعِ العذابِ مِن حيثُ لم يَحتسِبوا؛ إشارةً إجماليَّةً اكتُفيَ بها تعويلًا على ما فُصِّل نوعَ تفصيلٍ في سورة بني إسرائيل، والتقدير: حسِبوا ألَّا يُصيبَهم عذابٌ ففَعلوا ما فعَلوا من الجناياتِ العظيمةِ المستوجبةِ لأشدِّ العقوباتِ، واللهُ بصيرٌ بتفاصيلِها؛ فكيفَ لا يُؤاخِذُهم بها، ومِن أينَ لهم ذلِك الحسبانُ الباطلُ[٤]؟!

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٤).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٥٧).

(٣) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٥٧).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٩).

- وناسَب ختْمُ الآيةِ بهذه الجُملةِ ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ المشتمِلةِ على ﴿بَصِيرُۢ﴾؛ إذ تَقدَّم قبلَه ﴿فَعَمُواْ﴾[1].

- وقوله: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ جاءَ على صِيغةِ المضارعِ لحِكايةِ الحالِ الماضية؛ استحضارًا لصورَتِها الفَظيعة، ورِعايةً للفَواصِل[2]؛ ففائدةُ التعبيرِ بقولِه: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بمعنى الماضي، استحضارُ صُورةِ أعمالِهم في ماضيهم، وتمثيلُها لهم ولغيرِهم في حاضرِهم، وإنَّما تَحسُنُ هذه النكتةُ في العملِ المعيَّنِ المهمِّ الذي يُراد التذكيرُ به بعدَ وقوعِه، بجَعْلِ الزمنِ الحاضرِ مرآةً للزمنِ الغابرِ، ولا يظهرُ هذا الحُسن في الأعمالِ المطلَقةِ المُبهمَةِ[3].

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٢٨).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٩٩).

الآيات (٧٢ - ٧٧)

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾: مَصِيرُه الَّذِي يَأوي إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَصِيرُ فِيهِ؛ يُقال: أَوى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه يأوي أويًا ومأوًى، وأصْله: التَّجمُّع[(١)].

﴿لَيَمَسَّنَّ﴾: ليُصيبَنَّ، والمسُّ يُقال في كلِّ ما يَنال الإنسانَ مِن أذًى[(٢)].

﴿صِدِّيقَةٌ﴾: كَثُر منها الصِّدقُ والتَّصدِيقُ، والصِّدِّيقُ يُقال لِمَن لا يَكذبُ قطُّ، وقيل لِمَن لا يَتأتَّى منه الكذبُ؛ لتعوُّدِه الصِّدقَ، وقيل لِمَن صدَقَ بقوله

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٣).

واعتقادِه وحقَّق صِدقَه بفِعلِه، وأَصْلُ (صدق) يدلُّ على قوَّةٍ في الشيءِ قولًا كان أو غيرَه[١].

﴿يُؤْفَكُونَ﴾: أي: يُصرَفون عن الحقِّ، ويعدلون عنه؛ يُقال: أفِكَ الرجلُ عن كذا: إذا عدَلَ عنه، والإفك: كلُّ مصروفٍ عن وجهِه الذي يحقُّ أن يكونَ عليه، وأَصْلُ (أفك): يدلُّ على قلبِ الشيءِ، وصرْفِه عن جِهتِه[٢].

﴿لَا تَغْلُواْ﴾: أي: لا تُجاوِزوا الحدَّ المسموحَ لكم به، ولا تَرتفِعوا عن الحقِّ، أو لا تَزيدوا ولا تُفرِطوا فيه، والغلوُّ: الإفراطُ والزيادةُ، ومجاوزةُ الحدِّ المسموحِ به[٣].

﴿ضَلُّواْ﴾: عَدَلُوا عن الطريقِ المستقيم؛ فالضَّلالُ: خِلافُ الهُدى، وضَياعُ الشَّيءِ وذَهابُه في غيرِ حقِّه[٤].

﴿وَأَضَلُّواْ﴾: أَوْقَعوا النَّاسَ في الضَّلالِ[٥].

﴿سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: قصْدِ الطريقِ ووسَطِه[٦].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦) (٦/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٤٢) و(٣/ ٣٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩، ١٤٩).

﴿مِنۡ إِلَٰهٍ﴾: ﴿مِنۡ﴾ صِلةٌ في المبتدأِ لوجودِ الشَّرطين، وهما كونُ الكلامِ منفيًّا، وتنكيرُ المجرورِ بها. و﴿إِلَٰهٍ﴾ مُبتدأٌ مجرورٌ لفظًا بـ ﴿مِنۡ﴾، مرفوعٌ محلًّا.

﴿إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾: ﴿إِلَٰهٞ﴾ مرفوعٌ على أنَّه بدلٌ مِن مَحلِّ ﴿إِلَٰهٍ﴾؛ لأنَّه مَرفوعٌ محلًّا، مَجرورٌ لَفْظًا بـ ﴿مِنۡ﴾ الاستغراقيَّة، والتَّقديرُ: وما إلهٌ مُستَحِقٌّ للعبادَةِ إلَّا إلهٌ متَّصِفٌ بالوحدانيَّةِ[1].

٢- **قوله:** ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾.

﴿غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾: ﴿غَيۡرَ﴾ مَنصوبٌ، وفي نَصْبِه أوجُهٌ؛ منها: أنَّه نائِبٌ عن المفعولِ المُطْلَق؛ لأنَّه نَعْتٌ لِمَصدرٍ محذوفٍ؛ أي: لا تَغْلُوا في دِينِكم غُلُوًّا غيرَ الحَقِّ. ومنها: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ مِن ضَميرِ الفاعِلِ (واو الجماعة) في ﴿تَغۡلُواْ﴾ أي: لا تَغْلوا مُجاوِزينَ الحَقَّ. وقيل غيرُ ذلك[2].

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يؤكِّدُ اللهُ تعالى كُفْرَ النَّصارى، الذين جعَلوا اللهَ تعالى هو المسيحَ عيسى عليه السَّلامُ، وقدْ قال المسيحُ عيسى لبني إسرائيلَ: اعبُدوا اللهَ وحْدَه؛ فهو ربِّي وربُّكم؛ إنَّه مَن يَعبُد مع اللهِ غيرَه، فقدْ حرَّم عليه اللهُ دُخولَ الجَنَّةِ، ومُستقَرُّه النارُ، وليس لِمَن ظلَمَ نفْسَه بالشِّركِ من نصيرٍ يمنعُه من عذابِ اللهِ، أو يُنقِذُه منه.

كما يُؤكِّدُ سبحانه كُفرَ الَّذين زعَموا من النَّصارى أنَّ عيسى وأمَّه إلَهانِ مع اللهِ تعالى، فجعلوه جلَّ وعلا ثالثَهم، تعالى اللهُ عن ذلِك! فما من معبودٍ بحقٍّ

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٥٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٧٤- ٣٧٥)

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعُكبري (١/ ٤٥٤)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٤/ ٣٨٠)، ((المجتبى من مُشكل إعراب القرآن)) للخراط (١/ ٢٤١).

سواه، ثم بيَّن سبحانه سوءَ عاقبةِ هؤلاءِ الضَّالينَ الذين قالوا ما قالوا، وأنَّه إن لم يرجعْ هؤلاءِ عن هذه المقولةِ الكُفْريَّةِ، والفِريةِ العظيمةِ، فسيُصيبُ الذين كفروا منهم- بتمسُّكهم بِها- عذابٌ مؤلِم مُوجِعٌ، وبعدَ هذا التَّرهيبِ الشَّديدِ للكافرينَ مِن العَذابِ الأليمِ، فتَح لهم سبحانه بابَ رحمتِه؛ حيثُ رغَّبَهم في الإيمانِ، وحضَّهم على التَّوبةِ والاستغفارِ؛ فإنَّ الله سبحانه غفورٌ رحيمٌ.

ثم بَيَّن تعالى حقيقةَ المسيحِ وأُمِّه؛ فهما ليسَا كما زعَم هؤلاءِ الكَفَرةُ مِن النَّصارى، بل المسيحُ هو ابنُ مريمَ، وهو رسولٌ مِن رُسُلِ اللهِ كسائرِ عِبادِ اللهِ المرسَلينَ الذين كانوا مِن قَبلِه، وأمُّه صِدِّيقةٌ، كانَا يأكلانِ الطعامَ، ويَحتاجانِ للتغذيةِ كغيرهما مِن بني آدَمَ، فانظرْ- يا محمَّدُ- كيف يُبيِّن اللهُ لهم الأدلَّةَ والحُجج، ثم انظرْ كيف يُصرَفون عن الحقِّ، ويَضِلُّون عن هذه الأدلَّةِ الواضحة، وقلْ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الكَفَرةِ من النَّصارى مُنكرًا عليهم: أَتعبُدونَ غيرَ اللهِ ممَّن لا يَملِك لكم ضرًّا ولا نفعًا، واللهُ هو السَّميعُ العليمُ؟!

وأمَرَ اللهُ سبحانه نبيَّه أن ينهاهم عن الغُلوِّ الباطِلِ في دِينِهم، وألَّا يَتَّبِعوا أهواءَ أكابرِهم ورُهبانِهم الجَهَلةِ الذين ضلُّوا من قبلُ، وأضلُّوا كثيرًا غيرَهم، وانحرَفوا عن الطَّريقِ المستقيمِ.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا تَكلَّم اللهُ عن اليهودِ في الآياتِ السَّابقةِ، شرَعَ في الكلامِ هاهنا عن

النَّصارى[١] فقال تعالى:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾.

أي: لقد كفَر النَّصارى[٢] الَّذين جعَلوا اللهَ تعالى هو عَبْدَه ورسولَه المسيحَ

---

(١) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٤٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٥٨).

(٢) مِن المفسِّرين مَن ذهَب إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ في طائفةٍ من النَّصارى، وأنَّ قولَه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ في طائفةٍ أُخرَى منهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨١- ٢٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٤).

ورجَّح ابنُ تيميةَ أنَّ هذه الأقوالَ جميعَها قولُ طوائفِ النصارى.

قال ابنُ تيميةَ: (مِن النَّاس مَن يظنُّ أنَّ هذا قولُ طائفةٍ منهم، وهذا قولُ طائفةٍ منهم، كما ذكَره طائفةٌ مِن المفسِّرين، كابنِ جريرٍ الطبريِّ والثعلبيِّ وغيرِهما، ثم تارةً يحكون عن اليعقوبيةِ أنَّ عيسَى هو اللهُ، وعن النسطوريةِ أنَّه ابنُ الله، وعن المريوسيةِ أنَّه ثالثُ ثلاثةٍ، وتارةً يحكون عن النسطوريةِ أنَّه ثالثُ ثلاثةٍ، وعن الملكيةِ أنَّه الله، ويفسِّرون قولَهم: ثالثُ ثلاثةٍ بالآب والابنِ ورُوح القُدسِ. والصوابُ أنَّ هذه الأقوالَ جميعَها قولُ طوائفِ النَّصارى المشهورةِ: الملكية واليعقوبية والنسطورية). ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١١).

وقال أيضًا: (وأمَّا استدلالُه بقولِه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾، فهذا يَسلُكه طائفةٌ مِن النَّاس، ويقولون: قولُه تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ إشارةٌ إلى أحدِ أقوالهم الثلاثة، وهو قولُ اليَعاقبة القائلين بأنَّ اللاهوت والناسوت صارَ جوهرًا واحدًا كالماءِ واللبن، وقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى قولِ الملكيَّة، وقوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ إشارةٌ إلى قول النسطوريَّة الذين يقولون بالحلولِ، وهو قولُهم بالأقانيمِ الثَّلاثة. وليس الأمرُ كما قال هؤلاءِ، بل ما ذكَره اللهُ تعالى هو قولُ النَّصارى جملةً؛ فإنَّهم يقولون: إنَّه اللهُ باعتبارٍ، وإنَّه ابنُ اللهِ باعتبارٍ آخَرَ، وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ بدليل المراد بقوله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فعبَدوا معه المسيحَ وأُمَّه، فصارَ ثالثَ ثلاثةٍ بهذا الاعتبارِ) ((درء تعارض العقل والنقل)) (١٠/ ٢٣٨).

وقال أيضًا: (... وعلى هذا فتكون كلُّ آيةٍ ممَّا ذكَره الله من الأقوال تعمُّ جميعَ طوائفهم، وتعمُّ أيضًا بتثليث الأقانيم، وبالاتحادِ والحلول، فتعمُّ أصنافَهم وأصنافَ كُفرِهم، ليس يختصُّ كلُّ

عِيسى ابنَ مريمَ عليه السَّلام، الذي خلَقَه الله عزَّ وجلَّ بشرًا مثلَهم معروفًا نَسبُه وأصلُه[١].

﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾.

والحالُ أنَّ عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد ناداهم أنِ اعبدوا- يا بني إسرائيلَ- اللهَ المستحِقَّ وحْدَه للعِبادة، الذي أنا وأنتم عبيدٌ له مَربُوبون؛ فهو مالكُنا وخالقُنا، ومُدبِّرُ أمورِنا جميعًا سبحانَه وتعالى[٢].

﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: إنَّ مَنْ يقَعْ في شَرَك الشِّركِ، فيَعبُد معَ اللهِ تعالى غيرَه، فحرامٌ عليه دخولُ الجَنَّةِ في الآخِرَة، وإنَّما تكونُ النارُ مقامَه الذي يستحقُّه، ودارَه التي يَأوِي إليها[٣].

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

أي: ولَيس لِمَن ظلَمَ نفْسَه بشِركِه باللهِ تعالى، ولا لأيِّ ظالمٍ كان، أيُّ ناصرٍ

آية بصنفٍ، كما قال مَن يزعم ذلك، ولا تختصُّ آيةٌ بتثليث الأقانيم، وآيةٌ بالحلول والاتِّحاد، بل هو سبحانه ذكَر في كلِّ آيةٍ كُفرَهم المشترَكَ، ولكنْ وصَفَ كُفرَهم بثلاثِ صِفاتٍ، وكل صِفة تستلزمُ الأخرى؛ أنَّهم يقولون: المسيحُ هو الله، ويقولون: هو ابنُ الله، ويقولون: إنَّ الله ثالثُ ثلاثة، حيث اتَّخذوا المسيحَ وأمَّه إلهينِ مِن دونِ الله، هذا بالاتِّحاد، وهذه بالحلول، وتَبيَّن بذلك إثباتُ ثلاثةِ آلهةٍ منفصلةٍ غيرِ الأقانيم) ((الفتاوى الكبرى)) (٦/ ٥٨٩- ٥٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٣- ١٩٤).
قال السعديُّ: (يُخبِر تعالى عن كُفرِ النَّصارى بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ بشُبهةِ أنَّه خرج من أُمٍّ بلا أبٍ، وخالَف المعهودَ مِن الخِلقة الإلهيَّة) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة المائدة)) (٢/ ١٩٣- ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٣- ١٩٤).

يمنعُ عنه عذابَ اللهِ تعالى، أو يُنقِذُه منه[١].

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾.

أي: كفَر النَّصارَى الَّذين جعَلوا المسيحَ وأُمَّه إلهيْنِ مع اللهِ سبحانه، فجَعَلوا اللهَ تعالى وتقدَّس ثالثَهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٨).

قال ابنُ عاشور: (وجملة ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ يحتمل أيضًا أن تكونَ من كلامِ المسيحِ عليه السَّلامُ على احتمالِ أن يكون قولِه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ مِن كلامه، ويحتمل أنْ تكونَ من كلام اللهِ تعالى؛ تذييلًا لكلام المسيح على ذلك الاحتمالِ، أو تذييلًا لكلامِ الله تعالى على الاحتمالِ الآخَر) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨١)، وينظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٧- ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٩-٥٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٤).

قال ابنُ عُثَيمين: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ مَن هؤلاء الثلاثة؟ هؤلاءِ ذكَرهم اللهُ تعالى في هذه السُّورة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

قوله: ﴿إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: معَ الله، فإذا كانَا إلهينِ من دونِ اللهِ واللهُ صاروا ثلاثةً؛ إذًا ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ هو: الله، والمسيح، وأمُّه، هؤلاءِ هم الثلاثة، فسَّر ذلك القرآن، والقرآنُ يُفسِّر بعضُه بعضًا. وأمَّا ما قيل: إنَّه الابنُ والأب ورُوح القدس؛ ففيه نظرٌ، يعني: لا نُفسِّره بالقرآن، وإنْ كان قد يكونُ منهم، أو من المتأخِّرين منهم مَن يقول: إنَّ هؤلاءِ هم الثلاثة) ((تفسير ابن عثيمين-سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٤-٢٠٥). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٤٤٤).

ثمَّ ردَّ اللهُ تعالى عليهم هذا القولَ الباطلَ[١]، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

أي: ليسَ لكم- أيُّها الناسُ- معبودٌ بحقٍّ إلَّا معبودٌ واحدٌ غيرُ متعدِّدٍ، مُتَّصفٌ بكلِّ صِفةِ كمالٍ، مُنزَّهٌ عن كلِّ عيبٍ ونقص؛ ومنها: أنَّه ليس بوالدٍ لشيءٍ، ولا مولودٍ منه، بل هو خالقُ كلِّ والدٍ ومولودٍ، سبحانه[٢].

كما قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: وإنْ لم يَكُفَّ قائلو هذه المقالةِ الكُفريةِ عن القولِ بهذه الفِريةِ واعتقادِها، ليُصيبَنَّ مَن استمرَّ على كُفرِه منهم- بالتمسُّكِ بها- عذابٌ مؤلِمٌ، موجِعٌ لقلوبِهم وأبدانِهم في الآخِرة[٣].

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا تَوعَّدَهم اللهُ تعالى، أعْقبَ الوعيدَ بالتَّرغيبِ في الهدايةِ[٤]، فقال سبحانه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٠-٥٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٣- ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٤).

﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ﴾.

أي: هلَّا أنابوا إلى اللهِ تعالى، ورَجَعوا عمَّا كانوا يقولونَه مِن الشِّركِ والافتراءِ، إلى ما يُحبُّه اللهُ عزَّ وجلَّ ويَرضاه؛ مِن الإيمانِ به وتوحيدِه، والإقرارِ بأنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسولُه، ويَطلُبونَ منه سبحانه المغفرةَ[1]؟

كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

أي: واللهُ تعالى أهلٌ لأنْ يتوبوا إليه ويَستغفِروه؛ فإنَّهم إنْ فعَلوا تابَ عليهم وغفَر لهم؛ لأنَّه غفورٌ يَستُر ذنوبَ عِبادِه، ويتجاوزُ عن مؤاخَذَتِهم بها. رحيمٌ بهم، ومِن رحمتِه أنْ يَعرِض عليهم التوبةَ إليه، ويَقبَلَها منهم[2].

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما قال هؤلاءِ الكفرةُ في المسيحِ عليه السَّلام، بل الحقُّ أنَّه ابنُ مريمَ التي ولدتْه ولادةَ الأمَّهات لأبنائهنَّ، كغيرِه من البَشَرِ، وهو للهِ تعالى رسولٌ مثلُ سائرِ عبادِه المـُرسَلين، الذين كانوا قبلَه ثم مَضَوا، فهذه غايتُه ومَبْلَغُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٠- ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٢، ٥٨١- ٥٨٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١١).

أمْرِه، وليس هو اللهَ ولا ابنَ الله، كما يَزعُمون[١].

﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾.

أي: وأمُّ المسيحِ مَريمُ عليها السَّلام صادقةٌ، مُصدِّقةٌ بآياتِ الله، مؤمنةٌ بعيسَى عليه السلام، مُصدِّقةٌ له، قد صدَّقت قولَها بفعلِها، وهذا أعْلى مقاماتِها[٢].

فإذا كان عيسى عليه السَّلامُ مِن جنسِ الرُّسلِ مِن قَبلِه، وأُمُّه صِدِّيقة؛ فكيف يتَّخذُهما النَّصارى إلهينِ مع الله سبحانه؟! تعالى عمَّا يقولون عُلوًّا كبيرًا[٣].

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾.

أي: كانَا محتاجَينِ إلى التغذيةِ بالطَّعامِ، وإلى خُروجِه منهما، كغيرِهما من بني آدَمَ، وليسَا بإلهينِ كما زعَم النَّصارى؛ إذ لو كانَا كذلك حقًّا لاستَغْنيَا عن الطعامِ؛ فالمفتقرُ إلى الغذاءِ قِوامُه بغيرِه، وفي قوامِه بغيرِه وحاجتِه إلى ما يُقيمه دليلٌ ظاهرٌ على عَجْزِه، والعاجزُ لا يكونُ ربًّا، بل مربوبٌ؛ فإنَّ الإلهَ الحقَّ مُستغنٍ عن غيرِه، كما وصَفَ اللهُ تعالى نفْسَه بقولِه: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤][٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧- ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٨).

قال ابنُ القَيِّم: (والصِّديقيَّةُ هيَ كَمالُ الايمان بما جاءَ به الرَّسُولُ عِلمًا وتَصْديقًا وقيامًا؛ فهي راجعةٌ إلى نفْسِ العِلمِ؛ فكلُّ مَن كان أعلمَ بما جاءَ به الرسولُ وأكملُ تَصديقًا له، كان أتَمَّ صِدِّيقيَّةً؛ فالصِّدِّيقيَّة شجرةٌ أصولُها العلمُ، وفُروعُها التصديقُ، وثَمرتُها العملُ). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٨٠).

قال السعديُّ: (والصديقيَّة، هي العِلمُ النافعُ المثمِرُ لليقينِ والعَملِ الصَّالح) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢- ٥٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٨).

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾.

أي: انظُرْ- يا محمَّدُ- نظرَ تدبُّرٍ وإقرارٍ؛ كيف نُورِدُ لهؤلاءِ الكفرةِ الأدلَّةَ والحُججَ المجلِّيةَ للحقِّ، الموضِّحةَ لبُطلانِ ما يَفترُون على ربِّهم[1].

﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾.

أي: ثم انظُرْ- يا محمَّدُ- كَرَّةً أخرى نظرَ تعجُّبٍ وإنكارٍ؛ كيف يُصرَفونَ عن الحقِّ فيَضلُّون مع هذه البراهينِ الجليَّةِ التي لا تَدَعُ مجالًا للشكِّ؟! ومِن أينَ يتطرَّقُ إليهم الصرفُ عن الاعتقادِ الحقِّ، بعدَ هذا البيانِ البالغِ غايةَ الوضوح[2]؟!

﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى بدَليلِ النَّقلِ والعقلِ انتفاءَ الإلهيَّةِ عن عِيسى عليه السَّلام، وكان قد توعَّدَ مَن زعَم ذلك، ثمَّ استَدْعاهم للتوبةِ، وطلبِ الغُفرانِ- أنكرَ عليهم، ووبَّخهم مِن وجهٍ آخرَ، وهو عجزُ عِيسى عليه السلام، وعدَمُ اقتدارِه على دفْعِ أيِّ ضررٍ، وجَلْبِ أيِّ نفْعٍ، وأنَّ مَن كانَ لا يَدفَعُ عن نفْسِه حريٌّ ألَّا يَدفعَ عنكُم[3]، فقال:

﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾.

أي: قلْ -يا محمَّدُ- منكرًا على هؤلاءِ الكَفَرةِ مِن النصارى وغيرِهم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٤).

أَتَعبدُونَ سوى اللهِ -الذي يَملِكُ ضرَّكم ونَفْعَكم- شيئًا لا يَقدِرُ على إلحاقِ أيِّ ضَررٍ بكم، ولا جَلْبِ أيِّ نفعٍ لكم[١]؟!

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ هو السَّميعُ لكلِّ شيءٍ، ومِن ذلِك أقوالُكم، العليمُ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك أعمالُكم، فلِمَ عَدلْتُم عن إفرادِه سبحانه بالألوهيَّة، إلى تأليهِ مَن ليستْ هذه صِفتَه؟! فإنَّ الكاملَ الذي هذِه أوصافُه هو الإلهُ الحقُّ الذي يستحقُّ أنْ يُعبدَ وحْدَه[٢].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ النَّصارى الذين آتاهُم اللهُ تعالى كتابًا ينطِقُ بالحقِّ: لا تُفْرِطوا فيما تَدينون به مِنَ الحقِّ في أمْرِ المسيحِ عليه السَّلام، ولا تُطْرُوا هذا الذي أُمرتُم بتعظيمِه فتُبالِغوا في شأنِه، وتَتعَدَّوْا فيه الحقَّ إلى الباطِلِ، فتُخرِجوه عن حيِّزِ النبوَّةِ إلى مقامِ الألوهيَّةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٢٤- ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٤- ٥٨٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٣٨٤- ٣٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥١٥- ٥١٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٤- ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١).

وقد اختارَ ابنُ جرير، وابنُ تيميَّة، وابنُ القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والسعديُّ: أنَّ الخطابَ في الآيةِ للنَّصارى. يُنظر المصادر السَّابقة.

واختارَ ابنُ عاشور، وابنُ عُثَيمين: أنَّ الخطابَ هنا لليهودِ والنَّصارى، ينظر: ((تفسير ابن عاشور))

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: ولا تَنقادُوا للأهواءِ المخالفةِ للحقِّ الصادرةِ مِن أكابرِكم ورُهبانِكم الجَهَلةِ[(١)] الذين كانوا مِن قبلِكم[(٢)]، وقد ابتَدعوا بِدَعًا بدَّلوا بها شَرْعَ المسيحِ عليه السَّلام، فحادوا عن طريقِ الهُدى، وصَرَفوا عنه كثيرًا من الناسِ، وانحرَفوا عنِ الصِّراطِ المستقيمِ[(٣)] المعتَدِلِ، الذي ليس فيه غلوٌّ ولا تفريطٌ[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ إقرارَ الإنسانِ على غيرِه غيرُ مَقبولٍ؛ لأنَّهم ادَّعوا أنَّ اللهَ هو المسيحُ،

(٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٢٩).

(١) ذهَب ابنُ جرير إلى أنَّ الذين ضلُّوا من قبل وأضلُّوا كثيرًا هم اليهودُ الذين بَهَتوا مريمَ عليها السلام، وكذَّبوا عيسى ومحمدًا عليهما الصَّلاة والسَّلام. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٥).
وممَّن ذهب إلى ذلِك من السَّلف مجاهد. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١١٨١).

(٢) وقيل: قبل مجيءِ الإسلام.
قال ابنُ تيميَّة: (فذكَر سبحانه أنَّهم أضلُّوا مِن قبلِ مبعثِ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم) ((الجواب الصحيح)) (٤/ ٣٨٤).
قال ابنُ عاشور: (قد ضلُّوا في دِينهم من قبلِ مجيءِ الإسلام) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩١).

(٣) وقيل: سواء السَّبيل: هو الإسلام.
قال ابنُ عاشور: (قوله: ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ مقابل لقولِه: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ فهذا ضلالٌ آخرُ، فتعيَّن أنَّ سواء السبيل الذي ضلُّوا عنه هو الإسلام... أي: قد ضلُّوا في دِينهم من قبلِ مجيء الإسلام، وضلُّوا بعد ذلك عن الإسلام) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٠- ٢٣٣).

وعيسى ابنُ مريمَ أنكرَ ذلك، فقال: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾؛ فأنا لستُ إلهًا تَعبدونني، بل أنا وأنتم على حدٍّ سواءٍ، كلُّنا مربوبون للهِ عزَّ وجلَّ[١].

٢- الاستدلالُ الملزِم للخَصم، وأنَّه يَنبغي للإنسانِ عند المجادلةِ أنْ يتَّبعَ أوضحَ الأدلَّةِ وأشدَّها إلزامًا للخَصم؛ لقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ لم يقل: (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)، قال: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾ إلزامًا لهم بعبادتِه؛ لأنَّهم مُقرُّون بالربوبيَّة، وهذا كقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١]، فقال: اعبُدوا ربَّكم إلزامًا لهم بالعبادةِ؛ لأنَّ اللهَ هو الذي خلَقَهم، وهو الذي يَحكُم فيهم ويَحكُم بينهم[٢].

٣- فتْحُ بابِ التوبةِ لكلِّ مَن أساءَ وإنْ عظُمت إساءتُه؛ لقوله: ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ...﴾ الآية، فالله تعالى حكَى عنهم الكُفرَ، مع ذلِك عرَض عليهم أنْ ينتهوا عمَّا يقولون[٣].

٤- يُستفادُ من قولِه: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ الاستدلالُ بالأوضحِ الأجْلَى دون الأَخْفى؛ لأنَّ أكْلَهما للطعامِ أمرٌ لا يُنكَر، لكن لو جِيء بأدلَّةٍ عقليَّةٍ أخرى ربَّما يكونُ فيها جدلٌ، لكنَّ الاستدلالَ بالمحسوسِ أبلغُ من الاستدلالِ بالمعقولِ؛ لأنَّ المعقولَ يمكن فيه الجدلُ، لكنَّ المحسوسَ لا يمكن فيه الجدلُ[٤].

---

(١) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٩).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٠).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٩).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠٣)، ((تفسير

٥- قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، إذا نُهي أهلُ الكتاب عن الغُلوِّ، والغلوُّ في ذاتِه مَفسدةٌ، فكذلِك يُنهى غيرُهم؛ ولهذا حذَّرَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم من الغُلوِّ في الدِّين، وحذَّر من الغُلوِّ فيه نفْسِه[1].

٦- أنَّ الذي يَحمِلُ الإنسانَ على الضلالِ هو الهوى، وإلَّا لو كان الإنسانُ يقول بالعدل، ويَحكُم بالقِسط، ما ضلَّ عن الصِّراطِ المستقيم، لكن يَغلِبه هواه حتى يضلَّ؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ﴾، ثم بَيَّنَ ضلالَهم بقولِه: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ...﴾ جاءَ مؤكَّدًا بثلاثةِ مؤكِّدات: القسَمُ المقدَّر، واللام، و(قَدْ)، على عادةِ اللِّسانِ العربيِّ في تأكيدِ ما يستحقُّ التأكيد، وإلَّا فخبرُ اللهِ عزَّ وجلَّ حقٌّ، ثم إنَّ هذا أيضًا، أي: قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ﴾ ليس خبرًا مجرَّدًا، بل هو خبرٌ وحُكم؛ فقد حَكَم عليهم بالكُفرِ؛ لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ فهو مؤكَّد؛ لئلَّا يُعارِضَ معارِضٌ فيقول: ليس هذا بكُفرٍ[3].

٢- أنَّ أحكامَ القُرآنِ الكريم يُؤتَى بها غالبًا بحُكمٍ عامٍّ مَنُوطٍ بالعلَّة، بمعنى: لو شاءَ الله تعالى لقال: لقدْ كفَر النَّصارَى، لكنَّه قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ سواءٌ كانوا من بني إسرائيلَ الذين هم

ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٢١).

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣١).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٢).

(٣) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٣).

النَّصارى أو مِن غيرِهم[١].

٣- أنَّه لا كُفرَ إلَّا بعدَ قِيامِ الحُجَّةِ بِناءً على أنَّ الواو في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ﴾ حاليَّةٌ، يعني: أنَّهم كفَروا، وقدْ بُيِّنَ لهم الأمرُ[٢].

٤- لَمَّا كانتْ دعوى الاتِّحادِ أشدَّ في الكفرِ، وأنْفى للإلهِ مِن دعوى التثليث، قدَّمها الله تعالى، فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، ثم قال بعدَها في الآيةِ التالية: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[٣].

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أمرُ المسيحِ لهم بأداءِ الحقِّ لأهلِه مُذكِّرًا لهم بعظمتِه بقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، ثم ذكَّرهم بإحسانِه، وأنَّه وإيَّاهم في ذلِك سواء، فقال مقدِّمًا لِمَا يتعلَّقُ به؛ لأنَّه أهمُّ لإنكارهم له ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[٤].

٦- يُستفادُ من قولِه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ إقامةُ الحُجَّةِ على أهلِ الشِّركِ؛ حيثُ أشركوا بالله مع أنَّه ربُّهم، وأنَّ الأصنامَ ليس لها شأنٌ في الربوبيَّةِ إطلاقًا؛ فهي لا تَسمعُ ولا تُبصِرُ، ولا تَنفع ولا تَضرُّ، كما قال تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾[٥] [النحل: ٢١].

٧- أنَّه لا حظَّ لعيسى في الأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّة، ولا حقَّ له فيهما؛ لقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٨).

(٢) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٩٩).

(٣) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٤٧) هذا على قولِ بعضِ المفسِّرين أنَّ كلَّ آية في طائفةٍ مِن النَّصارى.

(٤) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٤٧).

(٥) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٠).

ٱللَّهَ﴾ هذا في الألوهيَّةِ ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ وهذا في الرُّبوبيَّة، وكذلك غيرُه من الرسلِ وغيرُه من الناسِ، وبهذا نَعرِفُ ضلالَ أولئك القومِ الذين يدَّعون أنَّ أولياءَهم هم الذين يُدبِّرون الكونَ، وهم الذين يُصرِّفونَه، وأنَّهم على ضَلالٍ مبينٍ[(١)].

٨- قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾ ذكَر العِبادةَ ثمَّ ذكَر الرُّبوبيَّة؛ إشارةً إلى أنَّ الربوبيَّة تستلزمُ الأُلوهيَّةَ، أي: إنَّ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ يستلزمُ توحيدَ الألوهيَّة، فمَن أقرَّ للهِ عزَّ وجلَّ بالرُّبوبيَّة لزِمَه أن يُقرَّ بالعبادةِ؛ لأنَّ الربَّ يجبُ أن يكونَ معبودًا؛ لأنَّ له الأمرَ وله الحُكم، فإذا كان كذلك يجبُ أن يُعبَدَ كما شرَع[(٢)].

٩- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ أنَّ عِقابَ الفُسَّاقِ لا يكون مخلَّدًا؛ لأنَّه تعالى جعَل أعظمَ أنواعِ الوعيدِ والتهديدِ في حقِّ المشركينَ، وهو أنَّ الله تعالى حرَّم عليهم الجنَّةَ ومأواهم النَّار، وأنَّه ليس لهم ناصرٌ يَنصرُهم، ولا شافعٌ يَشفَعُ لهم، فلو كان حالُ الفُسَّاقِ من المؤمنين كذلك لَمَا بقِي لتهديدِ المشركين على شِركهم بهذا الوعيدِ فائدةٌ[(٣)].

١٠- أنَّه لا مأوى للخَلقِ إلَّا أحدُ أمرين: إمَّا الجنَّة، وإمَّا النار، ليس هناك شيءٌ وسطٌ؛ لقولِه: ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[(٤)].

١١- لَمَّا كان المنعُ مِن دار السُّعداءِ مُفهِمًا لكونه في دارِ الأشقياء، صرَّحَ

---

(١) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٦).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٥٨).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠١).

به فقال: ﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾، أي: محلُّ سُكناه ﴿ٱلنَّارُ﴾، ولَمَّا جرَتْ عادةُ الدنيا بأنَّ مَن نزَلَ به ضيمٌ يَسعى في الخَلاصِ منه بأنصارِه وأعوانِه، نفَى ذلك سبحانه مُظهِرًا للوصفِ المقتضي لشَقائِهم تعليلًا وتعميمًا، فقال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ لا بفِداءٍ ولا بشفاعةٍ(١).

١٢- الإشارةُ إلى أنَّ الشِّركَ ظلمٌ؛ لقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ وقد جاءَ ذلك صريحًا في القرآنِ الكريم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢) [لقمان: ١٣].

١٣- فائدةُ جمْعِ الأنصارِ في قوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾- مع كونِ النَّكِرة المفردةِ تُفيدُ العمومَ في سِياقِ النَّفيِ- هي التَّنبيهُ على كونِ النَّصارى كانوا يتَّكِلونَ على كثيرٍ مِن الرُّسلِ والقِدِّيسينَ؛ إذ كانتْ وثنيةُ الشَّفاعةِ قدْ فشَتْ فيهم، وإنْ لم تكُن من أصلِ دِينِهم(٣).

١٤- أنَّ الظالِمينَ لا ناصِرَ لهم؛ لقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، و(مِن) هنا حرفُ جرٍّ جاء لإفادةِ العمومِ والتوكيد؛ فإنْ قال قائل: كيفَ يَستقيمُ هذا النفيُ المؤكَّد مع أنَّ الكفَّارَ قد يُنصَرون، والمشركين قدْ يُنصَرون؟ الجواب: أنَّ هذا نصرٌ مؤقَّتٌ؛ ليبتليَ اللهُ به المؤمنين، وليس نصرًا دائمًا؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، ولا يُمكِن أنْ يتناصرَ

(١) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٤٩).
(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٣).
(٣) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠٠).

الكفَّارُ في دفْعِ العذاب عنهم يومَ القِيامة، وحينئذٍ فلا إشكالَ[١].

١٥- أَبطلَ اللهُ قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ بقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وهذا خبرٌ مِن أصدقِ المخبِرينَ، خبرٌ مؤكَّد بحَرفِ الجرِّ الزائدِ وبالحَصْر، وطريقُ الحصرِ النفيُ والإثبات، وهذا الحصرُ مؤكَّد بـ«من» الزائدة، وكلُّ الحروفِ الزائدة مؤكِّدة[٢].

١٦- إثباتُ عدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه لا يُعذِّبُ إلَّا مَن استمرَّ على كُفرِه ومعصيتِه؛ لقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣].

١٧- التَّحذيرُ البليغُ من الاستمرارِ على الكفرِ والشِّركِ، وأنَّ مَن استمرَّ عليه فله العذابُ الأليمُ؛ لقولِه: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٤].

١٨- في قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ... عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بيانُ لُطفِ اللهِ تعالى بعِبادِه؛ حيث صدَّر دَعوتَهم إلى التوبةِ بالعَرضِ الذي هو غايةُ اللُّطفِ واللِّين؛ فمع هذه الفِريةِ العُظمَى والوقوعِ في جنابِ اللهِ جلَّ وعلا بهذا الأمْرِ الهائلِ العظيمِ، فاللهُ مع هذا يَستعطِفُهم ويَتلطَّفُ بهم للتوبةِ أحسنَ استعطافٍ وألْطفَه[٥].

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٣).

(٢) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٤٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٥).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٩).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٩).

(٥) ينظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤٠- ٣٤١).

١٩- في قولِه تعالى: ﴿... وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ استدلالٌ على فسادِ قولِ النصارى بألوهيَّة عيسى وأُمِّه، وبيانُه مِن وجهين: الأوَّل: أنَّ عيسى عليه السلامُ له أمٌّ، وكلُّ مَن له أُمٌّ فقدْ حَدَث بعدَ أنْ لم يكُنْ، وكلُّ من كان كذلك كان مخلوقًا لا إلهًا، والثاني: أنَّ عيسى وأمَّه كانا محتاجَيْنِ إلى الطَّعامِ، والإلهُ الحقُّ غنيٌّ عن جميعِ الأشياء[١].

٢٠- ممَّا يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ أنَّ الهوى لا يكاد يُذكَرُ إلَّا في موضعِ الشرِّ، فلا يكاد يُقال: فلان يَهوى الخيرَ، إنَّما يُقال: يريدُ الخيرَ ويُحبُّه، وقيل: سُمِّيَ الهوى هوًى؛ لأنَّه يَهوِي بصاحبِه إلى النَّارِ[٢].

٢١- قولُه: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ﴾ فيه الردُّ على الجبْريَّةِ الذين قالوا: إنَّ ضلالَ الإنسانِ لا يُنسَبُ إليه، وإنَّه مَجبورٌ عليه، ولا اختيارَ له فيه؛ لأنَّ الآيةَ صريحةٌ بأنهم ضلُّوا وأضلُّوا[٣].

٢٢- إثباتُ الأسبابِ؛ لقوله: ﴿وَأَضَلُّواْ﴾ فإنَّ هذا إضلالٌ ليس عن قوَّةٍ وإجبارٍ وإكراهٍ، لكنَّه عن سببٍ، يُزيِّنون به الباطلَ حتى يُضلُّوا به غيرَهم[٤].

٢٣- أنَّ الدِّينَ الصَّحيحَ وسَطٌ بين الغالي فيه والجافي عنه؛ لقوله: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: عن مُستقِيمِ السَّبيلِ، الذي ليس فيه غُلوٌّ ولا تفريطٌ[٥].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ استئنافٌ

---

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٩، ٤١٠).

(٢) ينظر: ((تفسير الشربيني)) للبقاعي (١/ ٣٩٠).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٢).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٣).

(٥) ينظر: ((المصدر السابق)).

ابتدائيٌّ، وفيه: شروعٌ في تفصيلِ قَبائحِ النَّصارى، وإبطالِ أقوالهم الفاسدةِ بعدَ تفصيلِ قبائحِ اليهودِ(١).

٢- قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ على القَوْلِ بأنَّ هذه الجملةَ حِكاية لكلامٍ صدَر من عيسى عليه السَّلام، فتكون تعليلًا للأمْر بعبادَةِ الله، ووقوع ﴿إِنَّ﴾ في مِثل هذا المقامِ تُغني غَناءَ فاءِ التفريعِ، وتُفيد التَّعليل، وفي حكايتِه تَعريضٌ بأنَّ قولَهم ذلك قد أوْقَعهم في الشِّرْكِ، وإنْ كانوا يظنُّون أنَّهم اجتنبوه؛ حذرًا من الوقوعِ فيما حذَّر منه المَسيحُ؛ لأنَّ الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ﴾ أرادوا الاتِّحادَ باللهِ، وأنَّه هو هو. وعلى القول بأنَّ الجملةَ من كلامِ اللهِ تعالى فهو تذييلٌ لإثباتِ كُفْرِهم، وزيادةُ تنبيهٍ على بُطلانِ معتقدِهم، وتعريضٌ بهم بأنَّهم قد أشْركوا باللهِ مِن حيثُ أرادوا التوحيدَ، والضمير المقترن بـ (إنَّ) ضميرُ الشَّأنِ يدلُّ على العِناية بالخبرِ الواردِ بعدَه(٢).

٣- قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾: خبرٌ، المرادُ منه الوعيدُ والتهديدُ، وهذا مِن بابِ التَّحذيرِ؛ فالجُملةُ هنا استئنافيَّةٌ للتَّحذيرِ(٣).

- وفيه: إظهارُ الاسمِ الجَليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في مقامِ الإضمارِ؛ لتهويلِ الأمرِ، وتربيةِ المهابةِ(٤).

٤- قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٠- ٢٨١).

(٣) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٧).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٦).

- قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فيه: تأكيدٌ أنَّه لا يكونُ إلهٌ في الوُجودِ مستحِقٌّ للعبادَةِ إلَّا إلهٌ واحدٌ مَوصوفٌ بالوحدانيَّة، مُتعالٍ عن قَبول الشَّرِكةِ، وأكَّد ذلك بزيادةِ ﴿مِنْ﴾ الاستغراقيَّة التي تُؤكِّد عمومَ النَّفْي[1]، وحَصْرِ إلهيَّتِه- بأداتَيِ الحصْرِ (ما) و(إلَّا)- في صِفة الوحدانيَّة؛ فانتفى التثليثُ المحكيُّ عنهم[2].

- وعبَّر بالمضارعِ في قولِه: ﴿يَنتَهُواْ﴾؛ لأنَّه المناسِبُ للانتهاءِ؛ إذ الانتهاءُ إنَّما يكونُ عن شيءٍ مستمرٍّ، وناسَب التعبيرُ بالماضي في قولِه ﴿قَالُوٓاْ﴾ مع قولِه ﴿لَّقَدْ كَفَرَ﴾؛ لأنَّ الكُفرَ حصَلَ بقولِهم ذلك ابتداءً من الزَّمنِ الماضي[3].

- وأكَّد الوعيدَ بلامِ القَسَم في قَوْلِه: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ ...﴾؛ ردًّا لاعتقادِهم أنَّهم لا تَمسُّهم النارُ؛ لأنَّ صَلْبَ عيسى كان كفَّارةً عن خَطايا بني آدَمَ[4].

- وفي قوله: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ إقامةُ الظَّاهرِ مقامَ المضمَرِ- حيثُ لم يقُلْ: (وليمسنَّهم)- وفائدتُه: تكريرُ الشَّهادةِ عليهم بالكُفرِ في قولِه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا...﴾، وفيه فائدةٌ أخرى، وهي: الإعلامُ أنَّهم بمكانٍ مِن الكُفرِ، أي: ليمسنَّ الذين كَفروا من النَّصارى خاصَّةً نوعٌ شديدُ الألمِ من العَذابِ[5].

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٠).

(٢) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٢- ٢٨٣).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٣).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٥) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور))

٥- **قوله**: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ الاستفهامُ فيه؛ قيل: معناهُ الإنكارُ والتعجُّبُ مِن إصرارِهم؛ كيفَ لا يَتوبونَ ويَستغفِرون مِن هذه المَقالةِ الشَّنعاءِ؟! والإنكارُ هنا إنكارٌ للواقِعِ منهم لا إنكارُ الوقوعِ؛ فمدارُ الإنكارِ والتعجُّبِ عَدَمُ الانتهاءِ، وعَدمُ التَّوبةِ معًا. وقيل: معنى هذا الاستفهامِ الأمرُ والتَّحضيضُ؛ لأنَّ المفهومَ مِن الصِّيغةِ طَلَبُ التَّوبةِ والحثُّ عليها، فمعناه: تُوبوا إلى اللهِ واستغفِرُوه مِن ذَنبِكم[(١)].

٦- **قوله**: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ مِن فاعِل ﴿يَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾، وهي مؤكِّدةٌ للإنكارِ والتعجُّبِ من إصْرارِهم على الكُفرِ، وعدمِ مُسارعتِهم إلى الاستغفارِ، أي: والحالُ أنَّه تعالى مبالِغٌ في المغفرةِ، فيَغفرُ لهم عندَ استغفارِهم، ويَمنحُهم من فضلِه؛ فكيف لا تُوجَدُ التوبةُ مِن هذا الذَّنبِ، وطَلَبُ المغفرةِ، والمسؤولُ منه ذلك مُتَّصفٌ بالغُفرانِ التامِّ، والرحمةِ الواسعةِ لهؤلاء وغيرِهم[(٢)]؟!

٧- قوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ استئنافٌ لتبيانِ وصْفِ المسيحِ في نَفْسِ الأمرِ، ووصْفِ أمِّه؛ زيادةً في إبطالِ مُعتقَدِ النصارى إلهيَّةَ المسيحِ، وإلهيةَ أمِّه[(٣)].

٨- قوله: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ جاءَ قولُه: ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ على بِناءٍ مِن أبنيةِ المبالَغةِ (فِعِّيل)؛ للدَّلالةِ على مُبالغَتِها في الصِّدْقِ والتَّصديقِ[(٤)].

(٦/ ٢٨٢- ٢٨٣).

(١) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٧).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٤).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٥).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٦).

٩- **قوله:** ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ قِيل: فيه كنايةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ كنَّى عن قَضاءِ الحاجةِ بأكْلِ الطَّعامِ، وقصَدَ مِن ذلك أنَّهما- صلواتُ اللهِ عليهما- بَشَرٌ، فاكتفَى بذِكرِ أكْلِ الطَّعامِ عن كلِّ هذا؛ لأنَّهما منه مُسبَّبانِ؛ إذ لا بدَّ للآكلِ منهما، لكن استُقبِح في المخاطَبِ ذِكرُ الغائطِ فكنَّى به عنه؛ تهذيبًا وتصوُّنًا، وهذا مِن غريبِ الكناياتِ في اللُّغة العربيَّة، وفيها أيضًا تشنيعٌ وبشاعةٌ على مَن اتَّخذهما آلهةً[(١)]. وقيل: بلْ هو على حَقيقتِه، ويَكفِي حاجتُهما إلى الطعامِ دَلالةً على بشريَّتِهما؛ إذ هذه الحاجةُ من أقوى الدلائلِ على أنَّه ليس بإلهٍ؛ فلا حاجةَ إلى الكنايةِ[(٢)].

١٠- قوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾

- الجُملة استئنافٌ للتعجُّب مِن حالِ الذين ادَّعَوُا الإلهيَّةَ لعيسى عليه السلامُ[(٣)].

- والتكريرُ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ﴾ بعد قوله: ﴿ٱنظُرۡ﴾؛ للدَّلالةِ على الاهتمامِ بالنَّظر والتدبُّر، وإن اختلفتِ النَّظرتانِ؛ فالأُولى متعلِّقة بكيفيَّةِ إيضاحِ اللهِ لخَلْقِه الآياتِ، والثانية متعلِّقةٌ بانصرافِهم عنها، وصُدوفِهم عن التأمُّلِ في مراميها وأهدافِها؛ إذ تكريرُ الأمرِ بالنظرِ للمبالغةِ في التعجُّب، و﴿ثُمَّ﴾ لإظهارِ ما بين العجبينِ من التفاوتِ، أي: إنَّ بيانَنا للآياتِ أمرٌ بديعٌ في بابه، بالغٌ لأقاصي الغاياتِ القاصية من التحقيق والإيضاح، وإعراضَهم عنها- مع انتفاءِ ما يُصحِّحه بالمرَّةِ، وتعاضُد ما يُوجِب قَبولَها- أعجبُ وأبدعُ[(٤)].

---

(١) ينظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٤- ٣٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٣٤- ٥٣٥).

(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٩- ٤١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٣).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٧).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٣٥).

١١- قوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فيه: استفهامٌ غرضُه التوبيخُ والإنكارُ؛ فإنَّه لَمَّا بيَّن تعالى انتفاءَ الإلهيَّة عن عيسى، وكان قدْ توعَّدَهم، ثمَّ استدعاهم للتوبةِ وطلَبِ الغفرانِ- أنكرَ عليهم، ووبَّخهم من وجهٍ آخر، وهو عجزُه وعدمُ اقتدارِه على دفْع أيِّ ضررٍ، وجَلْب أيِّ نفعٍ، وأنَّ مَن كان لا يدفَعُ عن نفْسِه حريٌّ ألَّا يدفعَ عنكم[١].

- وتقديمُ قولِه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على قولِه تعالى: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ للاهتمامِ بالمقدَّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر، والاسمُ الموصول ﴿مَا﴾ عبارةٌ عن عيسى عليه السلام، وإيثارُه على كلمة ﴿مِن﴾؛ لتحقيقِ ما هو المرادُ من كونِه بمعزلٍ من الألوهيَّة رأسًا ببيانِ انتظامِه عليه السَّلام في سِلْكِ الأشياءِ التي لا قُدرةَ لها على شيءٍ أصلًا، وهو عليه السَّلامُ وإنْ كان يملِك ذلك بتمليكِه تعالى إيَّاه، لكنَّه لا يملكُه مِن ذاتِه، ولا يملك مِثلَ ما يضرُّ به اللهُ تعالى من البلايا والمصائِبِ، وما ينفعُ به من الصحَّةِ والسَّعةِ[٢].

- وتقديمُ الضَّرِّ على النَّفع في قولِه: ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ من بابِ تقديمِ الأهمِّ؛ لأنَّ التحرُّزَ عنه أهمُّ من تحرِّي النفعِ، ولأنَّ أدْنى درجاتِ التأثيرِ دفْعُ الشرِّ، ثم جلْبُ الخيرِ[٣].

١٢- قوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ حالٌ من فاعل ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ وفيه تأكيدٌ للإنكار والتوبيخ، وتقريرٌ للإلزامِ والتَّبكيت، والرَّابط هو الواو، أي: تُشركون بالله تعالى ما لا يَقدِرُ على شيءٍ مِن ضرِّكم ونَفْعِكم، والحالُ أنَّ الله تعالى هو المختصُّ بالإحاطةِ التامَّة بجميعِ المسموعاتِ والمعلوماتِ، التي مِن

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٤).
(٢) ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٨).
(٣) ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٨).

جُملتها ما أنتُم عليه من الأقوالِ الباطِلَة، والعقائدِ الزائغَةِ، والأعمالِ السيِّئة، وبالقُدرة الباهِرة على جميعِ المقدوراتِ، التي مِن جُملتها مضارُّكم ومنافعُكم في الدُّنيا والآخرة[١].

١٣ - قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾

- فيه تلوينُ الخِطاب وتَوجيهٌ له إلى أهلِ الكتابِ بطَريقِ الالتفاتِ على لِسانِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَ إبطالِ مسالكهم؛ للمبالغةِ في زَجْرِهم عمَّا سلَكوه مِن المسلك الباطِلِ، وإرشادِهم إلى الطَّريقِ الحقِّ الذي يُرضي اللهَ تعالى[٢].

- وتَنكيرُ ﴿قَوْمٍ﴾ تحقيرًا لهم[٣].

- وفيه تَكرارُ وصْفِ أهلِ الكتابِ بالضَّلالِ؛ وأنَّهم ضلُّوا قديمًا في دِينهم مِن قَبلِ مجيءِ الإسلامِ، وأضلُّوا كثيرًا مِن أتْباعِهم، ثمَّ أكَّد ذلك بتكرار قولِه: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وأنَّهم ضلُّوا بعد ذلك عن الإسلامِ[٤].

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٨).

(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٣) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٦).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٠).

الآيات (٧٨ - ٨١)

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

﴿أَن سَخِطَ﴾: ﴿أَن﴾: حرفٌ مَصدريٌّ ناصِبٌ، و﴿سَخِطَ﴾: فِعلٌ ماضٍ تَعلَّق به الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، وَ﴿أَن سَخِطَ﴾: مَصدرٌ مؤوَّلٌ، ومحلُّه الرفْع على أنَّه مبتدأٌ مؤخَّرٌ، وخبرُه المقدَّمُ جملةُ الفِعلِ الجامِدِ (بِئْسَ)، والتقديرُ: سَخَطُ اللهِ عليهم بِئَسَ ما قدَّمتْه لهم أنفُسُهم. وقيل: ﴿أَن سَخِطَ﴾: مَصْدر مُؤَوَّلٌ في محَلِّ رفعٍ خَبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه (هو)، والتقديرُ: بِئَسَ ما قدَّمتْه لهم أنفُسُهم هو سَخَطُ اللهِ. وقيل غير ذلك[1].

المَعنَى الإجْمالِيُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لَعَن كفَّارَ بني إسرائيلَ بأنْ طرَدَهم مِن رَحمتِه على لِسانِ نَبيَّينِ كَريمينِ؛ هما داودُ وعيسى عليهما السَّلامُ، وذلك بسببِ عِصيانِهم لخالقِهم، واعتدائِهم على حُقوقِ العِبادِ، ثمَّ فسَّر سبحانه عِصيانَهم وعُدوانَهم بأنَّهم كانوا

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٨٤-٣٨٦)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٧٢).

لا يَنهَى بعضُهم بعضًا عن ارتكابِ المعاصِي والموبِقات، لبئسَ فِعلًا تَركُهم التَّناهي عن المعاصِي.

ثمَّ يحَكِي الله تعالى ما كان يقومُ به اليهودُ في العَهْدِ النبويِّ من تحالفٍ مع المشركين ضدَّ المسلمين، وأنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان يرَى كثيرًا من اليهودِ يُوالونَ الكفَّارَ والمشركين، ولبِئسَ الشيء الذي قدَّمته لهم أنفسُهم ليوم المعاد هو ما استحقُّوا به سَخطَ اللهِ عز وجل عليهم، وفي عَذابِ جهنَّمَ هم خالدونَ، ولو أنَّ اليهودَ يُؤمِنون باللهِ تعالى حقًّا وبمحمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبالقرآنِ الكريمِ، ما والَوُا الكفَّارَ، ولكنَّ كثيرًا منهم فاسِقونَ.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سبحانَه في الآيةِ السابقَةِ أنَّهم ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ ﴾، دلَّل على ذلِك بلَعْنِهم مِن أنبيائِهم[1]، فقال:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى قد طَرَدَ كُفَّارَ بني إسرائيلَ، وأَبْعدَهم عن رَحمتِه بدَعوةِ نبيَّيْهِ داودَ وعِيسى عليهم بذلِك[2].

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٦، ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٤).

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

أي: إنَّ ذلِك اللَّعنَ قدْ وقَع عليهم بسببِ عِصيانهم للهِ تعالى، وظُلمِهم لعبادِه[١].

ثم بَيَّن اللهُ تعالى حالَهم فيما كانوا يَعتمِدونَه في زَمانِهم، مِن عُدوانٍ ومعاصٍ أحَلَّتْ بهم الْمَثُلاتِ، وأوقعتْ بهم العُقوباتِ[٢]، فقال سبحانه:

﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾.

أي: كان لا يَنهى بعضُهم بعضًا عن رُكوبِ المعاصِي وارتكابِ المُحرَّمات[٣].

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

أي: واللهِ بِئسَ الشَّيءُ الذي كانوا يَفعلونَه، وهو ترْكُهم النَّهيَ عن معاصِي اللهِ تعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٤- ٢٣٥).
وممَّن جعَلَ الإشارة في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى اللَّعن: ابنُ عطية في ((تفسيره)) (٢/ ٢٢٤)، والقرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٢٥٣)، وابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ٢٩٢)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٤- ٢٣٥).
وممَّن جعَلَ الإشارةَ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الكفرِ واللَّعن معًا: السعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٥- ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٦).

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا وصَفَ اللهُ تعالى أسلافَهم بما تَقدَّمَ بأنَّهم ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ وأخْبَرَ أنهم كانوا يُقرُّون المنكراتِ، ودلَّل على ذلك بأمرٍ ظاهرٍ منهم، فوصَف الحاضرينَ منهم بأنَّهم يَتولَّوْن الكفَّارَ وعبدةَ الأوثانِ[1]، فقال:

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾.

أي: ترَى- يا مُحمَّدُ[2]- كثيرًا من اليهودِ يتَّخذون الكفَّارَ والمشركين أولياءَ لهم[3].

﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾.

أي: واللهِ بِئسَ الشَّيءُ الذي قدَّمتْه لهم أنفسُهم لِمَعادِهم في الآخِرة،

---

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٦٦).

(٢) قال ابنُ عَطيَّة: (وقوله تعالى لمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا ﴾ يحتمل أنْ يكون رؤيةَ قلبٍ، وعلى هذا فيحتمل أنْ يُريد من الأسلاف المذكورين، أي: ترَى الآن إذا خبرناك، ويحتمل أنْ يُريد من مُعاصري محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه كان يرى ذلك من أمورِهم ودلائلَ حالهم، ويحتمل أنْ تكونَ الرؤيةُ رؤيةَ عينٍ، فلا يريد إلَّا معاصري محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٢٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٤٤- ٢٤٥).

قال ابنُ عثيمين: (ومِن هؤلاء اليهودُ حينما ساعَدوا قريشًا عامَ غزوة الأحزاب؛ فإنَّهم تولَّوا الذين كفروا وساعدوهم وعاونوهم، ومِن هذا تولِّي اليهود للنصارى في وقتنا الحاضِر، هذا إذا قلنا: إنَّ «ترَى» عامَّة؛ لأنَّ النصارى من الذين كفروا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [البينة: ٦]، وهذا بيانٌ للذين كفروا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٤٥).

بموالاتِهم الكافرينَ والمشركين، وهو سَخَطُ اللهِ تعالى عَليهم سَخَطًا مُستمرًّا إلى يَومِ القِيامةِ؛ الذي يَنتقلونَ فيه إلى عذابٍ أبديٍّ[(١)].

﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كانَ تولِّيهم الكفَّارَ قدْ يكون دليلًا على كُفرِهم؛ لقوله: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أكَّدَ ذلك الكُفرَ بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ.... ﴾[(٢)].

﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾.

أي: ولوْ أنَّ اليهودَ آمنوا حقًّا باللهِ تعالى وبمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبالقرآنِ العظيمِ، لَمَا جعَلوا الكفَّارَ أولياءَ لهم مِن دون المؤمنين؛ فإنَّ الإيمانَ بذلِك يُوجِبُ على العَبدِ موالاةَ ربِّه سبحانه وأوليائِه المؤمنين، وبُغضَ أعدائِه الكافِرين ومعاداتَهم[(٣)].

﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾.

أي: ولكنَّ كثيرًا مِن هؤلاءِ أهلُ خُروجٍ عن الإيمانِ بما يجِبُ عليهم الإيمانُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧- ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥١- ٢٥٢).

به إلى الكُفرِ به، وعن طاعةِ اللهِ تعالى إلى مَعصيتِه سبحانه[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُستفادُ من قولِه تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ... كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُ﴾ أنَّ السُّكوتَ عن المنكَرِ مع القُدرةِ موجِبٌ للعقوبة؛ لِمَا فيه من المفاسدِ العظيمة، التي منها:

أولًا: أنَّ مجرَّدَ السُّكوت فِعلُ معصيةٍ، وإنْ لم يباشرْها السَّاكتُ؛ فإنَّه- كما يجبُ اجتنابُ المعصيةِ- يجبُ الإنكارُ على مَن فعَلَ المعصيةَ، وعدمُ الإنكارِ يدلُّ على التهاوُنِ بالمعاصي، وقِلَّةِ الاكتراثِ بها.

ثانيًا: أنَّ ذلك يُجرِّئ العصاةَ والفَسَقةَ على الإكثارِ من المعاصي إذا لم يُردَعوا عنها، فيزدادُ الشرُّ، وتعظُم المصيبةُ الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، ويكون لهم الشوكةُ والظهور، ثم بعدَ ذلك يَضعُف أهلُ الخيرِ عن مُقاومةِ أهلِ الشرِّ؛ حتى لا يَقدِروا على ما كانوا يَقدِرون عليه أوَّلًا.

ثالثًا: أنَّ في ترْكِ الإنكارِ للمُنكَر اندِراسَ العِلم، وكثرةَ الجَهل؛ فإنَّ المعصية- مع تكرُّرِها وصُدورِها من كثيرٍ من الأشخاص، وعدَم إنكارِ أهلِ الدِّين والعِلم لها- يُظَنُّ أنَّها ليستْ بمعصية، وربَّما ظنَّ الجاهلُ أنَّها عبادةٌ مُستحسَنةٌ، وأيُّ مفسدةٍ أعظمُ مِن اعتقادِ ما حرَّم اللهُ حلالًا، وانقلابِ الحقائقِ على النُّفوسِ، ورؤيةِ الباطل حقًّا؟!

رابعًا: أنَّ السكوت على معصيةِ العاصين، ربَّما يُزيِّن المعصيةَ في صُدورِ النَّاسِ، ويقتدي بعضُهم ببعضٍ؛ فالإنسانُ مُولَع بالاقتداءِ بأضرابِه وبَني جِنسِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥٢).

(٢) ينظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١).

٢- التَّحذيرُ من موالاةِ الكافرينَ؛ لقوله: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ ... ﴾، وموالاةُ الكافرين أنواعٌ كثيرة، منها ما يصِلُ إلى الكُفرِ، ومنها ما هو دون ذلك(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- أنَّ تَرْكَ التَّناهي عن المنكَرِ سببٌ لِلَعنةِ اللهِ للعَبدِ وطَرْدِه وإبعادِه من رَحمتِه، والعياذُ باللهِ؛ لقوله: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ... كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾(٢).

٢- قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ قد تقرَّر في غير موضعٍ مِن القرآنِ ما جرَى في مُدَّة موسى عليه السَّلامُ مِن كُفرِ بعضِهم وعُتوِّهم، وكذلك أمرُهم مع محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم كان مشاهدًا في وقتِ نُزولِ القرآن، فخَصَّت هذه الآيةُ داودَ وعيسى؛ إعلامًا بأنَّهم لُعِنوا في الكتُبِ الأربعةِ، وأنَّهم قدْ لُعِنوا على لِسانِ غيرِ موسى ومحمَّد عليهما السَّلامُ(٣).

٣- أنَّ مِن بني إسرائيلَ قبل مَبعَث النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مَن هو كافرٌ، ومنهم مَن هو مؤمنٌ؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، وهذا هو الواقعُ؛ فإنَّ منهم مؤمنِين، كالحواريِّين لعيسى عليه الصَّلاة والسَّلام، وكالقومِ الذين اختارَهم موسى سَبعينَ رجلًا، وغير ذلك(٤).

٤- أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يَظلِمُ الناسَ شيئًا، وأنَّه لا يُعاقِبُ أحدًا بعقوبةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٧).

إلَّا بذنبٍ؛ لقولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[١].

٥- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ الإخبارُ بفُشُوِّ المنكراتِ فيهم، وانتشارِ مَفاسدِها بينهم؛ لأنَّ وجودَ العِلَّة يَقتضي وجودَ المعلولِ، ولولا استمرارُ وقوعِ المنكرات لَمَا صحَّ أن يكونَ تركُ التناهي شأنًا من شؤونِ القومِ، ودأْبًا من دُؤوبهم[٢].

٦- قال تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أطْلَق على ترْكِ التناهي لفظَ الفِعل في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ مع أنَّه ترْكٌ؛ لأنَّ السُّكوتَ على المنكَرِ لا يَخلو من إظهارِ الرِّضا به والمشاركةِ فيه[٣]، وعلى القولِ بأنَّ التركَ فعلٌ، فلا يحتاجُ لهذا التَّوجيهِ.

٧- في قولِه تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ما يدلُّ على سُوءِ ما عليه بعضُ المسلمين في إعراضِهم عن بابِ التَّناهي عن المناكيرِ، وقِلَّة اهتمامِهم به؛ كأنَّه ليس مِن مِلَّةِ الإسلامِ في شَيءٍ مَع ما يَتْلُونَ مِن كلامِ اللَّهِ، وما فيه مِنَ المبالغاتِ في بابِ الأمرِ بالمعروفِ، والنهيِ عن المنكَرِ[٤].

٨- الردُّ على الجَبريَّة؛ لقوله: ﴿قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾، وقوله أيضًا: ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾[٥].

٩- إثباتُ صِفة السَّخَطِ للهِ عزَّ وجلَّ على ما يَليقُ بكَمالِه وجَلالِه؛ لقوله: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٤٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤٩).

١٠- أنَّ اتِّخاذَ الكافرينَ أولياءَ مُنافٍ للإيمانِ باللهِ ورسولِه وكتابِه؛ لقوله: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾[(١)].

١١- الاستدلالُ بالمحسوسِ على المعقولِ، وإن شئتَ فقُل: بالمشاهَدِ على الخفيِّ؛ لقوله: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ وجه ذلك: أنَّ الإيمانَ في القلبِ، ولا أحدَ يَعلمُ عن الإيمانِ الذي في القَلبِ، لكنَّ الآثارَ تدلُّ عليه، والأثَر الذي دلَّنا على أنَّهم لم يُؤمنوا هنا، هو تولِّي الكفَّارِ، واتِّخاذهم أولياءَ[(٢)].

١٢- أنَّ الفِسقَ يُطلقُ على الكفرِ؛ لقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾، ودليلُ ذلِك أيضًا قولُه تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [السجدة: ٢٠]، في مقابلِ الذين آمنوا، وإذا جاءَ الفسقُ في مقابلِ الإيمانِ، والوعيدُ في مقابل الوعدِ؛ فالمراد به الكفرُ[(٣)].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ ... ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا فيها تخلُّص بديعٌ؛ لتخصيصِ اليهودِ بإلقاءِ اللَّوْم عليهم، وذِكرهم بالسُّوء دون النَّصارى[(٤)].

- وجاء التَّعبير بحرف الجرِّ (على) في قوله: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ ﴾ بدلًا من باءِ الملابسة؛ لإظهارِ تمكُّنِ الملابسةِ، وقصْدِ المبالغةِ فيها، أي: لُعِنوا بلسانِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥٥).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٢).

داودَ، أي: بكلامِه المُلابسِ للِسانِه[١].

٢- **قوله**: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ الجملةُ مستأنَفة واقعةٌ موقعَ الجوابِ عمَّا نشَأ مِن الكلامِ، كأنَّه قيل: بأيِّ سببٍ وقعَ ذلك؟ فقيل: ذلك اللعنُ الهائلُ الفظيعُ بسببِ عِصيانِهم واعتدائِهم المستمرِّ، كما يُفيدُه الجمعُ بين صِيغتي الماضي والمستقبَل[٢].

- و(ما) في قوله ﴿بِمَا عَصَواْ﴾ مصدرية، أي: بعصيانهم وكونهم معتدِين، فعدل عن التعبيرِ بالمصدرين إلى التعبيرِ بالفِعلين مع (ما) المصدريَّة؛ ليُفيدَ الفعلانِ معنى تجدُّدِ العصيان، واستمرارِ الاعتداءِ منهم، ولتفيد صِيغةُ المضيِّ أنَّ ذلك أمرٌ قديم فيهم، وصيغةُ المضارع أنَّه متكرِّرُ الحدوث، وإنما عبَّر في جانبِ العصيانِ بالماضي فقال: ﴿عَصَواْ﴾؛ لأنَّه تَقرَّر فلم يقبلِ الزيادة، وعبَّر في جانبِ الاعتداءِ بالمضارع فقال: ﴿يَعۡتَدُونَ﴾؛ لأنَّه مستمرٌّ؛ فإنَّهم اعتدَوْا على محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتكذيبِ والمنافقةِ، ومحاولةِ الفَتْكِ والكيدِ[٣].

- وإيثارُ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ على الضَّمير- حيث لم يقُل: (هو بما عصوا)-؛ للتَّنبيهِ على كَمالِ ظهورِه، وامتيازِه عن نظائرِه، وانتظامِه بسببِه في سلكِ الأمورِ المشاهَدة، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بكَمالِ فظاعتِه، وبُعدِ درجتِه في الشَّناعةِ والهولِ[٤].

- وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ فيه تأكيدٌ على سَببِ

(١) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٩).
(٣) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٣).
(٤) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٩).

اللَّعنِ، أي: ذلك اللَّعنُ كان بسَببِ عِصيانهم وعُدوانِهم، وذُكِر هذا على سَبيلِ التوكيدِ، مع أنَّه قد فُهِمَ سَببُ اللَّعنةِ بإسنادِها إلى مَن تَعلَّقَ به الوصفُ الدالُّ على العِليَّة، وهو ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1].

- وفي قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ خصَّ العُدوانَ بالذِّكر مع أنَّه مِن المعاصِي؛ لكونِ العُدوانِ أَشدَّ وأقبحَ مِن مُجرَّدِ المعصيةِ[2].

٣- قوله: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾:

- قوله: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُ﴾ فيه تَوبيخٌ لهم، حيثُ تَضمَّنَ الإخبارَ بأَمرينِ قَبيحينِ، أحدُهما: أنَّهم كانوا يَفعلون المناكِير، والآخَر: أنَّهم كانوا تارِكين للنَّهْيِ عنها، أي: عن أمثالِها في المستقبَل، وأفادَ قوله: ﴿فَعَلُوهُ﴾، التَّصريحَ بوقوعِ المُنكراتِ منهم، ولو لم يُذكَر قولُه: ﴿فَعَلُوهُ﴾ لكان المصرَّحُ به فقط هو تَرْكَ النَّهيِ عن المنكَر عند استِحقاقِ النَّهيِ؛ فانتظَمَ ثُبوتُ الأمرينِ جميعًا على أَخصرِ وجهٍ وأَبْلغِه[3].

- وأفادَ تنكيرُ ﴿مُّنكَرٖ﴾ في سياقِ النفيِ بيانَ إغراقِهم في عدمِ المبالاةِ[4].

- وقوله: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ خبرٌ فيه تعجُّبٌ من سُوءِ فِعلهم، وفيه تأكيدٌ بالقَسم؛ فاللام في ﴿لَبِئۡسَ﴾ رابطةٌ في جوابِ قَسَمٍ مَحذوفٍ، أي: أُقسم لَبِئسَ ما كانوا يفعلون- يعني: مِن ارتكاب المعاصي والعُدوان[5].

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٦٦٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٦٥).

(٥) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٦٧).

الآيات (٨٢ - ٨٦)

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿قِسِّيسِينَ﴾: جمْع قِسِّيس، وهو العالمُ العابِدُ مِن رُؤوس النَّصارى، على وزْن فِعِّيل، مِن: قَسَسْت الشَّيْء وقَصَصْته إذا تتبَّعْته؛ وسُمِّي القِسِّيسُ بهذا لتتبُّعه كِتابَه، وآثارَ مَعَانِيه، وأصل (قسس): تتبُّع الشَّيء وطلبُه[(١)].

﴿وَرُهۡبَانٗا﴾: رُهبانُ النَّصارَى هم المبالِغونَ في الْعِبَادَة، والانقطاعِ عَن النَّاس، جمْع رَاهِبٍ، وهو الذي يَرهَبُ اللهَ، أي: يخافه، وأصل (رهب): يدلُّ على خَوفٍ[(٢)].

﴿تَفِيضُ﴾: تَسيل، وأصل (فيض): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بِسُهولةٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)،

﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ﴾: أي: فَجازَاهم، والإثابةُ: ما يرجِعُ للإنسانِ من ثوابٍ، وتُستعمَل في المحبوبِ والمكروهِ[١].

﴿ ٱلْجَحِيمِ ﴾: أي: النَّارِ، والجحيمُ أيضًا الجَمر، والجُحْمَة: شدَّةُ تأجُّج النَّار، وأصْل (جحم): عِظَمُ الحرارة وشِدَّتها[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقول اللهُ تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لَتجِدَنَّ اليهودَ والمشركينَ أشدَّ الناسِ بُغضًا وكراهيةً وعداوةً للمؤمِنين، ولتَجِدَنَّ النَّصارى أقربَ الناسِ مودَّةً للمؤمنينَ من أهلِ الأديانِ المخالِفةِ للإسلامِ؛ والسَّببُ أنَّ منهم عُلماءَ وعُبَّادًا، وأنَّهم لا يَستكبرون.

وإذا سَمِعوا القرآنَ الكريم ترَى أعيُنَهم تَسيلُ دمعًا؛ لأنَّهم عرَفوا أنَّ ما يُتلى عليهم هو الحقُّ؛ يقولون: ربَّنا آمنَّا، فاكتبْنا مع محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأمَّتِه.

ويقولُ هؤلاء النَّصارى: وأيُّ مانعٍ يمنعُنا مِن الإيمانِ باللهِ، وبما جاءنا على لسانِ رسولِه محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم مِن قرآنٍ يهدي إلى الرُّشدِ، ونحن نطمَعُ بسبب إيمانِنا أن يُدخِلَنا ربُّنا مع القومِ الصَّالحين، فجزاهم اللهُ بما قالوا من الإيمانِ، ونَطَقوا من الحقِّ، جنَّاتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ، ماكثينَ فيها أبدًا، وذلك جزاءُ مَن أحسَنَ في عِبادة ربِّه، وكان مُحْسنًا إلى الخَلقِ، وأمَّا مَن كفَر

((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

وكذَّب بآياتِ اللهِ تعالى، فأولئك سكَّانُ نارِ جهنَّمَ، الملازِمونَ لها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مِن أحوالِ أهلِ الكِتاب من اليهودِ والنَّصارى ما ذكَرَه في الآياتِ السَّابقةِ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ أنَّ اليهودَ في غايةِ العداوةِ مع المسلمينَ؛ ولذلك جعَلَهم قُرَناءَ للمشركينَ في شِدَّة العداوةِ، بل نبَّه على أنَّهم أشدُّ في العداوةِ من المشركينَ مِن جِهة أنَّه قَدَّم ذِكرَهم على ذِكْر المشرِكينَ[1] فقال تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾.

أي: لَتجِدَنَّ -يا محمَّدُ- أعظمَ النَّاسِ عداوةً للمُؤمنينَ وأكثرَهم سعيًا في إلحاقِ الضَّررِ بهم؛ لشِدَّة بُغضِهم وبَغيِهم وحسَدِهم لهم؛ اليهودَ والمشركينَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩٣-٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٠-٢٦٢).

قال ابنُ عُثيمين: (الخطابُ يحتمل أنْ يكون للرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وعلى هذا فيختصُّ الحُكم بهؤلاء الذين في عهْد الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم، ويحتمل العمومَ، ويكون المرادُ الجِنسَ، ليس كلَّ فرد، فلا نقول: كلُّ يهودي أشدُّ الناس عداوةً للمؤمنين، ولا كلُّ نصراني أقرَبُ الناس مودَّةً) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٠).

وقال الشِّنقيطيُّ: (قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ﴾، فدلَّت هذه الآيةُ على المغايرة بين المشركين وأهلِ الكتاب، والتحقيقُ: أنَّ الكتابيِّين نوعٌ من المشركين، وقد أوْضَحَ الله في هذه السورة الكريمة أنَّ أهل الكتاب من المشرِكين؛ حيث قال فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾.

أي: ولَتجِدَنَّ- يا محمَّد- أقربَ النَّاسِ وِدادًا لأهلِ الإيمانِ مِن أهل المِلَلِ المخالِفةِ للإسلامِ، النَّصارى(١).

إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فصرَّح تعالى بأنَّهم مشرِكون، إلَّا أنَّهم نوعٌ خاصٌّ من المشركين، ربما أُدخل في عمومهم، وربما أُفرِدَ منهم، كأنَّه غيرُ داخل فيهم؛ للفوارق التي بين الكتابيِّين وعَبَدةِ الأصنام- كما هو معروف) ((العذب النمير)) (٥/ ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٢-٢٦٤).

وقال ابن عثيمين: (لا تعمُّ كلَّ يهوديٍّ بعينِه أو نصرانيٍّ بعينِه أو كلَّ مسلمٍ بعينِه، لكن هذا الحكم على سبيلِ العُموم، والأحكامُ تأتي دائمًا على سبيلِ العمومِ، كما تقولُ: الرجالُ خيرٌ مِن النِّساء، يعني هذا الجنسُ خيرٌ مِن هذا الجنسِ، ويوجدُ في النِّساء مَن هو خيرٌ مِن كثيرٍ مِن الرِّجال، ويوجدُ في الرجالِ مَن هو شرٌّ مِن كثيرٍ مِن النِّساء) ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٠).

وقال أيضًا: (هنا قال: ﴿أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ ولم يقلْ: (أشدَّهم مودةً)؛ يعني ليس عندهم مودةٌ لكنهم قريبونَ، يعني أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال في اليهودِ أنهم: ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾، لكن هؤلاء قال هنا: ﴿أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾، ومعلومٌ أنَّ القربَ ليس هو الوصولَ، فهم ليس عندهم مودةٌ للمؤمنين أعني: النَّصارى، لكنهم أقربُ مِن غيرِهم مودةً، ولو كان عندهم مودةٌ لقال: (أشدَّ النَّاس مودةً) أو ما أشبه ذلك) ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٢).

قال ابنُ تيميةَ: (وأمَّا قولُه في أوَّلِ الآيةِ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢] فهو كما أخبرَ- سبحانَه وتعالى- فإنَّ عداوةَ المُشركينَ واليهودِ للمُؤمنينَ أشدُّ مِن عَداوةِ النَّصارى، والنَّصارى أقرَبُ مودَّةً لهم، وهذا معروفٌ مِن أخلاقِ اليَهودِ؛ فإنَّ اليَهودَ فيهم مِنَ البُغضِ والحَسَدِ والعَداوةِ ما ليس في النَّصارى، وفي النَّصارى مِنَ الرَّحمةِ والمودَّةِ ما ليس في اليَهودِ، والعداوةُ أصلُها البُغضُ، فاليهودُ كانوا يُبغِضونَ أنبياءَهم، فكيف ببُغضِهم للمؤمنينَ؟!

وأمَّا النَّصارى فليس في الدِّينِ الذي يَدينونَ به عداوةٌ ولا بُغضٌ لأعداءِ اللهِ، الذين حارَبُوا اللهَ ورسولَه، وسَعَوْا في الأرضِ فسادًا، فكيف بعَداوَتِهم وبُغضِهم للمُؤمنينَ المُعتدلينَ، أهلِ مِلَّةِ إبراهيمَ، المؤمنينَ بجميعِ الكُتُبِ والرُّسُلِ؟

وليس في هذا مَدحٌ للنَّصارى بالإيمانِ باللهِ، ولا وَعدٌ لهم بالنَّجاةِ مِنَ العَذابِ، واستحقاقِ الثَّوابِ، وإنَّما فيه أنَّهم أقرَبُ مَودَّةً، وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: بسببِ هؤلاء، وسببِ تَركِ الاستكبارِ يَصيرُ فيهم مِنَ المودَّةِ ما

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى التفاوتَ الحاصِلَ بين اليهودِ والنَّصارى، فقال في حقِّ اليهودِ: ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً﴾، وقال في حقِّ النَّصارى: ﴿أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ أعْقبَ ذلك بعِلَّة هذا التَّفاوتِ[1]، فقال سبحانه:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: قرُبَتْ مودَّتُهم للمؤمنين مِن أجْلِ أنَّ منهم علماءَ وعُبَّادًا- فالعبادةُ تُلَطِّف القلبَ وتُرقِّقه- كما أنَّهم يَتواضعونَ للحقِّ إذا عرَفوه، ولا يَستكبِرون عن قَبولِه، والانقيادِ إليه إذا تَبيَّنوه[2].

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾.

يُصَيِّرُهم بذلك خيرًا مِنَ المشركينَ، وأقرَبَ مودَّةً مِنَ اليَهودِ والمُشركينَ.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] فهؤلاء الذينَ مَدَحَهُم بالإيمانِ ووَعَدَهم بثَوابِ الآخِرَة. ((الجوابُ الصَّحيحُ)) (٣/ ١٠٧- ١١٠).

وذهب بعضُ المفسِّرين -منهم ابنُ جريرٍ والواحديُّ والبغويُّ- إلى أنَّه لم يُرِدْ بقولِه: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ جميع النَّصارى، بل الآيةُ فيمَن أسلَم منهم، مثل النَّجاشيِّ وأصحابِه أو غيرِهم. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٣٣١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤١٣، ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩٤-٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٧-١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١-٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٤-٢٦٥).

قال ابنُ عاشور: (الأمَّة التي فيها أمثالُ هؤلاء تكون قريبةً من مودَّة المسلمين). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٩).

أي: وإذَا سَمِعوا[١]، ما أُنزِل إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن القرآنِ الكريمِ يُتْلَى[٢].

﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾.

أي: ترَى[٣] أعينَهم قد امتلأتْ دُموعًا فتسيلُ منها؛ وذلك لأنَّهم عرَفوا أنَّ الذي يُتلَى عليهم مِن كِتاب اللهِ تعالى حقٌّ، ومِن ذلك: بَعْثةُ النبيِّ الموعودِ به- محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- الذي خبرُه من جُملةِ الحقِّ الذي جاءَ به عيسى عليه السلامُ، والنبيُّون مِن قَبلِه[٤].

وفي حديثِ بَدْءِ الوحيِ عن عائشةَ رضي الله عنها: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لَمَّا رجَعَ إلى خَديجةَ يرجُفُ فؤادُهُ، انطلقتْ به إلى وَرقةَ بنِ نوفلٍ- وكان رجلًا تنصَّرَ يَقرأُ الإنجيلَ بالعربيَّةِ- فقال وَرَقةُ: ماذا ترَى؟ فأخبرَهُ، فقال ورقةُ: هذا الناموسُ[٥] الذي أَنزلَ اللهُ على موسى، وإنْ أدركني يَومُكَ أنصُرْكَ

---

(١) قال ابن تيمية: (الضميرُ وإن عادَ إلى المتقدِّمينَ، فالمرادُ جِنسُ المُتقدِّمينَ، لا كلُّ واحدٍ منهم). ((الجوابُ الصَّحيحُ)) (٣/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢).

(٣) قال ابنُ عاشور: (الخطاب في قوله: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم- إنْ كان قد رأى منهم مَن هذه صِفتُه- أو هو خطابٌ لكلِّ مَن يصحُّ أن يرى؛ فهو خطابٌ لغير مُعيَّن؛ ليعمَّ كلَّ مَن يُخاطَب) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠-١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٦).

قال ابنُ عاشور: (أي: ففاضتْ أعينُهم من انفعال البهجة بأنْ حضروا مشهدَ تصديق عيسى فيما بَشَّر به، وأنْ حضروا الرسولَ الموعود، به ففازوا بالفضيلتين) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠).

(٥) الناموس: يقصد جِبريلَ عليه السلام- وهكذا يُسمِّيه أهل الكتاب. والناموس: هو صاحبُ سرِّ الخير؛ وناموسُ الرجُل: صاحبُ سرِّه الذي يُطلعه على باطنِ أمْره، ويَخصُّه بما يَسترُه عن غيره. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ٩٨٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٩).

نصرًا مؤزَّرًا))[١].

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم يقولون: يا ربَّنا، آمنَّا بالحقِّ؛ فلأجْلِ هذا الإيمانِ اجْعَلْنا مع محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأُمَّتِه، وأَثبِتْنا معهم في عِدادهم؛ فهم الذين يَشهَدون للهِ تعالى بالتوحيدِ، ولرُسلِه بالرِّسالة، وصحَّةِ ما جاؤُوا به، وأنَّهم بلَّغوا أُممَهم، ويَشهَدون على الأُممِ السَّابقة بالتصديقِ أو التَّكذيب[٢]، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ * رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٣].

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤﴾.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي: قال هؤلاءِ النَّصارى الذين أسْلَموا: وما الذي يَمنعُنا من الإيمانِ بالله تعالى، وما أتانا مِن الحقِّ، الذي لا يَقبَلُ الشكَّ والرَّيبَ[٣]؟!

---

(١) رواه البخاري (٣٣٩٢) واللفظ له، ومسلم (١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٣-٦٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٦-٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٤-٦٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٧).

قال ابنُ عاشور: (قوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾، هو مِن قولهم؛ فيحتمل أنَّهم

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٢- ٥٣].

﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: ونحنُ نَطمعُ بإيمانِنا أن يُدخِلَنا ربُّنا مع المؤمنِين بالله، المُطيعين له، جَنَّتَه يومَ القيامة[1].

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: فجَزاهم اللهُ تعالى بما تَفوَّهوا به من الإيمانِ، ونَطقوا به من الحقِّ في قولِهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ... مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جنَّاتٍ تَجري الأنهارُ من تحتِ أشجارِها وقُصورِها، وهم ماكثونَ فيها على الدَّوام[2].

يقولونه في أنفسهم عندَما يُخامرهم التردُّدُ في أمْر النُّزوع عن دِينهم القديم إلى الدُّخول في الإسلام، وذلك التردُّد يَعرِض للمعتقِد عند الهمِّ بالرجوع في اعتقاده... ويحتمل أنَّهم يقولونه لِمَن يُعارضهم مِن أهل مِلَّتهم أو مِن إخوانهم، ويُشكِّكهم فيما عزَموا عليه، ويحتمل أنَّهم يقولونه لِمَن يُعيِّرهم من اليهود أو غيرهم بأنَّهم لم يَتصلَّبوا في دِينهم) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١١-١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٩-٢٧١).

ولَمَّا كانتِ اللَّذةُ لا تَكمُل إلَّا بالدَّوامِ، قال تعالى[١]:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ماكثينَ فيها على الدَّوام، لا يخْرُجون منها، ولا يُحوَّلونَ عنها[٢].

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: هذا الذي جَزيتُ به أولئك القومَ من الخُلودِ في الجنَّاتِ، جزاءُ كلِّ مُحسِنٍ في عِبادة الله تعالى، أو مُحسنٍ إلى عِبادِه[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى في آخِرِ الآيةِ السَّابقة أنَّ ما أثابَ به أولئك النَّصارى، الذين آمنوا بالرَّسولِ الأعظمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، هو جزاءُ جميعِ المحسِنين عندَه، الذين آمنوا كإيمانِهم، وخشَعوا للحقِّ كخُشُوعهم- عقَّب عليه بذِكْر جزاءِ الـمُسيئينَ إلى أنفُسهم بالكُفْر والتكذيبِ؛ على سُنَّةِ القرآن في الجَمْع بين الوعدِ والوعيدِ[٤]، فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: وأمَّا الكُفَّارُ والمكذِّبون بآياتنا فإنَّهم سُكَّانُ النَّارِ الشَّديدةِ التأجُّجِ والحرارةِ، الملازِمون لها[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٩-٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٥ - ٦٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢٧١ - ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين-

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ قُربَ مودَّة النصارى للمُؤمنين له أسبابٌ؛ منها: أنَّ منهم قِسِّيسين ورهبانًا، فيُستفادُ من هذا: أنَّ العِلم نافعٌ حتَّى لغَيْرِ المسلمين، وكذلك العبادةُ تُرقِّق القلبَ، وتُزيلُ ما فيه من الجَفاء والغِلْظة، فالرَّاهِبُ إنَّما سلَك هذا الطريقَ، يُريد رضا الله، أمَّا الأوَّلُ فيُؤخَذ مِنْ قَوْلِه: ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾، وأمَّا الثاني فيُؤخَذُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَرُهْبَانًا﴾[١].

٢- أنَّ مِن أسباب قَبول الحقِّ والمودَّة للمؤمنين التواضُعَ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ حيث إنَّ الاستكبارَ سببٌ لردِّ الحقِّ، والتواضُع سببٌ لقَبُولِه، فالمتواضِعَ أقربُ إلى الخيرِ من المستكبِر، وأقربُ إلى سماعِ الحقِّ منه[٢].

٣- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ فضيلةُ هؤلاء القومِ الذين يُؤمنون بالرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وأنَّهم إذا سمِعوا ما أُنزِلَ إلى الرَّسولِ ترَى أعينَهم تَفيضُ من الدَّمع، ولا شكَّ أنَّ فَيْضَها من الدَّمعِ دليلٌ على الإيمانِ والتَّصديق والتأثُّر؛ لأنَّ الإنسانَ كلَّما آمَن ازداد خُشوعًا، فالإيمانُ كلَّما قوِيَ صارَ المؤمنُ كأنَّما يُشاهِدُ الشيءَ بعينه، فيَزدادُ إيمانًا وخشوعًا وبكاءً[٣].

٤- أنَّ تأثُّرَ هؤلاء إنَّما كان بسببِ مَعرفتِهم الحقَّ؛ ولهذا قال: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾، والإنسانُ كلَّما عَلِمَ بالحقِّ ازداد إيمانُه به، وازداد تأثُّرُه به[٤].

سورة المائدة)) (٢/ ٢٧٢-٢٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨٢).

٥- قَوْلُه تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا ...﴾ فيه الثَّناءُ على هؤلاء الذين آمنوا بما أُنزِلَ على الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، بأنَّهم يُعْلنونَ الإيمانَ، ولا يُخفونَه؛ فالمؤمِنُ حقًّا يُعلِنُ إيمانَه، لا سيَّما إذا كانوا قِسِّيسين ورُهبانًا؛ لأنَّهم قدوةٌ للنَّاسِ[(١)].

٦- يَنبغي للإنسانِ أن يَدفعَ اللَّومَ عن نفْسِه، ولا يُبْقِي عِرْضَه لعِبادِ الله يَعملونَ ما يَشاؤون فيه؛ لِقَوْلِه: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾، ولهذا أصْلٌ من السُّنَّة؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّمَ لَمَّا قام يَقلِبُ إحْدى زوجاتِه، وهي صَفيَّةُ رضي الله عنها، بعدَ أنْ بَقِيَتْ عنده قام يَقْلِبُها[(٢)]، فمرَّ به رجلانِ من الأنصارِ، فلمَّا رأيَا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ معه أهلُه خَجِلَا وسارَا بسرعةٍ، فقال لهما: ((على رِسْلِكما! إنَّها صفيَّةُ بنتُ حُيَيٍّ، فقالا: سبحانَ الله، سبحانَ الله!- يعني: لا يُمكن أنْ يقَعَ في قُلوبِنا شيءٌ- فقال لهما: إنَّ الشيطانَ يَجري مِن ابنِ آدَمَ مجرَى الدَّمِ، وإنِّي خَشيتُ أنْ يَقذِفَ في قُلوبِكما شرًّا- أو قال:- شيئًا))[(٣)].

٧- أنَّ الإنسانَ لا يَنبغي أن يُعجَبَ بعملِه؛ فيشهدَ لنَفْسه أنَّه من أهل الجَنَّة؛ لقولهم: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا﴾، ولم يَجزِموا بذلك؛ ولهذا مهما يعمَل الإنسانُ مِن عملٍ صالح مبنيٍّ على الإيمان فلا يُزكِّ نفْسَه؛ لا يَدري فلعلَّ هناك سرًّا في القلبِ لا يَشعُر به - أعاذنا الله مِن النِّفاق- قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((وإنَّ الرَّجُلَ ليَعْملُ بعملِ أهلِ الجَنَّة فيما يَبدو للنَّاسِ، وهو مِن أهلِ النَّارِ))[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٨٢).

(٢) يَقْلِبها: يَردُّها ويَرْجِعُها ويَصْرِفُها إلى بيتِها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٩٦)، ((مختار الصحاح)) للرزاي (ص: ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٩٠).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٢٠٣٥)، ومسلمٌ (٢١٧٥) من حديث صَفيَّة زَوجِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ورضِي الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٩١).

٨- أنَّه يَنبغي اختيارُ الرَّفيقِ الصَّالح؛ لِقَوْلِه: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وهذا أمرٌ دلَّت عليه السُّنَّةُ دلالةً صريحةً؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَثَلُ الجَليسِ الصَّالحِ كحَامِلِ المِسكِ؛ إمَّا أنْ يَبيعكَ أو يُحذِيَك، أو تَجِدَ منه رائحةً طيِّبة))(١).

٩- الحثُّ على الإحسانِ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ الإحسانُ في عِبادَةِ اللهِ والإحسانُ إلى عِبادِ الله؛ قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((وَلا تَحْقِرَنَّ من المعروفِ شيئًا، ولو أنْ تَلقَى أخاكَ بوجهٍ طَلْقٍ))(٢).

١٠- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أنَّه ينبغي للواعظِ ألَّا تكونَ موعظتُه للنَّاسِ بالترغيب دائمًا أو بالترهيبِ دائمًا؛ لأنَّه إنْ أدام الترغيبَ أوْقَعَهم في الأمْن مِن مَكْرِ الله، وإنْ أدام الترهيبَ أوْقَعَهم في القُنوطِ مِن رحمةِ الله؛ فالواعِظُ في الحقيقةِ كالطَّبيب، إنْ أعْطَى جرعةً زائدةً هلَك المريضُ، وإنْ نقَصَ لم يَبرأِ المريضُ، فلا بدَّ للواعظِ أنْ يُراعِيَ الأحوالَ، لا يَقتصِر على الترغيبِ دائمًا، ولا على الترهيبِ دائمًا، فمِن النَّاسِ مَنِ الأَوْلى في حقِّه التَّرغيبُ، ومِن النَّاس مَنِ الأَوْلى في حَقِّه التَّرهيبُ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ

والحديث أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢) من حديث سَهلِ بن سَعد رضي الله عنه.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٩٢).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٥٣٤)، ومسلمٌ (٢٦٢٨) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٩٤).

والحديث أخرجه مسلمٌ (٢٦٢٦) من حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه .

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٩٥).

أَشْرَكُواْ﴾ ذكَر المشركينَ مع اليهودِ لمناسبةِ اجتماعِ الفريقَينِ على عداوةِ المسلمينَ؛ فقد ألَّف بينَ اليهودِ والمشركينَ بُغْضُ الإسلامِ؛ فاليهودُ للحسَدِ على مجيءِ النُّبوة مِن غيرِهم، والمشرِكون لحَسَدِهم النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم على نُبُوَّتِه، وحَسَدِهم المسلمين على أنْ سبَقُوهم بالاهتداءِ إلى الدِّين الحقِّ، ونَبْذِ الباطِل، وكذا الكِبْرُ والأَنَفَةُ لدى الفريقينِ[١].

٢- أنَّ عداوةَ هؤلاءِ اليهودِ والمشركين ظاهرةٌ؛ لقوله سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾، لكنَّ الظُّهورَ والخَفاءَ أمرانِ نِسبيَّان، بمعنى أنَّ بعضَ الناسِ يَظهَرُ له ما يَخفَى على آخَر، وبعضُ الناس يَخفى عليه ما يَظهَرُ للآخَر، لكن مَن سَبَر الأمورَ ونظَر باعتبارٍ تَبيَّن له ذلك[٢].

٣- أنَّ الكفَّار يتفاوتونَ في العداوةِ للمُسلمينَ؛ لِقَوْلِه: ﴿أَشَدَّ﴾ و(أشد) اسمُ تفضيلٍ، يدلُّ على أنَّ هؤلاءِ الأعداءَ يختلفون، وهو كذلك، هذا هو الواقِعُ[٣]. واللهُ تعالى ذَكَرَ طَرَفينِ في مُعاملةِ المسلمين، وبَينَ الطَّرَفينِ فِرَقٌ مُتفاوتَةٌ في بُغضِ المسلمين؛ مِثل: المجوس، وعبَدَة الأوثان، والمُعَطِّلة[٤].

٤- أنَّ كلَّ حُكْم له سببٌ، وهذا مُطَّرِد؛ فكلُّ حُكمٍ شرعيٍّ أو قدَريٍّ له سببٌ، لكن مِن الأسباب ما يُعلَم، ومِن الأسبابِ ما لا يُعلَم؛ لأنَّ الله تعالى لم يُطلِعْنا على كلِّ شيءٍ؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ ...﴾ إلى آخِرِه[٥].

٥- في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ كيفَ مدَحَهم اللهُ تعالى بذلِك مع قولِه: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧٥).

قيل: إن ذلكَ ممدوحٌ في مُقابلةِ طريقةِ اليهودِ في القَسَاوةِ والغِلظة، ولا يلزم مِن هذا القَدْرِ كونُه ممدوحًا على الإطلاقِ(١).

٦- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ حُسْنُ تعليمِ اللهِ عزَّ وجلَّ في كِتابِه العزيزِ؛ لأنَّه إذا ذكَر الحُكْمَ ذكَرَ العِلَّةَ أحيانًا؛ فهنا ذكَر حُكمًا قَدَريًّا، وهو قُربُ النَّصارى من مودَّة المسلمين، وذكَر له عِلَّةً ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ ...﴾. كذلك ذكَر الله تعالى أحكامًا شرعيَّةً كثيرةً مقرونةً بالحِكمَةِ منها؛ ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ﴾(٢) [البقرة: ٢٢٢].

٧- التنويهُ بالرَّسولِ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِقَوْلِه: ﴿ٱلرَّسُولِ﴾؛ لأنَّ (أل) هنا للعهدِ الذِّهني، يعني كونَه رسولًا معلومًا لا يَخفى على أحدٍ(٣).

٨- اعترافُ الأُمم بأنَّ هذه الأمَّةَ هي الشَّاهدةُ على الأُمَمِ؛ لِقَوْلِه: ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، وهم أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾(٤) [البقرة: ١٤٣].

٩- ﴿مِن﴾ في قوله ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يَحتملُ أن يكونَ صلةً، أي: (تجري تحتَها الْأَنْهَارُ)، ويحتمَلُ أن يكونَ المرادُ أنَّ ماءَها مِنها لا يجري إليها مِن موضعٍ آخرَ، فيقالُ: هذا النهرُ منبعُه مِن أين؟ يقال: مِن عِين كذا، مِن تحتِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٨٢).

جبلِ كذا[١].

١٠- قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ يَقتضِي تخصيصَ الكفَّار بالدَّوام فيه؛ لأنَّ هذه الصِّيغةَ تُفيدُ الحصر، أي: أولئك أصحابُ الجحيمِ لا غيرُهم، والمُصاحِبُ للشيءِ هو الملازمُ له الذي لا ينفكُّ عنه[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قَوْلُه**: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لتقريرِ ما قَبْلَها مِن قبائحِ اليهودِ، وعَراقتِهم في الكُفْر، وسائرِ أحوالِهم الشَّنيعة، التي مِن جُملتها موالاتُهم للمشركينَ، وأُكِّدتْ الجملةُ بالتوكيدِ القَسَمي؛ اعتناءً ببيانِ تحقُّق مضمونِها؛ فاللامُ في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لامُ القَسم ويُقصَد منها التأكيدُ، وزادتْه نونُ التوكيدِ تأكيدًا[٣].

- وفي جَعْلِ اليهودِ قُرَناءَ للمُشركينِ بيانٌ لشدَّةِ عداوةِ اليهودِ للمُؤمنين، وتقديمُهم في الذِّكرِ على المشركين: إشعارٌ وتَنبيهٌ على تقدُّمِ اليهودِ في العداوةِ على الَّذين أشْركوا، كما أنَّ في تقديمِهم عليهم في قولِه تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ [البقرة: ٩٦] إيذانًا بتقدُّمِهم عليهم في الحِرصِ[٤].

- وقد أُعيدَ الموصولُ مع صِلتِه ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ رَوْمًا لزيادةِ التَّوضيحِ والبيانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧١).

٢- **قولُه:** ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ **فيه:** مبالغةٌ في التَّمييزِ، وهي مِن أبلغِ التراكيب؛ لأنَّ الترقيةَ فيه تَترقَّى ثلاثَ مراتبَ، فالأُولى: فاضَ دَمْعُ عينِه، والثانية في تحويلِ الفاعِل تمييزًا: فاضتْ عينُه دَمْعًا، والثالثة: في إبرازِ التَّمييزِ في صورةِ التعليلِ كما في الآية ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾؛ فأفادَ إلى جانبِ التمييزِ التعليلَ[(١)].

٣- **قَوْلُه:** ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ **فيه:** استفهامُ إنكارٍ واستبعادٍ لانتفاءِ الإيمانِ مع قيامِ موجبِه والدَّاعي له، وهو الطَّمعُ في إنعامِ اللَّهِ عليهم بصُحبةِ الصَّالحينَ[(٢)].

٤- **قَوْلُه:** ﴿وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ **فيه:** إيجازٌ بالحَذْفِ؛ حيثُ إنَّ تقديرَ الآية: ونَطْمع أنْ يُدخِلَنا ربُّنا مع القومِ الصَّالحينَ جنَّتَه ودارَ رِضوانه، إلَّا أنَّه حَسُن الحذفِ؛ لكونه معلومًا[(٣)].

٥- **قَوْلُه:** ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ التعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، وما فيه من مَعنَى البُعد؛ للدَّلالةِ على علوِّ مرتبة هذا الجزاءِ[(٤)].

٦- **قَوْلُه:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ التعبيرُ باسم الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وما فيه من معنى البُعد؛ للإشارةِ إلى بُعدِهم في السُّفولِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (١/ ٦٦٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧٣).

الآيات (٨٧ - ٨٩)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ ﴾: الأيمانُ اللَّاغيةُ هي التي لا يَقصِدها الحالفُ، بل تَجرِي على لِسانه عادةً من غير تَعقيدٍ ولا تأكيدٍ[١]. واللَّغْو: ما يَجري في الكلامِ على غيرِ عَقْدٍ ولا قصْدٍ، ويُطلق اللَّغوُ على الباطِلِ من الكَلامِ[٢]. والأَيْمَان: جمْع يمينٍ، وهو القَسَم، وأصلُه مِن اليُمْن، أي: البركة، سمَّاها اللهُ تعالى بذلِك؛ لأنَّها تَحفَظُ الحُقوقَ[٣].

﴿ عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ ﴾: وثَّقتُموها باللَّفظِ مع العزمِ عليها، والعقدُ: الجمْعُ بين أطرافِ الشَّيء، وأصلُ (عقد): يَدلُّ على شَدٍّ، وشِدَّةِ وُثوقٍ[٤].

﴿ أَوۡسَطِ ﴾: أي: أَعْدَل، في المقدارِ، أو في الجِنس، أو في القِلَّة والكَثرةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٤١).

وأصل (وسط) يَدُلُّ عَلَى العَدْلِ والنِّصْفِ[١].

﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾: أي: إعتاقُها؛ يُقال: حررتُ المملوك، أي: أعْتَقْته، وأصل (حرر): ما خالَف العُبوديَّة، وما بَرِئَ من العيبِ والنَّقْص، والرقبةُ تُطلَقُ على الإنسانِ المملوكِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾.

﴿فَصِيَامُ﴾: الفاءُ رابطةٌ في جَوابِ الشَّرْطِ (مَنْ)، و(صِيام) مرفوعٌ، على أنَّه مبتدأٌ لخبرٍ محذوف، والتقديرُ: فعَليهِ صِيامُ ثلاثةِ أيَّام، أو على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، والتقدير: فواجبُه صِيامُ ثلاثةِ أيَّام، أو مرفوعٌ على أنَّه فاعلٌ لِفعلٍ محذوفٍ، والتقدير: فيَجِبُ عليه صيامُ ثلاثةِ أيَّامٍ[٣].

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ المؤمنين أن يُحرِّموا على أنفُسِهم طيِّباتٍ أحلَّها لهم، ويَنهاهم أنْ يَتجاوَزوا حُدودَه تعالى فيما أحلَّه لهم، أو حرَّمه عليهم؛ فإنَّ اللهَ تعالى لا يُحبُّ مَن يَتعدَّى حُدودَه.

كما يَأمرُهم سبحانه أنْ يأكلوا مِن الرِّزقِ الحلالِ الطيِّبِ الذي رزقَهم إيَّاه، وتفضَّل عليهم به، وأن يتَّقوا اللهَ الذي آمَنوا به.

---

(١) يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦١) ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٧٢)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٧٥).

ثم يُخبر الله جلَّ وعلا أنَّه لا يُؤاخِذُ على اللَّغْوِ في اليمينِ، وهو ما يجري على الألْسِنَةِ بدونِ قصدٍ، لكنَّ مُؤاخذتَه تعالى على ما عُقِدَ العزمُ عليه، وقُصِدَ من الأيمانِ، فإذا ما حنَث أحدٌ في أيمانٍ معقودةٍ فكفَّارةُ ذلك أنْ يُطعِمَ عَشَرةَ مساكينَ، طعامًا وسَطًا بين الجيِّد والرَّديءِ ممَّا يُطعِمُ أهلَه منه، أو كسوةُ عَشَرةِ مَساكينَ، أو عِتقُ رَقَبةٍ مؤمنةٍ، فمَن لم يجِدْ ما يكفِّرُ به مِن إطعامٍ أو كساءٍ أو تحريرِ رقبةٍ فعليه حينئذٍ صِيامُ ثلاثةِ أيَّام تكفِّر يمينَه، فهذه الخِصالُ المذكورةُ هي كفَّارةُ الأَيْمانِ المعقودة. ثمَّ أمَر الله عِبادَه بأنْ يَحفظوا أيمانَهم بتَرْك الحَلِف كذبًا، وترْك الإكثارِ من الحَلِف، وعدَم الحِنْث في اليَمينِ إلَّا إذا كان خيرًا، فإذا حنثوا فيها كفَّروا كفَّارةَ اليمينِ، فبذلك تُحفَظُ أيمانُهم، كذلك يُوضِّحُ اللهُ آياتِه لعِبادِه؛ ليَشْكُروه سبحانَه على ذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا تَقدَّم الثناءُ على القِسِّيسين والرُّهبان، وكان مِن سُنَّتِهم المبالغةُ في الزُّهدِ، وقدْ أحْدَثوا رهبانيَّةً من الانقطاعِ عن التَّزُّوجِ، وعن أكْلِ اللُّحومِ، وكثيرٍ من الطيِّبات وغير ذلك- نبَّه اللهُ تعالى المؤمنينَ على أنَّ الثناءَ على الرُّهبان والقِسِّيسين بما لهم مِن الفَضائِلِ لا يَقتضي اطِّرادَ الثناءِ على جميعِ أحوالِهم الرهبانيَّة[1]، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣).

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، لا تَحكُموا بالحُرمةِ على ما أباحه اللهُ تعالى لكم من مَلذَّاتٍ تَشتهيها النُّفوسُ مِن مناكِحَ ومطاعِمَ ومشارِبَ وغيرِها، فلا تردُّوا نِعمتَه عليكم بعدَمِ قَبولِها، واعتقادِ تَحريمِها، فتَجمعوا بذلك بين الكَذِب على الله تعالى، وكُفرِ نِعمتِه[(١)].

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، قال: ((جاءَ ثلاثَةُ رَهْطٍ[(٢)] إلى بُيوتِ أزواجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَسأَلونَ عن عِبادةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلمَّا أُخْبِروا كأنَّهم تَقالُّوها[(٣)]، فقالوا: أين نحنُ مِنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قدْ غفَر اللهُ له ما تَقدَّم من ذَنْبِه وما تأخَّر، قال أحدُهم: أمَّا أنا فإنِّي أُصلِّي اللَّيلَ أبدًا، وقال آخَرُ: أنا أصومُ الدَّهرَ ولا أُفطِرُ، وقال آخَرُ: أنا أَعتزِلُ النِّساءَ فلا أتزوَّجُ أبدًا، فجاءَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: أنتمُ الذين قُلتُم كذا وكذا؟ أمَا واللهِ إنِّي لَأخشاكم للهِ وأتْقاكم له، لكنِّي أصومُ وأُفطِرُ، وأُصلِّي وأرقُدُ، وأتزوَّجُ النِّساءَ؛ فمَن رغِبَ عن سُنَّتي فليس منِّي))[(٤)].

وعن سَعدِ بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه، قال: ((أرادَ عُثمانُ بنُ مَظعونٍ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣، ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٩٩-٣٠٠).

(٢) الرَّهْطُ: ما دُونَ عَشَرةٍ مِنَ الرِّجالِ، ليس فيهِم امرأةٌ، وقيل: ما دونَ الأربعينَ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٤١)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٢٧).

(٣) تَقالُّوها: استَقَلُّوها، وهو تفاعُلٌ مِنَ القِلَّة. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٠٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ١٠٥).

(٤) رواه البخاري (٥٠٦٣) واللفظ له، ومسلم (١٤٠١).

يَتبتَّلَ[١]، فنهاه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولو أجازَ له ذلِك لاختَصَيْنا))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال له: ((أَلَمْ أُخبَرْ أنَّكَ تقومُ اللَّيلَ وتصومُ النَّهارَ؟ قلتُ: إنِّي أفعلُ ذلك، قال: فإنَّك إذا فعلتَ ذلِك، هَجَمَتْ[٣] عَيناكَ، ونَفِهَتْ[٤] نَفْسُكَ! لِعينِكَ حقٌّ، ولنَفْسِكَ حقٌّ، ولأهلِكَ حقٌّ؛ قُمْ ونَمْ، وصُمْ وأفطِرْ))[٥].

وعن أبي جُحَيفةَ وهْبِ بنِ عبدِ الله السُّوَائِيِّ، قال: ((آخَى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بين سَلمانَ وأبي الدَّرداءِ، فزارَ سَلمانُ أبا الدَّرداءِ، فرأَى أُمَّ الدَّرداءِ مُتَبَذِّلَةً[٦]، فقال لها: ما شأنُكِ؟ قالتْ: أخوك أبو الدَّرداءِ ليس له حاجةٌ في الدُّنيا، فجاءَ أبو الدَّرداءِ، فصَنَع له طعامًا، فقال: كُلْ، قال: فإنِّي صائمٌ، قال: ما أنا بآكِلٍ حتى تأكُلَ، قال: فأكَل، فلمَّا كان اللَّيلُ ذهَب أبو الدَّرداءِ يَقومُ، قال: نَمْ، فنامَ، ثم ذهَبَ يَقومُ، فقال: نَمْ، فلمَّا كان مِن آخِرِ اللَّيلِ، قال سَلمانُ: قُمِ الآنَ، فَصلَّيَا، فقالَ له سَلمانُ: إنَّ لربِّك عليك حقًّا، ولنفْسِك عليك حقًّا، ولأهلِك عليك حقًّا، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فأتَى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذكَر ذلك له، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: صَدَق سَلمانُ))[٧].

---

(١) أرَاد أنْ يَتبَتَّل: أي: أراد الانقطاعَ عن النِّساء وتَرْكَ النِّكاح. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٩٤).

(٢) رواه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢) واللفظ له.

(٣) هَجَمَتْ، أي: غَارَتْ ودَخَلَتْ في نُقْرَتِها من الضَّعْفِ. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٤٧)، ((شرح النووي على مسلم)) (٨/ ٤٥).

(٤) نَفِهَت- بكسرِ الفاءِ، وفتْحُها لغةٌ-: أي: أعيتْ وكلَّتْ، وضَعُفَتْ وسَقَطَتْ. ينظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٢٥٣)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٠٠)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٦/ ٥٢٩).

(٥) رواه البخاري (١١٥٣)، ومسلم (١١٥٩) واللفظ له.

(٦) مُتَبَذِّلَةً: أي: لابِسَةً ثيابَ البِذْلةِ- بكَسرِ الباءِ- وهي: المِهْنَةُ وزنًا ومعنًى، أي: أنَّها تارِكةٌ لِلِباسِ الزِّينةِ. والتَّبَذُّل: تَركُ التَّزَيُّنِ والتَّهَيُّؤ بالهَيئةِ الحَسَنةِ الجَميلةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١١١)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٢١٠).

(٧) رواه البخاري (١٩٦٨).

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

أي: ولا تُجاوِزوا حدودَ الله تعالى فيما أَحلَّ لكم وحَرَّم عليكم؛ فإنَّ الله تعالى لا يُحبُّ مَن يَتعدَّى حدودَه سُبحانَه(١).

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

أي: وكُلوا- أيُّها المؤمنونَ- مِن رِزق اللهِ تعالى الذي ساقَه إليكم، ويَسَّره لكم في حالِ كونِه حلالًا، غيرَ خَبيثٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

أي: واجْعَلوا بينكم وبين غضَبِ الله تعالى وعذابِه حاجزًا يَقيكم مِن ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٦، ٦٠٧، ٦١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠٠-٣٠١).
وقيل: ذِكرُ الاعتداءِ في مقابلة تحريم الطيِّبات يدلُّ على أنَّ المرادَ النهيُ عن تجاوُز حدِّ الإذن المشروع، كما قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فلمَّا نهى عن تحريمِ الحلال أرْدَفَه بالنهيِ عن استحلالِ المحرَّمات، وذلك بالاعتداءِ على حُقوقِ الله تعالى، أو على حُقوقِ النَّاس، فعلى ذلك يكون المراد: كما لا تُحرِّمون الحلالَ فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خُذوا منه بقدْر كِفايتكم وحاجتكم، ولا تجاوزوا الحدَّ فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقد جعَل ابنُ كثيرٍ هذا المعنى ممَّا تحتملُه الآية. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٢)، وذكره ابن عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠١).

بامتثالِ ما أمَرَ به، واجتنابِ ما نَهَى عنه، ومِن ذلك اعتداءُ حدودِه؛ فإنَّ إيمانَكم باللهِ عزَّ وجلَّ يُوجِبُ عليكم تقواه[١].

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ...﴾؛ وكان التحريمُ يقعُ في غالِبِ الأحوالِ بأيمانٍ معزومةٍ، أو بأيمانٍ تَجري على اللِّسان لقصدِ تأكيدِ الكلامِ، أو تجري بسبب غضبٍ، عقَّب الله تعالى ذلك بقوله[٢]:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

أي: لا يُعاقِبُكم اللهُ تعالى بكفَّارةٍ تَلزمُكم في الدُّنيا، ولا بعُقوبةٍ تَحُلُّ بِكم في الآخِرة، على الأيْمانِ التي صدَرَتْ منكم على وجهِ اللَّغْو، وهي الأيْمانُ التي حلَف بها المُقسِمُ مِن غير نيَّةٍ ولا قَصْدٍ، أو عقَدَها يظنُّ صِدْقَ نفْسِه، فبان الأمرُ بخِلافِ ما ظنَّه[٣].

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٠-٤٢١).

في قوله تعالى: ﴿عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ قراءات:

١- ﴿عَاقَدْتُمُ﴾، أي: تَعاهدتُم، وتحالفتُم، وهو فعلٌ مِن اثنين[١].

٢- ﴿عَقَدْتُمُ﴾- بتَخفيفِ القافِ-، أي: أوْجَبْتُم، فالمعنى: أوجبتموها على أنْفُسِكم، وعَزَمتْ عليها قلوبُكم، وهذا يدلُّ على أنَّه أراد به عقْدَ مرَّةٍ واحدة؛ لأنَّ مَن حَلَف مرَّةً واحدةً لَزِمَه البِرُّ أو الكفَّارة[٢].

٣- ﴿عَقَّدْتُمُ﴾- بتشديد القاف-، أي: وَكَّدتُم، فالتَّشديدُ يدلُّ على كثرةِ الفِعل؛ فهو يدلُّ على توكيدِ اليمينِ بالحَلِفِ على الشيءِ مرارًا[٣].

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾.

أي: ولكن يُعاقِبُكم اللهُ تعالى بما عقدتُم العزمَ عليه، وقَصدتموه مِن الأيْمان[٤].

﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾.

أي: كفَّارةُ ما حَنِثْتُم فيه من اليمينِ المعقودةِ؛ إطعامُ عَشَرةِ مَحاويجَ ليس لدَيهم ما يَكفِيهم، مِن صِنفٍ وَسَطٍ بين الجيِّد والرَّديء، ممَّا تُطعمون أَهْلِيكم[٥].

---

(١) قرأ بها ابنُ ذكوان. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٣٥)، ((البحر المحيط)) لأبي حيان (٤/ ٣٥١).

(٢) قرأ بها حمزةُ، والكسائيُّ، وخلفٌ، وأبو بكر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦١٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٣٤)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤١٧).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٣٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٣٤)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤١٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾.

أي: وإمَّا كسوةُ عَشرةِ مَساكين[1].

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).

واختارَ أنَّ المراد بـ ﴿أَوْسَطِ﴾: أي: وسطٌ بين الجيِّد والرَّديء: القرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٢٧٦)، وابنُ عُثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (٢/ ٣١٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ عُمر، والأسود، وعَبِيدة، والحسن، وابنُ سِيرين، وشُريح. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٢٤- ٦٢٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٨٠).

وقيل: وسطٌ بين القِلَّة والكثرةِ، وهو اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٦٣٦-٦٣٧).

وممَّن قال بنحو ذلك مِن السَّلف: عُمر، وعليٌّ، وابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٣٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٧٩).

وقيل: المراد بالأوسط هنا: الأفضل والأجود. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٣٣).

وممَّن قال بذلك من السلفِ: عطاء. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١٠).

قال ابنُ جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك عِندنا بالصِّحَّة وأشبهها بتأويل القرآن: قولُ مَن قال: عنَى بقوله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ ما وقَع عليه اسمُ كسوة ممَّا يكون ثوبًا فصاعدًا؛ لأنَّ ما دون الثوبِ لا خِلافَ بين جميعِ الحُجَّة أنَّه ليس ممَّا دخل في حُكم الآية، فكان ما دون قدْرِ ذلك خارجًا من أن يكونَ الله تعالى عناه بالنَّقْل المستفيض، والثوب وما فوقه داخلٌ في حُكم الآية؛ إذ لم يأتِ مِن الله تعالى وحيٌ، ولا مِن رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم خبرٌ، ولم يكُن من الأمَّة إجماعٌ بأنَّه غيرُ داخلٍ في حُكمها، وغيرُ جائزٍ إخراجُ ما كان ظاهرُ الآية محتملَه من حُكم الآية إلَّا بحُجَّة يجب التسليمُ لها، ولا حُجَّة بذلك)) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٤٥).

وقال ابنُ عثيمينَ: (قوله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ معطوفةٌ على ﴿إِطْعَامُ﴾، والكسوةُ ما يكسو به الإنسانُ بدنَه، وتختلفُ الكسوةُ باختلافِ الأزمانِ والبلدانِ والأحوالِ، ولذلك ترون في مواسم الحجِّ والعمرةِ اختلافًا كبيرًا في كسوةِ النَّاس، فيرجعُ في هذا إلى العرفِ، ففي بلادِنا الكسوةُ عبارةٌ عن قميصٍ وسروالٍ وغترةٍ وطاقيةٍ، هذه الكسوةُ، وإن نقص شيءٌ مِن ذلك فالكسوةُ ناقصةٌ. وقوله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ لم يقيَّد (من أوسط ما تكسون)، فيُؤخذ بما يعدُّ كسوةً)) ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٣١٠).

أي: أو فكُّ عبدٍ مُؤمنٍ مِن أَسْرِ العُبوديَّة[١].

فمَتَى فعَل واحدًا مِن هذه الثلاثةِ التي هو مخيَّرٌ فيها، فقدِ انحلَّتْ يمينُه[٢].

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: فمَن لم يَقْدِرْ على التَّكفيرِ عن يمينِه بواحدةٍ مِن هذه الخِصالِ الثَّلاث، فعليه أنْ يَعدِلَ إلى الصِّيامِ، فيصومَ ثلاثةَ أيَّام[٣].

﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾.

أي: هذا الذي ذَكرتُه لكم مِن الخِصالِ الأربعِ (الإطعام، والكسوة، وتحرير رَقبة، والصِّيام)، يُكفِّرُ ما حَنِثتُم فيه من الأيمانِ المعقودةِ[٤].

﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾.

أي: واحْفَظوا- أيُّها المؤمنون- أيمانَكم عن الحَلِف باللهِ تعالى كَذِبًا، وعن كثرةِ الحَلِف، وعن الحِنْثِ فيها- إلَّا إنْ كان الحِنثُ خَيرًا- وعن ترْكِ الكفَّارة إذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١٠-٣١١).

واشترَط الإيمانَ في الرَّقبة المحرَّرة: الواحديُّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٣٣)، والقرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٢٨٠)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٤٢)، وابنُ عثيمين في ((تفسير سوة المائدة)) (٢/ ٣١١). وهذا قول الجمهور خلافًا للحنفية. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (١/ ٤١٩)، ((المجموع)) للنووي (١٧/ ٣٦٨)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢).

ونقَل الإجماعَ على التخيير بين هذه الثلاثة: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٦٤٨)، وابنُ كثير في ((تفسيره)) (٣/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١٢).

لزِمَتْكُم[١].

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

أي: كمَا أوضحَ اللهُ تعالى لكم كفَّارةَ أيمانِكم، فإنَّه يُوضِّحُ لكم أيضًا آياتِه الشرعيَّةَ، وأعلامَ دينِه؛ لتَشْكُروه سبحانَه على ذلك حيثُ علَّمكم ما لم تكونوا تَعلمُون[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- تَصديرُ الخِطابِ بالنِّداء في قولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يدلُّ على أهميَّته؛ لأنَّ النِّداءَ يَستلزمُ انتباهَ المخاطَب، وإصدار الخِطابِ بوصْفِ الإيمان يدلُّ على أنَّ ما سيُذكَر مِن خِصال الإيمان، وأنَّ مُخالفتَه نقْصٌ في الإيمانِ، ثم إنَّ فيه إغراءً للامتثالِ؛ لأنَّك إذا وصفْتَ شخصًا بوصْفٍ لتأمُرَه أو تنهاه، فهذا من بابِ الإغراءِ بهذا الوَصْفِ؛ ولذلك تقولُ لشخصٍ: أنتَ رجلٌ؛ كيف تفعل كذا وكذا؟! فقولك: أنت رجل، يَعني: مُقتضى الرُّجولةِ ألَّا تَفعَلَ، وتقول: يا فلان، أنت كريمٌ، وهذا سائلٌ، يعني: فأَعْطِه[٣].

٢- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ النَّهي إنَّما هو عن تحريمِ ذلك على النَّفْس، أمَّا ترْك تناوُلِ بعضِ ذلك في بعضِ الأوقاتِ من غيرِ التزامٍ، ولقصدِ التربية للنَّفس على التصبُّرِ على الحِرمانِ عند عدم الوِجدانِ، فلا بأسَ به بمقدارِ الحاجةِ إليه في رِياضة النَّفسِ. وكذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢-٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١٢-٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٩٩).

الإعراضُ عن كثيرٍ مِن الطيِّبات للتطلُّعِ إلى ما هو أعْلى؛ من عِبادةٍ أو شُغلٍ بعملٍ نافعٍ، وهو أعْلى الزُّهْدِ، وقد كان ذلك سُنَّةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وخاصَّةٍ مِن أصحابِه، وهي حالةٌ تُناسِبُ مرتبتَه، ولا تتناسَبُ مع بعض مراتبِ النَّاس، فالتطلُّعُ إليها تعسيرٌ، وهو مع ذلك كان يتناولُ الطيِّباتِ دون تشوُّفٍ ولا تَطلُّعٍ، وفي تناولها شُكرٌ لله تعالى[1].

٣- قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ولم يقُل تعالى: (وكلوا ما رزقكم الله)، وكلمة (مِن) للتبعيض، فكأنَّه قال: اقتَصِروا في الأكْل على البعضِ، واصْرِفوا البقيَّةَ إلى الصَّدَقات والخَيْرات؛ لأنَّه إرشادٌ إلى ترْك الإسرافِ، كما قال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾[2] [الأنعام: ١٤١].

٤- قَوْلُه تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى قد تكفَّلَ برِزقِ كلِّ أحد؛ فإنَّه لو لم يَتكفَّلْ برِزقه لَمَا قال: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ وإذا تكفَّل اللهُ برِزقه وجَبَ ألَّا يُبالَغَ في الطَّلبِ، وأنْ يُعوَّلَ على وعْدِ الله تعالى وإحسانِه؛ فإنَّه أكرمُ مِن أن يُخلِفَ الوعدَ، ولذا ورَد: ((ألا فاتَّقُوا الله وأجْمِلوا في الطَّلبِ))[3].

٥- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أنَّ ذلك القيد ﴿طَيِّبًا﴾ هو قيدٌ مُحذِّر ممَّا فيه شُبهةٌ؛ تنبيهًا على الوَرَع، ويكون معنى طِيبه تيقُّنَ حِلِّه، فيكون بحيث تتوفَّر الدَّواعي على تناوُله دِينًا تَوفُّرَها على تناوُلِ ما هو نهايةٌ في اللَّذةِ شهوةً وطبعًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث أخرجَه ابنُ ماجه (٢١٤٤)، والطبرانيُّ في ((المعجم الأوسط)) (٣١٠٩)، والحاكمُ (٢١٣٥) من حديث جابرٍ رضي الله عنه.

قال ابنُ عبد البرِّ في ((التمهيد)) (٢٤/ ٤٣٥): مُسنَدٌ حسَن. وضَعَّف إسنادَه البُوصِيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (٢/ ٦)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٤٤).

والحديث رُوي من طُرقٍ عن أبي أُمامةَ وابنِ مَسعودٍ وحذيفةَ رضي الله عنهم.

وأنْ يكون مُخرِجًا لِمَا تَعافُه النَّفسُ ممَّا أخَذَ في الفساد من الأطعمةِ؛ لئلَّا يضرَّ[١].

٦- أنَّ الإيمانَ بالله عزَّ وجلَّ مستلزِمٌ لتقواه؛ لِقَوْلِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾، أي: فلإيمانِكم يَلزمُكم التقوى، فالإيمانُ الحقيقيُّ مستلزِمٌ للتقوى، فمَن لم يَتَّقِ اللهَ، فهو إمَّا فاقدٌ للإيمانِ بالكليَّة، وإمَّا ناقصُ الإيمانِ[٢].

٧- قَوْلُه تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ في الأمْر بالتَّقوى في هذا المقامِ جمْعٌ بينَ حقوقِ الرُّوحِ والجَسد، وفيها دفْعٌ لِمَن قد يَستشكِل قائلًا: إنَّ الدِّينَ شُرِع لتزكيَةِ النُّفُوس، والتمتُّعُ بالشَّهواتِ واللذَّات يُنافي التزكيةَ، وإنِ اقْتُصِرَ فيه على المباحاتِ؛ فكيف يكون الاستمتاعُ بالطيِّباتِ مطلوبًا شرعًا؟!

ووَجْهُ ذلِك الدَّفعِ: أنَّ تزكيةَ الأنفُس إنَّما تكونُ بإيقافِها عندَ حدِّ الاعتدالِ، واجتنابِ التَّفريطِ والإفراط، وقد خلَق اللهُ الإنسانَ مركَّبًا من رُوحٍ مَلكيَّة وجَسَد حيوانيٍّ، فلم يجعلْه مَلَكًا مَحضًا، ولا حيوانًا مَحضًا، وسخَّر له بهذه المزيَّة جميعَ ما في عالَمِه الذي يعيش فيه مِن الموادِّ والقُوى والأحياء، وجعَل مِن سُنَّته في خلْقه أنَّه تكونُ سلامةُ البدن وصحَّتُه من أسباب سلامةِ العقلِ وسائرِ قُوى النَّفْس؛ ولذلك حرَّم عليه ما يضرُّ بجَسَده، كما حرَّم عليه ما يضرُّ برُوحِه وعقلِه، فالتمتُّعُ بالطيِّبات من غيرِ إسرافٍ ولا اعتداءٍ لحدودِ الله وسُننِ فِطرته هو الذي يُؤدَّى به حقُّ الجَسدِ وحقُّ الرُّوح، ويُستعان به على أداءِ حُقوق اللهِ وحُقوقِ خَلْقه، فإنْ صَحِبَتْه التقوى فيه وفي غيرِه تتمَّ التزكيةُ المطلوبةُ[٣].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾، وفي سورةِ البقرة:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٥).

﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، فيه دليلٌ على أنَّ العِبرة بما في القُلوب، وهذا كقولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّما الأعمالُ بالنيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى))(١)، ويَنبني عليه مسائلُ كثيرةٌ في الأيمانِ والطَّلاقِ والبيوع والأوقافِ وغيرِها(٢).

٩- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ أنَّه ينبغي تقليلُ الأيمانِ، وحِفظُ اليمينِ عن الحِنْث، هذا إذا لم يكُنْ حلَف بيمينِه على ترْكِ مندوبٍ أو فِعْلِ مَكروهٍ، فإنْ حلَف على ترْك مندوبٍ أو فِعل مكروهٍ، فالأفضلُ أنْ يَحنثَ في يَمينِه، ويُكَفِّرَ ويأتيَ الذي هو خيرٌ؛ لحديث أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن حلَف على يمينٍ فرَأى غيرَها خيرًا منها، فليأتِ الذي هو خيرٌ، وليُكَفِّرْ عن يمينِهِ))(٣).

١٠- أنَّ العِلم مِن نِعَم الله التي يجبُ علينا شُكرُها؛ لأنَّ بيانَ الآياتِ به يَعلمُ الإنسانُ آياتِ الله، فإذا كان اللهُ يُبيِّنها لِنَشْكُرَه عليها، دلَّ ذلك على أنَّ العِلمَ بالشريعةِ وبآياتِ الله نعمَةٌ يجب على الإنسانِ أنْ يَشكُرَها؛ لقول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قولِه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ تنبيهٌ لفُقهاءِ الأمَّة على الاحترازِ في القولِ بتحريم شيءٍ لم يَقُمِ الدليلُ على تحريمِه، أو كان دليلُه

(١) أخرجه البخاريُّ (١) واللفظ له، ومسلم (١٩٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٨٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٤).
والحديث أخرجه مسلم (١٦٥٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٦).

غيرَ بالغٍ قوَّةَ دليلِ النَّهي الواردِ في هذه الآيَةِ[١].

٢- الإشارةُ إلى مِنَّة اللهِ تبارَك وتعالى على عِبادِه بما أحلَّ لهم؛ لِقَوْلِه: ﴿طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، ولو شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ لحرَّم علينا طيباتٍ أُحِلَّت لنا، كما حرَّم ذلك على بني إسرائيلَ؛ حيث قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء: ١٦٠]، وتحريمُ الطيِّباتِ الشرعيُّ بسببِ الظُّلمِ مِثلُه التحريمُ القَدَريُّ بسبب الظُّلم؛ فإنَّ الإنسانَ قد يُحرَم الطيِّباتِ تحريمًا قدريًّا كالمريضِ الذي يمتنعُ مِن أكلِ اللحمِ؛ لأنَّه يزيدُه مرضًا، وكما يمنعُ اللهُ نباتَ الأرضِ بسببِ المَعاصي، فهذا تحريمٌ قدريٌّ[٢].

٣- ذهَب بعضُ العُلماء إلى أنَّ مَن حرَّم مأكلًا أو مَشربًا أو شيئًا من الأشياءِ، فإنَّه يجب عليه بذلك كفَّارةُ يمينٍ، كما إذا الْتزمَ ترْكَه باليمينِ، فكذلك يُؤاخَذُ بمجرَّد تحريمِه على نفْسِه إلزامًا له بما الْتَزَمه؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر هذا الحُكم ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ عقَّبه بالآيةِ المبيِّنة لتكفيرِ اليَمينِ؛ فدلَّ على أنَّ هذا مُنَزَّلٌ منزلةَ اليمينِ في اقتضاءِ التَّكفير، وَكَمَا فِي قَوْلِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التَّحْرِيم: ١]، ثمَّ قال: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ ...﴾ [التَّحْرِيم: ٢] واللهُ تعالى أعلم[٣].

٤- خَصَّ الله الأكلَ بالذِّكْرِ في قولِه: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ بعدَ أنْ قال: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ ...﴾؛ لأنَّ مُعظَمَ ما حرَّمه الناسُ على أنفُسِهم هو المآكِلُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧).

٥- إثباتُ المحبَّة للهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ لأنَّ نفيَه محبَّةَ المعتدِين يدلُّ على ثُبوتِ أصل المَحبَّة، ولو كان لا يُحبُّ مُطلقًا لم يكن لنَفْيِ محبَّته للمعتدينَ فائدةٌ[١].

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أمْرُ الإنسانِ بالأكْلِ ممَّا رزَقَ اللهُ، وضدُّه عدمُ الأكْل، وعدمُ الأكلِ ممَّا رزَق اللهُ ثلاثةُ أقسام: الأوَّل: أن يَترُك الأكلَ مع خوفِ الهلاك إذا لم يأكُلْ، فهنا تركُ الأكْلِ حرامٌ؛ لأنَّه يجبُ على الإنسانِ أن يُنقِذَ نفْسَه. الثاني: إذا كان ليس به ضرورةٌ للأكْلِ لكن يحتاجُ إلى الأكْلِ لتقويةِ البَدنِ، فهنا الأكلُ مُستحَبٌّ؛ لأنَّه لو ترَكَه لم يَهلِك، لكنَّه في حاجةٍ، نقول له: لا تمنعْ نفْسَك. الثالث: أن يَترُكَ الأكلَ تنزُّهًا، فهذا يُنهَى عنه، ويُقال: كُلْ ممَّا أباحَ اللهُ لك[٢].

٧- سَعةُ حِلم اللهِ وعَفْوِه؛ لِقَوْلِه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ حيث نفَى المؤاخَذةَ عن اللَّغْو في الأيمانِ؛ وذلك لكثرةِ تَكرارِها، ومَشقَّةِ التحرُّزِ منها، وهذا بناءً على أنَّ المرادَ بها: الأيمانُ التي لا تُقصَد، والتي تكونُ في عَرَضِ الحديثِ[٣].

٨- قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ ...﴾ احتجَّ الشافعيُّ رضِي اللهُ عنه بآيةِ سورة البقرةِ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥] مع هذه الآيةِ على وجوبِ الكَفَّارةِ في اليمينِ الغَموسِ، قال: إنَّه تعالى ذَكَر في آية البقرة: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وقال في آية المائدة: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٣).

وعقْدُ اليمين محتمِلٌ لأنْ يكونَ المرادُ منه عقدَ القلبِ به، ولِأنْ يكونَ المرادُ به العَقدَ الذي يُضادُّ الحَلَّ، فلمَّا ذكر في آيَةِ البقرة قولَه: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ عَلِمْنَا أنَّ المرادَ من ذلك العَقْدِ هو عقدُ القَلْبِ، وأيضًا ذَكَر المؤاخذةَ في آية البقرة، ولم يُبيِّن أنَّ تلك المؤاخذةَ ما هي، وبَيَّنها هنا في آيةِ المائدة بقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ...﴾؛ فبَيَّن أنَّ المؤاخذةَ هي الكفَّارة، فكلُّ واحدةٍ من هاتين الآيتينِ مُجمَلةٌ من وجهٍ، مُبيَّنة من وجهٍ آخَر، فصارتْ كلُّ واحدةٍ منهما مُفسِّرةً للأخرى مِن وَجْهٍ، وحصَل من كلِّ واحدةٍ منهما أنَّ كلَّ يمينٍ ذُكِر على سبيلِ الجِدِّ وربْط القَلْبِ، فالكفَّارةُ واجبةٌ فيه، واليمينُ الغموسُ كذلِك؛ فكانتِ الكفَّارةُ واجبةً فيها[1].

٩- أنَّه لا يَنبغي الحِنثُ إلَّا إذا كان خيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ والكفَّارةُ لا تكون إلَّا في مقابلةِ ذَنبٍ أو ما يُشبِهه؛ ولهذا قال في آخِر الآيةِ: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾[2].

١٠- قُدِّمَ الإطعامُ على العِتْقِ في قولِه تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مع أنَّ العِتْقَ أفضلُ لا محالةَ؛ وذلك لأمور:

منها: أنَّ المقصودَ منه التنبيهُ على أنَّ هذه الكفَّارةَ وجبتْ على التخييرِ لا على الترتيب؛ لأنَّها لو وجبتْ على الترتيب لوَجبتِ البَداءةُ بالأَغْلَظِ.

ومنها: قُدِّمَ الإطعامُ لأنَّه أسهلُ، ولِكَوْن الطعامِ أعمَّ وُجودًا، والمقصودُ منه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٢٨)، (١٢/ ٤١٩).
وذهَب أكثرُ أهلِ العلمِ إلى أنَّ اليمينَ الغموسَ لا كفَّارة فيها. ينظر: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٤٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١٨).

التنبيهُ على أنَّه تعالى يُراعي التخفيفَ والتسهيلَ في التكاليف[١].

١١- في قوله تعالى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ رقِي مِن الأدْنى إلى الأعلى، فالإطعامُ أيسرُ من الكسوة، كما أنَّ الكسوة أيسرُ مِن العِتْق[٢].

١٢- أنَّ الإطعامَ مُطلَقٌ لا يُشترَطُ فيه التمليكُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يقُلْ: (فللمساكين)، لو قال: (فللمساكين) لكان يُشترَطُ فيه التمليكُ، كما قال في الزكاة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٦٠]، وإنَّما قال: ﴿إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾؛ وذلك لأنَّ الطعامَ يُنتفعُ به مرَّةً واحدةً، فلا يُشترط فيه التمليكُ، أمَّا الكسوة فيُشترط فيها التمليكُ، وإلَّا لكان تُعِيرُه الثوبَ ثم تأخُذُه منه[٣].

١٣- أنَّه لو أطعمَ مَن يأكلُ الطَّعامَ - ولو كان صغيرًا - كفَى؛ لِقَوْلِه: ﴿إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾[٤].

١٤- في قوله تعالى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٖ﴾ لو قارنتَ بين إطعامِ عَشَرةِ مساكين وكِسوتهم وعِتق الرَّقبة، لوجدتَ الفَرْقَ كبيرًا، لكنْ للهِ الحِكمة فيما يَشْرَع؛ فلا يُمكن أن يَعترِضَ مُعترِضٌ على حُكْمِه[٥].

١٥- تمامُ عدلِ الله عزَّ وجلَّ في إيجابِ الأوسَطِ؛ لِقَوْلِه: ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾ فالواجب على الإنسانِ هو الوَسَط؛ فالزكاةُ مثلًا على صاحِب

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٠).

الغَنَم الواجبُ الوَسَط، والزكاة في الثِّمار الواجبُ الوَسَطُ، فإنَّه لو أوْجَب الأكملَ والأعلى، لكان في هذا ضرَرٌ على المعطِي، ولو أوجَبَ الأدْنى لكان فيه ضررٌ على الـمُعطَى، أي: المدفوع إليه، فالوسطُ ليس فيه حَيفٌ لا على مَن يجِبُ عليه، ولا عَلى مَن يجبُ له، وهذا لا شكَّ أنَّه من العدالةِ[١].

١٦- وجوبُ الإنفاقِ على الأهلِ؛ لِقَوْلِه: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ يعني: كأنَّ هذا أمرٌ مُقرَّر؛ أنَّ الرجل يُطعِم أهلَه، وهذا لا شكَّ فيه؛ أنَّه يجب على الرجلِ أن يُنفقَ على أهلِه؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[٢] [النساء: ٣٤].

١٧- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أنَّ الكِسْوةَ مُطلقةٌ، فما سُمِّي كِسْوةً حصَل به الإجزاءُ، وهذا يختلفُ باختلافِ الأحوالِ والأزمانِ والأماكنِ والأُمم[٣].

١٨- قولُه تعالى: ﴿إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ فيه دقيقةٌ، وهي التنبيهُ على أنَّ تقديمَ الكفَّارةِ قبلَ اليمينِ لا يجوزُ، وأمَّا بعدَ اليمينِ وقبل الحِنث فإنَّه يجوزُ[٤].

١٩- أنَّ تقديرَ العباداتِ كمِّيةً ونوعًا وكيفيَّةً موكولٌ إلى الشَّرْعِ؛ لِقَوْلِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ ولذلك لا يَتقابَلُ أو لا يَتساوى إطعامُ عَشَرةِ مَساكينَ مع صِيام ثلاثةِ أيَّام، فكفَّارة الظِّهارِ الواجبُ فيها صيامُ شَهرينِ متتابعينِ، فإنْ لم يجد فإطعامُ سِتِّينَ مِسكينًا، فجاءَ إطعامُ كلِّ فقيرٍ يُقابل صيامَ يومٍ، لكن هنا يختلفُ الوضع، ولعلَّ السبب- والله أعلمُ - أنَّه في كَفَّارة الظِّهار الإطعامُ بدلٌ عن الصيامِ،

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢١، ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٣).

فمن لم يستطعِ الصيامَ أطعَمَ، وإذا كان بدلًا عن الصِّيام، فالحُكم أنَّ صومَ كلِّ يوم يُطعِمُ عنه مِسكينًا، كما في العاجِزِ عن الصِّيام عجزًا لا يُرجَى زَوالُه، فإنَّه يُطعِمُ عن كلِّ يومٍ مسكينًا، أمَّا في كفَّارةِ اليمينِ وفِديةِ الأذى، فليس الأمرُ كذلك؛ لأنَّ الأمرَ فيهما على التخييرِ، فكلٌّ من خِصال الكفَّارة نوعٌ مستقلٌّ بنفْسِه[١].

٢٠- أنَّ الله سبحانه وتعالى بَيَّنَ لعبادِه من آياته كلَّ ما يحتاجون إليه؛ لِقَوْلِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾[٢].

٢١- ممَّا يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ محبَّةُ الله تعالى للشُّكرِ؛ حيث بَيَّنَ الآياتِ لعِبادِه من أجْل أنْ يَشكُروه[٣].

٢٢- تعليلُ أحكامِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّها مقرونةٌ بالحِكمة؛ لأنَّ قَوْلَه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ للتعليلِ، والتعليلُ يُفيد الحِكمةَ؛ فجميعُ أفعالِ اللهِ وأحكامِ اللهِ كلُّها لحِكمةٍ، لكنْ منها ما يُعلَم، ومنها ما لا يُعلَم[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَوْلُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾:

- قَوْلُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ الجملةُ تعليلٌ لِمَا قَبْلَها مِنْ قَوْلِه: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾[٥]، وهي أيضًا جملةٌ تذييليَّة للتي قَبْلَها؛ للتحذيرِ مِن كلِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٣).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤١٦).

اعتداءٍ[١].

٢- قَوْلُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيه: تأكيدٌ للتَّوصيةِ بما أمَرَ به، وزادَه تأكيدًا بقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ به يُوجِبُ التقوى في الانتهاءِ إلى ما أمَر، وعمَّا نهى عنه[٢].

٣- قَوْلُه: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾:

- قَوْلُه: ﴿تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾، أي: فتحريرُ الإنسانِ كلِّه؛ ففيه تَسميةُ الكُلِّ (الإنسان) بالجُزءِ (الرَّقبة)؛ وخُصَّتِ الرَّقبةُ مِن الإنسان؛ إذ هو العُضوُ الذي فيه يكونُ الغُلُّ والتُّوثُّقُ غالبًا من الحيوانِ؛ فهو موضعُ الـمِلكِ فأُضيفَ التحريرُ إليها[٣].

٤- **قَوْلُه:** ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ الكفَّارة مبالَغَةٌ في (كفر)، بمعنى ستَر وأزال، وقد جاءتْ فيها دَلالتانِ على المبالغةِ، هما التضعيفُ والتاء الزائدة، كتاء (نسَّابة) و(علَّامة)، والعربُ تجمعُ بينهما غالبًا[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩).

الآيات (٩٠ - ٩٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٩٢ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٣﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾: القِمار؛ مِن قولهم: يَسَرَ، إذا ضَرَب بالقِداحِ، وأصلُ (يسر): يَدُلُّ على انْفِتاحِ شَيءٍ وخِفَّتِه[1].

﴿وَٱلۡأَنصَابُ﴾: جمْع نُصُب، وهو: حَجرٌ أو صَنمٌ يَذبحون عندَه، أو يُنصَبُ للعبادةِ، وأصل (نصب): يدلُّ على إقامةِ شيءٍ، وإهدافٍ في استواءٍ[2].

﴿وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾: أي: القِداحُ التي كانوا يَضربون بها، ثم يعملون بما يخرجُ فيها مِن أمرٍ أو نهيٍ، أو التي يَضربون بها على الميسرِ، أو هي سِهامُ العَرَب، مفردها: زلَم[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠، ٤٨٦)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٢).

﴿رِجْسٌ﴾: أي: قذَرٌ مُنْتِن، وأصل (رجس): يدلُّ على اختلاطٍ[١].

﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: إبليسَ؛ وكلُّ عاتٍ مُتمرِّدٍ مِن الجنِّ والإنسِ والدوابِّ: شيطانٌ، وأصلُه من (شطَن) إذا تباعَد؛ وذلك لبُعدِه عن الخيرِ أو رَحمةِ اللهِ تعالى. وقيل: أصله مِن (شَيَط) إذا احترَق[٢].

﴿وَيَصُدَّكُمْ﴾: أي: يَصرِفكم ويَمنعَكم، والصدُّ: الإعراضُ والعدولُ، ويُطلَق أيضًا على الانصرافِ عن الشيءِ والامتناعِ عنه، وأصل (صدد): صرَف ومنَع[٣].

﴿جُنَاحٌ﴾: إثمٌ؛ سُمِّي الإثمُ بذلك لِمَيلِه عن طريقِ الحقِّ؛ فأصل (جنح): مال وتَعدَّى[٤].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى لعبادِه المؤمنين أنَّ الخَمْرَ والقِمار، وما يُنصَب لعبادةِ غيرِ الله، والقِدَاحَ التي يُضرَب بها؛ ليُعملَ بما يخرجُ فيها مِن أمرٍ أو نهْيٍ، ويُعرف عن طريقِها ما قُسِم للإنسانِ مِن خيرٍ أو شرٍّ؛ هذه الأربعةُ أمورٌ مستقذَرةٌ ينأى عنها العُقلاءُ، وتَعافُها النُّفوس؛ فهي مِن تزيينِ الشيطان، فيجبُ عليهم الابتعادُ عنها واجتنابُها؛ حتى يُفلحوا؛ فالشيطانُ الرجيمُ يُريد بتَزْيينِه هذه المُنكَرَاتِ أن يُوقِعَ بينهم العداءَ والتباغُضَ، ويثيرَ في نفوسِهم الأحقادَ؛ بسببِ تعاطي الخمرِ والقِمار، فإنَّ مَن سَكِر، اختلَّ عقلُه، فربَّما تسلَّط على أذَى النَّاس في أنفسِهم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٤، ٢٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨).

وأموالِهم، وربَّما بلَغ به ذلك إلى القتلِ، ومَن قامَرَ فربَّما خَسِر مالَه، فلم يبقَ له شيءٌ، فيشتد حِقْدُه على مَن أخَذ مالَه. كما يريدُ الشيطانُ أيضًا أن يَصدَّهم عن ذِكْرِ الله وعن الصَّلاة، إذا تبيَّن لهم هذا فهلَّا انتَهَوْا عن تلك الأمورِ المستقبَحةِ.

ثم يأمرُ اللهُ عِبادَه المؤمنين أن يُطيعوه جلَّ وعلا، ويُطيعوا رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأن يَحذَروا مِن المخالَفةِ لأمْرِ اللهِ ورسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلام، فإنْ أعْرَضوا عن الطَّاعةِ فلْيَعلموا أنَّما على الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ البلاغُ عن الله تعالى، وأمَّا عقوبةُ مَن تولَّى وحسابُه فعلى الله عزَّ وجلَّ وَحْدَه.

ثم يُبَيِّنُ تعالى أنَّه ليس على الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ إثمٌ فيما شَرِبوا وأكَلوا ممَّا حرَّم الله تعالى إذا فَعَلوا ذلك قَبل نُزولِ تحريمِه أو قَبْل مَعْرِفَتِهم بتحريمِه، إذا ما اجتنَبوا ما حرَّمَ اللهُ، وآمَنوا به، وعمِلوا الصالحاتِ، ثم استمرُّوا على اجتنابِ ما حرَّم تعالى، وعلى الإيمانِ به، ثم استمرُّوا على اجتنابِ ما حرَّم اللهُ تعالى؛ حتى بَلَغوا مَرتبةَ الإحسانِ، واللهُ تعالى يحبُّ المحسنينَ في عِبادتِه، والذين يُحسِنون إلى عِبادِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أحلَّ اللهُ عزَّ وجلَّ الطيِّباتِ حرَّم الخبائثَ الْمُفْضيةَ إلى مفاسدَ؛ ولَمَّا كان الخمرُ والميسِرُ مِن جملةِ الأُمورِ المستطابةِ في جاهليَّتهم؛ بيَّن أنَّهما غيرُ داخِلَينِ في المحلَّلاتِ، والميْسِرُ كان وسيلةً للكسْبِ والأكْل؛ فكانتْ هذه الآيةُ كالاحتراسِ عمَّا قد يُساءُ تأويلُه مِن قَوْلِه سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ

لَكُمۡ﴾[١]، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إنَّ الخمرَ والقِمارَ وما نُصِبَ لعبادةِ غيرِ الله تعالى، والأزلامَ التي يُسْتَقْسَم بها، كما كانتِ العربُ في جاهليَّتِها يَتعاطَون ذلك، وهي عبارةٌ عن قِداح ثلاثةٍ، مكتوبٌ على أحدِها: «افْعَل»، وعلى الآخَر: «لا تفعل»، والثَّالث ليس عليه شيءٌ، وقِيل: كان يُكتَب على الواحدِ منها: «أَمَرني ربِّي»، وعلى الآخَر: «نَهاني ربِّي»، والثالث ليس عليه شيءٌ، فإذا أجالَها فطَلَع السَّهمُ الآمِرُ فَعَلَه، أو النَّاهي ترَكَه، وإنْ طلَعَ الفارغُ أعاد الاستقسامَ، حتى يَخرُجَ أحدُ القَدَحينِ الآخَرَينِ فيَعملَ به[٢].

﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

أي: إنَّ تلك الأشياءَ ما هي إلا خُبثٌ ونَتَنٌ وأمورٌ مُستقذَرَة، يَنبغي أن تَعافَها النُّفوسُ، وهي مِن تزيينِ الشيطان، ووحْيِه إليكم؛ ليُرغِّبَكم في إتيانِها وتعاطيها[٣].

﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٢، ٦٥٥-٦٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٨-٣٢٩).
واختار ابنُ جرير أنَّ المراد بالأنصاب: الأنصابُ التي يُذبح عندها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٥)،

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٩).
واختلف أهلُ العلمِ في هل الخمر نجسةٌ نجاسةً عينيَّة أو لا. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢٦-٤٢٨)، ((مختصر فقه الطهارة)) (ص: ١٤٣).

أي: فابْتَعِدوا عن هذا الرِّجْس؛ كيما تَظْفَروا بما تَطلُبون، وتَنجوا ممَّا تَرهَبُون[١].

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى باجتنابِ الخمرِ والميسرِ، عقَّب بذِكر نوعينِ من المفسدةِ التي تترتَّبُ على تعاطيها وارتكابها: الأول: ما يتعلَّق بالدُّنيا، وهو قوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ ﴾، والثاني ما يَتعلَّق بالدِّين وهو قولُه تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾[٢].

سَببُ النُّزولِ:

عن مُصعَبِ بنِ سَعدٍ، عن أبيه، أنَّه قال: أتيتُ على نفرٍ مِنَ الأنصارِ والمهاجرينَ، فقالوا: تعالَ نُطْعِمْك، ونَسْقِك خمرًا، وذلك قبل أنْ تُحرَّم الخمرُ، قال: فأتيتُهم في حَشٍّ- والحَشُّ البُستانُ - فإذا رأسُ جَزورٍ مشويٌّ عندهم، وزِقٌّ مِن خَمْر، قال: فأكلتُ وشَرِبْتُ معهم، قال: فذكرتُ الأنصارَ والمهاجرينَ عندهم، فقُلْتُ: المهاجرون خيرٌ من الأنصارِ، قال فأخَذَ رجلٌ أحدَ لَحْيَي الرَّأْسِ فضَربَني به، فجرَح بأنفي، فأتيتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأخبرتُه، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيَّ- يعني: نفْسَه - شأنَ الخمرِ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾[٣] [المائدة: ٩٠].

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٤).

(٣) رواه مسلم (١٧٤٨).

أي: إنَّما يُريدُ لكم الشيطانُ- عن طَريقِ شُربِ الخمرِ وتَعاطِي القِمار- أن يُعاديَ بعضُكم بعضًا بأفعالِهم، ويُبغضَ بعضُكم بعضًا بقلوبِهم، فيُشتِّت أمرَكم بعد تأليفِ الله تعالى بين قلوبِكم[١].

﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

أي: ويُريدُ الشيطانُ أنْ يَصرِفَكم بغَلَبةِ هذه الخمرِ على عُقولِكم، وباشتغالِكم بهذا الميسِرِ عن ذِكرِ الله تعالى بألسِنَتِكم وجوارحِكم وقُلوبِكم، وعن الصَّلاةِ التي بها فلاحُكم[٢].

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى اشتمالَ شُرْبِ الخمرِ واللَّعِب بالميسرِ على هذه المفاسِدِ العظيمةِ في الدِّين[٣]، قال تعالى:

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

أي: فهلْ تَمتنِعون عن تِلك القبائحِ بعدَ هذا البيانِ الجليِّ والموعظةِ البليغة[٤]؟

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٦-٦٥٧)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٣٠-٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٧)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٥٧-٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٣١-٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٧، ٦٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٣٣).

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الخَمْرُ والميسرُ مألوفًا لهم، محبوبًا عندهم، وكان تركُ المألوفِ أمَرَّ مِن ضَرْبِ السُّيوف؛ أكَّد دعوتَهم إلى اجتنابِه، مُحذِّرًا من المخالفةِ بقولِه[١]:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْ﴾.

أي: وأطيعوا اللهَ تعالى، وأطيعوا رسولَه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بفِعلِ الأوامرِ، واجتنابِ النَّواهي؛ ومِن ذلك اجتنابُ تلك القَبائحِ، واحذروا من مَعصيةِ اللهِ تعالى، ومَعْصِيةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

أي: فإنْ أنتم أعرضتُم عن طاعةِ الله تعالى وطاعةِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فاعْلَموا إذنْ أنَّه ليس على مَن أرسَلْناه إليكم سِوى إبلاغِكم رسالةَ ربِّكم بجَلاءٍ ووُضُوحٍ، وأمَّا إيقاعُ العقابِ بكم إذا تولَّيْتم عنها، فعلى الله تعالى وحْدَه[٣].

﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٣﴾.

سَببُ النُّزول:

عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنتُ ساقِيَ القومِ في مَنزلِ أبي طَلحةَ، وكان خمرُهم يومئذٍ الفَضيخَ[٤] فأمَر رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مناديًا يُنادي: ألَا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٤-٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٦٣-٦٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٥-٣٥٦).

(٤) الفَضِيخ: هو شرابٌ يُتَّخذ من البُسْرِ المَفضوخ- أي: المَشْدوخ- وحْدَه، من غيرِ أن تمسَّه النار.

إنَّ الخمرَ قد حُرِّمت، قال: فقال لي أبو طَلحةَ: اخرُجْ فأهرِقْها. فخرَجْتُ فهَرَقْتُها فجرَتْ في سِكَكِ المدينةِ، فقال بعضُ القَوْمِ: قد قُتِل قومٌ وهي في بُطونِهم؛ فأنزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ الآيَةَ))[1].

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾.

أي: ليس على المؤمنينِ الذين يَعملون الأعمالَ الصالحة؛ إثمٌ فيما شَرِبوا وأَكَلوا ممَّا حرَّمَ الله تعالى قبلَ نُزولِ تحريمِه ومعرفتِه، وذلك كالخمرِ التي كانوا يَشربونها، والقِمارِ الذي كانوا يَتعاطَوْنه[2].

﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: يُنفَى عنهم الإثمُ بشَرْط أن يَجتنبوا ما حرَّم اللهُ تعالى، ومِن ذلك ما حرَّمَ عليهم من مَطعوماتٍ، ويُؤمنوا باللهِ تعالى إيمانًا صحيحًا، يَدعوهم إلى اكتسابِ الأعمالِ الصَّالحات[3].

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾.

أي: ثم استمرُّوا على اجتنابِ ما حُرِّم عليهم، وثَبَتوا واستمرُّوا على الإيمانِ به سبحانه، دون أن يُغيِّروا أو يُبدِّلوا[4].

ينظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٤٢٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٥٣).

(١) رواه البخاريُّ (٢٤٦٤) واللفظ له، ومسلم (١٩٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٦٥-٣٦٨).

قال مكي: (فهذه الآيةُ نزلت في قولِ الجميعِ فيمَن مات منهم وهو يشربُها، اعلموا أنه لا جناحَ عليهم) ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (٣/ ١٨٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْ﴾.

أي: ثمَّ داوَمُوا على اجتنابِ المحرَّماتِ، حتى دعاهم ذلك إلى بُلوغِ الإحسانِ في فِعل الطَّاعاتِ[١].

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: والله تعالى يحِبُّ المحسنِينَ في عِبادتِه، الذين يَعبُدونه سبحانه كأنَّهم يَرونَه، المحسنِين في نَفْعِ عِبادِه[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- بَدْؤُه تعالى الكلامَ بهذا الوَصْفِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يدلُّ على أنَّ العملَ به تَصديقًا أو امتثالًا من مقتضياتِ الإيمانِ، كذلك أيضًا: يدلُّ على أنَّ مخالفتَه، أو الشكَّ فيه، أو تكذيبَه منافٍ للإيمانِ؛ إمَّا لأصلِه أو لكمالِه، وثالثًا: أنَّ في هذا إغراءً للمخاطَب، كأنَّه يقول: إنْ كنتَ مؤمنًا فاستمعْ وامتثِلْ[٣].

٢- قَوْلُه تعالى: ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ فيه بيانُ أنَّه لا مَعصيةَ أعظمُ وأقبحُ من معصيةٍ تُدنِّس صاحبَها، وتجعلُه من أهل الخُبثِ، وتُوقِعُه في أعمالِ الشَّيطانِ وشِباكه، فينقادُ له كما تنقادُ البهيمةُ الذليلةُ لراعيها، وتَحولُ بين العبدِ وبين فلاحِه، وتُوقِعُ العداوةَ والبغضاءَ بين المؤمنين، وتصدُّ عن ذِكر اللهِ وعن الصَّلاة؟ فهل فوقَ هذه المفاسدِ شيءٌ أكبرُ منها[٤]؟!

سورة المائدة)) (٢/ ٣٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٦٤-٦٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٦٩-٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٧٠-٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: (تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣).

٣- فضيلةُ الصَّلاةِ لتَخصيصِها بالذِّكر مِن بين ذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وهذا يدلُّ على شَرَفِها وفَضلِها على غيرِها[١].

٤- أنَّ كَلَّ ما صدَّ عن ذِكرِ الله فهو مِن أوامرِ الشَّيطانِ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وذِكرُ الله تبارك وتعالى يكونُ بالقلبِ واللِّسان والجوارحِ، فكلُّ ما صدَّك عن ذِكرِ اللهِ من هذه الأشياءِ، فهو من أوامِر الشيطانِ وإراداتِه[٢].

٥- أنَّ كلَّ ما وقَع في قلبك مِن التثاقُل عن الصَّلاة، فاعلمْ أنَّه من الشَّيطانِ، ومرادِ الشيطان؛ لِقَوْلِه: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[٣].

٦- في قولِه تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ الحضُّ على ترْكِ هذه الخبائثِ، والإقلاعِ عنها؛ لأنَّ العاقِلَ إذا نظَر إلى بعضِ تِلك المفاسدِ انزجَر عنها وكفَّتْ نفْسُه، ولم يَحتَجْ إلى وعْظٍ كثيرٍ، ولا زجرٍ بليغٍ[٤].

٧- في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ بيانُ أنَّ طاعةَ الله وطاعةَ رسولِه واحدةٌ، فمَن أطاعَ الله فقدْ أطاعَ الرسولَ، ومَن أطاع الرسولَ فقد أطاع اللهَ، وذلك شاملٌ للقِيامِ بما أمَر اللهُ به ورسولُه من الأعمال والأقوالِ، الظاهرةِ والباطِنة، الواجبةِ والمستحبَّةِ، المتعلِّقة بحقوقِ اللهِ وحقوقِ خَلْقِه، والانتهاءِ عمَّا نهى الله ورسولُه عنه كذلك[٥].

٨- أنَّ تولِّيَ الناسِ عمَّا يدعو إليه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يضرُّه، ولا يُلامُ عليه؛ لِقَوْلِه: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ لأنَّه إذا كان ليس عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلَّا البلاغُ، فإنَّه لن يضرَّه تولِّيهم ولا يُلام عليه، ويتفرَّع على ذلك: أنَّ الداعيةَ إلى الله في وقتِنا وفيما قبْلَه لا يضرُّه ألَّا يَقبلَ الناسُ منه؛ لأنَّه أدَّى الواجبَ، ويَنبغي أن يُفَرِّحَ نفْسَه بأنَّه أدَّى الواجِبَ، وألَّا يحزنَ بعدم قبولِهم دعوتَه؛ لأنَّ الله تعالى قال للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، لكن ربَّما نقول: يحزنُ لعدمِ قَبولِ الشَّريعة، لا لعدمِ قبولِهم منه، والفرقُ بين هذا وهذا واضحٌ(١).

٩- وجوبُ الرُّجوعِ إلى قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِقَوْلِه: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، وأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قام بالواجِب، فعلينا- نحن- أن نقومَ بالواجِبِ(٢).

١٠- قَوْلُه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾، فيه ثناءٌ من الله، وحَمْدٌ لأحوال مَن يتَّصِفون بهذه الصِّفات: الإيمانِ والتقوى والإحسان، وهذا مدعاةٌ لتحرِّيها والاتصافِ بها(٣).

١١- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ القيودُ الشَّديدة في نفْيِ الإثمِ عمَّن أكَل أو شَرِب في مأكولِه ومَشروبِه، والتقوى ذُكرتْ في الآيةِ ثلاثَ مرَّات، والإيمانُ مرَّتين، والإحسانُ مرَّة، قيودٌ شديدة عظيمة؛ فينبغي الحَذَر من أنْ يكون في المطعومِ إثمٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٧١).

١٢- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ أنَّ مَن أكَلَ حلالًا بكسْبٍ حرامٍ فعليه الإثمُ؛ لأنَّه لم يتَّقِ اللهَ في كسْبِه، ولا بدَّ أن يتَّقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ، وإذا كان الشيءُ المحرَّمُ مُعَيَّنًا فيكون الآكِلُ كالكاسِب، مثل: أنْ أعرفَ أنَّ هذه الشَّاةَ التي ذبَحَها إكرامًا لي قد سرقَها من فلانٍ، فهذه حرامٌ عليَّ أنْ آكُلَها[(١)].

١٣- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ فضيلةُ الإحسانِ إلى الخَلْق والإحسانِ في عِبادةِ الخالِق؛ فالإحسانُ إلى الخَلْق أن تبذُلَ جاهَك، تبذل مالَك، تبذل خِدمتك، تبذل منفعتَك البدنيَّة، والإحسانُ في عبادة الخالِق فسَّره أعلمُ الناسِ بمعناه، وهو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقوله: ((أنْ تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكُن تراه فإنَّه يَراك))[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- أطْلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ الإيمانَ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ولم يَذكُر ما يُؤمَن به؛ لأنَّ ذلك معلومٌ، وقد سأل جِبريلُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنه؛ أي: عن الإيمانِ، فقال: ((أنْ تُؤمِنَ بالله، وملائكتِه، وكُتُبه، ورُسلِه، واليومِ الآخِر، والقَدَرِ خيرِه وشرِّه))[(٣)].

٢- قَوْلُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ...﴾ يُستفادُ منه تحريمُ الخمرِ مِن أيِّ شيءٍ كان، سواءٌ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧٣).
والحديث أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (١٠) من حديث أبي هريرة، وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٧).
والحديث أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

من العِنب أو مِن الرُّطَب، أو مِن الشَّعير، أو مِن البُرِّ، أو من أيِّ شيءٍ؛ لعمومِ الآيَةِ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ...﴾ يُستفادُ من الآيَةِ تحريمُ الميسرِ قليلِه وكثيرِه؛ للعموم، حتى لو كانتِ المغالَبةُ بقِرشٍ واحدٍ، ولو يَسيرًا؛ لأنَّنا نقول: قليلُ الميسرِ الذي لا يُجحِف بمالِ الإنسانِ، ولا يُهتمُّ به، كقليلِ الخمرِ الذي إذا كان قليلًا لم يُسْكِر، وإذا كان كثيرًا أسْكَر، ولا شكَّ أنَّ المغالَبَةَ إذا كانتْ في شيءٍ يسيرٍ تجرُّ إلى المغالبةِ في شيءٍ كثيرٍ، ويُستثنَى من ذلك ما مَصلحتُه أعْلَى مِن مفسَدَتِه، وذلك في ثلاثةِ أشياءَ بَيَّنَها النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّمَ فقال: ((لا سَبَقَ إلَّا في نصْلٍ أو خُفٍّ أو حافِرٍ))[٢]- السَّبَق بفَتْح الباءِ- هو: العِوَضُ المأخوذِ على السَّبْقِ- بسكون الباء-، والنَّصل: السِّهام، والخُف: البعير، والحافِر: الفرس- وإنَّما استثنى النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ذلك؛ لأنَّ بها يقومُ الجهادُ في سَبيلِ الله الذي به إعلاءُ كلمةِ الله، وهذه مصلحةٌ عظيمةٌ؛ فإذا رُخِّص للنَّاسِ في أخْذ العِوَضِ عليها، كَثُرَ تسابُقُهم فيها[٣].

٤- قَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فيه نصٌّ صريحٌ في أنَّ كلَّ مُسْكِرٍ حرامٌ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٧٤)، والترمذيُّ (١٧٠٠)، والنَّسائيُّ (٣٥٨٥)، وأحمد (١٠١٤٢) من حديث أبي هُرَيرَة رضي الله عنه.
حسَّنه التِّرمذي، وقال العُقيليُّ- كما في ((لسان الميزان)) لابن حجر (٦/ ٣٢٧)-: رواه الناسُ عن ابن أبي ذِئب، عن أبي هُرَيرة، وهو الصَّحيح. واحتجَّ به ابن حزم في ((المحلى)) (٧/ ٣٥٤)، وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٤/ ١٦٠)، وصحَّح إسنادَه ابنُ القَطَّان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٣٨٢)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٥٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٣٥).

وذلك لأنَّه قال بعده: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فرتَّب النَّهيَ عن شُرْب الخمرِ على كونِ الخَمْرِ مشتملةً على تلك المفاسِد، ومِن المعلومِ في بَدائِهِ العقولِ أنَّ تلك المفاسدَ إنَّما تَولَّدتْ مِن كونِها مؤثِّرةً في السُّكْر، وهذا يُفيد القطعَ بأنَّ عِلَّة قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ هي كونُ الخمرِ مُؤثِّرةً في الإسكارِ، وإذا ثبَت هذا وجبَ القطعُ بأنَّ كلَّ مُسكِرٍ حرامٌ[(١)].

٥- للقرآنِ الكريمِ طريقةٌ في بيان العِلل؛ فتارةً يَتقدَّم بيانُ العِلَّة، وتارةً يتأخَّر، يعني: إذا ذَكَر الله حُكمًا، وذَكَر له عِلَّةً، فتارةً يَذكُر العِلة قَبلُ ثم يَبني عليها الحُكمَ، وتارةً يَذكُرُ الحُكمَ ثم يأتي بالعِلَّةِ، حسَبَ ما تَقتضيه الحالُ وقرائنُ السِّياقِ، فهنا ذَكَر العِلَّة قبلَ الحُكم، وهي: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾[(٢)].

٦- تحريمُ الأصنامِ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ فالأنصابُ: ما يُنصب ليُعبدَ مِن دون الله، وهو يعمُّ كلَّ ما اتُّخِذَ صَنمًا من أيِّ مادةٍ كان؛ لأنَّ الآيةَ مُطلَقةٌ[(٣)].

٧- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ حُذِفَ المتعلَّق لإفادةِ العُموم، فلمْ يَخُصَّ سبحانه وتعالى الاجتنابَ بنَوعٍ من أنواعِ الانتفاعِ؛ فيُحمَل على العُموم، ويكون المعنى: اجتَنِبوا بَيعَه، وشُرْبَه، وإهداءَه، وتخليلَه، وهِبتَه، وغيرَ ذلك[(٤)].

٨- رحمةُ اللهِ تبارَك وتعالَى بعِبادِه الَّذين خَلَقَهم لعِبادتِه؛ حيثُ حذَّرهم مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٨، ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسَّبت (ص: ٥٩٩).

كلِّ ما فيه ضَررٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[١].

٩- إثباتُ الإرادةِ للشَّيطانِ؛ لِقَوْلِه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، والله تعالى يقول: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقد جادَلَ ربَّه عن إرادةٍ[٢].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ اقتصرتِ الآيةُ على تبيينِ مفاسِدِ شُرْبِ الخمرِ وتعاطي الميسِر، دون تَبْيينِ ما في عِبادَةِ الأنصابِ والاستقسامِ بالأزلامِ من الفَسادِ؛ وذلك لأنَّ إقلاعَ المسلمينَ عنهما قد تَقرَّر قَبلَ هذه الآيةِ مِن حِين الدُّخولِ في الإسلامِ؛ لأنَّهما من مآثِر عَقائدِ الشِّركِ، ولأنَّه ليس في النُّفوسِ ما يُدافِعُ الوازعَ الشرعيَّ عنهما بخِلافِ الخَمْر والميسِرِ؛ فإنَّ ما فيهما من اللَّذَّات التي تُزجِي بالنُّفوسِ إلى تَعاطيهما قد يُدافِع الوزاعَ الشرعيَّ؛ فلذلك أكَّد النهيَ عنهما أشدَّ ممَّا أكَّد النهيَ عن الأنصابِ والأزلامِ[٣].

١١- لَمَّا كانتِ العداوةُ قد تزولُ أسبابُها، ذكَر ما يَنشَأُ عنها ممَّا إذا استحكَم تعسَّر، أو تَعذَّر زوالُه، فقال: ﴿وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ أي: في تعاطيهما؛ لأنَّ الخَمْرَ تُزيل العَقْلَ، فيزول المانعُ من إظهارِ الكامِنِ من الضَّغائن والمحاسَدة، فربَّما أدَّى ذلك إلى حروبٍ طويلةٍ، وأمورٍ مَهولة، والميسِرُ يُذهِبُ المالَ، فيُوجِبُ ذلك الحقدَ على مَن سَلَبه مالَه، ونغَّص عليه أحوالَه[٤].

١٢- كراهةُ اللهِ تبارك وتعالى للعداوةِ والبغضاءِ بين المسلمينَ؛ لأنَّ قولَه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٩٣).

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ إلى آخِره، فهذا تحذيرٌ ليس بعدَه تحذيرٌ؛ وذلك لأنَّ الله تعالى أمَرَ بالاجتماعِ ونهَى عن التفرُّقِ، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[1] [آل عمران: ١٠٣].

١٣- في قولِه تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۞ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ ناسَب العطفُ في ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ على معنى قولِه: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؛ إذ تضمَّن هذا معنى الأمْر، وهو قوله (فَانْتَهُوا)[2].

١٤- أنَّ طاعةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مستقلَّة، بمعنى: أنَّه إذا أمَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بشيءٍ، لا نقول: هل يوجدُ في القرآن هذا الأمرُ أو لا يوجد، بل طاعتُه مستقلَّةٌ؛ وجْه ذلك: أنَّه أعادَ الفِعلَ فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وإعادة الفِعل تدلُّ على أنَّ طاعةَ الرَّسول مستقلَّةٌ، بمعنى: أنَّنا لا نحتاجُ إلى شاهدٍ مِن القرآنِ فيما أمَرَ به الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم[3].

١٥- أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يمتازُ عن غيرِه بالرِّسالةِ، والرِّسالةُ من أشرفِ الأوصافِ التي يتَّصِفُ بها العبدُ؛ لِقَوْلِه: ﴿ٱلرَّسُولَ﴾، ولا شكَّ أنَّ الرسولَ يَفضُل ويَشرُف بحسَبِ منزلةِ مُرسِله[4].

١٦- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَستطيعُ أنْ يَهدِيَ أحدًا؛ لأنَّه بلَّغَ البلاغَ المبينَ، ومع ذلك حصَلتِ المخالفةُ والتولِّي[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٧، ٣٥٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَوْلُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ... فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾

أكَّد تحريمَ الخمرِ والمَيْسِر في هذه الآية الكريمة بأنواعٍ مِن المؤكِّداتِ[1]:

منها: تصديرُ الجملة بقوله: ﴿إِنَّمَا﴾، والقصرُ المستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿إِنَّمَا﴾ هو قصرُ مَوصوفٍ على صِفةٍ، أي: إنَّ هذه الأربعةَ المذكوراتِ مقصورةٌ على الاتِّصافِ بالرِّجسِ، لا تتجاوزُه إلى غيرِه، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ للمبالغةِ في عدَم الاعتدادِ بما عدَا صِفةَ الرِّجس من صِفات هذه الأربعةِ.

ومنها: أنَّ اللهَ تعالى جَعَل الخمرَ والميسِرَ رجسًا، وكلمةُ الرِّجْس تدلُّ على منتهى القُبح والخبث؛ ولذلك أُطلِقَت على الأوثانِ؛ فهي أسوأُ مفهومًا من كلمةِ الخبيثِ، وقد عُلِم مِن عِدَّة آياتٍ أنَّ اللهَ أحلَّ الطيِّباتِ، وحرَّم الخبائثَ.

ومنها: أنَّه قرَنَهما بالأصنامِ والأزلامِ التي هي مِن أعمالِ الوثنيَّة، وخُرافاتِ الشِّرك، وسمَّاهما رجسًا، وجعَلهما من عملِ الشيطانِ؛ تنبيهًا على أنَّ الاشتغالَ بهما شرٌّ خالصٌ أو غالبٌ، ولِمَا يَنشأُ عنهما من الشُّرور والطُّغيانِ، ولا يكون عَملُ الشيطانِ إلَّا موجِبًا لسَخطِ الرَّحمنِ؛ فالشَّيطان لا يَأتي منه إلَّا الشرُّ البَحْتُ.

ومنها: أنَّه أمَرَ بالاجتِنابِ عن عينِهما، وجَعْلُ الأمْرِ بترَكِهما مِن مادَّة الاجتنابِ أبلغُ مِن التَّرْكِ؛ لأنَّه يُفيدُ الأمرَ بالتَّرْكِ مع البُعدِ عن المتروكِ بأنْ يكونَ التاركُ في جانبٍ بعيدٍ عن جانبِ المتروك؛ وغالِبُ ما جاءَ في القُرآنِ من التَّعبيرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٧٤-٦٧٣)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧٥-٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٣).

بالاجتنابِ جاء في الشِّركِ والطَّاغوتِ الذي يَشملُ الشِّركَ والأوثانَ وسائرَ مَصادرِ الطُّغيان، والكبائرِ عامَّةً، وقَولِ الزُّور الذي هُو مِن أكبرِها؛ قال تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

ومنها: أنَّه جعَلَ الاجتنابَ من الفَلاح، وإذا كان الاجتنابُ فلاحًا ومرجاةً له، دَلَّ ذلك على أنَّ ارتِكابَهما مِن الخُسرانِ والخَيبةِ، في الدُّنيا والآخِرة.

ومنها: أنَّه ذكَر ما يَنتج منهما مِن الوَبال، وهو وقوعُ التعادِي والتباغُض من أصحابِ الخمر والميسِر، فجعَلَهما مثارًا للعداوةِ والبغضاء، وهما شرُّ المفاسدِ الدُّنيويَّة المتعدِّيةِ إلى أنواعٍ من المعاصِي في الأموالِ والأعراضِ والأنفُس؛ ولذلك سُمِّيتِ الخمرُ أمَّ الخبائثِ وأمَّ الفواحِش.

ومنها: أنَّه جعَلهما صادَّينِ عن ذِكرِ اللهِ وعن الصَّلاةِ، وهما رُوحُ الدِّينِ وعِمادُه، وزادُ المؤمِنِ وعَتادُه.

ومنها: الأمْر بالانتهاءِ عنهما بصِيغة الاستفهامِ المقرونِ بفاءِ السببيَّة ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

ولم يُؤكَّدْ تحريمُ شيءٍ في القرآنِ مِثلَ هذا التأكيدِ ولا قريبًا منه؛ وحِكمتُه: شدَّةُ افتتانِ الناسِ بشُربِ الخمرِ، وكذا الميسِرُ، وتأوُّلُهم كلَّ ما يُمكن تطرُّقُ الاحتمالِ إليه من أحكامِ الأديانِ التي تُخالِفُ أهواءَهم، كما أوَّلت اليهودُ أحكامَ التوراةِ في تَحريمِ أكْلِ أمْوالِ النَّاسِ بالباطِلِ كالرِّبا وغيرِه، وكما استحلَّ بعضُ

فُسَّاقِ المسلمين شُربَ بَعضِ الخمورِ بتَسميتِها بغيرِ اسمِها؛ إذ قالوا: هذا نَبيذٌ لا يُسكِرُ إلَّا الكثيرُ منه، وقد أحلَّ ما دون القدْرِ المُسْكِرِ منه فلان وفلان، يقولون ذلك فيما هو خمرٌ لا حَظَّ لهم مِن شُرْبِه إلَّا السُّكْرُ.

- وفي قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ مناسبةٌ حسنةٌ مِن حيثُ تَرتيبُها في الذِّكرِ؛ فإنَّه لَمَّا كانتِ الخَمرُ غايةً في الحَمْلِ على إتلافِ المال، قرَن بِها ما يَليها في ذلك، وهو القِمار، ولَمَّا كان الميسِرُ مَفسدةَ المالِ، قرَنَ به مفسدةَ الدِّينِ، وهي الأنصابُ، ولَمَّا كان تَعظيمُ الأنصابِ شِركًا جليًّا إنْ عُبِدت، وخفيًّا إنْ ذُبِحَ عليها دون عِبادةٍ، قرَن بها نوعًا من الشِّرك الخفيِّ، وهو الاستقسامُ بالأزلامِ، ثم أمَرَ باجتنابِ الكُلِّ إشارةً وعبارةً على أتمِّ وجْهٍ، فقال: ﴿رِجۡسٞ﴾، أي: قذَرٌ أهلٌ لأنْ يُبعَدَ عنه بكلِّ اعتبارٍ حتى عن ذِكره، سواء كان عيْنًا أو معنًى، وسواء كانتِ الرجسيَّةُ في الحسِّ أو المعْنَى[1].

٢- **قَوْلُه:** ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ خصَّ ﴿ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ بإعادةِ الذِّكر، وشرْحِ ما فيهما مِن الوَبالِ، بعدَما جمَعَ الخمرَ والميسرَ مع الأنصابِ والأزلامِ أولًا، ثم أفردَهما آخِرًا؛ تَنبيهًا على أنَّهما المقصودُ بالبيانِ[2]، ولأنَّ الخِطابَ مع المؤمنين، وإنَّما نهاهم عمَّا كانوا يَتعاطَوْنه مِن شُرْبِ الخَمرِ واللَّعِب بالميسِر، وذَكَر الأنصابَ والأزلامَ لتأكيدِ تحريمِ الخمرِ والميسِر، وإظهارِ أنَّ هذه الأربعةَ متقاربةٌ في القُبح والمفسَدَة، وأنَّ ذلك جميعًا من أعمالِ الجاهليَّةِ وأهلِ الشِّرك؛ فوجَبَ اجتنابُه بأسْرِه[3].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٧٤)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٤).

٣- **قَوْلُه**: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ **فيه**: تخصيصُ الصَّلاةِ بالإفرادِ مع دُخولها في ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ للتعظيمِ، والإشعارِ بأنَّ الصادَّ عنها كالصادِّ عن الإيمانِ؛ لأنَّها عمادُه، كأنَّه قيل: وعن الصَّلاةِ خصوصًا[١].

- وكرَّر الجارَّ في قوله: ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ تأكيدًا للأمْرِ، وتغليظًا في التَّحذيرِ[٢].

٤- **قَوْلُه**: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ هذا الاستفهامُ مِن أبلغِ ما يُنهَى عنه، كأنَّه قيل: قد تُلِيَ عليكم ما فيهما من المفاسِدِ الدُّنيويَّة والدِّينيَّة التي تُوجِبُ الانتهاءَ؛ فهل أنتم منتهونَ أم باقون على حَالِكم مع عِلْمِكم بتلك المفاسِدِ؟! وهذا استفهامُ ذمٍّ معناه الأمرُ، أي: انْتَهُوا، ومعناه: اتركوا وانتقِلوا عنه إلى غيرِه[٣]، فأكَّد النهيَ عنها بأنْ أوْرَدَه بصِيغةِ الاستفهامِ؛ فهو أبلغُ في الزَّجزِ من صِيغةِ الأمْرِ التي هي «انتهُوا»[٤].

- وفي هذا الاستفهامِ كِنايةٌ عن التَّحذيرِ مِن انتفاءِ وقوعِ المستَفْهَم عنه، أي: التَّحذيرِ مِن عَدمِ الانتهاءِ[٥]؛ فقدْ أعْظَمَ التهديدَ بهذا الاستفهامِ والجملةِ الاسميَّةِ الدالَّة على الثَّبات[٦].

٥- **قَوْلُه**: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾

فيه تكرارُ قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟﴾ على سَبيلِ التأكيدِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢-٢٨).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٩٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٥٩).

- حُذِفَ المفعولُ مِن كلمةِ ﴿وَٱحۡذَرُواْ﴾؛ للتحذيرِ من مَعصيةِ اللهِ ورسولِه، وهو أشدُّ وقعًا من ذِكر مَفعولِها؛ لأنَّه أبلغُ في التَّخويفِ؛ لأنَّ المتكلِّمَ مقتصِرٌ عليها دونَ مُتعلِّقاتها[١].

٦- قَوْلُه: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ خبرٌ فيه من الوعيدِ البالغِ ما لا خفاءَ به؛ إذ تضمَّنَ أنَّ العقابَ إنَّما يتولَّاه المرسِلُ لا الرَّسولُ؛ فما كُلِّفَ الرسولُ من الأمْرِ غيرَ التبليغِ[٢].

- وقوله: ﴿عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ في إضافةِ الرسول إلى ضميرِ الجلالة إشارةٌ إلى تعظيمِ جانبِ هذه الرِّسالة، وإقامة لمعذرتِه في التبليغِ بأنَّه رسولٌ من القادِرِ على كلِّ شيءٍ، فلو شاءَ مُرسِلُه لهدَى المُرسَلَ إليهم، فإذا لم يَهتدوا فليس ذلك لتقصيرٍ من الرسولِ[٣].

٧- **قَوْلُه:** ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾

﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾، أي: في طعمِ الَّذي طَعِموه، ومِن فصاحةِ القُرآن: إيرادُ فِعل ﴿طَعِمُوٓاْ﴾ هنا؛ لأنَّ المرادَ نفيُ التَّبِعَةِ عمَّن شَرِبوا الخمرَ وأكلوا لحمَ الميسرِ قبلَ نزولِ آيَةِ تَحريمهما؛ فإنَّ أصْلَ معنى طعموا أنَّه بمعنى أَكَلوا، و(طَعِم) يأتي بمعنى (ذاق)، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾[البقرة: ٢٤٩]، أي: ومَن لم يَذُقْه، بقرينةِ قوله: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ويُقال: وجدتُ في الماءِ طَعْمَ التراب، ويقال: تَغيَّر طعمُ الماء، أي: أسِنَ، فاسْتُعْمِلَ اللَّفظُ في معنييه، أو هو مِنْ أُسلوبِ التَّغليبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣).

٨- قَوْلُه: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْ﴾ فيه: تَكرارُ هذه الجُمل على سبيلِ المبالغةِ والتوكيدِ في هذه الصِّفات، والتأكيدِ والمبالغةِ في الحثِّ على الإيمانِ والتَّقوى، ولا ينافي التأكيدَ العطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾[1]؛ فإنَّ حَرْفَ ﴿ثُمَّ﴾ الدالَّ على التَّراخي الرُّتبي فيه إيماءٌ إلى الازديادِ في التقوى وآثارِ الإيمان[2]، ويحتمل أنْ يكون هذا التكريرُ باعتبارِ الأوقاتِ الثلاثة، أو باعتبارِ الحالات الثَّلاث: استعمالُ الإنسانِ التقوى والإيمانَ بينه وبين نفْسِه، وبَينَه وبينَ الناس، وبَيْنه وبينَ الله تعالى؛ ولذلك بدَّل بالإيمانِ الإحسانَ في الكرَّة الثالثة؛ إشارةً إلى ما قاله عليه الصَّلاة والسَّلام في تفسيره، أو باعتبارِ المراتبِ الثلاثِ: المبدأ، والوسط، والمنتهَى، أو باعتبار ما يَتَّقي؛ فإنَّه ينبغي أن يترُكَ المحرَّماتِ توقِّيًا من العقاب، والشُّبهاتِ تحرُّزًا عن الوقوعِ في الحرام، وبعضَ المباحات تَحفُّظًا للنَّفْس عن الخِسَّة، وتهذيبًا لها عن دَنسِ الطَّبيعة[3].

- قَوْلُه: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾ فيه تقديمُ الاتِّقاءِ على الإيمان؛ إمَّا للاعتناء به، أو لأنَّه الذي يدلُّ على التحريمِ الحادثِ الذي هو المؤمَنُ بِه، وللإشارةِ إلى أنَّ الإيمانَ هو أصلُ التقوى[4].

قال محمد رشيد رضا: (لا يمكنُ أن يكونَ (طعم) في القرآنِ بمعنى الشُّربِ مطلقًا، ولا يجوزُ أن يفيدَ هذا المعنَى إلا بالتبعِ لمعنى الأكلِ تغليبًا له، فيُجعل ﴿طَعِمُوٓاْ﴾ هنا بمعنَى أكلوا الميسرَ، وشربوا الخمرَ، كتغليبِ الأكلِ في كلِّ استعمالٍ في مثلِ النَّهي عن أكلِ أموالِ اليتامَى، وأكلِ أموالِ النَّاس بالباطل). ((تفسير المنار))(٧/ ٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥).

الآيات (٩٤ - ٩٦)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلنَّعَمِ﴾: أي: الإبل والبَقر والغَنَم، وأصلُ (نعم): يدلُّ على ترفُّه وطِيب عَيشٍ وصلاحٍ[(١)].

﴿ذَوَا عَدۡلٖ﴾: أي: عَدلانِ بيِّنَا العدالةِ، والعدالةُ هي الاستقامةُ على طريقِ الحقِّ بالاجتنابِ عمَّا هو محظورٌ دِينًا، وأصل (عدل): يدلُّ على استواءٍ[(٢)].

﴿هَدۡيَۢا﴾: جمْع هَدْيَةٍ، وهو هنا مختصٌّ بما يُهدَى إلى البيتِ مِن الأنعامِ، وأصلُ (هدي): يدلُّ على مَا أُهدِيَ مِن هَديَّةٍ إلى ذي مودَّةٍ، ويدلُّ على التَّقدُّمِ للإرشادِ[(٣)].

﴿عَدۡلُ ذَٰلِكَ﴾: أي: مِثلُه، أو مَا يُعادلُه، وأصلُ (عدل): يدلُّ على استواءٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٦) ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٤٢- ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٨).

﴿وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾: أي: جزاءَ ذَنبِه، أو ثِقْلَ فِعلِه، أو عاقبةَ أمْره مِن الشرِّ، والوَبَال: الوخامةُ، وسوءُ العاقبة، وأصل (وبل): يدلُّ على شِدَّةٍ في شيءٍ، وتجمُّع[١].

﴿عَمَّا سَلَفَ﴾: أي: عن الذي مضَى وتَقدَّم، والسَّلفُ: المتقدِّم، وأصل (سلف): يدلُّ على تقدُّم وسَبْق[٢].

﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾: أي: ما صِيدَ من السَّمكِ، والصيدُ هنا يُرادُ به المَصيدُ، أو: ما يُصطادُ منه طريًّا[٣].

﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾: أي: المسافِرين، وأصلُ (سير): يدلُّ على مُضيٍّ وجريانٍ[٤].

﴿تُحْشَرُونَ﴾: تُجمَعون وتُساقون، والحشرُ: الجمْعُ مع سَوْقٍ، أو الجمعُ بكثرةٍ، وكلُّ جمْعٍ حشْرٌ، والحشر أيضًا: البعثُ والانبعاثُ[٥].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾.

﴿فَجَزَآءٌ﴾: مرفوعٌ مُنوَّن، على أنَّه مبتدأٌ لخبرٍ محذوفٍ، والتقدير: فعليه جزاءٌ، ويجوز أنْ يكونَ ﴿جَزَاءٌ﴾ خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، والتقديرُ: فالواجبُ جزاءٌ، ويجوز أنْ يكون فاعلًا بفِعلٍ محذوف، أي: فيلزمه أو يجبُ عليه جزاءٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

و﴿مِّثۡلُ﴾: بمعنى (مماثِل)، وهي مرفوعةٌ صفةٌ لـ﴿جَزَآءٌ﴾، ويجوزُ أن تكون بدلًا منه. و﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، حالٌ من ضمير المفعول المحذوف؛ أي: ما قَتَلَهُ من النَّعَم. أو في محلِّ رفْع صِفة ثانية لـ﴿جَزَآءٌ﴾.

وقُرِئ ﴿جَزَاءُ﴾ بالرَّفْعِ من غيرِ تنوينٍ على إضافتِه إلى ﴿مِثلِ﴾، وإعراب (جَزَاءُ) على هذه القِراءة كما سبَق، لكن: ﴿مِثْلِ﴾ مجرورةٌ على أنَّها مضاف إليها، وهي في حُكم الزَّائدة؛ لأنَّ الذي يجِبُ به الجزاءُ هو المقتولُ لا مِثلُه، وهذا كقولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٣٧] أي: بما آمنتُم به، وكقولهم: مِثلي لا يقولُ ذلك، أي: أنا لا أقولُ ذلِك. و﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ جارٌّ ومجرور في محلِّ نصْبٍ، حالٌ من الضمير في ﴿قَتَلَ﴾؛ لأنَّ المقتولَ يكون من النَّعَم، أو يكونُ الجارُّ والمجرور متعلقًا بنَفْسِ الجزاء.

و﴿مَا قَتَلَ﴾: ﴿مَا﴾ يجوزُ أنْ تكون موصولةً اسميَّة، أو نكرةً موصوفةً، والعائد محذوف -على كِلا التَّقديرَينِ- أي: مِثل الذي قتَله مِن النَّعم، أو مِثل شيءٍ قتَلَه من النَّعَم[1].

قوله: ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾.

﴿هَدۡيَۢا﴾: منصوبٌ على أنَّه حالٌ من الهاء في ﴿بِهِۦ﴾، فيكون بمعنى مَهْدِيٍّ، أو منصوبٌ على المصدر- أي: إنَّه مفعولٌ مُطلَق لفِعل محذوفٍ-، أي: يُهديه هَدْيًا، وقيل غير ذلك.

﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٞ﴾: بالرَّفْع والتنوينِ، على أنَّه معطوفٌ على ﴿فَجَزَآءٞ﴾، أي: أو عليه

(١) يُنظَر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٦- ٢٣٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٦٠- ٤٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤١٨- ٤٢٠).

كفَّارةٌ. و﴿طَعَامُ﴾: مرفوعٌ على البَدل مِن ﴿كَفَّٰرَةٌ﴾. و﴿صِيَامًا﴾ منصوبٌ على التمييز[(١)].

قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾: ﴿مَتَٰعًا﴾ منصوبٌ على المصدر- مفعول مُطلَق- لأنَّ قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ بمعنى: أَمْتَعْتُكم به إمتاعًا، أو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ من أجْلِه، أي: أُحِلَّ لكم تمتيعًا لكم. و﴿لَكُمْ﴾ صِفة لـ﴿مَتَٰعًا﴾- على القول بأنَّ ﴿مَتَٰعًا﴾ مصدرٌ. وعلى القول بأنَّ ﴿مَتَٰعًا﴾ مفعولٌ لأجْله، فيكون ﴿لَكُمْ﴾ مُتعلِّقًا بفعلٍ محذوف، أي: أَعْني لكم[(٢)].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى عِبادَه المؤمنينَ أنَّه سيختبرُهم في حالِ إحرامِهم ببعضٍ مِن الصيدِ المحرَّم، الذي يستطيعون أخْذَه بأيديهم أو رِماحِهم؛ وذلك حتَّى يَعلمَ اللهُ مَن يَخافُه حالَ كَوْنِه لا يَرَى اللهَ عَزَّ وجَلَّ، ومَن يَخشاهُ في حالِ غِيابِه عن النَّاسِ، ثم توعَّد مَن اعتدَى متجاوزًا ما حدَّه اللهُ بعدَ حُكمِ تحريم الصَّيدِ عند التلبُّسِ بالإحرامِ، فخالَف شرْعَ اللهِ في ذلك؛ توعَّدَه بأنَّ له عذابًا مؤلِمًا مُوجِعًا.

ثمَّ نهى اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ عن قَتْلِ الصَّيدِ وهُم مُحْرِمون، أو كانوا داخِلَ الحرمِ، وبيَّن أنَّ مَن قتَلَ الصيدَ قاصدًا ذلك، فيجبُ عليه أنْ يذبَحَ مِثلَه مِن بهيمةِ الأنعامِ، يُقدِّر ذلك المِثْلَ الواجبَ اثنانِ عَدْلانِ من المؤمنينَ، ويَنبغي أن يَصلَ هذا الهديُ الواجبُ على قاتلِ الصَّيدِ إلى الحَرمِ؛ ليُذبحَ هناك، ويُوزَّع

(١) يُنظَر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٢٣- ٤٢٤).

(٢) يُنظَر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٢٩- ٤٣٠).

لحْمُه على مساكينِه. أو يكفِّر قاتلُ الصيدِ عمَّا اقترَفه من ذنبٍ بإطعامِ مساكينَ. أو يصوم ما يُعادلُ الإطعامَ، بأنْ يكون مقابلَ إطعامِ كلِّ مِسكينٍ صِيامُ يومٍ؛ ليذوقَ مَن قتَل الصيدَ- وهو مُحرِمٌ بعدَ تحريمِه- عقوبةَ ما اقترفَه مِن ذنبٍ. ثم ذكَر اللهُ مَظْهرًا مِن مظاهرِ رحمتِه بعبادِه؛ وهو أنَّه عفا الله عمَّا مضى مِن قبلِ التَّحريمِ، فلم يؤاخِذْهم عليه، أمَّا مَن عاود فِعلَ ذلك بعد أنْ بَلَغه التحريمُ؛ فإنَّ اللهَ تعالى ينتقمُ منه، ويعاقِبُه عقابًا شديدًا، فهو سبحانه عزيزٌ ذو انتقامٍ.

وبعدَ أنْ ذَكَر اللهُ حُكمَ صَيدِ البَرِّ بيَّن أنَّ صيدَ البحرِ وطعامَه حلالٌ حتى للمُحرِمِ- وصيدُ البَحر ما أُخِذ حيًّا، وطعامُه ما لَفَظَه البحرُ ميتًا، أو طفَا عليه أو انْحسَر عنه- أحلَّ الله تعالى ذلك؛ منفعةً لعبادِه في حالِ إقامَتِهم وحالِ سَفَرِهم، وأوضَحَ اللهُ سبحانه أنَّ صيدَ البَرِّ حرامٌ على عِبادِه حالَ إحرامِهم، فلْيتَّقوا اللهَ في كُلِّ أحوالِهم؛ فهو الذي إليه يُحشَرونَ وإليه مَرْجِعُهم فيجازيهم على أعمالِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَهم اللهُ تعالى ألَّا يُحرِّموا الطيِّباتِ، أخرج منها ما حرَّمَه في حالٍ دون حال، وهو حال الصيد[1]، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، لَيَختبِرنَّكم اللهُ تعالى، ويَمتحِنَنَّ إيمانَكم ببعضِ الصَّيد المحرَّمِ الذي تَقدِرونَ على أخْذِه بأيديكم ورِماحِكم، وذلك حالَ إحرامِكم بحَجٍّ أو عُمرةٍ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦١)، ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي))

﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

أي: أقامَ اللهُ تعالى هذا الابتلاءَ؛ ليَعلمَ عِلمًا ظاهرًا للخَلْقِ، يَترتَّبُ عليه الثوابُ والعِقابُ، مَن يخافُ اللهَ تعالى ولم يَرَهُ، ومَن يَخافُ اللهَ تعالى في حالِ غِيابِه عن النَّاسِ، فيُطيع ربَّه عزَّ وجلَّ، ويَجتنب معصيتَه سرًّا وجهرًا، وهو لا يَراه ولا يُعاينُه[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: فمَن تجاوَزَ حدَّ اللهِ عزَّ وجلَّ بعدَ حُكمِ تحريمِ الصَّيدِ عليه حالَ إحرامِه، فخالَفَ شرْعَ اللهِ تعالى في ذلك؛ فله عذابٌ مؤلِمٌ مُوجِع[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، إيَّاكم أن تَقْتُلوا صيدَ البرِّ[3] وأنتم مُحْرِمون بحجٍّ أو

(ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٧٨-٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٧٩).

(٣) المقصودُ بالصَّيد: الحيوانُ البريُّ المأكولُ المتوحِّش طبعًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٥).

عمرةٍ[١]، أو كنتم داخِلَ منطقةِ الحَرَم[٢].

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾.

أي: وكلُّ مَن قتَلَ منكم صَيدًا، مُتعمِّدًا قتْلَه، فيجبُ عليه أنْ يَذبحَ مِثلَه من بهيمةِ الأنعامِ: الإبلِ، والبقر، والغَنم[٣]، ويَتصدَّقَ به عِوضًا عمَّا قَتَله[٤].

﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

أي: يُقدِّرُ ذلك الجزاءَ الواجبَ، اثنانِ عدلانِ منكم- أيُّها المؤمنون- من ذوي الاستقامةِ والمروءةِ[٥]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٤-٣٨٥).

قال ابنُ عثيمين: (والحُرُم: جمعُ حرامٍ، والمرادُ به: الحُرُم في المكانِ، والحُرُم في الحالِ: الحُرُم في المكانِ: بأن يكونوا في حَرمِ مكَّةَ، والحُرُم في الحالِ: بأن يكونوا مُحرِمين بحجٍّ أو عمرةٍ، وعلى هذا لو أحرَم الإنسانُ مِن ذي الحُليفةِ فمِن حينِ إحرامِه مِن ذي الحليفةِ يدخلُ في الآيةِ، ولو كان محلًّا ووصَل إلى مكَّة إلى حدودِ الحَرَم، فإذا دخل هذه الحدودَ فقد صار حرامًا أي: يدخل في الآية أيضًا).

(٣) قال ابنُ عُثيمين: (المرادُ بالمماثلة هنا: المقاربةُ في الخِلْقة؛ لأنَّ التماثُلَ بيْن الصَّيدِ وبَين النَّعَم مستحيلٌ، أعْني: التماثُلَ من كلِّ وجه؛ لكن المراد بذلك التقارُب في الخِلقة) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٧٨-٦٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٦-٣٨٧).

(٥) قال ابنُ عُثيمين عن المروءة: (العدالةُ: هي الاستقامةُ في الدِّين والمروءة، فمعنى ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ أي: ذوا استقامةٍ في الدِّين والمروءة. أمَّا في الدِّين: ففسَّرها الفقهاءُ رحمهم الله بأنْ يأتي بالفرائض، وأنْ لا يفعلَ كبيرةً، ولا يُصرَّ على صغيرةٍ، هذه الاستقامةُ في الدِّين، الاستقامةُ في المروءة: أنْ لا يفعل ما يَشينُه عندَ الناسِ، وأنْ يفعل ما يُجمِّله عندهم، يعني: يفعل الجميلَ ويَدَع الـمُشين، وهذا الأخيرُ يختلف باختلافِ الأحوالِ والبلدان والأزمان، قد يكون فعلُ شيءٍ في بلد لا يَخرم المروءةَ، وقد يكون في بلد آخَر يَخرم المروءةَ، والعبرةُ بأعرافِ الناس المستقيمة، لا عِبرةَ للهَمجِ) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٧).

يَعرِفان الحُكمَ، ووجهَ الشَّبَهِ[١].

﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾.

أي: هذا الهدْيُ يَنبغي أنْ يكونَ واصلًا إلى الحرَمِ، فيُذبحَ فيه، ويُوزَّعَ لحْمُه على مساكينِه[٢].

﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾.

أي: وله- عوضًا عن ذَبْحِ الهَدْي المماثِل- أنْ يكفِّرَ عن ذَنبِه بإطعامِ مساكينَ[٣].

﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾.

أي: وله أيضًا أنْ يَختارَ للجزاءِ صِيامَ ما يُعادِلُ إطعامَ المساكينِ، فيصومَ عن إطعامِ كلِّ مِسكينٍ يومًا[٤].

﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦ﴾.

أي: أوْجَبْنا الجزاءَ المذكور على قاتِلِ الصَّيدِ المنهيِّ عن قتلِه؛ ليذوقَ عقوبةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٧-٣٨٨).
قال السعديُّ: (كما فعَل الصحابةُ رضي الله عنهم، حيث قضَوْا بالحمامة شاةً، وفي النعامة بدنةً، وفي بقَر الوحش- على اختلاف أنواعِه- بقرةً، وهكذا كلُّ ما يُشبه شيئًا من النَّعم، ففيه مِثلُه، فإنْ لم يُشبه شيئًا ففيه قِيمتُه، كما هو القاعدةُ في المُتْلَفات) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٩٥، ٧٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٨).
قال القرطبيُّ: (ولم يُردِ الكعبةَ بعينِها؛ فإنَّ الهديَ لا يبلغُها؛ إذ هي في المسجدِ، وإنَّما أراد الحرمَ، ولا خلافَ في هذا) ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٩٦، ٧٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٨-٣٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٠٨-٧٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٩).

ذَنبِه الذي ارتكبَه بإلزامِه بما يُتعِبُه، ويشقُّ عليه[١].

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾.

أي: تجاوزَ اللهُ تعالى عن قتْلِكم الصيدَ، وأنتم حُرُمٌ، قبلَ تحريمِ ذلك عليكم، فلا يُؤاخِذكم به[٢].

﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾.

أي: ومَن فعل ذلك بعد تحريمِه، وبُلوغِ الحُكم الشرعيِّ إليه، فإنَّ الله تعالى يَأخُذُه بعقوبةٍ[٣].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

أي: واللهُ تعالى مَنيعٌ في سُلطانه، غالبٌ على أمْرِه، لا يَقهرُه قاهرٌ، ولا يَمنعُه من الانتقامِ مانعٌ، ذو معاقبةٍ لِمَن عصاه سبحانه[٤].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كانَ الصيدُ يشملُ الصيدَ البَرِّيَّ والبَحريَّ، استَثْنى تعالى الصيدَ البحريَّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٩-٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧١٢-٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٢٠-٧٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٩٠).

فذَكَر في الآياتِ الماضيةِ حُكمَ صيدِ البَرِّ للمُحْرِم، وذكر هنا حُكمَ صيدِ البَحرِ[١]، فقال:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾.

أي: أباحَ الله تعالى لكم مُطلقًا في حالِ حِلِّكم وحَرَمِكم- أيُّها المؤمنون- أكْلَ صيدِ البحرِ، وهو ما أخذتُموه من حيواناتِه حيًّا، وطعام البحرِ، وهو ميتتُه التي لفَظَها أو طفَتْ عليه، أو انحسر عنها[٢].

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾.

أي: منفعةً لكم -أيُّها المخاطَبون- فتنتفعون به أكْلًا وبَيعًا، ومنفعةً أيضًا للمسافرينَ يَتزوَّدونَ به في سَفرِهم، ويَجلِبونه بضاعةً إلى الأمصارِ في تَرحالِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٢٢، ٧٢٦، ٧٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٠-٤١٢).

وممَّن قال مِن السَّلف في معنى صيد البحرِ وطعامِه بنحو ما قُلنا: أبو بكر الصِّدِّيق، وعمر بن الخطَّاب، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وأبو هُرَيرة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وسعيد بن جُبَير، والسُّدِّي، وقَتادة، وسعيد بن المسيَّب، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٢١٠).

وقال مكي: (وكلُّ نهرٍ تسمِّيه العربُ بحرًا، فالأنهارُ صيدُها داخلٌ في هذا، حلالٌ بإجماعٍ) ((الهداية الى بلوغ النهاية)) (٣/ ١٨٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٠).

وقد ذهَب إلى أنَّ المراد بـ ﴿لَّكُمْ﴾ أي: أنتم- أيُّها المقيمون- في بلادِكم. وهو اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٧٣٥)، والواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٦)، وابن عطية في ((تفسيره)) (٢/ ٢٤١)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (٢/ ٤١٠).

وممَّن قال بنحو ذلك من السَّلف: مقاتل. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٨٨).

وقال ابن عاشور: (والخطابُ في قولِه: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ للمُخاطبين بقولِه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ باعتبارِ كونِهم مُتناولين الصَّيد، أي: متاعًا للصَّائدين وللسَّيَّارة) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٢).

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾.

أي: وحرَّم اللهُ تعالى عليكم- أيُّها المؤمنون- أخْذَ الحيوانِ البريِّ في حالِ إحرامِكم[(١)].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

أي: واتَّقوه سبحانه بفِعلِ ما أمَر، وترْكِ ما نَهى، واستَعِينوا على تقواه بعِلمِكم أنَّكم إليه راجعونَ، فيُجازِيكم في آخرتِكم ثوابًا أو عقابًا على ما قدَّمتُم في دُنياكم[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ بيانُ امتحانِ اللهِ تبارَك وتعالى لعبادِه بتيسيرِ أسبابِ المعصية لهم؛ ليعلمَ مَن يخافُه بالغيبِ ومَن لا يخافُه إلَّا في العلانِيَة، ووجهُه من الآية ظاهِر[(٣)].

٢- قَوْلُه تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ فيه الحذرُ مِن الوقوعِ في المعصيةِ، وإن تيسَّرتْ أسبابُها، ومعرفةُ أنَّ ذلك امتحانٌ مِن الله[(٤)]، فقد يكونُ التيسيرُ هو عينَ الابتلاءِ؛ ليعلمَ اللهُ مَن يخافُه في السرِّ، حيثُ لا يراه أحدٌ من النَّاس؛ إذ إنَّ هذا الصيدَ في مُكنتِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٣٧-٧٣٨، ٧٤٦-٧٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١١-٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٩٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٠).

وسهْلُ الأخْذ؛ فالخائفُ لا يَصيدُ، وغيرُ الخائفِ يَصيدُ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ ﴾ فيه أنَّ اجتنابَ قتْلِ الصيدِ مِن مقتَضَياتِ الإيمانِ؛ وجهُ ذلك: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وجَّه الخطابَ بهذا النهيِ إلى المؤمنين، ودلَّ على أنَّ قتْلَ الصَّيدِ مُنافٍ لكمالِ الإيمانِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قَوْلُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ ... ﴾ فيه فضلٌ عظيمٌ لهذه الأمَّة، وأنَّها تَفضُل سائرَ الأُمَمِ، وعلى رأسهم الأمَّةُ اليهوديَّة، وفيه أيضًا فضيلةُ الصَّحابة رضي الله عنهم، الذين هم مُقَدَّمُ هذه الأمَّةِ، فقد امتحن اللهُ تعالى أصحابَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في عُمرةِ الحُديبِيَةِ بالصيدِ وهم مُحرِمون، فهيَّأ لهم جميعَ أنواعِ الصيدِ من الوُحوش والطَّير، مِن كِبارِها وصِغارها، ولم يَعتَدِ رجلٌ منهم، ولم يَصِدْ في الإحرام، كما بيَّنه الله تعالى بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ ... ﴾ فخافوا اللهَ عزَّ وجلَّ وعظَّموا محارمَه، فلم ينتهكوها أو يتحيَّلوا عليها، أمَّا بنو إسرائيلَ فقد ابتلاهم اللهُ بصيدٍ، وهو صيدُ السَّمكِ، كما قال تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ ﴾ [الأعراف: ١٦٣] فحَدَاهم الطَّمَعُ في أكْلِ الحُوتِ إلى أنِ اعْتَدَوْا في السَّبتِ، فكانوا يجعلون شِباكًا في يومِ الجُمعة، ثم يأخذون السَّمكَ أو الحيتانَ يومَ الأحَدِ، فمَسَخَهم اللهُ قِرَدةً[٣].

٢- قَوْلُه: ﴿ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ ﴾ ابتلاءُ تكليفٍ ونهْيٍ، كما دلَّ عليه تعلُّقُه بأمْرٍ ممَّا يُفعَل؛ فهو ليس كالابتلاءِ في قوله: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٩٠-٣٩١).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٩). ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٠).

وَٱلۡجُوعِ ...﴾ [البقرة: ١٥٥]، وإنَّما أخبَرَهم بهذا على وجْهِ التَّحذير؛ فالابتلاءُ مُستقبَلٌ؛ لأنَّه لا يَتحقَّقُ معنى الابتلاءِ إلَّا مِن بعدِ النهي والتَّحذيرِ، ووجودُ نونِ التوكيدِ يُعيِّن المضارعَ للاستقبالِ؛ فالمستقبل هو الابتلاءُ، وأمَّا الصَّيدُ ونوالُ الأيدي والرِّماحِ فهو حاضِرٌ(١).

٣- جاءتْ (مِن) في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ للتبعيضِ؛ وذلك مِن وجهينِ: الأوَّل: أنَّ المرادَ صيدُ البَرِّ دون البَحر، والثاني: صيدُ الإحرامِ دون صيدِ الإحلالِ(٢).

٤- خصَّ اللهُ الأيديَ بالذِّكرِ في قولِه تعالى: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾؛ لأنَّها أعظمُ تصرُّفًا في الاصطيادِ، وفيها تدخُلُ الجوارحُ والحِبالاتُ وما عُمِل باليدِ مِن فِخاخٍ وشِباكٍ، وخصَّ الرِّماح بالذِّكْرِ، فقال: ﴿وَرِمَاحُكُمۡ﴾؛ لأنَّها أعظمُ ما يُجرحُ به الصَّيدُ، وفيها يدخلُ السَّهمُ ونحوه(٣). وقيل: عَبَّر بالأيدي والرِّماح؛ ليشملَ الصَّيدَ القريبَ والبعيدَ؛ فبَعضٌ من الصَّيدِ يُتناوَلُ بالأيدي لقُرب غِشيانِه حتَّى تَتمكَّن منه اليدُ، وبعضٌ منه يُنال بالرِّماح لبُعده وتَفرُّقه؛ فلا يُوصَل إليه إلَّا بالرُّمح(٤). وقيل: عَبَّر بقوله: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على غَايةِ قُرْبِ الصَّيدِ، حتى لو شَاؤوا لتناوَلوه بأَيديهم؛ فنَهاهم اللهُ أنْ يَقْرَبوه، وهذا لتَحقيقِ وقوعِ الابتلاءِ بِالصَّيْدِ؛ إذ ابتلاهَم بما يَغشاهُم في رِحالهم، ويَتمكَّنون مِن أخْذِه بالأيدي والرِّماح سرًّا وجهرًا؛ لتظهرَ طاعةُ مَن يُطيع منهم في سِرِّه وجَهْرِه(٥).

٥- يُؤخَذُ من لفظ ﴿ٱلصَّيۡدِ﴾ أنَّه لا بدَّ أن يكون وحشيًّا؛ لأنَّ الإنسيَّ ليس

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨- ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٤٣٨).

بِصَيْدٍ، وأن يكون مأكولًا؛ فإنَّ غيرَ المأكولِ لا يُصادُ، ولا يُطلَق عليه اسمُ الصَّيد[١].

٦- في سِياق قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ إشكالٌ، وهو أنَّه قد نرَى في ظاهرِ الآية أنَّها تدلُّ على تجدُّدِ العِلم للهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه قال: ﴿ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ ﴾، ثم قال: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾، وهو جلَّ وعلا عالمٌ بذلك قبلَ أنْ يخلُقَ هذا، وقد قدَّر مقاديرَ الخلائِقِ قبلَ خلْق السَّمواتِ والأرضِ بخَمسينَ ألفَ سَنةٍ، والجوابُ عن هذا الإشكال: أنَّ عِلمَ الله تعالى بالشيءِ قبلَ وقوعِه علمٌ بأنَّه سيقَعُ، وعِلمه بعدَ وقوعه عِلمٌ بأنَّه واقعٌ، وفرْقٌ بين كونِ الشيءِ معلومًا قبلَ أن يقعَ، ومعلومًا بعدَ أن يقَعَ؛ فالعلمُ الأوَّلُ لا يترتَّبُ عليه جزاءٌ بالنِّسبةِ للعبدِ، والعِلم الثاني: يترتَّبُ عليه جزاءٌ[٢]، فمعنى ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ﴾ أنْ يعلمَ عِلمًا ظاهرًا للخَلْقِ يترتَّب عليه الثوابُ والعقابُ[٣].

٧- مِن مِنَنِ اللهِ تعالى على عبادِه: أنْ أخبرَهم ببعضِ ما سيَبْتَليهم به؛ ليُطيعوه ويُقدِموا على بصيرةٍ، ويَهلِكَ من هلَك عن بيِّنةٍ، ويحيا من حيَّ عن بيِّنةٍ، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾[٤].

٨- أفاد قولُه: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ ﴾ أنهم يتمكَّنون من صيدِه؛ ليتمَّ بذلك الابتلاءُ، وإلَّا فلو كان غيرَ مقدورٍ عليه بيدٍ ولا رُمحٍ، لم يبقَ للابتلاءِ فائدةٌ[٥].

٩- قَوْلُه تعالى: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ ثناءٌ على الذين يَخافون اللهَ؛ فقدْ أثنى عليهم بصِدق الإيمانِ وتنوُّرِ البصيرة؛ فإنَّهم خافوه ولم يَرَوْا عظمتَه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وجلالَه، ونعيمَه وثوابَه، ولكنَّهم أيقَنوا بذلك عن صِدْقِ استدلالٍ[١].

١٠- يُستفادُ من مجموعِ الآيتين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ ...﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾ النهيُ عن الاصطيادِ، والنهيُ عن قتْلِ الصيدِ، والظَّاهِرُ عمومُ الصَّيدِ، وقد خُصَّ هذا العمومُ بصيدِ البرِّ؛ لِقَوْلِه: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾[٢].

١١- حرَّم اللهُ تعالى الصيدَ في حالينِ: حال كَوْن الصائِد مُحرِمًا، وحال كون الصيدِ مِن صيدِ الحرَم ولو كان الصائدُ حلالًا، والحكمةُ في ذلك أنَّ الله تعالى عظَّمَ شأنَ الكعبةِ من عَهدِ إبراهيمَ عليه السَّلام، وأمَرَه بأنْ يتَّخذَ لها حرَمًا كما كان الملوكُ يتَّخذونَ الحِمَى، فكان بيتُ اللهِ وحِماه- وهو حَرَمُ البَيْتِ- مُحترَمًا بأقْصى ما يُعدُّ حُرمةً وتعظيمًا؛ فلذلك شرَع اللهُ حَرَمًا للبيتِ واسعًا، وجعَل الله البيتَ أمْنًا للنَّاس، ووسَّع ذلك الأمنَ حتى شَمِلَ الحيوانَ العائِشَ في حَرمِه، بحيث لا يرَى الناسُ للبيتِ إلَّا أمنًا للعائذِ به وبحَرَمِه[٣].

١٢- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾ التصريحُ بالنَّهي عن قتْلِ الصيدِ في حالِ الإحرامِ، والنَّهيُ عن قتْلِه يشملُ النهيَ عن مُقدِّمات القتْلِ، وعن المشاركةِ في القَتْلِ، والدَّلالةِ عليه، والإعانةِ على قتْله؛ حتى إنَّ مِن تمام ذلك أنَّه يُنهَى الْمُحْرِمَ عن أكْلِ ما قُتِل أو صِيدَ لأجْلِه؛ وهذا كلُّه تعظيمٌ لهذا النُّسُكِ العظيمِ[٤].

١٣- ممَّا يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤).

تعظيمُ الإحرام وتعظيمُ الحَرَم؛ أما تعظيمُ الإحرام: فإنَّ منْعَ الْمُحْرِم من الصَّيد يعني احترامَ النُّسُك وعدَمَ اللَّهو وعدَم التَّرَف؛ لأنَّه لو أُبيح للمُحْرِم أن يَصطادَ لتلهَّى عن النُّسُك؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، كلُّ هذا لأجْلِ أنْ يَتفرَّغَ الإنسانُ قلبًا وقالَبًا لِما هو مُتلبِّسٌ به من النُّسُك. وأمَّا حَرَمُ مكَّة فظاهرٌ أيضًا أنَّ في الآيةِ دليلًا على تعظيمِه وحُرمتِه؛ لأنَّ الحرمَ آمنٌ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، هذا البلدُ آمِنٌ فيه الآدميُّون والحيوانُ والأشجارُ؛ ولذلك يَحرُمُ صيدُه، ويحرُمُ قَطْعُ شجرِه إلَّا الميِّت، ويَحرُم القتالُ فيه، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(١)] [البقرة: ١٩١].

١٤- حرَّمَ الله تعالى الصَّيدَ على الْمُحْرِم بقولِه: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [المائدة: ٢]، وبقولِه هنا: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ وكرَّر ذلك تغليظًا لحُكمِه[(٢)].

١٥- أنَّ ما صادَه المحْرِمُ مَيتةٌ؛ لا يحلُّ أكْلُه لا له ولا لغَيْره، سواءٌ قتَلَه بالسَّهم، أو أمْسَكه وذبَحه؛ فإنَّه مَيْتة؛ لِقَوْلِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ وجه الدَّلالةِ: أنَّ الله عبَّر عن صَيدِه بقَتْله، ومعلومٌ أنَّ القَتْل ليس ذَكاةً؛ فيدلُّ هذا على أنَّ ما قَتلَه المُحْرِمُ من الصيودِ فهو مَيتةٌ[(٣)].

١٦- تقييدُ القتْلِ بالعَمدِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٩٢).

مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾. خَرَجَ به المخطِئُ، فمَن لم يتعمَّدْ فقتَل خطأً، بأنْ كان ناسيًا لإحرامِه، أو رَماه ظانًّا أنَّه ليس بصيدٍ، فإذا هو صيدٌ، أو عدَل سهمُه الذي رماه لغيرِ صيدٍ فأصابَ صيدًا، فلا جزاءَ عليه ولا إثمَ[١]، فالجزاءُ إنَّما يلزم المتعمِّدَ، والقاعدةُ: أنَّه لا مؤاخذةَ مع الجهلِ والنِّسيانِ، وكذلك الإكراهُ، وهي قاعدةٌ عظيمةٌ في الشَّريعة الإسلاميَّة، ولا يجوزُ أن نُخْرِجَ منها أيَّ شيءٍ إلَّا بدليلٍ[٢].

١٧- قال سبحانه وتعالى: ﴿فَجَزَآءٌ﴾ سمَّى اللهُ الكفَّارةَ هنا جزاءً؛ لأنَّ فيها تأديبًا وعقوبةً، وقد دلَّنا على أنَّ مَقْصِدَ التَّشريع في ذلك هو العقوبةُ؛ قولُه عقِبَه: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾[٣].

١٨- يُؤخذُ من قولِه تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أنَّه لو اجتَمَع مُحرِمونَ في صَيدٍ لم يجبْ عليهم إلَّا جزاءٌ واحِدٌ[٤].

١٩- ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ وقولِه: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ تَقتضي تخييرَ قاتِلِ الصيدِ في أحدِ الثلاثَةِ المذكورةِ، وكذلك كلُّ أمرٍ وقَعَ بـ(أو) في القرآنِ، فهو من الواجِبِ المخيَّر، والقولُ بالتَّخييرِ هو قولُ الجمهورِ[٥].

٢٠- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أنَّ العَدْلينِ ذَكَرانِ، فلا يَحكُم فيه امرأتانِ، وإن اتَّصَفَتا بالعدالةِ[٦].

٢١- وصف ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ بقولِه: ﴿مِّنكُمْ﴾ أي: من المسلمينَ؛ للتحذير من

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٦).

متابعةِ ما كان لأهلِ الجاهليَّةِ مِن عَمَلٍ في صيدِ الحَرَمِ؛ فلعلَّهم يدَّعُونَ معرفةً خاصَّةً بالجزاءِ[١].

٢٢- استُدِلَّ بقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ على إثباتِ القياسِ؛ لأنَّه تعالى فرَضَ تعيينَ المِثل إلى اجتهادِ النَّاسِ[٢].

٢٣- أنَّ جزاءَ الصَّيد لا بدَّ أن يصِلَ إلى الحَرَمِ، ويُذبَحَ هناك؛ لِقَوْلِه: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾، فلو قُدِّرَ أنَّ إنسانًا أَحْرَمَ مِن ذي الحُليفَةِ وقتَل صيدًا في بَدْرٍ، فإنَّه يجبُ عليه أن يَجزي هذا الصيدَ في مكَّةَ ولا بدَّ[٣].

٢٤- ممَّا يُستفادُ من التَّصريحِ بالكعبة في قوله: ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ الزِّيادةُ في التعظيمِ، والإعلامُ بأنَّها هي المقصودَةُ بالذاتِ بالزِّيارة والعمارةِ[٤].

٢٥- أنَّ هؤلاءِ المساكينَ لا يُحْصَرونَ بعددٍ معيَّنٍ، بل له أن يُطْعِمَ ثلاثةً أو عشَرةً أو عشرينَ أو ثلاثينَ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى أطلَقَ، فقال: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ وأقلُّهم ثلاثةٌ[٥].

٢٦- اسْتُدِلَّ بقَوْلِه تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ على جوازِ التعزيرِ بالمالِ؛ لأنَّ هذا القاتِلَ أُلزِمَ بهذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٠٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٠٥).

الفِدْيةِ؛ ليذوقَ وبالَ أمْرِه، فهو نوعٌ من التَّعزيرِ[١].

٢٧- قَوْلُه: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ فيه رحمةُ الله عزَّ وجلَّ بهذه الأمَّة؛ حيث خيَّرها بين قوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ وبين ما بَعدَه، فقال: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ و(أو) للتَّخييرِ[٢].

٢٨- إنَّما سمَّى الله تعالى ما أوْجَبه على مَن قتَل صيدَ البَرِّ وهو مُحْرِمٌ وَبالًا في قولِه: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾؛ لأنَّه خيَّره بينَ ثلاثةِ أشياءَ؛ اثنانِ منها يوجِبَان تنقيصَ المالِ، وهو ثقيلٌ على الطَّبْعِ، وهما الجزاءُ بالمِثل والإطعامُ، والثَّالثُ يُوجِبُ إيلامَ البَدَنِ، وهو الصَّومُ، وذلك أيضًا يَثقُل على الطَّبعِ؛ وذلك حتى يُحترزَ عن قتْلِ الصَّيدِ في الحرمِ، وفي حالِ الإحرامِ[٣].

٢٩- لا يُوصَفُ الله تعالى بالانتقامِ وصفًا مُطلقًا، ولا يُسمَّى بالمنتقِم، وقولُه: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لا يدلُّ على أنَّه وصفٌ مُطلَقٌ لله؛ لأنَّ الله تعالى قيَّدَ الانتقامَ بالمجرمين، فقال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، فنُقيِّد ما قيَّده اللهُ عزَّ وجلَّ[٤] وأيضًا فقوله: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ وصف لـ ﴿عَزِيزٌ﴾ وهو الذي لا يحتاج إلى ناصرٍ، فوُصِف بذلك؛ لأنَّ من صِفاته الحِكمةَ، وهي تَقتضي الانتقامَ من المُفْسِد؛ لتكونَ نتائجُ الأعمالِ على وَفْقِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٠٦). ومسألةُ التعزيرِ بالمال فيها خلافٌ بين أهلِ العلم. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٢/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥١).

٣٠- أنَّ جميعَ حيوانِ البحرِ حلالٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ والإضافةُ تقتضي العمومَ، فيشملُ كلَّ ما في البحرِ مِن سَمَكٍ وحيتانٍ، صغيرٍ وكبيرٍ مشابهٍ للإنسانِ، أو مشابهٍ للذِّئابِ، أو مشابهٍ للخنزيرِ، أو غير ذلك[١].

٣١- استدلَّ جمهورُ العلماءِ على حِلِّ مَيتةِ البحرِ بقولِه تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ وطعامُه يشملُ ما مات فيه[٢].

٣٢- حِلُّ صيدِ البحرِ للمُحِلِّين والمحرِمينَ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾[٣].

٣٣- أنَّه لو وُجِد ماءٌ فيه سمكٌ داخلَ حدودِ الحرَمِ فإنَّ الظاهِرَ أنَّه يكونُ حلالًا؛ لعمومِ قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾، ثم قال: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾[٤].

٣٤- من حِكمةِ الله عزَّ وجلَّ في حِلِّ صيدِ البحرِ دون صيدِ البَرِّ؛ لأنَّ الأوَّل تناوُلُه سَهْلٌ، ولا يلهو به الإنسانُ، كما يلهو به في صيدِ البَرِّ، بخلافِ صيدِ البرِّ الذي يتلهَّى الإنسانُ به وينسابُ وراءَه، ثم إنَّ صيدَ البحرِ صيدٌ خفيٌّ في باطنِ المياه؛ فلا يكونُ كالصَّيْدِ الظَّاهِرِ على سطحِ الأَرْضِ[٥].

٣٥- الإشارةُ إلى جوازِ ادِّخارِ لحمِ البَحْرِ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ يعني: السَّائرينَ في السَّفر، ومِثل ذلك لحمُ صيد البرِّ في غيرِ الإحرامِ، لكن يُشترَطُ في ذلك ألَّا يصلَ إلى حدِّ الضَّررِ، فإنْ وصَلَ إلى حدِّ الضَّرَر بأنْ أَنتنَ، وقَبُحتْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٤١٢، ٤١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤١٣).

رائحتُه، وخِيفَ على الإنسانِ منه، صار إمَّا مَكروهًا وإمَّا حرامًا؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[(١)] [البقرة: ١٩٥].

٣٦- لَمَّا كان الاصطيادُ بحَشْرِ المصيدِ إلى حيثُ يَعجِز عن الخلاصِ منه، وكانتْ حالةُ الإحرامِ أشبهَ شيءٍ بحالةِ الحَشرِ في التجرُّدِ عن المخيطِ، والإعراضِ عن الدنيا وتمتُّعاتِها، ختَم الآيةَ بقولِه عطفًا على ما تقديرُه: فلا تأكلوا شيئًا منه في حالِ إحرامكم، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: الذي له الأمرُ كلُّه في ذلك وفي غيرِه من الاصطياد وغيرِه؛ ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾؛ ليكونَ العَرْضُ عليه نُصْبَ أَعْيُنِكم، فتكونوا مواظِبينَ على طاعتِه مُحترِزينَ عن مَعصيتِه[(٢)].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قَوْلُه**: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ **فيه**: التأكيدُ باللَّامِ، ونونِ التَّوكيدِ، في قوله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾ التي تُعيِّن المضارعَ للاستقبالِ[(٣)].

- وقوله: ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ تَنكيرُ ﴿بِشَىْءٍ﴾؛ للتَّقليلِ والتَّصْغيرِ[(٤)]، وعَبَّر

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩).

(٤) وقد اختُلِفَ في توجيهِ هذِه الصِّيغةِ التي تُشعِرُ بالتَّقليل والتَّصغيرِ هنا؛ فقِيل: المرادُ بما يُشعِرُ به اللفظُ من التَّقليل والتَّصغيرِ هو أنْ يُعلمَ أنَّ هذا المذكورَ ليسَ بفِتنةٍ مِن الفِتَنِ العِظامِ التي يكونُ التكليفُ فيها صَعبًا شاقًّا، كالابتلاءِ ببَذْلِ الأَرواحِ والأموالِ في الجِهادِ، وإنَّما هو ابتلاءٌ سَهلٌ؛ فتكونُ مِحنةً يَسيرةً؛ تَخفيفًا من اللهِ تعالى ولُطفًا. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤).
وقيل: المرادُ هو التَّنبيهُ على أنَّ جميعَ ما يقَعُ الابتلاءُ به مِن هذه البلايا بَعضٌ مِن كلٍّ بالنِّسبةِ إلى مَقدورِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ جميعَ المحن والأرزاء والبلاء والفِتن ليستْ بالنسبةِ إلى مَقدورِ

بـ﴿مِّنَ﴾ التي للتَّبعيض، أي: بشَيءٍ غيرِ كثيرٍ. وقيل: تَنكيرُ ﴿بِشَيْءٍ﴾ هنا للتنويعِ لا للتَّحقيرِ[(١)].

٢- قَوْلُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لبيانِ الإجمالِ الواقِعِ في قولِه تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ ...﴾[(٢)].

٣- قولُه: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ فيه: إيجازٌ بديع؛ لأنَّ شأنَ جواب الشَّرطِ إذا كان فِعلًا ألَّا تدخلَ عليه الفاءُ الرابطة؛ لاستغنائِه عن الرَّبط بمجرَّدِ الاتِّصالِ الفِعلي، ودخولُ الفاءِ على الفعلِ يقعُ في كلامِهم على خلافِ الغالِبِ؛ لقصدِ الدَّلالةِ على الاختصاصِ، أو التَّقوِّي، والتقدير: (فَهو ينتقمُ الله منه)؛ لقصدِ الاختصاصِ للمبالغةِ في شِدَّةِ ما يناله، حتى كأنه لا يَنالُ غيرَه، أو لقصدِ التقوِّي، أي: تأكيدِ حصولِ هذا الانتقامِ[(٣)].

٤- **قَوْلُه:** ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ تذييلٌ، وفي هذه الجملة تَذكارٌ بنِقَمِ الله وتخويفٌ[(٤)].

الله تعالى سِوى جزءٍ يَسيرٍ، خَليقٌ به أن يُحقَّر ويُصغَّر، وهذِه الصِّيغةُ- التي تُشعِرُ بالتَّقليل والتَّصغيرِ- بعَينِها قدْ وردتْ في الفِتَن العَظيمةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾، ولا خَفاءَ في عِظَم هذه البلايا والمِحن التي يَستحقُّ الصَّابرُ عليها أنْ يُبشَّر؛ لأنَّه صَبَر على عَظيم؛ وإنَّما خاطَب سُبحانَه المؤمنين بهذه الصِّيغةِ تَخفيفًا لهم، وبَعثًا لهم على الصَّبر، وحفزًا لهم على الاحتِمالِ؛ تَلطُّفًا بهم، وتَرفُّقًا بما يُكابدونه منه؛ لأنَّ سَبْقَ التوعُّدِ بذلك لم يكُن إلَّا ليكونوا مُتوطِّنين على ذلك عندَ وقوعِه، فيكون أيضًا باعثًا على تَحمُّلِه؛ لأنَّ مُفاجأةَ المكروهِ بَغتةً أصعبُ، والإنذارَ به قبل وقوعِه ممَّا يُسهِّلُ موقعَه. يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٦٧٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٧-١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢)، ويُنظر أيضًا: ((البرهان)) للزركشي (٢/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥١).

- ولَمَّا كان قاتلُ صيدِ البَرِّ مُنتهكًا لحُرمةِ الإحرامِ والحَرَم، وكان التَّقديرُ: فاللهُ قادرٌ عليه، عَطَفَ على ذلك ما اقتَضاه المقامُ مِن الإتيانِ بالاسمِ العَظيم (اللَّه) ووصْفِ العزَّةِ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[١].

٥- قَوْلُه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ...﴾ استئنافٌ بيانيٌّ نشأَ عن قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾؛ فإنَّه اقتَضى تحريمَ قتْلِ الصَّيدِ على المحْرِم، وجَعَلَ جزاءَ فِعْلِه هدْيَ مِثلِ ما قتَل مِن النَّعَم، فكان السامعُ بحيث يسألُ عن صيدِ البَحرِ؛ فبيَّن اللهُ للناس حُكمَ صيدِ البحرِ وأبقاه على الإباحةِ[٢].

٦- قَوْلُه: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ فيه: زيادةُ تأكيدٍ لتحريمِ الصَّيدِ؛ تصريحًا بمفهومِ قولِه: ﴿لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، ولبيانِ أنَّ مُدَّةَ التحريمِ مُدَّةُ كونِهم حُرُمًا[٣].

٧- قَوْلُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيه: تنبيهٌ وتهديدٌ جاءَ عقيبَ تحليلٍ وتحريمٍ، وناسَب ذِكرُ الحشْر؛ إذ فيه يَظهَرُ مَن أطاع وعصَى[٤]؛ ففي إجراءِ الوَصفِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ وتِلك الصِّلة ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تذكيرٌ بأنَّ المرجِعَ إلى الله؛ ليُعِدَّ الناسُ ما استطاعوا من الطاعةِ لذلك اللِّقاء[٥].

- وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ قدَّم الجارَّ والمجرورِ في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ على عاملِه، وهو قولُه: ﴿تُحْشَرُونَ﴾؛ لفائدتين: فائدة معنويَّة، وفائدة لفظيَّة؛ فالفائدةُ المعنويَّة: الحصرُ، وهذه قاعدةٌ معروفة عند البلاغيِّين

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٧١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٣).

والأصوليِّين: أنَّه إذا قُدِّمَ ما حقُّه التأخيرُ، فإنَّه يُفيد الحصرَ. والفائدةُ اللفظيَّة: مناسبةُ رُؤوسِ الآياتِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٧).

الآيات (٩٧ - ١٠٠)

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿قِيَـٰمًا﴾: أي: قِوامًا لهم، يقومُ به معاشُهم ومعادُهم، ودِينهم ودُنياهم وأمْنُهم، وأصلُ (قوم): مراعاةُ الشيءِ والحفظُ له، والانتصابُ والعزمُ[(١)].

﴿وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾: أي: ما قُلِّد من الهَدْيِ، وكانوا يُقلِّدون البعيرَ مِن لِحاءِ شَجرِ الحرَمِ، فيأمَن بذلك حيثُ سلك، والقَلْد الفَتْل، وأصل (قلد): يدلُّ على تعليقِ شيءٍ على شيءٍ ولَيِّه به، وعلى حَظٍّ وَنَصِيبٍ[(٢)].

﴿يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾: أي: يا أصحابَ العُقولِ السَّليمة، ومفرد ألباب: لُبٌّ، وأصل اللُّبِّ: الخُلوصُ والجودةُ، والشَّيءُ المنتقى[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسمُ إشارةٍ مبنيٌّ في محلِّ رفْعٍ، على أنه خبرٌ لمبتدأٍ محذوف، والتقدير: الأمرُ ذلك، أو الحُكمُ الذي حَكمْناه ذلِك لا غيرُه، أو يكون مبتدأً وخبرُه محذوفٌ، والتقدير: ذلك الحُكمُ هو الحقُّ لا غيرُه. ويجوز أنْ يكون في محلِّ نصْب على أنَّه مفعولٌ به لِفعل مُقدَّر يدلُّ عليه السِّياقُ، وبه تتعَلَّقُ اللَّامُ في﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾، والتقدير: شَرَعْنا ذلِك لتعلموا. وقيل: ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى الجَعْلِ المأخوذِ مِن قَوْلِه:﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ﴾ ولامُ التَّعليل في ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ متعَلِّقَةٌ بـ﴿جَعَلَ﴾، وتوسُّطُ اسمِ الإشارةِ بينهما هنا شَبيهٌ بتوسُّطِ ضَميرِ الفَصْلِ؛ فلذلك كان الكلامُ شَبيهًا بالمستأنَفِ، وليس هو بمُستأنَفٍ، فلم يكُن في هذا الكَلامِ شيءٌ جَديدٌ غيرُ التَّعليلِ، والمعنى: جَعَلَ اللهُ الكعبةَ قيامًا للنَّاسِ؛ لتَعْلَموا أنَّ اللهَ يَعْلَمُ... إلخ[1].

المَعنَى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه جعَل الكعبةَ البيتَ الحرامَ قِوامًا للنَّاس، تقومُ به مَصالحُهم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، وكذلك الشهرُ الحرامُ، والهَديُ الذي يُساقُ إلى الحرمِ من بهيمةِ الأنعامِ؛ وخصوصًا ما يُقلَّد منه، كلُّ ذلك جعَلَه الله ممَّا تقومُ به مصالحُ النَّاسِ؛ ذلك من أجْلِ أنْ يَعلمَ النَّاسُ أنَّه تعالى يَعلمُ ما في السَّموات والأرض، ومِن ذلك عِلمُه بما يَصلُح لعبادِه في دِينهم ودُنياهم، وأنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليمٌ.

ثم خوَّف الله تعالى مِن عقابِه، ورغَّب في ثوابِه، فأمَرَ النَّاسَ أنْ يَعلموا أنَّه

(١) يُنظَر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٣٣) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٩).

عزَّ وجلَّ شديدٌ عِقابُه إذا أَنْزلَه بمَن عصاه، وأنَّه غفورٌ يَستُرُ ذنوبَ مَن تاب إليه، ويَتجاوز عن المؤاخذةِ عليها، رحيمٌ سبحانه بعبادِه.

ثمَّ أخْبَر تعالى أنَّه ما على رسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا أداءُ الرِّسالة التي أُرْسِلَ بها، وأنَّه ما قصَّر في أدائِها، وأنَّ الله تعالى يَعلمُ ما يُعْلِنُ الخَلقُ وما يُسرُّونه، وسيُجازيهم على أعمالِهم.

ثم أمَر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ للنَّاس: إنَّه لا يَستوي الخبيثُ والطيِّب، ولو أُعْجبَ المرءُ بكثرةِ الخبيث، فاتَّقوا اللهَ يا أصحابَ العقولِ السَّليمة؛ لعلَّكم تَظْفَرون بما تَطلبونُه وتَرجُونه، وتنجونَ ممَّا تَحذرونه في دُنياكم وآخِرتِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حرَّم اللهُ تعالى في الآيةِ المتقدِّمةِ الاصطيادَ على الـمُحرِم، وبيَّن أنَّ الحرمَ كما أنَّه سببٌ لأَمْنِ الوحشِ والطير، فكذلك هو سببٌ لأمْن النَّاسِ عن الآفاتِ والمخافاتِ، وسببٌ لحصولِ الخيراتِ والسَّعادات في الدُّنيا والآخِرة[1]، فقال سبحانه:

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾.

أي: صيَّر اللهُ تعالى حرَمَه قِوامًا للنَّاس، تقومُ به مصالحُ دِينهم، من صلاةٍ وحجٍّ وعمرةٍ، وغير ذلك، وتقومُ به أيضًا مصالحُ دُنياهم؛ بما يُجبَى إليها من ثمراتِ كلِّ شيءٍ رزقًا من عند اللهِ تبارَك وتعالى، وبما يَحصُل فيه مِن الأمْنِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٣٩).

وبما يَحصُل فيه مِن اجتماعٍ للمسلمينَ، فيتعارَفون، ويتعاونون، ويتشاورونَ في مصالحِهم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة[١].

﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما به القوامُ من المكان، أتْبعَه ذلِك مِن الزمانِ[٢]، فقال:

﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾.

أي: وصَيَّرَ اللهُ تعالى الأشهُرَ الحُرمَ قِوامًا للناسِ، تقومُ فيها مصالحُهم بما جَعَل الله تعالى فيها من الأمْنِ بتحريمِ القِتال والظُّلمِ فيها[٣].

﴿وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾.

أي: صيَّرَ اللهُ تعالى الهدْيَ الذي يُهدَى إلى الحرمِ مِن إبلٍ أو بقرٍ أو غنمٍ تقرُّبًا إلى اللهِ تعالى، والقلائدَ- وهي الهَدْيُ الذي تُجعَلُ له قلائدُ في عُنقه؛ إظهارًا لشعائرِ الله تعالى، ولغيرِ ذلِك من أسباب[٤] - صيَّرها الله سبحانه قِوامًا للنَّاس في دِينِهم بالثوابِ الذي يَنالونه مِن الله تعالى، وفي دُنياهم بالبيعِ والشِّراءِ والأكْل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥-٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٧، ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٧-٤١٨، ٤٢١-٤٢٢).

قال ابن عطية: (والشَّهْر هنا اسمُ جنسٍ، والمرادُ الأشهرُ الثلاثةُ بإجماعٍ مِن العربِ، وشهرُ مُضَر وهو رجبٌ) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٨).

والانتفاعِ بالجلودِ، وغير ذلك[١].

﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: إنَّ تصييرَه سبحانه الكعبةَ البيتَ الحرامَ والشَّهرَ الحرامَ والهديَ والقلائدَ قيامًا لكم- أيُّها الناس- كي تَعلموا أنَّ الله سبحانه يَعلمُ جميعَ ما في السَّموات وجميعَ ما في الأرض، ومِن ذلك عِلمُه بما يَصلُحُ لكم مِن مصالحَ دِينيَّةٍ ودُنيويَّة[٢].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: ولِتَعلموا أيضًا أنَّه لا يَخفى عليه شيءٌ، ومِن ذلك أعمالُكم، فيُجازيكم بها[٣].

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنواعَ رَحمتِه بعِبادِه، ذكَر بعدَه أنَّه شديدُ العِقاب؛ لأنَّ الإيمانَ لا يتمُّ إلَّا بالرَّجاء والخوف، ثم ذكَر عَقيبَه ما يدلُّ على الرحمةِ، وهو كونُه غفورًا رحيمًا، وذلك يدلُّ على أنَّ جانبَ الرَّحمة أغلبُ؛ لأنَّه تعالى ذَكَر فيما قَبلُ أنواعَ رحمتِه وكرمِه، ثم ذكَرَ أنَّه شديدُ العقابِ، ثم ذكَرَ عقيبه وصْفَينِ من أوصافِ الرَّحمةِ، وهو كونه غفورًا رحيمًا[٤]، قال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤١).

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾.

أي: اعْلموا- أيُّها الناس- أنَّ ربَّكم شديدُ الأخْذِ بالذنبِ إذا عاقَب مَن عصاه[١].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

أي: واعْلَموا أيضًا أنَّه يَستُر ذُنوبَ مَن تاب إليه مِن عِبادِه، ويتجاوزُ عن مؤاخذتِه بها، رحيمٌ سبحانه، ومِن رحمتِه بعبادِه أنَّه لا يُكلِّفهم ما يشقُّ عليهم، وأنَّه يقبلُ توبتَهم إذا تابوا إليه[٢].

﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا تقدَّم الترغيبُ والترهيبُ أخبَر تعالى أنَّه كلَّف رسولَه بالتبليغِ، وهو توصيلُ الأحكامِ إلى أُمَّته، وهذا فيه تشديدٌ على إيجابِ القيامِ بما أمَر به تعالى، وأنَّ الرَّسولَ قد فرَغ ممَّا وجَب عليه مِن التبليغِ، وقامتْ عليه الحجَّةُ، ولزِمتْكم الطاعةُ، فلا عذرَ لكم في التفريطِ[٣].

﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾.

ليسَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الذي أرْسلناه إليكم- أيُّها الناسُ- سوى أداءِ رِسالتِنا إليكم، وأمَّا ما عدَا ذلك فليس له مِن الأمرِ شيءٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١-١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٨).

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾.

أي: إنَّ أعمالَكم ليستْ مُوكَلةً إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنَّما الذي يُجازيكم بها هو اللهُ تعالى وحْدَه، الذي يَعلمُ جميعَ ما تُظْهرونَه، وجميعَ ما تُخفونه[1].

﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠٠ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا زجَر عن المعصيةِ ورغَّب في الطَّاعة بقولِه: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾، ثم أتْبعَه بالتكليفِ بقولِه: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾، ثمَّ أتْبعَه بالتَّرغيبِ في الطاعةِ والتنفيرِ عن المعصيةِ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾، أتْبعَه بنوعٍ آخَرَ من الترغيبِ في الطاعةِ والتنفيرِ عن المعصيةِ[2]، فقال ﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ... ﴾.

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّ عقابَه شديدٌ لِمَن عصَى، وأنَّه غفورٌ رحيمٌ لِمَن أطاع؛ بيَّن أنَّه لا يستوي المطيعُ والعاصي، وإنْ كان من العُصاةِ والكفَّار كثرةٌ؛ فلا تَمنعُه كثرتُهم من عقابِهم[3]، فقال تعالى:

﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّد- للنَّاس: لا يَستوي الخبيثُ والطيِّب من كلِّ شيءٍ؛ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٩-٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٧٥).

أشخاصٍ وأعمالٍ وغيرِ ذلك، فلا يَستوي المؤمنُ والكافرُ، ولا تَستوي الطاعةُ والمعصيةُ، ولا يَستوي الحلالُ والحرام[١].

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾.

أي: فلا تَعجبنَّ - أيُّها الإنسانُ - مِن كثرةِ الخبيث مِن أيِّ شيءٍ كان، فلا تُعجبْك كثرةُ مَن يَعصي الله؛ فإنَّ الفلاحَ لأهلِ الطاعةِ وإنْ قلُّوا، والقليلُ الحلالُ النافع خيرٌ من الكثيرِ الحرام الضارِّ[٢].

قال تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: يا أصحابَ العقولِ الصَّحيحةِ الرَّاشدة، اتَّقوا اللهَ سبحانه بامتثالِ ما أمرَكم به، واجتنابِ ما نهاكم عنه؛ كي تَظفَروا بما تَأمُلون، وتَنجُوا ممَّا تَحذرون في الدُّنيا والآخِرة[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١ - إثباتُ الحِكمةِ في أحكامِ الله عزَّ وجلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ﴾، واللامُ هنا للتعليلِ، ومِن أسماءِ الله تبارك وتعالى: الحكيم، وهو الذي يَضعُ الأشياءَ في مواضعِها، ويتفرَّع على هذه الفائدةِ العظيمة: أنْ نُؤمِن بأنَّ كلَّ ما شرَعه الله

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٣-٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢-١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٤-٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٥-٤٣٦).

أو فَعَلَه الله فهو لحِكمةٍ، وحينئذٍ لا يَلْزَمُنا أن نَبحثَ عن الحِكمةِ، أو نتمحَّلَ حِكمةً بَعيدةً قد تكون غيرَ مرادةٍ لله عزَّ وجلَّ، إنْ تَبيَّنتْ لنا الحكمةُ بسُهولة، فلا شكَّ أنَّ هذا مِن نِعمةِ الله، ويَزيد الإنسانَ طُمأنينةً، وإنْ لم تَتبيَّن فإنَّنا نعلمُ أنَّها لحكمةٍ، لكنَّ عُقولَنا قاصرةٌ عن إدراك حِكمةِ الله عزَّ وجلَّ في كلِّ ما شرَع[١].

٢- الحثُّ على معرفةِ صِفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾، فينبغي البحثُ عن صِفاتِ اللهِ تبارَك وتعالى، سواءٌ الصِّفاتُ التي ليس لها أسماءٌ، أو الصِّفات التي تَتضمَّنها الأسماءُ؛ لأنَّه كلَّما ازدادتْ المعرفةُ بأسماءِ الله وصِفاته ازداد اليقين[٢].

٣- التَّحذيرُ مِن مخالفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتَرْكِ مراقَبَتِه سبحانه؛ وَجْهُه: إثباتُ العِلم في قولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يَهمُّ بمعصية، سواء كانتْ ترْكَ واجبٍ، أو فِعلَ مُحرَّمٍ إذا أَيقنَ أنَّ اللهَ عالمٌ به، فإنَّه يَخافُ ويُمسِك[٣].

٤- في قولِه تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يأمُر الله عِبادَه أنْ يكونَ هذان العِلمانِ موجودَينِ في قُلوبهم على وجهِ الجزم واليقين، فيَعلموا أنَّه شديدُ العقابِ العاجِلِ والآجِل على مَن عصاه، وأنَّه غفورٌ رحيمٌ لِمَن تاب إليه وأطاعَه، فيُثمِرَ لهم هذا العلمُ الخوفَ من عِقابِه، والرَّجاءَ لمغفرتِه وثوابِه، فيَعملوا على ما يَقتضيه الخوفُ والرَّجاء[٤].

٥- ممَّا يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أنَّ أهل العِلم الذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥).

هم وَرَثةُ الأنبياء إذا بَلَّغوا بَرِئتْ ذِمَّتُهم[١].

٦- أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أن يَعتبرَ أو يغترَّ بالكثرةِ، وإنَّما يَعتبر بالكيفِ لا بالكمِّ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾[٢].

٧- تفريعُ قَوْلِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ على ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّ اللهَ يُريد منَّا إعمالَ النَّظَرِ في تمييزِ الخبيثِ مِن الطيِّب، والبحثَ عن الحقائِقِ، وعدمَ الاغترارِ بالمظاهرِ الخلَّابة الكاذِبة؛ فإنَّ الأمرَ بالتقوى يستلزمُ الأمرَ بالنظر في تمييزِ الأفعالِ؛ حتى يُعرفَ ما هو تقوى دون غيرِه[٣].

٨- خَصَّ أُولي الألبابِ بالذِّكر في آخِرِ الآية في قولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بعدَ مخاطبةِ كلِّ مُكلَّفٍ في صدرِها؛ لأنَّ أهلَ البصيرةِ والرَّويَّةِ من العقلاءِ هم الذين يَعتبِرون بعواقبِ الأمورِ التي تدلُّ عليها أوائلُها ومُقدِّماتُها، بعد التأمُّلِ في حقيقتِها وصِفاتها، فلا يُصرُّون على الغرورِ بكثرةِ الخبيثِ بعدَ التنبيهِ والتَّذكيرِ، وأمَّا الأغرارُ والغافلون الذين لم يُمرِّنوا عقولَهم على الاستقلالِ في النَّظر، والاعتبارِ بالتجارِب، فلا يُفيدُهم وعظُ واعظٍ، ولا تذكيرُ مُذكِّر، بل لا يَعتبِرون بما يَرون بأعينِهم، ويَسمعون بآذانِهم من حوادثِ الأغنياءِ الذين ذهبَتْ أموالُهم الكثيرةُ المجموعةُ من الحرامِ، ولا مِن عواقبِ الأُممِ والدُّول التي اضمحلَّتْ كثرتُها العاطلةُ مِن فضيلتَي العلمِ والنِّظامِ، وكيف ورِثَ هؤلاء وأولئك مَن كانوا أقلَّ مالًا ورجالًا؛ إذ كانوا أفضلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦٤).

أخلاقًا وأعمالًا؛ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١] [الأعراف: ١٢٨].

٩- أنَّ الذين يُخاطَبون بالتَّقوى وبمِثل هذه الأحكامِ العظيمةِ هم أصحابُ العقولِ؛ لِقَوْلِه: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، والمرادُ بالعقولِ هنا: عقولُ الرُّشْد لا عقولُ الإدراك[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ...﴾ تعظيمُ شأنِ الكعبة، حيث جعَلها قيامًا للنَّاسِ، تقوم بها أمورُ دِينهم ودُنياهم، هذه الكعبةُ التي حُرِّمت أرضُ الحَرَمِ لأجْل تعظيمِها، ويُستفادُ أيضًا التذكيرُ بنعمة الله على سُكَّانه بما جعَل لهم من الأمْنِ في عَلائقِها وشعائرِها[٣].

٢- كانتِ الكعبةُ قِيامًا للناسِ وهم العربُ؛ إذ كانتْ سببَ اهتدائِهم إلى التوحيدِ واتِّباع الحَنِيفيَّة، واستبْقَتْ لهم بقيَّةً من تلك الحنيفيَّة في مُدَّة جاهليَّتِهم كلِّها، لم يَعْدَموا عوائدَ نفْعِها، فلمَّا جاء الإسلامُ كان الحجُّ إليها من أفضلِ الأعمال، وبه تُكفَّرُ الذنوبُ، فكانتِ الكعبةُ من هذا قيامًا للنَّاس في أمورِ أُخراهم بمقدارِ ما يَتمسَّكون به ممَّا جُعِلَتِ الكعبةُ له قيامًا؛ قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[٤].

٣- في قولِه تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ ناسَب ذِكرُ اللهِ تعالى أنَّه جعَلَ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قِيامًا للناس ذِكْرَ الشَّهرِ الحرامِ والهَدْيِ والقلائِد؛ لأنَّ هذه الثلاثةَ إنَّما صارتْ سببًا لِقِوامِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٤) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٨).

المعيشة؛ لانتسابِها إلى البيتِ الحرام، فكانَ ذلك دليلًا على عَظمةِ هذا البيتِ وغايةِ شَرفِه[١].

٤- في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ خصَّ اللهُ القلائدَ بالذِّكر هنا، ووجْهُ تخصيصِها- وإنْ كانتْ هي مِن أقلِّ آثارِ الحجِّ- التنبيهُ على أنَّ جميعَ علائقِ الكعبةِ فيها قيامٌ للنَّاس، حتى أدْنَى العلائِقِ، وهي القلائدُ، فكيف بما عَداها؛ ولأنَّ القلائدَ أيضًا لا يخلو عنها هديٌ مِن الهدايا[٢].

٥- تعظيمُ الأشهرِ الحُرم؛ لِقَوْلِه: ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ وأنَّها قيامٌ للناس، وتعظيمُها جاءَ في القرآن والسُّنة؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦]، وكذلك جاءَ في السُّنة، كما قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُقرِّرًا ذلك: ((إنَّ دِماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حَرامٌ كحُرْمةِ، يَومِكم هذا في، شَهرِكم هذا، في بلدِكم هذا))[٣].

٦- تعظيمُ الهدْي والترغيبُ فيه؛ لِقَوْلِه: ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ يعني: أنَّ الله جعَلَه قيامًا للناس، والهَدْيُ غيرُ مرتبطٍ بالنُّسُك؛ إذ يجوزُ للإنسان أن يَبعثَ الهديَ إلى مكَّة وإنْ كان في بلدِه، كما كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَفعلُ[٤].

٧- مشروعيَّة القلائِد؛ لِقَوْلِه: ﴿وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ وجه ذلك: أنَّ فيها إظهارًا لشعائرِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ كلَّ مَن رأى هذه النَّعَمَ المقلَّدةَ، عرَف أنَّها هديٌ، فعظَّمها

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٠، ٤٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٨، ٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢١).
والحديث أخرجه البخاري (٧٠٧٨) ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٣).

واحترَمَها[١].

٨- تَكرارُ الثَّناء على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الله كرَّر عمومَ عِلمه بقولِه: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ثم أكَّد العمومَ بما هو أعمُّ بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾؛ لأنَّ هذا يعمُّ ما في السَّموات وما في الأرض ممَّا يكون بعدَ فَناءِ السَّماء والأرض[٢].

٩- قال تعالى هنا: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وقال في موضعٍ آخر: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحِجْر: ٤٩-٥٠]؛ فجَعَل الرحمةَ صِفةً له مذكورةً في أسمائِه الحُسنى، وأمَّا العذابُ والعقابُ، فجَعَلَهما من مَفعولاتِه غيرَ مَذكورَينِ في أسمائِه[٣].

١٠- لَمَّا ذَكَر تعالى أنواعَ رحمتِه لعبادِه، ذكَر بعدَه شِدَّة العقابِ فقال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ لا يتمُّ إلَّا بالرَّجاءِ والخوفِ[٤].

١١- أنَّه ليس على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُجبِرَ الناسَ على أنْ يَهتدوا؛ لِقَوْلِه: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾، ويُؤيِّد هذا آياتٌ كثيرةٌ؛ منها: قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[٥] [يونس: ٩٩].

١٢- قَوْلُه: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ بيانٌ لوظيفةِ الرَّسول في إثرِ بيانِ كونِ الجزاءِ بيدِ اللهِ العليم بكلِّ شيء، فالرسولُ من

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٤).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٤٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٠).

حيثُ هو رسولُ الله، ليس عليه إلَّا تبليغُ رسالةِ مَن أرسله؛ فهو لا يعلمُ جميعَ ما يُبديه المكلَّفون من الأعمالِ والأقوالِ، وما يَكتُمونه منها، فيكون أهلًا لحِسابِهم وجزائِهم على أعمالِهم، وإنَّما يعلم ذلك اللهُ وحْدَه[١].

١٣- الردُّ على الجبريَّة الذين يقولون: إنَّ الإنسانَ ليس له إرادةٌ، وهذا مأخوذٌ مِنْ قَوْلِه: ﴿تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾؛ فالإنسانُ يُريد أن يُبْديَ، ويُريد أن يَكتُم، وهذا هو إثباتُ الإرادةِ للعَبدِ[٢].

١٤- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ أنَّه لا يستوي الخبيثُ والطيِّبُ عند اللهِ عزَّ وجلَّ ولا عندَ أصحابِ العُقول، وهذا في مراتبِهم عندَ الله، وعند ذوي العُقول، أمَّا فيما يَعملون من أمورِ الدُّنيا، فإنَّه قد يكونُ الخبيثُ أكثرَ من الطَّيِّب عملًا، كما هو مُشاهَدٌ الآن؛ فإنَّ الدولَ الكافرةَ أقدمُ مِن الدُّوَل المسلِمة فيما يتعلَّق بأمورِ الدنيا[٣].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قَوْلُه**: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه يَحصُل به جوابٌ عمَّا يَخطُر في نفْس السَّامعِ مِن البحثِ عن حِكمةِ تحريم الصَّيدِ في الحرم، وفي حالِ الإحرام، بأنَّ ذلك من تعظيمِ شأنِ الكعبةِ التي حُرِّمتْ أرضُ الحَرَم لأجْل تَعظيمها، وتذكيرٌ بنعمة الله على سُكَّانه بما جعَلَ لهم من الأمْن في علائقِها وشعائرِها[٤].

- وقوله: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ بيانٌ للكعبة؛ قُصِد من هذا البيان التنويهُ والتعظيمُ؛

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٤-٥٥).

إذ شأنُ البيانِ أن يكونَ مُوضِّحًا للمبيَّن بأنْ يكون أشهرَ مِن المبيَّن، ولَمَّا كان اسمُ الكعبةِ مساويًا للبيت الحرامِ في الدَّلالةِ على هذا البيت، فقد عبَّر به عن الكعبةِ في قوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، فتعيَّن أنَّ ذِكرَ البيانِ للتَّعظيم[١].

٢- قَوْلُه: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾

- قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ...﴾ مرتبطٌ بالكلامِ الذي قبْلَه بواسطة لام التَّعليل في قوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ﴾، وتوسُّط اسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ بين الكلامَين؛ لزيادةِ الرَّبطِ، مع التنبيهِ على تعظيمِ المشارِ إليه، وهو الجَعْلُ المأخوذ مِنْ قَوْلِه: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ﴾[٢].

- وقَوْلُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه تعميمٌ إثْرَ التَّخصيصِ الذي في قولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ للتأكيدِ[٣]، مع مَا فيه مِن تأكيدِ الخبرِ بـ (أنَّ) واسميَّة الجُملة.

٣- قَوْلُه: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، وتذييلٌ لِمَا سبَق من حظْر الصَّيد للمُحرِم وإباحةِ صيدِ البحرِ، والامتنانِ بما جَعَل للكعبةِ مِن النِّعم عليهم، وافتتاح الجُملة بـ﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾ للاهتمامِ بمضمونها[٤].

- وفيه: وعيدٌ لِمَن انتهك محارِمَه أو أصرَّ عليها، ووعدٌ لِمَن أقْلعَ عنه[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤٤).

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾، وقال في موضعٍ آخر: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]، وبَينهما فرقٌ؛ فهذه الآية هنا ذُكرتْ عقيبَ أحكامٍ عظيمة قد يُخلُّ بها المرءُ؛ فقُدِّم فيها جانبُ التَّهديدِ، وأمَّا في آية الحِجر؛ فقولُه: ﴿نَبِّئۡ﴾ أمرٌ من الله إلى الرسولِ بأنْ يُنبِّئَ الخلقَ، وقدَّم الوصفَ بالمغفرةِ والرَّحمةِ على العذابِ الأليم؛ لأنَّ المقصودَ الإخبارُ عن صفةِ الله عزَّ وجلَّ، فقدَّم الجانبَ الذي فيه اللُّطفُ والإحسان[1].

٤- قَوْلُه: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾

جملةٌ معترِضة ذُيِّل بها التعريضُ بالوعيدِ والوعْد، والقَصرُ المستفاد هنا من (ما) و(إلَّا) ليس بحقيقيٍّ؛ لأنَّ على الرسولِ أمورًا أُخَرَ غير البَلاغ مثل التعبُّد لله تعالى، والخروجِ إلى الجهاد، والتكاليفِ التي كلَّفه الله بها، مِثْل قيامِ اللَّيل؛ فتعيَّن أنَّ معنى القصر: ما عليه إلَّا البلاغ، أي: دون إلجائِكم إلى الإيمانِ؛ فالقصرُ إضافيٌّ، فلا يُنافي أنَّ على الرسولِ أشياءَ كثيرةً[2].

٥- قَوْلُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾ فيه: تعريضٌ بالوعيدِ والوعد؛ تذكيرًا بأنَّه لا يَخفَى عليه شيءٌ من أعمالِهم؛ ظاهرِها وباطِنها؛ ففيه تهديدٌ بأنَّه تعالى مُطَّلِع على حالِ العبدِ ظاهرًا وباطنًا؛ فهو مُجازيه على ذلِك ثوابًا أو عقابًا، والمقصودُ مِنْ قَوْلِه: ﴿مَا تُبۡدُونَ ﴾ التَّعميمُ والشُّمول[3]، وهو تحذيرٌ للمُبَلَّغِينَ من المخالفةِ؛ فإنَّ إخبارَه بعِلمه بعدَ أنْ قال: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ فيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦١-٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦١-٦٢).

التهديدُ والوعيدُ على مَن خالَفَ[١].

٦- قَوْلُه: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾: تصديرُ الحُكم بـ ﴿قُل﴾ يدلُّ على العنايةِ به؛ وذلك لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كان مأمورًا أن يقولَ جميعَ القرآنِ للنَّاس ويُبلِّغه، لكن إذا نُصَّ على شيءٍ معيَّنٍ، دلَّ هذا على أخصِّيَّتِه؛ فهو كالتَّخصيصِ بعدَ التَّعميم[٢].

- ولعلَّ نكتةَ تقديمِ الخبيثِ في الذِّكْرِ هي كونُ السِّياقِ للاهتمامِ بإزالةِ شُبهة المغترِّينَ بكثرتِه؛ ولذلك قال: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٠٣).

الآيات (١٠١ - ١٠٥)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَسُؤْكُمْ﴾: أي: تَحْزُنْكم وتَغُمَّكم، والسوءُ مصدرُ ساء، وهو اسمٌ جامعٌ للآفات، ويُستعملُ في كلِّ ما يُستقبَحُ، وهو أيضًا كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ[1].

﴿بَحِيرَةٍ﴾: هي الناقةُ التي إذا نُتِجتْ خَمسةَ أَبطُنٍ شقُّوا أُذُنَها، وحُرِّمتْ على النِّساءِ، ويُمنَح دَرُّها للطواغيتِ؛ فلا يَحْلُبها أحدٌ مِن النَّاس، والبَحيرة الفَعيلةِ، مِن قول القائل: بحرتُ أُذن هذه النَّاقةِ إذا شَقَّها، وأصل (بحر): يدلُّ على الانبساطِ والسَّعَة[2].

﴿سَآئِبَةٍ﴾: السَّائبةُ هي الأُنثَى من النَّعَم الَّتي كان يُسيِّبُها الكُفَّارُ لطَواغيتِهم؛

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٨).

فلا يُحمَل عليها شيءٌ، أو التي تُسيَّب في المرعَى؛ فلا تُردُّ عن حَوضٍ ولا عَلفٍ، وكان الواحدُ مِنهم يُسيِّبها بنَذْرٍ؛ إنْ سُلِّم مِن مَرضٍ، أو بُلِّغ مَنزلَه أنْ يَفعَلَ ذلك، وأصل (سيب): يدلُّ على استِمرارِ شيءٍ وذَهابِه[1].

﴿وَصِيلَةٍ﴾: الوَصيلةُ هي: الأُنثى من النَّعَمِ إذا ولَدَتْ سَبعةَ أَبطُنٍ، نظَروا؛ فإنْ كان السَّابعُ ذَكَرًا ذُبِح، فأَكَل مِنه الرِّجالُ والنِّساءُ، وإنْ كان أُنثى تُرِكتْ، وإنْ كان ذَكرًا وأُنثى قالوا: قد وَصَلَتْ أخاها، فلم تُذبَح بَدَفْعِها عنه الذَّبحَ، وكانتْ لحومُها حَرامًا على النِّساءِ، ولبَنُ الأُنثى حَرامًا على النِّساءِ إلَّا أنْ يَموتَ منهما شيءٌ فيأكلَه الرِّجالُ والنِّساءُ[2].

﴿حَامٍ﴾: الحامِي هو: الفَحلُ من النَّعَمِ إذا نُتِجَ مِن صُلبِه عَشرة أبطُنٍ، كان يُقال: حمَى ظَهرَه؛ فيَتركونَه للطَّواغيتِ، ويُحمَى مِن الحَمْلِ والرُّكوبِ عليه والانتفاعِ به؛ بسَببِ تتابُعِ الأولادِ مِن ضِرابِه، وأصل (حمي) يدلُّ على الدَّفْعِ والمَنْعِ[3].

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهَى اللهُ عِبادَه المؤمنين عن السُّؤالِ عن أشياءَ لو بانَ لهم جوابُها لساءَهم ذلك، وشقَّ عليهم، ولكنَّهم إنْ سألوا عن أشياءَ بعدَ نُزولِ القرآنِ عليهم بها، فهنا قدْ وافَق سؤالُهم مَحلَّه، فيُبيَّن لهم ما سَألوا عنه، والله تعالى قد عفا عمَّا كان مِن

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٨).

مسألتِهم قبلَ النَّهي؛ فهو سبحانه غفورٌ حليمٌ.

ثم أَخبر تعالى أنَّه قد كان أناسٌ ممَّن سَبَقوا سألوا هذه المسائلَ المنهيَّ عنها، فأُجيبوا عنها، لكنَّهم أصْبَحوا بسببِ الخوضِ فيها، والتفتيشِ عنها كافرينَ.

ثم نفَى اللهُ أن يكونَ أَذِنَ في شيءٍ ممَّا يفعله الكفَّارُ بالأنعامِ ممَّا ابتدعوه، فهو سبحانه لم يَشْرَع لهم البحيرةَ ولا السَّائبةَ ولا الوصيلةَ ولا الحامِيَ، وهي حيواناتٌ حرَّم أهلُ الجاهليةِ أكلَها والانتفاعَ بها مِن عندِ أنفسِهم بدونِ علمٍ أو برهانٍ، فهؤلاء الكفَّار يَفْترون على الله الكذبَ، وأكثرُهم لا يعقلون.

وإذا ما قيل لهؤلاء الكفَّارِ: تعالَوا إلى كتابِ اللهِ وإلى رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ليتَّضحَ لكم دِينُ الله ويتبيَّن لكم شَرْعُه، كان جوابُهم أنَّهم يَكفيهم ما وَجدوا عليه آباءَهم من قبلُ، وكيف يكون ذلك مع أنَّ آباءَهم جَهَلةٌ لا يَعلمون شيئًا، وضُلَّالٌ لا يهتدونَ؟!

ثم يُبيِّن الله لعبادِه المؤمنين أنَّهم إنِ استقاموا كما أُمِروا، فإنَّه لا يَضرُّهم مَن سَلَك سبيلَ الضلالةِ؛ فإليه سبحانه وتعالى مرجعُهم، فيُخبرهم بما كانوا يَفعلون.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ صارَ التقديرُ كأنَّه قال: ما بلَّغه الرسولُ إليكم فخُذوه، وكونوا مُنقادِين له، وما لم يُبلِّغْه الرسولُ إليكم فلا تَسْألوا عنه، ولا تَخوضوا فيه؛ فإنَّكم إنْ خُضْتُم فيما لا تَكليفَ فيه عليكم فربَّما جاءَكم

بسببِ ذلك الخوضِ الفاسدِ من التكاليفِ ما يَثقُل عليكم ويشُقُّ عليكم[١].

سَببُ النُّزولِ:

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((بلَغ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن أصحابِه شيءٌ، فخَطَب فقال: عُرِضَتْ عليَّ الجَنَّةُ والنار، فلمْ أرَ كاليومِ في الخيرِ والشرِّ، ولو تَعلمونَ ما أعلمُ لضَحِكتُم قليلًا ولبَكَيتُم كثيرًا! قال: فما أتَى على أصحابِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومٌ أشدُّ منه، قال: غطَّوْا رُؤوسَهم ولهم خَنينٌ[٢]، قال: فقام عُمَرُ فقال: رَضِينا باللهِ ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمَّدٍ نبيًّا. قال: فقام ذاك الرجلُ، فقال: من أبي؟ قال: أبوك فلان. فنزَلَت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠١]))[٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾.

أي: لا تَسألوا -أيُّها المؤمنون- عن أشياءَ لو أُظْهِر جوابُها لكم لساءَكم وشقَّ عليكم[٤].

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٣).

(٢) الخَنين: نوعٌ مِن البكاء دون الانتحابِ، وأصلُ الخَنين خروجُ الصوتِ من الأنف، كالحنين مِن الفمِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ٢١٠٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٨٥).

(٣) رواه البخاري (٧٢٩٥)، ومسلم (٢٣٥٩) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٣، ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٧-٤٣٨).

وهذه الأشياء التي نُهي المسلمون عن سؤالها تَشملُ أمورًا عديدة؛ منها: سؤال بعض المسلمين لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن آبائِهم، وعن حالهم أفي الجنَّة هم أم في النار؟ وكالسؤال عمَّا لا يَعني وكالسؤال عمَّا سكَتَ عنه الشرع، وما يُخشَى أن يكون السؤالُ عنه سببًا لنزول التَّشديد فيه، إلى غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣، ٢٣)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٢٤٠-٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٧-٤٣٨).

((أيُّها النَّاسُ، قد فَرَض اللهُ عليكم الحجَّ فحُجُّوا، فقال رجلٌ: أكُلَّ عامٍ يا رسولَ اللهِ؟ فسكَت، حتى قالها ثلاثًا، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: لو قلتُ: نعمْ، لوجبَت، ولَمَا استطعتُم، ثم قال: ذَروني ما تركتُكم؛ فإنَّما هلَك مَن كان قبلكم بكثرةِ سؤالِهم واختلافِهم على أنبيائِهم، فإذا أمرتُكم بِشَيءٍ فَأْتُوا منهُ ما استطعتُم، وإذا نهيتُكم عن شيءٍ فدَعوهُ))[١].

وعن سَعدِ بن أبي وقَّاصٍ رضِي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ أعظمَ المسلِمين في المسلِمين جُرمًا: مَن سألَ عن شيءٍ لم يُحرَّم على المسلمينَ، فحُرِّم عليهم مِن أجْلِ مسألَتِه))[٢].

﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا منَع اللهُ تعالى من السُّؤال في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، أوْهَم اللفظُ أنَّ جميعَ أنواعِ السؤالِ ممنوعٌ منه، فأتْبعَه بما ليس داخلًا في النهي[٣]، فقال تعالى:

﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾.

أي: ولكنَّكم إنْ سألتُم عن أشياءَ بعدَ نُزولِ القرآنِ عليكم بها، كالسُّؤالِ عن آيةٍ أَشكلتْ، أو حُكمٍ خَفِيَ وجهُهُ عليكم وغير ذلك، فهنا قدْ وافَق سؤالُكم مَحلَّه، فيُبيَّن لكم ما سَألتم عنه[٤].

---

(١) رواه مسلم (١٣٣٧).

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٤- ٤٤٥)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٥٠).

(٤) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ، والواحديِّ، والقرطبيِّ، وابنِ رجبٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣٣٣-

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَا﴾.

قيل: المعنى: عفا الله عمَّا كان منكم مِن سؤالٍ عن تلك الأشياءِ التي نهاكم اللهُ تعالى عن السُّؤال عنها، فلا يُعاقِبُكم عليها(١).

وقيل: المرادُ أنَّ اللهَ تعالى وإنْ نهاكم عن المسألةِ إلَّا أنَّه عفا عنكم السؤالَ حين يَنزِلُ القرآنُ، فأذِنَ لكم بذلك(٢).

وقيل: المرادُ أنَّ ما لم يَذكُرْه الله تعالى في كتابِه فهو ممَّا عفا عنه، وأباحه لكم؛ فاسكُتوا أنتم عنه كما سكَتَ عنه سبحانه(٣).

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾.

أي: واللهُ تعالى غفورٌ يستُر ذُنوبَ عِبادِه، ويتجاوَزُ عن مؤاخذتِهم بها، وهو الحليمُ سبحانه فلا يُعاجِلُ عِبادَه بالعقوبةِ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٥](٤).

﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢﴾.

أي: قد سألَ هذه المسائلَ المنهيَّ عنها أناسٌ سَبقوكم، فأُجيبوا عنها لكنَّهم لم يُؤمنوا بها، ولم يَعمَلوا بها؛ لأنَّهم لم يَسألوا عنها على وجهِ الاسترشادِ، بل

---

٣٣٤)، ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٢٤٠-٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥).
وممَّن قال مِن السَّلف بنحو هذا: ابن عبَّاس رضي الله عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥).

(١) وهذا اختيارُ ابن جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٢٥)، والواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٣٣٧).

(٢) وهذا اختيارُ ابنِ عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ٦٨).

(٣) وهذا اختيارُ ابن كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٢٠٧)، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٤٦)، وابنِ عُثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٩).

على وجهِ التعنُّتِ والعِناد، فصاروا بسببِها كفَّارًا[١].

عن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ذَروني ما تركتُكم؛ فإنَّما هلَك مَن كان قَبلَكم بكثرةِ سؤالِهم واختلافِهم على أنبيائِهم، فإذا أمرتُكم بشيءٍ فأتُوا منهُ ما استطعْتُم، وإذا نهيتُكم عن شيءٍ فدَعُوه))[٢].

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا منَع اللهُ تعالى الناسَ مِن البَحثِ عن أمورٍ لم يُكلَّفوا بالبحْثِ عنها، كذلك منَعَهم من التزامِ أُمورٍ لم يُكلَّفوا بالتزامِها، ولَمَّا كان الكفَّارُ يُحرِّمونَ على أنفسهم الانتفاعَ بهذه الحيوانات، وإنْ كانوا في غايةِ الحاجةِ إلى الانتفاعِ بها؛ بَيَّن الله تعالى أنَّ ذلك باطلٌ[٣]، فقال تعالى:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾.

أي: لم يأذنِ اللهُ تعالى مطلقًا بأنْ يُفعَل بالأنعامِ شيءٌ ممَّا ابتدَعَه الكفَّار، فلم يَشرَعْ لهم البحيرةَ: وهي ناقةٌ يشقُّون أُذُنها، ثم يُحرِّمون رُكوبَها ويَرَونَها محترَمَةً. ولا السَّائبةَ: وهي ناقةٌ، أو بقرةٌ، أو شاة، تُسيَّب وتُخلَّى؛ فلا تُركَبُ ولا يُحمَل عليها، ولا تُؤكَل ولا يُنتفَع منها بشيءٍ. ولا الوصيلةَ: وهي التي تُحرَّم أو تُجعل لآلهتهم. ولا الحاميَ: وهو جملٌ يُحمَى ظهرُه عن الركوب والحَمْل[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦).

(٢) رواه مسلم (١٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩-٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٠-٤٥١).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾.

أي: لم يَشرعِ اللهُ هذه الأشياءَ، وليستْ هي عندَه بقُربةٍ، ولكن الكُفَّار هم الذين يَفعلون ذلك بغيرِ دليلٍ، ويَفتُرون على اللهِ تعالى الكَذِبَ(١).

﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

أي: وأكثرُ هؤلاءِ الكفَّار لا يَملِكون عَقْلًا صحيحًا راشدًا، وإنَّما يَنساقونَ إلى تلك الشرائعِ الباطلةِ بجهلِهم، متَّبعين في ذلك أكابرَهم(٢).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حرَّموا هذه الأشياءَ مِنْ قَوْلِه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٍ﴾ اضطُرُّوا إلى تحليلِ المَيتةِ، فحرَّموا الطيِّبَ، وأحلُّوا الخبيثَ! ولَمَّا اتَّخذوه دِينًا، واعتَقدُوه شَرعًا، ومضَى عليه أسلافُهم، دَعَتْهم الحظوظُ والأَنَفَةُ من نِسبةِ آبائهم إلى الضَّلالِ، والشهادةِ عليهم بالسَّفهِ إلى الإصرارِ عليه، وعَدَمِ الرجوعِ عنه بعدَ انكشافِ قبحِه، وبيانِ شناعتِه، فقال تعالى دالًّا على خِتام الآية التي قَبْلها مِن عَدَمِ عَقْلِهم(٣):

وفي تفصيل معنى البَحِيرَة والسائِبَة والوَصِيلَة والحَامي، ومتى تسمَّى كلُّ واحدة بذلك يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٩٢-٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٨-٢١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٦، ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥١-٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٢٢).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾.

أي: وإذا قِيل لهؤلاءِ الذين وقَعوا في تحريمِ ما أحلَّ الله تعالى: هلَمُّوا وأقْبِلُوا إلى كتابِ الله عزَّ وجلَّ وإلى رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام؛ ليتبيَّنَ لكم شَرعُ اللهِ سبحانه، وما أوجبَه وما حرَّمه، وبُطلانُ ما ابتدَعتُم[1].

﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

أي: قالوا جوابًا على مَن دَعاهم إلى ذلك: يَكفينا ما وجَدْنا عليه مَن قَبْلَنا مِن الآباءِ والأجدادِ مِن طرائقَ ساروا عليها، ونحن لهم تبَعٌ في ذلك[2].

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

أي: أيتَّبِعون آباءَهم حتى لو كانوا على هذه الحالِ التي لا يَستحقُّون أنْ يُتَّبعوا فيها؛ إذ لا يَحمِلون عِلمًا بشريعةِ الله تعالى، ولا يَعمَلون على وَفْقِها عمَلًا

وقال محمَّد رشيد رضا في بيانِ مناسبةِ هذه الآية والتي قبلَها للآياتِ التي قبلَهما: (وجهُ اتِّصال هاتين الآيتين بما قبلَهما أنَّه سبحانه وتعالى نهَى في السِّياق الذي قبلَهما عن تحريمِ ما أحلَّه الله، وعن الاعتداءِ فيه، وإن كان التحريمُ تركًا لمباحٍ يُلتزمُ بالنَّذر أو بالحلفِ باسمِ الله تنسكًا وتعبدًا، مع اعتقادِ إباحتِه في نفسِه، لا شرعًا يدعى إليه ويعتقدُ وجوبَه، وبيَّن فيه كفارةَ الأيمانِ، وحرَّم الخمرَ والميسرَ والأنصابَ والأزلامَ، وصيدَ البرِّ على المُحْرم بحجٍّ أو عمرةٍ، وبعد أن نهَى عن تحريمِ ما أحلَّه، نهَى أن يكونَ المؤمنُ سببًا لتحريمِ الله تعالى شيئًا لم يكنْ حرَّمه، أو شرعِ حكمٍ لم يكنْ شرَعه، بأن يسألَ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم عن شيءٍ مما سكَت الله عنه عفوًا وفضلًا، فيكونَ الجوابُ عنه أن أورد تكليفًا جديدًا، فناسبَ بعدَ هذا أن يبيِّن ضلالَ أهلِ الجاهليَّة فيما حرَّموه على أنفسِهم وما شرعوه لها بغيرِ إذنٍ مِن ربِّهم، وما قلَّد به بعضُهم بعضًا على جهلِهم، مع بيانِ بطلانِ التقليدِ وكونِه ينافي العلمَ والدِّينَ) ((تفسير المنار)) (٧/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٢).

صالحًا؛ فكيفَ يتَّبعونَهم ومِثْلُهم لا يصلُحُ أنْ يُقتدَى بهم[(١)]؟!

كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢٠-٢١].

وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ * فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان المانِعُ لهم من قَبولِ الهُدى كونَ ذلك تسفيهًا لآبائهم؛ فيعود ضررًا عليهم يُسبُّون به على زَعْمهم، أعْلَمَ اللهُ المؤمنينَ أنَّ مخالفةَ الغيرِ في قَبول الهُدى لا تضرُّهم أصلًا، بأنْ عقَّبَ آيةَ الإنكارِ عليهم في التقيُّد بآبائهم لمتابعتِهم لهم في الكُفرِ بهذه الآيةِ[(٢)].

أيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى مكابرةَ المشركينَ وإعراضَهم عن دعوةِ الخير بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أعْقَبه بتعليمِ المسلمين حدودَ انتهاءِ المناظَرَةِ والمجادلةِ إذا ظهرتِ المكابرةُ، وعُذْرِ المسلمين بكِفايةِ قِيامِهم بما افترَض اللهُ عليهم من الدَّعوة

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢-٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١١-٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٢٣).

إلى الخيرِ، فأعْلَمَهم أنَّ على الدَّاعي بذْلَ جُهدِه، وأنَّه ليس مسؤولًا إذا لم يُصغِ المدعوُّ إلى الدَّعوة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[1] [القصص: ٥٦].

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنواعَ التَّكاليفِ والشرائعِ والأحكامِ، ثم قال: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾، إلى قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾، فكأنَّه تعالى قال: إنَّ هؤلاء الجُهَّالَ مع ما تقدَّم مِن أنواع المبالغةِ في الإعذارِ والإنذارِ والترغيبِ والترهيبِ لم يَنتفعوا بشيءٍ منه، بل بقُوا مُصرِّين على جَهلِهم، مُجدِّين على جَهالاتِهم وضلالتِهم؛ فلا تُبالوا- أيُّها المؤمنون- بجهالتِهم وضلالتِهم، بل كونوا مُنقادِينَ لتكاليفِ اللهِ، مُطيعينَ لأوامرِه ونواهيه، فلا يضرُّكم ضلالتُهم وجهالتُهم؛ فلهذا قال[2]:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون ألْزِموا أنفسَكم العملَ بطاعةِ الله تعالى، وترْكَ معصيتِه؛ فإنَّه لا يَضرُّكم مَن سلَك غيرَ سبيلِ الحقِّ، إذا أنتم استقمتُم على صراطِ الله تعالى فآمنتُم بربِّكم وأطعْتُموه، ومِن ذلك: قِيامُكم بواجبِ أمْرِ الناسِ بالمعروفِ، ونهيِهم عن المنكرِ، ولا ضيرَ عليكم بعدَ ذلك إنْ تمادَوْا في غيِّهم وضلالِهم، ما دُمتُم قد أدَّيْتُم حقَّ الله تعالى فيهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤-٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٥٩-٤٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٩).

وممَّن رُوي عنه من السَّلف نحوٌ من هذا: أبو بكر الصِّدِّيق، وابن عبَّاس، وسعيد بن المسيِّب، وحُذيفة، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩).

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ مآلَكم في الآخرةِ إلى الله تعالى وحْدَه، وسوف يُخبرُكم بما قدَّمتموه في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ؛ فإنَّه لا يَخفَى عليه شيءٌ من أعمالِكم، ويُجازيكم عليها ثوابًا أو عقابًا[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ ممَّا يُنافي كمالَ الإيمان أنْ يسألَ الإنسانُ عن شيءٍ لم يُكلَّفْ به؛ لِقَوْلِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ...﴾[٢].

٢- ممَّا يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ أنَّ الإنسانَ قد يَسُوؤه ما شرَعه الله عزَّ وجلَّ من إيجابٍ أو تحريمٍ، ولكنَّ المؤمِنَ وإنْ كرِه ذلك بطبيعتِه، لا يَكرهُه من حيثُ كونُه شرعًا لله عزَّ وجلَّ[٣].

٣- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ ضربُ الأمثالِ بالأمم السَّابقين؛ حتى نقتنِعَ بأنَّه لا يَنبغي لنا أن نَسْألَ؛ لأنَّ غيرَنا سألَ وكفَر[٤].

٤- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَنبغي أن يتعرَّض لِمَا قد يكونُ مِحنةً عليه[٥].

٥- قَوْلُه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٍ...﴾ فيه دلالةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٤٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٨).

على أنَّ الإنسانَ قد يقعُ في شَرْعِه لنفْسِه على الخبيثِ دون الطيِّبِ؛ وذلك لأنَّ الكفَّارَ شَرَعوا لأنفسِهم هذا، وظنُّوا أنَّه من محاسنِ الأعمال، فإذا هو ممَّا لا يَعبأُ الله به، بل ممَّا يُعذِّب عليه؛ لكونه أوقعَهم فيما كانوا مُعترِفينَ بأنَّه أقبحُ القبائِحِ وهو الكَذِب، بل في أقبحِ أنواعِه، وهو الكذبُ على مَلِك الملوك، ثم صارَ لهم دِينًا، وصاروا أرسخَ الناسِ فيه، وهو عينُ الكُفْر[١].

٦- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ خطرُ الإفتاء، وأنَّ الإنسانَ قد يُفتي بالشيءِ فيكون ممَّن افترى على الله كذبًا[٢].

٧- ذمُّ أولئك الذين يقولونَ بلا عِلمٍ، وأنَّهم قد فَقَدوا عُقولَهم؛ لِقَوْلِه: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ وصدَق اللهُ عزَّ وجلَّ؛ كلُّ إنسانٍ يُقدِم على الفتوى بالتَّحليلِ أو التَّحريم أو الإيجاب بدون عِلمٍ فهو غيرُ عاقلٍ، وإنْ ظنَّ أنه صارَ إمامًا فإنَّه غيرُ عاقلٍ، وسيَفْضَحه اللهُ عزَّ وجلَّ إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخِرةِ، يعني: قد يُمهِل اللهُ له، ويكون إمامًا في وقتٍ ما؛ لغفلةِ الناسِ وعدمِ العلماء، ولكنَّ النَّتيجة أنَّه سوف يكون مخذولًا، والعياذُ بالله[٣].

٨- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أنَّ التحرِّيَ في الإفتاءِ مِنَ العَقْلِ، ولقد كان السلفُ الصَّالح يَتدافعون الإفتاءَ، ويُؤجِّلونَ المُستفتيَ[٤].

٩- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ أنَّ كلَّ مَن أتى بشريعةٍ ليستْ مِن عندِ الله فإنَّه يَصدُقُ أن نقول: إنَّه افترى على اللهِ الكذِبَ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لكنْ مَن اجتهدَ وبذَل الوُسْعَ للوصولِ إلى الحقِّ، وحَكَمَ بغير الصَّواب، فإنَّه لا يُقال: إنَّه افترى على الله كذبًا، بل يُقال: إنَّه اجتهَدَ وأخطَأَ، وله أجرٌ واحدٌ، وهذا -والحمدُ لله- مِن سَعةِ رحمةِ الله عزَّ وجلَّ(١).

١٠- أنَّ العوامَّ يُوجَّهون ويُرشَدونَ ويُدْعَون إلى الكتابِ والسُّنَّة؛ لِقَوْلِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ﴾ وأبهم القائلَ إمَّا لكثرةِ القائلينَ، وإمَّا لاختلافِ مراتبِهم؛ لأنَّ كثرةَ القائلين تُوجِبُ أنَّ الإنسانَ ينصاعُ، والمرتبة العُليا تُوجِبُ أيضًا أنَّ الإنسانَ ينصاعُ ويأتي(٢).

١١- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أنَّ مَن تعصَّب لقولِ إمامٍ والْتزمَه، وأصرَّ عليه مع عِلْمِه بمخالفةِ قوله للكتابِ والسُّنَّة، ففيه شَبَهٌ من هؤلاء الكفَّار؛ لأنَّه إذا قيل له: تعالَ إلى ما أنزَلَ اللهُ وإلى الرسولِ قال: حسبي إمامي؛ فيكون فيه شَبهٌ من هؤلاء الكفَّارِ(٣).

١٢- وجوبُ الرُّجوعِ إلى ما جاءَ في الكِتاب والسُّنة؛ لأنَّ الله أنكَرَ على هؤلاءِ الذين قالوا: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾(٤).

١٣- لا يجوزُ تركُ اتِّباعِ ما أنزل الله، واتباعِ رسلِه، وتقليدُ مَن لا علمَ عنده صحيحٌ، ولا عقلٌ رجيحٌ، وإنَّما يجوزُ الاقتداءُ بالعالمِ المهتدي، الذي يبني قولَه على الحجَّة والدليلِ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَهۡتَدُونَ ﴾[١].

١٤- أنَّ إصلاحَ النَّفْس والعنايةَ بها مِن مُقتضياتِ الإيمانِ؛ لِقَوْلِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾[٢].

١٥- المقصودُ مِنْ قَوْلِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ... ﴾ بعدَ قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ بيانُ أنَّه لا يَنبغي للمؤمنينَ أن يتشبَّهوا بهم في هذه الطريقةِ الفاسِدةِ، بل ينبغي أن يكونوا مُصِرِّين على دِينهم، وأنْ يَعلَموا أنَّه لا يضرُّهم جهلُ أولئك الجاهِلين إذا كانوا راسِخينَ في دِينهم، ثابِتينَ فيه[٣].

١٦- أنَّ الإنسانَ لا يُحاسَب على حديثِ النَّفْسِ؛ لِقَوْلِه: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾، وحديثُ النَّفْسِ ليس عملًا؛ ودليلُ ذلك قولُ النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ تجاوزَ عن أمَّتي ما حدَّثت به أنفُسَها ما لم تعمَلْ أو تتكلَّم))[٤]، ولكن إذا ركَن الإنسانُ إلى حديثِ النَّفْس واطمأنَّ إليه واعتقدَه، فحينئذٍ يكونُ قد عمِل عملًا قلبيًّا لا جوارحيًّا[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- دفْعُ التَّعارُضِ بين قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾، وقولِه: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧] حيث ذكَر كراهةَ السؤالِ والنهيَ عنه في الموضِع الأوَّل، وأمَر بالسُّؤالِ في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٩).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٥٢٦٩) واللفظ له، ومسلمٌ (١٢٧) من حديث أبي هُرَيرَة رضي الله عنه.
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٣).

الموضِع الثاني، فالجوابُ عن ذلك:

أنَّ الأوَّل المنهيَّ عنه هو سؤالُ الأشياءِ التي إذا بُيِّنَتْ لهم ساءتْهم وأحزنَتْهم بخلافِ سُؤال الاسترشادِ والتَّعلُّم مما تدعو الحاجةُ إليه في أمورِ الدِّين والدُّنيا، فهو محمودٌ قد أمرَ الله به، وأَذِن بالسُّؤالِ عنه(١).

٢- قدَّم قولَه: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ على قولِه: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾؛ لفائدة الزَّجرِ عن السُّؤالِ؛ فإنَّه قدَّم لهم أنَّ سؤالَهم عن أشياءَ متَى ظهرتْ أساءتْهم؛ قبلَ أنْ يُخبِرَهم بأنَّهم إنْ سألوا عنها، بدَتْ لهم لينزجِروا(٢).

٣- أنَّ ما سكَت اللهُ عنه فهو عَفْوٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(٣).

٤- البِناءُ على الأصلِ في بَراءة الذِّمَّةِ؛ لِقَوْلِه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾، فالأصلُ عدمُ شَغلِ الذِّمَّة بإيجابٍ أو تحريمٍ(٤).

٥- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ أنَّ مَن قَبْلَنا كانوا يَسألون، ولكن يَهلِكون بالسُّؤال، ويُؤيِّدُ هذا قولُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديثِ الصحيحِ عمَّن سبَقَنا: ((إنَّما أَهْلَك الذين مِن قبلكم كثرةُ مَسائِلِهم واختلافُهم على أنبيائِهم))(٥)؛ يسألون ثم يختلِفونَ عليهم، ولا يُوافِقونَهم(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٥٠)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٥).

(٥) أخرجه البخاريُّ (٧٢٨٨)، ومسلمٌ (١٣٣٧) واللفظ له من حديث أبي هُرَيرَة رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٤٨).

٦- إنْ قيل: كيف قال: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ ولم يقُلْ: (قد سأَل عنها)؟ فالجوابُ: أنَّ الضميرَ في: ﴿سَأَلَهَا﴾ ليس براجعٍ إلى ﴿أَشْيَآءَ﴾ حتَّى تجبَ تعديتُه بـ(عن)، وإنَّما هو راجعٌ إلى المسألةِ التي دلَّ عليها ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ﴾ يعنى: قد سأَل قومٌ هذه المسألةَ مِن الأوَّلين، ﴿ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا﴾ أى: بمرجوعِها أو بسببِها ﴿كَٰفِرِينَ﴾ وذلك أنَّ بنى إسرائيلَ كانوا يستفتون أنبياءَهم عن أشياءَ، فإذا أُمِروا بها تركوها فهلكوا[١]، وقيل غير ذلك[٢].

٧- إطلاقُ الجَعْل على التَّشريع؛ لِقَوْلِه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾[٣].

٨- حُسنُ الجدال في القرآنِ الكريم؛ حيث أقام الحُجَّة على هؤلاء الذين: ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ بأنَّ آباءَهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ فهم ضالُّونَ في عِلمهم وفي عَمَلِهم[٤].

٩- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ أنَّ ضَلالَ مَن يضِلُّ لا يترتَّبُ عليه ضررُ المهتدي، يعني: الضَّررَ المعيَّن الشَّخصي، وأمَّا الضررُ العامُّ، وهي العقوبةُ العامَّة فهذه قد تكونُ، وقد لا تكونُ أيضًا إن كانوا ينهَوْنَ عن السُّوءِ؛ فاللهُ تعالى لَمَّا أخَذَ مَن أخَذَ من الأممِ السابقةِ نجَّى أنبياءَه ومَن معهم[٥].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قَوْلُه**: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّر لعفوِه تعالى، ومجيءُ الوصفَيْنِ ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ على صيغة المبالغَةِ؛ للمبالغة في وصْفِه بمغفرةِ الذُّنوبِ،

(١) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٥، ٤٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٦١).

والإغضاءِ عن المعاصي؛ ولذلك عفا عنكم، ولم يُؤاخِذْكم بعقوبةِ ما فرَط منكم[١].

٢- **قَوْلُه:** ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، جوابُ سؤالٍ يُثيرُه النهيُ عن السؤال ثمَّ الإذنُ فيه في حِين يُنزَّل القرآنُ؛ أنْ يقول سائلٌ: إنْ كان السؤالُ في وقتِ نزولِ القرآنِ، وإنَّ بعضَ الأسئلةِ يسوءُ جوابُه قومًا؛ فهل الأَوْلى تركُ السؤال أو إلقاؤه؟ فأُجيب بتفصيلِ أمْرِها بأنَّ أمثالَها قد كانتْ سببًا في كُفر قومٍ قبلَ المسلمين[٢].

- وقوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾، أي: سألوا هذه المسألةَ لكنْ لا عينَها، بل مثلَها في كونها محظورةً ومستتْبِعةً للوبال، وعدمُ التصريح بالمِثل- حيث لم يقُلْ: سأل مِثلَها قومٌ- للمبالغةِ في التَّحذيرِ[٣].

- (ثُمَّ) في قوله: ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ للترتيبِ الرُّتبي، كشأنها في عطْفِ الجُمَل؛ فإنَّها لا تُفيد فيه تراخِي الزَّمانِ، وإنَّما تُفيد تراخي مَضمونِ الجملة المعطوفة في تصوُّر المتكلِّم عن تصوُّر مضمونِ الجملةِ المعطوفِ عليها؛ فتدلُّ على أنَّ الجملة المعطوفة لم يكُن يُترقَّبُ حُصولُ مضمونِها حتَّى فاجأَ المتكلِّمَ[٤].

- وفِعْلُ ﴿أَصْبَحُوا﴾ مستعمَلٌ بمعنى صاروا، وهو في هذا الاستعمالِ مُشْعِرٌ بمصيرٍ عاجِلٍ لا تَرَيُّثَ فيه؛ لأنَّ الصَّباحَ أَوَّلُ أوقاتِ الانتشارِ للأَعمالِ[٥].

٣- **قَوْلُه:** ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ **فيه:** الإغراقُ في النَّفي بقوله: ﴿مِن بَحِيرَةٍ﴾، ثم تأكيد النَّفي بإعادةِ حَرْفِ النَّفي (لا)، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٧٠).

﴿وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[١].

٤- **قَوْلُه:** ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الواو في (أَوَلَوْ) للعطفِ على شرطيَّةٍ أُخرى مقدَّرة قبلها، والتقدير: أَحَسْبُهم ذلك، أو أيقولون هذا القولَ لو لم يكُن آبَاؤُهم لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا من الدِّين، ولا يَهتُدون للصَّوابِ ولَوْ كانوا لا يعلمون... إلخ[٢]، وما في (لو) مِن معنى الامتناعِ والاستبعادِ إنَّما هو بالنَّظَر إلى زَعْمهم لا إلى نفْسِ الأمْرِ، وفائدتُه: المبالغةُ في الإنكارِ والتعجُّب ببيانِ أنَّ ما قالوه موجِبٌ للإنكارِ والتعجُّب، إذا كان كونُ آبائِهم جَهلةً ضالِّين في حيِّز الاحتمالِ البعيد؛ فكيف إذا كانَ ذلك واقعًا لا ريبَ فيه[٣]؟!

٥- **قَوْلُه:** ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ **خبرٌ فيه:** وعدٌ ووعيدٌ للفريقين، وتنبيهٌ على أنَّ أحدًا لا يُؤاخَذُ بذنبِ غيرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣١٨).

(٢) وقيل: إنَّ الواو في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ واو الحال قد دخلتْ عليها همزة الإنكار، وتقديره: أحسْبُهم ذلك ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون. وقيل: إنَّ مؤدَّى القولين واحد. يُنظر: ((تفسير الزمخشري))، (١/ ٦٨٥)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٨٥- ٣٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٨٨).

الآيات (١٠٦ - ١٠٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾: الشَّهادةُ قولٌ صادرٌ عن عِلمٍ حَصَل بمشاهدةِ بصيرةٍ أو بَصرٍ، وأَصْلُ (شهد): يَدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعلامٍ[(١)].

﴿ٱلۡوَصِيَّةِ﴾: الوصيةُ هي: التقدُّمُ إلى الغيرِ بما يَعملُ به مُقترنًا بوعظٍ؛ من قولهم: أرضٌ واصِيَة: مُتَّصِلةُ النباتِ قد امتلأتْ منه، ووصيتُ الشيءَ: وصلتُه، وأصل (وصي) يدلُّ على وصلِ شيءٍ بشيء[(٢)].

﴿ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي: ذهبتُم فيها؛ للتجارةِ وغيرِها من السَّفَر، وأصلُ الضَّربِ معروفٌ، وتُستعارُ منه مَعانٍ كثيرةٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٥٢).

﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾: تُوقفونهما، وأصلُ الحبس: المنعُ مِن الانبعاثِ[١].

﴿عُثِرَ﴾: أي: ظَهَر، واطُّلِع منهما، وأصل (عثر): الوقوعُ على الشيءِ والسُّقوط عليه، ثم يُستعمَلُ ذلك في كلِّ واقعٍ على شَيءٍ كان عنه خَفيًّا، ويُتجوَّز به فيمَن يَطَّلِع على أمْرٍ مِن غيرِ طَلَبِه، وإنَّما قِيل (عُثِرَ) مِن الاطِّلاعِ على الشَّيءِ؛ لأنَّ كلَّ عاثرٍ فلا بدَّ أن يَنظُرَ إلى موضِعِ عَثْرتِه[٢].

﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ أي: استوجبَا جنايةً باليمينِ الكاذبةِ التي أقدَمَا عليها وحَلفَا بها؛ يُقال: استحقَّ فلانٌ الأمرَ: استوْجَبَه، وحقَّ الشيءُ إذا وجَب وثبَت[٣].

﴿أَدۡنَىٰٓ﴾: أي: أقربُ، والدُّنُو: القُربُ بالذَّات أو بالحُكم، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمان والمنزِلة[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١ - قَوْلُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٨٢)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٣/ ٢٤٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٧).

(٥) قيل عن هذه الآية وما بَعدَها: إنَّها- في إعرابِها ومعناها وتفسيرِها وأحكامِها- مِن أَشكلِ آياتِ القرآن وأصعبِها. وقدْ صَنَّف فيها مكيُّ بن أبي طالب مُصنَّفًا مفردًا. يُنظر: ((مشكل إعراب

﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾.

﴿شَهَٰدَةُ﴾ مرفوعةٌ على الابتِداءِ. وخَبَرُها ﴿ٱثۡنَانِ﴾ على نِيَّةِ حَذفِ مُضافٍ، والتَّقديرُ: شهادةُ اثنينِ؛ لأنَّ الشَّهادةَ لا تكونُ هي الـ﴿ٱثۡنَانِ﴾. وقيل: ﴿شَهَٰدَةُ﴾ مبتدأٌ أيضًا، ولَكِنْ خبَرها مَحذوفٌ يَدُلُّ عليه سياقُ الكَلامِ، والتَّقديرُ: فيما فُرِضَ عليكم أن يَشهَدَ اثنانِ، و﴿ٱثۡنَانِ﴾ على هذا فاعِلُ المَصدَرِ الذي هو ﴿شَهَٰدَةُ﴾. و﴿بَيۡنِكُمۡ﴾ مضافٌ إليه مجرور مِن بابِ الاتِّساعِ في الظُّروفِ.

و﴿إِذَا﴾ على هَذَينِ الوَجهينِ ظرفٌ لـ﴿شَهَٰدَةُ﴾ أي: ليَشْهَدْ وقتَ حُضورِ أماراتِ الموتِ. و﴿حِينَ﴾ بدلٌ من ﴿إِذَا﴾، أو ظَرْفٌ لـ﴿حَضَرَ﴾، أي: حينَ حضَر أماراتُ الموتِ. و﴿ذَوَا﴾ صفةٌ لـ﴿ٱثۡنَانِ﴾، أي: صاحِبَا عَدلٍ، وكذلك ﴿مِّنكُمۡ﴾ صِفةٌ ثانِيةٌ. ﴿ءَاخَرَانِ﴾ مرفوعٌ عطفًا على ﴿ٱثۡنَانِ﴾ على تقديرِ حذْفِ مضافٍ أيضًا، تقديرُه: أو شهادَةُ آخرَينِ، و﴿مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ صِفةٌ لـ﴿ءَاخَرَانِ﴾.

﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾: ﴿إِنۡ﴾ شرطيَّةٌ. ﴿أَنتُمۡ﴾: فاعلٌ لفِعلٍ محذوفٍ يُفَسِّرُه المذكورُ. و﴿ضَرَبۡتُمۡ﴾ تفسيرٌ للفِعلِ المحذوفِ؛ فلا محلَّ له مِنَ الإعرابِ، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾، والتَّقديرُ: إنْ ضَرَبْتُم في الأرْضِ فلْيَشهَدِ اثنانِ منكم أو مِنْ غيركم، أو التَّقديرُ: فأَشْهِدُوا آخَرَينِ مِن غيرِكم.﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾: جملةٌ استئنافيَّةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، وهو أَوْلى مِنَ القَولِ بكَونِها صِفَةً لـ﴿ءَاخَرَانِ﴾؛ لِمَا يترَتَّبُ عليه

القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٥٣).

مِنَ الفَصلِ بكلامٍ طَويلٍ بينَ الصِّفةِ ومَوصوفِها. ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾: الفاءُ عاطِفةٌ، والجملةُ معطوفةٌ على ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾، فلا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ.

﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾: شرطٌ، وجوابُه محذوفٌ تقديرُه: إنِ ارْتَبْتُم فيهما فحَلِّفوهما، وهذا الشَّرطُ وجوابُه المقدَّرُ مُعترِضٌ بين القَسَمِ ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ لأنَّه يقومُ مقامَ اليَمينِ، وجوابِه: ﴿لَا نَشْتَرِى﴾، وليسَتْ هذه الآيةُ مِمَّا اجتمَعَ فيه شَرْطٌ وقَسَمٌ فأُجيبَ سابقُهما. والهاء في ﴿بِهِۦ﴾ تعودُ على تَحريفِ الشَّهادةِ، أو القَسَم. و﴿ثَمَنًا﴾ مفعولُ ﴿نَشْتَرِى﴾، ولا حَذْفَ فيه؛ لأنَّ الثَّمنَ يُشترَى كما يُشترَى به، وقيل: التَّقديرُ: ذا ثمنٍ، فحُذِفَ المُضافُ وأُقيمَ المُضافُ إليه مَقامَه.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ جملةٌ امتناعِيَّةٌ في محلِّ نصبٍ على الحالِ، واسمُ ﴿كَانَ﴾ مُضمرٌ فيها يعودُ على المَشهودِ له: أي: لا نَشْتري به ثمنًا في كُلِّ حالٍ، ولو كانَ الحالُ كونَ المشهودِ له ذا قرابةٍ. ﴿وَلَا نَكْتُمُ﴾ معطوفٌ على جوابِ القَسَمِ ﴿لَا نَشْتَرِى﴾؛ فلا مَحَلَّ له مِنَ الإعرابِ. ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْأَثِمِينَ﴾ جملةٌ استئنافيةٌ لا محلَّ لها من الإعراب. وقيل غيرُ ذلك في توجيهِ هذه الآيةِ[1].

٢- قَوْلُه تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾: ﴿عُثِرَ﴾: فِعلٌ مبنيٌّ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه. و﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا﴾: في محلِّ رفْعٍ نائِبُ الفاعِلِ، أي: فإنِ اطُّلِعَ على استحقاقِهما الإِثمَ.

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤١- ٢٤٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٦٦- ٤٦٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٥٣- ٤٧٠).

﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾: ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ مرفوعٌ على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٌ، أي: فالشَّاهِدانِ آخَرانِ، والفاءُ رابطةٌ في جوابِ الشَّرطِ، دخلَتْ على الجُملةِ الاسميَّة، و﴿يَقُومَانِ﴾ و ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ﴾ كِلاهما في محلِّ رفعٍ صفةٌ لـ ﴿آخَرَانِ﴾.﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ فاعِلُ ﴿ٱسۡتَحَقَّ﴾ مرفوعٌ، والمفعولُ محذوفٌ، أي: وصيَّتَهما. وقيلَ غيرُ ذلك[1].

- وقُرِئ (اسْتُحِقَّ) بالبناءِ للمفعولِ، و﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ نائب فاعِل على تقديرِ حذْفِ مضافٍ، تقديرُه: مِن الَّذين استُحِقَّ عليهم إثْمُ الأَوْلَيينِ، أو انتدابُ الأَوْلَيينِ. وقيل: مرفوع (استُحِقَّ) ضميرُ الإيصاءِ أو المالِ أو الإثمِ، و﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ بدلٌ مِنَ الضَّميرِ في ﴿يَقُومَانِ﴾ والتَّقديرُ: فيقومُ الأَوْلَيانِ، أو خَبَرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: (هما الأوليان)؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ فكأنَّه قيل: ومَنْ هُما؟ فقيل: الأَوْلَيَانِ.

وقُرِئَ: (اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ)، ومرفوعُ (استُحِقَّ) ضميرُ الإيصاءِ أو المالِ أو الإثمِ، كما تقدَّمَ في القِراءةِ السَّابقةِ، و (الْأَوَّلِينَ) مجرورٌ نعتٌ لـ (الَّذينَ استُحِقَّ عَلَيهم) أو بدلٌ مِنَ الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِمُ﴾، أو منصوبٌ على المَدحِ[2].

٣- ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ﴾: ﴿أَن يَأۡتُواْ﴾ مَصدرٌ مُؤوَّلٌ في محلِّ نصْبٍ على نَزْعِ

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٦٨-٤٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٧٠- ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٧٣-٤٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٨٨-٦٨٩)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٥).

الخافِضِ، أي: إلى أنْ يأتوا[١].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى المؤمنين أنَّه إذا حضرتْ مُقدِّماتُ الموتِ أحدًا منهم، فليكتُبْ وصيَّتَه ولْيَشهَدْ عليها اثنانِ من المؤمنينَ العدولِ، وفي حالِ كان على سَفرٍ وحضَرَه أجَلُه، فلْيَشهدْ آخرانِ مِن غيرِ مِلَّة الإسلامِ إذا لم يُوجدِ العَدْلانِ من المؤمنينَ، فيُوقِفُ المسلمون الشاهدَينِ اللَّذينِ من غيرِ مِلَّتهم بعدَ صلاةِ العَصْرِ، ويَجعلانِهما يَحلِفان باللهِ- إنْ شكُّوا في شَهادتِهما، وظهرتْ لهم منهما رِيبةٌ- أنَّهما لا يَبغيانِ بحَلِفهما عرَضًا من الدُّنيا حتى يَكذِبَا فيها، وأنَّهما لا يُحابيانِ أحدًا ولو كان مِن قَرابتِهما، وأنَّهما لا يَكتُمانِ شهادةَ الله عندهما، وأنَّهما إنْ فَعَلَا شيئًا من ذلك فإنَّهما يكونان بذلك مِن المذنِبين العاصِين.

فإنْ ظهَر أنَّهما كاذبانِ بأنْ خانَا في أداءِ أمانةِ الميِّت، أو بدَّلَا في وصيَّته، فاستوجَبَا بأيمانِهما الكاذبةِ الإثمَ، فعندها يقومُ مَقامَهما اثنانِ من أولياءِ الميِّت المستحقِّينَ للتَّركة، ويكونانِ من أَوْلى مَن يَرِثُ الميِّتَ، فيحلفانِ بالله أنَّ شهادتهما أحقُّ مِن الشَّهادة التي شهِدها اللذَّانِ من غيرِ المسلمين، التي كذَبَا فيها وخانَا، وأنَّها أصحُّ منها وأثبتُ، وأنَّهما ما تَعَدَّيَا الحقَّ في الشهادةِ والإخبارِ عن خِيانةِ هذينِ الشاهدَينِ، وأنَّهما إنْ كذَبا عليهما فإنَّهما إذَنْ من الظَّالمينَ.

ثم يُخبرُ تعالى أنَّ ذلك التحليفَ للشَّاهدَينِ إذا استُريب في أمرِهما، أقربُ لإتيانهما بالشهادةِ على وجهِها الصَّحيحِ بلا كَذِبٍ ولا خيانةٍ، وأمَر اللهُ سبحانه العبادَ بأنْ يتَّقوه، ويَسمعوا ما يُؤمَرون به، فيَعمَلوا على وَفْقِه، وأخبَرَ أنَّه تعالى لا يُوفِّق الفاسقين للحقِّ.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٩٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى في آخِر الآية السابقةِ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ فذكَر أنَّ مرجِعَنا إليه بعدَ الموتِ، وأنَّه يُحاسِبُنا ويُجازينا، ناسَب أنْ يُرشِدَنا في أثَرِ ذلك إلى الوصيَّةِ قبلَ الموت، وإلى العنايةِ بالإشهادِ عليها؛ لئلَّا تضيعَ[1].

وأيضًا لَمَّا قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ كان في ذلك تنفيرٌ عن الضُّلَّالِ، واستبعادٌ عن أنْ يُنتفعَ بهم في شيءٍ من أمور المؤمنينَ من شهادةٍ أو غيرِها، فأخبرَ تعالى بمشروعيَّة شهادتِهم أو الإيصاءِ إليهم في السَّفَر[2].

سَببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((خرَج رجلٌ من بَني سَهْمٍ مع تَمِيمٍ الدَّاريِّ وعَدِيِّ بنِ بَدَّاءٍ، فماتَ السَّهْميُّ بأرضٍ ليس بها مسلمٌ، فلمَّا قدِمَا بتَرِكتِه فقَدُوا جامًا مِن فِضَّةٍ مُخَوَّصًا من ذَهبٍ[3]، فأَحْلَفهما رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٩٠).

(٣) الجامُ: إناءٌ من فِضَّةٍ، عربيٌّ صحيحٌ، ومُخوَّصًا: أي عليه صفائحُ الذَّهبِ مِثْل خُوصِ النَّخل.

وسلَّمَ، ثم وُجِد الجامُ بمكَّةَ، فقالوا: ابْتعْناهُ من تميمٍ وعديٍّ، فقام رجلانِ من أوليائه، فحلَفَا: لَشهادتُنا أحقُّ من شهادتِهما، وإنَّ الجامَ لِصَاحبِهم، قال: وفيهم نزلتْ هذه الآيةُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾))[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إذا حضَر أحدَكم مُقدِّماتُ الموتِ وعلاماتُه، فكتَب وصيَّتَه، فلْيَشهدْ عليها اثنانِ من المؤمنين، مِن ذَوي الاستقامةِ والمروءة[2].

﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾.

أي: أو ليَشهدْ على الوصيةِ آخَرانِ من غيرِ أهل مِلَّتكم- أيُّها المؤمنون- سواءٌ من اليهود أو النَّصارى أو غيرِهم، إنْ لم يوجدْ ذَوَا عدلٍ منكم، وفي حالِ سَفَرِكم، وإيقانِكم بحضورِ أجلِكم[3].

﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾.

أي: فتُوقفونَ الشاهدَينِ اللَّذيْنِ من غيرِكم بعدَ صلاةِ العَصْرِ، وتَجْعلونَهما يحلفانِ بالله تعالى، إنْ شكَكتُم في شهادتِهما، وظهرتْ لكم منهما رِيبةٌ في

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٨٧)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣١/ ٤٢٩).

(١) رواه البخاري (٢٧٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥-٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٥-٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦-٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٤).

ويُنظر في معنى العَدَالة ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦١، ٧٠-٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٥).

أنهَّما قد خانَا، فيحلفانِ حينئذٍ باللهِ تعالى أنَّا لا نَبغِي بحَلِفنا هذا عَرَضًا من الدُّنيا فنكذبَ في شَهادتِنا، ولا نُحابي أحدًا، ولو كان المشهودُ عليه من أقربائِنا[١].

عن الشَّعبيِّ: ((أنَّ رجلًا حضرتْه الوفاةُ بدَقُوقَاءَ[٢]، فلم يجِدْ أحدًا من المسلمين يُشْهِدُهُ على وصيَّته، فأَشْهَد رجُلينِ من أهل الكِتاب، فقدِما بتركتِه إلى أبي موسى الأشعريِّ، فأخبراه، فقال الأشعريُّ: هذا أمرٌ لم يكُنْ بعد الذي كان في عهدِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأحْلَفهما بعدَ صلاةِ العَصْرِ باللهِ ما خانَا، ولا كَذَبَا، ولا بدَّلَا، وإنَّها لتَرِكَتُه، ثم أجاز شهادتَهما))[٣].

﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٧٤-٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٥).
قال ابنُ عثيمين: (إذا أراد الشاهدانِ مِن غيرِ المسلمين أداءَ الشَّهادة فإنَّهما يُحبسان مِن بعدِ الصَّلاة....، ولكن هل هذا مشروطٌ بالارتيابِ في شهادتِهما، أو نقول: إنَّهما يُحبَسان على كلِّ حالٍ؛ ليظهرَ الفرقُ بين أداء الشَّهادة للمسلمِ وأداءِ الشَّهادة من غير المسلم؟ الآية فيها احتمالٌ؛ لأنَّ قوله: ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ يحتملُ أنْ يكون قوله: ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ قيدًا في قوله: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ويحتمل أن يكون قيدًا لقوله: ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ فعلى الاحتمالِ الأوَّل يكون حبسُهُما واجبًا، وعلى الثاني: لا يكون حبسُهما واجبًا إلَّا إذا ارْتَبْنا منهما) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٨٦).
(٢) دَقُوقَاء: مدينةٌ بين إربل وبغداد، لها ذِكرٌ في الأخبارِ والفُتوح، كان بها وقعةٌ للخوارج. ((معجم البلدان)) لياقوت (٢/ ٤٥٩).
(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٠٥)، وعبد الرزَّاق في ((المصنف)) (١٥٥٣٩)، والدارقطني في ((السنن)) (٤٣٤١)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٢٢٤).
قال الحاكمُ (٣٢٢٤): صحيحٌ على شرْط الشَّيخينِ. وصحَّح إسنادَه ابن كثير في ((التفسير)) (٣/ ٢١٥)، والزيلعيُّ في ((تخريج الكشاف)) (١/ ٤٢٨)، وقال ابن حجر في ((فتح الباري)) (٥/ ٤٨٣): إسنادٌ رجالُه ثقاتٌ. وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٩/ ٢٠٤): صالحٌ للاحتجاج. وقال الألباني في ((صحيح أبي داود)) (٣٦٠٥): إسنادُه صحيحٌ إنْ كان الشعبيُّ سمِعَه من أبي موسى.

أي: ولا نُخفي عنكم الشَّهادةَ التي حمَّلَنا اللهُ تعالى إيَّاها على الوصيَّة، بتحريفِها أو تبديلِها، أو كِتمانِها بالكلِّيةِ؛ فإنَّا إنْ فعَلْنا شيئًا من ذلك وقَعْنا في الإثمِ مع الواقعينَ فيه[١].

﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾.

أي: فإنْ ظهَر أنَّهما كاذبانِ، فوُجِدَ أنَّهما قد خانَا مِن مالِ الميِّت شيئًا، أو بدَّلَا وصيَّتَه، فاستوجبَا بأيمانِهما الكاذبةِ إثمًا[٢].

﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ ﴾ ثلاثُ قِراءات:

١- ﴿اسْتَحَقَّ﴾ بِفَتْح التَّاء والحاء، و﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ مُثنَّى (أَوْلى)، رُفع بـ﴿اسْتَحَقَّ﴾ على أنَّه فاعِلٌ[٣].

٢- ﴿اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ﴾، ومرفوع ﴿اسْتُحِقَّ﴾ ضميرُ الإيصاءِ أو الوَصِيَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٥-٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٨١-٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٦).

(٣) قرأ بها حفص. يُنظر: ((العشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٧).
ويُنظر في معنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٢٠)، ((البحر المحيط)) لأبي حيان (٤/ ٣٩٧).

أو المالِ، أو الإثْمِ. و﴿الْأَوَّلِينَ﴾ جمْع (أوَّل)، أي: المتقدِّم ذِكرُهم، أي: مِن الأوَّلِين الذين استُحِقَّ عليهم الإيصاءُ أو الإثمُ(١).

٣- ﴿اسْتُحِقَّ﴾ بِضَمِّ التَّاء وكَسْرِ الحاءِ على البِناءِ للمَفعولِ، و﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ مرفوعٌ بـ﴿استُحِقَّ﴾ على أنَّه نائِبٌ عَنِ الفاعِلِ(٢).

﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾.

أي: فحينئذٍ يقومُ مقامَهما اثنانِ مِن أولياءِ الميِّتِ المستحقِّينَ للتركةِ، ولْيَكونا مِن أَوْلى مَن يَرِثُ هذا الميِّتَ الذي شُهِدَ على وصيَّتِه(٣).

﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فيَحلفانِ بأنَّ شهادتَنا أحقُّ مِن شهادتهما التي كذَبَا فيها وخانَا، وهي أصحُّ وأثبَتُ، وما تجاوَزْنا الحقَّ في شهادتِنا، وإخبارِنا عن خيانتِهما؛ فإنَّا إنْ كذَبْنا عليهما نكونُ في عدادِ الظَّالمين، ونقتطعُ بذلك أموالَ النَّاس بغيرِ حقٍّ(٤).

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾.

---

(١) قرأ بها حمزةُ وخلفٌ ويعقوب وأبو بكر. يُنظر: ((العشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٧).
ويُنظر في معنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٨٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((العشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٧).
ويُنظر في معنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٧٥-٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٨٢-١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠٣-١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٦-٤٦٧).

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾.

أي: هذا الفِعلُ - مِن تحليفِ الشاهدَينِ إذا استُريب بهما- أقربُ لأن يَصْدُقوا في شهادتِهم، ويُقيموها على الوجهِ الصَّحيح، فلا يَكذِبوا ولا يَخونوا[١].

﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾.

أي: أو يَخافَ هؤلاءِ الشهودُ ألَّا تُقبلَ أيمانُهم إنْ ظهَرَ كذِبُهم وخيانتُهم، فتُرَدَّ الأيمانُ إلى الورثةِ، فيَحلِفونَ ويستحقُّون ما يَدَّعون، ويُفتضَح أمرُ شهودِ الوصيةِ بين النَّاس[٢].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْ﴾.

أي: واتَّقوا اللهَ تعالى في جميعِ أُمورِكم، ومن ذلك: ترْكُ الحلِفِ بالله تعالى كذبًا، واجتنابُ خيانةِ الأمانةِ وغير ذلك، واسمَعوا ما يُقال لكم فاعْمَلوا به[٣].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

أي: واللهُ تعالى لا يُوفِّق للحقِّ الخارِجينَ عن طاعتِه، واتِّباعِ شريعتِه[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ تعظيمُ أمْرِ الشَّهادةِ؛ حيث أضافَها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٧).

تعالى إلى نفْسِه، وأنَّه يجبُ الاعتناءُ بها، والقيامُ بها بالقِسطِ[١].

٢- أنَّ الأصلَ في النَّاس أنْ يكونوا أُمَناءَ، وفي المُؤتمَنِ أن يكون أمينًا، وأنْ يكونَ ما يقولُه في أمْر الأمانةِ مقبولًا؛ ولذلك قال: ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾ فأفادتْ أداةُ الشرط (إنْ) أنَّ الأصل في هذا ألَّا يقع، وأنَّه إنْ وقَع كان شاذًّا، وأفاد فِعلُ ﴿عُثِرَ﴾ المبنيُّ للمفعولِ أنَّ هذا الشذوذَ إنْ وقَع فشأنُه أنْ يُطَلَّعَ عليه بالمصادفةِ والاتِّفاقِ، لا بالبحثِ وتتبُّع العَثَراتِ[٢].

٣- أنَّ المدَّعَى عليه لا يجزمُ ببطلانِ شهادةِ الشاهدِ التي تَبيَّن أنَّ فيها شيئًا من الخَلَلِ؛ لِقَوْلِه: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا ﴾ بهذا اللَّفظِ، ولم يقل: (باطلةٌ)، لكنَّ قوله: ﴿أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا ﴾ يستلزمُ أن تكونَ مردودةً، وأنَّ القولَ قولُ المدَّعَى عليه[٣].

٤- الختمُ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فيه دلالةٌ على استقباحِ الظُّلْم والتبرُّؤِ منه[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ﴾ مشروعيَّةُ الوصيَّة والحثُّ عليها، وتأكيدُ أَمْرِها، وعدمُ التَّهاوُن فيها بشواغلِ السَّفَر وإن قُصِرَت فيه الصلاةُ، وأُبيحَ فيه الإفطارُ في رمضانَ، وأنَّه يَنبغي لِمَن حضَرَه الموتُ وعندهُ ما يُوصِي به أنْ يُوصِيَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧).

٢- أنَّ الوصيَّة مُعتبَرَةٌ، ولو كان الإنسانُ قد وصَل إلى مُقدِّماتِ الموتِ وعلاماتِه، ما دامَ عَقْلُه ثابتًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ﴾[1].

٣- أنَّه يَنبغي الإشهادُ على الوصيَّةِ؛ لِقَوْلِه: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ﴾، وظاهرُ الآية الكريمة: أنَّه لا بدَّ من رجُلينِ؛ لِقَوْلِه: ﴿ٱثۡنَانِ﴾ واثنان عددٌ للمُذكَّر، لكن هذه الآية تُقيَّدُ بآية البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾[2] [البقرة: ٢٨٢].

٤- أنَّه يُشترطُ في الإشهادِ أنْ يكونَ الشاهدانِ ذَوَيْ عدْلٍ؛ لِقَوْلِه: ﴿ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ﴾، ولكن إذا لم يُوجد عدلٌ ووُجِد فاسقٌ مأمونٌ؛ فهل يقوم مقامَ العَدْلِ؟ اختار بعضُ أهل العِلمِ أنَّه يقوم مقامَ العَدْلِ، وأنَّ اشتراط العدالةِ إنَّما هو عند التحمُّلِ، بمعنى: أنَّك إذا أردتَ أن تُشهِدَ فلا تُشهِد إلَّا عدلينِ، أمَّا عند أداءِ الشَّهادَةِ فالضروراتُ لها أحكامٌ، فإذا لم نجِدْ مَن يَشهد إلَّا هذينِ الفاسقَينِ، لكنَّهما في الأمانة موثوقانِ، فإنَّنا نَقبل شهادتَهما، وهذا هو الصَّواب؛ أنَّ العدالةَ شَرْطٌ مع الإمكانِ، وأمَّا إذا لم يُمكن فإنَّه تُقْبَل شهادةُ الفاسقِ بشَرْط أن يكون ثقةً، وكم مِن إنسانٍ يكونُ فاسقًا في عِبادتِه لكنَّه أمينٌ في شهادته! ونعلم أنَّنا لو اتَّبَعْنا اشتراطَ العدالة في أداء الشَّهادة، مُعتبِرينَ الشُّروط التي ذَكَرَها الفقهاءُ في العدالة، أنَّ كثيرًا من الحقوق سوف تضيعُ؛ لأنَّ كثيرًا من الناس ليسُوا على الاستقامةِ التي ذَكَرَها الفقهاءُ رحِمَهم الله[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٧٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٠٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٨٣).

٥- جوازُ شهادةِ الكافر إذا عُدِمَ المسلمُ، سواء كان يهوديًّا أو نصرانيًّا أو بوذيًّا أو شيوعيًّا، أيًّا كان؛ لِقَوْلِه: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾[١]، والضروراتُ قد تُبيح المحظوراتِ؛ لأنَّ المسلمَ إذا قَرُب أجلُه في الغُربة، ولم يجدْ مسلمًا يُشهِده على نفْسِه، ولم تكن شهادةُ الكفَّار مقبولةً، فإنَّه يَضيع أكثرُ مهمَّاته؛ فإنَّه ربَّما وجبتْ عليه زَكَواتٌ وكفَّارات، وما أدَّاها[٢].

٦- في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ بيانُ أنَّ جوازَ الاستشهاد بآخَرينَ من غيرِ المسلِمين مشروطٌ بما إذا كان المستشهِدُ مسافرًا ضاربًا في الأَرْض، وحضرتْ علاماتُ نُزولِ الموتِ به[٣].

٧- جوازُ سفرِ المسلمِ مع الكافرِ إذا لم يكُن محذورٌ؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[٤].

٨- قَوْلُه تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إشارةٌ إلى تحليفِ الشَّاهدينِ في جمْعٍ من النَّاسِ[٥].

٩- شرعيَّة اختيارِ الأوقاتِ التي تُؤثِّر في قلوبِ الشُّهود ومُقْسِمي الأيمانِ، ويُرجى أن يَصدُقوا ويَبَرُّوا فيها؛ لِقَوْلِه: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[٦].

١٠- الغرضُ من التحليفِ بعدَ إقامة الصَّلاةِ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ هو أن الصَّلاة مُعظَّمة، والإنسانُ يخاف أنْ يَشهدَ بباطلٍ بعد هذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٧١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠١).

(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٨٩).

الصَّلاةِ التي ذَكَرها اللهُ عزَّ وجلَّ، إضافة إلى أنَّ الصلاةَ تَنهى عن الفحشاءِ والمنكَر؛ فكان احترازُ الحالفِ عن الكذبِ في ذلك الوقت أتمَّ وأكملَ، والله أعلم(١).

١١- التغليظُ على الحالِفِ بصيغةِ اليمينِ، بأنْ يقول فيه ما يُرجَى أنْ يكون رادعًا للحالفِ عن الكَذِبِ كالألفاظِ التي وردَتْ في قَوْلِه: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾، وأشدُّ منها ما ورَدَ في شهادةِ اللِّعانِ(٢).

١٢- أنَّه لا يُحلَف بغيرِ الله؛ لِقَوْلِه: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾، فلو أُقسِم بغيرِ الله حتى بمَن يُعَظَّم عندَهم كالمسيح مثلًا، فإنَّها لا تُقبَل ولا يُعتدُّ بها(٣).

١٣- أنَّ إقسامَ الشاهدَينِ لا يلزم إلَّا عند الارتيابِ في شهادتِهما؛ لِقَوْلِه: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾. وأنَّ للقاضي أن يُحلِّفَ الشاهدَينِ عند الارتياب في شهادتِهما؛ فالحُكم يدور مع عِلَّته؛ لأنَّنا لم نُحَلِّفْهما بالله إلَّا عند الارتياب، لا لكونهما من الكفَّارِ(٤).

١٤- أن يكونَ صفةُ الإقسامِ على هذا: ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾، والصواب أنَّه يَكفي المعنى؛ لأنَّ هذا اللفظ لا يُتعبَّد به؛ حتى نقولَ: لا يمكن أن يُغيَّر، بل عبَّر الله عزَّ وجلَّ عن المعنى بهذا اللَّفْظِ، إذنْ: فالمرجعُ إلى المعنى(٥).

١٥- الإشارةُ إلى أنَّ للقرابةِ تأثيرًا في المَيلِ والعاطفة؛ لقولهما: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٨٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٨٨).

﴿قُرۡبَىٰ﴾ وهذا شيءٌ فِطْريٌّ معروف، وقد أشارَ الله تبارك وتعالى إلى هذا في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[١] [النساء: ١٣٥].

١٦- إضافةُ الشَّهادة إلى (الله) في قوله: ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه هو الآمرُ بها وبحِفظها، وألَّا تُكتَم، ولا تُضَيَّع، كذلك أضافَها إلى الله تشريفًا لها، وتعظيمًا لأمرِها[٢].

١٧- الإشارةُ إلى أنَّ الإِرْثَ يكون للأَوْلى فالأَوْلى؛ لِقَوْلِه: ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ وقد جاء الحديثُ مقرِّرًا ذلك؛ فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ألْحِقوا الفرائضَ بأهلِها، فما بقِيَ فلِأَوْلى رجُلٍ ذَكرٍ))[٣].

١٨- أنَّه إذا احتِيجَ في الشَّهادةِ أو في القَسَم إلى إثباتٍ ونفيٍ، فلا بدَّ مِن ذِكرِ الإثبات والنَّفي، فقولهما- يعني الأَوليَينِ-: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ هذا إثباتٌ، ﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ هذا نفيٌ، فإذا احتِيجَ إلى ذلك فلا بدَّ مِن ذِكر النفيِ والإثبات؛ حتى تكونَ الشهادةُ خالصةً[٤].

١٩- أنَّ ردَّ الأَوْلَيَينِ لشهادَةِ الشَّاهدَينِ على سبيلِ الاعتداء أعظمُ اعتداءً مِن تغييرِ الشهادة من الشاهدَينِ؛ وجهُ ذلك أنَّه في تغييرِ الشَّهادةِ من الشَّاهدَينِ، قال: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾، وهنا قال: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٠).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٦٧٣٧) ومسلمٌ (١٦١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢٠- أنَّه كلَّما كان الشيءُ أقربَ إلى استنتاجِ الصوابِ والحقِّ في الشهادة فهو أَوْلى أن يُتَّبَع، لِقَوْلِه: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾؛ لأنَّ الإنسانَ إذا فَهِم أنَّ مِن ورائِه أناسًا سيقومون بردِّ شهادتِه والإقسامِ على بُطلانها، فلا بدَّ أن يتحرَّى الصدقَ فيما يشهدُ به[١].

٢١- أنَّ اللهَ سبحانه أخْبَر بأنَّه لا يَهدي القومَ الفاسقينَ، أي: الخارجينَ عن طاعتِه، وخَبَر الله صِدقٌ، لكنْ يُشكِل على هذا أنَّ الواقِعَ أنَّ الله قد يَهدي الفاسقينَ، وقد يَهدي الكافرينَ؛ فكيف نجمع بين الواقِعِ وهذا الخبرِ الصادِق؟ الجَمْع أن نقول: إنَّ قولَه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، أي: الذين كتَب اللهُ عليهم الفِسقَ، وأمَّا مَن كتَب عليه أن يؤمِنَ فيُؤمن ولا بدَّ، ولكنَّ الفائدة مِن هذا- أي: مِن إطلاقِ قولِه: ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾- الإشارةُ إلى أنَّ عدمَ هِدايةِ الله للقَوْمِ الفاسقين؛ لأنَّهم اختاروا الفِسقَ، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[٢] [الصف: ٥].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قَوْلُه**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ الأحكامِ المتعلِّقة بأمور دُنياهم إثرَ بيانِ الأحوالِ المتعلِّقة بأمورِ دِينهم، وتصديرُه بحرفَيِ النِّداءِ والتنبيهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾؛ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بمضمونِه[٣].

٢- **قَوْلُه**: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ **فيه**: التفاتٌ من الغَيبة إلى الخِطاب، ولو جرَى على لفظ: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ لكان التركيب: (إنْ هو ضرَبَ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٨٨).

في الأرض فأصابتْه مصيبةُ الموت)، وإنما جاءَ الالتفات جمعًا؛ لأنَّ قوله: ﴿أَحَدَكُمُ﴾ معناه: إذا حضرَ كلَّ واحد منكم الموتُ[١]، وقيل: بل ليس فيه التفاتٌ؛ لأنَّ الخطابَ جارٍ على أسلوبِ الخِطاب الأوَّل مِنْ قَوْلِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ ...﴾ إلى آخِره[٢].

٣- قَوْلُه: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾

- قوله: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ اعتراضٌ يفيد اختصاص القَسَم بحال الارتياب[٣].

- وقَوْلُه: ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا﴾ فيه كنايةٌ عن استبدال عَرَضٍ من الدُّنيا، وهو على حَذْف مضاف، أي: لا نَشْتَري ذا ثَمَن؛ لأنَّ الثَّمنَ لا يُشترى، ولا يَصِحُّ أن يكونَ ﴿لَا نَشۡتَرِي﴾ هنا بمعنى لا نبيع، وإنْ كان ذلك صحيحًا في اللُّغة[٤].

- وقَوْلُه: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ فيه حذْفُ جوابِ ﴿لَوۡ﴾؛ ثقةً بدَلالةِ ما سبَق عليه، أي: ولو كانَ ذا قربى لا نَشتري به ثمنًا[٥].

- وخصَّ اللهُ (ذا القُربى) بالذِّكر؛ لأنَّ الميلَ إليهم أتمُّ، والمداهنةَ بسببهم أعظمُ[٦].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ تأكيدُ تَبَرُّئِهما من الحَلِف كذبًا، ومبالغةٌ في التنزُّه عنه، كأنَّهما قالا: لا نأخُذُ لأنفسِنا بدلًا مِن حُرمةِ اسمِه تعالى مالًا،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٩٤).
(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٩٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٣).

ولو انضمَّ إليه رعايةُ جانب الأقرباء؛ فكيف إذا لم يكُنْ كذلك[١]؟!

٤- **في قوله تعالى:** ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ ... إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْأَٰثِمِينَ﴾ ناسبَ ختْمُ ما أقْسم عليه شاهدَا الزُّورِ بقولِه: ﴿لَّمِنَ ٱلْأَٰثِمِينَ﴾؛ لأنَّ عدَمَ مطابقة يمينهما للواقِع وكَتْمَهما الشهادةَ يجرَّانِ إليهما الإثمَ، وفي قوله: ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ناسَب ذِكْرُ الظلمِ هنا قولَهما: ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾؛ لأنَّ الاعتداءَ والظُّلم متقارِبان[٢].

٥- ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: إنَّما جمَع الضَّمائرَ هنا في ﴿يَأْتُوا۟﴾ وما بعدَه، وإن كان السابق مثنًّى، فلم يُثنِّها كما سَبَق؛ لأنَّه حُكمٌ يعمُّ الشُّهودَ كلَّهم؛ فإنَّه لا يعودُ إلى الشَّاهِدَينِ بخُصوصيَّتهما، بل إلى النَّاسِ الشُّهودِ، والتقدير: ذلك أدْنَى أنْ يحذرَ الناسُ الخيانةَ فيَشْهَدوا بالحقِّ خوفَ الفضيحةِ في ردِّ اليمينِ على المدَّعِي. وقيل: هو عائدٌ على الشَّاهِدَينِ باعتبارِ الصِّنفِ والنَّوعِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠١).

الآيتان (١٠٩ - ١١٠)

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: أي: جبريلَ عليه السَّلام، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يأتي بما فيه حياةُ القلوبِ، وأصل القُدس الطَّهارةُ[(١)].

﴿ٱلْمَهْدِ﴾: أي: مَضْجَعِ الصَّبيِّ فِي رَضاعِه، وما يُهيَّأ له، وأصلُه: التَّوطئةُ للشَّيءِ، وتَسهيلُه[(٢)].

﴿وَكَهْلًا﴾: أي: ابن ثلاثين سَنةً، والكَهْل: الذي انتهَى شبابُه، ومَن وَخَطَه الشيبُ، والكهولةُ فوقَ الغلومة، ودونَ الشَّيخوخةِ، وأصل (كهل): القوَّة في الشَّيءِ، أو اجتماع الجِبلَّة[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٥٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص:

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: أي: الفِقه، وتُطلَق الحِكمةُ على إصابةِ الحقِّ بالعِلم والعَمَل، وأصل (حكم): المنْع، والإحكامُ هو الفصلُ والتمييزُ، والفَرْقُ والتَّحديد الذي به يتحقَّقُ الشيءُ ويحصُل إتقانُه؛ ولهذا دخَل فيه معنى المنْع كما دخَل في الحدِّ، فالمنعُ جزءُ معناه لا جميعُ معناه، والحِكمة اسمٌ للعَقل، وإنَّما سُمِّي حِكمة؛ لأنَّه يمنع صاحبَه من الجَهل[١].

﴿وَتُبۡرِئُ﴾: وتَشْفِي، أصلُه من البُرء والبَراء والتبرِّي: وهو التفصِّي ممَّا يُكرَه مجاورتُه، والتباعُدُ من الشَّيءِ ومُزايلتُه، والمقصودُ هنا: السَّلامة من السُّقم[٢].

﴿ٱلۡأَكۡمَهَ﴾: الذي يُولَد أعْمَى، أو هو الذي يُولَد مَطموسَ العين، وقيل: هو الأعْمَى مطلقًا[٣].

﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾: الذي به مرضُ البَرَصِ، وهو مرضٌ معروفٌ يُصيب الجِلدَ، وهو لمعةٌ تُخالِفُ سائرَ لونِ الجلد[٤].

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: جمْع بيِّنة، وهي: الدَّلالة الواضحة؛ يُقال: بانَ الشَّيء وأبان،

---

٧٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٤٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧،٣٦)، ((الإكليل في المتشابه والتأويل)) لابن تيمية (ص: ١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

إذا اتَّضح وانْكشَف[١].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن بعضِ ما سيَجري يومَ القيامةِ؛ إذ يجمع سبحانه الرُّسلَ، فيسألُهم عن الذي أجابتْهم به أُممُهم حينَ بلَّغوهم دعوةَ الحقِّ، فيجيبُ الرُّسلُ بأنَّهم لا عِلْمَ لهم، وأنَّ اللهَ سبحانَه هو علَّامُ الغُيوبِ.

ويخبِرُ اللهُ تعالى أيضًا عن قولِه لعيسَى عليه السلامُ: يا عيسى ابنَ مريمَ، اذكُرْ نِعَمِي عليك وعلى والدتِك؛ إذ أعنْتُك وقوَّيتُك بجبريلَ عليه السَّلام، تُكلِّمُ الناسَ في صِغَرك وفي كِبَرك، وإذ علَّمتُك الكِتابةَ، والفَهمَ ومعرفةَ أسرارِ الشَّرعِ، وعلَّمتُك التوراةَ والإنجيلَ، وإذ تَصنَعُ من الطِّين كهيئةِ طائرٍ بإذني، فتنفخُ فيما صنعتَه من الطِّين، فيكونُ طيرًا ذا رُوحٍ بإذني، وتَشفِي مَن يُولَد أعْمَى، وتَشفِي مَن به داءُ البَرَصِ بإذني، وتُخرِجُ الموتى من قُبورِهم أحياءً بإذني، وإذ صددْتُ بني إسرائيلَ عنك وقد أرادوا قتْلَك لَمَّا جِئتَهم بالبيِّناتِ؛ فقال الكافرونَ منهم: ما هذا الذي أتيتَ به إلَّا سحرٌ واضحٌ ظاهرٌ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخْبَر تعالى بالحُكم في شاهِدَيِ الوصيَّة، وأمَر بتَقْوى اللهِ، والسَّمعِ والطَّاعة، ذكَّر بهذا اليومِ المَهُولِ المخوفِ، وهو يومُ القيامةِ فجَمَع بذلك بين فَضيحةِ الدُّنيا، وعقوبةِ الآخِرة لِمَن حرَّف الشهادةَ، ولِمَن لم يتَّقِ اللهَ ولم يَسمعْ[٢].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٢).

وأيضًا لَمَّا كان من عادةِ القُرآنِ الكريمِ أنَّه إذا ذَكَر أنواعًا كثيرةً من الشَّرائع والتَّكاليف والأحكامِ، أتْبَعَها إمَّا بالإلهيَّات، وإمَّا بشَرْحِ أحوالِ الأنبياء، أو بشَرْحِ أحوال القيامة؛ ليصير ذلك مؤكِّدًا لِمَا تَقدَّم ذِكرُه من التكاليف والشَّرائع، فلا جرمَ لَمَّا ذكَر فيما تَقدَّم أنواعًا كثيرة من الشَّرائعِ أتْبَعَها بوصْفِ أحوالِ القيامةِ أولًا، ثمَّ ذِكْرِ أحوالِ عيسى عليه السَّلامُ[(١)]، فقال تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾.

أي: اذكرْ يومَ يَجمَعُ الله تعالى جميعَ رُسُلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلام يومَ القيامة، فيسألُهم: ما الذي أجابتْكم به أُممُكم حين دَعوتُموهم إلى الحقِّ[(٢)]؟

كما قالَ تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الأعراف: ٦].

﴿قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

أي: قال الرُّسُلُ الكِرامُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام: لا عِلْمَ لنا، ولا يَخفَى عليك يا ربَّنا ما عِندنا من عِلمِ ذلك وغيرِه؛ فأنت العَليمُ ببواطن الخَلْق، والمطَّلِعُ على كلِّ شيءٍ[(٣)].

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠٩-١١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٢-٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨).

وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الغَرَضُ من قولِه تعالى للرُّسلِ: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾ توبيخَ مَن تمرَّدَ مِن أُمَمِهم، وكان أشدَّ الأممِ افتقارًا إلى التوبيخِ والملامةِ النَّصارى الذين يَزعُمون أنَّهم أتْباعُ عيسى عليه السَّلام؛ لأنَّ طَعْنَ سائرِ الأُمَم كان مقصورًا على الأنبياءِ، وطَعْنَ هؤلاء المَلاعِين تعدَّى إلى جلالِ الله وكِبريائِه؛ حيث وصَفُوه بما لا يَليقُ بعاقلٍ أن يصفَ الإلهَ به، وهو اتِّخاذُ الزوجةِ والولدِ؛ فلا جرَمَ ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه يُعدِّد أنواعَ نِعَمه على عيسى بحضرةِ الرُّسُلِ واحدةً فواحدةً، والمقصودُ منه توبيخُ النصارى وتقريعُهم على سوءِ مَقالتِهم؛ فإنَّ كلَّ واحدةٍ مِن تلك النِّعَم المعدودة على عيسى تدلُّ على أنَّه عبدٌ وليس بإلهٍ[1]، فقال تعالى:

﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾.

أي: اذْكُرْ حين نادَى الله تعالى عيسى عليه السَّلام[2] قائلاً له: اذكُرْ ما أَجريتُه عليكَ وعلى والدتِك مِنَ النِّعَم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٨).

(٢) ذهَب إلى وقوعِ ذلك يومَ القيامة: ابنُ عطية في ((تفسيره)) (٢/ ٢٥٧)، والقرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٣٦٢)، وابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ١٠٠). وجعَلَه ابنُ كثير احتمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٩).

ثمَّ شرَع اللهُ تعالى يُفصِّل تِلك النِّعمَ، فقال[١]:

﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

أي: حيثُ قوَّيتُك بجبريلَ عليه السَّلامُ، وأعنتُك به[٢].

﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

أي: تدْعُو النَّاسَ إلى اللهِ تعالى في حالِ صِغَرِك وكِبَرِك[٣].

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

أي: واذكُرْ- يا عيسى- أيضًا نِعمَتي عليك إذْ علَّمتُك الخطَّ والكتابةَ[٤]، والفَهمَ ومعرفةَ أسرارِ الشَّرع، وعلَّمتُك التوراةَ والإنجيل[٥].

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ ثلاث قراءات:

١- ﴿... كَهَيْئَةِ الطَّائِرِ... فتكُونُ طَائرًا﴾، أي: إنَّه كان يَخْلق واحدًا ثمَّ واحدًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٣-١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨).

(٤) وقيل المرادُ بالكتاب هنا: جِنسُ الكتُب السَّابقة. وهو اختيارُ السعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٢-٥٠٣).

(٦) قرأ بها أبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).

٢- ﴿... كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ... فَتَكُونُ طَائِرًا﴾ أي: تُقدِّر هيئةً كهيئةِ الطَّير، فتكونُ الهيئةُ طائرًا، أي: كلُّ هَيئةٍ تُقدِّرها تكونُ واحدًا مِن الطَّير(١).

٣- ﴿... كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ... فَتَكُونُ طَيْرًا﴾، أي: إنَّ الله تعالى أذِنَ له أن يَخلُقَ طيرًا كثيرةً، ولم يكن يَخلُقُ واحدًا فقط(٢).

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾.

أي: تُصوِّر الطِّينَ، وتَصنَعُ منه هيئةَ طائرٍ بإذني، فتنفخُ في تِلك الصُّورةِ التي شكَّلتَها، فتكونُ طائرًا ذا رُوحٍ بإذني(٣).

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾.

أي: وتَشْفِي مَن يُولَد أعْمى، ومَن به داءُ البَرَص الذي يُصيب الجِلدَ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وتُخرجُ الموتَى من قُبورِهم أحياءً بإذنِ الله تبارَك وتعالى(٤).

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

مُناسَبَتُها لِمَا قَبْلَها:

ويُنظر لمعنى القراءتين: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٦٤).

(١) قرأ بها نافع ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر لمعنى القراءتين: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر لمعنى القراءتين: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٣-٥٠٤).

بعدَ أن ذكَر اللهُ سبحانَه بعضَ ما أعطاه لعيسَى عليه السَّلام مِن معجزاتٍ فيها مِن المنافعِ، أتْبَعها بذكرِ ما دفَع عنه مِن مضارَّ[١]، فقال:

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: واذكُرْ- يا عيسى- أيضًا نِعمتي عليك، في صدِّي بني إسرائيلَ عنك، وقدْ همُّوا بقتْلِك حين جِئتَهم بالحُججِ والبَراهينِ على رِسالتِك، فحَفِظتُك منهم وعصَمتُك[٢].

﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿سِحْرٌ﴾ قِراءتان[٣]:

١- قِراءة ﴿سَاحِرٌ﴾- بالألِف على أنَّه اسمُ فاعلٍ- إشارةً إلى عِيسى عليه السَّلام[٤].

٢- قِراءة ﴿سِحْرٌ﴾ -مِن غيرِ ألِفٍ على أنَّه مصدرٌ- إشارةً إلى ما جاءَ به عيسى عليه السَّلام من البيِّنات، أي: ما هذا الَّذي جاءَ به من الآياتِ الخَوارقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٥-١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٥).

(٣) قال ابنُ جرير: (والصوابُ من القول في ذلك: أنَّهما قِراءتانِ معروفتانِ صحيحتَا المعنى، متَّفقتانِ غير مُختلفتَينِ؛ وذلك أنَّ كلَّ مَن كان موصوفًا بفِعل السحر فهو موصوفٌ بأنَّه ساحر، ومَن كان موصوفًا بأنَّه ساحر فإنَّه موصوفٌ بفِعل السحر، فالفعل دالٌّ على فاعله، والصِّفة تدلُّ على موصوفها، والموصوف يدلُّ على صِفته، والفاعل يدلُّ على فعله، فبأيِّ ذلك قرأ القارئ فمصيب) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٦).

(٤) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٧-٢٢٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٩٨).

إلَّا سِحرٌ[١].

﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

أي: فقال كفَّارُ بني إسرائيلَ: ما هذا إلَّا ساحرٌ ظاهرٌ ذُو سِحرٍ جليٍّ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يَتذكَّرَ هذا اليومَ العظيمَ؛ لينظرَ ماذا أجابتْ به الرُّسُلُ، وهو يومُ القِيامة حين يُجمَعُ الرُّسُل ويُسأَلون[٣].

٢- التَّنصيصُ على النِّعمة بالعِلم والشَّرعِ والحِكمة، وأنَّها أخصُّ من مطلَق النِّعمة؛ لأنَّ مُطلَق النِّعمة سبَقَ في قَوْلِه تعالى: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ أما العِلمُ فخصَّه بقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، وعلى هذا فيجبُ على طالبِ العِلم أنْ يَشكُرَ اللهَ تعالى على نِعمتِه عليه؛ حيث خصَّه بالعِلم الذي حَرَمَهُ كثيرًا من النَّاسِ، وإذا منَّ اللهُ عليه بالعِبادةِ والدَّعوة إلى الله صارَ نِعمةً فوقَ نِعمةٍ؛ مِمَّا يدعوه إلى المُثابرةِ والصبرِ على ما هو عليه مِن طلبِ العِلم، وازديادِ العبادةِ، وقوَّة الدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ[٤].

٣- في قَوْلِه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ تذكيرُ الله سبحانه وتعالى عِبادَه بنِعَمِه عليهم، وهذا جاءَ في القرآنِ في غيرِ

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٧-٢٢٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٠).

ما موضعٍ، مِثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [فاطر: ٣]، أحيانًا يكون عامًّا كهذه الآية، وأحيانًا يكون خاصًّا؛ مثل قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وما أشبه ذلك؛ وإنَّما يُذكِّر اللهُ العبادَ بالنِّعمة من أجْلِ وجوبِ شُكرها؛ لأنَّ وجوبَ شُكر المنعِم ثابتٌ سَمْعًا وعقلًا، أمَّا السَّمع فمملوءٌ به القرآنُ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وأمَّا عَقْلًا: فلأنَّه ليس من المروءةِ أن تُقابَل النِّعمةُ بالإساءةِ والكُفر؛ فشُكْرُ المنعِم إذنْ واجبٌ سمعًا وعقلًا[١].

٤- أنَّ اللهَ يُدافِعُ عن المؤمنينَ، وأنَّ كَفَّ الأذَى عن الإنسانِ مِن نِعمةِ اللهِ عليه؛ لقولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ ولهذا امتنَّ اللهُ به على المؤمنينَ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]، فكلَّما كان الإنسانُ أشدَّ إيمانًا بالله عزَّ وجلَّ دفَعَ اللهُ عنه، وتسليطُ بعضِ الناس عليه بالإيذاءِ ما هو إلَّا كتسليطِ المَرَضِ على الرُّسُلِ والأنبياءِ من باب رِفعةِ الدَّرجاتِ، وإلَّا فلا شكَّ أنَّ هناك أئمَّةً مِن هذه الأمَّة أُوذُوا أشدَّ الإيذاء، بل الرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام يُؤذَوْنَ؛ كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ [الأنعام: ٣٤]، لكنْ هذا من باب رِفعةِ الدَّرجاتِ[٢].

٥- تشجيعُ الدَّاعي إلى اللهِ عزَّ وجل الذي يأتي بالآياتِ البيِّناتِ؛ فإنَّه عُرضةٌ للإيذاءِ لِقَوْلِه: ﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، فكلُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٥).

إنسانٍ يَدْعو إلى اللهِ، ويأتي بالبراهينِ والأدلَّة، لا بدَّ أنْ يُسلَّطَ عليه مَن يُسلِّطُ، ولكنَّ اللهَ تعالى بقُوَّتِه وقُدرتِه يَصرِفُ عنه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ معرفةُ تمامِ قُدرة اللهِ تبارَك وتعالى؛ وذلك بجَمْعِه الرُّسُلَ في ذلك الموقِف العظيمِ، الذي يَختلطُ فيه الآدميُّون والوُحوشُ والسِّباعُ والإبلُ وغيرها، فيَجمَعُ اللهُ سبحانه وتعالى الرُّسلَ بقُدرتِه وإذْنِه[٢].

٢- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ فضيلةُ الرُّسُلِ عليهم الصلاة والسلام؛ حيث إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يَعتني بهم هذا الاعتناءَ، حتى إنَّه يسألُهم يومَ القيامَةِ في هذا المشهَدِ العظيمِ: ماذا أُجِيبوا؟ تكريمًا لهم، وإظهارًا لإبلاغِهم الرِّسالةَ[٣].

٣- لَمَّا كان ممَّا لا يَخفى أصلًا أنَّهم أُجيبوا، ولا يقعُ فيه نزاعٌ، ولا يتعلَّقُ بالسُّؤال عنه غرضٌ، تجاوزَ السُّؤالَ إلى الاستفهامِ مِن نوعِ الإجابةِ، فقال: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ أي: أيَّ إجابةٍ أجابَكم مَن أُرْسِلْتم إليهم؟ إجابةَ طاعةٍ، أو إجابةَ معصيةٍ[٤].

٤- في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ دليلٌ على جوازِ إطلاق لفْظ العلَّام على الله سبحانه، كما جاز إطلاقُ لفظِ الخلَّاقِ عليه، أما العلَّامة؛ فإنَّهم أجمعوا على أنَّه لا يجوزُ إطلاقها في حقِّه تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٨).

٥- قدْ يُتوهَّمُ التعارُضُ بين ظاهِرِ قَوْلِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾، وهو يدلُّ على أنَّ الأنبياءَ لا يَشهدون لأُممهم، وبَيْنَ قَوْلِه تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٤١]، وفيه أنَّ الأنبياءَ يشهدون على أُممهم. والجَمْعُ بينهما من وجوهٍ:

الوجه الأوَّل: أنَّهم إنَّما قالوا: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾؛ لأنَّك تعلَمُ ما أَظهروا وما أضمروا، ونحن لا نعلم إلَّا ما أَظهروا؛ فعِلمُك فيهم أنْفَذُ مِن عِلْمِنا؛ فلهذا المعنى نَفَوُا العِلْمَ عن أنفُسِهم؛ لأنَّ عِلمَهم عندَ الله كَلَا علمٍ.

الوجه الثَّاني: أنَّهم قالوا: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾ إلَّا أنْ عَلِمْنا جوابَهم لنا وقتَ حياتِنا، ولا نعلمُ ما كان منهم بعدَ وفاتِنا، والجزاءُ والثوابُ إنَّما يحصُلانِ على الخاتمةِ، وذلك غيرُ معلومٍ لنا.

الوجه الثَّالث: أنَّ الحاصِلَ عندَ كلِّ أحدٍ مِن حالِ الغيرِ إنَّما هو الظنُّ لا العِلْم؛ فالأنبياءُ قالوا: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾ البتةَ بأحوالِهم، إنَّما الحاصلُ عندنا مِن أحوالهم هو الظنُّ، والظنُّ كان مُعتَبرًا في الدُّنيا؛ لأنَّ الأحكامَ في الدُّنيا كانت مبنيَّةً على الظنِّ، وأمَّا الآخرَة فلا التفاتَ فيها إلى الظنِّ؛ لأنَّ الأحكامَ في الآخرة مبنيَّةٌ على حقائِقِ الأشياء، وبواطنِ الأمورِ؛ فلهذا السببِ قالوا: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾ ولم يذكروا البتةَ ما معهم من الظنِّ؛ لأنَّ الظنَّ لا عِبرةَ به في القيامَةِ.

الوجه الرابع: أنَّهم لَمَّا علِموا أنَّه سبحانه وتعالى عالمٌ لا يَجهل، حكيمٌ لا يَسْفَه، عادلٌ لا يَظلِم، علِموا أنَّ قولَهم لا يُفيد خيرًا، ولا يدفعُ شرًّا، فرأوا أنَّ الأدبَ في السُّكوتِ، وفي تفويضِ الأَمْرِ إلى عدلِ الحيِّ القيومِ الذي لا يموتُ[1].

٦- جوازُ نسبَةِ الإنسان إلى أمِّه إذا لم يكُن له أبٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٤، ٤٩٥).

مَرۡيَمَ﴾[١].

٧- شرع الله في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ... إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ في تعديدِ نِعَمه على عيسى عليه السلام، لكن قولُ الكفَّارِ في حقِّه: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ ليس من النِّعَمِ؛ فكيف ذكَره هاهنا؟

والجواب: أنَّ مِن الأمثال المشهورة: أنَّ كلَّ ذي نِعمة محسودٌ؛ وطَعْنُ الكفَّارِ في عيسى عليه السلام بهذا الكلام يَدلُّ على أنَّ نِعَم اللهِ في حقِّه كانتْ عظيمةً، فحَسُنَ ذِكرُه عند تعديدِ النِّعَم[٢].

٨- قَوْلُه تعالى: ﴿ٱذۡكُرۡ﴾ فائدةُ هذا الذِّكر إسماعُ الأممِ ما خَصَّه به تعالى من الكرامةِ، وتأكيدُ حُجَّته على جاحدِه[٣].

٩- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ أنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام يجب عليهم الشُّكرُ، كما يجب على مَن أُرسِلَ إليهم؛ لأنَّ اللهَ أمَر عيسى أنْ يذكُرَ نِعمتَه عليه وعلى أُمِّه، والأنبياءُ أشدُّ الناسِ قِيامًا بشُكرِ النِّعمة[٤].

١٠- فضيلةُ جبريلَ عليه السَّلامُ؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ وأنَّه يُؤيِّد الأنبياءَ والرُّسُل[٥].

١١- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿بِإِذۡنِي﴾ أنَّ المسيحَ لم يُعطَ هذه القوَّةَ دائمًا، بل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٠، ٤٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٠٩).

كانتْ هذه الآيةُ كغيرها لا تقَعُ إلَّا بإذنٍ من الله، وتأييدٍ مِن لَدُنْه[١].

١٢- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ إطلاقُ لفظ الخَلْق على ما صنَعَه المخلوق، فلو صنعْتَ بابًا، تقول: خلقتُ بابًا، ويدلُّ لهذا قولُ الله تبارَك وتعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، والفرق بين خَلْق الخالِق، وخَلْق المخلوقِ: أنَّ خَلْقَ الخالق إيجادٌ مِن عدَمٍ على ما يُريد اللهُ عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦]، أمَّا خَلْق المخلوقِ: فهو تحويلُ مخلوقِ الله إلى صِفةٍ أخرى، وإلَّا فالأصلُ من الله عزَّ وجلَ؛ وذلك كأن يجعلَ مِن الذَّهب حُليًّا، أما أن يجعلَ من الحجرِ ذهبًا فلا يستطيعُ ذلك أحدٌ[٢].

١٣- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ أنَّه سبحانه وتعالى يَختارُ مِن الآيات أشدَّها إعجازًا؛ فإنَّه لم يَمُنَّ على عيسى بأنْ يخلُقَ أرنبًا أو قِطًّا أو ما أشبَهَ ذلك، بل طائرًا؛ لأنَّ الطيرانَ في الجوِّ أبلغُ من المشي على الأرض، فاختارَ اللهُ له أن يَخلُق طائرًا، يعني: على صورةِ الطَّير[٣].

١٤- ممَّا يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ أنَّ النَّفْخَ له تأثيرٌ في الأجسادِ إذا أراد الله عزَّ وجلَّ أن يُؤثِّرَ؛ لأنَّه نَفَخَ في الطيرِ الذي صنَعَه فصارَ طائرًا كما في القِراءة الأخرى، لَمَّا نفخَ فيه صارَ حيوانًا من الطيور، ثمَّ طار لتحقُّقِ أنَّه دخلَتْه الرُّوحُ، ومِن ثَمَّ جاءتِ القراءةُ على المريض عن طريقِ النَّفْثِ، والنَّفْث يتضمَّن نفخًا وريقًا، وهذا مؤثِّرٌ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥١١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٣).

بإذنِ الله عزَّ وجلَّ[١].

١٥- ممَّا يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِىۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِىۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ أنَّه لا يُمكن لأيِّ بشرٍ مهما أُوتيَ أن يحصُلَ له مرادُه إلَّا بإذنِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ كلَّ جملةٍ أو كلَّ كلمةٍ قيَّدها الله تعالى بإذنه؛ لئلَّا يدَّعِيَ مُدَّعٍ أنَّ الخَلْقَ لهم استقلالٌ في أفعالِهم، فيكون لهذه الفائدةِ فرعٌ، وهو الردُّ على القَدَريَّة، والقَدَرِيَّة هم الذين يقولون: إنَّ الإنسانَ مستقِلٌّ بعملِه، أي يخلُقُ فعلَه بنفسِه، فيأكُلُ ويَشرَبُ، ويَدخُل ويَخرُج، ويتحرَّك ويَسكُن، بإرادةٍ تامَّة ليس لله تعالى فيها تعلُّقٌ، وهذا يعني: إثباتَ خالقٍ مع الله عزَّ وجلَّ، أو إثباتَ مُوجِدٍ للحوادثِ مع الله عزَّ وجلَّ[٢].

١٦- قَوْلُه: ﴿بِإِذْنِى﴾ فيه إثباتُ إذنِ الله، والإذنُ المضافُ إلى الله عزَّ وجلَّ ينقسِمُ إلى قِسمين: إذنٍ كونيٍّ قدريٍّ، وإذنٍ شرعيٍّ تعبُّديٍّ؛ مثالُ الإذنِ الكونيِّ: هذه الآيةُ: ﴿تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾، ومثالُ الإذْن الشرعيِّ: قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]؛ إذ إنَّه مكَّنَ لهؤلاء مِن أنْ يَشْرَعوا لأقوامِهم ما لم يأذنْ به اللهُ، ومكَّن لأقوامٍ أن يَتعبَّدوا بهذه الشريعةِ البِدعيَّة، لكنْ شرعًا لا، والفائدةُ مِن معرفة القِسْمينِ: أنْ نؤمِنَ بأنَّ ما أذِنَ اللهُ فيه قَدَرًا فلا بدَّ من وقوعِه، وما لم يأذنْ به فلا يمكن وقوعُه، أمَّا شرعًا: فما أذِن اللهُ فيه شرعًا فقدْ يقَعُ وقدْ لا يقَعُ، وما لم يأذنْ فيه فقد يقَعُ وقد لا يقعُ، هذا هو الفرقُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٥).

١٧- في قوله: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ عطَفَ التذكيرَ بإبراءِ الأَكْمَهِ والأبرَصِ على ما قَبْلَه مباشرةً فلم يبدأْ بـ﴿إذ﴾، وبُدِئ بـ﴿إذ﴾ للتذكيرِ بإخراجِ الموتى، فكان عطفًا على قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، ولعلَّ نكتةَ ذلك أنَّ إبراءَ الأكْمَهِ والأَبْرَصِ مِن جِنس شفاءِ المرضِ الذي قد يقعُ بعضُ أفرادِه على أيدي غيرِ الأنبياءِ المرسَلين، ولا سيَّما مَن يظنُّ المرضى فيهم الصَّلاحَ والولايةَ، فلمَّا كان كذلك ذُكِرَ بالتَّبع لإحياءِ الصُّورة من الطَّيرِ، ولَمَّا كان إحياءُ الموتى أعظمَ منه جُعِل نعمةً مستقلَّةً فقُرِنَ بـ﴿إِذْ﴾، والمرادُ بالأكمهِ والأبرصِ والموتَى الجِنسُ[(١)].

بَلاغةُ الآيتين:

١- **قَوْلُه:** ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾

- فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في موضِع الإضمارِ؛ لتربيةِ المهابة، وتشديدِ التهويلِ[(٢)].

- وتخصيصُ الرُّسلِ بالذِّكر ليس لاختصاصِ الجَمْعِ بهم دون الأُمَمِ، كيف لا و﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]؟! بل لإبانةِ شرَفِهم وأصالتِهم، والإيذانِ بعدمِ الحاجةِ إلى التَّصريحِ بجَمْعِ غيرِهم بناءً على ظهورِ كونِهم أتباعًا لهم، ولإظهارِ سُقوطِ منزلتِهم، وعدمِ لياقتِهم بالانتظامِ في سِلْكِ جمْعِ الرُّسُل، كيف لا وَهُم عليهم السلامُ يُجمَعون على وجهِ الإجلالِ، وأولئك يُسحَبون على وجوهِهم بالأغلالِ[(٣)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))، وينظر: أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٢).

٢- **قَوْلُه:** ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾ هذا السُّؤالُ لتوبيخِ قَومِهم وأُمَمِهم؛ لتقومَ الحُجَّةُ عليهم، ويَبتدِئ حسابُهم، كما أنَّ سؤالَ الموءودةِ لتَوبيخِ الوائِدِ(١).

٣- **قَوْلُه:** ﴿قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾ استئنافٌ مَبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن سَوْقِ الكلام؛ كأنَّه قيل: فماذا يقولُ الرُّسُلُ عليهم السَّلام هنالك؟ فقيل: يقولون: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾(٢).

- والتعبيرُ بصيغَةِ الماضي ﴿قَالُواْ﴾ عن المستقبلِ؛ للدَّلالة على التقرُّر والتحقُّق، كما في قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ونظائرها؛ فعبَّر بالماضي عن المستقبلِ؛ لتحقُّقِ وقوعِه حتى كأنَّه وقَع(٣).

٤- **قَوْلُه:** ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ **فيه:** تعليل لذلك، أي فتَعْلَم ما أجابوا وأظهروا لنا، وما لم نَعْلَمْه مما أضمروه في قلوبهم، وفيه إظهارٌ للشَّكَاة، وردٌّ للأمر إلى عِلمه تعالى بما لَقُوا مِن قِبَلِهم من الخطوب، وكابَدُوا من الكروب(٤).

٥- **قَوْلُه:** ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ...﴾

- فيه تفصيلٌ بعد إجمال؛ حيث شرَع في بيان ما جرَى بَيْنَه تعالى وبين واحدٍ مِن الرُّسُل المجموعِينَ من المفاوضةِ على التفصيلِ، إثرَ بيانِ ما جرَى بينه تعالى وبين الكلِّ على وجهِ الإجمالِ، وتَخصيصُ شأنِ عيسى عليه السَّلام بالبيانِ تفصيلًا مِن بين شؤونِ سائرِ الرُّسُلِ عليهم السَّلام- مع دَلالتِها على كمالِ هوْلِ ذلك اليومِ، ونهاية سوءِ حال المكذِّبين بالرُّسُل-؛ لأنَّ شأنَه عليه السَّلامُ متعلِّقٌ بكِلَا الفَريقينِ مِن أهلِ الكِتابِ الذين نُعِيَتْ عليهم في السُّورةِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٠٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٣- ٩٤).

الكريمةِ جِناياتُهم؛ فتفصيلُه أعظمُ عليهم، وأجْلَبُ لحَسرتِهم وندامتِهم، وأَفَتُّ في أعضادِهم، وأدْخَلُ في صَرْفِهم عن غيِّهم وعنادِهم[١]، فقد وقع الاختلافُ بين طائفتَيِ اليهودِ والنَّصارى فيه إفراطًا وتفريطًا؛ هذه تجعله إلهًا، وهذه تجعله كاذبًا[٢].

- والتعبيرُ بصِيغة الماضِي دُون المستقبَل في قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ ...﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الوقوعِ، وعلى قُربِ القيامةِ حتى كأنَّها قد قامتْ ووقَعَتْ؛ وكلُّ آتٍ قريبٌ؛ قال الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[٣] [النحل: ١]، وقيل: لأنَّه ورَدَ على حِكاية الحالِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١] وغيره من الآيات، كلُّها خرَج على سبيلِ الحكايةِ عن الحالِ[٤].

- وإظهارُ الاسمِ الجَليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في مقامِ الإضمارِ؛ للمبالغة في التهويلِ[٥].

٦- **في قوله تعالى:** ﴿نِعْمَتِي﴾ أضاف اللهُ النِّعمةَ إليه؛ تنبيهًا على عِظَمها[٦].

٧- **قَوْلُه:** ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ خُصَّ التوراةُ والإنجيلُ بالذِّكر ممَّا تناوله الكتابُ والحِكمة- على القولِ بأنَّ المرادَ بالكِتابِ والحِكمةِ جِنسُ الكِتاب والحِكمة، فيدخل فيهما التوراةُ والإنجيل- إظهارًا لشَرفِهما[٧].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ١٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٥).
(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٥).
وعلى القول بأنَّ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو الخطُّ، و﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هي الكلامُ المحكَم الصَّواب؛ فليس فيه هذا الوجه.

٨- قَوْلُه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِىۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِىۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِىۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

- فيه التعبيرُ بالمضارعِ عن أفعالٍ مضَتْ (تَخْلُقُ - فَتَنْفُخُ - فتكُونُ - وَتُبْرِئُ - تُخْرِجُ)؛ لتصويرِ ذلك الماضِي، وتمثيلِه حاضرًا في الذِّهْن، كأنَّه حاضرٌ في الخارِجِ، لا لإفادةِ الاستمرارِ؛ فإنَّه فِعْلٌ مضَى، والكلامُ تذكيرٌ به كما وقَع إذ وقَع[1].

وفي هذه الآيةِ مناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قال هنا في سورةِ المائدة: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾، وقال تعالى في سورةِ آل عمرانَ: ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فخُصَّتْ آيةُ المائدةِ بتأنيثِ الضميرِ والفِعل ﴿فِيهَا فَتَكُونُ﴾، وخُصَّتْ آيةُ آل عِمران بتذكيرِ الضميرِ والفِعل ﴿فِيهِ فَيَكُونُ﴾، مع أنَّ المذكورَ في الموضعين ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾، وهو صالحٌ لأنْ يَعودَ الضميرُ إليه مُذكَّرًا أو مُؤنَّثًا، فيُرادُ (مِثلَ هيئةِ الطَّير)، وهو مُذكَّر، أو يُرادُ (هيئةً كهيئةِ الطَّيرِ)، وهي مُؤنَّثة؛ وذلك أنَّ الآيةَ في سورةِ المائدةِ المخصوصةِ بتأنيثِ الضَّميرِ العائدِ إلى ما يَخلُقه، هي في ذِكر ما عَدَّد اللهُ مِنَ النِّعمِ على عِيسى عليه السَّلام، وما أَصْحَبَه إيَّاه من المُعجِزات، وأَظهرَ على يدِه مِنَ الآيات، وابْتداؤُها: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ ...﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾، والإشارةُ في هذِه الآيةِ ليستْ إلى أوَّلِ ما يُبدِيه لبَنِي إسرائيلَ مِن ذلك مُحتجًّا به عليهم، وإنَّما هي إلى جميعِ ما أَذِنَ اللهُ تعالى في كونِه دَلالةً على صِدقِه، مِن قَبيلِ الصُّوَرِ التي يُصوِّرها

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٠٥).

من الطِّينِ على هيئةِ الطَّيرِ، وذلك جمعُ التأنيث أَوْلَى به.

وذُكِّرَ الضَّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ مِن آلِ عِمرانَ؛ لأنَّه في سِياقِ إخبارٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ عن عيسى- على نبيِّنا وعليه السَّلامُ- وقولِه عليه السَّلامُ لبَني إسرائيلَ: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: آخُذُ مِن الطِّينِ ما أُصوِّرُ منه صورةً على هيئةِ الطيرِ في تَركيبِه، فأنفخُ فيه، فينقلبُ حيوانًا لحمًا، قد رُكِّبَ عظْمًا وخالَط دمًا، واكتسَى ريشًا وجَناحًا كالطَّائرِ الحيِّ، والقصدُ في هذا المكانِ إلى ذِكر ما تقومُ به حُجَّتُه عليهم، وذلك أوَّلَ ما يُصوَّرُ الطِّينُ على هيئةِ الطير، ويكون واحدًا تلزمُ به الحُجَّة، فالتذكيرُ أَوْلَى به[1].

- وقيل: إنَّ قوله: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ الضَّميرُ فيه للكافِ في قولِه: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾؛ لأنَّها صِفةُ الهَيئةِ التي كان يَخلُقها عيسى ويَنفُخُ فيها، ولا يَرجِعُ إلى الهيئةِ المضافِ إليها؛ لأنَّها ليستْ مِن خَلْقِه ولا نَفْخِه في شيءٍ، والكافُ تُؤنَّثُ بحَسَبِ المعنى؛ لدَلالتِها على الهيئةِ التي هي مِثْلُ هيئةِ الطَّير، وتُذكَّرُ بحَسَبِ الظَّاهرِ، وإذا كان كذلِك جازَ أنْ يقَعَ الضَّميرُ عنها تارةً على وجه التذكيرِ، وأخرى على وجهِ التأنيثِ؛ وأمَّا وجهُ تخصيصِ كلٍّ مِن الموضعَينِ بالواردِ فيه؛ فمِن وجهين:

الوَجهُ الأوَّل: أنَّ الترتيبَ الذي استقرَّ عليه القرآنُ في سُوَرِه وآياتِه أصلٌ مُراعًى، وعودَةَ الضَّميرِ على اللَّفظِ، وما يَرجِعُ إليه أَوْلى، وعَوْدَته على المعنى ثانٍ عن ذلِك، وكِلا التَّعبيرينِ عالٍ فصيحٌ، فعادَ في آيةِ آل عِمران على الكافِ؛ لأنَّها تُعاقِب (مِثل)، وهو مُذكَّر، فهذا لحْظٌ لفظيٌّ، ثم عادَ في آيةِ المائدةِ إلى الكافِ من حيثُ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ٣٧٢ - ٣٧٤).

هي في المعنى صِفةٌ؛ لأنَّ المِثل صِفةٌ في التقديرِ المعنويِّ، فحصَلَ مراعاةُ المعنى ثانيًا على ما يجبُ كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٣١] بِعَودةِ الضَّميرِ في ﴿يَقْنُتْ﴾ مُذكَّرًا رَعْيًا لِلَفْظ ﴿مَنْ﴾، ثم قال: ﴿وَتَعْمَلْ﴾ بالتاءِ رَعيًا للمعنى، وهو كثيرٌ، ورَعْيُ اللَّفظِ في ذلك هو الأَوْلَى، فجرَى في آيةِ آل عِمران على ذلِك؛ لأنَّها مُتقدِّمةٌ في الترتيبِ، وجرَى في آيةِ المائدةِ على ما هو ثانٍ؛ إذ هي ثانيةٌ في التَّرتيبِ، وذلك على ما يجبُ.

الوجه الثاني: وهو أنَّه قد ورَدَ قبل ضميرِ آيةِ آل عِمران مِن لَدُنْ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ ...﴾ إلى قولِه: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٤٤- ٤٩] نحوٌ مِن عِشرينَ ضَميرًا مِنَ ضمائرِ المذكَّرِ، فورَدَ الضميرُ في قوله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ ضميرَ مُذكَّرٍ ليُناسِبَ ما تَقدَّمه، ويُشاكِلَ الأكثرَ الواردَ قَبْلَه. أمَّا آيةُ المائدةِ فمُفْتتَحَةٌ بقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ وخَلْقُه الطائرَ ونفخُه فيه مِن أَجلِّ نِعَمِه تعالى عليه؛ لتأييدِه بذلك، فناسَبَ ذلك تأنيثَ الضَّمير، ولم تَكثُرِ الضمائرُ هنا ككثرتِها هناك، فجاءَ كلٌّ مِنَ الآيتَينِ على أتمِّ مُناسبةٍ[(١)]، وقيل غير ذلك[(٢)].

- جاء هنا ﴿بِإِذْنِي﴾ أربعَ مرَّات عقيبَ أربعِ جُمَل؛ لأنَّ هذا موضعُ ذِكر النِّعمة، والامتنانِ بها، فناسَب الإسهاب[(٣)].

- وعبَّر هنا في آية المائدة بقوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ مُضافًا إلى ضَميرِه سبحانه فى أَربعةِ مواضعَ مع وَجازةِ الكلامِ، وتقارُب ألفاظِ الآية، وقد جرَى هذا الغرضُ في آيةِ آلِ عِمران، فورَد فيها ذلك في موضعينِ خاصَّةً مُضافًا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٠)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٨٣، ٨٤).
(٢) يُنظر: ((البرهان في توجيه متشابه القرآن)) للكرماني (ص: ٨٩- ٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٧).

إلى اسمِه سبحانه؛ حيث قال: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]؛ لأنَّ آيةَ آلِ عِمرانَ إخبارٌ وبِشارةٌ لمريمَ بما مَنَح لابنِها عيسى عليه السَّلام، وبمقالِه عليه السَّلامُ لبني إسرائيلَ تعريفًا برِسالتِه، وتحدِّيًا بمعجزاتِه، وتبريئًا مِن دَعوى الاستبدادِ، أو الانفرادِ بِقُدرةٍ في مقاله: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ...﴾ إلى قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩] إلى ما بَعْدَه، ولم تتضمَّنْ هذه الآيةُ غيرَ البِشارةِ والإعلامِ.

وأمَّا آيةُ المائدة فقُصِد بها غيرُ هذا، وبُنِيَتْ على تَوبيخِ النصارَى، وتعنيفِهم في مقالِهم في عيسى عليه السَّلامُ؛ فوَرَدتْ متضمِّنةً عَدَّه سبحانه إنعامَه على نبيِّه عيسى عليه السَّلامُ على طريقةٍ تُجارِي العتْبَ، وليس بعَتْبٍ، وذلك كقولِ القائلِ لعبدِه الأحبِّ إليه المتبرِّئِ مِن عصيانِه- ولكلامِ الله سبحانه المثلُ الأعلَى -: ألم أفعَلْ لك كذا؟ ألم أُعْطِكَ كذا؟ ويعدِّد عليه نعمًا ثم يقول: أَفَعَلَ لك ذلك غَيري؟ هل أحسَنْتَ إلى فلانٍ إلَّا بما أعطيتُك؟ فيقصدُ السَّيِّدُ بهذا قطعَ تخيُّل مَن ظنَّ أنَّ ما كان مِن هذا العبدِ مِن إحسانٍ إلى أحدٍ أنَّ ذلك مِن قِبَلِ نفسِه، وليس مِن قِبَل سيِّده، فإذا قرَّره السيدُ على هذا، واعترف العبدُ بأنَّ ذلك كما قال السيِّدُ، انقطعَتْ حجةُ مَن ظنَّ خلافَه، وتوهَّم استقلالَ العبدِ، فعلى هذا النحوِ- واللهُ أعلم- وردت الآيةُ الكريمةُ؛ لذلك تكرَّر فيها ما تَكرَّر مع الآياتِ قولُه تعالى: ﴿بِإِذْنِي﴾ وتكرَّر ذلك أربعَ مرَّاتٍ عقبَ أربعِ آياتٍ ممَّا خُصَّ به عليه السَّلامُ مِن خَلْقِ الطيرِ، والنَّفخِ فيه فيَحيَا، وإبراءِ الأكْمَهِ والأبرصِ، وإحياءِ الموتَى.

وهي مِن الآياتِ التي ضلَّ بسببِها مَن ضَلَّ مِن النَّصارَى، وحمَلَتْهم على قولِهم بالتثليثِ، تعالى الله عمَّا يقولون عُلوًّا كبيرًا؛ فأعْلَمَ اللهُ سبحانه وتعالى أنَّ تلك الآياتِ بإذنِه، وأكَّد ذلك تأكيدًا يرفَعُ توهُّمَ حوْلٍ أو قُوَّةٍ لغيرِ اللهِ سبحانه،

أو استبدادٍ ممَّن ظنَّه، ونزَّه نبيَّه عيسى عليه السلامُ عن نِسبةِ شَيءٍ من ذلك لنَفْسِه مُستقلًّا بإيجادِه، أو ادِّعاءِ فِعلِ شيءٍ إلَّا بقُدرةِ ربِّه سبحانه وإذْنِه، وبرَّأه مِن شَنيعِ مقالَتِهم؛ فآيةُ آلِ عمران بشارةٌ وإخبارٌ لمريم، وآيةُ المائدةِ واردةٌ فيما يقولُه سبحانه لعيسى عليه السَّلامُ توبيخًا للنَّصارى، فلمَّا اختلَفَ القصدانِ اختلفتِ العبارتانِ[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٨٤- ٨٥).

الآيات (١١١ - ١١٥)

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾: أي: قَذَفتُ في قلوبِهم، ويُطلَقُ الوحيُ والإيحاءُ على إلْقاءِ المعنى إلى صاحبِه، والإلهامِ، والإشارةِ والكِتابة؛ وأصلُ الوَحْي: يدُّل على إلْقاءِ عِلمٍ في إخفاءٍ، وكلُّ ما أَلْقَيتَه إلى غَيرِك حتَّى عَلِمَه فهو وَحْيٌ كيف كانَ[(١)].

و ﴿ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾: جمْع حوارِيٍّ، وهمْ أصفياءُ عِيسى عليه السَّلام، وشِيعتُه وناصِرُوه، وخُلاصةُ أصحابِه، وشاعَ استعمالُه في الَّذين خَلَصوا، وَأَخْلصُوا فِي التَّصْدِيق بالأنبياءِ ونُصرتِهم؛ قيل: سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم كانوا يُحوِّرون الثِّياب، أي: يُبيِّضونَها، واشتقاقُهُ من حُرْتُ الثوبَ، أي: أَخْلَصْتُ بياضَه بالغَسْلِ، ومنه يُقال للدَّقيق الأبيضِ النَّقيِّ: حُوَّارَى. وقيل: اشتقاقُه مِن: حارَ يحورُ: إذا رجَع، فكأنَّهم الرَّاجعونَ إلى اللهِ، وقيل: هو مُشتَقٌّ مِن نقاءِ القَلْبِ وخُلوصِه وصِدْقه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٨ - ٨٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)،

﴿عِيدًا﴾: أي: يَومًا نُعظِّمه، ونَعبُد اللهَ ونُصلِّي له فيه، وهو اليومُ الذي نزَلَتْ فيه المائدةُ، والعيد: كلُّ ما يُعاوِدُ الإنسانَ مرَّةً بَعدَ أُخْرَى، وأصل (عود): يدلُّ على تَثنيةٍ في الأمْرِ، ومنه العيدُ؛ لأنَّه يَعودُ كلَّ عامٍ، أو لأنَّه يُعادُ إليه أو لأنَّه اعتِيدَ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُذكِّر اللهُ تعالى نبيَّه عيسى عليه السَّلامُ ممتنًّا عليه بما يَسَّر له مِن أتْباعٍ، وأنَّه ألْهمَ سبحانه وتعالى الحواريِّينَ- وهم الخُلَّص من أصحابِ عيسى عليه السَّلامُ- أن يُؤمِنوا به عزَّ وجلَّ وبرسولِه عيسى عليه السلامُ، فأَعْلنوا إيمانَهم، واستشهدوه على أنَّهم مُسلِمونَ.

ثم يُذكِّر اللهُ سبحانه عيسى عليه السَّلام أيضًا حين قال له الحواريُّون: هل يفعل ربُّك إذا سألتَه أن يُنزِّل علينا مائدةَ طعامٍ من السَّماءِ، فأمَرَهم عيسى عليه السَّلام أن يتَّقوا اللهَ ولا يَطلُبوا هذا الأمرَ إنْ كانوا حقًّا مؤمنينَ. فأجابوه أنَّهم يُريدون أنْ يأكُلوا منها؛ لتَطمئِنَّ قلوبُهم، ويعلموا يَقينًا أنَّ عيسى صادقٌ فيما جاءَ به، ويكونوا شهودًا على هذه الآيةِ التي نزلتْ مِن الله، ويُبلِّغوها لِمَن لم يَشهَدْها، حينَها دعَا عيسى ربَّه أنْ يُنَزِّلَ عليهم مائدةً من السَّماء؛ تكونُ عيدًا لهم ولِمَن بعدَهم، وعلامةً وبُرهانًا منه تعالى تدلُّ على وحدانيَّتِه، وعلى صِدق ما جاء به عيسى، وأنْ يَرزُقَهم تعالى وهو خيرُ الرَّازقينَ. فأجابَ اللهُ سبحانه أنَّه مُنزِّلها عليهم، لكنْ مَن كفَرَ بعد إنزالِ هذه الآيةِ فإنَّه تعالى سيُعذِّبُه عذابًا شديدًا،

((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨١- ١٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٤).

لا يُعذِّبُه أحدًا من العالَمِين.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾.

أي: واذْكر أيضًا- يا عيسى- إذ يسَّرْتُ لك أتْباعًا وأنصارًا، فألهمتُ الخُلَّصَ مِن أصحابِك، وألقيتُ في قلوبِهم الإيمانَ بي وبرسولي[(١)].

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾.

أي: قال الحواريُّون: آمنَّا بما وجَب علينا اعتقادُه بقلوبِنا، واشهدْ علينا[(٢)] بأنَّنا خاضِعونَ لله تعالى، طائِعون له بأعمالِنا[(٣)].

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٠-٥٢٢).
اختار أنَّ المراد بالوحيِ هنا الإلهامُ: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٩/ ١١٦-١١٧)، وابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٢٤)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٤٨).
وقيل المراد: أوحيتُ إليهم بواسطتِك يا عيسى، فدعوتَهم إلى الإيمان باللهِ وبرسولِه، وجعلَه ابن كثير احتمالًا في ((تفسيره)) (٣/ ٢٢٤)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٤٨).
وذهَب ابن عثيمين إلى حمْل الآية على كِلا المعنيين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٠).

(٢) قيل: الخِطابُ مُوجَّه لله تعالى، وقيل: لعيسى عليه السلام. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٢-٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٢-٥٢٣).

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ قِراءتان:

١- قراءة (تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ) على الخِطاب من الحواريِّين لعيسى عليه السلام، يعني: هل تَقدِر يا عيسى، أنْ تَسألَ ربَّك، وكان الأَصْلُ على هذه القِراءَةِ (هَلْ تستطيعُ سؤالَ رَبِّك)، فحُذِفَ المضافُ (سُؤالَ)، وأُقيمَ المضافُ إليه (رَبِّك) مُقامَه؛ فأخَذَ إعرابَه فنُصِبَ[(١)].

٢- قِراءة ﴿يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، أي: هلْ يَفعلُ ربُّك؟ فلَفْظُه لفظُ الاستفهامِ، ومعناه معنى الطَّلبِ والسُّؤالِ[(٢)].

﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: اذكرْ حين قال الحواريُّون طلبًا لزيادةِ اطمئنانِ قُلوبِهم: يا عيسى ابنَ مريمَ، هل يفعَلُ[(٣)] ربُّك إذا سألتَه أن يُنزِّلَ علينا مائدةَ طعامٍ من السَّماءِ[(٤)]؟

﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

---

(١) قرأ بها الكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٨).
ويُنظر في معنى هذه القِراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٤٠-٢٤١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٢٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٨).
ويُنظر في معنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٣٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٤٣).

(٣) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ١١٨)، والواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٤١)، وابنِ عطيةَ في ((تفسيره)) (٢/ ٢٥٩)، واستحسنه القرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٣٦٥)، واختاره السعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٤٨)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٣-٥٢٤).

أي: قالَ عيسى عليه السَّلامُ للحواريِّين: الْزَموا التَّقوى، ولا تَسألُوا هذا الأمرَ إنْ كنتُم مؤمنينَ حقًّا، وإذا كنتُم كذلك فما حاجتُكم إلى هذه المعجزةِ[١]؟!

﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾.

أي: قال الحواريُّون: إنَّما أَرَدْنا مِن سؤالِك ذلك، التشرُّفَ بالأكلِ مِن تلك المائدةِ، فنعلمُ يقينًا قدرةَ الله على كلِّ شيء، وتسكُن بذلك قلوبُنا، ويَستقرُّ إيمانُها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

أي: ونعلمَ يقينًا صِدقَك يا عيسى، وصِدقَ ما جئتَ به، ونشهدَ على أنَّ المائدةَ آيةٌ من عند الله عزَّ وجلَّ، وحُجَّةٌ لنا نُبلِّغها مَن لم يَشهَدْها[٣].

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨-٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢٢-١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢٢-١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٧).

أي: دعَا عيسى عليه السَّلامُ ربَّه سبحانه مستجيبًا لطلبِ الحواريِّين، فقال: اللهمَّ ربَّنا، أنزِلْ علينا مائدةَ طعامٍ من السَّماء، نتَّخِذُ وقتَ نزولها عيدًا نَعبُدك فيه، ونتذكَّرُها نحن ومَن بعدَنا[١].

﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾.

أي: وتكونُ حجَّةً وعلامةً منك، يا ربِّ، على عبادِك، دالَّةً على وحدانيَّتِك وصِفاتِك، وعلى صِدْقِ ما جئتُ به[٢].

﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

أي: وأعْطِنا مِن عِندِك؛ فإنَّك يا ربِّ، خيرُ مَن يُعطي؛ فلا أحدَ أكرمُ منك[٣].

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾.

أي: قال اللهُ تبارَك وتعالى: إنِّي مُنزِّلها عليكم فمُطعِمكُموها، ولكن مَن وقَعَ منكم في الكفرِ بعدَ إنزالي هذه الآيةَ العظيمةَ، فإنِّي أُوقِعُ عليه عذابًا شديدًا، لا أُعذِّبُه أحدًا من عالَمِي زمانِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢٣-١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣١-٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣١-١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩).

اختار أنَّ المراد بالعالَمين هنا: عالَمُو زَمانِهم: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٩/ ١٣٢)، والواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٣٤٢)، وابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٢٥).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قَوْلُه تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ﴾ يدلُّ على التلطُّف والتأدُّب في السُّؤالِ، كما هو مناسبٌ لأهل الإيمانِ الخالِصِ، ليس شكًّا في قُدرةِ الله تعالى، ولكنَّهم سألوا آيةً لزيادَةِ اطمئنانِ قلوبِهم بالإيمانِ، بأن ينتقِلوا من الدَّليل العقليِّ إلى الدَّليلِ المحسوس؛ فإنَّ النفوسَ بالمحسوسِ آنَسُ، كما لم يكن سؤالُ إبراهيمَ بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] شكًّا في الحالِ[(١)].

٢- في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أمْرٌ بملازمة التَّقوى، وعدمِ تزلزلِ الإيمان؛ ولذلك جاءَ بـ﴿إِن﴾ المفيدة للشكِّ في الإيمانِ؛ ليعلمَ الداعي إلى ذلك السؤالِ خشيةَ أنْ يكونَ نشأَ لهم عن شكٍّ في صِدْقِ رَسولِهم، فسألوا معجزةً يَعلمون بها صِدقَه بعدَ أن آمنوا به، وهو قريبٌ من قوله تعالى لإبراهيمَ المحكيِّ في قوله: ﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِن﴾ [البقرة: ٢٦٠]، أي: ألم تكُن غنيًّا عن طَلَبِ الدَّليل المحسوس؛ فالمرادُ بالتقوى في كلامِ عيسى ما يَشملُ الإيمانَ وفروعَه[(٢)].

٣- أنَّه يَنبغي للإنسانِ في حالِ الدُّعاء أنْ يذكُر هذينِ المعنيَيْنِ: الألوهيَّةَ والربوبيَّةَ؛ لِقَوْلِه: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾؛ لأنَّ هذا نوعٌ من التوسُّل؛ يتوسَّلُ الإنسانُ

وقال ابنُ عُثيمين: (لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ألَا يجوزُ أن يكون هذا خاصًّا بعالَمي زمانهم؟

الجواب: إذا دلَّ دليلٌ على هذا فلا بأس، مِثل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]، أمَّا إذا لم يدلَّ دليلٌ فالأصل العُموم) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٠٦).

بألوهيَّةِ الله عزَّ وجلَّ وربوبيَّتِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- إثباتُ وحيِ الله عزَّ وجلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾، ووحيُ الله ينقسِمُ إلى قِسمين: وحيُ شرْعٍ، وهو لا يكون إلَّا للأنبياءِ والرُّسُل، ووحيُ إلهامٍ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨]، فالأوَّل يتعلَّق بالشَّرعِ، والثاني يتعلَّقُ بالكَوْنِ[٢].

٢- في قوله تعالى: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ قدَّم اللهُ تعالى ذِكْرَ الإيمانِ على الإسلامِ؛ لأنَّ الإيمانَ صِفةُ القلْبِ، والإسلامَ عبارةٌ عن الانقيادِ والخُضوعِ في الظَّاهِرِ، يعني: آمِنوا بقلوبِكم، وانقادُوا بظواهِرِكم[٣].

٣- أنَّ الإيمانَ باللهِ لا يتمُّ إلَّا بالإيمانِ برسولِه؛ لِقَوْلِه: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾[٤].

٤- جوازُ حذْفِ المعلوم؛ حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ ولم يقولوا: بكَ وبرسولِك؛ لأنَّ هذا معلومٌ، فالمُطلَق يُحمَل على المقيَّدِ إذا كان معلومًا، فإذا عقَد الإنسانُ عَقْدًا، وذكَر عند الإيجابِ شُروطًا، فقال الآخَرُ: قبلتُ البيعَ منك؛ مثال ذلك قال: بعتُك هذا البيتَ على أن أسكُنَ فيه سَنةً، فقال: قبلتُ البيعَ؛ هل يَثْبُت الشَّرطُ؟ نعمْ يَثبُت؛ لأنَّ قبولَه البيعَ، يعني القَبولَ بهذا الشَّرطِ، وإنْ لم يُذْكَر،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٧).

لكنَّه معلومٌ من السِّياقِ[١].

٥- جوازُ استثباتِ الشيءِ بالإشهادِ عليه؛ لِقَوْلِه: ﴿واشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[٢].

٦- قَوْلُه: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾، استُدلَّ به على أنَّ الإيمانَ هو الإسلامُ، ولكنَّ هذا القولَ على إطلاقِه فيه نظرٌ، والصوابُ أنَّ الإسلامَ إذا أُفرِدَ دخَل فيه الإيمانُ، وإذا ذُكِرَ مع الإيمانِ صارَ له معنًى آخَرُ، ويدلُّ لهذا التفصيلِ قولُ الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، يعني: لم يدخُلْ لكن قريبًا يدخُلُ؛ لأنَّ (لَمَّا) تُفيدُ النَّفيَ مع قُربِ المنفيِّ، وتُخَرَّج هذه الآيةُ بناءً على ذلك بأنَّهم جمَعوا بين الإيمانِ والإسلامِ، فيكون الإيمانُ في القلوبِ، والإسلامُ في الجوارحِ، يعني: أنَّهم آمنوا وانقادُوا انقيادًا تامًّا لأوامرِ اللهِ ورسولِه[٣].

٧- في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أتتْ هذه المعاطيفُ مُرتَّبةً ترتيبًا لطيفًا؛ وذلك أنَّهم لا يأكلونَ منها إلَّا بعدَ مُعاينةِ نُزولِها، فيجتمع على العِلم بها حاسَّةُ الرؤيةِ وحاسَّةُ الذَّوق؛ قال تعالى: ﴿نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ فبذلِك يزولُ عن القَلْب قلقُ الاضطراب، ويَسكُنُ إلى ما عاينَه الإنسانُ وذاقَه ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾، وباطمئنانِ القلبِ يَحصُلُ العلمُ الضروريُّ بصِدقِ مَن كانتِ المعجزةُ على يديه؛ إذ جاءت طِبْقَ ما سألَ ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾[٤].

٨- قَوْلُه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذه مُتعلِّقة بقولِه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤١١).

الإيمانَ يَحمِلُ على التقوى، وهي شرطٌ في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[١].

٩- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أنَّ وقوعَ الشيءِ يُعطي يقينًا أكثرَ من الخبرِ به[٢].

١٠- في قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ سأل عيسى عليه السَّلام نزولَها وأنْ تكونَ لهاتين المصلحتَينِ: مصلحة الدِّين، بأن تكونَ آيةً، ومصلحة الدنيا، وهي أنْ تكونَ رزقًا[٣].

١١- أنَّ ما جاء على خِلاف المعهودِ وكان خارقًا للعادة فهو آيةٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ وجهُ ذلك أنَّه لم يُعْهَد أنَّ المائدة تَنْزِلُ من السَّماء عِيانًا يُشاهدُها النَّاسُ، فيكونُ نزولُها- ولا سيَّما أنَّه بطَلَبٍ بعد اقتراحٍ- آيةً ودليلًا على صِدْق مَن تَكلَّم بالرِّسالة[٤].

١٢- في قولِه تعالى: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ إطلاقُ الرِّزق على غيرِ الله عزَّ وجلَّ؛ بمعنى: أنَّه يَصِحُّ أنْ نَصِفَ غيرَ الله بأنَّه رازقٌ؛ لأنَّ الرِّزْق بمعنى: العطاء، ولكنَّ الرِّزقَ الأكمَل والأَوفى هو رِزقُ الله تبارك وتعالى[٥].

١٣- إثباتُ الكلامِ لله عزَّ وجلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، وأنَّ كلامَه تعالى بحرفٍ وصوتٍ؛ لأنَّه تعالى قال قولًا وصَل إليه، ولا يُمكن أنْ يصلَ إليه إلَّا بصوتٍ، وأنَّ كلامَ الله تبارك وتعالى بحرفٍ، بل بحروفٍ متتابعةٍ؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥١٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهَ قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ﴾ وهذه حروفٌ متتابعةٌ لا إشكالَ فيها[١].

١٤- قَوْلُه تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ﴾ فيه تحذيرٌ لهم من الوقوعِ في الكُفْر بعد الإيمان؛ إعلامًا بأهميَّةِ الإيمانِ عند الله تعالى، فجعَل جزاءَ إجابتِه إيَّاهم ألَّا يعودُوا إلى الكُفرِ؛ فإنْ عادوا عُذِّبوا عذابًا أشدَّ من عذابِ سائرِ الكفَّار؛ لأنَّهم تَعاضَدَ لديهم دليلُ العقلِ والحِسِّ؛ فلم يَبقَ لهم عُذْرٌ[٢].

١٥- إثباتُ أنَّ العذابَ له أَعْلى وله أَدْنى؛ لِقَوْلِه: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فهذا دليلٌ على أنَّ العذابَ يتفاوتُ من شخصٍ لآخَر، وتفاوُتُ العذابِ أسبابُه كثيرة؛ منها: قلَّة الدَّاعي إلى الذنبِ؛ فإنَّ قلَّة الدَّاعي إلى الذَّنب تُوجِبُ شِدَّةَ العقوبةِ عليه، وانظرْ إلى قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ثلاثةٌ لا يُكلِّمهم الله يومَ القيامةِ، ولا يُزكِّيهم- وفي روايةٍ: ولا ينظرُ إليهم- ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، وملِكٌ كذَّابٌ، وعائِلٌ مستكبرٌ))[٣].

١٦- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ كُفرَ مَن رأوا الآياتِ ليس ككُفرِ مَن لم يَرَوْها؛ فالأوَّل أعظمُ، أي: مَن رأى الآياتِ؛ لأنَّ مَن رأى الآياتِ فقد رآها عينَ اليقينِ، ومَن نُقِلَتْ إليه فقدْ عَلِمَها عِلمَ اليقين، أي: بواسطةٍ[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قَوْلُه:** ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ في إيرادِ اللهِ تعالى لعِيسى عليه السَّلام

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣٩).
والحديث رواه مسلم (١٠٧) من حديث أبي هريرة.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤٠).

بعنوانِ الرِّسالة ﴿وَبِرَسُولِي﴾ تَنْبيهٌ على كيفيَّةِ الإيمانِ به عليه السَّلام، كأنَّه قيل: آمِنوا بوحدانيَّتي في الأُلوهيَّة والرُّبوبيَّة، وبرِسالة رسولي، ولا تُزيلوه عن حيِّزه حطًّا ولا رَفعًا[1]، مع ما في الإضافةِ مِن التَّشريفِ له.

٢- **قَوْلُه:** ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾

استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من سَوقِ الكلام، كأنَّه قيل: فماذا قالوا حِينَ أُوحيَ إليهم ذلك؟ فقيل: قالوا: آمنَّا...[2].

- وفيه مناسبة حسَنةٌ، حيث ثبتَتْ النونُ في آية المائدة هنا في قوله: ﴿بِأَنَّنَا﴾، وحُذفت من ﴿بِأَنَّا﴾ في آية آل عِمران في قوله: ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]؛ تخفيفًا، وكِلاهما جائز، والإثباتُ هو الأصل، ووجهُ تخصيصِ كلٍّ من الموضعين بما ورد فيه: أنَّ آية المائدة لَمَّا ورد فيها التفصيلُ فيما يجبُ الإيمانُ به، وذلك قوله: ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ فجاءَ على أتمِّ عبارةٍ في المطلوب وأوفاها، ناسَب ذلك ورود ﴿أَنَّنَا﴾ على أوْفَى الحالين، وهو الورود على الأصل. وقيل: لَمَّا كان الإيمانُ باطنًا فلا بدَّ في إثباتِه من دليلٍ ظاهر، وكان في سِياقِ عدِّ النِّعم، والطواعيةِ لوحيِ الملِك الأعظمِ دلُّوا عليه بتمامِ الانقيادِ، ناسَبَ المقامَ زيادةُ التأكيدِ بإثبات النون الثالثةِ في قولِهم: ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا﴾ بخِلاف آل عمران.

- وأيضًا قال تعالى في آل عمران: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ ...﴾ [آل عمران: ٥٢]، وقال هنا في المائدة: ﴿ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ ...﴾ [المائدة: ١١١] دون قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه لَمَّالم يقعْ إفصاحٌ بهذا التفصيلِ في آيةِ آل عمران؛ حيث قال:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، فلم يقع فيها (وَبِرَسُولِهِ)؛ إيجازًا للعِلم به وشهادةِ السِّياق، ولأنَّه تقدَّم ذِكر اللهِ فقطْ في آل عمران، وهنا في المائدة جاء ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ فلم يَتقيَّد بلفظ الجلالةِ؛ إذ قد تقدَّم ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾؛ فناسَب ما في آل عمران الإيجازَ، كما ناسَب الإتمامُ في آيةِ المائدةِ الإتمامَ، وجاء كلٌّ على ما يجب، ولو قُدِّر ورودُ العكسِ لَمَا ناسَب، والله سبحانه أعلمُ بما أراد[١].

٣- قَوْلُه: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ...﴾ كلامٌ مستأنفٌ لبيانِ بعضِ ما جرَى بين عيسى عليه السَّلام وقومِه، وهو منقطِعٌ عمَّا قبله بدليلِ الإظهارِ في موقِع الإضمارِ- حيث قال: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾، ولم يقل: (قالوا)- و﴿إِذۡ﴾ منصوبةٌ بفعل مُضمَر، تقديره: اذْكُر، وخُوطِبَ به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بِطَريقِ تلوينِ الخطابِ والالتفاتِ[٢].

- وابْتدأَ الحواريُّون خِطابَهم عيسى بندائِه باسمِه؛ للدَّلالة على أنَّ ما سيقولونَه أمرٌ فيه اقتراحٌ وكُلْفةٌ له، وكذلك شأنُ مَن يُخاطِب مَن يَتجشَّم منه كُلْفةً أن يُطيلَ خِطابَه؛ طلبًا لإقبالِ سمْعِه إليه؛ ليكون أوْعَى للمقصودِ[٣].

٤- قَوْلُه: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا﴾ فيه: تقديمُ الظرفِ ﴿عَلَيۡنَا﴾ على المفعولِ: ﴿مَآئِدَةٗ﴾ للاهتمامِ بالمقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المؤخَّر[٤].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٨).

- وأسندَ ذلك إلى المائدةِ في قَوْله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ لأنَّ شَرفَ اليومِ مُستعارٌ مِن شرَفِها[١].

٥- **قَوْلُه**: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تذييلٌ جارٍ مجرَى التَّعليل، أي: خيرُ مَن يرزقُ؛ لأنَّه خالقُ الأرزاقِ، ومُعطيها بلا عِوَضٍ[٢].

٦- **قَوْلُه**: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ التعبيرُ عن الجوابِ بصِيغة التَّفعيل ﴿مُنَزِّلُهَا﴾، المُنْبِئَةِ عن التكثيرِ، مع كونِ الدُّعاءِ منه عليه السَّلام بصيغة الإفعال ﴿أَنْزِلْ﴾؛ لإظهارِ كمال اللُّطفِ والإحسانِ، مع ما فيه مِن مراعاةِ ما وقَع في عِبارة السَّائلين ﴿يُنَزِّل﴾[٣].

- وفي تصديرِ الجُملةِ بكلمة التحقيق (إنَّ) وجعْل خبرها اسمًا (مُنزِّل) تحقيقٌ للوعد، وإيذانٌ بأنَّه تعالى مُنْجِزٌ له لا محالةَ، مِن غير صارفٍ يُثْنيه، ولا مانعٍ يلويه[٤].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١٦ - ١٢٠)

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾: أي: قبَضْتَني إليك؛ يُقال: تَوَفَّيْتُ الشيءَ واستوفيتُه: إذا أخذتَه كلَّه حتى لم تتركْ منه شيئًا، واستيفاءُ الشيءِ استقصاؤُه كلِّه، ومنه يُقال للميِّت: توفَّاه اللهُ، وأصل (وفي): يدلُّ على إكمالٍ وإتمام[1].

﴿ٱلرَّقِيبَ﴾: أي: الحافظَ، والعالمَ، والمطَّلِعَ، وأصل (رقب): انتصابٌ لمراعاةِ شيءٍ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

﴿يَوْمُ﴾: قُرِئَ بالرَّفْعِ والنَّصب، وهو مُعرَبٌ على القَوْلِ المُختارِ؛ لأنَّه مُضافٌ إلى مُعرَب، فبَقِيَ على حَقِّه من الإعرابِ؛ فعلى قِراءة الرَّفع فهو خبرٌ لـ ﴿هَٰذَا﴾. وعلى قِراءة النصبِ فهو منصوبٌ على أنَّه ظرفٌ للخبرِ المحذوفِ، أي: هذا يقَعُ أو يكونُ يومَ يَنفعُ. وقيل: إنَّ «يَوْمَ» مبنيٌّ في مَوضِعِ رفعٍ خَبرُ ﴿هَٰذَا﴾، ولكنَّه بُنِيَ على الفتْح؛ لإضافَتِه إلى الفِعلِ، وجُملة ﴿هَٰذَا يَوْمُ ...﴾ مَقولُ القولِ في مَحلِّ نصْبٍ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُذكِّرُ اللهُ تعالى بقولِه لعِيسى عليه السَّلام يَومَ القيامة بحَضرةِ النَّصارى؛ توبيخًا لهم: يا عيسى ابنَ مريم، هل أنتَ أَمَرْتَ الناسَ أن يَجعلوك وأمَّك معبودَينِ، تُعْبَدانِ مِن دون اللهِ تعالى؟ فيُجيبُ عيسى عليه السَّلام: أُنزِّهُك يا ربِّ، عن كلِّ ما لا يَليق بك؛ لا يَنبغي لي أنْ أقولَ ما ليس لي بحقٍّ، إنْ كنتُ قلتُه فأنت تعلمُه؛ فإنَّه لا يَخفى عليك شيءٌ، فأنت تَعلمُ ما أُضْمِرُه في نفْسي، ولا أعلمُ ما تُخْفيه في نفْسِك؛ إنَّك أنتَ علَّامُ الغيوب. ما قلتُ لهم إلَّا ما أمَرْتَني به أن يَعبدُوك؛ فإنَّك ربِّي وربُّهم، وكنتُ شاهدًا على أعمالِهم حينَ كنتُ بينهم، فلمَّا قبَضْتَني برَفْعي إلى السَّماء حيًّا، كنتَ أنتَ المطَّلِعَ عليهم، وأنتَ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ، إنْ تُعذِّبْهم فإنَّهم عِبادُك تفعلُ بهم ما تشاءُ، وإنْ تغفرْ لهم فإنَّك أنتَ العزيزُ الحكيم. قال الله مجيبًا له: هذا اليوم- الذي هو يومُ القيامة- هو الوقتُ الذي يَنفعُ الصَّادقين صِدقُهم، لهم جنَّاتٌ تَجري الأنهارُ من تحتِ أشجارِها وقصورِها، ماكثينَ فيها على الدَّوامِ، رضِيَ اللهُ عنهم ورضُوا عنه، ذلك هو الفوزُ العظيم.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّ له وحْدَه مُلكَ السَّموات والأرض وما فيهنَّ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

---

(١) يُنظَر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٤- ٢٤٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٧٧).

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: واذكُرْ يا محمَّدُ حِينَ يقولُ اللهُ تعالى لعيسى عليه السَّلام يومَ القيامةِ بحَضرةِ النَّصارى توبيخًا لهم: يا عيسى ابنَ مَريمَ، هل قُلتَ بنفسِك للنَّاس: اجْعَلوني أنا وأُمِّيَ مَعبودَينِ مِن دونِ اللهِ سبحانه وتعالى[1]؟

﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

أي: قال عيسَى عليه السَّلامُ: أُنزِّهك يا ربِّ، عن هذا الأمرِ الذي لا يَليق بكَ، وما يَنبغي لي أنْ أدَّعِيَ ذلك؛ فما أنا وأمِّي إلَّا عَبْدانِ مِن عِبادِك[2].

﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾.

أي: إنْ كان قد صدَرَ منِّي هذا فقدْ عَلِمْتَه يا ربِّ؛ فإنَّه لا يَخفَى عليكَ شيءٌ ممَّا قلتُه[3].

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤١-٥٤٢).
واختارَ هذا القولَ أنَّ ذلك يكونُ يومَ القيامةِ: ابنُ كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٣٢)، والشِّنقيطي في ((العذب النمير)) (٢/ ٣٩٨)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (٢/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤٢-٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٢).

أي: وأنتَ تَعلمُ يا ربِّ، ما أضمرتُه في نفْسي ممَّا لم أنطقْ به؛ فكيفَ بما قد نطقتُ به؟ ولا أعلمُ أنا ما أَخفيتَه عنِّي في نفْسِك، فلمْ تُطْلِعْني عليه؛ لأنِّي لا أعلمُ مِن الأشياءِ إلَّا ما أعلمتَنِيه؛ فأنت الربُّ الخالقُ، وأنا العبدُ المخلوق(١).

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦].

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

أي: فأنتَ العالمُ بخَفيَّاتِ الأمورِ التي لا يَعلمُها سِواكَ(٢).

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

أي: ما قلتُ لهم إلَّا الذي كلَّفْتني بإبلاغِه؛ فأنا عبدٌ متَّبِعٌ لأمرك، لا مُتجرِّئٌ على عظمتِك، فمَا أمرتُهم إلَّا بعبادةِ الله تعالى وحْدَه، الذي هو ربِّي وربُّهم، فأنا عبدٌ مربوبٌ مِثلُهم(٣).

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾.

أي: كنتُ شاهدًا على أعمالِهم حِينَ كنتُ بين أظهُرِهم(٤).

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٦-١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٣).

أي: فلمَّا قبَضْتَني إليك كنتَ أنتَ المطَّلِعَ عليهم دُوني[(١)].

عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((قامَ فينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خطيبًا بموعظةٍ، فقال: يا أيُّها الناسُ، إنَّكم تُحشَرون إلى اللهِ حُفاةً عراةً غُرْلًا؛ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ألَا وإنَّ أوَّلَ الخَلائقِ يُكسَى يومَ القيامةِ إبراهيمُ عليهِ السلامُ، ألَا وإنَّهُ سيُجاءُ برِجالٍ من أُمَّتي، فيُؤْخَذ بهم ذاتَ الشِّمالِ، فأقولُ: يا ربِّ، أصحابي، فيقال: إنَّك لا تَدري ما أحْدَثوا بعدَك، فأقول، كما قال العبدُ الصالحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧-١١٨]، قال: فيقال لي: إنَّهم لم يزالوا مُرتدِّينَ على أعقابِهم منذُ فارقْتَهم)) وفي رواية: ((فيقال: إنَّك لا تَدْري ما أحْدَثوا بعدَك))[(٢)].

﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أي: وأنتَ الذي تَشهَدُ على كلِّ شيءٍ، ولا يَخفى عليك شيءٌ، ثم تُجازي عبادَك بحسَب ما قدَّموه من خيرٍ وشرٍّ[(٣)].

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٥٠-٥٥٢).

وقد سبَق في تفسير سُورة آل عمران تفسيرُ قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾، أي: متوفِّيك وفاةَ نوم.

قال الواحديُّ: (﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ يَعني: رفَعْتَني إلى السَّماء). ((الوجيز)) (ص: ٣٤٣).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٧)، ومسلم ((٢٨٦٠) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩).

أي: إنْ تُقدِّرْ لهم فِعلَ ما يَستحقُّون أن يُعذَّبوا عليه؛ لأنَّهم أهلٌ لذلك، فإنَّهم عبادُك، الذين أنتَ أرحمُ بهم من أنفسِهم وأمَّهاتِهم، وأعلمُ بأحوالِهم، فلولا أنَّهم عبادٌ مُتمرِّدون مستحقُّون للعذابِ لم تُعذِّبْهم، وهم عِبادٌ مستسلِمون لك طَوعًا أو كَرهًا؛ فلا يَقدِرون على الامتناعِ ممَّا أردتَ بهم، ولا يَدْفَعون عن أنفُسِهم ضرًّا يَحُلُّ بهم[1].

﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: وإنْ قدَّرتَ لهم أسبابَ المغفرةِ فغَفرتَ لهم، فذلك صادرٌ عن تمامِ عِزَّتك (عزَّة القَدْر والقَهرِ والغَلبةِ والامتناعِ)، لا عنْ عجزٍ وذلٍّ وضَعْف؛ فإنَّك إن أردْتَ الانتقامَ منهم؛ فلا يقدِرُ أحدٌ أن يمنعَ عنك ذلك، لأنَّك العزيز، وصادرٌ أيضًا عن حِكمةٍ؛ فمِن مُقتضَى حِكمتِك أنْ تغفرَ لِمَن أتَى بأسبابِ المغفرةِ، فأنت الحكيمُ، تهدي مَن هدَيتَ مِن خَلقِك إلى التوبةِ، ونَيلِ مغفرتِك[2].

عن عبد اللهِ بنِ عَمرٍو رضي اللهُ عنهما: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تلا قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ في إبراهيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الآية، وقال عيسى عليه السَّلامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فرفعَ يديهِ وقال: اللهُمَّ، أُمَّتي أُمَّتي، وبكَى! فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: يا جبريلُ، اذهبْ إلى محمَّدٍ- وربُّكَ أعلمُ- فسَلهُ ما يُبكيكَ؟ فأتاهُ جبريلُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فسَألهُ، فأخبرهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بما قالَ -وهو أعلمُ- فقال اللهُ: يا جبريلُ، اذهبْ إلى محمَّدٍ فقلْ: إنَّا سنُرضِيكَ في أُمَّتكَ ولا نَسُوءُكَ))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١١٧) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٥).

(٣) رواه مسلم (٢٠٢).

وعن أبي ذرٍّ رضِي اللهُ عنه، قال: ((قامَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بآيةٍ حتى أصبحَ يُردِّدُها، والآيةُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾))[1].

﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا انقَضَى جوابُ عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام على هذا الوجهِ الجليلِ من تفويضِ الأمْر للهِ في قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، تشوَّف السامعُ إلى جوابِ اللهِ له، فقال تعالى مشيرًا إلى كونِ جوابه حقًّا ومضمونه صِدقًا، منبِّهًا على مَدْحه، حاثًّا على ما بُنِيَت عليه السُّورةُ مِن الوفاءِ بالعُقود[2].

﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ﴾ قراءتان:

١- قراءة ﴿هَذَا يَوْمَ﴾ بنَصْب ﴿يَوْمَ﴾ وجَعْلِه ظرفًا للفِعل ﴿يَنْفَعُ﴾، وجَعْل ﴿هَذَا﴾ إشارةً إلى ما تقدَّم من الكلام، فقيل: المعنى أنَّ هذا الغُفرانَ والعذابَ يقع في يومِ يَنفعُ الصَّادقين صِدقُهم[3]، وقيل: المعنى أنَّ الله تعالى أجابَ عيسى

(١) أخرجه ابن ماجة (١٣٥٠)، والنسائي (١٠١٠)، وأحمد (٢١٣٨٨)، والحاكم (٨٧٩).
صحَّحه الحاكم في ((المستدرك)) (٨٧٩)، وحسَّنه ابن القطان في ((بيان الوهم والإيهام)) (٥/ ٧٠١)، والألبانيُّ في ((صحيح ابن ماجة)) (١١١٨)، وحسَّن إسناده النوويُّ في ((الخلاصة)) (١/ ٥٩٥)، وصحَّح إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٣٧٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٦٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٢٨).
(٣) قرأ بها نافع. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٨).

حين قال: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ إلى قولِه: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فقال له عزَّ وجلَّ: هذا القولُ النافعُ، أو هذا الصِّدقُ النافعُ يومَ يَنفعُ الصَّادقين في الدُّنيا صِدقُهم ذلك في الآخِرة عندَ الله؛ فاليومَ وقتُ القولِ والصِّدقِ النَّافع(١).

٢- قِراءة ﴿هَذَا يَوْمُ﴾ برَفْع ﴿يَوْمُ﴾ وجَعْل ﴿هذا﴾ مبتدأً، و﴿يَوْمُ يَنْفَعُ﴾ خبرًا، والمعنى: أنَّ هذا يومُ منفعةِ الصَّادقين(٢).

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى مُجيبًا لعيسى عليه السَّلام: يومُ القيامةِ هذا هو الوقتُ الذي يَجِدُ فيه الصَّادِقون- الذين استَقامتْ أعمالُهم وأقوالُهم على الصِّراطِ المستقيمِ، فأَخْلَصوا للهِ تعالى واتَّبعوا شَرْعَه فيها- ثمرةَ صِدْقِهم(٣).

﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾.

مُناسَبَتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبر الله تعالى أنَّ صِدْقَ الصَّادقين في الدُّنيا يَنفَعُهم في القيامة، شرَح كيفيَّةَ ذلك النَّفعِ وهو الثوابُ(٤)، فقال تعالى:

﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾.

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٣٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٩).

أي: للصَّادقين جنَّاتٌ تَجري من تحتِ أشجارِها وقُصورِها الأنهارُ، ماكثِينَ فيها على الدَّوام[١].

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾.

أي: رضِيَ اللهُ عن هؤلاءِ الصَّادقينَ باعتناقِهم الإيمانَ، وبما قاموا به من طاعةِ الرحمنِ، ورَضُوا هم عن اللهِ تعالى في تَوفيقِه لهم إلى الصَّالحات، وفي وفائِه بوَعْدِه لهم بدُخولِ الجَنَّات[٢].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((ثمَّ يَتجلَّى لهم ربُّهم تعالى، ثم يقولُ: سَلُوني أُعطِكم، فيَسألونه الرِّضا، فيقولُ: رِضائي أَحَلَّكم دارِي، وأَنَالَكُم كرامتي، فسلُوني أُعطِكم، فيسألونَه الرِّضا، فيُشْهِدُهم أنَّه قدْ رَضِيَ عنهم))[٣].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

أي: هذا الثوابُ الذي مَنَحَهم الله تعالى إيَّاه- مِن دُخولِ الجَنَّاتِ التي تَجري مِن تحتِها الأنهارُ، خالدِين فيها أبدًا، مع رِضاه عنهم، ورِضاهم عن ربِّهم- هو الظَّفَرُ الكبيرُ الذي لا أَعْظم منه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٧-٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٢-١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٨).

(٣) أخرجه الدارميُّ في ((الرد على الجهمية)) (١٤٤)، وعبد الله بن أحمد في ((السنة)) (١/ ٢٥٠)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٢٠٨٤) والدارقطني في ((رؤية الله)) (٦١).
قال الذهبي في ((العلو)) (٣٠): مشهورٌ وافرُ الطرق. وقال ابن القيِّم في ((حادي الأرواح)) (٢٦٨): (حديثٌ كبيرٌ عظيمُ الشأن، رواه أئمة السنة، وتلقَّوه بالقَبول، وجمَّل به الشافعيُّ مُسندَه). وجوَّد إسنادَه البُوصِيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٢/ ٢٥٩)، وقال الهيتميُّ المكي في ((الزواجر)) (٢/ ٢٦٢): إسناده جيِّد قوي. وحسَّنه لغيره الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣٧٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٨-٥٦٩).

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٢٠﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ عزَّ وجلَّ ما جرَى بَينَه وبينَ عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وأنَّ عيسى تبرَّأ ممَّا يدَّعِي النصارى فيه؛ بَيَّنَ عزَّ وجلَّ أنَّ له مُلكَ السَّمواتِ والأرض، وأنَّ عيسى لا يَصلُح أنْ يكونَ إلهًا لا هو ولا غَيرُه؛ لأنَّهم لا يَملِكون شيئًا ممَّا في السَّمواتِ والأرض، فقال سبحانه[1]:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾.

أي: هو وحْدَه الخالقُ المالكُ للسَّمواتِ والأرضِ وما فيهنَّ، والمدبِّرُ لذلك كلِّه، فالجميعُ مِلكُه، وتحتَ قَهرِه وسُلطانِه وحْدَه سبحانَه، دون عيسى أو غيرِه مِن خَلْقِه[2].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: وهو سبحانه لا يُعجِزُه شيءٌ أرادَه، وجميعُ الأشياءِ مُنقادةٌ لمشيئتِه[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- إثباتُ عِلم اللهِ بما في نفْس الإنسانِ؛ لِقَوْلِه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾؛ فالله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٦).

قال ابن عاشور: (﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ عَطْفٌ على ﴿مُلْكُ﴾، أَي: للَّه ما في السَّمواتِ والأرضِ، كما فِي سُورةِ البقرةِ [٢٨٤] ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيفيدُ قَصْرَها على كونها للَّه لا لغيره، وليس معطوفًا على السَّمواتِ والأرضِ؛ إِذْ لا يحسُنُ أنْ يُقالَ: لِلَّهِ مُلْكُ ما في السَّمواتِ والأرضِ؛ لأنَّ المُلْك يُضافُ إلى الأقْطارِ والآفاقِ والأماكِنِ كما حكَى اللَّهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١]، ويُضافُ إلى صاحِبِ المُلْكِ، كما فِي قولِهِ: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٠٢]). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠).

عزَّ وجلَّ يعلمُ ما في القلبِ، فينبغي الحذَرُ من أن يكونَ فيه ما يُخالِفُ أمْرَ اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

٢- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أنَّه يجِبُ على العبدِ كمالُ مراقبةِ اللهِ تبارَك وتعالى، بحيثُ لا يَفقِدُه عندَ أمْرِه، ولا يَجِده عندَ نَهيِه؛ لأنَّ الله رقيبٌ عليه[٢].

٣- أنَّ عيسى عليه السَّلام وهو أحدُ أُولي العزمِ من الرُّسل، يُفوِّض الأمرَ إلى الله؛ حيثُ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وهكذا يجبُ علينا نحن أنْ نُفوِّضَ الأمرَ إلى الله عزَّ وجلَّ فيما يَفعلُه، ولا نَعترِضَ عليه؛ فالله يقول: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لكمالِ حِكْمته، ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾؛ لأنَّهم عابِدونَ للهِ عزَّ وجلَّ[٣].

٤- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ الحثُّ على الصِّدقِ، والترغيبُ فيه، وبيانُ الفائدةِ العظيمةِ في الصِّدقِ؛ لكونِه نافعًا للإنسانِ في ذلك الوقتِ الحَرِجِ، الذي يكون الإنسانُ فيه أحوجَ ما يكون إلى ما يَنفَعُه[٤].

٥- أنَّ الفوزَ حقيقةً ليس بربحِ الدِّينارِ والدِّرهم والجاهِ والرِّئاسةِ؛ الرِّبحُ العظيمُ أو الفوزُ العظيمُ هو فوزُ الإنسانِ بجَنَّاتِ النعيم- نسألُ اللهَ أن يَجعلَنا من الفائزِين بها- ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قَوْلُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ معنى (دون) إمَّا المغايرة أو القُصور؛ فعلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٦٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٥٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٦٢)، وينظر أيضًا: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٦٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٧٣).

المغايرة يكون فيه تنبيهٌ على أنَّ عِبادة الله سبحانه وتعالى مع عِبادةِ غيرِه كَلَا عبادةٍ، فمَن عبَدَه مع عِبادتِهما كأنَّه عبَدَهما ولم يَعبُدْه، وعلى القصورِ؛ فإنَّهم لم يَعتقِدوا أنَّهما مستقلَّانِ باستحقاقِ العبادةِ، وإنَّما زعَموا أنَّ عبادَتَهما تُوصِلُ إلى عبادةِ الله سبحانه وتعالى، وكأنَّه قيل: اتَّخِذوني وأمِّيَ إلهينِ مُتوصِّلِينَ بنا إلى الله سبحانه وتعالى[(١)].

٢- إثباتُ القولِ لله؛ لقولِه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾، ولِقَوْلِه: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وفي القرآن إثباتُ الكلام، وإثباتُ النِّداء، وكلُّ هذا يدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى يَتكلَّم بكلامٍ حقيقةً بحَرْفٍ وصوتٍ؛ أمَّا كونه بحرفٍ: فلأنَّ الكلماتِ التي جاءتْ بعدَ القول حروفٌ، وأمَّا كونه بصوتٍ؛ فلأنَّ الله تعالى يُخاطِبُ به عيسى، وعيسى يردُّ عليه، وهذا مذهبُ أهل السُّنَّة والجماعة، وهو الواجبُ على كلِّ مؤمنٍ[(٢)].

٣- في سؤالِ اللهِ عيسى عليه السلامُ بقولِه: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ ...﴾ دون النَّصارى مع كونِه تعالى عالِمًا بأنَّ عيسى عليه السَّلامُ لم يقُلْ ذلك- عِدَّةُ أوجه:

الأوَّل: أنَّ المرادَ به توبيخُ الكَفَرةِ الذين اتَّخذوا عيسى وأمَّه إلهينِ، وتَبكيتُهم[(٣)].

الثاني: أنه تعريضٌ بالإرهابِ، والوعيدِ بتوجُّه عقوبةِ ذلك إلى مَن قال هذا القولَ إنْ تَنصَّلَ منه عيسى، فيَعلَم أحبارُهم الذين اخترَعوا هذا القولَ أنَّهم المرادُ بذلك، والمعنى: أنَّه إنْ لم يكن هو قائلَ ذلِك، فلا عُذْرَ لِمَن قالَه؛ لأنَّهم زعَموا

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤٤).

أنَّهم يتَّبِعون أقوالَ عيسى وتعاليمَه[١].

الثالث: تحذيرُ عيسى عن قِيلِ ذلك ونهيُه، كما يقولُ القائلُ لآخر:(أفعلت كذا وكذا؟) ممَّا يعلم المقولُ له ذلك أنَّ القائلَ يستعظمُ فِعْلَ ما قال له:(أفعَلْتَه)، على وَجهِ النَّهي عن فِعلِه، والتَّهديدِ له فيه[٢].

الرابع: أنَّ المرادَ به إعلامُ عيسى أنَّ قومَه الذين فارَقهم قدْ خالفوا عَهدَه، وبدَّلوا دِينَهم بَعدَه[٣].

٤- في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ كانتِ المبادرةُ من عيسى عليه السَّلام بتنزيهِ الله تعالى أهمَّ مِن تبرئتِه نفْسَه بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ ...﴾ على أنَّها مُقدَّمة للتبرِّي؛ لأنَّه إذا كان يُنزِّه اللهَ عن ذلك، فلا جرمَ أنَّه لا يأمُرُ به أحدًا[٤].

٥- في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ ... إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ كمالُ أدَبِ المسيحِ عليه الصَّلاة والسَّلام في خِطابه لربِّه؛ فلم يقُلْ عليه السلام: (لم أقلْ شيئًا من ذلك)، وإنَّما أخبر بكلامٍ يَنفي عن نفْسِه أن يقولَ كلَّ مقالةٍ تُنافي منصبَه الشَّريفَ، وأنَّ هذا من الأمورِ المُحالةِ، ونَزَّه ربَّه عن ذلك أتمَّ تنزيهٍ، وردَّ العِلمَ إلى عالمِ الغيبِ والشَّهادة[٥] كذلك قوله: ﴿إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾؛ فهو يُشعِر بأنَّه رسولٌ مأمورٌ، مُكلَّفٌ بالأمْرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩).
وقيل: لم يقُلْ بأنِّي ما قلتُ هذا الكلام؛ لأنَّ هذا يَجري مجرى دعْوى الطَّهارة والنَّزاهة، والمقام مقامُ الخُضوعِ والتواضُع. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٥١).

٦- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أنَّه لا حقَّ لعيسى في الأُلوهيَّة ولا الربوبيَّة؛ ولذا تبرَّأَ عيسى عليه السَّلام من ذلك، وقال: إنَّه ليس بحقٍّ له، ونزَّه اللهَ تعالى أنْ يكونَ له شريكٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿رَبِّيٓ﴾ ومَن ليس له رُبوبيَّة ليس له أُلوهيَّة، فالألوهيَّة حقٌّ خاصٌّ لله، وإذا كان الرُّسُل- بل خُلاصةُ الرُّسُل- ليس لهم حقٌّ في الأُلوهيَّة، فمَن دُونَهم مِن باب أَوْلى؛ فلا أحدَ يستحقُّ أن يكونَ إلهًا، ولا أحدَ يستحقُّ أنْ نَعبُده مِن دونِ اللهِ عزَّ وجلَّ[(١)].

٧- قَوْلُه تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾ خصَّ النَّفْس؛ لأنَّها مَظِنَّةُ الكتْمِ، والانطواءِ على المعلومات[(٢)].

٨- في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ أنَّ مَن ادَّعى عِلمَ الغيبِ فقدِ ادَّعى أنَّه شريكٌ لله؛ وجهُ الدَّلالة: أنه أتَى بضميرِ فَصْل ﴿أَنتَ﴾ بَينَ طَرَفَي الجُملةِ، وهذا يَدُلُّ على الحَصْرِ، يعني: أنت لا غيرُك علَّامُ الغيوبِ[(٣)].

٩- أنَّ الرُّسُلَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام شهداءُ على أمَّتهم ما داموا فيهم؛ لِقَوْلِه: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡ﴾، ومع ذلك هم شهداءُ على ما يَرَوْنَ أو يَسمعونَ، وليسوا شهداءَ على غائبٍ بعيدٍ لا يَرونه ولا يَسمعونَه؛ لأنَّ الرُّسُل لا يَعلمونَ الغيبَ[(٤)].

١٠- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ حِكمةُ الله عزَّ وجلَّ في جَعْل الخَلْق يَنقسِمونَ إلى قِسمين: مُعذَّبٍ، ومغفورٍ له؛ كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾ [التغابن: ٢]، ولولا هذا الانقسامُ ما ظهَر فضلُ الإيمانِ، ولا شُرِعَ الجهادُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤٤، ٥٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٥١).

ولا الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ، ولا أُرْسِلتِ الرُّسُلُ، لكنْ حِكمةُ الله اقتضتْ أنْ يكونَ الناسُ قِسمينِ[١].

١١- قال تعالى: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾، ولم يقُلْ: (وَمَنْ فيهنَّ)، فغلَّب غيرَ العُقلاءِ على العقلاءِ؛ والسَّببُ فيه التنبيهُ على أنَّ كلَّ المخلوقاتِ مُسخَّرونَ في قبضةِ قَهْرِه وقُدرتِه، وقَضائِه وقَدَره، وهم في ذلك التَّسخيرِ كالجَماداتِ التي لا قُدرةَ لها، وكالبَهائِمِ التي لا عَقْلَ لها، فعِلْمُ الكلِّ بالنِّسبة إلى عِلْمه كَلا عِلْمٍ، وقُدرةُ الكلِّ بالنسبة إلى قُدْرَتِه كَلَا قدرةٍ[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قَوْلُه**: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾ استئنافٌ مُقرِّر للتنزيهِ، ومُبيِّن للمُنزَّه منه، وإيثارُ ﴿لَيۡسَ﴾ على الفِعل المنفيِّ؛ لظُهورِ دَلالتِه على استمرارِ انتفاءِ الحقِّيَّة، وإفادة التأكيدِ بما في حيِّزه من الباءِ في ﴿بِحَقٍّ﴾[٣].

٢- **قَوْلُه**: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥ﴾ استئنافٌ مُقرِّر لعدمِ صُدور القولِ المذكورِ عنه عليه السَّلامُ بالطريقِ البُرهانيِّ؛ فإنَّ صدورَه عنه مستلزِمٌ لعِلمِه تعالى به قطعًا، فحيثُ انتفى عِلمُه تعالى به انتَفَى صدورُه عنه حتمًا؛ ضرورةَ أنَّ عدمَ اللازمِ مُستلزِمٌ لعدمِ الملزومِ[٤].

٣- **قَوْلُه**: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾ استئنافٌ مَسُوقٌ لبيانِ ما صدر عنه قد أُدْرِجَ فيه عدمُ صدورِ القولِ المذكورِ عنه على أبلَغِ وَجْهٍ وآكَدِه؛ حيث حَكَمَ بانتفاءِ صُدور جميعِ الأقوال المغايِرَة للمأمورِ به، فدخَل فيه انتفاءُ صدورِ القولِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٠-١٠١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المذكور دخولًا أوَّليًّا، أي: ما أمَرْتُهم إلا بما أمَرْتَني به[١].

- وعبَّر بقولِه: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ ﴾، ولم يقُل: (ما أمرتُهم إلَّا ما أمرتَني به)، وهو مِن بابِ وضْعِ القَولِ موضِعَ الأمْر؛ نُزولًا على مُوجِبِ الأدبِ الحَسَن؛ لئلَّا يَجعَلَ نفْسَه وربَّه آمِرَينِ معًا[٢].

٤- قَوْلُه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ استئنافٌ جرَى مجرَى التعليلِ لِمَا قبْلَه، كأنَّه قيل: لأنَّك تعلمُ ما أُخفيه في نفْسي؛ فكيف بما أُعلِنه[٣]؟!

٥- **قَوْلُه:** ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ تعليلٌ لمضمون الجُمَلتين منطوقًا ومفهومًا، وهو تقريرٌ وتأكيدٌ للجُملتَينِ: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾؛ لأنَّ ما انطوتْ عليه النفوسُ مِن جُملة الغيوبِ، ولأنَّ ما يَعلمُه علَّامُ الغيوبِ، لا يَنتهي إليه عِلمُ أحدٍ[٤].

٦- قَوْلُه: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّر لِمَا قَبلَه، وفيه إيذانٌ بأنَّه تعالى كان هو الشَّهيدَ على الكلِّ حِين كونِه عليه السَّلام فيما بينهم وشِبه الجُملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مُتعلِّق بشهيد، وتقديمُه لمراعاةِ الفاصلة[٥].

- والتعبير بصِيغة فَعِيل ﴿شَهِيدٌ ﴾؛ للمبالغةِ في وصْفِه بكونِه شهيدًا، أي: رقيبًا، كثيرَ الحِفظِ عليهم[٦].

٧- **قَوْلُه:** ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾: في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٠-١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٩٣)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٠-١٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤١٩).

ختامِ هذه الآيةِ بقوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾- مع كون المتبادَر أنْ تُختَمَ بقولِه: (فإنَّك أنت الغفور الرحيم)- مناسَبةٌ حسنةٌ لطيفةٌ، وفي هذه المناسبة أوجهٌ؛ منها: أنَّ مقصودَ عيسى عليه السَّلام تفويضُ الأمورِ كلِّها إلى اللهِ تعالى، وترْك الاعتراضِ بالكليَّة؛ ولذلك ختَم الكلام بقَوْلِه: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: قادرٌ على ما تُريد في كلِّ ما تفعلُ، لا اعتراضَ عليك؛ فإنَّه لو قال: (فإنَّك أنت الغفور الرحيم)، أشْعَرَ ذلك بكونِه شفيعًا لهم، فلمَّا قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ دلَّ ذلك على أنَّ غرَضَه تفويضُ الأمرِ بالكليَّةِ إلى اللهِ تعالى، وترْك التعرُّضِ لهذا البابِ من جميعِ الوجوهِ، ففوَّض أمْرَهم إلى اللهِ؛ فهو أعلمُ بما يُجازيهم به؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إمساكٍ عن إبداءِ رغبةٍ؛ لشدَّةِ هولِ ذلك اليومِ، وغايةُ ما عَرَّضَ به عيسى أنَّه جوَّزَ المغفرةَ لهم رحمةً منه بهم[(١)].

ومنها: أنَّه لا يَحتمِل إلَّا ما أَنزلَه اللهُ تعالى؛ لأنَّ المعنى مُتعلِّق بالشَّرطينِ جميعًا؛ إذْ لو ختَمها بقولِه: (فإنَّك أنتَ الغفورُ الرحيم) ضَعُف معناه؛ فإنَّه ينفردُ الغفورُ الرحيمُ بالشَّرْط الثاني ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، ولا يكون له بالشَّرطِ الأوَّل تعلُّقٌ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾، وأمَّا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ على ما أَنْزلَه اللهُ تعالى، وأجْمَع على قِراءتِه المسلمون؛ فهو مُتعلِّقٌ بالشَّرطينِ مِن جِهةِ المعنى أولِّهما وآخِرِهما؛ إذ تلخيصُه: إنْ تعذبْهم فأنتَ العزيزُ الحكيمُ، وإنْ تغفرْ لهم فأنتَ العزيزُ الحكيمُ في الأمرينِ كِلَيْهما من التعذيبِ والغفرانِ، فكان ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أليقَ بهذا المكانِ لعمومِه، وأنَّه يَجمَعُ الشَّرْطَيْنِ، ولم يَصْلُحِ (الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) أنْ يَحتمِلَ ما احتملَه ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[(٢)].

ومنها: أنَّ هؤلاءِ قد استحقُّوا العذابَ دون الغُفران؛ فوجَبَ أنْ تكونَ الفاصلة:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٨)،((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٢٠- ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٢١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥١٩).

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ ولم تجِئ (الغفور الرحيم) بعدَ ذِكر الغُفران؛ لأنَّه لا يَغْفِرُ لهم، فوجَب أن تكون الفاصلة كما وردتْ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ الله سبحانه مُمتنِعٌ عن القَهرِ والمعارضة. وهو ما يُسمَّى عند البلاغيين بـ (التخيير)[١].

٨- قولِه: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ فيه: التعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ عن المستقبَل الذي سَيكونُ يومَ القِيامةِ؛ للدَّلالةِ على تَحقُّقِ الوقوعِ[٢].

- وفيه تقديمُ الخبرِ ﴿لَهُمْ﴾ على المبتدأِ ﴿جَنَّٰتٌ﴾ وهو يدلُّ على الحَصرِ، بمعنى أنَّ هذا الثوابَ يختصُّ به الصادِقونِ[٣].

٩- قَوْلُه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

- فيه تنبيهٌ على كَذِبِ النصارَى وفسادِ دَعواهم في المسيحِ وأمِّه[٤].

- وتقديمُ الخَبرِ ﴿لِلَّهِ﴾؛ لبيانِ اختصاصِ مُلكِ السَّموات والأَرْضِ وما فيهنَّ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ فتقديمُ ما حقُّه التأخيرُ يُفيد الحصرَ، سواءٌ كان هذا الذي حقُّه التأخيرُ خبرًا أمْ مفعولًا، أو غير ذلك ممَّا حقُّه التأخيرُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٥٤- ٥٦).
والتخيير: الإتيانُ بكلام يَسوغُ أن يُقفَّى بقوافٍ شتَّى، فيُتخيَّر منها قافيةٌ مُرجَّحة على سائرِها، ويُستدلُّ بإيثارِه إيَّاها على حُسن اختيارِه، وصِدق حسِّه، وقدْ تَقضي البداهةُ الأولى بأنْ تكونَ غيرَ ما اختاره، ولكنَّه عزَفَ عن ذلِك لسرٍّ دقيقٍ، وفي هذه الآية البداهةُ البدائية تَقضي بأنْ تكون الفاصلة: (إنَّك أنت الغفور الرحيم)؛ لملاءمتِها لقوله: ﴿إِنْ تَغْفِرْ﴾، ولمناسبته ما بين الغُفران والغفور، ولكنَّ هذا الوهمَ الناجِمَ عن هذه البداهةِ سَرعانَ ما يَزولُ أثرُه عندما يَذكُر المتوهِّم أنَّهم استحقُّوا العذابَ لا الغُفران. يُنظر: المرجع السَّابق نفْسُه.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٧٦).

- وفيه تقديمُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ السَّمواتِ أشرفُ وأكبرُ، وآياتها أدلُّ وأكثرُ من الأرض[١].

- وقال: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ لأنَّ (ما) يُطلَق متناوِلًا للأجناسِ كلِّها؛ فهو أَوْلى بإرادةِ العمومِ[٢].

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلدُ الرَّابعُ
ويليه المجلدُ الخامسُ، وأوَّله
تفسيرُ سورةِ الأنعامِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥١).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سُورةُ المائِدَةِ ٧
أَسماءُ السُّورةِ: ٧
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٩
الآيتان (١ - ٢) ١١
غريبُ الكَلِمات: ١١
مُشْكِلُ الإعرابِ: ١٤
المعنى الإجماليُّ: ١٥
تَفسيرُ الآيتين: ١٦
الفوائِد التربويَّة: ٢٢
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائفُ: ٢٤
بلاغَةُ الآيتين: ٢٦
الآية (٣) ٢٩
غريبُ الكَلِمات: ٢٩
المعنى الإجماليُّ: ٣٢
تفسيرُ الآيةِ: ٣٢

الفوائِد التربويَّة: ٤٠
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ٤١
بلاغَةُ الآية: ٤٤
الآيتان (٤ - ٥) ٤٦
غريبُ الكَلِمات: ٤٦
مُشْكِلُ الإعرابِ: ٤٨
المعنى الإجماليُّ: ٤٨
تَفسيرُ الآيتين: ٤٩
الفوائِد التربويَّة: ٥٥
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ٥٦
بلاغَةُ الآيتين: ٦٢
الآية (٦) ٦٣
غريبُ الكَلِمات: ٦٣
مُشْكِلُ الإعرابِ: ٦٤
المعنى الإجماليُّ: ٦٤
تفسير الآية: ٦٥
الفوائِد التربويَّة: ٧١
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ٧٢

بلاغَةُ الآية: ٧٨
الآيات (٧ - ١١) ٨٠
غريبُ الكَلِمات: ٨٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٨١
المعنى الإجماليُّ: ٨٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٢
الفوائِدُ التربويَّةُ: ٨٩
الفوائِد العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: ٩١
بلاغَةُ الآياتِ: ٩٦
الآيات (١٢ - ١٤) ١٠٠
غريبُ الكَلِمات: ١٠٠
المعنى الإجماليُّ: ١٠٢
تَفسيرُ الآياتِ: ١٠٣
الفوائِدُ التربويَّةُ: ١١٢
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١١٤
بلاغَةُ الآياتِ: ١١٧
الآيتان (١٥ - ١٦) ١٢٢
غريبُ الكَلِمات: ١٢٢

المعنى الإجماليُّ: ١٢٢
تَفسيرُ الآيتين: ١٢٣
الفوائِد التربويَّةُ: ١٢٥
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ١٢٦
بلاغَةُ الآيتين: ١٢٨
الآيات (١٧ - ١٩) ١٣١
غريبُ الكَلِمات: ١٣١
المعنى الإجماليُّ: ١٣١
تَفسيرُ الآياتِ: ١٣٢
الفوائِد التربويَّة: ١٣٨
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ١٣٩
بلاغَةُ الآياتِ: ١٤٤
الآيات (٢٠ - ٢٦) ١٤٧
غريبُ الكَلِمات: ١٤٧
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٤٩
المَعنَى الإجْمالِيُّ: ١٤٩
تَفْسيرُ الآياتِ: ١٥١
الفوائِدُ التَّربويَّة: ١٥٩

الفَوائِدُ العامَّة واللَّطائِف: ١٦٢
بَلاغَةُ الآياتِ: ١٦٦
الآيات (٢٧ - ٣٢) ١٦٩
غريبُ الكَلِمات: ١٦٩
المَعنَى الإجْمالِيُّ: ١٧١
تَفْسيرُ الآياتِ: ١٧٢
الفوائِدُ التَّربويَّة: ١٨٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ١٨١
بَلاغَةُ الآياتِ: ١٨٧
الآيتان (٣٣ - ٣٤) ١٩١
غريبُ الكَلِمات: ١٩١
المَعنَى الإجْمالِيُّ: ١٩١
تَفسيرُ الآيتينِ: ١٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ١٩٦
بَلاغَةُ الآيتين: ١٩٨
الآيات (٣٥ - ٣٧) ١٩٩
غريبُ الكَلِمات: ١٩٩
المَعنَى الإجْمالِيُّ: ١٩٩

تَفْسيرُ الآياتِ: ٢٠٠
الفوائِدُ التَّربويَّة: ٢٠٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٢٠٤
بَلاغَةُ الآياتِ: ٢٠٦
الآيات (٣٨ - ٤٠) ٢٠٨
غريبُ الكَلِمات: ٢٠٨
المَعنَى الإجْمالِيُّ: ٢٠٨
تَفْسيرُ الآياتِ: ٢٠٩
الفوائِدُ التَّربويَّة: ٢١٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٢١٣
بَلاغَةُ الآياتِ: ٢١٧
الآيات (٤١ - ٤٣) ٢١٩
غريبُ الكَلِمات: ٢١٩
المَعنَى الإجْمالِيُّ: ٢٢١
تَفْسيرُ الآياتِ: ٢٢٢
الفوائِدُ التَّربويَّة: ٢٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٢٣٣
بَلاغَةُ الآياتِ: ٢٣٦

الآيتان (٤٤ - ٤٥) ٢٣٩
غريبُ الكَلِمات: ٢٣٩
المَعنَى الإجْمالِيُّ: ٢٤٠
تَفْسيرُ الآيتين: ٢٤١
الفوائِدُ التَّربويَّة: ٢٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٢٥٠
بَلاغَةُ الآيتين: ٢٥٥
الآيتان (٤٦ - ٤٧) ٢٥٨
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٥٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٥٩
المَعنَى الإجْمالِيُّ: ٢٥٩
تَفْسيرُ الآيتين: ٢٦٠
الفوائِدُ التَّربويَّة: ٢٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٢٦٣
بَلاغَةُ الآيتين: ٢٦٤
الآيات (٤٨ - ٥٠) ٢٦٦
غريبُ الكَلِمات: ٢٦٦
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٦٨

المَعنَى الإجْمالِيُّ: ٢٦٩
تَفْسيرُ الآياتِ: ٢٦٩
الفوائِدُ التَّربويَّة: ٢٧٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٢٧٧
بَلاغَةُ الآياتِ: ٢٨١
الآيات (٥١ - ٥٣) ٢٨٥
غريبُ الكَلِمات: ٢٨٥
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٨٦
المَعنَى الإجْمالِيُّ: ٢٨٦
تَفْسيرُ الآياتِ: ٢٨٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٢٩٣
بَلاغَةُ الآياتِ: ٢٩٥
الآيات (٥٤ - ٥٦) ٢٩٨
غريبُ الكَلِمات: ٢٩٨
المَعنَى الإجْمالِيُّ: ٢٩٩
تَفْسيرُ الآياتِ: ٢٩٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٠٥

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٣٠٨
بَلاغَةُ الآياتِ: ٣١١
الآيات (٥٧ - ٦١)..... ٣١٤
غريبُ الكَلِمات: ٣١٤
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣١٥
المَعنَى الإجْمالِيُّ: ٣١٧
تَفْسيرُ الآياتِ: ٣١٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٣٢٦
بَلاغَةُ الآياتِ: ٣٣٠
الآيات (٦٢ - ٦٤)..... ٣٣٥
غريبُ الكَلِمات: ٣٣٥
المَعنَى الإجْمالِيُّ: ٣٣٦
تَفْسيرُ الآياتِ: ٣٣٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٣٤٣
بَلاغَةُ الآياتِ: ٣٤٧
الآيات (٦٥ - ٦٨)..... ٣٥٣

غريبُ الكَلِمات: ٣٥٣
المَعنَى الإجْمالِيُّ: ٣٥٤
تَفْسيرُ الآياتِ: ٣٥٥
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٦٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٣٦٣
بَلاغَةُ الآياتِ: ٣٦٩
الآيات (٦٩ - ٧١) ٣٧٢
غريبُ الكَلِمات: ٣٧٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٧٣
المَعنَى الإجْمالِيُّ: ٣٧٥
تَفْسيرُ الآياتِ: ٣٧٥
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٨٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ٣٨١
بَلاغَةُ الآياتِ: ٣٨٣
الآيات (٧٢ - ٧٧) ٣٨٨
غريبُ الكَلِمات: ٣٨٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٨٩
المَعنَى الإجْمالِيُّ: ٣٩٠

تَفْسيرُ الآياتِ: ٣٩١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٤٠٢
بَلاغَةُ الآياتِ: ٤٠٧
الآيات (٧٨ - ٨١) ٤١٤
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤١٤
المَعنَى الإجْمالِيُّ: ٤١٤
تَفْسيرُ الآياتِ: ٤١٥
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤١٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ٤٢٠
بَلاغَةُ الآياتِ: ٤٢٢
الآيات (٨٢ - ٨٦) ٤٢٥
غريبُ الكَلِماتِ: ٤٢٥
المَعنَى الإجماليُّ: ٤٢٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٢٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٤٣٦
بَلاغةُ الآياتِ: ٤٣٩

الآيات (٨٧ - ٨٩) ٤٤١
غريبُ الكَلِماتِ: ٤٤١
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٤٢
المَعنَى الإجماليُّ: ٤٤٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٤٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤٥١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٤٥٤
بَلاغةُ الآياتِ: ٤٦٠
الآيات (٩٠ - ٩٣) ٤٦٢
غريبُ الكَلِماتِ: ٤٦٢
المَعنَى الإجماليُّ: ٤٦٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٦٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤٧٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٤٧٣
بَلاغةُ الآياتِ: ٤٧٨
الآيات (٩٤ - ٩٦) ٤٨٤
غريبُ الكَلِماتِ: ٤٨٤
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٨٥

المَعنَى الإجماليُّ: ٤٨٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٨٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤٩٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٤٩٥
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٠٤
الآيات (٩٧ - ١٠٠) ٥٠٨
غريبُ الكَلِماتِ: ٥٠٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ٥٠٩
المَعنَى الإِجْماليُّ: ٥٠٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٥١٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٥١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٥١٨
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٢١
الآيات (١٠١ - ١٠٥) ٥٢٥
غريبُ الكَلِماتِ: ٥٢٥
المَعنَى الإجماليُّ: ٥٢٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٢٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٥٣٦

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٥٣٩
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٤١
الآيات (١٠٦ - ١٠٨) ٥٤٤
غريبُ الكَلِماتِ: ٥٤٤
مُشكِلُ الإعرابِ: ٥٤٥
المَعنَى الإجماليُّ: ٥٤٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٥٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٥٥٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٥٥٦
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٦١
الآيتان (١٠٩ - ١١٠) ٥٦٤
غريبُ الكَلِماتِ: ٥٦٤
المَعنَى الإجماليُّ: ٥٦٦
تَفسيرُ الآيتين: ٥٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٥٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٥٧٤
بَلاغةُ الآيتين: ٥٧٩
الآيات (١١١ - ١١٥) ٥٨٧

غريبُ الكَلِماتِ: ٥٨٧
المَعنَى الإجماليُّ: ٥٨٨
تَفْسيرُ الآياتِ: ٥٨٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٥٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٥٩٤
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٩٧
الآيات (١١٦ - ١٢٠) ٦٠١
غريبُ الكَلِماتِ: ٦٠١
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦٠١
المَعنَى الإجماليُّ: ٦٠٢
تَفْسيرُ الآياتِ: ٦٠٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٦١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٦١١
بَلاغةُ الآياتِ: ٦١٥
الفهرس ٦٢٣

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٢٥ درس

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الأنعام

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الخامس

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الأنعام)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر – سورة الأنعام – المجلد الخامس/ مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي – الظهران، ١٤٣٧هـ

٧٦٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٣٤-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – سورة الأنعام – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣٢ ١٤٣٧/٣٠٠٣

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٣٠٠٣

ردمك: ٢-٣٤-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الأنعام)

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر – قنا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

المجلد الخامس

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الأنعامِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورة الأنعام

أسماءُ السُّورة:

سُمِّيتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ سُورةَ الأنعامِ[١].

فعن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، عنِ ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما، قال: (إذا سَرَّك أنْ تَعلَمَ جَهْلَ العربِ، فاقرَأْ ما فَوقَ الثَّلاثينَ ومِئَةٍ في سورةِ الأنعامِ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ...﴾ إلى قولِه: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾)[٢].

فَضائِلُ السُّورةِ وخصائِصُها:

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قالَ: ((نزَلَتْ سورَةُ الأنعامِ بمَكَّةَ ليلًا جُملةً، حولَها سَبعونَ ألفَ مَلَكٍ، يَجأرُونَ حولَها بالتَّسبيحِ))[٣].

بيانُ المَكيِّ والمَدنيِّ:

سورةُ الأنعامِ مَكيَّةٌ، وقد نقَلَ الإجماعَ على ذلِك بعضُ المفسِّرين[٤].

---

(١) سُمِّيت سورةَ الأنعام؛ لِمَا فيها مِن ذِكر الأنعام مكرَّرًا ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ﴾، ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾، ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (١/ ١٨٧).

وقال السيوطي: (وتسميةُ سورةِ الأنعامِ؛ لِما ورَد فيها من تفصيلِ أحوالِها، وإن كان قد ورَد لفظُ «الأنعام» في غيرِها إلَّا أنَّ التفصيلَ الواردَ في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ إلى قولِه: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ لم يرِدْ في غيرِها). ((الإتقان في علوم القرآن)) (١/ ١٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٢٤).

(٣) أخرجه القاسم بن سلاَّم في ((فضائل القرآن)) (ص٢٤٠)، وابن الضريس في ((فضائل القرآن)) (١٩٦)، والطبراني (١٢/ ٢١٥) (١٢٩٣٠).

حسَّنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٢٢٧)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧٦١).

(٤) ممَّن نقَل الإجماع على ذلك: ابنُ تيميَّة في ((الفتاوى الكبرى)) (١/ ١٦٢)، والشِّنقيطيُّ في ((العذب النمير)) (٢/ ٣٦٢)، وابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ١٢١).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الأنعامِ:

١- ترسيخُ العَقيدةِ، وتعريفُ النَّاسِ بربِّهم، وتعبيدُهم له، وإقامةُ الأدلَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ، وصِدقِ رسولِه، وعلى اليومِ الآخرِ[(١)].

٢- مُحاجَّةُ المشركِينَ وغيرِهم من المُبتدِعينَ، ومَن كذَّبَ بالبَعْثِ والنُّشورِ، ودحْضُ شُبَهِهم[(٢)].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ الموضوعاتِ التي تناولَتْها سورةُ الأنعامِ:

١- بيانُ أنَّ حقَّ الحَمدِ ليسَ إلَّا للهِ؛ لأنَّه مُبدِعُ العوالمِ، وإبطالُ تَأثيرِ الشُّركاءِ مِن الأصنامِ والجنِّ؛ بإثباتِ أنَّه المتفرِّدُ بخَلْقِ العالَمِ، وخَلْقِ الإنسانِ ونظامِ حَياتِه ومَوتِه، بحِكمتِه تعالى وعِلْمِه، وتنزيهُ اللهِ تعالى عن الوَلَدِ والصَّاحبةِ.

٢- موعِظةُ المعرِضِينَ عن آياتِ القُرآنِ والمكذِّبينَ بالدِّينِ الحَقِّ، وتَهديدُهم بأنْ يَحُلَّ بِهم ما حلَّ بالقُرونِ المكذِّبينَ مِن قَبْلِهم، والكافِرين بنِعَمِ اللهِ تعالى، وأنَّهم ما يَضرُّون بالإنكارِ إلَّا أنفُسَهم، ووعيدُهم بما سَيَلْقَونَ عِندَ نزْعِ أرواحِهم، ثمَّ عِندَ البَعثِ.

٣- تسفيهُ المشرِكِينَ فيما اقْتَرحُوه على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من طَلَبِ إظهارِ الخوارقِ تهكُّمًا، وإبطالُ اعتقادِهم أنَّ اللهَ شاء لهم الإشراكَ؛ قصْدًا منهم

وقال ابنُ عبدِ البرِّ: (وقد أجمَع العلماءُ أنَّ سورةَ الأنعامِ مكيَّةٌ، إلَّا قولَه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...﴾ الآيات الثلاث). ((التمهيد)) (١/ ١٤٦).

وقيل: كلُّها مكيَّة إلَّا ستَّ آياتٍ. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٧).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٥/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٥).

لإفحامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبيانُ حَقيقةِ مَشيئةِ اللهِ، وإثباتُ صِدقِ القُرآنِ بأنَّ أهلَ الكِتابِ يَعرِفون أنَّه الحقُّ.

٤- ساقتِ السُّورةُ حَشدًا من الأدلَّةِ والبَراهينِ على وحدانيَّة اللهِ، وقُدرَتِه، وأنَّه وحْدَه المستحِقُّ للعبادةِ.

٥- الإنكارُ على المشرِكينَ تَكذيبَهم بالبَعثِ، وتحقيقُ أنَّه واقِعٌ، وأنَّهم يَشهَدون بعْدَه العذابَ، وتَتبرَّأ منهم آلهتُهم التي عَبَدوها، وسَيَندمُون على ذلِك، كما أنَّها لا تُغْني عنهم شيئًا في الحياةِ الدُّنيا؛ فإنَّهم لا يَدْعُونَ إلَّا اللهَ عِندَ النَّوائبِ.

٦- في السُّورةِ تَسليةٌ للنبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَثبيتٌ لقلبِه، ودَعوتُه للصبرِ على تحمُّلِ أعباءِ الرِّسالةِ دون كَللٍ ولا مَلَل، وإرشادُه إلى الاقتداءِ بمَن سبَقَه مِنَ الرُّسُلِ الَّذين صَبَروا على تَكذيبِ أقوامِهم.

٧- بيانُ حِكمةِ إرسالِ اللهِ الرُّسلَ، وأنَّها الإنذارُ والتبشيرُ، وليستْ وظيفةُ الرُّسلِ إخبارَ الناسِ بما يَتطلَّبون عِلمَه مِن المُغيَّباتِ.

٨- بيانُ اختِصاصِ الحقِّ تَعالى بالعِلمِ المغيَّبِ، وقَهرِه، وغَلبتِه على المخلوقاتِ.

٩- بَيَّنتِ السُّورةُ أنَّ الذين يَستجيبونَ لدعوةِ الحقِّ، هم الذين يَسمَعونَ ويتَّعظون ممَّن قُلوبُهم حيَّة، أمَّا مَن ماتتْ قلوبُهم فهم لا يَنتفِعون بموعظةٍ، ولا يَقْبَلون هِدايةً، ومصيرُهم إلى اللهِ وسيُجازِيهم على جُحودِهم وأعمالِهم المنكَرةِ.

١٠- بيانُ أنَّ تَفاضُلَ النَّاسِ بالتَّقوى والانتسابِ إلى دِينِ اللهِ، وإبطالُ ما شرَعَه أهلُ الشِّركِ مِن شرائعِ الضَّلالِ.

١١- النَّهيُ عن مُجالسةِ الخائِضين في آياتِ اللهِ ومُؤانستِهم.

١٢- الأمْرُ بالإعراضِ عن المشرِكين، والنَّهيُ عن سَبِّ الأَصنامِ وعُبَّادِها.

١٣- بيانُ أنَّ التَّقوى الحقَّ ليستْ مُجرَّدَ حِرمانِ النَّفسِ مِنَ الطيِّباتِ، بل هي حِرمانُ النَّفْسِ مِن الشَّهواتِ التي تَحُولُ بين النَّفْس وبينَ الكَمالِ والتَّزكيةِ.

١٤- ضربُ المثَلِ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مع قومِه بمَثَلِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع أبيه وقومِه، وكان الأنبياءُ والرُّسُلُ على ذلِك المَثَل؛ مَن تَقدَّمَ منهم ومَن تأخَّرَ.

١٥- المنَّةُ على الأمَّةِ بما أَنزلَ اللهُ مِن القرآنِ هُدًى لهم، كما أَنزلَ الكِتابَ على موسى، وبأنْ جَعَلَها اللهُ خاتِمةَ الأممِ الصَّالحةِ.

١٦- بيانُ فَضيلةِ القرآنِ ودِينِ الإسلامِ وما مَنَحَ اللهُ لأهْلِه مِن مُضاعَفةِ الحَسَناتِ.

١٧- تَخلَّلتْ ذلك قوارعُ للمُشرِكين، وتنويهٌ بالمؤمنين، وامتنانٌ بنِعمٍ اشتمَلَتْ عليها مخلوقاتُ اللهِ، وذِكْرُ مَفاتِحِ الغيبِ.

١٨- ذكرُ أحوالِ العربِ في الجاهليَّةِ، مع بيانِ ما كانوا عليه مِن سفاهةٍ، وسورةُ الأنعامِ أَجمَعُ سُورِ القُرآنِ لذلك.

١٩- في السُّورةِ تَفصيلُ مُحرَّماتِ الشَّريعةِ الإسلاميَّة، ومُحْكَمَاتِ آياتِ القُرآن، والأوامِر والنَّواهي.

٢٠- ذَكَر اللهُ تعالى في السُّورةِ خِلافةَ الخلائِقِ، وتفاوُتَ دَرجاتِهم، وخَتَمَ السُّورةَ بذِكرِ سُرعةِ عُقوبةِ اللهِ لمستحِقِّيها، ورحمتِه ومَغفرتِه لمستوجِبيها.

الآيات (١ - ٢)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾: أي: يَجعلون له عديلًا من الحِجارةِ، ويُسَوُّون الأوثانَ به، وقيل: يَعدِلون بأفعالِه عنه، ويَنسُبونها إلى غيرِه، وقيل: يَعدِلون بعبادَتِهم عنه تعالى، والعدالةُ: لفظٌ يَقتضي معنى المساواةِ، وأصل (عدل): يدلُّ على استواءٍ[١].

﴿قَضَىٰٓ﴾: القضاءُ: إتمامُ الشَّيءِ، أو فَصْلُ الأمْرِ؛ قولًا كان ذلِك أو فِعلًا، ويُعبَّرُ عنه بالموتِ، ويُطلَقُ على الأجَل، وعلى الفَصلِ في الخُصومةِ أيضًا، وأصل (قضي): يَدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِه، وإنفاذِه لجِهتِه[٢].

﴿أَجَلًا﴾: الأجَلُ: غايةُ الوقتِ، سواءٌ في مَحلِّ الدَّيْن، أو انقضاءِ العِدَّة أو غيرِهما، والمدَّةُ المضروبةُ للشيءِ، ويُقال للمدَّةِ المضروبةِ لحياةِ الإنسانِ: أجلٌ: ويُعبَّرُ به عن عُمرِ الإنسانِ، فيُقال: دنا أجَلُه، وهو عبارةٌ عن دُنوِّ المَوتِ، واستيفاءُ الأجَلِ، أي: مدَّةُ الحياةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥١، ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٤، ٦٧٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥، ٦٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)

﴿تَمْتَرُونَ﴾: تَشُكُّون، أو تَختلِفون، أو تَتردَّدون، مِن المِرْيَة: وهي الشَّكُّ، وقيل: هي التردُّدُ في الأمْر، وهو أخصُّ من الشكِّ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبرُ تعالى أنَّ الحمدَ الكاملَ المُستحَقَّ هو له وحْدَه؛ فهو الذي خلَق السَّمواتِ والأرضَ، وجعَل الظُّلماتِ والنُّورَ، ومع ذلك كلِّه؛ فإنَّ الكفَّارَ عدَلوا بربِّهم سواه، وجعَلوا معه شريكًا يُساوونَه به.

ثمَّ أخبَر تعالى أنَّه هو الذي خلَقَ جميعَ البشرِ مِن طينٍ، وذلك بخلقِ أبيهم آدَمَ منه، ثم حدَّد مُدَّةَ إقامَتهم في الدُّنيا، وحدَّد كذلك وقتًا لهذه الحياةِ الدُّنيا تزولُ فيه، لا يَعلمُه غيرُه، ثمَّ يكونُ بعدَه البعثُ والانتقالُ للآخِرةِ؛ ليجازيَ العبادَ بحسَبِ أعمالِهم، ومع هذا البيانِ فإنَّهم يشكُّون في أمْرِ البَعثِ والنُّشورِ.

ثمَّ بيَّن اللهُ تعالى أنَّه هو المعبودُ في السَّمواتِ والأرضِ، يعلَمُ ما يُسرُّه الخلقُ وما يُعْلِنونَه، ويَعلمُ كلَّ ما يَعملونَه، خيرًا كان أو شرًّا، ويُحْصيه، وسيُجازِيهم عليه.

تفسير الآيات:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

أي: جميعُ المحامدِ يَستحقُّها اللهُ تعالى وحْدَه، الذي أَوْجَد بتقديرِه السَّمواتِ والأرضَ. وفي ضِمْنِ ذلكَ تعليمٌ مِن الله تعالى لخَلقِه أنْ يَحمدُوهُ، ويُفْرِدُوه

(١/ ٤٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

بالحمْدِ[١].

﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾.

أي: وهو الذي جعَل الظُّلماتِ والنورَ، وذلك شامِلٌ للحِسِّي كاللَّيلِ والنَّهارِ، والمعنويِّ كظُلماتِ الجَهلِ والشِّركِ والمعصيةِ، ونورِ العِلمِ والإيمانِ والطَّاعةِ[٢].

﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾.

أي: ومع هذا كلِّه، كفَر به بعضُ عِبادِه، وعدَلوا به سِواه، بأنْ جعَلوا معه شريكًا يُساوونَه به في العبادةِ والتَّعظيمِ، فيُعظِّمون أمْرَه، ويَعبُدونَه كما يَعبُدون اللهَ سبحانه وتعالى[٣].

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا استدلَّ تعالى بخَلْقِه السَّمواتِ، وتعاقُبِ الظُّلماتِ والنُّورِ على وجودِ الصَّانعِ الحكيمِ- أتْبَعَه الاستدلالَ بخَلْقِه الإنسانَ على إثباتِ هذا المطلوبِ[٤]، فقال:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ﴾.

أي: هو سُبحانَه الذي أوجدَ أصْلَكم، وأنشأَ مادَّتَكم- أيُّها النَّاسُ- من طِينٍ، وذلك بخَلْقِ أبيكم آدَم عليه السَّلامُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠-١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٤-١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٦-١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٩-١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي))

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾.

أي: ضرَبَ لِمُدَّة إقامتِكم في هذه الدَّارِ أجلًا تُبتَلَوْن فيه، ثم يُعيدكم ترابًا كما كُنتم، وضرَب لهذه الدُّنيا وقتًا تَزولُ فيه، لا يَعلمُه إلَّا هو، فتُبعَثون أحياءً، وتنتَقِلون إلى الدَّارِ الآخِرة؛ ليجازيَكم بأعمالِكم مِن خيرٍ وشرٍّ(١).

﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾.

أي: ثمَّ أنتُم مع هذا البيانِ التامِّ، والحُجَّة السَّاطعة- حيث عرفتُم أنَّكم خُلِقْتُم من طينٍ، وأنَّ الآجالَ تَنقضي- تشكُّون في أمْرِ البَعثِ، وقيامِ السَّاعة(٢)!

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تَقدَّم ما يدلُّ على القُدرةِ التامَّةِ والاختيارِ، وذلكَ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ... ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾، ذكَر ما يدلُّ على العِلم التامِّ، فكان في التنبيهِ على هذِه الأوصافِ دلالةٌ على كونِه تعالى قادرًا مختارًا، عالِمًا بالكليَّات والجُزئيَّات، وإبطالٌ لشُبَهِ مُنكِرِ المعادِ(٣)، فقال تعالى:

(ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢).

قال ابنُ عُثيمين: (قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، أي: معلومٌ عند الله، وهنا الأفضلُ أن نقِفَ على قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ ولا نصِل؛ لأنَّ الوصلَ قد يُشعر بالتناقُض، وجهه: أنَّ الأولَ منصوبٌ ﴿أَجَلًا﴾، والثاني مرفوع ﴿وَأَجَلٌ﴾، والحُكم أيضًا مختلفٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٣).

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وهو المأْلوهُ المعبودُ في السَّمواتِ وفي الأرضِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وقال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾.

أي: يعلمُ ما تُسرُّونه وما تُعلنونَه؛ فلا يَخفَى عليه شيءٌ[(٢)].

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

أي: ويَعلمُ جميعَ ما تَعملونَ مِن خيرٍ وشرٍّ، فيُحصي ذلك عليكم، ويُجازيكم به عندَ رُجوعِكم إليه؛ فاحْذَروا معصيتَه، وارْغَبوا في طاعتِه[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾: حَمِدَ اللهُ تعالى نفْسَه أنْ خلَق السَّمواتِ والأرضَ؛ فاللهُ تعالى يَحمَدُ نفْسَه عندَ الأمورِ العظيمةِ، فحَمِد نفْسَه على خلقِه السَّمواتِ والأرضَ، الدالَّة على كمالِ قُدرته، وسَعةِ عِلمِه ورَحمتِه، وعمومِ حِكمتِه، وانفرادِه بالخلقِ والتدبير، وعلى جَعْلِه الظُّلماتِ والنورَ؛ لأنَّ هذه الأمورَ العظيمةَ تُوجِبُ للعبدِ المتأمِّل أنْ يَحمَدَ اللهَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦-٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠).

عزَّ وجلَّ على كمالِ صِفاتِه، وعلى كمالِ إفضالِه وإنعامِه، وتدلُّ دلالةً قاطعةً أنه تعالى هو المُستحِقُّ للعِبادة، وإخلاصِ الدِّين له[١].

٢- أنَّ الإيمانَ بما تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ يَقتضي عدمَ مُخالفةِ أمْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، بتَرْك واجبٍ، أو فِعلِ معصيةٍ؛ والرغبةَ في الأعمال التي تقرِّبُ مِن الله، والحذرَ مِن كلِّ عملٍ يُبعِدُ منه سبحانه وتعالى، فإذا علِمَ العبدُ أنَّ اللهَ يَعلمُ سِرَّه وجَهرَه، استحيا منه، فلم يترُكْ ما وجَب، ولم يفعلْ ما يَحرُم، وإذا لم يُثمرِ العلمُ بذلك هذه الثمرةَ الجليلةَ، كان علمًا لا فائدةَ منه[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ فيه بيانُ عِلمِ اللهِ تبارك وتعالى بما نكسِبُ؛ أي: بما نَكسِبُه من الأعمالِ، سواءٌ كان كَسبًا دُنيويًّا، أو كسبًا أُخرويًّا، فإنَّ اللهَ تعالى يَعلمُه ولا يَخفَى عليه، ويَترتَّب على هذا ألَّا نكسِب شيئًا حرَّمه اللهُ علينا[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أنَّ حمْدَ الله يكونُ على أفعالِه التي يَختارُها، وعلى صِفاتِه الكاملةِ اللازِمة له؛ فهو جلَّ وعلا مستحِقٌّ أنْ يُحمَد، والحمدُ الكاملُ مختصٌّ به[٤].

٢- لمَ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ولم يقُل: (المدحُ لله)، أو (الشُّكر لله)، والجواب:

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١).

إنَّما لم يقُل: (المدح لله)؛ لأنَّ المدحَ كما يَحصُلُ لله تعالى، فقدْ يَحصُل لغيرِه، ألَا ترى أنَّه كما يَحسُن مدْحُ الرَّجُل العاقلِ على أنواع فضائلِه، فكذلك قد يُمدَحُ اللؤلؤُ؛ لحُسنِ شَكلِه، ولَطافةِ خِلقتِه، فيُقال: ما أحْسنَه! أمَّا الحمدُ فإنَّه لا يحصُل إلَّا لله عزَّ وجلَّ على ما يَصدُر منه من الإنعامِ والإحسانِ. ولم يقُل: (الشُّكرُ لله)؛ لأنَّ الشُّكرَ عبارةٌ عن تعظيمِه بسببِ إنعامٍ صدَرَ منه، ووصَل إليك، وهذا مُشعِرٌ بأنَّ العبدَ إذا ذكَر تعظيمَ الله بسببِ ما وصَلَ إليه من النِّعمة، فحينئذٍ يكونُ المطلوبُ الأصليُّ به وصولَ النِّعمة إليه، فأمَّا إذا قال: (الحمدُ لله)، فهذا يدلُّ على أنَّ العبدَ حمِدَه؛ لأجْل كونِه مستحِقًّا للحمدِ، لا لخُصوصِ أنَّه تعالى أوْصَل النِّعمةَ إليه؛ لأنَّ الحمدَ عبارةٌ عن تعظيمِ اللهِ سُبحانه؛ لأجْلِ ما صدَر عنه من الإنعامِ، سواءٌ كان ذلك الإنعامُ واصلًا إليك أو إلى غيرِك، فيكون الإخلاصُ أكملَ[(١)].

٣- إنَّما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ولم يقل: (أحمَدُ الله)؛ لأنَّه لو قال: (أحمد الله) كان ذلك مُشعِرًا بأنَّه ذكَرَ حَمْدَ نفْسِه، ولم يذكُر حمْدَ غيرِه، أمَّا إذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فقد دخَلَ فيه حمْدُه، وحمدُ غيرِه، من أوَّل خلْق العالَم إلى آخِرِ استقرار المكلَّفين في درجات الجِنان، ودَركاتِ النِّيران، كما قال تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، فكان هذا الكلامُ أفضلَ وأكملَ[(٢)].

٤- خصَّ السَّمواتِ والأرضَ بالذِّكر في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ لأنَّهما أعظمُ المخلوقاتِ فيما يرَى العبادُ؛ لأنَّ السَّماءَ بغيرِ عَمَدٍ، يرونَها، فيها العِبَرُ والمنافعُ؛ والأرضُ مسكنُ الخلائِقِ، وفيها أيضًا العِبَرُ والمنافِع[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٤٧٣، ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٠٩).

٥- الاقتصارُ في ذِكرِ المخلوقاتِ على هذه الأربعِ: (السَّموات، والأَرْض، والظُّلمات، والنُّور)، في قولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، فيه تعريضٌ بإبطالِ عقائدِ كفَّارِ العربِ؛ فإنَّهم بين مُشرِكين، وصابئةٍ، ومجوسٍ، ونصارى، وكلُّهم قد أثبتوا آلهةً غيرَ الله؛ فالمشركونَ أثبتوا آلهةً من الأرضِ، والصابئةُ أثبتوا آلهةً من الكواكبِ السَّماويةِ، والنصارى أثبتوا إلهيَّةَ عيسى أو عيسى ومريمَ، وهما من الموجوداتِ الأرضيَّة، والمجوسُ- وهم المانويَّة- ألَّهوا النُّورَ والظُّلمة، فالنورُ إلهُ الخيرِ، والظُّلمةُ إلهُ الشرِّ عندهم؛ فأخبرَهم اللهُ تعالى أنَّه خالقُ السمَّواتِ والأرضِ- أي: بما فيهما- وجاعِلُ الظُّلماتِ والنُّورِ[1].

٦- قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ لماذَا اختَلفَ التعبيرُ؛ في قوله: ﴿خَلَقَ﴾ و﴿وَجَعَلَ﴾؛ فهل هو مُجرَّدُ اختلافِ لفظٍ، أو هناك فرقٌ بين الفِعْلَينِ؟

قيل: إنَّ ﴿خَلَقَ﴾ هنا و﴿وَجَعَلَ﴾ معناهما واحدٌ؛ وعلى هذا فيكونُ التَّفريقُ في هذا الموضع لمجرَّدِ اختلافِ اللَّفْظ فقط. ويدلُّ لهذا قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١]، وقال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقيل: بَينهما فرْقٌ، فالخَلْقُ: إنشاءٌ لذاتِ المخلوقِ وأصلِه، والخَلقُ فيه معنى التَّقديرِ، فعبَّر به عن السَّمواتِ والأرض، بينما الظُّلماتُ ليستْ ذاتًا، وإنَّما هي وصفٌ للمخلوقِ، وكذلك النُّورُ، وهما ليسَا شيئًا محسوسًا، وإنَّما يَظهرانِ في غيرِهما؛ لذا عبَّر عنهما بكَلمةِ ﴿وَجَعَلَ﴾ ففي الجَعْلِ معنى التَّضمينِ والتَّصييرِ، كإنشاءِ شيءٍ من شيءٍ، وتَصييرِ شيءٍ شيئًا. وإنَّما حَسُن لَفظُ الجَعْلِ هاهنا في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾؛ لأنَّ النورَ والظُّلمةَ لَمَّا تَعاقبَا صارَ كأنَّ كلَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٧).

واحدٍ منهما إنَّما تولَّد مِنَ الآخَر. والقولُ بأنَّ بين اللفظين (خَلَق) و(جَعَل) فرقًا، لا شكَّ أنَّه أبلغُ مِن أنْ نقولَ: إنَّه ليسَ بينهما فرْقٌ، وإنَّما اختلَفَ اللَّفظُ فقط[١].

٧- يُؤخَذُ من قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ بيانُ سَفهِ الكفَّار، وأنَّهم لا عُقولَ لهم؛ وجهُه: أنَّه بعدَ ظهورِ هذه الآياتِ العظيمةِ، عدَلوا باللهِ عزَّ وجلَّ، وجعَلوا له عَديلًا ونِدًّا، وهذا يَدلُّ على سَفهِهم، وإنْ كانوا أذكياءَ[٢].

٨- رُبوبيَّةُ اللهِ تعالى عامَّةٌ للمؤمنِ والكافِر؛ لقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، فأخْبَر سبحانه وتعالى عن نفْسِه أنَّه ربٌّ لهؤلاء، ولا إشكالَ في ذلك؛ فهذه هي الربوبيَّة العامَّة، وهناك ربوبيَّة خاصَّة بالمؤمنين تقتضي الكِلاءَةَ والعنايةَ والحِفظَ والتَّربية، وقد اجتمَع النوعانِ في قول سَحَرةِ فرعونَ: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢]، فالأُولى عامَّة، والثَّانِيَة خاصَّة[٣].

٩- الجَمْعُ بين قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، وبيْن قولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥- ٦]: ففي الآيةِ الأُولَى أنَّ البشرَ مخلوقون مِن طينٍ، وفي الثانيةِ أنَّهم مخلوقون مِن ماءٍ دافقٍ، والجمعُ بينهما أنَّ خلْقَ البَشَر مِن الطِّين باعتبارِ الأصل، وأمَّا خلْقُهم من الماءِ الدَّافِق، فباعتبارِ الفَرْع المتولِّد مِن الأصْل[٤].

١٠- لا خِلافَ ولا تناقُضَ بين قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، وقولِ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١- ٢٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣).

٢٦]، وقولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]؛ فالجمْعُ بين هذه الآياتِ أنَّ أصلَ بني آدمَ ترابٌ صُبَّ عليه الماءُ، فصار طينًا، يَلْزقُ باليَدِ إذا مسَّه الإنسانُ، ثمَّ صَارَ حمأً مَسْنُونًا، ثم صَارَ صَلْصالًا كالفخَّار له صوتٌ إذا قُرِع[١].

١١- في قَولِه سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ نُسِبَ الخَلْقُ مِن الطِّين إلى المخاطَبِين لا إلى آدَم عليه السَّلام مع أنَّه هو المخلوقُ مِن الطِّينِ حَقيقةً- حيث لم يقُل: (هو الذي خَلَق أباكم آدَمَ مِن طين...)-؛ لأنَّ آدَم عليه السَّلامُ هو أوَّلُ البَشرِ، وهُو أبوهم؛ فكانَ كُلُّ البَشرِ راجعًا إلى الخَلقِ مِن الطِّين؛ فأخْرَجَ ذلك مَخرجَ الخِطابِ لهم؛ لأنَّهم ذُرِّيتُه[٢].

١٢- ذَكَر اللهُ مادَّةَ ما منه الخَلْقُ بقوله: ﴿مِّن طِينٍ﴾؛ لإظهارِ فَسادِ استدلالِهم على إنكار الخَلْق الثاني؛ لأنَّهم استبعدوا أنْ يُعادَ خلْقُ الإنسانِ بعدَ أنْ صار ترابًا، وتكرَّرتْ حكايةُ ذلك عنهم في القرآنِ، فقد اعترَفوا بأنَّهم يَصيرون ترابًا بعدَ الموتِ، وهم يَعترِفون بأنَّهم خُلِقوا من تراب؛ لأنَّ ذلك مُقرَّرٌ بين النَّاسِ في سائرِ العُصورِ، فاستدلُّوا على إنكارِ البَعث بما هو جديرٌ بأنْ يكونَ استدلالًا على إمكانِ البَعْثِ؛ لأنَّ مصيرَهم إلى ترابٍ يُقرِّبُ إعادةَ خلْقِهم؛ إذ صاروا إلى مادَّةِ الخَلْقِ الأوَّلِ؛ فلذلك قال اللهُ هنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، وقال في آياتِ الاعتبارِ بعجيبِ تكوينِه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، وأمثال ذلك[٣].

١٣- إعادةُ النكرةِ بعدَ نكرةٍ في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ...﴾ يُفيد

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٠).

أنَّ الثانيةَ غيرُ الأولى، فصار المعنى: ثمَّ قضَى لكم أجلَيْنِ: أجلًا تَعرِفون مُدَّتَه بموتِ صاحبِه، (وهو عُمرُ الإنسانِ)، وأجلًا مُعيَّنَ المدَّةِ في عِلم الله، (وهو يومُ القيامةِ)[١].

١٤- يُستفادُ من قولِه تعالى: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أنَّ مَن مات مقتولًا فقدْ ماتَ بأجَلِه الذي قدَّره اللهُ له؛ لأنَّ الله قضاه، ولا يُقال: (لولا أنَّه قُتِل لم يَمُتْ)؛ لأنَّ اللهَ تعالى قضَى أن يموتَ بالقَتْل، فهو مقتولٌ بأجَلٍ[٢].

١٥- أنَّ الحُكمَ لله عزَّ وجلَّ وحْدَه؛ لقولِه تعالى: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، ولا أحدَ يُغيِّر في هذه الآجالِ[٣].

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ فقيَّد (المسمَّى) بكَوْنِه عندَه، فإنَّ وقتَ السَّاعةِ لا يَعلَمُه ملَكٌ مُقرَّب ولا نبيٌّ مُرسَلٌ، كما قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، بخلاف ما إذا قال: (مُسمًّى) كقوله: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ إذ لم يُقيَّدْ بأنَّه (مُسَمًّى عِنْدَهُ) فقدْ يَعرِفُه العبادُ، وأمَّا أجَلُ المَوْتِ فهذا تَعرِفُه الملائكةُ الذين يَكتُبونَ رزقَ العبدِ وأجلَه وعمَلَه، وشقيٌّ أو سعيدٌ، كما في حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((...ثمَّ يُبعَثُ إليه المَلَكُ، فيُؤمَرُ بأربعِ كلماتٍ، فيقال: اكتُبْ رِزقَه وأجَلَه وعمَلَه، وشقيٌّ أو سعيدٌ))[٤]، فهذا الأجَلُ الذي هو أجلُ الموتِ قدْ يُعْلِمُه اللهُ مَن شاءَ من عبادِه، وأمَّا أجَلُ القيامةِ المسمَّى عندَه فلا يَعْلمُه إلَّا هو[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) أخرجه البخاري(٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٨٩).

١٧- في قولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ ذكَر السِّرَّ؛ لأنَّ عِلمَ السرِّ دليلُ عمومِ العِلم، وذَكَر الجهرَ لاستيعابِ نوعَيِ الأقوالِ[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ...﴾ كلامٌ خرَج مخرجَ الخبرِ وأُريدَ به الأمرُ- على أحد القولين-، أي: احْمَدوا الله، أي: أخْلِصوا الحَمدَ والشُّكرَ للهِ، ولا تُشرِكوا معه في ذلك أحدًا شيئًا؛ فإنَّه المستوجِبُ عليكم الحمدَ بأياديه عندكم، ونِعَمِه عليكم، لا مَن تَعبدُونه من دونِه، وتَجعلونَه له شريكًا مِن خلقِه[٢]؛ وإنَّما جاءَ على صِيغة الخبرِ؛ لفوائد: إحداها: أنَّ قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يُفيد تعليمَ اللَّفظ والمعنى، ولو قال: (احْمَدوا) لم يَحصُل مجموعُ هاتينِ الفائدتينِ. وثانيها: أنَّه يُفيدُ أنَّه تعالى مستحِقٌّ الحمدَ، سواءٌ حمِده حامدٌ أو لم يَحْمَده. وثالثها: أنَّ المقصودَ منه ذِكْرُ الحُجَّة؛ فذِكْرُه بصيغةِ الخبرِ أَوْلى[٣].

- وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (أَلْ) في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ لتعريفِ الجِنسِ؛ فدلَّتْ على انحصارِ استحقاقِ جنسِ الحمد للهِ تعالى؛ فتُفيد استحقاقَ اللهِ تعالى الحمدَ وحْدَه دونَ غيرِه؛ لأنَّ هذه الجُملةَ تدلُّ على الحَصْرِ، فالمعنى هنا أنَّ الحمدَ كلَّه لا يستحقُّه إلَّا اللهُ، وهذا قَصرٌ إضافيٌّ؛ للردِّ على المشركينَ الذين حَمِدوا الأصنامَ على ما تَخيَّلوه من إسدائِها إليهم نِعَمًا ونَصْرًا، وتفريجَ كُرباتٍ[٤].

- و (اللامُ) في قوله: (لله): إمَّا للاختصاصِ، وإمَّا للاستحقاقِ، ولا تَنافيَ بين المعنيينِ، وعلى هذا فتكون للاستحقاقِ والاختصاصِ؛ لأنَّ (أل) في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٥).

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للعمومِ، ولا أحَدَ يستحِقُّ الحَمْدَ على العُمومِ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ[١].

٢- قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾

- قدَّم السَّمواتِ على الأرضِ؛ لشَرفِها وعلوِّ مكانِها[٢]، وقيل: لأنَّ خلْقَ السَّمواتِ أعظمُ[٣].

٣- قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾: تقديمُ ذِكرِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ على ﴿ٱلنُّورَ﴾؛ مراعاةً للترتُّب في الوجودِ؛ لأنَّ الظُّلْمةَ سابقةُ النُّورِ[٤]، وفي الحديث: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خَلَق الخَلْقَ في ظُلمةٍ، ثمَّ أَلْقَى عليهم مِن نُورِه يومئذٍ...))[٥].

- وفيه: المخالفةُ في الإفرادِ والجَمعِ، حيث جمَع ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وأفْرَدَ ﴿ٱلنُّورَ﴾؛ وذلك لمناسباتٍ لطيفةٍ:

فقِيل: لظُهورِ كَثرةِ أَسبابِ الظُّلماتِ، ومَحالِّها عندَ الناسِ، ومُشاهَدتِهم لها على التَّفصيلِ[٦].

وعلى حَمْلِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ على الكُفرِ والباطِلِ، و﴿ٱلنُّورَ﴾ على الإيمانِ والحَقِّ؛ فقِيل: لَمَّا كان الحقُّ واحدًا، والباطلُ كثيرًا؛ فلمَّا كانتِ الظُّلمةُ بمنزلةِ طُرقِ الباطلِ، والنُّورُ بمنزلةِ طَريقِ الحقِّ؛ فقد أُفْرِدَ النورُ، وجُمِعتِ الظُّلمات، ونحوُ هذا ما جاءَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٧).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٦٤٢)، والطيالسي في ((المسند)) (٢٤٠٥)، وأحمد (٦٦٤٤).
حسَّنه الترمذيُّ في ((السنن))، وابنُ العربيِّ في ((عارضة الأحوزي)) (٥/ ٣١٦)، وصحَّح الحديث الحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ١٨٨)، والألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٢٦٤٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٥).

في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ حيثُ وحَّدَ وليَّ الذين آمنوا، وهو اللهُ الواحدُ الأحدُ، وجمَعَ وَلِيَّ الَّذين كفروا؛ لتعدُّدِهم وكثرتِهم، وجمَع الظُّلماتِ- وهي طُرُق الضَّلالِ والغيِّ- لكَثرتِها واختلافِها، ووحَّد النورَ- وهو دِينُه الحقُّ وطريقُه المستقيمُ الذي لا طريقَ إليه سِواه[1].

وقيل: جمَع ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وأفردَ ﴿ٱلنُّور﴾ اتِّباعًا للاستعمالِ؛ لأنَّ لفظَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ بالجمعِ أخفُّ، ولفظ ﴿ٱلنُّور﴾ بالإفرادِ أخفُّ؛ ولذلك لم يَرِدْ لفظ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في القرآنِ إلَّا جمعًا، ولم يرِدْ لفظ ﴿ٱلنُّور﴾ إلَّا مفردًا، وهما معًا دالَّانِ على الجنسِ، والتعريفُ الجِنسيُّ يستوي فيه المفردُ والجمعُ؛ فلم يبقَ للاختلافِ سببٌ لاتِّباعِ الاستعمالِ[2].

وقيل: إنَّه جَمَع لفْظَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ووحَّدَ لفظ ﴿ٱلنُّورَ﴾؛ لكونِه أشرفَ، كما قال سُبْحانَه: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾[3] [النحل: ٤٨].

- وفي إيثارِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ بالذِّكرِ دونَ غيرِهما مِنَ الأعراضِ: إيماءٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٧٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٩- ١٢٠)، ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ١٧٧- ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠- ٢١).

وقال ابنُ القيِّم بعدَ أن ذكَر هذا الوجهَ: (مع أنَّ فيه سرًّا ألطفَ مِن هذا، يعرفُه مَن يعرفُ منبعَ النُّور، ومِن أين فاض، وعمَّاذا حصَل، وأنَّ أصلَه كلَّه واحدٌ، وأمَّا الظُّلماتُ فهي متعددةٌ بتعدُّدِ الحُجُبِ المقتضيةِ لها، وهي كثيرةٌ جدًّا؛ لكلِّ حجابٍ ظُلمةٌ خاصَّة، ولا ترجعُ الظُّلماتُ إلى النُّورِ الهادي جلَّ جلالُه أصلًا، ولا وصفًا، ولا ذاتًا، ولا اسمًا، ولا فعلًا، وإنما ترجعُ إلى مفعولاتِه، فهو جاعلُ الظُّلماتِ، ومفعولاتُها متعددةٌ متكثرةٌ، بخلافِ النُّور، فإنَّه يرجعُ إلى اسمِه وصفتِه، تعالى أن يكونَ كمِثلِه شيءٌ، وهو نورُ السَّموات والأرضِ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٧).

(٣) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٩).

وتَعريضٌ بحالَي المُخاطَبين بالآيةِ؛ مِن كُفرِ فريقٍ وإيمانِ فَريقٍ؛ فإنَّ الكفرَ يُشبه الظُّلمةَ؛ لأنَّه انغماسٌ في جَهالةٍ وحَيرةٍ، والإيمانَ يُشبه النورَ؛ لأنَّه استبانةُ الهدى والحقِّ[١].

٤- **قوله:** ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾:

- عطَف بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لاستبعادِ صُدورِ الشِّركِ منهم مع وجودِ ما يَقتضي عدمَه[٢]؛ فـ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتْبي الدالِّ على أنَّ ما بعدَها يَتضمَّن معنًى من نوعِ ما قَبْلَها، وهو أهمُّ في بابِه، وذلك شأنُ (ثُمَّ) إذا وردتْ عاطفةً جملةً على أخرى؛ فإنَّ عدولَ المشركينَ عن عبادةِ الله مع عِلمهم بأنَّه خالقُ الأشياءِ أمرٌ غريبٌ فيهم، أعجبُ مِن عِلمهم بذلك[٣].

- وقوله: ﴿بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ فيه إظهارُ (الرَّبِّ) في موضعِ ضَميرِه- وهو مِن الإظهار في موضع الإضمارِ؛ حيث قال: ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ ولم يقل: (بِه)، مع أنَّ ذِكْر الله تقدَّمَ- لزيادةِ التشنيعِ والتقبيحِ عليهم، وتَفخيمًا لجلالِه، وهي سُنَّةٌ مِن سُنَنِ العَرَبِ في كلامِهم؛ يُعيدون الاسمَ ظاهرًا، وإنْ تقدَّم، دون التعبيرِ عنه بالضَّمير؛ للدَّلالةِ على كمالِ العِنايةِ[٤].

- وقوله: ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بِقَوله: ﴿يَعۡدِلُونَ﴾، وقُدِّمَ عليه؛ لِمَزيدِ الاهتمامِ، والمسارَعَةِ إلى تحقيقِ مدارِ الإنكارِ والاستبعادِ، والمحافظةِ على الفواصِل. والباءُ في قولِه: ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ للتَّعديةِ، ويَعْدِلونَ مِنَ العَدْلِ، وهو التَّسويةُ بين الشَّيئينِ، فيكون المفعولُ محذوفًا؛ ففيه إيجازٌ بالحَذفِ؛ حَذَف المفعولَ به؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦٢).

لظُهورِه، أي: يَعدِلون به غَيرَه[١].

٥- **قوله:** ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ...﴾ استئنافٌ مَسُوقٌ لبيانِ بُطلانِ كُفرِهم بالبعثِ، مع مُشاهدتِهم لِمَا يُوجِبُ الإيمانَ به، إثرَ بيانِ بُطلانِ إشراكِهم به تعالى، مع مُعاينَتِهم لموجِباتِ توحيدِه[٢]، وهذا الاستئنافُ لغَرَضِ التعجُّبِ من حالِ المشركين[٣].

- وتَخصيصُ خَلْقِهم بالذِّكرِ مِن بين سائرِ دَلائلِ صِحَّةِ البعثِ- مع أنَّ ما ذُكِر مِن خلْق السَّمواتِ والأرضِ مِنْ أوضَحِها وأظهرِها؛ كما ورَد في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]- لأنَّ محلَّ النِّزاعِ بَعْثُهم؛ فدَلالةُ بَدءِ خَلْقهم على ذلك أظهرُ، وهم بشُؤونِ أنفسِهم أعرَفُ، والتعامِي عن الحُجَّةِ النَّيِّرَة أقبَحُ[٤].

- والإتيانُ بضَميرِ ﴿هُوَ﴾ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾؛ ليحصلَ تعريفُ المسنَدِ والمسنَدِ إليه معًا؛ فتُفيد الجملةُ القصرَ في رُكْنَي الإسنادِ وفي مُتعلِّقها، أي: هو خالِقُكم لا غيرُه، مِن طينٍ لا مِن غيرِه، والقصرُ أفادَ نفيَ جميعِ هذه التكويناتِ عن غيرِ اللهِ مِن أصنامِهم[٥].

- بناءً على أن الخِطابَ في قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ مُوجَّهٌ إلى الَّذين كفروا[٦]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٢٥- ٥٢٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٩).

(٦) وإنَّما قيل بتوجُّهه إلى الكفَّار فقط؛ لأنَّ قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ لا يُمكِن أن يندرجَ في هذا

ففيه الْتفاتٌ من ضَميرِ الغائِب- الذي هو قولُه: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾- إلى الخِطاب؛ لقصدِ التَّشنيعِ والتَّوبيخِ[١].

٦- **قوله**: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾:

- حرف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾ دالٌّ على التَّراخي الرُّتْبي، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ التعجُّبَ حَقيقٌ ممَّن يَمْتَرونَ في أَمْرِ البعثِ، مع عِلمِهم بالخَلقِ الأوَّلِ وبالموت، والمخاطَب بقولِه: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾ هم المشرِكون[٢].

- وجِيء بالمسنَدِ إليه ﴿أَنتُمۡ﴾ ضَميرًا بارزًا؛ للتوبيخِ[٣].

٧- **قوله**: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ فيه ذِكرُ الجهرِ بعدَ السرِّ، مع أنَّه مفهومٌ منه بالأَوْلى؛ للمقابلةِ والتأكيد[٤].

٨- **قوله**: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾ فيه تعريضٌ بالوعدِ والوعيدِ؛ إذ إنَّ المرادَ بقولِه: ﴿تَكۡسِبُونَ﴾ جميعُ الاعتقاداتِ والأعمالِ من خيرٍ وشرٍّ[٥].

الخِطاب مَن اصطفاه اللهُ بالنبوَّة والإيمانِ، وإنْ كان الخلقُ وقضاءُ الأجَل ليس مختصًّا بالكفَّارِ؛ إذ اشترَك فيه المؤمنُ والكافِرُ، لكنَّه قُصِدَ به الكافرُ؛ تنبيهًا له على أصلِ خَلقِه، وقضاءِ الله تعالى عليه وقُدرتِه. يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٤/ ٤٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٣).

الآيات (٤ - ٦)

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿آيَةٍ﴾: أي: عَلامَةٍ ودليلٍ وحُجَّةٍ على وَحدانيَّة اللهِ، وصِدقِ رسلِه فيما جاءوا به، وتُطلَقُ الآيةُ على العلامةِ- يُقال: آيةُ كذا؛ أي: علامَتُه- وعلى العَجيبةِ، وتُطلق أيضًا على الجماعةِ، وسُمِّيت الآيةُ مِن القرآنِ بذلك: إمَّا مِن العلامةِ؛ لأنَّها علامةٌ على صدقِ مَن جاء بها، أو مِن الجماعةِ؛ لأنَّها جماعةٌ مِن كلماتِ القرآنِ مشتملةٌ على بعضِ ما اشتَمل عليه القرآنُ مِن الإعجازِ، والحلالِ والحرامِ، والعقائدِ[1].

﴿قَرْنٍ﴾: أي: قومٍ وأُمَّة من الناس مُقترنِينَ في زمَنٍ واحد، وجَمْعُه قرونٌ، ويُطلَق القرنُ كذلك على الزَّمان، وأهلِ الزمان، وأهلِ مُدَّة كان فيها نبيٌّ، أو كان

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٤، ٥٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦١).
قال الشنقيطيُّ: (والآيةُ في القرآنِ تُطلَق إطلاقَينِ: تُطلَقُ الآيةُ على الآيةِ الكونيَّةِ القدريَّةِ، وهي مِن الآيةِ بمعنى: العلامةِ، وهي ما نصَبه اللهُ جلَّ وعلا مِن آياتِه جاعلًا لها علاماتٍ على كمالِ قُدرتِه، وأنَّه الربُّ وحدَه، المعبودُ وحدَه، كقولِه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أي: لعلاماتٍ ودلالاتٍ واضحاتٍ على أنَّه الربُّ المستحِقُّ أنْ يُعبدَ وحدَه.
الإطلاقُ الثَّاني: تُطلَق الآيةُ في القرآنِ على الآيةِ الشرعيَّة الدينيَّةِ، كآياتِ هذا القرآنِ العظيمِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٢).

فيها طَبقةٌ من أهل العِلم، قلَّت السِّنون أو كثُرت؛ قيل: مُدَّتُه ثمانون سَنةً، ولا يَقِلُّ عن ثَلاثينَ سَنةً، وأصل (قرن): يدلُّ على جمْعِ شيءٍ إلى شيء[١].

﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾: أَعطَيْناهم، وثَبَّتْناهم، وأسْكنَّاهم، وملَّكْناهم، ووَطَّأْنَا لهم البِلادَ والأرضَ[٢].

﴿مِدْرَارًا﴾: المطرُ المدرارُ هو: المُتتابع الغزيرُ الذي يَتْبَعُ بَعضُه بَعضًا، وأصلُه: تَولُّدُ شَيءٍ عن شيءٍ[٣].

﴿وَأَنْشَأْنَا﴾: خَلَقْنا وأحْدَثْنا، والنَّشأة: إحداثُ الشَّيءِ وتربيتُه، والإنشاءُ: إخراجُ ما في الشَّيءِ بالقوَّة إلى الفِعل، وأصل (نشأ) يدلُّ على ارتفاعٍ في شيءٍ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾

﴿كَمْ﴾: اسمٌ له وجوبُ الصَّدارةِ في الكَلامِ، ويجوزُ هنا أن تَكونَ استفهاميَّةً أو خَبريَّة، وهي في مَحلِّ نَصبٍ مفعولٌ به مُقَدَّمٌ بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ لا بـ ﴿يَرَوْا﴾؛ لأنَّ الاستفهامَ وما جرَى مجراهُ لا يَعمَلُ فيه ما قَبْلَه، وهي مُعَلِّقةٌ للفِعل (يَرَى)

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص:٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٩، ٢٠٢).

عن العَملِ[١]. والرؤيةُ هنا الأقربُ أنَّها رُؤيةٌ عِلْميَّةٌ وليستْ بَصريَّةً، فتَنصِب مَفعولَينِ، و﴿كَمْ﴾ وما في حيِّزها سَدَّتْ مَسدَّ هذَينِ المفعولَينِ. وقوله: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تمييزٌ لـ (كم)؛ وهذا الإعرابُ بِناءً على أنَّ (كم) عِبارةٌ عن الأشخاص، أي: كَثيرًا من القرونِ أهلَكْنا. ويَجوزُ أنْ تكونَ ﴿كَمْ﴾ عِبارةً عن المصدرِ، فتَنتصبَ انتصابَه بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ على المفعوليَّة المُطْلَقَة، والتقدير: كَمْ إهلاكًا أَهْلَكْنا، و﴿مِّن قَرْنٍ﴾ على هذا صِفةٌ لمفعولِ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: أهلكْنا قومًا أو فوجًا مِن القُرونِ. ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿كَمْ﴾ عِبارةً عن الزَّمان، فتَنتصبَ على الظَّرفِ، والتقدير: كم أَزمنةً أهلَكْنا فيها، وعلى هذا الوجهِ فـ ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ هو المفعولُ به لـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِّن﴾ مَزيدةٌ فيه؛ وجازَ ذلك لأنَّ الكلامَ غيرُ مُوجَبٍ، والمجرورَ نكرةٌ[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المشرِكين والمكذِّبين لا تأتيهم من حُجَّةٍ وعلامةٍ على وحدانيةِ اللهِ، وصِدقِ رُسلِه إلَّا أعْرَضوا عنها؛ فكذَّبوا بالحقِّ لَمَّا أتاهم من عندِ الله، ولَسَوف تأتيهم عقوبةٌ على اتِّخاذِهم هذا الحقَّ ومَن جاء به سُخريةً.

ألم يَعتبِرْ هؤلاءِ بالأُممِ الماضِيَة فيَروا كثرةَ الأُمم التي أهْلَكها اللهُ، مِن الذين

(١) التَّعليقُ في اصطلاح النُّحاة: هو مَنْعُ العامِلِ من العَمَلِ لفظًا لا محلاًّ؛ لفَصْلِ ما له صَدْرُ الكلام- مثل: لام الابتداء، والاستِفهام- بَينَه وبين مَعمولِه؛ نحو: ظَننتُ لَزيدٌ قائِمٌ- كان أصلُها: ظننْتُ زيدًا قائمًا- فقولك: (لَزيدٌ قائمٌ) لم تعمل فيه (ظنَّ) لفظًا؛ لأجل المانِعِ لها من ذلك، وهو اللَّام، ولكنَّه في موضع نصبٍ، سادٌّ مسدَّ المفعولينِ؛ بدليل أنَّك لو عَطفتَ عليه لنصبْتَ؛ نحو: ظننتُ لَزيدٌ قائِمٌ وعَمْرًا مُنطلِقًا؛ فهي عاملةٌ في (لزيد قائم) في المحلِّ دون اللَّفْظِ. يُنظر: ((شرح ألفية ابن مالك)) لابن عقيل (٢/ ٤٥)، ((شرح شذور الذهب)) للجوجري (٢/ ٦٥٧- ٦٥٨)، ((جامع الدروس العربية)) لمصطفى الغلاييني (٣/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٣٥- ٥٣٦).

مكَّنَهُم الله في الأرضِ ما لم يُمكِّنْ لهؤلاءِ الكَفرةِ، وجعَل الأمطارَ يَتتابَع نُزولُها عليهم، وجعَل الأنهارَ تَجري من تحتِهم، فأهْلَكَهم بذُنوبهم، وأحْدَث سبحانه بعدَ إهلاكِهم جيلًا آخَرَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تكلَّم اللهُ تعالى أولًا: في التَّوحيدِ، وثانيًا: في المعادِ، وثالثًا: فيما يقرِّر هذين المطلوبَيْن، ذكَر بعدَه ما يتعلَّق بتقريرِ النُّبوَّة، وبدأ فيه بأنْ بيَّن كونَ هؤلاء الكفَّار مُعرضين عن تأمُّل الدَّلائلِ، غيرَ ملتفتِين إليها[1]، فقال تعالى:

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: ومهما أتى هؤلاء الكفَّارَ والمشركين المكذِّبين مِن حُجَّةٍ وعلامةٍ على وحدانيتِه تعالى، وصِدق رُسُلِه عليهم السَّلام؛ فإنَّهم يُعْرِضونَ عنها، غيرَ مُبالِين بها[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

في هذه الآياتِ رتَّب اللهُ تعالى أحوالَ هؤلاء الكفَّارِ على ثلاثِ مراتبَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥-١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠).

فالمرتبةُ الأولى: كونُهم مُعرِضينَ عن التأمُّلِ في الدَّلائل والتفكُّرِ في البَيِّناتِ، وهذا في الآية السَّابِقَة، والمرتبة الثانِيَة: كونُهم مُكذِّبينَ بها، وهذه المرتبةُ أزيدُ ممَّا قبلَها؛ لأنَّ المُعْرِضَ عن الشَّيءِ قد لا يكونُ مكذِّبًا به، بل يكون غافلًا عنه غيرَ مُتعرِّضٍ له، فإذا صار مُكذِّبًا به، فقد زاد على الإعراض، والمرتبةُ الثالثة: كونُهم مُستهزِئين بها؛ لأنَّ المكذِّبَ بالشيءِ قد لا يَبلغُ تكذيبُه به إلى حدِّ الاستهزاءِ، فإذا بلغَ إلى هذا الحدِّ فقَدْ بلَغَ الغايةَ القُصْوى في الإنكار، وهاتان المرتبتانِ في هذه الآيةِ، فبَيَّن تعالى أنَّ أولئكَ الكفَّارَ وصَلوا إلى هذه المراتبِ الثلاثِ على هذا الترتيبِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان إعراضُهم عن النَّظرِ المذكورِ في الآيةِ السَّابقةِ سببًا لتكذيبهم، وكان تكذيبُهم سببًا لتعذيبِهم[(٢)]؛ لذا قال تعالى:

﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾.

أي: فقدْ كذَّبوا بما جاءَهم من عندِ الله تبارَك وتعالى[(٣)].

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أي: فسوف تأتِيهم أخبارُ استهزائِهم بآياتِ اللهِ، وبالأدلَّة التي آتاهم، وسيجدونَ عقوبتَه وجزاءَه[(٤)].

ثم حذَّرهم اللهُ تعالى مِن أنْ يصيبَهم مِن العذابِ، والنَّكالِ الدنيويِّ، ما حلَّ بأشباهِهم ونُظرائِهم مِن القُرونِ السَّالفةِ[(٥)]، فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠).

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا منَعَهم اللهُ تعالى عن ذلِك الإعراضِ، والتكذيبِ، والاستهزاءِ، بالتهديدِ والوعيدِ؛ أتْبعَه بما يَجري مجرَى الموعظةِ والنَّصيحةِ في هذا البابِ، فوَعَظَهم بسائرِ القُرون الماضية؛ كقومِ نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ، وقومِ لوطٍ، وقومِ شعيبٍ، وفِرعونَ، وغيرِهم[١]، وحذَّرهم مِن أنْ يصيبَهم مِن العذابِ والنَّكالِ الدنيويِّ ما حلَّ بأشباهِهم ونُظرائِهم مِن هذه القُرون الماضيةِ[٢]، فقال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾.

أي: ألم يَعتبرْ هؤلاء بالأممِ الماضيةِ، فيَروا[٣] كثرةَ مَن أفنيتُ، ودَمَّرتُ مِن قبلِهم من الأممِ، الذين وطَّأتُ لهم البلادَ والأرضَ توطئةً لم أُوطِّئْها لهم، وأعطيتُهم فيها ما لم أُعْطِهم؛ فقدْ كانوا أشدَّ قوَّةً، وأكثرَ جمعًا، وأكثرَ أموالًا وأولادًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((نتفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠).

(٣) قال ابنُ عُثيمين: (قوله: ﴿يَرَوْا﴾ يحتمل أنْ يُراد بالرؤية هنا: الرؤية العِلميَّة، أو الرؤية البصريَّة؛ فالبلاد التي مروا بها مُدمَّرةً رؤيتُها بصريَّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨]، والبلاد التي لم يَرَوْها، ولم يمرُّوا بها، تكون رؤيتُها عِلميَّةً، يتناقلها أهلُ الأخبار). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٦-١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).

بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾[التوبة: ٦٩].

وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[الروم: ٩-١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾[سبأ: ٤٥].

﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا ﴾.

أي: وجَعَلْنا المطرَ يَتتابَعُ نزولُه عليهم بغزارةٍ[١].

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ ﴾.

مُناسبتُها لمَا قبلها:

لَمَّا ذَكَر نفْعَهم بماءِ السَّماءِ، وكان غيرَ دائمٍ، أتْبعَه ماءَ الأرضِ؛ لدوامِه، وملازَمتِه للبَساتين والرِّياضِ، فقال[٢]:

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ ﴾.

أي: وأَجْرَيْنا لهم الأنْهارَ من تحتِ أشجارِهم ومساكِنِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٧)، ((تفسير الواحدي)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٢).

﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾.

أي: فأخَذْناهم بعذابٍ أفناهم؛ بسببِ ما ارتكبوه مِن خطايا، ومنها تكذيبُ رُسلِ الله، عليهم السَّلام[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾.

أي: وأَحْدَثْنا مِن بعدِ الَّذين أَهلَكْناهم جيلًا آخَرَ[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- خَطرُ الإعراضِ عن الآياتِ، وأنَّه يُخشَى على مَن أعرضَ عنِ الآياتِ ألَّا يَهتديَ إليها؛ لِقَوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾[(٣)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ توجيهٌ وإرشادٌ إلى الاعتبارِ بالأُمم السَّالِفة؛ فإنَّ إهلاكَ الأمم المكذِّبةِ، بعدَ إمهالِهم وتمكينِهم في الأرضِ؛ سُنَّةُ اللهِ، ودأْبُه في السَّابقين واللَّاحقين؛ فينبغي الاعتبارُ بمَن قَصَّ الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٧)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١).

قيل المعنى: فعمِلوا مِثلَ أعمالهم فهَلَكوا كهلاكِهم، فاحْذروا- أيُّها المخاطبون- أن يُصيبكم مثلَ ما أصابهم، وهذا اختيارُ ابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٤١)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٥١).

وقال ابنُ عُثيمين: (هل القوم الآخَرون عصَوْا أو أطاعوا؟ منهم مَن عصى، ومنهم مَن أطاع، ولكن الله قال: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ﴾ [المؤمنون: ٤٤]). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٥، ٣٦).

نَبأَهم[١].

٣- قوله تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ يُوجِب الاعتبارَ، والانتباهَ من نَوْم الغفلةِ، ورقدةِ الجَهالة؛ لأنَّه تعالى بيَّن أنَّهم مع مزيدِ العزِّ في الدنيا بهذه الوُجوهِ، ومع كثرةِ العددِ والبَسْطَة في المالِ والجِسم، جرَى عليهم عندَ الكُفْر الإهلاكُ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- إضافةُ الآياتِ إلى الربِّ في قوله: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ تُفيدُ أنَّ إنزالَه الوحيَ، وبعثَه للرُّسُل، وتأييدَهم، وهدايتَه للخَلْقِ بهم، كلُّه مِن مقتضى ربوبيَّته، أي: مقتضى كونِه هو السيِّدَ المالِكَ المربِّيَ لخلقِه، المدبِّرَ لأمورِهم على الوجه الموافِق للحِكمة، وأنَّه لا يَقدِر عليه غيرُه؛ فالذين يُؤمنون بالربِّ، ولا يُؤمنون بكُتُبه ورُسلِه، يَجهلون قدْرَ ربوبيَّته، وكُنْهَ حِكمتِه ورحمتِه[٣].

٢- إضافةُ (الربِّ) إلى ضَمير (هم) في قوله تعالى: ﴿رَبِّهِمۡ﴾؛ لقصدِ التَّسجيلِ عليهم بالعقوق لحقِّ العبوديَّة؛ لأنَّ مِن حقِّ العبد أن يُقبِلَ على ما يأتيه من ربِّه، وعلى مَن يأتيه يقولُ له: إنِّي مُرسَلٌ إليك مِن ربِّك، ثم يتأمَّلَ وينظرَ، وليس من حقِّه أن يُعرِضَ عن ذلك؛ إذ لعلَّه يُعرِض عمَّا إنْ تأمَّلَه عَلِمَ أنَّه مِن عند ربِّه[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ فيه أنَّ الله سبحانه وتعالى حكيمٌ رحيمٌ؛ وذلك لكونِه يأتي بالآياتِ للخَلقِ، فإنَّ هذا من الحِكمةِ الواضحةِ؛ لأنَّه ليس من

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٤).

المعقولِ أن يأتيَ رجلٌ، ويقولَ للناس: إنَّه رسولٌ، ويستبيح دِماءَ مَن لم يُؤمِنْ به وأموالَهم وذُرِّيَّاتِهم ونِساءَهم، بدون أنْ يكون هناك آيةٌ تدلُّ على صِدقه؛ ولهذا قال النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما مِن الأنبياءِ مِن نبيٍّ إلَّا قد أُعطِيَ مِن الآياتِ ما مِثلُه آمَن عليه البَشَرُ))[١]، وهذا مِن جِهة الحِكمة. أمَّا مِن جِهة الرَّحمة؛ فإنَّ الله رحِمَ الخَلقَ بكونِه إذا أَرسلَ إليهم الرُّسلَ آتاهم الآياتِ الدالَّةَ على صِدق هؤلاء الرُّسُلِ، ولو شاءَ لأَرسَلَهم بدونِ آياتٍ، ثمَّ مَن كذَّب أخَذَه، لكن تأبَى حِكمتُه ورحمتُه أنْ يُرسِلَ رسلًا بلا آيةٍ[٢].

٤- أنَّ الإعراضَ عن الحقِّ يَعقبُه التكذيبُ به؛ ففائدةُ (الفاء) في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ التعقيبُ بعد قوله: ﴿مُعْرِضِينَ﴾، يعني: أنَّ الإعراضَ عن الآياتِ أعْقَبه التكذيبُ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ فيه أنَّ هؤلاء- مع تواتُرِ الآياتِ عليهم- كذَّبوا بالحقِّ، ولم يَستجيبوا له، والتكذيبُ بالحقِّ بعدَ مجيئه أشدُّ من التَّكذيبِ به قبلَ أن يأتيَ، بحيثُ يَسمَعُ الإنسانُ عنه، ولكنَّه لم يتأكَّدْ، فإنَّ هذا الذي أتاه الحقُّ، وكذَّب به، يكون تكذيبُه أعظمَ[٤].

٦- كيف قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ مع أنَّ القومَ ما كانوا مُقرِّين بصِدقِ محمَّدٍ عليه السَّلام فيما يُخبِر عنه، وهم أيضًا ما شاهَدوا وقائعَ الأُمم السَّالِفة؟

والجواب: أنَّ أقاصيصَ المتقدِّمين مشهورةٌ بين الخَلْقِ، فيَبعُدُ أنْ يُقال: إنَّهم ما سَمِعوا هذه الحكاياتِ، ومجرَّدُ سَماعِها يَكفي في الاعتبارِ[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢) واللفظ له. من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٥).
(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٥).

٧- قولُه تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ فيه بيانُ عظمةِ اللهِ سبحانه وتعالى وغَيْرتِه؛ حيث أهْلَك أولئكَ القومَ مع ما عِندَهم من القوَّةِ والنِّعمةِ؛ قال تعالى: ﴿مَكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ ...﴾[1].

٨- قوله تعالى: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ فيه بيانُ تمامِ قُدرةِ الله تبارك وتعالى وسُلطانِه، والتنبيهُ على أنَّه تعالى لا يَتعاظَمُه أنْ يُهلِكَهم، ويُخلِيَ بلادَهم منهم؛ فإنَّه قادرٌ على أن يُنْشِئ مكانَهم قومًا آخَرين، يَعمُر بهم بلادَهم؛ كقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٥]؛ لأنَّ الأمرَ أمرُه عزَّ وجلَّ، والمُلك مُلكُه، والسُّلطان سُلطانه؛ فهو سبحانه وتعالى يَفعَلُ ما يشاءُ؛ من إهلاكٍ وإنشاءٍ[2].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ المقصودُ من هذا: تعريضٌ بالمشركين بأنَّ الله مُهلِكُهم، ومنشئٌ مِن بَعدِهم قَرنَ المسلِمينَ في دِيارهم؛ ففيه نِذارةٌ بفَتْح مكَّة، وسائرِ بلادِ العربِ على أيدي المُسلمينَ[3].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ فيه التفاتٌ؛ إذ ضمائرُ جمْع الغائبين في قولِه: ﴿تَأۡتِيهِم﴾، ﴿رَبِّهِمۡ﴾ مرادٌ منها المشرِكون، الذين هم بعضُ مَن شمِلَتْه ضمائرُ الخِطاب في الآيةِ التي قبْلَها، من قوله: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾؛ ففي العدولِ عن الخِطابِ إلى الغَيبة بالنِّسبةِ إليهم التفاتٌ أوْجَبه تَشهيرُهم بهذا الحالِ الذَّميم، تَنصيصًا على ذلك، وإعراضًا عن خِطابهم، وهو مِن أحسنِ الالتفاتِ؛ لأنَّ الالتفاتَ يُحسِّنه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٠).

أن يكونَ له مُقتَضٍ زائدٌ على نقْلِ الكلامِ مِن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ، المرادُ منه تجديدُ نشاطِ السَّامع[١].

- وعبَّر بصِيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿تَأْتِيهِم﴾ لحِكايةِ الحالِ الماضية، وفيه دَلالةٌ على الاستمرارِ التجدُّدي[٢].

- و﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ مزيدةٌ للاستغراقِ، ولتأكيدِ النَّفي، وفي قوله: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ﴾ للتبعيضِ[٣].

- وفي قوله: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾: اخْتِيرَ الإتيانُ في خبرِ (كان) بصِيغةِ اسمِ الفاعلِ ﴿مُعْرِضِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الإعراضَ متحقِّقٌ من دَلالةِ فِعل الكَونِ (كَانُوا)، ومُتجدِّد مِن دَلالةِ صِيغة اسم الفاعِل؛ لأنَّ المشتقَّاتِ في قُوَّة الفِعلِ المضارع[٤].

- والاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ دالٌّ على أنَّهم لم يَكُنْ لهم حالٌ إلَّا الإعراضُ[٥].

٢- **قوله:** ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ الفاء في ﴿فَسَوْفَ﴾ للتفريعِ والتسبُّبِ على قولِه: ﴿كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾؛ تأكيدًا لوعدِ المؤمنين بالنَّصرِ، وإظهارِ الإسلامِ على الدِّين كلِّه، وإنذارِ المشركينَ بأنْ سيحُلُّ بهم ما حلَّ بالأُمم الذين كذَّبوا رُسلَهم ممَّن عَرَفوا، وحرفُ التَّسويفِ (سَوْفَ) جاءَ لتأكيدِ حصولِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ذلك في المستقبَلِ[١].

- وفي قوله: ﴿أَنۢبَـُٔوٓاْ﴾ إيذانٌ بغاية العِظَم؛ لأنَّ (النَّبأ) لا يُطلَق إلَّا على خبرٍ عظيمِ الوقْعِ[٢].

- قال تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـُٔوٓاْ﴾ جاء هنا تقييدُ الكذبِ بالحقِّ، والتَنفيسِ بـ ﴿سَوۡفَ﴾، وفي الشُّعراء: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ﴾ [الشعراء: ٦]، فحذَف (الحقَّ)، وجاء بالسِّين فقط؛ لأنَّ الأنعام مُتقدِّمةٌ في النُّزولِ على الشُّعراءِ، فاستوفَى فيها اللَّفْظَ، وحذَف مِن الشُّعراءِ، وهو مرادٌ؛ إحالةً على الأوَّلِ، وناسَب الحذْفُ الاختصارَ في حرْف التَّنفيسِ، فجاء بالسِّين[٣]، ويَحسُن أن يُزادَ على ذلك أنَّه لَمَّا كان فِعلُ الاستقبالِ المقرونُ بـ (سوف) أبعدَ زمانًا من المقرون بالسِّين، تَعيَّن الأوَّلُ فيما نزل أولًا، والثاني فيما نزَل آخِرًا[٤].

٣- **قوله:** ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا﴾ استئنافٌ مَسُوقٌ لتعيينِ ما هو المرادُ بالأنباءِ التي سبَق بها الوعيدُ، وتقريرِ إتيانِها بطريقِ الاستشهاد، وهمزةُ الإنكار في قوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ لتقريرِ الرُّؤْية، و﴿كَمۡ﴾ مفيدةٌ للتكثير[٥].

- وفيه التفاتٌ من الغَيْبة في قوله: ﴿يَرَوۡاْ﴾ إلى الخِطابِ- حيث قال: ﴿لَّكُمۡ﴾، دُونَ (لهم)- وفيه تعريضٌ بقلَّة تمكينِ هؤلاءِ، ونَقصِهم عن أحوالِ مَن سَبق، ومع تمكينِ أولئك في الأرضِ فقد حلَّ بهم الهلاكُ؛ فكيفَ لا يحُلُّ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٣٥- ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٥٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٠).

بكم على قلَّتِكم، وضِيق خُطَّتكم؟! فالهلاكُ إليكم أسرعُ من الهلاكِ إليهم[١].

- وجاءت لفظة: ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ للمبالغةِ في اتِّصالِ المطرِ، ودوامِه وقتَ الحاجة[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٠).

الآيات (٧ - ١١)

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿قِرْطَاسٍ﴾: أي: صَحيفةٍ، أو ورقٍ، أو ما يُكتَب فيه، والجمعُ قَراطيس[١].

﴿يُنظَرُونَ﴾: أي: يُؤخَّرونَ، وأصل (نظر): تأمُّل الشيءِ ومُعاينتُه[٢].

﴿وَلَلَبَسْنَا﴾: أي: ولخَلَطْنا عليهم، أو أَضللْناهم بما ضلُّوا به قبلَ أن يُبعث المَلكُ، وأصل اللَّبْس: سَترُ الشَّيء، والمخالطةُ والمداخلةُ أيضًا[٣].

﴿فَحَاقَ﴾: أي: أحاطَ ونزَل وأصاب، وأصل (حيق): نزولُ الشَّيءِ بالشَّيء[٤].

﴿عَٰقِبَةُ﴾: العاقبةُ تختصُّ بالثَّواب إذا أُطلقتْ، وقد تُستعمَلُ -إذا أُضيفتْ- في العُقوبةِ، أو ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّم، وأصل (عقب): يدلُّ على تأخيرِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٢، ٨١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

شيءٍ، وإتيانِه بعدَ غيرِه[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾

﴿كَيۡفَ﴾: اسمُ استفهامٍ، في محلِّ نصْبٍ، خبرٌ لـ﴿كَانَ﴾، وهو مقدَّمٌ عليها وجوبًا؛ لأنَّ للاستفهامِ صَدْرَ الكلامِ.

و﴿عَٰقِبَةُ﴾: مرفوعةٌ؛ اسمُ ﴿كَانَ﴾، ولم يُؤَنَّثْ فِعلُها -حيث لم يَقُل: (كانَتْ)-؛ لأنَّ العاقبة بمَعنى المصيرِ أو المعاد، أو المآل والمنتَهى، ولأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقيٍّ.

والجُملةُ الاستفهاميةُ ﴿كَيۡفَ كَانَ ...﴾ في مَحَلِّ نَصْبٍ على إسقاطِ حرفِ الجرِّ؛ إذ التقديرُ: ثم انظُروا في كذا؛ لأنَّ ﴿كَيۡفَ﴾ مُعلِّقةٌ للفِعلِ ﴿ٱنظُرُواْ﴾ عن العملِ؛ لأنَّ معنى النَّظَر هنا التفكُّرُ والتدبُّرُ[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه لو أَنزَلَ على نبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كلامًا، مكتوبًا في أوراقٍ، فتأكَّد الكفَّارُ منه، حتى إنَّهم لَمَسوه بأيديهم، لاستمرُّوا في عِنادِهم، وقالوا: ما هذا إلَّا سِحرٌ واضحٌ، ولاستمرُّوا في تَعنُّتِهم، وقالوا: هلَّا أُنزِلَ مع محمَّدٍ أحدُ الملائكةِ، يكون مُصدِّقًا له ومعاوِنًا، فردَّ اللهُ تعالى عليهم بأنَّه لو أنْزَل ملَكًا- كما سألوا- لجاءَهم العذابُ عاجلًا، إنْ لم يُؤمِنوا، ولن يُمهَلوا حتَّى يتوبوا.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٠١).

ثم بيَّن تعالى أنَّه لا جَدْوى من إرسالِ الملَك إليهم؛ لأنَّه لو أَرْسَل ملَكًا يَشهدُ بتصديقِ النبيِّ، ويأمُرُهم باتِّباعِه، لجَعَلَه على هيئة بَشرٍ؛ ليتمكَّنوا مِن رُؤيتِه، ومِن سماعِ كلامِه الذي يُبلِّغُه عن اللَّه، ويَحصُلَ الانتفاعُ به؛ ولأنَّهم لا يَقدِرون على رؤيةِ الملَك على صورتِه، وفي حالِ كان على شكلِ بشرٍ، فسَيلتَبِسُ عليهم أمْرُه، كما لَبَسوا على أنفسِهم في قَبول رِسالةِ الرَّسولِ البَشريِّ، واستبعدوا أن يكونَ الرسولُ بشرًا مثلَهم.

ثمَّ خاطَب اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُبيِّنًا له أنَّه قد سُخِر واستُهزِئ برُسلٍ من قبلِه، فعاقبَهم الله جزاءَ تلك السُّخرية برُسُلِه عليهم السَّلام، وقال له: قلْ لهؤلاء الذين كذَّبوا بك- يا محمَّد: امشُوا في الأرض، واطَّلِعوا على آثارِ الأُمم الماضيةِ التي كذَّبتْ رُسلَها، ثمَّ انظروا كيف كانتْ عاقبتُهم، وما الذي حلَّ بهم مِن الهلاكِ، وخرابِ الدِّيار، فخُذوا من ذلِك العِظةَ والعِبرةَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أَخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهم أنَّهم كذَّبوا بكلِّ ما جاءَهم من آيةٍ، تَبِع ذلك إخبارٌ فيه مُبالغةٌ مُضمَّنةٌ أنَّه لو جاءَهم أعظمُ ممَّا جاء، لكذَّبوا أيضًا[1]، فقال تعالى:

﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ ﴾.

أي: وهُم لشِدَّة عِنادِهم، ومُكابَرتِهم للحقِّ، لو أَنزلتُ عليك- يا محمَّد-

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٦٩).

كلامًا[١] مكتوبًا في صَحيفةٍ، يُعاينونَه، ويَلمَسونَه بأيديهم، بما يَرفَعُ عنهم كلَّ شكٍّ ورِيبة[٢].

﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

أي: فلو وقَعَ ذلك لقالَ الكفَّارُ ظُلمًا وعِنادًا: ما هذا إلَّا سِحرٌ ظاهرٌ، سَحَرْتَنا به[٣]!

كما قال تعالى مُخبِرًا عن مكابرتِهم للمحسوسات: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۞ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥].

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾.

أي: وقالوا أيضًا تَعنُّتًا: هلَّا أُنزِلَ مع محمَّدٍ مَلَكٌ يكون مُصدِّقًا له ومعاوِنًا[٤]؟

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى: ولو أَنْزَلنا مَلَكًا على ما سألوا، لجاءَهم العذابُ عاجلًا،

---

(١) اختار ابنُ جريرٍ أنَّه القرآنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الأنعام)) (ص:٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٨-١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥١).

إنْ لم يُؤمنوا، ولنْ يُمهَلوا حتَّى يتوبوا[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٦-٨].

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾.

أي: ولو أَنزَلْنا على هؤلاءِ رسولًا ملَكيًّا، يَشهَدُ بتصديقِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويَأمُرُهم باتِّباعه، لجَعَلْناه على هَيئةِ رجُلٍ مِن البَشرِ؛ لِتُفْهَم مُخاطبتُه، ويَحصُل الانتفاعُ بالأخْذِ عنه؛ لأنَّهم لا يَقدِرون على رؤيةِ الملَك في صُورتِه[٢].

﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.

أي: وإذا تَشكَّل بصورةٍ بَشريَّةٍ، فسَيلتبِس عليهم أمْرُه، لا يَدْرونَ أمَلَكٌ هو أمْ إنسيٌّ، كما لَبَسوا على أنفسِهم في قَبول رسالةِ الرَّسول البشريِّ؛ فلا جَدْوى إذنْ من إرسالِ ملَكٍ[٣].

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأنعام)) (ص:٥١-٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٢)، ((الرد عى المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٣-١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١-٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٥-١٤٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان بعضُ الأقوامِ يقولون على سبيلِ الاستهزاءِ: إنَّ رَسولَ اللهِ يجبُ أنْ يكون ملَكًا من الملائكةِ؛ وكان يَضيقُ قلبُ الرسولِ عندَ سَماعِه ذلك؛ ذَكَر أنَّه قد استُهزِئ برُسُلٍ مِن قَبلِه؛ ليصيرَ سببًا للتخفيفِ عن قلبِه عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّ ممَّا يُخفِّف عن القلبِ، المشاركةَ في سببِ المحنةِ والغمِّ؛ فكأنَّه قيل له: إنَّ هذه الأنواعَ الكثيرةَ من سوءِ الأدبِ، التي يُعاملونك بها، قد كانت موجودةً في سائرِ القُرون مع أنبيائِهم؛ فلستَ أنت فريدًا في هذا الطَّريقِ[١].

وأيضًا لَمَّا كانوا في قولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ قاصِدين التعجيزَ والاستهزاءَ معًا؛ لأنَّهم ما قالوه إلَّا عن يقينٍ منهم أنَّ ذلك لا يكونُ، ابتَدأَ الردَّ عليهم بإبطالِ ظاهرِ كَلامِهم بقولِه: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، ثم ثَنَّى بتهديدِهم على ما أرادوه منَ الاستهزاءِ، والمقصودُ مع ذلك تهديدُهم بأنَّهم سيَحيقُ بهم العذابُ، وأنَّ ذلك سُنَّةُ اللهِ في كلِّ أمَّةٍ استهزأتْ برسولٍ لها[٢]، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾.

أي: قد سَخِرَت أممٌ برُسُلٍ مِن قبلِك- يا مُحمَّد[٣].

﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

أي: فحَلَّ بهؤلاءِ الساخرينِ العذابُ؛ جزاءً لهم بسببِ سُخريتِهم برُسلِهم عليهم السَّلام[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٦) ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٥-١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص:٥٥).

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى ما حلَّ بالمكذِّبين المسْتَهْزئين، حين قال: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وكان المخاطَبون بذلِك أُمَّةً أُمِّيَّة، لم تَدرُسِ الكُتبَ، ولم تُجالسِ العلماءَ- أُمِروا بالسَّير في الأرضِ، والنَّظرِ فيما حلَّ بالمكذِّبين؛ ليعتبروا بذلك، ويتظافَرَ مع الإخبارِ الصَّادقِ الحسُّ؛ فللرؤيةِ مِن مزيدِ الاعتبارِ ما لا يكونُ بغيرِها[1]، فقال سبحانه:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهم: جُولوا في بلادِ المكذِّبين برُسلِهم، أمثالِكم؛ لتطَّلِعوا على آثارِهم[2].

﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

أي: ثمَّ انظُروا إلى ما حلَّ بهم مِن البَوار، وخرابِ الدِّيار، وفكِّروا في أنفُسِكم؛ كيف أَعْقَبهم تكذيبُهم ذلك الهلاكَ، وخِزيَ الدنيا وعارَها؛ فاعْتَبِروا، واحْذَروا أنْ يَحيقَ بكم مثلُ ما حاقَ بهم[3].

كما قال اللهُ تبارَك وتعالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ المعاصيَ سببٌ للعقوبة؛ لقوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٦-١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٩-٦١).

العقوبةَ بقَدْرِ العملِ؛ ولذلك عبَّر بقوله: ﴿بِهِۦ﴾ عنها، وهذا مِن عَدلِ الله عزَّ وجلَّ، أمَّا المثوبةُ فالحسنةُ بعَشْر أمثالِها إلى سبعِ مِئةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة[١].

٢- الأمرُ بالسَّيرِ في الأرضِ للاعتبار، سواءٌ كان بالبصائرِ أو بالأبصار؛ لقوله: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ويتفرَّع على هذه الفائدةِ: أنَّه يَنبغي أن نَقرأَ تاريخَ الأُمم السَّابقة، وأفضلُ ما نَقرؤُه منه هو القرآنُ وصحيحُ السُّنة؛ لأنَّ مِن الأحاديثِ الضعيفةِ أو الموضوعةِ عن الأُمم السَّابقة ما لا يُحْصيه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، والعِبْرَةُ بالصَّحيحِ، وما أكثرَ الأحاديثَ التي فيها الأخبارُ عن الأمم السَّابقة[٢].

٣- فضلُ الاعتبارِ، وأنَّه أمرٌ مطلوبٌ؛ لقوله: ﴿ٱنظُرُواْ﴾، وسواءٌ أكان الاعتبارُ بِمَن انتقمَ الله منهم أو بمَن أثابهم، فإنْ كان بمَنِ انتقمَ الله منهم، فالإنسانُ يَحذَر، وإنْ كان ممَّن أثابهم، فالإنسانُ يَرْغَب، وفي هذه الآيةِ الاعتبارُ بمَن انتقمَ اللهُ منه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا...﴾ فيه بيانُ أنَّ هؤلاءِ المكذِّبين لن يُؤمِنوا ولو جاءتْهم كلُّ آيةٍ؛ لأنَّ مِن أعظمِ الآيات أنْ يُنَزَّل الكتابُ يُشاهدونَه بقرطاسٍ ويَلمَسونَه؛ ومع ذلِك لو نَزَل هكذا سيُنْكرونَه، ويَدَّعُون أنَّه سِحرٌ واضحٌ قدْ سُحِروا به[٤].

٥- فائدةُ زِيادةِ لَمْسِ القِرطاسِ بأَيديهم في قوله: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ تحقيقُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٦، ٤٧).

القِراءةِ على قُربٍ، أي: فقَرؤوه وهو بأيديهم، لا بَعيدٌ عنهم[١].

٦- قوله تعالى: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ...﴾ فيه بيانُ عِلمِ اللهِ تبارَك وتعالَى بما سيكونُ لو كان؛ لأنَّه عَلِمَ ماذا سيكونُ قولُ هؤلاءِ، لو نزَلَ عليهم الكتابُ في قِرطاسٍ[٢].

٧- أنَّ المكذِّبين للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُقِرُّون بالملائكةِ؛ لقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾[٣].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أنَّ الله ما كان ليُظهرَ آياتِه عن اقتراحِ الضالِّين؛ إذ ليس الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بصدَد التصدِّي لرَغباتِ النَّاسِ، مِثلَما يتصدَّى الصانعُ أو التاجر، ولو أُجيبت رغباتُ بعضِ المقترِحين لرامَ كلُّ مَن عُرِضت عليه الدعوةُ أنْ تَظهرَ له آيةٌ حسَبَ مُقْتَرحِه، فيصير الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُضيِّعًا مدَّةَ الإرشادِ، وتلتفُّ عليه النَّاسُ التفافَهم على المشَعْوذينَ، وذلك يُنافي حرمةَ النُّبوةِ، ولكنَّ الآياتِ تأتي عن مَحضِ اختيارٍ مِن اللهِ تعالى دونَ مسألةٍ[٤].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ بيانُ رَحمةِ الله ولُطْفه بعِباده؛ حيثُ أَرسلَ إليهم بَشرًا منهم يكونُ الإيمانُ بما جاءَ به عن عِلمٍ وبصيرةٍ وغيبٍ؛ لأنَّه لو أرْسَل ملَكًا برِسالتِه، لكان الإيمانُ لا يَصدُر عن معرفةٍ بالحقِّ، ولكان إيمانًا بالشَّهادة، الذي لا ينفَعُ شيئًا وحْدَه، هذا إنْ آمنوا، والغالبُ أنَّهم لا يُؤمنونَ بهذه الحالةِ، فإذا لم يُؤمنوا قُضِي

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٤، ١٤٥).

الأمرُ بتعجيلِ الهلاكِ عليهم، وعدمِ إنظارِهم؛ لأنَّ هذه سُنَّةُ الله فيمَن طلَب الآياتِ المقترَحَةَ، فلم يُؤمِنْ بها[١].

١٠- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، الفائدةُ في كلمة ﴿ثُمَّ﴾ التنبيهُ على أنَّ عدَم الإنظارِ أشدُّ من قضاءِ الأمْرِ؛ لأنَّ مفاجأةَ الشِّدَّة أشدُّ من نفْس الشِّدَّة[٢].

١١- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أنَّ البَشرَ لا قُوَّةَ لهم على رُؤيةِ الملَكِ في صورتِه، وإنَّما رآه الأفرادُ مِن الأنبياءِ عليهم السَّلام؛ لأنَّ اللهَ تعالى أقْدَرَهم على ذلك[٣].

١٢- الحِكمةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أمور:

أحدُها: أنَّ الجِنسَ إلى الجنسِ أَمْيَلُ.

ثانيها: أنَّ البشرَ لا يُطيقُ رؤيةَ الملَك.

ثالثها: أنَّ طاعاتِ الملائكةِ قويَّةٌ فيَستحقرون طاعةَ البَشر، وربَّما لا يَعذِرونَهم في الإقدامِ على المعاصِي.

رابعها: أنَّ النُّبوَّةَ فضلٌ من الله عزَّ وجلَّ؛ فيختصُّ بها مَن يشاءُ مِن عِبادِه[٤].

١٣- قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ فيه دليلٌ على إمكانِ تَمثيل الملائكةِ بصُورة البَشرِ، وهو صحيحٌ واقعٌ بالنَّقْل المُتواتِر[٥].

١٤- حِكمةُ الله تبارَك وتعالى في إرْسالِ الرُّسلِ مِن البَشر كما في قوله

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٣).

تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾؛ من أجْل الرُّكونِ إليهم وقَبولِهم، بل إنَّ اللهَ تبارك وتعالى يَجعَلُ الرُّسُلَ من أوساطِ الأقوامِ وأشرافِهم وأفاضِلِهم، حتى يَحْتَموا بهم، ولا يضرُّ أن يَجعلَ اللهُ تبارك وتعالى للرُّسُلِ مَن يَحميهم من أقوامِهم، ويدلُّ لذلك قولُ قومِ شعيبٍ له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ [هود:٩١]؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ الإنسانَ إذا كان من القومِ صار له شأنٌ كبيرٌ وهَيْبةٌ[١].

١٥- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ...﴾ حُسنُ المحاجَّة في القرآنِ الكريمِ، وهو أنَّه لو جاءَ الأمرُ على اقتراحِ هؤلاءِ لم يكُن على ما اقْتَرحوه، أي: لم يكُن ملَكًا؛ لعدم المناسبةِ بين الرسولِ والمُرسَلِ إليهم، فإذا كان رجلًا عادَ اللَّبسُ والاقتراحُ الذي اقتَرحوه؛ لقوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[٢].

١٦- أنَّ السُّخريةَ والاستهزاءَ بالرُّسلِ موجِبٌ للعِقاب؛ لقوله: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[٣].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ...﴾ جملةٌ مُستأنفَةٌ سِيقتْ بطريقِ تلوينِ الخِطابِ؛ لبيان شِدَّة شَكيمتِهم في المكابرةِ، وما يتفرَّعُ عليها من الأقاويلِ الباطلةِ إثرَ بيانِ إعراضِهم عن آياتِ اللهِ تعالى، وتَكذيبِهم بالحقِّ واستحقاقِهم بذلك لنُزولِ العذابِ[٤].

- قوله: ﴿فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فيه تأكيدُ المعلومِ بالمحسوسِ، أو تأكيدُ المعقولِ بالمحسوسِ؛ حيث قال: ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾، وقال: ﴿فَلَمَسُوهُ﴾؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٢).

هذا تأكيدٌ بشَيءٍ محسوسٍ يُنظَر إليه أنَّه في قِرطاسٍ، ويُلمَس باليدِ[١].

- وجاءَ تخصيصُ اللَّمسِ؛ لأنَّ التَّزويرَ لا يقعُ فيه؛ فلا يُمْكنُهم أن يقولوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾، ولأنَّ الثِّقةَ باللَّمْس أقْوى؛ لأنَّ البَصرَ قد يُخدَع بالتخيُّل[٢].

- وفي تقييدِه اللَّمْسَ بالأيدي- مع أنَّ اللَّمْس لا يكونُ إلَّا بها- إطنابٌ؛ حتى يَجتمعَ لهم إدراكُ الحاسَّتينِ: حاسَّةِ البَصَرِ وحاسَّة اللَّمْس، وفيه كذلك تأكيدٌ لمعنى اللَّمْسِ؛ لرَفْعِ احتمال أن يكونَ المرادُ به (التأمُّل)، كما في قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨]، أي: تفحَّصْنا، ففيه زِيادةُ تعيُّنٍ، ودفْع احتمالِ التجوُّز[٣]. وقيَّد اللَّمس بالأيدي أيضًا؛ للإفصاحِ عن مُنْتهى ما اعْتِيد مِن مُكابرتِهم، ووقاحتِهم في الإنكارِ والتكذيبِ[٤].

٢- قوله: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فيه إظهارٌ في موضِع الإضمارِ- حيث أظهرَ الموصولَ في موضِع ضميرِه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ولم يقُل: (لقالوا)- وذلك للتنصيصِ على اتِّصافِهم بما في حيِّز الصِّلة من الكُفْر[٥]، ومِن فوائد الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ: القياسُ، بمعنى: أنَّ كلَّ مَن قال قولهم فهو كافرٌ؛ لأنَّه لو قال: (لقالوا) لن نَستفِيدَ أنَّ مَن قال مِثلَ قولهم يكون كافرًا بالنصِّ، فإذا كان هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦٩-٧٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٢).

الوصفُ ظاهرًا قِسْنَا عليه كلَّ ما ماثَلَه، أو كلَّ مَن اتَّصف بهذا الوصفِ[١].

٣- **قوله:** ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ فيه بناءُ الفِعل الأوَّل في الجوابِ للفاعِل ﴿أَنزَلۡنَا﴾ الذي هو نونُ العَظَمَة، مع كونِه في السُّؤال مَبنيًّا للمفعول ﴿أُنزِلَ﴾؛ لتهويلِ الأمرِ، وتربيةِ المهابةِ، وبناءُ الثاني (قُضِيَ) للمفعولِ للجَرْيِ على سَنن الكبرياءِ[٢].

٤- **قوله:** ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ تصديرُ الجملةِ بلامِ القَسمِ وحرْفِ التحقيقِ (قد) في ﴿وَلَقَدِ﴾، يدلُّ على تأكيدِ الخَبَر[٣]؛ وإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بمضمونِ الجملةِ[٤].

- وقوله: ﴿بِرُسُلٖ﴾ التنكيرُ والتنوينُ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ والتَّكثيرِ[٥].

٥- **قوله:** ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

- قوله: ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم﴾ مُتعلِّق بقوله: ﴿فَحَاقَ﴾، وتَقديمُه على فاعِله الذي هو ﴿مَّا﴾؛ للمُسارَعَةِ إلى بَيانِ لُحوقِ الشرِّ بهم[٦].

- و(ما) في قوله: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ موصولةٌ بمعنى (الذي)،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٨، ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٣).

(٣) مِن فوائدِ تَوكيدِ الجُملة بأنواعِ المؤكِّدات- مع أنَّ خبرَ الله تعالى صِدقٌ، سواءٌ اقترن بالقَسَم وأدوات التوكيدِ أو لا-: أنَّ القرآن الكريم جاءَ باللِّسان العربيِّ، واللسانُ العربيُّ يحسُن فيه التأكيدُ إذا اقتضتِ الحالُ ذلك؛ ومنها: أنَّ تأكيدَ اللهِ له بالقسَمِ يدلُّ على أهميَّته، وأنَّه من الأمورِ التي لا بدَّ أن يَقبَلها الإنسانُ ويُصدِّقَ بها، ومنها: أنَّه قد يُراد به دفْعُ إنكارِ مَن أنكرَ مدلولَ الخبر؛ ككونِ اللهِ عزَّ وجلَّ يُؤكِّدُ قيامَ الساعةِ بالمؤكِّدات الكثيرة لردِّ إنكارِ المكذِّبين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٦٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٤).

وهي مُفيدةٌ للتهويلِ، والجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ عائدٌ إليها، ومتعلِّقٌ بالفِعل ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وتقديمُه عليه لِرعايةِ الفواصِل، وللاهتمامِ به، أي: فأحاطَ بهم الذي كانوا يَستهزِئون به[١].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق))، وينظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٨).

الآيتان (١٢ - ١٣)

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَكَنَ﴾: أي: ثبَتَ بعدَ تحرُّك، ويُستعملُ السُّكونُ في الاستيطانِ، وأصل (سكن): يدلُّ على خِلافِ الاضطرابِ والحركةِ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محلِّ رفْعٍ، مبتدأٌ أوَّل، و﴿فَهُمۡ﴾ مبتدأٌ ثانٍ، وجملةُ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ خبرُ المبتدأِ الثاني، والمبتدأُ الثاني وخبرُه خبرٌ للمبتدأِ الأوَّل؛ ودخلتِ الفاء في ﴿فَهُمۡ﴾ لِمَا في ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من معنى الشَّرْط. وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محلِّ رفْعٍ، خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقديرُ: هم الذين خسِروا، أو: أنتُم الَّذين خَسِروا. وقيل غير ذلك[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يَأمُر اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يقولَ لهؤلاءِ المكذِّبين ويسألَهم: لِمَن مُلكُ جميعِ ما في السَّموات والأرضِ؟ ثم أمَرَه أن يُجيبَ عن السُّؤال بأنْ يقولَ: إنَّ مُلكَ ذلك كلِّه للهِ تعالى الذي يَستحقُّ العبادةَ وحْدَه، أوجبَ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٥١- ٥٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٤).

سبحانه على نفْسِه الرحمةَ، ليَجمعنَّكم- أيُّها النَّاسُ- جميعًا يومَ القيامةِ الذي لا شكَّ فيه، ثم ذكر أنَّ الخاسرينَ حقًّا هم الَّذين أضاعوا أنفُسَهم، فلم يُؤمنوا.

ثم أخبَرَ الله تعالى أنَّ له وحْدَه كلَّ شيءٍ سَكَن في اللَّيلِ والنَّهارِ، وهو السَّميعُ العليمُ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢ ﴾.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المكذِّبين: لِمَنْ مُلكُ جميعِ ما في السَّمواتِ، وجَميعِ ما في الأرض[١]؟

ثم أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُجيبَ عن هذا السُّؤالِ، فقال[٢]:

﴿ قُل لِّلَّهِ ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ-: ذلك كلُّه مِلكٌ للهِ تعالى، الذي يَستحقُّ العبادَةَ وحْدَه[٣].

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ﴾.

أي: أوْجَب على نفْسِه الرَّحمةَ، فوَسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ[٤].

عن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لَمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٢-٦٣).

خلَقَ اللهُ الخلقَ، كتَب في كِتابِه، فهو عندَه فوقَ العَرشِ: إنَّ رحمَتي تَغلِبُ غضَبي))[١].

﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾.

أي: واللهِ ليَجمعنَّكم الربُّ سبحانه- أيُّها النَّاسُ- يومَ القيامةِ الذي لا شَكَّ في وُقوعِه[٢].

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ الَّذين أضاعوا أنفُسَهم، فعدِموا فائدةَ الانتفاعِ منها؛ بحِرْمانها تصديقَ الرَّسولِ والرِّسالةِ، هم الخاسِرون حقًّا[٣]؛ إذ لَمَّا أعْرَضوا عن ذلك فاتَهُمُ الإيمانُ باللهِ تعالى وبرسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، وباليوم الآخِرِ الذي هو سببُ الفوزِ في الدُّنيا والآخِرة[٤].

قال سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣﴾.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧١-١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٢-٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٥-٦٦).

(٣) وهذا بناءً على أنَّ جُملة ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ استئنافيةٌ لا تعلُّق لها بقولِه تعالى: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾، فيكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وهذا اختيارُ القرطبي في ((تفسيره)) (٦/ ٣٩٦)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة الأنعام)) (ص: ٦٦). وخبره إمَّا محذوف فيُقدَّر، أو خبره جملة ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾. يُنظر: المصدران السابقان، و((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٣-١٥٤).
وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بدلٌ من قوله سبحانه: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾، وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٩/ ١٧٣-١٧٤)، وابن عطية في ((تفسيره)) (٢/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٣-١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٦-٦٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

ذَكَر اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ السَّمواتِ والأرضَ؛ إذ لا مكانَ سواهما، وفي هذه الآيةِ الكريمةِ ذَكَر اللَّيلَ والنَّهارَ؛ إذ لا زَمانَ سواهما، فالزَّمانُ والمكانُ ظرفانِ للمُحْدَثاتِ؛ فأخْبَر تبارَك وتعالى أنَّه مالِكٌ للمكانِ والمكانيَّات، ومالكٌ للزَّمان والزَّمانيَّات[١]، فقال تعالى:

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

أي: وله عزَّ وجلَّ مُلكُ كلِّ شيءٍ؛ فإنَّه ما مِن شيءٍ مِن خَلْقِ الله تعالى إلَّا وقد حلَّ واستقرَّ في ليلٍ أو نهارٍ؛ فالجَميعُ خَلْقُه، وتحتَ قَهْرِه وتَصرُّفِه وتدبيرِه سبحانه[٢].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

أي: وهو السَّميعُ لجميعِ الأصواتِ والأقوالِ، وهو العَلِيمُ بكلِّ شيءٍ، المطَّلعُ على الظَّواهرِ والسَّرائرِ، ثم يُجازي كلَّ إنسانٍ بما اكتَسبَ مِن خيرٍ وشرٍّ[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قولُه تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِ﴾؛ فيه اللُّجوءُ إلى اللهِ وحْدَه تعالى، وعدَمُ الخوفِ إلَّا منه سُبحانه؛ فإنَّنا متى آمنَّا أنَّ مَن في السَّمواتِ والأرضِ لله، فإنَّنا لن نَلجأَ إلَّا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ولنْ نخافَ إلَّا مِنه سُبحانه؛ لأنَّه مالكُ مَن في السَّموات والأرضِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٧).

٢- اللَّام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للمِلْكِ؛ دلَّت على عُبوديَّة الناسِ للهِ دون غيرِه، وتستلزم أنَّ العبدَ صائرٌ إلى مالكِه لا محالةَ(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ فيه استِعطافٌ للمُعْرِضينَ عنه إلى الإقبالِ إليه بالتَّوْبَةِ؛ فإنهم إنْ تابوا وأنابوا قَبِل توبتَهم، وقد قَضى في خَلْقه أنَّ رحْمَته وَسِعتْ كلَّ شيءٍ(٢).

٤- جملةُ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ معترِضةٌ، وهي مِن المقولِ الذي أُمِرَ الرسولُ بأنْ يقولَه، وفي هذا الاعتراضِ معانٍ:

أحدها: أنَّ ما بَعدَه لَمَّا كان مُشْعِرًا بإنذارٍ بوعيدٍ، قَدَّمَ له التذكيرَ بأنَّه رَحيمٌ بعبيدِه، عساهم يَتوبونَ، ويُقلِعون عن عِنادِهم؛ كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، والشِّركُ باللهِ أعظمُ سوءٍ، وأشدُّ تلبُّسًا بجهالةٍ.

والثاني: أنَّ الإخبارَ بأنَّ للهِ ما في السَّمواتِ، وما في الأرضِ؛ يُثير سُؤالَ سائلٍ عن عدمِ تعجيلِ أخْذهم على شِركِهم بمَن هُم ملكُه؛ فالكافرُ يقول: لو كانَ ما تقولونَ صِدقًا لعجَّل لنا العذاب، والمؤمِنُ يَستبطئُ تأخيرَ عِقابِهم، فكان قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ جوابًا لكِلَا الفَريقينِ؛ بأنَّه تَفضَّل بالرَّحمة، فمنها رحمةٌ كاملةٌ، وهذه رحمتُه بعبادِه الصَّالحين، ومنها رحمةٌ مُوَقَّتة، وهي رحمةُ الإمهالِ، والإملاءِ للعُصاة والضالِّين.

والثالث: أنَّ ما في قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٧).

التمهيدِ لِمَا في جملةِ ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ مِن الوعيدِ والوعدِ؛ فذُكِرَتْ رحمةُ الله تعريضًا ببشارةِ المؤمنين، وبتَهديدِ المشرِكين[١].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ فيه استدعاءٌ ليُوجِّهوا النَّظَرَ العقليَّ في الموجوداتِ الخفيَّة، وما في إخفائِها مِن دلالةٍ على سَعةِ القُدرة، وتصرُّفاتِ الحِكمةِ الإلهيَّةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قولُه تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِ﴾ هذا استِدلالٌ على المشْركين بأنَّ غيرَ اللهِ ليس أهلًا للإلهيَّة؛ لأنَّ غيرَ الله لا يَملِكُ ما في السَّمواتِ وما في الأرض؛ إذ مُلكُ ذلك لخالِقِ ذلك، وهو تمهيدٌ لقوله بعدَه: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ لأنَّ مالكَ الأشياءِ لا يُهمِلُ مُحاسبتَها[٣].

٢- قدَّم الله تعالى المكانَ (السَّمَواتِ وَالْأَرْضِ) في قولِه: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِ﴾؛ لأنَّه أقربُ إلى العقولِ والأفكارِ مِن الزَّمان (اللَّيل والنهار)، والمذكورِ بعدَه في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ سؤالٌ، وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ جوابٌ؛ فقد أمَرَه الله تعالى بالسُّؤالِ أولًا، ثم بالجواب ثانيًا؛ وهذا إنَّما يَحسُن في الموضعِ الذي يكونُ الجوابُ قد بلَغَ في الظهورِ إلى حيثُ لا يَقدِر على إنكارِه مُنكِرٌ، ولا يَقدِر على دَفْعِه دافِعٌ، ولَمَّا كانتْ آثارُ الحدوثِ والإمكانِ ظاهرةً في ذواتِ جميع الأجسامِ، وفي جميعِ صِفاتها؛ لا جرمَ كان الاعترافُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٥٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٩).

بأنَّها بأَسْرِها مِلكٌ لِلَّهِ تعالى، ومُلْكٌ له، ومَحلُّ تصرُّفِه وقُدرتِه، لا جرمَ أمَرَه بالسؤال أولًا، ثم بالجوابِ ثانيًا؛ ليدلَّ ذلك على أنَّ الإقرارَ بهذا المعنى ممَّا لا سبيلَ إلى دفْعِه البتَّةَ. وأيضًا فالقومُ كانوا معترِفين بأنَّ كلَّ العالَم مِلكٌ للهِ سبحانه، وتحتَ تصرُّفه وقَهرِه وقُدرتِه بهذا المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1] [لقمان: ٢٥].

٤- أنَّ للهِ تعالى أن يكتُبَ على نفْسِه ما شاءَ؛ لقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[2].

٥- قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ فيه سؤالٌ: كيفَ يكونُ الشيءُ لازمًا على الله؟ والجواب: أنَّ اللهَ تعالى ألْزَمَ نفْسَه به، وله سبحانه أنْ يَفعلَ ما شاءَ، نحن لا نُلزِمُ اللهَ بشيءٍ، وليس لنا على الله حقٌّ إلَّا ما أوْجَبه على نفْسِه، لكنَّ اللهَ له أن يُلزِمَ نفْسَه بشيءٍ، فكتابةُ الله على نفْسِه الرَّحْمةَ لا تُنافي كمالَه، بل هي مِن كمالِه عزَّ وجلَّ[3].

٦- أنَّ اللهَ يُعبِّرُ عن ذاته بالنَّفْسِ؛ لقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، ولها نظائرُ؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقال عيسى عليه السَّلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، والإنسانُ له نفْسٌ، وليستْ نفْسُ اللهِ كنَفْس الإنسان؛ فهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١][4].

٧- في قوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنَّه لا ريبَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٨، ٤٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٨، ٦٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٩).

في هذا اليومِ، شرعًا وعقلًا: شرعًا؛ لأنَّ اللهَ أخْبَر به وأكَّده، وضرَب له الأمثالَ. وعقلًا؛ لأنَّه ليس مِن المعقولِ أنَّ الله تعالى يُوجِد هذه الخليقةَ، ويَأمُرها ويَنهاها، ويُرسل إليها الرُّسُل، وتُستباحُ الأنفسُ والأموالُ والذريَّة في القِتالِ في سبيلِ الله، ثم تكونُ النتيجةُ أنَّ الأرضَ تَبلعُهم فقط! هذا يُنافي الحِكمةَ؛ فالعقلُ يُوجِبُ أنْ يكونَ هناك بعْثٌ، حتى وإنْ لم يكُن نصٌّ؛ فكيف والنصوصُ كثيرة؟! ومِن رحمةِ الله عزَّ وجلَّ- وله الحمدُ والفضلُ والمِنَّة- أنَّه يُكثِرُ من إثباتِ يومِ القيامةِ، ويَضرِبُ له الأمثال؛ لأنَّ الإيمانَ باليومِ الآخِرِ هو الذي يَحمِلُ الإنسانَ حقيقةً على الإيمانِ؛ إذ لولا اعتقادُ المؤمنِ أنَّه سيُبعَث ويُجازى- إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ- ما عمِل أبدًا، ولصارتِ الأمَّةُ موطنًا للسَّلْبِ والنَّهبِ والعُدوان[١].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أنَّ السُّكونَ والحركةَ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ مالِكَ مَن يَسكُن ويَتحرَّك مالِكٌ للحركةِ والسُّكون، فيكون في هذا دليلٌ على أنَّ أفعالَ العِبادِ مخلوقةٌ لله تعالى، وهذا هو مذهبُ السَّلَفِ وأهلِ السُّنة، وهو وسَطٌ بين مذهبَي الجبريَّة والقَدَريَّة[٢].

٩- قد جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بعدَ قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ كالنتيجةِ للمقدِّمة؛ لأنَّ المقصودَ من الإخبارِ بأنَّ اللهَ يَمْلِك الساكناتِ؛ التمهيدُ لإثباتِ عُموم عِلْمه، وإلَّا فإنَّ مُلْك المتحرِّكات المتصرِّفات أقوى مِن مُلْك الساكناتِ، التي لا تُبدي حراكًا؛ فظهَر حُسنُ وقْع قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ عقبَ هذا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٠، ٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٥، ١٥٦).

بَلاغةُ الآيتينِ:

١- **قوله:** ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ؛ حيث عبَّر هنا بـ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟﴾ فعطَف بـ(ثُمَّ) الدَّالة على التَّراخِي، وفي غيرِ هذه السُّورة عقَّب الأمرَ بالسَّير بقوله: ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾، فعطَفَ بالفاءِ، الدَّالةِ على التَّعقيبِ المباشِرِ، مع اشتراكِهما في الأمْر بالسَّيرِ؛ وبيانُ هذِه المناسبةِ مِن وجهينِ:

الوجه الأوَّل: أنَّ ما في سُورةِ الأنعامِ وقَعَ بَعدَ ذِكر القُرونِ، في قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾، وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾؛ فتعدَّدت القرونُ في أزمنةٍ متطاولةٍ؛ فخُصَّت الآيةُ هنا بـ﴿ثُمَّ﴾، بخِلاف ما في غيرِ هذِه السُّورة، إذْ لم يَتقدَّمْه شيءٌ من ذلك؛ فخُصَّت بالفاء[1]؛ فقوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟﴾ في سورةِ الأنعام ناسَب العطف فيه بـ(ثُم)، حيثُ لم يَجعَلِ النَّظرَ فيها واقعًا عَقيبَ السَّير، مُتعلِّقًا وجودُه بوجودِه؛ لأنَّه بعْثٌ على سيرٍ بعدَ سيرٍ؛ لِمَا تَقدَّم مِن الآيةِ التي تدلُّ على أنَّه تعالى حَدَاهم على استقراءِ البِلادِ، ومنازلِ أهلِ الفَسادِ، وأنْ يَستكثِروا مِن ذلك؛ ليَروا أثرًا بعدَ أثرٍ، في دِيارٍ بعدَ دِيارٍ، قدْ عمَّم أهلَها بدمارٍ؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾، ثمَّ قال: ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾، فذكَر في قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: قُرونًا كثيرةً أهلكناهم، ثم قال: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾، فدعَا إلى العِلمِ بذلك بالسَّيرِ في البلادِ ومشاهدةِ هذه الآثارِ، وفي ذلك ذَهابُ أزمنةٍ كثيرةٍ ومُددٍ طويلةٍ تمنعُ النظرَ مِن مُلاصقةِ السَّير، فجَعَل السَّيرَ في الأرض في هذا المكانِ مأمورًا به على حِدَةٍ، والنظرَ بَعدَه مأمورًا

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٦٠).

بِه على حِدَة؛ فلذلك خُصَّت بـ(ثمَّ) التي تُفيدُ تَراخِيَ المهلةِ بَينَ الفِعلين.

وأمَّا قوله: ﴿فَانْظُرُوا﴾ في بقيَّة الآياتِ فيدلُّ على أنَّ السَّيرَ يُؤدِّي إلى النَّظرِ، فيَقعُ بوقوعِه، وليس كذلك (ثمَّ)؛ فإنَّ الفاءَ وقعَتْ في الجزاءِ، ولم تقَع فيه (ثم)؛ فسائِرُ الأماكنِ التي دخَلَتْها الفاءُ عُلِّق فيها وقوعُ النَّظرِ بوقوعِ السَّيرِ؛ لأنَّه لم يَتقدَّمِ الآيةَ ما يَحْدُو على السَّيرِ الذي حدَا عليه فيما قَبلَ آيةِ الأنعامِ، فالمواضِعُ التي دَخَلَتْها الفاءُ قُصِد فيها معنى التعقيبِ، واتِّصالِ النَّظرِ بالسَّير؛ إذ لَيس في شيءٍ مِن الأماكنِ التي ذُكِرتْ فيها الفاءُ ما في سَورةِ الأنعامِ مِن البَعْثِ على استقراءِ الدِّيارِ، وتأمُّلِ الآثارِ، والله أعلم[1].

الوجه الثاني: أنَّ قوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ في آيةِ الأنعام عُطِفَ بـ ﴿ثُمَّ﴾ المقتضيةِ مُهلةَ الزَّمان؛ لأنَّ سُورةَ الأنعامِ افتُتِحَتْ بذِكْرِ خَلْق السَّمواتِ والأرضِ، وجَعْل الظُّلماتِ والنُّور، وإنَّما ذُكِر هذا مِن الخَلْقِ الأكبرِ؛ ليُعتبَرَ بذلك؛ فإنَّه أعظمُ مُعتَبرٍ وأَوْسَعُه، فكأنَّ الآيةَ في قوَّة أنْ لو قِيل: سِيروا في الأرضِ فاعْتَبِروا لخالقِها، وكيف دَحاها لكم، وذلَّلَها لسُكْنَاكُم، وجعَل فيها رواسيَ أنْ تَميدَ بكم، وفَجَّرَ فيها الأنهارَ، إلى عجائبِ ما أودَعَ فيها، وكيف جعَلَ السَّماءَ سقفًا مَحفوظًا بغيرِ عِمادٍ، وزَيَّنها بالنجومِ؛ لتَهْتَدوا بها في الظُّلماتِ، وجعَل الشمسَ والقمرَ حُسبانًا وضياءً وزِينةً للسَّماء الدُّنيا، وكيف محا آيةَ اللَّيلِ لمصلحةِ العبادِ، وجعَل آيةَ النَّهارِ مبصرةً، إلى ما لا يُحصَى مِن مَنافِعِها وعَجائِبِها لِمَن مُنِحَ الاعتبار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، ثمَّ انظُروا عاقبةَ مَن كذَّب، ونُبِّه فلمْ يَعتبِرْ. وأمَّا العَطْفُ بالفاءِ في بقيَّة الآياتِ على الأمْر بالسَّيرِ؛ فلأنَّهم أُمِروا أنْ يَعقُبوا سَيرَهم بالتدبُّرِ والاعتبارِ، وحَصْرِ نَظرِهم واعتبارِهم في المعقَّبِ المذكورِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٤٩٠ - ٤٩٢).

بعدَ الفاءِ، ولم تقَعْ إشارةٌ إلى اعتبارِهم بغير ذلك[١].

- وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ وضَع ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ موضعَ (المسْتَهْزئين)؛ لتحقيقِ أنَّ مدارَ إصابةِ ما أصابَهم هو التَّكذيبُ؛ لينزجرَ السامِعون عنه لا عن الاستهزاءِ فقط، مع بقاءِ التكذيب بحالِه، بناءً على توهُّم أنَّه المدارُ في ذلك[٢]؛ فوَصفَهم اللهُ بالمكذِّبين دون المسْتَهزِئين؛ للدَّلالة على أنَّ التَّكذيبَ والاستهزاءَ كانَا خُلُقَينِ مِن أخلاقهم، وأنَّ الواحدَ من هذين الخُلُقينِ كافٍ في استحقاقِ تلك العاقبةِ؛ إذ قال في الآية السابقة: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وقال في هذِه الآيةِ: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، وهذا ردٌّ جامعٌ لدَحْضِ ضَلالاتِهم الجاريةِ على سَننِ ضَلالاتِ نُظرائِهم مِن الأُمم السَّالفةِ المكذِّبين[٣].

٢- **قوله:** ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استفهامٌ يُفيد التبكيتَ والتَّقرير؛ فالاستفهامُ للتقريرِ، والمرادُ به لازمُ معناه، وهو تبكيتُ المشرِكين، وإلجاؤُهم إلى الإقرارِ بما يُفضِي إلى إبطالِ مُعتَقدِهم الشِّركَ[٤].

- وفي تقديمِ: ﴿لِّمَن﴾ على ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تنبيهٌ على الاهتمامِ بالمعبودِ[٥].

٣- **قوله:** ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ استئنافٌ وقَسَمٌ مسوقٌ للوعيدِ على

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٤٥، ١٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٠).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٩).

إشراكِهم، وإغفالِهم النَّظرَ، أي: ليَجمعنَّكم فيُجازيكم على شِرككم، وسائرِ مَعاصِيكم، وإنْ أمْهَلَكم بموجِبِ رحمتِه، ولم يُعاجِلْكم بالعقوبةِ الدُّنيويَّة[١].

- وقول الله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِ﴾ كلامٌ ورد على لَفظِ الغَيبةِ، وقوله: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ كلامٌ ورد على سبيلِ المخاطَبَة؛ والمقصودُ منه التأكيدُ في التَّهديد، كأنَّه قيل: لَمَّا عَلمتُم أنَّ كلَّ ما في السَّموات والأرضِ للهِ ومُلْكُه، وقد علمتُم أنَّ المَلِكَ الحكيمَ لا يُهملُ أمْرَ رعيَّته، ولا يجوزُ في حِكمتِه أن يُسوِّيَ بين المطيعِ والعاصي، وبين المشتغِلِ بالخِدمة والمُعرِضِ عنها، فهلَّا عَلمتُم أنَّه يُقيمُ القيامةَ، ويُحضِرُ الخلائقَ، ويُحاسبُهم في الكلِّ[٢]؟

٤- قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ تذييلٌ مَسُوقٌ من جِهتِه تعالى؛ لتقبيحِ حالِهم[٣].

- وعبَّر بالفاءِ في قوله: ﴿فَهُمۡ﴾؛ لتضمُّن المبتدأِ معنى الشَّرْط، وللإشعارِ بأنَّ عدمَ إيمانهم بسببِ خُسرانهم؛ فإنَّ إبطالَ العَقلِ باتِّباعِ الحواسِّ، والوَهْم، والانهماكِ في التَّقليدِ، وإغفالِ النَّظر؛ أدَّى بهم إلى الإصرارِ على الكُفْر والامتناعِ مِن الإيمان[٤].

٥- قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

- تقديمُ الجارِّ والمجرورِ (لَهُ) على ﴿مَا﴾ التي بمعنى (الذي)؛ للدَّلالةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الحَصْر، وهو حصْر الساكناتِ في كونِها له لا لغيرِه، أي: في كَونِ ملكِها التامِّ له[١].

- وخصَّ السَّاكِنَ بالذِّكر دون المتحرِّك؛ لأنَّ السَّاكنَ من المخلوقاتِ أكثرُ عددًا من المتحرِّك، والسُّكونَ أكثرُ وجودًا من الحركةِ. أو لأنَّ كُلَّ مُتحرِّك يصيرُ إلى السُّكونِ، من غير عَكسٍ؛ فإنَّ كلَّ مُتحرِّكٍ قد يَسكُن، وليس كلُّ ما يَسكُن يَتحرَّك. أو لأنَّ السُّكونَ هو الأصلُ، والحركة حادثةٌ عليه[٢].

- وتقديمُ اللَّيلِ على النَّهار؛ قيل: لأنَّ ما يَسكُنُ فيه هو المقصودُ بالذَّات[٣]؛ فالسَّاكِنُ فِي ذلك الوَقتِ يَزدادُ خَفاءً، فهو كقولِه: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وَعَطَفَ النَّهارَ عليه؛ لقصدِ زِيادَةِ الشُّمولِ، لأنَّ اللَّيْلَ لمَّا كان مَظِنَّةَ الاختفاءِ فيه قد يُظَنُّ أنَّ العالِمَ يَقْصِدُ الاطِّلاعَ على السَّاكِناتِ فيه بأهميَّةٍ، ولا يَقْصِدُ إلى الاطِّلاعِ على السَّاكِناتِ في النَّهارِ، فذَكَر النَّهارَ لتحقيقِ تَمامِ الإحاطَةِ بالمعلوماتِ[٤].

- وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ جاءَ الوصفانِ على صِيغةِ المبالَغة؛ للمُبالغةِ في وصْفِه سبحانه بسَماعِ كلِّ مَسموعٍ، والعِلمِ بكلِّ مَعلومٍ؛ فلا يَخفَى عليه شيءٌ من الأقوالِ والأفعالِ[٥].

- وفي خَتْمِ الآيةِ بهاتَينِ الصِّفتَينِ مناسَبَةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا تَقدَّم ذِكْرُ مُحاوراتِ الكفَّارِ المكذِّبين، وذِكرُ الحَشْرِ الذي فيه الجزاءُ، ناسَب ذِكْرُ صِفةِ السَّمع لِمَا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٦).

وقعتْ فيه المحاورةُ، وصِفةِ العِلمِ؛ لتَضمُّنِها معنى الجزاءِ؛ إذ ذلك يدلُّ على الوعيدِ والتَّهديدِ[١].

وأيضًا: فإنَّه لَمَّا ذَكَر أنَّ له ما سَكَن في اللَّيلِ والنهارِ، وذلك يدلُّ على شُمولِ مُلكِه؛ عَقَّبَه بذِكر هاتينِ الصِّفتينِ (السَّمع والعلم)؛ ليدلَّ على إحاطةِ عِلمِهِ بكلِّ شيءٍ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٥- ١٥٦).

الآيات (١٤ - ١٦)

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلِيًّا﴾: أي: ناصرًا، والوِلايةُ النُّصرةُ، وأصلُ (ولي) يدلُّ على القُرْب، سواء مِن حيث: المكانُ، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِيَ أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[١].

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: خالِقِهما ومُبدِعِهما ومُبتدِئِهما، وأَصْلُ (فطر): الشَّقُّ طولًا، ويدلُّ على فتْحِ شيءٍ، وإبرازِه[٢].

﴿يُصْرَفْ عَنْهُ﴾: أي: يُردَّ عنه العذابُ؛ والصَّرفُ: ردُّ الشَّيءِ من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيرِه، وأصل (صرف): يدلُّ على رجْعِ الشيءِ[٣].

﴿ٱلْفَوْزُ﴾: الظَّفَرُ بالخَيرِ، مع حصولِ السَّلامةِ والنَّجاةِ، وأصل (فوز): النَّجاة[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦١، ٦٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ ﴾

﴿ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ ﴾: جملةٌ مِن شَرْطٍ وجَزاءٍ، وقعَتْ صِفةً لـ ﴿عَذَابَ ﴾ في قوله تعالى في الآيةِ السَّابقة: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾، وقيل : هي جُملةٌ مُستأنَفةٌ، لا محلَّ لها من الإعرابِ.

﴿ مَّن يُصۡرَفۡ ﴾ قرِئَ ﴿يُصۡرَفۡ ﴾ بَضمِّ الياءِ وفتْحِ الرَّاءِ على البِناء للمَفعول، وقُرِئَ (يَصْرِف) بفَتْحِ الياءِ وكسرِ الرَّاءِ على البِناءِ للفاعِل؛ فعَلَى القِراءة الأُولى: فـ ﴿ مَّن ﴾ شَرْطيَّةٌ، ومحلُّها على هذِه القِراءة الرَّفْعُ على الابتداءِ، وخبر ﴿ مَّن ﴾ فِعلُ الشَّرْطِ وحْدَه، أو جملةُ الشَّرطِ والجزاءِ، والهاءُ في ﴿عَنۡهُ ﴾ يَجوزُ أنْ تَرجِع على ﴿ مَّن ﴾، والتقدير: مَن يُصرَفْ عنه العذابُ ونائبُ الفاعل ضَميرٌ مستترٌ تَقديرُه (هو)، عائدٌ إلى العَذابِ، وأنْ تَرجِع على العذابِ في قوله: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ والتقدير: مَن يُصْرَفْ هُوَ عن العَذابِ، ونائبُ الفاعل ضَميرٌ مستترٌ تَقديرُه (هو)، عائدٌ إلى ﴿ مَّن ﴾. و﴿يَوۡمَئِذٖ ﴾ ظرفٌ لـ ﴿يُصۡرَفۡ ﴾، أو للعذابِ.

وعلى القِراءة الثانية (يَصْرِف): فالفاعِلُ مُضمرٌ في (يَصْرِف) يَعودُ على ﴿رَبِّي ﴾ في الآيةِ السَّابقةِ، وهو اللهُ جَلَّ ذِكرُه، والمفعولُ بِه مُضمَرٌ كذلِك، والتَّقديرُ: مَن يَصرِف اللهُ عنه العَذابَ. و﴿ مَّن ﴾ على هذا في مَحلِّ رفْعٍ مبتدأٌ أيضًا، ويعودُ عليها الهاءُ في ﴿عَنۡهُ ﴾ وفي ﴿رَحِمَهُۥۚ ﴾. ويجوزُ أن تكونَ ﴿مَنْ﴾ في محلِّ نصْبٍ بـ ﴿يُصۡرَفۡ ﴾ على أنَّه مفعولٌ مُقدَّم له، وتكون الهاءُ في ﴿عَنۡهُ ﴾ للعذاب، والتقديرُ: أيَّ إنسانٍ يَصرِفِ اللهُ عنِ العَذابِ فقدْ رحِمه[1].

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٤).

المَعنَى الإجماليُّ:

قلْ- يا مُحمَّدُ-: أأتتَّخِذُ غيرَ الله تعالى وليًّا أستعينُ به وأَستنصِرُه، وهو سبحانه خالقُ السَّمواتِ والأرضِ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، والغنيُّ عن جميعِ المخلوقاتِ؛ فهو يَرزقُهم ويُطعِمُهم، من غيرِ أنْ يحتاجَ إليهم؟!

قل- يا محمَّد-: إنِّي أمَرَني ربِّي أنْ أكونَ أوَّلَ مَن أَسْلَمَ له وخضَع، ونُهيتُ أنْ أكونَ مِن المشركينَ، قل- يا محمَّدُ-: إنِّي أخافُ إنْ عصيتُ ربِّي عذابَ يومِ القيامةِ، ذلك العذابُ الهائلُ الشَّديدُ، الذي مَن يُصرَفْ عنه في يومِ القيامةِ، فقدْ أَسْبَغَ اللهُ عليه رحمتَه، وذلك هو الفوزُ الحقيقيُّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تَقدَّم أنَّه تعالى بديعُ السَّمواتِ والأرضِ، وأنَّه مالِكٌ لِمَا تضمَّنه المكانُ والزمانُ؛ أمَر تعالى نبيَّه أنْ يقولَ لهم: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ... ﴾ على سبيلِ التَّوبيخِ لهم، أي: مَن هذه صفاتُه هو الذي يُتَّخذُ وليًّا وناصرًا ومُعِينًا، لا الآلهةُ التي لكُم؛ إذ هي لا تَنفعُ ولا تضرُّ؛ لأنَّها بين جمادٍ أو حيوانٍ مقهورٍ[1]، فقال تعالى:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ-: أأجْعَلُ غيرَ اللهِ تعالى؛ مِن هذه المخلوقاتِ العاجزةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن حيان)) (٤/ ٤٥٢).

وليًّا يتولَّاني، فأَستنصرَه وأستعينَ به؟! والمرادُ: لا أتَّخذُ وليًّا إلَّا اللهَ تعالى وحْدَه[١].

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٤].

﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: لا أتَّخذُ وليًّا غيرَ اللهِ تعالى؛ لأنَّه خالقُ السَّمواتِ والأرضِ، ومُبدِعُهما على غيرِ مثالٍ سبَق[٢].

﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾.

أي: ولا أتَّخِذُ غيرَه سبحانه وليًّا؛ لأنَّه سبحانه الرزَّاقُ لجميعِ خَلْقِه، من غيرِ احتياجٍ إليهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وقال سبحانه: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة: ٦٣-٧٣].

وعن أبي هُرَيرَةَ رضي اللهُ عنه، قال: ((دعَا رجلٌ منَ الأنصارِ؛ مِن أَهْلِ قُباءٍ، النَّبيَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٥-٧٦).

صلَّى اللَّه عليه وسلَّمَ فانطلَقْنا معَه، فلمَّا طَعِمَ، وغسلَ يَدَهُ- أو يَديهِ- قالَ: الحمدُ للَّهِ الَّذي يُطعِمُ ولا يُطعَمُ، مَنَّ علينا فَهَدَانا، وأطْعَمَنا وسقانا...)) الحديث[١].

وعن أبي هُرَيرَة أيضًا، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يومَ القيامةِ: يا ابنَ آدمَ، مرِضتُ فلم تعُدْني! قال: يا ربِّ، كيف أعودُك وأنت ربُّ العالَمِين؟! قال: أمَا عَلِمتَ أنَّ عبْدي فلانًا مرِضَ فلم تَعُدْه، أمَا عَلِمتَ أنَّك لو عُدْتَه لوجدتَني عندَه؟ يا ابنَ آدَمَ، استطعمتُك فلمْ تُطعِمْني! قال: يا ربِّ، وكيف أُطعِمُك وأنت ربُّ العالَمِين؟! قال: أمَا عَلِمتَ أنَّه استطعمَك عبدي فلانٌ فلم تُطعِمْه، أمَا علِمتَ أنَّك لو أطعمْتَه لوجدتَ ذلك عندي؟ يا ابنَ آدمَ، استسقيتُك فلمْ تَسقِني! قال: يا ربِّ، كيف أَسقِيك وأنت ربُّ العالَمِين؟! قال: استسقاك عَبدي فلانٌ فلم تَسْقِه، أمَا إنَّك لو سقَيْتَه وجدتَ ذلك عِندي))[٢].

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّد-: إنِّي أَمَرني ربِّي أنْ أكونَ أوَّلَ مَن خضَع له سبحانَه بالتوحيدِ، وانقادَ له بالطَّاعةِ من هذه الأُمَّة[٣].

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

أي: ونُهيتُ أيضًا عن أنْ أكونَ مِن المشْرِكين[٤].

---

(١) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٠٦٠)، وابن حبان في ((صحيحه)) (٥٢١٩)، والطبراني في ((الدعاء)) (٨٩٦)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢٠٠٣).
قال الحاكم (٢٠٠٣): صحيحٌ على شرْط مسلم. وصحَّحه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧٦٥)، وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٣٢٦): حسنٌ على شرْط مسلم.

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٦-٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢).

﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى كونَ رسولِه مأمورًا بالإسلامِ، ثمَّ عقَّبَه بكونه منهيًّا عن الشِّرك، وكان فعلُ المنهيِّ قد لا يُعذَّب عليه، قال مُعْلمًا بأنَّ المخالفةَ في هذا مِن أبلغِ المخالفاتِ، فصاحبُها مستحِقٌّ لأعظمِ الانتقامِ[١]، فقال:

﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ ﴾.

أي: قلْ - يا محمَّد -: إنِّي أخافُ إنْ عصيتُ ربِّي - بمعصيةِ الشِّركِ به سبحانه، أو بغيرِها من أنواعِ المعاصي - عذابَ يومِ القيامةِ، ذلك اليومُ الَّذي يعظُمُ هولُه[٢].

﴿ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ ﴾.

﴿ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥ ﴾.

أي: مَن يُصرَفْ عنه العذابُ يومَ القيامةِ فقدْ رحِمَه اللهُ تعالى[٣].

﴿ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴾.

أي: وصَرْفُ العذابِ يومَ القيامةِ هو الفوزُ الحَقيقيُّ؛ فمَن نجا مِن العذابِ فقدْ ظَفِر ورَبِح[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٢، ٤٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأنعام)) (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأنعام)) (ص: ٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأنعام)) (ص: ٨١).

كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ فيه أنَّ العبدَ لا يَلجأُ إلَّا إلى اللهِ سبحانه وتعالى؛ لأنَّ اللهَ هو الوليُّ، ثمَّ ولايةُ الله عزَّ وجلَّ ولايةٌ مبنيَّةٌ على الحمْدِ، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1] [الشورى: ٢٨].

٢- قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ يَقتضي تَنزيهَ القلبِ عن الالتِفاتِ إلى غيرِ اللهِ تعالى، وقطْعَ العلائِقِ عن كلِّ ما سِوى اللهِ تعالى[2].

٣- وصْفُ اللهِ تعالى نفْسَه بفاطرِ السَّموات والأرضِ في قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُؤيِّدُ إنكارَ اتِّخاذ غيرِه وليًّا يُستنصَرُ ويُستعانُ به، أو يُتَّخذ واسطةً للتأثير في الإرادة الإلهيَّة، فإنَّ مَن فطَر السمواتِ والأرضَ بمحضِ إرادتِه من غيرِ تأثيرِ مؤثِّر، ولا شفاعةِ شافعٍ؛ يجب أنْ يُتوجَّهَ إليه وحْدَه بالدُّعاء، وإيَّاه يُستعانُ في كلِّ ما وراءَ الأسبابِ[3].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أنَّ الله تبارَك وتعالى هو المطعِمُ لا مُطعِمَ سواه، ويَنبني على هذا ألَّا نَسألَ الإطعامَ إلَّا مِن اللهِ تبارَك وتعالى، ولو أنَّنا تَمسَّكْنا بهذا مع التوكُّلِ على اللهِ والاستعانةِ به، لكان رِزقُنا مَضمونًا؛ لقولِ الله تبارَك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[4] [الطلاق: ٢- ٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٧، ٧٨).

٥- قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ في العُدولِ عن اسمِ الجلالةِ إلى قوله: ﴿رَبِّي ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ عِصيانَه أمرٌ قبيحٌ؛ لأنَّه ربُّه، فكيفَ يَعصيه[١]؟!

٦- قولُه تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فيه أنَّ المعصيةَ سببٌ للعذابِ، والمعاصي على نَوعينِ: معاصٍ لا يَغفرُها اللهُ، وهي الشركُ، ومعاصٍ تَدخُل تحت مشيئةِ الله، وهي الكبائرُ، وهناك معاصٍ أُخرى تُكفِّرها الأعمالُ الصالحةُ، وهي الصَّغائر؛ هذا فيما يتعلَّقُ بينَ اللهِ عزَّ وجلَّ وعَبْدِه، أمَّا حقوقُ الآدميِّين فلا بدَّ مِن إيصالِ حقِّهم إليهم، إمَّا باستحلالٍ منهم في الدُّنيا، وإمَّا بأعمالٍ صالحةٍ تُؤخَذُ مِن أعمالِ هذا الظَّالِم[٢].

٧- ممَّا يُستفادُ من قولِه: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أنَّ هذا الدِّينَ دِينُ اللهِ الحقُّ لا محاباةَ فيه لأحدٍ، مهما يكُنْ قَدْرُه عظيمًا في نفْسِه، وأنَّ يومَ الجزاءِ لا بَيعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعةٌ بالمعنى المعروفِ عند المشرِكين، ولا سلطانٌ لغيرِ اللهِ تعالى فيَتَّكلَ عليه مَن يَعصيه؛ ظنًّا أنْ يُخفِّفَ عنه أو يُنجِيَه[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قولِه تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ أُمِر النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُعلِنَ أنَّه لنْ يتَّخِذَ وليًّا من دون اللهِ عزَّ وجلَّ، وهذا واجبٌ عليه؛ لأنَّه رسولٌ وإمامٌ مُقتدًى به، فلا بدَّ أن يُعلِنَ تحقيقَ الربوبيَّة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٧).

٢- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ التأكيدُ على إنكارِ اتِّخاذِ وليٍّ غيرِ الله، وفيها تعريضٌ بمَن اتَّخذوا أولياءَ مِن دونه من البَشرِ بأنَّهم مُحْتاجونَ إلى الطَّعام، لا حياةَ لهم ولا بقاءَ إلى الأجلِ المحدودِ بدونه، وأنَّ اللهَ تعالى هو الذي خلَقَ لهم الطَّعامَ، فهُم عاجِزون عن البقاءِ بدونه، وعاجزون عن خَلْقِه وإيجادِه؛ فكيف يتَّخِذون أولياءَ مع الغنيِّ الحميدِ، الرزَّاقِ الفعَّالِ لِمَا يُريد[1]؟!

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ فيه تأييسُ المشْركين، وقطْعُ أطماعِهم مِن عودِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى دِينِهم؛ لأنَّهم ربَّما كانوا إذا رَأَوا منه رحمةً بهم، وَلِينًا في القولِ، طمِعوا في رُجوعِه إلى دِينهم، وقالوا: إنَّه دِينُ آبائِه[2].

٤- صِحَّةُ النَّهيِ عمَّا لا يُمكن أن يقعَ؛ لقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فشِركُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يُمكِن أن يقَعَ شَرعًا، ومع ذلك نُهِيَ عنه. والحِكمة مِن ذلك -فيما قيل- من وجوه:

الوجهُ الأوَّل: أنَّه قد جَرَت العادةُ في القرآنِ أنَّ اللهَ سبحانه يأمُر نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم وينهاهُ؛ ليَشرَعَ ذلك الأمْرَ والنهيَ لأمَّتِه على لِسانِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه هو القدوةُ لهم، والمشرِّعُ لهم بقولِه وفِعلِه وتقريرِه.

والوجه الثاني: دعوتُه إلى الثَّباتِ على الإخلاصِ، وإنْ كان الشِّركُ لا يَقعُ منه.

والوجهُ الثالث: طَمْأَنَةُ أُمَّته إذا نُهوا عن الشِّركِ، بأنَّ ذلك ليسَ بمستنكَرٍ، وليس فيه بأسٌ؛ لأنَّ اللهَ أمَرَ إمامَهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ألَّا يكونَ مِن المشركين[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٩).

٥- ممَّا يُستفادُ من قولِه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أنَّه لَمَّا كان الأمرُ بالإسلامِ نهيًا عن الشِّرْكِ، لم يَكتفِ به، بل صرَّحَ به؛ جمعًا بين الأمْرِ والنَّهْي من هذا الربِّ الكريمِ، الذي يَدْعو إحسانُه وكرمُه إلى ولايتِه، ويَنهى تمامُ مُلكِه وجبروتِه عن شيءٍ من عداوتِه[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ إثباتُ الرحمةِ لله، وهي رحْمةٌ حَقيقيَّة، وليست عِبارةً عن الثَّواب، أو إرادةِ الثَّواب، لكنَّها ليستْ كرحمةِ المخلوقِ التي يكون فيها نوعٌ من الضَّعْف، بل هي رحمةُ الخالقِ الذي هو فوقَ عِبادِه عزَّ وجلَّ[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ استفهامٌ للإنكارِ على سبيلِ التَّوبيخِ لهم، أي: مَن هذه صفاتُه هو الذي يُتَّخذُ وليًّا وناصرًا ومُعينًا، لا الآلهةُ التي لكُم[٣].

- وقدَّم المفعولَ الأوَّل ﴿أَغَيْرَ﴾ على الفِعل وفاعلِه ﴿أَتَّخِذُ﴾، ولم يقُل: (أَأَتَّخِذُ غيرَ اللهِ وليًّا)؛ لأنَّ الإنكارَ إنَّما حصَل على اتِّخاذِ غيرِ اللهِ وليًّا، لا على اتِّخاذ الوليِّ، والعربُ يُقدِّمون الأهمَّ فالأهمَّ الذي هم بشأنِه أعْنَى؛ فكان قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أوْلى مِن العِبارةِ الثَّانيةِ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾[٤] [يونس: ٥٩].

- وأُعيدَ الأمرُ بالقَولِ في قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾- وكان سبَق في قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾- اهتمامًا بهذا المقُول؛ لأنَّه

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٦).

غَرَضٌ آخَرُ غيرُ الذي أُمِرَ فيه بالقولِ قَبْله[١].

٢- **قوله:** ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فيه تَخصيصُ الطَّعام بالذِّكرِ من بين أنواعِ الانتفاعاتِ؛ لشدَّةِ الحاجةِ إليه، أو لأنَّه مُعظمُ ما يَصِلُ إلى المرزوقِ من الرِّزقِ[٢].

- قوله: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ فيه تعريضٌ بهم فيما يُقدِّمونه إلى أصنامِهم مِنَ القَرابينِ، وما يُهرِقونَ عليها من الدِّماءِ[٣].

٣- **قوله:** ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ فيه تعريضٌ؛ إذ إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يَصدُرْ منه امتناعٌ عن الحقِّ، وعدمُ انقيادٍ إليه، وإنَّما هذا على طريقِ التعريضِ على الإسلامِ، كما يأمرُ الملِكُ رعيَّتَه بأمرٍ ثمَّ يُتْبِعُه بقولِه: أنا أوَّلُ مَن يفعلُ ذلك؛ ليحملَهم على فِعل ذلك[٤].

٤- قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ النَّهيُ مقصودٌ منه تأكيدُ الأمرِ بالإسلامِ؛ لأنَّ الأمْرَ بالشَّيءِ يَقتضي النهيَ عن ضِدِّه، وهذا التأكيدُ لتُقطَعَ جُرثومةُ الشِّركِ من هذا الدِّين[٥].

٥- قوله: ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

- قوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ شَرْطٌ مُعترِضٌ بين الفِعلِ ﴿أَخَافُ﴾ ومَفعولِه ﴿عَذَابَ﴾، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دَلَّ عليه الجُملةُ قَبْلَه، أي: إنْ عَصيتُ ربِّي فإنِّي أخافُ عذابَ يومٍ عظيمٍ، وفيه مُبالغةٌ في قَطْعِ أَطماعِهم، وتَعريضٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٩).

لهم بأنَّهم عُصاةٌ مُسْتوجِبون للعَذابِ[١].

- وقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أُضيفَ العَذابُ إلى ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ تهويلًا له؛ لأنَّ في مُعتادِ العربِ أنْ يُطلقَ اليومُ على يومِ نَصْرِ فريقٍ، وانهزامِ فريقٍ من المحاربينَ، فيكون اليومُ نَكالًا على المنهزِمين؛ إذ يَكثُر فيهم القتْلُ والأسْرُ، ويُسامُ المغلوبُ سوءَ العذابِ، فذِكرُ (يوم) يُثير مِن الخيالِ مخاوفَ مألوفةً، وبهذا الاعتبارِ حَسُنَ جعْلُ إضافةِ العذابِ إلى اليومِ العظيمِ كنايةً عن عِظَم ذلك العذابِ؛ لأنَّ عظمةَ اليوم العَظيمِ تستلزمُ عِظَمَ ما يقَعُ فيه عُرفًا[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مُؤكِّدٌ لتهويلِ العذابِ[٣].

- وفيه كنايةٌ وأسلوبٌ بديعٌ؛ إذ المقصودُ مِن هذا الكلام إثباتُ مقابلِ قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، كأنَّه قال: أرجو إنْ أطعتُه أنْ يرحمَني ربِّي؛ لأنَّ مَن صُرِف عنه العذابُ ثَبتَتْ له الرحمةُ؛ فجاءَ في إفادةِ هذا المعنى بطريقةِ المذهبِ الكلاميِّ، وهو ذِكرُ الدَّليلِ ليُعلَمَ المدلولُ، وهذا ضربٌ من الكنايةِ، وأسلوبٌ بديعٌ بحيثُ يدخل المحكومُ له في الحُكمِ بعنوان كونِه فردًا مِن أفراد العُمومِ، الذين ثبَت لهم الحُكمُ؛ ولذلك عقَّبَه بِقَوله: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾، والإشارةُ بـ (ذلك) موجَّهةٌ إلى الصَّرْفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٧).
وهذا الوجْهِ على قَولِ البَصريِّين الذين لا يُجيزونَ تَقدُّمَ الجَوابِ على شَرْطِه، وأمَّا على قولِ الكُوفيِّين، فيَكون ﴿أَخَافُ﴾ جوابَ شَّرطٍ مُقدَّمًا؛ وإنَّما قدَّمَ ذِكْرَ الخَوفِ في قولِه: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ على شَرْطِه ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ الذي شَأنُه أنْ يَتقدَّمَه؛ لأنَّه هو الأهمُّ المقصودُ بالذِّكر.
يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٧).

المأخوذِ من قوله: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ﴾ أو إلى المذكور، وإنَّما كان الصَّرْفُ عن العذابِ فوزًا؛ لأنَّه إذا صُرِف عن العذابِ في ذلك اليومِ فقدْ دخَل في النَّعيمِ في ذلِك اليومِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٢).

الآيات (١٧ - ١٩)

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَمْسَسْكَ﴾: أي: يُصبْك، والمسُّ يُقال في كلِّ ما يَنالُ الإنسانَ مِن أذًى، وأصل (مسس): جسُّ الشيءِ باليدِ[١].

﴿ٱلْقَاهِرُ﴾: أي: الغالبُ، العالي، والقهرُ: الغلبةُ والتَّذليلُ معًا، وأصلُ (قهر): يدلُّ على غلبةٍ وعلوٍّ[٢].

﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ﴾: أي: أُلقِيَ إليَّ، ويُطلَقُ الوحيُ والإيحاءُ على إلْقاءِ المعنى إلى صاحبِه، والإشارةِ، والكتابةِ، وأصلُ الوحي: يدُّل على إلْقاءِ عِلمٍ في إخفاءٍ، وكلُّ ما ألْقَيتَه إلى غَيرِك حتَّى عَلِمَه فهو وَحْيٌ كيف كانَ[٣].

﴿لِأُنذِرَكُم﴾: أي: لأُبلِّغكم وأُخوفِّكم؛ فالإنذارُ: هو التَّخويفُ، والتهديدُ، والإبلاغُ، والإخبارُ الذي فيه تخويفٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٨-٨٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾

﴿أَيُّ﴾: مبتدأٌ[1]، و﴿أَكْبَرُ﴾: خبرُه، و﴿شَهَٰدَةً﴾: تمييزٌ، واسمُ الجَلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: أكبرُ الأشياءِ شَهادةً اللهُ. ويجوزُ أنْ يَكونَ مبتدأً، والخبرُ مَحذوفٌ؛ والتَّقديرُ: اللهُ أكبرُ شَهادةً. وقوله: ﴿شَهِيدُۢ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والتقدير: هو شَهيدٌ؛ فعَلَى هذا يكون قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ جوابًا لـ﴿أَيُّ﴾ مِن حيثُ اللَّفظُ والمعنى. ويجوزُ أنْ يكون لفظُ الجَلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مُبتدأً، و﴿شَهِيدُۢ﴾ خبَرَه، ودلَّتْ هذِه الجُملةُ على جَوابِ ﴿أَيُّ﴾ من طَريقِ المعنى، أيْ: إنَّها دالَّةٌ على الجوابِ، وليستْ هي الجواب. وجملةُ ﴿ٱللَّهُ شَهِيدُۢ...﴾ في مَحلِّ نَصْبٍ؛ لأنَّها مقولُ القولِ[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنْ يُصبْك اللهُ بضُرٍّ، فلن يُزيلَه ويَرفعَه عنك إلَّا هو، وإنْ يُصبْك بخيرٍ، فهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

ثم بيَّنَ سبحانه كمالَ قدرتِه، وعظيمَ سلطانِه، وأنَّه هو الذي قهَر كلَّ شيءٍ، وأنَّه هو العالي على خَلْقَه ذاتًا وقدْرًا وقهرًا، ذو السُّلطةِ التامَّةِ على عِبادِه، وهو

---

(١) و(أيٌّ) اسمٌ مُبهَمٌ نَكِرةٌ، وهي بَعضُ ما تُضافُ إليه؛ فإنْ أُضيفَتْ إلى الزَّمانِ فهي زمانٌ، وإنْ أُضيفَتْ إلى المكانِ فهي مكانٌ؛ فإنَّها إلى أيِّ شَيءٍ أُضِيفتْ كانتْ منه؛ وهي هنا اسمُ استفهامٍ مُضافٌ إلى ﴿شَيْءٍ﴾، فصارتْ هذه الكلمةُ صادِقةً على جوابِ الاستفهامِ، وهنا جوابُ الاستفهامُ ﴿ٱللَّهُ﴾، فاقْتَضَى إطلاقَ اسمِ (شَيْءٍ) خَبرًا عن اللهِ تعالى. يُنظر: ((شرح المفصل)) لابن يعيش (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٦٦- ٥٦٧).

الحكيمُ الخَبير.

ثمَّ يأمُر اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يسألَ المكذِّبين: أيُّ شيءٍ أعظمُ شهادةً على صِدقِ ما جاءَ به؟ وأمَرَه تعالى أنْ يُجيبهم: أنَّ أكبرَ الأشياءِ شهادةً هو اللهُ تعالى، هو الذي لا يجوزُ أن يقَعَ في شهادتِه السَّهوُ والخطأُ والكذِبُ، وهو الشهيدُ جلَّ وعلا بيْنه وبيْنهم، وهو سبحانه قد أوْحَى إليه هذا القرآنَ؛ ليُنذِرَهم به من العذابِ، ويُنْذِرَ كلَّ مَن بلَغَه القرآنُ، ثم أمَره أنْ يسألَ هؤلاء المكذِّبين: هل هم يَشهَدون أنَّ مع اللهِ تعالى آلهةً غيرَه تستحقُّ أن تُعبَد؟! فإنْ شَهِدوا بذلك فليقلْ لهم: إنَّه لا يَشهَدُ معهم، إنَّما هو مَعبودٌ واحدٌ هو الذي يَستحقُّ العبادةَ سبحانه وتعالى، وأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَريءٌ ممَّا يُشرِكون.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أَبْطلَتِ الآياتُ السَّابقةُ استحقاقَ الأصنامِ الإلهيَّةَ؛ لأنَّها لم تَخْلُقْ شيئًا، وأوجبتْ عبادةَ المستحِقِّ الإلهيَّةَ بحقٍّ؛ أبطلتْ هذه الآيةُ استحقاقَهم العبادةَ؛ لأنَّهم لا يَملِكونَ للنَّاسِ ضَرًّا ولا نفعًا[1]، فقال تعالى:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾.

أي: وإنْ يُصِبْكَ اللهُ- يا محمَّدُ- بشِدَّةٍ وعُسرٍ وضِيقٍ، مِن شَظَفِ عيشٍ، أو مَرضٍ، أو غمٍّ أو همٍّ، أو غيرِ ذلك مِن أنواع الضُّرِّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: فلنْ يَرفعَ، ويُزيلَ ذلك الضرَّ عنك إلَّا اللهُ تعالى وحْدَه[١].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾.

أي: وإنْ يُصِبْكَ اللهُ تعالى- يا محمَّدُ- بأيِّ خيرٍ كان، كالصِّحَّةِ والعقلِ، والمالِ والأهلِ، والأمْنِ وغيرِ ذلك[٢].

﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: فهو على كلِّ شيءٍ قادرٌ، لا يُعجِزُه شيءٌ، ولا يَمتنِعُ منه، ومِن ذلك خيرُه وعطاؤُه؛ فلا يَقدِرُ أحدٌ على ردِّه عمَّنْ أرادَه له سبحانه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال سبحانه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ

سورة الأنعام)) (ص: ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٧٥).

نَفْعًا ﴾ [الفتح: ١١].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٧].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضِي اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا رفَعَ رأسَه مِنَ الرُّكوعِ قال: ربَّنا لكَ الحمدُ مِلْءَ السَّمواتِ والأرضِ، ومِلْءَ ما شِئتَ مِن شيءٍ بعدُ، أَهْلَ الثناءِ والمجدِ، أحقُّ ما قال العبدُ، وكلُّنا لك عبدٌ، اللهمَّ لا مانعَ لِمَا أَعطيتَ، ولا مُعطِيَ لِمَا مَنعتَ، ولا يَنفَعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ))[(١)].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال له: ((... واعلمْ أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمعتْ على أنَ يَنفعوك بشَيءٍ، لم يَنفعوك إلَّا بشَيءٍ قد كتبَه اللهُ لك، وإنِ اجتَمعوا على أنْ يَضُرُّوك بشيءٍ لم يضُرُّوك إلَّا بشيءٍ قد كتبَه اللهُ عليك...))[(٢)].

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى انفرادَه بتصرُّفِه بما يُريدُه من ضُرٍّ وخيرٍ، وقُدرتَه على الأشياءِ، ذَكَرَ قَهْرَه وغَلبَتَه، فقال[(٣)]:

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾.

---

(١) رواه مسلم (٤٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥٤١٧)، والحاكم في المستدرك (٦٣٠٣).
صحَّحه الترمذيُّ (٢٥١٦)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٧٩٥٧)، وحسَّنه ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابنُ حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (١/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٧).

أي: واللهُ سبحانه هو المستعبِدُ خَلْقَه، العالي عليهم؛ ذاتًا وقدْرًا وقهرًا، ذو السُّلطةِ التامَّةِ عليهم، الذي له الخَلائقُ خَضَعَتْ، وذلَّتْ له، ودَانَتْ[١].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

أي: وهو سُبحانَه الحَكيمُ في جميعِ ما يَفعلُه؛ فيما أمَر بِه ونَهى عنه، وأثابَ وعاقَب، وفيما خلَقَ وقدَّر، فيَضعُ كلَّ شيءٍ في مَوضعِه اللَّائقِ به، وهو سُبحانَه الخبيرُ، المطَّلعُ على جميعِ السَّرائرِ والضَّمائرِ، العليمُ بمصالحِ الأشياءِ ومَضارِّها، ومواضعِها ومحالِّها، الذي لا تَخفَى عليه عواقبُ الأمورِ[٢].

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الاستدلالَ على إثباتِ ما يَليقُ بِه تعالى مِن الصِّفات، انتَقَلَ إلى إثباتِ صِدقِ رِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإلى جَعْلِ اللهِ حَكَمًا بينه وبينَ مُكذِّبيه[٣].

وأيضًا لَمَّا أقامَ الأدلَّةَ على الوحدانيَّةِ والقُدرة، ووصَل إلى صِفةِ القهرِ المؤذِنِ بالانتقامِ، لم يَبقَ إلَّا الإشهادُ عليهم؛ إيذانًا بما يَستحقُّونه مِن سوءِ العذابِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٦-٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٧-٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٦).

وإنذارًا به؛ لئلَّا يقولوا إذا حَلَّ بهم: إنَّه لم يَأتِنْا نذيرٌ[١]، فقال:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾.

أي: قلْ - يا محمَّد- لهؤلاءِ المكذِّبين: أيُّ شيءٍ أعظمُ شَهادةً على صِدقي[٢]؟

﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

أي: قلْ لهم- يا محمَّدُ-: إنَّ أكْبرَ الأشياءِ شهادةً هو اللهُ تبارك وتعالى، الذي لا يَجوزُ أنْ يقعَ في شَهادتِه السهوُ والخطأُ والكذبُ، وهو الشَّهيدُ بَيني وبَينكم؛ بالمحقِّ منَّا مِن المبطِلِ؛ فهو العالمُ بما جِئتُكم به، فيَشهَدُ لي بإقرارِه وفِعلِه، فيُقرُّني على ما قلتُ لكم؛ إذ لا يَليقُ بحِكمتِه وقُدرتِه سبحانه أنْ يُقرَّ كاذبًا عليه، يَزعُمُ أنَّ اللهَ تعالى أرْسلَه، وهو سبحانه لم يُرسِلْه[٣].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٩٩-١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢-٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٩٩-١٠٠).

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨].

﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

أي: وأَوْحَى اللهُ إليَّ هذا القرآنَ الكريمَ لِمَصلحتِكم؛ أنْ أُنذِرَكم به مِن العذابِ، وأُنذرَ كذلك كلَّ مَن بلَغَه القرآنُ[١].

ثمَّ أمَر اللهُ تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالشَّهادةِ له بالوحدانيَّة التي جحَدها المُشركونَ، وبالبراءةِ من قولِهم، وشهادتِهم بالشِّرك[٢]، فقال تعالى:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾.

أي: هل تَشهدون- يا أيُّها المشرِكونَ- بأنَّ معَ اللهِ تعالى معبوداتٍ أخرى، تستحقُّ العبادةَ[٣]؟

﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾.

أي: إنْ شَهِدوا بأنَّ مع اللهِ تعالى آلهةً أخرى، فقُلْ- يا محمَّدُ-: لا أَشهَدُ مَعكُم على ذلك[٤].

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

أي: قلْ: إنَّما هو معبودٌ واحدٌ، مُنفردٌ باستحقاقِ العبوديَّةِ، لا شَريكَ له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨١-١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠١-١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣).

﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

أي: وإنَّني بريءٌ مِن كلِّ شَريكٍ تدَّعونَه لله، وتَعبُدونه مع اللهِ تعالى؛ فلا أَعْبُدُ سِوى اللهِ شيئًا، ولا أَدْعُو غيرَه إلهًا[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُستفادُ مِن قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ...﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يُعلِّقَ رجاءَه باللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه إذا عَلِم مضمونَ هذه الآيةِ فسوفَ يَعتمِدُ في أمورِه كلِّها على اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ فيه الحثُّ على الصَّبرِ؛ لأنَّك إذا عَلِمتَ أنَّ الذي أصابَك بالضرِّ هو اللهُ، فلا بدَّ أنْ تَصبِرَ؛ لأنَّك عَبْدُه، يَفعلُ بك ما شاءَ، فتصبرُ على ما يُصيبك مِن الضَّرر[٣].

٣- قوَّةُ رَجاءِ العبدِ باللهِ عزَّ وجلَّ إذا أصابَه الضَّررُ أنْ يزولَ عنه الضررُ؛ وجْهُ ذلك قولُه: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وكم مِن أضرارٍ حدَثَتْ للإنسانِ حتى أوصلتْ إلى اليأسِ والقُنوطِ، فكَشفَها اللهُ عزَّ وجلَّ! وكم مِن إنسانٍ أُصيبَ بمرضٍ حتى وصَلَ إلى حافَةِ القبرِ، ثمَّ شفاه الله عزَّ وجلَّ! وكم مِن إنسانٍ أُصيبَ بالفقرِ حتى وصَلَ إلى ألَّا يجِدَ قُوتَ يومِه فأَغْناه اللهُ عزَّ وجلَّ! وكم مِن إنسانٍ كان وحيدًا فرَزَقَه اللهُ! وهلمَّ جرًّا؛ لأنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ[٤].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ إثباتُ وصْفِ الخبرةِ للهِ عزَّ وجلَّ، وهي العلمُ ببواطنِ الأمورِ، ويَترتَّبُ على إيمانِنا بهذا أنْ نَستسلمَ لحُكمِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الشرعيِّ، كما أنَّنا مُسْتسلِمون لحُكمِه القَدَريِّ، وألَّا نُكلِّفَ أنفُسَنا بالاطِّلاعِ على الحِكمةِ فيما لا تُدرِكُه عقولُنا، بل نُؤمِنُ ونُسلِّمُ، وكذلك يُقال في الأحكامِ القَدَريَّة: نُؤمِنُ باللهِ ونُسلِّمُ لقَضائِه[١].

٥- وجوبُ التبرُّؤِ من أهلِ الباطِلِ وما هم عليه، ومِن المشركين ومِن عملِهم الشركيِّ، والتبرؤِ من كلِّ ما يُعبَدُ من دونِ الله، ولا تجوزُ المُداهنةُ في هذا، ولا الموافقةُ، فإن لم يشهَدْ ببُطلانِ الآلهةِ سوَى اللهِ عزَّ وجلَّ، فإنَّه لم يُخلصْ ولم يُوحِّد؛ إذ إنَّ التوحيدَ مبنيٌّ على النفيِ والإثْباتِ؛ وذلك لقولِه: ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُ﴾ وقولِه: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- تمامُ سلطانِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه سبحانه وتعالى هو المتصرِّفُ كما يَشاءُ بعبادِه؛ لقوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ...﴾ ﴿... وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ﴾[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ فيه تقويةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وأنَّه مهما حاولَ هؤلاءِ أنْ يُصيبوه بضررٍ فإنَّهم لا يَملِكون ذلك، إذا لم يَكُنِ اللهُ أرادَه[٤].

٣- قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّه لا يجوزُ للعاقلِ أنْ يتَّخذَ غيرَ اللهِ وليًّا؛ وذلك لأنَّ الضرَّ اسمٌ للألمِ والحُزنِ والخوفِ، وما يُفضي إليها أو إلى أحدِها، والنَّفع اسمٌ للَّذَّة والسُّرورِ وما يُفضي إليهما أو إلى أَحدِهما، والخير

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٩٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اسمٌ للقَدْرِ المشترَكِ بين دفْع الضرِّ وبين حُصولِ النَّفع؛ فإذا كان الأمرُ كذلك، فقد ثبَت الحصرُ في أنَّ الإنسان إمَّا أنْ يكونَ في الضرِّ أو في الخير؛ لأنَّ زوالَ الضرِّ خيرٌ، سواءٌ حصَل فيه اللَّذةُ أو لم تَحصُل، وإذا ثبَت هذا الحصرُ، فقد بيَّن اللهُ تعالى أنَّ المَضارَّ- قليلَها وكثيرَها- لا تندفِعُ إلَّا بالله، والخيراتِ لا يحصُل قليلُها وكثيرُها إلَّا باللهِ تعالى[١].

٤- مِن أدلَّةِ توحيدِه عزَّ وجلَّ: أنَّه تعالى المنفردُ بكَشفِ الضَّرَّاء، وجَلْب الخيرِ والسَّرَّاء؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ مِن فقرٍ أو مرضٍ، أو عُسرٍ، أو غمٍّ أو هَمٍّ أو نحوه، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فإذا كان هو وحْدَه النافعَ الضارَّ، فهو الذي يَستحقُّ أنْ يُفرَدَ بالعُبوديَّة والإلهيَّة[٢].

٥- إثباتُ الفَوقيَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لقولِه: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، وهي فوقيَّةُ ذاتٍ وقدْرٍ وقهْرٍ[٣].

٦- إثباتُ العبوديَّةِ لجميعِ الخَلقِ؛ لقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ وهذه هي العبوديَّةُ الكونيَّة؛ فكلُّ الخَلقِ عِبادُ الله عزَّ وجلَّ، يَفعل فيهم ما يَشاءُ، ولا يُمكن لأيِّ أحدٍ: برًّا أو فاجرًا، مؤمنًا أو كافرًا، أن يَستعصيَ على ربِّه عزَّ وجلَّ مِن هذه الناحيةِ[٤].

٧- ممَّا يُستفادُ مِن مجيءِ قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ بعدَ قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أنَّه لَمَّا كان في القَهرِ ما يكونُ مذمومًا، نفاهُ بقوله: ﴿وَهُوَ﴾، أي: وحْدَه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ فلا يُوصلُ أثرَ القهرِ بإيقاعِ المكروهِ إلَّا لمستحِقٍّ، وأتمَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٩٣- ٩٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٦).

المعنى بقولِه: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾، أي: بما يستحقُّ كلُّ شَيءٍ، فتمَّتِ الأدلَّةُ على عظيمِ سُلطانِه[١].

٨- قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فقرَنَ اللهُ تعالى هنا بين الحكيمِ والخبيرِ؛ ليعلمَ الناسُ أنَّ حِكمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ عن خِبرةٍ وعِلمٍ ببواطنِ الأمورِ؛ وعلى هذا فقدْ تكون الحكمةُ خفيَّةً على كثيرٍ مِن النَّاس؛ لأنَّه لا يُدرِكُ الحِكمةَ إلَّا مَن كان خبيرًا، ففي قرْنِ هذينِ الاسمينِ فائدةٌ، وهي أنَّ الحكمةَ قد تكونُ خَفيَّةً لا يَعلمُها إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ[٢].

٩- إطلاقُ اسمِ (الشَّيء) على اللهِ تعالى؛ لقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ اسمَ الاستفهامِ إذا أُضيفَ إلى كَلمةٍ، صارتْ هذه الكلمةُ صادقةً على جوابِ الاستفهامِ، وهنا جوابُ الاستفهامُ ﴿ٱللَّهُ﴾، فيكونُ اللهُ تعالى شَيئًا، فيُخبَرُ بكلمةِ (شيء) عن اللهِ، ولكن لا يُسمَّى به؛ فالله تعالى له الأسماءُ الحُسْنى، وكَلمةُ (شيء) لا تدلُّ على هذا المعنى[٣].

١٠- في قوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ اقتُصِرَ على جَعْلِ عِلَّة نُزولِ القرآنِ للنِّذارةِ، دون ذِكرِ البِشَارة؛ لأنَّ المخاطَبين في حالِ مُكابرتِهم التي هي مقامُ الكلامِ لا يُناسِبُهم إلَّا الإنذارُ؛ فغايةُ القرآنِ بالنسبةِ إلى حالِهم هي الإنذارُ[٤].

١١- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ الدَّلالةُ على أنَّ أحكامَ القرآنِ تَعمُّ الموجودِينَ وقتَ نُزولِه ومَن بَعدَهم، وأنَّه لا يُؤاخَذُ بها مَن

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٩١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٨).

لم يَبلُغْه[١].

١٢- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أنَّه يجبُ على عُلماءِ المسلمينَ أنْ يُبلِّغوا القرآنَ كلَّ أحدٍ؛ لأنَّهم وَرَثةُ الأنبياءِ، ولكن مَن لم يَكُن لسانُه عربيًّا، فإنَّه يُبلَّغُ معنى القرآنِ بلِسانِه، ثم يُعطَى القُرآنَ، فيَقرؤه باللَّفظِ العربيِّ إذا أسْلَم[٢].

١٣- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ النصُّ على عُمومِ بَعثةِ خاتَمِ الرُّسلِ عليه أفضلُ الصَّلاةُ والسَّلام[٣].

١٤- يُستفادُ من قولِه تعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰ﴾ سَفَهُ أولئك المشرِكين الذين يَشهدون أنَّ معَ اللهِ آلهةً أخرى، ولو سُئِلوا عنها: أتَخلُقُ شيئًا؟ لقالوا: لا، وهذا مِن سَفهِهم؛ أنْ يَعبدوا مَن لا يَخلُقُ[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

- في قولِه: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ وقولِه: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ﴾ نابَ الضرُّ مَنابَ الشرِّ- وإنْ كان الشرُّ أعمَّ منه- فقابَلَ الخيرَ[٥]، ونُكتةُ المقابلةِ أنَّ الضرَّ مِن اللهِ تعالى ليسَ شَرًّا في الحَقيقةِ، بل هو تَربيةٌ واختبارٌ للعَبدِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٣).

يَستفيدُ به مَن هو أهلٌ للاستفادةِ أخلاقًا وآدابًا وعِلمًا وخبرةً[١].

وقيل: قابَل قولَه: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ بقولِه: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ﴾ مُقابلةً بالأعمِّ؛ لأنَّ الخيرَ يَشملُ النَّفْعَ- وهو الملائمُ- ويَشملُ السَّلامةَ من المنافِر؛ للإشارةِ إلى أنَّ المرادَ من الضرِّ ما هو أعمُّ، فكأنَّه قيل: إنْ يَمسَسْك بضُرٍّ وشرٍّ، وإنْ يَمسَسْك بنَفعٍ وخيرٍ؛ ففي الآيةِ احتباكٌ[٢].

وقيل: ناب هنا الضُّرُّ عن الشرِّ، وعدَل عن الشرِّ الذي يُقابِلُ الخيرَ؛ لأنَّ الشرَّ أَعمُّ مِن الضُّرِّ، فأُتِيَ بلفظِ الضرِّ الذي هو أَخصُّ، وبلفظِ الخيرِ الذي هو عامٌّ مُقابلٌ لعامٍّ؛ تَغليبًا لجهةِ الرَّحمة[٣].

- وقُدِّمَ مَسُّ الضرِّ على مَسِّ الخيرِ في قوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ﴾؛ لمناسبةِ اتِّصالِ مَسِّ الضرِّ بما قَبْلَه مِن التَّرهيبِ المدلولِ عليه بقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، وأيضًا بدَأَ بذِكرِ الضُّرِّ؛ لأنَّ كَشْفَه مُقدَّمٌ على نَيلِ مُقابِلِه، كما أنَّ صَرْفَ العذابِ في الآخرةِ مُقدَّمٌ على النَّعيمِ فيها[٤].

- وجاءَ جوابُ الشرطِ الأوَّلِ بالحَصرِ في قولِه: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾؛ مبالغةً في الاستقلالِ بكشْفِه؛ إشارةً إلى استقلالِه بكَشْفِ الضُّرِّ دونَ غَيرِه، وجاءَ جواب الشَّرْطِ الثاني بقولِه تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ إشارةً إلى قُدرتِه الباهِرةِ، فيَندرجُ فيها المسُّ بخَيرٍ وغيرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٣).

وينظر تعريف الاحتباك في تفسير سورة البقرة (١/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٥، ٤٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٦٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٦- ٤٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٦٦).

٢- قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ يُفيد الحَصرَ والقصرَ، ومعناه: أنَّه لا مَوصوفَ بكَمالِ القُدرةِ، وكَمالِ العِلمِ إلَّا الحقُّ سبحانه، مع عُلوِّه وفَوقيَّتِه؛ حيثُ أَبطلتْ هذه الآيةُ أنْ يكونَ غيرُ اللهِ قاهرًا على أحدٍ، أو خبيرًا أو عالِمًا بإعطاءِ كلِّ مخلوقٍ ما يُناسِبُه، ولا جرَمَ أنَّ الإلهَ تجبُ له القُدرةُ والعِلم، وهما جِماعُ صِفات الكمالِ، كما تجبُ له صفاتُ الأفعال مِن نفْعٍ وضرٍّ، وإحياءٍ وإماتةٍ[١].

- وهذه الآيةُ تتنزَّلُ مِن التي قَبلَها مَنزِلةَ التَّعميمِ بعدَ التَّخصيص؛ لأنَّ التي قبلها ذَكرتْ كمالَ تصرُّفه في المخلوقاتِ، وجاءتْ به في قالَبِ تثبيتِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهذه الآيةُ أوْعَتْ قُدرتَه على كلِّ شيءٍ، وعِلمَه بكلِّ شيء، وذلك أصلُ جميعِ الفِعل والصُّنع، وقد أفاد تعريفُ الجزْأَين القصرَ، أي: لا قاهرَ إلَّا هو؛ لأنَّ قهرَ اللهِ تعالى هو القهرُ الحقيقيُّ الذي لا يجِد المقهورُ منه مَلاذًا؛ لأنَّه قهرٌ بأسبابٍ لا يستطيعُ أحدٌ خَلْقَ ما يُدافِعها، وممَّا يُشاهَد منها دومًا: النومُ وكذلك الموتُ؛ سبحان مَن قهرَ العبادَ بالموتِ[٢].

٣- **قوله:** ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، والاستِفهامُ فيه على جِهَةِ التَّقريرِ والتَّوقيفِ[٣].

- وتكريرُ كَلِمة (بَيْن)؛ لتحقيقِ المقابلةِ، وللتأكيدِ؛ حيث كرَّر اللهُ تعالى كلمة (بين) في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، وكان الأصلُ أنْ يقول: (قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيننا)[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٨).

٤- **قوله**: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ في الآيةِ إيجازٌ بالحذفِ؛ حيث حُذِفَ فاعِلُ الوحيِ، وبُنِي فِعلُه ﴿وَأُوحِيَ﴾ للمفعولِ؛ للعلمِ بالفاعلِ الذي أوحاه إليه، وهو اللهُ تعالى[(١)]، وفيه حَذْفٌ في قوله ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ والتقدير: ومَنْ بلَغَه هذا القرآنُ[(٢)].

٥- **قوله**: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

- في قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ؛ للتقريعِ لهم والتوبيخِ، وهو يُفيدُ إنكارينِ؛ أحدُهما صريحٌ بأداةِ الإنكار، والآخَرُ كِنائيٌّ بلازمِ تأكيدِ الإخبارِ؛ لغرابةِ هذا الزعمِ بحيثُ يَشكُّ السَّامعُ في صدورِه منهم[(٣)].

- وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ فيه تأكيدُ الخَبر بـ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ ليُفيدَ أنَّ شهادتَهم هذه ممَّا لا يَكادُ يُصدِّقُ السَّامِعونَ أنَّهم يَشهَدونها؛ لاستبعادِ صُدورِها مِن عُقلاءَ؛ فاحتاجَ المخبِرُ عنهم بها إلى تأكيدِ خَبرِه بمُؤكِّدَينِ[(٤)].

- وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فيه تأكيدٌ على إيجابِ التَّوحيدِ، والبَراءةِ عن الشِّركِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ التي تُفيدُ الحصرَ، ولفظِ ﴿وَٰحِدٌ﴾ الصريحِ في التوحيدِ، ونفْيِ الشُّركاءِ، وقولِه: ﴿إِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ الذي فيه تصريحٌ بالبراءةِ عن إثباتِ الشُّركاءِ؛ أو البراءةِ مِن إشراكِهم، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٩- ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٩).

كالتوكيدِ لِمَا قبلَه؛ فثبَتتْ دَلالةُ هذه الآيةِ على إيجابِ التوحيدِ بأعظمِ طُرقِ البيانِ، وأبلغِ وجوهِ التَّأكيدِ[١].

- وفي هذه الآيةِ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ...﴾ تَكريرٌ للأمْرِ بقوله: ﴿قُلْ﴾ أربعَ مرَّات؛ لتأكيدِ التبليغِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٠).

الآيات (٢٠ - ٢٤)

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۗ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٢٢ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾: أي: اختَلق وكذَب، والافتراءُ الاختلاقُ، ومنه قِيل: افترَى فلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، وأصلُ (فري) قَطْعُ الشَّيءِ؛ فالفَرْيُ: قطعُه لإصلاحِه، والإفراءُ: قطعُه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[١].

﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾: أي: نَسوقُهم ونَجمَعُهم، والحشرُ: الجمعُ مع سَوْقٍ، وكلُّ جمْعٍ حشرٌ، ويُطلَقُ أيضًا على البعثِ والانبعاثِ، أو الجَمْعِ بكثرةٍ[٢].

﴿تَزۡعُمُونَ﴾: أي: تَكذِبون، والزَّعم غالبًا هو حِكايةُ قولٍ ما، يكونُ مَظِنَّةً للكذبِ، أو اعتقادُ الباطِلِ بتقوُّلٍ، وقدْ يكونُ الزَّعم حَقًّا، وأصلُ (زعم): القولُ مِن غيرِ صِحَّةٍ ولا يقينٍ[٣].

﴿فِتۡنَتُهُمۡ﴾: أي: مَقالتُهم وحُجَّتُهم، أو بَليَّتُهم التي أَلزمتْهم الحُجَّةَ، وزادتْهم لائمةً، والفتنةُ تُطلَق على: الشِّركِ والكُفرِ، والشرِّ والعذابِ، وهي في الأصل:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (٣/ ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٨).

الاختبارُ والابتلاءُ والامتحانُ، مأخوذةٌ من الفَتْن: وهو إدخالُ الذهبِ النَّارَ؛ لتظهرَ جَودتُه مِن رداءتِه[١].

﴿وَضَلَّ﴾: أي: وذَهَب، والضَّلالُ: العُدولُ عن الطريقِ المستقيمِ، وضياعُ الشيءِ، وذَهابُه في غيرِ حقِّه[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- **قوله:** ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾

﴿لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ﴾ قُرئ (تكن) و (يكن) بالتَّاءِ وبالياءِ، وقُرِئت ﴿فِتۡنَتُهُمۡ﴾ بالرَّفْع والنَّصب في كلٍّ مِنهما؛ فهذه أربعةُ أوجهٍ في الإعرابِ؛ فـ ﴿فِتۡنَتُهُمۡ﴾ على الرَّفعِ هي اسمُ كان، والخبر قوله: ﴿أَن قَالُواْ﴾ الذي هو مصدرٌ مُؤوَّل بمعنى (قولهم)، وعلى نصْب ﴿فِتۡنَتَهُمۡ﴾ فهي خبرُ كان مُقدَّم، و﴿أَن قَالُواْ﴾ اسمُ كانَ مُؤخَّر. وعلى قِراءة ﴿تَكُن﴾ بالتاءِ ورفْع الفتنةِ يكونُ تأنيثُ الفِعلِ مُراعاةً لتأنيثِ لفظِ الفِتنة، وعلى قِراءة ﴿يَكُنْ﴾ بالياءِ مع رفْع ﴿فِتۡنَتُهُمۡ﴾ فيكونُ تذْكِير الفِعل؛ لأنَّ تأنيثَ الفتنةِ غيرُ حقيقيٍّ، ولأنَّ الفتنةَ هنا بمعنى القَول؛ فحَمَلَه على المعنى فذَكَّره.

وعلى قِراءة ﴿تَكُن﴾ بالتَّاءِ ونصْب ﴿فِتۡنَتَهُمۡ﴾ يكونُ تأنيثُ الفِعلِ مُراعاةً لمعنى ﴿أَن قَالُواْ﴾؛ لأنَّه بمعنى المقالةِ والفِتنةِ، وعلى قِراءة ﴿يَكُنْ﴾ بالياءِ مع

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١، ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩،٩٤، ١٣٩، ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٧٦).

نصْب ﴿فِتْنَتَهُمْ﴾، فيكونُ تذكيرُ الفِعل؛ لإِسنادِه إلى مُذكَّرٍ؛ لأنَّ ﴿أَن قَالُواْ﴾ بمعنى القَولِ، أي: قَولُهم.

وقِراءة ﴿يَكُنْ﴾ بالياءِ، و﴿فِتْنَتَهُمْ﴾ بالنَّصبِ، هي أوضحُ هذه القِراءاتِ؛ لإجرائِها على القواعِدِ مِن غيرِ تأويلٍ؛ لأنَّ الأحسنَ جَعْلُ الأعرفِ اسمًا مُحَدَّثًا عنه، وجَعْلُ الأقلِّ تعريفًا خبرًا حديثًا عنه، والأعرفُ هنا ﴿أَن قَالُواْ﴾ لأنَّه في منزلةِ الضَّميرِ، والضَّميرُ أَعْرَفُ المعارفِ بَعْدَ اسْمِ اللهِ تعالى، والفِتنةُ دونه في التَّعريفِ؛ لأنَّها تعرَّفتْ بإضافتِها إلى المُضمَرِ؛ فهي دونَ تعريفِ ﴿أَن قَالُواْ﴾ بكثيرٍ، ولأنَّ ﴿يَكُنْ﴾ بالتذكير على الأصلِ؛ لأنَّها عائدةٌ إلى مُذَّكرٍ، وهو ﴿أَن قَالُواْ﴾، أي: قَولُهم[1].

٢- **قوله:** ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾

﴿يَوْمَ﴾ منصوبٌ على أنه مفعول به لِفعلٍ مُضمَرٍ، أي: واذْكُرْ- يا محمَّدُ- يومَ نَحشُرهم، وقيل: انتصَب بـ (نقول) مُضمرَةً[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ الَّذين أُوتوا التوراةَ والإنجيلَ مِن اليهودِ والنَّصارى يَعرِفونَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما يَعرِفُ الواحدُ منهم ابنَه، والذين خَسِروا أنفُسَهم كلَّ الخَسارةِ هُم الَّذينَ كَفضروا بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وفاتَهم الإيمانُ به وبرسالتِه.

ثمَّ بَيَّن تعالى أنَّه لا أَحدَ أشدُّ ظُلمًا ممَّن افترَى على اللهِ تعالى كذِبًا، أو مَن كذَّبَ بحُجَجِه وبَراهينِه، إنَّه لا يُفلحُ الظَّالِمون أبدًا.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٧٢- ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٧).

ويَومَ يَحشُرُهم اللهُ جميعًا ثمَّ يَسألُ المشركينَ: أينَ شُركاؤُهم الذين كانوا يَزعُمون أنَّهم آلهةٌ مع اللهِ تعالى؟! ثمَّ بعدَ هذا السؤالِ لم يَكُن جوابُهم حِينَ اختُبِروا وامتُحِنوا به إلَّا أنَّهم حَلَفوا بربِّهم ما كانوا مُشرِكين.

ثمَّ أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يتأمَّل كيف كذَبَ هؤلاءِ المشرِكون على أَنفُسِهم يومَ القِيامةِ، وغابَ عنهم شُركاؤُهم الذين زَعَموهم مع اللهِ تعالى، فلمْ يَنفعوهم بشَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۚ ﴾.

أي: الذين أُوتوا التوراةَ والإنجيلَ مِن اليَهودِ والنَّصارَى يَعرِفونَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما يَعرِفُ أحدُهم ابنَه، دون أدْنَى شَكٍّ[1].

كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾

(١) وهذا اختيارُ الواحديِّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٥٩)، والقرطبيِّ في ((تفسيره)) (٦/ ٤٠٠)، وابنِ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٢٤٥)، وابنِ عثيمينَ في ((تفسير سورة الأنعام)) (ص:١١٤).
وممَّن قال مِن السَّلف بهذا القولِ: قتادةُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٢٧٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥).
واختار ابنُ جرير، والسعديُّ أنَّ المرادَ يعرفون أنَّه لا إله حقٌّ إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣).
وممَّن قال بهذا مِن السَّلف: قتادةُ في رواية أُخرى عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٢٧٣).
ورجَّح ابنُ عاشور أنَّ المرادَ: يَعرِفونَ أنَّ القرآنَ حقٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧١).

[الأعراف: ١٥٧].

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: الَّذين أَهْلَكوا أنفُسَهم، وألْقَوْها في نارِ جَهنَّمَ؛ بإنكارِهم أنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ تعالى، وهم بحَقيقةِ ذلك عارِفون، قد خَسِروا كلَّ الخَسارةِ؛ إذ لَمَّا أَعْرَضوا عن ذلِك فاتَهُم الإيمانُ الحقيقيُّ، الذي هو سببُ الفوزِ في الدُّنيا والآخِرة[١].

كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۗ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ خُسرانَ المُنكِرينَ في الآيةِ الأُولى؛ بَيَّن في هذِه الآيةِ الكريمةِ سَببَ ذلك الخُسرانِ، وهو أمران؛ أحدُهما: الافتراءُ على اللهِ كَذِبًا، الأمْرُ الثَّاني من أسبابِ خَسارتِهم: تَكذيبُهم بآياتِ اللهِ تعالى، وقَدْحُهم في مُعجزاتِ محمَّد عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وإنكارُهم كونَ القرآنِ العظيمِ مُعجزةً قاهرةً منه[٢]، فقال تعالى:

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾.

أي: لا أحدَ أشدُّ ظُلمًا ممَّن تقوَّلَ على اللهِ تعالى، كمَن زعَمَ أنَّ له شَريكًا، أو كذَّبَ بحُجَجِه وأعلامِه، ومِن ذلك ما أعطاهُ لرُسلِه من الأدلَّةِ على صِدْقِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٣-١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) ص: ١١٦-١١٨).

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: إنَّ كلَّ ظالمٍ لا يُفلحُ أبدًا، ومنهم القائِلون على اللهِ تعالى الباطِلَ، والمكذِّبون بآياتِه عزَّ وجلَّ[1].

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٢٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان معنى قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ أنَّهم أكذبُ الناسِ، دلَّ عليه بكَذِبِهم يومَ الحشرِ بعدَ انكشافِ الغطاءِ[2]، فقال:

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾.

أي: ويومَ يَجمعُ اللهُ تعالى جميعَ المشرِكين، والمفترِين على اللهِ كَذِبًا، والمكذِّبين بآياتِه[3].

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٦).

اختار بعضُ المفسِّرين أنَّ (يوم) متعلقةٌ بما قبلَها على معنى: إنَّه لا يُفلح الظالمون في الدُّنيا ولا يوم نحشرُهم. وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٨).

واختار بعضُهم أنَّ (يوم) متعلقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: واذكرْ يومَ نحشرُهم. على معنى أنَّ قولَه سبحانه: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كلامٌ تامٌّ معناه، و﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ﴾ جملةٌ استئنافيةٌ، وهذا اختيارُ الواحديِّ، وابنِ عثيمينَ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٦).

قال ابنُ عثيمينَ: (أي: اذكرْ لهم، ويجوزُ أن نقولَ: اذكرْ في نفسِك حتى تتسلَّى بهذه الذِّكرَى، ويهونَ عليك أمرُهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٦).

أي: ثمَّ نقولُ للمُشرِكين- تَوبيخًا وتقريعًا لهم- إذا جمعْناهم: أينَ شُركاؤُكم الذين كنتُم تدَّعون أنَّهم آلهةٌ مع اللهِ سبحانه[١]؟

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[القصص: ٦٢].

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قِراءتان:

١- قِراءة ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ بنَصْبِ ﴿رَبِّنَا﴾ على النِّداءِ، بمعنى: واللهِ يا ربَّنا، وفيه معنى الخُضوعِ والتضرُّعِ للهِ تعالى[٢].

٢- قِراءة ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ بجرِّ ﴿رَبِّنَا﴾ على النَّعْتِ للهِ عزَّ وجلَّ، والثناءِ[٣].

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ثمَّ بَعدَ هذا السؤالِ لم يَكُنْ جوابُهم عليه حِين اختُبِروا وامتُحِنوا بِه، إلَّا إنكارَهم لشِركِهم، وحَلِفَهم أنَّهم ما كانوا مُشرِكين[٤].

كما قال تعالى عن المنافِقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٦-١٢٧).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩١)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٣٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٢٧).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٩-١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٦).

وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة: ١٨].

وعن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: قال رجلٌ لابنِ عَبَّاسٍ: إنِّي أَجِدُ في القرآنِ أشياءَ تَختلِفُ عليَّ؟ قال:... ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فقدْ كتَموا في هذه الآيةَ؟... فقال ابنُ عبَّاس: وأمَّا قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، فإنَّ اللهَ يغفرُ لأهلِ الإخلاصِ ذُنوبَهم، وقال المشرِكون: تَعالَوْا نقولُ: لم نكُنْ مُشرِكين، فخُتِمَ على أفواهِهم، فتَنطِقُ أيدِيهم، فعندَ ذلك عُرِفَ أنَّ اللهَ لا يُكتَمُ حديثًا، وعندَه: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾ الآيةَ[1] [البقرة:١٠٥].

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: انظُرْ بقلبِك- يا محمَّدُ- وتأمَّلْ كيفَ كذَب هؤلاءِ المشرِكون في الآخِرةِ على أنفسِهم بنَفيِهم الشِّركَ عنها، فكَذَبوا كذِبًا يعودُ بالخُسرانِ والضَّررِ عليها[2].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

أي: وغابَ عنهم الشُّركاءُ الذين زَعموهم مع اللهِ سبحانه وتعالى، وبَطلَتْ دعواهم فيهم؛ فلم يُغنوا عنهم شيئًا[3].

---

(١) أخرجه عبدُ الرزَّاق في ((التفسير)) (٥٨٨)، والطبري في ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٧١٨٠)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٠/ ٢٤٥). (١٠٥٩٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣١٩٨)، وأخرجه البخاريُّ (٦/ ١٢٧) معلَّقًا بصيغةِ الجزم.
صحَّح إسنادَه الحاكمُ (٣١٩٨)، وأحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٠٩)، وقال ابنُ حجرٍ في ((تغليق التعليق)) (٤/ ٣٠١): له متابعةٌ بنحوه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٦٠-٢٦١)،

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [غافر: ٧٣- ٧٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيه التَّحذيرُ مِن أن يَفتريَ الإنسانُ على اللهِ تعالى الكذبَ؛ لأنَّه بيَّنَ أنَّه في المرتبةِ العُليا من الظُّلم؛ ومِن الافتراءِ على الله كذِبًا: أنْ يجعلَ العبدُ لله تعالى صاحبةً أو ولدًا، أو يتَّخِذَ مَعَهُ شريكًا، ومن الافتراء: أنْ يكْذِبَ الإنسانُ على ربِّه عزَّ وجلَّ في مدلولِ آياتِه، فيقول: أراد اللهُ بكذا، كذا وكذا. هذا كذبٌ على اللهِ، ومِن ذلك: أنْ يفتريَ على الله كذِبًا في أحكامِه فيقول: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾[1] [النحل: ١١٦].

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ وجوبُ التَّصديقِ بكلِّ آياتِ الله الكونيَّةِ والشرعيَّة؛ وجه ذلك: أنَّ (آيات) مضافةٌ، والجمع إذا أُضيفَ يُفيدُ العمومَ، ويتفرَّع على هذا: أنَّ مَن آمَن ببعضٍ، وكفَر ببعضٍ، فقدْ كفَر بالجميع، فلا يُعَدُّ مؤمنًا؛ لأنَّه يوجدُ بعضُ الناسِ يُؤمِن ويُصدِّقُ بما يرَى عقلُه أنَّه حقٌّ، ويُكذِّب بما يرى أنَّه ليس بحقٍّ، أو يُؤمنُ بما يرَى أنَّه مناسبٌ، ويَكفُر بضدِّ ذلك، وهؤلاء بَيَّن الله حُكْمَهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ

((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٧-١٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٠).

وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ...﴾[١] [النساء: ١٥٠- ١٥١].

٣- في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بُشرَى للمظلومينَ مِن أنَّ الظالِمَ لا يُفلِحُ؛ فيُبشَّر المجاهِدون بالنَّصرِ، وبأنَّ مآلَ مَن جاهدَهم الخِذلانُ، ويُبشَّر مَن ظُلِمَ بأخْذِ مالِه أو جَحْدِ مالِه، وما أشبهَ ذلك بأنَّ هذا الظالمَ لن يُفلِحَ[٢].

٤- التحذيرُ مِن الظُّلم، وأنَّ عاقبتَه الخَسارةُ والدَّمارُ؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٣].

٥- التحذيرُ من الشِّركِ؛ لأنَّ المشركينَ سوف يُوبَّخونَ ويُقرَّعونَ في يومٍ لا يَستطيعُونَ الخلاصَ فيه؛ حيث يُقال لهم في هذا المَجمعِ العَظيمِ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- أنَّ الحُجَّةَ قائمةٌ على اليهودِ والنصارى في صِحَّةِ بَعثةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾[٥].

٢- أنَّه يَنبغي أنْ يُضرَبَ المَثَلُ بأقربِ مُطابِقٍ للمُمثَّلِ؛ لقوله: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾؛ لأنَّ هذا أقربُ إلى التصوُّرِ وإلى الصِّدقِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))(ص: ١٢٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٨، ١٢٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٥).

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ فيه أنَّ الظُّلمَ يَختلِفُ؛ بعضُه أشدُّ من بعضٍ؛ لأنَّ المعاصيَ تختلِفُ؛ بعضُها أعظمُ من بعضٍ، فهناك كبائرُ، وهناك صغائرُ، والكبائرُ نفسُها تَختلِفُ، فهناك أكبرُ مِن الكبائرِ، وما دونها، والصَّغائرُ كذلك تختلِفُ، وكلُّ فِعلٍ مُحرَّمٍ، أو ترْك واجبٍ ظلمٌ، وإذا كان يتفاوتُ لزِمَ من ذلك تفاوتُ الأعمالِ[(١)].

٤- مع عِظَمِ ظُلمِ مَن كذَّب بآياتِ الله؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، فإنَّه لا يُحكَمُ بظُلمِه، أو بكونِه في المرتبة العليا إلَّا إذا تبيَّنتْ له الآياتُ؛ لقوله: ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١٥٧]، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فإذا تَبيَّن لهم ما يتَّقون حَكَمَ بضلالِهم سبحانه وتعالى، وإلَّا فَهُم في عُذرٍ[(٢)].

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ...﴾ ما الجمعُ بَينَ هذه الآيةِ الكريمةِ وبينَ نُصوصٍ أخرى يَرِدُ فيها مِثلُ هذه العبارةِ في ذَنبٍ آخَرَ غيرِ هذا، وتدلُّ أيضًا على أنَّ هذا الفِعلَ أظلمُ شيءٍ؛ مثل قولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام:٩٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧]، وقوله في هذِه الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾؛ فكيفَ نَجمعُ بين هذه النُّصوصِ؟

والجوابُ مِن أحدِ وجهينِ: الأول: أنَّ هذه الأشياءَ جميعَها اشتركَتْ في المرتبةِ العُليا من الظُّلمِ؛ فكلُّها في مقامِ الأظلميَّة، فأفعل التفضيل لا تمنع التساوي ولكنها تمنع الزيادة. وعلى ذلك فلا مُعارَضَةَ ألبتَّةَ بينَ الآياتِ، فهؤلاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١١٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢١).

المذكورونَ لا يُوجَدُ أحدٌ أظلَمُ منهم، وهم متساوونَ في مرتبةِ الظُّلْم. الوجه الثاني: أنَّ هذه المواضعَ تتخصصُ بصِلاتِها. ومعنَى (تتخصصُ بصِلاتِها): أَنَّ كُلَّ واحدٍ منها تُفَسِّرُه صلةُ موصُولِه، أي أنَّ كلَّ واحدةٍ تختصُّ ببابِها، فيكونُ المعنَى: لا أحدَ مِنَ المفْتَرِينَ أظلمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللَّهِ كَذِبًا، ولا أحدَ مِنَ المانِعِينَ أظلمُ مِمَّنْ مَنَعَ مساجدَ اللَّهِ، ولاَ أحدَ مِنَ المعْرِضِينَ أظلمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عنه... إلخ[(١)].

٦- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قد نفَى فلاحَهم، فعمَّ كلَّ فلاحٍ في الدُّنيا والآخِرة؛ فإنَّ الفلاحَ المعتدَّ به في نظرِ الدِّينِ في الدُّنيا هو الإيمانُ والعملُ، وهو سببُ فلاحِ الآخِرَة[(٢)].

٧- ما الجَمعُ بَينَ قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ والواقعِ؛ لأنَّنا نرَى أنَّ الظالمَ قد يُفلحُ؟

الجواب: الجمعُ بينها وبينَ الواقِع: أنْ يُقال: الفلاحُ نوعان؛ فلاحٌ مُطلَقٌ، وهذا لا يُمكن للظالمِ أبدًا، ودليلُ هذا قولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ لَيُملِي للظالمِ حتَّى إذا أَخَذَه لم يُفْلِتْه))، وتلا قولَه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢])[(٣)]، فلا بدَّ أنْ يخسرَ الظالم، ولا بدَّ، طالتِ الدُّنيا أم قَصُرتْ؛ فمَن كان ظالِمًا بمبدأٍ مِن المبادِئ؛ فلا بدَّ أنْ يَنخذِلَ هذا المبدأُ حتَّى بعدَ موتِه، وإذا كان خاصًّا، فإنَّه وإنْ لم يَحصُل له

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢-٥١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٢- ١٢٣).

والوجهُ الأوَّل مخرجٌ على قاعدةِ: (نفيُ التفضيلِ لا يستلزمُ نفيَ المساواةِ). يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ذلِك في الدُّنيا حسَبَ ما نرَى فهو في الآخِرَةِ، وربَّما يكونُ في قَلبِ الظالمِ أشياءُ لا نَدري عنها يُبتلَى بها، مِن ضِيقِ الصَّدرِ، وكراهةِ الحقِّ، وما أشبهَ ذلك.

أمَّا الفلاحُ المقيَّدُ بمعنى أن يُفلِحَ في زمَنٍ معيَّنٍ، أو مكانٍ معيَّن، أو قضيَّةٍ معيَّنة، فهذا يُمكن أنْ يَقعَ، ولا يُخالِفُ الآيةَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قدْ يُعطي الظالمَ فلاحًا؛ حتَّى يَغترَّ بهذا الفلاحِ فيتمادَى في طُغيانِه، ثمَّ يَقصِمُ اللهُ ظَهرَه[١].

٨- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ فيه تسليةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ حيثُ ذُكِرَ له مآلُ المكذِّبين له[٢].

٩- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ فيه أنَّ الحَشرَ عامٌّ شاملٌ لا يَشِذُّ عنه أحدٌ، لا مؤمِنٌ ولا كافرٌ، ولا بَرٌّ ولا فاجرٌ؛ حيثُ أكَّده اللهُ عزَّ وجلَّ بقولِه: ﴿جَمِيعًا﴾[٣].

١٠- في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ إثباتُ القولِ للهِ، وأنَّه بحروفٍ مسموعةٍ معقولةٍ، وبصوتٍ لا يُشبِهُ صوتَ المخلوقينَ؛ لأنَّ اللهَ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٤] [الشورى: ١١].

١١- قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الأصنامَ لا تَنفعُ عابدِيها؛ لأنَّها لا تَنصُرهم في هذا الموقِف، بل قدْ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[٥] [الأنبياء: ٩٨].

١٢- أنَّ أولئك العابِدينَ لهذه الأصنامِ ليس عِندَهم حُجَّةٌ ولا بُرهان، وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٣، ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٠).

هي مُجرَّدُ دعوى لقولِه: ﴿تَزۡعُمُونَ﴾، والزعمُ في الغالِبِ يكونُ في قولٍ لا دليلَ عليه[١].

١٣- في قولِه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أنَّ المشركين يُكذِّبون يومَ القيامةِ حِين يَطَّلعونَ على حقائقِ الأمورِ، بالرَّغمِ مِن كونِ الكذبِ والجحودِ لا وَجْهَ لمنفعتِه؛ لأنَّ المُمتحَنَ يَنطِقُ بما يَنفعُه وبما لا يَنفعُه، من غيرِ تمييزٍ بينهما؛ حيرةً ودهشةً، وكذِبُ الكفَّارِ في الآخِرة ثابتٌ بمِثل قولِه تعالى:﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡۖ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾[٢] [المجادلة: ١٨].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ فيه تشبيهُ المعرفةِ بالمعرفةِ، ووجهُ الشَّبهِ هو التَّحققُ والجزمُ بأنَّه هو الكتابُ الموعودُ به- على أحَدِ أوجُهِ التَّأويلِ-، وإنَّما جُعِلتِ المعرفةُ المشبَّهُ بها هي معرفةَ أبنائِهم؛ لأنَّ المرءَ لا يَضِلُّ عن معرفةِ شخصِ ابنِه وذاتِه إذا لقِيَه، وأنَّه هو ابنُه المعروفُ؛ وذلك لكثرةِ مُلازمةِ الأبناءِ آباءَهم عُرفًا[٣].

٢- قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ...﴾ استئنافٌ لزيادةِ إيضاحِ تَصلُّبِ المشرِكين وإصرارِهم، وهذا مِن التَّكريرِ للتسجيلِ، وإقامةِ الحُجَّةِ، وقطْعِ المعذرةِ، وأنهم مصرُّون على الكفر، حتَّى ولو شَهِدَ بصِدقِ الرسول أهلُ الكتاب[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذا الوجهُ المذكورُ هو على القول بأنَّ المرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ هم المشركون.

٣- قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

- في هذه الآيةِ مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ بدأَ الآيةَ هنا بالواو ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، وبدَأَها في يونسَ بالفاءِ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ لأنَّ المتقدِّمَ على هذِه الآيةِ في سورة الأنعامِ مَعطوفٌ بالواو، بخِلافِ ما في سُورةِ يونس، فإنَّ المتقدِّمَ قبلَها سَببٌ لها، ومعطوفٌ بالفاءِ؛ فناسَب فيها ما ذُكِر؛ فما تَقدَّم آيةَ سورةِ الأنعامِ مِن قولِه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً...﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ...﴾ جُمَلٌ عُطِف صدورُ بعضِها على بعضٍ بالواو، ولم تَتعلَّق الثانيةُ بالأولى تعلُّقَ ما هو مِن سببِها، فأجْرَى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ مَجراها، وعَطَف بالواوِ عليها. وأمَّا الآيةُ في سورة يونس فإنَّ ما قَبلَها عُطِف بعضُها على بعضٍ بالفاءِ، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]، فتَعلَّق كلُّ ما بعدَ الفاءِ بما قَبْلَه تَعلُّقَ المسبَّبِ بسَببِه، فهذا موضعُ الفاء؛ وكلُّ موضِعٍ في القرآنِ يكونُ بعدَ هاتينِ الآيتينِ بالواو أو بالفاءِ فيُعتَبَرُ بما ذُكِرَ هنا؛ فناسَب العطف بالواو في سورة الأنعامِ، وبالفاءِ في سورة يونس.

- وأيضًا مِن المناسبةِ الحَسنةِ أنْ ختَم آيةَ الأنعامَ بقوله: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وختَم آية يونس بقولِه: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ لأنَّه في الآيةِ الأولى في الأنعامِ لَمَّا قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا...﴾ وكان المعنى: أنَّه لا أحَدَ أظلَمُ لنفْسِه ممَّن وصَفَ اللهَ تعالى بخِلافِ وصْفِه، فأَوْرَدَها العذابَ الدَّائِمَ، كان قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ﴾ عائدًا إلى مَن فَعَل هذا الفعلَ- أي: لا يَظفَر برحمةِ اللهِ، ولا يفوزُ بنجاةِ نفْسِه مَن كان ما ذُكِر مِنْ فِعلِه-؛ فبناءُ الآخِرِ على الأوَّلِ اقتَضَى أنْ يكون: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. وأمَّا الآيةُ الثانية في سُورةِ يونس فخَتَمَها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ لأنَّها تَقدَّمَتْها

الآيةُ التي تَضمَّنتْ وصْفَ هؤلاءِ القومِ بما عاقبَهم به؛ حيث قال: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ١٣]، فوصَفَهم بأنَّهم مُجرِمون عندَ تعليقِ الجزاءِ بهم، وقال بعده: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾ إلى الموضِعِ الذي أَبطلَ فيه حُجَّتَهم ودفَعَ سؤالَهم، وهو ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [يونس: ١٤- ١٥]، فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾؛ ليُعلمَ أنَّ هؤلاءِ سبيلُهم في الضَّلالِ سبيلُ القومِ الذين أَخْبَرَ عن هَلاكِهم، وقال: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ١٣]؛ ليُوقِعَ التَّسْويةَ بينهم ي الوَصفِ كما أَوْقعَ التسويةَ بينهم في الوعيدِ.

وأيضًا لَمَّا كان قولُ فُصحاءِ العربِ العالِمِين بمقاطِعِ الكلامِ، وجليلِ النَّظْمِ وعَلِيِّ البلاغةِ: ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ مع عِلمِهم بعَليِّ فصاحتِه، واعترافِهم بالعجزِ عنه- لَمَّا كان قولُهم هذا فيه الجَمْعُ بين إنكارِ ما عَلِموا صِدقَه، ممَّن عرَفوا على حالِهِ وجليلِ مَنصبِه، وبَينَ قولِهم في إنكارهم: ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾؛ فلا أَظلمَ مِن هؤلاءِ، ثم في إنكارِهم وقولهم: ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ أعظمُ إقدامٍ، وأوضحُ إجرامٍ؛ لأنَّه كُفرٌ على عِلمٍ؛ فلهذا أُعْقِبتِ الآيةُ هنا بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ولم يَقَعْ قبل التي في سورةِ الأنعام مِثْلُ هذا الإقدامِ على مِثلِ هذه الجريمةِ في القَولِ، وإنَّما تَقدَّم عَداوتُهم وظُلمُهم أنفسَهم في مُرتَكَباتِهم وتَعامِيهم، فناسَبَه قولُه: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾. وقيل غيرُ ذلِك في هذه المناسَبة[1].

- والجَمْعُ بين الأمرَينِ: الافتراءِ على اللهِ الكذبَ، أو التكذيبِ بآياتِ اللهِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٤٩٨- ٥٠٢)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٥٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦١-١٦٢).

في قوله: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾؛ للتنبيهِ على أنَّ كُلًّا منهما وحْدَه بالغٌ غايةَ الإفراطِ في الظُّلم على النفس[١].

- وقوله: ﴿كَذِبًا﴾ مصدرٌ مُؤكِّدٌ للافتراءِ، وهو أعمُّ منه[٢].

- قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الجملةُ تذييلٌ[٣]، والضميرُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ ضميرُ الشأنِ، ومدارُ وضْعِه موضعَه ادِّعاءُ شُهرتِه المغْنِيةِ عن ذِكرِه؛ وفائدةُ تصديرِ الجملةِ به: الإيذانُ بفخامةِ مَضمونِها، مع ما فيه مِن زيادةِ تَقريرِه في الذِّهن[٤].

٤- قوله: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ ﴿وَيَوۡمَ﴾ منصوبٌ على المفعوليَّةِ بفِعلٍ مُضمَرٍ مُقدَّمٍ تقديرُه: اذْكُرْ أو انظُرْ[٥]؛ تهويلًا للأمْرِ وللتَّخويفِ والتَّحذيرِ، أو منصوبٌ لمحذوفٍ متأخِّر، تقديرُه: ويومَ نَحشرُهم كانَ كيتَ وكيتَ؛ فتُرِكَ ليبقَى على الإبهامِ الذي هو أَدْخلُ في التَّخويفِ[٦]، وتقديرُ صِيغةِ الماضِي (كَانَ)؛ للدَلالةِ على التحقُّقِ، ولحُسنِ مَوْقِعِ عَطفِ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن ...﴾ عليه[٧].

- قوله: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ الاستفهامُ مرادٌ به التوبيخُ والاحتجاجُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٩).

(٥) وقيل: الأظهرُ أنْ يُقدَّرَ العاملُ المحذوفُ ممَّا تدلُّ عليه المعطوفاتُ، وهي: نقولُ، أو قالوا، أو كذبوا، أو ضلَّ، وكلُّها صالحةٌ للدَّلالةِ على تَقديرِ المحذوفِ، وليستْ تلك الأفعالُ متعلِّقًا بها الظَّرفُ، بل هي دَلالةٌ على المتعلِّقِ المحذوفِ؛ لأنَّ المقصودَ تهويلُ ما يَحصُلُ لهم يومَ الحَشرِ مِن الفِتنةِ والاضطرابِ الناشئَينِ عن قولِ الله تعالى لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ﴾، وتصويرُ تِلك الحالةِ المهولةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٩).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٩).

والتبكيتُ والتأنيبُ، والتقريعُ عمَّا كان المشرِكون يَزعُمونه؛ مِن أنَّ شُركاءَهم تَشفعُ لهم عندَ الله، أو أنَّها تَنصُرُهم عندَ الحاجةِ[١].

- وأضافَ الشُّركاءَ هنا في قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ إليهم؛ وذلك على حسَبِ ما كانوا يُسمُّونَه ويَعتقِدونَه فيهم، أو لأنَّهم كانوا مِن جِنسِهم وجَوهرِهم، يَفْنَوْن كما يَفْنَوْن هم، وفي آياتٍ أُخرَى قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ [النحل: ٢٧، القصص: ٦٢-٧٤، فصلت: ٤٧]؛ فأضافَهم إلى نفْسِه حِكايةً لقَولِهم، واللهُ لا شَريكَ له، والمعنى: أينَ الذين في دَعواكم أنَّهم شُركائِي، فأضافَهم على حسَبِ ما كانوا يَقولونَه، ويَنسُبونَه[٢].

- وقد حُذِفَ المفعولُ الثَّاني لقوله: ﴿تَزْعُمُونَ﴾[٣]؛ ليعمَّ كلَّ ما كانوا يَزعُمونه لهم؛ مِن الإلهيَّةِ والنَّصرِ والشَّفاعةِ[٤].

٥- قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

- عطفَ بـ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّ القولَ متأخِّرٌ عن زمَنِ حشْرِهم بمهلةٍ؛ لأنَّ حِصَّةَ انتظارِ المجرمِ ما سيَحلُّ به أشدُّ عليه، ولأنَّ في إهمالِ الاشتغالِ بهم تَحقيرًا لهم[٥].

- قوله: ﴿لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟...﴾ الفِتنةُ يحتملُ أنْ تكونَ هنا بمعنى

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٤/ ٤٤)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٧).

(٣) أمَّا المفعولُ الأوَّلُ فحُذِفَ على طريقة حَذْفِ عائد الصِّلَة المنصوبِ؛ إذ التقدير: تزعمونهم شركائي. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٧٤).

اضطرابِ الرأيِ، والحَيرةِ في الأمْرِ؛ فيكون في الكلامِ إيجازٌ، والتَّقدير: فافتَتنوا في ماذا يُجيبون، فكان جوابُهم أنْ قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فعدَلَ عن المقدَّرِ إلى هذا التركيبِ؛ لأنَّه قد عُلِم أنَّ جوابَهم ذلك هو فِتنتُهم؛ لأنَّه أثَرُها ومَظْهرُها، ويَحتملُ أنْ تكونَ الفِتنةُ أُطلِقتْ على معناها الأصليِّ، وهو الاختبارُ، والمرادُ به السؤالُ، ويَتعيَّن حينئذٍ تقديرُ مضافٍ، أي: لم يكُن جوابَ فِتنَتِهم، أي: سؤالِهم عن حالِ إشراكِهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[١].

- قوله: ﴿قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فيه استعمالُ الماضِي مَوضِعَ المستقبلِ؛ تحقيقًا لوقوعِه ولا بدَّ[٢].

- وذِكرُهم الربَّ بالإضافةِ إلى ضَميرهم ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ مبالغة منهم في التنصُّلِ مِن الشِّركِ، أي: لا ربَّ لنا غيرُه، وقد كذَبوا وحَلَفوا على الكَذبِ؛ جَريًا على سَنَنهم الذي كانوا عليه في الحياةِ[٣].

٦- قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ عبَّر بالفِعلِ الماضِي ﴿كَذَبُواْ﴾ وإنْ كانَ معناه مُستقبَلًا؛ لأنَّه في يومِ القِيامةِ؛ فهو لتحقُّقِ المعنى أَبْرَزَه في صُورةِ الماضي[٤]، فالأمْر وإنْ لم يكُن قدْ أتى بَعدُ؛ فإنَّ هذا على حِكايةِ الحالِ، واللهُ عزَّ وجلَّ دائمًا يَحكي الأشياءَ المستقبلةَ حتى يَتصوَّرَها الإنسانُ وكأنَّها واقعةٌ، وإنَّما يكون ذلك؛ لأنَّ الشيءَ المستقبَلَ المُحقَّق يكونُ كالواقِع تمامًا؛ ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] مع أنَّه ما أتَى، بدليل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٧٧).

قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ فيكونُ التعبير بالماضِي على حِكاية الحال حتى يتصوَّرَ الإنسانُ، وكأنَّ الشيءَ بينَ يديه[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٧).

الآيتان (٢٥-٢٦)

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَكِنَّةً﴾: أغطيةً، مفردُها كِنانٌ، وأصل (كنن): يدلُّ على سَتْرٍ أو صَونٍ[١].

﴿وَقْرًا﴾: أي: ثِقَلًا، وَصَمَمًا في الأُذنِ، وهذا إشارةٌ إلى جَهلِهم لا إلى عَدمِ سَمْعِهم، وأصلُ (وقر): يَدُلُّ على ثقلٍ في الشَّيءِ[٢].

﴿أَسَاطِيرُ﴾: أي: أباطيلُ وتُرَّهات، جمع أُسطورة، وهي: ما سُطِّرَ من أخبارِ الأوَّلين وكَذِبهم، وقيل: ما سَطَّره الأوَّلون من الكتُبِ، وأصل (سطر): يدلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ، كالكِتاب والشَّجر؛ والأساطيرُ كأنَّها أشياءُ كُتِبتْ مِن الباطلِ، فصارَ ذلك اسمًا لها، مَخصوصًا بها[٣].

﴿وَيَنْأَوْنَ﴾: يَتباعدون، والنَّأي: البُعد[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢، ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢- ٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣١).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ مِن المشرِكين مَن يَستمعُ القرآنَ مِنَ النبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لكن لا يَنتفعون بهذا السَّماعِ؛ فاللهُ تعالى جعَلَ على قُلوبِهم أغطيةً؛ لئلَّا يَعقِلوه، وجعَلَ في آذانِهم صَممًا عن السَّماعِ النَّافِعِ، وذلك بسببِ عنادِهم وجحودِهم، ومهما رأوا مِن الدَّلالاتِ والحُججِ البَيِّنةِ فلن يُؤمِنوا بها، حتى إذا حضَروا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فإنَّهم يُخاصمونَه في الحقِّ بالباطلِ، ويقولُون له: ما هذا الذي جِئتَ به إلَّا مأخوذٌ مِن كتُبِ السَّابِقين.

هؤلاءِ المشرِكون يَنهَوْن الناسَ عن اتِّباعِ الحقِّ، ويَبتعِدون عنه بأنفسِهم، وما يُهلِكون إلَّا أنفسَهم بصدِّهم، وإعراضِهم عن الحقِّ، ولا يَشعُرون بذلِك.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن أحوالَ الكفَّارِ في الآخِرَةِ؛ أتْبَعه بما يُوجِبُ اليأسَ عن إيمانِ بَعضِهم[1]، فقال:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾.

أي: ومِن هؤلاءِ المشرِكين مَن يَستمِعُ للقرآنِ مِنك- يا مُحمَّدُ[2].

---

(١) ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٢).

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾.

أي: وضَعْنا على قُلوبِهم أغطيةً وأغشيةً؛ لئلَّا يَعقِلوا كلامَ الله سبحانَه؛ وذلك بسببِ مُبادرتِهم إلى الكُفرِ، وتكذيبِ الرُّسُلِ طائِعين مُختارين، فجَزاهم اللهُ تعالى على ذلك الذنبِ طَمْسَ البَصيرة، والعَمَى عن الهُدَى، جزاءً وِفاقًا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

أي: وجَعَلنا في آذانِهم ثِقلًا وصَممًا عن السَّماعِ النافِعِ، فلا يَنتفِعون بما سَمِعوا، ومَن لا يَنتفِعُ بمَا سَمِعَ فهو كمَن لم يَسمَعْ، مُجازاةً لهم على كُفرِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٦-١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦-٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٢، ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦-٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٣).

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر سبحانه عدمَ انتفاعِهم بعقولِهم -حتَّى كأنَّ على محالِّها أكنَّةً- ولا بَسماعِهم، حتَّى كأنَّ في آذانهم وقرًا، انتقَلَ إلى الحاسَّة التي هي أبلغُ مِن حاسَّةِ السَّماعِ، فنَفَى ما يَترتَّبُ على إدراكِها، وهو الإيمانُ، فقال[1]:

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾.

أي: ومَهما يَرَ هؤلاءِ من الدَّلالاتِ والحُججِ البيِّنات، لا يَنقادُوا إليها، ولا يُصدِّقوا بها، ولا يُقِرُّوا بها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: حتَّى إذا حضَروا إليك- يا محمدُ- يُخاصِمونَك، ويُحاجُّونك في الحقِّ بالباطِلِ، قالوا لكَ: ما هذا الذي جِئتَ بِه إلَّا أشياءُ مأخوذةٌ من كتُبِ السَّابِقِينَ، ومَنقولةٌ عن صُحُفِهم المسطورةِ، التي ليستْ عن اللهِ تعالى، ولا عن رُسلِه عليهم السَّلام[3].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦٩، ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٣-١٣٥).

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾.

أي: والمشرِكونَ باللهِ تعالى يَنهَونَ الناسَ عن اتِّباعِ الحقِّ، وتصديقِ الرَّسولِ، والانقيادِ للقُرآن، ويَبتَعدونَ بأنفُسِهم عنه؛ فهم لا يَنتفِعونَ بالحقِّ، ولا يَترکُون أحدًا ينتفِعُ به، جامِعينَ بين الضَّلالِ والإضلالِ[١].

﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: ولا يعودُ وبالُ صَدِّهم عن الحقِّ، وإعراضِهم عنه إلَّا عليهم، لكنَّهم لا يَشعُرون بذلك[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ فيه التحذيرُ مِن الاستِماعِ بلا انتفاعٍ، وأنَّ هذا دأبُ الكفَّار، فلَيسَ كلُّ مُستمعٍ بمُنتفِعٍ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ [محمد: ١٦] ويَتفرَّعُ على هذا أنَّه يَنبغي للإنسانِ إذا استَمَع أنْ يَتأمَّلَ، ويتفكَّر فيما استمَعَ إليه، لا سيَّما في الكتابِ والسُّنَّةِ؛ حتى يَعرِفَ معناهما[٣].

٢- في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٥-٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٧-٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) ٩/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٥).

ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أنَّ قولَ الكافِرين هنا هو شأنُ مَن يَنظُرُ إلى الشيءِ نظرًا سطحيًّا، لا ليستنبطَ منه عِلمًا ولا بُرهانًا، ومَن يسمعُ الكلامَ جرْسًا لفظيًّا، لا يَتدبَّره، ولا يَفقَه أسرارَه، فمَثَلُ هذا وذاك كمَثَلِ الطِّفلِ الذي يُشاهِدُ ألعابَ الصُّورِ المتحرِّكة، يُديرُها قومٌ لا يَعرِفُ لُغتَهم؛ فكلُّ حظِّه ممَّا يرَى مِن المناظِرِ، ومِن المكتوباتِ المفسِّرةِ لها، لا يَعْدُو التسليةَ. ولو عقَلَ هؤلاءِ المقلِّدونَ الغافِلون قَصصَ القرآنِ، وتَدبَّروا معانيَها، لكان لهم منها آياتٌ بيِّنةٌ على صِدقِ دَعوةِ الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ونُذُرٌ عظيمةٌ ممَّا فيها؛ مِن بيانِ سُننِ اللهِ تعالى في الأُمم، وعاقبةِ أمْرِهم مع الرُّسُلِ، وغير ذلك مِن الحِكَم والعِبَر[(١)].

٣- في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ التحذيرُ من سُلوكِ الإنسانِ سُبلَ الهَلاكِ وهو لا يَشعُرُ، وقد بيَّن اللهُ تعالى ذلِك في قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[(٢)] [فاطر: ٨].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- المُشرِكون أصنافٌ، يتفاوتونَ في الفَهمِ والعَقلِ وفي الكُفرِ وأسبابِه، وقد بَيَّن اللهُ أحوالَ كلِّ فَريقٍ منهم في كِتابِه، قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ ...﴾[(٣)].

٢- وجهُ إسنادِ الفِعل إلى ذاتِه تعالى في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ للدَّلالةِ على أنَّه أمرٌ ثابتٌ فيهم لا يَزولُ عنهم، كأنَّهم مجبولون عليه، أو هي حِكايةٌ لِمَا كانوا يَنطِقون به مِن قولهم: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥]، أو لأنَّه خلَقَهم على هذه الخَصلةِ الذَّميمةِ والتعقُّلِ المُنحرِف، فهُم لهم عقولٌ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٠).

وإدراكٌ؛ لأنَّهم كسائرِ البَشرِ، ولكنَّ أهواءَهم تُخيِّر لهم المنعَ مِن اتِّباعِ الحقِّ[١].

٣- أنَّ الفِقهَ محلُّه القلبُ؛ لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[٢].

٤- أنَّ عدَمَ الانتفاعِ بالسَّماعِ كالصَّممِ تمامًا؛ لقوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ بل صاحبُ الصَّممِ معذورٌ، والذي لا يَنتفعُ بما سَمِع غيرُ معذورٍ؛ لأنَّ صاحبَ الصَّممِ لم يَسمعْ مِن آفةٍ حلَّتْ به[٣].

٥- أنَّ المجادِلَ بالباطِلِ يَلجأُ إلى المكابَرةِ؛ كما في هذِه الآيةِ ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ لأنَّ دَعواهم ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مكابرةٌ بلا شكٍّ، وكلُّ أحدٍ يَعرِفُ أنَّ القرآنَ الكريمَ ليس قولَ البَشرِ، فضلًا أنْ يكونَ أساطيرَ الأوَّلين، ولكن هذه نهايةُ المجادَلةِ والمكابَرةِ[٤].

٦- أنَّ هؤلاءِ المشرِكين جمَعوا بين الضَّلالِ والإضلالِ؛ الإضلالُ في قوله: ﴿يَنْهَوْنَ﴾، والضَّلالُ في قولِه: ﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾ وهذا أشدُّ مِن العُدوانِ والظُّلمِ[٥].

٧- قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ قُدِّم النهيُ على النَّأيِ مع أنَّه كان المتوقَّعُ أنْ يُبدأَ بالنَّأيِ الذي هو فِعلُهم بأنفسِهم دون فِعلِهم بغيرهم؛ إشارةً إلى شِدَّةِ كراهتِهم لِمَا جاءَ به الرسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حتى إنَّهم يَبدَؤون بنهيِ الناسِ قَبلَ أنْ يَبتعِدوا عنه[٦].

٨- أنَّ كلَّ مَن حاولَ إبطالَ الحقِّ، وإبعادَ الناسِ عنه، فإنَّما جنَى على نفْسِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٩، ١٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤١).

وستكونُ العاقبةُ عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ حتى لو برَقتْ له الدُّنيا، وظفِرَ بنصْرٍ ظاهريٍّ[(١)].

٩- قوله تعالى: ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ فيه تسليةٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ ما أرادوا به نِكايتَه إنما يَضرُّون به أنفُسَهم[(٢)].

١٠- عقَّب قوله: ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ بقولِه: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ زيادةً في تحقيقِ الخطأِ في اعتقادِ أولئكَ المشركِينَ، وإظهارًا لضَعْفِ عُقولِهم مع أنَّهم كانوا يَعُدُّونَ أنفسَهم قادةً للنَّاسِ[(٣)]!

بَلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ ...﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ؛ حيثُ قال هنا: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ﴾ بالإفرادِ، وفي سورةِ يونس قال: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾ [يونس: ٤٢] بالجمْع؛ لأنَّ لكلٍّ مِن الموضعينِ ما يُوجِبُ اختصاصَه باللَّفظِ الذي جاءَ فيه؛ فأمَّا قولُه تعالى هنا: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ﴾ بالإفرادِ فقد نَزلَ في قَومٍ قليلِينَ، وهم: أبو سُفيان، والنَّضرُ بن الحارث، وعُتْبة، وشَيبة، وأُميَّةُ، وأُبيُّ بن خَلَف، وأمَّا قوله تعالى في سورةِ يونس ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ ...﴾ [يونس: ٤٢] بالجمْعِ، فهو في كلِّ الكفَّار الذين يَستمِعون مسموعًا هو حُجَّةٌ عليهم، وهو القرآنُ، ولا يَنتفعونَ بسماعِه، فكأنَّهم صُمٌّ عنه؛ فلمَّا كانت (مَن) تصلُح للواحدِ فما فَوقَه، ويجوزُ أن يَعودَ الضَّميرُ إلى لَفظِه وهو الواحد، وإلى معناه وهو الجمعُ، واختَلَف هذانِ المكانانِ في القِلَّةِ والكثرةِ- حُمِلت في موضعِ القِلَّةِ على حُكم

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللَّفظِ، وعادَ الضَّميرُ إليها بلفظِ الواحدِ، وفي موضِعِ الكثرةِ على حُكم المعنى، وعاد الضَّميرُ إليها بلفظِ الجَمْعِ؛ لإفادةِ هذا المعنى بالاختلافِ في التَّعبيرِ؛ فلمْ يصلُحْ في كلِّ مكانٍ إلَّا اللَّفظُ الذي خَصَّه، مع القَصْدِ الذي ذُكِر[١].

٢- **قولُه:** ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾

- في جَعْلِ الأكنَّةِ على القلوبِ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾، والوَقرِ في الآذانِ في قوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ تَشبيهٌ للحُجُبِ والموانِعِ المعنويَّة بالحُجُبِ والموانِعِ الحِسيَّة؛ فإنَّ القلبَ الذي لا يَفقَهُ الحديثَ، ولا يَتدبَّره، كالوعاءِ الذي وُضِع عليه الكِنُّ أو الكِنانُ- وهو الغطاءُ- حتَّى لا يَدخُلَ فيه شيءٌ، والآذانُ التي لا تَسمَعُ الكلامَ سَماعَ فَهمٍ وتدبُّرٍ، كالآذانِ المصابةِ بالثِّقل أو الصَّمم؛ لأنَّ سمْعَها وعدمَه سواءٌ[٢].

- وفيه كنايةٌ في جَعْلِ الأكنَّةِ على القلوبِ، والوَقْرِ في الآذانِ، وهذا كِنايةٌ عن نُبُوِّ قُلوبِهم ومَسامِعهم عن قَبولِ الحقِّ، والاعتقادِ بصحَّتِه[٣].

٣- **قوله:** ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ جملةٌ شرطيَّةٌ مَقصودٌ بها الإخبارُ عن المبالغةِ التامَّةِ، والعِنادِ المُفرِط في عدمِ إيمانِهم، حتَّى إنَّ الشَّيءَ المرئيَّ الدالَّ على صِدقِ الرَّسولِ حَقيقةً، لا يُرتِّبون عليه مُقتضاه، بل يُرتِّبون عليه ضِدَّ مُقتضاه[٤].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٠٣- ٥٠٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٢-١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٧٠).

٤- ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: فيه العدولُ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ -حيث قال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ولم يقُل: (يقولون)- لزيادةِ التَّسجيلِ عليهم بالكُفرِ، وأنَّهم ما جاؤوا طالبينَ الحقَّ كما يَدَّعُونَ، ولكنَّهم قدْ دخَلُوا بالكفرِ وخرَجوا به، فيقولون: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ فهم قدْ عدَلُوا عن الجدلِ إلى المباهَتةِ والمكابرةِ[(١)].

٥- قوله: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُ﴾ فيه إظهارٌ لغايةِ نُفورِهم عنه، وتأكيدٌ لنَهيِهم عنه بقوله: ﴿وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُ﴾، أي: يَتباعدون عنه بأنفسِهم؛ فإنَّ اجتنابَ الناهِي عن المنهيِّ عنه مِن مُتمِّماتِ النَّهيِ[(٢)].

- وبين قوله: ﴿يَنۡهَوۡنَ﴾، وقوله: ﴿وَيَنۡـَٔوۡنَ﴾ جِناسٌ، وهو جناسُ التصريفِ الذي هو اختلافُ صِيغةِ الكلمتينِ بإبدالِ حرفٍ مِن حرفٍ، أو مِن قَريبٍ مِن مَخْرجِه، سواءٌ أكان الإبدالُ في الأوَّل أم في الوَسطِ أم في الآخِرِ[(٣)]، وهو مِن المحسِّناتِ البديعيَّة.

٦- **قوله**: ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ فيه قصرٌ إضافيٌّ، وهو يُفيدُ قلبَ اعتقادِهم؛ لأنَّهم يَظنُّون بالنَّهي والنَّأْي عن القرآنِ أنَّهم يَضرُّون النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لئلَّا يتَّبعوه، ولِئَلَّا يَتَّبِعَه النَّاسُ، وهم إنَّما يُهلِكون أنفسَهم؛ بدوامِهم على الضلالِ، وبتضليلِ الناسِ، فيَحمِلون أوزارَهم، وأوزارَ الناسِ معَ أوزارِهم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨١، ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٣).

الآيات (٢٧ - ٣٢)

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فجأةً، وكلُّ ما جاءَ فجأةً فقد بَغَتَ، يقال: قد بَغَتَه الأمرُ يَبْغَتُه بغْتًا وبَغتةً، إذَا أتاه فجأةً، والبغتُ: مفاجأةُ الشَّيءِ من حيثُ لا يُحتَسَب[1].

﴿يَٰحَسْرَتَنَا﴾: أي: يا نَدامتَنا واغتمامَنا على ما فاتَنا- ولا يُمكن ارْتِجاعُه- وتلهُّفَنا عليه، وأصلُ (حسر): كشْفُ الشَّيءِ[2].

﴿فَرَّطْنَا﴾: أي: تَركْنا وأَغْفَلْنا وضَيَّعْنا، والتفريطُ: التقصيرُ؛ يقال: ما فرَّطتُ في كذا، أي: ما قصَّرتُ فيه، وأصلُ (فرط): يدلُّ على إزالةِ شيءٍ من مَكانِه، وتنحيتِه عنه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٢٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٠).

﴿أَوْزَارَهُمْ﴾: جَمْع وِزْر، والوِزْرُ هو الإثمُ والذَّنْبُ، والثِّقْلُ والحِمْل أيضًا، وقيل: الوِزْرُ: هو الحِمْلُ الثَّقيلُ مِن الإثمِ، وهو الإثمُ العَظيمُ، وأصلُ (وزر): يدلُّ على مَا حمَلَه الإنسانُ، وعلى الثِّقل في الشَّيء؛ ومنه سُمِّيت الآثامُ أوزارًا؛ لأنَّها أحمالٌ مُثقِلةٌ(١).

﴿سَآءَ﴾: أي: قبُح، والسُّوءُ: اسمٌ جامِعٌ للآفاتِ، ويُستعمَل في كلِّ ما يُسْتقبَحُ، وهو أيضًا كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ(٢).

﴿مَا يَزِرُونَ﴾: أي: الإثمُ الذي يَأثَمونَه، والثِّقَلُ الَّذي يَتحَمَّلون(٣).

﴿وَلَهْوٌ﴾: اللَّهو: ما يَشغَلُ الإنسانَ عمَّا يَعنيه ويُهمُّه، أو كلُّ باطلٍ ألْهَى عن الخيرِ وعمَّا يَعني؛ يُقال: لهوتُ بكذا، ولهيتُ عن كذا: اشتغَلْتُ عنه بلهوٍ، وأصل (لهو): يدلُّ على شُغلٍ عن شيءٍ بشيءٍ(٤).

مُشكِلُ الإعرابِ:

١ - **قوله**: ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٧/ ٣٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).
فائدة: قال ابن جرير: (وقد زعم بعضُهم أنَّ الوزر: الثِّقَل والحِمل. ولستُ أعرفُ ذلك كذلك في شاهدٍ ولا مِن روايةِ ثقةٍ عن العرب). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٦)، وهو رحمه الله إنما أَخْبر بما علمه، وإلا فمعاجم اللغة على إثباتِ هذا المعنى. وينظر- إضافةً لِمَا سَبَق من مراجِع-: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٨٤٥- ٨٤٦)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/ ٢٨٢- ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٦)، و(١٤/ ١٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٨).

الفِعلان ﴿نُكَذِّبَ﴾ و﴿نَكُونَ﴾ قُرِئَا بالنَّصب فيهما، وبالرَّفْع فيهما، وبنَصْبِ الأوَّلِ ورفْعِ الثَّاني، وبالعكسِ؛ فهذه أربعةُ أوجهٍ في الإعرابِ(١)

فأمَّا نَصْبُ الفِعلَينِ: فهو بإضمارِ (أَنْ) بعدَ الواوِ التي بمعنى (معَ)؛ مِثل: (ليت لي مالًا وأُنفقَ منه)، و(أنْ) المُضمَرَة مَصدريَّةٌ يَنسبِكُ منها ومِن الفعلِ بعدَها مَصدرٌ، والواوُ حرفُ عطفٍ، فيُقدَّر المعطوفُ عليه مَصدرًا مُتوهَّمًا، يُعْطَفُ هذا المصدرُ المنسبِكُ مِن (أَنْ) وما بَعدَها عليه، والتقديرُ: يا ليتَنا لنا رَدٌّ، وانتفاءُ تكذيبٍ بآياتِ ربِّنا، وكَوْنٌ مِن المؤمنين، أي: ليتَنا لنا ردٌّ مع هذَينِ الشَّيئينِ؛ فهذه الثلاثةُ الأشياءِ مُتمنَّاةٌ بقيدِ الاجتِماعِ، لا أنَّ كلَّ واحدٍ مُتمنًّى وحْدَه؛ لأنَّ هذه الواوَ شَرْطُ إضمارِ (أنْ) بعدَها: أنْ تَصلُح (مع) في مكانِها.

أو يكونُ النَّصبُ على جَوابِ التمنِّي؛ فلا يكون التكذيبُ، وكونُهم من المؤمنين، داخلَينِ في التَّمنِّي، والواوُ بمعنى الفاءِ حينئذٍ، فالواو مُبْدَلةٌ من الفاءِ، والتقديرُ: يا لَيتنا نُرَدُّ فلا نكذِّبَ ونكونَ؛ فتكونُ الواوُ هنا بمنزلةِ الفاءِ في قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨]، وقيل غيرُ ذلك.

وأمَّا رفْعُ الفِعلين: فعَلَى وجهينِ: الأوَّل: العطفُ على ﴿نُرَدُّ﴾، فيكونُ عدمُ

---

(١) ولعلَّ حِكمةَ اختلافِ القِراءاتِ في قوله: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيانُ اختلافِ أحوالِ أولئك المشرِكين في تَمنِّيهم بأنْ يكونَ منهم مَن يَتمنَّى أنْ يُردَّ إلى الدُّنيا، وأنْ يكونَ فيها غيرَ مُكذِّبٍ بآياتِ اللهِ الكونيَّة والمُنَزلةِ، وأنْ يكونَ من المُؤمنين، وذلك على قِراءة الجمهور ﴿نُكَذِّبَ... وَنَكُونَ﴾ برَفْعِهما، ومنهم مَن يتمنَّى الردَّ مُصاحِبًا لِمَا حدَثَ له في الآخِرة من النَّدمِ على التَّكذيبِ ومِن الإيمانِ بما جاءَ به الرسولُ؛ إذ لا تلازُمَ بين الردِّ وبقاءِ ذلك الأمْرِ الحادِثِ، وذلك في قوله: ﴿نُكَذِّبَ... وَنَكُونَ﴾ على قراءةِ النَّصب، ومنهم مَن يتمنَّاه؛ ليكونَ سببًا للإيمانِ وعدمِ التَّكْذيب، وذلك في قوله: ﴿نُكَذِّبَ... وَنَكُونَ﴾ على قراءة النَّصْب في ﴿نَكُونَ﴾ فقط، ومِنهم مَن يعِدُ بذلك وعدًا، وهذا الاختلافُ في كيفيَّات ذلك التمنِّي أقربُ إلى الحُصولِ من اتِّفاق أولئك الكفَّارِ الكثِيرينَ على كيفيَّةٍ واحدةٍ؛ ممَّا يدلُّ عليه اختلافُ القِراءات؛ لأنَّه هو المعهودُ من البَشَر، ولعلَّهم يتمنَّون ذلك جاهِلين أنَّه مُحالٌ، على أنَّ الناسَ يَتمنَّوْن المحالَ ولو على سَبيلِ التحسُّرِ. يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٤).

التكذيبِ، والكَونُ من المؤمنين، داخلَينِ في التَّمنِّي كالردِّ، ويكونون قد تَمنَّوا ثلاثةَ أشياءَ: الردَّ إلى دارِ الدنيا، وعدَمَ تكذيبهم بآياتِ ربِّهم، وكونَهم من المؤمنِين. الثاني: أنْ يكونَ الرَّفْعُ على القَطعِ بتَقديرِ مُبتدأ، وتكونَ جملةُ الفِعل هي الخَبَر، والتقديرُ: ونحنُ لا نُكذِّبُ، ونحن نَكونُ من المؤمنين، وعلى هذا فجُملةُ (نحن لا نُكذِّب) و(نحن نكون...)؛ إمَّا في مَحلِّ نصْبٍ على الحالِ من الضَّمير في ﴿نُرَدُّ﴾؛ فيكونانِ داخلَينِ في التمنِّي كذلك، وإمَّا استئنافًا لا تَعلُّقَ له بما قَبلَه؛ ويكون المعنى: أنَّهم ضَمِنوا ألَّا يُكذِّبوا بعدَ الردِّ، وأنْ يكونوا مِن المؤمنين. وقيل غيرُ ذلك.

وأمَّا نصْبُ الأوَّلِ ورفْعُ الثَّاني والعكسُ؛ فإعرابُ كلِّ فِعلٍ بحسَبِ ما مرَّ من توجيهِ الرَّفعِ والنَّصبِ لكلِّ واحدٍ منهما[1].

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٩- ٢٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٨٤- ٥٩٠).

وثمَّة إشكال في الأوجه الإعرابيَّة التي يَدخُل فيها قولُهم في التمنِّي؛ لأنَّه قال بعدَ هذه الآية: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، والتَّمنِّي إنشاءٌ، والإنشاءُ لا يَدخُله الصدقُ ولا الكذبُ، وإنَّما يَدخُلانِ في الإخبارِ، وهذا قد دخلَه الكذبُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، وقد أُجيب بجوابين؛ الأوَّل: أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ليس متعلِّقًا بالمتمنَّى، بل هو مَحْضُ إخبارٍ من الله تعالى بأنَّهم دَيْدَنُهم الكذبُ وهِجِّيراهم ذلك؛ فيكون ذلك حِكايةً وإخبارًا عن حالِهم في الدُّنيا، لا تَعلُّقَ به بمتعلِّقِ التمنِّي، فلم يدخل الكذبُ في التمنِّي. الثاني: أنَّ هذا التمنِّي قد تَضمَّنَ معنى الخبرِ والعِدَة، فإذا كانتْ سجيَّةُ الإنسانِ شيئًا، ثمَّ تَمنَّى ما يُخالِفُ السجيَّةَ، وما هو بعيدٌ أن يقَعَ منها، صحَّ أنْ يَكذِبَ على تجوُّزٍ، نحو: ليتَ اللهَ يَرزُقني مالًا فأُحسِنَ إليكَ، وأُكافِئَك على صَنيعِك، فهذا مُتمَنٍّ في معنى الواعِدِ والمخبِرِ، فإذا رزَقه اللهُ مالًا ولم يُحسِنْ إلى صاحبِه، ولم يُكافِئْه كذَبَ، وكان تمنِّيه في حُكم مَن قال: إنْ رزَقَني اللهُ مالًا كافأتُك على إحسانِك؛ فلَمَّا تَضمَّنَ التمنِّي في قولِهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ...﴾ وعدًا؛ فلذلك صحَّ إدخالُه في حُكم كذبِهم دُخولَ الخاصِّ في العامِّ؛ لأنَّ التذييلَ يُؤذِنُ بشمولِ ما ذُيِّل به وزيادة؛ فليس وصفُهم بالكذبِ بعائدٍ إلى التمنِّي، بل عائدٌ إلى ما تَضمَّنه من الوعدِ بالإيمانِ، وعدمِ التكذيبِ بآياتِ الله.

٢- قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾

﴿بَغۡتَةً﴾: منصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ في موضِعِ الحال، أي: باغِتةً أو مُباغِتةً، وقيل: منصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ لِفعلٍ مَحذوفٍ مِن لفْظِها، والتقديرُ: تَبغتُهم بَغتةً، وقيل: إنَّها منصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ على غيرِ الصَّدر -من غيرِ لفْظِه-؛ لأنَّ معنى ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾: بَغَتَتْهُمْ بغتةً[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ لنبيِّه صلَّى عليه الله وسلَّم: لو اطَّلعتَ على هؤلاءِ المشركين، ورأيتَهم لرأيتَ أمرًا عَظيمًا، عندمَا يقِفون على النَّارِ، ويُشاهِدون ما فيها مِن أهوالٍ، ويُعاينونَ عذابَها، عندَ ذلك يتحسَّرونَ، ويتمنَّونَ العودةَ إلى الدُّنيا للعَمَلِ الصَّالِحِ، والتَّصديقِ بآياتِ اللهِ، ولِيكونوا مِن المؤمنينَ.

وليس الأمرُ كما قالوا؛ بل ظَهَر لهم ما كانوا يُخفونَ مِن قَبلُ، ولو رُدُّوا إلى الدُّنيا لعادُوا لارتكابِ ما نُهوا عنه قبل ذلِك، من الكُفرِ والعِصيان، وإنَّهم لكاذِبون فيما يَدَّعونَه.

ثم ذكَر اللهُ تعالى بعضَ ما كان هؤلاء المشركونَ يَفتَرونَه في الدُّنيا، ومن ذلك قولُهم: لا توجدُ حياةٌ أُخرى غيرُ الحياةِ الدُّنيا، وما نحن بمَبعُوثينَ، ولا محاسَبينَ.

ثم يقولُ اللهُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ولو رأيتَ هؤلاء المكذِّبين بالبعثِ حينَ يَقِفونَ بين يَدَيْ ربِّهم، فيقول لهم تعالى مُوبِّخًا: أليس هذا البعثُ- الذي تَرَونَه- حقًّا ثابتًا؟ فيُجيبون حالِفينَ بربِّهم: إنَّه حقٌّ ثابتٌ، لا شكَّ فيه، فيقولُ لهم تعالى: فذُوقوا العذابَ جزاءَ كُفرِكم.

ينظر المراجِع السَّابقة، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٩٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٩٥).

ويُخبِرُ تعالى أنَّه قد خَسِر الذين كذَّبوا بلِقائِه تعالى، حتَّى إذا جاءتْهم الساعةُ فجأةً، أظهَروا تَحسُّرَهم وتنَدُّمَهم على ما فاتَهم بسببِ تفريطِهم في دنياهم، وتضييعِ أعمارِهم، وتركِ الاستعدادِ لهذا اليومِ، الذي يُلاقونَ فيه ربَّهم، وهم يَحمِلونَ ذُنوبَهم وآثامَهم على ظُهورِهم، ألَا بِئسَ ما يَحملونَه مِن آثامٍ!

ثُمَّ يُبيِّن تعالى أنَّ الحياةَ الدُّنيا إنَّما هي لعِبٌ ولهوٌ، وأنَّ الدَّارَ الآخِرةَ هي خيرٌ لِمَن اتَّقى، ثم يقولُ تعالى: أليستْ لكم- يا مَنْ كذَّبتم بالبعثِ- عقولٌ تعقلونَ بها حقيقةَ الدُّنيا، وأنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقَى؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى صِفةَ مَن يَنهى عن متابعةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلام، ويَنأى عن طاعَتِه بأنَّهم يُهلِكونَ أنفسَهم، شرَحَ كيفيَّةَ ذلك الهلاكِ بهذه الآيةِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا حَكَى تعالى عنهم في آياتٍ سابقةٍ إنكارَهم للحشرِ والنَّشرِ والبعثِ والقِيامة؛ بَيَّن في هذه الآيةِ كيفيَّةَ حالِهم في القيامةِ[(٢)].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى حديثَ البَعثِ في قَولِه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾، واستطرَدَ من ذلِك إلى شَيءٍ مِن أوصافِهم الذَّميمةِ في الدُّنيا، عادَ إلى الحديثِ عن البَعثِ[(٣)]، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾.

أي: ولو رأيتَ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الكفَّارَ والمشْركِين، وقد أُوقِفوا يومَ القِيامةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٠٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٧٣).

على النَّارِ، فشاهَدُوا ما فيها من الأهوالِ؛ لرأيتَ أمرًا عَظيمًا، وشأنًا فظيعًا[١].

﴿فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾.

أي: فيقولُ هؤلاء المشرِكون حينذاك: يا ليتَنا نُعادُ إلى الدُّنيا؛ كي نؤمِنَ، ونعملَ صالحًا[٢].

كما قال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾[الشورى: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[فاطر: ٣٦-٣٧].

﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾.

أي: وإذا عُدْنا إلى الدُّنيا فلنْ نُكذِّبَ بالأدلَّةِ، والبيِّناتِ التي جاءتْنا من ربِّنا[٣].

﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: ونكونَ من المؤمنِين حقًّا[٤].

﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: ما زَعَموه من أنَّهم لو رُدُّوا إلى الدُّنيا لآمَنوا بدَعْوَى أنَّه ظهَرَ لهم الآنَ صِدقُ رُسلِ اللهِ تعالى؛ ليس صحيحًا، بل كانوا يَعلمون صِحَّةَ رِسالتِهم وصِدقَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٦-٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٨، ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص:١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٨).

نُبوَّتهم، ولكنَّهم كانوا في الدُّنيا يُخفونَ ذلك في قَرارةِ أنفسِهم؛ ظلمًا وعنادًا، فلم يَظهرْ لهم يومَ القيامة شيءٌ جديدٌ؛ ليكونوا عالِمِين به فيُعذَروا، بل ظَهَرَ لهم ما كان معلومًا لدَيهم من قَبلُ. وإنَّما تَمنَّوُا العودةَ إلى الدُّنيا لا رَغبةً وحبًّا في الإيمانِ كما زعَموا كذبًا؛ فإنَّهم لو رُدُّوا لعادوا للكفرِ الذي هو طَبعٌ لهم وسجيَّة، ولكنَّهم تَمنَّوا ذلك لَمَّا عاينوا العذابَ الذي لا طاقةَ لهم باحتمالِه[(١)].

كما قال تعالى مخبرًا عن موسى عليه السَّلام أنَّه قال لفرعونَ: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقال الله تعالى مخبرًا عن فِرعونَ وقومِه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾.

أي: ولو رُدُّوا إلى الدُّنيا، فأُمْهِلوا؛ ليُؤمنوا، ويَعْمَلوا صالحًا، لرَجَعوا إلى مِثلِ ما كانوا عليه مِن قبلُ من الكُفرِ والعِصيان[(٢)].

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

أي: وهم كاذِبون في قولِهم: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)].

---

(١) وهذا المعنى اختارَه ابنُ القيِّم في ((عدة الصابرين)) (ص: ١٨٦)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٥٤)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ١٨٥).
وجعَلَه ابنُ كثير وابن عثيمين ممَّا تحتملُه الآية. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٨-٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٧). وفي معنى الآية أقوال أخرى. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١١-٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٨).

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾.

أي: وقال هؤلاءِ المشرِكون المنكِرون للبعثِ: لا تُوجدُ حياةٌ أخرى لنا سِوى هذه الحياةِ التي نَعيشُها في الدُّنيا، وما نحنُ بخارِجين من قُبورِنا، وما ثَمَّ حسابٌ ولا ثوابٌ ولا عقابٌ(١).

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾.

أي: ولو رأيتَ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ القائلينَ: ما هي إلَّا حياتُنا الدُّنيا وما نحنُ بمبعوثين، وقدْ أُوقِفوا بين يَدَيِ اللهِ تعالى، لرأيتَ أمرًا فظيعًا، وهَوْلًا عظيمًا(٢).

﴿قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لهم موبِّخًا: أليسَ هذا البعثُ- الذي كنتُم في الدُّنيا تُظهرُون إنكارَه- حقًّا ثابتًا، وليسَ بباطلٍ كما كنتم تَدَّعُون؟! فأجابوا مُعترِفين: واللهِ إنَّه لَحقٌّ ثابتٌ(٣).

﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٢-٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الأنعام)) (ص: ١٥٠-١٥١).
قال ابنُ جرير: (وكان ابنُ زيد يقول: هذا خبرٌ من الله تعالى عن هؤلاء الكَفرةِ الذين وُقفوا على النار، أنَّهم لو رُدُّوا إلى الدُّنيا لقالوا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٧-١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأنعام)) (ص: ١٥٣-١٥٤).

أي: فقال اللهُ تعالى لهم: فذُوقوا مَسَّ العذابِ الذي كنتُم في الدُّنيا تُكذِّبون به؛ فذُوقوه اليومَ جزاءً على كُفرِكم في الدُّنيا[١].

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾.

أي: قدْ خابَ وحُرِمَ الخيرَ كلَّه، الَّذين أَنكروا البعثَ بعدَ المماتِ، ولِقاءَ اللهِ تعالى للحسابِ، ونَيْلِ الثوابِ والعِقاب، وقد أَوجبَ لهم هذا التكذيبُ في الدنيا ترْكَ الطاعاتِ، واقترافَ المحرَّماتِ[٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾.

أي: حِينَ تأتِيهم الساعةُ التي يَبعثُ اللهُ فيها الموتَى مِن قُبورِهم فجأةً، يقولون تحسُّرًا: ما أعظمَ ندامتَنا على تَفريطنا في الاستعدادِ لهذا اليومِ، وتضييعِنا لأوقاتِنا وأعمارِنا في الدُّنيا[٣]!

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٥-٥٦].

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٧-١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٤-٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٨-١٥٩).

أي: وهؤلاءِ الذين كذَّبوا بلِقاءِ اللهِ، يَحمِلون آثامَهم وذُنوبَهم يومَ القِيامةِ على ظُهورِهم[١].

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

أي: ألَا بئسَ ما يَحمِلونَه من آثامٍ[٢].

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا جرَى ذِكرُ الساعةِ، وما يَلحَقُ المشرِكين فيها من الحَسرةِ على ما فرَّطوا، وكانَ المنكِرون للبعثِ والقيامةِ تَعظمُ رغبتُهم في الدُّنيا، وتَحصيلِ لذَّاتِها؛ ذَكَر اللهُ تعالى هذه الآيةَ تَنبيهًا على خَساسةِ الدنيا وركاكتِها، وتذكيرًا للناسِ بأنَّ الحياةَ الدنيا زائلةٌ، وأنَّ عليهم أنْ يستعدُّوا للحياةِ الآخرةِ[٣].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى قَولَهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾؛ ذَكَر مصيرَها، وأنَّ مُنتهى أمرِها أنَّها فانيةٌ، مُنقضيةٌ عن قَريبٍ، فصارتْ شبيهةً باللهوِ واللعبِ؛ إذ هما لا يَدومانِ، ولا طائلَ لهما، كما أنَّها لا طائلَ لها؛ فاللَّهوُ واللعِبُ اشتغالٌ بما لا غِنى به ولا منفعةَ، كذلِك هي الدنيا، بخلافِ الاشتغالِ بأعمالِ الآخرةِ، فإنَّها التي تَعقُب المنافِعَ والخيراتِ[٤]، فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٩).
قال ابنُ عُثيمين: (يَحمِلون جزاءَ الأعمالِ على ظُهورِهم حملًا حقيقيًّا، فالواجبُ أن نَحمِلَ الآياتِ على ظاهرها. ولا يقول قائلٌ: كيف يحملُ الجزاء على الظَّهرِ؟! فيومَ القيامة لا يُقاس بأيَّام الدُّنيا؛ لأنَّ الحال تختلف اختلافًا عظيمًا، فمِن الجائز الممكن أنَّ الله تعالى يخلُقُ هذه الجزاءاتِ حتى تكونَ أجسامًا تُحمَل على الظهور). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٩-١٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٨٤).

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

أي: وليستْ هذه الحياةُ الدَّنيَّةُ زمنًا ومرتبةً- بأعمالِها ولذائذِها وشَهواتِها ومتاعِها- سِوى لعبٍ ولهوٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

أي: وأمَّا الآخِرةُ، فإنَّها- في ذاتِها وصِفاتِها، وبقائِها ودوامِها ونعيمِها- والعملَ لها، والاستعدادَ لأجْلِها في الدُّنيا بالإيمانِ والعملِ الصالحِ؛ خيرٌ من الدُّنيا لِلَّذين يَفعَلون ما أمَرَ اللهُ تعالى به، ويَترُكون ما نَهى عنه[(٢)].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وعن المستورِدِ بنِ شَدَّاد رضِي اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((واللهِ، ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثْلُ ما يَجعَلُ أَحدُكم إصبَعَهُ هذِهِ -وأشارَ يَحيى بالسَّبَّابةِ- في اليمِّ، فلْيَنظرْ بِمَ يَرجِعُ؟))[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٣-١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٦-١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٧-١٦٨).

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨).

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

أي: أفليستْ لكم -أيها المكذِّبون بالبعثِ- عُقولٌ تُدركون بها حقيقةَ كلِّ دار، وأيُّهما أَوْلى بالإيثارِ[١]؟!

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- الإشارةُ إلى دُنُوِّ الحياةِ الدُّنيا، وأنَّها ليستْ بتلك الحياةِ التي يَنبغي للإنسان أن يُحافظَ عليها، ويَنسى الآخرةَ؛ لقوله: ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾.

٢- التَّزهيدُ في الدُّنيا والترغيبُ في الآخِرة؛ وجهُ ذلك: أنَّه وصَفَ الدُّنيا بقوله: ﴿لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾، ووصَفَ الآخِرةَ بقوله: ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فيه أنَّ الدَّار الآخِرةَ خيرٌ للمتَّقينَ مِن الدُّنيا، وعلى هذا فما يُصيبُهم في الدُّنيا من الأذَى في اللهِ عزَّ وجلَّ، أو أمراضٍ تُصيبُهم، أو في فقْدِ حبيبٍ، أو ما أشْبهَ ذلك؛ فإنَّه في الآخِرَةِ يُنسَى وكأنَّه لم يكُنْ؛ لأنَّ الدارَ الآخِرةَ تمحو كلَّ شيءٍ سبَقَ، وكأنَّه لم يكُن[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قولُه تعالى: ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في العَطفِ بالفاءِ دَلالةٌ على أنَّ أوَّلَ شيءٍ يقعُ حينئذٍ في قلوبِهم، ويَسبِقُ التعبيرُ عنه إلى ألْسنتِهم، هو النَّدمُ على ما سلَفَ منهم، وتمنِّي الرُّجوع إلى الدُّنيا ليُؤْمنوا[٤].

٢- في قولِه تعالى: ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾ شِدَّةُ ندَمِ الكافِرين إذا وُقِفوا على نارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٨-٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٨-١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٣).

جهنَّم؛ لكونِهم يَتمنَّوْن أمرًا لا يُمكنُ أنْ يكون[١].

٣- قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾ فيه إشكال؛ إذ كيف يتمنون الردَّ مع أنَّهم يَعلَمون أنَّ الردَّ لا يَحصُلُ البتَّةَ؟

والجوابُ: أنَّه لعَلَّهم لم يَعْلَموا أنَّ الردَّ لا يَحصُلُ، أو أنَّهم وإنْ عَلِموا أنَّ ذلك لا يَحصُل إلَّا أنَّ هذا العِلمَ لا يَمنَعُ من حصولِ إرادةِ الردِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [المائدة: ٣٧]، وكقوله: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]، فلمَّا صحَّ أنْ يُريدوا هذه الأشياءَ مع العِلم بأنَّها لا تَحصُلُ، فبأنْ يَتمنَّوْه أقربُ؛ لأنَّ بابَ التمنِّي أوسعُ؛ لأنَّه يصحُّ أن يتمنَّى ما لا يصحُّ أنْ يُريدَ مِن الأمورِ الثلاثةِ الماضيةِ[٢].

٤- في قولِه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ غلوُّهم في الإصرارِ على الكُفرِ، وعدمُ رَغبتِهم في الإيمانِ؛ فقدْ بيَّن اللهُ تعالى أنَّهم لو شاهَدوا النَّارَ والعذابَ، ثم سألوا الرجعةَ ورُدُّوا إلى الدُّنيا، لعادوا إلى الشِّركِ[٣].

٥- تعلُّقُ عِلمِ اللهِ بالمستحيلِ؛ لقوله: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾[٤].

٦- أنَّ الكافرِينَ لا يَستنزِهون من الكَذِبِ حتَّى في الآخِرةِ، وكذلك المنافِقون؛ لأنَّ اللهَ تعالى كذَّبهم، وقال: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٩٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٠).

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الخواطرَ الناشئةَ عن عوامِل الحِسِّ دون النظرِ والدليلِ لا قَرارَ لها في النَّفْس، ولا تسيرُ على مُقتضاها إلَّا ريْثَما يدومُ ذلك الإحساسُ، فإذا زالَ زالَ أثرُه؛ فالانفعالُ به يُشبِهُ انفعالَ العَجْماواتِ من الزَّجْرِ والسَّوطِ ونحوِهما، ويزولُ بزوالِه حتَّى يُعاودَه مِثلُه(١).

٨- قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، وإنَّما أضافَ رُبوبيَّتَه إليهم مع أنَّهم مِن أراذلِ عِبادِ اللهِ؛ إشارةً إلى أنَّه عزَّ وجلَّ هو الخالقُ المالِكُ المدبِّرُ لهم؛ فكانَ عليهم أنْ يَقوموا بعِبادتِه، فتكونُ إضافةُ الرُّبوبيَّةِ إليهم للإشارةِ إلى أنَّ السُّلطانَ له عليهم عزَّ وجلَّ، ومع ذلِك لم يُؤمنوا به ولا برُسُلِه، ولا عَمِلوا لهذا اليومِ(٢).

٩- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قَدْ يُتوهَّمُ أنَّه يُناقِضُ قولَه تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤]، فقيل: دَفْعُ هذا التوهُّم بأنْ يُحمَل قولُه: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ على مَعنى: لا يُكلِّمهم كَلامَ تكريمٍ وتشريفٍ، ولا الكلامَ الذي فيه خَيرٌ، وأمَّا التوبيخُ والتَّقريعُ والإهانةُ، فكلامُ الله لهم به من جِنسِ عَذابِه لهم، ولم يُقصَدْ بالنفيِ في قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾(٣)، وقيل: يومُ القيامةِ يومٌ طويلٌ، ذو مواطنَ ومواقفَ ومواقيتَ، فيَنطِقون في وقتٍ، أو موقفٍ، ولا يَنطِقون في وقتٍ، أو موقفٍ آخَرَ(٤).

١٠- خَصَّ لفظَ الذوق في قولِه: ﴿فَذُوقُواْ﴾؛ لأنَّهم في كلِّ حالٍ يَجِدونه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٢)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٧-٢٨).
(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) لزكريا الأنصاري (ص: ٥١)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٦٦).

وِجْدانَ الذائقِ في قوَّةِ الإحساسِ[١].

١١- في قولِه تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ بيانُ خُسرانِ الكافرين المكذِّبين بالبعثِ، وأنَّهم مهما ظنُّوا أنَّهم رَبِحوا فهُم خاسِرون، ولكنْ متى يَعلمون أنَّهم خاسِرون؟ إذا جاءَ الأجلُ، أمَّا الآن فهُم في سَكرةٍ لا يَدرُون؛ ولهذا لو انتَصروا اقتصاديًّا، أو عسكريًّا، أو فِكريًّا، لظنُّوا أنَّهم رابِحون، ولكنَّهم خاسِرون[٢].

١٢- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ فيه شِدَّةُ تحسُّرِ هؤلاءِ الذين كذَّبوا بلقاءِ اللهِ، وإقرارُهم على أنفسِهم بأنَّهم فرَّطوا[٣].

١٣- في تَسميةِ الحياةِ الدُّنيا باللَّعِبِ واللَّهوِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وجوه، منها: الأوَّل: أنَّ مُدَّة اللهوِ واللَّعِبِ قليلةٌ، سريعةُ الانقضاءِ والزَّوال، ومُدَّةُ هذه الحياةِ كذلك، الثاني: أنَّ اللَّعِبَ واللهوَ ينساقَان في أكثرِ الأمْرِ إلى شيءٍ مِن المكارِه، ولذَّاتُ الدُّنيا كذلِك. الثالث: أنَّ اللَّعِبَ واللهوَ إنَّما يَحصُلان عند الاغترارِ بظواهرِ الأُمورِ، فليس لهما في نفْسِ الأمرِ حقيقةٌ مُعتبَرَةٌ، فكذلك الإغراقُ في الالتذاذ بطيِّباتِ الدُّنيا، والانتفاع بخيراتِها، لا يَحصُلُ إلَّا للجاهِلين بحقائقِ الأمور. الرابع: أنَّ اللَّعِبَ واللَّهوَ ليس لهما عاقبةٌ محمودةٌ[٤].

١٤- أوجهُ الخيريَّةِ في قوله: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ متعددةٌ؛ أحدُها: أنَّ خيراتِ الدُّنيا خسيسةٌ؛ فالحيواناتُ تُشارِكُ الإنسانَ فيها، كالأكلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٠، ١٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤، ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٥).

والجماعِ، بل ربَّما كان أمرُ تِلك الحيوانات فيها أكملَ مِن أمْرِ الإنسان، وكذلك فلذَّاتُها سريعةُ الانقضاءِ والاستحالةِ، إلى غيرِ ذلك مِن الوجوهِ التي تثبت خَساسةَ هذه الملذَّات، بخلاف خيراتِ الآخِرة وسعاداتِها الرُّوحانيَّةِ فهي شريفةٌ، عاليةٌ، باقيةٌ، مُقدَّسة. الأمر الثاني: في بيانِ أنَّ خيراتِ الآخرةِ أفضلُ مِن خيراتِ الدُّنيا، هو أنْ يُقالَ: هبْ أنَّ هذينِ النَّوْعين تَشاركَا في الفضلِ إلَّا أنَّ الوصولَ إلى الخيراتِ الموعودةِ في غدِ القيامةِ معلومٌ قطعًا، وأمَّا الوصولُ إلى الخيراتِ الموعودةِ في غدِ الدُّنيا فغيرُ معلومٍ، بل ولا مظنونٍ، فكم مِن سُلطانٍ قاهرٍ في بُكرةِ اليومِ صار تحتَ التُّرابِ في آخِرِ ذلك اليومِ. الأمْر الثَّالث: هبْ أنَّه وَجَدَ الإنسانُ بعدَ هذا اليومِ يومًا آخَرَ في الدُّنيا إلَّا أنَّه لا يَدرِي هلْ يُمكنه الانتفاعُ بما جمَعَه من الأموالِ والطيِّباتِ واللذَّاتِ أم لا؟ أمَّا كلُّ ما جَمَعه من السَّعادات، فإنَّه قطعًا ينتفعُ به في الآخِرَة. الأمر الرابع: هبْ أنَّه يَنتفعُ بها إلَّا أنَّ انتفاعَه بخيراتِ الدُّنيا لا يَخلو عن الشَّوائبِ والمنغِّصات، والانتفاعُ بخيراتِ الآخِرَةِ خالٍ عن شوائبِ المكروهاتِ. الأمر الخامس: هبْ أنَّه ينتفعُ بتلك الأموالِ والطيِّبات من غيرِ شائبةٍ إلَّا أنَّ ذلك الانتفاعَ منقرضٌ ذاهبٌ، والمنافعُ المنقرضةُ تُحزِنُ الإنسانَ لمفارقتِها، وكلَّما كانتْ تلك المنافعُ أكملَ وألذَّ، كانتْ تلك الأحزانُ الحاصلةُ عن انقراضِها وانقطاعِها أقوى وأكْمَلَ[(١)].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ فيه إيجازٌ بحَذْفِ جوابِ ﴿لَوْ﴾[(٢)]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٠٨).

(٢) فقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يَقتضي له جوابًا، وجازَ حَذْفُه؛ لعِلم المخاطَبِ به. وأشباهُه كثيرةٌ في القُرآنِ والشِّعر، ولو قُدِّر الجوابُ، كان التقدير: لرأيتَ سُوءَ مُنقَلَبِهم، أو لرأيتَ سُوءَ حالِهم. وحذْفُ الجوابِ في هذه الأشياءِ أَبلغُ في المعنى من إظهارِه، ألَا ترَى: أنَّك لو قُلتَ لغُلامِك: واللهِ لئنْ قُمتُ إليكَ! وسكتَّ عن الجوابِ، ذهب بفِكرِه إلى أنواعِ المكروهِ، من الضَّربِ،

وحَذْفِ مفعولِ ﴿تَرَىٰٓ﴾ أيضًا، وفائدتُه: أنَّ النَّفسَ تذهبُ في تَقديرِ المحذوفِ كلَّ مذهبٍ، والخيالَ يتَّسعُ للتقديرِ، إلى جانِبِ تَفخيمِ الأمرِ، وتَعظيمِ الشَّأنِ[١]، والقاعدةُ: أنَّ حَذْف جَوابِ الشَّرطِ في مقاماتِ الوعيدِ يدلُّ على تَعظيمِ الأمْرِ، وشِدَّتِه[٢].

- وفيه ذِكْرُ ما يكونُ مِن وُقُوفِهم على النَّارِ، وما يَترتَّب عليه من قولِهم بصِيغةِ الماضي الواقِع في حيِّزِ الشَّرطِ المستقبَل في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ﴾؛ للإعلامِ بتحقُّقِ وقوعِه، على القولِ المشهورِ في مِثله[٣]. وقيل: كلمة (إذ) تُقامُ مقامَ (إذا) إذا أراد المتكلِّمُ المبالغةَ في التكريرِ والتوكيدِ، وإزالةِ الشُّبهةِ؛ لأنَّ الماضِيَ قد وقَع واستقرَّ، فالتعبيرُ عَنِ المستقبلِ باللفظِ الموضوعِ للماضي يُفيدُ المبالغةَ مِن هذا الاعتبارِ[٤].

٢- **قوله**: ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ حرفُ النِّداء (يا) هنا لمجرَّد التنبيهِ؛ فهو حرفُ تنبيهٍ لا حرْفُ نِداء[٥]، وقيل: هو حرفُ نِداءٍ مُستعمَلٌ في التَّحسُّر؛ لأنَّ النِّداءَ يَقتضي بُعْدَ المنادَى؛ فاستُعمِلَ في التحسُّر[٦].

والقتْل، والكَسْر، وعَظُمَ الخوفُ، ولم يَدرِ أيَّ الأقسامِ تَبغي. ولو قلتَ: واللهِ لئن قُمتُ إليكَ لأضربنَّك، فأتيتَ بالجواب، لَعلِمَ أنَّك لم تبلغْ شيئًا غيرَ الضربِ، ولا يَخطُر ببالِه نوعٌ من المكروهِ سواه، فثبَتَ أنَّ حذْفَ الجوابِ أقوى تأثيرًا في حُصولِ الخوفِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٠٨).

وقيل: إنَّ جواب (لو) مذكورٌ مِن بَعضِ الوجوهِ، والتقدير: ولو ترَى إذا وُقِفوا على النارِ يَنوحُونَ ويقولون: يا لَيْتَنَا نردُّ ولا نُكذِّب. وعلى هذا القول فليس فيه وجه الحذف.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٩٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٤).

٣- **قوله**: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾: تَذييلٌ لِمَا قَبْلَه، وجِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ الدالَّةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الكذبَ سجيَّةٌ لهم، قد تَطبَّعوا عليها من الدُّنيا؛ فلا عجبَ أنْ يَتمنَّوُا الرُّجوعَ ليُؤمِنوا، فلو رجَعوا لعادوا لِمَا كانوا عليه؛ فإنَّ الكذبَ سجيَّتُهم[١].

- وأيضًا فقَوْلُه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ اعتراضٌ توسَّطَ بينَ قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ﴾ وقولِه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، وهذا الاعتراضُ مَسوقٌ لتقريرِ ما أفادَتْه الشَّرْطيةُ مِنْ كَذِبِهم المَخصوصِ، ولو أُخِّر لأَوْهَم أنَّ المرادَ تَكذيبُهم في إنكارِهم البعثَ، والمعنى: لو رُدُّوا إلى الدُّنيا لعادوا لِمَا نُهوا عنه، وقالوا...[٢].

٤- **قوله**: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

- قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ صِيغةُ حَصْرٍ، أي: انحصَرَ جِنسُ حَياتِنا في حياتِنا الدُّنيا، فلا حياةَ لنا غيرُها؛ فبَطَلَتْ حياةٌ بعدَ الموتِ[٣].

- والضَّمير ﴿هِيَ﴾ بعد ﴿إِنْ﴾ مُبهَمٌ يُفسِّره ما بعدَ الاستثناء المُفرَّغ ﴿حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾؛ قُصِد من إبهامه الإيجازُ؛ اعتمادًا على مُفسِّره[٤].

- وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ فيه نفيٌ للبَعثِ، وهو يستلزمُ تأكيدَ نفْيِ الحياةِ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٤).
وهذا الوجه على القول بأنَّ ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ عَطْفٌ على ﴿لَعَادُواْ﴾، في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ﴾، أي: ولو رُدُّوا لكَفَروا ولَقَالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ كما كانوا يقولونَ قَبْلَ مُعاينَةِ القِيامَة. وأمَّا على القولِ بأنَّ ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ مُستأنفةٌ ليستْ داخلةً في حيِّز (لو)، فليس فيه هذا الوَجْهُ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

غير حياةِ الدنيا؛ لأنَّ البعثَ لا يكونُ إلَّا مع حياةٍ، وإنَّما عُطِفت ولم تُفصَل، فتكون مؤكِّدةً للجُملة قبلها؛ لأنَّ قَصْدَهم إبطالُ قولِ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّهم يَحْيَون حياةً ثانيةً، وقولِه تارةً: إنَّهم مبعوثون بعدَ الموت، فقَصَدوا إبطالَ كلٍّ باستقلالِه[١].

٥- **قوله:** ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ...﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، وفي تعليقِ قَوْلِه: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ بقولِه: ﴿وُقِفُواْ﴾ تمثيلٌ لحضورهم المحشْرَ عندَ البعثِ؛ شُبِّهَتْ حالُهم في الحضورِ للحِسابِ بحالِ عبدٍ جَنَى، فقُبِضَ عليه، فوقَف بين يدَيْ ربِّه، وبذلك تظهَرُ مزيَّةُ التعبيرِ بلَفْظ ﴿رَبِّهِمْ﴾، دون اسمِ الجلالةِ[٢].

٦- **قوله:** ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشأَ مِن الكلامِ السَّابقِ، كأنَّه قيل: فماذا قال لهم ربُّهم إذ ذاكَ؟ فقيل: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾[٣]، وهو استفهامٌ تقريريٌّ دخَل على نفْيِ الأمرِ المُقرَّر به؛ لاختبارِ مقدارِ إقْرارِ المسؤولِ؛ فلذلك يُسأل عن نفْي ما هو واقعٌ؛ لأنَّه إنْ كان له مَطْمَعٌ في الإنكارِ تَذرَّع إليه بالنفي الواقِع في سؤال المقرِّر. والمقصود: أهذا حقٌّ؟! إذ إنَّهم كانوا يَزعُمونه باطلًا؛ ولذلك أجابوا بالحرفِ الموضوعِ لإبطالِ ما قَبْلَه وهو ﴿بَلَىٰ﴾ فهو يُبطِلُ النفيَ؛ فهو إقرارٌ بوقوع الأمانيِّ، أي: بلى هو حقٌّ[٤].

- وقوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فيه تأكيدُ اعترافِهم باليمينِ؛ إظهارًا لكمالِ يَقينهم بأنَّه حقٌّ؛ تحقيقًا لاعترافِهم للمُعترَفِ به؛ لأنَّه معلومٌ لله تعالى، أي: نُقرُّ ولا نشكُّ في أنَّه حقٌّ؛ فلذلك نُقسِم عليه، وهذا مِن استعمالِ القَسمِ لتأكيدِ لازمِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٨).

فائدةِ الخبرِ[١] وهذا القَسَمُ منهم يُشعِرُ بشِدَّةِ النَّدمِ على إنكارِهم الأوَّل، فكأنَّهم كذَّبوا أنفُسَهم تكذيبًا مقرونًا بالقَسَم، ولا يَخفَى أنَّ مِثلَ هذا لا يَخرُجُ إلَّا مِن قلبٍ مُتحسِّرٍ، ولكن فاتَ الأوانُ[٢]!

- وفي ذِكر الربِّ في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ تَذكارٌ لهم بأنَّه كان يُربِّيهم، ويُصلِحُ حالَهم؛ فهو سيِّدُهم وهم عَبيدُه، لكنَّهم عصَوْه، وخالَفوا أمْرَه[٣].

٧- **قوله:** ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾

- قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ فيه الإظهارُ في موضِعِ الإضمارِ؛ فالَّذين كذَّبوا هم الَّذين حُكِيت أحوالُهم، لكنْ وُضِع الموصولُ مَوضعَ الضَّمير؛ للإيذانِ بتسبُّبِ خُسرانِهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ من التكذيبِ بلِقائِه تعالى بقيامِ الساعةِ، وما يَترتَّبُ عليهِ مِن البعثِ وأحكامِه المتفرِّعةِ عليه، واستمرارِهم على ذلك؛ فإنَّ كلمةَ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ غايةٌ لتكذيبِهم لا لخُسرانهم؛ فإنَّه أبَدِيٌّ لا حدَّ له[٤]، وفي هذا الإظهارِ كذلك تَعميمٌ، وتَنبيهٌ على ما أَوْجَب لهم ذلِك الخُسرانَ[٥].

- وحَسُنَ مجيءُ الخُسْران كنايةً عن فَواتِ الثوابِ العظيمِ، وحُصولِ العقابِ العظيمِ؛ لأنَّ موقِفَ القيامةِ موقفٌ لا حُكْمَ فيه لأحدٍ إلَّا للهِ تعالى، ولا قُدرةَ لأحدٍ على النَّفعِ والضرِّ، والرَّفعِ والخَفضِ إلَّا لله[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٢).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٩٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٣).

- قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ ...﴾ على القولِ بأنَّ تحسُّرَهم هذا يكون عندَ موتِهم؛ ففيه التعبيرُ عن الموتِ بالسَّاعةِ؛ وذلك لَمَّا كانَ الموتُ وُقوعًا في أحوالِ الآخرةِ ومُقدِّماتِها، جُعِل مِن جِنسِ السَّاعةِ، وسُمِّي باسمِها، أو جُعِل مَجيءُ السَّاعةِ بعدَ الموت؛ لسُرعتِه، كالواقِعِ بغيرِ فَترةٍ[١].

- قوله: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ فيه تنبيهٌ للنَّاس على ما سَيحصُلُ لهم من الحَسرةِ، والعربُ تُعبِّر عن تَعظيمِ أمثالِ هذه الأمورِ بهذه اللَّفْظة ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾، وهذا أبلغُ مِن أنْ يُقال: الحسرةُ علينا في تَفرِيطنا[٢].

- والنِّداءُ في قولِه: ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ مقصودٌ به التندُّمُ، وأضافوا الحسرةَ إلى أنفُسِهم؛ ليكونَ تَحسُّرُهم لأجْلِ أنفسِهم؛ فهم المُتحسِّرون والمتحسَّرُ عليهم، بخِلافِ قولِ القائِل: يا حسرةً، فإنَّه في الغالِبِ تحسُّرٌ لأجْلِ غيرِه، فهو يتحسَّرُ لحالِ غيرِه[٣].

- والافتتاحُ بحرف الاستفتاح ﴿أَلَا﴾ في قوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ يُفيد التنبيهَ للعنايةِ بالخبرِ[٤]، والجملةُ تذييلٌ مُقرِّرٌ لِمَا قَبلَه، وتَكملةٌ له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٣).
وقال أبو حيَّان-بعدَما نقَلَ كلامَ الزمخشريِّ السابقَ-: (ويُمكن حمْلُ السَّاعة على الحقيقة، وهو يوم القيامة، ولا يلزمُ من تحسُّرُهم وقتَ الموتِ أنَّهم لا يتحسَّرون يومَ القيامة، بل الظاهرُ ذلِك؛ لقوله: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ﴾؛ إذ هذا حالٌ مِنْ قولهم: ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ وهي حالٌ مُقارِنةٌ، وإذا حمَلْنا الساعةَ على وقتِ الموتِ كانتْ حالًا مُقدَّرة، ومجيء المُقَدَّرَة بالنسبةِ إلى المقارِنَة قليلٌ، فيكون التكذيبُ متَّصلًا بهم مُغيًّا بالحسرةِ إلى يوم القيامة؛ إذ مُكثُهم في البرزخِ على اعتقاد أمثلِهم طريقةً يومٌ واحد). ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٩٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٥).

٨- **قوله:** ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أفادتْ هذه الصِّيغةُ (وَمَا... إِلَّا) قَصْرَ الحياةِ على اللعبِ واللَّهوِ(١).

- وفيه مُناسبةٌ حسَنةٌ حيثُ قَدَّم اللَّعبَ هنا، وكذلِك في سُورةِ محمَّد في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦]، وسُورةِ الحديد في قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وعكَس في سورةِ الأعرافِ والعنكبوتِ؛ حيث قال في سُورة الأعرافِ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١] وقال في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فقدَّم اللَّهوَ على اللَّعِبِ، والحِكمةُ مِن تقديمِ اللَّعِب على اللهوِ في بعضِ المواضِع وتأخيرِها في البعض الآخَر: أنَّ الآيَةَ الأُولى التي في سُورةِ الأنعام في قومٍ مِن الكُفَّار، كانوا إذا سَمِعوا آياتِ اللهِ هَزِلوا عندَها، واسْتَهْزؤوا بها، فهذا اتِّخاذُهم دِينَ اللهِ لَعبًا، فهؤلاءِ قومٌ حضَروا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وسمِعوا القرآن، وعَبِثوا عند سماعِه، ولَعِبوا بآياته، وأجَرْوها مجرَى أفعالٍ يُستَرْوَح إليها، ولا نفعَ في عُقباها، ثم شُغِلوا بدنياهم عن تَدبُّرها، وألهتْهم حلاوتُها عن الفِكر في صِحَّتها، فأوَّل أفعالهم لعبٌ، وثانيها لهوٌ، فهؤلاءِ لَمَّا فعلوا عند سماعِ القرآن مِن الاستهزاءِ والعبثِ أُطلِقَ على فِعلهم اسمُ اللَّعِب، ثم شُغِلوا عنه باستِحلاءِ الدنيا، كان هذا لهوًا منهم بعدَ اللَّعِب، وكان أوَّلُ دِينهم لعبًا وما بعدَه لهوًا؛ فلذلك قدَّم اللَّعِب على اللَّهو في هذه الآيةِ. وتقديمُ اللَّعبِ على اللَّهو في سورة الحديدِ؛ فلأنَّ معناه: الحياةُ الدُّنيا لِمَن اشتَغَل بها، ولم يتعَبْ لغيرِها مِن أعمالِ الآخرةِ مَقسومةٌ من الصِّبا، وهو وقتُ اللَّعِب، وبعدَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٣).

اللَّهو، ويتبع ذلك أخْذُ الزينةِ، ومِنْ أخْذِ الزينة تنشأُ مباهاةُ الأكْفَاءِ، ومفاخرةُ الأشكالِ والنُّظَراءِ، ثم بَعْدَه المكاثرةُ بالأموالِ والأولادِ، فترتيبُ الحياةِ على هذه الأحوالِ يُوجِبُ تقديمَ حالَ اللَّعِبِ على حالِ اللَّهو.

وأمَّا تقديمُ اللَّهوِ على اللَّعبِ في آيةِ الأعرافِ؛ فلأنَّ المقصودَ بالكافرينَ عامَّةُ الكفَّارِ، وليس مَن سمِعَ الآياتِ فقط، فقدَّم فِعْلَ أكثرِهم على فِعل أقلِّهم، وهم الذينَ شَغلتْهم الحياةُ الدُّنيا وحلاوتُها، والولايةُ وغباوتُها، وهذا هو اللَّهو، ثمَّ كانتْ أفعالُهم التي اقتدَوْا فيها بآبائِهم لَمَّا طابتْ لهم، ولم يَجِدوا في العاقبةِ نفعًا عليهم، كاللَّعبِ الذي يَنطوي على أفعالٍ تَبطُلُ في الآجِل، وإنْ سَرَّتْ في العاجِل، وهذا بعدَ الأوَّلِ، وأَكثرُ الكفَّارِ دَأْبهم اللَّهوُ، وإنْ شَغَلَتْهم الحالُ التي اسْتَصْحَبوها عن الفِكر فيما يطرأُ عليها؛ فوَجَب لهذا تقديمُ ذِكرِ اللَّهوِ لوجهين: لتقدُّمِه على ما هو كاللَّعب، ولأنَّه فِعلُ أَكثرِهم. واللَّعب في آية الأنعامِ المرادُ به فِعلُ أقلِّهم، وهو هناك أوَّلُ ما رُدَّ به ما جاءَ به الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وقُدِّم اللَّهوُ في سورةِ العنكبوت في قولِه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ...﴾ [العنكبوت: ٦٤]؛ لأنَّ المرادَ المبالغةُ في وصْف قِصَر مدَّة الدُّنيا بالإضافةِ إلى مُدَّةِ الأخرى، فكأنَّه قال: ما أَمدُ الحياةِ الدُّنيا إلَّا كأَمَدِ أَزْمِنَةِ اللَّهوِ واللَّعِب؛ فهي أزمنةٌ لشَغْلِ النَّفسِ بحلاوةِ ما يُتعجَّلُ، وإنَّما قُدِّم اللَّهْوُ على اللَّعِب هنا؛ لأنَّ أزمنةَ اللَّهوِ أكثرُ مِن أَزْمِنَة اللَّعِب؛ لأنَّ التشاغُلَ به أكثرُ؛ فوجَبَ تقديمُ ما يَكثُر على ما هو دُونَه في الكثرةِ؛ لأنَّ ذلك آخِذٌ بالشَّبهِ، وأبلغُ في وصْفِ المشبَّه[1].

وقيل: لأنَّ اللَّعِبَ يكونُ في زَمَنِ الصِّبا، واللَّهوُ يكونُ في زمَنِ الشَّبابِ، وزمنُ الصِّبا مُقدَّمٌ على زَمنِ الشَّباب؛ فناسَبَ إعطاءُ المقدَّمِ للأكْثرِ، والمُؤخَّرِ للأقلِّ[2].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥١٦ - ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٤).

وقيل: لأنَّه لا يتقدَّمُ اللَّفظُ فى الكِتابِ العزيزِ ذِكرًا أو يتأخَّرُ إلَّا لموجِبٍ؛ فوجهُ تقديمِ اللَّعب فى الأنعامِ: أنَّه المتقدِّمُ في الوجودِ الدُّنيويِّ على اللَّهو، ولأنَّ أوَّلَ ابتداءِ تعقُّلِ الإنسانِ وتَمْييزِه حالَه حالُ اللَّعِب، وهو المطابقُ لسنِّ الابتداءِ، فإذا استمرَّ أُلْهِيَ عن التدبُّر والاعتبارِ، وشُغِل بتماديه عن التفكُّرِ فيما به النجاةُ والفوزُ، فلمَّا لم يَبْرَحْ هؤلاء عن الجَري على عادةِ الصُّمِّ والبُكْم الذين لا يَعقِلون جرَى الإخبارُ عنهم في الآيةِ الثانيةِ من الأنعامِ بمُقتضَى أحوالِهم في أعمارِهم التي لم تَخرُجْ عن أحوالِ البهائمِ؛ فأوَّلُ أعمارِهم لعبٌ، وعَقِب ذلك لَهْوٌ، فورَدَ الإخبارُ على حسَبِ جَرْيِ الأعمارِ. وقيل غيرُ ذلِك في أوجهِ التقديمِ والتأخيرِ في هذه الآياتِ(١).

٩- قوله: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيه تخصيصُ المتَّقينَ بالذِّكْر، مع أنَّ غيرَهم كذلك؛ لأنَّهم الأصلُ، وغيرَهم تَبَعٌ لهم(٢).

- ويحتملُ أنَّه اعتراضٌ بالتَّذْييلِ لحِكاية حالِهم في الآخِرَة؛ فإنَّه لَمَّا حَكَى قوْلَهم: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ عَلِمَ السامعُ أنَّهم فرَّطوا في الأمورِ النَّافعةِ لهم في الآخِرَة؛ بسببِ الانهماكِ في زخارفِ الدُّنيا، فذَيَّلَ ذلك بخِطابِ المُؤْمِنين؛ تعريفًا بقيمةِ زخارفِ الدُّنيا، وتبشيرًا لهم بأنَّ الآخِرةَ هي دارُ الخيرِ للمُؤْمِنين(٣).

- وفيه مناسبة حسنةٌ؛ حيث عبَّر هنا بقولِه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، وفي سورةِ الأعرافِ عبَّر بقوله: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]؛ ففي الأنعام ﴿وَلَلدَّارُ﴾ باللَّامِ، وفي الأعراف ﴿وَٱلدَّارُ﴾

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٥٥ - ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٣).

بغيرِ تلك اللام؛ لأنَّ آية الأنعام تَقدَّمها قولُه تعالى مُعرِّفًا بحالِ الدنيا: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، ومعنى التأكيدِ في هذا حاصِلٌ مِن جَرْي الكلامِ وسياقِه؛ حيثُ دخَلتْه (إلَّا) بعدَ (ما) النافيةِ، فأفادت القَصْرَ، ومِثل هذا هو المعنى الحاصِلُ مِن لفظِ القَسَمِ الصَّريح؛ فناسَبَه هنا مَجيءُ اللامِ داخِلةً على المبتدأِ في الآيةِ المعرِّفةِ لحالِ الدَّار الأُخرى، وكأنَّه نصُّ قولك: واللهِ لَلدَّارُ الآخِرةُ خيرٌ، وتَناسَب هذا مع ما تقدَّم قبلَه مِن تقديرِ القَسَمِ المؤكَّد كما تَبيَّن، وليس فى آيةِ الأعراف ما يَقتضي هذا؛ لأنَّها مُناطةٌ بقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾[1] [الأعراف: ١٦٩].

- وأيضًا أُجْرِيت ﴿الآخِرَة﴾ على الدَّار نَعتًا لها في سُورتَي الأنعامِ والأعراف، وفي سورة يوسُفَ قال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩] على الإضافةِ؛ وذلِك لأنَّ كلَّ لفْظٍ مُطابِقٌ لِمَا تقدَّمَ قَبْلَ كلِّ واحدةٍ مِن الآيتين، أمَّا فى آيةِ الأنعام فقوله تعالى مُخبِرًا عنهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، فطابَقَ هذا قولَه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ﴾، وأمَّا آيةُ الأعرافِ فقولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٦٩]، المرادُ به الدَّارُ الدُّنيا، فقُوبِلَ بقوله: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ﴾[الأعراف:١٦٩]، وهذا بَيِّنٌ، ولَمَّا لم يتقدَّمْ مِثْلُ ذلك قبلَ آيةِ يُوسُفَ، ورَدَ لفظُ الدارِ مُضافًا بغيرِ الألِفِ واللامِ فيه، فقيل: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وجاءَ كلٌّ على ما يجبُ ويُناسِبُ[2].

- وأيضًا عبَّر في الأنعام والأعراف بقوله: ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ بالمضارعِ، وفي سورة يُوسَف قال: ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩] بالماضِي؛

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٥٨).

لأنَّه في سورة يوسُفَ قدْ تَقدَّم قبلَه قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ...﴾ الآية [يوسف: ١٠٩]، والحاصِلُ منه أنَّهم ظَلَموا أنفُسَهم فأُهْلِكوا، ولو اتَّقَوْا لنَجَوْا؛ فناسَبَ هذا المعنى المقدَّرَ ورودُ الماضي في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ أوْضَحَ مُناسَبَةٍ[١].

- وفي قوله: ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ تعريضٌ بالمشرِكينَ بأنَّهم صائِرونَ إلى الآخِرَة، لكنَّها ليستْ لهم بخيرٍ ممَّا كانوا في الدُّنيا[٢].

- وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٣] يَحتملُ أن يكونَ فيه التفاتٌ مِن الحديثِ عنهم بالغَيبةِ إلى خِطابِهم بالدَّعوةِ- إذا كانتِ الآية إعادةً لدعوتهم إلى الإيمان والتقوى. ويَحتملُ أن يكون قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ اعتراضًا بالتذييلِ لحِكاية حالهم في الآخِرة؛ فإنَّه لَمَّا حَكَى قولَهم: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾، عَلِم السامعُ أنَّهم فرَّطوا في الأمورِ النافعة لهم في الآخرة بسببِ الانهماك في زخارفِ الدُّنيا، فذَيَّل ذلك بخِطابِ المؤمنين تعريفًا بقِيمةِ زخارف الدُّنيا، وتبشيرًا لهم بأنَّ الآخِرَةَ هي دارُ الخير للمؤمنين[٤].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ عن عَدَمِ عَقلِهم؛ إنْ كان خِطابًا للمُشركين، أو مستعمَلٌ في التَّحذيرِ إنْ كان خِطابًا للمؤمنين، على أنَّه لَمَّا كان استعمالُه في أحدِ هذَينِ على وجهِ الكِنايةِ، صحَّ أنْ يُرادَ منه الأمرانِ باعتبار كِلَا الفَريقينِ؛ لأنَّ المدلولاتِ الكنائيَّةَ تَتعدَّدُ، ولا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٥).

(٣) قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾- بتاء الخِطاب- على طريقة الالتفات. وقرأه الباقون (أَفَلَا يَعْقِلُونَ)- بياء تحتية-، فهو على هذه القراءةِ عائدٌ لِمَا عاد إليه ضمائرُ الغيبة قبْلَه، والاستفهام حينئذٍ للتعجب من حالهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٢- ١٩٦).

يَلزمُ مِن تَعدُّدِها الاشتراكُ؛ لأنَّ دَلالتَها التزاميَّةٌ[١].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٩٥).

الآيات (٢٢ - ٢٥)

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿يَجْحَدُونَ﴾: أي: يُنكِرونَ بألسِنَتِهم وهم مُستَيقِنونَ بقُلوبِهم، والجُحُود: نفْيُ ما في القلبِ إثباتُه، وإثباتُ ما في القلبِ نَفْيُه، وأصلُ (جحد): يدلُّ على قلَّةِ الخيرِ[١].

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي: لا مُغَيِّر لكَلماتِ الله، والتَّبديلُ: جَعْلُ شَيءٍ مَكانَ آخَرَ، وأصلُ (بدل): قِيامُ شَيءٍ مقامَ الشَّيءِ الذَّاهب[٢].

﴿نَّبَإِى۟﴾: النبأُ هو الخبَرُ الذِي له شَأنٌ، وفائدةٌ عظيمةٌ، ويحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، وأصل (نبأ): الإتيانُ من مكانٍ إلى مكانٍ؛ وسُمِّي الخبرُ نبأً؛ لانتقالِه من مكانٍ إلى مكانٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧، ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧١) (١٠/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨-٧٨٩).

﴿نَفَقًا﴾: أي: سَرَبًا ومَنفذًا في الأرضِ، وأصل (نفق): يدلُّ على إخفاءِ شَيءٍ وإغماضِه[١].

﴿سُلَّمًا﴾: أي: مِصْعَدًا، أو ما يُتَوصَّل به إلى الأمكِنَة العاليةِ، فيُرجى به السَّلامةُ، وقيل: سببًا؛ وسُمِّيَ سُلَّمًا؛ لتسليمِه إلى المَقْصِد[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى لنَبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّه يعلَمُ أنَّ ما يقولُه المُشْركونَ يُورِثُه الحُزنَ، وأخبرَه أنَّهم لا يكذِّبونَه في حقيقةِ الأَمْر، بل هم يَعْلمونَ أنَّه صادِقٌ، ولكنَّ الظَّالمينَ يُنْكِرون آياتِ اللهِ عنادًا.

ثم يُخبِرُ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قد حصَل التَّكذيبُ لرُسُلٍ مِن قَبلِه، فقابلوا التكذيبَ والأذى بالصَّبرِ حتى أتاهم نصْرُ اللهِ تعالى، ولا أحَدَ بإمكانه أن يُغَيِّرَ كلماتِ الله التي كتبَها مِن وَعْدِه لرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومَن معه بالنَّصرِ والظَّفَرِ، ثم ذكَّرَه اللهُ تعالى أنَّه جاءه مِن قَصَصِ الرُّسُل قبله، وأنَّ عاقبتَهم كانت النصرَ والظَّفَرَ.

ثم يقولُ اللهُ تعالى لنبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنْ كان شَقَّ عليك إعراضُ هؤلاء المشركينَ عن تَصديقِك، فإنِ استطعْتَ أن تتَّخِذَ نفَقًا تنفُذُ به إلى باطنِ الأرض، أو مِصْعَدًا تَرْقَى به إلى السَّماءِ، فتأتِيَهم بحُجَّةٍ وبُرهانٍ على صِدقِك؛ فلْتَفْعل ذلك، ولو شاءَ الله تعالى لجَمَع أولئك المكذِّبينَ على الهُدَى،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص:٩١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٠).

ثم نهى اللهُ نبيَّه أنْ يكونَ من الجاهلينَ الذين لا يَعْرِفون حَقائِقَ الأمورِ، ولا سُنَنَ اللهِ في خَلْقِه، فيعْظُمَ عليه إعراضُهم، ويَحْزَنَ لعدمِ إيمانِهم.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تكرَّر في هذه السُّورةِ أمْرُ اللهِ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمقاوَلَةِ الكفَّار، وذلك بتلقينِه لفْظَ (قل..، قل..)، وأطال في الحَثِّ على مُجادَلَتِهم، وختَم بما يَقتضي سَلْبَهم العقْلَ، مع تكريرِ الإخبارِ بأنَّ المَقضِيَّ بخَسارتِه منهم لا يُؤمنونَ لآيةٍ من الآيات، وكان مِن المعلومِ أنَّهم حالَ إسماعِهم ما أَمَر به لا يَسكتونَ؛ لِمَا عندَهم من عظيمِ النَّخْوة، وشماخَةِ الكِبْر، وقُوَّة الجُرأة، وأنَّه لا جوابَ لهم إلَّا التَّبعةُ والبذاءةُ، كما هو دَأْب المعانِد المغلوبِ، وأنَّ ذلك يَحزُنُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِمَا جُبِل عليه من الحَياءِ والشَّهامَةِ والصِّيانَةِ والنَّزاهَة- كان الحالُ محتاجًا إلى التَّسْلِيَة[1]، فقال تعالى:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾.

أي: قدْ عَلِمْنا أنَّ ما يقولُه المُشركون[2]، يُورِثُك الحُزْنَ يا محمَّدُ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٩٤).

(٢) ومِن ذلك قولُهم: إنَّه كذَّاب، أو شاعِر، أو ساحِر، أو كاهن، أو هذا الذي جئتَ به أساطيرُ الأولين، أو لا نقبَلُ دِينَك، أو يَقترحون الآياتِ تعنُّتًا، أو يقولون: لله البناتُ، أو نحن نعبُد ما عبَد آباؤُنا...إلخ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤-٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٧٧-١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٢).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾.

أي: فلا تظُنَّنَّ أنَّ ما يقولونَه صادرٌ عن شَكٍّ واشتباهٍ في صِدْقِك، وصِدْقِ ما جئتَ به؛ فهُم يَعلمون في قرارةِ أنْفُسِهم أنَّك صادقٌ، وأنَّ ما جئتَ به هو الحقُّ[1].

﴿وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ هؤلاءِ الكُفَّارَ يُنْكِرونَ- عنادًا منهم بسببِ ظُلْمِهم- الأدِلَّةَ والبراهينَ التي هي الحقُّ مِن عندِ اللهِ تبارَكَ وتعالَى[2].

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا أزالَ الله تعالى الحُزْنَ عن قلبِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الآيةِ السَّابقةِ؛ بأنْ بَيَّنَ أنَّ تكذيبَ رسولِه يَجري مَجرَى تكذيبِ اللهِ تعالى- ذَكَرَ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٠)، ((التسعينية)) لابن تيمية (٢/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٠-٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٣).

هذه الآيةِ طريقًا آخرَ في إزالةِ الحُزْنِ عن قلْبِه، وذلك بأنْ بيَّنَ أنَّ سائِرَ الأُمَم عاملوا أنبياءَهم بِمِثْل هذه المعامَلَةِ، وأنَّ أولئك صَبَروا على تَكذيبِهم وإيذائِهم حتَّى أتاهم النَّصْرُ والفَتْحُ والظَّفَرُ؛ فوجَب أن يَقْتديَ بهم في هذه الطريقةِ[١]؛ فقال:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾.

أي: ولقد كذَّبَ الكفارُ رُسُلًا مِن قَبْلِك- يا محمَّدُ- قد أرسَلَهم اللهُ تعالى إلى أقوامِهم، فصَبَروا على ما نالَهم من التكذيبِ والأذى البليغِ، ومَضَوْا في دَعْوتِهم وجِهادِهم، حتى أتاهم نَصْرُ اللهِ سبحانه، فإنْ يُكَذِّبْك- يا محمَّدُ- هؤلاءِ المشركونَ مِن قومِك، فلا يَحزُنْك ذلك، واصبِرْ على تَكذيبِهم إيَّاك وما تَلْقَى منهم من مَكروهٍ في ذاتِ الله عزَّ وجلَّ، كما صَبَروا[٢].

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا أحَدَ يَستطيعُ أنْ يُغيِّر كلماتِ الله تعالى التي كتبَها، والتي أنزَلَها إلى نبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مِن وَعْدِه المؤمنينَ بالنَّصْرِ والظَّفَر على مَن خالَفَهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٦-١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٨).

اختار ابنُ جريرٍ أنَّ المُرادَ بِكَلماتِ اللهِ تعالى: ما أنزَلَه إلى نبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِنَ الوَعدِ بالنَّصرِ على أعدائِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٤).

واختار ابنُ عاشورٍ أنَّ المرادَ بكَلِماتِ اللهِ تعالى: ما أوحاه اللهُ سُبحانه إلى عمومِ رُسُلِه مِنَ الوَعدِ بالنَّصرِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٢).

وقال ابنُ عثيمين: (وكلماتُه: هي وحيُه الذي أنزَلَه على الرُّسُلِ، وكذلك هي كلماتُه القَدَريَّةُ التي يكون بها النَّصرُ لأنبيائِه، والخِذلانُ لأعدائِه، ولا يَرِدُ على هذا ما جاء به النَّسْخُ؛ لأنَّ مُبَدِّلَ

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

أي: ولقدْ جاءَك- يا محمَّدُ- مِن قَصَص وأخبارِ مَن كان قبلك من الرُّسُل، كيف نُصِرُوا على مَن كذَّبَهم مِن قَوْمِهم؛ فلك فيهم أُسْوةٌ، وفي أخبارِهم تَثبيتٌ لفؤادِك، واطمئنانٌ لقَلْبِك[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا سلَّى اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما هو في غايةِ الكِفايةِ في التَّسْليةِ؛ أخبره بأنَّه لا حِيلةَ له غيرُ الصَّبرِ؛ فإنَّه لا سبيلَ إلى إيمانِ هؤلاء الجاحدينَ إلا

الحُكمِ المنسوخِ هو اللهُ عزَّ وجَلَّ، والآيةُ تدُلُّ على أنَّه لا أحَدَ يُبدِّلُ كَلِماتِ اللهِ، أمَّا اللهُ تبارك وتعالى، فله أن يُبدِّلَ؛ كما قال عَزَّ وجَلَّ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١]). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٨-١٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥).

بمشيئةِ الله وإرادتِه[١]، فقال تعالى:

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾.

أي: وإنْ كان عَظُم وشَقَّ عليك- يا محمَّد- إعراضُ هؤلاءِ المشركينَ عنك، وانصرافُهم عن تصديقِك فيما جئْتَهم به من الحَقِّ؛ لِحِرْصِك عليهم، ومَحبَّتِك لإيمانِهم[٢].

﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾.

أي: فإنْ قدرْتَ- يا محمَّدُ- على أنْ تتَّخِذَ سِرْدابًا تنفُذُ به إلى باطِنِ الأرض، أو تطلُب مِصْعَدًا تصعَدُ به كالدَّرَجِ إلى السَّماءِ؛ لتأتِيَهم بعَلامةٍ وبرهانٍ على صِدْقِك، وصِحَّةِ قولِك؛ فافعلْ ذلك[٣].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

أي: ولو شاءَ اللهُ تعالى لجَمَع أولئك المكذِّبينَ على طَريقِ الاستقامةِ؛ فهو القادِرُ على ذلك سبحانه، ولكنَّه لم يَفعَلْ؛ وَفقًا لِمَا تَقتضيه حِكمَتُه سبحانه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠٠)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٥/ ٦٨).
قال ابنُ عاشورٍ عن هذه الآيةِ: (عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ فإنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم كان يَحزُنُه ما يَقولونه فيه مِنَ التَّكْذيبِ به وبالقرآنِ، حُزْنًا على جَهْلِ قَوْمِه بقَدْرِ النَّصيحَةِ، وإنكارِهِم فَضيلَةَ صاحِبِها، وحُزْنًا من جَرَّاءِ الأسَفِ عليهم من دَوامِ ضَلالِهِم شفقةً عليهم، وقد سَلَّاه اللَّه تعالى عن الحُزْنِ الأَوَّلِ بقولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ وسَلَّاه عن الثَّاني بقولِه: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ...﴾ الآيَةَ) .((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٣)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٥-٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٧).

وتعالى؛ فلا تكونَنَّ- يا محمَّدُ- مِن الذين لا يَعرفونَ حَقائِقَ الأمورِ، وسُنَنَ اللهِ تعالى في خَلْقه، فيَكْبُرَ عليك إعراضُهم، وتَحْزَنَ لعدمِ إيمانِهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يونس: ٩٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ فيه التسليةُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإرشادٌ له إلى سُنَّتِه تعالى في الرُّسُل والأُمَم، أو هي تذكيرٌ بهذه السُّنَّة، وما تتضمَّنه مِن حُسْن الأُسْوةِ، وقد ثبت بالتَّجارِبِ أنَّ التأسِّيَ يُهَوِّنُ المُصابَ، ويُفيدُ شيئًا من السَّلوةِ؛ فالإنسانُ إذا عَلِم أنَّ غَيرَه قدْ أصابَه ما أصابَه هانَ عليه الأمْرُ، ويَنبغي لنا أيضًا أنْ نتأسَّى ونتسلَّى أيضًا بما جرَى للرُّسُل عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فنَصبِرَ على أذَى مَن يقومُ أمامَ دَعوتِنا، والعاقبةُ للمُتَّقين[(٢)].

٢- يُؤخَذ من قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أنَّه ينبغي للدُّعاةِ أن يتسَلَّوْا برسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإذا سَمِعوا ما يَكرهونَ من هؤلاءِ المكذِّبينَ المعاندينَ، فلْيَتَسلَّوْا به ويقولوا في أنفُسِهم وبألسِنَتِهم: إنَّ الله تعالى عالِمٌ بما تقولون وسيُجازيكم[(٣)].

٣- قوله تعالى: ﴿فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ فيه أنَّ فَرَج الله عزَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٨-١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٠- ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٤، ١٧٥).

وجلَّ يأتي مع شِدَّةِ الكَرْب؛ فكلَّما اشتدَّ الكَرْبُ، فاعلَمْ أنَّه دنا الفَرَجُ[١].

٤- أفاد قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ أنَّه لا يُرجى النَّصرُ إلَّا مِن عندِ الله؛ لأنَّه قال: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا﴾، ولم يَقُلْ: حتى نَصَرَهم فلانٌ أو فلان، لهذا جعل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم يُناشِدُ ربَّه النَّصْرَ، في عريشٍ له، يومَ بَدْرٍ؛ حتى نصَره اللهُ- والحمدُ لله- فلا يُطلَبُ النصرُ إلَّا من الله، حتَّى في المجادلةِ العِلميَّة لا يُطلبُ النصرُ مِن المُوافِق، أو غيره، بل يُطلَبُ النَّصرُ مِن اللهِ، وإذا وصَلَ الإنسانُ إلى الحقِّ، فلْيَطلبْ مِن الله تعالى أنْ يَنصُرَه، أو يطلبْ مِن اللهِ تعالى أنْ يَهديَه صِراطَه المستقيمَ[٢].

٥- يُستَفاد من قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ أنَّ الإنسانَ يَنبغي له ألَّا يَهُونَ عليه إعراضُ النَّاسِ، بل يكونُ كبيرًا في نفْسِه، لكنْ لا تَعصُّبًا لِمَا هو عليه، ولكنْ من أجْلِ مَصلحةِ الآخرينَ[٣].

٦- أنَّ الهدايةَ والضَّلالةَ بيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾[٤].

٧- في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ بيانُ حِكمةِ الله عزَّ وجلَّ في جَعْلِ الناس صِنْفينِ: مؤمنينَ وكافرينَ، وهذا أمرٌ لا بدَّ منه؛ لأنَّه لولا الكُفرُ لم يُعْرَفْ فضلُ الإيمانِ، ولولا الإيمانُ لم يُعرَفْ قُبحُ الكُفْرِ، فإنْ لم يكُن هناك أشياءُ متضادَّةٌ ما عُرِف فَضْلُ الأشياءِ المحمودة، ثم إنَّه لولا اختلافُ النَّاسِ في الإيمانِ والكُفْر ما قامتْ رايةُ الجهادِ؛ لأنَّهم كلَّهم إمَّا مؤمنونَ وإمَّا كافرون؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨١، ١٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩١).

فمن يجاهدُ؟! فلولا هذا الاختلافُ ما قام الأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المنكَر؛ لأنَّ النَّاسَ سيكونون كلُّهم إمَّا على مُنكرٍ وإمَّا على معروفٍ، لولا هذا الاختلافُ ما قامتِ الدَّعوةُ إلى الله- عزَّ وجلَّ-؛ لأنَّهم إنْ كانوا مؤمنينَ كلُّهم لم يَحتاجوا إلى دعوةٍ، وإنْ كانوا كافرينَ ما دُعُوا، إذَن فَمِنَ الحِكْمةِ أنَّ الله جعل الخَلْقَ صِنفينِ[(١)].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿لَيَحۡزُنُكَ﴾ فيه حِرْصُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ على هِدايةِ الخَلْقِ، وأنَّه يَحْزُنُه إعراضُ النَّاسِ عن دِينِ اللهِ[(٢)].

٢- في قوله: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ﴾ ليس نهيًا عن الحُزنِ- في حدِّ ذاتِه-؛ إذ لا شكَّ أنَّ الحُزنَ عندَ وقوعِ ما يَسوءُ مِن طَبْعِ البَشَرِ، الذي لا يُقدَرُ على الانفكاكِ عنه، فالنَّهيُ عنه- إذن- إنَّما هو نهيٌ عمَّا يَنشأُ عنه من الاسترسالِ المؤدِّي إلى الجَزَعِ المؤدِّي إلى عدَمِ الصَّبر، ونِسيانِ ما يُعزِّي؛ فهو من النَّهْيِ عن السَّبَب؛ للمبالغةِ في النَّهيِ عن المُسَبَّب[(٣)].

٣- في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ أنَّ الجحْدَ بآياتِ الله كُفْرٌ، ولو استيقَنَها الإنسانُ ما دام جَحَدها، وإنْ كان مؤمنًا بها في قَلْبِه؛ فإنَّه يَكفُر؛ لأنَّ أحكامَ الدُّنْيا تَجري على الظَّاهِر، فنحن نُكَفِّرُ مَن أظهَرَ الكُفرَ وإنْ كان مؤمنًا بقَلبِه، ونَسْكُتُ عمَّن أظْهَر الإسلامَ، ولو كان كافرًا بقَلْبِه؛ لأنَّ هذه هي أحكامُ الدُّنيا التي أوجبَها اللهُ عزَّ وجلَّ؛ إذ إنَّنا لا نعلَمُ ما في

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٩٤).

قلوبِ النَّاسِ[(١)].

٤- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ظاهِرُه يَقتضي أنَّهم لا يُكذِّبون محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولكنَّهم يَجحدونَ بآياتِ الله، واختَلَفوا في كيفيَّةِ الجَمْعِ بين هذينِ الأمرينِ على وجوه:

الوجه الأوَّل: أنَّ القَوْمَ ما كانوا يُكَذِّبونه في السِّرِّ، ولكنَّهم كانوا يُكذِّبونَه في العلانِيَة، ويَجْحدون القرآنَ والنُّبوَّةَ.

الوجه الثاني: أنَّهم لا يقولون: إنَّك أنتَ كذَّاب؛ لأنَّهم جرَّبوك الدَّهْرَ الطَّويلَ، والزَّمانَ المديدَ وما وجَدُوا منك كذِبًا البتَّةَ، وسَمَّوْكَ بالأمينِ؛ فلا يقولون فيك: إنَّك كاذبٌ، ولكنْ جَحَدوا صِحَّةَ نبوَّتِك ورسالتِك؛ إمَّا لأنَّهم اعتقدوا أنَّ محمَّدًا عرَضَ له نوعُ خبلٍ ونُقصان؛ فلأجْلِه تخيَّل مِن نفْسِه كونَه رسولًا مِن عند الله، وبهذا التقدير: لا ينسبونَه إلى الكَذبِ، أو لأنَّهم قالوا: إنَّه ما كذَبَ في سائرِ الأمور، بل هو أمينٌ في كلِّها إلَّا في هذا الوجهِ الواحدِ.

الوجه الثَّالث: أنَّه لَمَّا ظهرتِ المعجزاتُ القاهرةُ على وَفْقِ دعواه، ثم إنَّ القوم أصرُّوا على التكذيبِ، فاللهُ تعالى قال له: إنَّ القَوْمَ ما كذَّبوك، وإنَّما كذَّبوني. وليس المقصودُ منه نفيَ تكذيبِه، بل المقصودُ تعظيمُ الأمرِ، وتفخيمُ الشَّأن، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

والوجه الرَّابع: أنْ يُقال: المرادُ من قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: لا يَخصُّونَك بهذا التَّكذيبِ؛ بل يُنْكرونَ دَلالةَ المُعْجِزة على الصِّدْق مطلقًا، وهو المرادُ من قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، والمرادُ أنَّهم يقولونَ في كلِّ مُعجزةٍ: إنَّها سِحْرٌ، ويُنْكرون دَلالةَ المُعجزةِ على الصِّدقِ على الإطلاقِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٥).

فكان التقديرُ: إنَّهم لا يُكَذِّبونك على التَّعيينِ، بل القومُ يُكذِّبون جميعَ الأنبياءِ والرُّسُل، واللهُ أعلم[١].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ سؤالٌ: ما الحِكْمَةُ من إرسالِ الرُّسُل مع تكذيبِهم؟

والجوابُ: أنَّ ذلك لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، أي: على المُكذِّبين؛ لأنَّ هؤلاء المكَذِّبين لو لم يَأتِهم رسولٌ لقالوا: ربَّنا لولا أرسلْتَ إلينا رسولًا، ولو لم يأْتِهم رسولٌ لكان لهم حُجَّةٌ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[٢] [النساء:١٦٣-١٦٥].

٦- في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ بِشارةٌ للرَّسولِ مؤكِّدةٌ للتَّسليةِ بأنَّه سَينصُره على المكذِّبين الظَّالمينَ مِن قَومِه، وعلى كُلِّ من يكذِّبُه ويُؤْذيه من أمَّة البَعْثَة، وإيماءٌ إلى حُسْنِ عاقبة الصَّبر؛ فمَن كان أصبرَ كان أجدَرَ بالنَّصْرِ، إذا تساوتْ بين الخَصْمينِ سائرُ أسبابِ الغَلَب والقَهْر[٣].

٧- يُستَفاد من إضافةِ الكَلِمات إلى الاسْمِ الأجَلِّ الأَعظَمِ في قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشعورُ بعلَّة القَطعِ بأنَّه لا مبدِّلَ لها؛ لأنَّ المُبَدِّلَ لكلماتِ غيرِه لا بُدَّ أن تكون قُدرَتُه فوق قُدْرَتِه، وسلطانُه أعْلَى من سلطانِه[٤].

٨- أنَّه لا أحَدَ يبدِّلُ كلماتِ الله؛ فإذا قدَّر اللهُ النَّصرَ، فلا أحَدَ يمنَعُه، وإذا قدَّرَ الخِذلان فلا أحَدَ يمنعه؛ أمَّا الكلماتُ الكونيَّةُ فعدمُ المُبَدِّل لها ظاهرٌ؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٨، ٥١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٩، ١٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣١٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الكلماتِ الكونيَّةَ لا بدَّ أن تقعَ، كن فيكون، ولا أحدَ يَستطيعُ أنْ يُبدِّلها، فإذا قال اللهُ تعالى: (كُنْ) لنُزولِ المَطَرِ نَزَل، ولا أحد يمنَعُه، وإذا قال: (كُنْ) لامتناعِ المَطَرِ امتنعَ، ولا أحدَ يُنْزِله. أمَّا الكلماتُ الشَّرعيَّة فمِنَ النَّاسِ مَن يُبَدِّلها، لكنَّ تبديلَه هذا باطلٌ، والباطِلُ لا وجودَ له شرعًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾[١].

٩- قوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ فيه تَطْمينٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ اللهَ تعالى ينصرُه، كما نصَر مَن قبلَه من الرُّسُل[٢].

١٠- يُستَفادُ من قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ بيانُ شِدَّةِ حِرصِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على هِدايَتِهم، بأنَّه لو قَدَرَ على أنْ يتكَلَّفَ النُّزُولَ إلى تَحتِ الأرضِ أو فوقَ السَّماءِ فيأتِيَهم بما يُؤمنون به؛ لفَعَلَ[٣].

١١- أنَّ الله سبحانه وتعالى قد يُبَيِّن الشَّيءَ المستحيلَ بِضَرْب مَثَلٍ له، دون أن يذكُرَه بعَينِه؛ وجْهُه أنَّ اللهَ قال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾، يعني: فافْعَلْ، بدلًا من أن يقول: وإنْ كان كبُر عليك إعراضُهم فإنَّهم لن يؤمنوا، ولأنَّ هذا هو المتوقَّع، لكنَّ الله تعالى ضرب مثَلًا حتى يكون مُقْنِعًا للرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام ولغيره أيضًا[٤].

١٢- يُستَفاد من قولِه تعالى: ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أنَّه لا بدَّ لكلِّ نبيٍّ من آيةٍ، وهذا مِن حِكمةِ الله عزَّ وجلَّ، أرأيتَ لو جاء رجلٌ في غيرِ هذه الأُمَّة، وادَّعى أنَّه رسولٌ، وقال: أنا رسولٌ ومنهجي كذا، وعقيدتي كذا، وعبادتي كذا، فأطيعوني

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٠، ١٩١).

بدون أيِّ آيةٍ، هل يكونُ هذا منَ الحِكمةِ؟ الجوابُ: لا، ومَن كَذَّبَه فهو معذورٌ، وإلَّا لكان كلُّ كاذبٍ دجَّالٍ يدَّعِي أنَّه نبيٌّ، وربَّما يدَّعي أنَّه ربٌّ، فالآياتُ فيها نصرٌ للرُّسُل، ورحمةٌ بالمُرْسَل إليهم؛ حتى يُؤمِنوا عن يقينٍ[١].

١٣- يُستَفاد من قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إثباتُ مرتبةٍ مِن مراتبِ الإيمانِ بالقَدَرِ، وهي المشيئةُ، وأنَّ اللهَ تعالى قد شاءَ جميعَ أفعالِ عِبادِه، ومراتِبُ القَدَر أربعةٌ، وهي: العِلْم، والكِتابةُ، والمشيئةُ، والخَلْق[٢].

١٤- في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ قد يَستشكِلُ بعضُهم أنَّه ما دُمْنا نقول: إنَّ الكُفْر بمشيئةِ الله، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ بحِكْمته قَسَّم النَّاسَ إلى قِسْمينِ؛ أفلا يقولُ الكافِرُ إنَّ في هذا ظلمًا لي؟

والجوابُ: لا، ليس ظلمًا، وليس له أنْ يَحتجَّ بالقَدَر على ما هو فيه؛ وذلك للآتي:

أولًا: أنَّ مَنْعَ اللهِ الكافرَ مِن الإيمان ليس ظلمًا؛ لأنَّ هذا حقُّه تعالى وفضلُه، وفضلُ اللهِ يُؤتِيه مَن يشاءُ.

ثانيًا: لا حُجَّةَ للكافِرِ ولا للعاصي على كُفره ومَعْصِيَتِه بقَدَر اللهِ تعالى؛ لأنَّه يُقْدِمُ على ذلك باختيارِه، من غيرِ أنْ يَعلمَ أنَّ الله تعالى قَدَّرَه عليه؛ إذ لا يَعلمُ أحدٌ بقَدَر اللهِ إلَّا بعد وقوعِ مَقدورِه؛ فكيف يصِحُّ الاحتجاجُ بحُجَّةٍ لا يعلمُها المحتَجُّ حين إقدامِه على ما اعتذرَ بها عنه؟!

ثالثًا: إنْ كان حقًّا محتجًّا بالقدَرِ؛ فلماذا لم يُقْدِمْ على الطَّاعةِ مُقدِّرًا أنَّ الله تعالى قد كتبَها له؛ فإنَّه لا فَرْقَ بينها وبين المعصِيَةِ في الجَهلِ بالمقدورِ قبلَ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

صُدُور الفِعْل منه؟! ولهذا لَمَّا أخْبَر النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الصَّحابةَ بأنَّ كُلَّ واحدٍ قد كُتِبَ مَقْعَدُه من الجنَّة ومَقْعَدُه من النَّار، قالوا: أفلا نَتَّكِلُ، ونَدَعُ العملَ؟ قال: ((اعْمَلوا؛ فكُلٌّ ميَسَّرٌ لِما خُلِقَ له))[١].

رابعًا: أنَّ هذا الكافرَ أو العاصِي إذا أرادَ سفرًا، وكان له طَريقانِ؛ أحدُهما مَخُوفٌ وصعبٌ، والآخَر آمِنٌ سَهْلٌ، فإنَّه سيسلُك الآمِنَ، ولا يُمكن أن يَسلُكَ الأوَّلَ ويقول: إنَّه مُقدَّرٌ، وإلَّا لعُدَّ مَجنونًا؛ فلِمَ يَسلكُ- إذنْ- طريقَ الكفر والمعاصي ثم يحتجُّ بالقدَرِ[٢]؟!

١٥- شِدَّة الخِطابِ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، فيه سرٌّ لطيفٌ، وهو تبعيدُ جنابِه الكريمِ عن الحِرصِ على ما لا يكونُ، والجزعِ في مواطِنِ الصَّبرِ، ممَّا لا يليقُ إلَّا بالجاهِلين، وهذا النهيُ لا يَقتضي إقدامَه على مِثلِ هذه الحالةِ كما أنَّ قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨] لا يدلُّ على أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أطاعَهم وقَبِلَ دِينَهم، والمقصود: أنَّه لا يَنبغي أن يَشتدَّ تحسُّرُك على تَكذيبهم، ولا يجوزُ أن تجزعَ مِن إعراضِهم عنك؛ فإنَّك لو فعلتَ ذلك قرُبَ حالُك مِن حالِ الجاهلِين[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

- استئنافٌ ابتدائيٌّ مسُوقٌ لتسليَةِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الحُزْن

(١) ينظر ما أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٢، ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٩)، وينظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠١).

الذي يَعتريهِ ممَّا حُكِيَ عن الكَفَرة من الإصرارِ على التَّكذيبِ، والمبالغَةِ فيه، ببيانِ أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بمكانةٍ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

- و﴿قَدۡ﴾ هنا تُفيدُ التَّحقيقَ للخَبَرِ الفِعليِّ ﴿نَعۡلَمُ﴾؛ فإنَّ (قَدْ) في تَحقيقِ الجُملةِ الفِعليَّةِ بمنزلةِ (إنَّ) في تَحقيقِ الجُملةِ الاسميَّةِ، ومعنى التَّحقيقِ مُلازِمٌ له، سواءٌ كان مدخولُه ماضيًا أو مضارعًا على الأَصَحِّ[٢]، والقاعدةُ: أنَّ (قد) إذا دخَلَتْ على المضارعِ المسنَدِ إلى اللهِ تعالى، فهي للتَّحقيقِ دائمًا[٣].

- قوله: ﴿نَعۡلَمُ﴾ عَبَّر بالمضارعِ؛ لأنَّ المرادَ الاتِّصافُ بالعِلْم واستمرارُه، مِن غيرِ نظَرٍ إلى الزَّمانِ، وعَدَل عن الماضِي؛ لئلَّا يُظَنَّ الاختصاصُ به، فالمرادُ تحقُّقُ التجدُّد؛ لتعلُّقِ العِلْم بتجدُّدِ الأقوالِ[٤].

- وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَقُولُونَ﴾، أي: أقوالُهم الدالَّةُ على عدَمِ تَصديقِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما دلَّ عليه قولُه بعده: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ﴾؛ فعَدَل سبحانه عن ذِكْر اسْمِ التَّكذيبِ ونَحْوه إلى اسمِ الموصولِ وصِلَتِه، فقال: ﴿ٱلَّذِي يَقُولُونَ﴾ ولم يَقُلْ: (تَكذيبُهم)؛ تَنزيهًا للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن ذِكْر هذا اللَّفْظِ الشَّنيعِ في جانبِه؛ تلطُّفًا معه، و﴿ٱلَّذِي يَقُولُونَ﴾ هو قولهم: ساحرٌ، مجنونٌ، كاذبٌ، شاعرٌ؛ فعَدَلَ عن تفصيلِ قولهم إلى إجمالِه؛ إيجازًا، أو تحاشيًا عن التَّصريحِ به في جانَبِ المنزَّهِ عنه[٥].

- والفاءُ في قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ للتَّعليلِ، والمعلَّل محذوفٌ دلَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٨٨-٤٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٠٣-٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٧-١٩٦).

(٣) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٩٤)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٨).

عليه قوله: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ﴾، أي: فلا تَحْزَنْ؛ فإنَّهم لا يُكذِّبونك، أي: لأنَّهم لا يُكذِّبونك. ويجوزُ كونُها الفَصيحةَ[١]، والتقديرُ: فإنْ كان يَحزنُك ذلك لأجْلِ التكذيبِ فإنَّهم لا يُكذِّبونك. ويجوزُ أنْ تكونَ للتفريعِ على ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ﴾، أي: فعِلْمُنا بذلك يتفرَّعُ عليه أنَّا نُثبِّتُ فؤادَك، ونشرَحُ صدرَك بإعلامِك أنَّهم لا يكذِّبونك، وأنْ نُذكِّرَك بسُنَّة الرُّسُلِ مِن قبلِك، ونُذكِّرك بأنَّ العاقبةَ هي نصرُك- كما سبَق في عِلم اللهِ[٢].

- قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ فيه استدراكٌ[٣] لدَفْع أن يُتَوَهَّمَ من قولِه: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أنَّهم لم يَصدُرْ منهم أصْلُ التَّكذيبِ، مع أنَّ الواقِعَ خِلافُ ذلك؛ فاستدرَكَ عليه بأنَّهم يَجْحَدونَ بآياتِ الله، فيَظْهَر حالُهم كحالِ مَن يَنْسُب الآتيَ بالآياتِ إلى الكَذِب، وما هُم بمكَذِّبينَ في نُفوسِهم[٤].

- وفيه: إقامَةُ الظَّاهِرِ مَقامَ المُضْمَر- حيثُ عدَل عن الإضمارِ (ولكنَّهم) إلى قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾-؛ للإسهابِ في ذمِّهم، وللتَّصْريحِ بلَفْظِ الظُّلْم

---

(١) الفاءُ الفصيحة: هي التي يُحذَف فيها المعطوفُ عليه، مع كونِه سببًا للمعطوفِ مِن غيرِ تقديرِ حرفِ الشَّرط. وقيل: سُميت فصيحةً؛ لأنَّها تفصحُ عن المحذوفِ، وتفيدُ بيانَ سببيته، سواء أكان المحذوفُ شرطًا أم غير شرطٍ، وقال بعضُهم: هي داخلةٌ على جملة مسببةٍ عن جملةٍ غيرِ مذكورةٍ، نحو قولِه تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ﴾ [البقرة: ٦٠] أي: ضرَب فانفجرتْ. يُنظر: ((معجم القواعد العربية)) للدقر (١/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٨).

(٣) الاستدراك: هو رفع توهُّم يتولَّد من الكلامِ السَّابق رفعًا شَبيهًا بالاستثناء، وهو معنى (لَكِنْ)، وهو من البَديع، ويُشترَطُ فيه زيادةُ نُكتةٍ طريفةٍ على معنى الاستدراكِ؛ لتُحسِّنَه وتُدخلَه في البديع، وإلَّا فلا يُعدُّ منه؛ وهو قِسمان: قسمٌ يَتقدَّم الاستدراكَ تَقريرٌ وتوكيدٌ؛ إمَّا لفظًا أو معنًى لِمَا أخبرَ به المتكلِّم، وقِسمٌ لا يتقدَّمه ذلك. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٣٨)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لصدر الدين المدني (١/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٩).

وتَسْمِيَتِهم به؛ ليكونَ سِمةً يَتميَّزونَ بها؛ زيادةً في تأكيدِ ذَمِّهم، وللدَّلالةِ على أنَّ الظُّلْم هو الحامِلُ لهم على الجُحُود، وإعلامًا بأنَّ شأنَ الظالمِ الجَحدُ بالحُجَّة، وتَسجيلًا عليهم بالرُّسوخِ في الظُّلْم- الذي جُحودُهم هذا فَنٌّ من فُنونِه- وأنَّ هذا الظلم سَجيَّتُهم[١].

- وفي قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الالتفاتُ إلى الاسمِ الجليلِ لتربيةِ المهابَةِ، واستعظامِ ما أقْدَموا عليه من جحودِ آياته تعالى، وإيرادُ الجحودِ في مَوْرِد التكذيبِ؛ للإيذانِ بأنَّ آياتِه تعالى مِنَ الوضوحِ بحيث يشاهِدُ صِدْقَها كلُّ أحدٍ[٢].

- وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ وتقديمُه عليه؛ للقَصْرِ ولإفادةِ الحَصْرِ، كأنَّ المعنى: (وَلَكنَّ الظَّالمينَ لا يَجحدون إلَّا بآياتِ اللهِ)، وإلَّا فهم يَعترفونَ بأشياءَ كثيرةٍ إلَّا آياتِ اللهِ؛ فإنَّهم لا يَعترِفون بها[٣].

- وأيضًا قدِّمَ قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ على قولِه: ﴿يَجۡحَدُونَ﴾؛ لتناسُبِ رؤُوسِ الآياتِ[٤].

- وفي هذه الآيةِ احتباكٌ؛ حيث حُذِفَ مِن الجملة الأولى سببُ الحُزنِ، وهو التَّكذيبُ؛ لدَلالةِ الثانية عليه، وحُذِفَ مِن الثَّاني النهيُ عن المسبِّبِ؛ لدَلالةِ الأولى عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص:١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٩٦).

وذكَر ابنُ عاشور وجهًا آخرَ فقال: (... فيكونُ في الآيةِ احتباكٌ. والتقديرُ: فإنَّهم لا يكذِّبونك ولا يكذِّبون الآياتِ، ولكنَّهم يجحدون بالآياتِ، ويجحدون بصدقِك، فحذَف مِن كلٍّ لدلالةِ

٢- **قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

- قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تصديرُ الكلامِ بلام القَسَم في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ لتأكيدِ الخَبَر بتنزيلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منزلةَ مَن ذُهِلَ طويلًا عن تكذيبِ الرُّسُلِ؛ لأنَّه لَمَّا أحْزَنَه قولُ قَومِه فيه، كان كمن بَعُد عِلمُه بذلك[١].

- وفيه افتنانٌ في تسليتِه عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فإنَّ عمومَ البليَّةِ ربما يُهوِّنُ أمرَها بعضَ تهوينٍ، وإرشادٌ له عليه الصَّلاةُ والسلام إلى الاقتداءِ بمن قبلَه من الرُّسُل الكرامِ عليهم الصَّلاة والسَّلام في الصَّبرِ على ما أصابَهم من أُمَمِهم من فنونِ الأَذِيَّة، وعِدَةٌ ضمنيَّةٌ له عليه الصَّلاة والسَّلام بمِثل ما مُنِحوه من النَّصْر[٢].

- وتنكيرُ قوله: ﴿رُسُلٌ﴾ وتنوينُه؛ للتَّفخيمِ والتكثيرِ[٣].

- قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ فيه التفاتٌ بديعٌ من ضميرِ الغَيبةِ إلى ضَميرِ المتكَلِّمِ؛ إذ قبله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، ولو جرى الكلامُ على نَسَقِه لقيل: (نَصْرُه)، وفائدةُ هذا الالتفات- بالإضافَةِ إلى تطريةِ الكلامِ وتنويعِه-: إبرازُ الاعتناءِ بشأنِ النَّصْر، وأنَّه أضاف النَّصْرَ إلى ضميرِ المتكلِّم المُشْعِر بالعَظَمة، المُتَنَزَّل فيه الواحِدُ منزلَةَ الجمعِ، والحافِز على وجوب مداومَةِ الجهاد[٤].

الآخرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٠١).

- وأيضًا إضافةُ النَّصرِ إلى ضَميرِ العَظَمة تُشْعِر بعظَمَة شأنِهِ، وتشيرُ إلى كونِه من الآياتِ المؤَيِّدَة لرُسُلِه[١].

- قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ اعتراضٌ مُقَرِّر لِمَا قبله من إتيانِ نَصْرِه إيَّاهم[٢].

- والالتفاتُ إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾؛ للإشعارِ بعلَّةِ الحُكم؛ فإنَّ الألوهيَّةَ من موجِباتِ ألَّا يُغالبَه أحدٌ في فعلٍ من الأفعالِ، وأنه لا يقعَ منه تعالى خُلْفٌ في قولٍ من الأقوالِ[٣].

- قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جملةٌ قَسميَّة جِيءَ بها لتحقيقِ ما مُنِحوا من النَّصْرِ، وتأكيدِ ما في ضِمْنِه من الوَعْد لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو لتقريرِ جميعِ ما ذُكِر من تكذيبِ الأُمَمِ، وما ترتَّب عليه مِن الأمورِ[٤].

٣- قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

- قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ...﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مسوقٌ لتأكيدِ إيجابِ الصَّبرِ المستفادِ من التَّسْليَةِ ببيانِ أنَّه أمْرٌ لا محيدَ عنه أصلًا[٥].

- وتقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْكَ﴾؛ للاهتمامِ بالمقدَّم، والتشويقِ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٩١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٨).

المؤخَّر[١].

- قوله: ﴿فَتَأْتِيَهُم بِغَايَةٍ﴾ تنكير ﴿بِغَايَةٍ﴾؛ للتَّفخيمِ[٢].

- قوله: ﴿نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ صفةً لـ ﴿نَفَقًا﴾؛ لإفادةِ المبالغةِ في العُمْقِ، مع استحضارِ الحالةِ، وتَصويرِ حالةِ الاستطاعةِ؛ إذ مِن المعلومِ أنَّ النَّفَقَ لا يكون إلَّا في الأرضِ[٣].

- قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ تذييلٌ مفرَّعٌ على ما سَبَق.

- وأكَّد اللهُ تعالى الكلامَ في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ليَعْلَمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قد حتَّمَ اللهُ بافتراقِهم، فيَسْكُن إلى ذلك، ويُخالِف ما جُبِلَ عليه من شِدَّةِ الشَّفقةِ عليهم[٤].

- وعَدَل عن الأَمْرِ بالعِلْمِ- حيثُ لم يَقُلْ (فاعْلَمْ)-؛ لأنَّ النَّهيَ عن الجَهلِ يَتضمَّنُه؛ فيتقَرَّرُ في الذِّهن مرَّتينِ؛ ولأنَّ في النهي عن الجَهْل بذلك تحريضًا على استحضارِ العلمِ به، كما يُقال للمُتعَلِّم: لا تَنْسَ هذه المسألةَ[٥].

- ولم يقلْ (لا تكُنْ جاهلًا) بل مِن قومٍ ينُسَبون إلى الجهلِ، تعظيمًا لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ بأن لم يُسنِدِ الجهلَ إليه؛ للمبالغةِ في نفيِه عنه[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠٠-١٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٧).

وقال ابنُ عاشور: (وليس في الكلامِ نَهيٌ عن شيءٍ تلبَّسَ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كما توهَّمَه جمْعٌ من المفسِّرين، وذهَبوا فيه مذاهِبَ لا تَسْتبين)، وينظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٤٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٤٩).

الآيات (٢٦ - ٢٩)

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا
نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾
وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ
ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ
يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿دَآبَّةٍ﴾: الدابَّةُ هي كلُّ شيءٍ دبَّ على وجه الأرضِ، ويُستعْمَلُ في كلِّ حيوانٍ، وفي الحشراتِ أكثَر، وأصل (دبب): حركةٌ على الأرض أخَفُّ من المَشْيِ[١].

﴿أُمَمٌ﴾: جمعُ أمَّة، أي: جماعة، وتُطلَق على المِلَّة، والسُّنة، والحِين، وأصل (أمم): الأَصلُ والمَرْجِع، والجماعة، والدِّين[٢].

﴿صُمٌّ﴾: جمْعُ أصَمَّ، والصَّمَم فُقدانُ حاسَّة السَّمْع، وبه يُوصَفُ مَن لا يُصغي إلى الحقِّ، ولا يَقبَلُه، وأصْلُه: الصَّلابةُ، وقيل: السَّدُّ[٣].

﴿وَبُكْمٌ﴾: جمْع أبْكَم، وهو الذي يُولَدُ أخرْسَ؛ فكُلُّ أبكمَ أخرَسُ، وليس كلُّ أخرَسَ أبكَمَ، والبَكم: آفةٌ في اللِّسان مانعةٌ من الكلام، وبه يُوصَفُ مَن لا ينطقُ بالحقِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١، ١٤٤، ٢٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٢٨)، ((مقاييس

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه إنَّما يستجيبُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم أولئك الذين يَسمعونَ توجيهاتِه وأقوالَه سماعَ تدبرٍ وتفهُّم وتأمُّلٍ، وأمَّا الكُفَّارُ فيبعَثُهم اللهُ من قُبورهم، ثم يَعودونَ إليه؛ ليجازِيَهم على أعمالِهم.

وقال المشرِكونَ المُكَذِّبون برسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لو أُنْزِلَ على محمَّدٍ علامةٌ من عند ربِّه تدلُّ على صِدقِه. فأَمَرَ اللهُ نبيَّه أن يُخبِرَهم أنَّه تعالى قادِرٌ على أن يُنَزِّلَ تلك العلامةَ، ولكنَّه سبحانَه يُنزِّل ما تَقتضيه حِكمتُه، ولكِنَّ أكثرَهم لا يَعلمونَ حِكَم الله في أفعالِه، ولا سُننَه في خلْقِه.

ثم بيَّنَ اللهُ تعالى لخَلْقِه بعضَ آياتِه الكونيةِ؛ ومنها أنَّه ما مِن دابةٍ تَدِبُّ على الأرضِ، ولا طائرٍ يَطيرُ في السَّماءِ، إلا وهي أممٌ مماثلةٌ لكم، ما أهمَلَ ولا أغفَلَ سبحانه في اللَّوْحِ المحفوظ شيئًا، ثمَّ إلى الله تعالى يُحْشَرونَ جميعًا.

ثم يُخبِرُ تعالى أنَّ المُكَذِّبين بحُجَج اللهِ تعالى هم صمٌّ عن سَماع الحَقِّ، بُكْمٌ عن النُّطْقِ به، وهم في ظُلُماتِ الكُفْر لا يُبْصِرونَ، وأنَّ مَن يُرِدِ اللهُ إضلالَه مِن خَلْقِه أضَلَّه، ومَن يُرِدْ هدايتَه فإنَّه يَدُلُّه للسَّيرِ على الطَّريقِ المُستقيمِ المُوصِل إليه.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

هذه الآيةُ تعليلٌ لِمَا أفادَه قولُه: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ ﴾ إلى قَولِه: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ من تأييسٍ مِن وُلوجِ الدَّعوةِ إلى أنْفُسِهم، أي لا يستجيبُ

اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٣).

إلَّا الذين يسمعونَ دونَ هؤلاءِ الذين حَرَمهم فائدةَ السَّمعِ، وفهمَ المسموعِ[١].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ الله تعالى في الآية السابقةِ أنَّه لو شاءَ لجَمَع النَّاسَ على الهُدى، ولكنَّه لم يَشَأْ أن يَجعلَ البَشَر مَفطورينَ على ذلك، ولا أنْ يُلْجِئَهم إليه إلجاءً بالآياتِ القاسرةِ، بل اقتضَتْ حِكْمَتُه، ومضَتْ سُنَّتُه في البَشر بأنْ يكونوا مُتفاوتينَ في الاستعدادِ، عاملينَ بالاختيارِ؛ فمِنهم مَن يختار الهُدى على الضَّلالِ، ومِنهم مَن يَستحِبُّ العَمى على الهُدى- بيَّنَ لنا في هاتينِ الآيتينِ أنَّ الأَوَّلينَ هم الذين يَنظرونَ في الآياتِ، ويَعقِلونَ ما يَسمعونَ من البيِّناتِ، وأنَّ الآخَرينَ لا يَسمعونَ ولا ينظرونَ، حتى كأنَّهم من الأمواتِ[٢]، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾.

أي: إنَّما يستجيبُ لِدَعْوتِك- يا محمَّدُ- مَن يَعي الكلامَ بقلبِه ويَفْهَمُه، فينقادُ لك[٣].

﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

أي: وأمَّا هؤلاءِ الكُفَّارُ المعْرِضون عنكَ- يا محمَّدُ- فهُم أمواتُ القُلوبِ، لا تُرجَى منهم استجابةٌ؛ كموتى الأجسادِ، وسيُخْرِجهم اللهُ تعالى من قُبُورهم جميعًا يومَ القيامةِ، ثمَّ يعودونَ إليه لمجازاتِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٢٠).
يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٧-٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٤-١٩٥).
قال الشِّنقيطي: (وقد أجمَع مَن يُعتدُّ به من أهل العِلْم أنَّ المرادَ بالموتى في قوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

الآيةُ عَطْفٌ على جملة: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ...﴾، وهذا عَوْدٌ إلى ما جاء في أوَّلِ السُّورةِ مِن ذِكْرِ إعراضِهم عن آياتِ الله بقولِه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، ثم ذَكَر ما تفنَّنوا به من المعاذيرِ من قولِهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾[الأنعام: ٢٥]، أي: وقالوا: لولا أُنزِلَ عليه آيةٌ، أي على وَفْقِ مُقْتَرَحِهم، وقد اقترحوا آياتٍ مختلفةً في مجادلاتٍ عديدةٍ؛ ولذلك أجْمَلها الله تعالى هنا اعتمادًا على عِلْمِها عندَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ، فقال[١]:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

أي: وقال المشركونَ المكذِّبونَ بالرَّسولِ؛ عِنادًا وتعنُّتًا: هلَّا أُنزِلَ على محمَّدٍ برهانٌ وعلامةٌ من عند رَبِّه، تدلُّ على صِدْقِه وصِحَّةِ رسالَتِه، بما لا لَبْسَ في الحقِّ مَعَهَا[٢].

﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾: الكفارُ، ويدلُّ له مقابلةُ الموتى في قوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بالذين يَسمعون في قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ...﴾، ولو كان يُراد بالموتى مَن فارقَتْ أرواحُهم أبدانَهم لقابَلَ الموتى بما يناسِبُهم؛ كأنْ يقال: إنَّما يستجيبُ الأحياءُ، أي: الذين لم تفارِقْ أرواحُهم أبدانَهم، وكقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ...﴾. ((أضواء البيان)) (٦/ ١٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٩٩-٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٧-١٩٨).

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً ﴾.

قل- يا محمَّدُ- لأولئك المشرِكين: إنَّ الله قادرٌ على أن يُنزِّلَ ما تطلبونَ؛ فليس في قُدرتِه قصورٌ عن ذلك[(١)].

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثرَ الذين يسألونَك آيةً- يا محمَّدُ- لا يدرونَ ما حِكمةُ تَرْكِ إنزالِ ذلك عليك؟ ولو عَلِموا السَّببَ لَمَا سألوك؛ فَهُم لِجَهْلِهم يَطلبونَ ما هو شرٌّ لهم من الآياتِ التي لو جاءتهم وَفْقَ ما طلبوا ثم لم يُؤْمِنوا بها، لعُوجِلوا بالعقوبةِ، وأُهْلِكوا هلاكَ استئصالٍ، كما وقَع للأُمَم السَّابقةِ؛ فهي سُنَّةُ الله التي لا تَبديلَ لها، والعادةُ التي أَجْراها القديرُ سبحانه وتعالى[(٢)].

قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣١-٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٠١-٢٠٤).

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا توعَّدَهم اللهُ بالآيةِ السَّابقةِ بأنَّهم إليه يُرجَعونَ، زاد أنْ سَجَّل عليهم جهْلَهم، فأخبرَهم بما هو أعجَبُ ممَّا أنكروه، وهو إعلامُهم بأنَّ الحَشْرَ ليس يختصُّ بالبَشَر، بل يعُمُّ كلَّ ما فيه حياةٌ من الدوابِّ والطيرِ[1].

وأيضًا لَمَّا حكَى عن هؤلاء قولَهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ولم يَعْتبروا ما نَزَل مِن الآياتِ، وأُجِيبوا بأنَّ القُدرَةَ صالحةٌ لإنزالِ آيةٍ، ونُبِّهوا على جهلهم؛ حيث فرَّقوا بين آيةٍ وآيةٍ- أُخْبِروا أنَّهم أنفُسَهم وجميعَ الحيوانِ غيرِهم متماثلونَ في تعلُّقِ القُدْرةِ الإلهيَّةِ بالجميعِ؛ فلا فرْقَ بين خَلْقِ مَن كُلِّف وما لم يُكَلَّف في تعلُّقِ القدرةِ بهما، فكأنَّه قِيل: القُدرةُ تعلَّقَت بالآياتِ كُلِّها مُقْتَرَحِها وغيرِ مُقترَحِها، كما تعلَّقَت بخَلْقِكم، وخَلْقِ سائرِ الحيوان، فالإمكانُ هو الجامِعُ بين كُلِّ ذلك؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، يعني في تَعَلُّقِ القُدرةِ بإيجادِها كتعلُّقِها بإيجادِكم، وكذلك الآياتُ[2].

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾.

أي: كلُّ ما يَدِبُّ في الأرض، وكلُّ ما يَطيرُ في جَوِّ السَّماءِ بجَناحَيهِ، على اختلافِ أنواعِها كلِّها، إنَّما هي أجناسٌ وأصنافٌ مُصَنَّفَةٌ مِثْلُكم أيُّها الناسُ؛ خلقْناها كما خلقْناكم، ورزقْناها كما رزقناكم، ويَعْرِف بعضُها بعضًا كما تَعرفونَ، ويَتزاوجونَ ويتناسلون، ولها آجالٌ محدَّدة، وهي أنواعٌ تختلفُ أيضًا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٢٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٤، ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٠٥).

في أحجامِها، وألوانِها، ولُغاتها، وقُدراتها، وغير ذلك؛ كما هو واقعٌ بينكم[١].

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾.

أي: ما أهمَلْنا ولا أغفَلْنا في اللَّوحِ المحفوظِ شيئًا من الأشياءِ، بل جميعُ الأشياءِ صغيرِها وكبيرِها، حتى أصناف الدوابِّ وغيرها؛ مُثبَتةٌ في اللَّوحِ المحفوظِ على ما هي عليه، والجميعُ عِلْمُهم عندَ الله تعالى، لا يَنسَى واحدًا منها مِن رِزقه وتَدبيرِه[٢].

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

أي: إنَّ كلَّ دابَّة وكُلَّ طائرٍ محشورٌ إلى الله تعالى بعد انقضاء هذه الحياةِ الدُّنيا، وكذلك جميعُ الأُمَم تُحْشَر وتُجمَع إلى الله يومَ القيامةِ، فيُجازيهم بعَدْلِه وإحسانِه سبحانه[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٢، ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٠٧-٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠٢-٢٠٣).
ونسَب الشنقيطيُّ هذا المعنى المذكورَ إلى أكثرِ العلماءِ، وقال أيضًا: (ومما يكونُ من تلك المماثلةِ: أن الجميعَ يُحْشَرُونَ إلى اللَّهِ، كما قال هنا: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ وَنَصَّ على ذلك في سورة التكويرِ في قولِه: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]). ((العذب النمير)) (١/ ٢١٠-٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٢، ٢٣٤)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣-٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥-٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠٧).

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى مِن حالِ الكُفَّار أنَّهم بَلَغُوا في الكُفْر إلى حيث كانت قلوبُهُم قد صارت مَيِّتةً عن قَبولِ الإيمانِ بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾- ذكر هذه الآيةَ تقريرًا لذلك المعنى[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ تعالى في قولِه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في كَونِها دالَّةً على كَونِها تحت تدبيرِ وتقديرِ حكيمٍ قدير، وفي أنَّ عنايةَ اللهِ محيطةٌ بهم، ورَحْمَتَه واصلةٌ إليهم- قال بَعدَه: والمكَذِّبونَ لهذه الدَّلائلِ والمُنْكِرون لهذه العجائب صُمٌّ لا يَسمعونَ كلامًا البتَّةَ، بُكْمٌ لا يَنطقون بالحَقِّ، خائِضونَ في ظُلُماتِ الكُفرِ، غافلونَ عن تأمُّلِ هذه الدلائلِ[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

أي: إنَّ المكَذِّبينَ بِحُجَج الله وأدِلَّتِه، لا يَسمعون الحَقَّ، ولا ينطقونَ به، وهُم في ظُلُماتِ الكُفْر، لا يُبْصرونَ، فلا يَعْتبرونَ ولا يهتدون[٣].

﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: مَن يَشَأِ اللهُ تعالى إضلالَه مِن خَلْقِه أَضَلَّه، ومَن يَشَأِ اللهُ تعالى هدايَتَه، فإنَّه يَهدِيه إلى الطَّريقِ المستقيم الذي لا عِوَج فيه، فهو سبحانه المُنْفَردُ بالهِدايةِ والإضلالِ، بِحَسَب ما يَقتضيه فَضْلُه وحِكْمَتُه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٧ - ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٢٠- ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٠-٢١٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- يُستَفاد مِن قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أنَّه كلَّما صار الإنسانُ أَسْمعَ لكلامِ الله ورسولِهِ صارت استجابتُه أقوى، وذلك مأخوذٌ من القاعدةِ المعروفةِ (أنَّ ما عُلِّقَ على وَصْفٍ فإنَّه يزدادُ قُوَّةً بِحَسَب هذا الوَصْفِ الذي عُلِّقَ عليه الحُكْم)[١].

٢- أنَّ الإنسانَ يجِبُ أن يَعرِفَ قَدْرَ نَفْسِه؛ فهو بالنِّسبةِ لعَظَمةِ الله- عزَّ وجلَّ- كالنَّملةِ؛ لقوله: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ إذَن لا تترفَّعْ ولا تتعالَ؛ فما أنتَ إلَّا مِثلُ هذه الدوابِّ بالنِّسبةِ لعظمةِ الله عزَّ وجلَّ، وإن كانَ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، أي: لم يُفَضِّلْ بني آدَمَ على ما خَلَقَ اللهُ، بل على كثيرٍ مِمَّا خَلَقَ الله[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ فيه تَنبيهٌ للمُسْلمين على الرِّفقِ بالحيوانِ؛ فإنَّ الإخبارَ بأنَّها أُمَمٌ أمثالُنا تنبيهٌ على المشاركةِ في المخلوقيَّةِ وصفاتِ الحيوانيَّة كلِّها[٣].

٤- قَوْله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى التَّحذيرِ من الاعتداءِ على الحيواناتِ بما نهى الشَّرْعُ عنه من تَعذِيبها، وإذا كان يُقْتَصُّ لبَعضِها من بعضٍ وهي غيرُ مُكَلَّفةٍ، فالاقتصاصُ مِن الإنسانِ لها أَوْلى بالعَدْلِ[٤].

٥- يُستَفادُ من قوله: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ مَن شاءَ الله هِدايتَه اهتدَى، وأنَّ مَن شاء إضلالَه ضَلَّ، ويتفرَّعُ على هذا أنْ يلجَأَ الإنسانُ إلى ربِّهِ تبارك وتعالى بطَلَبِ الهِدايةِ والاستعاذَةِ من الغَوَايةِ؛ لأنَّ الأمرَ بِيَدِ الله(١).

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ﴾ فيه قدرةُ الله عزَّ وجلَّ الكاملةُ، وذلك ببعثِ الموتَى، فإنَّهم يُبْعَثونَ كُلُّهم في لحظةٍ واحدةٍ، والدَّليلُ قَوْلُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣- ١٤] وقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[القمر:٥٠]، وليس البَعثُ كالإحياءِ يكون شيئًا فشيئًا، يخرجُ المخلوقُ صغيرًا ثم ينمو حتى يتكاملَ(٢).

٢- الإتيانُ بفعل النُّزول في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يدلُّ على أنَّ الآيةَ المسؤولةَ مِن قَبيل ما يأتي مِن السَّماء، مثلُ قولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨]، وقولهم: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]، ونحو ذلك(٣).

٣- في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ طَلَبُهم للآيَةِ والآياتِ -مع وُجُودِ القرآنِ وما فيه من الآياتِ البيِّناتِ- سَبَبُه محاولةُ تَعجيزِ الرَّسولِ، لا كَوْنُه هو الدَّليلَ الذي يرونَه مُوصِلًا إلى المدلولِ، وقد قال تعالى لرَسولِهِ في هذه السورة: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٩).

سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[١] [الأنعام: ٧].

٤- استكبارُ هؤلاءِ وترَفُّعُهم؛ حيثُ قالوا: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾، ولم يقولوا: (مِنْ رَبِّنَا)، ولم يقولوا: (مِنَ الله)، كأنَّهم في جانبٍ، واللهُ تعالى ورسولُه صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم في جانبٍ آخَرَ[٢].

٥- انتصارُ اللهِ عزَّ وجلَّ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّه دافَعَ عنه حِينما قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ولا شكَّ أنَّ هذا يُشكِّلُ عبئًا على الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فاللهُ تعالى يُجيبُ عنه انتصارًا له؛ ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾[٣].

٦- قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ فيه إثباتُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهذه القُدرةُ قدرةٌ كاملةٌ، لا يَلْحَقُها شيءٌ من العَجْزِ؛ لقولِ الله تبارَك وتعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فلِكمالِ عِلْمِه وقُدرَتِه لا يُعْجِزُه شيءٌ؛ لأنَّ العجزَ عن الشَّيءِ سَبَبُه إمَّا الجهلُ وإمَّا الضَّعفُ، فاللهُ عليمٌ قديرٌ، وهذه القدرةُ تتعلَّقُ بكلِّ شيءٍ؛ فهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ[٤].

٧- أنَّ أفعالَ الله عزَّ وجلَّ مقرونةٌ بمشيئتِه؛ بمعنى: أنَّ ما لم يَشَأْ لم يكُنْ، وإنْ كان قادرًا عليه؛ لقوله: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾، يعني: ولكنَّه لم يَشَأْ[٥].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَنبيهٌ على أنَّ فيهم مَن يَعلَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٩، ٢٠٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠١).

ذلك، ولكنَّه يُكابِرُ، ويُظْهِرُ أنَّه لا يَتِمُّ عنده الاستدلالُ إلَّا على نحوِ ما اقترحوه[١].

٩- خَصَّ ما في الأرضِ بالذِّكْرِ دون ما في السَّماء في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ وإنْ كان ما في السَّماءِ مخلوقًا له؛ لأنَّ الاحتجاجَ بالمُشاهَد أظهَرُ وأَوْلى ممَّا لا يُشاهَد[٢].

١٠- المقصودُ من قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ الدَّلالةُ على كمالِ قُدرةِ الله تعالى، وشُمُولِ عِلْمِه، وسَعَةِ تَدبيرِه؛ ليكون كالدليلِ على أنَّه قادِرٌ على أن يُنَزِّلَ آيةً، وهي التي ذَكَرَها في الآيةِ التي تَسْبِقُها مباشرةً في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

١١- في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ حصْرُ الحيوانِ في هاتين الصِّفتينِ، وهما: إمَّا أن يَدِبَّ، وإما أن يطيرَ، ولكنْ قد يقول قائلٌ إنَّ هناك مِن الحيوانات ما لا يدخلُ في هذينِ القِسْمينِ؛ مثل: حِيتانِ البَحرِ، وسائرِ ما يَسبَحُ في الماءِ، ويَعيش فيه؛ والجوابُ: أنَّها لا يَبعُدُ أنْ تُوصَفَ بأنَّها دابَّةٌ؛ مِن حيثُ إنَّها تدِبُّ في الماء؛ أو هي كالطَّيرِ؛ لأنَّها تسبحُ في الماءِ كَسَبْحِ الطيرِ في الهواء، إلَّا أنَّ وَصْفَها بالدَّبِّ أقربُ إلى اللُّغة مِن وَصْفِها بالطَّيَرانِ[٤].

١٢- لم يُبَيِّنِ اللهُ لنا وَجهَ المماثلة بين أنواعِ الأمم المختلفةِ في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾؛ لأجل أنْ نَستعمِلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٩)، ويُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٩)
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٢٤).

حواسَّنَا وعُقولَنا في البَحْثِ المُوصِل إلى ذلك[١].

١٣- أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يُهمِلْ شيئًا في اللَّوحِ المحفوظ، فكلُّ شيءٍ كَتَبَه؛ لقوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ولأنَّ الله تعالى أمَرَ القَلَمَ أن يكتبَ ما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ[٢]، فالكتابُ الأوَّل قد حوى جميعَ الكائناتِ، وهذا أحدُ مراتِبِ القضاءِ والقَدَر؛ فإنَّها أربعُ مراتِبَ: عِلْمُ الله الشامِلُ لجميعِ الأشياء، وكتابُه المحيطُ بجميع الموجوداتِ، ومشيئتُه وقُدرتُه النافِذَةُ العامَّة لكلِّ شيءٍ، وخَلْقُه لجميعِ المخلوقاتِ، حتى أفعال العباد[٣].

١٤- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ جَمْعُ الظُّلماتِ جارٍ على الفَصيح مِن عَدَمِ استعمالِ الظُّلْمة مُفردًا. وقيل: للإشارةِ إلى ظُلْمةِ الكُفْرِ، وظُلْمةِ الجَهْل، وظُلمةِ العناد[٤]، ولعلَّ اللهَ جَمَعَها إشارةً إلى أنَّ المُكَذِّبَ لا يَنتفعُ ببصرٍ ولا ببصيرةٍ؛ وذلك أنَّهم لَمَّا لم يَنتفعوا بحياتِهم ولا بأسماعِهم ولا نُطْقِهم ولا أبصارِهم ولا عُقُولِهم- كان كلُّ ذلك منهم عَدَمًا[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

- السِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ زائدتانِ للتَّأكيدِ[٦]، ومفهومُ الحَصر

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠٨).

(٦) وقيل: إنما قال: ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ ولم يقُل: يُجِيبُ، لأنَّ هناك فرقًا بينهما؛ فقوله: ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ فيه قَبولٌ لِمَا دُعِيَ إليه، وليس كذلك في (يُجيب)؛ لأنه قد يُجِيبُ بالمخالفةِ؛ كقَولِ القائلِ: أتوافِقُ في هذا المَذْهَب أم تخالِفُ؟ فيقول المجيب: أُخالِفُ. يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٢٠).

بـ﴿إِنَّمَا﴾ مُؤْذِنٌ بإعمالِ مَنطوقِه الذي يُومِئُ إلى إرجاءٍ بعد تأييسٍ بأنَّ الله جعل لقومٍ آخرينَ قلوبًا يفقهون بها، وآذانًا يسمعون بها؛ فأولئك يستجيبونَ(١).

- قوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

على القَولِ بأنَّ قولَه: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ مُقابلٌ لقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، أي: وأَمَّا المُعرِضون عنك فهُم مِثلُ الموتَى فلا يَستجيبون؛ فيكون حَذَفَ مِن الكلامِ ما دَلَّ عليه السِّياقُ؛ فإنَّ الذي لا يَسمَعُ قد يكونُ فُقدانُ سَمْعِه مِن عِلَّةٍ كالصَّمم، وقد يكونُ مِن عَدَمِ الحياةِ، وحَسُنَ عطْفُ جملةِ ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ على جملةِ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، وتَضمَّن عطْفُها تَعريضًا بأنَّ هؤلاءِ كالأمواتِ لا تُرجَى منهم استجابةٌ، وتَخلَّصَ إلى وَعيدِهم بأنَّه يَبعثُهم بَعدَ موتِهم، أي: لا يُرجَى منهم رُجوعٌ إلى الحَقِّ إلى أن يُبعَثوا، وحينئذٍ يُلاقُون جَزاءَ كُفرهم، ويكونُ قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ زيادةً في التهديدِ والوعيدِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الوقفُ عِندَ قولِه تعالى: ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ وتمَّ التمثيلُ هنالك، ويكون قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ استِطرادًا تَخلَّصَ به إلى قَرْعِ أسماعِهم بإثباتِ الحَشْرِ الذي يقَعُ بعدَ البعثِ الحقيقيِّ(٢).

- وفيه: تَمثيلٌ لاختِصاصِه تعالى بالقُدرةِ على تَوفيقِهم للإيمانِ، باختِصاصِه تعالى بالقُدرةِ على بَعْثِ الموتَى مِن القُبورِ(٣).

٢- **قوله:** ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٠٧- ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٠).

- ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيضٍ بمعنى (هَلَّا)، والتحضيضُ هنا لقَطْعِ الخَصْمِ وتعجيزِه[١].

- وتَنكيرُ ﴿ءَايَةً﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾؛ للتفخيمِ والتَّهويلِ[٢].

- وفي التعرُّضِ لعنوانِ ربوبيَّتِه تعالى له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إشعارٌ بالعِليَّة، بطريقِ التعريضِ بالتهكُّمِ من جِهَتِهم[٣].

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ﴾- حيثُ لم يقُلْ: (قُلْ إنَّهُ قادرٌ)-؛ لتربيةِ المهابة، مع ما فيه مِن الإشعارِ بِعِلَّةِ القدرةِ الباهرةِ[٤].

- وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ مُستعملٌ في معناه الكِنائيِّ، وهو انتفاءُ أن يُريد اللهُ تعالى إجابةَ مُقْتَرَحِهم؛ لأنَّه لَمَّا أرسَلَ رسولَه بآياتٍ بيِّناتٍ حصل المقصودُ من إقامةِ الحُجَّةِ على الذين كفروا، فلو شاء لزادَهم من الآياتِ؛ لأنَّه قادِرٌ[٥].

٣- قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

- قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسُوقٌ لبيانِ كمالِ قُدرَتِه عزَّ وجلَّ، وشمولِ عِلْمِه، وسَعَةِ تدبيرِه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٠).

ليكونَ كالدَّليلِ على أنَّه تعالى قادِرٌ على تنزيلِ الآيةِ[١].

- وزيادةُ ﴿مِن﴾ لتأكيدِ الاستِغراقِ[٢].

- وقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ صِفةٌ قُصِد منها إفادةُ التَّعميمِ والشُّمولِ؛ بذِكر اسمِ المكانِ الذي يَحوي جميعَ الدوابِّ، وهو الأرضُ، وكذلك وصف ﴿طَٰٓئِرٍ﴾ بقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قُصِدَ به الشُّمولُ والإحاطةُ؛ لأنَّه وَصْفٌ آيِلٌ إلى معنى التوكيدِ؛ لأنَّ مَفادَ ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أنَّه طائِرٌ، كأنه قيل: ولا طائرٌ ولا طائرٌ، والتوكيدُ هنا يُؤكِّد معنى الشُّمولِ الذي دلَّتْ عليه ﴿مِن﴾ الزَّائدة في سِياقِ النَّفيِ، فحصَل من هذينِ الوصفينِ تقريرُ معنى الشُّمولِ الحاصلِ مِن نَفْيِ اسْمَيِ الجنسينِ، ونكتةُ التوكيدِ أنَّ الخَبَرَ لغرابَتِه عندهم، وكَونِه مَظِنَّةَ إنكارِهم- أنَّه حقيقٌ بأنْ يؤكَّدَ؛ ففائدةُ زِيادةِ قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مع أنَّها لا تكونُ إلَّا في الأرضِ، وقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾: زيادةُ التعميمِ والإحاطةِ، والتأكيدُ، كأنَّه قيل: وما مِن دابَّةٍ قطُّ في جميع الأرَضينَ السَّبْعِ، وما مِن طائرٍ قطُّ في جوِّ السَّماء من جميعِ ما يطير بجناحَيْه إلَّا أمَمٌ أمثالُكم، محفوظةٌ أحوالُها، غيرُ مُهْمَلٍ أمْرُها[٣]، والغَرَضُ في ذِكْر ذلك: الدَّلالةُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١)، يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٥- ٢١٦).

وقال ابنُ عاشور: (ووقَع في «المفتاح» في بحث إتْباع المسنَدِ إليه بالبيانِ: أنَّ هذين الوَصفَينِ في هذه الآيةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ القَصدَ مِن اللَّفظين الجنسُ لا بعضُ الأفراد، وهو غيرُ ما في «الكشَّاف»، وكيف يُتوهَّم أنَّ المقصودَ بعضُ الأفراد ووجودُ (مِن) في النَّفْي نصٌّ على نفْي الجِنسِ دُونَ الوحدةِ؟!

وبهذا تعلمُ أنْ ليس وصفُ ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ واردًا لرفْعِ احتمالِ المجازِ في ﴿طَٰٓئِرٍ﴾ كما جَنَح إليه كثيرٌ من المفسِّرين، وإن كان رفْعُ احتمالِ المجازِ من جملة نُكَتِ التوكيدِ اللفظيِّ إلَّا أنَّه غيرُ مُطَّرد، ولأنَّ اعتبارَ تأكيدِ العموم أَوْلى، بخلافِ نحو قولهم: نظرتُه بعَيني، وسمعتُه بأذني).

عِظَمِ قُدرَتِه، ولُطْفِ عِلْمِه، وسَعَةِ سُلطانِه، وتدبيرِه تلك الخلائقَ المتفاوِتةَ الأجناسِ، المتكاثِرَةَ الأصنافِ، وهو حافظٌ لِمَا لها وما عليها، مُهَيمِنٌ على أحوالِها، لا يشغَلُه شأنٌ عن شَأْنٍ، وأنَّ المُكَلَّفينَ ليسوا بمخصوصينَ بذلك دونَ من عداهم مِن سائِرِ الحيوانِ[١].

- وذِكْرُ الطَّائِرِ بعد ذِكْر الدَّابَّةِ تخصيصٌ بعدَ تَعميمٍ، وذِكْرُ بعضٍ من كُلٍّ، وصار مِن بابِ التَّجريدِ؛ كقوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ بعد ذِكْر الملائكةِ، وإنَّما جُرِّد الطائِرُ؛ لأنَّ تصرُّفَه في الوجودِ دون غيره من الحيوانِ أبلغُ في القُدرةِ، وأدَلُّ على عِظَمِها من تَصَرُّفِ غيره من الحيوان في الأرضِ؛ إذ الأرضُ جِسمٌ كثيفٌ يُمْكِنُ تصرُّفُ الأجرامِ عليها، والهواءُ جِسْمٌ لطيفٌ لا يُمكِنُ عادةً تَصَرُّفُ الأجرامِ الكثيفةِ فيها إلَّا بباهِرِ القُدرةِ الإلهيَّةِ[٢].

- وعبَّر بقولِه سبحانه: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾ بالجَمْعِ، مع إفرادِ الدابَّةِ والطَّائِرِ؛ لأنَّه لَمَّا كان قولُه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾ دالًّا على معنى الاستغراقِ، ومُغْنيًا عن أنْ يُقال: وما مِنْ دوابَّ ولا طيورٍ، حُمِلَ قولُه: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾ على المعنى- الذي هو الجَمْعُ[٣].

- قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

- قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ جملةٌ مُعترِضَةٌ مُقَرِّرةٌ لِمَضْمونِ ما قبلها من بيانِ سَعَةِ عِلْمِ الله تعالى، وعَظيمِ قُدْرَتِه[٤].

- وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الضميرُ في ﴿يُحْشَرُونَ﴾ عائدٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٠١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٧).

إلى الأممِ المذكورةِ، وفيه رَدُّ الضَّميرِ بصِيغةِ ضَميرِ العُقلاءِ، على الطيورِ والدوابِّ وهي ليسَتْ من العقلاءِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا شَبَّهَهُمْ بالعُقلاءِ، وقال: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ سوَّغَ ذلك أن يَبْنِيَ عليهم ضَميرَ العقلاءِ، وقد تقررَ في فَنِّ العربيةِ: أنَّ غيرَ العاقلِ كُلَّمَا شُبِّهَ بالعاقلِ جرَى عليه في الضَّمائرِ ونوعِ الصِّيَغِ ما يَجري على العاقلِ، ونظيرُه في القرآنِ قولُه تعالى في رُؤْيَا يوسفَ: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] فَجُمِعَ جمعَ المذكرِ السَّالمِ المختصَّ بالعقلاءِ؛ لأنها لَمَّا اتَّصَفَتْ بالسُّجودِ أَشْبَهَتِ العقلاءَ من هذه الحيثيَّةِ، فَجَرَتْ عليها صيغةُ العقلاءِ[(١)].

٤- **قوله:** ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

- قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ فيه تمثيلٌ لحالِهم في ضَلالِ عقائِدِهم، والابتعادِ عن الاهتداءِ، بحالِ قومٍ صُمٍّ وبُكْمٍ في ظلامٍ؛ فالصَّمَمُ يَمْنَعُهم مِن تلقِّي هُدَى مَن يَهْدِيهم، والبَكَمُ يمنعُهُم مِن الاسترشادِ ممَّن يمرُّ بهم، والظلامُ يمنعُهم من التبصُّر في الطريقِ أو المنفَذِ المُخْرِجِ لهم من مَأْزِقِهم[(٢)].

- وقوله: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ جاء قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ كنايةً عن عَمَى البَصيرةِ، فهو كقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨-١٧١]، لكن قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أبلغُ مِن قوله: ﴿عُمْيٌ﴾؛ إذ جُعِلت الظُّلماتُ ظرفًا لهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٠٥).

- وقوله: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث عَطَف هنا بين ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ بالواو، بَينما وردتْ في سُورةِ البقرة في مَوضعينِ بدون العطفِ ﴿صُمُّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨-١٧١]، والحِكمةُ في ذلك: أنَّ تَرْكَ العطفِ في آيتَي البقرةِ لبيانِ أنَّ هذه الصِّفاتِ لاصقةٌ بالموصوفينَ بها، مجتمعةً في آنٍ واحدٍ، والأُولى منهما في المختومِ على قُلُوبِهم، الميؤوسِ من إيمانِهم من المنافقينَ وغَيْرِهم، والثانيةُ في المقَلِّدينَ الجامدينَ، وكُلٌّ منهما لا يستمعُ لدعوةِ الحَقِّ عند تلاوةِ القرآنِ وغيرِه، ولا يَسألُ الرَّسولَ ولا غيرَه من المؤمنين عما يَحوك في قَلْبِه، ويجول في ذِهْنه من الكُفْر والشَّكِّ، ولا ينطقُ بما عساه يَعْرِف من الحقِّ، ولا يستدلُّ بآياتِ الله المرئِيَّةِ في نفسه، ولا في الآفاقِ، فكأنَّه أصمُّ أبكمُ أعمى في آنٍ واحد، وأمَّا هذه الآيةُ التي في الأنعام فهي في مُشْركي مكَّةَ، ولم يكونوا كلُّهم من المختومِ على قلوبِهم، الميؤوسِ من إيمانِهم، ولا من المقَلِّدينَ الجامدين الذين لا ينظرونَ في شيءٍ من الآياتِ الإلهيَّة المنزَّلَة والمُكوَّنة، بل كان منهم الجامدُ على التقليدِ، والإعراضِ عن سماعِ القرآنِ حتى كأنَّه أصمُّ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧]، ومنهم من يسمعُ ويعلمُ أنَّها الحقُّ، ولكنَّه لا ينطِقُ بما يعلم عنادًا، فهذان فريقانِ منفصلانِ، عُطِفَ أحدُهما على الآخر؛ لبيانِ هذا الانفصالِ[1].

قال ابن عاشور: (وإنَّما قيل: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ولم يُوصَفوا بأنَّهم عُمي، كما في قوله: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]؛ ليكونَ لبعضِ أجزاءِ الهيئةِ المشبَّهةِ بها ما يَصلُحُ لشَبَهِ بعضِ أجزاءِ الهيئةِ المُشبَّهة؛ فإنَّ الكفرَ الذي هم فيه، والذي أصارَهم إلى استمرارِ الضلالِ، يُشبه الظلماتِ في الحيلولةِ بين الداخلِ فيه، وبين الاهتداءِ إلى طريقِ النجاةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٣٨).

- قوله: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لأنَّ حالَهُم العجيبةَ تُثيرُ سؤالًا، وهو أن يقولَ قائلٌ: ما بالُهم لا يهتدونَ مع وضوحِ هذه الدلائلِ البيِّناتِ؟! فأُجيبَ بأنَّ اللهَ أضَلَّهم فلا يهتدونَ، وأنَّ الله يُضِلُّ مَن يشاء، ويَهدي مَن يشاءُ؛ فدَلَّ على أنَّ هؤلاءِ المكَذِّبينَ الضالِّينَ هم ممَّن شاءَ اللهُ إضلالَهم على طَريقةِ الإيجازِ بالحَذْفِ؛ لظهورِ المحذوفِ[1].

- وقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ معنى ﴿عَلَىٰ﴾ الاستعلاءُ، وهو استعلاءُ السائرِ على الطريقِ؛ فالكلام تمثيلٌ لحالِ الذي خَلَقه الله فمَنَّ عليه بعقلٍ يَرْعَوي مِن غَيِّه، ويُصْغي إلى النصيحةِ؛ فلا يقعُ في الفسادِ، فاتَّبَع الدِّينَ الحَقَّ- بحالِ السَّائِرِ في طريقٍ واضحةٍ لا يتحيَّرُ، ولا يُخطِئُ القصدَ، ومستقيمةٍ لا تطوحُ به في طُولِ السَّيْرِ. وهذا التمثيلُ أيضًا صالحٌ لتَشبيهِ كلِّ جُزءٍ من أجزاءِ الهيئةِ المشبَّهةِ بجزءٍ من أجزاءِ الهيئةِ المشبَّه بها[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٢٠).

الآيات (٤٠ - ٤٥)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾: البأساءُ: اسمٌ للبُؤسِ، وهو المكروهُ والضَّرَرُ والشِّدَّةُ وسُوءُ الحالِ، وقيل: البأساءُ الفَقْرُ والفاقةُ، وهو مِن البُؤسِ، وأصل (بأس): الشِّدَّةُ وما ضاهاها. وقيل: البأساءُ ضرَّاءُ مَعها خوفٌ، وأصلُها مِن البأسِ، وهو الخَوفُ؛ يُقال: لا بَأسَ عليكَ، أي: لا خوفَ عليك[(١)].

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: أي: المرضِ والزَّمانةِ، وسوءِ الحالِ، والفَقْرِ والقَحْطِ، وهي مقابِلُ السَّرَّاءِ، والضُّرُّ: خلاف النَّفْعِ[(٢)].

﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: أي: يَتذلَّلونَ، وأصل (ضرع): يدلُّ على لِينٍ في الشَّيءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠، ٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ١٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠). ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٣، ٥٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢، ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

﴿بَأْسُنَا﴾: أي: عذابُنا[١].

﴿مُّبْلِسُونَ﴾: أي: آيِسونَ من رحمة الله تعالى، ومُلْقُونَ بأيديهم، والإِبلاسُ: الحُزْنُ المعترِض من شِدَّةِ البأس، وأصلُه: اليَأْس، قيل: ومنه اشْتُقَّ إِبْلِيسُ؛ كأَنَّه يَئِسَ مِن رَحمةِ اللَّهِ[٢].

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾: أي: اجتُثَّ أصلُهم، وقَطْعُ دابرِ الإنسانِ: هو إفناءُ نَوْعِه، ودابِرُ القومِ: آخرُهم، وأصلُ (قطع): الفَصْل، وأصل (دبر): آخِرُ الشَّيء وخَلْفُه، خلاف قُبُله[٣].

مُشْكِل الإعراب:

١- **قوله تعالى:** ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾: بمعنى: أَخْبِروني، والهمزةُ للاستفهامِ التقريريِّ، والتاءُ ضَميرُ الفاعِل، مبنيٌّ على الفتْحِ أبدًا في محلِّ رفْعٍ، وهذه التاءُ إذا اتَّصَلَتْ بها الكَافُ الَّتي للخِطابِ فإنَّها تلزمُ الإفرادَ والتَّذكير؛ فتقول: أرأيتكُما، أَرأيتكُم، أرأيتكُنَّ. والكافُ هنا حَرْفُ خِطابٍ مَبنيٌّ، لا محلَّ له مِن الإعراب، والفِعل (رأى) مُتعدٍّ لمفعولَينِ؛ فالمفعول الأوَّلُ هنا محذوف، والمسألةُ مِن بابِ التنازُع؛ تَنازَعَ ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ وفِعلُ الشَّرْطِ ﴿أَتَىٰكُمْ﴾ على ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾، فأُعْمِلَ الثاني، وهو

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧، ٦٧٨).

﴿أَتَىٰكُمْ﴾، فارتفعَ ﴿عَذَابُ﴾ به على الفاعليَّةِ، ولو أُعمِلَ الأوَّلُ لكان التركيبُ: (عذابَ) بالنَّصْبِ على المفعوليَّة، وأمَّا المفعولُ الثاني فهو الجملةُ مِن الاستفهامِ: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾، والرابطُ لهذه الجملةِ محذوفٌ؛ تقديرُه: أغيرَ اللهِ تَدْعُون لكَشْفِه، والمعنى: قل أَرَأَيتكم عَذابَ اللهِ إنْ أتاكم- أو السَّاعةَ إنْ أَتَتْكُم- أغيرَ اللهِ تَدْعُون لكَشْفِه، أو لكشْفِ نوازِلِها، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، تقديرُه: إنْ أتاكم عذابُ اللهِ فمَنْ تَدْعونَ؟ وقيل: المفعولُ الأوَّلُ، والجملةُ الاستفهاميَّةُ التي سَدَّت مَسَدَّ الثاني محذوفانِ؛ لفَهْم المعنى، والتقدير: أرأيتكم عِبادتَكم الأصنامَ هل تنفعُكم، أو اتِّخاذَكم غيرَ الله إلهًا هل يَكْشِفُ ضُرَّكم؟ فـ(عِبادَتَكُمْ) أو (اتِّخاذَكم): مفعول أوَّل، والجملةُ الاستفهاميَّة سادَّةٌ مَسَدَّ الثاني. وجملةُ ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ...﴾ اعتراضيَّة لا محلَّ لها من الإعراب. وقيل غير ذلك[1].

٢- **قوله تعالى:** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾

﴿بَغْتَةً﴾: مَصدرٌ في مَوضِعِ الحالِ من الفاعِلِ (نا العظَمَةِ) في ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾، أي: مُباغِتينَ، أو مِن المفعولِ بِه (هُم) في ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾؛ أي: مَبغوتينَ، ويجوزُ أنْ يكونَ مصدرًا على المعنى؛ لأنَّ ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾ بمعنى بَغَتْناهم، فيَكون مفعولًا مُطلقًا، نائبًا عن المصدرِ؛ فهو نوعُه، أي: أخَذْناهم أخْذَ البَغْتِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ للكُفَّارِ: أخْبِروني إنْ أتاكم عذابُ الله، أو أتاكم يَومُ القيامةِ؛ هل ستَدْعونَ في ذلك الوقتِ أحدًا غيرَ

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٩٥- ٤٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٢٣-٦٢٤).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٩٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٧/ ١٢٣).

الله؛ ليُنْجِيَكم ممَّا حَلَّ بكم إنْ كنتم صادِقينَ في اتِّخاذِكُم آلهةً من دونه؟ بل لنْ تدْعُوا غيرَه تعالى، فيُفَرِّجُ عنكم سبحانه ما حلَّ بكم مِن كَرْب، وتَنْسَونَ وقتَ الشَّدائدِ وعند الكَرْب ما تُشركونَه مع اللهِ تعالى.

ثمَّ يُخبرُ الله تعالى أنَّه أرسل رُسلًا إلى أُممٍ مِن قَبلِ النبيِّ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فكذَّبوا رُسُلَ ربِّهم، فأذاقَهُم اللهُ شِدَّةَ الفقرِ، وضَنْك العَيْش، كما ابتلاهم بالأسقامِ والأمراض؛ لعلَّهم يتضرَّعونَ إليه- جلَّ وعلا- ويُخْلِصون له العبادةَ.

فهلَّا حين ابتلاهم اللهُ بهذا البلاءِ لجَؤُوا إليه، وتَضرَّعوا، حتى يَصْرِفَ عنهم العذابَ، ولكنَّهم قسَتْ قلوبُهم، وزيَّن لهم الشَّيطانُ ما هم فيه من الأعمالِ التي يَكرهُها الله؛ مِن الكُفرِ والشِّرْك والمعاصي.

فلَمَّا ترَكوا- مُتعمِّدينَ- العملَ بما أمَرَهم الله وتناسَوْه؛ بدَّلهم الله- استدراجًا- مكانَ الفَقْرِ الغِنى، ومكانَ المرضِ الصِّحَّةَ، حتى إذا فَرِحوا بما أُعْطُوا فَرَحَ بَطَرٍ وأَشَرٍ، أتاهم عذابُ الله بقوَّةٍ، مُباغِتًا لهم، فإذا هم هالِكون قد قَنَطوا مِن رَحمةِ اللهِ، فاستُؤْصِلوا جميعًا، ولم يَبْقَ منهم أحدٌ، والحمْدُ لله ربِّ العالمينَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى غايةَ جَهْلِ أولئك الكفَّار، بَيَّنَ مِن حالِهم أيضًا أنَّهم إذا نَزَلَت بهم بَلِيَّةٌ أو محنةٌ فإنَّهم يَفزعونَ إلى الله تعالى، ويَلجؤونَ إليه، ولا يَتمرَّدونَ عن طاعته، فقال سبحانه[1]:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٢).

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ-: أَخْبِرُونِي أيُّها الكفَّارُ الذين تَعدِلُونَ بِاللَّهِ سواه، وتَصرِفونَ حقوقَه لغيرِه؛ أَخْبِرُونِي إنْ جَاءَتْكُمْ بَلِيَّةٌ مِنَ البلايا والكروبِ، كما لو هَاجَ عليكم البحرُ، والتطمَتْ أمواجُه فرأيتم الموتَ عِيَانًا، أو إنْ جاءَتْكم السَّاعةُ التي تُنْشَرون فيها من قُبورِكم، وتُبعثَون لموقفِ القيامةِ(١).

﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

أي: هل ستَدْعونَ في ذلك الوقتِ والكَرْبِ أحدًا أو شيئًا غيرَ الله؛ لإنجائكم مِمَّا نزَل بكم من شدَّةٍ وبلاء، إنْ كنتم مُحِقِّينَ في اتِّخاذكم آلهةً معه، وأنَّها تُنجيكم ممَّا حلَّ بكم(٢)؟

كما قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كان استفهامُ الإنكارِ في قوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ من الآيةِ السَّابقة، بمعنى النَّفْيِ، كأنَّه قيل: لا تَدْعون غيرَهُ، عَطَفَ عليه قوله: ﴿ بَلْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٠-٢٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٧٧-٤٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٧-٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٣-٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٣-٢١٤).

إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾[١].

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾.

أي: ما أنتم -أيُّها المشرِكونَ باللهِ- بمُستغيثينَ بشيءٍ غير الله في حالِ الشَّدائدِ، والأهوالِ النَّازلة بكم؛ فتَدْعونَ ربَّكم الذي خلَقَكم، وإليه تَفْزَعون؛ لأنَّكم تعلمونَ أنَّه هو الذي بِيَده وحدَه إزالتُها، وأنَّ غَيرَه لا يَقدِرُ على رفْعِ الكُرُبات عنكم[٢].

﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾.

أي: فيُفَرِّجُ عنكم ربُّكم عندَ استغاثتِكم به، وتضرُّعِكم إليه، ويُذهِب الكَرْبَ النازلَ بكم، إنْ شاء أنْ يَفعلَ ذلك؛ لأنَّه القادِرُ على كلِّ شيءٍ، ومالِكُ كلِّ شيءٍ؛ فإن شاءَ كشَفَ الضُرَّ عنكم، وإنْ شاءَ لم يَكْشِفْهُ، وذلك بحَسَب ما تقتضيه حِكْمَتُه سبحانه وتعالى[٣].

﴿ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾.

أي: وتَنْسَون[٤] في وقتِ الضَّرورةِ حِينَ تأتيكم الشَّدائدُ، وتَحُلُّ بكم الكُرُبات

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٩).

(٤) قال الشنقيطي: (﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ فيه للعلماءِ وَجْهَانِ:
أن معنَى ﴿وَتَنسَوْنَ ﴾ تَتْرُكونه عَمْدًا، تنسونَ الشركاءَ، أي: تَتْرُكون دُعاءَها وقتَ الشدةِ عمدًا؛ لعِلْمِكم بأن الكرباتِ والشدائدَ لا يكشفُها إلا اللَّهُ جل وعلا، فتتركونها عمدًا. والنسيانُ يُطْلَقُ على تركِ الشيءِ عمدًا، كما قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ [الأعراف: ٥١] معناه: نَتْرُكُهم عَمْدًا كما تَرَكوا العملَ لِلقاءِ يومِ القيامةِ عمدًا. وهذا معروفٌ في كلامِ العربِ؛ أنها تُطْلِقُ النسيانَ على تركِ الفعلِ عمدًا، وتطلقُه على تَرْكِه نِسْيانًا.
الوجهُ الثاني: أنَّه من شدةِ الهولِ نَسُوا غيرَ اللَّهِ جلَّ وعلا، ولم يَخْطُرْ في أذهانِهم إلا اللَّهُ؛ لأنهم

ما تُشركونه مع الله تعالى؛ لِعِلْمكم أنْ لا شيءَ يَملِكُ كَشفَ الضرِّ عنكم سوى اللهِ تعالى وحْدَه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا أقامَ لهم بالآية السابقةِ الدَّليلَ على توحيدِه؛ حتى استنارتِ السُّبُلُ في تذكيرهم أنَّ التضرُّعَ قد يُكشَف به البلاءُ- أخبرَهم أنَّ ترْكَه يُوجِبُ الشَّقاءَ؛ ترغيبًا في إدامَتِه، وترهيبًا مِن مجانَبَتِه[٢].

وأيضًا لَمَّا أنذَرهم اللهُ تعالى بتوقُّع العذابِ- أعقَبَه بالاستشهادِ على وقوعِ العذابِ بأُمَمٍ من قَبلُ؛ ليعلَمَ هؤلاءِ أنَّ تلك سنَّةُ اللهِ في الَّذين ظَلَموا بالشِّرْك[٣]، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا -يا محمَّدُ- رُسُلًا إلى جماعاتٍ مِن قبلك، فأمرناهم ونهيناهم، فكذَّبوا رُسُلَنا، وخالفوا أمْرَنَا ونَهْيَنا، فامتحنَّاهم بشِدَّة الفقر، والضِّيقِ في المعيشةِ، وابتليناهم بالأسْقام والأمراض، فَعَلْنا ذلك بهم؛ ليتضرَّعوا إليَّ،

عارفونَ أنَّه لا يكشفُ الكرباتِ إلا هو؛ ولذا قال: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾). ((العذب النمير)) (١/ ٢٣٩-٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٣-٢١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٦).

ويُخْلِصوا ليَ العبادةَ؛ بالتذلُّلِ والخضوعِ والخُشُوع لي[١].

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا لم يقعْ منهم التَّضرعُ الذي كان يُرجَى بعدَ أخذِهم بالبأساءِ والضراءِ- تسبَّبَ عن ذلك الإنكارُ عليهم، فقال الله تعالى معبِّرًا بأداة التَّحضيضِ (لَوْلَا)؛ ليُفيدَ مع النَّفيِ أنَّهم ما كان لهم عُذْرٌ في تَرْكِ التضرُّع[٢]:

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾.

أي: فهلَّا حِين ابتلَيْناهم تضرَّعوا إلينا، وتَمَسْكَنوا إلينا، فيُصرف عنهم العذابُ[٣].

﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: إنَّ قُلوبَهم ما رقَّتَ ولا خشَعَتْ، بل استحجَرَتْ وصَلُبَت، فلم تَلِنْ للحَقِّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٤١، ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٧-٢١٨).

قال الشِّنقيطي: (وأكثرُ العلماءِ على أنَّ البأساءَ: هي ما كان من جِهةِ الفقرِ، والفاقةِ والجوعِ وضياعِ الأموالِ. وأنَّ الضراءَ: هي ما كان من قَبيلِ أمراضِ الجسومِ وآلامِها وما يقعُ فيها). ((العذب النمير)) (١/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦).

قال ابنُ جريرٍ: (ثمَّ قال: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾، ولم يخبِرْ عمَّا كان منهم مِن الفِعل عندَ أخذِه إيَّاهم بالبأساءِ والضَّرَّاء. ومعنَى الكلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ فلم يتضرَّعوا، ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٣).

وأقاموا على ما هم عليه من تكذيبِ الرُّسُل، وأصرُّوا على ذلك، واستكبَروا عن أمْرِ ربِّهم[١].

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: وحسَّن لهم الشيطانُ[٢] ما كانوا يَعملونَ من الأعمالِ التي يكرهُها الله ويَسْخَطها منهم؛ من الكُفْرِ والشِّرْك والمعاصي، فظنُّوا أنَّ ما هم عليه حَسَنٌ وحقٌّ[٣].

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

هذا مِن تمام القِصَّةِ الأولى؛ بيَّنَ تعالى أنَّه أخذَهم بالبأساءِ والضرَّاءِ لعلَّهم يتضَرَّعونَ، ثمَّ بيَّنَ في هذه الآية أنَّهم لَمَّا نَسُوا ما ذُكِّروا به من البأساءِ والضرَّاء فتَحْنَا عليهم أبوابَ كُلِّ شيءٍ، ونقلناهم من البأساءِ والضرَّاء إلى الرَّاحةِ والرَّخاء، وأنواع الآلاءِ والنَّعْماءِ، والمقصودُ: أنَّه تعالى عامَلَهم بتسليطِ المكارِه والشَّدائدِ تارةً، فلم يَنتفعوا به، فنَقَلَهم من تلك الحالةِ إلى ضِدِّها، وهو فتْحُ أبواب الخيراتِ عليهم، وتَسهيلُ مُوجِبات المسَرَّاتِ والسَّعادات لديهم، فلم ينتفعوا به أيضًا، وهذا كما يفعلُه الأبُ المُشْفِق بولده؛ يُخاشِنُه تارةً، ويُلاطِفُه أخرى؛ طلبًا لصلاحِه، حتى إذا فَرِحوا بما أُوتوا من الخَيْر والنِّعَم، لم يَزيدوا على الفَرَح والبَطَر من غيرِ انتدابٍ لِشُكرٍ، ولا إقدامٍ على اعتذارٍ وتوبةٍ؛ فلا جَرَم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦).

(٢) قال الشِّنقيطي: (المرادُ بالشَّيطانِ هنا: جنسُ الشَّيطانِ، وهو إبليس وذريَّتُه، والعياذُ بالله مِن تَضليلِهم). ((العذب النمير)) (١/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٥٤).

أخذناهم بغتةً[١].

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا﴾ قِراءتانِ:

١- ﴿فَتَّحْنَا﴾ بمعنى تَكثيرِ الأبوابِ، وتَكرُّر فِعْل ذلك مرَّةً بعد مرَّةٍ[٢].

٢- ﴿فَتَحْنَا﴾ أي: فَعَل ذلك مرةً واحدةً[٣].

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

أي: فلَمَّا ترَكوا عمْدًا العملَ بما أمَرْناهم به على ألْسِنَة رُسُلِنا، وتناسَوْه، وجعلوه وراءَ ظُهُورِهم، فأَعْرَضُوا عمَّا ذُكِّرُوا به من البأساءِ والضَّراءِ- فتَحْنا أبوابَ كلِّ شيءٍ كنَّا أغلَقْنا بابَه عليهم، فبدَّلْنا مكانَ البأساءِ الرَّخاءَ، والسَّعَةَ في العَيْش، ومكانَ الضَّرَّاء الصِّحةَ، والسَّلامةَ في الأبدان؛ استدراجًا، وإملاءً مِنَّا لهم[٤].

وذلك كما قال تعالى في موضعٍ آخرَ مِن كِتابِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٤٩).

(٢) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٥٠-٢٥١).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٥٠-٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٩).

حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥].

وعن عُقبةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا رأيتَ اللَّهَ يُعطي العبدَ منَ الدُّنيا- علَى مَعاصيهِ- ما يُحبُّ، فإنَّما هوَ استدراجٌ، ثمَّ تلا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤]))[(١)].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾.

أي: ولم يَزَلْ ذلك الفتْحُ ممتدًّا لهؤلاءِ المكذِّبينَ بِرُسُلِهم، إلى أنْ فَرِحوا بما أُعْطُوا من السَّعةِ في المعيشة والأموالِ والأولادِ والأرزاقِ، والصِّحةِ في الأجسامِ؛ فَرِحوا بذلك فَرَحَ أَشَرٍ وبَطَرٍ، فلَمَّا صَدَر ذلك منهم؛ أتيناهُم بالعذابِ بقوَّةٍ وشِدَّة، مباغِتًا، لم يطرَأْ لهم على بالٍ، فإذا هم هالِكونَ، قد قَنَطوا وأَيِسوا من رحمةِ الله تعالى، وانقطَعَتْ حُجَجُهم[(٢)].

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كان مِن عادةِ مَن يَغْلِبُ مِن أهلِ الدُّنيا أنْ يَفوتَه آخِرُ الجُيوشِ، والمتفرِّقون

(١) أخرجه أحمد (١٧٣١١)، والروياني في ((المسند)) (٢٦١)، والطبراني في الأوسط (٩٢٧٢)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٤٢٢٠).
حسَّن إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٤/ ١٦٢)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٦١)، وحسَّنه الأرنؤوط في تحقيق ((مسند الإمام أحمد بن حنبل)) (١٧٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٦-٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٥٨-٢٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٩).

عنهم؛ لِمَلَل أصحابِه من الطَّلَب، وضَجَرِهم من النَّصَب والتَّعَب، وقُصورِهم عن الإحاطةِ بجميعِ الأَرَب؛ أخْبَر تعالى أنَّ أخْذَه على غير ذلك، وأنَّ نَيْلَه للآخِر كَنَيْلِه للأوَّلِ على حدٍّ سواءٍ، فقال- مسبِّبًا عن الأخذ الموصوف مشيرًا بالبناءِ للمفعولِ إلى تمام القُدرةِ، وبالدَّابِر إلى الاستئصالِ[١]:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

أي: فاستُؤصِلَ هؤلاء المشركونَ الذين خالفوا أمْرَ الله، وكذَّبوا رُسُلَه، فهلكوا عن آخِرِهم، ولم يَبْقَ منهم أحدٌ[٢].

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا أُرسِلَ الرُّسُلُ إلى هؤلاء الأُمَمِ كذَّبوهم وآذَوْهم، فابتلاهم اللهُ تارةً بالبلاءِ، وتارةً بالرَّخاءِ، فلم يؤمنوا؛ فأهلَكَهم واستراحَ الرُّسُل من شَرِّهِم وتكذيبِهم، وصار ذلك نعمةً في حَقِّ الرُّسُل؛ إذْ أنجَزَ الله وَعْدَه على لسانهم بهلاكِ المكَذِّبين، فناسب هذا الفِعْلَ كُلَّه الخَتْمُ بالحمدلةِ[٣].

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: والحمدُ لله تعالى على ما قضاه وقَدَّرَه؛ من هلاكِ المُكذِّبينَ، فبذلك تتبيَّنُ آياتُه وحُجَجُه، ويظهر صِدْق رُسُلِه، ويحصُلُ إكرامُه لأوليائه، وإهانَتُه لأعدائه، ويكون ذلك الإهلاكُ نَكالًا لغيرِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٦٠-٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٧-٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٠-٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٨).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ يُبَيِّنُ أنَّ الفَزَع إليه سبحانه عِندَ شِدَّة الضِّيقِ واليأسِ من الأسبابِ مركوزٌ في فِطْرَةِ البَشَر، تنبعثُ إليه بذاتِها، كما تنبعثُ إلى طَلَب الغِذَاء عند الجوعِ مثلًا؛ فلا يَذهبُ به ما يُتلقَّى بالتعليمِ الباطِلِ مِن مَسائل الدِّين غالبًا إلَّا مَن تَمَّ فسادُ فِطرتِه، وانتهتْ سفالةُ طِينتِه، حتى كان كالأعجمِ، لا يَفهَمُ ولا يُفهِم، وإنَّما مَثَل تعاليم الشِّركِ مع هذه الغريزة الفِطريَّة كمَثَل ما كان عند المشرِكينَ مِن أحكامِ الطعامِ الباطلةِ مع غريزةِ التغذِّي؛ فإنَّهم كانوا يُحرِّمون بعضَ الطيبات كالبحائرِ والسوائبِ، ويبيحون بعضَ الخبائث كالميتةِ والدَّمِ المسفوح، فيَجنُون على غريزةِ التغذِّي بأكْل هذا والحرمانِ مِن ذاك، ثم يأكلون كلَّ شيءٍ عند الاضطرارِ، كذلك يجنون على غريزةِ التوجه إلى خالقِهم وخالقِ العالمِ كلِّه بما يتَّخذون من الأندادِ والأولياءِ والشُّفعاءِ، الذين يَتوجَّهون إليهم كما يَتوجَّهون إلى اللهِ؛ فإنَّهم عندَ الشِّدَّةِ يَنسَوْنها ويَدْعُون اللهَ وحْدَه[1].

٢- يُستَفاد من قوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ﴾ أنَّه لا يصرفُ السُّوءَ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة أنَّه إذا أصابك السُّوءُ فلا تلجأْ إلَّا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

٣- في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ الدَّلالةُ على أنَّ البأساءَ والضرَّاءَ، وما يُقابِلُهما من السَّرَّاء والنَّعماءِ، مِمَّا يتربَّى ويتهذَّب به الموَفَّقون من الناس، وإلَّا كانت النِّعَمُ أشَدَّ وَبالًا عليهم

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٦).

من النِّقَم، وهذا ثابتٌ بالاختبارِ، فلا خلاف في أنَّ الشدائِدَ مُصْلِحةٌ للفَسَادِ، وأجدَرُ النَّاسِ بالاستفادةِ مِنَ الحوادثِ المؤمِنُ؛ كما ثبت في حديثِ صُهَيبٍ مرفوعًا في صحيحِ مسلمٍ ((عَجَبًا لِأَمْرِ المؤمنِ؛ إنَّ أمرَهُ كلَّه له خيرٌ، وليس ذلك لأحَدٍ إلَّا للمؤمنِ؛ إنْ أصابَتْه سرَّاءُ شَكَرَ فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبَرَ فكان خيرًا له))[(١)].

٤- إذا ابتلى اللهُ عَبدَه بشَيءٍ مِن أَنواعِ البلايا والمِحَن، فإنْ رَدَّه ذلك الابتلاءُ والمِحَنُ إلى ربِّه، وجَمَعَه عليه وطَرَحَه ببابِه؛ فهو علامةُ سَعادَتِه، وإرادةِ الخَيرِ به، وإن لم يَرُدَّه ذلك البلاءُ إليه، بل أنساه ذِكرَ رَبِّه والضَّراعةَ إليه، والتذَلُّلَ بين يَدَيه، والتَّوبةَ والرُّجوعَ إليه؛ فهو علامةُ شَقاوَتِه، وإرادةِ الشَّرِّ به؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[(٢)].

٥- يُستَفاد من قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ وجوبُ التضرُّع إلى الله عزَّ وجلَّ، باللجوءِ والإنابة إليه، والقيامِ بما يجب له من عقيدةٍ أو قولٍ أو عملٍ[(٣)].

٦- إثباتُ قسوةِ القَلْب بعد لِينِه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ﴾، وكما في آية البقرةِ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤]، والواجِبُ على الإنسان أن يلاحِظَ قلبَه دائمًا، فكلُّ أحدٍ يمكنُه الإتيانُ بالأعمالِ الظاهرة على أحْسَنِ وجهٍ، فالمنافِقُ يُمكِنُه أن يأتيَ بالصَّلاةِ على أحسنِ وجهٍ، ويُمكِنُ أن يتصَدَّق، لكنَّ أعمالَ القلوبِ صعبةٌ؛ فينبغي للإنسانِ أن يُحَرِّرَ قَلْبَه من رِقِّ المعاصي، وأن يَحرِصَ على فِعلِ أسبابِ إزالةِ هذه القسوةِ؛ ومنها: كثرةُ قراءةِ القرآنِ بتدبُّرٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٤٧).
والحديث أخرجه مسلم (٢٩٩٩).
(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٦٣، ١٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٢).

واستشعارُ أنَّ هذا كلامُ الله عزَّ وجلَّ، ومنها: كثرةُ ذِكْر الله عزَّ وجلَّ، ومصاحبةُ الأخيارِ، ورحمةُ الصِّغارِ، ولا سيمَّا اليتامى منهم[١].

٧- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أن يَحْذَرَ الإنسانُ عقوبةَ الله عزَّ وجلَّ إذا منَّ الله عليه بتيسيرِ أمورِ الدُّنيا؛ من مأكلٍ ومَشْربٍ ونِكاحٍ ومَرْكَبٍ ومَسْكَنٍ؛ فلا يغترَّ بهذا؛ لأنه قد يكونُ استدراجًا[٢]، قال أبو حازِمٍ الأعرجُ: (إذا رأيتَ اللهَ يتُابعُ نِعَمَه عليك وأنت تَعصيه؛ فإنَّما هو استدراجٌ، فاحذَرْه)، وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣] [الأعراف: ١٨٢].

٨- أنَّ الذي بِيَدِه الرَّخاءُ والشِّدةُ هو الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٤].

٩- أنَّه يَجِبُ الحَذَرُ من الفَرَح الذي هو فَرَحُ البَطَر بِنِعَم الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾، أي: فَرَحَ بطرٍ، أمَّا إذا فَرِح الإنسانُ بما يَسُرُّه من أمورِ الدنيا، أو من أمورِ الآخرةِ فَرَحَ سرورٍ وانبساطٍ بنعمة الله، فإنَّ هذا لا بأس به؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[٥] [يونس: ٥٨].

١٠- أنَّ الإنسانَ قد يأتيه العذابُ بغتةً، فبَيْنا هو في نعيمِه وسرورِه في الدنيا، منغمسًا في معاصي الله إذا بالعذابِ يأتيه بغتةً، وسواءٌ كان هذا العذابُ عامًّا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٣، ٢٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٣/ ٢٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٧).

شاملًا، أو كان خاصًّا؛ فقد يُبْتَلى بمرضٍ، أو بحوادِثَ تَكْسِره وتَحْطِمُه، أو بموتٍ عاجل؛ ولهذا قال: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾[١].

١١- قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّه يَحِقُّ الحمدُ للهِ عند هلاكِ الظَّلَمة، الذين ليس فيهم خيرٌ، وليس فيهم إلَّا الشرُّ للبلادِ والعبادِ؛ لأنَّ هلاكَهم صلاحٌ للنَّاسِ، والصَّلاحُ أعظَمُ النِّعَمِ، وشُكْرُ النِّعمة واجبٌ، وهذا الحمدُ شُكْرٌ؛ لأنَّه مقابِلُ نعمةٍ[٢]؛ فهلاكُ الكافرينَ من حيثُ إنَّه تَخليصٌ لأهلِ الأرضِ من شُؤمِ عَقائدِهم وأعمالِهم نعمةٌ جليلةٌ، يحقُّ أن يُحمَدَ عليها[٣].

١٢- قوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه: تعليمٌ للمؤمنينَ بأن يَحْمَدوا اللَّهَ جلَّ وعلا على إهلاكِه الظَّلَمةَ وكفايته شَرَّهم[٤].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تقريرُ الإنسانِ بما لا يُمْكِنُه دفعُه؛ وذلك بأن يُقَرَّرَ بشيءٍ يُقِرُّ به، ولا يُمكِنُه دَفْعُه، وذلك في قوله: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾؛ لأنَّهم في هذه الحال لا يدْعونَ إلَّا اللهَ، فإذا كان كذلك فلماذا يُخْلِصون في الشِّدَّةِ، ويُشْرِكون في الرخاءِ[٥]؟!

٢- قوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ﴾ فيه أنَّ الله تعالى يُجيبُ دعوةَ المضطرِّ ولو كان كافرًا، بل ويَعْلَم عزَّ وجلَّ أنَّه سيكفُر إذا نجا؛ لأنَّ الله يُنَجِّيهم من الكَرْب، وهو يعلمُ أنَّهم إذا نَجَوْا فسوف يُشْركون، ومثلُ ذلك المظلومُ؛ فإنَّ اللهَ يُجيبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٥).

دَعْوتَه ولو كان كافرًا[١].

٣- قُيِّدَت هذه الآيةُ بالمشيئة ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾، وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فقد أُطْلِقَت فيه إجابةُ الدَّعوة دون تقييدٍ بالمشيئةِ؛ قيل: لأنَّ الآيةَ التي قُيِّدت جاءت في دُعاءِ الكُفَّارِ، وجاءتِ الآيةُ الأخرى في دعاءِ المؤمنينَ فلم تُقيَّدْ بالمشيئةِ؛ لأنَّ دعاءَ المؤمِنِ لا يُرَدُّ إلَّا إذا كان بإثمٍ أو قطيعةٍ، وما جرى مجرى ذلك، وعلى كُلِّ حالٍ لا شيءَ إلَّا بمشيئةِ اللَّهِ، إلَّا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ صادقٌ، وقد وعدَ المؤمنينَ بالإجابةِ، ولم يُقَيِّدْهُ بشيءٍ، وإنَّما جاء بقيدِ المشيئةِ في دعاءِ الكفَّارِ[٢].

وقيل: تُحملُ الآيةُ المطلقةُ على الآيةِ المقيَّدةِ، وقيل: المرادُ بالدعاءِ العبادةُ، وبالإجابةِ الثوابُ، وعليه فلا إشكالَ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ فيه رحمةُ الله تبارك وتعالى بالخَلْق؛ حيث أرسل إليهم الرُّسُل لإقامة الحجَّة، ولبيان المحجَّة؛ يعني: الطريق، فلولا الرُّسُل ما عرفْنا الطريقَ إلى الله عزَّ وجلَّ، فلولا أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم بيَّنَ لنا كيف نتوضأ، ما عَرَفنا كيف نصلِّي، وما عرفنا كيف نزكِّي، وكيف نصوم، وكيف نحجُّ، وكيف نتعامل، فإرسالُ الرُّسُل من رحمة الله عزَّ وجلَّ[٤].

٥- في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ إقامةُ الحجَّة على الخلق بإرسالِ الرُّسُل، وهذه كقوله تعالى في سورة النِّساء: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٥، ٢١٦).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٩).
(٣) ((تفسير الرازي)) (٥/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٧٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٠).

كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ ﴾ [النساء: ١٦٣] إلى قوله: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، ومن تمام الحُجَّة في إرسالِ الرُّسُل أنَّهم أُرْسِلوا بلسانِ قَوْمِهم، أي: بِلُغةِ قَوْمِهم الذين أُرْسِلوا إليهم، وذلك من أجل أن يفهموا الحُجَّةَ، ويتفرَّعُ على هذا أنَّه لا تقوم الحُجَّةُ بمجرَّدِ البلاغ حتى يفهمَها المرْسَل إليهم، وإلَّا فلا فائدةَ، إلَّا أنَّه يجب على من بَلَغَه ولم يفهمْ أن يبحَثَ، لكن أحيانًا يتعذَّر البحث لكونهم لا يجدون من يثقونَ به فيبقَوْنَ جاهلينَ(١).

٦- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ لَمَّا كان أخذُهم بالبأساء والضراء مقارِنًا لزَمَن وجودِ رُسُلِهم بين ظَهْرانَيْهِم؛ عَطَف قوله: (أَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ) بالفاء؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذلك كان بمرأَى رُسُلِهم، وقبلَ انقراضِهم؛ ليكونَ إشارةً إلى أنَّ الله أيَّدَ رُسُلَه ونَصَرَهم في حياتهم؛ لأنَّ أخْذَ الأُمَمِ بالعقاب فيه حكمتان: إحداهما: زَجْرُهم عن التكذيب، والثانية: إكرامُ الرُّسُل بالتأييدِ بمرأًى من المكذِّبين، وفيه تكرمةٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإيذانِه بأنَّ الله ناصِرُه على مكذِّبيه(٢).

٧- إثباتُ الحكمةِ في أفعالِ الله تعالى؛ لقوله: ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴾، وثبوتُ الحِكمةِ لله عزَّ وجلَّ في أفعالِه وفي شَرْعِه أمرٌ معلومٌ لكُلِّ ذي عقلٍ؛ لأنَّ كونَ الأفعالِ والأحكامِ تَصْدُر عن حكمةٍ يدلُّ على كمالِ الفاعِل والمُشَرِّع، فالله تعالى يبتلي بالبأساءِ والضرَّاءِ لكنْ لحكمةٍ، لا لمجرَّدِ إلحاقِ الضَّرَرِ بالخَلْق، والحكمةُ بَيَّنها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴾، وإلَّا فإنَّ اللهَ لا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٧).

يمكن أنْ يريدَ مُجَرَّد الإضرارِ، بل كلُّ ما ضرَّ النَّاسَ من تقديراتِ اللهِ فالمرادُ به مصلحةُ الخَلْقِ[١].

٨- في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ نصَّ سبحانه وتعالى هنا على الحِكمةِ، وليس كُلُّ فعلٍ أو حُكمٍ جاءَ مِن عندِ اللهِ يكونُ معلومًا لنا حِكمتُه؛ لأنَّ عُقولَنا أقصرُ مِن أن تُحيطَ بحِكمةِ الله عزَّ وجلَّ، لكن نعلمُ عِلمَ اليقين أنَّ ذلك لحِكمةٍ؛ فيجبُ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يُؤمِنَ بأنَّ جميعَ أفعالِ اللهِ، وجميعَ شرائعِ اللهِ كلِّها لحِكمةٍ، لكن قد تُعلم وقد لا تُعلم[٢].

٩- إنْ قيلَ: أليسَ قَوْلُه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ يَدُلُّ على أنَّهم تضرَّعوا؟ وهاهنا يقولُ: ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ولم يتضرَّعوا. والجواب على ذلك: أنَّ أولئكَ أقوامٌ، وهؤلاءِ أقوامٌ آخرونَ. أو يقال: أولئك تضرَّعوا لطَلَبِ إزالة البَلِيَّة، ولم يتضرَّعوا على سبيلِ الإخلاصِ لله تعالى؛ فلهذا الفَرْقِ حَسُنَ النفيُ والإثباتُ[٣].

١٠- قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فيه تسليةٌ للرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ عادةَ الأُمَم مع رسُلِهم التكذيبُ، والمبالغةُ في قسوةِ القلوبِ حتى هم إذا أُخِذوا بالبلايا لا يتذلَّلونَ لله، ولا يسألونَه كَشْفَها، وهؤلاء الأُمَم الذين بَعَث الله تعالى إليهم الرُّسُل أبلغُ انحرافًا، وأشدُّ شكيمةً، وأجلَدُ من الذين بُعِثَ إليهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ خاطبهم تعالى بِقَولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ الآية، وأخبر أنَّهم عند الأَزَمات لا يَدْعونَ لكَشْفِها إلَّا اللهَ تعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٠، ٢٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٣).

١١- قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فيه بيانُ شدَّةِ قسوةِ هؤلاء المعذَّبينَ، وذلك أنَّه لَمَّا جاءهم العذابُ ليتضَرَّعوا صارَ الأمْرُ بالعكس، بل زاد ذلك قسوةً في قلوبِهم، نسألُ اللهَ العافيةَ، وكان ينبغي عليهم أن يتضرَّعوا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وهذا قد يقع من الإنسانِ؛ ألَّا تزيدَه البأساءُ والضرَّاءُ إلَّا قسوةً في القلب، وسَخَطًا على الله عزَّ وجلَّ، وشعورًا بما لا ينبغي، فإنَّ بعضَ النَّاسِ إذا ابتُلِيَ ببلاءٍ قال: ما هذا؟ لماذا يَظْلمُني؟ لماذا يُصيبُني بما لم يُصِبْ به غيري؟ ثم يقسو قلبُه، والعياذ بالله[1].

١٢- أنَّ الشَّيطانَ يُزَيِّن لبني آدم سوءَ العَمَلِ؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وفي آية أخرى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾[2] [التوبة: ٣٧].

١٣- إنَّ اللهَ تعالى يُضيفُ تزيينَ الدُّنيا والمعاصِي، إلى الشَّياطينِ، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، ولا يُناقِضُ هذا قَولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]؛ فإنَّ إضافةَ التَّزيينِ إليه قضاءً وقدَرًا، وإلى الشَّيطانِ تَسبُّبًا، مع أنَّ تزيينَه تعالى عقوبةٌ لهم على رُكونِهم إلى ما زَيَّنَه الشَّيطانُ لهم، فمِن عُقوبةِ السَّيئةِ السَّيئةُ بَعدَها، ومِن ثَوابِ الحَسَنةِ الحَسَنةُ بَعدَها[3].

١٤- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ معنى البغتةِ: الفجأةُ. وذلك أَشَدُّ ما يُؤخَذ به الإنسانُ؛ لأنه إذا عَلِمَ بالعذابِ قبلَ نُزُولِه يكونُ مُتَجَلِّدًا مُستَعِدًّا، أما إذا بَغَتَهُ قبلَ استعدادٍ له فهذا أشدُّ وأنْكَى؛ ولأجلِ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٢، ٢٢٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٥، ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٠١- ٢٠٢).

بعَينِه أخبرَ اللَّهُ المؤمنينَ بالبلايا التى تَرِدُ عليهم قبلَ أن تقعَ؛ ليكونوا مُستعِدِّين لها، ولئلَّا تُفاجِئَهم؛ حيثُ قال لهم: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٥٥] أخْبَرَهم بأنَّ الابتلاءَ سيأتيهم؛ لئلا يُباغِتَهم، ويكونوا مستعدِّينَ له قبل نزولِه(١).

١٥- في قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ إنَّما أُخِذُوا في حالِ الرَّخاءِ والرَّاحةِ؛ ليكونَ أشدَّ لتحسُّرِهم على ما فاتَهم من حالِ السلامةِ والعافِيَة(٢).

١٦- أتى قوله تعالى: ﴿قُطِعَ﴾ بصيغةِ ما لم يُسَمَّ فاعِلُه؛ لأنَّه معلومٌ، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، ولكنَّ الله تبارك وتعالى في الأمورِ التي تسوءُ يأتي بها بصِيغةِ ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، وهو كقولِ الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، الجنُّ يؤمنونَ بأنَّ مُريدَ الشَّرِّ هو اللهُ عزَّ وجلَّ، ويعرفونَ أنَّ الخيرَ والشَّرَّ بِيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهو المُدَبِّر، لكنْ كرهوا أن يضيفوا الشرَّ إلى الله، فقالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠](٣).

١٧- إثباتُ الأسبابِ؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ لأنَّ هذه العقوبةَ مُرَتَّبةٌ على قومٍ اتَّصفوا بالظُّلْم، فيكونُ الظُّلمُ سببًا للعقوبةِ(٤).

١٨- في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بيانُ أنَّ الظُّلْمَ سببٌ للعقوبةِ والهلاكِ؛ لأنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ على وصفٍ، صارَ ذلك الوصفُ عِلَّةً له؛ يزدادُ الحُكمُ قوةً بقُوَّتِه وينقُصُ بنَقْصِه(٥).

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٨).

١٩- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ المرادُ بهم المشْرِكونَ، وفيه: أنَّ الشِّرْكَ أعظَمُ الظُّلْمِ؛ لأنَّه اعتِداءٌ على حَقِّ اللهِ تعالى على عبادِه في أن يَعْتَرِفوا له بالربوبيَّةِ وَحْدَه، وأنَّ الشِّرْكَ يَسْتَتْبِعُ مظالِمَ عِدَّةً؛ لأنَّ أصحابَ الشِّرْكِ لا يؤمنونَ بِشَرْعٍ يَزَعُ النَّاسَ عَنِ الظُّلْمِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ يتضمَّنُ تهديدًا بالوعيدِ؛ طردًا للأغراضِ السَّابقة[٢].

- وقوله: ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ تركيبٌ شهيرُ الاستعمالِ، يُفتتَحُ بمِثلِه الكلامِ الذي يُرادُ تحقيقُه والاهتمامُ به، وهي كلمةُ استفهامٍ وتَعجُّبٌ، وليس لها نظيرٌ؛ فهمزةُ الاستفهامِ فيه للتَّقرير، والاستفهامُ للتَعجيب[٣].

- وقد جَمَع في هذِه الآيةِ ونظيرِتها بَعْدُ بَينَ عَلامَتَي خِطابٍ (التَّاءِ) و(الكافِ)؛ لمزيدِ الاهتمامِ للمُرادِ، الذي هو الاستئصالُ بالهلاكِ، والتاءُ اسمٌ، والكافُ حرفٌ جِيءَ به لتأكيدِ الخِطابِ[٤].

- وفيه: تعريضٌ بالحثِّ على خلْعِ الشِّرْك؛ إذ ليس لشركائِهم نفعٌ بأيديهم، فذُكِّروا بأحوالٍ قد تعرض لهم يلجؤونَ فيها إلى اللهِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٦-١٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢١).

- وقوله: ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ...﴾ إضافةُ العذابِ إلى اسمِ الجلالةِ في قوله: ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾؛ لتَهويلِه؛ لصُدُورِه مِن أقدَرِ القادرينَ[١].

- قولُه: ﴿أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أعادَ الفِعْلَ (أتى) مَع كَونِ حَرفِ العَطفِ (أو) مُغنِيًا عَن إعادةِ العامِلِ؛ بِأن يُقالَ: إنْ أَتَاكُم عَذابُ اللَّهِ أَوِ السَّاعَةُ، وهو ما يُوَجَّه به الإظهارُ فِي مَقامِ الإضمارِ مِن إرادةِ الاهتمامِ بِالمُظْهَرِ؛ بِحيث يُعادُ لفْظُه الصَّريحُ؛ لأَنَّه أَقوَى استِقرارًا فِي ذِهنِ السَّامِعِ[٢].

- وقوله: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾ فيه مِن التبكيتِ ما هو ظاهرٌ، وفيه تقديمُ ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ﴾ على عاملِه ﴿تَدۡعُونَ﴾؛ لتكونَ الجملةُ المستفهَمِ عنها جملةَ قَصْرٍ، وذلك إمَّا للاختصاصِ، بمعنى: أَتَخُصُّون آلهتكم بالدَّعوة فيما هو عادَتُكم إذا أصابكم ضُرٌّ، أم تَدْعونَ اللهَ دونَها؟ وإمَّا للإنكارِ عليهم في دُعائِهم للأصنام؛ لأنَّ المُنْكَر إنَّما هو دعاءُ الأصنامِ، لا نفسُ الدُّعاءِ، ألا ترى أنَّك إذا قُلْتَ: أزيدًا تَضْربُ؟ إنما تُنْكِرُ كونَ زيدٍ مَحَلًّا للضَّرْب، ولا تُنْكِر نفسَ الضَّرْب[٣].

٢- قوله: ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾

- قوله: ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ فيه تقديمُ المفعولِ ﴿إِيَّاهُ﴾؛ لإفادةِ التَّخصيصِ[٤]، أو للقَصرِ، وهو قصرُ إفرادٍ؛ للردِّ على المشركين في زعْمهم أنَّهم يَدْعون اللهَ، ويَدْعون أصنامَهم، وهم وإنْ كانوا لم يَزْعُموا ذلك في حالِ ما إذا أتاهم

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٢٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦١).

عذابُ الله، أو أتتْهم الساعةُ؛ إلَّا أنهم لَمَّا ادَّعَوْه في غيرِ تلك الحالةِ نُزِّلوا منزلةَ مَن يَستصحبُ هذا الزعمَ في تلك الحالة أيضًا[١].

- قَولُه: ﴿فَيَكْشِفُ﴾ عَطفٌ على ﴿تَدْعُونَ﴾ وَهذا إِطماعٌ في رحمَةِ اللَّهِ؛ لعلَّهم يَتَذكَّرونَ[٢].

- قوله: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾، أي: تتركون ما تُشركونه به تعالى من الأصنامِ تركًا كليًّا، عطفٌ على ﴿تَدْعُونَ﴾ أيضًا، وتوسيطُ الكَشْفِ بينهما مع تقارنِهما، وتأخُّرِ الكَشْف عنهما؛ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بشأنِ الكَشْفِ[٣].

- وعُدِّيَ فِعْلُ ﴿تَدْعُونَ﴾ بحرفِ (إلى) في قوله ﴿تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ لأنَّ أصْلَ الدُّعاءِ نداءٌ؛ فكأنَّ المدعوَّ مطلوبٌ بالحضورِ إلى مكانِ اليأسِ[٤].

- ومفعول ﴿شَآءَ﴾ محذوفٌ على طريقةِ حَذْفِ مَفعولِ فِعلِ المشيئةِ الواقِعِ شرطًا[٥].

- وفي هذه الآيةِ ما يُعرَفُ عند علماءِ البيانِ ببابِ استدراجِ المخاطَبِ، وهو أن يُلينَ الخطابَ، ويَمْزِجه بنوعٍ من التلطُّفِ، حتى يُوقِعَ المخاطَبَ في أمْرٍ يعترفُ به؛ فتقومَ الحجَّةُ عليه، واللهُ تعالى خاطَب هؤلاءِ الكفَّارَ بِلِينٍ من القَوْلِ، وذكر لهم أمرًا لا يُنازِعونَ فيه، وهو أنَّهم كانوا إذا مسَّهم الضرُّ دعَوُا اللهَ لا غيرَه[٦].

٣- **قوله:** ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٤- ٢٢٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١١).

- قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسوقٌ لبيانِ أنَّ منهم منْ لا يدعو اللهَ تعالى عند إتيانِ العذابِ أيضًا؛ لتماديهم في الغَيِّ والضَّلالِ[١].

- وتصديرهُ بالجملة القَسَميَّة ﴿وَلَقَدْ﴾؛ لإظهارِ مزيدِ الاهتمامِ بمضمونِ الجملة وتوكيدِه[٢].

- ومفعول ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ محذوف؛ لأنَّ مُقتضى المقامِ بيانُ حالِ المرسَلِ إليهم لا حالِ المرسَلين[٣].

- وهذا الخبرُ مستعمَل في إنذارِ السامعين من المشركينَ على طريقةِ التعريضِ[٤].

- قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾

- قوله: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يَتَذَلَّلُونَ؛ لأَنَّ الضَّراعةَ التَّذلُّلُ والتَّخشُّعُ، وهو هُنا كنايةٌ عن الاعترافِ بالذَّنب والتَّوبة منه، وهي الإيمانُ بالرُّسُل[٥].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث عبَّر هنا بقوله: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ بإظهار التَّاء، وقال في سورة الأعراف: ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ بالإدغام مع اتحاد المرمى في الآيتينِ؛ وذلِك لأنَّ هاهنا وافَق ما بعدَه، وهو قولُه: ﴿جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾، ومُستقبلُ (تضرَّعوا): (يَتضرَّعون) لا غيرُ، والعربُ تراعي مجاورةَ الألفاظِ؛ فتَحمِلُ اللفظَ على مجاوِرِه لمجرَّدِ المضارعةِ اللفظيَّة، وإنِ اختلَف المعنى، وماضي الفِعل ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ من الضَّراعة لا إدغامَ فيه؛ إنَّما تقول: تضرَّع؛ إذ لا حَرْفُ مُضارَعَةٍ فيه يُسوِّغُ الإدغامَ، فلمَّا ورد الماضي فيما بُني على آيةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٢٧).

الأنعام مِن قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ ولا إدغامَ فيه، ورَد الأوَّل مفكوكًا غير مُدغَم فقيل: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ رعيًا للمناسبةِ. أمَّا آيةُ الأعرافِ فلم يرِدْ فيها ما يَستدعي هذه المناسبةَ؛ فجاءَ مُدغمًا على الوجهِ الأخفِّ؛ إذ لا داعيَ لخلافِه[1].

٤- **قوله:** ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ (لولا) هنا حَرْفُ تَوبيخٍ؛ لدُخولِها على جُملةٍ فِعليَّةٍ ماضَوِيَّةٍ واحدةٍ ﴿تَضَرَّعُواْ﴾، فليستْ (لولا) حَرْفَ امتناعٍ لوجودٍ، بل هي التَّحضيضيَّة، وهي حرفٌ يَدُلُّ على طَلَبِ الفعلِ بِحَثٍّ وَحَضٍّ؛ ولذا سُمِّيَتْ حرفَ تحضيضٍ، وعبَّر بها هُنا عن فِعلٍ فاتَ تَدَارُكُه، ولم يَبْقَ مُمْكِنًا أبدًا؛ فانْقَلَبَ في هذا المعنى تَحْضِيضُها إلى التَّوبيخِ والتَّنديمِ؛ فالمُوَبَّخُ بها هنا قد مَاتَ، ولم يَعُدْ موجودًا؛ لأنَّ وقْتَ نُزولِ الآيةِ هؤلاءِ الأممُ قد ماتوا، وانْقَضَوْا في أزمانٍ متناهيةٍ، قد مَضَوْا في الزمانِ الماضي؛ فلا يُمكنُ حُصولُ الفِعلِ منهم، وليسوا موجودِينَ حتَّى يَسمعوا التوبيخَ، ولكنَّ المقصودَ مِن توبيخِ هذا الذي غَابَ وماتَ؛ ليعتبرَ به غيرُه؛ فجاء حرف التحضيض ﴿فَلَوْلَآ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّوبيخِ، وليُفيدَ أنَّه لم يكُنْ لهم عُذْرٌ في تَرْكِ التضرُّعِ إلَّا قسوةَ قلوبِهم، وإعجابَهم بأعمالِهم التي زَيَّنَها الشَّيطانُ لهم، والتوبيخُ إنما يليقُ بالحاضرينَ دون المُنْقَرضينَ الذين تحكي عنهم الآيةُ؛ لفواتِ المقصود؛ ففي هذا التنزيلِ إيماءٌ إلى مُساواةِ الحَالَينِ؛ حالِ مَنْ مضى، وحالِ مَن يُشْبِه وَضْعَهم من الحاضرينَ، وتوبيخٌ للحاضرينَ بالمُهِمِّ من العِبرةِ؛ لبقاءِ زَمَن التَّدارُكِ قَطعًا لعُذْرِهم[2].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٠٩)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٠- ١٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور))

- وتقديمُ الظرفِ المضافِ مع جُملته ﴿إِذْ جَآءَهُم﴾ على عاملِه ﴿تَضَرَّعُواْ﴾؛ في قوله: ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾؛ للاهتمامِ بمضمونِ جملتِه، وأنَّه زمنٌ يَحِقُّ أنْ يكون باعثًا على الإسراعِ بالتضرُّع ممَّا حصل فيه من البأسِ[(١)].

٥- **قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**

- قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ فيه وَضْعُ الظَّاهِرِ موضِعَ الضَّمير؛ للإشعارِ بعِلَّة الحُكم؛ فإنَّ هلاكَهم بسبب ظُلْمِهم الذي هو وَضْعُ الكُفْر موضعَ الشكر، وإقامةُ المعاصي مَقامَ الطاعاتِ[(٢)].

- وقطْعُ الدَّابر كنايةٌ عن ذَهابِ الجميعِ؛ لأنَّ المُسْتَأصِلَ يبدأُ بما يليه، ويذهَبُ يستأصِلُ إلى أن يبلُغَ آخِرَه، وهو دابِرُه، وهذا ممَّا جرى مجرى المَثَلِ[(٣)].

- قوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يجوز أن تكون هذه الجملةُ معطوفةً على جملة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ بما اتَّصل بها، عطْفَ غرضٍ على غرضٍ، ويجوز أن تكون اعتراضًا تذييليًّا، فتكون الواو اعتراضيَّة، وأيًّا ما كان موقِعُها ففي المرادِ منها اعتباراتٌ ثلاثة: أحدها: أن تكونَ تلقينًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ أن يحمَدوا اللهَ على نَصْرِه رُسُلَه وأولياءَهم وإهلاكِ الظَّالمينَ؛ فيكون الحمدُ لله مصدرًا بدلًا من فِعله، عدَلَ عن نَصْبِه وتنكيرِه إلى رفْعِه وتعريفِه؛ للدَّلالة على معنى الدَّوامِ والثَّبات. ثانيها: أن يكون الحَمْدُ لله كنايةً عن كَوْنِ ما ذُكِرَ قبله نعمةً مِن نِعَم الله تعالى؛ لأنَّ من لوازمِ الحمدِ أن يكونَ على نعمةٍ. ثالثها: أن يكونَ إنشاءَ حَمْدٍ لله تعالى من

(٧/ ٢٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٤٩- ٢٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣١).

قِبَل جَلالِهِ مُستعمَلًا في التعجُّبِ من معاملةِ الله تعالى إيَّاهم، وتدريجِهم في درجاتِ الإمهالِ إلى أنْ حقَّ عليهم العذابُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٢).

الآيات (٤٦ - ٥٠)

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَخَتَمَ﴾: الخَتْمُ على الشَّيءِ: هو الطَّبْع عليه ووسْمُه، وسدُّه ورَبْطُه، والخاتِم بمنزلة الطَّابع[1].

﴿نُصَرِّفُ﴾: أي: نبيِّن ونوضِّح ونُفَسِّر، والصَّرْف: ردُّ الشَّيءِ من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيرِه، وأصل (صرف): يدلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ[2].

﴿يَصْدِفُونَ﴾: أي: يُعْرِضون، ويَعدِلون عن الحَقِّ، والصُّدُوف: الإعراضُ عن الشَّيء؛ يُقال: صَدَفَ عن الشَّيء، أي: أعرض عنه إعراضًا شديدًا يجري مجرى الصَّدَف، أي: الميل في أرجُل البعير، وأصل (صدف): يدلُّ على المَيْلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٥ يُنظر: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

﴿جَهۡرَةً﴾: أي: علانيةً ظاهرًا، وأصل (جهر): إعلانُ الشَّيءِ وكَشفُه وعُلُوُّه[١].

﴿مُبَشِّرِينَ﴾: مُخبِرينَ بما يَسُرُّ؛ يُقال: أبشرتُ الرَّجُلَ وبشَّرْتُه: أخبرتُه بسارٍّ بسَط بشَرةَ وجْهِه، وأصل (بشر): ظهورُ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجمالٍ[٢].

﴿وَمُنذِرِينَ﴾: مُخبِرينَ ومُبلِّغين ومُحذِّرين ومُخوِّفين، والإنذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، أو الإبلاغُ[٣].

﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾: الخَزْن: حِفظُ الشَّيء في الخِزانةِ، ثم يُعبَّرُ به عن كلِّ حِفْظ؛ كحِفْظِ السرِّ ونحوِه، وأصل (خزن): يدلُّ على صيانةِ الشَّيء[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ نبيَّهُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ للمشركين: أخبِروني إنْ أخَذَ اللهُ سَمْعَكم؛ فأصمَّكم، وأخَذَ أبصارَكم؛ فأعماكم، وطبَعَ على قلوبكم؛ فلم تفقهوا شيئًا، فهل هناك إلهٌ غيرُ اللهِ قادرٌ على إرجاعِ ذلك لكم؛ فتعبدوه أو تُشْرِكوه في عبادةِ ربِّكم؟ انظُرْ أيُّها الرَّسولُ كيف نتابِعُ عليهم الحُجَجَ، ونوضِّحُها، ثم هم يُعْرِضون عنها!

ثم يأمُرُ اللهُ نبيَّه أنْ يقولَ لهؤلاءِ المشركينَ: أخْبِروني إنْ أتاكُم عذابُ اللهِ فجأةً، وأنتم لا تشعرونَ به، أو أتاكم عقابُه ظاهرًا عِيانًا؛ هل يُهلَك بذلِك العذابِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١).

إلَّا أنتُم لِظُلْمِكم؟!

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّه ما يُرْسِلُ المرسَلينَ إلَّا مُبَشِّرينَ مَن أطاع بالفَوْزِ العظيم، ومُنذِرينَ مَن عصَى بالخُسرانِ المُبين، فمَن آمَنَ وأصلح فلا خوفٌ عليهم فيما يَسْتَقبلونَ، ولا هم يَحزنونَ على ما مضَى، والذين كذَّبوا بآيات الله ينالُهم العذابُ بِسببِ فِسقِهم.

ثم يأمُرُه سبحانَه بأنْ يُخْبِرَهم لَمَّا كَثُرَ اقتراحُهم عليه، وتعنُّتُهم بإنزالِ الآياتِ التي تضطرُّهم إلى الإيمانِ، أنَّه لم يكُنْ عِندَه خزائنُ الله حتَّى يأتيَهم بما اقترَحوه من الآياتِ، وأنْ يقولَ لهم: إنَّه لا يعلمُ الغَيْبَ حتى يُخْبِرَهم به، ويُعَرِّفَهم بما سيكونُ في مُستقبَلِ الدَّهْرِ، ولا يدَّعي أنَّه مَلَكٌ حتى يُكَلِّفوه من الأفعالِ الخارقَةِ للعادَةِ ما لا يُطيقُه البَشَر، وإنَّما هو رسولٌ أرسلَه اللهُ للدَّعوة، ولا يقولُ ما يقولُ، ويفعلُ ما يفعلُ، إلَّا وَفْقًا لوَحْيِ الله؛ فهل يَستوي مَن اتَّبَعَ الحَقَّ وهُدِيَ إليه، ومَن ضَلَّ عنه ولم ينقَدْ له؟! أفلا تتفكَّرونَ؟!

تفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى آنفًا: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥] وكان ذلك تنبيهًا لهم على عَدَمِ إجداءِ هذه المواهِبِ عليهم مع صلاحيتها للانتفاعِ- هدَّدَهم هنا بزوالِها بالكلِّيةِ إن داموا على تعطيلِ الانتفاعِ بها فيما أمر به خالِقُها، فقال تعالى[1]:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٥).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾.

أي: قل -يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المُشركينَ: أخبروني إنْ سَلَبَكم اللهُ سَمْعَكم وأبصارَكم، فأصمَّكم وأعماكم، وطبَع على قلوبِكم، فتركَكم بلا عقلٍ[1].

﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾.

أي: هل ثَمَّ إلهٌ غيرُ الله يَقْدِرُ على أنْ يَرُدَّ عليكم الأسماعَ والأبصارَ والأفهامَ إذا سلبَها اللهُ منكم، فتعبدوه أو تُشْرِكوه في عِبادة ربِّكم[2]؟

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

مُناسَبَتُها لما قَبْلها:

لَمَّا غَمَرَهم اللهُ تعالى بالأدلَّةِ على الوحدانيَّةِ، وصِدْقِ الرَّسولِ، وأبطَلَ شُبَهَهم، في كثيرٍ مِمَّا تقدَّمَ من آياتٍ- عقَّب ذلك كُلَّه بالتعجيبِ من قوَّةِ الأدِلَّةِ، مع استمرارِ الإعراضِ والمكابرةِ، فقال تعالى[3]:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

أي: انظُرْ- يا محمَّدُ- كيف نُتابِعُ عليهم الحُجَجَ ونُنَوِّعُها، ونَضْرِبُ لهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٦٤-٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٩).
قال ابن كثير: (ويحتمل أنْ يكونَ هذا عبارةً عن منْع الانتفاعِ بهما الانتفاع الشرعيِّ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧).
وقيل المعنى: أنَّه يأخُذ الأُذنَ بحاسَّتها، ولا يترك لها أثرًا، ويأخذ العينَ حتى يترُكَ الوجه مَطْمُوسًا. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٥).

الأمثالَ والعِبَرَ ونُبَيِّنُها؛ تارةً بالوعدِ، وتارةً بالوعيدِ، وتارةً بالابتلاءِ بالسرَّاءِ، وتارةً بالضرَّاءِ، وغير ذلك؛ ليعتَبِروا ويَذَّكَّرُوا، فيُنِيبوا ويَعْلَموا أنَّ ما يَعبدونَ من دونه سبحانه باطِلٌ وضَلالٌ[١].

﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾.

أي: ثُمَّ هم مع مُتابَعَتِنا عليهم الحُجَجَ، وتنبيهِنا إيَّاهم بالعِبَرِ، وإيضاحِ الحَقِّ، وتبيُّنِه لهم بهذا البيانِ التَّامِّ- يُعْرِضُون عن ذلك كُلِّه، ويَنصرفونَ عن الحَقِّ[٢].

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المشركينَ: أخبروني إنْ أتاكُم عِقابُ اللهِ على ما تُشْركون به بعدَ بيانِ الحقِّ واتِّضاحِه، فجأةً على حينِ غِرَّةٍ، وأنتم لا تَشعرونَ، أو أتاكم عِقابُه وأنتُم تُعاينونَه ظاهرًا بعدَ أن ترَوْا مُقَدِّماتِه[٣].

﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: لا يُهْلِكُ اللهُ منَّا ومنكم إلَّا مَن كان يَعبدُ غيرَه، فيُحيطُ العذابُ بالظَّالِمينَ أنفُسَهم بالشِّرْكِ باللهِ عزَّ وجلَّ، وينجو الذين كانوا يعبدونَ اللهَ وحْدَه لا شريكَ له[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٣-٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٦-٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي))

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كان صُدوفُهم وإعراضُهم يَتعلَّلون له بأنَّهم يَرُومونَ آياتٍ على وَفْقِ مُقْتَرَحِهم، وأنَّهم لا يَقْنعونَ بآياتِ الوحدانيَّةِ، ألَا تَرَى إلى قولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخِرِ ما حُكِيَ عنهم في تلك الآيَةِ- أنبأَهُم اللهُ بأنَّ إرسالَ الرُّسُل للتبليغِ والتبشيرِ والنَّذارةِ، لا للتلهِّي بهم باقتراحِ الآياتِ[1]، فقال تعالى:

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

أي: وما نُرْسِلُ رُسُلَنا[2] إلاَّ ببشارةِ مَن أطاعَهم بالخيراتِ، والفَوْزِ بالجنَّاتِ، وبإنذارِ مَن عصاهم بالنِّيرانِ، والنِّقْمات والعُقُوباتِ[3].

﴿فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

(ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٨).

(٢) قال الشنقيطيُّ: (المرادُ بهم هنا: المرسَلونَ مِنْ بَنِي آدمَ، مع أنَّ المرسلين يكونون من الآدميِّين ومن غيرِهم كالملائكةِ، كما يأتي في قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]). ((العذب النمير)) (١/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٣-٢٣٤).

أي: فمَن آمَنَ قلبُه بما جاء به الرُّسُل الكرامُ ممَّا وجب الإيمانُ به، وأصلَحَ عَمَلَه بالإخلاصِ لله تعالى واتِّباعِهم؛ فلا خَوْفٌ عليه فيما يَستقبِلُ، ولا هو يَحْزَن على ما مَضَى[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ حالَ المصْلِحينَ، أتْبَعَه بذكْرِ حالِ المفْسدينَ؛ فقال[2]:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩ ﴾.

أي: وأمَّا الذين كذَّبوا برُسُلِنا، ودافعوا حُجَّتنا، فإنَّهم ينالُهم العذابُ؛ جزاءً لهم على كُفْرِهم، وخُروجِهم عن أوامِرِ اللهِ تعالى، وارتكابِ مناهيه[3].

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا تَقَضَّت المجادلةُ مع المُشْركينَ في إبطالِ شِرْكِهم، ودَحْضِ تعاليلِ إنكارِهم نبوَّةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بأنَّهم لا يُؤمنونَ بنُبُوتِه إلَّا إذا جاء بآيةٍ على وَفْقِ هواهم، وأُبْطِلَت شُبْهَتُهم بقوله: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، وكان محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّن شَمِلَه لفظُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٤-٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨٢-٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨٦-٢٩٠).

المُرْسَلين- نَقَل الكلامَ إلى إبطالِ معاذيرِهم، فأعْلَمَهم اللهُ حقيقةَ الرِّسالةِ، واقترانِها بالآياتِ، فبيَّنَ لهم أنَّ آيةَ صِدْقِ الرَّسولِ تجيءُ على وَفْقِ دعواه الرِّسالةَ، فلو ادَّعى أنَّه مَلَكٌ، أو أنَّه بُعِثَ لإنقاذِ النَّاسِ من أَرزاء الدُّنيا، ولإدْناءِ خيراتِها إليهم، لكان مِن عُذْرِهم أنْ يسألوه آياتٍ تؤيِّدُ ذلك، فأمَّا والرَّسولُ مبعوثٌ للهُدى، فآيتُه أنْ يكونَ ما جاء به هو الهُدى، وأنْ تكون مُعجزَتُه هو ما قارَنَ دَعْوَتَه، ممَّا يَعْجِز البَشَرُ عن الإتيانِ بِمِثْلِه في زَمَنِهم[1].

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المشْركينَ: لستُ أقولُ لكم إنِّي أمْلِكُ خزائِنَ رِزْقِ الله تعالى[2].

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾.

أي: ولا أقولُ لكم: إنِّي أعلمُ غُيوبَ الأشياءِ الخَفِيَّةِ التي لا يَعْلَمُها إلَّا اللهُ وحده، الذي لا يَخفَى عليه شيءٌ[3].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨].

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾.

أي: ولا أدَّعي أنِّي مَلَكٌ، فأكونَ نافِذَ التصرُّفِ قويًّا، غنيًّا عن الأكلِ والمالِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤٧).

أشاهِدُ مِن أَمْرِ الله تعالى ما لا يُشاهِدُه البَشَر[١].

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

أي: ما أَتَّبِعُ إلَّا وَحْيَ اللهِ الذي يُوحيه إليَّ، فأَمضِي لِوَحْيِه، وأَأْتَمِرُ لأمْرِه، لستُ أخرجُ عنه قِيدَ شِبْرٍ ولا أدْنى منه، وهذا مُنتهَى أمْري وأعلاه، فأعْمَلُ به في نفْسي، وأدْعو الخَلْقَ كُلَّهم إلى ذلك، كما أُوحِيَ إليَّ[٢].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لهم: هل يستوي الذي عَمِيَ عن الحَقِّ وأَعْرَض عنه، مع من أَبْصَرَ الحَقَّ وانقادَ إليه[٣]؟

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: أَتَغْفُلونَ وتُعْرِضونَ عن تلك الآياتِ والحُجَجِ، فلا تتفكَّرونَ فيها حتى تَفْهموها، وتَعْلَموا صِحَّةَ ما أَدْعوكم إليه، فتختاروا اتِّباعَ الحَقِّ[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٥-٢٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨-٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٠١-٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٠٣-٣٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥٠).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ...﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ ينبغي لِكُلِّ مسلمٍ أن يَعتبرَ بها، فيعلمَ أنَّ اللَّهَ شقَّ له في وَجْهِه عَيْنَيْنِ، وصبَغَ له بعضَهما بصبغٍ أسودَ، وبعضَهما بصبغٍ أبيضَ، وأعطاه لهما سِلْكًا من جفونِه، وجعلَ لعَيْنيه شحمًا؛ لئلَّا يُجَفِّفَهما الهواءُ، وجعلَ ماءَ عينِه مِلْحًا؛ لئلَّا تُنْتِنَ الشحمةُ، وجعلَ له عقلًا، وهو هذا العقلُ الذي يُمَيِّزُ به بين الأشياءِ، ويفعلُ به هذه الأفعالَ الغريبةَ العجيبةَ، وأعطاه حاسَّةَ السَّماعِ، كُلُّ هذا أعطاه له؛ ليبذُلَ هذه النِّعَمَ فيما يُرْضِي رَبَّهُ جلَّ وعلا؛ فلا ينبغي منه ولا يَجْمُلُ به أنْ يَستعينَ بِنِعَمِ رَبِّهِ على مَعصيةِ خالقِه جلَّ وعلا، فهذا عَمَلٌ لا يليقُ بعاقلٍ؛ ثم إنَّه يُلَاحِظُ قُدرةَ اللَّهِ وعظمتَه وجلالَه، وأنه قادرٌ على أن يَنزِعَ منه السَّمعَ والبصرَ والعقلَ فيتركَه كالجمادِ لا يسمعُ شيئًا، ولا يُبصرُ شيئًا، ولا يعقِلُ شيئًا، فلا ملجأَ له غيرُ اللَّهِ يُزِيلُ ذلك عنه؛ وَلِذَا قال: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾[(١)].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ ...﴾ فيه تذكيرٌ لهم بأنَّ اللهَ هو خالِقُ أسماعِهم وأبصارِهم وألبابِهم؛ فليس غَيرُه جديرًا بأنْ يعبدوه[(٢)].

٣- قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ فيه بيانُ رحمةِ الله عزَّ وجلَّ؛ حيث صَرَّف الآياتِ للعبادِ، ولو شاء لَتَرَك التَّصريفَ وجَعَل النَّاسَ يتخبَّطونَ خَبْطَ عَشْواء، لكنْ مِن نعمةِ الله عزَّ وجلَّ ورَحْمتِه بعِباده أنَّه يُريهِم الآياتِ ويُصَرِّفُها ويُنوِّعها لهم، فإذا لم يؤمنْ بهذه الآيةِ آمَنَ بالآيةِ الأخرى وحَصَلَ المقصودُ، وكم من إنسانٍ تفوتُه آياتٌ كثيرةٌ لا يعتَبِرُ بها، ثم يُصابُ بآيةٍ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٥).

واحدةٍ فيَعتبِرُ[١]!

٤- التحذيرُ من نزولِ العذابِ؛ إمَّا بغتةً، وإمَّا جهرةً؛ فلا يأمَنِ الإنسانُ إذا كان عاصيًا أن يَنزِلَ به العذابُ، لكنْ أيظُنُّ أنَّ العذابَ هو عقوبةُ الجَسَدِ فقط، فرغمَ أنَّ عقوبةَ الجَسَد عذابٌ في حدِّ ذاتِها إلَّا أنَّ هناك ما هو أكبرُ منها، وهو الإعراضُ عن دِين الله عزَّ وجلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾[٢] [المائدة:٤٩].

٥- قوله تعالى: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فيه وعْدٌ مِنَ اللهِ تعالى بأنَّه مُنْجي المؤمنينَ[٣].

٦- قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه تشجيعُ الإنسانِ على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، والحثُّ على ذلك بذِكْر عاقبةِ هذا المؤمِنِ المُصْلحِ[٤].

٧- يُستَفاد من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أنَّ الإيمانَ وَحْده لا يكفي، بل لا بدَّ معه من إصلاحٍ[٥].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- المرادُ مِن قَولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ الدَّلالةُ على وجودِ الصَّانعِ الحكيمِ المُختارِ؛ لأنَّ أشرَفَ أعضاءِ الإنسانِ هو السَّمْع

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والبَصَر والقَلْب؛ والأذنُ محلُّ القوَّةِ السَّامعة، والعينُ محلُّ القوَّةِ الباصِرَةِ، والقلبُ محلُّ الحياةِ والعِلْم والعَقْل، فلو زالتْ هذه الصِّفاتُ عن هذه الأعضاءِ اختلَّ أمرُ الإنسانِ، وبطَلَت مصالِحُه في الدُّنيا والدِّينِ، ومِن المعلومِ بالضَّرورةِ أنَّ القادِرَ على تحصيلِ هذه القُوى فيها، وَصْونِها عن الآفاتِ والمخافاتِ ليس إلَّا الله، وإذا كان الأمرُ كذلك كان المُنْعِم بهذه النِّعَم العالِيَةِ، والخيراتِ الرَّفيعةِ هو الله سبحانه وتعالى؛ فوجَبَ أن يقال: المُستحِقُّ للتعظيمِ والثَّناءِ والعبوديَّةِ ليس إلَّا الله تعالى[٦]، وقوله تعالى: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ فيه دليلٌ على توحيدِ الله تعالى، وأنَّه المتصَرِّفُ في العالَمِ، الكاشِفُ للعَذاب، والرادُّ لِمَا شاء بعدَ الذَّهاب[٧]، كما أنَّه دليلُ بُطلانِ الشِّرْكِ؛ فإذا لم يكن غيرُ الله يأتي بذلك، فلِمَ يَعبدونَ معه من لا قدرةَ له على شيءٍ إلَّا إذا شاءَه اللهُ[٨]؟!

٢- التَّشنيعُ على هؤلاء الذين صُرِّفَت لهم الآياتُ فأَعرضوا؛ لقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[٩].

٣- ما المرادُ بقوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مع العِلْمِ بأنَّ العذابَ إذا نزلَ لم يَحصُلْ فيه التمييزُ؟ والجواب: أنَّ الهلاكَ وإنْ عمَّ الأبرارَ والأشرارَ في الظَّاهِرِ، إلَّا أنَّ الهلاكَ في الحقيقةِ مختصٌّ بالظَّالِمينَ الشِّريرينَ؛ لأنَّ الأخيارَ يَستوجبونَ بسببِ نُزُولِ تلك المضارِّ بهم أنواعًا عظيمةً من الثَّوابِ، والدَّرجاتِ الرفيعةِ عند اللهِ تعالى، فذاك وإنْ كان بلاءً في الظَّاهِرِ، إلَّا أنَّه يُوجِبُ سعاداتٍ عظيمةً، أمَّا الظَّالِمونَ فإذا نزَلَ البلاءُ بهم فقد خَسِروا الدُّنيا والآخرةَ معًا؛ فلذلك وَصَفَهم اللهُ تعالى بكونِهم هالِكينَ، وذلك تنبيهٌ على أنَّ المؤمِنَ التقيَّ النقيَّ

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٥٣)

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٦).

(٨) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦).

(٩) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٠، ٢٣١).

هو السَّعيدُ، سواءٌ كان في البلاءِ أو في الآلاءِ والنَّعْماءِ، وأنَّ الفاسِقَ الكافِرَ هو الشقيُّ، كيف دارت قضيَّتُه، واختلفت أحوالُه، والله أعلم[(١)].

٤- في قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الأنبياءَ إنَّما بُعِثوا مُبَشِّرينَ بالثَّوابِ على الطَّاعاتِ، ومُنذرينَ بالعقابِ على المعاصي، ولا قُدرَةَ لهم على إظهارِ الآياتِ والمُعجزاتِ، بل ذلك مُفَوَّضٌ إلى مشيئةِ الله وحِكْمَتِه[(٢)].

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيه بيانُ منَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ على عِبادِه بإرسالِ الرُّسُل، وحِكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ تقضي بإرسالِ الرُّسُل؛ لأنَّ العقلَ البَشريَّ لا يستقلُّ بمعرفةِ ما يجب لله من الأسماءِ والصِّفاتِ والأحكامِ، ولا يُمكِنُ أن يستقلَّ بمعرفةِ العباداتِ، فالنَّاسُ مضطرُّونَ غايةَ الضَّرورةِ إلى الرُّسُل، قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: على دينٍ واحدٍ، فلما كثُروا تفرَّقوا واختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[(٣)] [البقرة: ٢١٣].

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ فيه أنَّ رسالةَ الرُّسُل تتضمَّنُ هذينِ الشَّيئينِ، وهما: البِشارةُ والإِنْذارُ؛ فالبشارةُ تكونُ لِمَن أطاع واتَّبعَ الرُّسُل، والإنذارُ بالعقوبةِ يكونُ لِمَن كذَّبَ، ويتفرَّعُ على هذا أنَّ الرُّسُل عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يأتوا بمجرَّدِ الأحكامِ، أي: لمجرَّدِ أن يقولوا: هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٧).

قال الشِّنقيطي: (وفي الآيةِ سؤالٌ معروفٌ: جاء في الأحاديثِ الصَّحيحةِ أن العذابَ إذا نَزَلَ بقومٍ كفارٍ شَمِلَ مَنْ فيهم مِنَ المسلمين، وهذه الآيةُ بَيَّنَتْ أنه لا يُهْلَكُ إِلَّا القومُ الظالمون؟ أُجِيبَ عن هذا: بأن العذابَ لو شَمِلَ، وأَهْلَكَ مَن هو معهم، أنَّ هذا الهلاكَ تمحيصٌ له، وأنه يُبْعَثُ يومَ القيامةِ في نعمةٍ من اللَّهِ ورحمةٍ وأجور). ((العذب النمير)) (١/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٨).

حلالٌ وهذا حرامٌ، بل قَرَنوا ذلك بالبِشارَةِ والإنذارِ؛ لأنَّ البِشارةَ تَحمِلُ الإنسانَ على فِعْل المأمورِ؛ فلو بُشِّر إنسانٌ بأنَّه سيحصُل على كَنزٍ في المكانِ الفلانيِّ لوُجِدَ يُسابِقُ، فيفعل ما يُوصله إليه، والإنذارُ يحصُلُ به البُعدُ عن المعاصي، وعلى هذا تتركَّبُ دعوةُ الرُّسُل[١].

٧- قَوْله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ و﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ فيهما بيانُ حِكْمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في انقسامِ النَّاسِ بالنِّسبةِ إلى قَبُولِ دَعوةِ الرُّسُل إلى قِسْمَينِ: مؤمنٌ يعملُ عملًا صالحًا، ومُكَذِّبٌ يرتكِبُ المعاصِيَ، هذا من الحِكْمةِ بل ومِنَ الرَّحْمة؛ لأنَّه لو لم يكُنْ كُفْرٌ لم يُعرَف قَدْرُ الإسلامِ، ومِن رحمةِ اللهِ وحِكْمَتِه أنَّه قسَّمَ النَّاسَ إلى قِسْمينِ؛ لأنَّه لولا هذا الانقسامُ لَمَا حَصَلَت فُروضٌ من الشَّريعةِ: مِثل الجِهادِ، والأَمْر بالمعروفِ والنَّهْي عن المنكَر، والامتحان والاختِبار؛ لأنَّ النَّاسَ كُلَّهم كانوا سيصيرونَ على وتيرةٍ واحدةٍ، لكنْ إذا انقَسَمُوا إلى مؤمنٍ وكافرٍ، حصَل الامتحانُ والاختبارُ للمؤمِنِ والكافِرِ، فلا تَظُنَّ أنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا أزاغَ قُلُوبَ الكافرينَ أنَّ في ذلك لَغْوًا، بل هو عَيْنُ الحِكْمةِ[٢].

٨- أنَّ التكذيبَ بآياتِ اللهِ سببٌ للعقوبة؛ لقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[٣].

٩- أنَّ هؤلاءِ المكذِّبينَ سيُصيبُهم العذابُ مباشرةً؛ لقوله: ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، وإنْ أَفْلَتوا من العذابِ في الدُّنيا فلن يُفْلِتوا منه في الآخِرةِ[٤].

١٠- أنَّ الفِسْقَ يُطْلَق على الكُفْرِ؛ لقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾؛ لأنَّ اللهَ تعالى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٨، ٢٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٣).

قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾، والتَّكذيبُ بالآياتِ كُفْرٌ، ثمَّ قال: ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾[١].

١١- قولُه تعالى: ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ فيه تمامُ عَدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيث إنَّه لم يُعَذِّبْ هؤلاء إلَّا لأنَّهمُ استَحَقُّوا العذابَ لِفِسْقِهم؛ جزاءً وِفاقًا[٢].

١٢- أنَّ كُلَّ ما صُدِّرَ بـ ﴿ قُل ﴾ بالنِّسْبةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان دليلًا على أهَمِّيتِه، وأنَّ اللهَ تعالى أوْصَى نَبِيَّه أن يُبَلِّغَه خاصَّةً؛ مِمَّا يدلُّ على العِنايةِ به[٣].

١٣- أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَبْرَأَ مِن دَعْوى هذه الثَّلاثةِ بقولِه تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ وكذلك قال نوحٌ عليه السَّلامُ: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [هود: ٣١]، فهذا أوَّلُ أُولِي العَزْمِ، وأَوَّلُ رسولٍ بَعَثَه اللهُ تعالى إلى أهْلِ الأَرْضِ، وهذا خاتَمُ الرُّسُلِ وخاتَمُ أُولِي العَزْمِ؛ كلاهما يَتبَرَّأُ من ذلك[٤].

١٤- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ أنَّه إذا كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم لا يَمْلِك خزائنَ الله، فإنَّه لا يجوزُ أن يُطْلَبَ الرِّزْقُ منه مباشرةً؛ لأنَّه لو طُلِبَ الرِّزْقُ من الرَّسولِ مُباشرةً لكان هذا شِرْكًا، وتجاوزًا لِمَا هو عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٠).
(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٣١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥٠).

١٥- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ قد يقولُ قائلٌ: أليس النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُحدِّثُ عن أشياءَ مُستقبَلةٍ، فكيفَ قيلَ: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾؟ فالجوابُ: بلى، ولكِنْ بِوَحْيٍ من الله عزَّ وجلَّ، والله تبارك وتعالى يَعْلَمُ الغَيْبَ؛ ولِهذا نقولُ: كُلُّ ما أخبرَ به النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم مِنْ أمورِ المُسْتَقبلِ؛ فهو بِوَحْيٍ خاصٍّ من الله عزَّ وجلَّ، وحينئذٍ لا يُنافي ما أَخْبَر به من أمورِ الغَيبِ ما ذكره اللهُ تعالى في هذه الآيَةِ: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾؛ لأنَّ عِلْمَه بالمستقبَلِ بما أَوْحَى اللهُ إليه، ليس عِلْمًا ذاتيًّا أدْرَكَه بنفْسِه، لكنَّه عِلْمٌ مِنْ عِند الله، كما أنَّ الإنسانَ يرى الرُّؤْيا الصَّالحةَ في المنامِ، وينتفعُ بها في المُستقبَل، و((الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جزءٌ من سِتَّةٍ وأربعينَ جُزءًا من النبوَّةِ))[(١)].

١٦- أنَّ المَلَك قد يَتصوَّرُ بصُورةِ إنسانٍ؛ لقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾؛ لأنَّه لولا أنَّه يُمْكِن تصوُّرُه بصورةِ إنسانٍ ما احْتِيجَ إلى النَّفيِ؛ إذ إنَّه معلومٌ بدونِ نَفيٍ، وهذا هو الواقِعُ، وقد جاء جبريلُ عليه السلامُ بصورةِ البَشَر[(٢)].

١٧- قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ردٌّ على الذين قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٌ﴾ فإنَّ الملائكةَ لا يُمْكنُ أن يَنْزِلوا ليكونوا رُسُلًا إلى البَشَر، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾[(٣)] [الأنعام: ٩].

١٨- لَمَّا كانَ عِلْمُ الغيبِ أمرًا يُمْكِن أن يَظْهَرَ على لسانِ البَشَر، بل قد يدَّعيه كثيرٌ من النَّاسِ كالكُهَّانِ وضُرَّابِ الرَّمْل والمُنَجِّمينَ، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥١).
والحديث أخرجه البخاري (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وأخرجه مسلم (٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قد أخبر بأشياءَ من المُغَيَّباتِ، وطابقَتْ ما أخبرَ به- نفى علمَ الغيبِ من أصله؛ فقال: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ تنصيصًا على مَحْضِ العبوديَّةِ والافتقارِ، وأنَّ ما صَدَر عنه من إخبارٍ بِغَيبٍ إنَّما هو من الوَحْيِ الواردِ عليه لا من ذاتِ نَفْسِه، فقال: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ كما قالَ فيما حَكَى اللهُ عنه: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾[1] [الأعراف:١٨٨].

١٩- الفائدةُ مِن ذِكْر نفيِ الأحوالِ الثلاثةِ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾:

قيل: ليُظْهِرَ الرَّسولُ مِن نَفْسِه التواضُعَ لله، والاعترافَ بعُبودِيَّتِه؛ حتى لا يُعتقَدَ فيه مِثْلُ اعتقادِ النَّصارى في المسيحِ عليه الصَّلاة والسَّلام.

وقيل: إنَّ القومَ كانوا يقترحونَ عليه إظهارَ المُعْجزاتِ القاهِرَةِ، فكان المقصودُ من هذا الكلامِ إظهارَ العَجْزِ والضَّعفِ، وأنَّه لا يَستَقِلُّ بتحصيلِ هذه المعْجزاتِ التي طَلَبوها منه.

وقيل: إنَّ المرادَ مِن قَولِه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، أي: لا أدَّعي كوني موصوفًا بالقُدْرةِ، ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾، أي: ولا أدَّعي كوني موصوفًا بِعِلْمِ الله تعالى، وبمجموعِ هذينِ الكلامينِ حصل أنَّه لا يدَّعي الإلهيَّة، ثمَّ قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وذلك؛ لأنَّه ليس بعد الإلهيَّة درجةٌ أعلى حالًا من الملائكةِ، فصار حاصلُ الكلامِ كأنَّه يقولُ: لا أدَّعي الإلهيَّةَ، ولا أدَّعي المَلَكيَّةَ، ولكنْ أدَّعي الرِّسالَةَ، وهذا مَنْصِبٌ لا يَمْتنعُ حصولُه للبَشَر، فكيف أَطْبَقْتُم على استنكارِ قولي[2]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٨).

٢٠- في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ جاء النَّفيُ على سبيلِ الترقِّي، فنفى أوَّلًا ما يتعلَّقُ به رغباتُ النَّاسِ أجمعينَ من الأرزاقِ التي هي قِوامُ الحياةِ الجُسمانيَّة، ثم نفى ثانيًا ما يتعلَّق به، وتتشوَّف إليه النُّفوسُ الفاضِلَة من معرفةِ ما يَجْهلونَ، وتَعَرُّف ما يقعُ من الكوائنِ، ثمَّ نفى ثالثًا ما هو مختصٌّ بذاتِه من صفةِ الملائكةِ التي هي مُباينةٌ لصفةِ البشريَّةِ، فترقَّى في النَّفيِ من عامٍّ إلى خاصٍّ إلى أخصَّ، ثمَّ حَصَر ما هو عليه في أحوالِه كُلِّها بقوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: أنا مُتَّبِعٌ ما أوحى اللهُ غيرَ شارعٍ شيئًا مِن جِهَتي[1].

٢١- قولُه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ فيه أمْرُ اللهِ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُعلِنَ للنَّاس أنَّه لا يعلمُ الغيبَ؛ ولذا لَمَّا رُمِيتَ عائشةُ رضي الله عنها بالإفكِ، لم يعلمْ أهي بريئةٌ أم لا حتَّى أخبره اللهُ تعالى بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]، وقد ذَبَح إبراهيمُ عليه السَّلام عِجلَه للملائكةِ، ولا عِلمَ له بأنَّهم ملائكةٌ حتى أخبروه، وقالوا له: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، ويعقوبُ عليه السلام ابيضَّتْ عيناه من الحزنِ على يُوسُفَ، وهو في مصرَ لا يَدري خبرَه حتى أظهرَ الله خبْرَ يُوسُف، ونوحٌ عليه السَّلام ما كان يَدري أنَّ ابنه الذي غَرِق ليس مِن أهلِه الموعودِ بنجاتِهم حتى قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ الآية [هود: ٤٥]، ولم يعلمْ حقيقةَ الأمرِ حتى أخْبَره الله بقوله: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، والملائكةُ عليهم السَّلام لَمَّا قال لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۞ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾ [البقرة: ٣١-٣٢]؛ فقد ظهَر أنَّ أعلمَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٩).

المخلوقاتِ- وهم الرُّسُل، والملائكة- لا يَعلمون مِن الغيبِ إلَّا ما عَلَّمهم اللهُ تعالى، وهو تعالى يُعلم رُسلَه من غيبِه ما شاءَ[١].

٢٢- أنَّ الشَّرائِعَ توقيفيَّةٌ، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يبتدعَ منها شيئًا؛ لقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾؛ ولهذا قرَّرَ أهْلُ العِلمِ أنَّ الأصلَ في العباداتِ المَنْعُ والحَظْرُ، وأنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أن يتعبَّدَ لله تعالى بشيءٍ إلَّا ما أَذِنَ اللهُ فيه شَرْعًا، وهذا حقٌّ مستنِدٌ إلى آياتٍ متعدِّدةٍ، وإلى قولِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَنْ أَحْدَثَ في أمْرِنا هذا ما ليس منه؛ فهو رَدٌّ))[٢].

٢٣- بعد أن قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أكَّدَ ذلك عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ العَمَلَ بغيرِ الوَحيِ يجري مَجرى عملِ الأعمى، والعَمَلُ بمقتضى نُزُولِ الوَحْيِ يجري مَجرى عَمَلِ البَصيرِ[٣].

٢٤- في قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ حجَّةٌ مِن حُجَج الله تعالى للمُستقِلِّينَ في هدايةِ الدِّينِ، على المُقَلِّدينَ فيه لآبائِهم ومشايخِهم الجاهلين[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ عاد به

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٨١، ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥٣).

والحديث أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)- واللفظ له- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٥٦).

إلى الجدالِ معهم في إشراكِهم باللهِ تعالى بعدَ أنِ انصرَفَ الكلامُ عنه بخصوصِه من قَوْلِه تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾[1] [الأنعام: ١٩].

- وهذا الكلامُ جارٍ مَجرَى التهديدِ والتَّخويفِ، واخْتِيرَ فيه التهديدُ بانتزاعِ سَمْعِهم وأبصارِهم وسَلْبِ الإدراكِ من قلوبِهم؛ لأنَّهم لم يَشْكُروا نعمةَ هذه المواهِبِ، بل عَدِموا الانتفاعَ بها[2].

- ولم يؤكِّدْ هنا خِطابَ الضَّمير (التاء) بـ (الكاف) في قَوْلِه: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، كما أكَّدَه في قَوْلِه: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: ٤٠]؛ وذلك لأنَّه لَمَّا ذَكَرَ أَوَّلًا تهديدَهم بإتيانِ العذابِ أو السَّاعةِ، كان ذلك أعظَمَ من هذا التهديدِ، فأكَّد خِطابَ الضميرِ بحَرْفِ الخطابِ (الكاف)، فقيل: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾، ولَمَّا كان التهديدُ هنا أخَفَّ من ذلك لم يُؤَكَّد به، بل اكتُفِيَ بخطابِ الضَّميرِ، فقيل ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾[3].

- وفيه أمرٌ لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتكريرِ التبكيتِ عليهم، وتثنيةِ الإلزامِ بعدَ تكمِلَةِ الإلزامِ الأوَّلِ؛ ببيان أنَّه أمرٌ مستمِرٌّ لم يَزَلْ جاريًا في الأُمَم[4].

- وقوله: ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ فيه تمثيلٌ؛ لأنَّ اللهَ هو معطي السَّمْع والبَصَر فإذا أزالَها كانت تلك الإزالةُ كحالةِ أخْذِ ما كان أعطاه، فشُبِّهَت هيئةُ إعدامِ الخالقِ بَعضَ مواهِبِ مخلوقِه بهيئةِ انتزاعِ الآخِذِ شيئًا من مَقَرِّه؛ فالهيئة المُشبَّهةُ هنا عقليَّةٌ غيرُ محسوسةٍ، والهيئةُ المُشَبَّهةُ بها محسوسةٌ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٣).

- قوله تعالى: ﴿سَمْعَكُمْ﴾ ذُكِرَ السَّمعُ مُفردًا؛ لأنَّه مصدرٌ دالٌّ على الجِنسِ، فكان في قوَّةِ الجَمعِ، فعمَّ بإضافتِه إلى ضَميرِ المخاطَبينَ، ولا حاجةَ إلى جَمْعِه، والعربُ إذا نَعَتَتْ بالمصدرِ ألْزَمَتْه الإفرادَ والتذكيرَ، ولأنَّ كُلَّ مفردٍ هو اسمُ جنسٍ، فمِن أساليبِ اللغةِ العربيةِ أن يُطْلَقَ مفردُه مُرَادًا به الجمعُ؛ نظرًا إلى أنَّ أصلَه اسمٌ شاملٌ للجنسِ. وهذا كثيرٌ في القرآنِ، وفي كلامِ العربِ؛ كقولِه: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] يعني: أئمةً، وغيره من الآياتِ[1].

- قوله: ﴿سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ فيه تقديمُ السَّمْعِ على الأبصارِ؛ وقد اطَّرد تقديمُ السَّمعِ على البَصر وما يَجري مَجراه في القرآنِ الكريم؛ وذلك لأنَّ السَّمعَ هو طريقُ تلقِّي الوحي، ولأنَّ السَّمع أهمُّ من البصر، وأفضلُ فائدةً لصاحبِه من البَصرِ؛ فإنَّ التقديمَ مُؤذِنٌ بأهميَّة المُقدَّم؛ وذلك لأنَّ السَّمعَ آلةُ تَلقِّي المعارفِ التي بها كمالُ العقل، وهو وسيلةُ بُلوغِ دَعوةِ الأنبياءِ إلى أفهامِ الأممِ على وجهٍ أكملَ مِن بُلوغِها بواسطة البصرِ لو فُقِدَ السَّمع، ولأنَّ السَّمعَ ترِدُ إليه الأصواتُ المسموعةُ من الجهاتِ الستِّ بدون توجُّه، بخلافِ البصرِ؛ فإنَّه يحتاجُ إلى التوجُّهِ بالالتفاتِ إلى الجهاتِ غيرِ المُقابلة؛ فما يحصُل من ضروبِ المعرفةِ عن طريقِ السَّمع لا يَحصُل عن البَصر، والبصرُ يَتوقَّفُ في تَحصيلِه للعلمِ على وسائطَ لا يتوقَّف عليها السَّمع؛ وكم من أناس فقَدوا نِعمةَ الإبصار فلم يَقعُدوا عن طلبِ العِلم، بل كانوا مِن المُبرَّزين فيه. أو قدَّم السَّمعَ؛ لأنَّ إدراكَ السَّمعِ أقدَمُ مِن إدراك البَصرِ؛ فإنَّ الإنسانَ يَسمعُ أوَّلًا كلامًا فينظر إلى قائلِه؛ ليعرفَه، ثم يَتفكَّر بقَلبِه في ذلك الكلامِ؛ ليفهمَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٦٧- ٢٦٨).

معناه[١].

- قوله: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ الاستفهامُ في قوله: ﴿مَّنْ﴾ مستعمَلٌ في التقريرِ يُقصَد منه إلجاءُ السَّامعينَ إلى النَّظَر في جوابِه، فيُوقِنوا أنَّه لا إلهَ غيرُ اللهِ يأتيهم بذلك؛ لأنَّه الخالِقُ للسَّمْعِ والأبصارِ والعقولِ[٢].

- وفيه لَطيفةٌ لغويَّة، حيثُ وحَّد الهاءَ في ﴿بِهِ﴾ في قوله: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾، وقدْ مَضَى الذِّكرُ قبلَ ذلِك بالجَمْعِ في قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾؛ قيل: لأنَّ معنَى ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾، أي: بما ذُكِرَ مِمَّا أَخَذَه اللَّهُ منكم، كقولِه جلَّ وعلا: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، أي: ذلِكَ المذكور، ولم يقُل: (ذَلِكُمَا)؛ فجائزٌ أنْ تكونَ معنيًّا بها: مَن إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بما أُخِذ منكم مِن السَّمع والأبصارِ والأفئدة، فتكون موحَّدةً لتوحيدِ (ما)، والعربُ تفعلُ ذلك؛ إذا كَنَّتْ عن الأفعالِ وحَّدت الكنايةَ، وإنْ كَثُرَ ما يُكنَّى بها عنه مِن الأفاعيل، كقولهم: إقبالُك وإدبارُك يُعجبني. وجائزٌ أن تكون الهاء عائدةً على السَّمعِ، فتكون موحَّدةً لتوحيدِ السَّمع. وقيل: إنَّ الهاء التي في (به) كنايةٌ عن الهُدَى[٣].

- قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الجملةُ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وهي تَتنزَّلُ منزلةَ التَّذييلِ للآياتِ السَّابقةِ؛ فإنَّه لَمَّا غَمَرَهم بالأدلَّةِ على الوحدانيَّةِ، وصِدْقِ الرَّسولِ، وأبطَلَ شُبَهَهم؛ عقَّبَ ذلك كلَّه بالتَّعجيبِ من

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٥)، ((خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية)) للمطعني (٢/ ١٠٦- ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤).

قُوَّةِ الأدلَّةِ مع استمرارِ الإعراضِ والمكابَرَةِ، والأمرُ في قوله: ﴿ٱنظُرۡ﴾ مستعملٌ في التعجيبِ مِن حالِ إعراضِهم[١]؛ فهو تعجيبٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من عدمِ تأثُّرهم بما عايَنوا مِن الآياتِ الباهرةِ، أي: انظر كيف نُكرِّرها ونُقرِّرها مصروفةً من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ؛ تارةً بترتيبِ المقدِّمات العقليَّة، وتارةً بطريقِ الترغيبِ والترهيبِ، وتارةً بالتنبيهِ والتذكيرِ ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾[٢]!

- قوله: ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ في هذا المكانِ للاستبعادِ؛ لاستبعادِ صُدوفِهم، أي إعراضِهم عن تِلك الآيات بعدَ تصريفِها على هذا النَّمطِ البديعِ الموجِبِ للإقبالِ عليها، والتَّراخي المفهومُ بـ (ثم) للاستبعادِ؛ لأنَّه يُسْتَبْعَدُ عندَ العقولِ السليمةِ أنْ يكونَ اللَّهُ مع عَظمتِه وجلالِه، ومع ما يُحْسِنُ به إلى الإنسانِ يُصرِّفُ له الآياتِ، ومع هذا هم يَصدفُون[٣]!

- وجيءَ بالمُسْنَدِ في جملةِ ﴿هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ فعلًا مضارعًا للدَّلالة على تجدُّدِ الإعراضِ منهم، وتقديم المُسْنَد إليه ﴿هُمۡ﴾ على الخبَرِ الفِعليِّ ﴿يَصۡدِفُونَ﴾؛ لِتَقَوِّي الحُكْمِ[٤].

٢- **قوله:** ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ استئنافٌ للتَّهديدِ والتوعُّد، وإعذارٌ لهم بأنَّ إعراضَهم لا يَرجِعُ بالسُّوءِ إلَّا عليهم، ولا يَضُرُّ بغيرهم[٥]، وهو تبكيتٌ آخَرُ لهم بإلجائِهم إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الاعترافِ باختصاصِ العذابِ بِهِم[١].

- قوله تعالى: ﴿بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً﴾ أوْقَعَ الجهرةَ هنا في مُقابلة البَغْتةِ، وكان الظَّاهِرُ أن تُقابَلَ البَغتةُ بالنَّظْرةِ، أو أن تُقابَلَ الجهرةُ بالخُفْيَةِ، إلَّا أنَّ البغتةَ لَمَّا كانت وقوعَ الشَّيءِ من غير شعورٍ به، كان حصولُها خفيًّا؛ فحَسُنَ مقابلَتُه بالجَهرةِ، فالعذابُ الذي يجيءُ بغتةً هو الذي لا تسبِقُه علامةٌ، ولا إعلامٌ به، والذي يجيء جهرةً هو الذي تسبِقُه علامةٌ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، أو يسبِقُه إعلامٌ به؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾ [هود:٦٥][٢].

- قوله: ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الاستفهامُ في قوله: ﴿هَلۡ﴾ بمعنى النَّفيِ؛ ولذلك دَخَلت (إلَّا)، وهو مُستعمَلٌ في الإنكارِ والتقريرِ، أي: قلْ لهم تقريرًا لهم باختصاصِ الهلاكِ بهم: أخبروني إن أتاكُم عذابُه تعالى حَسَبما تستحقُّونَه: هل يُهلَك بذلك العذابِ إلَّا أنتم[٣].

- ولَمَّا كانَ المُخَوَّفُ بالذَّاتِ هو الهُلاك، مِن غير نَظَرٍ إلى تَعيينِ الفاعلِ، بُنِيَ الفِعلُ ﴿يُهۡلَكُ﴾ للمَفعولِ[٤].

- وفيهِ وَضْعُ الظَّاهِرِ ﴿إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مَوضِعَ المُضْمَر -حيثُ لم يَقُلْ: (هلْ يُهلَكُ غيرُكم)- وإنَّما وُضِعَ موضِعَه؛ تَسجيلًا عليهم بالظُّلْم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١١٩).

وإيذانًا بأنَّ مناطَ إهلاكِهِم ظُلْمُهم، الذي هو وَضْعُهم الكُفرَ موضِعَ الإيمانِ[١].

٣- **قوله:** ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، مَسُوقٌ لبيانِ وظائِفِ مَنْصِب الرِّسالةِ على الإطلاقِ، وتحقيقِ ما في عُهْدةِ الرُّسُلِ عليهم السلامُ، وفيه: إظهارُ أنَّ ما يقترحُه الكَفَرةُ عليه- عليه السلامُ- ليس مما يتعلَّقُ بالرِّسالةِ أصلًا[٢].

- والتعبيرُ بصيغةِ المضارعِ ﴿نُرۡسِلُ﴾ دون الماضي (أَرْسَلْنا)؛ لبيانِ أنَّ ذلك أمرٌ مستمرٌّ جَرَت عليه العادةُ الإلهيَّةُ، وللدَّلالةِ على تجدُّدِ الإرسالِ مُقارِنًا لهذين الحالَينِ، أي: ما أرسَلْنا، وما نُرْسِل، فقوله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ حالان مُقَدَّرتانِ باعتبارِ المُستقبلِ، ومُحَقَّقتانِ باعتبارِ الماضي[٣].

- والقَصْرُ بـ(ما... وإلَّا) هو الذي يُسَمِّيهِ البلاغيون: قصرًا إضافيًّا؛ لأنَّه يُرْسِلُهم بأعمالٍ أُخَرَ طيبةٍ من تعليمِ الآدابِ والمكارمِ، وغيرِ ذلك ممَّا هو زائدٌ على البِشارةِ والإنذارِ؛ للردِّ على مَن زعموا أنَّه إنْ لم يأتهم بآيةٍ كما اقترحوا فليس برسولٍ مِن عند الله، فهو قَصْرُ قَلْبٍ، أي: لم نُرْسِلِ الرَّسولَ للإعجابِ بإظهارِ خوارقِ العاداتِ[٤]، فحَصَرَ اللهُ تعالى وظيفةَ الرُّسُل في البِشارة والإنذارِ؛ حتى لا يدَّعيَ مُدَّعٍ أنَّ وظيفةَ الرُّسُل تتعلَّق بالربوبيَّة، وأنَّ لهم نصيبًا من تدبيرِ الخَلْقِ، فالرُّسُل ليس لهم إلَّا أن يُبشِّروا النَّاسَ، ويُنذِروهم فقط، أمَّا أن يَهْدُوهم، أو يَرْزقوهم، أو يدفعوا عنهم السُّوءَ؛ فليسَ من وظائِفِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٥).

- وقد كنَّى بالتَّبشيرِ والإنذارِ عن التَّبليغِ؛ لأنَّ التَّبليغَ يَسْتلزِمُ الأَمْرينِ، وهما التَّرغيبُ والتَّرهيبُ، فحَصَل بهذه الكِنايةِ إيجازٌ؛ إذِ استغنى بذِكْرِ اللَّازِمِ عن الجَمْع بينه وبين المَلزومِ(١).

٤- **قوله:** ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ **فيه:** كِنايةٌ عن قُرْبِ العذابِ؛ حيثُ جَعَلَ العذابَ ماسًّا لهم؛ كأنَّه حيٌّ يَفعلُ بهم ما يُريدُ مِنَ الآلامِ(٢).

- وجِيءَ بِخَبَرِ (كان) جملةً مضارعيَّةً ﴿يَفْسُقُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ فِسْقَهم كان متجدِّدًا مُتكرِّرًا، وللدَّلالةِ أيضًا على الاستمرارِ؛ لأنَّ (كان) إذا لم يُقْصَدْ بها انقضاءُ خَبَرِها فيما مضَى، دَلَّتْ على استمرارِ الخَبَر بالقَرينةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء:٩٦](٣).

٥- **قوله:** ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾

- قوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ انتقل به الكلامُ مِن غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، وهو استئنافٌ مبنيٌّ على ما أُسِّسَ من السُّنَّة الإلهيَّةِ في شأنِ إرسالِ الرُّسُلِ، وإنزالِ الكُتُب؛ مسوقٌ لإظهارِ تَبَرُّئِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مما يدورُ عليه مقترحاتُهم، وقد افتتحَ الكلامَ بالأمْرِ بالقولِ؛ للاهتمامِ بإبلاغِه(٤).

- وفي قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ خاطبَهم مخاطبةً غيرَ الأُولى، يَعني:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٠).

كرَّر المخاطبةَ ﴿لَكُمۡ﴾؛ لأنَّ المقامَ هنا- وهو نفيُ أن يكون مَلَكًا- أبلغُ وأشدُّ، والإتيان بكافِ الخِطاب يدلُّ على شِدَّة توجيهِ الخِطاب للمُخاطَب، كما في قولِ الخَضِر لموسى في الآيةِ الأُولى: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ [الكهف: ٧٢]، وفي الثانية: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾[1] [الكهف: ٧٥].

- وأعادَ قولَه: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ في قولِه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾، ولم يُعِدْها في نَفْيِ عِلْم الغَيبِ؛ حيث قال: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾، ونُكتةُ ذلك: أنَّ نفيَ عِلم الغيبِ ونَفْيَ التصرُّفِ في خزائنِ الله يؤلِّفانِ التبرُّؤَ من دَعْوَى واحدةٍ، هي دعوَى الصِّفاتِ الخاصَّةِ بالله تعالى، وأمَّا نفيُ ادِّعاءِ المَلَكِيَّة فهو شيءٌ آخرُ، فأُعيدَ العامِلُ لإفادة ذلك، كأنَّه قال: إنَّني لا أدَّعي صفاتِ الإله حتى تطلُبوا منِّي ما لا يقدِرُ عليه أو ما لا يَعْلَمُه إلَّا اللهُ، ولا أدَّعي أنِّي مَلَك- وهو دون ما قَبْلَه- حتى تطلبوا منِّي ما جعله الله في قدرةِ الملائكةِ، ولم يجعَلْه من مقدورِ البَشَرِ، بل ادَّعَيْتُ أنِّي عبدُ اللهِ ورسولُه، وإنَّما وظيفةُ العبدِ الطاعةُ، ووظيفةُ الرَّسولِ التبليغُ، وعبَّر عن هذا بقولِه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: ما أفعلُ مِن حيثُ أنا عبدٌ رسولٌ إلَّا اتِّباعَ ما يُوحِيه إليَّ مَن أَرْسَلَني، مِن تَبليغِ دِينِه بالتبشيرِ والإنذارِ والعَمَلِ به[2].

- وفي قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ كرَّر ضَميرَ الخِطابِ المجرورَ مِن قَولِه: ﴿لَكُمۡ﴾ وفي سُورة هودٍ قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ [هود: ٣١] بغيرِ تكريرِ الخِطابِ؛ وذلِك لأنَّ الواردَ في سُورةِ هودٍ إنَّما هو حِكايةُ قَولِ نوحٍ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٥٥).

السَّلامُ مُتلطِّفًا، ومشْفِقًا من حالِ قَومِه، ويُلْحَظ ذلك من النَّظَرِ فيما استَفْتَحَ به خطابَه لهم، وذلك بقوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ...﴾ الآية، وقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فهو عليه السَّلامُ يُلاطِفُهم، ويَظهَرُ من كلامه عظيمُ الإشفاقِ مِن حالِهم، وإرادتُه ما به نجاتُهم من العذابِ، فهذا كلُّه استلطافٌ في الدُّعاءِ، لا يلائِمُه تَكرارُ كلمةٍ تُفْهِمُ تعنيفًا أو توبيخًا، والتأكيدُ والتَّكرارُ يُفْهِمانِ ذلك، ويَرِدانِ حيثُ يُقْصَد.

وأمَّا قولُه تعالى هنا في آيةِ الأنعام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فوارِدٌ في أثناءِ كلامٍ أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتبليغه عُتاةَ قُريشٍ والعربِ؛ توبيخًا لهم وتقريعًا؛ فقيل له: ﴿قُل﴾ والمراد: قلْ لهم يا محمَّدُ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ...﴾ الآية، فعَنى به من يقولُ: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ فمن يصدُرْ عنه هذا وأشباهُه ممَّا يُنْبِئُ عن الإزراءِ، وفسادِ الظَّاهِرِ والباطِنِ، فَهُم المَقولُ لهم: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ...﴾، فتكَرَّر فيها قولُه: ﴿لَكُمْ﴾ تأكيدًا يُفْهِم التَّعنيفَ ويُناسِبُ التَّوبيخَ والتَّقريعَ[1].

وقيل: كرَّر في هذِه الآية قوله: ﴿لَكُمْ﴾؛ لعدمِ ذِكْرِه قبلَها وبعدَها، ولم يُكرِّر قولَه: ﴿لَكُمْ﴾ في سورةِ هودٍ؛ لأنَّه تقدَّم فيها قولُه تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وعَقِبَه ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ وبعدَه ﴿أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ فلَمَّا تكَرَّرَ (لكم) في القِصَّةِ أربعَ مَرَّاتٍ اكْتفى بذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (١/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٠٩- ١١٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري

- وتقديمُ المسْنَدِ، وهو قوله: ﴿عِندِى﴾ على قوله: ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾؛ للاهتمامِ به، لِمَا فيه مِن الغَرابةِ والبِشَارةِ للمُخْبَرينَ به[١].

- قوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ جملةٌ مستأنفَةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّه لَمَّا نفى أن يقولَ هذه المقالاتِ، كان المقامُ مثيرًا سؤالَ سائلٍ يقولُ: فماذا تدَّعي بالرِّسالةِ، وما هو حاصِلُها؟ لأنَّ الجَهَلةَ يَتوهَّمونَ أنَّ معنى النبوةِ هو تلك الأشياءُ المتبرَّأُ منها في قوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ...﴾ إلخ، فيُجابُ بقولِه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، أي: ليستِ الرِّسالةُ إلَّا التبليغَ عَنِ الله تعالى بواسطةِ الوَحْيِ[٢].

- قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِى ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ خِتامٌ للمجادَلَةِ معهم، وتذييلٌ للكلامِ المُفْتَتَحِ بقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، أي: قلْ لهم هذا التذييلَ عَقِبَ ذلك الاستدلالِ[٣].

- وتكريرُ الأمرِ ﴿قُل﴾؛ لتَثنيةِ التَّبكيتِ، وتَأكيدِ الإلزامِ[٤].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿هَلۡ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، والمرادُ إنكارُ استواءِ من لا يعلمُ ما ذُكِرَ من الحقائِقِ ومن يَعْلَمُها، وفيه من الإشعارِ بكمالِ ظُهُورها، ومن التَّنفيرِ عن الضَّلالِ، والتَّرغيبِ في الاهتداءِ ما لا يخفى[٥].

- وفيه تشبيهُ حالةِ من لا يَفْقَهُ الأدلَّةَ، ولا يُفَكِّك بين المعاني المتشابهةِ بحالةِ

(ص: ١٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأعمى الذي لا يَعْرِف أين يَقْصِد، ولا أين يَضَعُ قدَمَه، وتشبيهُ حالةِ من يُمَيِّزُ الحقائقَ، ولا يلتبسُ عليه بعضُها ببعضٍ بحالةِ القَوِيِّ البَصَرِ؛ حيث لا تختلطُ عليه الأشباحُ، وهذا تمثيلٌ لحالِ المشركينَ في فسادِ الوَضْعِ لأدِلَّتِهم، وعُقْمِ أَقْيِسَتِهم، ولحالِ المؤمنينَ الذين اهتَدَوْا، ووضعوا الأشياءَ مَوَاضِعَها، أو تمثيلٌ لحالِ المُشْركينَ التي هم متلبِّسونَ بها، والحالِ المطلوبة منهم التي نَفَروا منها؛ ليعلموا أيُّ الحالينِ أَوْلى بالتخلُّقِ[1].

- قوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ توبيخٌ وتقريعٌ لهم، والاستفهامُ للإنكارِ، وهو معطوفٌ بالفاءِ على الاستفهامِ الأَوَّلِ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ لأنَّه مترتِّبٌ عليه؛ لأنَّ عدمَ استواءِ الأعمى والبصيرِ بديهيٌّ، لا يسَعُهُم إلَّا الاعترافُ بعَدَمِ استوائِهما؛ فلا جَرَمَ أن يتفرَّعَ عليه إنكارُ عدمِ تفكُّرِهم في أنَّهم بأيِّهما أشبَهُ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٣).

الآيات (٥١ - ٥٥)

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿شَفِيعٌ﴾: أي: ناصِر ومُعينٌ، والشَّفاعةُ: الانضمامُ إلى آخَرَ؛ نُصْرةً له، وسؤالًا عنه، وشَفَعَ فلانٌ لفلانٍ: إذا جاء ملتمِسًا مَطْلَبَه، ومُعِينًا له؛ فأصل الشَّفْع: ضمُّ الشَّيءِ إلى مِثْلِه[(١)].

﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾: الغَداةُ هِي أوَّلُ النَّهارِ، أو وَقتُ الضُّحى، أو مِن طُلوعِ الفَجْرِ إلى الظُّهرِ، وأصْلُ (غدو): يدلُّ على زمانٍ[(٢)].

﴿ وَٱلْعَشِيِّ ﴾: العشيُّ هو آخِرُ النَّهارِ مِن وقْتِ العَصرِ إلى اللَّيلِ، أو مِن الظُّهر إلى نِصْفِ اللَّيلِ، وأصل (عشو): يدلُّ على ظلامٍ، وقِلَّة وضوحٍ في الشَّيءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣) و(٢٤/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧) و(٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣) و(٢٤/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:

﴿فَتَنَّا﴾: أي: اختبَرْنا وابتَلَينا وامتحَنَّا[١].

﴿سُوءًا﴾: السوءُ: هو كُلُّ ما يسوءُ صاحبَه إذا رآه في صحيفتِه، وهو اسمٌ جامعٌ للآفاتِ، وهو أيضًا كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ، ويُستعمَلُ في كلِّ ما يُستقبَحُ[٢].

﴿بِجَهَالَةٍ﴾: الجهالةُ فِعلُ الشَّيءِ بخلافِ ما حقُّه أن يُفعَلَ، وأصل (جهل): خلافُ العِلْم[٣].

﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾: أي: لتَظْهَرَ ولتنكشِفَ، وأصل (بين): الانكشافُ[٤].

مشكل الإعراب:

١- **قوله تعالى**: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾: الفاءُ سَببيَّة، و(تطردَ): منصوبٌ في جَوابِ النَّفْيِ ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ بـ(أنْ) مُضمَرة بعدَ الفاءِ؛ على إرادةِ انتفاءِ الطَّرْدِ؛ لانتفاءِ كَوْنِ حسابِهم عليه، وحسابِه عليهم، أي: ما يكون مؤاخذةُ كلِّ واحدٍ بحسابِ صاحبِه؛ فكيف يقَعُ طردٌ؟!

---

٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١، ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢). يُنظر: ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:٢٩، ٩٤، ١٣٩، ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٩) و(٤/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٣).

﴿فَتَكُونَ﴾: مَنصوبٌ بالعَطْفِ على ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾؛ على وجْهِ التَّسبيبِ؛ لأنَّ كونَه ظالِمًا مُسَبَّبٌ عن طَرْدِهم. أو منصوبٌ بـ(أنْ) مُضمرةً على أنَّه جوابُ النَّهْيِ الذي في أوَّلِ الآيةِ ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾، وتكونُ الجُملتانِ -﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ وجوابُ الأولى ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾- اعتراضًا بين النَّهْيِ وجوابِه[1].

٢- قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

﴿أَنَّهُ... فَأَنَّهُ﴾: قُرِئَ بفتح «أنَّ» في الموضعينِ وبِكَسْرِهما؛ فعلى قِراءةِ الفتحِ فيهما تكونُ ﴿أَنَّهُ﴾ الأُولى في مَوضِع نَصْبٍ بدلًا من ﴿الرَّحْمَةَ﴾، أي: كتَب أنَّهُ مَن عَمِلَ. وأمَّا فَتْحُ الثَّانيةِ ﴿فَأَنَّهُ﴾ فعلى: أنَّها في مَحلِّ رفعٍ مبتدأٌ، والخبرُ محذوفٌ، أي: فغُفرانُه ورحمتُه حاصِلانِ أو كائنان، أو فعَلَيه غُفرانُه ورَحْمتُه. أو على: أنَّها في محلِّ رفْعٍ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: فأمْرُه أو شَأْنُه أنَّه غفورٌ رحيمٌ.

وأمَّا على قِراءة كَسْرِ الهَمزةِ: فكَسْرُ الأُولى (إنَّهُ) على أنَّها مستأنفَةٌ، وأنَّ الكَلامَ تامٌّ قَبْلَها، وجِيءَ بها وبما بَعْدَها كالتَّفسيرِ لِقَوْله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، أو على إضمارِ (قال)، فكُسِرَت (إنَّ) بَعْدَه، وأمَّا كَسْرُ الثَّانِيةِ (فإنَّهُ) فعَلى الاستئنافِ، بمعنى أنَّها في صَدْرِ جملةٍ وَقَعَت خبرًا لـ ﴿مَنْ﴾ الموصولةِ، أو جوابًا لها إنْ كانَتْ شرطًا[2].

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٤٥- ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري

٣- قوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾: قُرِئَ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاءِ، وقُرِئ (وَلِيَسْتَبِينَ) بالياءِ، وقُرِئ ﴿سَبِيلُ﴾ بالرَّفْع والنَّصْب، وهذه القِراءاتُ دائرةٌ على تَذكيرِ (السَّبيل) وتأنيثِه، وتَعَدِّي الفعلِ (استبان) ولُزُومِه، وكِلاهما جاء فيه الأمرانِ؛ فالسَّبيلُ يُذكَّر ويُؤنَّثُ؛ قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦] فذَكَّر السَّبيلَ، وقال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٨] فأنَّثَ السبيلَ. وأمَّا الفِعلُ (استبانَ) فيكونُ متعدِّيًا؛ نحو: استبَنْتُ الشَّيْءَ، ويكون لازمًا؛ نحو: استبانَ الصُّبْحُ.

فمَنْ قرأ بالتَّاءِ ورَفَعَ (السَّبيل): فالسَّبيلُ فاعِلٌ للفِعْلِ (تَسْتَبِينَ) على لغَةِ التَّأنيثِ، والفِعلُ لازِمٌ.

ومَن قرأ بالياءِ ورَفَع (السَّبيل): فالسَّبيلُ فاعِلٌ للفِعل (يَسْتَبِينَ) على لُغة التَّذْكيرِ، والفِعْلُ لازِمٌ أيضًا.

ومن قرأ بالتَّاءِ ونَصَبَ (السَّبيل): فإنَّ الفاعِلَ ضميرُ المخاطَب المستَتِر، تقديره: (أنت)، و(السَّبيلَ) مفعولٌ به منصوبٌ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَأمرُ اللهُ نبيَّهُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُنْذِرَ بالقرآنِ الذين يخافونَ أن يُحْشَروا إلى ربِّهم، ليس لهم غير اللهِ وليٌّ ينصرُهم، ولا شفيعٌ يشفعُ لهم عنده فيُخَلِّصَهم مِن عذابِه، لعلَّهم يتَّقونَ؛ فيمتثلون ما أمَر الله به، ويجتنبونَ ما نهَى عنه.

(١/ ٤٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٥٠- ٦٥٣).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٠١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٥٥).

ثم يَنهى اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن طَرْدِ الذين يَدْعونَه عزَّ وجلَّ في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرَه، مُخْلِصينَ له تعالى في ذلك، وأَعْلَمَه أنَّ كلًّا له حسابُه؛ فلا هو صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سيُحاسَبُ على ما يعملونَه، ولا هم سيُحاسَبونَ على عَمَلِه، حتَّى يَطرُدَهم؛ فإنَّه إنْ فعَلَ ذلك فسيكونُ من الظَّالمينَ.

ثم يُخبِرُ تعالى أنَّه كذلك يَخْتَبر ويَبتلي النَّاسَ بعضَهم ببعضٍ، فيجعلُ بعضَهم غنيًّا، وبعضَهم فقيرًا، وبعضَهم شريفًا، وبعضَهم وضيعًا، فإذا ما آمن الفقيرُ والضَّعيفُ كان ذلك فتنةً للغنيِّ والشَّريفِ، وترتَّب عليه أن يقولوا لِمَن يَرون أنَّهم دونَهم؛ ممَّن آمنَ: أهؤلاءِ منَّ اللهُ عليهم بالهدايةِ مِن بَيْنِنا، لو كان خيرًا لكنَّا نحنُ أَوْلى به، فاللهُ تعالى يَرُدُّ عليهم بأنَّه هو أعلَمُ بمن يقومُ بِشُكْره، فيوفِّقُه ويَهديه.

ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يقولَ للمؤمنينَ بآياتِ اللهِ، مُرَحِّبًا بهم إذا جاؤوه: سلامٌ عليكم، وأنْ يُبَشِّرَهم برحمَتِه التي أوجَبَها على نَفْسِه عزَّ وجلَّ، وأنْ يُعْلِمَهم أنَّه مَن اقترفَ منهم ذنبًا بجهالةٍ، ثم تاب عن ذلك الذَّنْب وأصلَحَ، فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

ثمَّ أخبرَه تعالى أنَّه كذلك يُوضِّحُ الآياتِ؛ لتتبيَّنَ طريقُ المُشْرِكين المُوصِلَةُ إلى سَخَطه وعذابِه ليُمكِنَ اجتنابُها، ومن أجْل أنْ يَتبيَّنَ الحقُّ من الباطلِ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا وَصَفَ تعالى الرُّسُلَ بكونِهم مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ، أَمَرَ الرَّسولَ في هذه

الآيةِ بالإنذارِ[١]، فقال:

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾.

أي: وأنذرْ بهذا القرآنِ- يا محمَّدُ- مَن يَنتفعُ به حقًّا، وهم الذين يخافونَ الحشرَ إلى رَبِّهِمْ، ويوقنون بالانتقالِ مِن هذه الدَّارِ الفانِيةِ، إلى الدَّارِ الباقيةِ، فيَستصحِبونَ إليها ما ينفَعُهم، ويَدَعُون ما يضرُّهم[٢].

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾.

أي: والحالُ أنَّه ليس لهم يَومَئذٍ من عذابِ الله- إنْ عَذَّبَهم- وليٌّ مِن دُونِ اللهِ ينصرُهم، فيستنقِذُهم من العذابِ، ولا شفيعٌ يتوسَّطُ لهم عندَ الله تعالى، فيُخَلِّصهم من العِقابِ[٣].

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

أي: أنذِرْهم كي يتَّقوا اللهَ تعالى وعذابَه؛ بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهِيه[٤].

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٧-٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٠٤-٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٠٥-٣٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣١٠-٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٢).

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بإنذارِ غيرِ المتَّقينَ لعلَّهم يتَّقونَ؛ أردَفَ ذلك بتقريبِ المتَّقينِ وإكرامِهم، ونهاه عن طَرْدِهم، ووَصَفَهم بموافقةِ ظاهِرِهم لباطِنِهم؛ مِن دُعاءِ رَبِّهم، وخُلُوصِ نِيَّاتِهم[1].

سببُ النُّزولِ:

عَن سَعدِ بنِ أَبي وقَّاصٍ رضي الله عنه، قال: ((كنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ستَّةَ نَفَرٍ، فقال المُشركونَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اطرُدْ هؤلاءِ؛ لا يجتَرِئونَ علينا. قال: وكنتُ أنا وابنُ مسعودٍ، ورجلٌ من هُذَيلٍ، وبلالٌ، ورجلانِ لستُ أُسمِّيهما، فوقَعَ في نفسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما شاءَ اللهُ أن يقعَ، فحدَّث نفسَه، فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾))[2].

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

أي: ولا تُقْصِ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الذينَ هم في العملِ لله تعالى دائبونَ، فيلازمونَ دُعاءَ رَبِّهم دعاءَ مسألةٍ، ودعاءَ عبادةٍ، في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرَه؛ بإخلاصٍ لله تعالى وطَلَبًا لوَجْهِه الكريمِ، فهؤلاء اجْعَلْهم جُلَساءَك وخاصَّتَك، ولا تُبْعِدْهم عنك؛ لأجْلِ أنَّ الكُفَّارَ يُريدونَ ذلك، فليسوا مُستحقِّينَ للطَّرْدِ والإعراضِ عنهم، بل هم مُستحقُّونَ لتقريبِهم؛ فهم الصَّفْوةُ مِن الخَلْقِ وإنْ كانوا فقراءَ، والأعِزَّاءُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢١).

(٢) رواه مسلم (٢٤١٣).

في الحقيقةِ، وإنْ كانوا عندَ النَّاسِ أذلَّاءَ[١].

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾.

أي: كلٌّ له حسابُه؛ فله عملُه الصَّالحُ، وعليه عَمَلُه الطَّالحُ، وحسابُه على اللهِ عزَّ وجلَّ وَحْدَه، ولستَ محاسَبًا- يا محمَّدُ- بما يفعلُ أصحابُك الضُّعفاءُ، كما أنَّهم ليسوا مُحاسَبينَ بما تفعلُ؛ حتَّى يَكونَ ذلك سَببًا في طَرْدِهم[٢].

كما حَكَى الله تعالى عن نوحٍ وقَوْمِه، فقال: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١١- ١١٥].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضِي الله عنهما، أنَّ هِرَقْلَ قال لأبي سفيانَ: ((سَأَلْتُكَ: أشرافُ النَّاسِ يتَّبِعونَه أم ضُعَفاؤُهم، فزَعَمْتَ أنَّ ضُعفاءَهُم اتَّبَعوه، وهمُ أتباعُ الرُّسُل))[٣].

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فإنْ طردْتَهم- يا مُحمَّدُ- فإنَّك تكونُ بذلك مِن المتجاوِزينَ لحُدُودِ الله تعالى، الذين يَضَعونَ الأشْياءَ في غَيْرِ مواضِعِها الصَّحيحةِ واللائِقَةِ بها، ومن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٦٩-٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧-٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣١٢-٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٤-٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٢٢-٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٥-٢٦٦).
قال ابنُ عاشورٍ: (وجملةُ ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ تعليلٌ للنهي عن طرْدِهم، أو إبطالٌ لعِلَّة الهمِّ بطَرْدِهم، أو لعِلَّة طلبِ طَرْدهم؛ فإنَّ إبطالَ عِلَّة فِعل المنهيِّ عنه يؤول إلى كونِه تعليلًا للنهي؛ ولذا فُصِلتْ هذه الجملة [أي: لم تُعطَف بالواو على التي قَبْلَها]). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٨).

(٣) رواه البخاري (٢٩٤١) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣).

ذلك إبعادُ من يستحِقُّ القُرْبَ من أجلِ إرضاءِ وتقريبِ من يستحِقُّ البُعْدَ[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾.

أي: كما فَتَنَ اللهُ تعالى هؤلاءِ الأغنياءَ من الكفَّارِ بأولئك الفُقراءِ من المؤمنينَ، كذلك أيضًا يَبتَلي النَّاسَ، ويَمتحِنُ بعضَهم ببعضٍ؛ فبعضُهم غنيٌّ؛ وبعضُهم فقيرٌ، وبعضُهم شريفٌ، وبعضُهم وضيعٌ، فإذا مَنَّ اللهُ بالإيمانِ على الفقيرِ أو الوضيعِ؛ كان ذلك موضِعَ محنةٍ للغنيِّ والشَّريفِ[٢].

﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

أي: إنَّما اختبَرْنا النَّاسَ بالغِنى والفَقْرِ، والعِزِّ والذُّلِّ، والقوَّةِ والضَّعْف، والهُدى والضَّلال؛ كي يقولَ مَن أضلَّهم اللهُ للذين هداهم الله ووفَّقَهم: أهؤلاءِ مَنَّ اللهُ عليهم مِن بَيْنِنا بالهدايةِ إلى الحقِّ، وهم فقراءُ ضعفاءُ أذِلَّاءُ، ونحن أغنياءُ أقوياءُ شُرَفاءُ؟ كلَّا! بل لو كان خيرًا لهُدِينا نحنُ إليه؛ لأنَّنا أَوْلى منهم بذلك[٣].

فقال اللهُ تعالى ردًّا عليهم:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٢٢-٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥١-٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٢٤-٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٧٠).

أي: أليسَ هو سبحانه أعلمَ بِمَن شَكَر نِعَمَه- وأعظَمُها نِعمَةُ الإيمانِ- بأقوالِه وأفعالِه؛ فيُوفِّقَه ويهديَه؛ جزاءً له على شُكْرِه، ممَّن هو لها كافرٌ؛ فيَخْذُله ويُضِله؛ جزاءً على كُفْره؟

واللهُ تعالى حَكيمٌ، لا يضَعُ فَضْلَه عند مَن ليس له بأهلٍ، غنيًّا كان أو فقيرًا؛ فإنَّ الثَّوابَ والعِقابَ لا يَستحِقُّه أحدٌ إلَّا جزاءً على عَمَلِه الذي اكتسَبَه، لا على غناه وفَقْرِه، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] [العنكبوت: ٦٩].

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن طَرْدِهم، عَلَّمَه كيف يُلاطِفُهم[2]، فقال تعالى:

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾.

أي: وإذا جاءَكَ- يا محمَّدُ- المُصَدِّقونَ، المُقِرُّون بتنزيلِنا وأدِلَّتِنا وحُجَجِنا، المُنقادونَ إليها بقُلُوبِهم وجَوارِحِهم؛ فحيِّهم ورحِّبْ بهم، وأكْرِمْهم بإلقاءِ السَّلامِ عليهم، وهو دعاءٌ لهم بأن يُسلِّمَهم اللهُ تعالى من جميعِ الآفاتِ والشُّرورِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧١-٢٧٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٥٠) (٣/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٣٠)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي))

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.

أي: وبَشِّرْهم برحمةِ الله الواسِعَةِ الشَّامِلَةِ؛ فقد أوجَبَها على نَفْسِه الكريمةِ؛ تفضُّلًا منه وإحسانًا[1].

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ كتبَ كتابًا قبل أن يخلُقَ الخلقَ: إنَّ رحمتي سبَقَتْ غضبي، فهو مكتوبٌ عندَه فوقَ العرشِ))[2].

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التفسيرِ:

هذه الآيَةُ فيها ثلاثُ قراءاتٍ:

١- ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

بفَتْح همزةِ (أنَّ) في الموضعين ﴿أَنَّهُۥ﴾ ﴿فَأَنَّهُۥ﴾، والمعنى: كتَبَ ربُّكم

(ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٣٧-٣٣٩).

قيل: المرادُ بالمؤمنين هنا: الذين نَهَى اللهُ تعالى عن طرْدِهم كما تقدَّم، وهذا قولُ جمهور المفسِّرين، كما ذكَر ابنُ عطيَّة في ((تفسيره)) (٢/ ٢٩٦)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (١/ ٣٣٧)، واختاره القرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٤٣٥)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٥٨)، وابنُ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٧/ ٢٥٦).

وقيل: المراد: المؤمنون مِن غيرِهم، وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٢٧٣).

وجمَع بين القولين: الواحديُّ، فقال: (يعني: الصَّحابةَ وهؤلاءِ الفقراءَ). ((الوجيز)) (ص: ٣٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤٠).

(٢) رواه البخاري (٧٥٥٤) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥١).

على نفْسِه المغفرةَ، وهي بدَلٌ من الرَّحْمة، كأنَّه قال: كتَب ربُّكم على نفْسِه الرَّحْمةَ، وهي المغفرةُ للمُؤمنين التائِبين(١).

٢- ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

بفَتْح همزةِ (أنَّ) في الموضع الأوَّل ﴿أَنَّهُۥ﴾، وكسْرِها في الموضِع الثاني ﴿فَإِنَّهُۥ﴾؛ فالفَتْحُ على الإبدالِ من الرَّحمة، والكَسْر في (فَإِنَّهُ) لوُقوعِها بعد الفاءِ في جَوابِ (مَن) على القَوْلِ بشَرطيَّتِها(٢).

٣- ﴿إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

بكسرِهما جميعًا على مذهبِ الحِكاية، كأنَّه لَمَّا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ودخلتِ الفاءُ جوابًا للجزاءِ فكُسرت (إنَّ)؛ لأنَّها دخلتْ على ابتداءٍ وخبرٍ، كأنَّك قُلتَ: فهُو غفورٌ رحيمٌ، إلَّا أنَّ الكلامَ بـ (إنَّ) أوكَدُ(٣).

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) قرأ بها ابن عامر وعاصم ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٦).

(٢) قرأ بها نافع وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٦)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٣٩).

أي: مَنِ اقترفَ منكم ذنبًا، والحالُ أنَّه متَّصِفٌ بالجَهالةِ- حيث آثَرَ دُنياه على أُخراه، وعَمِيَ عن عواقِبِ اقترافِ فِعْلِ ما لا يَنبغي فِعْلُه- ثم رجَع عمَّا ارتكَبَه، وأقلَعَ ونَدِمَ وعَزَمَ على ألَّا يعودَ إليه، وقام بإصلاحِ جميعِ ما أفسَدَه من الأعمالِ الظَّاهِرةِ والباطِنَةِ، إذا وُجِدَ ذلك كُلُّه فاللهُ تعالى غفورٌ، فيَسْتُرُ ذَنْبَه، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذَتِه به، رحيمٌ به، ومِن رَحْمَتِه أنْ تابَ عليه، وتَرَكَ عِقابَه على الذَّنبِ بعد تَوبتِه منه[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾.

أي: وكما وضَّحْنا، فيما تقدَّم من هذه السُّورةِ، حُجَّتَنا على المشركينَ، وبيَّنَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤٦-٣٥٣).

قال ابنُ تيميةَ: (في قولِه تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ طالَ الفصْلُ بين أنَّ واسْمِها، وخبرِها؛ فأعاد (أنَّ) لتَقَعَ على الخبرِ لتأكيدِه بها؛ ونظيرُ هذا قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ لَمَّا طالَ الكلامُ أعاد (أنَّ)، هذا قولُ الزَّجَّاجِ وطائفةٍ، وأحسَنُ من هذا أن يُقالَ: كُلُّ واحدةٍ من هاتينِ الجُملتينِ جملةٌ شرطيَّةٌ مركبَّةٌ من جملتينِ جَزائيَّتينِ، فأُكِّدَت الجملةُ الشَّرطيَّةُ بـ«أنَّ» على حدِّ تأكيدِها في قولِ الشَّاعر:

إِنَّ مَنْ يَدْخُلِ الكَنيسَةَ يَومًا ... يَلْقَ فِيها جَآذِرًا وظِبَاءً

ثمَّ أُكِّدَت الجملةُ الجزائيَّة بـ«أنَّ»؛ إذْ هي المقصودةُ على حدِّ تأكيدِها في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾. ونظيرُ الجمعِ بينَ تأكيدِ الجملةِ الكبرى المرَكَّبةِ من الشَّرط والجزاءِ، وتأكيدِ جملةِ الجزاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فلا يقالُ في هذا: «إنَّ» أعيدَتْ لطُولِ الكلامِ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ ونظيره: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهما تأكيدانِ مَقصودانِ لِمعنيَينِ مختَلِفَينِ؛ ألا تَرى تأكيدَ قولِه: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بـ«أنَّ» غيرَ تأكيدِ ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ له بـ«أنَّ»، وهذا ظاهِرٌ لا خفاءَ به، وهو كثيرٌ في القرآنِ وكلامِ العَرَبِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٧٦-٢٧٧).

أدِلَّتَنا، وميَّزْنا طريقَ الهُدى من الضَّلالِ، فكذلك نوضِّحُ أيضًا أدلَّتَنا في إثباتِ كلِّ حقٍّ، ورَدِّ كُلِّ باطلٍ[١].

﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءة ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ﴾ على مَعنى: وَلِتَسْتَبِينَ أنتَ- يا محمَّدُ- سَبيلَ المُجْرمينَ[٢].

٢- قراءة ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ﴾ على معنى: ولِتَظْهَرَ طَريقُ المُجرمينَ[٣].

﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

أي: فصَّل اللهُ تعالى آياتِهِ؛ لتَظْهَرَ لك ولغيرِك- يا محمَّدُ- طريقُ المُشركينَ المُوصِلَةُ إلى سَخَطِ الله وعذابِه؛ ليُمكِنَ اجتنابُها، وليَتَبيَّنَ الحَقُّ من الباطلِ[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ﴾ وجوبُ الإنذارِ بالقُرآنِ، ويتفرَّعُ على هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٥٧).

(٢) قرأ بها نافع. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٢-٢٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٤١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٨).

(٣) قرأ الباقون عدا حمزة والكسائي وأبي بكر ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ﴾ بالتاء كنافع، و﴿سَبِيلُ﴾ بالضمة كحمزة ومن معه. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٢-٢٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٣-٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٥٧-٣٥٨).

أنَّ خيرَ ما يُنذَر به هو القرآنُ، يعني هو أبلغُ المواعِظِ في الإنذارِ، لكنْ كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1] [ق: ٣٧].

٢- أنَّه لا ينتفِعُ بالإنذارِ بالقُرآنِ إلَّا الذين يؤمنونَ باليومِ الآخِرِ؛ لقوله: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾[2].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ﴾ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يَفْتِنُ بعضَ النَّاسِ ببعضٍ، فيَضِلُّ أَحَدُهم بسببِ الآخَرِ، وهذا واقِعٌ، مثلًا: يُفتَحُ بابُ مُساهمةٍ في الخيرِ، فيَسْبِقُ فلانٌ وفلانٌ، فيقولُ الآخرونَ: شيءٌ تَدَخَّلَ فيه فُلانٌ لا نوافِقُ عليه ولا نُريدُه، ولا يُمْكِنُ أن يَسْبِقَنا إليه[3].

٤- في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ بيانُ أنَّ المسلِمَ إذا أقدمَ على الذَّنْبِ مع العِلْمِ بكونه ذنبًا ثمَّ تابَ منه توبةً حقيقيَّةً؛ فإنَّ اللهَ تعالى يقبلُ توبتَه[4].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ خصَّ الذين يخافونَ الحَشْرَ؛ لأنَّ انتفاعَهم بذلك الإنذارِ أكملُ؛ وذلك أنَّ خَوْفَهم يحمِلُهم على إعدادِ الزَّادِ ليومِ المَعَادِ، وهم أجدَرُ مِن غَيْرِهم بفَهْمِ حقيقةِ الرِّسالَةِ[5].

٢- قوله تعالى: ﴿أَن يُحۡشَرُوٓاْ﴾ فيه إثباتُ الحَشْرِ إلى الله عزَّ وجلَّ، وهذا يكونُ يومَ القيامةِ؛ تُحشَرُ الخلائقُ على ربِّها عزَّ وجلَّ؛ ليقضي بينهم قضاءً دائرًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٦٠).

بين العَدْلِ والفَضْلِ؛ العدْلُ للكُفَّار، والفَضْل للمؤمنينَ(١).

٣- يُستَفاد من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ إثباتُ الشَّفاعةِ؛ لأنَّه لولا وجودُها ما صحَّ نَفْيُها(٢).

٤- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ...﴾ كمالُ عدْلِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه خاطَبَ نبيَّهُ بهذا الخطابِ القويِّ من أجل قومٍ من أصحابِه، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عند اللهِ أعظَمُ جاهًا، وأعلى منزلةً، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ حَكَمٌ عدْلٌ يقضي بالحَقِّ سبحانه وتعالى(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ إن طَرَدَ الصَّالحينَ مِن مَجلِسِه يخافُ أن يُوصَلَ إلى درجةِ الظَّالمينَ، ففيه التَّحذيرُ من إيذاءِ الصَّالحينَ(٤).

٦- قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، وبيَّنَ في آياتٍ أُخَرَ أنَّ طَرْدَ ضعفاءِ المسلمين الذي طَلَبَه كفَّارُ العربِ مِن نَبِيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فنهاه اللهُ عنه؛ طَلَبَه أيضًا قومُ نوحٍ مِن نوحٍ عليه السلامُ فأبى؛ كقوله تعالى عنه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الآية [هود: ٢٩]، وقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ الآية [هود: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤]، وهذا مِن تشابُه قلوبِ الكُفَّارِ المذكورِ في قوله

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٨، ٢٦٩).
(٤) ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) (ص: ٥٧).

تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ الآية[١] [البقرة: ١١٨].

٧- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ خصَّ الله الغَداةَ والعَشِيَّ بالذِّكْر؛ لأنَّ الشُّغْل فيهما غالِبٌ على النَّاسِ، ومَن كان في هَذينِ الوَقْتينِ يَغْلِبُ عليه ذِكْرُ اللهِ ودعاؤُه، كان في وقتِ الفَراغِ أغلَبَ عليه[٢].

٨- إثباتُ وَجْهِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾، والوَجْهُ صفةٌ حقيقيَّةٌ لله عزَّ وجلَّ، يجب علينا أن نؤمِنَ بذلك، ولكن على حدِّ قولِه تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وأمَّا من فسَّر ذلك بأنَّ المرادَ بالوَجْهِ الثَّوابُ؛ فقد أخطَأَ؛ لأنَّ ذلك مخالِفٌ لظاهِرِ اللَّفْظِ، ومخالِفٌ لإجماعِ السَّلَفِ، ثمَّ إنَّ الله عزَّ وجلَّ قال في القرآنِ الكريمِ: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۞ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦- ٢٧] جعَلَه وصفًا للوَجْهِ، ولا يُمكِنُ أن يُقالَ: إنَّ الثَّوابَ هو الموصوفُ بأنَّه ذو الجلالِ والإكرامِ، وتأمَّلْ هذا مع قولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] فـ (ذي) بالجَرِّ صفةٌ لـ (رَبِّ)، ولم تكن بالرَّفْعِ صفةً للاسْمِ، مع أنَّ أسماءَ اللهِ عزَّ وجلَّ لها من الجلالة والتَّعظيمِ ما لها[٣].

٩- لم يُكتَفَ بقَولِه: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ عنْ ﴿وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ﴾؛ لأنَّ الجُملتينِ جُعِلَتا بمنزلةِ جملةٍ واحدةٍ، وقُصِدَ بهما مؤدًّى واحِدٌ، وهو المعنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ولا يُفيدُ هذا المعنى إلَّا الجُملتانِ جميعًا، كأنَّه قيل: لا تؤاخَذُ أنت ولا

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٦، ٢٦٧).

هم بحسابِ صاحِبِه[١].

١٠- قولُه: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ يدلُّ على نفْيِ الرِّياسةِ الدِّينيَّةِ المعهودةِ في المِلَل الأُخرى، وهي سيطرةُ رُؤساءِ الدِّينِ على أهْلِ دِينِهم في عقائِدِهم وعباداتِهم، ومحاسَبَتُهم عليها، وعقابُ مَن يَرون عِقابَه منهم حتى بالطَّرْد من الدِّينِ، والحِرمانِ من حُقوقِه، ويجبُ في بعضِ تلك المِلَل أنْ يَعترفَ كُلُّ مكَلَّفٍ مِن ذَكَرٍ وأنثى للرَّئيسِ الدِّينيِّ بأعمالِه النفسيَّة والبَدَنيَّة، وللرئيسِ أنْ يغفِرَ له ما يَعترِفُ به من المعاصي، ويعتقدونَ أنَّ مغفرةَ الله تعالى تَتْبَعُ مغفرَتَه، وإذا كان اللهُ تعالى لم يجعَلْ للرَّسولِ الذي أوجَبَ طاعَتَه حقَّ محاسبَةِ النَّاسِ على أعمالِهم الدينيَّة ونِيَّتِهم فيها، ولا حَقَّ طَرْدِهم مِن حَضْرَتِه- دَعْ حَقَّ طَرْدِهم مِنَ الدِّينِ- فكيف يُمْكِن أن يكون لمن دُونَه مِنَ الأُمَراءِ أو القضاةِ أو غَيرِهم من الرُّؤساءِ مثلُ هذا الحَقِّ[٢]؟!

١١- لَمَّا نهى اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن طَرْدِهم مُبَيِّنًا أنَّه ضررٌ لغيرِ فائدةٍ؛ في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾؛ سَبَّبَ عن هذا النَّهْيِ قولَه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: بِوَضْعِك الشَّيءَ في غير مَحَلِّه؛ فإنَّ طَرْدَكَ هؤلاءِ ليس سببًا لإيمانِ أولئك، وليس هدايَتُهم إلَّا إلينا، وقد طلبوا منَّا فيك لَمَّا فَتَنَّاهم بتَخْصِيصِك بالرِّسالَةِ ما لم يَخْفَ عليكَ مِن قَوْلِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] ونحوِه مِمَّا أرادوا به الصَّرْفَ عنك، فكما لم نَقْبَلْهم فيكَ فلا تَقْبَلْهم أنتَ في أوليائِنا؛ فإنَّا فتَنَّاهم بكَ حتى سألوا فيك ما سألوا، وتَمَنَّوْا ما تَمَنَّوْا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٢٩).

١٢- أنَّ مَنْعَ الإنسانِ حَقَّه ظُلمٌ، وإنْ لم يكنْ عدوانًا بِضَرْبٍ أو أخْذِ مالٍ، لكن إذا منعه حقَّه فإنَّه ظالمٌ؛ لقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا حقٌّ؛ ولهذا قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ))[١]، مع أنَّ هذا لم يأخُذْ مِن مالِ الفقيرِ، لكنْ ماطَلَه، يعني: مَنَعَ حَقَّه، فكلُّ من مَنَع صاحِبَ حَقٍّ حقَّه فهو ظالمٌ له، كما لو اعتدى بأخْذِ شيءٍ مِن مالِه[٢].

١٣- استُدِلَّ بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ على مسألةِ خَلْقِ الأفعالِ من وجهينِ: الأول: أنَّ قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ تصريحٌ بأنَّ إلقاءَ تلك الفِتنةِ مِنَ الله تعالى، والمرادُ من تلك الفتنةِ ليس إلَّا اعتراضَهم على الله في أنْ جَعَلَ أولئك الفقراءَ رؤساءَ في الدِّينِ، والاعتراضُ على اللهِ كُفرٌ، وذلك يدلُّ على أنَّه تعالى هو الخالِقُ للكُفْرِ. والثاني: أنَّه تعالى حَكَى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ أي: مَنَّ عليهم بالإيمانِ بالله، ومتابعةِ الرَّسولِ، وذلك يدلُّ على أنَّ هذا المعنى إنَّما حَصَلَ من الله تعالى؛ لأنَّه لو كان المُوجِدُ للإيمان هو العبدَ؛ فاللهُ ما مَنَّ عليه بهذا الإيمانِ، بل العبدُ هو الذي مَنَّ على نَفسِه بهذا الإيمانِ[٣].

١٤- جاء لفْظُ الشُّكْرِ هنا في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ في غايةٍ من الحُسْنِ؛ إذ تقدَّمَ مِن قولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أي: أنعمَ عليهم، فناسَبَ ذِكْرُ الإنعامِ لفظَ الشُّكْرِ[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٠٠)، ومسلم (١٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢٦).

١٥- قد عُلِمَ مِن قَولِه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أنَّه أيضًا أعلَمُ بأضدادِهم، وضِدُّ الشُّكْرِ هو الكُفْرُ، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] فهو أعلمُ بالذين يأتونَ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُسْتهزئينَ مُتكبِّرينَ، لا هَمَّ لهُم إلَّا تحقيرُ الإسلامِ والمُسلمينَ، وقد استفرَغُوا وُسْعَهم وَلُبَّهُم في مجادلةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتضليلِ الدَّهماءِ في حقيقةِ الدِّينِ؛ ففي الكلامِ تعريضٌ بالمشركينَ[(١)].

١٦- في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ دليلٌ على أنَّه لا يَمتنِعُ تسميةُ ذاتِ اللهِ تعالى بالنَّفْسِ، وأيضًا قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] يدلُّ عليه[(٢)].

١٧- قال تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ سؤالٌ: لِمَ خَصَّ سبيلَ المجرمين، ولم يَذْكُرْ سبيلَ المؤمنين؟ وللعلماءِ عَنْهُ جَوَابَانِ: أحدُهما: أنَّ سبيلَ المجرمين إذا عُرِفَتْ، عُرِفَتْ منها سبيلُ المسلمين؛ لأنَّ الأشياءَ تُعْرَفُ بأضدادِها، وإذا عَرَفَ الإنسانُ الشرَّ عرفَ أنَّ مُقَابِلَهُ هو الخيرُ؛ فالضِّدَّانِ إذا كانَا بحيثُ لا يَحصُل بينهما واسطةٌ، متى بانتْ خاصيَّةُ أحدِ القِسمينِ بانتْ خاصيةُ القِسمِ الآخَر، والحقُّ والباطلُ لا واسطةَ بينهما؛ فمتى استبانتْ طريقةُ المجرِمينَ فقد استبانتْ طريقةُ المحقِّين أيضًا لا محالةَ. والثاني: أنَّ في الآيةِ هنا حَذْفَ الواوِ والمعْطوف، أي: لتَستبينَ سبيلُ المجرمين وسبيلُ المؤمنين؛ قالوا: ومنه: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، أي: والبردَ ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ١٣]، أي: وما تَحَرَّكَ، وحَذْفُ الواوِ وما عَطَفَتْ إنْ دَلَّ المقامُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦).

عليه مَعروفٌ في كلامِ العربِ[١]. وقيل: لا يُحتاج إلى ذلك؛ لأنَّ المقامَ إنَّما يَقتضي ذِكْرَ المجرِمين فقط؛ إذ هُم الذين أثاروا ما تَقدَّم ذِكْرُه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

- قوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فيه تعريضٌ بأنَّ المشركينَ لا ينْجَع فيهم الإنذارُ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بالحَشْرِ؛ فكيف يخافونَه، وخوفُ الحَشرِ يَقتضي الإيمانَ بوقوعِه[٣]؟

- في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ تعريضٌ بالمشركينَ الذين اتَّخذوا شُفعاءَ وأولياءَ غيرَ اللهِ[٤].

- قولُه: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ رجاءٌ مَسُوقٌ مَسَاقَ التَّعليلِ لِلأمرِ بإنذارِ المؤمنينَ؛ لأنَّهم يُرجَى تَقواهم، بخلافِ من لا يؤمنونَ بالبَعْثِ[٥].

٢- **قوله:** ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٥٨- ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ اعتراضٌ وسِّط بين النهيِ ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ وجوابِه ﴿فَتَكُونَ﴾؛ تقريرًا له، ودفعًا لِمَا عسَى يُتوهَّم كونُه مسوِّغًا لطردِهم من أقاويل الطاعنِينَ في دِينهم، كدأبِ قومِ نوحٍ عليه السلامُ؛ حيث قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧]، أي: ما عليك شيءٌ ما مِنْ حسابِ إيمانِهم، وأعمالِهم الباطنةِ حتى تتصدَّى له، وتَبنيَ على ذلك ما تراه مِن الأحكامِ، وإنَّما وظيفتُك- حسَبَما هو شأنُ مَنصِبِ النبوَّة- اعتبارُ ظواهرِ الأعمالِ، وإجراءُ الأحكامِ على مُوجِبِها، وأمَّا بواطنُ الأمورِ فحِسابُها على العَليمِ بذاتِ الصُّدورِ[(١)].

- وذُكِرَ قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ مع أنَّ الجوابَ قد تمَّ بما قَبْلَه ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾؛ للمبالغةِ في بيانِ انتفاءِ كَوْنِ حسابِهم عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بنَظْمِه في سِلْك ما لا شُبهةَ فيه أصلًا[(٢)].

- وقوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ فيه حُسْنُ اعتنائِه تعالى بنبيِّه وتشريفِه بخِطابِه؛ حيثُ بدأ به في الجُملتينِ معًا، فقال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾؛ فقَدَّمَ خِطابَه في الجملتينِ، وكان مقتضى التَّركيبِ الأوَّلِ لو لُوحِظَ؛ أن يكونَ التَّركيبُ الثَّاني: (وما عليهم من حسابِكَ مِن شيءٍ)، لكنَّه قدَّمَ خِطابَ الرَّسولِ وأَمْرَه؛ تشريفًا له عليهم، واعتناءً بمخاطَبَتِه[(٣)]. وقيل: تقديمُ خِطابِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الموضِعينِ في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ جاءَ على الأصْلِ العامِّ في اللُّغَةِ، وهو تقديمُ الأهَمِّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢٤).

بحسَبِ سياقِ الكلامِ، والأَهَمُّ في الأَوَّلِ النَّفيُ، وفي الثاني المنفيُّ، يعني: أنَّ الأهمَّ في كلِّ موضعٍ ما يتعلَّق به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه تعليلٌ لانتفاء عمَلٍ له (وهو الطَّرد) مترتِّبٌ على ذلك النفيِ، ولو كان الثاني تعليلًا لعملٍ لهم لقال: (وما عليهم من حِسابِك مِن شيءٍ فيَطردُوك)[١].

- وفيه تعريضٌ بالمشركينَ بأنَّهم أظهروا أنَّهم أرادوا بِطَرْدِ ضُعفاءِ المؤمنينَ عن مجلسِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ النُّصْحَ له؛ ليكتَسِبَ إقبالَ المشركينَ عليه، والإطماع بأنَّهم يُؤمِنونَ به، فيَكْثُر مُتَّبِعوه[٢].

- وقوله: ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ (مِن) زائدةٌ لتوكيدِ النَّفيِ؛ للتَّنصيصِ على الشُّمولِ في سياقِ النَّفيِ[٣].

- وقد اجتَمَع في هذه الآية خمسةُ مُؤَكِّدات؛ وهي: (مِن) البيانيَّة، و(مِن) الزائدةِ، وتقديمُ المعمولِ، وصيغةُ الحصْرِ في قوله: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾، والتأكيدُ بالتَّتميمِ بنَفيِ المقابِلِ في قوله: ﴿وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ﴾؛ فإنَّه شبيهٌ بالتَّوكيدِ اللَّفظيِّ، وكلُّ ذلِك للتَّنصيصِ على منتهى التَّبرئَةِ من محاوَلَةِ إجابَتِهم لاقتراحِهم[٤].

- قوله: ﴿فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه تعريضٌ بالذين سألوا طَرْدَهم لإرضاءِ كبريائِهم؛ بأنَّهم ظالِمونَ معتادون على الظُّلْم، وإعادة فِعل الطَّرْد دون الاقتصارِ على قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لإفادةِ تأكيدِ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٦٩)
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٥٠).

النَّهيِ[١].

٣- قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ استئنافٌ مُبيِّن لِمَا نشأ عنه ما سَبَقَ من النهيِ[٢]؛ لأنَّ السَّامِعَ لَمَّا شعر بقصَّةٍ أومَأَ إليها قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية، يأخُذُه العَجَب من كبرياءِ عُظماءِ أهْلِ الشِّرْكِ، وكيف يَرْضَونَ البقاءَ في ضلالةٍ؛ تكبُّرًا عن غِشْيانِ مَجْلسٍ فيه ضعفاءُ النَّاسِ من الصَّالحين، فأُجيبَ بأنَّ هذا الخَلْقَ العجيبَ فتنةٌ لهم، خَلَقَها اللهُ في نُفوسِهم بسوءِ خُلُقِهم[٣].

- والكاف في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾؛ لتأكيدِ ما أفادَه اسمُ الإشارةِ (ذلك) مِن الفخامة[٤]، وتُفيدُ التَّشبيهَ المقصودَ منه التعجُّبُ من المشَبَّهِ، بأنَّه بلغ الغايةَ في العَجَب[٥].

- قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ الاستفهامُ مُستعمَلٌ في التعجُّبِ والإنكارِ، غرضُهُم منه إنكارُ أنْ يُخَصَّ هؤلاءِ مِن بينهم بإصابةِ الحَقِّ، والسَّبْقِ إلى الخيرِ؛ فغَرَضُهم بذلك إنكارُ وقوعِ المنِّ رأسًا على طريقةِ قولِهم: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾، لا تحقيرُ الممنونِ عليهم مع الاعترافِ بوُقوعِه بطريقِ الاعتراضِ عليه تعالى، وإنما قالوا: ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ على سَبيلِ التهكُّم ومجاراةِ الخَصْم؛ إنكارًا منهم لأنْ يكونَ المؤمنون مِن الفُقراءِ والعَبيدِ على الحقِّ، وممنونًا عليهم مِن بَينهم بالخَيرِ، أي: حيثُ اعتقَدَ المؤمنونَ أنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٥١- ٢٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٣).

مَنَّ عليهم بمعرفةِ الحقِّ، وحَرَمَ صناديدَ قريشٍ؛ فلذلك تعجَّبَ أولئكَ من هذا الاعتقادِ، أي: كيف يُظَنُّ أنَّ اللهَ يَمُنُّ على فَقراءَ وعبيدٍ، ويتركُ سادةَ أهْلِ الوادي[١]؟!

- والإشارةُ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مستعمَلةٌ في التَّحقيرِ أو التَّعجُّبِ[٢].

- وتقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ على الخَبَرِ الفِعليِّ ﴿مَنَّ ٱللَّهُ﴾؛ لقَصْدِ تَقويةِ الخبرِ[٣].

- قوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ تذييلٌ للجملةِ كُلِّها؛ فهو من كلامِ اللهِ تعالى، وليس مِن مقولِ القَوْلِ؛ ولذلك فُصِلَ- أي لم يُعْطَف بالواوِ[٤].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ لتقريرِ عِلمِه البالغِ بذلك، أي: أليسَ الله بأعلمَ بالشَّاكرين لِنِعَمِه حتى تَستبعِدوا إنعامَه عليهم، وفيه مِنَ الإشارةِ إلى أنَّ أولئك الضُّعفاءَ عارفون بحقِّ نِعَم الله تعالى في تنزيل القرآنِ والتوفيقِ للإيمان، شاكِرون له تعالى على ذلِك، مع التعريضِ بأنَّ القائلين بمعزلٍ من ذلك[٥].

٤- **قوله:** ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

في هذِه الآية مناسبةٌ حسنةٌ؛ إذ سِيقَ هذا المقولُ أحْسَنَ مَساقٍ؛ أمَرَه أوَّلًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٦).

أن يقولَ للمؤمنينَ: سلامٌ عليكم، فبدأ أوَّلًا بالسَّلامةِ والأمْنِ لِمَن آمَنَ، ثم خاطَبَهم ثانيًا بوجوبِ الرَّحْمةِ، وأسنَد الكتابةَ إلى ربِّهم، أي: كتَب النَّاظِرُ لكم في مَصالِحِكم، والذي يُرَبِّيكم ويَمْلِكُكم، الرَّحْمةَ؛ فهذا تبشيرٌ بعُمومِ الرَّحْمةِ، ثم أبدلَ منها شيئًا خاصًّا، وهو غُفرانُه ورَحْمَتُه لِمَن تاب وأصلَحَ[١] وهذا على أحدِ الأوجهِ في الآيةِ.

- قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عَطْفٌ على قَولِه ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾، وهو ارتقاءٌ في إكرامِ الذينَ يَدعونَ رَبَّهُم بالغَداةِ والعَشِيِّ؛ فهم المرادُ بِقَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ وُصِفوا هنا بالإيمان بآياتِ الله عزَّ وجلَّ، كما وُصفوا في الآيةِ التي قبلها بالمداومةِ على عِبادتِه تعالى بالإخلاصِ، وتأخيرُ وصفِهم بالإيمانِ مع تقدُّمه على الوصفِ الأوَّلِ؛ لأنَّ مدارَ الوَعدِ بالرَّحْمة والمغفرةِ هو الإيمانُ بها، كما أنَّ مناطَ النهْيِ عن الطردِ فيما سبَق هو المداومةُ على العبادةِ[٢].

- قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ في التعرُّضِ لعنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِهم ﴿رَبُّكُمۡ﴾ إظهارُ اللُّطْفِ بهم والإشعارُ بعلَّة الحُكْمِ[٣].

٥- **قوله:** ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الجملةُ تذييلٌ للكلامِ الذي مضى مبتَدَأً بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾[٤] [الأنعام:٥١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٠).

- والمجرِمون في قوله: ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هم المشركِون، وُضِعَ الظاهرُ موضعَ المضمرِ؛ للتنصيصِ على أنَّهم المرادُ، ولإجراءِ وصْفِ الإجرامِ عليهم. وخصَّ المجرِمين؛ لأنَّهم المقصودُ من هذه الآياتِ كلِّها؛ لإيضاحِ خفيِّ أحوالِهم للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلمين[1].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٦١).

الآيات (٥٦ - ٥٨)

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿أَهْوَاءَكُمْ﴾: جمْعُ هوًى، وهو مَيْلُ النَّفسِ إلى الشَّهوةِ، وأصلُه: الخلوُّ والسُّقوطُ؛ ولذلك يقال للآراءِ الزائفةِ: أهواءٌ[(١)].

﴿بَيِّنَةٍ﴾: أي: بصيرةٍ ودَلالةٍ ويقينٍ وحُجَّةٍ وبُرهانٍ، وأصْلُ (بَيَنَ): الانكشافُ[(٢)].

﴿الْفَاصِلِينَ﴾: جمْع فاصِلٍ، وهو مَن يُبيِّنُ ويميِّزُ بين المُحقِّ والمبطِلِ، والفصلُ: إبانةُ أحد الشَّيئين من الآخَرِ، حتى يكون بينهما فُرجةٌ، وأصل (فصل): يدلُّ على تمييزِ الشَّيءِ من الشَّيءِ وإبانتِه عنه[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُخبِرَ المشركينَ أنَّه نُهي عن عِبادةِ جميعِ ما يعبدونَ مِن دونِ الله تعالى، وأن يقولَ لهم: إنَّه لا يتَّبِعُ أهواءَهم الباطلةَ؛

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨).

فإنَّه إنِ اتَّبَعَها فقد ضلَّ عن طريقِ الحَقِّ، وما هو من المُهتدينَ إن فعَل ذلك.

وأمَرَه أنْ يُخبِرَهم أنَّه على بيِّنةٍ وبصيرةٍ من ربِّه، بينما هم قد كذَّبوا بالحقِّ الذي جاء مِن عندِ الله، وأنْ يخبِرَهم أيضًا أنَّه ليس بِيَدِه ما يَستعجلونَ به مِن العذابِ.

فالحكمُ لله تعالى وحدَه، إنْ شاء عجَّلَ لكم ما سأَلْتُموه من العذابِ، وإنْ شاء أَنْظَرَكم وأجَّلَكم، بِحَسَب ما تقتضيه حِكْمَتُه، وكلُّ ما يتلوه عزَّ وجلَّ في كتابِه هو الحقُّ الواضِحُ، وهو سبحانه خيرُ من يَفْصِلُ في القضايا، فيُبَيِّن المُحِقَّ من المُبْطِل.

وأَمَرَه أنْ يقولَ لهم: إنَّه لو كان بِيَدِه ما يَستعجلونَه من العذابِ، لعاجَلَهم بإيقاعِ ما يستحقُّونَه منه، لكنْ أمْرُ ذلك إلى اللهِ، وهو أعلمُ بالظَّالمين ومتى يُمْهِلُهم، وأعلمُ بالوقت الذي يُوقِع عليهم فيه العذابَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كان محطُّ حالِهم في السُّؤالِ طرْدَ الضُّعفاءِ؛ قَصْدَ اتِّباعِ أهوائِهم- أمَرَه تعالى بأنْ يُخْبِرَهم أنَّه مباينٌ لهم- لِمَا بيَّنَ له بالبيانِ الواضِحِ من سوءِ عاقبَةِ سَبيلِهم- مُبايَنةً لا يُمكِنُ معها اتِّباعُ أهوائهم، وهي المُبايَنَة في الدِّين[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى في الآيةِ المتقدِّمةِ ما يدلُّ على أنَّه يُفَصِّلُ الآياتِ؛ ليَظْهَر الحقُّ، وليَسْتَبينَ سبيلُ المُجْرمينَ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ أنَّه تعالى نهى عن

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٣٢).

سُلُوكِ سَبيلِهم[١]، فقال تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

قل- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المشركينَ الذين يَدْعونَ مع اللهِ آلهةً أخرى: إنَّ رَبِّي نهاني عن عِبادةِ جميعِ المعبوداتِ التي تعبدونَها وتلجؤونَ إليها مِن دُونِه سبحانه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ-: لا أتَّبِع أهواءَكم الباطلةَ في عبادةِ غيرِ الله تعالى، والإشراكِ به، ولا أوافِقُكم على ذلك[٣].

﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

أي: فإنِ اتَّبعتُ أهواءَكم فقد خرجتُ عن طريقِ الهدى، وصِرْتُ مِثْلَكم على غيرِ استقامةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦١-٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦١-٣٦٣).
قال ابن عاشور: (ومعنى ﴿تَدْعُونَ﴾ تعبدون وتلجؤون إليهم في المهمَّات، أي: تدْعونهم، و﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ حالٌ من المفعول المحذوف، فعامِلُه ﴿تَدْعُونَ﴾، وهو حكايةٌ لِمَا غلَب على المشركين من الاشتغال بعِبادة الأصنام ودُعائهم، عن عِبادة الله ودُعائه، حتى كأنَّهم عبدوهم دون الله، وإنْ كانوا إنَّما أشركوهم بالعبادة مع اللهِ، ولو في بعض الأوقات). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٤).

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا نفَى أنْ يكون الهوى مُتَّبعًا؛ نبَّه على ما يَجِبُ اتِّباعُه[1].

وأيضًا لَمَّا انتهى تعالى من إبطالِ الشِّرْك بدليلِ الوحيِ الإلهيِّ، المؤيِّدِ للأدلَّة السَّابقةِ في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ..﴾- انتقلَ إلى إثباتِ صِدْقِ الرِّسالةِ بدليلٍ من الله، مُؤَيِّدٍ للأدلَّةِ السَّابقةِ أيضًا؛ لِيَيْئَسوا من محاولةِ إرجاعِ الرَّسولِ- عليه الصَّلاةُ والسَّلام- عن دَعوتِه إلى الإسلامِ، وتَشكيكِه في وَحْيِه بقولِهم: ساحِرٌ، مجنونٌ، شاعرٌ، أساطيرُ الأوَّلينَ، وَلِيَيْئَسوا أيضًا من إدخالِ الشَّكِّ عليه في صِدْقِ إيمانِ أصحابِه، وإلقاءِ الوَحشَةِ بينه وبينهم، بما حاولوا مِن طَرْدِه أصحابَه عن مجلِسِه حين حضورِ خُصُومِه، فأمَرَه الله أن يقولَ لهم إنَّه على يقينٍ مِن أمْرِ ربِّه، لا يتزعزعُ[2]؛ قال تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاء: إنِّي على بصيرةٍ، وحُجَّةٍ قاطعةٍ، قد أبانت بيقينٍ صِحَّةَ توحيدِ ربِّي مِن غيرِ إشراكِ شيءٍ به، وأوضَحَتْ صِحَّةَ شريعَتِه التي أوحاها إليَّ[3].

﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾.

أي: ولكنَّكم- أيُّها المُشركونَ- كذَّبْتُم بالحَقِّ الذي جاءَني مِن عند الله تعالى،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨، ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٥).

وهو لا يَستحِقُّ هذا منكم، ولا يليقُ به إلَّا الإيمانُ[١].

﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر بيِّنَتَه وتكذيبَهم به، قفَّى بِرَدِّ شُبهةٍ تخطُر عند ذلك بالبالِ، ومن شأنِها أنْ يقعَ عنها منهم السُّؤالُ، وهي أنَّ اللهَ أنذَرَهم عذابًا يَحُلُّ بهم إذا أصرُّوا على عنادِهم وكُفْرِهم، ووَعَدَ بأنْ يَنصُرَ رسولَه عليهم، وقد استعجلوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذلك، فكان عَدَمُ وقوعِه شبهةً لهم على صِدْق القرآنِ؛ لجَهْلِهم بسُنَنِ الله تعالى في شُؤونِ الإنسانِ، فأمَرَ اللهُ تعالى رسولَه أن يقولَ لهم[٢]:

﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾.

أي: ليس الذي تَتعجَّلونَه مِن عذابِ الله تعالى بيَدِي، ولا أنا على ذلك بقادرٍ[٣].

كما حَكَى اللهُ تعالى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقال عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

أي: إنَّما يرجِعُ أمْرُ ذلك إلى الله تعالى، فإنْ شاء عجَّلَ لكم ما سأَلْتُموه من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٦).
وقيل: المرادُ: وكذبتُم بالله، وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٦).

العذابِ، وإنْ شاء أَنْظَرَكم وأجَّلَكم، بِحَسَب ما تقتضيه حِكْمَتُه، فالحكمُ الكونيُّ، والحُكم الشرعيُّ لله تعالى وحْدَه[١].

﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ قِراءتان:

١- ﴿يَقُصُّ﴾ من القَصَصِ، فالمعنى: أنَّ جميعَ ما أنبَأَ به اللهُ تعالى أو أمَرَ به؛ فهو مِنَ أقاصيصِ الحَقِّ[٢].

٢- ﴿يَقْضِ﴾[٣] مِنْ: قضَى يقضي: إذا حَكَم وفَصَل؛ فالمعنى: أنَّ اللهَ تعالى يقضي القَضَاءَ الحقَّ[٤].

﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾.

أي: يتْلو علينا في كتابِه الحقَّ الواضِحَ، الذي لا لبْسَ فيه، والذي تنقَطِعُ به حُجَجُهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٩).

(٢) قرأ بها المدنيَّان وابنُ كثيرٍ وعاصمٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٥٤).

(٣) وحُذِفَتِ الياءُ خَطًّا تَبعًا لِلَّفْظِ؛ لالتقاءِ السَّاكنينِ؛ كما في ﴿تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥]، وكحذف الواو في ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤]، ونُصِبَ ﴿الحَقَّ﴾ بعدَه على أنَّه صِفَةٌ لمصدْرٍ محذوفٍ؛ أي: يَقضِي القَضَاءَ الحَقَّ، أو على إسقاطِ الباءِ؛ أي: يَقضِي بالحَقِّ؛ ووَقَفَ عليه يعقوبُ بالياءِ. يُنظر: ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص:٢٦٤).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٨).

وعلى قِراءةِ (يَقْضِ الحَقَّ) يكونُ المعنى: يَقضِي القَضاءَ الحقَّ، الذي لا جوْرَ فيه ولا حَيْفَ، بيني وبينكم[١].

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾.

أي: وهو خَيْرُ مَن فَصَلَ القضايا، فبَيَّن وميَّز بين المحِقِّ والمبْطِل، وحَكَم بين عِبادِه؛ فأنْصَفَ بينهم، وأحقَّ الحَقَّ سبحانه وتعالى[٢].

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاء المُستعجلينَ بالعذابِ؛ جهلًا منهم وعنادًا وظلمًا: لو أنَّ بِيَدِي ما تتعجَّلونَه من العذاب لعاجَلْتُكم بإيقاعِ ما تستحقُّونه منه[٣].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: ولكنَّ ذلك الأمرَ بِيَدِ الله، الذي هو أعلمُ بوقْتِ إرسالِه على الظَّالمينَ الذين يَضَعونَ عبادتَهم- التي لا تَنبغي أنْ تكونَ إلَّا للهِ- في غَيرِ مَوضِعها، فيَعبدونَ مَن دُونَه، وهو أعلمُ بوقْتِ الانتقامِ منهم، ولا يَخفَى عليه شيءٌ مِن أحوالِهم، فيُمْهِلُهم ولا يُهْمِلُهم عزَّ وجلَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩-٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

الفَوائِد التربويَّة:

قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾، في قوله: (أهواءكم) تنبيهٌ على السببِ الذي حصَل منه الضَّلالُ، وتنبيهٌ لمن أرادَ اتِّباعَ الحقِّ، ومجانبةَ الباطلِ[(١)].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- بُنِي الفعلُ ﴿نُهِيتُ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فاعِلُه؛ للاستغناءِ عن ذِكْرِ الفاعِلِ؛ لظُهُورِ المرادِ، أي: نهاني اللهُ[(٢)].

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ فيه تأكيدٌ لقَطْعِ أَطماعِهم، وإشارةٌ إلى الموجِبِ للنَّهيِ، وعلَّةِ الامتناعِ عن متابعَتِهم، وبيانٌ لمبدأ ضلالِهم، والسَّبَبِ الذي منه وقَعُوا في الضَّلالِ وأنَّ ما هم عليه هوًى، وليس بهُدًى، وتنبيهٌ لِمَن تحرَّى الحقَّ على أنْ يتَّبعَ الحُجَّة، ولا يُقلِّد؛ لذا قال: ﴿لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ دون (لا أَتَّبِعُكم)؛ للإشارةِ إلى أنَّهم في دِينِهم تابعونَ للهَوى، نابذونَ لدليلِ العَقلِ، وفي هذا تجهيلٌ لهم في إقامةِ دِينِهم على غيرِ أصلٍ مَتينٍ[(٣)].

٣- قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للطَّاقةِ البَشريَّةِ حدودٌ في الصَّبْرِ والحِلْم والإمهالِ، وما يحلُم على البَشَر، ويُمْهِلُهم على عصيانِهم وتمرُّدِهم وتبجُّحِهم، إلَّا اللهُ الحليمُ القويُّ العظيمُ؛ فإنَّ الإنسانَ لَيَرَى مِن بعض الخَلْقِ ما يضيقُ به الصَّدْرُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٢).

وتبلغُ منه الرُّوحُ الحُلقومَ، ثم يَنظُرُ فيجِدُ اللهَ سبحانه يَسَعُهم في مُلْكه، ويُطْعِمُهم، ويَسْقِيهم، ويُغْدِقُ أحيانًا عليهم، ويفتَحُ عليهم أبوابَ كُلِّ شَيءٍ[(١)].

٤- إنْ قيلَ: فما الجَمْعُ بين قوله في هذه الآيةِ: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وبين ما ثَبَتَ في الصَّحيحَينِ مِن قوْلِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِمَلَك الجبالِ حين استأمَرَه ليُطْبِقَ على من آذاه الأَخْشَبينِ، فقال له: ((بَلْ أَرجُو أن يُخْرِجَ اللهُ من أصلابِهم من يَعْبُدُ اللهَ، لا يُشْرِكُ به شيئًا))[(٢)]، فقد عَرَضَ عليه عذابَهم واستئصالَهم، فاسْتَأْنَى بهم، وسألَ لهم التأخيرَ؛ لعلَّ اللهَ أن يُخرِجَ مِن أصلابِهم مَن لا يُشْرِكُ به شيئًا؟

فالجوابُ- واللهُ أعلمُ-: أنَّ هذه الآيَةَ دلَّتْ على أنَّه لو كان إليه وقوعُ العذابِ الذي يطلبونَه حالَ طَلَبِهم له؛ لأَوْقَعَه بهم، وأمَّا الحديثُ، فليس فيه أنَّهم سألوه وقوعَ العذابِ بهم، بل عَرَضَ عليه مَلَكُ الجبالِ أنَّه إن شاء أطْبَقَ عليهِمُ الأَخْشَبَينِ- وهما جَبَلا مكَّةَ اللَّذانِ يكتنفانِها جنوبًا وشمالًا- فلهذا استأنى بهم وسألَ الرِّفْقَ لهم[(٣)].

٥- قوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ العَبدَ لا يَقدِرُ على أمرٍ من الأمور إلَّا إذا قضاه اللهُ، فيَمتنِعُ منه فِعلُ الكُفرِ إلَّا إذا قضَى اللهُ وحَكَم به، وكذلك في جميعِ الأفعالِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يُفيد القَصْرَ؛ ففيه ردٌّ على المعتزلةِ الذين يقولون: لا يشاءُ الله تعالى الكُفرَ مِن الكافِرِ، ولا المعصيةَ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤).

مِن العاصِي[١].

٦- في قوله: ﴿لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أُسْنِدَ الفعلُ إلى المفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّه لو كان عندَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما يَستعجلونَ به وقُضِيَ؛ لَمَا قُضِيَ إلَّا بمشيئةِ اللهِ تعالى وقُدْرتِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قولُه**: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡۖ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ عاد به الكلامُ إلى إبطالِ الشِّرْك بالتبرِّي من عبادةِ أصنامِهم، بطريقةٍ أخرى لإبطالِ عِبادةِ الأصنامِ- بعدَ أنْ أبطلَ إلهيةَ الأصنامِ بطريقِ الاستدلالِ- وهي أنَّ اللهَ نهى رسولَه عليه الصَّلاة والسَّلام عن عِبادتِها، وعن اتِّباعِ أهواءِ عَبَدتِها[٣].

- وأُجْرِيَ على الأصنامِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ اسمُ الموصولِ الموضوعِ للعُقلاءِ؛ لأنَّهم عامَلوهم معاملةَ العُقلاءِ، فأتَى لهم بما يَحكي اعتقادَهم، أو لأنَّهم عَبَدوا الجِنَّ وبعضَ البَشَر، فغُلِّبَ العُقلاءُ من معبوداتِهم[٤].

- قوله: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾ استئنافٌ آخرُ ابتدائيٌّ، وأُعيدَ الأمرُ بالقولِ ﴿قُل﴾ زيادةً في الاهتمامِ بالاستئنافِ واستقلالِه؛ ليكونَ هذا النفيُ شاملًا للاتِّباعِ في عبادةِ الأصنامِ، وفي غيرِها من ضلالَتِهم[٥]. أو كرَّر الأمرَ بقوله: ﴿قُل﴾ مع قُرْبِ العهدِ؛ اعتناءً بشأنِ المأمورِ به، أو إيذانًا باختلافِ المَقولينِ؛ من حيثُ إنَّ الأوَّلَ مِن قَوْلِه: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٢).

ٱللَّهِ﴾ حكايةٌ لِمَا مِن جِهَتِه تعالى من النَّهيِ، والثاني من قوله: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾ حكايةٌ لِمَا مِن جِهَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من الانتهاءِ عمَّا ذُكِرَ من عبادة ما يعبدونَه[١].

- قوله: ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ استئنافٌ مؤكِّدٌ لانتهائه عمَّا نُهِيَ عنه، مُقَرِّرٌ لكونِهم في غايةِ الضَّلالِ والغَوايةِ، أي: إنِ اتَّبعتُ أهواءَكم فقدْ ضلَلْتُ[٢].

- وفيه تعريضٌ بأنَّهم ليسوا مِن المُهتدين[٣].

- وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ مُؤكِّد لِقَولِه: ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ﴾، والتعبيرُ بالجُملة الاسميَّة في قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾؛ للدَّلالة على الثُّبوتِ والدَّوامِ والاستمرارِ، أي: دوامِ النَّفْي واستمرارِه، لا نفْي الدَّوامِ والاستمرار، وجاءتْ جملةُ ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ﴾ فِعْليَّةً؛ لتدُلَّ على التجدُّدِ؛ فحَصلَ نَفْيُ تجدُّدِ الضَّلالِ وثُبوته[٤].

- وقدْ أُتي بالخَبرِ بالجارِّ والمجرور، فقيل: ﴿مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، ولم يقُلْ: (وما أنا مهتدٍ)؛ لأنَّ المقصودَ نفيُ الجملةِ التي خبرُها ﴿مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾؛ فإنَّ التَّعريفَ في ﴿ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ تعريفُ الجِنسِ، فإخبارُ المتكلِّم عن نفْسِه بأنَّه مِن المهتدين يُفيد أنَّه واحدٌ من الفِئة التي تُعرَف عندَ الناسِ بفِئة المهتدين؛ فيُفيد أنَّه مهتدٍ إفادةً بطريقةٍ تُشبه طريقةَ الاستدلالِ؛ فهو مِن قَبيلِ الكنايةِ التي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٣).

هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ مَلزومِه، وهي أبلغُ مِن التَّصريحِ[١].

٢- **قوله**: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ مَسوقٌ مَساقَ التَّعريضِ بالمُشْركينَ في أنَّهم على اضطرابٍ مِن أمْرِ آلهَتِهم، وعلى غيرِ بصيرةٍ[٢].

- وتنكيرُ لفظةِ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ للتفخيم[٣].

- قوله: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ الباءُ التي عُدِّيَ بها فِعلُ كَذَّبْتُمْ هي لتأكيدِ لُصوقِ معنى الفعلِ بمفعولِه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]؛ فلذلك يدُلُّ فعْلُ التكذيبِ إذا عُدِّيَ بالباءِ على معنى الإنكارِ، أي: التكذيبِ القَوِيِّ[٤].

- قوله: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ حالَهم في الإصرارِ على التَّكذيبِ، مِمَّا يزيدُهم عِنادًا عندَ سَماعِ تَسْفيهِ أحلامِهم، وتنقُّصِ عقائِدِهم[٥].

- قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقَرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، مشيرٌ إلى أنَّ قَصَّ الحقِّ هاهنا بطريقٍ خاصٍّ هو الفصلُ بين الحَقِّ والباطِلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٦٣، ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٦).

وقال ابن عاشور: (ولعلَّ الاستعمالَ أنَّهم لا يُعَدُّونَ فِعلَ التكذيبِ بالباءِ إلَّا إذا أُريدَ تكذيبُ حجَّةٍ أو برهانٍ مِمَّا يُحْسَبُ سببَ تصديقٍ؛ فلا يُقالُ: كذَّبْتُ بفلانٍ، بل يقال: كذَّبتُ فلانًا، قال تعالى: ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ [الفرقان: ٣٧]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣]).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٦).

هذا هو الذي تستدعيه جزالةُ التَّنزيلِ[١].

٣- **قوله:** ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ يُثيرُ سؤالًا في نفس السامِعِ؛ أن يقول: فلو كان بِيَدِك إنزالُ العذابِ بهم، ماذا تصنعُ؟ فأجيب بقوله: ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ ...﴾[٢].

- قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تذييلٌ، أي: اللهُ أعلمُ منِّي ومِن كلِّ أحدٍ بحكمةِ تأخيرِ العذابِ، وبوقْتِ نزولِهِ؛ لأنَّه العليمُ الخبيرُ، الذي عنده ما تستعجلونَ به[٣]، وهو في معنى الاستدراكِ؛ كأنه قال: ولكنَّ الأمْرَ إلى الله سبحانه وتعالى، وهو أعلمُ بمن ينبغي أن يُؤخَذَ وبِمَن ينبغي أن يُمْهَلَ منهم[٤].

- والتعبيرُ بالظَّالمينَ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إظهارٌ في مقامِ ضميرِ الخطاب، والمعنى: (واللهُ أعلمُ بكم)؛ فوُضِعَ الظَّاهِرُ المُشعِرُ بوصْفِهِم بالظُّلم موضعَ المضمَر؛ لإشعارِهم بأنَّهم ظالمونَ في شِرْكِهم؛ إذِ اعتَدَوْا على حقِّ الله، وظالمونَ في تكذيبِهم؛ إذ اعتَدَوْا على حقِّ اللهِ ورسولِه، وظالمونَ في معامَلَتِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٧٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٠).

الآيات (٥٩ - ٦٢)

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ جَرَحْتُم ﴾: أي: كَسَبْتُم، والاجتراحُ: اكتسابُ الإِثْمِ، وأصلُ (جَرَحَ): الكسْبُ، وشقُّ الجِلْد[١].

﴿ تَوَفَّتْهُ ﴾: أي: بالموتِ؛ يقال: توفَّيْتُ الشَّيءَ واستوفيتُه، إذا أخَذْتَه كُلَّه حتَّى لم تتركْ منه شيئًا، ومنه يُقال للميِّت: تَوفَّاه اللهُ، وأصلُ (وفى) يدلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ، ومنه الوفاءُ: تمامُ الشَّيء، وإتمامُ العَهدِ، والقيامُ بمقتضاه، وإكمالُ الشَّرطِ[٢].

﴿ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾: أي: لا يُضَيِّعون ما أُمِروا به، ولا يُقَصِّرونَ فيه، وأصل (فرط): يدلُّ على إزالةِ شيءٍ من مكانِه، وتنحيتِه عنه[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

مشكل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾

﴿وَرَقَةٍ﴾: فاعل ﴿تَسۡقُطُ﴾ وهو مجرورٌ لفظًا، مرفوعٌ محلًّا بضمَّة مُقدَّرة؛ لاشتغالِ مَحلِّها بحركةِ حرْفِ الجرِّ الزَّائد، و﴿مِن﴾ زائدةٌ للتأكيدِ، أفادتِ العمومَ، وقوله: ﴿إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ حالٌ من ﴿وَرَقَةٍ﴾، وجاءتِ الحالُ مِن النَّكرةِ؛ لاعتمادِها على النَّفيِ، والتقدير: ما تَسقطُ مِن ورقةٍ إلَّا عالِمًا هو بها. ويجوزُ أنْ تكونَ الجملةُ نعتًا لورقةٍ.

﴿وَلَا حَبَّةٖ﴾ ﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ﴾: كلُّها مجرورةٌ، عَطفًا على لفْظِ ﴿وَرَقَةٍ﴾.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾: استثناءٌ جارٍ مجرَى التوكيدِ، وهو بدلٌ مِن الاستثناءِ الأوَّلِ ﴿إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ بدلَ الكلِّ- على أنَّ الكتابَ الْمُبينَ عِبارةٌ عن عِلمِه تعالى- أو بدلَ الاشتمالِ على أنَّه عبارةٌ عن اللَّوحِ المحفوظِ. وقد قُرِئ الأخيرانِ ﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ﴾ بالرَّفعِ، عطفًا عَلى محلِّ ﴿وَرَقَةٍ﴾. وقيل: رفْعُهما بالابتداءِ، والخبرُ حينئذٍ قولُه: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبرُ تعالى أنَّ عنده خزائنَ الغيبِ لا يعلَمُها إلَّا هو سبحانه، ويعلمُ ما في البَرِّ والبحر، وما مِن ورقةِ شَجَرٍ تسقطُ إلَّا وهو يعلَمُها، ولا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرضِ،

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٠٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٦١)، ((إعراب القرآن)) للدعاس (١/ ٣٠٩).

ولا شيءٍ رَطْبٍ ولا يابسٍ إلَّا وهو مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ.

وهو تعالى الذي يَقْبِضُ أرواحَ الخلْقِ باللَّيلِ عند النَّومِ، ويَعلمُ ما كَسَبوا من أعمالٍ بالنهارِ، ثم يُوقِظُهم مِن منامِهم؛ ليقْضِيَ اللهُ الأجَلَ الذي حدَّدَه لحياتِهم، ثُمَّ إليه وَحْدَه عزَّ وجلَّ مرجِعُهم يومَ القيامةِ، ثم يُخبِرُهم بما كانوا يَعملونَه في حياتِهم.

وهو عزَّ وجلَّ القاهرُ فوقَ عبادِه، الذي خضَعَ له كلُّ شيءٍ، وهو الذي يُرسِلُ على العبادِ حفَظَةً من الملائكةِ؛ حتى إذا جاء أحدًا من العبادِ الموتُ، تَوَفَّتْه رسلُ اللهِ من الملائكةِ، وهم لا يُفَرِّطونَ.

ثمَّ بعدَ الموتِ يُرَدُّون إلى اللهِ مولاهُمُ الحَقِّ، هو وحْدَه مَن له الحُكْم، فيتولَّى الحُكْمَ بينهم بالعَدْلِ، وهو أسرَعُ الحاسبينَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بعد قَولِه: ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾، انتَقل من خاصٍّ إلى عامٍّ، وهو عِلْمُ اللهِ بجَميعِ الأمورِ الغيبيَّةِ؛ فقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ فاندرَجَ في هذا العامِّ ما استعجلوا وقوعَه وغَيْرُه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٤).

وأيضًا لَمَّا أمَرَ الله تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُبَيِّنَ للمشركينَ أنَّه على بَيِّنةٍ من رَبِّه فيما بلَّغَهم إيَّاه من رسالَتِه، وأنَّ ما يَستعجلونَ به من عذابِ اللهِ ونَصْرِه عليهم- تعجيزًا أو تهكُّمًا أو عنادًا- ليس عنده، وإنَّما هو عند الله، الذي قَضَتْ سُنَّتُه أن يكون لكُلِّ شيءٍ أجَلٌ وموعِدٌ، لا يَتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ عنه، وأنَّه تعالى هو الذي يَقضي الحَقَّ، ويقُصُّه على رسولِه، وبِيَدِه تنفيذُ وَعْدِه ووعيدِه- قفَّى على ذلك ببيانِ كونِ مفاتحِ الغيبِ عنده، وكونِ التصرُّفِ في الخَلْق بِيَدِه، وكونِه هو القاهِرَ فوقَ عِبادِه، لا يُشارِكُه أحدٌ مِن رُسُلِه ولا غيرُهم في ذلك حتى يصِحَّ أن يُطالِبُوا به[1]، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: وعندَه خزائنُ الغيبِ، فيعلَمُ جميعَ ما غاب عن خَلْقِه، فلم يَطَّلِعوا عليه، وأعلَمُ المخلوقاتِ- وهم الرُّسُلُ والملائكةُ- لا يَعلمونَ من الغيبِ إلَّا ما عَلَّمَهم اللهُ تعالى، وهو تعالى يُعَلِّم رسُلَه مِن غَيْبِه ما شاء[2].

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨٢-٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٨١-٤٨٢).

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مفاتيحُ الغيبِ خَمسٌ، لا يَعلمُها إلَّا اللهُ: لا يَعلمُ ما في غَدٍ إلَّا اللهُ، ولا يَعلمُ ما تَغيضُ الأرحامُ إلَّا اللهُ، ولا يَعلمُ متى يأتي المطرُ أحدٌ إلَّا اللهُ، ولا تَدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ، ولا يعلمُ متى تقومُ السَّاعةُ إلَّا اللهُ))[١].

وعن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنَّها قالت: ((... ومَن زعمَ أنَّه- أي النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم- يُخبرُ بما يَكونُ في غدٍ، فقد أعظمَ علَى اللهِ الفِرْيَةَ، واللهُ يقولُ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥]))[٢].

﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾.

أي: ويَعلمُ أيضًا مع ذلك جميعَ ما يعلَمُه النَّاسُ، فعِلمُه مُحيطٌ بجميعِ الموجوداتِ، بَرِّيِّها وبَحْرِيِّها؛ لا يَخفى عليه من ذلك شيءٌ، فيَعلمُ ما في البَراري والقِفَار؛ من الحيواناتِ والأشجارِ، والرِّمالِ والحَصَى والتُّراب، وغيرِ ذلك، وما في البحارِ؛ مِن حيواناتِها ومعادِنِها وصَيْدِها، وغير ذلك[٣].

﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾.

أي: وما مِن ورقةِ شَجَرٍ تقَعُ في أيِّ مكانٍ من الأرض إلَّا واللهُ عزَّ وجلَّ يَعْلَمُها، فهو سبحانَه يعلمُ الحركاتِ حتى مِن الجماداتِ[٤].

﴿وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٦٩٧).

(٢) رواه مسلم (١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٢).

أي: وَلا حَبَّةٍ من حبوبِ الثِّمارِ والزُّروعِ، وحبوبِ البُذورِ التي يَبْذُرها الخَلْقُ؛ وبُذورِ النَّوابتِ البَرِّيَّة التي يُنشئُ منها أصنافَ النَّباتاتِ، مظروفةٍ في ظُلُماتِ الأَرْضِ؛ لا تحولُ بينها وبين رؤيةِ الله تعالى لها وعِلْمِه بها، وكذا كلُّ شيءٍ آخَرَ من رطْبٍ أو يابسٍ؛ قد أُثْبِتَ في اللَّوحِ المحفوظِ، مكتوبًا فيه عدَدُه ومَبْلَغُه، والوَقْتُ الذي يوجَدُ فيه، والذي يَفنى فيه، وغير ذلك، واللَّوحُ المحفوظُ يُبِينُ عن صِحَّة ما أُثبتَ فيه بوجودِ الشَّيءِ في الواقع، كما أُثبِتَ من قبلُ[1].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا ذكر تعالى استئثارَه بالعِلْم التامِّ للكليَّاتِ والجزئيَّاتِ؛ ذكَرَ استئثارَه بالقُدرةِ التامَّةِ؛ تنبيهًا على ما تختصُّ به الإلهيَّةُ، وذَكَرَ شيئًا محسوسًا قاهرًا للأنام، وهو التوفِّي باللَّيلِ، والبَعْثُ بالنَّهارِ وكِلاهما ليس للإنسان فيه قُدرةٌ، بل هو أمرٌ يُوقِعُه اللهُ تعالى بالإنسانِ[2]، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾.

أي: واللهُ هو الذي يتوفَّى أرواحَكم باللَّيلِ وفاةَ النَّومِ، فيَقبِضُها من أجسادِكم[3].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨٣-٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٣)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١٨٩-١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٧)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الزمر:٤٢].

﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾.

أي: ويعلمُ ما كَسَبْتُم من الأعمالِ بالنَّهارِ[١].

﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾.

أي: ثم يُوقِظُكم مِنْ منامِكم في النَّهارِ؛ ليقضِيَ اللهُ الأجَلَ الذي حدَّده لحياتِكم، فيَبْلُغَ مدَّتَه ونهايَتَه[٢].

﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

لَمَّا ذَكَر تعالى أنَّه يُنيمُهم أولًا، ثمَّ يُوقظُهم ثانيًا؛ كان ذلك جاريًا مجْرَى الإحياءِ بعدَ الإماتةِ؛ لا جَرَمَ استدلَّ بذلِك على صِحَّةِ البعثِ والقِيامة، فقال[٣]:

﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾.

أي: ثمَّ إلى الله وَحْدَه معادُكم ومصيرُكم يومَ القيامةِ[٤].

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ثم يُخبِرُكم بما كنتُم تَعملونَه في حياتِكم الدُّنيا، ويُجازيكم بذلك، إنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٦-٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ[١].

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى في الآيةِ السابقةِ النَّومَ والموتَ، وهو سبحانَه خلَقَهما، فغَلَبَا شِدَّةَ الإنسانِ كيفَما بلغَتْ- بَيَّنَ عَقِبَ ذِكْرِهما أنَّ الله هو القادِرُ الغالِبُ دونَ الأصنامِ، فالنَّومُ قهْرٌ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يُريدُ ألَّا ينامَ فيغْلِبُه النَّومُ، والموْتُ قهْرٌ، وهو أظْهَرُ[٢]، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو الذي قَهَر كلَّ شيءٍ، وخضَعَ له كلُّ شيءٍ، الغالِبُ خَلْقَه بقُدرَتِه، العالي عليهم بتذليلِه لهم، وخلقِه إيَّاهم، النافذةُ فيهم مَشيئَتُه؛ فليسوا يَملِكونَ مِن الأَمرِ شيئًا، ولا يَتحرَّكون أو يَسكُنونَ إلَّا بإذْنِه سبحانَه[٣].

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾.

أي: وَقد وكَّلَ بكم حَفَظةً من الملائكةِ؛ يحفظونَكم، ويَحفظونَ عليكم أعمالَكم ويُحْصُونها[٤].

كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

١١].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

أي: إنَّ ربَّكم يحفَظُكم وأعمالَكم في حياتِكم، بالملائِكَةِ الموَكَّلين بكم، إلى أنْ يَحْضُرَكم الموتُ، فإذا جاء ذلك أحدَكم تَوفَّتْه ملائكَتُنا الموَّكلونَ بقَبْضِ الأرواح، لا يَزيدونَ ساعةً ممَّا قَدَّرَه اللهُ وقَضَاه، ولا يَنْقُصونَ، ولا يُنَفِّذونَ ذلك إلَّا بحَسَب التقاديرِ الرَّبانيَّةِ، ولا يُفرِّطون أيضًا في حِفْظ رُوحِ المتوفَّى، بل يحفظونَها ويُنْزِلونَها حيثُ شاءَ الله تعالى، فإنْ كان مِن الأبرارِ فهو في عِلِّيِّينَ، وإنْ كان مِن الفُجَّار فهو في سِجِّينٍ[(١)].

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: ثمَّ بعدَ الموتِ والحياةِ البَرزَخِيَّة يُرَدُّ العبادُ المُتَوفَّونَ بالموتِ، فيَرْجِعون يومَ القيامةِ إلى الله سَيِّدِهم، الذي تولَّى أمورَهم بحُكْمِه القَدَريِّ، فنَفَّذَ فيهم ما شاءَ مِن تَدبيرِه، وتولَّاهم بحُكْمِه الشَّرعيِّ، فأَرْسَل إليهم الرُّسُلَ، وأنزَلَ عليهم الكُتُبَ، وتولَّى رَزْقَهم وبَعْثَهم وغيرَ ذلك، وهو سبحانه الحقُّ الذي ليس بباطلٍ[(٢)].

﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٩-٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٩).

أي: رُدُّوا إليه؛ ليتولَّى الحُكمَ فيهم بالعَدْلِ، فيُثِيبَهم على ما قدَّموا من الخيراتِ، ويُعاقِبَهم على ما اكتَسَبُوا من السيِّئاتِ؛ فله سبحانه وَحْدَه الحُكمُ والقَضاءُ دون مَن سواه مِن جميعِ خَلْقِه[١].

﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾.

أي: وهو أسرَعُ مَن حَسَب عَددَكم وأعمالَكم وآجالَكم، وغيرَ ذلك من أمورِكم- أيُّها النَّاسُ- وأحصاها وعَرَفَ مَقاديرَها ومَبَالِغَها، لا يَخفَى عليه منها خافيةٌ؛ لكمالِ عِلْمِه وحِفْظِه لأعمالِكم[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ذِكْرُه تعالى للورقةِ والحَبَّةِ فيه تنبيهٌ للمُكَلَّفينَ على أمْرِ الحِسابِ، وإعلامٌ بأنَّه لا يَفوتُه مِن كُلِّ ما يَصنعونَ في الدُّنيا شيءٌ؛ لأنَّه إذا كان لا يُهْمِلُ من الأحوالِ التي ليس فيها ثوابٌ وعقابٌ وتكليفٌ، فبأَلَّا يُهْمِلَ الأحوالَ المشتمِلَةَ على الثَّوابِ والعقابِ أَوْلى[٣].

٢- قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ في الإخبارِ أنَّه عزَّ وجلَّ يَعلمُ ما يقَعُ في النَّهارِ تَحذيرٌ مِن اكتِسابِ ما لا يَرْضَى اللهُ باكتِسابِه بالنِّسبةِ للمُؤمنينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٣-٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

قال السعديُّ: (فإذا كان تعالى هو المنفردَ بالخَلْق والتَّدبير، وهو القاهِر فوقَ عِباده، وقد اعْتَنى بهم كلَّ الاعتناء في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحُكم القَدَريُّ والحُكم الشَّرعيُّ والحُكم الجزائي؛ فأين للمُشركين العدولُ عن مَن هذا وصفُه ونعتُه إلى عِبادةِ مَن ليس له مِن الأمْر شيءٌ، ولا عِندَه مِثقالُ ذرَّة مِن النَّفع، ولا له قُدرة وإرادة؟) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٢).

وتهديدٌ للمُشركينَ[١].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ التَّحذيرُ مِن ارتِكابِ المعاصي[٢].

٤- يُستَفاد من قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أنَّ كُلَّ نَفْسٍ مَعدودةُ الأنفاسِ، متروكةٌ لأجَلٍ لا تعلَمُه؛ فهو بالنِّسبة لها غيبٌ لا سبيلَ إلى كَشْفِه، بينما هو مرسومٌ مُحدَّدٌ في عِلْم الله تعالى، لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ، وكلُّ نفْسٍ مُوكَلٌ بأنفاسِها وأجَلِها حفيظٌ قريبٌ مُباشِرٌ حاضِرٌ، ولا يغفو ولا يَغْفُل ولا يُهْمِل؛ فهو حفيظٌ مِن الحَفَظَة، وهو رسولٌ من الملائِكَةِ، فإذا جاءتِ اللَّحظَةُ المرسومةُ الموعودةُ- والنَّفْسُ غافلةٌ مشغولةٌ- أدَّى الحفيظُ مُهِمَّتَه، وقام الرَّسولُ برِسالَتِه، وهذا التصوُّرُ كفيلٌ بأنْ يرتَعِشَ له الكِيانُ البشريُّ، وهو يُحِسُّ بالقَدَر الغيبيِّ يُحيطُ به، ويعرِفُ أنَّه في كلِّ لحظةٍ قد يُقبَض، وفي كُلِّ نَفَسٍ قد يَحينُ الأجلُ المحتومُ[٣].

٥- قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾، فقوله: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ يَتضمَّنُ وعدًا ووعيدًا؛ لأنَّه لَمَّا أُتِيَ بِحَرْف المُهْلَةِ في الجمَل المتقدِّمةِ ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ...﴾، وكان المُخاطَبونَ فريقَين: فريقٌ صالِحٌ، وفريقٌ كافِرٌ، وذَكَرَ أنَّهم إليه يُرجَعونَ؛ فالصَّالحونَ لا يُحِبُّون المُهلَةَ، والكافِرونَ بعَكْسِ حالِهم، فعُجِّلَتِ المَسَرَّةُ للصَّالحين، والمَسَاءَةُ للمُشركينَ بقوله: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٧٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٠).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أفادتْ هذه الآيةُ عُمومَ عِلمِه تعالى بالكليَّاتِ والجُزئيَّاتِ، وفي هذا إبطالٌ لقولِ جمهورِ الفلاسفةِ أنَّ اللهَ يعلمُ الكليَّاتِ خاصَّةً، ولا يَعلَمُ الجزئيَّاتِ[(١)].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ...﴾ دقيقةٌ جليلةٌ، وهي: أنَّ قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ لما كان قضيَّةً عقليَّةً محضة مجردة، ذَكَر بعده مِثالًا من الأمورِ المحسوسةِ الداخلةِ تحتَ القضيَّةِ العقليَّةِ الكليَّةِ المحضةِ المجرَّدة؛ ليصيرَ ذلك المعقولُ- بمعاونةِ هذا المثالِ المحسوسِ- مفهومًا لكلِّ أحد؛ فقال أولًا: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾، ثمَّ أكَّد هذا المعقولَ الكليَّ المجرَّدَ بجزئيٍّ محسوسٍ فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؛ وذلك لأنَّ أحدَ أقسامِ مَعلوماتِ اللهِ هو جميعُ دوابِّ البَرِّ والبَحرِ، والحسُّ والخيالُ قد وقَفَ على عظمةِ أحوالِ البَرِّ والبحرِ، فذِكْرُ هذا المحسوسِ يَكشِفُ عن حقيقةِ عظمةِ ذلك المعقولِ[(٢)].

٣- في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ الحكمةُ مِن تَخصيصِ هذه الأشياءِ بالذِّكْرِ: أنَّ المعلومَ أو ما يتعلَّقُ به العِلْمُ: إمَّا موجودٌ، وإمَّا معدومٌ، والموجودُ إمَّا حاضِرٌ مشهودٌ، وإمَّا غائِبٌ في حُكم المفقودِ، وليس في الوجودِ شيءٌ غائِبٌ عن اللهِ تعالى، فعِلْمُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٠، ١١).

تعالى بالأشياءِ إمَّا عِلْمُ غيبٍ، وهو عِلْمُه بالمعدومِ، وإمَّا عِلْمُ شهادةٍ، وهو عِلْمُه بالموجودِ، وأمَّا أهلُ العِلم مِن الخَلْقِ فمِنَ الموجوداتِ ما هو حاضِرٌ مشهودٌ لدَيهم، ومنها ما هو حاضِرٌ غيرُ مشهودٍ؛ لأنَّه لم يَخْلُق لهم آلَةً للعِلم به؛ كعالَم الجِنِّ والملائكةِ مع الإنس، ومنها ما هو غائِبٌ عن شُهودِهم، وهم مستعِدُّونَ لإدراكِه، لو كان حاضرًا، وما هو غائبٌ وهم غيرُ مستعِدِّينَ لإدراكِه لو حضَر، فكلُّ ما خُلِقوا غيرَ مستعدِّينَ لإدراكِه من موجودٍ ومعدومٍ؛ فهو غيبٌ حقيقيٌّ بالنِّسبةِ إليهم، وكلُّ ما خُلِقوا مُستعَدِّينَ لإدراكِه دائمًا أو في بعضِ الأحوال فهو- إنْ غاب عنهم- غيبٌ إضافيٌّ، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى لنا في هذه الآيةِ أنَّ خزائِنَ عالَمِ الغَيبِ كلَّها عنده، وعنده مفاتيحُها وأسبابُها المُوصِلَة إليها، وأنَّ عنده مِن عِلْمِ الشَّهادة ما ليس عند غيرِه، وذَكَرَ على سَبيلِ المَثَل عِلْمَه بكلِّ ما في البرِّ والبحرِ مِن ظاهِرٍ وخفيٍّ، ثم خَصَّ بالذِّكْرِ ثلاثةَ أشياءَ مِمَّا في البرِّ: إحاطة عِلْمِه بكلِّ ورقةٍ تَسقُط مِن نَبْتَةٍ، وكلِّ حبَّة تسقُطُ في ظلماتِ الأرضِ، وكُلِّ رَطْبٍ ويابسٍ؛ فهذه الأشياءُ مِن عالَم الشَّهادةِ تدخُلُ في عالَم الغيبِ، ثم تَبْرُز في عالَم الشَّهادةِ، وعِلْمُ اللهِ تعالى محيطٌ بكلِّ شيءٍ منها على كَثرَتِها، ودِقَّةِ بعضِها وصِغَرِه، وتنقُّلُه في أطوارِ الخَلْقِ والتَّكوينِ، وما يَتْبَعُهما من الصُّوَر والمَظاهِرِ، وحَسْبُكَ هذا الإيماءُ مِن حِكمةِ تخصيصِها بالذِّكْرِ[1].

٤- قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ لَمَّا جاءَ القُرآنُ العظيمُ بأنَّ الغيبَ لا يَعلمُه إلَّا اللهُ، كان جميعُ الطُّرُق التي يُرادُ بها التوصُّل إلى شيءٍ من عِلْمِ الغيب- غيرَ الوَحْيِ- مِنَ الضَّلالِ المُبينِ، وبعضٌ منها يكون كُفْرًا؛ ولذا ثبَتَ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((مَنْ أتى عَرَّافًا فسأَلَه

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٨٢)

عن شيءٍ، لم تُقْبَلْ له صلاةٌ أربعينَ ليلة))[١]، ولا خِلافَ بين العُلماء في مَنْعِ العِيافَةِ[٢]، والكَهَانةِ[٣]، والعِرَافةِ[٤]، والطَّرْقِ[٥]، والزَّجْرِ[٦]، والنُّجوم[٧]، وكلُّ ذلك يدخُلُ في الكَهانة؛ لأنَّها تَشمَلُ جميعَ أنواعِ ادِّعاءِ الاطِّلاعِ على عِلْمِ الغَيبِ، وقد سُئِلَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الكُهَّانِ، فقال: ((لَيْسُوا بِشَيْءٍ))[٨].

٥- قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ دلَّ على إثباتِ عِلْمِ لله تعالى، دون نَفْيِ عِلْمِ غيرِه، وذلك عِلْمُ الأمورِ الظَّاهرة، وقد عُطِفَ على جُملةِ ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾، أو على جملةِ ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ المشتملَتَينِ على إثباتِ عِلْمٍ لله ونَفْيِ عِلْمٍ عن غيره؛ لإفادةِ تعميمِ عِلْمِه تعالى بالأشياءِ الظَّاهِرَة المتفاوِتَةِ في الظُّهورِ، بعدَ إفادَةِ عِلْمِه بما لا يَظهَرُ للنَّاسِ[٩].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠) من حديث بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) العِيافة: زَجرُ الطَّيرِ، والتَّفَاؤُل بأسْمائِها وأصْوَاتها ومَمرِّها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٣٠)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٤٠).

(٣) الكَهانة: ادِّعاءُ عِلمِ الغَيبِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٦/ ٨١).

(٤) العِرافة: حِرفةُ العرَّافِ: وهو الذي يستدِلُّ على الأمورِ بأسبابٍ ومُقَدِّماتٍ يَدَّعي مَعرِفَتَها بها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٢٢٣).

(٥) الطَّرْقُ: الضَّربُ بالحَصَى، وهو ضَربٌ مِنَ التكهُّنِ، وقِيل: هو الخطُّ في الرَّمْل. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٢١)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٩٠).

(٦) الزَّجْرُ: هُو العِيافَةُ أيضًا، وهو ضَربٌ مِنَ التكهُّنِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٣٥).

(٧) هو ما يدَّعيه أهلُ التَّنجيمِ مِن علمِ الكَوائِنِ والحوادثِ التي لم تقع وستقَعُ في مستقبَلِ الزَّمان، كأخبارهم بأوقات هُبوبِ الرِّياح، ومجيءِ المَطَر، وظهورِ الحرِّ والبَردِ، وتغيُّرِ الأسعارِ، وما كان في معانيها من الأمور، يزعمونَ أنَّهم يُدركون معرفَتَها بسيرِ الكواكب في مجاريها، وباجتماعِها واقترانِها، ويدعون أنَّها تتصَرَّفُ على أحكامِها، وتجري على قضايا مُوجِباتِها. يُنظر: ((معالم السنن)) للخطابي (٤/ ٢٢٩-٢٣٠).

(٨) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٨٢).
وقولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لَيْسوا بشَيءٍ)) أخرجه البخاريُّ (٦٢١٣)، ومسلم (٢٢٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٩) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٢).

٦- لَمَّا كَشَف الله عن عظمةِ قَوْلِه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ بِذْكر البَرِّ والبحر في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾- كشَفَ عن عظمةِ البَرِّ والبحر بقوْلِه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾؛ وذلك لأنَّ العقلَ يستحضِرُ جميعَ ما في وَجْهِ الأرض من المُدُن والقرى، والمفاوِزِ والجبالِ والتِّلالِ، ثم يَستحضِرُ كَمْ فيها من النَّجْم والشَّجَر، ثم يَستحضرُ أنَّه لا يتغيَّرُ حالُ ورقةٍ إلَّا والحقُّ سبحانه يعلَمُها، ثمَّ يتجاوَزُ من هذا المثال إلى مثالٍ آخَرَ أشَدَّ هيئةً منه، وهو قوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾؛ وذلك لأنَّ الحبَّةَ في غاية الصِّغَر، وظُلُمات الأرضِ موضِعٌ يَبْقى أكبرُ الأجسامِ وأعظَمُها مَخفيًّا فيها، فإذا سمع أنَّ تلك الحبَّةَ الصغيرة المُلْقاةَ في ظلماتِ الأرض، على اتِّساعها وعَظَمتِها، لا تخرجُ عن عِلْم الله تعالى البتَّةَ، صارتْ هذه الأمثلة منبهةً على عظمةٍ عظيمةٍ، وجلالةٍ عاليةٍ من المعنى المشار إليه بقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ بحيث تتحيَّرُ العقولُ فيها، وتتقاصرُ الأفكارُ والألبابُ عن الوصولِ إلى مباديها، ثم إنَّه تعالى لَمَّا قَوَّى أمْرَ ذلك المعقولِ المَحْضِ المجرَّد بذِكر هذه الجزئيَّاتِ المحسوسَةِ- فبَعْدَ ذِكْرِها عاد إلى ذِكر تلك القضيَّةِ العقليَّة المحضةِ المجرَّدةِ بعبارةٍ أخرى فقال: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو عينُ المذكورِ في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[1].

٧- في قولِه تعالى: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، قد يقولُ قائلٌ: ما وَجْهُ إثباتِه تعالى في اللَّوحِ المحفوظِ والكتابِ الْمُبينِ ما لا يَخْفَى عليه، وهو بجَميعِه عالِمٌ لا يُخافُ نِسيانُه؟ قيل: للهِ تعالى فِعْلُ ما شاء. وجائِزٌ أنْ يكونَ كان ذلك منه امتحانًا منه لِحَفَظَته، واختبارًا للمُتَوكِّلينَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١).

بكتابةِ أعمالهم؛ فإنَّهم فيما ذُكِرَ مأمورونَ بكتابةِ أعمالِ العبادِ، ثم بِعَرْضِها على ما أثْبَتَه اللهُ من ذلك في اللَّوح المحفوظِ، حتى أثبَتَ فيه ما أثبتَ كلَّ يومٍ. وقيل: إنَّ ذلِك معنى قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩]، وجائزٌ أنْ يكونَ ذلك لغيرِ ذلك ممَّا هو أعلمُ به، إمَّا بحُجَّةٍ يحتجُّ بها على بعضِ ملائِكَتِه، وإمَّا على بَني آدَمَ، وغير ذلك(١).

٨- في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ أَسْنَدَ اللهُ عزَّ وجلَّ التوفِّي إلى ذَاتِه المقدَّسةِ؛ لأنَّه لا يُنفَرُ منه هنا؛ إذِ المرادُ به النومُ، وهو وسيلةٌ للدَّعةِ والرَّاحةِ، وأَسْنَدَه إلى غَيرِه في قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]؛ لأنَّه يُنفَر منه، إذ المرادُ به الموتُ(٢).

٩- إنَّما قال: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾؛ لأنَّه وصَفَ نَفسَه تعالى بقَهرِه إيَّاهم، ومِن صِفَةِ كُلِّ قاهِرٍ شيئًا، أن يكونَ مُستعلِيًا عليه(٣).

١٠- قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ذَكَر العلماءُ في الفائدةِ مِن جَعْل الملائكةِ مُوكَّلينَ على بَني آدَمَ يَكتُبون أعمالَهم وُجوهًا؛ منها: أنَّ المكلَّفَ إذا عَلِمَ أنَّ الملائكةَ- وهم الكرامُ الكاتبون- مُوكَّلونَ به؛ يُحصُونَ عليه أعمالَه، ويكتبونها في صحائف تُعرَضُ على رُؤوسِ الأشهادِ في مواقفِ القِيامة؛ فإذا عَلِم أنَّ أعمالَه تُكتَب عليه وتُعرَضُ على رؤوس الأشهاد، كان هذا أَزْجرَ له عن القبائحِ والمعاصِي، وأنَّ العبدَ إذا وَثِق بلُطفِ سَيِّدِه، واعتمَدَ على عَفْوِه وسَتْرِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٣- ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤ / ٥٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٠).

لم يَحتشِمْ منه احتشامَه مِن خَدَمِه المطَّلعين عليه. ومنها: أنَّه يحتملُ في الكتابةِ أنْ يكونَ الفائدةُ فيها أنْ تُوزَنَ تلك الصَّحائفُ يومَ القيامةِ. ومنها: أنَّ الله تعالى يَفعلُ ما يشاءُ ويَحكُمُ ما يُريد، ويجِبُ علينا الإيمانُ بكلِّ ما ورَدَ به الشرعُ، سواء عقَلْنا الوجهَ فيه أو لم نعقِلْ(١).

١١- في قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ دليلٌ على ثُبُوتِ عِصْمَةِ الملائكةِ على الإطلاقِ، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾(٢).

١٢- الجَمْعُ بين قولِه هنا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، وقولِه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقولِه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] أنَّ المُتَوَفِّي في الحقيقةِ هو اللهُ تعالى، فإذا حضَرَ أجَلُ العبدِ أَمَرَ اللهُ تعالى ملَكَ الموتِ أن يقبِضَ رُوحَه، ولِمَلَكِ الموتِ أعوانٌ من الملائكةِ، يأمُرُهم بنَزْعِ رُوحِ ذلك العبدِ مِن جَسَدِه، فإذا وَصَلَتْ إلى الحُلقومِ تَوَلَّى قَبْضَها مَلَكُ الموتِ بِنَفْسِه، فحصل الجمعُ بين الآياتِ(٣).

١٣- وَصْفُ الاسمِ الكريم بـ(مولاهم الحَقِّ) في قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٢٦).

قال ابنُ جرير: (فإنْ قال قائل: أوَلَيسَ الذي يَقبضُ الأرواحَ ملَكُ الموت؛ فكيف قيل: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، والرُّسلُ جملةٌ وهو واحد؟ أوَليس قد قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]؟ قيل: جائزٌ أنْ يكون اللهُ تعالى أعان ملَكَ الموتِ بأعوانٍ من عنده، فيتولَّوْن ذلك بأمْر ملَك الموت، فيكون (التوفِّي) مضافًا- وإنْ كان ذلك من فِعل أعوان ملَك الموتِ- إلى ملَك الموت؛ إذ كان فِعلُهم ما فعلوا من ذلك بأمْره، كما يُضاف قتْلُ مَن قتَلَ أعوانُ السلطان ،وجَلْد مَن جلدوه بأمْر السلطان، إلى السُّلطان، وإنْ لم يكُن السلطان باشرَ ذلك بنفسه ولا وَلِيَه بيده. وقد تأوَّل ذلك كذلك جماعةٌ من أهل التأويل). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٠).

﴿ٱلْحَقِّ﴾ يدلُّ على أنَّ رَدَّهُم إليه حَتْمٌ؛ لأنَّه هو سيِّدُهم الحقُّ الذي يتولَّى أمورَهم، ويَحْكُم بينهم بالحَقِّ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾

- قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ...﴾ عطْفٌ على جملةِ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على طَريقةِ التخلُّصِ، والمناسبةُ في هذا التخلُّص هي الإخبارُ بأنَّ اللهَ أعلَمُ بحالةِ الظَّالمينَ؛ فإنَّها غائبةٌ عن أعيُنِ النَّاسِ، فاللهُ أعلمُ بما يناسِبُ حالَهم من تَعجيلِ الوعيدِ أو تأخيرِه، وهذا انتقالٌ لبيانِ اخْتِصاصِه تعالى بعلمِ الغيبِ، وسَعَةِ عِلمِه، ثُمَّ سَعَةِ قدرتِه، وأنَّ الخلقَ في قبضَةِ قدرتِه[٢].

- وتقديمُ الظَّرفِ ﴿وَعِندَهُۥ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: عِندَه لا عِنْدَ غيرِه[٣].

- قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قُدِّمَ ذِكْرُ البَرِّ؛ لأنَّ الإنسانَ قد شاهَدَ أحوالَ البَرِّ، وكثرةَ ما فيه من المُدُنِ والقُرى والمَفاوِزِ والجبالِ والتِّلالِ، وكثرةَ ما فيها من الحيوانِ والنَّباتِ والمعادِنِ. وأمَّا البحرُ فإحاطةُ العَقلِ بأحوالِه أقَلُّ إلَّا أنَّ الحِسَّ يدلُّ على أنَّ عجائِبَ البِحارِ في الجملةِ أكثرُ، وطُولُها وعَرْضُها أعظمُ، وما فيها من الحيواناتِ وأجناسِ المخلوقاتِ أعجَبُ. فإذا استحضَرَ الخَيالُ صورةَ البحرِ والبَرِّ على هذه الوجوهِ، ثمَّ عَرَفَ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ مجموعَها قِسْمٌ حقيرٌ من الأقسامِ الدَّاخِلةِ تحت قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ فيصيرُ هذا المثالُ المحسوسُ مُقَوِّيًا ومُكَمِّلًا للعظمةِ الحاصِلَةِ تحت قولِه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[1].

أو قُدِّم ذِكرُ البَرِّ على البَحرِ على طريقةِ الترقِّي مِن الأدْنَى إلى ما هو أعظمُ منه؛ فإنَّ قِسمَ البَحرِ من الأرضِ أعظمُ مِن قِسم البَرِّ، وخفاياه أكثرُ وأعظمُ[2].

- قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ عطْفٌ على جملةِ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؛ لقَصْدِ زيادةِ التَّعميمِ في الجزئيَّاتِ الدَّقيقةِ؛ فإحاطَةُ العِلْمِ بالخفايا مع كونِها مِن أضْعَفِ الجزئيَّاتِ مؤذِنٌ بإحاطَةِ العِلْمِ بما هو أعظَمُ وأَوْلى به[3].

- وزيادةُ حرفِ ﴿مِن﴾؛ لتأكيدِ النَّفْيِ؛ ليفيدَ العمومَ نصًّا[4].

- قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ فيه تأكيدٌ لمضمونِ ما قبله، وإيذانٌ بأنَّ المرادَ هو الاختصاصُ من حيثُ العلمُ، لا مِن حيثُ القدرةُ، أي: إنَّ ما تستعجلونَه من العذابِ ليس مقدورًا لي حتى أُلْزِمَكم بتعجيلِه، ولا معلومًا لدَيَّ لِأُخبِرَكم وقتَ نزولِه، بل هو مِمَّا يختصُّ به تعالى قدرةً وعلمًا، فيُنْزِلُه حَسَبما تقتضيه مشيئَتُه المَبنِيَّة على الحِكَم والمصالِحِ[5].

- وفي الآية حُسْنُ ترتيبٍ لهذه المعلوماتِ؛ فبدَأَ أولًا بأمْرٍ معقولٍ لا نُدرِكُه نحن بالحِسِّ، وهو قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾، ثم ثانيًا بِأَمرٍ نُدرِكُ كثيرًا منه بالحِسِّ، وهو ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، وفيه عمومٌ، ثمَّ ثالثًا بجُزْأَينِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٣).

لطيفينِ؛ أحدُهما عُلويٌّ: وهو سقوطُ وَرقةٍ مِن عُلْوٍ إلى أسفَلَ، والثاني سُفْلِيٌّ: وهو اختفاءُ حبَّةٍ في بطن الأَرضِ[١].

٢- **قوله**: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾ صيغةُ قَصْرٍ؛ لتعريفِ جُزْأَيِ الجُملةِ، أي: هو الذي يتوفَّى الأنفُسَ دون الأصنامِ؛ فإنَّها لا تَملِكُ موتًا ولا حياةً[٢].

- وفيه إطلاقُ التَّوفِّي على النَّوْمِ؛ لشَبَهِ النَّومِ بالمَوتِ في انقضاءِ الإدراكِ والعَمَلِ؛ لِمَا بينهما من المشاركَةِ في زَوالِ الإحساسِ والتَّمييزِ؛ فإنَّ أصْلَ التوفِّي قبضُ الشَّيء بتمامِه. وفائدته: التقريبُ لكيفيَّةِ البَعْثِ يومَ القيامة؛ فالمراد بقوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ يُنبِئُكم بقرينةِ قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، أي في النَّهار[٣].

- وتخصيصُ التوفِّي باللَّيلِ والجَرْح بالنَّهارِ، مع تحقُّقِ كُلٍّ منهما فيما خُصَّ بالآخَرِ؛ للجَرْيِ على سَنَنِ العادةِ[٤]، فوَقَع الاقتصارُ على الإخبارِ بِعِلْمِه تعالى ما يَكسِبُ النَّاسُ في النَّهار دون الليل؛ رَعْيًا للغالِبِ؛ لأنَّ النهارَ هو وقتُ أكثرِ العملِ والاكتسابِ[٥].

- وتوسيطُ قولِه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ بينَ قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾؛ لقَصْدِ الامتنانِ بنِعمةِ الإمهالِ، أي: ولولا فَضْلُه لَمَا بَعَثَكم في النَّهارِ؛ مع عِلْمِه بأنَّكم تكتسبونَ في النَّهارِ عبادةَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٦).

غَيرِه، ويكتسِبُ بعضُكم بعضَ ما نهاهُم عنه؛ كالمؤمنين[١].

- وصِيغةُ الماضي في قوله: ﴿جَرَحْتُم﴾؛ للدَّلالةِ على التحقُّق[٢].

٣- قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾

- قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾: وَ﴿يُرْسِلُ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾ فيدلُّ على التَّخصيصِ بقَرينةِ المقامِ، أي: هو الذي يُرسِلُ عليكم حَفَظةً دونَ غَيرِه، والقَصْرُ هنا حقيقيٌّ، فلا يستدعي رَدَّ اعتقادِ مخالِفٍ، والمقصودُ الإعلامُ بهذا الخَبَر الحقِّ؛ ليَحْذَرَ السَّامعونَ من ارتكاب المعاصي[٣].

- وفيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿حَفَظَةً﴾؛ للاعتناءِ بالمقَدَّمِ، والتشويقِ إلى المؤَخَّرِ[٤].

- ولفظَةُ (على) في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مُشعِرَةٌ بالعُلُوِّ والاستعلاء؛ لتَمَكُّنِ الحَفَظةِ منَّا جُعِلوا كأنَّ ذلك علينا، ويَحتملُ أن يكون متعلِّقًا بـ﴿حَفَظَةً﴾ أي: ويُرسِلُ حفَظَةً عليكم، أي: يَحفظون عليكم أعمالَكم، كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠]، كما تقول: حَفِظْتُ عليك ما تَعْمَل[٥].

٤- قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ في قوله: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ للاختصاصِ، أي: له لا لغَيرِه، فإنْ كان المرادُ مِن الحُكْمِ جِنْسَ الحُكْم فقَصْرُه على الله؛ إمَّا حقيقيٌّ للمبالَغَةِ؛ لعدمِ الاعتدادِ بحُكْم غيرِه، وإمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٨)، وينظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٨).

إضافيٌّ للرَّدِّ على المشركين، أي: ليس لأصنامِكم حُكْمٌ معه. وإنْ كان المرادُ مِن الحُكْم الحِسابَ، أي: الحُكم المعهود يومَ القيامةِ، فالقصْرُ حقيقيٌّ، وربَّما تَرجَّحَ هذا الاحتمالُ بقوله عَقِبَه: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾، أي: ألَا له الحِسَاب، وهو أسرعُ من يحاسِبُ، فلا يتأخَّر جزاؤُه[1].

- قوله: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ تذييلٌ؛ ولذلك ابتُدِئَ بأداةِ الاستفتاحِ المؤْذِنَةِ بالتَّنبيه إلى أهميَّةِ الخَبَر[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٧٩).

الآيات (٦٢- ٦٧)

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿تَضَرُّعًا﴾: أي: تذلُّلًا، وأصل (ضرع): يدلُّ على لِينٍ في الشَّيء[١].

﴿كَرْبٍ﴾: أي: غَمٍّ شديدٍ، وأصل (كرب): يدلُّ على شِدَّةٍ وقوَّةٍ[٢].

﴿يَلْبِسَكُمْ﴾: أي: يَخلِطَ أمرَكم، وأصل (لبس): يدلُّ على مخالَطَةٍ ومُداخَلَة[٣].

﴿شِيَعًا﴾: أي: فِرَقًا مُختلفينَ، أو أحزابًا متفرِّقينَ، وأصل (شيع): يدلُّ على مُعاضدَةٍ ومُساعَفةٍ، وعلى بَثٍّ وَإِشادَةٍ[٤].

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾: أي: يُسَلِّطَ بعضَكم على بعضٍ بالقِتالِ والحرْبِ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١).

فتتقاتلوا. وأصلُ (ذوق): اختبارُ الشَّيءِ من جهة تطعُّمٍ[١]، وأصلُ (بأس): الشِّدَّةُ وما ضاهاها[٢].

﴿يَفْقَهُونَ﴾: أي: يَفْهَمون؛ يُقال: فَقِهْتُ الكلامَ: إذا فَهِمْتَه حقَّ فَهْمِه، والفِقْه: هو التوصُّلُ إلى عِلْم غائبٍ بعِلْم شاهدٍ، وأصل (فقه): يدلُّ على إدراكِ الشَّيءِ، والعِلْم به[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَسألَ المشركين عمَّن يُنَجِّيهم من ظُلُماتِ البَرِّ والبَحر، وهم يَدْعُونَه مُظْهرينَ التذلُّلَ والخُضُوع، ويَدْعون سرًّا، يقولون: لَئِنْ أَنجَيْتَنا مِمَّا نحن فيه يا ربُّ لنكونَنَّ لك من الشَّاكرينَ، المُعترفينَ بنِعَمِك، المُخْلصينَ لك في العبادَةِ.

ثمَّ بيَّن أنَّهم بعدَ النَّجاةِ يُشركونَ بربِّهم سِواه، فقال تعالى: قلْ لهم- يا محمَّدُ-: هو اللهُ الذي يُنَجِّيكم من هذه الضَّائقَةِ، ومن كُلِّ كَرْبٍ يمرُّ بكم، ثم أنتم تُشرِكونَ به غيرَه في حال الرَّخاءِ.

وأمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقول لهم أيضًا: إنَّ الله هو القادِرُ على أنْ يبعثَ عليهم عذابًا يأتيهم مِن فوقِ رُؤُوسِهم كالرَّجْم، أو مِن تحت أرجُلِهم كالخَسْف، أو يَخْلِطَهم فِرَقًا مختلفةً، وأحزابًا مُتفرِّقةً، ويُسَلِّطَ بعضَهم على بعضٍ،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠، ١٥٤))، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص:٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

فيَقتُل بعضُهم بعضًا، ثم أمَرَ الله تعالى نبيَّه أن ينظرَ كيف ينوِّعُ لهم الحُجَجَ، ويُظْهِرُ لهم الحقَّ؛ لعلَّهم يَفهمونَه، ويتركونَ ما هم فيه من الشِّرْكِ بالله تعالى.

ثم أخبَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ قومَه، وهم قريشٌ، كذَّبوا بالقرآنِ، وهو الحقُّ، وأمَرَه أنْ يقولَ لهم: إنَّه ليس عليهم بحَفيظٍ ولا رقيبٍ، إنَّما عليه البلاغُ.

ثمَّ هدَّدهم سبحانه وتوعَّدهم قائلًا: لكلِّ خَبَرٍ يُخبِرُ به الله تعالى وقْتٌ يقعُ فيه، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، وسوف يعلَمُ المُشْركون ما يُوعَدونَ به من العذابِ، حين يَحُلُّ بهم في وقته الذي أرادَه الله تعالى.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا تقدَّمَ ذِكْرُ الدَّلائلِ على أُلوهيَّتِه تعالى من العِلم التامِّ، والقُدرةِ الكامِلَةِ؛ ذَكَرَ نوعًا من أثرهما، وهو الإنجاءُ من الشدائدِ[1]، فقال:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّدُ- للمشركينَ مُلْزِمًا لهم بما أثبتوه من توحيدِ الربوبيَّة، على ما أنكروا من توحيدِ الألوهيَّة: مَنِ الذي يُنجِّيكم في مَفاوزِ البَرِّيَّةِ البَعيدةِ الأطرافِ، إذا ضَلَلْتم فيها فتحيَّرتُم، وفي اللُّجَجِ البَحريَّة، إذا الرِّيحُ العاصِفةُ هاجتْكم، أو أخطأْتُم فيها طريقَكم، فتعَذَّر عليكم الخروجُ من تلك الشَّدائدِ[2]؟

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

﴿تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗۚ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أي: تَدْعونَه مُظهرينَ التذلُّلَ والفَقْرَ والخُضوعَ، وتَدْعونه سِرًّا، قائلين وأنتُم في تلك الحال: لئنْ أخرجْتَنا يا ربُّ، مِن هذه الضائقةِ والشِّدةِ التي وقَعْنا فيها، لنكُونَنَّ ممن يعترف بنِعْمَتِك، ويوحِّدُك بالشُّكر، ويخلصُ لك العبادةَ[1].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٦٤﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المشركينَ: اللهُ هو القادِرُ على تَفريجِ الكَرْبِ إذا حَلَّ بكم، فيُنَجِّيكم من عَظيمِ ما حلَّ بكم في البَرِّ والبَحرِ؛ مِن هَمِّ الضَّلالِ، وخَوْفِ الهلاك، ومن كُلِّ كَرْبٍ آخَرَ، لا آلِهَتُكم التي تُشْرِكون بها في عِبادتِه، وتعبدونَها من دونه؛ فهي لا تَقدِرُ لكم على نَفْعٍ ولا ضُرٍّ[2].

﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾.

أي: ثم أنتُم بعدَ تفضُّلِه عليكم بكَشْفِ كَرْبِكم، تُشْرِكون به في حالِ الرَّخاءِ، فلا تَفُونَ لله تعالى بما قُلْتُم، وتنسَونَ نِعَمَه عليكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٥-٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، (تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾[1].

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كانوا بإشراكِهم كأنَّهم يَظنُّون أنَّ الشِّدةَ زالتْ عنهم زوالًا لا يعودُ، وكان اللَّائقُ بهم دوامَ التذلُّلِ؛ إمَّا وفاءً وإما خوفًا- أخبرَهم ترهيبًا لهم من سَطْوَتِه، وتحذيرًا مِن بالِغِ قُدرَتِه، أنَّ شِدَّتَهم تلك التي أذلَّتْهم لم تَزَلْ في الحقيقةِ؛ فإنَّ قدرةَ المَلِك عليها حالةَ الرَّخاءِ كقُدرَتِه عليها في وقْتِها سواءً؛ فإنَّه خالِقُ الحالتَينِ وأسبابِهما وما فيهما، فقال[2]:

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشركينَ: إنَّ الذي ينجِّيكم من ظُلُماتِ البَرِّ

---

(١) قال ابن جرير: (والصَّوابُ من القول عندي: أنْ يُقال: إنَّ الله تعالى توعَّد بهذه الآيةِ أهلَ الشِّرك به من عبَدَةِ الأوثان، وإيَّاهم خاطب بها؛ لأنَّها بين إخبارٍ عنهم، وخطابٍ لهم... وأمَّا الذين تأوَّلوا أنه عُنِي بجميع ما في هذه الآية هذه الأمَّة، فإني أراهم تأوَّلوا أنَّ في هذه الأمَّةِ مَن سيأتي مِن معاصي الله، وركوبِ ما يُسخط اللهَ، نحوَ الذي ركِب مَن قَبلهم مِن الأممِ السَّالفة مِن خِلافِه، والكفرِ به، فيَحُلُّ بهم مثلُ الذي حَلَّ بمَن قبلهم من المَثُلاتِ والنِّقمات) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٠٨).

وممَّن قال من السَّلف أنَّ المقصود بالخطاب هم أمَّة محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام: ابنُ عبَّاس، وأبيُّ بنُ كعب، وقتادةُ، وأبو العاليةِ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٠١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٤٣).

والبحر، ومِن كُلِّ كَرْبٍ، ثم تعودونَ للإشراكِ به؛ قادرٌ على إرسالِ العذابِ إليكم بالرَّجْم أو الطُّوفانِ، وغير ذلك مما ينزِلُ عليكم من فوقِ رُؤوسِكم، أو بالخَسْفِ وما أشبَهَه، مِمَّا يأتيكم من تحتِكم[١].

كما قال تعالى: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۞ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۞ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ۞ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ [الإسراء: ٦٦- ٦٩].

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾.

أي: أو يَخلِطَكم فِرَقًا مختلفةً، وأحزابًا مفترِقَةً[٢].

عن جابرِ بن عبدِ الله رضِيَ الله عنهما، قال: ((لَمَّا نزَلَ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾. قال: أعوذُ بوجهِك، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾، قال: أعوذُ بوجْهِك، فلما نزَلَتْ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾، قال: هاتانِ أهوَنُ، أو: أيسَرُ))[٣].

وعن ثَوبانَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ زَوَى[٤] ليَ الأرضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أمَّتي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها، وأُعْطِيتُ الكَنْزينِ: الأَحمرَ والأبيضَ، وإنِّي سألتُ ربِّي لِأمَّتي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٦، ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٩، ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٨، ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٣) رواه البخاري (٧٣١٣).

(٤) زَوَى: جمَعَ وطَوى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٢٠).

ألاَّ يُهْلِكَها بسَنَةٍ[١] عامَّةٍ، وألاَّ يُسَلِّطَ عليهم عدُوًّا مِن سِوى أنفُسِهم، فيستبيحَ بَيضَتَهم[٢]، وإنَّ ربِّي قال: يا محمَّدُ، إنِّي إذا قضيتُ قضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ، وإنِّي أعطيتُك لأُمَّتِك ألَّا أُهْلِكَهم بسَنَةٍ عامَّةٍ، وألَّا أُسَلِّطَ عليهم عدُوًّا مِن سِوى أنفُسِهم، يَستبيحُ بيضَتَهم، ولو اجتمَعَ عليهم مَنْ بأقطارِها- أو قال مَنْ بينَ أقطارِها- حتى يكونَ بعضُهم يُهْلِكُ بعضًا، ويَسْبي بعضُهم بعضًا))[٣].

وعن جابِرِ بن عَتيكٍ؛ أنه قال: ((جاءَنا عبدُ اللهِ بنُ عمَرَ في بني معاوِيَةَ- قريةٍ من قُرى الأنصارِ- فقال لي: هل تَدري أين صلَّى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مَسْجِدِكم هذا؟ فقلْتُ: نعم. فأشرْتُ إلى ناحيةٍ منه، فقال: هل تَدْري ما الثَّلاثُ التي دَعا بهنَّ فيه؟ فقلتُ: نعمْ. فقال: وأخْبِرْني بهنَّ، فقلتُ: دعا ألَّا يُظْهِرَ عليهم عدوًّا مِن غَيرِهم، ولا يُهْلِكَهم بالسِّنينَ، فأُعْطِيَهُما، ودعا بألَّا يَجعَلَ بأسَهم بينهم، فمُنِعَها. قال: صَدَقْتَ، فلا يزالُ الهَرْجُ[٤] إلى يومِ القيامةِ))[٥].

---

(١) بَسنةٍ: أي: قحْطٍ وجَدْبٍ؛ يُقَالُ: أَسْنَتَ فهوَ مُسْنِتٌ: إذا أجْدَب. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٠٧)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ٦٩).

(٢) فيستبيحَ بَيضَتَهم: أي: يستأصل ويُهلك. بيضتَهم، أي: جماعتَهم وأصلَهم ومُجتمعَهم وموضعَ سُلطانهم، ومُستقرَّ دَعوتِهم، والبيضةُ أيضًا العزُّ والمُلك، وبيضةُ الدار: وسطُها ومعظمها. قيل أراد: إذا أُهلِك أصلُ البيضةِ كان هلاكُ كلِّ ما فيها من طعم أو فرخ، وإذا لم يُهلَك أصلُ البيضة ربَّما سَلِم بعضُ فراخها. وقيل: أراد بالبيضة الخوذة، فكأنَّه شبَّه مكانَ اجتماعهم والتئامهم ببَيضةِ الحديد. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٧٢)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣).

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٤) الهَرْج: أي: القَتْلُ، والهرج أيضًا الفِتْنَةُ والاختلاط؛ يُقال: هرَج الناسُ يَهرِجون هَرْجًا، إذا اختَلطوا. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣٥٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٥٧)، ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٧).

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٨٠٠)، وابن أبي عاصم في ((الآحاد والمثاني)) (٢١٤٠)، والداني في ((السنن الواردة في الفتن)) (٥).

جوَّد إسناده وقوَّاه ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٣/ ٢٦٦)، ووثق رجاله الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٢٢٤).

﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾.

أي: ويُسلِّطَ بعضَكم على بعضٍ، فيَقتُلَ بعضُكم بعضًا في الفِتنةِ[١].

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾.

أي: انظرْ- يا محمَّدُ- إلى تنويعِ حُجَجِنا على هؤلاء المشركينَ، وإيضاحِنا للحَقِّ؛ ليفهموا ذلك ويتدبَّروه، ويزدَجِروا عمَّا هم عليه من الشِّرْك بالله تعالى[٢].

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لَمَّا كان الإنسانُ ربَّما حصَلَ له اللَّومُ بسبب قومِه؛ كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذا المقامِ بِمَعْرِضِ أن يَخافَ عاقبةَ ذلك، ويقول: فماذا أصنَعُ بهم؟ فقال تعالى- مُعلِمًا أنَّه ليس عليه بأسٌ مِن تكذيبِهم[٣]:

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: وكذَّبتْ قريشٌ- يا محمَّدُ- بالقرآنِ الذي جِئْتَهم به، وهو الحقُّ الذي لا مِرْيَةَ فيه، ولا شَكَّ يعتريه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

واختار عوْدَ الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ إلى القرآن: الواحديُّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٨٥)، وابنُ عطية في ((تفسيره)) (٢/ ٣٠٣)، والقرطبيُّ في ((تفسيره القرطبي)) (٧/ ١١)، وابنُ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٢٧٧)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٦٠) ، وابنُ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٧/ ٢٨٦).

﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

أي: قل لهم- يا محمَّدُ-: لستُ عليكم بحَفيظٍ ولا رقيبٍ، ولستُ مُوَكَّلًا بكم، وإنَّما عليَّ البلاغُ، فأبلِّغُكم ما أُرْسِلْتُ به إليكم[١].

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

أي: لكلِّ خَبَرٍ وقتٌ يستقرُّ فيه، وزمانٌ لا يتقدَّمُ عنه ولا يتأخَّرُ، وغايةٌ يَتبيَّنُ عندها حَقُّه من باطِلِه، وصِدْقُه مِن كَذِبِه[٢].

﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: وسوف تعلمونَ- أيُّها المُشركونَ المُكذِّبونَ- ما تُوعَدُون به مِن العذابِ[٣].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ الدَّلالةُ على كَمالِ القُدرة الإلهيَّةِ، وكمالِ الرَّحْمة والفضْل والإحسانِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ يدلُّ على أنَّهم لم يَكونوا قَبْلَ الوُقوعِ

وذهَب ابنُ عاشور إلى أنَّ الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يحتملُ عودُه إلى الوعيدِ والعذابِ الذي تقدَّم ذِكرُه في الآية السابقة، وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٩/ ٣١٠-٣١١)، ويرَى أنَّ معنى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: العذاب الذي لا شكَّ فيه أنَّه واقعٌ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٩٩).

في هذه الشَّدائِدِ شَاكرينَ لِأَنْعُمِه[١].

٣- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ وَضَعَ ﴿تُشْرِكُونَ﴾ مَوْضِعَ (لا تَعبُدون)؛ تَنبيهًا على أنَّ مَن أَشْرَكَ في عِبادَةِ الله تعالى؛ فكأنَّه لم يَعْبُدْه[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ...﴾ المقصودُ التَّهديدُ بتَذكيرِهم بأنَّ القادِرَ مِن شأنِه أن يُخافَ بَأْسُه[٣].

٥- قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ لَمَّا كان لفظُ العذاب في قوله: ﴿عَذَابًا﴾ نكرةً؛ جازَ حَمْلُه على كلِّ عذابٍ يأتي من فوقِ الرؤوسِ ومن تحت الأرجُلِ، ولولا أنَّ هذا الإبهامَ مرادٌ لأجْلِ هذا الشُّمولِ، لصَرَّحَ بالمرادِ، كمَّا صَرَّح به في مِثْلِ قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦- ١٧]، وحِكمةُ مِثل هذا الإبهامِ في القُرآنِ أنْ ينطَبِقَ معنى اللَّفْظِ على ما يدلُّ عليه ممَّا يحدُث في المستقبَل، أو ينكشِفُ للنَّاسِ فيه ما كان خفيًّا عنهم؛ إذ ورد في وَصْفِ القرآنِ أنَّه لا تَنتهي عجائِبُه، وأنَّ فيه نبأَ مَن قَبْلَ الذين نَزَلَ في زمانهم، ومَنْ كان معهم، ومَن يَجيءُ بَعْدَهم، وما في هذه الآيةِ يشمَلُ ما لم يكُنْ في زمَنِ تنزيلِ القرآنِ ولا فيما قبْلَه بحسَبِ ما يَعلم البَشَرُ؛ فقد أرسل اللهُ على الأمَمِ في الحروبِ المعاصِرَة عذابًا مِن فَوْقِها بما تقذِفُه الطَّيَّاراتُ من المقذوفاتِ النارِيَّة، والسُّمومِ البُخاريَّة والغازِيَّة التي لم تُعْرَف من قبلُ، وعذابًا من تحتَها بما يتفجَّرُ من الألغامِ النارِيَّة، وبما تُرسِلُه المراكبُ الغوَّاصةُ في البحر التي اختُرِعَت في هذا العصرِ، ولَبَسَها شِيَعًا متعادِيَةً، وأذاقَ بعضَها بأسَ بعضٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٣).

فحَلَّ بها مِنَ التقتيلِ والتَّخريبِ ما لم يُعهَدْ له نظيرٌ في الأرض[١].

٦- قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ عَطَفَ عليه ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾؛ لأنَّ مِن عواقِبِ ذلك اللَّبْسِ التقاتُلَ[٢].

٧- في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ عظيمُ التَّوبيخِ لهم، ودقيقُ التقريعِ، وذلك لأنَّهم كان يَنبغي عليهم أن يُسَرُّوا بسِيادَةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لكونِه منهم؛ لأنَّ القبيلةَ إذا ساد أحدُهم عَزَّتْ به؛ فإنَّ عِزَّه عِزُّها، وشَرَفَه شَرَفُها، ولا سيَّما إذا كان مِن بَيْتِ الشَّرَفِ، ومَعْدِنِ السِّيادة، وإذا سَفُلَ أحدُها اهتمَّتْ به غايةَ الاهتمامِ، وسَتَرَتْ عيوبَها مهما أمكَنَها؛ فإنَّ عارَه لاحِقٌ لها[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ الاستفهامُ المُسْتَعْمَل في قوله: ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾ يراد به التقريرُ والإنكارُ والتَّوبيخُ، والتوقيفُ على سُوءِ مُعتقَدِهم عند عِبادةِ الأصنامِ، وترْكِ الذي يُنجِّي من الشَّدائدِ، ويُلجأُ إليه في كشْفِها؛ لكَوْنِ ذلك لا يُنازِعونَ فيه بحَسَب عَقائِد الشِّرْك[٤].

- وإعادة الأَمْرِ بالقَوْلِ ﴿قُلْ﴾؛ للاهتمامِ[٥].

- وخَصَّ لَفْظَ ﴿الظُّلُمَات﴾ بالذِّكرِ؛ لِمَا تَقرَّرَ في النُّفوسِ مِن هَولِ الظُّلمةِ[٦].

٢- **قَوْلُه:** ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ قَدَّمَ المُسْنَد إليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٠٢).

﴿ٱللَّهُ﴾ على الخَبَرِ الفِعليِّ ﴿يُنَجِّيكُم﴾؛ لإفادَةِ الاختصاصِ، أي: اللهُ ينَجِّيكم لا غَيْرُه؛ ولأجل ذلك صَرَّحَ بالفِعْل المستفْهَمِ عنه ﴿يُنَجِّيكُم﴾[١].

- وفيه إطنابٌ؛ حيث زاد قولَه: ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾؛ لإفادةِ التَّعميمِ[٢].

- قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ فيه تقديمُ المُسنَد إليه ﴿أَنتُمْ﴾ على الخَبرِ الفِعليِّ ﴿تُشْرِكُونَ﴾؛ لمجرَّدِ الاهتمامِ بخَبرِ إسنادِ الشِّرْك إليهم، أي: أنتم، الذين تتضَرَّعونَ إلى الله باعترافِكم، تُشْركونَ به من قَبْلُ ومِن بَعْدُ[٣].

- وجاء بالفِعل ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بصيغةِ المُضارِعِ؛ لإفادَةِ تجدُّد شِرْكِهم، وأنَّ ذلك التجدُّدَ والدَّوامَ عليه أعْجَبُ[٤].

٣- قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾

- قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، عَقَّبَ به ذِكْرَ النِّعمَة التي في قوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم﴾ بذِكْرِ القُدرةِ على الانتقامِ؛ تخويفًا للمُشركينَ[٥]، ولبيانِ أنَّه القادِرُ على إلقائِهم في المهالِكِ إثْرَ بيانِ أنَّه هو المنَجِّي لهم منها، وفيه وعيدٌ ضمنيٌّ بالعذابِ؛ لإشراكِهم المذكورِ[٦].

- وتعريفُ المسنَد والمُسنَد إليه في قوله: ﴿هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ أفاد القَصْرَ؛ فأفاد

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٦).

اختصاصَه تعالى بالقُدرة على بَعْثِ العذابِ عليهم، وأنَّ غيرَه لا يَقْدِر على ذلك؛ فلا يَنبغي لهم أن يَخْشَوُا الأصنامَ، ولو أرادوا الخيرَ لأنفُسِهم، لخافوا اللهَ تعالى، وأفرَدُوه بالعِبادةِ لِمَرْضاتِه، فالقَصْرُ المستفادُ إضافيٌّ[١].

- وقيل: لم يَصُغْ قولَه: ﴿ٱلْقَادِرُ﴾ صِيغةَ مبالغةٍ في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾؛ لأنَّهم لم يكونوا يُنْكِرونَ قُدرَتَه، إنما كانوا يَدَّعونَ المشارَكَةَ التي نفاها بالتَّخصيصِ، على أنَّ التعريفَ يُفيدُ به المبالغة[٢].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿عَذَابًا﴾؛ للاعتناءِ به، والمسارَعَةِ إلى بيانِ كَوْنِ المبعوثِ مِمَّا يضرُّهم، ولتهويلِ أمْرِ المؤخَّر[٣].

- قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم﴾ على قراءةِ (وَنُذِيقَ) بنونِ العَظَمَةِ، يكون فيه التفاتٌ؛ لتهويلِ الأمْرِ، والمبالغةِ في التحذيرِ، ونِسبةُ ذلك إلى اللهِ على سبيلِ العَظَمَةِ والقُدْرَةِ القاهِرةِ[٤].

- قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾: في الأمْر بالنظر ﴿ٱنظُرْ﴾ تنزيلٌ للمعقولِ منزِلَةَ المحسوسِ؛ لِقَصْدِ التعجُّبِ منه[٥].

- قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ جوابٌ لسؤالِ سائلٍ عن فائِدَةِ تصريفِ الآياتِ، وذلك رجاءَ حُصُولِ فَهْمِهم؛ لأنَّهم لعنادِهم كانوا في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٥).

حاجَةٍ إلى إحاطةِ البيانِ بأفهامِهم؛ لعلَّها تتذكَّر وتَرْعَوي[١].

- وفيه تَكرارٌ لِمَا سبَقَ نظيرُه في هذه السُّورة مع الاختلافِ في ختامِ كلِّ آيةٍ، وهي قولُه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾، وهنا قال: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾، وإنَّما كرَّره طلبًا للرغبةِ في إيمانِ المذكورينَ؛ إذِ التَّقديرُ: انظُرْ كيفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ (ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ)، أي: يُعْرِضون عنها، فلا تُعْرِضْ عنهم، بل كرِّرْها لهم؛ (لعلَّهم يَفْقَهون)، أي: يَفهمون؛ وإنَّما ختَم الأُولى بقوله: ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾، والثانيةَ بقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾؛ لأنَّ الإعراضَ عن الشَّيءِ أقبحُ من عدم فَهْمِه، فوُصِفوا بالأوَّلِ في الآيةِ الأولى؛ تَبَعًا لِما وُصِفوا به قبْلَها من قسوةِ قلوبِهم، ونسيانِهم ما ذُكِّروا به وغيرِهما، وذلك مفقودٌ في الثانيةِ[٢].

٤- **قوله**: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾

- التَّعبيرُ عنهم بـ ﴿قَوۡمِكَ﴾ للتَّسجيلِ عليهم بسوءِ مُعامَلَتِهم لِمَن هو من أنْفُسِهم[٣]، والمراد: بَعْضُهم؛ فإنَّ منهم أفاضِلَ المُسلمينَ والصِّديقَ وعليًّا رَضِيَ اللهُ عنهما[٤].

- والتعديةُ بـ (على) في قوله: ﴿عَلَيۡكُم﴾؛ لتضمُّنه معنى الغَلَبَة والسُّلْطة، أي: لسْتُ بقَيِّمٍ عليكم، يمنعُكم من التكذيبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٠٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٦٧-١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٢/ ٢٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٧).

٥- **قوله**: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسۡتَقَرٌّ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ يُثيرُ سؤالَهم أن يقولوا: فمتى يَنْزِل العذابُ؟ فأُجيبوا بقولِه: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسۡتَقَرٌّ﴾[1].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٨ - ٧٠)

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿يَخُوضُوا۟﴾: أي: يَكذِبون ويَسْتَهزؤونَ، وأصلُ الخوضِ: هو الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، ومِنه الشُّروعُ في الأمورِ؛ يُقال: تخاوَضُوا في الحَديثِ والأمرِ، أي: تَفاوَضُوا وتداخَلَ كلامُهم، وأكثرُ ما ورَدَ الخوضُ في القرآنِ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، وأصل (خوض): توسُّطُ شيءٍ، ودخولٌ[(١)].

﴿وَذَرِ﴾: أي: اترُكْ؛ يقال: فلان يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يقذِفُه؛ لقلَّةِ اعتدادِه به[(٢)].

﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾: أي: أصابتْ غِرَّتَهم، ونالتْ منهم ما تريدُه، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، والغِرار: غفلةٌ مع غفوةٍ، والغُرورُ: كُلُّ ما يغرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطانٍ، وأصلُ ذلك من الغُرِّ، وهو الأثرُ الظَّاهِرِ من الشَّيء[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٣، ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣- ٦٠٤).

﴿تُبۡسَلَ﴾: أي: تُرتَهنَ، وتُسْلَمَ للهَلَكَة، والبَسْل: ضمُّ الشَّيءِ ومَنْعُه، وأصل (بسل): منَعَ وحَبَس[١].

﴿حَمِيمٖ﴾: الحميمُ: الماءُ الشَّديدُ الحرارةِ، وأصل (حمم): يدلُّ على الحرَارةِ، وعلى معانٍ أخرى متفاوِتَةٍ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١ - **قَوْلُه تعالى:** ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾

﴿وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ﴾: (الواو) عاطِفَةٌ للجُمَلِ لا المُفرداتِ. و﴿لَكِنْ﴾ حَرْفُ استدراكٍ لا عَمَلَ له. و﴿ذِكۡرَىٰ﴾ يَجوزُ فيها النَّصْبُ والرَّفعُ، وعلامةُ الإعراب مُقدَّرةٌ عل آخِرِها للتعذُّرِ؛ أمَّا النَّصْبُ فعَلى المصْدَرِ بفِعْلٍ مَحذوفٍ؛ والتقديرُ: (ولَكِنْ ذَكِّرُوهم ذِكْرى)، أو (ولكنْ يُذَكِّرونَهم ذِكْرى). وأمَّا الرَّفْعُ فعَلَى أنَّها مُبتدأٌ، والخبرُ محذوفٌ؛ تقديرُه: ولَكِنْ عليهم ذِكْرى. أو على أنَّه خَبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ؛ والتَّقديرُ: هو ذِكْرى؛ أي: الواجِبُ ذِكْرى، أو التقدير: هذا ذِكْرَى؛ أي النَّهْيُ عَنْ مُجالَسَتِهم ذِكْرَى، وعلى كُلٍّ فالجُملةُ معطوفةٌ بالواوِ على جُملةِ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:١٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص:٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤، ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٠٦) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٧٦).

٢- **قوله تعالى**: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾

﴿أَن تُبْسَلَ﴾: مَصدرٌ مُؤَوَّلٌ في مَحلِّ نَصبٍ، مَفعولٌ مِن أَجْلِه؛ والتقديرُ: مَخافةَ أنْ تُبسَل أو كَراهَةَ أنْ تُبْسَلَ، أو لِئَلَّا تُبْسَلَ. ويجوز أنْ يكونَ في محَلِّ جَرٍّ على البَدَلِ من الهاءِ في ﴿بِهِۦٓ﴾ والتقدير: وذَكِّرْ بارْتِهانِ النُّفُوسِ، وحَبْسِها بِما كَسَبَتْ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُعْرِضَ عنِ الذينَ يَتكلَّمونَ في آياتِ الله بالتَّكذيبِ والاستهزاءِ والباطِلِ، وأن ينصرفَ عن مجالِسِهم حتى يَشْرَعوا في كلامٍ آخَرَ غيرِه، فإنْ أَنساه الشيطانُ النَّهْيَ عن ذلك، فجَلَس معهم ثمَّ تذكَّرَ فلْيَقُمْ عنهم، ولا يَجْلِسْ بعد الذِّكرى مع القَوْمِ الظَّالِمين.

ثم بيَّن تعالى أنَّه ليس على المُتَّقينَ- الذين اجتَنبوا الجُلُوسَ مع أولئك الخائِضينَ في آياتِ الله بالباطِلِ- شيءٌ مِن حسابِهم على ما ارْتَكبوا، ولكنْ عليهم تذكيرُ الكافرينَ بالموعظةِ والبيانِ؛ لعلَّهم يتَّقونَ.

ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَدَعَ الذين جَعلوا حَظَّهم مِن الدِّينَ اللَّعِبَ واللَّهْو؛ مُستهزئينَ بآياتِ اللهِ، ويُعْرِضَ عنهم، وأَمَرَه أن يذَكِّرَ النَّاسَ بالقرآنِ؛ ليؤمِنوا ويتَّبِعوا الحَقَّ، حتى لا تُحْبَسَ نفسٌ بذُنُوبها وكُفْرِها عمَّا يُنَجِّيها في الدُّنيا والآخرة، وتُسْلَمَ للعذابِ والهلاكِ، ليس لها حينئذٍ أحَدٌ يُنْقِذُها من عذاب الله، ولا شَفيعٌ يَطْلُبُ لها العفْوَ من الله جلَّ وعلا، وحتى إنْ بَذَلَت تلك النَّفْسُ كُلَّ فِداءٍ لِتفتدِيَ به، لا يُقْبَل منها، وهؤلاءِ هم الذين أُسْلِمُوا لعذابِ الله،

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٧٩-٦٨٠).

وحُبِسُوا به؛ بسبَبِ ما ارتكبوه من المعاصي والآثامِ في الدُّنيا، أولئك لهم شرابٌ شديدُ الحرارةِ، وعذابٌ مُوجِعٌ؛ جزاءَ كُفْرِهم في الدُّنيا.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ تعالى في قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أنَّ الذين يُكَذِّبون بهذا الدِّينِ لا يَجِبُ على الرَّسولِ أنْ يُلازِمَهم، وأنْ يكونَ حفيظًا عليهم- بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ أولئك المُكَذِّبينَ إنْ ضَمُّوا إلى كُفْرِهم وتَكذيبِهم الاستهزاءَ بالدِّينِ، والطَّعْنَ في الرَّسولِ؛ فإنَّه يجبُ الاحترازُ عن مُقارَنَتِهم، وتَرْكُ مُجالَسَتِهم[1].

وأيضًا لَمَّا أَمَرَ الله نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بما يقولُ جوابًا لتكذيبِهم في الآيةِ السَّابقةِ، تَقدَّمَ إليه فيما يفعَلُ وَقتَ خَوضِهم في التكذيبِ[2]؛ فقال:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾.

أي: وإذا رأيتَ- يا محمَّدُ- المشركينَ الذين يَخُوضونَ في آياتِنا، التي أنْزَلْناها إليك، بالتَّكذيبِ والاستهزاءِ، وغيرِ ذلك مِمَّا يُخالِفُ الحَقَّ، فقُمْ عنهم، ولا تَجْلِسْ معهم حتَّى يأخذوا في كلامٍ آخَرَ، غيرِ ما كانوا فيه مِن التَّكذيبِ والاستهزاءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٤٦)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: وإنْ أنساكَ الشيطانُ- يا محمدُ- نَهْيَنا عن الجُلوسِ مع أولئك الخائضينَ، والإعراضَ عنهم، ثم تذكَّرْتَ ذلك؛ فقُمْ عنهم، ولا تَقْعُدْ مع القَومِ الَّذين خاضُوا فيما لا يحلُّ لهم الخَوْضُ فيه[1].

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: إذا تجنَّبَهم المُتَّقون؛ فلم يَجْلِسوا معهم في ذلك، وأَعْرَضوا عنهم- كما أُمِرُوا- فقد تخلَّصوا من إثْمِ خَوْضِ الكُفَّار فيما يَخوضُون فيه مِن الباطِلِ، ولا يُحاسَبون على شيءٍ من ذلك، ولكنْ عليهم الذِّكرى للكافرينَ بالموعظةِ والبَيانِ؛ لِيَتَّقُوا اللهَ عزَّ وجلَّ؛ فيترُكوا الخَوْضَ في آياتِه سبحانه، ولا يَعُودُوا إلى ذلك[2].

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٣٠).

وقيل في تفسيرِ هذه الآيةِ أقوالٌ أخرى: يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٦-٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٣).

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾.

أي: ودَعْ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الذين جَعَلوا نصيبَهم مِن دِينِ اللهِ تعالى اللَّعبَ بآياتِه، واللهوَ والاستهزاءَ بها إذا سَمِعوها، وقد اغترُّوا بزينةِ الحياةِ الدُّنيا، فنَسُوا المعادَ إلى الله تعالى، والمصيرَ إليه بعد المماتِ؛ فأعرِضْ عنهم، واتْرُكْهم[1].

﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ ﴾.

أي: وذكِّر النَّاسَ- يا محمَّدُ- بهذا القرآنِ، ومِنهم هؤلاء الذين يَخوضُون في آياتِنا وغيرُهم منَ الكُفَّار والمشركينَ؛ ليؤمنوا ويتَّبِعوا الحقَّ الذي جاءَهم مِن عِندِ الله تعالى؛ كيلا تُحْبَسَ نفسٌ بذُنوبها وكُفْرِها بِرَبِّها، عمَّا فيه نجاتُها في الدُّنيا والآخرة، وتُسْلَمَ للعذابِ والهلاكِ[2].

﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ ﴾.

أي: ليسَ لها حينَ تُسْلَمُ بذُنُوبِها، وتُرْتَهَن بآثامِها، أحدٌ يَنصُرُها، فيُنْقِذُها من عذابِ الله تعالى، ولا شفيعٌ يَطْلُب لها العَفْوَ مِن الله عزَّ وجلَّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٨-٣١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).
وفي معنى الآية أقوالٌ أخرى؛ قال ابنُ عطية: (وقوله: ﴿لَعِبٗا وَلَهۡوٗا﴾ يُريد: إذ يعتقدون أنْ لا بعثَ، فهُم يتصرَّفون بشهواتِهم تصرُّفَ اللَّاعِبِ اللَّاهي) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٠٥).
وقال ابنُ عاشور: (اتَّخذوه لعبًا ولهوًا، أي: جعَلوا الدِّين مجموعَ أمورٍ هي من اللَّعب واللهو، أي: العبث واللهو عند الأصنام في مواسمِها، والمُكاء والتَّصدية عند الكعبة، على أحدِ التفسيرين في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗ﴾ [الأنفال: ٣٥]... ويجوز أن يكونَ المرادُ من الدِّين العادةَ... أي: الذين دَأْبُهم اللعب واللهو، المُعرِضون عن الحقِّ، وذلك في معاملتِهم الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٠-٣٢٣)، ((تفسير آيات أَشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٧).

﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآ﴾.

أي: ولو بَذَلَتِ النَّفسُ التي أُبْسِلَت بما كسَبَت، كلَّ فِداءٍ لتفتَدِيَ به؛ لا يُقبَل منها[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾.

أي: وهؤلاءِ الذين إنْ فَدَوْا أنفُسَهم مِن عذابِ الله يومَ القيامةِ كُلَّ فداءٍ لم يُؤخَذْ منهم، هم الذين أُسْلِمُوا لعذابِ الله، فحُبسوا به؛ جزاءً بما كسبوا في الدُّنيا من الآثامِ والأوزارِ، لهم شرابٌ شديدُ الحرارةِ، يَشوي وجوهَهم، ويُقطِّعُ أمعاءَهم، ولا يَرويهم مِن عَطَشٍ، ولهم مع ذلك عذابٌ مُوجِعٌ؛ بسبَبِ كُفْرِهم في الدُّنيا بالله، وإنكارِهم توحيدَه، وعِبادَتِهم معه آلهةً دونَه[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في ذَمِّ الخوضِ بالباطِلِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ﴾ حَثٌّ على البَحْثِ والنَّظَرِ والمُناظرَةِ بالحَقِّ[3].

٢- سببُ النَّهيِ عن مُجالسةِ الخائضينَ في آياتِ اللهِ بالباطِلِ في قوله: ﴿وَإِذَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٥-٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ أنَّ الإقبالَ على الخائضينَ، والقعودَ معهم، أقلُّ ما فيه أنَّه إقرارٌ لهم على خَوْضِهم، وإغراءٌ بالتَّمادِي فيه، وأكبَرُه أنَّه رِضاءٌ به، ومُشاركةٌ فيه[١]. كما أن الإعراضِ عنهم فيه زَجْرُهم، وقَطْعُ الجدالِ معهم؛ لعلَّهم يَرْجِعون عن عِنادِهِم[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَشْمَلُ الخائضينَ بالباطِلِ، وكلَّ مُتكلِّمٍ بِمُحَرَّمٍ، أو فاعِلٍ لمُحَرَّمٍ؛ فإنَّه يَحْرُم الجُلُوسُ والحضورُ عند حُضُورِ المُنْكَر، الذي لا يَقْدِرُ على إزالَتِه[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّه إذا كان التَّذكيرُ والوعظُ مِمَّا يَزيدُ الموعوظَ شَرًّا إلى شَرِّه، كانَ تَرْكُهُ هو الواجِبَ؛ لأنَّه إذا ناقَضَ المقصودَ كان تَرْكُه مقصودًا[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّه يَنبغي أن يَسْتَعمِلَ المُذَكِّرُ مِن الكلامِ ما يكون أقرَبَ إلى حُصولِ مقصودِ التَّقوى[٥].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ...﴾ إلى قولِه: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ فيه بيانُ أنَّ وُجوهَ الخَلاصِ على تلك النَّفْسِ مُنسَدَّةٌ، فلا وَلِيَّ يتولَّى دَفْعَ ذلك المحذورِ، ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦١).

شفيعَ يَشفَعُ فيها، ولا فِدْيَةَ تُقبَل؛ ليَحْصُلَ الخلاص بسبَبِ قَبُولها؛ حتى لو جُعِلَتِ الدُّنيا بأسْرِها فِديةً من عذابِ الله لم تنفَعْ. فإذا كانت وجوهُ الخلاصِ هي هذه الثلاثةَ في الدُّنيا، وثبَتَ أنَّها لا تُفيدُ في الآخرَةِ البتَّةَ، وظهر أنَّه ليس هناك إلَّا الإبسالُ، الذي هو الارتهانُ والانغلاقُ والاستسلامُ؛ فليس لها البتَّةَ دافِعٌ من عذابِ الله تعالى، وإذا تصوَّرَ المرءُ كيفيَّةَ العقابِ على هذا الوجْهِ يكادُ يُرْعَدُ إذا أقدَمَ على معاصي اللهِ تعالى[١].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الخوضُ في قوله تعالى: ﴿يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ﴾ أكْثرُ ما وردَ في القُرآنِ وردَ فيما يُذمُّ الشُّروعُ فيه، وإنَّما عَبَّر عن انتقالِهم إلى حَديثٍ آخَرَ بالخَوضِ؛ لأنَّهم لا يَتحدَّثون إلَّا فيما لا جَدْوَى له مِن أحوالِ الشِّرْكِ، وأُمورِ الجاهليَّةِ[٢].

٢- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أنَّ الأَعراضَ البَشَريَّةَ الجائزَةَ على الأنبياءِ التي لا تُخِلُّ بتبليغٍ، قد يكونُ بعضُها مِن أثَرِ عَمَلِ الشَّيطانِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ يُفيدُ أنَّ التكليفَ ساقِطٌ عنِ النَّاسي[٤].

٤- قال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٠).

قال البقاعيُّ: (ولما كان الخوضُ في الآياتِ دالًّا على قلةِ العقلِ قال: ﴿يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ﴾ فحكَم على حديثِهم فيما سوَى ذلك أيضًا بالخوضِ؛ لأنَّ فيه الغثَّ والسَّمينَ؛ لأنَّه غيرُ مقيَّدٍ بنظامِ الشَّرع). ((نظم الدرر)) (٢/ ٦٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٣).

ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ...﴾ المرادُ من هذه الآيةِ وما في معناها: إبطالُ أصْلٍ من أصول الوثنيَّةِ، وهو تعليقُ النَّجاةِ في الآخرة- كنَيْل كثيرٍ من المقاصِدِ في الدنيا- بتقديمِ الفِديَةِ لله تعالى، أو بشفاعةِ الشَّافعينَ عنده، أي: بوساطةِ الوُسَطَاء- وتقريرُ أصلِ الدِّينِ الإلهيِّ، وهو أنَّ النَّجاةَ في الآخِرة، ورضوانَ اللهِ، والقُرْبَ منه، لا يُنالُ إلَّا بما شَرَعه اللهُ على ألْسِنَةِ رُسُلِه من الإيمانِ والإسلامِ؛ وبعِبارةٍ أخرى بالعمل الصَّالِحِ الذي تتزكَّى به الأنفُسُ مع الإيمانِ الإذْعانيِّ باللهِ وبِرُسُلِه وما جاؤُوا به، ومِن إبسالِهم كَسْبُهم للسيِّئاتِ والخطايا، واتِّخاذُهم الدِّينَ لَعِبًا ولهْوًا، وغرورُهم بالحياةِ الدُّنيا، فلا تنفَعُهم شفاعةٌ، ولا تُقبَلُ منهم فِديةٌ[1].

٥- في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ خُصَّ الشَّرابُ مِن الحَميمِ من بين بقيَّةِ أنواعِ العذابِ المذكورِ مِن بعدُ؛ للإشارَةِ إلى أنَّهم يَعطَشونَ فلا يَشْربونَ إلَّا ماءً يَزيدُهم حرارةً على حرارةِ العَطَشِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ فيه العُدولُ عن الإتيانِ بالضَّميرِ إلى الإتيانِ بالاسْمِ الظَّاهِرِ، وهو اسمُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، فلم يقُلْ: وإذا رأيتَهم فأعْرِضْ عنهم؛ للدَّلالةِ على أنَّ الذين يخوضونَ في الآياتِ فريقٌ خاصٌّ من القومِ الذين كذَّبوا بالقرآنِ أو بالعذابِ؛ فعمومُ القَوْمِ أنكَرُوا وكذَّبوا دون خوضٍ في آيات القرآنِ، فأولئك قِسْمٌ، والذين يَخوضونَ في الآياتِ قِسْمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٩).

كان أبذى وأقْذَعَ، وأشَدَّ كفرًا وأشنَعَ، وهم المتصَدُّونَ للطَّعنِ في القرآن، وهؤلاء أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالإعراضِ عن مجادَلَتِهم، وتَرْكِ مَجالِسِهم؛ حتى يَرْعَوُوا عن ذلك، ولو أُمِرَ الرَّسولُ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بالإعراضِ عن جميع المُكذِّبينَ، لتعطَّلَت الدَّعوة والتَّبليغُ[١].

- وجاءَ تعريفُ هؤلاء بالموصوليَّة ﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ دون أن يُقالَ (الخائضينَ) أو (قومًا خائضينَ)؛ لأنَّ الموصولَ فيه إيماءٌ إلى وجْهِ الأمرِ بالإعراضِ لأنَّه أمرٌ غريبٌ، إذ شأنُ الرَّسول- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أن يمارِسَ النَّاسَ لعَرْضِ دعوةِ الدِّينِ، فأمْرُ اللهِ إيَّاه بالإعراضِ عن فريقٍ منهم يحتاجُ إلى توجيهٍ واستئناسٍ. وذلك بالتعليلِ الذي أفاده الموصولُ وصِلَتُه، أي: فأعرِضْ عنهم؛ لأنَّهم يخوضون في آياتنا، وهذه الآيةُ أحسنُ ما يُمَثَّلُ به لمجيءِ الموصولِ للإيماءِ إلى إفادةِ تعليلِ ما بُنِيَ عليه من خَبَرٍ أو إنشاءٍ؛ ألَا ترى أنَّ الأمْرَ بالإعراضِ حُدِّدَ بغايةِ حصولِ ضِدِّ الصِّلَةِ ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ﴾[٢].

- قوله: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ في عَطْفِ حالةِ النِّسيانِ زِيادةٌ في تأكيدِ الأمْرِ بالإعراضِ[٣].

- قوله: ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: معهم؛ فوُضِعَ الظَّاهِرُ موضِعَ المُضْمَرِ؛ دلالةً على أنَّهم ظَلَمُوا بوضْعِ التكذيبِ والاستهزاءِ مَوضِعَ التَّصديقِ والاستعظامِ[٤]، والإظهارُ في مقام الإضمار أيضًا؛ لزيادةِ فائدةِ وَصْفِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٨٨- ٢٨٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٧).

بالظُّلم، فيُعْلَم أنَّ خَوْضَهم في آياتِ اللهِ ظُلْمٌ، فيُعْلَم أنَّه خَوضُ إنكارٍ للحَقِّ، ومكابرةٍ للمُشاهدَةِ[١].

٢- **قوله:** ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾

- قوله: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أمْرٌ متضَمِّنٌ للتَّهديدِ والوعيدِ لهم[٢].

- وذِكْرُ الحياةِ هنا في قولِه: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ له موقِعٌ عَظيمٌ، وهو أنَّ هَمَّهم من هذه الدُّنيا هو الحياةُ فيها، لا ما يُكْتَسَب فيها من الخيراتِ التي تكون بها سعادةُ الحياةِ في الآخرةِ، أي: غرَّتْهم الحياةُ الدُّنيا، فأوهَمَتْهم أنْ لا حياةَ بَعْدَها[٣].

- قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ مُستأنَفٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الكلامَ يُثيرُ سؤالَ سائلٍ يقولُ: فما حالُ الذينَ اتَّخَذوا دينَهم لعبًا ولَهْوًا من حالِ النفوسِ التي تُبْسَل بما كَسَبَتْ؟ فأجيبَ بأنَّ أولئك هم الذين أُبْسِلوا بما كَسَبوا[٤].

- والتعريفُ للجُزأَينِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ﴾ أفاد القَصْرَ، أي: أولئك هم المُبْسَلون لا غيرُهم، وهو قَصْر مبالغةٍ؛ لأنَّ إبسالَهم هو أشَدُّ إبسالٍ يقع فيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٩٨).

النَّاسُ؛ فجُعِلَ ما عداه كالمعدومِ[١].

- وقوله: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه تأكيدٌ وتفصيلٌ لذلك، والمعنى: هم بينَ ماءٍ مُغْلًى يتجرجَرُ في بُطونِهم، ونارٍ تشتعِلُ بأبدانِهم بسبَبِ كُفْرِهم[٢].

- وفي قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ زِيدَ فِعلُ (كان)؛ ليدلَّ على تَمَكُّن الكُفرِ منهم واستِمرارِهم عليه؛ لأنَّ فِعْلَ مادَّةِ الكونِ يدُلُّ على الوجودِ؛ فالإخبارُ به عن شيءٍ مُخْبَرٍ عنه بغيرِه أو موصوفٍ بغيرِه لا يُفيدُ فائدةَ الأوصافِ، سِوى أنَّه أفاد الوجودَ في الزَّمَن الماضي، وذلك مُستعمَلٌ في التمكُّنِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٩).

الآيات (٧١ - ٧٢)

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا﴾: أي نرجِعُ إلى الكُفر، والارْتِدَادُ والرِّدَّةُ: الرجوعُ من الإسلامِ إلى الكُفْرِ، لكنَّ الرِّدَّة تختصُّ بالكُفر، والارتدادُ يُستعمَلُ فيه وفي غيره، **والعَقِب**: مؤخَّر الرِّجْل[(١)].

﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾: أي: هَوَتْ به وذهَبَتْ، فضَلَّ في الأرضِ في حالِ حَيْرَتِه، أو ذهبَتْ به مَرَدَةُ الجنِّ في المفاوز البعيدة، والهوى: ميلُ النَّفْس إلى الشَّهوةِ، وقيل: سُمِّيَ بذلك؛ لأنه يَهوِي بصاحِبِه في الدُّنيا إلى كلِّ داهِيَةٍ، وفي الآخِرَة إلى الهاوِيَة[(٢)].

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرْنُ يَنْفُخُ فيه إسرافيلُ عليه السَّلام[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٩، ٥٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:١٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩)، ((غريب

مشكل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾

﴿وَيَوْمَ﴾: مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ، أو معطوفٌ على الضَّميرِ المنصوبِ في قوله: ﴿اتَّقُوه﴾ في الآيَةِ السَّابقةِ، على حذْفِ مُضافٍ، أي: واتَّقوا عذابَ يومِ يقولُ، ويجوز أن يكون ظرفَ زمانٍ منصوبًا، مُتعلِّقًا بمحذوفٍ خبر مقدَّم للمبتدأِ المؤخَّر ﴿قَوْلُهُ﴾، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ صِفَتُه، أي: وقولُه الحقُّ في يومِ يقولُ: كُنْ فيكونُ.

﴿كُن﴾: فعلُ أمْرٍ تامٌّ، وفاعلُه ضميرٌ مستَتِرٌ تقديره «أنت» يرجِعُ إلى كلِّ ما خَلَقَ الله.

﴿فَيَكُونُ﴾: مرفوعٌ، وهو فعل تامٌّ أيضًا، أي: «فهو يكونُ»، فجملةُ «يكون» ليستْ داخلةً في مقولِ القَوْلِ، بل هي جملةٌ مستقلَّةٌ مُستأنَفَةٌ، وفاعله أيضًا ضميرٌ مستتِرٌ تقديره «هو» يرجِع إلى كلِّ ما خَلَق الله، ويجوز أن يكون فاعِلُه: ﴿قَوْلُهُ﴾، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفةٌ لـ﴿قَوْلُهُ﴾، أي: فيوجَدُ قولُه الحَقُّ، ويكون الكلامُ على هذا تامًّا على ﴿ٱلْحَقُّ﴾[1]. ويجوز أنْ يكونَ ﴿قَوْلُهُ﴾ مبتدأً، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ خَبَره.

المعنى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يقولَ للمُشركينَ: أَنَدْعُو مِن دونِ اللهِ ما لا يَملِكُ لنا نفعًا، ولا يستطيعُ أن يُلْحِقَ بنا ضُرًّا، ونَرجِعُ إلى الضَّلال والكُفْر بعد أنْ هدانا اللهُ إلى الإسلامِ، فنكونَ كرجلٍ أَغْوَتْه الشياطينُ عن مقصِدِه، وله

القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٩٠).

أصحابٌ يدعونَه للطَّريقِ المُوصِل لبُغْيَتِه، ويطلبونَ منه أنْ يأتِيَهم؛ ليكونَ معهم على الهُدى، قلْ لهم يا محمَّدُ: إنَّ هدى الله هو الهدى الحَقُّ، وأُمِرْنا أن ننقادَ لله تعالى، ونَستَسْلِمَ لشَرْعِه، وأُمِرنا بإقامةِ الصَّلاةِ، وأن نَتَّقيَه عزَّ وجلَّ، وهو سبحانه مَن إليه تُجْمَعون يومَ القيامة، فيُجازيكم على أعمالِكم خَيرِها وشَرِّها.

وهو سبحانه الذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ بالحقِّ، ويومَ القِيامةِ الذي يكونُ بقَوْلِ الله: ﴿كُن﴾ فيكونُ، فقولُه تعالى لا مِرْيَةَ فيه، وهو الصِّدْقُ، واللهُ عزَّ وجلَّ له المُلْك وَحْدَه سبحانه في يومِ القِيامة، هو عالِمُ الغيبِ والشَّهادةِ لا يَخفَى عليه شيءٌ، وهو الحكيمُ الخبيرُ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاء المشركين: أَنَدْعُو مِن دون اللهِ ما لا يَقْدِرُ على نَفعِنا أو ضُرِّنا، فنَخُصه بالعبادةِ دون الله، ونَدَعُ عِبادةَ الذي بِيَدِه وحده الضُّرُّ والنَّفْعُ؟[1].

﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

أي: ونَرجِعُ القَهْقَرى[2] .....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).

(٢) القَهْقَرى: الرُّجوعُ إلى خَلْفٍ مِن غَيرِ أنْ يُعيدَ وجْهَه إلى جِهةِ مَشْيِه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٨٠١)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٢٩).

بعدَ هدايةِ اللهِ تعالى لنا إلى ما كنَّا فيه مِن الضَّلال[١].

﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾.

أي: فيكون مَثَلُنا في ذلك مَثَلَ الرَّجُلِ الذي أضَلَّتْه الشياطينُ عن طريقِه المُوصِل إلى مقْصِدِه، فبَقِيَ في حَيرَةٍ، وله أصحابٌ يَدْعونَه إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ الذي هم عليه مُقيمونَ، يقولون له: ائْتِنا فكُنْ معنا على استقامةٍ وهُدًى، والشَّياطينُ يدْعونَه إلى الضَّلالِ والرَّدَى[٢].

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المشرِكينَ: إنَّ طريقَ اللهِ الذي أوضَحَه لنا، وسبيلَه الذي أَمَرَنا بلُزومِه، هو الهُدى والاستقامةُ التي لا شكَّ فيها، وما عداه فهو ضلالٌ وهلاكٌ[٣].

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وأَمَرَنا ربُّنا وربُّ كُلِّ شيءٍ بأنْ ننقادَ لتوحيدِه، ونستسلِمَ لأوامِرِه ونواهيِه، ونَخْضَعَ له بالذِّلَّة والطَّاعة والعبوديَّة، فنُخْلِصَ ذلك له دونَ ما سواه[٤].

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١-٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢).

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾.

أي: وأُمِرْنا بإقامةِ الصَّلاة، وذلك أداؤُها بحُدودِها وأركانِها وشروطِها وسُنَنِها، وبتقواه في جميعِ الأحوالِ بِفِعْل ما أمَرَ به، واجتنابِ ما نَهَى عنه[1].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

أي: وربُّ العالمين سبحانه هو الذي تُجمَعون إليه يومَ القيامَةِ، فيُجازيكم بأعمالِكم؛ خيرِها وشَرِّها[2].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: وهو سبحانَه الذي خَلَق السَّمواتِ والأرضَ لحِكَمٍ عَظيمةٍ؛ منها: إظهارُ صُنْعِه وقُدرَتِه ووَحدانِيَّتِه، ومنها تكليفُ العبادِ فيأمُرُهم وينهاهم ثم يبعَثُهم؛ ليجازِيَهم بأعمالِهم خَيْرِها وشَرِّها، فيُثِيبَهم ويعاقِبَهم[3].

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٤-٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٧-٢٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٧).

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: ويومَ القِيامةِ الذي يكونُ بقَوْلِ الله: ﴿كُن﴾ فيكونُ عن أمْره كلَمْحِ البَصرِ، أو هو أقربُ، فقوله تعالى لا مِرْيَةَ فيه، وهو الصِّدْقُ الواقِعُ لا محالةَ، ولا يقولُ سبحانه شيئًا عَبثًا(١).

﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾.

أي: وهو المنفَرِدُ يومَ القيامةِ بالملْك وحدَه دون مَن سواه، فلا مُنازِعَ له فيه، ولا مُدَّعِيَ له في ذلِك اليومِ الَّذي يَنفُخُ فيه المَلَكُ في القَرْنِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١).

واختُلِفَ في تقديرِ المحذوفِ المتعلِّق بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ﴾ فقِيل: تقديرُه: واذْكُرْ يومَ، وقِيل: واتَّقوا يومَ، وقِيل: وخَلَق يومَ، وقِيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٨-٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٩- ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٧).

قال ابنُ الجوزي: (وفي الذي يقولُ له: كنْ فيكون، ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: أنَّه يومُ القيامةِ، قاله مقاتلٌ. والثاني: ما يكونُ في القيامةِ. والثالثُ: أنَّه الصُّورُ). ((زاد المسير)) (٢/ ٤٤).

وقال ابنُ عاشورٍ: (والمرادُ بالقولِ كلُّ ما يدلُّ على مرادِ الله تعالى، وقضائِه في يومِ الحشرِ، وهو يوم يقولُ: كنْ، مِن أمرِ تكوينٍ، أو أمرِ ثوابٍ، أو عقابٍ، أو خبرٍ بما اكتسَبه النَّاس مِن صالحِ الأعمالِ وأضدادِها، فكلُّ ذلك مِن قولِ الله في ذلك اليومِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢).

وقال الواحديُّ: (والصور: قرنٌ يُنفَخُ فيه في قولِ جميعِ المفسِّرين). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٨٨).

لكن قال ابنُ جرير: (واختُلِف في معنى الصُّور في هذا الموضع، فقال بعضُهم: هو قرنٌ يُنفخ فيه نفختان: إحداهما لفناءِ مَن كان حيًّا على الأرض، والثانية لنشْرِ كلِّ ميِّتٍ... وقال آخرون: الصُّور في هذا الموضع: جمْع صورة يُنفخُ فيها رُوحُها فتحيا... والصوابُ من القول في ذلك

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وكما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥- ٢٦].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

أي: هو سبحانه يَعلَمُ ما يَغيبُ عن العِبادِ وما يُشاهِدونَه، فلا يَخْفَى عليه شيءٌ[(١)].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

أي: وهو الذي له الحِكمةُ التَّامَّةُ، فيُتقِنُ كلَّ شيءٍ خَلَقَه، ويضعُ كُلَّ شيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به؛ ومِن ذلك تَدبيرُه وتصريفُه خَلْقَه مِن حالِ الوجودِ إلى العَدمِ، ثمَّ مِن حالِ العَدَمِ والفناءِ إلى الوجودِ، ثم مجازاتُهم بما يُجازيهم به من ثوابٍ أو عِقابٍ، وهو المحيطُ علمًا بالسَّرائرِ والبواطِنِ، والمُطَّلِعُ على الخَفايا، فهو خبيرٌ بكلِّ ما يعملونَه، ويَكْسِبونَه مِن خيرٍ وشَرٍّ، حافظٌ ذلك عليهم؛ ليجازيَهم على كلِّ ما قدَّموه[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيه تذكيرُ المؤمنينَ بهذا اليومِ؛

عندنا ما تظاهرتْ به الأخبارُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، أنَّه قال: «إنَّ إسرافيلَ قد التقمَ الصُّور وحنَى جبهتَه ينتظر متى يُؤمَر فينفخ»، وأنه قال: «الصُّور قرنٌ يُنفَخ فيه»). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩-٣٤٠).

وقال القرطبيُّ: (والأممُ مجمعةٌ على أنَّ الذي ينفخُ في الصُّور إسرافيلُ عليه السَّلامُ) ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٩).

تحريضًا على إقامةِ الصَّلاةِ والتَّقوى[١].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ المقصودُ مِن هذه الآيةِ الردُّ على عَبَدة الأصنامِ، وهي مؤكِّدةٌ لقوله تعالى قبلَ ذلك: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فقال: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾، أي: أَنَعبدُ من دونِ اللهِ النَّافِعِ الضَّارِّ ما لا يَقدِرُ على نَفْعِنا ولا على ضُرِّنا، ونُرَدُّ على أعقابِنا راجِعينَ إلى الشِّرْكِ بعد أنْ أنقَذَنا اللهُ منه، وهَدانا للإسلامِ[٢]؟!

٢- قال تعالى: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ...﴾ العربُ تقول فيمَن عَجَز بعد قُدرةٍ، أو سَفُل بعدَ رِفعةٍ، أو أحجَمَ بعد إقدامٍ على مَحمَدةٍ: نَكَصَ على عَقِبَيْه، وارتَدَّ على عَقِبَيْه، ورَجَع القَهْقَرَى، والأصلُ فيه رجوعُ الهزيمةِ أو الخَيبةِ، والعَجْزُ عن السَّيْر المحمودِ، ثم صار يُطْلَق على كلِّ تحوُّلٍ مذمومٍ[٣].

٣- في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ... وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لَمَّا بَيَّنَ سبحانَه أوَّلًا أنَّ الهُدى النَّافعَ هو هُدَى اللهِ، أردَفَ ذلك الكلامَ الكليَّ بذِكْر أشرفِ أقسامِه على التَّرتيبِ، وهو الإسلامُ، والصَّلاةُ، والتَّقْوى، ثم بيَّنَ منافِعَ هذه الأعمالِ؛ فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، يعني: أنَّ منافِعَ هذه الأعمالِ إنَّما تَظهَرُ في يومِ الحَشرِ والبَعْثِ والقيامةِ[٤].

٤- قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أتى بالبَعثِ الذي هم له مُنكِرون؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٦).

لكثرةِ ما أقام مِن الأدلَّةِ على تمامِ القُدرةِ، في سياقٍ دالٍّ على أنَّه ممَّا لا مجالَ للخلافِ فيه، وأنَّ النَّظَر إنَّما هو فيما وراءَ ذلك، وهو أنَّ عَمَلَهم للباطِلِ سوَّغ تنزيلَهم منزلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّه يُحشَر إلى غيره سبحانه ممَّن لا قدرةَ له على جَزائِهم، فأخبَرَهم أنَّ الحَشْرَ إليه لا إلى غيرِه؛ لأنَّه لا كلامَ هناك لسواه، فلا عِلَقَ بينَ المحشورينَ، ولا تناصُرَ كما في الدُّنيا، والجُملةُ مع ذلك كالتَّعليلِ للأمْرِ بالتَّقوى[١].

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ لَمَّا جُعِل اليَومُ ظَرْفًا للمُلْك، ناسَبَ أن يُعَرَّفَ اليومُ بما هو مِن شِعارِ الملْك والجُند، وهو النَّفْخُ في الصُّور[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ لَمَّا ذَكَر خَلْقَ الخَلْقِ وسُرعةَ إيجادِه لِمَا يَشاءُ، وتَضمَّنَ البَعْثُ إفناءَهم قبلَ ذلك- ناسَبَ ذِكْرَ الوَصفِ بالحَكيم، ولَمَّا ذَكَر أنَّه عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ ناسَبَ ذِكْر الوَصفِ بالخَبيرِ؛ إذ هي صفةٌ تدلُّ على عِلْمِ ما لَطُفَ إدراكُه من الأشياءِ[٣].

بلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾

- قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٥٧).

لتأييسِ المشركينَ مِن ارتدادِ بعضِ المسلمينَ عن الدِّينِ[١].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَنَدۡعُواْ﴾ للإنكارِ والتَّأْييسِ؛ فهو استفهامٌ بمعنى الإنكارِ؛ أي: لا يَقعُ شيءٌ مِن هذا[٢].

- قوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِنَا﴾ إيثارُ ﴿نُرَدُّ﴾ على (نَرتَدُّ)؛ لتوجيهِ الإنكارِ إلى الارتدادِ برَدِّ الغَيْرِ، تَصريحًا بمخالفَةِ المُضلِّين، وقطعًا لأطماعِهم الفارغةِ، وإيذانًا بأنَّ الارتدادَ من غيرِ رادٍّ ليس في حَيِّزِ الاحتمالِ ليُحتاجَ إلى نَفْيِه وإنكارِه[٣]؛ فعبَّر اللهُ تعالى بالفِعلِ المبنيِّ للمَفعولِ في ﴿وَنُرَدُّ﴾ بدَل التعبير بـ(نرتد)، أو (نرجِع)؛ لأنَّ هذا التحوُّلَ المذمومَ ليس مِن شأنِه أنْ يقَعَ من عاقلٍ؛ لأنَّ العاقلَ إذا وصَلَ إلى مَرتبةٍ عاليةٍ مِن العِلمِ والكمالِ؛ فإنَّه لا يَختارُ الرجوعَ عنها، واستبدال الذي هو أدْنَى بالذي هو خيرٌ وأعلى، فإذا كانتْ فطرتُه وعقلُه يأبيانِ عليه هذه الرِّدَّةَ والنكوصَ؛ فكيف يُردُّ، وهو لا يرتدُّ[٤]؟!

- والتَّعبيرُ بالرَّدِّ على الأعقابِ؛ لزِيادةِ تَقبيحِه بتَصويرِه بصُورةِ ما هو عَلَمٌ في القُبحِ، مع ما فيه مِن الإشارَةِ إلى كَونِ الشِّركِ حالةً قد تُرِكَت، ونُبِذتْ وراءَ الظَّهْرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٩٦).

وقال ابن عاشور: (ويُقال: رجَع على عقبِه، وعلى عقبَيهِ، ونكَص على عقِبَيه، بمَعْنَى رجَع إلى المكانِ الذي جاءَ منه؛ لأنَّه كان جاعلًا إيَّاه وراءَه فرجَع. وحرْفُ (على) فيه للاستعلاء، أي: رجَعَ على طريقِ جِهةِ عَقِبِه، كما يُقال: رجَع وراءَه، ثم استُعمل تمثيلًا شائعًا في التلبُّسِ بحالةٍ ذميمةٍ كان فارَقَها صاحبُها، ثمَّ عاد إليها وتلبَّس بها؛ وذلك أنَّ الخارجَ إلى سفرٍ أو حاجةٍ فإنَّما يمشي إلى غرَضٍ يُريده؛ فهو يمشي القُدُمية فإذا رجَعَ قبلَ الوصولِ إلى غرضِه، فقدْ أضاع

- قوله: ﴿كَٱلَّذِى ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ تَشبيهٌ تمثيليٌّ؛ حيث شُبِّهَ فيه مَن خَلَصَ مِن الشِّرْك، ثم نَكَصَ على عَقِبَيْه، بحالِ مَن ذَهَبت به الشَّياطينُ في الصحراء البعيدة، وأضلَّتْه بعدَما كان على الجادَّةِ المُستقيمَةِ؛ ففيه تَشبيهُ حالةِ مَن فُرِضَ ارتدادُه إلى ضَلالةِ الشِّركِ بعدَ هُدَى الإسلامِ- لِدعوةِ المشركينَ إيَّاه، وتَرْكِه أصحابَه المُسلمينَ الذين يَصدُّونه عنه- بحالِ الذي فَسَدَ عقلُه باستهواءٍ مِن الشَّياطينِ والجِنِّ، فتَاهَ في الأرضِ بعدَ أنْ كان عاقلًا عارفًا بمسالِكها، وتَرَكَ رُفقتَه العقلاءَ يَدْعُونه إلى موافَقتِهم. وهذا التركيبُ البديعُ صالحٌ للتفكيك بأنْ يُشبَّه كلُّ جزءٍ مِن أجزاءِ الهيئةِ المشبَّهةِ بجزءٍ من أجزاءِ الهيئةِ المشبَّهة بها؛ بأنْ يُشبَّه الارتدادُ بعدَ الإيمانِ بذَهابِ عقلِ المجنونِ، ويُشبَّه الكفرُ بالهُيامِ في الأرضِ، ويُشبَّه المشركونَ الذين دَعَوْهم إلى الارتدادِ بالشياطينِ، وتُشبَّه دعوةُ اللهِ الناسَ للإيمانِ ونُزولُ الملائكةِ بوحيه بالأصحابِ الذين يَدْعُون إلى الهُدَى[(١)].

- قوله: ﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَا﴾ فيه إيثارُ لفْظِ الهُدَى هنا؛ لِمَا فيه من المناسَبَةِ للحالَةِ المُشَبَّهة[(٢)].

- قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ مستأنفةٌ استئنافَ تكريرٍ لِمَا أُمِرَ أنْ يقولَه للمشركينَ حين يَدْعُون المُسْلمين إلى الرُّجوعِ إلى ما كانوا عليه في الجاهلِيَّة[(٣)].

مَشيَه، فيُمثَّل حالُه بحالِ مَن رجَع على عقبيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠١-٣٠٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٠٣).

- وقد خُوطِبوا بصِيغةِ القَصرِ ﴿هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ فجِيءَ بتعريفِ الجُزأَينِ، وضميرِ الفصلِ، وحرْف التوكيدِ، فاجتمعَ في الجملةِ أربعةُ مؤكِّداتٍ؛ لأنَّ القَصْرَ بمنزلةِ مؤكِّدينِ؛ إذ ليس القَصْرُ إلَّا تأكيدًا على تأكيدٍ، وضميرُ الفصل تأكيدٌ، و (إنَّ) تأكيدٌ؛ فكانتْ مقتضى حالِ المشركينَ المُنكرينَ أنَّ الإسلامَ هُدًى[١].

- وقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه ذِكْرُ اسمِ اللهِ تَعالى بوَصْفِ الرُّبوبيَّةِ لجَميعِ الخَلْق دون اسْمِه العَلَم؛ إشارةً إلى تَعليلِ الأمْرِ وأحقِّيَّتِه؛ إذْ لا يستحِقُّ العبادةَ مِن العبادِ إلَّا ربُّهم الذي خَلَقَهم، وغَذَّاهم بِنِعَمِه[٢].

٢- **قوله:** ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

- في تَخْصيصِ الصَّلاةِ بالذِّكْرِ من بينِ أنواعِ الشَّرائعِ، وعَطْفِها على الأَمرِ بالإسلامِ، وقَرْنِها بالأمْرِ بالتَّقوى- دليلٌ على تفخيمِ أَمْرِها، وعِظَم شأنِها[٣].

- قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ اشتَمَلَ على عِدَّةِ مُؤَكِّدات، وهي: صِيغةُ الحَصرِ بتَعريفِ الجُزأينِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ﴾، وتقديمُ معمولِ ﴿تُحْشَرُونَ﴾ وهو ﴿إِلَيْهِ﴾ المُفيدُ للتَّقوِّي؛ لأنَّ المقصودَ تحقيقُ وقوعِ الحَشْر على من أنْكَرَه من المشركينَ، وتحقيقُ الوَعْدِ والوعيد للمؤمنينَ، والحَصْر هنا حقيقيٌّ؛ إذ هم لم يُنكِروا كونَ الحَشر إلى الله، وإنَّما أنكروا وقوعَ الحَشْر، فسَلَك في إثباتِه طريقَ الكِنايةِ بِقَصْرِه على اللهِ تعالى المُستَلْزِم وقوعَه، وأنَّه لا يكونُ إلَّا إلى اللهِ، تَعريضًا بأنَّ آلهَتَهم لا تُغني عنهم شيئًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٦).

- وهو جملةٌ خبريَّةٌ تَتضمَّنُ التَّنبيهَ والتَّخويفَ لِمَن ترَكَ امتثالَ ما أُمِرَ به مِن الإسلامِ والصَّلاةِ واتِّقاءِ الله؛ وإنما تظهرُ ثَمَراتُ فِعْل هذه الأعمالِ وحَسَراتُ تَرْكِها يومَ الحَشْر والقيامَةِ[١].

٣- قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾

- قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾

(يَوْمَ) ظرفٌ وقعَ خبرًا مُقَدَّمًا- على أحَدِ الأوجُهِ في الآيةِ-؛ للاهتمامِ به، والمبتدأُ هو ﴿قَوْلُهُ﴾ و﴿ٱلْحَقُّ﴾ صِفَةٌ للمُبتدأِ، وأصلُ التَّركيبِ: (وقَوْلُه الحقُّ يَومَ يقولُ كُنْ فيكونُ)، ونكتةُ الاهتمامِ بتقديمِ الظَّرْفِ الردُّ على المُشركينَ المُنْكرينَ وقوعَ هذا التكوينِ بعد العَدَمِ[٢].

- وقوله: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ صِيغةُ قَصْرٍ للمبالغةِ؛ أي: هو الحقُّ الكامِلُ؛ لأنَّ أقوالَ غيرِه، وإن كان فيها كثيرٌ من الحَقِّ، فهي معرَّضةٌ للخَطَأِ، وما كان فيها غيرَ مُعَرَّضٍ للخَطَأِ، فهوُ راجعٌ إلى فَضلِ اللَّهِ[٣].

- وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ فيه بِناءُ ﴿يُنفَخُ﴾ للمَفعولِ؛ تعظيمًا للنَّفْخَةِ[٤].

- وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ كالفَذْلكةِ للآيةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٠٨).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٨).

الآيات (٧٤ - ٧٩)

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿مَلَكُوتَ﴾: أي: مُلْك، أو هُو أعظمُ المُلْك، وهو مُختصٌّ بمُلْكِ اللهِ تعالى؛ والملكوتُ مَصدرٌ من المُلْك، كالرَّغبوتِ مِنَ الرَّغبة، والرَّهبوتِ من الرَّهبة؛ زِيدَتْ فيه الواوُ والتاءُ، وبني على (فَعَلُوت)، وهو بِناءُ مُبالغةٍ؛ فالملكوتُ أبلغُ مِن المُلك؛ لفَخامةِ لفْظِه، وأصلُ (ملك): يدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ وصِحَّةٍ[1].

﴿ٱلْمُوقِنِينَ﴾: جمْع موقِنٍ، واليقينُ من صفاتِ العلمِ، يُقال: علم يَقِينٍ، وهو سكونُ الفَهمِ، وثبوتُ الحُكم، واليَقينُ: زوالُ الشَّكِّ، أو الاعتقادُ الجازمُ الثَّابِتُ المطابِق للواقِع[2].

﴿جَنَّ عَلَيْهِ﴾: أي: أظلَمَ عليه وسَترَه، وغَطَّى عليه، وأصل (جنن): السَّتْرُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١- ٣٥٢)، ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص:٢٤٦-٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٩).

والتستُّر[١].

﴿ٱلْآفِلِينَ﴾: أي: الغائبينَ عن العُيونِ، أي: مِن: أَفَل إذا غابَ، والأُفُول: غَيبوبةُ النيِّراتِ؛ كالقَمَر والنُّجومِ[٢].

﴿بَازِغًا﴾: أي: طالعًا منتَشِرَ الضَّوءِ، أو مُبتدِئًا في الطُّلوعِ، وأصلُ البُزوغِ: طلوعُ الشَّيءِ وظهورُه[٣].

﴿فَطَرَ﴾: أي: خلَق، وأصلُ الفَطْر: فتْحُ الشَّيءِ وإبرازُه، أو الشقُّ طولًا[٤].

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مقبلًا على الله، مُعرضًا عما سِواه، وقيل: مُستقيمًا، أو: مائلًا عَنِ الشِّرك والدِّينِ الباطِلِ؛ قَصدًا إلى التَّوحيدِ والدِّين الحقِّ المُستقيمِ، والدِّينُ الحنيفُ هو الإقبالُ على اللهِ وحدَه، والإعراضُ عما سِواه، وهو الإخلاصُ، والحنفُ: الميلُ عن الشيءِ بالإقبالِ على آخرَ، فالحَنَفُ: مَيلٌ عن الضَّلالِ إلى الاستقامةِ، وأصْله: مَيلٌ في إبْهامَي القَدمينِ، كلُّ واحدةٍ على صاحبتِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١- ٤٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (١/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: اذكرُ- يا محمَّدُ- حينَ قال إبراهيمُ لأبيهِ المُشْرِك: أتجعَلُ الأصنامَ آلهةً تَعبُدُها من دون اللهِ، إنِّي أراك وقومَك الذين يعبدونَ الأصنامَ في ضلالٍ بَيِّنٍ، وانحرافٍ واضحٍ عن الطَّريقِ المستقيمِ.

ثم يُخبِر تعالى أنَّه كما وفَّقَ إبراهيمَ في دِينِه، فهداه لتوحيدِه عزَّ وجلَّ، كذلك يُريه ما تشتَمِلُ عليه السَّمواتُ والأرضُ مِن مُلْكٍ عَظيمٍ وواسعٍ؛ ليستدلَّ بذلك على وحدانيَّة الله، واستحقاقِه وَحْدَه للعبادة، ولِيَكونَ من المُوقنينَ.

فحِين أظلَمَ عليه اللَّيل رأى كوكبًا، فقال على وجه التنزُّلِ مع الخَصْم: هذا ربِّي، فلَمَّا غاب ذلك الكوكَبُ قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: لا أحِبُّ المعبودَ المُتَغَيِّر، الذي يغيبُ وينصرِفُ عمَّن عَبَده، فلَمَّا رأى القَمَر في أوَّلِ طلوعه قال تنزُّلًا مع الخصم: هذا ربِّي، فلمَّا غاب قال إبراهيمُ: لَئِنْ لم يُوفِّقْني ربِّي لِلحَقِّ لأكونَنَّ من القومِ الضَّالِّينَ.

فلَمَّا رأى الشَّمْس في أوَّلِ طُلُوعها قال تنزُّلًا: هذا الطَّالِعُ ربِّي، وهو أكبرُ من الكوكَبِ والقمرِ، فلَمَّا غابت الشَّمْس قال إبراهيم: إنِّي أبْرَأُ من كلِّ ما تعبدونَه مع اللهِ، إنِّي أخلَصْتُ قَصْدي، وأَفْرَدْتُ العبادةَ لله الذي أبدَعَ السَّمواتِ والأرضَ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، مائلًا عن الشِّرْك، مستقيمًا على التَّوحيدِ، وما أنا مِن المشْركينَ مع الله تعالى غَيرَه.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، ناسَبَ ذِكْرَ هذه الآيةِ هنا، وكان التَّذكارُ بقِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع أبيه وقومِه أنسَبَ؛ لرُجوعِ العَرَب إليه؛ إذ هو جَدُّهم الأعلى، فذُكِّروا بأنَّ إنكارَ هذا النبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم عليكم عِبادَةَ الأصنامِ هو مِثْلُ إنكارِ جَدِّكم إبراهيمَ على أبيه وقَوْمِه عِبادَتَها[1]، فقال تعالى:

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾.

أي: واذكُرْ- يا محمَّدُ- حين قال إبراهيمُ عليه السَّلام لأبيهِ آزَرَ مُفارِقًا دِينَه، وعائبًا عبادَتَه الأصنامَ: أتَعبُدُ الأصنامَ من دون الله عزَّ وجلَّ[2]؟!

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: إنِّي أراك وقومَك الذين يَعبُدونَ الأصنامَ في عُدولٍ واضِحٍ عن الصِّراطِ المستقيمِ، وانحرافٍ بيِّنٍ عن الطَّريقِ القويم، يَتبيَّنُ لكلِّ من أبصره مِمَّن له عقلٌ صحيح؛ حيث عبدْتُم مَن لا يَستحِقُّ مِن العبادةِ شيئًا، وتركتُم عبادةَ خالِقِكم ورازِقِكم سبحانه وتعالى[3]!

كما قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا * يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَٰمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤٢، ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤٦-٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٠٨).

عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ۞ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤١- ٤٨].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((يَلْقَى إبراهيمُ أباه آزرَ يومَ القيامةِ، وعلى وَجْهِ آزرَ قترةٌ وغَبَرةٌ، فيقول له إبراهيمُ: ألم أقُلْ لك لا تَعصِني؟ فيقول أبوه: فاليومَ لا أَعصيكَ، فيقول إبراهيمُ: يا ربِّ، إنَّك وعدْتَني ألَّا تُخزيَني يومَ يُبعثونَ، فأيُّ خِزيٍ أَخْزى مِن أبي الأَبعدِ؟ فيقول اللهُ تعالى: إنِّي حرَّمتُ الجنَّةَ على الكافرينَ، ثم يُقال: يا إبراهيمُ، ما تحتَ رِجْلَيك؟ فينظر، فإذا هو بذِيخٍ مُتلطِّخٍ[(١)]، فيُؤخذُ بقَوائمِه فيُلقَى في النَّارِ))[(٢)].

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

أي: وكما بصَّرْنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ في دِينه فوفَّقناه لتوحيدِ الله تعالى، خلافًا لِمَا كان عليه أبوه وقومُه من الضَّلالِ؛ نُريه أيضًا مُلْك السَّمواتِ والأرض، فيَرَى ما أبدَعَه اللهُ تعالى فيهما من مَخلوقاتٍ؛ كالشَّمْس والقَمَر والنُّجومِ والشَّجَر والدوابِّ وغير ذلك، ويَتبيَّنُ له ببصيرتِه ما اشتمَلَت عليه من أدلَّةِ وحدانيَّة اللهِ عزَّ وجلَّ، واستحقاقِه للعبادة وَحْده لا شريكَ له، ويَصِلُ إلى دَرجةِ اليقينِ؛ فلا يتطرَّقُ إليه شكٌّ أو وهْمٌ في ذلك مُطلقًا[(٣)].

قال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۞ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥- ١٠٦].

---

(١) بذِيخٍ مُتلطِّخ: الذِيخُ: ذَكَرُ الضِّباعِ الكثيرُ الشَّعرِ. وَأَرَادَ بالتَّلطُّخِ: التلطُّخَ برَجِيعِه، أو بالطِّين. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٤٢١)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٧٤).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤٧، ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٠-٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٠٩-٤١٢).

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كانت الأمورُ السماويَّةُ مُشاهَدةً لجميعِ الخَلْقِ: دَانِيهم وقاصِيهم، وهي أشرفُ مِنَ الأرضيَّةِ، فإذا بَطَلَت صلاحيتُها للإلهيَّة، بَطَلَت الأرضيَّةُ من بابِ الأَوْلى- نَصَبَ لهم الحِجَاجَ في أَمْرِها، فقال مسبِّبًا عن الإراءةِ المذكورةِ[1]:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾.

أي: فلمَّا واراه اللَّيلُ، وتغشَّاه بظَلامِه، أبصَرَ بعينِه كوكبًا حين طَلَع، فقال على وجْهِ التنزُّلِ مع قومِه[2]: .....

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٨).

(٢) فلم يكنْ هذا المقامُ مَقامَ نظَرٍ، بل كان مَقامَ مُناظرةٍ مِن إبراهيمَ عليه السَّلام لقومِه. وهذا اختيارُ ابنِ عطيةَ في ((تفسيره)) (٢/ ٣١٣)، وابنِ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٢٩٢)، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٦٢)، والشِّنقيطيِّ في ((العذب النمير)) (١/ ٤٢٧) ، وابنِ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٧/ ٣١٩).

قال الشنقيطي: (إبراهيم لَمْ يَظُنَّ يومًا في ربوبيةِ كوكبٍ، ولم يشكَّ يومًا واحدًا في ربوبيةِ اللَّهِ، هذا التحقيقُ الواجبُ اعتمادُه، الذي دَلَّ عليه كتابُ اللَّهِ وسنةُ نَبيِّهِ صلى الله عليه وسلم، أما القرآنُ: فقد دَلَّ على هذا في مواضعَ كثيرةٍ:

منها: أنه أوَّلًا قال رافعًا لهذا الاحتمالِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ فلما أَثْبَتَ له اليقينَ قال بَعْدَ ذلك مرتِّبًا عليه بالفاءِ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾.

والثانيةُ: أن الله ذَكَرَ أنه قال هذا في سبيلِ المناظرةِ والمُحاجَّةِ، لا في سبيلِ النظرِ بنفسِه، حيثُ قال: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ [الأنعام:٨٠]، وقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣] ومِن أصْرَحِ الأدلةِ في هذا: أن الله نَفَى عن إبراهيمَ كونَ الشركِ في ماضِي الزمنِ مُطْلَقًا، حيث قال في آياتٍ كثيرةٍ من كتابِه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] ونَفْيُ الكونِ الماضِي يستغرقُ الكونَ في جميعِ الزمنِ كائنًا ما كانَ، وكذلك قولُه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] هذا جاء في آياتٍ كثيرةٍ، ونفيُ الإشراكِ عنه في الكونِ الماضي يدُلُّ بدلالةِ

هذا ربِّي[١].

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾.

أي: فلمَّا غاب ذلك الكوكبُ وذهَبَ؛ قال إبراهيمُ عليه السَّلام: لا أُحِبُّ المعبودَ المتغيِّرَ، المُسَخَّر، والذي يغيبُ وينصرِفُ عمَّن عَبَدَه؛ لأنَّه لا يُمكِن أنْ يكونَ مَن هذا حالُه هو القائِمَ بمصالح عبادِه، المدبِّرَ لشؤون العالَم، الذي بيده النَّفْعُ والضُّرُّ، وعليه فلا يَصْلُح أن يكون إلهًا يستحِقُّ أن يُعبَدَ[٢].

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بصَّرَهم قُصورَ صغيرِ الكواكِبِ رَقِيَ النَّظَرُ إلى أكبَرَ منه، فسبَّبَ عن الإعراضِ عن الكواكِبِ لقصورِه قولَه[٣]:

القرآنِ- دلالةِ المطابقةِ- على أنَّه لم يتقَدَّمْ له كونُ إشراكٍ ألبتةَ، والله يقولُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] فعِلمُ الله به وبصلاحِه يدلُّ على ذلك، هذا هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه). ((العذب النمير)) (١/ ٤١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٥٤، ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٠٩-٤١٢).

قال ابن تيمة: (قومُ إبراهيم كانوا مُقرِّين بالصَّانع، وكانوا يُشرِكون بعبادتِه كأمثالِهم مِن المشركين). ((الجواب الصحيح)) (١/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦١)، ((بغية المرتاد)) لابن تيمية (ص: ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٢-٤٢٣).

وقال ابنُ تَيميَّة: (الأفولُ هو التغيُّبُ والاحتجابُ باتِّفاق أهل اللُّغةِ والتفسيرِ، وهو من الأمور الظاهرة في اللُّغة، وسواءٌ أُريد بالأفول ذَهابُ ضوءِ القمر والكواكب بطلوع الشمس، أو أُريد به سُقوطُه من جانبِ المغرب) ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ٥٤٧-٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦٠).

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾.

أي: فلمَّا رأى إبراهيمُ عليه السَّلامُ القَمَرَ في أوَّلِ طلوعِه قال تنزُّلًا: هذا ربِّي[١].

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

أي: فلمَّا غاب القمرُ قال إبراهيم عليه السَّلامُ: لئِنْ لم يُوفِّقْني ربِّي لإصابةِ الحَقِّ لأكونَنَّ من القومِ الذين أخطَؤوا طريقَ الحَقِّ، فلم يُصيبُوا الهُدَى[٢].

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾.

أي: فلمَّا رأى إبراهيمُ عليه السَّلامُ الشَّمْسَ في أوَّلِ طُلُوعِها قال تنزُّلًا: هذا الطَّالِعُ المُنير ربِّي، وهو أكبرُ من الكوكَبِ ومن القَمَر[٣].

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا ثبَتَ بالدَّليلِ أنَّ هذه الكواكِبَ لا تَصلُحُ للربوبيَّة والإلهيَّة؛ لا جَرَم تبرَّأَ من الشِّرْك[٤].

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٤-٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٤٧).

أي: فلمَّا غابتِ الشَّمْسُ قال إبراهيمُ لقومِه: إنِّي أتبرَّأُ مِن كلِّ ما تَعبُدونَه مع اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٧٩﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أنكَرَ على أبيه عِبادةَ الأصنامِ وضَلَّلَه وقَوْمَه، ثم استدَلَّ على ضلالِهم بقضايا العُقولِ؛ إذ لا يُذعِنونَ للدَّليلِ السَّمعيِّ؛ لتوقُّفِه في الثُّبوتِ على مُقدِّماتٍ كثيرةٍ، وأَبْدَى تلك القضايا منوطةً بالحِسِّ الصادِقِ- تبرَّأَ من عِبادتِهم وأكَّد ذلك بـ(إنَّ)، ثمَّ أخبرَ أنَّه وجَّه عبادَتَه لمُبدِعِ العالَمِ الذي هذه النَّيِّراتُ المُستَدَلُّ بها بَعْضُه، ثمَّ نفَى عن نفْسِه أنْ يكونَ من المُشْرِكين؛ مبالغةً في التبرُّؤِ منهم[٢].

وأيضًا لَمَّا أبطَلَ جميعَ مذهَبِهم، أظهَرَ التوجُّهَ إلى الإلهِ الحَقِّ، وأنَّه قدِ انكشَفَ له الصَّوابُ بهذا النَّظَرِ، والمرادُ هم، ولكنَّ سَوْقَه على هذا الوَجْه أَدْعى لقَبولِهم إيَّاه، فقال مُستنتِجًا عمَّا دَلَّ عليه الدَّليلُ العقليُّ في الملكوتِ[٣]:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

أي: إنِّي قدْ أخلصْتُ قَصْدي، وأفرَدْتُ عِبادتي لِمَن يَستحِقُّ ذلك، وهو اللهُ تعالى؛ لأنَّه الذي أَبْدَعَ خَلْقَ السَّمواتِ والأرضِ، على غير مثالٍ سَبَقَ؛ فهو القادِرُ وحْده على أن يُنْشِئَ الخَلْقَ من العَدَمِ إلى الوجودِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي))

كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿حَنِيفًا﴾.

أي: مائلًا عن الشِّرْك، مستقيمًا على التَّوحيدِ، مُقبلًا على الله تعالى، مُعْرِضًا عمَّا سِواه[(١)].

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا تبرَّأَ إبراهيمُ مِن أصنامِهم بقولِه: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، تبرَّأَ من القَوْمِ[(٢)]، فقال:

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

أي: ولسْتُ ممَّن يَدينُ بِدِينِكم، ويتَّبعُ مِلَّتكم- أيُّها المشركونَ- ولستُ أُشرِكُ بربِّي شَيئًا[(٣)].

(ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٦-٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير))

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠- ١٢٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ في إنكارِ إبراهيمَ على أبيه دَليلٌ على الإنكارِ على مَن أُمِر الإنسانُ بإكرامِه، إذا لم يَكُنْ على طَريقةٍ مُستقيمةٍ، وعلى البَدَاءةِ بمن يقرُبُ من الإنسانِ؛ كما قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ التنبيهُ على اقتفاءِ مَن سَلَفَ مِن صالحي الآباءِ والأجدادِ؛ فقد احتجَّ سبحانه على مُشرِكي العَرَب بأحوالِ إبراهيم عليه السَّلام؛ وذلك لأنَّه يَعترفُ بفَضْلِه جميعُ الطَّوائفِ والمِلَل؛ فالمشرِكونَ كانوا معترفينَ بفَضْلِه، مُقِرِّين بأنَّهم مِن أولادِه، واليهودُ والنَّصارى والمسلمونَ كُلُّهم مُعَظِّمونَ له، مُعترفونَ بجلالةِ قَدْرِه، فلا جَرَمَ ذَكَرَ اللهُ حكايةَ حالِه في مَعْرِض الاحتجاجِ على المُشركينَ[2].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ اشتَمَلَ كلامُ إبراهيمَ عليه السَّلام في هذه الآيَةِ على ذِكْرِ الحُجَّة العقليَّةِ على فسادِ قَولِ عَبَدَة الأصنامِ من وجهينِ: الأوَّلُ: أنَّ قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ يدلُّ على

للشنقيطي (١/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦١).

أنَّهم كانوا يَقولونَ بكَثرةِ الآلِهَةِ، إلَّا أنَّ القولَ بكَثرةِ الآلهةِ باطلٌ بالدَّليلِ العقليِّ، الذي فُهِمَ مِن قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، والثاني: أنَّ هذه الأصنامَ لو حَصَلَت لها قدرةٌ على الخيرِ والشَّرِّ لكان الصَّنمُ الواحدُ كافيًا، فلمَّا لم يكُنِ الواحِدُ كافيًا دلَّ ذلك على أنَّها وإن كثُرت فلا نَفْعَ فيها البتَّةَ[١].

٢- في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ أي: اذكرْ قولَه، وحِكمةُ التَّذكيرِ بوقتِه التَّنبيهُ على أنَّ هذا لم يَزلْ ثابتًا مُقرَّرًا على ألْسنةِ جميعِ الأنبياءِ في جميعِ الدُّهور، وكان في هذه المحاجَّةِ التصريحُ بما لَوَّح إليه أوَّلَ هذه السورةِ مِن إبطالِ هذا المذهبِ، وانعطَفَ هذا على ذاكَ أيَّ انعطافٍ! وصار كأنَّه قيل: ثمَّ الذين كفروا بربِّهم يعدلون الأصنامَ والنجومَ والنورَ والظُّلمةَ، فنبِّهْهم يا رسولَ اللهِ على ذلك؛ بأنَّه لا مُتصرِّفَ غيرُنا، اذكرْ لهم أنِّي أنا الذي خلقتُهم وخلقتُ جميعَ ما يُشاهِدون مِن الجواهرِ والأعراضِ، فإنْ تَنبَّهوا فهو حظُّهم، وإلَّا فاذْكُرْ لهم مُحاجَّةَ خليلِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ، إذ قال: ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ فيه دليلٌ على هِدايةِ إبراهيمَ وعِصمَتِه مِن سَبْق ما يُوهِم ظاهِرُ قولِه: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ مِن نِسبةِ ذلك إليه على أنَّه أخبرَ عن نَفْسِه، وإنَّما ذلك على سَبيلِ التنزُّلِ مع الخَصْمِ، وتقريرِ ما يَبني عليه مِن استحالةِ أن يكون متَّصفًا بصفاتِ المخلوقين[٣].

٤- قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ فائدةُ عَطفِ ﴿وَقَوْمَكَ﴾ على ضَميرِ المخاطَبِ، مع العِلم بأنَّ رؤيتَه أباه في ضَلالٍ تَقتضي أنْ يرَى مماثِلِيه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٣٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٢).

في ضلالٍ أيضًا- أنَّ المقامَ مقامُ صراحةٍ، لا يُكتَفَى فيه بدَلالةِ الالْتزامِ، ولِيُنبِّئَه من أوَّلِ وهْلةٍ على أنَّ موافقةَ جَمْعٍ عظيمٍ إيَّاه على ضَلالِه لا تُعَضِّدُ دِينَه، ولا تُشَكِّك مَن يُنْكِر عليه ما هو فيه[١].

٥- في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ احتجَّ عليهم بالأُفولِ دون البُزوغِ، وكِلاهما انتقالٌ من حالٍ إلى حالٍ؛ في قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّ الاحتجاجَ بالأُفولِ أظهَرُ؛ لأنَّه انتقالٌ مع خفاءٍ واحتجابٍ، والبزوغُ وإنْ كان طرأَ بعدَ أُفولٍ، لكنَّ الأفولَ السَّابقَ غيرُ مشاهَدٍ لهم؛ فكان الأفولُ أخْصرَ في الاحتجاجِ مِن أنْ يقولَ: إنَّ هذا البازغَ كان مِن قبلُ آفِلًا[٢]، وإنَّما تريَّثَ إلى أُفولِ القَمَرِ فاستدلَّ به على انتفاءِ إلهيَّتِه، ولم يَنْفِها عنه بمُجرَّدِ رُؤيَتِه بازغًا، مع أنَّ أُفُولَه مُحقَّقٌ بحَسَبِ المعتادِ؛ لأنَّه أرادَ أن يُقيمَ الاستدلالَ على أَساسِ المشاهَدةِ، على ما هو المعروفُ في العُقولِ؛ لأنَّ المشاهدةَ أقوى[٣].

٦- جاء بلفْظِ ﴿ٱلْأَفِلِينَ﴾ ليدُلَّ على أنَّ ثَمَّ آفلينَ كثيرينَ، ساواهم هذا الكوكبُ في الأُفولِ، فلا مزيةَ له عليهم في أن يُعبَدَ؛ للاشتراكِ في الصِّفةِ الدالَّةِ على الحدوثِ[٤].

٧- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ لم يأتِ في الكواكب (رأى كوكبًا بازغًا)؛ لأنَّه أوَّلًا ما ارتقبَ حتَّى بزَغَ الكوكبُ؛ لأنَّه بإظلام اللَّيل تظهرُ الكواكبُ بخلاف حالِه مع القَمَر والشَّمْس؛ فإنَّه لَمَّا أوضَحَ لهم أنَّ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٥).

النَّيِّرَ- وهو الكوكَبُ الذي رآه- لا يَصلُحُ أن يكون ربًّا؛ ارتقَبَ ما هو أنورُ منه وأَضْوَأُ؛ على سَبيلِ إلحاقِه بالكوكبِ، والاستدلالِ على أنَّه لا يَصلُح للعِبادةِ، فرآه أوَّلَ طُلوعِه وهو البزوغُ، ثم عَمِلَ كذلك في الشَّمْس؛ ارتقَبَها إذ كانتْ أنْوَرَ من القَمَرِ وأضْوَأَ وأكبرَ جِرْمًا وأعَمَّ نَفْعًا؛ فقال ذلك على سَبيلِ الاحتجاجِ عليهم، وبَيَّن أنَّها مُساوِيَةٌ للقَمَر والكواكِبِ في صفةِ الحدوثِ[١].

٨- قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يدلُّ على أنَّ الهدايةَ ليستْ إلَّا مِن اللهِ تعالى[٢].

٩- قال في الشَّمْس ﴿هَٰذَا﴾ مع أنَّها مؤنَّثةٌ، ولم يَقُلْ (هَذِه)؛ لوجوهٍ: أحدُها: أنَّ الشَّمْس بمعنى الضِّياءِ والنورِ، فحُمِلَ اللَّفظُ على التأويلِ فذُكِّرَ. وثانيها: أنَّ الشَّمْس لم يحصُلْ فيها علامةُ التأنيثِ، فلمَّا أشبَهَ لفظُها لفظَ المُذكَّر، وكان تأويلُها تأويلَ النُّورِ؛ صَلَح التَّذكيرُ من هاتين الجِهَتينِ، وثالثها: أراد: هذا الطَّالِعُ، أو هذا الذي أراه، ورابعُها: المقصودُ منه رعايةُ الأدَبِ، وهو ترْكُ التأنيثِ عندَ ذِكْرِ اللَّفظِ الدَّالِّ على الربوبيَّة، وخامسها: لوجود المُسَوِّغ، وهو تذكيرُ الخبَرِ؛ إظهارًا لتعظيمِها، إبعادًا عن التُّهمةِ، وسادسها: للتَّنبيهِ من أوَّلِ الأَمْرِ على أنَّ المؤنَّثَ لا يَصْلُح للربوبيَّةِ[٣].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ مسألةٌ: لَمَّا كانَ الأُفولُ حاصلًا في الشَّمْس، والأُفولُ يمنعُ من صفةِ الربوبيَّة، وإذا ثبت امتناعُ صفةِ الربوبيَّة للشَّمس كان امتناعُ حصولها للقمرِ ولسائرِ الكواكبِ أَوْلَى، وبهذا الطَّريقِ يظهر أن ذِكْرَ هذا الكلام في الشَّمْس يُغني عن ذِكْره في القَمَر والكواكب، فلِمَ لم يقتصِرْ على ذِكْر الشَّمْس

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٥٦٥، ٥٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٤٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦١).

رعايةً للإيجازِ والاختصارِ؟

قلنا: إنَّ الأخْذَ من الأدْوَنِ فالأدونِ، مترقيًا إلى الأعلى فالأعلى؛ له نوعُ تأثيرٍ في التقريرِ والبيانِ والتَّأكيدِ، لا يحصُل مِن غيره، فكان ذِكْرُه على هذا الوَجْه أَوْلى[١].

١١- في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، قد يقول قائلٌ: هَبْ أنَّه ثبت بالدَّليل أنَّ الكواكبَ والشَّمْس والقَمرَ لا تصلحُ للربوبيَّة والإلهيَّة، لكنْ لا يلزمُ مِن هذا القَدْر نفيُ الشَّريكِ مُطلقًا، وإثباتُ التَّوحيد، فلِمَ فَرَّعَ على قيامِ الدَّليل على كونِ هذه الكواكِبِ غيرَ صالحةٍ للربوبيَّة، الجَزْمَ بإثباتِ التوحيدِ مطلقًا.

والجوابُ: أنَّ القومَ كانوا مُساعدينَ على نفْيِ سائرِ الشُّركاءِ، وإنَّما نازعوا في هذه الصورةِ المُعَيَّنة، فلمَّا ثبت بالدَّليلِ أنَّ هذه الأشياءَ ليست أربابًا ولا آلهةً، وثبت بالاتِّفاقِ نَفْيُ غيرِها؛ لا جَرَمَ حصل الجَزْمُ بنفيِ الشُّركاءِ على الإطلاقِ[٢].

بلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الاستفهامُ للإنكارِ والتَّوبيخِ، وقدْ نبَّه بهذا الإنكارِ على أنَّ مَعرفةَ بُطلانِ ما هو مُتديَّنٌ به لا يحتاجُ إلى كثيرِ تأمُّلٍ، بل هو أمرٌ بديهيٌّ أو قريبٌ منه؛ فإنَّهم يُباشِرونَ أمْرها بجميعِ جوانبِهم، ويَعلَمون أنَّها مصنوعةٌ، وليستْ بصانعةٍ، وكثرتُها تدلُّ على بُطلانِ إلهيتِها بما أشارَ إليه قولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٣] [الأنبياء: ٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٢).

- وعبَّر بصيغةِ الافتعالِ في (تتَّخِذ)- فهو افتعالٌ من الأخْذِ- للدَّلالة على التكلُّفِ للمبالغةِ في تَحصيل الفِعلِ، وأنَّ ذلك مُصطنَعٌ مُفتعَلٌ، وأنَّ الأصنامَ ليست أهلًا للإلهيَّة، وفي ذلك تعريضٌ بسخافةِ عَقْلِه؛ أن يجعَلَ إلهَه شيئًا هو صَنَعَه[١].

- وفي ذِكْره ﴿أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ بالجمْعِ تقبيحٌ عظيمٌ لِفِعْلِهم[٢].

- قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ جملةٌ مُبيِّنةٌ للإنكارِ في جملة: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾، وأكَّدَ الإخبارَ بحرْفِ التأكيدِ؛ لِمَا يتضمَّنُه ذلك الإخبارُ مِن كَوْنِ ضَلالِهم بيِّنًا[٣].

٢- **قوله:** ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جملةُ اعتراضٍ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، وهما قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ وجملةُ الاستدلالِ عليهم بإفرادِ المعبودِ، وكونِه لا يُشْبِه المخلوقين ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ ...﴾؛ إذ إنَّ أباه وقومَه كانوا يعبدونَ الأصنامَ والكواكِبَ، فأراد أن يُنبِّهَهم على ضلالَتِهم، ويُرْشِدَهم إلى الحقِّ من طريقِ المُناظَرةِ والاستدلالِ[٤].

٣- **قوله:** ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾

- ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ قَصَر الفِعلَ ﴿جَنَّ﴾- وإنْ كان مُتعدِّيًا-؛ دَلالةً على شِدَّةِ ظلامِ تلك اللَّيلةِ؛ ولذلك عدَّاه بأداةِ الاستعلاءِ فقال: ﴿عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾، أي وقَعَ السَّترُ عليه[٥]؛ فقوله: ﴿جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ يُقصَد به المبالغةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٢).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٨).

في السَّترِ بالظُّلْمَةِ حتَّى صارتْ كأنَّها غِطاءٌ؛ إذ الأصْلُ أنْ يُقالَ: جَنَّه اللَّيلُ، أي: أخْفاهُ[١].

- قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ جوابًا لسؤالٍ ينشأُ عن مَضمونِ جملةِ (رأى كوكبًا)، وهو أنْ يسأل سائِلٌ: فماذا كان عِندَما رآه؟ فيكون قولُه: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ جوابًا لذلِك[٢].

- واسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ هنا لقَصْدِ تمييزِ الكوكَبِ مِنْ بينِ الكواكِبِ، ولكِنْ إجراؤُه على نظيرَيهِ في قوله حينَ رأى القَمَر، وحين رأى الشَّمْس: «هذا ربِّي- هذا ربِّي» يُعَيِّن أن يكون القَصْدُ الأصليُّ منه هو الكنايةَ بالإشارةِ عن كونِ المشارِ إليه أمرًا مطلوبًا مبحوثًا عنه، فإذا عُثِرَ عليه أُشِيرَ إليه[٣].

- وتعريف الجزأينِ في قولِه: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ مفيدٌ للقصر؛ لأنه لم يقل: هذا ربٌّ؛ فدلَّ على أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أراد استدراجَ قومِه، فابتدأ بإظهارِ أنَّه لا يرى تعدُّدَ الآلهَةِ؛ لِيصِلَ بهم إلى التوحيدِ، واستبقى واحدًا من معبوداتِهم، ففَرَض استحقاقَه الإلهيَّةَ؛ كيلا ينفرُوا من الإصغاءِ إلى استدلالِه[٤].

٤- **قوله:** ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾

- قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ التقديرُ: فطَلَع القمرُ، فلمَّا رآه بازغًا، فحُذِفت الجملةُ للإيجازِ، وهو يقتضي أنَّ القَمَرَ طلَعَ بعد أُفُولِ الكوكبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٨-٣٢١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣١٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٢١).

- وأفاد تعريفُ الجزأينِ ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ أنه أكثرُ ضوءًا من الكوكب؛ فإذا كان استحقاقُ الإلهيَّة بسبب النُّور، فالذي هو أشدُّ نورًا أَوْلَى بها من الأَضْعَفِ[١].

- قوله: ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فيه تعريضٌ حسنٌ؛ حيث عرَّض في كلامِه بأنَّ له ربًّا يهديه، وهم لا يُنكِرون عليه ذلك؛ لأنَّهم قائلون بعدَّةِ أربابٍ، وفي هذا تهيئةٌ لنفوسِ قَومِه لِمَا عَزَمَ عليه من التَّصريحِ بأنَّ له ربًّا غيرَ الكواكب، ثم عرَّضَ بقومِه أنَّهم ضالُّون، وهيَّأَهم قبل المصارَحَةِ للعِلْمِ بأنَّهم ضالُّون؛ لأنَّ قَوْلَه: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يُدخِل على نفوسِهم الشَّكَّ في معتقَدِهم أن يكونَ ضَلالًا؛ ولأجَل هذا التعريضِ لم يقُلْ: لأكونَنَّ ضالًّا، وقال: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ليشيرَ إلى أنَّ في الناس قومًا ضالِّين، يعني: قومَه[٢].

- والتعريضُ بضلالهم هنا أصرحُ وأقْوَى مِن قولِه أوَّلًا: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾، وإنَّما ترقَّى إلى ذلك؛ لأنَّ الخُصومَ قد أقامَتْ عليه الاستدلالَ الأوَّلَ حُجَّةً، فأَنِسُوا بالقَدْحِ في مُعتقَدِهم، ولو قيل هذا في الأوَّل، فلعَلَّهم كانوا يَنْفِرون، ولا يُصغونَ إلى الاستدلالِ، فما عرَّض إبراهيمُ عليه السَّلام بأنَّهم في ضلالةٍ إلَّا بعد أن وَثِقَ بإصغائِهم إلى تمامِ المقصودِ، واستماعِهم إلى آخِرِه؛ ولذلك ترقَّى في النَّوبةِ الثالثةِ إلى التَّصريحِ بالبراءةِ منهم، والتقريعِ بأنَّهم على شِرْكٍ، حين قيامِ الحُجَّة عليهم، ووضوحِ الحَقِّ، وبلوغِه من الظُّهورِ غايةَ المقصودِ[٣]؛ فعرَّض بضلالِهم في أمْرِ القَمَر؛ لأنه أَيِسَ منهم في أمْرِ الكوكب؛ ولهذا أعْلَن في أمْرِ الشَّمْس البَراءةَ منها عن طريقِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- الحاشية)) (٢/ ٤٠)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٤٠٣).

استدراجِ الخَصْمِ، وإيقاعِه تحتَ الحُجَّةِ[١].

٥- **قوله**: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فيه التأكيدُ بـ(إنَّ)، ثم الإخبارُ أنَّه وجَّه عبادَتَه لِمُبدِعِ العالَم، الذي هذه النيِّراتُ المستدَلُّ بها بعضُه، ثم نفى عن نفْسِه أن يكون من المشركينَ؛ مبالغةً في التبرُّؤِ منهم[٢]؛ فإنَّ قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أفاد تأكيدًا لجملة ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ أيضًا[٣].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٤).

الآيات (٨٠ - ٨٢)

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ ﴾: أي: غالَبُوه وجادَلُوه وخاصَموه، والمُحاجَّة: أنْ يَطْلُبَ كلُّ واحدٍ أن يَرُدَّ الآخَرَ عن حُجَّتِه ومَحَجَّتِه، والحُجَّةُ: البُرهانُ والسُّلطانُ، وأَصْلُ (حجج): قَصْدُ جادَّةِ الطَّريقِ(٤).

﴿ سُلۡطَٰنٗا ﴾: حُجَّةً، وأصلُه مِن القوَّة والقَهْر(٥).

﴿ يَلۡبِسُوٓاْ ﴾: أي: يَخلِطوا، وأصلُ اللَّبْس: المخالَطَة والمُداخَلَة(٦).

﴿ دَرَجَٰتٖ ﴾: منازلَ يبلُغُها بعمَلِه، وأَصْلُ (درج): يدُلُّ على مُضيِّ الشَّيءِ، والمضيِّ في الشَّيءِ(٧).

---

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٢).

(٧) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٥)،

مُشْكِلُ الإعرابِ:

١- **قوله تعالى**: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾: يُقرأُ بتَشديدِ النُّونِ على إدغامِ نونِ الرَّفْعِ في نُونِ الوِقايةِ، والأصل تُحاجُّونَنِي[(١)]، ويُقرأُ بالتَّخفيفِ على حَذْفِ إحْدى النُّونَينِ، وفي المحذوفَةِ وجهانِ: أحدهما: هي نونُ الوِقايةِ؛ لأنها الزائدةُ التي حصَل بها الاستثقالُ. والثاني: المحذوفةُ نونُ الرَّفْعِ؛ لأنَّ الحاجةَ دعتْ إلى نونٍ مكسورةٍ من أجْلِ الياءِ، ونونُ الرفعِ لا تُكسَرُ[(٢)].

٢- **قوله تعالى**: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾

﴿دَرَجَٰتٖ﴾: منصوبٌ، وعلامةُ نصْبِه الكسرةُ، ويُقْرَأُ بالتَّنوين، وبالإضافةِ؛ فأمَّا على قِراءةِ التنوينِ؛ فـ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ ظرفُ مكانٍ، أي: نَرفَعُ مَن نشاءُ في مراتبَ ومنازِلَ، أو منصوبٌ على حذْفِ حرْفِ الجرِّ، أي: إلى منازِلَ وإلى درجاتٍ. ويجوزُ أن يَنتصبَ على التَّمييزِ، ويكون منقولًا من المفعوليَّةِ، فيَؤُول إلى قِراءةِ الجَماعةِ؛ إذ الأصلُ: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالإضافةِ، ثم حُوِّلَ؛ كقوله: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ [القمر: ١٢] أي: عيونَ الأَرْضِ. و﴿مَّن﴾ على هذا: مفعولٌ به للفِعل ﴿نَرۡفَعُ﴾. أمَّا على قِراءةِ الإضافةِ: (نَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَنْ نَشَاءُ) فـ «دَرجَاتِ» مفعولٌ به لـ ﴿نَرۡفَعُ﴾، ورَفْعُ دَرَجةِ الإنسانِ رَفْعٌ له[(٣)].

((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ١٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

(١) وفيها لغات ثلاثٌ: الفكُّ وتركُهما على حالهما، والإدغام، والحذف، لكنَّها لم تُقْرَأْ إلاَّ بالحذفِ أو الإدغام، وقد قُرئ بهذه اللُّغاتِ كلِّها في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾ [الزمر: ٦٤]. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٥-١٧).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٦-٢٧)، ((الجدول في إعراب القرآن))

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه جادَلَه قومُه في توحيدِه ربَّه، وبراءَتِه من الأصنامِ، فقال لهم: أتجادلونَني في توحيدي لِلَّهِ، وقد هداني سبحانه للحَقِّ، ووفَّقَني لاتِّباعه، ولا أخافُ آلِهَتكم التي تُشْرِكونها مع الله في العبادةِ أنْ توقِعَ بي ضُرًّا، إلَّا أن يريدَ ربِّي شيئًا، أحاط علمُه جلَّ وعلا بكلِّ شيءٍ، أفلا تتذكَّرونَ؟ وكيف أخافُ آلهَتكم التي أشركتموها مع اللهِ، وهي لا تضرُّ ولا تنفَعُ، بينما أنتُم لم تَخافوا مِنَ اللهِ في إشراكِكم معه غيرَه، مِمَّا لم يُعْطِكم عليه حُجَّةً ولا بُرهانًا، وهو القادِرُ على كلِّ شيءٍ؛ فأيُّ الفريقينِ أحقُّ بالأمنِ: مَن وَحَّدَ اللهَ الذي بِيَده الضُّرُّ والنَّفعُ، أو مَن أشرَكَ به مَن لا ينفَعُ ولا يَضُرُّ بلا برهانٍ؟! أخبروني إنْ كنتُم تعلمونَ.

فقال تعالى جوابًا عن سُؤالِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: الذين آمَنوا ولم يَخْلِطوا إيمانَهم بِشِرْكٍ، أولئك هم الذين لهم الأمْنُ، وهم المُوَفَّقونَ لطريقِ الحَقِّ.

ثم أخْبَرَ تعالى أنَّ تلك حُجَّتُه آتاها إبراهيمَ على قَومِه، وأنَّه تعالى يرفعُ مَن يشاءُ درجاتٍ؛ إنَّه حكيمٌ عليمٌ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها:

لَمَّا أَعْلنَ إبراهيمُ- عليه السَّلامُ- مُعتقَدَه لقَومِه، كما في قولِه تعالى على لسانِ إبراهيمَ: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام:

لمحمود صافي (٧/ ٢٠٨).

٧٩]، أخَذُوا في محاجَّتِه[١]؛ قال تعالى:

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾.

أي: وجادَل إبراهيمَ قومُهُ فيما ذهَبَ إليه مِن توحيدِ الله تعالى، وبَراءَتِه من الأصنامِ[٢].

﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾.

أي: أتُجادِلونَني في أمْرِ توحيدي اللهَ تعالى، وعبادَتِه وحْدَه دون ما سِواه، والحالُ أنَّه قد بصَّرَني بالحقِّ، ووفَّقَني لاتِّباعِه[٣]؟

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ﴾.

أي: ولا أرهَبُ آلهتكم التي تَدْعونها من دون اللهِ؛ أن تنالَني بسُوءٍ أو مكروهٍ؛ فهي لا تنفعُ ولا تضرُّ، لكن إذا شاءَ اللهُ تعالى أنْ ينالَني ذلك فسيكونُ؛ فله ما شاء سبحانه، ولا يَضرُّ ولا ينفَعُ إلَّا هو عزَّ وجلَّ[٤].

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۞ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۞ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۞ إِنِّي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٧-٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٢-٤٣٦).

والاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ﴾ منقطعٌ. وهذا اختيارُ ابنِ تيميةَ في ((الإخنائية)) (ص: ٣٤٩)، والشنقيطيِّ في ((العذب النمير)) (١/ ٤٣٣).

تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٣- ٥٦].

﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

أي: أحاط عِلمُ ربِّي سبحانَه بكلِّ شيءٍ؛ فلا تَخفَى عليه خافيةٌ، لا كآلِهَتِكم التي لا تعلَمُ شيئًا[١].

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: أفلا تتَّعِظونَ، فتَعْقِلوا بُطلانَ عِبادَتِكم لآلهَةٍ لا تَقدِرُ على ضُرٍّ ولا على نفْعٍ، ولا تعلَمُ شيئًا، وتعْقِلوا خطأَ تَرْكِكم عِبادةَ مَن خَلَقَكم، وخَلَقَ كلَّ شيءٍ، الذي له القُدرةُ على كلِّ شيءٍ، والعالِم بكلِّ شيءٍ، وتَعلَموا أنَّه المُستَحِقُّ وحْدَه للعبوديَّةِ[٢]؟

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾.

أي: وكيف أَرهَبُ آلهَتكم التي أشركتُموها مع اللهِ، وهي عاجزةٌ لا تضرُّ ولا تنفَعُ، بينما أنتُم لا تخافونَ مِن اللهِ الذي خَلَقَكم ورَزَقَكم، والقادرِ على كلِّ شيءٍ؛ لا تَخافون منه في إشراكِكم به ما لم يُنزِّلْ به عليكم حُجَّةً ولا بُرهانًا[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٥-٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢-٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٦-٤٣٧).

﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فأيُّ الطائفتينِ أجدَرُ بالأمْنِ والسَّلامةِ؛ الذي عبَدَ مَن بِيَدِه الضُّرُّ والنَّفْعُ، أو الذي عَبَد مَن لا يَضُرُّ ولا ينفَعُ بلا دليلٍ؟ فإنْ كنتم تعلمونَ صِدْقَ ما أقولُ لكم، وحقيقَةَ ما أحتجُّ به عليكم، فأجيبوني، وأخْبِروني أيُّ الفريقينِ أحَقُّ بالأمْنِ[1]؟

فقال الله تعالى جوابًا عن سؤالِ إبراهيمَ السَّابقِ، وفاصلًا بين الفريقينِ[2]:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

أي: الذين آمنوا حقًّا، ولم يَخلِطوا إيمانَهم بِشِرْك، هم الآمنونَ من المخاوِفِ في الدارَينِ، السَّالكونَ طريقَ الحَقِّ[3].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضي اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نَزَلَت هذه الآيةُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، شقَّ ذلك على أصحابِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقالوا: أيُّنا لم يَظلِمْ نفسَه؟ فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ليس كما تظنُّونَ، إنَّما هو كما قال لُقمانُ لابنِه: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾))[4].

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٧).

(٢) وممَّن اختار أنَّها خبرٌ مِن الله تعالى: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٣٦٩)، وابنُ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٩، ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٧-٤٣٩).

(٤) رواه البخاري (٦٩٣٧) واللفظ له، ومسلم (١٢٤).

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان إبراهيمُ عليه السَّلامُ قدِ انتصَبَ لإظهارِ حُجَّةِ اللهِ في التَّوحيدِ، والذَّبِّ عنها، وكان التقديرُ- تنبيهًا للسَّامِعِ على حُسْنِ ما مضَى؛ نَدْبًا لتدبُّرِه-: هذِه مقاولةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لأبيه وقوْمِه؛ عَطَفَ عليه قولَه، مُعَدِّدًا وجوهَ نِعَمِه عليه، وإحسانِه إليه، دالًّا على إثباتِ النبوَّةِ بعد إثباتِ الوحدانيَّة[1]، فقال:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

أي: وهذه حُجَّتُنا[2] أَعطَيْناها إبراهيمَ، وألْهَمْناه، وفَهَّمْناه إيَّاها؛ ليُفْحِمَ بها قومَه، فكان ذلك حيثُ قطَعَ عُذْرَهم، وانقطَعَت حُجَّتُهم، وعلَا بذلك عليهم[3].

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

كما رَفَعْنا درجةَ إبراهيمَ في الدُّنيا والآخِرَةِ؛ بما آتيناه من تلك الحُجَّةِ التي صَدَعَ بها بالحَقِّ، وقَهَر بها قومَه، فكذلك نرفَعُ مَن نشاء مَنْحَه العِلمَ والحُجَّةَ، درجاتٍ فوقَ العبادِ[4].

كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦٨).

(٢) اختلَف المفسِّرون في الحُجَّة التي أُوتيَها إبراهيمُ عليه السَّلام؛ فذَهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّها قولُ إبراهيم لقومِه المشركين: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٧٩). وذهَب آخَرون إلى أنَّ الحُجَّة هي المناظرةُ كلُّها، بدءًا مِن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾، وهذا ظاهرُ اختيارِ الواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٦٣)، واختارَه ابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ٣٣٤)، والشِّنقيطيُّ في ((العذب النمير)) (١/ ٤٤٠-٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٤٠-٤٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٤٦-٤٤٧).

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: إنَّ ربَّكَ- يا محمَّدُ- حَكيمٌ في سياسَتِه خَلْقَه، وتلقينِه الحُجَجَ لرُسُلِه، وفي غير ذلك من تدبيرِه، عليمٌ بعاقبةِ رُسُلِه والمُرْسَل إليهم، وهو سبحانه لا يَضعُ العِلمَ والحِكْمَةَ إلَّا في المَحَلِّ اللَّائِقِ بهما، وهو أعلمُ بذلك المَحَلِّ، وبما ينبغي له، فيعلَمُ مَن يستحِقُّ الهدايةَ، فيوفِّقُه ويرفَعُه، ومَن يستحِقُّ الضَّلالَ، فيخْذُلُه[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قولِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى﴾ أثبَتَ لآلِهَتِهم العجزَ بنَفْيِ الخوفِ المستَلزِم لنفيِ القُدرةِ على الضرِّ، وذلك دالٌّ على أنَّ الله تعالى أهلٌ لِأنْ يُخافَ منه، وكلُّ ذلك تلويحًا لهم بأنَّ العاقِلَ لا يَنبغي له أنْ يُخالِفَ إلَّا من يَأمَنُ ضُرَّه، فهم في مخالفَتِهم للهِ في غايةٍ من الخَطَرِ، لا يرتكِبُها عاقلٌ[2].

٢- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ لهم الأمنُ مِن المخاوفِ والعذابِ والشَّقاءِ، والهدايةُ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ، فإن كانوا لم يلبِسوا إيمانَهم بظُلْمٍ مطلقًا، لا بِشِرْكٍ، ولا بمعاصٍ، حصَل لهم الأمنُ التامُّ، والهدايةُ التامَّةُ. وإنْ كانوا لم يَلبِسوا إيمانَهم بالشِّرْك وحْدَه، ولكنَّهم يَعملونَ السيِّئاتِ، حصَل لهم أصلُ الهِداية، وأصلُ الأمنِ، وإنْ لم يحصُلْ لهم كمالُها، ومفهومُ الآيةِ الكريمةِ أنَّ الذين لم يحصُلْ لهم الأمرانِ، لم يحصُلْ لهم هدايةٌ ولا أمْنٌ، بل حظُّهُم الضَّلالُ والشَّقاءُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٠-٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ فيه أنَّ المُحاجَّةَ في اللهِ تارةً تكون موجِبَةً للمَدْحِ العظيمِ، والثَّناءِ البالغِ، وهي المُحاجَّة التي ذَكَرها إبراهيمُ عليه السَّلام، وذلك المَدْحُ والثَّناء هو قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾، وتارةً تكون موجِبَةً للذَّمِّ، وهو قوله: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾، ولا فَرْقَ بين هذينِ البابَينِ إلَّا أنَّ المُحاجَّةَ في تقريرِ الدِّينِ الحَقِّ توجِبُ أعظَمَ أنواعِ المدحِ والثَّناءِ، والمحاجَّة في تقريرِ الدِّين الباطِلِ تُوجِبُ أعظَمَ أنواعِ الذَّمِّ والزَّجْر[1].

٢- قال تعالى حاكيًا عن إبراهيمَ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا﴾ إنَّما ذكَر عليه السَّلامُ هذا الاستثناءَ؛ لأنَّه لا يَبعُدُ أنْ يَحدثَ للإنسانِ في مستقبلِ عُمُرِه شيءٌ من المكارِهِ، والحمقى مِن النَّاسِ يحملون ذلك على أنَّه إنَّما حدث ذلك المكروهُ بسبب طعْنِه في الأصنامِ، فذكر إبراهيمُ- عليه الصلاة والسَّلام- ذلك حتى لو أنَّه حدث به شيءٌ من المكاره لم يُحمَلْ على هذا السَّبَب[2].

٣- في قول إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا﴾ لَمَّا كان المحذورُ المنفيُّ هنا إنَّما هو خوفُ الضَّرَرِ من آلهَتِهم، وكان حصولُ الضَّرَر لمُخالِفِها بواسطة أتباعِها أو غيرِهم مِن سُنَنِ الله الجاريةِ في عباده؛ اقتصر الخليلُ عليه السَّلامُ على صفة الربوبيَّةِ المقتَضِيَة للرَّأفةِ والرَّحْمةِ والكفاية والحمايةِ، وقد وقع في قِصَّتِه الأمران: إمكانُهم من أسبابِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٥٦).

ضَرَرِه بإيقادِ النَّارِ، وإلقائِهم له فيها، ورحمته بِجَعْلِها عليه بردًا وسلامًا[١].

٤- ذَكَرَ تعالى عَقِيبَ الاستثناءِ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـًٔا﴾ سَعَةَ عِلْمِ الله في تعلُّقِه بجميعِ الكوائنِ في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾؛ فقد لا يُستبعَدُ أن يتعلَّقَ عِلْمُه بإنزالِ المَخُوفِ بي، إمَّا من جِهَتِها إن كان استثناءً متَّصلًا أو مُطْلَقًا إن كان منقطِعًا[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فيه تنبيهٌ لهم على غَفلَتِهم- حيثُ عبَدوا ما لا يضرُّ ولا ينفَعُ، وأشركوا بالله- وعلى ما حاجَّهُم به؛ من إظهارِ الدَّلائلِ التي أقامَها على عَدمِ صلاحِيَّةِ هذه الأصنامِ للرُّبوبيَّة[٣].

٦- فائدةُ عَطْفِ قَولِه تعالى: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ﴾ على قوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ بيانُ أنَّ عدمَ خَوفِه من آلهَتِهم أقلُّ عَجَبًا مِن عَدَمِ خَوْفِهم مِنَ الله تعالى، وهذا يؤذِنُ بأنَّ قَومَه كانوا يَعرِفونَ الله، وأنَّهم أشركوا معه في الإلهيَّة غيرَه؛ فلذلك احتجَّ عليهم بأنَّهم أشركوا بربِّهم المُعْتَرف به دون أن يُنْزِلَ عليهم سلطانًا بذلك[٤].

٧- قال تعالى: ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم﴾ ولم يَقُلْ: (ولا تخافون الله)؛ لأنَّ القومَ كانوا يَعرفونَ اللهَ ويخافونَه، ولكنَّهم لم يخافوا الإشراكَ به[٥].

٨- قوله تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ لَمَّا خوَّفوه في مكانِ الأَمْنِ، ولم يخافوا في مكانِ الخَوْفِ؛ أبرَزَ الاستفهامَ في صورةِ الاحتمالِ،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٣١).

وإن كان قد عُلِم قطعًا أنَّه هو الآمِنُ لا هُم[١].

٩- قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ ورَدَ تَفسيرُ الظُّلمِ في هذِه الآيةِ بالشِّركِ؛ وذلِك أنَّ الشِّركَ جمَعَ بين الاعترافِ للهِ بالإلهيَّةِ، والاعترافِ لغيرِه بالرُّبوبيَّة أيضًا، ولَمَّا كان الاعترافُ لغيرِ اللهِ تعالى بذلك ظلمًا، كان إيمانُهم باللهِ مَخلوطًا بظُلمٍ، وهو إيمانُهم بغيرِه[٢].

١٠- فَرَّقَ بعضُهم بين الأمْنِ والأمَنَة، فقالوا: الأمنُ يكونُ مع زوالِ أسبابِ الخوف، كقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾، والأمَنَةُ تكونُ مع بقاءِ أسبابِ الخَوفِ، كقَولِه تعالى: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾[٣] [الأنفال: ١١].

١١- خصَّ اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالمخاطَبَةِ باسمِ الإحسانِ (رَبَّكَ) في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ تَنبيهًا على أنَّ حَجْبَه الدَّليلَ عمَّن يَشاءُ لِحِكَمٍ أرادها سبحانه، ففيه تسليةٌ له صلَّى الله عليه وسلَّم[٤].

١٢- قوله تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ مَن عَلَّمَه اللهُ الحُجَجَ، ومُناظراتِ الخُصومِ التي يُثْبِت بها التوحيدَ، ويدفَعُ بها شُبَهَ المُبْطِلينَ؛ أنَّ هذا رَفْعٌ من الله في درجاتِه؛ حيث أَتْبَعَ قولَه: ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أتبعَه بقوله: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾[٥].

١٣- العِلمُ يَرفَعُ اللهُ به صاحِبَه فوق العبادِ دَرَجاتٍ، خصوصًا العالِمَ العامِلَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٠، ٥٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨٩).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦٩).
(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٤٦).

المُعَلِّمَ؛ فإنَّه يجعَلُه اللهُ إمامًا للنَّاسِ، بحَسَبِ حالِه؛ تُرمَقُ أفعالُه، وتُقتَفى آثارُه، ويُستضاءُ بِنورِه، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ كما رَفَعْنا درجاتِ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- في الدُّنيا والآخرةِ[١].

١٤- دلَّ قولُه: ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ على أنَّ التكريمَ لا يكونُ لكُلِّ أحدٍ؛ لأنَّه لو كان حاصلًا لكُلِّ النَّاسِ لم يحصُلِ الرَّفْعُ ولا التفضيلُ[٢].

١٥- قُدِّمَ ﴿حَكِيمٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾؛ لأنَّ هذا التفضيلَ مُظهِرٌ للحِكمةِ، ثمَّ عَقَّبَ بـ﴿عَلِيمٌ﴾؛ ليشيرَ إلى أنَّ ذلك الإحكامَ جارٍ على وَفْقِ العِلْمِ[٣].

بلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾

حُذِفَ مُتعَلِّقُ (حاجَّهُ) لدلالةِ المقام، ودلالةِ ما بعده عليه مِن قَوْلِه: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ الآيات[٤].

- قوله: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ الاستفهامُ للإنكارِ عليهم، وتأييسٌ من رجوعِه إلى معتقَدِهم[٥].

- قوله: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ حال من ياءِ المتكلِّم في ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى﴾ مؤكِّدةٌ للإنكارِ؛ فإنَّ كونَه عليه السَّلامُ مَهدِيًّا من جهةِ الله تعالى ومؤيَّدًا من عنده ممَّا يوجِبُ استحالةَ مُحاجَّتِه عليه السَّلامُ، أي: لا جدوى لِمُحاجَّتِكم إيَّاي بعد أنْ هداني

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٢٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٢٧).

اللهُ إلى الحقِّ، وشأنُ الحالِ المؤكِّدةِ للإنكارِ أن يكونَ اتِّصافُ صاحِبِها بها معروفًا عند المخاطَبِ؛ فنزَّلَهم إبراهيمُ عليه السَّلامُ في خطابِه منزلةَ مَن يعلمُ أنَّ اللهَ هداه؛ كنايةً على ظهورِ دلائلِ الهدايةِ[١].

٢- قوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

- قوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ إمَّا معطوفٌ على ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ فيكونُ إخبارًا، أو على جملةِ ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ فيكونُ تأكيدًا للإنكارِ، وتأكيدُ الإنكارِ بها أظهر منه لقوله: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾؛ لأنَّ عدمَ خوفِه من آلِهَتِهم قد ظهرتْ دلائِلُه عليه، فقومه إمَّا عالِمون به، أو مُنَزَّلون منزلةَ العالِمِ[٢].

- في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا﴾ توكيدُ الفعلِ ﴿يَشَآءَ﴾ بقوله: ﴿شَيۡـٔٗا﴾، وهو مَنصوبٌ على أنَّه نائبٌ عن المصدَرِ، أي: مَشيئةً؛ تقديرُه: إلَّا أنْ يَشاءَ ربِّي شيئًا مِنَ المَشيئةِ؛ لأنَّ الكلامَ المؤكَّد أقْوَى وأثبَتُ في النَّفْسِ من غيرِ المؤكَّدِ[٣].

- قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا﴾ استثناءٌ مِمَّا قبله؛ فإنَّه لَمَّا نفَى أنْ يكونَ يَخافُ إضرارَ آلِهَتِهم، وكان ذلك قدْ يَتوهَّم منه السَّامعونَ أنَّه لا يَخافُ شيئًا، استدرَكَ عليه بما دَلَّ عليه الاستثناءُ المنقَطِع، أي: لكنْ أخافُ مَشيئةَ ربِّي شيئًا مِمَّا أخافُه، فذلِك أخافُه، وفي هذا الاستدراكِ زِيادةُ نكايةٍ لقومِه؛ إذ كان لا يَخافُ آلِهَتهم في حين أنَّه يَخْشَى ربَّه المُستَحِقَّ للخَشيةِ إنْ كان قومُه لا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٨).
(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢١).

يَعترِفون بربٍّ غيرِ آلهتِهم[١].

- قوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ استفهامٌ معناه الإنكارُ عليهم؛ لعَدَمِ تذكُّرِهم، مع وُضوحِ دَلائلِ التذكُّرِ، والمرادُ التذكُّر في صِفاتِ آلهتِهم المنافِيَةِ لِمَقامِ الإلهيَّةِ[٢].

٣- **قوله:** ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

- الاستفهامُ بـ﴿كَيْفَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ تعجُّبيٌّ مِن تخويفِهم إيَّاه بما لا يُخيف؛ فمعناه التعجُّبُ، وإنكارُ الوقوعِ، ونَفْيُه بالكليَّة، كأنَّه تعجَّبَ من فَسادِ عُقولِهم؛ لأنَّهم دَعَوْه إلى أنْ يَخافَ بأسَ الآلهةِ؛ حيثُ خوَّفوه خَشَبًا وحِجارةً، لا تضرُّ ولا تنفَعُ، وهم لا يَخافونَ عُقْبى شِرْكِهم باللهِ، وهو الذي بيدِه النَّفْعُ والضُّرُّ، والأمرُ كلُّه[٣].

- وقد حَذَفَ متعلَّقَ الشِّرْك في مَقامِ إنكارِ خوفِه من شركائِهم، وذَكَرَه بعدَه في مقامِ إنكارِ عَدَمِ خَوْفِهم مِن شِرْكِهم؛ فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾؛ لأنَّ الحاجةَ إلى بَيانِ عَدَمِ وجودِ السُّلطانِ -أي الدَّليل- على هذا الشِّرْك إنَّما يُحتاجُ إليه في مقامِ إسنادِه إليهم، والتعجُّبِ مِن عَدَمِ خَوفِهم سوءَ عاقِبَتِه، ما لا يُحتاجُ إليه في مقامِ إنكارِه هو كلَّ حالٍ يُمكِنُ أن تُدعَى لخَوفِه من شركائِهم، فهو يُثْبِت بذلك الإطلاقِ أنَّه لا يُمكِن أن توجَدَ حالٌ ولا صفَةٌ للخوفِ مِمَّا أشركوه، فلو عَدَلَ عنه إلى تقييدِ إنكاره بما ذُكِرَ؛ لَفاتَ بهذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨١).

القَيدِ ذلك العمومُ البليغُ، وذهَبَ ذِهْنُ السَّامعين إلى أنَّه سيخاف إذا ظهَرَ له دليلٌ على صحَّةِ دعواهم، وهم قومٌ مُقَلِّدون يعتقدونَ أنَّه لا بدَّ من وجود أدلَّةٍ تُثْبِت صحَّةَ اعتقادِهم، وإن لم يَعْرِفوها أو يَقْدِروا على بيانِها لِخَصْمِهم، وأمَّا ذِكْر هذا المتعَلَّق في مقامِ الإنكارِ التعجُّبي مِن عَدَمِ خَوْفِهم فهو ضروريٌّ، لأنَّه تذكيرٌ لهم عند ذِكْر عقيدَتِهم بأنَّهم لا عُذْرَ لهم بالجَهْلِ ببطلانِها؛ لأنَّه لا دليلَ لهم عليها[1].

- قوله: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ الاستفهامُ للتَّقريرِ بأنَّ فريقَه هو وحْدَه أحقُّ بالأمْنِ[2].

- وقال: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ولم يقل: (فأيُّنا أحقُّ بالأمْن أنا أم أنتُم)؛ احترازًا مِن تزكيَتِه نفسَه، فعدَل عنه إلى قولِه: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ يعني: فريقَي المشركين والموَحِّدينَ، ويحتمل أن يكونَ العدولُ إلى ذلك؛ ليعُمَّ بالأمنِ كلَّ موحِّدٍ، وبالخوفِ كلَّ مُشْركٍ، ويندرجُ هو في حُكم الموحِّدينَ، وقومُه في حُكْمِ المشركينَ؛ فتكونُ نكتةُ عُدولِه عن قولِ: (فَأَيُّنَا أحقُّ بالأمْنِ)، إلى قَوْلِه: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ هي بيانَ أنَّ هذِه المقابَلَةَ عامَّةٌ لكُلِّ موحِّدٍ ومُشْرِكٍ، منْ حيثُ إنَّ أحَدَ الفَريقينِ مُوَحِّدٌ والآخَرَ مُشرِكٌ، لا خاصَّةً به وبهم؛ فهي متضمِّنةٌ لعِلَّةِ الأَمنِ، وأحسنُ الجوابِ ما أفادَ وزاد[3].

وقيل: إنَّ اسمَ التَّفضيلِ ﴿أَحَقُّ﴾ على غَيرِ بابِه؛ فالمرادُ أيُّنَا الحقيقُ بالأَمْنِ، ولكنَّه عبَّرَ باسمِ التَّفضيلِ ناطقًا في استنزالِهم عن مُنتهى الباطِلِ -وهو ادِّعاؤُهم أنَّهم هم الحقيقونَ بالأمْنِ، وأنَّه هو الحقيقُ بالخوف- إلى الوَسَطِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨٢).

النَّظريِّ بين الأمرَينِ، وهو (أيُّ الفَريقينِ أحقُّ)، واحترازًا عن تَنفيرِهم من الإصغاءِ إلى قولِه كُلِّه[١]، وإنَّما جِيءَ بصِيغة التَّفضيلِ ﴿أَحَقُّ﴾ المُشعِرَةِ باستحقاقِهم له في الجُملةِ؛ لاستنزالِهم عن رُتبةِ المكابرةِ والاعتِساف، بسَوْقِ الكلامِ على سَننِ الإنصاف[٢].

٤- قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ على القولِ بأنَّ هذه الجُملةَ مِن حِكايةِ كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فيكون جوابًا منه عن قولِه: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِ﴾؛ تولَّى جوابَ استفهامِه بنَفْسِه، ولم يَنتظرْ جوابَهم؛ لكونِ الجوابِ ممَّا لا يَسعُ المسؤولَ إلَّا أن يُجيبَ بمِثْله، وهو تبكيتٌ لهم. وعلى القول بأنَّه كلامٌ مُستأنَفٌ مِن الله تعالى؛ لابتداءِ حُكمٍ، فتكونُ الجملةُ مُستأنفةً استئنافًا ابتدائيًّا؛ تصديقًا لقولِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[٣].

- والإشارة بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾؛ للتَّنْبيهِ على أنَّ الموصولَ المُسْنَدَ إليه ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ جَدِيرٌ بالمُسْنَدِ في ﴿لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ مِن أجْلِ ما تقدَّمَ من أوصافِ المُسْنَدِ إليه، وهو وصْفُهم بالإيمانِ الخالِصِ عن شَوْبِ الشِّركِ ﴿ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾، وإيذانًا بأنَّهم تميَّزوا بذلِك عن غيرِهم، وانْتَظَموا في سلكِ الأمور المشاهَدة[٤].

- وما في الإشارةِ بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن معنى البُعدِ؛ للإشعارِ بعُلوِّ درجتِهم، وبُعدِ منزلتِهم في الشَّرفِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣١- ٣٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٦).

- وقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ أشارَتِ اللامُ إلى أنَّ الأمْنَ مُختصٌّ بهم وثابتٌ، وهو أبلغُ مِن أن يُقالَ: آمنونَ[١].

٥- قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

- قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: أضاف الحُجَّةَ إليه تعالى على سَبيلِ التَّشريفِ، ولِلتَّنويهِ بِشَأنِها وَصِحَّتِها[٢].

- قوله: ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ فيه تشبيهُ الغالِبِ بالمستعْلِي، المتمكِّنِ مِن المغلوبِ[٣].

- قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فيه إيثارُ صيغةِ الاستقبالِ ﴿نَرْفَعُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك سُنَّةٌ مستمِرَّةٌ جارِيَةٌ فيما بين المُصطَفَينَ الأخيارِ، غيرُ مختصَّةٍ بإبراهيمَ عليه السَّلامُ[٤].

- وعلى قراءة (يَرْفَعُ) بالياء، يكون فيه التفاتٌ[٥].

- وتقديمُ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ وتأخيرُ المفعولِ ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ للاعتناءِ بالمقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ[٦].

- والإتيانُ بصيغَةِ الجَمعِ في ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ باعتبارِ صَلاحِيَّةِ ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ لأفرادٍ كثيرينَ، متفاوِتينَ في الرِّفعةِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٦).

- قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قَوْلَه: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ يُثير سؤالًا، يقول: لِماذا يُرفَعُ بعضُ النَّاسِ دون بعضٍ، فأُجِيبَ بأنَّ اللهَ يَعلمُ مُستحِقَّ ذلك ومِقدارَ استحقاقِه، ويخلُقُ ذلك على حَسَب تعلُّق عِلْمِه[1].

- ويحتملُ أنْ يكونَ الخِطابُ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويحتَملُ أنْ يكونَ المرادُ به إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فيكونُ من بابِ الالْتِفاتِ، ويكونَ الخروجُ مِن ضميرِ الغَيبةِ إلى ضميرِ الخِطابِ على سبيلِ التَّشريفِ بالخِطابِ[2].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٣).

الآيات (٨٤ - ٩٠)

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾: أي: أولادِهم، وأولادِ أولادِهم، و(ذُرِّيَّة) مأخوذةٌ مِن (ذَرَأَ)، أي: خَلَق؛ لأنَّ الذُّرِّيَّة خَلْقُ اللهِ؛ يُقال: ذَرَأ اللهُ الخَلْقَ، أي: خَلَقَهم فهو يَذْرَؤُهم، وتُرِكتِ الهَمزةُ فيها؛ لكثرةِ ما يُتكلَّم بِها[1].

﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾: اصطفَيناهم، وخصَّصْناهم بالفَضْل، والاجتباءُ: الجمعُ على طريقِ الاصطفاءِ، وأصلُ (جبي): يدلُّ على جمعِ الشَّيءِ، والتجمُّعِ[2].

﴿لَحَبِطَ﴾: أي: بَطَل؛ فالحَبَط: البُطلانُ والألَم، وأصْلُه: أن تُكْثِرَ الدابَّةُ أكلًا حتى ينتفِخَ بطنُها، فتموتَ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)،

﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾: أي: الفَهمُ بالكِتابِ، ومعرفةُ ما فيه مِن الأحكامِ، وأصل (حكم): منْعٌ يُرادُ به إصلاحٌ، وهو المنعُ مِن الظُّلم، ومنه سُمِّي العَقلُ حَكَمةً؛ لأنَّه يمنعُ صاحبَه مِن الجَهلِ، والمنعُ جزءٌ مِن معنى الإحكامِ لا جميعُ مَعْناه[1].

﴿ٱقۡتَدِهۡ﴾: أي: اهتَدِ واتَّبِعْ، واعْمَلْ وخُذْ به واسْلُكْه، وأصلُ (قدو): اقتباسٌ بالشَّيءِ واهتداءٌ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُخْبِر تعالى أنَّه وَهَب لإبراهيمَ ابنَه إسحاقَ، وابنَ ابنِه يعقوبَ، وقد هداهم كلَّهم إلى الصِّراطِ المستقيمِ، ونوحًا هداه اللهُ من قبلهم، وهدى مِن ذُرِّيَّتِه داودَ، وسليمانَ، وأيُّوبَ، ويوسُفَ، وموسى، وهارونَ؛ عليهم السَّلامُ، وكما جزى اللهُ هؤلاء الرُّسُلَ فوفَّقَهم للصِّراطِ المُستقيمِ، فسيَجزي هذا الجزاءَ كُلَّ مَن أحسَنَ عَمَلَه للهِ.

وهدَى سبحانه وتعالى زكريَّا ويَحيَى وعيسى وإلياسَ، وكلُّ هؤلاءِ مِن الصَّالحينَ، وإسماعيلَ واليَسَعَ ويونُسَ ولوطًا هداهم كذلِك، وكُلًّا فَضَّلَهم اللهُ على العالَمينَ.

وهدَى الله أيضًا بعضًا مِن آباءِ مَن تقدَّم ذِكْرُهم من الأنبياءِ والمُرسَلينَ، وبعضَ ذُرِّيَّاتِهم، وبعضَ إخوانِهم، واصطفاهم واختارَهم لِدِينِه، وهداهم إلى الصِّراطِ المُستقيمِ.

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٨)، ((الإكليل في المتشابه والتأويل)) لابن تيمية (ص: ١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣).

ذلك الهُدى الذي هدى اللهُ به من تقدَّمَ ذِكْرُهم هو هُدى اللهِ، الذي لا هُدى إلَّا هُداه، فيوفِّقُ لإصابَةِ الحَقِّ من يشاءُ مِن عِبادِه، ولو أشرك هؤلاءِ الأنبياءُ والمُرْسَلونَ بالله تعالى غَيرَه، لبَطَلَ وذَهَبَ عنهم أجْرُ ما عَمِلوه من الخَيرِ.

ثم أخبرَ تعالى أنَّ هؤلاءِ الأنبياءَ والرُّسُلَ المذكورينَ همُ الذينَ أعطاهم الكتبَ المنزلةَ عليهم، ومعرفةَ ما فيها مِن أحكامٍ، والنبوَّةَ، فإنْ يكفُرْ بها هؤلاءِ من كفَّارِ قريشٍ وغيرِهم مِن سائِرِ أهْلِ الأَرضِ؛ فقد وكَّلَ اللهُ تعالى بها قومًا آخَرينَ وَفَّقَهم للإيمانِ بها.

ثم بيَّنَ تعالى أنَّ أولئك الأنبياءَ والرُّسُلَ همُ الذين هداهُم اللهُ لدِينِه الحَقِّ، والقيامِ به واتِّباعِه، وأمَرَ نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَقتدِيَ بهداهم، وأنْ يقول للمُشركينَ: لا أسألُكم على تبليغي إيَّاكم الدِّينَ أجرًا، إنْ هو إلَّا تذكيرٌ وعِظَةٌ للعالَمينَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عبدَه وخليلَه، إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وذَكَر ما مَنَّ اللهُ عليه به؛ من العِلْم والدَّعوةِ، والصَّبْر- ذَكَرَ ما أكرَمَه اللهُ به من الذُّرِّيةِ الصَّالحَةِ، والنَّسْل الطيِّبِ، وأنَّ اللهَ جَعَلَ صفوةَ الخَلقِ مِن نَسْلِه، وأَعْظِمْ بهذه المنقَبَةِ والكرامَةِ الجسيمةِ، التي لا يُدْرَكُ لها نظيرٌ[1]! فقال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣).

أي: مَنَحْنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ ابنَه إسحاقَ وابنَ ابنِه يعقوبَ، وقد هَدَيْنا جميعَهم الصِّراطَ المستقيمَ، ووفَّقْناهم للحَقِّ القويمِ[(١)].

كما قال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا * وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٩-٥٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾ [هود: ٧١].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ * إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ * وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ [ص: ٤٥-٤٧].

﴿ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُ ﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ شَرَفَ أبناءِ إبراهيمَ، ذَكَرَ شَرَفَ آبائِه؛ فذكَرَ نوحًا[(٢)]، فقالَ:

﴿ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُ ﴾.

أي: وهَدَينا نوحًا مِن قبلِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، فوفَّقناهُ للحَقِّ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٠-٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٣-٤٥٤).

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

أي: وهَدَيْنا أيضًا من ذريَّةِ نوحٍ دَاودَ وسُليمانَ وأيُّوبَ ويوسُفَ وموسى وهارونَ، عليهم السَّلامُ[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: وكما جَزَيْنا هؤلاءِ الرُّسُلَ الكِرامَ، فوفَّقناهم لطريقِ الصَّوابِ؛ لحُسْنِ طاعَتِهم إيَّانا، وصَبْرِهم على الْمِحَن فينا، كذلك نَجزي بهذا الجزاءِ الحَسَنِ كلَّ مَن أحسَنَ عَمَلَه لله تعالى، فنجعَلُ له أيضًا من التَّوفيقِ، وإصابَةِ الحَقِّ، والثَّناءِ الجميلِ، والذريَّةِ الصَّالحةِ، بحَسَب إحسانِه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧].

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٥﴾.

أي: وهدَيْنا للحَقِّ أيضًا زكريَّا ويحيى وعيسى وإلياسَ، وهؤلاءِ من الصَّالحينَ في نِيَّاتِهم وأخلاقِهم، وأعمالِهم وعُلومِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨١-٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٧-٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٥-٤٥٧).
واختار أنَّ الضميرَ في ﴿ذُرِّيَّتِهِ﴾ يعودُ على نوحٍ عليه السَّلام: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٣٨١-٣٨٢)، وابنُ عطيةَ في ((تفسيره)) (٢/ ٣١٦)، وابنُ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٧/ ٣٣٨).
وممن قال من السَّلف بذلك: ابنُ عبَّاس، ومقاتلٌ. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٥٠).
واختار أنَّ الضمير يعودُ على إبراهيمَ عليه السَّلام: القرطبي في ((تفسيره)) (٧/ ٣١).
وممن قال مِن السَّلف بذلك: عطاءٌ، ويحيى بنُ يعمرَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٣٣٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٧-٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٢-٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٢).

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٦﴾.

أي: وهدَيْنا للحَقِّ أيضًا إسماعيلَ والْيَسَع ويونُسَ ولوطًا، وفضَّلناهم على العالَمينَ في أزمانِهم[١].

﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نَصَّ اللهُ سبحانه على مَن ذَكَر من الأنبياءِ عليهم السَّلام، وخَتَم بتفضيلِ كلٍّ على العالَمينَ- أتبَعَه على سبيلِ الإجمالِ أنَّ غيرَهم كان مَهدِيًّا، فرَغَّبَ في سلوكِ هذا السَّبيلِ بكثرَةِ سالِكيه، وحَثًّا على منافَسَتِهم في حُسنِ الاستقامةِ عليه، والسُّلوكِ فيه[٢].

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى هؤلاءِ الرُّسُلَ الكِرامَ، ذَكَرَ أنَّه هدى بعضَ أُصولِهم وفُروعِهم وبَعضَ حواشِيهم[٣]، فقال:

﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧﴾.

أي: وهَدَيْنا أيضًا بعضَ آباءِ مَن تقدَّم ذِكْرُهم؛ من الأنبياءِ والرُّسُلِ الكرامِ عليهم السَّلامُ، وهدَيْنا بعضَ ذُرِّيَّاتهم، وبعضَ إخوانِهم، واختَرْناهم لِدينِنا، وإبلاغِ رِسالَتِنا إلى من أَرْسَلْناهم إليه، وسدَّدْناهم، فأرشَدْناهم إلى طريقِ الحقِّ الذي لا عِوَجَ فيه، والدِّينِ الخالِصِ الذي لا شِرْكَ فيه، فوفَّقناهم لاتِّباعِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٤-٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٢-٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٥-٣٨٦)، ((الوجيز)) للواحدي (٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٤٩-٣٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٦-٤٦٧).

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨﴾.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: هذا الهُدى الذي هُدِيَ به أولئك الأنبياءُ والرُّسُلُ، فوُفِّقُوا للحَقِّ، هو هُدَى اللهِ الذي لا هُدَى إلا هُداه، فيُوفِّقُ لإصابةِ الحَقِّ مَن يَشاءُ اللهُ هدايَتَه من عبادِه[1].

﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ولو أنَّ هؤلاء الأنبياءَ والرُّسُلَ الكِرامَ الذين هداهم اللهُ أَشْرَكوا بِرَبِّهم سبحانه وتعالى- على سبيلِ الفَرْضِ والتقديرِ- لبَطَلَ وذهب عنهم أجْرُ جميعِ ما عَمِلوه من الخيرِ؛ فاللهُ تعالى لا يَقبَلُ مع الشِّرْك به عملًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ * بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٨).

قال ابنُ كَثير: (وهذا شرْطٌ، والشرْطُ لا يَقتضي جوازَ الوقوع؛ كقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وكقوله: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]، وكقوله: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩).

وقد ذكر بعض أهل العِلم أنَّ حبوطَ عمَلِ المرء مقيَّدٌ بما لو مات على الشِّرك بالله تعالى؛ بدليل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٨-٤٧٠).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ أنَّه تعالى فضَّلَهم واجتباهم وهداهم؛ ذَكَرَ ما فُضِّلوا به[1]، فقال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾.

أي: أولئك الَّذين سَمَّيناهم من الأنبياءِ والرُّسُلِ عليهم السَّلام، هم الذين أعطيناهم الكِتابَ، كصُحُفِ إبراهيمَ، وتوراةِ موسى، وزبورِ داودَ، وإنجيلِ عيسى عليهم السَّلامُ، ومنَحْناهم الفَهْمَ بالكتابِ، ومعرفةَ ما فيه من الأحكامِ، والاطِّلاعَ على دقائِقِه، وأكْرَمْناهم بجَعْلِهم أنبياءَ[2].

﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾.

أي: فإنْ يَكفُرْ- يا محمَّدُ- قومُك مِن كفَّارِ قريشٍ[3] بما آتيناكَ من الكتابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٧٥-٤٧٦).

(٣) واختار أنَّ المراد بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كفارُ قريشٍ: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشورٍ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٧٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (وقد تقصَّيت مواقعَ آيِ القرآنِ فوجدتُه يعبِّر عن مشركي قريشٍ كثيرًا بكلمة (هؤلاء)، كقوله: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ [الزخرف: ٢٩] ولم أرَ مَن نبَّه عليه مِن قبلُ) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٣).

واختار ابنُ عطيةَ والقرطبيُّ أنَّ الإشارةَ تعودُ إلى كفَّار قريشٍ وغيرِهم مِن الكفَّار في عصرِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤).

والحُكْمِ والنبوَّةِ[١]، فقد رزَقْناها قومًا آخرينَ[٢]، وفَّقْناهم للإيمانِ بها، وهيَّأْناهم لها؛ حتى يَقوموا بها، ويُحافِظُوا عليها؛ فيعبُدوني ويوحِّدوني كما ينبغي[٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾.

أي: أولئك الأنبياءُ والرُّسُلُ الكرامُ، هم الذين هداهم اللهُ لِدينِه الحَقِّ، والقِيامِ به، واتِّباعه، فَسِرْ خَلْفَهم- يا محمَّدُ- واتَّبِعْ مِلَّتَهم، واعْمَلْ بما عَمِلوا، وخُذْ سبيلَهم الذي سلكوا[٤].

---

(١) قيل: المرادُ يَكفُرون بهذه الثلاثة، وقيل: يَكفُرون بالنبوَّة، وقيل: يكفرون بالقُرآن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٧٦-٤٧٧).

(٢) قيل: المرادُ بالقوم الآخَرين: الأنبياءُ الثَّمانيةَ عَشَرَ الذين سمَّاهم اللهُ تعالى ذِكرُه في الآياتِ قبلَ هذه الآية. وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) ((٩/ ٣٩٠-٣٩١)، واستظهره الشِّنقيطيُّ في ((العذب النمير)) (١/ ٤٧٨).

وقيل المراد: المهاجِرون والأنصارُ وأتْباعهم إلى يومِ القِيامة. وهذا اختيار ابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٩٩).

وقيل: تَشملُ كلَّ مؤمنٍ آمَن بالله عزَّ وجلَّ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٧٨).

ويرَى الشِّنقيطيُّ أنَّه لا تعارُضَ بين هذه الأقوال، حيث قال: (وهؤلاءِ القومُ المؤمنون- الذين هُم ليسوا بها بكافرين، الذين وكَّلهم الله بالإيمانِ بها- للعلماءِ فيهم أوجهٌ مِن التَّفسير، لا يُكذِّب بعضُها بعضًا) ((العذب النمير)) (١/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٨-٣٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٧٦-٤٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩١-٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٨٠، ٤٨٩).

والهاءُ في قولِه: ﴿ٱقۡتَدِهۡ﴾ هي هاءُ السَّكْت دخلَتْ لتتبيَّنَ بها حركةُ الدَّالِ. يُنظر: ((إعراب ثلاثين سورة)) لابن خالويه (ص: ١٦٤)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٠)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ١٤٠).

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَه تعالى بالاقتداءِ بهُدى الأنبياءِ- عليهم السَّلامُ- المتقدِّمينَ، وكان من جملةِ هُداهم تَرْكُ طَلَبِ الأجرِ في إيصالِ الدِّينِ، وإبلاغِ الشَّريعةِ؛ لا جَرَمَ اقتدَى بهم في ذلك، فقال[1]:

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لِمُشْركي قومِك: لا أسألُكم على تذكيري إيَّاكم، ودعوتي لكم، وإبلاغِكم هذا القرآنَ، أُجْرةً أنالُها منكم[2].

وهذه عادةُ كلِّ الأنبياءِ؛ يُبلِّغونَ العِلمَ من غير أنْ يأخُذوا عليه جُعْلًا؛ ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا﴾ [يس: ٢٠-٢١]، ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡ﴾ [سبأ: ٤٧]، وقد ذكَر اللهُ قَصَص الأنبياءِ في سورةِ الشُّعراء؛ قصَّةَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشُعيبٍ، كلُّ واحدٍ يقولُ: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠]، وذكَرَ عن نوحٍ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، وهذه عادةُ الرُّسُل؛ يُبلِّغون ويبذُلونَ العِلمَ والنَّصائِحَ والخَيرَ مجَّانًا مِن غيرِ عِوَضٍ في ذلك[3].

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وما ودَعْوتي، وتَبليغي القرآنَ الذي جئتُ به، إلَّا تذكيرٌ، وعِظَةٌ للعالَمينَ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٨٠، ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٤-٤٩٥).

فيتذكَّرونَ، ويتَّعظونَ بما فيه من الغرائِبِ والعجائِبِ، فيَرشُدونَ مِنَ العَمَى إلى الهُدى، ومِنَ الكُفْر إلى الإيمان، ويتذكَّرونَ بأْسَ اللهِ أن يحُلَّ بهم، وسَخَطَه أن يَنْزِلَ بهم على شِرْكهم وُكْفِرهم به، ويتذكَّرون ما ينفَعُهم فيفعلونَه، وما يضرُّهم فيترُكونَه، ويتذكَّرون معرفةَ رَبِّهم بأسمائِه وأوصافِه، ويتذكَّرونَ به الأخلاقَ الحميدةَ وما يُوصِلُ إليها، والأخلاقَ الرذيلةَ، وما يُفْضي إليها[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ كان هذا مجازاةً لإبراهيمَ عليه السَّلامُ، حين اعتزَلَ قَومَه وتَرَكَهم، ونَزَح عنهم، وهاجَرَ من بلادهم؛ ذاهبًا إلى عبادَةِ اللهِ في الأرض، فعوَّضَه اللهُ عزَّ وجلَّ عن قومِه وعَشيرَتِه بأولادٍ صالحينَ مِن صُلْبِه على دِينِهِ؛ لَتَقَرَّ بهم عينُه؛ لأنَّه هَجَر الوطنَ للهِ تعالى، وخرَج عن الأَقرباءِ والأحبَّاءِ، وقد أوضَحَ الله ذلك في سورةِ مريمَ؛ حيث قال: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]، ويُفهَم من هذه الآياتِ: أنَّ مَن هَجَر الأوطانَ والأقارِبَ للهِ أقَرَّ اللهُ عينَه مِن ظَهْرِه بما يُسَلِّيه عنهم[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ مَن أحسَنَ العمَلَ لله زادَه اللهُ هُدًى؛ لأنَّ التشبيهَ في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ عائدٌ إلى الهُدى في قوله: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾[٣].

٣- أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى هو المتفَضِّلُ بالهداية على العبادِ؛ يُبَيِّن ذلك قولُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٧)، ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ١٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٨).

تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾[١].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ ابتدأَ سبحانه بهما عليهما السَّلامُ؛ لأنَّ السِّياقَ للامتنانِ على إبراهيمَ الخليلِ عليه السَّلامُ، وهو أشدُّ سُرورًا بابْنِه الذي مُتِّعَ به، ولم يؤْمَر بفراقِه، وابنِ ابنِه الذي أكثرُ الأنبياءِ الدَّاعينَ إلى اللهِ مِن نَسْلِه ومن خواصِّه، وهو الموجِبُ الأعظمُ للبَداءةِ أنَّ أبناءَه طَهَّروا الأرضَ المُقدَّسَة التي هي مُهاجَرُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ومُختارُه للسُّكْنى بنفْسِه ونَسْلِه، بل مُختارُ اللهِ له ولهم بَعْدَه بِمُدَدٍ، طَهَّروها من الشِّرْك وعبادَةِ الأوثانِ، ودَعَوْا إلى الله، ونَوَّروا الأرضَ بعبادَتِه[٢].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ ...﴾ ذَكَر في مَعرِض الامتنانِ مِن أولادِ إبراهيمَ إسحاقَ، ولم يَذكُر معه إسماعيلَ، بل أخَّره عنه بدَرجاتٍ، مع أنَّه أكبرُ منه؛ وذلك لأنَّ المِنَّةَ كانت في هِبةِ إسحاقَ أظهرَ، أو لأنَّ المقصودَ بالذِّكرِ هاهنا أنبياءُ بني إسرائيلَ، وهم بأَسْرِهم أولادُ إسحاقَ ويعقوبَ، وأمَّا إسماعيلُ فإنَّه ما خرج من صُلْبِه أحدٌ من الأنبياءِ إلَّا محمدٌ صلَّى اللهُ عليه وآلِهِ وسَلَّمَ، ولا يجوزُ ذِكْرُ محمَّدٍ عليه الصلاةُ والسَّلامُ في هذا المقامِ، لأنَّه تعالى أمَرَ محمدًا عليه الصَّلاة والسَّلامُ أن يحتَجَّ على العَرَبِ في نَفْيِ الشِّرْكِ بالله بأنَّ إبراهيمَ لَمَّا تَرَكَ الشِّرْك، وأصَرَّ على التوحيدِ رَزَقَه اللهُ النِّعَمَ العظيمةَ في الدِّينِ والدنيا، ومن النِّعَم العظيمةِ في الدُّنيا أنْ آتاه اللهُ أولادًا كانوا أنبياءَ ومُلوكًا، فإذا كان المحتَجُّ بهذه الحُجَّة هو محمدٌ عليه الصلاةُ والسَّلام امتنع

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٣٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٧٠).

أن يَذْكُرَ نَفْسَه في هذا المَعْرِض؛ فلهذا السَّبَبِ لم يُذْكَر إسماعيلُ مع إسحاقَ[١].

٣- مِن تمام إقرارِ العينِ بالوَلَدِ كونُه صالحًا مَهدِيًّا؛ لأنَّ الوَلَدَ إذا كان غيرَ صالحٍ لم يَكُنْ قُرَّةَ عينٍ، فهِبَتُه والنِّعمةُ به إنَّما تَتِمُّ إذا كان مَهْدِيًّا، لا إنْ كان غيرَ مهدِيٍّ؛ ولذا قال: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾[٢].

٤- في قولِ الله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ إنَّما ذَكَرَ نوحًا؛ لأنَّه جَدُّ إبراهيمَ عليه السَّلام؛ فهو لبيانِ نِعَمِ الله عليه في أفضَلِ أُصولِه؛ تمهيدًا لبيان نِعَمِه عليه في الكثيرِ من فُروعِه[٣].

وأيضًا لَمَّا كانتْ قِصَّةُ نوحٍ شبيهةً بقصَّةِ إبراهيمَ؛ ذَكَرَه معه، وبَيَّنَ أنَّه هَدَى نُوحًا مِنْ قَبْلِ إبراهيمَ، كما هَدَى إِبْرَاهِيمَ؛ لأنَّ نبيَّ اللهِ نوحًا نشأَ في قومٍ يعبدونَ الأصنامَ، وهو أوَّلُ نبيٍّ أُرْسِلَ لقومٍ يَعبدونَ الأصنامَ، وجادلوه جدًّا في الأوثانِ ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣-٢٤]، وكان يُجادِلُهم في عبادةِ الأصنامِ حتى قالوا له: ﴿قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، وكان إبراهيمُ نشأَ في قومٍ يَعبدونَ أجرامَ السَّماءِ وأجرامَ الأَرْضِ كذلك، وخاصَمَهم مثلَ مُخاصَمَةِ نوحٍ[٤].

وأيضًا لَمَّا كان ربَّما وَقَعَ في وَهْمٍ أنَّ هدايةَ كُلٍّ مِن إسحاقَ وابنِه بتربيةِ أبيه، ذَكَرَ من آباءِ الخليلِ نوحًا عليهما السَّلام؛ لدَفْعِ ذلك، ولأنَّ السِّياقَ لإنكارِ الأوثانِ، وهو أوَّلُ من نهى عن عبادَتِها، وهو أجَلُّ آباءِ الخليلِ عليه السَّلامُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨٨).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٧١).

٥- قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ... وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المقصودُ من هذه الآياتِ تعديدُ أنواعِ نِعَمِ اللهِ تعالى على إبراهيمَ عليه السَّلامُ جزاءً على قيامِه بالذَّبِّ عن دلائِلِ التَّوحيدِ[١].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾، (مِن قبلُ) حالٌ من ﴿نوحًا﴾؛ وفائدةُ ذِكْر هذا الحالِ التنبيهُ على أنَّ الهدايةَ مُتأصِّلةٌ في أصولِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ[٢]، وأثْبتَ الجارَّ ﴿مِن﴾ وقطَعَ ﴿قَبْلُ﴾ عنِ الإضافةِ؛ لتراخِي زمانِ إسحاقَ ويعقوب عليهما السَّلامُ كثيرًا عن زمانِ نوحٍ عليه السَّلام[٣].

٧- ذَكَرَ الله تعالى أوَّلًا أربعةً من الأنبياءِ؛ وهم: نوحٌ، وإبراهيمُ، وإسحاقُ، ويعقوبُ، ثمَّ ذَكَر من ذُرِّيَّتِهم أربعةَ عَشَرَ من الأنبياءِ: داودَ، وسُليمانَ، وأيوبَ، ويوسفَ، وموسى، وهارونَ، وزكريَّا، ويحيى، وعيسى، وإلياسَ، وإسماعيلَ، والْيَسَعَ، ويونُسَ، ولوطًا، والمجموعُ ثمانيةَ عَشَر؛ فإنْ قيل: رِعايةُ الترتيب واجبةٌ، والترتيبُ إمَّا أن يُعتبَر بحَسَب الفَضْل والدَّرَجة، وإمَّا أن يُعتبَر بحسَبِ الزَّمانِ والمدَّة، والترتيبُ بحَسَب هذين النَّوعينِ غيرُ مُعتبَر في هذه الآيةِ؛ فما السَّبَبُ فيه؟

فقيل: حرْف الواوِ لا يوجِبُ الترتيبَ، وأحدُ الدَّلائلِ على صِحَّةِ هذا المطلوبِ هذه الآيةُ؛ فإنَّ حرْف الواوِ حاصِلٌ هاهنا مع أنَّه لا يُفيدُ الترتيبَ البتَّةَ، لا بِحَسَب الشَّرَف، ولا بحَسَب الزَّمانِ، وقد يُقالُ: إنَّ هناكَ وجهًا مِن وجوهِ التَّرتيبِ؛ وذلك لأنَّه تعالى خَصَّ كلَّ طائفةٍ من طَوائِفِ الأنبياءِ بنوعٍ من الإكرامِ والفَضْل؛ فمِن المراتبِ المعتبَرة عند جمهورِ الخَلقِ: الملكُ والسُّلْطانُ والقُدرة، واللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٧١-١٧٢).

تعالى قدْ أعطَى داودَ وسُليمانَ من هذا البابِ نصيبًا عظيمًا. والمرتبة الثانية: البلاءُ الشديدُ، والمحنةُ العظيمةُ، وقد خصَّ اللهُ أيُّوبَ بهذه المرتبةِ والخاصيَّة. والمرتبة الثالثة: مَن كان مُستجمِعًا لهاتينِ الحالتَينِ، وهو يُوسفُ عليه السَّلام؛ فإنَّه نال البلاءَ الشديدَ الكثيرَ في أوَّلِ الأمْر، ثم وصَلَ إلى المُلكِ في آخِرِ الأمْرِ. والمرتبة الرابعة: مِن فضائلِ الأنبياءِ عليهم السَّلام وخواصِّهم قوَّةُ المعجزاتِ وكثرةُ البَراهينِ، والمهابةُ العظيمةُ والصولةُ الشَّديدةُ، وتخصيصُ اللهِ تعالى إيَّاهم بالتقريبِ العظيمِ والتكريمِ التامِّ، وذلك كان في حقِّ موسى وهارون. والمرتبة الخامسة: الزُّهدُ الشَّديدُ، والإعراضُ عن الدُّنيا، وذلك كما في حقِّ زكريَّا ويحيى وعيسى وإلْياس. والمرتبة السَّادسة: الأنبياءُ الذين لم يَبْقَ لهم فيما بين الخَلْقِ أتْباعٌ وأشياع، وهم إسماعيلُ واليَسَعُ ويُونُسُ ولُوطٌ؛ فإذا اعتُبِرَ هذا الوجهُ، ظهَرَ أنَّ الترتيبَ حاصلٌ في ذِكرِ هؤلاءِ الأنبياءِ عليهم السَّلام بحسَب هذا الوَجهِ[(١)].

٨- قول الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ اسمَ الذريَّةِ يتناولُ الكِبارَ[(٢)].

٩- قول الله تعالى: ﴿وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ لَمَّا كان يوسُفُ عليه السَّلامُ مِمَّن أعلى اللهُ كَلِمَتَه على كَلمةِ مَلِكِ مِصرَ، وأَعَزَّ مُلْكَها وأهْلَها وأَحياهم به- أتْبعَه مَن أَعْلى اللهُ كَلِمَتَهما على كَلمةِ مَلِكِ مِصرَ وأهْلِها، وأهلَكَهُم بهما، فكأنَّ بعضَ قَصَصِهم وِفاقٌ، وبعضُها تَقابُلٌ وطباقٌ[(٣)].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فيه وصفُهم بالصَّالحين؛ لأنَّهم قد امْتازوا في الأنبياءِ عليهم السَّلامُ بشدَّةِ الزُّهْد

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥٢- ٥٣)، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٣- ٥٧٤).
(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٧٥).

في الدُّنيا والإعراضِ عن لذَّاتها، والرَّغبةِ عن زِينَتِها وَجَاهِها وسُلْطانِها؛ ولذلك خصَّهم هنا بوَصْفِ الصَّالحينَ، وهو أليَقُ بهم عند مُقابَلَتِهم بغَيرِهم، وإنْ كان كلُّ نبيٍّ صالحًا ومُحْسنًا على الإطلاقِ[١].

١١- في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ﴾ قدَّم زكريَّا؛ لأنَّه والِدُ يَحْيى فهو أصلٌ، ويَحيى فرعٌ[٢].

١٢- في قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ بدَأ بزكريَّا ويحيى لسَبْقِهما عيسى في الزَّمانِ[٣]، وابتُدِئَ بعِيسى عَطْفًا على يحيى؛ لأنَّهما قَريبانِ ابنَا خالةٍ، ولأنَّ عيسى رسولٌ، وإِلْياس نَبِيٌّ غيرُ رسولٍ[٤].

١٣- قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في ذِكْر عيسى، عليه السَّلامُ، في ذريَّة نوحٍ، أو إبراهيمَ- على القَوْلِ الآخَرِ بأنَّ الضَّميرَ عائدٌ له- دلالةٌ على دُخولِ وَلَدِ البناتِ في ذريَّةِ الرِّجالِ؛ لأنَّ عيسى عليه السَّلامُ، إنَّما يُنسَب إلى إبراهيمَ عليه السَّلام، بأمِّه مريمَ عليها السَّلام، فإنَّه لا أبَ له؛ فلهذا إذا أوصى الرَّجُل لذُرِّيَّته، أو وَقَفَ على ذرِّيَّته أو وهَبَهم، دخَلَ أولادُ البناتِ فيهم[٥]. ويدلُّ هذا على أنَّ الحَسَنَ والحُسَينَ من ذريَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ عِيسى من ذريَّةِ إبراهيمَ مع أنَّه لا ينتسِبُ إلى إبراهيمَ إلَّا بالأُمِّ، فكذلك الحَسَنُ والحُسينُ من ذريَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم، وإنِ انتسبَا إلى رسولِ اللهِ بالأُمِّ وجَبَ كونُهما مِن

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٨).

ذُرِّيتِه، ويُقال: إنَّ أبا جعفرٍ الباقِرَ استدلَّ بهذه الآيةِ عندَ الحجَّاج بنِ يوسُفَ[١].

١٤- قولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الأنبياءَ أفضَلُ من الأولياءِ، خلافًا لبعضِ مَن ينتمي إلى التَّصوُّفِ في زَعْمِهم أنَّ الوِلِيَّ أفضَلُ من النَّبِيِّ[٢].

١٥- لَمَّا ذَكَر الأنبياءَ قال: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ فبيَّنَ أنَّ حُصولَ الفضيلةِ هو باجتبائِه سبحانه وتعالى للآباءِ والذريَّةِ والإخوانِ، وهدايَتِه إيَّاهم إلى صراطٍ مُستقيم، لا بِنَفْسِ القرابةِ، وقد يُوجِبُ النَّسبُ حقوقًا، ويوجِبُ لأجلِه حقوقًا، ويُعَلِّق فيه أحكامًا من الإيجابِ والتَّحريمِ والإباحة، لكنَّ الثَّوابَ والعقابَ والوَعْدَ والوعيد؛ على الأعمالِ لا على الأنسابِ[٣].

١٦- جاء قولُه ﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ جمعًا؛ لإرادةِ أنَّ الهُدَى تعلَّقَ بذرِّيَّةِ كلِّ مَن له ذريَّةٌ من المذكورينَ؛ للتنبيهِ على أنَّ في هُدى بعضِ الذريَّةِ كرامةً للجَدِّ، فكلُّ واحدٍ من هؤلاء مرادٌ وقوعُ الهُدَى في ذُرِّيَّتِه، وإنْ كانت ذرِّياتُهم راجعينَ إلى جَدٍّ واحدٍ، وهو نوحٌ عليه السَّلامُ[٤].

١٧- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الهُدَى بمشيئةِ اللهِ تعالى[٥].

١٨- قولُه تعالى: ﴿لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ﴾ المقصودُ منه تقريرُ التَّوحيدِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥٣، ٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٠،٤٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٦).
(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٢١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٧).

وإبطالُ طريقةِ الشِّرْك[١].

١٩- في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه تعالى سينصُرُ نبيَّه ويُقَوِّي دِينَه، ويجعَلُه مستَعْليًا على كلِّ من عاداه، قاهرًا لكلِّ مَن نازَعَه، وقد وقَعَ هذا الذي أخبَرَ الله تعالى عنه في هذا الموضِعِ، فكان هذا جاريًا مَجْرى الإخبارِ عن الغيبِ؛ فيكونُ مُعْجِزًا[٢].

٢٠- قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ أي: امْشِ أيُّها الرَّسولُ الكريمُ خلْفَ هؤلاءِ الأنبياءِ الأخيارِ، واتَّبِع مِلَّتَهم، وقد امتثلَ صلَّى الله عليه وسلَّم، فاهتدى بهَدْي الرُّسُلِ قَبْلَه، وجَمَعَ كلَّ كمالٍ فيهم. فاجتمعت لديه فضائِلُ وخصائِصُ، فاق بها جميعَ العالَمينَ، وكان سَيِّدَ المُرسلينَ، وإمامَ المُتَّقين، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعليهم أجمعينَ، وبهذا المَلْحَظ، استدلَّ مَن استدَلَّ من الصحابَةِ أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أفضَلُ الرُّسُلِ كُلِّهِم[٣].

٢١- قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ هي التي أخَذَ منها جماهيرُ العُلماءِ- هي وأمثالها في القرآنِ- أنَّ شَرْعَ مَن قَبْلَنا شَرْعٌ لنا- إنْ ثَبَتَ في شَرْعِنا- إلَّا بدليلٍ يدلُّ على أنَّه ليس شَرْعًا لنا، فإنَّ كلَّ ما أنزَلَه اللهُ عليهم هُدًى، إلَّا ما ثبَتَ نَسْخُه[٤].

٢٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ النبيَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم مبعوثٌ إلى كلِّ أهلِ الدُّنيا لا إلى قومٍ دونَ قومٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٨٠، ٤٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٧٣).

بلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

- قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَا ...﴾ موقِعُ هذه الجملةِ -وإنْ كانت مَعطوفةً- هو موقِعُ التذييلِ للجُمَلِ المقصودِ منها إبطالُ الشِّرْكِ، وإقامَةُ الحُجَجِ على فَسادِه، وعلى أنَّ الصَّالحينَ كُلَّهم كانوا على خِلافِه[١].

- قوله: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ اعتراضٌ، أي: كُلُّ هؤلاءِ هَدَيْناهم؛ يعني: إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، فحُذِفَ المُضافُ إليه لِظُهورِه، وعُوِّضَ عنه التَّنوينُ في ﴿كُلًّا﴾؛ فإنَّه تَنوينُ عِوَضٍ عن المضافِ إليه[٢].

- قوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ استطرادٌ بذِكْرِ بعضِ مَن أنعَمَ اللهُ عليهم بالهدى، وإشارةٌ إلى أنَّ الهدى هو الأصلُ، وقدَّم المفعولَ به (نُوحًا) على الفعل والفاعل ﴿هَدَيْنَا﴾؛ للاهتمامِ[٣].

٢- قوله: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ عبَّرَ بصِيغةِ الافتعالِ في ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾؛ للمبالغةِ، وعَطَفَ قولَه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ على ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ عطفًا يؤكِّدُ إثباتَ هُداهم؛ اهتمامًا بهذا الهُدى، فبيَّن أنَّه هُدًى إلى صراطٍ مُستقيمٍ؛ أي: إلى ما به نوالُ ما يعملُ أهلُ الكمالِ لنَوالِه، فضَرَبَ الصِّراطَ المُستقيمَ مثلًا لذلك؛ تشبيهًا لهيئةِ العامِلِ؛ لينالَ ما يطلُبُه من الكمالِ بهيئةِ السَّاعي على طريقٍ مُستقيمٍ، يُوصِلُه إلى ما سار إليه بدون تردُّدٍ، ولا تحيُّرٍ، ولا ضلالٍ، وذَكَرَ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٣٧- ٣٣٨).

ألفاظِ المركَّب الدَّالِّ على الهَيئةِ المشبَّهِ بها بعضُه، وهو الصِّراطُ المستقيمُ؛ لِدَلالَتِه على جميعِ الألفاظِ المحذوفةِ للإيجازِ(١).

- وفي قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ كرَّر الهدايةَ على سَبيلِ التوضيحِ والبيانِ للهدايةِ السَّابِقَةِ التي هُدُوا إليها -وهي الَّتي في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾- وأنَّها هِدايةٌ إلى طريقِ الحَقِّ المُستقيمِ القويمِ، الذي لا عِوَج فيه، وهو توحيدُ الله تعالى، وتنزيهُه عن الشِّرْكِ(٢).

- وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ المقصودُ مع الثَّناءِ عليهم التعريضُ بالمُشركينَ الذين خالفوا مُعتقَدَهم(٣).

٣- قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فيه تعريضٌ بما عليه المُشْركونَ مِمَّا يزعمونَه هُدًى، ويتلقَّوْنَه عن كُبَرائِهم، وتعريضٌ بالمشركينَ الذين أنكَروا نبوَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم حَسَدًا(٤).

- وقد زاد اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ اهتمامًا بشأنِ الهُدى؛ إذ جُعِلَ كالشَّيءِ المُشاهَد؛ فَزِيدَ بِاسمِ الإشارةِ كمالُ تمييزٍ، وأخبر عن الهُدى بأنَّه ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ لتشريفِ أمْرِه، وبيانِ عِصمَتِه من الخطَأِ والضَّلالِ(٥).

٤- قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٥١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٥٠).

- قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ للتنويهِ بهم، واسمُ الإشارةِ في قَوْلِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لزيادةِ الاعتناءِ بتَمْييزِهم، وإحضارِ سيرَتِهم في الأذهانِ[١].

- قوله: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ أُدخِلَتِ الباءُ في خبرِ (ليس) ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾؛ لتأكيدِ ذلك النَّفيِ، فصار دوامَ نفْيٍ مؤكَّدًا[٢].

٥- **قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾**

- قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ جملةٌ ابتدائيَّةٌ قُصِدَ منِ استئنافِها استقلالُها؛ للاهتمامِ بمَضْمونِها، ولأنَّها وَقَعَتْ موقِعَ التَّكريرِ لمضمونِ الجُملتَينِ اللَّتينِ قَبْلها؛ جملة ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وَجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾[٣].

- وتكريرُ اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لتأكيدِ تمييزِ المُشارِ إليه، ولِما يقتضيه التَّكريرُ من الاهتمامِ بالخَبَرِ[٤].

- وتقديمُ المعْمولِ ﴿بِهُدَاهُم﴾ على عامِلِه ﴿ٱقۡتَدِهۡ﴾؛ للاهتِمامِ، والاعتناءِ بذلك الهُدى[٥]، أو لاختصاصِ طَريقِ أولئك الأنبياءِ وهُداهم بالاقتِداءِ، أي: ولا تَقتدِ إلَّا بهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٩، ٤٢) و(٤/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧١).

وهذا الوجه بناء على أنَّ التَّقديمَ على العامِلِ يُوجِب الاختِصاصَ عند الزَّمخشريِّ ومَن تَبِعه،

- وفيه: تعريضٌ للمُشركينَ بأنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم ما جاء إلَّا على سُنَّةِ الرُّسُل كلِّهم، وأنه ما كان بِدْعًا من الرُّسُلِ[(١)].

- قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ فيه افتتاحُ الكلامِ بِفِعْل ﴿قُل﴾؛ للتَّنبيهِ على أهمِّيَّتِه كما تقدَّمَ في هذه السورةِ غيرَ مَرَّةٍ[(٢)].

- قول الله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾

عبَّر هنا في سُورةِ الأنعام بقوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾، وفي سُورتي يُوسُف والتكوير بقولِه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[يوسف: ١٠٤، التكوير: ٢٧]؛ فورَد الخبرُ بلفظِ التأنيثِ في الأُولى ﴿ذِكۡرَىٰ﴾، والتَّذكيرِ في الثانية ﴿ذِكۡرٞ﴾، مع تذكيرِ المبتدأِ فيهما؛ وذلك لمُناسبةٍ حَسنةٍ، وهي: أنَّ آيةَ الأنعام تقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ فنُوسِب بين قوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ﴾ وبَين ما تَقدَّم، ولم يتقدَّم هنا ما يَستدعي لفظَ التذكير ويُناسِبُه. وأمَّا آيةُ التكوير فلَمَّا تَقدَّمها القَسَمُ على القرآنِ بقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ إلى ما وقَع القَسَمُ به، ثم ورَد ضميرُ المقسَمِ عليه في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، أي: جبريلَ عليه السَّلامُ، ثم أَتْبَع بوصفِه إلى قولِه: ﴿ثَمَّ أَمِينٖ﴾، ثم أَعْقَب ذلك بضَمائرَ جرَتْ على التَّذكير على ما يجِب، ثم قال: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾، والضميرُ للقرآنِ، ولا يُمكن ورودُه خلافَ هذا؛ لمنافرةِ التناسُبِ، ومباعدةِ التَّلاؤُم[(٣)].

ولكنْ أبو حيَّان يَرُدُّ على هذا بأنَّ التقديمَ إنَّما يُفيدُ الاعتناءَ والاهتمامَ بالمُقدَّم. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٩، ٤٢) و(٤/ ٥٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٢-١٦٣).

وقيل: لَمَّا تقدم فِي سورة الأنعام قوله: ﴿بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ ﴿وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ﴾، كَانَ الذِّكرى أليق بهَا؛ فنَاسَبَ ذِكرُه هنا كذلك، ولم يَتقدَّمْ ذلك في سُورةِ يُوسُف ولا سُورةِ التَّكوير[1].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٠ - ١٧١).

الآيتان (٩١-٩٢)

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَمَا قَدَرُواْ﴾: أي: ومَا عظَّموا وَمَا أَجَلُّوا، والقَدْر: مَبلغُ الشَّيءِ وكُنْهُه ونهايَتُه[١].

﴿قَرَاطِيسَ﴾: جمعُ قرطاسٍ، وهو الصحيفةُ أو الورقةُ، أو كلُّ ما يُكتَب فيه[٢].

﴿تُبْدُونَهَا﴾: تُظْهِرونها؛ من البُدُوِّ، وهو ظهورُ الشَّيءِ[٣].

﴿ذَرْهُمْ﴾: أي: اتْرُكْهم ودَعْهم؛ يقال: فلانٌ يذَرُ الشَّيءَ؛ أي: يقذِفُه لِقلَّة اعتداده به[٤].

﴿مُبَارَكٌ﴾: البَرَكَةُ من الزِّيادةِ والنَّماءِ، وهي ثُبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ، والمباركُ ما فيه ذلِك الخيرُ، وأصل (برك): يدلُّ على ثباتِ الشَّيءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٤).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢٧، ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٨).

﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾: أي: مكَّةَ، وأمُّ الشَّيءِ أصلُه ومُقدَّمُه؛ وسُمِّيَت مكَّةُ (أمَّ القرى)؛ لأنَّها أقدَمُها، ولتَقَدُّمِها أمامَ جميعِها، وجَمْعِها ما سواها، وقيل: لأنَّها قِبلَةُ أَهْلِ القُرى ومَحَجُّهم ومُجْتَمَعُهم وأعظَمُ القُرى شأنًا، وقيل: لأنَّ الأَرضَ دُحِيَتْ منها[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّ الذين نَفَوْا أنَّ الله أنزَلَ على بشرٍ شيئًا أنَّهم ما عظَّموا اللهَ حَقَّ تعظيمِه؛ إذ قالوا هذا القولَ، وأَمَرَ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يسألَهم: من أنزَلَ التوراةَ التي أتى بها موسى نورًا وهدًى للنَّاسِ، يَجعلونَها قِطَعًا يكتبونَها بأيديهم، يُظْهِرونها ويُخْفونَ كثيرًا منها، وعَلَّمَهم الله ما لم يكونوا يعلمونَه هم ولا آباؤُهم، ثمَّ أمَرَ اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يقول لهم جوابًا عن ذلك السُّؤالِ: هو اللهُ مَن فعَلَ ذلك، ثم أمَرَه أن يترُكَهم في خَوضِهم يلعبونَ.

ويُخبِر تعالى أنَّ هذا القرآنَ الذي أنزَلَه اللهُ إلى محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مباركٌ، وفيه تصديقٌ لِمَا سَبَقَه من الكُتُب، ولِيُنْذِرَ به النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أهلَ مَكَّةَ ومَن حَوْلها من العَرَب، وسائِرِ البُلدانِ، وبَيَّن تعالى أنَّ كُلَّ الذين يؤمنونَ بقيامِ السَّاعةِ والمَعاد في الآخِرَةِ؛ فإنَّهم يؤمنون بهذا القرآنِ الكريمِ، وهم على أداءِ صلاتهم مُحافِظون.

تفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۗ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٠٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٣٦).

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حَكَى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه ذكَرَ دليلَ التوحيدِ، وإبطالِ الشِّرْك، وقرَّرَ تعالى ذلك الدَّليلَ بالوجوهِ الواضِحَةِ؛ شَرَعَ بعدَه في تقريرِ أَمْرِ النبوَّةِ[١]؛ فقالَ تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾.

أي: وما أَجَلُّوا[٢] اللهَ تعالى حَقَّ إجلالِه، ولا عَظَّموه حقَّ تَعظيمِه، ولا عَرَفوه حقَّ مَعرِفَتِه؛ حين قالوا: لم يُنْزِلِ اللهُ على آدَمِيٍّ كتابًا ولا وَحْيًا؛ فهذا قَدْحٌ في حِكمَتِه، لا يليقُ به، وزعْمٌ بأنَّه يترُكُ عِبادَه سُدًى، لا يأمُرُهم ولا ينهاهم، ولا يجازِيهم، ونَفْيٌ لأعظَمِ نِعمةٍ امتَنَّ اللهُ بها على عبادِه، وهي نعمةُ الرِّسالَةِ، التي لا طريقَ للعبادِ إلى نَيْلِ السَّعادةِ والفلاحِ إلَّا بها[٣].

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ-: مَن أنزَلَ التوراةَ التي جاء بها موسى جَلاءً وضِياءً مِن ظُلْمةِ الضَّلالاتِ والشُّبُهاتِ، وهاديًا للنَّاسِ إلى الصِّراطِ المُسْتقيمِ، عِلْمًا وعَمَلًا بالصَّالحاتِ[٤]؟

﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥٨).

(٢) يحتمِلُ أنَّ الذين فَعَلوا ذلك هم كفَّارُ قُريشٍ، ويَحتملُ أنَّهم اليهودُ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٧-٤٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٣، ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٧-٤٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠١-٥٠٢).

أي: تَجعلونَ التَّوراةَ قِطَعًا تَنْسَخونها بأيديكم، وتَتصَرَّفونَ فيها بما شِئْتم؛ فما وافَقَ أهواءَكم منها أَظْهَرْتموه، وما خالَفَ ذلك أَخْفَيْتُموه وكَتَمتُموه، ومِمَّا كَتَمُوه أمْرُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ونبوَّتِه[1].

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾.

أي: وعلَّمَكم الله عزَّ وجلَّ بواسطةِ القرآنِ العَظيمِ ما لم تكونوا تَعلمونَه أنتم، ولم يَعْلَمْه آباؤُكم؛ كأخبارِ ما سَبَقَكم، وأنباءِ ما يأتي بَعدَكم[2].

ثم أمَره اللهُ أن يقولَ لهم؛ جوابًا عن سؤالِه لهم: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾:

﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ-: اللهُ أَنزَلَه على موسى، ثمَّ بعدَ أنْ تُفْحِمَهم بذلك، دَعْهُم فيما يخوضونَ فيه مِن باطِلِهم وكُفْرِهم باللهِ وآياتِه يستهزِئونَ ويَسخرونَ؛ فإنِّي مِن ورائِهم بالْمِرصادِ؛ أُذيقُهم بَأْسِي، وأُحِلُّ بهم سَخَطي[3].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أبْطَلَ بالدَّليلِ قَوْلَ مَن قالَ: (ما أَنْزَلَ اللهُ على بَشَرٍ من شيءٍ)؛ ذَكَرَ بعدَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٨-٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٠-٥٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٩-٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٠-٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٠-٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٣).

أنَّ القُرآنَ كتابُ اللهِ؛ أنزَلَه اللهُ تعالى على مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١]، فقال:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾.

أي: وهذا القرآنُ الذي أوحيناه إليك- يا محمَّدُ- كتابٌ كثيرُ البَركاتِ والخَيْراتِ في الدُّنيا والآخِرَةِ[٢].

﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

أي: إنَّ القرآنَ مُوافِقٌ لِما قَبلَه من الكُتُب، لا يُخالِفُها، وشاهِدٌ لها بالصِّدْق[٣].

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

أي: ولِتُنْذِرَ أهْلَ مَكَّةَ ومَنْ حولَهم مِن أحياءِ العَرَبِ، ومِن سائِرِ البُلدان، فتُحَذِّرَ النَّاسَ عقوبةَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأخْذَه الأمَمَ، وتُحَذِّرهم ممَّا يوجِبُ ذلك[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

أي: كلُّ مَن آمَن بقيامِ السَّاعةِ والمَعادِ في الآخِرَة إلى اللهِ تعالى، وصَدَّقَ بالثَّوابِ والعقابِ؛ آمَنَ بهذا القرآنِ العظيمِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٤-٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٥-٥٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٦).
قال الشِّنقيطيُّ: (يقول بعضُ العلماء: المعلَّل محذوف؛ ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أنزَلْنا إليك هذا الكتابَ. وبعضُ العلماء يقول: هو معطوفٌ على معنى ما قَبْلَه. والمعنى: كتابٌ أنزلناه إليكَ لأجلِ البركاتِ المشتمِل عليها؛ ولتصديقِ الذي بين يَديه، ولتنذرَ أمَّ القرى. وأكثرُ العلماء على أنَّ المعلل محذوف، والمعنى: ولِتُنذرَ أمَّ القرى أنزلناه إليك) ((العذب النمير)) (١/ ٥٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي))

﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

أي: وهم يَقومونَ بأداءِ الصَّلواتِ في أوقاتِها، ويُداوِمونَ عليها، ويَحْفَظونَ أرْكانَها وحُدودَها وشُرُوطَها وآدابَها، ومُكَمِّلاتِها[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- يَجبُ على المؤمِنِ أن يَقْدُرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِه؛ يُرْشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، فالمقصودُ: اقْدُروه قَدْرَه الذي بيَّنَه لكم وأمَرَكم به، فصَدِّقُوا الرَّسولَ فيما أخْبَر، وأطيعوه فيما أوْجَبَ وأَمَرَ، فمَن جَحَد شَرْعَ اللهِ وأَمْرَه ونَهْيَه، وجَعَلَ الخَلْقَ بمنزلةِ الأنعامِ المُهْمَلَةِ؛ فقدْ طَعَنَ في مُلْك اللهِ، ولم يَقْدُرْه حقَّ قَدْرِه[(٢)].

٢- يُرْشِدُنا قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ إلى أنَّ القرآنَ كثيرُ الخيرِ والبَرَكةِ؛ فهو دائمُ النَّفعِ، يُبَشِّرُ المؤمنينَ بالثَّواب والمغفِرَةِ، ويَزْجُر عن القَبيحِ والمعصِيَةِ[(٣)]؛ فمَن تَعلَّمَه وعَمِل به غَمرَتْه الخيراتُ في الدُّنيا والآخِرة؛ لأنَّ ما سمَّاه اللهُ مباركًا؛ فهو كثيرُ البَركاتِ والخَيراتِ قطعًا؛ لأنَّه كلامُ رَبِّ العالَمينَ؛ إذا قَرَأه الإنسانُ وتدَبَّرَ مَعانيَه؛ ففي كلِّ حَرفٍ عَشْرُ حَسَناتٍ في القراءةِ، إذا تدبَّرَ معانيَه عرَفَ منها العقائِدَ التي هي الحَقُّ، وعرَفَ أصولَ الحَلالِ والحَرامِ، ومكارِمَ الأخلاقِ، وأهلَ الجنَّةِ وأهلَ النَّارِ، وما يصيرُ إليه الإنسانُ بعد الموتِ، وما يُسبِّبُ له النَّعيمَ الأبديَّ، وما يُسبِّبُ له العذابَ الأبديَّ؛ فكُلُّه

(ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٨-٥١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٦١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٨٨).

خيراتٌ وبَرَكاتٌ؛ لأنَّه نُورٌ يُنيرُ الطَّريقَ التي تُمَيِّزُ الحَسَنَ مِنَ القَبيحِ، والنَّافِعَ مِنَ الضَّارِّ، والباطِلَ مِنَ الحَقِّ، فهو كلُّه خيراتٌ وبَرَكاتٌ(١).

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ فيه إبطالُ دعوَى الخَصمِ بإثباتِ نقيضِها، فقد ادَّعَوا سلبًا كليًّا، فكذَّبهم الله بما يعترفونَ به، وهو الإيجابُ الجزئيُّ، فاليهودُ يعترفون بالتوراةِ التي بينَ أيديهم، ويفتخِرون بها على العربِ؛ بأنَّهم أصحابُ كتابٍ، ومع ذلك يقولونَ: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ وهذا تناقضٌ في الحقيقةِ، وقد تَقرَّرَ في فُنونِ المناظَرةِ: أنَّ (السَّالبة الكليَّة) إنما تنقُضُها (موجبةٌ جزئيَّة)، فهم قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، وهم يُسَلِّمونَ بَشَريَّةَ موسى، وموسى أُنزِلَ عليه الكتابُ، وهو التَّوراةُ، فالنتيجةُ أنَّ بعض البَشَرِ- وهو موسى- أُنزِلَ عليه الكتابُ؛ لذا قال اللهُ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾(٢).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ فيه أنَّ النَّكرةَ (شَيْء) في موضِعِ النَّفيِ تفيدُ العُمومَ؛ فلو لم تُفِدِ العُمومَ، لَمَا كان قولُه تبارَك وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ إبطالًا له ونقضًا عليه، وكان استدلالًا فاسدًا(٣).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أتى بنون العَظَمة؛ لأنَّها أدلُّ على

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٧)، وقال: (وكان بعضُ عُلماءِ التفسيرِ يقول: اشتَغَلْنا بالقرآنِ فغَمَرَتْنا البركاتُ والخيراتُ في الدُّنيا؛ تصديقًا لقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾، ونرجو أنْ يكونَ لنا مِثْلُ ذلك في [الآخِرةِ]).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٩)، ((مناهج الجدل في القرآن الكريم)) لزاهر الألمعي (ص:٧٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٠، ٥٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٧٨).

تعظيمِه؛ أي: وليس مِن عندِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن نَفْسِه، وإنَّما هو بإنزالِنا إيَّاه إليه وإرسالِنا له به[١].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ اقتصَرَ على الإنذارِ دونَ التَّبشيرِ؛ لأنَّ المقصودَ تخويفُ المُشركينَ؛ إذ قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[٢] [الأنعام: ٩١].

٥- تمسَّك جماعاتٌ مِن اليهودِ بقولِه تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، قالوا: لم يُرسَل محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم إلَّا إلى جزيرةِ العَرَبِ؛ لأنَّه قال له: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ في موضعينِ، وقد دَلَّ القرآنُ العظيمُ والسُّنَّة الصحيحةُ وإجماعُ العلماءِ؛ أنَّ رسالةَ نبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم شاملةٌ عامَّةٌ لجميعِ النَّاسِ، وعليه قد يَسألُ سائلٌ: ما الجوابُ عن قوله: ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ والاقتصارُ على هذا هنا، وفي قوله: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾؟ للعلماءِ عنه جوابان:

أحدهما: أنَّ ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ صادِقٌ بالدُّنيا كلِّها؛ لأنَّ الدُّنيا عندَ اللهِ شيءٌ بسيطٌ كأنَّها نُقطةٌ.

والجواب الثاني: ما قاله بعض العلماء: إنَّ غايةَ ما في البابِ أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ اقتصَرَتْ على إنذارِ أمِّ القرى ومَن حولها، وسكَتَت عمَّا سوى ذلك، وجاءت آياتٌ أُخَرُ صرَّحَت في الإنذارِ بالتَّعميمِ؛ كقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٨٧-١٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٢).

كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[(١)] [سبأ: ٢٨].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله: ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

- في مقالهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ إفادة العمومِ؛ فإنَّه يَعُمُّ جميعَ البَشَرِ؛ لوقوعِ النكرة ﴿بَشَرٍ﴾ في سِياقِ النَّفيِ لنفي الجنس، ويعمُّ جميعَ ما أُنْزِلَ باقترانه بـ﴿مِّن﴾ في حيِّزِ النَّفيِ؛ للدَّلالةِ على استغراقِ الجِنْس أيضًا، ويعمُّ إنزالَ اللهِ تعالى الوَحْيَ على البَشَرِ بنفيِ المُتعلِّق بهذينِ العُمومَينِ[(٢)].

- قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فيه افتتاحٌ بالأمرِ بالقولِ؛ للاهتمامِ بهذا الإفحامِ، والاستفهامُ في قوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ ...﴾ للتَّقريرِ[(٣)].

- قوله: ﴿ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ على قراءة (تَجعلونَه- وتُبْدونَها- وتُخفُون) بتاء الخِطاب، وعلى القَوْلِ بأنَّ الخِطابَ لليهودِ؛ فيكون على طريقةِ الإدماجِ (أي: الخروجُ من خطابٍ إلى غَيرِه) تعريضًا باليهودِ، وإسماعًا لهم، وإن لم يكونوا حاضرينَ، من بابِ (إيَّاكِ أعني، واسْمَعي يا جارَةُ)، أو هو التفاتٌ من طريقِ الغَيبةِ الذي هو مقتضى

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٧، ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المقامِ إلى طريقِ الخِطابِ[١].

- وقد تضمَّنَت هذه الآيةُ توبيخَهم على سوءِ جَهْلِهم بالتَّوراةِ، وذَمَّهم على تَجزِئَتِها؛ بإبداءِ بعضٍ انتخَبُوه وكتَبُوه في ورقاتٍ متفرِّقةٍ، وإخفاءِ بعضٍ لا يشتهونَه[٢]؛ فأدرَجَ تعالى تحت الإلزامِ توبيخَهم، وإن نَعَى عليهم سوءَ حَمْلِهم لكتابِهم وتحريفَهم، وإبداءَ بعضٍ وإخفاءَ بعضٍ[٣].

٢- قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾:

- قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ﴾ افتتاحُ الكلامِ باسْمِ الإشارةِ (هَذَا) المفيدِ تمييزَ الكتابِ أكمَلَ تمييزٍ، وبناءُ فِعل ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ على خبرِ اسمِ الإشارةِ؛ لإفادَةِ التقويةِ، كأنَّه قيل: وهذا أنزَلْناه، وجَعْل ﴿كِتَٰبٌ﴾ الذي حقُّه أن يكونَ مفعولَ ﴿أَنزَلْنَا﴾ مسندًا إليه، ونَصْب فِعل ﴿أَنزَلْنَا﴾ لضميرِه؛ لإفادَةِ تحقيقِ إنزالِه بالتَّعبيرِ عنه مرَّتين، وذلك كلُّه للتَّنويهِ بشَأْنِ هذا الكتابِ[٤]، وتنكيرُ الكِتابِ هنا للتَّفخيمِ[٥].

- وفيه مناسَبَةٌ حسنةٌ؛ حيثُ جاءَ الوصْفُ الأوَّلُ للكتابِ جملةً فعليَّةً، وهي جملة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ لأنَّ الإنزالَ يتجدَّد وقتًا بعد وقت، وجاء الوَصْفُ الثاني اسمًا، وهو قَوْلُه: ﴿مُبَارَكٌ﴾، وكذلك الثَّالث، وهو قوله: ﴿مُّصَدِّقُ﴾؛ للدَّلالةِ على الثُّبوتِ والاستمرارِ، ودَيمومَةِ البركةِ؛ فلمَّا كان الإنزالُ يَتجدَّد

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥١٦).

عبَّر بالوصْفِ الذي هو فِعلٌ، ولَمَّا كان وصفُه بالبرَكَةِ والصِّدْق وصفًا لا يفارِقُ، عبَّر بالاسمِ الدَّالِّ على الثُّبوتِ؛ لأنَّ الاسمَ يدلُّ على الثُّبوتِ والاستقرارِ، وهو مقصودٌ هنا: أي أنَّ بَرَكَتَه ثابتةٌ مستقِرَّةٌ(٦).

- قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ في تَرتيبِ هذه الصِّفاتِ مناسَبَةٌ حَسنةٌ كذلك؛ لأنَّه لَمَّا كان الإنكارُ إنَّما وقَع على الإنزالِ قدَّمَ وَصْفَه بالإنزالِ على وَصْفِه بالبركةِ، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]؛ لأنَّ الأَهَمَّ هنا وَصْفُه بالإنزالِ؛ حيثُ جاءَ عَقيبَ إنكارِهم أنْ يُنْزِلَ اللهُ على بَشَرٍ شيئًا، فقالوا بقولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، وقِيل: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ فكان تقديمُ وصْفِه بالإنزالِ هنا آكَدَ مِن وَصْفِه بكونِه مُباركًا؛ ولأنَّ ما أنزَلَ اللهُ تعالى فهو مبارَكٌ قطعًا، فصارتِ الصِّفَةُ بكونه مباركًا كأنَّها صِفَةٌ مُؤَكِّدةٌ؛ إذ تَضمَّنَها ما قَبْلَها. وأمَّا قَوْلُه: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ فلم يَرِدْ في مَعْرِضِ إنكارِ أنْ يُنْزِلَ اللهُ شيئًا، بل جاءَ عَقِبَ قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فذَكَرَ أنَّ الذي آتاه الرَّسولَ هو ذِكرٌ مبارَكٌ(٧).

- قوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أخبرَ عن المؤمنينَ بأنَّهم يُؤمنونَ بالقرآنِ؛ تعريضًا بأنَّهم غيرُ مقصودينَ بالإنذارِ، فيُعلَم أنَّهم أحقَّاءُ بضِدِّه، وهو البِشارةُ(٨).

- قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ اكتفى بذِكْرِ الإيمانِ بالبَعْثِ-

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٧- ٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٦٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٢).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٣).

وهو أحَدُ الأركانِ السِّتَّة-؛ لأنَّ الإيمانَ به يستلزِمُ الإيمانَ بباقيها، ولإسماعِ كفَّار العَرَب وغيرِهم، مِمَّن لا يؤمِنُ بالبعثِ، أنَّ مَن آمَنَ بالبعْثِ آمَنَ بهذا الكتابِ وهذا الرَّسولِ، وأصلُ الدِّينِ خَوفُ العاقبةِ؛ فإنَّ مَن صَدَّق بالآخرةِ خافَ العاقِبَةَ، فمن خافَها لم يَزَلْ به الخوفُ حتى يَحمِلَه على النَّظَر والتدبُّرِ، حتى يؤمِنَ بالنبيِّ والكتابِ، ويحافِظَ على الطَّاعةِ[1].

- قوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ خصَّ الصَّلاةَ بالذِّكْرِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الصَّلاةَ أشرفُ العباداتِ بعدَ الإيمانِ باللهِ، وأعظَمُها خَطرًا، ولأنَّها عمادُ الدِّينِ، وأنَّ المحافظةَ عليها داعيةٌ إلى القيامِ بسائِرِ العباداتِ المفروضةِ، وترْكِ جميعِ المُحَرَّمات المنصوصةِ؛ وكونُ الصلاةِ أشرَفَ العباداتِ بعدَ الإيمانِ باللهِ، يتَّضِحُ مِن أنَّه لم يَقَعْ اسمُ الإيمانِ على شيءٍ من العباداتِ الظَّاهرةِ إلَّا على الصَّلاةِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: صلاتَكم. ولم يقَعِ اسمُ الكُفرِ على شيءٍ من المعاصي إلَّا على تَرْك الصَّلاةِ، فلمَّا اختصَّت الصَّلاةُ بهذا النَّوعِ من التَّشريفِ، لا جَرَمَ خَصَّها اللهُ بالذِّكْرِ في هذا المَقَام[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥١٨).

الآيتان (٩٢-٩٤)

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: أي: كَذَب واختلَق؛ فالافتراءُ الكَذِبُ، أو العظيمُ من الكَذِبِ، وأصل الفَرْي: قطْع الجِلْد[١].

﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾: أي: شدائِده، وأصْلُ الغَمْر: تغطيةٌ وسَترٌ في بعضِ الشدَّةِ[٢].

﴿ٱلْهُونِ﴾: الهوانُ، وأصلُه: سكونٌ أو سكينةٌ أو ذُلٌّ[٣].

﴿خَوَّلْنَٰكُمْ﴾: ملَّكْناكم وأعطيناكم، وأصله: تعهُّدُ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٨).

﴿تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾: أي: تقطَّعَتْ الوُصَلُ التي كانت بينكم في الدُّنيا من القَرابة والحِلْفِ والمودَّة، وأصل قطع: الفَصْل، و(بين): موضوعٌ للخَلالةِ بين الشَّيئينِ ووسَطِهما[١].

مُشْكِل الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾

﴿بَيْنَكُمْ﴾: يُقْرَأُ بفَتْحِ النُّونِ، وفيه وجهان: أحدهما: أنَّه ظَرْفُ مكانٍ لـ﴿تَّقَطَّعَ﴾، والفاعِلُ مضمرٌ؛ أي: تقطَّعَ الوَصْلُ بينكم، ودلَّ عليه ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾؛ فإنَّ الشَّرِكَة تُشْعِر بالاتِّصال، والثاني: أنَّ الفاعِلَ محذوفٌ، و﴿بَيْنَكُمْ﴾ صفةٌ له قامتْ مقامَه، تقديرُه: لقد تقطَّع وَصْلٌ بَيْنكم. وقيل غير ذلك.

ويُقْرَأُ (بَيْنُكُمْ) بضَمِّ النُّونِ؛ على أنَّه فاعِلٌ، والبَيْنُ هنا اسمٌ مُتصَرِّفٌ، خارجٌ عن الظَّرْفِيَّة؛ بمعنى الوَصْل، وهو مِن الأضدادِ[٢]، وقيل غير ذلك[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه لا أحَدَ أعظَمُ ظُلمًا مِمَّن اختلَقَ الكَذِبَ على الله، أو مَن قالَ- وهو كاذِبٌ- إنَّ اللهَ أوحى إليه، ومَن قال: إنَّه سيُنْزِل مثلَ ما أنزلَ اللهُ تعالى، ثم خاطَبَ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليهم وسلَّم، قائِلًا له: ولو عاينتَ- يا محمَّدُ- الظَّالمينَ حين يكونونَ في سَكَراتِ الموتِ، وقد غَمَرَهم الموتُ بشدائِدِه وكُرَبِه؛

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٦، ٦٧٧).

(٢) أي: إنَّه مشتركٌ اشتراكًا لفظيًّا، يُستعمَل للوَصْلِ والفِراق. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٨-٥٦).

لَرَأَيْتَ حِينَها هَوْلًا وحالًا شنيعةً، والحالُ أنَّ الملائكةَ مَدُّوا أيديَهم يضربونَهم، قائلينَ لهم: أخرِجوا أنفُسَكم مِن أجسادِكم، اليومَ جزاؤُكم عذابٌ تُهانونَ به، وذلك بما كُنتم تقولونَ على اللهِ غَيرَ الحَقِّ، وبأنَّكم كُنتم عن آياتِه تستكبرونَ.

ويقولُ لهم تعالى عند وُرودِهم عليه يومَ المعادِ: لقد جئتُمونا فُرادى على الهيئةِ التي خَلَقْناكم بها أوَّلَ مَرَّةٍ، وتركتُم ما أعْطَيناكم من النِّعَم في الدُّنيا وراءكم، ولا نَرى معكم الذين كُنْتُم تَدَّعونَ أنَّهم شُرَكاءُ لنا، فتَعبدونَهم معنا، زاعمينَ أنَّهم سيَشْفَعونَ لكم عندنا هذا اليومَ، لقد انقَطَعَ ما بينكم وبينَهم، وغابَ عنكم ما كنتُم تَزعُمونَ.

تفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى القرآنَ، وأنَّه كتابٌ مُنَزَّل من عنده مبارَكٌ، وبيَّنَ ما فيه من صفاتِ الجلالةِ والشَّرَف والرِّفْعة- أعقَبَه بوعيدِ مَنِ ادَّعى النبوَّةَ والرِّسالةَ على سبيلِ الكَذِبِ والافتراءِ، فقال[1]:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

أي: لا أحدَ أعظمُ ظلمًا، ولا أكبرُ جُرمًا ممَّن كَذَبَ على الله عزَّ وجلَّ، بأنْ نسبَ إليه سبحانه قولًا أو حُكمًا، وهو تعالى بريءٌ منه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢-٥١٣).

﴿أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ﴾.

أي: ولا أحَدَ أظلَمُ ممَّن ادَّعى على اللهِ تعالى أنَّه بعَثَه نبيًّا، وأرسَلَه نذيرًا، وهو كاذبٌ في دعواه؛ إذ لم يُوحِ اللهُ إليه شيئًا، ولم يُرْسِلْه[١].

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾.

أي: ولا أَحَدَ أظلَمُ مِمَّن ادَّعى أنَّه يَقدِرُ على مُعارضَةِ القرآنِ، وأنَّ في إمكانِه الإتيانَ بمِثْلِه بما يفتريهِ من القوْلِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾.

مُناسَبَتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذمَّ اللهُ الظَّالمينَ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ناسَبَ أن يذكُرَ ما أعَدَّ لهم من العقوبةِ في حالِ الاحتضارِ، ويومَ القيامةِ[٣]، فقال:

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾.

أي: ولو ترى- يا محمَّدُ- الظَّالمينَ، أمثالَ هؤلاءِ المُفتَرينَ على الله تعالى، لو عايَنْتَهم حين يغمُرُهم الموتُ بسَكَراتِه، وقد غَشِيَتْهم شدائِدُه وكُرَبُه؛ لرَأَيْتَ أمرًا هائلًا، وحالًا شنيعةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٤-٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٥-٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٨-٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٦-٥١٧).

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾.

أي: والحالُ أنَّ الملائكَةَ قد مدُّوا أيديَهم؛ يَضربونَ وُجوهَ أولئك الظَّالِمينَ الْمُحتضَرينَ وأَدْبارَهم ضربًا مُوجعًا، ويقولون لهم عند امتناعِ أرواحِهم من الخُرُوجِ من أبدانِها: أخرِجوا أنفُسَكم مِن أجسادِكم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١].

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: اليومَ تُهانونَ غايةَ الإهانةِ والذِّلَّةِ بالعذابِ في جَهنَّمَ؛ جزاءَ كَذِبكم على اللهِ تعالى في الدُّنيا، واستكبارِكم عن اتِّباعِ آياتِه، والخُضوعِ لأمْرِه، والانقيادِ لرُسُلِه[2].

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ جلَّ وعلا في هذه الآياتِ من سورَةِ الأنعامِ أنَّه لا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن افترى على اللهِ كَذِبًا، ولا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن ادَّعى الوحْيَ كذِبًا، ولا أحَدَ أظلمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٩، ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٧-٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١١-٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٨-٥١٩).

مِمَّن ادَّعى أنَّه قادِرٌ على إنزالِ مثْلِ ما أنزَلَ اللهُ، وبيَّنَ اللهُ جَلَّ وعلا أنَّ هؤلاءِ الظَّالِمينَ الذين قالوا هذه المقالاتِ؛ أنَّهم إذا حضَرَتْهم الوفاةُ بَسَطَتِ الملائكةُ أيديَهم إليهم بالعذابِ والنَّكَال، وقالوا لهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾- بَيَّنَ حالَتَهم التي يُبعَثونَ عليها، وشِدَّةَ ضَعْفِهم، وعَدَمَ قُوَّتِهم التي كانت هي سَبَبَ تمرُّدِهم في الدُّنيا[1]، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ﴾.

يقول لهم اللهُ تعالى عند وُرودِهم عليه يومَ مَعادِهِم: لقد جئتُمونا وُحْدانًا، بلا أهلٍ ولا أولادٍ، ولا جُنودٍ ولا أعوانٍ، ولا مالٍ ولا أثاثٍ، ولا رفيقٍ ولا صديقٍ، ولا شيءٍ من الدُّنيا معكم، فجئتمونا حُفاةً عُراةً غُلْفًا غُرْلًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾[الكهف: ٤٨].

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

أي: وخلَّفْتُم- أيُّها القومُ- ما آتَيْناكم مِنَ النِّعَم التي اقتَنَيْتُموها في الدُّنيا وراءَكم، فلم تَحْمِلوها معكم إلى الآخِرَةِ[3].

عن عبد اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أتيتُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وهو يقرأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قال: يقولُ ابنُ آدمَ: مالِي، مالِي، قال: وهلْ لك يا ابنَ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١٣-٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٥-٥٢٦).
وقال ابنُ كثير: (أي: كما بَدَأْناكم أعَدْناكم، وقد كنتُم تُنكرون ذلك وتستبعدونه؛ فهذا يومُ البعثِ) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٦).

آدَمَ مِنْ مالِكَ إلَّا ما أكَلْتَ فأفنيْتَ، أو لَبِسْتَ فأبلَيْتَ، أو تصدَّقْتَ فأمضَيْتَ؟!))[(١)].

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾.

أي: ولا نرَى معكم شُفعاءَكم الذين كُنتم في الدُّنيا تَدَّعونَ أنَّهم شُرَكاءُ لنا، فتعبدونَهم معنا، وتزعمونَ أنَّهم يَشفعونَ لكم عِندنا يومَ القيامةِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢-٩٣].

وقال سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾.

أي: لقدِ انقطَعَ اليومَ ما كانَ بينكم وبين شرُكَائِكم في الدُّنيا؛ مِن تواصُلٍ وتَوادٍّ وتناصُرٍ، وشَفاعةٍ، فاضمحلَّ ذلك كلُّه في الآخِرَة؛ فلا أحَدَ منكم ينصُرُ صاحِبَه، ولا يُواصِلُه[(٣)].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٧-٥٢٨).

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾[العنكبوت: ٢٥].

﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

أي: وغاب عنكم ما كنتُم تزعمونَ أنَّهم شُركاءُ للهِ، وشفعاءُ لكم عنده، وذهَبَ ما ترجُونَ منهم مِن شفاعةٍ، تَجْلِبُ لكم- بزَعْمِكم- الأمنَ والسَّعادةَ، والنَّجاةَ يومَ القيامةِ(١).

كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾[الأنعام: ٢٢- ٢٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الاعتبارُ بالموتِ وسَكَراتِه، وما يَتقدَّمُه من شدائِدِ الآلامِ مِمَّا يَحُلُّ بالظَّالمينَ عند الموتِ؛ يُرْشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾(٢).

٢- التَّحذيرُ مِن صَرْفِ الهِمَم في الدُّنيا إلى تَحصيلِ المالِ والوَلَدِ والجاهِ، دون الاهتمامِ بالإيمانِ بالرُّسُلِ، والاهتداءِ بما جاؤوا به؛ فإنَّ ذلك لا يُغني عن صاحِبِه شيئًا يومَ القيامَةِ؛ قال اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٢١-٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٣٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٢٣).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ فيه ردٌّ على مَن يقول: إنَّه يُحَدِّث عن قَلْبِه عن رَبِّه، أو إنَّه يأخُذُ عن اللهِ بلا واسطةٍ، وإنَّه يأخُذُ مِن حيثُ يأخُذُ المَلَكُ؛ الذي يأتي الرَّسولَ بالوحيِ؛ فهو كاذِبٌ في هذه النِّسبةِ، وله نصيبٌ وافِرٌ من هذا الذَّمِّ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيه تسفيهُ عقائِدِ أهْلِ الشِّرْك والضَّلالةِ منهم؛ على اختلافِها واضطرابِها[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يَدخُلُ في معناه: مَنِ ادَّعَى أنَّه يُنَظِّمُ للبَشريةِ ما يُغْنِيها عن نِظامِ اللَّهِ جلَّ وعلا، الذي وَضَعَه، ومَنِ اتَّبعَ هذا- والعياذُ بِاللَّهِ- فَقدِ اتَّبَعَ أحدًا لا أظلَمَ في الدنيا مِنْه- والعياذُ بِاللَّهِ- فالذي يُنْزِلُه اللَّهُ لا يقدِرُ أحدٌ على أنْ يُنزلَ مثلَه، وَمَنِ ادَّعَى أنَّه ينزِلُ مثلَه؛ فقد صَرَّحَ اللَّهُ في هذه الآياتِ الكَريمةِ أنَّه لا أحدَ البتَّةَ أَظْلَمُ منه، وبهذا يُعلَمُ أنَّ الذين يَتَنَطَّعونَ، وَيَدَّعُونَ أنَّهم يُنَظِّمُونَ للبشريةِ نظامًا أحسنَ مِمَّا أنزلَ اللَّهُ، أنَّهم يَدخلونَ في هذه الآيةِ، ومعلومٌ أنَّه لا تشريعَ إلَّا للسُّلْطةِ العُلْيَا، فالسلطةُ العُلْيَا الحاكمةُ على كُلِّ شيءٍ هي التي لها الأمْرُ والنَّهْيُ، وممَّا يَنبغي أن يُعلَم أنَّ مَنِ ادَّعَى أنَّ هنالك تَنْظِيمًا يُنَظِّمُ الحياةَ البشريَّةَ في الدُّنيا مثلَ تنظيمِ اللَّهِ أو أحسنَ مِن تنظيمِ اللَّهِ، أنَّ هذه الدَّعْوَى كُفْرٌ بَوَاحٌ، لا يَشُكُّ فيه مَنْ له أَدنَى عَقْلٍ، والآياتُ المُصَرِّحةُ بذلك بإيضاحٍ كثيرةٌ في القرآنِ العظيمِ[٣].

٤- قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ

---

(١) يُنظر: ((بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة)) لابن تيمية (ص:٤٨٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٠، ٥٢١).

أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ يدلُّ على وُقوعِ الجَزاءِ عَقِبَ الموتِ؛ فهذه الآيةُ أحَدُ الأدلَّةِ الدالَّةِ على عَذابِ القَبرِ[١]، فقولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ فيه دليلٌ على عَذابِ البَرزَخِ ونعيمِه؛ فإنَّ هذا الخطابَ، والعذابَ المُوَجَّه إليهم، إنَّما هو عند الاحتضارِ وقُبَيلَ الموتِ وبعده[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الرُّوحَ جِسْمٌ؛ يَدخُلُ ويخرُجُ، ويُخاطَبُ، ويُساكِنُ الجَسَدَ ويُفارِقُه؛ فهذه حالُهم في البَرزَخِ[٣].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ بَسْطُ اليَدِ يُستعمَلُ بمعنى الإيذاءِ المُطْلَق؛ فإنَّ أكثَرَ الإيذاءِ العَمليِّ يكون بمَدِّ اليَدِ، فإنْ أُريد إيذاءٌ مُعَيَّنٌ ذُكِرَ؛ كقوله تعالى حِكايةً في قصَّةِ ابْنَي آدَمَ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾[٤].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي غَيرَ القَولِ المتمَكِّنِ غايَةَ التمكُّنِ في درجاتِ الثَّباتِ، ولو قال بَدَلَه: (باطِلًا)، لم يُؤدِّ هذا المعنى، ولو قال: (الباطِلَ)، لقَصُر عن المعنى أكثَرَ[٥].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى ليس في خَلْقِه، ولا خَلْقُه فيه[٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))، ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٢١).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٩١).
(٦) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٢٠).

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ يعبِّرُ بالتَّرْك وراءَ الظَّهْرِ عمَّا فات الإنسانَ التَّصرُّفُ فيه، والانتفاعُ به؛ لِفَقْدِه إيَّاه، أو بُعْدِه عنه[١].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ تَقريعٌ لهم، وتوبيخٌ على ما كانوا اتَّخذوا في الدَّارِ الدُّنيا من الأندادِ والأصنامِ والأوثانِ؛ ظانِّينَ أنَّ تلك تَنفَعُهم في مَعاشِهم ومَعادِهم، إنْ كان ثَمَّ معادٌ، فإذا كان يومُ القِيامَةِ تَقطَّعتِ الأسبابُ، وانزاحَ الضَّلال، وضلَّ عنهم ما كانوا يَفْتَرون[٢].

١١- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أسنَدَ القطْعَ المبالَغَ فيه إلى (البَيْنِ)، وإذا انقطَعَ البَيْنُ تقطَّعَ ما كان فيه من الأسبابِ، التي كانت تُسَبِّب الاتصالَ، فلم يبقَ لأحدٍ منهم اتصالٌ بالآخَرِ؛ لأنَّ ما بينهما صار كالخندقِ بانقطاعِ نَفْسِ البَيْنِ، فلا يتأتَّى معه الوصولُ، هذا على قراءةِ الجماعةِ بِرَفْع ﴿بَيْنَكُمْ﴾[٣].

بلاغَةُ الآيتينِ:

١- **قوله:** ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

- قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ؛ فهو في معنى النفْيِ؛ أي: لا أحَدَ أظلمُ مِن هؤلاء أصحابِ هذِه الصِّلاتِ، ومَسَاقُ هذا الاستِفهامِ هنا مَسَاقُ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٣).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٩٣-١٩٤).

التَّعريضِ بأنَّهم الكاذِبونَ؛ إبطالًا لتكذيبِهم إنزالَ الكتابِ[١].

- وخَصَّ بالذِّكر قولَه: ﴿أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ على غيرِه من أنواعِ الافتراءِ؛ تَنبيهًا على مَزيدِ العقابِ فيه والإثمِ[٢]؛ حيثُ بدأ أوَّلاً بالعامِّ، وهو افتراءُ الكَذِب على اللهِ، وهو أعمُّ من أن يكونَ ذلك الافتراءُ بادِّعاءِ وَحْيٍ أو غيرِه، ثمَّ ثانيًا بالخاصِّ، وهو افتراءٌ منسوبٌ إلى وَحْيٍ من الله تعالى[٣].

- وحُذِفَ الفاعِلُ في قوله: ﴿وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ﴾ تَعظيمًا له؛ لأنَّ المُوحِيَ هو اللهُ تعالى[٤].

- قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ؛ حيث حُذِفَ مفعولُ ﴿تَرَىٰٓ﴾؛ لدَلالةِ ما في حيِّزِ الظَّرْف عليه، أي: ولو ترَى الظَّالِمينَ، وحُذِف جوابُ (لو)؛ للتهويلِ، والمعنى: لَرَأَيْتَ أمرًا مُفْظِعًا، وحَذْفُ جوابِ (لو) في مِثلِ هذا المقامِ شائِعٌ في القرآن[٥].

- وجاءَ التعبيرُ عن غَمرَةِ الموتِ بالجمْع ﴿غَمَرَٰتِ﴾؛ إمَّا لتعدُّد الغَمَرات بعَدَد الظَّالِمينَ، فتكون صِيغةُ الجَمعِ مُستعملةً في حقيقَتِها، أو لقَصْدِ المبالغَةِ في تهويلِ ما يُصيبُهم بأنَّه أصنافٌ من الشدائِدِ، هي لتعدُّد أشكالِها وأحوالِها لا يُعَبَّر عنها باسمٍ مفرَدٍ؛ فيجوز أن يكونَ هذا وعيدًا بعذابٍ يَلْقَونه في الدُّنيا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٤).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٢١).

في وقْتِ النَّزْع، ولَمَّا كان للمَوتِ سَكَراتٌ جُعِلَت غَمْرةُ الموت غَمَراتٍ[١].

- قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ الأمْرُ في ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ للتَّوقيفِ والتَّوبيخِ على سَالِفِ فِعْلِهم القَبيحِ، أو للإهانةِ والإرهاقِ والإرعابِ، وأنَّهم بمنزلَةِ مَن تولَّى إزْهاقَ نَفْسِه؛ إغلاظًا في قَبْضِ أرواحِهم ولا يَتْركون لهم راحةً، ولا يُعامِلونهم بِلِينٍ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم يَجْزعونَ فلا يَلْفِظون أرواحَهم؛ وهو على هذا الوجه وعيدٌ بالآلامِ عِندَ النَّزْع؛ جزاءً في الدُّنيا على شِرْكِهم[٢].

- قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ استئنافُ وعيدٍ، وفُصِلَتِ الجملةُ- أي: لم تُعْطَف بالواو- للاستقلالِ والاهتمامِ، وهي من قَوْلِ الملائكة، وعلى أنَّ هذا القَوْلَ صادِرٌ مِن جانِبِ الله تعالى؛ فذِكْرُ اسمِ الجلالةِ مِن الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ؛ لقَصْدِ التهويل، والأَصْلُ (بِما كُنْتُم تقولون عليَّ)[٣].

- وإضافَةُ العَذابِ إلى الهُونِ ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ لبيانِ العَراقَةِ في الهوانِ، والتمكُّن فيه؛ مِثْلُ قولهم: رَجُلُ سُوءٍ[٤]، فهو مبالغةٌ؛ إيذانًا بأنَّه مُتمكِّنٌ فيه؛ وذلك أنَّه ليسَ كلُّ عذابٍ يكونُ فيه هُونٌ؛ لأنَّه قد يكونُ على سبيلِ الزَّجرِ والتأديبِ[٥].

- وأوَّلُ هذه الآيةِ، وهو قولُه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يفيدُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٦- ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٨- ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٣).

التَّخويفَ العظيمَ على سبيلِ الإجمالِ، وقولُه بعدَ ذلك: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ...﴾ كالتَّفصيلِ لذلك المُجْمَل[(١)].

٢- قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

- قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾

- عبَّر بالفِعلِ الماضي ﴿جِئْتُمُونَا﴾ الذي أُريدَ به المُستقبلُ؛ لتحقُّقِ الوقوعِ. وقيل: هو ماضٍ على حقيقَتِه محكِيٌّ، فيُقالُ لهم حالَةَ الوقوفِ بينَ يَدَيِ اللهِ للجزاءِ والحِسابِ[(٢)].

- قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ وقَع هنا في آيةِ الأنعام بزِيادة ﴿فُرَٰدَىٰ﴾، وفي سُورةِ الكهف: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨]، مع أنَّ مَرْمَى الآيتينِ واحدٌ؛ وذلِك لمراعاةِ ما أُعقبت به آيةُ الأنعام مِن قوله: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾، أي: ما أَعطيناكُم في الدُّنيا ممَّا شَغَلَكم عن آخِرتِكم، ثم قال: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾، أي: مُنفرِدين عمَّا كُنتُم تؤمِّلون مِن أندادِكم ومعبوداتِكم من دُونِه سبحانه؛ فلِرَعْيِ هذا المعقَّبِ به في آيةِ الأنعام قيل فيها: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾. أمَّا آيةُ الكهفِ فقَبْلَها قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، ثمَّ قال: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٧).

مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨] مُجرَّدين عن كلِّ مُتعلَّق، ولم يقَعْ هنا ذِكرٌ ولا إشارةٌ إلى ما عُبِدَ مِن دونِ الله؛ فلهذا لم يقَعْ هنا ﴿فُرَٰدَىٰ﴾؛ وذلك يُبيِّن التناسُب[١].

- قوله: ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الكافُ للتَّشبيهِ؛ يُريدُ كَمَجِيئِكم يومَ خَلَقْناكم بالهيئةِ التي وُلِدْتُم عليها، في الانفرادِ الأَوَّلِ وَقْتَ الخِلْقَة؛ لِكَونِ الإنسانِ يُخْلَق لا مالَ له، ولا وَلَدَ، ولا حَشَم[٢].

- قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾

- في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ﴾ جِيءَ بالفِعلِ المنفيِّ بصِيغةِ المُضارِعِ الدَّالِّ على الحالِ دون الماضي؛ ليشيرَ إلى أنَّ انتفاءَ رؤيةِ الشُّفَعاءِ حاصِلٌ إلى الآن، ففيه إيهامُ أنَّ رُؤْيَتَهم محتمِلَةُ الحصولِ بعْدُ في المستقبلِ؛ وذلك زيادةً في التهكُّمِ[٣].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيكُمْ﴾؛ للاهتمامِ الذي وجَّهَه التعجُّبُ من هذا المزعومِ؛ إذ جعلوا الأصنامَ شُرَكاءَ للهِ في أنفُسِهم، وقدْ عَلِموا أنَّ الخالِقَ هو اللهُ تعالى، فهو المستحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه[٤].

- قوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لجملة: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾؛ لأنَّ المُشركينَ حين يسمعونَ قولَه: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾ يعتادُهم الطَّمَعُ في لقاءِ شُفَعائِهم؛ فيتشوَّفونَ لأَنْ يَعْلَمُوا سَبيلَهم، فقيل لهم: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾؛ تأييسًا لهم بعد الإطماعِ التهكميِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٨٥).

- وعلى قِراءة الفَتْحِ في ﴿بَيْنَكُمْ﴾ يكون فيه إيجازٌ بالحَذْفِ؛ حيثُ حُذِفَ فاعِلُ ﴿تَقَطَّعَ﴾؛ لأنَّ المقصودَ حُصولُ التقطُّعِ، ففاعِلُه اسمٌ مُبْهَمٌ مِمَّا يصلح للتقطُّعِ، وهو الاتِّصالُ، والتقديرُ: لقد تقطَّعَ الحبلُ أو نحوُه، وقد صار هذا التركيبُ كالمَثَلِ بهذا الإيجازِ[1].

- وهذه الآية ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ... لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ خبرٌ المرادُ منه التَّقريعُ والتَّوبيخُ؛ وذلك لأنَّهم صَرَفُوا جِدَّهم وجُهْدَهم في الدُّنيا إلى تحصيلِ أمرَينِ: أحدهما: تحصيلُ المالِ والجاهِ. والثاني: أنَّهم عبدوا الأصنامَ؛ لاعتقادِهم أنَّها تكونُ شُفَعاءَ لهم عند الله، ثم إنَّهم لَمَّا وَرَدوا مَحْفِلَ القيامةِ لَمْ يَبْقَ معهم شيءٌ من تلك الأموالِ، ولم يَجِدوا من تلك الأصنامِ شفاعةً لهم عندَ الله تعالى، فبَقُوا فُرادَى عن كُلِّ ما حَصَّلُوه في الدُّنْيا، وعَوَّلوا عليه، بخلافِ أهْلِ الإيمانِ؛ فإنَّهم صَرَفُوا عُمُرَهم إلى تحصيلِ المعارِفِ الحَقَّةِ، والأعمالِ الصَّالحةِ، وتِلك المعارِفُ والأعمالُ الصَّالِحَةُ بَقِيَتْ معهم في قبورِهم، وحَضَرَتْ معهم في مَشْهَد القيامةِ، فهم في الحقيقة ما حَضَروا فُرادى، بل حَضَروا مع الزَّادِ ليومِ المَعادِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦٩).

الآيات (٩٥-٩٩)

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾: أي: خالِقُهُما أو شاقُّهُما بالنَّباتِ، والفَلْق والفَطْر والخَلْق بمعنًى واحِدٍ، ولا يكون الفَلْقُ إلَّا بين جِسْمين، والفَلْق: شقُّ الشَّيءِ، وإبانةُ بَعْضِه عن بعضٍ، وأصل (فلق): يدلُّ على فُرْجَةٍ وبينونَةٍ في الشَّيء[1].

﴿فَأَنَّىٰ﴾: فَمِنْ أيِّ وَجهٍ، أو كَيفَ. وهو استفهامٌ عن الوُجوهِ والمَذاهِبِ؛ تقول: أنَّى يكونُ هذا؛ أي: من أي وجهٍ وطَريقٍ. وقيل: يُسأَلُ به عن الحالِ والمَكانِ، فيكون بمعنى: أين وكيف؛ لتَضَمُّنِه معناهما[2].

﴿تُؤْفَكُونَ﴾: أي: تُصْرَفونَ عن الحَقِّ، وتَعْدِلون عنه؛ يقال: أَفَكَ الرَّجُل عن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور(١٥/ ٤٣٧)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٥٦).

كذا: إذا عَدَل عنه، والإِفْك: كلُّ مصروفٍ عن وَجْهِه الذي يحِقُّ أن يكونَ عليه، وأصل (أفك): قلْبُ الشَّيء وصَرْفُه عن جِهَتِه[١].

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾: أي: خالِق النَّهار، أو شاقُّه حتى يَتبيَّن مِن اللَّيل[٢].

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾: أي: يَجريانِ في أفلاكِهما بحسابٍ مَعْلومٍ عنده، وعددٍ لبلوغِ أمْرِهما ونهايةِ آجالِهما، وأصلُ الِحسابِ: استعمالُ العَدَدِ[٣].

﴿تَقْدِيرُ﴾: التَّقديرُ: تَبيينُ كميَّةِ الشَّيءِ، وتَقديرُ اللهِ الأشياءَ على وجهين؛ أحدهما: بإعطاءِ القُدرةِ. والثاني: بأنْ يَجعلها على مِقدارٍ مخصوصٍ ووجهٍ مخصوصٍ حسْبَمَا اقتضتْ الحِكمةُ بالحُكم منه أنْ يكونَ كذا أو لا يكون كذا؛ إمَّا على سبيلِ الوجوبِ، وإمَّا على سبيلِ الإمكانِ[٤].

﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ أي: في الأَرْحامِ. وأَصْلُ (قرر) يَدُلُّ على تَمَكُّنٍ[٥].

﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾: أي: في الأَصْلابِ. وأصلُ (ودع): يَدُلُّ على التَّركِ والتَّخلِيَةِ[٦].

﴿مُّتَرَاكِبًا﴾: أي: مُركَّبًا بعضُه فوقَ بعضٍ، أو يَرْكَب بعضُه بعضًا، وأصل

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٨، ٤٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٨).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦-٣٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٩).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٩).

(ركب): عُلُوُّ شَيْءٍ شَيْئًا[١].

﴿طَلۡعِهَا﴾: طلعُ النَّخلةِ: ثَمَرُها، أو حَمْلُها؛ سُمِّيَ طَلعًا لطُلوعِه في كلِّ سَنَةٍ، ويُطْلَقُ الطَّلعُ على أوَّلِ ما يخرُجُ مِنَ النَّخلةِ في أكمامِه، وأصلُ (طلع): يدلُّ على ظهورٍ وبُرُوزٍ[٢].

﴿قِنۡوَانٞ﴾: أي: عُذوقُ النَّخْل، مفردُها قِنْوٌ، وهو: العِذقُ[٣].

﴿دَانِيَةٞ﴾: أي: قَريبةٌ، سهلةُ التناوُلِ، يَجْنُونها قائمينَ وقاعِدين، وأصل الدُّنُوِّ: القُرْبُ بالذَّاتِ أو بالحُكْم، ويُستعمَل في المكانِ والزَّمَانِ والمنزِلَةِ[٤].

﴿وَيَنۡعِهِۦٓ﴾: أي: إدراكِه ونُضْجِه وبُلُوغِه؛ يُقال: يَنَعَتِ الثَّمَرةُ والفاكِهَة، وأَيْنَعَت: إذا أدركَتْ[٥].

مُشْكِل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ﴾

﴿وَجَنَّٰتٖ﴾: مَنصوبةٌ، على أنَّها معطوفةٌ على ﴿نَبَاتَ﴾ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، أي: فأخرجْنا بالماءِ النَّباتَ وجَنَّاتٍ، وهو مِن

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ تشريفًا لهذين الجِنْسَينِ على غيرِهما؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة:٩٨]، وعلى هذا فَقَولُه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ﴾ جملةٌ مُعْتَرِضةٌ. أو منصوبةٌ على أنَّها معطوفةٌ على ﴿خَضِرًا﴾ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا﴾.

وقُرئ (وَجَنَّاتٌ) بالرَّفْع، على أنَّها مرفوعةٌ بالابتداءِ، والخبر محذوفٌ، والتقدير: وثَمَّ جَنَّاتٌ، أو: وَمِنَ الكَرْمِ جناتٌ، ولا يجوزُ أنْ يكون معطوفًا على ﴿قِنۡوَانٞ﴾؛ لأن العِنَبَ لا يخرجُ مِن النَّخْلِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه وَحْدَه هو مَن يشُقُّ الحَبَّ فيُخْرِج منه الزُّروعَ، ويشُقُّ النَّوى فيُخْرِج منه الغُرُوسَ والشَّجَر، يُخْرِج سبحانه الحيَّ من الميِّتِ، ويُخْرِجُ الميِّتَ من الحيِّ؛ كإخراجِه تعالى الإنسانَ من النُّطْفة، والنُّطْفَةَ من الإنسانِ، ذلكم الذي صَنَعَ ذلك هو اللهُ تعالى، فكيفَ تُصْرَفونَ عن هذه البَراهينِ، وتعبدونَ معه غيره؟!

والله سبحانَه يشقُّ ظُلمةَ الليلِ بضياءِ الصُّبحِ، وهو مَنْ جَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا لكلِّ متحَرِّكٍ بالنَّهارِ، فيهدَأُ في اللَّيلِ ويرتاحُ، وجَعَل الشَّمْسَ والقَمَرَ يجريانِ بحِسابٍ مُقَنَّنٍ مُقدَّرٍ، ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ.

وهو الذي جَعَلَ النُّجومَ علاماتٍ وأدلَّةً، يهتدي بها النَّاسُ في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ، قد ميَّزَ وفَصَّل تعالى الآياتِ، ووضَّحَها لقومٍ يَعْلمونَ.

وهو تعالى الذي أوجَدَ جميعَ البَشَرِ مِن آدَمَ عليه السَّلام، وقد خَلَقَه اللهُ من ترابٍ، ثم صار البَشَرُ نُطَفًا أودَعَها اللهُ في أصلابِ آبائِهم، ثمَّ يَنْقِلُها فتَستقِرُّ في

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٧٥-٧٦).

أرحامِ الأمَّهاتِ، قد ميَّزَ اللهُ الآياتِ وفَصَّلَها، ووضَّحَها لقومٍ يفهمونَها، فيعرفونَ مرادَ الله.

وهو سبحانه الذي أنزلَ من السماءِ المَطَرَ، فأخرج به نباتَ كُلِّ شيءٍ، فأخرَجَ سبحانه من نباتِ كُلِّ شيءٍ زَرْعًا وشَجَرًا أخضَرَ رَطْبًا، ثم يخلُقُ بعد ذلك فيه الحَبَّ والثَّمَر، يرَكْبَ بعضُه بعضًا؛ كالسَّنابِلِ ونحوِها، وأخرج تعالى مِن طَلْعِ النَّخْلِ عُذوقًا قريبةً سَهْلَةَ التناوُلِ، وأخرج سبحانه بساتينَ من أعنابٍ، وأخرج شَجَرَ الزَّيتونَ، والرُّمَانَ؛ يتشابَهُ في وَرَقِه وشجرِه، ويختَلِفُ في ثَمَره شكلًا وطعمًا، ثم أمَرَ اللهُ عبادَه أن ينظرُوا إلى ثَمَرِه عند بُدُوِّه وطُلُوعِه، وعند نُضْجِه، نَظَرَ تفكُّرٍ وتدبُّرٍ؛ فإنَّ في ذلك آياتٍ لقومٍ يؤمنونَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قَرَّرَ التَّوحيدَ، وأَردَفَه بتَقريرِ أمْرِ النبوَّةِ، عاد إلى ذِكْرِ الدلائِلِ الدَّالَّةِ على وجودِ الصَّانِعِ، وكمالِ قُدْرَتِه، وحِكْمَتِه، وعِلْمِه؛ تنبيهًا على أنَّ المقصودَ الأصليَّ من جميع المباحِثِ العقليَّة والنقليَّة: معرفةُ اللهِ بذاتِه وصفاتِه وأفعالِه[1].

وأيضًا لَمَّا كان قد تقدَّمَ ذِكْرُ البعثِ نبَّهَ على قُدرَته تعالى الباهِرَةِ في شَقِّ النَّواةِ مع صَلابَتِها، وإخراجِه منها نَبْتًا أَخْضَرَ لَيِّنًا إلى ما بعد ذلك؛ مما فيه إشارةٌ إلى القدرةِ التامَّةِ والبعثِ والنَّشْرِ بعد الموت[2]، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾.

أي: إنَّ الَّذي يستحقُّ العبادةَ وَحْدَه- أيُّها النَّاسُ- هو اللهُ الذي يشقُّ الحبَّ في الثَّرَى، فتَنْبُتُ الزروعُ على اختلافِ أصنافِها من الحبوبِ، ويشُقُّ النَّوى، فتَخْرُجُ الغُرُوسُ والأشجارُ، على اختلافِ أنواعِها من الثِّمَارِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾.

أي: يُخرِجُ السنبُلَ الحيَّ من الحَبِّ المَيِّتِ، ومُخْرِجُ الحَبِّ الميِّتِ من السُّنبُلِ الحيِّ، والشَّجَرَ الحيَّ من النَّوى الميِّتِ، والنَّوى الميِّت من الشَّجَرِ الحَيِّ، كما يُخْرِجُ الإنسانَ من النُّطفَةِ، والنُّطْفَةَ من الإنسانِ، ويُخْرِجُ الدَّجاجةَ من البَيْضَةِ، والبيضةَ من الدجاجَةِ[(٢)].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

أي: ذَلِكم الذي خَلَق ودَبَّر كلَّ تلك الأشياءِ العظيمةِ المُبْهِرَة، هو اللَّهُ المستحِقُّ للعبوديَّةِ وحْدَه لا شريكَ له، فكَيْفَ تُصْرفونَ عن هذه البراهينِ، والآياتِ العجيبةِ الدَّالَّةِ على عَظَمَةِ ربِّكم وجلالِه، وكمالِ قُدرَتِه، وأنَّه المعبودُ وحده، ثم تَصُدُّونَ مع ذلك عن عبادةِ مَن هذا شَأْنُه، فتُسَوُّونَ به غيرَه، وتعبدونَ معه مَن لا يَمْلِك لنفْسِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٠، ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٠-٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٣-٥٣٤).

نفعًا ولا ضَرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشُورًا؟ أين تذهبُ عقولُكم عن ذلك[١]؟!

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا استدَلَّ على باهِرِ حِكْمَتِه وقُدرَتِه بدَلالةِ أحوالِ النَّباتِ والحيوانِ، وذلك من الأحوالِ الأرضيَّةِ- استدَلَّ أيضًا على ذلك بالأحوالِ الفَلَكِيَّةِ؛ لأنَّ فَلْق الصُّبْحِ أعظَمُ من فَلْقِ الحَبِّ والنَّوى؛ لأنَّ الأحوالَ الفَلَكِيَّة أعظمُ وَقْعًا في النفوسِ من الأحوالِ الأرضيَّةِ[٢]، فقال تعالى:

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾.

أي: هو سبحانه الذي يشَقُّ ظُلمَةَ اللَّيلِ وسَوادَه شيئًا فشيئًا، حتى يَضمَحِلَّ، ويَخلُفَه النَّهارُ بضِيائِه وإشراقِه، فيتحَرَّكَ فيه الخَلْقُ لمنافِعِ دِينِهم ودُنياهم، وهو سبحانه الذي جَعَلَ اللَّيلَ مُظْلِمًا، فيسْكُنُ فيه كلُّ مُتحرِّكٍ بالنَّهارِ، ويهدأ فيه ويرتاح مستَقِرًّا في مَسكَنِه ومأواه، ثم يُزيلُ اللهُ ذلك بضياءِ النَّهارِ، وهكذا أبدًا إلى يومِ القيامةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٦-٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٤-٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٩-٥٤٠).

سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾.

أي: وجعَلَ الشَّمْسَ والقَمَرَ يَجريانِ بحِسابٍ مُقدَّرٍ، لا يتغيَّر ولا يَضْطرِبُ، فيدوران لمصالحِ الخَلْقِ التي جُعِلا لها، فبهما تُعرَفُ الأزمِنَةُ والأوقاتُ، وتنضَبِطُ أوقاتُ العباداتِ، وآجالُ المعاملاتِ، وغيرُ ذلك[(١)].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

أي: هذا[(٢)] تقديرُ الذي عَزَّ سُلطانُه، فلا يُمانَعُ ولا يُخالَفُ، ولا يقدِرُ أحدٌ أراده بسوءٍ وعقابٍ من الامتناعِ منه، فهو الغالِبُ، الذي انقادَتْ له هذه المخلوقاتُ العظيمةُ، مُذَلَّلةً مُسخَّرَةً بأمْرِه، وهو سبحانه العليمُ، الذي أحاط عِلمُه بكلِّ شيءٍ، ومن ذلك عِلْمُه بمصالحِ خَلْقِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٤٢).

(٢) ذهَب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الإشارةَ تعودُ إلى المذكور في هذه الآيةِ، وهو فلْقُه الإصباح، وجعلُه الليلَ سكنًا، والشمسَ والقَمَرَ حُسبانًا. وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٩/ ٤٣١). وذهَب بعضُهم إلى أنَّها تعودُ على كلِّ ما سبَق، وهو فلقُه الحبَّ والنوى، وفلقُه الإصباحَ، وجعلُه الليلَ سكنًا، والشَّمسَ والقَمَرَ حسبانًا. وهذا اختيار الشِّنقيطي في ((العذب النمير)) (١/ ٥٥١-٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص:

كما قال سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧-٣٨].

وقال تعالى: ﴿... فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾.

أي: وهو سبحانه الذي خَلَقَ النُّجومَ لكم- أيُّها النَّاسُ- فجعَلَها أدلَّةً تستدِلُّونَ بها للنَّجاةِ، إذا ضَلَلْتم الطريقَ في ظُلُماتِ اللَّيلِ، سواءٌ كنتم في برٍّ أو بحرٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: قد ميَّزنا كلَّ جنسٍ ونوعٍ من الأدلَّة عن الآخَرِ، وبيَّنَّاها ووضَّحْناها، وجعَلْناها علاماتٍ على قُدْرَتِنا وكَمالِنا، وأنَّه ليس لأحدٍ أن يَعْبُدَ غَيْرَنا؛ وذلك ليتدبَّرَها ويَفْهَمَها أولو العِلْمِ بالله تعالى، الذين يعرفونَ الحَقَّ، ويجتنبونَ الباطِلَ[(٢)].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨﴾.

---

٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥١-٥٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣١-٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥٤-٥٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥٦-٥٥٩).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ قِراءتان:

١- ﴿فَمُسْتَقِرٌّ﴾ على أنَّها اسمُ فاعلٍ من قولِهم: قرَّ الشَّيءُ، فهو مُستقِرٌّ، والمراد: الولدُ القارُّ في الرَّحِمِ إلى وقت الوَلادِ[١].

٢- ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ أي: موضِعُ استقرارِ الوَلَدِ، وهو الرَّحِمُ[٢].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾.

أي: وهو سبحانه الذي أخرجَكم[٣] مِن العَدَم إلى الوجودِ، مِن آدَمَ عليه السَّلامُ، الذي خلَقَه اللهُ عزَّ وجلَّ مِن ترابٍ، ثمَّ صِرْتُم بعد ذلك نُطَفًا أودَعَها اللهُ في أصلابِ آبائِكم، ثمَّ يَنْقُلها فتَستقِرُّ في أرحامِ أمَّهاتِكم[٤].

---

(١) قرأ بها ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وروحٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٤٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٤).

(٣) قيل: الخطابُ للمُشركينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣٢).
وقيل: المرادُ البَشَرُ كلُّهم، مع التعريضِ بالمشركين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥-٨).
والقولُ بأنَّ المستَقَرَّ هو القرارُ المَكينُ للنُّطْفَة في أرحامِ الأمَّهات، والمستودَعُ هو وجودُها في أصلابِ الآباءِ؛ عليه أكثَرُ المُفَسِّرينَ- كما نصَّ عليه الشنقيطيُّ في ((العذب النمير)) (٢/ ٨-١١). وقال ابن كثير عن هذا القول: (هو الأظهر) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦).
وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابنُ عبَّاس، وعكرمةُ، ومجاهدٌ، وعطاءٌ، والسُّديُّ، وقتادةُ، والضحَّاك، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٣٥٥، ١٣٥٧)، ((تفسير ابن جرير))

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

أي: قد بَيَّنَّا الحُجَجَ، وميَّزنا الأدلَّة، وأحكَمْنَاها لقومٍ يفهمونَها، فَيَعُونَ عن الله تعالى مُرادَه[1].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ إنعامَه تعالى بخَلْقِنا؛ ذَكَرَ إنعامَه علينا بما يقومُ به أَوَدُنا ومَصالِحُنا[2]، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

(٩/ ٤٣٦ - ٤٤٢).

واختار السعديُّ أنَّ المراد بالمستقَرِّ: الدَّارُ الآخِرة، وأنَّ المرادَ بالمستودَع: الدَّار الدنيا ودارُ البرزخ. يُنظر ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦-٢٦٧).

واختار ابنُ جرير عُمومَ الآيةِ، وأنَّ معنى المستقَرِّ والمستودَعِ يَشمل عدَّة أمورٍ، فقال: (أَوْلى التأويلاتِ في ذلك بالصَّوابِ، أن يُقال: إنَّ الله جلَّ ثناؤُه عمَّ بقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ كلَّ خَلْقِه الذي أنشأ من نَفْسٍ واحدةٍ مستقرًّا ومستودَعًا، ولم يخصِّصْ من ذلك معنًى دون معنًى، ولا شكَّ أنَّ مِن بني آدَمَ مُستقَرًّا في الرَّحِم، ومستودَعًا في الصُّلب، ومنهم من هو مستقَرٌّ على ظهر الأرْضِ أو بَطْنِها، ومستودَعٌ في أصلابِ الرِّجال، ومنهم مستقَرٌّ في القبر، مستودَعٌ على ظهر الأرض، فكلُّ مستقَرٌّ أو مستودَعٌ بمعنًى من هذه المعاني فداخِلٌ في عمومِ قوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨] ومرادٌ به، إلَّا أن يأتي خبرٌ يجبُ التَّسليمُ له بأنَّه معنيٌّ به معنًى دون معنًى، وخاصٌّ دون عامٍّ) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣-١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩٦).

أي: وهو سبحانه الذي أَنزل المطَرَ، فأنبَتَ به كلَّ شَيءٍ، مِمَّا يأكُلُ النَّاسُ والأنعامُ؛ رزقًا للعِباد، ورحمةً من الله لخَلْقِه[١].

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى عُمومَ ما يَنْبُت بالماءِ؛ مِن أنواعِ الأشجارِ والنَّباتِ، ذَكَر الزَّرْعَ والنَّخْل، لكثرةِ نَفْعِهما، وكونِهما قُوتًا لأكثَرِ النَّاسِ[٢]؛ فقال:

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾.

أي: فأخرَجْنا مِن نباتِ كُلِّ شيءٍ[٣] زَرْعًا وشجَرًا أخضَرَ رَطْبًا، ثم نخلُقُ بعد ذلك فيه الحَبَّ والثَّمَر، يَركَبُ بعضُه بعضًا؛ كالسنابِلِ ونحوِها[٤].

﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾.

أي: ويُخْرِجُ اللهُ سبحانه مِن طَلْعِ النَّخْل- وهو وعاؤُها الذي تنشأُ فيه عُذوقُ الرُّطَبِ- يُخرِج تلك العذوقَ متدلِّيَةً، قريبةً، سَهْلَةَ التناوُلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

(٣) اختار عود الضمير في ﴿مِنْهُ﴾ على نباتِ كلِّ شيءٍ: ابنُ عطيةَ، وابنُ عاشورٍ، والشنقيطيُّ.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٢).
واختار عودَه على الماءِ: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٤٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٥-٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

﴿وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٖ﴾ قراءتان:

١- ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ بالرَّفْع: على أنَّها مُبتَدأٌ، والخَبَرُ مَحذوفٌ، وهو إمَّا مُقَدَّمٌ، فيكونُ التقديرُ: وثَمَّ جَنَّاتٌ، أو: ومِنَ الكَرمِ جناتٌ، أو: ولَكُم جَنَّاتٌ، وإمَّا أن يكونَ مُؤَخَّرًا، فيكونُ التَّقديرُ: وجناتٌ مِن أعنابٍ أخرَجْناها[1].

٢- ﴿وَجَنَّٰتٖ﴾ بالنَّصبِ: على أنَّها معطوفةٌ على ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، أي: وأَخْرَجْنا به جَنَّاتٍ مِنْ أعنابٍ، أو معطوفةٌ عَلى ﴿خَضِرًا﴾[2].

﴿وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ﴾.

أي: وأخرجْنا أيضًا بساتينَ من أعنابٍ[3].

﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖ﴾.

أي: وأَخْرَجْنا شَجَرَ الزيتونِ والرُّمَّانِ الذي يتشابَهُ في وَرَقِه وشَجَرِه، ويختَلِفُ

---

(١) رواها الأعشى عن أبي بكر. يُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٤٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٤).
ويُنظر أيضًا: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٧٥-٧٦)، ((منار الهدى في بيان الوقف والابتدا)) للأشموني (١/ ٢١٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٤).
ويُنظر أيضًا: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٧٥-٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٥-٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

في ثَمَره شكلًا وطعمًا[١].

﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾.

أي: انظروا إليه حين بُدُوِّه وطُلوعِه، وحين بُلوغِه ونُضْجِه، نَظَرَ فِكْرٍ واعتبارٍ؛ فإنَّ في ذلك عِبَرًا وآياتٍ؛ كالتفكيرِ في رحمةِ الله، وسَعَةِ إحسانِه وَجُودِه، وعنايَتِه بعبادِه، وكمالِ قُدْرَتِه؛ حيث أخرج تلك الثِّمارَ مِن العَدَمِ إلى الوُجودِ، فبَعْدَ أن كان حَطَبًا، صار عِنَبًا ورطبًا، وغير ذلك مِمَّا خلَقَ تعالى؛ من الألوانِ والأشكالِ والطُّعومِ والرَّوائحِ[٢].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ في إنزالِ اللهِ تعالى- أيُّها النَّاسُ- الماءَ من السَّماءِ الذي أخرَجَ به نباتَ كلِّ شيءٍ، والخَضِرِ الذي أخرج منه الحَبَّ المتراكِبَ، وغير ذلك مِمَّا ذكَرَه الله تعالى في هذه الآيَةِ؛ لدَلالاتٍ للمؤمنينَ على وحدانيَّة وكمالِ قُدرَةِ خالِقِ هذه الأشياءِ وحِكْمَتِه ورَحْمَتِه، وأنَّ العبادَةَ لا تصلُحُ إلَّا له عزَّ وجلَّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٩).
قال الشنقيطي: (﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖ﴾ كان بعضُ العلماءِ يقولُ: في الكلامِ حذفٌ دَلَّ المقامُ عليه، أي: والزيتونَ مشتَبِهًا وغيرَ متشابهٍ، والرمانَ مشتَبِهًا وغيرَ مُتَشابِهٍ. أنها راجعةٌ لكليهما. وحُذِف أحدُهما لدلالةِ المقامِ عليه... وهو أسلوبٌ عربيٌّ مَعْروفٌ ومعنَى كونِ الزيتونِ مُشْتَبِهًا وغيرَ مُتَشابهٍ: أن شجرَه يتشابهُ ورقُه في القَدْرِ، ويتشابَه في نباتِه في جميعِ الغصنِ، وغيرُ متشابهٍ لأنَّه أنواعٌ تختلفُ طُعومُها. الذي يعرفُه يَجِدُ في اختلافِ طعمِه فُروقًا يستدلُّ بها على كمالِ قدرةِ مَنْ صَنَعه...، وكذلك الرمانُ: تجدُه متشابهًا بالمنظرِ، أغصانُه وورقُه مُتَشابِهٌ، وقد تجدُ طعمَه مُتَبايِنًا أيضًا كما هو معروفٌ)) ((العذب النمير)) (٢/ ٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣١-٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٢-٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيه تذكيرٌ بوحدانيَّة الله، وبعظيمِ خِلْقَةِ النُّجوم، وبالنِّعمةِ الحاصلةِ مِن نظامِ سَيْرِها؛ إذ كانت هدايةً للنَّاسِ في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ[(١)].

٢- ليس كُلُّ أحدٍ يعتَبِرُ ويتفكَّر، وليس كلُّ من تَفَكَّرَ، أدرَكَ المعنى المقصودَ؛ ولهذا قَيَّدَ تعالى الانتفاعَ بالآياتِ بالمؤمنينَ دونَ غيرِهم؛ فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنَّ المؤمنينَ يَحْمِلُهم ما معهم من الإيمانِ على العَمَل بمقتضياتِهِ ولوازِمِه، التي منها التفكُّرُ في آياتِ الله، والاستنتاجُ منها ما يُرادُ منها، وما تدلُّ عليه، عقلًا وفطرةً، ونقلًا[(٢)].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ افتتحَ الجملة بـ﴿إِنَّ﴾ مع أنَّه لا يُنكِرُ أحدٌ أنَّ اللهَ هو فاعِلُ الأفعالِ المذكورةِ هنا، ولكِنَّ النَّظَرَ والاعتبارَ في دَلالةِ الزَّرْعِ على قُدْرةِ الخالِقِ على الإحياءِ بعدَ الموتِ، كما قَدَرَ على إماتَةِ الحَيِّ؛ لَمَّا كان نظَرًا دقيقًا قد انصرف عنه المُشْركونَ، فاجترَؤوا على إنكارِ البَعْثِ- كان حالُهم كحالِ مَن أنكَرَ أو شَكَّ في أنَّ اللهَ فالِقُ تعالى الحَبِّ والنَّوَى، فأكَّدَ الخَبَرَ بحرفِ ﴿إِنَّ﴾[(٣)].

٢- في قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، وقولِه: ﴿فَأَخْرَجْنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨٧).

مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ ﴾، جاء تَقديمُ الحَبِّ في الموضعينِ؛ مما يدلُّ على أنَّ الزَّرْعَ الَّذي منهُ يكونُ خروجُ الحَبِّ أفضَلُ؛ فإنَّه قوتٌ في أكثَرِ البلادِ، ولأغْلَبِ الحيواناتِ(١).

٣- قوله: ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ ﴾ فيه إشكالٌ، وسؤال معروفٌ للعلماءِ، وهو أنَّ في الآيةِ أنَّه سبحانه يفلقُ الإصباحَ، والذي يفلقُ ويشقُّ عن نور الصباحِ في الحقيقةِ هو الظَّلامُ، فكيف يكون نورُ الصباح هو الذي يفلقُ ويشقُّ؟ وللعلماءِ عن هذا السُّؤال أجوبةٌ:

منها: أنَّ الله تعالى قال: ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ ﴾؛ لأنَّ شعاعَ الصُّبح يبدأ أوَّلًا وتحته ظلامٌ، ولم يُسْفِر إسفارًا تامًّا يكشِفُ الظَّلامَ كَشفًا كليًّا، ثم ينصَدِعُ ذلك الإصباحُ انصداعًا كليًّا عن ضَوءِ النَّهارِ كما ينبغي. وقيل: الكلامُ على حَذفِ مُضافٍ: فالِقُ ظُلمةِ الإصباحِ، وأنَّه حُذِف المضافُ إليه. ولا يخلو مِن بُعْدٍ؛ لأنَّ هذا المُضافَ لم تحتَفَّ به قرينةٌ(٢).

٤- في قوله تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗا ﴾ ذَكَر تعالى في هذه الآيةِ ثَلاثةَ أنواعٍ من الدَّلائِلِ الفَلَكيَّةِ على التوحيدِ؛ فأوَّلها: ظهورُ الصَّباحِ. وثانيها: قولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا ﴾. وثالثها: أنَّه قَدَّر حركةَ الشَّمسِ والقمرِ بحِسابٍ مُعَيَّنٍ(٣).

٥- مَصدَرُ الخَلْقِ والأَمْرِ والقضاءِ والشَّرْعِ؛ عن عِلْمِ الرَّبِّ وعِزَّتِه وحِكْمَتِه، ولهذا يَقْرِن تعالى بين الاسمين مِن هذه الثلاثةِ كثيرًا، ومنها قوله تعالى: ﴿ فَالِقُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٧٨).

ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ وقال في سورةِ (فصِّلَت) بعد ذكرِ تخليقِ العالمِ: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾، فارتباطُ الخلقِ بقدرتِه التامَّة يقتضي ألَّا يخرجَ موجودٌ عن قدرتِه، وارتباطُه بعلمِه التامِّ يقتضي إحاطتَه به، وتقدُّمَه عليه، وارتباطُه بحكمتِه يقتضي وقوعَه على أكملِ الوجوهِ، وأحسنِها[١].

٦- في قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ عبَّر في جانِبِ اللَّيل بمادَّةِ الجَعْلِ؛ لأنَّ الظُّلْمةَ عَدَمٌ؛ فتعَلُّقُ القُدرةِ فيها هو تعلُّقُها بإزالَةِ ما يمنَعُ تلك الظُّلْمةَ من الأنوارِ العارِضَةِ للأُفُقِ[٢].

٧- في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ جَعَل الله حَركاتِ الشَّمْسِ والقَمَرِ على نظامٍ واحدٍ لا يختَلِفُ، وذلك من أعظَمِ دلائِلِ عِلْمِ الله وقُدْرَتِه[٣].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ﴾ أصلٌ في الحسابِ والميقاتِ وأدِلَّةِ القِبلةِ[٤].

٩- قولُه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ فيه دليلٌ على مشروعيَّةِ تعلُّمِ سَيرِ الكواكِبِ ومَحالِّها؛ الذي يُسمَّى علْمَ التَّسييرِ؛ فإنه لا تَتِمُّ الهدايةُ ولا تُمْكِن إلَّا بذلك[٥].

١٠- إنَّما خَصَّ اللهُ تعالى القومَ الذين يَعلمون في قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّهم هم المنتفعونَ بها، وهذا أسلوبٌ مِن أساليبِ القرآنِ

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٩٢).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦).

العظيمِ؛ أن يَخْصُصَ بالكلامِ الْمُنتَفِعَ به؛ كقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وهو مُذَكِّرٌ للأسودِ والأحمَرِ، وكقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [يس: ١١]، وهو مُنذِرٌ للأسوَدِ والأحمَرِ، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥] ونحو ذلك، أمَّا القومُ الذين لا يعلمونَ؛ فتَفصيلُ هذه الآياتِ لا ينفَعُ فيهم؛ لأنَّهم لا يفهمونَ عن اللهِ شيئًا؛ فهم كالأنعامِ، بل هم أنْزَلُ درجةً من الأنعامِ[(١)].

١١- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ فيه الاستدلالُ على وحدانيَّة الله تعالى بالإلهيَّة؛ فلذلك صِيغَ بصيغَةِ القَصْرِ بطريقِ تعريفِ المُسنَد والمُسنَد إليه؛ لأنَّ كَوْنَ خَلْقِ النُّجُومِ من الله، وكَوْنَها ممَّا يُهتَدى بها؛ لا يُنْكِرُه المخاطَبونَ، ولكنَّهم لم يَجْرُوا على ما يقتضيهِ من إفرادِه بالعبادَةِ[(٢)].

١٢- قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يدلُّ على أنَّ إخراجَ النباتِ يكون بواسِطَةِ الماءِ، وذلك يوجِبُ القولَ بالأسبابِ والقُوى والطَّبائع، ففيه ردٌّ على المتكلِّمين الذين يقولون: إنَّ قدرةَ العبدِ وغيرَها من الأسبابِ التي خلَقَ اللهُ تعالى بها المخلوقاتِ؛ ليست أسبابًا، وأنَّ وجودَها كَعَدَمِها، وليس هناك إلا مجرَّدُ اقترانٍ عاديٍّ[(٣)].

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ النَّخل: من جِنْسِ الْمُنْبَتِ بهذا الماءِ إلَّا أنَّ اللهَ قطَعَه، وجاءَ به في صيغةِ جملةٍ مستأنَفَةٍ من مبتدأٍ وخبرٍ؛ تنويهًا بشأن النَّخْل؛ لأنَّ النَّخْلَ كلَّه منافِعُ، وجَرَتِ العادةُ في القرآن: أنَّه إذا ذَكَرَ الإنعامَ بالتَّمْر ذَكَرَه باسم شجَرَتِه التي هي النخلةُ، وإذا ذَكَرَ الإنعامَ باسْمِ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥٦، ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٣٦-١٣٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣١٨).

العِنَبِ ذَكَرَه باسْمِ الثَّمرةِ التي هي العِنَبُ. هذه قاعدةٌ مطَّردةٌ في القرآنِ؛ قال بعضُ العلماءِ: إنَّما ذَكَرَ شجرةَ التَّمْر، التي هي النخلَةُ؛ لأنَّ النخْلَةَ كلُّها منافِعُ؛ فتَمْرُها بعضُ منافِعِها، فلو عَبَّر بالتَّمْر لأهمَلَ منافِعَ النخْلِ الكثيرةَ؛ لأنَّ النَّخْلَ كلُّها منافِعُ؛ لأنَّ خُوصَها تُصنَع منه القِفاصُ، وجريدَها تُصنَع منه الحُصْر، وتُصنَع منها الحِبالُ، ولُبَّها يُؤكَلُ، وجِذْعها يُسْقَفُ به، وكِرنافها[1] يُوقَد به؛ فجميعُ ما فيها منافِعُ، أمَّا شجرةُ العِنَب: فليس في نَفْسِ الشجرةِ من المنافِعِ ما في النَّخْلةِ، فأعظَمُ منافِعِها في ثَمرَتِها[2].

١٤- قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ﴾ ذَكَر (الطَّلْع)، ولم يَقُلْ: (مِن النَّخْل قِنوانٌ)؛ إذ كان الطَّلْعُ طَعامًا لذيذًا، وإدامًا نافعًا، ولم يكُنْ كسائِرِ أكمامِ الثِّمارِ[3].

١٥- قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ خصَّصَ اللهُ تعالى هذه الأشجارَ بالذِّكْرِ بعد أنْ عَمَّ جميعَ الأشجارِ والنَّوابت؛ لأنَّها من الأشجارِ الكثيرةِ النَّفْع، العظيمةِ الوَقْعِ[4].

١٦- قال تعالى: ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ كونُه يتشابَهُ من جهةٍ، ويختلِفُ من جهةٍ، هذا دليلٌ على كمالِ قدرةِ مَن خَلَقَه، وأنَّ خَالِقَه ليس بطبيعةٍ؛ لأنَّ الطبيعةَ عند من يزعمونَها معنًى واحدٌ، جوهَرٌ لا يتقَسَّم، ولا يقبلُ الانقسامَ. يستحيلُ أن تؤثِّرَ الطبيعةُ في مطبوعَينِ مختلفَينِ؛ ولا يمكن أن تكون الطبيعةُ الواحِدَةُ تُنتِجُ أشياءَ مختلفةً، واختلافُ هذه الأشياءِ دليلٌ على أنَّ فاعِلَ

---

(١) الكِرنافُ: أصلُ السَّعَفِ الذي يبقَى بعد قَطعِه في جِذعِ النَّخلةِ، وجمعُه: الكَرانيفُ. ((المصباح المنير)) للفيومي(٢/ ٥٢٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٣، ٢٤).

(٣) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (ص:٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

ذلك صانِعٌ مختارٌ، يفعلُ ما يشاءُ، فالمقصودُ من التقييدِ بهذه الحالِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾ التنبيهُ على أنَّها مخلوقةٌ بالقَصْدِ والاختيارِ لا بالصُّدفَةِ[١].

١٧- قولُ الله تعالى: ﴿مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ لأَجْلِ أنَّ الاشتباهَ أبلَغُ من التَّشابُه، عَلَّقَ الأمْرَ بالنَّظَرِ الذي هو أثبَتُ الحَواسِّ[٢].

١٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لَمَّا كان اتِّخاذُ هذه الحبوبِ والثِّمارِ المذكوراتِ أوَّلًا، والمخالَفَةُ بين أشكالِها ومقاديرِها وألوانِها ثانيًا؛ دالَّا على كمالِ قُدرَةِ الله تعالى المستلزِمِ لوحدانِيَّتِه- دلَّ على عَظَمَتِه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ﴾ مشيرًا بأداةِ البُعْدِ وميم الجمع؛ أي: الأمرُ العظيمُ الشأنِ، العالي الرُّتْبَةِ[٣].

بلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾

- قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ انتقَلَ به من تَقريرِ التوحيدِ والبعثِ والرِّسالةِ، وأفانينِ المواعِظِ والبراهينِ التي تَخلَّلَت ذلك، إلى الاستدلالِ والاعتبارِ بِخَلْقِ اللهِ تعالى، وعَجائِبِ مصنوعاتِه المشاهَدَةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٠).
هذا بناء على أنَّ قولَه: ﴿مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ راجعٌ للزيتونِ والرُّمان كليهما، أي: والزيتونَ مشتَبِهًا وغيرَ متشابهٍ، والرمانَ مشتَبِهًا وغيرَ مُتَشَابِهٍ، وقد تقدَّم.
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢١٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨٧).

- وجملة ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ مُستأنفةٌ مُبَيِّنَةٌ لِمَا قَبْلَها من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، ومؤكِّدَةٌ لها[١]؛ لأنَّ فَلْقَ الحبِّ والنَّوى بالنَّباتِ والشَّجرِ النامِيَينِ، من جِنسِ إخراجِ الحيِّ من الميِّت؛ لأنَّ النَّامِيَ في حُكمِ الحَيوانِ الحيِّ، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[٢] [الروم: ١٩].

- وجاء قوله: ﴿يُخْرِجُ﴾ على صِيغةِ الفِعلِ بَينَ اسمَي فاعِل: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ و﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾، فعَدَلَ عن اسْمِ الفاعِلِ إلى الفِعلِ المُضارِعِ في هذا الوصفِ وحْدَه؛ إرادةً لتصويرِ إخراجِ الحيِّ مِن الميِّتِ، واستحضارِه في ذِهنِ السَّامع، وهذا التصويرُ والاستحضارُ إنَّما يَتمكَّن في أدائِهما الفِعلُ المضارعُ، دون اسمِ الفاعلِ والماضِي[٣].

وقيل: لم يَقُل: (ومُخرِج الحيِّ من الميِّت)؛ لأنَّه لَمَّا اجتمَعَ ثلاثةُ حُروفٍ مِن حروفِ العِلة دَفعةً واحدةً، وهي: الواو والياء مِن (النَّوى)، والواو مِن (ومخرج) وهي واو العطف، ونُقِل عن لفظِ الاسمِ إلى لفظِ الفِعلِ لَمَّا كان (يُخرِج) و(مُخرِج) بمعنًى واحد، فقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ فجَعَل جملةَ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ خبرَ الابتداءِ، كما في: إنَّ زيدًا ضاربُ عَمرٍو يُكرِمُ بَكرًا، ومُكرِمٌ جَعفرًا؛ فهذا أفصحُ مِن أنْ يُقال: إنَّ زيدًا ضاربُ عمرٍو، ومكرمُ بَكرٍ، ومُكرمُ جَعفرٍ؛ فلهذا المعنَى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٤٧- ٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٢٦- ٥٢٧).

- قوله تعالى: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾

فيه مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ عبَّر هنا في سُورةِ الأنعامِ بقولِه: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾، فعَطَفَ الاسمَ على لفظِ الفِعلِ، ولم يَعطِفْ عليه لفظَ الفِعل، كما في سُورتي يونس والروم، حيث قال: ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [يونس:٣١، الروم:١٩] بالفِعلِ؛ وذلِك أنَّ الذي وقَع في الأنعام قبله اسمَا فاعِلٍ، وهما: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾، و﴿جَاعِلُ﴾، والذي وقَعَ بعده اسمُ فاعِلٍ أيضًا، وهو ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾؛ فناسَب ذِكر (مُخْرِج)؛ لكونِه اسمَ فاعِل، وخصَّ بالاسمِ لتكرُّرِ الاسمينِ بعدَه، وخُصَّ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ﴾ قبْلَه بالفِعل؛ إذ لم يَتقدَّمه إلَّا اسمٌ واحدٌ، وما في بقيَّة السُّورِ لم يقَعْ قبلَه وبعدَه إلا أفعالٌ؛ فناسَب ذِكره بالفِعل[1].

- قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾

جُملةُ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ مستأنفةٌ، مقصودٌ منها الاعتبارُ، فتكون جملةُ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ كلُّها اعتراضًا[2].

- والإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ لزِيادةِ التَّمييزِ، وللتَّعريضِ بغَباوةِ المخاطَبينَ المُشْرِكينَ؛ لِغَفْلتِهم عن هذه الدَّلالة على أنَّه المُنْفرِدُ بالإلهيَّةِ، أي: ذلكم الفاعلُ الأفعالَ العظيمةَ؛ مِن الفَلْقِ، وإخراجِ الحيِّ مِن الميِّتِ، والميِّتِ مِن الحيِّ، هو الذي يَعرِفُه الخلقُ باسمِه العظيمِ، الدالِّ على أنَّه الإلهُ الواحدُ، المقصورِ عليه وصْفُ الإلهيَّةِ؛ فلا تَعْدِلوا به في الإلهيَّة غيرَه؛ ولذلك عقَّبَ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٢٨)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٠-١١١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٨٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧١-١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٠).

بالتفريعِ بالفاءِ قولَه: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[١].

- وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ استفهامٌ تعجيبيٌّ إنكاريٌّ، أي: لا يوجَدُ موجِبٌ يَصْرِفُكم عن توحيدِه[٢].

- قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ إعجازٌ يتجَسَّدُ فيه عَجْزُ الإنسانِ؛ فالكلمةُ القرآنيَّةُ مهما استبدَلْتَ بها غيرَها لم يَسُدَّ مسَدَّها، ولم يُغْنِ غَناءَها، ولم يؤَدِّ الصُّورةَ التي كانت تؤدِّيها، وانظُرْ إلى طبيعةِ الأحرُفِ التي تتكوَّنُ منها كلمةُ ﴿سَكَنًا﴾ وتوالي الفَتَحاتِ على حروفها، كلُّ ذلك يُشْعِرُكَ بذلك الهدوءِ الذي يَبْعَثُ على الطُّمأنينَةِ، وينْشُرُ الرَّاحَةَ في النَّفْسِ[٣].

٢- قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ المقصودُ الأوَّلُ من هذا الخبرِ الاستدلالُ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى بالإلهيَّة؛ فلذلك صِيغَ بصيغةِ القَصْرِ بطريقِ تعريفِ المُسنَد والمُسنَد إليه في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾؛ لأنَّ كَونَ خَلْقِ النجومِ من الله، وكونَها مِمَّا يُهتَدى بها؛ لا يُنْكِرُه المخاطَبون، ولكنَّهم لم يَجْرُوا على ما يقتضيهِ من إفرادِه بالعبادَةِ[٤].

- قوله: ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إضافة قوله: ﴿ظُلُمَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ للملابسةِ لهما، أو شَبَّه مُشتبهاتِ الطُّرق بالظُّلماتِ[٥]، وإنَّما أضافَ الظلماتِ إلى البَرِّ والبحرِ؛ لأنَّ المسافرين قد يكونون في ظُلماتِ اللَّيلِ تارةً في بَرٍّ، وتارةً في بَحرٍ؛ فأضاف الظلماتِ إلى مَكانِها من

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٨٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٧٨-١٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٤).

بَرٍّ أو بحرٍ؛ للمُلابسةِ بينهما[١].

- قوله: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ جملةٌ مستأنفَةٌ للتَّسجيلِ، والتبليغِ، وقَطْعِ معذرَةِ من لم يُؤْمِنوا[٢].

- والتعريفُ في ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ للاستغراقِ، فيشمَلُ آيةَ خَلْقِ النُّجومِ وغَيْرَها[٣].

- وقوله ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ فيه تعريضٌ بِمَن لم ينتَفِعوا مِن هذا التَّفصيلِ، بأنَّهم قومٌ لا يعلمونَ[٤].

٣- قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾

- قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ فيه مناسَبَةٌ حسنةٌ؛ حيث عبَّرَ هنا بلفظِ: ﴿أَنشَأَكُم﴾، وفي غيرِ هذه السُّورةِ جاء التعبيرُ بلَفْظِ: ﴿خَلَقَكُمْ﴾؛ لأنَّ ما هنا موافقٌ لقولِه قبله: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، ولقوله بعده: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ﴾ بخلافِ البقيَّةِ[٥].

- ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾ فيه تعريضٌ بِمَن لا يَتدَبَّرُ آياتِ اللهِ، ولا يعتَبِرُ بما خَلَقَ، وتعريضٌ بأنَّ المُشركينَ لا يعلمونَ ولا يفقهونَ؛ فإنَّ العِلمَ هو المعرفَةُ الموافِقَةُ للحقيقةِ[٦].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ عبَّر هنا بقوله ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ بخِلاف الآيةِ

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١١١- ١١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٨١).

السَّابقةِ؛ حيث عبَّرَ بقوله: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾؛ فختَمَ الآيةَ السابقةَ، وهي الآيةُ التي استدلَّ فيها بأحوالِ النُّجومِ بقوله: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، وختم آخِرَ هذه الآيةِ بقوله: ﴿يَفۡقَهُونَ﴾؛ لأنَّ إنشاءَ الإِنْسِ من نفسٍ واحدةٍ، وتصريفَهم بين أحوالٍ مختلفةٍ؛ ألطَفُ، وأدَقُّ صنعةً وتدبيرًا، فكان ذِكْرُ الفِقْه- الذي هو استعمالُ فطنةٍ، وتدقيقُ نَظَرٍ، ويفيدُ مزيدَ قوَّةٍ وذكاءٍ وفَهْمٍ- مطابقًا له، فدلالةُ إنشائِهم على هذه الأطوارِ من الاستقرارِ والاستيداعِ وما فيهما من الحكمةِ؛ دلالةٌ دقيقةٌ تحتاجُ إلى تدبُّرٍ؛ فإنَّ المُخاطَبينَ كانوا مُعْرضينَ عنها؛ فعَبَّر عن عِلْمِها بأنَّه فِقْهٌ، بخلافِ دلالةِ النُّجومِ على حِكمةِ الاهتداءِ بها؛ فهي دَلالةٌ متكرِّرةٌ؛ فناسَبَ خَتْمُ كلِّ جملةٍ بما يناسِبُ ما صُدِّر به الكلامُ[1].

٤- **قوله:** ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾

- قوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾:

- قوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فيه التفاتٌ من الغَيبةِ إلى التكلُّمِ، ولو جرى على لفْظِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ لكان التركيبُ: (فأخرج به نباتَ كُلِّ شيءٍ)، وذلك الالتفاتُ من الفصاحَةِ، وسِرُّ هذا الالتفاتِ هنا: العنايةُ بشأنِ هذا الإخراجِ، والتنويهُ بالعظمَةِ والقدرةِ البالِغَتينِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠- ٥١)، ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه))

- قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ جيءَ بالتعريفِ في قوله: ﴿ٱلنَّخۡلِ﴾ للعَهْدِ الجنسيِّ؛ للإشارةِ إلى أنَّه الجِنْسُ المألوفُ المعهودُ للعرب؛ فإنَّ النَّخْلَ شَجَرُهم، وثَمَرُه قُوتُهم، وحوائِطُه مُنْبَسَطُ نُفُوسِهم[١].

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾، أُفرِد ذِكرُ القِنوانِ، وجُرِّد[٢] مِن قوله: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، أي: انتُزِعَ مِن نباتِ كلِّ شَيءٍ مع أنَّه مِنه؛ لِمَا في تجريدِها من عَظيمِ المِنَّةِ والنِّعمةِ؛ إذ كانتْ أعظمَ أو مِن أعظمِ قوتِ العربِ، وأُبرزتْ الجملةُ في صورةِ المبتدأ والخبرِ؛ ليدلَّ على الثبوتِ والاستقرارِ وأنَّ ذلك مفروغٌ منه[٣].

- ﴿وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ﴾ (جَنَّاتٍ) منصوبةٌ عطفًا على قولِه: ﴿نَبَاتَ﴾، وهو مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لشَرفِه، ولَمَّا جُرِّدَ النَّخلُ، جُرِّدَتْ جنَّاتُ الأعنابِ؛ لشَرَفِهما، كما قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ﴾[٤].

- قوله: ﴿دَانِيَةٞ﴾ أي: قريبةٌ؛ قيل: ذكَر القريبةَ، وتَرَك ذِكرَ البعيدةِ؛ لأنَّ النِّعمةَ فيها أظهَرُ وأدلُّ بذِكر القريبةِ على ذِكر البعيدةِ؛ كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾؛ فاقتصر على ذِكْرِ ﴿دَانِيَةٞ﴾ عن مقابِلها (بعيدة)؛

لمحيي الدين درويش (٣/ ١٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٠).

(٢) التجريدُ اصطلاحًا: أنْ ينتزع المتكلمُ مِن أمر ذي صِفةٍ أمرًا آخَرَ مثلَه في تلك الصِّفة؛ مبالغةً في كمالها في المنتزَعِ منه، حتى إنَّه قد صارَ منها، بحيثُ يُمكن أن يُنتزعَ منه موصوفٌ آخَرُ بها، وأقسام التجريد كثيرة. يُنظر: ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٠٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩٧- ٥٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٥٩٨).

لدَلالتها عليه، وزيادةِ النِّعمةِ فيها[١].

- وجاء قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ﴾ على أَحْسَنِ مساقٍ، وأبدَعِه في الترتيبِ؛ فلَمَّا تقدَّمَ أنَّ الله فالِقُ الحَبِّ والنَّوى، جاء الترتيبُ بعد ذلك تابعًا لهذا الترتيب، فحين ذَكَرَ أنَّه أخرج نباتَ كُلِّ شيءٍ ذَكَرَ الزَّرْعَ، وهو المرادُ بقولِه: ﴿خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾، وابتدأ به كما ابتدأ به في قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ ثم ثنَّى بما له نوًى، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ إلى آخره، كما ثنَّى به في قوله: ﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾ وقدَّمَ الزرع على الشَّجَرِ؛ لأنَّه غذاءٌ، والثَّمَر فاكهةٌ، والغذاءُ مُقَدَّمٌ على الفاكهة، وقَدَّمَ النَّخْلَ على سائِرِ الفواكِه؛ لأنَّه يجري مَجْرى الغذاءِ بالنِّسبَةِ إلى العَرَبِ، وقدَّمَ العِنَبَ؛ لأنَّه أشْرَفُ الفواكِهِ، وهو في جميعِ أطوارِه منتفَعٌ به، ثمَّ إنْ عُصِرَ كان منه خلٌّ ودِبْس- أي: عُصَارَة- وإن جُفِّفَ كان منه زبيبٌ. وقُدِّمَ الزيتونَ لأنَّه كثيرُ المنفعةِ في الأكْلِ، وفيما يُعْصَر منه من الدُّهْنِ العظيم النَّفْع في الأكل والاستصباحِ، وغيرهما، وذَكَرَ الرُّمَّان لعَجَب حالِه وغرابَتِه[٢]!

- قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ..﴾

فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ورَد فيما بعدُ مِن هذه السُّورة: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فورَد في الآية الأولى: ﴿مُشْتَبِهًا﴾، وفي الثانية: ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾، وفي

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠١).

الأولى: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾، وفي الثانية: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾؛ وذلك لأنَّ ﴿مُشۡتَبِهٗا﴾ و﴿مُتَشَٰبِهٗا﴾ لا فَرقَ بينهما إلَّا ما لا يعدُّ فارقًا؛ إذ الافتعالُ والتفاعُل متقاربانِ؛ أصولهما: الشين والباء والهاء، مِن قوله: أشبه هذا هذا، إذا قاربَه وماثلَه؛ فورَد في أُولى الآيتينِ على أخفِّ البناء، وفي الثانية على أثقلِهما؛ رعيًا للترتيبِ. أمَّا قولُه تعالى في الأُولى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾؛ فهو مبنيٌّ على ما قَبْلَه ممَّا بناه على الاعتِبارِ والتدبُّر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ ...﴾ [الأنعام: ٩٥] الآيةَ، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا ...﴾ [الأنعام: ٩٦] الآية، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا ...﴾ [الأنعام: ٩٧] الآية، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]؛ فلمَّا كان مَبْنى هذه الآيِ على الاعتِبارِ، والتَّنبيهِ بما نصَب تعالى من الدَّلائل على وَحدانيَّته- لم يكُن ليُناسِبَ ذلك ويُلائِمه إلَّا الأمرُ بالنَّظرِ والاعتبار، لا الأمرُ بالأكْل. أمَّا الآيةُ الثانيةُ فمبنيَّةٌ على غيرِ هذا؛ فقَدْ تقدَّمها قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ ...﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وجرَى ما بعدُ على التناسُب إلى قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ ...﴾ إلى قوله: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ [الأنعام: ١٤١]، ثم قال بعدَ ذِكر الأنعام: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٤٢]، وجرَى ما بعدُ على هذا في تَفصيلِ ما أحلَّ سبحانَه لعِبادِه، وردِّ ما ظنَّتْ يهودُ تحريمَه على هذه الأمَّة، ثم أتْبع سبحانه لعباده بذِكر ما حرَّم أكْلَه؛ فلمْ يَتخلَّلْ هذه الآياتِ من غيرِ أحكامِ

المأكولاتِ في التَّنويعِ والإباحةِ خِلافُ ذلك، سِوى الأَمرِ بزكاةِ الحرثِ، في قوله: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾؛ فدارتْ هذه الآي على ما أَنعمَ به سبحانه مِن ضُروبِ ما خَلَقه تعالى، ممَّا أقام به حياةَ عِبادِه؛ مأكلًا ومَلْبسًا، ومعونةً في حَركاتهم وانتقالاتِهم، ومُباحِ ذلك ومُحرَّمِه، فلم يكُنْ ليلائمَ ذلك إلَّا ما يُناسِبُه، ولم يكُن ليناسبَ الآيةَ المتقدِّمة لو قيل: (كُلوا)، ولا هذِه الآية لو قِيل: (انْظُروا)؛ فجاءَ كلٌّ على ما يَجِبُ ويلائِمُ، ولا يُناسِبُ خِلافُه[1].

- قوله: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾: نبَّه على هاتينِ الحالتَينِ فقط، وإن كان بينهما أحوالٌ يقَعُ بها الاعتبارُ والاستبصارُ؛ لأنَّهما أغرَبُ في الوقوعِ، وأظهَرُ في الاستدلالِ[2].

- قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فيه إتمامٌ للتعريضِ بأنَّ غيرَ العالِمينَ وغيرَ الفاقِهين هم غيرُ المؤمنين، يعني: المشركينَ؛ إذ صَرَّح هنا بأنَّ الآياتِ إنَّما تنفَعُ المؤمنينَ تصريحًا بأنَّهم المقصودُ في الآيتينِ الأُخْرَيينِ بقوله: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾[3].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٢)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٦-١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٤).

الآيات (١٠٠-١٠٢)

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَخَرَقُوا۟﴾: أي: افْتَعلوا ذلِك، واخْتَلَقوه كَذِبًا، أو: فَعَلوا مَرَّةً بعدَ أُخرى، أو: حَكَموا بذلك على سبيلِ الخَرقِ، وأصلُ (خرق): مَزْقُ الشَّيءِ، وقَطْعُه على سبيلِ الفَسادِ مِن غير تدبُّرٍ ولا تَفكُّرٍ[(١)].

﴿ بَدِيعُ ﴾: أي: مُبدِعُ ومبتدِئُ، وأصلُه: ابتداءُ الشَّيءِ، وصُنعُه لا عن مِثالٍ سابقٍ[(٢)].

﴿ٱللَّطِيفُ﴾: أي: العالِمُ بدقائقِ الأمورِ، أو الرفيقُ بالعبادِ في هدايتهم، واللُّطْف: الرِّفْق في العمل؛ يقال: هو لطيفٌ بعبادِه، أي رؤوفٌ رفيقٌ، وأصل (لطف): يدلُّ على رِفْقٍ، وعلى صِغَرٍ في الشَّيء[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩-٢٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠).

مُشْكِل الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾

﴿ وَجَعَلُواْ ﴾: بمعنى صيَّروا، ومفعولها الأوَّل: ﴿ٱلْجِنَّ﴾، والثاني: ﴿شُرَكَآءَ﴾ وقُدِّمَ، و﴿لِلَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿شُرَكَآءَ﴾، ويجوز أنْ يكونَ المفعولُ الأوَّل ﴿شُرَكَاءَ﴾، و﴿ٱلْجِنَّ﴾ بدلًا منه، و﴿لِلَّهِ﴾ متعلِّقًا بمحذوفٍ على أنَّه المفعولُ الثاني.

﴿وَخَلَقَهُمْ﴾: حالٌ مِن فاعلِ ﴿جَعَلُوا﴾، أي: وقد خَلَقَهُم. وقيل: هو مستأنفٌ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّ المُشركينَ جعلوا الجِنَّ شُركاءَ لله في العبادَةِ، وهو سبحانه الذي خلق الجِنَّ، فأَوْلَى بهؤلاء المشركينَ أنْ يعبدوا الخالِقَ، وأخبرَ أنَّهم اختَلَقوا له سبحانه- كذِبًا- بنينَ وبناتٍ بغيرِ دليلٍ؛ جهلًا به وبِعَظَمَتِه؛ تنزَّه وتعالى عمَّا يَصِفُه هؤلاء المُشركونَ.

هو خالِقُ السَّمواتِ والأَرْضِ ومُحْدِثُهما على غيرِ مثالٍ سابقٍ؛ فكيف يكونُ له ولدٌ سبحانه، وليس له زوجةٌ، وهو الذي خَلَقَ كُلَّ شيءٍ؛ فهو الغَنِيُّ عن كلِّ مخلوقاتِه، وهي كلُّها فقيرةٌ إليه، وهو سبحانه بكلِّ شيءٍ عالِمٌ، لا يخفى عليه شيءٌ.

ذلكم هو الله المستحِقُّ وَحْدَه للعبادَةِ، ربُّ كلِّ العباد، لا إلهَ إلَّا هو، خالِقُ كلِّ شيءٍ؛ فلْيَعبُدْه كلُّ البَشَرِ، ولْيُقِرُّوا بوحدانِيَّتِه، وهو على كل شيءٍ وكيلٌ.

لا تُحيطُ به سبحانه الأبصارُ، وهو قد أحاط عِلْمُه وسَمْعُه وبَصَرُه بكلِّ شيءٍ، وهو اللَّطيفُ الخبيرُ.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٨٣-٨٦).

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نَبَّهَ الله تعالى على أنَّ الذي يُدْرِك هذه الآياتِ المؤمنونَ بها، بخلافِ الكافرينَ؛ عَقَّبَه بتوبيخِ من أَشْرَك به، والردِّ عليه[1].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ جلَّ وعلا غرائِبَ صُنْعِه وعجائِبَه، الدَّالَّةَ على أنَّه الربُّ وَحْدَه، المعبودُ وَحْدَه، كما في الآياتِ الماضية؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ...﴾، وكقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، وكقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ...﴾ إلى آخِرِ الآيات، التي بيَّن اللهُ فيها كمالَ قُدرَتِه، وغرائِبَ صُنْعِه، وعجائِبَه الدَّالَّةَ على أنَّه الرَّبُّ وَحْدَه، المعبودُ وَحْدَه، فكأنَّه يقولُ في هذه الآيةِ: مع ما أبدَيْتُ لخَلْقِي من آياتي الدالَّةِ على عَظَمَتي وجلالي، وأنِّي الربُّ المعبودُ، مع هذا أشركوا بي الجِنَّ، وعبدوا مَعِيَ المعبوداتِ التي لا تنفَعُ ولا تضرُّ[2]، فقال تعالى:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾.

أي: وجعل هؤلاءِ المشركونَ الجِنَّ شركاءَ لله تعالى في العبادَةِ، والحالُ أنَّ الذي خَلَقَ الجنَّ هو اللهُ تعالى وحده؛ فكيفَ عَبَدُوهم مَعَه[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤، ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٦-٤٠٧).

كما قال إبراهيمُ عليه السَّلام لقومه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦].

﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

أي: اختلقوا وتخرَّصوا كَذِبًا مِن تلقاءِ أَنفُسِهم، فافتَرَوْا لله تعالى بنينَ وبناتٍ بغيرِ دليلٍ، ولا برهانٍ؛ جهلًا بالله وبعظَمَته، فإنَّه لا ينبغي لِمَن كان إلهًا أن يكونَ له بنونَ وبناتٌ، ولا أنْ يشارِكَه شريكٌ في خَلْقِه(١).

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

أي: تنزَّه اللهُ جلَّ وعلا، وتقدَّس عن الذي يَصِفُه به هؤلاءِ الجهَلَةُ الضالُّون؛ من الأولادِ والأندادِ، والنُّظَراءِ والشُّرَكاء، وذلك لا يَنبغي أن يكونَ مِنْ صِفَتِه؛

قال ابنُ كثير: (فإن قيل: فكيفَ عُبِدت الجن وإنَّما كانوا يَعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنَّهم إنما عَبَدوا الأصنامَ عن طاعةِ الجنِّ وأمْرهم إيَّاهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا * لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٧).

وأيضا فهذه الأصنامُ التي كانوا يعبُدونها لربَّما قارَنها شياطينُ في بعضِ الأحيانِ، فسمِعوا منها مَن يكلِّمهم ويخاطبُهم. وكما تتمثَّل الشياطينُ أيضًا لمن يعبدُ الملائكةَ والأنبياءَ والصالحينَ وغيرَهم، ويخاطبونهم، فيظنُّون أنَّ الذي خاطَبهم مَلَكٌ أو نبيٌّ، أو وليٌّ، وإنَّما هو شيطانٌ، كما أنَّهم كانوا يصرِفون للجنِّ أنواعًا مِن العباداتِ التي لا تنبغي إلا للهِ تعالى، كالاستعاذةِ بهم والذَّبحِ لهم. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٨٣، ٢٨٤) (١٧/ ٤٨٤)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٥٨-١٠٥٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٧)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٢٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٤-٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٨-٤٠٩).

فإنَّه تعالى الموصوفُ بكلِّ كمالٍ، المنزَّهُ عن كلِّ نقصٍ وعَيبٍ[١].

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى فَسادَ قَوْلِ طوائِفِ أهْلِ الدُّنيا من المُشركينَ؛ شَرَعَ في إقامَةِ الدَّلائلِ على فَسادِ قَوْلِ من يُثْبِتُ له الوَلَدَ[٢].

وأيضًا لَمَّا خَتَمَ اللهَ تعالى الآيةَ السابقةَ بالتَّنزيهِ عمَّا قاله المُشركونَ من الشَّريكِ والوَلَدِ؛ استدَلَّ على ذلك التنزيهِ بأنَّ الكُلَّ خَلْقُه، مُحيطٌ بهم عِلْمُه، ولن يكون المصنوعُ كالصَّانِعِ؛ فقال[٣]:

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى- الذي جَعَلَ المُشركونَ الجِنَّ شُرَكاءَ له، وخَرَقوا له بنينَ وبناتٍ بغَيْرِ عِلمٍ- هو خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ، ومُحْدِثُهما على غيرِ مثالٍ سَبَقَ[٤].

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

أي: كيفَ يكونُ له ولَدٌ، ولا زوجةَ له؟! فالولَدُ إنَّما يكون متولِّدًا عن شيئينِ متناسِبَينِ، واللهُ لا يناسِبُه ولا يشابِهُه مِن خَلْقِه شيءٌ؛ وهو سبحانه لا يحتاجُ إلى زوجةٍ، فهو الغنيُّ عن جميعِ مخلوقاتِه، وكلُّها فقيرةٌ إليه، وجميعُ الكائناتِ خَلْقُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

وعَبيدُه، ولا يُمكِنُ أن يكون شيءٌ مِن خَلْقِه ولدًا أو زوجةً له بحالٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۞ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨- ٩٣].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: وهو سبحانه لا يَخفَى عليه شيءٌ مِمَّا خَلَق، ويعلَمُ أيضًا المعدومَ، فهو عالِمٌ بالموجوداتِ والمعدوماتِ، والجائزاتِ والمُسْتحيلاتِ، فمِنْ إحاطَةِ عِلْمِه عزَّ وجلَّ أنَّه يعلَمُ المعدومَ الذي سبق في عِلْمِه أنَّه لا يُوجَد، يعلَمُ أنْ لو كان كيف يكون؟ فمن أحاط عِلْمُه بكلِّ شيءٍ فكيف يكون جِنْسًا له- كالولَدِ- من لا يعلَمُ شيئًا إلا ما عَلَّمَه اللهُ؟ وهو عالِمٌ أيضًا بأعمالِ أولئك الذين يزعُمونَ أنَّ لله شريكًا أو ولدًا، وهو مُحْصيها عليهم فيجازِيهم بها[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أقامَ اللهُ تعالى الحجَّةَ على وجودِ الإلَهِ القادِرِ المُختارِ الحَكيمِ الرَّحيمِ، وبيَّنَ فسادَ قَوْلِ مَن ذَهَبَ إلى الإشراكِ بالله، وفصَّلَ مذاهِبَهم على أحسَنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٦-٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٦-٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧-٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٧-٣٨).

الوُجوهِ، وبيَّنَ فسادَ كُلِّ واحدٍ منها بالدَّلائلِ اللَّائقة به. ثم حَكَى مذهَبَ مَن أثْبَتَ لله البنينَ والبناتِ، وبَيَّنَ بالدَّلائلِ القاطعة فسادَ القولِ بها- فعند هذا ثَبَتَ أنَّ إلَهَ العالَمِ فَرْدٌ واحِدٌ صَمَدٌ؛ مُنَزَّهٌ عن الشَّريكِ والنَّظيرِ، والضِّدِّ والنِّدِّ، ومُنَزَّهٌ عن الأولادِ والبنينَ والبناتِ، فعند هذا صَرَّحَ بالنتيجةِ؛ فقال[1]:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُ﴾.

أي: ذلك- الذي لا وَلَدَ له ولا صاحِبَةَ، وخَلَقَ كُلَّ شيءٍ وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ- هو المألوهُ المعبودُ الذي يستحِقُّ نهايةَ الذُّلِّ ونهايةَ الحُبِّ، الرَّبُّ الذي ربَّى جميعَ خَلْقِه بنِعَمِه، فلا ينبغي أن تكون عبادَتُكم وعبادَةُ جميعِ الخَلْقِ إلَّا خالصةً له وحْدَه؛ فحَقٌّ على المصنوعِ أن يُفْرِدَ جميعَ أنواعِ العبادَةِ لصانِعِه، ويَقْصِدَ بها وَجْهَه، فاعبدوه وحْدَه لا شريكَ له، وأَقِرُّوا له بالوحدانيَّة، فلا وَلَدَ له، ولا والِدَ، ولا صاحِبَةَ له، ولا نَظيرَ ولا شريكَ[2].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾.

أي: واللهُ على جميعِ ما خَلَقَ رَقيبٌ وحَفيظٌ؛ فيقومُ بأرزاقِهم وأقواتِهم، وسياسَتِهم وتدبيرِ شئونِهم؛ بكمالِ عِلْمِه، وقُدْرَته ورَحْمَتِه، وعَدْلِه وحِكْمَتِه عزَّ وجلَّ، وكلُّ شيءٍ بِيَدِه، وأمورُ كُلِّ شيءٍ تُفَوَّضُ إليه وحده، فيفعَلُ فيها ما يشاءُ سبحانه، فذلك- الذي هذه صفاتُه- هو الذي يَستَحِقُّ أن يُعبَد وَحْدَه لا شريكَ له[3].

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٨-٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٨-٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤١-٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٦).

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾.

أي: لا تُحيطُ به الأبصارُ، وإنْ كانتْ تراه في الجُملةِ، أمَّا هو سبحانه فقد أحاط عِلْمُه، وسَمْعُه، وبَصَرُه بكُلِّ شيءٍ؛ فيعلَمُ ويرى كلَّ شيءٍ على حقيقَتِه التي هو عليها(١).

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

وهو اللَّطيفُ الذي يُوصِلُ النَّفْعَ والبِرَّ والإحسانَ لخَلْقِه بالطُّرُق الخَفِيَّة، من حيثُ لا يشعرونَ، وهو الخبيرُ الذي دَقَّ عِلْمُه؛ فأدرَكَ به الخفايا والبواطِنَ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

العابدُ ينبغي أن يتفرَّغَ لعبادَةِ الله تعالى، ويقطَعَ أمورَه عن غيرِ وكالَتِه سبحانه؛ فإنَّه يكفيهِ بفَضْلِه عمَّن سواه؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾(٣).

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ يعني: وما كان ينبغي أن يكونَ له شريكٌ مطلقًا؛ لأنَّ الصِّفَة إذا ذُكِرَت مجرَّدةً غيرَ مُجراةٍ على شيءٍ؛ كان ما يتعلَّقُ بها من النفي عامًّا في كلِّ ما يجوز أن يكونَ له الصِّفَةُ، وحُكْمُ الإنكارِ حُكْمُ النَّفْيِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢٨٩) (١١/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٣-٥٩)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (ص: ٤٥٧).
وفي معنى ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أقوال أخرى. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٩-٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٩-٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢١٥).

٢- قول الله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ هذه الآيةُ يُفهَم منها أنَّ المِلْكَ والوَلَدِيَّةَ لا يُمكِنُ أن يجتمعا؛ لأنهم لَمَّا ذكروا له الولَدَ كان مِنْ رَدِّهِ عليهم: أنَّه مُخترِعُ الأرضِ والسَّماءِ؛ أي: ومَنْ فيهما، وصانِعُ الشَّيءِ هو مالِكُه، والوَلَدُ لا يكون مملوكًا أبدًا، وجرت العادةُ في القرآنِ بأنَّ اللهَ يَرُدُّ على الكَفَرة في ادِّعاءِ الوَلَدِ؛ بأنَّه مالِكُ كلِّ شيءٍ، وأنَّ الخَلْقَ عبيدُه، كما قال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ لأنَّ العبد لا يُمكِنُ أن يكونَ ولدًا. ومن هذه الآياتِ القرآنيةِ أخَذَ العُلماءُ أنَّ الإنسانَ إذا مَلَكَ وَلَدَه- بأن تزوَّجَ أمَةً لغَيرِه، وكان ولدُه رقيقًا واشتراه- أنَّه يُعتَق عليه بنفْسِ المِلْك، ولا يُمكنُ أن يَمْلِكه؛ لأنَّ المِلْكيَّة والوَلَدِيَّة متنافيانِ؛ ولذا قال هنا: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾[1].

٣- فائدةُ ذِكْرِ قَوْلِه: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ فيها بعدَ قولِه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ جعلُه توطئةً لقولِه تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ وأمَّا قولُه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فإنما ذُكِرَ استدلالًا على نَفْيِ الوَلَدِ، فقد قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

٤- قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ في ذِكْرِ العِلْم بعد الخَلْقِ إشارةٌ إلى الدَّليلِ العقليِّ إلى ثبوتِ عِلْمِه، وهو هذه المخلوقاتُ، وما اشتمَلَتْ عليه من النِّظامِ التامِّ، والخَلْقِ الباهِرِ؛ فإنَّ في ذلك دلالةً على سَعَةِ عِلْمِ الخالِقِ، وكمالِ حِكْمَتِه؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ذلِكُم الذي خَلَقَ ما خَلَقَ، وقَدَّر ما قَدَّرَ[3].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

٥- قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ قد يستشْكِلُ مُستَشْكِلٌ، فيقولُ: إنَّ الإلهَ هو الذي يَستحِقُّ أن يكون معبودًا، فقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ معناه: لا يَستحِقُّ العبادةَ إلَّا هو، فلِمَ قال بعدَ ذلك ﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾؛ فإنَّ هذا يُوهِمُ التَّكريرَ؟

والجوابُ: أنَّ قولَه: ﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾ مُسبَّبٌ عن مَضْمونِ جُملةِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، على معنى: أنَّ مَنْ استجمَعَتْ له هذه الصِّفاتُ كان هو الحَقيقَ بالعبادَةِ؛ فاعبدُوه ولا تَعبُدوا مِن دونِه بَعْض خَلْقِه[1].

٦- استُدِلَّ بقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على أنَّه تعالى هو الخالِقُ لأعمالِ العبادِ؛ فأعمالُ العبادِ أشياءُ، واللهُ تعالى خالِقُ كلِّ شيءٍ بحكم هذه الآيَةِ؛ فوجب كونُه تعالى خالقًا لها[2].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ يدلُّ على جوازِ الرؤيةِ؛ لأنَّ نَفْيَ الإدراكِ الذي هو الإحاطةُ يدلُّ على أنَّه إذا رُئِيَ لا تُدْرِكُه الأبصارُ، وهو يَقتضي إمكانَ رُؤيتِه، فنفيُ إدراكِ الأبصارِ إيَّاه ليس نفيًا لرؤيَتِه؛ فهو دليلٌ على إثباتِ الرؤيَةِ، ونفيِ إحاطَةِ الأبصارِ به، فالآيةُ تدلُّ على جوازِ الرؤيَةِ أدلَّ منها على امتناعِها؛ لأنَّ اللهَ سبحانه إنَّما ذَكَرَها في سياقِ التمدُّحِ، ومعلومٌ أنَّ المدحَ إنَّما يكونُ بالأوصافِ الثبوتيَّة، وأمَّا العَدَمُ المحضُ فليس بكمالٍ، ولا يُمدَحُ به[3].

بلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤)، ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٦٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩٣).

وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

- قوله: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ على القَولِ بأنَّ ﴿شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ هما مفعولَا (جَعَلَ) في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ﴾؛ فالمفعولُ الأوَّل ﴿ٱلْجِنَّ ﴾؛ لأنَّ الجِنَّ هم المقصودُ من السِّياقِ لا مُطلَقُ الشُّرَكاء؛ لأنَّ جَعْلَ الشُّرَكاءِ للهِ قد تَقرَّر مِن قبلُ، والمفعول الثاني وهو ﴿شُرَكَآءَ ﴾، وقُدِّمَ هذا المفعولُ الثاني، وفائدةُ هذا التقديمِ: استعظامُ أنْ يُتَّخَذَ مَن كان مَلَكًا أو جنيًّا أو إنسيًّا أو غيرَ ذلك، شريكًا للهِ تعالى؛ ولذلك قُدِّمَ اسمُ (الله) على الشُّركاء، وأيضًا قُدِّمَ المفعولُ الثاني؛ لأنَّه محَلُّ تعجُّبٍ وإنكارٍ، فصار لذلك أهمَّ، وذكْرُه أسبَقَ، والعَرَبُ يُقَدِّمونَ الأهَمَّ الذي هم بشأنِه أَعْنَى[1].

وعلى القَوْلِ بأنَّ ﴿شُرَكَآءَ ﴾ المفعولُ الأوَّل، و﴿لِلَّهِ ﴾ المفعولُ الثَّاني، و﴿ٱلْجِنَّ ﴾ فُسِّرَ به هؤلاءِ الشُّركاءُ على طَريقِ البَدلِ النَّحويِّ- حيثُ لم يَقُلْ: (وجعلوا الجنَّ شركاءَ لله)- فيكونُ قَدَّم وأخَّر في النَّظمِ؛ لإفادةِ أنَّ محلَّ الغَرابةِ والنَّكارةِ أنْ يكونَ للهِ شُركاءُ، لا مُطلقُ وجودِ الشُّركاءِ، ثم كونُ الشركاءِ من الجنِّ؛ فقدَّمَ الأهمَّ فالمهمَّ؛ ولو قال: (وجعلوا الجنَّ شركاء لله) لأفادَ أنَّ موضعَ الإنكارِ أنْ يكون الجنُّ شركاءَ للهِ؛ لكونِهم جِنًّا، وليس الأمرُ كذلك، بل المنكَرُ أنْ يكونَ للهِ شريكٌ مِن أيِّ جِنسٍ كانَ[2].

- وتقديمُ المجرورِ على المفعولِ في قوله: ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾؛ للاهتمامِ والتعجُّبِ مِن خَطَلِ عُقولِهم؛ إذ يجعلونَ لله شُرَكاءَ مِن مخلوقاته؛ لأنَّ المُشركينَ يعترفونَ بأنَّ اللهَ هو خالِقُ الجِنِّ، فهذا التقديمُ جرى على خِلافِ مقتضى

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢)، ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٣٨).

الظَّاهِرِ؛ لأجْل ما اقتضى خلافَه[١].

- وتنكيرُ العِلم هنا في حيِّزِ النَّفيِ (بغير) في قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ للدَّلالةِ على انسلاخِ هؤلاءِ المشركينَ في خَرْقِهم هذا عن كلِّ ما يُسمَّى عِلْمًا، فلا هُمْ على علمٍ بمعنى ما يقولون، ولا على دليلٍ يُثْبِتُه، ولا على علمٍ بمكانِه منَ الفسادِ والبُعدِ من العَقْلِ، ولا بمكانِه من الشَّناعَةِ والإزراءِ بمقامِ الألوهيَّة والربوبيَّةِ[٢].

- قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتنزيهِه عَزَّ وجَلَّ عما نَسَبوه إليه[٣].

- وقوله: ﴿تَعَالَى﴾ جاءَ على صِيغة التفاعُل؛ للمبالغةِ في الاتِّصافِ بالعلوِّ[٤].

٢- قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾

- قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ؛ إذ إنَّ هذا شروعٌ في الإخبارِ بِعَظيمِ قدرَةِ الله تعالى، وهي تُفيدُ مع ذلك تقويةَ التنزيهِ في قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾، فتتنزَّلُ منزلَةَ التَّعليلِ لِمَضمونِ ذلك التَّنزيه بمضمونِها أيضًا[٥].

- وعلى القَوْلِ بأنَّ ﴿بَدِيعُ﴾ فاعلٌ للفعل ﴿وتَعَالَى﴾؛ فيكونُ من الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ؛ لتعليلِ الحُكمِ، وتوسيطُ الظرفِ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢١٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٠).

بينه وبين الفِعل للاهتمامِ ببيانِه[١].

- قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

- جملة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ لإتمامِ تعليمِ المُخاطَبينَ بعضَ صفاتِ الكمالِ الثابتَةِ لله تعالى؛ فهي جملةٌ معطوفةٌ على جملةِ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ باعتبارِ ما فيها من التَّوصيفِ، لا باعتبارِ الرَّدِّ[٢].

- وفي التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ دلالةٌ على أنَّه سبحانَه متَّصِفٌ بالعِلْمِ أزَلًا وأبدًا؛ فلا يَخفَى عليه سبحانه خافيةٌ مِمَّا كان وما سيكونُ؛ من الذَّواتِ والصِّفاتِ والأحوالِ[٣].

- وقوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه إظهارٌ في موضِعِ الإضمارِ؛ حيث لم يَقُلْ: (به عليمٌ)؛ لبيانِ أنَّه يَعْلَمُ كلَّ شيءٍ كائنًا ما كان؛ مخلوقًا أو غيرَ مخلوقٍ، وهو أيضًا بمنزلَةِ التَّذييلِ؛ لأنَّ التَّذييلاتِ يُقْصَدُ فيها أن تكونَ مُستقِلَّةَ الدَّلالةِ بِنَفْسِها؛ لأنَّها تُشْبِهُ الأمثالَ في كونِها كلامًا جامعًا لمعانٍ كثيرةٍ[٤].

٣- قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارةٌ إلى المنعوتِ بما ذُكِرَ من جلائِلِ النُّعوتِ، وما فيه من معنى البُعْدِ؛ للإيذانِ بِعُلُوِّ شأنِ المُشَارِ إليهِ، وبُعْدِ منزلَتِه في العَظَمة. والخطابُ للمشركينَ المعهودينَ بطريقِ الالتفاتِ[٥]، وأيضًا فإنَّ وقوعَ اسمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ بعدَ إجراءِ الصِّفاتِ، والأخبارِ المتقدِّمةِ؛ للتنبيه على أنَّ المُشارَ إليه حقيقٌ بالأخبارِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٩).

والأوصافِ التي تَرِدُ بعد اسْمِ الإشارةِ، والمشارُ إليه هو الموصوفُ بالصِّفاتِ المضَمَّنةِ بالأخبارِ المتقدِّمَة؛ ولذلك استُغنِيَ عن إتباعِ اسمِ الإشارَةِ ببيانٍ أو بدلٍ، والمعنى: ذلكم المُبدِعُ للسَّمواتِ والأرضِ، والخالِقُ كلَّ شيءٍ، والعليمُ بكلِّ شيءٍ؛ هو اللهُ، أي: هو الذي تَعْلَمونَه[1].

- قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾

فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ عبَّر هنا بقولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وفي سورة غافر قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢]، فقدَّمَ في سورة الأنعام قولَه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ على قولِه: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وقدَّم في سُورةِ غافر قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [غافر: ٦٢]، على قولِه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٢]؛ وذلك لأنَّ ما في سُورةِ الأنعامِ جاءَ بعدَ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وقولِه تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞ﴾ [الأنعام: ١٠١]؛ فكان مِن الملائِمِ نفْيُ ما جَعَلوه وادَّعَوه مِن الشُّركاءِ والصَّاحبةِ والوَلَدِ، فأتَى بعدَه بما يَدفَعُ قولَهم، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ثم قال: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ فالملائمُ هنا هو نَفْيُ ما جَعَلوه وادَّعَوه مِن الشُّركاءِ والصَّاحبةِ والوَلَدِ؛ فقدَّم ما الأمرُ عليه مِن وَحدانيتِه سُبحانَه، وتَعالِيه عن الشُّركاءِ والولدِ، وعرَّف العبادَ بعدُ بأنَّ كلَّ ما سواه سبحانه خَلْقُه ومُلْكُه، فقدَّمَ الأهمَّ في الموضِعِ. وأمَّا في سُورةِ غافر فجاءَ هذا بعدَ قولِه تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]؛ فكان الكلامُ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٢).

تَثبيتِ خَلْقِ الإنسانِ، لا على نفْي الشَّريكِ عنه، كما كان في الآيةِ الأولى؛ فكان تقديمُ ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ هاهُنا أَوْلى؛ فلم يَتقدَّم هنا ما تَقدَّم في آية الأنعامِ؛ فكان تقديمُ هذا التعريفِ هنا أَنسبَ وأهمَّ، ثم أَعْقَبَ بالتعريفِ بوحدانيتِه تعالى؛ فجاءَ كلٌّ على ما يَجِبُ ويُناسِبُ، ولم تكن واحدةٌ مِن الآيتَينِ لِتُناسِبَ ما تَقدَّم الأُخرى[١].

٤- **قوله:** ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ فيه تعريضٌ بانتفاءِ الإلهيَّةِ عن الأصنامِ؛ فكَوْنُها مُدرَكَةٌ بالأبصارِ من سِماتِ المُحْدثاتِ، لا يليقُ بالإلهيَّة[٢].

- وتخصيصُ الأَبصارِ في قوله: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ بالذِّكْرِ، مع أنَّه يُدرِكُ كلَّ شيءٍ؛ ليجانسَ ما قبلَه، ويَزيدَ في الكَلامِ ضَربًا من المحاسِنِ يُسمَّى (فَنَّ التعطُّفِ)[٣].

- ولَمَّا كان قولُه تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ ذُكِر للتخويفِ، ناسب حينئذٍ أن يشفعَ ببيانِ رأفتِه ورحمتِه، جريًا على سننِ الترغيبِ والترهيبِ، فقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾[٤]. وعَطَفَ عليه قولَه: ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ مُخصِّصًا لِذاتِه سُبحانه بصِفَةِ الكَمالِ؛ لأنَّه ليس كلُّ مَن أدرَكَ شيئًا كان خَبيرًا بذلك الشَّيءِ؛ لأنَّ المُدرِكَ للشَّيءِ قد يُدْرِكُه لِيَخْبُرَه، ولَمَّا كان الأمرُ كذلك أخبَرَ سبحانه

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٣٥-٥٣٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٢-١١٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٧- ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٣).

(٣) التعطُّف في الاصطلاح: الإتيانُ بلفظةٍ في أوَّل الكلامِ وإعادتُها بعينِها أو بما يتصرَّف منها. يُنظَر: ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لصدر الدين المدني (١/ ٤٦٩) وينظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٤٥٨).

وتعالى أنَّه يُدرِكُ كلَّ شَيءٍ مع الخِبْرَةِ به[١].

- وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ تذييلٌ للاحْتراسِ دفعًا لتوهُّمِ أنَّ من لا تُدرِكُه الأبصار لا يعلم أحوالَ من لا يُدركونَه[٢].

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٨١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٦).

الآيات (١٠٤-١٠٧)

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿بَصَآئِرُ﴾: حُججٌ بيِّنةٌ ظاهرةٌ؛ تُبصرونَ بها الهُدى من الضَّلالِ، والإيمانَ من الكُفْرِ، ومفردها: بصيرةٍ، والبَصَرُ يقال للجارِحَة النَّاظِرَة، ويُقال لقوَّةِ القَلْبِ المُدرِكَة، وأصل (بصر): العِلْمُ بالشَّيء[1].

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾: أي: وما أنا عليكم بحافظٍ ولا برقيبٍ؛ أُحصِي عليكم أعمالَكم وأفعالَكم، وأصل (حفظ): يدلُّ على مراعاةِ الشَّيءِ، وتعاهُدِه، وتفقُّدِه[2].

﴿دَرَسْتَ﴾: أي: قرأْتَ، ويُقال: درسْتَ العِلمَ: أي: تناولْتَ أثَرَه بالحفْظِ، ولمَّا كان تناولُ ذلك بمداومةِ القراءةِ؛ عُبِّر عن إدامةِ القراءةِ بالدَّرسِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٦٩- ٤٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٧).

المعنى الإجماليُّ:

قد جاءَكُم- أيُّها النَّاسُ- أدلَّةٌ بيِّنةٌ، وحُججٌ قاطعةٌ في هذا القرآنِ العظيمِ؛ بيَّنَ اللهُ تعالى فيها توحيدَه، وكمالَ قُدرَتِه، فمَن تبيَّنَها وآمَنَ بما دلَّت عليه، فنَفْعُ ذلك لنفْسِه، ومَن لم يؤمِنْ بها، وعَمِيَ عمَّا دلَّت عليه، فإنَّما يعود وَبالُ ذلك على نفسِه، وما الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم عليكم بحافظٍ، ولا رقيبٍ يُحصي أعمالَكم.

ثم يخبِرُ تعالى أنَّه كما فصَّلَ الآياتِ والحُجَجَ في هذه السورة، ووضَّحَها بطُرُقٍ متنوِّعةٍ؛ لبيان التوحيد، كذلك يوضِّحُ للنَّاسِ الآياتِ، ويُبيِّنها بطرقٍ متعدِّدةٍ في جميع القرآن، ولِيَقولَ عند ذلك من أعمى قَلْبَه عن الحَقِّ: تَعَلَّمْتَ يا محمدُ هذا الذي تأتي به مِن أهْلِ الكتابِ، وأيضًا لأجْلِ أنْ يبيِّنَه الله لقومٍ يعلمون الحقَّ إذا تبيَّن لهم فيتَّبِعوه ويَقْبلوه.

ثم يأمُرُ اللهُ نَبِيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَتَّبِعَ القرآنَ المُنَزَّلَ إليه من ربِّه تعالى، هو سبحانه لا معبودَ بحقٍّ غيرُه، وأَمَرَه أن يُعْرِضَ عن المُشركينَ.

ويُخبِر تعالى أنَّه لو أراد هدايةَ المشركينَ لَفَعلَ ذلك، ولكنْ له حِكْمةٌ في خِذْلانِهم وإِضْلالِهم، ويخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه لم يَجعَلْه عليهم حافظًا يحفَظُ أعمالَهم ويُحْصِيها، ولا رقيبًا عليهم، وأنَّه ليس عليهم بقَيِّمٍ يُدَبِّرُ مصالِحَهم، ولا مُوكلًا بأعمالِهم فيحاسِبَهم عليها.

تفسيرُ الآيات:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ١٠٤﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أكثَرَ من إقامَةِ الأدلَّةِ على وحدانيَّتِه؛ ناسَبَ أن يَعِظَهُم، ويمدَحَ الأدِلَّةَ حثًّا على تدبُّرِها[١].

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾.

أي: قد جاءتْكم حججٌ قاطعاتٌ، وأدلَّةٌ واضحاتٌ في هذا القرآنِ العظيمِ، تُبصرونَ بها الهدَى من الضَّلالِ، والحَقَّ من الباطِلِ؛ بَيَّنَ اللهُ لكم بها توحيدَه، وكمالَ قُدْرَتِه؛ فمَن عَرَفَها وآمَنَ بها، وعَمِلَ بمقتضاها، ففائِدَةُ ذلك تعودُ إليه في الدُّنيا والآخِرَة، ومن لم يؤمِنْ بها، وعمِيَ قلبُه عن دَلالَتِها، فإنَّما يعودُ وَبالُ ذلك على نَفْسِه فحَسْبُ، وإليها أساءَ لا إلى غيرها[٢].

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

أي: وما أنا عليكم بحافظٍ، ولا رقيبٍ أُحْصِي عليكم أعمالَكم وأفعالَكم، كلَّا! فليس هذا من شأني، وإنَّما أنا رسولٌ من اللهِ، وظيفتي تقتصِرُ على إبلاغِكم ما أُرْسِلْتُ به إليكم[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٦٩-٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١-٦٥).

قال الشنقيطي: (وهذا الكلامُ كأنَّ الله أمَر النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَه، ولذا قال في آخرِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾) ((العذب النمير)) (٢/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٠-٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٥).

كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تَمَّمَ اللهُ تعالى الكلامَ في الإلهيَّاتِ في آياتٍ سابقةٍ؛ شَرَعَ في إثباتِ النبوَّاتِ، فبدَأَ تعالى بحكايةِ شُبُهاتِ المُنْكرينَ لنبوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وآلِه وسَلَّم؛ فقال[1]:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

أي: وكما فصَّلنا الآياتِ والحُجَجَ في هذه السورةِ، ووضَّحْناها بطرقٍ متنوِّعةٍ؛ لبيانِ التَّوحيدِ، وأنَّه لا إلهَ إلا هو، فهكذا أيضًا نوضِّحُ لكم آياتِنا، ونُبَيِّنُها بطُرقٍ متعدِّدةٍ في جميعِ القرآنِ[2].

﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ:

١- قراءةُ ﴿دَارَسْتَ﴾ أي: ذاكَرْتَ، فالمعنى: قارَأْتَ أهلَ الكتابِ، وتعلمْتَ مِنهم[3].

٢- قراءة ﴿دَرَسَتْ﴾ أي: مَضَتْ وامَّحَتْ وتقادَمَت، فالمعنى: هذا الذي تتلوه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٦-٦٨).

(٣) قرأ بها ابنُ كثير وأبو عَمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٤).

علينا قد تطاوَلَ ومَرَّ بِنَا، ومُحِيَ أثرُه من قُلُوبِنا[١].

٣- قراءةُ ﴿دَرَسْتَ﴾ أي: قرأْتَ أنت وتعلَّمْتَ- يا محمَّدُ- كُتُبَ أهلِ الكتابِ[٢].

﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾.

أي: ونصرِّفُ الآياتِ؛ ليقولَ مَن خَذَلَه اللهُ تعالى وأشقاه، فلم يُوفَّقْ للعَمَلِ بالقرآنِ: دَرستَ- يا محمَّدُ- هذا الذي تَأتِينا به ممَّنْ قَبْلَك من أهلِ الكتابِ، فقرَأْتَ وتَعلَّمْتَ منهم، وليس بشَيءٍ جديدٍ أُنْزِلَ عليك من السَّماءِ كما تزعُم[٣].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا * وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: ٤-٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

---

(١) قرأ بها ابن عامر ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٤-٢٦٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٠٨-٣٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٨-٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٢).
قال الواحديُّ: (أَيْ: نصرِّفُ الآياتِ؛ ليكونَ عاقبةُ أمرِهم تكذيبًا؛ للشَّقاوةِ التي لَحِقَتْهم) ((الوجيز)) (ص: ٣٦٩).
وقال ابنُ عطيَّة: (وقرأ الجمهورُ ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ بكسرِ اللامِ على أنَّها لامُ «كي»، وهي على هذا لامُ الصيرورةِ، كقولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٣١).

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: وأيضًا لأجْلِ أنْ نُبيِّنَه لقومٍ وفَّقْناهم، فلهُم عقولٌ، وعِلْمٌ يظهَرُ لهم به ما في هذا القُرآنِ العَظيمِ مِن آياتٍ مُتنوِّعةٍ، وأدلةٍ قاطعَةٍ موضِّحةٍ للحَقِّ بلا لَبْسٍ، فيَقبلونَ الحَقَّ ويتَّبعونَه بعد تبيُّنِه لهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ لرَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ النَّاسَ فريقانِ؛ فريقٌ قد فَسَدَتْ فِطْرَتُهم، ولم يبْقَ فيه استعدادٌ للاهتداء، وفريقٌ يعْلَمون، وبالبيانِ يَهْتدونَ- أَمَرَه أن يتَّبِعَ ما أُوحِيَ إليه من رَبِّه؛ بالبيانِ له، والعَمَلِ به[2].

وأيضًا لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن المُشركينَ أنَّهم يَنسُبونَ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم- في إظهارِ هذا القرآنِ العَظيمِ- إلى الافتِراء، وإلى مُدارَسَةِ مَن يستفيدُ هذه العلومَ منهم، ثم يَنْظِمُها قرآنًا- أتْبَعَه بقوله: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لئلَّا يصيرَ ذلك القولُ سببًا لفُتُورِه عن تبليغِ الدَّعوةِ والرِّسالةِ، والمقصودُ: تقويةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٩-٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٥١).

قَلْبِه، وإزالةُ الحُزنِ الذي حَصَلَ بسَمَاعِ تلك الشُّبهَةِ[١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ جَلَّ وعلا أنَّه أَنزَلَ علينا على لسانِ نَبيِّنا بصائِرَ؛ حيث قال: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ والمعنى: جاءَتْكم مِن قِبَلِنَا على لسانِ نَبِيِّنا بصائِرُ؛ أي: حُجَجٌ قاطعاتٌ، وأدلَّةٌ واضحات، لا تترُكُ في الحقِّ لَبْسًا، فهذه البصائِرُ التي جاءتكم يَلْزَمُكم اتِّباعُها، وعدمُ المَيْل والحَيْدة عنها؛ ولذا أَتْبَعَ قَوْلَه: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ بقولِه[٢]:

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: اتَّبِعْ- يا محمدُ- هذا القرآنَ العظيمَ، فاقْتَدِ به، واقتَفِ أثَرَه، وتأدَّبْ بآدابِه، وتَخَلَّقْ بما فيه من أخلاقٍ، وأحِلَّ حلالَه، وحَرِّمْ حَرامَه، واعتَقِدْ عقائِدَه، وانزَجِرْ بِوَعيدِه، وانبَسِط لِوَعْدِه، واعْمَلْ به، ودعْ ما يدعوك إليه مُشْركو قومِك؛ فإنَّ ما أُوحِيَ إليك من ربِّكَ هو الحَقُّ الذي لا مِرْيَةَ فيه؛ لأنَّه لا معبودَ بحقٍّ سواه[٣].

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: ودَعْ عنك يا محمَّدُ مجادَلَةَ هؤلاءِ المُشْركينَ وخُصومتَهم، واعفُ عنهم واصْفَحْ، واحتَمِلْ أذاهم؛ حتى يَنْصُرَكَ اللهُ تعالى عليهم[٤].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٧٠-٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٧٨).

أي: ولو أرادَ الله تعالى هدايَتَهم واستِنقاذَهم من الضَّلالةِ لَوَفَّقَهم؛ فلم يُشْرِكوا به شيئًا، ولآمَنُوا بك فاتَّبَعوا ما جِئْتَهم به من الحَقِّ، لكنَّ لله تعالى حكمةً في خِذْلانهم وإضلالِهم؛ فإنَّه لو شاء لهدى النَّاسَ كلَّهم جميعًا(٥).

﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

أي: لم نبعَثْك عليهم حافظًا؛ تحفَظُ أعمالَهم وأقوالَهم، وتُحْصِيها عليهم(٦).

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

أي: ولَسْتَ عليهم بقَيِّمٍ على أرزاقِهم وأقواتِهم وأمورِهم، ولسْتَ مُوكلًا بأعمالِهم؛ فتحاسِبَهم بها، وتجازِيَهم عليها(٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ترْكُ التقليدِ، والاعتبارُ بالبصائِرِ والدَّلائلِ، والترقِّي في أَوْجِ المعرفَةِ إلى سَمواتِ الاجتهادِ والعملِ بالأدلَّةِ؛ نستفيدُ ذلك من قولِ الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾، فمن أبصَرَ وعَمِلَ بالأدلَّةَ خَلَّصَ نفسَه من الضَّلالِ المؤدِّي إلى الهلاكِ، ومَن عَمِيَ ولم يهتَدِ بالأدلَّةِ؛ فعلى نَفْسِه عماهُ؛ فيَضِلُّ ويَعْطَبُ(٨).

٢- على الدَّاعِيةِ تنويعُ الأسلوبِ، والتفنُّنُ في البيانِ؛ لإثباتِ أُصُولِ الدِّينِ، والهدايةِ لمحاسِنِ الآدابِ والأعمالِ؛ مراعاةً للعقولِ والأفهامِ، ولاختلافِ

---

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٧٩، ٨٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٩-٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٨٥).

(٨) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٢-٢٢٣).

استعدادِ الأفرادِ والأقوامِ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: وكذلك نُصَرِّفُ الآياتِ على أنواعٍ شَتَّى ليهتديَ بها المستَعِدُّونَ للإيمانِ على اختلافِ العقولِ والأفهامِ[١].

٣- نبَّه بقوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ على أنَّه تعالى لَمَّا كان واحدًا في الإلهيَّةِ؛ فإنَّه يجِبُ طاعَتُه، ولا يجوزُ الإعراضُ عن تكاليفِه بسَبَبِ جَهْلِ الجاهلينَ، وزَيْغِ الزَّائغينَ[٢]، وأَكَّدَ به إيجابَ الاتِّباعِ لِمَا في كلمةِ التوحيدِ من التمسُّكِ بحبلِ اللهِ، والاعتصامِ به، والإعراضِ عمَّا سواه[٣].

٤- تحلِّي الدَّاعِيَةِ بالتواضُعِ، وإسلامُ الجبروتِ والقَهرِ لله تعالى؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما جعلناك عليهم حفيظًا تحفَظُ عليهم أعمالَهم لتحاسِبَهم وتجازِيَهم عليها، ولا وكيلًا تتولَّى أمورَهم وتتصَرَّف فيها، وما أنت عليهم بوكيلٍ ولا حفيظٍ بمُلْكٍ ولا سِيادةٍ[٤].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لَمَّا كانت الآياتُ- لِقُوَّتِها وجَلالَتِها- توجِبُ المعرفةَ، فتكونُ سببًا لانكشافِ الحقائِقِ؛ الذي هو كالنُّورِ في جلاءِ المحسوساتِ، قال: ﴿بَصَآئِرُ﴾ أي: أنوارٌ هي لقلوبكم بمنزلَةِ الضِّياءِ المحسوسِ لعيونِكم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٥٢).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٥٣).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ يُبْطِلُ قولَ الجبريَّة في أنَّه تعالى يُكَلِّفُ بلا قدرةٍ[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فيه قَرَنَ أمرَه باتِّباعِ ما أُوحِيَ إليه من رَبِّه بكلمةِ توحيدِ الألوهيَّة؛ لبيانِ وجوبِ ملازَمَتِه لتوحيدِ الربوبيَّة، فكما أنَّ الخالِقَ المُرَبِّي بما أَنْزَلَ من الرِّزْق، وللأرواحِ بما أَنْزَلَ من الوَحْيِ؛ واحِدٌ لا شريكَ له في الخَلْقِ، ولا في الهدايةِ، فالواجِبُ أن يكون الإلهُ المعبودُ واحدًا لا شريكَ له[٢].

٤- وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ عَطْفٌ على جملة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وهذا تلطُّفٌ مع الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتَطمينٌ لقلْبِه، وتذكيرٌ له بحقائقِ الأحوالِ، وإزالةٌ لِمَا يَلْقَاه من الكَدَر من استمرارِهم على الشِّرْكِ، وقلَّةِ إغناء آياتِ القرآنِ ونُذُره في قلوبهم؛ فذَكَّرَه اللهُ بأنَّه تعالى قادرٌ على أن يُحَوِّلَ قُلوبَهم، فتَقْبَل الإسلامَ بتكوينٍ آخَرَ، ولكنَّ اللهَ أرادَ أنْ يَحْصُلَ الإيمانُ مِمَّن يؤمِنُ بالأسبابِ المعتادَةِ في الإرشادِ والاهتداءِ؛ لِيَميزَ اللهُ الخبيثَ من الطَّيِّبِ، وتظهَرَ مراتِبُ النُّفوسِ في ميادينِ التلقِّي، فأرادَ اللهُ أنْ تختلِفَ النُّفوسُ في الخيرِ والشَّرِّ اختلافًا ناشئًا عن اختلافِ كيفيَّاتِ الخِلْقةِ والخُلُق والنَّشْأةِ والقَبول، وعن مراتبِ اتِّصالِ العِباد بخالِقِهم ورجائِهم منه[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ...﴾ هذه الآيةُ تَرُدُّ على القَدَريَّة الزَّاعمين أنَّ الكُفْرَ والمعاصِيَ بمشيئةِ العبدِ لا بمشيئةِ اللهِ، فمذهَبُهم باطِلٌ؛ فَرُّوا من شيءٍ فَوَقَعوا فيما هو أَشْنَعُ وأكبَرُ منه؛ فهم يُريدونَ التقرُّبَ لله، بأن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٥١-٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٥- ٤٢٦).

يَزْعُموا أنَّ الخَسائِسَ؛ كالسَّرِقَة والزِّنا والشِّرْك؛ أنَّها بمشيئةِ العبادِ لا بمشيئةِ الله، زاعمينَ أنَّ اللهَ أَنْزَهُ وأعظَمُ وأجَلُّ من أن تكونَ هذه الرَّذائِلُ بمشيئتِه[١].

٦- قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ...﴾ ليس في مِثل هذا عذرٌ للمشركين ولا لأمثالِهم من العُصاة؛ ولذلك ردَّ اللهُ عليهم الاعتذارَ بمِثل هذا في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وفي قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]؛ لأنَّ هذه حقيقةٌ كاشفةٌ عن الواقِع لا تصلُح عذرًا لِمَن طَلَبَ منهم ألَّا يكونوا في عِدادِ الذين لم يشأِ اللهُ أنْ يُرشِدَهم؛ قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[٢] [المائدة: ٤١].

٧- قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تذكيرٌ وتسليةٌ؛ ليُزيحَ عنه كرْبَ إعراضِهم عن الإسلامِ؛ لأنَّ ما يَحصُلُ له مِن الكَدَرِ لإعراضِ قومِه عن الإسلامِ يَجعَلُ في نفْسِه انكسارًا، كأنَّه انكسارُ مَن عُهِدَ إليه بعملٍ فلم يتسنَّ له ما يُريدُه مِن حُسن القِيام، فذَكَّره اللهُ تعالى بأنَّه قد أدَّى الأمانةَ، وبلَّغَ الرِّسالة، وأنَّه لم يَبعثْه مُكرِهًا لهم ليأتيَ بهم مُسلِمين، وإنَّما بعَثَه مُبلِّغًا لرسالتِه؛ فمَن آمَن فلنَفْسِه، ومَن كفَر فعليها[٣].

بلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٧٩،٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٥- ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٦).

في التعرُّضِ لعنوانِ الربوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطبينَ في قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ إظهارٌ لكمالِ اللُّطْفِ بهم، أي: قد جاءَكُم من جهةِ مالِكِكم ومُبَلِّغِكم إلى كَمالِكم اللَّائِقِ بكم من الوَحْيِ النَّاطِقِ بالحَقِّ والصوابِ؛ ما هو كالبصائِرِ للقُلوبِ، أو قد جاءَكُم بصائِرُ كائنةٌ من ربِّكم[١].

- قوله: ﴿أَبْصَرَ﴾، وقوله: ﴿عَمِيَ﴾ كنايتانِ عن الهدى والضَّلالِ، والمعنى: أنَّ ثمرةَ الهدى والضَّلالِ إنَّما هي للمُهتدِي والضَّالِّ؛ لأنَّه تعالى غَنِيٌّ عن خَلْقِه، وهي من الكناياتِ الحسنَةِ؛ لَمَّا ذَكَرَ البصائِرَ أعقَبَها تعالى بالإبصارِ والعمى، وهذه مُطابَقةٌ[٢].

٢- قوله: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ استئنافٌ في خطابِ النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلامُ لأمْرِه بالإعراضِ عن بُهتانِ المشركينَ، وألَّا يَكْتَرِثَ بأقوالِهم، فابتداؤُه بالأمرِ باتِّباعِ ما أوحِيَ إليه يتنزَّلُ منزلةَ المُقَدِّمةِ للأمرِ بالإعراضِ عن المشركينَ، وليس هو المقْصِدَ الأصليَّ من الغَرَضِ المَسُوقِ له الكلامُ؛ لأنَّ اتِّباعَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم ما أوحِيَ إليه أمْرٌ واقِعٌ بجميعِ معانيه، فالمقصودُ من الأمْرِ الدَّوامُ على اتِّباعِه، والمعنى: أَعْرِضْ عن المشركين اتِّباعًا لِمَا أُنْزِلَ إليك من رَبِّك[٣]. وأيضًا فالوحيُ يَنزِلُ عليه حينًا بعدَ حينٍ في شَرائعِ الدِّينِ وأمورِ الإيمانِ؛ فهو مأمورٌ مع كلِّ وحيٍ جديدٍ بالإيمانِ به واتِّباعه.

- وفي التَّعرُّضِ لعنوانِ الربوبيَّةِ مع الإضافَةِ إلى ضميرِه صلَّى الله عليه وسلَّم في قوله: ﴿رَّبِّكَ﴾ مِن إظهارِ اللُّطْف به ما لا يَخفَى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١).

- وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بَيْن الأمرينِ في قوله: ﴿ٱتَّبِعۡ﴾، وقوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾ اعتراضٌ؛ أُكِّدَ به إيجابُ اتِّباعِ المُوحَى؛ لا سيمَّا في أمرِ التوحيدِ؛ والمقصودُ منها إدماجُ التذكيرِ بالوحدانيَّة؛ لزيادَةِ تقرُّرِها، وإغاظَةِ المشركين. أو تكون هذه الجملةُ في موضع الحالِ المؤكِّدَةِ[١].

٣- قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ جملة ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْ﴾، اعتراضٌ مؤكِّدٌ للإعراضِ المذكورِ في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ وقولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾[٢].

- قوله: ﴿عَلَيۡهِم﴾ في الموضعينِ متعلِّقٌ بما بعده ﴿حَفِيظٗا﴾ و﴿بِوَكِيلٖ﴾؛ قُدِّمَ عليه للاهتمامِ به، أو لرعايةِ الفواصِلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٠٨-١١٠)

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: أي: حَلَفُوا واجتهَدُوا في الحَلِف، أو كنايةٌ عن أغلَظِ الأيمانِ، وأصْلُ (جهد): المشقَّةُ[1]. والأَيْمَانُ: جمْعُ يَمينٍ، واليمينُ: الحَلِفُ والقَسَم، وأصلُه مِن اليُمْن، أي: البَركة؛ سمَّاها اللهُ تعالى بذلك لأنَّها تَحفَظُ الحقوقَ، وقيل: سُمِّي الحَلِفُ يمينًا لأنَّه يكونُ بأَخْذِ اليَمينِ، أو اعتبارًا بما يَفعَلُه المعاهِد والمحالِفُ وغيرُه؛ لأَنهم كَانُوا اذا تحالفوا أو توافقوا ضرَب كلُّ امْرِئ مِنْهُم يَمِينه على يَمِين صَاحِبِه[2].

﴿وَنُقَلِّبُ﴾: أي: ونُحوِّل، وقلْبُ الشَّيءِ: تصريفُه وصَرْفُه عن وَجْهٍ إلى وجهٍ، وتقليبُ اللهِ القلوبَ والبصائِرَ: صَرفُها من رأيٍ إلى رأيٍ[3].

﴿أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾: أفئدة: جمْعُ فؤادٍ، وهو القلبُ؛ سمِّيَ بذلك لحرارَتِه، أو لتَوقُّدِه،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٦٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١- ٦٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠١).

وأصل (فأد): يدلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[١].

﴿يَعْمَهُونَ﴾: يَتحيَّرونَ، ويتردَّدونَ، ويَجُورونَ عن الطَّريقِ؛ فأصل العَمَهِ: التردُّدُ في الأمرِ من التحيُّرِ[٢].

مُشْكِل الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿أَنَّهَآ﴾: تُقرَأُ بفتْحِ الهمزةِ وكَسرِها؛ فعَلى قِراءةِ الفتحِ ففيها ثلاثةُ أوجه: أحدها: أنَّ (أنَّ) بمعنى (لعلَّ) وعلى هذا يكون المفعولُ الثاني محذوفًا، تقديرُه: (وما يُشْعِرُكُم إيمانَهم)، والمعنى: وأيُّ شيءٍ يُدْريكُم إيمانَهم إذا جاءَتْهم الآيةُ؛ لعلَّها إذا جاءتْهم لا يُؤْمنون. والثاني: أنَّ ﴿لَا﴾ زائدةٌ، فتكون (أنَّ) وما عملتْ فيه في موضعِ المفعولِ الثَّاني، فيكون التقدير: وما يُشْعِرُكُم أنَّها إذا جاءت يُؤْمنونَ، والمعنى على هذا: أنَّها لو جاءتْ لم يُؤمنوا. والثالث: أنَّ (أنَّ) على بابها، و﴿لَا﴾ غيرُ زائدة، والمعنى: وما يُدريكم عدَمَ إيمانِهم، ويكون هذا جوابًا لِمَن حَكَم عليهم بالكُفْر أبدًا، ويَئِسَ مِن إيمانِهم.

وأمَّا على قراءةِ الكَسْرِ؛ فقوله: (إنَّها) على الاستئنافِ، والمفعولُ الثاني محذوفٌ أيضًا، تقديره: وما يُشعرِكم إيمانَهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦١٤-٦١٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي

المعنى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ المؤمنينَ أنْ يَسبُّوا آلهةَ المُشْركينَ، حتى لا يُقابِلَه المشركونَ بِسَبِّ اللهِ، تعالى وتَقَدَّسَ وتنَزَّهَ عن كلِّ نقيصةٍ، وكما زَيَّنَ اللهُ لهؤلاءِ المُشركينَ أعمالَهم زَيَّنَ لكُلِّ أمَّةٍ عَمَلَهم، ثمَّ إلى ربهم تعالى مَرْجِعُهم، فيُخْبِرُهم بما عَمِلوا، ويجازِيهم عليه.

ويُخْبِر تعالى أنَّ المُشركينَ أقْسَموا باللهِ أشَدَّ الأيمانِ التي قَدَرُوا عليها؛ أنَّه إنْ جاءَتْهم آيةٌ خارِقَةٌ ممَّا اقترحوها فإنَّهم سيُؤمنونَ بها، فأمَرَ اللهُ رسولَه أَنْ يُخْبِرَهم أنَّ الآياتِ مِن اللهِ وَحْدَه، إنْ شاء أجابَ طَلَبَكم، وإنْ شاءَ امتنَعَ عن ذلك، ثم خاطَبَ عِبادَه المؤمنين قائلًا لهم: وما يُدريكُم، أنَّ هؤلاءِ المُشركينَ لا يؤمنونَ إذا جاءَتْهم المُعجزاتُ التي سَأَلُوها.

ثم أخبرَ تعالى أنَّه يُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم، فيَحُولُ بينهم وبين الانتفاعِ بالحَقِّ، والاهتداءِ إليه؛ لأنَّهم لم يؤمنوا بالقرآنِ في أوَّلِ مرَّةٍ أتاهم فيها الدَّاعي، ويترُكُهم في تمرُّدِهم واعتدائِهم على حدودِ الله يتردَّدونَ، ولا يهتدونَ للحقِّ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أطالَ التَّنفيرَ عَمَّا اتُّخِذَ آلهةً مِن دُونِه من الأندادِ، فربَّما كان ذلك داعيةً إلى سبِّها، فنهى عنه لِمَفسدةٍ يَجُرُّها السَبُّ، كبيرةٍ جدًّا[1]؛ فقال:

(٥/ ١٠٢-١٠٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٦).

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾.

أي: لا تسبُّوا -أيُّها المؤمنون- آلهةَ المُشركينَ وتَهْجُوها، وتذكُروا ما هي متَّصِفَةٌ به من الخساسَةِ؛ لأنَّه يترتَّبُ على ذلك مَفسدةٌ أعظَمُ منها، وهي قيامُ المُشركينَ- حَمِيَّةً لِدِينِهم وتعصُّبًا له- بسَبِّ إلهِ المؤمنينَ؛ اللهِ تبارَك وتعالى، فيتكلَّمونَ فيه بما لا يليقُ بكَمالِه وجلالِه وعَظَمَتِه سبحانه؛ ظلمًا وجَهْلًا منهم بربِّهم، واعتداءً بغيرِ عِلْمٍ؛ فهو خالِقُهم ورازِقُهم، المُحْسِنُ إليهم[1].

﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾.

أي: كما زَيَّنَّا لهؤلاء المشركينَ عِبادةَ الأوثانِ، وطاعةَ الشَّيطانِ، وَحُبَّ الأصنامِ، والانتصارَ لها، كذلك زَيَّنَّا بحِكمَتِنا لكلِّ أمَّةٍ مِن الأُمَمِ عَمَلَهم الذي يفعلونَ[2].

كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ٨].

وقال سبحانه: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴾ [محمد: ١٤].

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

أي: ثمَّ بعدَ ذلك يكون مآلُهم ومَصيرُهم يومَ القيامَةِ إلى الله تعالى وَحْدَه، فيُوقِفُهم عزَّ وجلَّ، ويُخْبِرُهم بأعمالِهم التي كانوا يَعملونها في الدُّنيا، ثم يُجازيهم بها؛ إنْ كان خيرًا فخَيرٌ، وإنْ كان شرًّا فشَرٌّ، أو يَعفو بفَضْلِه، ما لم يكُن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٨٦-٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٣-٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٩٦).

شِرْكًا أو كُفْرًا[١].

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾.

أي: وحَلَف المشركونَ حَلِفًا اجتَهَدوا فيه، وأكَّدوه إلى غايَةِ ما يُمْكِنُهم مِن تغليظِ اليَمينِ وتوكيدِها؛ أنَّه إنْ جاءتهم معجزةٌ مِمَّا اقترحوه تَدُلُّ على صِدْقِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّهم سيُؤمنونَ بها، ويصدِّقونَ بأنها مِنَ اللَّهِ، وأنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم رَسُولٌ مُرْسَلٌ، وأنَّ ما جاءَهم به هو الحَقُّ مِن عِندِ اللهِ سبحانه وتعالى[٢].

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاء الذين يَقترِحونَ نُزُولَ الآياتِ تَعَنُّتًا وكُفْرًا وعِنادًا: إنَّما مَرْجِعُ هذه الآياتِ إلى الله تعالى وَحْدَه، فإنْ شاء أجاب طَلَبَكم، وإنْ شاء امتَنَعَ عن ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٠٣-١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٠٧-١١٤).

قال السعديُّ: (هذا الكلامُ الذي صدَر منهم، لم يكُن قصدُهم فيه الرشادَ، وإنما قصدُهم دفْعُ الاعتراضِ عليهم، وردُّ ما جاء به الرسولُ قطعًا؛ فإنَّ اللهَ أيَّد رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالآياتِ البيِّناتِ، والأدلَّةِ الواضحاتِ، التي- عند الالتفاتِ لها- لا تُبقي أدْنى شُبهةٍ ولا إشكالٍ في صِحَّة ما جاء به؛ فطلبُهم- بعد ذلك- للآياتِ من باب التعنُّت، الذي لا يَلزمُ إجابتُه، بل قد يكون المنعُ مِن إجابتهم أصلحَ لهم؛ فإنَّ الله جرَتْ سُنَّتُه في عِباده أنَّ المقترِحين للآياتِ على رُسُلِهم، إذا جاءتْهم فلمْ يُؤمنوا بها- أنَّه يُعاجِلُهم بالعقوبةِ) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي))

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ:

١- ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾ بجَعْلِ الكلامِ تامًّا عند قولِهِ: ﴿وَما يُشْعِرُكُمْ﴾، أي: ما يدريكُم أيُّها المؤمنونَ، ثُمَّ ابتدأَ الخَبَرَ عن الكفَّارِ والمُشركينَ، فقال عنهم: إنَّهم لا يؤمنونَ إذا جاءَتْهم الآياتُ[(١)].

٢- ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾

على (أنَّ) هنا معناها: (لعَلَّ)، فالمعنى: وما يُدريكُم أيُّها الكُفَّارُ والمُشركونَ لعَلَّ الآياتِ إذا جاءت لا تُؤمنونَ[(٢)].

٣- ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

على (أنَّ) هنا معناها: (لعَلَّ)، فالمعنى: وما يُدْريكُم أيُّها المؤمنونَ، لعَلَّ الآياتِ إذا جاءت لا يُؤْمِنُ الكُفَّارُ والمُشركونَ، وقيلَ غَيرُ ذلك[(٣)].

(ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٤).

(١) قرأ بها: ابنُ كثيرٍ، وأبو عَمرٍو، وشُعبةُ عن عاصمٍ في روايةٍ. ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٨-٢٤٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٤٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٧-١٢٦).

(٢) قرأ بها: ابنُ عامرٍ، وحمزةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٨-٢٤٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٧-١٢٦).

قال الألوسي: (والخطابُ حينئذٍ في الآية للمُشركين بلا خلاف) ((تفسير الألوسي) (٤/ ٢٤٠).

(٣) قرأ بها: نافعٌ والكسائيُّ وحفصٌ عن عاصِمٍ، وشُعبة عن عاصمٍ في روايةٍ أخرى. يُنظر: ((النشر))

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وما[1] يُدريكُم- أيُّها المؤمنونَ- أنَّ هؤلاءِ المُشركينَ لا يُؤمنونَ إذا جاءَتْهم المُعجزاتُ التي سَأَلُوها[2].

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: ونُزيغُ قلوبَهم عن الإيمانِ، فلا تَعْقِلُ حقًّا، ونَحُولُ بين أبصارِهم ورؤية الحَقِّ؛ لأنَّهم لم يُؤمنوا بالقُرآنِ في أوَّلِ مَرَّةٍ أتاهم فيها الدَّاعي، وقامَتْ عليهم فيها الحُجَّةُ، وبادَروا بتكذيبِ الرَّسولِ[3]، وهذا مِن عَدْلِ الله تعالى وحِكْمَتِه؛ فهُم

لابن الجزري (ص: ٢٣٨-٢٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٧-١١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٧-١٢٦)، ((البحر المحيط في التفسير)) لأبي حيان (٤/ ٦١٤-٦١٥).

(١) قال الكرمانيُّ: (أجمَع المفسرون على أنَّ «مَا» للاستفهامِ) ((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) (١/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٦-٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٧-١٢٦).
وقد ذهَب بعضُ المفسِّرين كابن جريرٍ إلى أنَّ معنى (أنَّ) في قوله ﴿أَنَّهَا﴾: لعلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٢٤).
وقد خطَّأ ابنُ تيمة هذا المعنى، فقال: (أي: وما يُشعركم أنَّها إذا جاءتْ لا يُؤمنون بها ونُقلِّب أفئدتَهم، أي: يتركون الإيمانَ ونحن نُقلِّب أفئدتهم؛ لكونِهم لم يُؤمنوا أوَّلَ مرَّةٍ، أي: ما يُدريكم أنه لا يكونُ هذا وهذا حينئذ. ومَن فَهِم معنى الآية عرَفَ خطأَ مَن قال: (أنَّ) بمعنى (لعلَّ) واستشكل قِراءة الفتح؛ بل يعلم حينئذٍ أنَّها أحسنُ مِن قراءةِ الكسر، وهذا بابٌ واسع)) ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩١-٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٢٦-١٣٠).

الذين جَنَوْا على أَنْفُسِهم، وقد فُتِحَ لهم البابُ فلم يَدْخُلوا، وبُيِّنَ لهم الطَّريقُ فلم يَسْلُكوا، فإذا حُرِمُوا التَّوفيقَ بعد ذلك، كان هذا جزاءً وِفاقًا، مُناسِبًا لأحوالِهم[١].

كَمَا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو رضِيَ الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ قلوبَ بَني آدمَ كلَّها بينَ إصبَعينِ من أصابعِ الرَّحمنِ كقَلْبٍ واحِدٍ؛ يُصَرِّفُهُ حيثُ يشاءُ، ثمَّ قالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: اللَّهمَّ مُصَرِّفَ القلوبِ، صرِّفْ قلوبَنا على طاعتِكَ))[٢].

﴿وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.

أي: ونتركُ هؤلاءِ في تَمَرُّدِهم واعتدائِهم على حدودِ اللهِ تعالى يتَرَدَّدون؛ فلا لِلحَقِّ يَهتدونَ، ولا الصَّواب يُبصرونَ، قد غَلَب عليهم الخِذْلانُ، واستحوَذَ عليهم الشَّيطانُ[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الطَّاعةُ إذا أدَّت إلى معصيةٍ راجحةٍ وَجَبَ تَرْكُها؛ فإنَّ ما يؤدِّي إلى الشرِّ شَرٌّ؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

والكنايةُ في ﴿بِهِۦ﴾ يجوزُ أن تعودَ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣١١).

وقال ابن جرير: (الهاءُ مِن قَوْلِه: ﴿كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾ كِنَايَة ذِكْرِ التَّقْلِيبِ) وذكر أنَّ المعنى: (كما لم يُؤمِنوا بتَقْلِيبنا إيَّاها قبلَ مجيئِها مرَّةً قبلَ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٠-١٣١).

فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيه تأديبٌ لِمَن يَدْعو إلى الدِّينِ؛ لِئَلَّا يَتشاغَلَ بما لا فائدةَ له في المطلوبِ؛ لأنَّ وَصْفَ الأوثانِ بأنَّها جماداتٌ لا تَنفَعُ ولا تَضُرُّ يكفي في القَدْحِ في إلهِيَّتِها، فلا حاجَةَ مع ذلك إلى شَتْمِها[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تَزيينُ أعمالِهم يكونُ بواسِطَةِ الملائكَةِ والأنبياءِ والمؤمنينَ للخَيْرِ، وتزيينِ شياطينِ الإِنْسِ والجِنِّ للشَّرِّ؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾، ومثلُ هذا كثيرٌ؛ فالفاعِلُ للذَّنْب لو جَزَمَ بأنَّه يَحصُلُ له به الضَّرَرُ الرَّاجِحُ لم يَفعَلْه، لكنَّه يُزَيِّنُ له ما فيه من اللَّذَّةِ التي يَظُنُّ أنَّها مصلحةٌ، ولا يجْزِمُ بوقوعِ عقوبَتِه، بل يرجو العَفْوَ بحسناتٍ أو توبةٍ، أو بِعَفْوِ الله ونحوِ ذلك، وهذا كلُّه من اتِّباعِ الظَّنِّ وما تهوى الأنفُسُ، ولو كان له عِلْمٌ كامِلٌ لعَرَفَ به رُجحانَ ضَرَرِ السَّيِّئَةِ، فأوجَبَ له ذلك الخشيةَ المانِعَةَ له من مُواقَعَتِها[٣].

٤- مَن أعرَضَ عن اتِّباعِ الحَقِّ الذي يَعلَمُه تبعًا لهواه؛ فإنَّ ذلك يُورِثُه الجَهْلَ والضَّلالَ حتى يَعمَى قلبُه عن الحَقِّ الواضِحِ؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فمعنى الآية: ونُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم؛ عقوبةً لهم على تَرْكِ الإيمانِ في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١٠).
(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٧٩٥-٧٩٦).

المَرَّةِ الأولى[١]، فمَن عُرِضَ عليه حَقٌّ فرَدَّه فلم يَقبَلْه؛ عُوقِبَ بفَسادِ قَلْبِه وعَقْلِه ورَأْيِه[٢].

٥- إذا كان القَلْبُ قاسيًا لا يَقْبَلُ تزكيةً ولا تُؤَثِّرُ فيه النَّصائِحُ؛ لم يَنتفِعْ بكُلِّ عِلْمٍ يَعْلَمُه؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾[٣].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نُهِيَ المُسلمونَ أن يَفعلوا ما يكونُ ذريعةً إلى سَبِّ الكافرينَ لله تعالى، فعُلِمَ أنَّ سَبَّ الله تعالى أعظَمُ عنده من أنْ يُشْرَكَ به، ويُكَذَّبَ رَسُولُه ويُعادَى[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قد يَسْتشْكِلُ بعضُهم أنَّ شَتْمَ الأصنامِ من أصولِ الطَّاعاتِ؛ فكيف يُنْهَى عنها؟

والجوابُ: أنَّ هذا الشَّتْمَ، وإنْ كان طاعةً، إلَّا أنَّه إذا وَقَعَ على وجهٍ يَسْتلزِمُ وجودَ مُنْكَرٍ عظيمٍ، وَجَبَ الاحترازُ منه، والأمرُ هاهنا كذلك؛ لأنَّ هذا الشَّتْمَ كان يَستلزِمُ إقدامَهم على شَتْمِ اللهِ وشَتْمِ رَسُولِه، وعلى فَتْحِ بابِ السَّفاهَةِ، وعلى تَنفيرِهم عن قَبولِ الدِّينِ، وإدخالِ الغَيْظِ والغَضَبِ في قُلوبِهم؛ فَلِكَونِه مُستلزِمًا لهذه المُنكَرَاتِ، وَقَعَ النَّهيُ عنه[٥]؛ فإنَّه إذا كانتِ الطَّاعةُ تؤدِّي إلى مَفسدةٍ، خَرَجَتْ عن أنْ تكونَ طاعةً؛ فيجِبُ النَّهيُ عنها كما يُنهَى عن المعصيةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٠-١١)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٧٧).
(٢) ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٩).
(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٦).
(٤) يُنظر: ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) لابن تيمية (ص:٥٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦١١).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أصْلٌ في قاعِدَةِ سَدِّ الذَّرائعِ[١]، ودليلٌ للقاعدةِ الشَّرعيَّة: أنَّ الوسائِلَ تُعتبَرُ بالأمورِ التي تُوصِلُ إليها، وأنَّ وسائِلَ المحَرَّم- ولو كانتْ جائِزَةً- تكونُ مُحَرَّمةً، إذا كانت تُفْضِي إلى الشَّرِّ[٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يُستدَلُّ به على سُقوطِ وُجوبِ الأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المُنْكَر إذا خِيفَ من ذلك مَفْسَدَةٌ أعْظَم، وكذا كُلُّ فعلٍ مطلوبٍ تَرَتَّبَ على فِعْلِه مفسدةٌ أقوى من مَفْسَدَةِ تَرْكِه[٣].

٥- دَفَعَ اللهُ تَوَهُّمَ إكرامِ آلهَتِهم حين نَهى عن سَبِّها بقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فبَيَّنَ أنهم في سُفُولٍ؛ بقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٤].

٦- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حُكْمُ هذه الآيةِ باقٍ في هذه الأُمَّةِ؛ فإذا كان الكافِرُ في مَنَعةٍ، وخِيفَ أن يُسَبَّ الإسلامُ أو الرَّسولُ أو اللهُ، فلا يحِلُّ لمسلمٍ ذَمُّ دينِ الكافِرِ، ولا صَنَمُه ولا صَليبُه، ولا يتعَرَّض إلى ما يؤدِّي إلى ذلك[٥].

٧- قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى زَيَّنَ للكافِرِ الكُفْرَ، وللمُؤمِنِ الإيمانَ، وللعاصي المعصيةَ، وللمُطيعِ الطَّاعةَ؛ ففي الآية دليلٌ على تكذيبِ القَدَريَّةِ والمُعتَزِلَة؛ حيثُ قالوا: لا يَحْسُن مِن اللهِ

(١) يُنظر: ((أعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١١٠)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦١٠).

تعالى خَلْقُ الكُفْرِ وتَزْيينُه[١].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ قدَّمَ اللهُ تعالى ذِكْرَ تقليبِ الأفئدةِ على تقليبِ الأبصارِ؛ لأنَّ موضِعَ الدَّواعي والصَّوارفِ هو القلْبُ، فإذا حصَلتِ الدَّاعيةُ في القَلْبِ انصرَفَ البَصَرُ إليه شاءَ أم أبَى، وإذا حَصَلَتِ الصَّوارفُ في القَلْبِ انصَرَفَ البَصَرُ عنه؛ فهو وإنْ كان يُبْصِرُه في الظَّاهِر، إلَّا أنَّه لا يَصيرُ ذلك الإبصارُ سببًا للوقوفِ على الفوائِدِ المطلوبَةِ؛ وهذا هو المرادُ من قولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، فلمَّا كان المَعْدِنُ هو القَلْبَ، وأمَّا السَّمْعُ والبَصَرُ فهما آلتانِ للقَلبِ؛ كانَا لا مَحالَةَ تابعينِ لأحوالِ القَلْبِ؛ فلهذا السَّببِ وَقَعَ الابتداءُ بِذِكْرِ تقليبِ القلوبِ في هذه الآيةِ، ثم أتبَعَه بذِكْرِ تقليبِ البَصَرِ[٢].

٩- قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ وجهُ الجمْعِ بين الأفئدةِ والأبصارِ وعدَمِ الاستغناءِ بالأفئدَةِ عن الأبصارِ؛ أنَّ الأفئدةَ تختَصُّ بإدراكِ الآياتِ العقليَّةِ المَحْضَةِ، مثلُ آية الأُمِّيَّة، وآيةِ الإعجازِ، ولَمَّا لم تَكْفِهم الآياتُ العقليَّةُ ولم ينتفِعوا بأفئدَتِهم- لأنها مُقَلَّبةٌ عن الفِطْرَةِ- وسألوا آياتٍ مرئيَّةً مُبصَرةً؛ كأنْ يَرْقَى في السَّماء، ويُنْزِلَ عليهم كتابًا في قرطاسٍ؛ أخبرَ اللهُ رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم والمُسلمينَ بأنَّهم لو جاءَتْهم آيةٌ مُبصِرةٌ لَمَا آمَنُوا؛ لأنَّ أبصارَهم مُقَلَّبةٌ أيضًا مثلَ تقليبِ عُقولِهم[٣].

١٠- العَينانِ هما رَبيئةُ[٤] القَلبِ، ولَيسَ مِن الأعضاءِ أشدُّ ارتباطًا بالقَلْبِ من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٤٣).

(٤) الرَبيئَةُ: الطليعة. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٢٣٤)، ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي

العَينينِ؛ ولهذا جمَعَ بينهما في قولِه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾، وفي غَيرِها من الآياتِ كقولِه: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨- ٩]، ولأنَّ كِليهما له النَّظرُ؛ فنظرُ القلبِ الظاهِرُ بالعَينينِ، والباطنُ به وحْدَه[١].

١١- قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الكُفْرَ والإيمانَ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، التابع لحِكمتِه سُبحانَه، وفي ذلك رَدٌّ على القَدَرِيَّة[٢].

بلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

- قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وصَفَ سَبَّ المُشْرِكينَ لله تَعالَى بأنَّه عَدْوٌ؛ للتَّعريضِ بأنَّ سَبَّ المسلمينَ أصنامَ المُشركينَ ليس من الاعتداءِ، وجَعَلَ ذلك السَّبَّ عَدْوًا، سواءٌ كان مرادًا به اللهُ أم كان مُرادًا به مَن يأمُر النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما جاءَ به؛ لأنَّ الذي أمَرَ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما جاءَ به هو في نفْسِ الأمْرِ اللهُ تعالى، فصادَفوا الاعتداءَ على جَلالِه[٣].

- وأظهَرَ لفظَ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾؛ تَصريحًا بالمقصودِ وإعظامًا لهذا، وتهويلًا

(١/ ٥١).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١٤)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٣٢).

له، وتَنفيرًا منه[١].

- قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيه تعريضٌ بالتوعُّدِ بأنْ سَيَحُلُّ بمشركي العَرَبِ مِن العذابِ مثلُ ما حَلَّ بأولئكَ في الدُّنيا[٢].

- والعُدولُ عن اسْمِ الجَلالة إلى لفظِ: ﴿رَبِّهِم﴾ لقَصْدِ تهويلِ الوعيدِ، وتَعليلِ استحقاقِه بأنَّهم يُرجعونَ إلى مالِكهم الذي خَلَقَهم، فكفروا نِعَمَه وأَشْرَكوا به، فكانوا كالعَبيدِ الآبقينَ؛ يَطُوفون ما يَطُوفونَ، ثم يَقَعونَ في يَدِ مَالِكِهم[٣].

- قوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ خبرٌ مقصودٌ منه التوبيخُ والعِقابُ؛ لأنَّ العقابَ هو العاقبةُ المقصودَةُ من إعلامِ المُجْرِم بجُرْمِه[٤].

٢- **قوله**: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه حصْرٌ بـ ﴿إِنَّمَا﴾؛ للرَّدِّ على المشركين في ظَنِّهم بأنَّ الآياتِ في مقدورِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إنْ كان نبيًّا، فجَعَلوا عَدَمَ إجابَةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم اقتراحَهم آيةً؛ أمارةً على انتفاءِ نبوءَتِه، فأَمَرَه اللهُ أن يُجيبَ بأنَّ الآياتِ عند اللهِ لا عندَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والله أعلَمُ بما يُظْهِرُه من الآياتِ[٥].

- وقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ غيرُ داخلٍ تحت الأمْرِ في قولِه: ﴿قُلْ﴾ مَسوقٌ من جِهَتِه تعالى؛ لبيانِ الحِكمةِ الدَّاعيَةِ إلى ما أَشْعَرَ به الجوابُ السَّابِقُ من عَدَمِ مجيءِ الآياتِ؛ إذ إنَّ مَرجِعَ الإنكارِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٣٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٤٣٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٣٦).

إقدامُ المشركينَ على الإقسامِ المذكورِ في قوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ مع جَهْلِهم بحالِ قُلوبهم عند مجيءِ الآياتِ؛ وهذا الكلامُ إمَّا خُوطِبَ به المسلمونَ خاصَّةً بطَريقِ التلوينِ، لَمَّا كانوا راغبينَ في نُزولِها طَمَعًا في إسلامِهم، وإمَّا خُوطِبَ المسلمونَ معه صلَّى الله عليه وسلَّم بطَريقِ التَّعميمِ[١].

- وقد سِيقَ الخَبَرُ بصِيغةِ الاستفهامِ؛ لأنَّ الاستفهامَ مِن شَأْنِه أن يُهَيِّئَ نَفْسَ السَّامِعِ لطَلَبِ جوابِ ذلك الاستفهامِ، فيتأَهَّبَ لوَعْيِ ما يَرِدُ بَعْدَه[٢].

٣- **قوله:** ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الكافُ في قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ لتشبيهِ حالةِ انتفاءِ إيمانِهم بعد أن تجيئَهم آيةٌ مِمَّا اقترحوا، أي: ونُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم، فلا يؤمنونَ بالآيةِ التي تَجيئُهم مثلما لم يؤمنوا بالقرآنِ مِن قَبْلُ، فتقليبُ أفئدَتِهم وأبصارِهم على هذا المعنى يحصُلُ في الدُّنيا، وهو الخِذْلان[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٤٣٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٤٤١).

الآيات (١١١-١١٢)

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿قُبُلًا﴾: أي: صِنفًا صنفًا، أو صفًّا صفًّا، أو جماعةً جماعةً، جمعُ قبيلٍ، وقُبُلًا أيضًا: مُقابلةً وعِيانًا، وأصْلُ (قبل) يَدُلُّ على مواجَهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[١].

﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾: الباطِلَ المزَيَّنَ المحسَّنَ المموَّهَ، أو المزوَّقاتِ من الكلامِ، والزُّخرفُ: الزِّينَةُ المزوَّقةُ، وأَصْلُ الزُّخْرف: الذَّهب[٢].

﴿غُرُورًا﴾: بضَمِّ الغَينِ: مَصْدَرُ: غَرَّه يغرُّه غُرورًا، أي: أصاب غِرَّتَه- وهي غَفْلتُه في اليَقَظَة- ونالَ منه ما يُريد، حتَّى يُدْخِلَه مِن معصيةِ الله فيما يستوجِبُ به عقوبتَه، وأَصْلُ (غرر) يدلُّ على النُّقْصانِ[٣].

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾: أي: لِتميلَ إليه، وأصل (صغو): يدلُّ على الميلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣-٦٠٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((تذكرة

﴿وَلِيَقۡتَرِفُواْ﴾: أي: وَلِيَكْتَسِبوا، ولِيَدَّعُوا ما هم مُدَّعُونَ، والاقترافُ: الاكْتِسابُ، حُسنًا كان أو سُوءًا، وهو في الإساءةِ أكثرُ استعمالًا، وأصلُ (قرف) يَدُلُّ عَلَى مُخالطةِ الشَّيءِ، والالتِباسِ به، وادِّراعِه، ومنه: اقْتَرفْتُ الشَّيءَ: اكْتَسَبْتُه، وكأنَّه لابَسَه وادَّرَعه(١).

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾

﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ﴾: اللامُ فيه لامُ (كي)، والفِعلُ بعدَها منصوبٌ بإضمارِ (أن)، والمصدَرُ المؤوَّلُ مِن (أنْ) المضْمَرَةِ والفِعلِ في مَحلِّ جرٍّ باللَّامِ، والجارُّ والمجرورُ معطوفٌ على ﴿غُرُورًا﴾(٢)، والتَّقديرُ: يُوحِي بَعْضُهم إلى بَعضٍ للغُرورِ وللصَّغْوِ(٣).

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّه لو أجاب مَن أقْسَموا باللهِ جَهْدَ أيمانِهم: لَئِنْ جاءَتْهم آيةٌ ليؤمِنُنَّ بها؛ لو أجابَهم لِمَا طَلَبوه؛ فأنْزَلَ عليهم الملائِكةَ، أو أَحْيا لهم الموتى، فحَدَّثوهم بصِدْقِ الرَّسولِ، وجَمَعَ لهم جميعَ الأَشياءِ أمامَهم؛ لتُخْبِرَهم مباشرةً

الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨، ٢٢٢).

(٢) ﴿غُرُورًا﴾ مفعولٌ لأجلِه، ونُصِب لأنَّه مصدر اتَّفَقَ مع الفعلِ ﴿يُوحِي﴾ في الفاعل، أمَّا ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ﴾ فلم يتَّحِدْ مع ﴿يُوحِي﴾ في الفاعِلِ؛ فإنَّ فاعلَ الوَحيِ «بَعْضُهم» وفاعلَ الصَّغْوِ الأفئدةُ؛ لذلك جُرَّ بحرفِ الجَرِّ اللَّامِ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١١٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٨/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١١٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٨/ ٢٥٧).

بِصِدْق الرَّسولِ، أو جَمَعَها لهم جماعةً جماعةً لتُخْبِرَهم بذلك- لَمَا آمَنُوا إلَّا أنْ يشاءَ اللهُ، ولكنَّ أكثرَهم يَجْهلونَ ذلك.

ويُخْبِر تعالى أنَّه كما ابْتَلَى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ جَعَلَ له أعداءً مِن مَرَدَةِ الإنسِ والجنِّ، يُخالِفونَه ويُحارِبونَه، ويَرُدُّون دَعوتَه؛ جَعَل كذلك لكلِّ نبيٍّ من الأنبياءِ أعداءً منهم؛ يُوَسْوِس شياطينُ الجنِّ إلى شَياطينِ الإِنْسِ بالقولِ الباطِلِ المزَيَّنِ، ذي الألفاظِ المزَخْرَفة الخدَّاعةِ، ولو شاءَ اللهُ تعالى ما فعلُوا إيحاءَ القولِ بالغرورِ، ولكنَّ ذلك قَضاءُ اللهِ وقَدَرُه، ثمَّ أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يَدَعَهم وما يَفْترونَه.

وأيضًا يُوَسْوِس شياطينُ الجنِّ إلى شَياطينِ الإِنْسِ بالقولِ الباطِلِ المزَيَّنِ، ذي الألفاظِ المزَخْرَفة الخدَّاعةِ؛ لِتَميلَ إليه قلوبُ الَّذين لا يُؤمنونَ بالآخِرَة، ولِيَرْضَوا ذلك الكَلامَ، ولِيَكْتَسبوا بسبَبِه ما هم مُكتَسِبونَ مِنَ الكفْرِ والمعاصِي.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

بيَّنَ تعالى في هذه الآيةِ تفصيلَ ما ذَكَرَه على سبيلِ الإجمالِ بقولِه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ فبيَّنَ سبحانه أنَّه لو أَعْطاهم ما طَلَبوه مِن إنزالِ الملائكةِ، وإحياءِ المَوْتى حتى كلَّموهم، بل لو زادَ في ذلك ما لا يَبْلُغُه اقتراحُهم بأنْ يحْشُرَ عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلًا- ما كانوا ليُؤْمِنوا إلَّا أنْ يشاءَ اللهُ[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيتينِ اللَّتينِ قبْلَ هذه الآيةِ أنَّ مقتَرِحي الآياتِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١٧).

الكونيَّةِ على الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم أقْسَمُوا باللهِ مُجتهدينَ في أَيمانِهم: لئِنْ جاءَتْهم آيةٌ ليؤمِنُنَّ بها- بيَّن تعالى سُنَّتَه فيهم وفي أمثالِهم مِنَ المعانِدِينَ؛ أنَّهم يَنْظُرونَ إلى الآياتِ، ويتفكَّرونَ فيها بقَصْدِ الجُحودِ والإنكارِ، ويزعمونَ أنَّها لا تَدُلُّ على المطلوبِ، وبَعدَ بَيانِ سُنَّتِه تعالى فيهم عِنْدَ مجيءِ الآيةِ المقترَحةِ، صَرَّحَ بما هو أَبْلَغُ من ذلك، فقال[1]:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

أي: ولو أنَّنا أجَبْنَا سؤالَ هؤلاءِ الَّذين أقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيمانِهم: لئنْ جاءَتْهم آيةٌ ليُؤْمِنُنَّ بها، فنزَّلْنا عليهم الملائِكَةَ، ورَأَوْها عِيانًا كما اقترَحُوا، وشَهِدَتْ لهم بصِدْقِ الرَّسولِ، وصِحَّةِ رسالَتِه[2].

كما أخْبَرَ تعالى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أي: ولو أَحْيَيْنا لهم المَوْتى؛ فأَخْبَروهم بصِدْقِ الرَّسولِ ورِسالَتِه[3].

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسير:

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣-٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣١-١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٨).

في قولِه تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ قراءتانِ:

١- قراءة ﴿قِبَلًا﴾- بِكَسْرِ القافِ وفَتْحِ الباءِ- أي: مقابلةً وعِيانًا ومشاهدةً، والمعنى: وحَشَرْنا عليهم كلَّ شيءٍ يواجِهُونَه ويُعاينُونَه(١).

٢- قراءة ﴿قُبُلًا﴾ جمعُ قبيلٍ، والمعنى: وحَشَرْنا عليهم كلَّ شيءٍ قبيلًا قبيلًا، أي: جماعةً جماعةً، وقيل: (قُبُلًا) جمع: (قبيلٍ)، وهو: (الكفيلُ)، فيكون المعنى: لو حُشِرَ عليهم كلُّ شيءٍ، فكَفَل لهم بصحَّةِ ما تقولُ؛ ما كانوا ليؤمنوا، وقيل: (قُبُلًا) أي: مُقابلةً ومُواجهةً(٢).

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾.

أي: ولو أنَّنا جَمَعْنا لهم جميعَ الأشياءِ أمامَهم؛ لتُخْبِرَهم مباشرةً بِصِدْقِ ما جاء به الرَّسولُ، أو جمَعْناها لهم فوجًا فوجًا، وجماعةً جماعةً؛ لتُخْبِرَهم بذلك(٣).

﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: لو فَعَلْنَا لهم كُلَّ ذلك؛ ما حَصَل منهم الإيمانُ، إلَّا أنْ يَشاءَ اللَّهُ إيمانَهم؛ لأنَّهم قومٌ مُتَعَنِّتونَ(٤).

---

(١) قرأ بها المدنيان وابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٤٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٤٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٤٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٠)، ((البحر المحيط)) لأبي حيَّان (٤/ ٦٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٣-١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٤).

كما قال سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثرَ هؤلاءِ الكُفَّارِ يَجْهَلون أنَّه لو أُنْزِلَت عليهم الآياتُ التي اقترَحوها لم يُؤمِنوا إلَّا أن يشاءَ اللهُ تعالى؛ فليس الإيمانُ إليهم، ولا الكُفرُ بأيديهم؛ فمتى شاؤُوا آمَنوا، ومتى شاؤُوا كَفَروا، بل مَرَدُّ ذلك إلى الله تعالى وحْدَه. ومِنْ جَهْلِهم أنَّهم رتَّبوا إيمانَهم على مجرَّدِ إتيانِ الآياتِ، وإنَّما العَقْلُ والعِلْمُ أن يكونَ مقصودُ العبدِ اتِّباعَ الحقِّ، وطلَبَه بالطُّرقِ التي بيَّنها اللهُ عزَّ وجلَّ(١).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ جلَّ وعلا في هذه السُّورةِ الكريمةِ ما لاقى النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن أذَى المشركينَ ومِن عَداوَتِهم، وعدَمِ انقيادِهم إليه؛ كما في قوله: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ﴾ إلى قَوْلِه: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖ ...﴾ [الأنعام: ٣٣- ٣٥]، وأنَّ أولئك المشركينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢-٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٥).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الاستدراكُ بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾ راجِعٌ إلى قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ المقتضي أنَّهم يُؤمنونَ إذا شاءَ الله إيمانَهم؛ ذلك أنَّهم ما سَأَلوا الآياتِ إلَّا لتوجيه بقائِهم على دِينِهم؛ فإنَّهم كانوا مُصَمِّمينَ على نَبْذِ دَعوةِ الإيمانِ، وإنَّما يتعلَّلونَ بالعِلَلِ بِطَلَبِ الآياتِ استهزاءً، فكان إيمانهم -في نَظَرِهم- من قبيل المُحالِ، فبَيَّنَ الله لهم أنَّه إذا شاء إيمانَهم آمنوا) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧).

المقترِحينَ للآياتِ أعداءٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وما اقترَحوا ما اقترَحوا إلَّا لاعتقادِهم أنَّهم لا يُؤتَوْنَه، فيكون ذلك بابًا للطَّعْنِ في رسالَتِه - بَيَّنَ اللهُ لنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم في هذه الآيَةِ الكريمةِ أنَّه ما أرسلَ نبيًّا من الأنبياءِ إلَّا جَعَلَ له أعداءً كفرَةً فجَرَةً من شياطينِ الإنسِ والجنِّ، والقَصْدُ من هذا تسليةُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتَثبيتُ فؤادِه؛ لأنَّ ما لوقِيَ به من العَداوةِ إذا كان قد لاقاه إخوانُه الكِرامُ من الرُّسُلِ الكرامِ؛ هوَّنَ ذلك الأمَرَ عليه، فتلك هي سُنَّة الله في جميعِ الرسل[1]، فقال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾.

أي: وكما ابْتَلَيناك- يا محمَّدُ- بأنْ جَعَلْنا لك أعداءً مِن مَرَدَةِ الإِنْسِ والجنِّ يُخالِفونَك، ويردُّون دَعْوتَك، ويُعادُونك ويُحارِبونَك، فكذلك ابتَلَيْنا مَن قَبْلَك من الأنبياءِ، بأنْ جَعَلْنا لهم أعداءً يُحارِبونَهم ويُؤذُونَهم؛ مِن مَرَدَةِ الإِنسِ والجِنِّ؛ فهذه سُنَّتُنا، فاصْبِرْ أنت كما صَبَروا[2].

كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٧-٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٨-٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٥-١٤٧).

وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

وفي حديثِ بَدْءِ الوحيِ عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها قالت: ((... فقال له وَرَقَةُ: هذا النَّاموسُ[١] الذي نَزَلَ اللهُ به على مُوسَى، يا لَيْتَني فيها جَذَعًا[٢]، لَيْتَني أكونُ حيًّا إذْ يُخْرِجُك قومُك، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: أوَمُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم، لم يَأْتِ رجُلٌ قطُّ بمِثْلِ ما جِئْتَ به إلَّا عُودِيَ))[٣].

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

أي: يُوَسْوِسُ شياطينُ الجنِّ إلى شَياطينِ الإنسِ بالقَولِ الباطِلِ المُزَيَّن، ذي الألفاظِ المزَخْرَفة، والعباراتِ المنمَّقة المُمَوَّهَة، ويَجْعلونَه في أحسَنِ صورةٍ، فيُؤْذي به شياطينُ الإنسِ الأَنبياءَ بالجِدالِ والخُصوماتِ، ويُضِلُّون به النَّاسَ، ويَفْتِنونهم عن اتِّباعِ الحقِّ[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

---

(١) النَّاموسُ: صاحِبُ سِرِّ الخيرِ. وناموسُ الرَّجُلِ: صاحِبُ سِرِّه الذي يُطْلِعُه على باطن أَمْرِه، وأهلُ الكِتابِ يسمُّونَ جبريلَ بالنَّاموسِ؛ سُمِّي عليه السلام بذلك؛ لأنَّ اللهَ تعالى خَصَّصَه بالوَحْيِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير(٥/ ١١٩)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٣٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٦).

(٢) جَذَعًا: أي: جَلْدًا شَابًّا قويًّا حتى أبالِغَ في نُصْرَتِك، وأصْلُ الجَذَعِ من أسنانِ الدَّوابِّ، وهو ما كان منها شابًّا فتيًّا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٥٠)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٣٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٦).

(٣) رواه البخاري (٣) واللفظ له، ومسلم (١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٧-٥٠٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٦٧)، ((بدائع الصنائع)) لابن القيم (٢/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩-٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٤٩).

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾.

أي: ولو شاءَ اللهُ تعالى -يا محمَّدُ- لَمَنع أولئكَ الشَّياطينَ مِن أن يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخرفَ القولِ، ولكنْ قدَّرَ اللهُ تعالى وقَضَى أن يكونَ لكُلِّ نبيٍّ عدوٌّ مِنْ هؤلاءِ[(١)].

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

أي: فَدَعْ -يا محمَّدُ- أولئك الَّذين يُجادلونَك بِالباطِلِ، ويُخاصِمونَك بما يُوحِي إليهم أَوْلياؤُهم من الشَّياطينِ، ودعْ عنك ما يختلِقونَه من إفكٍ وزُورٍ؛ فسيَجِدونَ غِبَّ ذلك وعاقِبَتَه الوَخِيمةَ، واصبرْ عليهم، وتوكَّلْ على اللهِ في عداوَتِهم؛ فإنَّ اللهَ كافيك، وناصِرُك عليهم[(٢)].

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

أي: وَلِتَميلَ إلى ذلك الكَلامِ المُزخرَفِ قلوبُ الَّذين لا يُؤْمنونَ بالآخِرَةِ؛ فعَدَمُ إيمانِهم باليَوْمِ الآخِرِ يَحمِلُهم على ذلك[(٣)].

﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾.

---

(١) وهذا اختيارُ الواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٧١)، والقرطبيِّ في ((تفسيره))، (٧/ ٦٨)، والشنقيطيِّ في ((العذب النمير)) (٢/ ١٥٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١).
وقيل: عودُ الضَّمير في قولِه: ﴿فَعَلُوهُ﴾ إلى العداوةِ، وهذا ظاهرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٥٠٣)، وابنِ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٥٧).

أي: ولِيُحِبُّوه ويُريدوه بعد أنْ يَصْغَوا إليه، ويُزيِّنَ في قُلوبِهم[١].

﴿وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

أي: ولِيَكْتَسِبوا ما هم مُكْتَسِبونَ مِنَ الكُفْرِ والمعاصي؛ بسَبَبِ ذلك القَوْلِ المزخْرَفِ، الذي صَغَتْ إليه قلوبُهم ورَضُوه وأحبُّوه[٢].

الفَوائِد التربويَّة:

١- مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ تعالى في الخَلقِ بأن يكونَ الشرِّيرُ المتمرِّدُ، العاتي عن الحَقِّ والمعروفِ، الذي لا ينقادُ لهما؛ كِبرًا وعنادًا، وجمودًا على ما تعوَّدَ؛ يكون عدوًّا للدُّعاةِ إليهما؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[٣].

٢- الحَذَرُ مِنَ الشَّيطانِ؛ فإنَّه قد لَزِمَ ثَغْرَ الأُذُنِ، يُدْخِلُ فيها ما يَضُرُّ العبدَ ولا ينفَعُه بطُرُقٍ خفيَّةٍ دقيقةٍ، لا يَفْطِنُ لباطِلِها كلُّ أحدٍ؛ فتُسْرِعُ العقولُ الضَّعيفةُ إلى قَبولِه واستِحْسانِه؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ الآية، إلى قَوْلِه: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٥٧-١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٦).

(٤) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص:٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٧).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ دلَّ ظاهِرُه على أنَّه تبارَك وتعالى هو الذي جَعَلَ أولئك الأعداءَ أعداءً للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولا شَكَّ أنَّ تلك العداوةَ مَعْصِيةٌ وكفرٌ؛ فهذا يقتضي أنَّ خالِقَ الخيرِ والشَّرِّ، والطَّاعةِ والمَعْصِيَةِ، والإيمانِ والكُفْرِ؛ هو اللهُ تعالى[١].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، قال: ﴿عَدُوًّا﴾ معبِّرًا عن الجَمعِ بالمفردِ- والمراد به الجنس- إشارةً إلى أنَّهم يدٌ واحدةٌ في العَدَاوةِ[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فيه أنَّ كلامَ أعداءِ الرُّسُلِ تَصْغَى إليه أفئدةُ الَّذين لا يُؤمنونَ بالآخِرَة؛ فعُلِمَ أنَّ مخالفَةَ الرُّسُلِ وتَرْكَ الإيمانِ بالآخِرَةِ متلازمانِ؛ فمَنْ لم يُؤْمِنْ بالآخرةِ صَغَى إلى زُخْرُفِ أعدائِهم، فخَالَفَ الرُّسُل[٣].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ وقوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ هذه الجُمَل على غايةِ الفَصاحةِ؛ لأنَّه أوَّلًا يكونُ الخِداعُ، فيكونُ المَيلُ، فيكون الرِّضا، فيكون فِعْلُ الاقترافِ، فكأنَّ كلَّ واحدٍ مسَّببٌ عمَّا قَبْلَه[٤].

بلاغة الآيات:

١- ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٨٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣٣).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣٤).

كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴾

- قوله: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾ أَبْلغُ في النَّفي من (لم يُؤْمِنوا) ومِنْ: (لا يؤمنون)، وأشدُّ تقويةً لنَفْيِ إيمانِهم مع ذلك كلِّه؛ لأنَّ فيه نَفْيَ التأَهُّلِ والصلاحيَّةِ للإيمانِ؛ لأنَّهم مُعانِدونَ مُكابِرونَ، غيرُ طالبينَ للحَقِّ؛ لأنَّهم لو طَلَبوا الحقَّ بإنصافٍ لكَفَتْهُم معجزةُ القرآنِ، إنْ لم يكْفِهم وضوحُ الحقِّ فيما يَدْعو إليه الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسلامُ، ولذلك جاءَتْ لامُ الجحودِ في الخَبَرِ[١].

- قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه: التفاتٌ إلى الاسمِ الجليلِ- حيث لم يقل: (نشاء)- وهذا الإظهار في مقامِ الإضمارِ؛ لتربيةِ المهابةِ، وإدخالِ الرَّوعةِ؛ أي: ما كانوا ليُؤمِنوا بعد اجتماعِ ما ذُكِرَ منَ الأمورِ الموجِبَةِ للإيمانِ في حالٍ من الأحوالِ الدَّاعيةِ إليه، المتمِّمةِ لمُوجِباتِه المذكورةِ، إلَّا في حالِ مَشيئتِه تعالى لإيمانِهم، أو ما كانوا ليُؤْمِنوا لعلَّةٍ من العِلَلِ المعدودةِ وغيرِها إلا لِمَشِيئَتِه تعالى له[٢]. وأيضًا لأنَّ اسمَ الجلالةِ يُومِئُ إلى مقامِ الإطلاقِ، وهو مقامُ ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ويومِئُ إلى أنَّ ذلك جرى على حَسَبِ الحِكْمةِ؛ لأنَّ اسمَ الجلالةِ يتضَمَّنُ جميعَ صفاتِ الكمالِ[٣].

- قَوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناءٌ مِن عمومِ الأحوالِ التي تَضمَّنها عمومُ نفْيِ إيمانِهم، وفي هذا الاسْتثناءِ تعريضٌ بوعْدِ المسلمينَ بتَغْيِير قُلوبِ هؤلاء المشركين، فيُؤْمِنوا طَوْعًا، أو أن يُكْرِهَهم على الإيمانِ بأن يُسَلِّطَ عليهم رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم كما أرادَ اللَّه ذلك بفتحِ مَكَّةَ وما بعدَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧).

- التعبيرُ بالمضارعِ في: ﴿يَجْهَلُونَ﴾ يدلُّ على أنَّهم مِن عادَتِهم وشأنِهم الجهلُ، وعدمُ المعرفةِ باللهِ[١].

٢- قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ... فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ اعتراضٌ قُصِدَ منه تَسْليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والتأسِّي بمَن تَقَدَّمَه مِن الأنبياءِ، وأنَّه ليس مُنْفَرِدًا بعَداوةِ مَن عاصَرَه، والواوُ واوُ الاعتراضِ؛ لأنَّ الجملةَ بمنزلَةِ الفَذْلكةِ، وتكونُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم تسليةً، بعد ذِكْرِ ما يَحْزُنُه من أحوالِ كفَّارِ قومِه، وتصلُّبِهم في نَبْذِ دعوَتِه، فأَنْبَأه اللهُ بأنَّ هؤلاءِ أعداؤُه، وأنَّ عَداوةَ أمثالِهم سُنَّةٌ مِن سُنَنِ اللهِ تعالى في ابتلاءِ أنبيائِه كلِّهم[٢].

- قوله: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ﴾ فيه: تقديمُ المفعولِ الثاني ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ على المفعول الأوَّلِ ﴿عَدُوًّا﴾؛ للاهتمامِ به[٣].

- قوله: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أمرٌ فيه وعيدٌ وتهديدٌ لهم[٤].

- وعَبَّرَ هنا بقَوْلِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، وقال بَعْدَه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، فقال هنا بلفْظِ (الرَّب)، وبعده بلَفْظِ (الله)، وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ؛ وهي أنَّ الأُولى جاء قَبْلَها قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، فجاء فيها ﴿رَبُّكَ﴾ ليتضمَّنَ معنى أنَّ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفيسر أبي حيان)) (٤/ ٦٢٣، ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢٥).

الله تعالى هو مَن يَحْجُزُهم عن مَضَرَّتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وأن يَظْفَروا بمُرادِهم مِن عداوَتِه. وقولُه في الآيَةِ الأخرى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾، جاءَ بعد قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾، فأخبرَ أنَّهم أقاموا للهِ تعالى- الذي يحِقُّ إفرادُه بالعبادةِ- شركاءَ، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾، فهذا موضِعٌ لم يَلِقْ به إلَّا الاسمُ الذي يفيدُ معنًى فيه حجَّةٌ عليهم دون غيرِه من الأَسْماءِ، فأفادَ كلُّ اسمٍ من الاسْمينِ في مكانِه ما لم يكُنْ لِيُسْتفادَ بغيرِه[1].

وقيل: بل المناسبةُ أنَّه لَمَّا تقدَّمَ الآيةَ الأُولى قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:١١١]، فعَرَّفَ سبحانَه نبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بما سبَقَ لهؤلاءِ، وما قَدَّرَه عليهم في الأَزَلِ؛ حتى لا يُجدِي عليهم شيءٌ، ولا ينفَعُهم تَذكارٌ، فلَمَّا تقدَّمَ مِنَ القَدَرِ على هؤلاءِ ما يُثيرُ أشَدَّ الخوفِ؛ كان مَظِنَّةَ إشفاقٍ، فآنَسَ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ولَاطَفَه بإضافةِ اسمِ ربوبِيَّتِه سبحانَه لنبيِّه عليه السلام، مخاطبًا له؛ فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾، ولَمَّا لم يَقَعْ قبل الآيةِ الثانيةِ مثلُ هذا، وإنَّما جاءَ قبْلَها: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وليس هذا في اقْتِضاءِ الحَتْم عليهم المُؤْذِن بقَطْعِ الرَّجاءِ منهم؛ كقَوْلِه في الأُولى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ...﴾ الآية، فلذلك قال عَقِبَ هذه الآيةِ الثَّانيةِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١٣٧]،

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٣٧-٥٣٨).

فجاء باسْمِه الجليلِ تعالى مِنْ غيرِ إضافةٍ؛ إذ ليس هذا مثلَ الأوَّل، ولو ورَدَ الاسمُ الجليلُ أوَّلًا والاسمُ الكريمُ المضافُ ثانيًا لَمَا ناسَبَ على ما تمهَّدَ[١].

٣- **قوله:** ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ عُطِفَ ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ على ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾، وإنْ كان الصَّغْيُ يقتضِي الرِّضا ويُسَبِّبُه، فكان مقتضى الظَّاهِرِ أن يُعطَفَ بالفاءِ، وألَّا تُكَرَّرَ لامُ التَّعليلِ، فخولِفَ مقتضى الظَّاهِر؛ للدَّلالةِ على اسْتِقْلالِه بالتَّعليلِ، فعُطِفَ بالواوِ، وأُعيدَتِ اللامُ لتأكيدِ الاستقلالِ، فيدلُّ على أنَّ صَغْيَ أفئدَتِهم إليه ما كان يَكْفي لعمَلِهم به إلَّا لأنَّهم رَضُوه[٢].

- قوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ الاقترافُ افتِعالٌ مِنْ (قَرَفَ) إذا كَسَبَ سيئةً، وصيغةُ الافتعالِ فيه للمُبالغةِ[٣].

- وجيءَ في صلَةِ الموصولِ في قوله: ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ بالجُمْلةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على تمَكُّنِهم في ذلك الاقترافِ، وثباتِهم فيه[٤].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٢-١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١٤-١١٧)

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: أي: الشاكِّين، والمِرْيَة: التردُّدُ في الأمرِ، وهو أخصُّ من الشكِّ[(١)].

﴿يَخْرُصُونَ﴾: يكْذِبونَ، وأصلُ (خرص): كَذَب، والخرَّاص الكذَّاب، وكُلُّ قولٍ عن ظنٍّ وتخمينٍ يُقال له: خَرْص، سواء كان ذلك مُطابقًا للشَّيءِ، أو مُخالِفًا له[(٢)].

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾

﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾: صِدْقًا: منصوبٌ على التَّمييزِ، ويجوزُ أنْ يكونَ مفعولًا من أجْلِه، وأنْ يكونَ مصدرًا في موضِعِ الحالِ بمعنى: صادِقةً وعادلةً[(٣)].

٢- **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ٩٧، ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨، ١٩٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨، ٢٣١، ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن لمكي)) (١/ ٢٦٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٢٤).

﴿مَن يَضِلُّ﴾: في ﴿مَن﴾ وجهان:

الوجه الأول: أنَّها موصولةٌ بمعنى (الذي) في موضِعِ نصبٍ بفِعلٍ دلَّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾ لا بنَفْسِ ﴿أَعْلَمُ﴾؛ لأنَّ (أَفْعَل) لا يعملُ في الاسْمِ الظَّاهِرِ النَّصْبَ، والتَّقديرُ: هو أعلمُ يَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ، أي: الضَّالِّين، ولا يجوزُ أن يكون ﴿مَن﴾ في موضِع جرٍّ بالإِضافةِ؛ لفسادِ المعنى؛ لأنَّ التَّقديرَ سيَصير: هو أعلمُ الضَّالِّين- تعالى اللهُ عن ذلك عُلوًّا كبيرًا. وقيل: في موضِعِ نَصْبٍ بِنَزْعِ الخافِضِ وهو الباءُ، كما دلَّ عليه وجودُ الباءِ في قوله ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾

والوجه الثاني: أنَّ ﴿مَن﴾ اسمُ استفهامٍ في موضِعِ رفعٍ مبتدأٌ، و﴿يَضِلُّ﴾ جملةُ الخبَرِ، وموضِعُ الجملة نصْب بـ (يَعْلَمُ) المقَدَّرَة لا بِنَفْسِ ﴿أَعْلَمُ﴾، وقرئ (مَنْ يُضِلُّ) بضمِّ الياءِ، و﴿مَن﴾ أيضًا في موضع نصبٍ بـ (يَعْلَمُ) مقَدَّرَةً، أو بِنَزْعِ الخافِضِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لأولئك المُشركينَ: أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ حاكِمًا أتحاكَمُ إليه، وهو الذي أنزلَ إليكم الكتابَ مُبَيَّنًا فيه حُكمُ ما تختصمونَ، موضَّحًا فيه العقائِدُ والأَحكامُ، وإنَّ اليهودَ والنَّصارى الَّذين أَعْطاهم اللهُ التوراةَ والإنجيلَ يعلمونَ أنَّ هذا القرآنَ مُنَزَّلٌ منه جلَّ وعلا بالحقِّ، ثمَّ نهى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عن الشَّكِّ في القرآنِ.

وأخبر تعالى أنَّه كَمُلَت كَلِماتُه عزَّ وجلَّ صِدْقًا في جميعِ الأخبارِ، وعدلًا في جميعِ الأَحْكامِ، لا أحَدَ بإمكانِه تغييرُ كلماتِه سبحانه، وهو السَّميعُ العليمُ.

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٥-٥٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٢٧-١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣).

ثم وجَّه الخِطابَ إلى نبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه إن أطاعَ أكثرَ أهْلِ الأَرْضِ، فإنَّهم يُضِلُّونه عن دِينِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فهم لا يتَّبعونَ إلا ظُنونًا باطِلَةً، ويَكْذِبونَ على اللهِ تعالى فيقولونَ عليه ما لا يَعْلمونَ.

ثم أخبرَه أنَّه تعالى هو أعلمُ بمن ينحَرِفُ عن الطَّريقِ الحَقِّ، وهو أعلَمُ بمن هو على هدايةٍ واستقامةٍ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

أنه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في السِّياقِ الذي قبل هذا أنَّ الَّذين اقترحُوا على رسولِه الآياتِ الكونيَّةَ، وأقسموا بأنَّهم يؤمنونَ بها إذا جاءَتْهم؛كاذبونَ في دعواهم وأيمانِهم، كما ثبَتَ فيما مَضَتْ به سُنَّةُ اللهِ في أمثالِهم من أعداءِ الرُّسُلِ المعانِدِينَ، وهم شياطينُ الإنسِ والجنِّ الَّذين يُغْرُونَ الجاهلينَ بِزُخْرفِ أقوالِهم- قَفَّى على هذا البيانِ هاتينِ الآيتينِ المُبَيِّنَتينِ لآيةِ اللهِ الكُبرى التي هي أقوى دَلالةٍ على رسالةِ نَبيِّه مِن جميعِ ما اقترَحُوا، ومِمَّا لم يقترحوا من الآياتِ الكونيَّةِ، وهي القرآنُ الحكيمُ، وكَونُ مُنْزِلِها هو الذي يجِبُ الرُّجوعُ إليه في الحُكْم في أمْرِ الرِّسالةِ وغيرِه[1].

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لأولئك المُشركينَ: أأضِلُّ عن طريقِ الحقِّ؛ فأجعلَ حاكمًا أتحاكَمُ إليه، وأتقيَّدُ بأوامِرِه ونواهِيه دونَ الله تعالى؟ كلَّا؛ فلا يكونُ ذلك،

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٩).

ولا ينبغي أن يُتَّخَذَ حاكمٌ، سِوى اللهِ وحْدَه لا شريكَ له، الذي له الخلْقُ والأمْرُ، والذي لا حَكَمَ أَعدَلُ منه، ولا قائِلَ أَصدَقُ منه؛ فليس لي أنْ أتجاوَزَ حُكْمَه[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾.

أي: وهو الذي أنزَلَ إليكم الكتابَ مبيَّنًا فيه الحُكمُ فيما تختصمونَ فيه، موضَّحًا فيه العقائدُ، والأحكامُ الشَّرعيَّة، والحقُّ والباطلُ؛ فهو الكتابُ الذي لا بَيانَ فَوقَه، ولا بُرهانَ أَجْلى منه، ولا حَكَم أحسَنُ منه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال سبحانه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: واليهودُ والنَّصارى، الَّذين أَعْطَيْناهم التَّوراةَ والإنجيلَ، يعلمونَ أنَّ القرآنَ أُنْزِلَ إليك- يا محمَّدُ- مِن ربِّك متلبِّسًا بالحقِّ، فكلُّه حقٌّ وهُدًى، وماذا بعد الحقِّ إلَّا الضَّلالُ[٣]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٥٩-١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٦٧-١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٦-٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧٠).

قال ابن تيمية: (وذلك أنَّ الكتاب الأوَّلَ مُصَدِّقٌ للقرآنِ؛ فمن نظَرَ فيما بأيدي أهل الكتاب من التوراة والإنجيل عَلِمَ علمًا يقينًا لا يحتمل النقيضَ أنَّ هذا وهذا جاءا من مشكاةٍ واحدة، لا سيما في بابِ التوحيد والأسماء والصفاتِ؛ فإنَّ التوراةَ مطابقةٌ للقرآن، موافِقةٌ له مُوافَقَةً لا ريبَ فيها. وهذا ممَّا يبيِّنُ أنَّ ما في التوراة من ذلك ليس هو من المُبَدَّل الذي أنكره عليهم القرآنُ، بل هو من الحقِّ الذي صَدَّقَهم عليه). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٥/ ٢٢٢).

﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

أي: وما دامَ هذا القرآنُ حقًّا لا مِرْيَةَ فيه؛ فَلا تشُكَّنَّ فيه، يا محمَّدُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس:٩٤].

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾.

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾.

أي: وكَمُلَت كلماتُ ربِّكَ صِدْقًا في جميعِ الأخبارِ، وعَدْلًا في جميعِ الأَحْكامِ، فما في القرآنِ من أحكامٍ فهو في غايةِ العدالةِ والإنصافِ، وما فيه من الأخبارِ فهو حقٌّ مُطابِقٌ للواقِعِ؛ فلا أصدَقَ مِنْ أخبارِ الله التي أوْدَعَها هذا الكتابَ العزيزَ، ولا أَعدَلَ مِن أوامِرِه ونواهِيه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧٠).

قال الشنقيطي: (ومعلومٌ أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يكن شاكًّا فيما أوحى اللهُ إليه، وإنَّما هذا كقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] وكقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] ولا يخفى أنَّ رسولَ الله صلواتُ الله وسلامُه عليه أنَّه مُتَّقٍ لله، وأنَّه لا يطيعُ منهم آثمًا ولا كَفورًا، وأنَّه لا يُشرك. وقد جرت العادةُ في القرآن أنَّ الله جلَّ وعلا يأمر نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم وينهاه ليُشَرِّعَ ذلك الأمرَ والنَّهيَ لأمَّتِه على لسانِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه هو القدوةُ لهم، المُشَرِّع لهم بِقولِه وفِعْلِه وتقريرِه) ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧٤-١٧٥).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالكلماتِ هنا القرآنُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ عاشورٍ، ونسَبه لجمهورِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨-١٩).

وممن قال به من السَّلف: قتادةُ. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٦٩).

﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

أي: لا أحدَ يُمكِنُه تغييرُ كلماتِ الله تعالى؛ فقد حَفِظَها وأحْكَمَها بأعلى أنواعِ الصِّدْقِ، والحقِّ؛ فلا يمكنُ تغييرُها، ولا الإتيانُ بأحْسَنَ منها[١].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: وهو السَّميعُ لأقوالِ عبادِه، العليمُ بحركاتِهم وسَكَنَاتهم، الذي أحاط سَمْعُه وعِلْمُه بكلِّ شيءٍ، فيجازي كلَّ عاملٍ بعمَلِه؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ[٢].

﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا أجابَ اللهُ تعالى عن شُبُهاتِ الكُفَّارِ، وبيَّنَ صحَّةَ نبوَّة نبيِّه عليه السَّلامُ- شَرَعَ في الحثِّ على الإعراضِ عَن جَهْل الجُهَّالِ، والإقبالِ على ذي الجلالِ[٣]، فقال تعالى:

﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وإنْ تُطِعْ أكثرَ أهْلِ الأرضِ- يا مُحمَّد- يَصْرِفوك ويصدُّوكَ عَن دِينِ الله عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ أكثَرَهم قد انحَرَفوا عن طريقِ الحَقِّ[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٩٤-١٩٩).

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((يقولُ اللهُ تعالى: يا آدمُ، فيقول: لبَّيكَ وسَعْدَيكَ، والخيرُ في يدَيكَ، فيقولُ: أَخرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قال: وما بَعْثُ النَّارِ؟ قال: مِن كلِّ ألفٍ تِسعَمائةٍ وتسعةً وتسعينَ، فعنده يَشيبُ الصَّغيرُ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وترى النَّاسَ سُكارَى وما هم بسُكارَى، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ))[(١)].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾.

أي: وهُم في ضَلالِهم ليسوا على يقينٍ مِن أَمْرِهم، وليس لديهم مُستنَدٌ علميٌّ يُثبِتُ صِحَّةَ طريقِهم، فغايَتُهم أنَّهم يتَّبعونَ ظُنونًا باطلةً، لا تُغني من الحَقِّ شيئًا، ويَكْذِبونَ على الله تعالى فيقولونَ عليه ما لا يَعْلَمونَ[(٢)].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١١٧﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا مُحمَّدُ- أعلمُ منك ومِن جميعِ خَلْقِه، بمن ينحَرِفُ عن طريقِ الحَقِّ، فيُيَسِّرُه لذلك، وبمن يَسِيرُ على استقامةٍ وسَدادٍ، فيُيَسِّرُه لذلك[(٣)].

الفوائدُ التربويَّة:

في قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن

(١) رواه البخاري (٣٣٤٨) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٩٩-٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٠١-٢٠٥).

يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ دليلٌ على أنَّه لا يُستدَلُّ على الحقِّ بكثرةِ أهْلِه، ولا تدُلُّ قلَّةُ السَّالكينَ لأَمْرٍ من الأُمورِ أن يكون غيرَ حَقٍّ، بل الواقِعُ بخلافِ ذلك؛ فإنَّ أهلَ الحقِّ هم الأقلُّونَ عددًا، الأَعْظمونَ عند الله قَدْرًا وأجْرًا، بل الواجبُ أن يُستدَلَّ على الحقِّ والباطِلِ بالطُّرقِ الموصلَةِ إليه[١].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا﴾ أي: إنَّ الكتابَ الحاكِمَ مُفصَّلٌ بَيِّنٌ؛ ففيه ردٌّ على من يَزْعُم أنَّ نُصوصَ الكتابِ لها معانٍ لا تُفهَم، ولا يُعْلَمُ المرادُ منها، أو أنَّ لها تأويلاتٍ باطنةً خِلافَ ما دلَّت عليه ظواهِرُها[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يدلُّ على أنَّ أكثَرَ أهلِ الأرضِ كانوا ضُلَّالًا؛ لأنَّ الإِضْلالَ لا بدَّ أن يكون مَسْبوقًا بالضَّلالِ[٣].

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا﴾ الاستفهامُ معناه الإنكارُ والنَّفيُ، أي: لا أبتغِي حَكَمًا غيرَ اللهِ[٤].

- وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا﴾ جملةٌ حاليَّةٌ مؤكِّدةٌ لإنكارِ ابتغاءِ غيرِه تعالى حَكَمًا، ونسبةُ الإنزالِ إليهم خاصَّةً مع أنَّ مقتضى المقامِ إظهارُ تَساوِي نِسْبَتِه إلى المُتَحاكِمينَ؛ لاستمالَتِهم نحْوَ الْمُنْزَلِ، واستنزالِهم

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠).
(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١٠٤٣-١٠٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤).

إلى قَبولِ حُكْمِه بإيهامِ قُوَّةِ نِسْبَتِه إليهم[١].

٢- **قوله:** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسُوقٌ مِن جِهَتِه سبحانه؛ لتحقيقِ حَقِّيَّةِ الكتابِ الذي نِيطَ به أمرُ الحَكَمِيَّة[٢].

- وفي التعبيرِ عن التَّوراةِ والإنجيلِ باسْمِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إيماءٌ إلى ما بينهما وبينَ القرآنِ مِن المجانَسَة المقتضِيَة للاشتراكِ في الحقِّيَّة، والنُّزولِ مِن عِندِه تعالى، مع ما فيه من الإيجازِ[٣].

- وقوله: ﴿مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ فيه التَّعرُّضُ لعنوانِ الربوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضميرِه صلَّى الله عليه وسلَّم في ﴿رَّبِّكَ﴾؛ لتشريفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٤].

- قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ يحتملُ أن يكونَ المخاطَبُ الرَّسولَ عليه الصَّلاة والسَّلام، والمقصودُ من الكلامِ المشركونَ الْمُمْتَرون، على طريقة التَّعريضِ، كما يُقال: (إيَّاكِ أعني، واسْمَعي يا جارةُ)، ويحتَملُ أن يكون خِطابًا لغَيْرِ مُعَيَّن؛ ليعُمَّ كلَّ مَن يحتاجُ إلى مِثْلِ هذا الخطابِ؛ أي فلا تكونَنَّ- أيُّها السَّامِعُ- مِنَ المُمْتَرينَ[٥].

٣- **قوله:** ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فيه إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضمارِ- حيث قال ﴿رَبِّكَ﴾ ولم يقل (كَلِمَتُه)؛ لتذكيرِ النبيِّ صلَّى الله

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٧)، ((تفسير الألوسي)) (٤/ ٢٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧).

عليه وسلَّم بما له سبحانَه من الإحسانِ، والتَّنبيهِ على ما يريدُ به من التَّشْريفِ والإكرامِ[١].

- قوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ استئنافٌ مُبَيِّنٌ لفَضْلِ كَلِماتِه على غيرِها، إثْرَ بيانِ فَضْلِها في نَفْسِها[٢].

- قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تذييلٌ لجملة: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، أي: وهو المطَّلِعُ على الأقوالِ، العليمُ بما في الضَّمائِرِ[٣]، وفيه: تعريضٌ بالوعيدِ لِمَن يسعى لتبديلِ كلماتِه[٤].

٤- قوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فيه: تمثيلٌ لحالِ الدَّاعي إلى الكُفْرِ والفسادِ مَن يقبَلُ قولَه، بحالِ مَن يُضِلُّ مستهدِيَه إلى الطَّريقِ، فينعَتُ له طريقًا غيرَ الطَّريقِ المُوصِلَة، وهو تمثيلٌ قابِلٌ لتوزيعِ التشبيهِ: بأنْ يُشَبَّه كلُّ جزءٍ مِن أجزاءِ الهيئةِ المشبَّهةِ بجزءٍ من أجزاءِ الهيئةِ المشَبَّهِ بها، وذلِك أكملُ التَّمثيلِ وأعلاه في البلاغةِ العربيَّة[٥].

- قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ نَشَأَ عن قوله: ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ فبيَّن سببَ ضلالِهم: أنَّهم اتَّبَعوا الشُّبهةَ مِن غيرِ تأمُّلٍ في مفاسِدِها[٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٢٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٧).

٥- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ يتضَمَّنُ الوعيدَ والوَعْدَ؛ لأنَّ كَونَه تعالى عالِمًا بالضَّالِّ والمهْتدي كنايةٌ عن مُجازاتِهما[١].

- والآيةُ تعليلٌ لقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾؛ لأنَّ مضمونَه التَّحذيرُ من نَزَغاتِهم، وتوقُّعُ التَّضليلِ منهم، وهو يقتضي أنَّ المسلمينَ يريدونَ الاهتداءَ، فلْيَجْتَنِبوا الضَّالِّينَ، ولْيَهْتَدوا باللهِ الذي يَهديهم[٢].

- قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ فيه تعريفُ المُسنَد إليه بالإضافةِ؛ لتشريفِ المضافِ إليه، وإظهارِ أنَّ هَدْيَ الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام هو الهُدَى، وأنَّ الَّذين أخبرَ عنهم بأنَّهم مُضِلُّون لا حَظَّ لهم في الهُدى؛ لأنَّهم لم يتَّخِذوا اللهَ ربًّا لهم[٣].

- وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ تذييلٌ لجميعِ تلك الأغراضِ التي اشتَمَلَت عليها الآياتُ المتقدِّمةُ مِن بيانِ ضلالِ الضَّالينَ، وهُدى المُهْتدينَ[٤].

- والضَّمير (هو) في قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ ضميرُ الفَصْلِ؛ لإفادَةِ قَصْرِ المُسنَد ﴿أَعْلَمُ﴾ على المُسنَد إليه ﴿رَبَّكَ﴾، فالأَعْلَمِيَّة بالضَّالِّينَ والمُهتدينَ مقصورةٌ على اللهِ تعالى، لا يُشارِكُه فيها غيرُه[٥].

- قال الله تعالى هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ بالمضارع في (يَضِلُّ)، وقال في سورة القَلَم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٨- ٢٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٢٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم:٧]، بالماضي، وذلك لمناسَبةٍ حَسَنةٍ؛ فقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ معناه: اللهُ أَعْلَمُ أيُّ المأمورينَ يَضِلُّ عن سبيله، وهذا المعنى يَقْتَضيه ما تقدَّمَ هذه الآيةَ وما جاء بَعْدَها من إتيانِ الفِعْلِ بصيغَةِ الاستقبالِ؛ فالذي قَبْلَها: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، والذي بَعْدَها ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وأمَّا قَوْلُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فمعناه: اللهُ أَعْلَمُ بأحوالِ مَنْ ضَلَّ، كيف كان ابتداءُ ضلالِه وما يكون مِن مآلِه، أَيُصِرُّ على باطِلِه، أم يَرْجِعُ عنه إلى حَقِّه، وقَبْلَها: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥-٦] فناسب الفعل الماضي[(١)].

- وقال اللهُ تعالى هنا: ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ﴾بِسُقوطِ الباءِ، وقال في سورة النَّحل والنَّجْم والقَلَم: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ [النحل: ١٢٥] [النجم: ٣٠] [القلم: ٧] بإثباتِ الباءِ في ﴿بِمَن﴾، وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ؛ هي أنَّ سُقوطَ الباءِ الداخلةِ على (من) في آيَةِ الأنعامِ؛ لاستثقالِ زيادتها مع الزِّيادةِ اللَّازمةِ للمضارع مع التَّقاربِ إيثارًا للإيجازِ، أمَّا في المواضع الثلاثة فلا زيادةَ في الفعلِ لِكَونه ماضيًا، فزِيدَ باءُ التأكيدِ الداخلةِ على (من)[(٢)].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٤٠-٥٤٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٨-١٦٩).

الآيات (١١٨-١٢١)

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ١١٩ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾.

غريب الكلمات:

﴿لَيُوحُونَ﴾: أي: ليُلْقُونَ بالوَسْوَسَةِ، أو: لَيُوَسْوِسونَ، أو يَقْذِفونَ في قُلوبِهم، وأصْلُ الوَحْيِ: يَدلُّ على إلْقاءِ عِلمٍ في خفاءٍ، وكلُّ ما أَلْقَيْتَه إلى غيرِك حتَّى عَلِمَه، فهو وحيٌ كيفَ كانَ[1].

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾

﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾: (إنَّ) وما دخلتْ عليه جملةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ، جوابُ قَسَمٍ مُقَدَّر وطَّأَتْ له لامُ قَسَمٍ محذوفةٌ قبل (إنْ) على تقديرِ (إنْ) بـ (لَئِنْ)، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ دلَّ عليه جوابُ القَسَمِ، ولا يجوزُ أن تكونَ الجُمْلَةُ الاسميَّةُ جَوابَ الشَّرْطِ على إضْمارِ الفاءِ؛ لأنَّ ذلِكَ خاصٌّ بالشِّعرِ، وقيل غيرُ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٢).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٣٢-١٣٣)، ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام الأنصاري (ص: ٣١١).

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ عبادَه أن يأكلوا مِمَّا ذُكِرَ اسمُ الله إن كانوا بحُجَجِه وأدِلَّتِه مؤمنينَ.

وما الذي يمنَعُهم أن يأكلوا مِمَّا ذُكِرَ اسمُ الله عليه، وقد أوضَحَ لهم تعالى ما حَرَّمَ عليهم أكْلَه إلَّا ما اضطُرُّوا إليه، وأخبر تعالى أنَّ كثيرًا يَضِلُّون ويُضِلُّون أتباعَهم، بغيرِ حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ. وإنَّ الله تعالى هو أعلمُ بالمعتدينَ.

ثم يأمُرُ اللهُ تعالى عبادَه أن يَجْتَنبوا جميعَ المعاصي، فلا يَقْتَرفوها في السِّرِّ ولا في العَلَن، مُخبرًا تعالى أنَّ الذي يُخالِفُ هذا الأمرَ، ويكتسِبُ الإثمَ؛ فإنَّه سَيُجازيه بما اقترَف مِنَ المعاصي.

ثم ينهَى عبادَه عن الأكلِ مِمَّا لم يُذْكَرْ عليه اسْمُه؛ فإنَّ أكلَه خروجٌ عن الطَّاعةِ، ويُبَيِّنُ تعالى أنَّ الشَّياطينَ يُوَسْوِسونَ إلى أوليائِهم من المشركينَ بالشُّبُهاتِ؛ ليُجادِلوا المؤمنينَ، وأن المؤمنينَ إنْ أَطاعوهم في أكْلِ المَيْتَةِ وما حَرَّم اللهُ عليهم مُستحِلِّينَ ذلك، فإنَّهم سَيَصِيرونَ مِثْلَهم مُشْركينَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ١١٩ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾.

سببُ النُّزولِ:

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (أتى ناسٌ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم،

فقالوا: يا رسولَ اللهِ، أنأكُلُ ما نَقْتُلُ، ولا نأكُلُ ما يَقتُلُ اللهُ؟ فأنزَلَ اللهُ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾)[1].

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى لرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ أكثرَ أهلِ الأَرْضِ يُضِلُّونَ مَن أطاعَهم لأنَّهم ضالُّونَ خَرَّاصون؛ يُحَرِّمونَ الحلالَ، ويُحِلُّون الحرامَ، وأنَّه هو أعلَمُ بالضَّالينَ والمُهتدَينَ- رتَّبَ على ذلك أمْرَ أَتْباعِ هذا الرَّسولِ بمخالفَةِ الضَّالينَ مِن قَومِهم وغيرِ قَومِهم في مسألَةِ الذَّبائحِ، وبِتَرْكِ جميعِ الآثامِ[2]، فقال تعالى:

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾.

أي: فَكُلوا- أيُّها المؤمنونَ- من الذَّبائحِ التي ذُكِرَ اسمُ الله عزَّ وجلَّ عليها مِن بهيمةِ الأَنْعامِ، وغيرِها من الحيواناتِ الْمُحَلَّلِ أكلُها، إنْ كُنتم بحُجَجِ الله وأدِلَّتِه التي أَتَتْكُم مؤمنينَ، ولأَحْكامِه مُنقادينَ[3].

﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٦٩).

قال الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٠٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠-٢٧١).

قال الشنقيطي: (ومعنى ذِكْرِ اسمِ الله عليه: هو أنْ يُسَمَّى على الذبيحةِ عند الذَّكاةِ، أو على العقيرةِ عند الاصطيادِ، أو على الجارحِ إذا أُرْسِلَ إلى الصَّيدِ، كلُّ هذا يُسمَّى اللهُ عليه ويؤكَلُ منه... والآيةُ على التَّحقيقِ في الذَّكاة، خلافًا لبعض العلماءِ القائلِ: هي عامَّةٌ. أي: كلُّ طعامٍ؛ مِن خُبز أو لَحْم أو غيره أو فاكهة تُسَمِّي اللهَ عليه، وأن تأكُلَ منه) ((العذب النمير)) (٢/ ٢٠٨-٢٠٩).

إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِ﴾.

أي: وأيُّ شيءٍ يَمنَعُكم أن تَأْكُلوا مِمَّا ذُكرَ اسمُ الله عليه، وقد أوْضَحَ اللهُ تعالى لكم ما يَحْرُم أكْلُه، فلم يَبْقَ في ذلك إشكالٌ ولا لَبْسٌ، ولكِنْ يُباحُ لكم تناوُلُ الحرامِ في الحالِ التي تُضْطَرُّونَ فيها إلى ذلك[١].

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسير:

في قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ﴾ قراءتان:

١- قراءة ﴿لَيُضِلُّونَ﴾ من الإِضْلالِ، أي: يُضِلُّونَ غَيرَهم[٢]، فهو من المتعدِّي (أضَلَّ).

٢- قراءة ﴿لَيَضِلُّونَ﴾- بِفَتْحِ اليَاءِ- بمعنى: أنَّهم يَضِلُّونَ في أنفُسِهم عن الحَقِّ[٣]، فهو من اللازمِ (ضَلَّ).

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٢-٥١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢١٦-٢٢٠).

(٢) قرأ بها الكوفيون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٤١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٩).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٤١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٥)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٤٩).

أي: وإنَّ كثيرًا من النَّاسِ يَحْرِفُون أنفُسَهم وأَتباعَهم عن طريقِ الحَقِّ، بسببِ اتِّباعِ ما تهوَى أنفُسُهم من الباطِلِ، بغيرِ حُجَّةٍ منهم، ولا بُرهانٍ على صِحَّةِ ما يدَّعونَ[١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا محمَّد- الذي أحلَّ لك ما أحَلَّ، وحَرَّمَ عليكَ ما حَرَّمَ، هو أعلمُ بِمَن تعدَّوْا حُدودَه، فتَجاوَزُوا الحلالَ إلى الحرامِ، وهو لهم بالمِرصادِ، ولن يُفْلِتوا مِن عِقابِه[٢].

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه فصَّلَ المُحَرَّمات؛ أتْبَعَه بما يَجِبُ تَرْكُه بالكلِّيَّة؛ فقال[٣]:

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾.

أي: دَعُوا- أيُّها النَّاسُ- جميعَ المعاصي؛ فلا تَرتَكِبوها في السِّرِّ ولا في العَلانِية، ولا تَقْتَرِفوها بِجَوارِحِكم ولا بِقُلوبِكم[٤].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٥-٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨/ ٣٦-٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٦، ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٤-٢٢٦).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَعملونَ بما نهاهم اللهُ عنه، ظاهرًا كان أو خفِيًّا؛ فإنَّ اللهَ سيُجازِيهم عليه، على قَدْرِ ذُنُوبهم[١].

﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَلْبَها:

لَمَّا أمَرَ بأكْلِ ما سُمِّيَ اللهُ عليه، وكان مفهومُه أنَّه لا يُؤْكَلُ مِمَّا لم يُذْكَرِ اسمُ اللهِ عليه؛ أكَّدَ هذا المفهومَ بالنَّصِّ عليه[٢]، فقال:

﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞ﴾.

أي: ولا تأكُلوا- أيُّها المؤمنونَ- مِمَّا لم يُذبَحْ على اسْمِ الله تعالى؛ فإنَّ أكْلَ ذلك خروجٌ عن الحقِّ وطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٣].

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾.

أي: إنَّ الشَّياطينَ يُوَسْوِسون إلى المشركينَ؛ لِيُجادِلوكم- أيُّها المؤمنونَ- بِشُبَهٍ سَقيمةٍ وآراءٍ عَقيمةٍ؛ يريدونَ بها دَفْعَ الحقِّ، وإقناعَكم بالباطِلِ، ومِنْ ذلك المجادلةُ في تحريمِ أكْلِ المَيْتَة كَقَولهم: أتأكُلونَ ما قَتَلْتم، ولا تأكلونَ ما قَتَلَ اللهُ- يَعْنون: الْمَيْتَةَ- فَيَكُون ما ذَبَحْتموه إذَن حلالًا، وما ذَبَحَه اللهُ حرامًا؟! فأنتم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٢٠، ٥٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).

إذَنْ أحسَنُ مِنَ الله تعالى[١]!

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ قالَ: (كانوا يقولونَ: ما ذُكِرَ عليه اسمُ اللَّهِ، فلا تَأكُلوا، وما لم يُذكَرِ اسمُ اللَّهِ عليه، فَكُلوه، فقالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾)[٢].

﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾.

أي: وإنْ أَطَعْتُموهم في استحلال أكْلِ المَيْتَةِ وما حَرَّمَ عليكم ربُّكم؛ فقد صِرْتُم مِثْلَهم مُشركينَ[٣].

الفَوائِد التربويَّة:

١- في قولِه تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ بيانُ أنَّه مِن علاماتِ المؤمِنِ مخالَفةُ أهلِ الجاهليَّةِ؛ في عادَتِهم الذَّميمَةِ، المتضَمِّنةِ لتَغييرِ شَرْعِ اللهِ، وتحريمِ كثيرٍ مِن الحلالِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ فيه تحذيرُ العبدِ مِن أمثالِ هؤلاءِ؛ وعلامَتُهم- كما وصفهم اللهُ لعباده- أنَّ دَعْوَتَهم غيرُ مَبنِيَّةٍ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٢٧-٥٣١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣١٦-٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨/ ٤١).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨١٨)، وابن ماجه (٣١٧٣) واللفظ له.
صحَّح إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٣/ ٣٢١)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٩/ ٥٣٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).
قال الشنقيطيُّ: (قَسمٌ من الله جلَّ وعلا أقسم به على أنَّ مَن اتَّبع الشيطانَ في تحليلِ الميتةِ أنَّه مشركٌ، وهذا الشركُ مخرجٌ عن الملةِ بإجماعِ المسلمين) ((أضواء البيان)) (٣/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).

بُرهانٍ، ولا لهم حُجَّةٌ شرعيَّةٌ، وإنَّما يُوجَدُ لهم شُبَهٌ بِحَسَب أهوائِهم الفاسدَةِ، وآرائِهم القاصِرَة، فهؤلاءِ مُعْتَدونَ على شَرْعِ اللهِ وعلى عبادِ الله، واللهُ لا يُحِبُّ المُعْتدينَ[١].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ هذه الجملةُ مِنْ جوامِعِ الكَلِم، والأُصولِ الكليَّةِ في تحريمِ الآثامِ؛ حتى قيل: إنَّ المرادَ بهذا التعبيرِ تَرْكُ الإثمِ مِن جميعِ جِهاتِه؛ أي: جميع أنواعِ الظُّهورِ والبُطونِ فيه[٢].

الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ فيه النَّهيُ عن أكْلِ المَيْتة ونحوِها؛ مِمَّا لم تُقصَد ذَكاتُه؛ لأنَّ ذِكْرَ اسْمِ الله أو اسْمِ غيره إنَّما يكونُ عند إرادةِ ذَبْحِ الحيوانِ، كما هو معروفٌ لديهم، فدَلَّ هذا على تعيينِ أكْلِ ما ذُكِّيَ دون المَيْتَةِ[٣].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ يدلُّ على أنَّ الأصلَ في جميعِ الأعيانِ الموجودةِ على اختلافِ أصنافِها، وتبايُنِ أوصافِها، أنْ تكونَ حلالًا مُطلَقًا للآدميِّينَ، وأنْ تكونَ طاهرةً لا يَحْرُم عليهم مُلابَسَتُها ومُباشَرَتُها ومُماسَّتُها، وقد دلَّتْ الآيةُ على ذلك مِن وجهينِ: أحدُهما: أنَّه تعالى وَبَّخَهم وعنَّفَهم على تَرْكِ الأكلِ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ الله عليه قبل أن يُحِلَّه باسْمِه الخاصِّ، فلو لم تَكُنِ الأشياءُ مُطلقةً مُباحةً لم يَلْحَقْهم ذمٌّ ولا توبيخٌ؛ إذ لو كان حُكْمُها مجهولًا أو كانت محظورةً لم يكن ذلك. الوجه الثاني: أنَّه قال: ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ والتَّفصيلُ: التَّبيينُ، فبَيَّنَ أنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٣٢).

بَيَّنَ المُحَرَّماتِ؛ فما لم يُبَيَّنْ تحريمُه فليس بمُحَرَّمٍ، وما ليس بمُحَرَّمٍ فهو حلالٌ؛ إذ ليس إلَّا حلالٌ أو حرامٌ(١).

٣- فرَّقَت الشَّريعةُ بين ما يُذْكَر اسمُ اللهِ عليه، وما لا يُذْكَرُ اسمُ الله عليه، كما في قول اللهِ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ممَّا يدلُّ على أنَّ نَفْسَ أسمائِه تعالى مُباركةٌ، وبَرَكَتُها مِن جِهَةِ دَلالَتِها على المُسَمَّى(٢).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ يُرْشِدُنا إلى يُسْرِ الشَّريعةِ الإسلاميَّة؛ فمتى وَقَعَت الضرورةُ- بأنْ لم يوجَدْ مِنَ الطَّعامِ عند شدَّةِ الجوعِ إلَّا المحرَّمُ- زالَ التحريمُ(٣).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ استنبَطَ بعضُهم منه تحريمَ القولِ في الدِّينِ بمجرَّدِ التَّقليدِ، وعصبيَّة المذاهِبِ؛ لأنَّ القولَ في الدِّينِ بمجَرَّدِ التقليدِ قولٌ بمَحْضِ الهَوى والشَّهوةِ، والآيةُ دلَّتْ على أنَّ ذلك حرامٌ(٤).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ جَعَلَ الأَكْلَ منه نفسَ الفِسْقِ- وهو الخروجُ عمَّا ينبغي إلى ما لا ينبغي-؛ لأنَّه عريقٌ جدًّا في كَوْنِه سَبَبَه؛ لِمَا تأصَّلَ عند المشركينَ مِن أَمْرِه، وانتشَرَ مِن شَرِّه(٥).

٧- دلَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٥٣٥، ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٤٦).

ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ على أنَّ ما يقَعُ في القلوبِ من الإِلْهاماتِ والكُشُوف- التي يكثُرُ ادِّعاؤُها عند المنتسبين إلى التصوُّف ونحوِهم- لا تدلُّ بمُجَرَّدِها على أنَّها حقٌّ، ولا تُصَدَّقُ حتى تُعْرَضَ على كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾، فيه دليلٌ على أنَّ كلَّ مَن أحَلَّ شيئًا ممَّا حرَّمَ اللهُ، أو حَرَّم شيئًا ممَّا أحلَّ اللهُ؛ فهو مُشْرِكٌ[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ حُجَّةٌ على أنَّ الإيمانَ اسمٌ لجميعِ الطَّاعاتِ، مثلما جعل الله تعالى الشِّرْكَ اسمًا لكُلِّ ما كان مُخالِفًا له سبحانه، بدليلِ أنَّه تعالى سَمَّى طاعةَ المؤمنينَ للمُشركينَ في إباحَةِ المَيْتَةِ شِرْكًا[٣].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ التعبيرُ بحرفِ (على) يدلُّ على شدَّةِ اتِّصالِ فِعلِ الذِّكرِ بذاتِ الذَّبيحةِ[٤].

- قوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ تقييدٌ للاقتصارِ المفهومِ مِن فِعْلِ الإباحةِ، وتعليقِ المجرورِ به في قولِه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾، وهو تحريضٌ على التزامِ ذلك، وعدمِ التَّساهُلِ فيه، حتى جُعِلَ من علاماتِ كَوْنِ فاعِلِه مؤمِنًا، وذلك حيث كان شعارُ أهلِ الشِّرْك ذِكْرَ اسْمِ غيرِ اللهِ على مُعْظَمِ الذَّبائحِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٣٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- **قوله:** ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ الاستفهامُ يتضمَّنُ الإنكارَ على من امتَنَعَ من ذلك؛ أي: لا شيءَ يَمْنَعُ من ذلك[١]، وهو مستعملٌ في معنى النَّفْي: أي لا يثبُتُ لكم عدَمُ الأكلِ مِمَّا ذُكِرَ اسمُ الله عليه؛ أي: كُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه[٢].

- وفيه: تعريضٌ؛ حيث أعرَضَ عن محاجَّةِ المُشركينَ؛ لأنَّ الخطابَ مَسوقٌ إلى المسلمينَ لإبطالِ مُحاجَّةِ المُشركينَ؛ فآلَ إلى الرَّدِّ على المشركينَ بطريقِ التَّعريضِ[٣].

٣- **قوله:** ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ مؤكِّدةٌ للإنكارِ[٤].

٤- **قوله:** ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ تذييلٌ؛ فالإخبارُ بعلْمِ اللهِ بهم كنايةٌ عَن أخْذِه إيَّاهم بالعُقوبةِ، وأنَّه لا يُفْلِتُهم، لأنَّ كَونَه عالِمًا بهم لا يُحتَاجُ إلى الإخبارِ به[٥].

٥- **قولُه تعالى:** ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ فيه وعيدٌ وتهديدٌ للعُصاة[٦].

- وفيه أنَّهم كانوا يُبالِغونَ في إفْسادِ فِطْرَتِهم، وتَدْسِيَةِ أنفُسِهم؛ بالإصرارِ عليه، ومُعاوَدَتِه المرَّةَ بعد المرَّةِ، كما يدلُّ عليه فِعْلُ الكَونِ، وصيغةُ المضارعِ الدَّالَّةِ على الاستمرارِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٣٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٣٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٢).
(٧) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٩).

- صيغةُ الافتعالِ في ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾ تدلُّ على أنَّ أفعالَ الشَّرِّ إنَّما تكون بمعالجةٍ من النَّفسِ للفِطرةِ الأُولى السَّليمةِ[(١)].

٦- **قولُه تعالى:** ﴿وَإِنَّ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ هذه الجملةُ إخبارٌ يتضَمَّنُ الوعيدَ لِمَن أطاعَ المُشركينَ من المؤمنينَ[(٢)].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٤).

الآيات (١٢٢-١٢٧)

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿أَكَٰبِرَ﴾: أي: عُظَمَاءَ ورؤساءَ، وأصلُ (كبر): يدلُّ على خِلافِ الصِّغَر[١].

﴿مُجْرِمِيهَا﴾: مُذْنِبيها أو كَافِريها، والجُرم -بِالضَّمِّ-: لَا يُطلَقُ إِلَّا على الذَّنْبِ الغَليظِ، وأَصلُ (جرم): القطْعُ[٢].

﴿لِيَمْكُرُوا۟﴾: أي: ليَصْرِفوا الغيرَ عمَّا يقصِدُه -عن دِين اللَّه وأنبيائِه- بِحِيلةٍ؛ بغرورٍ من القولِ، أو بباطلٍ من الفِعل، وأصل المَكْر: الاحتِيالُ والخِداعُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨، ٢١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢).

﴿صَغَارٌ﴾: ذُلٌّ وحَقارةٌ، والصَّغارُ أشدُّ الذُّلِّ؛ يقال: فلانٌ صغيرٌ باعتبارِ السِّنِّ، وتارةً باعتبارِ الجُثَّة، وتارةً باعتبارِ القَدْرِ والمنزِلَة؛ يقال: صَغُر صِغَرًا: إذا كان ضِدَّ الكِبَر، وصَغِرَ صَغَارًا: إذا هان قدْرُه وذَلَّ، وأَصل (صغر): يدُلُّ على قِلَّةٍ وحَقارَةٍ[١].

﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾: أي: يَفْتَحْه ويُفْسِحْه، أو يُوَسِّعْه بِالبَيانِ، وشَرْحُ الصَّدْرِ: توسِعتُه لقَبولِ الحقِّ، وبسْطُه بنورٍ إلهيٍّ وسكينةٍ من جِهَةِ اللهِ ورُوحٍ منه، وأصل الشَّرْحِ: يدلُّ على بَسْطِ اللَّحْم، وعلى الفَتحِ والبَيانِ[٢].

﴿حَرَجًا﴾: الحَرَج: أشدُّ الضِّيقِ، وأَصْلُ (حرج): تجمُّع الشَّيءِ وضِيقُه، ومنه الحَرَج جمْعُ حَرَجة: وهي الشجرةُ الملتَفُّ بها الأشجارُ، لا يدخلُ بينها وبينها شيءٌ؛ لشِدَّةِ التفافِها بها[٣].

﴿يَصَّعَّدُ﴾: أي: يَتَصَعَّدُ معَ مَشَقَّةٍ، والصُّعُودُ: هو الذَّهابُ إلى الأمكِنَةِ المرتفِعَةِ، وأَصْلُ (صعد) يدُلُّ على ارْتِفاعٍ وَمَشَقَّةٍ[٤].

﴿ٱلرِّجْسَ﴾: أي: العذابَ، ويُطلَق أيضًا على: القَذَر المُنتِن، وأَصْلُ (رجس):

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٠)، ((المفردات- مع الحاشية)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٧،٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧، ٤٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٤، ٥٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٢).

يَدُلُّ على اختِلاطٍ[١].

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾: مبتدأٌ وخبرٌ، و﴿حَيۡثُ﴾ خرجتْ عنِ الظرفيَّة، وصارتْ مفعولًا به على السَّعةِ، وعامِلُها فِعلٌ يدلُّ عليه ﴿أَعۡلَمُ﴾، وليس العامِلُ ﴿أَعۡلَمُ﴾؛ لأنَّ (أفعل) لا ينْصِبُ المفعولَ به، والتقديرُ: يعلمُ الموضعَ الصَّالِحَ لوَضْعِ رِسالتِه، ولا يصحُّ هنا أن تكونَ ﴿حَيۡثُ﴾ ظرفًا؛ لفسادِ المعنى؛ لأنَّه تعالى لا يكونُ في مكانٍ أعلمَ منه في مكانٍ آخَرَ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: هل يستوي مَن كان كافرًا هالكًا حائِرًا في الضَّلالةِ، فهَداه اللهُ للإسلامِ، وأحْيَا قَلْبَه بالإيمانِ، وجعَلَ له نورًا يمشي به في النَّاسِ؛ ومن كان في ظُلماتِ الكُفْرِ ليس بخارجٍ منها؟

وكما حُسِّن لهؤلاءِ الكفَّارِ- الَّذين يجادلونَ المؤمنينَ في أكلِ ما حرَّم الله تعالى عليهم- سوءُ أعمالِهم، كذلك حُسِّن لِمَنْ كان على مِثْلِ ما هم عليه- مِن الكُفر باللهِ وآياتِه- ما كانوا يعتقدونَه ويَعْمَلونَه من الضَّلال.

وكذلك جَعَلَ اللهُ في كلِّ قريةٍ رُؤساءَ مُجرمينَ؛ ليَمْكُروا فيها بدُعاءِ النَّاسِ إلى الكُفرِ والضَّلالةِ، وبِصَدِّهم عن سبيلِ الله، لكنَّهم بِمَكْرِهم ذلك لا يَمكُرونَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥-١٣٧)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (١/ ٢٩٣).

إلَّا بأنفُسِهم، وما يشعرونَ.

وإذا جاءت هؤلاءِ المجرمينَ حُجَّةٌ قاطعةٌ من الله على صحَّةِ ما جاءَهم به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ قالوا: لن نؤمِنَ حتى نُعطَى مِثلَ ما أُعطِيَ رُسُلُ اللهِ؛ من الرِّسالةِ والوَحيِ والمُعجزاتِ، فبيَّنَ اللهُ أنَّه أعلَمُ بمَوْضِعِ رِسالَتِه، ومن يَصْلُحُ أن يتحَمَّلَها ويقومَ بها، وأخبرَ أنَّه سينالُ الَّذين أجرموا ذِلَّةٌ وهوانٌ عند الله، وسيُعَذَّبونَ عذابًا شديدًا؛ جزاءً لِكَيْدِهم للإسلامِ وأهْلِه.

ويُخبِر تعالى أنَّه من أراد أنْ يَهْدِيَه يشْرَحْ صدْرَه للإسلامِ، ومن أراد أنْ يُضِلَّه يجعَلْ صَدْرَه ضيِّقًا لا ينْفُذُ إليه نورُ الإيمانِ؛ مَثَلُه في هذه الحال كمَثَلِ من تكَلَّفَ الصُّعودَ في السَّماءِ، وعَجَزَ عن ذلك؛ لأنَّه ليس في وُسْعِه، ولا حيلةَ له فيه، وكما يجعلُ الله تعالى صَدْرَه ضيِّقًا حَرجًا، كذلك يسلِّط اللهُ عزَّ وجلَّ الشَّيطانَ عليه وعلى أمثاله؛ ممَّن أبى الإيمانَ باللهِ ورسولِه؛ فيُضِلُّه.

ثم خاطَبَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ ما بيَّنَه له في هذه السُّورةِ وغيرِها مِن سُوَرِ القرآنِ هو طريقُه جلَّ وعلا الذي ارتضاه ليكونَ دِينَه، وجَعَلَه مُستقيمًا؛ قد فصَّلَ الآياتِ والحُجَجَ على صحَّةِ ذلك لقومٍ يَذَّكَّرون. ولهؤلاءِ القَومِ دارُ السَّلامِ عند ربِّهم، وهي الجنَّة؛ إذ هي سالِمَةٌ مِن كلِّ عيبٍ وآفةٍ ومُنَغِّصٍ، وهو سبحانه وليُّهم بما كانوا يعملونَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

أنَّه جاء في الآياتِ التي قَبْلها أنَّ أكثَرَ أهلِ الأرضِ ضالُّونَ مُتَّبِعونَ للظَّنِّ،

وأنَّ كثيرًا منهم يُضِلُّون غيرَهم بأهوائِهم بغيرِ عِلمٍ، وأنَّ الشَّياطينَ المتمَرِّدينَ العاتينَ عن أمرِ ربِّهم يُوحونَ إلى أوليائِهم ما يُجادلونَ به المؤمنينَ؛ لِيُضِلُّوهم، ويَحمِلوهم على اقترافِ الآثامِ التي نَهَت تلك الآياتُ عن ظاهِرِها وباطِنِها، بل لِيَحْمِلوهم على الشِّرْكِ أيضًا بالذَّبْحِ لغيرِ الله تعالى، فلَمَّا بيَّنَ الله تعالى ما ذكرَ؛ ضَرَبَ له مثلًا يتبيَّنُ به الفَرْقُ بين المؤمنينَ المهتدينَ؛ للاقتداءِ بهم، والكافرينَ الضَّالينَ؛ للتَّنفيرِ من طاعَتِهم، والحَذَرِ من غَوايَتِهم، وبيَّنَ أنَّ سَبَبَه ما زُيِّنَ للكافرينَ مِن أعمالِهم؛ فلم يُمَيِّزوا بين النُّورِ والظُّلماتِ، فقال[1]:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾.

أي: هل مَن كان كافرًا هالكًا، حائرًا في الضَّلالةِ، فهَدَيناه للإسلامِ، وأحْيَيْنا قَلْبَه بالإيمانِ، واتِّباعِ القرآنِ، فصار يرى الحَقَّ والباطِلَ، والنَّفْعَ والضُّرَّ، وصار يمشي بين النَّاسِ في النُّورِ، متبَصِّرًا في أمورِه، مهتديًا لسَبيلِه[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

أي: أفَيَسْتوي مَن أحْيَيْناه بنورِ الإيمانِ والقرآنِ بمن هو في ظُلُماتِ الكُفرِ؛ مترددًا لا يعرِفُ المَخْرَجَ منها، قد التبَسَتْ عليه الطُّرُق، وأظلَمَت عليه المسالِكُ، فحَضَره الهَمُّ والغمُّ والحَزَن والشَّقاء، فلا يدري كيف يتوجَّه؟ وأيَّ طريقٍ يأخُذُ؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٢-٥٣٣)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٤).

لشدَّةِ ظُلمةِ اللَّيلِ، وإضلالِه الطَّريقَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لمَّا قال اللهُ تعالَى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ كأنَّه قِيل: فكيفَ يُؤثِرُ مَن له أدنَى مُسكةٍ مِن عقلٍ، أن يكونَ بهذه الحالةِ، وأن يبقَى في الظُّلماتِ متحيِّرًا: فأجاب[(٢)] بقولِه:

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: كما حُسِّن لهؤلاءِ الكفَّارِ- الَّذين يجادلونكم أيُّها المؤمنونَ في أكلِ ما حرَّمتُ عليكم- كما حُسِّن لهم سوءُ أعمالِهم، كذلك حُسِّن[(٣)] لِغَيْرهم ممَّن كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

قال السعدي: (فنبَّه تعالى العقولَ بما تُدرِكُه وتعرفه، أنَّه لا يستوي هذا ولا هذا، كما لا يستوي اللَّيل والنَّهار، والضِّياء والظُّلمة، والأحياء والأموات) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).

(٣) قال ابن عاشور: (وحُذِف فاعِلُ التَّزْيينِ فبُنِي الفعلُ للمجهولِ؛ لأنَّ المقصودَ وُقوعُ التَّزيينِ لا معرفةُ مَنْ أوْقعَه، والمزَيِّنُ شياطينُهم وأوْلياؤُهم، كقولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، ولأنَّ الشَّياطينَ مِنَ الإنسِ هم المُباشرونَ للتَّزْيينِ، وشياطينُ الجنِّ هم المسوِّلون المزيِّنون). ((تفسير ابن عاشور)) (٨- أ/ ٤٦).

على مِثْلِ ما هم عليه مِن الكُفر باللهِ وآياتِه، ما كانوا يعتقدونَ، ويَعْمَلون من ضَلالاتٍ، وذلك حكمةٌ من الله بالغةٌ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾.

أي: وكذلك[(٢)] صَيَّرْنا في كلِّ قريةٍ عُظماءَ ورُؤساءَ مِن المجرمينَ فيها؛ ليمْكُروا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٦-٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٦).

(٢) قال ابنُ جريرٍ: (يقولُ جلَّ ثَناؤُه: وكما زَيَّنَّا للكافِرين مَا كانوا يَعْملون، كذلك جَعَلْنا بكلِّ قَرْيَةٍ عُظَماءَها مُجْرِميها). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٧).

وقال ابنُ كثيرٍ: (يقولُ تعالى: وكما جعَلْنا في قَرْيَتِك -يا محمَّدُ- أكابِرَ مِنَ المجرِمين، ورُؤساءَ

فيها، بِدُعائِهم النَّاسَ إلى الكُفْرِ والضَّلالة، وقيامِهم بصَدِّهم عن سبيلِ الله تعالى[(١)].

قال سبحانه: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٢ - ٣٥].

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.

أي: ما يحيقُ وَبالُ مَكْرِهم ذلك ويعود إلَّا على أنفُسِهم، وهم لا يَدْرونَ أنَّهم يَمْكُرون بها، ولا يدرونَ ما أعدَّ الله تعالى لهم من العذابِ؛ جزاءً لذلك[(٢)].

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ

ودُعاةً إلى الكفرِ وَالصَّدِّ عَنْ سبيلِ اللَّه، وإلى مُخالَفَتِك وعداوَتِك، كذلك كانتِ الرُّسلُ مِنْ قبلك يُبْتَلون بذلك، ثُمَّ تكونُ لهم العاقِبَةُ، كما قال تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان:٣١]). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٧-٥٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٩١-٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٧).
وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلف مجاهدٌ وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٧، ٥٣٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥١).

حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

أي: وإذا جاءَتْ هؤلاءِ المجرمينَ حُجَّةٌ قاطعةٌ مِن الله، على صِحَّةِ ما جاءهم به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، قالوا: لن نؤمِنَ بما دعانا إليه محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم من الإيمانِ به، وبما جاء به مِنْ تحريمِ ما ذَكَر أنَّ اللهَ حرَّمَه علينا؛ حتى تأتِيَنا الملائكةُ من الله بالرِّسالة، فيُوحَى إلينا كما يُوحَى إلى الرُّسُلِ، ونُعطَى من المعجزاتِ مِثْلَهم[1].

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

أي: فالله عزَّ وجلَّ أعلَمُ بموضِعِ رسالَتِه، ومن يَصْلُحُ لها، ويقومُ بأعبائِها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢].

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾.

أي: سَيَنالُ الذين اكتَسَبوا الإثمَ- بشِرْكِهم باللهِ، وعبادتِهم غيرَه- ذِلَّةٌ وهوانٌ عند الله، ولهم عذابٌ شديدٌ بسبَبِ كيدِهم للإسلامِ وأهْلِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧٩-٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٣-٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٩-٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٠-٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

قال الزجَّاج: (أي هم وإن كانوا أكابرَ في الدُّنيا سيصيبُهم صَغارٌ عِنْد اللَّه؛ أي مَذَلَّة) ((معاني القرآن)) (٢/ ٢٨٩).

وقال ابن عاشور: (الصَّغَارُ والعذابُ يحصُلانِ لهم في الدُّنيا بالهزيمةِ وزوالِ السِّيادةِ، وعذابِ

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى عاقبةَ المجرمينَ الماكرين الَّذين حُرِمُوا الاستعدادَ للإسلامِ بعد بيانِ حالِهم- قَفَّى عليه بالمُقابلةِ بينهم وبين المُستَعِدِّينَ له، ثم ببيانِ ظُهورِ هِدايَتِه، واستقامةِ مَحَجَّته، وبجزاءِ المُهْتَدينَ به، على حَسَب سُنَّتِه تعالى في كتابِه[1]، فقال:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾.

أي: فمَن يُرِدِ الله تعالى هِدايَتَه وتوفيقَه للتَّوحيدِ، والإيمانِ به وبرسولِه؛ يفسَحْ صَدرَه لذلك، فيتَّسِعُ لِقَبولِه، ويهوِّنه عليه ويسهِّله له، فيستنيرُ قَلْبُه بنورِ الإيمانِ، ويحيا بضَوْءِ اليقينِ، وتطمَئِنُّ نفسُه بذلك[2].

القَتل والأَسْر والخوفِ، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] وقد حصل الأمرانِ يومَ بدْر ويومَ أُحُد، فهلكت سادةُ المشركين، وفي الآخرةِ بإهانتِهم بين أهل المحشَرِ، وعذابِهم في جهنم. ومعنى ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أنَّه صَغارٌ مُقَدَّر عند الله، فهو صَغار ثابتٌ مُحقَّق؛ لأنَّ الشيءَ الذي يجعلُه الله تعالى يحصُلُ أثَرُه عندَ النَّاس كُلِّهم؛ لأنَّه تكوين لا يفارِقُ صاحبَه، كما ورد في الحديثِ: «إنَّ الله إذا أحبَّ عبدًا أمر جبريلَ فأحَبَّه، ثم أمر الملائكةَ فأحَبُّوه، ثم يُوضَع له القَبولُ عند أهلِ الأرضِ»، فلا حاجةَ إلى تقديرِ (مِن) في قولِه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، ولا إلى جَعْلِ العِنْدية بمعنى الحصولِ في الآخرةِ، كما درج عليه كثيرٌ من المفسِّرين) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ * فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧-٨].

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

أي: ومن يُرِدِ اللهُ تعالى إضلالَه عن سبيلِ الهُدى يجعلْ صَدْرَه بخِذْلانِه، وغَلَبَةِ الكُفرِ عليه، وانغماسِ قَلْبِه في الشُّبُهات والشَّهوات؛ في أشَدِّ ما يكون من الضِّيقِ، فلا ينْفُذُ فيه نورُ الإيمانِ مِن شِدَّةِ ضِيقِه، ولا تَصِلُ إليه الموعظَةُ، ولا يدخُلُه اليقينُ والاطمئنانُ(١).

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: هذه حالُه في عَدَمِ تقَبُّلِ الإيمانِ وصُعُوبَتِه وثِقَلِه عليه؛ فهي تُشْبِه صعوبةَ تَكَلُّفِ الصُّعودِ في السَّماءِ، وعَجْزَه عن ذلك؛ لأنَّه ليس في وُسْعِه، ولا حيلةَ له فيه(٢).

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: كما يجعلُ الله تعالى صَدْرَ من أراد إضلالَه ضيِّقًا حَرجًا كأنَّما يصَّعَّد في السَّماءِ، كذلك يسلِّط اللهُ الشَّيطانَ عليه وعلى أمثاله، ممَّن أبى الإيمانَ بالله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

(٢) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٥٤٤)، والواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٧٤)، والقرطبيِّ في ((تفسيره))، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٧٢).
وقال به من السَّلف: ابنُ عبَّاس، وعطاءٌ الخراسانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٣٨٦).

ورسولِه؛ فيُغْوِيه ويَصُدُّه عن سبيلِ الحَقِّ[١].

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لمَّا ذَكَر الله تعالَى طريقَةَ الضَّالِّينَ عن سبيلِه، الصَّادِّين عنها، نَبَّه على أشرفِ ما أرْسل به رَسولَه مِنَ الهُدَى ودينِ الحَقِّ[٢]، فقال:

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ﴾.

أي: وهذا الذي بيَّنَّا لك- يا مُحمَّدُ- في هذه السُّورة وغيرِها من سُوَر القرآنِ، هو طريقُ ربِّك ودِينُه الذي ارتضاه لنَفْسِه دينًا، وجَعَلَه مستقيمًا لا اعوجاجَ فيه؛ معتدلًا مُوصِلًا إليه، وإلى دارِ كرامَتِه؛ فاثْبُتْ أنت عليه[٣].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

أي: قد بَيَّنَّا الآياتِ والحُجَجَ على صحَّةِ ذلك لِمَن لهم فَهْمٌ ووعْيٌ يَعْقِلون به عن اللهِ مُرادَه؛ الَّذين عَلِموا، فانتَفَعوا بعِلْمِهم[٤].

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٤).
والقولُ بأنَّ الرِّجسَ المرادُ به الشَّيطانُ: قال به مِن السَّلف ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى عظيمَ نِعَمِه في الصِّراطِ المستقيمِ، بَيَّنَ الفائدةَ الشَّريفةَ التي تحصُلُ من التمسُّك بذلك الصِّراطِ المستقيمِ؛ فقال[١]:

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: لهؤلاء القومِ الَّذين يذَّكَّرون، دارُ اللهِ تعالى التي أعَدَّها لأوليائِه في الآخِرةِ، وهي جَنَّتُه، السَّالِمة من كلِّ عيبٍ وآفةٍ، وَهَمٍّ وغَمٍّ، وغيرِ ذلك من مُنَغِّصاتٍ[٢].

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ تعالى ناصرٌ هؤلاءِ القومَ الَّذين يذَّكرون، وحافِظُهم ومُؤَيِّدُهم؛ يتولَّى تدبيرَهم وتربيتَهم ورعايَتَهم، وهذا جزاءٌ لهم على أعمالِهم الصَّالِحةِ، واتِّباعِهم رضا مولاهم؛ فلذلك يتولَّاهم، ويُثِيبُهم الجنَّةَ بكَرَمِه[٣].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ العِبرةُ في هذا المَثَل أن يُطالِبَ المسلمُ نفسَه بأن يكونَ حيًّا عالِمًا؛ على بصيرةٍ في دينِه وأعمالِه، وحُسْنِ سِيرَتِه في النَّاس، وقدوةً لهم في الفضائِلِ والخَيْرات، وحُجَّةً على فَضْلِ دِينِه على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٧-٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣).

قال الخازن: (﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني الجنَّة في قولِ جميعِ المفسِّرين) ((تفسير الخازن)) (٢/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣).

جميعِ الأديانِ، وعُلُوِّ آدابِه على جميعِ الآدابِ[١].

٢- شَأْنُ أكثَرِ أكابِرِ الأُمَمِ والشُّعوبِ- ولا سيَّما في الأزمِنَةِ التي تكثُرُ فيها المطامِعُ، ويعظُمُ حُبُّ الرِّياسَةِ والكبرياءِ- أنَّهم يَمْكرونَ بالنَّاسِ مِن أفرادِ أُمَّتِهم وجَماعاتِها؛ ليَحْفَظوا رياسَتَهم ويُعَزِّزوا كبرياءَهم، ويُثَمِّروا مطامِعَهم فيها، ويمكُرُ الرُّؤساءُ والسَّاسةُ منهم بغيرِهم من الأُمَمِ والدُّول؛ لإرضاءِ مَطامِعِ أُمَّتِهم، وتعزيزِ نفوذِ حُكومَتِهم في تلك الأُمَمِ والدُّوَلِ. وقد عَظُمَ هذا المكرُ في هذا العَصرِ، فصار قُطْبَ رَحَى السِّياسَةِ في الدُّول، وعَظُمَ الإفكُ بعِظَمِه؛ لأنَّه أعظَمُ أركانِه؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ فيه مِن السُّلوك والعبادةِ أنَّه يجبُ على الإنسانِ أن يتقبَّلَ الإسلامَ كلَّه؛ أصلَه وفرعَه، وما يتعلَّق بحقِّ الله، وما يتعلَّق بحقِّ العبادِ، وأنَّه يجبُ عليه أن يشرحَ صدرَه لذلك، فإن لم يكنْ كذلك، فإنَّه من القسمِ الثاني الذين أراد الله إضلالَهم[٣].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ جُعِلَ الإيمانُ حياةً؛ لأنَّ الحيَّ صاحِبُ بَصَرٍ يهتدي به إلى رُشْدِه، وكذلك لَمَّا كان الإيمانُ يهدي إلى الفَوْزِ العظيمِ، والحياةِ الأبديَّة؛ شُبِّه بالحياةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) للعثيمين (ص: ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٧).

٢- لمَّا ذَكَر جَعْلَ النُّورِ للمَيِّتِ قال: ﴿يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ أيْ: يَصْحَبُه كيف تَقَلَّب، وقال: ﴿فِي ٱلنَّاسِ﴾ إشارةً إلى تَنْويرِه على نَفْسِه، وعلى غيرِه مِنَ النَّاسِ، فذكَر أَنَّ منفعةَ المؤْمنِ ليست مقتصِرَةً على نَفْسِه[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فيه لطيفةٌ جميلةٌ، وهي أنَّه تعالى لَمَّا ذَكَرَ صِفةَ الإحسانِ إلى العبْدِ المؤمِنِ؛ نَسَبَ ذلك إليه جلَّ وعلا؛ فقال: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ﴾ وفي صِفَةِ الكافِرِ لم ينسُبْها إلى نَفْسِه، بل قال: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[٢].

٤- قوله: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ فيه دقيقةٌ عقليَّةٌ، وهي أنَّ الشَّيْءَ إذا دام حُصولُه مع الشَّيْءِ صار كالأَمْرِ الذاتيِّ والصِّفةِ اللَّازِمَة له؛ فإذا دام كونُ الكافِرِ في ظُلُماتِ الجَهْلِ، والأَخْلاقِ الذَّميمةِ، صارت تلك الظُّلُماتُ كالصِّفةِ الذاتيَّةِ اللَّازِمَةِ له؛ يعسُر إزالتُها عنه، نعوذُ باللهِ من هذه الحالَةِ[٣].

٥- في قَوْلِه تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ جاءت الظُّلماتُ جمعًا؛ لتُناسِبَ تعدُّدَ أنواعِ الكُفرِ المتعدِّدةِ[٤].

٦- قوله: ﴿زُيِّنَ﴾ حُذِفَ فاعل التَّزيينِ؛ فبُنِيَ الفعلُ للمفعولِ: لأنَّ المقصودَ وقوعُ التَّزيينِ لا معرفةُ مَن أَوقَعَه[٥].

٧- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ خَصَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٦).

الأكابرَ؛ لأنَّهم أقدَرُ على الفَسادِ، والتَّحيُّلِ، والمَكرِ؛ لرِئاسَتِهم، وسَعَةِ أرزاقِهم، واستِتْباعِهم الضُّعَفاءَ والمحاويجَ[(١)].

٨- قولُه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ أهْلَ البَداوَةِ أقربُ إلى قَبولِ الخيرِ من أهْلِ القُرى؛ لأنَّهم لبساطَةِ طِباعِهم من الفِطْرةِ السَّليمةِ، فإذا سَمِعوا الخيرَ تَقَبَّلوه، بخلافِ أَهْلِ القرى؛ فإنَّهم لتَشَبُّثِهم بعوائِدِهم وما أَلِفُوه؛ يَنْفِرونَ من كلِّ ما يُغَيِّره عليهم؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾، فجعل النِّفاقَ في الأَعْرابِ نفاقًا مجرَّدًا، والنِّفاقَ في أهْلِ المدينةِ نِفاقًا مارِدًا[(٢)].

٩- قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ في الآيةِ دليلٌ على كمالِ حِكمةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّه وإن كان تعالى رحيمًا واسعَ الجودِ، كثيرَ الإحسانِ، فإنَّه حكيمٌ لا يَضَعُ جُودَه إلَّا عند أهْلِه[(٣)].

١٠- كلُّ مَن لم يُقِرَّ بما جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم إلَّا بعد أن يقومَ على صِحَّتِه عنده دليلٌ مُنْفَصِلٌ مِن عقْلٍ أو كشْفٍ أو منامٍ أو إلهامٍ، لم يكُنْ مؤمنًا به قَطْعًا، وكان من جِنْسِ الَّذينَ قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾[(٤)].

١١- في قوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ إشارةٌ لعَظيمِ مِقدارِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتنبيهٌ لانْحِطاطِ نُفوسِ سادةِ المشركينَ عن نَوالِ مَرْتبةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١١٦٧).

النُّبوةِ، وانعدامِ اسْتِعْدادِهم[١].

١٢- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ فيه تنبيهٌ على دقيقةٍ جليلةٍ، وهي أنَّ أقَلَّ ما لا بدَّ منه في حصولِ النبوَّةِ والرِّسالةِ البراءةُ عن المكْر والغَدْرِ والغِلِّ والحسَد. وقولُهمْ: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ عَيْنُ المكْرِ والغَدْرِ والحَسَد؛ فكيف يُعْقَلُ حُصولُ النبوَّة والرِّسالةِ لهم مع اتِّصافِهم بهذه الصِّفاتِ[٢].

١٣- لَمَّا كان العقابُ إنَّما يتِمُّ بأمرينِ: الإهانةِ والضَّرَرِ؛ توَعَّدَهم اللهُ تعالى بمجموعِ هذينِ الأَمْرينِ في هذه الآيةِ؛ فقال تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ﴾ وإنَّما قَدَّمَ ذِكْرَ الصَّغارِ على ذِكْرِ الضَّرَر؛ لأنَّ القومَ إنَّما تَمَرَّدوا عن طاعةِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلام طلبًا للعِزِّ والكرامةِ؛ فاللهُ تعالى بَيَّنَ أنَّه يُقابِلُهم بضِدِّ مَطْلوبِهم، فأَوَّلُ ما يُوصِلُ إليهم إنَّما يُوصِل الصَّغارَ والذُّلَّ والهوانَ[٣].

١٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ فيه ردٌّ على القدريَّة، وبيانُ أنَّ الهدايةَ والضَّلالَ من الله تعالى[٤].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ فيه إثباتُ إرادةِ الله عزَّ وجلَّ، والإرادةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٣٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار)) للعمراني (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٦٣).

المذكورةُ هنا إرادةٌ كونيةٌ لا غيرُ؛ لأنَّه قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ﴾، ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ﴾، وهذا التقسيمُ لا يكونُ إلَّا في الأمورِ الكونيَّات، أمَّا الشرعيةُ فالله يريدُ مِن كلِّ أحدٍ أن يستسلمَ لشرعِه[١].

١٦- التوفيقُ عنايةٌ خاصَّةٌ من الله تعالى؛ يتفَضَّلُ بها على بعضِ عِباده، فهو سبحانه عليمٌ بمَن يَصْلُح لهذا الفَضْلِ ومَن لا يصْلُحُ له، وحكيمٌ يَضَعُه في مواضِعِه وعند أهْلِه؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[٢].

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾، إضافةُ الدَّارِ إلى (السَّلام) للإيذانِ بسَلامَتِها من العيوبِ، وسلامةِ أَهْلِها مِن جميعِ المنَغِّصاتِ والكُروبِ[٣]، وقيل إنَّما وَصَفَ اللهُ الجنَّة هاهنا بدارِ السَّلامِ؛ لسَلامَتِهم فيما سَلَكوه من الصِّراطِ المستقيمِ، المقتفي أثَرَ الأَنبياءِ وطرائِقَهم، فكما سَلِمُوا من آفاتِ الاعوجاجِ، أَفْضَوْا إلى دارِ السَّلامِ[٤].

١٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فيه نفيُ القوْلِ بالجَبرِ، وإبطالُ القَولِ بإنكارِ القَدَرِ بصراحَةِ نَوْطِ الجزاءِ بالعَمَلِ؛ فإسنادُ العَمَل إليهم ينفي الجبْرَ، ونَوْطُ الجزاءِ به يُثْبِت القَدَر؛ الذي هو جعْلُ شيءٍ مُرَتَّبًا على شيءٍ آخَرَ، مُقَدَّرًا بقَدْرِه، وليس خَلْقًا أُنُفًا، أي مُبتدَأً ومُستأنَفًا[٥].

١٩- قال تعالى: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في هذه الآيَةِ عِدَّةُ تشريفاتٍ لِمَن عَنَاهم الله بالآيةِ:

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص:٩٥-٩٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٧- ٣٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٥٤).

النوع الأول: قولُه: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ وهذا يوجِبُ الحَصْرَ؛ فمعناه: لهم دارُ السَّلامِ لا لغَيْرِهم.

النوع الثاني: قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يدلُّ على قُرْبِهم مِنَ اللهِ تعالى.

النوع الثالث: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ وهذا يدلُّ على قُرْبِ اللهِ منهم[١].

بلاغة الآيات:

١- **قوله تعالى**: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الآيةِ التَّشبيهُ التمثيليُّ، ووجهُ الشَّبَه فيه صورةٌ منتزَعةٌ من متعدِّدٍ، وهذا مَثَلٌ ضَرَبَه اللهُ تعالى لحالِ المؤمِنِ والكافِرِ؛ فبيَّنَ أنَّ المؤمِنَ المهتديَ بمنزلةِ من كان مَيتًا فأحياه، وأعطاه نورًا يهتدي به في مصالحه، وأنَّ الكافِرَ بمنزلَةِ مَن هو في الظُّلماتِ منغمِسٌ فيها، وإنَّما ائتلفَتْ هذه الأجناسُ المختلفةُ، وتصادَفَتْ هذه الأشياءُ المُتباينةُ للتَّمثيلِ على حُكمِ المشبَّه؛ لأنَّه رُوعِي فيها ما يَستحضِرُ العقلُ، وما تتَعلَّقُ به البصيرةُ، والتروِّي في الأمْر، لا ما يَحضُر العينَ، أو يُنال بمُجرَّدِ الرُّؤيةِ[٢].

- ولقد جاء التَّشبيه بديعًا؛ إذ جَعَل حالَ المُسلِم، بعد أن صار إلى الإسلامِ، كحالِ مَن كان عديمَ الخيرِ، عديمَ الإفادَةِ كالميِّت، وهو في ظُلمةٍ لو أفاق لم يَعْرِفْ أين ينصَرِفُ، فإذا هداه اللهُ إلى الإسلامِ تَغَيَّر حالُه، فصار يُمَيِّزُ بين الحقِّ والباطِلِ، ويعلَمُ الصَّالِحَ من الفاسِدِ، فصار كالحيِّ، وصار يسعى إلى ما فيه الصَّلاحُ، ويتنكَّبُ عن سبيلِ الفسادِ، فصار في نورٍ يمشي به في النَّاسِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٤٦، ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٢١٦)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٤).

- والهمزة في قوله: ﴿أَوَمَن﴾ للاستفهامِ المستعمَلِ في إنكارِ تماثُلِ الحالتينِ:

فالحالةُ الأولى: حالةُ الَّذين أَسْلَموا بعد أنْ كانوا مُشركينَ، وهي المشَبَّهة بحالِ من كان مَيْتًا مُودَعًا في ظلماتٍ، فصار حيًّا في نورٍ واضحٍ، وسار في الطَّريقِ الموصِلَة للمَطْلوبِ بين النَّاسِ، والحالة الثانية: حالةُ المُشرِك، وهي المشبَّهة بحالةِ مَن هو في الظُّلماتِ ليس بخارجٍ منها؛ لأنَّه في ظُلُماتٍ[١].

- قوله: ﴿يَمْشِي بِهِۦ﴾ الجملةُ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشَأَ من الكلامِ؛ كأنَّه قيل: فماذا يصنعُ بذلك النُّورِ؟ فقيل: يمشي به[٢].

- قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ التَّمثيلَ المذكورَ قَبْلَها يُثيرُ في نفسِ السَّامِعِ سؤالًا؛ أن يقول: كيف رَضُوا لأنفُسِهم البقاءَ في هذه الضَّلالاتِ، وكيف لم يَشْعُروا بالبَوْن بين حالِهم وحالِ الَّذين أَسْلَموا؟ فكان حقيقًا بأن يُبَيَّنَ له السَّببُ في دوامِهم على الضَّلالِ، وهو أنَّ ما عَمِلوه كان تُزَيِّنُه لهم الشَّياطينُ[٣].

٢- **قوله**: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ فيه تَشبيهٌ؛ حيث شبَّه أكابِرَ المجرمينَ مِن أهْلِ مكَّةَ في الشِّرْك بأكابِرِ المجرمينَ في أهْلِ القُرى في الأُمَم الأخرى[٤].

- وقوله: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ اعتراضٌ على سبيلِ الوَعدِ لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، والوعيدِ للكَفَرة[٥]، وقد جيء

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٠)- يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٦ - ٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٢).

بصيغَةِ القَصْرِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَلْحَقُه أذًى ولا ضُرٌّ مِن صَدِّهم النَّاسَ عن اتِّباعِه، ويلحَقُ الضُّرُّ الماكرينَ؛ في الدُّنيا: بعذابِ القَتْلِ والأَسْرِ، وفي الآخرة: بعذابِ النَّارِ إن لم يؤمِنوا؛ فالضُّرُّ انحصَرَ فيهم على طريقةِ القَصْرِ الإِضافيِّ، وهو قَصْرُ قلبٍ[١].

- وفيه تسليةٌ لرَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، إذ حالُه في أنْ كان رؤساءُ قومِه يُعادونَه كما كان في كلِّ قريةٍ مَن يعانِدُ الأنبياءَ، وفيه تقديمُ مَوعِدٍ بالنُّصْرَةِ عليهم[٢].

٣- **قولُه تعالى:** ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ لَمَّا ذَكَرَ اسمَ الجلالةِ في قوله: ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ إيذانًا بعظيمِ ما اجترَؤوا عليه؛ لِعَماهم عمَّا للرُّسُلِ من الجلالِ الذي يخضَعُ له شوامِخُ الأنوفِ؛ أعادَها أيضًا تهويلًا للأَمْرِ، وتنبيهًا على ما هناك من عظيمِ القَدْرِ، فقال ردًّا عليهم: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ... ﴾ الآية[٣].

- قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ فيه: استئنافٌ للرَّدِّ والإنكارِ عليهم بأنَّ النبوَّةَ ليست بالنَّسَبِ والمالِ، وإنَّما هي اصطِفاءٌ من اللهِ تَعالى؛ يخصُّ الله سبحانه وتعالى بها من يشاءُ مِن عباده، فيَجْتبي لرسالاتِه مَن عَلِمَ أنَّه يَصْلُح لها، وهو أعلَمُ بالمكانِ الذي يَضَعُها فيه منهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣)، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٣).

وفيه: تعريضٌ بأنَّ أمثالَهم ليسوا بأهْلٍ لحملِ الرِّسالة[١].

٤- قوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ﴾ استئنافٌ ناشئٌ عن قولِه: ﴿لِيَمۡكُرُواْ فِيهَا﴾ وهو وعيدٌ لهم على مَكْرِهم[٢].

- وفيه: إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ لأنَّ مُقتَضى الظَّاهِرِ أن يُقالَ: سيُصِيبهم صَغارٌ، وإنَّما خُولِفَ مُقتَضى الظَّاهِر، فأُتِيَ بالموصولِ؛ للإشعارِ بأنَّ إصابةَ ما يُصيبُهم؛ لإجرامِهم المستَتْبِعِ لجميعِ الشُّرورِ والقبائحِ، أي: إنَّما أصابَهم صَغارٌ وعَذابٌ لإجرامِهم[٣].

- والسِّينُ في قوله: ﴿سَيُصِيبُ﴾ للتَّأكيدِ[٤].

- وعَلَّقَ الإصابةَ بِمَن أجرَمَ؛ ليَعُمَّ الأكابِرَ وغَيرَهم[٥].

٥- قوله: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾

فيه إِتْباعُ الضِّيقِ بالحَرَج؛ لتأكيدِ معنى الضِّيقِ؛ لأنَّ في الحَرَجِ من معنى شِدَّةِ الضِّيقِ ما ليس في (ضَيِّقٍ)[٦].

- وفي قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ مُثِّلَ حالُ المُشرِك حين يُدْعَى إلى الإسلامِ، أو حين يخلو بنَفْسِه، فيتأمَّل في دعوةِ الإسلامِ، بحالِ الصَّاعِد؛ فإنَّ الصَّاعِد يَضِيقُ تنفُّسُه في الصُّعودِ، فشَبَّهَه مُبالغةً في ضِيقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٥).
(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٩).

صَدْره بمَن يُزاوِلُ ما لا يَقدِرُ عليه؛ فإنَّ صُعودَ السماءِ مَثَلٌ فيما يَبعُدُ عن الاستطاعةِ، ونبَّه به على أنَّ الإيمان يمتنعُ منه كما يَمتنعُ الصُّعودُ[١].

٦- قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ تذييلٌ لِمَا قَبْلَه؛ فلذلك فُصِلَ[٢]، ووُضِعَ الموصولُ مَوْضِعَ المُضمَر في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ للإشعارِ بأنَّ جَعْلَه تعالى مُعَلَّلٌ بما في حَيِّزِ الصِّلَة من كمالِ نُبُوِّهم عن الإيمانِ، وإصرارِهم على الكُفْرِ[٣].

- وجيء بالمضارعِ في قوله: ﴿يَجۡعَلُ﴾ لإفادَةِ التجدُّدِ في المستقبلِ؛ أي: هذه سُنَّةُ اللهِ في كُلِّ من ينصَرِفُ عن الإيمانِ، ويُعْرِضُ عنه[٤].

٧- قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗا﴾ تمثيلٌ لحالِ هَدْيِ القُرآنِ بالصِّراطِ المستقيمِ، الذي لا يُجْهِدُ مُتَّبِعَه، وتمثيلُ الإسلامِ بالصِّراطِ المستقيمِ يتضَمَّنُ تمثيلَ المسلمِ بالسَّالِك صِراطًا مستقيمًا[٥].

- وإضافَةُ الصِّراطِ إلى الرَّبِّ في قوله: ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ لتَعظيمِ شَأنِ المُضافِ، فيُعْلَم أنَّه خيرُ صراطٍ[٦].

- وإضافةُ الرَّبِّ إلى ضميرِ الرَّسولِ في قولِه: ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ فيه: تشريفٌ للمُضافِ إليه، وترضيةٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بما في هذا السَّنَن مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٢٢٠-٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٦٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بقاءِ بَعضِ النَّاسِ غَيْرَ مُتَّبِعينَ دِينَه[١].

- وقوله: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حالٌ مِنْ ﴿صِرَٰطُ﴾ مؤكِّدةٌ لمعنى إضافَتِه إلى اللهِ[٢].

٨- **قوله:** ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ استئنافٌ، وفذلَكَةٌ لِمَا تَقَدَّم[٣].

٩- **قوله:** ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الجملةُ إمَّا مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الثَّناءَ عليهم بأنَّهم فُصِّلَت لهم الآياتُ، ويتَذَكَّرون بها؛ يثيرُ سؤالَ من يسألُ عن أثَرِ تَبْيينِ الآياتِ لهم، وتذَكُّرِهم بها، فقيل: لهم دارُ السَّلامِ، وإمَّا صِفَةٌ ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[٤].

- والعدولُ عن إضافَةِ قَولِه: ﴿عِندَ﴾ لضَميرِ المتكَلِّم إلى إضافَتِه للاسْمِ الظَّاهِرِ في قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾ لقَصْدِ تشريفِهم بأنَّ هذه عطِيَّةُ مَن هو مولاهُم[٥].

- وقوله: ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: دارُ الله، يعنى الجنَّة؛ أضافَها إلى نَفْسِه تعظيمًا لها، أو دار السَّلامَة من كلِّ آفةٍ وكَدَرٍ[٦].

- وتقديمُ المجرورِ في قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ لإفادَةِ الاختصاصِ للقومِ الَّذين يذَّكَّرون لا لِغَيْرِهم[٧].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٦٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٣).

الآيات (١٢٨-١٢١)

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿يَٰمَعْشَرَ﴾: المعشَرُ: كلُّ جماعةٍ أمرُهم واحدٌ، وأصْلُ (عشر): يدلُّ على مُداخَلَة ومخالَطَةٍ[١].

﴿مَثْوَىٰكُمْ﴾: أي: مَنْزِلُكم، وأصْل الثَّواء: الإقامةُ مع الاستقرارِ، يُقال: ثوَى يثوي ثواءً[٢].

﴿نُوَلِّى﴾: أي: نَجعلُ بعضَهم لبعضٍ وليًّا على الكُفرِ بالله، وأصْل (ولي) يدلُّ على القُرْب، سواءٌ من حيث: المكان، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٤،٣٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٨٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٨، ٥٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

﴿يَقُصُّونَ﴾: يُخبِرونَكم، والقَصَص: الأخبارُ المتتبَّعَةُ، والأثَرُ؛ وأصْلُ القصِّ: تتبُّعُ الأثَرِ أو الشَّيءِ[١].

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: أصابتْ غِرَّتَهم، ونالَتْ منهم ما تريدُه، وخَدَعتْهم عن الأخْذِ بنَصيبِهم من الآخِرَةِ حتى أتتْهم المنيَّةُ، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليَقَظَة، وأصلُ ذلك من الغُرِّ، وهو الأثرُ الظاهر مِن الشَّيْءِ، وأَصْلُ (غرر) يدلُّ أيضًا على النُّقْصانِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

اذكُرْ- يا مُحمَّدُ- يومَ يَحْشُر اللهُ هؤلاء المشركينَ مع أوليائِهم مِن شَياطينِ الجِنِّ؛ فيقولُ اللهُ تعالى للجِنِّ: قد استكثَرْتُم من إضلالِ الإنسِ وإغوائِهم، وقال أولياءُ الجِنِّ مِنَ الإِنْسِ: ربَّنا تمتَّعَ بعضُنا ببعضٍ؛ فالجنيُّ تمتَّعَ بطاعةِ الإنسيِّ له، وعبادَتِه وتعظيمِه، والإنسيُّ تمتَّعَ بخِدمةِ الجنيِّ له، وتلبيةِ بعض أغراضِه وشَهَواتِه، وبَلَغْنا الوقتَ الذي وَقَّتَه لنا يا رَبَّنا. قال اللهُ لهم: إنَّ النَّارَ هي مُستَقَرُّكم، خالدينَ فيها إلَّا ما شاءَ الله؛ إنَّ ربَّك- يا مُحمَّدُ- حكيمٌ عليمٌ، وكذلك يُوَلِّي اللهُ جلَّ وعلا بعضَ الظَّالِمينَ بعضًا بما كانوا يَكْسِبونَ.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّه يقولُ يومئذٍ: يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنسِ، أَلَمْ يَأْتِكم رسُلٌ منكم يتلُونَ عليكم آياتي، ويُنْذِرونكم لقاءَ يومِكم هذا؟ قالوا: أَقْرَرْنا بأنَّها جاءَتنا فكذَّبْناها وجَحَدْناها، وبَيَّنَ تعالى أنَّ الحياةَ الدُّنيا غَرَّتْهم وخَدَعَتْهم، وشَهِدُوا على أنفُسِهم أنَّهم كانوا كافرينَ.

وأخبر أنَّ ذلك الإنذارَ والإعذارَ مِن قِبَل الرُّسُل في الدُّنيا واقِعٌ؛ مِن أجْلِ أنَّ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣- ٦٠٤).

الله تعالى لم يكُنْ لِيُهْلِكَ القرى بسبَبِ كُفْرِها ومعاصِيها، مع كونِهم لم يُنبَّهُوا برسولٍ ولا كتابٍ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

أي: واذكرْ- يا مُحمَّدُ- يومَ يَحْشُرُ الله عزَّ وجلَّ هؤلاءِ المشركينَ مع أوليائِهم من الشَّياطينِ الَّذين كانوا يعبدونَهم في الدُّنيا، ويَعُوذون بهم ويُطيعُونهم، ويُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غرورًا؛ لِيُجادِلوا به المؤمنينَ، فيَجْمَعُهم سبحانه وتعالى جميعًا في موقِفِ القيامةِ(١).

ثم يقولُ الله تعالى مُوَبِّخًا للجِنِّ الَّذين أضَلُّوا الإنسَ، وزَيَّنوا لهم الشَّرَّ، وأزُّوهُم إلى المعاصِي:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾.

أي: قد استكثرتم أيُّها الشَّياطينُ من إضلالِ الإنسِ، وإغوائِهم، وصَدِّهِم عن سبيلِ الله، فأَضْلَلْتُم منهم أعدادًا طائلةً(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٧-٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٩-٢٣١).

قال الشنقيطيُّ: (والتحقيقُ: أنَّ الله يكلِّم الكفَّار كلامَ توبيخٍ وتقريعٍ، الذي هو من جنسِ العذابِ،

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾.

أي: وقال أولياءُ الجِنِّ مِن الإنْسِ، وهم الَّذين كانوا يتَّبِعون تشريعَ الشَّياطينِ لهم في الدُّنيا، أو يطاوِعُونهم فيما زَيَّنوا لهم من الكُفْرِ وأنواعِ المعاصي: يا رَبَّنا، قد تمتَّعَ وانتفَعَ بعضُنا ببعضٍ في الدُّنيا؛ فالجنيُّ يستمتِعُ بطاعةِ الإنسيِّ له وعبادَتِه، وتعظيمِه، واستعاذَتِه واستعانَتِه به، وإعانَةِ الإنسيِّ على إضلالِ النَّاسِ، والإفسادِ في الأرضِ؛ والإنسيُّ يتمتَّعُ بخدمة الجنيِّ له، وتلبيةِ بعض أغراضِه وشهواتِه(١).

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾.

أي: استمتَعَ بعْضُنا ببعضٍ أيَّامَ حياتِنا الدُّنيا إلى أنْ بَلَغْنا الوَقْتَ الذي وُقِّتَ لِمَوتِنا(٢).

كقولِه لَمَّا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ * قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨] لأنَّ هذا التكليمَ لهم ليس تكليمَ تشريفٍ، إنَّما هو تكليمُ توبيخٍ وتقريعٍ، وهو مِن أنواعِ عذابِه لهم، ولا مانعَ منه) ((العذب النمير)) (٢/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٨٠-٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٣-٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٤).

﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾.

أي: قال اللهُ لأولياءِ الجِنِّ مِنَ الإِنْسِ: نارُ جهنَّمَ هي المحلُّ الذي تقيمونَ فيه أبدًا، إلَّا من شاءَ الله عَدَمَ خُلودِه، وهم العصاةُ من المؤمنينَ الموحِّدينَ(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

والقولُ بأنَّ الأجلَ هو الموتُ، هو اختيارُ ابن جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٥٥٦)، والقرطبيِّ في ((تفسيره)) (٧/ ٨٤)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (٢/ ٢٤٤)، وهو قول السدِّيِّ. يُنظر: (تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٦).

والقول بأنَّ الأجل هو البعثُ والقيامة، هو اختيارُ الواحديِّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٢٣)، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٧٣)، وابنِ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٨-أ/ ٧٠).

وذهب ابنُ القيِّم إلى حملِ الآيةِ على كلا القولينِ فقال: (... ﴿وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وهو يتناولُ أجلَ الموتِ، وأجلَ البعثِ. فكلاهما أجلٌ أجلَّه الله تعالى لعبادِه). ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ٢٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٩) (٤/ ٣٥١-٣٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٤).

وقيل في معنى الاستثناءِ هنا أقوالٌ أخرى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٤٥-٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧١).

قال ابنُ عاشورٍ: (ولك أن تجعَلَ (ما) على هذا الوجهِ مَوصولةً، فإنَّها قد تُستعمَلُ للعاقِلِ بكثرةٍ. وإذا جُعِلَ قَولُه: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ مِن جُملةِ المَقولِ في الحَشرِ، كان تأويلُ الآيةِ: أنَّ الاستثناءَ لا يُقصَدُ به إخراجُ أوقاتٍ ولا حالةٍ، وإنما هو كنايةٌ، يُقصَدُ منه أنَّ هذا الخُلودَ قَدَّرَه اللهُ تعالى، مُختارًا لا مُكرِهَ له عليه، إظهارًا لتمامِ القُدرةِ ومَحضِ الإرادةِ، كأنَّه يقولُ: لو شِئتُ لأبطَلْتُ ذلك. وقد يُعَضَّدُ هذا بأنَّ اللهَ ذَكَر نظيرَه في نعيمِ أهلِ الجَنَّةِ، في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ * ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٨] فانظُر كيف عَقَّبَ قَولَه: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ في عِقابِ أهلِ الشَّقاوةِ، بقَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾! وكيف عَقَّبَ قَولَه: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ في نَعيمِ أهلِ السَّعادةِ بقَولِه: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾، فأبطَلَ ظاهِرَ الاستثناءِ بقَولِه: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ فهذا معنى الكنايةِ بالاستثناءِ، ثمَّ المصيرُ بعد ذلك إلى الأدلَّةِ الدَّالةِ على أنَّ خُلودَ المُشركينَ غَيرُ مَخصوصٍ بزَمَنٍ ولا بحالٍ، ويكون هذا الاستثناءُ مِن تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه) ((التحرير والتنوير)) (٨-أ/ ٧٢).

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان هذا الحُكمُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ مِن مُقتَضى حِكْمَته وعِلْمِه- ناسَبَ ذلك خَتْمُ الآيةِ بِقَوْلِه سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فكما أنَّ عِلْمَه وَسِعَ الأشياءَ كُلَّها وعَمَّها، فحِكْمَتُه الغائيَّةُ شَمِلَت الأشياءَ وعَمَّتْها ووَسِعَتْها[١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا محمَّدُ- حكيمٌ، يَضَعُ الأمورَ في مواضِعِها اللَّائقةِ، ويُوقِعُها في مواقِعِها الصَّحيحة، ومن ذلك أنَّه لا يُعَذِّبُ إلَّا مَن يستَحِقُّ، وقد وَسِعَ عِلْمُه وشَمِلَ الأشياءَ كُلَّها؛ ومن ذلك عِلْمُه بالأشخاصِ والأحوالِ المستحِقَّة للعقابِ[٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه وَلَّى الكَفَرةَ من ظالِمي الجنِّ، ظالِمي الإنسِ، وسَلَّطَهم عليهم؛ أخبَرَ تعالى أنَّ هذا عَمَلُه مع كلِّ ظالمٍ مِن أيِّ قبيلٍ كان، سواءٌ كان كافرًا أو لا[٣].

وأيضًا لَمَّا حَكَم تعالى على الجنِّ والإنسِ أنَّ بعضَهم يتولَّى بعضًا؛ في قوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ ...﴾ بَيَّنَ أنَّ ذلك إنَّما يحصُلُ بتقديرِه وقضائِه سبحانه؛ فقال[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٢-٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٢-٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٤٩).

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩﴾.

قيل: المعنى: وكما جعَلْنا بعضَ هؤلاءِ المشركينَ من الجِنِّ والإِنْسِ أولياءَ، كذلك نولِّي كلَّ ظالمٍ ظالِمًا مِثلَه، يَؤُزُّه إلى الشَّرِّ، ويُزَهِّدُه في الخَيْرِ؛ بسببِ ما كانُوا يعملونَه منَ المعاصِي[1].

وقيل: المعنى: وكما وَلَّيْنا هؤلاءِ الخاسرينَ من الإِنْسِ تلك الطَّائفةَ التي أغْوَتْهم من الجِنِّ فاستمتَعَ بعضُهم ببعضٍ، كذلك نفعَلُ بالظَّالمينَ، فنُسَلِّط بعضَهم على بعضٍ، ونُهْلِك بعضَهم ببعضٍ؛ جزاءً على ظُلْمِهم[2].

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا انقضت المحاورةُ السَّابقةُ وما أنتجَتْه من بغيضِ الموالاةِ والمجاورةِ، وكان حاصِلُها أنَّها موالاةُ مَن ضَرَّت مُوالاتُه؛ أتبَعَها سبحانه بمحاورةٍ أخرى حاصِلُها معاداةُ مَن ضَرَّت معاداتُه، فذَكَر كُفْرَهم به تعالى، وشهادَتَهم على أنفُسِهم بذلك[3]، فقال:

---

(١) واختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٥٥٩)، والواحديُّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٧٥)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٧٣-٢٧٤). وهو مرويٌّ عن قتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٨).

(٢) واختار هذا المعنى: ابنُ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٣٤٠). ورُوي نحوه عن ابنِ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٩).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٣-٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٦-٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٧١).

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾.

أي: يقولُ الله تعالى يومئذٍ: ألم يأتِكم أيُّها الإنسُ والجِنُّ رسلٌ منكم[١] يقْرَؤونَ عليكم آياتي التي أُنْزِلَت، ويُبَيِّنون لكم ما فيها من الأدلَّةِ على توحيدِ الله تعالى، وصِدْق رُسُلِه، وصِحَّة ما جاؤُوا به مِن عِنده، ويُبَيِّنون ما فيها من أحكامٍ، ووعدٍ ووعيدٍ[٢].

﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾.

أي: ويحذِّرونكم الأهوالَ والعذابَ الواقِعَ في يومِكم هذا، وعقابي على كُفْرِكم وشِرْكِكم بي، ومعصيتِكم لي؛ كي تنتهوا عن ذلك[٣].

﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۚ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا وبَّخَهم الله هذا التوبيخَ، وقَرَّعَهم هذا التقريعَ، أقرُّوا نادمينَ حيث لا ينفَعُ النَّدَمُ؛ فقال الله تعالى عنهم[٤]:

﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۚ﴾.

أي: قالوا: أقْرَرْنا بأنَّ رُسُلَك قد أَتَتْنا بآياتِك، وحَذَّرَتْنا لقاءَ يومِنا هذا، فكَذَّبْناها،

---

(١) قال الشنقيطي: (الذي عليه جماهيرُ العلماء، خلفًا وسَلَفًا، أنَّ الرُّسُل جميعَهم إنَّما هم مِنَ الإِنْس، وإنَّما قال: ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ لمجموع الإنسِ والجنِّ؛ نظرًا إلى أنَّ العرب تطلِقُ المجموع وتريد بَعْضَه. أي: مِن مجموعِكم الصَّادق بالإنْسِ دون الجنِّ. وهو كثيرٌ في القرآن، وفي كلام العرب) ((العذب النمير)) (٢/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٩-٥٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٦٧-٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٤).

وجَحَدْنا رِسالَتَها، ولم نَتَّبِعْ آياتِك، ولم نؤمِنْ بها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠-١١].

ثم بيَّن اللهُ تعالى السَّبَبَ الذي كذَّبوا به الرُّسُلَ، ولم يَعْتَنوا بالإنذارِ؛ فقال[٢]:

﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: وغَرَّتْ هؤلاءِ المشركينَ وأولياءَهم من الجِنِّ زينةُ الحياةِ الدنيا وزُخْرُفُها وشَهَواتُها، وطَلَبُ الرِّياسةِ فيها، والمنافسةُ عليها، فَرَضُوا واطمَأَنُّوا بها، وألْهَتْهم عن العَمَلِ للدَّارِ الآخِرةِ[٣].

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

أي: وشَهِدَ هؤلاء المشركونَ في يومِ القيامة أنَّهم كانوا في الدُّنيا كافرينَ باللهِ تعالى وبِرُسُلِه؛ لتَتِمَّ حجَّةُ الله عليهم بإقرارِهم على أنفُسِهم بما يُوجِبُ عليهم عُقوبَتَه، ويَعْلَم حينئذ كلُّ أحدٍ، حتى هم أنفسُهم، عَدْلَ اللهِ تعالى فيهم[٤].

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٥).

قال الشنقيطي: (ونصَّ على شهادتهم في دار الدنيا بالكُفْرِ أيضًا؛ حيث قال في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: ١٧] وهذه الشهادةُ؛ قيل: هي شهادةُ لسانِ الحال، وقيل أيضًا: شهادةُ مَقالٍ) ((العذب النمير)) (٢/ ٢٧٥).

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّه ما عَذَّبَ الكفَّارَ إلَّا بعد أن بَعَثَ إليهم الأنبياءَ والرُّسُلَ؛ بَيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّ هذا هو العدْلُ والحقُّ والواجِبُ[١]، فقال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

أي: ذلك الإنذارُ والإعذارُ على ألْسِنَة الرُّسُلِ في دارِ الدُّنيا واقعٌ؛ من أجل أنَّ ربَّك- يا محمَّد- لم يكُنْ لِيُهْلِكَ القرى بكُفْرِها ومعاصِيها، والحالُ أنَّهم غافِلونَ، لم يُنبَّهوا برسولٍ ولا بكتابٍ، بل لابدَّ من إزالةِ الغَفْلَةِ أولًا بإرسالِ الرُّسُلِ، وإنزال الكُتُبِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

الفَوائِد التربويَّة:

١- مِن سنَّة الله تعالى أنَّه يُولِّي كلَّ ظالمٍ ظالِمًا مِثْلَه؛ يَؤُزُّه إلى الشَّرِّ ويَحثُّه عليه، ويُزَهِّده في الخير ويُنَفِّرُه عنه، وذلك من عقوباتِ الله العظيمةِ، الشَّنيعِ أثرُها، البليغِ خَطَرُها، والذَّنبُ ذنبُ الظالمِ؛ فهو الذي أدخَلَ الضَّرَر على نفسِه، وعلى نَفسِه جَنَى؛ قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[٣].

٢- ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ الآيةُ تدلُّ على أنَّ الرَّعِيَّةَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٣-٥٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٧٣).

متى كانوا ظالمينَ؛ فالله تعالى يُسَلِّطُ عليهم ظالِمًا مِثْلَهم؛ فإنْ أرادوا أن يتخَلَّصوا من ذلك الأميرِ الظَّالم، فلْيَتْركوا الظُّلْمَ(١).

٣- قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ المقصودُ من الآيَةِ الاعتبارُ والموعظةُ، والتَّحذيرُ من الاغترارِ بولايةِ الظَّالمينَ، وتوَخِّي الأَتْباعِ صلاحَ المتبوعينَ، وبيانُ سنَّةٍ مِن سُنَن اللهِ في العالَمينَ(٢).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيه الحَذَرُ من الاغترارِ بالحياةِ الدُّنيا واللَّذات الحاضرةِ؛ فإنَّما قال ذلك تحذيرًا للسَّامعينَ مثلَ حالِهم(٣).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ اقتصَرَ على حكايةِ جوابِ الإنسِ؛ لأنَّ النَّاسَ المشركينَ هم المقصودُ مِنَ الموعِظَةِ بهذه الآيَةِ(٤).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ لَمَّا كان من المقرَّر أنَّه لا تمامَ لِمُلك من يجِبُ عليه شيءٌ، ويَلْزَمُه بإيجابٍ أو إلزامِ غَيرِه، بحيث لا يَقْدِرُ على الانفكاكِ عنه؛ بَيَّنَ سبحانه أنَّ مُلْكَه ليس كذلك، بل هو على غايةِ الكَمالِ، لا يجِبُ عليه شيءٌ إلا ما أوجَبَه على نَفْسِه، بل كلُّ فِعْلِه جميلٌ، وجميعُ ما يبدو منه حَسَنٌ، فعَلَّقَ دوامَ عذابِهم على المشيئةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٦٩)، وهذا على أحدِ الأوجهِ في الاستثناءِ.

٣- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾، هذه الآيةُ الكريمةُ يُفهَمُ منها كَونُ عَذابِ أهلِ النَّارِ غَيرَ باقٍ بقاءً لا انقطاعَ له أبدًا، ونظيرُها قَولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٧]، وقولُه تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾[النبأ: ٢٣]، وقد جاءت آياتٌ تدُلُّ على أنَّ عذابَهم لا انقطاعَ له، كَقولِه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾.

والجوابُ عن هذا مِن أوجُهٍ:

أحدُها: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ معناه: إلَّا مَن شاءَ اللهُ عَدَمَ خلودِه فيها مِن أهلِ الكبائِرِ مِنَ المُوحِّدينَ، وقد ثبت في الأحاديثِ الصَّحيحةِ أنَّ بَعضَ أهلِ النَّارِ يَخرُجونَ منها، وهم أهلُ الكبائِرِ مِنَ المُوحِّدينَ، ونظيرُه في القُرآنِ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣].

الثاني: أنَّ المُدَّةَ التي استثناها اللهُ هي المُدَّةُ التي بين بَعثِهم مِن قُبورِهم واستقرارِهم في مَصيرِهم.

الثالث: أنَّ قَولَه: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ فيه إجمالٌ، وقد جاءت الآياتُ والأحاديثُ الصَّحيحةُ مُصَرِّحةً بأنَّهم خالدونَ فيها أبدًا، وظاهِرُها أنَّه خُلودٌ لا انقطاعَ له، والظُّهورُ مِن المُرَجِّحاتِ، فالظَّاهِرُ مُقَدَّمٌ على المُجمَلِ كما تقَرَّرَ في الأصولِ[(١)].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ يدلُّ على تكليفِ الجِنِّ، وتعلُّقِ الأَمْرِ والنَّهي بهم، وكذلك تعلُّق الثَّوابِ والعقابِ بهم، كالإِنْسِ[(٢)].

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (١ / ٣٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٧٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٠).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ يدلُّ أنَّه لا يُعَذَّبُ أحدٌ حتى يُبعَثَ إليه رسولٌ، فتَبْلُغه الرِّسالةُ، وتقوم الحُجَّة عليه، فمن لم تَبْلُغْه الرسالةُ جملةً لم يُعَذِّبْه رأسًا، ومن بلَغَتْه جملةً دون بعضِ التَّفصيلِ لم يُعَذِّبْه إلا على إنكارِ ما قامت عليه الحُجَّة الرِّساليَّةِ[١].

٦- قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ... وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ لَمَّا كان حالُ هؤلاء الجنِّ والإِنْسِ في التمرُّد على الله، ونَبْذ العَمَل الصَّالح ظِهْريًّا، والإعراضِ عن الإيمانِ؛ حالَ مَن لم يَطْرُقْ سَمْعَه أمرٌ بمعروفٍ ولا نهيٌ عن منكرٍ- جيءَ في تقريرِهم على بَعثةِ الرُّسُلِ إليهم بصيغَةِ الاستفهامِ عن نفيِ مجيءِ الرُّسُل إليهم، حتى إذا لم يَجِدوا لإنكارِ مجيءِ الرُّسُل مَساغًا، واعترفوا بمجيئهم؛ كان ذلك أحرى لأخْذِهم بالعقابِ[٢].

٧- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ لَمَّا كان اللقاءُ يومَ الحَشْرِ يتضمَّنُ خيرًا لأهلِ الخيرِ، وشَرًّا لأهلِ الشَّرِّ، وكان هؤلاء المخاطَبون قد تمحَّضوا للشرِّ- جَعَلَ إخبارَ الرُّسُل إيَّاهم بلقاءِ ذلك اليومِ إنذارًا؛ لأنَّه الطَّرَفُ الذي تحقَّقَ فيهم مِن جملةِ إخبارِ الرُّسُل إيَّاهم ما في ذلك اليومِ وشَرِّه[٣].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ كَرَّرَ ذِكْرَ شَهادَتِهم على أنفُسِهم؛ لاختلافِها باختلافِ المَشْهودِ به: فالأُولى: شهادَتُهم بتبليغِ الرُّسُل إليهم، والثَّانية: شهادَتُهم بكُفْرِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٤٩٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص:٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٥، ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٦).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ لا تَنافيَ بينه وبين الآياتِ التي تدلُّ على إنكارِهم؛ كقولِه تعالى حكايةً عن قولِهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ لاحتمالِ أن يكونَ ذلك من طوائِفَ: طائفةٌ تَشهَدُ، وطائفة تُنكِرُ، أو من طائفةٍ واحدةٍ؛ لاختلافِ الأحوالِ ومواطِنِ القيامةِ في ذلك اليومِ المتطاوِلِ: فيُقِرُّون في بعضٍ، ويجحدونَ في بعضٍ، وذلكَ يدلُّ على شدَّةِ خَوفِهم، واضطرابِ أحوالِهم؛ فإنَّ مَنْ عَظُمَ خَوفُه كَثُرَ الاضطرابُ في كَلامِه[١].

١٠- قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّه لا وجوبَ ولا تكليفَ قبل وُرودِ الشَّرْعِ[٢].

١١- قوله: ﴿لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ فيه شأنٌ عظيمٌ مِن شُؤونِ الله تعالى، وهو شَأْنُ عَدْلِه ورَحْمَتِه، ورضاه لعبادِه الخيرَ والصَّلاحَ، وكراهِيَتِه سوءَ أعمالِهم، وإظهارِه أثَرَ ربوبِيَّتِه إيَّاهم؛ بهدايَتِهم إلى سُبُلِ الخيرِ، وعَدَمِ مُباغَتَتِهم بالهلاكِ قبل التقَدُّمِ إليهم بالإِنْذارِ والتَّنبيهِ[٣].

بلاغة الآيات:

١- **قوله**: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ قرئُ بنونِ العَظَمةِ على الالتفاتِ؛ لتهويلِ الأمرِ[٤]، وفيه: تأكيدٌ عامٌّ[٥].

٢- **قوله**: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ فيه: إيجازٌ بالحذف؛ إذ إنَّ الجملة مقولٌ لقولٍ محذوفٍ يدلُّ عليه أسلوبُ الكلامِ، والتقديرُ: نقولُ أو

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٣).

قائلينَ[١]، ونداؤهم نداءُ شهرةٍ وتوبيخٍ على رؤوسِ الأشهادِ[٢].

وفيه: تعريضٌ بتوبيخِ الإنسِ الَّذين اتَّبَعوهم وأَطاعُوهم، وأَفْرَطوا في مَرْضاتهم، ولم يسمَعوا مَن يدعوهم إلى نَبْذِ مُتابَعَتِهم[٣].

- وقوله: ﴿قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ فيه إيجازٌ بحذفِ مضافٍ، تقديرُه: منْ إضلالِ الإنس[٤]، وفيه: التوبيخُ والتقريعُ للجِنِّ والإنكارُ عليهم، أي: كان أكثرُ الإنسِ طَوْعًا لكم[٥].

٣- **قوله:** ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ فيه: استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نَشَأَ من حكايةِ كَلامِهم؛ كأنَّه قيل: فماذا قالَ الله تعالى حينئذٍ؟ فقيل: قال: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾[٦].

- وقوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ فيه: مجيءُ القولِ بصيغةِ الماضي؛ للتَّنبيهِ على تحقيقِ وُقوعِه، وهو مُستقبَلٌ؛ بقرينَةِ قولِه: ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾[٧].

٤- **قوله:** ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مِن أشَدِّ الوعيدِ، مع تهكُّمٍ بالموعدِ؛ لخروجِه في صورةِ الاستثناءِ الذي فيه إطماعٌ[٨].

٥- **قوله:** ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فيه: تذييلٌ للاعتراضِ، وتأكيدٌ للمقصودِ من المشيئَةِ مِن جَعْلِ استحقاقِ الخلودِ في العذابِ مَنُوطًا بالمُوافاةِ على الشِّرْكِ[٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٦٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٥).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٠).
(٨) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦).
(٩) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٢-٧٣).

٦- **قوله:** ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ هذا النِّداءُ أيضًا يومَ القيامَةِ، والهمزةُ الداخِلَةُ على نَفْي إتيانِ الرُّسُلِ في قوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ للإنكارِ التَّقريريِّ، وللتَّوبيخِ والتقريعِ[١]، حيث أعذَرَ اللهُ إليهم بإرسالِ الرُّسُلِ، فلم يَقْبَلوا منهم[٢].

- وقوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ فيه تبكيتُ المشركينَ، وتحسيرُهم على ما فَرَطَ منهم في الدُّنيا من عبادَةِ الجِنِّ، أو الالتجاءِ إليهم[٣].

٧- **قوله:** ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نَشَأَ من الكلامِ السَّابقِ؛ كأنَّه قيل: فماذا قالوا عند ذلك التَّوبيخِ الشَّديدِ؟ فقيل: ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾[٤].

٨- قوله: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ اعتراضٌ لبيانِ ما أدَّاهم في الدُّنيا إلى ارتكابِهم للقَبائِحِ التي ارتَكَبوها، وألجَأَهم بعد ذلك في الآخِرَةِ إلى الاعترافِ بالكُفْرِ، واستيجابِ العذابِ[٥].

٩- قوله: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ يحتملُ أن يكون استئنافَ إخبارٍ من الله تعالى بإقرارِهم على أنفُسِهم بالكُفْرِ[٦].

- قوله: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ خبرٌ مستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن حالِهم[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٧-٦٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٩).

١٠- قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، تهديدٌ وموعظةٌ، وعِبرةٌ بتفريطِ أهْلِ الضَّلالةِ في فائدةِ دعوةِ الرُّسُلِ، وتنبيهٌ لجدوى إرسالِ الرُّسُل إلى الأُمَم؛ ليُعِيدَ المشركونَ نظرًا في أَمْرِهم، وإنذارٌ باقترابِ نُزُولِ العذابِ بهم[1].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٨٠).

الآيات (١٣٢-١٣٥)

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٣٢ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ١٣٤ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾.

غريب الكلمات:

﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ﴾: أي: يأتِ بِخَلْقٍ وأُمَمٍ يَخْلُفونَ غيرَهم في الأرضِ، والخِلافةُ النِّيابةُ عن الغَير؛ يقال: خَلَفَ فلانٌ فلانًا: قام بالأمْرِ عنه، إمَّا معه وإمَّا بَعدَه، وأَصْلُ (خلف): مجيءُ شيءٍ بعدَ شيء يقومُ مقامَه[(١)].

﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾: أي: مكانِكم، أو مواضِعكم، أو ناحِيَتِكم، أو ما أنتم عليه[(٢)].

﴿يُفۡلِحُ﴾: أي: يظْفَرُ ويُدرِكُ بُغْيتَه؛ فأصل الفَلَاح: الظَّفَرُ، وإدراكُ البُغية، والبقاءُ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّ لكُلِّ النَّاسِ منازِلَ ومراتِبَ في الآخِرَةِ، يستحقُّونها بحَسَبِ أعمالِهم؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، ولا يخفى على اللهِ من أعمالِ البَشَرِ شيءٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٥)، ((مقاييس اللغة)) (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

ثم خاطب اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم؛ قائلًا له: وربُّك- يا مُحمَّدُ- هو الغنيُّ ذو الرَّحمةِ؛ إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكم -أيُّها النَّاسُ- ويستخلِفْ مِن بَعْدِكم قومًا آخرينَ، يعملونَ بطاعَتِه؛ كما أوجَدَكم مِن نَسْلِ قومٍ آخرينَ كانوا قَبلَكم.

ثم بَيَّنَ تعالى أنَّ ما يتوعَّدُ به عزَّ وجلَّ المشركينَ مِن العذابِ؛ فإنَّه آتٍ لا محالةَ، وما هم بمُعجزينَ.

ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُخبِرَ قَومَه مِن مُشْركي قريشٍ إذا دعاهم إلى اللهِ فلم يَنْقادُوا لدَعْوَتِه: أنْ يَعْمَلوا ما هم عامِلونَ على حالَتِهم التي هُم عليها، وارتَضَوْها لأنفُسِهم، وأنَّه عامِلٌ بما أمَرَه ربُّه، وأنَّهم سَوْفَ يعلمونَ عند نزولِ نِقْمةِ اللهِ بهم، أيُّهم أصابَ طريقَ الهُدى، فتكون له العاقبةُ الحسَنَةُ في الدُّنيا والآخرة؛ أهمُ المؤمنونَ، أم المشركونَ، فإنَّه لا يُفلِحُ الظَّالمونَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٣٢﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا شَرَحَ تعالى أحوالَ أهلِ الثَّوابِ والدَّرَجاتِ، وأحوالَ أهلِ العقابِ والدَّرَكات، في الآياتِ السَّابقة؛ ذكر كلامًا كليًّا، فقال[1]:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾.

أي: ولكُلِّ النَّاسِ: كافرينَ ومُؤمنينَ، طائعينَ وعاصينَ؛ منازِلُ ومراتِبُ في الآخرةِ، يستحِقُّونها بحسَبِ أعمالِهم؛ يُبَلِّغُهم اللهُ تعالى إيَّاها، ويُثِيبُهم بها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شَرًّا فشَرٌّ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٤)، ((جامع رسائل)) لابن تيمية (١/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص:٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٩٨).

قال تعالى: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٢١].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾.

أي: وكلُّ ما يعمَلُه النَّاسُ- يا مُحمَّدُ- لا يخفى على ربِّك؛ فهو يعلَمُ أعمالَهم، ويُحْصِيها عليهم، ويُثْبِتُها لهم عِنْدَه؛ ليُجازِيَهم بها يومَ القيامةِ، وذلك بحَسَب أعمالِهم ومقاصِدِهم من خيرٍ أو شرٍّ[١].

﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى ثَوابَ أصحابِ الطَّاعاتِ، وعقابَ أصحابِ المعاصي والمحرَّمات، وذَكَرَ أنَّ لكلِّ قومٍ درجةً مخصوصةً، ومرتبةً مُعَيَّنَةً- بَيَّنَ أنَّ تخصيصَ المُطيعينَ بالثَّوابِ، والمُذنبينَ بالعذابِ؛ ليس لأجْلِ أنَّه مُحتاجٌ إلى طاعةِ المُطيعينَ، أو ينتقِصُ بمعصيةِ المُذنبينَ، فطَلَبُ العبادةِ للائتمارِ والانتهاءِ ربَّما أوهَمَ الحاجَةَ إليها؛ لنَفْعٍ في الطَّاعَةِ، أو ضَرَرٍ يلحَقُه سبحانه من المعْصِيَةِ، وكان الإمهالُ مع المبارَزَة ربَّما ظُنَّ أنَّه عن عجزٍ، فقال تعالى مُرَغِّبًا مُرَهِّبًا[٢]:

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ ﴾.

أي: وربُّك- يا مُحمَّد- غنيٌّ عن عبادِه، وعن أعمالِهم وعبادَتِهم إيَّاه؛ فلا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٩٩-٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٣، ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٧٥).

تنفَعُه طاعةُ الطَّائعينَ، كما لا تَضُرُّه معصيةُ العاصينَ، وهم الفقراءُ المحتاجونَ إليه؛ فلم يخْلُقْهم، ولم يأمُرْهم بما أمَرَهم به، ويَنْهَهم عمَّا نهاهم عنه؛ لحاجةٍ إليهم وإلى أعمالِهم، ولكنْ ليتفضَّلَ عليهم برَحْمَتِه، ويُثيبَهم على إحسانِهم إنْ أَحْسَنوا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّهُ قال: ((... يا عبادِي، إنَّكم لن تبلُغُوا ضُرِّي فتَضُرُّوني، ولن تبْلُغوا نَفْعِي فتنفَعوني. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإِنْسَكم وجِنَّكم؛ كانوا على أتقى قَلْبِ رجلٍ واحدٍ منكم؛ ما زاد ذلك في مُلْكي شيئًا. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإنْسَكم وجِنَّكم؛ كانوا على أفجَرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ؛ ما نقص ذلك مِن مُلْكِي شيئًا...))[2].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾.

أي: إنْ يشَأْ يُذْهِبْكم- أيُّها النَّاسُ- بإهلاكِكم وإفنائِكم إذا خالَفْتُم أمْرَه، ويستخْلِفْ مِن بَعْدِكم قومًا آخرينَ؛ يعملونَ بطاعَتِه، فهو قادِرٌ على ذلك سبحانه[3].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ *

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٤-٥٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٠٠-٣٠٥).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٨٨).

إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

﴿ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴾.

أي: كما أوجَدَكم مِن نَسْلِ خَلْقٍ آخرينَ كانوا قبْلَكم؛ فكما أذْهَبَ القرونَ الأُولَى، وأتى بالتي بَعْدَها؛ كذلك هو قادرٌ على إذهابِكم، والإتيانِ بآخَرينَ[١].

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ١٣٤ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

أنَّ الله تعالى بعدَ أنْ أنذَرَهم عذابَ الدُّنيا وهلاكَهم فيها؛ أنذَرَهم عذابَ الآخرةِ، على سُنَّةِ القرآنِ في الجمْعِ بينهما[٢]، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖ ﴾.

أي: إنَّ الذي يُوعِدُكم به ربُّكم- أيُّها المشركون- من العذابِ والتَّنكيلِ على كُفْرِكم؛ واقعٌ بكم لا مَحالةَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٠٨).

قال القرطبيُّ: (قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖ ﴾ يَحتمِل أن يكون مِن «أَوْعَدْت» في الشَّرِّ، والمصدر الإيعادِ. والمراد عذابُ الآخرة. ويحتَمِل أن يكون مِن «وَعَدْت» على أن يكون المرادُ السَّاعة التي في مجيئِها الخيرُ والشَّرُّ، فغُلِّبَ الخيرُ) ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٨٨).

وقال ابن عاشور: (ومِن بديعِ الفصاحةِ اختيارُ بنائِه للمجهول؛ ليصْلُحَ لفظُه لحال المؤمنين والمشركين، ولو بُنِيَ للمعلومِ لتَعَيَّن فيه أحدُ الأمرين: بأن يقال: إنَّ ما نَعِدُكم، أو إنَّ ما نُوعِدُكم، وهذا من بديع التوجيهِ المقصودِ منه أن يأخُذَ منه كلُّ فريقٍ من السَّامعينَ ما يليقُ بحالِه، ومعلومٌ أنَّ وعيدَ المشركينَ يَستلزِمُ وعدًا للمؤمنين، والمقصودُ الأهَمُّ هو وعيدُ المشركين؛ فلذلك عُقِّبَ الكلامُ بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾، فذلك كالتَّرشيحِ لأحد المحتَمَلينِ من الكلامِ الموجَّه) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٨).

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾.

أي: ولن تُعجِزوا اللهَ تعالى هربًا منه في الأرضِ؛ فتَفُوتُوه، بل أنتم في قَبْضَتِه، وتحت قَهْرِه وسُلطانِه، وهو قادرٌ على أن يُنْفِذَ فيكم ما يشاءُ مِن وَعيدِه[1].

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾.

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞ﴾.

أي: قل- يا مُحمَّدُ- لقومِك مِن مُشرِكي قريشٍ إذا دعَوْتَهم إلى اللهِ، وبَيَّنْتَ ما لهم وما عليهم من حُقوقِه، فامتَنَعُوا من الانقيادِ لأمْرِه، واتَّبَعوا أهواءَهم، واستَمَرُّوا على شِرْكِهم: اعملوا- يا قومي- ما أنتم عامِلونَ، على حالَتِكم التي أنتم عليها، ورَضِيتُموها لأنفُسِكم؛ فإنِّي عامِلٌ ما أنا عامِلُه مِمَّا أَمَرَني به ربِّي، ومُتَّبِعٌ لمراضِيه؛ فاستَمِرُّوا على طريقِكم وناحِيَتِكم، إن كُنْتم تظنُّونَ أنَّكم على هُدًى، وأنا مستمِرٌّ على طريقَتي ومنهَجي، ولا يَضُرُّني تصميمُكم على ما أنتم عليه[2].

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾.

أي: فسوف تَعْلَمونَ- أيُّها الكُفَّارُ- عند نزولِ نِقْمةِ الله بكم: أيُّنا كان المحِقَّ في عَمَلِه، والمصيبَ طريقَ الهدى، فتكون له العاقبةُ الحَسَنَة في الدُّنيا والآخرةِ، أتكونُ لنا نحن المؤمنينَ، أو لكم أيُّها المشركونَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩١-٩٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ * يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١-٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: إنَّه لا ينجَحُ ولا يفوزُ بحاجَتِه عند الله، مَن عَمِلَ بخلافِ ما أمَرَه به في الدُّنيا؛ فكُلُّ ظالمٍ وإن تَمَتَّع في الدُّنيا بما تمتَّعَ به، فنهايَتُه إلى زوالٍ واضمحلالٍ[(١)].

والمراد: ستكونُ عُقبى الدَّارِ للمُسلمينَ، لا لكم؛ لأنَّكم ظالِمونَ[(٢)].

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ لَيُمْلِي للظَّالِمِ[(٣)]، حتى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْهُ. قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩٣).
(٣) أي: يُمهِلُه ويؤخِّرُه حتى يكْثُرَ منه الظُّلْمُ. والإملاءُ: الإمهالُ والتَّأخيرُ، وإطالةُ العُمُرِ؛ مأخوذٌ

رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾))[١].

الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ استدَلَّ به من قال: إنَّ الجِنَّ يدخُلونَ الجنَّةَ ويُثابونَ[٢].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ فيه أنَّ الخيرَ والشَّرَّ درجاتٌ؛ فالكُفْرُ والفُسوقُ والمعاصي درجاتٌ، كما أنَّ الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالِحَ درجاتٌ[٣].

٣- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ غلَّب لفظَ ﴿دَرَجَٰتٌ ﴾ بدلًا عن دَرَكاتٍ؛ لِنُكتةِ الإشعارِ ببِشارَةِ المؤمنينَ بعد نِذارَةِ المُشركينَ[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾ ناسَبَ قولَه ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾؛ فقد كان يجوزُ أنْ يَظُنَّ ظانٌّ أنَّه وإن كان ذا الرَّحمةِ إلَّا أنَّ لرَحْمَتِه مَعْدِنًا مخصوصًا، وموضعًا مُعَيَّنًا؛ فبَيَّنَ تعالى أنَّه قادِرٌ على وضْعِ الرَّحمةِ في هذا الخَلْقِ، وقادِرٌ على أن يخلُقَ قومًا آخرينَ، ويضَعَ رَحْمَته فيهم، وعلى هذا الوجهِ يكون الاستغناءُ عن العالَمينَ أكملَ وأتمَّ[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾

مِنَ المُلاوَةِ، وهي الحِينُ من الدَّهْرِ. ومنه (المَلِيُّ) الزَّمانُ الطَّويلُ، و (المَلَوانِ) اللَّيل والنَّهارُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٦٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٢٠٠).

(١) رواه البخاري (٤٦٨٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٨٦)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢١).

(٣) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٣٣)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٦).

فيه التَّحذيرُ مِن بَطْشِ اللهِ في التَّعجيلِ بذلك[١].

٦- وصْفُ قومٍ بـ ﴿ءَاخَرِينَ﴾ للدَّلالةِ على المغايرةِ؛ أي: قَوم لَيْسُوا من قبائِلِ العَربِ، وذلك تنبيهٌ على عظيمِ قُدرةِ الله تعالى؛ أن يُنْشِئ أقوامًا من أقوامٍ يخالفُونَهم في اللُّغَة والعوائِدِ والمواطِنِ، وهذا كنايةٌ عن تباعُدِ العُصورِ، وتسلسُلِ الْمُنْشَآت؛ لأنَّ الاختلافَ بينَ الأُصولِ والفُروعِ لا يحدُثُ إلَّا في أزمنةٍ بعيدةٍ، فشتَّانَ بين أحوالِ قَومِ نوحٍ، وبين أحوالِ العَرَبِ المخاطَبينَ، وبين ذلك قرونٌ مختلفةٌ متباعِدَةٌ[٢].

٧- قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ في هذا النِّداءِ ضَرْبٌ من الاستمالةِ للكفَّار الَّذين خُوطِبوا بالدَّعوة أوَّلًا، بما يُذَكِّرُهم بأنَّهم قومُ الرَّسولِ الَّذين يحبُّهم، ويحرِصُ على خَيرِهم ومنفَعَتِهم، بباعِثِ الفِطرةِ والتَّربيةِ والمنافِعِ المشترَكَة، وقد كانتِ النَّعْرَةُ القوميَّةُ عند العَرَبِ أَقْوَى منها عند المَعروفِ حالُهم اليومَ مِن سائِرِ الأُممِ، فكان نداؤُهم بِقَوْلِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ جديرًا بأنْ يحرِّكَ هذه العاطِفَةَ في قُلوبِهم، فتَحْمِلَ المستعِدَّ على الإصغاءِ لِمَا يقولُ، والتأمُّلِ فيه[٣].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: فسوف تعرفونَ الفريقَ الذي تكونُ له العاقبةُ الحُسنى التي خَلَقَ اللهُ هذه الدارَ الدُّنيا لها، وهذا طريقٌ من الإنذارِ لطيفُ المسلكِ: فيه إنصافٌ في المقالِ، وأدبٌ حَسَنٌ مع تضمُّنِ شِدَّةِ الوعيدِ والوثوقِ بأنَّ المنذِرَ مُحِقٌّ، وأن المُنذَرَ مُبطِلٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٠٤).

٩- قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ يُوهِمُ أنَّ الكافِرَ ليست له عاقبةُ الدارِ، وذلك مُشكِلٌ، فكيف الجوابُ عنه؟ الجواب: العاقِبَةُ تكونُ على الكافِرِ، ولا تكون له كما يقال: له الكثرةُ ولهم الظَّفَرُ، وفي ضِدِّه يقال: عليكُمُ الكَثْرَةُ والظَّفَرُ[١].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ احتراسٌ على قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾؛ للتنبيهِ على أنَّ الصَّالحينَ مِن أهْلِ القرى الغالِبِ على أهلِها الشِّرْكُ والظُّلْمُ؛ لا يُحرَمونَ جزاءَ صَلاحِهم[٢].

- قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فيه: تعريضٌ بالوعيدِ للمُشْركينَ[٣].

٢- قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ فيه: كنايةٌ عن غِناه تعالى عن إيمانِ الـمُشْركينَ وموالاتِهم، وكنايةٌ عن رَحمَتِه؛ إذ أمهَلَ المشركينَ، ولم يُعَجِّلْ لهم العذابَ[٤].

- وفيه: إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ؛ إذ مقتضى الظَّاهِرِ أن يقال: (وهو الغنيُّ ذو الرَّحمةِ)، فخُولِفَ مقتضى الظَّاهِرِ؛ لِمَا في اسمِ الرَّبِّ من دَلالةٍ على العِنايةِ بصلاحِ المربوبِ، ولتكونَ الجملةُ مستقلَّةً بنَفْسِها، فتسيرُ مَسْرَى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٨٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٨٥).

الأَمْثالِ والحِكَم[١].

- وفيه الحصرُ أو القصْرُ، أي: وربُّك هو الغنيُّ الكامِلُ الغِنى، وذو الرَّحْمَةِ الكاملةِ الشَّامِلَة، التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ[٢].

٣- قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ فيه: استئنافٌ لتَهْديدِ المشركينَ الَّذين كانوا يُكَذِّبون الإنذارَ بعذابِ الإِهْلاكِ[٣].

- وفيه إيجازٌ بالحَذْفِ؛ إذ إنَّ مفعولَ: ﴿يَشَأْ﴾ محذوفٌ على طريقَتِه المألوفةِ في حذْفِ مفعولِ المشيئةِ[٤].

- والسينُ والتَّاءُ في قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾ للتأكيدِ[٥].

- وفيه: تعريضٌ بإهلاكِ المشركينَ، ونجاةِ المؤمنينَ من العذابِ[٦].

- وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ الجملةُ الشرطيَّةُ استئنافٌ مقرِّرٌ لمَضْمونِ ما قَبْلَها مِنَ الغِنى والرَّحمةِ[٧].

٤- قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ فيه: استئنافٌ بيانيٌّ؛ جوابًا عن أن يقولَ سائلٌ من المُشركينَ: إذا كنَّا قد أُمْهِلْنا وأُخِّرَ عنا الاستئصالُ، فقد أفْلَتْنَا مِنَ الوعيدِ، ولعلَّه يَلْقاه أقوامٌ بَعْدَنا، فوَرَدَ قَوْلُه: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٧).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٨).

- والتأكيدُ بـ(إنَّ) مناسِبٌ لمقامِ المترَدِّدِ الطَّالبِ، وزيادةُ التأكيدِ بلامِ الابتداءِ في ﴿لَآتٍ﴾؛ لأنَّهم متوَغِّلونَ في إنكارِ تحقُّقِ ما أُوعِدُوا به من حصولِ الوعيدِ واستسخارِهم به[1].

- قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ فيه: إيثارُ صيغةِ الفاعلِ (آتٍ) على المستقبَل (سيأتي)؛ للإيذانِ بكمالِ قُرْبِ الإتيانِ، وقال هنا: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ ولم يقل: ﴿لواقِعٌ﴾؛ لبيان كمالِ سرعةِ وقوعِه، بتصويرِه بصورةِ طالبٍ حثيثٍ لا يفوته هاربٌ، حسَبَما يُعرِبُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أي: بفائتينَ ذلك، وإن ركِبتُم في الهربِ متنَ كلِّ صَعْبٍ وذَلولٍ[2].

٥- قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ المرادُ منه بيانُ دوامِ انتفاءِ الإعجازِ، لا بيانُ انتفاءِ دوامِ الإعجازِ؛ فإنَّ الجملةَ الاسميَّةَ كما تدلُّ على دوامِ الثُّبوتِ، تدلُّ بمعونَةِ المقامِ- إذا دخل عليها حرفُ النَّفيِ- على دوامِ الانتفاءِ، لا على انتفاءِ الدَّوامِ[3].

٦- قوله: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ بعد قولِه: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ فإنَّ المقصودَ الأوَّلَ منه هو وعيدُ المُشركينَ، فأعقَبَه بما تمحَّضَ لوعيدِهم: وهو الأمرُ المستعمَلُ في الإنذارِ والتَّهديدِ[4]، والتهديدُ بصيغةِ الأمر مبالغةٌ في الوعيدِ[5].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٥١).

- وفيه إيجاز بالحذفِ؛ حيث حُذِفَ مفعولُ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾؛ لأنَّ الفعلَ نُزِّلَ منزلةَ اللازمِ؛ أي: اعملوا عَمَلَكُم المألوفَ الذي هو دَأْبُكم، وهو الإعراضُ والتَّكذيبُ بالحَقِّ(١).

- قوله: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ المكانةُ كنايةٌ عن الحالَةِ؛ لأنَّ أحوالَ المرءِ تَظْهَر في مَكانِه ومَقَرِّه(٢).

- وفيه- مع النَّصيحةِ- تخويفٌ شديدٌ؛ لأنَّ تهديدَ الحاضِرِ على لسانِ الغيرِ مع الإعراضِ أشَدُّ من مواجَهَتِه بالتَّهديدِ(٣).

٧- **قوله**: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ فيه إيجازٌ بحذفِ متعلِّق ﴿عَامِلٌ﴾ للتَّعميمِ مع الاخْتِصارِ(٤).

٨- قوله: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ صريحٌ في التَّهديدِ؛ لأنَّ إخبارَهم بأنَّهم سَيَعْلمونَ يفيدُ أنَّه يعلَمُ وقوعَ ذلك لا محالةَ، وتصميمُه على أنَّه عامِلٌ على مكانَتِه، ومخالِفٌ لعَمَلِهم يدلُّ على أنَّه مُوقِنٌ بحُسْنِ عُقباه، وسوءِ عُقْباهم، ولولا ذلك لعَمِلَ عَمَلَهم؛ لأنَّ العاقِلَ لا يرضى الضُّرَّ لنَفْسِه، فدل قولُه: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ على أنَّ عِلْمَهم يقَعُ في المُستقَبلِ، وأمَّا هو فعالمٌ مِن الآن(٥).

- قوله: ﴿فَسَوۡفَ﴾ حرفُ التَّنفيسِ مُرادٌ منه تأكيدُ الوُقوعِ؛ لأنَّ حَرْفَي التَّنفيسِ يؤكِّدانِ المستقبَلَ، كما تؤكِّدُ (قد) الماضِيَ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٩٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩١).

٩- قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فيه: تذييلٌ للوعيدِ يَتَنَزَّل منزلةَ التَّعليلِ[١]، والغَرَضُ منه بيانُ أنَّ قولَه: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ تهديدٌ وتخويفٌ، لا أنَّه أمرٌ وطَلَبٌ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٧).

الآيات (١٣٦-١٤٠)

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿ذَرَأَ﴾: أَي خَلَق؛ يُقالُ: ذَرَأَ اللَّهُ الخَلْقَ يذْرَؤُهُمْ ذَرْأً وَذَرْوًا: إذا خَلَقَهُمْ، وأَصْلُه من قولهم: ذَرَأْنَا الأرضَ، أي: بَذَرْناها[1].

﴿ٱلْحَرْثِ﴾: الزَّرع، والبَساتين والمَزارِع، وأَصْلُه: إلقاءُ البَذْرِ في الأَرْضِ وتهيئَتُها للزَّرعِ، والكَسبُ والجَمْعُ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٢٠ و ١/ ١٦٢).

﴿نَصِيبًا﴾: أي حظًّا وقِسْمًا وجُزْءًا، والنَّصيبُ: الحظُّ المنصوبُ، أي: المعَيَّنُ، وأَصْلُ (نصب): إقامةُ شيءٍ، وإهدافٌ في استواءٍ[١].

﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾: أي: ليُهْلِكوهم، والرَّدى: الهلاكُ، وأَصْل (ردي) يَدُلُّ على رمْيٍ أو ترامٍ، وما أشبَهَ ذلك[٢].

﴿حِجْرٌ﴾: أي حرامٌ، وَأَصْلُ (حجر): المنعُ والإحاطةُ على الشَّيءِ[٣].

﴿خَالِصَةٌ﴾: أي: حَلالٌ أو خاصَّةٌ، وأَصْلُ (خلص): تَنقِيَةُ الشَّيءِ وتهذِيبُه[٤].

﴿سَفَهًا﴾: أي: جَهْلًا، وأصل السَّفهِ: الجَهْلُ، والخِفَّةُ في البَدنِ والعَقْلِ، والضَّعْفُ والحُمْقُ، واستُعمِلَ في خِفَّة النَّفسِ؛ لنُقصانِ العَقْلِ[٥].

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾

﴿زَيَّنَ﴾: يُقْرَأ بفَتْحِ الزَّاي والياءِ على البناءِ للمعلوم، وفاعلُه: ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾، والمفعولُ ﴿قَتْلَ﴾ و﴿أَوْلَٰدِهِمْ﴾ مجرورٌ بإضافةِ ﴿قَتْلَ﴾ إليه مِن إضافةِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: (((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، (تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١).

المصدرِ إلى مَفعولِه.

ويُقرأ: ﴿زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ﴾[1] بضَمِّ الزَّاي، وكسْرِ الياءِ على البناءِ لِـما لم يُسَمَّ فاعِلُه. و﴿قَتْلُ﴾ بالرَّفع على أنَّه نائِبٌ عن الفاعِل، و﴿أَوْلَادَهُمْ﴾ بالنَّصبِ على أنَّه مفعولُ المَصْدرِ ﴿قَتْلُ﴾، و(شُرَكَائِهِمْ) بالجرِّ على إضافَةِ ﴿قَتْلُ﴾ إليه من إِضافَةِ الْمَصدَرِ إلى فَاعِلِه، وقد فُصِلَ بينهما بالمفعولِ، والمَعْنى على هذه القراءةِ: أنَّ مُزيِّنًا زَيَّنَ لكثيرٍ من المشركينَ أن يقتُل شركاؤُهم أولادَهم؛ وإسنادُ القتْلِ إلى الشُّركاءِ؛ إمَّا لأنَّ الشُّرَكاء سببُ القتلِ إذا كان القَتْلُ قِربانًا للأصنامِ، وإمَّا لأنَّ الَّذين شرَعوا لهم القَتْلَ هم القائمونَ بدِيانة الشِّركِ؛ مثل عمرِو بنِ لُحَيٍّ ومَن بَعدَه[2].

---

(١) وهذه قِراءةُ ابنِ عامرٍ -رحمه اللهُ تعالى- وهو أعلى القُرَّاءِ السَّبعَةِ سنَدًا، من كبارِ التَّابعينَ الذين أَخَذُوا عن الصَّحَابة؛ كعثمانَ بنِ عفَّانَ، وأبي الدَّرداءِ، ومُعاوِيَةَ، وفضالة بنِ عبيدٍ، وهو مع ذلك عربيٌّ صريحٌ مِن صَميمِ العَرَب، وكلامُه في اللُّغةِ حجَّةٌ وقولُه دليلٌ؛ لأنَّه كان قبلَ أنْ يُوجَدَ اللَّحْنُ؛ فكيف وقد قرأَ بما تلَقَّى، وتلَقَّنَ وسَمِعَ ورأى؟!

وهي قراءةٌ متواترةٌ صحيحةٌ، وموافِقَةٌ لرَسْمِ المصحَفِ الشَّامي الذي أرسله عثمانُ رضِي اللهُ عنه، ولقواعِدِ اللُّغَةِ العربيَّةِ نثرًا ونَظْمًا؛ وقد تجرَّأَ بعضُ النحاة، وأَنْكَرَ هذه القِراءةَ؛ لأنَّه فُصِل فيها بين المضافِ (قَتْلُ) والمضافِ إليه (شُرَكَائِهِمْ) بالمفعولِ (أَوْلَادَهُمْ)؛ ورُدَّ إِنْكارُهم هذا بما مضى، وبأنَّ العَرَبَ قد استعملَتْ ذلك كثيرًا في كلامِها؛ ومن ذلك قَوْلِهم: (هو غلامُ إنْ شاءَ اللهُ أخيكَ) يريدون: هو غلامُ أخيكَ؛ فَلَأنْ يُفْصَلَ بالمفردِ أسهَلُ. وسَمِعَ الكسائيُّ قَوْلَ بَعْضِهم: (إنَّ الشَّاةَ لَتَجْتَرُّ فتسمَعُ صوتَ واللهِ ربِّها) أي: صَوْتَ رَبِّها واللهِ، ففُصِلَ بالقَسَمِ، وهو في قُوَّةِ الجملةِ، وقال الشَّاعِرُ:

فَزَجَجْتُهَا بِمَزَجَّةٍ ... زَجَّ القَلُوصَ أَبِي مَزَادَهْ

والتقديرُ: زَجَّ أبي مَزَادَةَ القَلُوصَ، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالقلوص، وهو مفعول.

وعليه؛ فقراءةُ ابن عامرٍ صحيحةٌ من حيث اللُّغةُ، كما هي صحيحةٌ من حيثُ النَّقْلُ. ويُنظَرُ في أوجُهِ الاعتراضِ والجوابِ عنها: ((الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين)) لأبي البركات الأنباري (٢/ ٣٤٩-٣٥٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٦٢-١٧٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧١-٢٧٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّ المشركينَ جَعَلوا لله مِمَّا خَلَقَ من الزُّروعِ والثِّمارِ والأنعامِ جُزءًا، وجعلوا لشركائِهم جزءًا كذلك، فإنْ وَصَلَ شيءٌ مِمَّا خَصَّصُوه لآلِهَتِهم إلى ما جعلوه للهِ رَدُّوه إلى مَحَلِّه من نصيبِ آلِهَتِهم، وإنِ اختَلَطَ شيءٌ مِمَّا خَصَّصوه للهِ بما جَعَلُوه لآلِهَتِهم تركوه فلم يَرُدُّوه إلى مَحَلِّه، ولم يهتمُّوا بذلك، ساءَ ما يحكمونَ!

كذلك زَيَّنَت الشَّياطينُ لكثيرٍ من المشركينَ قَتْلَ أولادِهم؛ ليُهْلِكوهم ويَخْلِطوا عليهم دينَهم، ولو شاء اللهُ ما فعلوا ذلك، ثم أمَرَ اللهُ نَبِيَّه أن يَدَعَهم وما يَفتَرونَ.

وقال هؤلاءِ المشركونَ: هذه الأنعامُ وهذا الزَّرعُ حرامٌ، لا يجوزُ لأحدٍ أن يأكُلَ منه، إلَّا مَن أَذِنُوا له، وهذا بحَسَبِ ادِّعائِهم الذي لا مُستَنَدَ له ولا حُجَّةَ، وحَرَّمَ هؤلاءِ المشركونَ ظُهورَ بعضِ الأنعامِ فَلم يُحِلُّوا ركُوبَها، وبعضٌ من الأنعامِ لا يذكرونَ اسْمَ اللهِ عليها، سَيَجْزِيهم اللهُ بما كانوا يَفْتَرونَ.

وقال هؤلاءِ المشركونَ: ما في بُطُونِ هذه الأنعامِ مِن لَبَنٍ وأجِنَّةٍ؛ حلالٌ لذُكُورنا، وحرامٌ على إناثِنا، هذا إن خَرَجَتِ الأجِنَّةُ أحياءً، وإن يَكُنْ ما في بُطونِها مَيْتَةً، فهو حلالُ الأَكْلِ للذُّكورِ والإناثِ، وهم شُرَكاءُ فيه، ثم توَعَّدَ اللهُ تعالى أنَّه سَيَجْزي هؤلاءِ المُفْتَرينَ عليه الكَذِبَ حين وَصَفُوا ما أحَلَّه بأنَّه حرامٌ، وما حَرَّمَه بأنَّه حلالٌ، وَنَسَبوا كَذِبَهم ذلك إلى اللهِ تعالى؛ إنَّه تعالى حكيمٌ عليمٌ.

ثم يخبِرُ تعالى أنَّه قد خَسِرَ هؤلاء المشركونَ الَّذين قَتَلُوا أولادَهم سَفَهًا بغيرِ عِلْمٍ، وحَرَّموا ما رَزَقَهم الله تعالى؛ كذبًا وافتراءً عليه، قد انحَرَفوا عن الطَّريقِ

(١/ ٥٤٠-٥٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٦١-١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨/ ١٠٢).

القويمِ، ولم يُوَفَّقوا للصَّوابِ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى قُبْحَ طريقَتِهم في إنكارِهم البَعثَ والقيامةَ؛ ذَكَرَ عَقيبَه أنواعًا من جَهالاتِهم، ورَكاكاتِ أَقْوالِهم؛ تنبيهًا على ضَعْفِ عقولِهم، وقِلَّة مَحْصولِهم، وتنفيرًا للعُقلاءِ عنِ الالتِفاتِ إلى كَلِماتِهم[1]، فقال تعالى:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ﴾.

أي: وجَعَلَ المشركونَ مِمَّا خَلَقَ الله مِنَ الزُّروعِ والثِّمارِ والأنعامِ قِسْمًا وجُزءًا له تعالى، وجَعَلوا لشُرَكائِهم مع الله تعالى نصيبًا من ذلك، والحالُ أنَّ اللهَ تعالى هو الذي ذَرَأَه للعبادِ، وأوجَدَه رِزقًا، وهؤلاءِ الشُّركاءُ لم يرزُقُوهم، ولم يُوجِدوا لهم شيئًا من ذلك[2].

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٨-٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤).

قال ابن جرير: (وجَعَلوا مِثْلَه لشُرَكائهم، وهم أوثانُهم بإجماعٍ مِن أَهْلِ التَّأويلِ عليه) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٣).

أي: فَإِنْ وَصَلَ شيءٌ مِمَّا جَعَلوه لآلِهَتِهم إلى ما جَعَلوه للهِ سبحانه؛ رَدُّوه إلى مَحَلِّه مع نصيبِ أَوْثانِهم، فحَفِظوه واعتَنَوْا به، وإن اختَلَطَ شيءٌ مِمَّا جَعَلوه للهِ تعالى بما جَعَلوه لآلِهَتِهم؛ تَرَكوه فيه ولم يَرُدُّوه إلى مَحَلِّه، ولم يُبَالوا ويهتمُّوا بذلك[1].

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾.

أي: قد أساؤُوا في حُكْمِهم؛ إذ أَخَذُوا مِن نصيبِ اللهِ تعالى لِشُرَكائِهم، ولم يجْعَلوا له سبحانه شيئًا مِنْ نصيبِ شُرَكائِهم، فجَعَلوا ما للمَخْلوقِ يُجتهَدُ فيه ويُحفَظُ، أكثرَ مما يُفعَلُ بحقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ، الذي هو ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه وخالِقُه، وكلُّ شيءٍ تحت قُدرَتِه ومَشيئَتِه، سبحانه وتعالى[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡ﴾.

أي: وكما حسَّنَت الشَّياطينُ لهؤلاءِ المشركينَ أن يَجْعَلوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ من الحَرْثِ والأنعامِ نصيبًا، كذلك حسَّنوا لهم قَتْلَ أولادِهم خَشيَةَ الإملاقِ، ووَأْدَ البناتِ خَشيةَ العارِ، وكلُّ هذا مِن خُدَعِ الشَّياطينِ، الَّذين يريدونَ أن يُهلِكوهم، وأن يَخْلِطوا عليهم دينَهم فيلتَبِس، فيَضِلُّوا ويَهْلِكوا بأفعالٍ في غايَةِ القُبحِ؛ تُزيَّنُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥).

لهم فتكونُ لديهم من الأمورِ الحَسَنة الجميلةِ، والخِصالِ الحميدَةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:٥٨-٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

أي: ولو شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ لَمَنَعَ هؤلاءِ المشركينَ، وحَالَ بينهم وبين قَتلِ أَوْلادِهم، ولكنَّ اللهَ تعالى بحَسَبِ ما اقتضَتْه حِكْمَتُه، خلَّى بينهم وبين أفعالِهم، وخَذَلَهم عن الهُدى والحَقِّ، فأطاعوا الشَّياطينَ التي أغوَتْهم، وقَتَلُوا أولادَهم. وكلُّ هذا واقعٌ بمشيئَتِه تعالى، وله الحِكمةُ التامَّةُ في ذلك، فدَعْهُم- يا مُحمَّدُ- وما يختلقونَ ويتقوَّلونَ على الله تعالى مِنَ الكذبِ، ولا تحزَنْ عليهم؛ فإنَّهم لن يضُرُّوا اللهَ تعالى شيئًا؛ فسَيَحْكُمُ اللهُ بينك وبينهم؛ فهو لهم بالمِرْصادِ؛ يستدْرِجُهم، ويُمْهِلُهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٤-٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥).

وقيل المعنى: ولو شاءَ الله تعالى لَمَنَع الشركاءَ عن تزيينِ القتلِ لأتباعِهم المشركينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٤-١٠٥).

﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى إقدامَهم على ما دلَّ النَّقلُ على قُبحِه- مع قبحِه في العَقْلِ- مِن قَتْلِ الأولادِ؛ أتبَعَه إِحْجامَهم عما حَسَّنَه الشَّرْعُ مِن ذَبْحِ بعضِ الأنعامِ لِنَفْعِهم، وضَمَّ إليه جملةً مِمَّا منعوا أنفُسَهم منه، ودانوا به لمجرَّدِ أهوائِهم[1]، فقال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾.

أي: وقال هؤلاءِ المشركونَ: هذه الأَنْعامُ وهذا الزَّرعُ حرامٌ لا يجوزُ أن يأكُلَ منه أحَدٌ، إلَّا مَنْ أذِنَّا له، وهذا بحَسَبِ أهوائِهم وادِّعائِهم الذي لا مُستَنَدَ له ولا حُجَّةَ[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾.

أي: وحرَّم هؤلاءِ الجهلَةُ من المشركينَ ركوبَ ظُهُورِ بعضِ أَنْعامِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٧).

﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾.

أي: وحرَّموا مِن أنعامِهم صِنفًا آخَرَ لا يَحجُّون عليها، ولا يَذْكُرونَ اسمَ الله عليها إنْ رَكِبوها، أو حَلَبُوها أو حَمَلوا عليها أو ذَبَحوها، وهذا كَذِبٌ منهم على اللهِ تعالى؛ إذ لم يأذَنْ لهم بذلك[1].

﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

أي: سيُجازِيهم اللهُ عزَّ وجلَّ بسَبَبِ اختلاقِهم الكَذِبَ عليه، وتحريمِهم ما أحَلَّه سبحانه من الأَكْلِ والمنافِعِ[2].

﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾.

أي: وقال هؤلاءِ المشركونَ: جميعُ ما في بُطونِ تلك الأنعامِ مِن لَبَنٍ وجَنينٍ، فهو حلالٌ لذُكُورِنا وحرامٌ على إناثِنا. هذا إذا خَرَجَت الأجنَّةُ أحياءً[3].

﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾.

أي: وإنْ يكُنْ ما في بطونِ تلك الأنعامِ قد وُلِدَ مَيْتًا فهو حلالٌ للذُّكورِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٢-٥٨٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٦-٥٨٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

والإناثِ، وهُم شُركاءُ في أكْلِه، لا يُحَرِّمونه على أَحَدٍ منهم[١].

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾.

أي: سيجازي اللهُ تعالى هؤلاءِ المفترينَ عليه الكَذِبَ حين وَصَفُوا ما أحلَّه بأنَّه حرامٌ، ووَصَفوا ما حَرَّمَه بأنَّه حلالٌ، ونَسَبُوا كَذِبَهم في ذلك إلى اللهِ تعالى[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى حكيمٌ في أفعالِه وأقوالِه وشَرْعِه وقَدَرِه، ومن ذلك أنَّه حكيمٌ في مجازاةِ أولئك المُشْركينَ على قَوْلِهم الكَذِبَ عليه سبحانَه، حكيمٌ في إمهالِه لهم، وتمكينِهم ممَّا هم فيه مِن الضَّلالِ، وهو عليمٌ بأعمالِ عبادِه خَيْرِها وشَرِّها، ومن ذلك عِلْمُه بأولئك المُشْركينَ، وبما قالوه عليه وافْتَرَوه، وسَيَجْزِيهم على ذلك أتمَّ الجَزاءِ[٣].

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى- فيما تقدَّمَ- قَتْلَهم أولادَهم، وتحريمَهم ما رَزَقَهم اللهُ، جَمَعَ هَذَينِ الأَمْرَينِ في هذه الآيةِ، وبَيَّنَ ما لَزِمَهم على هذا الحُكْمِ، وهو الخُسرانُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٨-٥٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

والسَّفاهةُ، وعَدَمُ العِلْم، وتحريمُ ما رَزَقَهم اللهُ، والافتراءُ على اللهِ، والضَّلالُ، وعدمُ الاهتداءِ؛ فهذه أمورٌ سبْعَةٌ، وكلُّ واحدٍ منها سببٌ تامٌّ في حُصُولِ الذَّمِّ[١]، فقال تعالى:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: قد هَلَكَ هؤلاءِ المشركونَ الَّذين قَتَلوا أولادَهم، وحرَّموا ما أَحَلَّه اللهُ تعالى مِن أنعامِهم، وجَعَلَه رِزْقًا لهم، وخَسِروا فِي الدُّنيا والآخرةِ، ففي الدُّنيا خَسِروا أولادَهم بِقَتْلِهم، وَضَيَّقُوا عليهم في أموالِهم، بما حَرَّموا مِن أشياءَ ابْتَدَعوها، وفي الآخرةِ يَصيرون إلى شَرِّ المَنازِلِ بكَذِبِهم على اللَّه، وقد فَعَلوا ذلك جهالةً منهم، صادرةً عن نَقْصِ عقولٍ، وضَعْفِ أحلامٍ، وقِلَّةِ فَهْمٍ بعاجِلِ ضَرَرِ ذلك وآجِلِه؛ وذلك كَذِبًا عليه سبحانه وتعالى[٢].

عن عياضٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال ذاتَ يومٍ في خُطبتِه: ((أَلَا إنَّ ربِّي أَمَرَني أنْ أُعلِّمَكم ما جَهِلْتُم، مِمَّا علَّمَني يومِي هذا: كلُّ مالٍ نَحَلْتُه عبدًا حَلالٌ، وإنِّي خلقْتُ عبادي حُنَفَاءَ كُلَّهم، وإنَّهم أَتَتْهُمُ الشَّياطينُ فاجْتالَتْهُم[٣] عن دِينِهم، وحرَّمَتْ عليهِم ما أَحْلَلْتُ لهم، وأَمَرَتْهُم أنْ يُشْرِكوا بي ما لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا...)) الحديث[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٠-٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٤-١١٥).

(٣) فاجْتالَتْهم: أي: اسْتَخَفَّتْهم، فجَالوا معهم في الضَّلال. يُقالُ: جال واجْتال: إذا ذهب وجاء. ومنه الجَوَلان في الحربِ، واجتال الشَّيءَ إذا ذَهَب به وساقَه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣١٧)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٩٧).

(٤) رواه مسلم (٢٨٦٥).

﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

أي: قد انحَرَفوا عن طريقِ الحَقِّ، ولم يكونوا موفَّقينَ للصَّوابِ[(١)].

عنِ ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما، قال: (إذا سرَّكَ أن تَعلَمَ جَهْلَ العَرَبِ، فاقرَأْ ما فوقَ الثَّلاثينَ ومِئَةٍ مِن سورةِ الأَنْعامِ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قولِه ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾)[(٢)].

الفوائدُ التربويَّة:

١- الغُلُوُّ يُخْرِجُ أصحابَه إلى أن يَجْعَلوا البَشَرَ مثلَ الإلهِ، بل أفضَلَ من الإلهِ في بعضِ الأمورِ، كما ذَكَرَ اللهُ عن المشركينَ؛ قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾[(٣)] [الأنعام: ١٠٨].

٢- قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ مِثْلُ هذا كثيرٌ؛ فالفاعِلُ للذَّنْبِ لو جَزَمَ بأنَّه يحصُلُ له به الضَّررُ الرَّاجِحُ لم يفعَلْه، لكنَّه يُزَيِّنُ له ما فيه من اللذَّةِ التي يظُنُّ أنَّها مصلحةٌ، ولا يَجْزِم بوقوعِ عُقوبَتِه، بل يرجو العفْوَ بحَسَناتٍ أو توبةٍ، أو بعفوِ اللهِ ونحو ذلك، وهذا كلُّه مِن اتِّباعِ الظَّنِّ وما تهوى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٥).

(٢) رواه البخاري (٣٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٢/ ٣٩٥).

الأَنْفُسُ، ولو كان له عِلْمٌ كامِلٌ لَعَرَف به رُجْحانَ ضَرَرِ السَّيِّئة، فأوجَبَ له ذلك الخشيَةَ المانِعَةَ له من مُواقَعَتِها[١].

الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ ... سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ عَدَّدَ تبارك وتعالى شيئًا مِن خُرافاتِهم؛ ليُنَبِّه بذلك على ضلالِهم والحَذَرِ منهم، وأنَّ معارَضَةَ أمثالِ هؤلاءِ السُّفَهاءِ للحَقِّ الذي جاء به الرَّسولُ؛ لا تقْدَحُ فيه أصلًا؛ فإنَّهم لا أهلِيَّةَ لهم في مقابَلَةِ الحَقِّ[٢].

٢- الأصلُ في العباداتِ التَّوقيفُ، فلا يُشْرَعُ منها إلا ما شَرَعَه اللهُ تعالى؛ ولهذا ذَمَّ المشركينَ الَّذين شَرَعوا من الدِّينِ ما لم يأذَنْ به، وحَرَّموا ما لم يُحَرِّمْه؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ...﴾ إلى قَوْلِه: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، فلا حَرامَ إلا ما حَرَّمَه اللهُ تعالى، ولا دِينَ إلَّا ما شَرَعَه[٣].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ قَرَنَ الأوَّلَ بالزَّعْمِ الذي يُعَبَّر به غالبًا عن قَوْلِ الكَذِب والباطِلِ على ما فيه من البِرِّ والخيرِ، دون الثاني الذي هو شَرٌّ محْضٌ؛ وذلك لمناسَبَةٍ حَسَنةٍ: أنَّ الأوَّلَ وحْده هو الذي يُمكِن أن يَسْتَحْسِنَه المؤمنُ أو العاقِلُ وإن لم يكُنْ مُؤْمِنًا، فاحْتِيجَ إلى قَرْنِه بكونِه زعمًا مُختَرَعًا لهم، لا دينًا مُشْتَرَعًا لله تعالى، فكان بهذا باطلًا في نَفسِه، فوقَ كَوْنِه مقرونًا بالشِّرْكِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن رجب الحنبلي)) (٢/ ١٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٧).

إذ جَعَلوا مِثْلَه لِمَا اتَّخذوا للهِ من الأَنْدادِ[١].

٤- في قَوْلِه تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ قد يستَشْكِلُ بعضُهم، فيقول: أليسَت جميعُ الأَشْياءِ لله، فكيف نُسِبُوا إلى الكَذِبِ في قولهم: هذا للهِ؟ الجواب: أنَّ إفرازَهم النَّصِيبينِ؛ نصيبًا لله ونصيبًا للشَّيطانِ هو الكَذِبُ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ... سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ المقصودُ من حكايةِ أمثالِ هذه المذاهِبِ الفاسِدةِ أنْ يعرِفَ النَّاسُ قِلَّةَ عُقُولِ القائلينَ بهذه المذاهِبِ، وأنْ يصيرَ ذلك سببًا لتَحْقيرِهم في أعيُنِ العُقَلاءِ، وألَّا يَلْتفِتَ إلى كلامِهم أحدٌ البتَّةَ[٣].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ سمَّى المُزَيِّنينَ لهم ذلك مِنْ شياطينِ الإنسِ- كالسَّدَنَة- أو الجنِّ؛ شُرَكاءَ، وإن لم يُسَمُّوهم هم آلهةً أو شُرَكاءَ؛ لأنَّهم أطاعوهم طاعةَ إذعانٍ دينيٍّ في التَّحليلِ والتَّحريمِ، وهو خاصٌّ بالرَّبِّ المعبودِ[٤].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾، لَمَّا كان المُزَيِّن لخِسَّتِه أهلًا لِأَنْ لا يُقْبَلَ تزيينُه، ولا يُلْتَفَتَ إليه، فكان امتثالُ قولِه غريبًا، وكان الإقدامُ على فِعْلِ الأَمْرِ المُزَيَّنِ أشدَّ غرابةً- قدَّمَ قَوْلَه ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾ تنبيهًا على ذلك[٥].

٨- كلُّ من أطاعَ غيرَ الله في تشريعٍ مُخالِفٍ لِمَا شَرَعَه اللهُ؛ فقد أشْرَكَ به مع اللهِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٠٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٨٢).

كما يدُلُّ لذلك قَوْلُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ فسمَّاهم شركاءَ لَمَّا أَطاعُوهم في قَتْلِ الأَوْلادِ[١].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ يدلُّ على أنَّ كلَّ ما فعَلَه المُشركونَ هو بِقَدَرِ اللهِ تبارك وتعالى[٢].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾، لَمَّا كان ذَمُّهم على مجرَّدِ التَّحريمِ لا على كونِه من مُعَيَّنٍ، بُنِيَ للمَجْهولِ[٣].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ استدَلَّ به مالكٌ رَحِمَه الله على أنَّه لا يجوزُ الوَقْفُ على أَوْلادِ الذُّكورِ دُونَ البَناتِ، وأنَّ ذلك الوَقْفَ يُفْسَخُ ولو بَعْدَ موتٍ؛ لأنَّ ذلك مِن فِعْلِ الجاهليَّةِ. واستدلَّ به بعضُ المالكيَّةِ على مِثْلِ ذلك في الهِبَةِ[٤].

١٢- فائدةُ تأنيثِ ﴿خَالِصَةٌ﴾ المُبالغةُ في خُلوصِ ما في بُطونِ الأنْعامِ الَّتي كانوا حَرَّمُوا ما في بُطونِها على أزواجِهم، لذُكورِهم دونَ إناثِهم، وذلك مِثْلُ قَولِهم: رجلٌ نسَّابَة وعلَّامةٌ، إذا أُريدَ بها المُبَالغةُ في وَصْفِ مَن كان ذلك مِن صِفَتِه، وقيل غيرُ ذلك[٥].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ فيه:

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٥٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٨٤).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٩٦).

تأخيرُ قولِه: ﴿نَصِيبًا﴾ عن المجرورينِ (لله - مما)؛ اهتمامًا بالمقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ[١].

٢- قوله: ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه: مبالغةٌ في صَوْنِه من أن يُعطَى لِمَا للهِ؛ لأنَّه إذا كان لا يَصِلُ فهو لا يُتْرَكُ إذا وَصَلَ بالأَوْلى[٢].

٣- قوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فيه: استئنافٌ لإِنْشاءِ ذَمِّ شرائِعِهم[٣].

٤- قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ﴾

معنى اللام في قوله: ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ إن كان التَّزيينُ مِنَ الشَّياطينِ؛ فهي على حقيقةِ التعليلِ، وإن كان من السَّدَنَة فعلى معنى الصَّيرورةِ[٤].

٥- قوله: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (ذَرْهُمْ) أمرٌ فيه تهديدٌ ووعيدٌ[٥].

٦- قوله: ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فيه: استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ الافتراءَ على الخالِقِ أمرٌ شنيعٌ عند جميعِ الخَلْقِ، فالإخبارُ به يُثيرُ سُؤالَ من يَسألُ عمَّا سيلقَوْنَه مِن جزاءِ افترائِهم، فأُجِيبَ بأنَّ اللهَ سيجزيهم بما كانوا يَفْترونَ[٦].

- وقد أبهَمَ الجزاءَ للتَّهويلِ؛ لتَذْهَبَ النُّفوسُ كُلَّ مذهَبٍ مُمْكِنٍ في أنواعِ الجزاءِ على الإِثمِ[٧]، .....

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٩).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٩).

وفيه: تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ[١].

٧- قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تذييلٌ جُعِلَ فذلكةً للكلامِ السَّابِقِ[٢].

٨- **قوله**: ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾ فيه: إظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقِعِ الإضمارِ- حيث لم يَقُلْ: (عليه)- لإظهار كَمالِ عُتوِّهم وطُغيانِهم[٣].

٩- **قوله**: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ لزيادةِ النِّداءِ على تحقُّقِ ضَلالِهم[٤].

- فائدةُ قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ بعد قوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾ أنَّهم بعدما ضلُّوا، لم يهتدوا مرَّة أُخرى[٥]، وهذا نهايةُ المبالغةِ في الذَّمِّ[٦].

- زيادةُ قَوْلِه: ﴿كَانُواْ﴾ هنا لتحقيقِ النَّفيِ؛ مثل موقِعِها مع لامِ الجُحُودِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٥).
(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٧٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٦٦).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٦).

الآيتان (١٤١-١٤٢)

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرۡشًاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿جَنَّٰتٍ﴾: أي: بَسَاتِينَ، جمْعُ جَنَّةٍ، وهي كلُّ بُستانٍ ذي شَجَرٍ، يَستُرُ بأَشْجارِه الأَرْضَ، ومنه الجنَّةُ التي يصيرُ إليها المُسلِمونَ في الآخِرَةِ، وأَصْلُ (جنن): السَّتْرُ وَالتَّستُّرُ[١].

﴿مَّعۡرُوشَٰتٍ﴾: أي: مَرْفوعاتٍ على مَا يَحمِلهَا، وهو مَا عَرَشَ النَّاسُ، وبَنَوْا له العريشَ من العنبِ، والعَرْشُ في الأَصْلِ: شيءٌ مسقَّفٌ[٢].

﴿أُكُلُهُۥ﴾: أي: ثَمَرُه، وَمَا يُؤْكَل مِنه، وسُمِّي الثمرُ أُكُلًا؛ لأنَّه يُؤْكَلُ، وأصْلُ (أكل): التَّنَقُّصُ[٣].

﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾: أي: لا تُفْرِطوا، والسَّرَف: تجاوُزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يفعَلُه الإِنْسانُ، وأصْلُه: تعدِّي الحَدِّ، والإِغْفالُ للشَّيءِ أَيْضًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)،

﴿حَمُولَةً﴾: الحَمُولةُ هي الكبيرةُ،كالإبلِ التي يُحمَلُ عليها الأَثْقالُ[١].

﴿وَفَرْشًا﴾: الفَرْشُ: صِغارُ الإبلِ التي لم تُدرِكْ أن يُحمَل عليها، وأصلُ (فرش): يَدُلُّ على تَمهيدِ الشَّيءِ، وبَسْطِه[٢].

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾

﴿حَمُولَةً﴾: منصوبةٌ على أنَّها مَعْطوفةٌ على مَفعولِ ﴿أَنشَأَ﴾، وهو ﴿جَنَّٰتٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾، أي: وأنشَأَ منَ الأنعامِ حمولةً وفَرْشًا، مع ما أنشَأَ مِنَ الجنَّاتِ المعروشاتِ وغيرِ المعروشاتِ؛ فيكون العَطْفُ مِن قَبيلِ عَطْفِ المفرداتِ. ويجوزُ أن يكونَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنَ الأَنْعَامِ﴾ متعلِّقًا بفِعلٍ مُقَدَّرٍ تقديرُه: أَنْشَأَ، و﴿حَمُولَةً﴾ مفعولًا به لهذا الفِعْلِ المُقَدَّرِ، وحينئذٍ تكون جملةُ (وَأَنْشَأَ) المقَدَّرة معطوفةً على جملة ﴿أَنشَأَ﴾ السَّابِقِ في الآيةِ؛ فيكونُ العَطْفُ مِنْ قَبيلِ عَطْفِ الجُمَلِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّه هو الذي خَلَقَ بساتين من أَشْجارٍ متنوِّعةٍ، ونباتاتٍ مختلفةٍ؛ منها ما له عروشٌ تُنشَرُ عليها، وتُعاوِنُها على النُّهوضِ، ومنها ما ليس لها عُرُوشٌ

((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٨)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٤-٢٧٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٩٠)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (١/ ٢٩٩).

فتَنبُت على ساقٍ، أو تَنْفَرِشُ على الأَرْضِ، وأيضًا خَلَقَ اللهُ النَّخْلَ والزَّرعَ مختلفًا أُكُلُه، والزَّيتونَ والرُّمانَ مُتَشابهًا في شَجَرِه وورقِه، وغيرَ مُتَشابِهٍ في ثَمَرِه وطَعْمِه، وأمَرَهم جلَّ وعلا أن يَأْكُلوا مِن ثَمَره إذا أَثْمَرَ، وأن يُخرِجوا زكاتَه يومَ حَصادِه، ونهاهم عن الإِسْرافِ؛ فإنَّه تعالى لا يُحِبُّ من كان مُسْرِفًا.

ثم بيَّن تعالى أنَّه خَلَقَ من الأَنْعامِ ما يَصْلُحُ للحَمْلِ عليه كالإِبِلِ، ومنها ما هو مهَيَّأٌ لغَيْرِ الحَمل كالغَنَم، وأمَرَهم سبحانه أن يَأْكُلوا مِمَّا رَزَقَهم سبحانه، وأباحَ لهم أكْلَه، ونهاهم أن يسلكوا طُرُقَ الشَّيطانِ؛ فإنَّه لهم عدُوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ.

تفسيرُ الآيتين:

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

مناسَبَةُ الآيتينِ لِمَا قَبْلَهما:

أنَّ الله تعالى لَمَّا جعَلَ مدارَ هذا الكتابِ الشَّريفِ على تقريرِ التَّوحيدِ والنبوَّةِ والمَعَاد، وإثباتِ القَضاءِ والقَدَر، وأنَّه تبارَكَ وتعالى بالَغَ في تقريرِ هذه الأُصُولِ، ثُمَّ شَرَحَ أحوالَ السُّعَداءِ والأَشْقياءِ، وانتقَلَ إلى تَهْجينِ طريقةِ مُنْكري البَعثِ، ونَبَّه على ضَعْفِ عُقُولهم، وتنفيرِ النَّاسِ عن الالْتِفاتِ إلى قَوْلِهم، والاغْتِرارِ بشُبُهاتهم- عاد بعدها إلى المقصودِ الأَصْليِّ، وهو إقامةُ الدَّلائلِ على تقريرِ التَّوحيدِ[1]:

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ تعالى عنهم أنَّه حَرَّموا أشياءَ مِمَّا رَزَقَهم اللهُ، أخَذَ يذكُرُ تعالى ما امتَنَّ به عليهم مِنَ الرِّزقِ الذي تصرَّفوا فيه بغيرِ إذْنِه تعالى؛ افتراءً منهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٦٦).

عليه واختلافًا، فذَكَرَ نوْعَي الرِّزقِ، وهما النباتيُّ والحيوانيُّ، فبدأ بالنباتيِّ؛ كما بدأ به في الآيَةِ المشْبِهَة لهذا وهي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، واستطرَدَ منه إلى الحيوانيِّ؛ إذ كانوا قد حَرَّموا أشياءَ مِنَ النَّوعينِ، فقال[١]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾.

أي: وربُّكم- أيُّها النَّاسُ- هو الذي خَلَقَ وأوجَدَ بساتينَ تَحوي أنواعًا من الأَشْجارِ المتنوِّعةِ، والنباتاتِ المختلفَةِ، سواءٌ كانت لها عروشٌ تنتشِرُ عليها الأَشْجارُ، وأعمِدَةٌ تَرْفَعُها، وتُعاوِنُها على النُّهوضِ عن الأَرْضِ، أو كانت خاليةً من تلك العُروشِ، فيُنْبِتُها اللهُ تعالى على ساقٍ، أو تنفَرِشُ منبسطةً على وَجْهِ الأَرْضِ[٢].

﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾.

أي: وخَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ النَّخلَ والزَّرعَ، والحالُ أنَّ ما يخرُجُ منه ممَّا يُؤكَل من ثِمَارِه وحُبوبِه؛ أنواعٌ مختلفةٌ[٣].

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾.

أي: وخَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ الزَّيتونَ والرُّمَّان مُتشابهًا في مَنظرِ شَجَرِه ووَرَقِه، وغيرَ مُتشابِهٍ في شكلِ ثَمَرِه وطَعْمِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٦٦)، وينظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٧-١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾.

مناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى كيفيَّةَ خَلْقِه لهذه الأَشْياءِ؛ ذَكَرَ ما هو المقصودُ الأصليُّ مِن خَلْقِها، وهو انتفاعُ المُكَلَّفينَ بها، فقال[1]:

﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾.

أي: ولكم أنْ تأكُلوا مِن ثَمَراتِ النَّخيلِ والزُّروعِ عند إِثْمارِها وظُهُورِها[2].

﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾.

أي: وأَعْطُوا زكاةَ ما يخرُجُ مِنَ النَّخيلِ والزُّروعِ من الثِّمارِ والحُبوبِ يَوْمَ جَذاذِها وقَطْعِها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧-١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

قال ابنُ جريرٍ: (وأولى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ، قولُ مَن قال: كان ذلك فرضًا فرَضه الله على المؤمنين في طعامِهم وثمارِهم التي تخرجُها زروعُهم وغروسُهم، ثم نسَخه الله بالصدقةِ المفروضةِ، والوظيفةِ المعلومةِ من العُشرِ ونصفِ العُشرِ) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦١١).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقال آخرون: هذا كلُّه شيءٌ كان واجبًا، ثم نَسَخَه الله بالعُشْر ونِصْف العشر. حكاه ابن جريرٍ عن ابن عباس، ومحمد ابن الحنفية، وإبراهيم النخعي، والحسن، والسُّدِّي، وعطية العوفي. واختاره ابن جرير، رحمه الله. قلتُ: وفي تسميةِ هذا نسْخًا نظرٌ؛ لأنه قد كان شيئًا واجبًا في الأصل، ثم إنَّه فصَّل بيانَه، وبيَّنَ مقدار المَخْرج وكميته. قالوا: وكان هذا في السَّنة الثانية من الهجرة، فالله أعلم) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٩)، وممن اختار هذا القولَ أيضًا، وهو أن هذه الآيَةَ غيرُ منسوخةٍ، ولكنها مخصَّصة ومبَيَّنة بآياتٍ أخرى، وبما يُبَيِّنه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم: ابن عاشور في ((تفسيره)) (٨-أ/ ١٢٠-١٢٢).

وقال الشِّنقيطي: (قوله: ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ فيه للعلماء إشكالٌ- على أنَّه الزكاة- لأنَّه يوم الحصاد لم يكن تمرًا يابسًا، ولم يكن زبيبًا يابسًا، والزكَّاةُ إنما تُخرَجُ منه بعد أن يكون تمرًا

وقد ذمَّ اللهُ تعالى الذي يَحصدون ولا يتصدَّقون، وقصَّ علينا سوءَ فعلِهم وانتقامَه منهم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ * أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ * فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ [القلم: ١٧ - ٢٤].

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

أي: ولا تَتَجاوَزُوا حدَّ الاعْتِدالِ في الأَكْلِ؛ فاللهُ تعالى لا يُحبُّ كلَّ مَن كان مُسرِفًا في ذلك وفي غيرِه مِنَ الأَعْمالِ(١).

يابسًا، أو زبيبًا يابسًا. قالوا: المرادُ بيومِ الحصاد: أنَّ المرادَ به عند حصادِه، ويُراد: أنَّ زمنَ الحصادِ قد يطُولُ إلى أنْ يَصِحَّ يُبْسُهُ من زبيبٍ وتمرٍ، ونحو ذلك، وهذا يُوجَدُ في كلامِ العرب، يقول: افعلْه عندَ كذا، ويُريدُ به الاتِّساعَ في الوقت، كما تقول: لقيتُ زيدًا سنةَ كذا، وتقول: لقيتُه في يوم أول منها، ويكون جميع السَّنة بعده لم تلقَه فيه، هذا يُمْكنُ في كلام العرب)) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٣٠-٣٣١).

(١) اختار ابنُ كثير وابنُ عاشور والشنقيطيُّ هذا القَولَ، على أنَّ النهيَ متعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ فيكونُ النَّهيُ عن الإسرافِ عائدًا إلى الأكْلِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣١-٣٣٢).

واختار الواحديُّ أنَّ المعنى: لا تُجاوِزوا الحَدَّ في الإعطاءِ بحيثُ تُبالِغونَ في إخراجِ ما يزيدُ على الواجبِ بما يضرُّ أنفُسَكم أو أَهْلِيكم. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٣٧٨)، وينظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٣).

واختار أبو حيان والسعديُّ حَمْلَ الآيةِ على كِلا المعنيَيْنِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

وقال ابنُ جَريرٍ: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي، أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه نهى بِقَولِه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأنعام:١٤١] عن جَميعِ معاني الإسرافِ، ولم يُخصِّصْ منها معنًى دون معنًى. وإذ كان ذلك كذلك، وكان الإسرافُ في كلامِ العَربِ: الإخطاءَ بإصابةِ الحَقِّ في العَطيَّةِ؛ إمَّا بتَجاوُزِ حَدِّه في الزِّيادةِ، وإمَّا بِتَقصيرٍ عَن حَدِّه الواجِبِ- كان معلومًا أنَّ المُفَرِّقَ مالَه مُباراةً، والباذِلَه للنَّاسِ حتى أجحَفَت به عَطيَّتُه؛ مُسرِفٌ بتجاوُزِه حَدَّ اللهِ إلى ما [ليس] له، وكذلك

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وعن عبدِ الله بنِ عمرٍو رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((كُلوا واشْرَبوا، والْبَسوا وتصدَّقوا، في غيرِ إسرافٍ ولا مَخِيلةٍ))(١).

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ كيفيَّةَ إنعامِه على عبادِه بالمَنافِعِ النباتيَّة؛ أتبَعَها بذِكْرِ إنعامِه عليهم بالمنافِعِ الحيوانيَّة؛ فقال(٢):

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾.

أي: وخلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنَ الأَنْعامِ ما هو مهيَّأٌ للحَملِ عليه؛ لكِبَرِه وارْتِفاعِه،

المُقَصِّرُ في بَذلِه فيما ألزَمَه اللهُ بَذلَه فيه، وذلك كمَنْعِه ما ألزَمَه إيتاءَه منه أهلَ سُهمانِ الصَّدقةِ إذا وجَبَت فيه، أو مَنْعِه مَن ألزَمَه اللهُ نَفَقَته مِن أهلِه وعيالِه ما ألزَمَه منها، وكذلك السُّلطانُ في أخذِه مِن رَعِيَّتِه ما لم يأذَنِ اللهُ بأخذِه. كلُّ هؤلاءِ فيما فعلوا من ذلك مُسرفونَ، داخلونَ في معنى مَن أتى ما نهى اللهُ عنه مِنَ الإسرافِ بِقَولِه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأنعام: ١٤١] في عَطيَّتِكم مِن أموالِكم ما يُجحِفُ بكم؛ إذ كان ما قبلَه مِن الكلامِ أمرًا مِن اللهِ بإيتاءِ الواجِبِ فيه أهلَه يومَ حَصادِه، فإنَّ الآيةَ قد كانت تنزِلُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بسببٍ خاصٍّ مِن الأمورِ، والحُكمُ بها على العامِّ، بل عامَّةُ آيِ القُرآنِ كذلك، فكذلك قَولُه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦١٧- ٦١٨).

(١) أخرجه ابن ماجة (٣٦٠٥)، والنسائي (٢٥٥٩)، وأحمد (٦٦٩٥)، وعلقه البخاري في الصحيح (٧/ ١٤٠)

حسَّنَه ابنُ حجرٍ في ((الأمالي المطلقة)) (٣٢)، والألباني في ((صحيح ابن ماجة)) (٢٩٢٠)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((تعليقه على مسند أحمد)) (١٠/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦٥).

كالإبل، ومنها ما هو مهيَّأٌ لغَيْرِ الحَمْلِ؛ لِصِغَرِه وقُرْبِه من الأرضِ، كالغَنَم[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٢-٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٥-١٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٣-٣٣٧).

قال ابن كثيرٍ: (قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحَمولةُ: ما تركبونَ، والفَرْش: ما تأكلونَ وتَحْلِبون، شاة لا تَحْمِل، تأكلونَ لَحْمَها، وتتَّخِذون مِن صُوفِها لحافًا وفَرْشًا. وهذا الذي قاله عبدُ الرحمنِ في تفسيرِ هذه الآية الكريمةِ حَسَنٌ؛ يشهَدُ له قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ * وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٦٩ -٨٠]) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٠).

وقال ابنُ عاشور: (الفَرْشُ: اختُلِفَ في تفسيرِه في هذه الآيةِ؛ فقيل: الفَرْشُ ما لا يُطيقُ الحَمْلَ مِنَ الإبِلِ؛ أي: فهو يُرْكَبُ كما يُفْرَشُ الفَرْشُ، وهذا قولُ الرَّاغِب. وقيل: الفَرْشُ: الصِّغارُ من الإبِلِ أو من الأَنعامِ كُلِّها؛ لأنَّها قريبةٌ مِنَ الأَرْضِ، فهي كالفَرْشِ، وقيل: الفَرْشُ: ما يُذْبَحُ؛ لأنَّه يُفْرَش على الأَرْضِ حين الذَّبْحِ أو بَعْدَه؛ أي: فهو الضَّأْنُ والمَعْزُ والبَقَرُ؛ لأنَّها تُذبَح. وفي «اللِّسان» عن أبي إسحاق: أجمَعَ أهلُ اللُّغَة على أنَّ الفَرْشَ هو صِغارُ الإبِلِ. زاد في «الكشَّاف»: «أو الفَرْش: ما يُنْسَجُ مِنْ وَبَرِه وصُوفِه وشَعَره الفَرْشُ» يريدُ أنَّه كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]. وقال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النحل: ٥- ٧] الآية، ولأنَّهم كانوا يَفْتَرِشون جلودَ الغَنَم والمَعْزِ للجُلُوسِ عليها.

ولفْظُ (فَرْشًا) صالحٌ لهذه المعاني كُلِّها، ومَحامِلُه كُلُّها مناسِبَةٌ للمَقام، فينبغي أن تكونَ مقصودةً من الآيَةِ، وكأنَّ لَفْظَ الفَرْشِ لا يُوازِنُه غيرُه في جَمْعِ هذه المعاني، وهذا من إعجازِ القُرآنِ مِن جانِبِ فَصاحَتِه، فالحَمُولةُ الإبِلُ خاصَّةً، والفَرْشُ يكونُ مِنَ الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ على اختلافِ معاني اسْمِ الفَرْشِ الصَّالحةِ لكلِّ نَوعٍ مع ضَمِيمَتِه إلى كلمة (مِن) الصَّالحةِ للابتداءِ. فالمعنى: وأَنْشَأَ من الأنعامِ ما تَحْمِلون عليه وتَرْكَبونه، وهو الإبِلُ الكبيرةُ، والإبِلُ الصَّغيرةُ، وما تأكلونَه، وهو البَقَرُ والغَنَم، وما هو فَرْشٌ لكم وهو ما يُجَزُّ منها، وجُلودُها)) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٥-١٢٦).

وقال الشنقيطيُّ: (﴿حَمُولَةً﴾ أي: ما يَحْمِلون عليه أَثْقَالَهم كالإبِلِ، وربَّما دَخَلَ البَقَرُ في بَعْضِ الأقطارِ.

﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

أي: كُلُوا ممَّا أباحَه اللهُ تعالى لكم مِنَ الثِّمارِ والزُّروعِ والأَنْعامِ؛ فكُلُّها قد خَلَقَها اللهُ تعالى، وجَعَلَها رِزقًا لكم(١).

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾.

أي: لا تَسْلُكوا طُرُقَ الشَّيطانِ، التي منها تحريمُ بعضِ ما رَزَقَكم اللهُ عزَّ وجلَّ،

وقوله: ﴿وَفَرۡشٗا﴾ الفَرْشُ هنا فيه أقوالٌ متقارِبَةٌ للعُلماءِ: حَكَى الفَرَّاءُ إجماعَ أهْلِ اللُّغَةِ على أنَّ الفَرْشَ صِغارُ الإبِلِ، وهي الفُصْلانُ. وقال بعضُ العلماءِ: الفَرْشُ: الغَنَمُ.

والتَّحقيقُ: أنَّ الآيَةَ تَشْمَلُ كلَّ ذلك، وأنَّ الأنعامَ منها رَكُوبةٌ كالإبِلِ، ومنها فَرْشٌ، وهو ما يُؤْكَل، ويُشْرَبُ مِن لَبَنِه، مع أنَّه ليس صالحًا للرُّكُوب، فيدخُلُ في الفَرْشِ: الغَنَم، وفِصالُ الإبِلِ، وعَجاجيلُ البَقَر؛ لأنَّ وَلَدَ البَقَرَة يقال له: عِجْلٌ. ويُجمَع على: عَجاجِيلَ، على غير قياسٍ، فالغَنَمُ، وفِصالُ الإبِلِ، وعجاجيلُ البَقَر؛ كلُّها يَدْخُلُ في الفَرْشِ. قيل: وإنَّما سُمِّيَتْ هذه الصِّغارُ: (فَرْشًا) لقُرْبِها مِنَ الفِراشِ والمِهادِ الذي هو التُّراب؛ لأنَّها صغيرةٌ قِصارٌ قريبةٌ من الأَرْضِ. هكذا قالوا، واللهُ أعلَمُ.

وعلى كلِّ حالٍ؛ فجميعُ الأقوالِ راجِعَةٌ إلى أنَّ اللهَ أَنْشَأَ الأنعامَ، وجَعَلَ فيها مِنَّةَ الرَّكوبِ والأَكْل. أمَّا قَوْلُ من قال: (فَرْشًا) فإنَّه لا يتناوَلُ إلَّا ما يُصْنَعُ منه الفِراشُ؛ كالضَّأنِ الذي يُصْنَعُ من صُوفِها الفِرَاشُ، والمَعْزِ الذي يُصْنَع من بعْضِ شَعَرِها الفِرَاش، ونحو ذلك، وأنَّ الفَرْشَ هو ما يستمِدُّه الخَلْقُ من جلودِ الأَنعام، وأصوافِها، وأَشْعارِها، وأَوْبَارِها- كما يأتي في سُورةِ النَّحل- فهذا قولٌ غيرُ مُتَّجِه؛ لأنَّ المِنَّةَ تكون بمجَرَّدِ الأَصواف، والأَوْبار، والأَشْعار، والجُلُود، لا بنَفْسِ الأنعام، والمعروفُ في القُرآنِ- وإنْ ذُكِرَ المنَّةُ بالأصوافِ والأوبارِ، والأشْعارِ والجُلُود في قولِه: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾ [النحل: ٨٠] وفي قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾ الآية [النحل: ٨٠]؛ إلَّا أنَّ المرادَ هنا: الامتنانُ بها جميعًا، وأعْظَمُ أنواعِه: الأكْلُ منها، وهذا المعروفُ في القرآنِ؛ كقولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ۞ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢] ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [غافر: ٧٩] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ؛ فتَبَيَّنَ أنَّ المنَّة في الرَّكُوبِ وغَيْرِه من الأكْلِ، وغيرِ ذلك مِنَ النِّعَم؛ يعني: هذا الذي أَنْشَأَ لكم الأنعامَ- حَمُولَتَها وفَرْشَها- هو اللهُ جلَّ وعلا) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٣٥-٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١).

كما اتَّبَعها المشْرِكونَ الَّذين حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ تعالى؛ فالشَّيطانُ لكم- أيُّها النَّاسُ- عدُوٌّ بيِّنٌ ظاهِرُ العَدَاوةِ، لا يأمُرُكم إلَّا بما فيه ضَرَرُكم وشقاؤُكم الأَبَدِيُّ[١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ ...﴾ فيه التَّذكيرُ بمِنَّةِ اللهِ تعالى على النَّاسِ بما أنشَأَ لهم في الأَرْضِ مِمَّا ينفَعُهم[٢].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ فيه التَّحذيرُ من الإِسْرافِ، وهو مجاوزَةُ الحَدِّ، والاعتداءُ كذلك، وذلك إمَّا شرعيٌّ، كتَجَاوُزِ الحَلالِ من الطَّعامِ والشَّرابِ وما يتعلَّق بهما إلى الحَرامِ، وإمَّا فطريٌّ طبَعِيٌّ، وهو تجاوُزُ حَدِّ الشِّبَعِ إلى البِطْنَةِ الضَّارَّة[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المقصودُ منه الزَّجرُ؛ لأنَّ كُلَّ مُكَلَّفٍ لا يحبُّه اللهُ تعالى فهو من أهْلِ النَّارِ؛ والدَّليلُ عليه قولُه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨] فدلَّ هذا على أنَّ كلَّ مَن أحَبَّه اللهُ فليس هو مِن أهْلِ النَّارِ، وذلك يُفيدُ مِن بعضِ الوُجوهِ أنَّ مَن لم يحِبَّه اللهُ فهو مِن أَهْلِ النَّارِ[٤].

الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال اللهُ تعالى في آيةٍ سابقةٍ: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩] فأمَرَ تعالى هناك بالنَّظَرِ في أحوالِها والاستدلالِ بها على وجودِ الصَّانِعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٧-٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٢١-١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦٥).

الحكيمِ، وذَكَرَ في هذه الآيَةِ: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ فأذِنَ في الانتفاعِ بها، وأَمَرَ بصرفِ جزءٍ منها إلى الفُقراءِ؛ فالذي حَصَل به الامتيازُ بين الآيتينِ: أنَّ هناك أَمَرَ بالاستدلالِ بها على الصَّانِعِ الحكيمِ، وهاهنا أَذِنَ في الانتفاعِ بها، وذلك تنبيهٌ على أنَّ الأمرَ بالاسْتِدلالِ بها على الصَّانِعِ الحكيم مُقَدَّمٌ على الإِذْنِ في الانتفاعِ بها؛ لأنَّ الحاصِلَ من الاستدلالِ بها سعادةٌ روحانيَّةٌ أبديَّة، والحاصِل من الانتفاعِ بهذه سعادةٌ جُسمانيَّةٌ سريعةُ الانقضاءِ، والأوَّلُ أَوْلى بالتقديمِ؛ فلهذا السَّبَبِ قَدَّمَ اللهُ تعالى الأمْرَ بالاسْتِدلالِ بها على الإِذْنِ بالانتفاعِ بها(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ أُعيدَ في هذه الآيَةِ غالبُ ما ذُكِرَ في نظيرَتِها المتقَدِّمَةِ في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩]، لكِنْ لَمَّا كان المقصودُ من الآيةِ الأُولى في التَّرتيبِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ...﴾ [الأنعام: ٩٩]، الاستدلالَ على أنَّه الصَّانِعُ، وأنَّه المنفرِدُ بالخَلْقِ، فكيف يُشْرِكونَ به غيرَه؛ ذَيَّلَها بِقَوْلِه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وعَطَفَ عليها قولَه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠] الآيات، ولَمَّا كان المقصودُ من هذه: الامتنانَ وإبطالَ ما ينافي الامتنانَ؛ ذُيِّلَتْ هذه بِقَوْلِه: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾(٢).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ يُفيدُ أنَّ أَوَّلَ وقتِ إباحةِ الأَكْلِ وَقْتَ إِطْلاعِ الشَّجَرِ الثَّمَرَ، والزَّرْعِ الحَبَّ؛ لئلَّا يُتَوَهَّم أنَّه لا يُباحُ إلَّا إذا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٧).

أدرَكَ وأينَعَ؛ فشَجَرُ العِنَب يُنتفَعُ بثَمَرِه حِصْرِمًا فعِنَبًا فزَبيبًا، والنَّخْلُ يُؤكَلُ ثَمَرُه بُسْرًا فَرُطَبًا فتَمْرًا، والقَمْحُ يُؤكَل حَبُّه فَرِيكًا قبل يُبْسِه، وأَكْلِه بُرًّا مَطبوخًا، أو طَحْنِه وجَعْلِه خُبْزًا[١].

٤- تمسَّكَ بعضُهم بِقَوْلِه: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ بأنَّ الأَصْلَ في المنافِعِ الإباحةُ والإطْلاقُ؛ لأنَّ قولَه: ﴿كُلُواْ﴾ خطابٌ عامٌّ يتناوَلُ الكُلَّ، فصار هذا جاريًا مَجْرى قولِه تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾[٢] [البقرة: ٢٩].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾، استدَلَّ به مَن أوْجَبَ الزَّكاةَ في كلِّ زرْعٍ وثَمَرٍ؛ خصوصًا الزيتونَ والرُّمانَ المنصوصَ عليهما[٣].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾، تقديمُ ذِكْرِ الأَكلِ على التَّصدُّقِ؛ لبيانِ أنَّ رعايةَ النَّفْسِ متقدِّمةٌ على الغَيرِ، ولبيانِ أنَّ الابتداءَ بالنِّعمةِ كان مِن فَضْلِه تعالى قبلَ التَّكليفِ[٤].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الاقترانَ لا يُفيدُ التَّسويةَ في الأَحْكامِ؛ فاللهُ تعالى قَرَنَ الأكلَ -وليس بواجبٍ اتِّفاقًا- بالإيتاءِ المذكورِ، وهو واجِبٌ اتِّفاقًا[٥].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ فيه دليلٌ على وجوبِ الزَّكاةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦٣).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٩٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٧٠).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٢).

في الثِّمارِ، وأنَّه لا حَوْلَ لها، بل حَوْلُها حَصادُها في الزُّروعِ، وجَذاذُ النَّخيلِ، وأنَّه لا تتكَرَّرُ فيها الزَّكاةُ، لو مَكَثَت عند العبدِ أحوالًا كثيرةً، إذا كانت لغَيرِ التِّجارةِ؛ لأنَّ اللهَ لم يأمُرْ بالإخراجِ منه إلَّا وَقْتَ حَصادِه[١].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ أمْرٌ بإيتاءِ حَقِّه يومَ الحصادِ؛ ليهتَمَّ به المُكَلَّفُ حينئذٍ؛ حتَّى لا يُؤَخِّرَه عن أوَّلِ وَقتٍ يُمكِنُ فيه الإيتاءُ[٢].

١٠- في قَوْلِه تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ اقتصَرَ على الأَمْرِ بالأَكْلِ؛ لأنَّه المقصودُ من السياقِ؛ إبطالًا لتحريمِ ما حَرَّموه على أنفُسِهم، وتمهيدًا لقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ فالأمرُ بالأَكْلِ هنا مستعمَلٌ في النَّهيِ عن ضِدِّه، وهو عَدَمُ الأَكْلِ مِن بَعْضِها؛ أي: لا تُحَرِّموا ما أُحِلَّ لكم منها؛ اتِّباعًا لتغريرِ الشَّيطانِ بالوَسْوسةِ لزُعَماءِ المُشْركينَ الَّذينَ سَنُّوا لهم تلك السُّنَنَ الباطِلَةَ، وليس المرادُ بالأمرِ الإباحةَ فقط[٣].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ التعبيرُ بخُطُواتِ الشَّيطانِ يدلُّ على أنَّ شرائِعَه سريعةُ الاندراسِ، فلَوْلَا مزيدُ الاعتناءِ مِنَ الفَسَقَة بالتَّتَبُّعِ في كلِّ خُطوةٍ حالَ تأثيرِها؛ لبادَرَ إليها المحوُ؛ لبُطلانِها في نَفْسِها، فلا أمْرَ مِنَ الله يُحييها، ولا كِتابَ يُبقِيها[٤].

بلاغة الآيتين:

١- قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ﴾ الظَّاهِرُ دخولُ قولِه: ﴿وَٱلنَّخۡلَ﴾ وما بَعْدَه في قولِه: ﴿جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٦).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٩٣).

مَعۡرُوشَٰتٖ ﴾ فاندرَجَ في جنَّاتٍ، وخُصَّ بالذِّكْرِ وجُرِّدَ؛ تعظيمًا لمنفَعَتِه، والامتِنانِ به[١].

- وتعريفُ المُسنَد في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ ﴾ يفيدُ الاختصاصَ؛ أي: هو الذي أنشَأَ لا غيرُه، والمقصودُ مِن هذا الحَصْرِ إبطالُ أن يكونَ لغَيرِه حظٌّ فيها؛ لإبطالِ ما جَعَلوه مِنَ الحَرْثِ والأنعامِ مِن نَصيبِ أنصابِهم؛ مع أنَّ اللهَ أنشَأَه[٢].

٢- قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗا ﴾ غيَّرَ أُسلوبَ الحِكايةِ عَن أحوالِ المُشْركينَ، فأقبَلَ على خطابِ المؤمنينَ بهذه المِنَّة وهذا الحُكْمِ، فهذه الجُمَلُ مُعترِضَةٌ، وهي تعريضٌ بتسفيهِ أحلامِ المُشركينَ؛ لِتَحريمِهم على أنفُسِهم ما مَنَّ اللهُ به عليهم[٣].

- وتقديمُ المجرورِ ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ على المفعولِ ﴿حَمُولَةٗ ﴾ الذي هو أَوْلى بالتَّقديمِ في ترتيبِ المتَعَلِّقاتِ؛ لقَصْدِ الاهتمامِ بأمْرِ الأَنعامِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١١٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٢٥).

الآيتان (١٤٢-١٤٤)

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾.

غريب الكلمات:

﴿وَصَّىٰكُمُ﴾: الوصيَّةُ: التقدُّمُ إلى الغَيرِ بما يَعمَلُ به، والوصيَّةُ مِن اللهِ هي الأمرُ المؤكَّدُ، والتَّوصيَةُ تُعرِبُ عن تأكيدِ الأَمرِ، والاعتناءِ بشأنِ المأمورِ به، وأَصْلُ (وصي): يدلُّ على وصْلِ شيءٍ بشَيءٍ؛ يقال: وَطِئْنَا أرضًا واصِيةً، أي: إنَّ نَبْتَها متَّصِلٌ قد امتَلَأتْ منه، ومنه الوصِيَّة؛ كأنَّه كلامٌ يُوصَى؛ أي: يُوصَلُ[1].

مُشْكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِ﴾

﴿ثَمَٰنِيَةَ﴾: منصوبٌ، على أنَّه بدلٌ مِنْ ﴿حَمُولَةً وَفَرۡشٗا﴾، أو بإضمارِ فِعلٍ؛ تقديرُه (أَنْشَأَ).

﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ منصوبٌ، وفي نَصْبِه وجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه بَدَلٌ مِن ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾، والثاني: أنَّه منصوبٌ بـ (أَنْشَأَ) مُقدَّرًا[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٤-٢٧٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٣-٥٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٩٠-١٩٣).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه خَلَقَ من الأَنْعامِ ثمانِيَةَ أزواجٍ: مِنَ الضَّأنِ الذَّكَرَ والأُنثى، ومِنَ المَعْزِ كذلك الذَّكَرَ والأُنثى، ثم أَمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لِمَن حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ، بتَحْريمهم بعضًا من الأَنْعامِ دونَ بعضٍ، أو بتَحْريمِهم بعضَ تلك الأَنْعامِ على إناثِهم دونَ ذكورِهم؛ أَمَرَه أن يُخاطِبَهم مُلزِمًا لهم بأنَّه لا فَرْقَ بين ما حَرَّموا وما أباحُوا: أَحَرَّمَ ربِّي الذَّكَرينِ: ذَكَرَ المَعْزِ والضَّأْنِ، أم حَرَّمَ الأُنْثَيين منهما، أم كان التَّحريمُ لِمَا اشتَمَلَتْ عليه أرحامُ الأُنْثَيَينِ؟ وهم لا يقولونَ بواحدٍ من هذه الأقوالِ، فإذا كان ذلك كذلك فلِمَ حَرَّموا بَعْضًا منها، وأحَلُّوا بعضًا آخَرَ؟ وأَمَرَه تعالى أن يَطْلُبَ منهم إخبارَهُ بيقينٍ وعِلْمٍ عن الفَرْقِ بين ما حَرَّموا وأحَلُّوا إنْ كانوا صادقينَ.

ثم ذَكَرَ اللهُ بقيَّةَ الأَزْواجِ الثَّمانِيَةِ بعد أنْ ذَكَرَ أربعةً منها؛ فذَكَرَ هنا مِنَ الإبِلِ اثنينِ: الذَّكَرَ والأُنثى، ومن البَقَرِ اثنينِ كذلك: الذَّكَرَ والأنثى، ثم أَمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُعيدَ عليهم نَفْسَ الحُجَّة، فيقول لِمَن حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ، وذلك بتَحْريمهم بعضًا من الأنعامِ دون بعضٍ، أو بِتَحْريمِهم بعضَ تلك الأنعامِ على الإناثِ دونَ الذُّكورِ؛ أَمَرَه أن يخاطِبَهم؛ مُلْزِمًا لهم بأنَّه لا فَرْقَ بين ما حَرَّموا وبين ما أباحوا: أَحَرَّمَ ربِّي الذَّكَرينِ: ذَكَرَ الإِبِلِ والبَقَرِ، أم حَرَّمَ الأنثيين منهما، أمْ ما اشْتَمَلَتْ عليه أرحامُ الأُنْثَيَينِ؟ وهم لا يقولونَ بواحدٍ من هذه الأَقْوالِ، فإذا كان ذلك كذلك، فلِمَ حَرَّموا بعضًا منها، وأحَلُّوا بعضًا آخَرَ؟ أم أنَّهم كانوا شُهَداءَ حين وصَّاهم اللهُ بهذا الذي يتَقَوَّلونَه عليه؟ وهذا كذلك باطِلٌ، ثم أخبَرَ تعالى أنَّه لا أحَدَ أشَدُّ ظُلمًا مِمَّنْ كَذَبَ على اللهِ تعالى؛ ليُضِلَّ النَّاسَ بغيرِ عِلمٍ، واللهُ تعالى لا يُوَفِّقُ للحَقِّ القَومَ الظَّالِمينَ.

تفسيرُ الآيتين:

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾.

مناسبةُ الآيتينِ لِمَا قَبْلَهما:

أنَّ الله تعالى لَمَّا رَدَّ دِينَ المشركينَ وأثبَتَ دِينَه، وكانوا قد فَصَّلوا الحُرمةَ بالنِّسبةِ إلى ذُكورِ الآدميِّ وإناثِه؛ ألزَمَهم تفصيلَها بالنِّسبةِ إلى ذُكورِ الأَنْعامِ وإناثِه، ففَصَّلَ أَمْرَها في أُسْلوبٍ أبانَ فيها أنَّ فِعْلَهم بعيدٌ من قانونِ الحكمةِ، فهو موضِعٌ للاستهزاءِ، وأهلٌ للتهَكُّمِ[1]، فقال تعالى:

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣﴾.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِ﴾.

أي: وخَلَقَ اللهُ تعالى مِنَ الأَنْعام- التي امتنَّ بها على عبادِه، وجَعَلَها كلَّها حلالًا طَيِّبًا- ثمانيةَ أزواجٍ، ومنها الذَّكَرُ والأنثى من الضَّأنِ والمعْز، فمِنَ الضَّأْنِ الكَبْشُ والنَّعجةُ، ومن المعْز التَّيْسُ والعَنْز[2].

كما قال تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٧-٣٤٠).

ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ [الشورى: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الَّذينَ حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ تعالى؛ اتِّباعًا للشَّيطانِ، فيُحَرِّمونَ من الأَنْعامِ شيئًا دونَ شَيءٍ، أو يُحَرِّمونَ بَعْضَها على الإناثِ دُونَ الذُّكورِ، فقل مُلْزِمًا لهم بعَدَمِ وُجودِ الفَرْقِ بين ما أباحوا منها وما حَرَّموا: أحَرَّمَ اللهُ الذَّكَرينِ؛ ذَكَرَ المعْزِ والضَّأنِ؟ فليس هذا قَوْلَكم، أم حَرَّمَ أُنثَيَيْهما؟ فليس هذا بِقَوْلِكم أيضًا. فلَسْتُم تقولونَ بتحريمِ الذُّكورِ الخُلَّصِ، ولا الإناثِ الخُلَّصِ من الضَّأْنِ والمَعْزِ. أم تُحَرِّمون ما اشتَمَلَت عليه أرحامُ أنثى الضَّأنِ وأنثى المَعْزِ، من غيرِ فَرْقٍ بين ذَكَرٍ وأنثى؟ فلستُم تقولونَ أيضًا بهذا القَولِ. فإذا كُنْتم لا تقولونَ بأحدِ هذه الأقوالِ الثَّلاثةِ؛ فإنَّ تَفريقَكم بينَ بعضِ الذُّكورِ وبَعْضِ الإناثِ، وبعضِ ما في بُطُونِ الأنعامِ بأنْ تُحِلُّوا بعضَ هذا، وتُحَرِّموا بعضَه؛ تفريقٌ باطِلٌ[1]؟!

﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

أي: قُلْ لهم يا مُحمَّدُ: أخْبِروني عن يقينٍ وعِلمٍ بصِحَّةِ هذا الذي حَرَّمْتُم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٧-٣٤٨).
قال الشِّنقيطيُّ: (تفريقُكم بين بَعضِ الذُّكورِ وبَعضِ الإناثِ، وبعضِ ما في بُطونِ الأنعامِ؛ بأنْ تُحِلُّوا بعضَ هذا، وتُحَرِّموا بَعضَه، إن كانت العِلَّةُ في تحريمِ الذَّكَرِ الذُّكورةَ، فكان اللَّازِمُ أن يَحرُمَ كلُّ ذَكَرٍ؛ لاطِّرادِ العلَّةِ، وإن كانت الأنوثةَ لَزِمَ أن تَحرُمَ كُلُّ أنثى؛ لاطِّرادِ العلَّة، وإن كان كَونَه في البُطونِ- مُشتَمِلةً عليه الرَّحِمُ- لَزِمَ أن يَحرُمَ كُلُّ مولودٍ مِن ذَكَرٍ وأنثى، وكلُّ لَبَنٍ؛ لأنَّ الكُلَّ اشتمَلَت عليه الرَّحِمُ!!
فكأنَّه يقولُ: تفريقُكم هذا باطِلٌ؛ لأنَّه لو كانت العِلَّةُ الذُّكورةَ لَحَرُمَ ذَكَرُ الضَّأنِ والمَعزِ معًا، وأنثاهما كُلًّا، ولو كانت التَّخَلُّقَ في الرَّحِمِ لَحَرُمَ ما اشتمَلَت عليه الرَّحِمُ مُطلقًا، فلِمَ حَرَّمتُم بعضَ هذا، وحلَّلتُم بعضَ هذا؟! وما الفارِقُ بين ما حَلَّلْتم وحَرَّمتُم؟) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٤٨).

وهذا الذي أَحْلَلْتم؛ ما وَجْهُ تحريمِكم لِهذا، وتحليلِكم لِذَاك مع استواءِ الجميعِ؛ إن كنتم صادقينَ في دعواكم هذه[1]؟

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

انتقَلَ مِن تَوبيخِهم بنَفْيِ عِلْمِهم بذلك إلى تَوبيخِهم بنَفْيِ شَهادَتِهم؛ لأنَّ مُدْرَكَ الأشياءِ المعقولُ والمحسوسُ، فإذا انتَفَيا فكيفَ يُحْكَم بتحليلٍ أو بتحريمٍ؟ وكيفيَّةُ انتفاءِ الشَّهادةِ منهم واضحةٌ، وكيفيَّةُ انتفاءِ العِلْمِ بالعَقْلِ أنَّ ذلك مستنِدٌ إلى الوَحْيِ، وكانوا لا يُصَدِّقونَ بالرُّسُلِ، ومع انتفاءِ هَذَينِ كانوا يقولون: إنَّ اللهَ حَرَّمَ كذا؛ افتراءً عليه[2].

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾.

أي: وخَلَقَ الله تعالى من الأنعامِ- التي امتنَّ بها على عبادِه، وجَعَلَها كُلَّها حلالًا طَيِّبًا- ثمانيةَ أزواجٍ، ومنها الذَّكَرُ والأُنثى من الإبِلِ والبَقَرِ؛ فمن الإبلِ: الجَمَلُ والنَّاقة، ومن البَقَرِ: الثَّورُ والبَقَرَة[3].

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الَّذينَ حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ تعالى؛ اتِّباعًا للشَّيطانِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٤، ٦٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٦).

فيُحَرِّمونَ من الأنعامِ شيئًا دون شيءٍ، أو يُحَرِّمونَ بَعْضَها على الإناثِ دُون الذُّكورِ، فقل مُلْزِمًا لهم بعَدَمِ وُجودِ الفَرْقِ بين ما أباحوا منها وحَرَّموا: أَحَرَّمَ اللهُ الذَّكَرينِ؛ ذَكَرَ الإبِلِ والبَقَرِ؟ فليس هذا قَوْلَكم. أم حَرَّمَ أُنثَيَيْهما؟ فليس هذا بِقَوْلِكم أيضًا. فلَسْتُم تقولونَ بتحريمِ الذُّكورِ الخُلَّصِ، ولا الإناثِ الخُلَّصِ من الإبِلِ والبَقَرِ. أم تُحَرِّمون ما اشتَمَلَت عليه أرحامُ أنثى الضَّأنِ وأنثى المَعْزِ، من غيرِ فَرْقٍ بين ذَكَرٍ وأنثى؟ فلستُم تقولونَ أيضًا بهذا القَولِ. فإذا كُنْتم لا تقولونَ بأحدِ هذه الأقوالِ الثَّلاثةِ؛ فإنَّ تَفريقَكم بينَ بعضِ الذُّكورِ وبَعْضِ الإناثِ، وبعضِ ما في بُطُونِ الأنعامِ بأنْ تُحِلُّوا بعضَ هذا، وتُحَرِّموا بعضَه؛ تفريقٌ باطِلٌ[١].

فلَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى بُطلانَ قَوْلِهم وفسادَه، قال لهم قولًا لا حِيلةَ لهم في الخُروجِ مِن تَبِعَتِه؛ حيثُ أَمَرَ نَبِيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لهؤلاءِ الجَهَلَةِ من المشركينَ الَّذين أَخْبَرَ عنهم في الآياتِ السَّابقة[٢].

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾.

أي: أم كنتم- أيُّها المشركونَ- حاضرينَ حين وصَّاكم الله تعالى بهذا الذي تقولونَ عليه سبحانه[٣]؟ فهذا باطِلٌ أيضًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٥، ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٧-٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧).

(٣) بيَّنَ اللهُ تعالى بُطلانَ قَولِهم هذا على طَريقةِ السَّبرِ والتقسيمِ، وهي حصرُ الأوصافِ في الأصلِ؛ للإبقاءِ على الصوابِ، وإلغاءِ الباطلِ منها، فالكفَّار لَمَّا حرَّموا ذكورَ الأنعامِ تارةً، وإناثَها أُخرى ردَّ عليهم بالسَّبرِ والتقسيمِ، وطريقُه: أنَّ علةَ الحرمةِ إمَّا الذُّكورة أو الأُنوثة، أو اشتمالُ الرَّحم عليهما، أو التعبدُ عن اللهِ، وذلك إمَّا بوحيٍ، أو إرسالِ رسولٍ، أو سماعِ كلامِه بلا واسطةٍ، فهذه وجوهُ التحريمِ لا غيرُ، فالأوَّل يستلزمُ حرمةَ جميعِ الذُّكور، والثاني: حرمةَ جميعِ الإناثِ، والثالث: حرمةَ الصنفين معًا، والأخذُ عن الله باطلٌ، ولَم يدَّعوه، وكذلك بواسطةِ رسولٍ؛ لأنَّه لم يأتِ إليهم قبلَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإذا بطَل الجميعُ ثبَت المدَّعى، وهو أنَّ ما قالوه افتراءٌ وضلالٌ. يُنظر: ((مفاتيح التفسير)) لأحمد الخطيب (ص: ٥٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٩-٦٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٩).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

أي: لا أَحَدَ أشدُّ ظُلمًا مِمَّنْ كَذَبَ على الله تعالى، بقَصْدِ إضلالِ عبادِ اللهِ عن سبيلِ الله بغيرِ بيِّنةٍ منه ولا بُرهانٍ(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يُوَفِّقُ للحَقِّ الظَّالِمينَ(٢)، ومِن جُمْلَتِهم مَنِ افترَى عليه الكَذِبَ، فأضافَ إليه تحريمَ ما لم يُحَرِّمْه سبحانَه(٣).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ قيل: قدَّمَ الضَّأْنَ على المَعْزِ لغلاءِ ثَمَنِه، وطِيبِ لَحْمِه، وعِظَمِ الانتفاعِ بِصُوفِه(٤).

٢- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، تفصيلُ ما ذُكِرَ من الذُّكورِ والإناثِ وما في بُطونِها؛ للمبالغةِ في الرَّدِّ عليهم بإيرادِ الإنكارِ على كلِّ مادَّةٍ من موادِّ افترائِهم، فيَظْهَر للمُتفكِّرِ فيه منهم أنَّه لا وَجْهَ يُعْقَلُ لقَوْلِهم(٥).

٣- قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ...﴾ لَمَّا كانوا قد حَرَّموا في الجاهليَّةِ بَعْضَ الغَنَمِ، ومنها ما يُسمَّى بالوصيلةِ، وبعضَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧).

(٢) قال ابنُ عطيةَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨]: (عمومُ معناه الخصوصُ فيمَن حتَّم كفرُه وموافاتُه عليه، ويحتملُ أن يريدَ الإخبارَ عن أنَّ الظَّالمَ في ظُلمِه ليس على هدًى مِن الله، فتجيءُ الآيةُ عامةً تامةَ العمومِ) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٢٤-١٢٥).

الإبِلِ كالبَحِيرةِ والوَصيلةِ أيضًا، ولم يُحرِّموا بعضَ المَعْزِ ولا شيئًا من البَقَر، ناسَبَ أنْ يُؤتَى بهذا التقسيمِ قبل الاستدلالِ؛ تمهيدًا لتحَكُّمِهم إذ حَرَّموا بعضَ أفرادٍ من أنواعٍ، ولم يُحَرِّموا بعضًا مِن أنواعٍ أخرى، وأسبابُ التَّحريمِ المزعومةُ تتأتَّى في كلِّ نوعٍ؛ فهذا إبطالٌ إجماليٌّ لِمَا شَرَعُوه، وأنَّه ليس مِن دينِ الله، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1] [النساء: ٨٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ استدَلَّ به بعضُ المالكيَّةِ على أنَّ الضَّأْنَ والمَعْزَ صنفانِ لا يُجْمَعانِ في الزَّكاةِ، كما أنَّ الإبِلَ والبَقَرَ كذلك[2].

٥- في قَوْلِه تعالى: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ﴾ لَمَّا كانوا عاجزينَ عن الإنباءِ؛ دَلَّ ذلك على أنَّهم حَرَّموا ما حرَّموه بجهالةٍ وسُوءِ عَقلٍ لا بِعِلْمٍ، وشأنُ مَن يتصَدَّى للتَّحريمِ والتَّحليلِ أن يكون ذا علمٍ[3].

٦- يُستفادُ مِن قَوْلِه تعالى: ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أنَّه مِنَ الظُّلْمِ أنْ يُقْدِمَ أحَدٌ على الإفتاءِ في الدِّينِ ما لم يَكُنْ قد غَلَبَ على ظَنِّهِ أنَّه يُفْتي بالصَّوابِ الذي يُرضِي اللهَ، وذلك إنْ كان مجتهدًا فبالِاستنادِ إلى الدَّليلِ الذي يَغْلِبُ على ظَنِّه مصادَفَتُه لمرادِ الله تعالى، وإن كان مُقَلِّدًا؛ فبالاستنادِ إلى ما يَغْلِبُ على ظَنِّه أنَّه مَذْهَبُ إمامِه الذي قَلَّدَه[4].

بلاغة الآيتين:

١- **قوله:** ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أمَرَه اللهُ تعالى أنْ يقولَ لهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٩).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٣٥).

تبكيتًا، وإظهارًا لانقطاعِهم عن الجوابِ[١]: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، والهمزةُ في قَولِه: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ للاستفهامِ الإنكاريِّ، وللتَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ حيث نَسَبُوا ما حَرَّموه إلى اللهِ تعالى[٢]، المقصودُ في الموضعينِ إبطالُ تحريمِ ما حَرَّمَ المشركونَ أَكْلَه، ونفيُ نِسبَةِ ذلك التَّحريمِ إلى الله تعالى[٣].

٢- قوله: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وقدْ فَصَلَ بهذه الجُملة المعترِضةِ بين المتعاطفَينِ على سَبيلِ التَّقريعِ لهم والتَّوبيخِ؛ حيثُ لم يَسْتَنِدوا في تَحريمِهم إلَّا إلى الكَذِبِ البَحْتِ والافتراءِ[٤]، وفيه: تهكُّمٌ؛ لأنَّه لا يُطلَب تلقِّي عِلْمٍ منهم، وهذا التَّهكُّم تابعٌ لصورةِ الاستفهامِ وفرعٌ عنها[٥].

- وفيه: تكريرٌ للإلزامِ، وتثنيةٌ للتَّبكيتِ والإفحامِ[٦].

٣- قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ معنى الهمزةِ الإنكارُ والتَّوبيخُ[٧]، وقد خَصَّ بالإنكارِ حالةَ المشاهَدَة، تهكُّمًا بهم؛ لأنَّهم كانوا يُكَذِّبونَ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم[٨].

- في قوله: ﴿وَصَّىٰكُمُ﴾ أُطْلِقَ الإيصاءُ على ما أَمَرَ اللهُ به؛ لأنَّ النَّاسَ لم يُشاهِدوا اللهَ حين فِعْلِهم ما يأمُرُهم به، فكان أمْرُ اللهِ مؤكَّدًا، فعَبَّرَ عنه بالإيصاءِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣١-١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٤).

(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٤).

تنبيهًا لهم على الاحترازِ مِنَ التَّفويتِ في أوامِرِ اللهِ[١].

٤- قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الفاءُ لترتيبِ ما بَعدَها على ما سَبَقَ من تَبكيتِهم، وإظهارِ كَذِبِهم وافْتِرائِهم[٢].

٥- قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه: تهديدٌ ووعيدٌ لهم إنْ لم يُقْلِعوا عمَّا هُم فيه؛ بأنَّ اللهَ يَحْرِمُهم التَّوفيقَ، ويَذَرُهم في غَيِّهم وعَمَهِهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٦).

الآيات (١٤٥-١٤٧)

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿دَمًا مَّسْفُوحًا﴾: أي سائلًا مصبوبًا مهراقًا، وأَصْلُ السَّفْحِ: إراقةُ الشَّيءِ[1].

﴿رِجْسٌ﴾: أي: قَذَرٌ مُنْتِنٌ، وأَصْلُ (رجس): يَدُلُّ على اختِلاطٍ، ومنه الرِّجْسُ: بمعنى القَذَر؛ لأنَّه لَطْخٌ وخَلْطٌ[2].

﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾: أي: ذُكِر عندَ ذبحِه غيرُ اسمِ الله، أو ما ذُبِحَ لغَيرِ الله؛ وإنَّما قيلَ ذلك؛ لأنَّه يُذكَرُ عند ذَبْحِه غيرُ اسْمِ اللهِ فيُظْهَرُ ذلك، أو يُرفَع الصوتُ به، والإهلالُ: رَفْعُ الصَّوتِ عند رُؤيَةِ الهِلالِ، ثمَّ استُعْمِلَ لكلِّ صَوتٍ، وأَهَلَّ بالحَجِّ، أي: رَفَعَ صَوْتَه بالتَّلبِيَةِ، وأَصْلُ (هلل): يدلُّ على رَفْعِ صَوْتٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

﴿ٱضۡطُرَّ﴾: أُلجِئَ وأُحْوِجَ، وأصل الاضطرارِ: فِعلُ ما لا يَتهيَّأُ له الامتناعُ منه[١].

﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾: غيرَ طالبٍ ما ليْسَ له طَلَبُه[٢].

﴿وَلَا عَادٖ﴾: ولا ظالمٍ، والاعتداءُ: التَّجاوُزُ، ومُنافاةُ الالتئامِ[٣].

﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: أَي: اليهودُ، وَيُقَال: كَانَت الْيَهُودُ تُنْسَبُ إِلَى يهوذاء بن يَعْقُوب، ويُقال هَادَ فُلان: إذا تحرَّى طريقةَ اليَهُودِ في الدِّينِ[٤].

﴿ٱلۡحَوَايَآ﴾: الحَوَايَا: جمع حَوِيَّة، وهي الأمعاءُ، وأصله من: حَوَيْتُ كذا حَيًّا وحَوَايَةً، وأَصْلُ (حوي): جَمَعَ[٥].

﴿بِبَغۡيِهِمۡ﴾: بتَجاوُزِهم الحقَّ إلى الباطِل، وأصل البَغي: طلبُ الشَّيءِ، وجِنسٌ من الفَسَادِ، والظُّلمُ، والترفُّع والعُلُوُّ، ومجاوزةُ المقْدار[٦].

مُشْكِلُ الإِعْرابِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن

---

(١) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٣).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١ - ٢٥٢).

يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾

قَولُه ﴿أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ في محلِّ نصبٍ على الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّآ﴾، وهذا الاستثناءُ مُنقَطِعٌ؛ لأنَّ المُستثنى كَوْنٌ مسبوكٌ من ﴿أَن يَكُونَ﴾ وليس مَيْتَةً، وذلك ليس مِن جِنْسِ الطَّعامِ، وقيل: هو استثناء متَّصِلٌ مِنْ عُمومِ الأكوانِ التي دلَّ عليها وقوعُ النَّكرةِ في سياقِ النَّفيِ؛ أي: لا أجِدُ كائنًا مُحَرَّمًا إلَّا الكائِنَ مَيتةً.

﴿فِسْقًا﴾ منصوبٌ على أنَّه مَعطوفٌ على ﴿لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾، وجُملةُ ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ اعتراضٌ بينَ المُتعاطِفَينِ، والتقديرُ: إلَّا أنْ يَكونَ لَحْمَ خِنزيرٍ- فإنَّه رِجسٌ- أو إلَّا أنْ يكونَ فِسقًا[1].

٢- **قوله تعالى:** ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسمُ إشارةٍ مبنيٌّ، وفي مَحَلِّه ثلاثةُ أقوالٍ: أحَدُها: الرَّفعُ على أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلك. الثاني: الرَّفْعُ على أنَّه مبتدأٌ، والخبرُ ما بعده، والعائِدُ محذوفٌ، أي: ذلك جَزَيْناهُمُوه. الثالث: النَّصْبُ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ قُدِّمَ على عامِلِه؛ لأنَّ (جزى) يتعدَّى لاثنينِ، والتَّقديرُ: جزيناهم ذلكَ التحريمَ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لهؤلاءِ المُشركينَ الَّذين

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٩٦-١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨- أ/ ١٣٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٨/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٧-٥٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٠٧).

حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ تعالى افتراءً عليه: إنَّه لا يجِدُ فيما أَوْحاه اللهُ تعالى إليه شَيئًا مُحَرَّمًا أَكْلُه- مِمَّا زَعَمُوا أنَّ اللهَ حَرَّمَه- إلَّا أنْ يكونَ مَيْتةً أو دمًا مَسفوحًا، أو لَحْمَ خِنْزيرٍ؛ فإنَّ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ خَبَث ونَجَسٌ مُستَقْذَر، وإلَّا أنْ يَكونَ مِمَّا ذُبِحَ لغَيرِ الله؛ فإنَّه خُروجٌ عن طاعَةِ اللهِ إلى مَعْصِيَته والكُفْرِ به، فمَنْ أَلْجَأَتْه الضَّرورةُ لأكْلِ إحدى هذه المُحَرَّماتِ، وهو غيرُ مريدٍ لِأكْلِها تلذُّذًا مِن غَيرِ اضْطرارٍ، ولا متجاوِزٍ ما أباحَه اللهُ منها، فهذا لا حَرَجَ عليه في الأكْلِ منها؛ فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

وأخبرَ تعالى أنَّهُ حَرَّمَ على اليهودِ أكْلَ كُلِّ حيوانٍ مِن ذَوِي الأَظْفارِ، وحَرَّمَ عليهم شُحُومَ البَقَرِ والغَنَمِ، إلَّا ما عَلِقَ بِظَهْرَيْهما من الشُّحومِ؛ فإنَّها مُباحَةٌ لهم، وتُباحُ لهم أيضًا الشُّحومُ التي تَحمِلُها الأمعاءُ، وما جرى مَجراها مِمَّا كان مُدَوَّرًا في البَطْنِ؛ كالمَصَارينِ ونحوها، وما اختَلَطَ مِنَ الشُّحومِ بالعِظامِ كشَحمِ الأَلْيَةِ، ثم ذَكَرَ تعالى أنَّ ذلك التَّحريمَ والتَّضييقَ كان جزاءَ كُفْرِهم وظُلْمِهم، وأنَّه تعالى صادِقٌ في كُلِّ ما يقولُ ويفعلُ ويَحْكُمُ.

ثم خاطَبَ اللهُ تعالى نَبِيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قائلًا له: إنْ كَذَّبُوك فَقُلْ لهم: إنَّ رَبَّهُم ذو رحمةٍ واسِعَةٍ لِمَن أطاعَه؛ فَلْيُسارِعوا إلى رَحْمَتِه بفِعْلِ أَسْبابِها، كما أنَّ مِن رَحْمَتِه بهم إمهالَه لهم، وعدَمَ إعجالِهم بالعِقابِ، وأَمَرَه أن يقولَ لهم أيضًا: إنَّ سَطْوَتَه تعالى ونَكالَه وعَذابَه لا يَرُدُّه شيءٌ عَنِ القَومِ المجْرمينَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى ذمَّ المشركينَ على ما حَرَّمُوا من الحلالِ، ونَسَبُوه إلى الله، وأبْطَلَ قَوْلَهم- أَمَرَ تعالى رَسُولَه أن يُبَيِّنَ للنَّاسِ ما حَرَّمَه اللهُ عليهم؛ ليَعْلَموا أنَّ ما عدا ذلك حلالٌ؛ فمَنْ نَسَبَ تحريمَه إلى الله تعالى فهو كاذِبٌ مُبْطِلٌ؛ لأنَّ التَّحريمَ لا يكون إلَّا مِن عِند اللهِ على لِسانِ رسولِهِ، فقال[1]:

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ﴾.

أي: قل- يا مُحمَّد- لهؤلاءِ الَّذين حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ افتراءً على اللهِ: لا أجِدُ فيما أَوْحاه اللهُ تعالى إليَّ شَيئًا مُحَرَّمًا على آكلٍ يأكُلُه مِمَّا تذكُرونَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حرَّمَه[2].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((ماتَتْ شَاةٌ لسَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ، فقالت: يا رسولَ اللهِ، ماتَتْ فلانةُ؛ يعني: الشَّاةَ، فقال: فَلَوْلا أَخَذْتُم مَسْكَها[3]، فقالَتْ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧).

قال ابنُ كثيرٍ: (قيل: معناه: لا أجِدُ شيئًا ممَّا حَرَّمتم حرامًا سوى هذه. وقيل: معناه: لا أجِدُ من الحيوانات شيئًا حرامًا سوى هذه. فعلى هذا يكونُ ما ورد من التَّحريماتِ بعد هذا في سورة «المائدة»، وفي الأحاديثِ الواردة، رافعًا لمفهومِ هذه الآية. ومن النَّاسِ من يسمِّي ذلك نَسْخًا، والأكثرون من المتأخِّرينَ لا يُسَمُّونَه نسخًا؛ لأنَّه من بابِ رَفْعِ مباحِ الأَصْلِ، والله أعلم) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٢). ويرى ابنُ تيميَّة أنَّها ليست منسوخةً. يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٥).

وقال القرطبيُّ: (الآيَةُ مَكِّيَّةٌ، ولم يَكُنْ في الشَّريعة في ذلك الوَقْتِ مُحرَّمٌ غَيْرُ هذه الأشياءِ، ثُمَّ نزلَتْ سورةُ المائِدَةِ بالمدينةِ، وزِيد في المحرَّماتِ؛ كالمنخَنِقَة والموقُوذةِ والمتردِّيةِ والنَّطيحةِ والخمرِ وغيرِ ذلك، وحَرَّم رسولُ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه بالمدينةِ أكلَ كلِّ ذي نابٍ مِن السِّباعِ وكلِّ ذي مخلبٍ مِن الطَّير). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١١٥).

(٣) المَسكُ- بفتحِ المِيمِ-: الجِلْد؛ لأنَّه يُمسَكُ فيه الشَّيءُ إذا جُعِل سِقاءً. يُنظر: ((غريب الحديث))

نَأْخُذُ مَسْكَ شاةٍ قد ماتَتْ؟ فقال لها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: إنَّما قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ فإنَّكم لا تَطْعَمونَه؛ إنْ تَدْبُغوه فتَنْتَفِعوا به، فأَرْسَلَت إليها فسَلَخَتْ مَسْكَها فدَبَغَتْه فأَخَذَتْ منه قِرْبَةً حتى تَخَرَّقَتْ عندها))[(١)].

﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾.

أي: إلَّا أن يكونَ المطعومُ مَيْتَةً، قد ماتَتْ بغيرِ ذكاةٍ شَرعيَّةٍ، أو دَمًا مُنْصَبًّا مُسالًا، كالذي يخرُجُ من الذَّبيحةِ عند ذَكاتِها[(٢)]، أو إلاَّ أن يكونَ لَحْمَ خِنزيرٍ- ويدخُل فيه شَحْمُه بالإجماعِ- فإنَّ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ، خَبَثٌ ونَجَسٌ ونَتَنٌ مُستقْذَرٌ[(٣)].

للحربي (٢/ ٥٦٨)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٣١).

(١) أخرجه أحمد (٣٠٢٧)، وأبو يعلى (٢٣٣٤)، والطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) (٢٧١٣)، وابن حبان (١٢٨٠)، والطبراني (١١/ ٢٨٩) (١١٧٦٥).
صحَّح إسناده ابنُ جرير الطبري في ((مسند ابن عباس)) (٢/ ٧٩٩)، والنووي في ((المجموع)) (١/ ٢١٨)، وابن تيمية كما في ((نيل الأوطار)) للشوكاني (١/ ٧٧)، وصححه الذهبي في ((المهذب)) (١/ ٢٠)، وصحح إسناده ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (١/ ٣٧٠)، وابن الملقن في ((البدر المنير)) (١/ ٥٨٣)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٥/ ١٣).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٦٦٨٦) بنحوه مختصرًا دون ذكرِ الآية؛ من حديث سودةَ بنت زمعة رضي الله عنها.

(٢) قال الشنقيطيُّ: (الدمُ المسفوح: هو الذي صُبَّ من شيءٍ حي، كفصدِ عِرقِ الدابةِ، أو جَرحها فيسيلُ منها دَمٌ، أو هو الذي يَسِيلُ عِنْدَ التَّذْكِيَةِ، كأن تُذْبَح فَيَسِيل من عروقِها، أو عندَ العَقرِ كأن يرمِيَها بالنَّبلِ، فيسيل الدَّمُ، هذا هو الدَّمُ المسفوحُ) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).
قال الشنقيطي: (واللهُ جلَّ وعلا كأنَّه علَّله، قال: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ وقَدْ تَقَرَّر في الأصول، في مَسْلَكِ النَّصِّ، وفي مسلَكِ الإيماءِ والتَّنبيه:

﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

أي: لا أجِدُ أيضًا فيما أَوْحاه اللهُ تعالى إليَّ شَيئًا مُحَرَّمًا أكلُه- إضافة إلى ما سبق من كونِه مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ- إلَّا أن يكونَ مَذْبوحًا ذُبِحَ لغَيرِ اللهِ، فذُكِرَ عليه غيرُ اسْمِه سبحانه؛ فإنَّه خروجٌ عن طاعَةِ الله تعالى إلى مَعْصِيَتِه والكُفْرِ به[1].

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: فمَنْ ألجَأَتْه الضَّرورةُ إلى أكْلِ شَيءٍ مِن هذه المحَرَّماتِ الأربعةِ، بأنْ لم يكُنْ لَدَيه شَيءٌ حلالٌ يَطْعَمُه، وخاف على نَفْسِه الموتَ فأَكَلَ منها، غيرَ مُريدٍ التلذُّذَ بأكلِها، ولا عادٍ في أكْلِها بتجاوُزِ ما أباحَه اللهُ له، فيأكُلُ بِقَدْرِ ما يَدْفَعُ عنه الهلاكَ، ولا يأكُلُ زيادةً عن حاجَتِه؛ فمَنْ كانت هذه حالَه فلا حَرَجَ عليه في الأَكْلِ منها حِينَئِذٍ؛ فإنَّ رَبَّكَ غفورٌ لِما فَعَلَ من ذلك، يتجاوَزُ عنه ويرفَعُ الإثمَ عنه، ويستُرُ عليه بتَرْكِه عُقوبَتَه على ذلك، ولو شاءَ لَعَاقَبَه عليه، رحيمٌ بإباحَتِه أكْلَ ذلك عند الضَّرورةِ، ولو شاء لَحَرَّمه عليه[2].

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا

أنَّ الفاءَ مِن حُروفِ العِلَّةِ) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣١-٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٧-١٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٥٧-٣٨٠).

وليس المقصودُ في الآيةِ حصرَ المحرَّمات في هذه الأربعةِ، وإنما المقصودُ منها الردُّ على مزاعمِ المشركين، وذلك أنَّ الكفَّار- كما قال الشافعيُّ- لَمَّا حرَّموا ما أحلَّ الله، وأحلُّوا ما حرَّمه اللهُ، وكانوا على المضادَّةِ والمحادَّةِ، جاءت الآيةُ مُناقضةً لغرضِهم، فكأنَّه قال سبحانَه: لا حلالَ إلا ما حرَّمتموه، ولا حرامَ إلا ما أحْلَلْتموه. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣٧-٦٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٠-٣٨٣).

عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ جلَّ وعلا أشياءَ حَرَّمَها على هذه الأُمَّةِ على لِسانِ نَبِيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وكان قد حَرَّمَها عليهم لمصالِحَ مَعْلُومةٍ عنده جلَّ وعلا؛ بيَّنَ أنَّهُ حَرَّمَ على اليهودِ بَعْضَ الأشياءِ؛ مؤاخذةً لهم، وجزاءً لهم باجْتِرامِهم السَّيِّئاتِ[١].

وأيضًا لَمَّا كان قولُه تعالى: ﴿طَاعِمٍ﴾ -نَكِرَة في سياقِ النَّفْيِ- يعُمُّ كُلَّ طاعِمٍ مِن أهْلِ شَرْعِنا وغَيْرِهم، وكان سبحانَه قد حَرَّمَ على اليهودِ أشياءَ غيرَ ما تَقَدَّم؛ فذَكَرَها هنا؛ مُبَيِّنًا لإحاطَةِ عِلْمِه، وتكذيبًا لليهودِ في قَوْلِهم: لَمْ يُحَرِّمِ اللهُ علينا شيئًا، إنَّما حَرَّمْنَا على أنفُسِنا ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نَفْسِه[٢].

وقيل: إنَّ ذلك بيانٌ مِنَ اللهِ تعالى لِمَا حَرَّمَه على بني إسرائيلَ خاصَّةً- عقوبةً لهم لا على أنَّه مِنْ أُصُولِ شَرْعِه على ألسِنَةِ رُسُلِه قَبْلَهم أو بَعْدَهم- إلحاقًا بالمسْتَثْنى في الآيَةِ السَّابِقَةِ بالعَطْفِ عليه، فإنَّه بعد نَفْيِه تعالى تحريمَ أيِّ طعامٍ على أيِّ طاعِمٍ، استثنى من هذا العامِّ ما حَرَّمَه تحريمًا عامًّا مُؤَبَّدًا على غيرِ المضْطَرِّ، ثم ما حرَّمَه تحريمًا عارِضًا على قومٍ مُعَيَّنينَ لسببٍ خاصٍّ[٣].

وقيل: لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ التَّحريمَ إنَّما يَستَنِدُ للوَحْيِ الإلهيِّ، أخْبَرَ أنَّه حَرَّمَ على بعضِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ أشياءَ، كما حَرَّمَ على أهْلِ هذه المِلَّةِ أشياءَ مِمَّا ذكَرَها في الآيَةِ قَبْلُ؛ فالتَّحريمُ إنَّما هو راجِعٌ إلى الله تعالى في الأُمَمِ جَميعِها[٤]، فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٦).

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾.

أي: وحرَّمْنا على اليهودِ أكْلَ كُلِّ حيوانٍ مِنْ ذَواتِ الأَظْفارِ (أي مِمَّا له ظُفرٌ في أُصْبُعِه)، كالنَّعامة والبَعيرِ والإِوَزِّ والبَطِّ[1].

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾.

أي: وحَرَّمنا على اليهودِ شُحُومَ البَقَرِ والغَنَم[2].

عن جابرِ بنِ عبد اللهِ رضي الله عنه، أنَّهُ سَمِعَ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقول عامَ الفَتْحِ، وهو بمكةَ: ((إنَّ اللهَ ورسولَه حرَّمَ بيعَ الخَمرِ والمَيْتةِ والخِنزيرِ والأَصْنامِ. فقيل: يا رسولَ اللهِ! أرأيتَ شُحُومَ المَيْتةِ؛ فإنَّهُ يُطْلَى بها السُّفُنُ، ويُدْهَنُ بها الجلودُ، ويَسْتَصْبِحُ بها الناسُ؟ فقال: لا؛ هو حرامٌ. ثم قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عند ذلك: قاتَلَ اللهُ اليهودَ؛ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لَمَّا حرَّمَ عليهم شُحُومَها؛ أَجْمَلوهُ[3] .....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣٨، ٦٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٨-٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨).

قال الشنقيطي: (التحقيقُ: أنَّ الشُّحومَ المحرَّمةَ عليهم مِن البَقَرِ والغَنَم مقصورةٌ على الثُّروب، وشحمِ الكُليتين.

والثُّرُوب: جمع ثَرْب؛ وهو الغِطَاءُ- الغِشَاءُ- من الشَّحْمِ الرَّقِيقِ الذي يغطي الجوفَ فيكون على الكَرِشِ والمصَارِين، هذا وشَحمُ الكُلَى هو الحرامُ عليهم، أمَّا غيره فيدخُلُ في الاستِثناءاتِ الآتية) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٨٩).

وقال ابنُ عاشورٍ: (وقد أباح اللهُ لليَهودِ أكْلَ لُحومِ البَقَرِ والغَنَمِ، وحَرَّمَ عليهم شُحومَهما إلَّا ما كان في الظَّهرِ. و﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ معطوفٌ على ﴿ظُهُورُهُمَآ﴾، فالمقصودُ العَطفُ على المُباحِ، لا على المُحَرَّم؛ أي: أو ما حَمَلَتِ الحوايا، وهي جَمعُ حَوِيَّةٍ، وهي الأكياسُ الشَّحميَّةُ التي تحوي الأمعاءَ. ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ هو الشَّحمُ الذي يكونُ مُلتَفًّا على عَظمِ الحَيوانِ مِنَ السِّمَن، فهو مَعفُوٌّ عنه؛ لِعُسرِ تَجريدِه عن عَظمِه، والظَّاهِرُ أنَّ هذه الشُّحومَ كانت مُحرَّمةً عليهم بشريعةِ موسى عليه السَّلامُ) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٢).

(٣) أَجْمَلوهُ: أي أذابُوه، والضَّميرُ راجعٌ إلى الشَّحْمِ المفهومِ من الشُّحومِ. يُنظر: ((شرح النووي

ثم باعوهُ، فأكَلُوا ثَمَنَه))[١].

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾.

أي: ما عدا ما عَلِقَ بِظَهْرِ البَقَر والغَنَم من الشُّحُومِ؛ فإنَّها مُباحةٌ لهم[٢].

﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾.

أي: أو ما حَمَلَتْه الحوايا وهي الأمعاءُ، وما جرى مَجْرَاها مِنْ كُلِّ ما كان مُدَوَّرًا في البَطْنِ كالمَصَارينِ ونحو ذلك، فالمتَعَلِّقُ بهذا من الشَّحْمِ لا يَحْرُمُ عليهم أيضًا[٣].

﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

أي: وما اختَلَطَ من الشُّحُومِ بالعِظامِ، كشَحْمِ الأَلْيةِ وغيرِه؛ حلالٌ لهم أيضًا[٤].

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

أي: ذلك التَّضييقُ والتَّحريمُ على اليَهودِ إنَّما فَعَلْناه بهم عقوبةً لهم؛ بسبَبِ كُفْرِهم، وظُلْمِهم، ومُخالَفَتِهم أوامِرَنا، وتَعَدِّيهم في حقوقِ اللهِ، وحُقوقِ عبادِه، وإنَّا لَصَادِقونَ في كُلِّ ما نقولُ ونفعَلُ ونَحْكُم به، ومن ذلك ما ذَكَرْنا مِن تَحْرِيمنا عليهم ما حَرَّمْنا، وما جَزَيْناهم به[٥].

على مسلم)) (١١/ ٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ١٨٩٦).

(١) رواه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (١٥٨١) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٩-٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٩١).

وشحمُ الأَلْية داخلٌ فيما اختلط بعظم بالإجماعِ.

قال الواحديُّ: (﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يعني: شحمَ الألية في قول جميعِهم) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٥-٣٥٦)، ((تفسير السعدي))

كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾.

أي: فإنْ كَذَّبَك- يا مُحمَّدُ- مخالِفُوكَ مِنَ المُشْركينَ واليهودِ، وتمرَّدوا؛ فَقُلْ لهم ترغيبًا وتَرْهيبًا وجَمْعًا بين الوَعْدِ والوَعيدِ: ربُّكم الذي أنشَأَكُم وأوجَدَكُم، ذو رحمةٍ واسِعَةٍ لِمَن أطَاعَهُ، فيَرْحَمُه ويُدْخِلُه جَنَّتَه؛ فسارِعُوا إلى رَحْمَتِه بأسبابِها، التي رَأْسُها تصديقُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما جاءَ به، وقد رَحِمَكُم ربُّكم؛ حيثُ أَمْهَلَكم، ولم يُعاجِلْكم بعُقُوبَتِه، وأَغْدَقَ عليكم نِعَمَه، وأنتم تُكذِّبونَ رُسُلَه، وتتمَرَّدونَ عليه[1].

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: ولكِنْ سَطْوَتُه ونَكَالُه وعَذابُه، لا يَرُدُّه شَيءٌ عَنِ الَّذين اكتَسَبوا الذُّنوبَ العَظيمةَ، إذا أحَلَّه عليهم؛ فاحذَرُوا الجرائِمَ الموصِلَة لعِقابِه، والتي أعْظَمُها ورَأْسُها تكذيبُ مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[2].

(ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٩١-٣٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٣-٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٧-٤٠٩).

الفَوائِد التربويَّة:

١- الظلمُ سببٌ للعُقوباتِ وتحريمِ بعضِ الطيِّباتِ، كما وقعَ لليهودِ، حيث قال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ إلى قَوْلِه ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ فحَرَّم تعالى على اليَهودِ طائِفَةً من الطَّيِّباتِ، ولم يُحِلَّها لهم في حالٍ من الأحوالِ عقوبةً لهم، وفي ذلك أَتَمُّ تحذيرٍ لهذه الأُمَّةِ مِنْ أنْ يَبْغُوا؛ فيُعاقَبُوا كما عُوقِب مَن قَبْلَهم[١].

٢- ينبغي ألَّا يغتَرَّ أحدٌ في سُوءِ أعمالِه وتحقيقِ ضَلالِه، بإمهالِ اللهِ تعالى له؛ يُرْشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، فلمَّا أخبرَ عن رحْمَتِه، نوَّهَ بعظيمِ سَطْوَتِه[٢].

الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ استُدِلَّ بهذه الآيَةِ على أنَّه إنَّما حُرِّمَ مِنَ المَيْتَةِ أكْلُها، وأنَّ جِلْدَها يَطْهُرُ بالدِّباغِ[٣].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ ظاهِرُ الآية- مع عَطْفِ ما حَرَّمَ على بني إسرائيلَ عليها- أنَّ حَصْرَ مُحَرَّماتِ الأطعِمَةِ في الأنواعِ الأربعةِ أَصْلٌ من أصولِ شَرائِعِ جَميعِ رُسُلِ اللهِ تعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٠٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٠).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٣١).

٣- تقييدُ الدَّمِ بـ (المَسْفُوح) للتَّنبيهِ على العَفْوِ عن الدَّمِ الذي يَنِزُّ مِنْ عُرُوقِ اللَّحْمِ عند طبْخِه؛ فإنَّه لا يُمْكِنُ الاحترازُ عنه[١].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾، لم يَقُلْ: (أو خِنْزِيرًا)؛ لِيُفيدَ تحريمَ لَحْمِه على كلِّ حالٍ سواءٌ ذُبِحَ أم لا، ولو قيل: (أو خِنزيرًا) لاحتمَلَ أنْ يُرادَ تحريمُ ما أُخِذَ منه حيًّا فقط[٢].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ لَمَّا ذَكَرَ المحَرَّم لِعَيْنِه، ذَكَرَ المحَرَّم لعارِضٍ، فقال مبالغًا في النَّفيِ عنه: ﴿أَوْ فِسْقًا﴾، وهو ما ذُبِحَ لغَير اللهِ، وسَمَّاه اللهُ (فِسْقًا)، فجَعَلَه كأنَّه بِعَيْنِه هو عينُ الفِسْقِ الذي وَقَعَ النَّهيُ لأجْلِه؛ وذلك لتَوَغُّلِه في الفِسْقِ[٣].

٦- قوله: ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ صفةٌ أو بيانٌ لـ ﴿فِسْقًا﴾، وفي هذا تنبيهٌ على أنَّ تحريمَ ما أُهِلَّ لغَيرِ اللهِ به ليس لأنَّ لَحْمَه مُضِرٌّ؛ بل لأنَّ ذلك كُفْرٌ باللهِ[٤].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ بُنِيَ للمَفعولِ؛ لأنَّ المعْتَبَر حصولُ الاضطرارِ، لا كَوْنُه مِن مُعَيَّنٍ[٥].

٨- أُخِذَ مِنَ التَّعبيرِ بالاضطرارِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ حُرْمَةُ ما زادَ على سَدِّ الرَّمَق؛ لأنَّه حِينئذٍ لا يكون مُضْطَرًّا[٦].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٩٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٩).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٩٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فيه رحمةُ اللهِ تعالى بهذه الأُمَّةِ؛ حيث أَحَلَّ لها الخبائِثَ عند الضَّرورةِ رحمةً بها، وأزال عنها في تلك الحالَةِ ضُرَّها[١].

١٠- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا...﴾لم يَذْكُرِ اللهُ تحريمَ لَحْمِ الخِنزيرِ، مع أنَّه مِمَّا شَمِلَه نصُّ التَّوراةِ؛ لأنَّه إنَّما ذَكَرَ هنا ما خُصُّوا بتحريمِه مِمَّا لم يُحَرَّمْ في الإِسلامِ، أي: ما كان تحريمُه مُوَقَّتًا[٢].

١١- في قولِه: ﴿حَرَّمْنَا﴾ تكذيبُ اليَهودِ في قولِهم: إنَّ اللهَ لمْ يُحَرِّمْ علينا شيئًا، وإنَّما حَرَّمْنا على أنفُسِنا ما حَرَّمَه إسرائيلُ على نَفْسِه[٣].

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ استدلَّ به الشَّافعيُّ على أنَّ مَن حَلفَ لا يأكُلُ الشَّحْمَ، حنَث بأكلِ ما على الظَّهْرِ؛ لأنَّه تعالى استثناه من جُملةِ الشُّحومِ[٤].

١٣- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ذُكِرَ في الجوابِ سَعَةُ رَحْمَتِه تعالى، مع أنَّ المَحَلَّ مَحَلُّ عقوبةٍ؛ وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ؛ أن يكونَ ذلك نفيًا للاغترارِ بِسَعَةِ رَحْمَتِه في الاجتراءِ على مَعْصِيَتِه، وذلك أبلَغُ في التهديدِ؛ فمعناه: لا تغْتَرُّوا بسَعَةِ رَحْمَتِه، فإنَّه مع ذلك لا يُرَدُّ عذابُه عنكم[٥].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٦).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٣).
(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٧٩).

مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ نشَأَ عن إبطالِ تحريمِ ما حَرَّمَه المشركونَ؛ إذ يتوجَّهُ سؤالُ سائلٍ مِنَ المسلمينَ عن المحَرَّماتِ الثَّابتةِ؛ إذ أُبْطِلَتِ المُحَرَّماتُ الباطِلَةُ(١).

- وفيه: مبالغةٌ في بيانِ انحصارِها في ذلك المذكورِ(٢).

٢- تقديمُ المجرورِ على متعلَّقِه في **قوله**: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا﴾ لإفادةِ الاختصاصِ؛ أي: عليهم لا على غَيرِهم من الأُمَم(٣).

٣- **قوله**: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ الإضافةُ في قوله: ﴿شُحُومَهُمَآ﴾ تدلُّ على تأكيدِ التَّخصيصِ والرَّبْطِ(٤).

- وتقديمُ المجرورِ على عامِلِه في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ للاهتمامِ ببيانِ ذلك(٥)، ولبيانِ الحَصْرِ، فالمعنى: ومِنَ البَقَرِ والغَنَمِ- دون غَيْرِهما- حَرَّمْنا عليهم ما ذُكِرَ(٦).

٤- قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ تذييلٌ يُبَيِّنُ علَّةَ تحريمِ ما حُرِّمَ عليهم(٧).

٥- قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ تذييلٌ للجملةِ التي قبلها؛ قصدًا لتحقيقِ أنَّ اللهَ حَرَّمَ عليهم ذلك(٨)، وفيه: إخبارٌ يتضَمَّنُ التَّعريضَ بِكَذِبِهم في قولِهم: ما حَرَّمَ اللهُ علينا شَيئًا، وإنَّما اقتدَيْنا بإسرائيلَ فيما حَرَّمَ على نَفْسِه، ويتضَمَّنُ إدحاضَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٥٢).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٣).
(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٤٤).

قَوْلِهم، ورَدَّه عليهم[١].

٦- **قوله:** ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تفريعٌ على الكلامِ السَّابقِ الذي أبطَلَ تحريمَ ما حَرَّموه، ابتداءً مِن قوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ...﴾ الآيات[٢].

- وفي قوله: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ تنبيهٌ لهم بأنَّ تأخيرَ العذابِ عنهم هو إمهالٌ داخِلٌ في رَحمةِ اللهِ رحمةً مُؤَقَّتةً؛ لعلَّهم يُسلِمونَ. وعليه يكون معنى فِعْلِ: ﴿كَذَّبُوكَ﴾ الاستمرارَ؛ أي: إنِ اسْتَمَرُّوا على التَّكذيبِ بعد هذه الحُجَجِ[٣].

- وأَتَتْ جُملةُ: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ اسميَّةً، وجملة ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فعليَّةً؛ تنبيهًا على مبالغةِ سَعَةِ الرَّحمةِ؛ لأنَّ الجملةَ الاسميَّة أدَلُّ على الثُّبوتِ والتَّوكيدِ مِنَ الفِعْليةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٩٦).

الآيات (١٤٨-١٥٠)

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١٥٠﴾.

غريب الكلمات:

﴿ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾: الحجةُ: البُرهانُ والسُّلطانُ، والدَّلالةُ المُبيِّنةُ للمَحجَّة، والبالِغةُ: هي التي تبلغُ مرادَه في ثبوتِها على مَنْ احتجَّ بها عليه مِن خلقِه، وقطعِ عذرِه إذا انتهَتْ إليه، وأَصْلُ (حجج) يدلُّ على القَصْدِ؛ ومنه اشتُقَّت الحُجَّة؛ لأنَّها تُقْصَد، أو بها يُقْصَد الحقُّ المطلوبُ. وأَصْلُ (بلغ): الوُصولُ إلى الشَّيءِ[(١)].

﴿هَلُمَّ﴾ أي: أقبِلْ، وهَلُمَّ دعاءٌ إلى الشَّيءِ، وقيل أَصْلُهَا: (هَلْ أَؤُمُّ)، كلامُ مَن يُريدُ إتيانَ الطَّعامِ، ثم كَثُرَتْ حتى تكَلَّم بها الدَّاعي، وتُستعمَلُ لازِمةً؛ نحو: هَلُمَّ إلَينا، أي: أقبِلْ، ومتعَدِّيةً؛ نحو: هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ، أي: أحْضِرُوهُمْ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّ الَّذين أشْرَكوا سيقولونَ: لو أرادَ اللهُ، ما وَقَعَ منَّا ولا مِن آبائِنا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١) و(٢/ ٢٩- ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦٤٠).

الشِّرْكُ، ولا حَرَّمْنا مِن شيءٍ، فلَمَّا لم يَفْعَلْ دَلَّ ذلك على رِضاه بذلك، ثم بَيَّنَ تعالى أنَّ هؤلاءِ المشركينَ كَذَّبوا بنفْسِ الطَّريقةِ التي كَذَّب بها الَّذين مِن قَبْلِهم، والَّذين لم يَزَلِ التَّكذيبُ دَأْبَهم؛ حتى ذاقُوا بأْسَ الله، ثم أمَرَ اللهُ نَبِيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يسأَلَ هؤلاءِ المُشركينَ: هل عِنْدَهم مِن عِلْمٍ يقينيٍّ بأنَّ اللهَ راضٍ عنهم؛ فلْيُظْهِروه ولْيُبَيِّنوه، ولْيَقُلْ لهم إنَّهم لا يَتَّبِعون إلَّا مُجَرَّدَ ظُنونٍ، وإنْ هم إلَّا يتَقَوَّلونَ على اللهِ الباطِلَ، ويَكْذِبونَ عليه فيما يَدَّعونَه. ولْيَقُلْ لهم: إنَّ للهِ الحُجَّةَ القاطِعَةَ؛ فلو أرادَ لهَداهُم أجمعينَ. ولْيَطْلُبْ منهم أن يُحْضِروا شُهداءَهم الَّذين يَشْهَدونَ أنَّ اللهَ حَرَّمَ عليهم هذا الذي حَرَّموه؛ افتراءً على الله، ونهاه تعالى أن يَشْهَدَ معهم إنْ شَهِدوا، كما نهاه أن يَتَّبِعَ أهواءَ الَّذين كذَّبُوا بآياتِ اللهِ، وكَفَروا باليومِ الآخِرِ، وهم مع ذلك يُشْرِكونَ باللهِ تعالى.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا حَكى اللهُ تعالى عن أهْلِ الجاهليَّةِ إقدامَهم على الحُكْمِ في دِينِه بغيرِ حُجَّةٍ ولا دليلٍ؛ حكى سبحانه شُبْهَةً يقولونَها؛ اعتذارًا عن كُلِّ ما يُقْدِمونَ عليه مِنَ الكُفْرِيَّاتِ، ثم أبْطَلَها فقال[1]:

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾.

أي: سيقولُ المُشركونَ- احتجاجًا بالقَضاءِ والقَدَرِ على عَدَمِ إذْعانِهم للحَقِّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٧٢، ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٠).

لَمَّا تَبيَّنَ لهم -: لو أرادَ اللهُ- المطَّلِعُ على ما نحْنُ عليه مِنَ الشِّرْك، والتَّحريمِ لِمَا حَرَّمناه- أن نُؤْمِنَ به ونُفْرِدَه بالعبادَةِ، وأن نُحلِّلَ ما حَرَّمْنا؛ لفَعَلَ، ولَمَا جعَلْنا له شريكًا، ولا آباؤُنا مِن قبلِنا، ولا حرَّمنا ما نحرِّمُه مِن هذه الأشياءِ التي نحن على تحريمِها مقيمونَ؛ لأنَّه قادِرٌ على أنْ يُلهِمَنا الإيمانَ، أو يَحُولَ بَيننا وبين الكُفْرِ والعِصيانِ، فلمَّا لم يفعَلْ دَلَّ على رضاه بما نحن عليه مُقيمونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ * وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۚ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الزخرف: ١٩-٢٠].

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾.

أي: كما كذَّب هؤلاءِ المشركونَ ما جئتَهم به- يا محمَّدُ- مِن عِنْد اللهِ؛ مِنَ النَّهْيِ عن عبادَةِ شيءٍ غيرِ الله تعالى، وتحريمِ غيرِ ما حرَّم اللهُ سبحانه؛ كذلك كذَّب مَن قَبْلَهم مِنَ فسقةِ الأُمَمِ الماضِيَةِ ما جاءَتْهم به أنبياؤُهم مِن آياتِ اللهِ، وواضحِ حُجَجِه، ولم يَزَلْ هذا التَّكذيبُ دَأْبَهم حتى أحْلَلْنا بهم عقابَنا، فذاقوا طَعْمَ ألمِ العذابِ والنَّكَالِ(٢).

﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٩-٦٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٧-٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٤٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٠-٦٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٨-٤٢٩).

أي: قُلْ- يا محمَّد- لهؤلاءِ المشركينَ: هل عِندَكم مِن علْمٍ وبرهانٍ يقينيٍّ بأنَّ الله تعالى راضٍ عنكم فيما أنتم فيه؛ فتُظْهِروه وتبيِّنوه لنا[١]؟

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

أي: قلْ لهم- يا مُحمَّدُ: ما أنتم في ذلك كُلِّه إلَّا تتقوَّلونَ على اللهِ تعالى الباطِلَ، وتَكْذِبونَ عليه فيما ادَّعَيْتُموه وَفْقًا لظُنونٍ منكم، بغيرِ عِلمٍ، ولا بُرهانٍ يقينيٍّ[٢].

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾.

أي: قل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشركينَ: فللَّهِ وَحْدَه الحُجَّةُ القاطِعَةُ التي تُظْهِرُ الحَقَّ، وتقطَعُ العُذْرَ؛ فلا تُبقِي لأحدٍ منهم عُذرًا[٣].

﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: فلو شاءَ اللهُ تعالى هدايَتكم لوَفَّقَكم أجمعينَ لاتِّباعِ الحَقِّ، ولكِنَّه لم يَشَأْ ذلك، فخالَفَ بين خَلْقِه؛ فمنهم كافرٌ، ومنهم مؤمِنٌ[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٩-٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨-٢٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٠-٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٢-٦٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٦-٤٣٧).

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا أبطَلَ اللهُ تعالى على الكُفَّارِ جميعَ أنواعِ حُجَجِهم؛ بَيَّنَ أنَّه ليس لهم على قَوْلِهم شهودٌ البَتَّةَ[1]، فقال تعالى:

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾.

أي: قل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المفْترينَ على ربِّهم، الزَّاعمينَ أنَّ اللهَ حَرَّمَ عليهم ما هم مُحَرِّموه: أحْضِروا شُهَداءَكم الَّذين يَشْهَدون على اللهِ أنَّه حَرَّمَ عليكم هذا الذي حَرَّمتُموه، وافتَرَيْتم فيه على اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾.

أي: فإنْ جاؤُوك- يا مُحمَّد- بِشُهَداءَ يَشْهَدون أنَّ الله حَرَّمَ ما يَزْعُمونَ أنَّ اللهَ حَرَّمَه عليهم؛ فلا تَشْهَدْ معهم؛ لأنَّهم كَذَبةٌ فَجَرةٌ، وشُهودُ زورٍ في شَهادَتِهم[3].

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٩).

أي: ولا تتَّبِعْ أهواءَ هؤلاءِ القَوْمِ الَّذين كذَّبوا بوَحْيِ الله تعالى وتَنْزِيلِه في تحريمِ ما حَرَّمَ، وتحليلِ ما أحَلَّ، وكَفَروا باليومِ الآخِرِ، وهُم بالإضافةِ إلى ذلك يُشْرِكون به، فيَجْعلونَ له عديلًا ونظيرًا يُساوونَه به[١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- على العبدِ أن يَتْبَعَ أمْرَ اللهِ تعالى، وليس له أن يتعَلَّقَ بمشيئَتِه؛ فإنَّ مَشيئَتَه لا تكون عُذرًا لأحدٍ؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾[٢].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ فيه المُطالَبَةُ بالعِلْمِ، والذَّمُّ لِمَن يَتَّبِعُ الظَّنَّ، وما عنده عِلْمٌ؛ إذِ الظَّنُّ حَزْرٌ وتَخمينٌ، لا يُمكِنُ أن يستَقِرَّ عنده الحُكْمُ[٣].

٣- الإيمانُ بالآخرةِ -دارِ الجزاءِ- مانِعٌ مِنَ الاجتراءِ على الفُجُورِ؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾[٤].

الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٤-١٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٩-٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٥٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٥٧).

وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، فيه ردٌّ على من احتَجَّ على تعطيلِ الأَمْرِ والنَّهْيِ بالقَدَرِ(١).

٢- قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ هذه الآيَةُ الكريمةُ مِنْ مُعْجِزاتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه أخْبَرَ فيها عن أمرٍ غَيْبٍ، سيقولونَه في المستقبَلِ، ثم تحقَّقَ ذلك الغيبُ، ووَقَعَ كما قال، وطِبقًا لِمَا ذُكِرَ؛ وقد بيَّنه في (النحل) و (الزخرف)؛ حيث قال في (النحل): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] وقال في (الزخرف): ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠] فتحَقَّقَ ما قال أنَّهم سيقُولونَه(٢).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ لَمَّا وَصَفَهم بالتَّكذيبِ، أَتْبَعَه الوَصْفَ بعَدَمِ الإيمانِ، ودَلَّ بالنَّسَقِ بالواوِ على العَراقَةِ في كُلٍّ مِنَ الوَصْفينِ(٣).

بلاغة الآيات:

١- **قوله**: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ استئنافٌ رَجَعَ به الكلامُ إلى مجادَلَةِ المُشركينَ بَعْدَ أن اعترَضَ بِقَوْلِه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤)، وفيه: إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ؛ حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ لزيادَةِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٦).

تفظيعِ أقوالِهم[١]. وتنصيصًا عليهم، وتبكيتًا لهم[٢].

- وقد قال هنا ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾، وقال في النحل: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ فكَرَّرَ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ مرَّتينِ، مع زيادةِ ﴿نَّحۡنُ﴾؛ لأنَّ الإشراك يدلُّ على إثباتِ شريكٍ لا يجوز إثباتُه، وعلى تحريمِ أشياءَ مِن دون الله، فلم يحتَجْ إلى ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ فحُذِفَ، وتبعَهُ في الحذفِ ﴿نَّحۡنُ﴾ طردًا للتَّخفيفِ. بخلافِ العبادةِ؛ فإنَّها غيرُ مستنكَرَةٍ، وإنَّما المستنكَرُ عبادةُ شيءٍ مع اللهِ، ولا يدلُّ لفْظُها على تحريمِ شَيْءٍ، كما دلَّ عليه «أَشْرَك» فلم يكنْ بُدٌّ مِن تقييدِه بِقَوْلِه: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، وناسَبَ استيفاءُ الكلامِ فيه زيادةَ «نحنُ» وظاهرٌ أنَّ زيادةَ ذِكْرِ التَّحريمِ في آية ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ تصريحٌ بما أفادَه لفْظُ «أَشْرَكْنا»[٣].

٢- **قوله:** ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾ إضافةُ البَأْسِ إلى ضميرِ الله تعالى؛ لتَعْظِيمه وتَهويلِه[٤].

٣- الاستفهامُ في **قَوْلِه:** ﴿هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ﴾ على معنى التهَكُّمِ بهم، وهو إنكارٌ؛ أي: ليس عِنْدَكم مِن عِلْمٍ تَحْتَجُّونَ به فتُظْهِرونَه لنا، ما تَتَّبِعونَ في دعاواكم إلَّا الظَّنَّ الكاذِبَ الفاسِدَ[٥]، فأظْهَرَ لهم مِنَ القَوْلِ ما يُظْهِرُه المُعجَب بِكَلامِهم. وقرينةُ التهكُّمِ بادِيَةٌ؛ لأنَّه لا يُظَنُّ بالرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٧٩-١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٢).

والمؤمنينَ أن يَطْلُبوا العِلْمَ مِنَ المشركينَ، كيف وهو يصارِحُهم بالتَّجهيلِ والتَّضليلِ صَبَاحَ مَسَاءَ[١]؟!

٤- **قوله:** ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ جملةٌ مُستأنَفَةٌ؛ لأنَّها ابتداءُ كلامٍ بإضرابٍ عَنِ الكَلامِ الذي قَبْلَه، فبَعْدَ أنْ تَهَكَّم بهم؛ جَدَّ في جوابِهم، فقال: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾[٢].

٥- **قوله:** ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِن طَريقَةِ الجَدَلِ والمناظَرَةِ في إبطالِ زَعْمِهم، إلى إِبْطالِه بطريقةِ التَّبيينِ[٣].

- قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ إضافَةُ الشُّهَداءِ إليهم تدُلُّ على أنَّهم غيرُهم، وهذا أمْرٌ على سبيلِ التَّعجيزِ، أي: لا يُوجَدُ مَن يَشْهَدُ بذلك شهادَةَ حَقٍّ؛ لأنَّها دَعْوى كاذِبَةٌ[٤]، وإضافَةُ الشُّهَداءِ إليهم ووَصْفُهم بـ (الَّذين) دليلٌ على أنَّهم مَعروفونَ مَوْسومونَ بنُصْرَةِ مَذْهَبِهم بالباطِلِ، ولو قال: (شُهَداء) من غيرِ إضافةٍ، لأَفْهَمَ أنَّ المَطْلوبَ مَنْ يَشْهَدُ بالحَقِّ، وليس كذلك؛ لأنَّه أُقِيمَ الدَّليلُ العَقليُّ على أنَّه لا حُجَّةَ لهم، وأنَّ الحُجَّةَ لله على خِلافِ ما ادَّعَوْه؛ فبَطَلَ قَطْعًا أنْ يكونَ أحَدٌ يَشْهَدُ على ذلك بِحَقٍّ[٥].

٦- قوله: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فيه: كِنَايَةٌ عن تَكذيبِهم؛ لأنَّ الذي يُصَدِّقُ أحدًا يُوافِقُه في قَوْلِه، فاستُعْمِلَ النَّهيُ عن موافَقَتِهم في لازِمِه، وهو التَّكذيبُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٣).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٤).

٧- قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وُضِعَ المُظْهَر مَوْضِعَ المُضْمَرِ؛ إذ لم يقُلْ: (ولا تتَّبعْ أهواءَهم)؛ تعميمًا، وتعليقًا للحكمِ بالوصفِ، وللدَّلالةِ على أنَّ مُكَذِّبَ الآياتِ مُتَّبِعٌ الهَوى لا غيرُ، وأنَّ مُتَّبَعَ الحُجَّةِ لا يكون إلَّا مُصَدِّقًا بها[1].

٨- قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ فيه: تقديمُ المجرورِ على المبتدأِ ﴿ٱلۡحُجَّةُ﴾؛ لإفادَةِ الاختصاصِ؛ أي: للهِ لا لكم، ففُهِمَ منه أنَّ حُجَّتَهم داحِضَةٌ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥١).

الآيات (١٥١-١٥٢)

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿إِمْلَٰقٍ﴾: فَقْرٍ وجُوعٍ، وأصلُ الإِمْلاقِ: إتلَافُ المَالِ حَتَّى يُحْوِجَ؛ يُقال: أَمْلَقَ الرَّجُلُ، فهو مُملِق: إذا افتَقَر، وقيل: اشتقاقُه مِن (المَلَقات)، وهي الحجارةُ العِظامُ الملسُ السُّود، وأملق: لم يبقَ تحتَ يدِه إلَّا الجبالُ والصُّخورُ العظامُ التي لا يَقدِرُ أن يحصِّلَ منها شيئًا، وأصلُ (ملق) يَدُلُّ على تَجَرُّدٍ فِي الشَّيءِ ولِينٍ[(١)].

﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾: جمعُ فاحِشَةٍ: وهي الفعْلَةُ المتناهِيَةُ في القُبْحِ والشَّناعَةِ، والفَحْشاءُ: ما عظُم قُبْحُه وفَحُشَ؛ مِن الأفعالِ والأقوالِ، وأصلُ الفُحْشِ: كلُّ شيءٍ مُستقْبَح ومُسْتَشْنَع؛ من قولٍ أو فِعْلٍ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٣٨- ٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

﴿يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾: أي: يتناهَى في الثَّبَاتِ إلى حدِّ الرِّجالِ، أو يبلغُ مُنْتَهى شَبابِه وقُوَّتِه، والأَشُدُّ قيل: جمعٌ لا واحدَ له، وقيل: مفردُه شَدٌّ، وأَصْلُ (شدد): يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ[1].

﴿وُسْعَهَا﴾: أي: طاقَتَها وقُدْرَتَها؛ فالوُسْعُ: الجِدَةُ وَالطَّاقةُ، وأَصْلُ (وسع): يدلُّ على خِلافِ الضِّيقِ والعُسْرِ[2].

مُشْكِلُ الإعرابِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ ...﴾

﴿مَا﴾: موصولةٌ بمعنى الذي في محلِّ نصبٍ؛ مفعولٌ به، والعائِدُ محذوفٌ؛ أي: الذي حرَّمَه. و﴿عَلَيْكُمْ﴾ من بابِ التَّنازُعِ؛ فيجوز أن تتعلَّقَ بـ﴿حَرَّمَ﴾، أو بـ﴿أَتْلُ﴾.

﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ﴾: فيه أوجُهٌ؛ الأول: أنَّ (أنْ) في قوله ﴿أَلَّا﴾ تَفْسيريَّة؛ لأنَّه تقدَّمها ما هو بمعنى القَوْلِ دون حُرُوفِه، وهو ﴿أَتْلُ﴾ و(لا) ناهِيَةٌ، و﴿تُشْرِكُواْ﴾ مجزومٌ بها. الثاني: أنْ تكونَ (أنْ) مصدريَّةً ناصِبَةً للفعلِ بعدَها، وهي وما في حيِّزها في محلِّ نَصْبٍ؛ بدَلٌ مِن ﴿مَا﴾، أو مِنَ العائِدِ المحذوف في ﴿حَرَّمَ﴾؛ إذ التقدير: ما حَرَّمَه، و(لا) على هذين الوجهينِ زائدةٌ؛ لئلَّا يَفْسُدَ المعنى. الثالث: أنْ تكونَ (أن) النَّاصِبَة وما في حيِّزِها منصوبةً على الإغراءِ بـ﴿عَلَيْكُمْ﴾، و (لا) نافِية، ويكون الكلامُ الأوَّلُ قد تمَّ عند قَوْلِه: ﴿رَبُّكُمْ﴾، ثم ابتدَأَ فقال:

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٠).

عليكم ألَّا تُشركوا، أي: الْزَموا ترْكَ الشِّرْكِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي﴾: (أنَّ) واسمُها وخَبَرُها مصدرٌ مُؤوَّلٌ في مَحلِّ نصبٍ أو جَرٍّ على تَقديرِ لامٍ لِلعِلَّةِ محذوفةٍ مُتعلِّقةٍ بالفعل ﴿اتَّبِعُوهُ﴾؛ أي: ولأجْلِ استقامَتِه فاتَّبِعوه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١٨]، أي: ولِأَنَّ المساجِدَ للهِ فلا تَدْعُوا مع اللهِ أحدًا، ويُقَوِّي هذا الوجهَ قراءةُ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ بِكَسْرِ الهَمزةِ على الاستئنافِ المفيد للتَّعليلِ. وقيل: إنَّ المَصْدَر المؤوَّل في محلِّ نصبٍ بالعَطْفِ على ﴿مَا﴾ في قَوْلِه: ﴿أَتۡلُ مَا حَرَّمَ﴾، أي: أتْلُ ما حَرَّمَ، وأَتْلُ أنَّ هذا صِرَاطي. وقيل غيرُ ذلك[٢].

المعنى الإجماليُّ:

أَمَرَ اللهُ نَبِيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَطْلُبَ من هؤلاءِ المُشركينَ أن يُقْبِلُوا إليه؛ ليُخْبِرَهم بما حَرَّمَه اللهُ عليهم يقينًا، وليس ظنًّا كقَوْلِهم على اللهِ الكَذِبَ، أَوْصاهم ألَّا يُشْرِكوا به شيئًا، وأنْ يُحْسِنُوا إلى الوالِدَينِ، وألَّا يَقْتُلوا أولادَهم بسبَبِ الفَقْرِ؛ فإنَّ اللهَ هو من يَرْزُقُهم ويرزُقُ أَوْلادَهم، ونهاهم عَنْ قِربانِ الفَواحِشِ ما كان منها علانِيَةً أو كان سِرًّا، وألَّا يَقْتُلوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ عليهم قَتْلَها إلَّا بالطَّريقِ الحَقِّ الموجِبِ لقَتْلِها شَرْعًا، ذلك وصَّاهم به اللهُ تعالى؛ لعَلَّهُم يَعْقِلونَ.

ونَهاهم سُبحانَه وتَعالى عن قِرْبانِ مالِ اليَتِيمِ إلَّا بِما يكونُ أَصْلَحَ له، حَتَّى

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢١٣-٢١٨).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٢٣).

يبْلُغَ أَشُدَّه فيَدْفَعُوا له مالَه، وأَمَرَهم بإيفاءِ الكَيْلِ والميزانِ بالعَدْلِ، لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَها، وأَمَرَهم تعالى بالعَدْلِ في القَوْلِ، ولو كان على ذي قَرابَةٍ، وأن يُوْفُوا بعَهْدِ اللهِ تعالى، ذلك وَصَّاهم به تعالى؛ لعَلَّهم يتَذَكَّرونَ.

وبيَّنَ جلَّ وعلا أنَّ هذا الذي وصَّاهم به هو طريقُه القَويمُ، ودِينُه المُوصِلُ إليه، فلْيَتَّبِعْه العبادُ، ولا يَتَّبِعوا الطُّرُقَ المخالِفَةَ لهذا الطَّريقِ؛ فتُضِلَّهم عنه، ذَلِك وصَّاهم اللهُ به؛ لعَلَّهم يتَّقونَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى فيما قَبْلَ هذه الآياتِ حُجَّتَه البالِغَةَ على المشركينَ الَّذين حَرَّموا على أنفُسِهم ما لم يُحَرِّمْه عليهم ربُّهُم، ودَحَضَ شُبْهَتَهم التي احتَجُّوا بها على شِرْكِهم به، وافترائِهم عليه؛ بَيَّنَ في هذه الآياتِ أُصُولَ المُحَرَّماتِ ومَجامِعَها في الأعمالِ والأقوالِ، وما يُقابِلُها من أصولِ الفَضائِلِ والبِرِّ[1]، فقال تعالى:

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾.

أي: قل - يا مُحمَّدُ - لهؤلاءِ المشركينَ: هلمُّوا وأَقْبِلوا أُخْبِرْكم بما حَرَّمَ ربُّكم عليكم حَقًّا، يَقينًا لا ظَنًّا، كَقَوْلِكم على اللهِ الكَذِبَ، بل وحيًا منه إليَّ، وتنزيلًا

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٦١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٧٧).

أنزَلَه عليَّ[١].

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

أي: أَوْصاكم ألَّا تُشْرِكوا بالله شيئًا مِن خَلْقِه لا قليلًا ولا كَثيرًا، وأَوْصاكم وأَمَرَكم أن تُحْسِنوا إلى الوالدينِ إحسانًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أَوْصَى تعالى بِبِرِّ الآباءِ والأَجْدادِ؛ عَطَفَ على ذلك الإحسانَ إلى الأَبْناءِ والأَحْفادِ[٣]. وأيضًا لَمَّا أوصى بالسَّبَبِ في الوجودِ: الوالِدَينِ، نهى عن التَّسَبُّب في الإعدامِ، وهو القَتْلُ، وبدأ بأَشَدِّه: قتلِ الوَلَدِ[٤]، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

أي: ولا تَقْتُلوا أَوْلادَكم ذُكورًا وإناثًا؛ بسَبَبِ فَقْرِكم الحاصِلِ، وضِيقِكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٥-٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٦-٦٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٠-٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٧).

مِن رِزْقِهم؛ فقد تَكَفَّلْنا برِزْقِ الجَميعِ، فلَسْتُم الَّذينَ تَرْزُقونَ أَوْلادَكم، بل ولا أَنْفُسَكم؛ فليس عليكم إذَنْ منهم ضِيقٌ(١).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

أي: تَباعَدُوا عن ارْتِكابِ كُلِّ خَصْلةِ سُوءٍ مُتَناهِيَةٍ في القُبْحِ مِنْ كُلِّ مَعصيَةٍ خَسِيسةٍ، واجْتَنِبوا مُقدِّماتِها ووسائِلَها المُوصِلَةَ إليها، سواءٌ كان ذلك عَلَنًا يراه النَّاسُ، أو سِرًّا مِن غَيْرِ اطِّلاعِهم(٢).

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وعن المُغيرَةِ بنِ شُعبَةَ، أنَّ سَعْدَ بنَ عُبادةَ قال: ((لو رأيتُ رَجُلًا مَعَ امرَأَتي لضَرَبْتُه بالسَّيْفِ غيرَ مُصْفِحٍ(٣) عنه، فبَلَغَ ذلك رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: أَتَعْجبونَ مِنَ غَيْرَةِ سعدٍ؟ فواللهِ! لَأَنَا أغْيَرُ منه، واللهُ أغْيَرُ مني، من أجلِ غَيْرَةِ اللهِ حرَّمَ الفواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ولا شَخْصَ أغيَرُ مِنَ اللهِ...)) الحديث(٤).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٧-٦٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٧-٦٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩-٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٨٢-٤٨٣).
قال السعدي: (﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وهي: الذُّنُوب العِظَام المُسْتَفْحِشَة، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: لا تَقْرَبوا الظَّاهِرَ منها والخَفِيَّ، أو المتعَلِّق منها بالظَّاهِر، والمتَعَلِّق بالقَلْبِ والباطن) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩-٢٨٠).

(٣) مُصْفِح أي: غيرَ ضاربٍ بِصَفْحِ السَّيفِ؛ وهو جانِبُه، بل أضرِبُه بحَدِّه؛ مِن صَفْحِ السَّيف أي: عَرْضُه وحَدُّه؛، فالضَّارِبُ مُصفِحٌ. والسَّيفُ مُصفَحٌ؛ فمن فتَحَ (الفاء) جعله وصفًا للسَّيفِ حالًا منه، ومَن كَسَر جَعَلَه وصفًا للضَّارِبِ وحالًا عنه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١٣١)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢١٦٤).

(٤) رواه مسلم (١٤٩٩).

أي: ولا تَقْتُلوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ عليكم قَتْلَها؛ بأنْ جَعَلَها معصومةً مِن مؤمِنٍ أو كافرٍ معاهَدٍ أو ذِمِّيٍّ؛ فلا تَقْتُلوهَا إلَّا بالطَّريقِ الحَقِّ، المُوجِبَة لقَتْلِها شَرْعًا عندَ الله[١].

عن عبد الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مُسْلِمٍ، يشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ، إلَّا بإِحْدى ثلاثٍ: النَّفْسُ بالنَّفْسِ، والثيِّبُ الزَّاني، والمُفارِقُ لدِينِه، التَّارِكُ للجَماعةِ))[٢].

وعن عبدالله بن عمرٍو رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن قَتَلَ مُعاهَدًا لم يَرَحْ[٣] رائحةَ الجنَّةِ، وإنَّ ريحَها توجدُ من مَسيرةِ أربعينَ عامًا))[٤].

وعن عرفَجَةَ بنِ أسعَدَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَنْ أتاكُم، وأَمْرُكُم جميعٌ على رجلٍ واحدٍ، يريدُ أن يَشُقَّ عصاكُم، أو يُفَرِّقَ جَماعَتَكُم، فاقتُلُوهُ[٥]))[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦١-٦٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٨٨-٤٨٩).

(٢) رواه البخاري (٦٨٧٨) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٦).

(٣) لم يَرَحْ: أي: لم يَشَمَّ رائحةَ الجنَّةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٧٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٢٦١).

(٤) رواه البخاري (٣١٦٦).

(٥) قال الشِّنقيطي بعد أنْ ذَكَر نصوصًا لأفعالٍ يُقتَل أصحابُها، واختلافَ أهْلِ العِلم في العَمَل بها: (فهذه أشياءُ دَلَّتْ عليها نصوصٌ أُخَر اختَلَف فيها العلماءُ، فمَن يقول: إنَّ صاحِبَها يُقتل. يقول: هي داخِلَةٌ في قوله: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾. ومن يقول: إنَّ صاحِبَها لا يُقتَل. يقول: لم تَدْخُل في قَوْلِه: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ لأنَّها عارَضَها ما هو أقوى منها، وهو حديثُ ابنِ مَسعودٍ المُتَّفَق عليه: «لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ...» الحديث) ((العذب النمير)) (٢/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٦) رواه مسلم (١٨٥٢).

﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

أي: هذه الأُمورُ المذكورةُ في الآيَةِ قد عَهِدَ بها إليكم ربُّكم؛ لأَجْلِ أن تَعْقِلوا عنه وَصِيَّتَه هذه، فتَقُوموا بها[1].

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا كان المالُ عَديلَ الرُّوحِ، مِن حيثُ إنَّه لا قِوامَ لها إلا به؛ ابتدَأَ هذه الآيَةَ بالأموالِ بعد أنْ خَتَمَ الآيةَ التي قَبْلَها بالنَّهْيِ عن إزهاقِ الرُّوحِ، ولَمَّا كان أعظَمَ الأموالِ خَطَرًا وحُرْمَةً مالُ اليتيمِ؛ لِضَعْفِه، وقِلَّةِ ناصِرِه، ابتدأ به، فنَهَى عن قُرْبِه فضلًا عن أكْلِه أو شُرْبِه[2]، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

أي: ولا تَقْرَبوا مالَ اليتيمِ إلَّا بما يكونُ أَصْلَحَ له وأنفَعَ؛ بالمحافَظَةِ عليه، وتَنْمِيَتِه وتَثْميرِه في الوُجوهِ المأمونةِ التي يَغْلِبُ على الظَّنِّ- بِحَسَبِ العادَةِ- أنْ لا خَسارةَ فيها، وذلك إلى وَقْتِ بُلوغِه، فإذا بَلَغَ وآنَسْتُم منه رُشْدًا، وحُسْنَ تَصَرُّفٍ، فادْفَعُوا إليه مالَه[3].

كما قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٠٠-٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٢-٦٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٠٦-٥١٢).

إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ [النساء: ٦].

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

أي: وأَوْفُوا الكَيْلَ والميزانَ، فلا تَبْخَسُوا النَّاسَ الكَيْلَ إذا كِلْتُموهم، ولا تَبْخَسُوهم الوَزْنَ إذا وَزَنْتُموهم، ولكِنْ أَوْفُوهم حُقُوقَهم تامَّةً بالعَدْلِ في الأَخْذِ والإِعْطاءِ(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٥].

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قَوْلُه: ﴿بِٱلْقِسْطِ ﴾ قد يَشُقُّ بعضَ الأحيانِ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَفُوتُه أن يُوَفِّيَ الكَيلَ أو الوَزْنَ أحيانًا؛ أعْقَبَ ذلك بقَوْلِه(٢):

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.

أي: مَنِ اجتَهَدَ في أداءِ الحَقِّ، وأَخَذَه بالعَدْلِ، وحَرَصَ على الإيفاءِ في الكَيْلِ والوَزْنِ، فأخطَأَ أو وَقَعَ منه نقْصٌ وتقصيرٌ بعد استفراغِ وُسْعِه، وبذْلِ جُهْدِه في ذلك؛ فلا حَرَجَ عليه(٣).

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥١٣-٥١٧).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥١٧).

وإذا حَكَمْتُم بين النَّاسِ فتكَلَّمْتُم، فقُولوا الحَقَّ بينهم، واعْدِلوا وأَنْصِفوا ولا تَجُوروا، ولو كان الذي يتَوَجَّهُ الحَقُّ والحُكْمُ عليه ذا قَرابَةٍ لكم[١].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾.

أي: وبوصيَّةِ اللهِ التي أَوْصاكم بها فأَوْفُوا، وذلك بطاعَتِه سبحانه فيما أَمَرَكم به، واجتنابِ ما نَهاكم عنه، سواء فيما يتعَلَّقُ بحقُوقِ اللهِ تعالى، أو بحُقُوقِ العبادِ[٢].

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: هذا[٣] الذي بيَّنَه لكم مِنَ الأَحْكامِ فأَمَرَكم به، ونهاكم عنه، عَهِدَ إليكم به لتَتَذَكَّروه وتَأْخُذوا به، وتتَذَكَّروا عواقِبَ أَمْرِكم، وخَطَأَ ما أنتم عليه، فتَنْزَجِروا عن ذلك، وتَقُوموا بأَحكامِ ربِّكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٤٧).
ومن المفسِّرين من عمَّمَ ذلك ولم يَقْصُرْهُ على الحُكْم كالشنقيطي. يُنظر: ((العذب النمير)) (٢/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٢٠-٥٢١).

(٣) ذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ الموصى به هنا عائدٌ إلى ما في هذه الآية والَّتي قبلها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٧).
وذهب ابن عاشور والشنقيطي إلى أنَّ المراد ما في هذه الآية فحسب. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٢٢-٥٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٢٢-٥٢٣).
قال ابنُ عاشور: (جاء مع هذه الوَصِيَّة بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنَّ هذه المطالِبَ الأربعةَ

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى في الآيتَيْنِ المُتَقَدِّمَتَينِ ما وَصَّى به؛ أجْمَلَ في آخِرِه إجمالًا يقتضي دُخولَ ما تقَدَّمَ فيه، ودخولَ سائِرِ الشَّريعةِ فيه؛ فقال[1]:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾.

أي: وهذا الذي وصَّاكم به رَبُّكم- أيُّها النَّاسُ- وأَمَرَكم بالوَفاءِ به، هو طريقُه ودِينُه المُوصِلُ إليه، وإلى دارِ كَرامَتِه؛ الذي ارْتَضاه لعبادِه، وجَعَلَه مختَصَرًا معتَدِلًا قويمًا لا اعْوِجاجَ به عن الحَقِّ، فاسْلُكوه[2].

عن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رَضِيَ الله عنه قال: ((خَطَّ لنا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم خطًّا ثم قال: هذا سبيلُ اللهِ؛ ثم خَطَّ خُطوطًا عن يمينِه وعن شِمالِه؛ ثم قال: هذه سُبُلٌ- قال يزيدُ: مُتَفَرِّقةٌ- على كُلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]))[3].

عُرِفَ بين العَرَبِ أنَّها محامِدُ، فالأمرُ بها والتحريضُ عليها تذكيرٌ بما عَرَفوه في شَأْنِها، ولَكِنَّهم تناسَوْه بغَلَبَةِ الهوى وغشاوَةِ الشِّرْك على قُلُوبِهم)) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

(٣) أخرجه أحمد (٤١٤٢) واللفظ له، والدارمي (٢٠٢)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٧٤)، وابن حبان (٧).

قال البزارُ في ((البحر الزخار)) (٥/ ٢٥١): وهذا الكلامُ قد رُوي عن عبد الله من غيرِ وجه نحوه أو قريبًا منه، وقال ابن القيِّم في ((طريق الهجرتين)) (١٥٢): ثابتٌ، وصحَّح إسناده أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٦/ ٨٩)، وصحَّحه ابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (٤/ ٢٨١)، والألباني في ((شرح الطحاوية)) (٥٢٥).

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

أي: ولا تَتَّبِعوا الطُّرُقَ المخالِفَةَ لهذا الطَّريقِ؛ فتُضِلَّكم عنه، وتُفَرِّقَكم وتُشَتِّتَكم عن طَريقِه، ودِينِه الذي شَرَعَه، وارْتَضاه لكم[١].

﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

أي: هذا الذي أَمَرَكم به ربُّكم مِنِ اتِّباعِ سَبيلِه، ونهاكم عن اتِّباعِ غَيْرِه؛ عَهِدَ به إليكم؛ كي تَتَّقُوا اللهُ عزَّ وجلَّ[٢].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ أمرٌ لنبيِّه عليه السَّلامُ بأَنْ يَدْعُوَ المَعْنِيِّينَ بالخِطابِ إلى سَماعِ تلاوةِ ما حَرَّمَ اللهُ تبارك وتعالى، وهكذا يجبُ على العُلماءِ أن يُبَلِّغوا النَّاسَ، ويُبَيِّنوا لهم ما حُرِّمَ عليهم مِمَّا أُحِلَّ[٣].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ يُرشِدُ إلى الإِحْسانِ بهما إِحْسانًا تامًّا كاملًا لا يَدَّخِرُ فيه وُسْعًا، وهذا يستلْزِمُ تَرْكَ الإساءَةِ وإن صَغُرَتْ، فكيف بالعُقوقِ المقابِلِ لغايةِ الإحسانِ، وهو مِن أكبَرِ كبائِرِ المُحَرَّماتِ[٤]؟

٣- الواجِبُ على الوالِدِ القيامُ بحَقِّ الوَلَدِ وتربيَتُه، والاتِّكالُ في أمْرِ الرِّزْقِ على اللهِ تعالى؛ فقد قال الله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٩-٦٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٥٨).

٤- في قَوْلِه: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ دقيقةٌ، وهي: أنَّ الإنسانَ إذا احتَرَزَ عن المعْصِيَةِ في الظَّاهِرِ، ولم يحتَرِزْ عنها في الباطِنِ؛ دَلَّ ذلك على أنَّ احترازَه عنها ليسَ لأَجْلِ عبودِيَّةِ اللهِ وطاعَتِه، ولكِنْ لأجْلِ الخَوْفِ من مذَمَّةِ النَّاسِ، وذلك باطِلٌ؛ لأنَّ من كان مَذَمَّةُ النَّاسِ عنده أعظَمَ وقْعًا من عقابِ اللهِ ونحوِه؛ فإنَّه يُخشَى عليه مِنَ الكُفْرِ؛ ومَنْ تَرَكَ المَعْصِيةَ ظاهرًا وباطنًا دلَّ ذلك على أنَّه إنَّما تَرَكَها؛ تعظيمًا لِأَمْرِ اللهِ تعالى، وخَوفًا مِن عذابِه، ورغبةً في عبودِيَّتِه[1].

٥- ليس على المُكَلَّفِ -المبنيِّ أمْرُه على العَجْزِ للضَّعْفِ- إلَّا الجُهدُ والوُسْعُ، وما وراءَ الوُسْعِ مَعْفُوٌّ عنه؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ يُرشِدُنا إلى العَدْلِ في القَوْلِ، سواءٌ في شَهادةٍ أو حُكمٍ على أحدٍ، ولو كان المَقولُ في حَقِّه ذلك القَوْلُ صاحِبَ قرابةٍ مِنَّا، فالعدْلُ واجِبٌ في الأقوالِ كما أنَّه واجِبٌ في الأفعالِ؛ لأنَّه هو الذي تَصْلُحُ به شُؤونُ النَّاسِ؛ فهو رُكْنُ العُمرانِ، وأَساسُ المُلْكِ، وقُطْبُ رَحَى النِّظامِ للبَشَرِ في جميع أُمُورِهم الاجتماعيَّة، فلا يجوزُ لمُؤْمِنٍ أن يحابِيَ فيه أحدًا لقرابَتِه ولا لِغَيْرِ ذلك[3].

الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ ولم يقُلْ: ما حَرَّمَ اللهُ؛ لأنَّ الرَّبَّ هنا أنسَبُ؛ حيثُ إنَّ الرَّبَّ له مُطْلَقُ التَّصَرُّف في المربوبِ، والحكمُ عليه بما تَقْتضيه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣١٩-٣٢٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٦٩).

حِكْمَتُه[١].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ﴾، بدَأَ بالتَّوحيدِ في صريحِ البراءَةِ من الشِّرْكِ؛ إشارةً إلى أنَّ التَّخلِّيَ عن الرَّذائِلِ يكونُ قبل التَّحلي بالفَضائِلِ[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ﴾، قَرَنَ بالتَّوحيدِ البِرَّ بالوالِدَينِ؛ وذلك لمناسَبَةٍ حسنةٍ: أنَّه مِن بابِ شُكْرِ المُنْعِم، فبَعْدَ أنْ وَصَّى بأوَّلِ واجِبٍ للمُنْعِمِ الأَوَّلِ المُوجِدِ مِنَ العَدَمِ؛ أتبَعَه ما لأَوَّلِ مُنْعِمٍ بعده بالتَّسبُّبِ في الوُجودِ، فنهى عن الإساءةِ إليهما في صورةِ الأَمْرِ بالإحسانِ بهما[٣].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ﴾ الإِحْسانُ يتعَدَّى بـ(الباء) و(إلى) فيُقال: أحْسَنَ به، وأحْسَنَ إليه، والأُولَى أبْلَغُ، فهُو بالوالِدَينِ وذِي القُرْبى أَلْيَقُ؛ لأنَّ مَن أحْسَنْتَ بِه هو مَن يتَّصِلُ به بِرُّكَ وحُسْنُ مُعامَلَتِك، ويلتصِقُ به مباشرةً على مَقْرُبةٍ منك، وعَدَمِ انفصالٍ عنك[٤].

٥- هذه الآياتُ تَدُلُّ على أنَّ الإنسانَ لا ينبغي له أنْ يَسْتَثْقِلَ كثرةَ الأولادِ؛ خوفًا من الجوعِ والفَقْرِ؛ لأنَّ خالِقَ السَّمواتِ والأرضِ يرزُقُ الجميعَ، وهذه مِن أَوْضَحِ الآياتِ على أنَّ ما يَتَلاعَبُ به الشَّيطانُ على من يَدْعُونَ إلى (تَحديد النَّسْل)؛ أنَّه جَهْلٌ واقتفاءٌ- في الجملة- لأهل الجاهليَّةِ؛ فهم مُشْترِكونَ في العِلَّة؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَرَّحَ بأنَّ أهل الجاهليَّةَ إنَّما قَتَلُوهم مِن خَشْيَةِ الإملاقِ،

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٦٣).

وهؤلاء يُريدونَ تقليلَ عَدَدِهم مِن خَشْيَةِ الإملاقِ؛ فالعلَّة هي العلَّة، وكأنَّ قوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لم يَطْرُقْ أسماعَهم أبدًا، فضمانُ خالِقِ السَّمواتِ والأرضِ لأرزاقِ الجَميعِ، كأنَّهم لم يَسْمَعوه، وكأنَّهم في جاهليَّةٍ جَهْلاءَ، وظُلْمةٍ ظَلماءَ؛ لأنَّ اللهَ ضامِنٌ رِزْقَ الجَميعِ، وكُلَّما كَثُرَ النَّسْلُ، وكَثُرَت الأيدي العامِلَةُ كَثُرَ الإنتاجُ، وكَثُرَت خيراتُ الله وأرزاقُه؛ لأنَّ الله يُنْزِلُ رِزْقَه بعَدَدِ خَلْقِه، وصَرَّحَ بهذا، وهو لا يُخْلِفُ الميعادَ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[1].

٦- في قول اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ بعدَ أن بدأ بالتَّوحيدِ في صريحِ البراءةِ مِن الشِّرك، وقرَن به البرَّ، أولاه القتلَ الذي هو أكبرُ الكبائرِ بعدَ الشِّرك، وبدأه بقَتْلِ الوَلَدِ؛ لأنَّه أفحَشُ القَتْلِ، وأفحَشُ مِن مُطْلَقِه فِعْلُه خَوْفَ القِلَّةِ[2].

٧- قولُه: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ لم يَقُلْ: لا تَأْتُوا؛ لأنَّ النَّهْيَ عن القُرْبِ أَبْلَغُ من النَّهْيِ عن الإتيانِ؛ لأنَّ النَّهْيَ عن القُرْبِ نَهْيٌ عنها، وعمَّا يكون ذريعةً إليها؛ ولذلك حَرَّمَ على الرَّجُلِ أن ينْظُرَ إلى المرأةِ الأجنبيَّةِ، وأنْ يَخْلُوَ بها، وأنْ تُسافِرَ المرأةُ بِلا مَحْرَمٍ؛ لأنَّ ذلك يُقَرِّبُ مِنَ الفَواحِشِ[3].

٨- لا شكَّ أنَّ قَتْلَ النَّفْسِ التي حرَّمَ اللهُ؛ داخِلٌ في الفواحِشِ؛ إنْ فَعَلَه عَلَنًا أمامَ النَّاسِ فهو داخِلٌ فيما ظَهَرَ، وإن قَتَلَه غِيلَةً من حيثُ لا يراهُ النَّاسُ؛ فهو داخِلٌ فيما بطَنَ؛ لأنَّ قَتْلَ النَّفْسِ من الفواحِشِ، واللهُ جلَّ وعلا خصَّه مع أنَّه داخِلٌ في العُمومِ، وفي ذلك حِكْمتانِ:

الأولى: تفظيعُ القَتْلِ وتهويلُ أَمْرِه؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٧٢، ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٨).

مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

الثانية: لأنَّه لا يتأتَّى الاستثناءُ بقولِه: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ إلَّا مِن القتلِ، لا مِن عمومِ الفواحشِ، فالقَتْلُ منه ما هو بِحَقٍّ، فلا بدَّ أن يُستَثْنى بقولِه: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١] والاستثناءُ الذي هو ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ لا يُمكِنُ حتى يُخرَجَ القَتْلُ من عمومِ الفَواحِشِ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ[(١)].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ خَتَمَ كُلَّ آيةٍ مِنَ الثَّلاثِ الآياتِ بالوَصِيَّة؛ وذلك لِيَكونَ آكَدَ في القَوْلِ؛ فيكونَ أَدْعَى للقَبُولِ[(٢)].

١٠- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ في هذا دليلٌ على أنَّ هذه الأُمورَ إذا التَزَمَ بها الإنسانُ، فهو عاقِلٌ رَشيدٌ، وإذا خالَفَها فهو سَفِيهٌ ليس بعاقِلٍ؛ وقد تَضَمَّنَتْ هذه الآيَةُ خَمْسَ وصايا: الأولى: تَوحيدُ الله، الثانية: الإحسانُ بالوالدين، الثالثة: ألَّا نَقْتُلَ أَوْلادَنا، الرابعة: ألَّا نَقرَبَ الفواحِشَ، الخامسة: ألَّا نَقْتُلَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ الله إلَّا بالحَقِّ[(٣)].

١١- قولُه تعالى: ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ دلَّتِ الآيةُ على أنَّه بحَسَبِ عَقْلِ العَبْدِ يكونُ قيامُه بما أَمَرَ اللهُ به[(٤)].

١٢- قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ الحُسْنُ هنا يشمَلُ: الحُسْنَ الدُّنيويَّ، والحُسْنَ الدِّينيَّ؛ فالحُسْنُ الدُّنيويُّ؛ كَإذا لاحَ للوَلِيِّ تَصَرُّفانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٨٧، ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

أَحَدُهما أكثَرُ رِبحًا، فالواجِبُ عليه أن يأخُذَ بما هو أكثَرُ رِبحًا؛ لأنَّه أحْسَنُ، والحُسْنُ الدِّينيُّ مِثْلُ إذا لاح تَصَرُّفانِ أحَدُهما أكثَرُ رِبحًا، وفيه رِبًا، والآخَرُ أقَلُّ ربحًا، وهو أسْلَمُ مِنَ الرِّبا، فنُقَدِّمُ الأخيرَ؛ لأنَّ الحُسْنَ الشَّرعيَّ مُقَدَّمٌ على الحُسْنِ الدُّنيويِّ المادِّيِّ[١].

١٣- قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ اليَتيمَ- قبل بُلُوغِ الأَشُدِّ - مَحْجورٌ عليه، وأنَّ وَلِيَّه يتصَرَّفُ في مالِه بالأَحَظِّ، وأنَّ هذا الحَجْرَ ينتهي ببلوغِ الأَشُدِّ[٢].

١٤- قولُه تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ فيه تذكيرٌ لهم بالسَّخاءِ الذي يَتَمادَحون به؛ كأنَّه قيل لهم: أين سَخاؤُكم الذي تَتَنافَسونَ فيه؛ فهَلَّا تُظْهِرُونَه إذا كِلْتُم أو وَزَنْتُم؛ فتَزِيدوا على العَدْلِ بأنْ تُوَفِّروا للمُكتالِ كَرَمًا؛ فضلًا عَنْ أن تَسْرِقوه حَقَّه. وهذا تنبيهٌ لهم على اختلالِ أَخْلاقِهم وعَدَمِ تَوازُنِها[٣].

١٥- قولُه تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ استدلَّ الأُصوليُّونَ بهذا على أنَّ الله لا يكلِّفُ أحدًا ما لا يُطيقُ، وعلى أنَّ مَنِ اتَّقَى اللهَ فيما أَمَرَ، وفَعَلَ ما يُمْكِنُه من ذلك، فلا حَرَجَ عليه فيما سِوَى ذلك[٤].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ خُصَّ العَدْلُ بالقَوْلِ، مع أنَّ الفِعْلَ إلى العدْلِ أحْوَجُ- فإنَّ الضَّرَرَ النَّاشِئَ مِنَ الجَوْرِ الفِعْليِّ أَقْوى مِنَ الضَّرَرِ النَّاشِئِ مِنَ الجَوْرِ القَوْلِيِّ- وذلك ليُعْلَمَ وُجوبُ العَدْلِ في الفِعْلِ بالأَوْلى، كما

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

في قَوْلِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[١] [الإسراء: ٢٣].

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ وحَّدَ سبيلَه لأنَّه في نَفْسِه واحِدٌ، لا تعَدُّدَ فيه، وجَمَعَ السُّبُلَ المخالِفَةَ؛ لأنَّها كثيرةٌ مُتَعَدِّدةٌ[٢].

١٨- في قَوْلِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ جَعَلَ اللهُ الرَّجاءَ للتَّقْوى؛ لأنَّ هذه السَّبيلَ تَحْتَوي على تَرْكِ المُحَرَّمات، وتَزيدُ بما تَحْتَوي عليه مِن فِعْلِ الصَّالحاتِ، فإذا اتَّبَعَها السَّالِكُ فقد صار مِنَ المُتَّقِينَ؛ أي: الَّذين اتَّصَفوا بالتَّقْوى بمعناها الشَّرعيِّ؛ كقَوْلِه تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٣] [البقرة: ٢].

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِنْ إِبْطالِ تحريمِ مَا ادَّعَوْا تَحْريمَه مِنْ لُحُومِ الأَنْعامِ، إلى دَعْوَتِهم لِمَعْرِفَةِ المحرَّمات، التي عِلْمُها حَقٌّ، وهو أَحَقُّ بأنْ يَعْلَمُوه مِمَّا اختَلَقُوا مِنِ افْتِرائِهم، ومَوَّهوا بِجَدَلِهم[٤].

٢- **قوله:** ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وَضَعَه موضِعَ النَّهيِ عن الإساءَةِ إليهما؛ للمبالغَةِ، وللدَّلالَةِ على أنَّ تَرْكَ الإساءَةِ في شَأْنِهما غيرُ كافٍ بخلافِ غَيْرِهما، وللإيذانِ بأنَّ الإساءَةَ إليهما ليس مِن شَأْنِها أن تَقَعَ، فيُحْتاجَ إلى التَّصريحِ بالنَّهْيِ عنها؛ لأنَّها خِلافُ ما تَقْتَضي الفِطْرَةُ السَّليمةُ، والآدابُ المَرْعِيَّة عِنْد جَميعِ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨١).
(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (١/ ١٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧٤، ١٧٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٥٥).

الأُمَمِ، وإنَّما عَدَلَ عن النَّهْيِ عنِ الإِساءَةِ إلى الأَمْرِ بالإحسانِ اعتناءً بالوالِدَينِ؛ لأنَّ اللهَ أرادَ بِرَّهُما، والبِرُّ إحسانٌ، والأَمْرُ به يتضَمَّنُ النَّهْيَ عن الإِساءَةِ إليهما بِطَرِيقِ فَحْوى الخِطابِ(٥).

٣- قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ بدأ هنا جلَّ وعلا برِزْقِ الوالِدَينِ، وفي سورةِ الإِسْراءِ بَدَأَ بِرِزْقِ الأَوْلادِ، والحكمةُ في ذلك أنَّه قال هنا: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ فالإملاقُ حاصِلٌ، فبَدَأَ بِذِكْرِ رِزْقِ الوَالِدَينِ اللَّذَينِ أَمْلَقَا، أي: ولا تَقتُلوهم مِن فَقْرِكم الحاصِلِ؛ ولهذا قال تعالى بعدَها: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فبَدَأَ برِزقِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّه الأهَمُّ هاهنا، وهناك قال: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] أي: خشيةَ حُصُولِ فَقرٍ في الآجِلِ، فهما غَنِيَّانِ، لكن يَخْشَيانِ الفَقْرَ، فبَدَأَ بِرِزْقِ الأَوْلادِ قبلَ رِزْقِ الوَالِدَينِ؛ للاهتمامِ بهم، أي: لا تَخافوا مِن فَقْرِكم بِسَبَبِهم، فرِزْقُهم على الله(٦).

- وفي قولِه ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾: استئنافٌ مَسُوقٌ لتَعْليلِ النَّهْيِ عن قَتْلِهم، وإِبْطالِ سَبَبِيَّةِ ما اتَّخَذُوه سَبَبًا(٧).

٤- قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ فيه: نَهْيٌ عن اقترافِ الآثامِ، وقد نهى عن القُرْبِ منها، وهو أبلَغُ في التَّحذيرِ مِنَ النَّهْيِ عن مُلابَسَتِها؛ للمبالَغَةِ في الزَّجْرِ عنها(٨).

---

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٤٤)، ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٩).

(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٩).

٥- قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فيه: تَوجيهُ النَّهْيِ إلى قِرْبانِه؛ لِمَا مَرَّ مِنَ المُبالَغَةِ في النَّهْيِ عن أَكْلِه؛ ولإخراجِ القِرْبانِ النَّافعِ عن حُكْمِ النَّهْيِ بطريقِ الاستِثْناءِ[١].

٦- قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ قوله: ﴿وَلَوْ﴾ وصْلِيَّةٌ تفيدُ المبالغَةَ في الحالِ التي مِنْ شَأْنِها أنْ يَظُنَّ السَّامِعُ عَدَمَ شُمُولِ الحُكْمِ إيَّاها؛ لاخْتِصَاصِها مِن بينِ بَقِيَّةِ الأَحْوالِ التي يَشْمَلُها الحُكْمُ[٢].

٧- قوله: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾ فيه: تقديمُ المجرورِ على عامِلِه ﴿أَوْفُواْ﴾؛ للاهتمامِ بِأَمْرِ العَهْدِ، وصَرْفِ ذِهْنِ السَّامِعِ عنده؛ ليتَقَرَّرَ في ذِهْنِه ما يَرِدُ بَعْدَه مِنَ الأَمْرِ بالوَفَاءِ[٣].

٨- قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ استئنافٌ جِيءَ به تجديدًا للعَهْدِ وتأكيدًا له[٤]، وقد كَرَّرَ التَّوْصِيَةَ على سَبيلِ التَّوْكِيدِ[٥].

- وقد خَتَمَ الآيَةَ الأُولى بِقَوْلِه: ﴿تَعْقِلُونَ﴾، والثانيةَ بقولِهِ: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، والثَّالثَةَ بِقَوْلِه: ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ وذلك لمناسبَةٍ حَسَنَةٍ؛ فالآيةُ الأولى اشتَمَلَتْ على خمسةِ أشياءَ عِظامٍ، والوصيَّةُ فيها أَبْلَغُ منها في غَيْرِها، فخَتَمَها بما في الإنسانِ مِن أَعْظَمِ السَّجَايا، وهو «العَقْل» الذي امتازَ به على سائِرِ الحيوانِ. والثانية: اشتَمَلَتْ على خَمْسَةِ أشياءَ يَقْبُحُ ارتكابُها، والوصيَّةُ فيها تَجْري مَجْرى الزَّجْرِ والوَعْظِ، فخَتَمَها بِقَوْلِه: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تَتَّعِظونَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٦٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٧٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٩- ٢٠١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٩٢).

والثالثة: اشتَمَلَتْ على ذِكْرِ الصِّراطِ المستقيم، والتَّحريضِ على اتِّباعِه واجتنابِ مُنافِيه، فخَتَمَها بالتَّقْوى التي هي مِلاكُ العَمَلِ، وخَيْرُ الزَّادِ(١).

وقيل: لعلَّ السَّبَبَ في ذلك أنَّ الخِلالَ الخَمْسَ المذكورةَ في الآيةِ الأُولى أمورٌ ظاهِرةٌ جلِيَّةٌ، يُدرِكُ العَقْلُ قُبْحَها شَرعًا؛ فأُتْبِعَت بترجِّي التعقُّلِ، لأنَّ السَّلامةَ منها لا تكونُ مع وضوحِ أَمْرِها إلَّا بتوفيقِ اللهِ تعالى، في حين أنَّ الخَمْسَ التَّاليةَ لها خفيَّةٌ وغامضةٌ، لا بدَّ فيها مِنَ الاجتهادِ والفِكْرِ حتى يقِفَ المرءُ على موضِعِ الاعتدالِ فيها؛ إذ هي مما تُؤَثِّرُ فيه الشَّهواتُ والأهواءُ، وذلك مما يُعْمِي وَيُصِمُّ؛ ولذا أُتبِعَتْ برجاءِ التذكُّرِ؛ لأنَّ مَن تذكَّرَ أبصَرَ فعَقِلَ فامتَنَع، ولَمَّا كان مجموعُ هذه المُرتكَباتِ العَشْرِ ممَّا اتَّفَقت عليه الشرائِعُ، ولم تُنسَخْ في ملَّةٍ مِنَ المِلَلِ، وأنَّ مَن أخَذَ بها كان سالكًا الصِّراطَ المستقيمَ الذي لا عِوَجَ فيه ولا أَمْتَ- عَقَّبَ بقَوْلِه تعالى:﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾؛ إذ إنَّ الأمرَ فيه عامٌّ لكافَّةِ الخَلْقِ، ثمَّ قال تعالى:﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وأتبَعَه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وقد ترتَّبَ حاصلًا مِن مضمونِ الآياتِ الثلاثِ أنَّه مَن عَقِلَ وتذكَّرَ اتَّقى(٢).

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٨١-١٨٢).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (١/ ١٧٤).

الآيات (١٥٤-١٥٩)

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿تَمَامًا﴾: أي: أَتْمَمْناه إتمامًا كَامِلًا، جَامِعًا لِجَمِيعِ مَا يُحتَاجُ إِلَيْهِ فِي شَرِيعَتِه، وتَمامُ الشَّيءِ: انتهاؤُه إلى حدٍّ لا يُحتاجُ إلى شيءٍ خارجٍ عنه، وأَصْلُ (تمم): دَلِيلُ الكَمالِ؛ يُقَالُ: تَمَّ الشَّيْءُ، إِذَا كَمَلَ[(١)].

﴿وَتَفْصِيلًا﴾: أي: تَبْيِينًا، وأَصْلُ (فصل): يدلُّ على تمييزِ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيءِ وإبانَتِه عنه[(٢)].

﴿طَآئِفَتَيْنِ﴾: أي: جماعَتَينِ، والطَّائِفَةُ: جماعةٌ من النَّاسِ، وأَصْلُ (طوف): دَوَرانُ الشَّيءِ على الشَّيءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١).

﴿دِرَاسَتِهِمْ﴾: أي: قِراءَتِهم الكُتُبَ وعِلمِهم بها، أو تِلاوَتِهم، وأَصْلُ (درس): يَدُلُّ عَلَى خَفَاءٍ وَخَفْضٍ وَعَفَاءٍ(١).

﴿بَيِّنَةٌ﴾: أي: بصيرةٌ ودَلالةٌ، ويقينٌ، وحُجَّةٌ وبُرهانٌ، وأَصْلُ (بين): يدلُّ على الانْكِشافِ(٢).

﴿وَصَدَفَ﴾: أي: أعْرَضَ، وعَدَلَ عَنِ الْحَقِّ، والصُّدُوف: الإعراضُ عن الشَّيءِ؛ يُقال: صَدَفَ عن الشَّيء، أي: أَعْرَضَ عنه إِعْراضًا شديدًا، يَجري مَجْرى الصَّدَفِ، أي: الميلِ في أرجُلِ البَعيرِ، وأَصْل (صدف) يدلُّ على المَيْلِ(٣).

﴿يَنظُرُونَ﴾: أي: يَنْتَظِرونَ؛ فالنَّظَرُ يأتي بمعنى الانتظارِ، وأَصْلُ (نظر): تأمُّلُ الشَّيءِ ومُعايَنَتُه، ومنه: نَظَرْتُه، أي: انتَظَرْته، كأنَّه يَنْظُر إلى الوَقْتِ الذي يأتي فيه(٤).

مشكلُ الإعرابِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾

- ﴿تَمَامًا﴾ منصوبٌ، وفي نَصْبِه أوجُهٌ: أحدُها: أنْ يكونَ مفعولًا مِنْ أَجلِه؛ أي: لأجْلِ تمامِ نِعْمَتِنا. الثاني: أن يكونَ مصدرًا في موضِعِ الحالِ: إمَّا مِن الكِتابِ: أي تامًّا، أو مِن (نا العَظَمةِ) في ﴿ءَاتَيْنَا﴾؛ أي: مُتَمِّمينَ. الثالث: أن

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٣)، (مقاييس اللغة)) (٢/ ٢٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٣١).

يكون مفعولًا مطلقًا نائبًا عن المَصدرِ؛ لأنَّه نَوعُه؛ أي: آتَيْنَاه إيتاءَ تمامٍ لا نُقصانٍ، أو لأنَّه اسمُ المَصدَرِ على تقديرِ آتَيناه، أي: أتمَمْناه تمامًا[١].

- ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾: ﴿أَحۡسَنَ﴾ بفتحِ النُّونِ: فِعْلٌ ماضٍ واقعٌ صلةً للموصولِ، وفاعِلُه ضميرٌ مستَتِرٌ يعودُ على ﴿مُوسَىٰ﴾. وقيل: الضَّميرُ يَعودُ على كُلِّ مَن أحسَنَ، والموصولُ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ مرادٌ به الجِنْسُ. وقيل: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ هنا مصدريَّةٌ، وليسَتْ موصولةً، و﴿أَحۡسَنَ﴾ فعلٌ ماضٍ صِلَتُها، وفاعِلُ ﴿أَحۡسَنَ﴾ ضميرٌ مُستتِرٌ يعودُ على ﴿مُوسَىٰ﴾؛ أَيْ: تمامًا على إحسانِ موسى بطاعَتِنا، وقيامِه بأمْرِنا ونَهْيِنا. وقُرِئ: (أحْسَنُ) بضَمِّ النونِ على أنَّه اسْمٌ؛ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، وجُملَتُه صِلَةٌ؛ أي: على الذي هو أحسَنُ، فحُذِفَ العائِدُ (هو). وقيل غيرُ ذلك[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًا﴾

- ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾: ﴿نَفۡسًا﴾ مفعولٌ به مُقَدَّمٌ منصوبٌ. ﴿إِيمَٰنُهَا﴾ فاعِلٌ مؤخَّرٌ مرفوعٌ، ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾ جملةٌ في محلِّ نصبٍ نعتٌ لـ﴿نَفۡسًا﴾[٣].

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٢٦-٢٢٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) (٨/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٩٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٢٧-٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٣٣-٢٣٥).

قال أبو حيان- رحمه الله تعالى: (وجازَ الفَصلُ بالفاعِلِ بين الموصوفِ وصِفَتِه؛ لأنه ليس بأجنبيٍّ؛ إذ قد اشترك الموصوفُ- الذي هو المفعول- والفاعِلُ في العامِلِ، فعلى هذا يجوز: ضربَ هندًا غلامُها التَّميميَّةَ، ومَن جَعَلَ الجملةَ حالًا [مِنْ (ها) في ﴿إِيمَٰنُهَا﴾] أبعَدَ، ومَنْ

المعنى الإجماليُّ:

يُخْبِرُ تعالى أنَّه آتى مُوسَى التوراةَ كاملةً، جامعةً لجميعِ ما يحتاجُ إليه في شريعتِه؛ جزاءً على إحسانِه في العملِ وطاعتِه، وإتمامًا لنِعْمَتِه عليه، وتَوْضِيحًا لكلِّ شَيْءٍ يَحتاجُ إليه قَوْمُه مِنْ أَمْرِ دِينِهم، وهدايةً لهم، ورحمةً؛ وحتى يُؤْمِنوا بلِقاءِ اللهِ تعالى يَوْمَ القِيامَةِ.

وبيَّن اللهُ تعالى أنَّه أَنْزَلَ هذا القرآنَ مُبارَكًا، فيه الخَيْرُ الكثيرُ، والعِلْمُ الغَزيرُ، وأَمَرَ العبادَ أَنْ يَتَّبِعوه، وأَنْ يَتَّقُوا رَبَّهم؛ لَعَلَّهم يُرْحَمونَ.

ثم أَخْبَرَ سبحانه أنَّه أَنْزَلَ هذا الكِتابَ قَطْعًا لحُجَّةِ مُشْرِكي قُرَيْشٍ، من أنْ يَحْتَجُّوا بأنَّ الكتابَ إنَّما أُنْزِلَ على طائِفَتينِ مِن قَبْلِهم: هم اليَهُودُ والنَّصارى، وهم لا عِلْمَ لهم به ولا معرفةَ، ولا يَفْقَهونَ اللِّسانَ الذي جاء به ولم يُؤْمَرُوا بما فيه. كذلك كانَ إنزالُه الكتابَ قَطْعًا لتَعَلُّلِهم من أنْ يقولوا: لو أنَّا أُنْزِلَ إلينا الكتابُ كما أُنْزِلَ على اليَهودِ والنَّصارى لكُنَّا أَهْدَى منهم؛ فبَيَّنَ تعالى أنَّه قد جاءَهم القُرآنُ حُجَّةً واضِحَةً بَيِّنَةً، وهُدًى لهم ورحمةً، وأَوْضَحَ أنَّه لا أَحَدَ أَشَدُّ ظُلمًا مِمَّنْ كَذَّبَ بآياتِ اللهِ وأَعْرَضَ عنها بعد أنْ جَاءتْه، وتَوَعَّدَ الَّذين يُعْرِضونَ عن آياتِه بأنَّ لهم سُوءَ العَذابِ؛ جزاءَ ذلك الإعراضِ.

فهل ينتَظِرُ هؤلاءِ المُشْركونَ إلَّا أن تَأْتِيَهم الملائِكَةُ فتَقْبِضَ أَرْواحَهُم على الكُفْرِ، أو يَأْتِيَهم اللهُ في مَوْقِفِ يومِ القِيامَةِ لفَصْلِ القَضَاءِ بَيْنَ الخَلْقِ، أو أنْ تَطْلُعَ عليهم الشَّمْسُ من مَغْرِبِها؛ فإنَّها إذا طَلَعَتْ مِن مَغْرِبِها لا يَنْفَعُ أَحَدًا الإيمانُ إذا لم يَكُنْ قد آمَنَ مِن قَبْلِ ذلك، ولا تُقْبَلُ توبةُ عاصٍ، ولا عَمَلٌ صالِحٌ مِن أَحَدٍ لم

جَعَلَها مستأنفةً فهو أبعَدُ. [والقائِلُ بذلك أبو البقاءِ العكبريُّ في التِّبيانِ]) (١/ ٥٥٢). ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٠).

يكن عامِلًا به قبلَ طُلُوعِها مِن مَغْرِبها، وأَمَرَ نَبِيَّهم أن يقولَ لهم: انْتَظِروا أحَدَ تلك الأشياءِ، ونحن مُنْتَظِرونَ كذلك.

ثم أخبرَ تعالى أنَّ الَّذين اختَلَفوا في دينِ الله وفارَقُوه، أو أَصْبَحوا فِرَقًا وأَحْزابًا؛ فإنَّ نَبِيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بَرِيءٌ منهم وممَّا هم فيه، إنَّما أَمْرُهم ومَصِيرُهم إلى اللهِ، ثم يُخْبِرُهم تعالى يومَ القيامَةِ بما عَمِلُوه في الدُّنيا، ويُجازِيهم عليه.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾.

أي: ثمَّ آتَيْنا مُوسى التَّوراةَ[١] كاملةً جامعةً لجميعِ ما يُحتاجُ إليه في شريعتِه[٢]؛ جزاءً على إِحْسانِه في العَمَلِ، وقيامِه بأوامِرِنا وطاعَتِنا، وتمامًا لِنِعَمِنا عليه، وكمالًا لإِحْسانِنا إليه، زيادةً على ما أَنْعَمْنا به عليه مِنْ قبلُ[٣].

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

أي: وتبيينًا لكلِّ شيءٍ يحتاجُ قَوْمُه وأَتْباعُه إلى تَفْصيلِه مِن أَمْرِ دِينِهم؛ مِنَ الأحكامِ والعَقائِدِ وغيرِ ذلك[٤].

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾.

---

(١) قال أبو حيان: (الكتابُ هنا التوراةُ بلا خلافٍ) ((تفسير أبي حيان) (٤/ ٦٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٨-٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٧٣-٦٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١).

أي: وهدايةً لهم إلى الصِّراطِ المُستقيمِ، ورحمةً بهم، تَحْصُلُ لهم بها السَّعادةُ والنَّجاةُ من الضَّلالةِ[١].

﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: آتينا موسَى التَّوراةَ؛ كي يُؤمِنَ قَوْمُه بالبَعْثِ، ويُصدِّقوا بالثَّوابِ والعِقابِ؛ فيَسْتَعِدُّوا لذلك[٢].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه أنزَلَ الكُتُبَ رَحمةً منه- لأنَّ غايَتَها الدَّلالةُ على مُنْزِلِها، فتُمْتَثَل أوامِرُه، وتُتَّقَى مَناهيه وزَواجِرُه- بيَّنَ أنَّه لم يَخُصَّ تلك الأُمَمَ بذلك، بل أَنْزَلَ على هذه الأُمَّةِ كتابًا، ولم يَرْضَ لها كَوْنَه مثلَ تلك الكُتُبِ، بل جَعَلَه أَعْظَمَها بَرَكةً، وأَبْيَنَها دَلالةً[٣]، فقال تعالى:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾.

أي: وهذا القرآنُ الذي أَنْزَلناه إلى نَبِيِّنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم فيه الخيرُ الكثيرُ، والعِلْمُ الغزيرُ، وهو الذي تُسْتَمَدُّ منه سائِرُ العلومِ، ويُمَيَّز به بين الحَسَنِ والقَبيحِ، والنَّافِعِ والضَّار، والباطِلِ والحَقِّ، فمن تَعَلَّمَهُ وعَمِلَ به؛ غَمَرَتْه الخيراتُ والبَرَكاتُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٢٥-٥٣٢).

﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

أي: فاجْعَلوه إمامًا تَتَّبِعونَه، وتَعْمَلونَ بما فيه- أيُّها النَّاسُ- فيما يأمُرُ به ويَنْهَى عنه، وابْنُوا أُصُولَ دِينِكم وفُرُوعَه عليه، واتَّقُوا اللهَ تعالى، فلا تُخالِفُوا أَمْرَه، ولا تَسْتَحِلُّوا مَحارِمَه؛ لتُرْحَموا، فتَنْجُوا مِنْ عَذابِ اللهِ عزَّ وجلَّ[1].

﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦﴾.

﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾.

أي: أَنْزَلْنا إليكم هذا الكِتابَ المُبارَكَ- يا كُفَّارَ قُريشٍ- قَطْعًا لحُجَّتِكم وعُذْرِكم؛ لِئَلَّا تَقُولوا: لم يُنَزَّلْ علينا كتابٌ فَنَتَّبِعَه، ولم نُؤْمَرْ ولم نُنْهَ، فليس علينا حُجَّةٌ فيما نَأْتي ونَذَرُ؛ إذْ لم يَأْتِ مِنَ اللهِ كتابٌ ولا رسولٌ، وإنَّما الحُجَّةُ على طائِفَتَيِ اليهودِ والنَّصارَى اللَّتَينِ أُنْزِلَ عليهما التَّوراةُ والإنجيلُ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾.

أي: والكُتُبُ التي أَنْزَلْتَها عليهم، ليس لَنا بها عِلْمٌ ولا مَعْرِفَةٌ؛ فلا ندري ما هي، ولا نَعْلَمُ ما يَقْرَؤون؟ فليس هو بِلِسانِنا؛ فنَفْهَمَ ما يقولونَ؛ فهم كانوا أَهْلَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦-٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٥٣-٥٥٤).

دُوننا، ولم نُؤْمَرْ بما فيه[١].

﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾.

أي: وقَطَعْنا تَعَلُّلَكم؛ لئلَّا تَقُولوا: لو أَنَّا أُنْزِلَ علينا كتابٌ- كما أُنْزِلَ على اليَهُودِ والنَّصَارى- لَكُنَّا أَشَدَّ منهم استقامَةً على طريقِ الحَقِّ، واتِّباعًا للكِتابِ، وأَحْسَنَ عَمَلًا بما فيه[٢].

﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

أي: فقَدْ جاءَكم كتابٌ مِنَ اللهِ تعالى على لِسانِ مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم بلِسانٍ عَرَبيٍّ مُبِينٍ؛ حُجَّةً عليكم واضِحَةً بَيِّنَةً، فيه بيانٌ للحَقِّ، وفُرقانٌ بَينَ الصَّوابِ والخَطَأِ، وهُدًى من الضَّلالَةِ، ورحمةً مِنَ اللهِ لِمَنْ عَمِلَ به واتَّبَعَه؛ تَحْصُلُ لهم بها السَّعادةُ في دُنياهم وأُخْراهم[٣].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا قامتْ عليهم الحجَّةُ، وبيَّن الله ما يُوجِب الانقيادَ لأحكامِ هذا القرآنِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٥٤-٥٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٥٥).

والإيمانَ بأخبارِه- حسُن وقوعُ تحذيرِ التقريرِ، وأنَّ مَن لم يرفعْ بهذا القرآن رأسًا، وكذَّب به، فإنَّه أظلمُ الظَّالمين[١]، فقال تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾.

أي: فمَنْ أَخطأُ فِعْلًا، وأَشَدُّ تَجاوُزًا وعُدْوانًا مِمَّنْ كذَّبَ بِحُجَجِ اللهِ وأَدِلَّتِه، وأَعرضَ عنها بعدَ ما جاءَتْه، فلم يُؤمِنْ بها، وصَرفَ النَّاسَ وصَدَّهُم عنها؟

﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾.

أي: سَيُجَازِي اللهُ تعالى الَّذين يُعْرِضونَ عن آياتِه، ويَصُدُّونَ النَّاسَ عنها؛ العذابَ السَّيِّئَ، والعِقابَ الشَّديدَ[٢].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ أنَّه إنَّما أَنْزَلَ الكِتابَ؛ إزالَةً للعُذْرِ، وإزاحةً للعِلَّةِ؛ بَيَّنَ أنَّهم لا يُؤْمِنونَ البتَّةَ، وشَرَحَ أحوالًا تُوجِبُ اليَأْسَ عَن دُخُولِهم في الإيمانِ، فقال[٣]:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير البقاعي)) (٧/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٨٨).

أي: هل ينتَظِرُ هؤلاءِ المُشْركونَ إلَّا أنْ تَأْتِيَهم الملائكَةُ بالمَوْتِ، فتَقْبِضَ أَرْواحَهم على الكُفْرِ، أو أنْ يَأْتِيَهم ربُّكَ- يا مُحمَّد- في مَوْقِفِ القِيامَةِ؛ لفَصْلِ القَضاءِ بَين العِبادِ، أو أنْ تَطلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبها[1]؟

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾.

أي: إذا طَلَعَت الشَّمْسُ مِن مَغْرِبها، فلا يُقْبَلُ إيمانُ كافِرٍ، لم يَكُنْ مُؤْمِنًا من قَبْلِ طُلُوعِها، ولا تُقْبَلُ توبةٌ مِن عاصٍ، ولا يُقبَل عملٌ صالحٌ مِن أحَدٍ لم يكن عاملًا به قبل طُلوعِها[2].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى تطلُعَ الشَّمسُ مِنْ مَغْرِبِها، فإذا طَلَعَتْ فرآها النَّاسُ آمَنُوا أجمعونَ، فذلك حين: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾))[3].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قالَ يومًا: ((أتَدْرُونَ أينَ تذهبُ هذهِ الشَّمسُ؟ قالوا: اللَّهُ ورسولُهُ أعلمُ، قالَ: إنَّ هذهِ الشَّمسَ تجري حتَّى تنتَهيَ تحتَ العَرْشِ فتخِرُّ ساجدةً، فلا تزالُ كذلِكَ حتَّى يقالَ لَها: ارتَفِعي، ارْجِعي من حيثُ جِئْتِ، فتُصبحُ طالعةً مِنْ مَطلَعِها، ثمَّ تجري حتَّى تنتَهيَ إلى مستقَرِّها ذاك تحتَ العرشِ، فتخرُّ ساجدةً، ولا تزالُ كذلِكَ حتَّى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٦٠-٥٦٢).
قال الرازيُّ: (أجمعوا على أنَّ المرادَ بهذه الآياتِ علاماتُ القيامةِ) ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣، ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧١، ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١-٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٨٩-٥٩٠).
(٣) رواه البخاري (٦٥٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٥٧).

يقالَ لَها: ارتَفِعي، ارجِعي من حيثُ جِئْتِ، فتَرْجِعُ فتُصْبِحُ طالعةً من مَطْلعِها، ثمَّ تجري لا يستنكرُ النَّاسُ منها شيئًا، حتَّى تنتَهيَ إلى مُستقرِّها ذاكَ تحتَ العَرشِ، فيقالُ لَها: ارتفِعي، أَصبِحي طالعةً مِن مَغْربِكِ، فتُصْبِحُ طالعةً مِن مَغْربِها؛ فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: أَتَدْرُونَ متى ذاكُم؟ ذاكَ حينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾))[1].

﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاء المشركينَ: انتَظِرُوا أنْ تَأْتِيَكم الملائكةُ بالمَوتِ، فتَقْبِضَ أَرْواحَكم، أو أنْ يَأْتِيَ رَبُّكَ لفَصْلِ القَضَاء في مَوْقِفِ القيامة، أو أَنْ يَأْتيَكم طُلُوعُ الشَّمْسِ مِن مَغْرِبها، فتُطوى صحائِفُ الأعمالِ، ولا يَنْفَعُكم إيمانُكم حينئذٍ إنْ آمَنْتُم، فتَعْلَمون حينئذٍ المُحِقَّ مِنَّا مِنَ المُبْطِل، وتَتَبَيَّنون عند ذلك مَنِ النَّاجي منَّا ومنكم، ومَنِ الهالكُ؟ إنَّا مُنْتَظِرون ذلك، فيُجْزِل الله لنا ثَوابَه، ويُنْزِل بكم عَذابَه[2].

قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى أنَّ صِراطَه مُستقيمٌ، ونَهَى عَنِ اتِّباعِ السُّبُل، وذَكَرَ مُوسى عليه

(١) رواه مسلم (١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠١).

السَّلامُ وما أُنْزِلَ عليه، وذَكَرَ القُرآنَ، وأَمَرَ باتِّباعِه، وذَكَرَ ما يَنْتَظِرُ الكُفَّارَ مِمَّا هو كائِنٌ بهم- انتَقَلَ إلى ذِكْرِ مَنِ اتَّبَعَ السُّبُلَ، فتَفَرَّقَت به عن سَبيلِ الله؛ لِيُنَبِّهَ المؤمنينَ على الائتلافِ على الدِّينِ القَويمِ، ولِئَلَّا يَخْتَلِفوا كما اخْتَلَفَ مَنْ قَبْلَهم مِنَ الأُمَمِ، بَعْدَ أنْ كانوا مُتَّفِقينَ على الشَّرائِعِ التي بُعِثَ أَنْبياؤُهم بها[١]، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسير:

في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾ قراءتانِ:

١- قراءةُ ﴿فَارَقُوا﴾ أي: زَايَلوا دِينَهم، وتَرَكوه، وانْصَرَفوا عنه[٢].

٢- قراءَةُ ﴿فَرَّقُواْ﴾ مِنَ التَّفْريقِ[٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾.

أي: إنَّ الَّذين اختَلَفوا في دِينِ الله تعالى وفَارَقُوه، أو تَشَتَّتوا فيه؛ فأَصْبَحوا فِرَقًا وأَحْزابًا وأَدْيانًا؛ كلٌّ منها يزعُمُ أنَّه الحَقُّ؛ تَبَعًا للأَهْواءِ والضَّلالاتِ- فأنت بريءٌ منهم، يا محمَّدُ، وممَّا هم فيه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٠).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥١).
ويُنظر: لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٧٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٥٢).
وفي القراءة بـ (فَارَقُوا) وجهٌ آخر أن (فاعَلَ) بمعنى (فَعَّل) نحو: ضاعَفْتُ الحساب وضعَّفْتُه. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٣٥).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥١).
ويُنظر: لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٧٨)، ((تفسير القرآن العظيم)) (٦/ ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠-٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي))

قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۞ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۞ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ۞ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٢-٥٦].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.

أي: إنَّ أَمْرَ هؤلاءِ- الَّذين فارَقوا دِينَهم وفرَّقوه، فكانوا فيه شِيَعًا- ومَصِيرَهم إلى اللهِ تعالى وَحْدَه، ثمَّ يخْبِرُهم سبحانه إذا جاؤُوه يومَ القيامَةِ بالَّذي كانوا يَعْمَلونه في الدُّنيا، فيَجِدُونَ كُلَّ ما عَمِلوه في كتابٍ، لا يُغَادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أَحْصاها، ويُجازيهم بأَعْمالِهم[(١)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

الفَوائِد التربويَّة:

١- القُرآنُ هُدًى ورحمةٌ؛ فعَلَيْنا اتِّباعُ ما هَدَى إليه، واتِّقاءُ ما نَهى عنه وحَذَّرَ؛ لِتكونَ رَحْمَتُه تعالى مرْجُوَّةً لنا في الدُّنيا والآخِرَة؛ فأكبَرُ سَبَبٍ لِنَيْلِ رَحمةِ اللهِ اتِّباعُ هذا القرآنِ، عِلْمًا وعملًا، قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ

(ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠١-٦٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠٧).

فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[١].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا﴾ فيه تَحْذيرُ المؤمنين مِن الإعْراضِ عن الأعمالِ الصَّالِحَةِ[٢].

٣- الإنسانُ يكتَسِبُ الخيرَ بإيمانِه؛ فالطَّاعَةُ والبِرُّ والتَّقْوى إنَّما تَنْفَعُ وتَنْمُو إذا كان مع العَبْدِ الإيمانُ، فإذا خلا القَلْبُ من الإيمانِ لم يَنْفَعْه شَيءٌ مِن ذلك؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا﴾[٣].

٤- قولُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ دليلٌ على أنَّ الدِّينَ يَأْمُرُ بالاجْتِماعِ والائْتِلافِ، ويَنْهى عن التَّفَرُّقِ والاختلافِ في أهْلِ الدِّينِ، وفي سائِرِ مَسائِلِه الأُصُوليَّةِ والفروعِيَّة[٤]، فالله تعالى ذكر التفرُّقَ في سِياقِ الذَّمِّ، فيُؤْذِنُ ذلك بأنَّ اللهَ يُحَذِّرُ المُسلمينَ مِن ذلك[٥].

الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- جَرَتِ العادَةُ أنَّ اللهَ يُنَوِّهُ بالتَّوراةِ والقُرآنِ معًا؛ لأنَّهما أعظَمُ الكُتُبِ المنزَّلة؛ لأنَّه قبل نُزُولِ القُرآنِ كانت التَّوراةُ أعْظَمَ الكُتُبِ المُنَزَّلةِ، وأجمَعَها للأحكامِ؛ كما قال اللهُ: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾، فلمَّا نَزَلَ القُرآنُ كان أشْمَلَ كتابٍ وأَعْظَمَه؛ لأنَّه جَمَعَ اللهُ فيه عُلُومَ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، وزادَ فيه أَشْياءَ لم تُنْزَلْ على غيرِه؛ ولِذا لَمَّا نَزَلَت التَّوراةُ في قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٣).

تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ ﴾ نوَّه بالقُرآنِ العَظيمِ بَعْدَه، فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ ومِثْلُ هذا يَتكَرَّرُ في القُرآنِ، كقَوْلِه في التَّوراةِ: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِى خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] ثم قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ [الأنعام: ٩٢] فأَتْبَعَ التَّنويهَ بالتَّوراةِ التَّنويهَ بالقُرآنِ؛ كَقَوْله: ﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحۡمَةً وَهَٰذَا ﴾ يعني: القُرآنَ ﴿ كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٢] وكقَولِه: ﴿قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِىَ مِثۡلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ ﴾ [القصص: ٤٨] والجِنُّ الَّذين استَمَعوا القرآنَ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾[(١)] [الأحقاف: ٣٠].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ ﴾ لَمَّا أَمَرَ باتِّباعِ الكِتابِ، وكان الإنسانُ رُبَّما تَبِعَه في الظَّاهِرِ، أَمَرَ بإيقاعِ التَّقْوى المُصَحِّحةِ للباطِنِ إيقاعًا عامًّا؛ ولذلك حُذِفَ الضَّميرُ، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ﴾ أي: ومع ذلك فأَوْقِعوا التَّقْوى[(٢)].

٣- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۞ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴾ في هذه الآياتِ دليلٌ على أنَّ عِلْمَ القُرآنِ أَجَلُّ العُلومِ وأَبْرَكُها وأَوْسَعُها، وأنَّه به تَحْصُل الهِدايَةُ إلى الصِّراطِ المستقيمِ؛ هدايةً تامَّةً لا يُحتاجُ مَعَها إلى تَخَرُّصِ المتكَلِّمينَ، ولا إلى أَفْكارِ المتفَلْسِفينَ، ولا لغيرِ ذلك مِنْ عُلومِ الأَوَّلينِ والآخِرينَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٢٤، ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١).

٤- استُدِلَّ على أنَّ المجوسَ لَيسُوا مِن أَهْلِ الكِتابِ بقَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ أي: اليهودِ والنَّصارى؛ فتَبَيَّنَ أنَّه تعالى أَنْزَلَ القرآنَ؛ كراهةَ أنْ يَقُولوا ذلك، ومَنْعًا لأنْ يَقُولوا ذلك، فلو كان قَدْ أُنْزِلَ على أكثَرَ مِنْ طَائِفَتَينِ لكانَ هذا القَوْلُ كَذِبًا، فلا يحتاجُ إلى مانِعٍ مِن قَولِه[١].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، هذا التَّقْسيمُ والتَّنويعُ نَصٌّ صَريحٌ في معناه، فلا يَحْتَمِلُ تأويلَ إتيانِ الرَّبِّ جَلَّ جلالُه بإتيانِ مَلائِكَتِه أو آياتِه[٢].

٦- في قَوْلِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًا﴾ لَمَّا كان هذا وعيدًا للمُكَذِّبينَ بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم مُنتظَرًا، وهم يَنْتَظِرونَ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأَتْباعِهِ قَوارِعَ الدَّهْرِ ومَصائِبَ الأُمورِ؛ قال ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ فسَتَعْلمونَ أَيُّنا أحَقُّ بالأَمْنِ[٣]؟

٧- قولُه تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ فيه دليلٌ لمذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعةِ في إثباتِ الأفعالِ الاختياريَّةِ لِلَّهِ تعالى؛ كالاستواءِ والنُّزولِ والإتيانِ لله تبارك وتعالى؛ مِن غيرِ تشبيهٍ له بصِفاتِ المخْلوقينَ[٤].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًا﴾، لا يُعارِضُه آيةُ سُورَةِ النِّساءِ: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢).

لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]؛ لأنَّ مَحْمَلَ آيةِ النِّساءِ على تَعيينِ وَقْتِ فَواتِ التَّوبةِ بالنِّسبة للأَحْوالِ الخاصَّةِ بآحادِ النَّاسِ، ومَحْمَلَ آيةِ سُورَةِ الأنعامِ تَعْيينُ وَقْتِ فَواتِ التَّوبَةِ بالنِّسبَةِ إلى النَّاسِ كافَّةً، وهي حالةُ يأسِ النَّاسِ كُلِّهم مِنَ البَقَاءِ(١).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ يدلُّ على أنَّ الإيمانَ يَنْفَعُ إذا كان إيمانًا بالغَيْبِ، وكان اختيارًا مِنَ العبدِ، فأمَّا إذا وُجِدَتِ الآياتُ صار الأَمْرُ شهادةً، ولم يَبْقَ للإيمانِ فائدةٌ؛ لأنَّه يُشْبِه الإيمانَ الضَّروريَّ، كإيمانِ الغَريقِ والحَريقِ ونَحْوِهما، مِمَّن إذا رأى الموتَ أقلَعَ عمَّا هو فيه(٢).

١٠- كُلُّ مُبتدِعٍ خالَفَ سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وكَذَّبَ ببعْضِ ما جاءَ به مِنَ الحَقِّ، وابتَدَعَ من الباطِلِ ما لم تَشْرَعْه الرُّسُلُ- فالرَّسولُ بَريءٌ مِمَّا ابتَدَعَه وخالَفَه فيه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾(٣).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه: تقديمُ المجرورِ على عامِلِه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ للاهتِمامِ بأَمْرِ البَعْثِ والجَزاءِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٠-١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧٧).

٢- قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

- تَنكير ﴿كِتَٰبٌ﴾ للتَّعظيمِ، أي: وهذا القرآنُ الذي يُتْلَى عليكم كِتابٌ عظيمُ القَدْرِ[١].

- قدَّمَ الوصْفَ بالإنزالِ على الوصفِ بالبَركة؛ لأنَّ الكلامَ مع مَن يُنكِرُ رسالةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويُنكِرُ إنزالَ الكتُبِ الإلهيَّةِ، وكونه مُباركًا عليهم هو وصفٌ حاصلٌ لهم منه، متراخٍ عن الإنزالِ؛ فلذلك تأخَّر الوصْفُ بالبَركة، وتقدَّم الوصفُ بالإنزالِ[٢].

- وكان الوَصْفُ بالفِعْلِ المُسنَد إلى نونِ العَظَمَةِ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أَوْلى مِنَ الوَصْفِ بالاسْمِ؛ لِما يَدُلُّ الإسْنادُ إلى اللهِ تعالى مِنَ التَّعْظيمِ والتَّشريفِ، وليس ذلِك في الاسمِ لو كانَ التركيبُ (مُنزَلٌ)، أو (مُنْزَلٌ منَّا)[٣].

- في قَوْلِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وَعْدٌ على اتِّباعِ القُرآنِ الكَريم، وتَعْريضٌ بالوعيدِ بِعَذابِ الدُّنْيا والآخِرَةِ إنْ لم يَتَّبِعوه[٤].

٣- قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تنوين ﴿بَيِّنَةٌ﴾ للتفخيمِ، وفي التعَرُّضِ لوَصْفِ الربوبيَّة مع الإضافَةِ إلى ضَمِيرِهم في قوله: ﴿رَّبِّكُمْ﴾ مزيدُ تأكيدٍ لإيجابِ الاتِّباعِ[٥].

٤- قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ تنوينُهما أيضًا للتفخيم؛ عبَّرَ عن القرآنِ بالبيِّنةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٩٤- ٦٩٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٦٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٢).

إيذانًا بكمالِ تَمَكُّنِهم مِن دِراسَتِه، ثمَّ بالهدى والرَّحمةِ؛ تنبيهًا على أنَّه مُشْتَمِلٌ على ما اشتَمَلَت عليه التَّوراةُ مِن هدايةِ النَّاسِ ورَحْمَتِهم[١].

٥- قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ فيه: وَضْعُ الموصولِ مَوْضِعَ ضميرِهم بطريقِ الالتفاتِ؛ تنصيصًا على اتِّصافهم بما في حَيِّزِ الصِّلَةِ، وإشعارًا بعلَّةِ التَّحكيمِ، وإسقاطًا لهم عن رُتْبَةِ الخِطابِ، والمعنى إنكارُ أنْ يكونَ أحَدٌ أظلَمَ مِمَّنْ فَعَلَ ذلك أو مُساويًا له[٢].

٦- قوله: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ فيه: وَضْعُ الموصولِ مَوْضِعَ المُضْمَر- حيث لم يَقُلْ: سَنَجْزِيهم- لتَحقيقِ مَناطِ الجَزاءِ[٣].

٧- قولُه: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ (كَان) هنا مفيدةٌ لِلاسْتِمرارِ، أي: بِصَدْفِهم وإعراضِهم عن الآياتِ إعراضًا مُستمِرًّا[٤].

٨- قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ...﴾ ﴿هَلْ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، أي: ما يَنظُرون إلَّا أنْ تأتيَهم الملائكةُ... إلخ. والآية استئنافٌ بَيانيٌّ نشأَ في قوله قَبْلَه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾، وهذا الاستئنافُ يَحتمِلُ الوعيدَ والتهديدَ، ويَحتمِلُ التَّهكُّمَ؛ فإنْ كان وعيدًا وتَهديدًا فهو ناشئٌ عن جملة: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾؛ لإثارتِه سُؤالَ سائلٍ يقول: متى يكون جزاؤُهم؟ فقيل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ ...﴾.

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨٣).

وإنْ كان تَهكُّمًا بِهم على صَدْفِهم عن الآياتِ التي جاءتْهم، وتَطلُّعهم إلى آياتٍ أعظمَ منها في اعتقادِهم؛ فهو ناشئٌ عن جملة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾؛ لأنَّه يُثيرُ سؤالَ سائلٍ يقول: ماذا كانوا يَترقَّبون من الآياتِ فوقَ الآياتِ التي جاءتْهم؟ فقيل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ ...﴾[(١)]!

٩- قوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ التَّعبيرُ عنها بالبَعْضِ؛ للتَّهويلِ والتَّفْخيمِ[(٢)].

- وإضافَةُ الآياتِ في الموضِعَينِ إلى اسْمِ الرَّبِّ في قَوْلِه: ﴿ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ مُنْبِئٌ عن المالِكِيَّة الكُلِّيَّة لذلك، وإضافَتُه إلى ضَمِيره صلَّى الله عليه وسلَّم للتَّشْريفِ[(٣)].

١٠- قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ فيه: استئنافٌ بيانيٌّ؛ تذكيرًا لهم بأنَّ الانتظارَ والتَّرَيُّثَ عن الإيمانِ وَخِيمُ العاقِبَةِ[(٤)].

- قولُه: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ فيه: تَقديمُ المفعولِ في قوله: ﴿نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا﴾ ليَتِمَّ الإيجازُ في عَوْدِ الضَّمِيرِ[(٥)]، ووَقَعَ في الكلام إيجازُ حَذْفٍ؛ اعتمادًا على القَرينةِ الواضِحَةِ. والتقديرُ: لا ينفَعُ نفسًا غيرَ مؤمنةٍ إيمانُها، أو نفسًا لم تكنْ كسَبَتْ خيرًا في إيمانِها مِن قَبْلُ كَسْبُها[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨٣- ١٨٥)، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨٧).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٨٨).

١١- قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾ فيه: استئنافٌ لبيانِ أَحْوالِ أَهْلِ الكِتابَيْنِ إِثْرَ بيانِ حَالِ المُشركينَ[١]، وقد جاء الاستئناف عَقِبَ الوعيدِ كالنَّتيجَةِ والفَذْلكة[٢].

١٢- قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه: استئنافٌ بيانيٌّ[٣]، وصيغَةُ القَصْرِ؛ لقَلْبِ اعتقادِ السَّائِلِ المترَدِّد؛ أَيْ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ لَا إِلَى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم ولَا إلى غَيْره، وَهذا إِنْذارٌ شَدِيدٌ[٤]، وفيه تَعْزِيةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٥].

١٣- **قولُه**: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ عَبَّرَ عن إظهارِه بالتَّنْبِئَة؛ لِمَا بيْنَهما مِنَ المُلابَسَةِ في أَنَّهما سَبَبانِ للعِلْمِ؛ تنبيهًا على أَنَّهم كانوا جاهِلِينَ بحالِ ما ارْتَكَبوه، غافِلِينَ عن سُوءِ عاقِبَتِه[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٩٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٥٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٦).

الآيات (١٦٠-١٦٥)

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ١٦٥﴾.

غريب الكلمات:

﴿قِيَمًا﴾: مُسْتقيمًا، أو ثابتًا، أو مُقَوِّمًا لأمورِ مَعاشِهِم ومَعادِهم، وأَصْلُ (قوم): يدُلُّ على انْتِصابٍ أو عَزْمٍ[١].

﴿مِّلَّةَ﴾: أي: دينَ، وطريقةَ، مشتقَّة من أَمْلَلْتُ (أي أَمْلَيْتُ)؛ لأنَّها تُبنَى على مسموعٍ ومتلوٍّ؛ فإذا أُريدَ الدِّينُ باعتبارِ الدُّعاءِ إليه؛ قيل: (مِلَّة)، وإذا أُريدَ باعتبارِ الطَّاعةِ والانقيادِ له؛ قيل: (دين)[٢].

﴿وَنُسُكِي﴾: وذَبْحي، والنُّسُكُ: العِبادةُ، والذَّبائِحُ، وأَصْلُ (نسك): يدُلُّ على عبادةٍ وتقَرُّبٍ إلى اللهِ تعالى؛ ومنه قيل للعابِدِ: ناسِكٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣، ٧٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٤).

﴿رَبًّا﴾: الرَّبُّ: السيِّدُ، والمالِك، والمُصْلِح، والصَّاحِبُ، والمُرَبِّي، والخالِق، والمعبود، وأصْلُه: إصلاحُ الشَّيْءِ والقيامُ عليه[١].

﴿وِزْرَ﴾: الوِزْرُ هو الإثمُ والذَّنْب، والثِّقْلُ والحِمْل أيضًا، وقيل: الوِزْرُ: هو الحِمْلُ الثَّقيلُ مِن الإثمِ، وهو الإثمُ العَظيمُ، وأصلُ (وزر): يدلُّ على مَا حمَلَه الإنسانُ، وعلى الثِّقل في الشَّيء؛ ومنه سُمِّيت الآثامُ أوزارًا؛ لأنَّها أحمالٌ مُثقِلةٌ[٢].

﴿خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي: سُكَّانَ الأرضِ، يَخلُفُ بَعضُكم بَعْضًا، واحِدُهم خَليفَة، والخِلافَةُ النِّيابةُ عن الغَير، خَلَفَ فلانٌ فلانًا: قام بالأَمْرِ عنه، وأَصْلُ (خلف): مجيءُ شَيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مَقامَه[٣].

﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾: أي: لِيَختبرَكم ولِيَمتحنكم، ويكونُ البلاءُ في الخَيرِ والشَّرِّ، وأَصلُ (بلي) من الامتحانِ، وهو الاخْتبارُ[٤].

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

١- **قوله ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾**

قولُه تعالى: ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ إنَّما ذكَّر العددَ ﴿عَشۡرُ﴾ مع أنَّ المَعْدودَ (أَمْثال) مذكَّر- والقاعدةُ أنَّ العَدَدَ من ثلاثةٍ إلى عشرةٍ يُخالِفُ المعدودَ في التَّذكيرِ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٧/ ٣٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١١٢).

والتَّأنيثِ- فلم يَقُلْ: (عَشرَةُ)؛ وذلك لأوجهٍ؛ منها: أنَّ المذكَّرُ (أَمْثال)[١] اكتَسَبَ من المؤَنَّثِ (ها) التأنيثَ؛ فأُعْطِيَ حُكْمَ المؤَنَّث، ومنها: أنَّه راعَى الموصوفَ المَحذوفَ، والتقديرُ: فله عَشْرُ حَسَناتٍ أمثالِها، ثم حَذَفَ الموصوفُ (حَسَنات) وأقامَ صِفَتَه ﴿أَمْثَالِهَا﴾ مقامَه؛ تاركًا العَدَدَ على حالِه[٢].

٢- قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾

﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ﴾: جارٌّ ومجرورٌ في مَحلِّ نَصْبٍ: مفعولٌ به ثانٍ لـ (هدى).

﴿دِينًا﴾: منصوبٌ على أنَّه بدَلٌ مِنْ محلِّ ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ﴾؛ لأنَّه في مَحَلِّ نَصْبٍ.

﴿قِيَمًا﴾ نَعْتٌ لـ﴿دِينًا﴾، والقِيَم: مصدرٌ بمعنى القيامِ، وُصِفَ به الدِّينُ مبالغةً؛ كقولنا: رجلٌ عَدْلٌ.

﴿مِّلَّةَ﴾ مَنْصُوبةٌ على أنَّها بَدَلٌ مِنْ ﴿دِينًا﴾[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّه من جاءَ يَوْمَ القِيامَةِ بالحَسَنةِ فله عَشْرُ أَمْثالِها، ومَن جاء بالسَّيِّئةِ فلا يُجْزَى إلَّا مِثْلَها، ولا أحَدَ يُظْلَمُ عند الله شيئًا.

ثم أَمَرَ اللهُ نَبِيَّه أن يُعْلِنَ قائِلًا: إنِّي هداني ربِّي إلى طريقٍ واضِحٍ قويمٍ؛ دينًا مستقيمًا قائمًا ثابتًا معتدِلًا، هو شريعةُ إبراهيمَ، المستقيمِ على الحَقِّ، والمائِلِ عن سُبُلِ الضَّلالةِ، وما كان إبراهيمُ عليه السَّلامُ مِنَ المشركينَ.

---

(١) العِبرةُ في المعدودِ بِمُفْرَدِه، ومفرد (أمثال) (مَثَل) وهو مذَكَّر.

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٥٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٣٦-٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٥٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٣٨).

قل- يا مُحمَّد: إنَّ صَلاتي وذَبْحي وحياتي ومَماتي لِلَّهِ وَحْدَه، لا شَرِيكَ له، وبِذَلك أُمِرْتُ وأنا أوَّلُ المُسْلمينَ. وقُل أيضًا لهؤلاءِ المُشركينَ: أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ رَبًّا، وهو جَلَّ وعلا ربُّ كُلِّ شَيءٍ، وما يَكْسِبُ كُلُّ شَخصٍ من الآثامِ فهو عليه، لا يَتَعَدَّى إلى غَيْرِه شيءٌ منه، ولا تَحْمِل نَفْسٌ عن نَفْسٍ شيئًا من الآثامِ، بل كلٌّ يتحَمَّلُ ما ارتَكَبَه من إِثْمٍ، ثمَّ إلى اللهِ مَرْجِعُ النَّاسِ أَجمعينَ فيُخْبِرُهم تعالى بما كانوا فيه يَخْتَلِفون.

وهو جلَّ وعلا الذي جَعَلَكم خلائِفَ في الأَرْضِ بعد أُمَمٍ أَهْلَكَهم، ورَفَعَ بَعْضَكم فَوْقَ بعضٍ دَرَجاتٍ؛ لِيَخْتَبِرَكم فيما مَنَحَكم مِن فَضْلِه، وأَوْلاكم مِن نِعَمِه، فيَنْظُرَ كيف تَعملونَ؟ إنَّ رَبَّك سريعُ العِقابِ، وإنَّه لَغفورٌ رحيمٌ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا أَمَرَ اللهُ تعالى الخَلْقَ بسلوكِ صِراطِه المستقيمِ، ونَهاهم عنِ اتِّباعِ السُّبُلِ؛ لئَلَّا تَتَفَرَّقَ بهم عن سَبيلِه، ثم بَيَّنَ أنَّ بَعْضًا منهم لم يَمْتَثِلوا ذلك، بل اتَّبَعوا السُّبُلَ، فتَفَرَّقَت بهم عن سَبيلِه في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾- بيَّنَ أنَّه جلَّ وعلا بالنِّسبةِ إلى مَن عصاه، فاتَّبَعَ تلك السُّبُلَ الضَّالَّة، وبالنِّسبةِ إلى مَن أَطاعَه، فاتَّبَعَ ذلك الصِّراطَ المُستقيمَ، أنَّ مُعامَلَتَه للمُحسنينَ في غايةِ الإكرامِ والتَّمامِ والكَمالِ، وللمُسِيئينَ في غايَةِ الإنصافِ والعَدَالةِ[1].

وأيضًا على عادةِ القُرآنِ أنَّه إذا أَنْذَرَ أعقب الإنذارَ ببِشارَةٍ لمَن لا يَحِقُّ عليه ذلك الإنذارُ، وإذا بَشَّر أعقب البشارَة بنذارةٍ لمَن يَتَّصِفُ بضِدِّ ما بُشِّرَ عليه- أنه

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠٨).

لَمَّا أَنْذَرَ تعالى وحَذَّرَ من التَّرَيُّث في اكتسابِ الخَيرِ، قبل أن يأتِيَ بَعْضُ آياتِ الله القاهِرَةِ، بقَوْلِه: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ فحَدَّ لهم بذلك حَدًّا هو مِن مَظاهرِ عَدْلِه، أَعْقَبَ ذلك بِبُشْرى مِن مظاهِرِ فَضْلِه وعَدْلِه، وهي الجزاءُ على الحَسَنَةِ بعَشْرِ أمثالها، والجزاءُ على السَّيِّئةِ بِمِثْلِها[1].

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

أي: مَنْ وَافَى ربَّه يومَ القيامَةِ بالخَصْلَةِ الحَسَنَةِ التي تُرْضِي اللهَ تعالى، والتي كان يَعْمَلُها في دارِ الدُّنيا؛ سواءٌ كانت حسنَةً قَوْليَّةً أو فِعْليَّةً، ظاهرةً أو باطنةً، متعلِّقةً بحَقِّ الله سبحانه أو حَقِّ خَلْقِه- فَلَه مِنَ الثَّوابِ على أَقَلِّ التَّقديراتِ عَشْرُ حَسَناتٍ؛ كُلُّ حَسَنَةٍ منها مِثْلُ حَسَنَتِه التي جاءَ بها[2].

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

أي: ومَنْ وَافى رَبَّه سبحانه يَوْمَ القيامَةِ بالخَصْلَةِ السَّيِّئةِ التي تَسُوءُ صاحِبَها، فجَزاؤُه سَيِّئةٌ واحِدَةٌ مِثْلُها مِن غَيْرِ مُضاعَفَتِها عليه[3].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: والجميعُ لا يُظْلَمون، فلا يُزادُ في سيِّئاتِ المُسيءِ، ولا يُنقَصُ مِن حَسَناتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠٨-٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦-٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠٩).

المُحْسِن، وهذا من تمامِ عَدْلِه سبحانَه وإحسانِه، فلا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ[١].

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى انقِسامَ الخَلْقِ إلى مُهْتَدٍ وضَالٍّ، ومُفَرِّقينَ دِينَهم شِيَعًا ومُهْتدينَ- أَمَرَ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُصَرِّحَ عَلى رُؤُوسِ الأَشْهادِ أنَّه لم يَتَّبِع السُّبُلَ الزَّائغَةَ، ولا الطُّرُقَ الضَّالَّةَ، وأنَّه على الهُدى المستقيمِ، والْمَحَجَّة البيضاءِ التي هداه إليها رَبُّه؛ فقال سبحانه[٢]:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

أي: قُلْ مُعْلِنًا- يا مُحمَّدُ: إنَّني قد أَنْعَمَ عليَّ رَبِّي؛ بـأَنْ أَرْشَدَني ووَفَّقَني لسُلُوكِ الطَّريقِ الواضِحِ القَويمِ، الذي لا اعْوِجاجَ فيه ولا انْحِرافَ[٣].

﴿دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾.

أي: هداني رَبِّي إلى صراطٍ مُستقيمٍ، وهو دينٌ قائمٌ ثابتٌ معتدلٌ، يتضَمَّنُ العقائِدَ النَّافِعَةَ، والأعمالَ الصَّالِحَةَ، والأَمْرَ بكُلِّ حَسَنٍ، والنهيَ عن كُلِّ قَبيحٍ، ألا وهو شريعةُ إبراهيمَ المستقيمِ على طَريقِ الحَقِّ، والمائِلِ عن طُرُقِ الضَّلالَةِ، مِن أديانِ أَهْلِ الانحرافِ؛ كاليَهودِ والنَّصارى، وما كان مِنَ المشركينَ باللهِ، صَلواتُ اللهِ وسلامُه عليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١٢-٦١٣).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١٣-٦١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤-٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١٤-٦١٨).

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لما عرَّفه رَبُّه الدِّينَ المستقيمَ، عرَّفه كيف يقومُ به ويُؤَدِّيه[١]، فقال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾.

أي: قُلْ - يا مُحمَّد - للمشركينَ: إنَّ صلاتي وذَبْحي[٢]، وحياتي ووفاتي[٣]، كلُّ ذلك لله خالِقِ العالَمينَ ومَالِكِهم ومُدَبِّرِهم؛ فهو وَحْدَه المستحِقُّ لِأَنْ يُفْرَدَ له ذلك[٤].

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

أي: لا شَريكَ له في شيءٍ مِن ذلك مِنْ خَلْقِه، بل هو وحدَه الذي له الإخلاصُ في جميعِ ذلك كلِّه، وبذلك الإخلاصِ أَمَرَني ربِّي، وأنا عبدٌ مأمورٌ، عليَّ امتثالُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩١).

(٢) واختار أنَّ النُّسك هنا بمعنى الذَّبح: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (١٠/ ٤٦)، وابنُ كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٣٨١)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٨٢)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٢)، ونسبه الشنقيطيُّ لجمهورِ العلماءِ. يُنظر: ((العذب النمير)) (٢/ ٦٢٧).
وقيل: النُّسك هنا أعمُّ، فهو بمعنى العبادةِ، ويدخلُ فيه الذبحُ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٢٧-٦٢٨).

(٣) اختلف المفسِّرون في معنى (مَحْيَايَ وَمَمَاتِي) على أقوال:
فقيل المعنى: أنَّ الذي يحييني ويميتني هو اللهُ تعالى، وأنَّه هو الذي يدبِّر أمري حيًّا وميتًا. وهو في الجملةِ اختيارُ الواحديِّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٤٤)، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٨٢)، وابنِ عثيمين في ((مجموع الفتاوى والرسائل)) (٩/ ٢٠٨).
وقيل: ﴿وَمَحْيَايَ﴾ أي: ما أعملُه في حياتي، ﴿وَمَمَاتِي﴾ أي: ما أُوصي به بعدَ وفاتي. وهو اختيارُ القرطبيِّ في ((تفسيره)) (٧/ ١٥٢).
وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠١-٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥-٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨١-٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٣).

أَمْرِه، وأنا أوَّلُ المُقِرِّينَ المُذْعِنينَ الخاضِعينَ مِن هذه الأُمَّة لرَبِّه سبحانه[١].

عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ((كان إذا قام إلى الصَّلاةِ، قال: وجَّهتُ وَجْهيَ للَّذي فطَرَ السَّمواتِ والأَرضَ حنيفًا، وما أنا مِنَ المُشركينَ. إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحيايَ ومَماتي لله ربِّ العالَمينَ، لا شَريكَ له، وبذلك أُمِرْتُ، وأنا من المسلمِينَ. اللهمَّ أنت الملِكُ، لا إلهَ إلَّا أنت، أنت رَبِّي، وأنا عبدُك، ظَلَمْتُ نَفْسي، واعترفتُ بذنبي، فاغْفِرْ لي ذنوبي جميعًا؛ إنَّه لا يغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أنت، واهْدِني لأَحْسَنِ الأخلاقِ، لا يَهْدي لأَحْسَنِها إلا أنت، واصْرِفْ عني سيِّئَها، لا يَصْرِفُ عني سيِّئَها إلَّا أنت، لبَّيك! وسعدَيك! والخيرُ كلُّه في يدَيك، والشرُّ ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركْتَ وتعالَيتَ، أستغْفِرُك وأتوبُ إليك))[٢].

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا أَمَرَ تعالى محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم بالتوحيد المحضِ، وهو أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى ...﴾ إلى قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ ...﴾ أَمَرَه بأن يَذْكُرَ ما يجري مَجْرى الدَّليلِ على صِحَّةِ هذا التوحيدِ، فقال[٣]:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

أي: قل - يا مُحمَّدُ - لهؤلاءِ المشركينَ: أَسِوَى اللهِ أَتَّخِذُ ربًّا يَسُودُني ويَحْفَظُني

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٢٩).

(٢) رواه مسلم (٧٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩١).

ويَكْلَؤُني، ويُدَبِّرُ أمري، وهو خالِقُ ومالِكُ ومدَبِّرُ كُلِّ شيءٍ؟ والمعنى: لا يمكِنُ أن أفعَلَ ذلك، فأطلُبَ ربًّا غَيْرَه؛ فهو رَبُّ كُلِّ شيءٍ، وغيرُه مخلوقٌ مَربوبٌ مَملوكٌ له سبحانه وتعالى(١).

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾.

أي: ما يكسِبُه المرءُ من الآثامِ لا يتعَدَّى منه شيءٌ إلى غيره، فلا تَجْني نفسٌ ذنبًا إلَّا أُخِذَتْ به هي دونَ غيرها(٢).

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

أي: ولا تَحمِلُ نَفْسٌ عن نَفْسٍ شيئًا من الآثامِ، بل كلٌّ يتحَمَّلُ آثامَ نَفْسِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣٠-٦٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٦-٢٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨-٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣٢).

قال ابنُ جريرٍ: (وإنَّما يعني بذلك المشركينَ الذين أَمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقول هذا القَوْلَ لهم، يقول: قل لهم: إنَّا لَسْنَا مأخوذينَ بآثامِكم، وعليكم عقوبةُ إجرامِكم، ولنا جزاءُ أعمالِنا. وهذا كما أَمَرَه اللهُ جلَّ ثناؤه في موضِعٍ آخَرَ؛ أن يقول لهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]) ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨-٤٩). وإلى هذا ذهب ابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٨-أ/ ٢٠٦-٢٠٧)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (٢/ ٦٣١).

قال السعدي: (كلٌّ عليه وِزرُ نفسِه، وإن كان أحدٌ قد تسبَّب في ضلالِ غيرِه ووزرِه، فإنَّ عليه وزرَ التسبُّبِ مِن غيرِ أن ينقصَ مِن وزرِ المباشرِ شيءٌ). ((تفسير السعدي)) (٢٨٢).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: ثمَّ رجوعُكم- أيُّها النَّاسُ- إلى اللهِ تعالى وَحْدَه يومَ القيامَةِ، فيُخْبِرُكم فيه إخبارَ مُجازاةٍ بالذي كُنتم تختلفونَ فيه: مَن كانوا منكم شِيَعًا، وفرَّقوا دينَهم، واتَّبعوا الأهواءَ والضَّلالاتِ، ومن كانوا على الصِّراطِ المستقيمِ، مرجعُهُم جميعًا إلى اللهِ تعالى، فيُبَيِّنُ الضَّالَّ من المهْتدِي، ويعامِلُهم بحَسَبِ ما كانوا عليه من هدًى وضلالٍ؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤ - ٢٦].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩-٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢-٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣٥).

قال ابن عاشور: (ثمَّ للترتيب الرُّتْبي. وهذا الكلامُ يحتمِلُ أن يكونَ مِن جملةِ القولِ المأمورِ به، فيكون تعقيبًا للمتاركَةِ بما فيه تهديدُهم ووعيدُهم، فكان موقِع ثمَّ؛ لأنَّ هذا الخبَرَ أهَمَّ. فالخطابُ في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ خطابٌ للمُشركينَ، وكذلك الضَّميرانِ في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ والمعنى: بما كُنْتُم فيه تختلفونَ مع المسلمينَ؛ لأنَّ الاختلافَ واقِعٌ بينهم وبين المُسلمينَ، وليس بينَ المُشركينَ في أنفُسِهم اختلاف. فأدمَجَ الوعيدَ بالوعيد. وقد جعلوا هذه الجملة مع التي قبلها آيةً واحدةً في المصاحف. ويَحتملُ أن يكون المقولُ قد انتهى عند قوله: ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فيكون قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ استئنافَ كلامٍ من الله تعالى خطابًا للنبي صلى الله عليه وسلم، وللمعاندينَ له. و﴿ثُمَّ﴾ صالحة للاستئنافِ؛ لأنَّ الاستئنافَ مُلائِمٌ للترتيب الرُّتْبي، والكلام وعيدٌ ووعد أيضًا، ولا ينافي ذلك أن تكونَ مع التي قبلها آيةً واحدةً) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٨).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: واللهُ تعالى أهْلَكَ مَن كان قَبْلَكم مِنَ الأُمَم، ثُمَّ أنشَأَكم مِن بَعْدِهم، فجَعَلَكم خلائِفَ في الأَرْضِ، تَخْلُفونهم فيها، جيلًا بعدَ جيلٍ، وقرنًا بعدَ قَرْنٍ[١].

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾.

أي: وخالَفَ بين أَحْوالِكم، وفَاوَتَ بينكم، فجَعَلَ بَعْضَكم فوقَ بعضٍ، في الأرزاقِ والأخلاقِ، والقوَّة والعافِيَة، والمَحاسِن والمساوِئ، والأشكالِ والألوانِ وغيرها، وله الحِكْمَةُ في ذلك[٢].

﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

أي: لِيَخْتَبِرَكم فيما خوَّلكم مِن فَضْلِه، ومَنَحَكم مِن نِعَمِه؛ فينظُرَ كيف تعملونَ[٣].

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الدُّنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ[٤]، وإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكم فيها، فينظُر كيف تعملونَ، فاتَّقُوا الدُّنيا، واتَّقُوا النِّساءَ؛ فإنَّ أوَّلَ فتنةِ بني إسرائيلَ كانت في النِّساءِ))[٥].

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الغالِبُ على فواصِلِ الآياتِ قَبْلَها هو التَّهديدَ؛ بَدَأَ بِقَوْله[٦]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠-٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٥).

(٤) حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ: أي: غَضَّةٌ ناعِمةٌ طيِّبةٌ، مُزَيَّنةٌ في عُيونِكم وقُلوبِكم، وإنَّما وَصَفَها بالخَضِرَة؛ لأنَّ العَرَبَ تُسَمِّي الشَّيءَ النَّاعِمَ خَضِرًا، أو لتَشَبُّهِها بالخضْرَواتِ في سُرعةِ زَوالِها. يُنظر: ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازري (٢/ ٣٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠٤٤).

(٥) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٥).

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- سريعٌ عقابُه لِمَن عَصاه، وخالَفَ رُسُلَه، وكذَّب بآياتِه[1].

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: وإنَّه لساتِرٌ للذُّنوبِ، متجاوِزٌ عن العُيُوبِ لِمَن آمَنَ به، واتَّبَع رُسُلَه، وعَمِلَ صالحًا، وتاب، وإليه أناب، رحيمٌ به سبحانه[2].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ فيه أنَّ الجزاءَ على الأعمالِ في الآخِرَةِ يكون على السَّيِّئةِ بِمِثْلِها، وعلى الحَسَنَةِ بعَشْرِ أمثالِها؛ فضلًا من الله ونعمةً، جل ثناؤه، وعَظُمَت نَعْماؤه، فيا خَسارَةَ مَن غَلَبَت سيِّئاتُه حسناتِه المضاعَفَة[3]!

٢- قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ الدِّينَ لا بدَّ أنْ يُؤَدَّى مع الإخلاصِ، وأكَّدَه بقَوْلِه جلَّ وعلا: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّه لا يَكْفي في العباداتِ أن يُؤْتَى بها كيفَ كانت، بل يجبُ أنْ يُؤْتى بها مع تمامِ الإخلاصِ[4].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ موقِعُ هذه الآيةِ عَقِبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩١).

قولِه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ فيه تذكيرٌ بالنِّعمةِ بعد الإنذارِ بِسَلْبِها، وتحريضٌ على تدارُكِ ما فات، وهو يَفْتَحُ أَعْيُنَهم للنَّظَرِ في عواقِبِ الأُمَم، وانقراضِها وبقائِها[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه تذكيرٌ بنعمةٍ تتضَمَّنُ عبرَةً وموعظةً: وذلك أنَّه لَمَّا جَعَلَهم خلائِفَ غَيْرِهم فقد أنشَأَهم وأَوْجَدَهم على حينِ أَعْدَم غيرَهم، فهذه نعمةٌ؛ لأنَّه لو قَدَّرَ بقاءَ الأُمَم التي قَبْلَها لَمَا وُجِدَ هؤلاء، وفيه تذكيرٌ بعظيمِ صُنْعِ اللهِ ومِنَّتِه لاستدعاءِ الشُّكْرِ، والتَّحذيرِ مِنَ الكُفْرِ[٢].

٥- أنَّ للهِ تعالى سُنَنًا في اسْتِخلافِ الأُمَم واختبارِهم بالنِّعَمِ والنِّقَم؛ ليُظْهِرَ أيُّهم أحسَنُ عملًا، فيترتَّبَ عليه الجزاءُ في الدَّارين؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، فرَفَعَ بَعْضَهم فوقَ بعضٍ دَرَجاتٍ: في الخَلْقِ والخُلُقِ، والغِنى والفَقْر، والقُوَّةِ والضَّعْف، والعِلْمِ والجَهْلِ، والعِزِّ والذُّلِّ؛ ليَخْتَبِرَهم فيما أَعْطاهم، ليَظْهَرَ المطيعُ منهم والعاصي[٣].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ مُفَصِّلَةٌ لِمَا أُجْمِلَ في الآيةِ الأخرى، وهي قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾[٤] [النمل: ٨٩].

٢- قولُه تعالى في سورةِ النِّساءِ: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ الآية [النساء:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢١٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٢١-٢٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٨).

٤٠]، لم يُبَيِّنْ في هذه الآيَةِ الكريمةِ أَقَلَّ ما تُضاعَفُ به الحسَنَةُ ولا أكثَرَه، ولكِنَّه بَيَّنَ في هذا الموضِعِ من سورةِ الأنعامِ أنَّ أقَلَّ ما تُضاعَفُ به عَشْرُ أمثالِها، وهو قولُه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾. وبَيَّنَ في موضعٍ آخَرَ أنَّ المضاعَفَةَ ربَّما بَلَغَتْ سَبْعَمائةِ ضِعْفٍ إلى ما شاءَ الله، وهو قولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] [البقرة: ٢٦١].

٣- قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ مِن هنا يَتَبَيَّن أنَّ ما يَجْرِي على ألْسِنَةِ العامَّةِ: أنَّ السَّيِّئاتِ تُضاعَفُ في مكَّةَ كما تُضاعَفُ الحَسَناتُ؛ أنَّ ذلك الإطلاقَ لا يجوزُ؛ لأنَّ مُضاعَفَةَ السَّيِّئاتِ ممنوعةٌ قطعًا؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو نصٌّ صريحٌ قرآنيٌّ في أنَّ السَّيِّئاتِ لا تُضَاعَفُ، ولكِنَّ السَّيِّئَةَ في حَرَمِ مكَّةَ مثلًا تَعْظُمُ؛ لأنَّ السَّيِّئة تَعْظُم بِحَسَب عِظَمِ الزَّمانِ والمَكانِ، فإذا عَظُمَتِ السَّيئةُ عَظُمَ جَزاؤُها؛ لأنَّ الجَزاءَ بِحَسَبِ الذَّنْبِ: إذا عَظُمَ الذَّنْبُ عَظُمَ الجَزاءُ، وإذا صَغُرَ الذَّنْبُ صَغُرَ الجَزاءُ، فهو مِن عِظَمِ الذَّنْبِ؛ وعِظَمُ الجزاءِ يكونُ تبعًا لعِظَمِ الذَّنْبِ لا من المضاعَفَةِ؛ لأنَّ السَّيئاتِ لا تُضاعَفُ، ولكنَّها تَعْظُمُ، وتكونُ أكبَرَ في زمانٍ من زمانٍ، وفي مَحلٍّ مِن مَحلٍّ؛ ولذا قال في حَرَمِ مكَّةَ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] وقال في الأشهر الحرم: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] مع أنَّ ظُلْمَ النَّفْسِ في غَيْرِهِنَّ حرامٌ[2].

٤- قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيه إيذانٌ بانتهاءِ السُّورَةِ؛

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١٢).

لأنَّ الواعِظَ والمُناظِرَ؛ إذا أشْبَعَ الكلامَ في غَرَضِه، ثم أخَذَ يُبَيِّنُ ما رَضِيَه لنَفْسِه وما قَرَّ عليه قَرارُه؛ عَلِمَ السَّامِعُ أنَّه قد أَخَذَ يَطْوِي سِجِلَّ المُحاجَّةِ؛ ولذلك غَيَّرَ الأُسْلوبَ، فأَمَرَ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ يَقولَ أشياءَ يُعْلِنُ بها أصولَ دِينِه، وتَكَرَّرَ الأمرُ بالقَوْلِ ثلاثَ مَرَّاتٍ؛ تَنْويهًا بالمَقولِ[١].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾، عبَّرَ بملَّةِ إبراهيمَ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلام هو النبيُّ المُرسَل الذي أجمَعَ على الاعترافِ بفَضْلِه، وصِحَّة دِينِه، وحُسْنِ هَدْيِه؛ العَرَبُ ومَنْ حَوْلَهم؛ مِنْ أَهْلِ الكتابِ مِنَ اليهودِ والنَّصارى، وكلٌّ يدَّعِي الاهتداءَ بِهُداه؛ ففي ذِكْرِه استمالةٌ للعَرَبِ، ثمَّ لأَهْلِ الكِتابِ إلى الإسلامِ؛ ببيانِ أنَّ أساسَه، وقواعِدَ عقائِدِه، ودعائِمَ فضائلِه، هي ما كان عليه إبراهيمُ المتَّفَقُ على هُداه وجلالَتِه[٢].

٦- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ هذا عمومٌ، ثم خَصَّصَ سبحانه من ذلك أَشْرَفَ العباداتِ، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي: ذَبْحي، وذلك لشَرَفِ هاتينِ العِبادَتَينِ وفَضْلِهما، ودلالَتِهما على مَحَبَّةِ اللهِ تعالى، وإخلاصِ الدِّينِ له، والتَّقَرُّبِ إليه بالقَلْبِ واللِّسانِ والجَوارِحِ، وبالذَّبْحِ الذي هو بَذْلُ ما تُحِبُّه النَّفْسُ من المالِ؛ لِمَا هو أحَبُّ إليها، وهو الله تعالى، ومَن أَخْلَصَ في صلاتِه ونُسُكِه؛ استَلْزَمَ ذلك إخلاصَه لله في سائِرِ أعمالِه[٣].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾ فيه عَدَمُ نفوذِ تَصْريفِ شخْصٍ على آخَرَ إلَّا ما قام عليه الدَّليلُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢٥).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ يُبَيِّنُ أنَّ الجزاءَ عند الله تعالى على الأعمالِ مبنيٌّ على عَدَمِ انتفاعِ أحدٍ أو مؤاخَذَتِه بعملِ غَيْرِه، وذلك مِمَّا يهْدِمُ أساسَ الشِّرْك الذي هو الاتِّكالُ على الوُسَطاءِ بينَ اللهِ والنَّاسِ في غُفرانِ ذُنُوبِهم، وقضاءِ حاجَتِهم[١].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أصلٌ في أنَّه لا يُؤخَذُ أحدٌ بِفِعْلِ أحَدٍ[٢]، وهي قاعدةٌ مِن أُصُولِ دِينِ الله تعالى الذي بَعَثَ به جميعَ رُسُلِه، وهي مِنْ أَعْظَمِ أركانِ الإصلاحِ للبَشَر في أفرادِهم وجَماعاتِهم؛ لأنَّها هادِمَةٌ لأساسِ الوَثَنِيَّة، وهاديَةٌ للبَشَرِ إلى ما تتوقَّفُ عليه سعادَتُهم الدُّنْيويَّة والأُخْرويَّة، (وهو عَمَلُهم)[٣].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لا يُعارِضُه قولُه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾؛ فالآيةُ الأولى محمولةٌ على من لم يَتَسَبَّبْ في الفِعْلِ بِوَجْهٍ، وما عداها محمولٌ على من تَسَبَّبَ فيه بوجْهٍ؛ كالأَمْرِ به[٤].

١١- قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يَظهَرُ أنَّ هذا دليلٌ على إمكانِ البَعْثِ، وعلى وُقُوعِه؛ لأنَّ الذي جَعَلَ بعضَ الأَجيالِ خلائِفَ لِمَا سَبَقَها، فعَمَروا الأَرْضَ جِيلًا بعدَ جيلٍ، لا يُعْجِزُه أن يَحْشُرَها جميعًا بعد انقضاءِ عالَمِ حياتِها الأُولى، ثمَّ إنَّ الذي دَبَّرَ ذلك وأتقَنَه لا يليقُ به ألَّا يُقيمَ بينهم ميزانَ الجزاءِ على ما صَنَعوا في الحياةِ الأُولى؛ لئلَّا يَذْهَبَ المعتَدُونَ والظَّالِمونَ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢١١).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢١٧).
(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٨٢).

فائزينَ بما جَنَوْا، وإذا كان يُقيمُ ميزانَ الجزاءِ على الظَّالِمينَ، فكيف يَتْرُك إثابَةَ المحسنينَ؟! وقد أشارَ إلى الشِّقِّ الأَوَّلِ قَوْلُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾، وأشار إلى الشِّقِّ الثَّاني قَوْلُه: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾. ولذلك أعقبه بتذييلِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

١٢- مناسبةُ ختمِ الآيةِ بقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هو أنه لَمَّا كان الابتلاءُ يَظْهَرُ به المسيءُ والمحسِنُ، والطَّائِعُ والعاصي؛ لذا ذَكَرَ هذينِ الوَصْفَينِ، وخَتَمَ بهما[٢].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، مُبَيِّنٌ لمقاديرِ أجْزِيَةِ العاملينَ، وقد صُدِّرَ ببيانِ أجزِيَةِ المحسنينَ المدلولِ عليهم بذِكْرِ أضدادِهم[٣]، والكلامُ تذييلٌ جامِعٌ لأحوالِ الفريقينِ اللَّذينِ اقتضاهما قَوْلُه: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾. وهذا بيانٌ لبعْضِ الإجمالِ الذي في قوله: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا...﴾[٤].

٢- قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ إنَّما قال في جانِبِ السَّيِّئَةِ: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ بصيغَةِ الحَصْرِ؛ لأجْلِ ما في صِيغَتِه مِن تَقْديمِ جانِبِ النَّفيِ، اهتمامًا به؛ لإظهارِ العَدْلِ الإلهيِّ؛ فالحَصْرُ حقيقيٌّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٦).

٣- **قوله:** ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِن مجادَلَةِ المشركينَ، وما تَخَلَّلَها، إلى فَذْلَكَةِ ما أَمَرَ به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم في هذا الشَّأْنِ، غَلْقًا لبابِ المجادَلَةِ مع المُعْرِضينَ[١].

- وفيه: تصديرُ الجملةِ بـقوله: ﴿إِنَّنِي﴾؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بِمَضْمونِها. والتعَرُّضُ لعُنوانِ الربوبيَّةِ مع الإضافَةِ إلى ضَميرِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لِمَزيدِ تَشْريفِه[٢].

- وقد أسنَدَ الهدايةَ إلى رَبِّه في قَوْلِه: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ ليدُلَّ على اختصاصِه بعبادَتِه إيَّاه[٣]، وتعريضًا بالمُشركينَ الَّذين أضَلَّهم أربابُهم، ولو وَحَّدُوا الرَّبَّ الحقيقَ بالعبادَةِ لَهَداهم[٤].

- وقوله: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا﴾ شُبِّهَتْ هيئةُ الإرشادِ إلى الحَقِّ المبَلِّغِ إلى النَّجاة بهيئةِ مَنْ يَدُلُّ السَّائِرَ على الطَّريقِ المبَلِّغةِ للمقصودِ[٥]، والمناسبةُ بين الهدايةِ وبَيْنَ الصِّراطِ تامَّةٌ؛ لأنَّ حقيقةَ الهدايةِ التَّعريفُ بالطَّريقِ، وحقيقةَ الصِّراطِ الطَّريقُ الواسِعَةُ[٦].

- قوله: ﴿قِيَمٗا﴾ مصدرٌ نُعِتَ به مبالغةً؛ فهو وصْفٌ للدِّينِ بمصدَرِ القيامِ، المقصود به كفايةُ المصلحةِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٩).

٤- قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ استئنافٌ يتنزَّلُ منزلةَ التفريعِ عن الأوَّلِ، إلَّا أنَّه استُؤْنِفَ للإشارَةِ إلى أنَّه غَرَضٌ مُستقِلٌّ مهِمٌّ في ذاتِه، وإن كان متفرِّعًا عن غيره، وحاصِلُ ما تضمَّنه هو الإخلاصُ لله في العبادَةِ[١].

- وقيل افتُتِحَتْ جملةُ المقولِ بحرفِ التوكيدِ في قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ للاهتمامِ بالخبَرِ ولتحقيقِه[٢].

- وجَعَلَ صلاتَه لله دون غيرِه في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ تعريضًا بالمشركينَ؛ إذ كانوا يسجُدونَ للأصنامِ[٣].

٥- قوله: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ للاهتمامِ بالمشارِ إليه[٤].

٦- قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ استئنافٌ مفتَتَحٌ بالأمْرِ بالقَوْلِ، يتنزَّلُ منزلةَ النتيجةِ لِمَا قبله[٥]، والاستفهامُ في قوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ إنكارٌ عليهم؛ لأنَّهم يرغبونَ أن يَعترِفَ بربوبيَّةِ أصنامِهم[٦].

- وقد قُدِّمَ المفعولُ (غَيْرَ) على فِعْلِه ﴿أَبْغِي﴾؛ لأنَّه المقصودُ من الاستفهامِ الإنكاريِّ، لأنَّ محلَّ الإنكارِ هو أن يكونَ غيرُ الله يُبتغَى له ربًّا[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٢٠١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٢٠٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٢٠٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٦).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٦).

٧- قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ جملةُ حالٍ، مؤكِّدةٌ للإنكارِ[١].

٨- قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ على القولِ بأن هذا الكلامَ من جملةِ القَوْلِ المأمورِ به، فيكون تعقيبًا للمُتاركةِ بما فيه تهديدُهم ووعيدهم[٢].

- قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ تلوينٌ للخِطابِ، وتوجيهٌ له إلى الكُلِّ؛ لتأكيدِ الوَعْدِ، وتشديدِ الوعيد[٣].

٩- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ جاء قولُه: ﴿خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ بلفظِ التَّعريفِ بالإضافةِ هنا، وقال في «فاطر» ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالتَّنكيرِ؛ وذلك أنَّ آيةَ الأنعامِ هنا تقدَّمَها ما هو مِن سياقِ النِّعَم عليهم؛ من قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فناسَبَ الخطابَ لهم في ذلك بلَفْظِ التَّعريفِ الدَّالِّ على أنَّهم خُلفاؤها المالكونَ لها، وفيه من التَّفخيمِ لهم ما ليس في آيَةِ فاطِرٍ؛ لأنَّه ورد في آية فاطر نكرةً، فقال: خلائِفَ فيها، فليس فيه من التمَكُّنِ والتصَرُّفِ ما في قَوْلِه تعالى: ﴿خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾[٤].

١٠- قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ فيه: الكنايةُ عن الشَّرَفِ والفَضْلِ، وهذا التفاوُتُ ليس ناشئًا عن عَجْزٍ عن المساواةِ بينهم، ولكنْ للابتلاءِ والامتحانِ[٥].

- وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ فيه: تجريدُ الخطابِ لرَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، مع إضافَةِ اسمِ الرَّبِّ إلى ضميرِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لإبرازِ مزيدِ اللُّطْفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((كشف المعاني فى المتشابه من المثاني)) لابن جماعة (ص: ٣٠٣).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٢٩١).

به صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

١١- **قَالَ سبحانه هنا:** ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بلامٍ واحدةٍ في كلمةِ ﴿لَغَفُورٌ﴾، وقال في سورةِ الأَعرافِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ باللَّامِ في الجملتينِ؛ لأنَّ ما هنا وَقَعَ بعد قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ فأتى باللَّامِ المؤكِّدة في الجملةِ الثَّانية فقط؛ ترجيحًا للغُفرانِ على سُرعةِ العِقابِ. وما هناك وَقَعَ بعد قَوْلِه: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَئِيسٍۭ﴾، وقوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ فأتى باللَّامِ في الجُملَةِ الأولى؛ لمناسَبَةِ ما قبلها، وفي الثَّانيةِ تَبَعًا للَّامِ في الأولى[٢].

وقيل: الفَرْقُ بينَ هذه الآيَةِ وآيَةِ الأعرافِ- حيثُ أتى هناك باللَّامِ، فقال ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ دون ما هنا- أنَّ اللَّامَ تُفيدُ التَّوكيدَ، فأفادَتْ هناك تأكيدَ سُرعةِ العِقابِ؛ لأنَّ العِقابَ المذكورَ هناك عقابٌ عاجِلٌ، وهو عقابُ بني إسرائِيلَ بالذُّلِّ والنِّقْمةِ، وأداءِ الجِزْيَةِ بعد المَسْخِ؛ لأنَّه في سِياقِ قَوْلِه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، فتأكيدُ السُّرعةِ أفادَ بيانَ التَّعجيلِ، وهو مناسِبٌ، بخلافِ العِقابِ المذكورِ هنا؛ فإنَّه آجِلٌ بدليلِ قَوْلِه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فاكتفى فيه بتأكيدِ (إنَّ)، ولَمَّا اختُصَّتْ آيةُ الأعرافِ بزيادَةِ العذابِ عاجلًا اختُصَّتْ بزيادَةِ التَّأكيدِ لَفْظًا بـ «اللَّامِ»[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٨٣-١٨٤).

(٣) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٦٥).

تمَّ بحمدِ الله المجلَّدُ الخامسُ
ويليه المجلَّدُ السَّادسُ، وأوَّلُه
تفسيرُ سورةِ الأعرافِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سُورة الأنعام ٧
أسماءُ السُّورة: ٧
فَضائِلُ السُّورةِ وخصائِصُها: ٧
بيانُ المَكيِّ والمَدنيِّ: ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٨
موضوعاتُ السُّورةِ: ٨
الآيات (١ - ٣) ١١
غريبُ الكَلِماتِ: ١١
المَعنَى الإجماليُّ: ١٢
تفسير الآيات: ١٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ١٦
بَلاغةُ الآياتِ: ٢٢
الآيات (٤ - ٦) ٢٨
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٩
المَعنَى الإجماليُّ: ٣٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٣١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٣٦
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٨
الآيات (٧ - ١١) ٤٢
غريبُ الكَلِماتِ: ٤٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٣

المَعنَى الإجماليُّ: ٤٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٤٩
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٢
الآيتان (١٢ - ١٣) ٥٦
غريبُ الكَلِماتِ: ٥٦
مُشكِلُ الإعرابِ: ٥٦
المَعنَى الإجماليُّ: ٥٦
تَفسيرُ الآيتين: ٥٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٦١
بَلاغةُ الآيتينِ: ٦٤
الآيات (١٤ - ١٦) ٧٠
غريبُ الكَلِماتِ: ٧٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٧١
المَعنَى الإجماليُّ: ٧٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٧٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٧٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٧٧
بَلاغةُ الآياتِ: ٧٩
الآيات (١٧ - ١٩) ٨٣
غريبُ الكَلِماتِ: ٨٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٨٤
المَعنَى الإجماليُّ: ٨٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٥

الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ٩٢
بَلاغةُ الآياتِ: ٩٥
الآيات (٢٠ - ٢٤) ١٠٠
غريبُ الكَلِماتِ: ١٠٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٠١
المَعنَى الإجماليُّ: ١٠٢
تَفسيرُ الآياتِ: ١٠٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٠٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ١٠٩
بَلاغةُ الآياتِ: ١١٣
الآيتان (٢٥-٢٦) ١٢٠
غريبُ الكَلِماتِ: ١٢٠
المَعنَى الإجماليُّ: ١٢١
تَفسيرُ الآيتين: ١٢١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ١٢٥
بَلاغةُ الآيتينِ: ١٢٧
الآيات (٢٧ - ٣٢) ١٣٠
غريبُ الكَلِماتِ: ١٣٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٣١
المَعنَى الإجماليُّ: ١٣٤
تَفسيرُ الآياتِ: ١٣٥
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ١٤٢
بَلاغةُ الآياتِ: ١٤٦

الآيات (٣٣ - ٣٥) ١٥٨
غَريبُ الكَلماتِ: ١٥٨
المعنى الإجماليُّ: ١٥٩
تفسيرُ الآياتِ: ١٦٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٦٥
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٦٧
بلاغةُ الآياتِ: ١٧٢
الآيات (٣٦ - ٣٩) ١٧٩
غَريبُ الكَلماتِ: ١٧٩
المعنى الإجماليُّ: ١٨٠
تفسيرُ الآياتِ: ١٨٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٨٧
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٨٨
بلاغةُ الآياتِ: ١٩١
الآيات (٤٠ - ٤٥) ١٩٩
غَريبُ الكَلماتِ: ١٩٩
مُشْكِل الإعراب: ٢٠٠
المعنى الإجماليُّ: ٢٠١
تفسيرُ الآياتِ: ٢٠٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢١١
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢١٤
بلاغةُ الآياتِ: ٢٢٠
الآيات (٤٦ - ٥٠) ٢٢٧
غَريبُ الكَلماتِ: ٢٢٧
المعنى الإجماليُّ: ٢٢٨
تفسيرُ الآياتِ: ٢٢٩

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٣٦
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٣٧
بلاغةُ الآياتِ: ٢٤٥
الآيات (٥١ – ٥٥) ٢٥٧
غَريبُ الكَلماتِ: ٢٥٧
مشكل الإعراب: ٢٥٨
المعنى الإجماليُّ: ٢٦٠
تفسيرُ الآياتِ: ٢٦١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٧٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٧١
بلاغةُ الآياتِ: ٢٧٧
الآيات (٥٦ – ٥٨) ٢٨٤
غَريبُ الكَلماتِ: ٢٨٤
المعنى الإجماليُّ: ٢٨٤
تفسيرُ الآياتِ: ٢٨٥
الفَوائِد التربويَّة: ٢٩١
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٩١
بلاغةُ الآياتِ: ٢٩٣
الآيات (٥٩ – ٦٢) ٢٩٧
غَريبُ الكَلماتِ: ٢٩٧
مشكل الإعراب: ٢٩٨
المعنى الإجماليُّ: ٢٩٨
تفسيرُ الآياتِ: ٢٩٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٠٦
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٠٨
بلاغةُ الآياتِ: ٣١٤

الآيات (٦٣- ٦٧) ٣١٩
غَريبُ الكَلماتِ: ٣١٩
المعنى الإجماليُّ: ٣٢٠
تفسيرُ الآياتِ: ٣٢١
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٢٧
بلاغةُ الآياتِ: ٣٢٩
الآيات (٦٨ - ٧٠) ٣٣٤
غَريبُ الكَلماتِ: ٣٣٤
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٣٥
المعنى الإجماليُّ: ٣٣٦
تَفْسيرُ الآياتِ: ٣٣٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٤٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٤٢
بلاغةُ الآياتِ: ٣٤٣
الآيات (٧١ - ٧٣) ٣٤٧
غَريبُ الكَلماتِ: ٣٤٧
مشكل الإعراب: ٣٤٨
المعنى الإجماليُّ: ٣٤٨
تفسيرُ الآياتِ: ٣٤٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٥٣
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٥٤
بلاغَةُ الآياتِ: ٣٥٥
الآيات (٧٤ - ٧٩) ٣٦٠
غَريبُ الكَلماتِ: ٣٦٠
المعنى الإجماليُّ: ٣٦٢
تفسيرُ الآياتِ: ٣٦٢

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٧٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٧٠
بلاغَةُ الآياتِ: ٣٧٤
الآيات (٨٠ - ٨٣) ٣٧٩
غَريبُ الكَلماتِ: ٣٧٩
مُشْكِلُ الإعرابِ: ٣٨٠
المعنى الإجماليُّ: ٣٨١
تفسيرُ الآياتِ: ٣٨١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٨٦
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٨٧
بلاغَةُ الآياتِ: ٣٩٠
الآيات (٨٤ - ٩٠) ٣٩٧
غَريبُ الكَلماتِ: ٣٩٧
المعنى الإجماليُّ: ٣٩٨
تفسيرُ الآياتِ: ٣٩٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٠٧
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٠٨
بلاغَةُ الآياتِ: ٤١٥
الآيتان (٩١-٩٢) ٤٢٠
غَريبُ الكَلماتِ: ٤٢٠
المعنى الإجماليُّ: ٤٢١
تفسيرُ الآيتينِ: ٤٢١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٢٥
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٢٦
بلاغَةُ الآيتينِ: ٤٢٨
الآيتان (٩٣-٩٤) ٤٣٢

غَريبُ الكَلماتِ: ٤٣٢
مُشْكِل الإعرابِ: ٤٣٣
المعنى الإجماليُّ: ٤٣٣
تفسيرُ الآيتينِ: ٤٣٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٣٩
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٤٠
بلاغَةُ الآيتينِ: ٤٤٢
الآيات (٩٥-٩٩) ٤٤٨
غَريبُ الكَلماتِ: ٤٤٨
مُشْكِل الإعرابِ: ٤٥٠
المعنى الإجماليُّ: ٤٥١
تفسيرُ الآياتِ: ٤٥٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٦٢
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٦٢
بلاغَةُ الآياتِ: ٤٦٧
الآيات (١٠٠-١٠٣) ٤٧٧
غَريبُ الكَلماتِ: ٤٧٧
مُشْكِل الإعرابِ: ٤٧٨
المعنى الإجماليُّ: ٤٧٨
تفسيرُ الآياتِ: ٤٧٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٨٤
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٨٤
بلاغَةُ الآياتِ: ٤٨٦
الآيات (١٠٤-١٠٧) ٤٩٣
غَريبُ الكَلماتِ: ٤٩٣
المعنى الإجماليُّ: ٤٩٤

تفسيرُ الآيات: ٤٩٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٠٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٠١
بلاغَةُ الآياتِ: ٥٠٣
الآيات (١٠٨-١١٠) ٥٠٦
غَريبُ الكَلماتِ: ٥٠٦
مُشْكِل الإعرابِ: ٥٠٧
المعنى الإجماليُّ: ٥٠٨
تفسيرُ الآياتِ: ٥٠٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥١٣
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥١٥
بلاغَةُ الآياتِ: ٥١٨
الآيات (١١١-١١٣) ٥٢١
غريب الكلمات: ٥٢١
مُشْكِلُ الإِعْرابِ: ٥٢٢
المعنى الإجماليُّ: ٥٢٢
تفسيرُ الآياتِ: ٥٢٣
الفَوائِد التربويَّة: ٥٣٠
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٥٣١
بلاغة الآيات: ٥٣١
الآيات (١١٤-١١٧) ٥٣٦
غريب الكلمات: ٥٣٦
مُشْكِلُ الإِعْرابِ: ٥٣٦
المعنى الإجماليُّ: ٥٣٧
تفسيرُ الآياتِ: ٥٣٨
الفوائدُ التربويَّة: ٥٤٢

الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٥٤٣
بلاغة الآيات: ٥٤٣
الآيات (١١٨-١٢١) ٥٤٨
غريب الكلمات: ٥٤٨
مُشْكِلُ الإِعْرابِ: ٥٤٨
المعنى الإجماليُّ: ٥٤٩
تفسيرُ الآياتِ: ٥٤٩
الفَوائِد التربويَّة: ٥٥٤
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٥٥٥
بلاغة الآيات: ٥٥٧
الآيات (١٢٢-١٢٧) ٥٦٠
غريب الكلمات: ٥٦٠
مُشْكِلُ الإِعْرابِ: ٥٦٢
المعنى الإجماليُّ: ٥٦٢
تفسيرُ الآياتِ: ٥٦٣
الفَوائِد التربويَّة: ٥٧٢
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٥٧٣
بلاغة الآيات: ٥٧٨
الآيات (١٢٨-١٣١) ٥٨٤
غريب الكلمات: ٥٨٤
المعنى الإجماليُّ: ٥٨٥
تفسيرُ الآياتِ: ٥٨٦
الفَوائِد التربويَّة: ٥٩٣
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٥٩٤
بلاغة الآيات: ٥٩٧
الآيات (١٣٢-١٣٥) ٦٠١

غريب الكلمات: ٦٠١
المعنى الإجماليُّ: ٦٠١
تفسيرُ الآياتِ: ٦٠٢
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٦٠٨
بلاغة الآيات: ٦١٠
الآيات (١٣٦-١٤٠) ٦١٥
غريب الكلمات: ٦١٥
مُشْكِلُ الإِعْرابِ: ٦١٦
المعنى الإجماليُّ: ٦١٨
تفسيرُ الآياتِ: ٦١٩
الفوائدُ التربويَّة: ٦٢٦
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٦٢٧
بلاغة الآيات: ٦٢٩
الآيتان (١٤١-١٤٢) ٦٣٢
غريب الكلمات: ٦٣٢
مُشْكِلُ الإِعْرابِ: ٦٣٣
المعنى الإجماليُّ: ٦٣٣
تفسيرُ الآيتين: ٦٣٤
الفَوائِد التربويَّة: ٦٤١
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٦٤١
بلاغة الآيتين: ٦٤٤
الآيتان (١٤٣-١٤٤) ٦٤٦
غريب الكلمات: ٦٤٦
مُشْكِلُ الإعرابِ: ٦٤٦
المعنى الإجماليُّ: ٦٤٧
تفسيرُ الآيتين: ٦٤٨

الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٦٥٢
بلاغة الآيتين: ٦٥٣
الآيات (١٤٥-١٤٧) ٦٥٦
غريب الكلمات: ٦٥٦
مُشْكِلُ الإِعْرابِ: ٦٥٧
المعنى الإجماليُّ: ٦٥٨
تفسيرُ الآياتِ: ٦٥٩
الفَوائِد التربويَّة: ٦٦٧
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٦٦٧
بلاغة الآيات: ٦٦٩
الآيات (١٤٨-١٥٠) ٦٧٢
غريب الكلمات: ٦٧٢
المعنى الإجماليُّ: ٦٧٢
تفسيرُ الآياتِ: ٦٧٣
الفَوائِد التربويَّة: ٦٧٧
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٦٧٧
بلاغة الآيات: ٦٧٨
الآيات (١٥١-١٥٣) ٦٨٢
غريب الكلمات: ٦٨٢
مُشْكِلُ الإعرابِ: ٦٨٣
المعنى الإجماليُّ: ٦٨٤
تفسيرُ الآياتِ: ٦٨٥
الفَوائِد التربويَّة: ٦٩٣
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٦٩٤
بلاغة الآيات: ٦٩٩
الآيات (١٥٤-١٥٩) ٧٠٣

غريب الكلمات: ٧٠٣
مشكلُ الإعرابِ: ٧٠٤
المعنى الإجماليُّ:..... ٧٠٦
تفسيرُ الآياتِ: ٧٠٧
الفَوائِد التربويَّة: ٧١٥
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٧١٦
بلاغة الآيات: ٧١٩
الآيات (١٦٠-١٦٥)..... ٧٢٤
غريب الكلمات: ٧٢٤
مُشْكِلُ الإِعْرابِ: ٧٢٥
المعنى الإجماليُّ:..... ٧٢٦
تفسيرُ الآياتِ: ٧٢٧
الفَوائِد التربويَّة: ٧٣٥
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٧٣٦
بلاغة الآيات: ٧٤٠
الفهرس..... ٧٤٩

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٣٥ درس

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الأعراف

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السادس

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الأعراف)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر – سورة الأعراف – المجلد السادس/ مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي – الظهران، ١٤٣٧هـ

٨٣٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٦-٣٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – سورة الأنعام – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٧/٦٧٦٤

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٦٧٦٤

ردمك: ٦-٣٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الأعراف)

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر – قنا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

المجلد السادس

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الأعراف

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الأعرافِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بِسُورةِ الأعرافِ[١]:

- فعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قَرَأَ في صلاةِ الـمَغرِبِ بسورةِ الأعرافِ؛ فَرَّقَها في رَكعتَينِ))[٢].

- وعَن زَيدِ بنِ ثابتٍ: أنَّه قال لِمَروانَ بنِ الحَكَمِ: ((ما لي أَراكَ تَقرَأُ في المَغرِبِ بِقِصارِ السُّوَرِ، وقد رأيتُ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم يقرأُ فيها بأطوَلِ الطُّولَيَينِ؟ قال مروانُ: قُلتُ: يا أبا عبدِ اللهِ، ما أطَولُ الطُّولَيَينِ؟ قال: الأعرافُ))[٣].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الأعرافِ مَكِّيَّةٌ[٤]؛ ونقَلَ غَيرُ واحدٍ الإجماعَ على ذلك[٥].

---

(١) وجْهُ تَسمِيَتِها بهذا الاسمِ: هو ذِكْرُ لَفظِ الأعرافِ، وشأنِ أهلِ الأعرافِ فيها دُونَ غَيرِها مِنَ السُّورِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (١/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٥).

(٢) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٩٩١)، والطبراني في ((مسند الشاميين)) (٣٣٦٢)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (٤٠٣٧).
حسَّن إسنادَه النووي في ((المجموع)) (٣/ ٣٨٣)، وابنُ الملقن في ((البدر المنير)) (٣/ ١٨٣)، وقال ابنُ القيِّم في ((تهذيب السنن)) (٣/ ١٠٩): إسنادُه صحيحٌ، وأصلُه في الصحيح. وصحَّحه الشوكاني في ((نيل الوطار)) (٢/ ٢٥٨)، والألباني في ((صحيح النسائي)) (٩٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧٦٤) وليس فيه التصريح بقراءة الأعراف، والنسائي (٩٩٠) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨).

(٥) ممن نقلَ الإجماعَ على ذلك الفيروزآبادي، ومحمد رشيد رضا. يُنظَر ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (١/ ٢٠٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٦٠).
وقيل: إنَّها مكيَّةٌ غيرَ ثماني آياتٍ، مِن قولِه تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ ﴾. وقيل: إنَّها مكيَّةٌ إلَّا خَمسَ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ إلى آخِرِ

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ المقاصِدِ التي تضَمَّنَتْها سورةُ الأعرافِ:

١- تَسليةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم في تَكذيبِ الكفَّارِ إيَّاه[١].

٢- إنذارُ مَن أعرَضَ عمَّا دعا إليه الكِتابُ في السُّوَرِ الماضِيَةِ[٢].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

من أبرَزِ مَوضوعاتِ سُورةِ الأعرافِ:

١- التَّنويهُ بِعَظَمةِ الكِتابِ الكَريمِ.

٢- النَّهيُ عن اتِّخاذِ الشُّركاءِ مِن دُونِ اللهِ، وإنذارُ المُشركينَ مِن سُوءِ عاقِبةِ الشِّركِ في الدُّنيا والآخرةِ، ووَصْفُ ما حَلَّ بالمُشركينَ والَّذينَ كَذَّبوا الرُّسُلَ؛ مِن سُوءِ العَذابِ في الدُّنيا، وما سيحُلُّ بهم في الآخِرةِ، وإقامةُ الأدلَّةِ على وحدانيةِ الله.

٣- ذِكْرُ وَزنِ الأَعمالِ يَومَ القيامةِ، وتذكيرُ النَّاسِ بِنِعمةِ خَلقِ الأرضِ، وتمكينِ النَّوعِ الإنسانيِّ مِن خَيراتِ الأرضِ، وبنعمةِ اللهِ على هذا النَّوعِ بخَلْقِ أصْلِه وتفضيلِه.

٤- ذِكرُ خَلقِ آدَمَ، وإباء إبليسَ مِنَ السَّجدةِ لآدَمَ، ووسوسَته لهما للأكْلِ

الخَمسِ. وقيل: إنَّها مكِّيَّةٌ غيرَ ثلاثِ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ إلى آخِرِ الثَّلاثِ الآياتِ. وقيل: إنَّها مكيَّةٌ إلَّا آيةً واحدةً، وهي قَولُه تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ... ﴾ إلى آخِرِها.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ١٩٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (١/ ١٠٣).

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (١/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٤٧).

مِنَ الشَّجَرةِ، وما نشَأَ مِن عَداوةِ جِنسِ الشَّيطانِ لِنَوعِ الإنسانِ، وتحذيرُ النَّاسِ مِنَ التَّلَبُّسِ ببقايا مَكرِ الشَّيطانِ؛ مِن تَسويلِه لهم حِرمانَ أنفُسِهم الطَّيِّباتِ، ومِنَ الوُقوعِ فيما يَزُجُّ بهم في العذابِ في الآخرةِ.

٥- وصفُ أهوالِ يَومِ الجَزاءِ للمُجرمينَ، وكراماتِه للمُتَّقينَ.

٦- ذِكرُ قِصَّةِ أصحاب الأعرافِ، والتذكيرُ بالبَعثِ، وتقريبُ دَليلِه.

٧- النَّهيُ عن الفسادِ في الأرضِ التي أصلَحَها اللهُ لفائدةِ الإنسانِ، والتَّذكيرُ بِبَديعِ ما أوجَدَه اللهُ لإصلاحِها وإحيائِها.

٨- ذِكرُ أحوالِ الرُّسُلِ مع أقوامِهم المُشركينَ، وما لاقَوْه مِن عنادِهم وأذاهم، بدأً بقِصَّةِ نوحٍ والطُّوفانِ، ثم ذِكْرِ هُودٍ وهلاكِ عادٍ، ثمَّ حديثِ صالحٍ وقَهرِ ثَمودَ، ثمَّ خبَرِ لُوطٍ وقَومِه، ثمَّ خبَرِ شُعَيْبٍ وأَهلِ مَدْيَنَ.

٩- تَخويفُ الآمنينَ مِن مَكرِ اللهِ، وإنذارُهم بعَدَمِ الاغترارِ بإمهالِ اللهِ النَّاسَ، قبل أن يُنزِلَ بهم العذابَ؛ إعذارًا لهم أن يُقلِعُوا عن كُفْرِهم وعِنادِهم؛ فإنَّ العَذابَ يأتِيهم بغتةً بعد ذلك الإمهالِ.

١٠- تَفصيلُ أَحوالِ موسى وفِرعونَ والسَّحَرةِ، واستغاثةُ بني إسرائيلَ، وذِكرُ الآياتِ المُفَصَّلاتِ، وحديثُ خِلافةِ هارونَ، وميقاتُ موسى، وقصَّةُ عِجْلِ السَّامِرِيِّ في غَيْبَةِ موسى، ورجوعُ موسى إلى قَومِه، ومُخاطَبَتُه لأَخيه هارونَ.

١١- ذِكرُ بِشارةِ اللهِ بِبَعثةِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، وصِفَةِ أُمَّتِه، وفَضْلِ دِينِه.

١٢- الإشارةُ إلى ذِكرِ الأَسباطِ، وقصَّةِ أَصحابِ السَّبْتِ.

١٣- مَوعظةُ المشركينَ كيف بدَّلُوا الحنيفيَّةَ، وتقَلَّدوا الشِّركَ، وضَرَبَ لهم مَثلًا بمَن آتاه اللهُ الآياتِ، فوَسْوَس له الشَّيطانُ، فانسلَخَ عن الهُدى.

١٤- وَصْفُ حالِ أهلِ الضَّلالةِ، ووَصْفُ تَكذيبِهم بما جاء به الرَّسولُ، ووَصْفُ آلِهَتِهم بما يُنافي الإلهيَّةَ، وأنَّ لله الصِّفاتِ الحُسنى، صفاتِ الكَمالِ.

١٥- أمْرُ اللهِ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم والمُسلمينَ؛ بِسَعةِ الصَّدرِ، والمُداومةِ على الدَّعوةِ، وتَحذيرُهم مِن مَداخِلِ الشَّيطانِ؛ بِمُراقبةِ اللهِ بذِكْرِه سِرًّا وجَهرًا، والإقبالِ على عبادَتِه.

١٦- الحديثُ عن العهدِ الذي أخَذه الله على البشرِ؛ بأنْ يعبدُوه، ولا يُشْركوا به شيئًا، والحضُّ على التفكُّرِ والتدبُّر في ملكوتِ السمواتِ والأرضِ.

الآيات (١-٢)

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَرَجٞ﴾: الحَرَج: الضِّيقُ، وأصلُ (حرج): تجمُّعُ الشَّيءِ وضِيقُه، ومنه الحَرَجُ: جمْعُ حَرَجةٍ: وهي الشَّجَرةُ المُلتَفُّ بها الأشجارُ، لا يدخُلُ بينها وبينها شَيءٌ؛ لشِدَّةِ التفافِها بها[1].

﴿لِتُنذِرَ﴾: أي: لتُخَوِّفَ، أو لتُعْلِمَ بما تُحذِّرُ منه، وأصلُ الإنْذارِ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، أو الإبْلاغُ[2].

﴿وَذِكۡرَىٰ﴾: أي: تذكِرَةً ومَوعِظَةً، وأصلُ الذِّكر: خِلافُ النِّسيانِ[3].

المَعْنَى الإجماليُّ:

افتُتِحَت هذه السُّورةُ العظيمةُ بالحُروفِ المُقطَّعةِ؛ للإشارة إلى إعجازِ القُرآنِ؛ إذ تشير إلى عجزَ الخَلْقِ عن معارَضَتِه بالإتيانِ بشيءٍ مِن مِثلِه، مع أنَّه مُركَّبٌ من هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها!

ثم خاطبَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بأنَّ هذا القرآنَ كتابٌ أنزَلَه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٤، ٥٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٤).

إليه، وأمره ألا يَضيقَ صدرُه من إبلاغِه، والإنذارِ به، وألا يكونَ لديه شَكٌّ أنَّه مُنزَّلٌ مِن عندِ الله تباركَ وتعالى؛ أنزَلَه إليه ليُخَوِّفَ به الكافرينَ، وموعظةً للمؤمنينَ.

ثم أمرَ اللهُ تعالى النَّاسَ أن يتَّبِعوا القرآنَ المُنَزَّلَ مِن عندِه، ونهاهم أن يتَّبِعوا مِن دُونِه أولياءَ، وأخبرَ تعالى أنَّ النَّاسَ قليلًا ما يتَّعِظونَ ويعتَبِرون، فيُراجِعونَ الحَقَّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓمٓصٓ ١﴾.

تقدَّم الكلامُ على هذه الحروفِ المقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ البَقَرةِ[١].

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾.

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾.

أي: هذا القرآنُ- يا محمَّدُ- كِتابٌ أنزَلَه اللهُ تعالى إليك[٢].

﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾.

أي: فلا يَضِقْ صدرُك- يا محمَّدُ- مِن إبلاغِ القُرآنِ، والإنذارِ به، ولا يكُنْ لديكَ شكٌّ واشتباهٌ في أنَّه مُنزَّلٌ مِن عندِ الله تبارك وتعالى، فلْيَنشرِحْ له صَدرُك ويتَّسِعْ، ولْتطمَئِنَّ به نفسُك، واصبِرْ على ما كُلِّفْتَ به مِن أثقالِ النُّبوَّةِ، وتَحمَّلِ الأذى، ولا تخشَ لائمًا، ولا مُعارِضًا[٣].

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

---

(١) يُنظر ما تقدَّم في (١/ ٦٤) من هذا الكتاب.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٨-١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤-٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٣-١٦).

أي: هذا كتابٌ أنزلناه إليك- يا محمَّدُ- لِتخوِّفَ به الكافرينَ، وموعظةً للمُؤمنينَ[١].

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه أنزَلَ هذا الكتابَ العظيمَ على هذا النبيِّ الكريمِ؛ ليُنذِرَ به ويُذَكِّرَ- أَمَر من ذُكِّروا وأُنذِروا بما ينبغي أن يفعلوا تجاه ذلك الإنذارِ والتَّذكيرِ، الذي بعَث به رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال[٢]:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

أي: اتَّبِعوا- أيُّها النَّاسُ- القُرآنَ الذي جاءكم مِن عندِ اللهِ الذي خلَقَكم، وهو مالِكُكم ومُدَبِّرُكم[٣].

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

أي: ولا تتَّبعوا شيئًا غيرَ ما أَنزَلَ إليكم ربُّكم؛ فتَخرُجوا عن الحَقِّ الذي جاءكم به الرَّسولُ إلى غيرِه، فتكونوا قد عدَلتُم بذلك عن حُكمِ اللهِ إلى حُكمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٦-١٨).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٠)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٠-٣٤).

آخَرينَ تتولَّونَهم، وتتَّبِعون أهواءَهم[١].

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: تَذكُّرُكم تذكُّرٌ قليلٌ لا يُجدي شيئًا، فقليلًا ما تتَّعظون وتَعْتَبرون، فتُراجعونَ الحقَّ[٢].

الفوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ وأمثالِها مِن الآياتِ زَواجِرُ عَظيمةٌ، ينبغي لنا أن نعتبِرَها؛ لأنَّ خالِقَنا جلَّ وعلا بَيَّن لنا أنَّه أنزلَ على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم هذا الكتابَ؛ لِيُخوِّفَ به الخَلقَ مِن عقوباتِ خالقِ السَّموات والأرضِ وسَخَطِه؛ فإنَّه الجبَّارُ الأعظَمُ، الذي إذا سَخِطَ عاقَبَ العقوبةَ المُهلِكةَ المُستأصِلةَ، فبهذا يجِبُ علينا أن نتأمَّلَ في معاني القرآنِ، ونعرِفَ أوامِرَ رَبِّنا التي أمَرَنا بها فيه، ونواهِيَه التي نهانا عنها، ونخافَ مِن هذا الإنذارِ والتَّهديدِ، الذي أُنزِلَ هذا القرآنُ على الرَّسولِ ليفعَلَه بمن لم يعمَلْ بهذا القرآنِ العَظيمِ؛ فالإنسانُ يجِبُ عليه أن يتدبَّرَ هذا القرآنَ العظيمَ، وينظُرَ أوامِرَه، وينظُرَ نواهِيَه، فَيُحِلَّ حلالَه، ويُحرِّمَ حَرامَه، ويعتقِدَ عقائِدَه، ويعمَلَ بمُحكَمِه، ويؤمِنَ بمُتشابِهِه، ويعتبِرَ بما فيه مِن الأمثالِ، ويَلينَ قَلبُه لِما فيه من المواعِظِ، وضُروبِ الأمثالِ، فهذا الإنذارُ لا ينبغي للمُسلمِ أن يُهمِلَه، ويُعرِضَ عنه صَفحًا[٣].

٢- قَولُه تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ المتبادِرُ هنا مِنَ النَّهيِ عَنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤-٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧).

اتِّباعِ الأولياءِ مِن دُونِه تعالى؛ هو النَّهيُ عن طاعةِ كُلِّ أحدٍ مِنَ الخَلْقِ في أمْرِ الدِّينِ؛ غَير ما أنزَلَ اللهُ مِن وَحْيِه، كما فعلَ أهلُ الكِتابِ في طاعةِ أحبارِهم ورُهبانِهم؛ فيما أحَلُّوا لهم، وزادوا على الوَحْيِ مِنَ العباداتِ، وما حَرَّمُوا عليهم مِنَ المباحاتِ، وكلُّ مَن أطاع أحدًا طاعةً دِينيَّةً في حُكمٍ شَرعيٍّ لم يُنْزِلْه رَبُّه إليه؛ فقد اتَّخَذه رَبًّا، قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1] [التوبة: ٣١].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ فبَناه لِمَا لم يُسَمَّ فاعِلُه، ولم يَقُل: (أنزَلَ اللهُ)، أو: (أنزلناه)؛ إيجازًا مُؤذِنًا بأنَّ الـمُنزِلَ مُستغنٍ عَنِ التَّعريفِ، وعن إسنادِه إلى الضَّميرِ أو الاسمِ الصَّريحِ؛ فإنَّ هذا الكتابَ البديعَ، لا يمكِنُ أن يكون إلَّا مِن فوقِ ذلك العَرشِ الرَّفيعِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ دلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى رَفَعَ الحرجَ عن الصدور بكتابِه، وكانت قبلَ إنزالِ الكتابِ في أعظمِ الحرجِ والضِّيقِ؛ فلما أنزل كتابَه ارتفعَ به عنها ذلك الحرجُ، وبقي الحرجُ والضيقُ على مَن لم يُؤْمِن به، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾[3] [الأنعام: ١٢٥].

٣- قال الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ استَدلَّ به بعضُهم على أنَّ المباحَ مأمورٌ به؛ لأنَّه من جملةِ ما أنزَلَ اللهُ، وقد أَمَرَنا باتِّباعِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٥١٨).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص:١٢٦).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، قال: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾، وإنَّما أُنزِلَ على الرَّسولِ؛ ليُفيدَ أنَّه مُنزَّلٌ على الكُلِّ، بمعنى أنَّه خِطابٌ للكُلِّ[(١)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أمرٌ باتباع ما أَنزلَ اللهُ على رسوله، ونهيٌ عن اتِّباعِ غيره، فما هو إلَّا اتِّباعُ المُنزَّلِ؛ أو اتِّباعُ أولياء مِن دونه، فإنَّه لم يجعلْ بينهما واسطةً، فكلُّ مَن لا يَتَّبعُ الوحيَ؛ فإنما يَتَّبعُ الباطلَ، واتَّبَعَ أولياءَ مِن دون اللهِ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ فيه النَّهيُ في اللَّفظِ -في قوله: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾- للحَرَجِ، والمرادُ المخاطَبُ؛ مبالغةً في النهيِ عن ذلك، كأنَّه قيل: لا تتسبَّبْ في شيءٍ ينشَأُ منه حَرَجٌ، وهو من بابِ «لَا أَرَيَنَّك هاهنا»؛ فالنَّهيُ في اللَّفظِ للمُتكلِّم، والمرادُ المخاطَبُ، أي: لا تكُنْ بحَضرتي فأراكَ، ومثلُه: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا﴾[(٣)].

- والتنكيرُ في قولِه: ﴿كِتَٰبٌ﴾ نوعيٌّ؛ لدَفعِ الاستِبْعادِ، أي: استبعادِ المُشركينَ، وإنكارِهم أنْ يكونَ القُرآنُ مِن عندِ اللهِ، فذَكَّرَهم اللهُ بأنَّه كتابٌ مِن نَوعِ الكُتُبِ المُنَزَّلةِ على الأنبياءِ، فكَما نزَلَت صُحُفُ إبراهيمَ، وكتابُ موسى، كذلك نَزَل هذا القُرآنُ. أو أُريدَ بالتَّنكيرِ التَّعظيمُ، أي: هو كِتابٌ عظيمٌ؛ تَنويهًا بشَأنِه، فصار التَّنكيرُ في معنى التَّوصيفِ. أو أُريد بالتَّنكيرِ التَّعجيبُ مِن شأنِ هذا الكِتابِ في جميعِ ما حفَّ به مِنَ البلاغةِ والفَصاحة والإعجازِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩٧).
(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٥).

والإرشادِ[١].

٢- قوله: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه إيجازٌ بحَذفِ مُتعَلِّقِ ﴿لِتُنذِرَ﴾؛ لظُهورِ تقديرِ المَحذوفِ مِن ذِكرِ مُقابِلِه المذكورِ في قَولِه: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، والتَّقديرُ: لِتُنذِرَ به الكافرينَ[٢].

- وصرَّحَ بمتعَلِّقِ الذِّكْرى دون مُتعَلِّقِ ﴿لِتُنذِرَ﴾؛ تنويهًا بشأنِ المؤمنينَ، وتَعريضًا بتحقيرِ الكافرينَ تِجاهَ ذِكرِ المُؤمنينَ، ولأنَّ المُؤمنِينَ هم الذين ينتفعونَ بالمواعِظِ، وللإيذانِ باختِصاصِ الإنذارِ بالكَفرةِ، أي: لتُنذِرَ به المشرِكين، وتُذكِّر المؤمنينَ[٣].

- وجُعِلَ الإنذارُ بالكِتابِ مُقَدَّمًا في التَّعليلِ على الذِّكرى؛ لأنَّه أهمُّ بحسَب المقامِ؛ لأنَّه الغَرَضُ الأهمُّ لإبطالِ ما عليه المشركونَ مِن الباطِلِ، وما يُخلِّفُونَه في النَّاسِ مِنَ العَوائِدِ الباطِلةِ، التي تُعانَى إزالَتُها مِنَ النَّاسِ بعدَ إسلامِهم[٤].

٣- **قوله:** ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ خُوطِبَ به كافَّةُ المُكَلَّفينَ بِطَريقِ التَّلوينِ، وكُلٌّ مأمورٌ باتِّباعِ ما أُنزِلَ إليه، والمقصودُ الأجدَرُ هُم المُشركونَ؛ تعريضًا بأنَّهم كَفَروا بنِعمةِ رَبِّهم[٥].

- قولُه: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ في التَّعَرُّضِ لوَصفِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافَةِ إلى ضميرِ المُخاطَبينَ: مزيدُ لُطفٍ بهم، وتَرغيبٌ لهم في الامتثالِ بما أُمِرُوا به، وتأكيدٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥).

لوُجُوبِه[١].

- قولُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ المقصودُ مِن هذا النَّهيِ بعدَ الأمرِ بالاتِّباعِ؛ تأكيدُ مُقتضَى الأمرِ باتِّباعِ ما أُنزِلَ إليهم؛ اهتمامًا بهذا الجانِبِ مِمَّا أُنزِلَ إليهم، وتسجيلًا على المشركينَ، وقطعًا لمعاذيرِهم أنْ يَقُولوا: إنَّنا اتَّبَعْنا ما أُنزِلَ إلينا، وما نرى أولياءَنا إلَّا شُفَعاءَ لنا عندَ اللهِ، فما نعبُدُهم إلَّا لِيُقَرِّبونا إلى اللهِ زُلفَى، فإنَّهم كانوا يُمَوِّهونَ بِمثلِ ذلك[٢].

- وقد أفاد مجموعُ قولِه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ مَفادَ صِيغةِ قَصرٍ؛ كأنَّه قال: لا تَتَّبِعوا إلَّا ما أمَرَ به ربُّكم، أي: دُونَ ما يأمُرُكم به أولياؤُكم، فعَدَل عن طَريقِ القَصرِ؛ لتكون جملةُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ مُستقِلَّةً صريحةَ الدَّلالةِ؛ اهتمامًا بمضمونِها[٣].

- وقولُه: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مَسوقٌ لتَقبيحِ حالِ المُخاطَبينَ[٤].

- و﴿مَآ﴾ مزيدةٌ لتَوكيدِ القِلَّةِ، أي: تذكُّرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤-١٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨).

الآيات (٤-٩)

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَأْسُنَا﴾: أي: عذابُنا، وأصلُ (بأس) الشِّدَّة وما ضاهاها[١].

﴿بَيَٰتًا﴾: أي: ليلًا، أو وَقتَ بَياتٍ، واشتغالٍ بالنَّومِ، وأصلُ البيت: مَأْوَى الإنسانِ باللَّيلِ؛ لأنَّه يقال: بَاتَ، أي: أقامَ باللَّيلِ[٢].

﴿قَآئِلُونَ﴾: أي: نائِمون نِصفَ النَّهارِ في وَقْتِ القائِلَةِ[٣].

﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾: أي: فلنُخبِرَنَّ، والقَصَصُ: الأخبارُ المتتبَّعةُ، والأثَرُ، وأصْل القصِّ: تتبُّعُ الأثَرِ أو الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه كثيرًا ما أهلكَ أهلَ القُرى مِنَ الأُمَمِ السَّابقةِ؛ الذين عَبَدوا غيرَه، وكذَّبوا رُسُلَه، فأتَتْهم عُقوبَتُه التي أستأصَلَتْهم على غِرَّةٍ منهم، وهم غافلونَ؛ فبعضُهم جاءَتهم العُقوبةُ في بيوتِهم ليلًا قبل أن يُصبِحُوا، وبعضُهم نهارًا في وقتِ القَيلولةِ، فما كان قولُهم حين جاءَهم العذابُ إلَّا أنِ اعترَفوا أنَّهم كانوا ظالِمينَ.

ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّه سيَسألُ الأُمَمَ التي أرسَل إليهم رُسُلَه سؤالَ توبيخٍ عمَّا عَمِلَت فيما جاءَتها به الرُّسُل، هل أطاعوا الله، وأجابوا الرُّسُلَ، أم عَصَوه وكذَّبُوهم، وسيَسألُ الـمُرسَلينَ عن تبليغِهم للرِّسالة، وعمَّا أُجِيبُوا، وأخبرَ تعالى أنَّه سيقُصُّ على العبادِ يومَ القيامةِ عنْ علمٍ بما قالوا، وبما عَمِلوا في الدُّنيا، وما كان سبحانَه غائبًا في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ عنهم، وعن أفعالِهم؛ فهو على كلِّ شيءٍ شَهيدٌ.

وأخبرَ اللهُ تعالى أنَّ الوَزنَ يومَ القيامةِ لأعمالِ الخلائقِ يكونُ بالعَدلِ؛ فمَن ثَقُلَت موازينُ عَمَلِه الصَّالِحِ فأولئك هم الفائزونَ، ومَن خفَّتْ موازينُ أعمالِه الصَّالحة، فرَجَحَت سيِّئاتُه، فأولئك الذين خَسِروا أنفسَهم؛ نتيجةَ تَكذيبِهم وجَحدِهم بآياتِ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ رَسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالإنذارِ والتَّبليغِ، وأمرَ القَومَ بالقَبولِ والمُتابعة؛ ذَكرَ في هذه الآيةِ ما في تَركِ المُتابعَةِ والإعراضِ عنها مِنَ الوَعيدِ[1]، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩٨).

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾

أي: كثيرًا ما أهلَكْنا أهلَ القُرى مِنَ الأُمَم السَّابقةِ، الذين عَصَوني، وكذَّبوا رُسُلي، وعَبَدوا غيري[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨ - ٩].

﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾

أي: فجاءَتهم عُقوبَتُنا المُستأصِلةُ لهم، فدمَّرنا بعضَهم في بُيوتِهم ليلًا قبل أن يُصبِحوا، وجاء العذابُ بعضَهم نهارًا في وقتِ القَيلولةِ، فاحذروا تكذيبَ رَسُولي محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لئلَّا أُنزِلَ بكم مِثلَ ما أنزَلتُ بتلك الأُمَمِ السَّالفةِ مِنَ العذابِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧-٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢).

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨].

وقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

أي: فما كان قَولُ أهلِ القُرى التي أهلَكْنَاها حين مَجيءِ العَذابِ إلَّا اعترافَهم بظُلمِ أنفُسِهم، وإقرارَهم بالإساءةِ إليها، ولم يَقدِرُوا على رَدِّ العذابِ عنهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ * قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١-١٥].

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

في مُناسَبةِ هذه الآيةِ لِما قَبلَها وجهانِ:

الوجهُ الأوَّلُ: لَمَّا أمَرَ اللهُ الرُّسُلَ في الآيةِ الـمُتقَدِّمة بالتَّبليغِ، وأمَرَ الأُمَّةَ بالقَبولِ والمُتابَعة، وذَكَر التَّهديدَ على تَركِ القَبولِ والمُتابعة بذِكرِ نُزُولِ العَذابِ في الدُّنيا؛ أتبَعَه بنوعٍ آخَرَ مِنَ التَّهديدِ، وهو أنَّه تعالى يَسألُ الكُلَّ عن كيفيَّةِ أعمالِهم، يومَ القيامةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١-٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٨).

الوجهُ الثَّاني: لَمَّا قال تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾؛ أتْبَعَه بأنَّه لا يقَعُ يومَ القيامةِ الاقتصارُ على ما يكونُ مِنهم مِن الاعترافِ، بل ينضافُ إليه أنَّه تعالى يَسأَلُ الكُلَّ عن كيفيَّة أعمالِهم، وبيَّنَ أنَّ هذا السُّؤالَ لا يختَصُّ بأهلِ العِقابِ، بل هو عامٌّ في أهلِ العِقابِ، وأهلِ الثَّوابِ [(١)]، والمرسلين كذلك، كلٌّ بحسبِه، فقال تعالى:

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾.

أي: فلَنَسألَنَّ الأمَمَ الذين أرسَلْتُ إليهم رُسُلي سُؤالَ تَوبيخٍ، لا سُؤالَ استعلامٍ: ماذا عَمِلوا فيما جاءَتهم به الرُّسُلُ مِن أمرِي ونَهْيِي، هل أطاعوني وأجابوا رُسُلي، أم أنَّهم عَصَوني وكَذَّبوا رُسُلي؟[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥].

وقال سبحانه: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((ألَا كُلُّكم راعٍ، وكلُّكم مَسؤولٌ عَن رَعِيَّتِه، فالأميرُ الذي على النَّاسِ راعٍ، وهو مَسؤولٌ عَن رَعِيَّتِه، والرَّجُلُ راعٍ على أهلِ بَيتِه، وهو مسؤولٌ عنهم، والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ بَعلِها ووَلَدِه، وهي مسؤولةٌ عنهم، والعبدُ راعٍ على مالِ سَيِّدِه، وهو مَسؤولٌ عنه، ألَا فكُلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رَعِيَّتِه))[(٣)].

وعن أبي بَرْزةَ الأسلميِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠-٦١).

(٣) رواه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

وسلَّم: ((لا تَزولُ قَدَمَا عبدٍ يومَ القِيامةِ حتى يُسأَلَ عَن عُمُرِه فيمَ أفناه، وعن عِلْمِه فيمَ فَعَل، وعن مالِه مِن أينَ اكتسَبَه وفيمَ أنفَقَه، وعن جِسمِه فيمَ أبلاه))[١].

﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

أي: ولنَسألَنَّ الرُّسُلَ الذين أرسلتُهم إلى الأُمَم عن تبليغِهم لِرسالاتِ رَبِّهم، وعمَّا أجابَتْهم به أمَمُهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان السُّؤالُ في الآيةِ السَّابقةِ يُوهم خَفاءَ المَسؤولِ عنه على السَّائل؛ سَبَّبَ عن ذلك ما يُزيلُ هذا الوَهمَ بِقَولِه، مُؤذِنًا بأنَّه أعلمُ مِنَ المسؤولينَ عَمَّا سألَهم عنه[٣]:

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾.

أي: فلَنُخبِرَنَّ العبادَ يومَ القيامةِ عَن علمٍ بما قالوا، وبما عَمِلوا في الدُّنيا[٤].

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، والدارمي (٥٣٧).
صحَّحه الترمذي، وابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (٣٠/ ٣٠١)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٩).

أي: وما كنَّا غائبينَ في أيِّ وقتٍ مِنَ الأوقاتِ عنهم، وعن أفعالِهم التي كانوا يفعَلونها؛ فاللهُ تعالى شهيدٌ على كلِّ شيءٍ، لا يغيبُ عنه شيءٌ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ الأُولى أنَّ مِن جُملةِ أحوالِ القِيامةِ السُّؤالَ والحِسابَ؛ بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ مِن جُملةِ أحوالِ القِيامةِ أيضًا وزنَ الأعمالِ[(٢)]، فقال تعالى:

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾.

أي: والوزنُ يومَ القيامةِ لأعمالِ الخَلقِ: الحَسناتِ مِنها والسَّيِّئاتِ؛ يكونُ بالعَدلِ، ولا يَظلِمُ اللهُ تعالى أحدًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٢).

وقال ابنُ عاشور: (عطف جملة: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ على جملةِ: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ لِما تضمَّنَته المعطوفُ عليها مِنَ العِلمِ بحَسَناتِ النَّاسِ وسَيِّئاتِهم، فلا جرَمَ أشعَرَت بأنَّ مَظهَرَ ذلك العِلمِ وأثَرَه، هو الثَّوابُ والعِقابُ، وتفاوتُ دَرَجاتِ العاملينَ ودَرَكاتِهم تفاوتًا لا يُظلَمُ العامِلُ فيه مثقالَ ذَرَّةٍ، ولا يفوتُ ما يستحِقُّه إلَّا أن يتفَضَّل اللهُ على أحدٍ؛ برَفعِ دَرَجةٍ أو مغفرةِ زَلَّةٍ؛ لأجلِ سلامةِ قَلبٍ، أو شفاعةٍ، أو نحوِ ذلك، مِمَّا اللهُ أعلَمُ به مِن عبادِه؛ فلذلك عُقِّبَت جملةُ: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ بجملةِ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾، فكأنَّه قيل: فلنقُصَّنَّ عليهم بعِلمٍ، ولَنُجازِيَنَّهم على أعمالِهم جزاءً لا غَبْنَ فيه على أحدٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٦-١١].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ * فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١ -١٠٣].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

مُناسَبَتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبرَ اللهُ تعالى أنَّ العِبرةَ بالمِيزانِ على وجهٍ يُظهِرُ أنَّه لا حَيفَ فيه بوَجهٍ؛ جاء قولُه [(١)]:

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

وقال الواحديُّ: (عامَّةُ المُفَسِّرين على أنَّ المُرادَ بهذا الوَزنِ أعمالُ العبادِ). ((التفسير البسيط)) (٩/ ٢٣).

وقال ابن عطيَّةَ: (قال جمهورُ الأمَّةِ: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ أراد أن يَعرِضَ لعبادِه يومَ القيامةِ تحريرَ النَّظَر، وغايةَ العَدلِ بأمرٍ قد عَرَفوه في الدُّنيا، وعَهِدَتْه أفهامُهم؛ فميزانُ القيامةِ له عمودٌ وكِفَّتانِ على هيئةِ موازينِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٧٦)، ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٦٠).

أي: فمَن ثَقُلَت موازينُ عَمَلِه الصَّالِحِ، بأنْ رَجَحَتْ كِفَّةُ حَسَناتِه على سَيِّئاتِه؛ فأولئك هم النَّاجُونَ الفائِزونَ[(١)].

عن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ الله عنه، قال: سمِعْتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: ((ما مِن شَيءٍ يُوضَعُ في الميزانِ أثقَلُ مِن حُسْنِ الخُلُقِ، وإنَّ صاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبلُغُ به درجةَ صاحِبِ الصَّومِ والصَّلاةِ))[(٢)].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كَلِمَتانِ خَفِيفتانِ على اللِّسانِ، ثَقيلتانِ في المِيزانِ، حَبيبتانِ إلى الرَّحمنِ: سُبحانَ اللهِ وبِحَمدِه، سُبحانَ اللهِ العظيمِ))[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤). قال ابنُ كثيرٍ: (﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: الذينَ فازُوا فنَجَوْا منَ النَّارِ، وأُدخِلُوا الجنَّة. وقال ابنُ عبَّاسٍ: أولئك الذينَ فازُوا بما طَلَبوا، ونَجَوْا مِن شَرِّ ما منه هَرَبوا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٦).

قال الشِّنقيطيُّ: (الفلاحُ في جميعِ القُرآنِ مُحتَمِلٌ للمَعنيينِ المذكُورينِ:

الأوَّل: الفوزُ بالمطلوبِ الأكبَرِ.

الثاني: الدَّوامُ والبقاءُ السَّرمديُّ في النَّعيمِ، فكلُّ مَن كان له دوامٌ وبقاءٌ في النَّعيمِ، تقول العَرَبُ: نال الفلاحَ، وهذا المعنى معروفٌ في كلامهم). ((العذب النمير)) (٣/ ٨٣)، ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٨٤).

قال أبو عُبيدٍ: (الفلاحُ أصلُه البقاءُ، وإنَّما قيل لأهلِ الجنَّة: مُفلِحونَ؛ لِفَوزِهم ببقاءِ الأبَدِ في الجنَّةِ). ((غريب الحديث)) (٤/ ٣٨) باختصار وتصَرُّف.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣) واللفظ له، وأحمد (٢٧٥٥٧).

قال الترمذي: غريبٌ مِن هذا الوجهِ، وحسَّنَ إسنادَه البزَّارُ في ((البحر الزخَّار)) (١٠/ ٣٦)، وقال الخطيبُ في ((أوهام الجمع والتفريق)) (١/ ٣٦١): طريقُه مَرضيٌّ، وقال ابنُ العربيِّ في ((عارضة الأحوذي)) (٤/ ٣٥٧): معنًى صحيحٌ جدًّا، تُعَضِّدُه الأحاديثُ والأُصولُ، وصَحَّحه ابنُ دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٢٧)، وصحَّحَه الألبانيُّ في ((صَحيحِ سُنَنِ الترمذي)) (٢٠٠٣).

(٣) رواه البخاري (٦٦٨٢) ومسلم (٢٦٩٤).

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾.

أي: ومَنْ خفَّتْ مَوازينُ أعمالِه الصَّالحةِ، بأنْ رَجَحَت سيِّئاتُه، وصار الحُكمُ لها، ولم تَثْقُلْ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ فأولئك الذين أضاعوا حَظَّ أنفُسِهم مِن ثَوابِ اللهِ وكَرامَتِه[1].

﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

أي: خَسِرُوا أنفُسَهم؛ لأنَّهم كذَّبوا وجَحَدوا بآياتِ اللهِ سُبحانه وتعالى[2].

الفوائِدُ التربويَّةُ:

لا يَنبغي للعاقِلِ أنْ يأمَنَ صَفوَ اللَّيالي، ولا مُواتاةَ الأيَّامِ، ولا يَغتَرَّ بالرَّخاءِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٧٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٨٩).

قال ابن جرير: (بما كانوا بحُجَجِ اللهِ وأدِلَّتِه يَجحَدون، فلا يُقِرُّونَ بِصِحَّتِها، ولا يُوقِنونَ بحَقيقَتِها). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣).

وقال الواحدي: (﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ بجُحودِهم بما جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٥٠).

وقال ابن عطية: («الآيات» هنا البَراهينُ والأوامِرُ والنَّواهي، و﴿يَظْلِمُونَ﴾ أي يَضَعونَها في غيرِ مَواضِعِها بالكُفرِ والتَّكذيبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٧٧).

وقال الشنقيطيُّ: (فإذا عَلِمْتُم أنَّ الآيةَ في اللُّغةِ تُطلَقُ على العلامةِ، وعلى الجَماعةِ؛ فهي في القرآنِ العظيمِ باستقراءِ القُرآنِ العَظيمِ تُطلَقُ إطلاقينِ:

أحدُهما: الآيةُ الكونيَّةُ القدَريَّة، وهي ما نَصَبَه اللهُ جَلَّ وعلا؛ ليدُلَّ به خَلقَه على أنَّه الواحِدُ الأحَدُ الأعظَمُ الصَّمَدُ، المستحِقُّ لِأن يُعبَدَ وَحدَه... وتُطلَقُ الآيةُ في القُرآنِ إطلاقًا آخَرَ: ومعناها: الآيةُ الشَّرعيَّةُ الدينيَّةُ، كآياتِ هذا القُرآنِ العظيم، ومنه قولُه هنا: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ لأنَّه قال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ٣] وذلك الذي أُنزِلَ إليهم مِن رَبِّهم، أعظَمُه الآياتُ السَّماويَّةُ القُرآنيَّةُ التي تُتلَى، وآياتُ الكُتُب، فلمَّا ظَلَمُوا بها وجَحَدوا بها كانوا ظالِمينَ ودَخَلوا النَّارَ). ((العذب النمير)) (٣/ ٩١-٩٢).

فيَعُدَّه آيةً على الاستحقاقِ له، الذي هو مَظِنَّةُ الدَّوامِ، بل يلزَم التَّذكُّرَ والحَذرَ والتَّوقِّيَ والاحتياطَ؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾[1].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لقائِلٍ أن يقولَ: قولُه: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ يقتضي أن يكونَ الإهلاكُ مُتقدِّمًا على مجيءِ البأسِ، وليس الأمرُ كذلك؛ فإنَّ مجيءَ البأسِ مُقَدَّمٌ على الإهلاكِ. والإجابةُ عن هذا السؤالِ من وجوهٍ:

الأول: المرادُ بقولِه: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: حَكَمْنا بهلاكِها فجاءَها بأسُنا.

وثانيها: كم مِن قريةٍ أرَدْنا إهلاكَها فجاءَها بأسُنا، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

وثالثها: أنْ يكونَ التَّرتيبُ تَرتيبَ تَفصيلٍ على جملةٍ؛ ذَكَرَ الإهلاكَ ثمَّ فَصَّلَه بنوعينِ؛ أحدُهما: مجيءُ البأسِ بياتًا، أي: ليلًا. والثَّاني: مجيئُه وقتَ القائِلةِ[2].

٢- قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ فيه الإتيانُ بِقَولِه: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ في مَوضِعِ (أَرَدْنَا إِهْلاكَها) بقرينةِ ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾- على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ- والإتيانُ بحرفِ التَّعقيبِ بعدَ ذلك؛ للدَّلالَةِ على عدمِ التَّرَيُّثِ، فدلَّ الكلامُ كلُّه: على أنَّه تعالى يُريدُ فيخلُقُ أسبابَ الفعلِ المرادِ، فيحصلُ الفعلُ، كُلُّ ذلك يَحْصُلُ كالأشْياءِ الـمُتَقارِنَةِ، والغرضُ مِنْ ذلك تَهْديدُ السَّامِعينَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩٨، ١٩٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٦).

المعانِدينَ، وتَحْذيرُهم مِنْ أنْ يَحُلَّ غَضَبُ الله عليهم، فيُريد إهلاكَهم، فضَيَّقَ عليهم المهلةَ؛ لِئلَّا يتباطَؤُوا في تدارُكِ أمْرِهم، والتَّعجيلِ بالتَّوبةِ(١).

٣- قول الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فيه لطيفةٌ، حيث أُجْرِيَ الضَّميرانِ في قولِه: ﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ على الإفرادِ والتأنيثِ؛ مُراعاةً للفظِ (قَرية)؛ ليَحصُلَ التماثُلُ بين لفظِ الـمُعادِ ولفظِ ضَميرِه في كلامٍ مُتَّصلِ القُربِ، ثم أُجريتْ ضمائرُ القرية على صِيغة الجمعِ في الجملةِ الـمُفرَّعةِ عن الأُولى في قوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم﴾؛ لحُصولِ الفَصلِ بينَ الضَّميرِ ولفظِ مُعادِه بجُملةٍ فيها ضميرُ مُعادِه غير لَفظِ القرية، وهو ﴿بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾؛ لأنَّ (بَياتًا) مُتحمِّلٌ لضميرِ البأسِ، أي: مُبيَّتًا لهم، وانتقَل منه إلى ضميرِ القرية باعتبارِ أَهلِها، فقال: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم﴾(٢).

٤- قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ اللهَ يسألُ جَميعَ النَّاسِ يومَ القيامةِ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]، وقولُه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[الصفات: ٢٤]، وقولُه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وقد جاءَتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خلافِ ذلك؛ كقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وكقوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، والجوابُ عن هذا من ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّل -وهو أوجَهُها؛ لدَلالةِ القُرآنِ عليه- هو: أنَّ السُّؤالَ قِسمانِ: سؤالُ تَوبيخٍ وتقريعٍ، وأداتُه غالبًا: (لِمَ)، وسؤالُ استخبارٍ واستعلامٍ، وأداتُه غالبًا:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠-٢١)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩).

(هَل)، فالـمُثبَتُ هو سؤالُ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والمنفيُّ هو سُؤالُ الاستخبارِ والاستعلامِ، وجهُ دلالةِ القرآنِ على هذا: أنَّ سؤالَه لهم المنصوصَ في كُلِّه توبيخٌ وتقريعٌ، كقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾، وقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾، وكقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ.

الوجه الثاني: أنَّ في القيامةِ مواقِفَ مُتعدِّدةً؛ ففي بعضِها يُسألونَ، وفي بعضها لا يُسألونَ.

الوجه الثالث: أنَّ إثباتَ السُّؤالِ مَحمولٌ على السُّؤالِ عَنِ التَّوحيدِ، وتَصديقِ الرُّسلِ، وعدمَ السُّؤالِ مَحمولٌ على ما يستلزِمُه الإقرارُ بالنُّبوَّاتِ مِن شرائعِ الدِّينِ وفُروعِه[(١)]، وقيل غير ذلك[(٢)].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الفائدةُ في سُؤالِ الرُّسُلِ مع العِلمِ بأنَّه لم يصدُرْ عنهم تقصيرٌ ألبتَّةَ: أنَّهم إذا أثبَتُوا أنَّه لم يَصدُرْ عنهم تقصيرٌ ألبتَّةَ، التحَقَ التَّقصيرُ بكُلِّيَّتِه بالأمَّةِ، فيتضاعَفُ إكرامُ اللهِ في حَقِّ الرُّسُلِ؛ لظُهورِ بَراءَتِهم عن جميعِ مُوجباتِ التَّقصيرِ، وتتضاعَفُ أسبابُ الخِزي والإهانةِ في حقِّ الكُفَّارِ؛ لِمَا ثبت أنَّ كُلَّ التقصيرِ كان منهم[(٣)].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى عالِمٌ بالعِلمِ، وهو صِفَةٌ له، قائِمٌ بذاتِه، وأنَّ قَولَ مَن يقولُ: (إنَّه لا عِلمَ لله) قولٌ باطِلٌ[(٤)].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٠-١٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٣)، ويُنظر أيضًا: ((شرح العقيدة الواسطية)) للهراس (ص: ١٢٠).

ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ إنْ قيل: الميزانُ واحِدٌ، فما وجهُ الجَمعِ؟ فالجوابُ: أنَّ العَربَ قد تُوقِعُ لفظَ الجَمعِ على الواحِدِ تفخيمًا له. وقيل: إنَّه يُنصَبُ لكُلِّ عبدٍ مِيزانٌ. وقيل: جُمِعَ لاختلافِ الموزوناتِ، وتعَدُّدِ الجَمعِ، فهو جمعُ مَوزونٍ أو ميزانٍ فالميزانُ واحدٌ، وأُطلق عليه اسمُ الجمعِ؛ لكثرةِ ما يُوزن فيه مِن أنواعِ الأعمالِ، وكثرةِ الأشخاصِ العاملين، الموزونةِ أعمالُهم(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الحَسَناتِ هي مِن أسبابِ مَحْوِ الذُّنُوبِ، وزوالِ العُقُوبةِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ هذا الخبرُ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ للمُشركينَ، الذين وُجِّهَ إليهم التعريضُ في الآيةِ الأولى(٣)، وقد خَصَّ بالذِّكرِ إهلاكَ القُرى، دون ذِكرِ الأُمَمِ؛ لأنَّ المُواجَهينَ بالتَّعريضِ هم أهلُ مَكَّةَ، وهي أمُّ القرى؛ فناسَبَ أن يكونَ تهديدُ أهلِها بما أصابَ القُرى وأهلَها، وأيضًا لأنَّ تعليقَ فِعلِ ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ بالقريةِ دون أهلِها؛ لِقَصدِ الإحاطةِ والشُّمولِ، فهو مُغنٍ عن أدواتِ الشُّمولِ، فالسَّامِعُ يعلَمُ أنَّ الـمُرادَ مِنَ القريةِ أهلُها؛ لأنَّ العِبرةَ والموعِظةَ إنَّما هي بما حَصَل لأهلِ القَريةِ(٤).

- والتَّعبيرُ عن إرادةِ الفِعلِ بذِكرِ الصِّيغةِ التي تدُلُّ على وقوعِ الفِعلِ في قولِه: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾؛ لإفادةِ عَزمِ الفاعِلِ على الفِعلِ عزمًا لا يتأخَّرُ عنه العَمَلُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧٦)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بحيث يُستعارُ اللَّفظُ الدَّالُّ على حُصولِ المرادِ للإرادةِ؛ لتَشابُهِهما[١]. وهذا على أحدِ الأوجهِ في التفسيرِ.

- وقولُه: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ فيه مبالغةٌ في تصويرِ غَفْلتِهم، وأمْنِهم مِن العذابِ، وخُصَّ مَجيءُ البَأسِ بهَذينِ الوَقتينِ؛ لأنَّهما وقتانِ للسُّكونِ والدَّعَةِ والاستراحةِ، على عادَتِه سُبحانَه في أخْذِ الظَّالِمِ في وَقتِ بُلوغِ آمالِه وفَرَحِه ورُكونِه إلى ما هو فيه؛ فمَجيءُ العذابِ فيهما أقطَعُ وأشَقُّ، ولأنَّه يكون المجيءُ فيه على غَفلةٍ مِنَ المُهلَكينَ، فهو كالمجيءِ بَغتةً، كما أنَّ التَّذكيرَ بالعذابِ فيهما يُنَغِّصُ على المُكَذِّبين تَخَيُّلَ نَعيمِ الوَقتينِ، وفي هذا التَّقسيمِ تهديدٌ؛ حتَّى يكونوا على وَجَلٍ في كلِّ وقتٍ، لا يَدْرُون متَى يَحُلُّ بِهم العذابُ، بحيثُ لا يَأْمَنون في وقتٍ ما[٢].

٢- قوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فيه حَصْرٌ، ومعناه: أنَّهم لم يَستغيثوا اللهَ ولا توَجَّهوا إليه بالدُّعاءِ، ولِكَنَّهم وَضَعوا الاعترافَ بالظُّلمِ مَوضِعَ الاستغاثةِ؛ فلذلك استثناه اللهُ مِنَ الدَّعوى[٣]. هذا على القولِ بأنَّ الاستثناءَ متَّصلٌ.

- والتَّوكيدُ بـ (إنَّ) في قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ لتحقيقِ الخَبرِ للنَّفسِ أو للمُخاطَبينَ[٤].

٣- قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ المرادُ من هذا

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١١-١٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢- ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٥).

السؤالِ توبيخُ الكفَرَةِ وتقريعُهم[١].

- والذينَ أُرسِلَ إليهم هُم أُمَمُ الرُّسُل، وعبَّرَ عنهم بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لِمَا تَدُلُّ عليه الصِّلةُ ﴿أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ مِنَ التَّعليلِ، فإنَّ فائدةَ الإرسالِ هي إجابةُ الرُّسُلِ[٢].

- وفي قوله: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾ وقوله: ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾ التأكيدُ بلامِ القَسمِ ونُونِ التَّوكيدِ؛ لإزالةِ الشَّكِّ في ذلك، ولأنَّ الـمُخاطَبينَ مِنَ العَرَبِ في أوَّلِ الدَّعوةِ كانوا يُنكِرونَ البَعثَ والجَزاءَ، ولتأكيدِ الخَبرِ تأثيرٌ في الأنفُسِ، ولا سيَّما خَبرُ الـمَشهورِ بالأمانةِ والصِّدقِ، كالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فقد كانوا يُلَقِّبونَه قبل البَعثةِ بالأمينِ[٣].

- وقدَّمَ ذِكرَ سُؤالِ الأمَمِ على ذِكرِ الرُّسُلِ؛ لأنَّ المقصودَ الأهَمَّ مِنَ السُّؤالِ هو الأمَمُ؛ لإقامَةِ الحُجَّةِ عليهم في استحقاقِ العِقابِ[٤].

٤- **قوله**: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ هذا مِن أعظَمِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ حيث يُقِرُّونَ بالظُّلمِ، وتَشهَدُ عليهم أنبياؤُهم، ويَقُصُّ اللهُ عليهم أعمالَهم[٥].

- وتَنكيرُ قَولِه: ﴿بِعِلۡمٖ﴾ يدلُّ على إرادةِ التَّفصيلِ، أي: عالِمينَ بأحوالِهم الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، وأقوالِهم وأفعالِهم، وتَنوينُه للتَّعظيمِ، أي: بعلمٍ عَظيمٍ[٦].

- وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ تذييلٌ مُقَرِّرٌ لِما قبلَه[٧]، والغائِبُ ضِدُّ الحاضِرِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٩-٢٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٧).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٧)

وهو هنا كنايةٌ عن الجاهِلِ؛ لأنَّ الغَيبةَ تستلزِمُ الجهالةَ عُرفًا، أي: الجَهالة بأحوالِ المَغيبِ عنه؛ فإنَّها ولو بلَغَتْه بالإخبارِ، لا تكونُ تامَّةً عنده مثلَ الـمُشاهِد[١].

٥- قولُه: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: فيه اسمُ الإشارةِ ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ طَبَقَتِهم، وبُعدِ منزلَتِهم في الفَضلِ والشَّرَفِ[٢].

- وضَميرُ الفَصلِ (هُمْ) في قوله: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ لقَصدِ الانحصارِ، أي: هُم الذين انحصَرَ فيهم تحقُّقُ المُفلِحينَ، أي: إن عَلِمْتَ جماعةً تُعرَفُ بالمُفلحينَ فَهُمُ هُمُ[٣].

- وتعريفُ ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم النَّاسُ الذين بلغَك أنَّهم مُفلِحون في الآخِرَةِ، أو إشارةٌ إلى ما يَعرِفُه كلُّ أحدٍ مِن حقيقةِ المُفلحينَ، وخصائِصِهم[٤].

٦- قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ صِيغةُ المضارِعِ في قوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ لحكايةِ حالِهم في تجدُّدِ الظُّلمِ فيما مضَى[٥].

- وتقديمُ المجرورِ في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على عامِلِه، وهو ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ للاهتمامِ بالآياتِ[٦].

- الجَمعُ بين صِيغَتَي الماضي والمُستقبَل (كَانوا... يَظلمون)؛ للدَّلالةِ على استمرارِ الظُّلمِ في الدُّنيا[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٤).

الآيات (١٠-١٨)

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَكَّنَّٰكُمْ﴾: أي: وطَّأْنا لكم الأرضَ، أو جَعَلْناها قرارًا لكم، وأصلُ (مكن): الموضِعُ الحاوي للشَّيءِ[(١)].

﴿مَعَٰيِشَ﴾: أي: أسبابًا تعيشونَ بهَا مِن مَطاعِمَ ومَشارِبَ، مُفرَدُها مَعِيشةٌ، وَهِي مَا يُعاشُ بِهِ مِنَ النَّباتِ والحيوانِ وغيرِ ذلك، والعَيْشُ: أخصُّ مِنَ الحَياةِ[(٢)].

﴿صَوَّرْنَٰكُمْ﴾: أي: صَوَّرْنا أباكُم آدَمَ بَشَرًا سَوِيًّا، وقيل: صَوَّرْنا الذُّرِّيَةَ، وصُورةُ كُلِّ مَخلوقٍ: هَيئةُ خِلْقَتِه، وما يَتميَّزُ به عن غيره[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٧-٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) (٣/ ٣٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٧).

﴿إِبۡلِيسَ﴾: هو أبو الشَّياطينِ، وأصلُ الإبلاسِ: اليَأسُ، والحُزنُ المعترِضُ مِن شِدَّةِ اليأسِ، ومنه اشتُقَّ إبليسُ، وقيل: هو اسمٌ أعجميٌّ؛ ولذلك لم يَنصرِفْ[١].

﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾: أي: الـمُهانِينَ، أو الـمُبعَدينَ، جمْعُ صاغرٍ، والصَّغَارُ: الذِّلَّةُ، وأصلُ (صغر): يدُلُّ على قِلَّةٍ وَحَقَارَةٍ[٢].

﴿أَنظِرۡنِيٓ﴾: أي: أخِّرْني وأجِّلْني، وأصلُ (نظر): تأمُّلُ الشَّيءِ ومعاينتُه، ومنه: نَظَرْتُه، أي: انتَظَرْتُه، كأنَّه ينظُرُ إلى الوَقتِ الذي يأتي فيه[٣].

﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾: أي: أضْلَلْتَني، والغَيُّ: جَهلٌ مِن اعتقادٍ فاسدٍ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظْلامِ الْأَمْرِ، ويدلُّ على فَسادٍ في شَيْءٍ[٤].

﴿مَذۡءُومٗا﴾: أي: مَذمومًا بأبلَغِ الذَّمِّ، أو مَلُومًا، وأَصْل (ذأم): يدلُّ على كَرَاهَةٍ وَعَيْبٍ[٥].

﴿مَّدۡحُورٗا﴾: أي: مُقْصًى مطرودًا مُبْعَدًا؛ يُقَال: ادْحَرْ عنكَ الشَّيطانَ، أي: أَبعِدْه، وأصل الدَّحْرِ: الطَّردُ والإبعادُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦، ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ﴾

﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾: في هذه الباءِ وَجهانِ؛ أحدُهما: أنْ تكونَ للقَسَمِ، أي: فأُقسِمُ بإغوائِكَ لأقعُدَنَّ. والثاني: أن تكون سَببيَّةً، تعلَّقَتْ بفعلِ القَسَمِ المحذوفِ، تقديرُه: فبما أغوَيتَني أُقسِمُ باللهِ لأَقعُدَنَّ، أي: فبسَبَبِ إغوائِك أُقسِمُ.

﴿صِرَٰطَكَ﴾: (صِراطَ) مَنصوبٌ على نزْعِ الخافِضِ (على)، والتقديرُ: لأقعُدَنَّ لهم على صراطِك، أو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ به للفِعل ﴿أَقۡعُدَنَّ﴾ على تَضمينِ الفِعلِ (قعَدَ) معنَى فِعلٍ مُتعدٍّ، والتقديرُ: لألزَمَنَّ صراطَك المستقيمَ بقُعودِي عليه، وقيلَ غيرُ ذلك [(١)].

المَعْنَى الإجماليُّ:

يمتَنُّ اللهُ على عبادِه بأنْ هيَّأَ لهم الأرضَ، وأقدَرَهم على الانتفاعِ بما فيها، ويَسَّرَ لهم فيها ما يعيشونَ به في حياتِهم، ومع ذلك فإنَّ قليلًا منهم مَن يَشكُرُه تعالى على نِعَمِه.

ثم خاطَبَ اللهُ بني آدَمَ قائلًا لهم إنَّه خلَقَ أباهم آدَمَ، ثمَّ صَوَّرَه بَشَرًا سَوِيًّا في أحسَنِ تَقويمٍ، ثمَّ قال للملائكةِ: اسجُدُوا لآدَمَ، فكُلُّهم امتَثَلَ الأمرَ وسجَدَ؛ إلَّا إبليسَ؛ استكبَرَ ورفَضَ السُّجودَ.

فسأله اللهُ تعالى عمَّا منَعَه مِنَ السُّجودِ حين أمَرَه، فأجاب أنَّ ما منَعَه مِن ذلك هو أنَّه أفضَلُ مِن آدَمَ؛ إذ خلَقَه اللهُ تعالى مِن نارٍ، بينما خلَقَ آدَمَ مِن طينٍ.

---

٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٨٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٥٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٦٦-٢٦٨).

فأمَرَه اللهُ تعالى حينَها أن يَهبِطَ مِنَ الجنَّةِ؛ فليس له أن يتكبَّرَ فيها، وأمره أن يخرُجَ مِنَ الجنَّةِ، فهو من الذين قد نالهم مِن الله الصَّغارُ والذلُّ والمَهانةُ.

فطلب إبليسُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ أن يُمهِلَه إلى يومِ بَعثِ الخَلائِقِ، فأخبَرَه أنَّه مِنَ الـمُمهَلينَ. فأقسَمَ إبليسُ لِرَبِّه إنَّه بسبَبِ إغوائِه له، ليَلْزَمَنَّ لبني آدَمَ الطَّريقَ القَويمَ، ويَصُدُّهم عنه، مُزَيِّنًا لهم طريقَ الباطِلِ، وإنَّه سيَأتِيهم مِن جَميعِ الوُجوهِ، ومِن مُختَلِفِ الطُّرُقِ؛ لِيَصُدَّهم عن الحَقِّ، ولن يجِدَ تعالى أكثَرَهم شاكرينَ له.

فأمَرَه اللهُ أن يَخرُجَ مِنَ الجنَّةِ مَذمومًا مَمقوتًا مَطرودًا مِن رحمتِه، وأقسَم أنَّ مَن اتَّبعه مِن بني آدمَ، أنْ يملأَ جهنَّمَ مِن جميعِهم: مِن الكفرةِ أتباعِ إبليسَ، ومِنه وذرِّيتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ الخَلقَ بمتابَعةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وبقَبولِ دَعوَتِهم، ثمَّ خَوَّفَهم بعذابِ الدُّنيا، ثمَّ خَوَّفَهم بعذابِ الآخِرَةِ- رغَّبَهم في قَبولِ دَعوةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ في هذه الآيةِ بطَريقٍ آخَرَ، وهو أنَّه كَثُرَت نِعَمُ اللهِ عليهم، وكَثرةُ النِّعَمِ تُوجِبُ الطَّاعةَ[1].

وأيضًا لَمَّا كان الدِّينُ الذي أمَرَ تعالى باتِّباعِ التَّنزيلِ فيه، هو دينَ الفِطرةِ، الـمُبَيِّنَ لكُلِّ ما يُوصِلُها إلى كمالِها، والنَّاهيَ لها عن كُلِّ ما يَحُولُ بينها وبين هذا الكَمالِ، وكان افتتانُ النَّاسِ بأمْرِ المَعيشةِ مِن أسبابِ إفسادِ الفِطرةِ، بالإسرافِ في الشَّهَواتِ، مِن حيثُ إنَّه يجِبُ أن تكونَ نِعَمُ اللهِ عليهم بما يحتاجونَ إليه مِن أمرِ المَعيشةِ، سببًا لإصلاحِها بشُكرِ اللهِ عليه، الموجِبِ للمَزيدِ منه - لَمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٣).

كان الأمرُ كذلك، ذكَّرَ سبحانه النَّاسَ في هذه الآيةِ بنِعَمِه عليهم في التَّمكينِ في الأرضِ، وخَلْقِ أنواعِ المعايشِ فيها[١]، فقال:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾

أي: ولقد هيَّأْنا لكم الأرضَ- أيُّها النَّاسُ- وأقدَرْناكم عليها، وجَعَلْناها لكم قرارًا تستَقِرُّونَ فيها، وفِراشًا تفترِشونَها، وأبَحْنا لكم منافِعَها[٢].

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾

أي: ويسَّرْنا لكم في الأرضِ ما تعيشونَ به أيامِ حياتِكم؛ مما يخرُجُ مِنَ الأشجارِ والنَّباتاتِ، ومِنَ المعادِنِ والحيواناتِ، والصَّنائِعِ والتِّجاراتِ، وغيرِ ذلك مِن أسبابِ المعيشةِ[٣].

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

أي: وأنتم مع ذلك قليلٌ شكرُكم على هذه النِّعَمِ التي أنعَمْتُها عليكم[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((تفسير البغوي)) (١/ ٣٣٠).

قال السمعاني: (أمَّا الكُفَّارُ فلا يشكُرونَ، وأمَّا المؤمنونَ فلم يبلُغُوا غايةَ الشُّكرِ). ((تفسير السمعاني)) (١/ ٢٤٦).

وقال ابنُ عاشور: (الخِطابُ للمُشركينَ خاصَّةً؛ لأنَّهم الذين قلَّ شُكرُهم لله تعالى؛ إذ اتَّخَذوا معه آلهةً، ووَصفُ قليلٍ يستعمَلُ في معنى المَعدوم، ويجوز أن يكون على حقيقَتِه، أي: إنَّ شُكرَكم اللهَ قليلٌ؛ لأنَّهم لَمَّا عرفوا أنَّه رَبُّهم، فقد شَكَروه، ولكنَّ أكثَرَ أحوالِهم هو الإعراضُ عن شُكرِه، والإقبالُ على عبادةِ الأصنامِ وما يَتبَعُها). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٥).

[إبراهيم: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر سبحانَه ما منَحَ العبادَ مِنَ التَّمكينِ؛ ذكَّرَهم بنعمةِ الإيجادِ، وهي نعمةُ عنايةٍ، بعد ما كانوا عليه مِنَ العَدَمِ، وذكَرَ تفضيلَه لهم؛ حيث خلَقَ أباهم آدَمَ، وأمَرَ الملائكةَ بالسُّجودِ له؛ فإنَّ الإنعامَ على الأبِ يَجرِي مَجرى الإنعامِ على الابنِ، ثمَّ ذكَرَ لهم أنَّ أباهم لَمَّا خالفَ الأمرَ أهبَطَه مِنَ الجنَّةِ؛ وفي ذلك تحذيرٌ لذُرِّيتِه[1].

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾.

أي: ولقد خَلَقْنا أباكم آدَمَ عليه السَّلامُ، ثمَّ صَوَّرْناه بشرًا سَوِيًّا في أحسَنِ تَقويمٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٥-٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤).

واختار كونَ المرادِ بقَولِه: ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ و﴿صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ آدَمَ عليه السَّلامُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسَّعديُّ، وابنُ عاشور، والشِّنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٦-٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٠٢-١٠٩).

قال ابنُ كثير: (وإنَّما قيل ذلك بالجَمعِ؛ لأنَّه أبو البَشَر، كما يقول اللهُ تعالى لبني إسرائيلَ الذينَ كانوا في زَمَنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾.

أي: لَمَّا خَلَقْنا آدَمَ وصَوَّرناه، قُلْنا للملائكةِ ابتلاءً منَّا واختبارًا لهم: اسجُدُوا لآدَمَ؛ إكرامًا له، وإظهارًا لفَضْلِه عليه السَّلامُ(١).

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

أي: فسجَدَ الملائكةُ كُلُّهم إلَّا إبليسَ، لم يكُنْ مِنَ السَّاجدينَ لآدَمَ عليه السَّلامُ؛ تكبُّرًا عليه، وإعجابًا بنَفسِه(٢).

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ والمراد: آباؤُهم الذين كانوا في زَمَنِ موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩١).

وقال ابنُ عاشور: (ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي: حَمَلْنا أصولَكم، وهُمُ الذينَ كانوا مع نوحٍ، وتناسَلَ منهم النَّاسُ بعد الطُّوفانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٦-٣٧).

وقد ذهَبَ بعضُ السَّلَفِ إلى أنَّ المعنى: ولقد خَلَقْناكم في ظَهرِ آدَمَ- أيُّها النَّاسُ- ثمَّ صَوَّرْناكم في أرحامِ النِّساءِ.

وقال بعضُهم: معنى ذلك: ولقد خَلَقْناكم في أصلابِ آبائِكم، ثمَّ صَوَّرْناكم في بُطُونِ أُمَّهاتِكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٥، ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

وقد اختلف أهلُ العِلمِ في إبليسَ: هل كان مِنَ الملائكةِ أو لم يكُنْ منهم، على قولين:

القول الأول: أنَّه كان مِنَ الملائكةِ، وهو قولُ الجُمهورِ، واختارَه ابنُ جريرٍ، والبَغَويُّ، وابن عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٤٢)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٢٤).

القول الثاني: أنَّه لم يكُنْ مِنَ الملائكةِ، وهو قولُ الحَسَن البصريِّ، واختاره ابنُ كثير، وابنُ عاشور، والشِّنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٣٠) و(٥/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٠).

أي: قال اللهُ تعالى لإبليسَ: ما منَعك مِن السُّجودِ، فأحوجَك ألَّا تسجدَ لآدَمَ حين أمَرْتُك بالسُّجُودِ له[(١)]؟

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾.

أي: قال إبليسُ لله سبحانه: منعني من السُّجودِ له أنَّني أفضَلُ منه؛ لأنَّك خَلَقْتَني مِن النَّارِ، وخَلَقْتَه مِن الطِّينِ، والنَّارُ أفضَلُ مِنَ الطِّينِ، فكيف أسجُدُ له[(٢)]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٢).

قال الشنقيطي: (في (لا) هنا وجهان: أحدُهما: أنَّ ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ مضمَّنةٌ معنى فِعل [آخر، هو ألجأ] و (لا) في بابها ليسَتْ زائدة، أي: ما ألجأَكَ وأحوَجَك إلى أنْ لا تسجُدَ؟ [أي:] ما المانِعُ الذي ألجأَك وأحوَجَك إلى أن لا تسجُدَ؟! وتضمينُ الفِعلِ معنى فعلٍ، معروفٌ، قال به عامَّةُ عُلماءِ النَّحو من البَصريين. وأظهَرُ القولين في هذا: أنَّ (لا) هنا جيءَ بها لتأكيدِ النَّفيِ؛ لأنَّ (منعك) في معنى الجُحودِ والنَّفي، وإتيانُ (لا) زائدةً في الكلامِ الذي فيه معنى الجَحدِ، مطَّرِدٌ،... ومن أساليبِ اللُّغة العربية زيادةُ لَفظِ (لا) لتوكيدِ الكلام). ((العذب النمير)) (٣/ ١١٢، ١١٤).

ويُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤١-٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١١٩-١٢١).

قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ ذُكِرَ في هذه الآيةِ الكَريمةِ: أنَّ إبليسَ لعَنَه اللهُ خُلِقَ مِن نارٍ، وعلى القولِ بأنَّ إبليسَ هو الجانُّ الذي هو أبو الجِنِّ، فقد زاد في مواضِعَ أُخَرَ أوصافًا للنَّارِ التي خلَقَه منها؛ من ذلك أنَّها نارُ السَّمُومِ، كما في قوله: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، ومِن ذلك أنَّها خُصوصُ المارِجِ، كما في قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ [الرحمن: ١٥]، والمارِجُ أخَصُّ مِن مُطلَقِ النَّارِ؛ لأنَّه اللَّهَب الذي لا دُخَان فيه. وسُمِّيَت نارَ السَّمومِ؛ لأنَّها تَنفُذُ في مسامِّ البَدَنِ؛ لشِدَّةِ حَرِّها). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٠).

وقال الشنقيطي أيضًا: (قولُه جلَّ وعلا حكايةً عن إبليسَ: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ كأنَّ اللهَ لَمَّا سألَ إبليسَ- وهو عالِمٌ؛ لأنَّه جلَّ وعلا أعلَمُ بالموجِبِ الذي بسبَبِه امتنَعَ إبليسُ من السجود- قال له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ وهو أعلَمُ، فأجاب إبليسُ- عليه لعائن الله- بما كان يُضمِرُه مِنَ الكِبر، وكأنَّه اعترَض على ربِّه، وواجه ربَّه جلَّ وعلا بأنَّ تكليفَه إيَّاه أمرٌ لا ينبغي ولا يصلُحُ!! فخَطَّأَ ربَّه جلَّ وعلا، سبحانَه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا! وجعل ذلك ذريعةً له ومُبَرِّرًا في زَعمِه الباطِلِ لعَدَمِ السُّجود). ((العذب النمير)) (٣/ ١١٩).

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ * قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ [ص: ٧٥-٧٦].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((خُلِقَتِ الملائكةُ من نورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِن مارجٍ مِن نارٍ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لكم))[(١)].

﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لإبليسَ: فاهبِطْ مِنَ الجنَّةِ؛ بسبَبِ عصيانِك لأمرِي، وخُروجِك عن طاعَتي؛ فليس لك أن تستكبِرَ في الجَنَّةِ عن طاعتي وأمرِي[(٢)].

﴿ فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾.

أي: فاخرُجْ مِنَ الجنَّةِ؛ إنَّك مِنَ الذَّلِيلينَ الحَقيرينَ[(٣)].

﴿ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٣).
وقد اختلف المُفَسِّرون: هل المرادُ الهبوطُ مِنَ الجنَّة أو الهبوطُ مِنَ السَّماء أو مِنَ المنزِلَة والمكانةِ؟ على أقوال:
الأوَّل: أنَّ المعنى: فاهبِطْ مِنَ الجنَّة؛ فليس لك أن تستكبِرَ في الجنَّة. اختاره ابنُ جرير وابن عطية والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤). وينظر أيضًا: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨).
الثاني: أنَّ المعنى: فاهبِطْ من السَّماءِ؛ فليس لك أن تستكبِرَ في السَّماءِ. اختاره الواحدي والقرطبي. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٣).
الثالث: أنَّ المرادَ المنزلةُ التي كان فيها في المَلَكوتِ الأعلى. ذكره ابنُ كثير احتمالًا. ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٣).

أي: قال إبليسُ: أخِّرْني وأمهِلْني إلى أن يُبعَثَ الخَلقُ يومَ القِيامةِ[١].

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ١٥﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: إنَّك مِنَ المؤخَّرينَ الذين لا يُميتُهم اللهُ إلَّا وَقتَ النَّفخةِ الأولى، حين يموتُ الخَلقُ كُلُّهم[٢].

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾.

أي: قال إبليسُ مُخاطبًا رَبَّه: فبسَبَبِ إضلالِك لي، أُقسِمُ بك لألزَمَنَّ الجلوسَ لذُرِّيَّةِ آدَمَ على طريقِكَ الحَقِّ القَويم، المُوصِلِ إلى الجنَّة- وهو الإسلامُ وشرائِعُه- فأَصُدُّهم عن عبادَتِك وطاعَتِك، وأُزَيِّنُ لهم الباطِلَ؛ لئلَّا يُوَحِّدوك ويَعبُدوك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٠٦).

قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ لم يُبيِّنْ هنا في سُورةِ الأعرافِ الغايةَ التي أنظَرَه إليها، وقد ذَكَرَها في «الحِجْر» و«ص»، مُبَيِّنًا أنَّ غايةَ ذلك الإنظارِ هو يومُ الوَقتِ المَعلوم؛ لِقَولِه: في سورة «الحِجر» و «ص»: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ فقد طلَبَ الشَّيطانُ الإنظارَ إلى يوم البَعثِ، وقد أعطاه اللهُ الإنظارَ إلى يَومِ الوَقتِ المَعلوم. وأكثَرُ العُلماءِ يقولون: المُرادُ به وَقتُ النَّفخةِ الأولى، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى). ((أضواء البيان)) (٢/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٠-٩١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٢-١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٣-١٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩١، ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٣-٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٦-٤٧).

قال ابن القيم: (أفضَلُ ما يُقَدِّرُ اللهُ لعَبدِه وأجَلُّ ما يَقسِمُه له: الهُدى، وأعظَمُ ما يبتليه به ويُقَدِّرُه عليه: الضَّلالُ، وكلُّ نعمةٍ، دونَ نِعمةِ الهدى، وكلُّ مُصيبةٍ، دُونَ مُصيبةِ الضَّلالِ، وقد اتَّفَقَت رُسُلُ اللهِ مِن أوَّلِهم إلى آخِرِهم، وكُتُبُه المُنَزَّلةُ عليهم، على أنَّه سبحانه يُضِلُّ مَن يشاءُ، ويَهدي مَن يشاء، وأنَّه مَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هادِيَ له، وأنَّ الهُدى والإضلالَ بِيَدِه لا بِيَدِ العَبدِ، وأنَّ العَبدَ هو الضَّالُّ أو المُهتدي؛ فالهدايةُ والإضلالُ فِعلُه سبحانه وقَدَرُه، والاهتداءُ والضَّلالُ فِعلُ العَبدِ وكَسْبُه). ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥).

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

وعن سَبْرَةَ بنِ أبي فاكهٍ رَضِيَ الله عنه، قال: سمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: ((إنَّ الشَّيطانَ قعَدَ لابنِ آدَمَ بأطرُقِه، فقعد له بِطَريقِ الإسلامِ، فقال له: أتُسلِمُ وتَذَرُ دِينَك، ودينَ آبائِك، وآباءِ أبيك؟! قال: فعصاه، فأسلَمَ، ثمَّ قعَدَ له بطريقِ الهِجرةِ، فقال: أتُهاجِرُ وتَذَرُ أرضَك، وسماءَك؟! وإنَّما مَثَلُ المُهاجِرِ كمَثَلِ الفَرَسِ في الطِّوَلِ[1]، قال: فعَصَاه فهاجَرَ، قال: ثمَّ قعَدَ له بِطَريقِ الجِهادِ، فقال: هو جَهْدُ النَّفسِ والمالِ، فتُقاتِلُ فتُقتَلُ، فتُنكَحُ المرأةُ، ويُقسَمُ المالُ، قال: فعصاه فجاهَدَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فمَن فعَلَ ذلك منهم فمات، كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ، أو قُتِلَ كان حَقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ، وإن غَرِقَ كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ، أو وَقَصَتْه[2] دابَّةٌ كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ))[3].

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾.

---

(١) الطِّوَل: هو الحَبلُ الذي يُشَدُّ أحَدُ طَرَفيهِ في وَتِدٍ، والطَّرَفُ الآخَرُ في يَدِ الفَرَسِ، وهذا من كلامِ الشَّيطانِ، ومقصودُه: أنَّ المُهاجِرَ يصيرُ كالمُقَيَّدِ في بلادِ الغُربةِ؛ لا يدورُ إلَّا في بَيتِه، ولا يُخالِطُه إلَّا بعضُ مَعارِفِه، فهو كالفَرَسِ في طِوَلٍ، لا يدورُ ولا يرعى إلَّا بقَدْرِه، بِخِلافِ أهلِ البِلادِ في بلادِهم؛ فإنَّهم مَبسوطونَ لا ضِيقَ عليهم، فأحَدُهم كالفَرَسِ المُرسَلِ. يُنظر: ((حاشية السِّندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢٢).

(٢) الوَقْصُ: كَسْرُ العُنُقِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢١٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٠٦).

(٣) أخرجه النسائي (٣١٣٤) واللفظ له، وأحمد (١٦٠٠٠)، وابن حبان (٤٥٩٣).
قال المِزِّي في ((تهذيب الكمال)) (٧/ ٤٩): في إسنادِه اختلافٌ، وذكر أنَّ له متابَعةً، وصحَّحَ إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٣/ ٣٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٣١٣٤).

أي: ثمَّ لآتِينَّ بني آدَمَ مِن جَميعِ الوُجوهِ، ومُختَلِفِ الطُّرُق، فأصُدُّهم عن الحَقِّ، وأُحَسِّنُ لهم الباطِلَ[١].

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا عَلِمَ الخبيثُ إبليسُ أنَّهم ضُعفاءُ، قد تغلِبُ الغفلةُ على كثيرٍ منهم، وكان جازمًا ببَذلِ مجهودِه على إغوائِهم- ظَنَّ وصَدَّق ظَنَّه، فقال[٢]:

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

أي: ولا تجِدُ أكثَرَ بني آدَمَ شاكرينَ لك، بل يُشرِكونَ بك، ولا يُوَحِّدونَك، ويعصُونَك، ولا يُطيعونَك[٣].

وقولُ إبليسَ هذا إنَّما هو ظنٌّ منه وتوَهُّم، وقد وافَقَ في هذا الواقِعَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾[٤] [سبأ: ٢٠-٢١].

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾.

أي: قال اللهُ عزَّ وجلَّ لإبليسَ: اخرُجْ مِنَ الجنَّةِ مَذمومًا ممقوتًا، مطرودًا مِن رحمةِ اللهِ سبحانه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠١-١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥)، ((أضواء

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ * وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٧-٧٨].

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

أي: أُقسِمُ على أنَّ مَنِ اتَّبَعك مِن بَني آدَمَ أنْ أمَلأَ نارَ جهنَّمَ يومَ القيامةِ منهم ومِنك ومِن ذُرِّيتِك[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا * وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٣-٦٥].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ * لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- في التَّعقيبِ بهذه الآيةِ: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ على آيةِ: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ إهمالَ شُكرِ

البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١).

وتقدَّمَ قريبًا في تفسيرِ قَولِه تعالى: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] خلافُ المفَسِّرين في عَودِ الضَميرِ في قولِه: ﴿مِنۡهَا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

قال النحَّاس: (قال أبو إسحاقَ: من قرأ ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾ بفَتحِ اللَّامِ؛ فهي عِندَه لامُ قَسمٍ، وهي توطِئَةٌ لِقَوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾، وقال غيرُه: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾ هي لامُ توكيدٍ، ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾ لامُ قسمٍ، الدليلُ على هذا أنَّه يجوزُ في غيرِ القُرآنِ حَذفُ اللامِ الأولى، ولا يجوزُ حَذفُ الثَّانية). ((إعراب القرآن)) (٢/ ٤٧).

النِّعمةِ يُعَرِّضُ صاحِبَها لِزَوالِها، وهو ما دلَّ عليه قَولُه: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾[١].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ...﴾ فيه التَّذكيرُ بنِعمةِ الإيجادِ؛ ليشكُرُوا مُوجِدَهم[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ فيه تنبيهٌ وإيقاظٌ إلى عَداوةِ الشَّيطانِ لِنَوعِ الإنسانِ مِنَ القِدَمِ؛ ليكون ذلك تحذيرًا مِن وَسوَسَتِه وتَضليلِه، وإغراءً بالإقلاعِ عمَّا أوقَعَ فيه النَّاسَ مِن الشِّركِ والضَّلالةِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى عن إبليسَ: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ العُجْبَ هو الذي أَهلَكَه[٤].

٥- الاحتجاجُ على فضلِ الإنسانِ على غيرِه بفضلِ أصْلِه على أصلِه حَجَّةٌ فاسِدَةٌ، احتجَّ بها إبليسُ حيثُ قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، وهي حجَّةُ الَّذين يفخرونَ بأنسابِهم، وقد قال النَّبي صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: ((مَن بطَّأ به عملُه لم يُسرِعْ به نَسَبُه))[٥].

٦- التكبُّرُ على اللهِ تعالى يوجِبُ العِقابَ الشَّديدَ، والإخراجَ مِن زُمرةِ الأولياءِ، والإدخالَ في زُمرةِ المَلْعونينَ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۞ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٥)
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٣٧).
(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٥٧).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٦).
والحديث أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة.

فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾[١].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّه ليس لِمَن في الجنَّةِ أنْ يتكبَّر، وأنَّ التكبُّرَ لا يليقُ بأهلِ الجنَّةِ والسَّماءِ، وأنَّه تعالى إنَّما طرَدَ إبليسَ لتكبُّرِه، لا لمجرَّدِ المعصيةِ، وكما في الحديثِ: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قَلْبِه مثقالُ ذرَّةٍ مِن كِبْرٍ))[٢].

٨- قال الله تعالى: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ حكمةُ إنظارِ اللهِ تعالى لإبليسَ- وإن كان ذلك سَببًا للغَوايةِ والفِتنةِ- أنَّ في ذلك ابتلاءَ العبادِ بمُخالَفَتِه وطَواعِيَتِه، وما يترتَّبُ على ذلك مِن إعظامِ الثَّوابِ بالمُخالفةِ، وإدامةِ العِقابِ بالطَّواعِيَةِ[٣].

٩- قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ إنَّما نَبَّهَنا اللهُ تعالى على ما قال إبليسُ وعَزَم على فِعْلِه؛ لِنأخُذَ منه حِذْرَنا، ونستَعِدَّ لعَدُوِّنا، ونحترِزَ منه بعِلْمِنا بالطَّريقِ التي يأتي منها، ومَداخِلِه التي ينفُذُ منها[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ إشارةٌ إلى منزلةِ الشُّكرِ؛ حيث إنَّ ابليسَ لَمَّا عَرَفَ قدْرَ مقامِ الشُّكرِ، وأنَّه مِن أجَلِّ المقاماتِ وأعلاها، جَعَلَ غايَتَه أنْ يسعَى في قَطْعِ النَّاسِ عنه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣١٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٥).
والحديثُ أخرجه مسلم في ((صحيحه)) (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٤).

(٥) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١١٧).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ إثباتُ الصِّفاتِ الاختياريَّةِ للهِ تعالى- كصِفةِ الكَلامِ هنا- فهذا بَيِّنٌ في أنَّه إنَّما أَمَرَ الملائكةَ بالسُّجودِ بعد خَلْقِ آدمَ، ولم يَأمُرْهُم في الأزَلِ[(١)].

٢- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ استُدلَّ به على أنَّ صِيغةَ (افْعَلْ) تأتي -في أصلِ وضعِها- للوُجوبِ، وكذلك قولُه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ مُطلَقَ الأمرِ يدلُّ على الوُجوبِ؛ لذمِّ إبليسَ على امتناعِه مِنَ السُّجُودِ، ولو لم يَدُلَّ على الوُجوبِ لم يَستوجِبِ الذَّمَّ والتوبيخَ[(٢)].

٣- استُدِلَّ بقَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ على تفضيلِ النبيِّ على المَلَك؛ لأنَّ اللهَ أَمَرَ الملائكةَ بالسُّجودِ لآدَمَ على سبيلِ التَّكريمِ له؛ حتى قال إبليسُ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾[(٣)] [الإسراء: ٦٢].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ مُطلَقَ الأمرِ يدلُّ على الفَورِ؛ لِذَمِّ إبليسَ على امتناعِه مِنَ السُّجودِ في الحالِ، ولو لم يدُلَّ على الفَورِ لم يستوجِبِ الذَّمَّ في الحالِ[(٤)].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ قال الله هنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ وفي سورةِ الحِجر ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وقال في سورةِ ص: ﴿أَن تَسْجُدَ لِمَا

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٧-٢٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨).

خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ واختلافُ العباراتِ عندَ الحكايةِ يدلُّ على أنَّ اللعينَ قد أَدْرج في معصيةٍ واحدةٍ ثلاثَ معاصٍ: مخالفةُ الأمرِ، ومفارقةُ الجماعةِ، والاستكبارُ معَ تحقيرِ آدمَ، وقد وُبِّخ على كلِّ واحدةٍ منها، لكن اقتصر عندَ الحكايةِ في كلِّ موطنٍ على ما ذكر فيه؛ اكتفاءً بما ذكر في موطنٍ آخرَ[(١)].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ القِياسَ في مَورِدِ النَّصِّ فاسِدٌ[(٢)]، فقد كانت حُجَّةُ إبليسَ باطلة؛ لأنَّه عارضَ النصَّ بالقِياسِ[(٣)].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ ﴾ أصلٌ في ثُبُوتِ الحَقِّ لأهلِ المحَلَّةِ أن يُخرِجُوا مِن مَحَلَّتِهم مَن يُخشَى مِن سِيرَتِه فُشُوُّ الفَسادِ بينهم[(٤)].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ أفاد التَّأكيدُ بـ (إنَّ) والإخبارُ

---

(١) ((فتح البيان في مقاصد القرآن)) لمحمد صديق خان (٤/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥).

وقال ابن تيمية: (ويظهرُ فسادُها بالعقلِ مِن وُجوهٍ خمسةٍ: أحدُها: أنَّه ادَّعَى أنَّ النارَ خَيْرٌ مِن الطينِ، وهذا قد يُمنعُ؛ فإنَّ الطِّينَ فيه السَّكينَةُ والوَقارُ والاستقرارُ والثَّباتُ والإمساكُ ونحوُ ذلك، وفي النارِ الخِفَّةُ والحِدَّةُ والطَّيْشُ، والطينُ فيه الماءُ والتُّرابُ. الثاني: أنَّه وإن كانت النارُ خَيْرًا مِن الطينِ، فلا يَجِبُ أن يَكونَ المخلوقُ مِن الأفضلِ أفضلَ؛ فإنَّ الفرعَ قَد يختصُّ بما لا يكونُ في أصْلِه، وهذا التُّرابُ يُخْلَقُ منه مِن الحيوانِ والمعادنِ والنَّباتِ ما هو خيرٌ منه. الثالثُ: أنَّه وإن كان مخلوقًا من طينٍ، فقد حَصَل له بنفْخِ الروحِ المقدَّسةِ فيه ما شُرِّف به، فلهذا قال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ فعُلِّق السُّجودُ بأن ينفُخَ فيه مِن روحِه، فالموجِبُ للتَّفْضيلِ هذا المعنَى الشَّريفُ، الَّذي ليس لإبليسَ مِثْلُه. الرابعُ: أنَّه مخلوقٌ بيدَي اللَّهِ تعالَى، كما قال تعالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾. الخامسُ: أنَّه لو فُرِضَ أنَّه أفضلَ فقد يُقالُ: إكْرامُ الأفضلِ للمفضولِ ليس بمُستنكَرٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٥) بتصرف.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٤).

بصيغةِ (مِنَ المُنْظَرِينَ) أنَّ إنظارَه أمرٌ قد قضاه اللهُ وقَدَّرَه مِن قَبلِ سُؤالِه؛ أي: تحقَّقَ كَونُك مِن الفَريقِ الذين أُنظِرُوا إلى يومِ البَعثِ، وأنَّ اللهَ ليس بمُغَيِّرٍ ما قدَّرَه له، فجوابُ اللهِ تعالى لإبليسَ إخبارٌ عن أمرٍ تحَقَّقَ، وليس إجابةً لطَلِبَةِ إبليسَ[١]؛ لأنَّه أهونُ على اللهِ مِن أن يُجيبَ له طلبًا، وهذه هي النُّكتةُ في العدولِ عَن أن يكونَ الجوابُ: أنظَرْتُك، أو أجبْتُ لك؛ ممَّا يدُلُّ على تَكرُمةٍ باستجابةِ طَلَبِه، ولكنَّه أعلَمَه أنَّ ما سألَه أمرٌ حاصِلٌ، فسؤالُه تحصيلُ حاصلٍ[٢].

٩- إن قال قائل: فهل أحَدٌ مُنْظرٌ إلى ذلك اليومِ سِوى إبليسَ، فيُقال له: (إنك منهم)؟

قيل: نعم، مَنْ لم يقبضِ الله رُوحَه مِن خلقِه إلى ذلك اليومِ، ممَّن تقومُ عليه الساعةُ، فهم مِن المنظرين بآجالِهم إليه، ولذلك قِيل لإبليسَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾، بمعنى: إنَّك ممَّن لا يميتُه الله إلا ذلك اليومَ[٣].

١٠- قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ...﴾ استخدَمَ لفظَ القُعودِ؛ لأنَّ المرادَ مِنَ الآيةِ أنَّه يُواظِبُ على الإفسادِ مُواظبةً لا يفتُرُ عنها، فإنَّ مَن أراد أن يبالِغَ في تكميلِ أمرٍ مِنَ الأمورِ، قعدَ حتى يصيرَ فارِغَ البالِ، فيُمكِنه إتمامُ المقصودِ[٤].

---

(١) قال ابنُ جريرٍ: (فإنْ قال قائلٌ: فإنَّ اللَّه قد قال له إذْ سأَله الإنظارَ إلى يومِ يُبْعَثونَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ في هذا الموضعِ، فقد أجابَه إلى ما سَأل؟ قِيل له: ليس الأمرُ كذلك، وإنَّما كان مُجيبًا له إلى ما سأل لو كان قال له: إنَّك مِنَ المُنظَرينَ إلى الوقتِ الَّذي سألتَ، أو إلى يومِ البعثِ، أو إلى يومِ يُبعثون، أو ما أشْبَه ذلك ممَّا يدلُّ على إجابَتَه إلى ما سأَلَ مِنَ النَّظِرَةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢١٢).

١١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ * ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ إبليسَ عَلِمَ أنَّ اللهَ خلَقَ البَشَر للصَّلاحِ والنَّفعِ، وأنَّه أودَعَ فيهم معرفةَ الكَمالِ، وأعانهم على بلوغِه بالإرشادِ، وبهذا الاعتبارِ كان إبليسُ عَدُوًّا لبني آدمَ؛ لأنَّه يطلُبُ منهم ما لم يُخلَقوا لأجلِه، وما هو مُنافٍ للفِطرةِ التي فطرَ اللهُ عليها البشَرَ[1].

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ إبليسَ كان عالِمًا بالدِّينِ الحقِّ، والمنهجِ الصَّحيحِ؛ لأنه قال: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ وصراطُ اللهِ المستقيمُ هو دِينُه الحقُّ، ودلَّ أيضًا على أنَّ إبليسَ كان عالِمًا بأنَّ الذي هو عليه مِنَ المذهَبِ والاعتقادِ هو مَحضُ الغَوايةِ والضَّلالِ؛ لأنَّه لو لم يكن كذلك لَمَا قال: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾[2].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ في هذا بيانٌ واضِحٌ على فسادِ ما يقولُ القَدَريَّةُ مِن أنَّ كُلَّ مَن كفَرَ أو آمَنَ فبِتَفويضِ اللهِ أسبابَ ذلك إليه، وأنَّ السَّبَبَ الذي به يَصِلُ المؤمِنُ إلى الإيمانِ، هو السبَبُ الذي به يصِلُ الكافِرُ إلى الكُفرِ، وذلك أنَّ ذلك لو كان كما قالوا لكان الخَبيثُ قد قال بقَولِه: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ فبما أصلَحْتَني، إذ كان سببُ الإغواءِ هو سببَ الإصلاحِ، وكان في إخبارِه عن الإغواءِ إخبارٌ عَنِ الإصلاحِ، ولكِنْ لَمَّا كان سَبَباهما مختلفينِ، وكان السَّبَبُ الذي به غوى وهلك، مِن عندِ اللهِ؛ أضاف ذلك إليه فقال: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾[3]، فخالف القَدَريَّة وغيرُهم شيخَهم إبليسَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٢، ٩٣).

الذي طاوَعُوه في كلِّ ما زَيَّنَه لهم، ولم يطاوِعوه في هذه المسألةِ، ويقولون: أخطأ إبليسُ، وهو أهلٌ للخَطَأِ؛ حيث نسَبَ الغَوايةَ إلى ربِّه، تعالى اللهُ عَن ذلك. فيُقال لهم: وإبليسُ وإن كان أهلًا للخطأِ، فما تصنعونَ في نَبيٍّ مُكَرَّمٍ مَعصومٍ، وهو نوحٌ عليه السَّلامُ؛ حيث قال لِقَومِه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1] [هود: ٣٤].

١٤- وَجهُ جَمعِ اليَمينِ والشِّمالِ في قَولِه تعالى عن إبليسَ: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أنَّه جاءَ في مُقابلةِ كَثرةِ مَن يريدُ إغواءَهم، فكأنَّه أَقسمَ أنْ يأتيَ كلَّ واحدٍ مِن بَينِ يَدَيه ومِن خَلْفِه، وعن يمينِه وعَن شِمالِه، ولا يحسُنُ هنا عن يَمينِهم وعن شِمالِهم، بل الجمعُ هنا مِن مُقابلةِ الجُملةِ بالجملةِ، المقتضي توزيعَ الأفرادِ، ونظيرُه: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾[2].

١٥- ذكَرَ اللهُ تعالى عن آدَمَ عليه السَّلامُ أنَّه لَمَّا فعَلَ ما فَعَل، قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وعن إبليسَ أنه قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فمَن تاب أشبَهَ أباه آدَمَ، ومن أصَرَّ واحتَجَّ بالقَدَرِ، أشبَهَ إبليسَ[3].

١٦- كان إبليسُ أوَّلَ مَن قَدَّمَ القَدَرَ على الأمرِ، وعارَضَه به، وقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فرَدَّ أمرَ اللهِ بقَدَرِه، واحتجَّ على ربِّه بالقَدَر[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٣٤)، ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٦٢).

١٧- قَولُه تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ دلَّ على أنَّ ذلك الوَصْفَ لا يُغتفَرُ منه؛ لأنَّ النَّفيَ بصيغةِ (ما يكونُ لك كذا) أشَدُّ مِنَ النَّفيِ بـ(ليس لك كذا)، وهو يستلزِمُ هنا نهيًا؛ لأنَّه نفاه عنه مع وقوعِه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

- قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيه تأكيدُ الخبَرِ باللَّامِ و (قد) المفيدِ للتَّحقيقِ؛ تنزيلًا للمقصودِينَ مِنَ الخطابِ مَنزلةَ مَن يُنكِرُ مَضمونَ الخَبَرِ؛ لأنَّهم لَمَّا عَبَدوا غيرَ اللهِ كان حالُهم كحالِ مَن يُنكِرُ أنَّ الله هو الذي مكَّنَهم مِنَ الأرضِ، أو كحالِ مَن يُنكِرُ وُقوعَ التَّمكينِ مِن أصلِه[٢].

- قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ فيه تقديمُ ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ على المفعولِ به ﴿مَعَٰيِشَ﴾ مع أنَّ الأصلَ أنْ يُقَدَّمَ المفعولُ به على غَيرِه مِن مُتعَلِّقاتِ الفِعلِ؛ لأنَّ القاعدةَ في تَقديمِ بعضِ الكَلامِ على بعضٍ، هي أن يُقَدَّمَ المقصودُ بالذَّاتِ، والأهَمُّ فالأهَمُّ منه؛ فهَاهُنا ثلاثةُ أشياءَ: المعايشُ، وكونُها في الوَطَنِ الذي يعيش فيه المَرءُ، وكَونُ المرءِ مالكًا لها، ومُتَصرِّفًا فيها، ولا مُشاحَّةَ في أنَّ الأهمَّ عند كلِّ إنسانٍ: أن يكون مالكًا لِمَا يَعيشُ به، ويتلوه أن يكونَ ذلك في وَطَنِه، ويتلوه أنواعُه وأن تكونَ كثيرةً، وهو ما أفاده تركيبُ الكَلِماتِ في الآيةِ، ولا تَجِدُ هذه الدِّقَّةَ في تقديمِ ما ينبغي وتأخيرِ ما ينبغي، مُطَّرِدةً إلَّا في كتابِ الله تعالى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٩٠).

- قولُه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تذييلٌ مَسوقٌ لِبيانِ سوءِ حالِ المُخاطَبينَ، وتَحذيرِهم[١]، ويجوز أنْ تكون القِلَّةُ كنايةً عَنِ العَدَمِ على طريقَةِ الكَلامِ المُقتَصَد؛ استنزالًا لتذَكُّرِهم[٢].

٢- قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ تصديرُ جُملةِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ بالقَسَمِ وحرفِ التَّحقيقِ؛ لإظهار كَمالِ العِنايةِ بِمَضمونِهما[٣].

- وفيه نُسِبَ الخلقُ والتَّصويرُ إلى المُخاطَبينَ مع أنَّ المُرادَ بهما خَلْقُ آدَمَ عليه السَّلامُ وتَصويرُه؛ توفيةً لِمَقامِ الامتنانِ حَقَّه، وتأكيدًا لِوُجوبِ الشُّكرِ عَليهم[٤].

- وعُطِفَتْ جُملةُ ﴿صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ على ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ بحَرفِ (ثُمَّ) الدالِّ على تراخي رُتبةِ التَّصويرِ عن رُتبةِ الخَلقِ؛ لأنَّ التَّصويرَ حالةُ كَمالٍ في الخَلقِ[٥].

- قوله: ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ في اختيارِ الإخبارِ عن نَفيِ سُجُودِه بجَعْلِه مِن غَيرِ السَّاجدينَ: إشارةٌ إلى أنَّه انتَفَى عنه السُّجودُ انتفاءً شديدًا؛ لأنَّ قَولَك: (لم يكُنْ فُلانٌ مِن المُهتدينَ) يفيدُ مِنَ النَّفيِ أشَدَّ مِمَّا يُفيدُه قولُك: (لم يكُنْ مُهتَديًا)[٦]، وأيضًا فنفيُ كَونِ إبليسَ مِنَ السَّاجدينَ أخصُّ مِن نَفيِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٦).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٣٩).

السُّجودِ عنه؛ لأنَّ نَفيَ الكونِ يقتَضي نفيَ الأهليَّةِ والاستعدادِ، فهو أبلغُ في الذَّمِّ مِن أنْ يُقالَ: لم يسجُدْ[(١)].

٣- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾

- قوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للجَوابِ عَن سؤالٍ نَشأَ مِن حكايةِ عَدَمِ سُجُودِه؛ كأنَّه قيل: فماذا قال اللهُ تعالى حينئذٍ؟ وكان مقتضى الظَّاهِرِ أن يُقال: (قُلْنا)، فكان العدولُ إلى ضميرِ الغائِبِ الْتِفاتًا نُكتَتُه تحويلُ مَقامِ الكَلامِ؛ إذ كان المقامُ مَقامَ أمرٍ للمَلائكةِ ومَن في زُمرَتِهم، فصار مقامَ تَوبيخٍ لإبليسَ خاصَّةً[(٢)].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ للتَّوبيخِ، ولإظهارِ معانَدَتِه وكُفْرِه، وكِبْرِه، وافتخارِه بأصلِه، وازدرائِه بأصلِ آدَمَ، وأنَّه خالَفَ أمرَ رَبِّه معتقدًا أنَّه غيرُ واجبٍ عليه، لَمَّا رأى أنَّ سُجودَ الفاضِلِ للمَفْضولِ خارجٌ مِنَ الصَّوابِ[(٣)].

- و(لا) في قوله: ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ مَزيدةٌ للتَّأكيدِ والتَّحقيقِ، ولا تُفيدُ نَفيًا؛ لأنَّ الحرفَ المَزيدَ للتَّأكيدِ لا يُفيدُ معنًى غيرَ التَّأكيدِ؛ كأنَّه قيل: ما منَعَك أن تُحقِّقَ السُّجودَ وتُلزِمُه نَفسَك إِذْ أَمَرْتُكَ؟ لأنَّ أمري لك بالسُّجودِ أُوجِبُه عليك إيجابًا، وأُحَتِّمُه عليك حَتمًا لا بدَّ لك منه[(٤)]، وذلك على أحدِ القولينِ في (ألاَّ).

- قولُه تعالى حاكيًا عن إبليسَ أنَّه قال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ قوله:

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٠).

﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ مَسوقٌ مَساقَ التَّعليلِ للامتناعِ، وجُملةُ: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ﴾ بيانٌ لِجُملةِ: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾؛ فلذلك فُصِلَتْ -أي: لم تُعطَفْ بالواوِ[1].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سورةِ الأعراف: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ من غيرِ نِدائِه باسِمه، وقال تعالى في سورةِ الحِجر: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ﴾ [الحجر: ٣٢]، وقال في سُورة ص: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ [ص: ٧٥] بزيادةِ ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾ فيهما؛ وذلك لأنَّ خِطابَه ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾ قَرُبَ مِن ذِكرِه في هذه السُّورةِ، وهو قولُه: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ فحَسُنَ حذْفُ حرْفِ النِّداء والمُنادَى، ولم يقرُبْ في سورةِ ص قُربَه منه في هذِه السُّورةِ؛ لأنَّه قال في ص: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧٤] بزِيادةِ ﴿ٱسۡتَكۡبَرَ﴾؛ فزادَ حرْف النِّداءِ والمنادَى فقال: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾، وكذلك في الحِجر؛ فإنَّ فيها: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[2] [الحجر: ٣١].

وقيل: إنَّه لَمَّا تَقدَّم في الأعرافِ ذِكرُ خَلْق الإنسانِ وتصويرِه مِن غيرِ ذِكرِ المادَّة التي خُلِق منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾، والخِطاب لبَنِي آدَم، ولم يُذْكَر خَلْقُ غيرِهم مِن مَلَك أو جِن، ثم إنَّ الأمرَ بالسُّجود ورَد للملائكةِ، ولم يرِدْ إشعارٌ بأنَّ إبليسَ مِن غيرهم، فسَبَق من ظاهِرِ الكلامِ أنَّه منهم ومأمورٌ معهم؛ فناسَبَ هذا قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾؛ لأنَّه مأمورٌ بظاهرِ ما تقدَّم، وناسَب ذلك أيضًا وعضَّدَه قولُه تعالى: ﴿إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾، أمَّا آيةُ الحِجرِ فقدْ تقدَّم قَبْلَها قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر: ٢٦]، وقال في سُورة ص: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨٧).

بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ [ص: ٧١]، فلمَّا لم يكُن في أصلِ الخِلقةِ والمادَّة منهم، وكان الأمرُ بظاهِرِ العِبارةِ لهم، وإنْ كان مُرادًا أنَّه معهم، فبحسَبِ ذلك استُؤنِفَ نِداؤُه، فقِيل: ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾؛ فنُودي باسمِه المشعِرِ بطَرْدِه ومغايرتِه لهم[1]. وقيل: ذلك الاختلافُ تَفنُّنٌ؛ جريًا على عادةِ العربِ في تَفنُّنهم في الكلامِ[2].

- وأيضًا قال تعالى هنا في سُورةِ الأعرافِ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، وقال تعالى في سُورةِ الحجر: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢]، فلم يَذكُرِ المعيَّةَ في سورة الأعراف وذَكَرَها في الحِجرِ؛ وذلك لمُناسَبةٍ حسَنةٍ؛ فإنَّه لَمَّا تقدَّم في الأعرافِ ذِكرُ خَلقِ الإنسانِ وتَصويرِه من غيرِ ذِكرِ المادَّة التي خُلِق منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ولم يَذكُر خَلْق غيرِهم مِن مَلَك أو جِنٍّ، ثم إنَّ الأمرَ بالسُّجودِ ورَدَ للملائكةِ، ولم يَرِدْ إشعارٌ بأنَّ إبليس مِن غيرِهم؛ فسَبَق من ظاهِرِ الكلامِ أنَّه منهم، ومأمورٌ معهم، فناسَب هذا قولُه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾؛ لأنَّه مأمورٌ بظاهِرِ ما تَقدَّم. أمَّا آيةُ الحجرِ فقدْ تقدَّم قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٦- ٢٩]؛ فأشارتِ الآياتُ بظاهِرِها إلى أنَّ إبليسَ لم يَكُن في أصلِ الخِلقةِ والمادَّةِ من الملائكةِ، وكان الأمرُ بظاهِرِ العبارةِ لهم، وإنْ كان مرادًا أنَّه معهم؛ فبَحسَبِ هذا وردتِ المعيةُ في قولِه: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾[3] [الحجر: ٣٢].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٧-١٧٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨٧).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٧-١٧٨).

- وأيضًا قال تعالى هنا في سُورة الأعرافِ، وكذا في سورة ص: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢، ص: ٢٨]، فاستُوفِيَ ذِكرُ المادَّتينِ: الطِّين والنار، وقال في سُورةِ الحجر: ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر: ٣٣]، فلم يَذكُرِ النَّارَ؛ وذلك لمُناسَبةٍ حَسنةٍ؛ إذ إنَّه لم يقَعْ ذِكرٌ لخَلقٍ غيرِ الآدميِّين في سورة الأعراف؛ فناسَبَ ذلك ما ذَكَره سبحانه عن إبليس من قولِه: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ فاسْتُوفي ذِكرُ المادَّتَينِ، وبَنَى على ذلِك إبليسُ ما توهَّم مِن فَضلِ النَّارِ على الطِّينِ[١].

٤- **قوله:** ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ الفاءُ في ﴿فَمَا يَكُونُ ...﴾ للسَّببيَّةِ والتَّفريعِ؛ تعليلًا للأمرِ بالهُبوط، وهو عُقوبةٌ خاصَّةٌ: عُقوبةُ إبعادٍ عَنِ المَكانِ المُقَدَّسِ؛ لأنَّه قد صار خُلُقُه غيرَ ملائمٍ لِمَا جَعَلَ اللهُ ذلك المكانَ له[٢].

- قَولُه: ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ فيه تأكيدٌ لجُملةِ ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾ بمُرادِفِها، وأُعيدَتِ الفاءُ مع ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾؛ لزيادةِ تأكيدِ تَسَبُّبِ الكِبرِ في إخراجِه مِنَ الجنَّةِ[٣].

- وجملةُ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ واقعةٌ مَوقِعَ التَّعليلِ للإخراجِ، على طَريقةِ استعمالِ (إنَّ) في مِثلِ هذا المَقامِ استعمالَ فاءِ التَّعليلِ، وقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أشَدُّ في إثباتِ الصَّغارِ له مِن نحو: (إنَّك صاغِرٌ)، أو (قد صَغُرْتَ)[٤].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾،

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٤٤-٤٥).

وقال في سورةِ الحجر: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ [الحجر: ٣٤]؛ وذلك لأنَّ ما ورَدَ في سورة الحجر مِن تَبيينِ خَلْقِ إبليسَ مِن النارِ، وفَصْله عن الملائكةِ أَعْقَبَ به قولَه تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ [الحجر: ٣٤]، أمَّا في آية الأعراف -﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾- فلمْ يَتقدَّم فيها أنَّ إبليس ليس من الملائكةِ، كالذي تَقدَّم في سورة الحجر، بل ظاهرُ ما في الأعرافِ أنَّه منهم، فجرَى الأمرُ مناسبًا لهذا الظاهرِ فعَبَّر بالهُبوط، ولَمَّا تَقدَّم في الحِجرِ أنَّه ليس مِن الملائكةِ لخَلْقِه من نارِ السَّموم، وأَشعرَ ذلك بشَرِّ المادَّة؛ ناسَبه قولُه: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾، وإتْباعُ ذلك بما يُلائِمُه من الوصفِ ويُناسبِه من قوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾، ثم بما كُتِب عليه مِن الطَّردِ واللَّعنةِ، ولم يَرِدْ في الأعرافِ هكذا، بل رُوعي فيه مُناسَبةُ ما تَقدَّم؛ ولئلَّا يَتنافَرَ الكلامُ ويَتنافرَ المعنى؛ فقيل: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[1] [الأعراف: ١٣].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾

- قولُه تعالى حاكيًا عن إبليسَ أنَّه قال: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ ...﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشأ مِمَّا قَبلَه؛ كأنَّه قيل: فماذا قال اللَّعيُن بعدَما سَمِعَ هذا الطَّردَ المُؤَكَّد؟، فقيل: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ ...﴾[2].

- وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿أَنظِرۡنِيٓ﴾، وقال في سورةِ الحجر وسورة ص: ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ [الحجر: ٣٦، ص: ٧٩]؛ ووجه هذه المناسبةِ: أنَّ قوله: ﴿أَنظِرۡنِيٓ﴾ في سورةِ الأعراف ورَد مُستأنفًا، غيرَ مقصودٍ به عطفٌ على ما يَقعُ به هذا السؤالُ عقيبَه؛ فلم يُحْتَجْ إلى الفاءِ، وأمَّا

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٧).

في الآيتين في سورتي الحجر وص فإنَّ قولَه تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ ﴾ [الحجر: ٣٦، ص: ٧٩] جاءَ بعدَ إخبارِ اللهِ تعالى بلَعْنِه إبليسَ، فكأنَّه قال: يا ربِّ إنْ لعَنْتَني وآيَسْتَني من الجنَّةِ فأَخِّرْ أَجلي إلى يومِ يُبعثون؛ فاقتَضَى إضمارَ (إنْ لعَنْتَني يا ربِّ) أن يأتي بالفاءِ[١]. وقيل: حَذَف الفاء في الأعرافِ؛ موافقةً لحَذفِ ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ ﴾، وقال في الحجر و ص بذِكرِها؛ موافقةً لذِكرِه قبلُ[٢]. وقيل: قال في الحجر وص بذِكر الفاءِ؛ لِمَا تَضمَّنه النداءُ في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ مِن أَدعوك وأُناديك، كما في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾[٣] [آل عمران: ١٩٣].

- وأيضًا قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ ﴾ مِن غير ذِكر كلمة (رَبِّ)، وقال في سورةِ الحجر وسورة ص: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ ﴾ [الحجر: ٣٦، ص: ٧٩] بذِكرِها؛ وذلك لمُناسبةٍ حَسنةٍ؛ فإنَّه سبحانه لَمَّا اقتصرَ في السؤالِ على الخِطابِ دون صريحِ الاسم في هذه السُّورة في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ ﴾ اقتصَر في الجوابِ أيضًا على الخِطابِ دون ذِكرِ المُنادَى[٤].

- وأيضًا قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾ مِن غير فاءٍ في ﴿إِنَّكَ ﴾، وفي السُّورتينِ الحجر وص: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٣٧، ص: ٨٠] بفاء؛ وذلك لأنَّ الجوابَ يُبنَى على السُّؤال، ولَمَّا خلَا سؤالُه ﴿أَنظِرۡنِيٓ ﴾ في هذه السُّورةِ عن الفاءِ، خلا الجوابُ عنه، ولَمَّا

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٧٦-٥٧٧).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨٨).
(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨٨).
(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٧).

ثَبتتِ الفاءُ في السُّؤالِ ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ في السُّورتَينِ ثَبتَتْ في الجوابِ[١].

- وقيل في كلِّ ما مَضَى مِن زِياداتٍ في آيَتَي الحِجر وص لم تَرِدْ في الأعراف: إنَّه قُصِدَ في سورة الأعرافِ إيجازُ الأخبارِ في القِصَّة، وقُصِدَ في السُّورتَينِ الإطنابُ؛ ليحصُلَ مِن ذلك الاطِّلاعُ على البَلاغةِ وجلالةِ النَّظمِ وعلى فَصاحتِه في طرَفَي الإيجازِ والإطنابِ، ويُشيرُ إلى هذا الغرضِ: أنَّ مجموعَ الكلمِ الواقع مِن لدن قولِه في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ [الأعراف: ١١] -وهو ابتداءُ القِصَّة- إلى قولِه: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤] بِضعٌ وأربعونَ كلمةً، والواردَ في الحِجرِ مِن لَدُن قوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [الحجر: ٢٦] إلى قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ [الحجر: ٣٦] بِضعٌ وسَبعون كلمةً، وفي سورةِ ص من لَدُن قوله: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ﴾ [ص: ٧١] إلى آخِرِ الآياتِ بِضعٌ وسِتُّون كلمةً؛ فقدْ وضَحَ ما قُصِد في الأعراف مِن إيجازِ الأخبارِ في القِصَّة، وما في السُّورتَينِ بَعدُ مِن الإطنابِ[٢].

٦- قوله تعالى حاكيًا عن إبليسَ أنَّه قال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ اللام في قَولِه: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ﴾ لامُ القَسَمِ؛ قَصَدَ اللَّعينُ تأكيدَ حُصُولِ ذلك، وتحقيقَ العَزمِ عليه[٣].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾، وقال في سورةِ الحجر: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]؛ فزادَ هنا في هذه السُّورةِ الفاءَ في قوله: ﴿فَبِمَآ﴾ وحَذَفها في الحِجر؛ وذلِك لأنَّ الفاءَ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:١١٨).
(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٦).

في الأعرافِ مُتسبِّبةٌ عمَّا قَبْلها؛ فهي للعطفِ ليكونَ الثاني مربوطًا بالأوَّلِ، ومُوافقًا له في الاقتصارِ على الخِطابِ دونَ النِّداءِ، ولم تَدخُل الفاءُ في سورة الحِجرِ؛ لوقوعِ النِّداءِ، والنداءُ يُوجِبُ القطعَ، واستئنافَ الكلامِ، لا سيَّما في قِصَّةٍ لا يَقتضيها ما قَبْلَها؛ فلمْ يَحسُنْ مجيءُ الفاءِ[1].

- وأيضًا قال هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، وقال في سورةِ الحِجرِ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، فاخْتَلَف التعبيرُ في المَوضِعينِ؛ وذلك لمناسبةٍ حَسنةٍ بحسَب ما تَقدَّم في كلِّ واحدةٍ مِن السُّورتَينِ؛ فإنَّه لـمَّا تَقدَّم في الأعرافِ قولُه تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ٣]، والإشارةُ إلى القرآنِ بأنَّه يُوضِّح الصِّراطَ المستقيمَ، والإشارةُ بهذا إلى المنزلِ قُرآنًا أنَّه مُبيِّنٌ للصِّراطِ المستقيمِ الذي طَمِع اللَّعينُ في الاستيلاءِ عليه، فقِيل عِبارة عن غَرَضِه مِن ذلك: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾. ولَمَّا كان قد ورَدَ في سُورةِ الحِجر مَنْعُه، ومَنْعُ جُنودِه عن تَعرُّف خبَرِ السَّماءِ، واستراقِ السَّمعِ في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ۝ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ [الحجر: ١٦- ١٨]، وصُدَّ مِن هذه الجِهةِ، عدَل إلى الأُخرى فقال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، أي: رجعتُ إلى إغوائِهم مِن جِهةٍ لم تَمنعْنِي عنها؛ فلأَجْلِ اختلافِ المتقدِّمِ في كلٍّ مِن السُّورَتينِ، اختَلَفَ المبنيُّ عليه مِن المحكيِّ عن إبليسَ مِن طَمَعِه، ووَرَدَ كلٌّ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٨٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨٩).

على ما يُناسِبُ[١].

٧- قولُه تعالى حاكيًا عن إبليسَ أنَّه قال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ في هذه الآيَةِ فَنُّ المُخالَفةِ بينَ حَرفَيِ الجَرِّ؛ فقد ذَكَرَ الجِهاتِ الأربَعَ؛ لأنَّها هي التي يأتي منها العَدُوُّ عَدُوَّه؛ ولهذا ترَكَ جِهةَ الفَوقِ والتَّحتِ، وعَدَّى الفِعلَ إلى الجِهَتينِ الأُولَيَينِ بـ (مِن)، وإلى الأُخرَيَينِ بـ (عن)؛ لأنَّ الغالِبَ فيمَن يأتي مِن قُدَّام وخَلْف أنْ يكون مُتوجِّهًا بكُلِّيتِه، والغالِبَ فيمَن يأتي مِن جِهَةِ اليَمينِ والشِّمال أن يكونَ مُنحرِفًا، فناسب في الأوَّلَينِ التَّعديَةَ بحرْفِ الابتداء (مِن)، وفي الآخَرَينِ التَّعديةَ بحَرْفِ المُجاوَزة (عَن)[٢].

٨- قوله: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ فيه التأكيدُ بقوله: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾؛ للتَّنصيصِ على العُمومِ؛ لئلَّا يُحمَلَ على التَّغليبِ؛ وذلك أنَّ الكَلامَ جَرى على أمَّةٍ بعُنوانِ كَونِهم أتباعًا لواحدٍ[٣].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٩-١٨٠).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٣١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٥٢).

الآيات (١٩-٢٥)

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ٢٥﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَوَسۡوَسَ﴾: فألقى وحَدَّث، والوَسْوَسَةُ: الخَطْرةُ الرَّديئةُ، وحَدِيثُ النَّفسِ والشَّيطانِ بِمَا لَا نفْعَ فيه؛ مِنَ الوَسْوَاسِ، وهو صَوتُ الحُلِيِّ، والهَمْسُ الخَفيُّ، أو القَوْلُ الْخَفيُّ لِقَصدِ الإضلالِ، وأصل (وسوس): يدُلُّ عَلَى صَوْتٍ غَيْرِ رَفِيعٍ[(١)].

﴿وُۥرِيَ﴾: أي: سُتِرَ أو غُطِّي، وأصلُ (وري): سَتر[(٢)].

﴿سَوۡءَٰتِهِمَا﴾: أي: عَوْراتِهما، أو كنايةٌ عَنِ الفَرْج، وسُمِّيَت العورةُ سوأةً؛ لأنَّه يَسوءُ صاحِبَها انكشافُها مِن جَسَدِه، وأصلُ (سوء): كلُّ ما يَقبُحُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص:٨٦٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٩، ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص:٤٤١، ٤٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾: أي: حَلَف لهما، وأصلُه مِنَ القَسامَةِ، وهي أيمانٌ تُقْسَمُ على أولياءِ المَقتولِ، ثم صار اسمًا لكلِّ حَلِفٍ(١).

﴿فَدَلَّىٰهُمَا ﴾: أي: فخَدَعَهما، أو أوْقَعَهما في الهلاكِ، أو جَرَّأهما على المعصيةِ، ويُقال لكُلِّ مَن ألقى إنسانًا في بليَّةٍ: قد دلَّاه في كذا، مأخوذٌ من تَدْليةِ الرجلِ العطشانِ في البِئرِ؛ لِيَرْوَى مِن مائِها، فلا يجِدُ فيها ماءً؛ فيكونُ مُدَلًّى فيها بغُرورٍ؛ فوُضِعَتِ التَّدليةُ مَوضِعَ الإطماعِ فيما لا يُجْدي نفعًا، وأصلُ (دلي): يدُلُّ على مُقارَبةِ الشَّيءِ، ومُداناتِه بسُهولَةٍ ورِفقٍ(٢).

﴿بِغُرُورٍ ﴾: الغُرور- بضمِّ الغينِ- مصدر غَرَّه يغرُّه غُرورًا، أي: أصاب غِرَّتَه، أي: غفلتَه في اليَقَظةِ، ونال منه ما يُريد، حتَّى يُدخِلَه مِن معصيةِ اللهِ فيما يستوجِبُ به عُقوبتَه، وأصلُ (غرر) يدلُّ على النُّقْصانِ(٣).

﴿وَطَفِقَا ﴾: أي: أقبلَا وجعَلَا، وظلَّا وأخذَا، وفِعلُ (طفق) يُستعمَلُ في الإيجابِ دون النَّفيِ، فلا يُقال: ما طَفِقَ(٤).

﴿ يَخْصِفَانِ ﴾: أي: يَرْقَعان، ويُلزِقان، أو يَجعلان وَرَقةً على وَرَقةٍ، أو يَصِلانِ الوَرَقَ بَعضَه ببعضٍ، ويُلصقانِ بعضَه على بعضٍ، ومنه يقال: خَصَفْتُ نَعلِي: إذا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٧)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٨/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص:٦٠٣-٦٠٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٧)، ((الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية)) للجوهري (٤/ ١٥١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢١).

طبَّقْتَ عليها رُقعةً، وأصل (خصف): اجْتِمَاعُ شَيءٍ إلى شَيْءٍ[١].

﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: أي: موضِعُ استقرارٍ؛ قرارٌ تستقرُّونَه، وفراشٌ تَمتهِدونه، وأصل (قرر): يدلُّ على تَمَكُّنٍ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ﴾: (إنْ) حرْفُ شَرطٍ، وقَبْلَه لامُ التَّوطئةِ للقَسَمِ مُقدَّرة، والتقديرُ: (لَئِنْ)، وقوله: ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ جوابُ القَسمِ المُقدَّرِ الذي وطَّأَتْ له اللامُ، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ؛ لدلالةِ جَوابِ القَسمِ عليه؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ﴾[٣] [المائدة: ٧٣].

المَعْنَى الإجماليُّ:

أمرَ اللهُ تعالى آدَمَ وزوجَه حوَّاءَ أن يسكُنا الجنَّةَ، ويأكُلا مِن حيثُ أرادا منها، وألَّا يَقْرَبا شجرةً مُعَيَّنَةً حَدَّدَها لهما تعالى، فيكونا مِنَ الظَّالِمينَ.

فوَسْوَس الشَّيطانُ لآدَمَ وحوَّاءَ؛ ليخدَعَهما، فيُظهِرَ لهما ما سُتِرَ مِن عَوْراتِهما، زاعمًا لهما كذِبًا أنَّ الله تعالى لم يَنْهَهما عن أكلِ ثَمَرِ هذه الشَّجَرةِ، إلَّا كراهةَ أن يكُونا مِن جِنسِ الملائكةِ، أو يكونَا مِنَ الخالِدينَ، وأقسَمَ لهما باللهِ إنَّه ناصِحٌ لهما في ذلك.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٧)، مقاييس اللغة (٥/ ٧).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٨٥).

فخَدَعَهما وغَرَّهما وجَرَّأَهما على الأكلِ مِن تلك الشَّجَرةِ، فلمَّا أكَلَا منها انكشَفَت عَوْرَاتُهما، فجَعلا يَشُدَّانِ على جَسَدَيهما مِن وَرَقِ الجنَّةِ؛ ليستُرا ما ظهَرَ مِن عَوْرَاتِهما، وناداهما ربُّهما معاتبًا لهما: ألَمْ أنهَكُما عن تلك الشَّجرةِ، وأُخبِرْكما أنَّ الشَّيطانَ عدوٌّ لكما ظاهِرُ العَداوةِ.

فاعترَفا بالعِصْيانِ، وقالا: رَبَّنا ظَلَمْنا أنفُسَنا، وإنْ لم تَغفِرْ لنا وتَرْحَمْنا لنكونَنَّ مِنَ الهالكينَ.

فأمر اللهُ تعالى آدَمَ وحوَّاءَ وإبليسَ بالهُبوطِ إلى الأرضِ، بعضُهم لبعضٍ عَدُوٌّ، هم وذُرِّيَّتُهم، ولهم في الأرضِ مكانٌ يَستقِرُّونَ فيه على ظَهْرِها في حياتِهم، وفي بَطنِها بَعد مَوتِهم، ولهم فيها مَتاعٌ يَستَمتِعونَ به إلى أن يأتِيَهم الموتُ، وأخبَرَهم تعالى أنَّهم في الأرضِ يَعيشونَ، وفيها يَموتونَ، ومنها يُخرَجونَ مِن قُبورِهم لِيومِ الجَزاءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لآدَمَ عليه السَّلامُ بعد أن أخرَجَ إبليسَ مِنَ الجنَّةِ: اتَّخِذْ أنت وزَوجُك حوَّاءُ الجنَّة مَنزِلًا، وكُلَا مِن أيِّ مكانٍ فيها، مِن جَميعِ ثِمارِها[1].

﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

أي: ولا تَأكُلَا من هذه الشَّجَرةِ؛ فتَصِيرا مِمَّنْ ظَلَم نفسَه بمُخالَفةِ أمرِ رَبِّه[١].

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾.

أي: فألقى إبليسُ لآدَمَ وحوَّاءَ قَولًا[٢] ليخدَعَهما به، فيُظهِرَ[٣] لهما ما ستَرَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٣).
قال ابنُ عطية: (وهذه الشَّجرةُ، الظَّاهِرُ أنَّه أشار إلى شخصِ شَجَرةٍ واحدةٍ مِن نوعٍ وأرادَها، ويَحتَمِل أن يشيرَ إلى شجرةٍ مُعَيَّنةٍ، وهو يريدُ النَّوعَ بجُملَتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨٢).
وقال السعدي: (عيَّن لهما شجرةً، ونهاهما عن أكْلِها، واللهُ أعلمُ ما هي، وليس في تعيينِها فائدةٌ لنا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٢) قال ابنُ جرير: (يعني جلَّ ثناؤه بقَولِه: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ﴾ [الأعراف: ٢٠]: فوَسوسَ إليهما، وتلك الوسوسةُ كانت قولَه لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠]، وإقسامَه لهما على ذلك. وقيل: (وَسوسَ لهما)، والمعنى ما ذكَرْتُ، كما قيل: غَرِضْتُ له، بمعنى: اشتقْتُ إليه، وإنَّما يعني: غَرِضْتُ من هؤلاء إليه، فكذلك معنى ذلك: فوَسْوَس مِن نَفسِه إليهما الشَّيطانُ بالكَذِبِ مِنَ القِيلِ ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾، ومعنى الكلام: فجَذَبَ إبليسُ إلى آدَمَ حوَّاءَ، وألقى إليهما: ما نهاكما ربُّكما عن أكلِ ثَمَر هذه الشَّجَرةِ إلَّا أن تكونا مَلَكينِ، أو تكونَا مِنَ الخالِدِينَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٦-١٠٧).
وقال الشنقيطيُّ في قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾: (أي: كَلَّمَه كلامًا خَفِيًّا فسَمِعَه منه آدَمُ وفَهِمَه. والدليلُ على أنَّ الوسوسةَ المذكورةَ في هذه الآيةِ الكريمةِ كلامٌ مِن إبليسَ سَمِعَه آدمُ وفَهِمَه أنَّه فَسَّرَ الوسوسةَ في هذه الآيةِ بأنَّها قولٌ، وذلك في قوله: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾، فالقولُ المذكورُ هو الوسوسةُ المذكورة.
وقد أوضح هذا في سورة «الأعراف» وبيَّنَ أنَّه وَسْوَسَ إلى حوَّاءَ أيضًا مع آدَمَ، وذلك في قَولِه: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ إلى قولِه: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ * فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾؛ لأنَّ تصريحه تعالى في آية «الأعراف» هذه بأنَّ إبليسَ قاسَمَهما أي: حلَفَ لهما على أنَّه ناصِحٌ لهما فيما ادَّعاه مِنَ الكَذِبِ؛ دليلٌ واضِحٌ على أنَّ الوَسْوسةَ المذكورةَ كلامٌ مَسموعٌ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١١٠).

(٣) اللامُ في قولِه: ﴿لِيُبْدِيَ ﴾ لامُ الصَّيرورةِ والعاقبةِ؛ وذلك لأنَّ الشيطانَ لم يقصِدْ بالوسوسةِ

اللهُ عنهما مِن عَوْراتِهما[١].

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

أي: وقال لهما كَذِبًا وافتراءً: ما نهاكُما ربُّكما عن أكلِ ثَمَرِ هذه الشَّجَرةِ، إلَّا كراهةَ أن تكونَا ملَكينِ مِن جِنسِ الملائكةِ، أو تكونَا مِنَ الخالِدينَ في الجنَّةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وحَلَفَ لهما باللهِ إنِّي ناصِحٌ لكما في الأكلِ مِن ثَمَرِ هذه الشَّجَرةِ التي نهاكما اللهُ عنها[٣].

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

ظهورَ عوراتِهما، ولم يعلمْ أنَّهما إنْ أكلَا مِن الشَّجرةِ بدَتْ عوراتُهما، وإنَّما كان قصدُه أن يحملَهما على المعصيةِ، فكانت عاقبةُ تلك الوسوسةِ أن بدَتْ لهما سوآتُهما.

ويجوزُ أن تكونَ لامَ التعليلِ، بحَسَبِ قَصدِ إبليسَ إلى حَطِّ مَرتَبَتِهما، وإلقائِهما في العقوبةِ، وربَّما يكونُ علِم بعقوبةِ ذلك فقصَد إليه.

يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٦-١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

قال القرطبي: (سُمِّيَ الفَرجُ عَورةً؛ لأنَّ إظهارَه يَسوءُ صاحِبَه. ودلَّ هذا على قُبحِ كَشْفِها، فقيل: إنَّما بَدَت سوءاتُهما لهما لا لغيرِهما). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٧).

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

أي: فخَدَعَهما وأطمَعَهما بالقَولِ الباطِلِ، وجرَّأهما على الأكلِ مِن تلك الشَّجَرةِ، فنزَّلَهما عن رُتبَتِهما العاليةِ، التي هي البُعدُ عن المعاصي إلى التَّلوُّثِ بها[١].

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

أي: فلمَّا طَعِمَ آدمُ وحوَّاءُ ثَمَرَ الشَّجرةِ، انكشَفَتْ عورةُ كُلٍّ منهما، بعد ما كانت مَستورةً[٢].

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

أي: خَجِلا، وجَعَلا يشُدَّانِ على جَسَدِهما مِن وَرَقِ الجنَّةِ؛ ليستُرا به عَوْراتِهما[٣].

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾.

أي: وقال اللهُ لآدَمَ وحوَّاءَ، مُوَبِّخًا ومُعاتِبًا لهما: ألم أنْهَكما عن أكلِ ثَمَرِ تلك الشَّجَرةِ[٤]؟

﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

أي: وأُعْلِمْكما أنَّ إبليسَ عدوٌّ بيِّنُ العَداوةِ لكما؛ فلِمَ اقترَفْتُما ما نهيتُكما عنه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٠)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٤/ ١٢١-١٢٢)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٠، ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٤)، تفسير القرطبي (٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

وأطَعْتُما عدوَّكُما[١]؟!

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

أي: قال آدَمُ وحوَّاءُ اعترافًا بالعِصيانِ[٢]: يا رَبَّنا أسأَنْا إلى أنفُسِنا، وأضْرَرْنا بها بمَعصِيَتِك، وبِطاعَتِنا عَدُوَّنا وعَدُوَّك[٣].

﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي قالَا في تَوبَتِهما: وإنْ لم تستُرْ علينا ذَنْبَنا، وتتجاوَزْ عن عُقوبَتِنا، وتَرحَمْنا بقَبولِ تَوبَتِنا، والمُعافاةِ مِن هذه الخَطايا، لنكونَنَّ مِنَ الهالكينَ[٤].

وقد قَبِلَ اللهُ تعالى هذه التَّوبةَ، كما قال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢١-١٢٢].

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

أي: قال اللهُ لآدَمَ وحوَّاءَ وإبليسَ[٥]: اهبِطوا مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ، بعضُكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

قال ابن عباس: (بيِّنُ العداوةِ؛ حيث أبى السُّجودَ، وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]). ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٧٢).

(٢) قال ابنُ جرير: (عن الضَّحَّاك، في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية، قال: «هي الكَلِماتُ التي تلقَّاها آدَمُ مِن رَبِّه»). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٥-١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٥) قال ابنُ كثير: (قيل: المرادُ بالخِطابِ في ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ آدَمُ، وحَوَّاءُ، وإبليسُ، والحيَّة. ومنهم من

لبعضٍ عَدُوٌّ أنتم وذُرِّيَّتُكم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

أي: ولَكم أنتم وذُرِّيَّتِكم في الأرضِ قرارٌ، تَستقِرُّونَه في حياتِكم على ظَهْرِها، وبعد وَفاتِكم في بَطنِها، ولكم فيها مَتاعٌ تَستَمتِعونَ به حتى يأتِيَكم الموتُ[(٢)].

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي قال اللهُ: في الأرضِ تَعيشونَ أيَّامَ حَياتِكم، وتكونُ فيها وفاتُكم، ثم

لم يذكُرِ الحيَّة، والله أعلمُ. والعُمدةُ في العداوةِ آدَمُ وإبليسُ؛ ولهذا قال تعالى في سورة «طه» قال: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: ١٢٣] وحوَّاءُ تبَعٌ لآدَمَ. والحيَّةُ -إن كان ذِكْرُها صحيحًا- فهي تبَعٌ لإبليسَ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩).

وضعَّف ابنُ القيِّم القولَ بأنَّ الخطابَ لهم وللحيةِ؛ لأنَّه يحْتاجُ الى نقلٍ ثَابتٍ؛ إذ لا ذكرَ للحيَّةِ في شيءٍ مِن قصةِ آدمَ عليه السلام، ولا في السِّياقِ ما يدلُّ عليها. يُنظر: ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٨)، ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٦)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (هذا خبَرٌ عمَّا سيكونُ مِن عداوةِ بعضِهم بعضًا). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٤٩٣).

وقال ابن عاشور: (يَحتمِلُ أن يرادَ بالبعضِ بعضَ الأنواعِ، وهو عداوةُ الإنسِ والجِنِّ، ويحتمل أن يُرادَ عداوةُ بعضِ أفرادِ نوعِ البَشَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

يُخرِجُكم منها رَبُّكم مِن قُبورِكم أحياءً يومَ القيامةِ؛ ليُجازِيَ كلًّا بعَمَلِه[١].

كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٣-٤٤].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ...﴾ ممَّا يُستفادُ مِن قِصَّةِ آدَمَ وحوَّاءَ وإبليسَ: أنَّه ينبغي لنا أن نَعرِفَ أنفُسَنا بغرائِزِها واستعدادِها للكَمالِ، وما يَعرِضُ لها دُونَه مِن الموانِعِ، فيصرِفُها عنه إلى النَّقائِصِ، وأنَّ أنفَعَ ما يُعِينُنا على تَربِيَتِها عَهدُ اللهِ إلينا بأنْ نَعبُدَه وَحدَه، وألَّا نعبُدَ معه الشَّيطانَ ولا غَيرَه، وأنْ نَذكُرَه ولا ننساه؛ فننسى أنفُسَنا، ونَغفُلُ عَن تزكِيَتِها، وصَقْلِها بصِقالِ التَّوبةِ، كلَّما عَرَضَ لها مِن وِسواسِ الشَّيطانِ ما يُلَوِّثُها؛ فإنَّه إن يُترَكْ صار صَدَأً وطَبْعًا مُفسِدًا لها، وما أفسَدَ أنفُسَ البَشَرِ ودسَّاها إلَّا غفلةُ عُقُولِهم وبصائِرِهم عنها، وترْكُها كالرِّيشةِ في مهابِّ أهواءِ الشَّهواتِ، ووساوسِ شَياطينِ الضَّلالاتِ، فعلى العاقِلِ أن يعرِفَ قِيمَتَها، ويحرِصَ عليها أشَدَّ مِن حِرصِه على ما عساه يملِكُ مِن نفائِسِ الجواهِرِ، وأعلاقِ الذَّخائِرِ[٢].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ النَّهيُ عن قُربِ الشَّيءِ أبلَغُ مِنَ النَّهيِ عنه؛ فهو يَقتضي البُعدَ عن موارِدِ الشُّبُهاتِ التي تُغرِي به، وتُفضِي إليه، وَرَعًا واحتياطًا؛ فإنَّ مَن حام حَولَ الحِمَى أوشَكَ أن يُواقِعَه؛ فقولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أشَدُّ في التَّحذيرِ مِن أن يَنهى عن الأكلِ مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣١٥).

الشَّجَرةِ، لأنَّ النَّهيَ عن قِربانِها سَدٌّ لذريعةِ الأكلِ منها[١].

٣- قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ المعصيةُ تَهتِكُ سِترَ ما بين اللهِ والعَبدِ، فلمَّا عصَيَا انهتَكَ ذلك السِّترُ، فبَدَت لهما سوآتُهما، فالمعصيةُ تُبدِي السَّوأةَ الباطِنَةَ والظَّاهِرةَ، فإنَّ الله سبحانه أنزَلَ لِباسَينِ: لباسًا ظَاهرًا يوارِي العورةَ ويَستُرُها، ولباسًا باطِنًا مِنَ التقوى، يُجَمِّلُ العبدَ ويَستُرُه، فإذا زالَ عنه هذا اللِّباسُ انكشَفَتْ عَورَتُه الباطنةُ، كما تنكشِفُ عَورَتُه الظَّاهِرةُ بنَزْعِ ما يستُرُها[٢].

٤- الحَذَرُ مِن خداعِ إبليسَ، بإظهارِه النُّصحَ، وإبطانِه الغِشَّ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[٣].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ...﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾ يُرشِدُنا إلى أنَّ مَن خالَفَ أمرَه تعالى، ثُلَّ عَرشُه، وهُدِمَ عِزُّه، وإن كان في غايةِ المَكِنَةِ، ونهايةِ القُوَّةِ، كما أخرَجَ مَن أعظَمَ له المَكِنَةَ بإسجادِ مَلائِكَتِه، وإسكانِ جَنَّتِه، وإباحَةِ كلِّ ما فيها غيرَ شَجَرةٍ واحدةٍ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ إشارةٌ إلى الأدبِ في دُعاءِ اللهِ تعالى؛ حيث نسبَ آدمُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المعصيةَ إلى نَفسِه؛ ولم يقُلْ: ربِّ قَدَّرْتَ عليَّ، وقَضَيتَ عليَّ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٥٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١١١-١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧١).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٠).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ دلالةٌ على أنَّ تَعرُّضَ الشَّيطانِ للأنبياءِ، لا يَقدَحُ في نبوَّتِهم عليهم السَّلامُ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ دلالةٌ على أنَّه ليس مِن شَرطِ المُوَسوِسِ أنْ يكون مُستَتِرًا عن البَصَرِ- بل قد يُشاهَدُ- فالكلامُ هنا هو كلامُ مَن يُعْرَفُ قائلُه، ليس شيئًا يُلقى في القَلبِ، لا يُدرى ممَّن هو[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ حكايةٌ لابتداءِ عَمَلِ الإنسانِ لِسَترِ نقائِصِه، وتحَيُّلِه على تجنُّبِ ما يكرَهُه، وعلى تَحسينِ حالِه بحَسَبِ ما يُخَيِّلُ إليه خيالُه، وهذا أوَّلُ مَظهرٍ مِن مظاهِرِ الحضارةِ[٣].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾ تأخَّرَ نداءُ الرَّبِّ إيَّاهما إلى أن بدَتْ لهما سَوآتُهما، وتحيَّلَا لِسَترِ عَوْراتِهما؛ ليَكونَ للتَّوبيخِ وَقعٌ مَكينٌ مِن نُفوسِهما، حين يقَعُ بعد أن تظهَرَ لهما مفاسِدُ عِصْيانِهما، فيعلَمَا أنَّ الخَيرَ في طاعةِ اللهِ، وأنَّ في عِصيانِه ضُرًّا[٤].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٢٧٢).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٦٥).

مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ دلَّ على أنَّ كَشْفَ العَورةِ مِنَ المُنكَراتِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ دلالةٌ على أنَّ العُريانَ يلزَمُه سَترُ عَورتِه، فإنْ لم يجِدْ إلَّا حَشيشًا أو وَرَقًا يربِطُه عليه؛ فإنَّه يلزَمُه السَّترُ به؛ لأنَّه مُغَطٍّ للبَشَرةِ مِن غَيرِ ضَررٍ، فأشبَهَ الجُلودَ والثِّيابَ[٢].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فيه نُكتةٌ لَطيفةٌ، وهي أنَّه لَمَّا كان وَقتُ الهَناءِ شُرِّفَ بالتَّصريحِ باسْمِه في النِّداءِ، فقيلَ: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾، وحين كان وَقْتُ العِتابِ أخبَرَ أنَّه ناداه، ولم يُصَرِّحْ باسْمِه[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ دلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ مُتكَلِّمًا إذا شاءَ، وهو يتكَلَّمُ بمَشِيئَتِه وقُدرَتِه، فيتكَلَّمُ بشيءٍ بعدَ شيءٍ، ووجهُ ذلك: أنَّه سُبحانه ناداهما حين أكَلَا منها، ولم ينادِهما قبلَ ذلك[٤].

٩- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى عن آدَمَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وقَولِه عن إبليسَ: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أنَّ مَن تاب أشبهَ أباه آدمَ، ومَن أَصَرَّ واحتجَّ بالقَدَرِ على المعاصِي أشبهَ إبليسَ[٥].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢١٨).
(٢) يُنظر: ((شرح العمدة - كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٨).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٥٨٨).
(٥) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٣٤).

مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ دلالةٌ على أنَّ الاعترافَ بالذَّنبِ يتضَمَّنُ طلبَ المغفرةِ؛ فإنَّ الطَّالبَ السَّائلَ تارةً يَسألُ بصيغةِ الطَّلَب؛ وتارةً يَسألُ بصيغةِ الخَبَرِ - إمَّا بوصْفِ حالِه، وإمَّا بِوَصفِ حالِ المَسؤولِ، وإمَّا بوَصفِ الحالَينِ-، وأيضًا الإخبارُ عَنِ اللهِ تعالى أنَّه إنْ لم يغفرْ لهما ويَرحَمْهما خَسِرَا؛ يتضَمَّنُ سُؤالَ المَغفرةِ كذلك[1]، فقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ السُّؤالَ والطَّلَبَ قد يكون بصيغةِ الشَّرطِ[2].

١١- إنَّما كَمُلَتْ فضائِلُ آدَمَ باعترافِه على نَفسِه، فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا ﴾ فكُلَّما أوقَدَ إبليسُ نارَ الحَسَدِ لآدَمَ، فاح بها رِيحُ طِيبِ آدَمَ، واحترَقَ إبليسُ بحَسَدِه[3].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ دلالةٌ على جوازِ وُقوعِ الصَّغائِرِ مِنَ الأنبياءِ، وإنَّما ابتلى اللهُ الأنبياءَ بالذُّنوبِ؛ رفعًا لدَرَجاتِهم بالتَّوبةِ، وتبليغًا لهم إلى مَحَبَّتِه وفَرَحِه بهم؛ فإنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوابينَ، ويُحِبُّ المُتَطَهِّرينَ، ويَفرَحُ بتَوبةِ التَّائبِ أشَدَّ فَرَحٍ، فالمقصودُ كَمالُ الغايةِ، لا نَقصُ البِدايةِ؛ فإنَّ العَبدَ يكونُ له الدَّرجةُ لا يَنالُها إلَّا بما قَدَّرَه اللهُ له مِنَ العَمَلِ أو البَلاءِ[4].

١٣- قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ طوى القرآنُ هنا ذِكرَ التَّوبةِ على آدَمَ؛ لأنَّ المقصودَ مِن القِصَّةِ في هذه السُّورةِ: التَّذكيرُ بِعَداوةِ الشَّيطانِ، وتحذيرُ النَّاسِ مِنِ اتِّباعِ وَسْوَسَتِه، وإظهارُ ما يُعقِبُه اتِّباعُه مِنَ الخُسرانِ والفَسادِ، ومقامُ هذه الموعظةِ يقتضي الإعراضَ عن

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٤٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٧٥).
(٣) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٥٧).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٨٩).

ذِكرِ التَّوبةِ؛ للاقتصارِ على أسبابِ الخَسَارةِ[١].

١٤- قولُه تعالى: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ ﴾ ذكَر فيه الإهباطَ بلفظِ الجمعِ ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾، وتارةً يذكرُه بلفظِ التثنيةِ ﴿ٱهۡبِطَا﴾ [طه: ١٢٣]، وتارةً بلفظِ الإفرادِ (اهْبِطْ)، فحيث ورَد بصيغة الجمعِ فهو لآدمَ وزوجِه وإبليسَ؛ إذ مدارُ القصةِ عليهم، وحيثُ ورَد بلفظ التثنيةِ فإمَّا أن يكونَ لآدمَ وزوجِه؛ إذ هما اللذان باشَرا الأكلَ مِن الشَّجرةِ، وأقْدَما على المعصيةِ، وإمَّا أن يكونَ لآدمَ وإبليسَ؛ إذ هما أبَوَا الثَّقلينِ، وأصْلَا الذُّريةِ، فذكَر حالَهما ومآلَ أمرِهما؛ ليكونَ عظةً وعبرةً لأولادهما، ولم يذكُرِ الزوجةَ؛ لأنَّها تبعٌ لآدمَ، وجاء الإهباطُ بالإفرادِ في قولِه تعالى لإبليسَ: ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾[٢] [الأعراف: ١٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ فيه: تصديرُ الكلامِ بالنِّداءِ؛ للتَّنبيهِ على الاهتمامِ بتلَقِّي المأمورِ به. وتَخصيصُ الخِطابِ به عليه السَّلامُ؛ للإيذانِ بأصالَتِه في تلَقِّي الوَحْيِ، وتعاطِي المأمورِ به[٣].

- وقوله: ﴿ ٱسۡكُنۡ أَنتَ ﴾ فيه الإتيانُ بالضَّميرِ المنفصِلِ بعدَ الأمرِ؛ لقَصدِ زِيادةِ التَّنكيلِ بإبليسَ؛ لأنَّ ذِكْرَ ضَميرِه في مقامِ العَطفِ يُذَكِّرُ غَيرَه بأنَّه ليس مِثلَه؛ إذ الضَّميرُ، وإن كان مِن قَبيلِ اللَّقَبِ، وليس له مفهومُ مخالفةٍ؛ فإنَّه قد يُفيدُ الاحترازَ عَن غَيرِ صاحبِ الضَّميرِ بالقَرينةِ على طريقةِ التَّعريضِ[٤].

٢- قوله: ﴿ فَوَسۡوَسَ ﴾ تجسيدٌ حَيٌّ، وتصويرٌ بليغٌ لدَأَبِ إبليسَ على الإغواءِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦٨).
(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٥٣).

وإجهادِه نَفْسَه لِحَمْلِها على أن تَزِلَّ بهما القَدَمُ، ويرتَطِما في مزالِقِ الشَّرِّ؛ فهو يُوسوِسُ إليهما المرَّةَ بعد المرَّةِ؛ فإنَّه كُلَّما تكَرَّرَتِ الحروفُ في اللَّفظِ الواحِدِ، كان ذلك إيذانًا بتكريرِ العَمَلِ[١].

٣- قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ جاءتْ ﴿قَاسَمَهُمَا﴾ على زِنَةِ المُفاعلة للمُبالغةِ؛ ليدُلَّ على أنَّه حَصَلت بينهما في ذلك مُراوغاتٌ ومُحاولاتٌ بُذِلَ فيها الجُهدُ، وفيه تأكيدُ إخبارِ إبليسَ عَن نَفسِه بالنُّصحِ لآدَمَ وزَوجِه بثلاثِ مُؤَكِّداتٍ -إنَّ واللَّامُ في ﴿لَمِنَ﴾ والجُملة الاسميَّة- مِمَّا يَدُلُّ على مَبلَغِ شَكِّهِما في نُصحِه لَهما، وما رأى عَلَيهما مِن مَخائِلِ التَّرَدُّدِ في صِدْقِه[٢].

٤- **قولُه:** ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ فيه تمثيلُ حالِ مَن يطلُبُ شَيئًا مِن مَظِنَّتِه فلا يجِدُه، بِحالِ مُن يُدَلِّي دَلْوَه أو رِجْلَيه في البِئرِ؛ ليَسْتَقيَ مِن مائِها فلا يَجِدُ فيها ماءً، فيُقال: دلَّى فلانٌ، كما يُقالُ: أَدْلَى[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ عَطَفَ جُملةَ: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ﴾ على جملةِ: ﴿أَنْهَكُمَا﴾؛ للمبالغةِ في التَّوبيخِ؛ لأنَّ النَّهيَ كان مشفوعًا بالتَّحذيرِ مِنَ الشَّيطانِ الذي هو المُغْرِي لهما بالأكلِ مِنَ الشَّجَرةِ، فهُما قد أضاعَا وَصِيَّتَينِ[٤].

- والاستفهامُ في قَولِه: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ للتَّقريرِ والتَّوبيخِ، وأُولِيَ هذا الاستِفهامُ حرْفَ النَّفيِ زيادةً في التَّقريرِ؛ لأنَّ نَهيَ اللهِ إيَّاهما واقِعٌ، فانتفاؤُه مُنتَفٍ، فإذا

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٣٢٠)

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٦٧).

أُدخِلَتْ أداةُ التَّقريرِ، وأَقَرَّ المُقَرِّرُ بضِدِّ النَّفيِ، كان إقرارُه أقوى في المؤاخَذةِ بِمُوجِبِه؛ لأنَّه قد هُيِّئَ له سَبيلُ الإنكارِ، لو كان يستطيعُ إنكارًا؛ ففِي هذا الاستفهامِ عِتابٌ مِنَ اللهِ تعالى وتوبيخٌ، وتنبيهٌ على الخَطأِ؛ حيثُ لم يَتحَذَّرا ما حَذَّرَهما اللهُ مِن عداوةِ إبليسَ[(١)].

٦- قوله: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ فيه تَقديمُ المَجْروراتِ الثَّلاثةِ (فيها - فيها - منها) على مُتَعَلِّقاتِها (تَحْيَون - تَمُوتون - تُخرَجون)؛ للاهتمامِ بالأَرضِ التي جُعِلَ فيها قَرارُهم ومتاعُهم؛ إذ كانتْ هي مَقَرَّ جَميعِ أحوالِهم[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧١).

الآيات (٢٦-٣٠)

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩ فَرِيقٗا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٠ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَرِيشًا﴾: الرِّيشُ المَتَاعُ والأموالُ[1]، ويُطلَقُ على ما ظهَر مِنَ اللِّباسِ، ولِباسِ الزِّينةِ، وكلِّ ما سترَ الإنسانَ في جِسمِه ومَعِيشَتِه، ورُبَّمَا اسْتُعْمِلَ فِي الثِّيَابِ والكِسْوَةِ دونَ سائِرِ المَالِ، وأَصْلُ (ريش): يَدُلُّ على حُسْنِ الحالِ، وما يَكتَسِبُ الإنسانُ مِن خيرٍ[2].

﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾: أي: لا يَخدَعَنَّكم، أو لا يَصْرِفَنَّكم، والفِتنةُ تُطلَق على:

---

(١) قال ابنُ تيميَّةَ: (الصَّحيحُ أنَّ «الرِّيشَ» هو الأثاثُ والمتاعُ ... وبعضُ المفسِّرينَ أطلَقَ عليه لفظَ المال، والمرادُ به مالٌ مخصوصٌ، قال ابن زيد: جَمالًا؛ وهذا لأنَّه مأخوذٌ مِن رِيشِ الطَّائِرِ، وهو ما يَرُوشُ به، ويدفَعُ عنه الحَرَّ والبردَ، وجَمالُ الطَّائِرِ رِيشُه، وكذلك ما يبيتُ فيه الإنسانُ مِنَ الفَرشِ، وما يَبسُطُه تحته، ونحو ذلك). ((مجموع الفتاوى)) (١٢/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٩)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٠٩).

الشِّرْك والكُفر، والشَّرِّ والعَذابِ، وهي في الأصلُ: الاختِبارُ والابتلاءُ والامتِحانُ، مأخوذةٌ مِنَ الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهَبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودَتُه مِن رَداءتِه[١].

﴿يَنزِعُ﴾: نزْعُ الشَّيءِ: جذْبُه مِن مَقرِّه، وفَصلُه عنه أو اقتِلاعُه، وأصلُ (نزع): يَدُلُّ على قلْعِ شيءٍ[٢].

﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾: أي: أصحابُه وجُندُه، وجِيلُه وأمَّتُه، وصِنْفُه وجِنسُه الَّذي هو منه، وهم الجِنُّ، وقَبيلُ القَومِ: عَريفُهم؛ وسُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يُقبِل عليهم يَتعرَّفُ أُمورَهم، وأصل (قبل): يدلُّ على مُواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[٣].

﴿فَٰحِشَةً﴾: أي: فِعلةً مُتناهِيةً في القُبحِ، وأصلُ (فحش) يدلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ[٤].

﴿ٱلضَّلَٰلَةُ﴾: أي: الضَّلالُ، وهو العُدولُ عن الطَّريقِ المُستقيمِ، وأصل (ضلل): ضَياعُ الشَّيءِ، وذَهابُه في غيرِ حقِّه[٥].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ٧٦، ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢ - ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١ / ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (٢/ ٤٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١، ٥٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٧٦).

ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾: قُرِئ بالرَّفْع ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ وقُرِئ بالنَّصبِ ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾، فعلى قراءةِ الرَّفْعِ فقولُه: ﴿لِبَاسُ﴾ مُبتدأٌ مرفوعٌ، و﴿ذَٰلِكَ﴾ مُبتدأٌ ثانٍ، و﴿خَيۡرٞ﴾ خبرُ المبتدأِ الثاني، والمبتدأُ الثَّاني وخبرُه ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ خبرٌ للمُبتدأِ الأوَّل ﴿لِبَاسُ﴾، والرابطُ هنا اسمُ الإشارةِ. أَوْ يكونُ ﴿لِبَاسُ﴾ مبتدأً، و﴿ذَٰلِكَ﴾ بَدلًا منه، أو عَطْفَ بيانٍ له، ويكونُ ﴿خَيۡرٞ﴾ خبرًا لـ﴿لِبَاسُ﴾، وقِيلَ غيرُ ذلك. وأمَّا على قِراءةِ النَّصبِ ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾، فهو حِينئذٍ معطوفٌ على ﴿لِبَاسًا﴾، أي: أَنْزَلْنا لِباسًا يُوارِي سَوآتِكم، وأَنْزلْنا أَيضًا لِبَاسَ التَّقْوى، وعلى هذا الوَجهِ فجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ استئنافيَّةٌ لا مَحَلَّ لها من الإعرابِ، أو حالٌ مِن ﴿لِبَاسًا﴾ وما عُطِفَ عليه[1].

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى بني آدَمَ أنَّه خلقَ لهم لباسًا يستُرُ عَوراتِهم، ورَزَقَهم الأثاثَ واللِّباسَ الفاخِرَ الذي يتزيَّنونَ به، وأعلَمَهم أنَّ لِباسَ التَّقوى خيرٌ مِن ذلك، وأخبرَ أنَّ ما مَنَّ به مِن ذلك عليهم هو مِن آياته التي خَلَقَها لهم؛ لعَلَّهم يتذكَّرونَ.

ثم حذَّرَ اللهُ بني آدَمَ مِن أن يخدَعَهم الشَّيطانُ بِتَزيينِه المعاصِيَ لهم، كما خدَعَ أبَوَيهِم آدَمَ وحوَّاءَ، فكان سببًا في خروجِهما مِنَ الجنَّةِ؛ ينزِعُ عنهما لِباسَهما؛ لِيُرِيَهما عَوْراتِهما التي كانت مستترةً، وأعلَمَهم تعالى أنَّ الشَّيطانَ يَراهم هو وذُرِّيتُه مِن حيثُ لا يرونَهم هم، وأنَّه جعلَ الشَّياطينَ أولياءَ للَّذين لا يؤمنون.

وإذا فعل الكُفَّارُ ما يُستفحَشُ ويُستقبَحُ -كَطَوافِهم عُراةً- اعتذروا أنَّهم

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٨٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٨٧-٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٥).

وَجَدوا آباءَهم كذلك يفعلونَ، واللهُ أمَرَهم به، فأمَرَ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُبيِّنَ لهم أنَّ الله لا يأمُرُ بالفَحشاءِ، أيقولونَ على اللهِ ما لا يعلمونَ، وأمَرَه أن يقولَ لهم إنَّ رَبَّه جَلَّ وعلا أمَرَ بالعَدلِ، وليتوجَّهوا في صلاتِهم إلى اللهِ وحده، في أيِّ مسجدٍ كانوا، ولْيَدعوه مُخلصينَ له الدِّينَ، ثمَّ ذكَّر الله تعالى بالمبدأ والنهايةِ، وأنَّه كما خَلَقَكم أوَّلَ مَرَّةٍ بعد أن كُنتم عَدمًا، فكذلك ستَعودونَ إليه يومَ القيامةِ.

فريقًا منهم هداهم الله، وفريقًا وجَبَتْ عليهم الضَّلالة، هؤلاء الذين وَجَبَت عليهم الضَّلالةُ اتَّخذوا الشَّياطينَ أولياءَ مِن دُونِ الله، ويظنُّون أنَّهم مُهتدونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ ﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّه أمر آدَمَ وحوَّاءَ بالهُبوطِ إلى الأرضِ، وجعَلَ الأرضَ لهما مُستقَرًّا؛ بَيَّنَ بَعده أنَّه تعالى أنزَلَ كلَّ ما يحتاجونَ إليه في الدِّينِ والدُّنيا، ومن جُملَتِها اللِّباسُ الذي يُحتاجُ إليه في الدِّينِ والدُّنيا[1].

وأيضًا لَمَّا ذكر تعالى واقعةَ آدَمَ في انكشافِ العَورةِ أنَّه كان يخصِفُ الوَرَقَ عليها؛ أتبَعَه بأن بَيَّنَ أنَّه خَلَقَ اللِّباسَ للخَلقِ؛ ليستُرُوا به عَورَتَهم، ونَبَّه به على المِنَّةِ العظيمةِ على الخَلقِ؛ بِسَبَب أنَّه أقدَرَهم على التستُّرِ[2]، فقال تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧٨).

أي: يا بني آدَمَ، قد خَلَقْنا لكم ورَزَقْناكم ما تَلْبَسون مِنَ الثِّيابِ[١].

﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾.

أي: لباسًا يَستُرُ عَوْراتِكم[٢].

﴿وَرِيشٗا﴾.

أي: وخَلَقْنا لكم ورَزَقْناكم الأثاثَ واللِّباسَ الفاخِرَ الذي تتزَيَّنونَ وتتجَمَّلونَ به[٣].

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٩، ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

وتفسيرُ ﴿أَنزَلۡنَا﴾ بمعنى خلَقْنا، هو اختيارُ ابنِ جريرٍ والشوكانيِّ، وهو مذكورٌ عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، وذلك كقولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ أي: خلَق. يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٢٤).

قال الرازي: (فإنْ قيل: ما معنى إنزالِ اللِّباسِ؟ قلنا: إنَّه تعالى أنزَلَ المطَرَ، وبالمَطَرِ تتكوَّنُ الأشياءُ التي منها يحصُلُ اللِّباسُ، فصار كأنَّه تعالى أنزَلَ اللِّباسَ، وتحقيقُ القَولِ أنَّ الأشياءَ التي تحدُثُ في الأرض لَمَّا كانت مُعَلَّقةً بالأمورِ النَّازلةِ من السَّماءِ؛ صار كأنَّه تعالى أنزَلَها مِنَ السَّماءِ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢١).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (امتَنَّ سبحانه عليهم بما ينتفِعونَ به من الأنعامِ في اللِّباسِ والأثاثِ، وهذا- والله أعلم- معنى إنزالِه؛ فإنَّه يُنزِلُه مِن ظُهورِ الأنعامِ، وهو كسوةُ الأنعامِ مِنَ الأصوافِ والأوبارِ والأشعارِ، وينتفِعُ به بنو آدَمَ مِنَ اللِّباسِ والرِّياشِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٢/ ٢٥٥-٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٠، ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩-٤٠٠).

قال ابنُ جريرٍ: (إنَّما ابتدأ اللهُ الخبَرَ عن إنزالِه اللِّباسَ الذي يواري سَوآتِنا والرِّياشَ؛ توبيخًا للمشركين الذين كانوا يتجرَّدون في حالِ طَوافِهم بالبيتِ، ويأمُرُهم بأخذِ ثِيابِهم والاستتارِ بها في كلِّ حالٍ، مع الإيمانِ به واتِّباعِ طاعَتِه، ويُعلِمُهم أنَّ كُلَّ ذلك خيرٌ مِن كلِّ ما هم عليه مُقيمونَ؛ مِن كُفرِهم باللهِ وتعرِّيهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٢٣)، ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٠٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٥).

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ قراءتان:

١- قراءةُ ﴿وَلِبَاسَ﴾ عطفًا على ﴿رِيشًا﴾، والمعنى: قد أنزَلْنَا عليكم لباسًا يُوارِي سوآتِكم وريشًا، وأنزَلْنا لباسَ التَّقوى[(١)].

٢- قراءة ﴿وَلِبَاسُ﴾ مبتدأٌ و(ذلك) بدلٌ منه، أو عَطفُ بيانٍ له، و(خَيْرٌ) خبرُه، والمعنى: لباسُ التقوى ذلك الذي قد عَلِمْتُموه خيرٌ لكم يا بني آدَمَ مِن لِباسِ الثِّيابِ التي تُوارِي سَوْآتِكم، ومِنَ الرِّياشِ التي أنزَلْناها إليكم؛ فالبَسُوه[(٢)].

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾.

أي: واستشعارُ النُّفوسِ تقوى اللهِ: بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، والحياءِ وخَشيةِ اللهِ، والسَّمتِ الحَسَنِ؛ خيرٌ لصاحِبِه من اللِّباسِ والرِّياشِ الذي يُتجَمَّلُ به[(٣)].

---

(١) قرأ بها المدنيان وابن عامر والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥٦).
ويُنظَر لِمَعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٨٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٨٢-٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٠-٤٠١).
قال ابنُ جريرٍ: (مَنِ اتَّقى اللهَ كان به مؤمنًا، وبما أمَرَه به عاملًا، ومنه خائفًا، وله مُراقِبًا، ومِن أن يُرى عند ما يَكرَهُه مِن عبادِه مُستَحيِيًا، ومَن كان كذلك ظَهَرَت آثارُ الخَيرِ فيه، فحَسُنَ سَمتُه وهَدْيُه، ورُئِيَتْ عليه بهجةُ الإيمانِ ونُورُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٠).
وقال السَّعدي: (﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ مِنَ اللِّباسِ الحِسِّيِّ؛ فإنَّ لِباسَ التَّقوى يستمِرُّ مع العبدِ، ولا يبلى ولا يَبيدُ، وهو جمالُ القَلبِ والرُّوحِ، وأمَّا اللِّباسُ الظَّاهريُّ، فغايَتُه أن يستُرَ العورةَ الظَّاهرةَ، في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ، أو يكونَ جمالًا للإنسانِ، وليس وراءَ ذلك منه نفعٌ، وأيضًا، فبتقديرِ عَدَمِ هذا اللِّباسِ، تنكَشِفُ عَورَتُه الظَّاهرةُ، التي لا يضرُّه كَشفُها، مع الضَّرورةِ، وأمَّا بتقديرِ عَدَمِ لِباسِ التَّقوى، فإنَّها تنكشِفُ عَورَتُه الباطِنةُ، وينالُ الخِزيَ والفضيحةَ).

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

أي: ذلك اللِّباسُ والرِّياشُ مِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على رَحمَتِه بعبادِه؛ خَلَقَه لهم لكي يعرِفوا عَظيمَ النِّعمة فيه، ولِيَتَّعِظوا ويعتَبِروا في صُنعِه، فيُوحِّدوه سبحانه، ويُنِيبوا إلى الحَقِّ، ويترُكوا الباطِلَ[(١)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۞ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٦].

وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾.

أي: يا بني آدَمَ؛ لا تُمكِّنوا الشَّيطانَ مِن خِداعِكم بتزيينِه المعاصِيَ لكم، كما خدَعَ

((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٥).

أباكم آدَمَ وأُمَّكُم حوَّاءَ، فأطاعاه وعَصَيا ربَّهما، فأخرَجَهما بمَكْرِه مِنَ الجنَّةِ[١].

﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾.

أي: نزع الشَّيطانُ عن آدمَ وحَوَّاءَ ما رزَقَهما اللهُ مِنَ اللِّباسِ؛ ليكشف عَورةَ كُلِّ واحدٍ منهما بعد أن كانَتْ مُستَترةً، ويُظهِرَها لأعيُنِهما[٢].

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ يراكم هو وذُرِّيتُه، وأنتم لا تَرونَهم[٣].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّا سلَّطْنا الشَّياطينَ على الكفَّارِ، فيزيدونَهم ضلالًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۞ وَإِنَّهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٢)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٧).
وقال ابن عاشور: (الأبوانِ تثنيةُ الأبِ، والمرادُ بهما الأبُ والأمُّ على التَّغليبِ، وهو تغليبٌ شائِعٌ في الكلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٦).
قال الشنقيطي: (أسنَدَ جلَّ وعلا إبداءَ ما وُورِيَ عنهما مِن سوءاتِهما إلى الشَّيطانِ في قوله: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾، كما أسنَدَ له نزَعَ اللِّباسِ عنهما في قَولِه تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾؛ لأنَّه هو المتسبِّبُ في ذلك بوَسوَسَتِه وتَزيينِه). ((أضواء البيان)) (٤/ ١١٤)، ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٨٤).
وقال ابنُ تيمية: (لَمَّا نَزَعَ عن الأبوين لباسهما، فكذلك قد ينزِعُ عن الذريَّةِ لباسَ التَّقوى ولِباسَ البَدَنِ). ((الاستقامة)) (٢/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٠).

لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

وقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً ﴾.

أي: وإذا فعَلَ الكُفَّارُ ما يُستفحَشُ ويُستقبَحُ مِنَ الأفعالِ؛ مثل طوافِهِم بالبَيتِ عُراةً[(١)].

﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾.

أي: قالوا وَجَدْنا آباءَنا يفعلونَ هذا، فنحنُ نقتدي بهم، واللهُ أمَرَنا به، فنحن نتَّبِعُ أمْرَه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٢٧٦)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).
قال ابن عاشور: (غلبَتِ الفاحِشةُ في الأفعالِ الشَّديدةِ القُبحِ، وهي التي تنفِرُ منها الفِطرةُ السَّليمةُ، أو ينشأُ عنها ضُرٌّ وفسادٌ، بحيث يأباها أهلُ العُقولِ الرَّاجحةِ، ويُنكِرُها أولو الأحلامِ، ويستحيي فاعِلُها مِنَ النَّاسِ، ويتستَّرُ مِن فِعلِها، مثل البِغاءِ والزِّنا والوَأْدِ والسَّرقة، ثم تَنهى عنها الشَّرائِعُ الحقَّةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لِمَن ادَّعى ذلك: إنَّ اللهَ لا يأمُرُ عبادَه بقبائِحِ الأفعالِ، ولا يليقُ ذلك بكَمالِه وحِكمَتِه، كهذا التَّعرِّي الذي تصنَعونَه، وتزعمونَ أنَّ اللهَ سبحانه أمَرَكم به[1].

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: أَتَزعمونَ أنَّ اللهَ أمَرَكم بالفاحشةِ- مثلَ زَعمِكم أنَّه أمَرَكم بالتَّعرِّي في الطَّوافِ- وأنتم لا تَعلمونَ أنَّه أمَرَكم بذلك[2].

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الذين يَزعمونَ أنَّ اللهَ أمَرَهم بالفَحشاءِ: ما أمَرَ رَبِّي بما تَزعُمونَ، بل أمَرَ بالعَدلِ في العِباداتِ بتَوحيدِه، وفي المُعاملاتِ بأداءِ حُقوقِ عِبادِه[3].

﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

قال ابنُ تيميَّةَ: (كان أولياءُ الشَّيطانِ إذا فعلوا هذه الفاحِشةَ- وهي إبداءُ السَّوءاتِ في الطَّوافِ- يحتجُّونَ بشَيئينِ: يقولون: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾، وهذا هو الرُّجوعُ إلى العادةِ، والتَّقليدُ للأسلافِ، ويقولون: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، وهذا قولٌ بغيرِ عِلمٍ). ((الاستقامة)) (٢/ ١٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٨)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٤-٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٨٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

أي: تَوَجَّهوا في صلاتِكم إلى اللهِ وَحدَه، في أيِّ مَسجدٍ كُنتم، واجتَهِدوا في إقامَةِ الصَّلاةِ ظاهِرًا وباطِنًا وَفقَ ما شَرَعه اللهُ تعالى(١).

كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وعن عليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا قام إلى الصَّلاةِ، قال: ((وجَّهْتُ وَجهِيَ لِلَّذي فطَرَ السَّمواتِ والأرضَ حنيفًا، وما أنا مِنَ المُشركينَ، إنَّ صَلاتي ونُسُكي، ومَحْياي ومماتي، لله رَبِّ العالَمينَ، لا شريكَ له، وبذلك أُمِرْتُ، وأنا مِنَ المُسلمينَ))(٢).

وعن البَراء بنِ عازبٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أوصى رجلًا، فقال: ((إذا أرَدْتَ مَضجَعَك فقل: اللهُمَّ أسلَمْتُ نَفْسي إليك، وفوَّضْتُ أمري إليك، ووجَّهْتُ وَجْهي إليك، وألجَأْتُ ظَهري إليك؛ رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجَأَ ولا منجا منك إلَّا إليك، آمنْتُ بكتابِك الذي أنزَلْتَ، وبنبِيِّكَ الذي أرسَلْتَ؛ فإنْ مُتَّ مُتَّ على الفِطرةِ))(٣).

﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾

أي: وادْعُوا اللهَ، واعبُدُوه وَحدَه لا شريكَ له(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٨)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

(٢) رواه مسلم (٧٧١).

(٣) رواه البخاري (٦٣١٣) ومسلم (٢٧١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

أي: كما خَلَقَكم اللهُ أوَّلَ مَرَّةٍ، فجَعَلكم أحياءً بعد أنْ كُنتم عَدَمًا؛ فكذلك تَعودونَ إليه يومَ القِيامةِ، فيبعَثُكم مِن قُبُوركم أحياءً بعد مَوتِكم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((إنَّكم مَحشُورونَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا، ثمَّ قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]))[(٢)].

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

أي: طائفةً منكم وفَّقَها اللهُ تعالى، ويسَّرَ لها أسبابَ الهِدايةِ، وطائفةً وَجَبتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٦، ١٤٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٩٢، ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٣).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٩) ومسلم (٢٨٦٠).

عليها الضَّلالةُ، ولَزِمَتْها بعد أن بَيَّنَ لها الهُدى، فلم تَقبَلْ به، وعَمِلَتْ بأسبابِ الغَوايةِ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۞ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٦-٣٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الفَريقَ الذي ثبتَتْ عليهم الضَّلالةُ إنَّما ضَلُّوا بسبَبِ اتِّخاذِهم الشَّياطينَ أنصارًا وأعوانًا يتولونهم مِن دُونِ اللهِ، فأطاعوهم فيما يخالفُ ما شرعَه، فطابَتْ نُفُوسُهم بوَسْوَسَتِهم، وأْتَمَروا بأَمرِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥-٢٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٨-١٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٥)، ((فتح البيان)) للقنوجي (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٣).

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

أي: ويظنُّ أولئك الضَّالُّونَ أنَّهم على الهُدى[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٥].

وقال سُبحانه: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

الفوائِدُ التربويَّةُ:

١- قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ فيه إيماءٌ إلى عُلُوِّ رُتبةِ لِباسِ التَّقوى، وحُسنِ عاقِبَتِه؛ لكونِه أهمَّ اللِّباسَينِ؛ لأنَّ نَزعَه يكون بكَشفِ العَورةِ الحِسِّيَّةِ والمعنويَّة، فلو تجمَّلَ الإنسانُ بأحسَنِ المَلابِسِ، وهو غيرُ مُتَّقٍ؛ كان كلُّه سَوْءاتٍ، ولو كان مُتَّقيًا وليس عليه إلَّا خُريقةٌ تُواري عَوْرَتَه، كان في غايةِ الجَمالِ والسِّترِ والكَمالِ[٢].

٢- أنعَمَ على عبادِه بزينتَينِ ولِباسَينِ: زينةٌ تُجَمِّلُ ظواهِرَهم، وزينةٌ مِنَ التَّقوى تُجَمِّلُ بواطِنَهم؛ قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٧٦).

٣- في قولِه تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ شَبَّه الفُتُونَ الصَّادِرَ مِنَ الشَّيطانِ للنَّاسِ، بفَتْنِه آدَمَ وزَوجَه؛ إذ أقدَمَهما على الأكلِ مِنَ الشَّجرةِ المنهيِّ عنها، فأخرَجَهما مِن نعيمٍ كانا فيه- تذكيرًا للبَشَرِ بأعظَمِ فِتنةٍ فَتَنَ الشَّيطانُ بها نوعَهم؛ إذ حَرَمَهم مِنَ النَّعيمِ الذي كان يتحَقَّقُ لهم لو بَقِيَ أبواهم في الجنَّةِ وتناسَلا فيها، وفيه أيضًا تذكيرٌ بأنَّ عَداوةَ البَشَرِ للشَّيطانِ مَوروثةٌ، فيكونُ أبعَثَ لهم على الحَذَرِ مِن كَيدِه[١].

٤- عدمُ الإيمانِ هو الموجِبُ لعَقدِ الوِلايةِ بين الإنسانِ والشَّيطانِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[٢].

٥- قولُه: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ فيه الأمرُ بالتوجهِ لله، والاجتهادِ في تكميلِ العباداتِ، خصوصًا الصلاة، وإقامتِها ظاهرًا وباطنًا، وتنقيتِها مِن كلِّ نقصٍ ومفسدٍ[٣].

٦- يُرشِدُنا قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ إلى تجريدِ التَّوحيدِ مِن كلِّ شائبةٍ، والإخلاصِ للهِ في العبادةِ[٤].

٧- في قولِه تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ۞ فَرِيقٗا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ تذكيرٌ بالبعثِ والجَزاءِ على الأعمالِ، ودعوةٌ إلى الإيمانِ به، في إثْرِ بيانِ أصْلِ الدِّينِ، ومَناطِ الأمْرِ فيه، والنَّهيِ الوارِدِ في سياقِ أصلِ تَكوينِ البَشَرِ، واستعدادِهم للإيمانِ والكُفرِ والخَيرِ والشَّرِّ، وما للشَّيطانِ في ذلك مِن إغواءِ الكَافرينَ الذينَ يتَوَلَّونَه، وعدم سُلطانِه على المؤمنينَ الذين يتولَّونَ اللهَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٣٤).

ورسولَه[١].

٨- في قولِه تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ هذا كُلُّه إنذارٌ مِنَ الوُقوعِ في الضَّلالةِ، وتحذيرٌ مِنِ اتِّباعِ الشَّيطانِ، وتَحريضٌ على تَوَخِّي الاهتداءِ الذي هو مِنَ الله تعالى؛ فالفريقُ المُفلِحُ هو الفريقُ الذين هداهم اللهُ تعالى، والفريقُ الخاسِرُ هم الذين حَقَّتْ عليهم الضَّلالةُ، واتَّخذوا الشَّياطينَ أولياءَ مِن دُونِ اللهِ[٢].

٩- الهِدايةُ تكونُ بِفَضلِ اللهِ تعالى، ومَنِّه على العَبدِ، والضَّلالةُ تكون بخِذْلانِه للعبدِ، إذا تولَّى- بجَهلِه وظُلمِه- الشَّيطانَ، وتسبَّبَ لنَفسِه بالضَّلالِ، وأنَّ مَن حَسِبَ أنَّه مهتدٍ وهو ضالٌّ، فإنَّه لا عُذرَ له؛ لأنَّه متمَكِّنٌ مِنَ الهدى، وإنمَّا أتاه حُسبانُه مِن ظُلمِه بتَركِ الطَّريقِ المُوصِلِ إلى الهُدى، يُرشِدُنا إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[٣].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ خاطَبَ اللهُ تعالى بني آدَمَ في هذه الآيةِ وأمثالِها بالنِّداءِ الذي يُخاطَبُ به البعيدُ؛ لِمَا كان عليه عَرَبُهم وعَجَمُهم عند نُزُولِ هذه السُّورةِ في مَكَّةَ مِنَ البُعدِ عَنِ الفِطرةِ السَّليمةِ، والشِّرعةِ القَويمةِ؛ تنبيهًا للأذهانِ بما يقرَعُ الآذانَ، فامتَنَّ عليهم- بعد أنْ أنبَأَهم بما كان مِن عُرْيِ سَلَفِهم الأوَّلِ- بما أنعَمَ به عليهم مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٦).

اللِّباسِ على اختلافِ دَرَجاتِه وأنواعِه، مِنَ الأدنى الذي يستُرُ السَّوءةَ عن أعيُنِ النَّاسِ، إلى أنواعِ الحُلَلِ التي تُشبِهُ رِيشَ الطَّيرِ في وِقايةِ البَدَنِ مِنَ الحَرِّ والبَردِ بِسَترِ جَميعِ البَدَنِ(١).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗا﴾ امتنانُ اللهِ تعالى على بَني آدَمَ بلِباسِ الزِّينةِ يدُلُّ على استحبابِها(٢)، وأنَّ الزِّينةَ غَرَضٌ صَحيحٌ(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗا﴾ فيه امتنانُ الله على عبادِه بما يسَّرَ لهم مِنَ اللِّباسِ الضروريِّ، واللباسِ الذي المقصودُ منه الجمالُ، وبيانُ أنَّ هذا ليس مقصودًا بالذات، وإنَّما أنزله الله ليكونَ معونةً لهم على عبادتِه وطاعتِه، ولهذا قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ من اللباسِ الحسيِّ، فإنَّ لباسَ التقوَى يستمرُّ مع العبدِ، ولا يبلَى ولا يبيدُ، وهو جمالُ القلبِ والرُّوحِ(٤).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ دلالةٌ على جَوازِ إطلاقِ الثِّيابِ على العَمَلِ، ومِنه قولُه تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر: ٤] على أحدِ الأقوالِ فيها(٥).

٥- اللِّباسُ مِن أصلِ الفِطرةِ الإنسانيَّةِ، وهو ممَّا كَرَّمَ اللهُ به الإنسانَ منذُ ظُهُورِه في الأرضِ، والعُرْيُ والتكشُّفُ عَمَلٌ مِن أعمالِ الفِتنةِ الشَّيطانيَّةِ؛ قال

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣١٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٣٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).
(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٨٣).

الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾[١].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾ استُدِلَّ به على وُجوبِ سَترِ العَورةِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الشَّيطانَ كما نَزَعَ عن الأبَوَينِ لباسَهما بمعصيةِ اللهِ وطاعَةِ الشَّيطانِ؛ فكذلك قد يَنزِعُ عن الذُّريَّةِ لِباسَ التَّقوى، ولباسَ البَدَنِ؛ لِيُرِيَها سَوْآتِها[٣].

٨- استُدلَّ بقَولِه تعالى: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم ﴾ على أنَّ الجدَّ يُسمَّى أبًا[٤].

٩- لَمَّا سُلِّطَ إبليسُ وجُنودُه على بني آدَمَ هذا التَّسليطَ العظيمَ الذي لا يكادُ يَسلَمُ معه أحدٌ؛ قال الله تعالى- مُخَفِّفًا لأمرِهم، مُوهِيًا في الحقيقةِ لكَيدِهم- ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾، أي: وأمَّا أولياؤُنا الذين مَنَعناهم بقُوَّتِنا منه، أو فَتنَّاهم يسيرًا بهم، ثمَّ خَلَّصْناهم بلُطْفِنا منهم؛ فليسوا لهم بأولياءَ[٥].

١٠- في قولِ الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ * قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ دليلٌ على أنَّ الأوامِرَ والنَّواهيَ الإلهيَّةَ تابعةٌ للحِكمةِ والمصلحةِ؛ حيث ذكر تعالى أنَّه لا يُتصَوَّر أن يأمُرَ بما تستفحِشُه وتُنكِرُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٦٧).
(٣) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١٧٠).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ١٩٩).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٨٢).

العُقولُ، وأنَّه لا يأمُرُ إلَّا بالعدلِ والإخلاصِ[١].

١١- حُصِرَت جميعُ الواجباتِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، فالواجِبُ كُلُّه محصورٌ في حقِّ الله وحَقِّ عِبادِه؛ وحَقُّ اللهِ على عِبادِه أن يعبُدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا، وحقوقُ عبادِه العَدلُ[٢].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الكافِرَ- الذي يظُنُّ أنَّه في دينِه على الحقِّ- والجاحِدَ المعانِدَ؛ سواءٌ[٣].

١٣- قال تعالى: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ هذا مِن أبيَنِ الدَّلالةِ على خطأِ قَولِ مَن زَعَمَ أنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ أحدًا على معصيةٍ رَكِبَها، أو ضلالةٍ اعتَقَدها؛ إلَّا أن يأتِيَها بعد عِلمٍ منه بصوابِ وَجهِها فيَركَبها عنادًا منه لرَبِّه فيها؛ لأنَّ ذلك لو كان كذلك، لم يكُنْ بَينَ فَريقِ الضَّلالةِ- الذي ضَلَّ وهو يحسَبُ أنَّه [مهتدٍ]- وفريقِ الهُدى؛ فَرْقٌ، وقد فَرَّقَ اللهُ بين أسمائِهما وأحكامِهما في هذه الآيةِ[٤].

١٤- قولُ الله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ضمَّن (تقولونَ) معنَى (تكذِبون) أو معنى (تتقوَّلونَ)، فلذلك عُدِّي بـ(على)، وكان حقُّه أن يعدَّى بـ(عن) لو كان قولًا صحيحَ النِّسبةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٦).
(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ٤١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٥).

١٥- في قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إذا كان التوبيخُ واردًا على أن يَقولوا على اللهِ ما لا يَعلمونَ؛ كان القولُ على اللهِ بما يتحقَّقُ عدَمُ ورُودِه مِنَ اللهِ أحرَى[(١)].

١٦- قال الله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، عَطْفُ جُملةِ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ على جملة: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، واعتبارُهما سواءً في الإخبارِ عَنِ الفَريقِ الذين حَقَّتْ عليهم الضَّلالةُ؛ لِقَصدِ الدَّلالةِ على أنَّ ضَلالَهم حاصِلٌ في كُلِّ واحدٍ مِنَ الخَبَرينِ؛ فوِلايةُ الشَّياطينِ ضَلالةٌ، وحِسْبانُهم ضَلالَهم هُدًى، ضلالةٌ أيضًا، سواءٌ كان ذلك كُلُّه عن خطأٍ أو عَن عِنادٍ؛ إذ لا عُذرَ للضَّالِّ في ضَلالِه بالخَطَأِ؛ لأنَّ اللهَ نَصَبَ الأدلَّةَ على الحَقِّ، وعلى التَّمييزِ بَينَ الحَقِّ والباطِلِ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ فيه تكريرُ النِّداءِ؛ للإيذانِ بكَمالِ الاعتناءِ بمَضمونِ ما صُدِّرَ به، وقد ابتُدِئَ الخِطابُ بالنِّداءِ؛ ليقعَ إقبالُهم على ما بَعدَه بهِمَمِ قُلوبِهم[(٣)].

- وكان لاختيارِ استحضارِهم عند الخِطابِ بعنوانِ (بني آدم) مرَّتينِ وَقْعٌ عَجيبٌ بعدَ الفَراغِ مِن ذِكرِ قِصَّةِ خَلقِ آدَمَ، وما لَقِيَه مِن وَسوَسةِ الشَّيطان؛ وذلك أنَّ شأنَ الذريَّةِ أن تَثْأَرَ لآبائِها، وتُعادِيَ عَدُوَّهم، وتحترِسَ مِنَ الوُقوعِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٧٣).

في شَرَكِه[١].

- وفيه: تعريضٌ بالمُشركينَ؛ إذ جَعلوا مِن قُرُباتِهم نَزعَ لِباسِهم بأن يحُجُّوا عُراةً[٢].

٢- قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ أُطلِقَ على تقْوى الله وخَشيَتِه اسمُ اللِّباسِ؛ تَشبيهًا لمُلازَمةِ تقوى اللهِ بملازَمةِ اللَّابِسِ لِباسَه[٣].

- واسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ -على القَولِ بأنَّه مُبتدأٌ ثانٍ- استُعمِلَ مكانَ الضَّميرِ في الرَّبطِ، وجُعِلَتْ جملةُ ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ خبرًا لِقَولِه: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾؛ فدلَّ على تأكيدِ مَضمُونِها بتكرارِ الإسنادِ[٤]، وأيضًا في الفَصْلِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ المُقترِن بأداةِ البُعدِ؛ إيماءٌ إلى عُلُوِّ رُتبةِ لِباسِ التَّقوى، وحُسنِ عاقِبَتِه[٥].

٣- قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيه التفاتٌ مِنَ الخطابِ إلى الغَيبةِ؛ إذ كان مُقتضى الظَّاهِر أن يُقال: (لعلَّكم تَذكَّرون)، وفي هذا الالتفاتِ تَعريضٌ بمَن لم يتذكَّرْ مِن بني آدم، فكأنَّه غائِبٌ عن حَضرةِ الخِطابِ[٦].

٤- قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ﴾ نُهُوا عن أن يفتِنَهم الشَّيطانُ، أي: لا تُمكِّنوا الشَّيطانَ من أنْ يَفتِنكم، والمعنى النَّهيُ عن طاعتِه، وهذا مِن مبالغةِ النَّهيِ؛

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٧٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٢١).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٦).

فالمعنى: لا تُطيعوا الشَّيطانَ في فَتْنِه فيفتِنكم، ومثلُ هذا كنايةٌ عن النَّهيِ عن فِعلٍ، والنَّهيِ عن التعرُّضِ لأسبابِه[١].

- وقوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ استئنافٌ لتَعليلِ النَّهيِ، وتأكيدِ التَّحذيرِ منه[٢]، والتَّعبيرُ عمَّا مضَى بالفِعلِ المُضارعِ في قوله: ﴿يَنزِعُ﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ العَجيبةِ مِن تمكُّنِه مِن أنْ يترُكَهما عُرْيانَينِ، ونزْعُ اللِّباسِ تَمثيلٌ لحالِ التَّسَبُّب في ظُهورِ السَّوءةِ[٣].

٥- **قولُه**: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ فيه تأكيدُ الخَبَرِ بحَرَفِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾ لتنزيلِ المُخاطَبينَ في إعراضِهم عن الحذَرِ مِنَ الشَّيطانِ وفِتنَتِه منزلةَ مَن يتردَّدونَ في أنَّ الشَّيطانَ يراهم، وفي أنَّهم لا يَرونَه[٤].

- وجملة: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ واقعةٌ موقِعَ التَّعليلِ للنَّهيِ عن الافتتانِ بفِتنةِ الشَّيطانِ، والتحذيرِ من كيدِه؛ لأنَّ شأنَ الحَذِرِ أن يَرصُدَ الشَّيءَ المَخُوفَ بنَظَرِه؛ ليحترِسَ منه إذا رأى بوادِرَه، فأخبرَ اللهُ النَّاسَ بأنَّ الشَّياطينَ ترى البَشرَ، وأنَّ البَشَرَ لا يرونَها، إظهارًا للتَّفاوُتِ بين جانِبِ كَيدِهم، وجانِبِ حَذَرِ النَّاسِ؛ فإنَّ جانِبَ كيدِهم قَوِيٌّ متمَكِّنٌ، وجانِبَ حَذَرِ النَّاسِ منهم ضعيفٌ؛ لأنَّهم يأتون المَكيدَ مِن حيثُ لا يدري[٥].

٦- قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ قُصِدَ منه الانتقالُ إلى أحوالِ المُشركينَ في ائتِمارِهم بأمرِ الشَّيطانِ؛

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٩).

تَحذيرًا للمؤمنينَ مِن الانتظامِ في سِلكِهم، وتنفيرًا مِن أحوالِهم[١]، وهي تعليلٌ آخَرُ للنَّهيِ، وتأكيدٌ للتَّحذيرِ إثرَ تَحذيرٍ[٢].

- وفيه: تأكيدُ الخَبَر بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بالخَبَر بالنِّسبة لِمَن يَسمَعُه مِنَ المؤمنينَ[٣].

٧- قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فيه إيجازٌ؛ إذ المفهومُ أنَّهم إذا فَعَلوا فاحشةً فأنكَرْتَ عليهم أو نُهُوا عنها؛ قالوا: وَجَدْنا عليها آباءَنا...[٤].

- وجاء الشَّرطُ بحَرْفِ ﴿إِذَا﴾ الذي مِن شَأنِه إفادةُ اليَقينِ بوُقوعِ الشَّرطِ؛ ليُشِيرَ إلى أنَّ هذا حاصِلٌ منهم لا محالةَ[٥].

٨- قولُه: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الاستفهامُ في قولِه: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ إنكاريٌّ، وفيه تَوبيخٌ لهم على كَذِبِهم، وتَوقيفٌ على ما لا عِلْمَ لهم به، ولا رِوايةَ لهم فيه، بل هي دَعْوَى واختلاقٌ[٦].

٩- قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾

- فُصِلَتْ جُملةُ ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ عن التي قبلَها، ولم يُعطَفِ القَولُ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٨٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٨٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٣).

على القَولِ، ولا المَقولُ على المَقولِ؛ لأنَّ في إعادةِ فِعلِ القَولِ، وفي تَركِ عَطفِه على نظيرِه؛ لَفْتًا للأذهانِ إليه[١].

- وقولُه: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ إقامةُ الوُجوهِ تمثيلٌ لِكَمالِ الإقبالِ على عِبادةِ اللهِ تعالى في مواضِعِ عِبادَتِه، بحالِ المُتَهيِّئِ لمُشاهَدةِ أمرٍ مُهِمٍّ حين يوجِّه وَجهَه إلى صَوْبِه، لا يلتفِتُ يَمنةً ولا يَسرةً[٢].

- وقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ﴿كَمَا﴾ مُركَّبَةٌ من الكاف و(ما)؛ فالكافُ لِتَشبيهِ عَودِ خَلْقِهم ببَدئِه، و(ما) مصدريةٌ، والتقديرُ: تَعودونَ عَودًا جديدًا كبَدْئِه إيَّاكم، وقَدَّمَ المُتعلِّقَ الدَّالَّ على التَّشبيهِ، على فِعلِه ﴿تَعُودُونَ﴾؛ للاهتمامِ به[٣].

١٠- قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾

- فيه تَقديمُ ﴿فَرِيقًا﴾ الأوَّلِ والثَّاني على عامِلَيهما؛ للاهتمامِ بالتَّفصيلِ[٤].

- قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، فيه مناسبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، بينما قال في سُورةِ النَّحل: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]؛ وذلك لوجَهينِ: لفظي ومعنوي؛ أمَّا اللَّفظيُّ: فهو أنَّ الحروفَ الحواجزَ بينَ الفِعلِ والفاعِلِ في قوله: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٠).

أكثرُ منها في قولِه: ﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِ﴾ والحذفُ مع كثرةِ الحواجزِ أحسنُ. وأمَّا المعنويُّ: فإنَّ (مَن) في قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ واقعةٌ على الأمَّةِ والجماعةِ، وهي مؤنَّثةٌ لفظًا؛ فإنَّه قال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ ثمَّ قال: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، أي: مِن تِلك الأُممِ أممٌ حقَّتْ عليهم الضلالةُ، ولو قال بدَلَ ذلك: (ضلَّت) لتعيَّنتِ التاءُ، ومعنى الكلامين واحد، وإذا كان معنى الكلامينِ واحدًا كان إثباتُ التاءِ أحسنَ مِن ترْكِها؛ لأنَّها ثابتةٌ فيما هو في معنى الكلامِ الآخَرِ. وأمَّا: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ فالفريقُ مُذكَّر، ولو قال: (فريقًا ضلُّوا) لكان بغيرِ تاءٍ، وقوله: ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ في معناه؛ فجاءَ بغيرِ تاءٍ، وهذا أسلوبٌ لطيفٌ من أساليبِ العربيَّةِ؛ فإنَّ العرَبَ تدَعُ حُكمَ اللَّفظِ الواجبِ له في قِياسِ لُغتها إذا كان في مَعنَى كلمةٍ لا يجبُ لها ذلك الحُكمُ؛ كقولهم: (هو أحسنُ الفتيانِ وأجملُه)؛ لأنَّه في معنى هو أحسنُ فتًى وأجملهُ، وأحسنُ مِن هذا أنْ يُقال: إنَّهم أرادوا (أحسن شيءٍ وأجمله)، فجَعَلوا مكانَ (شيء) قولهم: (الفتيان)؛ تنبيهًا على أنَّه أحسنُ شيءٍ من هذا الجِنس، فلو اقتَصروا على ذِكرِ شيءٍ، لم يَدُلَّ على الجِنس المفضَّلِ عليه؛ فإذا حَسُنَ الحملُ على المعنَى فيما كان القياسُ لا يُجوِّزه؛ فكيفَ الظنُّ فيما يُجوِّزُه القياسُ والاستِعمالُ[1]؟!

- وقوله: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ استئنافٌ مُرادٌ به التَّعليلُ لجُملة ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[2].

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (١/ ١٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩١).

الآيتان (٣١-٣٢)

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُفَصِّلُ﴾: أي: نُبيِّنُ ونميِّزُ، والتفصيلُ التبيينُ، وقيل: نَأْتِي بِهَا شَيْئًا بعد شَيءٍ، وَلَا نُنَزِّلُها جُمْلَةً مُتَّصِلَةً، وأصلُ (فصل): يدلُّ على تَمييزِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، وإبانَتِه عنه[1].

المَعْنَى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى بني آدَمَ أن يأخُذُوا زينَتَهم مِنَ اللِّباسِ الحَسَنِ، منظرًا ومخبرًا، ساترًا للعورة عند جَميعِ المساجِدِ، وفي جميعِ الصَّلَواتِ، وأن يأكُلُوا ويَشْرَبوا مِمَّا أحَلَّه لهم، ولا يُسرِفوا بالإفراطِ في الأكلِ والشُّربِ فوق ما يَكفِيهم، أو بتجاوُزِ حُدودِ اللهِ بتحريمِ ما أحَلَّه، أو بتناوُلِ ما حَرَّمَه مِنَ المأكولاتِ والمَشروباتِ؛ فاللهُ تعالى لا يُحِبُّ المُسرفينَ.

ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه أن يقولَ لجَهَلةِ العَرَب الذين يتعَرَّونَ عند طَوافِهم بالبَيتِ، ويُحَرِّمونَ على أنفُسِهم ما أحلَّه اللهُ لهم؛ أمَرَه أن يقولَ لهم، مُنكِرًا عليهم: مَنِ الذي حَرَّمَ زينةَ اللهِ التي أخرَجَها لعبادِه، كاللِّباسِ الذي خَلَقَه لهم، ومَنِ الذي حَرَّمَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ، وأَمَرَه أن يقولَ لهم: إنَّ الزِّينةَ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ هي للَّذينِ آمنوا في الدُّنيا، ويُشارِكُهم فيها الكُفَّارُ، لكنَّها خالصةٌ لهم يومَ القيامةِ، لا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ١٩٤).

يشارِكُهم فيها أحدٌ مِنَ الكَفَرة، كذلك يُفَصِّلُ اللهُ الآياتِ لقومٍ يَعلمونَ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالقِسطِ في الآيةِ الأُولى، وكان مِن جُملةِ القِسْطِ أمرُ اللِّباسِ، وأمرُ المأكولِ والمَشروبِ؛ لا جَرَمَ أتبَعَه بذِكْرِهما، وأيضًا لَمَّا أمَرَ بإقامةِ الصَّلاةِ في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ وكان سَترُ العَورةِ شَرطًا لِصِحَّةِ الصَّلاةِ؛ لا جَرَمَ أتبَعَه بذِكرِ اللِّباسِ[1]، فقال تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

سببُ النُّزولِ:

عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كانَتِ المرأةُ تَطوفُ بالبَيتِ وهي عُريانةٌ، فتقولُ: مَنْ يُعيرُني تِطوافًا[2]؟ تجعلُه على فَرجِها، وتقول:

اليومَ يَبدُو بعضُه أو كُلُّهْ فما بدا مِنْه فلا أُحِلُّهْ

فنزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢٨).

(٢) التِّطْوافُ: ثَوبٌ تَلبَسُه المرأةُ تَطوفُ به. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٦٢)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٤/ ١٠٧).

(٣) رواه مسلم (٣٠٢٨).

قال ابنُ رجب الحنبلي: (نزَلَتْ بسبَبِ طَوافِ المُشركينَ بالبَيتِ عُراةً، وقد صحَّ هذا عنِ ابنِ عَبَّاسٍ، وأجمع عليه المُفَسِّرونَ من السَّلَفِ بعده). ((فتح الباري)) (٢/ ٣٣٤).

وروى البخاري (١٦٦٥) ومسلم (١٢١٩) عن عُروةَ بنِ الزُّبير قال: (كان النَّاسُ يطوفون في

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

أي: يا بني آدَمَ خُذوا زينَتَكم مِنَ اللِّباسِ الحَسَن، واستُروا عَوْراتِكم به عند جميعِ المساجِدِ، في الصَّلواتِ كُلِّها؛ فَرضِها ونَفْلِها، وفي الطَّوافِ والاعتكافِ، وغيرِ ذلك[(١)].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ أبا بكرٍ الصِّديقَ رَضِيَ الله عنه، بَعَثَه في الحَجَّةِ التي أمَّرَه عليها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قبل حَجَّةِ الوَداعِ يومَ النَّحرِ، في رَهْطٍ يُؤَذِّنُ في النَّاسِ: ((ألَا لا يحُجُّ بعد العامِ مُشرِكٌ، ولا يطوفُ بالبَيتِ عُريانٌ))[(٢)].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يُصَلِّي أحدُكم في الثَّوبِ الواحِدِ، ليس على عاتِقَيهِ مِنه شَيءٌ))[(٣)].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ. قال رجل: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ

الجاهليَّة عُراةً إلَّا الحُمْسَ، والحُمْسُ: قُريشٌ وما وَلَدَت، وكانت الحُمْسُ يحتسبونَ على النَّاسِ؛ يعطي الرَّجُلُ الرَّجُلَ الثِّيابَ يطوفُ فيها، وتُعطي المرأةُ المرأةَ الثِّيابَ تَطوفُ فيها، فمَن لم يُعطِه الحُمْسُ طاف بالبَيتِ عُريانًا). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٦/ ٢٢٢).

قال ابنُ كثيرٍ: (كانت العربُ- ما عدا قُرَيْشًا- لا يَطُوفون بالبيتِ في ثِيابِهم الَّتي لَبِسوها، يَتَأَوَّلون في ذلك أَنَّهم لا يَطُوفون في ثيابٍ عَصَوُا اللَّه فيها، وكانت قُرَيْشٌ- وهم الحُمْس- يَطُوفون في ثيابِهم، ومَن أعارَه أَحْمَسِيٌّ ثوبًا طَاف فيه، ومن معه ثوبٌ جَديدٌ طاف فيه، ثُمَّ يُلقيه فلا يتملَّكُه أحدٌ، فمن لم يَجِدْ ثوبًا جديدًا، ولا أعارَه أَحْمَسِيٌّ ثَوْبًا، طافَ عريانًا). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٢)، ويُنظر: ((أخبار مكة)) للأزرقي (١/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٩)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٤).

(٢) رواه البخاري (١٦٢٢) ومسلم (١٣٤٧).

(٣) رواه البخاري (٣٥٩) ومسلم (٥١٦).

أن يكونَ ثَوبُه حَسَنًا، ونَعْلُه حَسَنةً، قال: إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ؛ الكِبرُ بَطَرُ الحَقِّ[(١)]، وغَمْطُ النَّاسِ[(٢)]))[(٣)].

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾.

أي: وكُلُوا واشرَبُوا مِمَّا أحلَلْتُه لكم مِنَ الطَّيباتِ، ولا تُفْرِطُوا في الأكلِ والشُّربِ بالزِّيادةِ على القَدرِ الكافي، ولا تتجاوَزوا حُدودَ اللهِ؛ فتُحَرِّموا ما أحَلَّ اللهُ مِنَ الأطعمةِ والأشرِبَةِ، أو تتناوَلوا ما حَرَّمَه منها[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤١-١٤٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨].

---

(١) بَطَرُ الحَقِّ: أي: دَفعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتجبُّرًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٢) غَمْطُ النَّاسِ: أي: احتقارُهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٣) رواه مسلم (٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٦٥-١٦٧).

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المجاوِزينَ أمْرَه، الغالينَ فيما أحلَّ أو حرَّم، المُستكثرينَ ممَّا لا ينبغي الاستكثارُ منه؛ مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ وغيرِ ذلك[١].

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِنَ المعلومِ أنَّ ما كانوا ألِفُوه واتَّخذوه دِينًا يستعظمونَ تَرْكَه؛ لأنَّ الشَّيطانَ يُوسْوِسُ لهم بأنَّه توسُّعٌ في الدُّنيا، والتَّوَسُّعُ فيها ممَّا ينبغي الزُّهدُ فيه، كما دعا إليه كثيرٌ مِنَ الآياتِ- أكَّدَ سُبحانَه الإذنَ في ذلك بالإنكارِ على مَن حَرَّمَه، مُعْلِمًا أنَّ الزُّهدَ الممدوحَ ما كان مع صِحَّةِ الاعتقادِ في الحلالِ والحرامِ، وأمَّا ما كان مع تبديلِ شَيءٍ مِن الدِّينِ، بتحليلِ حرامٍ، أو عَكْسِه؛ فهو مذمومٌ[٢].

وأيضًا لَمَّا حَرَّمَتِ العَرَبُ في جاهِلِيَّتِها زينةَ اللِّباسَ في الطَّوافِ تعبُّدًا وقُربةً، وحَرَّمَ بعضُهم أكْلَ بعضِ الطَّيِّباتِ مِنَ الأَدْهانِ وغَيرِها في حال الإحرامِ بالحَجِّ كذلك، وحَرَّموا مِنَ الحَرْثِ والأنعامِ ما بيَّنه تعالى في سورة الأنعام. وحَرَّمَ غَيرُهم مِنَ الوَثنِيِّينَ وأهلِ الكِتابِ كثيرًا مِنَ الطَّيِّباتِ والزِّينةِ كذلك- جاء دينُ الفِطرةِ الجامِعُ بين مصالِحِ البَشَرِ في معاشِهِم ومَعَادِهم، المُطَهِّرُ المُرَبِّي لأرواحِهم وأجسادهم، يُنكِرُ هذا التحَكُّمَ والظُّلمَ للنَّفْسِ[٣]، فقال تعالى:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٨٨-٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٤٥).

أي: قُلْ -يا نبيَّ اللهِ- لجَهَلةِ العَرَبِ الذين يتعَرَّونَ عند طَوافِهم بالبَيتِ، ويُحرِّمونَ على أنفُسِهم -بآرائِهم الفاسِدَةِ- ما أحلَلْتُ لهم: مَنِ الَّذي حرَّمَ عليكم زينةَ اللهِ التي أبرَزَها مِنَ العَدَمِ إلى الوُجودِ، ويسَّرَ أسبابَ تَناوُلِها، كالِّلباسِ الذي خَلَقَه اللهُ لعِبادِه؟ ومَنْ حرَّمَ الطَّيِّباتِ مِن كُلِّ ما يُستلَذُّ ويُشتَهى مِن أنواعِ المأكولاتِ والمَشروباتِ وغيرِ ذلك، مِمَّا أحَلَّه اللهُ تعالى لعباده[1]؟!

عن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ نَفَرًا مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، سألوا أزواجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن عَمَلِه في السِّرِّ؟ فقال بعضُهم: لا أتزوَّجُ النِّساءَ، وقال بعضُهم: لا آكُلُ اللَّحمَ، وقال بعضُهم: لا أنامُ على فِراشٍ، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، فقال: ما بالُ أقوامٍ قالوا كذا وكذا؟ لكِنِّي أُصَلِّي وأنامُ، وأصومُ وأُفطِرُ، وأتَزَوَّجُ النِّساءَ؛ فمَن رَغِبَ عن سُنَّتِي فليس مِنِّي))[2].

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أي: قُل- يا نَبِيَّ اللهِ- لهؤلاءِ المُشركينَ الذين يُحَرِّمونَ ما أحَلَّ اللهُ عزَّ وجلَّ: إنَّ الزِّينةَ والطَّيباتِ مِنَ الرِّزقِ، قد خَلَقَها اللهُ في الدُّنيا للَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، ويُشارِكُهم فيها مَن كَفَرَ باللهِ ورَسولِه، ولكنَّها خالصةٌ للمُؤمنينَ في الآخِرَةِ، لا يشارِكُهم فيها أحَدٌ مِنَ الكُفَّارِ يومَئذٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٥٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٦٨، ١٦٩).
وقال الرازي: (يدخُلُ تحت الزِّينةِ جميعُ أنواعِ التَّزيينِ، ويدخُلُ تحتَها تنظيفُ البَدَنِ مِن جميعِ الوُجوه، ويدخُلُ تحتَها المركوبُ، ويدخُلُ تحتها أيضًا أنواعُ الحُليِّ؛ لأنَّ كُلَّ ذلك زينةٌ، ولولا النصُّ الواردُ في تحريمِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والإبريسَمِ على الرِّجال؛ لكان ذلك داخلًا تحت هذا العمومِ، ويدخُلُ تحت الطَّيباتِ مِنَ الرِّزقِ كلُّ ما يُستلَذُّ ويُشتَهى من أنواعِ المأكولاتِ والمَشْروبات، ويدخل أيضًا تحتَه التمتُّعُ بالنِّساءِ وبالطِّيبِ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠).

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عاشور))

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

أي: كهذا التَّفصيلِ الواضِحِ الذي فصَّلْنا لكم به الحلالَ والحَرامَ، وبَيَّنَّا لكم به حُرمةَ كَشْفِ العَوْراتِ، ولُزُومَ سَتْرِها، وإباحةَ الزِّينةِ والطَّيِّبات مِنَ الرِّزقِ؛ نُوَضِّحُ دائمًا في هذا القرآنِ جَميعَ ما يَحتاجُ إلى بيانٍ، وذلك للَّذين يفهمونَ عَنِ اللهِ آياتِه، وينتفعونَ بها [(١)].

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- أمَرَ اللهُ بقَدرٍ زائدٍ على سَترِ العَورةِ في الصَّلاةِ، وهو أخذُ الزِّينةِ؛ فقال تعالى: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فعَلَّقَ الأمرَ بأخذِ الزِّينةِ، لا بِسَترِ العَورةِ؛ إيذانًا بأنَّ العَبدَ ينبغي له أن يلبَسَ أزيَنَ ثيابِه، وأجمَلَها في الصَّلاةِ، وكان لبَعضِ السَّلَفِ حُلَّةٌ بمبلغٍ عظيمٍ مِنَ المالِ، وكان يلبَسُها وقتَ الصَّلاةِ، ويقولُ: (ربِّي أحَقُّ مَن تجمَّلْتُ له في صلاتِي). ومعلومٌ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يُحِبُّ أن يرى أثَرَ نِعمَتِه على عَبدِه، لا سيَّما إذا وقَفَ بين يَدَيه، فأحسَنُ ما وَقَفَ بين يديه

(٨-ب/ ٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٦٩ - ١٧١).

وقال ابن عاشور: (المعنى: ما هي بحرام، ولكنَّها مباحةٌ للَّذين آمنوا، وإنَّما حَرَمَ المشركون أنفُسَهم من أصنافٍ منها في الحياةِ الدُّنيا كُلِّها، مثل البَحِيرة والسَّائِبة والوَصِيلة والحامِي، وما في بُطونها، وحَرَم بعضُ المشركين أنفُسَهم من أشياءَ في أوقاتٍ مِنَ الحياة الدُّنيا، ممَّا حَرَّموه على أنفُسِهم مِنَ اللِّباسِ في الطَّوافِ، وفي مِنًى، ومِن أكْلِ اللُّحومِ والوَدَك والسَّمْن واللَّبَن، فكان الفَوزُ للمؤمنينَ؛ إذ اتَّبَعوا أمرَ اللهِ بتحليلِ ذلك كُلِّه في جميعِ أوقاتِ الحياةِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧٢).

بملابِسِه ونِعمَتِه التي ألبَسَه إيَّاها ظاهرًا وباطنًا[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ فيه النهيُ عن الإسرافِ؛ فإنَّ السَّرَفَ يُبغِضُه الله، ويَضُرُّ بَدنَ الإنسانِ ومَعيشَتَه[٢].

٣- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ إرشادٌ عالٍ، فيه صَلاحٌ للبَشَرِ في دِينِهم ومَعاشِهم ومَعادِهم، لا يَستغنُونَ عنه في وَقتٍ مِنَ الأوقاتِ، ولا عَصْرٍ مِنَ الأعصارِ، وكلُّ ما بَلَغُوه مِن سَعَةِ العِلمِ في الطِّبِّ وغَيرِه، لم يُغْنِهم عنه، بل هو يُغني المُهتديَ به في أمْرِه ونَهْيِه عَن مُعظَمِ وصايا الطِّبِّ لِحِفظِ الصِّحَّةِ[٣]، قال عليُّ بنُ الحُسَينِ بنِ واقِدٍ: (جَمَعَ اللهُ الطِّبَّ في نِصفِ آيةٍ، فقال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾)[٤].

٤- التَّوسيعُ مِنَ الله لعبادِه بالطَّيِّباتِ؛ جَعَلَه لهم ليَسْتعينوا به على عِبادَتِه، فلم يُبِحْه إلَّا لعبادِه المؤمنينَ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: لا تَبِعَةَ عليهم فيها، ومفهومُ الآيةِ أنَّ مَن لم يؤمِنْ بالله، بل استعانَ بها على مَعاصِيه، فإنَّها غيرُ خالصةٍ له، ولا مُباحةٍ، بل يُعاقَبُ عليها وعلى التنعُّمِ بها، ويُسألُ عنِ النَّعيمِ يومَ القيامةِ[٥].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ جمعَتْ هذه الآيةُ أُصُولَ أحكامِ الشَّريعةِ كُلِّها، فجَمَعتِ

---

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٣٢٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٧).

الأمرَ والنَّهيَ، والإباحةَ والخَبَر[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ لهذه الآيةِ وما ورَدَ في معناها مِنَ السُّنَّة، يُستحَبُّ التجمُّلُ عند الصَّلاةِ- ولا سيَّما يومُ الجُمُعة، ويومُ العِيدِ- والطِّيْبُ؛ لأنَّه مِنَ الزِّينةِ، والسِّواكُ؛ لأنَّه مِن تمامِ ذلك[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ الأمرُ بسَترِ العَوراتِ عندَ المساجِدِ، فدخلَ في ذلك الطَّوافُ، والصَّلاةُ، والاعتكافُ، وغيرُ ذلك[٣].

٤- دلَّ قولُه تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ على أنَّ الصَّلاةَ في الثَّوْبِ الحَسَنِ غَيرُ مَكروهةٍ، إلَّا أنْ يُخشَى منه الالْتِهاءُ عن الصَّلاةِ، أو حُدوثُ الكِبْرِ[٤].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ مُطلَقٌ يتناوَلُ الأوقاتَ والأحوالَ، ويتناوَلُ جميعَ المطعوماتِ والمَشروباتِ؛ دلَّ ذلك على أنَّ الأصلَ في الملابِسِ وأنواعِ التَّجَمُّلات والمطاعِمِ؛ الإباحةُ، إلَّا ما ورَدَ النَّصُّ بخِلافِه[٥].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ فيه ردٌّ على مَن يتورَّعُ عن أكلِ المُستَلَذَّاتِ، ولُبسِ المَلابِسِ الرَّفيعةِ؛ فإنَّ الاستفهامَ المرادُ منه تقريرُ الإنكارِ، والمبالغةُ فيه[٦].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: الزِّينةُ والطَّيِّباتُ هي لهم بالأصالةِ، والكَفَرةُ وإن شارَكُوهم فيها فتَبَعٌ؛ ولذا لم يَقُلْ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن رجب الحنبلي)) (١/ ٤٧٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٨٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٧٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٨).

تعالى: (لِلَّذِينَ آمنوا وغَيرِهم)[١].

بلاغة الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ هذه الجُملةُ تتنزَّلُ مِنَ التي بَعدَها، وهي قوله: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ منزلةَ النَّتيجةِ مِنَ الجَدَلِ، فقُدِّمَتْ على الجَدَلِ، فصارَتْ غَرَضًا بمنزلةِ دَعوى، وجُعِلَ الجدلُ حجَّةً على الدَّعوى[٢].

٢- قوله: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾

- قوله: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ استئنافٌ مُعتَرِضٌ بين الخِطاباتِ المحكِيَّةِ والمُوجَّهة، وهو موضِعُ إبطالِ مَزاعِمِ أهلِ الجاهِليَّةِ فيما حرَّموه من اللِّباسِ والطَّعامِ، وهي زيادةُ تأكيدٍ لإباحةِ التسَتُّر في المساجِدِ، فابتُدِئَ الكلامُ السَّابِقُ بأنَّ اللِّباسَ نِعمةٌ مِنَ اللهِ[٣].

- والاستفهامُ في قَولِه: ﴿مَنۡ حَرَّمَ﴾ إنكاريٌّ، قُصِدَ به التهَكُّم؛ إذ جَعَلَهم بمنزلةِ أهلِ عِلمٍ يُطلَبُ منهم البيانُ والإفادةُ، وقرينةُ التهَكُّمِ إضافةُ الزِّينةِ إلى اسمِ اللهِ في قوله: ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾، وتعريفُها بأنَّها أخرَجَها اللهُ لعِبادِه، ووصْفُ الرِّزقِ بالطَّيِّباتِ، وذلك يقتَضي عَدَمَ التَّحريمِ؛ فالاستفهامُ يَؤُولُ أيضًا إلى إنكارِ تَحريمِها، وتوبيخِ مُحَرِّمِيها[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٨٩)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٦).

- قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيه تعريضٌ بجَهلِ وضَلالِ عُقولِ المُشركينَ الذين استَمَرُّوا على عنادِهم وضَلالِهم، رغمَ ما فُصِّلَ لهم مِنَ الآياتِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٩).

الآيتان (٢٢-٢٤)

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُلْطَٰنًا﴾: أي: حُجَّةً، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقَهرُ، مِنَ التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّيَ السُّلطانُ سُلطانًا[١].

﴿أُمَّةٍ﴾: أي: جماعةٍ، أو قَرْنٍ وجِيلٍ، وتُطلَقُ الأمَّةُ على المِلَّةِ والسُّنَّةِ والدِّينِ والحِينِ[٢].

﴿أَجَلٌ﴾: أي: وَقْتٌ لِحُلولِ الهَلاكِ، والأجَلُ غايةُ الوَقتِ في مَحِلِّ الدَّينِ وغَيرِه، والمدَّةُ المضَروبةُ للشَّيءِ، كالمُدَّة المضروبةِ لحياةِ الإنسانِ؛ فيُقال: دنا أجَلُه، وهو عبارةٌ عن دُنوِّ المَوتِ، واستيفاءُ الأجَلِ، أي: مدَّةُ الحياةِ[٣].

﴿سَاعَةً﴾: أي: وقتًا قليلًا مِنَ الزَّمانِ، وأصل (سوع): يدلُّ على استمرارِ الشَّيءِ ومُضيِّه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢،٨١، ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٤).

المَعْنَى الإجماليُّ:

أمرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يخبِرَ المُشركينَ أنَّه عزَّ وجلَّ إنَّما حرَّمَ الذُّنوبَ التي تناهَتْ في القُبحِ، ما ظهرَ منها وما خَفِيَ، وحرَّمَ المعاصِيَ التي تتعلَّقُ بمن عصى نفسَه، وحرَّمَ التعدِّيَ على الغيرِ بغيرِ حقٍّ، وحرَّمَ أن يُتَّخَذ معه شريكٌ في عبادَتِه، لم يجعَلِ اللهُ معه حُجَّةً تدلُّ على إشراكِه، وحرَّمَ عزَّ وجلَّ القَولَ عليه بلا علمٍ.

وأخبرَ تعالى أنَّ لكلِّ أمَّةٍ مُكَذِّبةٍ وقتًا محددًا لحُلولِ العُقوبةِ عليهم، فإذا جاءَ الوقتُ الذي وقَّتَه اللهُ لإهلاكِهم هَلَكوا، ولا يتأخَّرونَ عنه ساعةً، ولا يتقدَّمونَ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ في الآيةِ الأولى أنَّ الذي حرَّمَه المشركونَ مِن الزِّينةِ وغَيرِها مِنَ الطَّيِّباتِ، ليس بحرامٍ، وانتهى من تَفنيدِ هذا الباطِلِ الذي يدَّعُونه ويَفترونَه- بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنواعَ المُحَرَّمات، فحَرَّمَ أوَّلًا الفواحِشَ، وثانيًا الإثمَ[(١)]، فقال:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾.

أي: قُلْ- يا نبيَّ اللهِ- لهؤلاءِ المُشركينَ: إنَّ ربِّي لم يُحَرِّمْ ما تُحَرِّمونَه، وإنَّما حرَّمَ الذُّنُوبَ التي تناهَتْ في القُبحِ، ما كان منها علانِيَةً، وما كان منها في خفاءٍ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٠)، ((العذب

كما قال تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وقال عزَّ جلَّ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا أحَدَ أغيَرُ مِنَ الله؛ ولذلك حَرَّمَ الفواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ))[(١)].

﴿وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي: وحرَّمَ ربِّي الإثمَ، وهو المعاصِي المتعلِّقةُ بالفاعِلِ نَفسِه، وحرَّمَ البَغيَ، وهو التَّعدِّي على النَّاسِ في دمائِهم وأموالِهم وأعراضِهم[(٢)].

﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾.

أي: وحرَّمَ ربي اتِّخاذَ شَريكٍ له في عبادَتِه، لم يجعَلِ اللهُ معه حجَّةً تَدَلُّكم على إشراكِه[(٣)].

النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧٣- ١٧٥).

وقيل: إنَّ ظاهرَ الإثمِ ما يفعلُه بالجوارحِ، وباطنَه ما يعتقدُه بالقلبِ، واختاره الماورديُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٢/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧).

(١) رواه البخاري (٤٦٣٧) ومسلم (٢٧٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧).

قال الشِّنقيطيُّ: (قوله: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ لا يكونُ بغيٌ بحَقٍّ أبدًا؛ فكلُّ بغيٍ بغيرِ حَقٍّ لا شَكَّ، كما قال تعالى: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ ومعلومٌ أنَّ النَّبيِّينَ لا يُقتلونَ بحَقٍّ أبدًا، فهو كالتوكيدِ، كقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] ﴿يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة: ٧٩]. وقال بعضُ العُلَماءِ: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ كقولِه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] لأنَّ مَن بُغِيَ عليه ثم انتَقَم، قد يسمَّى هذا بغيًا، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ وكما سمَّى الانتقامَ اعتداءً، في قوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٤] سمَّى جزاءَ الاعتداءِ: اعتداءً، وجزاءَ السَّيئةِ: سيئةً، وإن كان الانتقامُ ليس سيِّئةً، وليس اعتداءً). ((العذب النمير)) (٣/ ١٧٥). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي))

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: وحرَّمَ ربي عليكم القَولَ عليه بلا علمٍ؛ في أسمائِه وصفاتِه، وأفعالِه وشَرعِه[١].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها:

لَمَّا نعى اللهُ على المشركينَ ضلالَهم وتمرُّدَهم- بعد أنْ دعاهم إلى الإيمانِ- وإعراضَهم عنه، بالمجادلةِ والتَّوبيخِ، وإظهارِ نقائِصِهم بالحُجَّة البيِّنةِ، وكان حالُهم حالَ مَن لا يُقلِعُ عمَّا هم فيه- أعقَبَ ذلك بإنذارِهم ووعيدِهم؛ إقامةً للحُجَّةِ عليهم، وإعذارًا لهم قبل حُلولِ العَذابِ بهم[٢].

وأيضا لَمَّا بَيَّنَ الله تعالى الحلالَ والحَرامَ، وأحوالَ التَّكليفِ، بَيَّنَ أنَّ لكُلِّ أحدٍ أجلًا مُعَيَّنًا لا يتقَدَّمُ ولا يتأخَّرُ، والغَرَضُ منه التَّخويفُ؛ ليَجِدَّ المرءُ في القيامِ بالتَّكاليفِ كما ينبغي[٣]، فقال تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

(ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧٥).
قال الشِّنقيطيُّ: (الإشراكُ باللهِ لا يُنَزِّلُ به سُلطانٌ ألبتَّةَ، كقوله: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧] فمعلومٌ أنَّ الإلهَ الثَّانيَ لا يكونُ به برهانٌ ألبتَّةَ، وقد تقرَّرَ في علمِ الأُصُولِ أنَّ النَّصَّ مِنَ الكِتابِ والسنَّةِ إذا جاء مُبَيِّنًا للحقيقةِ الواقعةِ لا يكون له مفهومُ مُخالفةٍ، والواقِعُ أنَّهم يُشركونَ باللهِ ما لم يُنَزِّلْ به سلطانًا، فجاءت الآيةُ مُبَيِّنةً للحقيقةِ الواقعةِ؛ ليكون النَّهيُ واقعًا على بيانِ الحقيقةِ الواقِعةِ). ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧٦)، وينظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٤).

أي: ولكُلِّ أمَّةٍ مُكَذِّبةٍ وقتٌ محدَّدٌ لحلولِ العذابِ[١].

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾.

أي: فإذا جاء الوَقتُ الذي وقَّتَه اللهُ تعالى لهلاكِهم، هَلَكوا، ولا يتأخَّرونَ بالبَقاءِ في الدُّنيا عن ذلك الوَقتِ ساعةً، ولا يتقدَّمونَ عنه ساعةً[٢].

الفوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فذكَر المُحَرَّماتِ التي اتَّفَقَتْ على تحريمِها الشَّرائِعُ والأديانُ، ولا تُباحُ بحالٍ، بل لا تكونُ إلا مُحَرَّمةً، وليسَتْ كالمَيتةِ والدَّمِ ولحْمِ الخِنزيرِ، الذي يباحُ في حالٍ دُونَ حالٍ. فإنَّ المُحَرَّماتِ نوعانِ: مُحَرَّمٌ لِذاتِه لا يُباحُ بحالٍ، ومُحَرَّمٌ تحريمًا عارِضًا في وقتٍ دونَ وقتٍ؛ قال الله تعالى في المُحَرَّمِ لِذَاتِه: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾، ثم انتقَلَ منه إلى ما هو أعظَمُ منه، فقال: ﴿وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾، ثُمَّ انتقلَ منه إلى ما هو أعظَمُ منه، فقال: ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾، ثمَّ انتقَلَ منه إلى ما هو أعظَمُ منه، فقال: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، فهذا أعظَمُ المُحَرَّماتِ عند اللهِ، وأشَدُّها إثمًا، ولهذا ذُكِرَ في المرتَبةِ الرَّابعةِ مِنَ المُحَرَّمات المذكورةِ في هذه الآيةِ؛ فإنَّه يتضَمَّنُ الكَذِبَ على اللهِ، ونِسبَتَه إلى ما لا يليقُ به، وتغييرَ دِينِه وتَبديلَه، ونَفيَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٨٥).

وقيل: المرادُ: لكلِّ قَرْنٍ وجيلٍ مِيقاتُه المُقَدَّر لانتهائِه. واختاره ابنُ كثيرٍ والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٨٨- ١٨٩).

ما أثبَتَه، وإثباتَ ما نفاه، وتحقيقَ ما أبطَلَه، وإبطالَ ما حَقَّقَه، وعداوةَ مَن والاه، ومُوالاةَ مَن عاداه، وحُبَّ ما أبغَضَه، وبُغضَ ما أحَبَّه، ووصْفَه بما لا يليقُ به في ذاتِه وصِفاتِه وأقوالِه وأفعالِه؛ فليس في أجناسِ المُحَرَّماتِ أعظَمُ عند اللهِ منه، ولا أشَدُّ إثمًا، وهو أصلُ الشِّركِ والكُفرِ، وعليه أُسِّسَتِ البِدَعُ والضَّلالاتُ، فكُلُّ بِدعةٍ مُضِلَّةٍ في الدِّينِ أساسُها القَولُ على الله بلا عِلمٍ[١].

٢- قال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فهذه الأنواعُ الأربعةُ هي التي حَرَّمَها تحريمًا مُطلقًا؛ فالفواحِشُ متعلِّقةٌ بالشَّهوةِ، والبَغيُ بغَيرِ الحَقِّ يتعلَّقُ بالغَضَبِ، والشِّركُ باللهِ فَسادُ أصلِ العَدلِ؛ فإنَّ الشِّركَ ظُلمٌ عَظيمٌ، والقَولُ على الله بلا علمٍ فَسادٌ في العِلمِ، فقد حَرَّمَ سبحانه هذه الأربعةَ؛ وهي: فَسادُ الشَّهوةِ، والغَضَبِ، وفسادُ العَدْلِ، والعِلمِ[٢].

٣- دخَلَ في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ تحريمُ كُلِّ فاحِشةٍ ظَاهِرةٍ وباطِنةٍ، وكُلِّ ظُلمٍ وعُدوانٍ في مالٍ أو نَفْسٍ أو عِرْضٍ، وكُلِّ شِركٍ باللهِ، وإنْ دَقَّ؛ في قولٍ أو عَمَلٍ أو إرادةٍ، بأن يَجعلَ للهِ عَدْلًا بِغَيرِه في اللَّفظِ أو القَصدِ أو الاعتقادِ، وكلِّ قولٍ على الله، لم يأتِ به نَصٌّ عنه ولا عن رسولِه؛ في تحريمٍ أو تحليلٍ، أو إيجابٍ أو إسقاطٍ، أو خبرٍ عنه باسْمٍ أو صِفةٍ، نفيًا أو إثباتًا، أو خبرًا عن فِعلِه؛ فالقَولُ عليه بلا عِلمٍ حرامٌ في أفعالِه وصِفاتِه ودِينِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٢٥٢).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- النَّظَرُ إلى العَوْراتِ حَرامٌ داخِلٌ في قولِه تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ فإنَّ الفواحِشَ وإن كانَتْ ظاهرةً في المُباشَرةِ بالفَرجِ أو الدُّبُرِ وما يتبَعُ ذلك مِنَ المُلامَسةِ والنَّظَرِ وغيرِ ذلك، وكما في قِصَّةِ لوط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ [الإسراء: ٣٢]، فالفاحشةُ أيضًا تتناوَلُ كشْفَ العَورةِ وإن لم يكُنْ في ذلك مُباشرةٌ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وهذه الفاحِشَةُ هي طَوافُهم بالبيتِ عُراةً[(١)].

٢- قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ دليلٌ على أنَّها فواحِشُ في نَفسِها، لا تَستَحسِنُها العُقولُ؛ فتعلَّقَ التحريمُ بها لفُحْشِها، فإنَّ ترتيبَ الحُكْمِ على الوَصفِ المُناسِبِ المُشتَقِّ؛ يدلُّ على أنَّه هو العلَّةُ المُقتَضِيةُ له، والعلَّةُ يجبُ أنْ تُغايرَ المَعلولَ، فلو كان كونُه فاحِشةً هو معنى كَونِه مَنهِيًّا عنه؛ كانت العلَّةُ عينَ المعلولِ! وهذا مُحالٌ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فيه بيانُ أُصولِ المُحَرَّماتِ العامَّةِ التي حَرَّمَها لضررٍ ثابتٍ لازمٍ لها، لا لعلَّةٍ عارضةٍ، وكلُّها مِن أعمالِهم الكَسبيَّةِ، لا مِن مواهِبِه ونِعَمِه الخِلقيةِ؛ ليُعلَمَ أنَّه -له الحمدُ والشُّكرُ- لم يُحَرِّمْ على النَّاسِ إلَّا ما هو ضارٌّ بهم، دون ما هو نافِعٌ لهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٥١).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، إنَّما ذُكِرَت (السَّاعة) وإن كان دُونَها كذلك؛ لأنَّها كانت أقلَّ اسمٍ للأوقاتِ في العُرفِ[١].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، ذِكرُ عُمومِ الأُمَمِ في هذا الوعيدِ -مع أنَّ المقصودَ هم المُشركونَ مِنَ العَرَبِ الذين لم يُؤمنوا- إنَّما هو مبالغةٌ في الإنذارِ والوعيدِ، بتقريبِ حُصُولِه كما حصَلَ لِغَيرِهم مِنَ الأُمَمِ؛ على طريقةِ الاستشهادِ بشواهِدِ التَّاريخِ في قياسِ الحاضِرِ على الماضي، فيكونُ الوَعيدُ خَبَرًا معضودًا بالدَّليلِ والحُجَّةِ[٢].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ ذَكَرَ (الأجل) هنا، دون أن يقولَ (لكُلِّ أمَّةٍ عذابٌ أو استئصالٌ)؛ إيقاظًا لعُقُولِهم من أن يَغُرَّهم الإمهالُ، فيحسَبُوا أنَّ اللهَ غيرُ مُؤاخِذِهم على تكذيبِهم[٣].

بلاغة الآيتين:

١- قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فيه قصرٌ إضافيٌّ؛ لأنَّه لَمَّا كانَتِ المُحَرَّماتُ المذكورةُ في الآيةِ غيرَ محصورةٍ في هذه الأشياءِ؛ دلَّ ذلك على أنَّ القَصرَ المفاد مِن ﴿إِنَّمَا﴾ قَصرٌ إضافيٌّ، مَفادُه أنَّ اللهَ حَرَّمَ الفَواحِشَ وما ذُكِرَ معها، لا ما حَرَّمْتُموه مِنَ الزِّينةِ والطَّيِّباتِ، فأفاد إبطالَ اعتقادِهم، ثم هو يُفيدُ بطَريقِ التَّعريضِ أنَّ ما عَدَّه اللهُ مِنَ المُحَرَّماتِ الثَّابتِ تحريمُها قد تلبَّسوا بها؛ لأنَّه لَمَّا عدَّ أشياءَ، وقد عَلِمَ النَّاسُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ المُحَرَّماتِ ليستْ محصورةً فيها؛ عَلِمَ السَّامِعُ أنَّ ما عيَّنَه مقصودٌ به تعيينُ ما تلبَّسوا به، فحَصَل بصيغةِ القصرِ ردٌّ عليهم مِن جانبَيْ ما في صِيغة (إِنَّمَا) من إثباتٍ ونفيٍ[١].

- وقوله: ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ هو كُلُّ ذَنبٍ، فهو أعَمُّ مِنَ الفَواحِشِ؛ فيكون ذِكرُ الفَواحِشِ قَبلَه للاهتمامِ بالتَّحذيرِ منها قبلَ التَّحذيرِ مِن عُمومِ الذُّنوبِ؛ فهو مِن ذِكرِ الخاصِّ قبلَ العامِّ للاهتمام، كذِكرِ الخاصِّ بعد العامِّ، إلَّا أنَّ الاهتمامَ الحاصِلَ بالتَّخصيصِ مع التَّقديمِ أقوى؛ لأنَّ فيه اهتمامًا مِن جِهَتينِ[٢].

- وعطفُ البَغيِ على الإثمِ في قولِه: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتمامِ به؛ لأنَّ البغيَ كان دأْبَهم في الجاهليَّةِ[٣].

- قوله: ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي الظُّلمُ أو الكِبرُ؛ أُفرِدَ بالذِّكرِ؛ للمُبالغةِ في الزَّجرِ عنه[٤].

- وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ متعلِّقٌ بالبَغي مُؤَكِّدٌ له معنًى[٥].

٢- قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

- قُدِّم الظَّرفُ في قوله: ﴿وَلِكُلِّ﴾ على عامِلِه ﴿أَجَلٌ﴾؛ للاهتمامِ به؛ ليتأكَّدَ بذلك التقديمِ معنى التَّعليقِ[٦].

- وفي قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أظهرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٠٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٥).

لفْظ (أَجَل) في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾، ولم يَكتفِ بضَميرِه؛ لزيادةِ تقريرِ الحُكمِ عليه، ولتكونَ هذه الجملةُ مُستقلَّةً بنفسِها، غيرَ مُتوقِّفةٍ عن سماعِ غيرها؛ لأنَّها بحيثُ تَجرِي مَجرَى المَثَل، وإرسالُ الكلامِ الصَّالِحِ لأنْ يَكونَ مَثَلًا طريقٌ من طُرُقِ البلاغة[١]، والإضافةُ إلى الضَّميرِ؛ لإفادةِ أكملِ التَّمييز، أي: إذا جاءَها أجلُها الخاصُّ بها[٢].

- والسين والتاء في قوله: ﴿يَسۡتَأۡخِرُونَ﴾، و﴿يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ للتأكيدِ؛ إذ هما بمعنى: يَتأخَّرون ويَتقدَّمون؛ مِثل اسْتَجاب[٣].

- وفي هذِه الآيةِ مُناسَبةٌ حسنة؛ حيثُ قال تَعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾، وكذلك في سُورة النَّحل: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ ...﴾[النحل: ٦١]، فعَطَفَ بالفاءِ، وأمَّا في سورة يونس فقال: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾[يونس: ٤٩]؛ وذلك لأنَّ ما هنا في سورةِ الأعرافِ وكذلك ما في سُورةِ النَّحلِ: جُملةٌ عُطِفتْ على جملةٍ أُخرى مصدَّرةٌ بالواوِ بينهما اتِّصالٌ وتَعقيب؛ فكان الموضعُ موضِعَ الفاء، فحسُنَ الإتيانُ بالفاءِ الدَّالةِ على التعقيبِ، بخِلافِ ما في يُونَس[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩١-١٩٢).

الآيات (٢٥-٢٩)

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٣٩﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾: أي: كذَبَ واختَلَق؛ والافتراءُ: الاختِلاقُ، وهو ما عظُم مِن الكَذِبِ، ومِنه قيل: افترَى فلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، ويُستَعمَل في القُرآنِ في الكَذِبِ والشِّركِ والظُّلمِ، وأصلُ (فري) قَطْعُ الشَّيءِ، ومِن ذلك: فَرَيت الشيءَ أفْريه فَرْيًا، وهو قطعُه لإصلاحِه، وأفريتَه: إذا أنت قطعتَه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[1].

﴿يَنَالُهُمۡ﴾: أي: يَصِلُ إليهم، والنَّوالُ: ما يَنالُه الإنسانُ مِنَ الصِّلة، وأصلُ (نيل): يدُلُّ على إعطاءٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٢٨، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢، ٤٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤- ٦٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٠).

﴿نَصِيبُهُم﴾: أي: حظُّهم المنصوبُ، أي: المعيَّنُ، وأصل (نصب): إقامةُ شيءٍ، وإهدافٌ في استواء[١].

﴿ٱدَّارَكُواْ﴾: أي: تَتابعوا فيها واجتَمعوا، أو لَحِق كلٌّ بالآخَر، وأصل (درك): لحوقُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، ووصولُه إليه[٢].

﴿ضِعۡفٗا﴾: أي: مُضاعَفًا، وضِعفُ الشَّيءِ: مِثلُه مرةً، وأصل (ضعف): يدلُّ على أنْ يُزادَ الشيءُ مِثلَه[٣].

﴿تَكۡسِبُونَ﴾: أي: تَعمَلون وتَجترِحونَ مِنَ المعاصي، والكَسبُ: ما يَتحرَّاه الإنسانُ ممَّا فيه اجتلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، وأيضًا: الجمعُ والتَّحصيلُ، وأصلُ (كسب): ابتغاءٌ وطَلَبٌ وإصابةٌ[٤].

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ بني آدَمَ أنَّه إن جاءَهم رُسُلٌ مِن جِنسِهم البَشَريِّ، يتلونَ عليهم آياتِ كِتابِه، فمَنِ اتَّقى فترَكَ المُحَرَّماتِ، وعَمِلَ الطَّاعاتِ؛ فلا خوفٌ عليهم ممَّا يَستقبِلونَ، ولا هم يحزَنونَ على ما مضى، والَّذين كذَّبوا بآياتِه، واستكبَرُوا عن التَّصديقِ بها، والعَمَلِ بما فيها؛ أولئك هم أصحابُ النَّارِ، ماكِثونَ فيها، لا يخرجونَ منها أبدًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٩). ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٦٩).

ثم أخبرَ تعالى أنَّه لا أحَدَ أشنَعُ ظُلمًا مِمَّنِ اختَلَق على اللهِ الكَذِبَ، أو كذَّبَ بآياتِه التي أنزَلَها، أولئك ينالُهم نصيبُهم المكتوبُ في اللَّوحِ المحفوظِ؛ مِنَ الأرزاقِ والأعمالِ والآجالِ، والخيرِ والشَّرِّ، إلى أن تأتِيَهم الملائكةُ؛ لتقبِضَ أرواحَهم، فتقولُ لهم الملائكةُ: أين ما كنتم تَدعونَ مِن دونِ اللهِ؟ فيقولون: ضَلُّوا عَنَّا، ويُقِرُّون على أنفُسِهم أنَّهم كانوا كافرينَ.

فيأمُرُهم اللهُ تعالى أن يَدخُلوا في جملةِ أمَمٍ أمثالِهم في الكُفرِ، قد سَلَفَت مِن قَبلِهم مِنَ الجِنِّ والإنسِ، فيدخلونَ جميعًا في النَّارِ، كلَّما دخَلَت أمَّةٌ مِن تلك الأُمَمِ في النَّارِ لَعَنَت أُختَها، حتى إذا اجتمَعَ الأوَّلونَ والآخِرونَ جميعًا في النَّارِ، قالت أُخْراهم لأُولاهم: ربَّنا هؤلاءِ الَّذينَ اتَّبَعْناهم في الدُّنيا، هم من أضَلَّنَا عن سبيلِك؛ فأَعْطِهم ضِعفًا مِن عَذابِ النَّارِ، فيُجيبُهم اللهُ تعالى، أنَّه لكُلٍّ ضِعفٌ، ولكِنْ لا تعلمونَ.

وقالَتْ أُولاهم لأُخراهم: لم تكُنْ لكم مَزِيَّةٌ علينا، فيقولُ الله لهم جميعًا: فذُوقوا العذابَ بما كَسَبتُم مِنَ الكُفرِ والمعاصي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ أحوالَ التَّكليفِ، وبيَّنَ أنَّ لكُلِّ أحدٍ أجلًا مُعَيَّنًا لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ- بيَّنَ أنهم بعد الموتِ إن كانوا مُطيعينَ، فلا خوفٌ عليهم ولا حُزنٌ، وإن كانوا متمَرِّدينَ، وقعوا في أشَدِّ العَذابِ[1]، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٥).

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾.

أي: يا أولادَ آدَمَ- الذي أخرَجَه الشَّيطانُ بوَساوِسِه مِنَ الجنَّةِ، إلى دارِ البَلاءِ والمِحَنِ- إنْ أتاكُم رُسُلي الَّذين أُرسِلُهم إليكم مِن جِنسِكُم البشريِّ، يتلونَ عليكم آياتِ كُتُبي، ويُبَيِّنونَ لكم ما فيها من عقائِدَ وأحكامٍ وأخبارٍ[١].

﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾.

أي: فمَنِ اتَّقى اللهَ منكم، فترَكَ المُحَرَّماتِ، وأصلَحَ أعمالَه فعَمِلَ الطَّاعاتِ؛ فلا خوفٌ عليهم ممَّا يستقبِلونَ، ولا هم على ما مضى يَحزَنونَ[٢].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ ﴾.

أي: والَّذين كذَّبوا منكم بآياتي التي جاءَت بها رُسُلي، واستكبَرُوا فأعرَضُوا عن التَّصديقِ بأخبارِها، والعَمَلِ بأحكامِها[٣].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٩٥).
والقولُ بأنَّ المرادَ بـ ﴿مِّنكُمۡ﴾ أي: مِن بني آدَمَ، هو اختيارُ ابنِ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٩٣-١٩٤).
وقال ابن جرير: (﴿مِّنكُمۡ﴾ يعني: من أنفُسِكم، ومِن عشائِرِكم وقبائِلِكم). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي (ص: ٢٨٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٩٥-٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١١).

أي: أولئك المُكَذِّبونَ بآياتي، المُستكبِرونَ عَن طاعَتي؛ هم أهلُ النَّارِ المُلازِمونَ لها، ماكثونَ فيها، لا يخرجونَ منها أبدًا[١].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾.

أي: لا أحدَ أشنعُ ظُلمًا ممَّنِ افترَى الكَذِبَ على اللهِ، كمن يدَّعي أنَّ لله ولدًا وشريكًا، ويزعُمُ أنَّ اللهَ يأمُرُ بالفواحِشِ، أو كذَّبَ بآياتِ اللهِ التي أنزَلَها على رُسُلِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

أي: أولئك الكاذِبونَ على اللهِ، المُكَذِّبون بآياتِه، ينالُهم نَصيبُهم المكتوبُ في اللَّوحِ المَحفوظِ؛ مِنَ الأرزاقِ والأعمالِ والآجالِ، والخَيرِ والشَّرِّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۞ مَتَٰعٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٩٢) و (١٠/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٢).

(٣) وهذا القولُ اختاره في الجملةِ: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، والسعدي، والشنقيطي، وقوَّاه ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٧) و (١٠/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢١١).

فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٩-٧٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾ [لقمان: ٢٣-٢٤].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ينالُهُم ما كُتِبَ لهم في الدُّنْيا إلى أنْ تأتِيَهم الملائكةُ لِقَبضِ أرواحِهم، فإذا جاؤوهم قالوا لهم: أين الَّذين كُنتم تعبدونَهم مع اللهِ؛ فإنَّهم لم يحضُرُوا لِيُنقِذوكم ممَّا أنتم فيه؟ فهلَّا أغاثوكم مِن هذا الكَربِ الذي حلَّ بكم[1]!

﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾.

أي: قال الكُفَّارُ لملائكةِ المَوتِ: ذهَبَ عنَّا أولياؤُنا الذين كنَّا نَدعُو مِن دُونِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢١٤).

قال الشنقيطي: (هذه الرُّسلُ هي: مَلَكُ المَوتِ وأعوانُه، يقبضونَ أرواحَهم، واعلموا أنَّ اللهَ أسنَدَ قَبضَ الرُّوحِ في آيةٍ إلى نفسِه جلَّ وعلا؛ حيث قال عن نفسِه: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] وأسنَدَه في آيةٍ لمَلَكٍ واحدٍ، وهي قولُه في السَّجدةِ: ﴿ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ﴾ [السجدة: ١١] وأسنَدَه في آياتٍ كثيرةٍ لملائكةٍ كثيرةٍ مُرسلينَ لذلك، كقولِه هنا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ ﴾ [الأعراف: ٣٧]... ولا إشكالَ في الآياتِ؛ لأنَّ إسنادَ التَّوفِّي إلى اللهِ؛ لأنَّ كُلَّ شَيءٍ بمَشيئَتِه وقضائِه وقَدَرِه، فلا تقَعُ وفاةُ أحدٍ إلَّا بمَشيئَتِه جَلَّ وعلا، كمَّا صرَّحَ به في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗا ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وإسنادُه لمَلَك الموتِ؛ لأنَّه هو الرَّئيسُ المُوظَّفُ بقَبضِ الأرواحِ، وإسنادُه لملائكةٍ كثيرينَ؛ لأنَّ لمَلَكِ الموتِ أعوانًا كثيرينَ يَقبِضونَ معه أرواحَ النَّاسِ بأمْرِه. قال بعضُ أهلِ العلمِ: يَقبِضُ أعوانُه الرُّوحَ حتى تبلُغَ الحُلقومَ، فيأخُذُها مَلَكُ الموتِ. والآياتُ دلَّتْ على أنَّ له أعوانًا كثيرةً مِنَ الملائكةِ يقبضونَ معه الأرواحَ). ((العذب النمير)) (٣/ ٢١٢- ٢١٣).

اللهِ، وغابوا وتركُونَا، فلم ينفَعُونا[١].

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

أي: وأقرَّ الكُفَّارُ واعترَفوا على أنفُسِهم عند مُعايَنةِ المَوتِ: أنَّهم كفَرُوا من قبلُ باللهِ[٢].

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾.

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾.

أي: يقولُ اللهُ يومَ القيامةِ للكافِرينَ: ادخُلُوا في زُمرةِ جَماعاتٍ على شاكِلَتِكم وصِفَاتِكم مِنْ أهلِ المِلَلِ الكافِرةِ مِنَ الجنِّ والإنسِ، الذين مَضَوا في أزمانٍ سَبَقَتْكم، فادخُلوا أنتم وهم في النَّارِ[٣].

﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾.

أي: كُلَّما دخلَتِ النَّارَ جماعةٌ مِن أهلِ تلك الأديانِ الكافِرةِ، شَتَمَتْ جماعةً أخرى مِن أهلِ دينِها، قد سبَقَتْها في دُخولِ النَّارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٦- ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢١).

قال السُّدِّيُّ فيما يرويه ابن جرير بسندِه عنه: (كلَّما دخلَتْ أهلُ ملَّةٍ لعنوا أصحابَهم على

كما قال اللهُ تعالى حاكيًا عن الخليلِ عليه السَّلامُ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾.

أي: حتى إذا اجتمَعَ في النَّارِ الأوَّلونَ مِن أهلِ الأديانِ الكافِرةِ، والآخِرونَ مِنهم[(١)].

﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾.

أي: قالت أُخرَاهم دُخولًا النَّارِ- وهم الأتباعُ- لأُولاهم- وهُمُ القادَةُ المَتبُوعونَ؛ لأنَّهم أشَدُّ جُرمًا مِن أتباعِهم، فدَخَلوا النَّارَ قَبلَهم[(٢)].

ذلك الدِّينِ؛ يلعَنُ المشركونَ المُشركينَ، واليهودُ اليهودَ، والنَّصارى النَّصارى، والصابئونَ الصَّابئينَ، والمجوسُ المجوسَ؛ تلعَنُ الآخِرَةُ الأولى). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٧).

قال ابن عاشور: (وسبَبُ اللَّعنِ أنَّ كُلَّ أمَّةٍ إنَّما تدخُلُ النَّارَ بعد أن يتبيَّنَ لهم أنَّ ما كانوا عليه مِنَ الدِّينِ هو ضَلالٌ وباطِلٌ، وبذلك تقَعُ في نفوسِهم كراهِيَةُ ما كانوا عليه، فإذا دخَلُوا النَّارَ فرَأَوُا الأمَمَ التي أُدخِلَتِ النَّارَ قبلَهم؛ عَلِمُوا أنَّهم أُدخِلُوا النَّارَ بذلك السَّبَبِ، فلَعَنُوهم؛ لكراهِيَةِ دِينِهم ومَنِ اتَّبَعوه). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٠ - ١٢١).

وقال الشنقيطي: (وإنَّما لَعَنَتْها؛ لأنَّ بَعضَ الأممِ تبقى سُنَنُهم في الضَّلالِ والكُفرِ، فيَقتَدِي بها مَن جاء بَعدَهم مِنَ الأُمَم، فيلعَنونَهم لذلك). ((العذب النمير)) (٣/ ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢١).

(٢) وهذا قولُ مُقاتلٍ، واختاره القرطبيُّ وابنُ كَثيرٍ والشوكاني والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٣٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٤٠).

قال ابنُ عاشور: (المراد: بـ﴿أُخْرَىٰهُمْ﴾: الآخِرةُ في الرُّتبة، وهم الأتباعُ والرعِيَّة مِن كلِّ أمَّةٍ مِن تلك الأُمَمِ، لأنَّ كُلَّ أمَّةٍ في عصرٍ لا تخلو مِن قادةٍ ورَعاعٍ، والمراد بـ(الأولى): الأولى في المرتبةِ والاعتبارِ، وهم القادةُ والمتبوعونَ مِن كُلِّ أمَّةٍ أيضًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٢).

وقيل: المعنى: قال آخِرُ أهلِ كُلِّ ملَّةٍ كافرةٍ لأُولاهم، الذينَ سَبَقُوهم في الدُّنيا، وشَرَعُوا لهم

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

أي قالوا: يا ربَّنا، هؤلاءِ الَّذين اتَّبَعْناهم في الدُّنيا، هم الَّذين أضَلُّونا عن سبيلِكَ، فضاعِفْ لهم العذابَ؛ عذابًا على الضَّلالِ، وعذابًا على الإضلالِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۞ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٦٧- ٦٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ۞ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: قال اللهُ للأتباعِ، الذين يَدعُونَه أن يُضاعِفَ العَذابَ على قادَتِهم الذين

ذلك الدِّينَ، وهذا قَولُ السُّدِّي، واختاره ابنُ جريرٍ وابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩٩)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١١٨).

وأفاد كلا القَولينِ في تفسيرِ هذه الجملةِ مِن الآيةِ: أنَّ الأتباعَ قالوا ذلك لِمَتبوعِيهم ورؤسائِهم. قال الواحدي: (يعني بالأُخرى: آخِرَ الأُمَم، وبالأولى: أوَّلَ الأمَمِ، وبيانه ما قاله السُّدي: (﴿أُخۡرَىٰهُمۡ﴾ يعني: الذين كانوا في آخِرِ الزَّمان، ﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾ يعني: الذين شَرَعوا لهم ذلك الدِّينَ. وقال مقاتل: ﴿أُخۡرَىٰهُمۡ﴾ يعني: آخِرَهم دخولًا النَّارَ، وهم الأتباعُ، ﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾ دخولًا وهم القادةُ. وتأويلُ هذا راجِعٌ إلى معنى القَولِ الأوَّلِ؛ لأنَّ آخِرَهم دخولًا النَّارَ هم الأتباع، والأولى هم القادةُ، فالمعنى على القولينِ جميعًا: قالت الأتباعُ للقادةِ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾). ((البسيط)) (٩/ ١٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٧).

أضَلُّوهم: لكلٍّ منكم ومنهم زيادةُ عذابٍ[(١)]، ولكِنَّكم لا تعلمونَ مِقدارَ ما أعَدَّ اللهُ مِنَ العَذابِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ

---

(١) قال ابنُ عاشور: (فأمَّا مُضاعفةُ العَذابِ للقادَةِ؛ فلأنَّهم سَنُّوا الضَّلالَ أو أيَّدُوه ونَصَروه وذبُّوا عنه بالتَّمويه والمُغالطاتِ فأضَلُّوا، وأمَّا مُضاعَفَتُه للأتباعِ؛ فلأنَّهم ضَلُّوا بإضلالِ قادَتِهم، ولأنَّهم بطاعَتِهم العمياءِ لقادَتِهم، وشُكرِهم إيَّاهم على ما يَرسُمون لهم، وإعطائِهم إيَّاهم الأموالَ والرِّشَى؛ يزيدونَهم طُغيانًا وجَراءةً على الإضلالِ، ويُغْرُونَهم بالازديادِ منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٣).

وقال الشنقيطي: (مُضاعفةُ العَذابِ للضُّعَفاءِ الأتباعِ؛ ففيها إشكالٌ، وكثيرٌ مِنَ المُفَسِّرين لا يتعرَّضونَ لهذا الإشكالِ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وهم لم يُضِلُّوا. وهذا إشكالٌ معروفٌ في هذه الآيةِ، وهو مُضاعفةُ العَذابِ للأتباعِ. فقال بعضُهم: إنَّهم، وإن كانوا أتباعًا، فلا بدَّ لهؤلاءِ الأتباعِ مِن ضُعَفاءَ أُخَرَ، فالواحِدُ يكون تبَعًا لرئيسِه في الضَّلالة، ولكنَّه يُضِلُّ امرأتَه وأولادَه وبعضَ أقارِبِه، فمعهم هم أيضًا رئاسةٌ في الضَّلالِ قليلةٌ ؛كلٌّ بحَسَبِه، ويضاعَفُ العَذابُ لكلٍّ بحَسَبِه. وقال بعضُ العلماء: مضاعفةُ العَذابِ للرُّؤساءِ بإضلالهم وضَلالِهم، ومضاعَفَتُه للأتباعِ بتقليدِهم الأعمى، وتعصُّبِهم للكُفر، وعدمِ نظَرِهم في المُعجِزات البَيِّناتِ، والأدلَّة الواضِحات التي جاءت بها الرُّسُل، مع الكُفر؛ فقد جمعوا بين التقليدِ الأعمى، والإعراضِ عن سماعِ الحَقِّ، مع الكُفرِ الذي ارتكَبوه. هكذا قاله بعضُ العلماء). ((العذب النمير)) (٣/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٨، ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٨).

قال ابنُ جرير: (يقول: ولكِنَّكم- يا معشَرَ أهلِ النَّارِ- لا تعلمونَ ما قَدْرُ ما أعَدَّ اللهُ لكم مِنَ العذابِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٠).

وقال ابنُ عاشور: (والمعنى: أنَّكم لا تعلمونَ الحَقائِقَ، ولا تشعرونَ بخفايا المعاني؛ فلذلك ظَنَنْتم أنَّ مُوجِبَ مُضاعَفةِ العذابِ لهم دُونكم، هو أنَّهم عَلَّمُوكم الضَّلالَ، ولو عَلِمْتُم حَقَّ العِلمِ، لاطَّلَعْتم على ما كان لِطَاعَتِكم إيَّاهم مِنَ الأثَرِ في إغرائِهم بالازديادِ مِنَ الإضلالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٣).

وقال الشنقيطي: (ولكنَّكم لا تعلمونَ قَدرَ ما ينالونَه مِنَ العَذابِ المُهينِ، وشِدَّتِه وهَولِه وألَمِه). ((العذب النمير)) (٣/ ٢٢٩).

بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل: ٨٨].

وقال اللهُ تبارك وتعالى عن جميعِ أهلِ النَّارِ: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ: ٣٠].

وقال الله سبحانه: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾.

أي: قال المَتبوعونَ للأتباعِ: لم تكُنْ لَكم مَزِيَّةٌ علينا مِن إيمانٍ وتَقوى، تُوجِبُ أن يكونَ عذابُنا أشَدَّ مِن عذابِكم؛ فنحن وأنتم مُتشارِكونَ في الكُفرِ، وفي استحقاقِ العذابِ، فأيُّ فضلٍ لكم علينا[1]؟

كما قال سبحانه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ [سبأ: ٣٢].

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

أي: فذُوقوا عذابَ جَهنَّمَ؛ بسبَبِ ما كسَبْتُم في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٤١).
ذكر عددٌ مِنَ المُفَسِّرينَ أنَّ هذا الكلامَ يحتمِلُ أن يكونَ مِن كلامِ القادةِ، ويحتمِلُ أن يكونَ مِن قولِ اللهِ تعالى لهم جميعًا. ومنهم: الرَّازي، وابنُ عطيةَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٤)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٩). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣١٧). واختار ابنُ جريرٍ الاحتمالَ الثاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٠).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ إنَّما قال: ﴿مِّنكُمۡ﴾؛ لأنَّ كَونَ الرَّسولِ منهم، أقطَعُ لعُذرِهم، وأبيَنُ للحُجَّةِ عليهم مِن جهاتٍ: أحدُها: أنَّ مَعرِفَتَهم بأحوالِه وبِطَهارَتِه تكونُ مُتقَدِّمةً. وثانيها: أنَّ مَعرِفَتَهم بما يليقُ بقُدرَتِه تكونُ مُتقَدِّمةً، فلا جَرَمَ لا يقَعُ في المُعجزاتِ التي تظهَرُ عليه شَكٌّ وشُبهةٌ في أنَّها حَصَلت بقدرةِ الله تعالى لا بقُدرَتِه؛ فلهذا السَّبَبِ قال تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾ [الأنعام: ٩]. وثالثها: ما يحصُلُ مِنَ الأُلفةِ وسُكونِ القَلبِ إلى أبناءِ الجِنسِ، بخلافِ ما لا يكونُ مِنَ الجِنسِ، فإنَّه لا يحصُلُ معه الأُلفةُ[(١)].

٢- وقولُه: ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ يدلُّ على أنَّه قد يُوجَدُ رُسُلٌ آخرونَ ليسُوا مِنَّا، وهو كذلك؛ لأنَّ مِنَ الملائكةِ رُسلًا، والملائكةُ لَيسُوا مِن جِنسِنا؛ كما قال الله: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] وقال: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ الآية[(٢)] [فاطر: ١].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ جملةُ: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ جوابُ الشَّرط، وعدَلَ عن جعلِ الجوابِ اتِّباعَ الرُّسُلِ إلى جَعْلِه التَّقوى والصَّلاحِ، إيماءً إلى حِكمةِ إرسالِ الرُّسُلِ، وتحريضًا على اتِّباعِهم بأنَّ فائِدَتَه للأُمَمِ لا للرُّسُلِ[(٣)].

٤- في قَولِه تعالى عَمَّنِ اتَّقى وأصلَحَ: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ لم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٩).

يقُلْ سُبحانَه: (لا يخافُونَ)؛ فهم لا خوفٌ عليهم، وإن كانوا يخافونَ اللهَ، ونفى عنهم أن يَحزَنُوا؛ لأنَّ الحُزنَ إنَّما يكون على ماضٍ، فهم لا يحزنونَ بحالٍ؛ لا في القَبرِ، ولا في عَرَصاتِ القِيامةِ، بخلافِ الخَوفِ، فإنَّه قد يحصُلُ لهم قبل دُخولِ الجَنَّةِ(١).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الفاسِقَ مِن أهلِ الصَّلاةِ، لا يبقى مُخلَّدًا في النَّارِ؛ لأنَّه تعالى بيَّنَ أنَّ المُكَذِّبينَ بآياتِ اللهِ، والمُستكبِرينَ عَن قَبُولِها؛ هم الذين يبقَونَ مُخَلَّدينَ في النَّارِ، فكلمةُ ﴿هُمۡ﴾ تفيدُ الحصرَ، وذلك يقتضي أنَّ مَن لا يكونُ موصوفًا بذلك التَّكذيبِ والاستكبارِ، لا يبقى مُخلَّدًا في النَّارِ(٢).

٦- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أنَّ جَميعَ الرُّسُلِ قد بلَّغُوا أمَمَهم أنَّ اتِّباعَهم في اتِّقاءِ ما يُفسِدُ فِطرَتَهم مِنَ الشِّركِ وخُرافاتِه، والرَّذائلِ والمعاصي، وفي إصلاحِ أعمالِهم بالطَّاعاتِ- يترتَّبُ عليه الأمنُ مِنَ الخَوفِ مِن كُلِّ ما يُتَوَقَّعُ، والحزنِ على كلِّ ما يقَعُ، وأنَّ تكذيبَ ما جاؤوا به من آياتِ اللهِ، والاستكبارَ عَن اتِّباعِها- يترَتَّبُ عليه الخلودُ في النَّارِ، فوق ما بَيَّنَ في آياتٍ أخرى مِن سُوءِ الحالِ في الدُّنيا، وقد سكَتَ عن الجزاءِ الدُّنيويِّ هنا؛ لأنَّ الآيةَ تدلُّ عليه، ولأنَّه لا يظهَرُ للنَّاسِ في كُلِّ وَقتٍ(٣).

٧- تضمَّنَ قولُه تعالى: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٦٦).

ذِكْرَ الصِّنفَينِ المُبطِلَينِ؛ أحدُهما: مُنْشِئُ الباطِلِ والفِرْيَةِ، وواضعُها، وداعي النَّاسِ إليها، والثاني: مُكَذِّبٌ بالحَقِّ، فالأوَّلُ: كُفْرُه بالافتراءِ، وإنشاءِ الباطِلِ. والثَّاني: كُفْرُه بجُحودِ الحَقِّ، وهذان النَّوعانِ يَعرِضانِ لكُلِّ مُبطِلٍ[١].

٨- دلَّ قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ على أنَّ الجنَّ كانوا مُكلَّفينَ في الشَّرائِعِ الماضيةِ قبل بَعثةِ نَبيِّنا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأمَّا شَريعَتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فأجمَعَ المُسلمونَ على أنَّه بُعِثَ إلى الجِنِّ والإنسِ، وأنَّه يجِبُ على الجِنِّ طاعَتُه؛ لأنَّ الإخبارَ عن دُخولِ كُفَّارِ الجنِّ في النَّارِ، إنَّما يكونُ بعد إقامةِ الحُجَّةِ عليهم بالرِّسالةِ[٢].

٩- دلَّ قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ على أنَّ كفَّارَ الجنِّ يدخُلونَ النَّارَ، وقد اتَّفقَ العُلَماءُ على ذلك[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ سائِرَ أنواعِ المُكَذِّبينَ بآياتِ الله؛ مُخَلَّدونَ في العذابِ، مُشتَرِكونَ فيه وفي أصلِه- وإن كانوا مُتفاوِتينَ في مقدارِه بحَسَبِ أعمالِهم، وعنادِهم، وظُلْمِهم وافترائِهم- وأنَّ مَوَدَّتَهم التي كانت بينهم في الدُّنيا تنقَلِبُ يومَ القيامةِ عداوةً ومُلاعَنةً[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾

(١) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٤٧).
(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٧).
(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٨).

- قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ فيه إعادةُ النِّداء في صَدْرِ هذِه الجُملةِ؛ للاهتمامِ[١].

- وقوله: ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ فيه تنبيهٌ لبَنِي آدَمَ بأنَّهم لا يَترقَّبون أنْ تَجيئَهم رُسلُ اللهِ مِن الملائكةِ؛ لأنَّ المُرسَلَ يكونُ مِن جِنسِ مَن أُرْسِلَ إليهم، وفي هذا تعريضٌ بالجَهلةِ مِن الأُممِ الذين أَنكروا رسالةَ الرُّسلِ؛ لأنَّهم مِن جِنسِهم[٢].

- وفيه: تلوينٌ للخِطابِ، وتوجيهٌ له إلى كافَّةِ النَّاسِ؛ اهتمامًا بشأنِ ما في حيِّزه[٣].

- و(ما) في قوله: ﴿إِمَّا﴾ زائدة مُؤكِّدة، وهي تُفيدُ مع التأكيدِ عُمومَ الشَّرطِ[٤].

- قوله: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ بناءُ الخبرِ الفِعليِّ ﴿يَحۡزَنُونَ﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿هُمۡ﴾ المتقدِّمِ عليه؛ يُفيدُ تَخصيصَ المسنَدِ إليه بذلِك الخَبرِ[٥].

٢- قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أفادت هذه الآيةُ تحقيقَ أنَّهم صائِرون إلى النَّارِ بطريقِ قَصرِ مُلازمةِ النَّارِ عليهم في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّ لفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ مُؤذِنٌ بالملازمةِ، وبما تدلُّ عليه الجملةُ الاسميَّةُ مِن الدَّوامِ والثَّباتِ في قوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٦].

- وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾ الاستكبارُ مُبالغةٌ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق))(٨-ب/ ١٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور) (٨-ب/ ١١١).

التكبُّر؛ فالسِّينُ والتاءُ في قوله: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ للمُبالغةِ[١].

٣- قوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾

- قوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ...﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ مُستعمَلٌ في تهويلِ ظُلم هذا الفريقِ، المعبَّر عنه بمَن افترَى على اللهِ كذبًا، أي: لا أحَدَ أظلمُ ممَّن هذا وصْفُه[٢].

- وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن الاستفهامِ في قوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لأنَّ التهويلَ المستفادَ مِن الاستفهامِ يَسترعي السَّامعَ أن يسألَ عمَّا سيُلاقونَه مِن اللهِ تعالى الذي افترَوا عليه، وكَذَّبوا بآياتِه[٣].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ الكلامُ الواقعُ هنا بعدَ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ فيه تهويلُ ما يُصيبهم عندَ قَبْضِ أرواحِهم، وهو أدخلُ في تهديدِهم وتَرويعِهم وموعظتِهم، مِن الوعيدِ المتعارَفِ[٤].

- وقولُه: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الاستفهامُ في قوله: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾؛ للتَّوبيخِ والتَّقريرِ، ومُستعمَلٌ في التهكُّمِ والتَّأْييسِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٧).

- قوله: ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ استئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ سؤالِ الرُّسُلِ؛ كأنه قيل: فماذا قالوا عندَ ذلك؟ فقيل: قالوا: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾[١].

٤- قوله: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا ...﴾

- قوله: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ استئنافُ كلامٍ نَشأَ بمناسبةِ حِكايةِ حالِ المشركينَ حين أوَّلِ قُدومِهم على الحياةِ الآخِرَةِ، وهي حالةُ وفاةِ الواحدِ منهم، وفيه تذكيرٌ لهم بما حاقَ بأُولئك الأُممِ من عذابِ الدُّنيا، وتعريضٌ بالوعيدِ بأنْ يَحُلَّ بهم مِثلُ ذلك، وتصريحٌ بأنَّهم في عذابِ النَّارِ سواءٌ[٢].

- قولُه: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ﴾ الإتيانُ بفِعلِ القولِ بصِيغةِ الماضي في قولِه: ﴿قَالَ﴾؛ للتنبيهِ على تَحقيقِ وقوعِه، والأمرُ في قولِه: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ مُستعمَلٌ للوعيدِ، فيتأخَّر تنجيزُه إلى يومِ القِيامةِ[٣].

- قولُه: ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ قَدَّمَ الجِنَّ؛ لأنَّهم الأصلُ في الإغواءِ والإضلالِ[٤].

- قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لوصفِ أحوالِهم في النَّار، وتَفظيعِها للسَّامِعِ؛ ليتَّعِظَ أمثالُهم، ويستبشرَ المؤمنون بالسَّلامةِ ممَّا أصابَهم؛ فتكونُ جملةُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩٧).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ﴾ داخلةً في حيِّز الاستئنافِ[١].

- وقوله: ﴿أُمَّةٌ﴾ نكرةٌ وقعَتْ في حيِّزِ عُمومِ الأَزمنةِ، فتُفيدُ العمومَ، أي: كلُّ أُمَّةٍ دخَلَتْ[٢].

٥- **قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾**

- صِيغةُ الأمْر ﴿فَذُوقُواْ﴾ مُستعمَلَةٌ في الإهانةِ والتَّشفِّي، والتشفي منهم فيما نالَهم مِن عذابِ الضِّعفِ تَرتَّب على تحقُّقِ انتفاءِ الفَضلِ بَينهم في تَضعيفِ العذابِ، الذي أوضَحه بقولِه: ﴿لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾[٣].

- وفي هذِه الآيةِ مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾، وورد في سُورةِ الأنفالِ أنَّ عَذابَهم بكُفرِهم، حيث قال: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥]؛ وذلك لأنَّ آيةَ الأعرافِ وردَتْ في أخلاطٍ مِن الأُممِ وأصنافٍ مِن المُكذِّبينَ، تَنوَّعَ كُفرُهم وتكذيبُهم ضُروبًا مِن المخالفاتِ، وافْتَرَوْا على اللهِ سبحانه، فلِشَتَّى مُجترحاتِ هؤلاءِ، واتِّساعِ مُرْتَكَباتِهم، وأنَّهم ضلُّوا وأَضلُّوا؛ ناسَب ما وقَعَ جزاؤُهم عليه ذِكْرَ الاكتسابِ، أمَّا آيةُ الأنفال ففي قومٍ بأعيانِهم، وهم كُفَّارُ قريش مِن أهل مَكَّة، وحالهم معلومةٌ أنَّهم كانوا عَبَدَةَ أوثانٍ، ولم تَتكرَّرْ فيهم الرُّسُلُ، ولا كَفروا بغيرِ التَّكذيبِ به صلَّى الله عليه وسلَّم، وبتَصميمِهم على عِبادةِ آلهتِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٨١).

الآيتان (٤٠-٤١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَلِجَ﴾: أيْ: يَدخُلَ، والوُلُوجُ: الدُّخولُ في مَضِيقٍ، وأَصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيْءٍ[١].

﴿سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾: أيْ: ثَقْبِ الإِبْرَةِ، والسَّمُّ والسُّمُّ: كلُّ ثَقْبٍ ضيِّقٍ كخَرْقِ الإبرَةِ، وأصلُه يدلُّ على مَدْخَلٍ في الشَّيءِ، والخِياطُ: الإبرةُ التي يُخاطُ بها[٢].

﴿مِهَادٞ﴾: أيْ: فِراشٌ وقَرارٌ، والمَهْدُ: ما يُهيَّأُ للصَّبيِّ، وأصلُ المِهَادِ: المكانُ المُمهَّدُ المُوطَّأُ[٣].

﴿غَوَاشٖ﴾: أي: ما يَغشاهُم مِنَ النَّارِ، وهي لُحُفٌ تَغْشاهم وتُحيطُ بهِم مِنْ فوقِهِم، أوْ ما يُغطِّيهِم مِن أنواعِ العَذابِ، وغَواشٍ جمعُ غاشِيَةٍ، وهي الغِطاءُ، وأصلُ (غشي): يَدُلُّ على تَغطيةِ شيءٍ بشَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧).

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تَعالى أنَّ المُكذِّبينَ بآياتِه، والَّذِينَ استكْبَروا عَنْها لا يَصْعَدُ عمَلُهُم إلى اللهِ، ولا يُجابُ لهم دُعاءٌ، ولا تُنزَّلُ عَلَيهِم بَرَكاتٌ ولا رَحَماتٌ، وإذا مَاتُوا لا تُفَتَّحُ لأَرْواحِهِم أبوابُ السَّماءِ، ولا يَدْخُلونَ الجَنَّةَ أبَدًا، كَما أنَّ الجمَلَ لا يَدْخُلُ في ثَقْبِ الإِبْرةِ، وبمِثْلِ هذا العِقابِ يُعاقِبُ اللهُ مَن أجْرَمَ؛ لَهُم مِنَ النَّارِ فِراشٌ تَحتَهُم، ومِن فَوقِهِم غِطاءٌ مِنَ النَّارِ يَغْشاهُم، وكَذَلِك يَجْزي اللهُ الظَّالِمينَ.

تَفسيرُ الآيتَيْنِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾.

أي: إنَّ الَّذينَ كَذَّبوا بآياتِيَ الَّتي جاءَتْ بها رُسُلي، وأَعْرَضوا عَنِ التَّصْديقِ بأَخْبارِها، والعَمَلِ بأَحْكامِها لا يَصْعَدُ لَهم في حَيَاتِهِم إلى اللهِ قولٌ ولا عَملٌ، ولا يُجابُ لهم دُعاءٌ، ولا تُنَزَّلُ إليهم بَرَكاتٌ ورَحَماتٌ، ولا تُفتَّحُ لأَرْواحِهم إذا مَاتوا أَبْوابُ السَّماءِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١١).

قال الشِّنقيطي: (في عَدَمِ فَتحِ أبوابِ السَّماءِ لهم أقوالٌ متقارِبةٌ مَعروفةٌ، لا يُكَذِّب بعضُها بعضًا، وهي كلُّها حَقٌّ، قال بعضُ العُلَماءِ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ فيُرفَعَ لهم منها عمَلٌ صالِحٌ؛ لأنَّ أعمالَهم مردودةٌ إلى الله، كما قال الله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] والكُفَّارُ ليس عندهم عملٌ صالِحٌ يَرفَعُ كَلِمَهم، وليس عندهم كَلِمٌ طَيِّبٌ، وقال بعضُ العُلَماءِ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لاستجابةِ دَعَواتِهم؛ لأنَّ دَعَواتِهم مردودةٌ ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [الرعد: ١٤]، وقال بعضُ العُلَماءِ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لا تَنزِلُ إليهم البَرَكاتُ والرَّحَماتُ مِنَ اللهِ؛ لكُفرِهم. وكلُّ هذه الأقوالِ حَقٌّ، وذهَبَ جماهيرُ مِنَ المُفَسِّرينَ أنَّ معنى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ﴾ لأرواحِهم عند الموتِ، والآية تشمَلُ هذا كُلَّه). ((العذب

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِي اللهُ عنه، قال: ((خَرَجْنا معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم، في جِنَازةِ رَجُلٍ مِن الأَنْصارِ، فانتَهَيْنا إلى القَبْرِ ولَمَّا يُلْحَدْ[١]، فجَلَسَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم، وجَلَسْنا حَوْلَه، كأَنَّ عَلى رُؤوسِنا الطَّيْرَ، وفي يَدِه عُودٌ يَنْكُتُ في الأرضِ[٢]، فرَفَع رَأْسَه، فقال: اسْتَعِيذُوا باللهِ مِنْ عَذابِ القَبْرِ. مَرَّتَينِ أو ثَلاثًا.

ثمَّ قالَ: إنَّ العبْدَ المؤمِنَ إذا كانَ في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقْبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كَأنَّ وُجوهَهُمُ الشَّمْسُ، معَهُم كَفَنٌ مِن أَكْفانِ الجَنَّةِ، وحَنُوطٍ[٣] مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجْلِسوا مِنه مَدَّ البَصَرِ[٤]، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوْتِ علَيه السَّلامُ، حتَّى يَجْلِسَ عندَ رَأْسِه، فيَقُولُ: أَيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجي إلى مَغْفرةٍ مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ. فتَخْرُجُ تَسِيلُ كَما تَسِيلُ القَطْرةُ مِن فِي السِّقَاءِ، فيَأْخُذُها، فإذا أَخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عينٍ حتَّى يَأْخُذوها، فيَجْعَلوها في ذَلِك الكَفَنِ، وفي ذَلِك الحَنُوطِ، ويَخْرُجُ مِنها كأَطْيبِ نَفْحةِ[٥] مِسْكٍ وُجِدَت على وَجْهِ الأَرْضِ. فيَصْعَدونَ بِها، فَلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ المَلائِكَةِ، إلَّا قَالُوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقُولُونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحْسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنْتَهوا بها إلى السَّماء الدُّنيا، فيَسْتَفتِحون له، فيُفتَحُ لهم، فيُشيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها،

النمير)) (٣/ ٢٤٢).

(١) يُلحَدْ: أي: يُدفَنْ في اللَّحدِ. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٤).

(٢) يَنكُتُ في الأرضِ: أي يضرِبُ الأرضَ بِطَرَف العودِ؛ فِعلَ المتفكِّرِ المهمومِ. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٦).

(٣) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. ينظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٦).

(٤) مَدَّ البَصَرِ: أي: مَداه، وهي الغايةُ التي ينتهي إليها البَصَرُ. ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢١٣).

(٥) النَّفحةُ: المرَّةُ مِن نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحَتِه. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).

حتَّى يُنْتَهى به إلى السَّماء السَّابِعَةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَ عَبْدي في عِلِّيِّينَ[١]، وأَعيدُوه إلى الأَرْضِ؛ فإنِّي مِنها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومِنْها أُخْرِجُهم تارَةً أُخْرى.

فتُعادُ رُوحُه في جَسَدِه، فيَأْتيه مَلَكانِ، فيُجْلِسانِه، فيَقُولانِ له: مَن رَبُّك؟ فيَقولُ: رَبِّيَ اللهُ، فيَقولانِ له: ما دِينُك؟ فيَقولُ: دِينيَ الإسلامُ، فيَقولانِ له: ما هذا الرَّجُلُ الَّذي بُعِث فيكُم؟ فيَقُولُ: هو رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم، فيَقولانِ له: وما عِلْمُك؟ فيَقولُ: قرَأتُ كِتابَ اللهِ، فآمَنْتُ به وصَدَّقتُ، فيُنادي مُنادٍ في السَّماءِ: أنْ صَدَق عَبْدي، فأفْرِشوه مِنَ الجنَّةِ، وألبِسُوه مِن الجَنَّةِ، وافْتَحوا له بابًا إلى الجنَّةِ. فيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِها[٢] وطِيبِها، ويُفْسَحُ[٣] له في قَبْرِه مَدَّ بَصَرِه. ويَأْتيه رجُلٌ حسَنُ الوَجهِ، حَسنُ الثِّيابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فيَقولُ: أبْشِرْ بالَّذي يَسُرُّك؛ هذا يَومُك الَّذي كنتَ تُوعَدُ، فيَقولُ له: مَن أنتَ؛ فوَجهُك الوَجهُ يَجيءُ بالخَيرِ؟ فيَقولُ: أَنا عمَلُكَ الصَّالحُ، فيَقولُ: رَبِّ أقِمِ السَّاعةَ حتَّى أرجِعَ إلى أَهْلي ومالي.

وإنَّ العبدَ الكافِرَ إذا كان في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا، وإقبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَل إليه مِن السَّماءِ مَلائكةٌ سُودُ الوُجوهِ، مَعَهمُ المُسُوحُ[٤]، فيَجْلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ حتَّى يَجْلِسَ عِندَ رَأسِه، فيَقولُ: أَيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخْرُجي إلى سَخَطٍ مِن اللهِ وغَضَبٍ! فتَفَرَّقُ في جسَدِه، فيَنتَزِعُها كَما يُنتزع السَّفُّودُ[٥] مِنَ الصُّوفِ المَبْلولِ، فيَأْخُذُها، فإذا أخَذَها لَم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عينٍ حتَّى يَجْعَلوها في تِلك المُسوحِ، ويَخْرُج مِنها كأَنْتَنِ رِيحِ جِيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ

(١) عِلِّيِّينَ: هو دِيوانُ المُقَرَّبينَ. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٦).
(٢) مِن رَوْحِها (بفتح الراء): أي: مِن نَسيمِها. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٧).
(٣) يُفسَحُ: أي: يُوسَّعُ له. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٧).
(٤) المُسوحُ: جمعُ الْمِسحِ: وهو اللِّباسُ الخَشِن. ينظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٩).
(٥) السَّفُّودُ: الحديدةُ التي يُشوى عليها اللَّحمُ. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٨).

الأرضِ. فيَصْعَدونَ بها، فَلا يَمُرُّون بها على مَلأٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فلانٍ؛ بأقبَحِ أسمائِه الَّتي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتَّى يُنتَهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستَفتَحُ له، فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرأ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾. فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأَرضِ السُّفْلى، فتُطْرَحُ روحُه طَرحًا. ثمَّ قرَأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فتُعادُ رُوحُه في جَسَدِه، ويَأْتيه مَلَكانِ، فيُجْلِسانِه، فيَقُولانِ له: مَن ربُّك؟ فيَقولُ: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيَقولانِ له: ما دينُك؟ فيقول: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيَقولانِ له: ما هذا الرَّجُلُ الَّذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيُنادي مُنادٍ مِن السَّماءِ: أنْ كَذَب، فافْرُشوا له مِنَ النَّارِ، وافْتَحوا له بابًا إلى النَّارِ، فيَأتيهِ مِنْ حَرِّها، وسَمُومِها، ويُضيَّقُ عليه قَبرُه حتَّى تَختَلِفَ فيه أَضلاعُه، ويَأتيه رجلٌ قَبيحُ الوَجْهِ، قبيحُ الثِّيابِ، مُنتِنُ الرِّيحِ، فيَقولُ: أَبْشِرْ بالَّذي يَسوؤُك! هذا يَومُك الَّذي كُنتَ تُوعَدُ، فيَقولُ: مَن أنتَ؛ فوَجْهُك الوَجهُ يَجيءُ بالشَّرِّ، فيَقولُ: أنا عمَلُك الخَبيثُ، فيَقولُ: رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعةَ))(١).

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾

أيْ: ولا يَدْخُلُ هَؤلاءِ الَّذين كَذَّبوا بِآياتِنا واستكْبَروا عَنْها الجَنَّةَ أبَدًا، كَما لا

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقاربةٍ.
صحَّحَ إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وقال ابن تيمية في ((تلبيس الجهمية)) (٦/ ١٨٢): مشهورٌ، وصحَّحَ الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨)، وحسَّنه المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠).

يَدخُلُ البَعيرُ في ثَقْبِ الإِبْرةِ[١].

كَما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال سُبْحانَه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥٠-٥١].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

أيْ: ومِثْلَ هذا العِقابِ الَّذي وَصَفْنا- مِن عدَمِ تَفَتُّحِ أَبْوابِ السَّماءِ للأَرْواحِ والأَعْمالِ وغَيرِ ذَلك، والحِرْمانِ مِن دُخولِ الجَنَّةِ- نُعاقِبُ الَّذين كَفَروا، فكَذَّبوا بآياتِنا، واستكْبَروا عَنِ الإيمانِ بِها[٢].

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾.

أي: لِهؤلاءِ الَّذين كَذَّبوا بآياتِنا، واستكْبَروا عنها فِراشٌ مِنَ النَّارِ مِن تَحْتِهم، ومِن فَوقِهم غِطاءٌ مِن النَّارِ يَغْشاهُم، وتُحيطُ بِهِمُ النَّارُ مِن كلِّ جَوانبِهِم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٢٠)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤١)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٧/ ٣٥١ - ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٨).
قال الزجاج: (المجرمونَ- والله أعلم - هاهنا: الكافرونَ؛ لأنَّ الذي ذُكِرَ مِن قِصَّتِهم التكذيبُ بآياتِ اللهِ، والاستكبارُ عنها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٢/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أيْ: ومِثْلَ هذا الَّذي وصَفْنا مِنَ العَذابِ نُعاقِبُ مَن ظَلَمَ نفْسَه، فجَلَب سخَطَ اللهِ عَلَيها بالكُفْر به، ووضَعَ العِبادَةَ في غيرِ مَوضِعِها باتِّخاذِ شَريكٍ مَعَ اللهِ فيها(١).

الفوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾، الاستِكْبارُ هو طلَبُ التَّرفُّعِ بالباطِلِ، وهذا اللَّفْظُ في حَقِّ البشَرِ يَدُلُّ عَلى الذَّمِّ؛ قال تَعالى في صِفَةِ فِرْعونَ: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾(٢) [القصص: ٣٩].

٢- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فكما أنَّهم كذَّبوا بآياتِ اللهِ، فلم يُؤمِنوا بها- مع أنَّها آياتٌ بَيِّناتٌ- واستكَبَروا عنها فلم يَنقادُوا لأحكامِها، بل كذَّبوا وتَوَلَّوا- فهم حينئذٍ آيِسونَ مِن كُلِّ خَيرٍ، فلا تُفَتَّحُ أبوابُ السَّماءِ لأرواحِهم إذا ماتوا وصَعِدَت تُريدُ العُروجَ إلى الله، كما لم تصعَدْ في الدُّنيا إلى الإيمانِ باللهِ ومَعرِفَتِه ومَحَبَّتِه؛ فكذلك لا تصعَدُ بعدَ الموتِ(٣).

السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤١)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٧/ ٣٥١ - ٣٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ يَدُلُّ على أنَّ الأَرْواحَ إنَّما تكونُ سَعيدةً إمَّا بأن يُنَزَّلَ عَليها مِن السَّماءِ أنواعُ الخَيْراتِ، وإمَّا بأَنْ تَصعد أعمالُ تِلك الأَرْواحِ إلى السَّمَواتِ؛ وذَلك يَدُلُّ على أنَّ السَّمواتِ مَوْضعُ بَهجةِ الأَرْواحِ، وأماكِنُ سَعاداتِها، ومنها تُنَزَّلُ الخَيراتُ والبَرَكاتُ، وإليها تَصْعَدُ الأَرْواحُ حالَ فَوزِها بكَمَالِ السَّعاداتِ؛ ولَمَّا كان الأَمْرُ كذَلِك كان قولُه: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ مِن أعظَمِ أنواعِ الوَعيدِ والتَّهْديدِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ دلالةٌ على أنَّ المؤمنينَ تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السَّماءِ؛ يعني: لأرواحِهم عند المَوتِ[٢]، فمفهومُ الآيةِ أنَّ أرواحَ المؤمنينَ المُنقادينَ لأمرِ اللهِ، المُصَدِّقينَ بآياته، تُفَتَّحُ لها أبوابُ السَّماءِ حتى تعرُجَ إلى اللهِ، وتَصِلَ إلى حيثُ أراد اللهُ مِنَ العالَمِ العُلويِّ، وتبتهِجَ بالقُربِ مِن رَبِّها والحُظوةِ برِضوانِه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ مناسبةٌ في أنَّ أبوابَ السَّماءِ لَمَّا لم تُفتَحْ لأعمالِهم بل أُغلِقَت عنها؛ كذلك لم تُفتَحْ لأرواحِهم عند المُفارَقةِ وأُغلِقَت عنها، وكذلك أهلُ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ لَمَّا كانت أبوابُ السَّماءِ مفتوحةً لأعمالِهم، حتى وَصَلَت إلى اللهِ سُبحانه؛ فإنَّها فُتِحَت لأرواحِهم، حتى وصَلَتْ إليه تعالى، وقامَتْ بين يَدَيه؛ فرَحِمَها وأمرَ بكتابةِ اسْمِها في عِلِّيِّينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٧٤).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ ﴾، وذَكَر (سَمَّ الخِيَاطِ)؛ لأَنَّه يُضرَبُ به المثَلُ في ضِيقِ المَسْلَكِ[١].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ﴾ فيهِ جَوازُ فَرْضِ المُحالِ، والتَّعْليقُ عَليه؛ كَما يقَعُ كَثيرًا للفُقَهاءِ[٢].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ﴾، المرادُ مِن هذِه الآيَةِ الإِخْبارُ عَن إِحاطَةِ النَّارِ بهِم مِن كُلِّ جانِبٍ: فلَهُم مِنْها غِطاءٌ ووِطَاءٌ، وفِرَاشٌ ولِحافٌ[٣].

٧- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ * لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾؛ أفادَتِ الآيَتانِ أنَّ المُجْرِمينَ والظَّالِمينَ- الرَّاسِخِينَ في صِفَتَيِ الإِجْرامِ والظُّلمِ- هُمُ الكافِرونَ، وأنَّ المُؤْمِنينَ لا يَكُونُونَ كَذَلِك؛ كَما قال: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وهذا تَحْقيقُ القُرْآنِ والنَّاسُ في غَفْلةٍ عَنه؛ ولِذلِكَ خَالَفُوه في عُرْفِه[٤].

بَلاغةُ الآيَتَينِ:

١- قولُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٩).
(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٧٣).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ مَسوقٌ لتَحْقيقِ خُلودِ الفَريقَينِ في النَّارِ[١].

- وقَد أكَّدَ الخبرَ بقَولِه: ﴿إِنَّ﴾ لِتَأييسِهم مِن دُخولِ الجنَّةِ؛ لدَفْعِ تَوهُّمِ أن يَكونَ المُرادُ مِن الخُلودِ المُتقَدِّمِ ذِكرُه الكِنايَةَ عَن طُولِ مُدَّةِ البَقاءِ في النَّارِ؛ فإنَّه ورَدَ في مَواضِعَ كَثيرةٍ مُرادًا به هذا المعنى[٢].

- وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ ...﴾ وقَعَ الإظهارُ في مَقامِ الإضْمارِ، حيثُ لم يقُل: (إنَّهم لا تُفتَّح لهم..)؛ تَعميمًا، وتَعْليقًا للحُكمِ بالوَصْفِ؛ لِدَفعِ احْتِمالِ أن يَكونَ الضَّميرُ عائِدًا إلى إحْدى الطَّائفتَينِ المُتَحاوِرَتَينِ في النَّارِ، واختِيرَ مِن طرُقِ الإظْهارِ طَريقُ التَّعريفِ بالمَوصولِ؛ إيذَانًا بِما تُومِئُ إلَيْه الصِّلةُ مِن وَجْهِ بِناءِ الخبَرِ، أي: إنَّ ذلك لأجْلِ تكذيبِهم بآياتِ اللهِ واسْتِكبارِهم عنها[٣].

- وقولُه: ﴿لَا تُفَتَّحُ﴾ بضَمِّ التَّاءِ الأُولى، وفَتحِ الفاءِ والتَّاءِ الثَّانيةِ مُشدَّدةً، وهو مُبالَغةٌ في (فَتَحَ)؛ فيُفيدُ تَحقيقَ نَفْيِ الفَتحِ لَهم، أو أُشيرَ بتِلك المُبالَغةِ إلى أنَّ المنفيَّ فتحٌ مَخصوصٌ وهو الفَتحُ الَّذي يُفتَحُ للمُؤمِنينَ، وهو فتحٌ قويٌّ، فتكونُ تلك الإشارةُ زيادةً في نِكايَتِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾، بعدَ أنْ حقَّقَ خُلودَهم في النَّارِ بتَأكيدِ الخَبرِ كُلِّه بحَرْفِ التَّوكيدِ؛ زِيدَ تَأكيدًا بطَريقِ تأكيدِ الشَّيءِ بِما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٧).

يُشبِهُ ضِدَّه، المشتَهِرِ عِندَ أهْلِ البَيانِ بتَأكيدِ المَدْحِ بِما يُشبِهُ الذَّمَّ؛ إذْ هو نفيٌ مُغَيًّا بمُسْتَحيلٍ؛ وهو أن يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياطِ؛ أي: لو كان لانتِفاءِ دُخولِهِمُ الجنَّةَ غايةٌ لكَانَت غايَتُه وُلوجَ الجَملِ في سَمِّ الخِياطِ، وهو أمرٌ لا يَكونُ أبَدًا[١].

- وخَصَّ (الجمَلَ) بالذِّكْر مِنْ بينِ سائرِ الحيَواناتِ؛ لأنَّه أكبَرُ الحيَواناتِ جِسْمًا عِندَ العرَبِ، وثَقْبُ الإبرةِ أضيقُ المنافِذِ، فكان وُلوجُ الجَملِ في تلك الثُّقبة الضَّيقةِ مُحالًا[٢].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ تَذْييلٌ يُؤْذِنُ بأنَّ الإجرامَ هو الَّذي أوقَعَهم في ذلك الجزَاء[٣].

٢- قولُه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ﴾ فيه: كِنايةٌ عَنِ انتِفاءِ الرَّاحةِ لهم في جَهنَّمَ؛ فإنَّ المرءَ يحتاجُ إلى المِهادِ والغاشِيَةِ عندَ اضْطِجاعِه للرَّاحةِ، فإذا كان مِهادُهم وغاشِيتُهم النَّارَ فَقَدِ انْتَفَتْ راحَتُهم، وهَذا ذِكْرٌ لعذابِهِم السُّوءِ بعْدَ أنْ ذَكَرَ حِرْمانَهم مِنَ الخَيرِ[٤].

- وقولُه: ﴿وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ﴾ صرَّحَ في هذا بالفَوقيَّةِ، بَينَما لم يُصرِّح بالتَّحتيةِ في المهادِ؛ لأنَّ المِهادَ كالصَّريحِ فيه، ولأنَّ (الغاشِيةَ) ربَّما كانَتْ عن يَمينٍ أَو شِمالٍ، أو كانَت بمعنَى مُجرَّدِ الوُصولِ والإدْراكِ، ولَعلَّه حذَفَ الأوَّلَ؛ لأنَّ الآيةَ مِن الاحْتِباكِ: فذَكَر جَهنَّمَ أوَّلًا دَليلًا على إرادَتِها ثانيًا،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٢٩).

وذكَرَ الفَوْقَ ثانيًا دَليلًا على إرادَةِ (التَّحْتِ) أوَّلًا[١].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عَبَّر عنهم بالمُجرِمينَ تارَةً وبالظَّالِمينَ أُخْرى؛ إِشْعارًا بأَنَّهم بتكذيبِهم الآياتِ اتَّصَفوا بكلِّ واحدٍ مِن ذَينِكَ الوَصْفَينِ القَبيحَينِ، وذكَر الجُرْمَ مَعَ الحِرْمانِ مِن دُخولِ الجنَّةِ، والظُّلْمَ مَع التَّعذيبِ بالنَّارِ؛ لِلتَّنبيهِ عَلى أنَّه أَعظَمُ الجَرائمِ والجَرائرِ[٢].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٨).

الآيتان (٤٢-٤٣)

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿غِلٍّ﴾: أيْ: عَداوَةٍ وشَحْناءَ، والغِلُّ: الضِّغْنُ يَنْغَلُّ في الصَّدرِ، والْحَسَدُ أيضًا، وأصلُ (غلل): يَدُلُّ عَلى تخلُّلِ شيءٍ، وثَباتِ شيءٍ[1].

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تَعالى أنَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ- وَلا يُكلِّفُ سُبحانَه نَفسًا إلَّا ما تَستَطيعُه- هم أهلُ الجنَّةِ، ماكِثونَ فيها أبدًا.

كما يُخبِرُ تَعالى أنَّه نزَعَ مِن صُدورِ أهلِ الجَنَّةِ الأحقادَ والبَغْضاءَ والكَراهيةَ والحسَدَ، تَجْري مِن تَحتِهِمُ الأَنهارُ، وقَالوا: الحَمْدُ للهِ الَّذي وفَّقَنا للإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ الَّذي أوصَلَنا لِهذا النَّعيمِ المُقيمِ، وما كُنَّا لِنُوفَّقَ لَولا توفيقُه تَعالى لَنا، ولَقد جاءَت رسُلُ ربِّنا بالحَقِّ، ويُنادَى أهلُ الجنَّةِ: أنَّ هذه الجَنَّةَ أُورِثتُموها بسَببِ إيمانِكُم وعمَلِكُمُ الصَّالحِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا استَوْفى اللهُ تعالى الكَلامَ في الإِنْذارِ والوَعيدِ للمُكذِّبينَ؛ أعقَبَه بالبِشارَةِ والوَعدِ لِلمُؤمِنينَ المُصدِّقينَ؛ وذَلك عَلى عادَةِ القُرْآنِ في تَعقيب أحَدِ الغرَضَينِ بالآخَرِ[(١)]، فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢﴾.

أي: والَّذين صدَّقوا وأقرُّوا وانقادوا لِمَا وجَب عليهِمُ الإيمانُ به، وعَمِلوا ما أمَرَهمُ اللهُ تعالى به، وتَرَكوا ما نَهاهُم عنه- ونَحنُ لَا نُكلِّفُ أحَدًا شَيئًا مِنَ الاِعْتِقاداتِ والأَعْمالِ إلَّا مَا يَقْدِرُ عَليهِ ولا يَعْجِزُ عَنه- هُم أَهلُ الجنَّةِ دُونَ غَيرِهم، وهُم فيها يُنعَّمونَ، ماكِثونَ أبَدًا لا يَخرُجونَ[(٢)].

كَما قال اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال تَبارك وتعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال سُبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٨).
قال الواحديُّ: (وُسعُ الإنسانِ: ما يقدِرُ عليه، وليس معنى الوُسعِ بذلُ المجهودِ وأقصى الطَّاقة، واللهُ تعالى لم يكلِّفِ العبادَ ما يشُقُّ ويتعَذَّرُ عليهم، ولكِنَّه كلَّفَهم ما يُطيقونَ، ولا يعجِزونَ عنه). ((الوسيط)) (٢/ ٣٦٨).
وقال الرازي: (معنى الوُسعِ ما يَقدِرُ الإنسانُ عليه في حالِ السَّعةِ والسُّهولة، لا في حالِ الضِّيقِ والشِّدَّة.. وأما أقصى الطَّاقة يُسمَّى جُهدًا لا وُسعًا). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٢).

وقالَ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦].

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾.

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾.

أيْ: قَلَعْنا وأزَلْنا مِن صُدورِ أَهْلِ الجنَّةِ الأَحْقادَ والبَغْضاءَ والكَراهِيةَ والحسَدَ الَّذي كان بَينَهم في الدُّنيا؛ حتَّى يَكونوا في الجنَّةِ إِخْوانًا مُتَحابِّينَ، ومَع أنَّ مَنازِلَهم فيها مُتفاوِتةٌ، إلَّا أنَّه لا يَحْسُدُ أحَدٌ مِنهم أحَدًا عَلى ارتِفاعِ مَنزِلتِه عَليه[١].

قال تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِي الله عنه، قال: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: ((يَخْلُصُ المؤمنونَ مِنَ النَّارِ، فيُحْبَسونَ على قَنطَرةٍ[٢] بينَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيُقَصُّ[٣] لبَعضِهم مِن بَعضٍ مَظالِمُ كانت بينَهم في الدُّنيا، حتَّى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دُخول الجنَّةِ، فوَالَّذي نَفسُ محمَّدٍ بيَدِه، لأحَدُهم أهدى بمَنزِلِه في الجنَّةِ مِنه بمَنزِلِه كان في الدُّنيا))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٢ - ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٦١).

(٢) القَنطرةُ: الصِّراطُ المَمدودُ. ينظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٥٦٢).

(٣) فيُقَصُّ: يُقَالُ: أقَصَّه الحاكمُ يُقِصُّه إذا مَكَّنه مِن أخذِ القِصاص، وهو أنْ يفعلَ به مِثْلَ فِعْله. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٧٢).

(٤) رواه البخاري (٦٥٣٥).

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أيْ: تَجْري أَنهارُ الجنَّةِ بينَ أَيْديهِم، وهُم يرَوْنها مِنْ عُلْوٍ، تَجري مِن تَحتِ بَساتينِهِم وقُصورِهم[1].

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

أيْ: وقالَ أهلُ الجنَّةِ حينَ أُدخِلوا الجنَّةَ، ورَأَوُا النَّعيمَ، وما صُرِفَ عَنهُم مِنَ العَذابِ المُهينِ: الحَمْدُ للهِ الَّذي وفَّقَنا للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ الَّذي أكسَبَنا هذا النَّعيمَ، وما كُنَّا لِنُوفَّقَ لذَلِك لَولا أنْ وفَّقَنا اللهُ تَعالى إليه بفَضلِه ورَحمتِه[2].

كَما قال تَعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ عَنْه، قال: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٦).
قال ابنُ عاشور: (وهذا القَولُ يَحتمِلُ أن يكونوا يقولونَه في خاصَّتِهم ونُفوسِهم، على معنى التقَرُّبِ إلى الله بِحَمدِه، ويحتمِلُ أن يكونوا يقولونَه بينهم في مجامِعِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٢).

((كلُّ أهلِ الجنَّةِ يَرى مَقْعدَه مِنَ النَّارِ فيَقولُ: لَولا أنَّ اللهَ هَدَاني! فيَكُونُ له شُكرًا، وكُلُّ أَهلِ النَّارِ يَرى مَقعَدَه مِنَ الجنَّةِ فيَقولُ: لو أنَّ اللهَ هَداني! فيَكونُ له حَسْرةً))(١).

وعَن أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ عَنْه، قال: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: ((لَن يُنجِّيَ أحَدًا مِنكُم عمَلُه. قالوا: ولا أنتَ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: وَلا أنا، إلَّا أن يتَغمَّدَني اللهُ برَحمةٍ))(٢).

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

أيْ: يَقولُ أهلُ الجنَّةِ حِينَ يرَوْنَ عِيانًا ما وعَدَهم به الرُّسلُ: لقَد جاءَتْنا في الدُّنيا رُسلُ ربِّنا بالحَقِّ الثَّابتِ الَّذي لا شَكَّ فيه ولا مِرْيةَ(٣).

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أيْ: ويُقالُ لأَهلِ الجنَّةِ(٤): هذه الجنَّةُ أُوتيتُموها مِيراثًا مِنَ الكُفَّارِ؛ بسَببِ إيمانِكُم وكُفرِهم، وطاعَتِكم وعِصْيانِهم، فنِلْتُم بذلك رَحمةَ اللهِ فأدخَلَكم جنَّتَه، وبوَّأَكم فيها مَنازِلَ الكُفَّارِ الَّتي كانَت مِن نَصيبِهم، لو أنَّهم آمَنوا وعَمِلوا

---

(١) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٣٩٠)، وأحمد (١٠٦٥٢)، وابن أبي الدنيا في ((صفة النار)) (٢٥٨)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٦٢٩).
قال الحاكم في ((المستدرك)) (٣٦٢٩): صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٤٠٢)، رجاله رجال الصحيح، وحسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٥١٤).

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٢)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٧).

(٤) قال الرازي: (ذلك النداءُ إمَّا أن يكونَ مِنَ اللهِ تعالى، أو أن يكونَ مِنَ الملائكةِ، والأولى أن يكونَ المُنادي هو الله سبحانه). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٤).

الصَّالِحاتِ[١]، أَعْطاكُمُوها اللهُ عَطِيَّةً هَنيئةً، لا تَعَبَ فيها ولا مُنازعَةَ[٢]، ويُبْقيكم فيها في أكمَلِ نَعيمٍ وسُرورٍ خالدين، كما يبقَى على الوارِثِ مالُ المَوروثِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقال سُبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠ - ١١].

وعَن أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: ((ما مِنكُم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومنزِلٌ في النَّارِ، فإذا ماتَ فدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذَلِك قولُه تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]))[٤].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- الجامِعونَ بينَ الإيمانِ والأَعمالِ الَّتي تَصلُح بها نَفسُ الإنسانِ، وتَزْكُو

---

(١) وهذا القَولُ اختيارُ ابنِ جريرٍ، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩).
قال الرازي: (أُورِثْتُموها فيه قولانِ: القَولُ الأوَّلُ: وهو قولُ أهلِ المعاني: أنَّ معناه: صارَتْ إليكم كما يصيرُ الميراثُ إلى أهْلِه، والإرثُ قد يُستعمَلُ في اللُّغةِ، ولا يُرادُ به زَوالُ المُلكِ عن الميِّتِ إلى الحيِّ، كما يُقالُ: هذا العمَلُ يُورِثُك الشَّرَفَ، ويُورِثُك العارَ؛ أي: يُصَيِّرُك إليه، ومنهم مَن يقولُ: إنَّهم أُعْطُوا تلك المنازِلَ مِن غَيرِ تَعَبٍ في الحالِ، فصار شبيهًا بالميراثِ. والقولُ الثاني: أنَّ أهلَ الجنَّةِ يُوَرَّثونَ منازِلَ أهلِ النَّارِ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٤).
(٢) وهذا اختيارُ ابنِ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٤).
(٣) وهذا اختيارُ الشِّنقيطيِّ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٧١-٤٧٢).
(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٣٤١)، والبيهقي في ((البعث والنشور)) (٢٤١).
صحح إسناده القرطبي في ((التذكرة)) (٤٣٥)، وابن حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٤٥١)، وقال البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٢٦٦): إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصحح الحديث الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٧٩٩).

فتكونُ أهْلًا لِلنَّعيمِ والرِّضْوانِ، هم أصحابُ الجنَّةِ الَّذين يُخلَّدونَ فيها أبَدًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[١].

٢- يُنبِّه تعالى على أنَّ الإيمانَ والعملَ به سَهلٌ؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾[٢]، وأنَّ الجنَّةَ -معَ عِظَمِ مَحلِّها- يُوصَلُ إليها بالعمَلِ السَّهلِ مِن غَيرِ تحمُّلِ الصَّعبِ[٣]، فقولُه تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾؛ أيْ: بمِقْدارِ ما تسَعُه طاقَتُها، ولا يَعْسُرُ على قُدرتِها، فَعليها في هذه الحالِ أن تتَّقيَ اللهَ بحسَبِ استِطاعَتِها، وإذا عَجَزَت عن بعضِ الواجِباتِ الَّتي يَقدِرُ عليها غيرُها سقَطَت عَنها[٤].

٣- لا سبَبَ في الوُصولِ إلى نَعيمِ اللهِ تَعالى غيرُ فَضلِه وكرَمِه في الأُولى والأُخْرى، فالمُهْتدِي مَن هَداه اللهُ تَعالى، وإنْ لَم يَهْدِه اللهُ تَعالى لَم يَهْتَدِ، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[٥].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾: لَمَّا كان لفْظُ (الصَّالِحاتِ) عامًّا يَشمَلُ جميعَ الصَّالحاتِ الواجِبةِ والمستَحبَّةِ، وقد يَكونُ بعضُها غيرَ مَقدورٍ للعَبدِ؛ قال تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾، ففي هذه الجملةِ المعترضةِ رَفْعُ تَوَهُّمِ السَّامعِ أنَّ المكَلَّفينَ عَمِلوا جميعَ الصَّالحاتِ؛ المَقدورِ عليها والمَعجوزِ عنها- كما يُجوِّزُهُ أصحابُ تكليفِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٢).

ما لا يُطاقُ- فرُفِعَ هذا التوهُّمُ بجملةِ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ واعترِضَ بها بينَ المبتدأِ وخَبَرِه بما يُزيلُ الإشكالَ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(١)] [النساء: ٨٤].

٢- نَستفيدُ مِن قولِ اللهِ تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ أنَّه لا واجِبَ معَ العَجْزِ، ولا مُحرَّمَ معَ الضَّرورةِ[(٢)].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ قال: ﴿تِلْكُمُ﴾؛ لأنَّهم وُعِدوا بِها في الدُّنيا، فكأنَّه قِيل لهم: هذه تِلْكمُ الَّتي وُعِدتُّم بها[(٣)].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾، التَّعبيرُ بالإيراثِ يَدُلُّ على أنَّها عَطيَّةٌ بدونِ قَصدِ تَعاوُضٍ ولا تَعاقُدٍ، وأنَّها فَضلٌ محضٌ مِن اللهِ تعالى[(٤)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قيل: أُضيفَ العَمَلُ إليهم وشُكِرُوا عليه؛ لَمَّا اعترَفوا لله بنِعمَتِه عليهم بالجنَّةِ وبأسبابِها مِن الهِدايةِ، وحَمِدُوا اللهَ على ذلك كُلِّه[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٩).
قال الرازي: (أكثَرُ أصحابِ المعاني على أنَّ قولَه تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ اعتراضٌ وقَعَ بين المبتدأِ والخبَرِ، والتقديرُ: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أولئك أصحابُ الجنَّة هم فيها خالِدونَ)، وإنَّما حَسُنَ وقوعُ هذا الكلامِ بين المبتدأِ والخبَرِ؛ لأنَّه مِن جِنسِ هذا الكلامِ؛ لأنه لَمَّا ذكَرَ عَمَلَهم الصَّالحَ، ذكر أنَّ ذلك العمَلَ في وُسعِهم غيرُ خارجٍ عن قُدرَتِهم). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٢). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٤).
(٥) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٩٨).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ دلالةٌ على أنَّ الجنَّةَ والعَمَلَ؛ كِلاهما مِن فضْلِ اللهِ ورَحْمَتِه على عبادِه المؤمنينَ[١].

بَلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ خَبرٌ عَن ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وقولُه: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ جملةٌ مُعترِضةٌ بين المسنَدِ إليه والمسنَدِ على طَريقةِ الإدْماجِ، وفائدَةُ هذا الإدْماجِ الارتِفاقُ بالمؤمنِينَ؛ لِأنَّه لَمَّا بَشَّرَهم بالجَنَّةِ على فِعلِ الصَّالحاتِ طَمْأنَ قُلوبَهم بأنْ لَا يُطْلَبوا مِنَ الأَعْمالِ الصَّالحةِ بِما يَخرُجُ عَنِ الطَّاقةِ، وأيضًا لِلتَّرغيبِ في اكْتِسابِ النَّعيمِ المُقيمِ بِما يَكونُ في وُسْعِهم، ويَسهُلُ عَليهم، وهو الإمكانُ الواسِعُ غيرُ الضَّيِّقِ مِنَ الإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ[٢].

٢- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دلَّ على قَصْرِ مُلازَمةِ الجنَّةِ عَليهِم دونَ غَيرِهم؛ ففيه تأييسٌ آخَرُ للمُشرِكينَ بحَيثُ قَوِيَت نصِّيَّةُ حِرمانِهم مِن الجنَّةِ ونَعيمِها[٣].

٣- قولُه: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ فيه التَّعبيرُ عَنِ المستَقْبَلِ بلَفظِ الماضي ﴿وَنَزَعۡنَا﴾؛ للتَّنبيهِ على تَحقُّقِ وُقوعِه؛ أيْ: ونَنزِعُ ما في صُدورِهم مِن غلٍّ[٤].

- واتِّساقُ النَّظْمِ يَقتَضي أن تَكونَ جُملةُ: ﴿وَنَزَعۡنَا﴾ مُعتَرِضةً بينَ جُملةِ: ﴿

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٣١).

أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢]، وجُملَةِ: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ اعتِراضًا بُيِّنَ به حالُ نُفوسِهم في المُعامَلةِ في الجنَّةِ؛ لِيُقابِلَ الاعتِراضَ الَّذي أُدمِجَ في أَثْناءِ وَصْفِ عذابِ أهلِ النَّارِ، والمبيَّن به حالُ نُفوسِهم في المعامَلةِ بقَولِه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ اعتراضًا بينَ قولِه: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ وقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾[(١)].

٤- قولُه: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾: فيه حذف المَفعولِ الثَّاني لكلٍّ من الفِعلينِ ﴿نَهۡتَدِيَ﴾ و﴿هَدَىٰنَا﴾؛ لِظُهورِ المُرادِ، أو لإِرادَةِ التَّعْميمِ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ﴾ تَوكيدُ النَّفيِ باللَّام[(٣)].

٥- قولُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا ابتدائيًّا؛ لصُدورها عنِ ابتِهاجِ نُفوسِهم واغتِباطِهم بما جاءَتْهم به الرُّسلُ، فجَعَلوا يتَذكَّرون أسبابَ هِدايتِهم، ويَعتَبِرون بذَلك ويَغْتَبِطون[(٤)].

- وتأكيدُ الفِعلِ بلَامِ القسَمِ وبـ(قَدْ) في قولِه: ﴿لَقَدۡ﴾ معَ أنَّهم غيرُ مُنكِرينَ لِمَجيءِ الرُّسلِ: إمَّا لأنَّه كِنايةٌ عَنِ الإعجابِ بِمُطابَقةِ ما وعَدَهم به الرُّسلُ مِنَ النَّعيمِ لِمَا وجَدوه، وإمَّا لأنَّهم أَرادوا بقَولِهم هذا الثَّناءَ على الرُّسلِ، والشَّهادةَ بصِدْقِهم جَمْعًا مع الثَّناءِ على اللهِ، فأَتَوْا بالخبَرِ في صورةِ الشَّهادةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٣).

المؤكَّدةِ الَّتي لا تَردُّدَ فيها[١].

٦- قولُه: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فيه تَشْبيهُ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ بالوارِثِ والمَوْروثِ عنه؛ لأنَّ اللهَ خلَقَ في الجنَّةِ مَنازلَ لِلكُفَّارِ، بتَقْديرِ إيمانِهم، فمَنْ لم يُؤمِنْ مِنهم جُعِلَ مَنزلُه لأهلِ الجنَّةِ، أو لأنَّ دُخولَ الجنَّةِ لا يَكونُ إلَّا برَحْمةِ اللهِ تَعالى لا بعَملٍ، فأشبَهَ الميراثَ[٢].

- وباءُ السَّبَبيَّةِ في قولِه: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ اقتَضَتِ الَّذي أَعْطاهُم مَنازِلَ الجنَّةِ؛ أَرادَ به شُكرَ أَعْمالِهم وثَوابَها مِن غَيرِ قَصدِ تَعاوُضٍ ولا تَقابُلٍ، فجَعَلها كالشَّيءِ الَّذي استَحقَّه العامِلُ عِوضًا عن عمَلِه[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٥).

الآيات (٤٤-٤٩)

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَصُدُّونَ﴾: أي: يُعرِضون وينصرَفون، ويصرفون غيرَهم، والصَّدُّ قد يكونُ انصرافًا عن الشَّيء وامتناعًا؛ إذا كان لازمًا غير مُتعدٍّ، وقد يكونُ صرفًا ومنعًا؛ إذا كان مُتعدِّيًا بمعنى يصَدُّون غيرَهم. وأصل (صدد): إعراضٌ وعدولٌ [(١)].

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾: أي: يُحاولونَ أن يُغَيِّرُوا سَبيلَ الله، ويُبَدِّلُوها عنِ الاستقامَةِ الَّتي جعلَها اللهُ لها، وأصلُ (بغي) طَلَبُ الشَّيءِ، ومنه: بَغَيْتُ الشَّيءَ أبغيه: إذا طلبتَه، و﴿عِوَجٗا﴾: أيْ: زَيغًا وتَحْريفًا، واعْوِجاجًا في الدِّينِ، وأصلُ (عوج): الميلُ في الشَّيءِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١) و(٤/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٢٦).

﴿حِجَابٌ﴾: أي: سُورٌ، والحِجابُ: كلُّ ما يَستُرُ المَطلوبَ، ويمنعُ مِنَ الوُصولِ إليه، وأصلُ (حجب): المنعُ[١].

﴿ٱلْأَعْرَافِ﴾: جمْعُ عُرْفٍ، وهو سورٌ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ؛ سُمِّي بذَلِك لارتِفاعِه، وكلُّ مرتفِعٍ عندَ العرَبِ: عُرْفٌ[٢].

﴿بِسِيمَىٰهُمْ﴾: أي: بعَلاماتِهم، والسِّيما: العلامةُ التي يُميَّزُ بها الشيءُ عن غيرِه؛ وأصلُ الوَسْمِ: الأثرُ والمَعْلَمُ[٣].

﴿صُرِفَتْ﴾: أيْ: وُجِّهَت، والصَّرفُ: ردُّ الشَّيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغَيرِه، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رجْعِ الشَّيءِ[٤].

﴿تِلْقَآءَ﴾: أيْ حِيالَ، أو تُجاهَ، أو نَحْوَ، واللِّقاءُ: مُقابلَةُ الشَّيءِ ومُصادَفتُه مَعًا، وأصلُ (لقي): تَوافِي شيئيْنِ[٥].

المَعْنَى الإجماليُّ:

ونادى أهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ بعدَ استِقْرارِ كلٍّ مِنهم في مَنازِلِهم، قائِلينَ لهم: إنَّهم قد وجَدوا ما وعَدَهم ربُّهم مِن إثابةِ أهلِ طاعتِه حقًّا، وسَألوهم: هل وجَدوا

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٨) ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١١).

هم ما وعَدَ ربُّهم حقًّا، قالوا: نعَم، فنادى مُنادٍ بصوتٍ عالٍ بينَ أصحابِ الجنَّةِ وأَصْحابِ النَّارِ: أنْ لعنَةُ اللهِ عَلى الظَّالِمينَ، الَّذين كانوا في الدُّنيا يُعْرِضونَ عَنِ الإسلامِ، ويَمنَعون غيْرَهم مِنِ اتِّباعِه، ويَسْعَونَ لإِظْهارِ دينِ الإسلامِ أعوَجَ غيرَ مُستقيمٍ، وهُم بالآخِرةِ لا يُؤمِنونَ.

وأخبرَ تعالى أنَّ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ حاجزًا يَمنَعُ مِن وُصولِ أهلِ النَّارِ إلى الجنَّةِ، وعَلى هذا السُّورِ المرتفِعِ الَّذي يَحْجِزُ بينَهما رِجالٌ استَوَتْ حسَناتُهُم معَ سيِّئاتِهم، يَعرِفون كُلًّا مِن أهلِ الجنَّةِ وأَهلِ النَّارِ بعَلاماتِهم، ونادَوْا أصحابَ الجنَّةِ أنْ سَلامٌ علَيكم، ولَم يَدخُلوا الجنَّةَ بَعدُ، لَكنَّهم يَطمَعون في دُخولِها، وإذا صَرَفَ اللهُ عُيونَهم تُجاهَ أهلِ النَّارِ، فأبصَروا ما هم فيه، قالوا: ربَّنا لا تَجْعَلْنا مَع القومِ الظَّالِمينَ في النَّارِ.

ونادَوْا رِجالًا مِمَّن هُم في النَّارِ مِن رُؤَساءِ الكُفَّارِ والمُشرِكينَ، عرفوهم في الدُّنيا بأعيانِهم، ويَعرِفونَهم في النَّارِ بعَلاماتِ أهلِها، قالوا لهم: ماذا نَفَعَكم ما كُنتُم تَجْمَعونَه في الدُّنيا، وماذا أفادَكم استِكْبارُكم فيها، أهَؤلاءِ الضُّعفاءُ الَّذينَ أدخَلَهمُ اللهُ الجنَّةَ هُمُ الَّذينَ أقسَمتُم أنَّ اللهَ لَن يَنالَهم برَحمةٍ؟! ويُقالُ لِهؤلاءِ الواقِفينَ عَلى السُّورِ الحاجزِ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ: ادخُلوا الجنَّةَ، لا خَوْفٌ علَيكُم مِمَّا هو آتٍ، ولا أنتُم تَحزَنونَ على ما فاتَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا شرَحَ اللهُ تعالى وَعيدَ الكُفَّارِ، وثَوابَ أهلِ الإيمانِ والطَّاعاتِ، أتبعَه بذِكْرِ

المناظَراتِ الَّتي تَدور بينَ الفَريقينِ[١]، فقال تعالى:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾.

أي: ونادى أهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ بعدَ استِقْرارِ كُلٍّ مِنهم في مَنازِلِهم[٢].

﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾.

أي: فقال أهلُ الجنَّةِ لهم: يا أهلَ النَّارِ، قد وَجَدْنا ما وعَدَنا ربُّنا على ألسِنَةِ رُسلِه مِنَ الثَّوابِ على الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ حقًّا، فهَل وجَدتُّم ما وعَدَكم ربُّكم مِنَ العَذابِ على الكُفرِ والمَعاصي حقًّا؟ فقالوا: نعَم، قد وجَدْناه حقًّا[٣].

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أيْ: فنادى مُنادٍ[٤]، وأعْلَمَ بصوتٍ عالٍ بينَ أهلِ النَّارِ وأهلِ الجنَّةِ قائلاً: لَعنةُ اللهِ مُستقِرَّةٌ على الكفَرةِ الَّذين كانوا يضَعونَ العِبادَةَ في غَيرِ مَوضعِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٥)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧١- ٢٧٢).

قال الشنقيطي: (وهذا النِّداءُ للعُلماءِ فيه سؤالاتٌ: هل نادى جميعُ أهلِ الجنَّةِ جميعَ أهلِ النَّارِ؟ أو نادى بعضُهم بعضًا؟ وظاهِرُ القرآنِ أنَّه نداءٌ عامٌّ. وقال بعضُ العلماء: كلُّ ناسٍ من المؤمنينَ يُنادون مَن كانوا يَعرفونَهم في الدُّنيا مِنَ الكُفَّار). ((العذب النمير)) (٣/ ٢٧١-٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٢).

(٤) قال القرطبي: (﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: نادى وصوَّتَ، يعني من الملائكةِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٥ - ٢٧٦).

قال ابنُ عاشور: (وهذا التأذينُ إخبارٌ باللَّعنِ، وهو الإبعادُ عن الخيرِ، أي إعلامٌ بأنَّ أهلَ النَّارِ مُبعَدون عن رحمةِ الله؛ زيادةً في التأييسِ لهم، أو دعاءً عليهم بزيادةِ البُعدِ عن الرَّحمة، بتضعيفِ العَذابِ أو تحقيقِ الخُلود). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٧ - ١٣٨).

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أيِ: الَّذين كانوا في الدُّنيا يُعرِضون عَنِ الإسلامِ، ويَمنَعون النَّاسَ مِن اتِّباعِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾ [سبأ: ٣٣].

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾.

أيْ: ويَطْلُبون ويُحاوِلون إظهارَ دينِ الإسلامِ أعوَجَ غيرَ مُستقيمٍ؛ حتَّى لا يَتَّبعَه أحَدٌ؛ كأَنْ يَختَلِقوا له نَقائصَ يُموِّهون بها على النَّاسِ تَنفيرًا عنه، أو بإلقاءِ الشُّكوكِ والشُّبهاتِ حَولَه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٨).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ بالصَّدِّ عن سبيلِ الله: إمَّا تَعَرُّضُ المُشركينَ للرَّاغبينَ في الإسلامِ بالأذى والصَّرفِ عن الدُّخولِ في الدِّينِ بوجوهٍ مختلفةٍ- وسبيلُ اللهِ ما به الوصولُ إلى مَرضاتِه، وهو الإسلامُ- وإمَّا إعراضُهم عن سَماعِ دعوةِ الإسلامِ وسَماعِ القُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٩- ١٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٧ - ٢٧٨).

هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [سبأ: ٤٣].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ۝ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ۝ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٥].

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾.

أيْ: وهُم بيَومِ القيامةِ جاحِدونَ مُكَذِّبون(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٣٨].

وقال سُبحانه: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [السجدة: ١٠].

﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞ ﴾.

أيْ: وبينَ الجنَّةِ والنَّارِ حاجزٌ يمنَع مِن وُصولِ أهلِ النَّارِ إلى الجنَّةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾ [الحديد: ١٣].

﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٣ - ٢٨٤).

أيْ: وعَلى هذا السُّورِ المرتَفعِ رِجالٌ قد استوَتْ حسَناتُهم معَ سيِّئاتِهم[١].

﴿يَعۡرِفُونَ كُلّٗا بِسِيمَىٰهُمۡ﴾.

أيِ: الرِّجالُ الَّذينَ على الأَعرافِ يَعرِفون أهلَ الجنَّةِ بعَلامتِهم الَّتي يتَميَّزون بها، وهي بَياضُ وحُسنُ وُجوهِهم، ويَعرِفون أهْلَ النَّارِ بسَوادِ وقُبحِ وُجوهِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وقال سُبحانه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ * ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ * وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ * تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦-٢٧].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٩، ٢١٦)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٨).
قال ابنُ كثير: (اختلفت عباراتُ المُفَسِّرين في أصحابِ الأعرافِ مَن هم، وكلُّها قريبةٌ ترجِعُ إلى معنًى واحدٍ، وهو أنهم قومٌ استوَت حسناتُهم وسَيِّئاتهم؛ نصَّ عليه حذيفةُ، وابنُ عباس، وابن مسعود، وغيرُ واحدٍ مِنَ السَّلَف والخلف، رحمهم الله). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٨).
وقال ابن عاشور: (والذي ينبغي تفسيرُ الآية به: أنَّ هذه الأعرافَ جَعَلَها اللهُ مكانًا يُوقَفُ به مَن جَعَله اللهُ مِن أهلِ الجنَّةِ قبل دُخُوله إيَّاها، وذلك ضربٌ مِنَ العِقابِ خَفيفٌ، فجعل الداخلينَ إلى الجنَّة متفاوتينَ في السَّبقِ تفاوتًا يعلمُ اللهُ أسبابَه ومقاديرَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٩).
قال ابنُ الجوزي: (السِّيما: العلامةُ، وإنَّما عَرَفوا النَّاسَ؛ لأنهم على مكانٍ عالٍ يُشرفونَ فيه على أهلِ الجنَّةِ والنَّار). ((زاد المسير)) (٢/ ١٢٤).

أيْ: ونادَى الرِّجالُ الَّذينَ عَلى الأعرافِ أهلَ الجنَّةِ بالتَّحيَّةِ قائلينَ لهم: سَلامٌ عَليكُم؛ أيْ: سَلِمتُم مِن كلِّ الآفاتِ، وصِرْتُم في مأمَنٍ مِن جَميعِ المؤذِياتِ[١].

﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

أيْ: إنَّ أهلَ الأعرافِ لَم يَدْخُلوا الجنَّةَ بَعدُ، لكنَّهم يَطمَعونَ في دُخولِها برَحمةِ اللهِ تعالى[٢].

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

أيْ: وإذا صَرَف اللهُ عُيونَ أصحابِ الأعرافِ إلى جِهةِ أصحابِ النَّارِ، فأبصَروا ما هم فيه مِن العَذابِ، دعَوُا اللهَ قائِلينَ: يا ربَّنا لا تَجعَلْنا معَ الكُفَّارِ في النَّارِ[٣].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ﴾.

أيْ: ونادى أُولئك الرِّجالُ الَّذين على الأعرافِ رِجالًا مِن رُؤَساءِ الكُفَّارِ والمُشرِكِينَ مِن أهلِ النَّارِ عرَفوهم في الدُّنيا بأعيانِهم، ويَعرِفونَهم في النَّارِ بعَلاماتِ أهلِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٩).
قال ابن عاشور: (ونداؤُهم أهلَ الجنَّةِ بالسَّلامِ يُؤذِنُ بأنَّهم في اتصالٍ بعيدٍ مِن أهلِ الجنَّة، فجعل اللهُ ذلك أمارةً لهم بحُسنِ عاقِبَتِهم ترتاحُ لها نفوسُهم، ويعلمونَ أنَّهم صائرونَ إلى الجنَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٥)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٢٩ - ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٣ - ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٩ - ٢٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير

﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾.

أي: قال أصحابُ الأعرافِ لعُظماءِ المُشرِكينَ: ماذا نفَعَكم ما كُنتُم تَجمَعونَه في الدُّنيا مِنَ الأَمْوالِ والأولادِ والجُنودِ والأَتْباعِ، واستِكْبارُكم في الدُّنيا عَلى الخَلْقِ، وتَكبُّرُكم عَنِ اتِّباعِ الحَقِّ؟![1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ١١].

وقال سُبحانه: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ * مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [الجاثية: ١٠].

وقال سُبحانه حاكِيًا قولَ مَن يَدخُلُ النَّارَ مِنَ الأغنياءِ المُستكبِرين: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ * هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩].

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾.

ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠١).

قال مقاتل بن سليمان: (﴿يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ يعني: بسَوادِ الوُجوهِ، مِنَ القادةِ والكُبَراء). ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٧).

وقال ابنُ عاشور: (السِّيما هنا يتعيَّنُ أن يكونَ المرادُ بها المشَخِّصات الذاتيَّة التي تتميَّزُ بها الأشخاص، وليسَتِ السِّيما التي يتميَّزُ بها أهلُ النَّار كلُّهم، كما هو في الآية السَّابقة). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٥ - ١٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٧ - ٢٩٩).

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾.

أيْ: يَقولُ أهلُ الأَعْرافِ لأُولئكَ الكُفَّارِ: أهَؤلاءِ الضُّعَفاءُ الَّذين أدخَلَهمُ اللهُ الجنَّةَ همُ الَّذين أقسَمْتُم في الدُّنيا على أنَّ اللهَ لَن يَعْبأَ بهِم فيُدخِلَهُم جَنَّتَه[(١)]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ۞ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [ص: ٦٢-٦٣].

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

أيْ: يُقالُ لأهلِ الأعرافِ: ادخُلوا الجنَّةَ، لا خَوفٌ عَليكُم مِن آتٍ، ولا أنتُم تَحْزَنون على ما فاتَ[(٢)].

---

(١) وهو قول الواحديِّ والرَّازي وابنِ القيِّم والشوكانيِّ والسعدي وابنِ عاشورِ والشنقيطيِّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨٣، ٣٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠١ - ٣٠٢).
وقيل: إنَّ أصحابَ الأعرافِ إذا عَيَّرُوا الكفَّارَ، وأخبَرُوهم أنَّهم لم يُغْنِ عنهم جمعُهم واستكبارُهم، عَيَّرهم الكفَّارُ بتخَلُّفِهم عن الجنَّةِ، وأقسموا أنَّ اللهَ لا ينالُهم برحمةٍ؛ لِمَا رأَوْا مِن تَخَلُّفِهم عن الجنَّةِ، وأنَّهم يصيرونَ إلى النَّارِ، فتقول لهم الملائكةُ حينئذٍ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩]. وهو قول مقاتل بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٣٩). واختاره الواحديُّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٩٦)، وجعَلَه ابنُ القَيِّم قولًا قَويًّا تحتمِلُه الآية. يُنظر: ((طريق الهجرتين)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠).
قيل: القائِلُ هو الله تعالى، وقيل: هم الملائكة: يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٦).
وذهب الشنقيطيُّ إلى أنَّ هذا القولَ صادِرٌ مِنَ اللهِ تعالى لأهلِ الجنَّةِ الذين أقسَمَ الكُفَّارُ أنْ لَا ينالُهم اللهُ تعالى برحمةٍ. فقال: (اختُلِفَ في قائلِ هذا القولِ، فظاهِرُ القرآنِ أنَّه مِن بقيَّةِ كلامِ أصحابِ الأعرافِ؛ يُوَبِّخونَ رُؤساءَ أهلِ النَّارِ، ويقولون لهم: أهؤلاءِ الضُّعفاءُ المساكينُ الذين كنتم تسخَرونَ مِنهم في الدُّنيا، وتَستهزِئونَ بهم، وتضحكونَ منهم، وتقولونَ: اللهُ أعظَمُ مِن أن

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تَعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، إنَّما أُضيفَت كلمةُ (السبيلِ) إلى اللهِ؛ لأنَّه هو الذي شَرَّعَهَا، وَبَيَّنَ مَعَالَمَهَا، ولأنَّها السَّبيلُ الَّتي أمَر بسُلوكِها، ووعَد بالثَّوابِ مَن سَلَكها، ونَهى عن عدَمِ سُلوكِها، ووعَد بالعِقابِ مَن لَم يَسلُكْها[١].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾، عبَّر بالطَّمَعِ؛ لأنَّه لا سببَ للعِبادِ إلى اللهِ مِن أنفُسِهم، وإن كانَت لهم أَعْمالٌ، فَضلًا عَن هؤلاءِ المَذْكورينَ الَّذين لا أعمالَ لهم تُبلِّغُهم[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾، ظاهرُ القُرآنِ أنَّهم كُلَّهم ذُكورٌ؛ لأنَّه قال: ﴿رِجَالٌ﴾، ولَم يَقُلْ: (نِسَاءٌ). والمقرَّرُ في الأُصولِ: أنَّ لَفْظَةَ (الرِّجالِ) لا يَدْخُلُ فيها النِّساءُ. وقال بعضُ العُلماءِ: إذا ذُكِرَ الرِّجالُ فلا مانِعَ مِن دُخولِ النِّساءِ بحُكْمِ التَّبَعِ. واستَأنَسوا لِهَذا بأنَّ العرَبَ تُسمِّي المرأةَ (رَجُلةً)، وتَسمِيةُ المرأةِ (رَجُلةً) لُغةٌ صحيحةٌ مَعروفةٌ في كلامِ العرَبِ[٣].

يعبأَ بهؤلاءِ، واللهُ لا يُدخِلُهم جَنَّةً، ولا يُدخِلُهم نعيمًا أبدًا، ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الضُّعَفاءُ المَساكينُ الذين كُنتم تستهزِئونَ بهم في الدُّنيا وتسخَرونَ مِنهم، وتُقسمونَ- تحلفونَ بالله- ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ ماذا قال لهم الله؟ قال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٠١).

وقال ابنُ جَريرٍ: (وأمَّا قَولُه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾، فخبَرٌ مِنَ اللهِ عَن أمْرِه أهلَ الجَنَّةِ بدُخولِها). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٤).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٩٩)، (٣/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤١).

٤- قال تَعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، بيَّنَ اللهُ أنَّ أصحابَ الأعرافِ ربَّما نظَروا تارةً إلى الجنَّةِ، ورُبَّما أُجبِروا على النَّظرِ إلى أهلِ النَّارِ؛ لأنَّ منظَرَ النَّارِ فظيعٌ جدًّا، لا يَنظُرُ إليه أحَدٌ باختِيارِه[١]؛ لذا قال ﴿صُرِفَتْ﴾ فبَناه للمَفْعولِ، إشارةً إلى أنَّهم لا يَنظُرون إلى أهلِ النَّارِ إلَّا نَظرًا شَبيهًا بفِعْلِ مَن يَحمِلُه على الفِعْلِ حاملٌ، وليسَ عَن إرادةٍ مِنهم[٢].

٥- دلَّ صريحُ قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ على أنَّ أهلَ الأعرافِ مِن بني آدَمَ؛ ولَيسُوا مِنَ الملائكةِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ دلالةٌ على أنَّ أصحابَ الأعرافِ بمكانٍ مرتَفِعٍ بين الجنَّةِ والنَّارِ[٤].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لَفظةُ (رَبَّنَا) مُشعِرةٌ بوَصفِه تَعالى بأنَّه مُصلِحُهم وسيِّدُهم، وهُم عَبيدُه، فبالدُّعاءِ به طلَبُ رحمتِه، واستِعْطافُ كرَمِه[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ نَذارةٌ ومَوعظةٌ لِجَبابرةِ المُشركينَ مِنَ العَرَبِ، الذين كانوا يَحقِرُونَ المُستَضعفينَ مِنَ المُؤمنينَ، وفيهم عَبيدٌ وفُقراءُ، فإذا سَمِعوا بِشاراتِ القُرآنِ للمُؤمنينَ بالجنَّةِ، سكتوا عمَّن كان مِن أحرارِ المُسلمينَ وسادَتِهم، وأنكروا أن يكون أولئك الضِّعافُ والعَبيدُ مِن أهْلِ الجَنَّةِ، وذلك على

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٩).

سبيلِ الفَرضِ، أي: لو فَرَضُوا صِدقَ وُجودِ جَنَّةٍ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ في التَّعْبيرِ عَنْهم بأصْحابِ الجنَّةِ دونَ ضميرِهم: تَوطِئَةٌ لِذِكْرِ نِداءِ أصحابِ الأعرافِ، ونِداءِ أصحابِ النَّارِ؛ لِيُعبِّرَ عَنْ كلِّ فَرِيقٍ بعُنوانِه، ولِيكونَ مِنْه مُحسِّنُ الطِّباقِ في مُقابَلَتِه بِقولِه: ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، وهذا النِّداءُ خِطابٌ مِنْ أصْحابِ الجنَّةِ، عبَّرَ عنه بالنِّداءِ كِنايَةً عَن بُلُوغِه إلَى أَسْماعِ أَصْحابِ النَّارِ مِن مَسَافَةٍ سَحِيقَةِ البُعْدِ؛ فإنَّ سَعَةَ الجنَّةِ وسَعةَ النَّارِ تقتَضِيانِ ذلك لا سيَّما قولُه: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٌ﴾[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ عَبَّرَ بالماضِي عَنِ المُسْتقبَلِ؛ لجَعْلِ المُستقبَلِ في تَحقُّقِ وُقوعِه كالَّذي وقَع بالفِعْلِ، وفي هذا النِّداءِ تَقريعٌ وتَوْبيخٌ، وتَوْقيفٌ على مآلِ الفريقَيْنِ، وزيادَةٌ في كَرْبِ أهلِ النَّارِ بأن شُرِّفوا علَيهم[٣].

٢- **قولُه:** ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡ﴾

- في قوله: ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ خاطَبَهم الله بهذا الوَعْدِ، وكَوْنُهم مُخاطَبينَ مِن قِبَلِ اللهِ تَعالى بهذا الوَعدِ يُوجِبُ مَزيدَ التَّشريفِ، ومَزيدُ التَّشريفِ لائقٌ بحالِ المؤمنينَ[٤].

- وقوله: ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗا﴾ فِيه إيجازٌ بِحَذفِ المَفْعولِ مِنَ الفِعلِ الثَّاني ﴿مَّا وَعَدَ﴾ حيث لم يقُل: (وعَدَكم)؛ إِسْقاطًا لَهمْ عَنْ رُتْبَةِ التَّشرِيفِ بِالخِطَابِ عِنْدَ الوَعْدِ، وقيل: لأنَّ ما ساءَهم مِن الموعودِ لم يَكُن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٣٥- ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٤).

بأَسْرِه مخصوصًا بهم وعدًا، كالبَعثِ والحِسابِ ونَعيمِ أهلِ الجَنَّةِ؛ فإنَّهم قد وَجَدوا جَميعَ ذلك حقًّا، وإنْ لم يَكُنْ وعْدُه مخصوصًا بهم[١].

- قولُه: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ هذا الاستِفْهامُ مُستَعْمَلٌ في تَوقِيفِ المخاطَبِينَ على غَلَطِهِم، وإثارَةِ نَدامَتِهم وغَمِّهم على مَا فَرَطَ مِنْهُم، والشَّماتَةِ بِهِم في عَوَاقِبِ عِنادِهم؛ لأَنَّ أَصْحابَ الجَنَّةِ يَعلَمونَ أنَّ أَصْحابَ النَّارِ وَجَدوا وَعْدَه حَقًّا[٢]، فهو سؤالُ توبيخٍ وتقريعٍ وشَماتةٍ[٣].

- وفي التَّعبيرِ بالوَعْدِ دونَ الوَعيدِ معَ أهلِ النَّارِ تَهكُّمٌ بِهم[٤].

٣- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ عبَّرَ في الفِعلينِ ﴿يَصُدُّونَ﴾ و﴿يَبْغونَهَا﴾ بالمُضارِعِ الَّذي مِن شأنِه الدَّلالةُ عَلى حدَثٍ حاصلٍ في زمَنِ الحالِ، مع أنَّهُم في زمَنِ التَّأذينِ لم يَكونوا مُتَّصِفينَ بالصَّدِّ عَن سَبيلِ اللهِ، ولا بِبَغْيِ عِوَجِ السَّبيلِ؛ ذَلك لِقَصدِ ما يُفيدُه المُضارِعُ مِن تَكرُّرِ حُصولِ الفِعْلِ تَبعًا لِمَعنى التَّجدُّدِ، والمعنى وَصفُهم بتكرُّرِ ذلك مِنهُم في الزَّمنِ الماضي[٥].

- والإِخْبَارُ بالمَصْدَرِ في قَولِه: ﴿عِوَجًا﴾ لِلمُبَالَغَةِ[٦].

- وقولُه: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾ على مُتعلَّقِه ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ لِلاهتِمامِ به؛ فإنَّ أصْلَ كُفرِهم قد عُلِم مِمَّا قَبلَه،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٦).
(٣) ينظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٢).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٣٩).

وهذا النَّوعُ مِن الكُفرِ له تأثيرٌ خاصٌّ في إصْرارِهم على ما أُسنِدَ إليهِم[١].

- ووصَفَهم باسْمِ الفاعِلِ ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ لِلدَّلالةِ على ثَباتِ الكُفرِ فيهِم، وتَمكُّنِه مِنهم[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيث قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾، وقالَ في سُورة هودٍ: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٩]؛ فزِيدَ في هذه الآيةِ ضميرُ الفَصلِ، ولم يُزَدْ في سورة الأعرافِ؛ وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ، وهي أنَّ ابتداءَ الإخبارِ في سورةِ الأعرافِ بحالِ هؤلاء الملعونينَ في الآيتينِ هو قولُه تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وابتداءَ الإخبارِ عنهم في سُورةِ هود قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]؛ ففي هذا إطنابٌ، وورودُ الظاهرِ في موضِع المضمَرِ من قولِه: ﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يقُل: (عليهم)، ناسَب ذلك زِيادةُ ضَميرِ الفَصلِ (هم)، وفي آية الأعراف إيجازٌ ناسَبَه سقوطُه[٣]. وقيل: لم يذكرْ ضمير الفصلِ في الأعرافِ، وذكره في هود؛ لأنَّ ما في الأعرافِ جاءَ على أصْلِه غيرَ مزيدٍ فيه ما يَجري مجرَى التوكيدِ، والذي في سُورة هودٍ جاء بعدَ قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨]؛ فأشير إليهم، ثمَّ قال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فأَظْهَر ذِكرَ الظَّالِمين في موضعِ الإضمارِ، فلمَّا عبَّر عنهم بالظالمين، الْتَبَس أنَّهم هم الذين كَذَبوا على ربِّهم أم غيرهم، فقال: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ ليُعلمَ أنَّهم هم

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٨٢-١٨٢).

المذكورون لا غيرُهم، فلمَّا لم يَصرِفِ الخبرَ الثاني في سورة الأعراف مَصرفَ ما ليس هو بالأوَّل، لم يُحْتَجْ إلى توكيدِه، ولَمَّا عدَل في سُورة هود عن إعادةِ الضَّميرِ إلى الأوَّل، ووضَع مكانه ظاهرًا يحتملُ أنْ يكونَ غيرَ الأوَّل، وعَنَى (هم) أنَّهم هم، كان الموضعُ موضِعَ توكيدٍ؛ لتحقيقِ الخبرِ عنهم بالكُفر[١].

٤- قولُه: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ فِيهِ: تَقْدِيمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾، وهو خَبَرٌ على المُبْتَدَأِ؛ للاهْتِمامِ بالمَكانِ المُتوَسِّطِ بَينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ وما ذَكَرَ مِن شَأْنِه، وبهذا التَّقْديمِ صَحَّ تَصْحيحُ الابْتِداءِ بالنَّكِرةِ، والتَّنْكيرُ في قَوْله: ﴿حِجَابٌ﴾؛ للتَّعظِيمِ[٢].

٥- قولُه: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ جُملَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ للبَيانِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ يُثيرُ سُؤالًا يَبحَثُ عن كَوْنِهم صَائرينَ إلى الجَنَّةِ أو إلى غَيرِها[٣].

٦- قولُه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ فِيه: تَكْريرُ ذِكرِهم مَع كِفايَةِ الإِضْمارِ؛ لِزيادَةِ التَّقريرِ؛ فالتَّعبيرُ عَنهم هُنا بأصْحابِ الأعْرافِ إظْهارٌ في مَقامِ الإِضْمارِ؛ إذْ كان مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أن يُقالَ: (ونادَوْا رِجالًا)، إلَّا أنَّه لَمَّا تَعدَّدَ في الآيَةِ السَّابِقَةِ ما يَصلُحُ لعَودِ الضَّمائرِ إليه وَقَعَ الإِظْهارُ في مَقامِ الإِضْمارِ؛ دَفعًا

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٨٥-٥٨٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٤٣).

للالْتِباسِ[١].

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿مَآ﴾ الأُولى في قولِه: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ إمَّا اسْتِفهامِيَّةٌ؛ للتَّوْبِيخِ والتَّقْرِيعِ، أَو نَافِيةٌ، والخَبَرُ مُستَعمَلٌ في الشَّماتَةِ والتَّوقِيفِ على الخَطَأ[٢].

- و﴿مَآ﴾ الثَّانيةُ في قولِه: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ مَصْدَرِيَّةٌ؛ أي: واسْتِكبارُكم الَّذي مَضَى في الدُّنيا، ووَجْهُ صَوغِه بصِيغَةِ الفِعْلِ دونَ المَصْدرِ- إِذْ لَم يَقُل: اسْتِكْبارُكم-؛ لِيتَوسَّلَ بالفِعلِ إلى كَونِه مُضارِعًا؛ فيُفيدُ أنَّ الاستِكْبارَ كان دَأْبَهم، لا يَفْتُرونَ عَنْه[٣].

٧- قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ الاسْتِفْهامُ فِيه مُسْتَعمَلٌ في التَّقرِيرِ[٤].

- قولُه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ فيه تَلْوينٌ لِلخِطابِ، وتَوْجِيهٌ له إلى أُولئكَ المَذكُورِينَ؛ أيِ: ادخُلُوا الجَنَّةَ على رَغْمِ أُنُوفِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٠).

الآيات (٥٠-٥٢)

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَفِيضُواْ﴾: يُقال: فاضَ الماءُ: إذا سالَ مُنصَبًّا، وأفاضَ إناءَه: إذا مَلَأه حتَّى أسالَه، والإفاضَةُ التَّوسِعَةُ، وأصْلُ (فيض): يَدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بِسُهُولَةٍ[١].

﴿يَجۡحَدُونَ﴾: أي: يُنكِرونُها بألْسِنَتِهم وهم لها مُسْتَيْقِنونَ، والجُحودُ: نَفْيُ ما في القَلْبِ إثْباتُه، وإثْباتُ ما في القلبِ نَفْيُه، وأصلُ (جحد): يَدُلُّ على قِلَّةِ الخَيرِ[٢].

﴿تَأۡوِيلَهُۥ﴾: أي: تصديقَ مَا وُعِدوا به، والتَّأْويلُ: هو المصيرُ والمرجعُ والعاقبةُ، مِنَ الأَوْلِ؛ أي: الرُّجوعِ إلى الأصلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧، ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٣٧)، ((مقاييس اللغة)) للراغب (١/ ١٦٢)،

﴿شُفَعَاءَ﴾: جَمْعُ شَفيعٍ، وهو: النَّاصِرُ والمعينُ، والشَّفاعَةُ: الانْضِمامُ إلى آخَرَ نُصْرةً له، وسؤالًا عنه، وشَفَعَ لِفُلانٍ إذا جاءَ مُلْتَمِسًا مَطْلَبَه، ومُعينًا له؛ فأصلُ الشَّفْعِ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه[1].

المَعْنَى الإجماليُّ:

ونَادى أَهلُ النَّارِ أَهلَ الجَنَّةِ طالِبينَ مِنهم أن يَسْقوهم مَاءً، أَو يُعطوهُم مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنَ الطَّعامِ، فأجابوهُم أَنَّ اللهَ حَرَّمَ ماءَ الجَنَّةِ وطَعَامَهَا على الكافِرِينَ، الَّذينَ اتَّخذُوا دِينَهمُ الَّذي دُعُوا لاتِّباعِهِ سُخرِيةً ولَعِبًا، وخَدَعَتْهمُ الحياةُ الدُّنيا، فأعْرَضوا عَنِ الآخِرَةِ، ويَقولُ اللَّهُ يومَ القِيامَةِ: إنَّه في هذا اليَومِ يَنْسَاهُم كَما نَسُوا لِقَاءِ يَومِهم هذا، ولأَنَّهم كانوا يَجْحَدونَ بآياتِه.

ويُخبِرُ تَعالَى مُقْسِمًا أَنَّه أَتَى هَؤلاءِ الكُفَّارَ بالقُرآنِ الَّذي بَيَّنَ فِيه جَميعَ ما يَحتاجُ النَّاسُ إلى بَيانِه، وهو سُبحانَه عالِمٌ بِما بيَّنَ فيه مِنَ الحَقِّ، فقد بَيَّنَهُ تَعالَى لأجْلِ أَنْ يَهتَدِيَ بِه المُؤمِنونَ ويَرْحَمَهم بسَبَبِ إيمانِهم به في الدُّنيا والآخِرَةِ.

ثمَّ بيَّن الله تعالى عاقبةَ هؤلاءِ المكذِّبينَ بالقرآنِ قائلًا: هَلْ يَنْظُرُ الكُفَّارُ إلَّا حُصولَ ما أَخْبَرَ بِه القرآنُ مِن وُقوعِ البَعْثِ وقِيامِ الحِسَابِ، وحُلولِ العَذابِ بهم، ودُخولِ أهلِ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وأَهْلِ النَّارِ النَّارَ، يَومَ يَقَعُ ذَلِك يَقولُ الَّذينَ تَركُوا العَمَلَ بالقُرْآنِ مُتَنَدِّمِينَ: قَد ظَهَرَ لنا الآنَ أَنَّ رُسُلَ رَبِّنَا قَدْ جَاءَتْ بالحَقِّ، ونَحنُ كذَّبْنَاهُم، فهل لنا مِنْ شُفَعَاء فيَشْفَعوا لنا عِنْدَ رَبِّنا، أو نَرجِعُ للدُّنيَا فنَعْمَلَ صَالِحًا غَيْرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلُه مِنَ الكُفْرِ والمَعَاصِي؟! قَد خَسِرَ هؤلاءِ الكُفَّارُ أَنفُسَهُم،

((المفردات)) للراغب (ص: ٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١١)، ((التبيان)) لابن الجوزي (١/ ١١٩)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٣٢٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

وغَابَ عنهم ما كانوا يَزْعُمونه كَذِبًا في الدُّنيا أَنَّهم شُرَكاءُ لِلَّهِ، أو لَهم آلِهَةٌ مِن دُونِ اللَّهِ تعالَى، فلم يَنْفعوهم بشيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾.

مناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اللَّهُ تَعالَى ما يَقولُه أصْحابُ الأعْرافِ لأهلِ النَّارِ؛ أَتْبَعَه بذِكْرِ ما يَقولُه أَهلُ النَّارِ لِأَهْلِ الجَنَّةِ[١]، فقال تعالى:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

أي: ونادَى أَهلُ النَّارِ أَهْلَ الجَنَّةِ، مُستَغِيثين بِهم مِمَّا أَصَابَهم مِن شِدَّةِ الجُوعِ وَالْعَطَشِ، فَقالوا: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ صُبُّوا علَينا مِنَ الْمَاءِ[٢] أَو[٣] مِمَّا رَزَقَكمُ اللَّهُ مِن مَآكِلِ الجَنَّةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥٢).

(٢) قال ابنُ عاشور: (الفَيْضُ في الآيةِ إذا حُمِلَ على حقيقَتِه كان أصحابُ النَّارِ طالبينَ مِن أصحابِ الجَنَّةِ أن يَصُبُّوا عليهم ماءً ليشرَبُوا منه، وعلى هذا المعنى حمَلَه المفسرون... وعلى هذا الوَجهِ تكون (مِن) بمعنى بعض، أو صفةً لموصوفٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: شيئًا مِن الماءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٨).

(٣) قال الشنقيطي: (أو هنا مانعةُ خُلُوٍّ، مُجَوِّزةُ جَمعٍ، يجوز أن يكونَ الماءُ وَحْدَه، أو ما رزَقَهم اللهُ، أو الجميع). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

أي: قال أَهلُ الجَنَّةِ لِأَهْلِ النَّارِ: إنَّ اللَّهَ حَكَمَ بِمَنْعِ مَاءِ الجَنَّةِ وطَعَامِها من الكَافِرِينَ(١).

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾.

أي: يَقُولُ أَهْلُ الجَنَّةِ لِأَهْلِ النَّارِ: إنَّ اللهَ مَنَعَ ماءَ الجَنَّةِ وطَعامَها من الكافِرِينَ الَّذينَ اتَّخذُوا دِينَهمُ الَّذِي دُعُوا إِلَيهِ، وأُمِروا بِه سُخْرِيَةً ولَعِبًا فاسْتَهْزَؤوا به وبكَلامِ اللهِ وبنَبِيِّه وبالمُؤمِنينَ(٢).

كما قال تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٧-٥٨].

﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: وخَدَعَتْهُمُ الحياةُ الدُّنيا بزِينَتِها، فَرَضوا واطْمَأَنُّوا بِها، وأَعْرَضوا عَنِ الآخِرَةِ(٣).

---

٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٨- ١٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٥-٣٠٦).
قال الشنقيطيُّ: (التحريمُ هنا تحريمٌ كونيٌّ قَدَريٌّ). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٦ - ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٨).

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨].

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾.

أي: يَقولُ اللَّهُ تعالى يومَ القِيامَةِ: في هذا اليَومِ نَتْرُكُ الكُفَّارَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ عِطَاشًا جِيَاعًا، كَما تَرَكُوا الإِيمانَ والعَمَلَ الصَّالِحَ في الدُّنيا استِعدَادًا لِلِقَاءِ اللَّهِ يَومَ القِيَامَةِ[(١)].

كمَا قَالَ تعالَى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

وعَن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قال: ((يَلقى اللهُ العَبدَ فيَقولُ: أي فُلُ[(٢)]، ألَمْ أُكرِمْكَ، وأُسَوِّدْكَ، وأُزَوِّجْكَ، وأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ والإِبِلَ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ[(٣)]؟ فيَقولُ: بَلَى، فيَقولُ: أَفَظَنَنْتَ أنَّك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٧ - ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣١٣).
قال ابن كثير: (أي: نعامِلُهم مُعاملةَ مَن نَسِيَهم؛ لأنَّه تعالى لا يشِذُّ عن عِلمِه شيءٌ ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، وإنَّما قال تعالى هذا مِن بابِ المُقابلة، كما قال: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۗ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٤).
وقال الشنقيطي: (أي: نترُكُهم عن إرادةٍ وقَصدٍ يتقلَّبونَ في دَرَكاتِ النَّارِ، وأنواعِ العَذابِ. ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي: نِسيانًا كنِسيانِهم لقاءَ يَومِهم هذا؛ لأنَّ هذا اليومَ لم يَنسَوه، وإنَّما تَركوا العمَلَ له عمدًا وقَصدًا وعنادًا للرُّسلِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٣١٣).
(٢) أي فُلُ، معناه: يا فُلانُ، وقيل: إنَّها ترخيمُها. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٩٢٣)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٣).
(٣) ترأَسُ أي: تكونُ رئيسًا على قَومِك. وتَربَعُ أي: تأخُذُ المِرباعَ، وهو ربُعُ الغَنيمةِ، وقيل: معناه

مُلَاقِيَّ؟ فيَقولُ: لَا، فيَقولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كمَا نَسِيتَنِي، ثمَّ يَلْقَى الثَّانيَ فيَقولُ: أَي فُلُ، أَلَمْ أُكرِمْكَ، وأُسَوِّدْكَ، وأُزَوِّجْكَ، وأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ والإِبِلَ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيَقولُ: بَلَى أَي ربِّ، فيقولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّك مُلَاقِيَّ؟ فيَقولُ: لَا، فيَقولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كمَا نَسِيتَنِي))[١].

﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

أي: وَنَتْرُكُهم فِي النَّارِ لِكَونِهِم أَيضًا جَحَدُوا بِآيَاتِنَا فلَمْ يُصدِّقُوها[٢].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللَّهَ تَعالَى لَمَّا شَرَحَ أَحوالَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وأَهْلِ النَّارِ، وأَهْلِ الأَعْرَافِ، ثمَّ شَرَحَ الكَلِمَاتِ الدَّائرَةَ بَين هَؤلاءِ الفِرَقِ الثَّلاثِ على وَجْهٍ يَصِيرُ سَماعُ تِلكَ المَناظَراتِ حَامِلًا للمُكَلَّفِ على الحَذَرِ والاحْتِرازِ، وداعِيًا له إلى النَّظَرِ والاسْتِدْلالِ- بَيَّنَ شَرَفَ هذا الكِتابِ الكَرِيمِ، ونِهايَةِ مَنفَعَتِه فقال[٣]:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

أي: وأُقسِمُ لَقَدْ أَتَيْنا هَؤلاءِ الكفَّارَ بالقُرآنِ الَّذي بَيَّنَّا فِيه جَمِيعَ ما يَحتاجُ النَّاسُ إلَى بَيانِه، ونَحنُ عالِمِينَ بِما بَيَّنَّا فِيه مِنَ الحَقِّ الَّذِي يُصلِحُ الخَلْقَ في كلِّ زَمَانٍ

تَرَكْتُك مُستريحًا، لا تحتاجُ إلى مَشقَّةٍ وتَعَبٍ؛ من قَولِهم: ارْبَعْ على نَفْسِك؛ أي: ارْفُقْ بها. والمعنى: أَلَمْ أجعَلْك رئيسًا مُطاعًا؛ لأنَّ المَلِكَ كان يأخُذُ الرُّبُعَ مِنَ الغَنيمةِ في الجاهِلِيَّةِ دونَ أصحابِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٤). ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٨٦).

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥٣).

ومَكانٍ، وفِي أُمورِ دُنياهم وأُخْراهُم[(١)].

كمَا قَالَ تعالَى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقَالَ سُبحانَه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

وقَالَ تَبارَك وتَعالَى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: فَصَّلنَا القُرآنَ لِأَجْلِ أَن يَهتَدِيَ بِه المؤمِنونَ، ويَرْحَمَهُم اللَّهُ تَعالَى في الدُّنيا والآخِرَةِ بِسَببِ إِيمانِهم بِه، واتِّباعِهِم لَه[(٢)].

كما قال تَعالَى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ * يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقالَ سُبحَانَه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقَالَ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧].

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣١٥ - ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٣).

نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اللَّهُ تعالَى أنَّ هذا القُرآنَ الْعَظِيمَ هُو الَّذي أَنْزَلَه، وهو الَّذي فَصَّلَه، وبَيَّن حَلالَه وحَرامَه وعَقائدَه ومواعِظَه وأمثالَه وآدابَه ومَكارِمَه، وأنَّه بَيَّنَ هذا بعِلْمِه المحيطِ بكلِّ شَيءٍ- هَدَّدَ الكُفَّارَ الَّذينَ لَمْ يَعمَلوا به، فقال[1]:

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾.

أي: هَل يَنْتَظِرُ الكُفَّارُ إلَّا وُقوعَ مَا أَخبرَ به القُرآنُ؛ مِن وُقوعِ البَعْثِ، وقِيامِ الحِسابِ، وحُلولِ العَذابِ بهم، ودُخولِ أَهْلِ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، ودُخولِ أهلِ النَّارِ النَّارَ[2]؟

كما قال تعالَى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ [يونس: ٣٩].

وقالَ عزَّ وجلَّ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: حينَ يَجِيءُ يَومُ القِيامَةِ، الَّذي تَتَحَقَّقُ فِيه مَواعيدُ القُرْآنِ؛ مِنَ الحسابِ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٠). قال الشنقيطي: (أي: ما تَؤولُ إليه حقيقةُ ما كان يَعِدُ به، وينطِقُ به في دارِ الدُّنيا). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٣٧).

والثَّوابِ والعِقابِ، يَقولُ الَّذين تَرَكوا العَمَلَ بِالقُرْآنِ في الدُّنْيا مُتَنَدِّمينَ: قَد تبيَّن لَنا الآنَ أَنَّ رُسُلَ رَبِّنا صادِقونَ في دَعْواهم، وقَد جاؤونا بالحَقِّ فكَذَّبْناهم[(١)].

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

أي: يَقُولُ الكُفَّارُ يومَ القِيامَةِ: فهَل لَنا مِن شُفَعاءَ فيَشْفَعوا لَنا عِندَ رَبِّنَا، فيُنقِذونا مِمَّا نَحن فِيهِ؟ أو هل لَنا أَن نَرجِعَ إِلَى الدُّنيا فنَعْمَلَ فيها صَالِحًا غَيرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلُه مِنَ الكُفْرِ والمعاصي[(٢)]؟

كمَا قَالَ تَعالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨].

﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

أي: قَد أَضاعَ الكُفَّارُ حَظَّ أَنْفُسِهم مِنَ الثَّوابِ، وَأَهلَكُوها بِالعَذَابِ[(٣)].

كما قال تَعالَى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٢ - ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٤- ١٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٤ - ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٧).
قال القرطبي: (أي: فلم ينتَفِعوا بها، وكلُّ مَن لم ينتَفِعْ بنَفْسِه فقد خَسِرَها، وقيل: خَسِرُوا النِّعَمَ وحَظَّ أنفُسِهم منها). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٨). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٤).

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

أي: وغابَ عَنهم الَّذين كانوا يَزْعُمونَ في الدُّنيا كَذِبًا أَنَّهم شُرَكاءُ لِلَّهِ أَو آلِهَةٌ لهم مِن دُونِ اللَّهِ، ظنُّوا أَنَّهم سَيَشْفَعونَ لَهم يَومَ القِيامَةِ، فلَم يَنْفَعُوهم بِشَيءٍ[١].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أَعْلَمَ اللهُ تعالى أنَّ ابنَ آدَمَ غَيرُ مُستغْنٍ عَنِ الطَّعامِ والشَّرَابِ وإن كانَ مُعَذَّبًا[٢].

٢- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ إنَّما طَلَبوا الماءَ خَاصَّةً؛ لِشِدَّةِ ما في بَوَاطِنِهم مِنَ الاحْتِرَاقِ واللَّهِيبِ بسَبَبِ شِدَّةِ حَرِّ جَهَنَّمَ[٣]، فقَدَّموا طلَبَ الماءِ؛ لأنَّ مَن كانَ في سَمُومٍ وحَمِيمٍ يكونُ شُعورُه بالحاجَةِ إلَى الماءِ البَارِدِ أَشَدَّ مِن شُعورِه بالحَاجِةِ إلَى الطَّعامِ الطَّيِّبِ[٤].

٣- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ لَفظُ (أَفِيضُوا) أَمْكَنُ مِن (اسقُونا)؛ لأنَّها تَقتَضِي التَّوسِعَةَ، كمَا يُقالُ: أفَاضَ اللهُ عليهِ نِعَمَهُ؛ أي: وَسَّعَها[٥].

٤- استُدِلَّ بِقولِ اللهِ تعالَى: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أنَّ سَقيَ الماءِ مِن أَفضَلِ الأعمالِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٤ - ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٢)

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٦١).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٥).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾، تَعلِيقُ الظَّرفِ بفِعلِ (نَنْساهُم) لِإظهَارِ أنَّ حِرْمانَهم مِنَ الرَّحْمَةِ كان في أَشَدِّ أَوقاتِ احتِياجِهم إليها، فكانَ لِذِكْرِ (اليَومِ) أَثَرٌ في إثارَةِ تَحَسُّرِهم ونَدَامَتِهم[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ استِئنافٌ مَبنِيٌّ على السُّؤالِ؛ كَأَنَّه قِيل: فماذا قَالُوا؟ فقِيلَ: قَالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٢].

٢- قولُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾:

- دَلَّ مَعنى كافِ التَّشبيهِ في قولِه: ﴿كَمَا نَسُواْ﴾ على أنَّ حِرْمانَهم مِن رَحْمَةِ اللهِ كانَ مُماثِلًا لإهْمالِهمُ التَّصديقَ باللِّقاءِ، وهي مُماثَلَةُ جَزاءِ العَمَلِ للعَمَلِ، وهي مُماثَلَةٌ اعتِبارِيَّةٌ، وإنَّما التَّعلِيلُ مَعنًى يَتَوَلَّدُ مِن استِعمالِ الكافِ في التَّشبِيهِ الاعتِبارِيِّ، ولَيس هذا التَّشبِيهُ بِمَجازٍ، ولكِنَّه حَقِيقةٌ خَفِيَّةٌ لِخَفاءِ وَجْهَ الشَّبَهِ[٣].

٣- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ﴾ فيه تَأكِيدُ هذا الفِعلِ بـ(لَامِ القَسَمِ) و(قَد)؛ إمَّا باعتِبارِ صِفَةِ (كِتابٍ)، وهي جُملَةُ: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ

قال ابنُ القيِّم: (وأفضلُ الصَّدقةِ ما صادفتْ حاجةً مِن المتصدَّق عليه، وكانت دائمةً مستمرةً، ومنه قولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «أفضلُ الصَّدقةِ سقيُ الماءِ». وهذا في موضعٍ يقلُّ فيه الماءُ، ويكثرُ فيه العطشُ، وإلَّا فسقيُ الماءِ على الأنهارِ والقنَى لا يكونُ أفضلَ مِن إطعامِ الطعامِ عندَ الحاجةِ). ((الروح)) (١/ ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥١).

عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾، فيكونُ التَّأكيدُ جارِيًا على مُقتَضَى الظَّاهِرِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ يُنكِرونَ أن يَكون القُرآنُ مَوْصوفًا بتِلك الأوصافِ، وإمَّا تَأكيدٌ لفِعْلِ ﴿جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾، وهو بُلوغُ الكِتابِ إلَيهم، فيكونُ التَّأكيدُ خارجًا على خِلافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ[١].

- وتَنكِيرُ ﴿كِتَابٍ﴾ قُصِدَ بِه تَعظِيمُ الكِتابِ، أو قُصِدَ بِه النَّوعِيَّةُ؛ أي: ما هو إلَّا كِتابٌ كالكُتُبِ الَّتي أُنزِلَتْ مِن قَبْلُ[٢].

- قولُه: ﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ تَنكِيرُ ﴿عِلْمٍ﴾ للتَّعظِيمِ؛ أي: عالِمِينَ أَعْظَمَ العِلْمِ، والعَظَمَةُ هُنا رَاجِعةٌ إلَى كمَالِ الجِنْسِ في حقيقَتِه، وأَعْظَمُ العِلْمِ هو العِلْمُ الَّذي لَا يَحتمِلُ الخَطَأَ[٣].

٤- قولُه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ الجُملةُ مُستَأْنَفةٌ اسْتِئْنافًا بَيانِيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يُثيرُ سؤالَ مَن يَسأَلُ: فماذا يُؤخِّرُهم عَنِ التَّصديقِ بِهذا الكِتابِ المَوصُوفِ بتلك الصِّفاتِ؟ وهَلْ أَعظَمُ مِنه آيَةً على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم؟ فكانَ قولُه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ كالجَوابِ عَن هذا السُّؤالِ[٤].

- والاسْتِفهامُ في قولِه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ إنْكارِيٌّ، أي: ما يَنظُرون إلَّا تأويلَه؛ ولِذلك جاءَ بعدَه الاسْتِثْناءُ، والاسْتِثْناءُ على حَقيقَتِه، وليس مِن تَأكيدِ الشَّيءِ بِما يُشبِهُ ضِدَّه، والقَصْرُ في (ما يَنظُرون إلَّا تأويلَه) إضافِيٌّ؛ أي: بالنِّسْبَةِ إلَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٥٣).

غَيرِ ذَلك مِن أَغراضِ نِسْيانِهم وجُحودِهم بالآياتِ[١].

٥- قولُه: ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ خَبَرٌ مُسْتَعمَلٌ في الإقْرارِ بخَطَئِهم في تَكذيبِ الرُّسُلِ، وإنْشاءٌ للحَسْرَةِ على ذلك[٢].

٦- قولُه: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾ الاسْتِفهامُ في قوله: ﴿فَهَل﴾ يَجوزُ أن يَكونَ حَقيقيًّا يَقولُه بعضُهم لِبَعضٍ، ويَجوزُ أن يكونَ الاستفهامُ مُستَعمَلًا في التَّمَنِّي، ويَجوزُ أن يكونَ مُسْتَعمَلًا في النَّفيِ؛ على مَعنى التَّحَسُّرِ والتَّنَدُّمِ[٣].

- و﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن شُفَعَآءَ﴾ صلةٌ للتَّوكِيدِ على جَميعِ التَّقادِيرِ؛ فتُفِيدُ تَوكيدَ العُمومِ في المُسْتَفهَمِ عَنه؛ ليُفيدَ أنَّهم لا يَسألونَ عَمَّن تَوَهَّموهم شُفَعاءَ مِن أصنامِهم؛ إذ قَد يَئِسوا مِنهم؛ فإنَّهم يَتساءلُونَ عَن أيِّ شَفيعٍ يَشْفَعُ لَهم، ولو يَكون الرَّسولُ علَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ الَّذي نَاصَبُوه العَداءَ في الحَياةِ الدُّنيا[٤].

٧- قولُه: ﴿قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئنافًا ابتِدَائيًّا، تَذييلًا وخلاصَةً لِقصَّتِهم؛ أي: فكانَ حاصِلُ أَمرِهم أنَّهم خَسِرُوا أَنْفُسَهم مِنَ الآن، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٥٧).

الآيات (٥٤-٥٦)

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: أي: علَا واستقرَّ وارتَفَع، وأَصلُ (سوي): يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بينَ شيئينِ[(١)].

﴿ٱلْعَرْشِ﴾: هو أعظَمُ المَخلوقاتِ، وسَقفُها، والعَرْشُ في الأصلِ: شَيءٌ مُسقَّفٌ، ومنه سَقْفُ البَيتِ، ويُطلَقُ العرشُ أيضًا على سَريرِ المَلِك، وعلى غير ذلك، وأصل (عرش): يدلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ مبنيٍّ[(٢)].

﴿يُغْشِى﴾: أي: يُغَطِّي، والغِشاوةُ: الغِطاءُ، وأصلُ (غشي): يدلُّ على تَغطِيةِ شيءٍ بشيءٍ[(٣)].

﴿حَثِيثًا﴾: سَريعًا، والحثُّ: السُّرعةُ، وأصل (حثث): الحَضُّ على الشَّيءِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٥٦- ٤٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٢٠- ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩)،

﴿مُسَخَّرَٰتِۭ﴾: أي: مُذلَّلاتٍ تَجري في فَلَكِها؛ لتَهْتدوا بها، والتَّسْخِيرُ: سياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قَهرًا، وأصل (سخر): يدلُّ على احتقارٍ واستذلالٍ[١].

﴿تَبَارَكَ﴾: أي: تعاظَم وتعالى، وكثُرَ خيرُه، وعمَّ إحسانُه، أو ارتفَعَ وتقدَّسَ، مِنَ البرَكَة: وهي الزِّيَادَةُ والنَّماءُ، والكَثرةُ والاتِّساعُ[٢].

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: هم أَصنافُ الخلائِقِ أجمعينَ، جمْعُ (عالَم)، و(العالَم) جمعٌ لا واحدَ له مِن لَفْظِه، وهو اسْمٌ لأَصنافِ الأُمَمِ وسائرُ أجناسِ الخَلْق، وكلُّ صِنفٍ منها عالَم، وأهلُ كلِّ قَرنٍ مِن كلِّ صِنفٍ وجِنسٍ منها عالَمُ ذلك القرْنِ وذلك الزَّمانِ[٣].

﴿تَضَرُّعًا﴾: أي: تذلُّلًا، واستكانةً لِطاعَتِه، يقال: ضَرَع الرجلُ ضَرَاعَةً: ضَعُفَ وذَلَّ، وتَضَرَّع: أظهَر الضَّراعَةَ، وأصلُ (ضرع): يَدُلُّ عَلَى لِينٍ فِي الشَّيْءِ[٤].

﴿وَخُفْيَةً﴾: أي: سِرًّا، وليس جِهارًا، يقال: خَفِيَ الشيءُ خُفْيَةً: استتر، وأصلُ (خفي): السَّتْر[٥].

((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٤).

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾

﴿حَثِيثًا﴾: نَعتٌ لِمَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: طلبًا حثيثًا، ويجوزُ أن يكونَ حالًا مِن فاعِلِ ﴿يَطْلُبُهُۥ﴾، وهو الضَّميرُ المستَتِرُ فيه، أي: حاثًّا، أو مِن مَفعولِه (الهاء)، أي: مَحْثوثًا. ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ عَطْفٌ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ حالٌ مَنصوبةٌ مِنَ الألفاظِ الثَّلاثةِ ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾، وعلامةُ النَّصبِ الكَسرةُ؛ لأنَّها جمعُ مُؤَنَّثٍ سالمٌ.

وقُرِئَ (والشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ) برَفْعِ (الشَّمسُ) على الابتداءِ، ورفْعِ (مُسخَّراتٌ) على أنَّها الخَبَرُ[1].

٢- **قولُه تعالى**: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

﴿قَرِيبٌ﴾: إنَّما لم يُؤَنِّثْها وإن كانَتْ خبرًا عن المؤنَّثِ ﴿رَحْمَتَ﴾؛ لوجوهٍ؛ منها: أنَّها في مَعنى الغُفرانِ، فحُمِلَت عليه. ومنها: أنَّه أتى ﴿قَرِيبٌ﴾ بغيرِ هاءٍ؛ ليُفرَّقَ بين قُرْبِ النَّسَبِ وقُربِ المَكانِ؛ يُقال: فلانةٌ قريبةٌ منِّي، أي: في النَّسَبِ، وبعيدةٌ مني، أي: في النَّسَبِ، أمَّا إذا أُريدَ القُربُ في المكانِ، فإنَّه يجوزُ الوَجهانِ؛ فيُقالُ: فلانةٌ قريبةٌ وقريبٌ، وبعيدةٌ وبعيدٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وَقَالَ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٩٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٤٢-٣٤٣).

[الأحزاب: ٦٣]. وقيل غيرُ ذلك[١].

المَعْنَى الإجماليُّ:

إنَّ ربَّكم- أيُّها النَّاسُ- هو اللهُ الذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ، ثمَّ علا على العَرشِ، يُغَطِّي سبحانَه بظُلمةِ اللَّيلِ ضَوءَ النَّهارِ، ويغطِّي بضَوءِ النَّهارِ ظُلمةَ اللَّيلِ، وكلٌّ منهما يطلُبُ الآخَرَ طلبًا سريعًا، لا يتأخَّرُ عنه، وخلَقَ الشَّمسَ والقَمَرَ والنُّجومَ مُذَلَّلاتٍ بأمرِه وتدبيرِه لمنافِعِ الخَلقِ، ألَا له وَحدَه- عَزَّ وجَلَّ- الخَلقُ والأمرُ، عظُمَ سبحانَه وتقَدَّسَ، هو ربُّ العالَمينَ.

ثمَّ أمَرَ اللهُ النَّاسَ أن يدعوه أذِلَّةً خاشعينَ له، مُخْفِينَ دُعاءَهم فيما بينهم وبينَه؛ إنَّه سُبحانه لا يُحِبُّ المعتَدينَ.

ثم نهى سبحانَه النَّاسَ عن الإفسادِ في الأرضِ بعد إصلاحِها، وأمرهم أنْ يَدعُوه خائفينَ مِن غَضَبِه وعِقابِه، وطامعينَ في رِضاه وثَوابِه؛ إنَّ رَحمةَ اللهِ قَريبٌ مِنَ المُحسنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: إنَّ سيِّدَكم وخالِقَكم، ومالِكَكم ومُدَبِّرَ شُؤونِكم- أيُّها النَّاسُ- هو اللهُ

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٩٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٤٤-٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨- ب/ ١٧٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٨٨١-٨٨٣).

المُستحِقُّ للعبادةِ، الذي خلق السَّمواتِ والأرضَ وما فيهما وما بينهما، في سِتَّةِ أيَّامٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٤-٥].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

أي: ثمَّ علا اللهُ على العَرشِ[(٢)] علوًّا يليقُ بجلالِه، بلا تكييفٍ، ولا تشبيهٍ، ولا تعطيلٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٣).

قال ابنُ كثير: (السِّتَّةُ الأيَّامِ هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦).

وقال الشنقيطي: (العلماء يقولون: إنَّ هذه الأيَّامَ، المرادُ بها أوقاتُها؛ لأنَّه في ذلك الوقتِ لم يكُنْ هنالك يومٌ؛ لأنَّ اليومَ مِن طُلوعِ الشَّمسِ إلى غُروبِها، وإن لم يكن هنالك شَمسٌ لا يُعرَفُ اليومُ إلَّا أنَّ اللهَ قبل أن يخلُقَ الشَّمسَ والقَمَرَ، يعلم زمَنَ الأيَّامِ قبل وجودِ الشَّمسِ.. وهذه الأيامُ قال بعضُ العلماء: إنَّها كأيَّامِ الدُّنيا. وقال بعضُهم: اليومُ منها هو المذكورُ في قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٤٤- ٣٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (وظاهِرُ الآياتِ أنَّ الأيَّامَ هي المعروفةُ للنَّاسِ.. وقد قيل: إنَّ الأيَّامَ هنا جمعُ اليومِ مِن أيَّامِ الله تعالى، الذي هو مُدَّةُ ألفِ سَنةٍ، فسِتَّةُ أيَّامٍ عبارةٌ عن ستَّةِ آلافٍ مِنَ السِّنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١١)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ١٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٧٥ - ٣٨١).

(٣) قال ابن كثير: (يُسلَك في هذا المقامِ مَذهَبُ السَّلَفِ الصَّالحِ: مالك، والأوزاعي، والثوري،

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

أي: يُغطِّي اللهُ تعالى بظُلمةِ اللَّيلِ ضَوءَ النَّهارِ، ويُغَطِّي بضَوءِ النَّهارِ ظُلمةَ اللَّيلِ، وكلٌّ منهما يطلُبُ الآخَرَ طَلَبًا سريعًا، لا يتأخَّرُ عنه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

وقال سبحانه: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥].

والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمَّة المسلمينَ قديمًا وحديثًا، وهو إمرارُها كما جاءَتْ مِن غَيرِ تكييفٍ ولا تشبيهٍ ولا تعطيلٍ، والظاهِرُ المتبادِرُ إلى أذهانِ المُشَبِّهين، منفيٌّ عن الله؛ فإنَّ الله لا يُشبِهُه شيءٌ مِن خَلقِه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] بل الأمرُ كما قال الأئمَّة- منهم نُعَيْم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري-: «مَن شَبَّه اللهَ بخَلقِه، فقد كَفَر، ومن جَحَدَ ما وصَفَ اللهُ به نفسَه، فقد كَفَر». وليس فيما وصَفَ اللهُ به نفسَه ولا رسولُه، تَشبيهٌ، فمَن أثبَتَ لله تعالى ما ورَدَتْ به الآياتُ الصَّريحةُ والأخبارُ الصَّحيحةُ، على الوَجهِ الذي يليقُ بجلالِ اللهِ تعالى، ونفى عن الله تعالى النَّقائِصَ، فقد سلك سبيلَ الهدى). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦ - ٤٢٧).

وقال الشوكاني: (مذهَبُ السَّلَفِ الصَّالح أنَّه استوى- سُبحانه- عليه، بلا كَيفٍ، على الوَجهِ الذي يليقُ به مع تنزُّهِه عمَّا لا يجوزُ عليه، والاستواءُ في لغة العرَبِ: هو العلوُّ والاستقرارُ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٨١).

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾.

أي: وخلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ الشَّمسَ والقَمرَ والنُّجومَ مُذَلَّلاتٍ بأمرِ اللهِ، وتدبيرِه لمنافِعِ الخَلقِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾.

أي: ألَا لله تعالى وحْدَه صِفَةُ الخَلقِ؛ فهو الذي أوجَدَ جَميعَ المخلوقاتِ، وهو الذي يملِكُها ويتصَرَّفُ فيها، وله وَحدَه الأمرُ كلُّه، فيأمُرُ خَلقَه بما يشاءُ مِن أوامِرَ كونيَّةٍ وشرعيَّةٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٢).

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: عظُمَ المعبودُ سبحانه وتعالى، وتقدَّسَ وتنزَّه عن كلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، وكَثُرَت برَكاتُه وخَيراتُه، هو خالِقُ كُلِّ شَيءٍ ومالِكُه، ومُدَبِّرُ شؤونِ جَميعِ خَلقِه[1].

كما قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

وقال سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦-٣٧].

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

أي: ادْعُوا -أيُّها النَّاسُ[2]- خالِقَكم وسَيِّدَكم، ومُدَبِّرَ شُؤُونِكم، ادْعُوه وَحْدَه، أذلَّاءَ خاشِعينَ له وخاضعينَ، مُخفِيَن دُعاءَكم فيما بينكم وبينه، سواءٌ كان دُعاءَ مسألةٍ وطَلَبٍ، أو دُعاءَ عبادةٍ؛ كالصَّلاةِ وغَيرِها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١-ب/ ١٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٧)، ((تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩).

(٢) قال ابن عاشور: (الخطابُ بـ ﴿ٱدْعُوا۟﴾ خاصٌّ بالمُسلمينَ؛ لأنَّه تعليمٌ لأدَبِ دُعاءِ اللهِ تعالى وعبادَتِه، وليس المشركونَ بمُتَهَيِّئينَ لِمِثلِ هذا الخطابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١-ب/ ١٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٧ - ٣٩٨).
لإخفاءِ الدُّعاءِ فَوائِدُ عَديدةٌ منها:
- أنَّه أعظَمُ إيمانًا؛ لأنَّ صاحِبَه يعلَمُ أنَّ اللهَ يسمَعُ دُعاءَه الخفيَّ.
- أنَّه أعظَمُ في الأدبِ والتعظيمِ؛ ولهذا لا تُخاطَبُ المُلوكُ ولا تُسألُ برَفعِ الأصواتِ، وإنَّما تُخفَضُ عِندَهم الأصواتُ، ولِلَّهِ المثَلُ الأعلَى، فإذا كان ربُّنا يسمَعُ الدُّعاءَ الخفيَّ، فلا يليقُ بالأدَبِ بين يدَيه إلَّا خَفضُ الصَّوتِ به.
- أنَّه أبلغُ في التضرُّعِ والخُشوعِ، الذي هو رُوحُ الدُّعاءِ ولُبُّه ومقصودُه.

كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال سُبحانَه عن نَبِيِّه زكريَّا عليه السَّلامُ: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣].

وعن أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: كُنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَفَرٍ، فجعل النَّاسُ يجهَرونَ بالتَّكبيرِ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أيُّها النَّاسُ، ارْبَعُوا على أنفُسِكم[1]؛ إنَّكم ليس تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائبًا، إنَّكم تَدْعونَ سَميعًا قريبًا، وهو معكم))[2].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان دُعاءُ التَّضَرُّعِ والخُفيَةِ يقابِلُ الاعتداءَ بعَدَمِ التضَرُّعِ والخُفيةِ؛ عقَّبَ ذلك بقَولِه تعالى[3]:

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

أي: إنَّ ربَّكم لا يُحِبُّ المُتجاوِزينَ للحُدودِ التي حدَّها لعبادِه، في الدُّعاءِ

- أنَّه أبلَغُ في الإخلاصِ.
- أنَّه أبلَغُ في جمعيَّةِ القَلبِ على اللهِ في الدُّعاءِ؛ فإنَّ رَفعَ الصَّوتِ يُفرِّقُه ويُشتِّتُه.
- أنَّه دالٌّ على قُربِ صاحبِه مِن اللهِ، وأنَّه لِاقترابِه منه، وشِدَّةِ حُضورِه يسألُه مسألةَ أقرَبِ شَيءٍ إليه.
- أنَّه أدعى إلى دوامِ الطَّلبِ والسُّؤالِ؛ فإنَّ اللِّسانَ لا يمَلُّ، والجوارِحَ لا تتعَبُ، بخلافِ ما إذا رفَعَ صَوتَه؛ فإنَّه قد يَكِلُّ لسانُه وتَضعُفُ بعضُ قُواه. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦-٨).

(١) ارْبَعُوا أي: ارفُقُوا بأنفُسِكم، واخفِضُوا أصواتَكم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٢٦).
(٢) رواه البخاري (٢٩٩٢) ومسلم (٢٧٠٤).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٦).

وغَيرِه مِنَ الأمورِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وعن أبي نعامة، ((أنَّ عبدَ اللهِ بنَ مُغَفَّلٍ سَمِعَ ابنًا له يقولُ: اللهمَّ إنِّي أسألُكَ القَصرَ الأبيضَ مِنَ الجنَّةِ إذا دخَلْتُها عن يميني، فقال له: يا بُنَيَّ، سلِ اللهَ الجنَّةَ، وتعوَّذْه مِنَ النَّارِ؛ فإنِّي سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: سيكونُ بَعدِي قومٌ مِن هذه الأمَّةِ يَعتَدونَ في الدُّعاءِ والطُّهورِ))[(٢)].

﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٠٢- ٤٠٣).

قال ابنُ تيميَّةَ: (اللهُ لا يُحِبُّ المعتدينَ في كلِّ شَيءٍ: دعاءً كان أو غيرَه .. فيكونُ أمَرَ بدُعائِه وعبادَتِه، وأخبرَ أنَّه لا يُحِبُّ أهلَ العُدوانِ وهم يَدْعونَ معه غيرَه، فهؤلاء أعظَمُ المُعتدينَ عُدوانًا؛ فإنَّ أعظَمَ العُدوانِ الشِّركُ، وهو وَضعُ العبادةِ في غيرِ مَوضِعها، فهذا العُدوانُ لا بدَّ أن يكونَ داخلًا في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، ومِنَ العُدوانِ أن يَدْعُوَه غيرَ مُتضَرِّعٍ؛ بل دعاءُ هذا كالمُستغني المُدلِي على رَبِّه، وهذا مِن أعظَمِ الاعتداءِ؛ لِمُنافاتِه لدُعاءِ الذَّليلِ، فمَنْ لم يسألْ مسألةَ مِسكينٍ مُتَضَرِّعٍ خائفٍ؛ فهو مُعْتدٍ، ومِنَ الاعتداءِ أن يَعبُدَه بما لم يُشَرِّعْ، ويُثنِيَ عليه بما لم يُثْنِ به على نَفسِه، ولا أَذِنَ فيه). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٣).

وقال الشوكاني: (مَن جاوَزَ ما أمَرَه اللهُ به في شيءٍ مِنَ الأشياءِ، فقد اعتدى، واللهُ لا يحِبُّ المُعتدينَ، وتدخُلُ المجاوَزةُ في الدُّعاءِ في هذا العُمومِ دُخولًا أوَّليًا، ومِنَ الاعتداءِ في الدُّعاءِ: أن يسألَ الدَّاعي ما ليس له- كالخُلودِ في الدُّنيا، أو إدراكِ ما هو مُحالٌ في نَفسِه- أو يطلُبَ الوصولَ إلى منازِلِ الأنبياءِ في الآخِرةِ، أو يرفَعَ صَوتَه بالدُّعاءِ صارخًا به). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٩٦)، وابن ماجة (٣٨٦٤)، وأحمد (٢٠٥٥٤).

قال ابن كثير في ((التفسير)) (٣/ ٤٢٥): إسناده حسن لا بأس به، وصحح إسناده مغلطاي في ((شرح سنن ابن ماجه)) (١/ ٣٢٥)، وصحح الحديث ابن الملقن في ((البدر المنير)) (٢/ ٥٩٩)، والألباني في ((صحيح أبي داود)) (٩٦).

لَمَّا أنبأَ الكلامُ السَّابِقُ في قَولِه تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ عَن عِنايةِ اللهِ بالمُسلمينَ وتَقريبِه إيَّاهم؛ إذ أمَرَهم بأن يَدْعُوه، وشَرَّفَهم بذلك العُنوانِ العَظيمِ في قَولِه: ﴿رَبَّكُمۡ﴾، وعَرَّضَ لهم بمَحَبَّتِه إيَّاهم دُونَ أعدائِهم المُعتَدينَ- أعقَبَه بما يحولُ بَينَهم وبينَ الإدلالِ على اللهِ؛ بالاسترسالِ فيما تُمليه عليهم شَهَواتُهم مِن ثَوَرانِ القُوَّتَينِ الشَّهْويَّةِ والغَضَبيَّةِ؛ فإنَّهما تَجنيانِ فَسادًا في الغَالِبِ، فذَكَّرَهم بتَرْكِ الإفسادِ؛ ليكونَ صَلاحُهم مُنَزَّهًا عن أن يُخالِطَه فَسادٌ[1]، فقال:

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾.

أي: ولا تُفسِدوا- أيُّها النَّاسُ- في الأرضِ بالشِّركِ والمعاصي، وغيرِ ذلك مِن أنواعِ الفَسادِ، بعد أن أصلَحَ اللهُ تعالى الأرضَ؛ بإرسالِ الرُّسُلِ، وتقريرِ التَّوحيدِ، وبيانِ الشَّريعةِ، وعَمَلِ الطَّاعاتِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٩ - ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٠٤- ٤٠٦). وعزا ابنُ تيميَّة هذا المعنى لأكثَرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٤).

أي: وادعُوا اللهَ عزَّ وجلَّ واعبُدُوه، مخلصينَ له في دُعائِكم وعِبادَتِكم، وأنتم في حالِ خَوفٍ مِن غَضَبِ اللهِ وعِقابِه، وطَمَعٍ في رضا اللهِ وثَوابِه[1].

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان قولُه: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مُشتمِلًا على جميعِ مَقاماتِ الإيمانِ والإحسانِ، وهي الحُبُّ والخَوفُ والرَّجاءُ- عَقَّبَها ببيانِ أنَّ مَن دعاه خوفًا وطمَعًا، فهو المُحسِنُ، والرَّحمةُ قَريبٌ منه؛ لأنَّ مَدارَ الإحسانِ على هذه الأصولِ الثَّلاثةِ، فقال سبحانه[2]:

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: إنَّ رحمةَ اللهِ في الدُّنيا والآخِرةِ مرجُوَّةُ الحُصُولِ للمُحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، المُحسِنينَ إلى عِبادِ اللهِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٦).
قال السعدي: (الدُّعاء يَشملُ دعاءَ العبادة، فيَدخُل فيه كلُّ عِبادة أمَرَ الله بها ورسولُه، ودعاءُ المسألة، وهو: سؤالُ الله جلْبَ المنافع، ودفْعَ المضارِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤٤)، ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٧).
قال ابنُ تيمية: (واللهُ سُبحانه يُحِبُّ المُحسنينَ ويُبغِضُ مَن ليس مِنَ المُحسِنينَ، ومَن أحَبَّه اللهُ فرَحمَتُه أقرَبُ شيءٍ منه، ومَن أبغَضَه اللهُ فَرَحمتُه أبعَدُ شَيءٍ منه). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٧).

ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال سُبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [الزمر: ١٠].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يقولُ اللهُ عَزَّ وجلَّ: أنا عندَ ظَنِّ عَبدِي، وأنا معه حين يَذكُرُني، فإنْ ذَكَرَني في نفسِه ذَكَرْتُه في نفسِي، وإنْ ذَكَرَني في ملأٍ ذَكَرْتُه في ملأٍ خَيرٍ منه، وإنِ اقتَرَب إليَّ شِبرًا، تقرَّبْتُ إليه ذِراعًا، وإن اقتَرَب إليَّ ذِراعًا، اقتربتُ إليه باعًا، وإنْ أتاني يمشي أتيتُه هَرولةً))[(١)].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ﴾ لَمَّا نسَبَ تعالى نفسَه إلينا، سَمَّى نَفسَه في هذه الحالةِ بالرَّبِّ، وهو مُشعِرٌ بالتَّربيةِ وكثرةِ الفَضلِ والإحسانِ، فكأنَّه يقولُ: مَن كان له مُرَبٍّ مع كَثرةِ هذه الرَّحمةِ والفَضلِ، فكيف يليقُ به أن يشتغِلَ بعبادةِ غَيرِه[(٢)]؟!

٢- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ﴾ إنْ قِيل: وما الحكمةُ في خلقِها في ستةِ أيَّامٍ، وكان قادرًا على خلقِها في طرفةِ عينٍ؟ قِيل: لأنَّ خلقَها على التأنِّي أدلُّ على حكمتِه، ولُطفِ تدبيرِه، وفيه أيضًا تعليمُ النَّاس، وتنبيهُ العبادِ على التأنِّي في الأُمورِ، وأنَّ لكلِّ شيءٍ عندَه أجلًا[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨٥).

(٣) ينظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ١٨٨).

٣- في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنبيهٌ على ما في هذا العالَمِ مِنَ الخَيراتِ والنِّعَمِ، التي تُوجِبُ لله تعالى الشُّكرَ والعبادةَ على عبادِه، دون ما عَبَدُوه معه، وليس لهم مِنَ الخَلقِ ولا مِنَ الأمْرِ شَيءٌ[(١)].

٤- في قَولِ الله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ الحثُّ على الدُّعاءِ[(٢)].

٥- قولُه تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ فيه أن الدُّعاءَ الخفِيَّ أفضَلُ وأعظَمُ مِنَ الدُّعاءِ الذي هو جَهرٌ وعلانِيَةٌ؛ وذلك لأنَّ إخفاءَ الدُّعاءِ أبعَدُ مِنَ الرِّياءِ، ولأنَّه يدلُّ على ثِقَةِ العَبدِ بأنَّ رَبَّه عالِمٌ بما خَفِيَ وما ظَهَرَ، لا يخفى عليه شيءٌ[(٣)].

٦- قال تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المقصودُ مِنَ الدُّعاءِ أن يصيرَ العَبدُ مُشاهِدًا لحاجةِ نَفسِه، ولِعجزِ نَفسِه، ومُشاهِدًا لِكَونِ مَولاه مَوصوفًا بكمالِ العِلمِ والقُدرةِ والرَّحمةِ، فكلُّ هذه المعاني دخَلَتْ تحت قولِه: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ ثم إذا حَصَلَت هذه الأحوالُ على سبيل الخُلوصِ، فلا بُدَّ مِن صَونِها عنِ الرِّياءِ المبطِلِ لحقيقةِ الإخلاصِ، وهو المرادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَخُفْيَةً﴾ والمقصودُ مِن ذِكرِ التَّضَرُّعِ تحقيقُ الحالةِ الأصليَّةِ المطلوبةِ مِنَ الدُّعاءِ، والمقصودُ مِن ذِكرِ الإخفاءِ صَونُ ذلك الإخلاصِ عن شَوائِبِ الرِّياءِ، وإذا عرَفْتَ هذا المعنى ظهَرَ لك أنَّ قولَه سبحانه: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ مُشتمِلٌ على كلِّ ما يُرادُ تَحقيقُه وتحصيلُه في شرائِطِ الدُّعاءِ، وأنَّه لا يزيدُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٩).

ألبتَّةَ بوجهٍ مِنَ الوُجوهِ[١].

٧- قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ مِنَ الاعتداءِ في الدُّعاءِ ما هو خاصٌّ باللَّفظِ، كالتكَلُّفِ والسَّجعِ، والمبالغةِ في رَفعِ الصَّوتِ؛ فقد صَحَّ النَّهيُ عن ذلك، ومنها ما هو خاصٌّ بالمعنى، وهو طلَبُ غيرِ المَشروعِ مِن وَسائِلِ المعاصي ومَقاصِدِها- كضرَرِ العِبادِ، وأسبابِ الفَسادِ- وطلَبُ المُحالِ الشَّرعيِّ أو العَقليِّ، كطلَبِ إبطالِ سُنَنِ اللهِ في الخَلقِ، وتبديلِها أو تَحويلِها، ومنه طلَبُ النَّصرِ على الأعداءِ مَع تَركِ وسائِلِه- كأنواعِ السِّلاحِ والنِّظامِ- والغِنى بدونِ كَسْبٍ، والمغفرةِ مع الإصرارِ على الذَّنبِ. واللهُ تعالى يقولُ: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[٢] [فاطر: ٤٣].

٨- دلَّ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ عَقيبَ قَولِه: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ على أنَّ مَن لم يَدْعُه تضرُّعًا وخُفيةً فهو مِنَ المُعتدينَ الذين لا يُحِبُّهم سبحانه، فقَسَّمَتِ الآيةُ النَّاسَ إلى قِسمينِ: داعٍ للهِ تَضَرُّعًا وخُفيةً؛ ومُعتدٍ بتَرْكِ ذلك[٣].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ هذا نهيٌ عن إيقاعِ الفَسادِ في الأرضِ، وإدخالِ ماهِيَّتِه في الوجودِ، فيتعَلَّقُ بجميعِ أنواعِه؛ مِن إفسادِ النُّفوسِ والأنسابِ، والأموالِ والعُقولِ والأديانِ[٤].

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ لَمَّا كان الدُّعاءُ مِنَ اللهِ بمكانٍ؛ كرَّرَه، فقال أوَّلًا: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ وهاتان الحالتانِ مِنَ الأوصافِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٠٨، ٤٠٩).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٠).

الظَّاهرةِ؛ لأنَّ الخُشوعَ والاستكانةَ وإخفاءَ الصَّوتِ، ليسَتْ مِنَ الأفعالِ القَلبيَّةِ، ثمَّ قال ثانيًا: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ أي: وَجِلِينَ مُشفِقينَ، وراجِينَ مُؤَمِّلينَ؛ فبدأ أوَّلًا بأفعالِ الجَوارِحِ، ثمَّ ثانيًا بأفعالِ القُلوبِ، وعطْفُ ﴿خَوۡفٗا﴾ على ﴿طَمَعًا﴾ يقتضي أن يكونَ الخَوفُ والرَّجاءُ مُتَساوِيَينِ؛ ليكونا للإنسانِ كالجَناحينِ للطَّائِرِ، يحمِلانِه في طريقِ استقامةٍ، فإنِ انفَرَدَ أحدُهما هلَكَ الإنسانُ[1].

١١- اشتمَلَ قولُه تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ على جميعِ مقاماتِ الإيمانِ والإحسانِ، وهي: الحبُّ والخَوفُ والرَّجاءُ؛ ولذلك أعقَبَها بقوله: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، أي: إنما تَنالُ مَن دعاه خوفًا وطَمَعًا، الذي هو المحسنُ، والرَّحمةُ قريبٌ منه؛ لأنَّ مدارَ الإحسانِ على هذه الأصولِ الثَّلاثةِ[2].

١٢- اشتمَلَ قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۞ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على آدابِ نَوعَيِ الدُّعاءِ- دُعاءِ العبادةِ، ودُعاءِ المسألةِ؛ فإنَّ الدُّعاءَ في القُرآنِ يُرادُ به هذا تارةً، وهذا تارةً، ويُرادُ به مجموعُهما، وهما مُتلازمانِ، فدعاءُ المسألةِ هو طلَبُ ما ينفَعُ الداعيَ، وطلبُ كَشْفِ ما يضرُّه أو دَفْعِه، وكلُّ مَن يملكُ الضُّرَّ والنَّفعَ، فهو المعبودُ حقًّا، فهو يُدعَى للنَّفعِ والضُّرِّ دُعاءَ المسألةِ، ويُدعى خوفًا ورجاءً دُعاءَ العِبادةِ، فعُلِمَ أنَّ النَّوعينِ مُتلازمانِ؛ فكلُّ دعاءِ عبادةٍ، مُستلزِمٌ لِدُعاءِ المسألةِ، وكُلُّ دعاءِ مَسألةٍ مُتضَمِّنٌ لدُعاءِ العبادةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تحريضٌ على الإحسانِ وترغيبٌ فيه، ووجهُ ذلك: أنَّ قُرْبَه تبارك وتعالى مِنَ المحسنينَ وقُرْبَ رَحمَتِه منهم؛ مُتلازمانِ، وقُرْبُ اللهِ تعالى من عبده هو غايةُ الأماني ونهايةُ الآمالِ؛ فإذا كانت رحمتُه قريبةً منهم، فهو أيضًا قريبٌ منهم- سبحانَه؛ بسبَبِ إحسانِهم، وكُلَّما كان العبدُ أكثَرَ إحسانًا، كان أقرَبَ إلى رحمةِ رَبِّه تعالى، وكان ربُّه قريبًا منه برَحمَتِه[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تنبيهٌ ظاهرٌ على أنَّ فِعْلَ هذا المأمورِ به هو الإحسانُ المطلوبُ منكم؛ وأنَّ مَطلوبَكم أنتم مِن اللهِ هو رحمَتُه؛ وأنَّ رحمتَه قريبٌ مِنَ المُحسنينَ، الذين فَعَلوا ما أُمِرُوا به مِن دعائِه خَوفًا وطمعًا؛ فقُرْبُ مطلوبِكم منكم- وهو الرَّحمةُ- يكون بحَسَبِ أدائِكم لِمَطلوبِه منكم- وهو الإحسانُ- الذي هو في الحقيقةِ إحسانٌ إلى أنفسِكم؛ فإنَّ اللهَ تعالى هو الغنيُّ الحميدُ، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾[٢] [الإسراء: ٧].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فكما أحسَنُوا بأعمالِهم، أَحسنَ اللهُ إليهم برَحْمَتِه[٣].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ دلالةٌ على بُطلانِ تأويلِ الاستواءِ بمعنى المُلْكِ؛ لأنَّه سبحانه أَخبرَ أنَّه خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ، ثم استوى على العَرشِ؛ وقد أَخبرَ أنَّ العَرشَ كان موجودًا قبل خلْقِ السَّمواتِ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١).
(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والأرضِ- كما دلَّ على ذلك الكِتابُ والسنَّةُ - وحينئذٍ فهو مِن حِينِ خلَقَ العرشَ مالكٌ له مُسْتَولٍ عليه؛ فكيف يكونُ الاستواءُ عليه مؤخَّرًا عن خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؟! وأيضا فاللهُ مالكٌ لكُلِّ شَيءٍ، مُستَولٍ عليه؛ فكيف يُخصُّ العرشُ بالاستواءِ[(١)]؟!

٢- قولُه سبحانَه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فيه التمييزُ بين إرادةِ الله لما يخلقُه في عبادِه، وإرادتِه لما يأمرُ به عبادَه، وكثيرٌ مِن الناسِ تشتبهُ عليهم الحقائِقُ الأمريَّةُ الدِّينيَّةُ الإيمانيَّةُ بالحقائقِ الخلقِيَّةِ القدريَّةِ الكونِيَّةِ، فالله سبحانه خالقُ كلِّ شيءٍ ورَبُّه ومَليكُه، لا خالِقَ غَيْرُه، ولا رَبَّ سواه، فكلُّ ما في الوجودِ مِن حركَةٍ وسُكونٍ فبقضائِه وقَدَرِه، ومَشيئَتِه وقُدْرَتِه وخَلْقِه، وكلُّ ما خلقَه فبإرادتِه خلَقَه، فما شاء الله كان، وما لم يشأْ لم يكُنْ، فما لم يكُنْ لم يُرِدْ أن يخلقَه، وما كان فقد أراد أن يخلقَه، وهو لا يريدُ أن يخلقَ إلا ما سبَق علمُه بأنَّه سيخلقُه، فإنَّ العلمَ يطابقُ المعلومَ، وهو سبحانَه أمَر بطاعتِه وطاعةِ رسلِه، ونَهَى عن معصِيَتِه ومعصيَةِ رُسُلِه، فأمَر العبادَ بالحسناتِ التي تنفعُهم، ونهاهم عن السيئاتِ التي تضرُّهم، والحسناتُ محبوبةٌ لله مرضيةٌ، والسيئاتُ مكروهةٌ له يسخطُها، ويسخطُ على أهلِها، وإن كان الجميعُ مخلوقًا له[(٢)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فيه ردٌّ على القائلينَ بخَلقِ القُرآنِ؛ لأنَّه فرَّقَ بين المَخلوقاتِ وبَيْنَ الأمرِ؛ لأنَّ أمْرَه- عزَّ وجَلَّ- بكلامِه، فكَلامُه غيرُ داخلٍ في خَلقِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥ / ٢٢١)، ((الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)) لابن تيمية (١ / ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ افتُتِحَتِ الجُملةُ بحَرفِ التَّنبيهِ (أَلَا)؛ لتَعِيَ نفوسُ السَّامعينَ هذا الكلامَ الجامِعَ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فيه أنَّ الإخفاءَ مُعتبَرٌ في الدُّعاءِ؛ فاللهُ تعالى أمَرَ بالدُّعاءِ مقرونًا بالإخفاءِ، وظاهِرُ الأمرِ للوُجوبِ، فإن لم يحصُلِ الوُجوبُ، فلا أقَلَّ مِن كَونِه نَدبًا[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ دلالةٌ على جوازِ أنْ يشتكيَ المسلمُ إلى اللهِ ما نَزَلَ به مِن الضُّرِّ، وقد أجمَعَ المُسلمونَ على جوازِه[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وقَولِه: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ دلالةٌ على أنَّه سبحانه يُحبُّ أنْ يُسألَ، ويُرغَبَ إليه، ويُطلَبَ منه[٤].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ فاللهُ أصلَحَ الأرضَ بِرَسولِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ودِينِه، وبالأمرِ بالتَّوحيدِ، ونهى عن فسادِها بالشِّركِ به، ومُخالَفةِ رَسُولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومَن تدَبَّرَ أحوالَ العالَمِ وَجَدَ كلَّ صَلاحٍ في الأرضِ، فسَبَبُه توحيدُ اللهِ، وعبادَتُه، وطاعةُ رَسُولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكُلَّ شَرٍّ في العالَمِ، وفِتنةٍ وبَلاءٍ، وقَحطٍ وتَسليطِ عَدُوٍّ، وغير ذلك؛ فسَبَبُه مُخالفةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والدَّعوةُ إلى غَيرِ اللهِ[٥].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ الأصلَ في المَضَارِّ الحُرمةُ، والمَنعُ على الإطلاقِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ٧٢).
(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٠٢).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٤-٢٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨٣).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ التَّصريحُ بالبَعْديَّةِ هنا، تسجيلٌ لِفَظاعةِ الإفسادِ بأنَّه إفسادٌ لِمَا هو حَسَنٌ ونافِعٌ، فلا مَعذِرةَ لِفاعِلِه، ولا مَساغَ لِفِعلِه عند أهلِ الأرْضِ[١].

١١- قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ * وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ أعاد الأمرَ بالدُّعاءِ بعد أنْ وَسَّطَ بينهما النَّهيَ عن الإفسادِ؛ للإيذانِ بأنَّ مَن لا يعرِفُ نفسَه بالحاجةِ والافتقارِ إلى رَحمةِ رَبِّه الغنيِّ القَديرِ، وفَضلِه وإحسانِه، ولا يدعوه تضَرُّعًا وخُفيةً، ولا خَوفًا مِن عِقابِه، وطَمَعًا في غُفرانِه، أنَّه يكونُ أقرَبُ إلى الإفسادِ منه إلى الإصلاحِ[٢].

١٢- المناسبةُ في ذِكْرِ الطَّمعِ- الذي هو الرَّجاءُ- في آيةِ الدُّعاءِ: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ أنَّ الدُّعاءَ مبنيٌّ عليه، فإنَّ الدَّاعيَ ما لم يَطْمَعْ في سُؤَالِهِ ومَطلوبِه، لم تتحَرَّكْ نفسُه لطَلَبِه؛ إذ طَلَبُ ما لا طَمَعَ فيه، مُمتنِعٌ[٣].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ له دلالةٌ بِمَنطوقِه، ودَلالةٌ بإيمائِه وتعليلِه، ودَلالةٌ بمَفهومِه؛ فَدَلالَتُه بِمَنطوقِه: على قُربِ الرَّحمةِ مِن أهلِ الإحسانِ. ودَلالَتُه بإيمائِه وتَعليلِه: على أنَّ هذا القُربَ مُستَحَقٌّ بالإحسانِ، وهو السَّبَبُ في قُربِ الرَّحمةِ مِنهم. ودَلالَتُه بمَفهومِه: على بُعدِه مِن غيرِ المُحسنينَ؛ فهذه ثلاثُ دَلالاتٍ لِهذه الجُملةِ[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أنَّه إذا كانت

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤١٠).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٧).

الرَّحمةُ الإلهيَّةُ قَريبةً مِنَ المحسنينِ، فالموصوفُ تبارك وتعالى أَوْلى بالقُربِ منهم، بل قُربُ رَحمَتِه تبَعٌ لِقُربِه هو- تبارك وتعالى- مِنَ المُحسنينَ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ عادَ به التَّذكيرُ إلى صَدْرِ السُّورةِ في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾[٢]، وفيه التأكيدُ بحرْف ﴿إِنَّ﴾[٣].

- قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فيه مِن بديعِ الإيجازِ، ورَشاقةِ التركيبِ: جَعْلُ اللَّيلِ والنَّهار مفعولَينِ لِفعلِ فاعلِ الإغشاءِ؛ فهما مفعولانِ، كِلاهما صالحٌ لأنْ يكونَ فاعل الغَشي؛ ولهذا استغنى بقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ عن ذِكر عَكسِه، ولم يقُل: (والنَّهارَ اللَّيلَ)، وقد شَبَّه ظهورَ ظلامِ اللَّيل في الأُفق ممتدًّا مِن المشرِق إلى المغربِ عندَ الغُروبِ، واختفاءَ نُورِ النَّهار في الأفقِ ساقطًا من المشرِقِ إلى المغربِ؛ حتَّى يعمَّ الظلامُ الأفقَ بطَلبِ اللَّيلِ النَّهار، على طريقةِ التَّمثيل، وكذلك يُفهَمُ تشبيهُ امتدادِ ضَوءِ الفجرِ في الأُفقِ من المشرِقِ إلى المغربِ، واختفاءِ ظلامِ اللَّيل في الأُفقِ ساقطًا في المغربِ؛ حتَّى يَعُمَّ الضياءُ الأُفقَ: بطلبِ النَّهارِ اللَّيلَ على وجْهِ التَّمثيل[٤].

- قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ مُستأنفةٌ استئنافَ التَّذييلِ للكلامِ السَّابق من

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٦٧).

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ لإفادةِ تَعميمِ الخَلْقِ[١].

- التَّعريفُ في ﴿ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ تعريفُ الجِنسِ؛ فتُفيدُ الجملةُ قَصْرَ جِنسِ الخَلْقِ وجِنسِ الأمْرِ على الكونِ في مِلكِ اللهِ تعالى؛ فليس لغيرِه شيءٌ مِن هذا الجِنسِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ معناه: ليس لآلهتِهم شيءٌ مِن الخَلْقِ ولا مِن الأَمْرِ[٢].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُ﴾ هنا؛ لتخصيصِه تَعالَى بالخَلْقِ والأَمْرِ[٣].

٢- **قوله:** ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ استئنافٌ جاءَ مُعترِضًا بين ذِكرِ دَلائلِ وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى بذِكرِ عظيمِ قُدرتِه على تكوينِ أشياءَ لا يُشارِكُه غيرُه في تَكوينِها؛ فالجملةُ مُعترِضةٌ بينَ جُملة ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ وجُملةِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾، جرَى هذا الاعتراضُ على عادةِ القُرآنِ في انتهازِ فُرَصِ تهيُّؤِ القُلوبِ للذِّكْرَى[٤].

- وقَولُه: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾ فيه تعريفُ الربِّ بطريقِ الإضافةِ دون ضميرِ الغائبِ، مع وجودِ مُعادٍ قريبٍ في قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾، ودون ضَميرِ المُتكلِّم؛ لأنَّ في لَفْظِ الربِّ إشعارًا بتقريبِ المؤمنِين بصِلةِ المربوبيَّة، وليُتوسَّلَ بإضافةِ الربِّ إلى ضميرِ المخاطَبِينَ إلى تَشريفِ المؤمنِينَ، وعنايةِ الرَّبِّ بهم[٥].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ واقعةٌ موقِعَ التَّعليلِ للأمْرِ بالدُّعاءِ؛ إشارةً إلى أنَّه أمْرُ تَكريمٍ للمُسلِمينَ يَتضمَّنُ رِضا اللهِ عنهم، ولكن سَلَك في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٧٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٧١).

التَّعليلِ طَريقَ إثباتِ الشَّيءِ بإبطالِ ضِدِّه؛ تَنبيهًا على قَصْدِ الأَمْرَينِ، وإيجازًا في الكلامِ[(١)].

- وبين قَولِه تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۞ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ وقولِه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] مُناسَبةٌ حَسنةٌ:

حيثُ ذُكِرَ التضرُّعُ فيهما معًا، وهو التذلُّلُ والتَّمَسكُنُ والانكسارُ، وهو رُوحُ الذِّكرِ والدُّعاءِ، وخُصَّ الدُّعاءُ بالخُفيةِ؛ لِما لإخفاءِ الدُّعاءِ مِن حِكَمٍ وفوائدَ كثيرةٍ.

وخُصَّ الذِّكرُ بالخِيفةِ؛ لحاجةِ الذَّاكرِ إلى الخوفِ، فإنَّ الذِّكرَ يستلزِمُ المحبَّةَ ويُثمِّرُها ولا بدَّ، والمحبَّةُ ما لم تُقرَن بالخوفِ، فإنَّها لا تنفَعُ صاحِبَها، بل قد تضُرُّه، فتأمَّلْ أسرارَ القُرآنِ وحِكمتَه في اقترانِ الخِيفةِ بالذِّكرِ، والخُفيةِ بالدُّعاءِ، مع دلالَتِه على اقترانِ الخيفةِ بالدُّعاءِ، والخُفيةِ بالذِّكرِ أيضًا؛ فإنه قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ فلم يحتَجْ بعدها أن يقولَ: (خُفيَة)، وقال في الدُّعاءِ: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ فلم يحتَجْ أن يقولَ في الأولى (ادعوا ربَّكم تضرُّعًا وخيفَةً) فانتظمت كلُّ واحدةٍ مِن الآيتَينِ، للخُفيةِ والخِيفةِ والتَّضرُّعِ، أحسَنَ انتظامٍ، ودلَّت على ذلك أكملَ دَلالةٍ.

وذُكِرَ الطَّمعُ الذي هو الرَّجاءُ في آيةِ الدُّعاءِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ مَبنيٌّ عليه، فإنَّ الداعيَ ما لم يطمَعْ في سؤالِه ومَطلوبِه لم تتحَرَّكْ نفسُه لِطَلَبِه؛ إذ طلَبُ ما لا طمَعَ فيه ممتنِعٌ، وذُكِرَ الخَوفُ في آيةِ الذِّكرِ؛ لشدَّةِ حاجةِ الخائِفِ إليه، فذُكِرَ في كلِّ آيةٍ ما هو اللَّائقُ بها والأَولى بها، مِن الخوفِ والطَّمعِ، فتبارَكَ مَن أنزَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٢).

كلامَه؛ شِفاءً لِمَا في الصُّدور، وهُدًى ورَحمةً للمُؤمنينَ[١].

٣- ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

- قولُه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في إيقاعِ هذا النَّهيِ عقِبَ قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ تعريضٌ بأنَّ المُعتدِين مُفسِدون في الأرضِ، وإرْباءٌ للمُسلِمينَ عن مُشابهتِهم، أي: لا يَليقُ بكم- وأنتم المقرَّبون مِن ربِّكم، المأذونُ لكم بدُعائِه- أنْ تكونوا مِثلَ المُبعَدِين منه المُبْغَضين[٢].

- وقولُه: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ، والتَّقديرُ: وادْعُوه خوفًا وطمعًا وأحْسِنوا؛ بقرينةِ تَعقيبِه بقولِه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.[٣].

- وقولُه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه التَّأكيدُ بقولِه: ﴿إِنَّ﴾، وهي لمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخبرِ، وقد سكَتَ عن ضدِّ المحسنين رِفقًا بالمؤمنِين، وتعريضًا بأنَّهم لا يُظَنُّ بهم أنْ يُسِيئوا فتَبْعُد الرَّحمةُ عنهم[٤].

- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى قُرْبِ اللهِ تعالى مِن المُحسنينَ، وأيضًا قُرْبِ رَحمتِه منهم، ووجهُ ذلك: هو الإخبارُ عن الرَّحمةِ- وهي مؤنَّثةٌ بالتاءِ- بِقَولِه (قريبٌ) وهو مذكرٌ، وهذا مِن باب الاستغناءِ بأحَدِ المذكُورَينِ عن الآخَرِ؛ لكونه تبَعًا له ومعنًى مِن معانيه،

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٧٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٧٧).

فاستغنى بخَبَرِ المحذوفِ عن خبَرِ الموجودِ، وَسَوَّغَ ذلك ظهورُ المعنى؛ ففي حذف التاء هاهنا تنبيهٌ على هذه الفائدةِ العَظيمةِ الجليلةِ، ولو قال: إنَّ رحمةَ اللهِ قريبةٌ مِنَ المحسنينَ؛ لم يدُلَّ على قُربِه تعالى منهم؛ لأنَّ قُربَه تعالى أخَصُّ مِن قُربِ رَحمَتِه، والأعَمُّ لا يستلزِمُ الأخَصَّ، بخلافِ قُربِه؛ فإنَّه لَمَّا كان أخَصَّ استلزَمَ الأعَمَّ، وهو قُربُ رَحمَتِه[1].

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٨، ٣١).

الآيتان (٥٧-٥٨)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بُشْرًۢا﴾: أي: مُبَشِّراتٍ بالغَيثِ، والبُشرى تُطلَقُ على الإِخْبار بِمَا يَسُرُّ، وما يُعطَى للمُبشَّرِ، وأصلُ (بشر): ظهورُ الشَّيءِ مع حُسْنٍ وجَمالٍ[(١)].

﴿أَقَلَّتْ﴾: أي: حمَلَتْ؛ يُقال: أقلَّ فلَانٌ الشَّيْءَ واستقلَّ به: إذا أطاقَه وحمَلَه، وأقْلَلْت كذا: وجدتَه قليلَ المحمَلِ أي: خفيفًا، وأصلُ (قلل): يدلُّ على نَزارةِ الشَّيءِ، وعلى الانزعاجِ الذي هو خِلافُ الاستقرارِ[(٢)].

﴿خَبُثَ﴾: أي: رَدُؤَت تُرْبَتُه، وَمَلُحَتْ مَشَارِبُه، والخُبْثُ والخَبِيثُ: ما يُكرَهُ رداءةً وخَساسةً، مَحسوسًا كان أو معقولًا، وأصْل (خبث): يَدُلُّ على خِلافِ الطَّيِّبِ، وعلى الرَّدِيءِ[(٣)].

﴿نَكِدًا﴾: قَلِيلًا عَسِرًا، أو عديمَ النَّفْعِ، والنكِدُ: كُلُّ شيءٍ خَرَجَ إلى طالبِه بتعسُّرٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص:٩١، ٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩، ٤٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)،

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه هو الذي يُرسِلُ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ بنُزُولِ المَطَرِ، الذي يرحَمُ به خَلقَه، حتَّى إذا حمَلَت تلك الرِّياحُ سحابًا مُثقَلًا بالماءِ، ساقَه اللهُ لبَلَدٍ مَيِّتٍ، فأخرجَ به مِن جَميعِ الثَّمراتِ، فكَما يُحيِي هذا البَلَدَ المَيِّتَ بما يُنْزِلُ فيها مِنَ الماءِ، فيُخرِجُ به مِنَ الثَّمراتِ، بعد مَوتِه وجُدُوبَتِه وقُحُوطِ أهلِه، كذلك يُخرِجُ المَوتى مِن قُبورِهم أحياءً بعد فَنائِهم؛ لعَلَّكم- أيُّها النَّاسُ- تَعتَبِرونَ.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّ الأرضَ الطَّيِّبةَ يخرُجُ نباتُها- بإذنِ اللهِ- سريعًا حَسَنًا طَيِّبًا، والأرضُ الرَّديئةُ لا يخرُجُ نَباتُها إلَّا خُروجًا عَسِرًا بطيئًا، مسلوبَ النَّفعِ والخَيرِ والبَرَكةِ، كذلك يُبَيِّنُ اللهُ الآياتِ لِقَومٍ يَشكرونَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لِتعَلُّقِ الآيةِ بما قَبلَها عِدَّةُ أوجُهٍ:

الأول: لما ذكَر اللهُ تعالى دلائلَ الإلهيَّة، وكمالَ العلمِ والقُدرة مِن العالمِ العُلوي، وهو السمواتُ والشَّمس والقمرُ والنُّجوم- أتبَعه بذكرِ الدَّلائلِ مِن بعضِ أحوالِ العالمِ السُّفلي[1].

الثاني: لَمَّا أقامَ اللهُ تعالى الدَّلالةَ في الآيةِ الأولى -والتي هي قَولُه تعالى:

((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨٦).

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾- على وُجُودِ الإلهِ القادِرِ العالِمِ، الحكيمِ الرَّحيمِ؛ أقام الدَّلالةَ في هذه الآيةِ على صِحَّةِ القَولِ بالحَشرِ والنَّشرِ والبَعثِ والقِيامةِ؛ ليحصُلَ بِمَعرفةِ هاتينِ الآيتينِ كُلُّ ما يُحتاجُ إليه في مَعرفةِ المَبدأِ والمَعَادِ[1].

الثالث: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى رَحمَتَه، وأنَّها قَريبٌ مِنَ المُحسنينَ، ذَكَّرَنا بما نغفلُ عنه كثيرًا مِنَ التفكُّرِ والتأمُّلِ في أظهَرِ أنواعِ رَحْمَتِه: وهو إرسالُ الرِّياحِ، وما فيها مِن مَنافِعِ الخَلقِ، وإنزالِ المَطَرِ، الذي هو مَصدَرُ الرِّزقِ، وسَبَبُ حياةِ كُلِّ حَيٍّ في هذه الأرضِ، وما فيه مِنَ الدَّلالةِ على قُدرَتِه تعالى على البَعثِ، وما يستحِقُّه عليه مِنَ الحَمدِ والشُّكرِ، فقال[2]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿بُشْرًۢا﴾ قراءاتٌ؛ منها:

١- ﴿بُشْرًۢا﴾ جمعُ بَشيرٍ، مِنَ البِشارةِ، فالرِّيحُ تُبَشِّرُ بالمطَرِ[3].

٢- ﴿نُشُرًا﴾ جمع: ناشِرٍ، من النَّشْرِ، ضِد الطَّيِّ، وقيل: مِنَ النُّشُورِ بمعنى الإحياءِ، فجَعَلَ الرِّيحَ ناشِرةً للأرضِ، أي مُحْيِيةً لها؛ إذ تأتي بالمَطَرِ الذي يكونُ النَّباتُ به. وقيل (نُشُرًا) جمعُ: نشُورٍ، بمعنى: مَنشورٍ، أي: إنَّ الله تعالى أحيا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤١٣).

(٣) قرأ بها عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٨٦).

الرِّيحَ؛ إذ بعَثَها لتأتِيَ بين يَدَيْ رَحْمَتِه، فهي ريحٌ منشورةٌ، أي مُحْياةٌ[١].

٣- ﴿نَشْرًا﴾ قيل: النَّشْرُ صِنْفٌ مِنَ الرِّيَاحِ الطَّيبَةِ اللَّينةِ الَّتِي تُنشئُ السَّحَابَ، وقيل: مصدَرُ: نَشَرَت الرِّيحُ السَّحَابَ: نَشْرًا، فالمعنى: هو الذي يُرسِلُ الرِّياحَ ناشِرةً للسَّحابِ[٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

أي: واللهُ الذي يُرسِلُ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ بنُزُولِ المَطَرِ، الذي يرحَمُ اللهُ به خَلْقَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

أي: حتَّى إذا حمَلَتْ هذه الرِّياحُ سَحابًا ثقيلةً، مِن كَثرةِ ما فيها مِنَ الماءِ؛ سُقْنا السَّحابَ إلى بَلَدٍ ذِي أرضٍ مَيِّتةٍ مُجدِبةٍ، لا نباتَ فيها، فأنزَلْنا فيها الماءَ يتقاطَرُ

---

(١) قرأ بها الحَرَميَّانِ وأبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥٩).
ويُنظَرُ لِمَعنى هذه القراءة: ((الدر المصون)) (٥/ ٣٤٧) للسمين الحلبي، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٦٥).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) ابن زنجلة (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٢ - ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٠).

مِن ثُقُوبِ ذلك السَّحابِ، فأخرَجْنا بسببِه مِن كُلِّ أنواعِ الثَّمَراتِ[١].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۞ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۞ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: كما أحيَيْنا البلَدَ المَيِّتَ بالماءِ، فأخرَجْنا به مِن كُلِّ الثَّمَراتِ؛ كذلك نُخرِجُ المَوتى مِن قُبورِهم أحياءً؛ لعلَّكم بما بَيَّنَّاه لكم تعتبرونَ، فتَستَدِلُّونَ به على قدرةِ اللهِ على البَعثِ، فإحياءُ الأمواتِ كإحياءِ الأرضِ بالنَّباتِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤١٦ - ٤٢٤).
قال القرطبي: (يُقالُ: سُقْتُه لبلدِ كذا، وإلى بلدِ كذا. وقيلَ: لأجلِ بلدٍ مَيِّتٍ، فاللَّامُ لامُ أجلِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٣٠).
قال ابن عاشور: (البلدُ الواحدُ يخرجُ ثمراتُه المعتادةُ فيه، فإذا نظرتَ إلى ذلك البلدِ خاصةً فاجعلِ استغراقَ كلِّ الثمراتِ استغراقًا عرفيًّا، أي مِن كلِّ الثمراتِ المعروفةِ في ذلك البلدِ، وحرفُ (مِن) للتبعيضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٤٦)، ((الوسيط))

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۞ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۞ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩-١١].

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذه الآيةَ تضمَّنَت تفصيلًا لمضمونِ جُملةِ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ إذ قد بيَّنَ فيها اختلافَ حالِ البَلَدِ الذي يُصيبُه ماءُ السَّحابِ، ودعا إلى هذا التَّفصيلِ أنَّه لَمَّا مَثَّلَ إخراجَ ثَمَراتِ الأرضِ بإخراجِ الموتى منها يومَ البَعثِ؛ تذكيرًا بذلك للمُؤمنينَ، وإبطالًا لإحالةِ البَعثِ عند المُشركينَ- مَثَّلَ هنا باختلافِ حالِ إخراجِ النَّباتِ مِنَ الأرضِ، اختلافَ حالِ النَّاسِ الأحياءِ في الانتفاعِ برحمةِ هُدى اللهِ[1]، فقال تعالى:

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾.

أي: والأرضُ الطَّيِّبةُ تُربتُها، يَخرُجُ نَباتُها -إذا أنزَلَ اللهُ المطَرَ- سريعًا حَسنًا

للواحدي (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٤).

طَيِّبًا، بإرادةِ اللهِ ومَشيئَتِه[١].

﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾.

أي: والأرضُ الرَّديئةُ تُربَتُها، لا يخرُجُ نَباتُها- إذا أنزَلَ اللهُ المَطَرَ- إلَّا خُروجًا عَسِرًا بَطيئًا، مسلوبًا منه النَّفعُ والخَيرُ، لا بَرَكةَ فيه[٢].

وعن أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((إنَّ مَثَلَ ما بعثَني اللهُ به عزَّ وجلَّ مِنَ الهُدى والعِلمِ؛ كَمَثلِ غَيثٍ أصاب أرضًا، فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنبَتَتِ الكَلَأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكان منها أجادِبُ[٣] أمسَكَتِ الماءَ، فنَفَعَ اللهُ بها النَّاسَ، فشَرِبوا منها وسَقَوْا ورَعَوْا، وأصابَ طائفةً منها أخرى، إنَّما هي قِيعانٌ[٤]؛ لا تُمسِكُ ماءً، ولا تُنبِتُ كَلَأً،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٦- ٢٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨- ب/ ١٨٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٢).
قال ابن عاشور: (﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾: حَمَلَه جميعُ المُفَسِّرينَ على أنَّه وَصفٌ للبَلَدِ، أي: البلَدُ الذي خَبُثَ، وهو مقابِلُ البلدِ الطَّيِّبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٥).
وروى ابنُ جريرٍ عن ابن عباس قال: (هذا مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ للمُؤمِنِ؛ يقول: هو طَيِّبٌ، وعَمَلُه طَيِّبٌ، كما البلدِ الطَّيِّبِ ثَمَرُه طيِّبٌ، ثم ضربَ مَثَلَ الكافِرِ، كالبَلدةِ السَّبخةِ المالحةِ التي لا تَخرُجُ منها البركةُ، فالكافِرُ هو الخبيثُ، وعَمَله خبيثٌ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٨).
وممَّن اختار ما ذهب إليه ابنُ عباس رضي الله عنهما: ابنُ جرير، وابنُ القيم، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٨)، ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٠٨-١٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٣١-٤٣٢).

(٣) الأجادِبُ: الأرضُ الصُّلبةُ التي تُمسِكُ الماءَ؛ مِنَ الجَدْبِ، وهو القَحْطُ، سَمَّاها أجادِبَ؛ لأنَّها لِصَلابَتِها لا تُنبِتُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٤٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣٤).

(٤) القِيعانُ: جمعُ قاعٍ، وهي الأرضُ المُستَوِيَةُ التي لا نَباتَ فيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣٥).

فذلك مَثَلُ مَن فَقُه في دِينِ اللهِ، ونَفَعَه بما بعَثَني اللهُ به، فعَلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ مَن لم يَرفَعْ بذلك رأسًا، ولم يقبَلْ هُدى اللهِ الذي أُرسِلْتُ به))[١].

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

أي: ومِثلَما نوَّعْنا الآياتِ الدَّالَّةَ على إبطالِ الشِّركِ، وإثباتِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى وألوهِيَّتِه، وعظيمِ قُدرَتِه على البَعثِ والنُّشورِ، وغير ذلك، ننوِّعُ أيضًا الآياتِ في كُلِّ ما يَحتاجُ إليه النَّاسُ، فنأتي بآيةٍ بعد آيةٍ، في أساليبَ مُختلفةٍ، لقومٍ يَشكرونَ اللهَ تعالى على نِعَمِه، معترفينَ بها ومُقِرِّينَ، ولله تعالى طائعينَ، فهم الذين ينتفعونَ بتلك الآياتِ، ويتَّعظونَ بالحُجَجِ والدَّلالاتِ[٢].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- الحِرصُ على التذكُّرِ والتفكُّرِ في آلاءِ اللهِ، والنَّظَرُ إليها بِعَينِ الاعتبارِ والاستدلالِ، لا بِعَينِ الغَفلةِ والإهمالِ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٣].

٢- قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ هذا مِثالٌ لِلقُلوبِ حينَ يَنزِلُ عليها الوَحيُ الذي هو مادَّةُ الحياةِ، كما أنَّ الغَيثَ مادَّةُ الحياةِ؛ فإنَّ القُلوبَ الطَّيبةَ حين يَجِيئُها الوَحيُ، تَقبَلُه وتَعلَمُه، وتُنبِتُ بحَسَبِ طِيبِ أَصلِها، وحُسنِ عُنصُرِها،

(١) رواه البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٧- ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٩٢).

وأمَّا القُلوبُ الخَبيثةُ التي لا خَيرَ فيها، فإذا جاءَها الوحيُ لم يجِدْ مَحَلًّا قابلًا، بل يجِدُها غافلةً مُعرضةً، أو مُعارِضةً، فيكون كالمَطَرِ الذي يمُرُّ على السِّباخِ والرِّمالِ والصُّخورِ، فلا يؤثِّرُ فيها شيئًا، وهذا كَقَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًا ...﴾ الآيات[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ ليس المقصودُ مُجَرَّدَ تفصيلِ أحوالِ الأرضِ بعد نُزولِ المَطَرِ؛ لأنَّ الغَرَضَ المسوقَ له الكلامُ يجمَعُ أمرينِ: العبرةَ بصُنعِ الله، والموعظةَ بما يماثِلُ أحوالَه، فكذلك يُخرِجُ اللهُ الموتى، وكذلك يَنتفِعُ برحمةِ الهُدى مَن خُلِقَت فِطرَتُه طيِّبةً قابلةً للهُدى، كالبلَدِ الطَّيِّبِ ينتَفِعُ بالمَطَرِ، ويُحرَمُ مِنَ الانتفاعِ بالهُدى مَن خُلِقَت فِطرَتُه خبيثةً، كالأرضِ الخبيثةِ لا تنتفِعُ بالمطرِ، فلا تُنبِتُ نباتًا نافعًا[2].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ إجراءُ الرِّيحِ وانتشارُها من هاهنا وهاهنا أمامَ المَطَرِ مُبَشِّرةً به؛ مِن غرائِبِ صُنعِه عَزَّ وجَلَّ وعجائِبِه، ومن عظائِمِ نِعَمِه على خَلقِه، والمرادُ بالرَّحمةِ هنا: المطَرُ؛ لأنَّ المطَرَ رحمةُ اللهِ يرحَمُ بها عبادَه في الدُّنيا، فيكونونَ في جَدْبٍ وفي فَقرٍ، ومواشيهم على وشْكِ الهَلاكِ، فيُغيثُهم اللهُ بالمَطَرِ، فتَنبُتُ زُرُوعُهم وثِمارُهم، وتَنعَمُ مواشِيهم؛ فتكثُرُ عندهم اللُّحومُ والأسمانُ والأزبادُ، وتتوفَّرُ عندهم الأشعارُ والأصوافُ والأوبارُ، يَنسِجونَ منها اللِّباسَ وغيرَه مِنَ الفُرُشِ والخِيامِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤١٥).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ ريحُ المَطَرِ تكون لَيِّنَةً؛ تجيءُ مرَّةً مِنَ الجَنوبِ، ومرَّةً مِنَ الشَّمالِ، وتتَفَرَّقُ في الجِهاتِ؛ حتى ينشَأَ بها السَّحابُ، ويتعَدَّدُ سحاباتٍ مبثوثةً؛ ومِن أجلِ ذلك عَبَّرَ عنها بصيغةِ الجَمعِ لتعَدُّدِ مَهابِّها[١].

٣- الإرسالُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ هو إرسالٌ كونيٌّ، ويقابلُه: الإرسالُ الدِّينيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[٢] [الفتح: ٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ جاءت تَسمِيَةُ المَطَرِ بالرَّحمةِ، على اعتبارِ أنَّ الرحمةَ أُضِيفَتْ إلى اللهِ تعالى هاهنا إضافةَ المفعولِ إلى فاعِلِه، لا إضافةَ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، فهذه رحمةٌ مخلوقةٌ مضافةٌ إليه إضافةَ المخلوقِ بالرَّحمةِ إلى الخالِقِ تعالى، وعليه فلا يمتنعُ الدعاءُ المشهورُ بين النَّاسِ قديمًا وحديثًا، وهو قولُ الدَّاعي: «اللَّهُمَّ اجمَعْنا في مُستَقَرِّ رَحْمَتِكَ» والمقصودُ به الجنَّة[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ لَمَّا دَلَّ على العَظَمةِ بالجَمعِ في كلمةِ ﴿سَحَابٗا﴾ وحَقَّقَ الأمرَ بالوَصفِ في قوله ﴿ثِقَالٗا﴾- أفرَدَ اللَّفظَ، فقال ﴿سُقۡنَٰهُ﴾-ولم يقل: سُقْنَاها- وذلك دَلالةً على غايةِ العَظَمةِ بِسَوقِه مُجتَمِعًا؛ كأنَّه قِطعةٌ واحدةٌ، لا يفتَرِقُ جُزءٌ منه عن سائِرِه؛ إذ لو تفرَّقَ لاختَلَّ أمرُه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٩).
(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٨٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٢٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ دلالةٌ على إثباتِ الأسبابِ والطَّبائعِ؛ حيث أَخبرَ سُبحانَه أنَّ الرِّياحَ تَحمِلُ السَّحابَ؛ فجعل هذا الجمادَ فاعلًا بطَبعِه[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ نِسبةُ السَّوقِ إليه تعالى بنُونِ العَظَمةِ؛ التفاتًا لِمَا في المطَرِ مِن عَظيمِ المِنَّةِ؛ إذ هو مِن أجَلِّ النِّعَمِ وأحسَنِها أثَرًا[٢].

٨- اللَّامُ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لامُ العِلَّةِ؛ أي: لأجلِ بَلَدٍ مَيِّتٍ، وفي هذه اللَّامِ دَلالةٌ على العِنايةِ الرَّبانِيَّةِ بذلك البَلَدِ؛ فلذلك عُدِلَ عَن تعدِيَةِ ﴿سُقْنَٰهُ﴾ بِحَرفِ (إلى)[٣]، وهذا على أحدِ القولينِ في (اللامِ).

٩- لَمَّا كانَ ذلك موضِعَ قُربِ رَحمةِ اللهِ، وإظهارِ إحسانِه، ذكَرَ أخَصَّ الأرض وهو البَلَدُ؛ حيث مُجتَمَعُ النَّاسِ، ومكانُ استِقرارِهم، فقال: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ﴾[٤].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الاستغراقُ في قَولِه ﴿كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ استغراقٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّ البَلَدَ المَيِّتَ ليس مُعَيَّنًا، بل يشمَلُ كُلَّ بلدٍ مَيِّتٍ يَنزِلُ عليه المَطَرُ، فيحصُلُ مِن جميعِ أفرادِ البلَدِ المَيِّتِ جميعُ الثَّمَراتِ، قد أخرَجَها اللهُ بواسطةِ الماءِ[٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٣).

﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ بيانُ أنَّ إخراجَ النَّباتِ بالماءِ هو ممَّا يُتذكَّرُ به إخراجُ الموتى من قُبُورِهم[١].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: بِمَشِيئَتِه وتَيسيرِه، وخُصَّ خروجُ نَباتِ الطَّيِّبِ بذلك، وإن كان كِلَا النَّباتَينِ يَخرُجُ بإذنِه تعالى؛ مدحًا وتشريفًا لنَباتِ الطَّيِّبِ، وتنبيهًا على كَثرَتِه وحُسْنِه وغزارةِ نَفعِه، وكذلك لنِسبَةِ الإسنادِ الشَّريفةِ الطَّيِّبةِ إليه تعالى[٢].

١٣- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ مَنِ استقَرَّ فيه وصْفُ الخَبيثِ يَبعُدُ عنه النُّزُوعُ إلى الخَيرِ[٣].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ خَصَّ كَونَها آياتٍ بالقَومِ الشَّاكرينَ؛ لأنَّهم هم المُنتَفِعونَ بسَماعِ القُرآنِ[٤].

١٥- قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، ثمَّ قال في الآيةِ التي تليها: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾، فعَبَّرَ بالشُّكرِ في الآيةِ التي مَوضوعُها الاهتداءُ بالعِلمِ والعَمَلِ والإرشادِ، وعَبَّرَ بالتَّذكيرِ في الآيةِ التي موضوعُها الاعتبارُ والاستدلالُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٨٣).
وقال ابنُ عاشورٍ: (أشار إلى طِيبِ نباتِه بأنَّ خُروجَه بإذنِ رَبِّه، فأُريدَ بهذا الإذنِ إذنٌ خاصٌّ، هو إذنُ عنايةٍ وتكريمٍ، وليس المرادُ إذنَ التَّقديرِ والتَّكوينِ؛ فإنَّ ذلك إذنٌ مَعروفٌ، لا يتعلَّقُ الغَرَضُ ببيانِه في مثلِ هذا المقام). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٢٨).

بَلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ جملةٌ عُطِفتْ على جملةِ ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾، وقد حصَلتِ المناسبةُ بينَ آخِرِ الجُمَلِ المعترَضةِ ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وبينَ الجملةِ المُعترَضِ بينها وبين ما عُطِفتْ عليه، بأنَّه لَمَّا ذَكَر قُرْبَ رحمتِه من المحسنِين ذَكَر بعضًا من رحمتِه العامَّة، وهو المطرُ[١].

- وفيه: تعريضٌ ببشارةِ المؤمنينَ بإغداقِ الغَيثِ عليهم، ونذارةِ المشرِكينَ بالقَحطِ والجُوعِ[٢].

- وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قُصِدَ منه تَقريعُ المشركينَ، وتفنيدُ إشراكِهم، ويَتْبعُه تذكيرُ المؤمنين، وإثارةُ اعتبارِهم؛ لأنَّ الموصولَ ﴿ٱلَّذِى﴾ دلَّ على أنَّ الصِّلةَ ﴿يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ معلومةُ الانتسابِ للموصولِ؛ لأنَّ المشركين يَعلمون أنَّ للرِّياحِ مُصرِّفًا، وأنَّ للمطرِ مُنزِلًا، غير أنَّهم يَذْهَلون أو يَتَذاهلون عن تَعيينِ ذلك الفاعِل؛ ولذلك يَجِيئون في الكلامِ بأفعالِ نُزولِ المطرِ مَبنيَّةً إلى المجهولِ غالبًا، فيقولون: مُطِرْنا بنَوءِ كذا، فأخبر الله تعالى بأنَّ فاعِلَ تلك الأفعالِ هو اللهُ، وذلك بإسنادِ هذا الموصولِ إلى ضَميرِ الجلالةِ في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ فالخبرُ مسوقٌ لتعيينِ صاحبِ هذه الصِّلة، فهو بمنزلةِ الجوابِ عن استفهامٍ مقصودٍ منه طلبُ التَّعيينِ[٣].

- وفي قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٨١).

﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هُنا في سُورةِ الأعراف: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ﴾ على لفْظِ المُستقْبَلِ (المضارِع)، وكذلك في سُورة الروم قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الروم: ٤٨]، بَينما قال في سُورةِ الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨]، على لَفْظِ الماضِي، وكذلِك في سُورةِ فاطرٍ، حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩]؛ وذلك لأنَّ الآية التي هنا في سورةِ الأعرافِ جاءَ فيها ﴿يُرْسِلُ﴾ بلفظِ المُستقْبَلِ (المضارِع)؛ لأنَّ قَبْلَها: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٥- ٥٦]؛ فكان في ذلك بَعْثٌ على الدُّعاءِ والتضرُّع، وتعليقُ الخوفِ والطمعِ بما يكونُ منه مِن الرحمةِ وصنوفِ ما رَزَقَ اللهُ الخَلْقَ مِن النِّعم؛ فكان لفظُ المستقبَل أشْبهَ بموضِعِ الخوفِ والطَّمْعِ للدَّاعين، وأدْعى لهم إلى الدُّعاءِ[1].

وقيل: المناسبةُ أنَّ آيةَ الأعرافِ لَمَّا تَقدَّمها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فذَكَر سُبحانَه ما تَقرَّر وتَحصَّل مِن خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ ممَّا لا تَكرُّرَ فيه، فلمَّا ذَكَر تعالى مِن هذه الأفعالِ العَظيمةِ ما ذَكَر مِمَّا لا يَتكرَّر، أعْقَب سبحانه بما يَتكرَّرُ ويَتوالَى مِن إنعامِه على الخليقةِ، ممَّا به قِوامُ أحوالِهم ومصالِحِ عَيشِهم؛ فقال سُبحانَه: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾، وأَمَرَ عِبادَه بالدُّعاءِ والتضرُّعِ إليه، وحذَّرَهم وذَكَّرهم باستصحابِ الخوفِ، ثم رجَّاهم بقُربِ رحمتِه ممَّن أحْسَن، ثم عادَ الكلامُ إلى التذكيرِ بجليلِ المتوالي مِن إنعامِه وعظيمِ ألْطافِه، فقال: ﴿وَهُوَ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٨٩-٥٩٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢٠).

﴿ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾؛ فانتظَمَ آخِرُ الكلامِ بأوَّلِه، وارتبَطَ عَودُه ببَدْئِه، وتناسَب أوضحَ تَناسُبٍ بما يُفْهِمُه الفِعلُ المضارعُ مِن التَّكرُّرِ مِن حيثُ لا يمنع ذلك. وعلى هذا النحوِ جرَى الواردُ في سُورةِ الرُّوم في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الروم: ٤٨]؛ فإنّه جاءَ قَبْلَه قولُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِىَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦]، ثمَّ اعترَض بقولِه تأنيسًا لرسولِه ووعدًا بنَصْرِه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ثمَّ عادَ الكلامُ إلى إتمامِ ما تَقدَّم ممَّا يُرسِلُ سبحانه به ولأجْلِه الرِّياحَ، فقال بصورةِ الاستئنافِ لأجْلِ آيةِ الاعتراضِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الروم: ٤٨]، وأَوْردَ مِن النِّعمِ بها ما ذُكِر قبلُ، وجاءَ بلفظِ الاستقبالِ؛ لأنَّه مِن تَتْميم ما تَقدَّم ولِيناسبَه، ولو جاءَ بلفظ الماضِي لَمَا ناسَبَ(١).

أمَّا في سورةِ الفُرقانِ، فمجيءُ هذا اللَّفظِ فيها بلفظِ الماضي؛ فلأنَّ قبلَ الآيةِ قَوْلَه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا * ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٤٥ - ٤٧] ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨]؛ فلمَّا عدَّدَ أنواعَ ما أَنْعَم به، كان إرسالُ الرِّياحِ مِن جُملةِ عَدِّه مع ما تَقدَّمه، وأخبر منه عمَّا فَعَلَه وأَوْجَدَه؛ فكان الماضِي أليقَ به(٢). وأمَّا في سُورة فاطر، واختيارُ لفظِ الماضي فيها على المستقبَلِ؛ فلأنَّ أوَّلَها: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]، بمعنى:

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٩١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٨٢-١٨٤).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٩٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢٠).

فَطَر وجَعَل، وهُما بمعنى الماضِي لا غيرُ، ولم يقعْ بعدَ هذا ذِكرٌ مقصودٌ به الاعتبارُ مِن مخلوقاتِه سبحانَه، ممَّا نَصَبَه دالًّا عليه إلَّا قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩]؛ فأَتْبَعَه ما كان مِن جِنسِه ممَّا فعل، فكان اختيارُ لفظ الماضي هاهنا لموافقةِ اسمِ الفاعلِ معنًى ومُناسبتِه، ولا يُناسِبُه المستقبلُ[(١)].

- ومِن المُناسَبةِ الحَسَنةِ كذلِك أنَّه قال تعالى هنا في سورةِ الأعراف: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾؛ فوصَف الرِّياحَ وأتْبعَها بقولِه: ﴿بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾، وكذلك وقَعَ في سورةِ الفُرقان: قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨]، ولم يَرِدْ ذلك في سُورتَي الروم وفاطر؛ وذلك لمناسبةٍ حَسَنةٍ؛ فآيةُ الأعراف قد تقدَّمها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ...﴾، ثمَّ قال: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾ وقال: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفًا وَطَمَعًا﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وفي هذا كلِّه استلطافٌ، ونحوُه قولُه سبحانَه في سورة الفرقان: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥]، ثمَّ قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]؛ فهذا أعظمُ استلطافٍ؛ فناسَب الواردَ في السُّورتَينِ مِن هذا قولُه تعالى عقِبَ إرسالِ الرِّياح: ﴿بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾، ولَمَّا لم يَرِدْ في سورةِ الرُّوم ولا في سُورةِ فاطِر مثلُ هذا الاستلطافِ ولا بَعضُه، لم يُتْبَعْ ذِكرُ إرسالِ الرِّياحِ بما أُتْبع في آيتَي الأعراف والفرقان؛ إذ لم يكُنْ ذلك ليُناسِب، فجاءَ كلٌّ على ما يُناسِب[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٩١-٥٩٢)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٨٤-١٨٥).

٢- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ مُعترِضةٌ؛ استطرادًا للمَوعظةِ والاستدلالِ على تَقريبِ البَعثِ الذي يَستبْعِدونَه[١].

٣- قولُه: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾

- قولُه: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾ المقصودُ مِن هذه الآيةِ التَّمثيلُ، وليس المقصودُ مُجرَّدَ تَفصيلِ أحوالِ الأرضِ بعدَ نُزولِ المطرِ، أي: كذلِكَ نُخرِجُ الموتَى، وكذلك يَنتفِعُ برَحمةِ الهُدَى مَن خُلقت فِطرتُه طيِّبةً قابلةً للهُدَى، كالبلدِ الطيِّبِ يَنتفِعُ بالمطرِ، ويُحرَم مِن الانتفاعِ بالهُدَى مَن خُلِقت فِطرتُه خَبيثةً، كالأرضِ الخبيثةِ لا تَنتفِعُ بالمطرِ؛ فلا تُنبِتُ نَباتًا نافعًا[٢].

- وفي هذِه الآيةِ احتِباكٌ؛ إذ لم يُذْكَرْ وصْفُ الطيِّبِ بعدَ نباتِ البَلدِ الطيِّب، ولم تُذكَرِ الأرضُ الخَبيثةُ قبلَ ذِكرِ النَّباتِ الخبيثِ؛ لدَلالةِ كِلَا الضِّدَّينِ على الآخَر، والتقديرُ: والبلدُ الطيِّبُ يخرُج نباتُه طيِّبًا بإذنِ ربِّه، والنباتُ الذي خَبُثُ يَخرُج نَكِدًا مِن البَلدِ الخَبيثِ، وهذا صُنعٌ دَقيقٌ في الكلامِ البَليغِ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ (الطيِّبُ) وصفٌ على وزن (فَيْعِل)، وهي صيغةٌ تَدلُّ على قُوَّةِ الوصفِ في الموصوفِ[٤].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾ فيه حَصْرُ خُروجِ نَباتِ الذي خَبُثَ على حالةِ النكدِ؛ وهو مبالغةٌ شديدةٌ في كونِه لا يكونُ إلَّا هكذا، ولا يُمكِنُ أنْ يُوجَدَ إلَّا نَكِدًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٨٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٨٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٠).

الآيات (٥٩-٦٤)

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمَلَأُ﴾: أي: أشرافُ النَّاسِ ووجُوهُهم؛ أو الجماعةُ يَجتمعونَ على رأيٍ، فيملؤون العيونَ منظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجلالًا، ويقالُ: فلانٌ ملءُ العيونِ، أي: معظمٌ عندَ مَن رآه، وأصلُ (ملأ) يدلُّ على المساواةِ، والكمالِ في الشَّيءِ[(١)].

﴿عَمِينَ﴾: أي: عَمِيَتْ قلوبُهم عَن مَعرفةِ اللهِ تعالى، والعَمُون جمعُ العَمِيِّ، وهو مَن قَلْبُه أعمَى، لا يعرِفُ الحقَّ، والعَمَى يُقالُ في افتِقادِ البَصَرِ والبَصيرةِ، وأصلُ (عمي): يدلُّ على السَّترِ والتَّغطِيةِ[(٢)].

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ نُوحًا إلى قَومِه؛ ليدعُوَهم إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وتَرْكِ عبادةِ ما سِواه، فقال لهم: اعبُدُوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم مَعبودٌ يستحِقُّ العبادةَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٠).

غَيرُه، إنِّي أخافُ عليكم عذابَ يومِ القِيامةِ، فقالَ الرُّؤَساءُ المُتكَبِّرونَ مِن قَومِه: إنَّا لَنَراكَ- يا نوحُ- في ضلالٍ واضِحٍ بَيِّنٍ.

قال: يا قومِ لسْتُ ضالًّا حين دَعَوتُكم إلى التَّوحيدِ، ونَهَيتُكم عن الشِّركِ، ولكنِّي مُرسَلٌ إليكم مِن رَبِّ العالَمينَ، أُبَلِّغُكم ما أرسَلَني ربِّي به، وأنصَحُ لكم، وأعلَمُ بما أوحى إليَّ رَبِّي ما لا تعلمونَه أنتم، وهل عَجِبْتُم مُستبعِدِينَ أنْ يأتِيَكم تذكيرٌ مِن رَبِّكم على رَجُلٍ مِنكم؛ لأجْلِ أنْ يُخَوِّفَكم مِن عُقوبةِ رَبِّكم على كُفْرِكم، ولكي تَتَّقُوا، ولعلَّكم تُرحَمونَ إن أطَعْتُم اللهَ ورسولَه.

ثم أخبرَ الله تعالى أنَّهم كَذَّبوا نُوحًا، فأنجاه، وأنجى كلَّ الذين حمَلَهم معه على السَّفينةِ، وأغرَقَ الَّذينَ كَذَّبوا بآياتِه؛ إنَّهم كانوا قومًا قد عَمُوا عن رؤيةِ الحَقِّ، ولم يُبصِرُوه بقُلوبِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى في تقريرِ المَبدَأِ والمَعادِ دلائِلَ ظاهرةً، وبَيِّناتٍ قاهرةً، وبراهينَ باهرةً- أتبَعَها بذِكرِ قَصَصِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وفيه فوائِدُ:

أحَدُها: التَّنبيهُ على أنَّ إعراضَ النَّاسِ عَن قَبُولِ هذه الدَّلائِلِ والبَيِّناتِ، ليس مِن خَواصِّ قَومِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل هذه العادةُ المَذمومةُ كانت حاصِلةً في جميعِ الأُمَمِ السَّالفةِ، والمُصيبةُ إذا عَمَّتْ خَفَّتْ، فكان ذِكْرُ قَصَصِهم، وحِكايةُ إصرارِهم على الجَهلِ والعِناد؛ يفيدُ تَسليةَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتخفيفَ ذلك على قَلْبِه.

ثانيها: أنَّه تعالى يَحكِي في هذا القَصَصِ أنَّ عاقِبَةَ أمرِ أولئك المُنكِرينَ كان إلى الكُفْرِ واللَّعنِ في الدُّنيا، والخَسَارةِ في الآخِرَةِ؛ وعاقِبَةَ أمْرِ المُحِقِّينَ إلى الدَّولةِ في الدُّنيا، والسَّعادةِ في الآخِرَةِ، وذلك يُقَوِّي قُلوبَ المُحِقِّينَ، ويَكسِرُ قُلوبَ المُبطِلِينَ.

ثالثها: التَّنبيهُ على أنَّه تعالى وإن كان يُمهِلُ هؤلاءِ المُبطِلِينَ، ولكِنَّه لا يُهمِلُهم، بل ينتَقِمُ منهم على أكمَلِ الوُجوهِ.

رابعها: بيانُ أنَّ هذه القصَصَ دالَّةٌ على نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان أمِّيًّا، وما طالَعَ كِتابًا ولا تتلمذَ على أستاذٍ، فإذا ذَكَرَ هذه القصصَ على هذا الوَجهِ مِن غير تحريفٍ ولا خَطَأٍ؛ دلَّ ذلك على أنَّه إنَّما عَرَفَها بالوَحيِ مِنَ اللهِ، وذلك يدُلُّ على صِحَّةِ نُبُوَّتِه[1].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

أي: أُقسِمُ على أنَّنا بَعَثْنا نوحًا عليه السَّلامُ إلى قَومِه المُشركينَ؛ ليدعُوَهم إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وينهاهم عن عبادةِ غَيرِه، فقال لهم: يا قومِ اعبُدُوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم معبودٌ يَستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، فلا تُشرِكوا به شيئًا[2].

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: إنِّي أخافُ عليكم- إنْ لم تُوَحِّدُوا اللهَ وأشرَكْتُم في عِبادَتِه غَيرَه، ومُتُّمْ على ذلك- عذابَ يومِ القِيامةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٤٣-٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥-٢٦].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: قال الأشرافُ والرُّؤساءُ المُتكبِّرونَ عَنِ الحَقِّ مِنْ قَومِ نُوحٍ، حين دَعاهم إلى إفرادِ اللهِ بالعِبادةِ: إنَّا لَنَعتقِدُ أنَّك- يا نوحُ- في خطأٍ، وذَهابٍ عَنِ الحَقِّ بيِّنٍ وواضحٍ؛ حيث تدعُونا إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وتَرْكِ ما كان يعبُدُ آباؤُنا(١).

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: يا قومِ لستُ في حَيدةٍ عَن طَريقِ الحَقِّ حين دَعَوتُكم إلى توحيدِ اللهِ، ونَهَيتُكم عَنِ الشِّركِ به، ولكنِّي مُرسَلٌ إليكم مِنَ الذي خلَقَ كُلَّ شَيءٍ، وهو مالِكُه ومُدَبِّرُ شُؤونِه(٢).

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نَفى نُوحٌ عليه السَّلامُ عَن نَفسِه العَيبَ الذي وَصَفوه به، ووصَفَ نَفسَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥٣).

قال السَّمينُ الحلبي: (والملأُ: الأشرافُ، سُمُّوا بذلك لأنَّهم يَملَؤُون العُيونَ هَيبةً، أو المجالِسَ إذا حَضَروا، أو لأنَّهم مَليئونَ بما يُحتاجُ إليهم فيه. وقال الفرَّاء: الملأ: الرِّجالُ، في كلِّ القُرآنِ، وكذلك القَومُ والرَّهطُ والنَّفَرُ). ((الدر المصون)) (٢/ ٥١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ٢٤٣).

وقال ابنُ عاشور: (الرُّؤيةُ قلبيةٌ بمعنى العِلمِ، أي: إنَّا لَنُوقِنُ أنَّك في ضلالٍ مُبينٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٠).

بأشرَفِ الصِّفاتِ وأجَلِّها، وهو كَونُه رسولًا إلى الخَلقِ مِن ربِّ العالَمينَ- ذَكَرَ ما هو المقصودُ مِنَ الرِّسالةِ، وهو أمرانِ: الأول: تبليغُ الرِّسالةِ، والثاني: تقريرُ النَّصيحةِ[1]، فقال:

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾.

أي: وَظيفَتي أن أُوصِلَ إليكم الرِّسالةَ التي أرسَلَني اللهُ بها، وهي أمْرُكم بتوحيدِه، ونَهيُكم عن الشِّركِ به، ودَعْوَتُكم لِطاعَتِه، وأنا أبغي لكم بذلك الخَيرَ في الدُّنيا والآخِرةِ[2].

كما قال تعالى عن نُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [نوح: ٢ - ٤].

وقال سبحانه حاكيًا قَولَ نُوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

أي: وأعلَمُ- بما أَوْحى اللهُ إليَّ؛ مِن أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، كمَغفِرَتِه للتَّائبينَ، وشِدَّةِ بأسِه على المُشركينَ، وعَدَمِ تأخيرِ عذابِه عنهم إذا جاءَ، وغيرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥٥، ٤٨٢).

قال أبو السعود: (وجَمَعَ ﴿رِسَٰلَٰتِ ﴾ لاختلافِ أوقاتِها، أو لتنَوُّعِ مَعانيها). ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦).

وقال محمد رشيد رضا: (جَمعُ الرِّسالةِ باعتبارِ مُتعَلِّقِها وموضوعِها، وهو متعَدِّد: منه العقائِدُ، وأهمُّها التوحيدُ المُطلَق الذي بدأ به، ويَتلُوه الإيمانُ باليَومِ الآخِرِ، وبالوحيِ والرِّسالةِ، وبالملائكةِ والجنَّةِ والنَّارِ، وغيرِ ذلك، ومنه الآدابُ والحِكَمُ، والمواعِظُ والأحكامُ العَمَليَّةُ من عباداتٍ ومُعاملاتٍ). ((تفسير المنار)) (٨/ ٤٣٨). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٧).

ذلك- ما لا تعلَمُونَه[(١)].

كما قال تعالى عن نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [نوح: ٢-٤].

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣﴾.

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ﴾.

أي: هل تعَجَّبتُم مُستبعِدينَ أن يَجِيئَكم تذكيرٌ مِنَ اللهِ، أنزَلَه على رَجُلٍ مِنَ البَشَرِ، تعرفونَ نَسَبَه وصِدقَه؟ أي: فكيفَ تَعجَبونَ مِمَّا لا ينبغي العَجَبُ منه؟! فليس بعَجَبٍ أن يُوحِيَ اللهُ إلى رجُلٍ منكم؛ رحمةً بكم، وإحسانًا إليكم[(٢)].

كما قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ * إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [المؤمنون: ٢٤- ٢٥].

﴿لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

أي: لأجْلِ أن يُخَوِّفَكم عِقابَ اللهِ على كُفرِكم به، ولكي تَجعَلوا بينكم وبينَ عِقابِه وقايةً؛ بتوحيدِه، وامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهِيه، ولكي يرحَمَكم ربُّكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥٨).

إن أطَعتُم اللهَ ورَسُولَه[(١)].

كما قال تعالى عن نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۞ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۞ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٢ - ٤].

وقال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾.

أي: فتمادى قومُ نُوحٍ في تكذيبِ رَسُولِهم نوحٍ عليه السَّلامُ، فأنجيناه والَّذينَ حَمَلَهم معه في السَّفينةِ مِنَ المُؤمنينَ، ومِن كُلِّ ذَكَرٍ وأنثى مِن أصنافِ الحَيَواناتِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ۞ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤-١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ۞ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [هود: ٤٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۞ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ۞ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٢ - ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥٨ - ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٧-١٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٦٠-٧٦٧).

١١٩-١٢٢].

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

أي: وأغرَقْنا بالطُّوفانِ جميعَ الكُفَّارِ، الذين كذَّبوا بآياتِنا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نُوحٍ: ٢٥].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾.

أي: إنَّ الكُفَّارَ الذين كذَّبُوا نُوحًا، قد عَمُوا عَنِ الحَقِّ، فلم يُبصِرُوه بقُلوبِهم، ولم يَهْتدوا له[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- التَّوحيدُ أوَّلُ دَعوةِ الرُّسُلِ، وأوَّلُ مَنازِلِ الطَّريقِ، وأوَّلُ مَقامٍ يقومُ فيه السَّالِكُ إلى اللهِ تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، وقال هودٌ لِقَومِه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، وقال صالحٌ لِقَومِه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، وقال شُعَيبٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٠).

لِقَومِه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[1] [النحل: ٣٦].

٢- يُستفادُ مِن قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ أنَّه ليس لهم إلهٌ ما يستحِقُّ أن يُوَجَّهَ إليه نَوعٌ ما مِن أنواعِ العبادةِ، لا لِرجاءِ النَّفعِ، أو دَفعِ الضَّررِ منه لِذاتِه، ولا لأجلِ تَوَسُّطِه وشفاعَتِه عند اللهِ تعالى، بل الإلهُ الحَقُّ الذي يستحِقُّ أن تتوجَّهَ القلوبُ إليه بالدُّعاءِ وغَيرِه، هو اللهُ وَحدَه- سُبحانَه وبِحَمدِه[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِنَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ فائدةُ حَرفِ التَّرجِّي التَّنبيهُ على أنَّ الرَّحمةَ مِنَ اللهِ تعالى مَحضُ تَفضلٍ، وأنَّ المُتَّقي ينبغي ألَّا يَعتمِدَ على تقواه، ولا يأمَنَ مِن عذابِ اللهِ[3].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ يُفيدُ أنَّ أوَّلَ الواجِباتِ التَّوحيدُ، وما عدا هذا مِن الأقوالِ، فخَطَأٌ، كقَولِ مَن يَقولُ: أوَّلُ الفُروضِ النَّظَرُ، أو القَصْدُ إلى النَّظَرِ، أو المعرفةُ، أو الشَّكُّ الذي يُوجِبُ النَّظَرَ. فكُلُّ هذه الأقوالِ خَطأٌ[4].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ ذكَرَ أوَّلًا قولَه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، وثانيًا قَولَه: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ وذلك لمناسَبةٍ حَسنةٍ؛

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤١١)، وينظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٨٥).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٥٤).

فالثَّاني كالعِلَّةِ للأوَّلِ؛ لأنَّه إذا لم يكُنْ لهم إلهٌ غيرُه، كان كلُّ ما حصَلَ عندهم مِن وُجوهِ النَّفعِ والإحسانِ، والبِرِّ واللُّطفِ؛ حاصلًا مِنَ اللهِ، ونهايةُ الإنعامِ تُوجِبُ نهايةَ التَّعظيمِ(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، وكذلك قولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾، ناداهم بـ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ مُضافةً إليه؛ لتذكيرِهم بآصِرَةِ القَرابةِ، ليتحَقَّقوا أنَّه ناصِحٌ، ومُريدٌ خَيرَهم، ومُشفِقٌ عليهم، وأنَّه لا يُريدُ بهم ولا لهم إلَّا الخَيرَ(٢). وقيل: عبَّرَ بذلك؛ لأنَّه لم يكنْ لهم اسْمٌ خاصٌّ مِن أسماءِ الأُمَمِ يُعرفونَ به، فالتَّعريفُ بالإضافةِ هنا؛ لأنَّها أخصَرُ طريقٍ في الدَّلالةِ على هذا المقصِدِ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ إنذارٌ مُستأنَفٌ عُلِّلَ به الأمرُ بعبادةِ اللهِ تعالى وَحدَه، المُستَلزِمُ لِتَرْكِ أدنى شوائِبِ الشِّرك بها، وبيانٌ لعقيدةِ البَعثِ والجزاءِ، وهي الرُّكنُ الثَّاني مِن أركانِ الإيمانِ بعد التَّسليمِ بالرِّسالةِ(٤).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ حَكَموا بضَلالِ نُوحٍ- حاشاه ذلك عليه السَّلامُ- وأكَّدوه بالتَّعبيرِ بالرُّؤيةِ؛ كأنَّ كُلَّ واحدٍ منهم يعتقِدُ ذلك اعتقادًا، هو في الثِّقَةِ به كالرُّؤيةِ(٥).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فيه التَّنبيهُ بِقَولِه ﴿

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٦).

رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على أنَّه تعالى هو المالِكُ لأمُورِهم، النَّاظِرُ لهم بالمَصلحةِ؛ فلأجْلِ ذلك وَجَّهَ إليهم رَسولًا يَدعُوهم إلى إفرادِه بالعِبادةِ(١).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، قال أوَّلًا: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ وهذا مبدأُ أمرِه معهم، وهو التَّبليغُ، ثمَّ قال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾ أي أُخلِصُ لكم في تَبيينِ الرُّشدِ، والسَّلامةِ في العاقِبةِ، إذا عَبَدتُم اللهَ وَحدَه، ثمَّ قال: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ مِن بَطشِه بكم، وهو مآلُ أَمرِكم إذا لم تُفرِدُوه بالعِبادة؛ ففي هذا التَّرتيبِ أحسَنُ سياقٍ؛ إذ نبَّه على مبدأِ أمرِه ومُنتَهاه معهم(٢).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ﴾ قولُه: ﴿مِّنكُمۡ﴾ أي: تَعرِفونَ نَسَبَه، فهو منكم نَسَبًا، وذلك لأنَّ كَونَه منهم يُزيلُ التَّعجُّبَ؛ لأنَّ المَرءَ بمَن هو مِن جِنسِه أعرَفُ، وبطهارةِ أحوالِه أعلَمُ، وبما يقتضي السُّكونَ إليه أبصَرُ(٣).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ بَيَّنَ تعالى ما لأجلِه يُبعَثُ الرَّسولُ، فقال: ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾، وما لأجلِه يُنذِرُ، فقال: ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾، وما لأجلِه يتَّقونَ، فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، وهذا الترتيبُ في غايةِ الحُسنِ؛ فإنَّ المَقصودَ مِنَ البَعثةِ الإنذارُ، والمقصودَ مِنَ الإنذارِ التَّقوى عن كلِّ ما لا ينبغي، والمقصودَ مِنَ التَّقوى الفوزُ بالرَّحمةِ في دارِ الآخِرةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

- فيه ابتداءُ هذه القِصَّةَ بالقَسَمِ؛ لتأكيدِ خبَرِها لأوَّلِ مَن وُجِّهَ إليهم الخطابُ بها، وهم أهلُ مَكَّةَ ومَن وراءَهم مِنَ العَرَبِ؛ إذ كانوا يُنكِرونَ الرِّسالةَ والوَحيَ، على كونِهم أُمِّيِّينَ ليس عندهم مِن علومِ الأُمَمِ وقَصَصِ الرُّسُلِ شيءٌ، والقَسَمُ مَحذوفٌ دَلَّ عليه لامُه في بَدءِ الجُملةِ[١].

- وعطَفَ جُملةَ ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ على جُملةِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ بالفاءِ؛ إشعارًا بأنَّ ذلك القولَ صدَر منه بفورِ إرسالِه[٢]، ولم يَعطِفِ الجُملةَ المنفيَّةَ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ بفاءٍ ولا غيرها؛ لأنَّها مَبنيَّةٌ ومُثبتةٌ على اختصاصِ اللهِ تعالى بالعبادةِ، ورَفْضِ ما سِواه؛ فكانتْ في غايةِ الاتِّصالِ بقولِه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾[٣].

- قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتعليلِ العبادةِ المذكورةِ[٤]، وقولُه: ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ يُفيدُ تأكيدَ النَّفيِ وعُمومَه[٥].

- قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مستأنفةٌ ثانيةٌ بعدَ جُملة ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ لقَصدِ التخويفِ والإنذارِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ١٧٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٠).

- وفي هذه الآيةِ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قال هنا في الأعرافِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ بغير واو، بَينما قال في سُورة هود والمؤمنون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [هود: ٢٥، المؤمنون: ٢٣] بواوٍ؛ وذلِك لأنَّ ما هنا مستأنفٌ لم يَتقدَّمه ذكرُ نبيٍّ، فلم يَكُن فيها ذِكرُ بَعثةِ نَبيٍّ، ومخالفةِ مَن كان له مِن عَدُوٍّ؛ فصارَ الكلامُ هنا كالأجنبيِّ مِن الأوَّل، فلم يُعطَفْ عليه، واستُؤنِفَ ابتداءُ الكلامِ؛ ليدلَّ على أنَّه في حُكمِ المنقطِعِ مِن الأوَّلِ. وأمَّا في سُورة هُود فقد تَقدَّمه ذِكرُ الأنبياء مرَّةً بعدَ أخرى؛ لأنَّ أوَّلها افتُتح إلى أنْ انتَهَى إلى قِصَّةِ نُوح بما هو احتجاجٌ على الكُفَّارِ بآياتِ اللهِ، التي أَظْهَرَها على أَيدي أنبيائِه وأَلْسِنتِهم، صلواتُ اللهِ عليهم، وتَوعُّدٌ لهم على كُفرِهم، وذِكْرُ قِصَّة مِن قَصَصِ مَن تَقدَّمهم مِنَ الأنبياءِ الذين جَحَد بآياتِهم أُممُهم؛ فعُطِفتْ هذِه الآيةُ على ما قَبْلَها إذْ كانت مِثلَها. وما في سورة المؤمنون تَقدَّمه قولُه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، ثم قولُه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، ثمَّ انقطعتِ الآيُ إلى قولِه: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]، وكلُّها بالواو؛ فناسَبَ ذِكرها فِيهما؛ فدَخلتْ واوُ العطفِ في قِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلام في سورةِ المؤمنون للفْظَينِ المُتقدِّمَينِ، وهُما: ﴿وَلَقَدْ﴾ في رُؤوسِ الآيتَينِ، وللمَعْنى المقتضى مِن ذِكر الفُلك الذي نَجَّى اللهُ عليه مَن جَعَله أصلَ الخَلْقِ، وبَذْرَ هذا النَّسلِ[1].

- وأيضًا مِن المُناسَبةِ الحَسنةِ أنَّه قال هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، بَينما قالَ في سُورة هود: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]، وفي سورة

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٩٣-٥٩٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٠-١٢١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩٥).

المؤمنون: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]؛ فاختلفتِ المَحكيَّاتُ والقِصَّةُ قِصَّةٌ واحدةٌ، وهذا الاختلافُ لا إشكالَ فيه؛ لأنَّه وقَعَ بحَسَبِ اختلافِ الأوقاتِ، وما يُناسِبُ كلَّ وقتٍ، وما يَجْري فيه ويُشاهَدُ مِن أقوالِ المَدْعوِّينَ وأحوالِهم؛ فإنَّ للأنبياءِ- صلواتُ اللهِ عليهم- مقاماتٍ مع أُممهم، يُكرِّر فيها الإعذارُ والإنذارُ، ولا يكونُ دُعاؤُهم إلى الإيمانِ باللهِ في موقفٍ واحدٍ بلفظٍ واحدٍ لا يَتغيَّرُ عن حالِه، كذلك الجوابُ يَرِدُ مِن أقوامٍ يَكثُرُ عددُهم، ويَختلفُ كلامُهم ومقصدهم[1]، ومع هذا فإنَّ لهذا الاختلافِ مُناسبةً حسنةً؛ فإنَّه لَمَّا تَقدَّمَ ذِكرُ اليومِ الآخِرِ في غيرِ ما آيةٍ مِن أوَّل سورةِ الأعرافِ إلى ابتداءِ قِصَّة نوحٍ عليه السلام، وقد تَضمَّن ما ذُكِر مِن ذلك مِن أهوالِ ذلك اليومِ ما يَعظُم أَمْرُه كقولِه: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ ...﴾ [الأعراف: ٨] الآية، وقوله: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ ...﴾ [الأعراف: ٣٨] إلى قوله: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩]، ومَا جرَى مجرَى ذلك إلى قولِه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ...﴾ [الأعراف: ٥٠] الآية؛ فلمَّا تَقدَّم مِن أهوالِ هذا اليومِ ما لم يَتقدَّمْ في السُّورتَينِ الأُخريين؛ ناسَبه مِن مقالاتِ نُوحٍ لقومِه هنا في سورة الأعراف: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ

(١) والقاعدةُ أنَّ (ما ورَد في القرآنِ حكايةً عن غيرِ أهلِ اللسانِ مِن القرونِ الخاليةِ، إنَّما هو مِن معروفِ معانِيهم، وليس بحقيقةِ ألفاظِهم)، فالألفاظُ لها دلالاتٌ أصليَّة تحملُ أصلَ المعْنَى، وتنتهي إليها مقاصدُ المكلَّفين، وهذا النَّوعُ يشتركُ فيه جميعُ الألسنةِ، والنَّوعُ الثَّاني مِن الدَّلالات: الدلالاتُ التابعةُ، وهي التي يختصُّ بها لسانُ العربِ، وذلك بحسبِ المخبِرِ والمخبَرِ عنه والمخبَرِ به ونفسِ الإخبارِ، بالإضافةِ إلى نوعِ الأسلوبِ مِن الإيجازِ والإطنابِ وغيرِ ذلك، فمثلُ هذه التصرفاتِ التي يختلفُ معنَى الكلامِ الواحدِ بحسبِها ليست هي المقصودَ الأصليَّ، لكنَّها مِن مكمِّلاتِه ومتمِّماتِه، وبهذا النوعِ اختلَفَتِ العباراتُ وكثيرٌ مِن أقاصيصِ القرآنِ؛ لأنَّه يأتي مساقُ القصَّة في بعضِ السُّورِ على وجهٍ، وفي بعضِها على وجهٍ آخرَ، وفي ثالثةٍ على وجهٍ ثالثٍ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٦٢).

عَظِيمٍ ﴾.

وأمَّا في سورة هود؛ فقولُه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ [هود: ٢٦] مُناسبٌ لقولِه تعالى على لِسان نبيِّنا عليه السلام لقومِه ممَّن خاطبَه وشافَهَه: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]، وقولِه: ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾ [هود: ٨]، وقولِه: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾ [هود: ١٧]؛ فتكرارُ ذِكرِ العذابِ يُناسِبُه ما خُتِمتْ به آيةُ دُعاءِ نُوحٍ عليه السلام مِن قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾[(١)].

٢- **قوله: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾**

- قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حكايةِ قولِه عليه السَّلامُ، كأنَّه قِيل: فماذا قالوا له عليه السَّلامُ في مُقابلةِ نُصْحه؟ فقيل: قال الرُّؤساءُ مِن قومِه والأشرافُ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[(٢)].

- وقدِ اقترَن جوابُهم ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ واللَّام)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم حقَّقوا وأكَّدوا اعتقادَهم أنَّ نُوحًا مُنغمِسٌ في الضَّلالةِ -حاشَاه ذلِك عليه السَّلامُ[(٣)].

- وظَرفيَّةُ ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ فيها تعبيرٌ عن تَمكُّنِ وصْفِ الضَّلالِ مِن نُوحٍ- حاشاهَ ذلك عليه السَّلامُ- حتى كأنَّه مُحيطٌ به مِن جوانبِه إحاطةَ الظَّرفِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٩٨-٦٠٠)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٠).

بالمظروفِ[(١)].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال هنا في سُورةِ الأعرافِ في قِصَّة نوح وهود: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ بلا فاءٍ، بَينما قاله في سورة هود والمؤمنون: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ [هود: ٢٧، المؤمنون: ٢٤] بالفاءِ؛ وذلِك لأنَّه في سُورةِ الأعرافِ خرَجَ مَخْرَجَ الابتداءِ، وإنْ تَضمَّن الجوابَ؛ لأنَّهم في جوابِهم صاروا كالمُبتدِئين له بالخِطابِ، غير سالِكينَ طَريقَ الجواب؛ لأنَّهم قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، فكان كلامُهم له كالكلامِ الذي يَبتدِئُ به الإنسانُ صاحبَه؛ فلذلك جاءَ بغيرِ فاءٍ مُخالِفًا طريقةَ ما الكلامُ بَعْدَه مبنيٌّ بِناءَ الجوابِ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ بعدَ قوله: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٣٢]. وأمَّا في سُورة هود والمؤمنون فوقَعَ جوابًا لِمَا قبله؛ فناسبتْه الفاءُ؛ فالموضعانِ اللَّذانِ دَخلتْهما الفاءُ ما بَعدَهما ممَّا اقتضاه كلامُ النبيِّ ممَّا رآه الكفَّارُ جوابًا له؛ فكان بناءُ الجوابِ على الابتداءِ يُوجِبُ دُخولَ الفاءِ[(٢)].

- وأيضًا في قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ مناسبةٌ حسنَةٌ، حيث عدَلَ عن وصْفِ الملأِ بالكُفرِ هنا في سورة الأعراف، بَينما في سُورتي هود والمؤمنون قال: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [هود: ٢٧، المؤمنون: ٢٤]، فوَصَف الملأَ بالكُفرِ في السُّورتين؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى أمَرَ رُسلَه عليهم السلام بالرِّفقِ في دُعاءِ الخلقِ، وحَضَّهم على التلطُّفِ بهم، والصَّبرِ على أذاهم، وعلى هذا جَرَى دُعاءُ الرُّسلِ أُممَهم في إخبارِ اللهِ تعالى عنهم، ثمَّ اختلفَ جوابُ الأممِ؛ فمِن مُسرعٍ في الإجابةِ بهدايةِ الله تعالى، ومِن مُبطئ، ومِن مُصمِّم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٠١-٦٠٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩٥).

على ضلالِه، ثم لكلِّ نبيٍّ مقاماتٌ ومقالاتٌ بحسَب اختلافِ الموطنِ والمجتمعاتِ، ولكلِّ مقامٍ مقالٌ يُناسُبه؛ فجرَى اختلافُ ما ورَدَ جوابًا بنِسبةِ ما وقَعَ الجوابُ عليه؛ فقومُ نوحٍ ذُكِر في سُورتي هود والمؤمنون إساءةٌ في جوابِهم لنبيِّهم، وإطالةٌ في المرتكَبِ حِين قالوا في سُورة هود: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، فجَمَعوا في هذِه الإطالةِ تَوهُّمَهم مُساواتَه عليه السَّلام فيما رآه البادِي مِن البَشريةِ والصُّورةِ الإنسانيةِ إلى استرذالِ أتْباعِه، ومثلُ هذا قولُهم في آيةِ المؤمنون: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إلى قولِهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٤- ٢٥]؛ فلإساءتِهم فيما ذُكِر مِن الواردِ عنهم في الموضعينِ وُصِفوا بالكفرِ، فقال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [هود: ٢٧، المؤمنون: ٢٤]، وأمَّا آيةُ الأعراف فقولهم فيها: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ليس كجوابِهم في السُّورتَينِ الأُخريين لا مِن جِهةِ الطولِ، ولا مِن جِهةِ المعنى؛ فلمَّا لم يَكُنْ في الواردِ في سورةِ الأعرافِ مِن الإطالةِ في العِبارةِ والإبلاغِ فيما قَصَدوه مِن المعنى مِثلُ ما في السُّورتَينِ، ناسبَه الإيجازُ[٣].

٣- **قوله:** ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ النِّداءُ في جوابِه إيَّاهم؛ للاهتمامِ بالخبرِ[٤].

- ولم يَرِدِ النَّفيُ مِن نوحٍ عليه السَّلامُ على لَفْظِ ما قالَه قومُه قبل ذلك:

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٩٤-١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩١).

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، فلم يأتِ التركيبُ: (لستُ في ضَلالٍ مِبين)، بل جاءَ في غايةِ الحُسنِ مِن نفي أن يَلتبسَ به ويختلطَ ضلالةٌ ما واحدةٌ، وإذا انتفَى عنه فرْدٌ واحدٌ مِن أفرادِ الضَّلالةِ فانتفاءُ غيرِه أنْفَى وأنْفَى، أي: ليس بي نوعٌ مِن أنواعِ الضَّلالةِ البتَّةَ؛ فكان هذا أبلغَ في عُمومِ السَّلبِ، فـ(الضَّلالة) في قوله: ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ أخصُّ من الضَّلالِ؛ فكانتْ أبلغَ في نفْي الضَّلالِ عن نفْسِه؛ كأنَّه قال: ليس بي شيءٌ مِن الضلالِ. وقيل: الضلالة أَدْنَى مِن الضَّلالِ وأقلُّ؛ لأنَّها لا تُطلَقُ إلَّا على الفَعلةِ الواحدةِ منه، وأمَّا الضلالُ فيُطلَقُ على القليلِ والكثيرِ مِن جِنسِه، ونَفْيُ الأدْنَى أبلغُ مِن نفْيِ الأعْلَى، لا مِن حيثُ كونُه أخصَّ، وهو مِن بابِ التنبيهِ بالأدْنَى على الأعْلَى[١]. وقيل: (الضَّلالة) مصدرٌ مِثلُ (الضلال)، وتأنيثُه لفظيٌّ محضٌ، والتَّخالُفُ بَينهما تفنُّنٌ في العِبارة؛ فلمَّا تَقدَّم لفظ (ضَلال) اسْتُحسِنَ أنْ يُعادَ بلفْظٍ يُغايرُه في السورةِ؛ دفعًا لِثقل الإعادةِ[٢].

- وأفادَ تَنكيرُ ﴿ضَلَٰلَةٞ﴾ في سِياقِ النَّفيِ: المبالغةَ في النَّفيِ[٣].

- والباءُ في قَولِه: ﴿بِي﴾ للمُصاحَبةِ أو المُلابسةِ، وهي تُناقِضُ معنى الظَّرفيَّةِ مِن قَولِهم في نُوحٍ عليه السَّلامُ: إنَّه ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾، فنَفَى أن يكونَ للضَّلالِ مُتَلبَّسٌ به[٤]، وفي تَقديمِ هذا الظرفِ ﴿بِي﴾ تعريضٌ بضلالِهم[٥].

- قوله: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وقَع استدراكًا للانتفاءِ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٢-٨٣)، ((العذب النمير)) (٣/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٢٨-٤٢٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٨).

الضَّلالةِ؛ فكونُه رسولًا مِن الله، مُبلِّغًا رِسالاتِه، ناصحًا، في معنى كونِه على الصِّراطِ المستقيمِ؛ فصحَّ لذلك أنْ يكونَ استدراكًا للانتفاءِ عن الضلالةِ[١]، وهو استدراكٌ ممَّا قَبْلَه باعتِبارِ ما يَستلزِمه مِن كونِه في أقْصَى مَراتبِ الهداية؛ فإنَّ رَسالةَ ربِّ العالَمِين مستلزِمةٌ لهذا لا مَحالةَ، كأنَّه قيل: ليس بي شَيءٌ مِن الضَّلالِ، ولكنِّي في الغايةِ القُصْوى من الهِدايةِ[٢]، وهذا لرفْعِ مَا تَوهَّموه مِن أنَّه في ضلالٍ حيثُ خالَفَ دِينَهم، أي: هو في حالِ رِسالةٍ عن اللهِ تعالى، مع ما تَقْتضِي الرِّسالةُ من التبليغِ والنُّصحِ والإخبارِ بما لا يَعلمونه، وذلك ما حَسِبوه ضلالًا[٣].

- واختيارُ طريقِ الإضافةِ في تعريفِ المُرسَل بقوله: ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لِمَا تُؤذِنُ به مِن تَفخيمِ المضافِ، ومِن وجوبِ طاعتِه على جميعِ النَّاسِ؛ تعريضًا بقومِه إذ عَصَوْه[٤]، و﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لابتداءِ الغايةِ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقَع صِفةً لـ ﴿رَسُولٌ﴾، وهي مُؤكِّدةٌ لِمَا يُفيدُه التنوينُ مِن الفخامةِ الذَّاتيةِ بالفخامةِ الإضافيةِ، أيْ: رسولٌ وأيُّ رَسولٍ كائنٌ مِن ربِّ العالَمِين[٥].

٤- قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

- قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ استئنافٌ على سَبيلِ البَيانِ لكونِه رسولًا، وهو مَسوقٌ لتَقريرِ رِسالتِه، وتفصيلِ أَحكامِها وأحوالِها، ويجوزُ أن

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٥- ٢٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٢- ١٩٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٩٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦، ٢٣٨).

تكونَ هذه الجملةُ في موضِع الصِّفة لـ ﴿رَسُولٌ﴾[١]، والمقصودُ منها إفادةُ التجدُّد، وأنَّه غيرُ تاركٍ التبليغَ مِن أجْلِ تَكذيبِهم؛ تَأْييسًا لهم مِن متابعتِه إيَّاهم، ولولا هذا المقصدُ لكان معنى هذِه الجملةِ حاصلًا مِن معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ﴾[٢].

- وقَولُه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ مِنَ التَّبليغِ، وهي بالتَّشديدِ؛ لإفادةِ مَعنى التَّدريجِ والتَّكرارِ، وذلك يناسِبُ قَولَه: ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ بالجَمعِ؛ باعتبارِ مُتعَلِقِها وموضوعِها[٣].

- قوله: ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾: جَمَع ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾؛ لاختِلافِ أوقاتِها، أو لتنوُّعِ مَعانِيها مِن الأوامرِ والنَّواهِي، والمواعظِ والزَّواجِر، والبَشائِر والنَّذائر، أو لأنَّ كلَّ تَبليغٍ يَتضمَّنُ رسالةً بما بلَّغَه[٤].

- قولُه: ﴿رَبِّي﴾ فيه تَخصيصُ رُبوبيَّتِه تعالى بِه عليه الصَّلاةِ والسَّلام بعدَ بَيانِ عمومِها للعَالَمين بقوله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للإشعارِ لعِلَّة الحُكمِ الذي هو تَبليغُ رِسالتِه تعالى إليهم؛ فإنَّ رُبوبيَّتَه تعالى له عليه الصَّلاة والسلامُ مِن موجباتِ امتثالِه بأمْرِه تعالى بتبليغِ رسالتِه تعالى إليهم[٥].

- ووَجهُ العُدولِ عَنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ- حيثُ قال: ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦).

وقال ابنُ عاشور: (ثمَّ إنِ اعتُبرت جملة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ صِفةً، يَكُنِ العُدولُ عن ضميرِ الغَيبةِ إلى ضميرِ التكلُّم في قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ وقولِه: ﴿رَبِّي﴾ الْتِفاتًا، باعتبارِ كونِ الموصوفِ خبرًا عن ضَميرِ المتكلِّم، وإنِ اعتُبرت استئنافًا؛ فلا الْتِفاتَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦).

ولم يَقُل: (رِسَالاتِه)- هو ما تُؤذِنُ به إضافةُ الرَّبِّ إلى ضَميرِ المُتكَلِّم مِن لُزومِ طاعَتِه، وأنَّه لا يَسَعُه إلَّا تبليغُ ما أمَرَه بتبليغِه، وإن كَرِهَ قَومَه[١].

- قولُه: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ في الإتيانِ بالمضارعِ دَلالةٌ على تَجديدِ النُّصحِ لهم، وأنَّه غيرُ تاركِه مِن أجْلِ كراهيتِهم أو بَذاءتِهم[٢].

- الأصلُ في معنى (يَنصَحُ) أنْ يَتعَدَّى إلى المفعولِ بنَفْسِه، وفي زِيادة اللَّامِ هنا- حيثُ قال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ ولم يقُلْ: (وأَنْصَحُكم)- مبالغةٌ ودلالةٌ على إمحاضِ النَّصيحةِ، وأنَّها وقعَتْ خالصةً للمنصوحِ له، مقصودًا بها جانبُه لا غيرُ[٣].

- قَولُه تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ جاءَ بعدَ قولِه تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾؛ جمعًا لِمَعانٍ كثيرةٍ ممَّا تتضَمَّنُه الرِّسالةُ، وتأييدًا لِثَباتِه على دَوامِ التَّبليغِ والنُّصحِ لهم، والاستخفافِ بكراهِيَتِهم وأذاهم؛ لأنَّه يعلَمُ ما لا يَعلمونَه مِمَّا يَحمِلُه على الاسترسالِ في عَمَلِه ذلك؛ فجاءَ بهذا الكلامِ الجامِعِ، ويَتضمَّنُ هذا الإجمالُ البديع أيضًا تهديدًا للمُخالِفين من قومِه بحلولِ عَذابٍ بهم في العاجِلِ والآجِلِ، وتَنبيهًا للتأمُّلِ فيما أَتاهم به، وفتحًا لبصائرِهم أن تتطلَّبَ العلمَ بما لم يكونوا يَعلمونه، وكلُّ ذلك شأنُه أنْ يَبعثَهم على تصديقِه، وقَبولِ ما جاءَهم به[٤].

٥- **قَولُه تعالى:** ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عبَّر بالاستفهامِ دُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٤- ١٩٥).

أن يقولَ: (لا عَجَبَ)؛ إشارةً إلى أنَّ احتمالَ وُقوعِ ذلك منهم ممَّا يتردَّدُ فيه ظَنُّ العاقِلِ بالعُقلاءِ، فقولُه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ بمنزلةِ المَنعِ لقضيَّةِ قولِهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ لأنَّ قولَهم ذلك بمنزلةِ مُقدِّمةِ دليلٍ على بُطلانِ ما يدعوهم إليه[١].

٦- قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾

- قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ فيه تَقديمُ الإخبارِ بالإنجاءِ على الإخبارِ بالإغراقِ، مع أنَّ مُقتضى مقامِ العِبرةِ تَقديمُ الإخبارِ بإغراقِ المُنكرينَ؛ وذلك للمسارعةِ إلى الإخبارِ به، والإيذانِ بسَبْقِ الرحمةِ، وللاهتمامِ بإنجاءِ المُؤمنينَ، وتعجيلًا لِمَسرَّةِ السَّامعينَ مِنَ المُؤمنينَ، بأنَّ عادةَ اللهِ إذا أهلَكَ المشركينَ أن يُنَجِّيَ الرسولَ والمُؤمنينَ؛ فذلك التقديمُ يفيدُ التَّعريضَ بالنَّذَارة، وإلَّا فإنَّ الإغراقَ وقَعَ قبل الإنجاءِ؛ إذ لا يظهَرُ تحقُّقُ إنجاءِ نُوحٍ ومَن معه إلَّا بعد حُصولِ العَذابِ لِمَن لم يؤمِنوا به[٢].

- وقوله: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ مُتعلق بمعنى قولِه: ﴿مَعَهُۥ﴾؛ لأنَّ تَقديرَه: استقرُّوا معه في الفُلك، بهذا التعليقِ عُلِم أنَّ اللهَ تعالى أمَرَه أنْ يَحمِلَ في الفُلكِ مَعشرًا، وأنَّهم كانوا مُصدِّقين له؛ فكان هذا التعليقُ إيجازًا بديعًا[٣].

- والإتيانُ بالموصولِ (الَّذين) في قَولِه: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ دونَ أن يقولَ: (وأَغْرَقْنا سائرَهم)، أو (بقِيَّتَهم)؛ لِمَا تُؤذِن به الصِّلةُ من وجهِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٧-١٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٨).

تَعليلِ الخبرِ في قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾، أي: أَغرقْناهم لأجْلِ تَكذيبِهم[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾، وفي سُورة يونس قال: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ [يونس: ٧٣]؛ فاختلف نقْلُ الفِعل بالهمزةِ في الأُولى، وفي الثانية بالتَّضعيف، وفي الأولى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾، وفي الثانية: ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾، فاختَلَف الموصولُ أيضًا؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَنْجَيْنا﴾ أَصلٌ في هذا البابِ؛ لأنْ (أفعلت) في باب النَّقل أصلٌ لـ(فعلت) وهو أكثرُ؛ فآية الأعراف جاءتْ على الأصلِ الأكثرِ، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ هو الأصلُ، و(مَنْ) تجيء بمعناها، وتكونانِ مشتركتَينِ في مَعانٍ، و(الذين) خالصةٌ للخبر، مخصوصةٌ بالصِّلة؛ فاستُعمِلَ الأصلُ في اللَّفظين، وهما: (أَنجينا) و(الذين)، ولَمَّا كُرِّرَ هذا الذِّكرُ كان العدولُ إلى اللَّفظين الآخَرين اللَّذين هما معناهما، وهما: (نَجَّينا) و(مَن) أشبهَ بطريقةِ الفصحاءِ وعادةِ البلغاءِ[٢]. وقيل: لأنَّ (أَنْجينا) و(نجَّينا) للتعدِّي، لكنَّ التَّشديدَ يدلُّ على الكثرةِ والمبالَغة؛ فكان في يُونُس ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ ولَفْظُ (مَن) يقعُ على كثرةِ ما يَقعُ عليه (الذين)؛ لأنَّ (مَن) يَصلُح للواحدِ والتثنيةِ والجمعِ، والمُذكَّر والمؤنَّث، بخِلاف (الذين) فإنَّه لجمْع المذكَّر فحسبُ؛ فكان التَّشديدُ مع (مَن) أَليقَ[٣].

- قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ حرفُ (إنَّ) هنا لا يُقصَدُ به ردُّ الشكِّ والتردُّد؛ إذ لا شكَّ فيه، وإنَّما المقصودُ مِن الحرفِ الدَّلالةُ على الاهتمامِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٨).
(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٠٧-٦١٠)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٩٩).
(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢٢).

بالخبرِ، ومِن شأن (إنَّ) إذا جاءت للاهتمامِ أنْ تَقومَ مقامَ فاء التَّفريعِ[١].

- وعبَّر عنهم بالصِّفةِ المُشَبَّهةِ ﴿عَمِينَ﴾؛ لِدَلالَتِها على ثُبوتِ الصِّفةِ، وتمكُّنِها بأن تكون سَجِيَّةً[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٨).

الآيات (٦٥-٧٢)

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿خُلَفَآءَ﴾: جَمعُ خَليفةٍ، والخِلافةُ هي النِّيابةُ عَنِ الغَيرِ؛ يُقال: خَلَف فلانٌ فلانًا: قام بالأمرِ عنه، إمَّا معه وإمَّا بَعدَه، وأصل (خلف): مجيءُ شَيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مَقامَه[1].

﴿بَصْۜطَةً﴾: أي: سَعَةً، مِن بسطْتُ الشَّيءَ: إذا كان مجموعًا، ففَتَحْتَه ووسَّعْتَه، والبَسطةُ في كلِّ شيءٍ السَّعةُ؛ يقال: هو بسيطُ الجِسمِ والباعِ والعِلمِ، وأصل (بسط): امتدادُ الشَّيء[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٢٤٧).

﴿ءَالَآءَ﴾: أي: نِعَم، واحِدُها أَلًى وإِلًى[١].

﴿وَنَذَرَ﴾: أي: نترُكَ ونَدَعَ، مِن وَذِرَ يَذَرُ؛ يُقال: فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه لقلَّةِ اعتدادِه به[٢].

﴿وَقَعَ﴾: أي: وجَبَ، من الوُقوعِ وهو ثبوتُ الشَّيءِ وسُقوطُه، وأكثرُ ما جاءَ في القُرآن مِن لفظ (وقع) جاء في العذابِ الشَّديدِ[٣].

﴿رِجْسٌ﴾: أي: عَذَابٌ وسَخَطٌ، ويُطلَقُ الرِّجسُ على كلِّ ما استُقذِرَ مِنَ العمَلِ، وعلى العمَلِ الْمُؤَدِّي إلى العَذابِ والعِقابِ والغضَبِ، وأصل (رجس): النَّتن، ويَدُلُّ أيضًا على اختلاطٍ، ومنه القَذَرُ؛ لأنه لَطْخٌ وخَلْطٌ[٤].

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ﴾: أي: أهلَكْناهم عَن آخِرِهم، وقطْعُ دابرِ الإنسانِ: هو إفناءُ نَوعِه، ، ودابرُ القومِ آخرُهم، وأصل (قطع): الفَصلُ، وَأصل (دبر): آخِرُ الشَّيْءِ وَخَلْفُهُ، خِلَافُ قُبُلِهِ[٥].

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ إلى قبيلةِ عادٍ أخاهم في النَّسَبِ هُودًا؛ لِيدعُوَهم إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٨٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧، ٦٧٨).

عِبادةِ اللهِ وَحدَه، وتَرْكِ عبادةِ ما سواه، فقال لهم: اعبُدُوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه، أفلَا تتَّقونَ رَبَّكم، وتَخافونَ عَذابَه وسَخَطَه عليكم؟ فقال الرُّؤساءُ المُتَكبِّرونَ مِن قَومِه: إنَّا لَنَراك في حُمقٍ وخِفَّةِ عَقلٍ، وإنَّا لنَظُنُّك مِنَ الكاذبينَ.

فقال لهم هودٌ: يا قومِ، ليس بي حُمقٌ ولا خِفَّةُ عَقلٍ، ولكِنِّي مُرسَلٌ مِن رَبِّ العالَمينَ، أُبَلِّغُكم ما أرسَلَني ربِّي به، وأنا لكم ناصِحٌ أمينٌ، وهل عَجِبْتُم مُستبعِدينَ أن يأتِيَكم تذكيرٌ مِن رَبِّكم على رَجُلٍ منكم؛ لأجْلِ أن يُخَوِّفَكم مِن عُقوبةِ رَبِّكم على كُفرِكم؟ واذكروا نِعمةَ اللهِ عليكم؛ إذ جَعَلَكم تخلُفونَ قومَ نُوحٍ بعد أن أهلَكَهم، وزادَكم في الطُّولِ وقُوَّةِ الأبدانِ، فاذكُروا نِعَمَ اللهِ عليكم؛ لعَلَّكم تَفوزونَ وتَسعَدونَ.

قالوا: أجِئتَنا لنَعبُدَ اللهَ وَحدَه، ونترُكَ ما كان يعبُدُه آباؤُنا؛ فأْتِنا يا هودُ بما تَعِدُنا مِنَ العذابِ إن كُنتَ صادِقًا. فقال لهم هُودٌ: قد وقَعَ عليكم مِن ربِّكم عذابٌ وغَضَبٌ لا محالةَ، أتُخاصِمُونَني في أصنامٍ سَمَّيتُموها أنتم وآباؤُكم، ما جعَلَ اللهُ لكم مِن حُجَّةٍ على عِبادَتِكم لها؟ فانتظِروا ما هو واقِعٌ بكم مِنَ العذابِ، وأنا معكم مُنتَظِرٌ.

ثم أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه أنجاه ومَن مَعه مِنَ المؤمنينَ برحمةٍ منه عَزَّ وجَلَّ، وأهلَكَ بالعذابِ الشَّديدِ الذين كذَّبوا بآياتِه، ولم يكونوا مُؤمنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

أي: ولقَدْ أرسَلْنا إلى قبيلةِ عادٍ أخاهم في النَّسَبِ هُودًا عليه السَّلامُ؛ لِيَدعُوَهم

إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وينهاهُم عن عبادةِ غَيرِه، فقال لهم: يا قومِ، اعبُدُوا اللهَ وَحدَه ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه، فلا تُشرِكوا به شيئًا[١].

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

أي: أفلا تتَّقونَ رَبَّكم، فتحذَرونه وتخافون سَخَطَه وعقابَه، إن أقمتم على ما أنتم عليه مِن عبادةِ غَيرِه[٢].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾.

أي: قال الأشرافُ والرُّؤساءُ، الكَفَرةُ المُتكبِّرونَ عَنِ الحَقِّ مِن قَومِ هُودٍ حين دعاهم إلى إفرادِ اللهِ بالعبادةِ: إنَّا لنعتقِدُ أنَّك- يا هودُ- في ضلالٍ وحُمقٍ وخِفَّةِ عَقلٍ؛ حيث تدعُونا إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وتركِ ما كان يعبُدُ آباؤُنا[٣].

﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

أي: وإنَّا لنظُنُّ[٤] أنَّك- يا هودُ- مِنَ الكاذبينَ في ادِّعائِك النُّبوَّةَ، ودَعوَتِك لنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٣).
قال ابن عاشور: (الأخُ هنا مستعمَلٌ في مُطلَقِ القَريبِ، وقد كان هودٌ مِن بني عادٍ.. فالمرادُ أنَّ هُودًا كان مِن ذوي نَسَبِ قَومِه عادٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٠).

(٤) قال ابن عطية: (وقولهم: ﴿لَنَظُنُّكَ﴾ هو ظَنٌّ على بابِه؛ لأنَّهم لم يكن عندهم إلَّا ظُنونٌ

إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه[١].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧﴾.

أي: قال هودٌ لِقَومِه: يا قومِ، ليس بي حُمقٌ ولا خِفَّةُ عَقلٍ، حين دعوتُكم إلى توحيدِ اللهِ، ونَهَيتُكم عن الشِّركِ به، ولكِنِّي مُرسَلٌ إليكم مِنَ الذي خلَقَ كُلَّ شَيءٍ، وهو مالِكُه ومُدَبِّرُ شُؤونِه[٢].

﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨﴾.

أي: وظيفتي أنْ أُوصِلَ إليكم الرِّسالةَ التي أرسَلَني اللهُ بها، وهي أمْرُكم بتوحيدِه، ونَهيُكم عنِ الشِّركِ به، ودَعْوَتُكم لطاعَتِه، وأنا أبغِي لكم بذلك الخيرَ في الدُّنيا والآخرةِ، فلا أغُشُّكم ولا أخدَعُكم، أمينٌ على ما ائتَمَنَني اللهُ عليه مِنَ الرِّسالةِ، فأبلِّغُها لكم كما أُمِرْتُ[٣].

كما قال تعالى حاكيًا قولَ هُودٍ عليه السَّلامُ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ * وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ٥١-٥٢].

وتَخَرُّصٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤١٧).

وذهب ابن عاشور إلى أنَّ المرادَ بالظنِّ هاهنا اليقينُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٤ - ٢٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٢).

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾.

أي: هل تعجَّبتم مستبعدينَ أن يَجِيئكم تذكيرٌ مِنَ اللهِ، أنزَلَه على رجُلٍ مِنَ البَشَرِ، تَعرفونَ نَسَبَه وصِدقَه؛ لأجلِ أن يُخَوِّفَكم عقابَ اللهِ على كُفرِكم به؟ أي: فكيفَ تعجَبونَ مِمَّا لا ينبغي العَجَبُ منه؟! فليس بعجَبٍ أن يُوحِيَ اللهُ إلى رجلٍ منكم؛ رحمةً بكم، وإحسانًا إليكم[1].

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

أي: واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم، بأنْ جَعَلَكم تخلُفُونَ قَومَ نُوحٍ في الأرضِ مِن بعدِ هَلاكِهم؛ حيث أبدَلَكم بِهِم[2].

﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾.

أي: واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم بما خَصَّكم به على النَّاسِ؛ مِن زيادةٍ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٤).
وقال ابنُ عاشور: (عادٌ أوَّلُ أمَّةٍ اضطلعت بالحضارةِ بعد الطُّوفان.. وليس المرادُ أنهم خَلَفُوا قومَ نُوحٍ في ديارِهم؛ لأنَّ منازِلَ عادٍ غيرُ منازِلِ قَومِ نُوحٍ، عند المؤرِّخين). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٥).

الطُّولِ، وقُوَّةٍ في الأبدانِ[١].

كما أخبر الله تعالى أنَّه لم يَخلقْ مثلَ قبيلةِ عادٍ في قوَّتِهم وشدَّتِهم وجبروتِهم[٢] بقَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر:٦-٨].

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: فاذكُرُوا نِعَمَ اللهِ الكثيرةَ عليكم، واشكُرُوه عليها؛ بِطاعَتِه وعبادَتِه وَحْدَه؛ كي تَفوزُوا وتَسعَدُوا، وتنالوا الخُلودَ في الجَنَّةِ[٣].

كما قال تعالى حاكيًا قولَ هُودٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢ - ١٣٤].

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

أي: قالتْ عادٌ قَومُ هُودٍ: أجِئتَنا- يا هودُ- كي نعبُدَ اللهَ وَحدَه، ونترُكَ ما كان يعبُدُ آباؤُنا مِن الأصنامِ، ونتبَرَّأَ منها[٤]؟

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٨ - ٤٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩١).

أي: لن نُوَحِّدَ اللهَ، ولن نترُكَ عبادةَ الأصنامِ، فهاتِ -يا هودُ- ما تعِدُنا به مِنَ العَذابِ على عبادةِ غَيرِ اللهِ، وتَرْكِنا توحيدَه، إن كنتَ مِن أهلِ الصِّدقِ فيما تقولُ مِن أنَّ العَذابَ واقِعٌ علينا[1].

كما حكى تعالى عنهم بِقَولِه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾.

﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌ﴾.

أي: قال هودٌ لِقَومِه: قد حلَّ بكم- لا محالةَ- عَذابٌ وغَضَبٌ مِن رَبِّكم[2].

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ﴾.

أي: كيف تُخاصِمُونَني وتُحاجِجونَني في هذه الأصنامِ التي سَمَّيتُموها أنتم وآباؤُكم آلهةً، زاعِمينَ أنَّها تُعبَدُ مع اللهِ، وهي مُجَرَّدُ أسماءٍ باطلةٍ اختَلَقْتُموها، ولا حقيقةَ لها، ولم يجعَلِ اللهُ لكم مُطلقًا حُجَّةً على عِبادَتِها[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٤ - ٤٩٥).

كما قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٦-٧٠].

﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

أي: فانتَظِروا مُترَقِّبينَ وقوعَ عذابِ اللهِ، الذي وعَدْتُكم به، إنِّي أنتظِرُ وأترَقَّبُ معكم نُزُولَه بكم[1].

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾.

أي: فأنجَينا هُودًا والَّذين معه مِنَ المؤمنينَ بِسَبَبِ رَحْمَتِنا العظيمةِ لهم[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود: ٥٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٥).

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

أي: وأهلَكْنا واستَأصَلْنا بالعَذابِ الشَّديدِ جميعَ الكُفَّارِ المُكَذِّبينَ بآياتِنا مِن قَومِ هُودٍ، فلم نُبْقِ منهم أحدًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢].

وقال سُبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٨-٢٠].

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وما كان قَومُ هُودٍ مُؤمنينَ باللهِ، ولا بما جاءَهم به رسولُه هودٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٧).
قال أبو حيان: (جملةٌ مُؤَكِّدة لقوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ويحتملُ أن يكونَ إخبارًا مِنَ الله تعالى أنَّهم ممَّن عَلِمَ اللهُ تعالى أنَّهم لو بَقُوا لم يؤمنوا، أي: ما كانوا ممَّن يقبلُ إيمانًا ألبتَّةَ، ولو عَلِمَ الله تعالى أنَّهم يؤمنونَ لأبقاهم، وذلك أنَّ المُكَذِّبَ بالآياتِ قد يؤمِنُ بها بعد ذلك، ويَحسُنُ حالُه، فأمَّا مَن حَتَمَ اللهُ عليه بالكُفرِ، فلا يؤمِنُ أبدًا). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٠).
وقال الشِّنقيطي: (قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ تأكيدٌ، وما كانوا في عِلمِ اللهِ مُؤمنينَ أبدًا؛ لأنَّ اللهَ طَبَعَهم على الشَّقاوةِ، والعياذُ باللهِ جَلَّ وعَلا). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٠٧).

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ * وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ [هود: ٥٩-٦٠].

وقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى حكايةً عَنِ المَلَأِ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ * قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ...﴾ في إجابةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ مَن نَسَبَهم إلى الضَّلالةِ والسَّفاهةِ بما أجابُوهم؛ مِنَ الكلامِ الصَّادِرِ عنِ الحِلمِ والإغضاءِ، وتَرْكِ المُقابلةِ بما قالوا لهم، مع عِلْمِهم بأنَّ خُصُومَهم أضَلُّ النَّاسِ، وأسْفَهُهم- أدبٌ حَسَنٌ، وخُلُقٌ عظيمٌ، وحكايةُ اللهِ عَزَّ وجلَّ عنهم ذلك؛ تعليمٌ لِعبادِه كيف يُخاطِبونَ السُّفَهاءَ، وكيف يُغْضُونَ عنهم، ويُسْبِلونَ أذيالَهم على ما يكونُ منهم[(١)].

٢- في قولِ هُودٍ عليه السَّلامُ لِقَومه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ تَرْكَ الانتقامِ أَوْلى؛ فإنَّهم لَمَّا قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ لم يُقابِلْ سَفاهَتَهم بالسَّفاهةِ، بل قابَلَها بالحِلمِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٧).

والإغضاءِ[١].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ إنَّما أمَرَهم بالذِّكْرِ؛ لأنَّ النَّفسَ تنسى النِّعَمَ فتكفُرُ المُنعِمَ، فإذا تذكَّرَتِ النِّعمةَ رأَتْ حَقًّا عليها أن تَشكُرَ المُنعِمَ؛ ولذلك كانت مسألةُ شُكرِ المُنعِمِ مِن أهَمِّ مَسائِلِ التَّكليفِ[٢].

٤- ذكرُ آلاءِ الله تبارك وتعالى ونِعَمِه على عبدِه سببُ الفلاحِ والسَّعادة؛ لأنَّ ذلك لا يزيدُه الا محبةً لله وحمدًا وشكرًا وطاعةً وشهودَ تقصيرِه، بل تفريطِه في القليلِ مما يجبُ لله عليه، قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٣].

٥- إنْ قِيلَ: العبدُ في بعضِ الأحيانِ قد لا يكونُ عنده مَحَبَّةٌ تَبعَثُه على طلَبِ مَحبُوبِه، فأيُّ شَيءٍ يُحَرِّكُ القُلوبَ؟ قُلنا: يُحَرِّكُها شيئانِ: أحدُهما كثرةُ الذِّكرِ للمَحبوبِ؛ لأنَّ كَثرةَ ذِكرِه تُعَلِّقُ القلوبَ به؛ ولهذا أمَرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بالذِّكرِ الكَثيرِ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ الآية. والثاني: مُطالعةُ آلائِه ونَعمائِه؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾. وقال تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ فإذا ذكَرَ العبدُ ما أنعَمَ اللهُ به عليه: مِن تسخيرِ السَّماءِ والأرضِ، وما فيها مِنَ الأشجارِ والحَيَوانِ، وما أسبَغَ عليه مِنَ النِّعَمِ الباطنةِ من الإيمانِ وغَيرِه؛ فلا بُدَّ أن يُثيرَ ذلك عنده باعثًا، وكذلك الخوفُ تُحَرِّكُه مُطالعةُ آياتِ الوَعيدِ والزَّجرِ، والعَرْضِ والحِسابِ ونحوِه، وكذلك الرَّجاءُ يُحَرِّكه مُطالعةُ الكَرَمِ والحِلمِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٤).
(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٢٩).

والعَفوِ، وما ورد في الرَّجاءِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ﴾ أنَّ كُلَّ ما يتعَلَّقُ بِعِبادَتِه لا يجوزُ أنْ يُؤخَذَ إلَّا مِمَّا أنزَلَه على رُسُلِه؛ إذ لا يَعلَمُ ما يُرضِيه ويصِحُّ عنده مِن عِبادَتِه إلَّا المُبَلِّغونَ عنه[٢].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗا﴾ أي: في النَّسَبِ؛ لأنَّهم عنه أفهَمُ، وبحالِه في الثِّقةِ والأمانةِ أعرَفُ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗا﴾ لَمَّا عَطَفَ ذِكرَ هُودٍ على نوحٍ -عليهما السلام- بَيَّنَه بِقَولِه: ﴿أَخَاهُمۡ هُودٗا﴾، ولم يُوصَفْ نُوحٌ بأنَّه أخٌ لِقَومِه؛ لأنَّ النَّاسَ في زَمَنِ نوحٍ لم يكونوا قد انقَسَموا شُعوبًا وقبائِلَ[٤].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗا﴾ دليلٌ على جوازِ تَسميةِ القَريبِ الكافِرِ (أخًا)[٥].

٤- قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ قد شابَهَت دعوةُ هُودٍ قَومَه، دعوةَ نُوحٍ قَومَه في المُهِمِّ مِن كلامِها؛ لأنَّ الرُّسُلَ مُرسَلونَ مِنَ اللهِ، والحكمةُ مِنَ الإرسالِ واحدةٌ، فلا جَرَمَ أنْ تتشابَهَ دَعَواتُهُم، وفي الحديثِ: ((الأنبياءُ أبناءُ عَلَّاتٍ))[٦]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٩٥، ٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠١).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤١).
(٦) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة.

نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾[١].

٥- الغايةُ التي بُعِثَ مِن أجلِها الرُّسُلُ: إفرادُ اللهِ تعالى بالعبادةِ، والنَّهيُ عن جميعِ المُوبِقاتِ، مِن الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[٢].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ قد تشابَهَتْ أقوالُ قَومِ هُودٍ، وأقوالُ قَومِ نُوحٍ في تكذيبِ الرَّسولِ؛ لأنَّ ضَلالةَ المُكَذِّبينَ مُتَّحدةٌ، وشُبُهاتِهم مُتَّحِدة، كما قال تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [البقرة: ١١٨] فكأنهَّم لَقَّنَ بَعضُهم بعضًا كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾[٣].

٧- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ الرِّسالةَ لا يُختارُ لها إلَّا أهلُ الحَصافةِ برُجحانِ العَقلِ، وسَعَةِ الحِلمِ، وكَمالِ الصِّدقِ، وإلَّا لفات ما يُقصَدُ بها مِنَ الحكمةِ، ولم تَقُمْ بها لله الحُجَّةُ[٤].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيه مَدحٌ للنَّفسِ بأعظَمِ صِفاتِ المَدحِ؛ ومَدحُ الذَّاتِ الأصلُ فيه أنَّه غيرُ لائقٍ بالعُقلاءِ، لكن إنَّما فَعَلَ هُودٌ ذلك؛ لأنَّه كان يجِبُ عليه إعلامُ القَومِ بذلك، وذلك يدلُّ على أنَّ مَدْحَ الإنسانِ نَفسَه إذا كان في مَوضِعِ الضَّرورةِ؛ جائِزٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠١، ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٨٦).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ لَمَّا كانوا قد رَمَوْه- عليه السَّلامُ- بالسَّفَهِ الذي هو مِن غَرائِزِ النَّفسِ؛ لأنَّه ضِدُّ الحِلمِ والرَّزانة- عَبَّرَ عن مضمونِ الجُملةِ النَّافية له بما يقتضي الثَّباتَ، فقال: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ﴾ أي: لم يزَلِ النُّصحُ من صفتي، ثابتٌ فيَّ ومتمَكِّنٌ منِّي[١].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أسنَدُوا الفِعلَ إلى ضَميرِه؛ تعريضًا بأنَّ ما تَوَعَّدَهم به هو شيءٌ مِن مُختَلَقاتِه، وليس مِن قِبَلِ اللهِ تعالى[٢].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ عَقَّبوا كلامَهم بالشَّرطِ فقالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ استقصاءً لمقدِرَتِه، قصدًا منهم لإظهارِ عَجْزِه عن الإتيانِ بالعذابِ، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دَلَّ عليه ما قبلَه، تقديره: أتيتَ به، وإلَّا فَلَسْتَ بصادقٍ[٣].

١٢- في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٌ وَغَضَبٌ﴾ عَطفُ الغَضَبِ على الرِّجسِ لِبَيانِ أنَّ الرِّجسَ قد أُريدَ به الانتقامُ الحَتمُ، فلا يُمكِنُ رَفعُه[٤].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ﴾، قوله ﴿نَزَّلَ﴾ هذا التفعيلُ يأتي بمعنى الفِعلِ المُجَدَّد، وبمعنى الفعل بالتَّدريجِ، فقَصَد النفيَ بكلِّ اعتبارٍ: سواءٌ كان تجديدًا أو تدريجًا، وإشارة إلى أنَّه لو نَزَلَ عليهم في الأمرِ بعبادَتِها شيءٌ واحِدٌ، لتوَقَّفوا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٤).

فيه؛ لعَدَمِ فَهْمِهم لمعناه حتى يُكَرِّرَ عليهم الأمرَ فيه مَرَّةً بعدَ أخرى، فدلَّ ذلك قطعًا على أنَّ الأمرَ لهم بعبادةِ الأصنامِ إنَّما هو ظَلامُ الهوى؛ لأنَّه عَمًى محضٌ، مِن شأنِ الإنسانِ رُكوبُه بلا دليلٍ أصلًا[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ فَرْقٌ بين الانتظارَينِ؛ انتظارِ مَن يخَشَى وُقوعَ العِقابِ، ومَن يَرجُو مِنَ اللهِ النَّصرَ والثَّوابَ؛ ولهذا فتَحَ اللهُ بين الفَريقينِ، فقال:﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ أي: هودًا ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ آمَنُوا ﴿مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ فإنَّه الذي هداهم للإيمانِ، وجعَلَ إيمانَهم سببًا ينالونَ به رَحمَتَه، فأنجاهم بِرَحمته، ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: استَأصَلْناهم بالعَذابِ الشَّديدِ، الذي لم يُبقِ منهم أحدًا[٢].

١٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدَّابِرُ هو آخِرُ واحدٍ في الرَّكْبِ يتبَعُ أدبارَ القَومِ، ففي الآيةِ إعلامٌ منه تعالى أنَّ أخْذَه لهم كان على غيرِ أخْذِ المُلوكِ الَّذينَ يَعجِزونَ عن الاستقصاءِ في الطَّلَبِ، فتَفُوتُهم أواخِرُ العَساكرِ، والمتفرقين مِن الجُنودِ والأتباعِ[٣].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وَصْفُهم بالتَّكذيبِ بالفِعلِ الماضي لا يُفهِم دوامَهم على تكذيبِهم، بل لنَفْيِ احتمالِ أنَّهم آمَنُوا بعد التَّكذيبِ، وأنَّ أخْذَهم إنَّما كان لمُطلَقِ صُدورِ التَّكذيبِ منهم، وأنَّهم لم يبادِروا إلى الإيمانِ قَبلَ التَّكذيبِ[٤].

١٧- قول الله تعالى: ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤١-٤٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٢).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٣).

﴾ فائدة نَفْي الإيمانِ عنهم في قولِه: ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ مع إثباتِ التَّكذيبِ بآياتِ اللهِ، هو الإشارةُ إلى مَن آمَن منهم، ومَن نَجا مع هُودٍ عليه السَّلامُ، والتَّنبيهُ على أنَّ الفارقَ بَينَ مَن نَجَا وبَينَ مَن هلَك هو الإيمانُ، كأنَّه قال: وقَطَعْنا دابرَ الذين كذَّبوا منهم ولم يَكونوا مِثلَ مَن آمَنَ منهم؛ ليُؤذِنَ أنَّ الهلاك خَصَّ المُكذِّبين، ونَجَّى اللهُ المؤمنِين[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

- قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗا﴾ فيه تقديمُ المجرورِ ﴿وَإِلَىٰ﴾ على المفعولِ الأصليِّ ﴿هُودٗا﴾؛ ليتأتَّى الإيجازُ بالإضمارِ؛ حيثُ أُريد وصْفُ هودٍ بأنَّه مِن إخوةِ عادٍ ومِن صميمِهم، مِن غير احتياجٍ إلى إعادةِ لفظ (عاد)، ومع تجنُّبِ عودِ الضَّميرِ على متأخر لفظًا ورُتبةً[2].

- وقولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن حِكايةِ إرسالِه عليه السلام إليهم كأنَّه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[3].

- وفُصِلتْ جملةُ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ ولم تُعطَفْ بالفاءِ- كما عُطِف نظيرُها المتقدِّمُ في قِصَّة نوح في قوله: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، فعُطِفتْ بالفاءِ-؛ لأنَّ الحالَ اقتضَى هنا أنْ تكونَ مُستأنفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٧).

قِصَّةَ هُودٍ لَمَّا ورَدَتْ عقِبَ قِصَّة نوحٍ المذكورِ فيها دَعوتُه قَومَه، صار السامعُ مُترقِّبًا معرفةَ ما خاطَبَ به هودٌ قومَه، حيثُ بعَثَه اللهُ إليهم، فكان ذلك مثارَ سؤالٍ في نفْسِ السَّامعِ أن يقول: فماذا دعا هودٌ قومَه؟ وبماذا أجابوا؟ فيقع الجوابُ بأنَّه قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ...﴾؛ فقدْ فُصِلتْ الجُملةُ هنا وفيما يأتِي مِن سائرِ القصص، والفَرقُ المقتضي لذلك أنَّ العطف هُنالك في قِصَّة نوحٍ جاءَ على أصْلِه: وهو كونُ التبليغِ جاءَ عقِبَ الإرسالِ؛ لأنَّ التأخيرَ غيرُ جائزٍ، ولَمَّا صارَ هذا معلومًا كان مِن المناسبِ فيما بَعْدَه مِن القصصِ أنْ يجيءَ بأُسلوبِ الاستئنافِ[١].

- وجملةُ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ استفهاميَّةٌ إنكاريةٌ معطوفةٌ بفاءِ التَّفريع على جُملةِ ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، والمرادُ بالتَّقوَى الحذرُ مِن عِقابِ اللهِ تعالى على إشراكِهم غيرَه في العِبادةِ، واعتقادِ الإلهيَّةِ، وفيه تعريضٌ بوعيدِهم إنِ استمرُّوا على ذلك[٢].

- وإنَّما ابتدأَ بالإنكارِ عليهم؛ إغلاظًا في الدَّعوةِ، وتهويلًا لفظاعةِ الشِّرْك- إنْ كان قال ذلك في ابتداءِ دَعوتِه[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ فيه تنكيرُ ﴿سَفَاهَةٖ﴾؛ لبيانِ نَوعِها، أو المبالغة بعِظَمِها، أي: قالوا: إنَّا لنراكَ في سَفاهةٍ غريبةٍ، أو تامَّةٍ راسخةٍ تُحيط بك مِن كلِّ جانبٍ، بأنَّك لم تَثبُتْ على دِينِ آبائِك وأجدادِك، بل قُمتَ تَدْعُو إلى دِينٍ جديدٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٢٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمۡ﴾ على عاملِه؛ للإيذانِ باهتمامِه بما يَنفعُهم[١].

٤- قوله: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾

- قوله: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ﴾ الهَمزةُ في قوله: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ﴾ للإنكارِ والتَّوبيخِ، أي: هذا ممَّا لا يُعجَبُ منه؛ إذ له تعالى التصرُّفُ التامُّ بإرسالِ مَن يشاءُ لِمَن يشاءُ[٢].

- قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ في هذا التذكيرِ تَصريحٌ بالنِّعمةِ، وتعريضٌ بالنَّذارةِ والوعيدِ بأنَّ قومَ نوح إنَّما استأصلَهم وأبادَهم عذابٌ مِن اللهِ على شِركِهم؛ فمَن اتَّبعهم في صُنعِهم يُوشِكُ أنْ يَحُلَّ به عذابٌ أيضًا[٣].

٥- قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أعادوا تَكذيبَه بطريقِ الاستفهامِ الإنكاريِّ على دَعوتِه للتوحيدِ، وقَصَدوا ممَّا دلَّ عليه فِعلُ المجيءِ زِيادةَ الإنكارِ عليه، وتَسفيهَه على اهتمامِه بأمْرٍ مِثلِ ما دعاهم إليه، وهذا الجوابُ أقلُّ جفوةً وغِلظةً من جوابِهم الأوَّل؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، كأنَّهم قَصَدوا استنزالَ نَفْسِ هودٍ، ومحاولةَ إرجاعِه عمَّا دعاهم إليه؛ فلذلك اقْتَصروا على الإنكارِ، وذكَّروه بأنَّ الأمْرَ الذي أنكرَه هو دِينُ آباءِ الجميعِ؛ تعريضًا بأنَّه سَفَّه آباءَه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٥).

وهذا المقصدُ هو الذي اقْتَضى التعبيرَ عن دِينِهم بطريقِ الموصوليَّة في قولهم: ﴿مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ إيماءً إلى وجْه الإنكارِ عليه، وإلى أنَّه حقيقٌ بمتابعةِ دِين آبائِه[١].

- واجتلابُ (كان) في قولهم: ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ لتدلَّ على أنَّ عبادَتَهم أمرٌ قديمٌ مَضَتْ عليه العُصورُ[٢].

- والتعبير بالفِعل وكونه مُضارِعًا في قوله: ﴿يَعْبُدُ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ ذلك مُتكرِّرٌ مِن آبائهم ومُتجدِّدٌ، وأنَّهم لا يَفتُرون عنه[٣].

- وفي قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أَسْنَدوا الفِعلَ إلى ضَميرِه؛ تعريضًا بأنَّ ما تَوعَّدهم به هو شيءٌ مِن مُختَلَقاتِه، وليس مِن قِبَلِ اللهِ تعالى[٤].

٦- قوله: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾

- قوله: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ فيه تقديمُ الظرفِ الأوَّل ﴿عَلَيْكُم﴾ على الثاني ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، مع أنَّ مَبْدأَ الشيءِ متقدِّمٌ على مُنتهاه؛ للمُسارعةِ إلى بيانِ إصابةِ المكروهِ لهم، وتقديمهما على الفاعِل ﴿رِجْسٌ﴾؛ للاهتمامِ بتَعجيلِ ذِكرِ المغضوبِ والغاضِب، إيقاظًا لبصائرِهم؛ لعلَّهم يُبادِرونَ بالتوبةِ، ولأنَّ المَجرورَينِ مُتعلِّقانِ بالفِعلِ؛ فناسَب إيلاؤُهما إيَّاه، ولو ذُكِرَا بعدَ الفاعِلِ؛ لتُوهِّم أنَّهما صِفتانِ له، وقُدِّم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٠٩).

المجرورُ الذي هو ضميرُهم، على الذي هو وصْفُ ربِّهم؛ لأنَّهم المقصودُ الأوَّلُ بالفِعلِ[١].

- قوله: ﴿قَدۡ وَقَعَ﴾ فيه استعمالُ صِيغة المُضيِّ في مَعْنى الاستقبالِ؛ إشعارًا بتَحقيقِ وقوعِه، واقترانُ الفِعل ﴿وَقَعَ﴾ بـ ﴿قَدۡ﴾؛ للدَّلالةِ على تَقريبِ زَمنِ الماضي مِن الحال، مِثلُ: قد قامَتِ الصَّلاةُ[٢].

- قوله: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ الاستفهامُ في قوله: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي﴾ للإنكارِ؛ فهو إنكارٌ مِنه لِمُخاصمتِهم له فيما لا يَنبغي فيه الخِصامُ[٣].

- قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ صِيغةُ الأمْر ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ للتَّهديدِ، والجُملةُ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ تَهديدَه إيَّاهم يُثيرُ سؤالًا في نُفوسِهم أنْ يقولوا: إذا كُنَّا ننتظرُ العذابَ؛ فماذا يكونُ حالُك؟ فبَيَّن أنَّه يَنتظِرُ معهم، وهذا مقامُ أَدبٍ معَ اللهِ تعالى[٤].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ لتَفريعِ هذا الإنذارِ والتَّهديدِ السَّابق؛ لأنَّ وُقوعَ الغَضبِ والرِّجسِ عليهم، ومُكابرتَهم واحتجاجَهم لِمَا لا حُجَّةَ له؛ ينشأُ عن ذلك التَّهديدُ بانتظارِ العذابِ[٥].

٧- قوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ كانَ مُقتضَى الظاهِرِ أنْ يَكونَ النَّظمُ هكذا: (فقطَعْنا دابرَ الذين كذَّبوا... وأنْجَينا هودًا ...)، ولكن جَرَى النَّظمُ على خِلافِ مُقتضَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٠-٢١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٣).

الظاهِرِ؛ للاهتمامِ بتَعجيلِ الإخبارِ بنَجاةِ هُودٍ ومَن آمَن مَعه[١].

- قوله: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ تَنكيرُ الرَّحمةِ للتَّعظيمِ، ووصفُها بأنَّها مِن اللهِ؛ للدَّلالةِ على كمالِها وأنَّها غيرُ مُنقطعةٍ عنهم[٢]، وقولُه: ﴿مِّنَّا﴾، أي: مِن جِهتنا، مُتعلِّق بمحذوف هو نعتٌ لـ ﴿رَحۡمَةٖ﴾ مُؤكِّدٌ لفخامتِها الذاتيَّةِ المنفهمةِ مِن تنكيرِها بالفَخامةِ الإضافيَّةِ[٣].

- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ عَطفٌ على ﴿كَذَّبُواْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ فهو مِن الصِّلةِ، وفائدةُ عَطْفِه الإشارةُ إلى أنَّ كِلتَا الصِّلتينِ مُوجِبٌ لقَطعِ دابرِهم، وهما: التَّكذيبُ، والإشراك؛ تَعريضًا بمُشركِي قُرَيشٍ، ولموعظتِهم ذُكرتْ هذه القَصصُ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٥).

الآيات (٧٢-٧٩)

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَيِّنَةٌ﴾: أَيْ: بصيرةٌ ودَلالةٌ، ويقينٌ، وحُجَّةٌ وبُرهانٌ، وأصلُ (بين): الانْكِشاف[1].

﴿ءَايَةً﴾: الآيةُ تُطلَقُ على العلامةِ- يُقال: آيةُ كذا؛ أي: علامَتُه- وعلى العَجيبةِ، وتُطلق أيضًا على الجماعةِ، وسُمِّيت الآيةُ مِن القرآنِ بذلك: إمَّا مِن العلامةِ؛ لأنَّها علامةٌ على صدقِ مَن جاء بها، أو مِن الجماعةِ؛ لأنَّها جماعةٌ مِن كلماتِ القرآنِ مشتملةٌ على بعضِ ما اشتَمل عليه القرآنُ مِن الإعجازِ، والحلالِ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤).

والحرامِ، والعقائدِ[١].

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾: ولا تُصيبُوها ولا تَقتُلوها ولا تَنالوها بعَقْرٍ، والمسُّ يُقال في كلِّ ما يُصيبُ مِن أذًى، وأصل (مسس): جَسُّ الشَّيءِ باليَدِ[٢].

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾: أي: وأنزَلَكم، وجَعَل لكم مَساكِنَ وأزواجًا، وأصل (بوأ): يَدُلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ، وعلى تساوِي الشَّيئينِ[٣].

﴿سُهُولِهَا﴾: السهْلُ هو المكانُ المنخفضُ المستوي، الذي لا وَعْرَ فيه، وأصل (سهل): اللِّينُ، وهو عَكسُ الحُزونةِ والصُّعوبةِ[٤].

﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: أي: تَنقبُونَ، وأصل (نحت): يدلُّ على نَجْرِ شَيءٍ، وَتَسوِيَتِهِ بِحَديدةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٤، ٥٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦١).
قال الشنقيطيُّ: (والآيةُ في القرآنِ تُطلَق إطلاقَينِ: تُطلَقُ الآيةُ على الآيةِ الكونيَّةِ القدريَّةِ، وهي مِن الآيةِ بمعنى: العلامةِ، وهي ما نصَبه اللهُ جلَّ وعلا مِن آياتِه، جاعلًا لها علاماتٍ على كمالِ قُدرتِه، وأنَّه الربُّ وحدَه، المعبودُ وحدَه، كقولِه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] أي: لعلاماتٍ ودلالاتٍ واضحاتٍ على أنَّه الربُّ المستحِقُّ أنْ يُعبدَ وحدَه.
الإطلاقُ الثَّاني: تُطلَق الآيةُ في القرآنِ على الآيةِ الشرعيَّة الدينيَّةِ، كآياتِ هذا القرآنِ العظيمِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٤).

﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾: لَا تَطْغَوْا، وَلَا تَسْعَوْا بالمعاصِي، من عَثِيَ أو عَثَا، وفيه لغةٌ أخرى: أنَّه من عَاثَ يَعيثُ، والعَيثُ أشَدُّ الفَسادِ والإفساد. وأصلُ (عيث): الفَسادُ، والعَيثُ والعِثِيُّ مُتقاربانِ، إلَّا أنَّ العَيثَ أكثَرُ ما يُقالُ في الفَسادِ الذي يُدرَكُ حِسًّا، والعِثِيَّ فيما يُدْرَكُ حُكمًا(١).

﴿فَعَقَرُوا﴾: أي: فنَحَروا، أو فقَتَلوا، وأصل (عقر): يدلُّ على جُرحٍ أو ما يُشبِهُ الجُرحَ(٢).

﴿وَعَتَوْا﴾: أي: تكبَّروا وَتجبَّروا، والعُتُوُّ: النبوُّ عن الطَّاعةِ، وأصله: يدلُّ على الاستكبارِ(٣).

﴿الرَّجْفَةُ﴾: أي: الصَّيحةُ التي زَعزَعَتْهم وحرَّكَتْهم للهلاكِ، والرَّجفةُ: حَرَكَةُ الأَرْضِ، أو الزَّلزلةُ الشَّدِيدَةُ، والرَّجْفُ: الاضطرابُ الشَّديدُ، وأصلُ (رجف): يَدُلُّ على اضطرابٍ(٤).

﴿جَاثِمِينَ﴾: أي: جامِدينَ مَيِّتينَ، واقعينَ بعضُهم على بعضٍ، أو: بارِكينَ على الرُّكَبِ أَيضًا؛ مِن قَولِهم: جَثَمَ الطَّائرُ إذا قعَد ولَصِق بالأرضِ، وأصلُ (جثم) يَدُلُّ على تجمُّعِ الشَّيءِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٥)،

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ إلى قَبيلةِ ثَمودَ أخاهم في النَّسَبِ صالحًا؛ لِيَدعُوَهم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه، وتَرْكِ عبادةِ ما سِواه، فقال لهم: اعبُدُوا اللهَ وَحْدَه؛ ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، قد أتَتْكم حُجَّةٌ واضحةٌ مِن رَبِّكم على صِدقِ ما جِئْتُ به، وهي هذه النَّاقةُ؛ جَعَلَها اللهُ بُرهانًا مُقنعًا لِتُطيعوني، فاتْرُكوها تأكُلْ في أرضِ اللهِ، ولا تتعَرَّضوا لها بسُوءٍ، فيأخُذَكم عذابٌ مُوجِعٌ، واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم؛ إذ جعَلَكم تخلُفُون عادًا بعد أنْ أهْلَكَهم، وأسكَنكم الحِجْرَ بين الحجازِ والشَّامِ، فتَبنُونَ قُصورًا في الأماكِنِ المُستَوِيةِ، وتَنحِتونَ الجبالَ؛ لتكونَ لكم فيها مساكِنُ أخرى، فاذكروا نِعَمَ اللهِ الكثيرةَ عليكم، ولا تَسْعَوا في الأرضِ بالفَسَادِ.

قال الرُّؤساءُ المُتكَبِّرونَ مِن قَومِه، للمستضعفين مِمَّن آمَنَ به: أتَعلمونَ مُستيقِنينَ أنَّ صالحًا رسولٌ مِنَ اللهِ، وأنَّه غيرُ كاذبٍ فيما يقولُ؟ قال المؤمنونَ مِنَ المُستضعفينَ: إنَّا بما أُرسِلَ به مُؤمِنونَ، فقال المُستكْبِرونَ: إنَّا بما آمَنْتُم به كافِرونَ، فقَتَلوا النَّاقةَ، واستكبَرُوا عن أمْرِ ربِّهم، وقالوا يا صالِحُ: ائْتِنا بِما تَعِدُنا مِنَ العَذابِ، إنْ كنتَ حقًّا مِنَ المُرسَلينَ، فأتاهم العَذابُ، وأخَذَتْهم الصَّيحةُ التي زلزَلَتِ الأرضَ مِن شِدَّتِها، فصاروا في بَلدَتِهم صَرعى، مُنكَبِّينَ على وُجوهِهم، لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم، خامدينَ لا حياةَ فيهم.

فانصرَفَ عنهم صالحٌ عليه السَّلامُ، وقال موَبِّخًا لهم ومُعاتِبًا: يا قومِ، لقد أبلَغْتُكم ما أُرسِلْتُ به مِن رَبِّي، ونَصَحْتُ لكم، ولكِنَّكُم لا تُحبُّونَ النَّاصحينَ.

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا إلى قبيلةِ ثَمودَ أخاهم في النَّسَبِ صالحًا عليه السَّلامُ؛ لِيدعُوَهم إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، ويَنهاهم عن عبادةِ غَيرِه، فقال لهم: يا قَومِ اعبُدُوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم معبودٌ يَستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، فلا تُشرِكوا به شيئًا[1].

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ﴾.

أي: قال صالِحٌ عليه السَّلامُ لِقَومِه: قد جاءَتْكم حجَّةٌ واضِحَةٌ مِن خالِقِكم ومالِكِكم، ومُدَبِّرِ شُؤُونِكم، على صِدْقِ ما جِئْتُكم به مِن إفرادِ اللهِ بالعبادةِ، وهذه الحُجَّةُ هي هذه النَّاقةُ الشَّريفةُ، التي جعَلَها اللهُ تعالى آيةً عظيمةً، مُقنِعةً لكم؛ لِتُطيعوني[2].

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير المراغي)) (١٢/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥١٢).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّ القُرآنَ قد دَلَّ على أنَّ فيها آيةً، فأمَّا ذِكرُ أنَّها كانت آيةً مِن أيِّ الوُجوهِ؛ فهو غيرُ مذكورٍ، والعِلمُ حاصِلٌ بأنَّها كانت مُعجزةً مِن وَجهٍ ما- لا محالةَ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٥).

أي: فاتْرُكوا النَّاقةَ تَرعَى في أرضِ اللهِ؛ فليس عليكم رِزْقُها، ولا تتعَرَّضوا لها بشَيءٍ مِنَ الأذى؛ فإنَّكم إنْ آذَيْتُموها بشَيءٍ، جاءكم عذابٌ مُؤلِمٌ[(١)].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ صالحٍ لِقَومِه: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرۡبٌ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الشعراء: ١٥٥-١٥٦].

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أَمَرَهم ونهاهم، ذَكَّرَهم بِنِعَمِ اللهِ تعالى ترغيبًا مُشيرًا إلى ترهيبٍ[(٢)]، فقال:

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾.

أي: واذكُرُوا نِعمةَ اللهِ عليكم؛ بأن جَعَلَكم تخلُفونَ عادًا- قومَ هودٍ- في الأرضِ مِن بَعدِ هلاكِهم، حيث أبدَلكم بهم[(٣)].

﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗا﴾.

أي: وأنزَلَكم وأسكَنكم في الأرضِ- وهي الحِجْرُ بين الحِجازِ والشَّامِ-

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٠).

منازلَ متنوِّعةً، فتَبنُونَ القُصُورَ العاليةَ في الأماكِنِ المُستَوِيةِ المُنخَفِضةِ وغَيرِ الوَعْرةِ، وتأخُذونَ مِن آجُرِّها وطِينِها، وتُؤَسِّسُونَها بالحِجارةِ، وتَنْقُبونَ صُخورَ الجبالِ، فتكونُ لكم فيها مساكِنُ أخرى(١).

كما حَكَى اللهُ تعالى قولَ صالحٍ لهم، فقال: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾.

أي: فاذْكُروا نِعَمَ اللهِ الكثيرةَ عليكم، واشكُرُوا اللهَ عليها؛ بطاعَتِه وعِبادَتِه وَحدَه(٢).

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

أي: ولا تُفسِدُوا في الأرضِ، ساعِينَ فيها بالشِّركِ والمعاصِي(٣).

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٣).
وقال الشِّنقيطيُّ: (وكانوا في الصَّيفِ يسكُنونَ القُصورَ المبنيَّةَ مِنَ الآجُرِّ والطِّينِ؛ لأنَّها أشَدُّ بُرودةً... ومعنى نَحتِهم الجبالَ: أنَّهم يأخُذونَ آلاتِ حديدٍ... فيحفرونَ في الجَبَلِ... ثم يقطعونَ لها أبوابَها وطاقاتِها مِن نَفسِ الجَبَلِ، ثم تكونُ تلك الأبوابُ والغُرَفُ والطَّاقاتُ كُلُّها مِنَ الجِبالِ... إذا اشتَدَّ البَردُ زَمَنَ الشِّتاءِ دَخَلوها، فكانت لشِدَّةِ استدفائِها لا يُحِسُّونَ بالبَردِ شَيئًا، وهذا مِن نِعَمِ اللهِ عليهم). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٨ - ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٤/ ٧٨)، ((حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٧).

مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾.

أي: قال الأشرافُ والرُّؤَساءُ الكَفَرةُ، المُتكبِّرونَ عَنِ الحَقِّ مِن قَومِ صالحٍ، للمُستَضعَفينَ المُحتقَرينَ المَساكينِ، مِنَ المؤمنينَ به: أتعْلَمونَ يَقينًا أنَّ صالحًا رَسولٌ مِنَ اللهِ إلينا، وأنَّه غَيرُ كاذبٍ على اللهِ[1]؟

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: قال الَّذينَ آمَنُوا بصالحٍ مِنَ المُستَضعفينَ: إنَّا بِما أَرسَلَ اللهُ به صالحًا مِنَ الحَقِّ، مُؤمنونَ، ونُوقِنُ أنَّه مِن عِندِ اللهِ، لا نَشُكُّ في ذلك[2].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: قال المُتكبِّرونَ مِن قَومِ صالحٍ للمُستضعفينَ مِن المُؤمنينَ: إنَّا بالذي آمَنْتُم به مِنَ الحَقِّ، وأنَّ صالحًا رَسولٌ مِنَ اللهِ إلينا، جاحِدونَ، لا نُصَدِّقُ بذلك[3].

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٨ - ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٩).

أي: فقَتَلَتْ ثمودُ النَّاقةَ التي جعَلَها اللهُ لهم آيةً، والتي تَوَعَّدَهم- إنْ مَسُّوها بِسُوءٍ- أن يُصِيبَهم عذابٌ أليمٌ[١].

﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: واستكْبَروا وتَمَرَّدوا عن امتثالِ أمرِ رَبِّهم، وغَلَوْا في باطِلِهم[٢].

﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ المُتكَبِّرون مِن قَومِ صالحٍ: يا صالِحُ، ها نحنُ قد قتَلْنا ناقةَ اللهِ التي أَتَتْنا، فعجِّلْ لنا بما تَعِدُنا مِن عَذابِ اللهِ، إن كُنتَ حقًّا مِن رُسُلِ الله؛ فإنَّ اللهَ ينصُرُ رُسُلَه على أعدائِهم[٣].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٠).

وقال السَّعدي: (اعلَمْ أنَّ كَثيرًا مِنَ المُفَسِّرين يذكرونَ في هذه القِصَّةِ أنَّ النَّاقة قد خَرَجَتْ مِن صَخرةٍ صَمَّاءَ مَلْساءَ اقترَحوها على صالحٍ، وأنَّها تمخَّضَت تَمخُّضَ الحامِلِ، فخَرَجَت النَّاقةُ وهم ينظُرونَ، وأنَّ لها فصيلًا حين عَقَروها، رغى ثلاثَ رَغَياتٍ، وانفلَقَ له الجَبَلُ ودخل فيه، وأنَّ صالحًا عليه السَّلامُ قال لهم: آيةُ نُزُولِ العَذابِ بكم أن تُصبِحُوا في اليَومِ الأوَّلِ مِنَ الأيَّامِ الثَّلاثةِ ووجوهُكم مُصْفَرَّةٌ، واليوم الثاني: مُحمَرَّة، والثالث: مُسْوَدَّة، فكان كما قال. وكلُّ هذا مِنَ الإسرائيليَّاتِ التي لا ينبغي نَقْلُها في تفسيرِ كتابِ اللهِ، وليس في القُرآنِ ما يدلُّ على شيءٍ منها بِوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣١).

أي: فأخَذَتْ أولئك الكُفَّارَ الصَّيحةُ، التي تزلزَلَتِ الأرضُ مِن شِدَّتِها[١].

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

أي: فصاروا في بَلدَتِهم لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم، ومُنكَبِّينَ على وُجُوهِهم، صَرْعَى، خامدينَ لا حياةَ فيهم، قد هَلَكوا مِن شِدَّةِ الصَّيحةِ[٢].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ صالحٍ لِقَومِه: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۞ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۞ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۞ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٤ - ٦٧].

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى﴾.

أي: فانصَرَفَ صالحٌ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- عَن قَومِه بعدَ حُلُولِ العَذابِ بهم، وقال مُخاطِبًا لهم؛ توبيخًا وعتابًا: لقد أدَّيْتُ إليكم- يا قَومِي- جميعَ ما أمَرَني اللهُ تعالى بأدائِه إليكم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٧ - ٢٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٣).

(٣) اختارَ أنَّ التَّوليَ عنهم هنا ومُخاطَبَتَهم بعد هلاكِهم: الواحديُّ، وابنُ كثير، والسَّعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي))

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

أي: وأَرَدْتُ لكم الخيرَ في الدُّنيا والآخِرَةِ، واجتَهَدْتُ في هِدايَتِكم، ولكِنَّكم تَكرَهونَ النَّاصحينَ، فلا تُطيعونَهم؛ فلذا لم تنتَفِعوا بنُصحي[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧-١٨].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- ينبغي تذكُّرُ نِعمةِ اللهِ، وشُكرُه عليها، والحَذَرُ مِن استبدالِ الكُفرِ بالشُّكرِ؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ

(ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٤).

واختار أنَّ التَّولِّيَ عنهم ومخاطَبَتَهم قبل هلاكِهم: ابنُ جريرٍ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٢).

قال القرطبيُّ: (يحتملُ أنَّه قال ذلك قبل مَوتِهم، ويحتملُ أنَّه قال بعد مَوتِهم، كَقَولِه عليه السَّلامُ لِقتلى بدر: «هل وَجَدْتُم ما وعَدَ رَبُّكم حَقًّا؟ فقيل: أتُكَلِّمُ هؤلاءِ الجِيَفَ؟ فقال: ما أنتم بأسمَعَ منهم، ولكِنَّهم لا يقدِرونَ على الجوابِ»). والأوَّلُ أظهَرُ؛ يدلُّ عليه ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، أي: لم تَقْبَلُوا نُصحي). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٢).

وقال الشِّنقيطيُّ: (وهذا التَّولي للعُلَماءِ فيه وجهانِ: أحدُهما: أنَّه تَولَّى عنهم لَمَّا تَحقَّقَ الهلاكَ وأنَّه نازِلٌ بهم، تولَّى راجعًا عنهم .. وبعضُ العُلماءِ يقولون: إنَّ نَبِيَّ اللهِ صالحًا لم يقُلْ لهم هذا إلَّا بعد أن نَزَلَ بهم عذابُ اللهِ، وصاروا موتى، وفارَقَت أرواحُهم أجسادَهم، جاء إلى جُثَثِهم ووبَّخَهم هذا التَّوبيخَ بعد أن ماتوا، وهذا الأخيرُ هو ظاهِرُ القُرآنِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ مُرَتَّبٌ بالفاء على قوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ والفاء تقتضي التَّعقيبَ، فكونُه قال لهم هذا بعد أنْ ماتوا وأصبَحُوا في دارِهم جاثمينَ هو ظاهِرُ القرآنِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٥).

مُفْسِدِينَ﴾ أي: فتتَصَرَّفوا في هذه النِّعَمِ تَصَرُّفَ عَثَيانٍ وكُفرٍ، بمخالفةِ ما يُرضِي اللهَ فيها[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ عَطَفَ نَهيَهم عَنِ الفَسادِ في الأرضِ، على الأمرِ بذِكرِ آلاءِ اللهِ؛ لِيُرشِدَ إلى أنَّ تذَكُّرَ الآلاءِ يَبعَثُ على الشُّكرِ والطَّاعةِ، وتَركِ الفَسادِ[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ هذه الآيةُ مِن أعظَمِ ما يحتَجُّ به مَن قال: إنَّ الفَقرَ خَيرٌ مِنَ الغِنى؛ وذلك لأنَّ الاستكبارَ إنَّما يتولَّدُ مِن كَثرةِ المالِ والجاهِ، والاستضعافَ إنَّما يحصُلُ مِن قِلَّتِهما، فبَيَّنَ تعالى أنَّ كَثرةَ المالِ والجاهِ؛ حَمَلَهم على التَّمَرُّدِ والإباءِ، والإنكارِ والكُفرِ، وقِلَّةَ المالِ والجاهِ؛ حَمَلَهم على الإيمانِ والتَّصديقِ والانقيادِ، وذلك يدلُّ على أنَّ الفَقرَ خَيرٌ مِنَ الغِنى[٣].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ في التَّذكيرِ بالقَرابةِ استعطافٌ لهم[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، قولُه: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ للإعلامِ بأنَّها لَيسَتْ مِن فِعلِ صالحٍ عليه السَّلامُ، ولا ممَّا ينالُها كَسْبُه، وكذلك سائِرُ ما يؤيِّدُ اللهُ تعالى به الرُّسُلَ مِن خَوارِقِ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٨٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٧).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٤).

العاداتِ؛ ففي ذلك تنبيهٌ للجاهِلينَ الذين يظنُّونَ أنَّ الخوارِقَ مِمَّا يدخُلُ في كسْبِ الصَّالحينَ الَّذين هم دُونَ الأنبياءِ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ أُضيفَتْ إلى اللهِ تعالى؛ تعظيمًا لها، وتفخيمًا لِشَأنِها؛ نحو: بيتُ اللهِ، ورُوحُ اللهِ، ولأنَّها جاءَتْ مِن عِندِ الله تعالى بلا وسائِطَ وأسبابٍ مَعهودةٍ، فقد خَلَقَها تعالى بغَيرِ واسطةِ ذَكَرٍ وأنثى، ولأنَّه لا مالِكَ لها غيرُه، ولأنَّها حُجَّةٌ على القَومِ، ولِمَا أُودِعَ فيها مِنَ الآياتِ(٢).

٤- في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ لمَّا أضاف الناقةَ إلى اللهِ أضافَ محلَّ رعيِها إلى اللهِ؛ إذ الأرضُ أرضُ اللهِ، والنَّاقَةُ ناقةُ اللهِ، فَذَرُوها تأكُلْ في أرضِ رَبِّها؛ فليسَتِ الأرضُ لكم، ولا ما فيها مِنَ النَّباتِ مِن إنْباتِكم(٣).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، قولُه: ﴿لَكُمْ﴾ خُصُّوا بذلك؛ لأنَّهم هم السَّائِلُوها، أو المنتفعونَ بها مِن بينِ سائِرِ النَّاسِ لو أطاعوا(٤).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، تنكيرُ (سُوءٍ) في سِياقِ النَّهيِ يُفيدُ أنَّ الوعيدَ مُرَتَّبٌ على أيِّ أنواعِ الإيذاءِ لها، سَواءٌ في نَفْسِها، أو أكْلِها، أو شُربِها(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٨).

٧- استُدِلَّ بقَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ على جَوازِ البِناءِ الرَّفيعِ، كالقُصورِ ونَحْوِها[١]؛ إذْ محالٌ أن يذكِّرَهم آلاءَ الله في شيءٍ بنيانُه معصيةٌ، وقد قال: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، ولو كان بناءُ القصورِ منكرًا لكان داخلًا في الفسادِ، لا في الآلاءِ[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ ...﴾ الآية، وَصَفَ أولئكَ الكُفَّارَ بكَوْنِهم مُستكبرينَ - وهو فِعلٌ استوجَبُوا به الذَّمَّ، وكونُ المُؤمنينَ مُستَضعفينَ معناه: أنَّ غَيرَهم يَستضعِفُهم ويَستحقِرُهم، وهذا ليس فعلًا صادرًا عنهم، بل عن غيرِهم، فهو لا يكونُ صِفَةَ ذَمٍّ في حَقِّهم، بل الذَّمُّ عائدٌ إلى الَّذين يستحقِرونَهم ويَستضعِفونَهم[٣].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ الذي آمَنْتُم به: هو بمعنى بما أُرسِلَ به، لكنَّه مِن حيثُ اللَّفظُ أعَمُّ؛ قَصَدوا بذلك الرَّدَّ لِمَا جعله المؤمنونَ مَعلومًا، وأخَذُوه مُسَلَّمًا[٤].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ لم يَقُولوا: (إنَّا بما أُرسِلَ به كافرونَ) لأنَّه يتضَمَّنُ إثباتَ أصلِ الرِّسالةِ لصالحٍ عليه السَّلامُ، ولو قالوه لكان شهادةً منهم على أنفُسِهم بأنَّهم جاحدونَ للحَقِّ على عِلمٍ؛ لِمَحْضِ الاستكبارِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ١٩٦).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٤٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٩).

١١- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فيه أنَّ الكِبْرَ يَحمِلُ صاحِبَه على عَدَمِ الانقيادِ للحَقِّ[(١)].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ الفاءُ للتَّعقيبِ لحكايةِ قَولِ الَّذين استكبَرُوا: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: قالوا ذلك فعَقَروا، والتَّعقيبُ في كلِّ شَيءٍ بِحَسَبِه، وذلك أنَّهم حين قالوا ذلك كانوا قد صَدَعوا بالتَّكذيبِ، وصَمَّموا عليه، وعَجَزوا عن المُحاجَّةِ والاستدلالِ، فعَزَموا على المصيرِ إلى النِّكايةِ، والإغاظةِ لصالحٍ عليه السَّلامُ، ومَن آمَنَ به، ورَسَموا لابتداءِ عَمَلِهم أن يعتَدُوا على النَّاقةِ[(٢)].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ أكثَرُ ما يُستعمَلُ (العَقْرُ) في الفَسادِ، وأمَّا (النَّحْرُ) فيُستعمَلُ غالبًا في الانتفاعِ بالمنحورِ؛ لحمًا وجِلدًا وغَيرَهما، فلعَلَّ التعبيرَ به دون (النَّحرِ) إشارةٌ أيضًا إلى أنَّهم لم يقصِدُوا بِنَحْرِها إلَّا إهلاكَها؛ عُتُوًّا على اللهِ، وعِنادًا وفِعلًا للسُّوءِ، ومخالَفةً لنهيِ صالحٍ عليه السَّلامُ[(٣)].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ نُسِبَ (العَقْرُ) إلى الجميعِ، وإن كان صادرًا عن بعضِهم؛ وذلك لَمَّا كان عَقْرُها عن تمالُؤٍ واتِّفاقٍ منهم جميعًا، وعن رضاهم كلِّهم[(٤)].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ أَمْر رَبِّهم: هو ما أمَرَهم به على لسانِ صالحٍ عليه السَّلامُ، مِن قَولِه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾، فعبَّرَ عن النَّهيِ بالأمرِ؛ لأنَّ النَّهيَ عن الشَّيءِ مَقصودٌ منه الأمرُ بفِعلِ ضِدِّه؛ ولذلك

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٥).

يقولُ عُلَماءُ الأصولِ: إنَّ النَّهيَ عن الشَّيءِ يَستلزِمُ الأمرَ بِضِدِّه، الذي يحصُلُ به تحقُّقُ الكَفِّ عن المنهيِّ عنه[١].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ فَرَضوا كَونَه مِنَ المُرسلينَ بِحَرف (إنْ) الدَّالِّ على الشَّكِّ في حُصولِ الشَّرطِ، أي: إنْ كُنتَ مِنَ الرُّسُلِ عَن اللهِ؛ فالمرادُ بالمُرسلينَ: مَن صَدَقَ عليهم هذا اللَّقَبُ[٢].

١٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي﴾، جملةُ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ معترضةٌ بين جملةِ ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ وبين جملةِ ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ -على القولِ بأنَّ خطابَه لهم في حياتِهم قبلَ حلولِ العذابِ- أُريد باعتراضِها التعجيلُ بالخبرِ عن نفاذِ الوعيدِ فيهم بعقبِ عتوِّهم، فالتعقيبُ عرفيٌّ، أي لم يكنْ بين العقرِ وبينَ الرجفةِ زمنٌ طويلٌ، كان بينهما ثلاثةُ أيَّام، كما ورد في آيةِ سورة هودٍ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾[٣].

١٨- قَولُ الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ لفظةُ (التَّولِّي) تقتضي اليأسَ مِن خَيرِهم، واليَقينَ في هَلاكِهم[٤]، وذلك على القولِ بأنَّ خطابَه لهم كان في حياتِهم قبلَ حلولِ العذابِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٨).

- قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ البيِّنةِ، وإضافةُ الناقةِ إلى الاسمِ الجليلِ؛ لتَعظيمِها ولمجيئِها مِن جِهتِه تعالى بلا أسبابٍ معهودةٍ، ووسائطَ مُعتادةٍ(١).

- وعَبَّر باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ مُشيرًا إليها بعدَ تَكوينِها؛ تحقيقًا لها، وتعظيمًا لشَأنِها وشَأنِه؛ في عَظيمِ خَلْقِها، وسُرعةِ تَكوينِها لأجْلِه(٢).

- وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمۡ﴾؛ للاهتمامِ بأنَّها كافيةٌ لهم على ما فيهم من عناد(٣).

- وتَنكيرُ (الآية)؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيم، أي: آية عَظيمة القَدْر، ظاهِرة الدَّلالة على ما جِئتُكم به مِن الحقِّ(٤).

٢- قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فيه النَّهي عن المسِّ الذي هو مُقدِّمةُ الإصابةِ بالسُّوءِ الجامعِ لأنواعِ الأذَى؛ مُبالغةً في الأمْرِ، وإزاحةً للعُذر(٥).

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تَعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وفي سُورةِ هُود قالَ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ [هود: ٦٤]، وفي سورة الشعراء ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الشعراء: ١٥٦]؛ فاختَلفَ الوصفُ المختومُ به في الآياتِ الثَّلاثِ؛ وهذا لأنَّه في آيةِ الأعرافِ بالَغَ في الوعظِ فبالَغ في الوعيدِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠).

فكان التحذيرُ للقومِ على طريق العمومِ، وأمَّا قوله تعالى في الآية الثانية: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود ٦٤]؛ فإنَّه اختصَّ هذا المكانَ بـ (قَرِيب)؛ لِمَا بَعدَه من قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، فقَدَّرَ المدَّةَ التي بَينَهم وبينَ هلاكِهم، وقُرْبَ ما تَوعَّدهم به مِن عذابِ الله لهم. وأمَّا الآية الثالثة واختصاصُها بقولِه: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٦٥]؛ فلأنَّ قَبْلَها ذِكرَ اليومينِ المقسومينِ بينَ الناقةِ وبينهم، كأنَّه قال لهم: إنْ مَنعتُموها يومَها بعَقرٍ ولم تَتركوه لها، أَخذَكم عذابُ يومٍ عظيم؛ فيومٌ تُؤلِمُونَها فيه فيكون به يومٌ يُؤلِمُكم اللهُ فيه بعَذابِ الاستئصالِ، وهو يومٌ عظيمٌ عليكم، وكل ذلك بمعنًى واحدٍ- وهو أنَّهم إنْ عَقَروها عُوقِبوا- والألفاظُ المختلفةُ دائرةٌ على هذا المعنى، واختلافُها لاختلافِ مواضعِها المقتضيةِ تغييرَ الألفاظِ فيها[(١)].

٣- قولُه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ﴾ فيه توجيهُ الأمرِ بالذِّكرِ إلى الوَقْتِ دون ما وقَعَ فيه مِن الحوادثِ مع أنَّها المقصودةُ بالذَّاتِ؛ للمبالغةِ في إيجابِ ذِكرِها؛ لأنَّ إيجابَ ذِكرِ الوقتِ إيجابٌ لذِكرِ ما فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ[(٢)].

- وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ استئنافٌ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦١٥-٦١٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٩).

مُبيِّنٌ لكيفيَّةِ التبوئةِ، أي: تَبْنُونَ في سُهولِها قُصورًا رفيعةً، أو تَبْنون من سُهولةِ الأرضِ بَما تَعلَمون منها مِن اللَّبِن والآجُرِّ[١].

- وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال الله تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾، وفي سورة الحِجر والشُّعراء قال: ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الحجر: ٨٢، الشعراء: ١٤٩]، بـ(من) قبل (الجبال)؛ وذلك لأنَّ في الأعرافِ تَقدَّمه قولُه: ﴿مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ فاكْتَفَى بذلك[٢].

- قوله: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فيه تكريرٌ للتَّذكيرِ؛ لزيادةِ التقريرِ، وتَعميمٌ إثرَ تَخصيصٍ[٣]؛ فتفريعُ الأمرِ بذِكرِ آلاءِ اللهِ على قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ تفريعُ الأعمِّ على الأخصِّ؛ لأنَّه أَمَرَهم بذِكرِ نِعمتَينِ، ثمَّ أمَرَهم بذِكرِ جَميعِ النِّعمِ التي لا يُحصونَها؛ فكان هذا بمنزلةِ التَّذييلِ[٤].

- وقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حالٌ مُؤَكِّدةٌ لِمَعنى ﴿تَعْثَوْاْ﴾، وهو وإنْ كانَ أعَمَّ مِن المؤَكَّد، فإنَّ التَّأكيدَ يحصُلُ ببعضِ مَعنى المؤَكِّد[٥].

٤- قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ وصْفُهم بالذين استكْبَروا هنا؛ لتَفْظيعِ كِبْرِهم وتَعاظُمِهم على عامَّة

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤٢).
(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قومِهم، واستذلالهم إيَّاهم، وللتَّنبيهِ على أنَّ الذين آمنوا بما جاءَهم به صالح عليه السلام هم ضعفاء قومه، واختِيارُ طريقِ الموصوليَّةِ في وصْفِ المستكبِرينَ، ووصْفِ الآخَرين بالَّذين استُضعفوا؛ لِمَا تُومِئ إليه الصِّلةُ من وجهِ صُدورِ هذا الكلامِ منهم، أي: إنَّ استكبارَهم هو صارفُهم عن طاعةِ نَبيِّهم، وأنَّ احتقارَهم المؤمنين هو الذي لم يُسِغْ عندهم سَبْقَهم إيَّاهم إلى الخيرِ والهُدَى[١].

- وبِناءُ الفِعلِ ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ للمفعولِ فيه دَليلٌ على أنَّهم في غايةِ الضَّعفِ بحيثُ يَستضعفُهم كلُّ أحدٍ[٢].

- قوله: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الاستفهامُ في قولِه: ﴿أَتَعۡلَمُونَ﴾ للتَّشكيكِ والإنكارِ، أي: ما نَظنُّكم آمنتُم بصالحٍ عليه السَّلامُ عن عِلمٍ بصِدقِه، ولكنَّكم اتَّبعتُموه عن عَمًى وضلالٍ غيرَ مُوقِنِين، وقدْ بَدَؤُوهم بالإنكارِ صدًّا لهم عن الإيمانِ، أو الاستفهامُ على جِهةِ الاستهزاءِ والاستخفاف[٣].

- قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾، جيء هنا في جَوابِ الذين استُضْعِفوا بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإيمانَ مُتمكِّنٌ منهم بمزيدِ الثَّباتِ؛ فلم يَترُكوا للذين استكبروا مَطْمَعًا في تَشكيكِهم، بَلْهَ صَرْفِهم عن الإيمانِ برَسولِهم، وفيها تأكيدُ الخبرِ بحرْف (إنَّ)؛ لإزالةِ ما تَوهَّموه من شكِّ الذين استكْبروا في صِحَّةِ إيمانِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٣).

- وكان مُقتضَى مُطابقةِ الجوابِ للسُّؤالِ أنْ يقولوا: (نَعَمْ)، أو: (نَعلَمُ أنَّه مُرسَلٌ من ربِّه)، أو (إنَّا برِسالته عالمون)، ولكنَّهم أجابوا بما يَستلزِمُ هذا المعنى ويَزيد عليه: فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾؛ فهُم آمنوا به، أي: علِموا بذلك علمًا يقينيًّا إذعانيًّا، له السُّلطان على عُقولِهم وقلوبِهم[(١)]، والعدولُ في حِكايةِ جوابِ الذين استُضعِفوا عن أنْ يكونَ بـ(نعم) إلى أنْ يكون بالموصولِ وصِلتِه ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّ الصِّلةَ تتضمَّنُ إدماجًا بتَصديقِهم بما جاء به صالحٌ مِن نحو التوحيدِ وإثباتِ البَعثِ، والدَّلالةَ على تمكُّنِهم من الإيمانِ بذلك كلِّه بما تُفيدُه الجملةُ الاسميَّةُ مِن الثباتِ والدَّوام[(٢)].

- وأيضًا عُدولُهم عن قولِهم: (هو مُرْسَلٌ) إلى قولهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ في غايةِ الحُسنِ؛ فبِناءُ فِعل ﴿أُرۡسِلَ﴾ للمَفعولِ يُشيرُ إلى تَعميمِ التَّصديقِ، وإلى أنَّ كونَه مِن عند اللهِ أمرٌ مقطوعٌ به، معلومٌ واضحٌ لا يَدْخُلُه رَيبٌ؛ فلا يحتاجُ إلى تَعيينِ رِسالتِه[(٣)].

٥- قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ۞ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فيه تَقديمُ المجرورَينِ في قولِه: ﴿بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ﴾ و﴿بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ على عامِلَيهما؛ للاهتمامِ بمدلولِ الموصولَينِ[(٤)].

- ومُراجعةُ الَّذينَ استكبَرُوا بِقَولِهم: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تدلُّ على تصَلُّبِهم في كُفرِهم، وثَباتِهم فيه؛ إذ صِيغَ كَلامُهم بالجُملةِ الاسميَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٤-٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٤).

المُؤَكَّدةِ[١].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ المرادُ بقَولِهِم: ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾ العذابُ الذي توعَّدَهم به مُجملًا، وجيءَ بالموصولِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم لا يَخشَونَ شَيئًا ممَّا يُريدُه مِنَ الوَعيدِ المُجمَلِ[٢]، وأنزَلُوا الوعيدَ منزلةَ الوَعدِ والبِشارةِ؛ استخفافًا منهم، ومبالغةً في التَّكذيبِ، وتَهَكُّمًا منهم بصالحٍ عليه السَّلامُ، وإشارةً منهم إلى عدمِ قُدْرَتِه على ذلك[٣].

٧- قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال الله تعالى هنا في سُورةِ الأعراف في قِصَّة صالحٍ: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، وكذا في قِصَّة شُعيبٍ في السُّورةِ فيما بعدُ، وفي سُورة هود قال في قِصَّة صالحٍ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ ...﴾ [هود: ٦٥]، وقال في قِصَّةِ شُعَيبٍ في سورةِ هود أيضًا: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]؛ فورَد في هذِه الآيةِ الأخيرةِ تَسميةُ عَذابِهم (بالصَّيحةِ)، وجمْع اسْم الدَّار، وفي الأخرى سَمَّى عَذابَهم (بالرَّجْفة) وأفْرد اسمَ الدَّار؛ فأَفْرَدَ الدَّارَ في مَوضعٍ، وجَمَعها في موضعٍ، واختصاصُ مَوضعٍ بالإفرادِ، ومَوضعٍ بالجمعِ لمناسبةٍ حسنةٍ؛ وبيانُ ذلك أنَّ اسمَ (الدَّار) لفْظٌ يقَعُ على المنزلِ الواحدِ والمسكنِ المفردِ، ويَقَعُ على مَساكِنِ القبيلةِ والطائفةِ الكبيرةِ، وإنِ اتَّسعَتْ وافترقَتْ، وتعدَّدتْ مَساكِنُها ودِيارُها، إذا ضَمَّها إقليمٌ واحدٌ، واجتمعتْ في حُكمٍ أو مَذهبٍ؛ فأفْرَد (الدَّار) في كلِّ مكانٍ ذُكِر في ابتدائِه ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗا﴾ [الأعراف: ٧٣، هود: ٦١]، ﴿

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٩).

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤، العنكبوت: ٣٧] ولم يَذكُر إخراجَ النبيِّ ومَن آمَن معه مِن بينهم، فجَعَلهم بَنِي أبٍ واحد، وجعَلَهم لذلك أهلَ دارٍ واحدةٍ، ورجاءَ أيضًا أن يَصيروا بالإيمانِ فِرقةً واحدةً. وجَمَع (الدَّار) في كلِّ موضِعٍ أخْبَر عن تفرُّقِه بينهم، وإخراجِ النبيِّ ومَن آمَن منهم معَه، أخْبَر عنهم الإخبارَ الدالَّ على تفرُّقِ شملِهم، وتشتُّتِ أمرهم، وذَهابِ المعنى الذي كان يَجمُعُهم لأبٍ واحدٍ ودارٍ واحدةٍ، وأن يَصيروا مع المؤمنِينَ فِرقةً واحدةً، فقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ... ﴾ الآيةَ إلى قوله: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود:٦٦-٦٧]؛ فالجَمْعُ حيثُ ذَكَر إخراجَه منهم مع المؤمنِينَ معه. وقيل: إنَّه حيثُ ذَكَر الرَّجفة -وهي الزَّلْزَلة- وحَّد الدَّار، وحيثُ ذَكَر الصَّيحة جَمَع؛ لأنَّ الزَّلْزَلَةَ تَختصُّ بجزءٍ من الأرضِ، فناسَبَها الإفرادُ، ولأنَّ الصَّيحةَ كانتْ مِن السَّماءِ، وهي زائدةٌ على الرَّجْفةِ؛ فبُلوغُها أكثرُ وأبلغُ مِن الزلزلةِ؛ فناسَبَها الجَمعُ؛ فوجهُ اختيارِ لَفْظِ الجمعِ في الآيةِ من سُورة هود مناسبةُ ما اقْتَرنَ به مِن لفظ الصَّيحة، وهي عبارةٌ هنا عن العَذابِ مُطلقًا دون تقييدٍ بصفةٍ، وهو مِن الألفاظِ الكُليَّةِ؛ فإنْ لم يَكُن عامًّا فانتشارُ مواقعِه مِن حيثُ الكُليَّةِ حاصلةٌ، وأمَّا الرَّجفة (الزلزلة) فلهذا اللَّفْظِ خُصوصٌ وهو جُزئيٌّ؛ فاتَّصَل كلُّ واحدٍ بما هو لائقٌ به. ووجهُ تَخصيصِ سُورة هود بذِكرِ الصَّيحة وجمْع الدِّيار: ما وقَعَ فيها حيثُ ذُكِر قَبْلَها مِن مُرْتَكَباتِ قومِ شُعيبٍ وسُوءِ ردِّهم على نبيِّهم عليه السلام ما لم يَرِدْ مِثلُه في آيةِ سُورة الأعرافِ، كقولِهم له: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود: ٩١]، ففي ردِّهم هذا استهزاءٌ وإساءةٌ وشنيعُ مُقابلةٍ لجليلِ وعْظِه عليه السَّلامُ لهم، ورأفتِه في دُعائِهم إيَّاهم بقوله: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ

عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [هود: ٨٤] وغيرِ ذلك مِن الآياتِ؛ مِمَّا يُوضِّحُ عظيمَ تلطُّفِ هذا النبي الكريمِ في دُعائِه إيَّاهم، وما أَشْنعَ ردَّهم عليه! فلهذا عَبَّر عن عذابِهم وأَخْذهم بأعمَّ مِمَّا ورَد في غير هذِه الآيةِ، ولَمَّا لم يَرِدْ في غيرِها مثلُ هذا في الدُّعاءِ والجوابِ، ناسَبَه اللَّفظُ الأخصُّ (الرَّجفة - الدَّار). أو يكونُ المرادُ أَخْذُ قوم شُعَيبٍ بضُروبٍ مِن العذابِ؛ لقَبيحِ مُرتكبِهم وسُوءِ ردِّهم على نبيِّهم؛ وممَّا يُبيِّن ذلك قولُه تعالى في سورة الشُّعراء: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، والظُّلَّةُ غيرُ الرَّجفةِ؛ لأنَّها زلزلة؛ فعلى هذا يكونونُ قد أُخِذوا بعذابِ الزَّلزلةِ وعذابِ الصَّيحةِ وعذابِ الظُّلَّةِ؛ فورَدَ ذلك على التَّدريجِ والتناسُبِ بحسَبِ ما ذُكِر قَبْلَ كلٍّ مِن هذا مِن مُرْتَكَباتِهم[1].

وقيل: وحَّدَ الدَّارَ في قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾؛ لأنَّه أرادَ بالدَّار البَلَدَ، وجمع في آية أخرى فقال: ﴿فِى دِيَٰرِهِمْ ﴾ [هود: ٩٤]؛ لأنَّه أرادَ بالدَّارِ ما لكُلِّ واحدٍ منهم مِن منزلِه الخاصِّ به[2].

٨- قوله: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ يَحتمِل أنْ يكونَ المرادُ بالتولِّي أنَّه فارَقَ دِيارَ قَومِه حِينَ عَلِم أنَّ العذابَ نازلٌ بهم، ويَحتمِل أنْ يكونَ يُرادُ به أنَّه أعْرَضَ عن النَّظرِ إلى القَريةِ بعدَ إصابتِها بالصَّاعقةِ، أو أعْرَضَ عن الحُزنِ عليهم، واشْتَغَل بالمؤمنِينَ، فعلَى الوجه الأوَّل يكونُ قوله: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ...﴾ مُستعملًا في التوبيخِ لهم والتَّسجيلِ عليهم، وعلى الوجه الثاني- وهو أنَّ التولِّي كان بعدَ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦١٧-٦٢٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٠-٢٠١)، ((فتح الرحمن)) لزكريا الأنصاري (١/ ١٩٧- ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٧).

هلاكِهم ومُشاهدَةِ ما جرَى عليهم- يكونُ الخِطابُ والنِّداءُ مُستعملًا في التَّفجُّع عَليهم والتحسُّر، أو في التَّبرِّي منهم؛ فيكونُ النِّداءُ تَحسُّرًا؛ فلا يَقتضي كونَ أصحابِ الاسمِ المنادَى ممَّن يَعقِلُ النِّداءَ حينئذٍ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿رِسَالَةَ﴾ بالإفرادِ، وقاله في قِصَّة شُعيب بالجَمْع ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾؛ قيل: لأنَّ ما أمَر به شُعَيبٌ قومَه من التَّوحيدِ، وإيفاءِ الكيلِ، والنَّهيِ عن الصِّدِّ، والأَمْرِ بإقامةِ الوزنِ بالقِسطِ، أكثرُ ممَّا أمرَ به صالحٌ قومَه، والعربُ تُراعي في أجوبتِها ما نيَّتُها عليه مِن سُؤالٍ أو غيرِه، إنْ إطالةً فإطالةٌ، أو إيجازًا فإيجازٌ؛ فأجوبتُهم مُراعًى فيها المعنى، ملحوظٌ فيما وردتْ جوابًا له، ولَمَّا ورد في دُعاء شُعَيبٍ عليه السَّلام تفصيلٌ في الأمرِ والنهي والتَّحذيرِ، وورَد أيضًا في الكلامِ تعريفٌ بقَبيحِ ردِّهم، وشنيع مُرتَكبِهم في مُجاوبتِهم على أعظمِ اجترامٍ؛ فحَصَل في هذا مِن خِطابِه إيَّاهم وما رَدُّوا به وجاوَبوه عليه السَّلامُ إطنابٌ في العبارةِ وإمعانٌ فيما تَحتَها مِن المعاني في كِلا الضَّربينِ؛ فناسَب ذلك الجَمْع في قولِه: ﴿أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾، وأمَّا قِصَّةُ صالح عليه السلامُ فلمْ يقَعْ فيها بعدَ أمْرِهم بالعبادةِ غيرُ تَعريفِهم بأمْرِ النَّاقةِ وأمْرِهم برَعْيِها، وتَذكيرهم بقومِ هُودٍ ولم تُفصَّل مكالمتُه إيَّاهم كتفصيلِ كلام شُعيب لقومه؛ فنَاسبَه الإفرادُ الواردُ في قولِه: ﴿أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي﴾(٢).

- قولُه: ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ جاءَ على صِيغةِ المُضارعِ؛ فإنْ كان في حالِ سَماعِهم قولَه؛ فهو للدَّلالةِ على التَّجديدِ والتَّكريرِ، أي: لم يَزَلْ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٢٣- ٦٢٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٢- ٢٠٤)، ((فتح الرحمن)) لزكريَّا الأنصاري (١/ ١٩٨).

دَأبَكم، فيكون ذلك آخِرَ علاجٍ لإقلاعِهم إنْ كانتْ فيهم بقيَّةٌ للإقلاعِ عمَّا هم فيه. وإنْ كان بَعدَ انقضاءِ سَماعِهم فالمضارِعُ لحِكايةِ الحالِ الماضيةِ، أي: شأنُكم الاستمرارُ على بُغضِ النَّاصِحينَ وعَداوتُهم[1].

- وجاءَ لفظُ الناصحين عامًّا، أي: أيُّ شَخصٍ نَصَح لكم لم تَقْبَلوا في أيِّ شيءٍ نَصَح لكم؛ وذلك مبالغةٌ في ذَمِّهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٨).

الآيات (٨٠-٨٤)

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: أي: إِتْيَانَ الذُّكُورِ دُونَ الإناثِ، والفاحِشَةُ: هي الفِعلَةُ المُتناهِيَةُ في القُبحِ والشَّناعةِ؛ فأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبْحٍ في شيءٍ وشَناعَةٍ[(١)].

﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾: أي: يَتنزَّهونَ عن إتيانِ الرِّجالِ في الأدبارِ، والتَّطَهُّرُ هو التنزُّه عَنِ الذَّمِّ وكُلِّ قَبيحٍ، وأصل (طهر): يدلُّ على نقاءٍ وزَوَالِ دَنَسٍ، ومن ذلك الطُّهْرُ، خلافُ الدَّنَسِ[(٢)].

﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: الباقينَ قَبلَ الهَلاكِ، أو الباقينَ في عَذابِ اللهِ، أو الهَالِكينَ، وأصلُ (غبر): يدلُّ على البَقاءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٨- ٣٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣).

المَعْنَى الإجماليُّ:

واذكُرْ- يا مُحَمَّدُ- نَبِيَّ اللهِ لوطًا عليه السَّلامُ، حين قال لِقَومِه: أَتَفْعلونَ الخَصلةَ التي بلَغَتْ في القُبحِ والشَّناعةِ أقصاها، ما سَبَقَكم بفِعْلِها أحَدٌ مِنَ البَشَرِ؟! إنَّكم تَأتونَ الرِّجالَ في أدبارِهم؛ رغبةً منكم في ذلك، وتَتْرُكون النِّساءَ اللَّاتي خَلَقَهُنَّ اللهُ لكم، بل أنتم قَومٌ مُسرِفونَ.

فما كان رَدَّ قَومِه إلَّا أنْ قال بعضُهم لبَعضٍ: أخْرِجُوا لُوطًا وأهْلَه مِن قَريَتِكم؛ لأنَّهم أُناسٌ يتنَزَّهونَ عمَّا تَفعلونَه.

فأنجاهُ اللهُ وأهْلَه إلَّا امرأَتَه الكافِرَةَ؛ كانت مِنَ الهالِكينَ البَاقِينَ في العَذابِ، وأمطَرَ اللهُ تعالى على الكُفَّارِ مِن قَومِ لُوطٍ مَطَرًا مِن حِجارةٍ، مِن طِينٍ شديدِ الحرارةِ، فانظُرْ- يا مُحمَّدُ- كيف هي نهايةُ المُجرمينَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾.

أي: واذكرْ- يا مُحمَّدُ- لوطًا عليه السَّلامُ، حين قال لِقَومِه: أَتَفْعلونَ الفِعلةَ الشَّنيعةَ المُتَناهِيَةَ في القُبحِ، وهي إتيانُ الذُّكورِ في الأدبارِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٩).
قال الواحدي في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: (يعني: إتيانَ الذُّكرانِ، في قَولِ جَميعِ المُفَسِّرينَ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٨٥).
وقال الشنقيطي: (اختلَفَ العُلَماءُ في وجهِ نَصبِ (لُوطًا) في قوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ على وجهينِ مُتَقاربينِ:

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: لم يأتِ هذه الفِعلَةَ الشَّنيعةَ أحدٌ مِنَ البَشَرِ قَبلَكُم[١].

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أبهَمَ اللهُ تعالى الفاحِشةَ في الآيةِ السَّابقةِ؛ ليحصُلَ التشوُّفُ إلى مَعرِفَتِها؛ عيَّنَها[٢] في قوله تعالى:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ قراءتانِ:

١- قراءة ﴿إِنَّكُمْ﴾ على الخَبَرِ، تفسيرًا للفاحِشَةِ المذكورةِ[٣].

٢- قراءة ﴿أَإِنَّكُمْ﴾ بالاستفهامِ؛ لتأكيدِ التَّوبيخِ لهم والتَّقريرِ[٤].

قال بعضُ العلماء: هو معطوفٌ على ما قَبْلَه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: وأَرْسَلْنا هودًا إلى عادٍ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي: وأرْسَلْنا صالحًا إلى ثمودَ، وأرسَلْنا لُوطًا أيضًا، فقال لِقَومِه كذا وكذا.

وبعضُ العُلَماءِ يقول: هو منصوبٌ بـ «اذكُرْ» محذوفًا، واذكر لوطًا حين قال لِقَومِه، وعليه يكون: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ بدلَ اشتمالٍ مِن قَوْلِه: (لُوطًا) كما قالَه غيرُ واحدٍ. ((العذب النمير)) (٣/ ٥٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٥٥).

(٣) قرأ بها نافعٌ وأبو جعفرٍ وحفص. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٦٨).

(٤) قرأ بها الباقون، غيرَ أنَّ ابنَ كثير يُسَهِّل الثانية بين الهمزة والياء، وأبا عمرٍو يفعل كذلك ويُدخِلُ بين الهمزتين ألفًا فيَمُدُّ، وهشامًا يُدخِل بين الهمزتين ألفًا مع تخفيفهما. يُنظر: ((النشر)) لابن

﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

أي: إنَّكم- أيُّها القومُ- تأتُونَ الرِّجالَ في أدبارِهم؛ رغبةً منكم في ذلك، وتَتْركونَ إتيانَ النِّساءِ اللَّاتي خَلَقَهنَّ اللهُ لكم[1].

كما قال تعالى حاكيًا قولَ لُوطٍ لِقَومِه: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ مُّسۡرِفُونَ﴾.

أي: بل أنتم أناسٌ تجاوَزْتُم الحلالَ إلى الحرامِ، وتجرَّأتُم على مَحارِمِ الله؛ فجَعَلْتُم شَهوَتَكم في غيرِ مَحَلِّها ومَوضِعِها الصَّحيحِ[2].

كما قال تعالى حاكيًا قولَ لُوطٍ لِقَومِه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦].

وقال سُبحانه حاكيًا أيضًا قولَ لُوطٍ لِقَومِه: ﴿أَنتُمۡ قَوۡمٌ تَجۡهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أُفحِمُوا عن المجادلةِ في شَأنِ فاحِشَتِهم، ابتَدَرُوا بالتآمُرِ على إخراجِ لُوطٍ عليه السَّلامُ وأهْلِه مِنَ القَريةِ، فقال تعالى[3]:

الجزري (١/ ٣٧١-٣٧٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٦٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٤).

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾.

أي: وما كان رَدَّ قَومِ لُوطٍ على لُوطٍ عليه السَّلامُ، حين نهاهم عن هذه الفاحِشَةِ الشَّنيعةِ؛ سِوَى أنْ قال بعضُهم لِبعضٍ: أخرِجُوا لوطًا وأهْلَه مِن قَريَتِكم[1].

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

أي: أَخرِجُوهم؛ لأنَّهم يتنزَّهونَ عَمَّا نفعَلُه مِن إتيانِ الذُّكورِ في أدْبارِهِم[2].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: فأنجَينا لُوطًا عليه السَّلامُ وأهْلَه المؤمنينَ به، إلَّا زوجَتَه الكافرةَ؛ كانت مِنَ الهالِكينَ البَاقينَ في العذابِ[3].

كما قال سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥).

قال الشنقيطي: (بيَّنَ القُرآنُ أنَّ لُوطًا لم يؤمِنْ معه إلَّا أهْلُ بَيتِه فقط، وهم بناتُه. وزوجَتُه بَيَّنَ القرآنُ أنَّها كافرةٌ، وأنَّها هَلَكَتْ مع الهالكينَ، في آياتٍ كثيرةٍ، والآيةُ التي دلَّتْ على أنَّه لم يؤمِنْ معه إلَّا أهلُ بَيتِه هي قولُه في الذَّاريَات: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٨ - ٣٠٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥ - ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٦).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٣٣-١٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾.

أي: وأمطَرْنا على الكُفَّارِ مِن قَومِ لُوطٍ مَطرًا مِن حجارةٍ، مِن طينٍ شديدِ الحرارةِ، فعَذَّبْناهم بها[1].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

وقال سبحانه: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢ - ٣٤].

وقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: فانظُرْ- يا مُحمَّدُ- إلى آخِرِ أمْرِ أولئكَ المُجرمينَ الَّذين كَفَروا باللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٧).

ورُسُلِه، كانت نهايتُهم أنْ أخْزَاهم اللهُ تعالى، وأهْلَكَهم بعذابٍ مُستأصِلٍ لهم[١].

كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٤-٧٧].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ في التَّقييدِ بالشَّهوةِ وَصْفُهم بالبهيميَّةِ الصِّرفةِ، وفيها أيضًا تنبيهٌ على أنَّ العاقِلَ ينبغي أن يكونَ الدَّاعِي له إلى المُباشَرةِ طَلَبَ الوَلَدِ وبقاءَ النَّوعِ، لا قضاءَ الوَطَرِ فحَسْبُ[٢]، فقَصدُ الشَّهوةِ لِذَاتِها يُفضِي إلى وَضْعِها في غَيرِ مَوضِعها، وإنَّما مَوضِعُها الزَّوجةُ الشَّرعيةُ المُتَّخذةُ للنَّسلِ، وفي الحياةِ الزَّوجيَّةِ الشَّرعيةِ إحصانُ كُلٍّ مِنَ الزَّوجينِ الآخَرَ بقَصْرِ لَذَّةِ الاستمتاعِ عليه، وجَعْلِه وسيلةً للحياةِ الوالِدِيَّة التي تَنمو بها الأمَّةُ، ويُحفَظُ النَّوعُ البَشَريُّ مِنَ الزَّوالِ[٣].

٢- إنَّ الإسرافَ والاسْتِرسالَ في الشَّهَواتِ قد يصِلُ بالمرءِ إلى أنْ لا يَشفِيَ شَهْوَتَه شيءٌ، لذلك وصَفَ اللهُ قَوْمَ لُوطٍ بالإسرافِ، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ فالقَومُ لَمَّا تَمَكَّنَ منهم الإسرافُ في الشَّهَواتِ؛ اشتَهَوْا شهوةً غَريبةً، لَمَّا سَئِمُوا الشَّهَواتِ المعتادةَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٢).

٣- مَن رضِي عملَ قومٍ حُشر معهم، كما حُشرت امرأةُ لوطٍ معهم، ولم تكنْ تعملُ فاحشةَ اللواطِ؛ فإنَّ ذلك لا يقعُ مِن المرأةِ، لكنَّها لما رضِيتْ فعلَهم عمَّها العذابُ معهم، قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾[1].

٤- الحَثُّ على الاعتبارِ بمآلِ مَن أجرَمَ مِن قَوْمِ نُوحٍ وهُودٍ، وصَالحٍ ولُوطٍ، وغَيرِهم مِنَ الأُمَمِ؛ لِمَا في ذلك مِن إيقاظٍ وازدجارٍ عَن سُلُوكِ مَسْلَكِهم؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[2].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى في قِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ السَّابقةِ: ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾، ومِن بَعْدِه قال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾، وعَدَلَ عن هذا الأُسلوبِ في قِصَّةِ لُوطٍ، فقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولم يَقُلْ: (إِلَى أهْلِ سَدُوم أخاهُم لوطًا) أو نحوَ ذلك؛ لأنَّ مِن أعظَمِ المقاصِدِ بسياقِ هذه القِصَص تسليةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، في مُخالفةِ قَوْمِه له، وعَدَمِ استِجابَتِهم وشِدَّةِ أذاهم، وإنذارَ قومِه أن يَحُلَّ بهم ما حَلَّ بهذه الأُمَمِ مِنَ العَذاب، وقَصَصُ مَن عدا قَوْمَ لوطٍ مُشابِهةٌ لِقِصَّةِ قُريشٍ؛ في الشِّركِ باللهِ، والأذى لعبادِه المُؤمنينَ، وأمَّا قِصَّةُ قَومِ لُوطٍ، فزائدةٌ عن ذلك بأمرٍ فظيعٍ عَظيمِ الشَّناعةِ، شَديدِ العارِ والفُحْشِ؛ فعدَلَ عن ذلك النَّسَقِ؛ تنبيهًا عليه، تَهويلًا للأمر وتبشيعًا له، ليكونَ في التَّسليةِ أشَدَّ، وفي استدعاءِ الحَمدِ والشُّكرِ أتَمَّ[3]، وقيل: ابتُدِئَتْ بذِكْرِ (لُوطًا) كما ابتُدِئَتْ قِصَّةُ نُوحٍ بذِكْرِ نُوحٍ؛ لأنَّه لم يكُنْ لِقَومِ لُوطٍ اسْمٌ يُعرَفونَ به، كما لم يكُنْ لِقَومِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٣).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٥٣).

نُوحٍ اسْمٌ يُعرَفونَ به[١]، وقيل: إن قَومَ لُوطٍ كانوا خَليطًا مِنَ الكَنْعانِيِّينَ، ومِمَّنْ نَزَلَ حولهم؛ ولذلك لم يُوصَفْ بأنَّه أخُوهم؛ إذ لم يكُنْ مِن قَبائِلِهم، وإنَّما نزَلَ فيهم، واستوطَنَ دِيارَهم، وكان لوطٌ عليه السَّلامُ قد نزلَ ببلادِ (سَدُوم) ولم يكُنْ بينهم وبينه قَرابةٌ[٢].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ ذَكَرَها اللهُ باسْمِ الفاحشَةِ؛ لِيُبَيِّنَ أنَّها زنا، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾[٣]، وقيل: فيه دليلٌ على أنَّه يجري مَجرَى الزِّنا: يُرجَمُ مَن أُحصِنَ، ويُجلَدُ مَن لم يُحصَنْ وفَعَلَه[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى حكايةً لِقَولِ لُوطٍ: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ لَمَّا كان قَوْلُه: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ربَّما أوهَمَ إقامةَ عُذْرٍ لهم في عَدَمِ وِجدانِ النِّساءِ، أو عَدَمِ كِفَايَتِهنَّ لهم، أضرَبَ عنه بقَولِه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ تسميةُ هذا الفِعلِ الشَّنيعِ فاحشةً وإسرافًا؛ لأنَّه يشتمِلُ على مفاسِدَ كثيرةٍ: منها استعمالُ الشهوةِ الحيوانيَّةِ المغروزةِ في غيرِ ما غُرِزَت عليه؛ لأنَّ اللهَ خلَقَ في الإنسانِ الشَّهوةَ الحيوانيَّةَ؛ لإرادةِ بَقاءِ النَّوعِ بقانونِ التَّناسُلِ، حتى يكونَ الدَّاعي إليه قهريًّا ينساقُ إليه الإنسانُ بِطَبعِه، فقضاءُ تلك الشَّهوةِ في غير الغَرَضِ الذي وَضَعَها اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٩).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٥٥).

لأجله؛ اعتداءٌ على الفطرةِ وعلى النَّوعِ، ولأنَّه يُغَيِّر خُصُوصيَّةَ الرُّجْلةِ بالنِّسبة إلى المفعولِ به؛ إذ يصيرُ في غيرِ المنزلةِ التي وَضَعه اللهُ فيها بخِلْقَتِه، ولأنَّ فيه امتهانًا مَحضًا للمفعولِ به؛ إذ يُجعَل آلةً لقضاءِ شَهوةِ غَيرِه، على خلافِ ما وَضَعَ اللهُ في نظامِ الذُّكورة والأنوثةِ؛ مِن قَضاءِ الشَّهوتينِ معًا، ولأنَّه مُفضٍ إلى قَطعِ النَّسلِ أو تقليلِه، ولأنَّ ذلك الفِعلَ يجلِبُ أضرارًا للفاعِلِ والمفعولِ؛ بسبَبِ استعمالِ مَحَلَّينِ في غيرِ ما خُلِقَا له[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ مع قَولِه تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ في سورةِ الشُّعراء، وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ في سورة النمل، مجموعُ الآياتِ يدلُّ على أنَّهم كانوا مُرزَئين بفسادِ العَقلِ والنَّفس، بجَمْعِهم بين الإسرافِ والعُدوان والجَهلِ؛ فلا هم يعقلونَ ضَرَرَ هذه الفاحشةِ في الجنايةِ على النَّسلِ، وعلى الصِّحَّة، وعلى الفَضيلةِ والآدابِ العامَّة، ولا غيرها مِن مُنكَراتِهم؛ فيَجْتَنِبوها أو يجتَنِبوا الإسرافَ فيها، ولا هم على شيءٍ مِنَ الحياءِ وحُسنِ الخُلُقِ يصرِفُهم عن ذلك، والعِلمُ بالضَّرَرِ وَحدَه لا يصرِفُ عَن السُّوءِ والفسادِ، إذا حُرِمَ صاحِبُه الفضائِلَ ومكارِمَ الأخلاق، بل الفضائِلُ الموهوبةُ بِسلامةِ الفطرةِ؛ عُرضةٌ للفسادِ بِسُوءِ القُدوةِ، إلَّا إذا رَسَخَت بالفضائِلِ المكسوبةِ بتربيةِ الدِّينِ[2].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ ابتَدَرُوا بالتَّآمُرِ على إخراجِ لُوطٍ عليه السَّلامُ وأهْلِه مِنَ القَريةِ؛ لأنَّ لُوطًا عليه السَّلامُ كان غَريبًا بينهم، وقد أرادوا الاستراحةَ مِن إنكارِه عليهم، شأنُ مَن يَشْعُرونَ بفَسادِ حالِهم، المَمْنُوعينَ بِشَهَواتِهم عن الإقلاعِ عَن سَيِّئاتِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٥٥).

المُصَمِّمينَ على مُداوَمةِ ذُنُوبِهم؛ فإنَّ صُدُورَهم تَضِيقُ عَن تحمُّلِ المَوعِظةِ، وأسماعَهم تَصَمُّ لِقَبُولِها، ولم يَزَلْ مِن شَأنِ المُنغَمِسينَ في الهَوى تَجَهُّمُ حُلُولِ مَن لا يُشارِكُهم بينهم[١].

٧- قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ القَومُ لَمَّا تَمَرَّدوا على الفُسوقِ، كانوا يَعُدُّونَ الكمالَ مُنافِرًا لطِباعِهم، فلا يُطيقونَ مُعاشَرةَ أهلِ الكَمالِ، ويَذُمُّونَ ما لهم مِنَ الكَمالاتِ فيُسَمُّونها ثِقلًا؛ ولذا وَصَفُوا تنزُّهَ لُوطٍ- عليه السَّلامُ- وآلِه تَطَهُّرًا، بصيغةِ التَّكَلُّفِ والتصَنُّعِ، ويجوز أن يكونَ حِكايةً لِمَا في كَلامِهم مِنَ التَّهَكُّم بلوطٍ -عليه السَّلامُ- وآلِه، وهذا مِن قَلْبِ الحقائِقِ؛ لأجْلِ مُشايَعةِ العَوائِدِ الذَّميمةِ، وأهلُ المُجُونِ والانخلاعِ يُسَمُّون المُتَعَفِّفَ عن سِيرَتِهم، بالتَّائِبِ أو نحوِ ذلك، فقَوْلُهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قصَدُوا به ذَمَّهم[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ استُدِلَّ به على تَحريمِ أدبارِ النِّساءِ، فعن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قال: أي: عن أدبارِ الرِّجال وأدبارِ النِّساء[٣].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، (فَأَنْجَيناه) مُقَدَّمٌ مِن تأخيرٍ، والتَّقديرُ: (فأمطَرْنا عليهم مَطرًا وأنجيناه وأهْلَه) فقدَّمَ الخبرَ بإنجاءِ لُوطٍ عليه السَّلامُ على الخَبَرِ بإمطارِهم مطَرَ العَذابِ؛ لقَصدِ إظهارِ الاهتمامِ بأمرِ إنجاءِ لُوطٍ عليه السَّلامُ، ولتعجيلِ المَسَرَّةِ للسَّامعينَ مِنَ المُؤمنينَ، فتطمَئِنَّ قُلوبُهم لحُسنِ عَواقِبِ أسلافِهم مِن مُؤمِني الأُمَمِ الماضِيةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٣٥).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٠).

فيعلَمُوا أنَّ تلك سُنَّةُ اللهِ في عبادِه[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرًا ﴾، ضمَّن (أمطَرْنا) معنى أرْسَلْنا، فلذلك عَدَّاه بـ (على)[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ العقابُ إمَّا أن يكونَ أثرًا طَبيعيًّا للذَّنبِ؛ كالتَّرَف والسَّرَف في الفِسقِ؛ يُفسِدُ أخلاقَ الأمَّةِ ويَذهَبُ بِبَأسِها، أو يجعَلُه بينها شديدًا بتفرُّقِ كَلِمَتِها واختلافِ أحزابِها وتعادِيهم، فيترَتَّبُ على ذلك تسَلُّطُ أمَّةٍ أخرى عليها؛ تستَذِلُّها بسَلْبِ استقلالِها، وتسخيرِها في منافِعِها، حتى تكونَ حَرَضًا، أو تكونَ مِنَ الهالكينَ بِذَهابِ مُقَوِّماتِها ومُشَخصاتِها، أو اندِغامِها في الأمَّة الغالِبَةِ، أو انقراضِها، وإمَّا أن يكونَ بما يحدُثُ بسُنَنِ الله تعالى في الأرضِ مِنَ الجوائِحِ الطبيعيَّةِ؛ كالزَّلازِلِ والخَسْفِ، وإمطارِ النَّارِ، والموادِّ المُصطَهرةِ التي تقذِفُها البراكينُ مِنَ الأرضِ، والأوبِئَةِ- أو الانقلابات الاجتماعيَّة، كالحُرُوبِ والثَّوْرات والفِتَن[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

- قوله: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ ﴾ الاستفهامُ للإنكارِ والتَّعظيمِ، والتوبيخِ والتَّشنيعِ، والتَّوقيفِ على هذا الفِعل القبيحِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٠).

- وقولُه: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ أي: أتعملونَ الفاحشةَ؟ وقد كُنِّي بالإتيانِ على العَملِ المَخْصوصِ، وهي كنايةٌ مَشهورةٌ[(١)].

- والألِف واللَّام في ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ للتعريفِ؛ وذلك لكونِ هذا الفِعل معهودًا قُبحُه ومَركوزًا في العُقولِ فُحشُه؛ فأتى مُعرَّفًا بالألفِ واللَّامِ. أو تكونُ (أل) فيه للجِنسِ على سَبيلِ المبالغةِ؛ كأنَّه لشِدَّة قُبحِه جُعِلَ جَميعَ الفَواحِشِ، وذلك بخِلافِ الزِّنا؛ فإنَّه قال فيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، فأَتى به مُنكَّرًا، أي: فاحشةً مِن الفواحِش، وبهذا يتبيَّنَ تفاوُتُ ما بَينهما، وأنَّه سُبحانَه نَكَّرَ الفاحشةَ في الزِّنا، أي: هو فاحِشَةٌ مِنَ الفَواحِشِ، وعَرَّفَها في اللُّواطِ، وذلك يُفيدُ أنَّه جامِعٌ لمعاني اسمِ الفاحشةِ، كما تقولُ: زَيدٌ الرَّجلُ، ونِعمَ الرَّجُلُ زَيدٌ، أي: أتأتونَ الخَصلةَ التي استقَرَّ فُحْشُها عند كُلِّ أحدٍ؛ فهي لِظُهورِ فُحشِها وكمالِه غَنِيَّةٌ عن ذِكْرِها، بحيثُ لا ينصَرِفُ الاسمُ إلى غَيرِها[(٢)].

- قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الجملةُ مستأنفةٌ، مسوقةٌ لتأكيدِ النَّكيرِ، وتَشديدِ التوبيخِ والتقريعِ؛ فإنَّ مباشرةَ القبيحِ واختراعَه أقبحُ، ولقدْ أنكر الله تعالى عليهم أولًا إتيانَ الفاحشةِ بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، ثُمَّ وبَّخهم بأنَّهم أوَّلُ مَن عمِلها فقال: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ والمرادُ أنَّهم سابِقون لكلِّ مَنْ عداهم مِن العالَمين أي: أنتُم أَوَّلُ مَن عمِلها؛ إذ إنَّ الجملةَ المنفيَّةَ تدلُّ على أنَّهم هم أوَّلُ مَن فَعَل هذه الفَعلةَ القَبيحةَ وأنَّهم مُبتكِروها. أو تكونُ الجملةُ مسوقةً جوابًا عن سُؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّه قيل مِن جِهتهم: لم لا نأتيها؟ فقيل بَيانًا للعِلَّةِ، وإظهارًا للزاجر:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٩)، ((الداء والدواء)) لابن القيم (ص: ١٧٠).

ما سَبَقكم بها أحدٌ لعِظَمِ قُبْحِها، وسُوءِ سَبيلها؛ فكيف تفعلونها[١]؟!

- قولُه: ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه مبالغةٌ؛ فـ(مِنْ) صلةٌ لَتوكيدِ نَفْي الجِنسِ، وإفادةِ معنى الاستغراقِ لكلِّ البَشرِ، على الظاهرِ المتبادَر، وفيه مبالغةٌ أيضًا في الإتيانِ بعُمومِ العالَمِينَ جمْعًا[٢].

- وفيه مناسَبةٌ حَسنةٌ حيث قال هنا في سورة الأعراف: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقال في سُورةِ النمل: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل:٥٤]؛ وذلك لأنَّ ذِكْر قِصَّةِ لُوطٍ وقومِه في سُورة الأعراف اشتملَتْ على تَبكيتِهم على الفاحشةِ، بالإخبارِ عن سَبْقِهم إلى هذه الفَعلةِ، وأمَّا في سُورة النَّمل فالمذكورُ فيها صِفةٌ تَرجِع إلى الفَعلةِ نفْسِها ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ فإنَّهم لم يكونوا يَتكاتمون بها في مجالِسهم، ولَمَّا كان وصفُهم بأنَّهم لم يُسبَقوا إليها حقُّه أن يجيءَ بعدَ توفيةِ الفاحشةِ حقَّ وصْفِها في نفْسِها، أخَّرَ ذِكرَه إلى حِكايةِ القِصَّةِ في سورة الأعراف؛ إذ هي بعدَ سُورةِ النَّملِ في التَّرتيبِ نُزولًا[٣].

- وأيضًا فإنَّ قولَه هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، وكذلك في سُورةِ النَّملِ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، الهمزةُ للاستفهامِ المقصودِ به الإنكارُ، والتعظيمُ في تَوبيخِهم على الفاحِشةِ الشَّنعاء، وجاءَ في سُورة العنكبوت: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٨] بالإخبارِ؛ وذلك لمناسَبةٍ حَسنةٍ؛ أنَّه لَمَّا تَقدَّم في الأعرافِ ذِكرُ الأممِ المكذِّبين، ومُرتَكَباتِهم السيِّئةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٤-٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٥٣-٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٣٧-٦٣٨).

مِن مُعاندِتهم للرُّسُلِ وتكذيبهم؛ ممَّا اسْتَوْجَبوا به العذابَ، وأَخْذَ كلِّ طائفةٍ بذَنبِها، ناسَب ذِكرَ الأُممِ المكذِّبين قَبْلَهم تقريعُ هؤلاء بكونِهم أوَّلَ مَن فَعَل تلك الشَّناعة، وأنَّهم لم يَسْبِقْهم بها أحدٌ من الأُمم السابقةِ لهم، فقِيل لهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ بالاستفهامِ، أمَّا في سورة العنكبوت فإنَّه لَمَّا تقدَّم في سورتَي الأعرافِ والنَّملِ تقريرُهم تقريعًا وتوبيخًا، وعُرِفوا بذلك مَرَّةً بعد مَرَّةٍ، وردتْ قصَّتُهم في العنكبوت مُؤكَّدةً بـ (إنَّ) واللام؛ لثُبوتها، فوردتْ موردَ ما يَجيءُ بعدَ القَسَم؛ إذ قد تَقدَّم تقريرُهم التَّوبيخي مرَّتينِ فجاءَ الإخبارُ بعدُ بِما به يُخبَر عن المتقرِّرِ الثابت، ولم يَكُن ليناسبَ العكس، وهذا على مُقتضَى الترتيبِ في السُّورِ والآي؛ فجاءَ كلٌّ على ما يجِبُ[(١)].

٢- قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لتِلك الفاحشةِ، وفي زيادةِ (إنَّ) واللام في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ مَزيدُ توبيخٍ وتقريعٍ؛ كأنَّ ذلك أمرٌ لا يُتحقَّقُ صُدورُه عن أحدٍ، فيُؤكَّد تأكيدًا قويًّا، وفي إيرادِ لفْظ ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ دُون الغِلمان والمردان ونحوهما مبالغةٌ في التوبيخِ كذلِك[(٢)].

- وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ فيه زيادةٌ في التَّفظيعِ، وقطعٌ للعُذرِ في فِعلِ هذه الفاحشةِ[(٣)].

- وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضرابٌ عن الإنكارِ إلى الإخبارِ عن حالِهم التي أدَّتْ بهم إلى ارتكابِ أمثالها، وهي اعتيادُ الإسراف في كلِّ شيء، أو إضرابٌ عن الإنكارِ عليها إلى الذمِّ على جميعِ مَعايبِهم، أو عن

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٦-٢٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣١).

مَحذوفٍ، والتقديرُ: لا عُذْرَ لكم فيه، بل أنتم قومٌ عادتُكم الإسرافُ[١].

- و﴿مُّسۡرِفُونَ﴾ اسمُ فاعلٍ، وهو يدُلُّ على الثُّبوتِ؛ فلا يَزالُ صاحبُ هذا الفِعلِ يُعاوِدُه حتَّى يَكونَ مَلَكةً راسخةً له؛ فتكرارُ العملِ يُكوِّن المَلكةَ، والمَلَكةُ تَدْعو إلى تَكرارِ العَملِ والإصرارِ عليه، وهذا وجهُ إضرابِ الانتقالِ مِن إسنادِ إتيانِ الفاحشةِ إليهم بفِعلِ المضارعِ المفيدِ للتَّكرارِ والاستمرارِ إلى إسنادِ صِفةِ الإسرافِ إليهم بقوله: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾، أي: لستُم تأتون هذه الفاحشةَ المرَّةَ بعدَ المرَّةِ بعدَ نَدمٍ وتوبةٍ عقِبَ كلِّ مرَّةٍ، بل أنتُم مُسرِفون فيها وفي سائرِ أعمالِكم، لا تَقِفون عندَ حدِّ الاعتدالِ في عَمَلٍ مِن الأعمالِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ عبَّر هنا بلفظ السَّرفِ والاسمِ، وفي سورة النَّمل قال: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، بلفظِ الجهلِ والفِعل؛ ووجه ذلك أنَّه يجوزُ أنْ يكونَ لوطٌ عليه السَّلامُ لَمَّا كانتْ له مع قومِه مَقاماتٌ قال في بعضِها هذا اللفظ، وفي بعضِها اللفظَ الآخَر؛ تكثيرًا للفائدةِ في التَّعبيرِ عن المرادِ بلفظيْن مُتساوييْن معنًى؛ إذْ كلُّ سَرَفٍ جهلٌ، وبالعكسِ؛ والمسرِفُ مُجهَّل بإسرافِه، والجاهِل مُسرِفٌ بأفعالِه؛ إذ الإسرافُ مجاوزةُ الحدِّ الواجبِ إلى الفسادِ. وأمَّا اختصاصُ ﴿مُّسۡرِفِينَ﴾ بسُورةِ الأعراف، فلأنَّ الآياتِ التي قَبْلها فواصلُها أسماءٌ جُمِعت هذا الجمع وهي: (مفسدين- مؤمنون- كافرون- العالمين- المرسلين- النَّاصحين... إلى آخَرِها)، وهكذا إلى أنِ انْتَهى إلى هذه الآيةِ، فكانَ الاسمُ أحقَّ بالوضعِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٥٤).

في هذا المكانِ؛ لتَتساوَى الفواصلُ. وأمَّا في سورة النَّملِ فتقدَّم الآيةَ التي فاصلتُها: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥] أفعالٌ، وهي: (يعلمون- يتقون- يبصرون)؛ فلمَّا تناسقتْ هذه الأفعالُ في هذه الفواصِلِ كان بناءُ قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥] على ما قَبْلَها بلفظِ الفِعلِ أَوْلى بها، فجاءَ ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ في هذا الموضِع، و﴿مُّسۡرِفُونَ﴾ في الأوَّلِ لهذا من القَصْدِ[(١)].

وقيل: بلْ قَصَد بما ذَكَر في سُورةِ الأعراف الإشارةَ إلى التعريفِ بانهِماكهم في الجرائمِ، وقَبيحِ المُرتَكباتِ؛ فنَصَّ على أَفحشِها، وحصَل الإيماءُ إلى ما وراءَ ذلك بما ذُكِر مِن إسرافِهم: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾، ولَمَّا قِيل في سورة النَّمل: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]، كان أهمُّ شيءٍ أنْ تُنفَى عنهم فائدةُ الأبصارِ؛ إذ لم تُغْنِ عنهم شيئًا، فأَعْقَب بقولِه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، أي: إنَّ مُرْتَكَبَكم مع عِلمكم بشنيعِ ما فيه مِن أقبحِ ما يَرتكِبُه الجُهَّالُ، ولم يَذكُرْ هنا إسرافَهم؛ إذ قدْ حصَل فيما ذُكِر في الأعراف[(٢)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ أُخرَى حيثُ عَدَل في سُورةِ العنكبوتِ عن قوله: ﴿شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الذي هنا في الأعرافِ إلى قولِه: ﴿وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]؛ لقصدِ تَفصيلِ ما أُشير إليه في الأعرافِ مِن شَنيعِ ما ارْتَكبوه مِن إسرافِهم، فقيل: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]؛ فورَد أوَّلًا -بحسَبِ التَّرتيبِ المتقرِّر عليه السورُ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٣٢-٦٣٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢٤-١٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٨).

والآيات- في الأعرافِ ذِكرُ أفحشِ مُرتَكَباتِهم، ثم أَجْملَ القولَ في سائرِ جرائمِهم، ثم أتْبع في السُّورةِ الثانيةِ (سورة النمل) بشَنيعِ حالهم في تِلك الفَعلةِ المنصوصِ عليها مِن حيثُ بيانُ فُحشِها للأبصارِ والبصائرِ، ثمَّ أَتْبَع ذلك في السورة الثالثةِ (سورة العنكبوت) بتَفصيلِ بعضِ قبائِحِ أفعالِهم والتنصيصِ عليها، وجاءَ كلُّه على ما يَجِبُ، ولا يُمكن العكسُ فيما ورَدَ[1].

٣- قوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

- فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قاله هنا في الأعراف بالواوِ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾، وقال فيما أَشْبَهه مِن سُورتَي النمل والعنكبوت: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ [النمل: ٥٦، العنكبوت:٢٩] بالفاءِ؛ وذلِك لأنَّ ما هُنا في الأعراف تَقدَّمه اسمٌ هو: ﴿مُّسْرِفُونَ﴾، والاسمُ لا يُناسبه التعقيبُ، وما في النَّمل تَقدَّمه فِعلٌ هو: ﴿تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، وفي العنكبوت تَقدَّمه فِعلٌ أيضًا: ﴿تَقْطَعُونَ﴾ و﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، والفعلُ يُناسِبُه التعقيبُ، فناسبَ ذكرُ الفاءِ الدَّالة عليه[2].

- وأيضًا قال الله تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، وفي سورة النَّمل قال: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ [النمل: ٥٦]، وفي سُورة العنكبوت قال: ﴿قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]؛ وذلك لمناسَبةٍ حَسنةٍ؛ وهي أنَّه لَمَّا زِيد في تَعنيفِهم في النَّمل بقولِه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]، وتعريفِهم بإتيانِهم الفاحشةَ على عِلمٍ بها أو مع مُشاهَدةِ بعضِهم بعضًا، وعدمِ استخفائِهم بها، وذلك

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٣٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٠٠).

أقبحُ في المُرتَكَب؛ زِيدَ في الإخراجِ التنصيصُ على الآلِ؛ لأنَّ قوله: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ أنصُّ في إخراجِ جميعِ مَن للوطٍ عليه السلام مِن ذَويه وأهلِه مِن قوله: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾، فكانتْ زيادةُ التنصيصِ الأعمِّ بإزاءِ الأزيدِ في التقريعِ. ولَمَّا عدَّد مِن قبائحِ مُرتَكباتهم في سورةِ العنكبوت ما عدَّد بقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فكان تَعدادُ مُرتكباتِهم أشدَّ توبيخًا في تقريعِهم وأَنْكأَ، كان مَظِنَّةَ تَهيجٍ، واشتعالٍ لسَيِّئ أخلاقِهم، وقبيحِ جوابِهم، فجاوبوا جوابَ مَن استحكَم حنْقُه، وطُبِع على قلبِه فقالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩]؛ تحكيمًا وتحقيقًا لتكذيبِهم، وشاهدًا بتَصميمِهم على المعاندةِ والكُفرِ[(١)].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ جِيء بالخبرِ جُملةً فِعليَّةً مُضارعيَّةً ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ لدَلالتِها على أنَّ التَّطهُّرَ مُتكرِّرٌ منهم ومُتجدِّد، وذلك أَدْعَى لمُنافرتِهم طِباعَهم والغضبِ عليهم، وتَجهُّم إنكارِ لوطٍ عليه السَّلام عليهم؛ فهم قدْ عَلِموا هذا التطهُّرَ مِن خُلُقِ لُوطٍ عليه السلام وأهلِه؛ لأنَّهم عاشَرُوهم، ورَأَوْا سِيرتَهم[(٢)].

٤- **قوله:** ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ قال: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ ولم يقُل: (مِن الغابرات) مِن باب تَغليبِ الذُّكورِ إذا اجْتَمَعوا مع الإناثِ، ولبيانِ استِحقاقِها لِمَا يَستحقُّه المباشِرون للفاحشةِ. وجملةُ ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ استئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ نَشأَ عن استثنائِها مِن حُكمِ الإنجاءِ، كأنَّه قيل:

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٥).

فماذا كان حالُها؟ فقيل: كانتْ مِن الغابرينَ[(١)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، وقال في سورة النمل: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧]، وفي سُورة الحِجر قال: ﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠]، ووجْهُ ذلك أنَّ اختصاصَ ﴿كَانَتۡ﴾ بآيةِ الأعراف؛ مُناسِبٌ إيجازًا لقولِه: ﴿أَخۡرِجُوهُم﴾، وقولَه في النَّمل: ﴿قَدَّرۡنَٰهَا﴾ مُناسِبٌ لقولِه: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ﴾، وقولَه في الحِجر: ﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا﴾ يَجري مع ما وُكِد قبلُ بـ(إنَّ) ويُناسِبه، كقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٥٨-٥٩]، فقيل مُناسبًا لذلك: ﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا﴾[(٢)] [الحجر: ٦٠].

وقِيل: إنَّ القِصَّةَ التي في سُورة النَّمل نازلةٌ قبلَ القِصَّة التي في سُورةِ الأعراف، بدليلِ الإضمارِ والإظهارِ؛ فلمَّا ذَكَر في الآيةِ المنزلةِ أوَّلًا قولَه: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧]، أحال في الثانية على الأُولى في البيانِ، فقال: ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، أي: في تَقديرِ الله الذي قَدَّرَه لها، وأَخْبَر فيما قبلُ عن حُكمِه عليها[(٣)].

٥- قوله: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٦).

قال ابنُ جرير: (وقيل: ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ ولم يَقُلْ: (الغَابِرَات)؛ لأنَّه يريدُ أنَّها مِمَّنْ بَقِيَ مع الرِّجالِ، فلما ضَمَّ ذِكرَها إلى ذِكْرِ الرِّجالِ، قيل: ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٨). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٤)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٣٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٥).

- تَنكيرُ ﴿مَّطَرًا﴾ للتَّعظيمِ والتعجُّب، أي: مَطرًا عجيبًا مِن شأنِه أن يُهلِكَ القُرَى[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾، وفي سُورةِ النَّملِ قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨]، فاختَلفَ التعقيبُ في الآيتَينِ؛ لأنَّه لَمَّا تَقدَّم في الأعرافِ قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ حصَل منه أنَّ ارتكابَهم ما لم يَسْبِقْ إليه غَيرُهم قد جَمَعَ إلى قَبيحِ الفُحشِ الاجترامَ، مِن حيثُ لم يَفعلْ تلك الفَعلةَ الشَّنعاءَ مَن تَقدَّمهم؛ فلمَّا أُجْمِع إلى الفُحشِ الاجترام أُعْقِب بقولِه: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾. ولَمَّا تقدَّم في سورة النَّمل قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤] حصَل منه تَعنيفٌ وإنذارٌ لم يقَعْ مِثلُه في الأعرافِ؛ إذ ليس موقعُ قولِه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] في الإنذارِ والتعنيفِ كموقعِ تعريفِهم بعِلمهم بها، وشناعةِ مُعاينةِ بعضِهم بعضًا مِن ارتكابِها؛ فناسَب إنذارَهم بهذا ما أَعْقَب به مِن قولِه: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨]، ولو أُعْقِبتْ آيةُ الأعراف بهذا أو آيةُ النمل بما أُعقبتْ به آيةُ الأعراف لم يَكُن مُتناسِبًا[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٠).

الآيات (٨٥-٨٧)

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟﴾: أي: لا تَنْقُصُوا، ولَا تَظلِموا، والبَخْسُ: نَقصُ الشَّيءِ على سَبيلِ الظُّلمِ، وأصلُ (بخس): يدلُّ على النَّقْصِ[(١)].

﴿تُوعِدُونَ﴾: أي: تَتوعَّدون وتُخوِّفونَ، والوَعدُ يكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ، والوعيدُ في الشَّرِّ فقط، وأصلُ (وعد): يدلُّ على تَرجِيَةٍ بقولٍ[(٢)].

﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: أي: آخرُ أمرِهم، والعاقِبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطلِقَتْ، وقد تُستعمَلُ في العُقوبةِ أو ما يؤدِّي إليه السَّبَبُ المتقدِّمُ إذا أُضيفَتْ، وأصل (عقب): تأخيرُ شيءٍ، وإتيانُه بعدَ غيرِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)،

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ إلى قبيلةِ مَدْينَ أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا؛ لِيدعُوَهم إلى عبادَةِ اللهِ وَحدَه، وتَرْكِ عبادةِ ما سِواه، فقال لهم: اعبُدُوا اللهَ وَحدَه؛ ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، قد أَتَتْكُم حُجَّةٌ واضحةٌ مِن رَبِّكم، على صِدقِ ما جِئْتُ به، فأوفُوا الكَيلَ والميزانَ، ولا تنقُصُوا النَّاسَ حُقوقَهم، ولا تُفسِدُوا في الأرضِ بعد إصلاحِها، هذا الذي أُمِرْتُم به مِن إخلاصِ العِبادةِ لله، وإيفاءِ حُقوقِ النَّاسِ، وتَرْكِ الفَسادِ في الأرضِ؛ خَيرٌ لكم إن كنتم مُؤمنينَ، ولا تَجلِسُوا بكلِّ طَريقٍ تَتوَعَّدونَ النَّاسَ بالقَتلِ أو العَذابِ، وتَمنعونَ عن طاعةِ اللهِ مَن آمَنَ به، وتَصْرِفونَه عن اتِّباعِ نَبيِّه، وتطلبونَ لِسَبيلِ اللهِ أنْ تكونَ مائلةً، واذكروا حين كُنتُم قليلًا في العَدَدِ فكَثَّرَكم اللهُ تعالى، وانظُرُوا كيف كان عاقبةُ المُفسدينَ، وإن كانت طائفةٌ منكم آمَنُوا بالذي أرسَلَني اللهُ به، وطائفةٌ لم يُؤمِنُوا؛ فاصبِرُوا حتى يحكُمَ اللهُ بيننا، وهو خَيرُ الحاكمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾.

أي: وأَرْسَلْنا إلى قبيلةِ مَدْينَ أخاهم في النَّسَبِ شُعيبًا عليه السَّلامُ؛ لِيَدعُوَهم

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه، وينهاهم عَن عِبادَةِ غَيْرِه، وينهاهم عَنِ الفَسادِ في الأرضِ، فقال لهم: يا قَومِ، اعبُدُوا اللهَ وَحْدَه؛ ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، فلا تُشْرِكوا به شيئًا(١).

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

أي: قال شُعَيبٌ لِقَومِه: قد جاءَتْكم حُجَّةٌ واضِحةٌ مِن خالِقِكم ومالِكِكم ومُدَبِّرِ شُؤونِكم، على صِدْقِ ما جِئْتُكم به مِن إفرادِ اللهِ بالعبادةِ، وتَرْكِ الفَسادِ في الأرضِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما مِنَ الأنبياءِ مِن نبيٍّ إلَّا قد أُعطِيَ مِنَ الآياتِ ما مِثْلُه آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنَّما كان الذي أُوتِيتُ وَحيًا أوحَى اللهُ إليَّ، فأرجُو أن أكونَ أكثَرَهم تابعًا يومَ القِيامةِ))(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٧٨ - ٥٨٠).

قال ابنُ كثير: (﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي دلالةٌ وحُجَّةٌ واضحة، وبرهانٌ قاطِعٌ على صِدْقِ ما جِئْتُكم به، وأنَّه أرسَلَني، وهو ما أجرى اللهُ على يَدَيه مِنَ المعجزاتِ التي لم تُنقَل إلينا تفصيلًا، وإن كان هذا اللَّفظُ قد دلَّ عليها إجمالًا). ((البداية والنهاية)) (١/ ٤٢٩).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٣).

(٣) رواه البخاري (٤٩٨١) ومسلم (١٥٢).

﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾.

أي: فأتِمُّوا للنَّاسِ حُقُوقَهم؛ بإتمامِ كَيلِ المِكيالِ، ووَزنِ المِيزانِ[1].

كما قال تعالى حاكيًا قَوْلَ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ * وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٢].

وقال سُبحانَه حاكيًا أيضًا قَولَ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ * وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [هود: ٨٤-٨٥].

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾.

أي: ولا تَنقُصُوا النَّاسَ حُقُوقَهم[2].

قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ * يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦].

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٨٦ - ٥٨٧).

قال الرازي: (المرادُ أنَّه لَمَّا منَعَ قَومَه مِنَ البَخسِ في الكيلِ والوَزن؛ منَعَهم بعد ذلك من البَخْسِ والتنقيصِ بجَميعِ الوجوهِ، ويدخلُ فيه المنعُ مِنَ الغَصبِ والسَّرِقة، وأخذِ الرِّشوة وقطعِ الطَّريقِ، وانتزاعِ الأموالِ بطريقِ الحِيَل). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٣ - ٣١٤).

وقال القرطبي: (البخسُ: النَّقصُ، وهو يكونُ في السِّلعة بالتَّعييبِ والتَّزهيد فيها، أو المخادعةِ عَنِ القيمةِ، والاحتيالِ في التزيُّدِ في الكَيلِ والنقصان منه، وكلُّ ذلك مِن أكْلِ المالِ بالباطِلِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٨). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣١٨).

أي: ولا تُفسِدُوا في الأرضِ بالشِّركِ والمعاصي وظُلْمِ النَّاسِ، بعد أنْ أصلَحَ اللهُ تعالى الأرضَ ببَعْثِ الرُّسُلِ، والأمرِ بالعَدْلِ(١).

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقَدَّمَ إليهم بالأمرِ والنَّهيِ؛ أشارَ إلى عَظَمةِ ما تضَمَّنَه ذلك؛ حثًّا لهم على امْتِثالِه، فقال(٢):

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

أي: هذا الذي أمَرْتُكم به؛ مِن إخلاصِ العِبادةِ للهِ، وإيفاءِ حُقُوقِ النَّاسِ، وتَرْكِ الفَسادِ في الأرضِ- أنفَعُ لكم في دُنياكم وآخِرَتِكم، إنْ كُنتُم حقًّا مُؤمنينَ باللهِ وبرَسولِه وباليَومِ الآخِرِ(٣).

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦].

﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٤)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٥).

قال ابنُ عاشور في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: (المرادُ بالتَّقييدِ نَفْيُ الخَيرِ الكامِلِ عن تلكَ الأعمالِ الصَّالحةِ، إن لم يكُنْ فاعِلُوها مؤمنينَ باللهِ حَقَّ الإيمانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٦).

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان للتَّعميمِ بعدَ التَّخصيصِ، والتَّفصيلِ بعد الإجمالِ؛ مِنَ الموقِعِ في النُّفوسِ ما لا يخفَى، وكان النَّهيُ عن الإفسادِ بالصَّدِّ عَن سَبيلِ اللهِ؛ هو المقصودَ بالذَّاتِ؛ لأنَّه يَنهى عن كُلِّ فسادٍ- خَصَّه بالذِّكْرِ؛ إشارةً إلى أنَّه زُبدةُ المرادِ بعد التَّعميمِ، فقال[١]:

﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾.

أي: ولا تَجلِسُوا بكُلِّ طَريقٍ تُهَدِّدونَ النَّاسَ بالقَتلِ أو العذابِ، إن لم يُعطُوكم أموالَهم[٢]، أو إن أرادُوا الإيمانَ باللهِ، واتِّباعَ نَبيِّه شُعَيبٍ عليه السَّلامُ[٣].

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾.

أي: وتَمنعونَ عن طاعةِ اللهِ مَن آمَنَ باللهِ، وتَصرِفُونَهم عنِ اتِّباعِ نَبيِّ اللهِ[٤].

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦١).

(٢) وممَّن اختارَ هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٢٦-٤٢٧).

(٣) وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٢٦ - ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٨-٢٤٩).
وجمع الواحدي بين القولينِ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٤٠٢).
وقال الشوكاني: (أي: لا تقعُدُوا بكلِّ طَريقٍ تُوعِدُونَ النَّاسَ بالعذاب، قيل: كانوا يقعُدونَ في الطُّرُقاتِ المُفضِيَةِ إلى شُعَيبٍ، فيتوعَّدونَ مَن أراد المجيءَ إليه. وقيل: المرادُ بالآية: النهيُ عن قَطعِ الطَّريقِ، وأخذِ السَّلبِ، وكان ذلك من فِعْلِهم، وقيل: إنَّهم كانوا عشَّارينَ يأخُذونَ الجِبايةَ في الطُّرُقِ مِن أموالِ النَّاسِ، فنُهُوا عن ذلك. والقولُ الأوَّلُ أقرَبُها إلى الصَّوابِ، مع أنَّه لا مانِعَ مِن حَملِ النَّهيِ على جميعِ هذه الأقوالِ المذكورة). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٥)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٢٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ١٩٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦).

أي: تودُّونَ أن تكونَ سبيلُ اللهِ معوجَّةً، وتلتمسون لها الزيغَ؛ بإلقاءِ الشُبَهِ أو بِوَصْفِها للنَّاسِ بالبطلان والضلال، وتُميلُونها اتِّباعًا لأهوائِكم[١].

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡ﴾.

أي: واذكُرُوا حينَ كُنتُم قليلًا عَدَدُكم، فكثَّركم اللهُ، فصِرْتُم أعِزَّةً أقوياءَ، فاشكُرُوه وأخْلِصُوا له العبادةَ[٢].

﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا رَغَّبَهم اللهُ تعالى بالتَّذكيرِ بالنِّعمةِ؛ حَذَّرَهم بالتَّذكيرِ بأهْلِ النِّقمةِ، فقال[٣]:

﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

أي: وانظُرُوا إلى آخِرِ أمْرِ المُفسدينَ، الذين أفسَدُوا في الأرضِ بالشِّركِ والمعاصي، مِنَ الأُمَمِ قَبلَكم؛ فقد حَلَّ بهم العذابُ والخِزيُ والنَّكالُ[٤].

كما قال تعالى حاكيًا قَوْلَ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥٥)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٨٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦).

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ﴾.

أي: وإن كانَتْ جماعةٌ منكم آمَنُوا بما أرسَلَني اللهُ به؛ مِن إفرادِه بالعبادةِ، وتَرْكِ الفَسادِ في الأرضِ، وجماعةٌ أخرى لم يُؤمِنُوا بذلك- فانتَظِروا حُكمَ اللهِ وقَضاءَه بيننا[1].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود: ٩٣].

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

أي: واللهُ خَيرُ مَن يَحكُمُ بين عِبادِه المُختلِفينَ، فيُنجِّي المؤمنينَ، ويُهلِكُ الكافرينَ[2].

الفوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ﴾ دالٌّ على النَّصيحةِ والشَّفَقةِ مَع مَن يَدعُوهم، وذلك مِن خِلالِ تَذْكيرِهم بالقَرابةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٥١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٥٩).

٢- عادةُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ أنَّهم إذا رَأَوْا قَوْمَهم مُقْبِلينَ على نوعٍ مِن أنواعِ المفاسِدِ إقبالًا أكثَرَ مِن إقبالِهم على سائِرِ أنواعِ المفاسِدِ؛ بَدَؤُوا بمَنْعِهم عن ذلك النَّوعِ، وكان قَومُ شُعَيبٍ مَشغوفينَ بالبَخْسِ والتَّطفيفِ؛ فلهذا السَّبَبِ بدأ بذِكرِ هذه الواقعةِ، فقال: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾[1]، وعلى الدُّعاةِ أن يهتمُّوا بذلك، فقدوتُهم في ذلك الأنبياءُ، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٣- تَرْكُ المعاصي- امتثالًا لأمرِ اللهِ تعالى، وتقَرُّبًا إليه- خيرٌ وأنفَعُ للعَبدِ مِن ارتكابِها المُوجِبِ لسَخَطِ الجَبَّارِ، وعذابِ النَّارِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[2].

٤- قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ الإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى كُلِّ ما تقَدَّمَ مِن أمرٍ ونَهيٍ، أي: هو خيرٌ لهم في دِينِهم ودُنياهم، لا تكليفُ إعناتٍ، فاللهُ لا يأمُرُ إلَّا بما هو نافِعٌ، ولا ينهى إلَّا عما هو ضارٌّ، وهو على كلِّ حالٍ غَنِيٌّ عن العالَمِينَ، ولو شاء لأعنَتَهم، ولكِنَّه رحيمٌ لا يفعَلُ ذلك[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ التَّوحيدَ واجتنابَ نَزَعاتِ الشِّركِ ترفَعُ قَدْرَ الإنسانِ، وتُطَهِّرُ عَقلَه ونَفْسَه مِنَ الخُرافاتِ والأوهامِ، وتَعتِقُ إرادَتَه من العبوديَّة والذِّلَّةِ لمخلوقٍ مِثلِه مُساوٍ له؛ في كَونِه مَخلوقًا مُسَخَّرًا لإرادةِ الخالِقِ وسُنَنِه، وإن فاقَه في عَظَمةِ الخَلقِ أو عِظَمِ المنفعةِ كالشَّمسِ، أو بعضِ الصِّفاتِ أو الخصائِصِ؛ كالأنبياءِ والملائكةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٧٠).

وغَيرِ ذلك مِمَّا عُبِدَ مِن دُونِ الله، أو في المُلكِ والسُّلطان، فالتَّوحيدُ في العبادةِ هو لمصلحةِ النَّاسِ وتَكريمِهم وإعلاءِ شَأنِهم، وكذلك سائِرُ العباداتِ وأحكامُ الحَظرِ والإباحةِ، كما أنَّه قد ثبت بالدَّلائلِ العقليَّةِ والنَّقليَّةِ والتجارِبِ الدَّقيقة أنَّ مَلَكاتِ الفَضائِلِ لا تنطبعُ في الأنفُسِ إلَّا بالتربيةِ الدِّينيةِ؛ ولذلك تَقِلُّ السَّرقةُ والخيانةُ في البلادِ التي يغلِبُ على أهلِها التَّدَيُّنُ الصَّحيحُ[١].

٦- المؤمِنُ يُثابُ على فِعلِه؛ لِبنائِه له على أساسِ الإيمانِ، والكافِرُ أعمالُه فاسدةٌ، فلا يكونُ فِعْلُه خيرًا له مِن جِهَةِ إسعادِه في الآخرةِ؛ لأنَّه لا ثوابَ له؛ يُبَيِّنُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ دلالةٌ على أنَّ الواجِبَ هو الاحترامُ والتعظيمُ للسَّبيلِ التي نصَبَها اللهُ لعباده؛ لِيَسلُكُوها إلى مَرضاتِه ودارِ كَرامَتِه، ورَحِمَهم بها أعظَمَ رحمةٍ، مع القيامِ بنُصْرَتِها والدَّعوةِ إليها والذَّبِّ عنها[٣].

٨- تَذَكُّرُ كَثرةِ إنعامِ اللهِ تعالى، يحمِلُ على الطَّاعةِ، والبُعْدِ عَنِ المَعصيةِ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾[٤].

٩- تذكُّرُ عاقبةِ المُفسدينَ وما لَحِقَهم مِنَ الخِزيِ والنَّكالِ؛ زاجِرٌ عَنِ العِصيانِ والفَسادِ؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٤٧١- ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ حُسْنُ التلَطُّفِ في المحاوَرةِ مع المُخالِفِ؛ فهذا الكلامُ مِن أحسَنِ ما تُلُطِّفَ به في المحاورةِ؛ إذ برَزَ المتَحَقِّقُ في صورةِ المشكوكِ فيه، وذلك أنَّه قد آمَنَ به طائفةٌ بدليلِ قَوْلِ المُستكبرينَ عن الإيمانِ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ ﴾[1].

١١- حُكمُ اللهِ بَينَ عِبادِه نوعان: حُكمٌ شَرعيٌّ يُوحِيه إلى رُسُلِه، وحُكمٌ فِعليٌّ يَفصِلُ فيه بين الخَلقِ بمُقتَضى عَدْلِه وسُنَنِه، وهذا الثَّاني كما في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ وإنَّما حَكَم تعالى بين الأُمَمِ بنَصرِ أقْرَبِها إلى العَدلِ والإصلاحِ في الأرضِ، وحُكْمُه هو الحَقُّ، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه، فلْيَعتَبِرِ المسلمونَ بهذا قبلَ كُلِّ أحدٍ، ولْيَعرِضوا حالَهم وحالَ دُوَلِهم على القُرآنِ وعلى أحكامِ اللهِ لهم وعليهم؛ لعَلَّهم يَثُوبونَ إلى رُشْدِهم، ويَتُوبونَ إلى ربِّهم، فيُعيدَ إليهم ما سُلِبَ منهم، ويَرفَعَ مَقْتَه وغَضَبَه عنهم[2].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ غايةُ ما يُفيدُه القرآنُ: أنَّ اللهَ بعَثَ نَبيَّه شُعيبًا إلى أهلِ مَدينَ، وذكَرَ اللهُ في سُوَرٍ أُخرَى أنَّ شُعَيبًا أُرسِلَ أيضًا إلى أصحابِ الأيْكةِ، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦] والعُلَماءُ مُختلِفونَ: هل أصحابُ الأيْكةِ هم مَدينُ أنفُسُهم، فيكون شُعَيبٌ أُرسِلَ إلى أمَّةٍ واحدةٍ، أو مَدينُ أمَّةٌ، وأصحابُ الأيكةِ أُمَّةٌ أخرى، فيكونُ شُعَيبٌ قد أُرسِلَ إلى أُمَّتَينِ؟ هذا خلافٌ مَعروفٌ بينَ العُلَماءِ، وأكثَرُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٧٦-٤٧٧).

أهلِ العِلمِ على أنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ، كانوا يَعبُدُونَ أيكةً، أي: شَجرًا مُلتفًّا، وأنَّ اللهَ سَمَّاهم مرَّةً بِنَسَبِهم (مَدْيَن) ومَرَّةً أضافَهم إلى الأيكةِ التي يعبُدونَها.

والذين قالوا: إنَّهما أمَّتانِ قالوا: في (مدين) قال إنَّه أخوهم؛ حيث قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أمَّا أصحابُ الأيكةِ، فلم يقُلْ إنَّه أخوهم، بل قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٧٧] ولم يقُلْ: أخوهم شعيبٌ.

وأُجيبَ عن هذا بأنَّه لَمَّا ذَكَرَ مَدينَ ذَكَرَ الجَدَّ الذي يشمَلُ القبيلةَ، ومِن جُملَتِها شُعيبٌ- ذَكَرَ أنَّه أخوهم مِنَ النَّسَبِ، أمَّا قولُه: ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ فمعناه: أنَّهم يَعْبُدونَها، ولَمَّا ذكَرَهم في مقامِ الشِّركِ وعبادةِ غَيرِ اللهِ، لم يُدخِلْ معهم شُعَيبًا في ذلك، وهم أمَّةٌ واحدةٌ. والله أعلم(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ جاء تجريدُ الفِعلِ في: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ مِنَ الفاء هنا، فقيل: ذلك للدَّلالةِ على أنَّ كَلامَه هذا، ليس هو الذي فاتَحَهم به في ابتداءِ رِسالَتِه، بل هو مِمَّا خاطَبَهم به بعد أنْ دعاهم مِرارًا، وبعد أنْ آمَنَ به مَن آمَنَ منهم(٢).

٣- ما جاءَ في هذا التَّشريعِ في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٧٢، ٥٧٣).
القولُ بأنَّ أصحابَ الأيكةِ هم أهلُ مدينَ هو قولُ أكثرِ أهلِ العلمِ، واختاره ابنُ جريرٍ وابنُ كثيرٍ، وممن ذهب إليه مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس وابنُ زيدٍ، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٤٣٨).
وذهب قتادةُ- كما في ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٧)- ومقاتلُ بنُ سليمانَ- كما في ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٣/ ٣٤٧)- وابنُ عاشورٍ في ((تفسيره)) (١٩/ ١٨٣) إلى أن مدينَ غيرُ أصحابِ الأيكةِ.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٩).

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ هو أصلٌ مِن أُصولِ رَواجِ المعاملةِ بَينَ الأمَّةِ؛ لأنَّ المُعامَلاتِ تعتَمِدُ الثِّقةَ المتبادَلةَ بين الأمَّةِ، وإنَّما تحصُلُ بِشُيوعِ الأمانةِ فيها، فإذا حصَلَ ذلك نَشِطَ النَّاسُ للتَّعامُلِ؛ فالمُنتِج يزدادُ إنتاجًا وعَرْضًا في الأسواقِ، والطَّالِبُ من تاجرٍ أو مُستهلِكٍ يُقبلُ على الأسواقِ آمنًا، لا يخشى غَبنًا ولا خديعةً ولا خِلابةً، فتتوفَّرُ السِّلَعُ في الأمَّةِ، وتستغني عن اجتلابِ أقواتِها وحاجِيَّاتِها وتَحسينيَّاتِها، فيقومُ نَماءُ المدينةِ والحضارةِ على أساسٍ مَتينٍ، ويعيشُ النَّاسُ في رخاءٍ وتحابُبٍ وتآخٍ، وبضِدِّ ذلك يختَلُّ حالُ الأمَّةِ بمقدارِ تَفَشِّي ضِدِّ ذلك[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ في إضافةِ الأشياءِ إلى النَّاسِ دليلٌ على مِلْكِهم إيَّاها[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لَمَّا كان طريقُ الدِّينِ أهَمَّ؛ خَصَّه بالذِّكرِ، فقال: ﴿وَتَصُدُّونَ﴾، أي: تُوقِعونَ الصَّدَّ- على سبيلِ الاستمرارِ- ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أخَّرَ النَّهيَ عن الصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ، بعد جُملةِ ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ولم يجعَلْه في نَسَقِ الأوامِرِ والنَّواهِي الماضيةِ، ثم يُعقِبْه بِقَولِه: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لأنَّه رَتَّبَ الكلامَ على الابتداءِ بالدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، ثمَّ إلى الأعمالِ الصَّالحةِ؛ لِمُناسَبةِ أنَّ الجَميعَ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦٢).

فيه صلاحُ المُخاطبينَ، فأعقَبَها ببيانِ أنَّها خَيرٌ لهم، إن كانوا مُؤمنينَ، فأعاد تَنبيهَهم إلى الإيمانِ، وإلى أنَّه شَرْطٌ في صلاحِ الأعمالِ، وبمُناسبةِ ذِكرِ الإيمانِ عاد إلى النَّهيِ عن صَدِّ الرَّاغبينَ فيه[١].

٧- جاء النَّهيُ الواردُ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ من قِبَل شُعَيبٍ عليه السَّلامُ عَقِبَ النَّهيِ عَن قَطعِهم الطُّرقَ على مَن يَغشى مَجلِسَه عليه السَّلامُ، ويَسمَعُ دَعوَتَه (على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ)، فقيل: ذلك لا لأنَّ اقترافَه دون اقترافِ التَّطفيفِ في الكَيلِ والميزانِ، وبَخْسِ الحُقوقِ؛ بل لأنَّه مُتأخِّرٌ عنها في الزَّمَنِ، فالدَّعوةُ قد وُجِّهَتْ أوَّلًا إلى أقرَبِ النَّاسِ إليه في بَلَدِه، ثمَّ إلى الأقرَبِ فالأقرَبِ منهم، وممَّن يزورُ أرضَهم، وقد كان الأقرَبونَ دارًا هم الأبعَدينَ استجابةً له في الأكثَرِ، وتلك سُنَّةُ اللهِ في الخَلقِ، فلمَّا رَأَوْا غَيرَهم يَقبَلُ دَعوَتَه ويَعقِلُها ويَهتَدِي بها؛ شَرَعُوا يَصُدُّونَ النَّاسَ عنه[٢].

٨- حاصِلُ ما أمَرَ به شُعَيبٌ عليه السَّلامُ قَومَه، بعد الأمرِ بالتَّوحيدِ؛ ينحَصِرُ في ثلاثةِ أُصُولٍ: هي حِفظُ حُقوقِ المعاملةِ الماليَّةِ، وحِفظُ نظامِ الأمَّةِ ومَصالِحِها، وحِفظُ حُقوقِ حُرِّيَّةِ الاستهداءِ.

فالأصلُ الأوَّلُ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، فإيفاءُ الكَيلِ والميزانِ يَرجِعُ إلى حِفظِ حُقوقِ المُشتَرِينَ، وأمَّا النَّهيُ عن بَخْسِ النَّاسِ أشياءَهم فيرجِعُ إلى حِفظِ حُقوقِ البائِعِ.

والأصلُ الثَّاني يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٧٤).

والأصلُ الثَّالثُ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ...﴾[١].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ لَمَّا كانت أفعالُهم نَقْصَ النَّاسِ؛ إمَّا في الأموالِ بالبَخسِ، وإمَّا في الإيمانِ والنُّصرةِ بالصَّدِّ- ذَكَّرَهم أنَّ اللهَ تعالى فعَلَ معهم ضِدَّ ذلك مِنَ التَّكثيرِ بعد القِلَّةِ، فقال: ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي: كثَّرَ عَدَدَكم وأموالَكم، وكُلَّ شَيءٍ يُنسَبُ إليكم، فلا تُقابِلوا النِّعمةَ بِضِدِّها[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ مِن حِكَمِ تَذكيرِهم بهذه النِّعمةِ أنْ يُقابِلُوها باعتبارِ نِقمَتِه تعالى مِنَ الَّذينَ غَضِبَ عليهم؛ إذ استأصَلَهم بعد أن كانوا كثيرًا، فذلك مِن تَمايُزِ الأشياءِ بأضدادِها؛ فلذلك أعقَبَه بِقَولِه: ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٣].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ بَنَى ﴿أُرْسِلْتُ﴾ للمَفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّ الفاعِلَ معروفٌ بما تقَدَّمَ مِنَ السِّياقِ، وأنَّه صار بحيث لا يتطَرَّقُ إليه شَكٌّ؛ لِمَا نَصَبَ مِنَ الدَّلالاتِ[٤].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إنَّما قال: ﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنَّه قد يُسمَّى بعضُ الأشخاصِ حاكِمًا، ولكن الحاكِم في الحقيقةِ هو اللهُ تعالى[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٣-٢٤٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٩).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٩٤).

بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

- قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ استِئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نَشأَ عن حِكايةِ إرسالِه إليهم، كأنَّه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾[1].

- قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مُتعلِّق بـ﴿جَآءَتْكُم﴾، أو بمحذوفٍ هو صفةٌ لفاعِله، مُؤكِّدةٌ لفخامتِه الذاتيَّةِ المستفادَةِ مِن تنكيرِه بفخامتِه الإضافيةِ، أي: بيِّنةٌ عظيمةٌ ظاهرةٌ، كائنةٌ من ربِّكم ومالكِ أُمورِكم[2].

- قولُه: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ إنَّما خصَّ هذَينِ التَّحيُّلينِ بالأمْرِ والنَّهي المذكورين؛ لأنَّهما كانا شائعَينِ عند مَدْيَن، ولأنَّ التحيُّلاتِ في المعاملةِ الماليةِ تَنحصِرُ فيهما، وعلى هذا فالنَّهيُ في قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أفادَ معنًى غيرَ الذي أفادَه الأمرُ في قولِه: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، وليس ذلك النهيُ جاريًا مجرَى العِلَّةِ للأمرِ، أو التأكيدِ لمضمونِه- كما فَسَّر به بعضُ المفسِّرين[3].

- والتَّنكيرُ في قولِه: ﴿خَيْرٌ﴾ للتعظيمِ والكمالِ؛ لأنَّه جامعٌ خَيرَيِ الدُّنيا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٤).

والآخِرة[١].

٢- قوله: ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

- قوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾ فيه حَذْفُ المُوعَدِ به؛ لتذهَبَ النَّفْسُ فيه كُلَّ مَذْهَبٍ مِنَ الشَّرِّ[٢].

- و(كُل) في قوله: ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ للعُمومِ، وهو عمومٌ عُرْفي، أي: كلِّ صِراطٍ مُبلِّغٍ إلى القريةِ، أو إلى منزلِ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ[٣].

- وقوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ فيه التعبيرُ عن الإيمانِ بالفِعلِ الماضي في قَولِه: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ عِوضًا عَنِ المُضارعِ -حيث المرادُ بمَن آمَنَ: قاصِدُ الإيمانِ-؛ لتَحقيقِ عَزمِ القاصِدِ على الإيمانِ، فهو لولا أنَّهم يَصُدُّونَه، لكان قد آمَنَ[٤].

- قوله: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فيه تهديدٌ لهم، وتذكيرٌ بعاقِبَةِ مَن أَفْسدَ قَبْلَهم، وتمثيلٌ لهم بمَنْ حلَّ به العذابُ مِن قومِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ، وكانوا قَريبي عهدٍ بما أجاب المُؤتَفِكَةَ[٥].

٣- قوله: ﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾

- قوله: ﴿فَٱصْبِرُواْ﴾ أَمرٌ فيه قوةُ التَّهديدِ والوعيدِ للكافِرين بانتقامِ الله

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٩).

تَعالَى منهم[١].

- وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ تذييلٌ بالثَّناءِ على اللهِ تعالى بأنَّ حُكمَه عَدْلٌ محضٌ، لا يَحتمِل الظُّلمَ عمدًا ولا خطأً[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٥١).

الآيات (٨٨-٩٢)

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

غَريبُ الكلماتِ:

﴿مِلَّتِنَا﴾: أي: دِينِنا، وطريقتِنا، والمِلَّةُ مُشتقَّةٌ من (أَمْلَلْتُ)؛ لأنَّها تُبنَى على مَسموعٍ ومَتْلُوٍّ، وإذا أُريدَ الدِّينُ باعتبارِ الدُّعاء إليه قيل: (مِلَّة)، وإذا أُريدَ باعتبارِ الطَّاعةِ والانقيادِ له قيل: (دِين)[1].

﴿ٱفْتَرَيْنَا﴾: أي: اخْتَلَقْنَا، وكَذَبْنا؛ والافتراءُ الاختلاقُ، ومنه قِيل: افترَى فلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، وأصلُ (فري) قَطْعُ الشَّيءِ؛ فالفَرْيُ: قطعُه لإصلاحِه، والإفراءُ: قطعُه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[2].

﴿تَوَكَّلْنَا﴾: التوكُّل هو تَفويضُ الأمرِ إلى مَن يُتوكَّلُ عليه، والاعتمادُ عليه،

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣، ٧٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٢٨، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢، ٤٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤- ٦٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

والثِّقةُ بِه، وأَصْلُ (وكل): يدُلُّ على اعتمادِ غَيرِكَ في أمْرِكَ[١].

﴿ٱفۡتَحۡ﴾: أي: اقْضِ، أو احْكُمْ بَيْننا، وأَصْلُ الفَتْحِ: إزالةُ الإغلاقِ والإشكالِ[٢].

﴿لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ﴾: أي: لَمْ يَعيشوا، أو لَمْ يَنزِلوا، وغَنِيَ القومُ في دارِهِمْ: أقاموا، كأنَّهم استغنَوْا بها، وأَصْلُ (غني): يدُلُّ على الكِفايةِ، والاسْتغناءِ عن الغَيرِ[٣].

﴿ءَاسَىٰ﴾: أي: أحْزَنُ، يُقَالُ: أسِيتُ على الشَّيءِ آسَى أسًى، أي: حَزِنْتُ عليه، وأصْلُ (أسي): الحزنُ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

قال الرُّؤساءُ المُتكبِّرونُ من قوم شُعَيْبٍ: لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ، ومَنْ آمَنَ معك من قريتِنا، أو لَتَرْجِعُنَّ إلى دِينِنا، قال لهم شعيبٌ مُنْكِرًا عليهم: أَتُعيدوننا إلى دِينِكم حتَّى لو كُنَّا كارهينَ له؟! قدِ افْتَرَيْنا على اللهِ كَذِبًا إنْ رجَعْنا إلى دِينِكم بعَدْ أنْ نجَّانا اللهُ منه، وما يكون لنا الرُّجوعُ إليه إلَّا أنْ يشاءَ ربُّنا، وَسِعَ ربُّنا كُلَّ شيءٍ عِلْمًا، على الله اعتمَدْنَا في جميعِ أُمورِنا، ثم دعا ربَّه قائلًا: ربَّنا احْكُمْ بَيْننا وبين قومِنَا بحُكْمِكَ، وانصُرْنا عليهم، وأنتَ خَيْرُ الحاكمينَ.

وقال الرُّؤَساءُ الَّذين كَفَروا من قومِ شعيبٍ لِمَنْ هم دونَهم: لَئِنِ اتَّبعتُم شعيبًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٥).

إنَّكم إذًا لخاسِرونَ.

فأخَذَتِ الكفَّارَ من قوم شعيبٍ زلزلةٌ شديدةٌ، فصاروا في بَلْدَتِهم صَرْعَى مُنكبِّينَ على وُجوهِهم، لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهِمْ، خامدينَ لا حياةَ فيهم.

الَّذين كذَّبوا شعيبًا قد هَلَكوا، وكأنَّهم لم يُقيموا قَطُّ في بلدِهم، ولم يَتمتَّعوا فيها، الَّذين كذَّبوا شعيبًا كانوا هُمُ الخاسرينَ.

فانصَرَفَ عنهم شعيبٌ، وقال: يا قومِ لقدْ أَبلغْتُكم ما أُرْسِلْتُ به من ربِّي، ونصَحْتُ لكم؛ فكيف يَشتدُّ حُزْني على قومٍ كافرينَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾.

أي: قال الأشرافُ والرُّؤساءُ الذين تكبَّروا عن الإيمانِ بشعيبٍ عليه السلامُ واتِّباعِه من قومِه: واللهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيبُ ومَنْ آمَنَ معك من مدينتِنا، أو لَتَرْجِعَنَّ أنتَ وهُمْ إلى دِينِنا[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٤، ٥٩٨).
في معنى قوله: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ إشكالٌ أُجِيبَ عنه بعِدَّةِ أجوبةٍ واحتمالاتٍ ذكَرها كثيرٌ مِنَ المفسِّرينَ.
قال الشنقيطي: (وفي هذه الآيةِ الكريمةِ سؤالٌ معروفٌ مشهورٌ؛ لأن ظاهرَ القرآنِ هنا أن شعيبًا قد دَخَلَ في ملتهم سابقًا يومًا؛ لأنَّ قولَهم مخاطبونَ له: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ وقول شعيبٍ مُجِيبًا لهم: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ يدلُّ بظاهرِه على أنه قد كان فيها سابقًا يومًا ما. وأكثرُ العلماءِ يقولونَ: إن الأنبياءَ -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم-

معادنُ وَحْيٍ، ومحلُّ الخيرِ، واللهُ يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. فلا يكفرونَ بالله؛ لأَنَّ فِطْرَتَهم التي وُلدوا عليها لا يُبَدِّلُها اللَّهُ بالكفرِ لمكانتِهم عندَه، فبعضُ العلماءِ يقولُ: لو فَرَضْنا أنهم وقعَ منهم بعضُ الشركِ وأنابوا إلى اللَّهِ، [فإنهم يصيرونَ إلى مثلِ حالِهم] قَبْلَه وصارَ كأنه لم يَكُنْ. وأكثرُ الأصوليين وعلماءِ التفسيرِ أن شعيبًا لم يكنْ كافرًا يومًا ما. ويجابُ عن ظاهرِ الآيةِ بجوابينِ :

أحدُهما: أن العربَ تطلقُ لفظةَ (عَادَ) إطلاقين:

أحدُهما: عَادَ إلى أمرٍ كان فيه سَابِقًا.

والثاني: تقولُ العربُ: عَادَ كذا كذا. بمعنَى: صار إلى كذا من جَدِيدٍ.

الوجهُ الثاني: وبه قال غيرُ واحدٍ: أن نَبِيَّ اللَّهِ شُعَيْبًا كان معه جماعةٌ من قومِه آمنوا به، فالذين آمنوا به من قومِه كانوا كُفَّارًا على ملةِ قومِهم، وهم عددٌ كثيرٌ، وهو رجلٌ واحدٌ [فعُبِّر] باسمِ العددِ الكثيرِ، وَغَلَّبُوهُ على ذلك الواحدِ، والتزمَ معهم شعيبٌ في هذا الخطابِ تَغْلِيبًا لقومِه الأكثرين. وظاهرُ كلامِ ابنِ جريرٍ- رحمه الله- في تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ من سورةِ الأعرافِ ذَاهِبًا أن شعيبًا كان معهم- سابقًا- على مِلَّتِهم، وكذلك قال صَريحًا عن إبراهيمَ في قولِه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] . ونحنُ نقولُ: إن قولَه في الخليلِ إبراهيمَ غَلَطٌ مَحْضٌ، لا شَكَّ فيه؛ لأن الآياتِ القرآنيةَ صَرَّحَتْ بأن إبراهيمَ لم يكن من المشركين، فنفيُ هذا عن إبراهيمَ صريحٌ، ونفيُه عن شعيبٍ لم يَقُمْ دليلٌ عليه في الصراحةِ كإبراهيمَ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٩٥) بتصرف.

وقال الثعالبي: (للعربِ فعلٌ لا يقولُه غيرُهم. تقولُ: عاد فلانٌ شيخًا. وهو لم يكنْ قطُّ شيخًا، و: عادَ الماءُ آجنًا. وهو لم يكنْ كذلك. قال الهذليُّ:

أطَعتُ العِرْسَ في الشَّهواتِ حتَّى ... أعادَتْني أَسِيفًا عَبْدَ عَبْدِ.

وهو لم يكنْ قبلُ أسيفًا حتى يعودَ إلى تلك الحالِ، وفي كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وهم لم يكونوا في نورٍ مِن قبلُ، ومثله قولُه تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ وهم لم يبلُغوا أرذلَ العمرِ فيُرَدُّوا إليه). ((فقه اللغة وسر العربية)) (ص: ٢٦٨).

ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٣١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٢٨)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٣٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦-٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٦- ٥٩٧).

وذهب ابنُ تيميَّةَ إلى أنَّ الآيةَ على ظاهِرِها ولا إشكالَ فيها، فقال: (ظاهرُهُ دليلٌ على أنَّ شعيبًا والَّذين آمنوا معه كانوا على مِلَّةِ قومِهم؛ لقولِهم: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾، ولقولِ شعيبٍ: ﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ * قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩]، فدَلَّ على

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾.

أي: قال شعيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لقومِهِ مُنْكِرًا عليهم: أَتُجبروننا على العَوْدةِ إلى مِلَّتِكم قَهْرًا، وإنْ كنَّا كارهينَ لها؛ لعِلْمِنا ببُطْلانِها[1]؟!

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾.

أنَّهم كانوا فيها، ولقولِهِ: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾، فدَلَّ على أنَّ اللهَ أنجاهم منها بعد التَّلوُّثِ بها، ولقولِهِ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾، ولا يجوز أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا على قومِهِ؛ لأنَّه صرَّحَ فيه بقولِهِ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾، ولأنَّه هو المُحاوِرُ له بقولِهِ: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ إلى آخِرِها، وهذا يجِبُ أنْ يدخُلَ فيه المتكلِّمُ، ومِثْلُ هذا في سورةِ إبراهيمَ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٩).

وقال أيضًا: (التَّحقيقُ أنَّ اللهَ سبحانَه إنَّما يصطفي لرسالتِهِ مَنْ كان خِيارَ قومِهِ حتَّى في النَّسبِ كما في حديثِ هِرَقْلَ، ومَنْ نشأ بين قومٍ مشركين جُهَّالٍ لم يكنْ عليه نَقْصٌ إذا كان على مِثلِ دِينِهم إذا كان معروفًا بالصِّدْقِ والأمانةِ وفِعْلِ ما يَعرِفون وجوبَهُ وتَرْكِ ما يعرفون قُبْحَهُ، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فَلَمْ يكنْ هؤلاءِ مُستوجِبينَ العذابَ، وليس في هذا ما يُنَفِّرُ عَنِ القَبولِ منهم؛ ولهذا لم يذكُرْهُ أحدٌ مِنَ المشركين قادحًا، وقدِ اتَّفقوا على جوازِ بَعْثَةِ رسولٍ لا يَعرِفُ ما جاءَتْ به الرُّسلُ قَبْلَهُ مِنَ النُّبوَّةِ والشَّرائعِ، وأنَّ مَنْ لم يُقِرَّ بذلك بَعْدَ الرِّسالةِ فهو كافرٌ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٠). ويُنظر: ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تيمية (١/ ١٦٠- ٢٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٨).

أي: قال شعيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لقومِهِ الكافرينَ: قدِ اخْتَلَقْنا على اللهِ كَذِبًا إنْ نحن رجَعْنا إلى دِينِكم، الَّذي هو الكفرُ والشِّركُ، بعْدَ أنْ أنقَذَنا اللهُ منه، فَصِرْنا مؤمنينَ باللهِ، لا نُشرِكُ به شيئًا[١].

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾.

أي: وما يصِحُّ لنا ولا ينبغي أبدًا أنْ نَرجِعَ إلى مِلَّتِكُمُ الباطلةِ، ونترُكَ دِينَ الحقِّ الَّذي هَدانا اللهُ إليه، إلَّا أنْ يكونَ قدْ سبَقَ في عِلْمِ اللهِ تعالى أنَّا نَعودُ إليها، فتمْضِي فِينَا حِينَئِذٍ مشيئةُ اللَّهِ، التابعةُ لعلمِه وحكمتِه؛ إذْ لا مَفَرَّ عمَّا شاءَ وقدَّرَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الإنسان: ٣٠-٣١].

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾.

أي: وَسِعَ عِلْمُ اللهِ كُلَّ شيءٍ، فلا يَخْفى عليه ما كان، ولا ما سيَكونُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧].

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٩- ٦٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٠). وممَّنْ قال بنحوِ التَّفسيرِ المذكورِ مِنَ السَّلَفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٠).

أي: على اللهِ وَحْدَهُ نَعتمِدُ في جميعِ أُمورِنا[١].

كما قال تعالى حاكيًا قَوْلَ شعيبٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: يا ربَّنا، احْكُمْ بَيْننا وبَيْنَ قومِنا الكفَّارِ بحُكْمِكَ الحقِّ، وانصُرْنا عليهم[٢].

﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾.

أي: وأنتَ- يا أللهُ- خيرُ الحاكمينَ؛ فحُكْمُكَ بين عبادِكَ عَدْلٌ، لا ظُلْمَ فيه أبدًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٦).

قال الزَّجَّاجُ: (أي: أَظهِرْ أمْرَنا؛ حتَّى يَنفتِحَ ما بيننا وبين قومِنا ويَنكشِفَ، فجائزٌ أنْ يكونَ يَسألونَ بهذا أنْ يَنْزِلَ بقومِهم مِنَ العذابِ والهَلَكَةِ ما يَظهَرُ به أنَّ الحقَّ معهم). ((معاني القرآن)) (٢/ ٣٥٨).

وقال السعديُّ: (فسَأَلوا اللهَ أنْ يَفتَحَ بينهم وبين قومِهم بالحقِّ والعَدْلِ، وأنْ يُرِيَهُمْ من آياتِهِ وعِبَرِهِ ما يكون فاصلًا بين الفريقين). ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٦).

قال السِّعديُّ: (وفَتْحُهُ تعالى لِعبادِهِ نوعانِ: فَتْحُ العِلْمِ، بتبيينِ الحقِّ مِنَ الباطلِ، والهُدى مِنَ الضَّلالِ، ومَنْ هو مِنَ المُستقيمينَ على الصِّراطِ ممَّنْ هو مُنحرِفٌ عنه. والنَّوعُ الثَّاني: فَتْحُه بالجَزاءِ وإيقاعِ العقوبةِ على الظَّالمينَ، والنَّجاةِ والإكرامِ للصَّالحينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا يَئِسَ الملأُ مِن قومِ شعيبٍ- عليه السَّلامُ- مِن عَوْدتِهِ في مِلَّتِهم، وعَلِموا أنَّه ثابتٌ على مُقارَعَتِهم، خافوا أنْ يَكْثُرَ المُهتَدونَ به من قومِهم، فحذَّروهم ذلك بما حَكاهُ اللهُ تعالى عنهم في قولِهِ[1]:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

أي: قال الأشرافُ والرُّؤَساءُ الكَفَرَةُ من قومِ شعيبٍ عليه السَّلامُ؛ تحذيرًا لِمَنْ دونَهم مِنَ النَّاسِ مِنِ اتِّباعِهِ[2]: واللهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُم شعيبًا؛ فتركْتُم دِينكم وآمَنْتُم بما يَدعوكُم إليه، لَهَلَكْتُم وَشَقيتُم، وخَسِرْتُم مصالِحَكُمُ الدُّنيويَّةَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠).

(٢) اختار أنَّ خطابَ المِلأ الذين كفروا موجَّهٌ إلى آخرينَ منهم مِن أتباعِهم: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (١٠/ ٣٢١)، وابن عطية في ((تفسيره)) (٢/ ٤٢٩)، والقرطبي في ((تفسيره)) (٧/ ٢٥١)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (٣/ ٦٠٧)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٩/ ١٣).
قال ابن عاشور: (والمخاطَبُ في قولِه: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ هم الحاضرونَ حينَ الخطابِ لدَى الملأِ، فحُكِي كلامُ الملأِ كما صَدَر منهم، والسِّياقُ يُفَسِّرُ المعنيِّينَ بالخِطابِ، أعني عامَّةَ قومِ شعيبٍ الباقينَ على الكفرِ).
وظاهرُ قولِ الرازي في ((تفسيره)) (١٤/ ٣١٩) والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٩٦) أنَّ خطاب الكفَّار هنا للمؤمنين بشعيبٍ عليه السَّلام.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٥)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٧).
قال الشِّنقيطيُّ: (ومعنى خُسْرانِهم: يَزعُمونَ أنَّهم عِندَ ذلك يَشْتَرونَ الضَّلالةَ بالهُدى، زاعمينَ أنَّ الهُدى هو الكُفْرُ الَّذي كانوا عليه، وأنَّ اتِّباعَ نبيِّ اللهِ ضلالٌ، ومن خُسْرانِهم المزعومِ: أنَّهم كانوا يَنتفِعونَ بأموالِ النَّاسِ إذا أضلُّوهم وبَخَسوهُم أشياءَهم، وطفَّفوا لهم المِكيالَ والميزانَ،

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾.

أي: فأَخَذَتْ[(١)] أولئكَ الكفَّارَ الزلزلةُ الشَّديدةُ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود: ٩٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

أي: فصارَ الكفَّارُ في بَلَدِهم لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم، ومُنكبِّينَ على وُجوهِهم صَرْعى، خامِدينَ لا حياةَ فيهم[(٣)].

ونبيُّ اللهِ شعيبٌ يُضيِّقُ عليهم هذه المصالحَ الدُّنيويَّةَ، فيَخسَرونَ ما كانوا يأخُذونَه من أموالِ النَّاسِ ظُلمًا). ((العذب النمير)) (٣/ ٦٠٧- ٦٠٨).

(١) جعَلَ ابنُ عاشورٍ الفاءَ في قولِهِ سُبحانَه: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ﴾ للتَّعقيبِ، فقال: (والفاءُ في: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ للتَّعقيبِ، أي: كان أخْذُ الرَّجفةِ إيَّاهم عَقِبَ قولِهم لقومِهم ما قالوا). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣).

وجعَلَها الشِّنقيطيُّ للسَّببيَّةِ، فقال: (﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ أي: بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وإلحادِهم). ((العذب النمير)) (٣/ ٦٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٨).

قال ابنُ كثيرٍ: (أصابَهم عذابُ يومِ الظُّلَّةِ، وهي سحابةٌ أظلَّتْهم، فيها شَرَرٌ من نارٍ ولَهَبٍ، ووَهَج عظيم، ثمَّ جاءَتْهم صيحةٌ مِنَ السَّماءِ، ورَجْفَةٌ مِنَ الأرضِ شديدةٌ من أسفلَ منهم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٧- ٢٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٣).

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٢﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَا﴾.

أي: الَّذين كذَّبوا شعيبًا عليه السَّلامُ قد هَلَكوا، وكأنَّهم لم يُقيموا قَطُّ في بَلَدِهم، ولم يَتمتَّعوا فيها(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤-٩٥].

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

أي: لم يكُنِ الخاسِرُ مَنِ اتَّبَعَ شعيبًا عليه السَّلامُ، بل الَّذين كذَّبوه كانوا هُمُ الخاسرينَ الهالِكينَ؛ لأنَّهم خَسِروا دِينَهم وأَنْفُسَهم وأَهْليهم يومَ القيامةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾.

أي: فانْصَرَفَ شعيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن قومِهِ بعْدَ حُلولِ العذابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦١٢- ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦١٥).

بهم[١]، وقال مُخاطِبًا لهم توبيخًا وعِتابًا[٢]: لقدْ أَدَّيْتُ إليكم- يا قومي- جميعَ ما أَمَرني اللهُ تعالى بأدائِه إليكم[٣].

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾.

أي: وأردْتُ لَكُمُ الْخَيْرَ في الدُّنيا والآخِرةِ، واجتهدْتُ في هِدايتِكم؛ فأَمَرْتُكم بما فيه خيرٌ لكم، ونَهَيْتُكُمْ عمَّا فيه شَرٌّ لكم، فلم تَقبَلوا نُصْحي، ولا انْقَدْتُم لإرشادي، بل طَغَيْتُم وتمَرَّدْتُم حتَّى أَهْلَكَكُمُ اللهُ[٤].

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

أي: فكيف يَشتدُّ حُزني على قومٍ كَفَروا باللهِ عزَّ وجلَّ، وكذَّبوا رسولَهُ؟! فَهُمْ لا خيرَ فيهم[٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- أمْرُ الدِّينِ هو الأعظمُ عِند المؤمنِ، والمُؤثِّرُ في أمْرِ الدُّنيا؛ يُبَيِّنُ ذلك

---

(١) اختار أنَّ مُخاطَبَتَهم كانت بعْدَ هلاكِهم وموتِهم: ابنُ كثيرٍ، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥).
واختار أنَّ مُخاطَبَتَهم كانت قَبْلَ هلاكِهم وموتِهم: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٦). ويُنظر ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٠-٦٢١).

(٢) اختارَه ابنُ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٤٤٩)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٩٧).
وقيل: خاطَبَهم بذلك حزنًا، وحَسرةً وشفقةً عليهم، وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ، وابنِ عطيَّةَ، وابن عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧).

قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾؛ فشعيبٌ عليه السَّلامُ لم يُؤْثِرْ هو ومَنْ آمَنَ معه التَّمَتُّعَ بالإقامةِ في وطَنِهم، ومُجاراةَ أَهْليهم في كُفرِهم ورَذائلِهم على مَرْضاةِ اللهِ تعالى[١].

٢- لم تَزَلِ الأنبياءُ والأكابرُ يخافونَ العاقبةَ، وانقلابَ الأمْرِ، فلو بلَغَ العبْدُ مِنَ الطَّاعةِ ما بلَغَ فلا ينبغي له أنْ يُفارِقَه هذا الحَذَرُ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[٢].

٣- قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ قومَ الرَّجلِ إذا كانوا أعداءً للهِ، فأهلَكَهم اللهُ بذُنوبِهم، فلا ينبغي له أنْ يحزَنَ عليهم؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا للحُزْنِ عليهم؛ لِعَداوتِهم للهِ ورسلِهِ[٣].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ التعبيرُ بصِيغةِ (استفعل) التي تدلُّ على الطَّلبِ ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم أَوْجَدوا الكِبْرَ إيجادَ مَنْ هو طالبٌ له بغايةِ الرَّغبةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤-٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾، خِطابُهم شعيبًا عليه السَّلامُ بالنِّداءِ- من غيرِ استعطافٍ ولا إجلالٍ- جارٍ على طريقةِ خِطابِ الغَضَبِ[١].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾، فيه ما يدُلُّ على صُعوبةِ مُفارَقةِ الوَطَنِ؛ إذْ قَرَنوا ذلك بالعَوْدِ إلى الكُفْرِ[٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾، عُدِّيَ (عاد) بـ (في) الظَّرفيَّةِ، كأنَّ المِلَّةَ لهم بمنزلةِ الوِعاءِ المُحيطِ بهم[٣].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، فيه ما يُبطِلُ تأويلَ القَدَريَّةِ (المشيئةَ) في مِثْلِ ذلك بمعنى (الأَمْرِ)، ومعلومٌ أنَّه مِنَ المُمتنِعِ على اللهِ أنْ يأمُرَ بالدُّخولِ في مِلَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ به، ولكنِ اسْتثنَوْا بمشيئتِهِ الَّتي يُضِلُّ بها مَنْ يشاءُ، ويَهدي مَنْ يَشاءُ، فالله تعالى له في خلقِه علمٌ محيطٌ، ومشيئتُه نافذةٌ وراءَ ما يعلمُه الخلائقُ، فامتناعُهم مِن العودِ فيها هو مبلغُ علومِهم ومشيئتِهم، ولله علمٌ آخرُ، ومشيئةٌ أُخرى وراءَ علومِهم ومشيئتِهم[٤].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، قولُه: ﴿وَسِعَ﴾ فِعْلٌ ماضٍ يدُلُّ على أنَّه تعالى كان عالِمًا في الأَزَلِ بجميعِ الأشياءِ مِنَ الكُلِّيَّاتِ والجزئيَّاتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٢١٥).
(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص:٦٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ استِئنافٌ مَبْنِيٌّ على سؤالٍ يَنساقُ إليه المَقالُ، كأنَّه قيل: فماذا قالوا بعدَما سمِعوا هذه المواعظَ من شعيبٍ عليه السَّلامُ؟، فقيل: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ...﴾[١].

- وفي قولِهِ: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ تغليبُ الجَمعِ على الواحدِ؛ إذْ منهم شعيبٌ، ولم يكُنْ في مِلَّتِهم حتَّى يعودَ إليها، وكذا قولُ شعيبٍ: ﴿إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَا﴾، وهو يُريدُ عَوْدَ قومِهِ، إلَّا أنَّه نَظَمَ نفسَهُ في جُملتِهم، وإنْ كان بريئًا من ذلك؛ إجراءً لكلامِهِ على حُكْمِ التَّغليبِ[٢]، هذا على أحدِ أوجهِ تأويلِ الآيةِ.

- وقولُه: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ﴾ فيه تَوْسيطُ النِّداءِ باسمِهِ العَلَميِّ بينَ المعطوفَيْنِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ، والتَّهديدِ النَّاشِئِ عن غايةِ الوَقاحةِ والطُّغيانِ مِن قومِه[٣].

٢- **قولُه**: ﴿قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ استئنافٌ، وفُصِلَتْ جُمْلَةُ ﴿قَالَ ...﴾،: أي لم تُعطَفْ بالواوِ على الجُملةِ قبلها؛ لِوُقوعِها فِي سِيَاقِ الـمُحاوَرَةِ[٤].

- والهمزةُ في ﴿أَوَلَوۡ﴾ للاستفهامِ، وهو مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّعَجُّبِ؛ لإنكارِ الوُقوعِ، ونَفْيِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢٩-١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن

٣- قولُه: ﴿ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَا ﴾

- قولُه: ﴿ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ كلامًا مُستأنَفًا، فيه معنى التَّعجُّبِ، كأنَّهم قالوا: ما أَكْذَبَنا على اللهِ إنْ عُدْنَا في الكفرِ بعدَ الإسلامِ! ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قَسَمًا على تَقديرِ حذْفِ اللَّامِ، بمعنى: واللهِ لقدِ افْتَرَيْنا على اللهِ كَذِبًا[1].

- وانتصابُ ﴿ كَذِبًا ﴾ على المفعوليَّةِ المُطْلَقَةِ؛ تأكيدًا لـ﴿ ٱفۡتَرَيۡنَا ﴾ بما هو مُساوٍ له، أو أَعَمُّ منه[2].

- قوله: ﴿ إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم ﴾ شَرْطٌ، وجوابُه محذوفٌ دَلَّ عليه قولُه: ﴿ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا ﴾، وهو بمعنى المستقبَلِ؛ لأنَّه لم يقَعْ، لكنَّهُ جُعِلَ كالواقعِ؛ للمُبالَغَةِ، وأُدْخِلَ عليه (قَدْ)؛ لتقريبِهِ مِنَ الحالِ[3].

- وقولُه: ﴿ بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَا ﴾ فيه إيجازُ حذْفٍ، أو كِنايةٌ؛ إذ المعنى: بعدَ إذْ هَدانا اللهُ للدِّينِ الحقِّ الَّذي اتَّبَعْناهُ بالوحيِ، فنجَّانا مِنَ الكفرِ، وذَكَر الإنجاءَ؛ لدَلالتِهِ على الإهداءِ، والإعلانِ بأنَّ مُفارَقةَ الكُفْرِ نَجاةٌ[4].

٤- قوله: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ تقييدٌ مقصودٌ منه التَّأدُّبُ، وتفويضُ العِلْمِ

عاشور)) (٩/ ٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٥/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨).

بالمستقبلِ إلى اللهِ، والكِنايةُ عن سُؤالِ الدَّوامِ على الإيمانِ مِنَ اللهِ تعالى[١].

- وفي الإتيانِ بوَصْفِ الرَّبِّ وإضافتُه إلى ضميرِ المتكلِّمِ المشارِكِ ﴿رَبُّنَا﴾: تَعريضٌ بأنَّ اللهَ مَوْلى الَّذين آمَنوا[٢].

- وقولُه: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فيه إعادةُ وَصْفِ الرُّبوبيَّةِ، وهو مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزيادةِ إظهارِ وَصْفِهِ بالرُّبوبيَّةِ المُلْتَمَسِ بذِكْرِها فِعْلُ ما يَفعَلُ المُرَبِّي الشَّفيقِ، وتأكيدِ التَّعريضِ المتقدِّمِ؛ حتَّى يَصيرَ كالتَّصريحِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفِعْلِ؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: عليه تَوكَّلْنا لا على غَيرِهِ؛ تحقيقًا لمعنى التَّوحيدِ، ونَبْذِ غيرِ اللهِ تعالَى[٤].

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في موقِعِ الإضمارِ، يُفيدُ المبالَغَةَ في التَّضرُّعِ والجُؤَارِ إلى اللهِ تعالى[٥].

- وقولُه: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلَهُ[٦].

٥- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾: ذِكْرُ الملأِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِطولِ الفَصْلِ بينَ المُتعاطِفَينِ، وإنَّما وَصَفَ الملأَ بالموصولِ وصِلَتِهِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ دونَ أنْ يقول: (الكافِرون) فيَكتفيَ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥١).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥١).

بحَرفِ التَّعريفِ المُقتضي أنَّ الملأَ الثَّانيَ هو الملأُ المذكورُ قَبْلَه؛ لِقَصْدِ زيادةِ ذَمِّ الملأِ بوَصْفِ الكُفْرِ، كما ذُمَّ فيما سبَق بوَصْفِ الاستكبارِ[(١)].

- و(إذًا) في قولِه: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ تفيدُ التَّوكيدَ[(٢)].

٦- **قولُه:** ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قالَ هنا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، وقال في سورَةِ هُودٍ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤] وقال تعالى إخبارًا عنهم في سورَةِ الشُّعَراءِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشُّعراء: ١٨٩]؛ فالله تعالى أخبَر في هذه السُّورةِ هنا أنَّهم أخَذَتْهم الرَّجْفَةُ، كما أرجَفوا شُعَيْبًا وأصْحابَه، وتَوَعَّدوهم بالجَلاءِ، والمناسَبَةُ في ذِكرِ الصيحة في سورة هود أنَّهم لَمَّا تَهَكَّمُوا بنَبِيِّ اللَّهِ شُعَيْبٍ في قَوْلِهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] فجاءت الصَّيْحَةُ فأسْكَتَتْهم. وأما في سورَةِ الشُّعَراءِ فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشُّعراء: ١٨٩] وما ذاك إلَّا لأنَّهم قالوا له في سِياقِ القِصَّةِ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشُّعراء: ١٨٧] فأخْبَر أنَّه أصابَهم عذابُ يومِ الظُّلَّةِ، وقد اجْتَمَع عليهم ذلك كلُّه[(٣)].

- وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قالَ هنا ﴿دَارِهِمْ﴾ بالإفرادِ مرَّتَيْنِ، وكذلك قال في العَنكبوتِ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨).

جَٰثِمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٧] مرَّةً واحدةً، بَينما قال في سورة هود: ﴿ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود: ٦٧-٩٤] مرَّتَيْنِ بالجَمْعِ؛ لأنَّ ما في المواضعِ الأُوَلِ تَقدَّمَهُ ذِكْرُ الرَّجفةِ، أي: الزَّلزلةِ، وهي تَختصُّ بجُزءٍ مِنَ الأرضِ، فناسَبَها الإفرادُ، وما في الأخيرَيْنِ تقدَّمَهُ ذِكْرُ الصَّيْحةِ، وكانتْ مِنَ السَّماءِ، وهي زائدةٌ على الرَّجفةِ، فناسَبَها الجَمْعُ[١].

٧- قولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

- قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَا ﴾ استئنافٌ؛ لبيانِ ابتلائِهم بشُؤْمِ قَوْلِهم فيما سبَق[٢].

- والتَّعْريفُ بالموصوليَّةِ في قولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا ﴾؛ للإيماءِ إلى وَجْهِ بِناءِ الخَبَرِ، وهو أنَّ اضمِحلالَهم وانقِطاعَ دابِرِهم كان جزاءً لهم على تكذيبِهم شعيبًا[٣]

- وقولُه: ﴿ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَا ﴾ فيه تشبيهُ حالِ اسْتِئصالِهم، وعَفاءِ آثارِهِمْ بحالِ مَنْ لم تَسبِقْ لهم حياةٌ، ولم يُقيموا في هذا المكانِ[٤].

- وقولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ استئنافٌ آخَرُ؛ لبيانِ ابتلائِهم بعُقوبةِ قَوْلِهم الأخيرِ، وإعادةُ الموصولِ والصِّلَةِ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا ﴾ كما هي؛ لزِيادةِ التَّقريرِ، والإيذانِ بأنَّ ما ذُكِرَ في حَيِّزِ الصِّلَةِ هو الَّذي

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٤).

استوجَبَ العقوبتَيْنِ[١]. وفي هذا الاستئنافِ والابتداءِ وهذا التَّكريرِ: مبالَغَةٌ في رَدِّ مَقالةِ الملأِ لأشياعِهم، وتَسْفيهٌ لرأيِهم، واستهزاءٌ بنُصْحِهم لقومِهم، واستعظامٌ لِمَا جَرى عليهم، وإيقاظُ السَّامِعينَ- وهُمْ مُشرِكو العربِ-؛ ليتقُّوا عاقبةَ أمثالِهم في الشِّرْكِ والتَّكذيبِ على طريقةِ التَّعريضِ، ولتعظيمِ المَذَلَّةِ لهم، وتفظيعِ ما يَستحِقُّونَ مِنَ الجزاءِ على جَهْلِهم؛ فالعربُ تُكَرِّرُ مِثْلَ هذا في التَّفخيمِ والتَّعظيمِ[٢].

- وضميرُ الفَصْلِ (هُم) في قولِهِ: ﴿كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ يُفيدُ القَصْرَ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: هُمُ المخصوصونَ بالخُسْرانِ العظيمِ دونَ أَتْباعِ شُعيبٍ عليه السَّلامُ؛ وذلك لإظهارِ سَفَهِ قولِ الملأِ للعامَّةِ: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ توقيفًا للمُعتبِرينَ بهم على تهافُتِ أقوالِهم، وسفاهةِ رأيِهم، وتحذيرًا لأمثالِهم مِنَ الوُقوعِ في ذلك الضَّلالِ[٣].

٨- قولُه: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾

- قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ نِداءٌ، الغرضُ منه التَّحَسُّرُ، والتَّبرُّؤُ مِن عَمَلِهم[٤].

- قولُه: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ وخاطَبَ به نَفْسَه؛ إذْ خَطَرَ له خاطِرُ الحُزنِ عليهم، فدَفَعَهُ عن نفسِهِ بأنَّهم لا يَستحِقُّونَ أنْ يُؤْسَفَ عليهم؛ لأنَّهُمُ اخْتاروا ذلك لأنْفُسِهم، ولأنَّه لم يترُكْ من تحذيرِهم ما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٥).

لو أَلْقاهُ إليهم لَأَقْلَعوا عمَّا هم فيه، فلم يَبْقَ ما يُوجِبُ أَسَفَهُ ونَدامتَهُ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ الاستفهامُ الإنكاريُّ موجَّهًا إلى نفسِهِ في الظَّاهِرِ، والمقصودُ نَهْيُ مَنْ معه مِنَ المؤمنينَ عَنِ الأَسَى على قومِهِمُ الهالكينَ؛ إذْ يجوزُ أنْ يحصُلَ في نُفوسِهم حُزنٌ على هَلْكَى قومِهم، وإنْ كانوا قدِ اسْتحقُّوا الهلاكَ[1].

- وقوله: ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ- حيْثُ لم يَقُلْ: (عليهم)-؛ لِيَتَأَتَّى وَصْفُهم بالكُفرِ زِيادةً في تعزيةِ شعيبٍ عليه السَّلامُ نَفْسَه، وتَرْكِ الحُزنِ عليهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٩٤-١٠٠)

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿ بِٱلۡبَأۡسَآءِ ﴾: البأساءُ اسمٌ للبُؤسِ، وهو المكروهُ والضَّرَرُ والشِّدَّةُ وسُوءُ الحالِ، وقيل: البأساءُ الفَقْرُ والفاقةُ، وهو مِن البُؤسِ، وأصل (بأس): الشِّدَّةُ وما ضاهاها. وقيل: البأساءُ ضرَّاءُ مَعها خوفٌ، وأصلُها مِن البأسِ، وهو الخَوفُ؛ يُقال: لا بَأسَ عليكَ، أي: لا خوفَ عليك[1].

﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾: أي: المرَضِ والضُّرِّ، والضَّرَّاءُ كذلك: سوءُ الحالِ، والفَقْرُ والقَحْطُ، والضُّرُّ: خِلافُ النَّفْعِ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠، ٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ١٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٥٠٣، ٥٠٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٠٢، ١٢٩).

﴿عَفَوا﴾: أي: كَثُروا، وزَادوا، وأَصْلُ العَفْوِ: تَرْكُ الشَّيءِ[١].

﴿مَسَّ﴾: أي: أصابَ، والمسُّ يُقالُ في كلِّ ما يَنالُ الإنسانَ مِن أَذًى، وأَصْلُ (مسس): جَسُّ الشيءِ باليَدِ[٢].

﴿وَٱلسَّرَّآءُ﴾: أي: السُّرورُ والفرَحُ ورخاءُ العَيْشِ، والسَّراءُ أيضًا لذَّةٌ في القلبِ عِند حُصولِ نفْعٍ أو توقُّعِه، أو عِند رؤيةِ أمْرٍ يُعجِبُ[٣].

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فجأةً، وكلُّ ما جاءَ فجأةً فقد بَغَتَ، يقال: قد بَغَتَه الأمرُ يَبْغَتُه بغْتًا وبَغتةً، إذَا أتاه فجأةً، والبغتُ: مفاجأةُ الشَّيءِ من حيثُ لا يُحتَسَب[٤].

﴿أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: أي: سُكَّانَها؛ وأهلُ الرَّجُلِ في الأَصلِ: مَنْ يَجمعُه وإيَّاهم مَسْكَنٌ واحدٌ، والقَرْيَةُ: اسْمٌ للمَوْضِعِ الَّذي يَجتمِعُ فيه النَّاسُ، ويُقالُ للمَدينَةِ: قَرْيَةٌ؛ لاجْتِماعِ النَّاسِ فيها، مِنْ: قَرَيْتُ الماءَ، إذا جَمَعْتَه[٥].

﴿بَأْسُنَا﴾: أي: عذابُنا، وأَصْلُ (بأس): يدلُّ على الشِّدَّةِ وما شابهها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٩٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٢)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨١، ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٢٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

﴿بَيَٰتًا﴾: أي: ليلًا، أو وَقْتَ بَياتٍ، واشتِغالٍ بالنَّوْمِ، وأَصْلُ البَيْتِ: مَأْوى الإنسانِ باللَّيلِ؛ لأنَّه يُقالُ: باتَ، أي: أقامَ باللَّيلِ(١).

﴿ضُحًى﴾: الضُّحَى: أوَّلُ اليومِ، أو انبِساطُ الشَّمسِ وامتِدادُ النَّهارِ، وسُمِّيَ الوقْتُ به، وَأَصْلُهُ يدُلُّ على بُروزِ الشَّيءِ(٢).

﴿أَصَبْنَٰهُم﴾: أي: أَهْلَكْناهم وأخَذْناهم(٣).

﴿وَنَطْبَعُ﴾: أي: ونَختِمُ، والطَّبْعُ: تصويرُ الشَّيءِ بصورةٍ ما، وهو مَثَلٌ على نِهايةٍ يَنتهي إليها الشَّيءُ، حتَّى يُخْتَمَ عِندَها(٤).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه ما أرسَلَ في قريةٍ من نبيٍّ من أنبيائِهِ، فكذَّبَهُ المُرْسَلُ إليهم، إلَّا أخَذَهم بالفَقْرِ والأمراضِ؛ كي يتضرَّعوا إليه، ويَدْعوه أنْ يَكشِفَ عنهم، فلمَّا لم يُفِدْ ذلك معهم باستمرارِهم في الطُّغيانِ، بدَّلَ اللهُ حالَهم السَّيِّئَ إلى حالٍ حَسَنٍ، فعافى أبدانَهم، وأَجْرى عليهم الأرزاقَ، حتَّى كَثُروا وكَثُرَتْ أموالُهم وأولادُهم، وقالوا: قدْ أصابَ آباءَنا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ. فأخَذَهم اللهُ فجأَةً، وَهُمْ لا يَشعُرونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّ أهْلَ القُرى لو آمَنوا واتَّقَوْا لَفَتَحَ عليهم بركاتٍ مِن السَّماءِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١).

والأرضِ، ولكنَّهم لم يَفعَلوا ذلك، بل كذَّبوا، فعاقَبَهم تعالى بما كسَبوا مِن كُفْرٍ، واقترَفوا من موبِقاتٍ؛ أَبَعْدَ ذلك يَأْمَنُ أهلُ القُرى أنْ يَحِلَّ عليهم عذابُ اللهِ الشَّديدُ ليلًا، وهُمْ نائمون؟! أو هل يأمَنونَ أنْ يأتيَهم العذابُ أوَّلَ النَّهارِ، وهم يَلعبَونَ؟! أفأمِنوا مَكْرَ اللهِ؟! فلا يأمَنُ مَكْرَهُ تعالى إلا القومُ الخاسِرونَ.

أوَلم يتبيَّنْ للَّذينَ يُستخلَفونَ في الأرضِ من بعْدِ هلاكِ أَهْلِها أنَّ اللهَ يَقْدِرُ إذا شاءَ أنْ يُهلِكَهم بسَبَبِ ذُنوبِهم، ويَخْتِمَ على قلوبِهم؛ فهم لا يَسمَعونَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا عرَّفَنا اللهُ تعالى أحوالَ هؤلاءِ الأنبياءِ، وأحوالَ ما جَرى على أُمَمِهم، كان مِنَ الجائزِ أنْ يُظَنَّ أنَّه تعالى ما أنزَلَ عذابَ الاستِئصالِ إلَّا في زَمَنِ هؤلاءِ الأنبياءِ فقط، فبيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ هذا الجِنْسَ مِنَ الهلاكِ قد فَعَلَه بغَيْرِهم، وبيَّنَ العِلَّةَ الَّتي بها يَفعَلُ ذلك[1]، فقال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾.

أي: إذا أرسَلْنا إلى أهلِ مدينةٍ نبيًّا، يَدعوهم إلى توحيدِ اللهِ، فكذَّبوه؛ عاقَبْناهم بشِدَّةِ الفَقْرِ والأمراضِ[2].

﴿ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٦).

أي: ابْتَلَيْناهم بالبأساءِ في أموالِهم، والضَّرَّاءِ في أَبْدانِهم؛ كيْ يَدْعوا ربَّهم أنْ يَكشِفَ ما حلَّ بهم مِنَ العذابِ، ويَخشَعوا له، ويُنِيبوا إليه بتَرْكِ الكفرِ به، وتكذيبِ أنبيائِهِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۞ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾.

أي: فلمَّا لم يُجْدِ معهم ذلك، واستمرَّ طُغيانُهم، حوَّلنا حالَهم مِنَ الشِّدَّةِ إلى الرَّخاءِ، فعافَيْنا أَبْدانَهم وأَجْرَيْنا عليهم الأرزاقَ، حتَّى كَثُروا، وكَثُرَتْ أموالُهم وأولادُهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾.

أي: لم يتضرَّعْ أهْلُ تلك القُرى إلى اللهِ تعالى حِينَ الشِّدَّةِ، ولم يَشْكروا اللهَ حِينَ النِّعمةِ، وقالوا: هذه أحوالٌ اعتياديَّةٌ قد جَرَتْ على آبائِنا مِنْ قَبْلِنا؛ فنالَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩-٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٧).

أحيانًا ما يَسوءُهم مِنَ الشَّدائدِ والأمراضِ، وأصابَهم في أحيانٍ أُخْرى ما يَسرُّهم مِنَ الرَّخاءِ والنِّعَمِ، فنحنُ مِثْلُهم، وليس لهذا الأمْرِ تعلُّقٌ بالموعظةِ والتَّذكيرِ والابتلاءِ، ونَحْوِ ذلك[١].

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: فأَخَذْنا أهلَ تلك القُرى بالهلاكِ فجأَةً، وهُمْ لا يَعلمونَ بمجيءِ العذابِ، ولم يَخْطُرْ ببالِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ الَّذينَ عَصَوْا وتَمَرَّدوا أخَذَهم اللهُ بَغْتَةً؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّهم لو أطاعوا لَفَتَحَ اللهُ عليهم أبوابَ الخيراتِ[٣]، فقال:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولو حَصَلَ أنَّ أهلَ القُرى المُهلَكاتِ صَدَّقوا بما جاءَتْهم به الرُّسلُ مِنَ الوحيِ والدَّلالاتِ، واتَّقَوُا اللهَ بفِعْلِ الطَّاعاتِ، وتَرْكِ المُحرَّماتِ، لَفَتَحَ اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢١-٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص:٢٩٨).

عليهم مِنَ السَّماءِ والأرضِ البركاتِ؛ فأنزَلَ عليهم الأمطارَ، وأَنْبَتَ لهم الأرضُ أنواعَ الثِّمارِ والنَّباتاتِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

وقال سُبحانَه حاكيًا قَوْلَ نُوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لقومِهِ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

وقال تَبارَكَ وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

أي: ولكنَّهم لم يُؤمِنوا ويتَّقوا، بل كذَّبوا رُسُلَهم وما جاؤوهم به مِنَ البراهينِ القاطِعاتِ؛ فعاقَبَهم اللهُ تعالى بأنواعِ العقوباتِ، ونَزْعِ البركاتِ؛ بسَبَبِ كُفْرِهم، واقترافِهم السَّيِّئاتِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٩).
قال ابن عاشور: (قوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ مرادٌ به حقيقتُهُ؛ لأنَّ ما يَنالُهُ النَّاسُ مِنَ الخيراتِ الدُّنيويَّةِ لا يَعْدو أنْ يكونَ ناشِئًا مِنَ الأرضِ، وذلك مُعْظَمُ المنافعِ، أو مِنَ السَّماءِ مثل ماءِ المطرِ وشعاعِ الشَّمسِ وضوءِ القمرِ والنُّجومِ والهواءِ والرِّياحِ الصَّالِحَةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٣٠).

٤١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧﴾.

أي: أَبَعْدَ ذلك يَظُنُّ أهلُ القُرى الكافرةِ أنَّهم آمِنونَ مِن حُلولِ عذابِنا الشَّديدِ عليهم ليلًا وهم نِيامٌ[1]؟!

﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨﴾.

أي: أَوَيَظُنُّ أهلُ القُرى الكافرةِ أنَّهم في مَأْمَنٍ من أنْ يأتيَهم عذابُنا عليهم في أوَّلِ النَّهارِ وهم في لَهْوِهم وغَفْلتِهم[2]؟!

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾.

أي: فهل أَمِنَ أهلُ القُرى الكافرةِ أنْ يَستدرِجَهم اللهُ بنِعَمِه، كما استدرَجَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهم، ثمَّ يأخُذَهم بعذابِهِ بَغْتَةً في حالِ سَهْوِهم وغَفْلتِهم[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨).

قال الزمخشريُّ: (المعطوفُ عليه قولُه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾، وقولُه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ إلى ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ وقَعَ اعتراضًا بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، وإنَّما عطف بالفاء؛ لأنَّ المعنى: فعلوا وصنعوا ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾؛ أَبَعْدَ ذلك أَمِنَ أهلُ القرى أنْ يأتيَهم بأسُنا بَياتًا، وأَمِنوا أنْ يأتيَهم بأسُنا ضُحًى؟!). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٤). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٠).

وقال الشِّنقيطيُّ: (ومعنى إنكارِهِ على أهل القرى: جَمْعُهم بين الكفرِ به وتكذيبِ رُسلِه، وعدمُ خوفِهم من بطشِه ونَكالِه، فهذا يدُلُّ على غايةِ الجهلِ باللهِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير))

كما قال سُبحانَه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

أي: فَلا يأمَنُ أحدٌ مكْرَ اللهِ تعالى له باستِدراجِه بنِعَمِه، مع إقامتِه على الكُفْرِ، وإصرارِهِ على المعاصي، إلَّا القومُ الهالكونَ، الَّذينَ أضاعوا عقولَهم، وأَعْرَضوا عَنِ التَّفكُّرِ بها، ففَقَدوا ما ينفَعُهم، وجَلَبوا إلى أنفسِهم ما يَضُرُّها(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠﴾.

(٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨).

قال الشنقيطيُّ: (معنى مكرِ اللهِ: أنَّه جلَّ وعلا يستدرِجُهم ويُغدِقُ عليهم النِّعمَ والصِّحَّةَ والعافيةَ؛ حتَّى يكونوا أغفَلَ ما كانوا، ثمَّ يأخذُهم بغْتةً، ويُهلِكُهم في غايةِ الغفلةِ). ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤).

وقال عبد الرحمن بن ناصر البرَّاك: (المكرُ والكيدُ: تدبيرٌ خفيٌّ يتضمَّن إيصالَ الضَّررِ من حيث يُظنُّ النَّفعُ، فالَّذي يُريدُ أنْ يمكرَ يُظهِرُ المحبَّةَ، ويُظهِرُ الإحسانَ، وهو يتَّخذُ ذلك وسيلةً للإيقاعِ بخَصمِه وعدُوِّه، والمكرُ مِنَ النَّاسِ منه: المحمودُ، والمذمومُ، فإذا كان على وجهِ العدلِ فهو محمودٌ، وإذا كان على وجهِ الظُّلمِ والعُدوانِ فهو مذمومٌ... أمَّا مكرُ اللهِ فهو كلُّه محمودٌ، وعدلٌ، وحِكمةٌ، هو تعالى يمكر بالكافرين مكرًا حقيقيًّا، ويُدبِّر تدبيرًا خفيًّا يُوصِلُ به العِقابَ من حيث يُظَنُّ الإنعامُ). ((توضيح مقاصد العقيدة الواسطية)) (ص: ٩٢). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧-٨)، ((صفات الله عزَّ وجلَّ الواردة في الكتاب والسنة)) لعَلَوي السَّقَّاف (ص: ٣٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى فيما تقدَّمَ مِنَ الآياتِ حالَ الكفَّارِ الَّذينَ أَهْلَكَهم اللهُ بالاستِئْصالِ مُجمَلًا ومُفصَّلًا- أَتْبَعَهُ ببيانِ أنَّ الغَرَضَ من ذِكْرِ هذه القَصصِ هو حُصولُ العِبْرَةِ لجميعِ المُكلَّفينَ؛ في مصالحِ أَدْيانِهم وطاعاتِهم[1].

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

أي: أَوَلَمْ يَتبيَّنْ ويَظهَرْ للَّذينَ يُستخلَفونَ في الأرضِ من بعْدِ هلاكِ أهلِها أنَّا نَقدِرُ- إذا شِئْنا- على إهلاكِهم؛ بسَبَبِ كُفرِهم ومعاصيهم، كما عاقَبْنا الَّذينَ من قبْلِهم ممَّنْ سار سيرَتَهم، وفعَلَ مِثْلَ صَنيعِهم[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤-٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧- ٣١).

وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۞ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦- ١٨].

وقال جلَّ جلالُهُ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

أي: ونحن نَختِمُ على قلوبِهم، فيُؤدِّي ذلك بهم إلى عَدَمِ قَبولِ الهُدى، وعدمِ الاستجابةِ للحَقِّ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٤)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١، ٣٨).
قال الواحديُّ: (قال الزَّجَّاجُ: هذا مُستأنَفٌ مُنقطِعٌ عمَّا قبْلَه؛ لأنَّ قولَهُ ﴿أَصَبْنَا﴾ ماضٍ، و﴿وَنَطْبَعُ﴾ مستقبَلٌ، والمعنى: ونحن نَطبَعُ على قلوبِهم، قال ابنُ الأنباريِّ: ويجوز أنْ يكونَ معطوفًا على ﴿أَصَبْنَا﴾ إذا كان بمعنى نُصيبُ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٩٠).
وقال ابن عاشور: (وجملةُ: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ليستْ معطوفةً على جملةِ: ﴿أَصَبْنَاهُمْ﴾ حتَّى تكونَ في حُكْمِ جوابِ ﴿لَوْ﴾؛ لأن هذا يُفْسِدُ المعنى؛ فإنَّ هؤلاءِ الَّذينَ وَرِثوا الأرضَ من بعْدِ أهلِها قد طُبِعَ على قلوبِهم؛ فلذلك لم تُجْدِ فيهم دَعوةُ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنْذُ بُعِثَ إلى زمنِ نُزولِ هذه السُّورةِ، فلو كان جوابًا لـ﴿لَوْ﴾ لصارَ الطَّبعُ على قلوبِهم صِيغَ بصيغةِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على استمرارِ هذا الطَّبعِ، وازديادِهِ آنًا فآنًا، وإمَّا أنْ تُجْعَلَ (الواو) للاستئنافِ، والجُملةَ مُستأنَفة، أي: ونحن نَطْبَعُ على قلوبِهم في المستقبَلِ، كما طَبَعْنا عليها في الماضي، ويُعْرَفُ الطَّبعُ عليها في الماضي بأخبارٍ أُخْرى؛ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ...﴾ الآيةَ [البقرة: ٦]، فتكونُ الجملةُ تَذْييلًا لِتَنْهِيَةِ القِصَّةِ، ولكنَّ مَوْقِعَ الواوِ في أوَّلِ الجملةِ يُرجِّحُ الوجهَ الأوَّلَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨- ٢٩).
واختار ابنُ عطيَّةَ أنَّ الواوَ في قولِه تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ﴾ عاطفةٌ، فيكونُ الطَّبْعُ معطوفًا على المعاصي ومُتَوَعَّدًا به.
قال ابنُ عطيَّةَ: (﴿وَنَطْبَعُ﴾ عُطِفَ على المعاصي؛ إذِ المرادُ به الاستقبالُ، ويحتمِلُ أنْ يكونَ ﴿وَنَطْبَعُ﴾ مُنقطِعًا؛ إخبارًا عن وُقوعِ الطَّبْعِ لا أنَّه مُتَوَعَّدٌ به). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٣).
وهذا الَّذي جعَله ابنُ عطيَّةَ احتمالًا اختاره القرطبيُّ والشنقيطيُّ باعتبارِ أنَّ الواوَ استِئنافيَّةٌ، والمعنى: ونحن نَطْبَعُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١).

كما قال سُبحانَه: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال جلَّ جلالُهُ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾، ممَّا ثبَتَ بالتَّجارِبِ وتَقرَّرَ عِندَ علماءِ النَّفْسِ والأخلاقِ أنَّ الشَّدائِدَ ومَضايقَ الأُمورِ ممَّا يُربِّي النَّاسَ، ويُصْلِحُ من فسادِهم؛ فالمؤمنُ قد يَشْغَلُه الرَّخاءُ وهَناءُ العَيْشِ؛ فَيُنْسيهِ ضَعْفَه وحاجتَه إلى ربِّه، والشَّدائدُ تُذَكِّرُه به، والكافرُ بالنِّعَمِ قد يَعرِفُ قيمتَها بفَقْدِها، فينقَلِبُ شاكرًا بعْدَ عَوْدِها، بل الكافرُ باللهِ عزَّ وجلَّ قد تُنبِّه الشَّدائدُ والأهوالُ مَرْكَزَ الشُّعورِ بوُجودِ الرَّبِّ الخالقِ المُدبِّرِ لأُمورِ الخَلْقِ في دِماغِهِ، وتُذكِّرُه بما أُودِعَ في فِطْرتِهِ من وُجودِ مَصْدَرٍ لنظامِ الكَوْنِ وأَقْدارِهِ، كما وقع كثيرًا، والآياتُ في هذا كثيرةٌ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٤-١٥).

٢- المعاصي تَمْحَقُ بَركةَ الدِّينِ والدُّنيا، وما مُحِقَتِ البَركةُ مِنَ الأرضِ إلَّا بمعاصي الخَلْقِ، يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1].

٣- إذا آمَنَ النَّاسُ واتَّقَوْا وأطاعُوا اللهَ تعالَى، أَغْدَقَ عليهم رِزْقَه؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2].

٤- لا ينبغي للعَبْدِ أنْ يكونَ آمِنًا على ما عِندَه مِنَ الإيمانِ، بل لا يَزالُ خائفًا وَجِلًا أنْ يُبْتَلى ببَلِيَّةٍ تَسلُبُ ما عِندَه مِنَ الإيمانِ؛ قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ فالمؤمنُ يعمَلُ بالطَّاعاتِ وهو مُشْفِقٌ وَجِلٌ خائفٌ، والفاجِرُ يعمَلُ بالمعاصي وهو آمِنٌ، كما قال بَعضُ السَّلَف[3]، فهذه الآيةُ الكريمةُ فيها من التخويفِ البليغ، على أنَّ العبدَ لا ينبغي له أن يكونَ آمِنًا على ما معه من الإيمانِ، بل لا يزالُ خائفًا وَجِلًا؛ أن يُبتلَى ببليَّةٍ تسلُبُ ما معه من الإيمانِ، وأنْ لا يزالُ داعيًا بِقَولِه: (يا مُقلِّبَ القلوبِ، ثَبِّتْ قلبي على دينِك) وأن يعمَلَ ويسعى في كلِّ سببٍ يخلِّصُه من الشَّرِّ، عند وقوعِ الفِتَن؛ فإنَّ العبدَ- ولو بلغَتْ به الحالُ ما بلغَتْ- فليس على يقينٍ من السَّلامةِ[4].

٥- مَنْ أَوْضَحَ اللهُ له سُبُلَ الهُدى، وذَكَرَ له أمثالًا ممَّنْ أَهْلَكَهم تعالى بذُنوبِهم، وهو مع ذلك دائمٌ على غَيِّهِ لا يَرْعَوي، يَطْبَعِ اللهُ على قلبِهِ؛ فَيَنْبو سَمْعُه عن سَماعِ الحَقِّ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص:٨٤).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٩- ٦٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص:٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢١-١٢٢).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ ﴾ تَخصيصُ القُرى بإرسالِ الرُّسلِ فيها دونَ البَوادي- كما أشارَتْ إليه هذه الآيةُ وغيرُها من آيِ القرآنِ، وشَهِدَ به تاريخُ الأديانِ- يُنْبِئُ أنَّ مُرادَ اللهِ تعالى من إرسالِ الرُّسلِ هو بَثُّ الصَّلاحِ لأصحابِ الحضارةِ الَّتي يَتَطَرَّقُ إليها الخَلَلُ بسَبَبِ اجتماعِ الأصنافِ المختلِفةِ[١].

٢- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ ﴾، في لَفْظِ ﴿مَكَانَ ﴾ إشعارٌ بتَمَكُّنِ البأساءِ منهم، كأنَّه صارَ للشِّدَّةِ عِندهم مكانٌ[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾، إنَّما جُعِلَ ذلك سَيِّئَةً؛ لأنَّه ممَّا يَسوءُ النَّاسَ، ولا تَسوءُهم الحَسَنَةُ، وهي الرَّخاءُ والنِّعمةُ، والسَّعةُ في المعيشةِ[٣].

٤- قولُ اللهِ تَعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ ﴾، الحَسَنةُ اسْمٌ اعْتُبِرَ مؤنَّثًا؛ لتأويلِهِ بالحالةِ والحادثةِ، وكذلك السَّيِّئةُ، فَهُمَا في الأصْلِ صفتانِ لموصوفٍ محذوفٍ، ثمَّ كَثُرَ حَذْفُ الموصوفِ؛ لِقِلَّةِ جَدْوى ذِكْرِهِ، فصارَتِ الصِّفتانِ كالاسمَيْنِ؛ ولذلك عُبِّرَ عَنِ الحسنةِ في بعضِ الآياتِ بما يتلمَّحُ منه معنى وَصْفِيَّتِها[٤].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ نَصٌّ في أنَّ كَذِبَهم وكُفْرَهم هو كَسْبُهم الَّذي حَرَمَهم البركاتِ، وعليه توعَّدَهم بالعقوباتِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨).

ففيه رَدٌّ على الجَبْرِيةِ[١].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾، ﴿أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يُرادُ به الجِنْسُ، أي: الأُمَمُ، ويحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ به مَنْ ذُكِرَ حالُهم فيما تقدَّمَ؛ وضعًا للمُظْهَرِ فيه مَوْضِعَ المُضْمَرِ؛ ليدُلَّ على أنَّ مضمونَها ليس خاصًّا بأقوامٍ بأعيانِهم، بل هو قواعدُ عامَّةٌ في أحوالِ الأُمَمِ، فَيُرادُ بالاسمِ المُظْهَرِ العُنوانُ العامُّ لها، لا آحادُ ما ذُكِرَ منها[٢].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ فيه تَقريعٌ لهم بنِسْبَتِهم إلى أنَّهم صِبيانُ العُقولِ، لا التِفاتَ لهم إلى غيرِ اللَّعِبِ[٣].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فيه ذَكَرَ الله تعالى مكْرَه وَحْدَه، ولم يذْكُرْ مكْرَ عبْدِه، كما قال في موضعٍ آخرَ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فذَكَرَ مكرَهم ومكرَهُ، وهنا ذَكَرَ مكرَه وحدَه؛ فقال: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، والمكرُ صفةٌ أطلَقَها اللهُ على نفسِهِ، ولا يجوزُ إطلاقُها على اللهِ إلَّا في الموضِعِ الَّذي يُطلِقُها هو على نفسِهِ أو رسولُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد أَجْمَعَ جميعُ العلماءِ أنَّه لا يجوزُ أنْ يُشْتَقَّ له منها اسْمٌ، فلا تَقُلْ: من أسمائِهِ الماكِرُ؛ لأنَّ ذلك لا يَجوزُ إجماعًا[٤].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ اسْتُدِلَّ به على أنَّ الأمْنَ من مَكرِ اللهِ مِنَ الكبائرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧، ٨).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قولُهُ:** ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ ﴾، ﴿مِّن﴾ صِلةٌ؛ للتَّنْصيصِ على العُمومِ المُستَفادِ من وُقوعِ النَّكِرَةِ في سِيَاقِ النَّفْيِ[١].

٢- قولُهُ: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ فيه تأكيدُ مَعنَى البَغتةِ بقولِه: ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾؛ فهي حالٌ مُؤكِّدةٌ لمعنَى ﴿بَغۡتَةٗ ﴾؛ إذ مدلولُ ﴿بَغۡتَةٗ ﴾ يَقتضِي عَدمَ الشُّعورِ بأخْذِه إيَّاهم حِينَ يَقَعُ[٢].

٣- **قولُهُ:** ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ ﴾، التَّعريفُ في القُرى تعريفُ العَهْدِ؛ فإضافةُ ﴿أَهۡلَ ﴾ إليه تُفيدُ عُمومَه بقَدْرِ ما أُضيفَ هو إليه[٣]، وهو تعريضٌ بإنذارِ الَّذينَ كذَّبوا مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أهلِ مكَّةَ، وتعريضٌ ببِشارَةِ أهلِ القُرى الَّذينَ يُؤمنونَ، كأهلِ المدينةِ[٤].

٤- **قولُهُ:** ﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾

- في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ ﴾ وقوله: ﴿أَوَأَمِنَ ﴾ دَخَلَتْ الهَمْزةُ على (أَمِنَ)؛ للاستفهامِ على جِهَةِ التَّعجُّبِ، ومَحَلُّ التَّعجُّبِ هو تَواطُؤُهم على هذا الغُرورِ، أي: يَترَتَّبُ على حِكايَةِ تَكْذيبِهم وَأَخْذِهم اسْتِفْهامُ التَّعجُّبِ مِنْ غُرورِهم، وأَمْنِهم غَضَبَ القَادِرِ العَليمِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠) و(٢٥/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢).

- وجِيءَ بقَوْلِه: ﴿يَأْتِيَهُم﴾ بصِيغَةِ المُضارِعِ؛ لأَنَّ المُرادَ حِكايَةُ أَمْنِهم الَّذي مَضَى مِنْ إِتْيانِ بَأْسِ اللهِ في مُسْتَقْبَلِ ذلك الوَقْتِ[١].

- وتكرَّرَ لَفْظُ: ﴿أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾؛ لِمَا في ذلك مِنَ التَّسميعِ والإبلاغِ والتَّهديدِ والوَعيدِ بالسَّامِعِ ما لا يكون في الضَّميرِ لو جاء: (أَوَأمِنوا)؛ فإنَّه متى قُصِدَ التَّفخيمُ والتَّعظيمُ والتَّهويلُ جِيءَ بالاسمِ الظَّاهِرِ[٢]، وفيه إنكارٌ بَعْدَ إنكارٍ؛ للمبالَغَةِ في التَّوبيخِ الشَّديدِ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ وقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ جاءَ ﴿نَآئِمُونَ﴾ باسْمِ الفاعِلِ؛ لأنَّها حالةُ ثُبوتٍ واستِقرارٍ للبائِتينَ، وجاءَ ﴿يَلْعَبُونَ﴾ بالمُضارِعِ؛ لأنَّهم مُشتغِلونَ بأفعالٍ مُتَجَدِّدَةٍ شيئًا فشيئًا في ذلك الوَقْتِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ جاءَ تَقييدُ التَّعجُّبِ من أَمْنِهم مَجيءَ البأْسِ بوَقْتَيِ البَياتِ والضُّحَى مِن بَيْنِ سائرِ الأوقاتِ، وبِحَالَيِ النَّومِ واللَّعِبِ من بَيْنِ سائرِ الأحوالِ؛ لأنَّ الوَقْتَيْنِ أَجْدَرُ بأنْ يُحْذَرَ حُلولُ العذابِ فيهما؛ لأنَّهما وقتانِ للدَّعَةِ، فالبَياتُ للنَّومِ بعْدَ الفراغِ مِنَ الشُّغْلِ، والضُّحى لِلَّعِبِ قبلَ استقبالِ الشُّغْلِ، فكان شأْنُ أُولي النُّهى المُعرضينَ عن دعوةِ رُسُلِ اللهِ ألَّا يَأْمَنوا عذابَه، بخاصَّةٍ في هذَيْنِ الوقتَيْنِ والحالَيْنِ، وفي هذا التَّعجُّبِ تَعريضٌ بالمشركينَ المكذِّبينَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَحِلَّ بهم ما حَلَّ بالأُمَمِ الماضيةِ؛ فكان ذِكْرُ وقتِ البَياتِ ووقتِ اللَّعِبِ أَشَدَّ مُناسَبَةً

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٢-١٣).

بالمعنى التَّعريضيِّ؛ تَهديدًا لهم بأنْ يُصيبَهم العذابُ بأَفْظَعِ أحوالِهِ؛ إذ يكون حُلولُهُ بهم في ساعةِ دَعَتِهم، وساعةِ لَهْوِهِمْ؛ نِكايةً بهم[١].

٥- قولُه: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، فيه تَكْرَار المكرِ مُضافًا إلى اللهِ؛ تحقيقًا لِوُقوعِ جزاءِ المَكْرِ بهم[٢].

٦- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، الاستفهامُ في قولِهِ: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعْجبِ[٣].

- وعبَّرَ عَنِ الإصابةِ بالماضي ﴿أَصَبۡنَٰهُم﴾؛ إشارةً إلى سرعةِ الإهلاكِ، وعَنِ الطَّبْعِ بالمضارعِ ﴿وَنَطۡبَعُ﴾؛ إيماءً إلى التَّجدُّدِ، بحيثُ لا يمُرُّ زَمَنٌ إلَّا كانوا فيه في طَبْعٍ جديدٍ[٤]؛ فالتَّقديرُ: وطَبَعْنا على قلوبِهم، ولكنَّهُ صِيغَ بصِيغةِ المُضارعِ؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ هذا الطَّبْعِ، وازديادِه آنًا فآنًا، وإمَّا أنْ تكونَ (الواو) للاستئنافِ، والجُملة مُستأنَفةً، أي: ونَحنُ نَطْبَعُ على قُلوبِهم في المستقبَلِ كما طَبَعْنا عليها في الماضِي[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩).

الآيات (١٠١-١٠٢)

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: جَمْعُ بيِّنةٍ، وهي: الدَّلالةُ الواضحةُ أو الحُجَّةُ، وأَصْلُ (بين): اتِّضاحٌ وانْكِشافٌ[1].

﴿عَهْدٍ﴾: العَهْدُ: حِفْظُ الشَّيءِ ومُراعاتُهُ حالًا بعْدَ حالٍ، وأَصْلُهُ: الاحتِفاظُ بالشَّيءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ نبيَّه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: إنَّ تلك القُرى الَّتي سبَقَ ذِكْرُها، نَقُصُّ عليكَ من أخبارِها ما يَحْصُلُ به تَسْلِيَةٌ لك وللمؤمنينَ، وموعِظَةٌ للمُتَّعِظينَ، ورَدْعٌ وزَجْرٌ للكافرينَ، ولقدْ أَتى أهلَ القُرى رُسُلُهم بالأدلَّةِ الَّتي تدُلُّ على صِدْقِهم، فما كانوا ليؤمِنوا بما جاءَتْ به الرُّسلُ؛ وذلك بسببِ تَكْذيبِهم بالحَقِّ أوَّلَ ما وَرَدَ إليهم، كذلك يَخْتِمُ اللهُ على قلوبِ الكافرينَ؛ فَلا يؤمِنونَ أبدًا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (١/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٦٧)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٥٩١).

ويُخبِرُ تعالى أنَّه لم يَجِدْ لِأَكْثَرِ الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي أَهْلَكَها من وَفاءٍ والتِزامٍ بعَهْدٍ، وما وجَدَ أكْثَرَهم إلَّا فاسقينَ.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّه بَعَثَ من بعْدِ الأنبياءِ الَّذينَ حكَى قصصَهم موسى بالأدلَّةِ والمعجزاتِ الَّتي تدُلُّ على صِدْقِ ما جاء به، إلى فرعونَ ومَلَئِهِ، فكَفَروا بها واستكْبَروا عنها، فَوَقَعوا في الظُّلْمِ بسَببِ ذلك، ثمَّ أمَرَ اللهُ نبيَّهُ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَنظُرَ كيف كانتْ نهايةُ القَوْمِ المُفسدينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾.

أي: هذه القُرى المُهلَكَةُ الَّتي سبَقَ ذِكْرُها- وهم قَوْمُ نُوحٍ وعادٌ وثَمودُ، وقومُ لُوطٍ، وأصحابُ مَدْيَنَ[1]- نَتْلو عليكَ- يا مُحَمَّدُ- في هذا القرآنِ الكريمِ مِن[2] أخبارِ أهلِها ما يَحْصُلُ به تَسْلِيَةٌ لكَ وللمؤمنينَ، وفيه عِبْرَةٌ للمُعْتبِرينَ، وموعظةٌ للمتَّقينَ، وازْدِجارٌ للكافرينَ، ورَدْعٌ للظَّالمينَ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ

(١) قال أبو حيَّانَ: (والقُرى هي بِلادُ قومِ نوحٍ وهودٍ وصالِحٍ وشعيبٍ بِلا خِلافٍ بَيْنَ المُفسِّرينَ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٣-١٢٤).

(٢) قال ابنُ عاشورٍ: (و«مِنْ» تبعيضيَّةٌ؛ لأنَّ لها أنباءً غيرَ ما ذُكِرَ هنا، ممَّا ذُكِرَ بعضُه في آياتٍ أُخْرى، وطُوِيَ ذِكْرُ بعضِهِ؛ لِعَدَمِ الحاجةِ إليه في التَّبليغِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤).

كَانَ نَكِيرِ ﴾[الحج: ٤٢-٤٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۞ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۞ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۞ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[هود: ١٠٠-١٠٣].

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾.

أي: إنَّ أهلَ تلك القُرى المُهْلَكَةِ، قد جاءَتْهم رُسُلُهم بالحُجَجِ، والمعجزاتِ الظَّاهرةِ الَّتي تدُلُّ على صِدْقِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[التوبة: ٧٠].

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾.

أي: يَمتنِعُ على أهلِ تلك القُرى المُهْلَكَةِ أنْ يؤمِنوا بما جاءَتْهم به الرُّسلُ؛ وذلك بسببِ تكذيبِهم بالحقِّ أوَّلَ ما وَرَدَ عليهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨).

(٢) هذا المعنى اختاره ابنُ كثيرٍ، والسعديُّ، والشِّنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٣).

ورجَّح ابنُ جرير أنَّ المعنى: أنَّهم لم يكونوا ليؤمنوا بما هم به مُكذِّبون في سابِقِ عِلمه قَبلَ مجيء الرُّسل، وعندَ مجيئِهم إليهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٩).

كما قال سُبحانَه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

أي: مِثْلَمَا خَتَمَ اللهُ على قلوبِ كفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ بهذا الخَتْمِ الشَّديدِ المُحْكَمِ، يختِمُ أيضًا على قُلوبِ جميعِ الكافرينَ؛ فَلا تؤثِّرُ فيهم الآياتُ والنُّذُرُ، ولا يؤمنون أبدًا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾.

أي: وما عَلِمْنا لِأَكْثَرِ الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي أهلَكْناها مِن وَفاءٍ والتزامٍ بالعهْدِ الَّذي وَصَّيْناهم به، مِن توحيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، واتِّباعِ رُسُلِه عليهم السَّلامُ[(٢)].

وفي الآية أقوالٌ أخرى. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤).

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾.

أي: وقدْ وجَدْنا أكثرَ الأُمَمِ السَّابقةِ خارِجينَ عن طاعةِ اللهِ تعالى(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦٧].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لمَّا قَصَّ اللهُ تعالى على نبيِّهِ أخبارَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ وما آلَ إليه أمْرُ قومِهم، وكان هؤلاءِ لم يَبْقَ منهم أَحَدٌ، أَتْبَعَ بقصصِ موسى وفرعونَ وبني إسرائيلَ؛ إذْ كانت مُعجِزاتُه من أعْظَمِ المعجزاتِ، وأُمَّتُه من أكثرِ الأُممِ

قال ابنُ كثيرٍ: (والعهْدُ الَّذي أخَذَهُ عليهم هو ما جَبَلَهم عليه، وفَطَرَهم عليه، وأخَذَ عليهم في الأصلابِ أنَّه ربُّهم ومَليكُهم، وأنَّه لا إلهَ إلَّا هو، فأقرُّوا بذلك، وشَهِدوا على أنفُسِهم به، فخالَفوه وتَرَكوه وَراءَ ظُهورِهم، وعبَدوا مع اللهِ غيرَه بلا دَليلٍ ولا حُجَّةٍ، لا مِنْ عقْلٍ ولا شرْعٍ، وفي الفِطَرِ السَّليمةِ خِلافُ ذلك، وجاءَتِ الرُّسلُ الكِرامُ من أوَّلِهم إلى آخِرِهم بالنَّهيِ عن ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٣).

وقال ابنُ عاشورٍ: (العهْدُ هنا يجوزُ أنْ يُرادَ به الوَعْدُ الَّذي حقَّقَه الأُممُ لِرُسلِهم مثل قولِهم: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]؛ فإنَّ معنى ذلك: إنْ أَتَيْتَنا بآيةٍ صدَّقْناكَ، ويجوزُ أنْ يُرادَ به وَعدٌ وَثَّقَهُ أسلافُ الأُممِ من عهْدِ آدَمَ ألَّا يَعْبدوا إلَّا اللهَ، وهو المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ الآيةَ [يس: ٦٠]، فكان لازِمًا لِأَعْقابِهم، ويجوز أنْ يُرادَ به ما وَعَدَتْ به أرواحُ البَشَرِ خالِقَها في الأَزَلِ، المَحْكِيُّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢- ٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٧).

تكذيبًا وتَعَنُّتًا واقتراحًا وجهلًا، وكان قد بَقِيَ من أَتْباعِه عالَمٌ وهم اليهودُ، فقَصَّ اللهُ علينا قصصَهم؛ لِنَعْتبِرَ ونتَّعِظَ، ونَنْزَجِرَ عن أنْ نتشبَّهَ بهم[١]، فقال تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾.

أي: ثمَّ أَرْسَلْنا من بعْدِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ عليهم السَّلامُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بالأدلَّةِ والمُعجِزاتِ الظَّاهرةِ الَّتي تدُلُّ على صِدْقِهِ، إلى مَلِكِ مِصْرَ، وأشرافِ قومِهِ، وكُبَراءِ رِجالِهِ[٢].

﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾.

أي: فكَفَرَ فرعونُ وقومُهُ بالمُعجِزاتِ الَّتي أرسَلْنا بها موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤، ٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩- ٦٠).
قال ابنُ عاشورٍ: (فرعونُ عَلَمُ جِنْسٍ لملِكِ مِصْرَ في القديم... وهذا الاسْمُ نظيرُ (كِسْرى) لملِكِ مُلوكِ الفُرْسِ القدماءِ، و(قَيْصَرَ) لملِكِ الرُّومِ، و (نُمْرودَ) لملِكِ كَنْعانَ، و(النَّجاشِيِّ) لملِكِ الحَبَشِ، و(تُبَّعٍ) لملِكِ مُلوكِ اليَمَنِ، و(خانَ) لملِكِ التُّرْكِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨).
وقال السَّمينُ الحَلَبيُّ: (يجوز أنْ يُضَمَّنَ (ظَلَموا) معنى كَفَروا؛ فيتعدَّى بالباءِ كتَعْديتِهِ... ويجوز أنْ تكونَ الباءُ سَبَبِيَّةً، والمفعولُ محذوفٌ، تقديرُه: فظَلَموا أنفُسَهم، أو ظَلَموا النَّاسَ بمعنى صَدُّوهُمْ عَنِ الإيمانِ بسببِ الآياتِ). ((الدر المصون)) (٥/ ٤٠٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٥-٣٦)، ((العذب النمير)) (٤/ ٦٢).

وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۞ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۞ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢-١٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ۞ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَاۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۞ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٧-٥٠].

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

أي: فانظُرْ- يا مُحَمَّدُ- إلى آخِرِ أمْرِ أولئك الَّذينَ أَفْسَدوا في الأرضِ بالكُفْرِ والمعاصي، كانت نِهايتُهم أنْ أَخْزاهُمُ اللهُ تعالى، وأهلَكَهم بالغَرَقِ[(١)].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾، لَمَّا تكرَّرَ ذِكْرُ القُرى الَّتي كَذَّبَ أهلُها رُسُلَ اللهِ بالتَّعْيينِ وبالتَّعْميمِ، صارَتْ للسَّامِعينَ كالحاضِرَةِ المُشاهَدَةِ، الصَّالِحَةِ لِأَنْ يُشارَ إليها، فجاءَ اسْمُ الإشارةِ ﴿ تِلْكَ ﴾ لزيادةِ إحضارِها في أذهانِ السَّامعينَ من قومِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيَعْتَبِروا حالَهم بحالِ أهلِ القُرى، فيَرَوْا أنَّهم سواءٌ؛ فيَفيئوا إلى الحقِّ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٦-٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٥).
قال ابنُ عاشورٍ: (والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ هو وَمَنْ يُبَلِّغُه، أو المخاطَبُ غيرُ مُعَيَّنٍ، وهو كُلُّ مَنْ يَتَأَتَّى منه النَّظَرُ والاعتبارُ عِنْدَ سماعِ هذه الآياتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾، لمَّا كان العاقِلُ مَنْ يَكْفيهِ أَدْنى شيءٍ، هَوَّلَ الأمْرَ بأنَّ أخبارَها تفوتُ الحَصْرَ، وأنَّ ما قَصَّ منها يَكْفي المُعْتَبِرَ، فقال: ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾، أي: أخبارِها العظيمةِ الهائلةِ المُطابِقةِ للواقعِ، شيئًا بعْدَ شيءٍ، كما يفعَلُ مَنْ يتتبَّعُ الأَثَرَ[١].

٣- في قولِهِ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تَسْلِيَةٌ لِمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ ما لَقِيَهُ من قومِهِ هو سُنَّةُ الرُّسُلِ السَّابقينَ، وأنَّ ذلك ليس لتقصيرٍ منه، ولا لضَعْفِ آياتِهِ، ولكنَّهُ للخَتْمِ على قلوبِ كثيرٍ من قومِهِ[٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ حُكْمٌ على الأكثرِ؛ لأنَّ بعضَهم قد آمَنَ، والتَزَمَ كُلَّ عهْدٍ عاهَدَ اللهَ عليه، أو تَعاهَدَ عليه مع النَّاسِ، ومنهم مَنْ كان يَفي ببعضِ ذلك حتَّى في حالِ الكُفْرِ، وهذا من دِقَّةِ القرآنِ في تَحديدِ الحقائقِ بالصِّدْقِ الَّذي لا تَشُوبُه شُبُهاتُ المُبالَغَةِ بما يَسْلُبُ أحدًا حقَّه، أو يُعْطي أحدًا غيرَ حقِّهِ[٣].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يدُلُّ على أنَّ النَّبيَّ لا بُدَّ له من آيةٍ ومُعجِزةٍ، بها يَمتازُ عن غيرِهِ؛ إذْ لو لم يكُنْ مُخْتَصًّا بهذه الآيةِ، لم يكُنْ قَبولُ قولِه أَوْلَى من قَبولِ قولِ غيرِهِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُهُ: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافَ الفَذْلَكَةِ لِمَا قَبْلَها مِنَ القَصصِ، مِن قَولِه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ثُمَّ قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ الآيَةَ [الأعراف: ٩٤]، مُنْبِئَةٌ عن غايةِ غَوايةِ الأُممِ المذكورةِ، وتَماديهم فيها بعدما أَتَتْهم الرُّسُلُ بالمعجزاتِ الباهرةِ(١).

- وصيغةُ المضارعِ ﴿نَقُصُّ﴾؛ للإيذانِ بعَدَمِ انقِضاءِ القِصَّةِ بَعْدُ(٢)، وأيضًا قال: ﴿نَقُصُّ﴾ لا (قَصَصْنَا)؛ لأنَّ هذه الآيةَ نَزَلَتْ مع تِلك القَصَصِ لا بَعْدَها(٣).

- وجُملةُ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ لمُناسَبةِ ما في كِلتَا الجُمْلتَيْنِ من قَصْدِ التَّنظيرِ بحالِ المُكذِّبينَ بُمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجَمْعُ (البيِّناتِ) يُشيرُ إلى تَكَرُّرِ البيِّناتِ مع كُلِّ رسولٍ(٤).

- وقولُهُ: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ يُفيدُ مُبالَغَةَ النَّفْيِ بلامِ الجُحودِ الدَّالَّةِ على أنَّ حُصولَ الإيمانِ كان مُنافِيًا لحالِهم مِنَ التَّصَلُّبِ في الكُفْرِ(٥).

- وفيه مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾، وقال في سورةِ يُونُسَ: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ [يونس: ٧٤]، فَسَقَطَ (به) في سورةِ الأعرافِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠).

دونَ سورةِ يُونُسَ؛ وذلك لأنَّ سُقوطَ (به) في سورةِ الأعرافِ هو للبِناءِ على ما جُعِلَ صدرًا لهذه الآياتِ الَّتي نزَلَتْ في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، وهو: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، فقولُهُ: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ لم يُذْكَرْ له مَفعولٌ، وانساقَتِ الآياتُ بعْدَ التَّحذيرِ المُتوالِي بقولِهِ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾، ثمَّ خُتِمَتْ بقولِهِ: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾، فالمُكذِّبونَ هُنا هم المُكذِّبونَ في قولِهِ: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾. أمَّا في سورةِ يُونُسَ؛ فقدْ سُبِقَ بقولِهِ: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [يونس: ٧٣]، فلمَّا جاءَ ذلك مُتعدِّيًا جاءَ قولُهُ: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ [يونس: ٧٤] مِثْلَهُ[(١)].

٢- قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه إظهارُ الاسْمِ الجَليلِ بطريقِ الالتفاتِ؛ لِتربيَةِ المَهابَةِ، وإدْخالِ الرَّوْعَةِ، ولِمَا في إسنادِ الطَّبْعِ إلى الاسْمِ العَلَمِ من صَراحةِ التَّنبيهِ على أنَّه طَبْعٌ رَهيبٌ، لا يُغادِرُ للهُدى مَنْفَذًا إلى قلوبِهم[(٢)].

٣- قولُهُ: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ مع قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قالَه هُنا أوَّلًا بالنُّونِ، وإضمارِ الفاعِلِ ﴿وَنَطْبَعُ﴾، وثانيًا بالياءِ وإظهارِ الفاعِلِ ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾، وقال في سورة يُونُس: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤] بالنُّونِ والإضمارِ فقط؛ لأنَّ الآيتَيْنِ هُنا تَقدَّمَهما الأمرانِ: الياءُ مع الإظهارِ مرَّتَيْنِ، والنُّونُ مع

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٤١-٦٤٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢).

الإضمارِ؛ فالآيةُ في سورةِ الأعرافِ مَبْنِيَّةٌ على ما تَقدَّمَها مِنَ الآياتِ، وهي تَنتقِلُ مِنَ الإضمارِ إلى الإظهارِ، ومِنَ الإظهارِ إلى الإضمارِ في إخبارِ اللهِ عزَّ وجلَّ عن نفسِهِ، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾، و﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾، وقال بعْدَهُ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾، فأَظْهَرَ ولم يَقُلْ: (أفأمِنوا مَكْرَنا)، فلمَّا وَقَعَ هذا الإخبارُ في هذا المكانِ، ثمَّ جاءَ بعْدَهُ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، فأَجْرى الفِعْلَ على إضمارِ فاعلِهِ، ثمَّ عاد إلى ذِكْرِ الطَّبْعِ، كان إجراؤُهُ على إظهارِ الفاعِلِ أَشْبَهَ بما بُنِيَتْ عليه الآياتُ المُتقدِّمةُ مِنَ الانتقالِ مِنَ الإضمارِ إلى الإظهارِ المُختارِ استعمالُه في المكانِ؛ فناسَبَ الجَمْعُ بَيْنَ الأمرَيْنِ هُنا.

وأمَّا الآيةُ هناك في يُونُس فتقدَّمَها النُّونُ مع الإضمارِ فقط؛ فما قَبْلَها جارٍ على حَدٍّ واحدٍ وهو إضمارُ الفاعِلِ، ففي قِصَّةِ نوحٍ قَبْلَهُنَّ، وهي من مُبتدَأِ العَشْرِ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١]، إلى أنْ قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ [يونس: ٧٣-٧٤]، فقال بعْدَهُ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤]؛ فناسَبَ الاقتِصارُ على النُّونِ مع الإضمارِ[(١)].

- ومن المناسبةِ الحَسنةِ في قولِ اللهِ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقولِه في سورةِ يُونُسَ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤]: أنَّه جَعَلَ الطَّبْعَ على قلوبِ الكافرينَ في الأعرافِ، وعلى قلوبِ المُعتدينَ في يُونُسَ؛ وذلك لأنَّ الآياتِ الَّتي تَقدَّمَتْ في سورةِ الأعرافِ فيها ذِكْرُ مُكَذِّبي الأُممِ أنبياءَهم، وما ردُّوا

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٤٤-٦٤٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٠١).

عليهم وخاطَبوهم به؛ كقَوْلِ كفَّارِ قومِ صالحٍ عليه السَّلامُ لِمَنْ آمَنَ به منهم: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦]، وفيها وَصْفُ الكفَّارِ؛ فَلا يَحْذَرُ عِقابَ اللهِ ومجيئَه بَياتًا أو ضُحًى إلَّا الكفَّارُ، ولا يكون إطلاقُ الخاسرينَ إلَّا في الكافرين، فلمَّا وَقَعَ التَّصريحُ بصْفاتِ الكُفْرِ صَرَّحَ به عِنْدَ ذِكْرِ الطَّبْعِ، ولمَّا كانتِ الآيةُ في سورةِ يُونُسَ قد تقدَّمَها في وَصْفِ الكفَّارِ ما كان كالكِنايةِ عنهم، فقال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]، وليس كُلُّ مُنْذَرٍ كافرًا، كَنَّى عَنِ الكفَّارِ بعْدَهُ عِندَ ذِكْرِ الطَّبْعِ بالمُعتدينَ، وليس كُلُّ مُعْتَدٍ كافرًا، فمُخالَفَةُ كُلِّ واحدةٍ مِنَ الآيتَيْنِ للأُخرى إنَّما هي لِموافَقَةِ ما قَبْلَ كُلِّ واحدةٍ منهما من طَرْحِ الكلامِ، وقَصْدِ الالتِئامِ[(١)].

٤- قولُهُ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾

- في قولِهِ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أَسْنَدَ حُكْمَ النَّكْثِ إلى أكثَرِ أهلِ القُرى؛ تَبْيينًا لِكَوْنِ ضَميرِ ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ جَرَى على التَّغْليبِ، ولعلَّ نُكْتَةَ هذا التَّصريحِ في خُصوصِ هذا الحُكْمِ أنَّه حُكْمُ مَذَمَّةٍ ومَسَبَّةٍ؛ فناسَبَتْ مُحاشاةُ مَنْ لم تَلْتَصِقْ به تلك المَسَبَّةُ[(٢)].

- وفيه نَفْيُ وُجدانِ العَهدِ؛ لانتفاءِ سَببِه، وهو الوفاءُ بالعَهدِ، والتقديرُ: مِن إيفاءٍ بعهدٍ أو مِن التزامِ عهدٍ، و﴿عَهْدٍ﴾ اسمُ جِنسٍ، والإتيانُ به نكرةً في سِيَاقِ النَّفْيِ يَقتَضي انتِفاءَه بجَميعِ المعاني الصَّادِقِ هو عليها، وزِيادةُ ﴿مِّنْ﴾

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٤٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤).

تَدلُّ أيضًا على الاستِغراقِ لجِنس العَهدِ[١].

- وقولُه: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ فيه إخبارٌ بأنَّ عدَمَ الوَفاءِ بالعَهْدِ من أكثرِهم كان منهم عن عَمْدٍ ونَكْثٍ؛ ولِكَوْنِ ذلك معنًى زائدًا على ما في الجُملةِ الَّتي قَبْلَها عُطِفَتْ، ولم تُجْعَلْ تأكيدًا للَّتي قَبْلَها أو بيانًا؛ لأنَّ الفِسْقَ هو عِصيانُ الأمْرِ، وذلك أنَّهم كَذَّبوا فيما وَعَدوا عن قَصْدٍ للكُفْرِ[٢].

٥- قولُه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

قِصَّةُ موسى عليه السَّلامُ معطوفةٌ على جملةِ ما قَبلَها مِن القَصَص، مِن قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ القصَّة، فهي نوعٌ، وهُنَّ نوعٌ آخرُ، والفَرقُ بين النوعينِ أنَّ تلك القَصَص مُتشابهةٌ في تكذيبِ الأقوامِ فيها لرُسُلِهم، ومُعانَدَتِهم إيَّاهم، وإيذائِهم لهم، وفي عاقبةِ ذلك بإهلاكِ الله تعالى إيَّاهم بعذابِ الاستئصالِ؛ ولذلك عَطَف كلَّ واحدةٍ منهنَّ على الأولى بدونِ إعادةِ ذِكرِ الإرسالِ؛ للإيذانِ بأنَّها نوعٌ واحدٌ، فقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ ...﴾، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وقد أعاد في قِصَّةِ موسى ذِكرَ الإرسالِ للتَّفرقةِ، ولكِنْ بلفظِ البَعثِ، وهو أخَصُّ وأبلَغُ مِن لَفظِ الإرسالِ؛ لأنَّه يفيدُ معنى الإثارةِ والإزعاجِ إلى الشَّيءِ المُهِمِّ، ولم يُذكَر في القرآنِ إلا في بَعثِ الموتى، وفي الرِّسالةِ العامَّة؛ أي: بَعْثِ عِدَّةٍ من الرُّسُل، وفي بَعثةِ نَبيِّنا وموسى خاصَّةً، وكذا في بَعْثِ نُقَباءِ بني إسرائيل، وبَعْثِ مَن انتقَم منهم وعذَّبهم وسَبَاهم، حين أفسَدُوا في الأرض، فالتعبيرُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٦)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣).

بلَفظِ البَعثِ هنا يؤكِّدُ ما أفادَتْه إعادةُ العامِلِ مِن التَّفرقةِ بين نوعَيِ الإرسالِ؛ أعني: أنَّ لَفظَه الخاصَّ مُؤكِّدٌ لِمَعناه العامِّ، كما يؤكِّدُها عطفُ هذه القِصَّة على أولئك بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تدلُّ على الفَصلِ والتَّراخي؛ إمَّا في الزَّمان، وإمَّا في النَّوعِ أو الرُّتبة، والأخيرُ هو المرادُ هنا، وبيانُه أنَّ هذا الإرسالَ وما ترتَّبَ عليه، وأعقَبَه في قومِ موسى، مخالِفٌ لجملةِ ما قبلَه مُخالفةَ تَضادٍّ؛ فقد أُنقِذَت به أمَّةٌ من عذابِ الدنيا، وهو تعبيدُ فرعونَ ومَلَئِه لها، وسَوْمُهم إيَّاها أنواعَ الخِزيِ والنَّكال، واهتَدَت إلى عبادةِ الله تعالى وَحدَه وإقامةِ شَرعِه، فأعطاها في الدُّنيا مُلكًا عظيمًا، وجعَلَ منها أنبياءَ وملوكًا، وأعدَّ بذلك المُهتدينَ منها لسعادةِ الآخرةِ الباقية، فأين هذا الإرسالُ مِن ذلك الإرسالِ، الذي أعقَبَ أقوامَ أولئك الرُّسُلِ في الدُّنيا عذابَ الاستئصالِ، وفي الآخرةِ ما هو أشدُّ وأبقى من الخِزيِ والنَّكال؟! وقد يظهَرُ للتَّراخي الزَّماني وجهٌ باعتبارِ كَونِ العَطفِ على قصَّةِ نُوحٍ؛ فإنَّ ما عُطِفَ عليها مِن قَصَصِ مَن بَعدَه قد جُعِلَ تابعًا ومُتمِّمًا لها بعَدَمِ إعادةِ العامِلِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾[1].

- قولُه: ﴿مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ فيه تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ الصَّريحِ؛ للاعتناءِ بالمُقدَّم، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[2].

- وفي قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ قدَّمَ ذِكْرَ الآياتِ اهتمامًا بها؛ فهي الدَّليلُ على صِحَّةِ دَعْوى البَعْثِ[3].

- وتخصيصُ (مَلَئِهِ) بالذِّكر مع عُمومِ رِسالتِه عليه السَّلامُ لقومِه كافَّةً؛ لأصالةِ الملأِ في الرأي، وتَدبيرِ الأمورِ، واتِّباعِ غيرِهم لهم في الورودِ والصُّدور[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٤، ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٨).

- وقِيل: إنَّما قال هنا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ ولم يَقُلْ: (إلى فرعونَ وقومِهِ)؛ لأنَّ الملِكَ ورِجالَ الدَّولةِ هُمُ الَّذينَ كانوا مُستعبِدينَ لبني إسرائيلَ، وبِيَدِهِمْ أمْرُهم، وليس لسائِرِ المِصْرِيِّينَ مِنَ الأمْرِ شيءٌ، ولأنَّهم كانوا مُستعبَدينَ أيضًا، ولكنَّ الظُّلْمَ على بَني إسرائيلَ كان أشدَّ، وإنَّما بَعَثَ اللهُ تعالى موسى؛ لإنقاذِ قومِهِ بني إسرائيلَ من فرعونَ ورِجالِ دولتِهِ، وإقامةِ دِينِ اللهِ تعالى بهم في بلادِ أجدادِهم، ولو آمَنَ فرعونُ ومَلَؤُهُ لآمَنَ سائرُ قومِهم؛ لأنَّهم كانوا تَبَعًا لهم، بل كان هذا شأْنَ جميعِ الأقوامِ مع مُلوكِهم المُستبِدِّينَ الجائرينَ[(١)].

- وقولُهُ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ لَمَّا كان ما آلَ إليه أمْرُ فرعونَ ومَلَئِهِ حالةً عجيبةً، عُبِّرَ عنه بـ ﴿كَيْفَ﴾ الموضوعةِ للسُّؤالِ عن الحالِ، والاستفهامُ المُستفادُ من ﴿كَيْفَ﴾ يَقتضي تَقديرَ شيءٍ، أي: انظُرْ عاقبةَ المُفسِدينَ الَّتي يُسألُ عنها بـ(كيف)[(٢)].

- ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ -حيثُ لم يقُل: (عاقبتهم) مع أنَّ المُرادَ بالمفسدين فرعونُ ومَلَؤُهُ-؛ تنبيهًا على أنَّهم أُصيبوا بسُوءِ العاقبةِ؛ لِكُفْرِهم وفَسادِهم، والكُفْرُ أعظَمُ الفَسادِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٥-٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٦).

الآيات (١٠٤-١١٢)

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾.

غريب الكلمات:

﴿حَقِيقٌ﴾: أي: حَريصٌ، أو جديرٌ، وحقيقٌ عليَّ: أي حقٌّ وواجبٌ عليَّ، وأصْلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[1].

﴿وَنَزَعَ﴾: أي: أَخْرَجَ وأَظْهَرَ[2].

﴿أَرۡجِهۡ﴾: أي: احبِسْهُ، وأَخِّرْ أمْرَه، أو أَمْهِلْه، وأَصْلُ الإرجاءِ: التَّأْخيرُ[3].

﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾: أي: الأَقاليمِ ومَعالِمِ مُلْكِكَ، وبلادِكَ وأمصارِ مِصْرَ[4].

﴿حَٰشِرِينَ﴾: أي: جامِعينَ للنَّاسِ بأمْرِ السَّحَرَةِ، والحَشْرُ: إخراجُ الجَماعةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢- ٣٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥، ١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦).

عن مَقرِّهم، وإزعاجُهم عنه إلى الحَربِ ونَحْوِها، وَأَصْلُ (حشر): سَوْقٌ وبَعْثٌ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ موسى عليه السَّلامُ قال لِفرعونَ: إنَّه مُرْسَلٌ إليه من ربِّ العالَمينَ، وإنَّه حقيقٌ على ألَّا يقولَ على اللهِ إلَّا الحَقَّ، وأنَّه قد جاءَهُ ببيِّنةٍ من ربِّه؛ فَلْيُرْسِلْ معه بني إسرائيلَ. فقال له فرعونُ: إنْ كُنْتَ أَتَيْتَ بآيةٍ فأَظْهِرْها، إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقينَ، فأَلْقى موسى عصاهُ؛ فإذا هي ثُعبانٌ عظيمٌ واضِحٌ لِمَنْ يَراهُ، وأَخْرَجَ يَدَهُ من جَيْبِهِ فإذا هي بيضاءُ لِكُلِّ مَنْ نَظَرَ إليها.

قال الملأُ من قومِ فرعونَ: إنَّ موسى لَساحِرٌ حاذِقٌ، عليمٌ بالسِّحْرِ، يُريدُ أنْ يُخرِجَكم من أرضِكم بسِحْرِهِ؛ فما الَّذي تَأْمرونَ به في شَأْنِهِ؟

قال الملأُ لفرعونَ: أَخِّرْ موسى وأَخاهُ، وأَرْسِلْ في مُدُنِ مملكتِكَ مَنْ يَحْشُدُ السَّحَرَةَ؛ فَيَجيئونَ لكَ بِكُلِّ ساحِرٍ ماهِرٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنه لما لُخِّصَ في الآيةِ السَّابقةِ جميعُ القِصَّةِ على طولِها، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، فبَعْدَ هذا التَّشويقِ والتَّنبيهِ قَصَّ تعالى علينا ما كان مِن مَبْدَأِ أمْرِ أولئك المُفسِدينِ، الَّذي انْتَهى إلى تلك العاقبةِ[٢]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٦-٣٧).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾.

أي: وقال موسى عليه السَّلامُ لَمَّا دخَلَ على مَلِكِ مِصْرَ: يا فِرعونُ، إنِّي رسولٌ إليكَ من مُرْسِلٍ عظيمٍ، وهو ربُّ جميعِ الخلائقِ، ومالِكُهم ومُدبِّرُ أُمورِهم[١].

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قولِهِ تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ﴾ قراءتانِ:

١- قِراءة ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾ بتشديدِ الياءِ، ومعناها: واجبٌ وحقٌّ عليَّ[٢].

٢- قِراءة ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ﴾، قيل: معناها: جَديرٌ وخَليقٌ بأَلَّا[٣] أقولَ...، وقيل: معناها: حَريصٌ على[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

قال ابن عاشور: (الظَّاهرُ أنَّ خِطابَ موسى فرعونَ بقوله: ﴿يَا فِرْعَوْنُ﴾ خطابُ إكرام؛ لأنَّه ناداه بالاسمِ الدَّالِّ على المُلكِ والسُّلطانِ بحسَبِ مُتعارَفِ أُمَّتِه، فليس هو بترفُّعٍ عليه؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال له ولهارونَ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [طه:٤٤]). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٧).

(٢) قرأ بها نافعٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢- ٣٤٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٥٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٨٩).

(٣) قال الفرَّاء: (والعربُ تجعلُ الباءَ فِي موضعِ عَلَى: رميت عَلَى القوسِ، وبالقوسِ، و: جئت عَلَى حالٍ حسنةٍ، وبحالٍ حسنةٍ). ((معاني القرآن)) (١/ ٣٨٦)، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢- ٣٤٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٥٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٨٩).

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

قيل: أي: أنا جديرٌ وخليقٌ بألَّا أكذِبَ على اللهِ، ولا أقولَ عليه إلَّا الحَقَّ(١).

وقيل: أي: أنا حريصٌ على ألَّا أقولَ على الله إلا الحقَّ(٢).

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

---

(١) وممَّنِ اختار هذا القولَ: ابن عطيَّةَ، وأبو حيَّانَ، وابن تيميَّةَ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٧)، ((الجواب الصحيح)) (١/ ١٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ١٦٢).

وذكَرَه بعضُ المفسِّرين وجهًا في تفسيرِ الآيةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وفي القراءةِ المشهورةِ: يُخبِرُ أنَّه جديرٌ وحَرِيٌّ وثابتٌ ومستقِرٌّ على ألَّا يقولَ على اللهِ إلَّا الحقَّ، وعلى القِراءةِ الأخرى: أخبَرَ أنَّه واجبٌ عليه ألَّا يقولَ على اللهِ إلَّا الحقَّ). ((الجواب الصحيح)) (١/ ١٤١).

(٢) وممَّنِ اختار هذا القولَ: أبو عُبيدةَ مَعْمَرُ بن المُثنَّى، والقرطبيُّ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٦).

وذكَرَه بعضُ المفسِّرينَ وجهًا في تفسيرِ الآيةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤).

قال ابن عطيَّةَ: (وفي هذا القولِ بُعْدٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٥).

وقال الشنقيطيُّ: (وهذا القولُ مِنَ الأقوالِ الَّتي لا تَظهرُ؛ فلا يخلو عِندي من بُعْدٍ، واللهُ أعلَم). ((العذب النمير)) (٤/ ٦٨).

وفسَّرها بالقولَيْنِ محمد رشيد رضا، فقال: (جديرٌ بألَّا أقولَ على اللهِ إلَّا الحقَّ، وحَريصٌ على ذلك؛ فَلَنْ أُخِلَّ به). ((تفسير المنار)) (٩/ ٣٨).

وذكَرَ الشِّنقيطيُّ قولًا آخَرَ، فقال: (إنِّي رسولٌ حقيقٌ، أي: رِسالتي لا شكَّ فيها... الوجه الَّذي يظهر أنَّه أصوبُ الأوجهِ، ولا ينبغي العدولُ عنه، وإنْ قلَّ مَنْ تنبَّه إليه من علماءِ التَّفسيرِ: هو أنَّ معنى الآيةِ الكريمةِ: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * حَقِيقٌ﴾، وأمَّا قولُهُ: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [فيتعلَّقُ] بمعنى الرِّسالةِ المُشارِ إليها في الرَّسولِ...، أي: أرسلني ربِّي على شَرطٍ ووتيرةٍ معيَّنةٍ، وهي ألَّا أقولَ عليه إلَّا الحقَّ). ((العذب النمير)) (٤/ ٦٦- ٧٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٥).

أي: قال موسى عليه السَّلامُ لفرعونَ ومَلَئِهِ: قد جِئْتُكم بحُجَّةٍ قاطعةٍ، ومعجزةٍ ظاهرةٍ من ربِّكم، تَدُلُّكم على صِدْقي[(١)].

﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

أي: فأَطْلِقْ- يا فرعونُ- ذُرِّيَّةَ النَّبيِّ يعقوبَ من أَسْرِكَ وقَهْرِكَ، وخَلِّهم يَخرُجُوا معي من مِصْرَ؛ لِنَعْبُدَ اللهَ تعالى حيث نَشاءُ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧].

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٖ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦﴾.

أي: قال فرعونُ لموسى عليه السَّلامُ: إنْ كنتَ مُتمكِّنًا من إظهارِ حُجَّةٍ ومعجزةٍ تؤيِّدُ كلامَكَ، فهاتِها؛ لِنَرى إنْ كنتَ حقًّا مِنَ الصَّادقينَ فيما تَقولُ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٠-٣٣].

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ١٠٧﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٣).

قال ابن عاشور: (تَقْييدُهُ بـ(معي)؛ لأنَّ المقصودَ من إخراجِهم من مِصرَ أنْ يكونوا مع الرَّسولِ؛ لِيُرشدَهم، ويُدبِّرَ شُؤونَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٤).

أي: فأَلْقى موسى عصاهُ في الأرضِ؛ فانقلَبَتْ بإذنِ اللهِ ثُعبانًا عظيمًا واضحًا لِمَنْ يَراهُ(١).

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨ ﴾.

أي: وأَخْرَجَ موسى يَدَهُ من جَيْبِه، فظَهَرَتْ بيضاءَ لِكُلِّ مَنْ نَظَرَ إليها، وهذا البَياضُ مِن غيرِ بَرَصٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ ﴾ [القصص: ٣٢].

﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩ ﴾.

أي: قال الأشرافُ والسَّادةُ من قومِ فِرعونَ: إنَّ موسَى ساحرٌ حاذقٌ، عليمٌ بالسِّحرِ، ماهرٌ فيه، يُرِي الشَّيءَ بخِلافِ ما هو عليه، فيُخيِّلُ إلى النَّاسِ أنَّ عصاهُ تنقلِبُ حيَّةً، وأنَّ يَدَهُ تَصيرُ بيضاءَ من غيرِ سُوءٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).
قال البَغويُّ: (والثُّعبانُ: الذَّكَرُ العظيمُ من الحيَّاتَ، فإنْ قيل: أليس قد قال في موضعٍ آخَرَ: ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ [النمل: ١٠]، والجانُّ الحيَّةُ الصَّغيرةُ؟ قيل: إنَّها كانت كالجانِّ في الحركةِ والخفَّةِ، وهي في جُثَّتِها حيَّةٌ عظيمةٌ). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).
قال الزَّجَّاجُ: (وقال في موضعٍ آخَرَ: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ﴾ [النمل: ١٢]، وفي موضِعٍ آخَرَ: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ [طه: ٢٢]، فهذا دليلٌ أنَّ معنى نَزْعِ يدِهِ إخراجُها من جيبِهِ، وإخراجُها من جَناحِهِ، وجَناحُ الرَّجلِ عَضُدُهُ، وقيل: جناح الرَّجلِ عِطْفُه، وتأويلُ الجَناحَيْنِ مِنَ الإنسانِ أنَّهما كالجَناحينِ مِنَ الطَّائرِ، وهما العَضُدانِ). ((معاني القرآن)) (٢/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩٢)،

وقد حَكَى اللهُ عزَّ وجلَّ عن فرعونَ رَمْيَهُ موسى عليه السَّلامُ بهذه الفِرْيَةِ نَفْسِها، فقال: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦].

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾.

أي: قال الأشرافُ والسَّادةُ من قومِ فِرعونَ[(١)]: يُريدُ موسى بسِحْرِه أنْ يُخرجَكم مِن أرضِكم؛ مِصْرَ[(٢)].

((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

قال ابنُ عطيَّةَ: (السَّاحرُ كان عندهم في ذلك الزَّمنِ أعلى المراتبِ، وأعظمَ الرِّجالِ، ولكنَّ وصْفَهم موسى بذلك مع مُدافَعتِهم له عن النُّبوَّةِ ذمٌّ عظيمٌ وحطٌّ، وذلك قَصَدوا إذ لم يُمكنْهم أكثرُ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٧).

وقال ابنُ عاشور: (وهذا القولُ قد أعرَبَ عن رأيِ جميعِ أهلِ مجلسِ فرعونَ، ففِرعونُ كان مُشارِكًا لهم في هذا؛ لأنَّ القرآنَ حَكَى عن فرعونَ في غيرِ هذه السُّورةِ أنَّه قال للملأ حوله: إنَّ هذا لساحرٌ عليمٌ، وهذه المَعذرةُ قد انتحلوها وتواطؤوا عليها، تَبِعوا فيها ملِكَهم أو تَبِعهم فيها، فكلُّ واحدٍ من أهلِ ذلك المجلسِ قد وطَّنَ نفسَه على هذا الاعتذارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٢).

(١) قال ابن عاشور: (قالوا هذا الكلامَ على وجهِ الشُّورى مع فرعونَ واستنباطِ الاعتذارِ لأنفسِهم عن قِيامِ حُجَّةِ موسى في وجوههم؛ فاعتلُّوا لأنفسِهم بعضُهم لبعضٍ بأنَّ موسى إنَّما هو ساحرٌ... ولذلك فالخِطابُ في قوله: ﴿يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ خِطابُ بعضِهم لبعضٍ، وهو حاصلٌ من طوائفِ ذلك الملأِ لطوائفَ يُردِّدونه بينهم، ويقوله بعضُهم لبعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٢).

وقال ابنُ عاشور: (وجهُ استفادتِهم أنَّ موسى يُريدُ إخراجَهم من أرضِهم، إمَّا أنَّهم قاسوا ذلك عن قولِ موسى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بقاعدةِ ما جاز على المِثلِ يجوزُ على المُماثِلِ،

كما قال تعالى عن فِرعونَ: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٥].

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

أي: فما الَّذي تَأمرونَ به في شأنِ مُوسَى[(١)]؟

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾.

يَعنونَ أنَّه ما أظهَرَ إخراجَ بني إسرائيلَ إلَّا ذريعةً لإخراجِ كلِّ مَنْ يؤمِنُ به؛ ليتَّخذَهم تَبَعًا، ويُقيمَ بهم مُلكًا خارجَ مِصرَ، فزعموا أنَّ تلك مكيدةٌ من موسى؛ لِئَلْم مُلكِ فرعونَ. وإمَّا أنْ يكونَ ملأُ فرعونَ محتويًا على رجالٍ من بني إسرائيلَ كانوا مُقرَّبينَ عِند فرعونَ ومن أهلِ الرَّأيِ في المملكةِ، فهُمُ المقصودُ بالخِطابِ، أي: يُريدُ إخراجَ قومِكم من أرضِكم الَّتي استوطنتموها أربعةَ قرونٍ، وصارتْ لكم موطنًا، كما هي للمِصريِّينَ، ومقصِدُهم من ذلك تذكيرُهم بحُبِّ وطنِهم، وتقريبُهم من أنفسِهم، وإنساؤُهم ما كانوا يلقَوْنَ من اضطهادِ القِبطِ واستذلالِهم؛ شُعورًا منهم بحراجةِ الموقفِ. وإمَّا أنَّهم علِموا أنَّه إذا شاعَ في الأُمَّةِ ظُهورُ حُجَّةِ موسى وعجْزِ فرعونَ وملئِهِ، أدخَلَ ذلك فِتنةً في عامَّةِ الأمَّةِ فآمَنوا بموسى، وأصبح هو الملِكَ على مِصر؛ فأخرج فرعونَ وملأَهُ منها. ويجوز أنْ يكونَ الملأُ خاطَبوا بذلك فرعونَ، فجرَتْ ضمائرُ الخطابِ في قوله: ﴿أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ على صيغةِ الجمعِ؛ تعظيمًا للمُلكِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، وهذا استعمالٌ مُطَّرِدٌ. ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٢-٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).
اختار ابنُ جرير، والزَّجَّاج، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، أنَّ القائلَ هو فرعونُ، يُخاطِبُ بذلك ملأَه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٧).
وقيل: هو مِن كلامِ الملأ بعضِهم إلى بعضٍ يتشاورون فيما بينهم ما يَفعلون بموسى عليه السَّلامُ. وهذا اختيارُ ابن عَطيَّةَ، وظاهر اختيار السعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).
وقال القرطبيُّ: (أي: قال فِرعونُ: فماذا تأمرون؟ وقيل: هو من قولِ الملأ، أي: قالوا لفرعونَ وحدَهُ: فماذا تأمرون؟ كما يخاطَبُ الجبَّارون والرُّؤساء: ما ترون في كذا؟ ويجوز أن يكونَ قالوا له ولأصحابِه). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٧).

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾.

أي: قال الملأُ لفرعونَ: أخِّرْ موسى وأخاهُ هارونَ، وأمهِلْهما[١].

﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾.

أي: وابعَثْ- يا فرعونُ- في مُدُنِ مملكتِكَ أُناسًا[٢] يَحشُدونَ منها السَّحرةَ[٣].

﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿سَٰحِرٍ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءة ﴿سَحَّارٍ﴾ على وَزْنِ (فَعَّالٍ)، وهو مِن أبنيةِ المُبالَغةِ، فـ(سحَّار) أشدُّ مُبالَغةً في الوَصْفِ من (ساحر)؛ إذْ تدُلُّ على بُلوغِهِ النِّهايةَ في عِلْمِ السِّحرِ، وتدُلُّ على تَكريرِ الفِعْلِ، وعلى أنَّ ذلك ثابتٌ لهم فيما مَضَى مِنَ الزَّمانِ[٤].

٢- قِراءة ﴿سَاحِرٍ﴾، وهي اسْمُ فاعلٍ من سَحَرَ[٥].

﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

(٢) قال الماورديُّ: (قال ابنُ عبَّاسٍ: «هُمْ أصحابُ الشُّرَطِ»، وهو قولُ الجماعةِ). ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

(٤) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٦)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٩١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧١-٤٧٢).

(٥) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).
ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧١-٤٧٢).

أي: يَجيئوا لك من سائرِ البِلادِ بالسَّحَرةِ المَهَرَةِ الَّذين بلَغوا النِّهايةَ في فَنِّ السِّحْرِ؛ ليُعارِضوا ما جاءَ به موسى[(١)].

كما قال تعالى حاكيًا قولَ فرعونَ لِموسى عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: ٥٧-٥٨].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- حِكمةُ بَدءِ قِصَّةِ موسى عليه السلام بذِكرِ نَتيجَتِها، والعبرةِ المقصودةِ منها، في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ هي أن تكونَ مُتَّصلةً بما يُناسِبُها من العِبرةِ في القَصَص التي قَبلَها، مِن حيثُ إهلاكُ مُعاندي الرُّسُل- عليهم السَّلامُ- جُحودًا واستكبارًا، وقد ذُكِرَت هذه العبرةُ بعد جملةِ تلك القَصَص؛ لتَشابُهِها مبدأً وغايةً، وقصَّةُ موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طويلةٌ، فهي تُساويها في هذا من حيثُ رسالتُه إلى فِرعونَ ومَلَئِه فقط، وفيها عِبَرٌ أخرى فيما تُشابِهُ به أمْرَ خاتَمِ الرُّسُل صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن حيث إرسالُه إلى بني إسرائيلَ، وإرسالُ محمَّدٍ خاتَمِ النبيِّينَ إلى العَربِ وسائِرِ البَشرِ، وتوفيقُ اللهِ قَومَهما للإيمانِ، ونَشر شَريعَتِهما فيمن أُرسِلا إليهم، إلى غيرِ ذلك؛ ولذلك ذكَرَ في أواخِرِها تبشيرَ موسى، وكذا عيسى، بالنبيِّ الأمِّيِّ الخاتَمِ محمَّدٍ، صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ[(٢)].

٢- شأْنُ الرُّسلِ ألَّا يَبتَدئوا بإظهارِ المعجزاتِ؛ صَوْنًا لِمَقامِ الرِّسالةِ عن تعريضِه للتَّكذيبِ، يُبيِّنُ ذلك قوْلُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٨).

مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۞ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾؛ فأَظْهَرَ موسى -عليه السَّلامُ- الاستعدادَ للتَّبيينِ على ذلك الصِّدْقِ بالبراهينِ أو المعجزةِ، شريطَةَ أنْ يطلبَها فرعونُ[١].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وفي اختيارِ صِفةِ رَبِّ العالَمينَ في الإعلامِ بالمُرْسِلِ عِدَّةُ لَطائِفَ:

منها: أنَّ مَنْ كان مُرْسَلًا مِنْ جِهَةِ مَنْ هو رَبُّ العالَمينَ أَجمَعينَ فهو حَقيقٌ بالقَبولِ لِمَا جاءَ به، كما يَقولُ مَنْ أَرْسَلَهُ المَلِكُ في حاجةٍ إلى رَعِيَّتِهِ: أنا رسولُ الملِكِ إليكم، ثمَّ يَحْكي ما أُرْسِلَ به؛ ففي ذلك مِن تَربيةِ المَهابةِ، وإدخالِ الرَّوْعَةِ ما لا يُقادَرُ قَدْرُه[٢].

ومنها: الإبطالُ لاعتقادِ فرعونَ أنَّه رَبُّ مِصْرَ وأَهْلِها؛ فإنَّه قال لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، فلمَّا وَصَفَ موسى مُرْسِلَه بأنَّه ربُّ العالَمِينَ شَمِلَ فِرعونَ وأهلَ مملكتِهِ؛ فتَبْطُلُ دَعْوى فِرعونَ أنَّه إلهُ مِصْرَ بطريقِ اللُّزومِ، ودخَلَ في ذلك جميعُ البِلادِ والعِبادِ الَّذينَ لم يكُنْ فِرعونُ يَدَّعي أنَّه إلهُهُم؛ مِثْلُ الفُرْسِ والآشُورِيِّينَ[٣].

ومنها: أنَّ ربَّ العالَمين هو مُرَبِّي جَميعِ خَلْقِهِ بأنواعِ التَّدابيرِ الإلهيَّةِ، الَّتي من جُمْلتِها أنَّه لا يترُكُهم سُدًى، بل يُرسِلُ إليهم الرُّسلَ مُبشِّرينَ ومُنذرينَ، وهو الَّذي لا يَقْدِرُ أَحَدٌ أنْ يتجرَّأَ عليه، ويَدَّعِيَ أنَّه أرْسَلَه ولم يُرْسِلْه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

٤- في قول موسى عليه السَّلامُ: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إيماءٌ إلى أنَّهم مَرْبوبونَ، وأنَّ فرعونَ ليس ربًّا ولا إلهًا، وإلى أنَّ البيِّنَةَ ليسَتْ من كَسْبِ موسى، ولا ممَّا يَستقِلُّ به عليه السَّلامُ(١).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾، ما أَعْجَبَ أمْرَ هذَيْنِ الخارقَيْنِ! أحدُهما في نفسِهِ وذلك اليَدُ البيضاءُ، والآخَرُ في غيرِ نفسِهِ وهي العصا، وجمَعَ بِذَيْنِكَ تَبَدُّلَ الذَّواتِ وتبدُّلَ الأعراضِ، فكانا دالَّيْنِ على جوازِ الأمرَيْنِ، وأنَّهما كِلاهما ممكِنُ الوُقوعِ(٢).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾، في ذِكْرِ ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ -أي: للنُّظَّارِ- تنبيهٌ على عِظَمِ بَياضِ يدِهِ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه لا يَعْرِضُ لها للنُّظَّارِ إلَّا إذا كان بَياضُها عجيبًا، خارجًا عَنِ العادةِ، يَجتمِعُ النَّاسُ إليه، كما يَجتمِعُ النُّظَّارُ للعجائبِ(٣).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ يدُلُّ على أنَّ السَّحَرةَ كانوا كثيرينَ في ذلك الزَّمانِ(٤).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ دلَّ على أنَّ مُعْجِزَةَ كُلِّ نَبِيٍّ في زَمانِه كانت بما يُناسِبُ أهلَ ذلك الزَّمانِ فَمُوسَى عليه السَّلامُ كانت مُعْجِزَتُه مِمَّا يُناسِبُ أهلَ زمانِه، وكانوا سَحَرَةً أذكِياءَ، فبُعِثَ بآياتٍ بَهَرَتِ الأبصارَ، وخَضَعَتْ لها الرِّقابُ، ولمَّا كان السَّحَرَةُ خَبيرينَ بفُنونِ السِّحْرِ، وما يَنْتَهي إليه، وعايَنوا ما عايَنوا مِن الأمرِ الباهرِ الهائلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٩/ ٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٣١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٣٢).

الَّذي لا يُمْكِنُ صدورُه إلَّا عمَّن أيَّدَه اللَّه وأجرَى الخارِقَ على يَدَيْه تصديقًا له أسْلَموا سِراعًا، ولم يتَلَعْثَموا[١].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كلامٌ مبتدأٌ مسوقٌ لتفصيلِ ما أُجمل فيما قَبْلَه من كيفيَّةِ إظهارِ الآياتِ، وكيفيَّةِ عاقبةِ المفسدِين[٢].

- وفيه مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ فعطَف هنا بالواو، ولم يَفصِلْ أو يعطِف بالفاءِ كما في سُورة طه؛ حيثُ قال بعدَ أمْرِ موسى بالذَّهابِ مع أخيه هارونَ إلى فِرعونَ، وتَبليغِه الدَّعوةَ، مُبيِّنًا كيف كان امتثالُهما للأمرِ: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨]؛ فجاء به مفصولًا على وجهِ الاستئنافِ البيانيِّ غيرَ مَوصولٍ بالواو، ولا بـ «أو» ولا بالفاءِ، ووجهُ العَطفِ بالواوِ هنا: أنَّه قد قفَّى في قِصَّةِ موسى هنا على ذِكرِ إرسالِه إلى فِرعون وملئه بذِكرِ نتيجةِ هذا الإرسالِ وعاقبتِه بالإجمالِ، وهو قوله تعالى: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، وبُدِئتِ القصةُ بَعدَه بتفصيل ذلك الإجمالِ ومُقدِّمات تِلك النتيجة، فكان المناسبُ أن يُعطَف عليها، لا أنْ يُستأنَف استئنافًا بيانيًّا؛ لِمَا هو ظاهرٌ مِن الاشتراكِ بين المقدِّمات والنتيجةِ، أو بين التفصيلِ والإجمالِ، وأنْ يكون العطفُ بالواوِ لا بالفاء؛ لأنَّ الفاءَ تدلُّ على التعقيبِ والترتيبِ، وهو لا يناسبُ هنا؛ لأنَّه يَقتضي أن تكونَ المقدِّماتُ متأخِّرةً عن النتيجةِ، وذلك باطلٌ بالبداهةِ؛ فتعيَّن أن يكونَ العطفُ بالواوِ[٣].

---

(١) يُنظر: (((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٣٣)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٧).

- وقوله: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه حِكاية كلام موسى بصِيغةِ التأكيدِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ لأنَّ المُخاطَب مَظنَّةُ الإنكارِ، أو التردُّد القويِّ في صِحَّةِ الخبرِ[١].

٢- قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

- قولُه: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ فيه تضمينٌ، حيث ضُمِّنَ ﴿حَقِيقٌ﴾ مَعْنَى (حَرِيص)؛ ليُفيدَ أنَّه مَحْقوقٌ بقولِ الحقِّ، وحريصٌ عليه[٢]. وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

- قولُه: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لما قبله، من كونه رسولًا من ربِّ العالمين، وكونِه حقيقًا بقولِ الحقِّ، وفيه تعريضٌ بأنَّ فرعون ليس ربًّا لهم، بل ربهم هو الذي جاء موسى بالبيِّنةِ مِن عِندَه[٣].

- وتنكيرُ (بيِّنةٍ) للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ، أي: قد جِئْتُكم ببيِّنةٍ عظيمةِ الشَّأْنِ، ظاهرةِ الحُجَّةِ في بيانِ الحَقِّ[٤].

- و﴿مِّن﴾ على القولِ بأنَّها مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ وقَعَ صِفةً لـ(بيِّنَةٍ)؛ فإنَّها مُفيدةٌ لفخامتِها الإضافيَّةِ المؤكِّدةِ لفخامتِها الذاتيَّة، المستفادَة من التنوينِ التفخيميِّ[٥].

- وإضافةُ اسمِّ الربِّ إلى المخاطَبين بعد إضافتِه فيما قبله إلى (العالَمين)؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٨).
(٢) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٨).

لتأكيدِ وجوبِ الإيمان به[١].

٣- قوله: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٖ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ استئنافٌ وقَع جوابًا عن سؤال يَنساقُ إليه الكلامُ؛ كأنه قيل: فماذا قال فرعونُ له عليه السَّلام حِين قال له ما قال؟ فقيل: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٖ ...﴾[٢].

٤- **قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾** فيه مناسبةٌ حسنة، حيثُ قال هنا في الأعراف: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ فنسَبَ القَولَ للمَلأِ، وقال في سورةِ الشُّعَراءِ: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الشعراء: ٣٤] فنَسَبه لفِرعون، فأخبرَ في الأولى أنَّ قائلَ ذلك الملأُ من قومِهِ، وفي الثَّانيةِ أنَّ فرعونَ هو القائلُ ذلك لملئِه؛ ووجهُ ذلك: أنَّ قولَ الملأِ فيما حَكاهُ اللهُ تعالى في سورةِ الأعرافِ قولُ فرعونَ، أدَّاهُ عنه رؤساءُ قومِهِ إلى عامَّةِ أصحابِهِ، وإنَّما اخْتَصَّتْ سورةُ الأعرافِ بحكايةِ ما قال الملأُ، وسورةُ الشُّعَراءِ بما قالَهُ فرعونُ؛ لأنَّ أوَّلَ مَنْ رَدَّ قولَ موسى عليه السَّلامُ فرعونُ، ثمَّ مالَأَهُ عليه مَلَؤُهُ، وهو ما حَكاهُ اللهُ تعالى في سورةِ الشُّعَراءِ واقْتَصَّ حالَهُ، حيث أخبرَ عنه بما قاله: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨]، إلى أنِ انتهتِ الآياتُ إلى القِصَّةِ المودَعةِ ذِكْرَ السَّحَرَةِ، فقال فرعونُ للملأِ حَوْلَهُ ما أدَّوْهُ عنه إلى غيرِهم، وسورةُ الشُّعَراءِ مكِّيَّةٌ كسُورةِ الأعرافِ، وترتيبُ الاقتصاصِ يَقتضي أنْ تكونَ قَبْلَها، وفي السُّورةِ الثَّانيةِ أخبرَ عمَّا أدَّاهُ عنه ملؤُهُ إلى النَّاسِ الَّذينَ أجابوهُ بأنْ ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾، فكان قولُ فرعونَ للملأِ حَوْلَهُ سابقًا قولَ الملأِ الَّذينَ أدَّوْا إلى غيرِهم قولَهُ، فذُكِر حيثُ قُصِدَ اقتِصاصُ أوَّلِ مَن دَعاه موسى عليه السَّلامُ إلى طَاعةِ اللهِ تعالى[٣]. وقيل: لَمَّا تَقدَّم في سُورة الأعراف قولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٤٧-٦٤٩)، ((أسرار التكرار في القرآن))

بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، فوقَعَ ذِكرُ الملأ مبعوثًا إليهم مع فِرعون؛ ناسَبَ ذلك أنْ يُذكَروا في الجوابِ؛ حتى يكونَ في قُوَّة أنْ لو قيل: بعث إليهم وخُوطِبوا فقالوا، ولم يكُن ليُناسِبَ: بعث إليهم فقال فرعون. ولَمَّا تَقدَّم في سُورة الشعراء قولُه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾، ثم جرَى ما بعدَ المحاورةِ ومراجعةِ الكلام بَينَ موسى عليه السلام وفرعون، ولم يقعِ الملأُ هنا ناسَبَ ذلك نِسبةُ القولِ لِفرعونَ؛ لأنَّه هو الذي راجَع وخُوطِب؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِب(١).

٥- قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فيه مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، وقال في سورةِ الشُّعَراءِ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٥]، بزِيادة ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾؛ وذلك لأنَّه لَمَّا أَسْنَدَ الفِعْلَ في سورةِ الشُّعَراءِ إلى فِرعونَ، وحَكى ما قالَهُ، وأنَّه قال للملأِ حولَهُ من قومِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]، وكان فرعونُ أشدَّهم تمرُّدًا، وأوَّلَهم تجبُّرًا، وأبلغَهم فيما يُرَدُّ به الحقُّ، كان في قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ [الشعراء: ٣٥] ذِكْرُ السَّبَبِ الَّذي يَصِلُ به إلى الإخراجِ، وهو: ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾، فأَشْبَعَ المَقالَ بعْدَ قولِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] بأنْ ذَكَرَ ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾. وأمَّا في الأعرافِ فلم يذكُرْ فيه ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ لأنَّه مِن قولِ الملأِ، حيثُ قال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، والملأُ لم يبلُغوا مَبْلَغَ فرعونَ في إبطالِ ما أَوْرَدَهُ موسى عليه السَّلامُ، ولم يَجْفوا في الخِطابِ جَفاءَهُ، فتناولَتِ الحِكايةُ ما قاله فرعونُ على جِهتِه بتكريرِ لَفْظِ السِّحْرِ من فِعْلِهِ بعدما أخرَجَه بصِفتِه، حيثُ قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

للكرماني (ص: ١٢٦-١٢٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٠٣).

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٤- ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٥١-٦٥٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي

وقيل: إنَّ المُناسَبةَ أنَّ آيةَ الأعرافِ بُنِيَتْ على الاقتصارِ، ولأنَّ لَفْظَ السَّاحِرِ في قوله قَبْلَ الآيةِ هنا: ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ يدلُّ على السِّحْرِ بخِلافِ الآيةِ في سُورةِ الشُّعراءِ[(١)].

٦- قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ فيه مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿وَأَرۡسِلۡ﴾، وقال في سورةِ الشُّعَراءِ: ﴿وَٱبۡعَثۡ﴾ [الشعراء: ٣٦]؛ قيل: هذا الاختِلافُ في التعبيرِ مَبْنِيٌّ على التَّرتيبِ الَّذي استقرَّ عليه المصحَفُ، فـ (أَرْسِلْ) أخصُّ في بابِ الإرسالِ مِنَ البَعْثِ؛ إذْ لا يُقالُ: (أَرْسِلْ) إلَّا فيما كان توجيهًا فيه معنى الانتقالِ، أمَّا (بَعَثَ) فأَوْسَعُ؛ فإنَّه يقَعُ بمعنى الإرسالِ وبمعنى الإحياءِ؛ ففيه اشتراكٌ، فلمَّا كان الإرسالُ أخصَّ وَقَعَ الإخبارُ به أوَّلًا، ثمَّ وَقَعَ ثانيًا بالبَعْثِ؛ تَنويعًا للعِبارةِ، وعلى التَّرتيبِ في مَوْضِعِ اللَّفظِ المُطَّرِدِ مِنَ القرآنِ، ولا يُمكِنُ على ما تقرَّرَ من ذلك العَكْسُ[(٢)]. وقيل: إنَّ (أَرْسِل) و(ابْعَثْ) بمعنًى واحدٍ؛ وإنَّما عُبِّر بكلِّ واحدٍ في مَوضِعٍ؛ تَكثيرًا للفائدةِ في التَّعبيرِ عن المرادِ بلَفظَيْنِ متساويَيْنِ معنًى[(٣)].

جعفر الغرناطي (١/ ٢١٥-٢١٦).

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٥٤-٦٥٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٠٤).

الآيات (١١٢-١١٦)

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾: أي: أَرْهبوهم، أو أَخافوهم، أو استَدْعَوْا رَهبتَهم، وهي الخوفُ، والرَّهبةُ: مَخافةٌ مع تَحَرُّزٍ واضْطِرابٍ، وأَصْلُ (رهب): يدُلُّ على خَوْفٍ[1].

مُشْكِلُ الإعرابِ:

قولُهُ تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴾

﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾: (أنْ) في الموضعَينِ حَرْفٌ مَصدريٌّ. و﴿أَن تُلۡقِيَ﴾ مَصْدَرٌ مُؤَوَّلٌ، وما بَعدَه معطوفٌ عَلَيهِ، وفي محلِّ ﴿أَن تُلۡقِيَ﴾ الإعرابيِّ ثلاثةُ أَوْجُهٍ: الأوَّلُ: النَّصْبُ بِفِعْلٍ مُقدَّرٍ، أي: اخترْ إمَّا إلقاءَك وإمَّا إلقاءَنا. الثَّاني: الرَّفعُ على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، والتقديرُ: أَمْرُكَ إمَّا إلقاؤُك وإمَّا إلقاؤُنا. الثَّالثُ: أنْ يكونَ مبتدأً خبرُهُ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: إمَّا إلقاؤُك مَبدوءٌ به، وإمَّا إلقاؤُنا مبدوءٌ به[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٩٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٢-٥٩٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤١٥).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ السَّحَرَةَ الَّذينَ جُمِعوا مِنَ المدائنِ، لَمَّا جاؤوا فرعونَ قالوا له: هل ستُعْطينا أجْرًا إنْ نحن غَلَبْنا موسى، قال لهم: نَعَمْ، وستكونون أيضًا مِنَ المُقرَّبينَ منِّي.

فتوجَّهوا بالخِطابِ إلى موسى فخيَّروه بَيْنَ أنْ يُلْقِيَ عصاه، أو يكونوا هُمْ أوَّلَ مَنْ يُلقي، فأَمَرهم موسى أنْ يَبدؤوا هُمْ بالإلقاءِ، فلمَّا ألقَوْا سَحَروا أَعْيُنَ النَّاسِ، وأخافوهم، وجاؤوا بسِحْرٍ عظيمٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ قراءتانِ:

١- قراءة ﴿إِنَّ﴾ على لَفْظِ الخبرِ، والمُرادُ به الإلزامُ؛ وذلك أنَّهم ألزموا فرعونَ أنْ يجعلَ لهم أجْرًا إنْ غلَبوا، وقيل: إنَّهم قَطَعوا ذلك لأنفسِهم في حُكْمِهم إنْ غلَبوا[(١)].

٢- قراءة ﴿أإنَّ﴾ استفهامٌ، على معنى الاستخبارِ، أي: استَخْبَروا فرعونَ: هل يجعلُ لهم أجرًا إنْ غلَبوا، أو لا يجعلُ ذلك لهم[(٢)]؟

---

(١) قرأ بها نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو جعفرٍ وحفصٌ. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٢)، ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٦-٤١٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٢).

(٢) قرأ بها الباقون، إلَّا أنَّ أبا عمرو يُلين الثانية، ويُدخل بين الهمزتين ألِفًا، وهشام يُحقِّق الهمزتين،

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

أي: وجاء السَّحَرةُ الَّذينَ جُمِعوا مِنَ المُدُنِ إلى فرعونَ، فلمَّا حضَروا عِنده سألوه: هل ستَمنَحُنا عطاءً عظيمًا إنْ تغلَّبْنا على موسى[1]؟

كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤١].

﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

أي: قال فرعونُ للسَّحرةِ: نَعَمْ، لكم منِّي ذلك، ولكم أيضًا فَوْقَ ما سألْتُم؛ أنْ أَجعلَكم مِنَ الَّذينَ أُقرِّبُهم منِّي[2].

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

أي: قال السَّحرةُ: يا موسى، اختَرْ إمَّا أنْ تُلقيَ عصاكَ أوَّلًا، أو نُلقيَ قَبْلَكَ ما معنا مِنَ العِصِيِّ والحِبالِ[3].

ويدخل بين الهمزتين ألفًا. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٢)، ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٦-٤١٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٥- ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٦). قال

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ [طه: ٦٥].

﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾.

﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ﴾.

أي: قال موسى للسَّحَرةِ: أَلْقوا أنتم أوَّلًا ما ستُلقونَه[١].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ [يونس: ٨٠].

﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾.

أي: فلمَّا أَلْقى السَّحرةُ حِبالَهم وعِصيَّهم، خَيَّلوا إلى الأبصارِ بسِحْرِهم أنَّها حيَّاتٌ تسعَى في الحقيقةِ[٢].

السعدي: (فلمَّا حضَروا مع موسى بحَضْرةِ الخَلْقِ العظيمِ ﴿قَالُوٓاْ﴾ على وجه التَّألِّي وعدمِ المبالاةِ بما جاء به موسى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ ما مَعَك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩- ٣٠٠).

وقال الشنقيطيُّ: (يَعْنونَ: إنْ أَلْقَيْتَ قَبْلَنا غلَبْناكَ، وإنْ أَلْقَيْنا قَبْلَكَ غلَبْناكَ، فإنْ شئتَ فتقدَّمْ، وإنْ شئتَ فتأخَّرْ). ((العذب النمير)) (٤/ ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٩).

قال ابن تيميَّةَ: (هذا يَقتضي أنَّ أَعْيُنَ النَّاسِ قد حصَلَ فيها تغيُّرٌ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ * لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥]، فقدْ علِموا أنَّ السِّحرَ يُغيِّرُ الإحساسَ، كما يوجِبُ المرضَ والقتلَ، وهذا كلُّه من جنسِ مقدورِ الإنسِ؛ فإنَّ الإنسانَ يَقدِرُ أنْ يفعلَ في غيرِهِ ما يُفسِدُ إدراكَه، وما يُمرِضُه ويقتله، فهذا مع كونِهِ ظلمًا وشرًّا هو من جنسِ مقدورِ البشَرِ). ((النبوات)) (٢/ ١٠٥٣).

كما قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤].

﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾.

أي: وأخافَ السَّحرةُ النَّاسَ، وأفزعوهم بما خَيَّلوا إلى أعيُنِهم مِنَ الحيَّاتِ الكثيرةِ الضَّخمةِ الَّتي تَسْعى(١).

﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: وجاءَ السَّحرةُ بتخييلٍ عظيمِ الشَّأنِ عِند مَنْ يَراهُ مِنَ النَّاسِ، ذي تأثيرٍ كبيرٍ في أَعْيُنِهم، وقد أدخَلَ الخوفَ الشَّديدَ في نُفوسِهم(٢).

وقال الشنقيطي: (دلَّ قوله: ﴿أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ على أنَّ سحرَهم من جنسِ الشَّعْبَذاتِ؛ لأنَّهم جاؤوا بسحرٍ أخَذَ بعُيونِ النَّاسِ حتَّى صارتْ ترى تخييلاتٍ ليستْ بحقيقيَّةٍ، وترى العِصِيَّ والحبالَ تظنُّها حيَّاتٍ- ثعابينَ- من أضخم الحيَّاتِ، بالمئاتِ والآلافِ مُكَدَّسَةٍ كالجبالِ، يركَبُ بعضُها بعضًا، حتَّى خافَ الخَلْقُ منها خوفًا شديدًا، فقوله هنا: ﴿أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ يدُلُّ على أنَّه تخييلٌ بالنِّسبةِ للعَينِ لا حقيقةٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٠).

قال ابن عاشور: (والاسترهابُ: طلَبُ الرَّهَبِ، أي: الخوفِ، وذلك أنَّهم عزَّزوا تخيُّلاتِ السِّحرِ بأمورٍ أُخْرى تُثيرُ خوفَ النَّاظرينَ؛ لِتزدادَ تمكُّنُ التَّخيُّلاتِ من قلوبِهم، وتلك الأمورُ أقوالٌ وأفعالٌ توهِمُ أنْ سيقَعَ شيءٌ مُخيفٌ كأنْ يقولوا للنَّاسِ: خُذوا حِذْرَكم وحاذِروا، ولا تقتربوا، وسيقع شيءٌ عظيمٌ، وسيحضُرُ كبيرُ السَّحرةِ، ونحوِ ذلك مِنَ التَّمْويهاتِ، والخُزعبلاتِ، والصِّيَاحِ، والتَّعجيبِ، ولك أنْ تجعلَ السِّينَ والتَّاءَ في ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ للتَّأكيدِ، أي: أَرْهِبوهم رهبًا شديدًا، كما يُقالُ: استكبَرَ، واستجابَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨١)، ((تفسير المراغي)) (٩/ ٢٩).

قال الشنقيطي: (فإنْ قيل: قوله في طه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ﴾ [طه: ٦٦]، وقوله في الأعراف: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾، الدَّالَّانِ على أنَّ سحْرَ سَحَرةِ فرعونَ خيالٌ لا حقيقةَ له، يُعارِضُهما قوله في الأعراف: ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾؛ لأنَّ وصْفَ سِحرِهم بالعِظَمِ يدُلُّ على أنَّه غيرُ

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- السِّحرُ لا يؤثِّرُ بقلبِ الأعيانِ إلى أعيانٍ أُخرَى[١]، مما يدلُّ على ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ فلو كان السَّحرةُ قادرينَ على قلبِ الأعيانِ، لَمَا احتاجوا إلى طلَبِ الأجْرِ والمالِ من فرعونَ؛ لأنَّهم لو قَدَروا على قلبِ الأعيانِ فلِمَ لم يَقلِبوا التُّرابَ ذهَبًا؟! ولِمَ لَمْ يَنقُلوا مُلكَ فرعونَ إلى أنفُسِهم، ولِمَ لَمْ يجعلوا أنفُسَهم مُلوكَ العالَمِ، ورؤساءَ الدُّنيا[٢]؟!

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ يدُلُّ على أنَّ كُلَّ الخَلْقِ كانوا عالِمينَ بأنَّ فرعونَ كان عبْدًا ذليلًا مَهينًا عاجِزًا، وإلَّا لَمَا احتاجَ إلى الاستعانةِ بالسَّحرةِ في دَفْعِ موسى عليه السَّلامُ[٣].

٣- ليس في أمْرِ موسى عليه السَّلامُ إيَّاهم بالتَّقدُّمِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ﴾ ما يَقتضي تسويغَ مُعارَضةِ دعوةِ الحقِّ؛ لأنَّ القومَ كانوا مَعروفينَ بالكُفْرِ بما جاء به موسى، فليس في مُعارَضَتِهم إيَّاهُ تجديدُ كُفْرٍ، ولأنَّهم جاؤوا مُصمِّمينَ على مُعارَضَتِهِ، فليس الإذْنُ لهم تسويغًا، ولكنَّهم خيَّروه في التَّقدُّمِ

خيالٍ، فالَّذي يَظهر في الجوابِ- والله أعلم- أنَّهم أخَذوا كثيرًا مِنَ الحبالِ والعِصيِّ، وخيَّلوا بسِحرِهم لأعيُنِ النَّاسِ أنَّ الحبالَ والعصيَّ تسعى، وهي كثيرةٌ، فظنَّ النَّاظرونَ أنَّ الأرضَ مُلِئَتْ حيَّاتٍ تسعى؛ لكثرةِ ما أَلقَوْا مِنَ الحبالِ والعِصيِّ، فخافوا من كثرتِها، وبتَخْييلِ سَعْيِ ذلك العددِ الكثيرِ، وَصَفَ سحرَهم بالعِظَمِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٣٦).

(١) يُنظر: ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (١/ ٨٨) (٥/ ٢)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١٤٨)، ((القول المفيد)) لابن عثيمين (١/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أو أن يتقدَّموا، فاختار أنْ يتقدَّموا؛ لِحِكْمَةٍ إلهيَّةٍ تَزيدُ المعجزةَ ظُهورًا، ولأنَّ في تقديمِهِ إيَّاهم إبلاغًا في إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، ولعلَّ اللهَ أَلْقى في نفسِهِ ذلك، وفي هذا دليلٌ على جوازِ الابتداءِ بتقريرِ الشُّبهةِ للَّذي يَثِقُ بأنَّه سيدفَعُها[١]. ومِن الحِكْمةِ في أمْرِه لهم بالتَّقدُّمِ- والله أعلم- لِيَرى النَّاسُ صَنيعَهم ويتأمَّلوه، فإذا فُرِغَ من بَهْرَجِهِم، جاءَهم الحقُّ الواضحُ الجَلِيُّ بعْدَ التَّطلُّبِ له، والانتظارِ منهم لمجيئِه، فيكون أَوْقَعَ في النُّفوسِ، وكذا كان[٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ فيه ما يدُلُّ على رغبتِهم في أنْ يُلقوا قَبْلَه من تأكيدِ ضَميرِهم المُتَّصِلِ بالمُنْفَصِلِ وتعريفِ الخبرِ، أو تعريفِ الخبرِ وإقحامِ الفَصْلِ، وقد سوَّغَ لهم موسى ما تَراغَبوا فيه؛ ازدِراءً لِشأنِهم، وقِلَّةَ مُبالاةٍ بهم، وثِقَةً بما كان بصَدَدِهِ مِنَ التَّأييدِ السَّماوِيِّ، وأنَّ المعجزةَ لنْ يغلِبَها سِحْرٌ أبدًا[٣].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾

- قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، منوطٌ بسُؤالٍ نَشأَ مِن حِكايةِ مجيءِ السَّحرةِ، كأنَّه قيل: فماذا قالوا له عندَ مجيئهم فِرعونَ، وحين مُثُولِهم بينَ يَدَيْهِ؟ فقيل: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا ...﴾؛ ولذلك لم يقُل: (وجاءَ السَّحرةُ فرعون فَقالوا)؛ لأنَّه على تَقديرِ سائِلٍ سألَ: ما قالوا إذ جاؤوه؟ فأُجيب بقولِه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا ...﴾[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٧-٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٥).

- وتنكيرُ الأجرِ في قولِه: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ للتَّعظيمِ[١].

- وقوله: ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ فيه تأكيدٌ لضمير (كنَّا) بالضَّمير (نحن)؛ إشعارًا بجدارتِهم بالغَلبِ، وثِقتِهم بأنَّهم أعلمُ النَّاسِ بالسِّحرِ؛ فأكَّدوا ضميرَهم؛ لزيادةِ تقريرِ مدلولِه[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنَةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ﴾، وقال في سورة الشُّعَراءِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ٤١]؛ وذلك لأنَّه لَمَّا تقدَّم في سورةِ الشُّعراءِ ما شرْحُه أكثَرُ، وما في سورةِ الأعرافِ أَوْجَزُ وأَخْصَرُ، كان قولُه في الأعرافِ: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بمعنى ما كان بإزائِهِ في سورةِ الشُّعَراءِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ [الشعراء: ٤١]، فَلَمْ يَحْتَجْ في جوابِ (لَمَّا) إلى (فاء) ولا إلى (واو)، وكذلك هُنا في سورةِ الأعرافِ، لَمَّا قَصَدَ هذا المعنى دَلَّ بحَذْفِ العاطِفِ على هذا القَصْدِ، فكأنَّه قال: فلمَّا جاء السَّحَرةُ فرعونَ قالوا: أَئِنَّ لنا لأجرًا[٣].

٢- قولُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ فيه مناسبة حسنة، حيث حَكَى اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ قولَ فِرعونَ بقولِه: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، وفي سورةِ الشُّعَراءِ بقولِه: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢]، بزيادةِ ﴿إِذًا﴾ في الشُّعَراءِ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ (إذًا) تقَعُ جوابًا وجزاءً، والمعنى في السُّورتَيْنِ مقصودٌ به الجزاءُ، فوَقَعَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٦).
(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٥٩-٦٦٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٧).

الاكتفاءُ في الأعرافِ بقولِهِ تعالى: ﴿نَعَمۡ﴾، والمعنى: نَعَمْ، لكم ما أردْتُم مِنَ الأجْرِ، وزيادةُ التَّقريبِ والحُظْوَةِ، ولا شكَّ أنَّ المعنى: إنْ غلَبْتُم فلَكُم ذلك، فالمعنى على ذلك، ثمَّ وَرَدَ في سورةِ الشُّعَراءِ مُفْصَحًا بالأداةِ المُحْرِزَةِ له، وهي: (إذًا)؛ لِيُناسِبَ بزيادتِها ما مضَتْ عليه سورةُ الشُّعَراءِ مِنَ الاستيفاءِ والإطنابِ، وناسَبَ سُقوطُها في الأعرافِ مقصودَ الإيجازِ في هذه القِصَّةِ[1].

٣- قوله: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ كأنه قيل: فماذا فَعَلوا بعد ذلك؟ فقيل: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ ...﴾[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سُورةِ الأعرافِ: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾، وقال في سورةِ طه: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ [طه: ٦٥]، والمعنى واحدٌ؛ لأنَّ كُلَّ واحدةٍ مِنَ الآيتَيْنِ جَرَتْ على وَفْقِ فواصِلِ تِلك السُّورةِ، ورُؤوسِ آياتِها، فالعكسُ لا يُناسِبُ؛ فاختُصَّتْ كُلُّ سورةٍ بما وَرَدَ فيها[3].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٧-١٢٨)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٧-٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٦٣-٦٦٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٨).

الآيات (١١٧-١٢٦)

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ
ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ
ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟
مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ
رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿تَلْقَفُ﴾: أي: تَأْكُلُ وتَلْتَهِمُ، وتَلْقَمُ وتَبْتَلِعُ؛ يُقالُ: لَقِفَ الشيءَ وأَلْقَفَه، وتَلَقَّفَه: تَناوَلَه بالحِذْقِ، سواءٌ في ذلك تَناوُلُه بالفَمِ أو اليَدِ[(١)].

﴿يَأْفِكُونَ﴾: أي: يَكذِبونَ ويُزوِّرونَ، والإفْكُ: الكَذِبُ، وأصلُ (أفك): يَدُلُّ على قَلْبِ الشَّيْءِ، وصَرْفِهِ عن جِهَتِه[(٢)].

﴿وَٱنقَلَبُوا۟﴾: أي: رجَعوا، وانصرَفوا، يُقالُ لِمَنْ كان على شيءٍ ثمَّ رجَع عنه: قدِ انْقَلَبَ على عَقِبِه، وأَصْلُ (قلب): صَرْفُ الشَّيءِ عن وجْهٍ إلى وجْهٍ، أو ردُّه من جِهَةٍ إلى جِهةٍ؛ كقَلْبِ الثَّوْبِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

﴿صَٰغِرِينَ﴾: أي: أذلَّاءَ مُهانينَ، أو مُبْعَدينَ؛ فالصَّغارُ: الذِّلَّةُ والـمَهانَة، وأصلُ (صغر): يَدُلُّ على قِلَّةٍ وحَقارةٍ[١].

﴿لَمَكْرٌ﴾: أي: لَصَنيعٌ فيما بَيْنكم وبَيْن موسى، وأَصْلُ (مكر): الاحْتيالُ والخِداعُ[٢].

﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: الخِلافُ: المُخالَفَةُ، والمرادُ بالقَطعِ مِن خِلافٍ: أنْ يُخالِفَ بينَ العُضوينِ في القَطعِ، وذلِك بقَطْعِ اليَدِ اليُمنى والرِّجلِ اليُسرى، أو قَطْعِ اليدِ اليُسرَى والرِّجلِ اليُمنى[٣].

﴿تَنقِمُ﴾: أي: تَكْرَهُ مِنَّا، وتُنْكِرُ وتَعيبُ؛ يقال: نَقَمَ الشَّيءَ، إذا أنكره؛ إمَّا باللِّسانِ، وإمَّا بالعقوبةِ، وأَصْلُ (نقم): يدُلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيْبِه[٤].

﴿أَفْرِغْ﴾: أي: أَنزِلْ واصبُبْ علينا؛ كما يُفرَغُ الدَّلْوُ، أي: يُصَبُّ ما فيه، وأصل (فرغ): يَدُلُّ على خُلُوٍّ، وَسَعَةِ ذَرْعٍ[٥].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أَوْحى إلى موسى بأنْ يُلْقِيَ عصاهُ بعدَما أَلْقى السَّحرةُ حِبالَهم وعِصِيَّهم، فإذا هي ثُعبانٌ حقيقيٌّ يأكُلُ ما كان أَلْقاهُ السَّحَرةُ ممَّا أَوْهَموا النَّاسَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٤، ١١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٦١).

كَذِبًا أنَّها حيَّاتٌ، فظَهَرَ حينَها الحقُّ، وبَطَلَ ما كانوا يَعمَلونَ، فغُلِبَ عِندَ ذلك الجَمْعِ السَّحَرةُ وفرعونُ وقومُه، وانصرفوا أذِلَّاءَ حقيرينَ، وسجَدَ السَّحرةُ لرَبِّهم بعَدْ أنْ رَأَوْا عظيمَ قُدْرتِه، وقالوا: آمَنَّا برَبِّ العالَمينَ، ربِّ موسى وهارونَ.

قال فرعونُ للسَّحرةِ: أآمَنْتُمْ له قَبْلَ أنْ أُعطيَكم الإذْنَ بذلك؟! إنَّ هذا الَّذي فعلتُموهُ حيلَةٌ اتَّفَقْتُم مع موسى عليها؛ لِتُخْرِجوا أهلَ هذه المدينةِ منها، فسوف تعلَمونَ ما سأفعَلُ بكم مِنَ العذابِ، لَأُقَطِّعَنَّ من كُلِّ ساحرٍ منكم يدَه ورِجْلَه من جِهتَيْنِ مختلِفتَيْنِ، ثمَّ لَأُصَلِّبَنَّكم كُلَّكم. قال السَّحرةُ الَّذينَ آمَنوا: إنَّا إلى رَبِّنا لَراجِعونَ، وما تُنْكِرُ منَّا يا فرعونُ إلَّا أنَّنا آمَنَّا بآياتِ ربِّنا لَمَّا أَتَتْنا، ثمَّ دعا السَّحرةُ ربَّهم فقالوا: ربَّنا أنزِلْ علينا صَبْرًا، وأَمِتْنا مُسلِمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

أي: وأوحينا إلى موسى بعْدَ أنْ أَلْقى السَّحرةُ حبالَهم وعِصِيَّهم: أنْ أَلْقِ عصاكَ[1].

كما قال تعالى لموسى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ [طه: ٦٩].

﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿تَلْقَفُ﴾ قراءتانِ:

١- قراءة ﴿تَلْقَفُ﴾، من لَقِفْتُ الشَّيءَ أَلْقَفُهُ لَقْفًا، قيل: هو أَخْذُ الشَّيءِ بحِذْقٍ في الهواءِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٩).

(٢) قرأ بها حفص. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧١).

٢- قراءة ﴿تَلَقَّفُ﴾، قيل: معناه: تَلتَهِمُ العِصِيَّ والحِبالَ الَّتي تُخُيِّلَتْ بِسِحرِ السَّحَرَةِ أنَّها حيَّاتٌ، وقيل: أَصْلُ الكلمةِ: تَتَلَقَّفُ، أي: تُبالِغُ وتتكلَّفُ اللَّقْفَ[١].

﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

أي: فأَلْقى موسى عصاهُ، فانقلَبَتْ في الحقيقَةِ ثُعبانًا عظيمًا، يأكُلُ ويبتَلِعُ بسرعةٍ هائلةٍ جميعَ ما أَلْقاهُ السَّحرةُ مِنَ الحِبالِ والعِصِيِّ، الَّتي أَوْهَموا النَّاسَ كَذِبًا وافتراءً أنَّها حَيَّاتٌ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١١٨﴾.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: فلمَّا جَرَى ذلك ظهَرَ الحقُّ، وتبيَّنَ لجَميعِ الحاضرينَ أنَّ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ رسولٌ من عِندِ اللهِ ربِّ العالَمينَ[٣].

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: واضْمَحَلَّ وزالَ ما كان يَقُومُ به السَّحرةُ مِنَ الخِداعِ والكَذِبِ والتَّخْييلِ[٤].

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٨).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٢، ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٠، ٥١)، ((العذب

كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ * وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [يونس: ٨١- ٨٢].

﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ ﴾.

أي: فغُلِبَ فرعونُ وقومُهُ والسَّحرةُ عِند ذلك الجَمْعِ[(١)].

﴿وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾.

أي: وانصَرَفَ فرعونُ وقومُه والسَّحَرةُ[(٢)] أذِلاَّءَ حقيرينَ، بعْدَ أنْ غَلَبَهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[(٣)].

﴿ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٦).

وقال ابن عطيَّةَ: (و﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ لفظٌ يَعُمُّ سِحرَ السَّحرةِ وسعْيَ فرعونَ وشِيعتِهِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٦- ٨٧).

قال ابن عاشور: (وقد عُطِفَ عليه جُملةُ ﴿ فَغُلِبُواْ ﴾ بالفاءِ؛ لِحُصولِ المغلوبيَّةِ إثْرَ تَلَقُّفِ العَصا لإفْكِهم، و﴿هُنَالِكَ ﴾ اسْمُ إشارةِ المكانِ، أي: غُلِبوا في ذلك المكانِ؛ فأفادَ بَداهَةَ مغلوبيَّتِهم وظُهورَها لِكُلِّ حاضِرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٧).

قال ابنُ عطيةَ: (وفي قولِه: ﴿وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾ إن قدَّرنا انقلابَ الجمعِ قبلَ إيمانِ السَّحرة فهم في الضميرِ، وإن قدَّرناه بعد إيمانِهم فليسوا في الضميرِ، ولا لحِقهم صغارٌ يصفُهم الله به؛ لأنَّهم آمَنوا واستُشْهِدوا رضِي الله عنهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الضَّميرُ قَبْلُ في قولِهِ: ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾ ضَميرًا مُشتركًا، جُرِّدَ المؤمنونَ وأُفْرِدوا بالذِّكْرِ(١).

﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

أي: ولم يتمالَكِ السَّحرةُ أنفُسَهم بعَدْ أنْ رَأَوْا عظيمَ قُدْرَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وعرَفوا صِدْقَ موسى عليه السَّلامُ، فسقَطوا على وُجوهِهم ساجِدينَ لربِّهم(٢).

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

أي: قال السَّحرةُ: آمَنَّا بخالِقِ ومالِكِ ومُدبِّرِ كُلِّ شيءٍ، فلا نعبُدُ غيرَه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٤).

قال ابن عطيَّةَ: (قوله تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ... ﴾ الآياتِ، لمَّا رأى السَّحرةُ من عظيمِ القُدرةِ، وما تيقَّنوا به نُبوَّةَ موسى آمَنوا بقلوبِهم، وانضافَ إلى ذلك الاستِهوالُ والاستِعظامُ والفزعُ من قدرةِ اللهِ تعالى؛ فخرُّوا سجَّدًا للهِ تعالى مُتطارِحينَ وآمَنوا نُطقًا بألسنتِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٠).

وقال الشنقيطي: (هُمْ وقتُ إلقائِهم ساجدينَ ليسوا بسَحرةٍ، بل إنَّما هُمْ من عبادِ اللهِ المُكرَمينَ المؤمنينَ الأفاضلِ، ولكنَّه سمَّاهم سَحرةً؛ نظرًا لحالِهم الماضيةِ كما سمَّى البالِغينَ (يتامى)؛ نظرًا لهم في حالِهم الماضيةِ في قوله: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ [النساء: ٢] كما هو معروفٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٨).

قال الشَّوكانيُّ: (وجملةُ ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ مُستأنَفَةٌ، جوابُ سؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه قيل: ماذا قالوا عِند سجودِهم أو في سجودِهم؟). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٥).

وقال ابن عاشور: (وجملةُ: ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ من جُملةِ: ﴿ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ ﴾؛ لأنَّ الهَوِيَّ للسُّجودِ اشتَمَلَ على ذلك القولِ، وهُمْ قصَدُوا من قولِهم ذلك الإعلانَ بإيمانِهم باللهِ؛ لئلَّا يظنَّ النَّاسُ أنَّهم سجَدوا لفرعونَ؛ إذْ كانت عادةُ القِبْطِ السُّجودَ لفرعونَ؛ ولذلك وصَفوا اللهَ

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَروا أنَّهم آمَنوا بربِّ العالَمينَ، خصُّوا مَنْ هَداهُمُ اللهُ على أَيْديهما؛ تصريحًا بالمُرادِ، وتشريفًا لهما، فقالوا[1]:

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

أي: ربُّنا الَّذي آمَنَّا به هو ربُّ الرَّسولَيْنِ الكريمَيْنِ موسى وهارونَ، اللَّذَيْنِ أَيَّدَهما بهذه المعجزةِ العظيمةِ، الدَّالَّةِ على صِدْقِهما[2].

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾.

أي: قال فرعونُ للسَّحرةِ لَمَّا أَعْلَنوا إيمانَهم باللهِ عزَّ وجلَّ: أَآمَنْتُمْ بموسى قَبْلَ أنْ أمنَحَكم الإذْنَ بذلك؟! فهذا سوءُ أدَبٍ منكم، وتجرُّؤٌ عليَّ[3]!

بأنَّه ربُّ العالَمينَ بالعُنوانِ الَّذي دعا به موسى- عليه السَّلامُ-، ولعلَّهم لم يكونوا يَعرِفونَ اسْمًا عَلَمًا للهِ تعالى؛ إذ لم يكنْ للهِ اسْمٌ عِندهم، وقد عُلِمَ بذلك أنَّهم كفَروا بإلهيَّةِ فرعونَ، وزادوا هذا القَصْدَ بيانًا بالإبدالِ من ﴿بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قولَهم: ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾؛ لئلَّا يُتَوَهَّمَ المبالَغةُ في وصْفِ فرعونَ بأنَّه ربُّ جميعِ العالَمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٩).

قال الأزهري: (مَنْ قَرَأَ ﴿ءَامَنتُم﴾ بوزن (عَامَنتُم) فلفظُه لفظُ الخبرِ، ومعناه للاستفهامِ، إلَّا أنَّه حَذَفَ إحدى الهمزتَيْنِ). ((معاني القراءات)) (١/ ٤١٩).

وقال مَكي: (وقرأ حفصٌ... بهمزةٍ واحدةٍ، بعدَها ألِفٌ، على لفظِ الخبرِ الَّذي معناه الاستفهامُ).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾.

أي: قال فرعونُ للسَّحرةِ: إنَّ ما فعلتموه[1] خُدْعَةٌ وحيلَةٌ اتَّفَقْتُمْ أنتُمْ وموسى عليها؛ لتكونَ لكم الرِّياسةُ في مدينتِنا هذه، وتُخرِجوا منها أهلَها القِبْطَ، وتُسكِنوا فيها بني إسرائيلَ[2].

((الكشف)) (١/ ٤٧٣).

وقال ابن عاشور: (وقوله: ﴿ءَامَنتُمْ﴾ قرأه الجمهورُ بصيغةِ الاستفهامِ- بهمزتين-... وقرأه حفصٌ عن عاصمٍ بهمزةٍ واحدةٍ، فيجوزُ أنْ يكونَ إخبارًا، ويجوز أنْ تكونَ همزةُ الاستفهامِ محذوفةً وما ذلك بِبِدْعٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٣).

(١) قيل: الإشارةُ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ﴾ راجعةٌ إلى إيمانِهم باللهِ تعالى، وسجودِهم له، وتصديقِهم لموسى عليه السَّلامُ. وممَّن اختار هذا القول: ابنُ جرير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٢)، ((العذب النمير)) (٤/ ٨٩).

وقيل: الإشارةُ راجعةٌ إلى تغلُّبِ موسى على السَّحرةِ، أي: إنَّ ذلك كان عن تَشاوُرٍ وتراضٍ بين الطَّرفينِ. وممَّن اختار هذا القول: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٩).

قال ابن عاشور: (وقولُ فرعونَ هذا يحتملُ أنَّه قاله موافِقًا لظنِّهِ على سبيلِ التُّهمةِ لهم؛ لأنَّه لم يكن له عِلْمٌ بدقائقِ عِلْمِ السِّحرِ حتَّى يُفرِّقَ بينه وبين المعجزةِ الخارقةِ للعادةِ، فظنَّ أنَّها مَكيدةٌ دبَّرها موسى مع السَّحرةِ، وأنَّه لكونِهِ أعلمَهم أو معلِّمَهم أَمَرهم فأتمروا بأمْرِه، كما في الآيةِ الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٩]. ويحتملُ أنَّه قاله تمويهًا وبُهتانًا؛ ليصرِفَ النَّاسَ عن اتِّباعِ السَّحرةِ، وعن التَّأثُّرِ بغَلَبَةِ موسى إيَّاهم، فيُدخِلُ عليهم شكًّا في دلالةِ الغلبةِ واعترافِ السَّحرةِ بها، وأنَّ ذلك مواطَأَةٌ بين الغالبِ والمغلوبِ؛ لغايةٍ مقصودةٍ، وهو موافِقٌ في قوله هذا لِمَا كان أشارَ به). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٤).

وقال الشنقيطي: (وهذا فعلَه فرعونُ مكرًا منه وخِداعًا، وخوفًا منه أنْ تتَّبعَ النَّاسُ السَّحرةَ؛ فيؤمِنوا بموسى). ((العذب النمير)) (٤/ ٨٩).

ثم قال فرعونُ مُهدِّدًا السَّحرةَ الَّذينَ آمَنوا:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فسوف تَعلَمون ما أفعَلُ بكم مِنَ العذابِ[(١)].

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾.

أي: قال فرعونُ مُبيِّنًا ما سيُعذِّبُ به السَّحرةَ الَّذينَ آمَنوا: أُقْسِمُ لَأُقطِّعنَّ من كلِّ ساحرٍ منكم يدَهُ ورِجْلَه من جِهتَيْنِ مُختلِفتَيْنِ؛ فيقطَعُ اليَدَ اليُمنى والرِجْلَ اليُسرى أو بالعكْسِ[(٢)].

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: ثمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ كُلَّكُم- أيُّها السَّحرةُ- على جُذوعِ النَّخْلِ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٠).

قال الشنقيطي: (يقطَعُ اليدَ اليُمنى من شِقٍّ؛ فيضعُفُ ذلك الشِّقُّ باليدِ، ويقطَعُ الرِّجْلَ اليُسرى من الشِّقِّ الآخَرِ؛ فيكون كلٌّ من الشِّقَّين قد ضعُفَ). ((العذب النمير)) (٤/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٥).

قال ابن عاشور: (وَالتَّصْليبُ: مبالغةٌ في الصَّلْبِ. والصَّلْبُ: ربطُ الجسمِ على عُودٍ مُنْتَصِبٍ أو دَقُّه عليه بمساميرَ... والمبالغَةُ راجِعَةٌ إِلى الكيفِيَّةِ أيضًا بشِدَّةِ الدَّقِّ على الأعوادِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٥).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥﴾.

أي: قال السَّحرةُ الَّذينَ آمَنوا بعْدَ أنْ توعَّدَهم فرعونُ بالعذابِ والقتلِ: إنَّا إلى ربِّنا الرَّحيمِ الكريمِ راجِعونَ، فنجِدُ لَدَيْهِ مِنَ النَّعيمِ ما يُنْسينا كُلَّ بلاءٍ ومحنةٍ في الدُّنيا، فلا نُبالي بعِقابِكَ- يا فرعونُ-، ولَنَصْبِرَنَّ على عذابِكَ في الدُّنيا؛ لِنَنْجُوَ من عذابِ اللهِ في الآخرةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠- ٥١].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ * إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٢- ٧٣].

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَا﴾.

أي: وما الَّذي تُنكرُه وتكرُهه منَّا، وتَعيبُه علينا- يا فرعونُ-؛ حتَّى تجعَلَهُ سببًا لعذابِنا وتقتيلِنا إلَّا أنَّنا صدَّقْنا وأَقْرَرْنا بحُجَجِ ربِّنا وأدلَّتِهِ حين جاءتْنا دالَّةً على رسولِهِ[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٣).

ثم دعا السَّحرةُ ربَّهم، فقالوا:

﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾.

أي: ربَّنا أنزِلْ علينا صَبْرًا عظيمًا عِند تعذيبِ فرعونَ لنا؛ حتَّى نَثبُتَ على دِينِكَ[(١)].

﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾.

أي: أَمِتْنَا- يا ربَّنا- ونحن ثابتونَ على الإسلامِ؛ حتَّى نلقاكَ وأنتَ عنَّا راضٍ[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال تعالى على لِسانِ السَّحرةِ الَّذينَ آمَنوا: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾، دَعَوْا لأنفُسِهم بالوفاةِ على الإسلامِ؛ إيذانًا بأنَّهم غيرُ راغبينَ في الحياةِ، ولا مُبالينَ بوعيدِ فرعونَ، وأنَّ هِمَّتَهم لا تَرْجو إلَّا النَّجاةَ في الآخرةِ، والفَوزَ بما عِند اللهِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٤، ٩٧).

قال ابن كثير: (قال ابنُ عبَّاسٍ، وعُبَيْدُ بن عُمَيْرٍ، وقَتادةُ، وابن جُرَيْجٍ: كانوا في أوَّلِ النَّهارِ سحرةٌ، وفي آخِرِه شهداءُ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠).

وقال ابن عاشور: (والقرآنُ لم يتعرَّضْ هنا، ولا في سورةِ الشُّعراءِ، ولا في سورة طه، للإخبارِ عن وُقوعِ ما توعَّدهم به فرعونُ؛ لأنَّ غرَضَ القصصِ القرآنيَّةِ هو الاعتبارُ بمحلِّ العِبرةِ، وهو تأييدُ اللهِ موسى، وهدايةُ السَّحرةِ وتصلُّبهم في إيمانِهم بعد تعرُّضهم للوعيدِ بنفوسٍ مطمئنَّةٍ، وليس من غرَضِ القرآنِ معرفةُ الحوادثِ؛ كما قال في سورةِ النَّازعاتِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦]، فاختِلافُ المفسِّرينَ في البحثِ عن تحقيقِ وعيدِ فرعونَ زيادةٌ في تفسيرِ الآيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٦).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿تَلْقَفُ﴾ بحذْفِ إحدى التَّاءَيْنِ مِنَ الأصلِ، أي: تَلْتَقِمُ التقامًا حقيقيًّا شديدًا سريعًا جدًّا بما دَلَّ عليه حذْفُ التَّاءِ[١]، على إحدى القراءتين.

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ دَلَّ على كثرةِ ما صَنَعوا بقولِهِ: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾، أي: يُجدِّدونَ- حين إلقائِهم- في تَزْويرِه وقَلْبِه عن وَجْهِه[٢].

٣- قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ هذه الحادثةُ الخارقةُ للعادةِ فيها إثباتُ الصانعِ، وإثباتُ نبوةِ أنبيائِه، فإنَّ حدوثَ هذا الحادثِ على هذا الوجهِ في مثلِ ذلك المقامِ يُوجبُ علمًا ضروريًّا أنَّه مِن القادرِ المختارِ لتصديقِ موسَى عليه السَّلامُ، ونصْرِه على السَّحرةِ؛ فقلبُ الأعيانِ إلى ما ليس في طبعِها الانقلابُ إليه، كمصيرِ الخَشبِ حيوانًا حسَّاسًا متحرِّكًا بالإرادةِ، يبلعُ عصيًّا وحبالًا، ولا يتغيَّرُ- ليس هذا مِن جنسِ مقدورِ البشرِ، لا معتادًا ولا نادرًا، ولا يحصلُ بقُوَى نفسٍ أصلًا، ولهذا لمَّا رأَى سحرةُ فرعونَ ذلك علموا أنَّه خارجٌ عن طريقةِ السِّحرِ[٣].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ دلَّ بـ (كان) والمضارعِ على أنَّهم- مع بُطلانِ ما عمِلوا- نَسوا عِلْمَهم، بحيث إنَّه انسدَّ عليهم بابُ العملِ بعْدَ أنْ كان لهم به مَلَكَةٌ كمَلَكَةِ ما هو كالجِبلَّةِ[٤].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، لم يُعبَّرْ عنه بالسِّحرِ؛ إشارةً إلى

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٩).

أنَّه كان سِحرًا عجيبًا تكلَّفوا له، وأَتَوْا بمُنتهى ما يَعرِفونَه[١].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ ﴾، لم يَقُلْ: (فغَلَبَهم موسى)؛ لأنَّ ذلك لم يكنْ بكَسْبِه وصُنْعِه عليه السَّلامُ[٢].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾، لم يتأخَّروا عَنِ السُّجودِ حتَّى كأنَّهم خرُّوا من غيرِ اختيارٍ[٣]، فعَبَّرَ بقولِهِ: ﴿ وَأُلْقِيَ ﴾ كأنَّ إنسانًا أَمْسَكَهم وأَلْقاهم ساجِدينَ بالقُوَّةِ؛ لِقوَّةِ البُرهانِ الَّذي رَأَوْا به الحَقَّ[٤].

٨- أنَّه قد يكونُ الشَّيءُ الخَسيسُ الحقيرُ وفيه بعضُ النَّفْعُ؛ لأنَّ عِلْمَ السِّحرِ من أَخَسِّ العُلومِ وأَقْبَحِها، وقد صرَّحَ اللهُ جلَّ وعلا في المُحْكَمِ المُنَزَّلِ في سورةِ البقرةِ أنَّ تعلُّمَه يَضُرُّ ولا ينفَعُ، فهو ضَرَرٌ مَحْضٌ لا نَفْعَ فيه، كما قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾[البقرة: ١٠٢]، ولكنَّ اللهَ قد نَفَعَ هؤلاءِ القومَ بهذا العِلْمِ الخسيسِ الخبيثِ، فتبيَّنَ أنَّ قولَهُ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾[البقرة: ١٠٢] من جميعِ الحَيْثِيَّاتِ غيرِ هذه الحَيْثِيَّةِ وهو انتفاعُهم به أنَّهم كانوا عالِمينَ بالسِّحرِ، عارِفينَ بِحُدودِهِ الَّتي يَنتهي إليها، فلمَّا جاءتِ العصا والْتَقَمَتْ جميعَ الحِبالِ والعِصِيِّ، ولم يَجِدوا حبلًا ولا عصا، عرَفوا أنَّ هذا مِنَ اللهِ؛ لأنَّهم يَعرِفونَ السِّحرَ، ويَعرِفونَ مدى تأثيرِه، فمعرفتُهم بالسِّحرِ كانت نَفْعًا لهم؛ بأنْ عرَفوا أنَّ العصا ليسَتْ من جِنْسِ السِّحرِ، فلو كانوا جاهِلينَ بالسِّحرِ لظنُّوا أنَّ عصا موسى من جنْسِ السِّحرِ والشَّعوذةِ، وهُمْ لَمَّا عرَفوا السِّحرَ تمامًا عرَفوا أنَّ البُرهانَ خارجٌ عن طَوْرِ السِّحرِ، وأنَّه لا يدخُلُ فيه، وأنَّه أمْرٌ إلهيٌّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٥).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾، وقولُهُ: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ يدُلُّ على أنَّ فِعْلَ العبْدِ لا يحصُلُ إلَّا بتخليقِ اللهِ وقضائِه[١].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ ظُهورَ الآيةِ موجِبٌ للإيمانِ عِند مَنْ ظهرتْ له، ولو أنَّ الرَّسولَ غيرُ مُرْسَلٍ إليه[٢].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، لماذا خصَّهما اللهُ بالذِّكْرِ، وهما يدخُلانِ في جُملةِ العالَمينَ؟ للعلماءِ في ذلك وُجوهٌ:

الوجْهُ الأوَّلُ: خصَّهما بالذِّكْرِ بعْدَ دُخولِهما في جُملةِ العالَمينَ؛ لأنَّ فيه معنى الَّذي دعا إلى الإيمانِ به موسى وهارونُ[٣].

الوجْهُ الثَّاني: خصَّهما بالذِّكْرِ تفضيلًا وتشريفًا؛ كقولِه: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[٤] [البقرة: ٩٨].

الوجْهُ الثَّالثُ: أنَّ السَّحَرةَ لم يَكتفوا بقولِ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، حتَّى قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ لئلَّا يتوَّهمَ مُتوهِّمٌ من قومِ فرعونَ المقِرِّينَ بإلَهِيَّتِه أنَّ السُّجودَ له[٥].

الوجْهُ الرَّابعُ: تخصيصُهما بإضافةِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى لهما؛ لأنَّ ربوبيَّةَ موسى وهارونَ لها اختِصاصٌ زائدٌ على الرُّبوبيَّةِ العامَّةِ للخَلْقِ؛ فإنَّ مَنْ أَعْطاه اللهُ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٣٧، ٣٤٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠).
(٣) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨٦).
(٤) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨٦).
(٥) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/ ٢٦٥).

الكمالِ أكثَرَ ممَّا أَعْطى غيرَهُ فقدْ ربَّه وربَّاه رُبوبيَّةً وتربيةً أكمَلَ من غيرِهِ[١].

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾، لَمَّا خافَ فرعونُ أنْ يكونَ إيمانُ السَّحرةِ حُجَّةَ قومِهِ أَلْقى في الحالِ نوعَيْنِ مِنَ الشُّبَهِ؛ أحدُهما: أنَّ هذا تواطُؤٌ منهم لا أنَّ ما جاء به حقٌّ. والثَّاني: أنَّ ذلك طَلَبٌ منهم للمُلْكِ[٢].

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾، قولُ فرعونَ: ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؛ لِيُخَوِّفَهم من خطَرِ المُخالَفةِ له بما رجَّاهم فيه من إِذْنِه[٣].

١٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ...﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، طوَّلَ الكلامَ؛ تَبْيينًا لِمَا أرادوا، وتَنْسيَةً لخاطِرِ الإيمانِ[٤].

١٥- قولُ اللهِ تعالى على لسانِ فرعونَ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، لَمَّا ظهرتِ الحُجَّةُ عادَ إلى عادةِ مُلوكِ السُّوءِ- إذا غُلِبوا- وهي تَعذيبُ مَنْ ناوَأَهم، وإنْ كان مُحِقًّا[٥].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فيه أنَّ الدِّينَ عِند اللهِ الإسلامُ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ[٦].

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ استَدَلَّ به مَنْ قال: إنَّ الإيمانَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤١).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤١).
(٦) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٢/ ١٢٨).

والإسلامَ واحدٌ؛ فإنَّهم قالوا أوَّلًا: ﴿ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، ثمَّ قالوا ثانيًا: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾(٧).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾ فيه التعبيرُ عن الماضِي بصِيغةِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على التَّجديدِ والتَّكريرِ، مع استحضارِ صُورةِ اللَّقف الهائلةِ(٨).

٢- قوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أَتى بقولِه: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، بعْدَ قولِهِ: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾، مع تضمُّنِه معناه؛ لِتقريرِ مَضمونِ جُملةِ: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾ لتَسجيلِ ذَمِّ عَمَلِهم، والنِّداءِ بِخَيْبَتِهم؛ تأنيسًا للمُسلِمينَ، وتهديدًا للمشركينَ، وللكافرينَ أمثالها(٩).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، وقال في سورةِ الشُّعراءِ مِثْلَه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧- ٤٨]، وقال في سورةِ طه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، كرَّرَ ذِكْرَ ﴿رَبِّ﴾ في السُّورتَيْنِ، ولم يُكرِّرْه في سورةِ طه؛ لأنَّه إذا قيل: ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فقدْ دخَلَ فيهم موسى وهارونُ، وهما دَعَوَا إلى ربِّ العالَمينَ لَمَّا قالَا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، إلَّا أنَّه كرَّر في السُّورتَيْنِ: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ ليدُلَّ بتَخصيصِهما بعْدَ العُمومِ على تَصديقِهم بما جاءَا به عليهما السَّلامُ عن اللهِ تبارَكَ وتعالى، فكأنَّهم قالوا: آمَنَّا برَبِّ العالَمينَ، وهو الَّذي يَدْعو إليه موسى وهارونُ.

---

(٧) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٠).

(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٩).

(٩) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥١).

وأمَّا في سورةِ طه فَلَمْ يذكُرْ: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّه هنا تتمة للآيةِ رعايةً للفواصلِ، كما في السُّورتَيْنِ، فيكونُ مَقْطَعُ الآيةِ فاصلةً مُخالِفةً للفواصلِ الَّتي بُنِيَتْ عليها سورةُ طه، فقال تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، وربُّهما هو ربُّ العالَمينَ، وكان القَصْدُ حِكايةَ المعنى، لا أداءَ اللَّفْظِ(١).

٤- قولُه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ بهمزةٍ واحدةٍ إمَّا على الإخبارِ المحضِ المتضمِّنِ للتوبيخِ، أو على الاستفهامِ التوبيخيِّ بحذفِ الهمزةِ، ومعناه الإنكارُ والاستبعادُ(٢).

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾، وقال في سورتَيْ طه والشُّعراءِ: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١، الشعراء: ٤٩]، فأَظهرَ اسْمَ فرعونَ- لَعَنه اللهُ- في سورةِ الأعرافِ في هذا اللَّفظِ، وأَضمَرَه في مِثلِه من سورتَيْ طه والشُّعراءِ؛ وذلك لأنَّ إظهارَ اسْمِ فرعونَ في سورةِ الأعرافِ؛ لأنَّه جاء في الآيةِ العاشرةِ من الآيِ الَّتي أَضْمَرَ فيها ذِكرَه، وهي قولُه: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، وجاء في الآيةِ العاشرةِ من هذه السُّورةِ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، ولم يَبْعُدْ هذا الذِّكْرُ في الآيتَيْنِ اللَّتَيْنِ في سورةِ طه والشُّعراءِ؛ لأنَّ فرعونَ مذكورٌ في سورةِ طه في جُملةِ قومِهِ الَّذينَ أَخْبَرَ عنهم بقولِه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧] وبعْدَه: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ * قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦٠- ٦١]، وهذا خِطابُه لِفرعونَ وقومِه، وضَميرُهم مُنْطَوٍ على

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٦٦-٦٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦١).

ضميرِه إلى قولِه: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗا﴾ [طه: ٦٤].

والذِّكرُ في قولِه: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥٓ﴾ [طه: ٧١] إنَّما هو السَّابعُ من الآيِ الَّتي جَرى ذِكْرُه فيها، وكذلك في سورةِ الشُّعراءِ لم يَبْعُدِ الذِّكْرُ بعْدَه كما في سورةِ الأعرافِ، ألا ترى أنَّ آخِرَ ما ذَكَرَ فيما اتَّصلَ بهذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢]، وذَكَرَهُ بعْدَ ذلك في الآيةِ الثَّامنةِ من الآيِ الَّتي جَرى ذِكْرُه فيها، فلمَّا بَعُدَ الذِّكرُ في سورةِ الأعرافِ خِلافَ بُعْدِهِ في السُّورتَيْنِ؛ إذْ كان في إحْداهما في السَّابعةِ، وفي الأُخْرى في الثَّامنةِ، وفي الأعرافِ في العاشرةِ أُعيدَ ذِكْرُه الظَّاهرُ لذلك(١).

- ومن المُناسَبةِ الحَسنةِ أيضًا أنَّه قال تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، وقال في الموضعَيْنِ الآخَرَيْنِ: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥٓ﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩]؛ ووجهُ ذلك: أنَّ الباءَ في سورة الأعراف في قولِه: ﴿ءَامَنتُمۡ بِهِۦ﴾ واللَّامَ في ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥٓ﴾ في طه والشعراء مُحتاجٌ إلى كلِّ واحدةٍ منهما من حيث إنَّ التَّصديقَ والانقيادَ معنيانِ يُحتاجُ إليهما؛ فالباءُ تُحْرِزُ التَّصديقَ، واللَّامُ تُحْرِزُ الانقيادَ والإذعانَ، فبُدِئَ بالباءِ المُعْطيةِ معنى التَّصديقِ، وهى أخصُّ بالمقصودِ من اللَّامِ، فاقتضى التَّرتيبُ تقديمَها، ثمَّ أُعْقِبَ في السُّورتَيْنِ بَعْدُ باللَّامِ، حتَّى كأنْ قد قيل لهم: أصدَّقتْموه مُنقادينَ له في دعائِه إيَّاكم إلى الإيمانِ بما جاء من عِند اللهِ؟! فحصَلَ المقصودُ على أكملِ ما يُمكِنُ(٢).

وقيل: إنَّ وجْهَ ذلك أنَّ الهاءَ في قولِه: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ غيرُ الهاءِ في قوله: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥٓ﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩]، وكلُّ واحدةٍ تَعودُ إلى غيرِ ما تَعودُ إليه الأُخْرى؛

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٦٨-٦٧٠)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٩-٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٠).

فالَّتي في ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ تعودُ إلى ربِّ العالَمينَ؛ لأنَّه تعالى حَكى عنهم أنَّهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وهو الَّذي دعا إليه موسى عليه السَّلامُ، وأمَّا الهاءُ في قولِه: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾ في طه والشعراء تعودُ إلى موسى عليه السَّلامُ. وقيل: يجوز أنْ يكونَ الهاءُ في ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ ضمير موسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّه يُقالُ: آمَنَ بالرَّسولِ، أي: أظهرْتُم تصديقَه، وأقدمْتُم على خِلافي قبْلَ أنْ آذَنَ لكم فيه، وهذا مكرٌ مَكَرْتُموه، وسِرٌّ أَسْرَرْتُموه؛ لِتقلبوا النَّاسَ عليَّ؛ فاقتَضَى هذا الموضعُ الَّذي ذُكِرَ فيه المكرُ إنكارَ الإيمانِ به، فأمَّا الإيمانُ له في الموضعَيْنِ الآخَرَيْنِ؛ فاللَّامُ تُفيدُ معنى الإيمانِ من أَجْلِه، ومن أَجْلِ ما أَتى به من الآياتِ، فكأنَّه قال: آمَنْتُم بربِّ العالَمينَ لِأَجْلِ ما ظهَرَ لكم على يَدَيْ موسى عليه السَّلامُ من آياتِه، والموضعُ الَّذي ذُكِرَ فيه (له)، أي: مِنْ أَجْلِه، وعُبِّرَ عنه باللَّامِ، هو الموضعُ الَّذي قَصَدَ فيه إلى الإخبارِ بـ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾[طه:٧١، والشعراء: ٤٩]؛ فلذلك خُصَّ باللَّامِ، والأوَّلُ خُصَّ بالباءِ، وقد تدُلُّ اللَّامُ على الاتباعِ؛ فيكونُ المعنى: اتَّبعتُموه؛ لأنَّهُ كبيرُكم في عَمَلِ السِّحرِ، وقد يُؤمِنُ بالخبرِ مَنْ لا يعملُ عليه، ولا يتَّبِعُ الدَّاعيَ إليه(١).

- وقولُه: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ وعيدٌ ساقَه بطريقِ الإجمالِ؛ للتهويلِ، ثمَّ عقَّبه بالتَّفصيلِ(٢).

٥- قولُه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾

فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾، وقال في سورةِ طه: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٧١-٦٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٤).

﴾ [طه: ٧١]، وقال في سورةِ الشُّعراءِ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٩]، فقال في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ولم يَقُلْهُ في سورةِ طه، وإنَّما أَدْخَلَ الفاءَ على قولِه: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ [طه: ٧١]، وأمَّا في سورةِ الشُّعراءِ فإنَّه أتى بـ (سَوْفَ تَعْلَمُونَ) مع اللَّامِ فقال: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩]؛ وذلك لأنَّ قولَه تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من الوعيدِ المُبْهَمِ، وهذا النَّوْعُ من الوعيدِ أَبْلَغُ مِنَ الإفصاحِ بقَدْرِه، على أنَّه قد قَرَنَ إليه بيانَه، وهو: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ الآيةَ، فنَطَقَ القرآنُ بحكايةِ التَّعريضِ بالوعيدِ، والإفصاحِ بالتَّهديدِ معًا. وأمَّا اختصاصُ سورةِ الشُّعراءِ بقولِه: ﴿فَلَسَوْفَ﴾ وزيادةِ اللَّامِ؛ فلتقريبِ ما خوَّفَهم به من اطِّلاعِهم عليه وقُرْبِه منهم، حتَّى كأنَّه في الحالِ موجودٌ؛ إذِ اللَّامُ للحالِ، فالجَمْعُ بينها وبين (سوف) الَّتي للاستقبالِ إنَّما هو لتحقيقِ الفِعْلِ، وإدنائِه مِنَ الوُقوعِ، وقد بيَّنَّا أنَّ سورةَ الشُّعراءِ أَكْثَرُ اقتصاصًا لأحوالِ موسى عليه السَّلامُ في بَعْثِه، وابتداءِ أمْرِه، وانتهاءِ حالِه مع عدُوِّه، فجَمَعَتْ لفظَ الوعيدِ المُبْهَمِ مع اللَّفظِ المُقرِّبِ له، المُحَقِّقِ وُقوعَه، إلى اللَّفظِ المُفصِحِ بمعناه، ثمَّ وقَعَ الاقتصارُ في السُّورةِ الَّتي لم يُقْصَدْ فيها من اقتصاصِ الحالِ ما قُصِدَ في سورةِ الشُّعراءِ على ذِكْرِ بعضِ ما هو في مَوْضِعِ التَّفصيلِ والشَّرْحِ، وهو التَّعريضُ بالوَعيدِ مع الإفصاحِ به. وأمَّا في سورةِ طه فإنَّه اقتصر على التَّصريحِ بما أَوْعَدَهم به، وتَرَكَ: (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)، وقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ [طه: ٧١]، إلَّا أنَّه جاء بَدَلَ هذه الكلمةِ ما يُعادِلُها ويُقارِبُ ما جاء في سورةِ الشُّعراءِ الَّتي هي مِثْلُها في اقتصاصِ أحوالِه من ابتدائِها إلى حين انتهائِها، وهو قولُه بَعْدَهُ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١]، فاللَّامُ والنُّونُ في: (لَتَعْلَمُنَّ) للقَسَمِ، وهما لتحقيقِ الفعْلِ وتوكُّدِه، كما أنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩] لإدناءِ الفعْلِ

وتقريبِه، فقدْ تجاوَزَ ما في السُّورتَيْنِ المقصودَ فيهما إلى اقتصاصِ الحالِ من إعلاءِ الحقِّ وإزهاقِ الباطلِ[١].

- وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقال في سورتَيْ طه والشُّعراءِ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩]، فاخْتَصَّتْ ما في سورةِ الأعرافِ بـ(ثُمَّ) والأُخْرَيَيْنِ بالواوِ، والمُتوعَّدُ به واحدٌ في الموضعَيْنِ؛ فإنَّ السُّورتَيْنِ اللَّتَيْنِ اختصَّتا بالواوِ هما المَبْنِيَّتانِ على الاقتصاصِ الأكثرِ، والتَّفصيلِ الأوْسَعِ، والواوُ أشبَهُ بهذا المعنى؛ لأنَّه يجوز أنْ يكونَ ما بعْدَها مُلاصِقًا لِمَا قبْلَها، كالتَّعقيبِ الَّذي يُفادُ بالفاءِ، ويجوز أنْ يكونَ مُتراخيًا عنه، كالمُهْلَةِ الَّتي تُفادُ بـ(ثمَّ)، لا، بَلْ يجوز أنْ يكونَ ما بعْدَها مُقدَّمًا على ما قبْلَها، ومُجامِعًا لها؛ إذْ هي موضوعةٌ للجَمْعِ، ولا ترتيبَ فيها، فكانت الواوُ أَشْبَهَ بهذَيْنِ المكانَيْنِ، و(ثم) تختصُّ بأحَدِ المواضعِ الَّتي تَصْلُحُ الواوُ لجميعِها، فلمَّا كانت مُقْتَصَرًا بها على بعضِ ما وُضِعَتْ له الواوُ، استُعْمِلَتْ حيث اخْتُصِرَتِ الحالُ، فاقترَنَ بكُلِّ مكانٍ ما يَليقُ بالمقصودِ فيه[٢].

وقيل: لأنَّ (ثمَّ) تدُلُّ على أنَّ الصَّلْبَ يقَعُ بعْدَ التَّقطيعِ، وإذا دلَّ في الأولى عُلِمَ في غيرِها، ولأنَّ موضِعَ الواوِ تصلُحُ له (ثمَّ)[٣].

وقيل: إنَّ (ثمَّ) للتَّبايُنِ والتَّراخي في الزَّمانِ، وتكون للتَّباينِ في الصِّفاتِ والأحكامِ، وغيرِ ذلك مما يُحْمَلُ به ما بعْدَها على ما قبْلَها من غيرِ قصْدِ مُهْلَةٍ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٧٤-٦٧٨)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٧٨-٦٧٩).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٩).

زمانيَّةٍ، بل لِيُعْلَمَ موقعُ ما يُعْطَفُ بها وحالُه، وأنَّه لو انفَرَدَ لكان كافيًا فيما قُصِدَ به، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، فَلَمْ يُقْصَدْ في هذا ترتيبٌ زمانيٌّ، بل تعظيمُ الحالِ فيما عُطِفَ، وموقعُه ومكانتُه، وتحريكُ النُّفوسِ لاعتبارِه، ولَمَّا تقدَّمَ في الأعرافِ تهويلُ الواقعِ من فِعْلِ السَّحرةِ وموقعُه من نُفوسِ الحاضرينَ؛ آنَسَ سُبحانَه نبيَّه موسى عليه السَّلامُ بقولِه: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٨]، ووقَعَ التَّعبيرُ عما ذكَرْنا بقولِه: ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾، فناسَبَه- رَعْيًا لفظيًّا وتقابُلًا نَظْميًّا- تهويلُ ما توعَّدهم به فرعونُ، فعُطِفَ بـ (ثُمَّ)؛ لِتَحَرُّزِ ما قَصَدَ فرعونُ من تعظيمِ موقِعِ ما توعَّدهم به ثانيًا في قولِه: ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾ عليهم، وأيضًا فإنَّ فرعونَ وملأَه حين رَأَوْا ما جاءت به السَّحرةُ، ووَقَعَ منهم موقعًا أَطْمَعَهم، وتعلَّقَ به رجاؤُهم، ثمَّ لَمَّا وقَعَ ما أَبْطَلَه، وأَوْضَحَ كيْدَهم فيه وباطِلَهم الخياليَّ وجَدَ الملأُ لذلك، واستشعرَ فِرعونُ ما حلَّ به وبملئِه، فهَوَّلَ في توعُّدِهم ومقالِه؛ تجلُّدًا وتصبُّرًا، أو تعزيةً لنفسِه عمَّا نَزَلَ به، فأَرْعَدَ وأَبْرَقَ في تهويلِه ما توعَّد به السَّحرةُ، فقال: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾، فقدْ تناسَبَ المُتقابِلانِ لفظًا ومعنًى، ولَمَّا ضُمَّ الواقعُ في سورةِ الشُّعراءِ لم يُحْتَجْ إلى هذا الرَّعْيِ، فعُطِفَ بالواوِ، ولم يكُنْ على ما تقرَّر لِيُمْكِنَ العكْسُ[(١)].

٦- قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ استئنافٌ مسوقٌ للجوابِ عن سُؤالٍ ينساقُ إليه الذِّهنُ، كأنَّه قيل: فماذا قال السَّحَرةُ عندما سَمِعوا وعيدَ فِرعون؛ هل تأثَّرُوا به أمْ تَصلَّبوا فيما هم فيه مِن الدِّين؟ فقيل: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[(٢)].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، وقال في سورةِ الشُّعراءِ: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦١).

﴾[الشعراء: ٥٠]، بزيادةِ قولِه: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ على ما ذَكَرَ في سُورةِ الأعرافِ؛ وذلك لأنَّ السَّحرةَ قابَلوا وعيدَ فرعونَ بما يُهَوِّنُه، ويُزيلُ أَلَمَه من انتقالِهم إلى ثوابِ ربِّهم، مع التَّحقُّقِ من مُنْقَلَبِ مُعَذِّبِهم فِرعونَ، فجاء في سورةِ الشُّعراءِ- وهي الَّتي قُصِدَ بها الاقتصاصُ الأكبرُ-: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، أي: لا ضَرَرَ علينا؛ فإنَّ مُنْقَلَبَنا إلى جزاءِ ربِّنا؛ فنَنْعَمُ أبدًا، وتُعَذَّبُ أنتَ أبدًا، فالضَّررُ الَّذي تُحاوِلُ إنزالَه بنا بكَ نازِلٌ، وعليك مُقيمٌ، ونحن نَأْلَمُ ساعةً لا يُعْتَدُّ بها مع دوامِ النَّعيمِ بعْدَها، وفي سورةِ الأعرافِ وقَعَ الاقتصارُ على قولِه: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، وفيه كِفايةٌ وإبانةٌ عن هذا المعنى، ودَلالةٌ على ما قُصِدَ فيها ممَّا بُيِّنَ وشُرِحَ في سواها[1].

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠] مُقابَلٌ به ما تقدَّمَ من قولِه: ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ٤٤]؛ لِمَا اعتقدوه أوَّلًا أنَّ له عِزَّةً، ونَسَبوها إليه، فظنُّوا أنَّه يَقْدِرُ على ما يُريدُه، ويستبِدُّ بفعلِه، ثمَّ لَمَّا وَضَحَ لهم الحقُّ، ورجَعُوا عن اعتقادِهم، وعلِموا أنَّ القُدرةَ والعِزَّةَ لله سُبحانَه، وسلَّموا لخالِقِهم، ولم يُبالوا بفِرعونَ ومليِه، فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾، أي: لا ضَرَرَ، ولا خوفَ من فرعونَ؛ إذ العِزَّةُ للهِ وحْدَه، ولَمَّا لم يقَعْ من قولِهم في الأعرافِ أوَّلًا مِثْلُ الواقعِ هنا، لم يَجيئوا في الجوابِ بما جاؤوا هنا، فافترَقَ الموضعانِ، وجاء كلٌّ على ما يُناسِبُه[2].

٧- قوله: ﴿وَمَا نَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فيه تأكيدُ المدحِ بما يُشبِهُ الذمَّ، أو المدحُ في مَعرِضِ الذَّمِّ، حيثُ استثنَى مِن صِفةِ الذَّمِّ المنفيَّةِ عن الشَّيءِ، وهي: ﴿وَمَا نَنقِمُ مِنَّآ﴾، صِفةَ مَدْحٍ لذلك الشَّيءِ بتقديرِ دُخولِها في صِفة الذمِّ فقال: ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا...﴾،

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٨٠-٦٨١).
(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢١-٢٢٢).

وهو نوعٌ طريفٌ مِن أنواع البَلاغةِ[١].

- وقولُهم: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ أَكْمَلُ مِن أنْ يقولوا: (أنزِلْ علينا صبرًا)؛ لأنَّ إفراغَ الإناءِ هو صَبُّ ما فيه بالكُلِّيَّةِ، فكأنَّهم طلَبوا مِنَ اللهِ تعالى كُلَّ الصَّبْرِ لا بعضَه[٢]، والمقصودُ مِن ذلك: الكنايةُ عن قُوَّةِ الصَّبرِ؛ لأنَّ إفراغَ الإناءِ يستلزمُ أنَّه لم يَبْقَ فيه شيءٌ ممَّا حواه؛ لأنَّه لَمَّا كان وعيدُ فِرعونَ ممَّا لا تُطيقُه النُّفوسُ، سألوا اللهَ تعالى أنْ يَجعلَ لنُفوسِهم صبرًا قويًّا، يفوقُ المتعارَف[٣].

- وتَنكيرُ الصَّبرِ في قولِه: ﴿صَبۡرٗا﴾ مُفصِحٌ عن التَّفخيمِ، وفيه مِن الجَزالةِ ما لا يَخفَى، حيثُ يدلُّ على الكَمالِ والتَّمامِ، أي: صبرًا كاملًا تامًّا[٤].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٣/ ٤٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٤٤).

الآيات (١٢٧-١٢٩)

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿قَٰهِرُونَ﴾: أي: غالِبونَ، أو عالُونَ، والقَهْرُ: الغَلَبَةُ والتَّذليلُ معًا، وأَصْلُ (قهر): يَدُلُّ على غَلَبَةٍ وَعُلُوٍّ[1].

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾: أي: يَجعلَكم تَخْلُفونَ مَن قَبْلَكم، والخِلافةُ: النِّيابةُ عن الآخَرِ، وخَلَفَ فلانٌ فلانًا: قام بالأمْرِ عنه، إمَّا معه وإمَّا بَعدَه، وأَصْلُه: مجيءُ شيءٍ بعْدَ شيءٍ يقوم مَقامَه[2].

المعنى الإجماليُّ:

وقال الأشرافُ من قومِ فِرعونَ له: أتترُكُ موسى وقومَه المؤمنين من بني إسرائيلَ ليُفسِدوا في الأرضِ، ويترُكَ عِبادتَك، وعِبادةَ آلهتِك؟! قال فِرعونُ مُجيبًا لهم: سنُقتِّلُ أبناءَهم، ونَستحي نِساءَهم، وإنَّا عالُون فوْقَهم.

قال موسى لقومِه: استعينوا باللهِ واصبِروا؛ إنَّ الأرضَ للهِ يُورِثُها مَنْ يشاءُ من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٢٩٤).

عِبادِه، والعاقبةُ المحمودةُ تكون لِمَنِ اتَّقى اللهَ تعالى.

قال بنو إسرائيلَ لموسى: آذانا فرعونُ وقومُه مِنْ قَبْلِ أنْ تأتيَنا، ومن بَعْدِ مَجيئِك بالرِّسالةِ أيضًا، قال لهم موسى: عسى ربُّكم أنْ يُهلِكَ عدُوَّكم فرعونَ وقومَه، ويجعلَكم خُلفاءَ في الأرضِ مِنْ بَعْدِ هلاكِهم، فينظُرَ كيف سيكون عَمَلُكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: وقال الأشرافُ من قومِ فرعونَ وكُبراءِ رجالِه له: أتترُكُ موسى وقومَه المؤمنين مِن بني إسرائيلَ مِن غيْرِ أنْ تُعاقبَهم، وتضرِبَ على أيدِيهم، فيُفسِدوا عليك رَعيَّتَك في أرضِ مِصْرَ بعبادةِ اللهِ وحْدَه من دونِكَ، والدَّعوةِ إليه، وإلى التَّمسُّكِ بالفضائلِ ومكارمِ الأخلاقِ[1]؟!

﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾.

أي: أتترُكُ موسى وقومَه يُفسِدون في الأرضِ، والحالُ أنَّه يَترُكُ عِبادتَك- يا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٧- ٩٨).
قال ابن عاشور: (والإفسادُ عِندهم هو إبطالُ أصولِ ديانتِهم، وما ينشأ عن ذلك من تفريقِ الجماعةِ، وحثِّ بني إسرائيلَ على الحرِّيَّةِ، ومُغادَرةِ أرضِ الاستعبادِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٨).
وقال الشِّنقيطي: (معنى إفسادِهم في الأرضِ: أنَّهم يَزعمون أنَّهم يؤمنون بموسى، ويكونون معه، ويَكونون حَرْبًا على القِبْطِ؛ [فيُخرجونهم] من بلادِ مصرَ، هذا معنى إفسادِهم في الأرضِ المزعومِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٩٨).

فرعونُ- وعِبادةَ آلِهتِك[(١)]، ويَنهى النَّاسَ عنكَ وعن عِبادتِها[(٢)]؟!

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٥- ٤٧].

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾.

---

(١) قال الشنقيطي: (وقراءةُ الجمهورِ: ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾، ويذرك فلا يَعْبُدك، ويَذر آلهتَك فلا يعبدها، وقراءةُ ابنِ عبَّاسٍ: «وَيَذَرَكَ وإِلَاهَتَكَ»، أي: وعِبادتَكَ، وهي قراءةٌ شاذَّةٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ٩٩).

قال ابن عاشور: (كان القِبطُ مُشرِكين يَعبدون آلهةً متنوِّعةً من الكواكبِ والعناصرِ، وصوَّروا لها صورًا عديدةً مختلِفةً باختلافِ العصورِ والأقطارِ... وكان أعظمُ هذه الأصنامِ هو الَّذي يَنتسِب فرعونُ إلى بُنُوَّتِه وخِدْمتِه، وكان فرعونُ معدودًا ابنَ الآلهةِ، وقد حلَّتْ فيه الإلهيَّةُ على نحوِ عقيدةِ الحُلولِ، ففرعونُ هو المنفِّذُ للدِّينِ، وكان يُعَدُّ إلهَ مصرَ، وكانت طاعتُه طاعةً للآلهةِ كما حَكَى اللهُ تعالى عنه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٨- ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٥- ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٩).

قال ابن تيميَّةَ: (ومن لم يعبُدِ اللهَ أصلًا كفرعونَ ونحوِه ممَّن قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فهؤلاء مُعطِّلةٌ، وهم شرُّ الكفَّارِ، ومع هذا يكون لهم ما يعبدونه دونَ اللهَ، كما قال تعالى في قومِ فرعونَ: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، فقال غيرُ واحدٍ من السَّلفِ: «كان له آلهةٌ يعبُدُها»). ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٢٩٢).

وللواو في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ﴾ وجهانِ من الإعرابِ:

الأوَّلُ: أنَّها واوُ الحالِ. وهذا اختيار ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٦).

الثَّاني: أنَّها واو العطْفِ، فيكون قولُه سبحانه: ﴿وَيَذَرَكَ﴾ معطوفًا على ﴿لِيُفْسِدُواْ﴾، وهذا اختيارُ ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٨).

وحَكَى ابنُ كثير الوجهينِ، ولم يُرجِّحْ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩-٤٦٠).

أي: قال فرعونُ مُجيبًا لملئِه: سنُقتِّلُ الأبناءَ الذُّكورَ من أولادِ بني إسرائيلَ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [غافر: ٢٥].

﴿وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾.

أي: ونَستبقي الإناثَ منهم، فلا نقتُلُهُنَّ(٢).

﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾.

أي: قال فِرعونُ: وإنَّا عالون على بني إسرائيلَ مُذلِّلون لهم؛ فلا خُروجَ لهم عن حُكْمِنا(٣).

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٩).
قال الرازيُّ: (اتَّفَقَ المفسِّرون على أنَّ هذا التهديدَ وقع في غيرِ الزَّمانِ الأوَّلِ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٢). ويعني بالزَّمانِ الأوَّلِ: زمنَ وِلادةِ موسى عليه السَّلامُ. يُنظر: ((الإجماع في التفسير)) لعمَّار الجُماعي (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٩).
قال السعديُّ: (أي: نَسْتَبْقيهنَّ فلا نقتلهنَّ، فإذا فعَلْنا ذلك أَمِنَّا من كثرتِهم، وكنَّا مُستخدِمينَ لباقيهم، ومُسخِّرينَ لهم على ما نشاءُ من الأعمالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠).
وقال ابن عاشور: (الغرَضُ من استبقاءِ النِّساءِ أنْ يتَّخِذوهُنَّ سراريَّ وخَدَمًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٩).

أي: قال موسى لقومِه من بني إسرائيلَ: اطْلُبوا العَوْنَ من اللهِ تعالى على فِرعونَ وقومِه، واصْبِروا على ما يَحِلُّ بكم من المَكارِهِ في أنفُسِكم وأبنائِكم ونسائِكم؛ حتَّى يُنجِّيَكم اللهُ بفضْلِه من ظُلمِهم(٤).

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: قال موسى لقومِه: إنَّ الأرضَ كُلَّها للهِ، وليسَتْ لفرعونَ ولا لقومِه، يُقدِّرُ اللهُ تعالى لِمَنْ يشاءُ من العِبادِ مِلْكَ شيءٍ منها، ثمَّ ينزِعُه منه، ويُداوِلُه بين النَّاسِ، وَفْقَ مشيئتِه وحِكْمتِه(٥).

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: والحالُ الحَسنةُ المَحمودةُ في الدُّنيا والآخِرةِ تكون في آخِرِ الأمرِ للَّذينَ يتَّقونَ اللهَ عزَّ وجلَّ؛ بِفِعْلِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه(٦).

كما قال سُبحانَه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

---

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٠- ١٠١).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

وقال تعالى للمؤمنينَ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال تعالى عن إنجائِه يُوسُفَ عليه السَّلامُ من كَيْدِ إِخْوَتِه وغيرِهم: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ * قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٨٩-٩٠].

﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾.

أي: قال بنو إسرائيلَ لموسى: آذانَا فرعونُ وقومُه بقتْلِ أبنائِنا، واستحياءِ نسائِنا، وإذْلالِنا مِنْ قَبْلِ مجيئِكَ برسالتِكَ- يا موسى- ومِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا كذلك[1].

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾.

أي: قال موسى لقومِه: أَرْجو لكم مِن خالِقِكم ومُدبِّرِ شُؤونِكم أنْ يُهلِكَ عدُوَّكم فرعونَ وقومَه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠١- ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٢).

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وأنْ يَجعَلَكم خُلفاءَ في أرضِهم مِنْ بَعْدِ إهلاكِهم، فيُمَكِّنكم فيها[١].

﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: فيَرى اللهُ عزَّ وجلَّ ما تَعمَلونه حينذاكَ من خيرٍ وشرٍّ، وشُكْرٍ وكُفْرٍ، فيُجازِيَكم عليه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣-١٤].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ كُلَّ مَنِ اتَّقى اللهَ تعالى وخافَه فاللهُ يُعينُه في الدُّنيا والآخرةِ[٣].

٢- عُلِمَ من قولِه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أنَّ مَنْ يشاء اللهُ أنْ يُورِثَهم الأرضَ هُمُ المتَّقونَ إذا كان في النَّاسِ مُتَّقونَ وغيرُهم، وأنَّ تمليكَ الأرضِ لغيرِهم إمَّا عارِضٌ، وإمَّا لاستواءِ أهلِ الأرضِ في عدمِ التَّقْوى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٢).
قال القرطبيُّ: (وقد استُخلِفوا في مِصرَ في زمانِ داودَ وسليمانَ عليهما السَّلامُ، وفَتَحوا بَيْتَ المَقْدِسِ مع يُوشَعَ بنِ نُونٍ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٣- ٣٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦١).

٣- قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، المتَّقونَ بمنزِلةِ مَنْ أكَلَ الطَّعامَ النَّافعَ، واتَّقى الأطعمةَ المُؤذيةَ؛ فَصَحَّ جِسمُه، وكانت عاقبتُه سَليمةً، وغيرُ المتَّقي بمنزلةِ مَنْ خَلَطَ مِنَ الأطعمةِ؛ فإنَّه وإنِ اغْتَذَى بها لكنَّ تلك التَّخاليطَ قد تُورِثُه أمراضًا إمَّا مؤذيةً؛ وإمَّا مُهْلِكَةً(١).

٤- قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾، هذه الآيةُ الكريمةُ فيها وعيدٌ شديدٌ، وتخويفٌ عظيمٌ، لِمَنِ اسْتَخْلَفَه اللهُ في الأرضِ- بَعْدَ عدُوِّه الَّذي كان يُقاوِمُه- وَبَسَطَ يَدَهُ بالأرضِ، فإذا كان عِنده عَقْلٌ فإنَّه يخافُ من نَظَرِ اللهِ إليه كيف يَفْعَلُ؛ فيُطيعُ اللهَ في كُلِّ ما يفعَلُ، كما لا يَخفى، فهذه من أعظمِ المواعظِ وأكبرِها الَّتي يَعِظُ اللهُ بها الَّذينَ يُسْتَخْلَفونَ في الأرضِ بعْدَ الَّذينَ كانوا فيها(٢).

٥- قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ المُسْتَخْلَفينَ في الأرضِ لم يُسْتَخْلَفوا فيها لأَجْلِ الإنعامِ بها عليهم، بل كُلُّ ذلك للابتلاءِ والامتحانِ، فيَنظُر اللهُ تعالى هل يُطيعونَه فيما اسْتَخْلَفَهم فيه أو يَعْصونَه(٣).

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، في وَعْدِ موسى تبشيرٌ لقومِه بالنَّصرِ وحُسْنِ الخاتمةِ؛ فنتيجةُ طَلَبِ الإعانةِ توريثُ الأرضِ لهم، ونتيجةُ الصَّبرِ العاقبةُ المحمودةُ، والنَّصرُ على مَنْ عاداهم؛ فلذلك كان الأمرُ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٣٦-١٣٧).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٢).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٢).

بشيئَيْنِ يَنْتِجُ عنهما شيئان[١].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ جِيءَ فيه بلفظَيْنِ عامَّينِ، وهما: ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ و(المتَّقينَ)؛ لِتكونَ الجُملتانِ تَذْييلًا للكلامِ، ولِيَحْرِصَ السَّامعونَ على أنْ يكونوا مِنَ المتَّقينَ[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، عبَّرَ بـ (عَسَى) ولم يَقْطَعْ بالوَعْدِ؛ لئلَّا يُكذِّبوه؛ لِضَعْفِ أنفُسِهم بما طالَ عليهم مِنَ الذُّلِّ والاسْتِخذاءِ لفرعونَ وقومِه، واستعظامِهم لِمُلْكِه وقُوَّتِه[٣].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، لا تَنافِيَ بين هذا الرَّجاءِ وبين قولِه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ من حيثُ إنَّ الرَّجاءَ غيرُ مقطوعٍ بحُصولِ مُتَعَلَّقِه، والإخبارَ بأنَّ العاقبةَ للمُتَّقينَ واقِعٌ لا مَحالةَ؛ لأنَّ العاقبةَ إنْ كانت في الآخرةِ فَظاهِرٌ عَدَمُ التَّنافي، وإنْ كانت في الدُّنيا فليس فيها تصريحٌ بعاقبَةِ هؤلاءِ القومِ المخصوصين؛ فسَلَكَ موسى طريقَ الأدَبِ مع اللهِ، وساقَ الكلامَ مَساقَ الرَّجاءِ[٤].

بلاغة الآيات:

١- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾

- جُملةُ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، أو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٦).

على جُملةِ: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾، وإنَّما عُطِفَتْ ولم تُفْصَلْ؛ لِأَنَّها خارِجةٌ عَنِ المُحاوَرَةِ الَّتي بَيْنَ فرعونَ ومَنْ آمَنَ مِنْ قومِهِ بموسى وآياتِه؛ لأنَّ أولئك لم يُعَرِّجوا على ذِكْرِ ملأِ فرعونَ، بل هي مُحاوَرَةٌ بَيْنَ ملأِ فرعونَ وبَيْنه في وقتٍ غيرِ وقتِ المُحاوَرةِ الَّتي جَرَتْ بين فرعونَ والسَّحرةِ(١).

- والاستفهامُ في قولِهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾ مُستعمَلٌ في الإغراء بإهلاكِ موسى وقومِه، والإنكارِ على الإبطاءِ بإتْلافِهم(٢).

- وقولهم: ﴿لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ اللام في قوله: ﴿لِيُفْسِدُواْ﴾ لامُ التعليل، وهو مبالغةٌ في الإنكار؛ إذ جَعَلوا تَرْكَ موسى وقومِه مُعلَّلًا بالفسادِ، وهذه اللام تُسمَّى لامَ العاقبة(٣).

٢- قوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ تشديدُ التاءِ في ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ للمبالغةِ في القَتْلِ مُبالغةَ كَثرةٍ واستيعابٍ، والاستحياء مبالغةٌ في الإحياءِ؛ فالسِّينُ والتاءُ في ﴿وَنَسْتَحْيِۦ﴾ للمُبالغةِ أيضًا(٤).

٣- قوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

- قوله: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ كرَّرَ لفظ الجلالة، وأظهرَه في موضعِ الإضمارِ؛ تذكيرًا بالعَظَمَةِ، وتصريحًا، وتبركًا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٥٩).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٧).

- قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ تذييلٌ وتعليلٌ للأمْر بالاستعانةِ بالله، وفيه كنايةٌ عن تَرقُّبِ زَوالِ استِعْبادِ فِرعونَ إيَّاهم، قُصِدَ منها صرفُ اليأسِ عن أنفسِهم النَّاشئِ عن مُشاهدةِ قُوَّةِ فِرعونَ وسُلطانِه[١].

- وقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تذييلٌ بمنزلةِ تَعليلٍ ثانٍ للأمرِ بالاستعانةِ والصَّبرِ، وبهذا الاعتبارِ أُوثِرَ العطفُ بالواوِ على فَصْلِ الجُملةِ، مع أنَّ مُقتضَى التذييلِ أنْ تكونَ الجملةُ مَفصولةً غير مَعطوفةٍ[٢]. وفيه وعدٌ لبَنِي إسرائيلَ بالنُّصرةِ على القِبطِ، وتذكير لِمَا وعَدَهم من إهلاكِ القبطِ، وتوريثِهم أرضَهم ودِيارَهم، وتحقيقٌ له[٣].

٤- قوله: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيه تصريحٌ بما رَمَز إليه مِن البِشارةِ قَبلُ، وكشفٌ عنه، وهو إهلاكُ فِرعونَ، واستخلافُهم بعدَه في أرضِ مِصرَ[٤]. وعَبَّر بـ(عَسَى) التي تدلُّ على الرجاء والطَّمعِ والإشفاقِ، ومِثلُ هذا الكلام إذا صَدَر من الأنبياءِ يُقوِّي قلوبَ أتْباعِهم، فيَصبرون إلى وُقوعِ مُتعلَّقِ الرَّجاءِ[٥].

- قوله: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ جُملةٌ تَجري مجرَى البعثِ والتحريضِ على طاعةِ اللهِ تعالى[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٢- ٣٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٦).

الآيات (١٢٠-١٢٢)

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿أَخَذْنَآ﴾: أي: أَصَبْنا، أو اخْتَبَرْنَا، أو كِنايةٌ عَنِ القَهْرِ، وأصل (أخذ): يدلُّ على حَوزِ الشَّيءِ وجَمْعِه[١].

﴿بِٱلسِّنِينَ﴾: جَمْعُ سَنَةٍ، وهي: الجَدْبُ والقَحْطُ؛ وأكثرُ ما تُستعمَلُ السَّنَةُ في الحولِ الذي فيه الجدبُ، يُقالُ: أَسْنَتَ القَومُ: إذا أَجْدَبوا، وأَصْلُ (سنه): يَدُلُّ على زَمانٍ[٢].

﴿يَطَّيَّرُوا۟﴾: أي: يَتَشاءَموا به، وأَصْلُ (طير): التَّفاؤُلُ بالطَّيْرِ، ثمَّ اسْتُعمِلَ في كلِّ ما يُتَفاءَلُ به ويُتَشاءَمُ[٣].

﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾: أي: شُؤْمُهم، أو حَظُّهم الَّذي قضاه اللهُ تعالى لهم مِنَ الخيرِ والشَّرِّ، فهو لازِمٌ عُنُقَهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨، ٩٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨، ٥٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦).

﴿ٱلطُّوفَانَ﴾: أي: المَطَرَ الكثيرَ، أو الماءَ الكثيرَ، والسَّيلَ العظيمَ، ويُطلَقُ الطُّوفانُ على كُلِّ حادِثَةٍ مُحيطَةٍ بالإنسانِ، فصار مُتعارَفًا في الماءِ المتناهي في الكَثْرَةِ، وأصل (طوف): يَدُلُّ على دَورانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأن يُحَفَّ به، ثُمَّ يُحمَلَ عليه[١].

﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾: السُّوس يقَعُ في الحِنْطَةِ، أو صغار الجَرادِ الَّذي لا أجنِحَةَ له، وقيل: صِغارُ الذُّبابِ، وأصل (قمل): يَدُلُّ على حَقارَةٍ وقَمَاءةٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه ابْتَلى آلَ فرعونَ بالجَدْبِ والقَحْطِ وقِلَّةِ الثِّمارِ؛ لعلَّهم يَذَّكَّرونَ، وأَخْبَرَ أنَّهم إذا جاءَهم الخِصْبُ والرِّزْقُ قالوا: هذه النِّعَمُ الكثيرةُ لنا، ولم يَشكروا اللهَ عليها، وإذا جاءهم الجَدْبُ والقَحْطُ تشاءموا بموسى ومَنْ معه مِنَ المؤمنينَ، إلَّا أنَّ ما أصابَهم من شَرٍّ هو مُقَدَّرٌ عليهم عقوبةً لهم، وليس من عِند موسى والمؤمنين معه، ولكنَّ أكثرَهم لا يَعلمون.

وقال آلُ فرعونَ لموسى: مهما تأتِنا بمعجزةٍ لِتَصْرِفَنا بها عن دِينِنا، فَلَنْ نؤمِنَ لك.

فأرسَلَ اللهُ عليهم الماءَ الكثيرَ الَّذي أَغْرَقَ بُيوتَهم ومزارعَهم، والجرادَ، والقُمَّلَ، والضَّفادِعَ، والدَّمَ، آياتٍ واضحاتٍ تدُلُّ على صِحَّةِ نُبوَّةِ موسى عليه السَّلامُ، وفَصَلَ كُلَّ عقوبةٍ عَنِ الأُخْرى؛ فكان بعضُها يأتي في إِثْرِ بعضٍ، فاسْتَكبروا، وكانوا قومًا مُجرِمينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨١، ٥٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عن موسى عليه السَّلامُ أنَّه قال لقومِه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾، بدأ هاهنا بذِكْرِ ما أنزله بفرعونَ وبقومِه مِنَ المِحَنِ حالًا بعْدَ حالٍ، إلى أنْ وَصَلَ الأمْرُ إلى الهلاكِ؛ تنبيهًا للمكلَّفينَ على الزَّجْرِ عَنِ الكُفْرِ والتَّمسُّكِ بتكذيبِ الرُّسلِ؛ خوفًا من نُزولِ هذه المِحَنِ بهم، فقال[1]:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾.

أي: ولقد ابتلَيْنا فِرعونَ وقومَه، واختبرْناهم بالجَدْبِ والقَحْطِ، وعدمِ نُزولِ المطرِ[2].

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾.

أي: وابتليناهم بقِلَّةِ ثِمارِهم، فلا تُثْمِرُ أشجارُهم إلَّا قليلًا[3].

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

أي: إنَّما ابتلَيْناهم واختبرْناهم بالجَدْبِ وقِلَّةِ الثِّمارِ؛ لِيَتَّعِظوا فينزجِروا عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٣، ١٠٤).
قال ابنُ عاشور: (ليس قولُه تعالى: ﴿بِٱلسِّنِينَ ﴾ دليلًا على أنَّها طالت أعوامًا؛ لأنَّ السِّنينَ هنا جَمْعُ سَنَةٍ بمعنى الجَدْبِ لا بمعنى الزَّمنِ المُقدَّرِ من الدَّهرِ؛ فالسَّنَةُ في كلامِ العربِ إذا عُرِّفَتْ باللَّامِ يُرادُ بها سَنَةُ الجَدْبِ والقَحْطِ... فـ (السِّنين) في الآيةِ مُرادٌ بها القُحوطُ، وجَمْعُها باعتبارِ كثرةِ مَواقعِها، أي: أصابَهم القَحْطُ في جميعِ الأَرَضِينَ والبُلدانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٤).

كُفْرِهم، ويَرجِعوا إلى ربِّهم[١].

كما قال تعالى عنهم: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨].

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾.

أي: فإذا جاءَتْ آلَ فرعونَ الحالُ الحَسَنةُ؛ مِنَ العافيةِ والرَّخاءِ، وكَثْرَةِ الأمطارِ، وكثرةِ الثِّمارِ، قالوا: هذه النِّعَمُ الكثيرةُ لنا؛ لأنَّنا نَستحِقُّها، وجَديرون بها، ولم يَشْكروا اللهَ عليها[٢].

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾.

أي: وإنْ تُصِبْهُمْ حالٌ سيِّئةٌ في بعضِ الأوقاتِ؛ مِنَ الجَدْبِ والقَحْطِ، وقِلَّةِ الأرزاقِ، ومجيءِ الأمراضِ؛ يَتشاءَموا بموسى ومَنْ معه مِنَ المؤمنين، ويقولوا: هذا البَلاءُ جاءَنا بسَبَبِ موسى والَّذينَ آمَنوا بدينِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٥).
قال ابن عاشور: (لأنَّ المصائبَ والأضرارَ المُقارِنَةَ لتذكيرِ موسى إيَّاهم بربِّهم، وتسريحِ عَبيدِه، مِن شأنِها أنْ يكونَ أصحابُها مَرْجُوًّا منهم أنْ يَتذكَّروا بأنَّ ذلك عِقابٌ على إعراضِهم وعلى عدمِ تذكُّرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٦).
قال الشنقيطيُّ: (المرادُ بالحسنةِ هنا- بإجماعِ المفسِّرين- هو ذاك الخِصْبُ، وكثرةُ المطرِ، وكثرةُ الأرزاقِ، والعافيةُ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٢٣٢)،

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: إنَّ ما يُصيبُ فِرعونَ وقومَه من شرٍّ إنَّما هو مُقَدَّرٌ عليهم من عِند اللهِ تعالى؛ عُقوبةً لهم بسَبَبِ كُفْرِهم، وليس هو مِن عِندِ موسى والمؤمِنينَ معه[1].

((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٦).

قال الرازيُّ: (والتَّطَيُّرُ التَّشاؤُمُ في قولِ جميعِ المفسِّرين). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٤).

(١) واختار أنَّ المرادَ بالطائرِ هنا شُؤْمُهم وما يَحُلُّ بهم من مصائبَ: الواحديُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاسٍ، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٧).

وقيل: المرادُ بالطَّائرِ ما قُدِّرَ عليهم من خيرٍ وشرٍّ. وهذا اختيارُ ابن جريرٍ، والبَغَوي، والرازي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٥٤٣)

قال ابنُ تيميَّةَ: (فسَّروا «الطَّائرَ» بالأعمالِ وجزائِها؛ لأنَّهم كانوا يقولون: إنَّما أصابَنا ما أصابَنا من المصائبِ بذُنوبِ الرُّسلِ وأتباعِهم؛ فبيَّنَ اللهُ سبحانه: أنَّ طائرَهم- وهو الأعمالُ وجزاؤُها- هو عِندَ اللهِ، وهو معهم؛ فهو معهم لأنَّ أعمالَهم وما قُدِّرَ من جزائِها معهم، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]، وهو من اللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قدَّرَ تلك المصائبَ بأعمالِهم؛ فمِن عِندِه تتنزَّلُ عليهم المصائبُ جزاءً على أعمالِهم، لا بسببِ الرُّسلِ وأتباعِهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢٥٣). ويُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٦٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٢٣٢).

وقال ابن القيِّم: (هاتانِ النِّسبتانِ نظيرُ هاتين النِّسبتين في هذه الآيةِ، وهي نِسبةُ السَّيِّئةِ إلى نفسِ العبدِ، ونسبةُ الحسنةِ والسَّيِّئةِ إلى أنَّهما مِن عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فتأمَّلِ اتِّفاقَ القرآنِ، وتصديقَ بعضِه بعضًا؛ فحيث جعَلَ الطَّائرَ معهم، والسَّيِّئةَ من نفسِ العبدِ، فهو على وجهةِ السَّببِ والموجبِ، أي: الشَّرُّ والشُّؤْمُ الَّذي أصابَكم هو منكم ومعكم؛ فإنَّ أسبابَه قائمةٌ بكم، كما تقول: شَرُّكَ منك، وشُؤْمُكَ فيك، يُرادُ به العملُ، وطائرُكَ معك، وحيثُ جعَلَ ذلك كلَّه من عنده فهو لأنَّه الخالِقُ له، المجازي به عدلًا وحكمةً، فالطَّائرُ يُرادُ به العملُ وجزاؤه، فالمضافُ إلى العبدِ العملُ، والمضافُ إلى الرَّبِّ الجزاءُ، فطائرُكم معكم طائرُ العملِ، وطائرُكم عند اللهِ الجزاءُ، فما جاءت به الرُّسلُ ليس سببًا لشيءٍ من المصائبِ، ولا تكون طاعةُ اللهِ ورسولُه سببًا

كما قال تعالى في شأنِ المكذِّبين بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثرَ قَومِ فِرعونَ لا يَعلمون أنَّ ما يُصيبُهم من شرٍّ إنَّما هو عقوبةٌ لهم مِن عِندِ اللهِ تعالى بسببِ كُفْرِهم، لا مِن عِندِ موسى وأتباعِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

لمصيبةٍ قَطُّ، بل طاعةُ اللهِ ورسولُه لا توجِبُ إلَّا خيرًا في الدُّنيا والآخرةِ، ولكنْ قد يُصيبُ المؤمنين باللهِ ورسولِه مصائبُ؛ بسببِ ذُنوبهم، وتقصيرِهم في طاعةِ اللهِ ورسولِه). ((شفاء العليل)) (ص: ١٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١).

قال ابن عاشور: (الضَّميرُ في قولِه: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ عائدٌ إلى الَّذينَ ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾، وإنَّما نُفِيَ العِلمُ عن أكثرِهم؛ تنبيهًا على أنَّ قليلًا منهم يعلمون خِلافَ ذلك، ولكنَّهم يُشايِعونَ مَقالةَ الأكثرين). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عن آلِ فرعونَ في الآيةِ الأُولى أنَّهم- لِجَهْلِهم- أسندوا حوادِثَ هذا العالَمِ لا إلى قَضاءِ اللهِ تعالى وقَدَرِه؛ حَكَى عنهم في هذه الآيةِ نوعًا آخَرَ من أنواعِ الجَهالةِ والضَّلالةِ، وهو أنَّهم لم يُميِّزوا بين المعجزاتِ وبين السِّحرِ، وجَعَلوا جُملةَ الآياتِ- مِثلَ انقلابِ العصا حيَّةً- من بابِ السِّحرِ منهم، وقالوا لموسى: إنَّا لا نَقْبَلُ شيئًا منها البتَّةَ[1].

﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ ﴾.

أي: وقال آلُ فرعونَ لموسى: مهما تَجِئْنا- يا موسى- بمُعجزةٍ؛ لتصرِفَنا بها عن دِينِنا، جَزَمْنا بأنَّها سِحرٌ؛ فلن نُؤمنَ بك، ولا بما جَئْتَنا به[2].

﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بارَزوا اللهَ تعالى بتِلك الأفعالِ العَظيمةِ المذكورةِ فيما سبَقَ، استحقُّوا النَّكالَ، فَسُبِّبَ عن ذلك قولُه تعالى[3]:

﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾.

أي: فبسَبَبِ كُفْرِهم بَعَثْنا عليهم الماءَ الكثيرَ، الَّذي دخَلَ بُيوتَهم، وأَغْرَقَ مزارِعَهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٠).

(٤) وهذا المعنى المذكورُ للطُّوفانِ هو اختيارُ السعدي، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطي، ونَسَبَه للجمهورِ.

كما قال اللهُ تعالى عن قومِ نوحٍ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

﴿وَٱلْجَرَادَ﴾.

أي: وبَعَثْنا عليهم الجرادَ، فأكَلَ زُروعَهم وثِمارَهم[(١)].

﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾.

أي: وبعَثْنا عليهم القُمَّلَ[(٢)]، وهو شيءٌ مِن خلقِ اللهِ سلَّطه الله عليهم فعذَّبهم

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١١٢-١١٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه، وأبو مالكٍ، والضحَّاك، وقتادةُ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، والسُّديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٥٤٤).

وقال ابنُ جريرٍ دونَ جزمٍ بتحديدِه: (والصَّوابُ من القولِ... أنَّه أمْرٌ من اللهِ طاف بهم، وأنَّه مصدرٌ من قولِ القائلِ: طاف بهم أمْرُ اللهِ يَطوفُ طوفانًا... وإذا كان ذلك كذلك جاز أن يكونَ الَّذي طاف بهم المطرَ الشَّديدَ، وجاز أنْ يكونَ الموتَ الذَّريعَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٩).

واختلَف السَّلفُ في تفسيرِ القمَّل:

فقال بعضُهم: هو الدَّبَى (الجرادُ الذي ليس له أجنحةٌ)، وممن رُوي عنه هذا القولُ منهم: ابنُ عبَّاس، والسُّديُّ، وقتادةُ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ في روايةٍ عنه، وعطاءٌ الخراسانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٣).

وقال بعضُهم: القمَّل هي البراغيثُ، وممن رُوي عنه هذه القولُ ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٤).

وقال بعضُهم: إنَّها دوابُّ سودٌ صغارٌ، وممن رُوي عنه هذا القولُ مِن السَّلف الحسنُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ في روايةٍ عنه، وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤٨).

به، وآذاهم إيذاءً كثيرًا[١].

﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾.

أي: وبَعَثْنا عليهم الضَّفادِعَ، فامتلأَتْ منها بُيوتُهم وآنيتُهم، وآذَتْهم إيذاءً عظيمًا[٢].

﴿وَٱلدَّمَ﴾.

أي: وبَعَثْنا عليهم الدَّمَ، فصار ماؤُهم الَّذي يَشرَبونَه ويَستعمِلونَه دَمًا[٣].

﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾.

أي: بَعَثْنا على قومِ فرعونَ هذه العقوباتِ، الَّتي جعَلْناها علاماتٍ تدُلُّ بوضوحٍ على صِحَّةِ نُبوَّةِ موسى عليه السَّلامُ[٤]، وفصَلَنا كلَّ عُقوبةٍ عن العقوبةِ الأخرى؛ فكان بعضُها يأتي في إِثْرِ بعضٍ[٥].

قال الشنقيطي: (والحاصلُ أنَّ القمَّل هنا فيه أقوالٌ متقاربةٌ) ثم ذكَر هذه الأقوالَ، وقال: (هذه أقوالٌ فيه لا يكذِّبُ بعضُها بعضًا، وعلى كلِّ حالٍ فهو شيءٌ مِن خلقِ الله، سلَّطه الله عليهم، فعذَّبهم به، وآذاهم إيذاءً كثيرًا، حتى ضجُّوا، وزعموا أنَّهم يتوبونَ). ((العذب النمير)) (٤/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٩- ٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢١).

وهذا قولُ الجمهورِ كما قال ابن الجوزي: (وفي الدَّم قولان؛ أحدُهما: أنَّ ماءهم صار دمًا، قاله الجمهورُ. والثَّاني: أنَّه رُعافٌ أصابهم، قاله زيدُ بنُ أَسْلَمَ). ((زاد المسير)) (٢/ ١٤٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١).

(٤) وهذا المعنى لـ ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ هو اختيارُ السعديِّ، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٣).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلف مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٨).

(٥) وهذا المعنى هو اختيارُ ابنِ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٧)، وحكاه عددٌ مِن المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٤).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨].

﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾.

أي: فتكبَّرَ آلُ فرعونَ تكبُّرًا شديدًا عن الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ، وطاعةِ رسولِه موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، مع رُؤيتِهم لتِلك الآياتِ العظيمةِ، الدَّالَّةِ على صِدْقِه وصِحَّةِ رسالتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

أي: وكانوا مِنْ قَبْلِ استكبارِهم قومًا يُصِرُّونَ على معصيةِ اللهِ سُبحانَه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّٰحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۞ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩-٥٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- سنةُ اللهِ في الأُمَمِ أنْ يَبتليَها بالنِّقَمِ؛ ليَزدجِروا، ويتذكَّروا بذلك ما كانوا فيه مِنَ النِّعَمِ؛ فإنَّ الشِّدَّةَ تَجْلِبُ الإنابةَ والخشيةَ، ورِقَّةَ القلبِ، والرُّجوعَ إلى

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاس، وابنُ جريجٍ، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).
قال الشنقيطي: (المجرِمُ هو مرتكِبُ الجريمةِ، والجريمةُ: الذَّنبُ الَّذي يَستحِقُّ صاحبُه التَّنكيلَ والعذابَ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٢٥).

طلَبِ لُطْفِ اللهِ وإحسانِه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾، في هذه الآيةِ تنبيهٌ للأُمَّةِ للنَّظرِ فيما يُحيطُ بها من دلائلِ غَضَبِ اللهِ؛ فإنَّ سَلْبَ النِّعمةِ للمُنْعَمِ عليهم تنبيهٌ لهم على استِحقاقِهم إعراضَ اللهِ تعالى عنهم[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ التَّطيُّرُ والتَّشاؤُمُ من صِفاتِ الكفَّارِ، وعلى المُسلِمينَ اجتنابُه، وأنْ يتوكَّلوا على اللهِ، ولا يَنبغي لهم أنْ يَجْزَعوا مِنَ التَّطَيُّرِ، ولْيُعلَمْ أنَّ الأُمورَ بيدِ اللهِ، وأنَّ الشُّؤْمَ الحقيقيَّ الَّذي يَستجلِبُ كُلَّ الضَّرَرِ هو مُخالَفةُ ربِّ العالَمينَ جلَّ وعلا، أمَّا كُلُّ فِعْلٍ لم يُخالَفْ به اللهُ فهذا لا ضَرَرَ فيه ولا طِيَرَةَ؛ لأنَّ اللهَ ما أباحَه إلَّا لأنَّه لا ضَررَ فيه، وعلى المُسلِمِ أنْ يَتَحَرَّزَ من هذا كُلِّه، ولا يَتشاءمَ بشيءٍ، وأنْ يبنيَ الأُمورَ على التَّوكُّلِ على اللهِ، ومُراعاةِ أوامِرِه ونواهيه[٣].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ إنَّما سَمَّوها آيةً، ثم قالوا: ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾؛ لأنهم ما سَمَّوها آيةً لاعتقادِهم أنَّها آيةٌ، وإنَّما سمَّوها اعتبارًا لتَسميةِ مُوسى عليه السَّلامُ، وقَصَدوا بذلك الاستهزاءَ والتلهِّي[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤٦)

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ حُكْمٌ بنَفْيِ العِلْمِ عن أكثرِهم؛ لأنَّ القليلَ منهم عَلِمَ؛ كمؤمنِ آلِ فرعونَ، وآسيةَ امرأةِ فرعونَ[١].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾، ذَكَرَ أوَّلًا: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾، ولَمَّا كان ذلك ربَّما أَخْصَبَتْ به الأرضُ أَخْبَرَ أنَّه أَرْسَلَ ما يُفسِدُ ذلك، فقال: ﴿وَٱلۡجَرَادَ﴾، ولَمَّا كان الجرادُ ربَّما طار، وقد أَبْقى شيئًا أَخْبَرَ بما يَستمِرُّ لازقًا في الأرضِ حتَّى لا يَدَعَ بها شيئًا، فقال: ﴿وَٱلۡقُمَّلَ﴾، ولَمَّا ربَّما كان عِندَهم شيءٌ مَخْزونٌ لم يَصِلْ إليه ذلك، أَخْبَرَ بما يُسْقِطُ نَفْسَهُ في الأكْلِ؛ فيُفسِدُه أو يَنْقُصُه، فقال: ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾، ولَمَّا تَمَّ ما يَضُرُّ بالمَأْكَلِ أَتْبَعَه ما أَفْسَدَ المِشْرَبَ، فقال: ﴿وَٱلدَّمَ﴾[٢].

بلاغة الآيات:

١- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: فيه تنكيرُ ﴿نَقْصٍ﴾؛ للتكثير؛ فنُكِّر ﴿نَقْص﴾ ولم يُضَفْ إلى ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ لئلَّا تفوتَ الدَّلالةُ على الكثرةِ[٣].

٢- قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ عرَّف الحَسنةَ، وذَكَّرها مع أداةِ التَّحقيقِ (إذا)؛ لكَثرةِ وُقوعِها، ونَكَّرَ السيِّئةَ، وأتَى بها مع حرْف الشكِّ (إنْ)؛ لأنَّ السَّيِّئةَ لا تَقعُ إلَّا في النُّدرة، ولا يقعُ إلَّا شيءٌ منها، ولعدمِ القَصدِ إليها إلَّا بالتَّبع[٤]؛ فجِيءَ في جانب الحَسَنة بـ(إذا) الشرطيَّةِ؛ لأنَّ الغالبَ في (إذا) الدَّلالةُ على اليقين بوقوع

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤٤- ١٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٠).

الشَّرْط، أو ما يَقرُب من اليقين؛ ولذلك غلَب أنْ يكونَ فِعلُ الشرطِ مع (إذا) فعلًا ماضيًا؛ لكونِ الماضي أقربَ إلى اليقينِ في الحُصولِ من المستقبَلِ، وجِيءَ في جانبِ السيِّئةِ بحَرْف (إنْ)؛ لأنَّ الغالب أن تدُلَّ (إنْ) على التردُّد في وقوعِ الشَّرْط، أو على الشكِّ؛ ولكون الشيءِ النادرِ الحصولِ غيرَ مجزومٍ بوقوعه، ومشكوكًا فيه، جِيءَ في شرْطِ إصابةِ السيئةِ بحرْفِ (إن)؛ لنُدرةِ وقوعِ السيِّئاتِ، أي: المكروهاتِ عليهم، بالنسبة إلى الحَسنات، أي: النِّعم، وفي ذلك تعريضٌ بأنَّ نِعمَ اللهِ كانتْ مُتكاثرةً لدَيهم، وأنَّهم كانوا مُعرِضين عن الشُّكرِ، وتعريضٌ بأنَّ إصابتَهم بالسيِّئاتِ نادرةٌ، وهم يَعدُّونَ السيِّئاتِ مِن جرَّاءِ موسى ومَن آمَن معه؛ فهم في كِلتا الحالتين بين كافِرين بالنِّعمة، وظالِمين لموسَى ومَن معه[١].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾: لتَفريعِ هذا الخبرِ على جُملةِ ﴿أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾، والمعنى: فلم يَتذكَّروا، ولكنَّهم زادوا كُفرًا وغُرورًا[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ وقولِه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ عبَّر في جانِبِ الحَسنةِ بالمجيءِ؛ لأنّ حُصولَها مرغوبٌ؛ فإنَّها تُترقَّبُ كما يُترقَّبُ الجائي، وعبَّر في جانبِ السيِّئةِ بالإصابةِ؛ لأنَّها تحصُل فجأةً، مِن غير رغبةٍ ولا ترقُّب[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جملةٌ معترضةٌ؛ ولذلك فُصلت، ولم تُعطَف على التي قَبْلَها بالواوِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٦٤- ٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٦٧).

- والقصرُ المستفادُ مِن ﴿إِنَّمَا﴾ إضافيٌّ، أي: سُوءُ حالهم عِقابٌ مِن اللهِ، لا مِن عندَ موسى ومَن مَعَه[١].

- وفي قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستدراكُ المستفادُ مِن (لكن) عَمَّا يُوهِمُه الاهتمامُ بالخبرِ الذي قبْلَه؛ لقرنِه بأداةِ الاستفتاحِ، واشتمالِه على صِيغةِ القَصرِ، مِن كون شأنِه ألَّا يجهلَه العقلاءُ؛ فاستدرَكَ بأنَّ أكثرَ أولئك لا يَعلمونَ[٢].

٤- قولُه: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ جُمْلَةُ ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ تفيدُ المبالغةَ في القطعِ بانتفاءِ إيمانهم بموسى؛ لأنَّهم جاؤوا في كلامِهم بما حَوتْه الجملةُ الاسميَّةُ التي حَكتْه من الدَّلالةِ على ثُبوتِ هذا الانتفاءِ ودوامِه، وبما تُفيدُه الباءُ مِن توكيدِ النَّفي، وما يُفيدُه تقديمُ مُتعلِّق (مُؤْمِنِينَ) مِن اهتمامِهم بموسى في تعليقِ الإيمانِ به المنفيِّ باسمِه[٣].

٥- قوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ فيه صياغةُ الخبرِ عن إجرامِهم بصِيغةِ الجملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ وصْفِ الإجرامِ فيهم، وتَمكُّنِه منهم، ورُسوخِه فيهم مِن قَبلِ حُدوثِ الاستكبارِ، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ وصفَ الإجرامِ الرَّاسخِ فيهم هو عِلَّةٌ للاستكبارِ الصادرِ مِنهم، فـ(كان) دالَّةٌ على استمرارِ الخبرِ، وهو وصفُ الإجرامِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٦٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٧١).

الآيات (١٢٤-١٢٧)

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿ٱلرِّجْزَ﴾: العذابُ والسَّخَطُ، وأَصْلُ (رجز): الاضْطِرابُ[١].

﴿بَٰلِغُوهُ﴾: أي: واصِلونَ إليه، والبُلوغُ والبَلاغُ: الانتهاءُ إلى أقْصى المَقْصِدِ والمُنْتَهى، تَقولُ: بَلَغَ المَكانَ، إذا وَصَلَ إليه، وأَصْلُ (بلغ): الوُصولُ إلى الشَّيْءِ[٢].

﴿يَنكُثُونَ﴾: أي: يَنقُضونَ عَهْدَهم، والنكثُ نقضُ ما أُبْرِم، ويُستعملُ في الأجسامِ وفي المعاني، وأصلُ (نكث) يَدُلُّ عَلَى نَقْضِ شَيْءٍ[٣].

﴿ٱلْيَمِّ﴾: أي: البَحْرِ، أو النِّيلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٥) ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣).

﴿يَعْرِشُونَ﴾: أي: يَبْنونَ، والعُروشُ: البُيوتُ والسُّقوفُ، والعَرْشُ في الأصل: شَيءٌ مُسَقَّفٌ، وأصْلُ (عرش) يَدُلُّ على ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ مَبْنِيٍّ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لَمَّا وقَعَ على آلِ فرعونَ العذابُ عقوبةً لهم، طَلَبوا من موسى أنْ يَدْعوَ اللهَ بما أوْصاه أن يدعوَ به حتى يَكُفَّ عنهم هذا العذابَ، ووَعَدوه مُقْسِمينَ له: لَئِنْ كَشَفَ عنهم هذا العذابَ ليُؤمِنُنَّ له، وليُرسِلُنَّ معه بني إسرائيلَ، فلمَّا كَشَفَ اللهُ عنهم هذا العذابَ، وأَمْهَلَهم إلى الوقتِ المُقدَّرِ لهلاكِهم، إذا بهم يَنْكُثونَ العَهْدَ الَّذي التَزَموه؛ فانتقم اللهُ منهم، فأَغْرَقهم في البحرِ؛ لكَوْنِهم كذَّبوا بآياتِه، وكانوا عنها غافلين.

وأَوْرَثَ اللهُ بني إسرائيلَ، الَّذين كانوا يُقهَرونَ ويُستعبَدونَ، مشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها الَّتي جَعَلَ اللهُ فيها البرَكةَ، ووَفَّى الله تعالى بما وَعَدَ به بني إسرائيلَ مِن إهلاكِ عدوِّهم، وتمكينِهم في الأرضِ؛ لِكَوْنِهم صَبَروا، ودمَّرَ ما كان يَصْنَعُ فرعونُ وقومُه، وما كانوا يَبنونه ويرفعونه مِنَ المباني والقُصورِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

أي: ولَمَّا نزَلَ بآلِ فرعونَ العذابُ[١] عقوبةً بَعْدَ أُخْرى[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٣] [الزخرف: ٤٨].

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾.

أي: فَزِعوا إلى موسى قائلين[٤]: يا موسى، ادعُ لنا ربَّكَ بالَّذي أَوْصاكَ أنْ

---

(١) اختلف المفسِّرون في المرادِ بالرِّجزِ هاهنا، فقيل: المرادُ به ما أُرسِلَ عليهم من الطُّوفانِ والجرادِ والقُمَّلِ والضَّفادعِ والدَّمِ. وهذا القولُ اختاره الواحديُّ وابنُ عاشورٍ والشنقيطيُّ، وذهب أبو حيَّان وابنُ عطيَّة إلى أنَّه ظاهرُ الآيةِ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).
وممَّن رُوي عنه مِن السَّلف أنَّ المرادَ به ما أُرسِلَ عليهم مِن الطُّوفانِ والجرادِ والقُمَّلِ والضَّفادعِ والدَّمِ: ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤٩).
وقيل: المرادُ به الطَّاعونُ، وهذا قولٌ ذَكَرَه السعدي وابنُ عاشورٍ احتمالًا. ونسَبَ السعدي القولَ به إلى كثيرٍ من المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧١).
وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّه الطاعونُ، ابنُ عبَّاس، وسعيدُ بنُ جبيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٩)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤٩).
وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّه عذابٌ عُذِّبوا به دون تحديدٍ لماهيَّتِه. قال ابن جرير: (جائزٌ أنْ يكونَ ذلك الرِّجزُ كان الطُّوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضَّفادعَ والدَّمَ؛ لأنَّ كلَّ ذلك كان عذابًا عليهم، وجائزٌ أنْ يكونَ ذلك الرِّجزُ كان طاعونًا. ولم يُخبِرْنا اللهُ أيَّ ذلك كان، ولا صَحَّ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بأيِّ ذلك كان خبرٌ فنُسلِّمَ له. فالصَّوابُ أنْ نقولَ فيه كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾، ولا نتعدَّاه إلَّا بالبيانِ الَّذي لا تَمانُعَ فيه بين أهلِ التَّأويلِ، وهو لِمَا حَلَّ بهم عذابُ اللهِ وسَخَطُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠١).
وممن قال من السَّلف أنَّه العذابُ مجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).

(٣) قال الشنقيطي: (الرِّجزُ المذكورُ في «الأعرافِ» هو بِعَيْنِه العذابُ المذكورُ في آيةِ «الزُّخْرُفِ» هذه). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٢٢).

(٤) رجَّح أبو حيَّانَ أنَّ سؤالَهم موسى عليه السَّلامُ جاء بعْدَ وُقوعِ جميعِها- أي: الطُّوفانِ والجرادِ

تَدْعوَه به[١]؛ لِيَكُفَّ عنَّا هذا العذابَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨، ٤٩].

﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾.

أي: نُقْسِمُ لك -يا موسى- لَئِنْ رَفَعْتَ عنَّا هذا العذابَ بدعائِكَ ربَّكَ، لنُصَدِّقَنَّكَ، ولنؤمِننَّ بما جِئْتَ به[٣].

والقُمَّلِ والضَّفادعِ والدَّم- لا بعْدَ وُقوعِ نوعٍ منها. وذهب الشنقيطيُّ إلى أنَّ سؤالَهم موسى قد تكرَّرَ فلجؤوا إليه عَقِبَ وُقوعِ كلِّ نوعٍ من تلك الأنواعِ على حِدَةٍ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).

(١) هذا المعنى للعَهْدِ هو اختيارُ ابنِ جرير، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠١)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٣١٦).

وقريبٌ منه اختيارُ القرطبيِّ وابنِ عاشورٍ.

قال القرطبيُّ: (أي: بما استودَعك من العِلْمِ، أو بما اختصَّكَ به فنبَّأَكَ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧١).

وقال ابنُ عاشور: (أي: بما عرَّفك وأودَع عندك من الأسرارِ... أي: ادْعُه بما علَّمك ربُّك من وسائلِ إجابةِ دعائِك عِند ربِّك). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٢-٧٣).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧١- ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٢).

قال ابن عاشور: (ليس قولُهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ بإيمانٍ باللهِ ورسالةِ موسى، ولكنَّهم كانوا مُشرِكين، وكانوا يُجوِّزونَ تعدُّدَ الآلهةِ، واختصاصَ بعضِ الأُمَمِ وبعضِ الأقطارِ بآلهةٍ لهم، فهُمْ قد خامَرَهم من كثرةِ ما رَأَوْا من آياتِ موسى أنْ يكونَ لموسى ربٌّ له تصرُّفٌ وقُدرةٌ، وأنَّه أصابَهم بالمصائبِ؛ لأنَّهم أضرُّوا عَبيدَه، فسألوا موسى أنْ يَكُفَّ عنهم ربَّه، ويكونَ جزاؤه الإذْنَ لبني إسرائيلَ بالخُروجِ من مِصْرَ؛ ليعبُدوا ربَّهم... وقد كان عَبَدَةُ الأربابِ الكثيرين يُجَوِّزُ أنْ تَغْلِبَ بعضُ الأربابِ على بعضٍ؛ مِثْلُ ما يحدُثُ بين الملوكِ... وقد انْبَرَمَ حالُ موسى على فرعونَ، فَلَمْ يَدْرِ أهو رسولٌ من إلهٍ غيرِ آلهةِ القِبْطِ؛ فلذلك قال له: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾، أي: بما عرَّفك وأودَع عِندك من الأسرارِ، وهذه عِبارةُ مُتَحَيِّرٍ في الأمرِ، مُلْتَبِسَةٍ عليه الأدلَّةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠١- ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير

﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

أي: ولنُخَلِّيَنَّ بني إسرائيلَ كما طلَبْتَ- يا موسى- فنترُكُهم معك، وتذهَبُ بهم حيثُ تَشاءُ(١).

كما قال تعالى حاكيًا قولَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

وقال سُبحانَه حاكيًا أيضًا قولَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧].

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ١٣٥﴾.

أي: فلَمَّا رَفَعَ اللهُ عن قومِ فِرعونَ العذابَ، وأَمْهَلَهم إلى الوقتِ الَّذي قدَّرَه لهلاكِهم، إذا بهم يَنقُضونَ عُهودَهم؛ فَلَمْ يُؤمِنوا، ولم يُرسلِوا بني إسرائيلَ مع

السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).
قال السعدي: (هُمْ في ذلك كَذَبَةٌ، لا قَصْدَ لهم إلا زوالُ ما حَلَّ بهم من العذابِ، وظَنُّوا إذا رُفِعَ لا يُصيبُهم غيرُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١).
وقال ابن عاشور: (وَعْدُهم بالإيمانِ لموسى وَعْدٌ بالإيمانِ بأنَّه صادقٌ في أنَّه مُرسَلٌ من ربِّ بني إسرائيلَ؛ ليُخرِجَهم من أرضِ مصرَ، وليس وعدًا باتِّباعِ الدِّينِ الَّذي جاء به موسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّهم مُكذِّبونَ به في ذلك، وزاعِمون أنَّه ساحرٌ يُريدُ إخراجَ النَّاسِ من أرضِهم؛ ولذلك جاء فِعْلُ الإيمانِ مُتعلِّقًا بموسى لا باسمِ اللهِ، وقد جاء هذا الوعدُ على حسَبِ ظنِّهم أنَّ الرَّبَّ الَّذي يدعو إليه موسى هو ربٌّ خاصٌّ به وبقومِه، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾، وقد وضَّحوا مُرادَهم بقولِهم: ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ١٧٢).

موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴾[الزخرف: ٤٩-٥٠].

﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أَخْبَرَ اللهُ تعالى عن إهلاكِه فرعونَ عَطَفَ عليه ما صَنَع ببني إسرائيلَ؛ تصديقًا لقولِ موسى عليه السَّلامُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، فكان كما تَرَجَّى، فأَغْرَقَ أعداءَهم في اليَمِّ، واسْتَخْلَفَ بني إسرائيلَ في الأرضِ[٢].

﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾.

أي: فلمَّا نَقَضوا العُهودَ، وأصرُّوا على الكُفْرِ انْتَقَمْنا منهم، بأنْ أغرقْناهم جميعًا في البحرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١).

قال ابن عاشور: (هذا مَحَلُّ العِبرةِ من القِصَّةِ، فهو مُفَرَّعٌ عليها تفريعَ النَّتيجةِ على المقدِّماتِ... وكان إغراقُهم انتقامًا من الله لذاتِه؛ لأنَّهم جَحَدوا انفرادَ اللهِ بالإلهيَّةِ، أو جَحَدوا إلهيَّتَه أصلًا، وانتقامًا أيضًا لبني إسرائيلَ؛ لأنَّ فِرعونَ وقومَه ظلموا بني إسرائيلَ وأذلُّوهم واستعبَدوهم باطلًا. واليَمُّ: البحرُ، والنَّهرُ العظيمُ... والمرادُ به هنا بَحْرُ القُلْزُمِ... وهو البحرُ الأحمرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٤، ٧٥).

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٢-٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

أي: أغرقْنا فِرعونَ وقومَه؛ بسَبَبِ تكذيبِهم بآياتِنا[(١)].

﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾.

أي: وكانوا مُعْرِضينَ عن آياتِنا الدَّالَّةِ على صِدْقِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فَلَمْ يَتفكَّروا فيها، ولم يَعْتَبِروا بها[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٥).
قال أبو حَيَّانَ: (والآياتُ هي المعجزاتُ الَّتي ظهرَتْ على يَدِ موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٣-٤٠٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٥).
واختلف المفسِّرون في عَوْدِ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿عَنْهَا﴾، فذَهب كثيرٌ منهم إلى أنَّه عائدٌ على الآياتِ، وهذا اختيارُ الزَّجَّاج، وابن عطيَّة، وابن كثير، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٥).

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾.

أي: وملَّكْنا بني إسرائيلَ[1] الَّذينَ كان فِرعونُ وقومُه يَقهرونهم ويَستعبِدونهم، ويُذبِّحونَ أبناءَهم، ويَستحيون نِساءَهم- ملَّكْناهم جميعَ جِهاتِ شرْقِ أرضِ الشَّامِ، وجِهاتِ غرْبِها[2].

قال ابنُ جرير: (فلو قال قائلٌ: هي كِنايةٌ من ذِكْرِ الآياتِ، ووجهُ تأويلِ الكلامِ إلى: وكانوا عنها مُعرِضينَ، فجعل إعراضَهم عنها غُفولًا منهم إذْ لم يقبلوها كان مذهبًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٣-٤٠٤).

ولكنَّ ابن جرير رجَّح أنَّ الضميرَ يعود على النِّقمةِ الَّتي حلَّتْ بهم؛ فكانوا غافلين عمَّا يُرادُ بهم من الغَرَقِ في البحرِ. واختار هذا القولَ القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٣-٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٢).

(١) قال الشنقيطي: (قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هُمْ بنو إسرائيلَ بإجماعِ العلماءِ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٢٥-١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٩/ ٣١٩- ٣٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٦).

واختار أنَّ المرادَ بالأرضِ هنا أرضُ الشَّامِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ عطية، وابنُ تيمية، وابنُ عاشور، ولم يَحْكِ ابنُ كثير عن السَّلفِ قولًا غيرَه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٤٤، ٥٠٥، ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦).

وقال به مِن السَّلف: الحسنُ وقَتادةُ وزيدُ بنُ أسلمَ وسفيانُ الثوريُّ. يُنظر: ((تفسير سفيان الثوري)) (ص: ١١٣)، ((تفسير عبد الرزاق)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٤-٤٠٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٢٧).

قال ابن عطيَّةَ: (الَّذي يَليقُ بمعنى الآيةِ... لا سيَّما بوصْفِه الأرضَ بأنَّها الَّتي بارَكَ فيها، ولا يتَّصِفُ بهذه الصِّفةِ، وينفرِدُ بها أكثَرَ من غيرِها إلَّا أرضُ الشَّامِ؛ لِمَا بها من الماءِ والشَّجرِ والنِّعَمِ والفوائدِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٦).

﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾.

أي: الأرضَ الَّتي جعَلْنا فيها الخيرَ ثابتًا، مُستمِرًّا، وكثيرًا، فأخرَجْنا لهم منها الزُّروعَ والثِّمارَ، والعُيونَ والأنهارَ، ونَحْوَ ذلك من خيراتِ الأرضِ[(١)].

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾.

أي: وقد وَفَّى ربُّكَ- يا مُحَمَّدُ- بما وَعَدَ به بني إسرائيلَ[(٢)] من إهلاكِ عدُوِّهم،

وقيل: المرادُ بالأرضِ: الشَّامُ، ومِصْرُ. وممَّن اختار هذا القولَ: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٣- ٢٧٤).

وهذا القولُ مرويٌّ عن ابن عبَّاسٍ بسندٍ واهٍ، من طريقِ السُّدِّيِّ الصَّغيرِ، عن الكَلْبِيِّ، عن أبي صالحٍ، عن ابن عبَّاسٍ، وهذا أَوْهى الطُّرقِ عن ابن عبَّاسٍ، وتُسمَّى سلسلةَ الكَذِبِ، ينظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٤/ ٢٣٩)، وقد جَزَمَ الثَّعلبيُّ بهذا التَّفسيرِ من غيرِ أنْ ينسُبَه لأحدٍ، ونسَبَه تلميذُه الواحديُّ لابن عبَّاسٍ، وقد ذكَرَ هذا القولَ ابن الجوزيِّ ولم ينسُبْه لأحدٍ، وربَّما فيه إشارةٌ إلى عدمِ شُهرةِ هذا القولِ.

وذكَرَ ابنُ الجوزي والرازي قولًا ثالثًا في الآيةِ، وهو أنَّ المرادَ جُملةُ الأرضِ، ويوجد قولٌ رابعٌ، وهو أنَّ المرادَ مِصْرُ، وهو قولُ اللَّيثِ بنِ سعدٍ، وبه فسَّر السعديُّ الآيةَ.

والقولُ الأوَّلُ- وهو أنَّ المرادَ مشارقُ أرضِ الشَّامِ ومغاربُها- هو القولُ المشهورُ عن السَّلفِ، وعليه أكثرُهم. والله أعلم. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٩/ ٣٢٠)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٠)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٣١)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٩/ ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٨).

(٢) ذهب كثيرٌ من المفسِّرين إلى أنَّ هذه الكلمةَ الحُسنى هي قولُه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٦)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩). ونسَب الشنقيطيُّ ذلك إلى جماهيرِ العلماءِ. يُنظر: ((العذب النمير)) (٤/ ١٢٨).

وتمكينِهم في الأرضِ؛ وذلك بسببِ صَبْرِهم على أَذَى فرعونَ وقومِه[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾.

أي: وأَهْلَكْنا، وخرَّبْنا خرابًا شديدًا[٢] ما كان يُشيِّدُه فرعونُ وقومُه من العِماراتِ، ويَبْنُونَه من المَزارِعِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٢١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ٢٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٨).
قال ابن عاشور: (الحُسنى: صفةٌ لـ﴿ كَلِمَتُ ﴾، وهي صِفةُ تشريفٍ كما يُقالُ: الأسماءُ الحُسنى، أي: كلمةُ ربِّك المنزَّهةُ عن الخُلْفِ، ويحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ حُسْنَها لبني إسرائيلَ، وإنْ كانت سيِّئةً على فرعونَ وقومِه؛ لأنَّ العدلَ حَسَنٌ، وإنْ كان فيه إضرارٌ بالمحكومِ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٨).

(٢) قال محمد رشيد رضا: (التَّدميرُ: إدخالُ الهلاكِ على السَّالمِ، والخرابِ على العامرِ). ((تفسير المنار)) (٩/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٩).
وممَّن اختار هذا المعنى لـ﴿يَصْنَعُ﴾: ابنُ جريرٍ، وابنُ الجوزيِّ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٧)، ((زاد المسير)) (٢/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦).
وقيل: ما كان يَصنعونه من التَّدبيرِ في أمْرِ موسى عليه السَّلامُ وإخمادِ كلمته؛ كالمكايد السِّحريَّة والصِّناعيَّة الَّتي كان يصنعها السَّحرةُ؛ لإبطال آياتِه أو التَّشكيكِ فيها، كما قال تعالى لموسى

﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾.

أي: وخرَّبْنا أيضًا ما كان يَبنيه، ويرفُعُه فرعونُ وقومُه، من المبانِي والقُصورِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ

عليه السَّلامُ: ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖ﴾ [طه: ٦٩]. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٩).

وهذا المعنى المذكور لـ﴿يَعۡرِشُونَ﴾ هو في الجملةِ اختيارُ ابن جرير، وابن الجوزي، والواحديِّ، وأبي حيان. وحكاه ابنُ كثير عن بعض السَّلفِ ولم يَحْكِ سواه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٧)، ((زاد المسير)) (٢/ ١٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، وقد جعَلَه ابن عاشور ممَّا تَحتمِلُه الآيةُ، فقال: (ويجوز أن يكونَ ﴿يَعۡرِشُونَ﴾ بمعنى يرفعون، أي: يُشيِّدونَ من البِناءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٩).

وقال الشنقيطيُّ: (وقال بعضُهم: عَرَشَه: إذا رفَع بِناءَه، والعَرْشُ أصْلُه السَّقفُ، وعُروش الأبنيةِ: سُقوفُها. يعني: ودمَّرْنا ما كانوا يرفعونه من البناء؛ كصَرْحِ هامانَ المشهورِ، ونَحْوِ ذلك). ((العذب النمير)) (٤/ ١٢٩). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاس، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٥٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٣٢).

وقيل: ﴿يَعۡرِشُونَ﴾: أي يُنشِئون الجنَّاتِ ذاتَ العرايشِ، فيجعلون للعنب العريشَ؛ ليمتدَّ عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وهذا اختيارُ محمَّد رشيد رضا، وابن عاشور.

قال محمَّد رشيد رضا: (العَرْشُ: رفْعُ المباني والسَّقائفِ للنَّباتِ والشَّجرِ المتسلِّقِ؛ كعرائش العنب، ومنه عَرْشُ الملكِ). ((تفسير المنار)) (٩/ ٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (و﴿يَعۡرِشُونَ﴾ يُنشِئونَ من الجنَّاتِ ذاتِ العرايشِ، والعرايش: ما يُرْفَعُ من دوالي الكُرومِ، ويُطلَقُ أيضًا على النَّخلاتِ العديدةِ تُربَّى في أصْلٍ واحدٍ، ولعلَّ جنَّاتِ القِبْطِ كانت كذلك كما تَشهَدُ به بعضُ الصورِ المرسومةِ على هياكلِهم نَقْشًا ودَهْنًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٨).

عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴾ [غافر: ٣٦- ٣٧].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴾، العِبرةُ في هذه الآياتِ أنْ يَتفكَّرَ تالي القرآنِ في تأثيرِ الإيمانِ والوحيِ في موسى وهارونَ عليهما السَّلامُ؛ إذ تَصَدَّيا لأعظمِ مَلِكٍ في الأرضِ، فَدَعَواهُ إلى الرُّجوعِ عن الكُفرِ والظُّلمِ والطُّغيانِ، وتعبيدِ بني إسرائيلَ، وأَنْذَراه وهدَّداه، وما زالا يُكافِحانِه بالحُجَجِ والآياتِ البيِّناتِ حتَّى أَظْفَرَهما اللهُ تعالى به، وأَنْقَذا قومَهما من ظلمِه وظلمِ قومِه، فجديرٌ بالمؤمنين باللهِ تعالى ورُسلِه أنْ يَنتقِلوا من التَّفكُّرِ في هذا إلى التَّفكُّرِ في وَعْدِ اللهِ تعالى للمؤمنين بالنَّصرِ، كما وعَدَ المرسَلين إذا هُمْ قاموا بما أمَرَهم تعالى به على ألسنتِهم، وألَّا يَستعظِموا في هذه السَّبيلِ قُوَّةَ ظالمٍ، فإنَّ قوَّةَ الحقِّ الَّتي نَصَرَها اللهُ تعالى برجُلٍ أو رجُلين على أعظمِ الدُّوَلِ لا تُغْلَبُ إذا نَصَرْناها ونحن مئاتُ الملايينِ[٢].

٢- الصَّابرُ صائرٌ إلى النَّصرِ، وتحقيقِ الأملِ؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾، فقوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ الباءُ سببيَّةٌ، و(ما) مصدريَّةٌ، أي: بسببِ صَبْرِهم على الأذى في ذاتِ الإلهِ، وفي ذلك تنبيهٌ على فائدةِ الصَّبرِ، وتنويهٌ بفَضيلتِه وحُسنِ عاقبتِه، وأنَّه سببٌ للفرَجِ؛ فمَنْ قابَلَ البلاءَ بالجَزَعِ وَكَلَه اللهُ إليه، ومَنْ قابَلَه بالصَّبرِ وانتظارِ النَّصرِ ضَمِنَ اللهُ له الفرَجَ[٣].

---

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٧، ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٩).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، لم يقولوا: (ربَّنا)؛ كِبْرًا وعُتُوًّا[١].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا﴾ عبَّر بالفاءِ دلالة على قُرْبِ الإجابةِ[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾، المشارِقُ والمغارِبُ جَمْعٌ باعتبارِ تعدُّدِ الجِهاتِ؛ لأنَّ الجهةَ أمْرٌ نسبيٌّ تتعدَّدُ بتعدُّدِ الأمكِنةِ المفروضةِ، والمرادُ بهما إحاطةُ الأمكنةِ[٣].

٤- قول الله تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ ...﴾ إلى آخِرِ الآيةِ، استدلَّ به بعضُ السَّلفِ على أنَّه لا ينبغي أنْ يُخْرَجَ على مُلوكِ السُّوءِ، وإنَّما ينبغي أنْ يُصْبَرَ عليهم، فإنَّ اللهَ تعالى يُدمِّرُهم[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۞ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ طلبَهم مِن موسى الدُّعاءَ بكَشفِ الرِّجز عنهم مع سابقيَّةِ كُفرِهم به يُثير سؤالَ موسى أنْ يقولَ: فما الجزاءُ على ذلِك[٥]؟

- وقوله: ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فيه دلالةٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٠٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٣).

أنَّه طلَب منهم الإيمانَ، كما أنَّه طلَب منهم إرسالَ بني إسرائيل، وقدَّموا الإيمانَ؛ لأنَّه المقصودُ الأعظمُ الناشِئ منه الطواعيةُ، وفي إسنادِ الكَشْفِ إلى موسى حَيدةٌ عن إسنادِه إلى اللهِ تعالى؛ لعدمِ إقرارِهم بذلك[١].

- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ ﴾، كُرِّرَ (الرِّجْزَ) تصريحًا وتهويلًا[٢].

- وقولُه تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾، قولُه: ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ صِفةٌ لـ﴿أَجَلٍ﴾، والوَصْفُ بهذه الجملةِ أَبْلَغُ من وصفِه بالمفرَدِ؛ لتكرُّرِ الضَّميرِ المؤذِنِ بالتَّفخيمِ[٣].

٢- قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ فيه العدولُ عن تَعريفِهم بطريقِ الإضافةِ إلى تَعريفِهم بطريق الموصوليَّة؛ لنُكتَتين: أُولاهما: الإيماءُ إلى عِلَّة الخبرِ، أي: إنَّ الله مَلَّكهم الأرضَ، وجعَلَهم أُمَّةً حاكمةً؛ جزاءً لهم على ما صَبَروا على الاستعبادِ، غَيرةً مِن اللهِ تعالى على عَبيدِه. الثانية: التعريضُ ببشارةِ المؤمنِينَ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّهم ستكونُ لهم عاقبةُ السلطانِ، كما كانتْ لبني إسرائيلَ؛ جزاءً على صبْرِهم على الأذَى في اللهِ، ونذارة المشرِكينَ بزوالِ سُلطانِ دِينهم[٤].

٣- قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ الخِطابُ في قولِه: ﴿رَبِّكَ﴾ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أُدْمِجَ في ذِكْرِ القصَّةِ؛ إشارةً إلى أنَّ الَّذي حقَّقَ نصْرَ موسى وأُمَّتِه على عدُوِّهم هو ربُّك؛ فسينصُرُكَ وأُمَّتَكَ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٢٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٦).

عدُوِّكم؛ لأنَّه ذلك الربُّ الَّذي نَصَرَ المؤمنين السَّابقين، وتلك سُنَّتُه وصُنْعُه[١].

- وفي قولِه: ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: عُدِّيَ فِعلُ التمام بـ(على)؛ للإشارةِ إلى تَضمينِ (تمَّت) معنى الإنعامِ[٢].

٤- قوله: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ فِعل (كان) في الصِّلتَينِ -﴿مَا كَانَ يَصۡنَعُ﴾ و ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾- دالٌّ على أنَّ ذلك دَأبَه وهِجِّيراه، أي: ما عُنِي به مِن الصَّنائِعِ والجنَّات، وصِيغةُ المضارعِ في الخَبرينِ عن (كان) -﴿يَصۡنَعُ﴾ و﴿يَعۡرِشُونَ﴾-؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والتكرُّرِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٣٨-١٤١)

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ﴾: أي: يُقيمونَ عليها مُعَظِّمين، ويَعبُدُونَها مِن دُونِ اللَّهِ، والعُكوفُ: الإقبالُ على الشَّيءِ، وملازَمتُه على سبيلِ التَّعظيمِ له[١]. و﴿أَصۡنَامٖ﴾: جَمْعُ صَنَمٍ، والصَّنمُ: جُثَّةٌ مُتَّخَذَةٌ من فِضَّةٍ، أو نُحاسٍ، أو خشبٍ، أو غير ذلك، كانوا يَعبدونها مُتقرِّبينَ بها إلى اللهِ تعالى[٢].

﴿مُتَبَّرٞ﴾: أي: مُهْلَكٌ أو هَالِكٌ، والتَّبْرُ: الكَسْرُ والإهلاكُ[٣].

﴿أَبۡغِيكُمۡ﴾: أي: أَلْتَمِسُ لكم وأطْلُبُ، وأصل (بغى): يدلُّ على طَلَبِ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:١١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧)

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: أي: يُولُونَكُمْ؛ يُقالُ: فلانٌ يَسومُكَ خَسْفًا؛ أي: يُولِيكَ إذلالًا واستِخفافًا، أو يُريدونه منكم ويَطلُبونه، أو يَبْغُونَكُمْ، يُقالُ: سامَه: كلَّفَه العَملَ الشَّاقَّ، وقيل: يُرسلِون عليكم، مِن إرْسالِ الإبِلِ المَرْعى، والسَّوْمُ أصْلُه: الذَّهابُ في ابتِغاءِ الشَّيءِ وطَلَبِه[1].

﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾: أي: ويَسْتَبقُون فلا يَقتُلونَ، والاستِحياءُ: الإبقاءُ حيًّا، و(استفعل) فيه بمَعنَى (أفعل)، وأصلُ (حيي): خِلافُ المَوتِ[2].

﴿بَلَآءٌ﴾: أي: اختبارٌ، وأَصْلُ البَلاء: الاختبارُ، ثمَّ صار يُطلَقُ على المكروهِ والشِّدَّةِ[3].

مُشْكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾

﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾: الكافُ في ﴿كَمَا﴾ حرفُ جرٍّ وتشبيهٍ، وهو مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ وقَعَ صفةً لـ ﴿إِلَٰهًا﴾، أي: إلهًا مماثِلًا لإلهِهم، و(مَا) فيها ثلاثةُ أوجُهٍ: الأوَّلُ: أن تكونَ مَوصولةً، و﴿لَهُمْ﴾ شِبْهُ جملةٍ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه (استقرَّ)، وهو صِلَةُ (ما)، و﴿ءَالِهَةٌ﴾ بَدَلٌ مِن الضَّميرِ في (استقرَّ) المحذوفِ، والتَّقديرُ: كالَّذي استقرَّ هو لهم آلهةٌ. الثَّاني: أنْ تكونَ كافَّةً لعَملِ حرفِ الجرِّ (الكاف)،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩-٢٥٠، ٢٥٣).

وهي جملةٌ مِن خبرٍ مُقدَّمٍ ﴿لَهُمْ﴾، ومبتدأٍ مُؤخَّرٍ: ﴿ءَالِهَةٌ﴾. الثَّالثُ: أن تكونَ (ما) مصدريَّةً- أي: موصولًا حرفيًّا-، وصِلتُها محذوفةٌ، والتَّقديرُ: كما ثبَتَ لهم آلهةٌ، فـ﴿ءَالِهَةٌ﴾ على هذا الوجْهِ فاعِلٌ بـ(ثبَتَ) المحذوفِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه جاوز ببني إسرائيلَ البحرَ بعْدَ أنْ أَغْرقَ عدُوَّهم فرعونَ وقومَه، فمرُّوا على قومٍ مشركين، مُلازِمين أصنامًا لهم، يعبدونها مِن دونِ اللهِ، فقالوا لموسى عليه السَّلامُ: اجْعَلْ لنا إلهًا كما لهؤلاءِ آلهةٌ يعبدونها، فقال لهم موسى: إنَّكم قومٌ تَجْهَلونَ، إنَّ هؤلاءِ المشركين محكومٌ على ما هم فيه بالدَّمارِ، وزائلٌ ما كانوا يَعملونه من عبادةِ الأصنامِ؛ فلا يَنتفِعون بها.

وقال لهم موسى مُنْكِرًا عليهم طَلَبَهم ومُتعجِّبًا منه: أَغَيْرَ اللهِ أَطْلُبُ لكم إلهًا، وهو الَّذي فضَّلكم على العالَمين؟!

ثمَّ قال اللهُ تعالى مُذكِّرًا بني إسرائيلَ بنعمتِه العظيمةِ عليهم: واذْكروا حين أنجيناكم من آلِ فرعونَ، الَّذينَ كانوا يُذيقونكم سُوءَ العذابِ، ويُنكِّلونَ بكم؛ يُقتِّلونَ أبناءَكم الذُّكورَ، ويُبْقون إناثَكم أحياءً؛ لِيَقُمْنَ بخِدْمتِهم، ولِيَعْتَدوا على أعراضِهنَّ، وفي ذلك امتحانٌ واختبارٌ عظيمٌ من اللهِ لكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٨٧-٥٨٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٤٤٢-٤٤٣).

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنواعَ نِعَمِه على بني إسرائيلَ بإهلاكِ عدُوِّهم، أَتْبَعَ بالنِّعمةِ العُظْمى مِنْ إِرَاءَتِهم هذه الآيةَ العظيمةَ، وقَطْعِهم البحرَ مع سلامتِهم[١]، فقال تعالى:

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾.

أي: وقَطَعْنا ببني إسرائيلَ البحرَ؛ فَتَخَطَّوْهُ بعْدَ أنْ أغرقْنا عدُوَّهم فرعونَ وقومَه، ورَأَوْا من آياتِ اللهِ ما رَأَوْا[٢].

﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾.

أي: فمَرَّ بنو إسرائيلَ على مُشرِكين مُلازِمينَ أصنامًا لهم، يَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ سُبحانَه[٣].

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾.

أي: قال بَنو إسرائيلَ لنبيِّهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: يا موسى، اصْنَعْ لنا صَنَمًا نتَّخِذْهُ إلهًا كما لهؤلاءِ القومِ أصنامٌ يَعبُدونها[٤]!

عن أبي واقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا خرَجَ إلى حُنَيْنٍ مَرَّ بشجرةٍ للمشركين يُقالُ لها: ذاتُ أَنْواطٍ، يُعلِّقونَ عليها

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٠).

قال ابن عاشور: (المجاوَزةُ: البُعْدُ عن المكانِ عَقِبَ المرورِ فيه... معنى قولِه هنا: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ قدَّرنا لهم جوازَه ويسَّرْناه لهم. والبحرُ هو بحرُ القُلْزُمِ- المعروفُ اليومَ بالبحر الأحمر... والمعنى: أنَّهم قَطَعوا البحرَ وخرَجوا على شاطِئِه الشَّرقيِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٩- ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٨- ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٢- ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٣).

أسلحتَهم، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، اجعَلْ لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذاتُ أنواطٍ! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((سُبحانَ اللهِ! هذا كما قال قومُ موسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾، والَّذي نَفْسي بيدِه لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كان قَبْلَكم))[١].

﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾.

أي: قال موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لقومِه: إنَّكم قومٌ تَجْهَلونَ عظمةَ اللهِ، ووُجوبَ إفرادِه بالعِبادةِ وحْدَهُ لا شريكَ له[٢].

ثُمَّ أَعْلَمَهم موسى بفَسادِ حالِ أولئك القومِ؛ لِيَزولَ ما استحسَنوه من حالِهم، فقال لهم[٣]:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا اسْتُفيدَ من كلامِه السَّابقِ لهم غايةُ الإنكارِ عليهم، ذَكَرَ هنا ما علَّلَ به هذا الإنكارَ[٤].

وأيضًا بَعْدَ أنْ ذكَّرهم بسُوءِ حالِهم مِن جهلِهم وسَفاهةِ أنفُسِهم، بيَّنَ لهم

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٢١)، وأحمد (٢١٨٩٧)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٦٧٠٢).
قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ، وقال ابنُ القيِّم في ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ٤١٨): ثابتٌ، وصحَّح إسنادَه ابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (٣/ ٣٣٧)، والألبانيُّ في ((تخريج أحاديث المشكاة)) (٥٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٧٩).

فسادَ ما طلبوه في نفْسِه؛ عسى أنْ تستعِدَّ عقولُهم لِفَهْمِه، واستبانةِ قُبْحِه[١]، فقال:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ المشركين سيُدمِّرُ اللهُ تعالى تلك الأصنامَ التي يعبدونها، ويُهلِكُ ما هُمْ فيه من الشِّرْكِ، ويُعذِّبهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: وزائلٌ ما كانوا يَعمَلونه من عِبادةِ الأصنامِ؛ فلَنْ يَنتفِعوا بها[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ * إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢- ٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن أنَّ هذه الأصنامَ الَّتي مَرُّوا عليها لا تَصْلُحُ لِأَنْ تُعْبَدَ، كان ذلك غيرَ كافٍ لهم؛ لِمَا تَقرَّرَ من جَهلِهم، فربَّما ظَنُّوا أنَّ غيرَها ممَّا سِوى اللهِ تجوزُ عِبادتُه، فأَنْكَرَ أنْ يُتَأَلَّهَ غيرُه تعالى، وحَصَرَ الأمْرَ فيه[٤].

﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا ﴾.

أي: قال موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُنْكِرًا على قومِه ومُتعجِّبًا من طَلَبِهم: أأطلُبُ لكم إلهًا غيرَ اللهَ العظيمِ، المعبودِ بحقٍّ، الكاملِ في ذاتِه وصِفاتِه وأفعالِه[٥]؟!

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أي: أفأطلُبُ لكم معبودًا لا يَنفُعُكم ولا يَضُرُّكم، وتَترُكون عِبادةَ اللهِ تعالى، والحالُ أنَّه هو الَّذي فضَّلكم على عالَمِي زمانِكم، وأُمَمِ عَصْرِكم[٦]؟!

---

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٧١-٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٥).

قال ابن عطيَّة: (والعالَمينَ لفظٌ عامٌّ يُراد به تخصيصُ عالَمي زمانِهم؛ لأنَّ أمَّةَ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم أفضلُ منهم بإجماعٍ، ولقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، اللَّهمَّ إلَّا أنْ يُرادَ بالفضلِ كثرةُ الأنبياءِ منهم؛ فإنَّهم فُضِّلوا في ذلك على العالَمينَ بالإطلاقِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (وظاهرُ صَوْغِ الكلامِ على هذا الأُسلوبِ أنَّ تفضيلَهم على العالَمين كان معلومًا عندهم؛ لأنَّ ذلك هو المناسِبُ للإنكارِ، ويحتملُ أنَّه أراد إعلامَهم بذلك، وأنَّه أمْرٌ محقَّقٌ... وتفضيلهم عليهم بأنَّهم ذُرِّيَّةُ رسولٍ وأنبياءَ، وبأنَّ منهم رُسلًا وأنبياءَ، وبأنَّ اللهَ هداهم إلى التَّوحيدِ والخَلاصِ من دِينِ فرعونَ بعد أن تخبَّطوا فيه، وبأنَّه جعَلَهم أحرارًا بعد أنْ كانوا عبيدًا، وساقَهم إلى امتلاكِ أرضٍ مُبارَكةٍ، وأيَّدَهم بنصْرِه وآياتِه، وبعَثَ فيهم رسولًا، لِيُقيمَ لهم الشَّريعةَ، وهذه الفضائلُ لم تَجتمِعْ لأُمَّةٍ غيرِهم يومئذٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٤).

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى يُبيِّنُ أنَّه هو الَّذي أَنْعَمَ عليهم بهذه النِّعمةِ العَظيمةِ؛ فكيف يَليقُ بهم الاشتغالُ بعبادةِ غيرِه تعالى[1]؟!

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءة ﴿أَنْجَاكُمْ﴾ على أنَّها من إخبارِ موسى عليه السَّلامُ عن اللهِ سُبحانَه وتعالى بـ(نون) التَّعظيمِ[2].

وقال الشنقيطي: (ومِن تفضيلِه لكم: أنْ أهلَكَ عدوَّكم، وأنجاكم وأنقذَكم من هذا الطَّاغيةِ العظيمِ، وهم في ذلك الوقت جميعُ النَّاسِ كَفَرَةٌ، وهم عندَهم إيمانٌ؛ فهُمْ أحسنُ الموجودين على ما كان منهم ممَّا لا يَنبغي). ((العذب النمير)) (٤/ ١٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥١).

(٢) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧١).

وهذا المعنى هو اختيارُ ابن خالويه، وظاهرُ اختيار مكيٍّ، واختاره أبو حيان.

قال ابن خالويه: (﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ يُقرأ بإثبات الياء والنون وبحذفهما... والحُجَّة لمَنْ حذفها: أنَّه من إخبار النَّبيِّ عليه السَّلامُ عن الله، والفاعل مُستترٌ في الفعل، و(إذ) في أوَّلِ الكلام متعلِّقةٌ بفِعْلٍ دليلُه قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: ٢٦]). ((الحجة في القراءات السبع)) (ص: ١٦٢- ١٦٣). ويُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٩).

وذَهب الأزهريُّ إلى أنَّها إخبارٌ من الله تعالى عن نفْسِه؛ فمعنى القراءتين لديه واحدٌ، حيثُ قال: (ومعنى ﴿أنجيناكم﴾ و﴿أنجاكم﴾ واحدٌ؛ لأنَّ الإنجاءَ لله جلَّ وعزَّ). ((معاني القراءات)) (١/ ٤٢٢).

٢- قِراءة ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾ على أنَّها من إخبارِ اللهِ تعالى عن نفْسِه[١].

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾.

أي: قال اللهُ مُذكِّرًا بني إسرائيلَ نِعمتَه العظيمةَ عليهم[٢]: واذْكُروا حينَ أَنجيناكُم من فِرعونَ وقومِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

أي: كانوا يُذيقونكم- يا بني إسرائيلَ- ويُكلِّفونكم أَقْبَحَ العذابِ وأفظَعَه[٤].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٢- ١٦٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٩٤)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٥).

(٢) قال ابنُ جرير: (واذكروا مع قِيلِكم هذا الَّذي قُلْتُموه لموسى بعدَ رُؤيتِكم من الآياتِ والعِبَرِ، وبعدَ النِّعَمِ التي سَلَفَتْ منِّي إليكم، والأيادي التي تقدَّمَتْ فعلَكم ما فعلْتُم). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٥).
وذَهَب ابنُ جرير وابنُ عاشور إلى أنَّ المخاطَبين بذلك هم اليهودُ الذين كانوا في زمن محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والمرادُ أسلافُهم الذين كانوا مع موسى عليه السَّلامُ، أي: واذكروا إذ أَنجَيْنا أسلافَكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٨٩).
ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٥).
ورجَّح ابنُ عطية أنَّ هذه الآيةَ خاطَبَ بها موسى عليه السَّلامُ مَنْ حضَره من بني إسرائيلَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٦).
قال ابنُ عاشور: (﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ حالٌ من آل فرعون يَحصُل بها بيانُ ما وقَعَ الإنجاءُ منه، وهو العذابُ الشَّديدُ الذي كان الإسرائيليُّون يُلاقونه من معاملة القِبط لهم).

ثمَّ بيَّن اللهُ تعالى العَذابَ الَّذي كانوا يُسامونَ سُوءَهُ، فقال[١]:

﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

أي: يُكثِرون مِن قتْلِ أبنائِكم الذُّكورِ[٢].

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

أي: ويُبقون إناثَكم أحياءً؛ لِيَقُمْنَ بخِدْمتِهم، ويَعْتَدوا على أعراضِهِنَّ[٣].

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

أي: وفي سَوْمِ آلِ فرعونَ لكم سُوءَ العذابِ مِحنةٌ واختبارٌ مِنَ اللهِ لكم عظيمٌ[٤].

وقيل: وفي إنجائِنا لكم مِن عذابِ آلِ فرعونَ نِعمةٌ من اللهِ لكم عَظيمةٌ[٥].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

كفَى بأيِّ أُمَّةٍ خِسَّةَ عُقولٍ أنْ تَعُدَّ القبيحَ حَسَنًا، وأنَّ تتَّخِذَ المظاهرَ المُزَيَّنَةَ قُدوةً لها، وأنْ تنخلِعَ عن كمالِها في اتِّباعِ نقائِصِ غيرِها؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ

((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٩٢- ٤٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٦- ١٣٨).

(٤) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ، وابنِ عطيةَ، وابنِ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٩٣) (٩/ ٨٥).

(٥) وهو اختيارُ السعديِّ، وفسَّر به ابنُ جريرٍ نظيرَ هذه الآيةِ في سورةِ البقرةِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٢-٦٥٣). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٩- ١٤٠).

اللهِ تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾[١].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾، ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾، أي: قَطَعْنا بما لنا مِن العَظَمةِ، فساقَه على طريقِ المفاعَلةِ؛ تعظيمًا له تعالى[٢].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ﴾ سَمَّوُا الصَّنمَ إلهًا؛ لجهلِهم؛ فهُمْ يَحسَبونَ أنَّ اتِّخاذَ الصَّنمِ يُجْدي صاحِبَه، كما لو كان إلهَه معه، وهذا يدُلُّ على أنَّ بني إسرائيلَ قد انخلعوا في مُدَّةِ إقامتِهم بمصرَ عن عَقيدةِ التَّوحيدِ، وحَنيفيَّةِ إبراهيمَ ويعقوبَ الَّتي وصَّى بها في قولِه: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]؛ لأنَّهم لَمَّا كانوا في حالِ ذُلٍّ واستِعبادٍ ذهب عِلْمُهم، وتاريخُ مَجْدِهم، واندمَجوا في دِيانةِ الغالِبين لهم؛ فلم تَبْقَ لهم مِيْزَةٌ تُميِّزُهم إلَّا أنَّهم خَدَمَةٌ وعَبيدٌ[٣].

٣- الفائدةُ في وصْفِ الأصنامِ بأنَّها ﴿لَهُمۡ﴾، وعدمِ الاقتصارِ على قوله: ﴿أَصۡنَامٖ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ﴾، زِيادةُ التَّشنيعِ، والتَّنبيهُ على جَهلِهم وغَوايتِهم في عِبادتِهم ما هو مِلْكٌ لهم عليهم أَشَدُّ[٤].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾، لم يَصْدُرْ هذا القولُ من جميعِهم؛ فإنَّه كان فيهم السَّبعونَ المُختارونَ ومَنْ لا يَصْدُرُ منه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨١).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٢/ ٢٤٧).

هذا السُّؤالُ الباطلُ، لكنَّه نَسَبَ ذلك إلى بني إسرائيلَ؛ لِمَا وقَعَ من بعضِهم، على عادةِ العربِ في ذلك[١].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ما أَحْسَنَ ما خاطَبَهم موسى عليه السَّلامُ! بدأهم أوَّلًا بنِسبتِهم إلى الجهلِ، ثمَّ ثانيًا أخبرهم بأنَّ عُبَّادَ الأصنامِ ليسوا على شيءٍ، بل مآلُ أمْرِهم إلى الهلاكِ، وبُطلانِ العملِ، وثالثًا أنكَرَ وتعجَّبَ أنْ يقَعَ هو عليه السَّلامُ في أنْ يَبْغِيَ لهم غيرَ اللهِ إلهًا، أي: أَغَيْرَ المُستحِقِّ للعبادةِ والألوهيَّةِ أَطْلُبُ لكم معبودًا، وهو الَّذي شرَّفكم واخْتَصَّكم بالنِّعَمِ الَّتي لم يُعطِها مَنْ سَلَفَ من الأُمَمِ، لا غَيرُه؛ فكيف أَبْغِي لكم إلهًا غيرَه[٢]؟!

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾، كان جوابُ موسى عليه السَّلامُ بعُنْفٍ وغِلظةٍ بقولِه: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾؛ لأنَّ ذلك هو المناسِبُ لحالِهم[٣].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾، وَصَفَهم فيه بالجهلِ المُطلَقِ، غيرَ مُتعلِّقٍ بشيءٍ؛ لِيَشْمَلَ كلَّ ما يصلُحُ له من الجهلِ الَّذي هو فَقْدُ العِلْمِ، والجهلِ الَّذي هو سَفَهُ النَّفسِ، وطَيْشُ العقلِ، وأهمُّه المناسِبُ للمَقامِ جَهْلُ التَّوحيدِ، وما يجب من إفرادِ الرَّبِّ تعالى بالعبادةِ من غيرِ واسطةٍ[٤].

٨- الاشتغالُ بعبادةِ غيرِ اللهِ مُتَبَّرٌ وباطلٌ وضائعٌ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٩٧).

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[١].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أُسلوبُ استئنافٍ مُفيدٌ للتَّعليلِ والدَّليلِ؛ ليُبيِّنَ لهم فسادَ ما طَلبوه في نفْسِه؛ عسى أنْ تستعِدَّ عُقولُهم لِفَهْمِه، واستبانةِ قُبْحِه[٢].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾، لَمَّا كان الشَّيءُ قد يَهلِكُ في الدُّنيا أو في الآخرةِ عُبِّرَ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ إشارةً إلى أنَّه الآنَ كذلك، وإنْ رُئِيَ بخِلافِه[٣].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أنْكَرَ أنْ يُتَأَلَّهَ غيرُه، وحَصَرَ الأمْرَ فيه، ثمَّ بيَّنَه بقولِه: ﴿وَهُوَ﴾، أي: والحالُ أنَّه هو وحْدَهُ ﴿فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: لو لم يكُنْ لوجوبِ اختصاصِهم له بالعِبادةِ سببٌ سوى اختصاصِه لهم بالتَّفضيلِ لكان كافيًا[٤].

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فَغَيْرُ اللهِ أَعَمُّ الألفاظِ الدَّالَّةِ على المُحْدَثاتِ؛ فهو يشمَلُ أَخَسَّ المخلوقاتِ وأَعْجَزَها عن النَّفعِ والضُّرِّ؛ كالأصنامِ، ويشمَلُ أفضلَها وأكملَها؛ كالملائكةِ والنَّبيِّينَ عليهم السَّلامُ؛ لِيُثْبِتَ أنَّه لا يوجد مخلوقٌ يَستحِقُّ العبادةَ مع اللهِ تعالى[٥].

١٣- قولُ اللهِ تعالى عن مُوسَى عليه السَّلام: ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي فضَّلَهم بفضائلَ لم تجتمِعْ لأُمَّةٍ غيرِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٠-٣٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٩٧).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٧١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٧٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠٠).

يَومئذٍ، ومِن جُملةِ العالَمين هؤلاءِ القومُ الذين أَتَوْا عليهم، ورأوهم يَعكُفون على أصنامٍ لهم، وذلك كِنايةٌ عن إنكارِ طَلَبِهم اتِّخاذَ أصنامٍ مِثْلَهم؛ لأنَّ شأْنَ الفاضلِ ألَّا يُقَلِّدَ المفضولَ؛ لأنَّ اقتباسَ أحوالِ الغَيْرِ يتضمَّنُ اعترافًا بأنَّه أَرْجَحُ رأْيًا وأَحْسَنُ حالًا في تلك النَّاحيَةِ(١).

١٤- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾، إنَّما جُعِلَتِ النَّجاةُ من آلِ فرعونَ، ولم تُجْعَلْ من فرعونَ، مع أنَّه الآمِرُ بتعذيبِ بني إسرائيلَ؛ تعليقًا للفعلِ بمَنْ هو مِن متعلِّقاتِه على طريقةِ الحقيقةِ العقليَّةِ، وتنبيهًا على أنَّ هؤلاءِ المكلَّفين ببني إسرائيلَ كانوا يَتجاوَزون الحَدَّ المأمورَ به في الإعناتِ على عادةِ المُنفِّذينَ؛ فإنَّهم أقلُّ رحمةً، وأَضْيَقُ نُفوسًا من وُلاةِ الأُمورِ(٢).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾

- قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾: فيه اختيارٌ لطريقِ التَّنكيرِ في ﴿أَصْنَامٍ﴾، ووصْفُها بأنَّها لهم؛ ليُتوسَّل به إلى إرادةِ تحقيرِ الأصنامِ وأنَّها مجهولةٌ؛ لأنَّ التنكيرَ يستلزمُ خفاءَ المعرفةِ(٣).

- والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أرادوا به حَضَّ موسى على إجابةِ سؤالِهم، وابتِهاجًا بما رَأَوْا من حالِ القومِ الَّذينَ حَلُّوا بَيْنَ ظَهْرَانَيهم(٤).

- قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾: خبرٌ مُستعمَلٌ في مَعنَييهِ- الصَّريحِ والكِناية-

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨١).

مُكنًّى به عن التعجُّبِ مِن فداحةِ جَهلِهم[١].

- ووصْفُهم بالجَهلِ المُطلَق، ومَجيئُه بصِيغة المضارِع ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ يُشيرُ إلى أنَّ الجهلَ كأنَّه معهم في الحالِ والمستقبلِ لا يُفارقهم[٢].

- وإسنادُ الجهلِ إلى القومِ في قوله: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ أبلَغُ من إسنادِه إلى ضَميرِ المخاطَبين؛ لأنَّه حُكْمٌ على جماعتِهم بما هو كالمتحقِّقِ المعروفِ من حالِهم، الَّذي هو عِلَّةٌ لمقالِهم، يدخُلُ فيه الَّذينَ سألوه ذلك منهم دُخولًا أوَّليًّا[٣].

٢- قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

- قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ جملةٌ تَعليليَّةٌ لمضمونِ جُملة ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾؛ فلذلِكَ فُصِلتْ، ولم تُعطَفْ عليها، وأُكِّدتْ وجُعِلتِ اسميَّةً[٤].

- وقولُه تعالى: ﴿مُتَبَّرٞ﴾ أي: مُكَسَّرٌ مُفَتَّتٌ مُهْلَكٌ على وجهِ المبالَغةِ[٥].

- وفي إيقاع ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسمًا لـ﴿إِنَّ﴾، وتَقديمِ خَبرِ المبتدأ ﴿مُتَبَّرٞ﴾ مِن الجملة الواقعةِ خبرًا لها؛ وسْمٌ لعَبَدةِ الأصنامِ بأنَّهم هم المُعرَّضون للتَّبارِ أي: الهَلاكِ، وأنَّه لا يَعْدُوهم البتَّةَ، وأنَّه لهم ضربةُ لازبٍ؛ ليُحَذِّرهم عاقبةَ ما طَلَبوا، ويُبغِّض إليهم ما أحبُّوا[٦].

- وقوله: ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: الإخبار بالباطِل هنا كالإخبارِ بالمصدرِ؛

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٨٢).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٩٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٢).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٧١).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥٠).

يُفيدُ المبالغةَ في بُطلانِه؛ لأنَّ المَقامَ مقامُ التوبيخِ، والمبالغةِ في الإنكارِ[١].

٣- ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إعادَةُ لَفْظِ ﴿ قَالَ ﴾ مُسْتَأْنَفًا في حِكايةِ تَكملةِ جوابِ موسَى عليه السَّلامُ؛ لأنَّه يُعادُ في حِكايةِ الأقوال إذا طال المقولُ، أو لأنَّه انتقالٌ مِن غرَضِ التوبيخِ على سؤالِهم إلى غرَضِ التَّذكيرِ بنِعمةِ الله عليهم، وأنَّ شُكرَ النِّعمةِ يَقتضي زَجْرَهم عن مُحاولةِ عِبادةِ غيرِ المنعِم[٢].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾: للإنكارِ والتعجُّبِ مِن طَلِبَتِهم -مع كونِهم مَغمورِينَ في نِعمةِ اللهِ- عِبادةَ غيرِ الله، وقدْ أُولي المستَفْهَم عنه الهمزةُ؛ للدَّلالةِ على أنَّ مَحَلَّ الإنكارِ هو اتخاذُ غيرِ الله إلهًا؛ فتقديمُ المفعولِ الثاني للاختصاصِ؛ للمبالغةِ في الإنكارِ، أي: اختصاص الإنكارِ ببَغيِ غير الله إلهًا[٣].

- وقوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فيه مَجيءُ المُسنَدِ ﴿فَضَّلَكُمْ﴾ فعليًّا؛ ليُفيدَ تقديمُ المسنَدِ إليه عليه تخصيصَه بذلك الخبرِ الفِعلي، أي: وهو فَضَّلَكم، لم تُفضِّلْكم الأصنامُ؛ فكان الإنكارُ عليهم تحميقًا لهم في أنَّهم مغمورونَ في نِعمة اللهِ ويَطلُبون عِبادةَ ما لا يُنعِم[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ فيه انتقالٌ إلى كَلامِه تعالى عن نَفْسِه؛ خاطَبَ به مَنْ أَنْزَلَ إليهم هذا الوحيَ مِن خَلْقِه؛ تَنبيهًا لهم بتَلوينِ الكَلامِ، وبما في مُخاطَبةِ الرَّبِّ لهم كِفاحًا مِنَ التَّأثيرِ الخاصِّ إلى كَوْنِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٤).

هو المُسْدِي لهذا الإنعامِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠١).

الآيتان (١٤٢-١٤٣)

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿مِيقَٰتُ﴾: المِيقَاتُ مِفعالٌ مِن الوَقْتِ، وهو الوقتُ المضروبُ للشَّيءِ، والوَعْدُ الَّذي جُعِلَ له وَقْتٌ، أو: هو القدرُ المحدَّدُ للفعلِ مِن الزَّمانِ أو المكانِ، وأصْلُ (وقت): يَدُلُّ عَلَى حَدِّ شَيْءٍ وَكُنْهِه؛ فِي زَمانٍ وَغَيْرِه(١).

﴿ٱخۡلُفۡنِي﴾: أي: قُمْ مَقامي، والخِلافةُ: النِّيابةُ عن الآخَرِ؛ يقال: خَلَفَ فلانٌ فلانًا، أي: قامَ بالأمْرِ عنه، إمَّا معه وإمَّا بَعدَه، وأصْلُه: مجيءُ شيءٍ بعْدَ شيءٍ يقوم مَقامَه(٢).

﴿تَجَلَّىٰ﴾: أي: ظَهَر وبانَ، أو ظَهَرَ من أَمْرِه ما شاء، وأصْلُ الجَلْو: الكَشْفُ الظَّاهرُ، وكذلك انْكِشافُ الشَّيْءِ وبُروزُه(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٩).

﴿دَكًّا﴾: أي: مَدكوكًا أو مُنْدَكًّا، أو: مستويًا مع وجهِ الأرضِ، أو: مُلصقًا بالأرضِ، والدَّكُّ: الأرضُ اللَّيِّنةُ السَّهلةُ، ويُقالُ: ناقةٌ دَكَّاءُ: إذا لم يَكُنْ لها سَنامٌ، وأصْلُ (دكك): تَطامُنٌ وانْسِطاحٌ[١].

﴿وَخَرَّ﴾: أي: سَقَط، وأصْلُ (خرر): اضْطِرابٌ وسُقوطٌ مَعَ صَوْتٍ[٢].

﴿صَعِقًا﴾: أي: مَغْشِيًّا عليه مع صِياحٍ، وشِدَّةِ صَوْتٍ، وكذلك يقال: صَعِقَ، إذا ماتَ[٣].

مُشْكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً﴾

﴿أَرۡبَعِينَ﴾: مَنصوبةٌ على أنَّها حالٌ، أي: تَمَّ كاملًا، أو بالغًا هذا العددَ. أو على أنَّها مَفعولٌ به لـ ﴿تَمَّ﴾، على تَضْمينِ «تَمَّ» معنى «بَلَغَ». أو على أنَّها ظَرْفٌ؛ لأنَّها عَددُ أزمنةٍ. أو على أنَّها تمييزٌ محوَّلٌ عن الفاعلِ، والأصْلُ: فتمَّ أربعونَ مِيقاتِ رَبِّه، ثمَّ أُسْنِدَ التَّمامُ إلى ميقاتٍ، وانتصَب ﴿أَرۡبَعِينَ﴾ على التَّمييز؛ كقولِه تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾[٤] [مريم: ٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦).

(٣) يُنظر: (غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦، ٥٦٢).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٠١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٤٧-٤٤٨).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه واعَدَ موسى ثلاثين ليلةً، يرتقِبُ بعْدَها مُناجاةَ ربِّهِ، وإنزالَ التَّوراةِ عليه، وأتممَها عزَّ وجلَّ بعَشْرِ ليالٍ، فتَمَّ ميقاتُ ربِّه أربعين ليلةً، وأمَرَ موسى أخاه هارونَ- لَمَّا أراد الذَّهابَ لمناجاةِ اللهِ- أنْ يخلُفَه في قومِه، وأنْ يُصلِحَ كلَّ ما يحتاجُ إلى صلاحٍ من أَمْرِهم، ونهاه أنْ يَتَّبِعَ طريقَ المفسدينَ.

ولَمَّا جاء موسى للموعِدِ الَّذي حدَّده له اللهُ عزَّ وجلَّ ليُناجيَه، ويُعطيَه التَّوراةَ، وكَلَّمَهُ عزَّ وجلَّ بلا واسطةٍ، طلَب موسى مِن ربِّه أنْ يراه، فأخبره تعالى أنَّه لن يقدِرَ على رُؤيتِه في الدُّنيا، وأمره أنْ ينظُرَ إلى الجبلِ فإنِ استقرَّ في مكانِه بعْدَ أنْ يتجلَّى له اللهُ، فسوف يرَى موسى ربَّه، فلمَّا ظهَرَ اللهُ للجبلِ جعله دكًّا، وسقَطَ موسى مَغْشِيًّا عليه مِن شِدَّةِ دَكِّ الجبلِ، فلمَّا أَفاقَ قال: سُبحانَكَ! تُبْتُ إليك، وأنا أوَّلُ المؤمنين.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾.

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾.

أي: وواعَدْنا[1] موسى انقضاءَ ثلاثين ليلةً ينتظِرُ، ويترقَّب بعْدَها مُناجاتَنا، وإنزالَ التَّوراةِ عليه، وأَتْمَمْنا الثَّلاثينَ بعَشْرِ ليالٍ أُخْرى[2].

(١) يرَى الواحديُّ والشنقيطيُّ أنَّ المدَّةَ المضروبةَ لموسى عليه السلام إنما جُعلتْ؛ ليصوم أيَّامها، ويَتعبَّد فيها قَبْلَ المناجاةِ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٩/ ٣٣٠)، ((العذب النمير)) (٤/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٠، ١٤٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

أي: فكمَلَ بذلك الوقتُ الَّذي واعَدَ اللهُ موسى أنْ يُناجيَه فيه، ويُنزِلَ عليه التَّوراةَ، أربعين ليلةً[١].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾.

أي: وقال موسى لأخيه النَّبيِّ هارونَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، لمَّا أراد أنْ يذهبَ إلى جبلِ الطُّورِ؛ لمناجاةِ اللهِ: كُنْ- يا هارونُ- خليفتي في بَني إسرائيلَ إلى أنْ أرجِعَ إليكم، وأَصْلِحْ كُلَّ ما يحتاجُ إلى الإصلاحِ من أَمْرِهم[٢].

قال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٣، ٨٤].

﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أي: وأَوْصى موسى عليه السَّلام أخاه هارونَ عليه السَّلامُ قائلًا له: ولا تَسْلُكْ طريقَ الَّذينَ يُفسِدون في الأرضِ بالمعاصِي[٣].

قال ابنُ كثير: (وقد اختَلف المفسِّرون في هذه العَشْرِ ما هي؛ فالأكثرون على أنَّ الثلاثين هي ذو القَعدةِ، والعشْر عَشْرُ ذي الحِجَّةِ. قاله مجاهد، ومسروق، وابن جريج. ورُوِيَ عن ابن عبَّاس. فعلى هذا يكون قد كمَل الميقاتُ يومَ النَّحرِ، وحصَل فيه التَّكليمُ لموسى عليه السلام). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٥)، ((تفسير المراغي)) (٩/ ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي))

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾.

أي: ولَمَّا جاءَ موسى إلى جَبلِ الطُّورِ في الوقتِ الَّذي حدَّدْناه له؛ لنُناجيَه، ونُعطيَه التَّوراةَ، وكلَّمه ربُّه عزَّ وجلَّ من غير واسطةٍ، قال موسى: يا ربِّ، أَرِني نفْسَكَ؛ لأنظُرَ إليك[1].

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾.

أي: قال الله مُجيبًا موسى: لن تَقدِرَ على رُؤيتي في الدُّنيا[2].

(ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٧).

قال الشنقيطيُّ: (والمعنى: أنت أضعَفُ- يا موسى- من أن تقدِرَ على رؤية خالقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لأنَّ شأنَه أعظمُ، وأمْرَه أكبرُ وأجلُّ من أن يقدر على رؤيته أحدٌ في الدنيا؛ لأنَّ الناسَ في الدنيا مُركَّبون تركيبًا لا يبلغ غايةَ القوَّةِ، مُعرَّضون للموت والهلاكِ، فأنت بهذه الدَّارِ لا تَقدِر أنْ ترى ربَّ السَّموات والأرضِ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٤٧).

وقال السعدي: (الله تبارك وتعالى أنشأ الخلْقَ في هذه الدار على نشأةٍ لا يقدِرون بها، ولا يثبُتون لرؤيةِ اللهِ، وليس في هذا دليلٌ على أنَّهم لا يَرَوْنَهُ في الجنَّةِ، فإنه قد دلَّت النصوص القرآنيَّةُ والأحاديث النبويَّة على أن أهل الجنةِ يَرَوْنَ ربهم تبارك وتعالى، ويتمتَّعون بالنظرِ إلى وجهه الكريمِ، وأنه يُنشِئهم نشأةً كاملةً، يقدِرون معها على رؤيةِ اللهِ تعالى؛ ولهذا رتَّبَ اللهُ الرؤيةَ في هذه الآيةِ على ثُبوت الجبلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٨).

عن أبي موسى الأشعريِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام فينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بخَمسِ كَلِماتٍ، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا ينامُ، ولا ينبغي له أنْ ينامَ، يَخفِضُ القِسْطَ ويرفعُه، يُرفَعُ إليه عملُ اللَّيلِ قبلَ عملِ النَّهارِ، وعملُ النَّهارِ قبلَ عملِ اللَّيلِ، حِجابُه النُّورُ- وفي روايةِ أبي بكرٍ: النَّارُ- لو كشَفَه لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجْهِه[١] ما انتهى إليه بصرُه مِن خَلْقِه))[٢].

ثمَّ بيَّنَ اللهُ تعالى لموسى عدمَ استطاعتِه رُؤيتَه في الدُّنيا، فقال مُقْنِعًا له بذلك[٣]:

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾.

أي: ولكن انظُرْ إلى الجبلِ- يا موسى- فإنْ تجلَّيْتُ له، وثَبَتَ مكانَه فسَوف تَراني، وإذا لم يَثْبُتْ مَكانَه- وهو أقوى منك، وأَشَدُّ صَلابةً- فإنَّك لن تُطيقَ رُؤيتي من بابِ أَوْلى؛ فأنتَ أضعَفُ مِن أنْ تتحمَّلَ ذلك[٤].

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى ﴿دَكّٗا﴾ قراءتانِ:

١- قِراءة ﴿دَكَّاءَ﴾، أي: جعَلها أرضًا دكَّاءَ، وهي الأرضُ المُستَوِيَةُ[٥].

---

(١) سبحاتُ وجهِه: أي: نورُه وجلالُه وبهاؤُه. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٣).

(٢) رواه مسلم (١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦١)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٧).

(٥) قرأ بها حمزة، والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٢).

قال ابن زنجلة: (قرأ حمزة والكسائي: ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ بالمد والهمز، قال الأخفش: قوله تعالى: ﴿دَكَّاءَ﴾ أي: جعله مِثْلَ دكَّاءَ، ثم حُذِفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مُقامَه كما قال: ﴿

٢- قِراءة ﴿دَكَّا﴾، أي: جعلها أرضًا مدكوكةً، أي: مُفَتَّتَةً كالتُّرابِ[(١)].

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾.

أي: فلمَّا ظهر اللهُ تعالى وبانَ للجبلِ جعله اللهُ مُفَتَّتًا، مستويًا بالأرضِ[(٢)].

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

أي: وسقَطَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَغْشِيًّا عليه من شِدَّةِ دكِّ الجبلِ[(٣)].

عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((النَّاسُ

وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى﴾ [يوسف: ٨٢]، والعربُ تقول: ناقةٌ دكاء، أي: لا سِنام لها، وقال قطرب: قوله: ﴿دَكَّاءَ﴾ صفة، التقدير: جعله أرضًا دكَّاءَ، أي: ملساء، فأُقيمَتِ الصِّفةُ مُقامَ الموصوفِ، وحُذِفَ الموصوفُ ودلَّ عليه الصفة؛ كما قال سبحانه: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، أي: قولًا حَسَنًا. ((حجة القراءات)) (ص: ٢٩٥). ويُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣٧).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٢).

قال ابنُ زنجلة: (قرأ الباقون: ﴿دَكًّا﴾ مُنوَّنًا، جَعَلوا دكًّا مصدرًا من دككتُ الشَّيءَ إذا كسَّرْتَه وفتَّتَه، فتأويله: جعَلَه مُفتَّتًا كالتراب، وحُجَّتهم قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١]، المعنى: فلمَّا تجلَّى ربُّه للجبل جعَله مدكوكًا، فكأنَّه دكَّه، فيُجعل قوله: ﴿دَكًّا﴾ مصدرًا صَدَرَ عن معنى الفعل لا عن لفظِه). ((حجة القراءات)) (ص: ٢٩٥). ويُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣٧).

وقال الشنقيطيُّ: (وعلى كلِّ حالٍ فالله جلَّ وعلا لمَّا تجلَّى للجبل دكَّ الجبلَ وأزاله وكسَّره، وصار رُفاتًا؛ لعَظَمَةِ خالق السمواتِ والأرضِ على القراءتين: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ ﴿جعله دكَّاء﴾). ((العذب النمير)) (٤/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٨، ١٥٤).

يَصعَقونَ يَوْمَ القِيامةِ، فأكونُ أوَّلَ مَنْ يُفيقُ، فإذا أنا بموسى آخِذٌ بقائِمةٍ من قَوائمِ العَرْشِ؛ فلا أدْري أَفاقَ قَبْلي، أم جُوزيَ بصَعْقةِ الطُّورِ))[١].

وقال سليمانُ بنُ حَرْبٍ: حدَّثَنا حمَّادُ بن سَلَمَةَ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قرأ هذه الآيةَ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]- قال حمَّادٌ: هكذا، وأَمْسَكَ سليمانُ بطَرَفِ إبهامِه على أُنْمُلَةِ إصْبَعِه اليُمنى، قال:- فساخَ الجبلُ ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾))[٢].

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾.

أي: فلمَّا أفاق موسى من غَشْيَتِه قال: أُنزِّهُك -يا ألله- تنزيهًا عمَّا لا يَليقُ بكمالِك وجلالِك وعَظمتِك، ومن ذلك أنْ يَتحمَّلَ أحدٌ رؤيتَكَ في الدُّنيا ثمَّ يَعيشَ[٣].

﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٩٨) ومسلم (٢٣٧٤).

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٣٠٧٤)، وأحمد (١٣١٧٨)، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (٤٨٠)، وابن مَندَة في ((الرد على الجهمية)) (٢٦).
قال الترمذيُّ: حسنٌ غريبٌ صحيح. وصحَّح أبو محمَّد الخلَّال إسنادَه كما في ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٧)، وقال ابنُ القيم في ((مدارج السالكين)) (٣/ ٤٢١): إسنادُه على شرْط مسلم. وقال الشوكاني في ((فتح القدير)) (٢/ ٣٤٥): صحيحٌ على شرط مسلم. وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٣٠٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٢)، ((شمس العلوم)) لنشوان الحميري (٨/ ٥٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٥٥).
قال ابنُ عاشور: (وسُبحانَك مصدرٌ جاء عِوَضًا عن فعْلِه، أي: أُسبِّحك، وهو هنا إنشاءُ ثناءٍ على الله، وتنزيهٍ عمَّا لا يليق به؛ لمناسَبةِ سؤاله منه ما تبيَّن له أنه لا يليقُ به سؤالُه دونَ استئذانه، وتحقُّقِ إمكانه؛ كما قال تعالى لنوحٍ: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٦] في سورة هود). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٤).

أي: قال موسى: إنِّي تُبْتُ إليك- يا ربِّ-؛ فلَنْ أعودَ إلى طَلَبِ رؤيتِكَ في الدُّنيا(١).

كما قال نوحٌ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: قال موسى: وأنا أوَّلُ المؤمنينَ بأنَّه لا يَراكَ أحدٌ في الدُّنيا إلَّا هَلَكَ(٢).

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- جَمَعَ موسى لهارونَ في وصيَّتِه مِلاكَ السِّياسةِ بقولِه: ﴿وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ فإنَّ سياسةَ الأُمَّةِ تدور حوْلَ مِحورِ الإصلاحِ، وهو جَعْلُ الشَّيءِ صالحًا، فجميعُ تصرُّفاتِ الأُمَّةِ وأحوالِها يجب أن تكونَ صالحةً، وذلك بأنْ تكونَ الأعمالُ عائدةً بالخيرِ والصَّلاحِ لفاعِلِها ولغيرِه، فإنْ عادت بالصَّلاحِ عليه وبِضِدِّه على غيرِه لم تُعْتَبَرْ صلاحًا، ولا تلبَثُ أنْ تؤولَ فسادًا على مَنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٢).

وهذا المعنى هو اختيارُ الإمامِ أحمدَ، وابنِ جرير، والزَّجَّاج، واستحسنه ابنُ كثير، إلَّا أنَّ ابن جرير قيَّدَ هذه الأوَّليَّةَ ببني إسرائيلَ، أي: أنا أوَّلُ مَنْ آمَنَ من قومي بأنَّك لا تُرى في الدُّنيا. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن ذهب مِن السَّلف إلى أنَّ المعنى: أولُ المؤمنين بأنَّه لا يراك أحدٌ مِن خلقِك في الدُّنيا؛ ابنُ عبَّاس- في أحدِ قولَيْه- وأبو العاليةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٣، ٤٣٤)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٤٧).

وقال قتادة فِي قَوْله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أنَّه لن تراك نفسٌ فتحيا. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٤٧).

لاحَتْ عِنده صلاحًا، ثمَّ إذا تردَّدَ فعْلٌ بين كونِه خيرًا من جِهةٍ، وشرًّا من جِهةٍ أخرى وَجَبَ اعتبارُ أقوى حالتَيْهِ، فاعْتُبِرَ بها إنْ تعذَّرَ العُدولُ عنه إلى غيرِه، ممَّا هو أوفَرُ صلاحًا، وإنِ استوى جهتاه أُلْغِيَ إنْ أَمْكَنَ إلغاؤُه وإلَّا تخيَّرَ، وهذا أمْرٌ لهارونَ جامِعٌ لِمَا يتعيَّنُ عليه عملُه من أعمالِه في سياسةِ الأُمَّةِ[١].

٢- أَمَرَ اللهُ بالصَّلاحِ، ونَهَى عن الفَسادِ، وبَعَثَ رُسلَه بتَحصيلِ المصالحِ وتكميلِها، وتَعطيلِ المفاسدِ وتقليلِها؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٢].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾، واعَدَ اللهُ تعالى موسى ثَلاثين ليلةً، وأَتَمَّها بعشْرٍ، فصارتْ أربعين ليلةً؛ ليستعِدَّ موسى ويتهيَّأَ لوعْدِ اللهِ، ويكونَ لنُزولِ التَّوراةِ موقِعٌ كبيرٌ لديهم، وتشوُّقٌ إلى إنزالِها[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ سُمِّيَتْ زيادةُ اللَّيالي العشْرِ إتمامًا؛ إشارةً إلى أنَّ اللهَ تعالى أراد أنْ تكونَ مُناجاةُ موسى أربعين ليلةً، ولكنَّه لَمَّا أَمَرَه بها أَمَرَه بها مُفرَّقةً؛ إمَّا لحِكْمةِ الاستيناسِ، وإمَّا لتكونَ تلك العشْرُ عبادةً أخرى؛ فيتكرَّرَ الثَّوابُ، والمرادُ اللَّيالي بأيامِها فاقْتُصِرَ على اللَّيالي؛ لأنَّ المُواعَدَةَ كانت لأجْلِ الانقطاعِ للعبادةِ وتلقِّي المناجاةِ، والنَّفسُ في اللَّيلِ أكثرُ تجرُّدًا للكمالاتِ النَّفسانيَّةِ، والأحوالِ الملكِيَّةِ منها في النَّهارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٧، ٨٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٣١/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٦).

٣- قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ...﴾، قال بعضُ العلماءِ: هذه الآيةُ الكريمةُ يُؤْخَذُ منها: أنَّ ضَرْبَ التَّأجيلِ، وتحديدَ المدَّةِ للمِيعادِ ونَحْوِه- أنَّه أمْرٌ مَعروفٌ قديمٌ، فيدُلُّ على ضرْبِ الأجَلِ والتَّحديدِ بثَلاثين أو أربعين لموعِدٍ ونحوِ ذلك، كَدَيْنٍ أو غيرِه ممَّا يحتاجُ إلى الآجالِ[١].

٤- قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ...﴾، قال بعضُ العلماءِ: هذه الآيةُ من سُورةِ الأعرافِ دلَّتْ على أنَّ التَّأْريخَ باللَّيالي لا بالأيَّامِ، وذلك هو المقرَّرُ في فنِّ العربيَّة كما دلَّتْ عليه هذه الآيةُ أنَّ التَّأْريخَ باللَّيالي لا بالأيَّامِ، فتقول: وقَعَ هذا لكذا وكذا ليلةً، ولا تقولُ: لكذا يومًا، فالتَّأْريخُ باللَّيالي؛ لأنَّ اللَّياليَ أوائلُ الشُّهورِ وهي سابقةٌ للأيَّامِ، فالتَّأْريخُ بها لا بالأيَّامِ، وهذه الآيةُ نَصٌّ صريحٌ في ذلك؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾، ولم يقُلْ: ثلاثين يومًا، وقال: ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾، حَذَفَ منها التَّاءَ ولم يقُلْ: (بعشَرة)؛ لأنَّ اللَّياليَ مُؤنَّثةٌ، ولو أرادَ الأيَّامَ لقال: (بعشَرة) بالتَّاء، كما هو معروفٌ في محلِّه[٢].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فيه أمْرُه إيَّاه بالصَّلاحِ، ونَهْيُه عن اتِّباعِ سبيلِ المفسِدين هو على سَبيلِ التَّأكيدِ، لا لِتَوَهُّمِ أنَّه يقَعُ منه خِلافُ الإصلاحِ واتِّباعُ تِلك السَّبيلِ؛ لأنَّ مَنْصِبَ النُّبوَّةِ مُنزَّهٌ عن ذلك[٣].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، لَمَّا تعلَّق النَّهْيُ بسُلوكِ طريقِ المفسِدين، كان تحذيرًا من كُلِّ ما يُسْتَرْوَحُ منه مآلٌ إلى فسادٍ؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٦١).

المفسِدينَ قد يَعْملون عملًا لا فَسادَ فيه؛ فنُهِي عن المشارَكةِ في عَملِ مَنْ عُرِفَ بالفسادِ؛ لأنَّ صُدورَه عن المعروفِ بالفَسادِ كافٍ في توقُّعِ إفضائِه إلى فسادٍ؛ ففي هذا النَّهْيِ سَدُّ ذريعةِ الفسادِ، وسَدُّ ذرائعِ الفَسادِ من أُصولِ الإسلامِ[١].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾، ممَّا يُؤْذِنُ بأنَّ التَّكليمَ هو الَّذي أَطْمَعَ موسى عليه السَّلامُ في حُصولِ الرُّؤيةِ جَعْلُ جُملةِ: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ شرطًا لحرفِ (لَمَّا)؛ لأنَّ (لَمَّا) تدُلُّ على شِدَّةِ الارتباطِ بين شَرْطِها وجوابِها؛ فلذلك يَكْثُرُ أنْ يكونَ عِلَّةً في حُصولِ جوابِها[٢].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾، تعلَّقَ نُفاةُ الرُّؤيةِ بظاهرِ هذه الآيةِ، وقالوا: قال اللهُ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، و(لن) تكون للتَّأبيدِ، ولا حُجَّةَ لهم فيها، ومعنى الآيةِ: لن تراني في الدُّنيا أو في الحالِ؛ لأنَّه كان يَسأل الرُّؤيةَ في الحالِ، و(لن) لا تكون للتَّأبيدِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا﴾ [البقرة: ٩٥]، إخبارًا عن اليهودِ، ثمَّ أخبر عنهم أنَّهم يَتمنَّوْنَ الموتَ في الآخرةِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، و﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧]، والدَّليلُ عليه أنَّه لم يَنسُبْه إلى الجهلِ بسؤالِ الرُّؤيةِ، وأنَّه لم يَقُلْ: إنِّي لا أُرى، حتَّى تكونَ لهم حُجَّةً، بل علَّقَ الرُّؤيةَ على استقرارِ الجبلِ، واستقرارُ الجبلِ عِند التَّجلِّي غيرُ مستحيلٍ إذا جعل اللهُ تعالى له تلك القوَّةَ، والمعلَّقُ بما لا يَستحيلُ لا يكون مُحالًا[٣].

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٨).

(٢) ينظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٩١).

(٣) ينظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٩).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾، نبَّه تعالى بذلك على أنَّ الجبلَ مع شِدَّتِه وصلابتِه إذا لم يَستقرَّ فالآدميُّ مع ضَعْفِ بِنْيَتِهِ أَوْلى بألَّا يستقِرَّ، وهذا تسكينٌ لقلبِ موسى، وتخفيفٌ عنه مِنْ ثِقَلِ أعباءِ المنْعِ[1].

١٠- قوله سُبحانَه وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾، وهذا مِن أَبْيَنِ الأدلَّةِ على جوازِ رُؤيتِه تبارَك وتعالى؛ فإنَّه إذا جازَ أنْ يَتجلَّى للجَبلِ الَّذي هو جمادٌ، لا ثَوابَ له، ولا عِقابَ عليه، فكيف يمتَنِعُ أنْ يتجلَّى لأنبيائِه ورُسلِه وأوليائِه في دارِ كرامتِهم، ويُريَهم نفْسَه؟! فأَعْلَمَ سُبحانَه وتعالى موسى أنَّ الجبلَ إذا لم يَثْبُتْ لرؤيتِه في هذه الدَّارِ فالبشرُ أَضْعَفُ[2].

١١- قال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾، رأى محمَّدٌ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما رأى في ليلةِ الإسراءِ، وهو ثابتُ الجأْشِ، حاضرُ القلبِ، لم يَفْنَ عن تلقِّي خِطابِ ربِّه وأوامرِه، ومراجعتِه في أمْرِ الصَّلاةِ مِرارًا، ولا رَيْبَ أنَّ هذا الحالَ أكمَلُ من حالِ موسى الكليمِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهما؛ فإنَّ موسى خرَّ صَعِقًا، وهو في مَقامِه في الأرضِ، لَمَّا تجلَّى ربُّه للجبلِ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَطَعَ تلك المسافاتِ، وخَرَقَ تلك الحُجُبَ، ورأى ما رأى، وما زاغَ بَصَرُهُ وما طَغى، ولا اضْطَرَبَ فؤادُه ولا صَعِقَ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، ولا ريبَ أنَّ الوِراثةَ المحمَّديَّةَ أكمَلُ مِنَ الوِراثةِ الموسويَّةِ[3].

١٢- قولُه: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، تَعبيرُه بالإيمانِ في غايةِ المناسَبةِ لعَدمِ

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٦٤).

(٢) ينظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨٧)، وينظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٢٣، ٣٢٤).

الرُّؤيةِ؛ لأنَّ شرطَ الإيمانِ أنْ يكونَ بالغَيبِ[١].

بلاغة الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ إنَّما قال: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ مع أنَّه قد عُلِم ذلِك عند انضمامِ العَشْرِ إلى الثَّلاثينَ؛ لوُجوهٍ: أحدُها: أنَّه للتَّأكيدِ والإيضاحِ. الثَّاني: ليدُلَّ أنَّ العشْرَ ليالٍ لا ساعاتٌ. الثَّالثُ: ليَنفيَ تمامَ الثَّلاثينَ بالعشْر أنْ تكونَ من جُملةِ الثَّلاثينَ؛ ولرَفْعِ توهُّم أنَّ العَشرَ داخلةٌ في الثَّلاثين، بمَعنَى أنَّها كانتْ عِشرينَ ليلةً فأُتِمَّتْ بعشْرٍ[٢].

- وإِضَافَةُ الميقات إِلَى رَبِّهِ في قولِه: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾؛ لِلتَّشْرِيفِ[٣].

٢- قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: فيه التَّحذيرُ مِن الفَسادِ بأبلغ صِيغةٍ؛ لأنَّها جامعةٌ بين نَهيٍ، وبين تعليقِ النَّهيِ باتِّباعِ سَبيلِ المُفسِدين[٤].

٣- **قوله**: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ معنى اللَّام في ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾ الاختِصاصُ، فكأنَّه قيل: واختصَّ مَجيئُه بمِيقاتِنا[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥١).

الآيتان (١٤٤-١٤٥)

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾: أي: اخترْتُكَ، وأَصْلُ (صفو): يدُلُّ على خُلوصٍ من كُلِّ شَوْبٍ(٦).

﴿مَّوۡعِظَةٗ﴾: الموعظةُ هي التَّخويفُ، أو الزَّجْرُ المُقترِنُ بتخويفٍ، وهي أيضًا تذكيرٌ بالخيرِ وما يَرِقُّ له القلبُ(٧).

مُشكلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾

﴿مِن كُلِّ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، حالٌ مِن ﴿مَّوۡعِظَةٗ﴾، و﴿مَّوۡعِظَةٗ﴾ مفعولٌ به منصوبٌ بالفعلِ (كتب)، و﴿تَفۡصِيلٗا﴾ معطوفٌ على ﴿مَّوۡعِظَةٗ﴾ منصوبٌ، والتقديرُ: كتبْنا له في الألواح موعظةً مِن كُلِّ شَيءٍ وتَفصيلًا، ويجوزُ أن يكونَ ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ في محلِّ نصبٍ، مفعولَ ﴿كَتَبۡنَا﴾، وعليه فـ﴿مَّوۡعِظَةٗ﴾ بَدَلٌ مِن محلِّ الجارِّ والمجرورِ، و﴿تفصيلًا﴾ معطوفٌ منصوبٌ، والمعنى: كَتَبْنا له كلَّ شيءٍ كان بنو إسرائيلَ يَحْتاجون إليه في دينِهم؛ مِن المواعِظِ، وتَفصيلِ الأحكامِ، وقيل: مفعولُ ﴿كَتَبۡنَا﴾ محذوفٌ دَلَّ عليه

---

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨).

(٧) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

الفِعلُ، تقديرُه: وكَتَبْنا له مكتوبًا مِن كُلِّ شَيءٍ[١]، وانتصَبَ ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾ على المفعولِ مِن أجلِه، أي: كَتَبْنا له ذلك المكتوبَ للاتِّعاظِ وللتَّفصيلِ، أو انتصَبَ ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾ على الحالِ مِن الضَّميرِ المرفوعِ في قَولِه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ﴾ أي: واعظينَ ومُفَصِّلينَ. وقيل غيرُ ذلك[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه قال لموسى: إنَّه اختارَه وفضَّلَه على أهلِ زمانِه، بإرسالِه إلى بني إسرائيلَ، وتكْليمِه إيَّاه بلا واسِطةٍ، وأمَرَه أنْ يأخُذَ ما آتاه من التَّوراةِ ويتمسَّكَ بها، وأنْ يكونَ من الشَّاكرينَ.

وأخبَرَ تعالى أنَّه كتَبَ له في الألواحِ المُشتمِلةِ على التَّوراةِ كُلَّ شيءٍ تحتاج إليه أُمَّتُه في دِينِها، موعظةً، وتفصيلًا لكلِّ شيءٍ ممَّا يُحتاجُ إلى تَبْيينِه، وأمَرَه أنْ يتمسَّكَ بما كُتِبَ له بقوَّةٍ، وأنْ يأمُرَ قومَه أنْ يَتمسَّكوا بأحسنِ ما في التَّوراةِ، ثم قال تعالى: سَأُرِيكُمْ دَارَ من عصاني، وخالف أمري.

تَفسيرُ الآيتَيْنِ:

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا طلَبَ موسى عليه السَّلامُ الرُّؤيةَ ومُنِعَها، عدَّدَ عليه تعالى وُجوهَ نِعَمِه

(١) وقدَّر أبو حيَّان المحذوفَ كلمةَ: (أشياءَ) أي: كتبْنا له أشياءَ مِن كلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٥٢-٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨/ ٢٨٠-٢٨١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٩/ ٧٢).

العظيمةِ عليه، وأمَرَه أنْ يَشتغِلَ بشُكْرِها، وهذه تَسليةٌ منه تعالى له[١].

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ قراءتانِ:

١- قراءة ﴿بِرِسَالَتِي﴾، قيل: على معنى أنَّ اللهَ تعالى أرسَلَه مرَّةً واحدةً بكلامٍ كثيرٍ[٢].

٢- قراءة ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾، قيل: على معنى أنَّه تعالى أَوْحى إليه مرَّةً بَعْدَ أُخْرى[٣].

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾.

أي: قال اللهُ: يا موسى، إنِّي اخترْتُكَ وفضَّلْتُكَ على أهلِ زمانِكَ بسببِ إرْسالي لك إلى بني إسرائيلَ، وتَكْليمي إيَّاكَ بلا واسطةٍ، دونَ غيرِكَ مِنَ النَّاسِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٦٩).

(٢) قرأ بها نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو جعفرٍ المدني ورَوح. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٣- ١٦٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٩٥)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٥).
وقال ابنُ عطية: (وقرأ ابن كثير ونافع: (بِرِسَالَتِي) على الإفراد الذي يُرادُ به الجَمْعُ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٢) فـ(رسالة) مفردٌ مضافٌ إلى معرفةٍ (الضمير) فهو بمعنَى الجمعِ.

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٣- ١٦٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٩٥)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٥٦- ١٥٧).
قال البغوي: (فإنْ قيل: فما معنى قوله: ﴿ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي﴾ وقد أُعْطِيَ غيرُه

كما قال سُبحانَه: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣].

﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾.

أي: فَخُذْ ما أعطيْتُكَ من التَّوراةِ، وتمسَّكْ بها -يا موسى- واعمَلْ بما فيها مِنَ الأوامِرِ والنَّواهي[(١)].

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أي: وكُنْ- يا موسى- مِنَ الشَّاكرينَ[(٢)] للهِ تعالى بطاعتِه على ما آتاكَ مِنَ الرِّسالةِ، وخَصَّكَ به من الكلامِ، ومَنَحَكَ من النِّعَمِ[(٣)].

الرسالةَ؟ قيل: لَمَّا لم تكن الرسالةُ على العُموم في حقِّ النَّاسِ كافَّةً استقام قوله: ﴿ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وإنْ شارَكه فيه غيرُه، كما يقولُ الرجلُ: خصصْتُك بمشورتي، وإنْ شاوَر غيرَه، إذا لم تكن المشورةُ على العموم يكون مستقيمًا). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣١).

وقال الرازي: (فإنْ قيل: كيف اصطفاه على النَّاس برِسالاتِه مع أنَّ كثيرًا من الناسِ قد ساواه في الرسالةِ؟ قُلْنا: إنَّه تعالى بيَّنَ أنَّه خصَّهُ من دونِ الناسِ بمجموعِ الأمرين وهو الرِّسالة مع الكلامِ بغير واسطةٍ، وهذا المجموعُ ما حَصَلَ لغيرِه؛ فثَبَتَ أنَّه إنَّما حصَلَ التَّخصيصُ هاهنا؛ لأنَّه سمِع ذلك الكلامَ بغيرِ واسطةٍ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٥٧).

(٢) قال الشنقيطيُّ: (الشُّكر في لغة العربِ: الظُّهورُ... و(الشَّكيرُ): الغُصْنُ الذي يَظْهَرُ في الجِذْعِ الذي كان مقطوعًا، كما هو معروفٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٥٧).

قال القرطبيُّ: (﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أي: من المظهِرين لإحساني إليك، وفَضْلي عليك، يُقالُ: دابَّةٌ شَكورٌ إذا ظهَرَ عليها مِنَ السِّمَنِ فوق ما تُعْطى من العَلَفِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٥٧).

قال الرازي: (﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، يعني: فخُذْ هذه النِّعمةَ، ولا يَضيقُ قلبُك بسبب منْعِك الرُّؤيةَ، واشتغِلْ بشُكر الفَوْزِ بهذه النِّعمةِ، والاشتِغالُ بشُكرها إنما يكون بالقيام بلوازمِها عِلْمًا وعملًا. والله أعلم). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير))

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى أنَّه خَصَّ موسى عليه السَّلامُ بالرِّسالةِ، ذكَرَ في هذه الآيةِ تفصيلَ تلك الرِّسالةِ، فقال[1]:

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾.

أي: وكتبْنا لموسى في ألواحِه[2]- المُشتمِلةِ على التَّوراةِ[3]- كلَّ شيءٍ تحتاجُ إليه أُمَّتُه في دينِها[4].

(٣/ ٤٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩).

(٢) قال القرطبيُّ: (أصلُ اللُّوح: (لَوْحٌ)- بفتْح اللام- ؛ قال الله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، فكأنَّ اللَّوْحَ تَلوحُ فيه المعاني). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨١).

(٣) ذهب الواحديُّ، والرَّازي، والقرطبيُّ، وابنُ تيميةَ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمينَ، إلى أنَّ المرادَ بهذه الألواحِ: التَّوراةُ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٤١٢)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨١)، ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((العذب النمير)) (٢/ ٣٩٢) (٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٧٧).
قال ابنُ كثير: (كانت هذه الألواحُ مُشتمِلةً على التَّوراة التي قال الله تعالى فيها: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾ [القصص: ٤٣]، وقيل: الألواحُ أُعْطِيَها موسى قبْلَ التَّوراةِ، فالله أعلم. وعلى كلِّ تقديرٍ كانت كالتَّعويضِ له عمَّا سأل من الرُّؤية ومُنِعَ منه، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤).
وقال الرازيُّ: (واعلَمْ أنه ليس في لفظ الآيةِ ما يدُلُّ على كيفيَّةِ تلك الألواحِ، وعلى كيفيَّة تلك الكتابةِ، فإنْ ثبَتَ ذلك التَّفصيلُ بدليلٍ مُنفصِلٍ قويٍّ وجَبَ القولُ به وإلَّا وجب السُّكوتُ عنه). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٧).

عن أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((احتجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى: يا آدمُ، أنتَ أبونا، خيَّبْتَنا وأخرجْتَنا منَ الجنَّةِ، فقالَ لَهُ آدمُ: أنتَ موسَى، اصطفاكَ اللهُ بِكَلامِهِ، وخطَّ لَكَ بيدِه، أتلومُني على أمْرٍ قدَّرَهُ اللهُ عليَّ قبلَ أنْ يخلُقَني بأربعينَ سنةً؟! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: فحَجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى))، وفي حديثِ ابنِ أبي عُمَرَ وابنِ عَبْدَةَ: ((قالَ أحدُهما: خَطَّ، وقالَ الآخَرُ: كتبَ لَكَ التَّوراةَ بيدِهِ))[(١)].

وفي روايةٍ أُخْرى عن أبي هريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((احتجَّ آدمُ وموسى عليهما السَّلامُ عِندَ ربِّهما، فحجَّ آدمُ موسى، قال موسى: أنتَ آدمُ الَّذي خلقَكَ اللهُ بيدِه، ونفخَ فيكَ من رُوحِهِ، وأَسْجَدَ لَكَ ملائِكَتَهُ، وأسكنَكَ في جنَّتِهِ،ثمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بخطيئتِكَ إلى الأرضِ، فقال آدمُ: أنتَ موسى الَّذي اصطفاكَ اللهُ برسالتِهِ، وبِكَلامِهِ، وأعطاكَ الألواحَ فيها تِبيانُ كلِّ شيءٍ، وقرَّبَكَ نجيًّا، فبِكَمْ وجدْتَ اللهَ كتَبَ التَّوراةَ قبْلَ أن أُخْلَقَ؟ قال موسى: بأربعينَ عامًا، قال آدمُ: فَهَل وجدْتَ فيها: وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى؟ قالَ: نَعَمْ، قال: أفتلومُني على أنْ عَمِلْتُ عملًا كتبَهُ اللهُ عليَّ أنْ أعمَلَهُ قبْلَ أنْ يخلُقَني بأربعينَ سنةً؟! قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فَحجَّ آدمُ موسى))[(٢)].

﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: كتَبْنا لموسى في التَّوراةِ من كلِّ شيءٍ؛ تذكيرًا وتحذيرًا، وترغيبًا وترهيبًا لقومِه، ومَن أُمِر بالعملِ بما كُتِب في الألواحِ، وتبيينًا لكلِّ شيءٍ مِن الأمرِ والنَّهي،

وذهب ابن عاشور إلى أنَّ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ تبعيضيَّةٌ، أي: كتَبْنا له أشياءَ من كلِّ شيءٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٧).

(١) رواه مسلم (٢٦٥٢).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٢).

والحلالِ والحرامِ، والحدودِ، والأحكامِ، والعقائدِ، والأخلاقِ، والآدابِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾.

أي: فقُلْنا: يا موسى، تَمَسَّكْ بما كتَبْنا لك في الألواحِ بِجِدٍّ واجتهادٍ، وصبرٍ وعزمٍ، ونشاطٍ على إقامةِ ما فيها[٢].

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾.

أي: وَأْمُرْ- يا موسى- قومَكَ بني إسرائيلَ بأنْ يتمسَّكوا بأحسَنِ ما يجِدونَ في التَّوراةِ، فيعملوا بأوامِرِها، ويَترُكوا نواهيَها، ويتدبَّروا مواعِظَها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

قال ابنُ الجوزي: (إنْ قيل: كأنَّ فيها ما ليس بحَسَنٍ، فعنه جوابان؛ أحدُهما: أنَّ المعنى: يأخذوا بحَسَنِها، وكلُّها حَسَنٌ... والثَّاني: أنَّ بعضَ ما فيها أحْسَنُ من بعضٍ. ثم في ذلك خمسةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنهم أُمِروا فيها بالخير، ونُهوا عن الشَّرِّ، ففِعْلُ الخيرِ هو الأحسنُ. والثاني: أنها اشتملت على أشياءَ حسنةٍ بعضُها أحسنُ من بعضٍ؛ كالقِصاصِ والعفوِ والانتصارِ والصَّبرِ، فأُمِروا أن يأخذوا بالأحسنِ، ذَكَرَ القولين الزجاجُ. فعلى هذا القولِ يكون المعنى: أنهم يتَّبعون العزائمَ والفضائلَ، وعلى الذي قبْلَه يكون المعنى: أنهم يتَّبعون الموصوفَ بالحُسْن، وهو الطاعة، ويَجتنِبون الموصوفَ بالقُبْح وهو المعصية. والثالث: أحسنها: الفرائضُ والنوافلُ، وأدونها في الحُسْن: المباح. والرابع: أن يكون للكلمة معنيان أو ثلاثة، فتُصْرَفَ إلى الأشْبَهِ بالحقِّ. والخامس: أنَّ أحسنَها: الجمعُ بين الفرائضِ والنوافلِ). ((زاد المسير)) (٢/ ١٥٣).

ثمَّ توعَّدَ اللهُ مَنْ يُضيعُ العملَ بالتَّوراةِ من بني إسرائيلَ، فقال لهم مُهدِّدًا[١]:

﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

أي: سأُريكم دارَ[٢] .....

وهذا القول الخامس هو اختيار السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠١).

وقيل: يحتمِلُ أن يكون كلامًا مُنفصِلًا عمَّا قَبْلَه، فيكونَ استئنافًا ابتدائيًّا: هو وَعْدٌ له بدُخولِهم الأرضَ الموعودةَ، وفَتْحِ بلادِهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠١).

(٢) اختلف المفسِّرون في المرادِ بقولِه: ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

فقيل: ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ هي: جَهنَّمُ، والمعنى: سأُريكم في الآخِرةِ دارَ الفاسِقين. وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ، والواحديِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤١)، ((الوجيز)) (ص: ٤١٢).

وممن رُوي عنه هذا القولُ من السَّلف مجاهدٌ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤١).

وقيل: هذا وعدٌ من الله لبني إسرائيلَ بأنَّه سيُريهم في الدُّنيا دارَ الفاسقين، وهي الأرض المقدَّسةُ التي كان يسكُنُها الجبابرةُ المشركون. واختاره القاسميُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠١).

وممن رُوي عنه هذا القولُ من السَّلف قتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٤)

قال ابنُ عاشور: (والمرادُ بالفاسقين المشرِكون، فالكلامُ وعْدٌ لموسى وقومِه بأنْ يفتحوا ديارَ الأممِ الحالَّةِ بالأرض المقدَّسةِ التي وعَدَهم اللهُ بها... ويُؤيِّده ما رُوِيَ عن قَتادةَ أنَّ دارَ الفاسقين هي دارُ العمالقةِ والجبابرةِ، وهي الشامُ، فمِن الخطأ تفسيرُ مَن فسَّروا دارَ الفاسقين بأنَّها أرضُ مصرَ؛ فإنهم قد كانوا بها وخرجوا منها ولم يرجِعوا إليها). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠١- ١٠٢).

وقيل: هي مصر (دارُ فرعونَ وقومِه)، واختاره الزمخشري، وابن جزي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٠١).

وممن قال بذلك مِن السَّلف عطيةُ العوفيُّ، وقتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٦٢).

وقيل: هي الأرضُ المقدَّسةُ ومِصرُ، واختاره ابن تيمية. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٨/ ٢٨٣).

وقيل: هي منازِلُ القرونِ الذين أُهْلِكوا؛ كعادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ ومدينَ وقومِ فرعونَ، فيُمُّرون

مَن عَصاني وخالَفَ أَمْري[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

الكتابُ الإلهيُّ يجِبُ أخْذُه بقوَّةٍ وإرادةٍ وجِدٍّ وعزيمةٍ؛ لتنفيذِ ما هَدَى إليه من الإصلاحِ، وتكوينِ الأُمَّةِ تكوينًا جديدًا صالحًا، ويتأكَّدُ ذلك في الدَّاعي إليه، والمُنفِّذِ له بقولِه وعملِه؛ ليكونَ لقومِه فيه أُسوةٌ حَسَنةٌ؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾[٢].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾، الاصطِفاءُ: الاجتِباءُ، أي: فضَّلْتُك، ولم يَقُلْ: على الخَلْقِ؛ لأنَّ من هذا الاصطفاءِ أنَّه كلَّمَه، وقد كلَّمَ الملائكةَ، وأرسَلَه وأرسَلَ غيرَه، فالمرادُ: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ المرسَلِ إليهم[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ لم يُعَدَّ فِعْلُ الأَخْذِ بالباءِ

عليها إذا سافَروا. وهو قول الكَلْبِيِّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٤٨).

وقيل: الدَّارُ: الهلاكُ، أي: سأُريكم هلاكَ الفاسقين. وهو قولُ سفيانَ الثوري. يُنظر: ((تفسير سفيان الثوري)) (ص: ١١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٨).

قال القرطبيُّ مُبيِّنًا معنى هذا القولِ: (وقيل: الدَّارُ: الهلاكُ، وجمعُه أدوارٌ، وذلك أن اللهَ تعالى لمَّا أغرق فرعونَ أوحى إلى البحر أن اقذِفْ بأجسادهم إلى الساحِل، قال: ففَعَلَ، فنظَرَ إليهم بنو إسرائيلَ؛ فأراهم هَلاكَ الفاسقين). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٠).

في قولِه: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾؛ لأنَّه مُستعمَلٌ في معنى التَّلقِّي والحِفْظِ؛ لأنَّه أَهَمُّ من الأخْذِ بمعنى التَّمسُّكِ والعملِ؛ فإنَّ الأوَّلَ حَظُّ وَلِيِّ الأمْرِ، والثَّانِيَ حَظُّ جميعِ الأُمَّةِ[١].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: الإراءَةُ مِن (رأى) البَصَريَّةِ؛ لأنَّها عُدِّيَتْ إلى مَفعولَيْنِ فقط، وأُوثِرَ فِعْلُ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾ دونَ نَحْوِ: (سَأُدْخِلُكم)؛ لأنَّ اللهَ مَنَعَ مُعظَمَ القومِ الَّذينَ كانوا مع موسى مِن دُخولِ الأرضِ المقدَّسةِ لَمَّا امتَنَعوا من قِتالِ الكَنْعَانِيِّينَ[٢] وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ في هذه الآيةِ.

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

- قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ النِّداءُ فيه للتأنيسِ، وإزالةِ الرَّوعِ[٣].

- وقوله: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ﴾: فيه تأكيدُ الخبرِ للاهتمامِ به؛ إذ ليسَ محلًّا للإنكارِ؛ والاصطفاءُ افتعالٌ مبالغةً في الإصفاءِ أيضًا[٤].

- والإخبارُ عن ﴿كُنْ﴾ بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: أبلغُ مِن أنْ يُقال: (كن شاكرًا)؛ لأنَّ هذه الصِّيغةَ تُفيدُ كونَه مَعدودًا في زُمرةِ الشَّاكِرينَ، ومَعروفًا إسهامُه لهم في الشُّكرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٩٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٣- ٢٦٥) و(٩/ ٩٥).

- وحذف مُتعلَّق الشُّكْرِ في قولِه تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ يدُلُّ على عُمومِه، كما أنَّ صِيغةَ الصِّفةِ منه تدُلُّ على التَّمكُّنِ منه والرُّسوخِ فيه، والمعنى: كُنْ من الرَّاسِخينَ في الشُّكرِ لنِعمتي بها عليك وعلى قومِكَ [(١)].

٢- قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ عرَّفَ (الألواحَ) لِعَظَمَتِها؛ تَنْبيهًا على أنَّها لجَلالةِ ما اخْتَصَّتْ به كأنَّها المُخْتَصَّةُ بهذا الاسمِ[(٢)].

- قوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾

- قوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ فيه تمثيلٌ لحالةِ العزمِ على العملِ بما في الألواحِ، بمنتهَى الجدِّ والحِرص دون تأخيرٍ ولا تساهُلٍ، ولا انقطاعٍ عند المشقَّةِ ولا مَللٍ- بحالةِ القويِّ الذي لا يَستعصي عليه عملٌ يُريده[(٣)].

- وفي قوله: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ جُزِمَ الفِعلُ ﴿يَأْخُذُوا۟﴾ جوابًا لقولِه: ﴿وَأْمُرْ﴾ تَحقيقًا لحُصولِ امتثالِهم عندَما يأمرُهم[(٤)].

- وقوله: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ وصْفٌ مَسلوبُ المفاضَلةِ، مقصودٌ به المبالغةُ في الحُسنِ؛ فإضافتُها إلى ضَميرِ الألواحِ على معنَى اللام، أي: بالأحسنِ الذي هو لها، وهو جميعُ ما فيها؛ لظُهورِ أنَّ ما فيها من الشرائع ليس بَينَه تفاضُلٌ بين أحسن ودُون الأحسن، بل كلُّه مَرتبةٌ واحدةٌ فيما عُيِّن له[(٥)]، وهذا على

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١١٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠١).

أحدِ الأوجهِ في هذه الآيةِ.

- قوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فيه تلوينٌ للخِطابِ، وتوجيهٌ له إلى قَومِه- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بطريقِ الالتفاتِ؛ لاستِرعاءِ الاهتمامِ، وحملًا لهم على الجِدِّ في الامتثالِ بما أُمِروا به؛ إمَّا على نهجِ الوعيدِ والترهيبِ على أنَّ المرادَ بـ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ دِيارُ عادٍ وثمودَ وأضرابِهم؛ فإنَّ رُؤيتَها- وهي الخاليةُ عن أهلِها- خاوية على عُروشِها، موجبةٌ للاعتبارِ والانزجارِ عن مِثلِ أعمالِ أهلِها؛ كيلَا يَحُلَّ بهم ما حَلَّ بأولئك. وإمَّا على نهجِ الوَعدِ والتَّرغيبِ على أنَّ المرادَ بـ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ إمَّا أرضُ مصرَ خاصَّةً، أو مع أرضِ الجَبابرةِ والعمالقةِ بالشَّامِ[1]، وهذا على أحدِ أوجهِ تأويلِ هذه الآيةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٣/ ٤٥٣).

الآيتان (١٤٦-١٤٧)

﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿ سَأَصۡرِفُ ﴾: أي: سأَرُدُّ، والصَّرفُ: رَدُّ الشَّيءِ من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيرِه، وأصْلُ (صرف): يدُلُّ على رجْعِ الشَّيءِ[١].

﴿ٱلۡغَيِّ﴾: أي: الانهِماكِ في الباطلِ والضَّلالِ، والجهلِ بالأمْرِ مِن اعتقادٍ فاسدٍ، وأصْلُ الغَيِّ: خِلافُ الرُّشْدِ[٢].

﴿غَٰفِلِينَ ﴾: أي: ساهِينَ لاهِين، والغَفْلةُ: سَهْوٌ يَعْتري الإنسانَ مِن قِلَّةِ التَّحفُّظِ والتَّيقُّظِ، وأَصْلُ (غفل): ترْكُ الشَّيءِ سَهْوًا، وربَّما كان عن عَمْدٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه سيُبْعِدُ عن آياتِه الَّذينَ يَتكبَّرونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ، وإنْ يَرَوْا كُلَّ حُجَّةٍ تدُلُّ على أنَّ اللهَ هو مَنْ يَستحِقُّ العِبادةَ لا يُؤمِنوا بها، وإنْ يَرَوْا

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢).
(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٩).

طَريقَ الهُدى والاستقامةِ لا يَسلُكوه، وإنْ يَرَوْا سَبيلَ الضَّلالِ يَسلُكوه؛ ذلك بأنَّهم كذَّبوا بآياتِ اللهِ، وكانوا عنها غافلين.

ثُمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ الَّذينَ كذَّبوا بآياتِه، وأنْكَروا البَعْثَ بعْدَ الموتِ، ولقاءَه في الآخرةِ، بَطَلَتْ أعمالُهم، ولا يُجْزَوْنَ إلَّا بما يَستحِقُّونَ من العِقابِ على أعمالِهم السَّيِّئةِ.

تَفسيرُ الآيتَيْنِ:

﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى في الآيةِ المتقدمةِ قولَه: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، ذَكَرَ ما يعاملُهم به، وما يَفْعَلُ بهم مِنْ صَرْفِه إيَّاهم عن آياتِه؛ لِفِسْقِهم وخُروجِهم عن طَوْرِهم إلى وَصْفٍ ليس لهم، ثُمَّ ذَكَرَ تعالى من أحوالِهم ما استحقُّوا به اسْمَ الفِسْقِ[1]، فقال:

﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾.

أي: سأَمْنَعُ وأصُدُّ عن فَهْمِ آياتِ كُتبي المُنزَّلةِ، وعن التَّفكُّرِ في آياتي الكَوْنيَّةِ الدَّالَّةِ على عَظَمَتي، الَّذينَ يُعجَبونَ بأنفُسِهم؛ فيَرُدُّونَ الحقَّ، ويَحتقِرونَ الخَلْقَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٣-٤٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٤)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٣)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤- ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٤).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ * أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٧].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يدخُلُ الجنَّةَ مَنْ كان في قلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، قال رجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يكونَ ثوبُه حَسَنًا، ونَعْلُه حسنةً، قال: إنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ؛ الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ[(١)]، وغَمْطُ النَّاسِ[(٢)])))[(٣)].

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾.

---

(١) بَطَرُ الحَقِّ: أي: دَفعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتجبُّرًا. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٢) غَمْطُ النَّاسِ: أي: احتقارُهم. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٣) رواه مسلم (٩١).

أي: وإنْ يرَ هؤلاءِ المتكبِّرون كُلَّ حُجَّةٍ للهِ تدُلُّ على أنَّه المُستحِقُّ للعبادةِ وحْدَه، لا يُؤمِنوا بها، سواءٌ كانت آيةً مُنزَّلةً، أو آيةً كَوْنيَّةً، أو معجزةً خارقةً(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٢ - ١٥].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

أي: وإنْ يرَ هؤلاءِ المتكبِّرونَ طريقَ الهُدى ظاهرًا لهم، لا يسلُكوه، ولا يَرْغَبوا فيه(٢).

﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).
قال ابنُ عاشور: (والرُّشْدُ: الصَّلاحُ، وفعْلُ النَّافعِ... والمرادُ به هنا: الشيءُ الصَّالحُ كلُّه من الإيمان والأعمالِ الصَّالحةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٥).

أي: وإنْ يرَ هؤلاءِ المتكبِّرونَ طريقَ الضَّلالِ ظاهرًا لهم، يَسلُكوه، ويَرْغَبوا فيه[١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

أي: صرْفُنا المتكبِّرينَ عن فَهْمِ آياتِنا الشَّرعيَّةِ والكَوْنيَّةِ، هو عُقوبةٌ منَّا لهم بسببِ تكذيبِهم بها[٢].

﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾.

أي: وكان الكافرون مُعْرِضينَ عن تلك الآياتِ، لا يَتدبَّرونها، ولا يتفكَّرون فيها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).
قال ابنُ عاشور: (والغَيُّ: الفساد والضَّلالُ... فالمعنى: إنْ يُدرِكوا الشَّيءَ الصَّالحَ لم يعملوا به؛ لغلبةِ الهوَى على قُلوبِهم، وإن يُدْرِكوا الفسادَ عَمِلوا به لغَلبةِ الهوَى). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥).
قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أنَّهم ابتدؤوا بالتكذيبِ، ولم ينظروا، ولم يهتمُّوا بالتأمُّل في الآيات، فداموا على الكِبْرِ وما معه، فصرَفَ الله قلوبَهم عن الانتِفاع بالآيات، وليس المرادُ الإخبارَ بأنَّهم حصَلَ منهم التكذيبُ؛ لأنَّ ذلك قد عُلِمَ من قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥)،((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٧).
ذهب أبو حيَّان، والسعديُّ إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ معطوفٌ على ما قَبْلَه؛ فيكون سببُ الصَّرْفِ عن فَهْمِ الآياتِ هو التَّكذيبَ بها والغفلةَ عنها. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).
وقيل: يَحتمِلُ أن الصَّرْفَ سببُه التكذيبُ، ويكون قولُه: ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ استئنافَ إخبارٍ منه تعالى عنهم، أي: مِن شأنِهم أنَّهم كانوا غافلين عن الآيات وتدبُّرِها؛ فأَوْرَثَتْهم الغفلةُ التكذيبَ بها. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٤- ١٧٥).

كما قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ * مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ * لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ١-٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ الله تعالى ما لِأَجْلِه صَرَفَ المتكبِّرينَ عن آياتِه بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾، بيَّنَ حالَ أولئك المكذِّبينَ، فقد كان يجوزُ أنْ يُظَنَّ أنهم يَختلِفونَ في بابِ العِقابِ؛ لأنَّ فيهم مَنْ يعمَلُ بعضَ أعمالِ البِرِّ؛ فبيَّنَ تعالى حالَ جميعِهم، سواءٌ كان مُتكبِّرًا أو مُتواضِعًا، أو كان قليلَ الإحسانِ أو كثيرَ الإحسانِ، فبيَّنَ تعالى أنَّ أعمالَهم مُحْبَطَةٌ[(١)].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾.

أي: والَّذينَ كذَّبوا بحُجَجِنا وأدِلَّتِنا، وأنْكَروا البَعْثَ بعْدَ الموتِ، ولِقاءَنا في الآخرةِ، واستمرُّوا على ذلك إلى مماتِهم؛ بَطَلَتْ أعمالُهم وفَسَدَتْ، وذهبَتْ كأنَّها لم تَكُنْ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: لا نُجازي المكذِّبينَ بآياتي ولِقائي إلَّا بما يَستحِقُّونَ من العِقابِ على أعمالِهم السَّيِّئةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٧-٢٨].

وقال تبارَك وتعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢١-٣٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

القلبُ لا يَدخُلُه حَقائقُ الإيمانِ إذا كان فيه ما يُنجِّسُه مِنَ الكِبْرِ والحَسَدِ؛ فإنَّ مِن شأنِ الكِبْرِ أنْ يَصرِفَ أهلَه عن النَّظرِ والاستدلالِ على الحقِّ والهُدى لِأَجْلِ اتِّباعِه؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٨).

ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾؛ فالَّذينَ يتكبَّرونَ مُعْجَبونَ بأنفُسِهم، يَعُدُّونَ أنفُسَهم عُظَماءَ؛ فلا يأتمِرونَ لآمِرٍ، ولا ينتصِحونَ لناصِحٍ[١].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ إشعارٌ بأنَّ الصَّرْفَ سببُه هذا التكبُّرُ، وفي قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟﴾ إعْلامٌ بأنَّ ذلك الصَّرْفَ سببُه التَّكذيبُ، والجَمْعُ بينهما أنَّ التَّكبُّرَ سببٌ أوَّلُ، نَشَأَ عنه التَّكذيبُ؛ فنِسْبَةُ الصَّرْفِ إلى السَّببِ الأوَّلِ وإلى ما تَسَبَّبَ عنه[٢].

٢- قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾، زيادةُ قولِه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ ﴾؛ لِتَفْضِيحِ تكبُّرِهم، والتَّشهيرِ بهم بأنَّ كِبْرَهم مظروفٌ في الأرضِ، أي: ليس هو خَفِيًّا مُقتصِرًا على أنفُسِهم، بل هو مَبْثوثٌ في الأرضِ، أي: مَبْثوثٌ أَثَرُه، فهو تكبُّرٌ شائعٌ في بِقاعِ الأرضِ؛ كقولِه: ﴿يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [يونس: ٢٣]، وقولِه: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧]، وقولِه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾[٣] [الإسراء: ٣٧].

٣- قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾، الغفلةُ انصرافُ العقلِ والذِّهْنِ عن تذكُّرِ شيءٍ بقَصْدٍ أو بغيرِ قَصْدٍ، وأكثرُ استعمالِه في القُرآنِ فيما كان عن قَصْدٍ بإعراضٍ وتشاغُلٍ، والمذمومُ منها ما كان عن قَصْدٍ، وهو مَناطُ التَّكْليفِ والمؤاخَذةِ، فأمَّا الغفلةُ عن غيرِ قَصْدٍ فلا مؤاخَذةَ عليها، وهي المقصودُ من قولِ عُلماءِ أصولِ الفِقهِ: يَمْتَنِعُ تكليفُ الغافِلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٤- ١٠٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠٧).

بَلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ على احتمالِ أنَّ هذِه الآيةَ تكملةٌ لِمَا خاطَبَ اللهُ به موسَى وقومَه، فجملةُ ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ... ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ بَني إسرائيلَ كانوا يَهابون أولئك الأقوامَ ويَخشونَ، فكأنَّهم تساءَلوا: كيف تُرينا دارَهم، وتَعِدُنا بها؟! وهو مَسوقٌ لتحذيرِهم عن التكبُّرِ الموجِبِ لعدمِ التفكُّرِ في الآياتِ، أو تكونُ الجُملةُ جوابًا لسؤالِ مَن يقول: إذا دَخَلْنا أرضَ العدوِّ فلعلَّهم يُؤمِنونَ بهَدْيِنا، ويتَّبعون دِينَنا؛ فلا نحتاجُ إلى قِتالهم، فأُجيبوا بأنَّ اللهَ يَصرِفُهم عن اتِّباعِ آياتِه؛ لأنَّهم جُبِلوا على التكبُّرِ في الأرضِ، والإعراضِ عن الآياتِ. وعلى احتمالِ أنْ تكونَ جملةُ ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ﴾ مِن خِطابِ اللهِ تعالى لرسولِه مُحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فتكونُ الجملةُ مُعترضةً في أثناءِ قِصَّةِ بني إسرائيل، بمُناسَبةِ قولِه: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾؛ تعريضًا بأنَّ حال مُشرِكي العربِ كحالِ أولئك الفاسِقينَ، وتصريحًا بسببِ إدامتِهم العنادَ والإعراضَ عن الإيمانِ؛ فتكونُ الجملةُ مُستأنَفةً استئنافًا ابتدائيًّا[(١)].

- وتقديمُ المجرورِ ﴿عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾ على مَفعولِ ﴿ سَأَصۡرِفُ ﴾؛ للاهتمامِ بالآياتِ، ولأنَّ ذِكْرَه عقبَ الفعلِ المتعلِّقِ هو به أَحسنُ[(٢)].

- وتعريفُ المصروفِينَ عن الآياتِ بطريقِ الموصوليَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ ...﴾؛ للإيماءِ بالصِّلةِ إلى عِلَّةِ الصَّرْف، وهي ما تَضمَّنَتْه الصِّلاتُ المذكورةُ؛ لأنَّ مَن صارتْ تِلك الصفاتُ حالاتٍ له لا يَنصُرُه اللهُ، أو لأنَّه إذا صارَ ذلك حالَه رِينَ على قَلْبِه؛ فصُرِفَ قَلبُه عن إدراكِ دَلالةِ الآياتِ، وزالتْ منه الأهليَّةُ لذلك الفَهْمِ الشَّريفِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٣- ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ جاءَ لتشنيعِ التَّكبُّرِ بذِكرِ ما هو صِفةٌ لازمةٌ له، وهو مُغايَرةُ الحقِّ، أي: باطل، وهي حالٌ لازمةٌ للتكبُّرِ، كاشِفةٌ لوصْفِه؛ إذ التكبُّرُ لا يكونُ بحقٍّ في جانبِ الخَلْقِ، وإنَّما هو وصْفٌ لله بحقٍّ؛ لأنَّه العظيمُ على كلِّ موجودٍ(١).

٢- قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، واجْتُلِبت (أنَّ) الدالة على المصدريَّة والتوكيدِ؛ لتحقيقِ هذا التسبُّبِ وتأكيدِه؛ لأنَّه محلُّ غرابةٍ(٢).

- وصِيغَ الإخبارُ عنهم بصِيغةِ ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ غَفلتِهم، وللتنبيهِ على أنَّ غَفلتَهم عن قصْدٍ، وكونِها دَأبًا لهم، وإنَّما تكون كذلك إذا كانوا قد الْتَزَموها، فأمَّا لو كانتْ عن غيرِ قَصدٍ؛ فإنَّها قد تَعترِيهم وقد تُفارِقُهم(٣).

٣- قوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذه الجملةُ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، جَوابًا عن سؤالٍ ينشأُ عن قوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾؛ إذ قدْ يقولُ سائلٌ: كيف تَحبَطُ أعمالُهم الصالحةُ؟ فأُجيبَ بأنَّهم جُوزوا كما كانوا يَعملون، والاستفهامُ بـ﴿هَلْ﴾ مُشرَبٌ معنى النَّفي(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠٨).

الآيتان (١٤٨-١٤٩)

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾.

غريب الكلمات:

﴿حُلِيِّهِمۡ﴾: الحُلِيُّ جَمْعُ الحَلْيِ، وهو اسمٌ لكلِّ ما يُتَزيَّنُ به مِن مَصاغِ الذَّهَبِ والفِضَّة، وأصْلُ (حلي): تحسينُ الشيءِ[1].

﴿خُوَارٌ﴾: أي: صوتُ البَقَرِ، وقد يُستعارُ للبَعيرِ، وأَصْلُ (خور): يَدُلُّ عَلَى صَوْتٍ[2].

﴿سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾: أي: نَدِموا، يُقالُ: سُقِطَ في يَدِ فُلانٍ، إذا نَدِمَ، وأصْلُ (سقط): يَدُلُّ على الوقوعِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ قومَ موسى صَنَعوا بعْدَ ذَهابِه لِميقاتِ ربِّه من حُلِيِّهم عِجْلًا جَسَدًا لا رُوحَ فيه، له صَوْتُ البقَرِ، فعبَدوه مِن دونِ اللهِ؛ ألم يَرَ هؤلاءِ القومُ أنَّ هذا العِجْلَ الَّذي عبَدوه لا يُكلِّمُهم، ولا يُرشِدُهم إلى خيرٍ؟! اتَّخذوه وكانوا ظالِمين.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

ولَمَّا نَدِمَ بنو إسرائيلَ نَدَمًا شديدًا على اتِّخاذِهم العِجْلَ معبودًا مِن دونِ اللهِ، بعْدَ عَوْدَةِ موسى عليه السَّلامُ إليهم، ورَأَوْا أنَّهم قد انحرَفوا عن الطَّريقِ القويمِ؛ قالوا: لَئِنْ لم يرحمْنا ربُّنا ويغفِرْ لنا ذُنوبَنا لَنَكُونَنَّ من الخاسِرين.

تَفسيرُ الآيتَيْنِ:

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى فيما تقدَّمَ قِصَّةَ المُناجاةِ، وما حصَلَ فيها من الآياتِ والعِبَرِ، ذَكَرَ في هذه الآيةِ ما كان من قَومِ موسى في مُدَّةِ مَغِيبِه في المناجاةِ من الإشْراكِ؛ لِمَا بَيْنَ السِّيَاقَيْنِ مِنَ العَلاقةِ والاشتراكِ في الزَّمَنِ[1]، فقال تعالى:

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا ﴾.

أي: وصَنَعَ بنو إسرائيلَ مِن بعْدِ ذَهابِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى مِيقاتِ ربِّه، صَنَعوا مِن مَصُوغِهِمُ الَّذي يَتزيَّنونَ به عِجْلًا، وهو وَلَدُ البقرةِ، فعبَدوه مِن دونِ اللهِ سُبحانَه وتعالى[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٦)، ((المخصص)) لابن سيده (١/ ٣٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥- ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

قال الشنقيطيُّ: (أصْلُ هذا الحُلِيِّ للقِبْطِ... فاتَّخذ السامريُّ العجلَ من ذلك الحُلِيِّ، وهنا قال: ﴿ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ ﴾، قال بعضُ العلماء: لأنَّ اللهَ أورَثَهم أموالَهم بعدَهم، كما في قولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٩]؛ ولذا أضافَه إليهم بعد هلاكِ فرعونَ وقومِه. وقال بعضُ العلماءِ: الإضافةُ تقَعُ بأدْنى مُلابَسةٍ، فلمَّا كان تحتَ أيديهم عاريَّةً عِندهم أضافَه إليهم بهذه الملابسةِ، وقد بيَّن في «طه» أنَّه مِن زينةِ قومٍ آخرين كما ذَكَر عن الإسرائيليين أنَّهم قالوا: ﴿

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

وقال سُبحانَه حاكيًا قولَ بني إسرائيلَ: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨-٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٣-٨٥].

﴿جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

أي: كان العِجْلُ الَّذي عبَدَه قومُ موسى جِسْمًا، لا رُوحَ فيه، له صَوتُ البقرِ[(١)].

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾.

قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ [طه: ٨٧]، وهي حُلِيِّ القِبْطِ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

قال ابنُ كثير: (وقد اختَلف المفسِّرون في هذا العجلِ: هل صار لحمًا ودمًا له خُوارٌ، أو استمرَّ على كونه من ذَهَبٍ إلَّا أنه يَدخُلُ فيه الهواءُ فيُصوِّتُ كالبقرِ؛ على قولَيْنِ، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٥- ١٦٦).

وقال ابنُ عاشور: (المراد أنَّه كجِسمِ العجلِ في الصُّورة والمقدارِ، إلَّا أنه ليس بحيٍّ، وما وقَعَ في القصص أنَّه كان لحمًا ودمًا ويَأكُلُ ويَشرَبُ؛ فهو مِن وَضْعِ القصَّاصين، وكيف والقرآن يقول: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾، ويقول: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا اتَّخذَ قومُ موسى العِجلَ، بيَّن اللهُ تعالى لهم صِفاتِ النَّقْصِ الَّتي تُنافي الألوهيَّةَ، فقال[1]:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾.

أي: ألم يَرَ هؤلاء القومُ الَّذينَ عبَدوا العِجلَ المصْنوعَ من حُلِيِّهم أنَّه لا يستطيع أنْ يتحدَّثَ إليهم، ولا يُرشِدَهم إلى أيِّ خيرٍ؟! فكيف اتَّخذوه إلهًا، ومِن صِفاتِ المعبودِ الحقِّ أنَّه يتكلَّمُ ويَهدي[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٩-٩١].

﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

أي: اتَّخذَ قومُ موسى العِجلَ إلهًا، وكانوا بعِبادتِهم له ظالِمين لأنفُسِهم؛ حيثُ جعلوا العِبادةَ لمخلوقٍ، فوَضعوها في غيرِ مَوْضِعِها[3].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٧- ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٦٠)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٨- ١٦٩).

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾.

أي: ولمَّا نَدِمَ بنو إسرائيلَ ندمًا شديدًا على عِبادتِهم العِجلَ بعْدَ رُجوعِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إليهم[1].

﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾.

أي: وعَلِمَ قومُ موسى أنَّهم قدِ انحرَفوا عن طَريقِ الحقِّ[2].

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

أي: قالوا حينذاكَ تائِبينَ إلى اللهِ تعالى من عِبادةِ العِجلِ: واللهِ لَئِنْ لم يَتداركْنا ربُّنا برحمتِه؛ بالتَّوبةِ، والتَّوفيقِ للأعمالِ الصَّالحةِ، ويَغفِرْ لنا ذُنوبَنا، لَنكُونَنَّ من الهالِكينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٩، ١٧٢).

قال الرازي: (اتَّفقوا على أنَّ المرادَ من قوله: ﴿سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أنَّه اشتدَّ نَدَمُهم على عبادةِ العجلِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١١- ١١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٧٢).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ فيه دليلٌ على أنَّ مَنْ أنْكَر كلامَ اللهِ فقدْ أنْكَرَ خصائِصَ إلهيَّةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ ذَكَرَ أنَّ عدمَ الكلامِ دَليلٌ على عدمِ صلاحيةِ الَّذي لا يتكلَّمُ للإلهيَّةِ[١]، وفيه دليلٌ أيضًا على أنَّ عدمَ التَّكلُّمِ وعدمَ الهِدايةِ نَقْصٌ، وأنَّ الَّذي يَتكلَّمُ ويَهدي أَكْمَلُ ممَّنْ لا يتكلَّمُ ولا يَهدي، والرَّبُّ أحَقُّ بالكمالِ[٢].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، سَلَبَ تعالى عنه هَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ دونَ باقي أوصافِ الإلهيَّةِ؛ لأنَّ انتِفاءَ التَّكليمِ يَستلزِمُ انتِفاءَ العِلْمِ، وانتِفاءَ الهِدايةِ إلى سبيلٍ يَستلزِمُ انتفاءَ القُدرةِ، وانتفاءَ هذَيْنِ الوصفَيْنِ- وهما العِلْمُ والقُدْرَةُ- يَستلزِمانِ باقيَ الأوصافِ؛ فلذلك خُصَّ هذانِ الوَصْفانِ بانتفائِهما[٣].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾،كان مُقتضى الظَّاهرِ في ترتيبِ حِكايةِ الحوادثِ أنْ يتأخَّرَ قولُه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ...﴾ الآيةَ، عن قولِه: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾؛ لأنَّهم ما سُقِطَ في أيديهم إلَّا بعْدَ أنْ رجَعَ موسى، ورَأَوْا فَرْطَ غضبِه، وسمِعوا توبيخَه أخاه وإيَّاهم، وإنَّما خُولِفَ مُقتضى التَّرتيبِ؛ تعجيلًا بِذِكْرِ ما كان لاتِّخاذِهم العجلَ من عاقبةِ النَّدامةِ وتَبَيُّنِ الضَّلالةِ؛ موعظةً للسَّامعين؛ لكيلَا يَعْجَلوا في التَّحوُّلِ عن سُنَّتِهم

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨١- ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٢).
(٢) يُنظر: ((الرسالة الأكملية في ما يجب لله من صفات الكمال)) لابن تيمية (ص: ١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٧).

حتَّى يتبيَّنوا عواقِبَ ما هُمْ مُتحوِّلونَ إليه[١].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، لَمَّا كان السِّيَاقُ في ذِكْرِ إسراعِهم في الفِسْقِ، لم يُذْكَرْ قَبولُ توبتِهم كما في سُورةِ البقرةِ[٢].

بلاغة الآيتين:

١- قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾

- قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لبيانِ فَسادِ نظرهم في اعتقادهم، والاستفهامُ للتقريرِ وللتعجُّبِ مِن حالِهم[٣]. وفيه تَقريعٌ لهم على فَرْطِ ضَلالِهم، وإفراطِهم بالنَّظرِ؛ لأنَّ هذا العجلَ لا يُمكِنُه أن يَتكلَّمَ بصوابٍ، ولا يَهدِي إلى رَشَدٍ، ولا يَقدِر على ذلك، ومَن كان كذلك كان ناقصًا عاجزًا لا يَصلُحُ أنْ يُعبَد[٤].

- وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ مؤكِّدٌ لجُملةِ ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾؛ فلذلك فُصِلَت، ولم تُعطَفْ عليها، والغَرَضُ من التوكيدِ في مِثلِ هذا المقامِ هو التَّكريرُ لأجْلِ التعجُّب[٥].

٢- **قوله:** ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ فيه كِنايةٌ عن اشتِدادِ نَدمِهم؛ فإنَّ النَّادمَ المتحسِّرَ على شيءٍ يَعضُّ يدَه غمًّا فتَصيرُ يدُه مسقوطًا فيها؛ لأنَّ فاهَ قدْ وقَعَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١١).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥١٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١١).

فيها[١]. وقيل معناها: سَقَط في يدِه ساقطٌ فأَبطلَ حركةَ يدِه؛ إذ المقصودُ أنَّ حركةَ يدِه تعطَّلت بسببٍ غيرِ معلومٍ، إلَّا بأنَّه شيءٌ دخَلَ في يدِه فصيَّرها عاجزةً عن العملِ، وذلك كنايةٌ عن كونِه قد فَجَأَه ما أوجبَ حيرتَه في أمْرِه، واستُعمِلَ في الآيةِ في معنى النَّدمِ، وتبيُّنِ الخطأِ لهم[٢].

٣- قولُهم: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فيه تأكيدُ التَّعليقِ الشرطيِّ بالقَسَمِ الذي وطَّأَتْه اللام؛ لأنَّهم قد علِموا أنهم أخطؤُوا خطيئةً عظيمة، وقدَّموا الرحمةَ على المغفرةِ؛ لأنَّها سببُها، ومجيءُ خبرِ (كان) مقترنًا بحَرْف ﴿مِنَ﴾ التبعيضيَّة؛ لأنَّ ذلك أقوَى في إثباتِ الخَسارةِ مِن (لنكوننَّ خاسرين)[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٣/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١١٣).

الآيات (١٥٠-١٥٢)

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿أَسِفًا﴾: أي: حزينًا، وقيل: شديدَ الغَضَبِ، يُقالُ: آسَفَني فأَسِفْتُ، أي: أغضبَني فغَضِبْتُ، والأَسَفُ: حزنٌ مَعَ غضَبٍ، وأَصْلُ (أسف): يدُلُّ على الفَوتِ والتَّلَهُّفِ[(١)].

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾: أي: فلا تَسُرَّهم بما أَكْرَهُ؛ فالشَّماتَةُ: السُّرورُ بمكارِه الأَعداءِ، والفَرَحُ بِبَلِيَّةِ مَنْ تُعادِيه ويُعاديكَ[(٢)].

﴿وَذِلَّةٌ﴾: الذِّلَّةُ: الصَّغارُ والهوانُ، وأَصْلُ الذُّلِّ: الخُضوعُ، والاستِكانةُ، واللِّينُ، وهو ضِدُّ العِزِّ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ٧٨).

مُشْكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾

﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾: في إعرابِها وجهانِ؛ الأوَّلُ: أنَّه مُنادًى مبنيٌّ على الضَّمِّ المُقدَّرِ، في محلِّ نصْبٍ، ومَنَعَ من ظُهورِ الضَّمِّ على آخِرِه حَركةُ البِناءِ الأصليِّ، وهو فتْحُ الجُزأينِ؛ فهو تركيبٌ أشْبَهَ تركيبَ خَمْسَةَ عَشَرَ. الثَّاني: أنَّ ﴿ٱبْنَ﴾ مُنادًى منصوبٌ، وهو مُضافٌ، و﴿أُمَّ﴾ مُضافٌ إليه مجرورٌ بالكَسرةِ المُقدَّرةِ على الألفِ المحذوفةِ المنقلِبةِ عن الياءِ، وقدْ دَلَّ على الألفِ المحذوفةِ الفتحةُ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لَمَّا رجَعَ موسى من مُناجاةِ ربِّه جلَّ وعلا إلى قومِه، وهو شديدُ الغضَبِ حزينًا؛ لأنَّ اللهَ قد أخبَرَه أنَّ قومَه عبَدوا العِجْلَ مِنْ بعْدِه، قال لهم: بِئْسَ الخِلافةُ الَّتي خَلَفْتُموني مِنْ بَعْدِي؛ أَسْتَعْجَلْتُمْ مَجيئي إليكم من مُناجاةِ اللهِ قبْلَ الوقتِ الَّذي قدَّرَه اللهُ تعالى لِتَمامِ المَوْعِدِ؟! ورَمَى موسى عليه السَّلامُ الألواحَ، وأَخَذَ يَجُرُّ شَعْرَ أخيه هارونَ بشِدَّةٍ وغَضَبٍ، فقال له هارونُ: يا ابنَ أُمِّي، إنَّ القومَ الَّذينَ عبَدوا العِجْلَ استَضْعَفوني، وأَوْشَكوا أنْ يقتُلوني، فلا تُشْمِتْ بي الأعداءَ عَبَدَةَ العَجلِ بضَرْبي وإهانَتي، ولا تجعَلْني مع القومِ الظَّالمينَ.

قال موسى عليه السَّلام: ربِّ اغفِرْ لي ولأخي ذُنوبَنا، وأدخِلْنا في رحمتِكَ، وأنتَ أرحَمُ الرَّاحمينَ.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ الَّذينَ اتَّخذوا العجلَ سيُصيبُهم غضَبٌ مِنَ اللهِ، وهوانٌ في الحياةِ الدُّنيا، وكذلك يَجزي سُبحانَه المفتَرين، والَّذينَ عمِلوا السَّيِّئاتِ، ثمَّ أنابوا

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن لمكي)) (١/ ٣٠٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٥- ٥٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٦٧)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٣٩٧).

إلى ربِّهم، ونَدِموا وأَقْلَعوا عنها، وآمَنوا، سيَغفِرُ اللهُ لهم مِنْ بَعْدِها ويرحمُهم؛ فإنَّه غَفورٌ رَحيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾.

أي: ولَمَّا رجَعَ موسى من مُناجاةِ اللهِ إلى قومِه بني إسرائيلَ، وهو شديدُ الغضَبِ حزينًا، بعْدَ أنْ أعلَمَه اللهُ بعبادةِ قومِه العِجْلَ، عَقِبَ انصِرافِه عنهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۞ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۞ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ [طه: ٨٣-٨٦].

﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٣).
قال الواحديُّ: (اختلَفوا في معنى الأَسِفِ؛ فقيل: الأَسِفُ: الشَّديدُ الغضَبُ، وهو قول أبي الدرداء، و...ابن عباس، واختيار الزجاج، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥]، أي: أغضبونا، واختاره ابن قُتَيْبَةَ... وقال ابنُ عباس والسُّدِّيُّ والحسن: الآسِفُ: الحزينُ... والقولان مُتقارِبان؛ لأن الغضبَ من الحزن، والحزن من الغضب، فإذا جاءك ما تَكرَه ممَّن هو دونَك غضِبتَ، وإذا جاءك ممَّن هو فوقك حزِنتَ، يُسمَّى أحدُهما: حزنًا، والآخرُ: غضبًا، وأصْلُهما أنْ يُصيبَك ما تكرَه). ((البسيط)) (٩/ ٣٦٥- ٣٦٦).
ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧٨)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٦).

أي: بِئْسَ الحالُ والفِعْلُ الَّذي قُمْتُمُوه مَقامي بعِبادتِكم العجلَ بعْدَ انصِرافي عنكم! وقدْ كنْتُ آمُرُكم بتوحيدِ اللهِ، وأُحَذِّرُكم من الشِّرْكِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ * وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ * وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٦-٨].

﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡ﴾.

أي: هل استعجلتُم مَجيئي إليكم من مُناجاةِ اللهِ قبْلَ الوقتِ الَّذي قدَّرَه اللهُ تعالى لِتَمامِ هذا الموعِدِ، ولم تَنتظِروني، فعبَدْتُم العِجلَ، ولم تُحافظوا على ما وصَّيْتُكم به من عِبادةِ اللهِ حتَّى أرجِعَ إليكم بالخيرِ الَّذي أتَيْتُكم به مِن عِندِ اللهِ تعالى[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥٠)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (١/ ٥٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٧٩- ١٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١).

رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ [طه: ٨٦].

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ ﴾.

أي: ورَمى موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الألواحَ في الأرضِ؛ غَضَبًا على قومِه حينَ رآهم يَعبُدونَ العِجلَ(١).

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ليس الخَبَرُ كالمُعايَنَةِ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أخبرَ موسى بما صَنَعَ قومُه في العِجلِ، فَلَمْ يُلْقِ الألواحَ، فلمَّا عايَنَ ما صَنَعوا أَلْقى الألواحَ))(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥١، ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٥).
قال الرازيُّ: (ليس في القرآن إلَّا أنَّه أَلْقى الألواحَ، فأمَّا أنَّه أَلْقاها بحيثُ تَكسَّرَتْ فهذا ليس في القُرآن). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٢).
وقال ابنُ عاشور: (وقَعَ في التَّوراةِ أنَّ الألواحَ تكسَّرَتْ حين ألقاها، وليس في القرآنِ ما يدُلُّ على ذلك سِوى أنَّ التعبيرَ بالإلقاء الذي هو الرَّمْيُ، وما رُوِيَ من أنَّ الألواح كانت من حَجَرٍ، يقتضي أنها اعتراها انكسارٌ، ولكنَّ ذلك الانكسارَ لا يُذهب ما احتوتْ عليه من الكتابة، وأمَّا ما رُوِيَ أنها لمَّا تكسَّرت ذهب سِتَّةُ أسباعِها، أو ذهب تفصيلُها وبَقِيَتْ موعظتُها، فهو مِن وَضْعِ القصَّاصين، والله تعالى يقول: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤]). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٥- ١١٦).
وقال الشنقيطيُّ: (وكثيرٌ من المفسِّرين يقولون: إنَّه ألقاها إلقاءً قويًّا حتى تكسَّرت، وأنه رُفِعَ شيءٌ منها مع المكسَّرِ منها. وكلُّ هذا لا دليلَ عليه، ولم يَقُمْ عليه دليلٌ صحيحٌ لا في كتاب ولا من سُنَّةٍ، وظاهرُ القرآنِ أنَّها لم تتكسَّرْ، ولم يَضِعْ منها شيء؛ لأنه قال: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ [الأعراف: آية ١٥٤]، و(أل) هنا عَهْدِيَّةٌ، وهي الألواح المعهودةُ التي ألقاها). ((العذب النمير)) (٤/ ١٨١- ١٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٤٧)، وعبد الله بن أحمد في ((السنة)) (١١١٤)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٦٢١٣).
قال ابنُ حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (٢/ ١٣٩): له شاهدٌ. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (٤/ ١٤٧). وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٥٣٧٤).

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾.

أي: وأَمْسَكَ موسى بشَعْرِ رأسِ أخيه هارونَ، وجعَلَ يَسحَبُه بشِدَّةٍ؛ غَضَبًا عليه(١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢-٩٣].

﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي﴾.

أي: قال هارونُ مُستعطِفًا موسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ: يا ابنَ أُمِّي، إنَّ الَّذينَ عبَدوا العِجلَ اعتقدوا أنِّي ضَعيفٌ واحتقَروني؛ فَلَمْ يُطيعوني عندما نَهَيْتُهم عن عِبادتِه(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ۝ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩٠-٩١].

﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٥).
قيل: غضِبَ موسى من هارونَ؛ لتَرْكِه اللَّحاقَ به إلى الطُّور، وإقامتِه مع بني إسرائيلَ بعد عبادتِهم العِجلَ. وهذا قول ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥٧).
وقيل: خَشْيَةَ أن يكونَ قد قَصَّرَ في نَهْيِهم. وهذا قولُ ابنِ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧).
وقيل: هذا تأنيبٌ لهارونَ على عدمِ أخْذِه بالشِّدَّةِ على عَبَدَةِ العِجلِ، واقتصارِه على تغييرِ ذلك عليهم بالقول. وهو قولُ ابنِ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤).

أي: وقال هارونُ لأخيه موسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ مُبَيِّنًا عُذْرًا آخَرَ: وقد أَوْشَكَ بنو إسرائيلَ على قَتْلي حين نَهَيْتُهم عن عبادةِ العِجلِ؛ فلا تَظُنَّ بي تقصيرًا[١].

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾.

أي: قال هارونُ لموسى ناهيًا له عن استمرارِه في أخْذِه بشَعْرِه: فلا تَسُرَّ أعدائي عَبَدَةَ العِجلِ بضَرْبي وإهانَتي[٢].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: ولا تَجعلْني في غضَبِكَ عليَّ، وعُقوبتِكَ لي، مع الَّذينَ عبَدوا العِجلَ، وفي عِدادِهم، والحالُ أنَّني لم أَعْصِ أمْرَكَ كما فعلوا[٣].

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا اعْتَذَرَ هارون إلى موسى عليهما السلام، وتَحَقَّقَ مُوسَى عليه السَّلامُ براءَةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤).
قال الشوكاني: (أي: إني لم أُطِقْ تغييرَ ما فَعَلوه؛ لهذينِ الأمرينِ: استضعافِهم لي، ومقاربتِهم لقتْلي). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٣). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٧- ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٨).

ساحَتِه، وتبيَّنَ له عُذْرُه، وعَلِمَ أنَّه لم يُفرِّطْ في الواجبِ الَّذي كان عليه- دعا[١]، فقال: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي﴾؛ لِيُرْضيَ أخاه، ويُظهِرَ لأهلِ الشَّماتَةِ رِضاه عنه؛ فلا يَتِمَّ لهم شَماتتُهم، واستغفرَ لنفسِه ممَّا فَرَطَ منه إلى أخيه، ولِأخيه أنْ عسَى فَرَّطَ في حِين الخِلافةِ، وطَلَبَ ألَّا يتفرَّقا عن رحمتِه، ولا تَزالَ مُتضمِّنَةً لهما في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي﴾.

أي: قال موسى داعيًا ربَّه: ربِّ اغفِرْ لي ذَنْبي فيما فعلْتُ بأخِي، وبَدَرَ منِّي من غضَبٍ وحِدَّةٍ عليه، واغفِرْ لأخِي هارونَ[٣].

﴿وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أي: وارحمْنا برَحمتِكَ الواسِعةِ، واجعَلْها مُحيطَةً بنا من كُلِّ جانِبٍ، وأنتَ أرحَمُ بعبادِكَ من كلِّ راحِمٍ[٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٨).

قال ابنُ عطية: (استغفَرَ موسى من فِعْلِه مع أخيه، ومن عَجَلَتِه في إلقاءِ الألواحِ، واستغفَرَ لأخيه من فِعْلِه في الصَّبرِ لبني إسرائيلَ، ويُمكِنُ بأنَّ الاستغفارَ كان لغيرِ هذا ممَّا لا نعلمُه، والله أعلم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٨).

وذهب الرازيُّ، وابنُ عاشور إلى أنَّ طلب موسى المغفرةَ لأخيه كان لِمَا عسى أن يكونَ قد ظهَر من هارونَ مِن تَفريطٍ أو تساهُلٍ في ردْعِ عَبَدَةِ العِجلِ عن ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٨).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾.

أي: إنَّ الَّذينَ اتَّخذوا العِجلَ إلهًا سيُصيبُهم غضَبٌ من اللهِ(١)، فلم يقبلِ اللهُ تعالى لهم توبةً، حتى قتلَ بعضُهم بعضًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وقيل: غَضَبُ اللهِ هو عذابُه في الآخرةِ لِمَنْ لم يَتُبْ منهم من عِبادةِ العِجلِ(٣).

﴿وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: وسَيَنالُ الَّذينَ عبَدوا العِجلَ هوانٌ في حَياتِهم الدُّنيا، فيَصيرونَ مَغلوبينَ؛ عقوبةً من اللهِ لهم بسببِ كُفْرِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢)، ((شمس العلوم)) لنشوان الحميري (١٠/ ٦٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٩).

(٢) ممَّن اختارَ هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢- ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧).

قال الشوكاني: (والأَوْلَى أنْ يُقيَّدَ الغضَبُ والذِّلَّةُ بالدُّنيا؛ لقوله: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وإنَّ ذلك مُخْتَصٌّ بالمُتَّخِذين للعِجلِ إلهًا لا لِمَنْ بعدَهم من ذَرَارِيِّهمْ، ومُجرَّدُ ما أُمِروا به مِن قتْلِ أنفسِهم هو غضَبٌ من الله عليهم، وبه يَصيرون أذِلَّاءَ، وكذلك خروجُهم من دِيارهم هو مِن غضَبِ الله عليهم، وبه يصيرون أذِلَّاءَ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٤- ٢٨٥).

(٣) ممَّن اختار هذا المعنى: الواحدي، والبغوي، يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤١٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢- ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٨٤).

قال ابنُ عاشور: (الذِّلَّةُ: خضوعٌ في النَّفسِ، واستِكانةٌ مِن جرَّاءِ العَجْزِ عن الدَّفْعِ، فمعنى نَيْلِ الذِّلَّة إيَّاهم: أنَّهم يَصيرون مغلوبين لِمَنْ يغلِبُهم؛ فقد يكون ذلك بتسليط العدُوِّ عليهم، أو بسَلْبِ الشجاعةِ من نُفوسِهم، بحيث يكونون خائفين العدُوَّ، ولو لم يُسَلَّطْ عليهم، أو ذِلَّةُ الاغترابِ؛

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾.

أي: وكما جَزَيْتُ أولئك الَّذينَ عبَدوا العِجلَ بالغَضَبِ والذِّلَّةِ، نَجزي كُلَّ مَنْ كَذَبَ على اللهِ؛ فعبَدَ غيرَه، وشَرَعَ ما لم يأذَنْ به سُبحانَه[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى المُصِرِّينَ على المعصيةِ؛ عَطَفَ عليه التَّائبينَ؛ تَرغيبًا في

إذْ حَرَمَهم اللهُ مُلْكَ الأرضِ المقدَّسةِ؛ فكانوا بلا وَطَنٍ طول حياتِهم حتَّى انقرَضَ ذلك الجيلُ كلُّه، وهذه الذِّلَّةُ عقوبةٌ دُنيويَّةٌ قد لا تمحوها التوبةُ، فإن التوبةَ إنما تقتضي العفوَ عن عقابِ التكليفِ، ولا تَقتضي تَرْكَ المؤاخَذةِ بمصائبِ الدُّنيا؛ لأنَّ العقوباتِ الدُّنيويَّةَ مُسَبَّبَاتٌ تنشأُ عن أسبابِها، فلا يَلْزَمُ أن ترفَعَها التوبةُ إلا بعنايةٍ إلهيَّةٍ خاصَّةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٩).

وقال الشِّنقيطيُّ: (قال جماعةٌ من العلماء: هذه الآيةُ من سورة الأعرافِ في طائفةٍ من بني إسرائيلَ أُشْرِبَتْ قلوبُهم حُبَّ العِجلِ، ولم يتوبوا فيمَن تاب، بل بَقُوا غيرَ تائبين، وَعَدَهم اللهُ هذا الوعيدَ، وهدَّدَهم هذا التَّهديدَ، وهذا هو الأظْهَرُ؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ أكثرَ الإسرائيليِّين تاب من عبادةِ العِجلِ تلك التوبةَ العظيمةَ، حيث قدَّموا أنفُسَهم للقتل تائبين إلى الله، الواحدُ منهم يَجُودُ بنفسِه فيُقتَلُ مرضاةً للهِ، وإنابةً إليه). ((العذب النمير)) (٤/ ١٨٤).

وذهَب بعضُ المفسِّرين إلى أن المرادَ بالذِّلَّة هاهنا: الجزيةُ، وهذا اختيارُ الواحديِّ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤١٣).

قال ابنُ عطية: (وقال بعض المفسِّرين: الذِّلَّةُ: الجِزْيَةُ، ووَجْهُ هذا القولِ أن الغضَبَ والذِّلَّةَ بَقِيَتْ في عَقِبِ هؤلاء المقصودين بها أوَّلًا، وكأنَّ المرادَ سيَنالُ أعقابَهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٣- ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٨).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلف أبو قلابةَ، وسفيانُ بنُ عيينةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٤)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٧).

مِثْلِ حالِهم، فقال تعالى[١]:

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾.

أي: والَّذينَ عمِلوا الأعمالَ السَّيِّئةَ من الشِّرْكِ والكُفْرِ والمعاصي، ثمَّ نَدِموا وأَقْلَعوا عن ذلك، وعَزَموا على ألَّا يعودوا إليه، وآمَنوا بما أَوْجَبَ اللهُ تعالى الإيمانَ به، إنَّ ربَّكَ -يا مُحَمَّدُ- مِن بعْدِ ارتكابِهم للسَّيِّئاتِ[٢] لَساتِرٌ عليهم أعمالَهم السَّيِّئةَ، ومُتَجاوِزٌ عن مؤاخَذتِهم بها، ورَحيمٌ بهم بقَبولِ توبتِهم، وتوفيقِهم للأعمالِ الصَّالحةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١١٩].

وقال تبارَك وتعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٩٢).

(٢) وهذا المعنى- وهو عَوْدُ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ على السَّيِّئاتِ وفِعْلِها- هو اختيارُ ابنِ جرير، والقرطبيِّ، وابنِ كثيرٍ، وابن عاشورٍ، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٥)،((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٨٥).

وقيل: الضَّميرُ عائدٌ على التَّوبةِ من السَّيِّئاتِ. وهذا اختيارُ الواحديِّ، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٥- ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢١).

وقال الشنقيطيُّ: (﴿لَغَفُورٞ﴾، أي: كثيرُ المغفرةِ والرَّحمةِ لعبادِه). ((العذب النمير)) (٤/ ١٨٥).

وعن أَنَسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: ((قال اللهُ تبارَكَ وتعالى: يا ابنَ آدمَ، إنَّكَ ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني غَفَرْتُ لك على ما كان فيك ولا أُبالي، يا ابنَ آدمَ، لو بَلَغَتْ ذُنوبُكَ عَنانَ[١] السَّماءِ ثمَّ اسْتَغْفَرْتَني غَفَرْتُ لك ولا أُبالي، يا ابنَ آدمَ، إنَّكَ لو أَتَيْتَني بقُرابِ الأرضِ[٢] خَطايا ثمَّ لَقِيتَني لا تُشْرِكُ بي شيئًا لَأَتَيْتُكَ بقُرابِها مَغْفِرَةً))[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ السَّيِّئاتِ بِأَسْرِها- صغيرِها وكبيرِها- مشتركةٌ في التَّوبةِ، وأنَّ اللهَ تعالى يَغفِرُها جميعًا بفَضْلِه ورحمتِه، وهذا مِن أعظَمِ ما يُفيدُ البِشارةَ والفَرَحَ للمُذنِبينَ التَّائبينَ[٤].

٢- الإيمانُ هو الأساسُ الَّذي لا يُقْبَلُ عمَلٌ لم يُبْنَ عليه، يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[٥].

---

(١) العَنانُ (بفتح العين): السَّحابُ، والواحِدةُ (عَنانةٌ). ينظر: ((غريب الحديث)) للقاسم بن سلام (٤/ ٨٤)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٢٠).

(٢) بقُراب الأرضِ: أي: بما يُقارِبُ مِلأَها. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٤) ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٩٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٣٠٥)، وابن شاهين في ((الترغيب في فضائل الأعمال)) (١٧٩).

صحَّحه ابنُ القيِّم في ((مدارج السالكين)) (٢/ ٢٢٥). وقال ابنُ رجب في ((جامع العلوم)) (٢/ ٤٠٠): إسنادُه لا بأسَ به، وحسَّنه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٢٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٩٢).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ فيه مِن اللَّطائفِ: أنَّه عبر هنا بالعجلةِ، ولم يُعبِّر بالسرعةِ؛ لأنَّه أنسبُ لفِعلِهم؛ فالعَجلةُ: التقدُّمُ بالشيءِ قبلَ وقْتِه، والسُّرعةُ: عملُه في أقلِّ أوقاتِه[١].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾، موسى صلواتُ اللهِ عليه لم يكُنْ ليُلْقيَ ألواحًا كتبَها اللهُ تعالى، فيها كلامُه مِن على رأسِه إلى الأرضِ اختيارًا منه لذلك، ولا كان فيه مَصلحةٌ لبني إسرائيلَ، وكذلك جَرُّهُ هارونَ بلحيتِه ورأسِه وهو أخوه، وإنَّما حَمَلَه على ذلك الغَضَبُ؛ فعَذَرَه اللهُ سُبحانَه به، ولم يَعْتِبْ عليه بما فَعَلَ؛ إذ كان مصدرُه الغضَبَ الخارجَ عن قُدْرةِ العبْدِ واختيارِه؛ فالمُتَوَلِّدُ عنه غيرُ منسوبٍ إلى اختيارِه ورِضاه به[٢].

٣- كلُّ مُفترٍ على اللهِ، كاذبٍ على شَرْعِه، مُتَقَوِّلٍ عليه ما لم يَقُلْ؛ له نَصيبٌ من الغَضَبِ من اللهِ، والذُّلِّ في الحياةِ الدُّنيا، يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾[٣].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، جَمَعَ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ إعلامًا بأنَّه لا يَتعاظَمُه ذَنْبٌ، وإنْ عَظُمَ وكَثُرَ[٤].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (ص: ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٩٢).

- قوله: ﴿أَسِفًا﴾ بدون مدٍّ صِيغةُ مبالغةٍ للآسِفِ (بالمدِّ)، الذي هو اسمُ فاعلٍ للذي حلَّ به الأسفُ[١].

- وزِيادةُ ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓ﴾ عَقِب ﴿خَلَفۡتُمُونِي﴾؛ للتذكيرِ بالبَون الشاسعِ بينَ حال الخَلف وحال المخلوفِ عنه، تصويرًا لفظاعةِ ما خَلَفوه[٢].

٢- قوله: ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي﴾

- قوله: ﴿ٱبۡنَ أُمَّ﴾ مُنادًى بحذْفِ حرْف النِّداء، والنداء بهذا الوصفِ للتَّرقيقِ والاستشفاعِ، ولم يقُلْ: يا ابنَ أَبي، وهما لأبٍ واحدٍ وأُمٍّ واحدةٍ؛ استِعطافًا له على نفسِه بِرَحِمِ الأُمِّ، وحُذِفَ حرفُ النِّداءِ؛ لإظهارِ ما صاحَبَ هارونَ مِن الرُّعبِ والاضطرابِ، أو لأنَّ كلامَه هذا وقَع بعدَ كلامٍ سبَقَه فيه حرفُ النِّداء[٣].

- وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي﴾ فيه تأكيدُ الخبرِ بـ(إنَّ)؛ لتحقيقِه لدَى موسى، لأنَّه بحيثُ يُتردَّدُ فيه قَبْلَ إخبارِ المُخبِر به، والتأكيدُ يَستدعيه قَبولُ الخَبرِ للتردُّدِ مِن قِبَلِ إخبارِ المخبِر به، وإنْ كان المخبِرُ لا يُظَنُّ به الكذبُ، أو لئلَّا يُظنَّ به أنَّه توهَّم ذلك مِن حالِ قومِه، وكانتْ حالُهم دونَ ذلك[٤].

٣- قوله: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ تذييلٌ، والواو للحالِ أو اعتراضيَّة، وفيه مُبالَغةٌ؛ فإنَّ ﴿أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ هو الأشدُّ رحمةً مِن كلِّ راحمٍ[٥].

٤- قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٦)

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١١٨).

بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

- قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ تأكيدٌ لمفادِ المُهلة التي أفادَها حرف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾، وهذا تعريضٌ للمشرِكينِ بأنَّهم إنْ آمَنوا يُغْفَرْ لهم، ولو طالَ أَمَدُ الشِّرْكِ عليهم[١].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ﴾ عُطِفَ الإيمانُ على التوبةِ -مع أنَّ التوبةَ تَشملُه مِن حيثُ إنَّ الإيمانَ توبةٌ مِن الكُفر-؛ إمَّا للاهتمام به؛ لأنَّه أصلُ الاعتدادِ بالأعمالِ الصالحةِ عند الله تعالى، ولِئَلَّا يُظَنَّ أنَّ الإشراكَ لخُطورتِه لا تُنْجي منه التَّوبةُ، وإمَّا أنْ يُرادَ بالإيمانِ إيمانٌ خاصٌّ، وهو الإيمانُ بإخلاصٍ، فيَشمَلُ عمَلَ الواجباتِ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ فيه تعريفُ المسنَدِ إليه (رب) بالإضافةِ؛ للتوسُّلِ إلى تَشريفِ المضافِ إليه بأنَّه مربوبٌ للهِ تعالى، وفي ذِكر وصْفِ الرُّبوبية هنا تمهيدٌ لوصْفِ الرَّحمةِ، وتأكيدُ الخبر بـ(إنَّ) ولامِ التوكيدِ وصِيغَتي المبالغةِ في ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لمزيدِ الاهتمامِ به؛ وترغيبًا للعُصاةِ في التوبةِ، وطردًا للقُنوطِ من نفوسِهم، وإنْ عظُمتْ ذُنوبُهم[٣].

- وضميرُ: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ الثاني في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مُبالغةٌ في الامتنانِ بقَبولِ تَوبتِهم بعدَ التملِّي من السيِّئاتِ، وحُذِفَ مُتعلِّقُ (غَفُور رَحِيم)؛ لظهورِه من السِّياقِ، والتقديرُ: لغفورٌ رحيمٌ لهم، أو لكلِّ مَن عَمِلَ سيِّئةً وتابَ منها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٥٤-١٥٧)

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾: أَي: سَكَنَ، وأَصْلُ (سكت): يَدُلُّ على خِلافِ الكَلامِ[1].

﴿نُسْخَتِهَا﴾: أي: المنسوخِ فيها، وهو المكتوبُ فيها مِن التوراةِ مِن كلامِ ربِّ العالمينَ، والنَّسْخُ: نَقْلُ ما في كتابٍ إلى كتابٍ آخَرَ، وأَصْلُ (نسخ): تحويلُ شيءٍ إلى شيءٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٣)، ((العذب

﴿يَرۡهَبُونَ﴾: يَخافونَ، وأَصْلُ الرَّهْبَةِ والرَّهَبِ: مَخافةٌ مع تَحَرُّزٍ واضْطِرابٍ[١].

﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: جمْعُ سَفيهٍ، وهو الجاهلُ، والسَّفَهُ: الجَهْلُ، وخِفَّةُ العقلِ، والضَّعْفُ والحُمْقُ[٢].

﴿هُدۡنَآ﴾: أي: تُبْنا، والهَودُ: الرُّجوعُ برفق، وأَصْلُ (هود): يَدُلُّ على إروادٍ (رفق) وسُكونٍ[٣].

﴿ٱلۡأُمِّيَّ﴾: أي: الذي لا يكتبُ ولا يقرأُ مِن كتابٍ، قيل: هو منسوبٌ إلى الأُمَّةِ الَّذينَ لم يَكتُبوا؛ لِكَوْنِه على عادتِهم؛ مثل عامِّيٍّ؛ لكونِه على عادةِ العامَّةِ، وقيل: سُمِّيَ بذلك لنِسْبَتِه إلى أمِّ القُرَى، وقيل: نسبةً إلى الأُمِّ، والمعنَى أنَّه باقٍ على حالتِه التي وُلِد عليها لا يكتبُ ولا يقرأُ المكتوبَ، وأَصْلُ (أمم): الأَصْلُ والمَرجِعُ[٤].

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: الحلال، أو ما اسْتَطابَتْه العرَبُ ممَّا لم يُحَرَّمْ، وأَصْلُ الطَّيِّبِ: ما تَستلِذُّه الحواسُّ، وما تَستلِذُّه النَّفسُ، وأَصْلُ (طيب): يَدُلُّ على خِلافِ

النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨).

الْخَبِيثِ[١].

﴿ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾: أي: الحرام، أو: ما لا يُوافِقُ النَّفسَ من المحظوراتِ، والخُبْثُ والخَبِيثُ: ما يُكْرَهُ رَداءَةً وخَساسَةً، محسوسًا كان أو معقولًا، وأصْلُه الرَّديءُ الجارِي مَجْرى خَبَثِ الحديدِ، وكذلك يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الطَّيِّبِ[٢].

﴿إِصْرَهُمْ﴾: أَي: مَا عُقِدَ مِن عَقْدٍ ثقيلٍ عليهم؛ مِثلُ: قتْلِ أنفُسِهم وما أَشْبَهَ ذلك، وأصلُ (أصر): يدُلُّ على العَهْدِ، أو عَقْدِ الشَّيءِ، وحَبْسِه بقَهْرٍ[٣].

﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾: أي: والشَّدائِدَ، أو الفرائِضَ المانِعَةَ لهم مِنْ أشياءَ رُخِّصَ فيها لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، والغُلُّ مُخْتَصٌّ بما يُقيَّدُ به فَيُجْعَلُ الأعضاءُ وَسَطَه، وغُلَّ فلانٌ: قُيِّدَ به، وأَصْلُ (غلل): يَدُلُّ عَلَى تَخَلُّلِ شَيْءٍ، وثَباتِ شيءٍ[٤].

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: أي: وعَظَّموه ونصَروه، أو أعانوه، والتَّعزيرُ: التَّعظيمُ، أو النُّصرةُ مع التَّعظيمِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٩، ١١٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١، ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١).

مُشْكِلُ الإعرابِ:

١- قولُه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾

اللَّامُ في قولِه: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ فيها أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّها زائدةٌ للتَّقويةِ[(١)]- لأنَّ المعمولَ (ربهم) لَمَّا قُدِّمَ على عامِلِه ﴿يَرْهَبُونَ﴾ ضعُفَت تعديتُه إليه، فجِيءَ باللَّامِ لتقويةِ التَّعديةِ-، وعلى هذا فـ(ربهم) مجرورٌ لفظًا، منصوبٌ محلًّا، مفعولٌ به مقدَّمٌ لـ ﴿يَرْهَبُونَ﴾. وقيل: إنَّ اللَّامَ في ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ لامٌ أصليَّةٌ للعلَّةِ، ومَفعولُ ﴿يَرْهَبُونَ﴾ على هذا محذوفٌ؛ أي: يرهبونَ عِقابَه لأجلِه. وقيلَ غيرُ ذلك[(٢)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾

﴿قَوْمَهُۥ﴾: منصوبٌ على نَزْعِ الخافِضِ، وهو في رُتبةِ المَفعولِ الثَّاني- لأنَّ أصلَ الفِعلِ (اختَارَ) أنَّه يتعدَّى إلى مَفعولِه الثَّاني بـ(مِن)، فحُذِفَت (مِن)، فتعَدَّى الفعلُ إليه بنفسِه فنُصِبَ- والتقديرُ: واختارَ موسَى سبعينَ رجلًا مِن قَوْمِه، و﴿

---

(١) لامُ التَّقويةِ: هي التي تجيءُ لِتقويةِ عاملٍ ضَعيفٍ؛ إما بسبَبِ تأخُّره عن معمولِه، نحو: قوله تعالى هُنا: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، وإمَّا بسبَبِ أنَّه فرعٌ مأخوذٌ مِن غيرِه- كالفُروعِ المشتقَّةِ- مثل قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ فأصلُ الكلامِ في الآيتَينِ الأُولَيَينِ: إن كنتُم تعبرونَ الرُّؤيا، يَرهبونَ ربَّهم، فلمَّا تقدَّم كلٌّ من المفعولينِ على فِعلِه، ضَعُفَ الفعلُ بسبَبِ تأخيرِه عن معمولِه «مَفعولِه»، فجاءت اللَّامُ لِتَقويتِه، وأصلُ الكلامِ في الآيتينِ الأخيرتينِ: فعَّالٌ ما يريدُ، مُصدِّقًا ما مَعهم، فكلمة: «فعَّالٌ» صيغةُ مبالغةٍ متعدِّيةٌ، تعمَلُ عمَلَ فِعلِها، ولكنَّها أضعَفُ منه، وكذلك كلمةُ: «مصدِّقًا» وهي اسمُ فاعلٍ. فجاءت اللَّامُ لتَقويتِهما. يُنظر: ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٢٨٦-٢٨٧)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ١٨٤) و (٢/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠-١٩١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٩/ ٨٨).

سَبْعِينَ﴾ مَفعولٌ به منصوبٌ بالياءِ، و﴿رَجُلًا﴾ تمييزٌ منصوبٌ لـ﴿سَبْعِينَ﴾[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لَمَّا سكَنَ غضَبُ موسى عليه السَّلامُ أخَذَ الألواحَ الَّتي كان أَلْقاها، وفي نُسْخَتِها هِدايةٌ من الضَّلالةِ، ورحمةٌ من العذابِ للَّذينَ هُمْ يخافون ربَّهم ويخشَوْنَه.

واختارَ موسى من قومِه سَبعينَ رجُلًا لِميقاتٍ وَقَّتَهُ اللهُ لهم، فلَمَّا أَخَذَتْ هؤلاءِ السَّبعينَ الزَّلزَلةُ الشَّديدةُ، قال موسى لربِّه: يا ربِّ، لو شِئْتَ لأَهْلَكْتَهم مِن قَبْلُ، وأَهْلَكْتَني معهم، أَتُهْلِكُنا بما فَعَلَه السُّفهاءُ منَّا بعبادتِهم العِجلَ؟! وما عبادةُ هؤلاءِ السُّفهاءِ للعِجلِ إلَّا ابتلاءٌ منك لهم؛ تُضِلُّ بِه مَنْ تشاء، وتَهدي مَنْ تشاء، أنتَ ناصِرُنا ومُتَوَلِّي أُمورِنا، فاغفِرْ لنا، وارحَمْنا، وأنتَ خيرُ مَنْ غَفَرَ، واكتُبْ لنا في الحياةِ الدُّنيا حالةً حسنةً، وفي الآخرةِ، إنَّا تُبْنا إليك.

قال تعالى مُجيبًا موسى عليه السَّلام: عَذابي في الدُّنيا أُصيبُ به مَنْ أشاء، ورَحمتي في الدُّنيا وَسِعَتْ كُلَّ خَلْقي، فسأَكْتُبُها للَّذينَ يتَّقونَ، ويُعْطونَ الزَّكاةَ المفروضةَ عليهم، والَّذينَ يُؤمنون بآياتي، الَّذينَ يتَّبِعون مُحَمَّدًا الرَّسولَ النَّبيَّ، الَّذي لا يَقرأ ولا يَكتُبُ، الَّذي يَجِدونَه مذكورًا عِندهم في التَّوراةِ والإنجيلِ بصِفاتِه الواضحةِ، يأمُرُهم بالمعروفِ، ويَنْهاهم عَنِ المنكَرِ، ويُحِلُّ لهم الطَّيِّباتِ، ويُحَرِّمُ عليهم الخبائِثَ، ويُذهِبُ عنهم التَّكاليفَ الشَّاقَّةَ الَّتي كانت عليهم، فالَّذينَ آمَنوا به وعظَّموه ونصَروه، واتَّبَعوا القرآنَ الَّذي أنزَلَه اللهُ إليه، فأولئك هُمُ المفلِحونَ.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٠٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٧٣-٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٣).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى ما كان من موسى عليه السَّلامُ مع الغَضَبِ، بَيَّنَ في هذه الآيةِ ما كان مِنه عِنْدَ سُكوتِ الغضَبِ[1]، فقال:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾.

أي: ولَمَّا سَكَنَ عن موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غَضَبُه[2].

﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾.

أي: أخَذَ موسى الألواحَ الَّتي أَلْقاها[3].

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

أي: وفي المَكْتوبِ في الألواحِ وما نُقِلَ منها هُدًى من الضَّلالةِ، ورحمةٌ من العَذابِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٨٩).
قال الشنقيطيُّ: (وذلك باعتذارِ أخيه حتَّى عرَف صِدقَ عُذرِه، وبتوبةِ الذين عبَدوا العِجلَ حتى قدَّموا أنفسَهم للموتِ طائعين؛ مَرضاةً لربِّهم). ((العذب النمير)) (٤/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٨)،

﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

أي: فيها هُدًى ورحمةٌ للَّذينَ يخافون اللهَ سُبحانَه وتعالى ويخشَوْنَه، ويخضَعون له؛ فيعمَلون بما فيها(١).

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ﴾.

أي: واختارَ مُوسى من قَومِه سَبعينَ رجُلًا لوقتٍ وقَّتَه اللهُ لهم؛ ليَحضُروا فيه إلى مكانٍ مُعيَّنٍ(٢).

((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩١- ١٩٥).

ذهَب ابن جرير، والسعدي إلى أنَّ سَببَ اختيارِهم لهذا الميقاتِ هو التوبةُ من فِعل سُفهائِهم الذين عبَدوا العِجلَ، والاعتذارُ لقومِهم عند ربِّهم سُبحانَه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤).

قال ابنُ الجوزي: (في هذا الميقاتِ أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّه الميقاتُ الذي وقَّتَه اللهُ لموسى؛ ليأخذَ التوراةَ، أُمِرَ أن يأتيَ معه بسَبعين... والثاني: أنَّه ميقاتٌ وقَّته الله تعالى لموسى، وأَمَره أن يختارَ من قومه سبعين رجلًا؛ ليدعوا ربَّهم... والثالث: أنَّه ميقاتٌ وقَّته الله لموسى؛ لأنَّ بني إسرائيلَ قالوا له: إنَّ طائفةً تزعُم أن اللهَ لا يُكلِّمك، فخُذْ معك طائفةً منَّا؛ ليسمَعوا كلامَه، فيؤمنوا، فتَذهبَ التُّهمةُ... والرابع: أنَّه ميقاتٌ وقَّته الله لموسى ليلقاه في ناسٍ من بني إسرائيلَ، فيعتذِرَ إليه من فِعلِ عبَدَةِ العِجلِ). ((زاد المسير)) (٢/ ١٥٨).

وقال الشنقيطيُّ: (أقوالٌ كثيرةٌ من هذا النَّمَطِ لا دليلَ عليها... وعلى كلِّ حالٍ، فهُمْ سبعون رجُلًا من خِيَارِ الإسرائيليِّين، [اختارَهم] موسى لميقاتٍ وقَّتَه اللهُ له). ((العذب النمير)) (٤/ ١٩٣).

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾.

أي: فلمَّا أصابَتِ الزَّلزلةُ الشَّديدةُ السَّبعينَ الَّذينَ مع مُوسَى، فصَعِقوا أو ماتوا[١].

﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾.

أي: قال موسى مُتَضَرِّعًا لربِّه: يا ربِّ، لو شِئْتَ إهلاكَ هؤلاءِ السَّبعينَ لأهْلَكْتَهم مِن قَبْلِ هذا الوقتِ، وأمَتَّني معهم، وذلك على مَرْأًى من قَومِنا؛ حتَّى لا يتَّهموني؛ فماذا أقولُ لبَني إسرائيلَ إذا لَقيتُهم وقد أَهْلَكْتَ خِيَارَهم؟! فإنَّ إهلاكَهم في هذا الوقتِ أَدْعى لاتِّهامِهم لي وإيذائي[٢].

﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾.

أي: سَأَلَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ربَّه سؤالَ استِعلامٍ مع تذلُّلٍ واستعطافٍ[٣]: أتُصيبُنا بالهلاكِ بسببِ ما فَعَلَه ضُعفاءُ العُقولِ منَّا بعِبادتِهم العِجلَ[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٤).
قال ابنُ الجوزي: (فأمَّا الرَّجفةُ فهي الحركة الشَّديدةُ، وفي سببِ أخذِها إيَّاهم أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنه ادِّعاؤهم على موسى قتْلَ هارونَ... والثاني: اعتداؤهم في الدُّعاءِ... والثالث: أنهم لم يَنهَوْا عَبَدَةَ العِجلِ ولم يَرضَوا... والرابع: أنهم طلبوا سماعَ الكلامِ من اللهِ تعالى، فلمَّا سمِعوه قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]). ((زاد المسير)) (٢/ ١٥٨-١٥٩).
وقال الشنقيطيُّ بعْدَ حكايتِه عِدَّةَ أقوالٍ: (هذه أقوالُ المفسِّرين، وفيها غيرُ هذا، ولا شيءَ يقوم عليه الدَّليلُ القاطعُ منها، واللهُ تعالى أعلمُ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٥).

(٣) قال السعديُّ: (اعتَذر بأنَّ المتجرِّئين على الله ليس لهم عُقولٌ كاملةٌ تَردَعُهم عمَّا قالوا وفَعلوا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٦- ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٥- ١٩٦).

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾.

أي: قال موسى مُعْتَذِرًا لربِّه: ما عبادةُ قَومِي للعِجلِ إلَّا ابتِلاءٌ واختِبارٌ منك لهم، قدَّرْتَه عليهم؛ لِيَتَبَيَّنَ الضَّالُّ منهم مِن المُهتدي(١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥].

﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾.

أي: قال موسى: تُضِلُّ بسَببِ هذه الفتنةِ مَنْ تشاءُ مِن عبادِك ممَّن خالَفَ الرُّسلَ، وتَهدي بها مَنْ تشاء ممَّن اتَّبَعَهم؛ فلا يَفتتِنونَ ولا يَضِلُّونَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا

واختارَ أن المرادَ بالسُّفهاءِ هنا هم عبَدَةُ العِجلِ: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٦).

وقال الشنقيطيُّ: (المرادُ بهم هنا: الذين فعلوا الموجِبَ الذي أخذتْهم الرَّجفةُ بسببِه، سواء قلنا: إنه قولُهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، ولا سَفَهَ أكبرُ من ذلك، أو عبادتُهم العِجلَ، أو عدمُ نَهْيِهم مَنْ عبَدَ العجلَ، إلى غير ذلك). ((العذب النمير)) (٤/ ١٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٧).

قال ابنُ تيمية: (﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾، أي: مِحنتُك واختبارُك وابتلاؤُك،كما ابتلَيْتَ عبادَك بالحسناتِ والسَّيِّئاتِ؛ ليتبيَّنَ الصَّبَّارُ الشَّكورُ مِن غيره، وابتليتهم بإرسال الرُّسلِ وإنزالِ الكُتبِ؛ ليتبيَّنَ المؤمنُ من الكافرِ، والصَّادقُ من الكاذبِ، والمنافقُ من المخلِصِ؛ فتَجعلَ ذلك سببًا لضلالةِ قومٍ، وهُدَى آخَرين). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٧).

ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩].

وقال تبارَك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾.

أي: أنتَ وحْدَك- يا ربَّنا- ناصرُنا، ومُتولِّي أُمورِنا[١].

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾.

أي: فاستُرْ ذُنوبَنا، ولا تُعاقِبْنا عليها، وتَعطَّفْ علينا برحمتِكَ[٢].

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾.

أي: وأنتَ- يا ربَّنا- خيرُ مَنْ يَستُرُ الذُّنوبَ، ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بالنَّقائِصِ والعُيوبِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٩).

قال ابنُ كثير: (والرحمةُ إذا قُرِنَتْ مع الغَفْرِ يُرادُ بها: ألَّا يُوقِعَه في مِثْلِه في المستقبَلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٩).

قال الرازيُّ: (معناه: أنَّ كُلَّ مَن سِواكَ فإنَّما يتجاوَز عن الذَّنبِ إما طلبًا للثَّناء الجميلِ أو

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾.

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

أي: دعا موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ربَّه لِبَني إسرائيلَ، فقال: واجعلْنا ممَّن كتبْتَ له وقدَّرْتَ له في الدُّنيا الحالةَ الحَسَنةَ؛ مِن العِلمِ النَّافعِ، والعملِ الصَّالِحِ، والرِّزقِ الواسِعِ، والتَّوفيقِ والعافيةِ، والحياةِ الطَّيِّبةِ، واكتُبْ لنا في الآخرةِ حسنةً؛ بمغفرةِ الذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ، ودُخولِ الجنَّاتِ[1].

﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾.

أي: إنَّا تُبْنا، ورَجَعْنا إليك، يا رَبَّنا[2].

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ﴾.

أي: أجابَ اللهُ موسى فقال: عَذابي في الدُّنيا أُصيبُ به مَنْ أشاءُ ممَّنْ يَستحِقُّه

للثَّواب الجزيلِ... وبالجُملةِ فذلك الغُفرانُ يكون لطلبِ نفْعٍ أو لدفْعِ ضَررٍ، أمَّا أنت فتغفِرُ ذنوبَ عبادِك لا لطلبِ عِوَضٍ وغرضٍ، بل لمَحضِ الفضلِ والكرمِ؛ فوجَبَ القطْعُ بكونه خيرَ الغافرين). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٠- ٢٠١).
قال الواحديُّ: (قال جميع المفسِّرين وأهلِ المعاني: تُبْنا ورجَعْنا إليك بتوبتِنا). ((البسيط)) (٩/ ٣٩٢).
وقال الخازن: (﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، قال ابنُ عبَّاسٍ معناه: إنَّا تُبْنا إليك، وهذا قولُ جميعِ المفسِّرين). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٢٥٦).

مِن خَلْقي، كما أَصَبْتُ هؤلاءِ السَّبعينَ مِن قومِك بالرَّجفةِ[١].

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

أي: ورحمتي عمَّتْ في الدُّنيا جميعَ خَلْقي[٢].

كما قال اللهُ تعالى حاكيًا قولَ حَمَلَةِ العَرْشِ مِن الملائكةِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وعن أبي هريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ لله مِئةَ رحمةٍ، أنزَلَ منها رحمةً واحدةً بين الجنِّ والإنسِ، والبهائمِ والهَوامِّ؛ فبها يتعاطَفون، وبها يتراحَمون، وبها تَعطِفُ الوَحْشُ على ولدِها، وأخَّرَ اللهُ تسعًا وتسعين رحمةً، يرحَمُ بها عبادَه يومَ القيامةِ))[٣].

وعن سَلْمَانَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ خَلَقَ يومَ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ مِئةَ رحمةٍ، كُلُّ رحمةٍ طِباقُ ما بين السَّماءِ والأرضِ[٤]، فجعَلَ منها في الأرضِ رحمةً، فبها تَعطِفُ الوالدةُ على ولدِها، والوَحْشُ والطَّيْرُ بعضُها على بعضٍ، فإذا كان يومُ القيامةِ أَكْمَلَها بهذه الرَّحمةِ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٢).
قال ابنُ جرير: (عن الحسن، وقَتادةَ، في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، قالا: وسعتْ في الدُّنيا البَرَّ والفاجرَ، وهي يومَ القيامةِ للذين اتَّقَوْا خاصَّةً). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٦).

(٣) رواه مسلم (٢٧٥٢).

(٤) طِباقُ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ: أي: مِلءُ ما بَينَهما. ينظر: ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمناوي (١/ ٢٥٣).

(٥) رواه مسلم (٢٧٥٣).

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أَعْلَمَ اللهُ تعالى أنَّ رحمتَه واسعةٌ، وقُدرتَه شاملةٌ، وكان ذلك مُوَسِّعًا للطَّمَعِ؛ سَبَّبَ عن ذلك قولَه، ذاكِرًا شرْطَ إتمامِ تلك الرَّحمةِ؛ ترهيبًا لِمَنْ يَتَوانى عن تحصيلِ ذلك الشَّرطِ[١]:

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

أي: فسأُوجِبُ حُصولَ رحْمتي الَّتي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ للَّذينَ يَمتثِلونَ ما أَمَرْتُ به، ويَجتنِبونَ ما نَهَيْتُ عنه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: ((إنَّ اللهَ كَتَبَ كِتابًا قَبْلَ أنْ يخلُقَ الخَلْقَ: إنَّ رحمتي سَبَقَتْ غضَبي، فهو مكتوبٌ عِندَه فَوْقَ العَرْشِ))[٣].

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: وأَجْعَلُ رحمتي للَّذينَ يُعْطونَ الزَّكاةَ المَفروضةَ في أموالِهم لِمُستحِقِّيها[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٢- ٢٠٤).

(٣) رواه البخاري (٧٥٥٤) ومسلم (٢٧٥١).

(٤) وتفسيرُ الزكاةِ هنا بزَكاةِ الأموالِ المفروضةِ هو اختيارُ ابنِ جريرٍ، وابنِ عطيةَ، والشوكانيِّ،

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وأَجْعَلُ رحمتي للَّذينَ يؤمِنون بآياتي، المُنزَّلةِ على رُسُلي[(١)]، فيتَّبِعونها[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ

والسعدي، ونسَبَه الشنقيطيُّ إلى أكثرِ العُلماء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٤).

وقال ابنُ كثير: (قيل: زكاةُ النُّفوسِ. وقيل: زكاةُ الأموالِ. ويحتمِلُ أن تكونَ عامَّةً لهما؛ فإنَّ الآيةَ مَكِّيَّةٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٣). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٤).

(١) خصَّ ابنُ عاشورٍ الآياتِ هنا بآياتِ القرآنِ الكريمِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٥).

قال الشنقيطيُّ: (ويَشمَلُ ذلك عِند بعضِهم: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الكَونيَّةِ القَدَريَّةِ، كما نَصَبْنا من العلاماتِ على قُدْرتِنا، وأنِّي أنا المُستحِقُّ العبادةَ وحدَه، يُؤمنون بذلك؛ فيَعلمون أنَّها دالَّةٌ على رُبوبيَّةِ مَنْ نَصَبَها، واستحقاقِه للعبادةِ وحدَه). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٠٥).

ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۞ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۞ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٣- ٦].

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّ مِن صِفةِ مَنْ تُكتَبُ له الرَّحمةُ في الدُّنيا والآخرةِ: التَّقْوى، وإيتاءَ الزَّكاةِ، والإيمانَ بالآياتِ؛ ضَمَّ إلى ذلك أنْ يكونَ مِن صِفتِه اتِّباعُ النَّبيِّ الأُمِّيِّ الَّذي يَجِدونه مكتوبًا عِندهم في التَّوراةِ والإنجيلِ[(١)].

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ﴾.

أي: الَّذينَ كتبْتُ لهم رحمتي هُمُ الَّذينَ يتَّبِعونَ مُحَمَّدًا الرَّسولَ النَّبيَّ[(٢)]، الَّذي لا يَقرأُ مِن كتابٍ ولا يَكتُبُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٠).

(٢) قال الخازن: (أَجْمَعَ المفسِّرون على أنَّ المرادَ بالرَّسولِ مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وَصَفَه بكونِه رسولًا؛ لأنَّه الواسطةُ بين اللهِ وبين خَلْقِه، المُبلِّغُ رسالتَه وأوامرَه ونواهيَه وشرائعَه إليهم، ثم وصفه بكونه نبيًّا، وهذا أيضًا من أعلى المراتبِ وأشرفِها). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٦).

قال ابنُ جرير: (هُمْ أُمَّةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنه لا يُعْلَمُ للهِ رسولٌ وُصِفَ بهذه الصِّفةِ- أعني الأُمِّيَّ- غير نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٨).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾.

أي: يَجِدونَ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَذكورًا بصِفاتِه الواضحةِ في التَّوراةِ الَّتي أنزَلَها اللهُ على موسى، وفي الإنجيلِ الَّذي أنزَلَه اللهُ على عِيسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ(١).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وعن عَطاءِ بنِ يَسارٍ، قال: لَقيتُ عبدَ اللهِ بنَ عمرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنهما، قلْتُ: أخبِرْني عن صِفةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في التَّوراةِ، قال: ((أَجَلْ، واللهِ إنَّه لموصوفٌ في التَّوراةِ ببعضِ صِفتِه في القرآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وحِرْزًا للأُمِّيِّينَ(٢)، أنتَ عَبْدي ورسولي، سمَّيْتُك المُتوكِّلَ، ليس بفَظٍّ ولا غَليظٍ، ولا سخَّابٍ في

وقال ابنُ عاشور: (هو إشارةٌ إلى اليهودِ والنَّصارى الكائنين في زَمنِ البَعثةِ وبعدَها؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٧).

(٢) وحِرْزًا للأُمِّيِّينَ: أي: حافِظًا لدِينِهم، والمرادُ العَرَبُ، وسُمُّوا بالأمِّيِّينَ؛ لأنَّ الكتابةَ كانت فيهم قليلةً. ينظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١١/ ٢٤٣).

الأسواقِ، ولا يدْفَعُ بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ، ولكنْ يَعْفو ويَغفِرُ، ولنْ يَقبِضَه اللهُ حتَّى يُقيمَ به المِلَّةَ العوجاءَ، بأنْ يقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويَفتَحَ بها أَعْيُنًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا))[1].

وقد أخبرَ اللهُ في القرآنِ بأنَّ عيسى عليه السَّلامُ بَشَّرَ بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

أي: يأمُرُهم الرَّسولُ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالمعروفِ، وهو كلُّ خيرٍ أمَرَ به الشَّرعُ من الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، ويَنْهاهم عن المنكَرِ، وهو كلُّ شرٍّ أنكَرَه الشَّرعُ من الشِّركِ والمعاصِي[2].

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

أي: ويُحِلُّ لهم مُحَمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الأطعِمةَ والأشرِبةَ النَّافعةَ، الَّتي تَستطيبُها الأذْواقُ السَّليمةُ ممَّا حُرِّمَ على اليهودِ مِنْ قَبْلُ في التَّوراةِ، أو حرَّمَه

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٣)، ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٩).

قال ابنُ القيِّم: (أَمَرَهم بالمعروف الذي تَعرِفه العُقولُ وتُقِرُّ بحُسْنِه الفِطَرُ، فأَمَرَهم بما هو مَعْروفٌ في نفسه عِند كلِّ عقلٍ سليمٍ، ونهاهم عمَّا هو مُنْكَرٌ في الطِّباعِ والعقولِ، بحيث إذا عُرِضَ على العُقولِ السَّليمةِ أنكرتْه أشدَّ الإنكارِ، كما أنَّ ما أَمَرَ به إذا عُرِضَ على العقل السَّليمِ قَبِلَه أعظمَ قَبولٍ، وشهِد بحُسْنِه). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٦).

العربُ على أنفُسِهم في جاهليَّتِهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۞ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٤- ٥].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٥- ١٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾.

أي: ويُحرِّمُ عليهم مُحَمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الأطعِمةَ والأشربةَ، والأفعالَ الضَّارَّةَ، الَّتي تَستخبِثُها النُّفوسُ السَّليمةُ ممَّا يَستحِلُّه بعضُ النَّاسِ؛ كلَحْمِ الخِنزيرِ، والمَيتةِ، والدَّمِ، والخمْرِ، والزِّنا، والرِّبا، والرِّشوةِ، وأكْلِ أموالِ النَّاسِ بالباطِلِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٩- ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٦)، ((تفسير البغوي))

كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ويُبطِلُ مُحَمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ويُزيلُ عن الَّذين يتَّبِعونَه من أهلِ الكتابِ العَهْدَ الثَّقيلَ، الَّذي أخَذَه اللهُ عليهم؛ مِن العَملِ بما في التَّوراةِ من الواجباتِ الثَّقيلةِ، والمُحرَّماتِ الشَّديدةِ، الَّتي كانتْ كالقُيودِ على أعناقِهم[1].

(٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٦١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ: (والخبائثُ نوعان: ما خُبْثُه لِعَيْنِه؛ لمعنًى قام به؛ كالدَّمِ والميتةِ ولحمِ الخنزيرِ، وما خُبْثُه لكَسْبِه؛ كالمأخوذِ ظُلمًا أو بعَقْدٍ مُحرَّمٍ؛ كالرِّبا والميسِرِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٠/ ٣٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٨-٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٦)، ((العذب النمير))

كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((لَمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: دخَلَ قلوبَهم منها شيءٌ لم يدخُلْ قلوبَهم من شيءٍ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قولوا: سمِعْنا وأطعْنا وسلَّمْنا، قال: فألْقى اللهُ الإيمانَ في قلوبِهم، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: قدْ فعَلْتُ. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قدْ فعَلْتُ. ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قدْ فعَلْتُ))[(١)].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ

للشنقيطي (٤/ ٢١٢).

قال القرطبيُّ: (الأغلالُ عِبارةٌ مُستعارةٌ لتلك الأثقالِ، ومن الأثقالِ ترْكُ الاشتِغالِ يومَ السبَّتِ... ولم يكن فيهم الدِّيَةُ، وإنما كان القِصاصُ، وأُمِروا بقَتْلِ أنفسِهم علامةً لتوبتِهم، إلى غير ذلك، فشُبِّهَ ذلك بالأغلالِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٠).

وقال ابنُ تيميَّة: (الآصارُ: ترجِعُ إلى الإيجاباتِ الشَّديدةِ، والأغلالُ: هي التَّحريماتُ الشَّديدةُ؛ فإنَّ الإصْرَ: هو الثِّقْلُ والشِّدَّةُ، وهذا شأنُ ما وَجَبَ، والغُلُّ: يَمنَعُ المغلولَ من الانطِلاقِ، وهذا شأنُ المحظورِ). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٣٢٤).

(١) رواه مسلم (١٢٦).

تجاوَزَ عن أُمَّتي ما حدَّثَتْ به أنفُسَها، ما لم تعمَلْ أو تتكلَّمْ))[١].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾.

أي: فالَّذينَ صدَّقوا وأقرُّوا بأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ، وعظَّموه، وأَعانوه على أعدائِه، الَّذينَ ظَلَموه وكذَّبوه[٢].

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾.

أي: واتَّبَعوا القرآنَ الَّذي أنزَلَه اللهُ على مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع نُبوَّتِه[٣].

---

(١) رواه البخاري (٥٢٦٩) ومسلم (١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٣- ٢١٤).
وممَّن اختار أنَّ {عَزَّرُوهُ} بمعنى عظَّموه وبجَّلوه ووقَّروه: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥).
وممن رُوي عنه ذلك مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٨٣).
وقال ابنُ جرير: وقَّروه وعظَّموه، وحَمَوْه مِن النَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٧).
واختار ابنُ عاشورٍ أنَّ المراد بـ (عَزَّرُوهُ): أيَّدوه وقَوَّوْهُ؛ قال ابنُ عاشور: (معنى عَزَّرُوهُ أيَّدوه وقَوَّوْهُ، وذلك بإظهارِ ما تضمَّنَتْه كُتبُهم من البِشارةِ بصفاتِه، وصفاتِ شريعتِه، وإعلانِ ذلك بين النَّاسِ، وذلك شيءٌ زائدٌ على الإيمانِ به، كما فَعَلَ عبدُ اللهِ بن سَلَام، وكقولِ ورقة بن نوفل: «هذا النَّاموسُ الذي أُنْزِلَ على موسى»، وهو أيضًا مُغايِرٌ للنَّصرِ؛ لأنَّ النَّصرَ هو الإعانةُ في الحربِ بالسِّلاحِ؛ ومِن أجْلِ ذلك عُطِفَ عليه: ﴿وَنَصَرُوهُ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٤).
قال أبو السُّعود: (﴿أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، أي: مع نُبوَّتِه، وهو القرآنُ، عُبِّرَ عنه بالنُّورِ المُنبِئِ عن كونِه ظاهرًا بنفسِه، ومُظهِرًا لغيره، أو مُظهِرًا للحقائقِ، كاشِفًا عنها). ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٠).

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: فالَّذينَ آمَنوا بالرَّسولِ وعظَّموه ونصَروه واتَّبعوا القرآنَ الَّذي أُنْزِلَ معه هُمْ وَحْدَهم الفائِزونَ، الظَّافِرونَ بالخيراتِ والخُلودِ في الجنَّاتِ، والنَّاجونَ من الشُّرورِ والمكروهاتِ[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- أَصْلُ كلِّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرةِ الخوفُ من اللهِ تعالى، يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾؛ فليس كُلُّ أَحدٍ يَقْبَلُ هُدى اللهِ ورحمتَه، وإنَّما يَقبَلُ ذلك ويَنقادُ له، ويَتلقَّاه بالقَبولِ الَّذينَ يَخافونَ من اللهِ تعالى ويخشَوْنَه، وأمَّا مَنْ لم يَخَفِ اللهَ، ولا المُقامَ بين يدَيْه، فإنَّه لا يَزدادُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٦-٢١٧).

بها إلا عُتُوًّا ونُفورًا، وتقوم عليه حُجَّةُ اللهِ فيها[١].

٢- لا سعادةَ ولا فلاحَ إلَّا باتِّباعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ظاهرًا وباطنًا في أصولِ الدِّينِ وفُروعِه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

٣- لا بُدَّ أنْ يُفتَنَ النَّاسُ، فيَمتحِنَهم اللهُ تعالى ويَبتليَهم ويَختبِرَهم؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾[٣].

٤- قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ فيه تَعليمٌ لكيفيَّةِ اتِّباعِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وبيانٌ لعُلوِّ رُتبةِ مُتَّبعيهِ، واغتنامِهم مَغانمَ الرَّحمةِ الواسعةِ في الدَّارينِ إثرَ بيانِ نُعوتِه الجليلةِ، والإشارةُ إلى إرشادِه عليه الصَّلاةُ والسلامُ إيَّاهُم بالأمْرِ بالمعروفِ، والنهيِ عن المنكرِ، وإحلالِ الطيباتِ، وتَحريمِ الخبائِثِ، أي: فالَّذين آمنوا بنُبوَّتِه وأطاعوه في أوامرِه ونواهِيه[٤].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ خَصَّهم بالذِّكرِ؛ لأنَّهم هُمُ المُنتفِعونَ به، وجَرَتِ العادةُ في القرآنِ أنَّ اللهَ يَخُصُّ المنتفعين، كما قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١]، وهو مُنْذِرٌ للأسودِ والأحمرِ، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وهو مُنذِرٌ للجميعِ، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وهو مذكِّرٌ لِمَنْ يخاف ومَنْ لا يخاف كما هو معلومٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٩٧)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٢/ ٤٤٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٠).
(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ المرادُ منه الألواحُ المذكورةُ سابقًا في قولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾، وظاهرُ هذا يدُلُّ على أنَّ شيئًا منها لم يَنكسِرْ ولم يَبْطُلْ[(١)].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾، الاختيارُ يكونُ من فاعِلٍ مُخْتارٍ، وشيءٍ مختارٍ منه، فيتعدَّى للثَّاني بـ(من)، وكأنَّ نُكْتَةَ حَذْفِ (من): الإشارةُ إلى كَوْنِ أولئك السَّبعينَ خِيَارَ قومِه كلِّهم لا طائفةً منهم[(٢)].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾، السُّفهاءُ هم الَّذينَ عبَدوا العِجلَ، وسُمِّيَ شِركُهم سَفَهًا؛ لأنَّه شِرْكٌ مَشوبٌ بِخِسَّةِ عقلٍ؛ إذ جعلوا صورةً صَنَعوها بأنفُسِهم إلهًا لهم[(٣)].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾، كأنَّ موسى عليه السَّلامُ عبَّرَ بهذه العِبارةِ المُقْتَضِيَةِ لإهلاكِ الجميعِ؛ لأنَّه جوَّزَ أنَّه كما أَهْلَكَ هؤلاءِ يُهْلِكُ غيرَهم لتقصيرٍ آخَرَ بسببِ ذلك؛ كعدمِ الجهادِ- مثلًا- حتَّى يَعُمَّهم الهلاكُ[(٤)].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾، من الحُجَجِ الظَّاهرةِ على القَدَريَّةِ الَّتي لا يَبقى لهم معها عُذْرٌ[(٥)].

٧- قال اللهُ تعالى على لسانِ موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ الَّذي جرَّأَ موسى على أنْ يُضيفَ الفِتنةَ إلى اللهِ هو أنَّ اللهَ قال له: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: ٨٥]؛ فأَسْنَدَ اللهُ هذه الفتنةَ لنفسِه بقولِه: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٥).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٠٢).
(٥) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص:٤٤).

قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ ﴾، فجرَّأ ذلك موسى على أنْ يقولَ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾[١].

٨- القَصْدُ من جُملةِ: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ الاعترافُ بالانقطاعِ لعِبادةِ اللهِ تعالى؛ تمهيدًا لِمَطْلَبِ المغفرةِ والرَّحمةِ؛ لأنَّ شأنَ الوَلِيِّ أنْ يَرحَمَ مَوْلاه وينصُرَه[٢].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾، عَطَفَ جُملةَ: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾؛ لأنَّه خبرٌ في معنى طلبِ المغفرةِ العظيمةِ، فعُطِفَ على الدُّعاءِ، كأنَّه قيل: (فاغفِرْ لنا وارحمْنا واغفِرْ لنا جميعَ ذُنوبِنا)؛ لأنَّ الزِّيادةَ في المغفرةِ من آثارِ الرَّحمةِ[٣].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ * وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ دفْعَ الضَّررِ مُقدَّمٌ على تحصيلِ النَّفعِ؛ إذ بدأ بطَلَبِ دَفْعِ الضَّررِ، وهو قولُه: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ﴾، ثمَّ أَتْبَعَه بطَلَبِ تحصيلِ النَّفعِ[٤].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾، أي: قد كان مِنْ سَبْقِ رحمتي غضَبي: أنْ أَجْعلَ عذابي خاصًّا؛ أُصيبُ به مَنْ أشاء من الكفَّارِ والعُصاةِ المجرمين، وأمَّا رحمتي فقدْ وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ من العالَمينَ؛ فهي من صِفاتي القديمةِ الأَزَليَّةِ الَّتي قام بها أمْرُ العالَمِ مُنْذُ خَلَقْتُه، والعذابُ ليس من صِفاتي، بل من أفعالي المترتِّبةِ على صِفة العَدْلِ؛ ولهذا عبَّرَ عن التَّعذيبِ بالفِعْلِ المضارعِ، وعن تعلُّقِ الرَّحمةِ بالفعلِ الماضي[٥].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٩٢).

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، خَصَّ الزَّكاةَ بالذِّكْرِ دونَ الصَّلاةِ وما دونَها من الطَّاعاتِ؛ لأنَّ فتنةَ حُبِّ المالِ تقتضي- بنظَرِ العقلِ والاختبارِ بالفعلِ- أنْ يكونَ المانِعونَ للزَّكاةِ أكثَرَ من التَّاركينَ لغيرِها من الفرائضِ، وفيه إشارةٌ إلى شِدَّةِ حُبِّ اليهودِ للدُّنيا، وافتِتانِهم بجَمْعِ المالِ، ومَنْعِ بَذْلِه في سبيلِ اللهِ(١).

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾، الرَّسولُ- في اصْطِلاحِ الشَّرعِ- أَخَصُّ من النَّبيِّ، فكُلُّ رسولٍ نَبِيٌّ، وما كُلُّ نبيٍّ رسولٌ؛ ولذلك جَعَلَ بعضُ المفسِّرين نُكْتَةَ تقديمِ الرَّسولِ على النَّبيِّ هنا كَوْنَه أَهَمَّ وأَشْرَفَ، أو أنَّهما ذُكِرا هنا بمعناهما اللُّغويِّ(٢).

١٤- قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾، المرادُ من الطَّيِّباتِ الأشياءُ المُستطابةُ بحسَبِ الطَّبْعِ؛ وذلك لأنَّ تناوُلَها يُفيدُ اللَّذَّةَ، والأَصْلُ في المنافعِ الحِلُّ؛ فكانتْ هذه الآيةُ دالَّةً على أنَّ الأصلَ في كلِّ ما تَستطيبُه النَّفسُ ويَستلِذُّه الطَّبْعُ: الحِلُّ، إلَّا لدليلٍ مُنفصِلٍ، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ كُلُّ ما يَستخبِثُه الطَّبْعُ وتَستقذِرُه النَّفسُ كان تناولُه سببًا للألمِ، والأَصْلُ في المَضارِّ الحُرْمَةُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٩٤).

والفرقُ بينَ النبيِّ والرسولِ، أنَّ النبيَّ هو الذي ينبِّئه الله، وهو ينبِّئُ بما أنبأ الله به؛ فإن أُرسِل مع ذلك إلى مَن خالَف أمرَ الله؛ ليبلغَه رسالةً مِن الله إليه؛ فهو رسولٌ، وليس مِن شرطِ الرسولِ أن يأتيَ بشريعةٍ جديدةٍ، وأمَّا إذا كان إنما يعملُ بشريعةِ مَن قبلَه، ولم يُرسل هو إلى أحدٍ يبلغُه عن الله رسالةً؛ فهو نبيٌّ، وليس برسولٍ، فالأنبياءُ يأتيهم وحيٌ مِن الله بما يفعلونه، ويأمرون به مَن آمَن بهم، وقيل: الرسول: مَن أُنزل إليه كتابٌ مستقلٌّ، كمحمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وموسى عليه السلامُ، والنبيُّ: مَن أُمِر بأن يتعبَّد بكتابٍ منزَّلٍ على غيرِه، كأنبياءِ بني إسرائيلَ الذين يُؤمرون بالتعبُّدِ بما في التوراةِ. يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٥).

فكان مُقتضاه أنَّ كلَّ ما يَستخبِثُه الطَّبْعُ فالأصْلُ فيه الحُرْمَةُ إلَّا لدليلٍ مُنفصِلٍ[١].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ الأصلَ في المَضارِّ ألَّا تكونَ مشروعةً؛ لأنَّ كلَّ ما كان ضررًا كان إِصْرًا وغُلًّا، وظاهرُ هذا النَّصِّ يَقتضي عدمَ المشروعيَّةِ[٢].

١٦- دِينُ الإسلامِ سَهْلٌ سَمْحٌ مُيَسَّرٌ، لا إِصْرَ فيه ولا أغلالَ، ولا مَشقَّاتِ ولا تَكاليفَ ثِقالٌ، يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٣].

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فيه تنويهٌ بعَظيمِ فَضْلِ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ورضِيَ اللهُ عنهم، ويَلْحَقُ بهم مَنْ نصَرَ دينَه بعْدَهم[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ فيه تنزيلُ الغَضبِ الحاملِ له عَلَى ما صَدَرَ عنْهُ من الفعل والقول مَنزلةَ الآمِرِ بذلك، المُغرِي عليه بالتحكُّمِ والتشديدِ؛ حتَّى عبَّر عن سُكونِه بالسُّكوتِ؛ فشُبِّهَ ثَوَرانُ الغضبِ في نفْسِ موسى عليه السَّلامُ المُنشِئُ خواطِرَ العقوبةِ لأخيه ولقومِه، وإلْقاءَ الألواحِ، بكلامِ شخص يُغريه بذلك، وحَسَّن هذا التَّشبيهَ أنَّ الغضبانَ يجيش في نفْسه حديثٌ للنَّفسِ يَدفَعُه إلى أفعالٍ يُطفئ بها ثورانَ غضبه، فإذا سَكَن غضبُه وهدأتْ نفْسُه كان ذلك بمنزلةِ سُكوتِ المغري؛ فلذلك أَطلقَ عليه السُّكوتَ، وهذا يَستلزمُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٩).

تشبيهَ الغضبِ بالناطقِ المغري على طريقةِ المكنيَّة[١].

٢- قوله: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾

- قوله: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ تمهيدٌ للتعريضِ بطَلَبِ العفوِ عنهم الآن، وهو المقصودُ مِن قولِه: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾، أي: إنَّك لم تشأْ إهلاكَهم حين تَلبَّسوا بعِبادةِ العِجل، فلا تُهلِكْهم الآن[٢].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ مُستعمَلٌ في التفجُّع، أي: أخشَى ذلك؛ لأنَّ القَومَ استحقُّوا العذابَ، ويُخشَى أنْ يَشملَ عذابُ اللهِ مَن كان مع القومِ المستحقِّين، وإنْ لم يُشارِكْهم في سببِ العذابِ، وجملة: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ مُستأنفةٌ على طريقةِ تقطيعِ كلامِ الحزينِ الخائِفِ السَّائِل[٣].

٣- قولُه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾

- الخبرُ في وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ...﴾ الآيةَ، مُستعمَلٌ في إنشاءِ التَّمجيدِ بسَعَةِ العِلمِ والقُدرةِ، والتعريضِ بطَلَبِ استبقائِهم وهِدايتِهم[٤].

- وقولُه: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾، في التَّذييلِ بقولِه: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ حَذَفَ ذِكْرَ الرَّحمةِ؛ استِغناءً عنه بذِكْرِ المغفرةِ؛ فإنَّ ترتيبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٢٦- ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٦-١٢٧).

التَّذييلِ في الثَّناءِ عليه تعالى على طَلَبِ مغفرتِه ورحمتِه معًا يَقتضي أنْ يكونَ هذا الثَّناءُ بهما معًا، فاكْتَفى بذِكْرِ الأُولى؛ لدَلالتِها على الثَّانيةِ قطْعًا، فهو مِن الإيجازِ المُسَمَّى في عِلمِ البديعِ (الاكتِفاءَ)[١].

٤- قولُه: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ قوله: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتعليلِ الدُّعاءِ وطَلَبِ الْغُفْرَانِ والحَسَنَةِ؛ لأنَّ التوبةَ والإنابةَ والرُّجوعَ إليه من الأسبابِ الَّتي يكتُبُ اللهُ بها حسنةَ الدُّنيا وحسنةَ الآخِرةِ، وتَصديرُها بحرْف التَّحقيقِ؛ لإظهارِ كمالِ النَّشاطِ والرَّغبةِ في التوبةِ[٢].

٥- قوله: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾

- قوله: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ ...﴾ استئنافٌ وَقَع جوابًا عن سؤال ينساقُ إليهِ الكلامُ، كأنَّه قيلَ فماذَا قالَ الله تعالى عند دعاءِ مُوسى عليه السَّلامُ؟ فقيل: قال: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ﴾[٣].

- وقوله: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ مقابلُ قولِ مُوسَى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا﴾، وهو وعدُ تعريضٍ بحُصولِ الرَّحمةِ المسؤولةِ له، ولِمَن مَعَه مِن المُختارِين؛ لأنَّها لَمَّا وَسِعتْ كلَّ شيءٍ، فهُمْ أرْجى الناسِ بها، وأنَّ العاصِين هم أيضًا مَغمورونَ بالرَّحمةِ؛ فمنها رحمةُ الإمهالِ والرِّزْقِ، ولكنْ رحمةُ اللهِ عبادَه ذاتُ مَراتِبَ متفاوتةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٩).

- وقولُه: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ تفريعٌ على سَعةِ الرَّحمةِ؛ لأنَّها لَمَّا وَسِعتْ كلَّ شيءٍ كان منها ما يُكتَب، أي: يُعطَى في المستقبَلِ للذين أُجرِيتْ عليهم الصِّفاتُ، ويَتضمَّنُ ذلك وعدًا لموسى ولصُلحاءِ قومِه؛ لتحقُّقِ تِلك الصِّفاتِ فيهم[1].

- وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فيه تَكريرُ الموصولِ (الَّذين)، مع أنَّ المرادَ به عينُ ما أُريدَ بالموصولِ الأوَّلِ في قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾- دون أنْ يُقالَ: (يُؤمنون بآياتنا) عَطْفًا على ﴿يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ كما عُطِفَ ﴿يُؤْتُونَ﴾ على ﴿يَتَّقُونَ﴾ للقَصْرِ بتَقديمِ الجارِّ والمجرورِ؛ أي: هُم بجميعِ آياتِنا يُؤمِنونَ لا ببَعضِها دُون بَعضٍ[2].

وقيل: نُكتةُ إعادةِ الموصولِ (الذين) مع الضَّمير (هم)؛ إمَّا جَعْلُ الموصولِ الأوَّلِ عامًّا لقومِه الَّذينَ دعا لهم- مَن استمرُّوا على التزامِ التَّقوى، وأداءِ الزَّكاةِ منهم-، وجَعْلُ الثَّاني خاصًّا بمَنْ يُدرِكونَ بَعْثَةَ خاتَمِ الرُّسلِ عليه السَّلامُ ويتَّبِعونَه، كما يُعْلَمُ ممَّا بعْدَه، وإمَّا لِبيانِ الفَصْلِ بين مَفهومِ الإسلامِ ومفهومِ الإيمانِ، والتَّعريضِ بأنَّ الَّذينَ طَلَبوا من موسى أنْ يجعَلَ لهم آلهةً، والَّذينَ عبَدوا العِجلَ، والَّذينَ قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾[البقرة: ٥٥]، لم يكونوا مؤمِنين بآياتِ اللهِ العامَّةِ ولا الخاصَّةِ الَّتي جاء بها نبيُّهم؛ إذْ لم يكونوا يَعقِلونها، بل كانوا مُتَّبِعينَ له؛ لإنقاذِهم مِن ظُلمِ المِصْرِيِّينَ، وبيانِ أنَّ كتابةَ الرَّحمةِ الخاصَّةِ إنَّما تكون لِمَنْ جَمَعوا بين الإسلامِ- وهو اتِّباعُ الرُّسلِ بالفِعْلِ- والإيمانِ الصَّحيحِ بالآياتِ الإلهيَّةِ المفيدةِ لليقينِ المانعِ من العودةِ إلى الشِّركِ بمِثْلِ عبادةِ العِجلِ، والمُقْتَضِي لاتِّباعِ مَنْ يأتي مِنَ الرُّسلِ بمِثْلِ هذه الآياتِ[3].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٩٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ تَعريضٌ بهم وبكُفرِهم بالآياتِ العِظامِ التي جاءَ بها موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وبما سيَجيءُ بعدَ ذلك مِنَ الآياتِ البيِّناتِ، كتَظليلِ الغمامِ، وإنزالِ المنِّ والسَّلْوى، وغيرِ ذلك[١].

٦- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

- قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ فيه تقديمُ وصْفِ الرَّسولِ؛ لأنَّه الوصفُ الأخصُّ الأهمُّ، ولأنَّ في تقديمِه زِيادةَ تَسجيلٍ لتحريفِ أهلِ الكِتاب، حيثُ حَذَفوا هذا الوصفَ؛ ليصيرَ كلامُ التوراةِ صادِقًا بمَن أتَى بعدَ مُوسَى من أنبياءِ بَنِي إسرائيلَ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ لم يَعْطِفْ؛ لئلَّا يُوهِمَ تَعدادَ الموصوفِ[٣].

- وجاءَ بقولِه: ﴿عِندَهُمۡ﴾ لزِيادةِ التقريرِ، وأنَّ شأنَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حاضرٌ عِندَهم لا يَغيبُ عنهم أصلًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٩).

- قولُه: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فيه تشبيهُ حالِ المُزالِ عنه ما يُحرِجُه مِن التَّكاليفِ، بحالِ مَن كان مُحمَّلًا بثِقلٍ فأُزِيلَ عن ظَهرِه ثِقلُه[١].

- قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ فيه تَشبيهُ حالِ المُقتَدِي بهَدْي القرآنِ، بحالِ السَّاري في اللَّيلِ إذا رَأى نُورًا يَلوحُ له اتَّبعَه؛ لعِلمِه بأنَّه يجِدُ عِندَه مَنجاةً مِن المخاوفِ، وأضرارِ السَّيرِ[٢].

- وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وما فيه مِن مَعْنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ دَرجتِهم، وسُموِّ طبقتِهم في الفضلِ والشَّرفِ، أي: أولئك المنعوتُون بتِلك النُّعوتِ الجليلةِ هُمُ المُفْلِحُونَ، لا غيرُهم مِن الأُمم، ففيه تنويهٌ بشَأنِهم، ودَلالةٌ على أنَّ المُشارَ إليهم بتِلك الأَوصافِ صارُوا أحرياءَ بما يُخبَرُ به عنهم بعدَ اسمِ الإشارةِ[٣].

- والقصرُ المستفادُ مِن تَعريفِ المُسنَد ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ومِن ضَمير الفَصلِ ﴿هُمُ﴾ قَصرٌ إضافيٌّ، أي: هُم الذين أفلحوا، أي: دُونَ مَن كَفَر به، بقَرينةِ المقامِ، ويجوزُ أنْ يكونَ القصرُ ادعائيًّا دالًّا على معنى كمالِ صِفةِ الفلاحِ للَّذينَ يتَّبعونَ النبيَّ الأُمِّيَّ؛ ففلاحُ غيرِهم من الأُممِ المفلِحين الذين سَبَقوهم كلا فَلاحٍ إذا نُسِب إلى فلاحِهم[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٣٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٨).

الآية (١٥٨)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ نَبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ للنَّاسِ جَميعِهم: يا أيُّها النَّاسُ، إنِّي رسولُ اللهِ إليكم كُلِّكم، الذي له وحدَه مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما، لا معبودَ بِحقٍّ إلَّا هو وحدَه، بِيَدِه وحدَه إحياءُ الخَلقِ وإماتَتُهم، فآمِنوا- أيُّها النَّاسُ- باللهِ ورَسولِه مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، النَّبيِّ الأمِّيِّ، الذي يؤمِنُ باللهِ وكَلِماتِه، واتَّبعوه؛ لعلَّكم تهتدونَ.

تَفسيرُ الآية:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى لموسى- عليه السلام- صفةَ مُحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأخبَرَ أنَّ مَن أدرَكَه وآمَنَ به، أفلح- أمَرَ تعالى نبيَّه بإشهارِ دَعوَتِه ورسالَتِه إلى النَّاسِ كافَّةً، والدُّعاءِ إلى الإيمانِ باللهِ ورسولِه وكَلِماتِه، واتِّباعِه[1].

وأيضًا لَمَّا دعا أهلَ التَّوراةِ مِن بني إسرائيلَ إلى اتِّباعِه، وكان ربَّما توهَّم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٦).

مُتَوهِّمٌ أنَّ الحُكمَ مَقصورٌ عليهم- أتى بما يدلُّ على العُمومِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الرَّسولَ الأمِّيَّ، استطرَدَ بتذكيرِ بني إسرائيلَ بما وعَدَ اللهُ به موسى عليه السَّلام، وإيقاظًا لأفهامِهم بأنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو مِصداقُ الصِّفاتِ التي عَلَّمَها اللهُ موسى[٢].

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ كُلِّهم: يا أيُّها النَّاسُ، إنِّي مُرسَلٌ مِن اللهِ إلى جَميعِكم؛ مِن العَرَب وغَيرِهم، ولم أُرسَلْ إلى بعضِكم دونَ بَعضٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[سبأ: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[الفرقان: ١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾[آل عمران: ٢٠].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أُعطيتُ خمسًا لم يُعطَهنَّ أحدٌ مِنَ الأنبياءِ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٤/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٨).
قال ابنُ كثيرٍ: (هذا خطابٌ للأحمَرِ والأسوَدِ، والعربيِّ والعَجَميِّ: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أي: جميعِكم، وهذا مِن شَرَفِه وعَظَمَتِه؛ أنَّه خاتَم النبيِّينَ، وأنَّه مبعوثٌ إلى النَّاسِ كافةً، .. وهو معلومٌ مِن دِينِ الإسلامِ ضرورةً؛ أنَّه- صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه- رسولُ اللهِ إلى النَّاسِ كُلِّهم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٩).

مَسيرةَ شَهرٍ، وجُعِلَت لي الأرضُ مسجدًا وطَهورًا، وأيُّما رجلٍ مِن أمَّتي أدركَتْه الصَّلاةُ فلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائِمُ، وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ كافَّةً، وأُعطِيتُ الشَّفاعةَ))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((والذي نَفسُ محمَّدٍ بِيَدِه، لا يسمَعُ بي أحدٌ مِن هذه الأمَّةِ؛ يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرسِلْتُ به، إلَّا كان من أصحابِ النَّارِ))[٢].

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: إنِّي رسولُ مَن له وَحدَه سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ وما فيهِما، وله وَحدَه تدبيرُ ذلك، والقيامُ بتَصريفِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، وحدَه دونَ ما سواه[٤].

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

---

(١) رواه البخاري (٤٣٨) ومسلم (٥٢١).

(٢) رواه مسلم (١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٨ - ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٩).

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

أي: هو وَحدَه الذي بيَدِه إحياءُ الخَلقِ وإماتَتُهم(١).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْىِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۞ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْىِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾.

مُناسبَتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا صَدَّرَ الأمرَ بخطابِ جَميعِ البَشَرِ، وكان فيهم مَن لا يؤمنُ بالله، وفيهم مَن يؤمِنُ باللهِ ولا يؤمِنُ بالنَّبيِّ الأمِّيِّ- جمعَ بين الإيمانِ باللهِ والإيمانِ بالنَّبيِّ الأمِّيِّ في طَلَبٍ واحدٍ؛ ليكونَ هذا الطَّلَبُ مُتوجِّهًا للفِرَق كُلِّهم، ليجمَعوا في إيمانِهم بين الإيمانِ باللهِ والنبيِّ الأمِّيِّ، مع قضاءِ حَقِّ التأدُّبِ مع الله بجَعلِ الإيمانِ به مُقَدَّمًا على طلَبِ الإيمانِ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ للإشارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٩ - ٢٢٠).

إلى أنَّ الإيمانَ بالرَّسولِ إنَّما هو لأجْلِ الإيمانِ بالله[١]، فقال تعالى:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾.

أي: فآمِنُوا- أيُّها النَّاسُ- باللهِ تعالى، الذي تلك صِفَتُه، وآمِنوا برَسولِه محمَّدٍ النَّبيِّ الذي لا يكتُبُ ولا يقرأُ مِن كتابٍ[٢].

﴿ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

أي: الذي يؤمِنُ بالله، ويوحِّدُه في عبادَتِه، ويؤمِنُ بكَلِماتِ اللهِ، التي منها جميعُ كُتُبِه التي أنزَلَها على رُسُلِه صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٩ - ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٩ - ٥٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢١).

قال الشِّنقيطي: (والتحقيقُ: أنَّ كَلِماتِ اللهِ أعَمُّ مِن كُتُبِه، وأنَّها لا يُحصِيها إلَّا هو جَلَّ وعلا، كما نوَّه عنها في أُخرَياتِ الكَهفِ وأُخرياتِ لُقمانَ، في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، وكلماتُ اللهِ لا يعلَمُها إلَّا اللهُ جلَّ وعلا، ولو كانت البُحورُ مِدادًا لكلماتِه لنَفِدَت البُحورُ وتلاشَت، قبل أن تنفَدَ كلماتُه جلَّ وعلا). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٣٩).

أي: واقتَدُوا -أيُّها النَّاسُ- بهذا الرَّسولِ، وأطيعوه؛ لأجلِ أن تهتَدُوا إلى الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قال تعالى: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ مَن كان يحيي ويميتُ، فهو الذي يُخافُ منه غايةَ الخَوفِ؛ لأنَّه لا يقَعُ على الإنسانِ في هذه الدَّارِ الدُّنيا حادِثٌ أعظَمُ مِن الموتِ، الذي يقطَعُه عن كُلِّ شيءٍ، ولا شيءَ أعظَمُ- مِن التصَرُّفات- مِن إحياءِ الإنسانِ بعدَ مَوتِه، والإتيانِ به حيًّا بعد أن صار عِظامًا رَميمًا- سبحانَ رَبِّنا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٢).
قال الرَّازي: (المتابعةُ تتناوَلُ المتابعةَ في القَولِ وفي الفِعلِ؛ أمَّا المتابعةُ في القَولِ فهو أن يمتثِلَ المكَلَّفُ كُلَّ ما يقولُه في طرفَي الأمرِ والنَّهي، والتَّرغيب والتَّرهيب. وأمَّا المتابعةُ في الفِعلِ فهي عبارةٌ عن الإتيانِ بمِثلِ ما أتى المتبوعُ به، سواءٌ كان في طَرَف الفِعلِ أو في طَرَف التَّركِ، فثبت أنَّ لَفظَ ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ يتناوَلُ القِسمينِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٦).
قال الشِّنقيطي: (ومعنى اتِّباعه: هو الاقتداءُ به فيما جاء به مِن عقائِدَ وأفعالٍ وأقوالٍ). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٢٢).

وخالِقِنا، ما أعظَمَه! وما أعظَمَ قُدرَتَه جلَّ وعلا! وما أظهَرَ براهينَ تَوحيدِه[١]!

٢- على الخلقِ كلِّهم اتباعُ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم فلا يعبدونَ إلا الله، ويعبدونَه بشريعةِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم لا بغيرِها، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٢].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ المقصودُ مِن ذِكرِ هذه الأوصافِ الثَّلاثة: تذكيرُ اليَهودِ، ووَعظُهم؛ حيث جحَدوا نبوَّةَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وزعموا أنَّه لا رسولَ بعد موسى، واستعظَموا دعوةَ مُحمَّدٍ، فكانوا يعتقدونَ أنَّ موسى لا يُشبِهُه رَسولٌ، فذُكِّروا بأنَّ اللهَ مالِكُ السَّمواتِ والأرضِ، وهو واهِبُ الفَضائِلِ، فلا يُستعظَمُ أن يُرسِلَ رَسولًا، ثم يُرسِلَ رَسولًا آخَرَ؛ لأنَّ المُلكَ بِيَدِه، وبأنَّ اللهَ هو الذي لا يُشابِهُه أحدٌ في ألوهِيَّتِه، فلا يكونُ إلَهانِ للخَلقِ، وأمَّا مَرتبةُ الرِّسالةِ فهي قابلةٌ للتعَدُّدِ، وبأنَّ اللهَ يحيي ويُميتُ، فكذلك هو يُميتُ شريعةً ويُحيي شريعةً أخرى، وإحياءُ الشَّريعةِ إيجادُها بعد أنْ لم تكُنْ؛ لأنَّ الإحياءَ حَقيقَتُه إيجادُ الحياةِ في الموجودِ، ثم يحصُلُ مِن هذه الصِّفاتِ إبطالُ عقيدةِ المُشركينَ بتعَدُّدِ الآلهةِ وبإنكارِ الحَشرِ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دلَّ على أنَّه لا يُشرِّعُ للخلقِ، ويأمرُهم وينهاهم، ويحرِّم عليهم إلا الملكُ، الذي هو نافذُ التصرُّفِ نفوذًا مطلقًا، وله الكلمةُ العليا، وهو فوقَ كلِّ شيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٨).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لَمَّا أثبَتَ تعالى هذه الأصولَ المذكورةَ بهذه الدَّلائِلِ المذكورةِ في هذه الآيةِ، ذكَرَ بَعدَه قولَه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وهذا التَّرتيبُ في غايةِ الحُسنِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا بيَّنَ أوَّلًا أنَّ القَولَ ببَعثةِ الأنبياءِ والرُّسُل- عليهم السَّلامُ- أمرٌ جائِزٌ مُمكِنٌ، أردَفَه بذِكرِ أنَّ مُحمَّدًا رسولٌ حَقٌّ مِن عندِ الله؛ لأنَّ مَن حاولَ إثباتَ مَطلوبٍ، وجبَ عليه أن يُبيِّنَ جوازَه أوَّلًا، ثمَّ حصولَه ثانيًا(٥).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ لَمَّا كان الإيمانُ باللهِ هو الأصلَ يتفرَّعُ عنه الإيمانُ بالرَّسولِ والنبيِّ، بدأ به، ثم أتبَعَه بالإيمانِ بالرَّسولِ، ثم أتبَعَ ذلك بالإشارةِ إلى المُعجِزِ الدَّالِّ على نبوَّتِه، وهو كونُه أميًّا، وظهر عنه من المُعجِزاتِ في ذاتِه ما ظهَرَ مِن القُرآنِ الجامِعِ لعُلومِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، مع نشأتِه في بلدٍ عارٍ مِن أهلِ العِلمِ، لم يقرأْ كتابًا ولم يخُطَّ، ولم يصحَبْ عالِمًا، ولا غابَ عن مكَّةَ غَيبةً تقتضي تعلُّمًا(٦).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ الإيمانُ باللهِ: الإيمانُ بأعظَمِ صِفاتِه، وهي الإلهيَّةُ المتضمِّنُ إيَّاها اسمُ الذَّاتِ، والإيمانُ بالرَّسولِ: الإيمانُ بأخَصِّ صِفاتِه، وهو الرِّسالةُ، وذلك معلومٌ مِن إناطةِ الإيمانِ بوَصفِ الرَّسولِ دونَ اسمِه العَلَم(٧).

٦- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ كلماتُ اللهِ تشمَلُ كُتُبَه ووحيَه للرُّسُلِ، وأوثِرَ هنا التعبيرُ بكَلِماتِه، دون كُتُبِه؛ لأنَّ المَقصودَ الإيماءُ إلى إيمانِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بأنَّ عيسى كَلِمةُ الله، أي:

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٧).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤١).

أثَرُ كَلِمَتِه، وهي أمرُ التَّكوينِ؛ إذ كان تكَوُّنُ عيسى عن غيرِ سَببِ التكَوُّنِ المُعتادِ، بل كان تكَوُّنُه بِقَولِ اللهِ: كُن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فاقتضى أنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- يُؤمِنُ بعيسى، أي: بِكَونِه رَسولًا مِن الله، وذلك قَطعٌ لِمَعذرةِ النَّصارى في التردُّدِ في الإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واقتضى أنَّ الرَّسولَ يُؤمِنُ بأنَّ عيسى كلمةُ الله، وليس ابنَ اللهِ، وفي ذلك بيانٌ للإيمانِ الحَقِّ، ورَدٌّ على اليهودِ فيما نسَبُوه إليه، ورَدٌّ على النَّصارى فيما غَلَوْا فيه[١].

بلاغةُ الآيةِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ تأكيدُ الخَبَرِ بـ(إنَّ) باعتبارِ أنَّ في جملةِ المُخاطَبينَ مُنكِرينَ ومُتَردِّدينَ، استقصاءً في إبلاغِ الدَّعوةِ إليهم[٢].

- وتأكيدُ ضَميرِ المُخاطبينَ في (إليكم) بوَصْفِ ﴿جَمِيعًا﴾ الدَّالِّ نصًّا على العُمومِ؛ لرَفعِ احتمالِ تَخصيصِ رِسالَتِه بغيرِ بني إسرائيلَ؛ فإنَّ مِن اليهودِ فريقًا كانوا يزعمونَ أنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نبيٌّ، ويزعمونَ أنَّه نبيُّ العَرَبِ خاصَّةً[٣].

٢- وتقديمُ المَجرورِ ﴿لَهُۥ﴾ في قَولِه: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ للقَصرِ، أي: لا لِغَيرِه ممَّا يعبُدُه المُشركون، فهو قَصرٌ إضافيٌّ؛ للرَّدِّ على المُشركينَ[٤].

٣- قَولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ حالٌ مِن اسمِ الجلالةِ، في قُوَّةِ (مُتفرِّدًا بالإلهيَّةِ)،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذا قَصرٌ حَقيقيٌّ؛ لتحقيقِ صِفةِ الوَحدانيَّةِ، لا لقَصدِ الرَّدِّ على المُشركينَ[١].

٤- قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ...﴾ فيه التفاتٌ؛ حيث عَدَل عن الضَّميرِ -فلم يقُل (فآمِنُوا باللهِ وبي)- إلى الاسمِ الظَّاهِر؛ لتجريَ عليه الصِّفاتُ التي أُجرِيَت عليه، ولِما في طريقةِ الالتفاتِ من البلاغةِ، ولِيُعلِمَ أنَّ الذي يجِبُ الإِيمانُ به، واتِّباعُه، هو هذا الشَّخصُ المُستقلُّ بأنَّه النبيُّ الأميُّ، الذي يؤمِنُ باللهِ وكلماتِه كائنًا مَنْ كان، أنا أو غيري؛ إظهارًا للنَّصَفةِ، وتفاديًا مِنَ العصبيَّةِ لِنَفسِه[٢].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٨٤).

الآيتان (١٥٩-١٦٠)

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾: أي: فرَّقْناهم، وأصلُ (قطع): يدلُّ على صَرمٍ، وإبانةِ شَيءٍ مِن شيءٍ[(١)].

﴿أَسْبَاطًا﴾: أي: قبائِلَ، وأصلُ (سبط): يدلُّ على امتدادِ شَيءٍ[(٢)].

﴿ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾: أي: طلَبُوا السُّقيا، والاستِسقاءُ: طلَبُ السَّقيِ، وأصلُ (سقي): إشرابُ الشَّيءِ الماءَ، وما أشبَهَه[(٣)].

﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾: أي: انفَجَرت، والبَجسُ: انشقاقٌ في قِربةٍ، أو حَجرٍ، أو أرضٍ يَنبُع منها ماءٌ[(٤)].

﴿عَيْنًا﴾: العينُ هاهنا إشارةٌ إلى المكانِ الذي ينبُعُ أو يسيلُ منه الماءُ، لا إلى الماءِ بِعَينِه، وأصلُ (عين): يدلُّ على عضوٍ به يُبصَر ويُنظَر، ثم يُشتَقُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠١)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٤)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩٩).

منه، وإنَّما سُمِّيَتْ العَيْنُ الجاريَةُ النَّابِعَةُ مِنْ عُيونِ الماءِ عَيْنًا؛ تَشْبيهًا لها بالعَيْنِ النَّاظِرَةِ؛ لصَفائِها ومائِها [١].

﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾: أي: مَوضِعَ شُربِهم، وهو مَفعَلٌ مِن الشَّرابِ، يكونُ للمَصدَرِ والزَّمان والمكانِ[٢].

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾: أي: جَعَلْناه يُظلِّلُكم، والظِّلُّ: ما أظلَّك مِن سحابٍ ونَحوِه. وأصلُ (ظلل): يدلُّ على سَترِ شَيءٍ لشَيءٍ[٣].

﴿ٱلْغَمَٰمَ﴾: جمعُ غمامةٍ، وهو سحابٌ أبيضُ، سُمِّي بذلك لأنَّه يغمُّ السَّماءَ، أي يستُرُها، وأصلُ الغَمِّ: سَترُ الشَّيءِ، وكُلُّ شيءٍ غطَّيتَه فقد غمَّمْتَه[٤].

﴿ٱلْمَنَّ﴾: شيءٌ حُلوٌ كان يسقُطُ على شَجَرِهم، فيجتَنونَه فيأكلونَه، وقيل: المنُّ مصدرٌ يَعُمُّ جميعَ ما مَنَّ اللَّه به على عبادِه مِن غيرِ تَعَبٍ ولا زَرْعٍ، وأصلُ (منن): اصطِناعُ خَيْرٍ[٥].

﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: طائِرٌ يُشبِهُ السُّمانَى، لا واحِدَ له مِن لفظِه، واشتقاقُ السَّلوى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٩٩) ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦١، ٥٩٩)

(٢) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٩٦) ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٣٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥-١٠٦)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٦٧١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧).

من السَّلوةِ؛ لأنَّه لطِيبِه يُسلِّي عن غَيرِه[١].

مشكل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾

﴿ٱثْنَتَيْ﴾ مَنصوبٌ، على أنَّه حالٌ مِن مفعولِ ﴿قَطَّعْنَاهُمْ﴾، أي: فرَّقْناهم معدودِينَ بهذا العددِ. أو يكون ﴿قَطَّعْنا﴾ متضمِّنًا معنى (صَيَّرنا)، فيَكونُ ﴿ٱثْنَتَيْ﴾ مَفعولًا ثانيًا، وتمييزُ ﴿ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ محذوفٌ لِفَهمِ المعنى، وتقديره: اثنتَي عَشرةَ فرقةً أو أمَّةً، و﴿أَسْبَاطًا﴾ بدلٌ مِن ذلك التَّمييزِ، و﴿أُمَمًا﴾: نَعتٌ لـ﴿أَسْبَاطًا﴾، أو بَدَلٌ مِنها بعدَ بدلٍ. ولم تُعرَبْ ﴿أَسْبَاطًا﴾ تمييزًا؛ لوَجهينِ؛ أحدُهما: أنَّ المعدودَ ﴿أَسْبَاطًا﴾ مُذكَّرٌ؛ لأنَّ أسباطًا جمعُ سِبْطٍ، فكان التَّركيبُ يكون (اثْنَيْ عَشَرَ). والثاني: أنَّ تمييزَ العَدَدِ المركَّب- وهو من أحدَ عَشَر إلى تسعةَ عشَرَ- مفردٌ منصوبٌ، و﴿أَسْبَاطًا﴾ جَمْعٌ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى أنَّ هناك جماعةً مِن قومِ موسى يهتدونَ بالحَقِّ الذي أنزلَه اللهُ، وبالعَدلِ يَحكمونَ، فلا يَظلمونَ النَّاسِ.

ويُخبِرُ تعالى أنَّه قسَّم قومَ مُوسى إلى اثنتي عشرةَ قبيلةً، تشمَلُ كلُّ قبيلةٍ جماعةً كثيرةً، وأوحى إلى موسى- لَمَّا طلب منه قَومُه أن يسقِيَهم، وهم في التِّيهِ- أن يَضرِبَ بعصاه الحَجَرَ، فانفجَرَت منه اثنتا عشرةَ عينًا مِن الماء، قد عَلِمَ كلُّ قبيلةٍ مِن تلك القبائِلِ العينَ التي تخصُّهم، فيشربونَ منها لا يشارِكُهم فيها

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن لمكي)) (١/ ٣٠٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٨٤-٤٨٧).

غيرُهم، وظلَّلَ اللهُ عليهم السَّحابَ في التِّيهِ يقيهِم حرَّ الشَّمسِ، وأنزل عليهم المَنَّ والسَّلوى، وأمَرَهم بالأكلِ مِن طيباتِ الرِّزقِ، فخالفوا أمر الله وعصَوه سبحانه، وَمَا ظَلَمُوا الله تعالى بفعلِهم ذلك؛ لأنَّ اللهَ لا تضرُّه معصيةُ العاصينَ، وإنما ظَلَموا بذلك أنفُسَهم.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمر اللهُ تعالى بالإيمانِ باللهِ ورسولِه، وأمر باتِّباعِه، ذكر أنَّ مِن قَومِ موسى مَن وُفِّقَ للهدايةِ، وعَدَلَ ولم يَجُرْ، ولم تكن له هِدايةٌ إلَّا باتِّباعِ شريعةِ موسى قبل مَبعَثِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وباتِّباعِ شَريعةِ رَسولِ اللهِ بعد مَبعَثِه، فهذا إخبارٌ عمَّن كان مِن قَومِ موسى بهذه الأوصافِ[1].

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: ومِن أتباعِ موسى- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مِن بني إسرائيلَ، جماعةٌ يهتدونَ بالحقِّ الذي شَرَعَه اللهُ عزَّ وجلَّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٢، ٢٤٢، ٢٤٣).

وتفسير ﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بمعنى: يهتدونَ به فيستقيمونَ عليه، ويعملون به. هو اختيارُ ابنِ جريرٍ، وابنِ عطيةَ، وابنِ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١).

وقيل معناه: يرشدونَ النَّاسَ إليه. وهذا اختيارُ الزَّجاجِ، والبغويِّ، والقرطبيِّ، والسَّعدي، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير البغوي))

كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقال جلَّ جلاله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤].

﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

أي: وبالحقِّ الذي أنزله الله تعالى يحكمونَ، وبالعَدلِ يقومونَ، فلا يظلمونَ النَّاس[(١)].

(٢/ ٢٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٢، ٢٤٢، ٢٤٣).

قال ابنُ عاشور: (وقَومُ مُوسى هم أتباعُ دِينِه مِن قَبلِ بَعثةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم، فمَن بَقِيَ متمسِّكًا بدِينِ مُوسى بعد بلوغِ دَعوةِ الإسلامِ إليه، فليس مِن قَومِ موسى، ولكِن يقال: هو مِن بني إسرائيل، أو مِن اليهودِ؛ لأنَّ الإضافةَ في قومِ موسى تؤذِنُ بأنَّهم مُتَّبِعو دينِه الذي من جملةِ أصولِه ترقُّبُ مَجيءِ الرَّسولِ الأمِّيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١).

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾.

أي: وقسَّمنا قومَ موسى- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- اثنتَي عَشرةَ قبيلةً، كلُّ قبيلةٍ عبارةٌ عن جماعةٍ كثيرةٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾.

أي: وقُلْنا لنبيِّنا موسى حينَ طلَب منه قَومُه أن يسقِيَهم ماءً، وهم في التِّيهِ: اضرِبْ بعصاك الحجَرَ(٢).

قال السعدي: (وكأنَّ الإتيانَ بهذه الآيةِ الكريمةِ فيه نوعُ احترازٍ ممَّا تقَدَّم؛ فإنَّه تعالى ذكَر فيما تقدَّمَ جملةً مِن معايبِ بني إسرائيلَ، المُنافية للكمالِ، المُناقِضة للهِدايةِ، فربَّما توهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ هذا يعمُّ جميعَهم، فذكر تعالى أنَّ منهم طائفةً مستقيمةً، هاديةً مَهدِيَّةً). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٢ - ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٨).

قال الرازي: (والمرادُ أنَّه تعالى فرَّق بني إسرائيلَ اثنتي عشرةَ فِرقةً؛ لأنَّهم كانوا مِن اثنَي عشَر رجلًا مِن أولادِ يعقوبَ، فميَّزَهم، وفعل بهم ذلك؛ لئلَّا يتحاسَدوا، فيقَعَ فيهم الهَرج والمَرج). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٣).

قال السعدي: (يحتملُ أنَّه حجَرٌ مُعَيَّن، ويحتملُ أنَّه اسمُ جنسٍ، يشمَلُ أيَّ حجرٍ كان). ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [البقرة: ٦٠].

﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.

أي: فانفجَرَت مِن الحَجَرِ الذي ضرَبَه موسى بعصاه اثنتا عشرةَ عينًا مِن الماء[١].

كما قال تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠].

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

أي: قد عرَف كُلُّ سِبطٍ- وهم بنو أبٍ واحدٍ- عينَهم التي تخرُجُ مِن الحَجَرِ، فيَشربونَ منها، ولا يشارِكُهم فيها غيرُهم مِن الأسباطِ[٢].

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾.

أي: وسَتَرْنا قومَ موسى بالسَّحابِ، يقيهِم مِن حَرِّ الشَّمسِ، وهم في التِّيهِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧].

السعدي)) (ص: ٣٠٦). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٦).

قال السَّعدي: (أي: قد قَسَمَ على كلِّ قبيلةٍ من تلك القبائِلِ الاثنتَي عشرةَ، وجَعَلَ لكلٍّ منهم عينًا، فعَلِموها، واطمأنُّوا، واستراحوا من التَّعَبِ والمُزاحمة والمُخاصَمة، وهذا مِن تَمامِ نعمةِ اللهِ عليهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٩٨) و (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٧).

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾.

أي: وأنزَلْنا على قَومِ موسى، وهم في التِّيهِ، رِزقًا طيِّبًا سَهلًا، يحصُلون عليه بلا كُلفةٍ، ولا مشقَّةٍ، وهو المَنُّ: الذي قيل: إنَّه كل ما امتنَّ الله تعالى به عليهم مِن الطَّعامِ والشَّرابِ، ممَّا ليس في تحصيلِه كلفةٌ ولا مشقَّةٌ. قيل: هو التُّرَنجَبين، وهو شيءٌ أبيضُ ينزِلُ على الشَّجَرِ كالنَّدى، حُلوٌ، يُشبِه العَسلَ الأبيض، والسَّلوى: وهو طائر، قيل: هو السُّمَانَى، وقيل: يُشبِه السُّمَانَى[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧].

وعن سعيدِ بنِ زَيدٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((الكَمْأةُ مِن المَنِّ[(٢)]))[(٣)].

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

أي: وقُلنا لقومِ موسى: كُلُوا مِن حَلالِ المُستلَذَّاتِ التي رزَقْناكم[(٤)].

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٠٤) و (١٠/ ٥٠٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (١/ ١٣٨)، ((المفردات)) للراغب الأصفهاني (ص: ٧٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٧).

(٢) الكَمأةُ: نَباتٌ لا وَرَقَ لها ولا ساقَ، تُوجَدُ في الأرضِ مِن غَيرِ أن تُزرَعَ، وتُعرَف عندَ بعضِ الناسِ بالفقع.
والمَنُّ: هو الذي أُنزِلَ على بني إسرائيلَ، وشَبَّهَ به الكَمأةَ؛ بجامِعِ ما بَينَهما من وجودِ كُلٍّ منهما عَفوًا بغيرِ عِلاجٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ١٦٣)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٧١٠).

(٣) رواه البخاري (٤٤٧٨) ومسلم (٢٠٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٨ - ٢٥٩).

أي: فعَصَوني، ولم يشكُروا نِعمَتي عليهم، وما أدخَلوا علينا بذلك نقصًا في مُلكِنا، ولم يضرُّونا، ولكن كانوا يَنقُصونَ أنفُسَهم حُظوظَها مِن الخَيرِ، ويضرُّونها بتعريضِها لاستحقاقِ عِقابي[١].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

المُكَلَّفُ إذا أقدَمَ على المعصيةِ، فهو ما أضَرَّ إلَّا نَفسَه؛ حيث سعى في صيرورةِ نَفسِه مُستحِقَّةً للعِقابِ العَظيمِ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٢].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ فالأمَمُ العظيمةُ لا تخلو مِن أهلِ الحَقِّ والعَدلِ، فهذا مِن بَيانِ القرآنِ للحَقائِقِ، وعَدْلِه في الحُكم على الأمَمِ[٣].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ لَمَّا وصَفَهم بهذه الكثرةِ في قَولِه: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾، وكان ذلك مجرى لِذِكرِ الإنعامِ عليهم بالكِفايةِ في الأكلِ والشُّربِ؛ ذكَرَ نعمةً خارقةً للعادةِ في الماءِ، وبدأ به؛ لأنَّه الأصلُ في الحياةِ[٤].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٣).

بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَ﴾، التعبيرُ بالقَومِ إشارةٌ إلى تبكيتِهم بكَونِهم أهلَ قُوَّةٍ، ولم يتأسَّوا بموسى عليه السَّلامُ، في الصَّبرِ إلى أن يأتيَ اللهُ- الذي أمَرَهم بهذا المسيرِ- بالفَرَجِ[١].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ لَمَّا أتمَّ تبريدَ الأكبادِ، أتبَعَه غذاءَ الأجسادِ[٢].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ هنا قَولٌ مُقَدَّرٌ يكثُرُ مِثلُه في التَّنزيلِ وكلامِ العَرَبِ، أي: (وقُلْنا لهم: كُلُوا من طيِّباتِ ما رَزَقْناكم)، فوُضِعَ هذا الوصفُ للمَنِّ والسَّلوى موضِعَ الضَّميرِ؛ لتعظيمِ شأنِ المنَّةِ بهما[٣].

بلاغة الآيتين:

١- قوله: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ فيه تَخصيصٌ لظاهِرِ العُمومِ الَّذي في قَولِه: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ ...﴾ قُصِدَ به الاحتراسُ؛ لِئلَّا يُتَوهَّمَ أنَّ ذلك قد عَمِلَه قومُ موسى كلُّهم، وللتَّنبيهِ على دفْعِ هذا التوهُّمِ، قَدَّمَ ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ﴾ على متعَلَّقِه. وفيه إشارةٌ إلى التَّقليلِ، وأنَّ مُعظَمَهم لا يهدي بالحَقِّ، ولا يَعدِلُ به، وهم إلى الآن كذلك؛ دخَل في الإسلامِ مِن النَّصارى عالَمٌ لا يعلَمُ عددَهم إلَّا اللهُ تعالى، وأمَّا اليَهودُ فقليلٌ مَن آمَنَ مِنهم[٤].

- وتقديمُ المجرورِ في قَولِه: ﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ للاهتمامِ به ولرعايةِ الفاصِلةِ؛ إذ لا مُقتضيَ لإرادةِ القَصرِ، بقرينة قَولِه: ﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ حيث لم يُقدِّمِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣١١).
(٤) يُنظر: ((البحر المحيط)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢).

المجرورَ[١].

- وجاء قولُه: ﴿يَهْدُونَ﴾ و﴿يَعْدِلُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ المفيدِ الاستمرارَ؛ لتصويرِ الماضي في صورة الحاضِرِ[٢].

٢- قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

- جيءَ باسمِ العَدَدِ بصيغةِ التأنيثِ في قولِه: ﴿ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾؛ لأنَّ السبطَ أُطلق هنا على الأُمَّة، فحذفَ تمييز العددِ؛ لدلالةِ قولِه: ﴿أُمَمًا﴾ عليه[٣].

- وتعريفُ الحَجَر؛ لتعظيمِ جِرمِه[٤].

- قَولُه ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكَلامُ قد حُذِفَ؛ أي: فضَرَب فانبجَسَت؛ تعويلًا على كَمالِ الظُّهورِ، وإيذانًا بغايةِ مُسارَعَتِه عليه السَّلامُ إلى الامتثالِ، وسُرعةِ التأثيرِ عن ضَربِه، وتنبيهًا على كَمالِ سرعةِ الانبجاسِ- وهو الانفجارُ، كأنَّه حصل إثرَ الأمرِ قبلَ تحقُّقِ الضَّربِ[٥].

- وقولُه هنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾، وفي سورةِ البقرةِ: ﴿فَٱنفَجَرَتْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢، ١٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٢)، وينظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٢٧).

﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، فالانبجاسُ ابتداءُ الانفجارِ، والانفجارُ بعدَه غايةٌ له، فلما كان الواقعُ فى الأعرافِ طلبَ بنى إسرائيلَ مِن موسَى عليه السلامُ السُّقيا؛ قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾، ولما كان الواردُ فى سورةِ البقرةِ طلبَ موسَى عليه السلامُ مِن ربِّه، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾ فطلبُهم ابتداءٌ، فناسَبه الابتداءُ، وطلبُ موسَى عليه السلامُ غايةٌ لطلبِهم؛ لأنَّه واقعٌ بعدَه، ومرتَّبٌ عليه، فناسب الابتداءُ الابتداءَ، والغايةُ الغايةَ، فقيل جوابًا لطلبِهم: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾، وقيل إجابةً لطلبِه: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ وتناسَب ذلك، وجاء على ما يجِبُ، ولم يكنْ ليناسبَ العكسُ[1]، وأيضًا لأنَّ الانفجارَ أبلغُ في كثرةِ الماءِ، فناسَبَ سِياقَ ذِكْرِ النِّعَمِ في سورةِ البقرةِ التعبيرُ به[2].

- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ إسنادُ الرِّزقِ إلى ضميرِ جَمعِ العَظَمةِ تأكيدٌ؛ للتَّنبيه والتَّذكيرِ بما يجِبُ مِن شُكرِه تعالى على ذلك[3].

- قَولُه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ تقديمُ المفعولِ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ لإفادةِ القصْرِ الذي يقتضيه النفيُ السَّابقُ، وفيه ضَربٌ مِن التهكُّمِ بهم. والجمعُ بين صِيغَتي الماضي والمستقبَل؛ للدَّلالةِ على تمادِيهم فيمَا هُم فيهِ من الظُّلمِ والكُفرِ[4].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل)) للغرناطي (١/ ٤٠).
(٢) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣١١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٢-٢٨٣).

الآيتان (١٦١-١٦٢)

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حِطَّةٌ﴾: أي: طَلَبُنا أن تحُطَّ عنَّا ذنوبَنا، وأصلُ الحطِّ: إنزالُ الشَّيءِ مِن علوٍّ[(١)].

﴿سُجَّدًا﴾: أي: رُكَّعًا، والسُّجُودُ أصلُه: التَّطامُن والتَّذلُّل، وجُعِلَ ذلك عبارةً عن التَّذلُّلِ لله، وعبادَتِه، وهو عامٌّ في الإنسانِ والحيواناتِ والجَماداتِ[(٢)].

﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾: جمعُ خطيئةٍ، وهي فعيلةٌ مِن الخطأِ، وهو العُدولُ عن القَصدِ والجِهةِ؛ يقال: خَطِئَ الرجلُ يَخْطَأُ خِطْأً: إذا تعمَّدَ الذَّنبَ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

واذكرُ- يا محمَّدُ- إذ قال اللهُ لِقَومِ موسى: اسكُنوا بيتَ المَقدِس، وكُلوا مِن ثِمارِها وحُبوبِها ونَباتِها في أيِّ مكانٍ شِئتُم منها، وقولوا: مسألَتُنا يا ربَّنا أن تحُطَّ ذُنوبَنا، وادخُلوا بابَ القريةِ ركَّعًا متواضعينَ خاضعينَ للهِ، نَغْفِرْ لكم ذُنوبَكم، وسنزيدُ المُحسنينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٢٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧).

فغَيَّرَ الذين ظَلَموا مِن قَومِ موسى قولًا غيرَ الذي أُمِرُوا أن يقولوه، فأرسَلَ اللهُ عليهم عذابًا مِن السَّماءِ؛ بسبَبِ ظُلمِهم لأنفُسِهم بالمعاصي.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى ما حَباهم في القِفارِ؛ أتبَعَه إنعامَه عليهم عند الوُصولِ إلى الدَّارِ، فقال سبحانه[1]:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾.

أي: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين قال اللهُ تعالى لقَومِ موسى لَمَّا خَرَجوا مِن مِصرَ: اسكنُوا مدينةَ بيتِ المَقدِس، واستوطِنُوها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ * قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).
قال الشنقيطيُّ: (وأكثرُ المفسِّرين على أنَّ هذه القريةَ هي بيتُ المقدسِ، وبعضُ المفسِّرين يقولُ: هي أَرِيحا. وبعضُهم يقولُ غيرَ ذلك، فهي قريةٌ في فلسطينَ مِن قُرَى الشَّامِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٦٠).

مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٢].

﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ ﴾.

أي: قال الله لِقَومِ موسى: وكُلُوا مِن ثِمارِ هذه القَريةِ وحُبوبِها ونَباتِها، في أيِّ مكانٍ شِئتُم منها[١].

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ ﴾.

أي: وقولوا: طَلَبُنا ومسألَتُنا- يا ربَّنا- أن تحُطَّ ذُنوبَنا[٢].

﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾.

أي: وادخُلوا بابَ القَريةِ رُكَّعًا مُنحَنينَ مُتواضِعينَ، وخاضِعينَ لله تعالى[٣].

﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡ ﴾.

أي: إذا قُمتم بما أمَرَكم اللهُ تعالى به فقُلتم: حِطَّةٌ، ودخَلْتُم بابَ القَريةِ ساجِدينَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

اختار أنَّ السُّجودَ هنا بمعنى الانحناءِ تواضعًا وخضوعًا لله تعالى: مقاتلُ بن سليمان، والسمعاني، وابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ عاشورٍ، ونسَبَ ابنُ جريرٍ لابنِ عبَّاس أنَّه انحناءُ ركوعٍ، ولم يحْكِ قولًا سواه. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٩)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٨٣)، ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ١٣٧)، ((الفتاوى الكبرى)) (١/ ٣٥٨)، ((زاد المعاد)) (٤/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧١٤).

وقيل: بل هو سُجودُ شُكرٍ لله تعالى، وهذا ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، واختاره الشِّنقيطي، وابنُ عثيمينَ، في تفسيرِهم لنظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ البَقَرة. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٤)، ((العذب النمير)) (١/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة البقرة)) (١/ ١٩٩-٢٠٠).

فإنَّنا نستُرُ جميعَ ذُنوبِكم، ونتجاوَزُ عن مؤاخَذَتِكم بها[١].

﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: سنزيدُ المُطيعينَ لله، الذين أحسَنوا أعمالَهم، وأتقَنوها بمراقبةِ اللهِ تعالى فيها، فعَبَدوه كأنَّهم يَرونَه؛ سنزيدُهم على مَغفِرَتِنا لذُنوبهم، ثوابًا مِن خيرِ الدُّنيا والآخِرة[٢].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بارزًا يومًا للنَّاسِ، فأتاه جبريلُ، فقال: ما الإحسانُ؟ قال: أن تعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٤-٢٦٦).

لم تكُنْ تراه فإنَّه يراك))[١].

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾.

أي: فغيَّرَ الظَّالمون مِن قَومِ موسى ما أمَرَهم اللهُ أن يَقولوه ليغفِرَ لهم ذُنوبَهم، فقالوا بدَلَ حِطَّة: حَبَّةٌ في شَعرةٍ[٢]!!

عن أبي هريرةَ رَضيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قيل لبني إسرائيلَ: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] فبدَّلوا، فدَخَلوا يزحَفونَ على أسْتاهِهم، وقالوا: حبَّةٌ في شَعرة))[٣].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: فبَعَثْنا على الذين بدَّلوا ما أمَرَهم الله به، عذابًا نزَلَ عليهم من السَّماءِ؛ إمَّا الطَّاعونَ، وإمَّا غيرَه[٤].

كما قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

وعن أسامةَ بنِ زيدٍ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٣) رواه البخاري (٤٦٤١)، واللفظ له، ومسلم (٣٠١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

وسلَّم: ((الطَّاعونُ رِجزٌ أو عذابٌ أُرسِلَ على بني إسرائيلَ، أو على مَن كان قَبلَكم، فإذا سَمِعتُم به بأرضٍ، فلا تَقدَمُوا عليه، وإذا وقَعَ بأرضٍ وأنتم بها، فلا تَخرُجوا فرارًا منه))[(١)].

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

أي: أرسَلْنا على قومِ موسى العذابَ؛ بسبَبِ ظُلمِهم لأنفسِهم بمعصيةِ اللهِ[(٢)].

الفَوائِد التربويَّة:

قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ العبرةُ فيه أن نتَّقيَ الظُّلمَ والفِسقَ، ونَعلَمَ أنَّ اللهَ يُعاقِبُ الأمَمَ على ذُنوبِها في الدُّنيا قبل الآخرةِ، وأنَّه قد عاقب بني إسرائيلَ بِظُلمِهم، ولم يَحُلْ دون عقابِه ما كان لهم مِن المزايا والفضائِلِ، وكثرةِ وُجودِ الأنبياءِ فيهم[(٣)].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ عبَّرَ هنا بالمجهولِ في ﴿قِيلَ﴾ أي: مِن أيِّ قائلٍ كان، وبأيِّ صيغةٍ ورَدَ القَولُ، وعلى أيِّ حالةٍ كان؛ وذلك إعراضًا عن تلذيذِهم بالخِطابِ؛ إيذانًا بأنَّ هذا السِّياقَ للغَضَبِ عليهم؛ بتساقُطِهم في الكُفرِ، وإعراضِهم عن الشُّكرِ، وإظهارًا للعَظَمةِ؛ حيث كانت أدنى

---

(١) رواه البخاري (٦٩٧٤) ومسلم (٢٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

قال أبو السُّعود: (﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ بسبَبِ ظُلمِهم المستمِرِّ السَّابِقِ واللَّاحِقِ، حسَبَما يفيدُه الجَمعُ بين صيغَتَي الماضي والمستقبَل، لا بسبَبِ التَّبديلِ فقط). ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣١٥-٣١٦).

إشارةٍ منه كافيةً في سُكناهم في البِلادِ، واستقرارِهم فيها، قاهِرينَ لأهلِها الذين مَلؤُوا قلوبَهم هيبةً[١].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔتِكُمْ﴾ جُمِعَ ﴿خَطِيٓـَٔتِكُمْ﴾ جمعَ قلَّةٍ؛ للإشارةِ إلى أنَّها قليلٌ في جَنبِ عَفوِه تعالى[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ لَمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ القائِلَ مَن له إلزامُهم، بنى الفِعلَ للمَجهولِ في قَولِه ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾[٣].

بلاغة الآيتين:

- هاتان الآيتان (١٦١-١٦٢) من سورةِ الأعرافِ، نظيرُ ما في سورةِ البَقَرةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨- ٥٩]، وفِيهما مُناسَباتٌ حَسنةٌ من وجوهٍ، وبيانُ ذلك على النحو التالي[٤]:

- عبَّرَ هنا في سورة الأعرافِ بقَولِه: ﴿ٱسْكُنُواْ﴾، وفي سورةِ البَقَرةِ بقَولِه: ﴿ادْخُلُوا﴾ لأنَّ القَولينِ قيلَا لهم، أي قيل لهم: ادخُلوا واسكُنوها. وقيل: إنَّ أمْرَهم بدخولِ القَريةِ مُغايرٌ مِن حيث المعنى لأمْرِهم بسُكناها، وإن كان

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٣٧).
(٤) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٣٦- ٤٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٧٢- ٧٤)، ((البرهان)) للزركشي (١/ ١٢٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٥- ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٤-١٤٦).

الأمرُ بدُخولِهم قد يُشيرُ بما نُسِقَ معه إلى سُكناها، لكنْ ليس نصًّا، بل ولا هو ظاهِرٌ، وإنَّ آيةَ الأعراف بيَّنَتْ ذلك، وأوضحتِ المقصودَ، وحصَل الأمرُ بالدُّخول والسُّكنى، وتبيَّنَ وجهُ ورودِ العِبارَتينِ على الترتيبِ.

- وقال هنا: ﴿وَكُلُواْ﴾ وفي سُورةِ البقرة قال: ﴿فَكُلُواْ﴾ بَحرْفِ التعقيبِ؛ لأنَّ الأكلَ لا يكونُ إلَّا بعد الدُّخولِ، ولا يكونُ قَبلَه ولا معه، وإنَّما يكونُ مرتَّبًا عليه، ولأنَّ الدُّخولَ سَريعُ الانقِضاءِ فيتبَعُه الأكلُ؛ فجيءَ بالحرفِ الذي يُبيِّنُ ذلك المعنى، ويُفيدُ أنَّه على التعقيبِ مِن غيرِ مُهلة. وأمَّا قولُه: ﴿وَكُلُواْ﴾ هنا في سورة الأعراف؛ فلأنَّ السَّكَنَ مُنجرٌّ معه الأكلُ ومُساوِقٌ له، ولا يمكِنُ أن يكونَ مُرتَّبًا عليه؛ فجاء بالحَرفِ الصَّالح لذلك المعنى، وهو الواو، والمعنى: أقيموا فيها، وذلك ممتَدٌّ؛ فذُكِرَ بالواو، أي: اجمَعوا بين الأكلِ والسُّكونِ؛ فقيل في البقرة بما يُرادِفُ فاءَ التعقيبِ؛ لأنَّ التعقيبَ معنًى زائدٌ على مُطلَقِ الجَمعِ، الذي تفيدُه واو العَطفِ في سورة الأعرافِ.

- وردَ قَولُه: ﴿رَغَدًا﴾ في البقرة، ولم يَرِدْ في الأعراف؛ وذلك لأنَّ مفهومَ السُّكنى الوارد في الأعرافِ، مع الأمرِ بالأكلِ حيث شاؤوا، مع انضمامِ معنى الامتنانِ والإنعامِ المقصودِ في الآيةِ؛ كلُّ ذلك مُشعِرٌ ومعرِّفٌ بتمادي الأكلِ، وقوَّةُ السِّياقِ مانعةٌ مِن التَّحجير والاقتصارِ؛ فحصل معنى الرَّغَد، فوقَع الاكتفاءُ بهذا المفهومِ الحاصِل قطعًا من سياقِ آيةِ الأعرافِ، ولو لم يَرِد في سورةِ البَقَرة لم يُفهَم من سياقِ الآية كفَهمِه مِن سياقِ آية الأعرافِ، وأيضًا ذَكرَ ﴿رَغَدًا﴾ في سورةِ البقرة؛ لأنَّ زيادةَ المنَّة أدخَلُ في تقويةِ التَّوبيخِ، وأيضًا لأنَّه سبحانه أسنَدَه إلى ذاتِه بلَفظِ التَّعظيمِ، وهو قولُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ بخلافِ ما في الأعراف؛ فإنَّ فيه ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾.

- واقتُصِرَ هنا على حِكايةِ أنَّه قيل لهم، وكانت آيةُ البقرةِ أَوْلى بحكايةِ ما دلَّت عليه فاءُ التَّعقيبِ؛ لأنَّ آيةَ البقرةِ سيقَت مَساقَ التَّوبيخِ، فناسَبَها ما هو أدَلُّ على المنَّةِ، وهو تعجيلُ الانتفاعِ بخَيراتِ القَريةِ، وآياتُ الأعرافِ سِيقَت لمجرَّدِ العبرةِ بقصَّةِ بني إسرائيلَ، ولأجْلِ هذا الاختلافِ مُيِّزَت آيةُ البَقَرة بإعادةِ الموصولِ وصِلَتِه في قَولِه: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا﴾، وعُوِّضَ عنه هنا بضميرِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لأنَّ القَصدَ في آيةِ البَقَرة بيانُ سببِ إنزالِ العَذابِ عليهم مرَّتين، أُشيرَ إلى أولاهما بما يومِئُ إليه الموصولُ مِن علَّةِ الحُكم، وإلى الثَّانية بحرف السببيَّةِ، واقتصَرَ هنا على الثاني.

- وقد وقع في سورة البَقَرة لفظ ﴿فَأَنزَلْنَا﴾، ووقع هنا لَفظُ ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ ولَمَّا قُيِّدَ كِلاهما بقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كان مفادُهما واحدًا، فالاختلافُ لمجرَّدِ التفنُّنِ بين القصَّتينِ، أو لأنَّ لَفظَ الرَّسولِ والرِّسالة كَثُر في الأعرافِ، فجاء ذلك وَفقًا لِما قَبلَه، وليس كذلك في سورةِ البقرةِ.

- وعبَّرَ هنا ﴿بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ وفي البقرة ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾؛ لأنَّه لَمَّا اقتضى الحالُ في القِصَّتينِ تأكيدَ وَصْفِهم بالظُّلم، وأُدِّي ذلك في البقرة بقَولِه: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾- استُثقِلت إعادةُ لَفظِ الظُّلمِ هنالك مرةً ثالثةً، فعدَلَ عنه إلى ما يُفيدُ مفادَه، وهو الفِسقُ، وهو أيضًا أعَمُّ، فهو أنسبُ بتذييلِ التَّوبيخِ، وجِيء هنا بلَفظِ ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ لئلَّا يفوتَ تسجيلُ الظُّلمِ عليهم مرةً ثالثةً، فكان تذييلُ آيةِ البَقَرة أنسبَ بالتَّغليظِ في ذمِّهم؛ لأنَّ مقامَ التَّوبيخِ يَقتضيه. وقيل: إنَّ وجهَ ذلك: أنَّه لَمَّا وُصِفَ اعتداؤُهم نِيطَت بهم أوَّلًا صفةُ الظُّلمِ، ومِن المعلومِ أنَّ مَواقِعَه تتَّسِعُ، ثُم لَمَّا ذَكَر من اعتدائِهم وسُوءِ مُرتَكَبِهم غيرَ ما تَقَدَّم، وتضاعَفَ مُوجِبُ وَبيلِ جَزائِهم- وُصِفوا بالفِسقِ المُنبئِ عن حالٍ أوبَقَ من الظُّلم، فالفِسقُ نقيضُ

الإيمانِ، وفي طَرَفٍ منه؛ كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾، والظُّلمُ قد يقعُ على أضعَفِ المعاصي، ولوقوعِه على مُختَلفاتِ المآثِم، ومُطابَقتِه لِما قلَّ أو كثُرَ منها، وُصِفَ بالعِظَمِ حين أُريدَ به الشِّركُ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾. وإذا تقرَّرَ هذا، فسياقُ آياتِ البَقَرة مِن لَدُن قولِه تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى ذِكرِ وَصْفِهم بتظليلِهم بالغمامِ؛ ذُكروا فيه أولًا بالظُّلم، فقال تعالى عَقِبَ ذِكرِ تظليلِهم بالغَمامِ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، ثم أردفَ ذِكرَ اعتدائِهم في تبديلِهم قولًا غيرَ الذي قيل لهم، وأعقَبَ بقَولِه: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾، وجَعَلَ الفِسقَ ختامَ وصفِهم الجاري؛ جزاءً على مُرتَكَباتِهم، ولم يقَعْ بعده ذِكرُ علَّةٍ مَنوطةٍ بجزاءِ ما وقعَ منهم، وأمَّا آيةُ الأعراف فهي جاريةٌ على منهجِ ما ورد في سورة البَقَرةِ، وأنَّ أوَّلَ وَصفِهم جزاءً على مُرتكَباتِهم قَولُه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾؛ فطابقَ هذا ما ورَدَ في البقرةِ مِن تَقَدُّم وصفِهم أوَّلًا بالظُّلم، ثم بعد ذلك بالفِسقِ، ووضحَ الاتِّفاقُ في ختامِ القِصَّة في السُّورتينِ مِن غيرِ اختلافٍ فيهما.

- ووقع في هذه الآية ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ ولم يقَعْ لَفظُ ﴿مِنْهُمْ ﴾ في سورةِ البَقَرة، ووجهُ زيادَتِها هنا: التصريحُ بأنَّ تبديلَ القَولِ لم يصدُرْ مِن جَميعِهم، وأجمَلَ ذلك في سورة البقرة؛ لأنَّ آيةَ البقرة لَمَّا سِيقَت مساقَ التَّوبيخ ناسَب إرهابَهم بما يُوهِمُ أنَّ الذين فعلوا ذلك هم جميعُ القَومِ؛ لأنَّ تَبِعاتِ بعض القبيلةِ تُحمَلُ على جماعَتِها؛ لأنَّ آيةَ البَقَرة يُفهَم منها

أنَّها ليست على عُمومِها، فزادت آيةُ الأعراف تخصيصًا سمعيًّا بما يعطيه حرفُ التَّبعيضِ في قولِه تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾، وآيةُ الأعراف مخَصِّصةٌ للعموم البادي من آيةِ البقرة؛ ولهذا القَصدِ من التَّخصيصِ ورد أيضًا في سورة البَقَرة: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولم يَرِدْ فيها (فأنزَلْنا عليهم)؛ لأنَّه لو ورد كذلك لكان يتناوَلُ المتقَدِّمَ ذكرُهم على التَّعميمِ، وليس مقصودًا، فناسب: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنَّ المُعَذَّب هو الظَّالم ممَّن تَقدَّم، وجاء في الأعراف: ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ لتخصيصِ ذِكرِ الظَّالمِ بقَولِه: ﴿مِنْهُمْ﴾ فجاء كلٌّ على ما يجِبُ.

- وقدَّم في سورةِ البَقَرة قَولَه: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ على قَولِه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ وعَكَسَ هنا في الأعرافِ؛ لأنَّ قولَهم: (حِطَّةٌ) دعاءٌ أُمِروا به في سُجودِهم، فلو ورد في السُّورتينِ على حدٍّ سواءٍ، لأوهَم من حيث مقتضى الواو من الاحتمالِ، أنَّهم أُمِروا بالسُّجودِ والقَولِ منفصلينِ غيرَ مُساوِقٍ أحدُهما للآخَرِ، على أحدِ مُحتمَلاتِ الواو في عدمِ الرُّتبة، فقَدَّمَ وأخَّرَ في السُّورتين؛ ليُحرِزَ المجموعُ أنَّ المرادَ بهذا القَولِ أن يكونَ في حالِ السُّجودِ لا قَبلَه ولا بَعدَه وتعيَّن بهذا معنى المعيَّةِ مِن محتَمَلات الواوِ، وتحرَّرَ المقصودُ، وأنَّ المراد: وادخلوا البابَ سجَّدًا قائلينَ في سجودكم: حِطَّةٌ، فاكتفى بتقلُّبِ الورودِ عن الإفصاحِ بمعنى المعيَّة؛ إيجازًا جليلًا، وبلاغةً عظيمةً، وقدَّم في البقرةِ الأمرَ بالسُّجودِ؛ لأنَّ ابتداءَ السُّجودِ يتقدَّمُ ابتداءَ الدُّعاءِ، ثمَّ يتساوَقُ المطلوبانِ، فجاء ذلك على التَّرتيبِ الثَّابتِ في السُّور والآياتِ.

ومن عادة العَرَب في كلامِهم: أنَّهم يقَدِّمونَ ما بيانُه أهَمُّ لهم، وهم به أعْنَى؛ فقولُه تعالى: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ مقتضاه على ما تمهَّدَ الابتداءُ بأوَّلِ الأمرَينِ، فلا يمكنُ تحصيلُ ذلك في الآيتين إلَّا بالمساوَقةِ، وكونِهما معًا

في حالةٍ واحدةٍ. وقيل: هو اختلافٌ في الإخبارِ لمُجرَّد التفنُّنِ؛ فإنَّ كِلا القولينِ واقعٌ، قُدِّم أو أُخِّر.

- وأمَّا الاختلافُ في جمعِ خطيئة في السُّورتين؛ فإنَّها تُجمَع من حيثُ ثبوتُ تاء التأنيث في الواحدةِ منها بالألفِ والتاءِ، وتُجمَع أيضًا جمع تكسيرٍ، وورد جمعُها في البقرة جمعَ تكسيرٍ؛ ليُناسِبَ ما بُنِيَت عليه آياتُ البقرة من تَعدادِ النِّعَم والآلاءِ، لأنَّ جموعَ التَّكسير- ما عدَا الأربعةَ الأبنيةِ التي هي: (أفعُل وأفعال وأفعِلة وفِعْلة)- إنما ترِدُ في الغالِبِ للكثرة؛ فطابق الوارِدُ في البَقَرة ما قُصِدَ من تكثيرِ الآلاءِ والنِّعَم، وأمَّا الجمعُ بالألف والتَّاء فبابُه القِلَّةُ في الغالِبِ أيضًا ما لم يقترِنْ به ما يبيِّنُ أنَّ المرادَ به الكثرةُ؛ فناسَب ما ورد في الأعرافِ من حيثُ لم تُبْنَ آياتُها على قَصدِ تَعَدُّد النِّعَم، على ما بُنيَت عليه آياتُ البَقَرة، ولأنَّ صِيغةَ الجَمعِ الكثيرِ ومَغفِرَتَها في قوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، أليقُ في آيةِ البقرةِ بإسنادِ الفِعلِ إلى نفْسِه سبحانَه؛ فجاء كلٌّ على ما يناسِبُ.

- وأيضًا قولُه: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه وعدٌ بشيئينِ: بالغُفرانِ، وبالزِّيادةِ، وطَرحُ الواو لا يُخلُّ بذلك؛ لأنَّه استئنافٌ مُرتَّبٌ على تقديرِ قَولِ القائِلِ: وماذا بعد الغُفرانِ؟ فقيل له: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٠).

الآيات (١٦٢-١٦٦)

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾: أي قريبةً مِن شاطِئِه، وأصلُ (حضر) إيرادُ الشَّيءِ، ووُرودُه ومُشاهَدَتُه[١].

﴿يَعْدُونَ﴾: أي: يتعَدَّون ويُجاوِزونَ ما أُمِروا به، أو يظلمونَ؛ يقال: عَدَوْتُ على فلانٍ: إذا ظَلَمْتَه، والاعتِداءُ: مُجاوزةُ الحقِّ[٢].

﴿حِيتَانُهُمْ﴾: الحوتُ: السمكُ، وقيل: العَظيمُ مِنه، وهو مُضطرِبٌ أبدًا غيرُ مُستقِرٍّ، ويقال: حاوَتَني فلانٌ، أي: راوَغَني مُراوغةَ الحُوتِ، وأصله: مِن الاضطرابِ والرَّوغانِ[٣].

﴿شُرَّعًا﴾: أي: ظاهرةً، واحِدُها شارعٌ، وأصلُ (شرع): شيءٌ يُفتَح في

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٤)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٣/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦١)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٨٣).

امتدادٍ يكونُ فيه[١].

﴿لَا يَسۡبِتُونَ﴾: أي: لا يَفعَلونَ سَبتَهم، أو لا يَدَعونَ العَملَ في السَّبتِ، وقيل: معناه: لا يقطعونَ العَمَل، وقيل: لا يكونونَ في السَّبتِ، وأصلُ السَّبتِ: القَطعُ[٢].

﴿نَبۡلُوهُم﴾: أي: نَختبرُهم ونمتَحِنُهم[٣].

﴿يَفۡسُقُونَ﴾: أي: يَخرُجونَ عَن الطَّاعةِ، وذلك مِن قولِهم: فسَقَ الرُّطَبُ، إذا خرجَ عَن قِشرِه، والفُسوق: خروجٌ مِن الطَّاعةِ إلى المعصيةِ، وخروجٌ من الإيمانِ إلى الكُفرِ[٤].

﴿تَعِظُونَ﴾: أي: تَنْهونَ وتَزجُرونَ[٥].

﴿مَعۡذِرَةً﴾: أي: لِنُعذَرَ فيهم، والعُذْرُ: تحرِّي الإنسانِ ما يمحو به ذنوبَه؛ فهو مَصدَرُ (عَذَرْت)، كأنَّه قيل: أطلُبُ منه أن يَعذِرَنِي[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٨٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠).

﴿بَئِيسٍ﴾: أي: شَدِيدٍ، والبُؤْسُ والبَأْسُ والبَأْسَاءُ: الشدَّةُ والمَكروهُ، إلَّا أنَّ البُؤسَ في الفَقرِ والحَربِ أكثَرُ، والبأسُ والبأساءُ في النِّكايةِ، وأصلُ الكَلِمةِ مِن الشِّدَّة[1].

﴿عَتَوْاْ﴾: أي: تكبَّروا وتجبَّروا، والعُتُوُّ: النبُوُّ عن الطَّاعةِ، وأَصلُه يدُلُّ على استكبارٍ[2].

﴿خَٰسِـِٔينَ﴾: أي: صاغِرينَ ذليلينَ، أو باعِدينَ ومُبعَدينَ أيضًا، والخسوءُ: الصَّغارُ والطَّردُ، ويقال: خَسَأْتُ الكَلبَ فَخَسَأَ، أي: زَجَرتُه مستهينًا به فانزجَرَ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يسألَ اليَهودَ الذين بحَضرتِه، عن القريةِ التي على شاطِئِ البَحرِ، وأن يستفسِرَهم عن اعتداءِ أهلِها يومَ السَّبتِ، ومُخالَفَتِهم لأمرِ اللهِ؛ بتعظيمِ ذلك اليومِ، والانقطاعِ للعبادةِ، وتركِ الاصطيادِ فيه، حين كانت تأتيهم الحيتانُ يومَ السَّبتِ كثيرةً ظاهرةً ومُقبلةً، وفي بقيَّةِ الأيَّامِ غَيرِ السَّبتِ لا تأتيهم، كذلك يختبِرُهم اللهُ بما كانوا يفسُقونَ.

واذكر -يا محمَّدُ- حين قالت جماعةٌ مِن أهلِ تلك القريةِ لِمَن كان يعِظُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٤٣٨).

المُعتدينَ منهم: لمَ تنهَونَ المُستحِلِّينَ للصَّيدِ يومَ السَّبتِ، واللهُ تعالى مُهلِكُهم، أو مُعذِّبُهم عذابًا شديدًا، فأجابوهم: نفعلُ ذلك مَعذِرةً إلى رَبِّكم فيما أخَذ علينا مِن الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهي عن المُنكَر، ولعلَّ هؤلاء المُعتدينَ يتَّقونَ اللهَ، ويجتنبونَ المعصيةَ، فلمَّا تَرَك المعتدونَ ما ذُكِّروا به، ولم يَقبَلوا نصيحةَ الواعظينَ؛ أنجى اللهُ الذين ينهونَ عَن المعصيةِ، وأخذَ الذينَ ظَلَموا أنفسَهم بمعصِيَتِهم لله، بعذابٍ شديدٍ نتيجةَ فِسقِهم.

فلمَّا تَمَرَّدوا وتجاوَزوا ما نُهوا عنه، وتمادَوْا في صَيدِ السَّمَكِ يومَ السَّبتِ، قال اللهُ لهم: صِيرُوا قردةً حَقيرينَ، مَطرودينَ مِن الخَيرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾.

أي: واسأَلْ- يا محمَّدُ- اليهودَ الذين بحَضرَتِك، عن خَبرِ المدينة التي كانت على شاطئِ البحرِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٠٨)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٤).

قال الشنقيطي: (قصةُ هذه القريةِ كان يُخفِيها اليهودُ؛ لأنَّها سُبَّةٌ عليهم، وإخبارُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهم بها، وسؤالُهم عنها مع أنَّه نبيٌّ أُميٌّ- مِن مُعجِزاتِه وأدلَّةِ نُبُوَّتِه؛ لأنَّه ما عَلِمَها إلَّا عن طريقِ الوَحيِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٧١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣١٦).

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾.

أي: اسألِ اليَهودَ عن اعتداءِ أهلِ تلك القريةِ في يومِ السَّبتِ، ومُخالَفَتِهم ما أمَرَهم اللهُ به مِن تعظيمِ يومِ السَّبتِ بالانقطاعِ للعِبادةِ، وتَركِ العَمَلِ، والاصطيادِ فيه[1].

كما قال سبحانه: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء: ١٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۞ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾.

أي: اسْأَلْهم حينَ اعتدى أهلُ تلك القريةِ عندما كانت الأسماكُ الكثيرةُ تَجيءُ إليهم في يَومِ السَّبتِ مُقبلةً ظاهرةً، وكثيرةً على وَجهِ البَحرِ[2].

وقال ابنُ عاشور: (هذه القصَّةُ ليست مما كُتِب في توراةِ اليَهودِ، ولا في كُتُبِ أنبيائِهم، ولكنَّها ممَّا كان مرويًّا عن أحبارِهم، ولذلك افتُتِحَت بالأمرِ بسُؤالِهم عنها؛ لإشعارِ يهودِ العَصرِ النبويِّ بأنَّ اللهَ أطلعَ نبيَّه- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- عليها، وهم كانوا يكتُمونَها.. وهذه القريةُ قيل: (أيْلَة)، وهي المسمَّاةُ اليومَ (العَقَبة)، وهي مدينةٌ على ساحِلِ البَحرِ الأحمرِ، قُربَ شِبهِ جزيرة طور سِينا، وهي مبدأُ أرضِ الشَّامِ مِن جِهةِ مِصرَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٦ - ١٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٠٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٥).

قال الرازي: (قوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ معناه: يومَ تَعظيمِهم أمرَ السَّبتِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩١).

وقال البيضاوي: (مصدَرُ (سَبَتَتِ اليهودُ): إذا عظَّمت سَبتَها بالتجَرُّدِ للعبادةِ، وقيل: اسمٌ لليومِ،

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾.

أي: وفي سائِرِ الأيَّامِ غير يومِ السَّبتِ لا تأتيهم الحِيتانُ[١].

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

أي: مِثلَ ذلك الابتلاءِ العَظيمِ الذي وصَفْنا؛ نختَبِرُهم؛ بسبَبِ خُروجِهم عن طاعةِ الله[٢].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَرتَكِبوا ما ارتكَبَت اليهودُ، فتستحِلُّوا محارِمَ اللهِ بأدنى الحِيَل))[٣].

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾.

أي: واذكُرْ[٤]- يا مُحمَّدُ- حينَ قالت جماعةٌ مِن أهلِ تلك القَريةِ لِمَن كان

والإضافةُ لاختصاصِهم بأحكامٍ فيه). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٩). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١٠)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٥).

(٣) رواه ابن بطة في كتابه ((إبطال الحيل)) (ص: ٤٦).

جوَّد إسناده ابن تيمية في ((بيان الدليل)) (٨٦)، وابن القيم في ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٥١٣)، وابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٣/ ٤٩٢)، وصححه ابن باز في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٩/ ٢٣٠).

(٤) قدَّر المحذوف هاهنا بـ(اذكر): ابنُ جرير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)،

يعِظُ المُعتَدينَ منهم: لِماذا تَنهَونَ المُستحِلِّينَ للصَّيدِ في يَومِ السَّبتِ، واللهُ سيُهلِكُهم في الدُّنيا بعذابٍ يستأصِلُهم[1]؟!

﴿أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾.

أي: أو سيعذبهم الله بعذابٍ شديدٍ[2].

((العذب النمير)) (٤/ ٢٧٩).

وقدَّره بـ(اسأل): أي: اسأَلْ بني إسرائيلَ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٩ - ٢٨٠).

قال ابنُ كثيرٍ: (يُخبِرُ تعالى عن أهلِ هذه القَريةِ أنَّهم صاروا إلى ثلاثِ فِرَقٍ: فِرقةٌ ارتكَبَت المحذورَ، واحتالوا على اصطيادِ السَّمَك يومَ السَّبت، .. وفرقةٌ نَهَت عن ذلك، وأنكَرَت واعتزَلَتْهم. وفرقةٌ سَكَتَت فلم تَفعَلْ ولم تَنهَ، ولكنَّها قالت للمُنكِرةِ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾؟ أي: لم تَنهَونَ هؤلاءِ، وقد عَلِمتُم أنَّهم هَلَكوا واستحَقُّوا العقوبةَ مِن اللهِ؟ فلا فائدةَ في نَهيِكم إيَّاهم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤). والقَولُ بأنَّهم افترَقوا ثلاثَ فِرَقٍ هو قولُ جُمهورِ المُفَسِّرينَ، كما نسبَه إليهم القُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٧).

وقال الرازي: (قوله: ﴿أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: جماعةٌ مِن أهلِ القَريةِ- مِن صُلحائِهم الذين رَكِبوا الصَّعبَ والذَّلولَ في مَوعظةِ أولئك الصيَّادينَ، حتى أيِسُوا مِن قَبولِهم- لأقوامٍ آخَرينَ ما كانوا يُقلِعونَ عَن وَعظِهم. وقوله: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ﴾ أي: مُختَرِمُهم، ومُطَهِّرُ الأرضِ منهم ﴿أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ لِتمادِيهم في الشَّرِّ، وإنَّما قالوا ذلك لِعِلمِهم أنَّ الوَعظَ لا ينفَعُهم). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٠٨ - ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٥).

قال أبو السعود: (﴿أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ دونَ الاستئصالِ بالمرةِ). ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٥).

وقال الشوكانيُّ: (قالوا ذلك على غلبةِ الظنِّ لما جرتْ به عادةُ الله مِن إهلاكِ العصاةِ، أو تعذيبِهم مِن دونِ استئصالٍ بالهلاكِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٣).

وقال أبو حيان: (يحتملُ أن يكونَ العذابُ في الدُّنيا، ويحتملُ أن يكونَ في الآخرةِ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٠٨ - ٢٠٧).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۞ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۞ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الطلاق: ٨-١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦].

وقال جلَّ جلاله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٧].

﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

أي: قال الذين يَنهونَ المُعتَدينَ عن مَعصيةِ اللهِ: نحن نعِظُهم مِن أجلِ أن نُعذَرَ عند اللهِ فيما فَرَضَ علينا مِن الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ، فلا يؤاخِذنا بالتَّقصيرِ في ذلك(١).

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بالعذابِ هنا عذابُ الآخرةِ. وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ، والزجاجِ، وابنِ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠).

قال ابنُ عاشور: (ومعنى اعتذرَ: أظهر العُذْر، والعذرُ السببُ الذي تبطلُ به المؤاخذةُ بذنبٍ أو تقصيرٍ، فهو بمنزلةِ الحجةِ التي يُبديها المؤاخَذُ بذنبٍ؛ ليظهرَ أنَّه بريءٌ مما نُسِب إليه، أو متأوِّلٌ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٢).

أي: ونَعِظُهم أيضًا رجاءَ أن تُؤَثِّرَ فيهم موعِظَتُنا، فيمتَثِلوا أوامِرَ اللهِ تعالى، ويجتَنِبوا نواهِيَه، فيكفُّوا عن اقترافِ هذا الجُرمِ العَظيمِ، وهو مخالفةُ نَهيِ اللهِ تعالى عن صَيدِ السَّمكِ يَومَ السَّبتِ[١].

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥﴾.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾.

أي: فلما تَرَكَ المُعتَدونَ ما أمَرَهم اللهُ تعالى به مِن تَعظيمِ يَومِ السَّبتِ، ولم يَقبَلوا نصيحةَ الواعظينَ[٢].

﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾.

أي: أنجَينَا مِن العَذابِ، الذين كانوا يَنهَونَ المُعتَدينَ عن ارتكابِ السيِّئاتِ، واستحلالِ المُحرَّمات[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢٤ - ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).

قال ابنُ كثير: (نصَّ على نجاةِ النَّاهينَ، وهلاكِ الظَّالِمينَ، وسكَتَ عن السَّاكِتينَ؛ لأنَّ الجَزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فهم لا يستحقُّونَ مدحًا فيُمدَحوا، ولا ارتَكَبوا عظيمًا فيُذَمُّوا). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤).

قال الشِّنقيطيُّ: (أشكَلَ على ابنِ عبَّاسٍ أمْرُ الفِرقةِ السَّاكتة التي لم ترتَكِبْ ما نُهِيَت عنه، مِن اليهودِ، هل عُذِّبُوا أو نَجَوا، حتى بيَّنَ له مولاه عكرمةُ دُخولَهم في النَّاجِينَ دُونَ المُعَذَّبينَ، وهذا هو الحَقُّ؛ لأنَّه سبحانَه قال عن السَّاكتين: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأخبرَ أنَّهم أنكَروا فِعلَهم، وغَضِبوا عَليهم، وإنْ لم يواجِهوهم بالنَّهيِ،

﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾.

أي: وأخَذْنا الذين ظَلَموا أنفُسَهم بمعصِيةِ الله، بعذابٍ شَديدٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

أي: عذَّبناهم بسبَبِ خُروجِهم عن طاعةِ اللهِ(٢).

﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾.

فقد واجَههم به مَن أدَّى الواجِبَ عنهم؛ فإنَّ الأمرَ بالمَعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَر، فَرضُ كفايةٍ؛ فلما قام به أولئك سَقَط عن الباقِينَ، فلم يكونوا ظالِمينَ بِسُكوتِهم. وأيضًا فإنَّه سبحانَه إنَّما عذَّبَ الذين نَسُوا ما ذُكِّرُوا به، وعَتَوا عمَّا نُهُوا عنه، وهذا لا يتَناوَلُ السَّاكتينَ قَطعًا). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٢٢). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٣).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٢ - ٢٨٣).

قال ابنُ جريرٍ في معنى ﴿بَـِٔيسٍ﴾: (أهلُ التَّأويلِ أجمَعوا على أنَّ مَعناه: شَديد). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢٧).

وقال ابنُ عاشور: (وقد أُجمِلَ هذا العَذابُ هنا، فقيل: هو عذابٌ غَيرُ المَسخِ المَذكورِ بَعدَه، وهو عذابٌ أُصيبَ به الذين نَسُوا ما ذُكِّروا به... أي: أنَّ اللهَ أعذَرَ إليهم، فابتَدَأهم بعذابِ الشدَّةِ، فلمَّا لم يَنتَهوا وعَتَوا، سلَّط عليهم عذابَ المَسخ. وقيل: العَذابُ البَئيسُ هو المَسخُ، فيكونُ قَولُه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ بيانًا.. بمنزلةِ التَّأكيدِ لِقَولِه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟﴾، صِيغَ بهذا الأسلوبِ؛ لتَهويلِ النِّسيانِ والعُتوِّ، ويكونُ المعنى: أنَّ النِّسيانَ- وهو الإعراضُ- وقع مقارِنًا للعتُوِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٣). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٣ - ٢٨٤).

أي: فلمَّا تَمَرَّدوا وتجاوَزوا ما نُهوا عنه، وتمادَوْا في صَيدِ السَّمَكِ يومَ السَّبتِ[(١)].

وقيل: فلمَّا تكبَّروا عن تَركِ ما نهاهم اللهُ عنه[(٢)].

قال تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٖ﴾ [الملك: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقال عز وجل: ﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ [الأعراف: ٧٧].

﴿قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

أي: فلما تمرَّدوا وتكبَّروا، قُلنا لهم: صِيرُوا قردةً حَقيرينَ، مَطرودينَ مِن الخَيرِ[(٣)].

كما قال سبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ * فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

وقال تعالى: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

---

(١) وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ، والنحاسِ، والقرطبيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢٨)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٩).
وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢٩).

(٢) وهو اختيارُ الواحديِّ، والزمخشريِّ، والرازي، وابنِ جزيٍّ، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٩/ ٤٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٥).
وممَّن قال بنحوِ هذا مِن السَّلَفِ عكرمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦ - ٦٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٥ - ٢٨٦).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

الفَوائِد التربويَّة:

١- مَن أطاعَ اللهَ تعالى خفَّفَ اللهُ عنه أحوالَ الدُّنيا والآخرةِ، ومَن عصاه ابتلاه بأنواعِ البَلاءِ والمِحَنِ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ ففِسقُهم هو الذي أوجَبَ أن يبتَلِيَهم اللهُ تعالى، وأن تكونَ لهم هذه المِحنةُ، وإلَّا فلو لم يَفسُقوا، لعافاهم الله، ولَما عَرَّضَهم للبلاءِ والشَّرِّ[(١)].

٢- العقوبةُ إذا نزلَت نجا منها الآمِرونَ بالمعروفِ، والنَّاهونَ عَن المنكَرِ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[(٢)].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الحِيَلَ في تحليلِ الأمورِ التي حرَّمَها الشَّارِعُ، مُحرَّمةٌ؛ كنِكاحِ المُحَلِّل، وما أشبَهَه مِن الحِيَلِ[(٣)].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ زاد في تَبكِيتِهم بالإشارةِ إلى المُسارعةِ في الكُفرِ، بالإضافةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٣٦٠).

في قَولِه: ﴿حِيتَانُهُمْ﴾ إيماءً إلى أنَّها مخلوقةٌ لهم، فلو صَبَروا نالوها وهم مُطيعونَ[(١)].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ جاء فيها بيانُ حِكمَتينِ مِن حِكَمِ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عَن المُنكَرِ؛ لأنَّ استقراءَ القُرآنِ دَلَّ على أنَّ الأمرَ بالمَعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ، له حِكَمٌ ثلاثٌ، تضمَّنَت هذه الآيةُ مِن تلك الحِكَمِ الثَّلاثِ اثنتينِ، أمَّا الحِكَمُ الثَّلاثُ:

فالأولى منها: أن يُقيمَ الإنسانُ عُذرَه أمامَ رَبِّه، ويَخرُجَ بذلك الأمرِ مِن عُهدةِ التَّقصيرِ في الأمرِ بالمَعروفِ؛ لِئلَّا يدخُلَ في قَولِه: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩] وهذه الحكمةُ أشاروا لها بِقَولِهم: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

الحكمةُ الثَّانيةُ: هي رَجاءُ انتفاعِ المُذَكَّرِ، كما قال هنا عنهم: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

الحكمةُ الثَّالثةُ مِن حِكَمِ الأمرِ بالمعروفِ التي لم تُذكَرْ في هذه الآيةِ الكريمةِ: هي إقامةُ الحُجَّةِ لله على خَلقِه في أرضِه نيابةً عَن رُسُلِه؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فأهلُ العِلمِ يُقيمونَ حُجَّةَ اللهِ على خَلقِه بإقامةِ الحُجَّةِ، والأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عَن المُنكَرِ، نيابةً عن الرُّسُلِ في ذلك[(٢)].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨١).

مَسَخَهم اللَّه إلى صورَةِ الْقِرَدةِ، وهي أشبهُ شيءٍ بالأناسِيِّ في الشَّكْلِ الظَّاهِرِ، وليست بإنسانٍ حقيقَةً، فكذلك أعمالُ هؤلاء وحِيَلُهم لـمَّا كانت مُشابهةً للحقِّ في الظَّاهِرِ، وَمُخالِفَةً له في الباطنِ، ولما كان الذَّنبُ الذي فعلُوه صورتُه صورةُ المباحِ، ولكنَّ حقيقتَه غيرُ مباحٍ، كَانَ جَزاؤُهم مِن جنسِ عَملِهم، فمُسِخوا قردةً، لما مسَخوا دينَ الله بحيثُ لم يتمسَّكوا إلا بما يشبهُ الدِّينَ في بعضِ ظاهرِه، دونَ حقيقتِه[١].

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾

- ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ هذا السُّؤالُ معناه التَّقريرُ، والتَّقريعُ بقديمِ كُفْرِهم وتجاوُزِهم حدودَ اللهِ، والإعلامُ بأنَّ هذا مِن عُلومِهم التي لا تُعلَمُ إلَّا بكِتابٍ أو وَحيٍ، فإذا أعلَمَهم به مَن لم يَقرأْ كِتابَهم، عُلِمَ أنَّه مِن جِهةِ الوَحيِ[٢].

- قَولُه تعالى: ﴿يَعْدُونَ﴾ اختيارُ صِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ ذلك منهم[٣].

- وقُولُه: ﴿سَبْتِهِمْ﴾ أضيفَ إلى ضَميرِهم؛ لاختصاصِه بهم بما أنَّهم يهود، تعريضًا بهم لاستحلالِهم حُرمةَ السَّبتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٤٩-١٥٠).

- قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا لجوابِ سُؤالِ مَن يَقولُ: ما فائدةُ هذه الآيةِ مع عِلمِ اللهِ بأنَّهم لا يَرعَوُونَ عَن انتهاكِ حُرمةِ السَّبتِ[١].

٢- قَولُه: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الاستفهامُ هنا إنكاريٌّ في معنى النَّفي، فيدلُّ على انتفاءِ جَميعِ العِلَلِ التي مِن شَأنِها أن يُوعَظَ لِتَحصيلِها، وذلك يُفضي إلى اليَأسِ مِن حُصولِ اتِّعاظِهم[٢].

- واسما الفاعِلِ في قَولِه: ﴿مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ﴾ مُستَعملانِ في مَعنى الاستقبالِ، بِقَرينةِ المقامِ، وبقرينةِ التَّردُّدِ بين الإهلاكِ والعَذابِ؛ فإنَّها تُؤذِنُ بأنَّ أحدَ الأمرينِ غَيرُ مُعَيَّنِ الحُصولِ، لأنَّه مُستقبَلٌ، ولكِنْ لا يخلو حالُهم عن أحَدِهما[٣].

٣- قَولُه: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ بيانٌ لإجمالِ العَذابِ البَئيسِ- على القَولِ بأنَّ العذابَ البَئيسَ هو المَسخُ- وهو بمنزلةِ التَّأكيدِ لِقَولِه: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ ...﴾ صِيغَ بهذا الأُسلوبِ لِتَهويلِ النِّسيانِ والعُتُوِّ، ويكون المعنى أنَّ النِّسيانَ- وهو الإعراضُ- وقع مُقارِنًا للعُتُوِّ؛ وما ذُكِّروا به وما نُهُوا عنه معناهما شَيءٌ واحدٌ، فكان مقتضى الظَّاهِرِ أن يُقالَ: (فلمَّا نَسُوا وعَتَوا عمَّا نهُوا عنه وذُكِّرُوا به قُلنَا لهم...)، فعدل عن مُقتضى الظَّاهِرِ إلى هذا الأسلوبِ مِن الإطنابِ؛ لتَهويلِ أمرِ العَذابِ، وتكثيرِ أشكالِه، ومقامُ التَّهويلِ مِن مُقتَضياتِ الإطنابِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥١-١٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٥٣-١٥٤).

الآيات (١٦٧-١٧٠)

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَأَذَّنَ﴾: أي: أعْلَمَ، وهو من آذَنْتُك بالأمرِ، والتأذُّنُ: مِن قَولِك: لأفعلَنَّ كذا، تريدُ به إيجابَ الفِعلِ، أي: سأفعَلُه لا محالةَ، وأصلُ (أذن): العِلمُ[1].

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: أي: جاءَ بَعدَهم، والخَلْف: الرَّدِيءُ مِن النَّاسِ ومِنَ الكلامِ، وأصلُ (خلف): مجيءُ شيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَه[2].

﴿عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾: أي: ما يَعرِضُ لهم مِنَ الدُّنيا، وقيل: الرِّشوةُ في الحُكمِ، والعَرَضُ: ما لا يكونُ له ثباتٌ، و﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾ الأمرُ الأقربُ، وهي الدُّنيا[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٢٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٦٥٩).

﴿مِّيثَٰقُ﴾: الميثاقُ: عَقدٌ مُؤكَّدٌ بِيَمينٍ وعَهدٍ، أو العَهدُ المُحكَم، وأصله: العَقدُ والإحكامُ[١].

﴿وَدَرَسُواْ﴾: أي: قَرَؤُوا، وأصلُه مِن: دَرَس العِلمَ، أي: تناوَلَ أثَرَه بالحِفظِ، ولَمَّا كان تناوُلُ ذلك بمداومةِ القِراءةِ، عبَّرَ عن إدامةِ القِراءةِ بالدَّرسِ[٢].

﴿يُمَسِّكُونَ﴾: أي: يسْتَمْسكون ويعملونَ بِه، أو: يعتصمونَ به ويَقتَدونَ بأوامِرِه، ويتركونَ زواجِرَه، وأصلُ (مسك) يدلُّ على حَبسِ الشَّيءِ أو تحبُّسِه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

واذكُرْ - يا مُحمَّدُ- حين أعلمَ ربُّك اليهودَ بما قَضاه عليهم، مِمَّا هو واقِعٌ بهم لا محالةَ، وذلك أنَّه سيُسَلِّطُ عليهم مَن يُذيقُهم أشَدَّ العذابِ، إنَّ ربَّك لَسريعُ العِقابِ، وإنَّه لغفورٌ رَحيمٌ.

ويخبِرُ تعالى أنَّه مَزَّقَ بني إسرائيلَ، فجَعَلَهم أمَمًا متفرِّقةً في أنحاءِ الأرضِ، منهم الصَّالحونَ، ومنهم دونَ ذلك، واختبَرَهم بالأحوالِ الحَسَنةِ والأحوالِ السيِّئةِ؛ لعلَّهم يرجعونَ، فجاء مِن بَعدِهم جيلُ سُوءٍ لا خيرَ فيهم، وَرِثُوا الكتابَ عَمَّن تقَدَّمَهم، يأخذونَ المالَ الحرامَ، وأضاعوا العملَ بالتَّوارة، ويقولونَ اغترارًا: سيَغفِرُ اللهُ لنا، وإن يأتِهم كَسْبٌ حرامٌ مِثلُ الأوَّلِ، يأخُذوه أيضًا؛ إصرارًا منهم على ذُنوبِهم، ألم يأخُذِ اللهُ على هؤلاءِ العَهدَ المؤكَّدَ في التَّوارةِ، بألَّا يَقولُوا على اللهِ إلَّا الحَقَّ، وقَرَءُوا ما فيها وفَهِموها، والدَّارُ الآخرةُ خَيرٌ للَّذينَ يتَّقونَ،

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٨)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣١١)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢٠)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٨٨).

أفلا يعقِلُ هؤلاء الذينَ يأخُذونَ الحَرامَ، ويُخالِفونَ كِتابَ اللهِ.

ثم أخبرَ تعالى أنَّ الذين يعتصِمونَ بكتابِ اللهِ، ويَعملونَ بما فيه، وأقاموا الصَّلاةَ، هم مِن المُصلحين، واللهُ تعالى لن يُضِيعَ أجرَ المُصلحينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى قُبحَ فِعالِهم، واستعصاءَهم؛ أخبرَ تعالى أنَّه حكَمَ عليهم بالذُّلِّ والصَّغارِ إلى يومِ القِيامةِ[1]، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾.

أي: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين أعلَمَ ربُّك اليهودَ بما قضاه عليهم، ممَّا هو واقعٌ بهم لا محالةَ[2].

ما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۞ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۞ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۞ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۞ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٠).

لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤ - ٨].

﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

أي: أعلَمَهم مُؤكِّدًا لهم بأنَّه سيُرسِلُ ويُسَلِّطُ عليهم في الدُّنيا إلى يومِ القِيامةِ مَن يُذيقُهم(١) أشدَّ العَذابِ(٢) بسبَبِ كُفرِهم وعِصيانِهم، واحتيالِهم على المَحارِمِ(٣).

---

(١) قال القرطبي: (قيل: المرادُ بُختنصَّر. وقيل: العرب. وقيل: أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو أظهَرُ؛ فإنَّهم الباقونَ إلى يومِ القيامةِ. والله أعلم). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٩).
وقال ابنُ عطية: (الصَّحيحُ أنَّها عامَّةٌ في كلِّ مَن حالُ اليَهودِ معه هذه الحالُ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧١).
وقال ابنُ كثيرٍ: (يقالُ: إنَّ موسى- عليه السَّلامُ- ضرَبَ عليهم الخَراجَ سَبْعَ سِنينَ. وقيل: ثلاثَ عَشرةَ سَنةً، وكان أوَّلَ مَن ضرَبَ الخَراجَ. ثم كانوا في قَهرِ الملوكِ مِن اليُونانيِّينَ والكشدانيِّينَ والكلدانيِّينَ، ثم صاروا إلى قَهرِ النَّصارى، وإذلالِهم إيَّاهم، وأخذِهم منهم الجزيةَ والخَراجَ، ثم جاء الإسلامُ ومحمَّدٌ- عليه أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلام- فكانوا تحت قَهرِه وذِمَّتِه يؤدُّونَ الخَراجَ والجزيةَ... ثم آخِرُ أمرِهم أنَّهم يَخرُجونَ أنصارًا للدَّجَّالِ، فيقتُلُهم المسلمونَ مع عيسى ابنِ مريمَ- عليه السَّلامُ- وذلك آخِرَ الزَّمانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨).

(٢) ذهَبَ بعضُ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ العذابَ المذكورَ هنا مرادٌ به: الجزيةُ والإذلالُ. منهم: ابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧١). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٢).
وممَّن رُوي عنه هذا القَولُ مِنَ السَّلَفِ ابنُ عَبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والسُّدِّي، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٠).
قال ابن عاشور: (ومعنى البَعثِ الإرسالُ، .. وهو يُؤذِنُ بأنَّ ذلك في أوقاتٍ مُختلفةٍ، وليس ذلك مُستمِرًّا يومًا فيومًا، ولذلك اختيرَ فِعل: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ دون نحو: (لَيُلزِمنَّهم)، وضُمِّن معنى التَّسليط فعُدِّي بعلى؛ كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ [الإسراء: ٥]، وقَولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. و﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ غايةٌ لِما في القَسَم مِن معنى الاستقبالِ... أي: أنَّ اللهَ يُسَلِّطُ عليهم ذلك في خِلالِ المُستقبَلِ كُلِّه، والبَعثُ مُطلَقٌ لا عامٌّ... والآيةُ تُشيرُ إلى وَعيدِ اللهِ إيَّاهم بأن يُسَلِّطَ عليهم عَدُوَّهم كلَّما نقَضُوا ميثاقَ اللهِ تعالى، وقد تكرَّر هذا الوعيدُ مِن عَهدِ موسى عليه السَّلامُ إلى هلمَّ جَرًّا... وأوَّلُ مَن سُلِّط عليهم بختنصَّر ملك بابل،

كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: إنَّ رَبَّك- يا مُحمَّدُ- يعاقِبُ الكُفَّارَ والعصاةَ بلا تأخيرٍ، إذا حلَّ وقتُ عَذابِهم[(١)].

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: وإنَّ ربَّك كثيرُ المغفرةِ لِعبادِه التَّائبينَ، فيستُرُ ذُنوبَهم، ولا يعاقِبُهم بها، رحيمٌ بهم؛ إذ يَقبَلُ توبَتَهم، ويتقبَّل طاعاتِهم، ويُثيبُهم عليها[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ

ثم توالت عليهم المصائِبُ، فكان أعظَمَها خرابُ (أورشليم)... ولم تَزَل المصائِبُ تنتابهم، ويُنَفَّسُ عليهم في فَتَراتٍ معروفةٍ في التَّاريخِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٥ - ١٥٦).

وقال الشنقيطيُّ: (وفي هذه الآيةِ مِن سورة الأعراف تأذَّنَ اللهُ وأعلَمَ أنَّه سَلَّط عليهم مَن يَسومُهم سُوءَ العَذابِ، إلَّا أنَّهم يَرُدُّ اللهُ لهم الكرَّةَ حتى يجتمِعُوا ويكونوا أمَّةً؛ لأنَّهم لو بَقُوا مُقَطَّعينَ في الأرضِ، لن تقومَ لهم قائمةٌ -كما قال: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨]- ولم يكُنِ العذابُ والهلاكُ، ولم يجِدْ مَوقعًا يقَعُ عليه، فصار مِن عادةِ اللهِ أن يرُدَّ لهم الكرَّةَ، ويجعَلَهم أمَّةً حتى يكونوا أمَّةً فيُسَلِّطَ عليهم مَن يُعَذِّبُهم؛ ليكونَ العَذابُ واقعًا مَوقِعَه). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٦-١٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٣).

﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٦٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أخبرَ الله تعالى بالتأذُّنِ، كان كأنَّه قيل: (فأسرَعْنا في عقابِهم بذنوبِهم، وبعثْنا عليهم مَن سامَهم سوءَ العذابِ بالقتل والسبي)، فعَطَف عليه قولَه: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾- أي: بسبَبِ ما حصل لهم مِن السَّبيِ المترتِّبِ على العذابِ- تقطيعًا كثيرًا، بأنْ أكثَرْنا تَفريقَهم[(١)].

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾.

أي: ومزَّقْنا بني إسرائيلَ في أقطارِ الأرضِ، إلى جماعاتٍ مُتفرِّقةٍ؛ بحيثُ لا تَخلو ناحيةٌ من الأرضِ مِنهم[(٢)].

﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

أي: مِن بني إسرائيلَ الصَّالحونَ الذين يُؤمِنونَ باللهِ ورُسُلِه، ومنهم مَن انحطَّت رُتبَتُهم عن مَرتبةِ الصَّلاحِ، فكانوا عُصاةً مُذنبينَ، أو كَفرةً مُجرمينَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٥).

قال ابنُ جريرٍ: (وإنَّما وَصَفَهم اللهُ جلَّ ثناؤه بأنَّهم كانوا كذلك، قبلَ ارتدادِهم عن دِينِهم وقبلَ كُفرِهم برَبِّهم، وذلك قبلَ أن يُبعَثَ فيهم عيسى بنُ مريمَ صَلواتُ اللهِ عليه). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧١).

وقال الشنقيطي: (﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ منهم قَومٌ صالِحونَ مُطيعونَ للهِ، وهمُ الذين كانوا على شَرعِ موسى بنِ عِمران، لم يُغَيِّروا ولم يُبَدِّلوا حتى ماتوا على ذلك، أو أدرَكُوا محمَّدًا

كما قال تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وقال سبحانه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤].

﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

أي: واختبَرْنا بني إسرائيلَ بالأحوالِ الحَسَنةِ؛ كالرَّخاءِ والخِصبِ والعافيةِ تارةً، وبالأحوالِ السيِّئةِ؛ كالشِّدَّةِ والجَدْبِ والأمراضِ تارةً أخرى[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

صلَّى الله عليه وسلم فآمَنُوا به، كعبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٥ - ٢٩٦).
قال ابن عاشور: (أي أظهَرْنا مختلِفَ حالِ بني إسرائيلَ في الصَّبرِ والشُّكرِ، أو في الجَزَعِ والكُفرِ؛ بسببِ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٨).

أي: اختبَرْنا بني إسرائيلَ بالخَيرِ والشَّرِّ؛ ليتُوبُوا ويَرجِعوا عن مَعصيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلى طاعَتِه[١].

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾.

أي: فجاء بعد أولئكَ القَومِ- الَّذينَ كان منهم صالِحونَ، ومِنهم دونَ ذلك- جيلُ سُوءٍ لا خير فيه، قد أخَذُوا التَّوراةَ مِن أسلافِهم، وعَلِمُوا ما فيها مِن الأحكامِ[٢].

﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ ﴾.

أي: إنَّ خَلْفَ السُّوءِ- الَّذين وَرِثُوا التَّوراة- يأخذونَ المالَ الحَرامَ؛ مِن الرِّشوةِ وغَيرِها مِن مَتاعِ الدُّنيا الزَّائل، وأضاعوا العَمَل بالتَّوراةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٦-٢٩٧).
ظاهِرُ كلامِ ابنِ جَريرٍ، واختيارُ ابن كثير؛ أنَّ المرادَ بِقَولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بعدِ الجِيلِ الذينَ منهم الصَّالحون، ومنهم دونَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨).
وقيل بل المرادُ: مِن بَعدِ القَومِ الصَّالحينَ مِن بني إسرائيلَ، وهذا اختيارُ الرازي، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٥)، ((العذب النمير)) (٤/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٨-٢٩٩).
قال ابنُ عاشورٍ: (والعَرَض -بفتح العين وفتح الراء- الأمرُ الذي يَزولُ ولا يدومُ، ويُرادُ به

كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۞ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٩-٨٠].

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

أي: ويقولُ هؤلاءِ الَّذينَ يأخُذونَ المالَ الحَرامَ، ويُخالِفونَ كِتابَ اللهِ تعالى، يقولونَ- اغترارًا وتمنِّيًا على اللهِ الباطِلَ-: سيغفِرُ اللهُ لنا ذُنوبَنا هذه[1].

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾.

أي: وإن جاء أولئك اليهودَ كَسبٌ حرامٌ مِن متاعِ الدُّنيا الزائِلِ، مِثل الكَسبِ السَّابِقِ؛ استَحَلُّوه، وتناوَلُوه مَرَّةً ثانيةً؛ إصرارًا منهم على ذُنوبِهم، فهم مُنهَمِكونَ في أخذِ الحَرامِ، ومع هذا يزعُمونَ أنَّ اللهَ تعالى يَغفِرُ لهم[2]!

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

أي: ألم يأخُذِ اللهُ على أولئك اليَهودِ- الذينَ وَرِثُوا التَّوراةَ، وأكلوا تلك المكاسِبَ الخبيثةَ- العهدَ المؤكَّدَ في التَّوراةِ بأن يُبيِّنوا الحقَّ للنَّاسِ، ولا يَكذِبوا

المالُ، ويُراد به أيضًا ما يَعرِضُ للمرءِ مِن الشَّهواتِ والمنافِعِ، والأدنى: الأقرَبُ مِن المكانِ، والمرادُ به هنا الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠١).

قال السَّعدي: (هذا قولٌ خالٍ مِن الحقيقةِ؛ فإنَّه ليس استغفارًا وطلبًا للمَغفرةِ على الحقيقةِ. فلو كان ذلك لنَدِموا على ما فَعَلوا، وعَزَموا على ألَّا يعودوا، ولكنَّهم -إذا أتاهم عَرَضٌ آخَرُ، ورِشوةٌ أخرى- يأخذونَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠١).

على اللهِ سُبحانَه[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾.

أي: والحالُ[٢] أنَّهم قد قَرَؤوا كتابَ اللهِ، وعَلِموا ما فيه، وفَهِموا معانِيَه[٣].

﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: وما أعدَّه اللهُ تعالى في الآخرةِ مِن ثوابٍ ونعيمٍ، خيرٌ للَّذين يمتَثِلونَ ما أمرَ اللهُ تعالى به، ويجتنبونَ ما نهى عنه، من هذا الحُطامِ الدُّنيويِّ الفاني،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٢-١٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢).

(٢) هذا اختيارُ الشَّوكاني والسَّعدي؛ أنَّ الجملةَ حاليَّةٌ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).

وذهب الزمخشريُّ، وابنُ عطية، وابنُ عاشور إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ معطوفٌ على ﴿يُؤْخَذْ﴾ مِن قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾، فيكون المعنى: ألم يؤخَذْ عليهم... وألم يَدرُسوا ما فيه. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٣). ويُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٣/ ٤٨٨).

وقال ابنُ جرير: (وأمَّا قَولُه: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ فإنَّه مَعطوفٌ على قَولِه: ﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ومعناه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٠).

قال ابنُ عطيَّةَ مُعَقِّبًا: (وفي هذا نظَرٌ؛ لِبُعدِ المعطوفِ عليه؛ لأنَّه قوله: ﴿وَدَرَسُواْ﴾ يزولُ منه معنى إقامةِ الحُجَّةِ بالتقديرِ الذي في قَولِه: ﴿أَلَمْ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٣).

أفلا يكونُ لكم عَقلٌ- يا من تأخُذونَ الحرامَ، وتُخالِفونَ كِتابَ الله- تنظرونَ به إلى العَواقِبِ، فتعلمونَ أنَّ ما عِندَ الله خيرٌ مِن هذا العَرَضِ القَليلِ الزَّائلِ الذي تستعجِلونَه في الدُّنيا، وترتَدِعونَ به عن التَّهافُتِ على هذا الكَسبِ الحَرامِ المُورِث لخزي الدُّنيا والآخرةِ(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

وقال سبحانَه: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

وقعَت جملةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ ...﴾ إلى آخِرِها عقِبَ التي قَبلَها؛ لأنَّ مَضمونَها مُقابِلُ حُكمِ التي قَبلَها؛ إذ حصل مِن التي قَبلَها أنَّ هؤلاءِ الخَلْفَ الذين أخَذُوا عَرَض الأدنى، قد فرَّطوا في مِيثاقِ الكِتابِ، ولم يكونوا مِن المتَّقينَ، فعقَّبَ ذلك ببشارةِ مَن كانوا ضِدَّ أعمالِهم، وهم الآخِذونَ بمِيثاقِ الكِتابِ، والعامِلونَ ببِشارَتِه بالرُّسُل، وآمَنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأولئك يستكمِلونَ أجرَهم؛ لأنَّهم مُصلِحونَ(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).
قال ابنُ عاشور: (وجملةُ: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ حاليَّةٌ مِن ضميرِ ﴿يَأۡخُذُونَ﴾ أي: يأخذونَ ذلك، ويَكذِبونَ على اللهِ، ويُصِرُّونَ على الذَّنبِ، ويَنبِذونَ مِيثاقَ الكِتابِ، على علمٍ، في حالِ أنَّ الدَّارَ الآخرةَ خَيرٌ مِمَّا تعجَّلوه). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٤).

أي: والَّذينَ يعتَصِمونَ بكِتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويَعملونَ بما فيه[١].

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وحافَظُوا على الصَّلاةِ، وأقامُوها بحدُودِها[٢].

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

أي: فمَن تمسَّك بالكِتابِ، وأقام الصَّلاةَ، فهو مِن المُصلحينَ، الذين يُصلِحونَ أنفُسَهم وأعمالَهم، ويُصلِحونَ غَيرَهم، ونحنُ لا نُضيعُ ثوابَهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).

قال السمعاني: (قيل: هذا في أمَّة مُحَمَّد. وَقيل: هو فيمَن أسلَمَ من اليَهودِ، يُمَسِّكونَ بالقرآنِ، وأقاموا الصَّلاةَ). ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٢٩).

وقال ابنُ عاشور: (فالمرادُ مِن هؤلاءِ هم مَن آمَنَ مِن اليهودِ بعيسى في الجُملةِ، وإن لم يتَّبِعوا النَّصرانيَّة؛ لأنَّهم وجدوها مُبدَّلةً مُحرَّفةً، فبَقُوا في انتظارِ الرَّسولِ المُخَلِّص الذي بشَّرَت به التوراةُ والإنجيلُ، ثمَّ آمنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين بُعث: مثل عبد الله بن سَلَام، ويحتمِلُ أنَّ المرادَ بالَّذين يُمسِّكونَ بالكِتابِ: المسلمونَ؛ ثناءً عليهم بأنَّهم الفائزونَ في الآخِرةِ، وتبشيرًا لهم بأنَّهم لا يَسلُكونَ بكِتابِهم مَسلَكَ اليَهودِ بكِتابِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٤ - ١٦٥). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ قلَّما ذكَرَ اللهُ عذابَ الفاسِقينَ المُفسدينَ، إلَّا وقَرَنه بذِكرِ المغفرةِ والرَّحمةِ للتَّائبينَ المُحسنينَ، حتى لا ييأسَ صالحٌ مُصلِحٌ مِن رَحمَتِه بذَنبٍ عَمِلَه بجهالةٍ، ولا يأمَنَ مُفسِدٌ مِن عِقابِه؛ اغترارًا بِكَرمِه وعَفوِه، وهو مُصِرٌّ على ذَنبِه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ كلُّ واحدٍ مِن الحَسَناتِ والسيِّئاتِ يدعو إلى الطَّاعةِ، أمَّا النِّعَمُ فلأجْلِ التَّرغيبِ، وأمَّا النِّقَمُ فلأجلِ التَّرهيبِ[٢].

٣- ما أعَدَّه اللهُ في الآخرةِ للَّذينَ يتَّقونَ الرَّذائِلَ والمعاصيَ، خيرٌ مِن الحُطامِ الفاني مِن عَرَضِ الدُّنيا؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[٣].

٤- قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ هذه الآيةُ وإن كانَت في اليهودِ، فكُلُّ مَن فَعَل فِعلَهم فهو أخُوهم، ينالُه مِن وَعيدِها وعذابِها ما نالَهم، فيجِبُ على المُسلمِ إذا كان في مَنصِبٍ يُوصَلُ فيه الحقُّ لصاحِبِه بإنابةِ مَن بَسَط اللهُ يَدَه، ألَّا يُغَيِّرَ أحكامَ اللهِ، ويأخُذَ الرِّشا بدلًا منها؛ فإنَّه إن أخذَ الرِّشوةَ وغَيَّرَ وبدَّلَ، فهو أخو اليَهودِ، وهو مِن هذا الخَلْفِ السَّيِّئِ القبيحِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٩).

٥- إذا ما وُجدَ مُسلِمٌ أو من يَدَّعي أنَّه مُسلِمٌ، ينتَهِكُ حُرُماتِ اللهِ، ويُصِرُّ ويثِقُ بالمغفرةِ؛ فاعلَمْ أنَّه مغرورٌ، وأنَّه أخو اليهودِ؛ قال تعالى عنهم: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا ﴾[1].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ قَد عُلِمَ من الآيةِ أنَّ الطَّمَعَ في متاعِ الدُّنيا هو الذي استحوَذَ على بني إسرائيلَ، فأفسَدَ عليهم أمْرَهم، ولا يزالُ هذا التَّفاني فيه أخَصَّ صفاتِهم، وقد سرى شيءٌ كثيرٌ مِن هذا الفَسادِ إلى المُسلمينَ، حتى أولئك الذين وَرِثُوا الكتابَ الكَريمَ، والقرآنَ الحَكيمَ، ودَرَسوا ما فيه، غَلَب على كثيرٍ منهم الطَّمَعُ في حُطامِ الدُّنيا القليلِ، وعَرَضِها الدَّنيءِ، والغُرورُ بالنِّسبةِ إلى الإسلامِ والتَّحلِّي بلَقَبِه، والتعَلُّلُ بأماني المغفرةِ، مع الإصرارِ على الذَّنبِ، والاتِّكالِ على المُكَفِّراتِ والشَّفاعات، وهم يَقرَؤونَ ما في الكتابِ مِن النَّهيِ عن الأمانيِّ والأوهامِ، ومِن نَوْطِ الجزاءِ بالأعمالِ، والمغفرةِ بالتَّوبةِ والإصلاحِ، وكَونِ الشَّفاعةِ لا تقَعُ إلَّا بإذنِ اللهِ لِمَن رَضِيَ عنه، بل ما قَصَّ اللهُ علينا مِثلَ هذه الآياتِ مِن أخبارِ بني إسرائيلَ إلَّا لنَعتبِرَ بأحوالِهم، ونتَّقِيَ الذُّنوبَ التي أخَذَهم بها، ولكِنَّنا مع هذا كُلِّه اتَّبَعْنا سُنَنَهم شبرًا بشِبرٍ، وذراعًا بذِراعٍ[2].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي: يُمسِكونَ إمساكًا شديدًا يتجَدَّدُ على وجهِ الاستمرارِ، وهو إشارةٌ إلى أنَّ التمَسُّكَ بالسُّنَّةِ في غاية

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٢٣).

الصعوبةِ، لا سيَّما عند ظُهورِ الفَسادِ[١].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ اللهَ بعَثَ رُسُلَه- عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- بالصَّلاحِ لا بالفَسادِ، وبالمنافِعِ لا بالمضارِّ، وأنَّهم بُعِثوا بصلاحِ الدَّارَينِ، فكلُّ من كان أصلَحَ، كان أقرَبَ إلى اتِّباعِهم[٢].

٩- في التعبيرِ بقولِه: ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ تَمْسيكَهم للكتابِ يتجاوزُ الإمساكَ إلى الدعوةِ إليه[٣].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ...﴾ المقصودُ هو ذَمُّ الخَلْفِ بأنَّهم يأخُذُونَ عَرَضَ الأدنى، ويقولونَ سيُغفَرُ لنا، ومَهَّدَ لذلك بأنَّهم وَرِثُوا الكتابَ؛ ليَدُلَّ على أنَّهم يفعلونَ ذلك عَن عِلمٍ لا عَن جهلٍ، وذلك أشَدُّ مَذمَّةً[٤].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لَمَّا كان النَّافِعُ الغفرانَ مِن غَيرِ نَظَرٍ إلى مُعيَّنٍ، بنَوُا الفِعلَ للمَفعولِ، ومن غيرِ شَكٍّ[٥].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم﴾ بنى الفِعلَ للمَفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّ العَهدَ يَجِبُ الوفاءُ به على كلِّ حالٍ[٦].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لَمَّا كان مِن تَمسيكِهم بالكتابِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٧).
(٣) يُنظر: ((زهرة التفاسير)) لأبي زهرة (٦/ ٣٠٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٠).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٤٧).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٤٨).

عند نُزولِ هذا الكلامِ انتقالُهم عن دِينِهم إلى الإسلامِ؛ عَبَّرَ عن إقامةِ الصَّلاةِ المعهودةِ لهم بلَفظِ الماضي دونَ المُضارعِ؛ لِئلَّا يَجعلُوه حجَّةً في الثَّباتِ على دينِهم، فيُفيدَ ضِدَّ المرادِ[١].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾

- قوله: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ ما يَصنَعونَ بالكِتابِ بَعدَ وِراثَتِهم إيَّاه، أي: يأخُذونَ حُطامَ هذا الشَّيءِ الأدنى، أي: الدُّنيا[٢].

- قَولُه: ﴿عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ في اسمِ الإشارةِ إيماءٌ إلى تَحقيرِ هذا العَرَضِ الذي رَغِبُوا فيه[٣].

- قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿يَأۡخُذُونَ﴾ لأنَّ كِلَا الخَبَرينِ يُوجِبُ الذَّمَّ، واجتماعُهما أشَدُّ في ذلك[٤].

- قَولُه: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الاستفهامُ للتَّقريرِ المقصودِ منه التَّوبيخُ[٥].

- قوله: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ كنايةٌ عَن كَونِهم خَسِروا خيرَ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٦٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآخرةِ بأخذِهم عَرَضَ الدُّنيا بتلك الكيفيَّةِ؛ لأنَّ كَونَ الدَّارِ الآخرةِ خَيرًا مِمَّا أَخَذُوه، يستلزِمُ أن يكونَ ما أَخَذُوه قد أفات عليهم خَيرَ الآخرةِ[١].

- وفي جَعْلِ الآخرةِ خيرًا للمُتَّقينَ كنايةٌ عن كَونِ الذين أَخَذُوا عَرَضَ الدُّنيا بتلك الكيفيَّةِ لم يكونوا مِن المتَّقينَ؛ لأنَّ الكنايةَ عَن خسرانِهم خَيرَ الآخرةِ، مع إثباتِ كَونِ خَيرِ الآخرةِ للمُتَّقينَ، تستلزِمُ أنَّ الذينَ أضاعوا خَيرَ الآخرةِ لَيسُوا من المتَّقينَ[٢].

- قَولُه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهامُ هنا إنكاريٌّ، وفي (تَعْقِلُونَ) التفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخطابِ؛ ليكونَ أوقَعَ في توجيهِ التَّوبيخِ إليهم مُواجهةً[٣].

٢- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ خصَّ الصَّلاةَ بالذِّكرِ، مع دُخُولِها فيما قبلَها، فالتمسُّكُ بالكتابِ يشتَمِلُ على كلِّ عبادةٍ، ومنها إقامةُ الصَّلاةِ؛ إظهارًا لعُلُوِّ مَرتَبَتِها؛ لكونِها عمادَ الدِّينِ، وأعظَمَ العباداتِ بعد الإيمانِ، وناهيةً عن الفحشاءِ والمُنكَرِ، ولِكَونِها ميزانَ الإيمانِ، وإقامَتِها داعيةً لإقامةِ غَيرِها مِن العِباداتِ[٤].

- قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ خبرٌ عن ﴿الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾، والمُصلِحونَ هم، والتقديرُ: إنَّا لا نُضيعُ أجرَهم؛ لأنَّهم مُصلِحونَ، فطُوِيَ ذِكرُهم؛ اكتفاءً بشُمولِ الوَصفِ لهم، وثناءً عليهم، على طريقةِ الإيجازِ البَديعِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٦٣، ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٥)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٦-٣٩٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٤).

الآيات (١٧١-١٧٤)

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾: أي: قَلَعْناه مِن أَصلِه، ورَفَعْناه فوقَهم، أو زعزَعْناه؛ يُقالُ: نتَقَ الشيءَ: جذبَه، ونزَعَه حتى يسترخِيَ[(١)].

﴿ظُلَّةٌ﴾: الظُّلَّة: مَا غطَّى وسترَ، وأصلُ (ظلل) يدلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشيءٍ[(٢)].

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الذُّرِّيَّة: الأولادُ وأولادُ الأولادِ، و(ذُريَّة) مأخوذةٌ مِن (ذَرَأَ)، أي: خَلَق؛ لأنَّ الذُّريَّة خَلْقُ اللهِ؛ يُقال: ذَرَأ اللهُ الخَلْقَ، أي: خَلَقَهم فهو يَذْرَؤُهم، وتُرِكتِ الهَمزةُ فيها؛ لكثرةِ ما يُتكلَّم بِها[(٣)].

﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: أي: الآخِذونَ بالباطِلِ. والبَاطِلُ: نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

ثباتَ له عند الفَحصِ عنه، وأصلُه: ذهابُ الشَّيءِ، وقلَّةُ مُكثِه ولُبثِه[١].

المَعنى الإجماليُّ:

واذكُر- يا محمَّدُ- حين اقتلَعْنا الجبلَ، فرَفَعْناه فوقَ بني إسرائيلَ كأنَّه سحابةٌ تُظِلُّهم، وظنُّوا أنَّه ساقِطٌ عليهم، وقُلْنا لهم: اعمَلوا بما آتيناكم في التَّوراةِ بجِدٍّ واجتهادٍ، واذكروا ما فيه، لعلَّكم تتَّقونَ اللهَ ربَّكم بالعَملِ به.

واذكُرْ- يا محمَّدُ- حين استخرجَ ربُّك من ظهورِ بني آدمَ ذُرِّيَّتَهم، وأشهَدَهم على أنفُسِهم، فقال لهم: ألستُ بربِّكم؟ قالوا: بلى شَهِدْنا، وكان إشهادُهم على أنفُسِهم كراهةَ أن يُنكِروا يومَ القيامةِ، ويقولوا: إنَّه لا عِلمَ لنا بأنَّ اللهَ هو الرَّبُّ المعبودُ بحَقٍّ وَحدَه لا شريكَ له، أو يقولوا: إنَّما حصل الشِّركُ مِن آبائنا قبل زَمانِنا، وكنَّا ذريَّةً من بَعدِهم، فاقتدَينا بهم عن جَهلٍ، أفتُهلِكُنا بما فعل آباؤُنا الذين أتَوا بالباطِلِ، وتَرَكوا التَّوحيدَ؟!

ثم بيَّنَ تعالى أنَّه كما وضَّحَ هذه الآياتِ، يوضِّحُ أيضًا غيرَها من آياتِ القُرآنِ الكريمِ؛ لكي يهتديَ بها النَّاسُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾.

أي: واذكُر- يا مُحمَّد- حين اقتَلَعْنا جبلَ الطُّورِ، فرَفَعْناه فوقَ بني إسرائيلَ، كأنَّه سحابةٌ تُظِلُّهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩- ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٠).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي))

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

وقال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤].

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾.

أي: وغلَبَ على ظَنِّهم أنَّ الجَبلَ ساقِطٌ عليهم[(١)].

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾.

أي: وقُلْنا لهم: خُذوا ما أعطيناكم في التَّوراةِ، فاقبَلوه، واعمَلُوا به بجِدٍّ واجتهادٍ، من غيرِ تقصيرٍ ولا تفريطٍ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

أي: وقُلْنا لهم: واذكروا ما في التَّوراةِ مِن العقائِدِ والأوامِرِ والنَّواهي، وتدارَسُوها؛ كي تتَّقوا ربَّكم بالعَمَل بها[(٣)].

(٧/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٥).

قال السعدي: (﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ حين امتنعوا مِن قَبول ما في التَّوراة، فألزَمَهم اللهُ العمل، ونتَقَ فوق رؤوسهم الجبل). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨).

(١) يُنظَر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٨).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٦).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨).

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

أي: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين استخرجَ ربُّك ذريَّةَ بني آدَمَ، بَعضَهم من ظهورِ بَعضٍ، وأخرَجَ جميعَ ذلك من صُلبِ آدَمَ في صورةِ الذَّرِّ؛ ليأخُذَ عليهم العَهدَ[1].

---

(١) وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبيُّ، والشوكانيُّ، والشنقيطيُّ، ونسبه إلى جمهورِ السَّلف. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٦، ٥٥٢- ٥٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاس، وعبدُ الله بنُ عمرٍو، وأبيُّ بنُ كعبٍ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، وعطاءٌ، ونضرُ بنُ عربي، والضحَّاكُ، والسُّديُّ. ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٧، ٥٦٠).

قال الواحدي: (قال أبو بكر بن الأنباري: مذهبُ أصحاب الحديثِ، وكبراءِ أهلِ العِلمِ في هذه الآيةِ؛ هو: أنَّ الله عزَّ وجلَّ أخرج ذريَّاتِ آدمَ مِن صُلبِه وأصلابِ أولادِه، وهم في صُوَرِ الذَّرِّ، وأخذ عليهم الميثاقَ أنَّه خالِقُهم وأنَّهم مصنوعونَ، فاعترفوا بذلك وقَبِلوا، وذلك بعد أن ركَّبَ فيهم عقولًا، عرَفوا بها ما عَرَضَ عليهم). ((البسيط)) (٩/ ٤٤٨).

وقال الرازي: (ظاهِرُ الآيةِ يدلُّ على أنَّه تعالى أخرج الذَّرَّ مِن ظُهورِ بني آدمَ، فيُحمَلُ ذلك على أنَّه تعالى يعلَمُ أنَّ الشَّخصَ الفُلانيَّ يتولَّدُ منه فلانٌ، ذلك الفلانُ فلانٌ آخر، فعلى الترتيبِ الذي عَلِمَ دخولَهم في الوجودِ يُخرِجُهم، ويميِّزُ بَعضَهم من بعض، وأمَّا أنَّه تعالى يُخرِجُ كلَّ تلك الذريَّة مِن صُلبِ آدَمَ، فليس في لفظِ الآيةِ ما يدلُّ على ثُبوتِه، وليس في الآيةِ أيضًا ما يدلُّ على بُطلانِه، إلَّا أنَّ الخبرَ قد دلَّ عليه، فثبت إخراجُ الذريَّةِ مِن ظهورِ بني آدَمَ بالقرآن، وثبت إخراجُ الذريَّةِ مِن ظَهرِ آدمَ بالخَبرِ، وعلى هذا التقديرِ: فلا منافاةَ بين الأمرينِ ولا مدافعةَ، فوجب المصيرُ إليهما معًا). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٠٢).

وقال البغوي: (فإن قيل: ما معنى قَولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ وإنَّما أخرَجَهم مِن ظهرِ آدَمَ؟ قيل: إنَّ الله أخرجَ ذريَّةَ آدمَ بَعضَهم من ظهورِ بَعضٍ، على نحو ما يتوالَدُ الأبناءُ مِن الآباءِ في الترتيبِ، فاستُغنيَ عن ذكرِ ظَهرِ آدمَ؛ لِما عُلِم أنَّهم كُلَّهم بَنُوه وأُخرِجوا مِن ظَهْرِه). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤٧). ويُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣١٧).

وقيل: معنى الآية: واذكُرْ حين استخرجَ ربُّك ذريَّةَ آدمَ مِن أصلابِ آبائِهم، وجعَلَهم يتناسلونَ في الدُّنيا قرنًا بعد قَرنٍ. وممَّن اختار هذا القَولَ: ابنُ تيميَّة، وابنُ القَيِّم، وابنُ كثيرٍ، والسَّعدي.

عن أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لَمَّا خلَقَ اللهُ آدمَ مَسحَ ظَهرَه، فسقَطَ مِن ظَهرِه كُلُّ نَسَمةٍ هو خالِقُها مِن ذُرِّيَّتِه إلى يومِ القيامةِ))(١).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أخذ اللهُ تبارك وتعالى الميثاقَ مِن ظَهرِ آدمَ بـ (نَعمان)- يعني عرفة- فأخرج مِن صُلبِه كلَّ ذريَّةٍ ذرَأَها، فنثَرَهم بين يديه كالذَّرِّ، ثمَّ كَلَّمَهم قُبُلًا، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾))(٢).

يُنظَر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٧)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ١٠٥٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٢، ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨).

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٧٦)، والبزار (٨٨٩٢)، والفريابي في ((القدر)) (٢٠)، والحاكم في ((المستدرك)) (٤١٣٢).

قال الترمذي : حسن صحيح، وصحَّحه ابن بطال في ((شرح البخاري)) (٣/ ٣٧٠)، وابن العربي في ((أحكام القرآن)) (٢/ ٣٣٣)، والألباني في ((صحيح الترمذي)) (٣٠٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٥٥)، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (٢٠٢)، والفريابي في ((القدر)) (٥٩)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٢٧).

قال الشوكاني في ((فتح القدير)) (٢/ ٣٧٠): إسنادُه لا مَطعَنَ فيه. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (٤/ ١٥١)، والألباني في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (١١٧).

وقال ابن حجر في ((تحفة النبلاء)) (١٣٤): وقفُه أصَحُّ.

قال الواحدي: (وقال صاحب النظم: ليس بين قَولِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم: ((إنَّ اللهَ مسحَ ظَهرَ آدمَ، فأخرج منه ذُرِّيَّتَه)) وبين الآيةِ؛ اختلافٌ- بحَمدِ اللهِ؛ لأنَّه -عزَّ وجَلَّ- إذا أخَذَهم من ظَهرِ آدمَ فقد أخَذَهم من ظهورِ ذُرِّيَّتِه؛ لأن ذرِّيَّةَ آدمَ ذرِّيَّةٌ لذريَّتِه، بعضُهم مِن بَعضٍ. قال: وحاصل الفائدةِ بهذا الفَصلِ، أنَّه قد أثبت الحجَّةَ على كلِّ مَنفوسٍ -ممَّن بُلِّغ، وممَّن لم يُبَلَّغ- بالميثاقِ الذي أخَذَه عليهم، وزاد على من بُلِّغَ منهم الحُجَّة بالآياتِ والدَّلائلِ التي نصَبَها في نفسِه وفي العالَم، وبالرُّسُلِ المُنْفَذةِ إليهم، مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ، وبالمواعِظِ والمَثُلات المنقولةِ إليهم أخبارُها). ((البسيط)) (٩/ ٤٤٩).

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

أي: قرَّرَهم على توحيدِه، حين أخرجَهم مِن صُلبِ آدمَ في صُورةِ الذَّرِّ، فقال لهم: ألسْتُ أنا خالِقَكم ومَعبُودَكم[1]؟

---

(١) وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٦، ٥٥٢- ٥٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣).

قال ابنُ جُزيٍّ: (في معناها قولان: أحدُهما: أنَّ اللهَ لَمَّا خلق آدمَ أخرَجَ ذريَّتَه من صُلبِه، وهم مِثلُ الذَّرِّ، وأخذ عليهم العَهدَ بأنَّه ربُّهم، فأقرُّوا بذلك والتَزَموه؛ رُوِيَ هذا المعنى عن النبيِّ- صلَّى اللهُ تعالى عليه وآلِه وسلَّم- مِن طُرُقٍ كثيرةٍ، وقال به جماعةٌ من الصحابةِ وغَيرِهم. والثاني: أنَّ ذلك من بابِ التَّمثيلِ، والأول هو الصَّحيحُ؛ لتواتُرِ الأخبارِ به، إلَّا أنَّ ألفاظَ الآيةِ لا تُطابِقُه بظاهِرِها، فلذلك عَدَلَ عنه من قال بالقَولِ الآخَرِ، وإنَّما تُطابِقُه بتأويلٍ: وذلك أنَّ أخْذَ الذرِّيَّة إنَّما كان مِن صُلبِ آدَمَ، ولفظُ الآية يقتضي أنَّ أخْذَ الذرِّيَّة من بني آدَمَ، والجمعُ بينهما أنَّه ذَكَرَ بني آدَمَ في الآيةِ، والمرادُ آدَمُ؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٢). ويُنظَر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٩٠).

وقال الشوكاني: (وقيل: المرادُ ببني آدَمَ هنا: آدمُ نَفسُه؛ كما وقع في غَيرِ هذا الموضِعِ. والمعنى: أنَّ الله سُبحانه لَمَّا خلَقَ آدمَ مَسحَ ظَهرَه فاستخرجَ منه ذرِّيَّتَه، وأخذ عليهم العَهدَ، وهؤلاء هم عالَمُ الذَّرِّ، وهذا هو الحقُّ الذي لا ينبغي العدولُ عنه، ولا المصيرُ إلى غيره؛ لثبوته مرفوعًا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وموقوفًا على غيرِه من الصَّحابة، ولا مُلجِئَ للمصيرِ إلى المجازِ، وإذا جاء نَهرُ اللهِ بطَلَ نَهرُ مَعقِل). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٩).

وقال ابنُ عبد البر: (ومعنى الآيةِ والحديثِ: أنَّه أخرج ذرِّيَّةَ آدم مِن ظَهرِه كيف شاء ذلك، وألهَمَهم أنَّه ربُّهم، فقالوا: بلى؛ لِئلَّا يقولوا يومَ القيامةِ إنَّا كنَّا عن هذا غافلينَ، ثم تابَعَهم بحجَّةِ العَقلِ عند التَّمييزِ، وبالرُّسُلِ بعد ذلك؛ استظهارًا بما في عقولِهم من المنازعةِ إلى خالِقٍ مُدَبِّرٍ حكيمٍ، يُدَبِّرُهم بما لا يتهيَّأُ لهم، ولا يُمكِنُهم جَحدُه، وهذا إجماعُ أهلِ السُّنَّة، والحمد لله). ((التمهيد)) (١٨/ ٨٩، ٩٥، ٩٦).

وقيل: أي: خَلَقَهم حين وُلِدوا على الفِطرةِ مُقِرِّينَ بأنَّ اللهَ رَبُّهم، فِفطَرُهم شاهدةٌ عليه، ويكونُ سبحانه بذلك قد أشهَدَهم على أنفُسِهم وقرَّرَهم، وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والقاسميُّ، والسعديُّ. يُنظَر: ((جامع الرسائل لابن تيمية)) (١/ ١١، ١٢)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٢ - ٤٩١)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٦٣-

﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ﴾.

أي: قال بنو آدَمَ: قد أقرَرْنا بأنَّك ربُّنا[١].

﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

أي: أشهَدْناكم على أنفُسِكم بأنَّ اللهَ ربُّكم؛ لِئَلَّا تقولوا يومَ القيامةِ: إنَّه لا عِلمَ لنا بأنَّ اللهَ هو الرَّبُّ المعبودُ بحَقٍّ، وَحْدَه لا شريكَ له[٢].

﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾.

---

١٧١)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٩٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣١٨)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١١، ١٢)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٦٣ - ١٧١)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٩٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٥ - ٣١٦).

اختلف المُفَسِّرونَ تبعًا للاختلافِ السَّابِقِ، هل أقرُّوا بذلك بلِسانِ المَقالِ أم بلسانِ الحالِ. يُنظَر: المصادر السابقة.

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٥١-٤٥٢)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٠).

وممَّن اختار أنَّ الإشارةَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا﴾ تعودُ إلى معرفةِ الخالقِ وتوحيدِه سبحانه: ابنُ جرير، وابنُ تيمية، وابنُ كثير، والشوكاني. يُنظَر: المصادر السَّابقة.

قال ابنُ عطية: (المعنى في هذه الآياتِ أنَّ الكَفَرة لو لم يُؤخَذْ عليهم عَهدٌ، ولا جاءَهم رسولٌ مُذَكِّرٌ بما تضمَّنَه العهدُ من توحيدِ اللهِ وعبادتِه، لكانت لهم حُجَّتانِ؛ إحداهما: كنَّا غافلينَ، والأخرى: كنَّا أتباعًا لأسلافِنا، فكيف نُهلَك، والذَّنبُ إنَّما هو لِمَن طَرَّقَ لنا وأضَلَّنا؟! فوقَعَت شهادةُ بَعضِهم على بعضٍ، أو شهادةُ الملائكةِ عليهم؛ لتنقَطِعَ عنهم هذه الحُجَجُ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٦).

﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾.

أي: وَلئلَّا تعتذِرُوا يومَ القيامةِ، فتقولوا: إنَّما أشرَكَ آباؤُنا مِن قَبلِ زَمانِنا، فنَقَضوا الميثاقَ، وكُنَّا ذرِّيَّةً أتينا مِن بَعدِهم، فاقتَدَينا بهم عن جَهلٍ منَّا[1].

﴿أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾.

أي: أتُعامِلُنا بغيرِ ما فَعَلْنا، فتُعَذِّبَنا بِشِرْكِ آبائِنا الذين أتَوْا بالباطِلِ، وتركوا التَّوحيدَ[2]؟!

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٧٤﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾.

أي: وكما بيَّنَّا هذه الآياتِ[3] ووضَّحْناها، نبيِّنُ أيضًا غيرَها من آياتِ القُرآنِ الكَريمِ[4].

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨).
قال الشوكاني: (أي: فعَلْنا ذلك كراهةَ أن تعتَذِروا بالغَفلةِ، أو تنسُبوا الشِّركَ إلى آبائِكم دونكم... بَيَّنَ اللهُ سبحانَه في هذه الحِكمةِ التي لأجْلِها أخرَجَهم من ظَهرِ آدَمَ وأشهَدَهم على أنفُسِهم، وأنَّه فعَلَ ذلك بهم؛ لئلَّا يقولُوا هذه المقالةَ يومَ القيامةِ، ويعتَلُّوا بهذه العِلَّةِ الباطلةِ، ويعتَذِروا بهذه المَعذِرةِ السَّاقطةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٠).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٧ - ٣١٨).

(٣) ذهب ابنُ جَريرٍ إلى أنَّ المعنيَّ آياتُ هذه السُّورةِ الكريمةِ. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٦).
وذهب الواحديُّ إلى أنَّ المرادَ أمرُ الميثاقِ الذي تقدَّمَ ذِكرُه. يُنظَر: ((التفسير البسيط)) (٩/ ٤٥٩).
وذهب الشِّنقيطيُّ إلى أنَّ المرادَ: أخبارُ الأمَمِ، وما جرى عليها، وسبَبُ إهلاكِ مَن هلَكَ منها، ونجاةُ مَن نجا منها. يُنظَر: ((العذب النمير)) (٤/ ٣١٨).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٨).

وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: ووضَّحْنا الآياتِ؛ لكي يهتَديَ بها النَّاسُ فيرجِعوا عن الشِّركِ والمعاصي إلى التَّوحيدِ والطَّاعةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧- ٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- الجِدُّ وقوَّةُ العَزمِ في إقامةِ الدِّينِ، يُهذِّبُ النَّفسَ ويُزَكِّيها، والتَّهاونُ والإغماضُ فيه، يُدَسِّيها ويُغوِيها؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٨).

قال الواحدي في قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: (وقيل: إلى ما أُخِذَ عليهم من الميثاقِ في التوحيدِ، والرُّجوعُ إلى ذلك الميثاقِ رجوعٌ إلى التوحيدِ). ((التفسير البسيط)) (٩/ ٤٥٩).

وقال السَّعدي: (﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى ما أودَعَ اللهُ في فِطَرِهم، وإلى ما عاهَدوا اللهَ عليه، فيرتدعونَ عن القبائِحِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٢٥).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ يُفهَمُ مِن هذه الآيةِ أنَّه يَجِبُ على مَن خُوطِبَ بأوامِرِ اللهِ في كُتُبِه المُنَزَّلة، أن يلتَزِمَها بقوةٍ ونَشاطٍ واجتهاد، فلا يضعُف فيها، ولا يُفَرِّط فيها؛ لأنَّها لا تُمتثَلُ على الوجهِ الأكمَلِ إلَّا بالقوَّةِ والجِدِّ والاجتهادِ[١].

٣- النَّفسُ بِفِطرتِها إذا تُرِكَت كانت مُقِرَّةً لله بالإلهيَّة، مُحبَّةً له، تعبُدُه لا تُشرِكُ به شيئًا؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ شَهِدۡنَآ﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ هذه آيةٌ أظهَرَها اللهُ لهم تخويفًا لهم؛ لتكونَ مُذَكِّرةً لهم، فيَعقُب ذلك أخذُ العَهدِ عليهم بعزيمةِ العَمَلِ بالتَّوراةِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ﴾ عَرَّفَ ﴿ٱلۡجَبَلَ﴾ لمَعرِفَتِهم به، وعبَّرَ به لدَلالةِ لفْظِه على الصُّعوبةِ والشِّدَّة، دونَ (الطُّورِ) كما في البَقرةِ؛ لأن السِّياقَ لبيانِ نَكَدِهم بإسراعِهم في المعاصي الدَّالَّةِ على غِلظِ القَلبِ[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ شَهِدۡنَآ﴾ أصلٌ في الإقرارِ[٥].

٤- شأنُ الذرِّيَّةِ الاقتداءُ بالآباءِ، وإقامةُ عوائدِهم؛ يُبَيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى:

---

(١) يُنظَر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٧).
(٢) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٩٦).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٥).
(٤) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥٠).
(٥) يُنظَر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٧).

﴿ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾[١].

٥- لا يُعاقِبُ اللهُ تعالى أحدًا بِذَنبِ غَيرِه؛ يُبَيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ فأخبرَ سُبحانه أنَّه استخرَجَ ذُرِّياتِهم، وأشهَدَهم على أنفُسِهم؛ لئلَّا يقولوا: ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ ﴾ أتى بنونِ العَظَمةِ في ﴿نَتَقۡنَا ﴾ لزيادةِ التَّرهيبِ[٣].

- في قَولِه ﴿وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ عُدِّيَ ﴿وَاقِعُۢ﴾ بالباءِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم كانوا مُستقرِّينَ في الجبلِ، فهو إذا ارتفَعَ وقَعَ ملابسًا لهم ففتَّتَهم، فهم يرَونَ أعلاه فوقَهم، وهم في سَفْحِه، وهذا وجهُ الجمعِ بين قولِه ﴿فَوۡقَهُمۡ ﴾ وبين باءِ المُلابسةِ. وقيل: إنَّ الباءَ بِمَعنى (على)[٤].

٢- قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾

- في قَولِه: ﴿أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ إيثارُ الأخذِ على الإخراجِ؛ للإيذانِ بالاعتناءِ بِشَأنِ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٠).
(٢) يُنظَر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٣٥).
(٣) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥٠).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٥).

المأخوذِ؛ لِما فيه من الإنباءِ عن الاجتباءِ والاصطفاء، هو السببُ في إسنادِه إلى اسمِ الربِّ بطريق الالتفات، مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتي[١]، وقِيل: إنَّ إيثارَ الأخذِ على الإخراجِ؛ لمناسبةِ ما تضمَّنتْه الآيةُ مِن الميثاقِ؛ فإنَّ الذي يناسبُه هو الأخذُ دونَ الإخراجِ، وإضافتُه إلى ضميره صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للتشريف[٢].

- وقولُه تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدلٌ من ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بدل البَعضِ بتكريرِ الجارِّ، وفيه مزيدُ تقريرٍ؛ لابتنائِه على البيانِ بعد الإبهامِ، والتفصيلِ بعد الإجمالِ[٣].

- والاستفهامُ في قَولِه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ تقريريٌّ، وجملة: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ جوابٌ عَنِ الاستفهامِ التَّقريريِّ، وفُصِلَت؛ لأنَّها جاءَت على طريقةِ المُحاورةِ، وقوله: ﴿شَهِدْنَآ﴾ تأكيدٌ لِمَضمونِ ﴿بَلَىٰ﴾، والشَّهادةُ هنا أيضًا بمعنى الإقرارِ[٤].

- قوله: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ فيه تحويلٌ مِن خِطابِ الرَّسولِ في قَولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ إلى خطابِ قَومِه؛ تصريحًا بأنَّ المقصودَ مِن قِصَّةِ أخْذِ العَهدِ تذكيرُ المُشركينَ بما أودَعَ اللهُ في الفِطرةِ مِن التَّوحيدِ، وهذا الأسلوبُ هو مِن تَحويلِ الخِطابِ عن مخاطَبٍ إلى غيرِه، وليس مِن الالتفاتِ؛ لاختلافِ المُخاطبينَ[٥].

- والإشارةُ بـ ﴿هَٰذَا﴾ إلى مَضمونِ الاستفهامِ وجَوابِه، وهو الاعترافُ

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٩).
(٢) يُنظَر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٩٤).
(٣) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٩).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٨-١٦٩).
(٥) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٦٩).

بالربوبيَّةِ لله تعالى، على تقديرِه بالمذكورِ[١].

٣- والاستفهامُ في **قوله**: ﴿أَفَنُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ إنكاريٌّ[٢].

٤- قولُه: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ فيه شَبَّه الإقلاعَ عن الحالةِ التي هم متلبِّسونَ بها، بِتَركِ مَن حَلَّ في غيرِ مَقَرِّه، الموضِعَ الذي هو به؛ ليرجِعَ إلى مَقَرِّه، وهذا التشبيهُ يقتضي تشبيهَ حالِ الإشراكِ بمَوضِعِ الغُربةِ؛ لأنَّ الشِّركَ ليس مِن مُقتضى الفِطرةِ، فالتلبُّسُ به خروجٌ عن أصلِ الخِلقةِ، كخُروجِ المُسافِرِ عن مَوطِنِه، ويقتضي أيضًا تشبيهَ حالِ التَّوحيدِ بمحَلِّ المَرءِ وحَيِّه الذي يأوِي إليه، وهو تعريضٌ بالعَرَبِ؛ لأنَّهم المُشركونَ مِن عَقِبِ إبراهيمَ[٣].

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٩).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٧٠).

(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٧١).

الآيات (١٧٥-١٧٨)

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨ ﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿نَبَأَ﴾: النَّبأُ: خَبرٌ له شَأنٌ، وفائدةٌ عظيمةٌ، يحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبةُ ظَنٍّ، وأصلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ[١].

﴿فَٱنسَلَخَ﴾: أي: خرَجَ مِن العَمَلِ بها، وأصلُ (سلخ): إخراجُ الشَّيءِ عَن جِلدِه[٢].

﴿فَأَتۡبَعَهُ﴾: أي أدرَكَه ولَحِقَه، يقال: أتبعتُ القَومَ: إذا لحِقتُهم، وَأصل (تبع): يدلُّ على التُّلُوِّ والقَفْوِ[٣]

﴿ٱلۡغَاوِينَ﴾: أي: الضَّالِّينَ أو الهالِكينَ، والغَيُّ: جَهلٌ مِن اعتقادٍ فاسدٍ، وأصلُ (غوي): يدلُّ على خِلافِ الرُّشدِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة

﴿أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي: اطمأنَّ إليها، ولزِمها، أو ركَن إلى الدُّنيا وسكَنَ؛ ظانًّا أنَّه يخلدُ فيها، وأصلُ (خلد): يدلُّ على الثَّباتِ والمُلازمةِ[١].

﴿تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ﴾: أي: تَزجُرْه، أو تَطرُدْه، وأَصلُ (حمل): يَدُلُّ عَلَى إِقْلَالِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: حَمَلْتُ الشَّيْءَ أَحْمِلُه حَمْلًا[٢].

﴿يَلۡهَثۡ﴾: أي: يُخرجْ لِسانَه من حرٍّ أو عطَشٍ، واللَّهَثُ يقال للإعياءِ وللعَطشِ جميعًا[٣].

﴿سَآءَ﴾: أي: قَبُحَ، والسُّوءُ: اسمٌ جامِعٌ للآفاتِ، ثم استُعمِلَ في كلِّ ما يُستقبَحُ. وهو أيضًا كلُّ ما يغمُّ الإنسان[٤]

﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: أي: الهالكونَ والمَغبونونَ، والخُسرُ والخُسرانُ: انتقاصُ

الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١).
قال ابنُ عاشورٍ: (مَعْنَى ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ﴾ إِنْ تُطارِدْه وتُهاجِمْه. مُشْتَقٌّ مِنَ الحَملِ الَّذي هو الهجومُ على أحدٍ لِقتالِه، يقالُ: حَمَل فلانٌ على القومِ حملَةً شعواءَ أو حملةً منكرةً. وقد أغْفل المُفَسِّرون توضيحَه، وأغْفل الرَّاغِبُ في «مُفرداتِ القرآنِ» هذا المعْنَى لهذا الفعلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٨)

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣).

رأسِ المالِ، ويستعمَلُ في نُقصان العقل والإيمان، والثواب، وأصلُ (خسر) يدلُّ على النَّقصِ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه أن يتلُوَ على قَومِه قصَّةَ الرَّجُلِ الذي عَلَّمَه اللهُ -عزَّ وجَلَّ- آياتِه، فتبرَّأَ منها وفارَقَها، فلَحِقَه الشَّيطانُ، وجَعَله له تابعًا، فصار مِن أهلِ الضَّلالِ والغَوايةِ، ولو شاء اللهُ لرَفَعه بها، ولكنَّه سكَنَ إلى الأرضِ وزِينَتِها، واتَّبَع ما تميلُ إليه نَفسُه مِن الباطِلِ، فمَثَلُه كمَثَلِ الكَلبِ؛ إنْ تَطرُدْه أو تترُكْه لا يزالُ لاهثًا، ذلك مَثَلُ القَومِ المكَذِّبينَ بآياتِ اللهِ، ثم أمر اللهُ نبيَّه أن يَقصُصَ على قَومِه وعلى اليهودِ القَصَصَ؛ لعَلَّهم يتفكَّرونَ.

قَبُحَ هذا المثَلُ الذي شُبِّه به المكَذِّبونَ بآياتِ اللهِ تعالى، والظَّالِمونَ لأنفُسِهم، مَن يَهدِ اللهُ تعالى فهو المُوفَّقُ، ومن يُضْلِلْه فأولئك الذينَ خَسِروا الدُّنيا والآخرةَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان تعالى قد ذكَرَ أخْذَ الميثاقِ على توحيدِه تعالى، وتقريرِ رُبوبيَّتِه، وذكَرَ إقرارَهم بذلك، وإشهادَهم على أنفُسِهم- ذكَرَ حالَ مَن آمن به، ثم بعد ذلك من كَفَر، كحالِ اليهودِ؛ حيث كانوا مُقِرِّينَ مُنتظِرينَ بَعثةَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١- ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣).

وسلَّم؛ لِما اطَّلَعوا عليه مِن كُتُبِ اللهِ المُنزَّلةِ وتَبشيرِها به، وذِكْرِ صفاتِه، فلمَّا بُعِثَ كفروا به، فذُكِّرُوا أنَّ ما صدَرَ منهم هو طريقةٌ لأسلافِهم اتَّبَعوها(١).

وأيضًا مناسَبةُ هذه الآيةِ للتي قَبلَها أنَّها إشارةٌ للعبرةِ مِن حالِ أحدِ الَّذينَ أخَذَ اللهُ عليهم العَهدَ بالتَّوحيدِ والامتثالِ لأمرِ الله، وأمَدَّه اللهُ بعِلمٍ يُعينُه على الوفاءِ بما عاهدَ اللهَ عليه، وما أودعَ في فطرتِه، ثمَّ لم ينفَعْه ذلك كلُّه حين لم يُقَدِّرِ اللهُ له الهُدى المُستَمِرَّ(٢).

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾.

أي: واقرأْ- يا مُحمَّدُ- على قَومِك قِصَّةَ الرَّجُلِ الذي عَلَّمْناه آياتِنا(٣).

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٠-٢٢١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٦، ٥٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٨).

قيل: إنَّ المرادَ بالآياتِ هي الآياتُ الشَّرعيَّةُ المُنزَّلة، وممَّن اختار ذلك: السعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) (٤/ ٣٢٤).

وقيل: المرادُ بالآياتِ هنا: حُجَجُ التَّوحيدِ وفَهمُ أدلَّتِه. وممَّن اختار هذا: الواحدي، وابن عاشور. يُنظَر: ((الوسيط)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٥).

وفي معنَى قولِه: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ أقوالٌ أخرى، وذهب ابنُ جريرٍ إلى عدمِ تحديدِ مَعناها؛ لعَدَمِ وُجودِ دلالةٍ ثابتةٍ على ذلك. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٦، ٥٧٤-٥٧٥).

قال ابنُ كثير: (عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما في قَولِه: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ قال: هو صاحِبُكم أميَّةُ بن أبي الصَّلتِ. وقد رويَ من غيرِ وجهٍ عنه، وهو صحيحٌ إليه، وكأنَّه إنما أراد أنَّ أميَّةَ بنَ أبي الصَّلت يُشبِهُه، فإنَّه كان قد اتَّصلَ إليه علمٌ كثيرٌ مِن عِلمِ الشَّرائعِ المتقدِّمة، ولكنَّه لم ينتفِعْ بعِلمِه؛ فإنَّه أدرك زمانَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبلَغَتْه أعلامُه وآياتُه ومُعجزاتُه، وظَهَرَت لكلِّ مَن له بصيرةٌ، ومع هذا اجتمَعَ به ولم يتَّبِعْه، وصار إلى مُوالاةِ المُشركين ومناصَرتِهم وامتداحِهم، ورثى أهلَ بَدرٍ من المشركينَ بمَرثاةٍ بليغةٍ- قبَّحَه اللهُ تعالى). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٧). وقال ابنُ عاشورٍ: (ذهب كثيرٌ مِن المُفَسِّرينَ إلى أنَّها نَزَلتْ في رجلٍ مِن الكنعانيِّينَ، وكان في زمنِ موسى عليه السَّلامُ، يقال له: بلعامُ بنُ

﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾.

أي: فخرَج من تلك الآياتِ التي علَّمَه اللهُ تعالى إيَّاها، وتبرَّأَ منها وفارَقَها، ولم يَعْلَقْ به منها شيءٌ[(١)].

عن حُذيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ مِمَّا أتخَوَّفُ عليكم لَرجُلًا قرأَ القرآنَ، حتى إذا رُئِيَت بهجَتُه عليه، وكان ردءًا للإسلامِ، اعتراه إلى ما شاءَ الله، انسلَخَ منه، ونبَذَه وراءَ ظَهرِه، وسعى على جارِه بالسَّيفِ، ورماه بالشِّرْكِ، قلتُ: يا نبيَّ الله، أيُّهما أَوْلى بالشِّرْكِ: المرميُّ أو الرَّامي؟ قال: بل الرَّامي))[(٢)].

﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾.

أي: فلَحِقَه الشَّيطانُ وأدرَكَه، وجعَلَه له تابعًا يُطيعُ أمْرَه، فصار من الضالِّين

باعور، وذكروا قصَّتَه فخَلَطوها وغيَّروها واختَلَفوا فيها... فلا ينبغي الالتفاتُ إلى هذا القَولِ؛ لاضطرابِه واختلاطِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٥).

وقال ابنُ جرير: (والصوابُ مِن القَولِ في ذلك أن يقالَ: إنَّ اللهَ- تعالى ذِكْرُه- أمَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يتلوَ على قَومِه خَبَرَ رجلٍ كان اللهُ آتاه حُجَجَه وأدلَّتَه، وهي الآياتُ... وجائزٌ أن يكونَ الذي كان اللهُ آتاه ذلك بلعم، وجائزٌ أن يكونَ أُمَيَّةَ، ولا خبرَ بأيِّ ذلك المرادُ، وأيُّ الرَّجُلينِ المعنيُّ- يُوجِبُ الحُجَّةَ، ولا في العَقلِ دلالةٌ على أنَّ ذلك المعنيَّ به مِن أيٍّ، فالصوابُ أن يُقالَ فيه ما قال اللهُ، ويُقَرُّ بظاهِرِ التَّنزيلِ على ما جاء به الوَحيُ مِن اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٤، ٥٧٥).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٢٤).

(٢) أخرجه البزار (٢٧٩٣)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٨٦٥)، وابن حبان في الصحيح (٨١)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (١٨٥٩).

حسَّن إسنادَه البزَّارُ كما في ((البحر الزخار)) (٧/ ٢٢٠)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١/ ١٩٢)، وجوَّدَ إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٣/ ٥٠٩)، وحسَّن الحديثَ الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٣٢٠١).

الذين لا يَعملونَ بعِلْمِهم[١].

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان قَولُه تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ مُوهمًا لِمَن لم يرسخْ قَدَمُه في الإيمانِ أنَّ الشيطانَ له تأثيرٌ مُستقِلٌّ في الإغواءِ- نفى ذلك؛ غيرةً على هذا المقامِ في مَظهَرِ العظمةِ، فقال[٢]:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾.

أي: ولو شِئْنا لرَفَعْنا قَدْرَه ومنزِلتَه في الدُّنيا والآخرةِ، بتوفيقِنا له للعَمَلِ بآياتِنا[٣].

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾.

أي: ولكنَّه سكَنَ إلى الحياةِ الدُّنيا، ومال إلى زِينَتِها، وآثَرَ لذَّاتِها وشَهَواتِها

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٢٥)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٢٤، ٣٢٦).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥٩).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٦، ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢١)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٢٧).
قال ابنُ القَيِّم: (مضمونُ قَولِه: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ... ﴾ أنَّه لم يتعاطَ الأسبابَ التي تقتضي رَفعَه بالآياتِ؛ من إيثارِ اللهِ ومَرضاتِه على هواه، ولكنَّه آثرَ الدُّنيا، وأخلدَ إلى الأرضِ، واتَّبعَ هواه). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٣٠).

على الآخرةِ، واتَّبعَ ما تميلُ إليه نَفسُه مِن الباطِلِ، وخالَفَ أمرَ اللهِ[١].

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾.

أي: فمَثَلُ هذا الذي آتيناه آياتِنا فانسلَخَ منها؛ في عَدَمِ اتعاظِه، وعَدَمِ تَركِه الحِرصَ على الدُّنيا بحالٍ- مَثَلُ الكَلْبِ الذي لا يترُكُ اللَّهَثَ بحالٍ، سواءٌ زَجَرتَه وطَرَدْتَه، أم تَركْتَه؛ فهذا الذي ترك العَملَ بكتابِ اللهِ، إن وعَظْتَه فهو على ضلالِه لا يتَّعِظُ، وإن تركْتَه فهو مستمِرٌّ في ضلالِه، لا يترُكُ في جميعِ الأحوالِ ما هو عليه من الكُفرِ، واللَّهَفِ على الدُّنيا[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

أي: ذلك المثَلُ المضروبُ لِتَشبيهِ المُنسلِخ مِن آياتِنا، بالكَلْبِ الذي يلهَثُ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٢٧).
قال الواحدي: (فسَّرُوا ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في هذه الآيةِ بالدُّنيا، وذلك لأنَّ الدُّنيا هي الأرضُ؛ لأنَّ ما فيها مِن العَقارِ والرِّباعِ والضِّياعِ كُلُّها أرضٌ، وسائِرُ مَتاعِها يُستخرَجُ مِن الأرضِ، فالدُّنيا كلُّها هي الأرضُ، فصَلَح أن يعبِّرَ عنها بالأرضِ؛ لأنَّها هي). ((البسيط)) (٩/ ٤٦٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨٦، ٥٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٧١)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١١، ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٢٧-٣٢٩).

في جميعِ الأحوالِ؛ هو مَثَلُ جميعِ المُكَذِّبينَ بآياتِنا[١].

﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: فاسْرُدْ- يا مُحمَّدُ- على قَومِك مِن قُريشٍ، وعلى اليَهودِ، ما قصَصْتُه عليك في القُرآنِ من أخبارِ الأمَمِ السَّابقة؛ ليتفكَّروا فيها، فيعتَبِروا ويتوبوا إلى ربِّهم، ولِيعلَمَ أهلُ الكِتابِ صِحَّةَ نبوَّتِك، فيُؤمِنوا بك[٢].

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧﴾.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

أي: بِئسَ وقبُحَ هذا المَثَلُ الذي شُبِّه به المكَذِّبونَ بآياتِنا[٣].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ليس لنا مَثَلُ السَّوءِ[٤]؛ الذي يعودُ في هِبَتِه كالكَلبِ يَرجِعُ في قَيئِه))[٥].

﴿وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾.

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٣٠).
قال القرطبي: (وهذا المثَلُ في قولِ كَثيرٍ مِن أهلِ العِلمِ بالتَّأويلِ؛ عامٌّ في كلِّ مَن أوتِيَ القُرآنَ، فلم يعمَلْ به). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٣).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٣٠).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٣٠).
قال ابن كثير: (أي: ساءَ مَثَلُهم أن شُبِّهوا بالكلابِ التي لا همَّةَ لها إلَّا في تحصيلِ أكلةٍ أو شهوةٍ، فمَن خرج عن حَيِّزِ العِلمِ والهُدى، وأقبل على شَهوةِ نَفْسِه، واتَّبَع هواه؛ صار شبيهًا بالكَلْبِ، وبِئسَ المثَلُ مثَلُه). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٢).

(٤) مَثَلُ السَّوءِ: أي: الصِّفةُ الذَّميمةُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٥/ ٢٠٠٨).

(٥) رواه البخاري (٢٦٢٢) ومسلم (١٦٢٢)، واللفظ للبخاري.

أي: والَّذين كذَّبوا بآياتِنا، لم يظلِمْهم اللهُ سبحانه، بل كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بنَقْصِها مِن الخَيرِ الذي ينفَعُها، وتعريضِها لعذابِ اللهِ[1].

﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وصَفَ الله تعالى الضَّالِّينَ بالوَصفِ المذكورِ فيما تقَدَّمَ مِن الآياتِ، وعرَّفَ حالَهم بالمَثَلِ المذكورِ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ الهِدايةَ مِن اللهِ تعالى، وأنَّ الضَّلالَ مِن اللهِ تعالى[2]، فقال:

﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِي ﴾.

أي: مَن يَهْدِه اللهُ فهو الموفَّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ، ولا مُضِلَّ له[3].

كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ [الزُّمَر: ٣٧].

﴿ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾.

أي: ومَن يُضْلِلْه اللهُ ويَخذُلْه، ولا يُوفِّقْه لطاعَتِه؛ فأولئك هم الذينَ خَسِروا الدُّنيا والآخرةَ[4].

كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴾ [الكهف: ١٧].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٠٧).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٣١).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٣١).

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فالرِّفعةُ عند اللهِ تعالى ليست بمجَرَّدِ العِلمِ- فإنَّ هذا كان مِن العُلَماءِ- وإنَّما هي باتِّباعِ الحَقِّ وإيثارِه، وقَصدِ مرضاةِ اللهِ تعالى، فإنَّ هذا كان مِن أعلَمِ أهلِ زَمانِه، ولم يرفَعْه اللهُ بعِلمِه، ولم ينفَعْه به، وفي الآيةِ أنَّه هو سبحانه الذي يرفَعُ عَبْدَه- إذا شاء- بما آتاه اللهُ مِن العِلمِ، وإنْ لم يرفَعْه اللهُ، فهو موضوعٌ لا يرفَعُ أحدٌ به رأسًا؛ فإنَّه سبحانه هو الخافِضُ الرَّافِعُ؛ وقد خَفَضَه اللهُ سبحانه، ولم يَرْفَعْه[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ هَذَا مَثَلُ عَالِمِ السُّوءِ، الَّذِي يعمَلُ بخِلافِ عِلْمِه، وقد تضمَّنَت هذه الآيةُ ذَمَّه مِن عِدَّة وجوهٍ:

أحدُها: أنَّه ضلَّ بعد العِلمِ، واختار الكُفرَ على الإيمانِ، عمدًا لا جَهلًا.

ثانيها: أنَّه فارقَ الإيمانَ مُفارقةَ مَن لا يعودُ إليه أبدًا؛ فإنَّه انسلخَ مِن الآياتِ بالجُملةِ، كما تنسلِخُ الحيَّةُ مِن قِشرِها، ولو بَقِيَ معه منها شيءٌ، لم ينسلِخْ منها.

ثالثُها: أنَّ الشَّيطانَ أدرَكَه ولَحِقَه بحيث ظفِرَ به وافترَسَه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ولم يقُلْ تَبِعَه؛ فإنَّ في معنى أتبَعَه: أدرَكَه ولَحِقَه، وهو أبلَغُ مِن تَبِعَه لفظًا ومعنًى.

رابعُها: أنَّه غَوى بعد الرُّشدِ، والغَيُّ: الضَّلالُ في العِلمِ والقَصدِ، وهو أخَصُّ

(١) يُنظَر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٩).

بفسادِ القَصدِ والعَمَلِ، كما أنَّ الضَّلالَ أخَصُّ بفسادِ العِلمِ والاعتقادِ، فإذا أُفرِدَ أحدُهما دخل فيه الآخَرُ، وإن اقترَنا فالفَرْقُ ما ذُكِرَ.

خامسُها: أنَّه سبحانَه لم يَشَأْ أن يَرفَعَه بالعِلمِ، فكان سبَبَ هلاكِه؛ لأنَّه لم يُرفَعْ به، فصار وَبالًا عليه، فلو لم يكُنْ عالِمًا، كان خيرًا له، وأخَفَّ لِعذابِه.

سادسُها: أنَّه سبحانه أخبرَ عن خِسَّةِ هِمَّتِه، وأنَّه اختار الأسفَلَ الأدنى على الأشرَفِ الأعلى.

سابعُها: أنَّ اختيارَه للأدنى لم يكُنْ عن خاطرٍ وحديثِ نَفْسٍ، ولكنَّه كان عن إخلادٍ إلى الأرضِ، ومَيلٍ بكُلِّيَّتِه إلى ما هناك، وأصلُ الإخلادِ اللُّزومُ على الدَّوامِ، وعبَّرَ عن مَيلِه إلى الدُّنيا بإخلادِه إلى الأرضِ؛ لأنَّ الدُّنيا هي الأرضُ وما فيها، وما يُستخرَجُ منها مِن الزِّينةِ والمَتاعِ.

ثامنُها: أنَّه رغِبَ عن هُداه، واتَّبَع هواه، فجَعلَ هواه إمامًا له، يقتَدي به ويتَّبِعُه.

تاسعُها: أنَّه شبَّهَه بالكَلبِ الذي هو أخَسُّ الحيواناتِ هِمَّةً[1]، وأسقَطُها نَفْسًا وأبخَلُها، وأشَدُّها كَلَبًا، ولهذا سُمِّيَ كَلْبًا.

---

(١) قال ابنُ القيِّم: (شَبَّه -سبحانَه- مَن آتاه كتابَه، وعلَّمَه العلمَ الذي منعَه غيرَه، فترَك العمَلَ به واتَّبَع هواه، وآثَرَ سخَطَ اللهِ على رضاه، ودُنياه على آخِرتِه، والمخلوقَ على الخالقِ؛ بالكَلبِ الذي هو مِن أخبَثِ الحيواناتِ، وأوضَعِها قَدْرًا، وأخبَثِها نَفسًا، وهِمَّتُه لا تتعدَّى بطنَه، وأشَدِّها شَرَهًا وحِرصًا، ومِن حِرصِه أنَّه لا يمشي إلَّا وخَطْمُه في الأرضِ؛ يتشَمَّم ويتروَّح حِرصًا وشَرَهًا، ولا يزالُ يشَمُّ دُبُرَه دون سائرِ أجزائِه، وإذا رَمَيتَ له بحجَرٍ رجَعَ إليه ليَعَضَّه مِن فَرطِ نَهْمتِه، وهو من أمهَنِ الحيواناتِ، وأحمَلِها للهَوانِ، وأرضاها بالدَّنايا، والجِيَفُ المُروَّحةُ أحَبُّ إليه من اللَّحمِ الطَّريِّ، والعَذِرةُ أحَبُّ إليه من الحلوى، وإذا ظَفِرَ بمَيتةٍ تكفي مئةَ كلبٍ، لم يدَعْ كلبًا يتناوَلُ معه منه شيئًا إلَّا هَرَّ عليه وقَهرَه؛ لِحِرصِه وبُخلِه وشَرَهِه، ومِن عجيبِ أمْرِه وحِرصِه أنَّه إذا رأى ذا هيئةٍ رثَّةٍ، وثيابٍ دَنيَّةٍ، وحالٍ زَريَّةٍ، نبَحَه، وحمَلَ عليه، كأنَّه يتصوَّرُ مُشارَكتَه له، ومُنازَعتَه في قُوتِه، وإذا رأى ذا هيئةٍ حَسَنةٍ، وثيابٍ جَميلةٍ ورياسةٍ، وضَعَ له خَطْمَه بالأرضِ، وخضَعَ له، ولم يرفَعْ إليه رأسَه). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٢٧).

عاشرُها: أنَّه شَبَّه لهَثَه على الدُّنيا وعدَمَ صَبْرِه عنها، وجَزَعَه لفَقْدِها وحِرصَه على تحصيلِها، بلَهَثِ الكَلْبِ في حالتَي ترْكِه، والحَمْلِ عليه بالطَّرْدِ، وهكذا هذا؛ إن تُرِكَ فهو لَهْثانُ على الدُّنيا، وإن وُعِظَ وزُجِرَ فهو كذلك؛ فاللَّهَثُ لا يُفارِقُه في كلِّ حالٍ، كلَهَثِ الكَلْبِ، وهذا التَّمثيلُ لم يقَعْ بكلِّ كَلْبٍ، وإنما وقعَ بالكَلْبِ اللَّاهِثِ، وذلك أخَسُّ ما يكونُ وأشنَعُه[١].

٣- اتِّباعُ الإنسانِ لِهَواه، بتَحَرِّيه وتشَهِّيه ما تَميلُ إليه نفسُه في كلِّ عَمَلٍ مِن أعماله، دونَ ما فيه المصلحةُ والفائدةُ له؛ مِن حيث هو جَسَدٌ وروحٌ- يُضِلُّه عن سبيلِ اللهِ، المُوصِلةِ إلى سعادةِ الدُّنيا والآخرة، ويتعَسَّفُ به في سُبُلِ الشَّيطانِ المُرْدِيَةِ المُهلِكة؛ يُبَيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾[٢].

٤- قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ هذه الآيةُ مِن أشَدِّ الآيِ على أصحابِ العِلمِ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى أخبرَ أنَّه آتاه آياتِه، فاستوجَبَ بالسُّكونِ إلى الدُّنيا واتِّباعِ الهوى، تغييرَ النِّعمةِ عليه، والانسلاخَ عنها، ومَنِ الذي سَلِمَ من هاتين الخَلَّتينِ، إلَّا مَن عَصَمَه اللهُ[٣]!

٥- من كانت نِعَمُ اللهِ تعالى في حَقِّه أكثَرَ، كان بُعْدُه عن اللهِ- إذا أعرَضَ عنه- أعظَمَ وأكبَرَ؛ يُبَيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ... وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾[٤].

٦- لا يغتَرَّ أحدٌ بما أوتِيَ من المعارِف، وما حاز من المفاخِرِ واللَّطائِفِ؛ فإنَّ

(١) يُنظَر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠١، ١٠٢).
(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٤١).
(٣) يُنظَر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٦٨).
(٤) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٠٥).

العِبرةَ بالخواتيم، يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾[1].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ عبرةٌ للمُوفَّقينَ؛ ليَعلَموا فَضلَ اللهِ عليهم في توفيقِهم[2].

٨- قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: سكَن إليها، ونزَل بطبعِه إليها، فكانت نفسُه أرضيةً سفليةً، لا سماويةً علويةً، وبحسبِ ما يخلدُ العبدُ إلى الأرضِ يهبطُ مِن السَّماءِ[3].

٩- قالَ الله تعالَى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ المُرادُ بهذا المثلِ: أنَّ منْ لم يزجرْه علمُه عن القبيحِ، صارَ القبيحُ عادةً له، ولم يؤثِّرْ فيه علمُه شيئًا، فيصيرُ حالُه كحالِ الكلبِ اللاهثِ فإنَه إنْ طُرِدَ لَهِثَ، وإنْ ترِكَ لَهِثَ، فالحالتانِ عنده سواءٌ. وهذا أخسُّ أحوالِ الكلبِ وأبشعُهَا، فكذلكَ من يرتكبُ القبائح مع جهلِهِ ومع علمِهِ، فلا يؤثِّرُ علمُه شيئًا، وكذلكَ مثلُ مَنْ لا يرتدعُ عن القبيحِ بوعظٍ ولا زجرٍ ولا غيرِهِ، فإنَّ فعلَ القبيحِ يصيرُ عادةً، ولا ينزجِرُ عنه بوعظٍ ولا تأديبٍ ولا تعليمٍ، بل هو متبعٌ للهَوى على كلِّ حالٍ، فهذا حالُ كلِّ مَن اتَبعَ هواه، ولم ينزجِرْ عنه بوعظٍ ولا غيرِهِ، وسواءٌ كانَ الهَوى المُتبعُ داعيًا إلى شهوةٍ حسيةٍ، كالزِّنا والسرقةِ وشربِ الخمرِ، أو إلى غضبٍ وحقدٍ وكبرٍ وحسدٍ، أو إلى شُبهةٍ مضلَّةٍ في الدِّينِ، وأشدُّ

(١) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٦٠).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٦).
(٣) يُنظَر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ١٩٤)

ذلكَ: حالُ من اتَّبع هواهُ في شبهةٍ مضلةٍ، ثمَّ من اتبع هواهُ في غضبٍ وكبرٍ وحقدٍ وحسدٍ، ثم من اتَّبع هواهُ في شهوةٍ حسيةٍ[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يدلُّ على تعظيمِ شَأنِ ضَربِ الأمثالِ في تأثيرِ الكَلامِ، وكونِه أقوى مِن سَوقِ الدَّلائلِ والحُجَجِ المجَرَّدةِ، ويدلُّ على تعظيمِ شأنِ التفَكُّر، وكونِه مبدأَ العِلمِ، وطَريقَ الحَقِّ[٢].

١١- ما يحصُلُ بالقَلبِ مِن العِلمِ، وإن كان بكَسْبِ العَبدِ ونَظَرِه، واستدلالِه واستماعِه ونحو ذلك؛ فإنَّ الله تعالى هو الذي أثبَتَ ذلك العِلمَ في قَلْبِه، وهو حاصِلٌ في قَلْبِه بفَضلِ اللهِ وإحسانِه وفِعْلِه؛ قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٣].

١٢- قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فيه تنويهٌ بشأنِ المُهتَدينَ، وتلقينٌ للمُسلمينَ؛ للتَّوجُّهِ إلى اللهِ تعالى بطَلَبِ الهِدايةِ منه، والعِصمةِ مِن مَزالِقِ الضَّلالِ[٤].

١٣- قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ العبدُ فقيرٌ إلى اللهِ في كُلِّ شَيءٍ، يحتاجُ إليه في كلِّ شَيءٍ، لا يستغني عن اللهِ طَرفةَ عَينٍ؛ فمَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هادِيَ له. فإذا ثبتَتْ هاتانِ المُقَدِّمتانِ، فنقول: إذا أُلهِمَ العبدُ أن يسألَ اللهَ الهدايةَ، ويستعينَه على طاعَتِه؛ أعانه وهداه، وكان ذلك سببَ سَعادَتِه في الدنيا والآخرةِ، وإذا خُذِلَ العَبدُ فلم يعبُدِ اللهَ، ولم يستعِنْ به، ولم يتوكَّلْ عليه؛ وُكِلَ إلى حَولِه

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن رجب الحنبلي)) (١/ ٨٨، ٨٩).
(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٤٢).
(٣) يُنظَر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٣٠).
(٤) يُنظَر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٠).

وقُوَّتِه، فيُوَلِّيه الشَّيطانَ، وصُدَّ عن السَّبيلِ، وشَقِيَ في الدُّنيا والآخرةِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ دلَّت على مَنعِ التَّقليدِ لِعالِمٍ إلَّا بحجَّةٍ يُبيِّنُها؛ لأنَّ الله تعالى أخبرَ أنَّه أعطى هذا آياتِه فانسلَخَ منها، فوجب أن يُخافَ مثلُ هذا على غَيرِه، وألَّا يُقبَلَ منه إلَّا بحُجَّةٍ[٢].

٢- الآياتُ مِن شأنِها أن تكونَ سَببًا للهدايةِ والتَّزكيةِ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ التعبيرُ بالانسلاخِ المُستعمَلِ عند العَرَبِ في خروجِ الحَيَّاتِ والثَّعابينِ أحيانًا مِن جُلودِها؛ يدلُّ على أنَّه كان متمَكِّنًا منها ظاهرًا، لا باطنًا[٤].

٤- قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ قولُه: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ أخبرَ سبحانه أنَّه هو الذي آتاه آياتِه؛ فإنَّها نعمةٌ، واللهُ هو الذي أنعَمَ بها عليه، فأضافَها إلى نفسِه، ثمَّ قال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ أي: خرجَ منها، كما تنسَلِخُ الحيَّةُ مِن جِلْدِها، وفارَقَها فِراقَ الجِلدِ ينسَلِخُ عن اللَّحمِ، ولم يقُلْ: (فسلخْناه منها)؛ لأنَّه هو الذي تسبَّبَ إلى انسلاخِه منها؛ باتِّباعِ هواه[٥].

٥- قال تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ فقد كان محفوظًا مَحروسًا بآياتِ اللهِ، محمِيَّ الجانِبِ بها مِن الشَّيطانِ، لا يَنالُ منه شيئًا إلَّا على

(١) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٣٦، ٢٣٧).
(٢) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٣).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٦).
(٤) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٤٠).
(٥) يُنظَر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٩).

غِرَّةٍ وخَطفةٍ؛ فلمَّا انسلَخَ من آياتِ اللهِ، ظَفِرَ به الشَّيطانُ ظَفَرَ الأسَدِ بفَريسَتِه، فكان مِن الغاوينَ العامِلينَ بخِلافِ عِلمِهم، الذينَ يعرِفونَ الحَقَّ ويعملونَ خِلافَه، كعُلَماءِ السُّوءِ[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ في هذا التعبيرِ تَعليمٌ للأدَبِ؛ في إسنادِ الخَيرِ إلى اللهِ، والشَّرِّ إلى غَيرِه، وإن كان الكُلُّ خَلْقَه[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ في تشبيهِ مَن آثَرَ الدُّنيا وعاجِلَها على اللهِ والدَّارِ الآخرةِ- مع وُفورِ عِلمِه- بالكَلْبِ في لَهَثِه؛ سِرٌّ بديعٌ، وهو: أنَّ الذي حالُه ما ذَكَرَه اللهُ؛ مِن انسلاخِه مِن آياتِه، واتِّباعِه هواه- إنَّما كان لشِدَّةِ لَهَفِه على الدُّنيا؛ لانقطاعِ قَلْبِه عن اللهِ والدَّارِ الآخِرةِ، فهو شديدُ اللَّهَفِ عليها، ولهَفُه نظيرُ لَهَثِ الكَلْبِ الدَّائِمِ في حالِ إزعاجِه وتَرْكِه[٣].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ الاقتصارُ في الإخبارِ عَمَّن هَدى اللهُ بالمهتدي؛ تعظيمٌ لشَأنِ الاهتداءِ، وتَنبيهٌ على أنَّه في نفسِه كمالٌ جَسيمٌ، ونَفعٌ عَظيمٌ، لو لم يحصُلْ له غيرُه لَكَفاه، وأنَّه المُستلزِمُ للفوزِ بالنِّعَمِ الآجِلةِ، والعنوانُ له[٤].

٩- أفضلُ ما يُقدِّر الله لعبدِه، وأجلُّ ما يقسِمُه له الهدَى، وأعظمُ ما يَبتَليه به، ويُقدِّرُه عليه الضَّلالُ، وكلُّ نعمةٍ دونَ نعمةِ الهدَى، وكلُّ مصيبةٍ دونَ مصيبةِ الضَّلالِ،

(١) يُنظَر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٩).
(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥٩).
(٣) يُنظَر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٨).
(٤) يُنظَر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٣٧).

قال تعالى: ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾[١].

١٠- اتَّفقتْ رسلُ الله -مِن أوَّلِهم إلى آخرِهم- وكتبُه المنزلةُ عليهم على أنَّه سبحانَه يُضلُّ مَن يشاءُ، ويهدي مَن يشاءُ، وأنَّه مَن يهدِهِ الله فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأنَّ الهدَى والإضلالَ بيدِه لا بيدِ العبدِ، وأنَّ العبدَ هو الضالُّ أو المهتدي، فالهدايةُ والإضلالُ فعلُه سبحانه وقدرُه، والاهتداءُ والضلالُ فعلُ العبدِ وكسبُه، قال تعالى: ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾

- في قوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ عظَّمَ ما أعطاه بمَظهرِ العَظَمةِ، ولَفْظِ الإيتاءِ، بعدما عَظَّمَ خَبَرَه بلَفْظِ الإنباءِ[٣].

- قوله: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ ﴿فَأَتۡبَعَهُ﴾ مِن (أتْبع) رُباعيًّا، أي: لَحِقه وصارَ معه، وهي مُبالغةٌ في حقِّه؛ إذ جُعِلَ كأنَّه هو إمامٌ للشَّيطانِ يَتْبَعُه، وكذلك قولُه تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾[٤] [الصافات: ١٠].

٢- ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ

---

(١) يُنظَر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥).

(٢) يُنظَر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥). ويُنظَر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٣٦)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٢٩٠).

(٣) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٢).

كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

- قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فيه تمثيلٌ لحالِ المتلبِّسِ بالنَّقائصِ والكُفرِ، بعد الإيمانِ والتَّقوى؛ بحالِ مَن كان مُرتفعًا عن الأرضِ، فنزَلَ من اعتلاءٍ إلى أسفَل، فبِذِكرِ (الأرض) عُلِمَ أنَّ الإخلادَ هنا ركونٌ إلى السُّفلِ، أي: تلبُّسٌ بالنَّقائِصِ والمفاسِدِ[١].

- وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ جاءَ الاستدراكُ هنا تَنبيهًا على السَّببِ الذي لأجْلِه لم يُرفَعْ ولم يُشرفْ، كما فُعِل بغيرِه ممَّن أُوتِي الهُدَى فآثَرَه واتَّبعَه[٢]؛ فعبر بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ ولم يقُل: (ولكنَّه أعْرَض عنها)؛ مُبالغةً وتنبيهًا على ما حَمَله عليه، وأنَّ حُبَّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ[٣].

- قوله تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ فيه تَشبيهُ المكذِّبينَ بالآياتِ- حيثُ أُوتوها وجاءتْهم واضحاتٍ تَقتضي التَّصديقَ بها، فقابَلُوها بالتكذيبِ، وانْسَلخوا منها- كما شُبِّهَ وصْفُ المُؤتَى الآياتِ المنسلخِ منها بالكَلبِ في أخسِّ حالاتِه، و﴿ذَّٰلِكَ ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ إشارةً لِمَثَل المنسلِخِ، وأنْ يكونَ إشارةً لوصفِ الكَلبِ، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ أداةُ التَّشبيهِ مَحذوفةً مِن ﴿ذَّٰلِكَ ﴾، أي: صِفةُ ذلِك صِفةُ الذين كذَّبوا، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ مَحذوفةً مِن ﴿مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ﴾، أي: ذلك الوصْفُ وصْفُ المنسلِخِ، أو وصفُ الكَلبِ كمَثَل الذين كذَّبوا بآياتِنا، ويَكون أبلغَ في ذمِّ المكذِّبين حيثُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٤٢).

جُعِلوا أصلًا، وشُبِّهَ بهم[١].

- وجملةُ ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ جملةٌ مُبَيِّنَةٌ لجُملةِ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا...﴾، أي: ذلك التمثيلُ مَثَلٌ للمُشركينَ المُكَذِّبينَ بالقُرآنِ، وهو تَشبيهٌ بليغٌ؛ لأنَّ حالةَ الكَلبِ المُشبَّه شَبيهةٌ بحالِ المُكَذِّبين، وليستْ عَينَها[٢].

- قولُه: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تذييلٌ للقِصَّةِ المُمَثَّلِ بها، يشمَلُها وغَيرَها مِن القَصَص التي في القُرآن؛ فإنَّ في القَصَصِ تفكُّرًا ومَوعظةً، فيُرجى منه تفكُّرُهم ومَوعِظَتُهم[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾

- قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هذه الجُملةُ تأكيدٌ للجُملةِ السَّابقةِ[٤]، وهي جملةٌ مُستأنفةٌ؛ لأنَّها جُعِلَت إنشاءَ ذَمٍّ لهم، بأنْ كانوا في حالةٍ شَنيعةٍ، وظَلَموا أنفُسَهم[٥].

- قوله: ﴿وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ فيه تقديمُ المَفعولِ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ للاختصاصِ، كأنَّه قِيل: وخَصُّوا أنفُسَهم بالظُّلمِ، وما تَعدَّى أثرُ ذلك الظُّلمِ عنهم إلى غيرِهم[٦].

- وقولُه: ﴿كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ أقْوَى في إفادةِ وَصْفِهم بالظُّلمِ مِن أن يُقالَ: وظَلَموا أنفُسَهم[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٩-١٨٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٠٦).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٠).

٤- قوله: ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ تذييلٌ للقِصَّةِ والمَثَلِ وما أُعقِبا به من وَصْفِ حالِ المُشركينَ؛ فإنَّ هذه الجُملةَ تُحصِّلُ ذلك كُلَّه، وتجري مجرى المَثَلِ، وذلك أعلى أنواعِ التَّذييلِ[١].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن تعريفِ جُزأيِ الجُملةِ ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ قَصرٌ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ، باعتبارِ الكَمالِ، واستمرارِ الاهتداءِ إلى وفاةِ صاحِبِه. وكذلك القَولُ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ وزِيدَ في جانِبِ الخاسرينَ الفَصلُ باسمِ الإشارةِ (أُولَئِكَ)؛ لزيادةِ الاهتمامِ بتَمييزِهم بعنوانِ الخُسرانِ تحذيرًا منه، فالقَصرُ فيه مؤكَّدٌ. وقد عُلِمَ مِن مُقابلةِ الهِدايةِ بالإضلالِ، ومُقابلةِ المهتدي بالخاسِرِ أنَّ المُهتديَ فائِزٌ رابِحٌ، فحُذِفَ ذِكرُ رِبحِه إيجازًا[٢].

- وجاء الإفرادُ في الأوَّلِ ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾، والجَمعُ في الثَّاني ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ باعتبارِ اللَّفظِ والمعنى لـ ﴿ مَن ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ المُهتَدينَ كواحدٍ، لاتِّحادِ طَريقتِهم، بخلافِ الضَّالِّينَ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٨٢).
(٣) يُنظَر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٣٧).

الآيات (١٧٩-١٨٢)

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿ذَرَأْنَا﴾: أي: خَلَقنَا، وَأصلُ (ذرأ) البَذْرُ والزَّرعُ[١].

﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾: أي: لا يَفهمونَ، والفقه هو مطلقُ الفهمِ، أو: فهمُ الأشياءِ الدقيقةِ، يُقال: فقهتُ الكلامَ. إذا فهمتَه حقَّ الفهمِ، والفقهُ التوصُّلُ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، فهو أخصُّ مِن العلمِ[٢].

﴿وَذَرُوا۟﴾: أي: اترُكُوا ودَعُوا، وفلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه لقلَّةِ اعتدادِه به[٣].

﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾: أي: يَجُورونَ فيها عن الحَقِّ ويَعْدِلونَ، وذلك بتَسمِيَتِهم آلهتَهم بأسمائِه تعالى، فاشتقُّوا اللَّاتَ مِن (اللهِ) والعُزَّى من (العزيزِ)،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

وأصلُ (لحد): يدلُّ على مَيلٍ عن استقامةٍ[١].

﴿أُمَّةٌ﴾: أي: جماعةٌ، وأصلُ (أمَّ): الأصلُ والمرجِعُ، والجماعةُ والدِّينُ[٢].

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾: أي: سنأخُذُهم قليلًا قليلًا، درجةً فدرجةً، ولا نُباغِتُهم، وأصلُ (درج): يدلُّ على مُضِيِّ الشَّيءِ، والمُضيِّ في الشَّيءِ[٣].

﴿وَأُمْلِي﴾: أي: أؤخِّرُهم وأُمْهِلُهم؛ مأخوذٌ مِن المُلاوةِ، وهي الحينُ[٤].

﴿كَيْدِي﴾: أي: مَكْرِي أو أخْذي، والكيدُ: ضربٌ من الاحتيالِ، وقد يكونُ مَذمومًا وممدوحًا، وإن كان يستعمَلُ في المذمومِ أكثَرَ، وأصلُ (كيد) يدلُّ على معالجةٍ لِشَيءٍ بِشِدَّةٍ[٥].

﴿مَتِينٌ﴾: أي: شديدٌ، وأصلُ (متن) يدلُّ على صلابةٍ في الشَّيءِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥، ٢٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢، ٣٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩). ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه خلَقَ لجهنَّمَ كثيرًا من الجِنِّ والإنسِ، لهم قلوبٌ لا يَفهمونَ بها الحقَّ، ولهم أعيُنٌ لا يُبصرونَ بها آياتِ اللهِ وأدلَّتَه، ولهم آذانٌ لا يَسمعونَ بها كتابَ اللهِ سَماعَ تَدبُّرٍ وتفَكُّرٍ، أولئك كالأنعامِ التي لا تفهَمُ شيئًا، بل هم أضَلُّ منها، أولئك هم الغافلونَ عن آياتِ اللهِ وذِكرِه، وعمَّا ينفَعُهم من الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ.

ويخبِرُ تعالى أنَّ له الأسماءَ الحُسنى، ويأمُرُ عبادَه أن يدعُوه بها، ويتركُوا الذين يميلونَ في أسمائِه عن الحَقِّ الواجِبِ لها؛ فإنَّه تعالى سيُجازيهم بما كانوا يَعملونَ؛ مِن الكُفرِ والإلحادِ في أسمائِه.

ويخبِرُ تعالى أنَّ مِمَّن خَلَق جماعةً مِن المُسلمينَ، يهتدونَ بالحَقِّ، ويُرشِدونَ النَّاسَ إليه، وبه يعدِلونَ بينهم، والذين جَحَدوا بآياتِه- عزَّ وجَلَّ- سيستدرجُهم إلى ما يُهلكُهم ويُضاعفُ عقابَهم مِن حيثُ لا يعلمون، فيمهِلُهم، ويطيلُ أعمارَهم، ولا يعاجِلُهم بالعقوبةِ؛ ليتمادَوا في الكُفرِ والعِصيانِ؛ إنَّ كيدَه -عزَّ وجلَّ- قويٌّ شديدٌ، لا يُمكِنُ الإفلاتُ منهُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه هو الهادي وهو المُضِلُّ؛ أعقَبَه بذكْرِ مَن خُلِقَ للخُسرانِ

والنَّارِ، وذكَرَ أوصافَهم فيما ذَكَر، وفي ضِمنِه وعيدُ الكُفَّار[١].

وأيضًا فهذه الآيةُ عطفٌ على جملةِ: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ والمناسبةُ أنَّ صاحبَ القصَّة المعطوفِ عليها انتقَل مِن صورةِ الهدَى إلى الضَّلال؛ لأنَّ الله لما خلَقه خلَقه ليكونَ مِن أهلِ جهنَّمَ، مع ما لها -أيضًا- مِن المناسبةِ للتذييلِ الذي خُتِمت به القصةُ، وهو قولُه: ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ ... ﴾[٢].

وأيضًا لَمَّا انقضَتْ تلك القَصَصُ، فأسفَرَت عن أنَّ أكثَرَ الخَلقِ هالكٌ، صَرَّحَ بذلك هنا[٣]، فقال:

﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ ﴾.

أي: ولقد خَلَقْنا وبثَثْنا لنارِ جَهنَّم كثيرًا مِن الجِنِّ والإنسِ؛ ليصيرُوا إليها يومَ القِيامةِ، فهم لطَريقِها سالكونَ، وبعَملِ أهلِها عاملونَ[٤].

عن عائشةَ أمِّ المُؤمنينَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ خلقَ للجنَّةِ أهلًا، خلَقَهم لها، وهم في أصلابِ آبائِهم، وخلَقَ للنَّارِ أهلًا، خَلَقَهم لها، وهم في أصلابِ آبائِهم))[٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سمعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يقولُ: ((كتبَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائقِ، قبلَ أن يخلُقَ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٢).

(٣) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٧٢).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٤٤، ٣٤٦).

قال القرطبي: (أخبر تعالى أنَّه خلقَ للنَّارِ أهلًا بعَدْلِه). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٤).

(٥) رواه مسلم (٢٦٦٢).

السَّمواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألفَ سنةٍ، قال: وعَرشُه على الماءِ))[١].

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾.

أي: لهؤلاءِ- الذين خلَقْناهم لجهنَّمَ- قلوبٌ لا يَفهمونَ بها الحَقَّ الذي جاء مِن عندِ اللهِ، ولا يتفكَّرونَ فيه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾.

أي: ولهم أعينٌ لا يَنظرونَ بها إلى آياتِ اللهِ وأدِلَّتِه، فيتأمَّلُوها ويعلَموا الحَقَّ[٣].

كما قال سُبحانه: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١].

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٨]

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٧١]

﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٢، ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٤٧).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٤٨).

أي: ولهم آذانٌ لا يَسمَعونَ بها آياتِ كتابِ اللهِ سَماعَ تَدَبُّرٍ وتفكُّرٍ في معانيها، فيهتَدُوا بها إلى الحَقِّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

أي: أولئك- الَّذينَ ذرَأْنا لجهنَّم، الَّذينَ لا يَسمعونَ الحَقَّ ولا يَعُونَه ولا يُبصِرونَه، إنما همُّهم من الدُّنيا الأكلُ والتمتُّعُ بالشَّهواتِ- مِثلُ البَهائِم التي لا تفهَمُ الحقَّ، بل هم أضلُّ منها؛ لأنَّ الأنعامَ تُبصِرُ منافِعَها ومضارَّها، وتتَّبِعُ مالِكَها، وتُستعمَل فيما خُلِقَت له، بخلافِ أولئك القَومِ الضَّالينَ[(٢)].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٣، ١٨٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٤٨).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٤، ٥٩٥)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٤، ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥٠).

قال ابنُ عاشور: (وجهُ كَونِهم أضَلَّ مِن الأنعامِ: أنَّ الأنعامَ لا يبلُغُ بها ضلالُها إلى إيقاعِها في مَهاوي الشَّقاءِ الأبدي؛ لأنَّ لها إلهامًا تتفصَّى به عن المهالِك، كالتردِّي من الجبالِ والسُّقوط في الهُوَّات). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٤).

وقال سبحانه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

أي: هؤلاءِ الكفَّارُ- الَّذين لم ينتَفِعوا بعُقولِهم ولا بأعيُنِهم ولا بآذانِهم- همُ الذينَ غَفَلوا غفلةً كاملةً عن آياتِ اللهِ وذِكرِه، وعمَّا ينفَعُهم من الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ[1].

كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨].

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه ذرأَ كثيرًا من الجنِّ والإنسِ للنَّارِ؛ ذكرَ نوعًا منهم، وهم الذينَ يُلحِدونَ في أسمائِه[2]. ولَمَّا بيَّنَ في الآيةِ السَّابقةِ حالَ المَخلوقينَ لجَهنَّمَ؛ في عدَمِ استعمالِ عُقولِهم وحَواسِّهم في الاعتبارِ بآياتِ اللهِ، والتفَقُّهِ في تزكِيةِ أنفُسِهم بالعِلمِ الصَّحيحِ، الذي يترتَّبُ عليه العمَلُ الصَّالِحُ، وأنَّ ذلك الإهمالَ أعقَبَهم الغفلةَ التَّامةَ عَن أنفُسِهم، وما فيه صَلاحُها؛ من ذِكرِ الله تعالى وشُكرِه، والثَّناءِ عليه بما هو أهلُه مِن صفاتِ الكَمالِ- قفَّى على ذلك بدَواءِ هذه الغَفلةِ، فأمرَ سُبحانه بذِكرِه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وهذا

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٥)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٤/ ٢٦٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٣٠).

كالتَّنبيهِ على أنَّ المُوجِبَ لدُخولِ جهنَّمَ، هو الغفلةُ عن ذِكرِ اللهِ، والمُخَلِّصَ من عذابِ جهنَّمَ هو ذِكرُ اللهِ تعالى [١].

وأيضًا لَمَّا أنتَجَ ما سبَقَ أنَّ للمُشركينَ الأسماءَ السُّوأى، ولِمَعبوداتِهم أسوأَ منها؛ عطَفَ عليه الآيةَ هنا؛ دفعًا لِوَهْمِ من يتوهَّمُ- بالحُكمِ بالضَّلالِ، والذَّرْءِ لِجَهنَّمَ- ما لا يليقُ بالله تعالى [٢].

وأيضًا لَمَّا كان أفظَعُ أحوالِ المَعدودينَ لجهنَّمَ هو حالَ إشراكِهم باللهِ غَيرَه؛ لأنَّ فيه إبطالًا لأخَصِّ الصِّفاتِ بمعنى الإلهيَّةِ: وهي صِفةُ الوحدانيَّةِ، وما في معناها مِن الصِّفاتِ؛ نحو: الفَرْد الصَّمَد، وينضوي تحتَ الشِّركِ تعطيلُ صِفاتٍ كَثيرةٍ، مع إنكارِ أهلِ الشِّركِ صِفةَ الرَّحمنِ- فعُقِّبَت الآياتُ التي وصَفَت ضلالَ إشراكِهم، بتَنبيهِ المُسلمينَ للإقبالِ على دُعاءِ اللهِ بأسمائِه الدَّالَّةِ على عظيمِ صِفاتِ الإلهيَّةِ، والدَّوامِ على ذلك، وأن يُعرِضوا عن شَغْبِ المُشرِكينَ وجِدَالِهم في أسماءِ اللهِ تعالى [٣]، فقال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

أي: ولله أحسَنُ الأسماءِ الدالَّةِ على صفاتِ كمالِه، فادعُوا اللهَ وَحْدَه بتلك الأسماءِ العظيمةِ [٤].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٢).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٧٥).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٥).

(٤) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥١، ٣٥٢).

قال القرطبي: (سمَّى اللهُ سُبحانه أسماءَه بالحُسنى؛ لأنَّها حَسَنةٌ في الأسماعِ والقُلوبِ، فإنَّها تدلُّ على توحيدِه وكَرَمِه، وَجُودِه ورَحمتِه وإفضالِه). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٦).

وقال الشنقيطي: (﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ فادْعُوه بتلك الأسماءِ؛ كأن تقولَ: يا رحمنُ ارحَمْنا، يا رحيمُ ارحَمْني. قال بعض العلماء: تقول: يا رحيمُ ارحَمْني، يا رازقُ ارزُقْني، يا حكيمُ احكُمْ لي.

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٨].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ للهِ تسعةً وتِسعينَ اسمًا -مئةً إلَّا واحدًا- مَن أحصاها دخَلَ الجنَّةَ))(١).

﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾.

أي: واترُكوا الذينَ يَميلونَ في أسماءِ اللهِ، عن الحقِّ الواجبِ لها، كأنْ يُسَمُّوا بها آلهتَهم، أو يزيدُوا فيها، أو ينقُصوا منها، أو يُنكِروا بَعضَها(٢).

ولا تقولُ: يا حكيمُ اغفِرْ لي، أو: يا رزاقُ ارحَمْني. والتحقيقُ أنَّ هذا كلَّه جائزٌ؛ لأنَّ أسماءَ اللهِ مُتلازمةٌ، كلُّ صفةٍ في واحدٍ منها تستلزِمُ جميعَ الصِّفاتِ الأخرى لعَظمةِ صِفاتِه جلَّ وعلا، واستلزامُ كُلِّ واحدةٍ منها غايةُ الكَمالِ والجلالِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٥٢).

(١) رواه البخاري (٢٧٣٦) ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥٦، ٣٥٧).

قال ابنُ القيِّم: (وحقيقةُ الإلحادِ فيها: العُدولُ بها عن الصَّوابِ فيها، وإدخالُ ما ليس مِن معانيها فيها، وإخراجُ حقائقِ معانيها عنها... فالإلحادُ إمَّا بجَحْدِها وإنكارِها، وإمَّا بجَحدِ معانيها وتعطيلِها، وإمَّا بتَحريفِها عن الصَّوابِ، وإخراجِها عن الحَقِّ بالتَّأويلاتِ الباطلةِ، وإمَّا بجَعلِها أسماءً لهذه المخلوقاتِ المصنوعاتِ). ((مدارج السالكين)) (١/ ٥٤).

قال ابنُ عُثيمين: (وقد ذكَرَ أهلُ العِلمِ للإلحادِ في أسماءِ اللهِ تعالى أنواعًا، يَجمَعُها أن نقولَ: هو المَيلُ بها عمَّا يجِبُ اعتقادُه فيها، وهو على أنواعٍ:

النوع الأول: إنكارُ شَيءٍ مِن الأسماءِ، أو ما دلَّت عليه مِن الصِّفاتِ.

النوع الثاني: أن يُسمِّيَ اللهَ- سبحانه وتعالى- بما لم يُسَمِّ به نفسَه.

﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: سيُجازي اللهُ أولئك الذين يُلحِدونَ في أسمائِه، على جميع ما كانوا يعمَلونَ مِن الكُفرِ والإلحادِ في أسمائِه[١].

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى مَن ذرَأَ للنَّارِ، ذكَرَ هنا مُقابِلَهم[٢]، فقال:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: ومِنَ الذين خَلَقْنا، جماعةٌ مِن المُسلمينَ، يهتدونَ بالحَقِّ الذي أنزَلَه اللهُ، ويُرشِدونَ النَّاسَ إليه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر: ١- ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٠٤].

النوع الثالث: أن يَعتقِدَ أنَّ هذه الأسماءَ دالَّةٌ على أوصافِ المَخلوقينَ، فيجعَلَها دالَّةً على التَّمثيلِ.

النوع الرابع: أن يَشتَقَّ مِن أسماءِ اللهِ- تعالى- أسماءً للأصنامِ، كاشتقاقِ اللَّاتِ مِن الإلهِ، والعُزَّى من العزيزِ، ومناةَ مِن المنَّانِ. هذه أنواعُ الإلحادِ في أسماءِ اللهِ تعالى). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٥٨).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٠).

(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٣٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥٩).

وعن ثوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تزالُ طائفةٌ مِن أمَّتي ظاهرينَ على الحقِّ، لا يضُرُّهم مَن خَذَلهم، حتى يأتيَ أمرُ اللهِ وهم كذلك))[١].

﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾.

أي: وبالحَقِّ يعدلونَ بين النَّاسِ ويُنصِفونَهم[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حال الهادينَ المَهديِّينَ، وكان أصلُ السِّياقِ الضَّالِّينَ المُضلِّين؛ أتبَعَه بقيَّةَ الحديثِ عنهم على وجهٍ مُلَوِّحٍ بأنَّ عِلَّةَ الهدايةِ التَّوفيقُ[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢﴾.

أي: والَّذينَ جَحَدوا آياتِنا ورَدُّوها، سنُقرِّبُهم إلى هلاكِهم بالتَّدريجِ، درجةً درجةً، فنُغدِقُ عليهم مِن نِعَمِنا، ونفتَحُ لهم أبوابَ رِزقِنا، حتى يغتَرُّوا بما هم فيه، فيزدادوا انهماكًا في الفَسادِ، وتماديًا في البَطَرِ والغَفلةِ والعِنادِ، وهم لا يَعلمونَ حقيقةَ ما يُرادُ بهم، حتى يأخُذَهم اللهُ تعالى بعذابِه على غِرَّةٍ[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٦٤٠) ومسلم (١٩٢٠).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥٩).

وهذا المعنى المذكور هو اختيارُ ابنِ جريرٍ، والسعدي. يُنظَر: المصادر السابقة.

وقال الشِّنقيطي: (﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ يعملونَ هم في أنفُسِهم؛ لأنَّ مَن عَمِلَ به عدَلَ وأصابَ العدالةَ، وتنحَّى عن طرَفِ الإفراطِ والتَّفريطِ؛ لأن العدالةَ هي التوسُّطُ بين الأمرينِ، والتَّجافي عن طرَفِ الإفراطِ وطرَفِ التَّفريطِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٥٩).

(٣) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٧٨).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦٢ - ٣٦٤).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

وقال سُبحانه: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٤-٥٦].

﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾.

﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾.

أي: وأُمهِلُ الذين كذَّبوا بآياتي، فأُطيلُ أعمارَهم، ولا أعاجِلُهم بالعُقوبةِ؛ ليتمادَوْا في الكُفرِ، ويزدادُوا عصيانًا، فتزيدَ عقوبَتُهم، ويتضاعَفَ عذابُهم(١).

عن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالِمِ حتَّى إذا أخذَه لم يُفلِتْه. ثم قرأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود: ١٠٢]))(٢).

﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾.

أي: إنَّ كَيْدي قَويٌّ شديدٌ لا يُمكِنُ الإفلاتُ منه(٣).

قال ابنُ جريرٍ: (وأصلُ الاستدراجِ: اغترارُ المُستَدرَجِ بلُطفٍ، مِن حيثُ يرى المُستدرَجُ أنَّ المُستَدرِجَ إليه مُحسِنٌ، حتى يورِّطَه مَكروهًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٠-٦٠١).

قال الشِّنقيطي: (يظنُّونَ أنَّ تلك النِّعَمَ مُسابَقةٌ لهم في الخَيراتِ، وأنَّهم ينالونَ بعد ذلك أحسَنَ منه). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٤).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٨٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩١، ١٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦٤).

(٢) رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي))

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥- ١٧].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

مِن أعظَمِ الأسبابِ التي يُحرَمُ بها العبدُ خَيرَ الدُّنيا والآخرةِ، ولذَّةَ النَّعيمِ في الدَّارينِ، ويَدخُلُ عليه عدوٌّ منها: الغفلةُ المُضادَّةُ للعِلمِ، وقد ذَمَّ اللهُ تعالى أهلَها، فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ لَمَّا كانوا لا يتدبَّرونَ شيئًا مِن الآياتِ، ولا ينظرونَ إليها نظَرَ اعتبارٍ، ولا يسمعونَها سماعَ تفكُّرٍ، جُعِلوا كأنَّهم فَقَدوا الفِقهَ بالقُلوبِ، والإبصارَ بالعيونِ، والسَّماعَ بالآذانِ، وليس المرادُ نفيَ هذه الإدراكاتِ عن هذه الحواسِّ، وإنَّما المرادُ نفيُ الانتفاعِ بها فيما طُلِبَ منهم من الإيمانِ[(٢)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ يدلُّ على أنَّ كُفَّارَ الجِنِّ في النَّارِ[(٣)].

(ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٢، ١٩٣).

(١) يُنظَر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١١٢).

(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٨).

(٣) يُنظَر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص:٤١٧).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ تقديمُ المجرورِ على المفعولِ في قَولِه: ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾ لِيَظهرَ تعلُّقُه بـ﴿ذَرَأْنَا﴾[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ قدَّمَ ذكرَ الجِنِّ على الإنسِ في الآيةِ، والعلَّةُ في ذلك:

قيل: لَمَّا كانوا يُعَظِّمونَ الجِنَّ ويخافونَهم ويَضِلُّون بهم، بدأ بالجِنِّ[٢].

وقيل: لعلَّ تقديمَهم هنا في الذِّكرِ على الإنسِ أنَّهم أكثَرُ أهلِ جَهنَّم؛ لأنَّهم أجدَرُ وأعرَقُ في الصِّفاتِ المذكورةِ عَقِبَ هذه الجملةِ في الآية، والتي هي سببُ استحقاقِها[٣].

وقيل: بل قدَّمَ الجِنَّ على الإنسِ في الذِّكرِ؛ ليتعيَّنَ كونُ الصِّفاتِ الواردةِ مِن بعدُ صِفاتٍ للإنسِ، وبقرينةِ قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ فيه دليلٌ على أنَّ القَلبَ آلةٌ للفِقهِ والعِلمِ، كما أنَّ العينَ آلةٌ للإبصارِ، والأذُنَ آلةٌ للسَّماعِ[٥].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لَمَّا كان السِّياقُ للتفكُّرِ، بدأ بالقُلوبِ[٦].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أبلَغُ مِن أن يُقالَ: (ليس لهم قلوبٌ يفقهونَ بها)؛ لأنَّ إثباتَ خلقِ القُلوبِ لهم، هو موضِعُ قيامِ الحُجَّةِ

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٣).
(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٧٣).
(٣) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٥٠).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٣).
(٥) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٨).
(٦) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٧٣).

عليهم، والتعبيرُ الآخَرُ يَصدُقُ بأمرينِ: بعَدَمِ وجودِ القُلوبِ لهم بالمرَّةِ، وبوجودِ قلوبٍ لا يفقهونَ بها، وفي الحالةِ الأولى لا تقومُ عليهم حجَّةٌ؛ لأنَّهم لم يُؤتَوا آلةَ التَّكليفِ، وهو العَقلُ والوِجدانُ، فلا تكونُ العبارةُ نصًّا في قيامِ الحُجَّةِ؛ لاحتمالِها عدمَ التَّكليفِ. وإنَّما قال: ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾، ولم يقُل: (لا تفقَهُ)؛ لبيانِ أنَّهم هم المؤاخَذونَ بعَدمِ تَوجيهِ إرادتِهم لِفقهِ الأمورِ، واكتناهِ الحَقائقِ، ويقالُ مثلُ هذا وما قبلَه فيما بَعدَه، وهو: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ﴾[1].

٨- السَّمعُ والعَقلُ هما أصلُ العِلمِ، وبهما يُنالُ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ﴾[2].

٩- قال تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ﴾ ليس في تقديمِ الأعيُنِ على الآذانِ مُخالَفةٌ لِما جرى عليه اصطلاحُ القُرآنِ، مِن تقديمِ السَّمعِ على البَصرِ؛ لتَشريفِ السَّمعِ بتلقِّي ما أمرَ اللهُ به، كما في قولِه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ [البقرة: ٧] لأنَّ التَّرتيبَ في آيةِ سُورةِ الأعرافِ هذه، سلك طريقَ الترقِّي مِن القُلوبِ التي هي مقَرُّ المُدرَكاتِ، إلى آلاتِ الإدراكِ: الأعيُنِ، ثم الآذانِ؛ فللآذانِ المرتبةُ الأولى في الارتقاءِ[3].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ وقع هنا التدرُّجُ

(١) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٥٦).
(٢) يُنظَر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٩).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٤).

في وَصفِهم بهذه الأوصافِ: مِن نَفيِ انتفاعِهم بمَدارِكهم، ثم تَشبيهِهم بالأنعامِ، ثم الترقِّي إلى أنَّهم أضَلُّ مِن الأنعامِ، ثمَّ قَصرِ الغَفلةِ عليهم[١].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ وجهُ كونِهم أضلَّ مِن الأنعامِ: أنَّها تَنقادُ لأربابِها، وتعرِفُ مَن يُحسِنُ إليها، وتجتنِبُ ما يضرُّها، وهؤلاءِ لا يَنقادونَ لِرَبِّهم، ولا يَعرفونَ إحسانَه إليهم، من إساءةِ الشَّيطانِ الذي هو عدوُّهم[٢]!

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ فأسماءُ اللهِ ليسَت إلَّا لِلَّهِ، والصِّفاتُ الحُسنى ليسَت إلَّا للَّهِ، فيجِبُ كَونُها موصوفةً بالحُسنِ والكَمالِ؛ فهذا يفيدُ أنَّ كلَّ اسمٍ لا يُفيدُ في المسمَّى صفةَ كمالٍ وجلالٍ، فإنَّه لا يجوزُ إطلاقُه على اللهِ سُبحانه[٣].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ دلَّت الآيةُ على أنَّ اللهَ- عزَّ وجلَّ- لا يُخلِي الدُّنيا في وقتٍ مِن الأوقاتِ مِن داعٍ يدعو إلى الحَقِّ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ فيه تأكيدٌ بلامِ القَسَمِ وبـ (قَد)؛ لقَصدِ تحقيقِ الخَبَرِ؛ لأنَّ غرابتَه تُنَزِّلُ سامِعَه خاليَ

(١) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٨٥).
(٢) يُنظَر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢١١، ٢١٢).
(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٤).
(٤) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٩).

الذِّهنِ منه منزلةَ المُتردِّدِ في تأويلِه، ولأنَّ المُخبَرَ عنهم قد وُصِفوا بـ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ إلى قَولِه: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، والمعنيُّ بهم المُشركونَ، وهم يُنكِرونَ أنَّهم في ضلالٍ، ويحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا، وكانوا يحسَبونَ أنَّهم أصحابُ أحلامٍ وأفهامٍ[١].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ مستأنفةٌ لابتداءِ كلامٍ بتفظيعِ حالِهم، فجُعِلَ ابتداءَ كلامٍ؛ ليكونَ أدعى للسَّامِعينِ، وعُرِّفوا بالإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لزيادةِ تَمييزِهم بتلك الصِّفات، وللتنبيهِ على أنَّهم بسبَبِها أحْرِياءُ بما سيُذكَرُ مِن تَسويَتِهم بالأنعامِ، أو جَعلِهم أضلَّ مِن الأنعامِ[٢].

- قَولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ تعليلٌ لِكَونِهم أضلَّ مِن الأنعامِ، وهو بلوغُهم حدَّ النِّهايةِ في الغَفلةِ، وبلوغُهم هذا الحدَّ أُفيدَ بِصيغةِ القَصرِ الادِّعائيِّ؛ إذِ ادُّعِيَ انحصارُ صِفةِ الغَفلةِ فيهم، بحيث لا يُوجدُ غافلٌ غيرُهم؛ لعدمِ الاعتدادِ بغَفلةِ غَيرِهم، فكلُّ غفلةٍ في جانبِ غَفلَتِهم كَلَا غفلةٍ؛ لأنَّ غَفلةَ هَؤلاءِ تعلَّقَت بأجدَرِ الأشياءِ بألَّا يُغفَلَ عنه، وهو ما تُفضي الغفلةُ عنه بالغافِلِ إلى الشَّقاءِ الأبديِّ، فهي غفلةٌ لا تدارُكَ منها[٣].

٢- ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تقديمُ المجرورِ المسنَدِ على المسنَدِ إليه؛ لمجرَّدِ الاهتمامِ المُفيدِ تأكيدَ استحقاقِه إيَّاها، المُستفاد من اللَّام،

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٢).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٤).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٨٥).

والمعنى أنَّ اتِّسامَه بها أمرٌ ثابتٌ[١].

- والتَّفريعُ في قَولِه: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ تفريعٌ عَن كَونِها أسماءً له، وعن كونِها حُسنى، أي: فلا حَرجَ في دعائِه بها؛ لأنَّها أسماءٌ مُتعدِّدةٌ لمسمًّى واحدٍ، لا كما يزعُمُ المُشركون، ولأنها حُسنى فلا ضيرَ في دعاءِ الله تعالى بها[٢].

- وجملةُ: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ تتنزَّلَ منزلةَ التَّعليلِ للأمرِ بترْكِ المُلحِدينَ، و(ما) موصولةٌ عامَّةٌ، أي: سيُجزَونَ بِجَميعِ ما يَعمَلونَه مِن الكُفرِ، ومِن جملة ذلك إلحادُهم في أسمائِه، والسينُ للاستقبالِ، وهي تفيدُ التَّأكيد[٣].

- وقيل: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ أن يُقالَ (ما عَمِلوا) أو (ما يعملونَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك العمَلَ سنةٌ لهم، ومتجَدِّدٌ منهم[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الاستدراجُ: استفعالٌ من درَجَ بمعنى (صعِد)، ثم اتُّسِع فيه، فاستُعمِلَ في كلِّ نقلٍ تدريجيٍّ، سواءٌ كان بطريقِ الصُّعودِ أو الهبوطِ أو الاستقامةِ، ثم استُعيرَ لطَلَبِ كُلِّ نَقلٍ تدريجيٍّ مِن حالٍ إلى حالٍ، من الأحوالِ المُلائمةِ للمُنتَقِل، المُوافِقةِ لِهَواه، بحيث يزعُم أنَّ ذلك ترقٍّ في مراقي منافِعِه، مع أنَّه في الحقيقة تَردٍّ في مهاوي مصارِعِه، فاستدراجُه- سُبحانَه- إيَّاهم: أن يواتِرَ عليهم النِّعمَ مع انهماكِهم في الغَيِّ، فيحسَبوا أنَّها لُطفٌ لهم منه تعالى، فيَزدادوا بَطرًا وطغيانًا، لكِنْ لا على أنَّ المطلوبَ تدرُّجُهم في مراتِبِ النِّعَمِ، بل هو تدرُّجُهم في مدارجِ المعاصي إلى أن يحِقَّ عليهم كلمةُ العذابِ على أفظَعِ حالٍ وأشنَعِها[٥].

(١) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٨٦).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٨٧).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٩٠).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٠).
(٥) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٧).

٤- قولُه تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ (إنَّ وما بَعدَها) في موضِعِ العِلَّةِ للجُملَتينِ قبلها؛ فإنَّ الاستدراجَ والإملاءَ ضَربٌ مِن الكَيدِ[٦].

- والمغايرةُ بين فعلَيْ (نستَدرِج) و(أُملي)- في كونِ ثانيهِما بهمزةِ المتكَلِّم، وأوَّلِهما بنونِ العَظَمةِ- مغايرةٌ اقتضَتْها الفصاحةُ، مِن جِهةِ ثِقلِ الهَمزةِ بين حرفينِ مُتماثِلَين في النُّطقِ في ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، وللتفنُّنِ والاكتفاءِ بحُصولِ معنى التعظيمِ الأوَّلِ[٧].

(٦) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٢).

(٧) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٨٤-١٨٦)

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿جِنَّةٍ﴾: أي: جُنونٍ، وَأصلُ (جنن): السَّترُ والتسَتُّر[١].

﴿مَلَكُوتِ﴾: أي: مُلْكِ، وزيدَت فيه الواوُ والتاءُ، وبُنِي بناءَ جَبَروتٍ، وهو مختَصٌّ بمُلكِ اللهِ تعالى[٢].

﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾: أي: عُتُوِّهِمْ وتكبُّرِهم، أو غَيِّهم وكُفْرِهم، وأصلُ الطُّغيانِ: مجاوزةُ الحدِّ[٣].

﴿يَعْمَهُونَ﴾: أي: يتَحيَّرون ويجورونَ عَن الطَّريقِ، وأصلُ العَمهِ: التردُّدُ في الأمْرِ، مِن التحيُّرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص:٢١٣، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٧٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١ / ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (١ / ٨٨٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

المَعنى الإجماليُّ:

أوَلم يتفكَّرْ هؤلاءِ المكَذِّبونَ بآياتِ اللهِ، فيما جاءهم به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّهم لا يخفى عليهم حالُه، فيعلَمُوا أنَّه ليس به جُنونٌ، وما هو إلَّا نذيرٌ مُبينٌ.

أوَلم ينظُرْ هؤلاءِ المكَذِّبونَ بآياتِ اللهِ نظَرَ تأمُّلٍ واعتبارٍ، في ملكوتِ السَّمَواتِ والأرضِ، وفي جميعِ ما خلقَ اللهُ تعالى فيهما، فيعلَمُوا أنَّ خالِقَ ذلك كلِّه ومُدبِّرَه، هو المستحِقُّ وَحْدَه للعبادةِ، وينظرُوا في آجالهم التي عسَى أن تكونَ قد قربَتْ، فيَحذَروا ويُبادِرُوا إلى التَّوبةِ، فبأيِّ حديثٍ بعد القرآنِ يُصَدِّقونَ ويَنْقادون.

وأخبرَ تعالى أنَّ مَن يَكتُب عليه الضَّلالةَ فلن يهْديَه أحدٌ، ويتركُهم اللهُ تعالى في كُفرِهم وضلالِهم يتحيَّرونَ، فلا يهتَدونَ للحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان تكذيبُ المُشركينَ بالآياتِ مُنبعِثًا عن تكذيبِهم مَن جاء بها، وناشئًا عن ظَنِّ أنَّ آياتِ اللهِ لا يجيءُ بها البشَرُ، وأنَّ مَن يدَّعي أنَّه مُرسَلٌ مِن الله مجنونٌ- عقَّبَ الإخبارَ عن المُكَذِّبينَ ووعيدِهم، بدَعوتِهم للنَّظَرِ في حالِ الرَّسولِ، وأنَّه ليس بمجنونٍ كما يزعمونَ[1].

وأيضًا لَمَّا بالغَ اللهُ تعالى في تهديدِ المُعرضينَ عن آياتِه، الغافلينَ عن التأمُّلِ في دلائِلِه وبيِّناتِه- عاد إلى الجوابِ عن شُبُهاتِهم[2]، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٩).

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾.

أي: أوَلم يُعمِلْ أولئك المكَذِّبونَ بآياتِنا فِكرَهم فيما جاءَهم به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذي خالَطوه وعَرَفوه، ولا يخفى عليهم شيءٌ مِن حالِه، فيعلَمُوا أنْ ليس به أيُّ جنونٍ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا نفى أن يكونَ به شَيءٌ ممَّا نَسَبوه إليه وافتَرَوْه عليه، فثبَتَت رسالتُه- حصَرَ أمْرَه في النِّذارةِ؛ لأنَّها النَّافِعةُ لهم[2]، فقال:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: ما محمَّدٌ إلا نذيرٌ يخوِّفُ الكفَّارَ مِن عِقابِ اللهِ إن لم يُؤمِنوا، يُبِينُ ما

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٢)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٠)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦٦).

و(ما) في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ نافيةٌ، ويجوزُ أن تكونَ استفهاميةً، ويجوز أن تكونَ موصولةً، بمعنى (الذي)، وتقديره: (أو لم يتفكَّروا في الذي بصاحبِهم)، وعلى هذا يكونُ الكلامُ خرَج على زعمِهم. ينظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٢٥).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٨٠).

يُنذِرُهم به؛ ليكونَ إنذارًا واضحًا جليًّا، لا لبْسَ فيه ولا شَكَّ، ولا عُذرَ معه[١].

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حضَّهم اللهُ تعالى على التفكُّرِ في حالِ الرَّسولِ، وكان مُفرَّعًا على تقريرِ دليلِ التَّوحيدِ؛ أعقَبَ بما يدلُّ على التَّوحيدِ، ووجودِ الصَّانِعِ الحَكيمِ[٢]، فقال تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾.

أي: أوَلم ينظُرِ المُكَذِّبونَ بآياتِ اللهِ نظَرَ تأمُّلٍ واعتبارٍ في مُلكِ اللهِ الواسِعِ، وسُلطانِه العظيمِ، في السَّمواتِ وفي الأرضِ، وفيما خلَقَ مِن الأشياءِ كُلِّها، فيتفكَّروا في كلِّ ذلك، فيعلَموا أنَّ خالِقَ ذلك ومُدبِّرَه هو المُستحِقُّ للعبادة وَحْدَه، فيؤمِنوا به ويُصَدِّقوا رسولَه[٣]؟

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦٨، ٣٧٠).
قال الشِّنقيطي: (المبينُ: اسمُ فاعلِ (أبان يُبين)، قال بعضُ العلماءِ: هو مِن (أبان) المتعديةِ. وعليه فالمفعولُ محذوفٌ لعمومِه، والمعنى: مُبِينٌ نذارتَه، مصرحٌ لكم في غايةِ البيانِ بما ينذركم الله به، ويحذِّركم منه. وأكثرُ العلماءِ على أنَّ قولَه: ﴿مُّبِينٌ﴾ صفةٌ مشبهةٌ، هي الوصفُ مِن: (أبان) اللازمةِ... فعلى القولِ الأولِ ﴿مُّبِينٌ﴾: أي: مُبِينٌ ما ينذِرُكم ويُحَذِّرُكم به، موضِّحٌ له بالتَّفصيلِ. وعلى الثَّاني: أنَّه الصِّفةُ المُشَبَّهة مِن: (أبانَ) اللَّازمةِ، فمعنى (مُبِينٍ): نذيرٌ بَيِّنُ الإنذارِ واضِحُه، لا إشكالَ في إنذارِه). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٧٠). ويُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٥).
(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٠)، (تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٣٥).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٧)، ((نظم

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾.

أي: وينظُروا في احتمالِ دنُوِّ وَقتِ مَوتِهم وهم على كُفْرِهم، فيَحْذَروا ويبادِرُوا إلى التَّوبةِ قبل أن يصيروا إلى عذابِ اللهِ[1].

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: فبأيِّ تخويفٍ وتحذيرٍ بعد القرآنِ يُصَدِّقون، إن لم يُصَدِّقوا بهذا الكتابِ الذي جاءَهم به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِن عندِ الله تعالى[2]؟

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى إعراضَهم عن الإيمانِ، ذكرَ علَّةَ ذلك: فضَلالُهم أمْرٌ قَدَّرَ

الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٠، ٣٧١).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٢، ٣٧٣).

وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في ﴿بَعْدَهُۥ﴾ يعودُ على القرآنِ: ابنُ جَريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسعديُّ، والشِّنقيطي. يُنظَر: المصادر السابقة.

وقيل: هو عائِدٌ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقيل: عائدٌ على الأجَلِ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٨٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٩).

اللهُ دوامَه، فلا طمَعَ لأحدٍ في هَدْيِهم [(١)]، فقال تعالى:

﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ ﴾.

أي: مَن كتبَ اللهُ عليه الضَّلالةَ، فلن يهدِيَه أحدٌ مِن بعدِ اللهِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

﴿ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

أي: ويترُكُهم اللهُ في تمادِيهم في كفْرِهم وضلالِهم، يتحَيَّرون ويتردَّدونَ، فلا يهتدونَ إلى الحقِّ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٥).

وقال جل جلاله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- الحَثُّ على الفِكرِ والتأمُّلِ والتدبُّرِ، والترَوِّي لطَلَبِ معرفةِ الأشياءِ كما هي، عِرفانًا حقيقيًّا تامًّا؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾[(١)].

٢- يجِبُ على العاقِلِ المُبادرةُ إلى التفكُّرِ والاعتبارِ، والنَّظرِ المؤدِّي إلى الفَوزِ والنَّعيمِ الدَّائمِ؛ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٖ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾[(٢)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٖ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ نبَّهَ على الفِكرِ في اقترابِ الأجَلِ؛ لعلَّهم يُبادِرونَ إليه، وإلى طلَبِ الحَقِّ وما يُخَلِّصُهم من عذابِ الله، قبل مُقانَصةِ الأجَلِ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ حَذفُ مَعمولِ التفكُّرِ يؤذِنُ بِعُمومِ ما يدلُّ عليه المقامُ ممَّا تقتضيه الحالُ[(٤)].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٤٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن حيان)) (٥/ ٢٣٥).

(٤) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٨١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ مُحمَّدًا خاتَمُ الرُّسُلِ، وأنَّ الوَحيَ ينقطِعُ بعد القُرآنِ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فيه أنَّ الهُدى والضَّلالَ مِن اللهِ تعالى(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

- قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ كلامٌ مبتدأٌ مَسوقٌ لإنكارِ عَدمِ تفكُّرِهم في شأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجَهلِهم بحقيقةِ حالِه، المُوجِبةِ للإيمانِ به وبما أُنزِلَ عليه مِن الآياتِ التي كذَّبوا بها، والهمزةُ في ﴿أَوَلَمْ﴾ استفهاميَّةٌ للإنكارِ والتَّعجيبِ والتَّوبيخِ(٣).

- ودخولُ (مِن) على النَّكرةِ في قولِه: ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾؛ لتوكيدِ العمومِ في النَّفي(٤)، فيوجب ألَّا يكونَ به نوعٌ مِن أنواعِ الجنونِ(٥).

- والتَّعبيرُ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بصاحِبِهم؛ للإيذانِ بأنَّ طولَ مُصاحَبتِهم له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ممَّا يُطْلِعُهم على نزاهَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن شائبةِ ما ذُكِرَ، ففيه تأكيدٌ للنَّكيرِ، وتشديدٌ له(٦).

---

(١) يُنظَر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٩٢).
(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٢).
(٣) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٨).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٣)، وينظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٧٧).
(٥) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٩٠).
(٦) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٨).
قال محمد رشيد رضا: (وقد عَبَّر عنه في هاتينِ الآيَتَيْنِ، وفي آيةِ التَّكْويرِ بالصَّاحِبِ لهم؛ لتَذْكيرِهم

- وقَولُه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ جملةٌ مُقَرِّرةٌ لِمَضمونِ ما قَبلَها، ومبيِّنةٌ لحقيقةِ حالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ أي: ما هو إلَّا مُبالغٌ في الإنذارِ، مُظهِرٌ له غايةَ الإظهارِ؛ إبرازًا لكمالِ الرَّأفةِ، ومبالغةً في الإعذارِ[1].

- القَصرُ المُستفادُ مِن النَّفيِ والاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قَصرُ مَوصوفٍ على صفةٍ، وهو يقتضي انحصارَ أوصافِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النِّذارةِ والبَيانِ، وذلك قَصرٌ إضافيٌّ، هو قَصرُ قَلبٍ، أي هو نذيرٌ مُبينٌ، لا مجنونٌ كما يزعمونَ، وفي هذا استغباءٌ أو تسفيهٌ لهم بأنَّ حالَه لا يلتبِسُ بحالِ المَجنونِ؛ لِلْبَونِ الواضحِ بين حالِ النِّذارةِ البيِّنةِ، وحال هَذَيانِ المجنونِ؛ فدعواهم جُنونَه: إمَّا غباوةٌ منهم، بحيث التَبَسَت عليهم الحقائِقُ المتمايِزةُ، وإمَّا مكابرةٌ وعنادٌ وافتراءٌ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

٢- ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ ترَقٍّ في الإنكارِ والتَّعجيبِ مِن حالِهم في إعراضِهم عن النَّظرِ في حالِ رَسولِهم، إلى

بأنَّهم يعرفونه مِن أوَّلِ نشأتِه إلى أنْ تَجاوَزَ الأربعين مِن عُمْرِه، فما عليهم إلَّا أنْ يَتَفَكَّروا حَقَّ التَّفكُّرِ في سيرَتِه الشَّريفةِ المعقولةِ؛ ليعلموا أنَّ الشُّذوذَ ومجافاةَ المعقولِ ليس مِن دَأْبِه، ولا ممَّا عُهِدَ عنه، وكذلك الكذبُ كما قال بعضُ زعمائِهم مِنْ أهلِ مَكَّةَ: إنَّ مُحَمَّدًا لم يكذبْ قط على أحدٍ مِنَ الناسِ أفيكذِبُ على الله؟ وقد قال تعالَى في أُولئك الزعَماءِ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام: ٣٣]. ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٨١).

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٨-٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٥).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٥-١٩٦).

الإنكارِ والتَّعجيبِ مِن إعراضِهم عن النَّظَرِ فيما هو أوضَحُ من ذلك وأعَمُّ، وهو مَلَكوتُ السَّمواتِ والأرضِ، وما خلَقَ اللهُ مِن شَيءٍ ممَّا هو آياتٌ مِن آياتِ وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، التي دعاهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى الإيمانِ بها[١].

- وعُدِّيَ فِعلُ النَّظرِ ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ ﴾ إلى مُتعلِّقِه بحَرفِ الظَّرفيَّةِ (في)؛ لأنَّ المرادَ التأمُّلُ بتدبُّرٍ، وهو التفكُّرُ، فدلَّ بحَرفِ الظَّرفيَّةِ على أنَّ هذا التفكُّرَ عَميقٌ مُتغلغِلٌ في أصنافِ الموجوداتِ[٢].

- قَوْلُه: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ معطوفٌ على ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ وصِيغَ الكلامُ على هذا النَّظمِ؛ لإفادةِ تَهويلِ الأمرِ عليهم وتخويفِهم، بجَعْلِ متعَلِّقِ النَّظرِ مِن معنى الإخبارِ؛ للدَّلالةِ على أنَّه أمرٌ مِن شأنِه أن يخطُرَ في النُّفوسِ، وأن يتحَدَّثَ به النَّاسُ، وأنَّه قد صار حديثًا وخَبرًا، فكأنَّه أمرٌ مُسلَّمٌ مُقرَّرٌ[٣].

- قَولُه ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ استفهامٌ تعجيبيٌّ، مَشوبٌ باستبعادٍ للإيمانِ بما أبلَغَ إليهم اللهُ بلِسانِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما نصَبَ لهم من الآياتِ في أصنافِ المَخلوقاتِ؛ فإنَّ ذلك كُلَّه قد بلغ مُنتهى البَيانِ قَولًا ودلالةً، بحيث لا مَطمَعَ أن يكونَ غيرُه أدلَّ منه[٤].

٣- قولُه: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ﴾ هذه الجملةُ تعليلٌ للإنكارِ في قَولِه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ لإفادةِ أنَّ ضَلالَهم أمرٌ قَدَّرَ اللهُ دوامَه، فلا

(١) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٩٦).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٩٧).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٨).

طَمَعَ لأحدٍ في هَدْيِهم[١].

(١) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٩٩).

الآيتان (١٨٧-١٨٨)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾: أَي: متى إِقَامَتهَا وإثباتها ومُستقَرُّها، ويُسألُ بأَيَّانَ عن الزَّمانِ المُستقبَلِ، وأصلُ (رسو): يدلُّ على الثَّبات[١].

﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾: أي: لا يُظهِرُها، يقال: جلَّى لي الخَبَر: أي كشَفَه وأوضَحَه، وأصلُ (جلو): يدلُّ على انكشافِ الشَّيءِ وبُروزِه[٢].

﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: خَفِيَ عِلمُ السَّاعة على أهلِ السَّمواتِ والأرضِ، وإذا خَفِيَ الشَّيءُ ثَقُلَ، أو ثقُلَ وقوعُها على أهل السَّمواتِ والأرضِ، وأصل (ثقل) ضِدُّ الخفَّةِ[٣].

﴿حَفِىٌّ﴾: أي: مُلِحٌّ في طَلَبِ عِلْمِها، مُستَقْصٍ السُّؤالَ عنها. يقال: أحفى فلانٌ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٢، ٢٢٥، ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣١). ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٣).

في المسألةِ: إذا ألحَّ فيها وبالَغَ، وأصلُ (حفي): يدلُّ على استقصاءٍ في السُّؤالِ [١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قال تَعالَى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾: ﴿مَا﴾ اسمٌ مَوصولٌ مبنيٌّ في محلِّ نَصبٍ على الاستثناءِ المتَّصِل مِن مَجموعِ النَّفعِ والضَّرِّ- على تقديرِ أنَّه يملِكُ من ذلك ما ملَّكَه اللهُ -أي: إلَّا ما شاءَ اللهُ تمكيني منه، فإنِّي أملِكُه، وقيل: الاستثناءُ مُنقطِعٌ- لأنَّ المخلوقَ لا يملِكُ لنَفسِه نفعًا ولا ضَرًّا بحالٍ- والتَّقديرُ: لكنْ ما شاء اللهُ مِن ذلك كائِنٌ [٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى لنبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يسألُك النَّاسُ متى يحُلُّ يومُ القيامةِ، قل لهم: إنَّما عِلمُ ذلك عند ربِّي، لا يُظهِرُه في وقتِه إلَّا هو وَحدَه، خفِي علمُ وقتِها على أهلِ السمواتِ والأرضِ، لا تأتيكم إلَّا فجأةً، يَسألونَك عنها يا مُحمَّدُ، وكأنَّك قد أكثَرْتَ السُّؤالَ عنها حتى عَلِمْتَ وَقتَها، قلْ لهم: لا عِلمَ لي بوَقتِها، إنَّما عِلمُ ذلك عند اللهِ، ولكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمونَ.

قلْ لهم: لا أملِكُ أنْ أجلِبَ لنفسي النَّفعَ، ولا أدفَعَ عنها الضُّرَّ، إلَّا ما شاء اللهُ، ولو كنتُ أعلَمُ الغيبَ لفعَلتُ الأسبابَ التي أعلَمُ أنَّها تُنتِجُ لي الكثيرَ مِن المصالِحِ، ولَتجنَّبتُ الشَّرَّ قبل أن يقَعَ، ما أنا إلَّا مُنذِرٌ ومُبَشِّرٌ لِقَومٍ يُؤمنونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٠، ٤١٣).

(٢) يُنظَر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٦٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٢)، ((الرد على الإخنائي)) لابن تيميَّة (ص: ١٤٧). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٨).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

في مُناسَبةِ الآيةِ لِما قَبلَها وجهان:

الوجهُ الأول: لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى التوحيدَ والنبوَّةَ والقضاءَ والقدَرَ؛ أتبعَ ذلك بذِكرِ المَعادِ.

الوجه الثاني: لَمَّا تقدَّمَ قَولُه تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ وكان ذلك باعثًا للمبادرةِ إلى التَّوبةِ والإصلاحِ، قال بعده: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾؛ ليتحقَّقَ في القُلوبِ أنَّ وقتَ السَّاعةِ مكتومٌ عن الخَلقِ، فيصيرَ ذلك حاملًا للمُكلَّفينَ على المسارعةِ إلى التَّوبةِ وأداءِ الواجباتِ [(١)].

سببُ النُّزولِ:

عن طارقِ بنِ شِهابٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان لا يزالُ يَذكُرُ مِن شأنِ السَّاعةِ، حتى نزلَت: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾[(٢)].

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٥٨١)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٨/ ٣٢٢) (٨٢١٠)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (٣٩٤٥).
قال ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٣/ ٥٢٦)، والحكمي في ((معارج القبول)) (٢/ ٦٨٧): إسنادُه جيِّدٌ قويٌّ.

أي: يسألُكَ النَّاسُ[(١)]- يا مُحمَّدُ- عن يومِ القيامةِ متى يحُلُّ وَقتُه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال سُبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۞ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٥-٦].

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّد- للَّذينَ يسألونَك عن وَقتِ وُقوعِ يَومِ القيامةِ: إنَّما عِلمُ ذلك عند خالِقي ومُدَبِّر شُؤوني، لا عندي، لا يُظهِرُها ولا يوجِدُها في وَقتِها الذي قُدِّرَ أنَّها تقومُ فيه، إلَّا اللهُ وحده[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧].

﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾.

---

(١) قال ابنُ كثير: (يقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، قيل: نزلت في قريشٍ. وقيل: في نفَرٍ مِن اليهودِ. والأوَّلُ أشبَهُ؛ لأنَّ الآيَةَ مكيَّةٌ، وكانوا يسألونَ عن وقتِ السَّاعة؛ استبعادًا لوقوعِها، وتكذيبًا بوجودِها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨]) يُنظَر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٨).
وقال الشِّنقيطي: (والذين سألوه: قال بعضُ العُلَماءِ: هم كفَّارُ مكَّةَ. وقال بعضُ العُلماء: نفرٌ مِن اليهودِ، ولا مانعَ مِن أن يكون كلٌّ منهم سألوه عنها). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٧٥-٣٧٦).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٥، ٣٧٦).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٧ - ٣٧٩).

أي: خَفِيَتِ السَّاعةُ عَلَى أَهْلِ السَّمواتِ والأرضِ، وثقلُ علمُها عليهم، واشتَدَّ خَوفُهم منها؛ لِما سيكونُ فيها من الأهوالِ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٧-١٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا * ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٧-١٨].

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾.

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٩)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٩).

وممَّن اختار أنَّ معنى ثقُلَت: خَفِيَ عِلْمُها: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّة، وابنُ كثيرٍ.

وممَّن رُوي عنه هذا القولُ مِن السَّلف السُّدِّي. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٨) وروي نحوه عن قتادةَ، ينظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٢٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: عَظُمَ خَطْبُها، واشتَدَّ خَوفُ الخلائِقِ مِن أهوالِها: ابنُ عاشور، والشِّنقيطي.

وممَّن رُوي عنه نحو هذا القول مِن السَّلف الحسنُ، وابنُ جريجٍ، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٢٧).

وجمع السعدي بين المعنيين. يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، وينظر أيضًا: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٧٥).

وقال ابنُ كثيرٍ بعد اختيارِه القَولَ الأوَّلَ: (ولا ينفي ذلك ثِقَلَ مجيئِها على أهلِ السَّموات والأرضِ، واللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٩).

أي: لا تجيءُ السَّاعةُ إلَّا فجأةً، وأنتم لا تَشعرونَ بِمَجيئِها[١].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٨-٥٠].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَقومُ السَّاعةُ حتى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها، فإذا طلَعَت فرآها النَّاسُ آمَنُوا أجمعونَ، فذلك حين: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد نشر الرَّجُلانِ ثَوبَهما بينهما فلا يَتَبايعانِه، ولا يَطْوِيانِه، ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد انصرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقحَتِه[٢] فلا يطعَمُه، ولتَقومَنَّ السَّاعةُ وهو يَليطُ حَوضَه[٣] فلا يَسقي فيه، ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد رفَعَ أحدُكم أُكلَتَه إلى فيه فلا يطعَمُها))[٤].

وعن أبي هُريرة رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بارِزًا

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨١).

(٢) اللِّقحةُ (بِكَسرِ اللاَّم): النَّاقةُ الحَلوبُ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٣/ ٩٢).

(٣) يَليطُ حَوضَه: أي: يُطَيِّنُه ويُصلِحُه. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٣/ ٩٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٤٠٧).

(٤) رواه البخاري (٦٥٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٥٧) و (٢٩٥٤).

يومًا للنَّاسِ، فأتاه جبريلُ... قال: متَّى السَّاعةُ؟ قال: ((ما المَسؤولُ عنها بأعلَمَ مِن السَّائِلِ))(١).

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ قبلَ أن يموتَ بِشَهرٍ: ((تَسألوني عن السَّاعةِ؟! وإنَّما عِلْمُها عندَ اللهِ، وأُقسِمُ باللهِ ما على الأرضِ مِن نفسٍ مَنفوسةٍ تأتي عليها مئةُ سَنةٍ))(٢).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾.

أي: يَسألُك النَّاسُ عن وقتِ وُقوعِ القيامةِ، وكأنَّك- يا مُحمَّدُ- قد أكثَرْتَ وبالغتَ في السُّؤالِ عنها حتى علِمتَ وقتَها(٣)!!

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّد- لِمَن يسألُك عن مَوعدِ وقوعِ القيامةِ: لا عِلمَ لي بِوَقتِها، ولا يعلَمُ وَقتَها إلَّا اللهُ وَحدَه(٤).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يعلمونَ أنَّ وَقتَ وُقوعِ يومِ القيامةِ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ وَحدَه(٥).

---

(١) رواه البخاري واللفظ له، (٥٠) ومسلم (٩).

(٢) رواه مسلم (٢٥٣٨).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٥٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٢).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٢).

قال الشِّنقيطي: (﴿قُلْ﴾ لهم يا نبيَّ اللهِ: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ كرَّرَ رَدَّ عِلمِها إلى اللهِ؛ ليعلَمَ الخَلقُ أنَّها لا يعلمُها إلَّا اللهُ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٨٢).

(٥) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٤)، ((تفسير أبي حيان))

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّد- لِسَائليك عن وَقتِ قيامِ السَّاعةِ: أنا لا أقدِرُ على جَلبِ نَفعٍ إلى نفسي، ولا دفْعِ ضَرٍّ عنها، إلَّا ما أقدرَني اللهُ عليه بمشيئتِه، فيعينُني عليه[1].

﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾.

أي: وقل- يا مُحمَّدُ- لِمَن يسألُك عن وقتِ قيامِ السَّاعةِ: ولو كنتُ أعلَمُ ما هو كائنٌ في المستقبَلِ، لأعدَدْتُ الكثيرَ ممَّا ينفعُني من المالِ وغَيرِه[2].

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾.

(٥/ ٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٣٢).

قال أبو السعود: (أي: لا يعلمونَ ما ذُكِرَ مِن اختصاصِ عِلمِها به تعالى؛ فبعضُهم ينكرونَها رأسًا فلا يعلمونَ شَيئًا ممَّا ذُكِرَ قَطعًا، وبعضُهم يعلمونَ أنَّها واقعةٌ البتَّةَ، ويزعمونَ أنَّك واقِفٌ على وَقتِ وُقوعِها فيسألونَك عنه جهلًا، وبعضُهم يدَّعونَ أنَّ العِلمَ بذلك من موجِبِ الرِّسالةِ فيتَّخِذونَ السُّؤالَ عنه ذريعةً إلى القَدحِ في رسالتِك). ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٢).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٥- ٦١٦)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٥، ٣٨٦).

قال الشِّنقيطي: (المرادُ بالخيرِ في هذه الآيةِ الكريمة قيل: المالُ، ويدلُّ على ذلك كثرةُ ورودِ الخَيرِ بمعنى المالِ في القرآنِ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٞ﴾ [العاديات: ٨]، وقولِه: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقولِه: ﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ [البقرة: ٢١٥]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ. وقيل: المرادُ بالخَيرِ فيها العملُ الصَّالحُ، كما قاله مجاهِدٌ وغيره، والصَّحيحُ الأوَّلُ؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مستكثِرٌ جِدًّا من الخيرِ الذي هو العمَلُ الصَّالِحُ؛ لأنَّ عمَلَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان دِيمةً، وفي روايةٍ: كان إذا عَمِلَ عملًا أثبَتَه). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤٦).

أي: ولو كنتُ أعلَمُ الغَيبَ لاحترَستُ ممَّا يُفضي إلى المكروهِ، ولكنِّي لا أعلَمُ الغيبَ؛ ولهذا يصيبُني ما قدَّر اللهُ لي[(١)].

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: ما أنا إلَّا مُنذِرٌ عقابَ اللهِ مَن عصاه، ومُبَشِّرٌ بثوابِه مَن أطاعَه، وإنذاري وتبشيري إنَّما ينتفِعُ به المؤمنونَ[(٢)].

كما قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يجِبُ على المؤمنينَ أن يخافوا ذلك اليومَ، وأن يحمِلَهم الخوفُ على مُراقبةِ الله تعالى في أعمالِهم، فيلتَزِموا فيها

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٦).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٦، ٣٨٨).
قال ابنُ جُزيٍّ: (﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يجوزُ أن يتعلَّقَ ببشير ونذير معًا، أي: أُبَشِّرُ المؤمنينَ وأُنذِرُهم، وخَصَّ بهم البِشارةَ والنِّذارةَ؛ لأنَّهم هم الذين ينتفعونَ بها، ويجوز أن يتعلَّقَ بالبشارةَ وَحدَها، ويكون المتعَلِّقُ بنذير محذوفًا، أي: نذيرٌ للكافرينَ، والأوَّلُ أحسَنُ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٥). وهذا الذي استحسَنه ابنُ جُزيٍّ، ذهب إليه الواحديُّ، وابنُ عاشور، والشِّنقيطي. يُنظَر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٨).

الحقَّ، ويتحَرَّوا الخيرَ، ويتَّقُوا الشَّرَّ والمعاصيَ، ولا يجعَلوا حَظَّهم مِن أمْرِ السَّاعةِ الجِدالَ، والقيلَ والقالَ[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ في السُّؤالِ عن زَمَنِ وُقوعِها بكلمةِ (الإرساءِ)- الدَّالةِ على استقرارِ ما شأنُه الحركةُ والجَرَيانُ، أو المَيَدانُ والاضطرابُ- نكتةٌ دقيقةٌ: وهو أنَّ قيامَ السَّاعةِ عبارةٌ عن انتهاءِ أمْرِ هذا العالَمِ، وانقضاءِ عُمُرِ هذه الأرضِ التي تدورُ بمَن فيها من العوالِمِ المتحَرِّكة المُضطربةِ، فعبَّرَ بإرسائِها عن منتهى أمْرِها، ووقوفِ سَيرِها. والسَّاعةُ زمَنٌ، وهو أمرٌ مُقدَّرٌ، لا جسمٌ سائِرٌ أو مُسَيَّرٌ، وما يقع فيها ويعبَّرُ بها عنه فهو حركةُ اضطرابٍ وزلزالٍ، لا رَسْوَ ولا إرساءَ، وهو أمرٌ مُستقبَلٌ لا حاصلٌ، ومتوقَّعٌ لا واقِعٌ، فلم يبقَ لإرسائِها معنًى إلَّا إرساءُ حركةِ هذا العالَم فيها، وإنَّه لتعبيرٌ بليغٌ، لم يُعهَدْ له في كلامِ البُلَغاءِ نَظيرٌ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ وقال بَعدَها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فأجابَ عن الأوَّلِ بِقَولِه: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ وعن الثَّاني بقولِه: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فذكَرَ في الثَّاني اسمَ الجلالةِ؛ للإشعارِ بأنَّه ممَّا استأثَرَ بعِلمِه لِذاتِه، كما أنَّ ذِكرَه للرَّبِّ في الأوَّلِ أشعَرَ بأنَّه مِن شُؤونِ رُبوبيَّتِه، وكلٌّ منهما ممَّا يستحيلُ على خَلقِه[٣].

بلاغةُ الآيَتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ

(١) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٩١).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٨٨).

(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٩٢).

قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

- قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، يَذكرُ به شيئًا مِن ضلالِهم ومحاولةِ تعجيزِهم النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بتعيينِ وَقتِ السَّاعةِ. ومناسبةُ هذا الاستئنافِ هي التعرُّضُ لتوقُّعِ اقترابِ أجَلِهم في قَولِه: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾[(١)].

- وقد أُطلِقَ الإرساءُ هنا؛ تشبيهًا لوقوعِ الأمرِ الذي كان مترقَّبًا أو متردَّدًا فيه بوصولِ السَّائرِ في البرِّ أو البحرِ، إلى المكان الذي يريدُه[(٢)].

- وذَكرَ السَّاعةَ أوَّلًا، والاستفهامَ عن زمَنِ وُقوعِها ثانيًا؛ على قاعدةِ تَقديمِ الأهَمِّ، وهو المقصودُ بالذَّاتِ[(٣)].

- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ فيه حصرٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّه الأصلُ: أنَّ عِلمَ السَّاعةِ بالتَّحديدِ مقصورٌ على اللهِ تعالى، والتَّعريفُ بوَصفِ الرَّبِّ وإضافَتِه إلى ضميرِ المتكَلِّمِ إيماءٌ إلى الاستدلالِ على استئثارِ اللهِ تعالى بعِلمِ وَقتِ السَّاعةِ دون الرَّسولِ المسؤولِ؛ ففيه إيماءٌ إلى خَطئِهم، وإلى شُبهةِ خَطئِهم[(٤)].

- وفُصِلَت جُملةُ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ لأنَّها تتنزَّلُ مِن ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ منزلةَ التَّأكيدِ والتقريرِ، وقدَّمَ المجرورَ، وهو ﴿لِوَقْتِهَآ ﴾، على فاعِلِ ﴿يُجَلِّيهَا ﴾ الواقعِ استثناءً مفرَّغًا؛ للاهتمامِ به، تنبيهًا على أنَّ تَجليةَ أَمْرِها

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٠).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٠٢).
(٣) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٨٩).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٢).

تكونُ عند وقتِ حُلولِها؛ لأنَّها تأتي بغتةً[١].

- جملةُ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ مؤكِّدةٌ لجملةِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾، ومُبَيِّنة لكيفيَّةِ سؤالِهم فلِذَينِكَ فُصِلَت، وحُذِفَ مُتعلَّقُ السُّؤالِ؛ لعِلمِه مِن الجملةِ الأولى[٢].

وقيل: السُّؤالُ الأوَّلَ عن وقتِ قيامِ السَّاعة، والثَّاني عن كُنهِ ثِقلِ السَّاعةِ وشِدَّتِها ومهابَتِها، وقيل: ذُكِرَ الثَّاني للتَّأكيدِ، ولِما جاء به من زيادةِ قَولِه: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾[٣].

- قولُه: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: كأنَّك عالمٌ بها. وحقيقتُه: كأنَّك بليغٌ في السُّؤالِ عنها؛ لأنَّ من بالغَ في المسألةِ عن الشَّيءِ والتنقيبِ عنه، استحكَمَ عِلمُه فيه ورصَنَ، وهذا التركيبُ معناه المبالغةُ[٤].

٢- قوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، قُصِدَ منه الاهتمامُ بمضمونِه؛ كي تتوجَّهَ الأسماعُ إليه، ولذلك أعيدَ الأمرُ بالقَولِ مع تقدُّمِه مرَّتينِ في قَولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ و﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ للاهتمامِ باستقلالِ المَقولِ، وألَّا يندرِجَ في جملةِ المقُولِ

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٢).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٠٤).
(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٤٣).
(٤) يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٤)

المحكيِّ قَبلَه[١].

- وقال اللهُ تعالى هنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وقال في سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٤٨-٤٩]، فقَدَّمَ النَّفعَ على الضَّرِّ في الأُولى، وأخَّره عنه في الأُخرى، وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ؛ أنَّه هنا في الأعرافِ لَمَّا تقدَّمَ سُؤالُ المشركينَ عن السَّاعةِ، وتكرَّر في قولِه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾، وكان ظاهِرُ السِّياقِ يُشيرُ إلى أنَّهم كانوا يظنُّونَ أنَّه- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- يعلَمُها، فطَلَبوا تعريفَهم بها، وأن يخُصَّهم بذلك، ولا شَكَّ أنَّ العِلمَ بالشَّيءِ نَفعٌ لصاحِبِه، فعَرَّفَهم أنَّه لا يملِكُ لنَفسِه نفعًا ولا ضَرًّا، فتقدَّمَ ذِكرُ النَّفعِ؛ لأنَّه مُشيرٌ إلى ما ظَنُّوه أنَّه عِندَه مِن عِلمِها، فأعلَمَهم أنَّه سبحانَه استأثرَ بعِلمِها، وأنَّه- عليه الصَّلاةُ والسَّلام- لا يملِكُ من ذلك شيئًا إلَّا ما شاء اللهُ له ممَّا عدا عِلمَ السَّاعةِ؛ لانفرادِه سبحانه عن خَلقِه بعِلمِها، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ثم تأكَّدَ هذا الغَرَضُ بِقَولِه تعالى على لسانِ نبيِّه- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ وهذا كلُّه بيِّنُ التناسُبِ.

وأمَّا الآيةُ في سورةِ يونُسَ فإنَّها فيما كان يستعجِلُه الكُفَّارُ مِن عذابِ اللهِ تعالى، وقَبلَها ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]، ويقولُ الكُفَّارُ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨] قُلْ: لا أملِكُ ما وعدَكم اللهُ مِن هذا العذابِ، ولا أن أدفَعَ عنكم

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٧).

سُوءَ العِقابِ، كما لا أملِكُ لنفسي ضرًّا ولا نفعًا إلَّا ما شاء اللهُ أن يملِّكَنيه منهما، فتقديمُ (الضَّرِّ) على (النَّفعِ) في هذه الآية؛ لخروجِها عن ذكرِ العذابِ الذي قال اللهُ تعالى فيه بَعدَها: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾[1] [يونس: ٥١].

- وإنَّما عَطفَ قَولَه: ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ مع أنَّ المرءَ لا يتطَلَّبُ إضرارَ نَفسِه؛ لأنَّ المقصودَ تَعميمُ الأحوالِ، إذ لا تعدو أحوالُ الإنسانِ عن نافعٍ وضارٍّ، فصار ذِكرُ هَذينِ الضِّدَّينِ مثلَ ذِكرِ المساءِ والصَّباحِ، وذِكرِ اللَّيلِ والنَّهارِ، والشَّرِّ والخَيرِ[2].

- وجملة ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ فيها الاستدلالُ على انتفاءِ عِلمِه بالغَيبِ، بانتفاءِ الاستكثارِ مِن الخَيرِ، وتجنُّبِ السُّوء؛ وهو استدلالٌ بأخَصِّ ما لو عَلِمَ المرءُ الغَيبَ لعَلِمَه أولَ ما يعلَمُ، وهو الغيبُ الذي يُهمُّ نفسَه، ولأنَّ اللهَ لو أراد إطلاعَه على الغيبِ، لكان القَصدُ من ذلك إكرامَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيكونُ إطلاعُه على ما فيه راحتُه أوَّلَ ما ينبغي إطلاعُه عليه، فإذا انتفى ذلك كان انتفاءُ غيرِه أَولى. ودليلُ التَّالي في هذه القضيَّةِ الشَّرطيَّةِ، هو المُشاهَدةُ مِن فواتِ خَيراتٍ دُنيويَّةٍ لم يتهيَّأْ لتَحصيلِها، وحصولِ أسواءٍ دُنيويَّةٍ، وفيه تعريضٌ لهم؛ إذ كانوا يتعرَّضونَ له -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بالسُّوءِ[3].

- قوله: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ مِن تمامِ القَولِ المأمورِ به،

(١) يُنظَر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٨٢-٦٨٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٧).

(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٠٨).

وهي مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، ناشئًا عن التبرُّؤِ مِن أن يملِكَ لنَفسِه نَفعًا أو ضَرًّا[١].

- وخصَّ اللهُ تعالى المؤمنينَ بالذِّكرِ في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإن كان نذيرًا وبشيرًا للكُلِّ، إلَّا أنَّ المُنتفِعَ بتلك النِّذارةِ والبِشارةِ هم المؤمنونَ[٢].

(١) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٦).

الآيات (١٨٩-١٩٢)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿لِيَسْكُنَ﴾: أي: ليأوِيَ. وأصلُ (سكن): يدلُّ على خلافِ الاضْطرابِ والحَركةِ[١].

﴿تَغَشَّىٰهَا﴾: أي: جامَعَها، وأصلُ (غشي): يدلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بِشَيءٍ[٢].

﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾: وذلك أوَّل الحَمْلِ، لا تجِدُ المرأةُ له ألَمًا، والخَفِيفُ: بإزاءِ الثَّقيلِ[٣].

﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: أي: استمَرَّت به، وقعَدَت وقامَت، ولم يُثقِلْها الحَملُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤).

﴿أَثْقَلَت﴾: أَيْ: صارت ذات ثِقلٍ بكِبَرِ الولَدِ في بَطنِها، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّةِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

اللهُ الذي خَلَقكم- أيُّها النَّاسُ- مِن نَفسٍ واحدةٍ: هي آدَمُ، وخلقَ مِن آدَمَ زَوجَه حَوَّاءَ- عليهما السَّلامُ؛ ليأوِيَ إليها، فلما جامَعَها حمَلَت في رَحِمِها حملًا خفيفًا عليها، وذلك في أوَّلِه، فاستمَرَّتْ بذلك الحَملِ الخفيفِ تقومُ وتقعدُ مِن دُونِ أن يُثقِلَها الحَملُ، فلمَّا كبِرَ الجنينُ في بَطنِها وصار حَمْلُها ثقيلًا، دعا آدمُ وحوَّاءُ ربَّهما لَئِن آتيتَنا ولدًا سَوِيَّ الخِلقةِ لنكونَنَّ ممَّن يشكُرُ نِعمَك، فلما آتاهما ما طلبَا جعَل أولادُهما لله شُركاءَ، فتنزَّه جل وعلا عمَّا يُشركونَ.

أيعبُدُ المُشركونَ مع اللهِ ما لا يقدِرُ على خَلْقِ شَيءٍ، وهم مخلوقونَ مَصنوعونَ، ولا يستطيعونَ نصْرَ مَن يعبُدُهم، ولا أن ينصُروا أنفُسَهم ممَّن أراد بهم سُوءًا.

وإن تدْعُوا- أيُّها المُشركونَ- هذه الأصنامَ إلى طريقِ الحَقِّ، لا يستجيبوا لكم؛ لأنَّها جماداتٌ لا تعقِلُ، ولا تسمَعُ الدُّعاءَ، وسواءٌ عليكم أدعَوْتُموهم أم صَمَتُّم عن ذلك، فإنَّها لا تتَّبِعُكم ولا تسمَعُكم، فكيف تعبدونَ مَن هذه صِفَتُه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقدَّمَ سؤالُ الكُفَّارِ عن السَّاعةِ ووَقتِها، وكان فيهم من لا يُؤمِنُ بالبعثِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥).

ذكَرَ ابتداءَ خَلقِ الإنسانِ وإنشائِه؛ تنبيهًا على أنَّ الإعادةَ مُمكِنةٌ، كما أنَّ الإنشاءَ كان مُمكِنًا، وإذا كان إبرازُه مِن العَدَمِ الصِّرْفِ إلى الوجودِ واقعًا بالفِعلِ، فإعادَتُه أحرى أن تكونَ واقعةً بالفِعلِ(١).

وأيضًا لَمَّا أمرَ تعالى بالنَّظَرِ في الملكوتِ الدَّالِّ على الوحدانيَّة، وقسَّمَ خَلْقَه إلى مؤمنٍ وكافرٍ، ونفى قُدرةَ أحدٍ مِن خَلْقِه على نَفعِ نَفسِه أو ضَرِّها؛ رجع إلى تقريرِ التَّوحيدِ(٢)، فقال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

أي: اللهُ هو الذي خَلَقكم- أيُّها النَّاسُ- من آدَمَ، عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٨].

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

أي: وخلقَ اللهُ- عزَّ وجلَّ- حوَّاءَ مِن آدَمَ، عليهما السَّلامُ(٤).

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٤).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٠٤).

(٤) يُنظَر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤).

والقولُ بأنَّ حواءَ مخلوقةٌ مِن آدمَ هو قولُ جمهورِ المفسِّرين، كما نسبه إليهم ابنُ الجوزيِّ، وهو قولُ مقاتلِ بنِ سليمانَ، وابنِ جريرٍ، وابنِ تيميةَ، وابنِ جزيٍّ، وابنِ القيِّم، وابنِ كثيرٍ، والشوكانيِّ. يُنظَر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٧)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف قتادةُ، والضحَّاك، ومقاتلُ بنُ حيَّان. ينظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٧).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦].

وعن أبي هُريرة رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((اسْتَوْصوا بالنِّساءِ، فإنَّ المرأةَ خُلقت من ضِلَع، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضلعِ أعلاه، فإن ذهبْتَ تُقيمه كسرْتَه، وإن تركتَه لم يزلْ أعوجَ، فاستوصوا بالنِّساءِ))(١).

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

أي: خلَقَ اللهُ حوَّاءَ؛ لأجْلِ أن يأوِيَ إليها آدَمُ، ليقضِيَ وطَرَه ولَذَّتَه، ويأنَسَ بها، ويطمَئِنَّ إليها(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾.

أي: فلمَّا جامَعَها حَمَلت في رَحِمِها حملًا يخِفُّ عليها، وذلك في أوَّلِه(٣).

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣١) واللفظ له، ومسلم (١٤٦٨).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٣-٤١٤).
قال القُرطبي: (﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليأنَسَ بها ويطمئنَّ، وكان هذا كلُّه في الجنَّةِ، ثم ابتدأ بحالةٍ أخرى هي في الدُّنيا بعد هبوطِهما فقال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ كنايةً عَن الوِقاعِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٧). ويُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٥).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٤).
قال الشنقيطي: (﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: جامَعها ﴿حَمَلَتْ﴾ مِن ذلك الجماعِ ﴿حَمْلًا خَفِيفًا﴾ إنَّما وُصف الحملُ بأنَّه خفيفٌ؛ لأنَّ المرأةَ في أوَّل حبلِها، ما دام حبلُها نطفةً فعلقةً فمضغةً، يكونُ خفيفًا، كأنَّها ليس في بطنِها شيءٌ، تذهبُ وتجيءُ، ولا تجدُ ثقلًا له إلى حوالي خمسةِ

﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦ﴾.

أي: فاستمَرَّتْ بذلك الحَملِ الخَفيفِ تقومُ وتقعُدُ، مِن غَيرِ أن يُثقِلَها الحَملُ[١].

﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾.

أي: فلما صار حَملُها ثقيلًا؛ لِكِبَرِ الجَنينِ في بطنِها، ودُنُوِّ وِلادَتِها[٢].

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أي: نادى آدَمُ وحوَّاءُ إلهَهما وربَّهما قائِلَينِ: نُقسِمُ بك- يا ربَّنا- لَئِنْ رَزَقْتَنا ولدًا سَوِيَّ الخِلقةِ صحيحًا لا عيبَ فيه[٣] لنكونَنَّ ممَّن يشكُرُك على نِعَمِك[٤].

أشهرٍ، فبعدَ ستةِ أشهرٍ يعظمُ الجنينُ في بطنِها، وتثقلُ، وتكونُ الحركةُ ثقيلةً). ((العذب النمير)) (٤/ ٤١٤).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٤).

(٣) ممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ كثيرٍ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظَر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٤).

وممن رُوي عنه نحوُ هذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس، وأبو البَخْتري، وأبو صالحٍ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، والسُّدِّي، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٠).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى القَولِ بعُمومِ معنى الصَّلاحِ، فقال: (الصَّلاحُ قد يشمَلُ معانيَ كثيرةً؛ منها الصلاحُ في استواءِ الخَلقِ، ومنها الصَّلاحُ في الدِّينِ، والصَّلاحُ في العَقلِ والتَّدبير، وإذ كان ذلك كذلك، ولا خبرَ عن الرَّسولِ يُوجِبُ الحجَّةَ بأنَّ ذلك على بعضِ معاني الصَّلاحِ دونَ بَعضٍ، ولا فيه من العَقلِ دليلٌ، وجبَ أن يعُمَّ كما عَمَّه اللهُ، فيقال إنَّهما قالا: لَئِن آتيتَنا صالحًا بجميعِ معاني الصَّلاحِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٢).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٩، ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٤).

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾.

أي: فلمَّا رزَقَهما اللهُ ولدًا صالحًا كمَا سألاه، جعَلَ أهلُ الكُفرِ مِن بني آدمَ[1] لله شُرَكاءَ فيما رزَقَهم[2]، سبحانَه[3].

---

(١) قال الشنقيطي: (جرتِ العادةُ في القرآنِ أن يُسندَ فعلَ الآباءِ إلى الأولادِ، وربما أسنَد فعلَ الأولادِ إلى الآباءِ، وأنَّ الفعلَ هنا أُسنِد لآدمَ وحواءَ (جعلا) بألفِ التثنيةِ الواقعةِ على آدمَ وحوَّاء، والمرادُ ذريتُهما التي أعطاها الله التناسلَ، يخرجُ هذا بشرًا سويًّا، ويخرجُ بسلام، ومع ذلك يكفرونَ بالله- جلَّ وعلا- ويعبدونَ غيرَه، والدليلُ على أنَّه أطلَق آدمَ وحواءَ وأراد ذريتَهما مِن القرآنِ، أنَّه قال بعده: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾، ثم قال: ﴿ أَيُشۡرِكُونَ ﴾ بصيغة الجمع ﴿مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ ثمَّ ذكَر علاماتِ الأصنامِ التي يُشرك بها أولادُهم كما هو واضحٌ. وهذا القولُ أرجحُ، واختارَه غيرُ واحدٍ مِن المحقِّقين؛ لدلالةِ القرآنِ عليه). ((العذب النمير)) (٤/ ٤١٩).

وقال الرازي: (التَّقديرُ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ ولدًا صالحًا سويًّا ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ ﴾ أي: جعَلَ أولادُهما له شركاءَ، على حذفِ المُضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه مقامَه، وكذا ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ أي: فيما آتى أولادَهما، ونظيرُه قوله: ﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: واسأل أهلَ القَريةِ. فإن قيل: فعلى هذا التَّأويلِ ما الفائدةُ في التثنيةِ في قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ ﴾؟! قلنا: لأنَّ وَلَده قسمانِ: ذكرٌ وأنثى، فقولُه: ﴿جَعَلَا ﴾ المرادُ منه الذَّكرُ والأنثى، مرةً عبَّرَ عنهما بلفظِ التَّثنيةِ؛ لكونِهما صِنفَينِ ونوعين، ومرةً عبَّرَ عنهما بلفظِ الجَمعِ، وهو قولُه تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٨، ٤٢٦).

(٢) قال السعدي: (﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ أي: جعلا لله شركاءَ في ذلك الولدِ الذي انفَرد الله بإيجاده، والنعمةِ به، وأقرَّ به أعينَ والديه، فعَبَّداه لغيرِ الله، إمَّا أن يُسمِّياه بعبدِ غيرِ الله ... أو يُشركا بالله في العبادةِ، بعدما منَّ الله عليهما بما منَّ مِن النِّعمِ التي لا يُحصيها أحدٌ مِن العبادِ، وهذا انتقالٌ مِن النَّوع إلى الجنسِ، فإنَّ أولَ الكلامِ في آدمَ وحواءَ، ثم انتقَل إلى الكلامِ في الجنسِ، ولا شكَّ أنَّ هذا موجودٌ في الذريةِ كثيرًا، فلذلك قرَّرهم الله على بطلانِ الشركِ، وأنَّهم في ذلك ظالمون أشدَّ الظُّلمِ، سواء كان الشركُ في الأقوالِ، أم في الأفعالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير))

(٣/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٧- ٤٢٠).
اختار المعنى المذكور الزَّمخشري، والرَّازي، والقُرطبي، وابن جُزَي، وابنُ القيم، وابنُ كثير، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، والسَّعدي، والشِّنقيطي. يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٧، ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٧، ٥٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٧- ٤٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦).
وممَّن رُوي عنه نحوُ هذا القولِ مِن السَّلف الحسنُ. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٩).
وقيل: المرادُ بهما آدَمُ وحوَّاءُ- عليهما السَّلامُ؛ كان لا يعيشُ لهما ولدٌ، فأتاهما الشَّيطانُ فقال: إنْ سَرَّكُما أن يعيشَ لكما ولدٌ فسَمِّيَاه عبدَ الحارِثِ، فأشْرَكَا في التَّسميةِ، ولم يُشرِكا في العبادةِ، واختاره ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، ونسبه ابنُ الجوزي إلى الجمهور. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٤-٦٣٠)، ((الوجيز)) (ص: ٤٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٤٠)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٧٨).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سمرةُ بنُ جندبٍ، وابنُ عبَّاس، وأُبيُّ بنُ كعبٍ، وقتادةُ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٦٢٣).
قال ابن كثير: (وقد تلقَّى هذا الأثرَ عن ابنِ عبَّاسٍ جماعةٌ من أصحابِه؛ كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسُّدِّي، وغيرُ واحد مِن السَّلَفِ، وجماعةٌ من الخَلَف، ومِن المفسِّرين من المتأخرينِ جماعاتٌ لا يُحصَوْنَ كثرةً، وكأنَّه- والله أعلم- أصلُه مأخوذٌ مِن أهلِ الكتابِ؛ فإنَّ ابنَ عبَّاسٍ رواه عن أُبيِّ بنِ كعبٍ، كما رواه ابنُ أبي حاتم.. وهذه الآثارُ يظهَرُ عليها- واللهُ أعلم- أنَّها من آثارِ أهلِ الكِتابِ، وقد صحَّ الحديثُ عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إذا حدَّثَكم أهلُ الكتابِ، فلا تُصَدِّقوهم ولا تُكَذِّبوهم)). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٨).
وقال الرَّازي: (واعلَمْ أنَّ هذا التَّأويلَ فاسِدٌ، ويدلُّ عليه وجوهٌ: الأوَّل: أنَّه تعالى قال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ وذلك يدلُّ على أنَّ الذين أتَوْا بهذا الشِّرْكِ جماعةٌ. الثاني: أنَّه تعالى قال بعده: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]، وهذا يدلُّ على أنَّ المَقصودَ مِن هذه الآيةِ الرَّدُّ على مَن جعَلَ الأصنامَ شُرَكاءَ لله تعالى، وما جرى لإبليسَ اللَّعينِ في هذه الآيةِ ذِكرٌ. الثالث: لو كان المرادُ إبليسَ لقال: أيُشرِكونَ مَن لا يخلُقُ شيئًا، ولم يقُل: ﴿مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾؛ لأنَّ العاقِلَ إنما يُذكَرُ بِصيغةِ «مَن» لا بصيغةِ «ما»... فثبت بهذه الوجوهِ أنَّ

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: فتنزَّه اللهُ وتعاظَمَ عن شِركِ الذين يُشرِكونَ باللهِ، بأقوالِهم أو أفعالِهم[(١)]!!

كما قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٤٣].

﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١﴾.

﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: أيعبُدُ المُشركونَ مع اللهِ ما لا يقدِرُ على خلْقِ شَيءٍ[(٢)]؟!

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ [الحج: ٧٣].

﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾.

أي: وهؤلاءِ الذينَ يعبدونَهم مع اللهِ -مِن الأصنامِ وغَيرِها- مخلوقونَ مَصنوعونَ[(٣)].

كما قال الله تعالى حاكيًا قولَ إبراهيمَ الخليلِ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦].

هذا القَولَ فاسِدٌ، ويجب على العاقِلِ المُسلِمِ ألَّا يلتَفِتَ إليه). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٧). ويُنظَر: ((تفسير ابن جُزي)) (١/ ٣١٦).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٣).

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾.

أي: ولا يستطيعُ هؤلاءِ الذين يعبدونَهم مع اللهِ، أن ينصرُوا عابِدِيهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٩٢-٩٣].

﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾.

أي: ولا هؤلاءِ المعبودونَ مع اللهِ، يستطيعونَ أن ينصُروا أنفُسَهم ممَّن أرادَهم بسُوءٍ، فكيف يكونونَ آلهةً، وهم لا يملِكونَ لأنفُسِهم جلبَ نفْعٍ، ولا دفْعَ ضُرٍّ؟! ومَن عجَز عن نَصرِ نَفسِه فهو عن نَصرِ غَيرِه أعجَزُ[(٢)].

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أثبتَ اللهُ تعالى بالآيةِ المتقَدِّمةِ أنَّه لا قُدرةَ لهذه الأصنامِ على أمْرٍ مِن الأمورِ؛ بيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّه لا عِلمَ لها بشيءٍ مِن الأشياءِ[(٣)]، فقال:

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾.

أي: وإن تَدْعُوا -أيُّها المُشركون- هذه الأصنامَ إلى طَريقِ الحقِّ، لا يستجيبوا

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢١).

(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣١).

لكم؛ لأنَّها جماداتٌ لا تعقِلُ، ولا تسمَعُ دعاءَ مَن دعاها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾.

أي: سواءٌ عليكم- أيُّها المُشركونَ- أدعوتُم هذه الأصنامَ، أم أنتم ساكتونَ عن دُعائِها؛ فإنَّها لا تتَّبِعُكم ولا تسمَعُكم، فكيف تعبدونَ مَن هذه صِفتُه وحالُه[٢]؟!

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: أتاها، كغَشِيَها، ويزيدُ ما تُعطيه صيغةُ التَّفعُّل مِن جُهدٍ، وهو كنايةٌ نزيهةٌ عن أداءِ وظيفةِ الزَّوجيَّة، تشيرُ إلى أنَّ مُقتضى الفِطرةِ وأدبَ الشَّريعةِ فيها، السَّترُ[٣].

٢- إيتاءُ الصَّالِحِ مِن الوَلدِ نِعمةٌ مِن اللهِ على والِدَيه، فينبغي الشُّكرُ عليها؛ إذ هي مِن أجَلِّ النِّعَم؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فأقسَمَا على أنَّهما يكونانِ مِن الشَّاكرينَ إنْ آتاهما صالحًا[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- عِلَّةُ سُكونِ الرَّجُلِ إلى امرأتِه كَونُها مِن جِنسِه وجوهَرِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا﴾ فالجِنسُ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٢).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٣٢).

(٤) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٦).

إلى الجِنسِ أميَلُ، وبه آنَسُ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ احتُجَّ به على أنَّ العَبدَ غَيرُ مُوجِدٍ ولا خالقٍ لأفعالِه، خلافًا للمعتزلةِ القائلينَ بخلقِ الإنسانِ أفعالَ نفسِه؛ وذلك لأنَّ الله تعالى طعنَ في إلهيَّةِ الأجسامِ؛ بسببِ أنَّها لا تخلقُ شَيئًا، وهذا يقتضي أنَّ كلَّ مَن كان خالقًا كان إلهًا، فلو كان العبدُ خالقًا لأفعالِ نَفسِه، كان إلهًا، ولَمَّا كان ذلك باطلًا، عَلِمْنا أنَّ العبدَ غَيرُ خالقٍ لأفعالِ نَفسِه[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أشار إلى الأصنامِ في ﴿يُخْلَقُونَ﴾ بضميرِ العُقَلاءِ مِن قَبيلِ الحكايةِ؛ لاعتقادِ المُشركينَ فيها ما يعتَقِدونَه في العُقَلاءِ، أو لأنَّهم مُختَلِطونَ بمَن عُبِدَ مِن العقلاءِ؛ كالمَسيحِ وعُزيرٍ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ لَمَّا كان المصنوعُ لا يكونُ صانعًا، اكتفى بالبناءِ للمَفعولِ، فقال: ﴿يُخْلَقُونَ﴾[٤]، والتعبيرُ بالفِعلِ المُضارعِ ﴿يُخْلَقُونَ﴾؛ لِتصويرِ حُدوثِ خَلْقِهم، وكونِ مِثلِه ممَّا يتجَدَّدُ فيهم وفي أمثالِهم مِن المُشركين، وهذا أسوأُ فضائِحِهم في الشِّركِ[٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ لعلَّه عبَّرَ بصيغةِ العاقِلِ عن الأصنامِ؛ إشارةً إلى أنَّهم لو كانوا يَعقِلونَ، وكانوا بهذه الصِّفاتِ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٤٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣١)، ((التوضيح عن توحيد الخلاق)) لسليمان آل الشيخ (ص: ٦٨).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٦).

(٤) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٩٢).

(٥) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٣٨).

الخَسيسةِ؛ ما أهَّلُوهم لِأنْ يكونوا أحبابَهم، فضلًا عن أن يجعَلوهم أربابَهم[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ تَخصيصَ النَّصرِ مِن بين الأعمالِ التي يتخيَّلونَ أن تقومَ بها الأصنامُ؛ مقصودٌ منه تنبيهُ المُشركينَ على انتفاءِ مَقدرةِ الأصنامِ على نَفعِهم؛ إذ كان النَّصرُ أشَدَّ مرغوبٍ لهم، لأنَّ العَربَ كانوا أهلَ غاراتٍ وقتالٍ وَتِراتٍ، فالانتصارُ مِن أهَمِّ الأمورِ لَدَيهم، وأنَّ اللهَ أعلَمَ المسلمينَ بذلك؛ تعريضًا بالبشارةِ بأنَّ المُشركينَ سيُغلبونَ[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ جُعِلَ الأمرانِ سواءً على المُخاطَبينَ، ولم يُجعَلا سواءً على المدْعُوِّينَ: فلم يقُل (سواءٌ عليهم)، وإن كان ذلك أيضًا سواءً عليهم؛ لأنَّ المقصودَ مِن الكلامِ هو تأييسُ المُخاطبينَ مِن استجابةِ المَدعُوِّينَ إلى ما يَدعُونَهم إليه، لا الإخبارُ، وإن كان المعْنَيانِ مُتَلازِمَينِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

- قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ...﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، عاد بها الكلامُ إلى تقريرِ دليلِ التَّوحيدِ، وإبطالِ الشِّركِ[٤].

(١) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٩٢).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٧).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢١٩).
(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢١٠).

- وإيقاعُ الموصولِ خبرًا في قَولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ لِتَفخيمِ شأنِ المبتدأِ، أي: هو ذلك العظيمُ الشَّأنِ الذي خلقَكم جميعًا وحدَه مِن غَيرِ أن يكونَ لِغيرِه مدخلٌ في ذلك بوجهٍ مِن الوجوهِ[١].

- قولُه: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ تعليلٌ لِما أفادَتْه (مِن) التبعيضيَّة، أي: جعَلَ مِن نوعِ الرَّجُلِ زَوجَه ليألَفَها، ولا يجفُوَ قُربَها، ففي ذلك منَّةُ الإيناسِ بها، وكثرةُ ممارَستِها؛ لينساقَ إلى غِشْيانِها[٢].

- قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ التغشِّي: كنايةٌ عن الجِماعِ، وصِيغَت هذه الكنايةُ بالفِعلِ (تغشَّى) الدَّالِّ على التكَلُّفِ -لأنَّه بزِنةِ تفعَّلَ- لإفادةِ قُوَّةِ التمَكُّنِ مِن ذلك؛ لأنَّ التكَلُّفَ يقتضي الرَّغبةَ[٣].

- وقد سلَكَ في وصفِ تكوينِ النَّسلِ مَسلَكَ الإطنابِ؛ لِما فيه من التَّذكيرِ بتلك الأطوارِ الدَّالةِ على دقيقِ حِكمةِ اللهِ وقُدرتِه، وبِلُطفِه بالإنسانِ[٤].

- وإجراءُ صِفةِ ﴿رَبَّهُمَا﴾ المؤذِنةِ بالرِّفقِ والإيجادِ، في قَولِه: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾؛ للإشارةِ إلى استحضارِ الأبوَينِ هذا الوَصفَ عند دُعائِهما اللهَ، أي: يذكُرُ أنَّه باللَّفظِ أو ما يُفيدُ مَفادَه[٥].

٢- قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ مرادٌ منه مع الإخبارِ التَّعجيبُ مِن سَفَهِ آرائِهم؛ إذ لا يَجعَلُ رشيدُ الرَّأيِ شريكًا لأحدٍ في مُلكِه وصُنعِه بدونِ حَقٍّ؛ فلذلك عُرِّفَ المشروكُ فيه بالموصوليَّةِ، فقيل ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ دونَ الإضمارِ،

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٣).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١١).
(٣) يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٢).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٢).
(٥) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢١٣).

بأن يقال: (جعَلا له شُركاءَ فيه)؛ لِما تؤذِنُ به الصِّلةُ مِن فَسادِ ذلك الجَعلِ، وظُلْمِ جاعِلِه، وعدمِ استحقاقِ المَجعولِ شَريكًا لِما جُعِلَ له، وكُفرانِ نِعمةِ ذلك الجاعِلِ؛ إذ شكَرَ لِمَن لم يُعطِه، وكفَرَ مَن أعطاه، وإخلافِ الوَعدِ المؤكَّدِ. وجعْلُ الموصولِ (ما) دون (مَن) باعتبارِ أنَّه عطيَّةٌ، أو لأنَّ حالةَ الطُّفولةِ أشبَهُ بغَيرِ العاقِلِ[١].

٣- قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتوبيخِ المُشركينَ، واستقباحِ إشراكِهم على الإطلاقِ، وإبطالِه بالكُليَّةِ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ والإنكارِ، وصيغةُ المُضارِعِ في (يُشْرِكُونَ) دالَّةٌ على تجدُّدِ هذا الإشراكِ منهم. ونفيُ المضارعِ في قَولِه: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ للدَّلالةِ على تجدُّدِ نفيِ الخالقيَّةِ عنهم[٢].

- و (ما) في قَولِه تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لِما لا يَعقِلُ، ولَفظُها مفردٌ، وهو مِن صِيَغِ العُمومِ، فأُفرِدَ الضَّميرُ في ﴿يَخْلُقُ﴾ مراعاةً لِلَّفظِ، ثمَّ جُمِعَ في ﴿يُخْلَقُونَ﴾ مُراعاةً للمَعنى[٣].

٤- وتقديمُ المَفعولِ في ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ للاهتمامِ بنَفيِ هذا النَّصرِ عنهم؛ لأنَّه أدَلُّ على عجزِ تلك الآلهةِ؛ لأنَّ مَن يُقصِّرُ في نَصرِ غَيرِه لا يُقصِّرُ في نَصرِ نَفسِه لو قَدَر[٤].

٥- قولُه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٣-٢١٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٥).

(٣) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٣٨).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٧).

- الخطابُ للمُشركينَ، بطريقِ الالتفاتِ المُنبِئِ عَن مَزيدِ الاعتناءِ بأمْرِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ[١].

- قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبلَه، ومُبيِّنٌ لكيفيَّةِ عدمِ الاتِّباعِ؛ فهو مؤكِّدٌ لجُملةِ ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡ﴾ فلذلك فُصِلَ[٢].

- وعَطْفُ الجُملةِ الاسميَّةِ ﴿أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ على الفِعليَّةِ ﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾ لفائدةٍ وحِكمةٍ، وهي أنَّ صيغةَ الفِعلِ مُشعِرةٌ بالتجَدُّدِ والحُدوثِ حالًا بعد حالٍ، وصيغةُ الاسمِ مُشعِرةٌ بالدَّوامِ والثَّباتِ والاستمرارِ، فهؤلاءِ المُشركونَ كانوا إذا وقَعوا في مُهِمٍّ وفي معضلةٍ تضرَّعوا إلى تلك الأصنامِ، وإذا لم تَحدُثْ تلك الواقعةُ بَقُوا ساكِتينَ صامِتينَ، فقِيل لهم: لا فرقَ بينَ إحداثِكم دعاءَهم، وبينَ أن تستمرُّوا على صَمتِكم وسُكوتِكم[٣].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥).

(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٨).

(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣١).

الآيات (١٩٤-١٩٨)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ وَلِيِّ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨ ﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿يَبۡطِشُونَ﴾: البَطْشُ: تناوُلُ الشَّيءِ بِصَولةٍ، وأصلُه: أخذُ الشَّيءِ بقَهرٍ وغَلَبةٍ وقوَّةٍ[1].

﴿تُنظِرُونِ﴾: أي: تُؤخِّرونِ، والنَّظَرُ: الانْتِظَارُ. يقال: نَظَرتُه وانتظَرتُه وأنْظَرتُه، أي: أخَّرْتُه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ المُشركين قائلًا لهم: إنَّ الذينَ تعبُدونَهم مِن دونِ اللهِ هم عِبادٌ أمثالُكم، فادعُوهم، وليُجِيبوا دُعاءَكم، إن كُنتُم صادقينَ في أنَّها تستحِقُّ العبادةَ.

ألِهَؤلاءِ الأصنامِ أرجُلٌ يمشونَ بها، أم لهم أيدٍ يأخُذونَ ما أرادُوا بها بشِدَّةٍ وينصُرونَكم بها، أم لهم أعيُنٌ يُبصِرونَ بها، قلْ لهم يا مُحمَّدُ: ادعُوا شُرَكاءَكم ثم اجتَمِعوا أنتم وهم على إيقاعِ السُّوءِ والمكروهِ بي عاجلًا، ولا تُمهِلوني،

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣١).

وقلْ لهم: إنَّ الذي يتولَّاني فينصُرُني ويحفَظُني، هو الله الذي نزَّلَ القُرآنَ، وهو سبحانه يتولَّى الصَّالحينَ، وقلْ لهم أيضًا: إنَّ الذين تعبُدونَهم مِن دونِ اللهِ مِن الأصنامِ لا يَقدِرونَ على نَصرِكم، ولا يَستطيعونَ نَصرَ أنفُسِهم ممَّن أرادَهم بسُوءٍ، وإن تدعُوا- أيُّها المُشركونَ- هؤلاءِ الأصنامَ إلى الحَقِّ، لا يسمَعُوا، وترى- يا مُحمَّدُ- هذه الأصنامَ المنحوتةَ تُقابِلُك بعيونٍ مُصَوَّرةٍ، كأنَّها تنظُرُ إليك، بينما هي لا تُبصِرُ في الحقيقةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذه الجُملةَ ورَدَت على سبيلِ التَّوكيدِ لِما قَبلَها في انتفاءِ كَونِ هذه الأصنامِ قادرةً على شيءٍ مِن نَفعٍ أو ضَرٍّ(١).

وأيضًا ورَدَت بيانًا وتعليلًا لِجُملةِ ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡ﴾ [الأعراف: ١٩٣]، أي: لأنَّهم عبادٌ، أي: مخلوقونَ(٢).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾.

يقولُ اللهُ تعالى مُوبِّخًا المُشركينَ على عِبادتِهم ما لا يضُرُّهم ولا ينفَعُهم مِن الأصنامِ: إنَّ الذينَ تعبدونَ ممَّا سِوى اللهِ وتَدعونَهم، هم مملوكونَ للهِ، كما أنَّكم مماليكُ للهِ سُبحانَه، لا فَرْقَ بينكم وبَينَهم(٣).

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٠-٢٢١).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢).

﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

أي: فادعُوا أصنامَكم، ولْتُجِبْ دُعاءَكم إن كُنتُم صادقينَ في أنَّها تضرُّ وتنفَعُ، وأنَّها تستحِقُّ العبادةَ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ * إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾.

﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآ﴾.

أي: ألهؤلاءِ الأصنامِ أرجُلٌ يَمشونَ بها، كما لكم- أيُّها المُشركون- أرجُلٌ تَمشونَ بها[2]؟!

﴿أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآ﴾.

أي: أمْ لهؤلاءِ الأصنامِ أيدٍ يأخُذونَ بها ما يريدونَ أخْذَه وتناوُلَه بشِدَّةٍ، وينصرونَكم بها، كما لكم أيُّها المُشرِكونَ[3]؟!

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٥).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٦).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٦).

﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾.

أي: أمْ لهؤلاءِ الأصنامِ أعيُنٌ يُعاينونَ بها الأشياءَ، كما لكم[١]؟!

﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

أي: أمْ لِهَؤلاءِ الأصنامِ آذانٌ يَسمعونَ بها، كما لكم؟! فكيف تَعبدونَها، وأنتم أفضَلُ وأقدَرُ منها[٢]؟!

﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- متحدِّيًا هؤلاءِ المُشركينَ: استنصِرُوا عليَّ بأصنامِكم التي تزعُمونَ أنَّها آلهةٌ مع اللهِ، ثم عجِّلوا أنتم وهِي بالكَيدِ لي، والمَكرِ بي، فلا تُمهِلوني[٣].

﴿إِنَّ وَلِيِّـَۧ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآياتِ المُتقَدِّمة أنَّ هذه الأصنامَ لا قدرةَ لها على النَّفعِ والضَّرِّ؛ بيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّ الواجِبَ على كلِّ عاقلٍ عبادةُ اللهِ تعالى؛ لأنَّه هو الذي

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٦).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٦).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٣).

قال ابن جرير: (يُعلِمُه جلَّ ثَناؤُه بذلك أنَّهم لم يضُرُّوه، وأنَّه قد عَصَمه منهم، ويُعرِّفُ الكَفَرةَ به عجْزَ أوثانِهم عن نُصرةِ مَن بَغى أولياءَهم بِسُوءٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦).

يتولَّى تحصيلَ منافِعِ الدِّينِ والدُّنيا[١].

وأيضًا لَمَّا أحالَهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الاستنجادِ بآلهَتِهم في ضَرِّه، في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ وأراهم أنَّ اللهَ هو القادِرُ على كلِّ شَيءٍ- عقَّبَ ذلك بالاستنادِ إلى اللهِ تعالى والتوكُّلِ عليه، والإعلامِ أنَّه تعالى هو ناصِرُه عليهم[٢]، فقال:

﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ: إنَّ نَصيري الذي ينصُرُني عليكم ويحفَظُني، ويعصِمُني منكم؛ هو اللهُ الذي نزَّل عليَّ القُرآنَ[٣].

كما قال سبحانه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٢، ٣].

وعن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((غَزَوْنا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غزوةَ نَجدٍ، فلما أدرَكَتْه القائلةُ، وهو في وادٍ كَثيرِ العِضاهِ[٤]، فنزل تحتَ شَجَرةٍ واستظَلَّ بها وعلَّق سيفَه، فتفرَّقَ النَّاسُ في الشَّجرِ يستظِلُّونَ،

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٣).

(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٥٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٠).

(٤) العِضَاه: كُلُّ شَجرٍ عَظيمٍ له شَوكٌ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٣٣٧).

وبينا نحن كذلك إذ دعانا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فجِئْنا، فإذا أعرابيٌّ قاعِدٌ بين يدَيه، فقال: إنَّ هذا أتاني وأنا نائِمٌ، فاختَرَط سيفي[١]، فاستيقظتُ وهو قائِمٌ على رأسي، مُختَرِطٌ صَلتًا[٢]، قال: من يمنَعُك مني؟ قلتُ: اللهُ، فشامَه[٣] ثم قعَدَ، فهو هذا. قال: ولم يعاقِبْه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)) [٤].

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: وهو سُبحانَه ينصُرُ ويحفَظُ الذين صلَحَت نيَّاتُهم وأعمالُهم وأقوالُهم، فآمَنُوا باللهِ تعالى، وامتَثَلوا ما أمَرَ به، واجتَنَبوا ما نهى عنه[٥].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ قال: مَن عادَى لي وليًّا فقد آذنْتُه بالحَربِ، وما تقرَّبَ إليَّ عَبدِي بشيءٍ أحَبَّ إليَّ ممَّا افترضْتُ عليه، وما يزالُ عبدي يتقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتى أحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كنتُ سَمعَه الذي يسمَعُ به، وبصَرَه الذي يُبصِرُ به، ويَدَه التي يبطِشُ

(١) فاختَرَط سيفي: أي: سَلَّه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٣٣٧).
(٢) صَلْتًا: أي: مُجَرَّدًا من غِمْدِه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٣٣٧).
(٣) فشَامَه: أي: غَمَدَه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٣٣٧).
(٤) رواه البخاري (٤١٣٩) واللفظ له، ومسلم (٨٤٣).
(٥) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٢).

بها، ورِجلَه التي يمشي بها، وإن سألَني لأُعطيَنَّه، ولئن استعاذَني لأُعيذَنَّه))[١].

وعن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كنتُ خَلفَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا، فقال: يا غُلامُ، إنِّي أعَلِّمُك كلماتٍ، احفَظِ اللهَ يَحفَظْك، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَك))[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾.

أي: وقُل- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ: والذينَ تعبدونَهم وتَدعُونَهم مِن دونِ اللهِ تعالى لا يَقدِرونَ على نَصرِكم على عَدُوِّكم، ولا أن يدفَعُوا عنكم ظُلمًا أو عذابًا حلَّ بكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ * لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤-٧٥].

وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ * وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [هود: ١٠٠-١٠١].

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥٤١٧). صححه الترمذي، والألباني في ((صحيح الترمذي)) (٢٥١٦)، وابن باز في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٦٠/ ١)، وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٦٩٩): صحيح لغيره، وحسنه ابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (١/ ٣٢٧). وصحح إسناده أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٣٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٢).

﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾.

أي: ولا تلك الأصنامُ- مع عَجْزِهم عن نُصرَتِكم- يقدرونَ على نُصرةِ أنفُسِهم ممَّن أرادَهم بِسُوءٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ * لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-٩٩].

وقال سبحانه: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ ذاكرًا فعلَ إبراهيمَ عليه السَّلام حينَ كسَر أصنامَ قومِه: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ * مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١-٩٣].

وقال تعالى حاكيًا قولَ إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ * فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٧-٥٨].

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾.

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْ﴾.

أي: وقُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ: وإنْ تَدْعُوا أصنامَكم إلى الحَقِّ، لا يَسمَعوا دُعاءَكم؛ لأنَّها جماداتٌ لا تَسمَعُ[(٢)].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٥٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٤١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٥٣٧)، ((تفسير أبي

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾.

أي: وترى- يا مُحمَّدُ- آلهةَ المُشركينَ المنحوتةَ، تُقابِلُك بعيونٍ مُصَوَّرةٍ، كأنَّها تنظُرُ إليك، وهي لا تُبصِرُ شيئًا في الحقيقةِ؛ لأنَّها جماداتٌ لا تُبصِرُ[(١)].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ المؤمنونَ الصَّالِحونَ لَمَّا تولَّوا ربَّهم بالإيمانِ والتَّقوى، ولم يتولَّوا غيرَه مِمَّن لا ينفَعُ ولا يضُرُّ؛ تولَّاهم اللهُ ولَطفَ بهم، وأعانَهم على ما فيه الخَيرُ والمصلحةُ لهم، في دِينِهم ودُنياهم، ودفَعَ عنهم بإيمانِهم كُلَّ مَكروهٍ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ أطلقَ الدُّعاءَ على العبادةِ؛ إشارةً إلى أنَّه لا تصِحُّ عبادةُ مَن ليس فيه قابليَّةٌ أن يُدعى[(٣)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ فيه أنَّه قد يُطلَقُ لَفظُ (العَبد) على المخلوقاتِ كُلِّها؛ الذي يعقِلُ والذي لا يَعقِلُ[(٤)].

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ إنَّما أطلَقَ على الأصنامِ اسمَ العِبادِ، وعبَّرَ عنها بضمائِرِ العُقَلاءِ؛ لأنَّ الكُفَّارَ يَصِفونَها

حيان)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٤١).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٥).

(٢) يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣١٢).

(٣) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٩٤-١٩٥).

(٤) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٤٤).

بصفاتِ مَن هو خيرٌ مِن مُطلَقِ العُقَلاءِ: أنَّها مَعبوداتٌ، وأنَّها تشفَعُ وتُقرِّبُ إلى الله زُلفَى، فبهذا الاعتبارِ أجرى عليها ضمائِرَ العُقَلاءِ، وعبَّرَ عنها بالعبادِ، ووجهُ مُماثَلتِهم هنا: أنَّ الكُفَّارَ العابِدينَ، والأصنامَ المعبوداتِ؛ كلُّهم مَخلوقاتٌ لله، لا تَقدِرُ أن تجلِبَ لِنَفسِها نفعًا، ولا أن تدفَعَ عنها ضرًّا، فهم مِن قَبيلِ تسخيرِ اللهِ لهم، وخَلْقِه للجَميعِ، وقُدرتِه على الجَميعِ، بهذا الاعتبارِ هم سواءٌ؛ ولذا قال: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾ لَمَّا كان دعاءُ الجماعةِ أقرَبَ إلى السَّماعِ مِن دُعاءِ الواحدِ، نسَقَ على ما قَبلَه قَولَه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قولُه تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقل به إلى مُخاطبةِ المُشرِكينَ؛ ولذلك صُدِّرَ بِحَرفِ التَّوكيدِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ يُنكِرونَ مساواةَ الأصنامِ إيَّاهم في العبوديَّةِ[3].

- قَولُه تعالى: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ تحقيقٌ لِمَضمونِ ما قَبلَه بتَعجيزِهم وتَبكيتِهم، أي: فادعُوهم في جَلبِ نَفعٍ أو كَشْفِ ضُرٍّ[4].

٢- **قوله:** ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ

(١) يُنظَر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٥).
(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٩٩).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٠-٢٢١).
(٤) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٢).

يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾

- قوله تعالى: ﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَا ﴾ تبكيتٌ إثْرَ تبكيتٍ، مؤكِّدٌ لِما يفيدُه الأمرُ التَّعجيزي مِن عَدمِ الاستجابةِ، ببيانِ فُقدانِ آلاتِها بالكليَّةِ[١].

- والاستفهامُ في ﴿ أَلَهُمۡ ﴾ وما بَعدَه؛ إنكاريٌّ، وتقديمُ المُسنَدِ على المُسنَد إليه؛ للاهتمامِ بانتفاءِ المِلْك الذي دَلَّت عليه اللَّامُ[٢].

- وقد وُجِّهَ الإنكارُ إلى كُلِّ واحدةٍ من هذه الآلاتِ الأربعِ على حِدَةٍ؛ تكريرًا للتَّبكيتِ، وتثنيةً للتَّقريعِ، إشعارًا بأنَّ انتفاءَ كلِّ واحدةٍ منها بِحِيالِها كافٍ في الدَّلالةِ على استحالةِ الاستجابةِ[٣].

- ووصفُ الأرجُلِ بـ ﴿يَمۡشُونَ ﴾، والأيدي بـ﴿يَبۡطِشُونَ ﴾، والأعيُنِ بـ ﴿يُبۡصِرُونَ ﴾، والآذانِ بـ ﴿ يَسۡمَعُونَ ﴾: إمَّا لزيادةِ تسجيلِ العَجزِ عليهم فيما يَحتاجُ إليه النَّاصِرُ، وإمَّا لأنَّ بَعضَ تلك الأصنامِ كانت مجعولةً على صورِ الآدَميِّينَ، وخَصَّ الأرجُلَ والأيديَ والأعيُنَ والآذانَ؛ لأنَّها آلاتُ العِلمِ والسَّعيِ والدَّفعِ للنَّصرِ[٤].

- والأمرُ والنَّهيُ في قولِه تعالى: ﴿كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ للتَّعجيزِ[٥]

- وقولُه: ﴿فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ تفريعٌ على الأمرِ بالكَيدِ، أي: فإذا تمكَّنْتُم مِن

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٦).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٢).
(٣) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٦).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٢).
(٥) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٣).

إضراري، فأعجِلُوا، ولا تؤَجِّلوني[١].

- وفي هذا التحدِّي تعريضٌ بأنَّه سيبلغُهم، وينتصرُ عليهم، ويستأصلُ آلهتَهم[٢].

٣- **قولُه تعالى:** ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هذا مِن المأمورِ بِقَولِه أيضًا، وفُصِلَت هذه الجُملةُ عَن جُملةِ ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾؛ لِوُقوعِها مَوقِعَ العلَّةِ لِمَضمونِ التَّحدِّي في قَولِه ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ الذي هو تحقُّقُ عَجْزِهم عن كَيدِه[٣].

- وإجراءُ الصِّفةِ لاسْمِ اللهِ بالموصوليَّةِ ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لِمَا تدُلُّ عليه الصِّلةُ مِن عَلاقاتِ الوِلايةِ؛ فإنَّ إنزالَ الكِتابِ عليه وهو أمِّيٌّ، دليلُ اصطفائِه وتوَلِّيه[٤].

- والتَّعريفُ في الكتابِ للعَهدِ، أي: الكتابَ الَّذي عَهِدتُموه وسَمِعتُموه، وعَجَزتُم عن مُعارَضتِه، وهو القُرآنُ[٥].

- ومَجيءُ المُسنَدِ ﴿يَتَوَلَّى﴾ فعلًا مُضارعًا؛ لقَصدِ الدَّلالةِ على استمرارِ هذا التَّولِّي وتجدُّدِه، وأنَّه سُنَّةٌ إلهيَّةٌ، فكما توَّلى النبيَّ يتولَّى المؤمنينَ أيضًا، وهذه بِشارةٌ للمُسلمينَ المُستَقيمينَ على صِراطِ نَبيِّهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَنصُرَهم اللهُ، كما نصَرَ نبيَّه وأولياءَه[٦].

---

(١) يُنظَر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٤).
(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٤).
(٥) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٤).
(٦) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٤).

- وقولُه: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قَبلَه[١].

٤- **قولُه تعالى**: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ عَطْفٌ على جملةِ: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾ وسلوكُ طَريقِ المَوصوليَّة في التَّعبيرِ عن الأصنامِ؛ للتَّنبيهِ على خَطأِ المُخاطَبينَ في دُعائِهم إيَّاها مِن دُونِ اللهِ، مع ظُهورِ عَدمِ استِحقاقِها للعِبادةِ؛ بِعَجزِها عن نَصرِ أتباعِها، وعن نَصرِ أنفُسِها[٢].

٥- **قولُه تعالى**: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ تشبيهٌ بليغٌ، أي: تَراهم كأنَّهم يَنظُرونَ إلَيك؛ لأنَّ صُوَرَ كَثيرٍ مِن الأصنامِ كان على صُوَرِ الأناسيِّ، وقد نحتوا لها أمثالَ الحِدَقِ النَّاظِرةِ إلى الواقِفِ أمامَها[٣].

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٧).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٤).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٥).

الآيات (١٩٩-٢٠٢)

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿ٱلْعَفْوَ﴾: أي: الميسورَ مِن أخلاقِ النَّاسِ، والعفوُ يُطلق على ضدِّ الجهدِ، فكلُّ شيءٍ متيسرٍ، لا مجهودَ فيه يسمَّى عفوًا، وأصلُ العَفْوِ: القَصدُ لِتَناوُلِ الشَّيءِ[٤].

﴿بِٱلْعُرْفِ﴾: أي: المَعْرُوف مِن الإحسانِ، وأصلُ (عرف) يدلُّ على السُّكونِ والطُّمأنينةِ، ومنه العُرفُ والمعروفُ، سُمِّي بذلك؛ لأنَّ النُّفوسَ تسكُنُ إليه[٥].

﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾: أي: يستَخِفَّنَّك منه خِفَّةٌ وغضَبٌ وعَجَلةٌ، أو يُحَرِّكنَّك بِالشَّرِّ. وأصلُ (نزغ): يدلُّ على إفسادٍ بينَ اثنَينِ[٦].

﴿مَسَّهُمْ﴾: أي: أصابَهم، أو ألمَّ بِهم، والمسُّ يقالُ في كلِّ ما يَنالُ الإنسانَ

---

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦١٧).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

مِن أذًى، وأصلُ (مس): جَسُّ الشَّيءِ باليَدِ[١].

﴿طَٰٓئِفٞ﴾: أي: عارِضٌ أو وَسْوَسةٌ مِن الشَّيطانِ، وأصلُ (طيف): يَدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ[٢].

﴿يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾: أي: يُزَيِّنونَه لهم، أو يُطِيلونَ لهم فيه، وأصلُ (مَدَّ): يدلُّ على جَرِّ شيءٍ في طُولٍ. والغَيُّ: خِلافُ الرُّشدِ، والانهماكُ في الباطِلِ[٣].

﴿لَا يُقۡصِرُونَ﴾: أي: لا يَسأَمونَ، وأصلُ (قصر): كفٌّ مع القُدرةِ عليه[٤].

﴿ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾: أي: تقوَّلْتَها مِن نَفْسِك؛ مِن اجتَبيتُ الشَّيءَ: إذا اختَرَعتَه وارتجَلْتَه واختَلَقْتَه والاجتباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصْطفاءِ[٥].

﴿بَصَآئِرُ﴾: أي: حُجَجٌ ظاهِرةٌ بَيِّنة، واحدتُها بَصِيرة، وأصلُ (بصر): العِلمُ بالشَّيءِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٦)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢). ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩ و٥/ ٢٦٩))، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٥، ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣، ٢١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَقبَلَ ما تيسَّرَ مِن أخلاقِ النَّاسِ، وأن يأمُرَ بالمَعروفِ الذي يُقِرُّه الشَّرعُ، وأن يُعرِضَ عمَّن جَهِلَ عليه.

ويأمُرُه إن ناله مِن الشَّيطانِ وَسوسةٌ ما أو غَضَبٌ أو غيرُ ذلك، أن يَستعيذَ باللهِ؛ إنَّه هو السَّميعُ العَليمُ.

ويخبِرُ تعالى أنَّ الذينَ اتَّقَوا إذا أصابَتْهم وسْوَسةٌ مِن الشَّيطانِ أو غضَبٌ أو غيرُ ذلك، تذكَّرُوا؛ فإذا هم يُبصِرونَ بقُلوبِهم هُدى الله، فيَنتَهونَ عن مَعصِيتِه.

كما يخبِرُ تعالى أنَّ إخوانَ الشَّياطينِ- وهُم كَفَرةُ الإنْسِ وفجَرَتُهم- تُزَيِّنُ لهم الشَّياطينُ الضَّلالَ، وتُعينُهم على الكُفرِ والمعاصي، ثمَّ لا يسأمُ الشَّياطينُ ولا يَفتُرونَ عن ذلك، كما أنَّ أولياءَهم مِن الإنسِ لا يُقصِرونَ في ارتكابِ تلك السَّيئاتِ.

ويُخاطِبُ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: وإذا لم تأتِ المُشركينَ بآيةٍ وَفْقَ ما يَطْلبونَ، قالوا: هلَّا أتيتَ بها مِن تِلقاءِ نَفسِك، قل لهم- يا مُحمَّد: إنَّما أتَّبِعُ ما يُوحيه إليَّ ربِّي، وهذا القُرآنُ عَلاماتٌ واضحة للهُدى، وحُجَجٌ قاطعةٌ على الحَقِّ مِن الله سبحانَه وتعالَى، ومُرشِدٌ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ، ورحمةٌ في الدُّنيا والآخرةِ للمُؤمنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما أشبعتِ السُّورة مِن أفانينِ قوارعِ المشركين، وعظتِهم، وإقامةِ الحجَّةِ عليهم، وفضحِ ضلالِهم، وفسادِ معتقدِهم، والتشويهِ بشركائِهم، وقد تخلَّل ذلك

اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

كلَّه التسجيلُ بمكابرتِهم، والتعجيبُ منهم كيفَ ينأَوْن بجانبِهم، وكيف يصمُّون أسماعَهم، ويغمضونَ أبصارَهم عما دُعوا إلى سماعِه وإلى النَّظر فيه، إلى غيرِ ذلك، وإذ قد كان مِن شأنِ ذلك أن يثيرَ في أنفسِ المسلمين كراهيةَ أهلِ الشِّرك، ويحفزَهم للانتقامِ منهم، ومجافاتِهم، والإعراضِ عن دعائِهم إلى الخيرِ- لا جرمَ شرَع في استئنافِ غرضٍ جديدٍ، يكونُ ختامًا لهذا الخوضِ البديعِ، وهو غرضُ أمرِ الرَّسول والمؤمنين بقلَّةِ المبالاةِ بجفاءِ المشركينَ وصلابتِهم، وبأن يَسَعوهم مِن عفوِهم، والدأبِ على محاولةِ هديِهم، والتبليغِ إليهم[1].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّه هو الذي يتولَّى رَسولَه، وأنَّ الأصنامَ وعابِدِيها لا يَقدِرونَ على الإيذاءِ والإضرارِ؛ بَيَّن في هذه الآيةِ ما هو المَنهَجُ القَويمُ والصِّراطُ المُستقيمُ في مُعاملةِ النَّاسِ[2]، فقال تعالى:

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾.

أي: اقبَلْ ما تيسَّرَ مِن أخلاقِ النَّاسِ، وما سَمَحت به أنفُسُهم، ولا تُغلِظْ عليهم، فإنْ وَجدْتَ منهم خُلُقًا طَيِّبًا فاقبَلْه، وما جاءَك مِن غَيرِ ذلك فاصفَحْ عنه وتجاوَزْه، واترُكْ ما لك من الحَقِّ عليهم[3].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٤).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٩).

قال ابنُ عطيَّة: (وصيةٌ مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تعُمُّ جميعَ أمَّتِه، وأخْذٌ بِجَميعِ مَكارِمِ الأخلاقِ... معناه: اقبَلْ مِن النَّاسِ في أخلاقِهم وأقوالِهم ومُعاشَرتِهم، ما أتى عَفْوًا دونَ تكَلُّفٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٠).

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (أمَرَ اللهُ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يأخُذَ العَفْوَ مِن أخلاقِ النَّاسِ)[١].

﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾.

أي: وأْمُرِ النَّاسَ- يا مُحمَّد- بالمَعروفِ الذي يُقِرُّه الشَّرعُ؛ مِن كُلِّ قَولٍ وفِعلٍ تَعرِفُ حُسنَه ونَفعَه العُقولُ والفِطَرُ السَّليمةُ، وتطمئِنُّ إليه النُّفوسُ المُستقيمةُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

أي: وأعرِضْ عمَّن جَهِلَ عليك، فإذا سَفِهَ عليك، وأساءَ إليك، فلا تؤاخِذْه بزَلَّتِه[٣].

---

(١) رواه البخاري (٤٦٤٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٩).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٢).
قال الرَّازي: (المقصودُ منه أمرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يصبِرَ على سُوءِ أخلاقِهم، وألَّا يُقابِلَ أقوالَهم الرَّكيكةَ ولا أفعالَهم الخَسيسةَ بأمثالِها، وليس فيه دَلالةٌ على امتناعِه مِن القتالِ؛ لأنَّه لا يمتنِعُ أن يُؤمَرَ عليه السَّلامُ بالإعراضِ عن الجاهلينَ مع الأمرِ بقِتالِ المُشركينَ.. فحينئذ لا حاجةَ إلى التزامِ النَّسخِ، إلَّا أنَّ الظَّاهريَّةَ مِن المُفَسِّرينَ مَشغوفونَ بتكثيرِ النَّاسِخِ والمنسوخِ مِن غيرِ ضرورةٍ ولا حاجةٍ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٥). ويُنظَر: ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((قَدِمَ عُيينةُ بنُ حِصنِ بنِ حُذيفةَ، فنزل على ابنِ أخيه الحُرِّ بنِ قيسٍ، وكان مِن النَّفَرِ الذين يُدنِيهم عُمَرُ، وكان القُرَّاءُ أصحابَ مجالسِ عمرَ ومُشاورتِه، كهولًا كانوا أو شبَّانًا، فقال عُيينةُ لابنِ أخيه: يا ابنَ أخي، هل لك وجهٌ عندَ هذا الأميرِ؟ فاستأذِنْ لي عليه، قال: سأستأذِنُ لك عليه، فاستأذَنَ الحرُّ لِعُيَينةَ، فأذِنْ له عُمرُ، فلما دخَل عليه قال: هِيْ[1] يا ابنَ الخطَّابِ، فواللهِ ما تُعطينا الجَزلَ[2] ولا تَحكمُ بيننا بالعَدلِ! فغضِبَ عُمرُ حتى همَّ أن يوقِعَ به، فقال له الحرُّ: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ اللهَ تعالى قال لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وإنَّ هذا مِن الجاهِلينَ. واللهِ ما جاوَزها عمرُ حينَ تلاها عليه، وكان وقَّافًا عندَ كتابِ اللهِ))[3].

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما كان الشيطانُ بعداوتِه لبني آدمَ مجتهدًا في التنفيرِ من هذه المحاسنِ

ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٧).

وقال ابنُ القَيِّم: (ليس المرادُ إعراضَه عمَّن لا عِلمَ عِندَه، فلا يُعَلِّمُه ولا يُرشِدُه، وإنَّما المرادُ إعراضُه عن جَهلِ مَن جَهِلَ عليه، فلا يُقابِلُه ولا يُعاتِبُه). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٠١).

(١) هِيْ: كَلمةٌ للزَّجرِ وطَلَبِ الكَفِّ، كما يُقال: إيهِ عنَّا، أي: كُفَّ. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٢٥٩).

(٢) الجَزْل: العَطاء الكثير. يُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (٢٥/ ٣٧).

(٣) رواه البخاري (٤٦٤٢).

المذكورةِ في قولِه تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ والترغيبِ في أضدادِها- شرَع لأُمتِه ما يعصمُهم منه عندَ نزغِه، مخاطبًا له بذلك؛ ليكونَ أدعَى لهم إلى القبولِ، وأجدرَ باشتدادِ الخوفِ المقتضي للفرارِ، المثمرِ للنَّجاة[١].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أفضَلَ ما يُعامِلُ البَشَرُ به بعضُهم بعضًا، ولو عَمِلَ النَّاسُ بهذه الوصايا لصَلَحَت أحوالُهم، ولم يجِدِ الفَسادُ إليهم سبيلًا- قفَّى عليها بالوصيَّةِ باتِّقاءِ إفسادِ الشَّيطانِ[٢].

وأيضًا أنَّه عندَ الأمرِ بالعُرفِ ربَّما يَهيجُ سَفيهٌ ويُظهِرُ السَّفاهةَ، فعند ذلك أمرَ تعالى نبيَّه بالسُّكوتِ عن مُقابَلتِه، فقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ولَمَّا كان مِن المَعلومِ أنَّه عند إقدامِ السَّفيهِ على السَّفاهةِ يَهيجُ الغَضَبُ والغَيظُ، ولا يبقى الإنسانُ على حالةِ السَّلامةِ، وعند تلك الحالةِ يَجِدُ الشَّيطانُ مَجالًا في حَملِ ذلك الإنسانِ على ما لا ينبغي- لا جرَمَ بيَّن تعالى ما يَجري مَجْرى العلاجِ لهذا الغَرَضِ، فقال[٣]:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

أي: وإن نالَك مِن الشَّيطانِ وَسوسةٌ ما أو غَضَبٌ أو غيرُ ذلك؛ لِيُثبِّطَك عن الخيرِ، أو يَحُثَّك على الشَّرِّ والفَسادِ، أو يحمِلَك على الغَضَبِ، ومُجازاةِ مَن جَهِلَ عليك- فالتجِئْ إلى اللهِ، واطلُبْ منه أن يحفَظَك مِن الشَّيطانِ[٤].

---

(١) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٥٠).

(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٥-٤٣٦).

(٤) يُنظَر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥، ٦٤٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٩، ٢٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٤).

عن سُلَيمانَ بنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كنتُ جالسًا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورجلانِ يَستبَّانِ، فأحَدُهما احمَّرَ وَجهُه، وانتفخَتْ أوداجُه[١]، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنِّي لأعلَمُ كَلمةً لو قالَها، ذهب عنه ما يَجِدُ، لو قال: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ، ذهَبَ عنه ما يجِدُ))[٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه، قال رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقولُ: مَن خلَق كذا؟ مَن خلَق كذا؟ حتى يقولَ: مَن خلَق ربُّك؟ فإذا بلَغه فليستعِذْ بالله ولْيَنْتَهِ))[٣].

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ الذي تستعيذُ به مِن نَزغِ الشَّيطانِ، سَميعٌ لِدُعائِك، ولِوَسْوسةِ الشَّيطانِ، ولكلِّ صوتٍ، عليمٌ باستعاذَتِك، وبِوَسْوسةِ الشَّيطانِ، ولا يخفَى عليه شيءٌ؛ فهو الذي بيَدِه إنجاؤُك منه، وحمايَتُك مِن نَزَغاتِه[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

قال ابن عطية: (النزغُ حركةٌ فيها فسادٌ، وقلَّما تُستعمَلُ إلَّا في فعلِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ حركاتِه مسرعةٌ مفسدةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩١).

وقال ابنُ عاشور: (وهذا الأمرُ مرادٌ به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ابتداءً، وهو شامِلٌ لأمَّتِه... وحَظُّ المؤمنينَ منه أقوى؛ لأنَّ نَزغَ الشَّيطانِ إيَّاهم أكثَرُ؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُؤيَّدٌ بالعِصمةِ، فليس للشَّيطانِ عليه سبيلٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(١) أوداجُه: جَمعُ وَدَجٍ: وهو عِرقٌ في الحَلقِ في المَذبحِ. وانتفاخُ الأوداجِ كنايةٌ عن شِدَّةِ الغَضَبِ. ينظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ١٧٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢٨٢)، واللفظ له، ومسلم (٢٦١٠).

(٣) رواه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٥).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ * ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ تعالى في الآيةِ السَّابِقةِ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد ينزَغُه الشَّيطانُ، وبيَّنَ أنَّ علاجَ هذه الحالةِ الاستعاذةُ بالله؛ بيَّنَ هنا في هذه الآيةِ أنَّ حالَ المتَّقينَ يَزيدُ على حالِ الرَّسولِ في هذا البابِ [(١)]، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾.

أي: إنَّ الَّذينَ اتَّقَوا اللهَ تعالى بفِعلِ الواجِباتِ، وتَرْكِ الشِّرْكِ والسَّيِّئاتِ، إذا أصابَتْهم وَسْوسةٌ مِن الشَّيطانِ، أو غضَبٌ أو غيرُ ذلك، فَهَمُّوا بتَرْكِ طاعةِ اللهِ، أو اقترافِ مَعصيَتِه- تذَكَّروا عَظَمةَ اللهِ تعالى، وما يَعلَمونَه مِن عِقابِه وثَوابِه، وما أمَرَهم به مِن الاستعاذةِ مِن الشَّيطانِ[(٢)].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٦-٤٣٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٦ - ٦٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٤٣).

قال ابنُ تيميَّةَ: (الشَّيطانُ إذا زيَّنَ المَعصيةَ يجعَلُ في القَلبِ ظُلمةً، ويُضعِفُ نورَ الإيمانِ، ولهذا سمَّاه طائفًا، أي: يَطيفُ بالقَلبِ مثلَ ما يَطيفُ الخيالُ بالنَّائمِ، ويغيبُ عن القلبِ حينئذٍ مِن أمرِ اللهِ ونَهيِه ووَعْدِه ووَعيدِه ما يُناقِضُ ذلك، فإذا كان العَبدُ مُتَّقيًا للهِ أمَدَّه اللهُ تعالى بنورِ الإيمانِ، فذكَرَ ما في الذَّنبِ مِن عذابِ اللهِ وسَخَطِه، وما يَفوتُه به مِن كرامةِ اللهِ وثَوابِه). ((جامع المسائل)) (٥/ ٢٥٦).

وقال مُحمَّد رشيد رضا: (﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أنَّ هذا مِن عَدُوِّهم الشَّيطانِ وإغوائِه، وما أمرَ اللهُ تعالى

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾.

أي: فإذا المُتَّقونَ بِسَببِ ذلك التذكُّرِ يُبصِرونَ بقُلوبِهم هُدى اللهِ، ومكائِدَ الشَّيطانِ، ومَواطِنَ الزَّلَلِ، فيَنتَهونَ عَن مَعصِيَتِه سُبحانه[١].

عن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ كالحَصيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكتةٌ[٢] سَوداءُ، وأيُّ قَلبٍ أنكَرَها، نُكِتَ فيه نُكتةٌ بَيضاءُ، حتى تصيرَ على قَلبينِ؛ على أبيضَ مِثلِ الصَّفَا[٣]، فلا تَضُرُّه فتنةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسوَدُ مُرْبادًّا[٤] كالكُوزِ مُجَخِّيًا[٥]، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكرًا، إلَّا ما أُشْرِبَ مِن هَواه))[٦].

به في هذه الحالِ مِن الاستعاذةِ به، والالتجاءِ إليه في الحِفظِ منه، وقال بعضُهم: تذكَّروا ما أمَرَ اللهُ تعالى به ونهى عنه، وقال آخَرونَ: تذكَّروا عِقابَ اللهِ لِمَن أطاع الشَّيطانَ وعصى الرَّحمنَ، وجزيلَ ثوابِه لِمَن عصى الشَّيطانَ وأطاع الرَّحمنَ، وقال بعضُهم: تذكَّروا وَعدَه ووعيدَه، ومآلُ الأقوالِ كُلِّها واحدٌ، وهو يَعُمُّها كما تُفيدُه قاعدةُ حَذفِ المَفعولِ. ((تفسير المنار)) (٩/ ٤٥٣).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٠)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٦).

(٢) نُكِتَ فيه نُكتةٌ: أي: نُقِطَتْ وَأَثَّرَتْ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٧٨)

(٣) الصَّفا: الحَجَر الأملَس؛ من غايةِ البَياضِ والصَّفاءِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٧٨).

(٤) مُربادًّا: أي: صار كلَونِ الرَّمادِ؛ مِنَ الرُّبدةِ: لونٌ بين السَّوادِ والغُبرةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٨٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٧٨).

(٥) كالكُوزِ مُجَخِّيًا: أي: كالكوزِ المائِلِ المنكوسِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٧٨).

(٦) رواه مسلم (١٤٤).

﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ ﴾ عطفَ الضِّدِّ على ضِدِّه؛ فإنَّ الضِّدِّيةَ مُناسَبةٌ يحسُنُ بها عَطفُ حالِ الضِّدِّ على ضِدِّه، فلمَّا ذَكَر شَأنَ المتَّقينَ في دَفْعِهم طائِفَ الشَّياطينِ، ذكَرَ شَأنَ أضدادِهم مِن أهْلِ الشِّركِ والضَّلالِ[1]، فقال:

﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ﴾.

أي: وإخوانُ الشَّياطينِ- وهم كَفَرةُ الإنسِ وفَجَرتُهم- تُزَيِّنُ لهم الشَّياطينُ الضَّلالَ، وتُساعِدُهم على الكُفرِ والمعاصي[2].

كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٣).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٧).

وهذا القولُ- وهو أنَّ إخْوانَ الشَّياطِينِ يَمُدُّهُم الشَّياطينُ في الغيِّ- هو قَولُ جُمهورِ المُفَسِّرينَ. ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس، والسُّدِّي، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وعبدُ الله بنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٦٣٣).

وقيل: وإخوانُ الشَّياطينِ- وهُم كَفَرةُ الإنسِ- يَمُدُّونَ الشَّياطينَ في الغَيِّ بإغواءِ النَّاسِ. هذا ما استظهَرَه الرَّازي. يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٨).

وقال سبحانه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾.

أي: إنَّ الشَّياطينَ لا تَسأمُ ولا تَفتُرُ مِن إمدادِ أوليائِهم مِن الإنسِ بالضَّلالِ، ولا تتوقَّفُ عن تَزيينِ الكُفرِ والمعاصي لهم، وكذلك أولياؤُهم مِن الإنسِ لا يُقصِرونَ أيضًا في ارتكابِ تلك السَّيِّئاتِ، فهم دائمًا في ازديادٍ مِن الآثامِ[(١)].

﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ شياطينَ الجِنِّ والإنسِ لا يُقصِرونَ في الإغواءِ والإضلالِ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ نوعًا مِن أنواعِ الإغواءِ والإضلالِ، وهو: أنَّهم كانوا يَطلُبونَ آياتٍ مُعَيَّنةً، ومعجزاتٍ مَخصوصةً على سبيلِ التعنُّتِ[(٢)]، فقال تعالى:

﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾.

أي: وإذا لم تأتِ المُشركينَ- يا مُحمَّدُ- بآيةٍ وَفقَ ما يطلُبونَ، قالوا: هلَّا أتيتَ بها، وافتعلتَها مِن تلقاءِ نفسِك[(٣)].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٠، ٦٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٧).
واختار أنَّ قولَه: ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ يشملُ الشياطينَ وأولياءَهم مِن الإنسِ: ابنُ جريرٍ والسعديُّ، وذكَر ابنُ كثيرٍ القولينِ، واختار الشنقيطيُّ أنَّ المقصودَ به الشَّياطين.

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٨).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٤، ٦٥٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٢،

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا * أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا * أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآئِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

---

١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٦، ٢٣٧).

المرادُ بالآيةِ هنا قيل: المعجزةُ الخارقةُ ممَّا يقترِحونَ عليه- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وقيل: المرادُ: آيةٌ يتلوها عليهم مِن غَيرِ ما أُنزِلَ إليه. ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٦-٢٣٧).

وقال الشِّنقيطي: (﴿ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾ أصلُ الاجتباءِ معناه المشهورُ في لغة العَرَبِ: الاختيارُ والاصطفاءُ. هذا أشهَرُ معانيه المعروفةِ... وقالت جماعةٌ مِن المفسِّرين: العربُ تقول: اجتبيتُ الكلامَ: إذا اختلقْتَه واخترعتَه مِن وَقتِه، ولم يكُن عندكَ فيما سبق... ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾ هلَّا جِئتَ بها مُختَرَعةً مُختلَقةً في عَجَلةٍ؛ لأنَّهم يَزعمونَ أنَّ كلَّ القُرآنِ اختلاقٌ... وذهبت جماعةٌ أخرى مِن أهلِ التَّأويلِ إلى أنَّ الآيةَ المطلوبةَ هنا آيةٌ كونيَّةٌ قَدَريَّةٌ، كما قال: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]... وعلى أنَّ الآيةَ المطلوبةَ هنا كونيَّةٌ قَدَريَّةٌ، قال بعضُ العُلماءِ: معنى ﴿لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾ هلَّا اقترحتَها وتَلقَّيتَها مِن تلقاءِ رَبِّك؛ لأنَّك تزعُمُ أنَّ كُلَّ ما سألتَ منه يُعطيك إيَّاه). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٥٠-٤٥١).

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ الذينَ يَطلبونَ مِنك الآياتِ: ليس لي ذلك، وهو ليس مِن شأني، إنَّما أنا عبدٌ مأمورٌ، لا أتَّبِعُ إلَّا ما يُوحيه إليَّ ربِّي(١).

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى قَولَ المُشركينَ: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾؛ بَيَّنَ لهم أنَّ هذا القُرآنَ العظيمَ أعظَمُ آيةٍ، لا ينبغي للإنسانِ أن يطلُبَ آيةً غَيرَه(٢)، فقال تعالى:

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

أي: هذا القُرآنُ العظيمُ عَلاماتٌ للهُدى بَيِّناتٌ، وحُجَجٌ على الحَقِّ قاطعاتٌ، وأنوارٌ للقُلوبِ ساطعاتٌ مِن ربِّكم سبحانه وتعالى(٣).

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٥١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٥٣).

أي: وهذا القُرآنُ مُرشِدٌ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ، ورحمةٌ في الدُّنيا والآخرةِ للمُؤمنينَ الذين يعملونَ بما فيه[١].

كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ * يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ هذه الآيةُ مِن ثلاثِ كلماتٍ، تضمَّنَت قواعِدَ الشَّريعةِ في المأموراتِ والمنهيَّاتِ؛ فَقولُه: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ دخل فيه صلةُ القاطعينَ، والعَفوُ عن المُذنِبينَ، والرِّفقُ بالمؤمنينَ، وغيرُ ذلك من أخلاقِ المُطيعينَ، ودخَلَ في قولِه: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٥٦).

﴾ صِلةُ الأرحامِ، وتَقْوى اللهِ في الحَلالِ والحرامِ، وغضُّ الأبصارِ، والاستعدادُ لدارِ القَرارِ، وفي قولِه: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الحَضُّ على التعلُّقِ بالعِلمِ، والإعراضُ عن أهلِ الظُّلمِ، والتنزُّهُ عن مُنازعةِ السُّفَهاءِ، ومُساواةِ الجَهَلةِ الأغبياءِ، وغيرُ ذلك من الأخلاقِ الحميدةِ، والأفعالِ الرَّشيدةِ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فيه جِماعُ الأخلاقِ الكريمةِ، وقد تضمَّن الحثَّ على حُسنِ المعاشرةِ مع الخلقِ، وأداءَ حقِّ الله فيهم، والسلامةَ مِن شرِّهم، فلو أخَذ النَّاس كلُّهم بهذه الآيةِ لكفَتْهم وشَفَتْهم؛ فإنَّ الإنسانَ مع النَّاسِ مأمورٌ أن يأخُذَ منهم ما يحِبُّ، ما سَمَحوا به، ولا يُطالِبَهم بزيادةٍ؛ فإنَّ العفوَ ما عفا مِن أخلاقِهم، وسمحَتْ به طبائعُهم، ووسِعهم بذلُه مِن أموالِهم وأخلاقِهم، فهذا ما منهم إليه. وأمَّا ما يكونُ منه إليهم فأمرُهم بالمعروفِ، وهو ما تشهدُ به العقولُ، وتعرفُ حسنَه، وهو ما أمَر الله به. وإذا فعَل معه جاهلُهم ما يَكرَهُ فإنَّه يُعرِضُ عنه، ويتركُ الانتقامَ لنفسِه والانتصارَ لها، فأيُّ كمالٍ للعبدِ وراءَ هذا؟ وأيُّ معاشرةٍ وسياسةٍ لهذا العالمِ أحسنُ مِن هذه المعاشرةِ والسياسةِ؟ فلو فكَّر الرجلُ في كلِّ شرٍّ يلحقُه مِن العالمِ- أي الشرِّ الحقيقيِّ الذي لا يوجبُ له الرفعةَ والزلفَى مِن الله- وجَد سببَه الإخلالَ بهذه الثلاثِ أو بعضِها، وإلا فمع القيامِ بها فكلُّ ما يحصلُ له مِن النَّاس فهو خيرٌ له، وإن كان شرًّا في الظاهرِ[٢].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٤).

(٢) يُنظَر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص:٧٥)، ويُنظَر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٣٧٠، ٣٧١).

قال بعضُ العُلَماءِ: النَّاسُ رَجُلانِ: فرَجُلٌ مُحسِنٌ، فخُذ ما عفا لك من إحسانِه، ولا تُكَلِّفْه فوقَ طاقَتِه ولا ما يُحرِجُه. وإمَّا مُسيءٌ، فمُرْه بالمعروفِ، فإنْ تمادى على ضَلالِه واستعصى عليك، واستمَرَّ في جَهلِه؛ فأعرِضْ عنه، فلعَلَّ ذلك أن يَرُدَّ كَيدَه. ينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦] هذه الآياتُ الثَّلاثُ- في «الأعرافِ» و«المؤمنون» و«فُصِّلَت»- لا رابعَ لهنَّ، فإنَّه تعالى يُرشِدُ فيهنَّ إلى مُعاملةِ العاصي من الإنسِ بالمَعروفِ، والتي هي أحسَنُ؛ فإنَّ ذلك يكُفُّه عمَّا هو فيه مِن التَّمرُّدِ بإذنه تعالى؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ ثم يُرشِدُ تعالى إلى الاستعاذةِ به من شيطانِ الجانِّ؛ فإنَّه لا يكفُّه عنك الإحسانُ، وإنَّما يُريدُ هَلاكَك ودَمارَك بالكُليَّةِ؛ فإنَّه عَدوٌّ مُبينٌ لك ولأبيك مِن قَبلِك[1].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ الأمرُ بالاستعاذةِ قد عُلِّلَ بعلَّتينِ:

أولاهما: أنَّ الاستعاذةَ باللهِ مَنجاةٌ للرَّسولِ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مِن نَزغِ الشَّيطانِ.

والثانية: أنَّ في الاستعاذةِ باللهِ مِن الشَّيطانِ تَذكُّرَ أنَّ الواجِبَ مُجاهدةُ الشَّيطانِ، والتيقُّظُ لِكَيدِه، وأنَّ ذلك التيقُّظَ سُنَّةُ المُتَّقينَ؛ فالرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٢، ٥٣٣).

مأمورٌ بِمُجاهدةِ الشَّيطانِ؛ لأنَّه مُتَّقٍ، ولأنَّه يبتهِجُ بمُتابعةِ سِيرةِ سَلَفِه مِن المتَّقينَ، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[1] [الأنعام: ٩٠].

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ لا شيءَ أقوى على طَرْدِ الشَّيطانِ مِن ذِكرِ اللهِ تعالى بالقَلبِ، ومُراقَبتِه في السِّرِّ والجَهرِ؛ فذِكرُ اللهِ تعالى بأيِّ نَوعٍ مِن أنواعِه يُقَوِّي في النَّفسِ حُبَّ الحقِّ، ودواعيَ الخَيرِ، ويُضعِفُ فيها المَيلَ إلى الباطِلِ والشَّرِّ، حتى لا يكونَ للشَّيطانِ مَدخلٌ إليها[2].

٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ المتَّقونَ إذا أصابَهم هذا الطَّيفُ الذي يَطيفُ بِقُلوبِهم، يتذَكَّرونَ ما عَلِمُوه قبل ذلك، فيزولُ الطَّيفُ، ويُبْصِرونَ الحَقَّ الذي كان معلومًا، ولكِنَّ الطَّيفَ يمنَعُهم عن رُؤيَتِه[3].

٧- القرآنُ العظيمُ يُستبصَرُ به في جميعِ المَطالِبِ الإلهيَّةِ، والمقاصِدِ الإنسانيَّةِ؛ يُبَيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[4].

٨- ذَكَرَ اللهُ في غيرِ مَوضعٍ مِن كِتابِه أنَّ الرَّحمةَ تَحصُلُ بالقرآنِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال هنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[5].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٥٣).

(٣) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٧، ٣٤٨).

(٤) يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣١٣).

(٥) يُنظَر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٣٩٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ الأمرُ يشمَلُ النَّهيَ عَن الضِّدِّ؛ فإنَّ النَّهيَ عَن المُنكَرِ أمْرٌ بالمعروفِ، والأمرَ بالمَعروفِ نَهيٌ عن المُنكَرِ؛ لأنَّ الأمرَ بالشَّيءِ نَهيٌ عَن ضِدِّه، وإنَّما اقتصَرَ على الأمرِ بالعُرفِ هنا؛ لأنَّه الأهَمُّ في دَعوةِ المُشركينَ، لأنَّه يدعوهم إلى أصولِ المَعروفِ واحدًا بعد واحدٍ[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أشار إلى مَزيدِ اعتنائِهم بالإغواءِ، ومُثابَرتِهم على الإضلالِ والإغراءِ بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي: لا يتركُونَ إغواءَهم ولو لحظةً؛ لِجَهلِهم وشَرِّهم[(٢)].

٣- قال تعالى ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ فإخوانُ الشَّياطينِ تَمُدُّهم الشَّياطينُ في غَيِّهم ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ لا تُقصِرُ الشَّياطينُ عَن المَدَد والإمدادِ، ولا الإنسُ عن الغَيِّ، فلا يُبصِرونَ مع ذلك الغَيِّ ما هو معلومٌ لهم مُستقِرٌّ في فِطَرِهم، لكِنَّهم يَنسَونَه؛ ولِهذا كانت الرُّسُل إنَّما تأتي بتَذكيرِ الفِطرةِ ما هو معلومٌ لها، وتقويَتِه وإمدادِه، ونَفيِ المُغَيِّر للفِطرةِ، فالرسُلُ بُعِثوا بتقريرِ الفِطرةِ وتكميلِها، لا بِتَغييرِ الفِطرةِ وتَحويلِها، والكمالُ يَحصُلُ بالفِطرةِ المُكَمَّلة بالشِّرعةِ المُنَزَّلة[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٨).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٠٧).

(٣) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٧، ٣٤٨).

- التَّعريفُ في ﴿ٱلْعَفْوَ﴾ تعريفُ الجِنسِ؛ فهو مُفيدٌ للاستغراقِ [١].

- والاجتزاءُ بالأمرِ بالعُرفِ عنِ النَّهيِ عن المُنكَرِ مِن الإيجازِ [٢].

- وحُذِفَ مَفعولُ الأمرِ في قَولِه: ﴿وَأْمُرْ﴾ لإفادةِ عُمومِ المأمورينَ، فأمَرَ اللهُ رسولَه بأن يأمُرَ النَّاسَ كُلَّهم بكلِّ خَيرٍ وصلاحٍ، فيدخُلُ في هذا العمومِ المُشركونَ دُخولًا أوَّليًّا؛ لأنَّهم سببُ الأمرِ بهذا العُمومِ[٣].

٢- **قوله تعالى:** ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- جملة: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ في موقعِ العلةِ للأمرِ بالاستعاذةِ بالله مِن الشَّيطانِ[٤].

- وقال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقال في سُورةِ فُصِّلَت: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، فجاء في الآيةِ هنا ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ على لفظِ النَّكرةِ، وفي سورةِ فُصِّلَت مُعرَّفتينِ بالألفِ واللَّامِ، مُؤَكَّدَتينِ بـ(هو)، وذلك لمناسبةٍ حسنة؛ أنَّ التي هنا وقع في فاصلةِ ما قَبلَها من الفواصِلِ أفعالُ جماعةٍ، وأسماءٌ مأخوذةٌ من الأفعالِ: نحوُ قَولِه تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وبَعْدَه ﴿يُخْلَقُونَ﴾، و ﴿يَنصُرُونَ﴾، و ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾، و﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، فأُخرِجَت هذه الفاصلةُ بأقرَبِ ألفاظِ الأسماءِ المُؤدِّيةِ معنى الفِعلِ، وهي النَّكِرةُ، وكان المعنى: استعِذْ باللهِ إنَّه

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٦).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٨).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٣١).

يسمَعُ استعاذَتَك، ويعلَمُ استجارَتَك.

والتي في سورة فُصِّلَت: قبلها فواصِلُ سلك بها طريقَ الأسماءِ، وهي ما في قَولِه تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]. فقولُه: ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ ليس من الأسماءِ التي يُرادُ بها الأفعالُ، وكذلك قَولُه: ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ ليس ذو حَظٍّ بمعنى فِعلٍ، فأُخرِجَ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ بعد الفواصِلِ التي هي على سَنَنِ الأسماءِ على لفظٍ يَبعُدُ عَن اللَّفظِ الذي يؤدِّي معنى الفِعلِ، فكأنَّه قال: إنَّه هو الذي لا يَخفى عليه مسموعٌ ولا معلومٌ، فليس القصدُ الإخبارَ عن الفِعلِ، كما كان في الأولى: إنَّه يَسمَعُ الدُّعاءَ، ويعلَمُ الإخلاصَ، فهذا فَرقُ ما بين المَكانَينِ[(١)].

وفيه وجهٌ آخَرُ: وهو أنَّ آيةَ فُصِّلَت تَقَدَّمَ قَبلَها قولُه تعالى ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٥] فكان مُؤَكَّدًا بالتَّكرارِ، وبالنَّفي والإثباتِ، فبالغَ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] بزيادة ﴿هُوَ﴾ وبالألفِ واللَّامِ، ولم يكُنْ في الأعرافِ هذا النَّوعُ مِن الاتِّصالِ، فأتى على القِياسِ: المُخبَرُ عنه معرفةٌ، والخَبَرُ نَكرةٌ[(٢)].

وقيل: سِرُّ ذلك- والله أعلم- أنَّه حيث اقتصَرَ على مجرَّدِ الاسمِ، ولم يؤكِّدْه، أُريدَ إثباتُ مُجرَّدِ الوَصفِ الكافي في الاستعاذةِ، والإخبارُ بأنَّه سبحانه يسمَعُ ويَعلَمُ، فيسمَعُ استعاذَتَك فيُجيبُك، ويَعلَمُ ما تستعيذُ منه فيدفَعُه عنك، فالسَّمعُ لكلامِ المُستعيذِ، والعِلمُ بالفِعلِ المُستعاذِ منه، وبذلك يحصُلُ مَقصودُ

(١) يُنظَر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٨٧ - ٦٨٨).
(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٢).

الاستعاذةِ، وهذا المعنى شامِلٌ للمَوضِعَينِ، وامتاز المذكورُ في سورة فُصِّلت بمزيدِ التأكيدِ والتَّعريفِ والتَّخصيصِ؛ لأنَّ سياقَ ذلك بعد إنكارِه سُبحانه على الذين شَكُّوا في سَمْعِه لِقَولِهم وعِلْمِه بهم، كما جاء في الصَّحيحينِ مِن حديثِ ابنِ مَسعودٍ، قال: ((اجتمَعَ عند البيتِ ثلاثةُ نفَرٍ: قُرشيَّانِ وثَقَفيٌّ، أو ثَقَفيَّانِ وقُرَشيٌّ، كثيرٌ شَحمُ بُطونِهم، قليلٌ فِقهُ قُلوبِهم، فقالوا: أتَرَونَ اللهَ يسمَعُ ما نقولُ؟ فقال أحدُهم: يسمَعُ إن جَهَرْنا، ولا يسمَعُ إن أخفَينا، فقال الآخَرُ: إن سَمِعَ بعضَه، سَمِعَ كلَّه، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢- ٢٣]))[(١)].

فجاء التوكيدُ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] في سياقِ هذا الإنكارِ، أي: هو وَحدَه الذي له كمالُ قُوَّةِ السَّمعِ وإحاطةِ العِلمِ، لا كما يظُنُّ به أعداؤُه الجاهلونَ: أنَّه لا يسمَعُ إنْ أخفَوا، وأنَّه لا يعلَمُ كثيرًا ممَّا يعملونَ، وحَسَّنَ ذلك أيضًا: أنَّ المأمورَ به في سورةِ فُصِّلَت دفْعُ إساءتِهم إليه بإحسانِه إليهم، وذلك أشَقُّ على النُّفوسِ مِن مجرَّدِ الإعراضِ عنهم؛ ولهذا عقَّبَه بقَولِه: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] فحَسُنَ التأكيدُ لحاجةِ المُستعيذِ.

وأيضًا فإنَّ السِّياقَ هاهنا لإثباتِ صِفاتِ كَمالِه وأدلَّةِ ثُبوتِها، وآياتِ رُبُوبيَّتِه وشواهِدِ تَوحيدِه؛ ولهذا عقَّبَ ذلك بقَولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧] وبقَولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩] فأتى بأداة التَّعريفِ الدَّالَّةِ على أنَّ مِن أسمائِه «السَّميع العليم» كما جاءت الأسماءُ

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٧)، ومسلم (٢٧٧٥).

الحُسنى كلُّها مَعرفةً، والذي في الأعرافِ في سياقِ وعيدِ المُشركين وإخوانِهم مِن الشَّياطينِ، ووعْدِ المستعيذِ بأنَّ له ربًّا يسمَعُ ويعلَمُ، وآلهةُ المُشرِكين التي عَبَدوها من دونِه ليس لهم أعيُنٌ يُبصِرون بها، ولا آذانٌ يَسمَعونَ بها؛ فإنَّه سميعٌ عليمٌ، وآلهتُهم لا تسمَعُ ولا تُبصِرُ ولا تَعلَمُ، فكيف تُسَوُّونَها به في العبادةِ؟! فعُلِمَ أنَّه لا يليقُ بهذا السِّياقِ غيرُ التَّنكيرِ، كما لا يليقُ بذلك غيرُ التعريفِ، واللهُ أعلَمُ بأسرار كلامِه.

وختَم الآيةَ هنا، وفي سورةِ فُصِّلت بصِفتي السَّمعِ والعِلم، وختَمها في سورةِ غافر بقوله: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ لأنه لَمَّا كان المُستعاذُ منه في سورة غافر هو شَرَّ مجادلةِ الكُفَّارِ في آياتِه، وما ترتَّبَ عليها من أفعالِهم المرئيَّةِ بالبَصرِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۙ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ فلَمَّا كان المستعاذُ منه كلامَهم وأفعالَهم المُشاهَدةَ عِيانًا، قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، وهنا المُستعاذُ منه غيرُ مُشاهَدٍ لنا؛ فإنَّه يَرانا هو وقَبيلُه من حيثُ لا نراه. بل هو معلومٌ بالإيمانِ، وإخبارِ اللهِ ورَسولِه[١].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾

هذا تأكيدٌ وتقريرٌ لِما تقدَّمَ مِن وُجوبِ الاستعاذةِ باللهِ عند نَزغِ الشَّيطانِ، فتتنَزَّلُ جُملةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ إلى آخِرِها، مَنزلةَ التَّعليلِ للأمرِ بالاستعاذةِ مِن الشَّيطانِ إذا أحسَّ بنَزغِ الشَّيطانِ[٢].

- والطَّائِفُ هو النَّازِلُ بالمكانِ قبل دُخولِه المكانَ، أُطلِقَ هنا على الخاطِرِ

(١) يُنظَر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٦).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣١).

الذي يخطُرُ في النَّفسِ، يبعَثُ على فِعلِ شَيءٍ نهى اللهُ عن فِعلِه؛ شَبَّه ذلك الخاطِرَ في مَبدأِ جَوَلانِه في النَّفسِ بِحُلولِ الطَّائِفِ قبل أن يستقِرَّ[١].

- في كَلمةِ (إذا) مِن قَولِه: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ مع التعبيرِ بِفعلِ ﴿مَسَّهُمْ﴾ الدَّالِّ على إصابةٍ غيرِ مَكينةٍ- إشارةٌ إلى أنَّ الفَزَعَ إلى اللهِ مِن الشَّيطانِ، عند ابتداءِ إلمامِ الخواطِرِ الشَّيطانيَّةِ بالنَّفسِ؛ لأنَّ تلك الخواطِرَ إذا أُمهِلَت لم تلبَثْ أن تصيرَ عَزمًا ثم عملًا[٢].

- والفاءُ في ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ لتفريعِ الإبصارِ على التذكُّرِ، وأكَّدَ معنى (فاء) التَّعقيبِ بـ(إذا) الفُجائيَّةِ الدَّالةِ على حُصولِ مَضمونِ جُملَتِها دفعةً بدونِ تَريُّثٍ، أي: تذكَّروا تذكُّرَ ذوي عَزْمٍ، فلم تتريَّثْ نفوسُهم أن تَبَيَّنَ لها الحقُّ الوازِعُ عن العَملِ بالخواطِرِ الشَّيطانيَّةِ، فابتعَدَت عنها، وتمسَّكَت بالحَقِّ، وعَمِلَت بما تذكَّرَت[٣].

- ووصْفُهم باسمِ الفاعِلِ ﴿مُّبْصِرُونَ﴾ دونَ الفِعلِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإبصارَ ثابِتٌ لهم مِن قَبلُ، وليس شيئًا مُتجدِّدًا، ولذلك أخبَرَ عنهم بالجملةِ الاسميَّةِ الدَّالةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ[٤].

٤- **قَولُه تعالى:** ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٢-٢٣٣).

(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٣٣).

قال البقاعي: (لَمَّا كانوا بإسراعِ التذكُّرِ كأنَّهم لم يَمسَّهم شيءٌ مِن أمْرِه؛ أشار إلى ذلك بالجُملةِ الاسميَّةِ مُؤَكِّدًا لسرعةِ البَصرِ بإذا الفُجائيَّة) ((نظم الدرر)) (٨/ ٢٠٦).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٣).

عطفَ الضِّدِّ على ضِدِّه[١].

٥- قولُه: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

- قوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ مُستأنفةٌ لابتداءِ كَلامٍ في التَّنويهِ بشأنِ القُرآنِ، مُنقطعةٌ عَن المَقولِ؛ للانتقالِ مِن غَرَضٍ إلى غرَضٍ، بمنزلةِ التَّذييلِ لِمَجموعِ أغراضِ السُّورةِ، والخطابُ للمُسلمين. ويجوزُ أن تكونَ مِن تمامِ القَولِ المأمورِ بأن يجيبَهم به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيكون الخِطابُ للمُشركينَ، ثمَّ وقع التخلُّصُ لِذكرِ المُؤمنينَ بِقَوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٢].

- وجمَعَ (البصائِرَ)؛ لأنَّ في القرآنِ أنواعًا مِن الهدى على حسَبِ النَّواحي التي يَهدِي إليها[٣]، وأفرَدَ (الهدى والرحمة)؛ لأنَّهما جِنسانِ عامَّانِ يَشملانِ أنواعَ البَصائِرِ؛ فالهُدى يُقارِنُ البَصائِرَ، والرَّحمةُ غايةٌ للبصائِرِ[٤].

---

(١) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٧).

(٣) مِن تنويرِ العَقلِ في إصلاحِ الاعتقادِ، وتسديدِ الفَهمِ في الدِّينِ، ووضعِ القَوانينِ للمُعاملاتِ والمعاشرةِ بين النَّاسِ، والدَّلالةِ على طُرُقِ النَّجاحِ والنَّجاةِ في الدنيا، والتَّحذيرِ مِن مهاوي الخُسرانِ. يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٨).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٨).

الآيات (٢٠٤-٢٠٦)

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿وَأَنصِتُوا۟﴾: الإنصاتُ: السُّكوتُ للاستماعِ، مع ترْكِ الكَلامِ، وَأصلُ (نصت) يدُلُّ على السُّكوتِ[١].

﴿وَخِيفَةً﴾: أي: خوفًا مِن اللهِ، وأصلُه يدلُّ على الذُّعرِ والفَزَعِ[٢].

﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾: جمع غَدَاةٍ: وهي أولُ النَّهَارِ، وأصْلُ (غدو): يَدُلُّ عَلَى زَمَانٍ[٣].

﴿وَٱلْءَاصَالِ﴾: جمعُ أُصُلٍ، والأُصُل: جمعُ أصيلٍ: وهو آخِرُ النَّهارِ[٤].

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: أي: لا يتكبَّرونَ، والاستكبارُ: أن يتشبَّعَ الإنسانُ فيُظهِرَ مِن نَفسِه ما ليس له، وأصلُ (كبر): يدلُّ على خلافِ الصِّغَر[٥].

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾: أي: يُعظِّمونَه ويُنزِّهونَه عن كلِّ سُوءٍ، وأصل (سبح): يدلُّ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٧).

على جِنسٍ مِن العبادةِ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ عبادَه في حالِ تِلاوةِ القُرآنِ أن يستمِعُوا له ويُنصِتوا؛ لعلَّهم يُرحَمونَ بذلك.

وأمرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يذكُرَه بلِسانِه في نفسِه بحيث لا يشعُرُ بذلك أحدٌ، مُتخَشِّعًا متذلِّلًا لله، وخائفًا منه عزَّ وجلَّ، ومن عقابِه، وأن يذكُرَه أيضًا بلِسانِه مِن غَيرِ رَفعِ الصَّوتِ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، ونهاه أن يكونَ مِن الغافلينَ.

وأخبَرَ تعالى أنَّ الذينَ عِندَه مِن الملائكةِ، لا يتكبَّرونَ عن عبادَتِه سُبحانه، ويُنزِّهونَه عن كُلِّ سُوءٍ، وله وَحْدَه يَسجُدونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى أنَّ القُرآنَ بَصائِرُ وهُدًى ورحمةٌ؛ أمرَ باستماعِه إذا شُرِعَ في قراءتِه، وبالإنصاتِ- وهو السُّكوتُ مع الإصغاءِ إليه؛ إعظامًا له واحترامًا، ولأنَّ ما اشتمَلَ على هذه الأوصافِ مِن البَصائِرِ والهُدى والرَّحمةِ، حَريٌّ بأن يُصغى إليه؛ حتى يحصُلَ منه للمُنصِتِ هذه النَّتائِجُ العَظيمةُ، وينتفِعَ بها فيستبصِرَ مِن العَمى، ويهتديَ مِن الضَّلالِ، ويُرحَمَ بها[٢].

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦١)، وينظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٦).

أي: وإذا قُرِئَ عليكم القرآنُ فأَصْغُوا له سَمعَكم، وأحضِرُوا قلوبَكم؛ لِتتفهَّموا آياتِهِ، واصمُتُوا حينَ تسمَعونَه لِتتدبَّروه[1].

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أي: استَمِعوا للقُرآنِ وأنصِتوا له؛ لِيرحمَكم اللهُ تعالى[2].

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعد أن أُمِرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الآيةِ السَّابقة بما أُمِرَ بتبليغِه مِن الآياتِ المتقدِّمةِ، وأُمِرَ النَّاسُ باستماعِ القُرآنِ، كان ذلك يستلزِمُ أمْرَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بقراءةِ القُرآنِ عليهم قراءةً جَهريَّةً يَسمعونَها، بصوتٍ عالٍ رفيعٍ؛ ليحصلَ المقصودُ مِن تبليغِ الوحيِ والرِّسالةِ، ثم إنَّه تعالى أردَف ذلك الأمرَ، بأن أمَره في هذه الآيةِ بأن يذكرَ ربَّه في نفسِه، وهو التذكُّرُ الخاصُّ به،

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قال الإمامُ أحمدُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أجمعَ النَّاسُ أنَّها نزلت في الصَّلاةِ. وقد قيل: في الخُطبةِ، والصَّحيحُ أنَّها نزلت في ذلك كُلِّه). ((الفتاوى الكبرى)) (٥/ ٣٥٥). ويُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٧).

وقال السَّعدي: (هذا الأمرُ عامٌّ في كلِّ مَن سَمِعَ كِتابَ اللهِ يُتلَى؛ فإنَّه مأمورٌ بالاستماعِ له والإنصاتِ، والفَرقُ بين الاستماعِ والإنصاتِ: أنَّ الإنصاتَ في الظَّاهِرِ بِتَركِ التحَدُّثِ، أو الاشتغالِ بما يَشغَلُ عن استماعِه. وأمَّا الاستماعُ له: فهو أن يُلقِيَ سَمعَه، ويُحضِرَ قَلبَه ويتدبَّرَ ما يستمِعُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤). ويُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤).

فأمَرَه بأن يذكُرَ اللهَ ما استطاع، وكيفما تسنَّى له، وفي أوقاتِ النَّهارِ المختلفةِ[١].

وأيضًا لَمَّا أمَرَهم تعالى بالاستماعِ والإنصاتِ إذا شُرِعَ في قراءةِ القُرآنِ، ارتقى مِن أمْرِهم إلى أمْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يذكُرَ ربَّه في نَفسِه، أي: بحيثُ يراقِبُه ويذكُرَه في الحالةِ التي لا يَشعُرُ بها أحَدٌ، وهي الحالةُ الشَّريفةُ العُليا[٢]، فقال تعالى:

﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ ﴾.

أي: واذكُرِ اللهَ تعالى بلسانِك فيما بينك وبينَه[٣]، مِن حيثُ لا يشعُرُ بذلك أحَدٌ، متذكِّرًا ومُستحضِرًا بقَلْبِك عظَمَته وصِفاتِه، وثوابَه وعقابَه، ونحوَ ذلك[٤].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤١-٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤١).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٢).

(٣) قال الرازي: (قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ ﴾ وإن كان ظاهِرُه خطابًا مع النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، إلَّا أنَّه عامٌّ في حَقِّ كُلِّ المُكَلَّفينَ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٥)، وينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٣-٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٢-٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦١، ٤٦٣).

وممَّن ذهب إلى أنَّ هذا الذِّكرَ في النَّفسِ يكونُ باللِّسانِ: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ عاشور. يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤١)، ونسبه ابنُ عطيَّةَ للجُمهورِ، فقال: (والجُمهورُ على أنَّ الذِّكرَ لا يكونُ في النَّفسِ، ولا يراعى إلَّا بحركةِ اللِّسانِ، ويدلُّ على ذلك مِن هذه الآيةِ قولُه: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ فهذه مَرتبةُ السِّرِّ والمخافتةِ باللَّفظِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٤).

وقال ابنُ عاشور: (وذلك يشمَلُ قراءةَ القُرآنِ وغيرِ القُرآنِ؛ مِن الكلامِ الذي فيه تمجيدُ الله وشُكرُه ونحوُ ذلك، مثلُ كلمةِ التَّوحيدِ، والحَوقَلةِ، والتَّسبيح والتَّكبيرِ، والدُّعاء ونحوِ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤١).

وقيل المرادُ بالذِّكرِ هنا: الذِّكرُ النَّفساني بالقَلبِ بالتدبُّرِ والاعتبارِ، والتفكُّرِ في عظمةِ الله تعالى وأسمائِه وصفاتِه وآياتِه دونَ تَحريكِ اللِّسانِ، وممَّن ذهب إلى ذلك: أبو حيان، والشِّنقيطي. يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٣)، ((العذب النمير)) (٤/ ٤٦١). ويُنظَر أيضًا: ((زاد

كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: أنا عندَ ظنِّ عَبدِي بي، وأنا مَعَه حين يذكُرُني، إنْ ذَكَرَني في نفسِه، ذكَرتُه في نَفسي، وإنْ ذَكَرَني في ملإٍ، ذَكَرتُه في ملإٍ هم خيرٌ منهم))[(١)].

﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾.

أي: اذكُرِ اللهَ تعالى، وأنت مُتخشِّعٌ متذلِّلٌ، متواضِعٌ مُستكينٌ لله، وخائفٌ وَجِلُ القَلبِ من اللهِ تعالى، ومن عقابِه- سُبحانه[(٢)].

المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٤).

وقال ابن تيمية: (قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ فأمرَ بذِكرِ اللهِ في نَفسِه، فقد يقال: هو ذِكرُه في قَلبِه بلا لسانِه؛ لقولِه بعد ذلك: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ وقد يُقالُ- وهو أصَحُّ-: بل ذِكرُ اللهِ في نَفسِه باللِّسانِ مع القَلبِ، ونظيرُ قَولِه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما رَوى عن ربِّه: «مَن ذكَرَني في نفسِه ذَكَرتُه في نفسي، ومن ذكَرَني في ملإٍ ذَكَرتُه في ملإٍ خَيرٍ منه»، وهذا يدخُلُ فيه ذِكرُه باللِّسانِ في نَفسِه، فإنَّه جعَلَه قسيمَ الذِّكرِ في المَلإِ، وهو نظيرُ قَولِه: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾، والدَّليلُ على ذلك أنَّه قال: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾، ومعلومٌ أنَّ ذِكرَ اللهِ المشروعَ بالغُدوِّ والآصالِ في الصَّلاةِ وخارِجِ الصَّلاة؛ هو باللِّسانِ مع القلبِ، مثل: صلاتَي الفَجرِ والعَصرِ، والذِّكرِ المَشروعِ عَقِبَ الصَّلاتينِ، وما أمر به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعلَّمَه وفَعَلَه مِن الأذكارِ، والأدعِيةِ المأثورةِ مِن عَمَلِ اليومِ واللَّيلة المشروعةِ طرفَيِ النَّهارِ بالغُدوِّ والآصالِ. وقد يدخُلُ في ذلك أيضًا ذِكرُ اللهِ بالقَلبِ فقط؛ لكنْ يكونُ الذِّكرُ في النَّفسِ كاملًا وغيرَ كامل؛ فالكامِلُ باللِّسانِ مع القلبِ، وغيرُ الكامِلِ بالقَلبِ فقط). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٣- ٣٥). وأيضًا (٧/ ١٣٥).

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) واللفظ له.

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٨)،

﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

أي: اذكُرِ اللهَ- عزَّ وجلَّ- بلسانِك، في خفاءٍ من القَولِ، من غيرِ رفعٍ للصَّوتِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكنَا إذا أشرَفْنا على وادٍ هَلَّلْنا وكَبَّرْنا، ارتفَعَت أصواتُنا، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا أيُّها النَّاسُ، ارْبَعُوا[٢] على أنفُسِكم؛ فإنَّكم لا تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائبًا، إنَّه معكم، إنَّه سَميعٌ قريبٌ))[٣].

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

أي: اذكُرِ اللهَ في أوَّلِ النَّهارِ، وفي آخِرِه مِن العَصرِ إلى المَغربِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].

((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦١).

قال الشِّنقيطي: (﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ قيل: هما مفعولانِ لأجلِهما، أي: لأجْلِ التضَرُّعِ. والتضَرُّعُ معناه: التذلُّل والتخَشُّع والتَّواضُع؛ أي: لأجلِ التَّذلُّلِ والتخشُّعِ والتواضُعِ لِرَبِّ العالمين. وقال بعضُ العلماء: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ مصدرانِ مُنكَّرانِ بمعنى الحال، أي: في حالِ كَونِك مُتضَرِّعًا خائفًا، والكُلُّ مُحتَمَلٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٦١). ويُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٣).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٣).

(٢) ارْبَعوا (بهمزة وصل وفتح الباء): أي ارفُقُوا ولا تُجهِدوا أنفُسَكم. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ١٨٨).

(٣) رواه البخاري (٢٩٩٢) ومسلم (٢٧٠٤)، واللفظ للبخاري.

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٤).

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾.

أي: وأكثِرْ مِن ذِكرِ اللهِ تعالى، ولا تكُنْ مِن الغافِلينَ عن ذِكرِه- سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

وقال جلَّ جلاله: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا رغَّبَ اللهُ تعالى رسولَه في الذِّكرِ، وفي المواظبةِ عليه، ذكَرَ عَقيبَه ما يقَوِّي دواعيَه، فبَيَّنَ أنَّ الملائكةَ- مع نهايةِ شَرَفِهم، وغايةِ طَهارَتِهم، وعِصمَتِهم

(١) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٤).
قال الشنقيطي: (معلوم أنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يغفلُ عن ذكرِ ربِّه، ولكنه يُؤمر ويُنهى ليشرعَ لأُمَّتِه على لسانِه). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٦٤).

وبراءَتِهم عن بواعثِ الشَّهوةِ والغَضبِ، وحوادثِ الِحقدِ والحَسَد- لَمَّا كانوا مُواظِبينَ على العبوديَّةِ والسُّجودِ والخُضوعِ والخُشوعِ؛ فالإنسانُ- مع كَونِه مُبتلًى بظُلُماتِ عالَم الجُسمانيَّاتِ، ومُستعِدًّا للَّذَّاتِ البشريَّةِ والبواعِثِ الإنسانيَّةِ- أولى بالمُواظبةِ على الطَّاعةِ(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾.

أي: إنَّ الملائكةَ الَّذين عند اللهِ تعالى، لا يتكبَّرونَ عن عبادتِهِ سُبحانَه؛ فهم خاضِعونَ لِرَبِّهم، مُتذلِّلونَ له، ومُنقادونَ لأوامِرِه سُبحانه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩-٥٠].

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾.

أي: والملائكةُ ينزِّهونَ اللهَ عزَّ وجلَّ عن كلِّ سُوءٍ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: ٥].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٥).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٧١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٥).
قال القرطبي: (يعني الملائكةَ، بإجماعٍ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٦).

(٣) يُنظَر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٦).

[غافر: ٧].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۞ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦].

﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾.

أي: وله- وَحْدَه لا شريكَ له- يَسجُدونَ سُجودَ تذلُّلٍ وخُضوعٍ، وتواضُعٍ له تعالى، ويخصُّونه بأشرفِ عبادةٍ [(١)].

عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنِّي أرى ما لا تَرَونَ، وأسمَعُ ما لا تَسمعونَ: أطَّتِ[(٢)] السَّماءُ، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ؛ والَّذي نفسي بيَدِه، ما فيها موضِعُ أربعةِ أصابعَ، إلَّا ومَلَكٌ واضعٌ جَبهتَه، ساجِدٌ للهِ...))[(٣)].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٦).

(٢) أطَّتِ: أي: صوَّتَت وأنَّتْ، وسُمِعَ لها أطيطٌ. والأطيطُ: هو صريرُ الرَّحْلِ على البَعيرِ، إذا كان الحِملُ ثقيلًا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٥٠)، ((شرح الأربعين النووية)) للعثيمين (ص: ٤٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجة (٤١٩٠)، وأحمد (٢١٥١٦).

قال الترمذي: حسن غريب، وصححه ابن العربي في ((عارضة الأحوزي)) (٥/ ١٥٢)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (٢٣١٢).

﴿تُرْحَمُونَ﴾ مَن لازَمَ على الاستماعِ والإنصاتِ حين يُتلَى كتابُ اللهِ؛ فإنَّه ينالُ خَيرًا كثيرًا، وعِلمًا غَزيرًا، وإيمانًا مُستمِرًّا مُتجدِّدًا، وهدًى مُتزايدًا، وبصيرةً في دينِه؛ ولهذا رتَّبَ اللهُ حُصولَ الرَّحمةِ عليهما، فدلَّ ذلك على أنَّ مَن تُلِيَ عليه الكتابُ، فلم يستمِعْ له ويُنصِتْ، أنَّه مَحرومُ الحَظِّ مِن الرَّحمةِ، قد فاته خيرٌ كثيرٌ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ قال بعضُهم: الرَّحمةُ أقرَبُ شَيءٍ إلى مُستمِعِ القُرآنِ؛ لهذه الآيةِ[٢].

٣- الترغيبُ في الإكثارِ مِن ذِكرِ اللهِ آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ، خصوصًا طرَفَي النَّهارِ، والتَّحذيرُ مِن الغفلةِ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[٣].

٤- لا يريدُ اللهُ تعالى أن يتكثَّرَ بعبادةِ الخَلقِ مِن قِلَّةٍ، ولا ليتعزَّزَ بها من ذِلَّةٍ، وإنَّما يريدُ نَفعَهم، وأن يربَحوا عليه أضعافَ أضعافَ ما عَمِلوا؛ فإنَّ لله تعالى عبادًا مُستديمينَ لعبادتِه، مُلازمينَ لِخدمَتِه، وهم الملائكةُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ استدلَّ به من قال: إنَّ المأمومَ إذا سَمِعَ قراءةَ الإمامِ يستمِعُ لها، ويُنصِتُ لا يقرأُ بالفاتحةِ

(١) يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣١٤).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٩).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣١٤).
(٤) يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣١٤).

ولا غَيرِها، وإذا لم يسمَعْ قراءَتَه بها، يقرأ الفاتحةَ وما زاد[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ المَشروعَ في الذِّكرِ كُلِّه؛ المخافتةُ، إلَّا أن يكونَ هناك سببٌ يُشرَعُ له الجَهرُ[٢]، أو ما دلَّ دليلٌ خاصٌّ على مشروعيةِ الجهرِ به.

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ ﴾ فيه دقيقةٌ، وهي أنَّ سَماعَ لَفظِ (الرِّبِّ) يُوجِبُ الرَّجاءَ، وسَماعَ لَفْظِ (التضَرُّع) و(الخِيفةِ) يوجِبُ الخوفَ، فلمَّا وقع الابتداءُ بما يُوجِبُ الرَّجاءَ، عَلِمْنا أنَّ جانِبَ الرَّجاءِ أقوى[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ خَصَّ (الغُدُوَّ) و(الآصالَ) بهذا الذِّكرِ؛ والحكمةُ فيه:

قيل: إنَّ عند الغُدوةِ انقلب الإنسانُ مِن النَّومِ- الذي هو كالموتِ- إلى اليقظةِ التي هي كالحياةِ، والعالَمُ انقلب من الظُّلْمة- التي هي طبيعةٌ عَدَميَّةٌ- إلى النُّورِ الذي هو طبيعةٌ وُجوديَّة. وأمَّا عند الآصالِ، فالأمرُ بالضِّدِّ؛ لأنَّ الإنسانَ ينقلِبُ فيه من الحياةِ إلى الموتِ، والعالَمُ ينقلِبُ فيه من النُّورِ الخالصِ إلى الظُّلمةِ الخالصةِ، وفي هذينِ الوَقتينِ يحصُلُ هذان النَّوعانِ مِن التَّغييرِ العَجيبِ القويِّ القاهِرِ، ولا يقدِرُ على مِثلِ هذا التَّغييرِ إلَّا الإلهُ الموصوفُ بالحِكمةِ الباهرةِ، والقُدرةِ غيرِ المُتناهية؛ فلهذه الحِكمةِ العَجيبةِ خَصَّ اللهُ تعالى هذينِ الوَقتينِ

(١) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٠).
(٢) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٦٨).
(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٣).

بالأمرِ بالذِّكرِ.

وقيل: إنَّما خُصَّا بالذِّكرِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ بعد صلاةِ الصُّبحِ، وبعد صلاةِ العَصرِ مكروهةٌ، واستُحِبَّ للعبدِ أن يذكُرَ اللهَ تعالى فيهما؛ ليكونَ في جميعِ أوقاتِه مُشتغِلًا بما يقرِّبُه إلى اللهِ تعالى، مِن صلاةٍ وذِكرٍ.

وقيل: إنَّ أعمالَ العِبادِ تَصعَدُ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، فيصعَدُ عَملُ اللَّيلِ عند صلاةِ الفَجرِ، ويصعَدُ عَملُ النَّهارِ بعد العَصرِ إلى الغُروبِ، فاستُحِبَّ له الذِّكرُ فيهما؛ ليكونَ ابتداءُ عَمَلِه بالذِّكرِ، وختامُه بالذِّكرِ.

وقيل: خَصَّ هذينِ الوَقتينِ لِشَرفِهما، والمرادُ دَوامُ الذِّكرِ لله[1].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ لَمَّا كان رُبَّما أوهمَ هذا الخُصوصَ بهَذينِ الوَقتينِ ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ وإن كان ظاهِرًا في الدَّوامِ، قال مُصَرِّحًا: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ أي: في وَقتٍ غَيرِهما، بل كُن ذاكِرَه في كلِّ وَقتٍ، على كلِّ حالٍ[2].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ ذكرَ مِن طاعاتِهم أوَّلًا: كونَهم يُسبِّحونَ، والتَّسبيحُ عبارةٌ عن تنزيهِ اللهِ تعالى مِن كلِّ سُوءٍ، وذلك يرجِعُ إلى المعارفِ والعُلومِ، ثمَّ لَمَّا ذكَرَ التَّسبيحَ أردَفَه بذِكرِ السُّجودِ، وذلك يرجِعُ إلى أعمالِ الجَوارِحِ، وهذا الترتيبُ يدلُّ على أنَّ الأصلَ في الطَّاعةِ والعبوديَّةِ أعمالُ القلوبِ، ويتفَرَّعُ عليها أعمالُ

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٥٠-٥٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٢٠).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢١١-٢١٢).

الجَوارِحِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ ذِكرُ اسْمِ (القُرآنِ) هنا إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ القرآنَ تقدَّمَ ذِكرُه بواسطةِ اسمِ الإشارةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فنكتةُ هذا الإظهارِ: التَّنويهُ بهذا الأمرِ، وجَعْلُ جُملَتِه مُستقلَّةً بالدَّلالةِ غَيرَ مُتوقِّفةٍ على غَيرِها، وهذا من وجوهِ الاهتمامِ بالكَلامِ، ومِن دواعي الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ[٢].

- والاستماعُ: الإصغاءُ. وصيغةُ الافتعالِ دالَّةٌ على المُبالغةِ في الفِعلِ[٣].

٢- **قولُه:** ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أشَدُّ في الانتفاءِ وفي النَّهيِ مِن نحوِ: (ولا تَغفُلْ)؛ لأنَّه يَفرِضُ جماعةً يحِقُّ عليهم وصفُ الغافلينَ، فيُحَذَّرُ مِن أن يكونَ في زُمرَتِهم، وذلك أبيَنُ للحالةِ المنهيِّ عنها[٤].

٣- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ يتنزَّلُ مَنزلةَ العِلَّة للأمرِ بالذِّكرِ؛ ولذلك صُدِّرَ بـ (إنَّ) التي هي لمجرَّدِ الاهتمامِ بالخَبَرِ، لا لرَدِّ تردُّدٍ أو إنكارٍ؛ لأنَّ المخاطَبَ مُنَزَّهٌ عن أن يتردَّدَ في خبرِ الله تعالى، فحَرفُ التوكيد في مثل هذا المقامِ يُغني غَناءَ فاءِ التَّفريعِ، ويُفيدُ التَّعليلَ، وفيها تعريضٌ بالمُشركينَ المُستكبرينَ عن عبادةِ الله، بأنَّهم مُنحطُّونَ عن تلك الدَّرَجاتِ[٥].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٦).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٩).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٤٢).
(٥) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٤٣).

- وجهُ العُدولِ عن لفظِ الملائكةِ إلى الموصوليَّةِ في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ ما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن رِفعةِ مَنزِلَتِهم، فيتذرَّعُ بذلك إلى إيجادِ المُنافَسةِ في التخَلُّقِ بأحوالِهم[١].

- قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ ليس المقصودُ به التَّنويهَ بِشأنِ الملائكةِ؛ لأنَّ التَّنويهَ بهم يكونُ بأفضَلَ مِن ذلك، وإنَّما أريدَ به التَّعريضُ بالمُشركينَ، وأنَّهم على النَّقيضِ مِن أحوالِ الملائكةِ المُقرَّبينَ؛ فخليقٌ بهم أن يكونوا بُعَداءَ عَن مَنازِلِ الرِّفعةِ، والمقصودُ هو قَولُه: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي: يُنزِّهونَه بالقَولِ والاعتقادِ عن صِفاتِ النَّقصِ، وهذه الصِّلةُ هي المقصودةُ مِن التَّعليلِ للأمرِ بالذِّكرِ[٢].

- وتقديمُ المعمولِ في قَولِه: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ للدَّلالةِ على الاختصاصِ، أي: ولا يَسجُدونَ لِغَيره، وهذا أيضًا تَعريضٌ بالمُشركينَ الذين يَسجُدونَ لِغَيرِه، وصيغةُ المُضارِعِ تُفيدُ الاستمرارَ[٣].

تمَّ بحمدِ اللهِ المجلدُ السادسُ

ويليه المجلدُ السابعُ، وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الأنفالِ

(١) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٣-٢٤٤).

(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٤٤).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سُورةُ الأعرافِ ١٣
أسماءُ السُّورةِ: ١٣
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ: ١٣
مقاصِدُ السُّورةِ: ١٤
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ١٤
الآيات (١-٣) ١٧
غريبُ الكَلِماتِ: ١٧
المَعْنَى الإجماليُّ: ١٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٨
الفوائِدُ التربويَّةُ: ٢٠
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢١
بلاغةُ الآياتِ: ٢٢
الآيات (٤-٩) ٢٥
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٥
المَعْنَى الإجماليُّ: ٢٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٦
الفوائِدُ التربويَّةُ: ٣٤
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٥
بلاغةُ الآياتِ: ٣٨
الآيات (١٠-١٨) ٤٢
غريبُ الكَلِماتِ: ٤٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٤
المَعْنَى الإجماليُّ: ٤٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٥
الفوائِدُ التربويَّةُ: ٥٤
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٧
بلاغةُ الآياتِ: ٦٢
الآيات (١٩-٢٥) ٧٣
غريبُ الكَلِماتِ: ٧٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٧٥
المَعْنَى الإجماليُّ: ٧٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٧٦
الفوائِدُ التربويَّةُ: ٨٢
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٨٤
بلاغةُ الآياتِ: ٨٧
الآيات (٢٦-٣٠) ٩٠
غريبُ الكَلِماتِ: ٩٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٩١
المَعْنَى الإجماليُّ: ٩٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٩٣
الفوائِدُ التربويَّةُ: ١٠٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٠٥
بلاغةُ الآياتِ: ١٠٩
الآيتان (٣١-٣٢) ١١٥
غريبُ الكَلِماتِ: ١١٥
المَعْنَى الإجماليُّ: ١١٥
تَفسيرُ الآيتينِ: ١١٦
الفوائِدُ التربويَّةُ: ١٢١

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٢٢
بلاغة الآيتين: ١٢٤
الآيتان (٣٣-٣٤) ١٢٦
غريبُ الكَلِماتِ: ١٢٦
المَعْنَى الإجماليُّ: ١٢٧
تَفسيرُ الآيتين: ١٢٧
الفوائِدُ التربويَّةُ: ١٣٠
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٣٢
بلاغة الآيتين: ١٣٣
الآيات (٣٥-٣٩) ١٣٦
غريبُ الكَلِماتِ: ١٣٦
المَعْنَى الإجماليُّ: ١٣٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٣٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٤٧
بلاغةُ الآياتِ: ١٤٩
الآيتان (٤٠-٤١) ١٥٤
غريبُ الكَلِماتِ: ١٥٤
المَعْنَى الإجماليُّ: ١٥٥
تَفسيرُ الآيتَيْنِ: ١٥٥
الفوائِدُ التربويَّةُ: ١٦٠
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٦١
بَلاغةُ الآيتَينِ: ١٦٢
الآيتان (٤٢-٤٣) ١٦٦
غريبُ الكَلِماتِ: ١٦٦
المَعْنَى الإجماليُّ: ١٦٦
تَفسيرُ الآيتَينِ: ١٦٦
الفوائِدُ التربويَّةُ: ١٧١
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٧٢
بَلاغةُ الآيتَينِ: ١٧٤
الآيات (٤٤-٤٩) ١٧٧
غريبُ الكَلِماتِ: ١٧٧
المَعْنَى الإجماليُّ: ١٧٨
تَفسيرُ الآياتِ: ١٧٩
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٨٧
بلاغةُ الآياتِ: ١٨٩
الآيات (٥٠-٥٣) ١٩٤
غريبُ الكَلِماتِ: ١٩٤
المَعْنَى الإجماليُّ: ١٩٥
تَفسيرُ الآياتِ: ١٩٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٠٣
بلاغةُ الآياتِ: ٢٠٤
الآيات (٥٤-٥٦) ٢٠٧
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٠٧
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٠٩
المَعْنَى الإجماليُّ: ٢١٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٢١٠
الفوائِدُ التربويَّةُ: ٢١٩
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٢٣
بلاغةُ الآياتِ: ٢٢٧
الآيتان (٥٧-٥٨) ٢٣٢
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٣٢
المَعْنَى الإجماليُّ: ٢٣٣

تَفسيرُ الآيتَينِ: ٢٣٣
الفوائِدُ التربويَّةُ: ٢٣٩
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٤٠
بَلاغةُ الآيتَينِ: ٢٤٤
الآيات (٥٩-٦٤) ٢٤٩
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٤٩
المَعْنَى الإجماليُّ: ٢٤٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٥٠
الفوائِدُ التربويَّةُ: ٢٥٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٥٧
بلاغةُ الآياتِ: ٢٦٠
الآيات (٦٥-٧٢) ٢٧٣
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٧٣
المَعْنَى الإجماليُّ: ٢٧٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٧٥
الفوائِدُ التربويَّةُ: ٢٨٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٨٥
بلاغةُ الآياتِ: ٢٨٩
الآيات (٧٣-٧٩) ٢٩٥
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٩٥
المَعْنَى الإجماليُّ: ٢٩٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٩٩
الفوائِدُ التربويَّةُ: ٣٠٥
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٠٦
بلاغةُ الآياتِ: ٣١٠
الآيات (٨٠-٨٤) ٣٢١
غريبُ الكَلِماتِ: ٣٢١
المَعْنَى الإجماليُّ: ٣٢٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٢٢
الفوائِدُ التربويَّةُ: ٣٢٧
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٢٨
بلاغةُ الآياتِ: ٣٣٢
الآيات (٨٥-٨٧) ٣٤٢
غريبُ الكَلِماتِ: ٣٤٢
المَعْنَى الإجماليُّ: ٣٤٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٤٣
الفوائِدُ التربويَّةُ: ٣٤٩
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٥٢
بلاغةُ الآياتِ: ٣٥٦
الآيات (٨٨-٩٣) ٣٦٠
غَريبُ الكلماتِ: ٣٦٠
المعنى الإجماليُّ: ٣٦١
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٦٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٧٠
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: ٣٧١
بلاغةُ الآياتِ: ٣٧٣
الآيات (٩٤-١٠٠) ٣٨٠
غريب الكلمات: ٣٨٠
المعنى الإجماليُّ: ٣٨٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٨٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٩١
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: ٣٩٣

بلاغةُ الآياتِ: ٣٩٥
الآيات (١٠١-١٠٣) ٣٩٨
غريبُ الكلماتِ: ٣٩٨
المعنى الإجماليُّ: ٣٩٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٩٩
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: ٤٠٤
بلاغةُ الآياتِ: ٤٠٦
الآيات (١٠٤-١١٢) ٤١٣
غريب الكلمات: ٤١٣
المعنى الإجماليُّ: ٤١٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٤١٤
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: ٤٢٢
بلاغة الآيات: ٤٢٥
الآيات (١١٣-١١٦) ٤٣٠
غريبُ الكلماتِ: ٤٣٠
مُشْكِلُ الإعرابِ: ٤٣٠
المعنى الإجماليُّ: ٤٣١
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٣١
الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٤٣٥
بلاغة الآيات: ٤٣٦
الآيات (١١٧-١٢٦) ٤٣٩
غريبُ الكلماتِ: ٤٣٩
المعنى الإجماليُّ: ٤٤٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٤١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٤٩
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: ٤٥٠
بلاغة الآيات: ٤٥٤
الآيات (١٢٧-١٢٩) ٤٦٣
غريبُ الكلماتِ: ٤٦٣
المعنى الإجماليُّ: ٤٦٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٦٤
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٤٦٩
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٧٠
بلاغة الآيات: ٤٧١
الآيات (١٣٠-١٣٣) ٤٧٤
غريبُ الكلماتِ: ٤٧٤
المعنى الإجماليُّ: ٤٧٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٧٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٨٣
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٨٤
بلاغة الآيات:..... ٤٨٥
الآيات (١٣٤-١٣٧) ٤٨٨
غريبُ الكلماتِ: ٤٨٨
المعنى الإجماليُّ: ٤٨٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٨٩
الفَوائِدُ التربويَّةُ:..... ٤٩٩
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: ٥٠٠
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٠٠
الآيات (١٣٨-١٤١) ٥٠٣
غريبُ الكلماتِ: ٥٠٣
مُشْكِلُ الإعرابِ: ٥٠٤
المعنى الإجماليُّ: ٥٠٥

تَفسيرُ الآياتِ: ٥٠٥
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٥١٢
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: ٥١٣
بَلاغَةُ الآياتِ: ٥١٦
الآيتان (١٤٢-١٤٣) ٥٢٠
غريبُ الكلماتِ: ٥٢٠
مُشْكِلُ الإعرابِ: ٥٢١
المعنى الإجماليُّ: ٥٢٢
تَفسيرُ الآيتين: ٥٢٢
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٥٢٨
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: ٥٢٩
بلاغة الآيتين: ٥٣٣
الآيتان (١٤٤-١٤٥) ٥٣٤
غريبُ الكلماتِ: ٥٣٤
مُشكلُ الإعرابِ: ٥٣٤
المعنى الإجماليُّ: ٥٣٥
تَفسيرُ الآيتَيْنِ: ٥٣٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٤٢
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٤٢
بلاغةُ الآيتَينِ: ٥٤٣
الآيتان (١٤٦-١٤٧) ٥٤٦
غريبُ الكلماتِ: ٥٤٦
المعنى الإجماليُّ: ٥٤٦
تَفسيرُ الآيتَيْنِ: ٥٤٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٥٢
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٥٣
بَلاغةُ الآيتَينِ: ٥٥٤
الآيتان (١٤٨-١٤٩) ٥٥٦
غريب الكلمات: ٥٥٦
المعنى الإجماليُّ: ٥٥٦
تَفسيرُ الآيتَيْنِ: ٥٥٧
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٦١
بلاغة الآيتين: ٥٦٢
الآيات (١٥٠-١٥٣) ٥٦٤
غريبُ الكلماتِ: ٥٦٤
مُشْكِلُ الإعرابِ: ٥٦٥
المعنى الإجماليُّ: ٥٦٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٧٥
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٧٦
بَلاغَةُ الآياتِ: ٥٧٦
الآيات (١٥٤-١٥٧) ٥٧٩
غريبُ الكلماتِ: ٥٧٩
مُشْكِلُ الإعرابِ: ٥٨٢
المعنى الإجماليُّ: ٥٨٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٨٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٠٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٠١
بَلاغةُ الآياتِ: ٦٠٥
الآية (١٥٨) ٦١١
المعنى الإجماليُّ: ٦١١
تَفسيرُ الآية: ٦١١

الفَوائِد التربويَّة: ٦١٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦١٧
بلاغةُ الآيةِ: ٦١٩
الآيتان (١٥٩-١٦٠) ٦٢١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٢١
مشكل الإعراب: ٦٢٣
المعنى الإجماليُّ: ٦٢٣
تَفسيرُ الآيتين: ٦٢٤
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٦٢٩
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٢٩
بلاغة الآيتين: ٦٣٠
الآيتان (١٦١-١٦٢) ٦٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٣٣
المعنى الإجماليُّ: ٦٣٣
تَفسيرُ الآيتين: ٦٣٤
الفَوائِد التربويَّة: ٦٣٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٣٨
بلاغة الآيتين: ٦٣٩
الآيات (١٦٣-١٦٦) ٦٤٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٤٥
المعنى الإجماليُّ: ٦٤٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٤٨
الفَوائِد التربويَّة: ٦٥٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٥٦
بلاغة الآيات: ٦٥٨
الآيات (١٦٧-١٧٠) ٦٦٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٦٠
المعنى الإجماليُّ: ٦٦١
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٦٢
الفَوائِد التربويَّة: ٦٧٢
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٧٤
بلاغة الآيات: ٦٧٥
الآيات (١٧١-١٧٤) ٦٧٧
غريبُ الكَلماتِ: ٦٧٧
المَعنى الإجماليُّ: ٦٧٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٧٨
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٦٨٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٨٦
بلاغةُ الآياتِ: ٦٨٧
الآيات (١٧٥-١٧٨) ٦٩٠
غريبُ الكَلماتِ: ٦٩٠
المَعنى الإجماليُّ: ٦٩٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٩٢
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٦٩٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٠٤
بلاغةُ الآياتِ: ٧٠٦
الآيات (١٧٩-١٨٣) ٧١٠
غريبُ الكَلماتِ: ٧١٠
المَعنى الإجماليُّ: ٧١٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٧١٢
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٧٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٢٢

بلاغةُ الآياتِ: ٧٢٥
الآيات (١٨٤-١٨٦) ٧٢٩
غريبُ الكَلماتِ: ٧٢٩
المَعنى الإجماليُّ: ٧٣٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٧٣٠
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٧٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٣٥
بلاغةُ الآياتِ: ٧٣٦
الآيتان (١٨٧-١٨٨) ٧٤٠
غريبُ الكَلماتِ: ٧٤٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٧٤١
المَعنى الإجماليُّ: ٧٤١
تَفسيرُ الآيتين: ٧٤٢
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٧٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٤٩
بلاغةُ الآيَتينِ: ٧٤٩
الآيات (١٨٩-١٩٣) ٧٥٥
غريبُ الكَلماتِ: ٧٥٥
المَعنى الإجماليُّ: ٧٥٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٧٥٦
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٧٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٦٤
بلاغةُ الآياتِ: ٧٦٦
الآيات (١٩٤-١٩٨) ٧٧٠
غريبُ الكَلماتِ: ٧٧٠
المَعنى الإجماليُّ: ٧٧٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٧٧١
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٧٧٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٧٨
بلاغةُ الآياتِ: ٧٧٩
الآيات (١٩٩-٢٠٣) ٧٨٣
غريبُ الكَلماتِ: ٧٨٣
المَعنى الإجماليُّ: ٧٨٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٧٨٥
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٧٩٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٨٠١
بلاغةُ الآياتِ: ٨٠١
الآيات (٢٠٤-٢٠٦) ٨٠٨
غريبُ الكَلماتِ: ٨٠٨
المَعنى الإجماليُّ: ٨٠٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٠٩
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٨١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٨١٧
بلاغةُ الآياتِ: ٨٢٠
الفهرس ٨٢٥

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٢٥ ر.س

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الأنفال

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السابع

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الأنفال)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر – سورة الأنفال – المجلد السابع/ مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي – الظهران، ١٤٣٧هـ

٣٣٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٣-٤٠-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – سورة الأنفال – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٣٧/١٠٥٤٩

رقم الإيداع: ٣-٤٠-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

ردمك: ١٤٣٧/١٠٥٤٩

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الأنفال)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السابع

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الأَنْفالِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورة الأنفالِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بِسُورةِ الأنفالِ[١].

فعن سعيدِ بنِ جبيرٍ، قال: (قلتُ لابن عباس: سورةُ الأنفالِ، قال: نزلتْ في بدرٍ)[٢].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الأنفالِ مَدَنيَّةٌ[٣] بَدْريَّةٌ[٤]، وحُكِي الإجماعُ على ذلك[٥].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ سُورةِ الأنفالِ:

---

(١) سُمِّيَت بذلك لِذكْرِ لَفظِ الأنفالِ في أوَّلِها، ولم يُذكَر في سورةٍ غَيرِها، ولأنَّها بَيَّنَت حُكمَ الأنفالِ، وهي الغنائِمُ. يُنظَر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٤٥)، ومسلم (٣٠٣١).

(٣) يُنظَر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٤٩).

وقيل: سورةُ الأنفالِ مَدَنيَّةٌ إلَّا سبْعَ آياتٍ، مِن قَولِه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى آخِرِ سَبعِ آياتٍ؛ فإنَّها نزلت بمكَّةَ. وقيل: غير آيةٍ، وهي قَولُه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. وقيل: مَدنيَّةٌ غيرَ قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فإنَّها نزَلَت بالبيداءِ في غَزوةِ بَدرٍ قبل القِتالِ.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٧).

(٤) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٦٠).

(٥) ممَّن حكَى الإجماعَ على ذلك ابنُ الجوزيِّ، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظَر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٨٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ١٤٤).

بيانُ أسبابِ النصرِ، وبعضِ أحكامِ الجهادِ[١].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

من أبرَزِ مَوضوعاتِ سُورةِ الأنفالِ:

١- بَيانُ أحكامِ الأنفالِ- وهي الغَنائِمُ- وقِسمَتِها ومصارِفِها، والأمرُ بِتَقوى اللهِ في ذلك وغَيرِه، والأمرُ بطاعةِ اللَّهِ ورَسولِه في أمرِ الغَنائِمِ وغَيرِها، وأمرُ المُسلمينَ بإصلاحِ ذاتِ بَينِهم، وأنَّ ذلك مِن مُقَوِّماتِ معنى الإيمانِ الكامِلِ.

٢- وصفُ المؤمنينَ الصادقينَ، وتبشيرُهم بالدرجاتِ الرفيعةِ والمنازلِ العاليةِ.

٣- ذِكرُ الخُروجِ إلى غزوةِ بَدرٍ، وكراهيةِ فريقٍ مِن المؤمنينَ لذلك، وما لَقُيه المؤمنون في هذه الغزوةِ مِن نَصرٍ وتأييدٍ مِن الله، ولُطفِه بهم، وامتنانِه عليهم، والأمرِ بالاستعدادِ لِحَربِ الأعداءِ، والأمرِ باجتماعِ الكَلِمةِ، والنَّهيِ عن التَّنازُعِ، والأمرِ بأن يكونَ قَصدُ النُّصرةِ للدِّينِ نُصْبَ أعيُنِهم، ووصْفِ السَّبَبِ الذي أخرَجَ المسلمينَ إلى بدرٍ، ومَواقِعِ الجيشَينِ، وصفاتِ ما جرى مِن القِتالِ.

٤- توجيهُ عدةِ نداءاتٍ لِلمُؤمنينَ؛ وإرشادُهم في كلِّ واحدٍ منها إلى ما فيه خَيرُهم وفَلاحُهم.

٥- تذكيرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بنِعمةِ اللهِ عليه؛ إذ أنجاه مِن مَكرِ المُشركينَ به بمكَّةَ.

٦- ذكرُ ما عليه المشركون مِن جهلٍ وعنادٍ.

٧- بيان أنَّ مُقامَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمكَّةَ كان أمانًا لأهْلِها، فلمَّا فارَقَهم فقد حَقَّ عليهم عذابُ الدُّنيا؛ بما اقترَفوا مِن الصَّدِّ عن المسجِدِ الحَرامِ.

---

(١) يُنظَر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢١٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي(٢/ ١٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٥١).

٨- دعوةُ المشركينَ للانتهاءِ عَن مُناوأةِ الإسلامِ، وإيذائُهم بالقتالِ، والتَّحذيرُ مِن المُنافِقينَ.

٩- تفصيلُ أمرِ الغنائِمِ، وبيانُ ما أُجمِلَ في أوَّلِ السُّورةِ.

١٠- ذكرُ أحكامِ العَهدِ بين المُسلمين والكُفَّارِ، وما يترتَّبُ على نَقضِهم العهدَ، ومتى يَحسُنُ السَّلْمُ.

١١- بيانُ أحكامِ الأسْرَى، وأحكامِ المُسلِمينَ الذين تخلَّفُوا في مكَّةَ بعد الهِجرةِ، ووَلايَتِهم، وما يترتَّبُ على تلك الوَلايةِ.

الآيات (١-٤)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْأَنفَالُ﴾: أي: الغَنائِم، واحِدُها نَفَل؛ والنَّفْل الزِّيادَة، والأنفالُ مِمَّا زَاد الله هذه الأُمَّةَ في الحلالِ؛ لأنَّه كان مُحرَّمًا على مَن كان قبلَهم، وأصلُ (نفل): يدلُّ على إعطاءٍ[١].

﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: أَي: الحالَ التي بَينكم، أو الأحوالَ التي تجمَعُكم مِن القَرابةِ والوُصلةِ والمَودَّةِ، وأصلُ (بين): موضوعٌ للخَلالةِ بين الشَّيئينِ ووسْطَهما[٢].

﴿وَجِلَتْ﴾: أي: خافَت وفَرِقَت، والوَجَلُ: استشعارُ الخَوفِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يسألُك- يا محمَّدُ- أصحابُك عن حُكمِ الغَنائِمِ- وخاصَّةً غنائِمَ بَدرٍ، ولِمَن هي، وكيف تُقسَمُ؟ فقل لهم: أمرُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٦-١٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٦).

الغنائِمِ إلى اللهِ تعالى الذي يملِكُها، وإلى رسولِ اللهِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي يقسِمُها، فاتَّقُوا اللهَ وأصلِحوا الحالَ بينكم، وأطيعُوا اللهَ ورسولَه، وامتَثِلوا أمرَهما إنْ كنتم حقًّا مُؤمنينَ.

إنَّما المُؤمنونَ حَقًّا مَن إذا ذُكرَ اللهُ فَزِعَت قلوبُهم وخافوا منه، وإذا قُرِئَت عليهم آياتٌ مِن كتابِه، ازداد تصديقُهم ويقينُهم، وعلى ربِّهم وَحْدَه يتوكَّلونَ، الذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ على أكمَلِ وَجهٍ، وممَّا رزَقَهم اللهُ يُنفِقونَ، أولئك هم المُؤمِنونَ حقًّا، لهم منازِلُ ومراتِبُ عاليةٌ عند ربِّهم، ومغفرةٌ، ورزقٌ كريمٌ في الجنَّةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١﴾.

أسبابُ النُّزولِ:

١- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((قالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّمَ يومَ بدرٍ: مَن فعلَ كذا وكَذا، فلَهُ منَ النَّفَلِ كذا وكَذا. قالَ: فتقدَّمَ الفِتيانُ، ولزمَ المشيَخةُ الرَّاياتِ فلم يبرَحُوها، فلمَّا فتحَ اللَّهُ عليهم قالت المشيخةُ: كنَّا رِدءًا[1] لَكُم، لوِ انهزمتُمْ فِئتُمْ[2] إلينا، فلا تَذهَبونَ بالمَغنمِ ونبقى، فأبى الفِتيانُ، وقالوا: جعلَهُ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّمَ لَنا، فأنزلَ اللَّهُ تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ يقولُ: فَكانَ ذلِكَ خيرًا لَهُم، فكَذلِكَ

(١) رِدْءًا: أي: عَونًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٠).
(٢) فِئتُمْ: أي: رَجَعْتم. وأصلُ الفَيءِ: الرُّجوعُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٨٢)، ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٢٢٨).

أيضًا فأطيعوني؛ فإنِّي أعلمُ بِعاقبةِ هذا منكُم))[١].

عَن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ قال: ((نزلَتْ فيَّ أربعُ آياتٍ: أَصَبْتُ سيفًا، فأتى به النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رسولَ اللهِ، نَفِّلْنِيه[٢] فقال: ضَعْه. ثم قام، فقال له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ضَعْه من حيثُ أَخَذْتَه. ثم قام، فقال: نَفِّلْنِيه يا رسولَ الله، فقال: ضَعْه. فقام، فقال: يا رسولَ اللهِ، نَفِّلْنِيه، أَوُجعَلُ كمَن لا غَناءَ له؟ فقال له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ضَعْه مِن حيث أَخَذْتَه. قال: فنزَلت هذه الآيةُ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]))[٣].

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

هذه الآيةُ مَنسوخةٌ بآيةِ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم ...﴾ الآية[٤] [الأنفال: ٤١].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٣٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٣٣)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٥٠٩٣).

صححه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٠٣)، والألباني في ((صحيح أبي داود)) (٢٧٣٧)، وصحح إسناده العيني في ((نخب الأفكار)) (١٢/ ٢٧٩).

(٢) نَفِّلْنِيه: أي: أعْطِنِيه واجْعَلْه لي نَفَلًا- أي: غنيمةً. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٠).

(٣) رواه مسلم (١٧٤٨).

(٤) ممَّن ذهب إلى ذلك: أبو عُبَيد القاسم بن سلَّام، والواحديُّ، والشنقيطي، ونسبه النَّحاس والقرطبيُّ إلى جمهورِ العُلَماء. يُنظر: ((الأموال)) (ص: ٣٨٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٩-٥٠، ٥٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢).

قال أصحابُ هذا القولِ: لأنَّ قولَه: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ يقتضي أن تكونَ الغنائمُ كلُّها للرسولِ، فنسخَها الله بآياتِ الخُمسِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٩).

وممن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ ابنُ عبَّاس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والضحَّاك والشعبيُّ والسُّديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١، ٢٢)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩).

وقيل: هي مُحكَمةٌ[١].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾.

أي: يسألُك أصحابُك- يا مُحَمَّدُ- عن الغنائِم[٢]- وخاصَّةً غنائِمَ غَزوةِ بَدرٍ

---

(١) ذهب ابنُ جريرٍ إلى ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩).

ومعنى الآيةِ على هذا القولِ: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، وهي لا شكَّ للهِ- مع الدُّنيا بما فيها والآخرةِ- وللرسولِ يضعُها في مواضعِها التي أمرَه الله بوضعِها فيه، وقد بيَّن الله مصارفَها في قولِه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ...﴾ الآية. ينظر ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٣٢٦).

(٢) قال الزَّجاج: (وإنما يَسْألونَ عنها؛ لأنَّها فيما رُوِيَ كانت حَرامًا على من كانَ قَبلَهم). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٢/ ٣٩٩).

قال ابنُ كثير: (شاهِدُ هذا في الصحيحينِ عن جابرٍ: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم قال: «أُعطِيتُ خمسًا لم يُعطَهُنَّ أحَدٌ قبلي» فذكرَ الحديث، إلى أن قال: «وأُحِلَّت لي الغنائِمُ ولم تُحَلَّ لأحدٍ قَبلي»). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالأنفال: الغنائِمُ: أبو عُبيدٍ القاسمُ بن سلَّام، والواحدي، وابنُ عطيةَ، وابنُ تيميَّة، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((الأموال)) (ص: ٣٨٣، ٣٨٧)، ((الوسيط)) (٢/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٦)، ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) (٤/ ٤٧٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعكرمةُ، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ، وعبدُ الرحمنِ ابنُ زيدِ بنِ أسلمَ، وعطاءٌ، ومقاتلُ بنُ حيانَ، وقتادةُ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٧).

واختار ابنُ جريرٍ أنَّ المرادَ بالأنفالِ: الزياداتُ على الغنيمةِ التي تُقسَم، وهي ما يُعطاه الرَّجُلُ على البلاءِ والغَناءِ عن الجَيشِ على غيرِ قِسمةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠-١١).

ويرى ابنُ عاشورٍ أنَّ معنى الأنفالِ يَشمَلُ كلا المَعنَيينِ المتقَدِّم ذكرُهما، فكلاهما داخِلٌ لَدَيه في مُسمَّى المغانِم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٩).

التي غَنِمُوها من كفَّارِ قُريشٍ[١]- عن حُكمِها، ولِمَن هي، وكيف تُقسَم[٢]؟

﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ- جوابًا عن سُؤالِهم: إنَّما أمْرُ الغنائِمِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، الذي يملِكُها، وإلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذي يَقسِمُها، وهما يتصرَّفانِ في شَأنِها، ويَضَعانِها حيث شاءا، فارضَوْا بحكمِهما، وسلِّموا الأمرَ إليهما[٣].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا حكمَ بأنَّ الأنفالَ مِلكٌ لله ورَسولِه، أو بأنَّ أمْرَ قِسْمَتِها موكولٌ لله، فقد وقع ذلك على كراهةِ كثيرٍ منهم، ممَّن كانوا يحسَبونَ أنَّهم أحقُّ بتلك الأنفالِ ممَّن أعطِيَها؛ تبعًا لعوائِدِهم السَّالِفةِ في الجاهليَّةِ، فذكَّرَهم اللهُ بأنْ قد وجب الرِّضا بما يقسِمُه الرَّسولُ مِنها[٤]، فقال تعالى:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

---

(١) قال ابنُ عطيَّةَ: (لا خلافَ في هذه السورةِ أنَّها نزلت في يومِ بَدرٍ وأمْرِ غنائِمِه). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٦). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٨).
وقال الشنقيطي: (والتحقيقُ الذي عليه الجُمهور: أنَّها نزلت في اختلافِ الصَّحابةِ في غنائِمِ بَدرٍ). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٧٢).
وقال ابنُ تيميَّةَ: (نزلت عَقيبَ بَدرٍ بالاتِّفاقِ). ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١، ٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٢، ٢٥٣).

أي: فامتَثِلوا ما أمَرَكم اللهُ تعالى به، واجتَنِبوا ما نهاكم عنه، وأصلِحُوا الحالَ الواقعةَ بينكم في شأنِ تنازُعِكم في الأنفالِ، فلا تتخاصَمُوا ولا تتشاجَرُوا، ولا تتشاحَنُوا ولا تتدابَرُوا[١].

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

أي: وانتَهُوا- أيُّها الطَّالبونَ الأنفالَ- إلى أمرِ اللهِ تعالى، وأمْرِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فاقبَلوا ما أُمِرْتم به في شأنِ الأنفالِ وفي غيرِها، وامتَثِلوه وسلِّموا لحُكمِهما، إن كنتم حقًّا تؤمنونَ برَسولِ اللهِ فيما آتاكم به من عندِ ربِّكم؛ فإنَّ الإيمانَ يُوجِبُ القَبولَ لِحُكمِهما، ويدعو إلى طاعَتِهما[٢].

ثم وصَفَ اللهُ تعالى المؤمنينَ ذوي الإيمانِ الكامِلِ، فقال[٣]:

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ واقتضى ذلك كونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٤، ٢٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٤).
قال ابنُ عاشور: (والإصلاحُ: جَعلُ الشَّيءِ صالحًا، وهو مُؤذِنٌ بأنَّه كان غيرَ صالحٍ؛ فالأمرُ بالإصلاحِ دلَّ على فسادِ ذاتِ بَينِهم، وهو فَسادُ التَّنازُعِ والتَّظالُم). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦-٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٠٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٦).

الإيمانِ مُستلزِمًا للطَّاعةِ؛ شرحَ ذلكَ في هذهِ الآيةِ مزيدَ شَرحٍ وتفصيلٍ[١]، فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: إنَّما المؤمنونَ حَقًّا، الكامِلُون في إيمانِهم كمالًا كما ينبغِي؛ مَن إذا ذُكِرَ اللهُ وعَظَمتُه وقُدرَتُه، وخُوِّفُوا به سبحانَه؛ فَزِعَت قلوبُهم، وخافوا منه عزَّ وجلَّ، فخَضَعوا له بفِعلِ أوامِرِه، وتَرْكِ نَواهِيه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾.

أي: وإذا قُرِئَتْ عليهم آياتٌ مِن كِتابِ الله سبحانه، ازدادَ تصديقُهم ويقينُهم[٣]، وإذعانُهم وانقيادُهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٩-٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٦-٤٧٧).
قال الواحدي (وفيه إشارةٌ إلى إلزامِ أصحابِ بَدرٍ بطاعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يرى من قِسمةِ الغَنائِمِ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٧).
وقال بهذا المعنى من السَّلف: ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٨).
وقال ابنُ تيميةَ: (وهذه زيادةٌ إذا تُلِيتْ عليهم الآياتُ، أي: وقتَ تُليت، ليس هو تصديقُهم بها عندَ النُّزولِ، وهذا أمرٌ يَجِدُه المؤمِنُ: إذا تُلِيَت عليه الآياتُ زاد في قَلبِه بفَهمِ القُرآنِ ومَعرفةِ مَعانيه مِن عِلمِ الإيمانِ ما لم يَكُن؛ حتى كأنَّه لم يَسمَعِ الآيةَ إلَّا حينئذٍ، ويحصُلُ في قَلبِه مِن الرَّغبةِ في الخَيرِ، والرَّهبةِ مِن الشَّرِّ ما لم يكُنْ؛ فزادَ عِلمُه باللهِ ومحبَّتُه لطاعَتِه، وهذه زيادةُ الإيمانِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٢٨).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

أي: وعلى مَن خَلَقَهم ويَملِكُهم، ويدبِّرُ شُؤونهَم، يعتَمِدون، وبه يَثِقونَ في جَلْبِ مصالِحِهم ودَفْعِ مَضارِّهم، لا يرجونَ غَيرَه، ولا يرهبونَ سواه، ولا يقصِدونَ مَن دُونَه، ولا يلوذونَ إلَّا بجنابه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ [الملك: ٢٩].

ثمَّ نبَّه سبحانه على أعمالِهم، بعدَ ما ذكَر اعتقادَهم، فقال[٢]:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: ومِن صفاتِهم أنَّهم يؤدُّونَ الصَّلاةَ- التي هي حقٌّ خالصٌ لله تعالى- بحُدودِها وشُروطِها، وأوقاتِها وأعمالِها: الظَّاهِرةِ والباطنةِ، فيأتونَ بها على الوَجهِ المَطلوبِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) ٤/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٠).

قَصَرَ ابنُ جريرٍ الصَّلاةَ هنا على المفروضةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠)، وعمَّمَها السَّعدي، فجَعَلها شاملةً للفرائِضِ والنَّوافِلِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم يُنفِقونَ ممَّا رزَقَهم اللهُ مِن الأموالِ، النَّفَقاتِ الواجبةَ والمستحبَّةَ؛ نفعًا للعبادِ، وأداءً لحُقوقِهم[١].

ثم حقَّق اللهُ تعالى لهم الإيمانَ، فقال[٢]:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

أي: أولئك الذينَ يَفعلونَ تلك الأفعالَ الجَليلةَ، ويتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ العظيمةَ هم وَحدَهم المؤمنون حقَّ الإيمانِ، إيمانًا لا يعتريه شكٌّ[٣].

ثم ذكَرَ ثوابَ هؤلاءِ المُؤمنين الذي وصَفَهم، فقال[٤]:

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: لهم مراتِبُ ومنازلُ عالياتٌ، يرتَقونَها في الجنَّاتِ، بحسَبِ عُلوِّ أعمالِهم الصَّالحاتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٠).
وتفسيرُ النَّفقةِ هنا بالواجبةِ والمُستحبَّةِ هو اختيارُ ابنِ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي. وقصَرَها ابنُ جريرٍ على النَّفَقةِ الواجبة. يُنظر: المصادر السابقة.

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣١)، ((التفسير الوسيط))

كما قال سبحانه: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَلْأٓخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أهل الجنَّةَ يَتَراءونَ أهلَ الغرفِ من فوقهم، كما تَتَراءَونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ[١] في الأُفُقِ، من المشرقِ أو المغربِ، لِتَفاضُلِ ما بينهم. قالوا: يا رسولَ اللهِ تلك منازلُ الأنبياءِ لا يَبْلُغُها غيرُهم، قال: بلى، والذي نفسي بيَدِهِ، رجالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ))[٢].

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾.

أي: ولهم سَترٌ لذُنُوبِهم، وتجاوزٌ عنها[٣].

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: ولهم في الجنَّةِ رزقٌ أعدَّه الله تعالى لهم فيها؛ مِن المآكِلِ والمشارِبِ وهَنيءِ العَيشِ، ممَّا لا عينٌ رأَتْ، ولا أذُنٌ سَمِعَت، ولا خطَرَ على قلبِ بَشَرٍ[٤].

للواحدي، (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٠-٤٨١).

(١) الكوكب الدُّرِّي الغابر: أي: الكوكب العظيم، سُمِّيَ دُرِّيًا لِصفاءِ لَونِه، وخُلوصِ نُورِه، وشدَّةِ إضاءَتِه. والغابِر: الباقي في الأُفُقِ بعد انتشارِ ضَوءِ الفَجرِ. يُنظر: ((شرح البخاري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥-٢٨٦)، ((الميسر في شرح مصابيح السنة)) للتوربشتي (٤/ ١٢١٧).

(٢) رواه البخاري (٣٢٥٦) واللفظ له، ومسلم (٢٨٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨١).

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾ فيه أمرٌ للمُؤمنينَ أن يُصلِحوا ما بَينَهم مِن التَّشاحُنِ والتَّقاطُعِ والتَّدابُر، بالتوادُدِ والتَّحابِّ والتَّواصُلِ؛ فبذلك تجتمِعُ كَلِمتُهم، ويزولُ ما يحصُلُ- بسبَبِ التَّقاطُعِ- من التَّخاصُمِ والتَّشاجُرِ والتَّنازُعِ، ويدخُلُ في إصلاحِ ذاتِ البَينِ تحسينُ الخُلُقِ لهم، والعَفوُ عن المُسيئينَ منهم؛ فإنَّه بذلك يزولُ كثيرٌ ممَّا يكونُ في القُلوبِ مِن البَغضاءِ والتَّدابُرِ[(١)].

٢- الإيمانُ يَدعو إلى طاعةِ اللهِ ورَسولِه، كما أنَّ مَن لم يُطعِ اللهَ ورسولَه فليس بمؤمِنٍ، ومَن نَقَصت طاعتُه للهِ ورَسولِه، فذلك لنَقْصِ إيمانِه؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[(٢)].

٣- المؤمِنُ إنما يكون مؤمنًا حقًّا إذا حقَّقَ إيمانَه بالأعمالِ الصَّالحة؛ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾[(٣)].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ ذِكْرُ اللهِ تعالى: بِذِكرِ اسمِه، وذِكرِ عِقابِه وعَظَمتِه، وذِكرِ ثوابِه ورَحمَتِه- يحصُلُ معه الوَجَلُ في قُلوبِ كُمَّلِ المُؤمنينَ؛ لأنَّه يحصُلُ معه استحضارُ جَلالِ اللهِ، وشِدَّةِ بأسِه، وسَعةِ ثَوابِه، فينبعِثُ عن ذلك الاستحضارِ توقُّعُ حُلولِ بَأسِه، وتوقُّعُ انقطاعِ بَعضِ ثوابِه أو رَحمَتِه، وهو وجَلٌ يبعَثُ المؤمِنَ إلى الاستكثارِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٤٤).

من الخَيرِ، وتوقِّي ما لا يُرضِي الله تعالى[١].

٥- الإيمانُ يَزيدُ ويَنقُصُ؛ يزيدُ بفِعلِ الطَّاعةِ، وينقُصُ بِضِدِّها؛ فينبغي للعبدِ أن يتعاهدَ إيمانَه ويُنمِّيَه؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[٢]، وقد استدلَّ البخاريُّ وغيرُه مِن الأئمَّةِ بهذه الآيةِ وأشباهِها، على زيادةِ الإيمانِ وتفاضُلِه في القلوبِ، كما هو مذهَبُ جُمهورِ الأمَّةِ، بل قد حكى الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ من الأئمَّة؛ كالشَّافعيِّ، وأحمدَ ابنِ حَنبلٍ، وأبي عُبَيد[٣].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ التوكُّلُ هو الحامِلُ للأعمالِ كُلِّها، فلا تُوجَدُ ولا تَكمُلُ إلَّا به، قال سعيدُ بنُ جُبَير: التوكُّلُ على اللهِ جِماعُ الإيمانِ[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قرَنَ تعالى بين الصَّلاةِ والزَّكاةِ، وأثنى على فاعلِيهما؛ لأنَّ مَدارَ النَّجاةِ عليهما، ولا فلاحَ لِمَن أخلَّ بهما[٥].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فليس الإيمانُ بالتمنِّي، ولا بالتحلِّي، ولكنَّه بما وقَر في الصُّدورِ، وصدَّقتْه الأعمالُ، كما قال

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٣).

الحسنُ، فإذا ذاق العَبدُ حَلاوةَ الإيمانِ، ووجَدَ طَعمَه وحلاوَتَه، ظهَرَت ثَمرةُ ذلك على لِسانِه وجَوارِحِه، فاستحلى اللِّسانُ ذِكرَ اللهِ وما والاه، وسَرُعتِ الجَوارِحُ إلى طاعةِ اللهِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ عُطِفَ ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ على اسمِ اللهِ؛ لأنَّ المقصودَ: الأنفالُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَقسِمُها، فذُكِرَ اسمُ اللهِ قبل ذلك؛ للدَّلالةِ على أنَّها ليست حقًّا للغُزاةِ، وإنَّما هي لِمَن يُعَيِّنُه اللهُ بوَحيِه، فذِكْرُ اسمِ الله لفائِدَتينِ:

أولاهما: أنَّ الرَّسولَ إنَّما يتصرَّفُ في الأنفالِ بإذْنِ اللهِ توقيفًا أو تفويضًا.

والثانية: لِتَشمَلَ الآيةُ تَصرُّفَ أمراءِ الجُيوشِ في غَيبةِ الرَّسولِ، أو بعد وفاتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ ما كان حقًّا لله كان التصَرُّفُ فيه لخُلَفائِه[٢].

٢- لَمَّا كان الإيمانُ: إيمانًا كاملًا يترتَّبُ عليه المَدحُ والثَّناءُ والفَوزُ التَّامُّ، وإيمانًا دونَ ذلك- ذَكرَ الإيمانَ الكامِلَ، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فالألِفُ واللَّامُ للاستغراقِ لشَرائِعِ الإيمانِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ فهذه الآيةُ أثبَت فيها الإيمانَ لهؤلاء، ونفاه عن غيرِهم، والشَّارعُ دائمًا لا ينفِي المسمَّى الشَّرعيَّ إلَّا لانتفاءِ واجِبٍ فيه[٤].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ

---

(١) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٦٧).

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ قدَّمَ تعالى أعمالَ القُلوبِ؛ لأنَّها أصلٌ لأعمالِ الجَوارِحِ، وأفضَلُ منها[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وقال في آيةٍ أخرى ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]، ولا مُنافاةَ بينهما؛ لأنَّ الوَجَلَ هو خوفُ العقابِ، والاطمئنانَ إنَّما يكونُ مِن اليَقينِ، وشَرحِ الصَّدرِ بمعرفةِ التَّوحيدِ، وهذا مقامُ الخَوفِ والرَّجاءِ، وقد اجتمَعَا في آيةٍ واحدةٍ، وهي قولُه تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] عند رجاءِ ثَوابِ اللهِ[٢].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيه عَدُّ التوكُّلِ مِن شُعَبِ الإيمانِ[٣].

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فيه دليلٌ عَلَى دُخولِ الأعمالِ في الإيمانِ[٤].

٨- في قولِه تَعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٥٣)، ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٠٤).

ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾ إنْ قيل: إذا كان المؤمنُ حقًّا هو الفاعِلَ للواجباتِ، التَّارِكَ للمحَرَّماتِ: فقد قالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾ ولم يَذْكُرْ إلَّا خمسةَ أشياءَ، فالجوابُ أَنْ مَا ذَكَرَ يستلزم مَا تَرَك؛ فإنَّه ذَكَرَ وَجَلَ قلوبِهم إذا ذُكِرَ اللَّهُ، وزيادةَ إيمانِهم إذا تُلِيَتْ عليهم آياتُه، مَعَ التَّوَكُّلِ عليه، وإقامِ الصَّلاةِ على الوجهِ المأمورِ به بَاطنًا وَظاهِرًا، وكذلك الإنفاقُ مِن المالِ والمنافعِ؛ فكان هذا مستلزمًا للباقي؛ فمَن قامَ بهذه الخمسِ كما أُمِر لَزِم أنْ يأتيَ بسائرِ الواجباتِ؛ فإنَّ وَجلَ القلبِ عندَ ذِكْرِ اللَّهِ يقتضي خشيتَه وَالخوفَ منه، وذلك يدعُو صاحبَه إلى فعلِ المأمورِ وتركِ المحظورِ، بل الصَّلاةُ نفسُها إذا فعلَها كما أُمِر، فهي تنهَى عن الفحشاءِ[(١)].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾ فيه دليلٌ على أنَّه ليس لكُلِّ أحدٍ أن يصِفَ نفسَه بكَونِه مُؤمِنًا حَقًّا؛ لأنَّ اللهَ تعالى إنَّما وصَفَ بذلك أقوامًا مَخصُوصينَ على أوصافٍ مَخصوصةٍ، وكلُّ أحدٍ لا يتحقَّقُ وجودَ تلك الأوصافِ فيه[(٢)].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ لَمَّا كانت صِفاتُهم الخَمسُ المذكورةُ في الآياتِ المُشتمِلةِ على الأخلاقِ والأعمالِ، لها تأثيراتٌ في تصفيةِ القُلوبِ، وتنويرِها بالمعارِفِ الإلهيَّةِ، وكلَّما كان المؤثِّرُ أقوى كانت التأثيراتُ أعلى؛ فلما كانت هي درجاتٍ كان جزاؤُها كذلك، فلهذا قال سبحانه تعالى ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾[(٣)].

١١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٤٤٩-٤٥٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٢١).

إلى قولِه سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ رَدٌّ على المرجئةِ مِن وجوهٍ:

أحدُها: أنَّه ذَكَر عامَّةَ الأعمالِ الصالحةِ- الظاهرةِ والباطنةِ- وجعَلَها مِن الإيمانِ؛ وذلك أنَّه ذَكَر قبلَ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ التقوَى، وإصلاحَ ذاتِ البَيْنِ، ثم نَسَقَ في هذه الآيةِ عملًا بعدَ عملٍ، وذَكَرَ فيها التوكلَ، وهو باطنٌ.

الثاني: أنَّه ذَكَر زيادةَ الإيمانِ- بتلاوةِ الآياتِ عليهم- وهم ينكرونه!

الثالثُ: أنه لم يُثبتْ لهم حقيقةَ الإيمانِ إلَّا باجتماع خصالِ الخيرِ مِن الأعمال الظاهرة والباطنة؛ وهم يُثبتون حقيقتَه بالقولِ وحدَه!

الرابعُ: أنَّه سبحانَه قال بعدَ ذلك كلِّه: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾ وقد أثبتَ لهم الإيمانَ بشرائطِه وحقيقتِه؛ وهم لا يجعلونَ للمؤمنِ في إيمانِه إلَّا درجةً واحدةً! ولا يجعلونَ للإيمانِ أجزاءً! فكيف يستقيمُ أنْ يُسمَّى المرءُ بالإقرارِ وحدَه مستكملَ الإيمانِ؛ وقد سمّى اللهُ تعالى كلَّ ما حَوَتْه الآيةُ إيمانًا[1]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله**: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

- مجيءُ الفِعلِ بصيغةِ المُضارعِ في قَولِه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ دالٌّ على تكرُّرِ السُّؤالِ، إمَّا بإعادَتِه المرَّةَ بعدَ الأُخرَى مِن سائِلينَ مُتعدِّدينَ، وإمَّا بكثرةِ السَّائلينَ عن ذلك حينَ المُحاورةِ في مَوقفٍ واحدٍ[2].

- وتفريعُ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ على جملةِ ﴿ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾؛ لأنَّ في

(١) يُنظر: ((النُّكتُ الدّالّة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٨).

تلك الجملةِ رَفعًا للنِّزاعِ بينهم في استحقاقِ الأنفالِ، أو في طلَبِ التَّنفيلِ[١].

- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ قدَّم الأمرَ بالتَّقوى؛ لأنَّها أصلٌ للطَّاعات، ثمَّ بإصلاحِ ذاتِ البَينِ؛ لأنَّ ذلك أهمُّ نتائِجِ التقوى في ذلك الوَقتِ، الذي تشاجَروا فيه، ثم أمرَ بطاعَتِه وطاعةِ رَسولِه، فيما أمرَ به مِن التَّقوى والإصلاحِ وغيرِ ذلك[٢].

- وليس الإتيانُ في الشَّرطِ بـ (إنْ) في قَولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ تعريضًا بضَعفِ إيمانِهم، ولا بأنَّه ممَّا يَشُكُّ فيه مَن لا يَعلَمُ ما تُخفي صُدورُهم، بناءً على أنَّ شَأنَ (إنْ) عدمُ الجَزمِ بوُقوعِ الشَّرطِ، بخلافِ (إذا)، ولكِنَّ اجتلابَ (إنْ) في هذا الشَّرطِ؛ للتَّحريضِ على إظهارِ الخِصالِ التي يتطلَّبُها الإيمانُ، وهي: التَّقوى الجامعةُ لخصالِ الدِّين، وإصلاحُ ذاتِ بَينِهم، والرِّضا بما فعَلَه الرَّسولُ، فالمقصودُ التَّحريضُ على أن يكونَ إيمانُهم في أحسَنِ صُوَرِه ومظاهِرِه؛ ولذلك عقَّبَ هذا الشَّرطَ بجُملةِ القَصرِ في قَولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ...﴾[٣].

٢- قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾

- قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ...﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ، مَسوقةٌ لِبَيانِ مَن أُريدَ بالمؤمنينَ، بذِكرِ أوصافِهم الجليلةِ المُستتبِعةِ لِما ذُكِرَ مِن الخِصالِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٥٢-٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٧٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٤).

الثَّلاثِ، وفيه مزيدُ تَرغيبٍ لهم في الامتثالِ بالأوامِرِ المذكورةِ[١].

- وفي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ...﴾ قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ بتنزيلِ الإيمانِ الذي عَدِمَ الواجِباتِ العظيمةَ مَنزلةَ العَدَمِ[٢].

- قوله: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ إسنادُ فِعلِ زيادةِ الإيمانِ إلى آياتِ اللهِ؛ لأنَّها سبَبُ تلك الزِّيادةِ للإيمانِ، باعتبارِ حالٍ مِن أحوالِها، وهو تِلاوتُها، لا اعتبارِ مُجَرَّد وجودِها في صَدرِ غَيرِ المتلوَّةِ عليه[٣].

- قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ اختيارُ صيغةِ المُضارعِ في ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ ذلك منهم، وتقديمُ المجرورِ إمَّا للرِّعايةِ على الفاصلةِ، فهو مِن مُقتضياتِ الفَصاحةِ، مع ما فيه من الاهتمامِ باسْمِ الله، وإمَّا للتَّعريضِ بالمُشركينَ؛ لأنَّهم يتوكَّلونَ على إعانةِ الأصنامِ[٤].

٣- **قوله:** ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ جيءَ بالفعلينِ المُضارعين في ﴿يُقِيمُونَ﴾ و ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ ذلك وتجَدُّدِه[٥].

٤- **قوله:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

- قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ جملةٌ مُؤَكِّدةٌ لِمَضمونِ جُملةِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٥٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٥٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٦٠).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ وَلِذَلِكَ فُصِلَتْ[١].

- وعُرِّفَ المسنَدُ إليه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بالإشارةِ؛ لوقوعِه عَقِبَ صفاتٍ، لتدُلَّ الإشارةُ على أنَّهم أحرِياءُ بالحُكمِ المُسنَدِ إلى اسمِ الإشارةِ؛ مِن أجلِ تلك الصِّفاتِ، فكأنَّ المُخبَرَ عنهم قد تميَّزوا للسَّامِعِ بتلك الصِّفاتِ، فصاروا بحيث يُشارُ إليهم، وفي هذه الجملةِ قَصرٌ آخَرُ؛ حيث قُصِرَ الإيمانُ مرَّةً أخرى على أصحابِ تلك الصِّفاتِ، ولكنَّه قُرِنَ هنا بما فيه بيانُ المَقصورِ، وهو أنَّهم المؤمنونَ الأحِقَّاءُ بوصفِ الإيمانِ[٢].

- قوله: ﴿حَقًّا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ثبوتُ الإيمانِ لهم حقٌّ لا شُبهةَ فيه، وهو تحقيقٌ لمَعنى القَصرِ بما هو عليه مِن معنى المُبالغةِ[٣].

- قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ تنوينُ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ للتَّعظيمِ؛ لأنَّها مراتِبُ مُتفاوتةٌ[٤].

- قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ متعلقٌ بمَحذوفٍ: صفةٌ لـ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ مُؤكِّدةٌ لِما أفاده التنوينُ مِن الفَخامةِ الذَّاتيَّة بالفخامةِ الإضافيَّة، أي: دَرَجاتٌ كائنةٌ عندَه تعالى[٥].

- وفي إضافةِ الظَّرفِ ﴿عِندَ﴾ إلى الرَّبِّ المضافِ إلى ضميرِهم؛ مزيدُ تَشريفٍ ولُطفٍ لهم، وإيذانٌ بأنَّ ما وُعِدَ لهم مُتيقَّنُ الثُّبوتِ والحصولِ، مأمونُ الفَواتِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٢)، ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥-٨)

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾: أي: يُنازِعونَك، والجِدالُ: المفاوضةُ على سبيلِ المُنازعةِ والمُغالبةِ، وأصلُه يدلُّ على امتدادِ الخُصومةِ، ومُراجعةِ الكَلامِ[1].

﴿وَتَوَدُّونَ﴾: أي: وتتمَنَّونَ، وتُحِبُّون، والودُّ: محبةُ الشيءِ، وتمنِّي كونِه، وأصلُ (ودد): يدلُّ على محبَّةٍ[2].

﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾: أي: ذاتِ الحَدِّ والسِّلاحِ؛ مِن السَّيفِ والسِّنانِ والنِّصالِ، واشتقاقُها مِن الشَّوكِ: وهو النَّبتُ الذي له حِدَّةٌ، وأصلُ (شوك): يدلُّ على خُشونةٍ، وحِدَّةِ طَرَفٍ في الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٦).

﴿يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾: أي: يُثبِتهُ ويُعلِيه، وأصلُ (الحقِّ) يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ، وصِحَّتِه[1].

﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: أي: يجْتَثَّ أصْلَهم، ويستأصِلَهم عن آخِرِهم، وقطْعُ دابرِ الإنسان: هو إفناءُ نوعِه، ودابِرُ القومِ: آخرُهم، وأصلُ (قطع): يدلُّ على إبانةِ شَيءٍ مِن شَيءٍ، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

كما وكَلَك اللهُ- يا مُحمَّدُ- بأمرِ قِسمةِ الغَنائِمِ، وقد كَرِه بعضُ أصحابِك كيفيَّةَ قِسمَتِك لها، فكَذلك أخرَجَك مِن بَيتِك؛ لِمُلاقاة مُشركي قُريشٍ، وقد كره ذلك فَريقٌ مِن المُؤمنينَ، يُجادلونك في الحقِّ الذي أراده اللهُ بعدما ظهَرَ وتبَيَّنَ، كأنَّ حالَهم- لِشدَّةِ كُرهِهم للقِتالِ- كمَن يُساقُ إلى المَوت وهو يَنظُر.

واذكرُوا- أيُّها المؤمنونَ- إذ يعِدُكم اللهُ بأنْ تظفَرُوا بإحدى الفِرقَتينِ؛ إمَّا العِيرِ أو النَّفيرِ، ووَدِدْتُم لو ظَفِرتُم بالعِيرِ؛ إذ هي لا مَنعةَ لها، ولا سِلاحَ، واللهُ يريدُ أنْ يجمَعَكم بالنَّفيرِ؛ ليُظفِرَكم بهم، ويُظهِرَ الإسلامَ ويُعلِيَه، بأمْرِه لكم بقتالِهم، ويريدُ سبحانه أن يستأصِلَ الكفَّارَ ويُهلِكَهم، فلا يبقى منهم أحدٌ؛ مِن أجلِ أن يُعِزَّ الإسلامَ ويُظهِرَه، ويُبطِلَ الشِّركَ والكُفرَ، ولو كَرِه المجرمونَ ذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦ - ٢٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤) و(٥/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧ - ٦٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧).

أنَّه لَمَّا كان تَرْكُ الدُّنيا شديدًا على النَّفسِ، شرَعَ يذكُرُ لهم ما كانوا له كارِهينَ، ففعَلَه بهم، وأمَرَهم به- لعِلْمِه بالعواقِبِ- فحَمِدوا أثَرَه؛ ليكونَ أدعَى لتسليمِهم لأمْرِه، وازدجارِهم بزَجرِه، فشَبَّه حالَ كَراهَتِهم لِتَركِ مُرادِهم في الأنفالِ، بحالِ كراهَتِهم لخُروجِهم معه، ثم بحالِ كراهَتِهم لِلِقاءِ الجَيشِ دُونَ العِيرِ، ثمَّ إنَّهم رأَوْا أحسَنَ العاقِبةِ في كِلَا الأمرَينِ[1].

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥﴾.

أي: كما أنَّ اللهَ تعالى وكَلَك- يا مُحمَّدُ- بأمْرِ قِسمةِ الغَنائِمِ يومَ بَدرٍ، وجعَلَه حقًّا ثابتًا لك- وكان بعضُ أصحابِك قد كَرِه واعترَض على كيفيَّةِ قِسمَتِك لها- فكذلك أخرجك مِن بَيتِك؛ لأخْذِ المالِ مِن عِيرِ كُفَّارِ قُريشٍ، فجاءها نفيرٌ، وكَرِهَ بعضُ أصحابِك مُلاقاتَه؛ فحالُهم في الأنفالِ كحالِهم في كراهةِ القِتالِ يومَ بَدرٍ، فامضِ لأمرِ اللهِ في الغنائِمِ، كما مَضَيتَ لأمْرِه في الخُروجِ وهم له كارِهونَ، وكلاهما حَقٌّ وخيرٌ مِن عندِ الله تبارك وتعالى[2].

كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٣).
وهذا المعنى هو في الجملة اختيارُ الزَّجَّاج، والواحدي، والشِّنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.
وفي الآيةِ أقوالٌ أخرى كثيرةٌ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٥٩-٥٦٣).
قال الشِّنقيطي: (فالذي كَرِهوه مِن قَسْمِ غَنائِمِ بدرٍ، هو الذي لهم فيه مصلحةُ الدُّنيا والآخرةِ، والذي كَرِهوه من خروجِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بهم، الذي آلَ إلى قتالِ جَيشِ قُريشٍ؛ كرهوه وهو أيضًا خيرٌ لهم في دينِهم ودنياهم، فاللهُ تبارك وتعالى كأنَّه أشار بالتَّشبيهِ على هذا القَولِ إلى أنَّه أعلَمُ بمَصالِحِهم مِن خَلقِه، وأنَّ خَلقَه يكرهونَ شيئًا، والمصلحةُ لهم فيما يختارُه لهم ربُّهم؛ كما قال جلَّ وعلا: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦] هذا أقرَبُ الأقوالِ، وكثيرٌ مِن الأقوالِ ساقِطٌ سقوطًا بيِّنًا، وهذا أقرَبُها، واختاره غيرُ واحدٍ). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٨٣).

وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾.

أي: إنَّ المُؤمنينَ الذين كَرِهوا لقاءَ كُفَّارِ قُريشٍ يَومَ بَدرٍ، يجادلونك- يا محمَّدُ- في الحقِّ الذي أرادَه اللهُ تعالى ورَضِيَه لنُصرةِ دِينِه، وإعلاءِ كلِمَتِه، مِن بَعدِ ما وضَحَ وظَهَرَ، فخُروجُك خروجُ حَقٍّ مصحوبٌ بالوَعدِ مِن اللهِ بالنَّصرِ والظَّفَرِ؛ إمَّا بالعِيرِ وإمَّا بالنَّفيرِ، ومع هذا قالوا: لم نعلَمْ أنَّنا سنلقَى العدُوَّ فنتهيَّأَ لقتالِهم، ونأخُذَ أُهْبَةَ الحَربِ، وإنَّما خرَجْنا طلبًا للغَنائمِ مِن عِيرِ قُريشٍ دون حَربٍ نَخوضُ غِمارَها، فلو يُرخَّصُ لنا في تَركِ القِتالِ[1].

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

أي: هؤلاءِ الذينَ يُجادِلونَك- يا محمَّدُ- في لِقاءِ العَدُوِّ، كأنَّ حالَهم- لشِدَّةِ كَراهَتِهم للقتالِ إذا دُعُوا إليه- كحالِ من يُقدَّمُ إلى الموتِ، وهو يراه عِيانًا[2].

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٧).
قال السَّعدي: (هذا، وكثيرٌ مِن المُؤمنين لم يَجْرِ منهم من هذه المجادلةِ شَيءٌ، ولا كَرِهوا لقاءَ عَدُوِّهم، وكذلك الذين عاتَبَهم الله، انقادوا للجهادِ أشَدَّ الانقيادِ، وثبَّتَهم الله، وقيَّضَ لهم من الأسبابِ ما تطمئِنُّ به قلوبُهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).
وقال الشنقيطي: (... الصَّحابةُ تباينَتْ مواقِفُهم؛ فما كَرِهوا كلُّهم هذا الخروجَ، بل بعضُهم رَغِبَ فيه وحبَّذَه، وصرَّحَ بالإعانةِ عليه). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٨-٤٨٩).

تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾.

واذكُرُوا- أيُّها المُؤمِنونَ- حين أوحَى اللهُ إلى رسولِه يعِدُه الظَّفَرَ بغنيمةِ إحدى الفِرقَتينِ؛ إمَّا العيرِ أو النَّفيرِ[1].

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾.

أي: وتُحِبُّونَ أن تكونَ لكم الطَّائفةُ الأُخرى التي ليسَتْ لها مَنعةٌ، ولا معها سِلاحٌ، فلا يُمكِنُها أن تُحارِبَ وتقاتِلَ، وهي العِيرُ[2].

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

أي: ويُريدُ اللهُ تعالى أن يجمَعَ بينكم وبينَ الطَّائفةِ الأُخرَى ذاتِ الشَّوكةِ؛ ليُظفِرَكم بهم، فيُظهِرَ دينَ الإسلامِ، ويُعلِيَه على الأديانِ كلِّها، وذلك بأمْرِه لكم- أيُّها المؤمنونَ- بقِتالِ تلك الطَّائفةِ مِن كُفَّارِ قُريشٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).
قال الشِّنقيطي: (المرادُ بالطَّائِفَتينِ هنا -كما أطبَقَ عليه عامَّةُ المُفَسِّرين- هما العِيرُ والنَّفيرُ؛ العِير: الإبِلُ تَحمِلُ المتاعَ، والنَّفيرُ: الجيشُ في سِلاحِه وعَدَدِه وعُدَدِه). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٢٤-٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦-١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٢٥).
اختار ابنُ جريرٍ أنَّ قَولَه تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ هنا، يعني: أمْرَه للمؤمنينَ بقِتالِ الكُفَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩).
واختار الواحديُّ أنَّ المرادَ بها: كَلِماتُ الآياتِ التي وعدَ فيها المؤمنينَ بالنَّصرِ يومَ بَدرٍ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤٥).
ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٢٥-٥٢٧).

﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

أي: ويريدُ أن يستأصِلَ الكُفَّارَ[١]، ويُهلِكَهم عن آخِرِهم، فلا يبقَى منهم أحدٌ[٢].

﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨﴾.

أي: ويريدُ اللهُ تعالى قَطعَ دابِرِ الكافِرينَ؛ مِن أجلِ أن يُعِزَّ الإسلامَ، ويُظهِرَه ويُعليَ شَأنَه، ويُبطِلَ عبادةَ غيرِ الله، فيزول الشركُ، ولا تبقَى إلَّا عبادةُ اللهِ تعالى وَحدَه، ولو كَرِه ذلك المُشركونَ الذين أجرَموا، فاكتَسَبوا المآثِمَ والأوزارَ، التي يستحقُّونَ عليها العقابَ، وحُلولَ العَذابِ[٣].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

الجِدالُ مَحلُّه وفائِدتُه عند اشتباهِ الحَقِّ، والْتباسِ الأمرِ، فأمَّا إذا وضحَ الحَقُّ وبان، فليس إلَّا الانقيادُ والإذعان؛ قال الله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أضاف تعالى ذلك الخروجَ إلى نفسِه، وهذا يدلُّ على أنَّ فِعلَ العَبدِ بخَلقِ اللهِ تعالى[٥].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ عبَّرَ بقولِه

---

(١) قال الواحدي: (يعني: كفَّارَ العَرَبِ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٢٧-٥٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٢٨-٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٥٧).

﴿فَرِيقًا﴾؛ لأنَّ آراءَهم كانت تؤولُ إلى الفُرقةِ[١].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ يؤخَذُ منه حُكمُ مؤاخَذةِ المُجتَهِدِ، إذا قصَّر في فَهمِ ما هو مدلولٌ لأهلِ النَّظَرِ[٢].

٤- قوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ﴾ فيه بنَى الفعلَ للمفعولِ؛ لأنَّ المكروهَ إليهم السوقُ، لا كونُه مِن معينٍ، أي: يسوقُهم سائقٌ لا قدرةَ لهم على ممانعتِه[٣].

٥- لا يصُدُّ مرادَ اللهِ تعالى ما للمُعاندين مِن قُوَّةٍ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قولُه تعالى:** ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾

- فيه تشبيهُ حالٍ بحالٍ، وهو متَّصِلٌ بما قبلَه: إمَّا بتَقديرِ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، هو اسمُ إشارةٍ لِمَا ذُكِرَ قبلَه، تقديره: هذا الحالُ كحالِ ما أخرَجَك ربُّك مِن بَيتِك بالحَقِّ، ووجهُ الشَّبَه: هو كراهِيةُ المُؤمنينَ في بادئِ الأمرِ لِمَا هو خيرٌ لهم في الواقِعِ، وإمَّا بتَقديرِ مَصدرٍ لِفعلِ الاستقرارِ الذي يقتَضيه الخَبرُ بالمَجرورِ في قَولِه ﴿ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾؛ إذ التَّقديرُ: استقرَّت للهِ والرَّسولِ استقرارًا، ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾، أي: فيما يَلوحُ إلى الكَراهِيةِ والامتعاضِ في بادئِ الأمرِ، ثم نَوالِهم النَّصرَ والغَنيمةَ في نهايةِ الأمرِ، فالتَّشبيهُ تَمثيليٌّ، وليس

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٧).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٣).

مُراعًى فيه تشبيهُ بعضِ أجزاءِ الهَيئةِ المُشَبَّهةِ ببعضِ أجزاءِ الهَيئةِ المُشبَّهِ بها، أي: أنَّ ما كَرِهتُموه مِن قِسمةِ الأنفالِ على خلافِ مُشتَهاكم، سيكونُ فيه خيرٌ عَظيمٌ لكم، حسَبَ عادةِ اللهِ تعالى بهم في أمْرِه ونَهْيِه[١].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ تأكيدُ خَبرِ كراهيةِ فَريقٍ مِن المؤمنينَ بـ (إنَّ) و(لامِ الابتداءِ) مستعملٌ في التَّعجيبِ مِن شَأنِهم بتنزيلِ السَّامِعَ غيرِ المُنكِرِ لوقوعِ الخَبرِ، منزلةَ المُنكِرِ[٢].

٢- **قَولُه تعالى:** ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾

- صيغةُ المُضارِعِ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ لحكايةِ حالِ المُجادلةِ؛ زيادةً في التعجيبِ منها[٣].

- وقولُه: ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لومٌ لهم على المُجادلةِ في الخُروجِ الخاصِّ، وهو الخروجُ للنَّفيرِ، وتَركُ العيرِ؛ لأنَّ مَن جادلَ في شيءٍ لم يتَّضِحْ كان أخفَّ عَتْبًا، أمَّا مَن نازع في أمرٍ واضحٍ فهو جديرٌ باللَّومِ والإنكارِ[٤].

- قوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ شبَّه حالَهم في فَرْطِ فَزَعِهم، وهم يُسارُ بهم إلى الظَّفَر والغنيمةِ، بحالِ مَن يُساقُ على الصَّغارِ إلى الموتِ، وهو مُشاهِدٌ لأسبابِه، ناظِرٌ إليها، لا يشكُّ فيها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٣-٢٦٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٦٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٩٩).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

- قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ خطابٌ للمُؤمِنينَ بِطَريقِ التَّلوينِ والالتفاتِ[(١)].

- وفيه تذكيرُ الوَقتِ- إذ التَّقديرُ: اذكُروا وقتَ وعدِ اللهِ إيَّاكم إحدى الطَّائِفَتينِ- مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما فيه مِن الحوادِثِ؛ لِما فيها من المبالغةِ في إيجابِ ذِكرِها، ولأنَّ إيجابَ ذِكرِ الوقتِ، إيجابٌ لِذِكرِ ما وقع فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ[(٢)].

- وصيغةُ المُضارعِ ﴿يَعِدُكُمُ﴾ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ لاستحضارِ صُورتِها[(٣)].

- وقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ آكَدُ في الوَعدِ مِن مِثلِ: (وإذ يعِدُكم اللهُ أنَّ إحدى الطَّائفتينِ لكم)؛ لأن هذا إثباتٌ بعد إثباتٍ: إثباتٌ للشَّيءِ في نَفسِه، وإثباتٌ له في بَدَلِه؛ لأنَّ ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ في تأويلِ مَصدَرٍ؛ بدلُ اشتمالٍ مِن ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾[(٤)].

- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والطريق البرهاني: هو قياسٌ استثنائيٌّ استُدِلَّ فيه بنفيِ اللازمِ، البيِّنِ انتفاؤُه، على نفيِ الملزومِ، كما يُقالُ: هل زيدٌ في البلدِ؟ فتقولُ: لا؛ إذ لو كان فيها لحضَرَ مجلسَنا، فيستدلُّ بعدمِ الحضورِ على عدمِ كونِه في البلدِ.

أو: هو ما يلزمُ مِن نفْيِ مِثلِ مِثلِه نفيُ مثلِه. يُنظر: ((حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع)) (١/ ٤٥٢)، ((التقرير والتحبير)) لابن أمير الحاج (٢/ ٢٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦-٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٩/ ٤٩٩-٥٠٠).

عبَّرَ بهذا التَّعبيرِ؛ للتَّعريضِ بكراهَتِهم للقتالِ، وطَمَعِهم في المالِ[١].

- قولُه: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ جمعٌ مُعَرَّفٌ بالإضافةِ، وهو يُفيدُ العُمومَ، والباءُ فيها للسَّببيَّةِ، وذِكرُ هذا القَيدِ للتَّنويهِ بإحقاقِ هذا الحَقِّ، وبيانِ أنَّه ممَّا أراده اللهُ ويَسَّرَه وبيَّنَه للنَّاسِ من الأمرِ؛ ليقومَ كُلُّ فَريقٍ مِن المأمورينَ بما هو حَظُّه مِن بَعضِ تلك الأوامِرِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ ذلك واقِعٌ لا محالةَ؛ لأنَّ كَلِماتِ اللهِ لا تتخَلَّفُ[٢].

٤- **قوله:** ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

- جملةٌ مُستأنفةٌ سِيقَت لِبَيانِ الحِكمةِ الدَّاعيةِ إلى اختيارِ ذاتِ الشَّوكةِ، ونَصْرِهم عليها مع إرادَتِهم لِغَيرِها[٣].

- وقَولُه ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: لِيُحِقَّ الحقَّ، ويُبطِلَ الباطِلَ فعَلَ ذلك، ما فعَلَه إلَّا لهما، وليس هذا تكريرًا لِقَولِه في الآيةِ السَّابِقةِ: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ لأنَّ المَعنَيينِ مُتباينانِ، وذلك أنَّ الأوَّلَ تمييزٌ بين الإرادَتينِ، وهذا بيانٌ لِحكمتِه فيما فعَلَ مِن اختيارِ ذاتِ الشَّوكةِ على غيرِها لهم، ونُصرَتِهم عليها، وأنَّه ما نصرَهم ولا خذَلَ أولئك إلَّا لهذا الغَرضِ الذي هو سيِّدُ الأغراضِ، ويجِبُ أن يقدَّرَ المحذوفُ مُتأخِّرًا حتَّى يُفيدَ معنى الاختصاصِ[٤].

وقيل: أُريدَ بالأوَّلِ: ما وعدَ اللهُ به في هذه الواقعةِ؛ مِن النَّصرِ والظَّفَرِ بالأعداءِ، بقرينةِ قَولِه عَقِبَه: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. وبالثَّاني: تقويةُ الدِّينِ، ونُصرةُ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٥٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٠-٢٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٠٠).

الشَّريعةِ، بقرينةِ قَولِه عَقِبَه: ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾[١].

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢١٦).

الآيات (٩-١١)

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾: أي: تَستجيرونَ، وتدعون بالنَّصرِ، والاستغاثةُ: طَلَبُ الغَوثِ والمَعُونةِ والنَّصرِ[(١)].

﴿مُرْدِفِينَ﴾: أي: مُتَتابِعينَ، وأصلُ (ردف): يدلُّ على اتِّباعِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿يُغَشِّيكُمُ﴾: أي: يُلقِي عليكم. والغشاوةُ: الغطاءُ والساترُ، وأصلُ (غشي) يدلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بِشَيءٍ[(٣)].

﴿النُّعَاسَ﴾: أي: النَّومَ القليلَ، أو أوَّلَ النَّومِ، وهو ما كان مِنَ العينِ، وهو فُتورٌ يَعتري الإنسانَ، ولا يفقِدُ معَه عقلَه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٩-٣٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٤)،

﴿أَمَنَةً﴾: أي: أمنًا وأمانًا، وأصلُ الأمنِ: طمأنينةُ النفسِ، وزوالُ الخوفِ، وسكونُ القلبِ[١].

﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: أي: وساوِسَه، وأصلُ الرِّجْزِ: الاضطرابُ[٢].

﴿وَلِيَرْبِطَ﴾: أي: لِيشُدَّ، وأصلُ (ربط) يدلُّ على شَدٍّ وثَباتٍ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

اذكُروا- أيُّها المؤمنونَ- حين طَلَبتُم الغَوثَ مِنَ اللهِ بأن ينصُرَكم على عدُوِّكم، فاستجابَ لكم، ووعَدَكم بأن يُمِدَّكم بألفٍ مِن الملائكةِ، يأتونَ مُتتابعينَ للقِتالِ معكم، وما جعَلَ الله هذا الإمدادَ إلَّا ليكونَ بِشارةً لكم بالنَّصرِ، ولِتَسكُنَ قلوبُكم بمَقْدَمِها، وما النَّصرُ إلَّا مِن عند اللهِ، إنَّ اللهَ عزيزٌ حَكيمٌ.

واذكروا حين ألقى اللهُ عليكم النُّعاسَ؛ أمانًا لقُلوبِكم، وأنزلَ عليكم مِن السَّماءِ مَطرًا؛ ليُطَهِّرَكم به من الأحداثِ والجَناباتِ، ويُذهِبَ عنكم وساوِسَ الشَّيطانِ، ولِيشُدَّ على قلوبِكم، ويُثَبِّتَ بالمطَرِ أقدامَكم، بتَلبيدِه الأرضَ، فلا تغوصُ فيها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ٢٧٢)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦١٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٩) (٣/ ١٨٤، ٢٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّه يُحِقُّ الحقَّ، ويُبطِلُ الباطِلَ؛ بيَّنَ أنَّه تعالى نصَرَهم عند الاستغاثةِ(١).

وأيضًا لَمَّا عَلِمُوا أنَّه لا بدَّ مِن القِتالِ؛ شَرَعوا في طلَبِ الغَوثِ مِن اللهِ تعالى(٢).

سبَبُ النُّزولِ:

عن عُمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ بدرٍ، نظرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى المشركينَ وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاثُمئةٍ وتسعةَ عشرَ رجلًا، فاستقبَلَ نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القبلةَ، ثم مدَّ يدَيه فجعَلَ يهتِفُ بربِّه؛ اللهمَّ أَنجِزْ لي ما وعدْتَني، اللهمَّ آتِ ما وعدتَني، اللهمَّ إنْ تَهلِكْ هذه العصابةُ مِن أهلِ الإسلامِ لا تُعبَدْ في الأرضِ، فما زال يهتِفُ بربِّه، مادًّا يدَيه، مستقبِلَ القِبلةِ، حتى سقطَ رداؤُه عن مَنكِبَيه، فأتاه أبو بكرٍ، فأخذَ رداءَه فألقاه على مَنكِبَيه، ثم التزَمَه مِن ورائِه، وقال: يا نبيَّ اللهِ، كفاك مُناشَدتُك ربَّك؛ فإنَّه سيُنجِزُ لك ما وعَدَك، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾))(٣).

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾.

أي: إذ(٤) تدعونَ ربَّكم، وتَطلُبونَ منه أن يُعينكم، وينصُرَكم على العدوِّ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٧٨).

(٣) رواه مسلم (١٧٦٣).

(٤) قال الشنقيطيُّ: (قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ قال بعضُ العلماءِ: (إذ) منصوبٌ بـ (اذكر) مقدرًا، وقد ذكرنا أنَّه يكثرُ في القرآنِ نصبُ الظرفِ الذي هو (إذ) بلفظةِ (اذكر) كقولِه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ﴾ [الأحقاف: ٢١] ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ [الأعراف: ٨٦] ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٢٦] ونحو ذلك. قال بعضُ العلماءِ: (إذ) في قولِه:

لقلَّتِكم[١].

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾.

أي: فأجاب اللهُ تعالى دعاءَكم، بأنَّني مُقوِّيكم بألفٍ مِن الملائكةِ[٢]، يأتونَ

﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ﴾ بدلٌ مِن (إذ) في قولِه: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٧]). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٣٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٤).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ «إذ» متعلقةٌ بـ«يبطل»، والمعنى: ويُبْطِلَ الباطِلَ حِينَ تَسْتَغيثونَ رَبَّكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).

(٢) واختَلف أهلُ العلمِ هل كان المددُ يومَ بدرٍ ألفًا فقط، أو كان خمسةَ آلافٍ، على قولينِ:

القولُ الأولُ: أنَّ الله أمدَّ المؤمنين يومَ بدرٍ بخمسةِ آلافٍ؛ لقولِه تعالى في سورةِ آل عمران: ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥] قالوا: لأنَّ القصةَ في آل عمران هي قصةُ بدرٍ، وهي المذكورةُ في سورةِ الأنفال، والسياقُ واحدٌ؛ لأنَّه قال هنا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡ﴾ [الأنفال: ١٠] وقال في آل عمران: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وقال هنا: ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧] وقال في آل عمران: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٢٧] فالسياقُ هو السياقُ. وأما التَّنْصِيصُ على الألفِ هاهنا فلا يُنافي الثلاثةَ الآلافَ فَما فوقَها، وقد أشارت آيةُ الأنفالِ إلى أنَّ المددَ مِن الملائكةِ لا يقتصرُ على الألفِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿مُرۡدِفِينَ﴾ على قراءة الجمهور معناه: يتبعُ بعضُهم بعضًا، مِن: أردف الرجلُ الرجلَ، إذا كان وراءَه رِدْفًا له، فدلَّ على أنَّهم وراءَهم شيءٌ أُردِفوا به، ويوضِّح هذا المعنى قراءةُ نافع: ﴿مُرۡدِفِينَ﴾ بصيغةِ اسمِ المفعولِ، معناه: مردَفين بغيرهم، أنَّهم متبوعون بغيرِهم. وهذا قولُ ابنِ عباسٍ، ومجاهدٍ، وقتادةَ، والروايةُ الأُخرى عن عِكرمةَ، واختاره جماعةٌ مِن المفسِّرين.

القولُ الثاني: أنَّهم أُمِدُّوا يومَ بدرٍ بألفٍ، ولم يُمدُّوا بخمسةِ آلافٍ، إنما كان الوعدُ بالإمدادِ- في قولِه: ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾- كان يومَ أُحُدٍ، وكان إمدادًا معلَّقًا على شرطٍ، فلمَّا فات شرطُه، فات الإمدادُ، قالوا: لأنَّ القصةَ في سياقِ أُحُدٍ، وإنَّما أدخل ذِكر بدرٍ اعتراضًا في أثنائِها، ثم عاد الى قصةِ أُحُد، وهذا قولُ الضحَّاك ومُقاتل،

إليكم مُتتابِعينَ للقِتالِ معكم، بعضُهم في إثرِ بَعضٍ[١].

عن ابنِ عبَّاس رضِي الله عنهما، قال: ((بينما رجلٌ من المسلمين يومئذٍ يشتدُّ في أثرِ رجلٍ[٢] من المشركين أمامَه، إذ سمع ضربَةً بالسوطِ فوقَه، وصوتُ الفارسِ يقول: أقْدِم حَيزومُ، فنظر إلى المشركِ أمامه فخرَّ مُستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطم[٣] أنفُه، وشُقَّ وجهُه كضربةِ السوطِ، فاخضرَّ ذلك أجمعُ[٤]، فجاء الأنصاريُّ فحدَّثَ بذلك رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: صدقْتَ، ذلك مددٌ السماءِ الثالثةِ، فقتلوا يومئذٍ سبعين، وأسَروا سبعين))[٥].

وعن رفاعةَ بنِ رافعٍ رضي الله عنه، قال: ((جاء جبريلُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: ما تعُدُّون أهلَ بدرٍ فيكم؟ قال: من أفضلِ المسلمين. أو كلمةً

وإحدَى الرِّوايتين عن عكرمةَ. يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٤٠٥). وتوقَّف ابنُ جريرٍ، وذهَب إلى أنَّ في القرآنِ دلالةً على أنَّهم قد أُمدُّوا يومَ بدرٍ بألفٍ مِن الملائكةِ، وأنَّه لا دلالة في آيةِ آل عمران على أنَّهم أُمدُّوا بالثلاثةِ آلافٍ ولا بالخمسةِ آلافٍ، ولا على أنَّهم لم يُمدُّوا بهم، ولا صحَّ خبرٌ يُثبتُ أنَّهم أُمدُّوا بذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠- ٥٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٣٤-٥٣٥، ٥٣٩).

(٢) يشتدُّ في أثَرِ رجلٍ: أي: يُسرِعُ ويَعدُو في عَقِبِ رَجُلٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٣٧٨٢).

(٣) خُطِمَ (بضم الخاء): أي: جُرِحَ، وظَهرَ عليه أثَرُ الضَّربِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٦/ ٢١٠)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٣٧٨٢).

(٤) فاخضَرَّ ذلكَ أَجْمَعُ: أي: اسودَّ أثرُ تلك الضَّربة كلُّه؛ فإنَّ الخُضرةَ قد تُستعمَلُ بمعنى السَّوادِ، كعكسِه، للمُبالغةِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٦/ ٢١٠)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٣٧٨٢).

(٥) رواه مسلم (١٧٦٣).

نحوَها، قال: وكذلك من شَهِد بدرًا من الملائكةِ))[١].

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾.

أي: وما جعل اللهُ تعالى هذا الإمدادَ إلَّا ليكونَ بِشارةً لكم بالنَّصرِ[٢].

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾.

أي: وأمدَّكم بالملائكةِ؛ لِتسكُنَ قُلوبُكم بمَقْدَمِها إليكم، ويزولَ عنها القَلَقُ والانزعاجُ والمخاوِفُ، وتُوقِنَ بنَصرِ اللهِ لكم[٣].

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

أي: لن تُنصَروا على عَدُوِّكم إلَّا أن ينصُرَكم اللهُ تعالى عليهم؛ لأنَّ الأمرَ كُلَّه له، والنَّصرَ بِيَدِه وَحْدَه، فلا تظنُّوا- إن أنزَلْتُ عليكم ألفًا من الملائكةِ- أنَّ النَّصرَ بأيديهم[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

إنَّ اللهَ الذي ينصُرُكم، عزيزٌ: لا يقهَرُه شيءٌ، ولا يغلِبُه غالِبٌ، بل يَقهَرُ كلَّ شَيءٍ، ويَغلِبُه فيَخذُلُ مَن بَلَغوا من الكثرةِ وقُوَّةِ العَدَدِ والآلاتِ ما بَلَغوا، حكيمٌ:

---

(١) رواه البخاري (٣٩٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٣٩-٥٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤١).

يُقدِّرُ الأمورَ بأسبابِها، ويضَعُ الأشياءَ مواضِعَها، ومِن ذلك شَرْعُه قتالَ الكفَّارِ، مع قُدرَتِه على دمارِهم وإهلاكِهم، حكيمٌ في تدبيرِه وفي نصرِه مَن نَصَر، وخِذلانِه مَن خَذَل، ولا يدخُلُ تدبيرَه وَهَنٌ ولا خلَلٌ(١).

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه استجاب دعاءَهم، ووعَدَهم بالنَّصرِ، فقال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾- ذكرَ عَقيبَه وُجوهَ النَّصرِ(٢)، فقال:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾.

أي: واذكُرُوا حينَ ألقى اللهُ تعالى عليكم النُّعاسَ؛ لأجلِ أن تَكونُوا آمنينَ، ليس في قلوبِكم خوفٌ ولا جزعٌ مِن عَدُوِّكم(٣).

وهذا قد وقع يومَ أحدٍ أيضًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ...﴾ [آل عمران: ١٥٤].

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨-٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤١-٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩-٦١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢- ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٤).

واختلف أهلُ العِلمِ في وقتِ وُقوعِ هذا النُّعاسِ، فقيل: كان في ليلةِ الغَزوةِ، وقيل: في النَّهارِ وقتَ التِحامِ الصَّفَّينِ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٤-٥٤٦).

أي: وينزِّل اللهُ تعالى عليكم مِن السَّماءِ مَطرًا؛ ليُطهِّرَكم به مِن الأحداثِ والجَنابات[١].

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

أي: وأنزَلَ ذلك المطَرَ؛ ليُذهِبَ عنكم وساوِسَ الشَّيطانِ، وخَواطِرَه السَّيئةَ[٢].

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾.

أي: وأنزلَ عليكم المطَرَ؛ لِيُقَوِّيَ قلوبَكم، ويشُدَّها فتثبُتَ، ولا تضطرِبَ بوساوِسِ الشَّيطانِ، وتمتلئَ باليقينِ والنَّصرِ، وتقوَى على الصَّبرِ، والإقدامِ على مُقاتلةِ الأعداءِ[٣].

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

أي: وأنزل عليكم المطَرَ ليلبِّدَ[٤] لكم الأرضَ؛ فتَثبُتَ عليها أرجُلُكم، ولا تغوصَ فيها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧-٦٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٦-٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٧).

(٤) ليلبِّدَ لكم الأرضَ: أي: يجعَلَها قويَّةً لا تسوخُ فيها الأقدامُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ٣٨٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٩/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٧).
وقال ابنُ كثيرٍ: (﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: بالصَّبرِ والإقْدامِ على مُجالدةِ الأعداءِ، وهو شجاعةُ الباطنِ، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ وهو شجاعةُ الظَّاهرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤).

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ مَنِ استَغاثَ باللهِ كانت استغاثَتُه بالله سببًا للإجابةِ، وإزالةِ المَكروهِ عنه؛ فالفاءُ سببيَّةٌ، والإجابةُ مُسبَّبةٌ عن الاستغاثةِ بالله(١).

٢- الواجِبُ على المُسلِم ألَّا يتوكَّلَ إلَّا على اللهِ تعالى في جميعِ أحوالِه، ولا يثِقَ بِغَيرِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى بِيَدِه النَّصرُ والإعانةُ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يُثَبِّتَها؛ فإنَّ ثَباتَ القَلبِ أصلُ ثَباتِ البَدَنِ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قد أثنى اللهُ جلَّ وعلا على نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعلى أصحابِه، بالتجائِهم إليه وَقتَ الكَربِ يومَ بَدرٍ، في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فنَبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان هو وأصحابُه إذا أصابهم أمرٌ أو كربٌ التجَؤوا إلى اللهِ، وأخلَصُوا له الدُّعاءَ(٤).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فيه سرعةُ إجابةِ الله لهم، دلَّ على ذلك قَولُه: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ أي: فأوجَدَ الإجابةَ إيجادَ مَن هو طالِبٌ لها، شَديدُ الرَّغبةِ فيها(٥).

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٣٤، ٥٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٠).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣١).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يُفيدُ أنَّ ما عِندَه تعالى ليس مُنحصِرًا في الإمدادِ بالملائكةِ؛ فالنَّصرُ وإن كان بها، فليس مِن عِندِها، فلا تعتَمِدوا على وُجودِها، ولا تَهِنُوا بفَقْدِها، واعتَمِدوا عليه سُبحانه خاصَّةً؛ فإنَّ ما عنده مِن الأسبابِ لا يُحاطُ به عِلمًا، هذا إذا أراد النَّصرَ بالأسبابِ، وإن أرادَ بِغَيرِ ذلك فعَلَ، فكان التعبيرُ بـ (عند) لإفهامِ ذلك[١].

٤- تخصيصُ النُّعاسِ بأنَّه مِن اللهِ تعالى في قوله تعالى: ﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ﴾ مع أنَّ كلَّ نَومٍ ونُعاسٍ لا يحصُلُ إلَّا مِن قِبَل اللهِ تعالى؛ لا بُدَّ فيه مِن مَزيدِ فائدةٍ، فقيل في بيانِها: إنَّ الخائِفَ مِن عَدُوِّه خوفًا شَديدًا، لا يأخُذُه النَّومُ، فصار حصولُ النَّومِ في وَقتِ الخَوفِ الشَّديدِ دليلًا على زَوالِ الخَوفِ، وحُصولِ الأمنِ.

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّهم خافوا مِن جِهاتٍ كثيرةٍ: قِلَّةِ المُسلمينَ، وكثرةِ الكُفَّارِ، وكثرةِ الأُهْبةِ والآلةِ والعُدَّةِ للكافِرينِ، والعَطَشِ الشَّديدِ، فلولا فضلُ الله ثم حصولُ النُّعاسِ، وحُصولُ الاستراحةِ حتى تمكَّنُوا في اليومِ الثَّاني من القِتالِ؛ لَمَّا تمَّ الظَّفَرُ.

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّ النُّعاسَ غَشِيَهم دَفعةً واحدةً مع كَثرَتِهم، وحصولُ النُّعاسِ للجَمعِ العَظيمِ على الخَوف الشَّديدِ؛ أمرٌ خارِقٌ للعادةِ[٢].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ هذا أصلُ الطَّهارةِ بالماءِ في الأحداثِ والنَّجاساتِ[٣].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ﴾ كلمةُ (على) تفيدُ الاستعلاءَ،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٤٦٧-٤٦٨).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٤).

فالمعنى أنَّ القلوبَ امتلأَتْ مِن ذلك الرَّبطِ، حتى كأنَّه علا عليها، وارتفَعَ فَوقَها[١].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ﴾ أعاد اللَّامَ؛ إشارةً إلى أنَّه المقصِدُ الأعظَمُ، وما قبله وسيلةٌ إليه[٢].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ توقيفٌ على أنَّ الأمرَ كُلَّه لله، وأن تكَسُّبَ المرءِ لا يُغني إذا لم يُساعِدْه القَدَرُ، وإن كان مطلوبًا بالجِدِّ، كما ظاهرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بين دِرعَينِ[٣] وهذه القصَّةُ كُلُّها من قصَّةِ الكفَّارِ وغَلَبةِ المُؤمنينَ لهم، تليقُ بها مِن صِفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، العِزَّةُ والحكمةُ إذا تُؤُمِّلَ ذلك[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قَولُه تعالى:** ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾

- صيغةُ الاستقبالِ في ﴿تَسۡتَغِيثُونَ﴾ لحكايةِ الحالِ الماضِيةِ؛ لاستحضارِ صُورَتِها العجيبةِ[٥].

- والسين والتاء في ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾ للمُبالغةِ في تحقيقِ المَطلوبِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣٧).

(٣) ظاهَرَ بين دِرعَينِ: أي: عاون بينهما في التحصُّنِ، فلبس واحدًا على آخَرَ ليتوقَّى بهما. والدِّرعُ: قميصٌ مِن الحَديدِ المُتشابِك كان يُلبَسُ وِقايةً مِن سلاحِ العَدُوِّ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٢/ ٢٥٩)، ((مطالع الأنوار)) لابن قرقول (٣/ ٢٣)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لأحمد مختار عمر (١/ ٧٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

هو كلامٌ مُستأنَفٌ، سِيقَ لِبيانِ أنَّ الأسبابَ الظَّاهرةَ بمَعزِلٍ مِن التأثيرِ، وإنَّما التأثيرُ مختَصٌّ به عزَّ وجلَّ؛ ليَثِقَ به المؤمنونَ، ولا يقنَطُوا من النَّصرِ عند فُقدانِ أسبابِه[1].

- وقال تعالى هنا: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ وقال في آلِ عِمرانَ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] فزاد ﴿لَكُمۡ﴾ في آيةِ آلِ عِمرانَ، وقدَّمَ القُلوبَ على المجرورِ، فقال: ﴿قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾، وأخَّرها هنا فقال: ﴿بِهِۦ قُلُوبُكُمۡ﴾، واستأنَفَ تأكيدَ الإخبارَ بالصِّفَتينِ العَلِيَّتينِ هنا بـ«إنَّ»، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ولم تَرِدَا جارِيَتينِ على اسمِ اللهِ سبحانَه كما هناك؛ حيث قال: ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ وذلك لِمُناسباتٍ حَسنةٍ، بيانُها على النَّحوِ التَّالي:

- حَذَفَ ﴿لَكُمۡ﴾ هنا؛ دفعًا لِتكريرِ لَفظِه؛ لِسَبقِ كَلمةِ ﴿لَكُمۡ﴾ قَريبًا في قَولِه: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾، فعَلِمَ السَّامِعُ أنَّ البُشرى لهم، فأغنَت ﴿لَكُمۡ﴾ الأولى بِلَفظِها ومعناها، عَن ذِكرِ ﴿لَكُمۡ﴾ مرَّةً ثانيةً؛ ولأنَّ آيةَ آلِ عِمرانَ سِيقَت مَساقَ الامتنانِ والتَّذكيرِ بِنِعمةِ النَّصرِ في حينِ القِلَّةِ والضَّعفِ، فكان تقييدُ ﴿بُشۡرَىٰ﴾ بأنَّها لأجْلِهم، زيادةً في المنَّةِ، أي: جعلَ الله ذلك بُشرَى لأَجْلِكم. وأمَّا آيةُ الأنفالِ هنا، فهي مَسوقةٌ مَساقَ العِتابِ على كراهِيَةِ الخُروجِ إلى بَدرٍ في أوَّلِ الأمرِ، وعلى اختيارِ أن تكونَ الطَّائِفةُ التي تُلاقيهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨).

غيرَ ذاتِ الشَّوكةِ، فجَرَّدَ ﴿بُشۡرَىٰ﴾ عن أن يُعَلَّقَ به ﴿لَكُمۡ﴾؛ إذ كانت البُشرى للنَّبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومَن لم يتردَّدوا مِن المُسلِمينَ.

- تقديمُ المجرورِ هنا في قَولِه: ﴿بِهِۦ قُلُوبُكُمۡ﴾ وهو يفيدُ الاختصاصَ، فيكونُ المعنى: ولتطمئِنَّ به قلوبُكم، لا بِغَيرِه، وفي هذا الاختصاصِ تعريضٌ بما اعتَراهم مِن الوَجَلِ مِن الطَّائفةِ ذاتِ الشَّوكةِ، وقناعَتِهم بغَنْمِ العُروضِ التي كانت مع العِيرِ.

- أمَّا قولُه: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ في صيغةِ النَّعتِ في آلِ عِمرانَ، وجَعْلُهما هنا في صيغةِ الخَبَرِ المؤكَّدِ؛ إذ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فَلِأنَّه نَزَّلَ المُخاطَبينَ- هنا- مَنزلةَ مَن يتردَّدُ في أنَّه تعالى مَوصوفٌ بهاتينِ الصِّفَتينِ: وهما العِزَّةُ- المقتَضِيةُ أنَّه إذا وعد بالنَّصرِ لم يُعجِزْه شَيءٌ- والحكمةُ: فما يَصدُرُ مِن جانِبِه يجِبُ غَوْصُ الأفهامِ في تَبَيُّنِ مُقتضاه، فكيف لا يهتدونَ إلى أنَّ اللهَ لَمَّا وعَدَهم الظَّفَرَ بإحدى الطَّائِفَتينِ، وقد فاتَتْهم العِيرُ، أنَّ ذلك آيِلٌ إلى الوَعدِ بالظَّفَرِ بالنَّفيرِ(١).

- وجملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، جُعِلَت كالإخبارِ بما ليس بمعلومٍ لهم، وهي تعليلٌ لِما قَبلَها مُتضَمِّنٌ للإشعارِ بأنَّ النَّصرَ الواقِعَ على الوَجهِ المذكورِ، مِن مقتَضياتِ الحِكَمِ البالغةِ(٢).

٣- **قولُه تعالى:** ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٦-٢٧٧).
ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ آل عمرانَ من هذا التفسير المحرَّر (٢/ ٤٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٧).

بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾

- قوله: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ صيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ لاستحضارِ الحالةِ[١].

- قولُه: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ إسنادُ هذا الإنزالِ إلى اللهِ تعالى؛ للتَّنبيهِ على أنَّه أكرَمَهم به؛ وذلك لِكَونِه نزَلَ في وقتِ احتياجِهم إلى الماءِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٧٩).

الآيات (١٢-١٤)

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلرُّعْبَ﴾: أي: الجَزَعَ والهَلَع والخوفَ، وقيل: الرُّعب هو الخوفُ الذي يملأُ الصَّدرَ والقلبَ، وقيل: إنَّه أشدُّ الخوفِ، وأصلُ الرُّعب: يدلُّ على الخوفِ، والملءِ، والقَطع[(١)].

﴿بَنَانٍ﴾: أي: أطرافِ أصابعِ اليَدينِ والرِّجلَينِ، واشتِقاقُه مِن قَولِهم: أبَنَّ بالمكانِ: إذا أقام، فالبَنانُ به يُعْتَمَدُ كلُّ ما يكونُ للإقامَةِ والحَياةِ[(٢)].

﴿شَآقُّوا۟﴾: أي: حَاربُوا، أو خَالَفُوا وجانبوا، وأصلُ (شقق): يدلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ[(٣)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

﴿ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ ﴾: يجوزُ في ﴿ ذَٰلِكُمۡ ﴾ عدةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: أن يكونَ خبرًا لِمُبتدأٍ محذوفٍ، أي: العِقابُ ذَلِكم، أو الأمرُ ذلِكم. الثاني: أن يكون مبتدأً، والخبرُ محذوفٌ، أي: ذلِكم واقعٌ أو مُستحَقٌّ، أو ذَلِكم العِقابُ. الثالث: أن يكون مفعولًا به لفعلٍ محذوفٍ، يُفَسِّره ما بعده، أيْ: ذُوقُوا ذلكم، وهو على هذا من بابِ الاشتِغالِ.

﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾: (أنَّ) واسمُها وخبَرُها مصدرٌ مُؤولٌ، في إعرابِه أوجُهٌ؛ منها: أنَّه في محلِّ رَفعٍ مُبتدأٌ، والخبرُ محذوفٌ، تقديرُه: حَتْمٌ، أي: كونُ عذابِ النَّارِ للكافرينَ حتْمٌ. والثاني: أنَّه خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، أي: الواجِبُ كونُ عذابِ النَّارِ للكافرينَ. وجملةُ المصدرِ المؤوَّلِ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ ﴾. وقيل غيرُ ذلك.

- وقُرئ ﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ بكسرِ همزةِ ﴿إنَّ﴾ على أنَّها جملةٌ استئنافِيَّة، لا محلَّ لها من الإعرابِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

اذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حينَ أوحَى رَبُّك إلى الملائكةِ أنَّه معهم، وأمرَهم أن يُثَبِّتوا الذينَ آمنوا، وأعلَمَهم تعالى أنَّه سيُلقي في قلوبِ الكُفَّار الخوفَ الشَّديدَ، وأمَرَهم أن يضرِبوا فوقَ أعناقِ المُشركينَ، ويَضرِبوا كلَّ طَرَفٍ ومَفصِلٍ مِن أطرافِ أصابعِ أيديهم وأرجُلِهم.

وذلك بسببِ أنَّهم خالفوا أمرَ اللهِ ورسولِه، وحارَبُوهما، ومَن يفعلْ ذلك، فإنَّ اللهَ يُعاقِبُه، وهو سبحانه شديدُ العِقابِ.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣١٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٦١٩-٦٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٨١-٥٨٣)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخرَّاط (١/ ٣٦٤).

هذا العذابُ والنَّكالُ، فذوقوه أيُّها الكافرونَ مُعجَّلًا في الدُّنيا، وأيقِنُوا أنَّ لكم ولِغَيرِكم مِن الكَفَرةِ عذابَ النَّارِ مُؤجَّلًا في الآخرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾.

﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾.

أي: اذكُرْ- يا مُحمَّدُ- وقتَ أن أوحَى رَبُّك إلى الملائكةِ[1]- الذينَ أمدَّ بهم حِزبَه المؤمنين- أنِّي مَعَكم بِالعَونِ والنَّصرِ والتَّأييدِ[2].

﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: فقَوُّوا عزمَ المُؤمنينَ يومَ بَدرٍ، وصَحِّحوا نيَّاتِهم في قتالِ عَدُوِّهم، وجَرِّئوهم عليهم، وألْقُوا في قلوبِهم الأمنَ والطُّمأنينةَ، وأعينُوهم على القتالِ، وبَشِّروهم بالنَّصرِ[3].

﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾.

أي: سأُرعِبُ قلوبَ الذينَ كفَروا بي، فخالَفُوا أمري، وكذَّبُوا رسولي، وأملَؤُها

---

(١) قيل: يُمكِنُ أن يكونَ وَحيَ إلهامٍ، ويمكِنُ أن يكونَ وَحيَ إعلامٍ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).
وقيل: العاملُ في ﴿إِذۡ﴾، «يُثَبِّت» أي يُثَبِّت به الأقدامَ ذلك الوقتَ. وقيل: العاملُ «ليربط» أي: وليربط إذ يُوحِي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٨-٥٤٩).

خوفًا شديدًا حتى ينهزِموا[١].

كما قال تعالى في سياقِ الحديثِ عن غَزوةِ أُحُدٍ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُعطِيتُ خمسًا، لم يُعطَهنَّ أحدٌ منَ الأنبياءِ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ[٢]...)) الحديث[٣].

﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾.

أي: فاضربوا أيُّها الملائكةُ[٤] رؤوسَ المُشركينَ، فحُزُّوها، وأعناقَهم فاقْطَعُوها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٩).

(٢) نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ: أي: أنَّ الأعداءَ يَخافونَني ويقَعُ في قُلوبِهم الفَزَعُ وبيني وبينهم مسيرةُ مَسافةِ شهرٍ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٦/ ٩١)، ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٤١).

(٣) رواه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

(٤) هذا اختيارُ الواحديِّ، والقرطبيِّ، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٠).

وقيل: هذا الأمرُ مِن اللهِ تعالى موجَّهٌ إلى المؤمنينَ، يُعَلِّمُهم كيفيَّةَ قَتلِ المُشركينَ وضَربِهم. وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن

قال تعالى للمؤمنين: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤].

﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

أي: واضرِبُوا مِن المُشركينَ كُلَّ طَرَفٍ ومَفصِلٍ مِن أطرافِ أصابعِ أيديهم وأرجُلِهم(١).

كثير)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٠-٥٥٣).

واختلف المفسِّرون في معنى قولِه تعالى: ﴿فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ فقيل: معناه: اضرِبوا الرُّؤوسَ. وهذا اختيارُ الواحديِّ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤٨).

وممن ذهب إليه مِن السَّلف عكرمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧١).

وقيل معنى: ﴿فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أي: على الأعناقِ، وهي الرِّقابُ. وهذا اختيارُ ابنِ عاشورٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٣). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥).

وممَّن ذهب من السَّلف إلى أنَّ المعنى اضْرِبوا الأعناقَ عَطِيَّةُ والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٠).

ورجَّحَ ابنُ جريرٍ القَولَ بالعُموم، وأنَّ المُرادَ: الرُّؤوسُ والأعناقُ. فقال: (قَولُه: ﴿فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ مُحتَمِلٌ أن يكونَ مرادًا به الرُّؤوسُ، ومُحتَمِلٌ أن يكونَ مُرادًا به فوقَ جِلدةِ الأعناقِ، فيكون معناه: على الأعناقِ، وإذا احتمَلَ ذلك صَحَّ قَولُ مَن قال: معناه الأعناقُ، وإذا كان الأمرُ مُحتَمِلًا ما ذكَرْنا من التَّأويلِ، لم يكُنْ لنا أن نُوجِّهَه إلى بعضِ معانيه دون بعضٍ إلَّا بحُجَّةٍ يجِبُ التَّسليمُ لها، ولا حُجَّةَ تَدُلُّ على خُصوصِه، فالواجِبُ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ أمَرَ بضَربِ رُؤوسِ المُشركينَ وأعناقِهم وأيديهم وأرجُلِهم، أصحابَ نَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، الذين شَهِدوا معه بَدرًا). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧١).

وقال الزمخشري: (أراد أعالِيَ الأعناقِ التي هي المذابحُ؛ لأنَّها مفاصلُ، فكان إيقاعُ الضربِ فيها حزًّا وتطييرًا للرؤوسِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٠٤).

وقال ابنُ عطيةَ: (ويحتملُ عندي أن يريدَ بقولِه: ﴿فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ وصفَ أبلغِ ضرباتِ العنقِ وأحكمِها، وهي الضربةُ التي تكونُ فوقَ عظمِ العنقِ، ودونَ عظمِ الرأسِ في المفصلِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٨).

وقال الشنقيطيُّ: (وأظهَرُ الأقوالِ وأقرَبُها للصَّوابِ ما قالَه بعضُ العُلَماءِ: أنَّ الله علَّمَ الملائكةَ أو أصحابَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم حَزَّ الرُّؤوسِ، وبيَّنَ لهم مَفصِلَ الرَّأسِ الذي يُطيرُ الرَّأسَ عن الجُثَّةِ، وأنَّه فَوقَ الأعناقِ؛ لأنَّ الرَّقبةَ المحِلُّ الذي تُركَّبُ منه في الرأسِ هو مَفصِلٌ للحَزِّ، إذا ضَرَبَه الإنسانُ طار الرَّأسُ بِسُرعةٍ، وكان ذلك أهونَ لإبانةِ الرَّأسِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧١-٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((تفسير السعدي))

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا تعليلٌ لِتسليطِ اللهِ تعالى المؤمنينَ على المُشركينَ[1].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: هذا الفِعلُ مِن ضَربِ هؤلاءِ المُشركينَ فَوقَ الأعناقِ، وضَربِ كُلِّ بنانٍ منهم، وتسليطِ أوليائِه عليهم، وإلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهم- إنَّما هو جزاءٌ وعقابٌ لهم؛ لأنَّهم فارَقُوا أمرَ اللهِ ورسولِه، وحارَبُوهما وخالَفُوهما، فساروا في شِقٍّ، وتَرَكوا الحَقَّ في شِقٍّ آخَرَ[2].

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: ومَن يخالِفْ أمرَ اللهِ وأمْرَ رَسولِه، ويفارِقْ طاعَتَهما؛ فإنَّ اللهَ يُعاقِبُه، وهو سبحانَه شَديدُ العقابِ لِمَن أراد عِقابَه، ومِن ذلك تسليطُ أوليائِه عليه في الدُّنيا[3].

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ أنَّه مَن يُشاقِقِ اللهَ ورَسولَه فإنَّ اللهَ شديدُ العِقابِ؛ بيَّنَ مِن بَعدِ ذلك

(ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٣-٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٤-٥٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٥-٥٥٦).

صِفةَ عِقابِه، وأنَّه قد يكونُ مُعجَّلًا في الدُّنيا، وقد يكون مؤجَّلًا في الآخرةِ[١]، فقال:

﴿ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ ﴾.

أي: هذا هو العذابُ والنَّكالُ الذي جعَلْتُه لكم- أيُّها الكافِرونَ المُشاقُّونَ للهِ ورَسولِه- فذوقوه مُعجَّلًا في الدُّنيا[٢].

﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

أي: واعلموا أنَّ لكم ولِغَيرِكم مِن الكفَّارِ أيضًا عذابًا مُؤجَّلًا في النَّارِ، في الدَّارِ الآخِرةِ[٣].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- مِن لُطفِ اللهِ بِعبدِه أن يُسهِّلَ عليه طاعَتَه، ويُيَسِّرَها بأسبابٍ داخليَّةٍ وخارجيَّةٍ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ ﴾[٤].

٢- العَبدُ لا يستَغني عن تثبيتِ اللهِ له طَرْفةَ عَينٍ، فإنْ لم يُثبِّتْه وإلَّا زالت سماءُ إيمانِه وأرضِه عن مَكانِهما، وقد قال تعالى لأكرَمِ خَلْقِه عليه؛ عَبدِه ورَسولِه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤] وقال تعالى لأكرَمِ خَلِقْه: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).

ءَامَنُواْ﴾ فالخَلقُ كُلُّهم قِسمانِ: مُوَفَّقٌ بالتَّثبيتِ، ومخذولٌ بِتَركِ التَّثبيتِ[١].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ التَّصريحُ بسببِ الانتقامِ تعريضٌ للمُؤمنينَ؛ لِيَستزيدوا مِن طاعةِ اللهِ ورَسولِه؛ فإنَّ المُشاقَّةَ لَمَّا كانت سبَبَ هذا العِقابِ العَظيمِ، فيُوشِكُ ما هو مخالفةٌ للرَّسولِ بدونِ مُشاقَّةٍ، أن يوقِعَ في عذابٍ دون ذلك، وخليقٌ بأن يكون ضِدُّها- وهو الطَّاعةُ- مُوجِبًا للخَيرِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ما يحصُلُ في القَلبِ مِن العِلمِ والقوَّةِ ونَحوِ ذلك، قد يجعَلُه اللهُ بواسطةِ فِعلِ الملائكةِ، كما قال الله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذه نِعمةٌ خَفيَّةٌ أظهَرَها اللهُ تعالى لهم؛ ليشكُرُوه عليها[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إن قيل: ما الحِكمةُ في قتالِ الملائكةِ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع أنَّ جِبريلَ قادِرٌ على أن يَدفَعَ الكُفَّارَ بِريشةٍ مِن جَناحِه؟! فالجوابُ: أنَّ ذلك وقع لإرادةِ أن يكونَ الفِعلُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، وتكونَ الملائكةُ مَدَدًا على عادَةِ مَدَدِ الجيوشِ؛ رعايةً لِصورةِ الأسبابِ وسُنَّتِها التي أجراها اللهُ تعالى في عبادِه، والله تعالى هو فاعِلُ الجَميعِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥).

(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٣١٣).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ لم يُسنِدْ إلقاءَ الرُّعبِ في قلوبِ الذينَ كَفَروا إلى الملائكةِ، بل أسنده الله إلى نفسه وحده؛ لأنَّ أولئك الملائكةَ المخاطبينَ كانوا ملائكةَ نصرٍ وتأييدٍ، فلا يليقُ بقواهم إلقاءَ الرُّعبِ[١].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ فيه أنَّ كُلَّ ما يقَعُ في العالَم هو من تقديرِ اللهِ على حسَبِ إرادَتِه[٢].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ التَّعبيرُ بإلقاءِ الرُّعبِ في القَلبِ أبلَغُ مِن التَّعبيرِ بـ (رَعَبْتُه) أو (أرعَبْتُه)؛ لِما في التَّعبيرِ بإلقاءِ الرُّعبِ مِن الإشعارِ بأنَّه يُصَبُّ في القلوبِ دَفعةً واحدةً[٣].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ لَمَّا كان العُنقُ يُستَرُ في الحَربِ غالبًا، عبَّرَ بقولِه: ﴿فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أي: الرُّؤوسَ أو أعاليَ الأعناقِ منهم؛ لأنَّها مفاصِلُ ومذابِحُ[٤].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ عبَّر بالمضارعِ ندبًا إلى التوبةِ بتقييدِ الوعيدِ بالاستمرارِ[٥].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ إنَّمَا قَالَ ذَلِك مُبَالغَةً في التعذيبِ والانتقامِ، والعربُ تَقولُ للعَدوِّ إذا أصابه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٠٩).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المكروهُ: ذُقْ[١]، وقيل: سمَّاه ذَوقًا؛ لأنَّ الذَّائِقَ أشدُّ إحساسًا بالطَّعمِ مِن المُستمِرِّ على الأكلِ، فكأنَّ حالهم أبدًا حالُ الذَّائِقِ، في إحساسِهم العَذابَ[٢]، وقيل: لَمَّا كان ما وقَعَ للمُشركينَ في وقعةِ بَدرٍ مِن القَتلِ والأسْرِ والقَهرِ، يَسيرًا جدًّا بالنِّسبةِ إلى ما لهم في الآخرةِ- سمَّاه ذَوقًا؛ لِأَنَّ الذَّوْقَ يُعْرَفُ بِهِ طَعْمُ اليسيرِ؛ لِيُعرَفَ به حالُ الكَثيرِ، فعاجلُ ما حصَل لهم مِن الآلامِ في الدُّنيا كالذَّوقِ القليلِ بالنسبةِ إلى الأمرِ العظيمِ المعدِّ لهم في الآخرةِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قولُه تعالى:** ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾

- تعريفُ اللهِ باسْمِ الرَّبِّ، وإضافَتِه إلى ضَميرِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَولِه: ﴿رَبُّكَ﴾؛ فيه تنويهٌ بِقَدْرِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإشارةٌ إلى أنَّه فَعلَ ذلك لُطفًا به، ورَفعًا لشأنِه[٤].

- وعُرِّفَ المُثبَّتونَ بالموصولِ في قَولِه: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ لما تُومِئُ إليه الصِّلةُ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ مِن كَونِ إيمانِهم هو الباعِثَ على هذه العِنايةِ، فتكونُ الملائكةُ بِعِنايةِ المُؤمنينَ؛ لأجْلِ وَصفِ الإيمانِ[٥].

- قولُه: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (١/ ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٨١).

استئنافًا ابتدائيًّا؛ إخبارًا لهم بما يقتضي التَّخفيفَ عليهم في العَملِ الذي كلَّفَهم اللهُ به[١].

- قوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ فيه تكريرُ الأمرِ بالضَّربِ؛ لِمَزيدِ التَّشديدِ، والاعتناءِ بِأمرِه[٢].

- قوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ خُصَّتِ الأعناقُ والبَنانُ؛ لأنَّ ضَرْبَ الأعناقِ إتلافٌ لأجسادِ المُشركينَ، وضَربَ البنانِ يُبطِلُ صلاحيَّةَ المضروبِ للقِتالِ، لأنَّ تَناوُلَ السِّلاحِ إنما يكونُ بالأصابعِ[٣].

٢- **قولُه تعالى**: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾

- تعليلٌ لِما قبله؛ لأنَّ الباءَ في ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ باءُ السَّببيَّةِ، فهي تفيدُ معنى التَّعليلِ؛ ولِهذا فُصِلَت الجُملةُ[٤].

- قولُه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ تذييلٌ يَعُمُّ كلَّ مَن يُشاقِقُ اللهَ، ويعُمُّ أصنافَ العَقائِدِ[٥].

- وفيه إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ- حيث لم يقُل: ومَن يُشاقِقْهما- لتربيةِ المَهابةِ، وإظهارِ كمالِ شَناعةِ ما اجترَؤوا عليه، والإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ[٦].

- قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ المراد منه الكنايةُ عَن عِقابِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٨٣-٢٨٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٤).

المُشاقِّينَ، وبذلك يظهَرُ الارتباطُ بين الجزاءِ والشَّرطِ، باعتبارِ لازِمِ الخَبَر، وهو الكنايةُ عن تعَلُّقِ مَضمونِ ذلك الخبَرِ بمَن حصَلَ منه مَضمونُ الشَّرطِ[١].

٣- **قولُه تعالى:** ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

- الخطابُ فيه مَع الكَفَرةِ على طريقةِ الالتفاتِ[٢].

- وتفريعُ ﴿فَذُوقُوهُ﴾ على جُملةِ: ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ بما قُدِّرَ فيها؛ تفريعٌ للشَّماتةِ على تحقيقِ الوَعيدِ؛ فصيغةُ الأمرِ مُستعمَلةٌ في الشَّماتةِ والإهانةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ وُضِعَ فيه الظَّاهِرُ موضِعَ الضَّميرِ- حيثُ لم يَقُلْ: وأنَّ لَكُم- لِتَوبيخِهم بالكُفرِ، وتَعليلِ الحُكمِ به[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١).

الآيتان (١٥-١٦)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زَحۡفٗا﴾: أي: متقاربًا بعضُكم إلى بعضٍ، والزَّحفُ تقارُبُ القَومِ إلى القَومِ في الحَربِ، أو الدُّنوُّ قليلًا قليلًا، وأَصلُ (زحف): يدلُّ على الاندفاعِ، والمُضِيِّ قُدُمًا[١].

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾: أي: لا تَفِرُّوا مِنهم، وتُعْطوهم ظُهورَكم، ويقال: وَلَّاه دُبُرَه: إذا انهزم، والتولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ، وأصْل الدُّبر: آخِرُ الشيءِ وخلفُه، ضد القُبلِ[٢].

﴿مُتَحَرِّفٗا﴾: أي: مائلًا لأجلِ القِتالِ، لا مائلًا هزيمةً؛ بأنْ يُريَهم الفَرَّةَ مكيدةً، وهو يريدُ الكَرَّةَ، وأصلُ (حرف): يدل على العُدُولِ، والانحرافِ عن الشَّيءِ[٣].

﴿مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾: أي: مُنضمًّا إلى جماعةٍ، وأصلُ (حوز) يدلُّ على الجَمعِ والتجمُّعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (١ / ٢٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٣٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٩)، ((المفردات))

﴿بَآءَ﴾: أي: رجَع، وانْصَرف، ولا يُقالُ: باء إلَّا موصولًا إمَّا بخيرٍ وإمَّا بشَرٍّ، وأَصلُ (بوأ): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ[١].

﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾: أي: مصيرُه، ومقامُه، والمأوى مصدرُ أَوَى، يُقال: أَوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه يأوي أويًا ومأوًى، وأصْلُه: التَّجمُّع[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ المؤمنين إذا ما قابَلوا الكفَّارَ للقتالِ، فاقتَرَب بعضُهم من بعضٍ، ألَّا يُولُّوهم ظُهورَهم فِرارًا منهم، فينهَزِموا عنهم، ولكِن لِيثبُتُوا، وتوعَّدَ مَن يولِّيهم ظَهْرَه في ذلك الوقتِ بأنَّه يرجِعُ بغضَبٍ مِن اللهِ- عزَّ وجلَّ- ومصيرُه جهنَّمُ، وبئس المصيرُ، إلَّا أنْ تكونَ تولِيَتُه ظَهْرَه خِداعًا للعدُوِّ، ومكيدةً له، ثم يكِرُّ عليه، أو يكونَ مِن أجلِ أن يتنحَّى إلى حيِّزِ جماعةٍ أخرى من المُسلمينَ، يُريدونَ العودةَ إلى القتالِ، فيعودُ معهم فيعاوِنُهم ويُعاوِنونَه، فيجوزُ له ذلك حينَها.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبرَ اللهُ تعالى أنَّه سيُلقِي الرُّعبَ في قُلوبِ الكُفَّارِ، وأمَرَ مَن آمنَ بالضَّربِ فَوقَ أعناقِهم وبَنانِهم؛ حرَّضَهم على الصَّبرِ عند مُكافحةِ العَدُوِّ، ونهاهم عن

للراغب (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧) (١١/ ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس(١/ ٣١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٠ - ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٨٤).

الانهزامِ[١].

وأيضًا لَمَّا قرَّرَ تعالى إهانةَ المُشركينَ في الدُّنيا والآخرةِ؛ حسُنَ أن يُتبعَ ذلك نهيَ مَن ادَّعى الإيمانَ عَن الفِرارِ منهم، وتهديدَ منَ نكَصَ عنهم بعد هذا البيانِ، وهو يَدَّعي الإيمانَ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَّرَ اللهُ المُسلمينَ بما أيَّدَهم يومَ بَدرٍ بالملائكةِ والنَّصرِ مِن عِندِه، وأكرَمَهم بأنْ نَصَرَهم على المُشركينَ الذينَ كانوا أشدَّ منهم، وأكثَرَ عَددًا وعُدَدًا، وأعقَبَه بأنْ أعلَمَهم أنَّ ذلك شأنُه مع الكافرينَ به- اعترَض في خلالِ ذلك بتحذيرِهم مِن الوَهَنِ، والفِرارِ منهم[٣]، فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إذا قابَلْتم الكفَّارَ، وقد دَنَوْا إليكم لِقِتالِكم، ودَنَوتُم إليهم لِقِتالِهم، فاقترَب بعضُكم مِن بَعضٍ[٤].

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾.

أي: فحِينذاك لا تُولُّوهم ظُهورَكم فرارًا منهم، فتَنهَزِموا عنهم، ولكنِ اثبُتُوا لقتالِهم[٥].

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ ﴾.

أي: ومَن يُوَلِّ الكُفَّارَ ظَهْرَه في ذلك الوَقتِ[١].

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾.

أي: إلَّا مَن يُوَلِّيهم ظَهْرَه، فينعطِفُ وينحَرِفُ عن اتِّجاهِه؛ ليخدَعَ عَدُوَّه ويُوهِمَه- مكيدةً له ومَكرًا به- أنَّه قد فرَّ منه، وخاف وانهزَمَ، ثم يكِرُّ عليه، فيكونُ ذلك أمكنَ له في قِتالِه، أو أنكى لعَدُوِّه، فلا بأسَ عليه في ذلك[٢].

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾.

أي: أو إلَّا مَن يُوَلِّيهم ظَهْرَه؛ ليتنحَّى إلى حيِّزِ جماعةٍ أخرى مِن المُسلِمينَ، يريدونَ العودةَ إلى القِتالِ، فيعودُ معهم فيعاونُهم ويعاونونَه، فيجوزُ له ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨-٤٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٤٣-٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧).

قال السَّعدي: (فإن كانت الفئةُ في العَسكرِ، فالأمرُ في هذا واضِحٌ، وإن كانت الفِئةُ في غيرِ مَحلِّ المعركةِ كانهزامِ المسلمينَ بين يدي الكافرينَ، والتجائِهم إلى بلدٍ مِن بُلدانِ المُسلِمينَ، أو إلى عسكرٍ آخَرَ مِن عسكَرِ المُسلمين، فقد ورد مِن آثارِ الصَّحابةِ ما يدُلُّ على أنَّ هذا جائزٌ، ولعل هذا يُقَيَّدُ بما إذا ظَنَّ المسلمونَ أنَّ الانهزامَ أحمَدُ عاقبةً، وأبقَى عليهم. أمَّا إذا ظنُّوا غلَبَتَهم للكُفَّارِ في ثباتِهم لقتالِهم، فيَبعُدُ- في هذه الحالِ- أن تكونَ مِن الأحوالِ المُرخَّصِ فيها، لأنَّه- على هذا- لا يُتصَوَّرُ الفِرارُ المنهيُّ عنه، وهذه الآيةُ مُطلقةٌ، وسيأتي في آخِرِ السورةِ تَقييدُها بالعَدَدِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: مَن ولَّاهم الدُّبُرَ بعد الزَّحفِ لقتالٍ، مُنهَزِمًا- بغيرِ نيَّةِ إحدى الخَلَّتينِ اللَّتينِ أباح اللهُ التَّوليَةَ بهما- فقد رَجَعَ بِغَضبٍ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ[(١)].

﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾.

أي: ومَصيرُه الذي يصيرُ إليه يومَ القِيامةِ، ومُنقَلَبُه ومَقَرُّه؛ نارُ جَهنَّمَ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨١-٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

قال الواحدي: (وأكثَرُ المُفَسِّرينَ على أنَّ هذا الوعيدَ خاصٌّ فيمَن انهزَمَ يومَ بَدرٍ، ولم يكُنْ لهم أن ينحازُوا؛ لأنَّه لم يكُن يومَئذٍ في الأرضِ فِئةٌ للمُسلمينَ، فأمَّا بعد ذلك فإنَّ المُسلمينَ بعضُهم فئةٌ لبعضٍ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤٩).

وقال ابنُ كثير: (وقد ذهب ذاهبونَ إلى أنَّ الفِرارَ إنَّما كان حرامًا على الصَّحابة؛ لأنَّه- يعني الجهادَ-كان فرضَ عَينٍ عليهم. وقيل: على الأنصارِ خاصَّةً؛ لأنهم بايَعُوا على السَّمعِ والطَّاعة في المَنشَطِ والمَكْرَه. وقيل: إنَّما المرادُ بهذه الآيةِ أهلُ بدرٍ خاصَّةً... وحُجَّتُهم في هذا: أنَّه لم تكن عِصابةٌ لها شَوكةٌ يَفِيئونَ إليها سوى عِصابَتِهم تلك، كما قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «اللهمَّ إنْ تَهلِكْ هذه العِصابةُ، لا تُعبَدْ في الأرضِ»؛ ولهذا قال عبدُ الله بن المبارك، عن مبارك بن فضالة، عن الحسَن في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ قال: ذلك يومَ بدرٍ، فأمَّا اليومَ: فإنِ انحازَ إلى فئةٍ أو مصرٍ- أحسَبُه قال- فلا بأسَ عليه... وهذا كلُّه لا ينفي أن يكونَ الفِرارُ مِن الزَّحفِ حرامًا على غيرِ أهلِ بَدرٍ، وإن كان سببُ النُّزولِ فيهم، كما دلَّ عليه حديثُ أبي هُريرةَ المتقَدِّمُ، من أنَّ الفِرارَ مِن الزَّحفِ مِن المُوبِقاتِ، كما هو مَذهَبُ الجماهيرِ، والله تعالى أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩-٣٠).

وقال ابنُ جرير: (وأولى التأويلينِ في هذه الآيةِ بالصَّوابِ عندي قَولُ من قال: حُكمُها مُحكَمٌ، وأنَّها نزلت في أهلِ بَدرٍ، وحُكمُها ثابتٌ في جميعِ المؤمنين، وأنَّ اللهَ حَرَّمَ على المؤمنينَ إذا لَقُوا العَدُوَّ أن يُوَلُّوهم الدُّبُرَ مُنهَزِمينَ، إلَّا لتحَرُّفٍ لقتالٍ، أو لتحيُّزٍ إلى فئةٍ مِنَ المؤمنينَ، حيث كانت من أرضِ الإسلام، وأنَّ مَن ولَّاهم الدُّبُرَ بعد الزَّحفِ لقتالٍ مُنهَزِمًا- بغيرِ نِيَّةِ إحدى الخَلَّتينِ اللَّتينِ أباح اللهُ التَّوليةَ بهما- فقد استوجَبَ مِن اللهِ وَعيدَه، إلَّا أن يتفضَّلَ عليه بِعَفوِه). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير السعدي))

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: وبِئسَ الموضِعُ الذي يصيرُ إليه[١].

وقال تعالى عمَّن ولَّى من المسلمين دُبرَه فرارًا مِن المشركينَ، يومَ تلاقَى الفريقانِ بأُحُدٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اجتَنِبوا السَّبعَ المُوبقاتِ. قالوا: يا رسولَ اللهِ: وما هُنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتلُ النَّفسِ الَّتي حرَّم اللهُ إلَّا بالحقِّ، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليَتيمِ، والتَّولِّي يومَ الزَّحفِ، وقذفُ المُحصَناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ))[٢].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ نهيٌ عن توليةِ العَدُوِّ الأدبارَ، وتضَمَّنَ هذا النَّهيُ الأمرَ بالثَّباتِ والمُصابَرة[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِ الله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عبَّرَ بلَفظِ توليةِ الدُّبُرِ في

(ص: ٣١٧).

قال الواحدي: (قَولُه: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ لا يدلُّ على التَّخليدِ، ومعناه: أنَّ مَرجِعَه إليها إلى وقتِ الرَّحمةِ والشَّفاعةِ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٥٠). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٢).

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٦) واللفظ له، ومسلم (٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩٢).

وعيدِ كلِّ فَردٍ، كما عبَّرَ به في نهيِ الجَماعةِ؛ لتأكيدِ حُرمةِ جريرةِ الفرارِ مِن الزَّحفِ، وكونِ الفَردِ فيها كالجماعةِ[١].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فيه تحريمُ الفِرارِ مِن الزَّحفِ، وأنَّه مِن الكبائرِ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه رَدٌّ على الجهميَّةِ في إنكارِهم الغضبَ[٣].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ كأنَّ المُنهزِمَ أراد أن يأوِيَ إلى مكانٍ يأمَنُ فيه من الهَلاكِ، فعُوقِبَ على ذلك بجَعْلِ عاقِبَتِه التي يصيرُ إليها دارَ الهَلاكِ، والعَذابِ الدَّائِمِ، وجُوزِيَ بضِدِّ غَرَضِه مِن مَعصيةِ الفِرارِ[٤].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- **قولُه تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ خِطابٌ لِلمُؤمنينَ بحُكمٍ كُلِّيٍّ جارٍ فيما سيقَعُ مِن الوقائعِ والحروبِ، جِيءَ به في تضاعيفِ القِصَّةِ؛ إظهارًا للاعتناءِ بِشَأنِه، ومبالغةً في حَضِّهم على المُحافظةِ عليه[٥]

- وأُطلِقَ على مَشيِ المُقاتِلِ إلى عَدُوِّه في ساحةِ القِتالِ (زَحفٌ)؛ لأنَّه يَدنُو

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥١٣).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٤).
(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢).

إلى العدُوِّ باحتراسٍ، وترَصُّدِ فُرصةٍ، فكأنَّه يزحَفُ إليه[١].

- وعبَّرَ عن حالِ لِقائِهم بالمصدَرِ مبالغةً في التَّشبيهِ، فقال: ﴿زَحْفًا﴾ أي: حالَ كَونِهم زاحفينَ مُحارِبينَ، وهم مِن الكَثرةِ بحيثُ لا يُدرَكُ مِن حَرَكتِهم -وإن كانَت سَريعةً- إلَّا مِثلُ الزَّحفِ[٢].

٢- **قوله تعالى:** ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

- (توليةُ الأدبارِ) كنايةٌ عن الفِرارِ مِن العَدُوِّ بقَرينةِ ذِكرِه في سياقِ لقاءِ العَدُوِّ؛ فهو مُستعمَلٌ في لازِمِ معناه مع بعضِ المعنى الأصليِّ[٣].

- وعَدلَ عن لَفظِ (الظُّهورِ) إلى لَفظِ (الأدبارِ) في قَولِه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾؛ تقبيحًا لِفعلِ الفارِّ، وتبشيعًا لانهزامِه[٤].

- قوله: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صِفةٌ لـ ﴿غَضَبٍ﴾ مؤكِّدةٌ لِما أفادَه التَّنوينُ مِن الفخامةِ والهَولِ بالفخامةِ الإضافيَّةِ، أي: بغضَبٍ كائِنٍ منه تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣).

الآيات (١٧-١٩)

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلِيُبْلِيَ﴾ أَي: وليُنْعِمَ، والبلاءُ: النِّعْمَةُ، وأيضًا: الاختبارُ، والمكروهُ والشِّدَّةُ، والبلاءُ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، يُقال: أبلاه بالنِّعمةِ، وبلاه بالشِّدةِ، وقد يدخلُ أحدُهما على الآخرِ، فيقال: بلاه بالخيرِ، وأبلاه بالشَّرِّ، وأصلُ (بلي) الاختبارُ والامتحانُ[(١)].

﴿مُوهِنُ﴾: أي: مُضعِفُ، والوَهْنُ: ضعفٌ مِن حيثُ الخَلْق، أو الخُلُق، وأصلُ (وهن): يَدلُّ على ضَعْفٍ[(٢)].

﴿تَسْتَفْتِحُوا۟﴾: أي: تَستَنصِروا، أو: تَسْتحكموا، أو: تسألوا الفَتحَ، وأصل (فتح): يَدلُّ على خِلافِ الإغلاقِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٧).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمؤمنينَ الذينَ شَهِدوا معه بَدرًا: أنَّه ليس بِحَولِكم وقُوَّتِكم- أيُّها المؤمنونَ- قَتَلتُم أعداءَكم المُشركينَ يومَ بَدرٍ، ولكنَّ الذي قتَلَهم على الحقيقةِ، ونَصَرَكم عليهم هو اللهُ، وما رمَيتَ- يا محمَّدُ- حينَ رَمَيتَ وجوهَ المُشركينَ بِقَبضةٍ مِن حَصباءَ أو تُرابٍ، ولكِنَّ اللهَ هو مَن رَمى، ولكي يُنعمَ على المؤمِنينَ بعَطاءٍ حَسَنٍ يَشكرونَه عليه قتَل المُشركينَ، ورماهم بما رماهم به يومَ بَدرٍ؛ إنَّ اللهَ سميعٌ عليمٌ، ذلكم وأنَّ اللهَ سيُضعِفُ كلَّ مَكرٍ وكيدٍ يكيدُ به الكفَّارُ للإسلامِ وأهلِه.

ثم يُخاطِبُ اللهُ المُشركينَ الذينَ حارَبوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه يومَ بَدرٍ: إنْ كُنتُم طَلَبتُم مِن اللهِ يومَ بَدرٍ أن يحكُمَ بينكم وبينَ المُؤمنينَ؛ بأن يُوقِعَ عذابَه بالمُعتَدينَ الظَّالِمين منكم ومنهم- فقد جاءَكم ما سألتُم؛ بأنْ نَصَرَ اللهُ المظلومَ على الظَّالِمِ، والمُحِقَّ على المُبطِلِ، بأنْ أوقَعَ بكم يومَ بَدرٍ، وإن تنتَهُوا- يا كفَّارَ قُريشٍ- عمَّا أنتم عليه، فهو خيرٌ لكم، وإن تَعودُوا إلى حَربِ مُحمَّدٍ وقتالِه وقِتالِ أتباعِه المؤمِنينَ؛ نَعُدْ عليكم بالهزيمةِ والقَتلِ والأسْرِ، ولن ينفَعَكم جمعُكم شيئًا ولو كثُرَ عَدَدُهم، وأنَّ اللهَ مع المؤمنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى المؤمنينَ عن التَّولِّي بالأدبارِ انهزامًا عند قتالِ الكُفَّارِ- وصل هذا النَّهيَ بما هو حُجَّةٌ على جَدارَتِهم بالانتهاءِ عنه، كأنَّه يَقولُ: يا أيُّها

المؤمنونَ، لا تُوَلُّوا الكُفَّارَ ظُهورَكم في القِتالِ أبدًا؛ فأنتم أَوْلى منهم بالثَّباتِ والصَّبرِ، ثم بنَصرِ الله تعالى، فها أنتم أولاءِ قد انتصَرتُم عليهم على قِلَّةِ عَدَدِكم وعُدَدِكم، وكَثْرَتِهم واستعدادِهم، وإنَّما ذلك بتأييدِ اللهِ تعالى لكم، ورَبْطِه على قُلوبِكم، وتثبيتِ أقدامِكم، وإلقائِه الرُّعبَ في قلوبِ أعدائِكم، فلم تَقتُلوهم ذلك القَتلَ الذَّريعَ بِمَحضِ قُوَّتِكم، واستعدادِكم المادِّيِّ(١).

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾.

أي: ليس بحَولِكم وقُوَّتِكم- أيُّها المؤمنونَ- قتَلْتُم أعداءَكم المُشركينَ يومَ بَدرٍ، ولكِنَّ الذي قتَلَهم على الحقيقةِ وأظفَرَكم بهم، ونَصَركم عليهم، هو اللهُ تعالى وَحدَه؛ فهو من تسبَّبَ بِقَتلِهم، حيث أمرَكم بقِتالِهم، وأعانكم على ذلك، ورَبَط على قُلوبِكم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

وقال سبحانه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥١٥-٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٢- ٨٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).
قال ابنُ تيميَّةَ: (فإنَّ قَتْلَهم حصلَ بأمورٍ خارجةٍ عن قُدرَتِهم؛ مِثل: إنزالِ الملائكةِ، وإلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهم). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ١٨).

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

سَببُ النُّزولِ:

عن حكيمِ بنِ حِزامٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ بدرٍ أمَرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فأخذَ كفًّا من الحَصباءِ فاستقبَلَنا به، فرمانا بها، وقال: شاهتِ الوجوهُ، فانهزَمْنا، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾))[١].

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

أي: وما أوصلتَ الرمْيَ- حين رميتَ وجوهَ المُشركينَ بقبضةٍ مِن حَصباءَ، أو حفنةٍ مِن ترابٍ- فأنت حذَفْتَهم ورَمَيْتَهم بذلك فحَسْبُ، ولكن الذي تولَّى إيصالَها إليهم، هو اللهُ تعالى، بقُوَّتِه وقُدرَتِه، لا أنت[٢].

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى قتَلَ المُشركينَ، ورماهم بما رماهم به يومَ بَدرٍ؛ لأجْلِ هَزيمَتِهم، وأيضًا لِيُنعِمَ على المُؤمنينَ بِعَطاءٍ حَسَنٍ عظيمٍ، يَشكرونَه عليه، مِن

(١) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٥٨٢٢)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٨٩٠٦)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٣/ ٢٠٣) (٣١٢٨) واللفظ له.
حسَّن إسنادَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ٨٧)، وقال الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (١١٣): حسن لغيره.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٩٤- ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).
قال ابنُ تيميَّةَ: (وكذلك الرَّميُ، لم يكُن في قُدرَتِه أنَّ التُّرابَ يُصيبُ أعينَهم كلِّهم، ويُرعِبُ قُلوبَهم؛ فالرَّميُ الذي جعَلَه اللهُ خارجًا عن قُدرةِ العَبدِ المعتادِ، هو الرَّميُ الذي نفاه اللهُ عنه). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ١٨).
وقال أيضًا: (المنفيُّ هو وُصولُ الرَّميِ إلى الكُفَّارِ وتأثيرُه فيهم، والمُثبَتُ هو الحَذفُ الذي فَعَلَه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلم). ((الرد على البكري)) (١/ ٤٣٩).

النَّصرِ والظَّفَرِ بالغَنائِمِ في الدُّنيا، والأجرِ والثَّوابِ على جِهادِهم في الآخِرةِ[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله سميعٌ لِدُعاءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومُناشَدَتِه ربَّه لإهلاكِ المُشركينَ يومَ بَدرٍ؛ سَميعٌ لأقوالِ جَميعِ خَلْقِه، عليمٌ بذلك كُلِّه، وبِنِيَّاتِهم وبما فيه صَلاحُهم، عليمٌ بمَن يستحِقُّ منهم النَّصرَ، ويعلَمُ غيرَ ذلك مِن الأشياءِ، فيُقَدِّرُ على العبادِ أقدارًا مُوافِقةً لعِلمِه وحِكمَتِه، ويَجزِيهم بحسَبِ نيَّاتِهم وأعمالِهم[٢].

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ذلك الفِعلُ؛ مِن قَتلِ المُشركينَ ورَمْيِهم حتى انهزَمُوا، والإنعامِ عليكم- أيُّها المؤمنونَ- بالظَّفَرِ بهم، والانتصارِ عليهم، ذلك هو فِعْلُنا الذي فَعَلْنا، وثَمَّ بِشارةٌ أخرى مع ما حصَلَ مِن هذا النَّصرِ لكم، وهي أنَّ اللهَ تعالى سيُضعِفُ- فيما يُستقبَلُ- كُلَّ مَكرٍ وكَيدٍ يَكيدُ به الكُفَّارُ للإسلامِ وأهلِه، وسيجعَلُ مَكرَهم مُحِيقًا بهم[٣].

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٧-٨٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩٦).

قال الخازن: (أجمع المُفَسِّرونَ على أنَّ البلاءَ هنا: بمعنى النِّعمةِ). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٨- ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

أي: إنْ تَستَحكِموا اللهَ- أيُّها المُشركونَ- ليفصِلَ بينكم وبينَ أعدائِكم المُؤمنينَ، فتَستَقضوه على أقطَعِ الحِزبَينِ للرَّحِم، وأظلَمِ الفِئَتينِ منكم، وتستنصِروه؛ لِيُوقِعَ عذابَه على المُعتَدينَ الظَّالِمينَ منكم- فقد جاءكم ما سألْتُم مِن حُكمِ اللهِ؛ بِنَصرِه المظلومَ على الظَّالِمِ، والمحِقَّ على المُبطِلِ، وذلك حين أوقَعَ بكم عِقابَه يومَ بَدرٍ[١].

﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾.

أي: وإن تَنْتَهوا- يا كفَّارَ قُريشٍ- عن الشِّركِ والكُفرِ باللهِ، والتَّكذيبِ لِرَسولِه، وقتالِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ به؛ فهو خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡۚ﴾.

أي: وإن تَعودُوا إلى ما كُنتُم فيه مِن الكُفرِ والضَّلالِ، وإلى حَربِ مُحمَّدٍ وقتالِه، وقِتالِ أتباعِه المؤمِنينَ؛ نَعُدْ عليكم بمِثلِ الواقعةِ التي أُوقِعَتْ بكم يومَ بَدرٍ، بالهزيمةِ والقَتلِ والأسْرِ[٣].

﴿وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ﴾.

أي: وإنْ عُدتُم- أيُّها المُشركونَ- فحينَها لن يُغنيَ عنكم جَمعُكم مِن جُنودِكم وأعوانِكم أيَّ شيءٍ، ولن يَدفَعوا عنكم شيئًا البتَّةَ، ولو كَثُر عددُهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((الرد على البكري)) لابن تيمية (١/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٥-٩٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قراءتان:

١- قراءة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على أنَّها تعليلٌ للجملةِ قبلَها(١).

٢- قراءة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على أنَّها جملةٌ استئنافيةٌ، منقطعةٌ عمَّا قبلَها(٢).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولأنَّ اللهَ تعالى مع مَن آمَنَ به على مَن كَفَر به وأشرَكَ، فلن تُغنِيَ عنكم فِئَتُكم شيئًا ولو كَثُرت؛ فهو سبحانَه معهم بالعونِ، والنصرِ على أعدائِهم، كما أظْهَرهم يومَ بدرٍ على المشركينَ، ومَن كان اللهُ عزَّ وجلَّ معه فلا غالِبَ له، وإن كان ضعيفًا، قليلَ العَدَد والعُدَّةِ(٣).

---

(١) قرأ بها المدنيانِ (نافعٌ وأبو جعفرٍ)، وابنُ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٣٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٣٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٥- ٩٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).
قال السَّعدي: (وهذه المعيَّةُ التي أخبَرَ اللهُ أنَّه يُؤَيِّدُ بها المؤمنين، تكونُ بحَسَبِ ما قاموا به من أعمالِ الإيمانِ، فإذا أُدِيلَ العَدُوُّ على المؤمنين في بعضِ الأوقاتِ، فليس ذلك إلَّا تفريطًا مِن المؤمنينَ، وعدَمَ قيامٍ بواجِبِ الإيمانِ ومُقتضاه، وإلَّا فلو قاموا بما أمَرَ الله به مِن كُلِّ وَجهٍ، لَمَا انهزَمَ لهم رايةٌ انهزامًا مُستقِرًّا، ولا أُدِيلَ عليهم عَدُوُّهم أبدًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧-٣١٨).

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ فيه أثبتَ اللهُ سُبحانه لنَبيِّه الرَّميَ، مع نَفيِ تأثيرِه عنه، وإثباتِه لِمَن إليه تُرجَعُ الأمورُ؛ تأديبًا منه سُبحانه لهذه الأمَّةِ، أي: لا ينظُرْ أحدٌ إلى شيءٍ مِن طاعَتِه؛ فإنَّا قد نَفَينا هذا الفِعلَ العَظيمَ عن أكمَلِ الخَلقِ، مع أنَّه عالمٌ مُقِرٌّ بأنَّه مِنَّا، فلْيَحذرِ الذي يرى له فِعلًا، مِن عظيمِ سَطواتِنا، ولكِن لِينسُبْ جَميعَ أفعالِه الحَسَنةِ إلى اللهِ تعالى، كما نُسِبَ الرَّميُ إليه بِقَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ جرى هذا مَجرى التَّحذيرِ والتَّرهيبِ؛ لئلَّا يغترَّ العبدُ بظواهِرِ الأمورِ، ولِيَعلمَ أنَّ الخالِقَ تعالى يطَّلِعُ على ما في الضَّمائِرِ والقُلوبِ[٢].

٣- الكَثرةُ لا تكونُ سَببًا للنَّصرِ، إلَّا إذا تساوَتْ مع القِلَّةِ في الثَّباتِ والصَّبرِ، والثِّقةِ باللهِ عَزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ فيه ردٌّ على القَدَريَّةِ[٤]؛ لأنَّه جَلَّ ثناؤُه أضافَ قَتلَهم إلى نَفسِه، ونفاه عن المُؤمنين به، الذين قاتَلُوا المُشركين؛ إذ كان جلَّ ثَناؤُه هو مُسَبِّبَ قَتلِهم، وعَن أمْرِه كان قتالُ المُؤمنينَ إيَّاهم، وكذلك سائِرُ أفعالِ الخَلقِ المُكتَسَبةِ: مِن اللهِ الإنشاءُ والإنجازُ بالتَّسبيبِ،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥١٩).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٤).

ومن الخَلقِ الاكتسابُ بالقُوى[١].

٢- نفَى الله تعالى ما صرَّح بإثباتِه في قولِه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾- ولم يُصرِّحْ في قولِه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بِقَولِه: (إِذْ قَتلتُموهم)؛ لأنَّ الرميَ كان أمرًا خارقًا للعادةِ، مُعجزًا، وآيةً مِن آياتِ اللهِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قولُه تعالى**: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ قدَّمَ المُسنَدَ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ دون أن يُقالَ: (ولكنْ قتَلَهم اللهُ)؛ لمجَرَّدِ الاهتمامِ لا الاختصاصِ؛ لأنَّ نَفيَ اعتقادِ المُخاطَبينَ أنَّهم القاتِلونَ قد حصل مِن جُملةِ النَّفيِ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾، فصار المُخاطَبونَ مُتطلِّبينَ لِمَعرفةِ فاعِلِ قَتلِ المُشركينَ، فكان مُهِمًّا عندهم تعجيلُ العِلمِ به[٣].

- وتجريدُ الفعلِ (رمى) عن المفعولِ به في قَولِه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾؛ لأنَّ المقصودَ الأصليَّ بيانُ حالِ الرَّميِ نفيًا وإثباتًا؛ إذ هو الذي ظهَرَ منه ما ظهَرَ، وأيضًا للدَّلالةِ على عُمومِه[٤].

٢- **قوله تعالى**: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

- الإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلى البلاءِ الحَسَنِ، وهذه الإشارةُ لِمُجرَّدِ تأكيدِ المَقصودِ مِن البَلاءِ الحَسَنِ، وأن ذلك البلاءَ عِلَّةٌ للتَّوهينِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥١٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩٧).

٣- قوله تعالى: ﴿ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

- قوله: ﴿ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُ ﴾ خطابٌ لأهلِ مكَّةَ على سبيلِ التَّهَكُّمِ بهم، وفيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ الذي اقتضاه قَولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[١].

- وصِيغَ ﴿تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾ بصيغةِ المُضارِعِ، مع أنَّ الفِعلَ مضى؛ لِقَصدِ استحضارِ الحالةِ مِن تكريرِهم الدُّعاءَ بالنَّصرِ على المُسلِمينَ[٢].

- قوله: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ﴾ وعيدٌ فيه بِشارةٌ أنَّ النَّصرَ الحاسِمَ سيكونُ للمُسلمينَ، وهو نصرُ يومِ فَتحِ مَكَّةَ[٣].

- وجملةُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ زيادةٌ في تأييسِ المُشركينَ مِن النَّصرِ، وتنويهٌ بِفَضلِ المؤمنينَ، بأنَّ النَّصرَ الذي انتَصَروه هو مِن الله لا بأسبابِهم؛ فإنَّهم دون المشركينَ عَددًا وعُدَّةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾: أي: ولا تُعرِضوا عنه، ولا تتركوا طاعته، فالفِعل (ولي)، إذا عُدِّي بـ (عن) لفظًا، أو تقديرًا، اقتَضى معنى الإعراضِ والتَّركِ، وإذا عُدِّي بنَفْسِه اقتَضَى معنى الوَلايةِ والقُرْبِ[1].

﴿ٱلصُّمُّ﴾: أي: الذين يَصَمُّونَ عَن الحَقِّ. والصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّةِ السَّمعِ، وبه يُوصَف مَن لا يُصغِي إلى الحقِّ ولا يَقبَلُه، وأصلُ (صمم) يدلُّ على تضامِّ الشَّيءِ[2].

﴿ٱلۡبُكۡمُ﴾: أي: الَّذين لا يتكلَّمونَ بالحَقِّ، جمع أَبْكَم، وهو الأخرسُ الذي لا يتكلَّمُ، وقيل: هو الذي يُولَد أخرس، والبَكَمُ: آفةٌ في اللِّسانِ، مانعةٌ مِن الكَلامِ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ عِبادَه المؤمنينَ بأن يُطيعوه ويُطيعوا رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا يُعرِضوا عن طاعَتِهما، وهم يَسمعونَ ما نَزَل مِن القُرآن.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (١ / ١٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١ / ١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ٥٣).

ونهاهم أن يكونُوا كالمُشركينَ، الذين إذا سَمِعوا كتابَ اللهِ قالوا: قد سَمِعْنا، ولكِنَّهم لا يعتَبِرونَ بما يَسمَعونَه، فهُم بمنزلةِ مَن لم يسمَعْ، وأخبَرَ تعالى أنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عنده- عزَّ وجَلَّ- الكُفَّارُ، الذين هم صُمٌّ عن سَماعِ الحَقِّ، بُكْمٌ عن التكَلُّمِ به، لا يَعقِلونَ عن اللهِ مَواعِظَه، ولا أمْرَه ونَهيَه، ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيرًا بقَصدِهم الحَقَّ، وصلاحِيَّتِهم لِقَبولِ ما يُورِدُه عليهم مِن آياتِه، لأمكَنَهم مِن فَهْمِها، ولو فُرِضَ أنَّه أفهَمَهم آياتِه، لابتَعَدوا عنها، وهم مُعرِضونَ عن قَبُولِها بالكليَّةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أرى اللهُ المؤمِنينَ آياتِ لُطفِه، وعِنايَتِه بِهم، ورأَوْا فوائِدَ امتثالِ أمْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالخُروجِ إلى بَدرٍ، وقد كانوا كارِهينَ الخُروجَ- أعقَبَ ذلك بأنْ أمَرَهم بطاعةِ اللهِ ورَسولِه؛ شُكرًا على نِعمةِ النَّصْرِ، واعتبارًا بأنَّ ما يأمُرُهم به خيرٌ عواقِبُه، وحذَّرَهم مِن مُخالفةِ أمْرِ اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفي هذا رُجوعٌ إلى الأمرِ بالطَّاعةِ الذي افتُتِحَت به السُّورةُ[١].

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه مع المُؤمنينَ، أمَرَهم أن يَقومُوا بمقتضى الإيمانِ الذي يُدرِكونَ به مَعِيَّتَه[٢]، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، امتَثِلوا أمْرَ اللهِ- تعالى- وأمْرَ رَسولِه، واجتَنِبوا نَهْيَهما[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٢-٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

أي: ولا تُعرِضوا عن طاعةِ رسولِه؛ بمُخالفةِ أمرِه، وارتكابِ نهيِه، وأنتم تَسْمَعونَ أمرَه إيَّاكم ونَهْيَه، وتعلمونَ ما دَعاكُم إليه[١].

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه تعالى لما نهَى عن التولِّي عن رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ زاد في تَشويهِ التَّولِّي عنه، بالتَّحذيرِ مِن التَّشبُّهِ بفِئةٍ ذَميمةٍ، يقولونَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: سَمِعْنا، وهم لا يُصَدِّقونَه ولا يَعمَلونَ بما يأمُرُهم ويَنهاهم[٢].

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: ولا تكونُوا- أيُّها المُؤمنونَ- بإعراضِكم عَن طاعةِ اللَّهِ، وطاعةِ رَسولِه، كالمُشركينَ الذينَ إذا سَمِعوا بآذانِهم كِتابَ اللهِ يُتلى عليهم، قالوا: قد سَمِعْنا، لكنَّهم في الحقيقةِ لا يَعتَبِرونَ بما يَسمَعونَ، ولا فيه يتفَكَّرونَ، ولا ينتَفِعونَ به ولا يتَّعِظونَ؛ فهُم بمنزلةِ مَن لم يَسمَعْها، فلا تكتَفُوا- مِثلَهم- بمجَرَّدِ الدَّعاوى الخاليةِ التي لا حقيقةَ لها[٣].

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٨-٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).
ذهَب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المرادَ بالَّذين قالوا: سَمِعنا وهم لا يَسْمعونَ: المُشركونَ. وقيل: بل المرادُ بهم المُنافقون. يُنظر: المصادر السابقة.

لَمَّا كانت حالُ الكُفَّارِ مُشابِهةً لِحالِ الأصَمِّ في عدَمِ السَّماعِ؛ لِعَدمِ الانتفاعِ به، والأبكَمِ في عدَمِ كَلامِه؛ لِعَدمِ تَكَلُّمِه بما ينفَعُ، والعادِمِ للعَقلِ في عدَمِ عَقلِه؛ لِعَدمِ انتفاعِه به- قال مُعَلِّلًا للنَّهيِ في قَولِه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ مُعَبِّرًا بأنسَبِ الأشياءِ لِما وصَفَهم به[1]:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: إنَّ شرَّ ما دبَّ على الأرضِ مِن خَلْقِ اللهِ عِندَ اللهِ تعالى، هؤلاءِ الكُفَّارُ[2] الذين لم ينتَفِعوا بالآياتِ والنُّذُرِ؛ فهم صُمٌّ عن سَماعِ الحَقِّ، بُكمٌ عن التَّكلُّمِ به، لا يَعقِلونَ عَنِ اللهِ مَواعِظَه، ولا أمْرَه ونَهْيَه[3].

وقد شَبَّهَهم اللهُ تعالى بالأنعامِ في قَولِه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

بل جَعَلَهم أضَلَّ مِن الأنعامِ، فقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٤٨).

(٢) قيل: المراد بهم مُشرِكو قُريشٍ، وقيل: المُنافقون. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠٢-١٠٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤).
قال ابن كثير: (قيل: المرادُ بهؤلاءِ المَذكورينَ نَفَرٌ مِن بني عبدِ الدَّارِ مِن قُريشٍ. رُوِيَ عن ابنِ عَبَّاسٍ ومجاهِدٍ، واختاره ابنُ جرير، وقال محمَّدُ بن إسحاقَ: هم المُنافِقونَ. قلتُ: ولا منافاةَ بينَ المُشركينَ والمُنافقينَ في هذا؛ لأنَّ كُلًّا منهم مسلوبُ الفَهمِ الصَّحيحِ، والقَصدِ إلى العَمَلِ الصَّالِحِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣-٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).
قال ابنُ كثير: (فهؤلاءِ شَرُّ البريَّةِ؛ لأنَّ كُلَّ دابَّةٍ مِمَّا سِواهم مُطيعةٌ للَّهِ- عَزَّ وجَلَّ- فيما خلَقَها له، وهؤلاءِ خُلِقوا للعبادةِ، فكَفَروا). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤).

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه أخبرَ تعالى بأنَّ عدَمَ سَماعِهم وهُداهم، إنَّما هو بما عَلِمَه تعالى مِنهم، وسَبَقَ مِن قَضائِه عليهم[١].

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾.

أي: ولو عَلِمَ اللهُ أنَّ في أولئك القَومِ خَيرًا؛ بقَصدِهم الحَقَّ، وصَلاحِيَّتِهم لِقَبولِ ما يُورِدُه عليهم من آياتِه- لأمكَنَهم مِن فَهْمِها، ولكِنَّه قد عَلِمَ أنَّه لا خيرَ فيهم، وأنَّهم ممَّن كُتِبَ لهم الشَّقاءُ، فلم يُفهِمْهم[٢].

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبرَ عنهم بانتفاءِ تَعلُّمِهم الحكمةَ والهُدَى؛ فلذلك انتَفَى عنهم الاهتداءُ- ارتَقَى بالإخبارِ في هذا المَعنى بأنَّهم لو قَبِلوا فَهْمَ المَوعِظةِ والحِكمةِ فيما يَسمَعونَه مِن القُرآنِ، وكَلامِ النُّبوَّةِ، لغَلَبَ ما في نُفوسِهم مِن التخَلُّقِ بالباطِلِ، على ما خالَطَها من إدراكِ الخَيرِ، فحالَ ذلك التخَلُّقُ بينهم وبين العَمَلِ بما عَلِموا، فتَوَلَّوا وأعرَضُوا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥١- ٤٥٢)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٠-١٢) و(١٧/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٨).

﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

أي: ولو فُرِضَ أنَّه أفهَمَهم آياتِه مع هذه الحالِ التي هُم عليها، لابتَعَدوا عنها وانصَرَفوا، وهم مُعرِضونَ عَن قَبولِها إعراضًا كُليًّا، لا يلتَفِتونَ إليها بوجهٍ مِن الوُجوهِ؛ قصدًا منهم، وعِنادًا للحَقِّ بعد ظُهورِه، والعِلمِ به[١].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾؛ قوله: ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ المقصودُ مِن هذا الحالِ: تشويهُ التَّولِّي المنهيِّ عنه؛ فإنَّ العِصيانَ مع توفُّرِ أسبابِ الطَّاعةِ أشَدُّ منه في حينِ انخرامِ بَعضِها[٢].

٢- لا ينبغي الاكتفاءُ بمجَرَّدِ الدعوى الخاليةِ التي لا حقيقةَ لها؛ فإنَّها حالةٌ لا يرضاها اللهُ تعالى، فليس الإيمانُ بالتمَنِّي والتحَلِّي، ولكِنَّه ما وقَرَ في القلوبِ، وصَدَّقَته الأعمالُ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾[٣].

٣- مِن النَّاسِ مَن يسمَعُ الآياتِ، ويَفهَمُها فَهمًا تَفصيليًّا، ولكنَّه يَجعَلُها بِمَعزِلٍ عن نفسِه، ويتصَوَّرُ أنَّ الكلامَ كُلَّه لِغَيرِه وفي غيرِه، ويقولُ: هذه الآيةُ نزلَت في الكافرينَ أو المُنافِقينَ، لا في أمثالي مِن المؤمنينَ، وإن كان مُتَّصِفًا بما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧).
قال ابنُ تيميَّةَ: (فقد فَسَدَت فِطرَتُهم فلم يَفهَمُوا، ولو فَهِمُوا لم يَعمَلوا، فنفى عنهم صِحَّةَ القُوةِ العِلميَّةِ، وصِحَّةَ القُوَّةِ العَمَليَّةِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

تنهَى عنه، وتتوعَّدُ عليه مِن صِفاتِهم وأعمالِهم؛ فصاحِبُها يَصدُقُ عليه بِوَجهٍ ما أنَّه مِن الذينَ قالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾[١].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ إنَّما كان هؤلاءِ شَرًّا عند اللهِ مِن جَميعِ الدَّوابِّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أعطاهم أسماعًا وأبصارًا وأفئدةً؛ ليَستَعمِلوها في طاعَته، فاستَعمَلوها في معاصِيه، وعَدِموا- بذلك- الخيرَ الكَثيرَ، فإنَّهم كانوا بصَددِ أن يكونوا مِن خِيارِ البريَّةِ، فأبَوْا هذا الطَّريقَ، واختارُوا لأنفُسِهم أن يكونوا مِن شَرِّ البريَّةِ[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الله تعالى لا يمنَعُ الإيمانَ والخيرَ، إلَّا ممَّن لا خَيرَ فيه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ السَّمعُ الذي نفاه اللهُ عنهم، سَمْعُ المعنى المؤَثِّرُ في القَلبِ، وأمَّا سَمعُ الحُجَّةِ، فقد قامَت حجَّةُ اللهِ تعالى عليهم بما سَمِعوه مِن آياتِه[٤].

٢- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ اسمَ الدَّوَابِّ يقعُ على الناسِ، كما يقعُ على البهائمِ؛ لأنَّ كلَّ ماشٍ دَابٌّ[٥].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٢٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٥٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٦).

يَعۡقِلُونَ ﴾ لم يَصِفْهم هنا بالعَمى- كما وَصَفَهم في آيةِ الأعرافِ وآيتَي البَقَرةِ- لأنَّ المَقامَ هنا مَقامُ التَّعريضِ بالذينَ ردُّوا دَعوةَ الإسلامِ، ولم يَهتَدُوا بِسَماعِ آياتِ القُرآنِ[١].

٤- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ دلالةٌ على إجازةِ تسميةِ السَّامعِ الناطقِ: «أَصَمُّ؛ أَبْكَمُ» إذا تباعَد عمَّا أُريد منه مِن السماعِ والنُّطقِ؛ وامتنَع مِن استماعِ الموعظةِ والنطقِ بما تأمرُه به، وإنْ كان ناطقًا سامعًا في كلِّ شيءٍ سواها[٢].

٥- قولُه: ﴿خَيۡرًا﴾ نكرةٌ في سياقِ الشَّرطِ، فهي تعمُّ، والمعنى: أنَّ الله لا يعلمُ في قلوبِهم خيرًا أبدًا في وقتٍ مِن الأوقاتِ، كائنًا ما كان، ولا زَمَنٍ مِن الأزمانِ[٣].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ دلالةٌ على أنَّه سبحانَه يَعْلَمُ الشيءَ قبلَ كَوْنِه[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ فيه افتتاحُ الخِطابِ بالنِّداءِ؛ للاهتمامِ بما سيُلقَى إلى المخاطبينَ، قَصدًا لإحضارِ الذِّهنِ لِوَعيِ ما سيُقالُ لهم[٥].

- والتَّعريفُ بالموصوليَّةِ في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٢١).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٦).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٣).

المَوصوفينَ بهذه الصِّلةِ مِن شَأنِهم أن يتقَبَّلوا ما سيُؤمَرونَ به، وأنَّه كما كان الشِّركُ مُسَبِّبًا لِمُشاقَّةِ اللهِ ورَسولِه، فخَليقٌ بالإيمانِ أن يكونَ باعِثًا على طاعةِ اللهِ ورَسولِه[١].

- وإفرادُ الضَّميرِ المجرورِ بـ (عن) في قَولِه: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ دون أن يُقالَ: (ولا توَلَّوا عنهما)؛ لأنَّه يَعودُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّ المرادَ مِن الآيةِ الأمرُ بطاعَتِه، والنَّهيُ عن الإعراضِ عنه، وذِكرُ طاعةِ اللهِ لِلتَّوطئةِ والتَّنبيهِ على أنَّ طاعةَ اللهِ في طاعةِ الرَّسولِ؛ لأنَّ طاعةَ اللهِ وطاعةَ الرَّسولِ، شَيءٌ واحِدٌ، فكأنَّ رُجوعَ الضَّميرِ إلى أحَدِهما كرُجوعِه إليهما[٢]، وقيل غير ذلك[٣].

- قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ واردةٌ لِتأكيدِ وُجوبِ الانتهاءِ عَن التَّولِّي مُطلقًا، لا لتَقييدِ النَّهيِ عنه بحالِ السَّماعِ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

- تقريرٌ للنَّهيِ السَّابِقِ ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ ...﴾، وتحذيرٌ عن مُخالَفَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّنبيهِ على أنَّها مُؤدِّيةٌ إلى انتظامِهم في سِلكِ الكَفَرةِ، بكَونِ سَماعِهم كَلَا سَماعٍ[٥].

- وفيه تعريضٌ بأهلِ هذه الصِّلةِ مِن الكافرينَ أو المُنافِقينَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٥٤).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢١٧-٢١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٤).

- قوله: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ جاءتِ الجُملةُ النَّافيةُ ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ على غَيرِ لَفظِ المُثبَتة ﴿سَمِعْنَا﴾- إذْ لم تأتِ: (وهُم ما سَمِعوا)- لأنَّ لَفظَ المضِيِّ لا يدلُّ على استمرارِ الحالِ ولا دَيمومَتِه، بخلافِ نَفيِ المُضارِعِ، فكما يدلُّ إثباتُه على الدَّيمومةِ كذلك يجيءُ نَفيُه، وجاء حرفُ النَّفيِ (لا)؛ لأنَّها أوسَعُ في نفيِ المُضارِعِ مِن (ما)، وأدلُّ على انتفاءِ السَّماعِ في المُستقَبلِ، أي: هُم ممَّن لا يَقبَلُ أن يَسمَعَ[١].

- وتقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ للاهتمامِ بِه، ليتقَرَّرَ مفهومُه في ذِهنِ السَّامِعِ، فيرسَخَ اتِّصافُه بمفهومِ المُسنَدِ، وهو انتفاءُ السَّمعِ عَنهم[٢].

٣- **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

- جملةٌ استئنافيَّةٌ، مَسوقةٌ لِبَيانِ كَمالِ سُوءِ حالِ المُشَبَّهِ بهم؛ مبالغةً في التَّحذيرِ، وتقريرًا للنَّهيِ إثرَ تقريرٍ[٣].

- وقَولُه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ قَيدٌ أُريدَ به زيادةُ تَحقيقِ كَونِهم أشَرَّ الدَّوابِّ، بأنَّ ذلك مُقَرَّرٌ في عِلمِ اللهِ، وليس مُجرَّدَ اصطلاحٍ ادِّعائيٍّ[٤]، وقيل: لما كان لهم مَن يُفضِّلُهم، وكانت العبرةُ بما عندَه سبحانه، قال تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾[٥].

- ووُصِفُوا بالصَّمَمِ والبَكَمِ؛ لأنَّ ما خُلِقَ له الأُذنُ واللِّسانُ، سماعُ الحَقِّ والنُّطقُ به، وحيثُ لم يُوجَدْ فيهم شيءٌ من ذلك، صاروا كأنَّهم فاقِدونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٦).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٤٨).

للجارِحَتينِ رأسًا؛ وتقديمُ ﴿ٱلصُّمُّ﴾ على ﴿ٱلۡبُكۡمُ﴾ لِما أنَّ صَمَمَهم مُتقدِّمٌ على بَكَمِهم؛ فإنَّ السُّكوتَ عَن النُّطقِ بالحَقِّ مِن فُروعِ عدمِ سَماعِهم له، كما أنَّ النُّطقَ به مِن فُروعِ سماعِه[١].

- قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ وَصَفَهم بعَدَمِ التَّعقُّلِ؛ تحقيقًا لِكَمالِ سُوءِ حالِهم، فإنَّ الأصمَّ الأبكمَ إذا كان له عَقلٌ، ربَّما يَفهَمُ بعضَ الأمورِ، ويُفهِمُه غيرُه بالإشارةِ، ويهتدي بذلك إلى بَعضِ مَطالبِه، وأمَّا إذا كان فاقِدًا للعَقلِ أيضًا، فهو الغايةُ في الشَّرِّيةِ، وسُوءِ الحالِ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾

- وقعَتِ الكنايةُ عن عَدَمِ استعدادِ مَدارِكِهم للخَيرِ، بعِلمِ اللهِ عَدمَ الخَيرِ فيهم. ووقع تشبيهُ عَدمِ انتفاعِهم بِفَهمِ آياتِ القُرآنِ بِعَدمِ إسماعِ اللهِ إيَّاهم؛ لأنَّ الآياتِ كَلامُ اللهِ، فإذا لم يَقبَلوها فكأنَّ اللهَ لم يُسمِعْهم كلامَه، فالمرادُ انتفاءُ الخَيرِ الجبليِّ عنهم، وهو القابليَّةُ للخَيرِ[٣].

- قوله: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ صَوغُ هذه الجُملةِ بِصيغةِ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ إعراضِهم، أي: إعراضًا لا قَبولَ بعده، وهذا يُفيدُ أنَّ مِن التَّولِّي ما يعقُبُه إقبالٌ، وهو تولِّي الذين تولَّوا، ثمَّ أسلَمُوا بعد ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣١١).

الآيات (٢٤-٢٦)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَحُولُ﴾: أي: يَحجُز، وأصلُ الحَوْلِ: تغيُّرُ الشَّيءِ، وانفصالُه عن غَيرِه[١].

﴿يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾: أي: يأخُذونَكم بِسُرعةٍ، ويَستَلِبونَكم، ويقتلُونَكم، والخَطفُ: أَخذُ الشَّيءِ بِسُرعةٍ واستِلابٍ[٢].

﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾: أي: جعَلَ لكم مَأوًى تأوون إليه، وأصْلُه: يدلُّ على التَّجمُّعِ[٣].

﴿وَأَيَّدَكُم﴾: أي: قَوَّاكم وأعانَكم، والأَيْدُ: القُوَّةُ الشَّديدةُ، وأصلُ (أيد): يدلُّ على القوَّةِ والحِفظِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٧)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣)،

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ عِبادَه المُؤمنينَ أن يَستَجيبوا بالطَّاعةِ للهِ وللرَّسولِ، إذا دعاهم الرَّسولُ إلى ما فيه صَلاحٌ وحياةٌ لِأبدانِهم وأرواحِهم في الدُّنيا والآخرةِ، وأن يَعلَموا أنَّ اللهَ يحجُزُ بين المَرءِ وقَلبِه إذا شاء، وأنَّه إليه تعالى مَصيرُهم يومَ القِيامةِ.

وأمَرَهم أن يَحذَرُوا بلاءً يأتيهم مِن رَبِّهم، لا يختَصُّ وقوعُه بِمَن ظَلَم نفسَه بارتكابِ المعاصي، بل يعُمُّ المُسيءَ وغَيرَه، مِمَّن رأى المُنكَر يُرتكَبُ ولم يَنْهَ عنه، ولم يُغَيِّرْه، إن كان قادرًا على ذلك، وأن يَعلموا أنَّه سُبحانَه شَديدُ العِقابِ.

وأمَرَهم أن يَذكُروا إذ هم قَليلٌ عَدَدُهم، يستضعِفُهم أعداؤُهم، يخافونَ أن يَستَلِبَهم الكُفَّارُ، فيأخُذوهم بِسُرعةٍ واحدًا تِلوَ الآخَرِ، فيقتُلوهم، فآواهم اللهُ، وقَوَّاهم وأعانَهم، حتى انتَصَروا على أعدائِهم، ورَزَقهم من الطَّيِّباتِ؛ لعلَّهم يَشكُرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾.

أي: يا أيُّها المؤْمِنونَ أجيبُوا اللهَ ورَسولَه بِطاعَتِهما، والمُبادرةِ إلى الانقيادِ لِأمْرِهما، واجتنابِ نَهْيِهما[1].

((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢).

﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

أي: إذا دعاكم الرَّسولُ إلى ما فيه صلاحٌ لكم، وحياةٌ طيبةٌ نافعةٌ لأبدانِكم وأرواحِكم؛ في الدُّنيا والآخرةِ، كالدَّعوةِ إلى الجِهادِ[(١)]، والدَّعوةِ إلى تدبُّرِ القُرآنِ والعَمَلِ به، وغَيرِ ذلك مِن كُلِّ ما دعا اللهُ ورَسولُه إليه ظاهِرًا وباطِنًا[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ

---

(١) قال ابنُ القيِّم: (قَالَ الواحديُّ والأكثرونَ على أَنَّ معنَى قولِه: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هو الجهادُ، وهو قولُ ابنِ إسحاقَ، واختيارُ أكثرِ أهلِ المعاني). ((الفوائد)) (ص: ٨٨)، ويُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨٨-٨٩)، ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢).

ونسَبَ ابنُ عطيَّةَ إلى مجاهدٍ والجُمهورِ القَولَ بأنَّ المرادَ بما يُحيي المؤمنينَ: الطَّاعةُ، وما تضمَّنَه القرآنُ مِن أوامِرَ ونَواهٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١٤).

وذكر ابنُ القيِّم عباراتِ السَّلف في معنَى قولِه: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، ومنها: للحقِّ- القرآنِ- الإسلامِ- الحربِ والجهادِ، ثم قال: (وهذه [كُلُّها] عباراتٌ عن حقيقةٍ واحدةٍ، وهي القيامُ بما جاء به الرَّسولُ ظاهِرًا وباطِنًا). وقال أيضًا: (والآيةُ تتناوَلُ هذا كُلَّه؛ فإنَّ الإيمانَ والإسلامَ والقُرآنَ والجهادَ، يُحيي القُلوبَ الحياةَ الطَّيبةَ، وكَمالُ الحياةِ في الجنَّةِ، والرَّسولُ داعٍ إلى الإيمانِ وإلى الجنَّةِ، فهو داعٍ إلى الحياةِ في الدُّنيا والآخرةِ). ((الفوائد)) (ص: ٨٨-٨٩).

أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

وشبَّه سبحانه مَن لا يستجيبُ لرسولِه بأصحابِ القبورِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[1] [فاطر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

وعن أبي سعيدِ بنِ المعلَّى رضي الله عنه، قال: ((كنتُ أُصلِّي في المسجدِ، فدعاني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلمْ أُجبْهُ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إني كنتُ أُصلِّي، فقالَ: ألم يقلِ اللهُ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. ثم قال لي: لأُعلِّمنَّكَ سورةً هي أعظمُ السوَرِ في القرآنِ، قبل أن تخرجَ منَ المسجدِ. ثمَّ أخَذ بيدي، فلما أراد أن يخرجَ، قلتُ لهُ: ألم تقلْ: لأُعلِّمنَّكَ سورةً هي أعظمُ سورةٍ في القرآنِ. قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: هي السبعُ المثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُهُ))[2].

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَهم اللهُ تعالى بالاستجابةِ له ولرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حذَّرهم من التَّخَلُّفِ والتأخُّرِ عن الاستجابةِ، الَّذِي يكونُ سَببًا لِأنْ يحولَ بينَهم وبينَ قُلوبِهم[3]، فقال:

---

(١) قال ابنُ القَيِّم: (هذا مِن أحسَنِ التَّشبيهِ؛ فإنَّ أبدانَهم قُبورٌ لِقُلوبِهم، فقد ماتت قُلوبُهم وقُبِرَت في أبدانِهم). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٢٢).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾

أي: واعلَموا- أيُّها المؤمنونَ- أنَّ اللهَ تعالى يحجُزُ بين العَبدِ وقَلبِه إذا شاء، فلا يستطيعُ المَرءُ أن يُدرِكَ ويعِيَ به شيئًا مِن حقٍّ أو باطلٍ، إلَّا بإذنِ اللهِ تعالى، فقُلوبُكم بِيَدِ خالِقِكم سُبحانه، يُصَرِّفُها ويُقَلِّبُها كيف يشاءُ؛ يُصَرِّفُها مِن الهُدى إلى الضَّلالةِ، ومِن الضَّلالةِ إلى الهُدى، فإيَّاكم أن تردُّوا أمْرَ اللهِ حين يأتِيكم، أو تتثاقَلُوا وتتباطَؤُوا عن الاستجابةِ له، فلا تأمَنُوا حينَها أن يُحالَ بينَكم وبينَ قُلوبِكم، فلا تَقْدِروا على الاستجابةِ بعد ذلك إذا أردْتُموها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٢ - ١١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٧).
وهذا المعنى المذكورُ هو في الجُملةِ اختيارُ ابنِ جريرٍ، والواحديِّ، والسعديِّ، والشنقيطيِّ. ونسبَه ابنُ القَيِّم إلى جمهورِ المُفَسِّرين. يُنظر: المصادر السابقة.
وممن رُوي عنه هذا القولُ مِن السَّلفِ: السُّديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١١).
وثمَّ معنًى آخرُ ذكره الزَّجاج، وذكره الواحدي عن قتادة، وذكره ابنُ القَيِّم، ورآه أنسبَ للسياقِ، وهو أنَّ اللهَ تعالى قريبٌ مِن قَلبِ العَبدِ، وأقرَبُ إليه مِن قَلْبِه، لا يخفَى عليه شيءٌ أظهَرَه أو أسَرَّه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٤٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٩٢)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٠).

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وقد أثنَى الله عزَّ وجلَّ على عبادِه الراسخينَ في العلمِ بأنَّهم يقولونَ: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] إلى أن قال عنهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾[(١)] [آل عمران: ٨].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُكثِرُ أن يقولَ: يا مقلِّبَ القُلوبِ! ثبِّتْ قَلبي علَى دينِك، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ! آمنَّا بك وبما جئتَ بهِ، فهل تخافُ علَينا؟! قال: نعَم؛ إنَّ القُلوبَ بين أُصبعَينِ من أصابعِ اللهِ، يقلِّبُها كيف يشاءُ))[(٢)].

وعن النوَّاسِ بنِ سمعانَ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((ما مِن قلبٍ إلَّا وهو بينَ أُصبعينِ مِن أصابعِ ربِّ العالمينَ، إن شاء أن يُقيمَه أقامه، وإن شاء أن يُزيغَه أزاغه. وكان يقولُ: يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلوبَنا على دينِك))[(٣)].

﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجة (٣٨٣٤)، وأحمد (١٢١٠٧)، والبزار (٧٥٠٨).
حسنه الترمذي، وقال الذهبي في ((الميزان)) (٢/ ٣٤٣): صحيح غريب. وقال المناوي في ((تخريج أحاديث المصابيح)) (١/ ١١٢): رجاله رجال مسلم في الصحيح. وصححه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (٢١٤٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٩٩)، وأحمد (١٧٦٣٠) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٧٣٨).
أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٩٤٣)، وقال ابنُ منده في ((الرد على الجهمية)) (٨٧): ثابتٌ، رواه الأئمةُ المشاهيرُ ممن لا يمكنُ الطعنُ على واحدٍ منهم، وجوَّد إسنادَه بنحوه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٣/ ٥٦)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٦٦).

أي: واعلَمُوا- أيُّها المؤمنونَ- أيضًا مع العِلمِ بأنَّ اللهَ يَحولُ بينَ المرءِ وقَلْبِه، أنَّ إلى اللهِ تعالى مَصيرَكم ومَرجِعَكم يومَ القيامةِ، فتُجمَعون إليه وَحْدَه، فيُوفِّيكم جزاءَ أعمالِكم؛ إنْ خَيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، فاحذروا مِن تَرْكِ الاستجابةِ لِرَسولِه إذا دعاكم لِما يُحيِيكم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢].

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه عقَّبَ التَّحريضَ على الاستجابةِ، المُستلزِمَ التَّحذيرَ مِن ضِدِّها، بتَحذيرِ المُستجيبينَ مِن إعراضِ المُعرِضينَ؛ لِيَعلَموا أنَّهم قد يلحَقُهم أذًى مِن جرَّاءِ فِعلِ غَيرِهم، إذا هم لم يُقَوِّمُوا عِوَجَ قَومِهم؛ كيلا يحسَبُوا أنَّ امتثالَهم كافٍ إذا عصى دَهْماؤُهم، فحَذَّرَهم فتنةً تَلحَقُهم، فتعُمُّ الظَّالمَ وغيرَه[2]، فقال:

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾.

أي: احْذَروا- أيُّها المؤمنونَ- مِن بلاءٍ يأتيكم مِن اللهِ، لا يختَصُّ وقوعُه بمَن ظَلَم نَفسَه بارتكابِ المعاصي، بل يعُمُّ المسيءَ وغَيرَه، ممَّن يرى المُنكَر يُرتكَبُ، ولا ينهَى عنه، أو يُغيِّرُه مع قدرتِه على ذلك، فحينَ لا تُدفَعُ ولا تُرفَعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٦).

تلك المعاصي الظَّاهرةُ بالنَّهيِ عنها، وقَمْعِ أهلِها، وعدَمِ تَمكينِهم منها، حينَها يعُمُّ اللهُ تعالى الجميعَ بعقابٍ يَحُلُّ بهم[١].

كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۞ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

وعن زينبَ بنتِ جَحشٍ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((استيقَظَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن النَّومِ مُحمَرًّا وجهُه، يقول: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويلٌ للعَرَبِ من شرٍّ قد اقتَرَب، فُتِحَ اليومَ من ردْمِ[٢] يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه. وعقَدَ سُفيانُ تسعينَ أو مِئةً[٣]، قيل: أنَهلِكُ وفينا الصَّالِحونَ؟ قال: نعم، إذا كثُرَ الخبَثُ[٤]))[٥].

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَثَلُ القائمِ على حُدودِ اللَّهِ والواقِعِ فيها، كمَثَلِ قومٍ استَهَمُوا على سفينةٍ، فأصابَ بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفَلَها، فَكانَ الَّذينَ في أسفَلِها إذا استَقَوا منَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٢-٣٩٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٨٢-٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧-٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٨-٦٠). ونسَب الشنقيطيُّ هذا القولَ إلى جمهورِ المفسِّرينَ.
قال ابنُ كثيرٍ: (والقَولُ بأنَّ هذا التَّحذيرَ يعُمُّ الصَّحابةَ وغَيرَهم- وإن كان الخطابُ معهم- هو الصَّحيحُ، ويدلُّ على ذلك الأحاديثُ الواردةُ في التَّحذيرِ مِن الفِتَنِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨).

(٢) الرَّدْمُ: السَّدُّ، وهو سدٌّ بناه ذو القَرنينِ في وجهِ يأجوجَ ومأجوجَ؛ كي لا يخرجوا مِن مواطِنِهم في الأرضِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٣٢٢).

(٣) عَقدُ التِّسعينَ: وهو أنْ تَجْعلَ رأسَ الأصْبعِ السَّبَّابةِ في أصلِ الإبْهامِ، وتَضُمُّها حتَّى لا يَبِينَ بينَهما إلَّا خَلَلٌ يَسِيرٌ، وعَقدُ المئةِ مِثلُ عَقدِ التِّسعينَ، لكن بالخِنصَرِ اليُسرى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢١٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ١٠٨).

(٤) الخَبَثُ: المرادُ به الفُسوقُ والفجورُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ١٠٩).

(٥) رواه البخاري (٧٠٥٩)، واللفظ له، ومسلم (٢٨٨٠).

الماءِ مرُّوا على مَن فَوقَهم، فقالوا: لو أنَّا خَرَقْنا في نَصيبِنا خَرقًا ولم نُؤذِ مَن فَوْقَنا، فإن يترُكوهم وما أرادُوا هلَكوا جميعًا، وإن أخَذُوا على أيدِيهم نَجَوْا، ونَجَوْا جميعًا))[١].

وعن قَيسِ بنِ أبي حازمٍ، قال: ((قال أبو بكرٍ، بعد أن حَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّكم تَقرَؤونَ هذه الآيةَ، وتَضعونَها على غيرِ مَوضِعِها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾، وإنَّا سَمِعْنا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: إنَّ النَّاسَ إذا رأَوُا الظَّالمَ فلَم يأخُذوا على يدَيْه؛ أوشَكَ أن يعُمَّهم اللهُ بعقابٍ))[٢].

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: واعلَمُوا- أيُّها المُؤمنونَ- أنَّ رَبَّكم شديدٌ عقابُه لِمَن تعرَّض لمساخطِه، وجانَب رِضاه، بِتَركِه امتثالَ أوامِرِه، واجتنابَ نواهِيه[٣].

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانه قَولَه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وكان مِن أشَدِّ العِقابِ

---

(١) رواه البخاري (٢٤٩٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨) واللفظ له، والترمذي (٢١٦٨) (٣٠٥٧)، وأحمد (١/ ٢٠٨).
قال الترمذي (حسن صحيح)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٣/ ٢٠٨)، وابنُ العربيِّ في ((الناسخ والمنسوخ)) (٢/ ٢٠٥)، والألباني في ((صحيح أبي داود)) (٤٣٣٨)، وصحح إسناده النووي في ((الأذكار)) (٤١٢)، وأحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (١/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦١).

الإذلالُ؛ حَذَّرَهموه بالتَّذكيرِ بما كانوا فيه مِن الذُّلِّ[١].

وأيضًا لما أمر الله تعالى بالاستجابةِ له ولرسولِه؛ ذكَّر المُؤمنينَ بنعمتِه عليهم بالعِزَّةِ والنَّصرِ، بعد الضَّعفِ والقِلَّةِ والخَوفِ؛ لِيَذكُروا كيف يَسَّرَ اللهُ لهم أسبابَ النَّصرِ مِن غَيرِ مظانِّها، حتى أوصَلَهم إلى مُكافحةِ عَدُوِّهم، وأنْ يتَّقيَ أعداؤُهم بأسَهم، فكيف لا يستجيبونَ لله فيما بعدَ ذلك، وهم قد كَثُروا وعَزُّوا وانتصَرُوا[٢]؟!

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: واذكُرُوا- أيُّها المؤمنونَ- حين كان عَدَدُكم قليلًا جدًّا، أثناءَ مُقامِكم بأرضِ مَكَّةَ، يراكم أعداؤُكم ضُعَفاءَ، ويَقْهَرونَكم، ويُؤذُونكم بسبَبِ إيمانِكم[٣].

﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾.

أي: تَخافونَ أن يستَلِبَكم الكُفَّارُ[٤]، فيأخُذوكم بسرعةٍ، واحدًا تِلوَ الآخَرِ، فيقتلوكم؛ إذ لم تكُنْ لديكم مَنَعةٌ بكثرةٍ ولا بِقُوَّةٍ[٥].

﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٢).

(٤) اختار ابنُ جريرٍ أنَّ المرادَ بالنَّاسِ هنا: مُشرِكو قريشٍ، وذهب ابنُ كثيرٍ إلى أنَّ المُرادَ بهم مَن يُعادِيهم مِن النَّاسِ مِن سائِرِ بلادِ اللهِ؛ مِن مُشركٍ ومَجوسيٍّ ورومِيٍّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧، ١١٩، ١٢٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٢-٥٦٣).

أي: فجعَلَ لكم بلدًا تَأوُونَ إليه مِنهم، وهي المدينةُ: دارُ الهِجرةِ[١].

﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾.

أي: وقوَّاكم وأعانَكم بأهلِ المَدينةِ؛ الأنصارِ، فتَمَكَّنتُم مِن الانتصارِ على أعدائِكم بِبَدرٍ وغَيرِها[٢].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

أي: وأطعَمَكم الغنائِمَ حلالًا طيِّبًا، كما رزَقَكم غنائِمَ يومَ بَدرٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [الأنفال: ٦٩].

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

أي: تذكَّروا هذا الإنعامَ والإحسانَ التَّامَّ؛ لأجْلِ أن تَشكُروا المُنعِمَ سُبحانَه على ذلك، فتُطيعوه وتَعبُدوه وَحدَه؛ حيث كُنتُم قليلينَ فكَثَّركم، وأذلَّةً مُستضعَفينَ خائِفينَ، فأعَزَّكم وقوَّاكم ونَصَركم، وفُقراءَ عالةً فأغناكم ورَزَقَكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧، ١٢٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧، ١٢٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٢، ٥٦٤، ٥٦٥).

قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ [سبأ: ١٥].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- حياةُ القَلبِ والرُّوحِ تكونُ بالعبوديَّةِ لله تعالى، ولُزومِ طاعَتِه وطاعةِ رَسولِه على الدَّوامِ، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾، فقولُه: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ وصفٌ مُلازِمٌ لكُلِّ ما دعا اللهُ ورَسولُه إليه، وبيانٌ لِفائِدَتِه وحِكمَتِه[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ الحياةُ النَّافعةُ إنَّما تحصُلُ بالاستجابةِ لِلَّهِ ورَسولِه، فمَن لم تحصُلْ له هذه الاستجابةُ، فلا حياةَ له، وإن كانت له حياةٌ بَهيميَّةٌ مُشتَرَكةٌ بينه وبين أرذَلِ الحيواناتِ؛ فالحياةُ الحقيقيَّةُ الطَّيبةُ هي حياةُ مَن استجابَ للهِ والرَّسولِ ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاءِ هم الأحياءُ وإن ماتوا، وغيرُهم أمواتٌ وإن كانوا أحياءَ الأبدانِ؛ ولهذا كان أكمَلُ النَّاسِ حياةً أكمَلَهم استجابةً لِدَعوةِ الرَّسولِ، فإنْ كان ما دعا إليه فيه الحياةُ، فمَن فاتَه جُزءٌ منه فاتَه جزءٌ مِن الحياةِ، وفيه من الحياةِ

قال الشنقيطي: (شُكْرُ العَبدِ لِرَبِّه. قال بعضُ العُلَماءِ: ضابِطُه المُنطَبِقُ على جُزئيَّاتِه: هو أن يَستعمِلَ جميعَ نِعَمِ الله فيما يُرضِي اللهَ). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

بحَسَبِ ما استجابَ للرَّسولِ[١].

٣- اللهُ تعالى هو القادِرُ على الحَيلولةِ بينَ الإنسانِ وبين ما يَشتَهيه قَلبُه؛ فهو بِيَدِه تعالى مَلكوتُ كُلِّ شَيءٍ وزِمامُه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾، وفي ذلك حَضٌّ على المُراقبةِ والخوفِ منه تعالى، والبِدارِ إلى الاستجابةِ له[٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي: إلى اللهِ تعالى تُحشَرونَ لا إلى غَيرِه، فيُجازيكم بأعمالِكم، ولا تُترَكونَ مُهمَلينَ مُعَطَّلينَ، وفي ذلك ترغيبٌ شَديدٌ في العَملِ، وتحذيرٌ عن الكَسَلِ والغَفلةِ[٣].

٥- قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ قولُه: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فيه تحذيرٌ شديدٌ، وتخويفٌ لمن يُقصِّرُ في امتثالِ أمرِه، واجتنابِ نهيِه، فليس للمسلمِ أن يُقصِّر في الأمرِ بالمعروفِ، والنهيِ عن المنكرِ ما وجَد إلى ذلك سبيلًا[٤].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ دليلٌ على وجوب المراعاةِ، وأَخْذِ الحذرِ، والاحتراسِ مِن الفتنِ قبلَ وقوعِها[٥].

٧- النُّقلةُ مِن الشِّدَّةِ إلى الرَّخاءِ، ومِن البَلاءِ إلى النَّعماءِ والآلاءِ؛ تُوجِبُ الاشتغالَ بالشُّكرِ والطَّاعةِ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٦٤).
(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦١).
(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٨).

وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ دليلٌ على وجوب تَذَكُّرِ النِّعَم؛ والفِكْرِ في حُسْنِ صنيعِ اللهِ[٢].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ تَذَكُّرَ النِّعَم يَستخرجُ الشكرَ مِن العبدِ؛ فإذا أغفلها أغفلَ الشُّكرَ معها[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ إعادةُ حَرفِ الجَرِّ بعد واو العَطفِ في قَولِه: ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾؛ للإشارةِ إلى استقلالِ المَجرورِ بالتَّعَلُّقِ بفِعلِ الاستجابةِ؛ تَنبيهًا على أنَّ استجابةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أعَمُّ مِن استجابةِ اللهِ؛ لأنَّ الاستجابةَ لِلَّهِ لا تكونُ إلَّا بمعنى الطَّاعةِ، بخلافِ الاستجابةِ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّها بالمعنى الأعَمِّ- وهو استجابةُ نِدائه، والطَّاعةُ- فأُريدَ أمْرُهم بالاستجابةِ للرَّسولِ بالمعنَيَينِ كُلَّما صَدَرَت منه دعوةٌ تقتضي أحَدَهما[٤].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٤).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٩).
(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢).

دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يقتضي الأمرَ بالامتثالِ لِما يَدعُو إليه الرَّسولُ، سواءٌ دعا حقيقةً بِطَلَبِ القُدومِ، أم طَلَبَ عَملًا من الأعمالِ؛ فلذلك لم يكُن قَيدُ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ مقصودًا لتقييدِ الدَّعوةِ بِبَعضِ الأحوالِ، بل هو قَيدٌ كاشِفٌ؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَدعُوهم إلَّا وفي حُضُورِهم لديه حياةٌ لهم[١].

٣- ليس قولُه: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قيدًا للأمرِ باستجابةٍ، ولكنَّه تنبيهٌ على أنَّ دعاءَه إيَّاهم لا يكونُ إلَّا إلى ما فيه خيرٌ لهم، وإحياءٌ لأنفسِهم[٢]، وقيل: هو تنبيهٌ على وُجوبِ اتِّباعِ الرَّسولِ في كلِّ ما يدعو إليه، وحكمةُ الإتيانِ به: الإعلامُ بأنَّه ما ترك خيرًا إلَّا دعا إليه[٣].

٤- لمَّا كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعوهم لا محالةَ، لأنَّ الله تعالى أمَره بدعائِهم، وكان لا يَدْعوهم إلَّا إلى ما أمَره الله به، وكان سبحانَه لا يَدْعو إلَّا إلى صلاحٍ ورشدٍ؛ عبَّر بأداةِ التحقيقِ ﴿إِذَا﴾ ووحَّد الضميرَ ﴿دَعَاكُمْ﴾ وشوَّق بإثمارِ الحياةِ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٤].

٥- لَمَّا كان اجتِناءُ ثَمرةِ الطَّاعةِ في غايةِ القُربِ؛ نَبَّه على ذلك باللَّامِ دُونَ (إلى)، فقال: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٥].

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ لَمَّا كان وجودُ مُطلَقِ الاستضعافِ دالًّا على غايةِ الضَّعفِ؛ بنى للمَفعولِ قَولَه: ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٠٣-١٠٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٥١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) .

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٥٩).

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾

- تكريرُ النِّداءِ مع وَصْفِهم بنَعتِ الإيمانِ؛ لِتَنشيطِهم إلى الإقبالِ على الامتثالِ بما يَرِدُ بَعدَه من الأوامِرِ، وتنبيهِهم على أنَّ فيهم ما يُوجِب ذلك[١]، أي: إنَّ الإيمانَ هو الذي يقتضي أن يَثِقُوا بعنايةِ اللهِ بهم، فيمتَثِلوا أمْرَه إذا دعاهم[٢].

- ووحَّدَ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾؛ لأنَّ الدُّعاءَ مِن فِعلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُباشرةً، ولأنَّ استجابةَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كاستجابَتِه تعالى[٣].

- والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ للتَّأكيدِ[٤].

٢- **قَولُه تعالى:** ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾

- افتُتِحَت الجملةُ بـ (اعْلَمُوا)؛ للاهتمامِ بما تتضَمَّنُه، وحَثِّ المُخاطَبينَ على التأمُّلِ فيما بَعدَه[٥].

- وفيه تعريضٌ غالبًا بغَفلةِ المُخاطَبِ عن أمرٍ مُهِمٍّ؛ فمِنَ المَعروفِ أنَّ المُخبِرَ أو الطَّالِبَ، ما يُريدُ إلَّا عِلمَ المُخاطَبِ، فالتَّصريحُ بالفِعلِ الدَّالِّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣١٤).

طلَبِ العِلمِ مَقصودٌ للاهتمامِ[١].

- قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ فيه تَصويرٌ لتَمَلُّكِه سُبحانَه على العَبدِ قَلبَه، بحيثُ يَفسَخُ عَزائِمَه، ويُغَيِّرُ نِيَّاتِه ومَقاصِدَه، ويَحولُ بينه وبينَ الكُفرِ إن أرادَ سَعادَتَه، ويُبَدِّلُه بالأمْنِ خَوفًا، وبالذِّكرِ نِسيانًا، وما أشبَهَ ذلك من الأمورِ المُعتَرِضة المُفَوِّتةِ للفُرصةِ. والمقصودُ مِن هذا تَحذيرُ المُؤمنينَ مِن كُلِّ خاطِرٍ يخطُرُ في النُّفوسِ: مِنَ التَّراخي في الاستجابةِ إلى دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتنصُّلِ منها، أو التَستُّرِ في مُخالَفتِه، والحثُّ على المُبادرةِ بالامتثالِ، وعَدَمِ إرجاءِ ذلك إلى وَقتٍ آخرَ؛ خَشيةَ أن تعتَرِضَ المرءَ موانِعُ مِن تَنفيذِ عَزمِه على الطَّاعةِ[٢].

- وقوله: ﴿يَحُولُ﴾ جيء به بصيغةِ المُضارعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك يتجَدَّدُ ويستمِرُّ[٣].

- قولُه: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ تقديمُ مُتعَلِّقِ ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ عليه؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: إليه لا إلى غَيرِه تُحشَرونَ، وهذا الاختصاصُ للكنايةِ عَن انعدامِ ملجأٍ أو مخبأٍ تلتجِؤونَ إليه مِن الحَشرِ إلى اللهِ؛ فكنَّى عن انتفاءِ المكانِ بانتفاءِ مَحشورٍ إليه غيرِ اللهِ، بأبدَعِ أُسلوبٍ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣١٦).

- جيءَ بالجُملةِ ﴿أَنتُمۡ قَلِيلٌ﴾ اسميَّةً؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ وَصفِ القِلَّةِ والاستضعافِ فيهم[١].

- وجملة: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ إدماجٌ بذِكرِ نِعمةِ تَوفيرِ الرِّزقِ في خلالِ المِنَّةِ بنِعمةِ النَّصرِ، وتوفيرِ العَدَدِ بعدَ الضَّعفِ والقِلَّةِ؛ فإنَّ الأمنَ ووَفرةَ العَددِ يَجلِبانَ سَعةَ الرِّزقِ[٢].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٠).

الآيات (٢٧-٢٩)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فُرۡقَانٗا﴾: أي: فَصلًا وفَرْقًا بَينَ الحَقِّ والباطِلِ، وأصلُه مِن الفَرْقِ، وهو الانفصالُ، والتَّمييزُ بين شَيئينِ[(١)].

﴿وَيُكَفِّرۡ﴾: أي: يَمحُ ويَستُرْ، ، وأصلُ (كفر) يدلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

نهَى اللهُ عبادَه المُؤمنينَ عَن خِيانةِ اللهِ ورَسولِه، وعن خيانةِ كُلِّ ما اؤتُمِنوا عليه، وهم يَعلمونَ بكَونِها أمانةً يجِبُ الوفاءُ بها.

ثمَّ أمَرَهم أن يَعلَموا أنَّ أموالَهم وأولادَهم ابتلاءٌ واختبارٌ مِن اللهِ تعالى لهم؛ لِينظُرَ هل يؤدُّونَ حقَّ اللهِ تعالى فيها، أم سوفَ تَحمِلُهم محبَّتُها على تقديمِ هَوى أنفُسِهم، وأمَرهم أن يَعلَموا أنَّ اللهَ عِندَه ثوابٌ عَظيمٌ لِمَن امتثَلَ أمْرَه.

وبيَّن لِعبادِه المؤمنينَ أنَّهم إن يتَّقوه بامتثالِ أمْرِه واجتنابِ نَهْيِه، فسيجعَلُ لهم علمًا، يُفَرِّقُون به بينَ الحقِّ والباطلِ، ومَخرجًا مِن كُروبِ الدُّنيا ونجاةً، ونصرًا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣-٤٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢-٦٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢، ١٢٨، ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

وتأييدًا، وسيمحو عنهم ما تقدَّمَ مِن ذُنوبِهم، ويستُرُها، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، واللهُ ذو الفَضلِ العَظيمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ختَمَ الله تعالى الآيةَ السَّابِقةَ بما هو في غايةِ النَّصيحةِ مِنه تعالى لهم؛ من الإيواءِ والنَّصرِ، والرِّزقِ الطَّيِّبِ المُشارِ به إلى الامتنانِ بإحلالِ المَغنَمِ، وختم ذلك بالحَثِّ على الشُّكرِ؛ نهى عن تضييعِ الشُّكرِ في ذلك بالخيانةِ في أوامِرِه بالغُلولِ أو غَيرِه[1].

وأيضًا بعدَ أنْ أمَرَ اللهُ تعالى المُؤمنينَ بالطَّاعةِ والاستجابةِ للَّه ولِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حَذَّرَهم من أن يُظهِروا الطَّاعةَ والاستجابةَ في ظاهِرِ أمْرِهم، ويُبطِنوا المَعصيةَ والخِلافَ في باطِنِه، فقال تعالى[2]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾.

أي: يا أيُّها المُؤمِنون لا تَنْقُصُوا[3] ما ينبغي عليكم حِفظُه وأداؤُه تامًّا مِن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢١).

(٣) قال ابن عاشور: (الخَونُ والخيانةُ: إبطالُ ونَقضُ ما وقع عليه تعاقُدٌ مِن دونِ إعلانٍ بذلك النَّقضِ، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] والخيانةُ ضِدُّ الوفاءِ. قال الزمخشري: «وأصلُ معنى الخَونِ: النَّقصُ، كما أنَّ أصلَ الوَفاءِ التَّمامُ، ثم استُعمِلَ الخَونُ في ضِدِّ الوفاءِ؛ لأنَّك إذا خُنتَ الرَّجُلَ في شيءٍ فقد أدخَلْتَ عليه النُّقصانَ فيه» أي: واستُعمِلَ الوَفاءُ في الإتمامِ بالعَهدِ؛ لأنَّ مَن أنجَزَ بما عاهد عليه فقد أتمَّ عَهدَه، فلذلك يقال: أوفى بما عاهَدَ عليه، فالإيمانُ والطَّاعة لله ورَسولِه عَهدٌ بين المؤمِنِ وبين اللهِ ورَسولِه، فكما

حُقوقِ اللهِ تعالى عليكم، وذلك بِتَركِ فرائِضِه، وانتهاكِ حُرُماتِه، ولا تنقُصُوا حقوقَ رَسولِه بِتَركِ طاعَتِه واتِّباعِه[١]، ولكِنْ أطيعُوا الله ورسولَه بامتثالِ الأمرِ، واجتنابِ النهيِ، دونَ تقصيرٍ في ذلك[٢].

عن عليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((بَعثَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبا مَرثَدٍ الغنَويَّ والزُّبيرَ بنَ العوَّامِ، وكلُّنا فارِسٌ، قال: انطلِقوا حتى تأتُوا روضةَ خاخٍ؛ فإنَّ بها امرأةً مِن المُشرِكينَ، معها كتابٌ مِن حاطبِ ابنِ أبي بلتَعةَ إلى المُشرِكينَ، فأدرَكْناها تسيرُ على بَعيرٍ لها، حيثُ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلْنا: الكتابَ، فقالتْ: ما مَعَنا كتابٌ، فأنَخْناها، فالتَمَسْنا فلم نَرَ كِتابًا، فقُلْنا: ما كذَبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لتُخرِجِنَّ الكتابَ أو لنُجَرِّدنَّكِ، فلما رأتِ الجِدَّ أهوتْ إلى حُجْزَتِها[٣]، وهي مُحتَجِزةٌ بكِساءٍ، فأخرَجَتْه، فانطلَقْنا بها إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال عمرُ:

حُذِّروا من المعصيةِ العَلَنيَّةِ، حُذِّرُوا من المعصيةِ الخَفيَّةِ، وتشمَلُ الخيانةُ كُلَّ مَعصيةٍ خَفيَّةٍ، فهي داخلةٌ في (لا تخونوا)؛ لأنَّ الفِعلَ في سياقِ النَّهيِ يَعُمُّ، فكلُّ مَعصيةٍ خَفيَّةٍ، فهي مرادٌ من هذا النَّهيِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٦).

(١) قال ابنُ عاشور: (روى جُمهورُ المُفَسِّرينَ وأهلُ السِّيَرِ... أنَّها نزلَت في أبي لُبابةَ بنِ عبدِ المُنذِر الأنصاريِّ، لَمَّا حاصرَ المُسلمونَ بني قُريظةَ... وهذا الخبَرُ لم يثبُتْ في الصَّحيحِ، ولكنَّه اشتَهَر بين أهلِ السِّيَرِ والمُفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢١).
قال ابنُ جريرٍ: (أولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ نهى المؤمنينَ عَن خِيانَتِه وخيانةِ رَسولِه وخيانةِ أمانَتِه، وجائِزٌ أن تكونَ نَزَلت في أبي لُبابة، وجائِزٌ أن تكون نزَلَت في غَيرِه، ولا خبَرَ عندنا بأيِّ ذلك كان، يجِبُ التَّسليمُ له بصِحَّتِه). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٢-١٢٣).
وقال ابنُ كثيرٍ: (الصَّحيحُ أنَّ الآيةَ عامَّةٌ، وإن صحَّ أنَّها وردت على سببٍ خاصٍّ؛ فالأخذُ بِعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّببِ عند الجماهيرِ مِن العُلَماءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧).

(٣) حُجْزَتِها: أي: مَعْقِد الإزار. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٢٥٦).

يا رسولَ اللهِ، قد خان اللهَ ورسولَه والمؤمنينَ، فدعْني فلْأَضرِبْ عُنقَه. فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما حمَلَك على ما صنعْتَ؟ قال حاطِبٌ: واللهِ ما بي ألَّا أكونَ مُؤمِنًا باللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أردتُ أن يكونَ لي عند القومِ يدٌ، يدفَعُ اللهُ بها عن أهلي ومالي، وليسَ أحدٌ مِن أصحابِك إلَّا له هناك مِن عَشيرَتِه مَن يَدفَعُ اللهُ به عن أهلِه ومالِه. فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: صدَقَ، ولا تقولوا له إلَّا خَيرًا. فقال عمرُ: إنَّه قد خان اللهَ ورسولَه والمؤمنينَ، فدعْني فلْأضرِبْ عُنقَه. فقال: أليسَ مِن أهلِ بَدْرٍ؟ فقال: لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ إلى أهلِ بدرٍ، فقال: اعمَلُوا ما شئتُم؛ فقد وجَبَتْ لكم الجنَّةُ، أو فقد غَفَرْتُ لكم. فدمَعَت عينَا عُمرَ، وقال: اللهُ ورسولُه أعلمُ))[1].

﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾.

أي: ولا تخونوا ما اؤتُمِنتُم عليه[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨].

---

(١) رواه البخاري (٣٩٨٣)، ومسلم (٢٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٣٤-٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧).

قال القرطبي: (الأماناتُ: الأعمالُ التي ائتَمَن اللهُ عليها العبادَ، وسُمِّيَت أمانةً؛ لأنَّها يُؤمَنُ معها مِن مَنْعِ الحقِّ، مأخوذٌ مِن الأمْنِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٥).

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

وقال تعالى: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: ((حدَّثَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حديثَينِ، رأيتُ أحدَهما، وأنا أنتظِرُ الآخَرَ: حدَّثَنا: أنَّ الأمانةَ نزَلَتْ في جَذرِ[١] قلوبِ الرجالِ، ثم علِموا منَ القرآنِ، ثم علِموا منَ السُّنَّةِ. وحدَّثَنا عن رفعِها قال: ينامُ الرجلُ النومةَ فتُقبَضُ الأمانةُ من قلبِه، فيظَلُّ أثرُها مثلَ أثرِ الوَكتِ[٢]، ثم ينامُ النومةَ فتُقبَضُ فيَبقى فيها أثرُها مثلَ أثرِ المَجْلِ[٣]، كجمرٍ دحرَجتَه على رِجلِك فنفِط[٤]، فتَراه مُنتبِرًا[٥]، وليس فيه شيءٌ، ويُصبِحُ الناسُ يتبايَعونَ، فلا يَكادُ أحدٌ يؤدِّي الأمانةَ، فيُقالُ: إنَّ في بني فلانٍ رجلًا أمينًا، ويُقالُ للرجلِ: ما أعقَلَه! وما أظرَفَه! وما أجلَدَه! وما في قلبِه مِثقالُ حبةِ خَردَلٍ من إيمانٍ، ولقد أتى عليَّ زمانٌ، ولا أُبالي أيُّكم بايَعتُ، لئن كان مسلمًا ردَّه عليَّ الإسلامُ، وإن كان نصرانيًّا ردَّه عليَّ ساعيه، وأما اليومَ: فما كنتُ أُبايعُ إلا فلانًا وفلانًا))[٦].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مِن

---

(١) الجَذرُ: الأصلُ مِن كلِّ شَيء. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (١/ ٤٤٨).

(٢) الوَكت: الأثرُ اليسيرُ، وقيل: هو سوادٌ يسيرٌ، وقيل: هو لونٌ يحدثُ مخالفٌ للونِ الذي كان قبلَه. يُنظر: ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (٢/ ٢٨٥)، ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٦٨).

(٣) المَجْلُ: هو التنفُّطُ الذي يصيرُ في اليَدِ مِن العمَلِ بفأسٍ أو نحوِها، ويصيرُ كالقبَّة فيه ماءٌ قليلٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٦٩).

(٤) نَفِطَ، أي: ظهَرَ برِجْلِه نفطةٌ، أي: بَثرةٌ مُجَوَّفةٌ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٣٤٨).

(٥) مُنتبِرًا: أي: مُرتَفِعًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٦٩).

(٦) رواه البخاري (٧٠٨٦) واللفظ له، ومسلم (١٤٣).

علاماتِ المنافقِ ثلاثةٌ: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أخْلَف، وإذا ائتُمنَ خانَ))[١].

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: والحالُ أنَّكم تعلمونَ عِلمًا لا لَبْسَ فيه أنَّها أماناتٌ يجِبُ الوفاءُ بها، وعَدَمُ تَعمُّدِ التَّفريطِ فيها، وتعلمونَ مَفاسِدَ خِيانَتِها، وقُبْحَ ذلك[٢].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الدَّاعي إلى الإقدامِ على الخِيانةِ هو حُبَّ الأموالِ والأولادِ؛ نبَّهَ تعالى على أنَّه يجِبُ على العاقِلِ أن يَحترِزَ عن المضارِّ المُتولِّدةِ من ذلك الحُبِّ، فقال تعالى[٣]:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

أي: واعلَمُوا- أيُّها المُؤمِنونَ- أنَّ أموالَكم التي رزَقَكم اللهُ تعالى إيَّاها، وأولادَكم الذين وهَبَهم اللهُ لكم- اختبارٌ يَبتليكم اللَّهُ به؛ لِينظُرَ هل تؤدُّونَ حَقَّ اللهِ عليكم فيها: بامتثالِ أمْرِه واجتنابِ نَهْيِه فيها، وهل تَشْكُرونَه عليها، أم تَحمِلُكم محبَّةُ ذلك على تقديمِ هَوى أنفُسِكم على أداءِ ما ائتَمَنكم عليه، وتَشتغِلون بها عنه سبحانَه[٤].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٦)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٧).

لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٤-١٦].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: واعلَموا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عِندَه ثوابٌ عظيمٌ، وهو خيرٌ لكم من الأموالِ والأولادِ؛ فآثِرُوا فَضْلَه العظيمَ الباقيَ، على لذَّةٍ صَغيرةٍ فانيةٍ مُضمحِلَّةٍ(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه تعالى لَمَّا حذَّرَ عن الفِتنةِ بالأموالِ والأولادِ؛ رغَّبَ في التَّقوى التي تُوجِبُ تَركَ المَيلِ والهَوى في محبَّةِ الأموالِ والأولادِ(٢)، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إن تتَّقوا اللهَ بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهِيه، وترْكِ خيانَتِه، وخيانةِ رَسولِه، وخيانةِ أماناتِكم؛ يجعَلْ لكم علمًا، تُفَرِّقُون به بينَ الحقِّ والباطلِ، ومَخرجًا لكم مِن كُروبِ الدُّنيا ونجاةً، ونصرًا وتأييدًا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٧-٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢-٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٨-٥٦٩).

قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢].

﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾.

أي: ويمحُ عَنكم ما تقَدَّمَ مِن ذُنوبِكم[١].

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾.

أي: ويستُرْ ذُنوبَكم عن النَّاسِ، ويتجاوَزْ عن مؤاخَذتِكم بها[٢].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

أي: واللهُ- الذي يمنَحُكم كلَّ هذه الهِباتِ والمَكرُماتِ- صاحِبُ الأجرِ العَظيمِ، والثَّوابِ الجزيلِ لِمَن اتَّقاه، وله- وحدَه- الفَضلُ العظيمُ عليكم، وعلى غَيرِكم مِن خَلْقِه، فاكتفوا بطلبِه منه دونَ غيرِه[٣].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ خِطابٌ لجميعِ المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ، وهو يجمعُ أنواعَ الخياناتِ كلِّها؛ قليلَها وكثيرَها[٤].

قال الشنقيطيُّ في تفسيرِ قولِه: ﴿فُرۡقَانٗا﴾: (معناه: يجعلْ لكم مخرجًا، وقال بعضُ العلماءِ: ﴿فُرۡقَانٗا﴾: نصرًا وتأييدًا؛ وقال بعضُ العلماءِ: فرقانًا: فَتْحًا. وقال بعضُ العلماءِ: يجعلِ الله لكم بسببِ تقوَى الله فُرْقَانًا، أي: علمًا تُفَرِّقُون به بينَ الحقِّ والباطلِ، والحسنِ والقبيحِ. والأقوالُ متقاربةٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٦٨) بتصرف، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٧- ١٢٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١٧).

٢- سعاداتُ الآخرةِ خَيرٌ مِن سعاداتِ الدُّنيا؛ فهي أعظَمُ في الشَّرفِ، وأعظَمُ في الفَوزِ، وأعظَمُ في المدَّةِ؛ لأنَّها تبقَى بقاءً لا نهايةَ له؛ يُبَيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ بعد أنْ ذَكرَ الأموالَ والأولادَ[١].

٣- امتثالُ العبدِ لِتقوى ربِّه، عُنوانُ السَّعادةِ، وعلامةُ الفلاحِ؛ فقد رتَّب اللهُ على التَّقوى مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ شَيئًا كثيرًا؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ فيه أنَّ ما خَفِيَ حُكمُه، فالجَهلُ له عُذرٌ؛ إذا لم يكُن ممَّا عُلِمَ مِن الدِّينِ بالضَّرورةِ، أو ممَّا يُعلم ببداهةِ العَقلِ، أو استفتاءِ القَلبِ[٣].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ جُعِلَ نَفسُ الأموالِ والأولادِ فتنةً؛ لكثرةِ حُدوثِ فِتنةِ المَرءِ مِن جرَّاءِ أحوالِهما، مبالغةً في التَّحذيرِ مِن تلك الأحوالِ وما ينشَأُ عنها، فكأنَّ وُجودَ الأموالِ والأولادِ نفسُ الفِتنةِ[٤].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ فيه بيانُ ارتباطِ الخيرِ والشَّرِّ بالعَملِ؛ فقد رتَّبَ اللهُ سُبحانَه حُصولَ الخَيراتِ في الدُّنيا والآخرةِ، وحصولَ السُّرورِ في الدُّنيا والآخرةِ في كتابِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٣٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٥).

على الأعمالِ، ترتُّبَ الجزاءِ على الشَّرطِ، والمعلولِ على العِلَّة، والمسبَّبِ على السَّبَبِ[١].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ تنكيرُ الفُرقانِ؛ للتَّنويعِ التَّابعِ لأنواع التقوى: كالفَتْنِ في السِّياسةِ والرِّياسةِ، والحَلالِ والحرامِ، والعَدلِ والظُّلمِ؛ فكلُّ مُتَّقٍ للهِ في شيءٍ، يؤتيه فرقانًا فيه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾

- استئنافُ خِطابٍ للمُؤمنينَ يُحذِّرُهم مِن العِصيانِ الخفيِّ[٣].

- قَولُه: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ فيه عُدولٌ عن ذكرِ المَفعولِ الأصليِّ، إلى ذِكرِ المفعولِ المتَّسَعِ فيه؛ لِقَصدِ تَبشيعِ الخيانةِ بأنَّها نَقضٌ للأمانةِ؛ فإنَّ الأمانةَ وَصفٌ مَحمودٌ مَشهورٌ بالحُسنِ بين النَّاسِ، فما يكونُ نقضًا له يكونُ قَبيحًا فظيعًا؛ ولأجلِ هذا لم يَقُلْ: (وتخونُوا النَّاسَ في أماناتِهم) فهذا حذفٌ مِن الإيجازِ[٤].

- وقوله: ﴿وَتَخُونُوٓاْ﴾ عطفٌ على قَولِه: ﴿لَا تَخُونُواْ﴾ فهو في حَيِّزِ النَّهيِ، والتَّقديرُ: (ولا تَخونوا أماناتِكم) وأُعيدَ فِعلُ (تَخونُوا) ولم يُكتَفَ بحَرفِ العَطفِ الصَّالِحِ للنِّيابةِ عَن العامِلِ في المعطوفِ؛ للتَّنبيهِ على نوعٍ آخَرَ مِن

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٣).

الخيانةِ؛ فإنَّ خيانَتَهم اللهَ ورَسولَه نقضُ الوفاءِ لهما بالطَّاعةِ والامتثالِ، وخيانةَ الأمانةِ نقضُ الوفاءِ بأداءِ ما اؤتُمِنوا عليه[١].

- وجملة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ في موضِعِ الحالِ مِن ضميرِ ﴿تَخُونُواْ﴾، وهي حالٌ كاشِفةٌ، والمقصودُ منها تشديدُ النَّهيِ، أو تشنيعُ المنهيِّ عنه؛ لأنَّ النَّهيَ عن القَبيحِ في حالِ مَعرفةِ المنهيِّ أنَّه قبيحٌ، يكونُ أشَدَّ، ولأنَّ القبيحَ في حالِ عِلمِ فاعِلِه بقُبحِه، يكونُ أشنَعَ، وليس المُرادُ تقييدَ النَّهيِ عن الخيانةِ بحالةِ العِلمِ بها؛ لأنَّ ذلك قليلُ الجدوى، فإنَّ كلَّ تكليفٍ مَشروطٌ بالعِلمِ، وكونُ الخيانةِ قَبيحةً أمرٌ مَعلومٌ[٢].

٢- قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

- جيءَ في الإخبارِ عن كَونِ الأموالِ والأولادِ فِتنةً بطريقِ القَصرِ قَصرًا ادعائيًّا؛ لِقَصدِ المبالغةِ في إثباتِ أنَّهم فِتنةٌ[٣].

- وقَدَّمَ الأموالَ؛ لأنَّها مَظِنَّةُ الحَملِ على الخيانةِ في هذا المقامِ، وعُطِفَ الأولادُ على الأموالِ؛ لاستيفاءِ أقوى دواعي الخِيانةِ؛ فإنَّ غَرَض جمهورِ النَّاسِ في جَمعِ الأموالِ أن يَترُكوها لأبنائِهم مِن بَعدِهم[٤].

٣- قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فيه تكريرُ الخطابِ والوَصفِ بالإيمانِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٤-٣٢٥).

لإظهارِ كمالِ العنايةِ بما بَعدَه، والإيذانِ بأنَّه مما يقتضي الإيمانُ مُراعاتَه والمُحافظةَ عليه[١].

- وفعلُ الشَّرطِ ﴿تَتَّقُواْ﴾ مرادٌ به الدَّوامُ؛ فإنَّهم كانوا مُتَّقينَ، ولكنَّهم لَمَّا حُذِّروا مِن المخالفةِ والخيانةِ، ناسبَ أن تُفرَضَ لهم الطَّاعةُ في مُقابِلِ ذلك[٢].

- واختيارُ (الفُرقان) في قَولِه: ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ هنا؛ لقَصدِ شُمولِه ما يصلُحُ لِلمقامِ مِن معانِيه، لأنَّه اللَّفظُ الذي لا يؤدِّي غيرُه مُؤدَّاه في هذا الغَرَضِ، وذلك من تمامِ الفَصاحةِ[٣].

- وقوله: ﴿لَّكُمۡ﴾ يُشعِرُ أنَّ الفُرقانَ شَيءٌ نافِعٌ لهم، فالظَّاهِرُ أنَّ المُرادَ منه كلُّ ما فيه مَخرجٌ لهم ونجاةٌ مِن الْتباسِ الأحوالِ، وارتِباكِ الأمورِ، وانبِهامِ المقاصد، فيَؤُولُ إلى استقامةِ أحوالِ الحياةِ[٤].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تذييلٌ وتكميلٌ، وهو كنايةٌ عن حصولِ منافِعَ أخرى لهم مِن جرَّاءِ التَّقوى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٧).

الآيات (٣٠-٣٥)

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَمْكُرُ﴾: المَكْرُ: صرفُ الغيرِ عمَّا يقصدُه بحيلةٍ، وأصلُ المكرُ: الاحتيالُ والخداعُ[(١)].

﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾: أي: لِيَحبِسوك ويَسجِنوك. وأصلُ (ثبت) يدلُّ على دوامِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: أي: أباطيلُ وتُرَّهات؛ جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكَذِبِهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٧٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) (١/ ٣٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات))

﴿أَوۡلِيَآءُهُۥٓ﴾: الأولياءُ جمعُ وليٍّ، وأصلُ (ولي): يدلُّ على القُرْب، سواء مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةِ، أو الدِّينِ، أو الصَّداقةِ، أو النُّصرةِ، أو الاعتقادِ، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه(١).

﴿مُكَآءٗ﴾: أي: صَفيرًا، وأصلُ (مكا) يدلُّ على شَيءٍ مِن الأصواتِ(٢).

﴿وَتَصۡدِيَةٗ﴾: أي: تصفيقًا، وهو أن يضْربَ بإحدَى يَدَيْه على الأُخرَى، فيخرجَ بينهمَا صَوتٌ، وقيل للتَّصفيقِ: تَصِديةٌ؛ لأنَّ اليدَينِ تَتصافقانِ، فيُقابِلُ صَفْقُ هذه صَفْقَ الأُخرى، وصَدُّ هذه صَدَّ الأُخرَى، وهما وَجْهاها(٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين تمالأَ عليك كُفَّارُ قُريشٍ؛ لِيَسجُنوك أو يَقتُلوك أو يُخرِجوك مِن مكَّة، ويكيدونَ بك في خفاءٍ، ويكيدُ اللهِ بهم، فأنقَذَك اللهُ منهم وأهلَكَهم، واللهُ خيرُ مَن يُجازي بالسيئةِ العُقوبةَ، فيمكُرُ بمن كفَرَ به وعصاه، فيجازيهم بما يستحقُّونَه.

وإذا تُتلَى على هؤلاءِ الكُفَّارِ مِن قُريشٍ آياتُ القُرآنِ، قالوا: قد سَمِعْناها، ولو نَشاءُ لَقُلنا مِثلَ هذا، ما هذا القُرآنُ إلَّا أكاذيبُ سَطَرَها الأقدَمونَ مِن الأُمَمِ

للكفوي (ص: ١١٦).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٥/ ٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

الماضيةِ.

واذكُر - يا مُحمَّدُ- حين قال كُفَّارُ قُريشٍ: اللهُمَّ، إن كان ما يقولُه مُحمَّدٌ حَقًّا، فأنزِلْ علينا مِن السَّماءِ حِجارةً مُتتابِعةً، أو عَذِّبْنا في الدُّنيا بعذابٍ مُوجِعٍ.

وما كان اللهُ لِيُعذِّبَهم وأنت فيهم- يا محمَّدُ- وما كان اللهُ مُعَذِّبَهم لو أنَّهم كانوا يَستغفرونَ اللهَ مِن كُفرِهم وذُنوبِهم، لكِنَّهم لا يفعلونَ، وما يمنَعُ أولئك الكُفَّارَ مِن أن يُعَذِّبَهم اللهُ وهم يمنَعونَ المُسلمينَ مِن الوُصولِ إلى المَسجدِ الحَرامِ، وما كانوا أولياءَ هذا المسجدِ الحرام، فأولياؤُه هم المُتَّقونَ، ولكِنَّ أكثَرَهم لا يَعلمونَ.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّه ما كان صلاةُ كُفَّارِ قُريشٍ عند البَيتِ إلَّا صَفيرًا وتَصفيقًا، ثمَّ وجَّهَ الله تعالى الخِطابَ إلى كفَّارِ قُريشٍ قائلًا: فذُوقوا ألمَ العَذابِ بِسَببِ كُفرِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَّرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ نِعَمَه عليهم بِقَولِه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾؛ فكذلك هنا: ذكَّرَ رسولَه نِعَمَه عليه، وهو دَفعُ كَيدِ المُشرِكينَ، ومَكرِ الماكرينَ عنه[1].

وأيضًا لَمَّا وعَدَ سُبحانَه في الآيةِ السَّابقةِ المُؤمنينَ بالفَضلِ العظيمِ، ذكَّرَهم من أحوالِ داعِيهم وقائِدِهم وهادِيهم- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بما يدعوهم إلى مُلازمةِ أسبابِه في سياقِ المُخاطَبةِ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تذكيرًا بنِعمَتِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٠٩).

وإشارةً إلى دوامِ نُصرَتِه[١]، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾.

أي: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- نِعمَتي عليك حين كان كفَّارُ قُريشٍ يَكيدونَ لك، ويتآمَرونَ عليك في الخفاءِ؛ ليُقيِّدوك ويَسجِنوك، أو يَقتلُوك، أو يُخرِجوك مِن مكَّةَ[٢].

قال تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ [التوبة: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٣١، ١٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٧١ - ٥٧٣).
قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: هذه الآيةُ مِن سورةِ الأنفالِ مكيَّةٌ، مع أنَّ الأنفالَ مَدنيَّةٌ. والأظهَرُ أنَّ هذه الآيةَ كَغَيرها من سورةِ الأنفالِ مَدَنيَّةٌ؛ وذلك أنَّ الله لَمَّا فتح على نبيِّه، ونَصَره يومَ بَدرٍ، وأنزل سورةَ الأنفال في وقعةِ بَدرٍ؛ ذكَّرَ نبيَّه بنِعَمِه الماضيةِ عليه في مكَّةَ قبل هِجرَتِه منها، وعرَّفَه إنعامَه عليه؛ حيث أنجاه مِن مَكرِ أعدائه). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٧١).

وقال سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾.

أي: ويكيدُ بك كفَّارُ مكَّةَ في الخفاءِ، ويكيدُ اللهُ بهم أيضًا مِن حيثُ لا يَشعرونَ، فاسْتَنْقَذ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم منهم، وأهلَكهم[(١)].

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو أفضَلُ مَن يُجازي بالسَّيئةِ العُقوبةَ، فيمكُرُ بمن كفَرَ به وعصاه، فيُجازيهم بما يستحقُّونَه، ولا أحدَ أقدرُ على ذلك مِنه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦].

وقال عزَّ وجلَّ عن اليهودِ الذين أرادوا المكرَ بنبيِّه عيسَى عليه السلامُ: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: ٥٤-٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٧٣، ٥٧٨).
قال الشنقيطي: (﴿وَٱللَّهُ﴾ جلَّ وعلا ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ مكَر لك بهم، وأخرَجك، ونجَّاك، وأظْفَرك بهم يومَ بدرٍ حتى قتلتَهم وأسرتَهم). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٧٨). وقد تقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الآية من هذا التفسير المحرر (٢/ ٢٣٣)، الآية (٥٤).

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وبيَّن بعضَ مكرِ قومِ صالحٍ، بقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٠-٥٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى مَكْرَ المُشركينَ في ذاتِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- حكى مَكْرَهم في دِينِه[1]، فقال:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾.

أي: وإذا تُتلَى على هؤلاءِ الكُفَّارِ مِن قُريشٍ آياتُ كِتابِنا، قالوا قولًا يَغُرُّونَ به أنفُسَهم، ومَن اتَّبَعَهم على باطِلِهم؛ تمرُّدًا وعِنادًا منهم للحَقِّ، قالوا: قد سَمِعْناها،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٦٨).

ولو نشاءُ لَقُلْنا مثلَ هذا الذي تُلِيَ علينا[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢١ - ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

أي: يقولُ الكفَّارُ إذا سَمِعوا القُرآنَ: ما هذا القرآنُ إلَّا أكاذيبُ، سَطَرَها الأقدمونَ مِن الأُمَمِ الماضيةِ في كُتُبِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٩).

قال ابنُ عطيَّة: (والذي تواتَرَت به الرِّواياتُ عن ابنِ جُرَيجٍ والسُّدِّي وابنِ جُبَيرٍ: الذي قال هذه المقالةَ هو النَّضرُ بنُ الحارث، وذلك أنَّه كان كثيرَ السَّفَرِ إلى فارس والحِيرةِ، فكان قد سَمِعَ مِن قَصصِ الرُّهبانِ والأناجيلِ، وسَمِعَ من أخبارِ رُستُم وإسبنديار، فلما سَمِعَ القُرآنَ، ورأى فيه من أخبارِ الأنبياءِ والأُمَم، قال: لو شِئْتُ لَقُلْتُ مثلَ هذا!). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٠). ويُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤١، ١٤٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨١).

وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥].

﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

أي: واذكُر- يا مُحمَّدُ- حين قال كُفَّارُ قُريشٍ[1]: اللَّهمَّ، إن كان ما يقولُه مُحمَّدٌ حَقًّا، مُنزَّلًا مِن عِندِك؛ فأنزِلْ علينا مِن السَّماءِ حِجارةً مُتتابعةً كما ينزِلُ المَطَرُ، أو عَذِّبْنا في الدُّنيا بعذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ١٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۞ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۞ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ١-٣].

---

(١) قال الواحدي: (وجميعُ المُفَسِّرينَ على أنَّ هذا مِن قَولِ النَّضرِ بنِ الحارِثِ، ورُوِيَ في الصَّحيحينِ أنَّ هذا من قولِ أبي جهلٍ- لعَنَهما اللهُ). ((الوسيط)) (٢/ ٤٥٧).
وقال محمد رشيد رضا: (ولا ينافي ذلك ما في الصَّحيحِ؛ لاحتمالِ أن يكونَا قالاه، ولكِنَّ نِسبَتَه إلى أبي جَهلٍ أَوْلَى). ((تفسير المنار)) (٩/ ٥٤٥).
وقال ابنُ عاشور: (وقائِلُ هذه المقالةِ هو النَّضرُ بنُ الحارِثِ صاحِبُ المقالةِ السَّابقة، وقالها أيضًا أبو جهلٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣١).
وقال ابن عطية: (وترتُّبُ أن يقولَ النَّضرُ بن الحارث مقالةً، وينسُبَها القرآنُ إلى جميعِهم؛ لأنَّ النَّضرَ كان فيهم موسومًا بالنُّبلِ والفَهمِ، مسكونًا إلى قَولِه، فكان إذا قال قَولًا قاله منهم كثيرٌ، واتَّبَعوه عليه حَسَبَما يفعَلُه النَّاسُ أبدًا بعُلَمائِهم وفُقَهائِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٣).
وقد أتاهم الله عزَّ وجلَّ بعذابٍ أليمٍ، قال ابنُ جريرٍ: (وكان ذلك العَذابُ قَتْلَهم بالسَّيفِ يومَ بَدرٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤٤).

وعن أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (قال أبو جهلٍ: اللهُمَّ، إن كانَ هذا هو الحَقَّ مِن عِندِك؛ فأمطِرْ علينا حجارةً مِن السَّماءِ، أو ائتِنا بعذابٍ أليمٍ، فنزَلَت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ...﴾ الآية)[١].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

أي: وما كان اللهُ لِيُعذِّبَ كفَّارَ قُريشٍ، وأنت مُقيمٌ بين أظهُرِهم- يا محمَّدُ؛ لأنِّي لا أُهلِكُ أهْلَ بلدةٍ وفيها نبيُّهم، حتى يَخرُجَ منها[٢].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

أي: وما كان اللهُ مُعذِّبَ أولئك الكُفَّارِ لو أنَّهم كانوا يستغفرونَ اللهَ مِن كُفرِهم وذُنوبِهم، لكنَّهم لا يَفعلونَ، وهم على ضَلالِهم مُصِرُّونَ، فهُم للعذابِ مُستحِقُّونَ[٣].

---

(١) رواه البخاري (٤٦٤٩)، ومسلم (٢٧٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠).

قال ابنُ عطيةَ: (أجمعَ المتأوِّلونَ على أنَّ معنى قَولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ أنَّ الله عَزَّ وجلَّ لم يُعَذِّبْ قَطُّ أمَّةً ونبيُّها بين أظهُرِها، فما كان لِيُعَذِّبَ هذه وأنت فيهم، بل كرامَتُك لديه أعظَمُ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢١).

وقال ابنُ كثيرٍ: (ولهذا لَمَّا خرج من بينِ أظهُرِهم، أوقَعَ الله بهم بأسَه يومَ بَدرٍ، فقُتِلَ صناديدُهم، وأُسِرَت سَراتُهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٧).

قال ابنُ تيميةَ: (فأخبرَ أنَّه لا يُعَذِّبُ مُستغفِرًا؛ لأنَّ الاستغفارَ يمحو الذَّنبَ الذي هو سبَبُ

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذه الآيةُ عَطفٌ على قَولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾، وهو ارتقاءٌ في بيانِ أنَّهم أحِقَّاءُ بتعذيبِ اللهِ إيَّاهم؛ بيانًا بالصَّراحةِ[1].

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

أي: أيُّ شَيءٍ يمنَعُ أولئكَ المُشركينَ مِن أن يُعَذِّبهم اللهُ تعالى، والحالُ أنَّهم فعلوا ما يُوجِبُ عذابَهم، وهو مَنعُهم المسلمينَ من الوصولِ إلى المسجِدِ الحرامِ للصَّلاةِ فيه، والطَّوافِ، والعبادةِ[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

العَذابِ، فيندفِعُ العذابُ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ١٦٣).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا العذابُ المدفوعُ فهو يعُمُّ العذابَ السَّماويَّ، ويعمُّ ما يكونُ من العباد؛ وذلك أنَّ الجميعَ قد سمَّاه الله عذابًا، كما قال تعالى في النَّوعِ الثاني: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤] وكذلك: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] إذ التَّقديرُ بعذابٍ مِن عِندِه أو بعذابٍ بِأَيدينا، كما قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٦).

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾.

أي: وما كان كفَّارُ قُريشٍ أولياءَ المسجدِ الحرامِ، ولا أهلَه[1].

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

أي: ما أولياءُ هذا البيتِ في الحقيقةِ إلَّا المؤمنونَ بالله، المُتَّقونَ للشركِ

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٩).
وممَّن اختارَ عوْدَ الضَّميرِ على المسجِدِ الحرامِ: الواحديُّ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ. ونسبَه ابنُ الجوزي للجُمهورِ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٩)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨).
وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف الحسنُ. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨).
وممن اختار عودَ الضَّميرِ ﴿أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ على اللهِ تعالى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٥٩).
وجمع ابنُ تيميَّةَ بين المعنيينِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١١/ ١٦٤).
وقال ابنُ عطية: (والضَّميرُ في قَولِه: ﴿أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ عائدٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ مِن قَولِه: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ﴾ أو على ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، كلُّ ذلك جَيِّدٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٢). ويُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨).

والمعاصي[١].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثرَ مُشركي قُريشٍ لا يَعلمونَ أنَّ ولايةَ بيتِ الله لمَن هو مطيعٌ لله، لا مَن هو عاصٍ له، فلذلك ادَّعَوْا لأنفسِهم أمرًا، غيرُهم أولَى به[٢].

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال اللهُ تعالى في حَقِّ الكفَّارِ: إنَّهم ما كانوا أولياءَ البَيتِ الحرامِ، وقال: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾- بيَّنَ بعده ما به خَرَجوا من أن يكونُوا أولياءَ البَيتِ، وهو أنَّ صَلاتَهم عند البَيتِ، وتَقرُّبَهم وعبادَتَهم إنَّما كان بالمُكاءِ والتَّصديةِ[٣]، فقال:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗ﴾.

أي: وما كان صلاةُ كفَّارِ قُريشٍ عند الكعبةِ إلَّا صفيرًا وتَصفيقًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٩).
قال الشنقيطي: (قال بعضُ العلماءِ: عبَّرَ هنا بالأكثَرِ عن الجميع، والعرَبُ تعبِّرُ بالأكثَرِ عن الجميعِ، وبالقِلَّةِ عن لا شَيءٍ، وهو أسلوبٌ معروفٌ. وقال بعض العلماء: الأكثَرُ على ظاهِرِه؛ لأنَّ بَعضَهم يعلَمُ أنَّ وِلايةَ بَيتِ اللهِ لِمَن هو مطيعٌ لله، لا مَن هو عاصٍ له). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٨٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦١)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠).
قال ابنُ عطية: (المُكاءُ والتَّصديةُ كان مِن فِعلِ العرب قديمًا قبل الإسلامِ، على جهةِ التقَرُّب به والتشَرُّع، .. وعلى هذا يستقيمُ تَعييرُهم وتنقُّصُهم بأنَّ شَرْعَهم وصلاتَهم وعبادتَهم، لم تكُن

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لِمُشركي قُريشٍ: فاطْعَموا[١] ألمَ العَذابِ[٢] بسبَبِ كُفرِكم[٣].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الاستغفارَ أمانٌ وسلامةٌ مِن العذابِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، ولم يَقُلْ: (ويَمكُرونَ بك)؛ لِيُبيِّنَ حالَتَهم العامَّةَ الدَّائمةَ في مُعامَلتِه صلَّى اللهُ عليه

رَهبةً ولا رغبةً، إنما كانت مُكاءً وتَصديةً مِن نوعِ اللَّعِب، ولكنَّهم كانوا يتزيَّدونَ فيها وقتَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيَشغَلوه وأمَّتَه عن القِراءةِ والصَّلاةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٤، ٥٢٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤١٢)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨١)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٤٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩٠).

(١) قال ابنُ جرير: (ليس بِذَوقٍ بفَمٍ، ولكنَّه ذَوقٌ بالحِسِّ، ووجودُ طَعمِ أَلَمِه بالقُلوبِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦٨).

(٢) ذهب ابنُ جريرٍ وابنُ عاشورٍ إلى أنَّ المرادَ بالعَذابِ هاهنا: ما حلَّ بالمُشركينَ يَومَ بَدرٍ؛ مِن قَتلٍ وأسْرٍ ونحو ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٩).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ إسحاقَ، وابنُ جريجٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦٩).
وقال الرازي: (قيل: يقالُ لهم في الآخرة: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨١).
وقال الشَّوكاني: (والمرادُ به: عذابُ الدُّنيا كيومِ بَدرٍ، وعذابُ الآخرةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٠).

وسلَّم هو ومَن اتَّبَعه مِن المُؤمنينَ، أي: وهكذا دأْبُهم معك، ومع مَن اتَّبَعك مِن المُؤمِنينَ؛ يمكرونَ بكم، ويمكُرُ اللهُ لكم بهم، كما فَعَلَ مِن قبلُ إذ أحبَطَ مَكْرَهم، وأخرجَ رَسولَه مِن بَينِهم إلى حيثُ مَهَّدَ له في دارِ الهِجرةِ، ووطَنِ السُّلطانِ والقُوَّةِ(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ لكُفَّارِ مكَّةَ أمانَينِ، يدفَعُ اللهُ عنهم العذابَ بِسَببِهما:

أحدُهما: كونُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم.

والثاني: استِغفارُهم اللهَ، لكِنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يدلُّ على خلافِ ذلك، والجوابُ عن ذلك مِن عِدَّةِ أوجُهٍ؛ أظهَرُها وجهانِ:

الأول: أنَّ الأمانينِ مُنتَفيانِ؛ فالنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خرَجَ مِن بينِ أظهُرِهم مُهاجِرًا، واستِغفارُهم مَعدومٌ؛ لإصرارِهم على الكُفرِ، وبعد انتفاءِ الأمرَينِ عَذَّبَهم بالقَتلِ والأسْرِ يومَ بدرٍ، كما يُشيرُ إليه قَولُه تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].

الثاني: أنَّ المُرادَ بِقَولِه: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ استغفارُ المُؤمِنينَ المُستضعَفينَ بمكَّةَ، وعليه فالمعنى أنَّه بعد خُروجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان استغفارُ المؤمنينَ سَببًا لِرَفعِ العَذابِ الدُّنيويِّ عن الكُفَّارِ المُستَعجِلينَ للعذابِ بِقَولِهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ...﴾ الآية، وعلى هذا القَولِ فقد أسنَدَ الاستغفارَ إلى مجموعِ أهلِ مَكَّةَ، الصَّادِقَ بخُصوصِ المؤمنينَ منهم(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٤).

٣- اتِّخاذُ التَّصفيقِ والغِناءِ والمزاميرِ قربةً وطاعةً وطريقًا إلى اللهِ، هذا مِن جِنسِ دِينِ المُشركينَ الذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ والمُكاءُ: هو التَّصويتُ بالفَمِ، كالصَّفيرِ والغِناءِ، والتَّصديةُ: التَّصفيقُ باليَدِ، فذمَّ اللهُ هؤلاءِ المُشركينَ الذين يجعلونَ هذا قائمًا مقامَ الصَّلاةِ[١]، فالتَّصفيق والتَّصفير ليسا من العبادةِ في شَيءٍ، وبه يُعلَمُ أنَّ ما يفعَلُه كثيرٌ مِن الجَهَلةِ المُدَّعينَ للتَّصوُّفِ كَذِبًا؛ مِن الرَّقصِ والتَّصفيقِ والصُّراخِ، زاعمينَ أنَّه عِبادةٌ- أنَّ ذلك مِن الخِذلانِ، وتَلبيسِ الشَّيطانِ، وأنَّ ذلك لا يكونُ عبادةً أبدًا، بل أوَّلُ مَن رَقَص وصَفَّقَ في شيءٍ يَظُنُّه عبادةً، هم عَبَدةُ العِجلِ، وكان ذلك مِن أفعالِ الكُفَّارِ؛ فالنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم وأصحابُه كانوا في مجالِسِهم كأنَّما على رُؤُوسِهم الطَّيرُ، فالذينَ يُصَفِّقونَ ويَضربونَ بالمَعازِفِ، ويزعمونَ أنَّ هذا دِينٌ وأحوالٌ ووِجْدان؛ هم في غُرورٍ مِن الشَّيطان، فلا ينبغي أن يُغتَرَّ بهم[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قولُه تعالى:** ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾

- أُسنِدَ المَكرُ إلى جميعِ الكافرينَ- وإن كان الذينَ تَوَلَّوا المكرَ هُم سادةَ المُشرِكينَ وكُبَراءَهم- لأنَّ البَقيَّةَ كانوا أتباعًا للزُّعَماءِ؛ يأتَمِرونَ بأمْرِهم[٣].

- والإتيانُ بالمُضارِعِ ﴿يَمْكُرُ﴾ في مَوضِعِ الماضي، الذي هو الغالِبُ مع

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٩٠).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩٢-٥٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٨).

﴿إِذْ﴾؛ لاستحضارِ الحالةِ التي دبَّرُوا فيها المَكرَ[١].

- والتَّعبيرُ بالمضارعِ في ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾، و﴿يَقْتُلُوكَ﴾، و﴿يُخْرِجُوكَ﴾؛ لأنَّ تلك الأفعالَ مُستقبَلَةٌ بالنِّسبةِ لفِعلِ المَكرِ؛ إذْ غايةُ مَكرِهم تحصيلُ واحدٍ مِن هذه الأفعالِ[٢].

٢- **قولُه تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

- دُعاؤُهم على أنفُسِهم كنايةٌ منهم عَن كَونِ القُرآنِ ليسَ كما يُوصَفُ به؛ للتَّلازُمِ بين الدُّعاءِ على أنفُسِهم، وبين الجَزمِ بانتفاءِ ما جَعَلوه سبَبَ الدُّعاءِ، بحسَبِ عُرفِ كَلامِهم واعتقادِهم، والمرادُ منه التهَكُّم، وإظهارُ اليَقينِ والجزمُ التَّامُّ على كونِه باطلًا[٣].

- وتَعليقُ الشَّرطِ بحَرفِ (إنْ) في ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ لأنَّ الأصلَ فيها عدَمُ اليَقينِ بوقوعِ الشَّرطِ؛ فهم غَيرُ جازمينَ بأنَّ القُرآنَ حَقٌّ، ومُنَزَّلٌ مِن اللهِ، بل هم موقنونَ بأنَّه غيرُ حَقٍّ، واليقينُ بأنَّه غيرُ حَقٍّ أخَصُّ مِن عَدمِ اليَقينِ بأنَّه حَقٌّ[٤].

- والضميرُ (هو) ضميرُ فَصلٍ؛ فهو يقتضي تقَوِّي الخبَرِ، أي: إن كان هذا حقًّا، ومِن عِندِك بلا شَكٍّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وتعريفُ المُسنَد﴿ٱلْحَقَّ﴾ بلامِ الجِنسِ، يقتَضي الحَصرَ، فاجتمَعَ في التركيبِ تقَوٍّ وحصرٌ[١].

- وقولُهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ذَكَروا عذابًا خاصًّا وهو مَطرُ الحِجارةِ، ثم عَمَّموا فقالوا: ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ويريدونَ بذلك كُلِّه عذابَ الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ[٢].

- وتَقييدُه بِقَولِه: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مع أنَّ الإمطارَ لا يكونُ إلَّا منها؛ لإزالةِ وَهمِ مَن يتوهَّمُ أنَّ الإمطارَ مَجازٌ عن مُطلَقِ الرَّجمِ، وأنَّه إنَّما ذُكِرَ لِبَيانِ أنَّ الحِجارةَ المَرجومَ بها في الكثرةِ، مِثلُ المَطَرِ[٣]، وقيل غير ذلك[٤].

- ووصفوا العذابَ بالأليمِ؛ زيادةً في تحقيقِ يَقينِهم بأنَّ المَحلوفَ عليه بهذا الدُّعاءِ ليس مُنَزَّلًا من عندِ الله؛ فلذلك عَرَّضُوا أنفُسَهم لخَطَرٍ عظيمٍ، على تقديرِ أن يكونَ القُرآنُ حَقًّا، ومُنَزَّلًا مِن عندِ الله[٥].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

- لَمَّا كانت كينونَتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم سببًا لانتفاءِ تَعذيبِهم، جعَلَ خَبَرَ كان الإرادةَ المنفِيَّةَ- أي: ما كان الله مُريدًا لِتَعذيبِهم- وانتفاءُ الإرادةِ للعَذابِ أبلَغُ مِن انتفاءِ العَذابِ. ولَمَّا كان استِغفارُهم دونَ تلك الكَينونةِ الشَّريفةِ، لم يؤكِّدْ باللَّامِ، بل جاء قولُه ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ خبرَ كان ، فشتَّانَ ما

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٣٣).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٧٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٣).

بينَ استِغفارِهم وكَينونَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم[١].

- وقَولُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ كنايةٌ عن استحقاقِهم العذابَ، وإعلامٌ بكرامةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عِندَه؛ لأنَّه جعَلَ وُجودَه بين ظَهرانَيِ المُشرِكينَ مع استحقاقِهم العقابَ سببًا في تأخيرِ العَذابِ عنهم[٢].

- وتوجيهُ الخِطابِ بهذا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واجتلابُ ضَميرِ خِطابِه بِقَولِه: ﴿وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ لطيفةٌ مِن التَّكرِمةِ؛ إذْ لم يقُل: (وما كان اللهُ لِيُعذِّبَهم وفيهم رَسولُه)[٣].

- وقَولُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ فيه تعريضٌ بأنَّه يُوشِكُ أن يُعَذِّبَهم إن لم يستغفِرُوا، وهذا مِن الكِنايةِ العُرْضِيَّةِ[٤].

٤- **قَولُه تعالى:** ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

- (مَا) في قوله: ﴿وَمَا لَهُمۡ ...﴾ استفهاميَّةٌ، والاستِفهامُ إنكاريٌّ، والتَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٣-٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٣٥).

والكِنايةُ العُرْضيَّةُ: هي المَسوقةُ لأجْلِ موصوفٍ غيرِ مَذكورٍ، كما يُقال في عُرْضِ مَن يُؤذي المُؤمِنين: المؤمِنُ هو الذي يُصلِّي ويُزكِّي، ولا يُؤذِي أخاه المسلمَ، ويُتوصَّلُ بذلك إلى نفْيِ الإيمانِ عن المؤذِي، ومتى كانتِ الكنايةُ عُرْضيَّة كان إطلاقُ اسمِ التَّعريضِ عليها مناسبًا. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤١٠- ٤١١).

ما الذي ثبَت لهم لِأنْ ينتفِيَ عنهم عذابُ اللهُ، والمعنى: لم يثبُتْ لهم شيءٌ[١].

- ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿يَصُدُّونَ﴾، مفيدةٌ لِكمالِ قُبحِ ما صَنَعوا من الصَّدِّ؛ فإنَّ مُباشَرتَهم للصَّدِّ عنه مع عَدمِ استحقاقِهم لولايةِ أمرِه؛ في غايةِ القُبحِ، وهو ردٌّ لِما كانوا يقولونَ: نحنُ ولاةُ البيتِ والحَرَمِ، فنصُدُّ مَن نشاءُ، ونُدخِلُ مَن نَشاءُ[٢].

- وجملةُ: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ تَعيينٌ لأوليائِه الحقِّ، وتقريرٌ لِمَضمونِ ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓ﴾ مع زيادةِ ما أفادَه القَصرُ مِن تَعيينِ أوليائِه، فهي بمنزلةِ الدَّليلِ على نَفيِ وِلايةِ المُشركينَ؛ ولِذلك فُصِلَت[٣].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ نفى العِلمَ عن أكثَرِهم دونَ أن يُقالَ: (ولكنَّهم لا يعلمونَ) فاقتضى أنَّ منهم من يعلَمُ أنَّهم ليسُوا أولياءَ المسجِدِ الحرامِ، وهم من أيقَنوا بصِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم واستَفاقُوا من غَفلَتِهم القديمةِ، ولكِن حمَلَهم على المُشايَعةِ للصَّادِّينَ عن المسجِدِ الحرامِ، العنادُ وطَلَبُ الرِّئاسة، وموافقةُ الدَّهماءِ على ضلالِهم[٤].

٥- **قولُه تعالى:** ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾

- مَساقُ هذه الجُملةِ؛ لتَقريرِ استحقاقِهم العذابَ، أو عدمِ وِلايتِهم للمَسجِدِ؛ فإنَّها لا تليقُ بمن هذه صلاتُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٨).

- قوله: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ الأمرُ هنا للتَّوبيخِ والتَّغليظِ[١].

- وقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ... فَذُوقُواْ﴾ فيه التفاتٌ إلى مُخاطبةِ الكُفَّار؛ تهديدًا لهم، ومبالغةً في إدخالِ الرَّوعةِ في قُلوبِهم[٢].

- قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أُتِيَ بخبَرِ (كان) جملةً مُضارعيَّةً ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ فأفادَتِ الاستمرارَ والعادةَ[٣].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٠).

الآيتان (٢٦-٢٧)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَسۡرَةٗ﴾: أي: ندامةً واغتمامًا. وأصلُ (حسر): يدلُّ على كَشْفِ الشَّيءِ، فالحسرةُ انكشافٌ عن حالِ النَّدامةِ[(١)].

﴿لِيَمِيزَ﴾ أي: لِيَفصِلَ ويُخَلِّصَ. وأصلُ (ميز) يدلُّ على انفصالِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[(٢)].

﴿فَيَرۡكُمَهُۥ﴾: أي: فيَجمَعَه، ويَضُمَّ بَعضَه إلى بعضٍ، والرُّكامُ: ما يُلقى بعضُه على بعضٍ. وأصل (ركم) يدلُّ على تجمُّعِ الشيء[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ الذينَ كفَروا يُنفِقونَ أموالَهم؛ ليتَقَوَّوا بها على قِتالِ المُسلمينَ، ولِيَصرِفوا النَّاسَ عن دينِ الله، هذه الأموالُ سَيُنفِقونَها، ثم تكونُ عليهم حَسرةً وندامةً، حين تذهَبُ بلا فائِدةٍ، ثمَّ يُهزَمونَ ويُقهَرونَ، والذينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

كَفَروا يحشُرُهم اللهُ إلى جهنَّمَ؛ ليتعذَّبوا فيها، لِيَفصِلَ اللهُ بين المؤمنينَ الطَّيبينَ وبَين الكافرينَ الخبيثينَ؛ فالمؤمنونَ في الجنَّةِ، والكفَّارُ في النَّارِ، ويجعَلُ اللهُ الكفَّارَ الخَبيثينَ بعضَهم فوقَ بعضٍ حتى يتراكَموا، فيجعَلهم كلَّهم في جهنَّمَ، وأولئك هم الذينَ خَسِروا أعظمَ الخسرانِ في الدُّنيا والآخرةِ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ٣٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مِن شرْحِ أحوالِ الكفارِ في الطَّاعاتِ البدنيَّةِ، وهي صلاتُهم- شرَحَ حالَهم في الطَّاعاتِ الماليَّةِ، وهي إنفاقُهم أموالَهم للصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى صَدَّهم المُسلمينَ عن المَسجِدِ الحرامِ، الموجِبَ لِتَعذيبِهم- عقَّبَ بذِكرِ مُحاوَلتِهم استئصالَ المُسلمينَ، وصَدِّهم عن الإسلامِ[٢]، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الكفَّارَ مِن مُشرِكي قُريشٍ، يُنفِقونَ أموالَهم لِيتقَوَّوا بها على قتالِ المُسلمينَ، ولِيَصرِفوا النَّاسَ عن دِينِ اللهِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩٤).
قال ابن جرير: (جائزٌ أن يكونَ عنى المُنفِقينَ أموالَهم لِقِتالِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه بأُحُدٍ، وجائزٌ أن يكونَ عَنى المُنفِقينَ منهم ذلك ببَدرٍ، وجائزٌ أن يكونَ عَنى الفريقينِ،

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

أي: فَسيُنفِقُ الكفَّارُ أموالَهم لمحاربةِ المُسلمينَ، وصَدِّ النَّاسِ عن دينِ اللهِ، ثمَّ تَصيرُ نَفَقتُهم ندامةً شديدةً عليهم، حين تذهَبُ أموالُهم سُدًى بلا طائلٍ، فلا يظفَرونَ بما كانوا فيه يَطمَعونَ، وهم في آخِرِ الأمرِ يُغلَبونَ ويُقهَرونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۞ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢٠-٢١].

وقال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبرَ تعالى بما آلَ إليه حالُ الكُفَّارِ في الدُّنيا، مِن حَسرَتِهم، وكَونِهم

وإذا كان ذلك كذلك فالصَّوابُ في ذلك أن يَعُمَّ كما عمَّ جَلَّ ثناؤه الذين كَفَروا من قُريشٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٤).

وقال الشنقيطي: (الذي عليه جُمهورُ العُلَماءِ مِن المُفَسِّرين وأصحاب المغازي والتَّاريخ: أنَّ هذه الآيةَ مِن سُورةِ الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نزلت في قضيَّةِ قُريشٍ مع عيرِ أبي سُفيانَ؛ لأنَّ عِيرَ أبي سُفيانَ لَمَّا نجَتْ، وقُتِلَ مَن قُتِلَ من أشرافِهم يَومَ بَدرٍ، اجتمَعَ أشرافُ قُريشٍ، وطلَبُوا كلَّ مَن كانت له تجارةٌ في تلك العيرِ أن يَمنَحَهم ذلك المالَ؛ لِيَستعِينوا به، ويَستَعْدُوا على حربِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، طالبينَ منهم إدراكَ الثَّأرِ، فكانت إمكانيَّاتُ أُحُدٍ هي من أموالِ تجاراتِ تلك العيرِ، وأنَّ ذلك هو معنى إنفاقِهم لِيَصُدُّوا عن سبيلِ اللهِ. هذا هو الأصوَبُ إن شاء الله، وعليه جماهيرُ العُلَماءِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩٥، ٥٩٦).

مَغلوبينَ- أخبرَ بما يَؤُولُ إليه حالُهم في الآخرةِ، مِن حَشْرِهم إلى جَهنَّمَ[١].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾.

أي: والكُفَّارُ يجمَعُهم اللهُ تعالى يومَ القِيامةِ إلى نارِ جَهنَّمَ؛ ليُعذَّبوا فيها[٢].

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى حَشْرَ الكافِرينَ، ذكَرَ عِلَّتَه، فقال[٣]:

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

أي: يحشُرُ اللهُ الكفَّارَ الخَبيثينَ إلى جهنَّم؛ ليُفرِّقَ بينهم وبين المؤمنين الطيِّبينَ، فيكونَ الكفَّارُ في جهنَّم، والمؤمنونَ في الجنَّةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠١).
وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ، والشنقيطيُّ. يُنظر: المصادر السابقة.
وقال ابنُ كثيرٍ: (وقولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾... يحتملُ أن يكونَ هذا التمييزُ في الآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡ﴾ [يونس: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقال في الآية الأخرى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]. ويحتملُ أن يكونَ هذا التَّمييزُ في الدُّنيا، بما يظهرُ مِن أعمالِهم للمُؤمنينَ، وتكونَ اللَّامُ معلِّلةً لِما جَعلَ اللهُ للكُفَّارِ مِن مالٍ يُنفِقونَ في الصَّدِّ عن سبيل الله، أي: إنَّما أقدَرْناهم على ذلك؛ ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: مَن يُطيعُه بقِتالِ أعدائِه الكافرين، أو يَعصيه

﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾.

أي: ويجعَلَ اللهُ الكُفَّارَ الخبيثينَ بعضَهم فوقَ بَعضٍ، فيجمَعَهم جميعًا؛ حتى يتَراكَموا ويَكثُروا، فيجعَلَهم كلَّهم في نارِ جَهنَّمَ(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

أي: أولئك الكفَّارُ الخبيثونَ، الذين يُجمعون كلُّهم، فيُركَمون في جهنَّمَ، هم الذين خسِروا أنفسَهم وأهْليهم يومَ القيامةِ، وخسِروا الدُّنيا والآخرةَ، وذلك هو الخسرانُ المبينُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ

بالنُّكولِ عَن ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧] الآية، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] الآية، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ونظيرَتُها في براءة أيضًا. فمَعنى الآيةِ على هذا: إنَّما ابتَلَيناكم بالكُفَّارِ يُقاتِلونَكم، وأقدَرْناهم على إنفاقِ الأموالِ وبَذْلِها في ذلك؛ ليتميَّزَ الخبيثُ من الطيِّبِ، فيُجعَلَ الخبيثُ بعضُه على بعضٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠٢).

قال ابن عاشور: (وجَعْلُ الخَبيثِ بَعضَه على بعضٍ: عِلَّةٌ أخرى لِحَشرِ الكافرينَ إلى جهنَّم؛ ولذلك عُطِفَ بالواو، فالمقصودُ جَمعُ الخبيثِ- وإن اختلَفَت أصنافُه- في مَجمَعٍ واحدٍ؛ لزيادةِ تَمييزِه عن الطَّيِّب، ولتشهيرِ مَن كانوا يُسِرُّون الكُفرَ ويُظهِرونَ الإيمانَ، وفي جَمعِه بهذه الكيفيَّةِ تَذليلٌ لهم وإيلامٌ؛ إذ يُجعَلُ بعضُهم على بعضٍ حتى يصيرُوا ركامًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠٢).

ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مِن العِبرةِ في هذا للمُؤمنينَ أنَّهم أَوْلى مِن الكفَّارِ ببَذلِ أموالِهم وأنفُسِهم في سبيلِ الله؛ لأنَّ لهم بها مِن حيثُ جُملَتُهم سعادةَ الدَّارينِ، ومن حيثُ أفرادُهم الفَوزَ بإحدى الحُسنَيَينِ، هكذا كان في كلِّ زمانٍ قام المسلمونَ فيه بحقوقِ الإسلامِ والإيمانِ، وهكذا سيكونُ إذا عادُوا إلى ما كان عليه سَلَفُهم الصَّالحون، فالكفَّارُ في هذا الزَّمانِ يُنفِقونَ القناطيرَ المُقنطَرةَ مِن الأموالِ؛ للصَّدِّ عن الإسلامِ، وفتنةِ الضُّعفاءِ مِن العوامِّ[(١)]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ هذا من إخبارِ القُرآنِ بالغُيوبِ؛ لأنَّه أخبرَ بما يكونُ قبلَ أن يكونَ، فكان كما أخبرَ[(٢)].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ عبَّرَ بعبارةٍ ظاهرةٍ في مَضرَّتِها، فقال: ﴿عَلَيْهِمْ﴾، وأبلَغَ في ذلك بأنْ أوقَعَ عليها المَصدرَ، فقال: ﴿حَسْرَةً﴾ أي: لضياعِها وعَدمِ تأثيرِها[(٣)].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٧٧).

﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ﴾ قولُه: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾ عطفُ تَفسيرٍ، يؤكِّدُ الذي قَبلَه في إرادةِ الحقيقةِ، مع إفهامِ شِدَّةِ الاتِّصالِ، حتى يصيرَ الكُلُّ كالشَّيءِ الواحِدِ، كالسَّحابِ المرَكومِ[١].

بلاغة الآيتين:

١- **قولُه تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾

- أتى بِصيغةِ المُضارِعِ في ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذلك دأْبُهم، وأنَّ الإنفاقَ مُستمِرٌّ؛ لإعدادِ العُدَدِ لِغَزوِ المُسلمينَ، فإنفاقُهم حصلَ في الماضي، ويحصُلُ في الحالِ والاستقبالِ، وأشعَرَت لامُ التعليلِ في ﴿لِيَصُدُّواْ﴾ بأنَّ الإنفاقَ مُستمِرٌّ؛ لأنَّه مَنوطٌ بعلَّةٍ ملازِمةٍ لِنُفوسِهم، وهي بُغضُ الإسلامِ، وصَدُّهم النَّاسَ عنه[٢].

- والفاءُ في ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ تَفريعٌ على العلَّةِ؛ لأنَّهم لَمَّا كان الإنفاقُ دَأبَهم لتلك العِلَّةِ المذكورةِ، كان ممَّا يتفرَّعُ على ذلك تكَرُّرُ هذا الإنفاقِ في المُستقبَلِ، أي: ستكونُ لهم شَدائِدُ مِن بأسِ المُسلمينَ تَضطرُّهم إلى تكريرِ الإنفاقِ على الجُيوشِ؛ لِدفاعِ قُوَّةِ المُسلمينَ[٣].

- قوله: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ جعَلَ ذاتَ الأموالِ حَسرةً- وهي عاقبةُ إنفاقِها- مُبالغةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤١).

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ فيه عُدولٌ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ- فلم يَقُلْ: (وإلى جهنَّمَ يُحشَرونَ)؛ للإفصاحِ عن التَّشنيعِ بهم في هذا الإنذارِ، حتى يُعادَ استحضارُ وَصْفِهم بالكُفرِ بأصرَحِ عبارةٍ[١].

- وعُرِّفوا بالمَوصوليَّةِ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ إيماءً إلى أنَّ عِلَّةَ استِحقاقِهم الأمرَينِ في الدُّنيا والآخِرةِ، هو وَصفُ الكُفرِ، فيُعلَمُ أنَّ هذا يحصُلُ لِمَن لم يُقلِعوا عن هذا الوَصفِ قبل حُلولِ الأمرَينِ بهم[٢].

٢- **قولُه تعالى:** ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾

- ﴿لِيَمِيزَ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ ﴿يُحۡشَرُونَ﴾ لبيانِ أنَّ مِن حِكمةِ حَشْرِهم إلى جهنَّمَ أنْ يتميَّزَ الفريقُ الخَبيثُ مِن النَّاسِ، من الفَريقِ الطَّيِّبِ، في يومِ الحَشرِ[٣].

- وقَولُه: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ المقصودُ منه جمعُ الخَبيثِ، وإن اختلَفَت أصنافُه في مجمعٍ واحدٍ؛ لزيادةِ تَمييزِه عن الطيِّبِ، ولتشهيرِ مَن كانوا يُسِرُّونَ الكُفرَ، ويُظهِرونَ الإيمانَ، وفي جَمعِه بهذه الكيفيَّةِ تذليلٌ لهم وإيلامٌ؛ إذ يُجعَلُ بَعضُهم على بعضٍ، حتى يصيرُوا رُكامًا[٤].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: الإشارةُ بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ استحقاقَهم الخبرَ الواقعَ عن اسمِ الإشارةِ، كان بسبَبِ الصِّفاتِ التي ذُكِرَت قبل اسمِ الإشارة؛ فإنَّ من كانت تلك حالَه، كان حقيقًا بأنَّه قد خسِرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٣).

أعظَمَ الخُسرانِ، لأنَّه خَسِرَ منافِعَ الدُّنيا، ومنافِعَ الآخرةِ[١]

- وصيغةُ القَصرِ في قَولِه: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ هي للقَصرِ الادِّعائيِّ؛ للمُبالغةِ في اتِّصافِهم بالخُسرانِ، حتى يُعَدَّ خُسرانُ غَيرِهم كَلَا خُسرانٍ، وكأنَّهم انفَرَدوا بالخُسرانِ مِن بينِ النَّاسِ[٢].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٨-٤٠)

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَلَفَ﴾: أي: مضَى، والسَّلَفُ: المتقدمُ، وأصلُ (سلف): تَقَدُّم وَسَبْق[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُخبِرَ الذين كفَروا مِن قريشٍ أنَّهم إنْ يَنتَهوا عن الكُفرِ، وقتالِ المُؤمنينَ، يَغفِرِ اللهُ لهم ما تقدَّمَ، وإن يَعودُوا فقد سبَقَت طريقَتُه في إهلاكِ كُفَّارِ قريشٍ يومَ بَدرٍ، وإهلاكِ غَيرِهم مِن الأُمَمِ المُكَذِّبةِ.

وأمرَ اللهُ عبادَه المُؤمنينَ أن يُقاتِلوا الكفَّارَ؛ حتى لا يكونَ في الأرضِ شِركٌ يُفتَنُ بِسَببِه النَّاسُ، ويكونَ الدِّينُ كُلُّه خالصًا لله، فإنِ انتَهى الكُفَّارُ فإنَّ اللهَ بما يَعمَلونَ بَصيرٌ، وإن أعرَضُوا وأصَرُّوا على الكُفرِ والقتالِ، فلْيُوقِنِ المُؤمِنونَ أنَّ اللهَ وَلِيُّهم وسَيِّدُهم، الذي يُعينُهم وينصُرُهم عليهم، هو سُبحانَه نِعمَ المُعينُ لأوليائِه، ونِعمَ النَّاصِرُ لهم على أعدائِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢ / ٤٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ ضلالَ الكافِرينَ في عِباداتِهم البَدَنيَّةِ، وعِباداتِهم الماليَّةِ؛ أرشَدَهم إلى طريقِ الصَّوابِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى ما يحُلُّ بالكافرينَ مِن حَشْرِهم إلى النَّارِ، وجَعْلِهم فيها، وخُسْرِهم- تلطَّفَ بهم، وأنَّهم إذا انتَهَوا عن الكُفرِ وآمَنوا، غُفِرَت لهم ذُنوبُهم السَّالِفةِ[٢].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ تعالى حالَ الكُفَّارِ الذين يُصِرُّونَ على كُفرِهم، وصَدِّهم عن سَبيلِ الله، وقتالِ رَسولِه والمؤمنينَ، وما لهم في الدُّنيا والآخرةِ- قفَّى عليه ببيانِ حُكمِ الذينَ يَرجِعونَ عنه، ويَدخُلونَ في الإسلامِ؛ لأنَّ الأنفُسَ صارت تتشَوَّفُ إلى هذا البَيانِ[٣]، فقال:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لكُفَّارِ قُريشٍ: إنْ يَترُكوا الكُفرَ، وقِتالَ المؤمنينَ، يَغفِرِ اللهُ لهم ما قد تقدَّمَ مِن كُفرِهم ومَعاصيهم[٤].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٦، ١٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥).
قال ابنُ تيميةَ: (قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ يتناولُ كلَّ كافرٍ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ٤٧).

وعَن عَمرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال له: ((أَمَا عَلِمْتَ أنَّ الإسلامَ يَهدِمُ ما كان قَبلَه))(١).

﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

أي: وإنْ يَعُدْ هؤلاءِ المُشركونَ مِن قُريشٍ إلى قتالِك، ويستمِرُّوا على كُفرِهم؛ فقد مَضَت طريقَتُنا في إهلاكِ كُفَّارِ قُريشٍ في يومِ بَدرٍ، وإهلاكِ غَيرِهم مِن الأُمَمِ الماضيةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ۞ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ [فاطر: ٤٣-٤٤].

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّ هؤلاءِ الكفَّارَ إن انتَهَوا عن كُفرِهم، حصَلَ لهم الغُفرانُ، وإن عادُوا فهم مُتوَعَّدونَ بسُنَّةِ الأوَّلينَ- أتبَعَه بأنْ أمَرَ بقتالِهم إذا أصَرُّوا(٣).

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢١٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦، ٧).

قال ابنُ عطيةَ: (والتخويفُ عليهم بقصَّة بدرٍ أشدُّ؛ إذ هي القريبةُ منهم والمعايَنة عندَهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٠).

أي: وقاتِلوا- أيُّها المُؤمِنونَ- الكُفَّارَ؛ حتَّى لا يكونَ في الأرضِ شِركٌ يُفتَنُ بِسَببِه النَّاسُ[١].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُمِرتُ أن أقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشهَدُوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ، ويُقيمُوا الصَّلاةَ، ويُؤتُوا الزَّكاةَ، فإذا فَعَلوا ذلك عَصَموا منِّي دِماءَهم وأموالَهم إلَّا بحَقِّ الإسلامِ، وحِسابُهم على اللهِ))[٢].

وعنِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أيضًا، (أنَّه أتاه رَجُلانِ في فتنةِ ابنِ الزُّبيرِ، فقالا: إنَّ النَّاسَ صَنَعوا وأنت ابنُ عُمرَ، وصاحِبُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فما يمنَعُك أن تخرُجَ؟! فقال: يمنَعُني أنَّ اللهَ حرَّمَ دمَ أخي. فقالا: ألمْ يقُلِ اللهُ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾؟! فقال: قاتَلْنا حتَّى لم تكُنْ فِتنةٌ، وكان الدِّينُ لله، وأنتم تريدونَ أن تُقاتِلوا حتى تكونَ فِتنةٌ، ويكونَ الدِّينُ لِغَيرِ الله!)[٣].

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾.

أي: وقاتِلوا الكفَّارَ حتى تكونَ الطَّاعةُ والعبادةُ كُلُّها خالصةً لله وَحدَه، وينتشِرَ الإسلامُ، فلا يُعبَد إلَّا اللهُ وَحدَه لا شَريكَ له[٤].

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سئِلَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الرَّجُلِ يُقاتِلُ شَجاعةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويقاتِلُ رِياءً، أيُّ ذلك في سبيلِ اللهِ؟ فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَن قاتَلَ لِتكونَ كَلِمةُ اللهِ هي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧، ٨).

(٢) رواه البخاري (٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢).

(٣) رواه البخاري (٤٥١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨).

العُليا فَهو في سبيلِ اللهِ))[١].

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

أي: فإن انتَهى الكُفَّارُ عن الشِّركِ وأسلَموا؛ فإنَّ اللهَ لا يخفى عليه ما يَعمَلونَ في الظَّاهِرِ والباطِنِ، فيُجازيهم عليه، فكُفُّوا عن قِتالِهم، وإنْ لم تعلَموا بواطِنَهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٥].

وعن أُسامةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((بَعَثَنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَرِيَّةٍ، فصَبَّحْنا الحُرُقاتِ[٣] مِن جُهَينةَ، فأدركْتُ رجلاً، فقال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فطَعَنْتُه فوقَعَ في نفسي مِن ذلك، فذَكَرْتُه للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أقالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وقَتَلْتَه؟! قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّما قالها خوفًا مِن السِّلاحِ، قال: أفَلَا شقَقْتَ عن قَلْبِه، حتى تعلَمَ أقالَها أم لا؟! فما زالَ يكرِّرُها عليَّ حتى تمنَّيتُ أنِّي أسلَمْتُ يومَئذٍ))[٤].

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾.

---

(١) رواه البخاري (١٢٣) ومسلم (١٩٠٤)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٩٢، ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨).

(٣) فصَبَّحْنا الحُرُقاتِ: أي: أتوهم وهَجَموا عليهم صباحًا، قبلَ أنْ يَشْعُروا بهم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٢/ ١٩٥).
والحرقات: قبيلةٌ مِن جهينةَ، والظاهرُ أنَّه جمعُ حرقة، واسمُه: جهيشُ بنُ عامرٍ، قيل: سُمِّي الحرقة؛ لأنَّه حرقَ قومًا بالنبلِ فبالَغ في ذلك. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٧/ ٢٧١).

(٤) رواه البخاري (٤٢٦٩) ومسلم (٩٦)، واللفظ له.

أي: وإنْ أعرَضَ الكُفَّارُ عن الإيمانِ، وأصَرُّوا على الكُفرِ والقتالِ، فقاتِلوهم، وأيقِنُوا أنَّ اللهَ وليُّكم وسيِّدُكم، الذي يُعينُكم، ويَنصُرُكم عليهم[(١)].

﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

أي: الله عزَّ وجلَّ هو نِعْمَ المُعينُ لأوليائِه، ونِعْمَ النَّاصِرُ لهم، الذي ينصُرُهم على أعدائِهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ [النساء: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

مَن كان في حمايةِ اللهِ تعالى وفي حِفظِه وكِفايتِه، كان آمِنًا من الآفاتِ، مَصونًا عن المُخالفاتِ، قال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن لُطفِ اللهِ تعالى بعبادِه أنَّه لا يمنَعُه كُفرُ العبادِ، ولا استمرارُهم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٨٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨).

قال ابنُ عطيةَ: (وقولَه تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ...﴾ الآيةَ، معادلٌ لقولِه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾، والمعنى: فإنِ انْتَهوا عن الكفرِ، فاللهُ مجازيهم... وإن تولَّوْا، ولم ينتهوا، فاعلموا أنَّ الله ينصرُكم عليهم، وهذا وعدٌ محضٌ بالنصرِ والظَّفرِ، أي: فجدُّوا). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٨٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٠).

العنادِ، مِن أن يَدعُوَهم إلى طريقِ الرَّشادِ والهُدى، وينهاهم عما يُهلِكُهم من أسبابِ الغَيِّ والرَّدَى؛ قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾[١].

٢- الإسلامُ يَهدِمُ ما كان قَبلَه بنَصِّ الكتابِ العزيزِ؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ احتجَّ به أبو حنيفةَ رحمه الله، على أنَّ المُرتَدَّ إذا أسلَمَ لا يلزَمُه قَضاءُ العِباداتِ المتروكةِ في حالِ الرِّدَّةِ وقَبلَها[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ فيه حُجَّةٌ لِمَن رأى الاستتابةَ واجِبةً؛ فقد أمرَ اللهُ رَسولَه أن يُخبِرَ جَميعَ الذين كفَروا أنَّهم إن انتَهَوا غُفِرَ لهم ما سلفَ، وهذا معنى الاستِتابةِ، والمرتَدُّ مِن الذين كَفَروا، والأمرُ للوُجوبِ، فعُلِمَ أنَّ استتابةَ المُرتَدِّ واجبةٌ، ولا يقالُ: فقد بلَغَهم عُمومُ الدَّعوةِ إلى الإسلامِ؛ لأنَّ هذا الكُفرَ أخصُّ من ذلك الكفرِ، فإنَّه يُوجِبُ قَتلَ كُلِّ مَن فَعَله، ولا يجوزُ استبقاؤُه وهو لم يُستتَبْ مِن هذا الكُفرِ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ فيه دليلٌ على قَبولِ توبةِ الزِّنديقِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يتناوَلُ جَميعَ أنواعِ الكُفرِ، فإنْ قيلَ: الزِّنديقُ لا يُعلَمُ مِن حالِه أنَّه هل انتَهى مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢١).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٩)، ويُنظر أيضًا: ((شرح مختصر الطحاوي)) للجصاص (١/ ٧٣٥) (٦/ ١٤٠)، ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٢/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٢٢).

زَندقَتِه أم لا؟ فالجوابُ: أحكامُ الشَّرعِ مَبنيَّةٌ على الظَّواهِرِ، فلما رجَعَ وجَبَ قَبولُ قَولِه فيه[١].

٦- الكُفرُ الذي يَعقُبُه الإيمانُ الصَّحيحُ، لا يَبقى على صاحِبِه منه ذَمٌّ، هذا معلومٌ بالاضطرارِ مِن دِينِ الإسلامِ، بل مِن دِينِ الرُّسُلِ كُلِّهم، كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ فيه أنَّ الحَربيَّ إذا أسلَمَ لم يُؤخَذْ بِشَيءٍ ممَّا عَمِلَه في الجاهليَّة: لا مِن حُقوقِ اللهِ، ولا مِن حُقوقِ العبادِ[٣].

٨- قَوْله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ هذه لطيفةٌ مِنَ اللهِ سُبحانَه مَنَّ بها على الخَليقةِ؛ وذلك أنَّ الكُفَّارَ يقتَحِمونَ الكُفرَ والجرائِمَ، ويَرتكبونَ المعاصِيَ، ويَرتكبونَ المآثِمَ، فلو كان ذلك يُوجِبُ مُؤاخَذتَهم لَما استدرَكوا أبدًا توبةً، ولا نالَتْهم مغفرةٌ، فيسَّرَ اللهُ عليهم قَبولَ التَّوبةِ عند الإنابةِ، وبذَلَ المَغفرةَ بالإسلامِ، وهَدَمَ جَميعَ ما تقَدَّمَ؛ ليكونَ ذلك أقرَبَ إلى دخولِهم في الدِّينِ، وأدعَى إلى قَبولِهم كلمةَ الإسلامِ، وتأليفًا على الملَّةِ، وترغيبًا في الشَّريعةِ؛ فإنَّهم لو عَلِموا أنَّهم يُؤاخَذونَ لَما أنابوا ولا أسلَموا[٤].

٩- أُطلِقَت الوَلايةُ في القُرآنِ بالنِّسبةِ إلى الله جلَّ وعلا إطلاقَينِ:

أُطلِقَ المولى بمعنى الوَلايةِ الخاصَّةِ، وهي: النَّصرُ والتَّمكينُ والتَّوفيقُ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٣).
(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٢٨٣).
(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٥٣).
(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٩٨).

كقوله هنا: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ وقولِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ [التحريم: ٤] وهذا كثيرٌ في القُرآنِ؛ ولذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١١] أي: لا مَولى لهم وَلايةَ نَصرٍ وتَمكينٍ.

وأُطلِقَ المولى بمعنَى ولايةِ خَلقٍ وقُدرةٍ ورُبوبيَّةٍ ومِلكٍ، وهو في قَولِه: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ﴾ [الأنعام: ٦٢] وهي في الكفَّارِ؛ لأنَّه مولى الكُفَّارِ ولايةَ مِلكٍ وتصرُّفٍ ونُفوذٍ وقُدرةٍ، ومولى المؤمنينَ ولايةَ نَصرٍ وتمكينٍ وثوابٍ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

هذا كلامٌ جارٍ على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ، والوعيدِ بالوَعدِ، والعَكس، فأنذَرَهم بما أنذَرَ، وتوعَّدَهم بما تَوعَّد، ثم ذكَّرَهم بأنَّهم مُتمَكِّنونَ مِن التَّدارُكِ، وإصلاحِ ما أفسَدُوا، فأمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَقولَ لهم ما يفتَحُ لهم بابَ الإنابةِ[(٢)].

- وقَولُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ تَعريضٌ بالوعيدِ بأنَّهم سيَلقَونَ ما لَقِيَه الأوَّلونَ، والقَرينةُ على إرادةِ التَّعريضِ بالوعيدِ أنَّ ظاهِرَ الإخبارِ بمُضِيِّ سُنَّةِ الأوَّلينَ، وهو من الإخبارِ بِشَيءٍ مَعلومٍ للمُخبَرينَ به، وبهذا الاعتبارِ حَسُنَ تأكيدُه بـ(قد)؛ إذ المرادُ تأكيدُ المعنى التَّعريضي[(٣)].

٢- قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٤٦).

لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾

- عَمَّمَ الخِطابَ في قوله ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ لزيادةِ تَرغيبِ المؤمنينَ في القِتالِ[١].

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ كنايةٌ عن حُسنِ مُجازاتِه إيَّاهم؛ لأنَّ القادِرَ على نَفعِ أوليائِه ومُطيعِيه لا يحولُ بينه وبين إيصالِ النَّفعِ إليهم إلَّا خفاءُ حال مَن يُخلِصُ إليه، فلما أُخبِرُوا بأنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على انتهائِهم عن الكُفرِ إنِ انتَهَوا عنه، وكان ذلك لا يُظَنُّ خلافُه؛ عُلِمَ أنَّ المقصودَ لازِمُ ذلك[٢].

٣- **قولُه تعالى:** ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾

- افتتاحُ جُملةِ جوابِ الشَّرطِ بـ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾؛ لقَصدِ الاهتمامِ بهذا الخَبرِ وتحقيقِه[٣].

- وقولُه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ؛ لأنَّها إنشاءُ ثناءٍ على اللهِ، فكانت بمَنزلةِ التَّذييلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٤٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٤١-٤٢)

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غَنِمۡتُم﴾: المَغنَمُ والغنيمةُ: ما أُصيبَ مِن أموالِ المُحاربينَ قهرًا. وأصلُ (غنم) يدلُّ على إفادةِ شَيءٍ لم يُملَك مِن قَبلُ[(١)].

﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: أي: بِجانب الوادي ممَّا يلي المدينةَ. وأصلُ (عدو) يدلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ[(٢)].

﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾: أي: بالجانِبِ الأبعدِ مِن المدينةِ. وأصلُ (قصو) يدلُّ على بُعدٍ وإبعادٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٤، ٦٧٣). ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠).

﴿وَٱلرَّكۡبُ﴾: أي: راكِبو الإبِلِ، والمقصودُ عِيرُ أبي سفيانَ أي: ركبُ التجارةِ. وَأصلُ (ركب): يدلُّ على عُلوِّ شيءٍ شَيئًا[١].

﴿بَيِّنَةٍ﴾: أي: حُجَّةٍ. والبيِّنةُ كذلك: الدَّلالةُ الواضِحةُ؛ يقالُ: بان الشيءُ وأبان، إذا اتَّضَحَ وانكَشَفَ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾

﴿أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾: (ما) في ﴿أَنَّمَا﴾ اسمُ أنَّ، وهي موصولةٌ بمعنى (الذي)، و﴿غَنِمۡتُم﴾ صِلَتُها، وعائِدُها محذوفٌ، أي: غَنِمتُموه. و﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ جارٌّ ومجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمحذوفٍ، حالٌ مِن عائِدِ الصِّلةِ، والتقديرُ: ما غَنِمتُموه كائنًا من شَيءٍ، أي: قليلًا أو كثيرًا. ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾: الفاءُ داخلةٌ تشبيهًا للموصولِ بالشَّرطِ، و(أنَّ) وما عَمِلَتْ فيه في محلِّ رفعٍ، خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: فحُكمُه أنَّ لِلَّه خُمُسَه، والجملةُ مِن هذا المبتدأِ والخَبرِ في محَلِّ رَفعٍ، خَبرُ (أنَّ). و﴿أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾ وما بعدَها سدَّ مسدَّ مفعولَي ﴿اعۡلَمُوا﴾[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

اعلَموا- أيُّها المؤمنونَ- أنَّ ما تظفرونَه مِن الكُفَّارِ غنيمةً بعدَ انتِصارِكم عليهم؛ فحُكمُه أنَّ لله خُمُسَه، وللرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولِقرابَتِه مِن بني

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣١٥). ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٦٢٣-٦٢٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٠٥-٦٠٦).

هاشمٍ وحُلفائِهم من بني المطَّلبِ، ولليتامى والمساكينِ، وللمُسافِرِ الذي يحتاجُ المالَ في سَفَرِه، وأمَّا بقيةُ الأخماسِ الأربعةِ فهي للمقاتلينَ، إن كُنتم آمَنتُم باللهِ تعالى، وما أنزَلَ على عبدِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن آياتِ القرآنِ، يومَ فَرَقَ اللهُ بين الحقِّ والباطِلِ، وذلك يوم التقى جمعُ المسلمينَ وجمعُ الكفَّار ببدرٍ، واللهُ على كلِّ شَيءٍ قديرٌ حيثُ نصَركم أيُّها المسلمونَ على قلةِ عددِكم، وخذَل الكفارَ على كثرتِهم.

فاذكروا - أيُّها المُؤمنونَ- حين كنتم على جانِبِ وادي بدرٍ الأقرَبِ للمدينةِ، وهم على الجانِبِ الأبعَدِ، وأصحابُ الإبِلِ الذين معهم تجارةُ المُشركينَ أسفَلَ منكم ممَّا يلي ساحِلَ البَحرِ، ولو تواعَدْتُم- أنتم والمشركونَ- على مكانٍ وزمانٍ تتقاتلونَ فيه، لَما اجتمَعتُم في ذلك المَوعِد، ولكنَّ الله دبَّر لهذا التلاقي لِيَقضيَ أمرًا مُقَدَّرًا لا بدَّ مِن وقوعِه، لِيَهلِكَ مَن هلكَ باستمرارِه على الكُفرِ بعد قيامِ الحجَّةِ عليه، ويؤمِنَ مَن آمنَ بعد ظهورِ الحُجَّة له، وإنَّ اللهَ لَسميعٌ عليمٌ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ بالمُقاتلةِ في قَولِه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ وكان مِن المَعلومِ أنَّ عند المُقاتلةِ قد تحصُلُ الغنيمةُ؛ لا جرَمَ ذَكَرَ تعالى حُكمَ الغنيمةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٤).

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾.

أي: واعلَمُوا[١]- أيُّها المؤمنونَ الغانِمونَ- أنَّ أيَّ مالٍ تأخذونَه مِن الكفَّارِ قَهرًا، إذا انتصَرتُم عليهم[٢]، فحقُّه أنَّ للَّهِ خُمُسَه، يُصرَفُ فيما أمَرَ اللهُ به[٣].

---

(١) قال الشنقيطي: (﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ معناه: تيقَّنُوا؛ لأنَّ العِلمَ إذا أُطلِقَ في القرآنِ: معناه اليَقينُ في جميعِ القرآنِ، وقد جاء في حَرفٍ في سورة الممتحنة إطلاقُ العِلمِ مُرادًا به الظنُّ الغالِبُ، وهو قولُه تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ [الممتحنة: ١٠] أي: غلَبَ على ظَنِّكم ظَنًّا قويًّا مُزاحِمًا لليَقينِ، ولا يكادُ العِلمُ في غيرِ هذا الموضِعِ يُطلَقُ في القرآنِ إلا مُرادًا به اليقينُ الجازِمُ، الذي لا يُخالِجُه ظَنٌّ ولا وَهْمٌ ولا شَكٌّ). ((العذب النمير)) (٥/ ١٢) بتصرف يسير.

(٢) قال الكِيا الهراسيُّ: (واعلَمْ أنَّ الاتِّفاقَ حاصِلٌ على أنَّ المُرادَ بقَولِه: ﴿غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾: مالُ الكُفَّارِ، إذا ظهرَ به المسلمونَ على وَجهِ الغَلَبةِ، ولا تقتضي اللُّغةُ هذا التَّخصيصَ، ولكِنَّ عُرفَ الشَّرعِ قيَّدَ اللَّفظَ بهذا النَّوعِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ١٥٦).

وقال القُرطبي: (لم يختلِفِ العُلَماءُ أنَّ قَولَه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ ليس على عُمومِه، وأنَّه يدخُلُه الخصوصُ، فمِمَّا خَصَّصوه بإجماعٍ أنْ قالوا: سَلَبُ المقتولِ لِقاتِلِه إذا نادى به الإمامُ. وكذلك الرِّقابُ- أعني الأُسارى- الخِيَرةُ فيها إلى الإمامِ بلا خلافٍ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٨٤، ١٨٧)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦، ٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣، ١٦).

قال الشِّنقيطي: (التَّحقيقُ أنَّ نَصيبَ اللهِ جلَّ وعلا، ونصيبَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ واحدٌ، وذِكْرُ اسمِه جلَّ وعلا استفتاحُ كلامٍ للتَّعظيمِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٩١).

وعزاه البغويُّ إلى أكثرِ المفسِّرين والفقهاءِ، وقال: (وهو قولُ الحسنِ وقتادةَ وعطاء وإبراهيمَ والشعبيِّ، قالوا: سهمُ الله وسهمُ الرسولِ واحدٌ، والغنيمةُ تُقسمُ خمسةَ أخماسٍ، أربعةُ أخماسٍ لمَن قاتَل عليها، وخُمسٌ لخمسةِ أصنافٍ، كما ذكَر الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٩٢).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الابتداءُ باسمِ اللهِ تعالى للإشارةِ إلى أنَّ ذلك الخُمُسَ حَقُّ اللهِ يَصرِفُه حيث يشاءُ، وقد شاء فوكَّلَ صَرْفَه إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولِمَن يَخْلُف رسولَه من أئمَّةِ المُسلمينَ، وبهذا التَّأويلِ يكونُ الخُمُسُ مَقسومًا على خمسةِ أَسهُمٍ، وهذا قولُ عامَّةِ عُلَماءِ الإسلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨).

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((قَدِمَ وَفدُ عبدِ القَيسِ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنَّا- هذا الحيَّ- مِن ربيعةَ، وقد حالتْ بينَنا وبَينَك كُفَّارُ مُضَرَ، فلا نَخلُصُ إليك إلَّا في شَهرِ الحرامِ، فمُرْنا بأمرٍ نَعمَلُ به، وندعو إليه مَن وَراءَنا، قال: آمُرُكم بأربَعٍ، وأنهاكم عن أربَعٍ: الإيمانُ باللهِ، ثمَّ فَسَّرَها لهم فقال: شهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصَّلاةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، وأنْ تُؤَدُّوا خُمُسَ ما غَنِمْتُم))[(١)].

وعن عبدِ اللهِ بنِ شَقيقٍ، عن رجُلٍ مِن بُلقينَ، قال: ((أتيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو بوادي القُرى، وهو يَعرِضُ فَرسًا، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما تقولُ في الغنيمةِ؟ فقال: لِلَّه خُمُسُها، وأربعةُ أخماسٍ للجَيشِ. قلتُ: فما أحدٌ أَوْلَى به مِن أحَدٍ؟ قال: لا، ولا السَّهمُ تَستخرِجُه مِن جَنبِك، ليس أنت أحَقَّ به مِن أخيك المُسلِم))[(٢)].

﴿وَلِلرَّسُولِ﴾.

أي: ولِمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ يتصَرَّفُ فيما جعَلَه اللهُ له من الخُمُسِ بما شاء في مصالِحِه ومصالِحِ المُسلمين[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٨٧) ومسلم (١٧)، واللفظ له.

(٢) أخرجه أبو يعلى في ((المسند)) (٧١٧٩)، والطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) (٥١٩٨)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٨٠١٢).
قوَّى إسنادَه النوويُّ في ((المهذب)) (٧/ ٣٥٨٤)، وصحَّح إسنادَه ابنُ كثيرٍ في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ٣٢٨)، والهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (١/ ٥٣)، والألباني في ((إرواء الغليل)) (٥/ ٦٠)، وقال البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (١/ ٩٧): إسنادُه رجالُه ثقاتٌ.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤).
قال ابنُ تيميةَ: (الرسولُ مبلغٌ عن الله أمرَه ونهيَه، فالمالُ المضافُ إلى الله ورسولِه هو المالُ الذي يصرفُ فيما أمَر الله به ورسولُه مِن واجبٍ ومستحبٍّ، بخلافِ الأموالِ التي ملَّكها الله لعبادِه،

عن عمرِو بنِ عَبَسةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: صلَّى بنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى بَعيرٍ مِن المَغنمِ، فلمَّا سلَّم أخَذَ وَبرةً مِن جَنبِ البَعيرِ، ثمَّ قال: ((ولا يحِلُّ لي مِن غَنائِمِكم مِثلُ هذا إلَّا الخُمُسُ، والخُمُسُ مَردودٌ فيكم))(١).

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

أي: ولقرابةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن بني هاشمٍ وبني المطَّلِبِ(٢).

فإنَّ لهم صرفَها في المباحاتِ... فالأنفالُ لله والرسولِ؛ لأنَّ قسمتَها إلى الله والرسولِ ليست كالمواريثِ التي قسَمها الله بينَ المستحقِّين)) (٤/ ٢١١). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٢).

قال الشِّنقيطي: (والتَّحقيقُ: أنَّ نَصيبَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الخُمُسِ، كان يرُدُّه على مصالِحِ المُسلمينَ لا يأخُذُ منه شيئًا؛ لأنَّه كان يأخُذُ خَلَّتَه الضَّروريَّةَ مِن فَيءِ بني النَّضيرِ، وربَّما أخذ منه بعضًا مِن فيءِ قُريظةَ، وأنَّ نَصيبَه إنَّما يجعَلُه في مصالِحِ المُسلمينَ). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٤).

وقال ابنُ عاشور: (عند الجمهورِ أنَّ سَهمَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَخلُفُه فيه الإمامُ؛ يبدأُ بنَفَقتِه ونَفَقةِ عيالِه بلا تقديرٍ، ويَصرِفُ الباقيَ في مصالِحِ المُسلمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٦٠، ٦١).

وقال ابنُ جرير: (والصَّوابُ مِنَ القول في ذلك عندنا: أنَّ سَهمَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَردودٌ في الخُمُسِ، والخُمُسُ مقسومٌ على أربعةِ أسهُمٍ على ما رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ: للقرابةِ سَهمٌ، ولليتامى سَهمٌ، وللمَساكينِ سَهمٌ، ولابنِ السَّبيلِ سَهمٌ؛ لأنَّ اللهَ أوجَبَ الخُمسَ لأقوامٍ مَوصوفينَ بِصفاتٍ، كما أوجَبَ الأربعةَ الأخماسِ الآخَرينَ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٩٩).

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٥٥)، والطبراني في ((مسند الشاميين)) (٨٠٥)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٢٩٤٣).

صحَّحه ابنُ دقيق العيدِ في ((الاقتراح)) (١٠٠)، ووثَّق رجالَه الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (٨/ ٨٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح أبي داود)) (٢٧٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥).

ونَسبَ ابنُ كثيرٍ القَولَ بأنَّ قَرابَته هم بنو هاشمٍ وبنو المطَّلِبِ، إلى جمهورِ العُلماء. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٤).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وأمَّا سَهمُ ذوي القُربى فإنَّه يُصرَفُ إلى بني هاشمٍ وبني المُطَّلِب؛ لأنَّ بني

عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((مَشَيتُ أنا وعثمانُ بنُ عُفَّانَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلنا: يا رسولَ اللهِ، أعطيتَ بني المُطَّلِب وتركتَنا، ونحنُ وهم منكَ بِمَنزلةٍ واحدةٍ! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّما بنو المُطَّلِبِ وبنو هاشمٍ شَيءٌ واحِدٌ)). ولم يقسِمِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لبني عبدِ شَمسٍ، ولا لبني نَوفَل، قال ابنُ إسحاقَ: عبدُ شمسٍ وهاشمٌ والمُطَّلِبُ: إخوةٌ لأُمٍّ، وأمُّهُم عاتكةُ بنتُ مُرَّةَ، وكان نَوفَل أخاهم لأبيهم[(١)].

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾.

أي: ولِيَتامى المُسلمينَ، الذين مات آباؤُهم وهم أطفالٌ[(٢)].

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾.

أي: وللمُحتاجينَ مِن المُسلِمينَ[(٣)].

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

المطَّلِب وازَرُوا بني هاشمٍ في الجاهليَّةِ وفي أوَّلِ الإسلامِ، ودخلوا معهم في الشِّعبِ غضبًا لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وحمايةً له: مُسلِمُهم طاعةً لله ولِرَسولِه، وكافِرُهم حَميَّةً للعشيرةِ، وأَنَفةً وطاعةً لأبي طالبٍ عمِّ رَسولِ اللهِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٣).

وقال القاسمي: ((أجمَعوا على أنَّ المُرادَ بـ (ذوي القُربى) قرابتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٩٧).

(١) رواه البخاري (٣١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١).

قال الواحديُّ: (قال أهلُ المعاني: كلُّ من مات أبوه وهو صَغيرٌ، فهو يتيمٌ، ولا يُتْمَ بعد البُلوغِ، وكلُّ ولدٍ يتيمٌ مِن قِبَلِ أُمِّه إلَّا الإنسانَ فإنَّه يتيمٌ مِن قِبَلِ أبيه). ((البسيط)) (١٠/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١).

أي: وللمُسافِرِ المُحتاجِ للمالِ في سَفَرِه[١].

﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾.

أي: امتَثِلوا- أيُّها المؤمنونَ- ما شَرَعْناه لكم في قِسمةِ الغَنائِمِ، إن كُنتُم آمَنتُم باللهِ تعالى، وآمَنتُم بما أنزَلْنا على عَبدِنا محمَّدٍ، مِن آياتِ كِتابِنا[٢]، يومَ فرَقَ اللهُ بين الحَقِّ والباطِلِ، يومَ الْتَقى جمعُ المُسلمينَ وجَمعُ الكُفَّارِ بِبَدرٍ[٣].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ على كلِّ شَيءٍ قديرٌ، لا يُعجِزُه شَيءٌ، ومِن ذلك قُدرَتُه على نَصرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١).

(٢) قال الشنقيطيُّ: (إن كُنْتُم آمَنْتُم باللهِ، وآمَنْتُم بالذي أنْزَلْنا على عَبْدِنا مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من هذه الآياتِ القُرآنيَّةِ؛ لأنَّ اللهَ أنزَلَها عليكم، ونَصَرَكم عندَ نُزولِها، وأمَرَكم فيها بأداءِ الخُمُسِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٤).

قال ابنُ عاشورٍ: (والإنزالُ: هو إيصالُ شَيءٍ مِن عُلوٍ إلى سُفلٍ... فيجوز أن يكونَ هذا المُنَزَّل من قَبيلِ الوَحيِ، أي: والوحي الذي أنزَلْناه على عَبدِنا يومَ بَدرٍ... ويجوزُ أن يكونَ مِن قَبيلِ خَوارِقِ العاداتِ، والألطافِ العَجيبةِ، مثل إنزال الملائكةِ للنَّصرِ، وإنزالِ المطَرِ عند حاجةِ المُسلمين إليه، لتعبيدِ الطَّريقِ، وتثبيتِ الأقدامِ، والاستِقاءِ... ولا مانِعَ من إرادةِ الجَميعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٠)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤).

قال ابن عطية: (ويومُ الفُرقانِ: معناه يومُ الفَرْقِ بين الحقِّ والباطِلِ، بإعزازِ الإسلامِ وإذلالِ الشِّركِ، والفُرقانُ مصدَرٌ: مِن فَرَقَ يَفرُقُ، والجَمْعانِ: يريدُ جَمعَ المُسلِمينَ، وجمعَ الكُفَّارِ، وهو يومُ الوقعةِ التي قُتِلَ فيها صناديدُ قُريشٍ ببَدرٍ، ولا خلافَ في ذلك، وعليه نصَّ ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ ومِقْسَمٌ، والحسنُ بن علي وقتادةُ وغيرهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٢).

وقال ابنُ عاشور: (كان يومُ بَدرٍ فارقًا بين الحَقِّ والباطِلِ؛ لأنَّه أوَّلُ يومٍ ظَهَرَ فيه نصرُ المُسلمين الضُّعفاءِ على المُشركينَ الأقوياءِ، وهو نَصرُ المُحِقِّينَ الأذلَّةِ على الأعزَّةِ المُبطِلينَ، وكفى بذلك فُرقانًا وتَمييزًا بين مَن هم على الحَقِّ، ومَن هم على الباطِلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥).

المُؤمنينَ على الكافرينَ، وإن كانوا قِلَّةً أذلَّةً، كما وقع يومَ بَدرٍ[١].

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ لهم يومَ مُلتَقاهم، صوَّرَ لهم حالَتَهم الموضِّحةَ للأمرِ، المُبَيِّنةَ لِمَا كانوا فيه مِن اعترافِهم بالعَجزِ؛ تذكيرًا لهم بذلك، رَدعًا عن المُنازَعةِ، وردًّا إلى المُطاوَعةِ، فقال[٢]:

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ﴾.

أي: فرَقَ اللهُ بينَ الحَقِّ والباطِلِ حينَ[٣] كُنتم نازلينَ بِضَفَّةِ وادي بَدرٍ، التي هي أقرَبُ إلى المدينةِ، ومُشرِكو قُريشٍ نازِلونَ بِضَفَّةِ وادي بَدرٍ، التي هي أبعَدُ من المدينةِ، وأصحابُ الإبِلِ الذين معهم تجارةُ المُشركينَ؛ في موضعٍ أسفَلَ منكم ممَّا يلي ساحِلَ البَحرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٦).
وقيل: إنَّ ﴿إِذْ﴾ بدَلٌ مِن ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ وممَّن قال بهذا: الزَّمخشريُّ والشِّنقيطيُّ. وقيل: إنَّه منصوبٌ بـ (اذكروا) مُقَدَّرًا، وهو قَولُ الزَّجَّاجِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٣)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٥/ ٦٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٦٦، ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)،

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾.

أي: ولو اتَّفَقتُم- أيُّها المؤمنونَ- مع المُشركينَ على القتالِ في مكانٍ وزمانٍ مُحَدَّدينِ؛ لَمَا اجتمَعْتُم في ذلك المَوعِد[1].

﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

أي: ولكِن جَمَعَكم اللهُ ببدرٍ على غيرِ ميعادٍ بينكم وبينهم؛ لِينصُرَ اللهُ المؤمنينَ ويُعِزَّهم، ويُهلِكَ الكافرينَ ويُذِلَّهم، وكان ذلك قضاءً مُقدَّرًا لا بدَّ مِن وُقوعِه[2].

((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢).

قال ابنُ عطيَّةَ: (وادي بدرٍ آخِذٌ بين الشَّرقِ والقبلةِ، مُنحَرِفٌ إلى البَحرِ الذي هو قريبٌ مِن ذلك الصُّقعِ، والمدينةُ مِن الوادي مِن مَوضِعِ الوقعةِ منه في الشَّرقِ، وبينهما مرحلتانِ... والركبُ بإجماعٍ مِن المفسِّرينَ عِيرُ أبي سُفيانَ، ولا يقال: ركْبٌ إلا لرُكَّابِ الإبِلِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٢).

وقال الشِّنقيطي: (ومعنى كَونِه أسفَلَ: أنَّ وادي بدرٍ ذاهِبٌ إلى جِهةِ البَحرِ؛ فكُلُّ ما قرُبَ من البَحرِ منه فهو أسفَلُ، وما بَعُدَ منه فهو أعلى). ((العذب النمير)) (٥/ ٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨، ١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٥).

قال السعديُّ: (﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: لا بدَّ مِن تقدُّم أو تأخُّر أو اختيارِ منزلٍ، أو غيرِ ذلك، مما يعرِضُ لكم أو لهم، يصدفُكم عن ميعادِكم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢).

وقال ابنُ عاشورٍ: (والمعنَى: لو تواعدتُم لاختلفتُم في الميعادِ، أي: في وقتِ ما تواعَدْتُم عليه؛ لأنَّ غالبَ أحوالِ المتواعِدَينِ ألَّا يستويَ وفاؤُهما بما تواعَدَا عليه في وَقتِ الوفاءِ به، أيْ: في وقتٍ واحدٍ؛ لأنَّ التَّوقيتَ كان في تلك الأزمانِ تَقريبًا يُقَدِّرونَه بأجزاءِ النَّهارِ، كالضُّحى والعَصرِ والغروب؛ لا ينضَبِطُ بالدَّرَج والدَّقائق الفلكيَّة، والمعنى: فبِالأحرَى وأنتم لم تتواعَدُوا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩).

وقال الشِّنقيطي: (﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: لخافَ بعضُكم مِن بَعضٍ، وجبُنَ بعضُكم عن بعضٍ، ولَمَا اتَّفَقْتم ليحصُلَ ما حصل). ((العذب النمير)) (٥/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٦).

عن كعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (إنَّما خرج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُسلمونَ، يريدونَ عيرَ قُريشٍ، حتى جمَعَ اللهُ بينهم وبين عَدُوِّهم على غيرِ مِيعادٍ)[١].

﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾.

أي: جمعَ اللهُ بين المؤمنينَ والكافرينَ بِبَدرٍ، ونصَرَ المؤمنينَ عليهم؛ وفرَق بين الحقِّ والباطِلِ؛ من أجلِ أن يستمِرَّ في الكُفرِ مَن استمَرَّ فيه بعد قيامِ الحُجَّةِ عليه، ووضوحِ الأمرِ ببطلانِ الكُفْرِ، فلا يبقَى له عذرٌ عندَ الله، ويؤمِنَ مَن آمنَ بعد ظُهورِ الحجَّةِ له، ووضوحِ الأمرِ بما لا شكَّ فيه أنَّ الإسلامَ حقٌّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَسَميعٌ لِجَميعِ الأصواتِ، ومِن ذلك أنه سميعٌ لدُعائِكم، وتَضَرُّعِكم، واسْتِغاثَتِكم به، عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ؛ فيعلمُ الظواهرَ والضمائرَ والسرائرَ، والغيبَ والشهادةَ، وكلِّ ما يفعلُه خلقُه، لا تخفَى عليه خافِيةٌ، ومِن ذلك علمُه أنَّكم تستحِقُّون النَّصْرَ على أعدائِكم الكفرةِ المعانِدينَ، فاتَّقوا ربَّكم

(١) رواه البخاري (٣٩٥١) ومسلم (٢٧٦٩)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٨، ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٧).

قال الواحدي: (أكثَرُ أهلِ العِلمِ على أنَّ المُرادَ بالهلاكِ هاهنا: الكُفرُ والضَّلالُ، وبالحياةِ: الاهتداءُ والدِّينُ، والمعنى: لِيَكفُرَ مَن كَفَرَ بعد حُجَّةٍ قامت عليه، فقَطَعَت عُذرَه، ويؤمِنَ مَن آمَنَ على مِثلِ ذلك). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٦٣).

في منطِقِكم أنْ تنطِقوا بغيرِ حَقٍّ، وفي قُلوبِكم أنْ تعتقِدوا فيها غيرَ الرَّشَدِ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ الغَرَضُ مِن التَّقييدِ بهذا الوَقتِ وبتلك الحالةِ: إحضارُها في ذِكرِهم؛ لأجلِ ما يلزَمُ ذلك من شُكرِ نِعمةِ الله، ومِن حُسنِ الظَّنِّ بوَعدِه، والاعتمادِ عليه في أمورِهم؛ فإنَّهم كانوا حينئذٍ في أشَدِّ ما يكونُ فيه جيشٌ تِجاهَ عَدُوِّه؛ لأنَّهم يعلمونَ أنَّ تلك الحالةَ كان ظاهِرُها مُلائمًا للعَدُوِّ؛ إذ كان العدوُّ في شَوكةٍ، واكتمالِ عُدَّةٍ، وقد تمهَّدَت له أسبابُ الغَلَبةِ بحُسنِ مَوقِعِ جيشِه؛ إذ كان بالعُدوةِ التي فيها الماءُ لِسُقياهم، والتي أرْضُها مُتوسِّطةُ الصَّلابةِ، فأمَّا جَيشُ المسلمينَ فقد وَجَدوا أنفُسَهم أمامَ العَدُوِّ في عُدوةٍ تَسوخُ في أرضِها الأرجُلُ؛ مِن لِينِ رَملِها، مع قِلَّةِ مائِها، وكانت العِيرُ قد فاتت المسلمينَ، وحلَّتْ وراءَ ظُهورِ جَيشِ المُشركينَ، فكانت في مأمَنٍ مِن أن ينالَها المُسلمونَ، وكان المُشركونَ واثِقينَ بتَمَكُّنِهم مِنَ الذَّبِّ عن عِيرِهم، فكانت ظاهرةُ هذه الحالةِ ظاهرةَ خَيبةٍ وخَوفٍ للمُسلمينَ، وظاهرةَ فَوزٍ وقُوَّةٍ للمُشركينَ، فكان مِن عجيبِ عِنايةِ اللهِ بالمُسلمينَ أنْ قَلَب تلك الحالةَ رأسًا على عَقِبٍ، فأنزل مِن السَّماءِ مَطَرًا تعبَّدَت به الأرضُ لِجَيشِ المُسلمينَ، فساروا فيها غيرَ مَشقوقٍ عليهم، وتطَهَّروا وسَقَوا، وصارت به الأرضُ لِجَيشِ المُشركينَ وَحلًا يثقُلُ فيها السَّيرُ، وفاضت المياهُ عليهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧، ١٨)، ويُنظر: أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ فيه أنَّ تخليةَ الخُمُس للأصنافِ الخمسةِ مِنَ الإيمانِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ استدَلَّ بِعُمومِه مَن قال باستحقاقِ الأغنياءِ مِن الأربعةِ المَذكورينَ أو بَعضِهم، كالفُقَراءِ، ومَن قال باستواءِ ذَكَرِهم وأُنثاهم[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ استُدِلَّ بإضافةِ الغَنيمةِ لهم، على أنَّ الغانِمينَ مَلَكوها بمجَرَّدِ الغَنيمةِ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ دلَّ على جوازِ قسمةِ الغنائمِ في دارِ الحربِ، كما هو قولُ الشافعيِّ رحمه الله؛ لأنَّ قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ...﴾ يقتضي ثبوتَ الملكِ لهؤلاء في الغنيمةِ، وإذا حصَل الملكُ لهم فيه، وجَب جوازُ القسمةِ؛ لأنَّه لا معنَى للقسمةِ على هذا التقديرِ إلا صرفُ الملكِ إلى المالكِ، وذلك جائزٌ بالاتفاقِ[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ افتتاحُه بِقَولِه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ للاهتمامِ بِشَأنِه، والتَّنبيهِ على رعايةِ العَمَلِ به؛ فإنَّ المقصودَ

(١) يُنظر: ((شعب الإيمان)) للبيهقي (٦/ ١٦٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٥).

بالعِلمِ تَقَرُّرُ الجَزمِ بأنَّ ذلك حُكمُ اللهِ، والعَمَلُ بذلك المَعلومِ[١].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهم قَرابةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِن بَني هاشِمٍ وبني المُطَّلِب، وأضافَه اللهُ إلى القرابةِ دليلًا على أنَّ العِلَّةَ فيه مُجرَّدُ القَرابةِ، فيستوي فيه غَنِيُّهم وفَقيرُهم، ذَكَرُهم وأُنثاهم[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جعَلَ اللهُ لهم خُمُسَ الخُمُسِ رحمةً بهم؛ حيث كانوا عاجزينَ عن القِيامِ بمَصالِحِهم، وقد فُقِدَ مَن يقومُ بمَصالِحِهم[٣].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أضاف اللهُ الغنيمةَ إلى الغانمينَ، وأخرَج منها خُمسَها، فدلَّ على أنَّ الباقيَ لهم، يُقسَمُ على ما قَسَمه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: للراجلِ سهمٌ، وللفارسِ سهمانِ لفرسِه، وسهمٌ له، وأمَّا هذا الخُمسُ، فيُقسَمُ خمسةَ أسهمٍ؛ سهمٌ للهِ ولرسولِه، يُصرفُ في مصالحِ المسلمينَ العامةِ، مِن غيرِ تعيينٍ لمصلحةٍ؛ لأنَّ الله جعَله له ولرسولِه، واللهُ ورسولُه غنيَّانِ عنه، فعُلِم أنَّه لعبادِ الله. فإذا لم يُعيِّنِ الله له مصرفًا، دلَّ على أنَّ مصرفَه للمصالحِ العامةِ، والخمسُ الثاني: لذي القربَى، والخمسُ الثالثُ لليتامَى، والخمسُ الرابعُ للمساكينِ، والخمسُ الخامسُ لابنِ السبيلِ[٤].

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جَرَت العادةُ بِذِكرِه قُدرَتَه عند نَصْرِه الضِّعافَ مِن عبادِه المتمَسِّكينَ بِدينِه، كما قال في الأحزابِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧]. وقال في الحُدَيبيةِ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح:٢١] كلُّ هذه الآياتِ على وتيرةٍ واحدةٍ، معناها: إنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١).

كُنتُم ضعافًا عاجزينَ، فهو- جلَّ وعَلا- قادِرٌ قَوِيٌّ، لا يَعجِزُ عن شَيءٍ؛ فإنَّه ينصُرُ أولياءَه ويُقَوِّيهم ويُقْدِرُهم على مَن هو أقوى مِنهم(١).

بَلاغةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فيه الانتقالُ لبيانِ ما أُجمل مِن حُكمِ الأنفال، الذي افتُتحتْ به السُّورةُ؛ ناسَبَ الانتقالَ إليه ما جَرَى مِنَ الأمْر بقِتالِ المشرِكينَ إنْ عادوا إلى قِتالِ المُسلِمينَ. والافتتاحُ بـ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾؛ للاهتِمامِ بشأنِه، والتَّنبيهِ على رِعايةِ العَملِ به؛ فإنَّ المقصودَ بالعِلمِ تَقرُّرُ الجزمِ بأنَّ ذلك حُكمُ اللهِ، والعملُ بذلك المعلومِ؛ فيكونُ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ كنايةً مُرادًا به صريحُه ولازمُه(٢).

- وقولُه: ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ بيانٌ لعُمومِ (ما)؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المقصودَ غنيمةٌ مُعيَّنةٌ خاصَّةٌ(٣).

- وفيه أيضًا: حُسنُ تَركيبٍ؛ حيثُ أفْرَد كَينونةَ الخُمْسِ لله، وفَصَل بين اسمِه تعالى وبين المعاطيفِ بقولِه: ﴿خُمُسَهُۥ﴾؛ ليَظْهَرَ انفرادُه تعالى بكينونةِ الخُمُسِ له، ثمَّ أَشْرَكَ المعاطيفَ معه على سَبيلِ التَّبعيَّةِ له، ولم يأتِ التركيبُ (فأنَّ للهِ خُمُسه وللرِّسولِ ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل خُمُسه)(٤).

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠، ٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٢٦).

- وإعادةُ اللامِ في ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ دون غيرِهم مِن الأصنافِ الثَّلاثةِ؛ لدَفْعِ تَوهُّمِ اشتراكِهم في سَهمِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لمزيدِ اتِّصالِهم به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

- وفي قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم﴾ جِيءَ في الشَّرطِ بحرفِ (إنْ) التي شأنُ شَرطِها أن يكونَ مشكوكًا في وقوعِه؛ زيادةً في حثِّهم على الطاعةِ، حيثُ يَفرِضُ حالَهم في صُورةِ المشكوكِ في حُصولِ شَرْطِه؛ إلهابًا لهم؛ ليَبْعثَهم على إظهارِ تحقُّقِ الشَّرطِ فيهم[٢]؛ فهو من بابِ خِطابِ التَّهييجِ[٣].

- إضافةُ (يومٍ) إلى (الفُرْقانِ) في قولِه: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ إضافةُ تنويهٍ به، وتشريفٍ[٤].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ اعتراضٌ بتذييل الآياتِ السَّابقةِ، وهو مُتعلِّقٌ ببعضِ جُمْلةِ الشَّرْطِ في قولِهِ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾؛ فإن ذلك دليلٌ على أنَّه لا يَتعاصَى على قُدرتِه شيءٌ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ خَتَم بصِفةِ القُدرةِ ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لأنَّه تعالى نصَرَ المؤمنينَ على قِلَّتهم على الكافرينَ على كَثْرتِهم ذلك اليومَ[٦].

٢- **قوله:** ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣).
(٣) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٢/ ٢٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٢٧).

أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

- ﴿كَانَ﴾ تدلُّ على تحقُّق ثُبوتِ معنى خَبرِها لاسمِها من الماضي؛ فمعنى ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ أنَّه ثَبَتَ له في عِلْمِ اللهِ أنَّه يُفعَل[1]، وعبَّر بقولِه: ﴿مَفْعُولًا﴾ لتَحقُّق كَوْنه[2].

- وتَنكيرُ ﴿أَمْرًا﴾ هنا؛ للتَّعظيمِ[3].

- وقولُه: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ فيه دخولُ لامِ التَّعليلِ على فِعْل ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ وهو تأكيدٌ لِلَّامِ الدَّاخِلةِ على ﴿لِّيَقْضِيَ﴾ في الجُملةِ المُبدَل منها[4].

- ودلَّ معنى المجاوزةِ الذي في ﴿عَنْ﴾ على أنَّ المعنى أنْ يكونَ الهلاكُ والحياةُ صادرَينِ عن بيِّنةٍ، وبارزَينِ منها[5].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ يشيرُ إلى أنَّ الله سميعُ دُعاءِ المسلمين طلبَ النَّصْرِ، وسميعُ ما جرَى بينهم مِن الحوارِ في شأنِ الخروجِ إلى بَدْرٍ، ومِن مودَّتهم أن تكونَ غيرُ ذاتِ الشَّوكةِ هي إحْدى الطائفتَينِ التي يُلاقونها، وغير ذلك، وعليمٌ بما يجولُ في خواطِرهم من غير الأمورِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢١).

المسموعةِ، وبما يَصْلُح بهم، ويُبْنى عليه مَجْدُ مُستقبلِهم[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١).

الآيتان (٤٢-٤٤)

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ﴾: أي: وَلاختَلَفتُم، والتَّنازُع: التَّجاذُبُ والتَّخاصُمُ والتَّجادُلُ، وأصلُ (نزع) يدُلُّ على قَلعِ شَيءٍ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾

﴿يُرِيكَهُمُ﴾: (يُري)[2] فِعلٌ مُضارِعٌ مَرفوعٌ، والكاف في محلِّ نَصبٍ، مَفعولٌ به أوَّلُ. و(هم) في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ به ثانٍ، و﴿قَلِيلًا﴾ حالٌ- على القَولِ بأنَّ الرُّؤيا المناميَّةَ تتعدَّى لمفعولٍ به واحدٍ، كالرُّؤيةِ البَصَريَّةِ- أو

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨، ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢).

(٢) أصلُه (رأى - يَرَى)، وعند دخولِ هَمزةِ التَّعديةِ أصبح (أَرَى - يُرِي)، فإن كان الفِعلُ متعديًا لمفعولٍ به واحدٍ (وهو رأى البَصَرية) تعدَّى بالهمزةِ إلى مفعولينِ، وإن كان متعديًا إلى مفعولينِ كـ (رأى) العِلميَّةِ، أو الحُلميَّةِ- على رأيٍ- تعدَّى بالهمزةِ إلى ثلاثةِ مَفاعيلَ، وأبطَلَ (أبو حيان) تعدِّيَها إلى ثلاثةِ مَفاعيلَ بجوازِ حَذفِ الثَّالِثِ في هذا البابِ اقتصارًا- أي مِن غَيرِ دَليلٍ- تقولُ: رأيتُ زيدًا في النَّومِ، وأراني اللهُ زيدًا في النَّومِ، ولو كانت تتعَدَّى لثلاثةٍ لِمَا حُذِفَ اقتصارًا؛ لأنَّه خبَرٌ في الأصلِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦١٥).

مفعولٌ به ثالثٌ- على القَولِ بأنَّ الرُّؤيا المناميَّةَ تتعدَّى لاثنينِ كالرُّؤيةِ العِلميَّةِ، و﴿كَثِيرًا﴾ كـ ﴿قَلِيلًا﴾ إعرابًا.

﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾: الرُّؤيةُ هنا بصريَّةٌ لا غيرُ؛ لأنَّها كانت في اليَقَظةِ. وعلى ذَلك فالكافُ في محلِّ نصبٍ، مفعولٌ به أوَّلُ، والميمُ للجَمعِ، وقد أُشبِعَت ضَمَّتُها إلى الواوِ، و (هم) في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ به ثانٍ. و﴿قَلِيلًا﴾ حالٌ لا غيرُ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: اذكُر- يا مُحمَّدُ- حين أراك اللهُ في نَومِك جيشَ الكُفَّارِ في بَدرٍ قليلًا، فأعلَمْتَ أصحابَك بما رأيتَ، فَقَوِيتْ قُلوبُهم على قتالِ الكُفَّارِ، ولو أراكهم اللهُ في نَومِك كثيرًا، فأخبَرْتَ المُسلمينَ بذلك؛ لَجَبُنوا وتنازَعوا في قتالِ المُشركينَ، ولكِنَّ اللهَ سلَّم من ذلك؛ إنَّه عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ.

وتأكيدًا لما حصَل مِن بُشرَى الرُّؤيا فقد أراكم الله في الواقعِ جيشَ الكفَّارِ قليلًا؛ لتتشَجَّعوا على قِتالِهم، وقلَّلَكم في أعيُنِهم لِيَستَهينوا بقتالِكم؛ لِيقضيَ اللهُ أمرًا مُقدَّرًا لا بدَّ مِن وُقوعِه؛ مِن قتالِ بعضِكم بعضًا يومَ بَدرٍ، وانتصارِ المسلمينَ، وإهلاكِ الكافرينَ، وإلى الله وَحدَه تُرجَعُ الأمورُ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري))، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦١٥)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعَّاس (١/ ٤٣١).

أي: اذكُر حين[١] أراك اللهُ في نَومِك- يا مُحمَّدُ- جيشَ الكافرينَ في بدرٍ، وهم قليلٌ، فأخبَرتَ المُسلمينَ برؤياك، فَقَوِيَت قُلوبُهم على قتالِ الكافرينَ[٢].

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾.

أي: ولو أراكَ اللهُ عَددَ الكافرينَ في منامِك كثيرًا، وأخبرتَ المُسلمينَ بذلك؛ لَجَبُنوا وخافوا، واختَلَفوا في قتالِ المُشرِكينَ[٣].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ سلَّم المسلمينَ مِن الفَشَلِ والتَّنازُعِ؛ بسبَبِ ما أراك في نَومِك مِن قِلَّةِ عَددِ الكافرينَ، فقَوِيَت قلوبُهم، وتجرَّؤوا على قتالِ عَدُوِّهم[٤].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بما تُخفيه الصُّدورُ؛ مِن الإيمانِ والكُفرِ، والوساوسِ وغيرِ ذلك، لا يخفَى عليه شيءٌ سُبحانَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٠، ٧١).
قال ابنُ عطية: (تظاهرت الرِّواياتُ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في رُؤيا رآها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، رأى فيها عددَ الكُفَّارِ قليلًا، فأخبَرَ بذلك أصحابَه، فقَوِيَت نفوسُهم، وحَرَصوا على اللِّقاءِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧١، ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٩، ٢١١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير))

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى ما نشأ عن رُؤيَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قِلَّتِهم، وما كان ينشأُ عن رؤيتِه الكثرةَ لو وقَعَت؛ أتبَعَه ما فعل مِن اللُّطفِ في رؤيتِهم بأنفُسِهم يقظةً[١].

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾.

أي: واذكروا حين[٢] أراكُم اللهُ في اليقظةِ- أيُّها المؤمنونَ- جيشَ الكافرينَ قليلًا عندَ اللقاءِ؛ لِتَتشجَّعوا على قتالِهم[٣].

عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (لقد قُلِّلوا في أعيُنِنا يومَ بَدرٍ، حتى قُلْتُ لرَجُلٍ إلى جانِبي: تُراهم سبعينَ؟ قال: لا، بل هم مئةٌ، حتى أخَذْنا رجُلًا منهم فسَأَلْناه، قال: كنَّا ألفًا)[٤].

(٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٢، ٧٣).
قال ابنُ عطية: (هذه الرُّؤيةُ هي في اليَقَظةِ بإجماعٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٥).
وقال الشِّنقيطي: (هذا رأيٌ في العينِ تَصديقًا لِرُؤياه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((العذب النمير)) (٥/ ٧٢).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٦٩٨)، وابن جرير في ((التفسير)) (٦٦٩٠)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٥/ ١٧١٠)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٠/ ١٤٧) (١٠٢٦٩).
قال ابنُ حجر في ((المطالب العالية)) (٤/ ٣٨٧): (إسنادُه صحيحٌ، إن كان أبو عبيدةَ سَمِعَه من أبيه). وقال ابنُ رجب: (وأبو عبيدة، وإن لم يسمَعْ من أبيه، إلا أنَّ أحاديثه عنه صحيحةٌ، تلقَّاها عن أهلِ بَيتِه الثِّقات العارفين بحديث أبيه: قاله ابنُ المديني وغيره). ((فتح الباري)) (٧/ ٣٤٢).

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾.

أي: وقَلَّلَكم في أعيُنِ الكافرينَ؛ لِيَروكم أقَلَّ ممَّا أنتم عليه، فيَستَهينوا بقتالِكم[(١)].

﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

أي: خيَّل اللهُ لكُلِّ فَريقٍ قِلَّةَ الفَريقِ الآخَرِ؛ لأجلِ أن يقَعَ ما قدَّره مِن قتالِ بَعضِهم بعضًا في بدرٍ، وانتصارِ المُسلمينَ، وإهلاكِ الكافرينَ[(٢)].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

أي: وإلى اللهِ تعالى وَحدَه تَصيرُ جَميعُ أمورِ الخَلائقِ، فيحكُم فيهم بحُكمِه العَدلِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦).

قال ابن كثير: (ومعنى هذا أنَّه تعالى أغرى كُلًّا من الفريقينِ بالآخَرِ، وقلَّلَه في عَينِه؛ ليَطمَعَ فيه، وذلك عند المواجَهةِ، فلما الْتَحَم القتالُ وأيَّدَ اللهُ المؤمنينَ بألفٍ مِن الملائكةِ مُردِفينَ، بقِيَ حزبُ الكفَّارِ يرى حزبَ الإيمانِ ضِعفَيه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣]، وهذا هو الجمعُ بين هاتينِ الآيتين؛ فإنَّ كلًّا منها حقٌّ وصِدقٌ، ولله الحمدُ والمنة). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٣).

قال الشنقيطي: (﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ﴾ بذلك ﴿أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ في عِلْمِه، وأزَلِه، مُنَفَّذًا في وَقْتِه لا محالةَ؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ وعلا يقضي ويُقَدِّرُ، فيُقَدِّرُ كُلَّ ما شاء ثمَّ يقضيه مُنجَزًا في أوقاتِه، في أماكِنِه، على هَيئَتِه وصُوَرِه التي سبَقَ بها عِلْمُه). ((العذب النمير)) (٥/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٣، ٧٤).

قال الشنقيطي: (وقد صار إليه هذا الأمرُ، وآل إليه، فنفذَ فيه مشيئته وقُدرَته، وهيَّأ الأسبابَ، حتى هَزَمَ الكفرةَ، وقَتَلَ صناديدَهم ورؤساءَهم، وكسَرَ شَوكتَهم على أيدي أوليائِه المسلمين،

كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قول الله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ تنبيهٌ على أنَّ أمورَ الدُّنيا غيرُ مَقصودةٍ، وإنَّما المرادُ منها ما يَصلُحُ أن يكونَ زادًا لِيَومِ المَعادِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَوله تعالى: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ﴾ إذا قيل: كيف يريهم الله قليلًا في منامه، ورؤيا الأنبياءِ حَقٌّ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يعلَمُ أنَّهم حوالَي ألف؟ والجوابُ: أنَّ رُؤيا النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حقٌّ، وتأويلَها حَقٌّ؛ لأنَّ معنى رؤياه أنَّ اللهَ قَلَّلَ كُلًّا مِن الطَّائِفَتينِ في عينِ الأُخرَى في اليَقظةِ، وهو معنى قَولِه: ﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ لَمَّا كان الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَحميًّا مِن الفَشلِ، معصومًا مِن النَّقائِصِ؛ أسنَدَ الفَشلَ إلى من يُمكِنُ ذلك في حَقِّه، فقال تعالى: ﴿لَّفَشِلۡتُمۡ﴾(٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ فيه أنَّ القَضاءَ والقَدَرَ قائمانِ بِسُنَنِه تعالى في الأسبابِ والمُسَبَّبات، فهو لو شاء لخَلَقَ في القلوبِ والأذهانِ

ونصَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه، وأيَّدَهم بنَصرِه، وهذا قضاؤُه وقَدَرُه جلَّ وعلا، واللهُ يُهيئُ الأسبابَ، ولو شاء فعَلَ بلا سببٍ، إلَّا أنَّه اقتضت حِكمَتُه أن يُرتِّبَ المسبَّباتِ على أسبابٍ، ويُسبِّبَ للأشياءِ جلَّ وعلا، سبحانه وتعالى). ((العذب النمير)) (٥/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٠).

ما أراده بتأثيرِ مَنامِ الرَّسولِ، وبتقليلِ كُلٍّ مِن الجَمعينِ في أعيُنِ الآخَرِ، مِن غيرِ أن يُرَتِّبَهما على هذينِ السَّبَبينِ، ولكنَّه ناط كلَّ شَيءٍ بِسَببٍ، وخلقَ كلَّ شَيءٍ بِقَدَرٍ(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ هذا مِن بَديعِ صُنعِ اللهِ تعالى؛ إذ جعَلَ للشَّيءِ الواحِدِ أثَرَينِ مُختَلِفينِ، وجعَلَ للأثَرَينِ المُختَلِفينِ أثرًا مُتَّحِدًا، فكان تخيُّلُ المسلمينَ قِلَّةَ المشركينَ مُقَوِّيًا لِقُلوبِهم، وزائدًا لِشَجاعَتِهم، ومُزيلًا للرُّعبِ عنهم، فعَظُم بذلك بأسُهم عند اللِّقاء؛ لأنَّهم ما كان لِيَفُلَّ من بأسِهم إلَّا شُعورُهم بأنَّهم أضعَفُ مِن أعدائِهم عَددًا وعُددًا، فلمَّا أُزيلَ ذلك عنهم بِتَخييلِهم قِلَّةَ عَدُوِّهم، خَلُصَت أسبابُ شِدَّتِهم ممَّا يُوهِنُها، وكان تخيُّلُ المُشركينَ قِلَّةَ المسلمين- أي كَونَهم أقَلَّ ممَّا هم عليه في نَفسِ الأمرِ- بَردًا على غَلَيانِ قُلوبِهم مِن الغَيظِ، وغارًّا إيَّاهم بأنَّهم سيَنالونَ التغَلُّبَ عليهم بأدنى قِتالٍ، فكان صارِفًا إيَّاهم عن التأهُّبِ لِقِتالِ المُسلِمينَ، حتى فاجأهم جَيشُ المُسلمينَ، فكانت الدَّائرةُ على المُشرِكينَ، فنتج عن تخيُّلِ القِلَّتَينِ انتصارُ المُسلمينَ(٢).

بَلاغةُ الآيتين:

١- **قَولُه تعالى**: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

- قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ أُسنِدَت الإراءةُ إلى اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦).

تعالى؛ لأنَّ رُؤيا النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وحيٌ بمَدْلولِها[١].

- وفي قولِه: ﴿يُرِيكَهُمُ﴾ جاء التعبيرُ بصِيغة المُضارِع؛ لاسْتِحضارِ حالةِ الرُّؤيا العجيبةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ مفعولُ ﴿سَلَّمَ﴾ ومُتعلَّقُه محذوفان إيجازًا؛ إذ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ والتَّقديرُ: سَلَّمَكم من الفَشلِ والتَّنازُعِ بأنْ سلَّمكم مِن سببِهما، وهو إراءتُكم واقعَ عددِ المشركينَ[٣].

- وقولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ فيه وضْعُ الظَّاهِر موضِعَ المُضمَرِ- حيثُ لم يَقُلْ: (ولكنَّه سلَّم)-؛ وذلك لقَصْدِ زِيادةِ إسنادِ ذلك إلى اللهِ، وأنَّه بعنايته، واهتمامًا بهذا الحادثِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تذييلٌ للمِنَّةِ، أي: أَوْحى إلى رَسولِه بتلك الرُّؤيا الرَّمزيَّةِ؛ لعِلْمِه بما في الصُّدورِ البشريَّةِ من تأثُّرِ النُّفوسِ بالمشاهداتِ والمحسوساتِ أَكْثرَ ممَّا تتأثَّر بالاعتقاداتِ[٥].

٢- **قولُه تعالى:** ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ فيه تكرارُ قوله: ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ حيثُ ذَكَره في الآيةِ المتقدِّمةِ: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]، وليس ذلِك محضَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٥).

تَكرارٍ؛ فالمقصودُ مِن ذِكرِه في الآيةِ المُتقدِّمةِ هو أنَّه تعالى فَعَل تِلك الأفعالَ ليَحصُلَ استيلاءُ المؤمنين على المشرِكينَ، على وجهٍ يكونُ مُعجزةً دالَّةً على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمقصودُ مِن ذِكرِه هاهنا: أنَّه تَعالَى قلَّلَ عَددَ المؤمنِينَ في أعينِ المُشرِكين؛ فبَيَّن هاهنا أنَّه إنَّما فَعَل ذلِك ليَصيرَ ذلك سببًا لئلَّا يُبالِغَ الكُفَّارُ في تَحصيلِ الاستعدادِ والحذَرِ؛ فيصيرُ ذلك سببًا لانكسارِهم[١].

- قوله: ﴿ٱلۡتَقَيۡتُمۡ﴾ الالتقاءُ افتعالٌ من اللِّقاءِ، وصيغةُ الافتعالِ فيه دالَّة على المُبالَغةِ[٢].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ خُولِفَ الأسلوبُ في حكايةِ إراءةِ المُشركينَ، وحكايةِ إراءةِ المُسلمينَ؛ لأنَّ المُشركينَ كانوا عددًا كثيرًا، فناسب أن يَحكيَ تقليلَهم بإراءَتِهم قليلًا، المؤذنة بأنَّهم ليسُوا بالقَليلِ. وأمَّا المُسلمونَ فكانوا عددًا قليلًا بالنِّسبةِ لعَدُوِّهم، فكان المناسِبُ لِتَقليلِهم: أن يُعَبِّرَ عنه بأنَّه (تقليلٌ)، المؤذِن بأنَّه زيادةٌ في قِلَّتِهم[٣].

- قولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ تَذييلٌ معطوفٌ على ما قَبْلَه عطفًا اعتراضيًّا، وهو اعتراضٌ في آخِرِ الكلامِ[٤]، وفي هذا التَّذييلِ تنبيهٌ على أنَّ الحَوْلَ بأجمعِه للهِ تعالى، وأنَّ كلَّ أمرٍ فله وإليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٥).

- والتعريفُ في قولِه: ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ للاستغراقِ، أي: جميعُ الأشياءِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨).

الآيات (٤٥-٤٧)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رِيحُكُمۡ﴾: أي: قُوَّتُكم وغَلَبَتُكم ودَولَتُكم[١].

﴿بَطَرٗا﴾: أي: دفعًا للحَقِّ، وفَخرًا وبَغيًا، وأَصلُ (بطر) يدلُّ على الشَّقِّ[٢].

﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾: أي: ليَراهم النَّاسُ، ومُفاخرةً، وتكبرًا عليهم، راءَى فلانٌ يُرائِي، وفعَلَ ذلكَ رِئاءَ النَّاسِ، وهو أنْ يفعلَ شيئًا لِيَراه النَّاسُ، وأصلُه مِن الرُّؤيةِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ عبادَه المؤمنينَ إذا لَقُوا جماعةً مِن أعدائِهم مُحاربينَ لهم؛ أن يَثبُتوا في قتالِهم، ويَذكرُوا اللهَ كثيرًا؛ لعلَّهم يُفلِحونَ.

ويأمُرُهم أن يُطيعوه ويُطيعوا رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا يختَلِفوا فيما

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢).

بينهم فيَفشَلوا، وتخورَ قواهم، وتنحَلَّ عزائِمُهم، وأمَرَهم أن يَصبِروا؛ فإنَّه تعالى مع الصَّابرينَ.

ونهاهم أن يكونوا مثلَ كفَّارِ قُريشٍ، الذين خرجوا مِن منازلهم ردًّا للحَقِّ، ودَفعًا له، ولِيَفتَخِروا على النَّاسِ، ويَتَباهَوا بجَمعِهم، ويمنَعوا النَّاسَ مِن الدُّخولِ في الإسلامِ، واللهُ بما يعملونَ مُحيطٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عَرَّفهم اللهُ تعالى بنِعَمِه ودلائِلِ عِنايتِه، وكشفَ لهم عن سرٍّ مِن أسرارِ نَصرِه إيَّاهم، وكيف خذل أعداءَهم، وصرَفَهم عن أذاهم، فاستتَبَّ لهم النَّصرُ مع قِلَّتِهم، وكثرةِ أعدائِهم- أقبلَ في هذه الآيةِ على أنْ يأمُرَهم بما يهيِّئُ لهم النَّصرَ في المواقِعِ كُلِّها، ويستدعي عنايةَ الله بهم وتأييدَه إيَّاهم، فجمع لهم في هذه الآيةِ ما به قِوامُ النَّصرِ في الحُروبِ[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إذا لَقِيتُم جماعةً مُحاربينَ لكم مِن أعدائِكم، فاثبُتُوا لقتالِهم، ولا تتزَعزعوا ولا تَفِرُّوا منهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٥).

عن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَمَنَّوا لقاءَ العَدُوِّ، فإذا لَقيتُموهم فاصبِروا))[١].

وعن أبي النَّضرِ، عن كتابِ رجلٍ مِن أسلمَ مِن أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يقال لهُ عبدُ اللهِ بنُ أبي أَوفَى، فكتب إلى عمرَ بنِ عُبيدِ اللهِ، حين سار إلى الحَروريَّةِ، يخبرُه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان في بعضِ أيَّامِه التي لقيَ فيها العدوَّ، ينتظرُ حتى إذا مالتِ الشمسُ قام فيهم، فقال: ((يا أيُّها الناسُ، لا تتمَنَّوا لقاءَ العدوِّ، واسألوا اللهَ العافيةَ، فإذا لَقِيتُموهم فاصبِروا، واعلموا أنَّ الجنةَ تحتَ ظِلالِ السُّيوفِ، ثم قام النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقال: اللَّهم مُنْزِلَ الكتابِ، ومُجْرِيَ السَّحابِ، وهازمَ الأحزابِ، اهْزِمْهم وانصُرْنَا عليهم))[٢].

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

أي: واذكُروا اللهَ تعالى عند لقاءِ العَدُوِّ ذكرًا كثيرًا؛ بقُلوبِكم وألسِنَتِكم؛ لِتُدرِكوا ما تَطلبونَ مِن الانتصارِ على عَدُوِّكم[٣].

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٢٦) ومسلم (١٧٤١).

(٢) رواه البخاري (٢٩٦٥)، ومسلم (٢٥٠٩) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٥).
قال ابنُ عطيةَ: (وهذا ذِكرٌ خَفِيٌّ؛ لأنَّ رَفعَ الأصواتِ في مَوطِنِ القِتالِ رَديءٌ مَكروهٌ، إذا كان إلغاطًا، فأمَّا إن كان مِنَ الجَمعِ عند الحَمْلةِ، فحَسَنٌ فاتٌّ في عَضُدِ العَدُوِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٦).

أي: وأطيعُوا اللهَ ورَسولَه- أيُّها المؤمنونَ- بامتثالِ أمْرِهما، واجتنابِ نَهْيِهما[١].

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾.

أي: ولا تَختَلفوا فيما بينكم، فتَضعُفوا، وتجبُنوا عن قتالِ عَدُوِّكم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعَثَه ومُعاذًا إلى اليَمنِ فقال: ((يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوَعا ولا تختَلِفا))[٣].

﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾.

أي: وتَخورَ قُواكم، وتنحَلَّ عَزائِمُكم، فلا تَنتَصِروا بسببِ تَنازُعِكم[٤].

﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أي: واصبِروا عند لقاءِ عَدُوِّكم؛ إنَّ اللهَ مع الصَّابرين، بالنَّصرِ والتَّأييدِ[٥].

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢).
قال ابنُ كثيرٍ: (في حالِهم ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢).
وقال السعدي: (في جميعِ الأحوالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨١).

(٣) رواه البخاري (٣٠٣٨) ومسلم (١٧٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٤، ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨٨).

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعد أنْ أمَرَ الله تعالى عبادَه المؤمنينَ بما أمَرَ به؛ من جلائِلِ الصِّفاتِ، وأحاسِنِ الأعمالِ، التي جرَتْ سُنَّتُه بأنْ تكونَ سبَبَ الظَّفَر في القتالِ، ونهاهم عن التَّنازُع- نهاهم عمَّا كان عليه خُصومُهم مِن مُشركي مكَّةَ حين خرجوا لحمايةِ العِيرِ؛ من الصِّفاتِ الرديئةِ، وذكر لهم بعضَ أحوالِهم القَبيحةِ[1]، فقال:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾.

أي: ولا تكونوا- أيُّها المؤمنونَ- مِثلَ كُفَّارِ قُريشٍ[2] الذين خرَجُوا مِن مَنازِلهم ردًّا للحَقِّ، ودفعًا له، غيرَ شاكرينَ لنِعَمِ الله تعالى عليهم، ولِيَفتَخِروا على النَّاسِ، ويتباهَوا بجَمعِهم[3].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٤).

(٢) قال ابنُ عطيةَ: (﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم ...﴾ الآية، آية تتضمنُ الطعنَ على المشارِ إليهم، وهم كفارُ قريش، وخرَج ذلك على طريقِ النَّهيِ عن سلوكِ سبيلِهم، والإشارةُ هي إلى كفارِ قريشٍ بإجماعٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٦، ٢٢٠)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

قال ابنُ كثير: (يقول تعالى بعد أمْرِه المُؤمِنينَ بالإخلاصِ في القِتالِ في سبيلِه، وكَثرةِ ذِكْرِه، ناهيًا لهم عن التشبُّه بالمُشرِكينَ في خُروجِهم من ديارِهم ﴿بَطَرًا﴾ أي: دفعًا للحَقِّ، ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو: المُفاخَرةُ والتكَبُّرُ عليهم، كما قال أبو جهل- لَمَّا قيل له: إنَّ العيرَ قد نجا فارجِعوا- فقال: لا واللهِ، لا نرجِعُ حتى نَرِدَ ماءَ بَدرٍ، وننحَرَ الجُزُرَ، ونشرَبَ الخَمرَ، وتعزِفَ علينا القِيانُ، وتتحَدَّثُ العَربُ بمكانِنا فيها يومَنا أبدًا). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢).

((الكِبرُ: بَطَرُ الحقِّ[١]، وغَمْطُ النَّاسِ[٢]))[٣].

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وخَرَجوا لِيَمنَعُوا النَّاسَ مِن الدُّخولِ في الإسلامِ[٤].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

أي: واللهُ عالِمٌ بما يعمَلُ أولئك المُشركونَ؛ مِن الرِّياءِ، والصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ، وغيرِ ذلك، لا يخفَى عليه شيءٌ من أعمالِهم الظَّاهِرة والباطنةِ[٥].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ * وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أمَرَ فيه المجاهدينَ بخمسةِ أشياءَ، ما اجتمعَتْ في فئةٍ قَطُّ إلَّا نُصِرَت، وإن قَلَّتْ وكَثُر عَدُوُّها؛ أحدها: الثَّبات. الثاني: كثرةُ ذِكرِه سبحانه وتعالى. الثالث: طاعَتُه وطاعةُ رسولِه. الرابع: اتِّفاقُ الكَلِمةِ وعَدمُ التَّنازُعِ الذي يوجِبُ الفَشَلَ والوَهَنَ. الخامس: مِلاكُ ذلك كلِّه وقِوامُه وأساسُه، وهو الصَّبرُ. فهذه خمسةُ أشياءَ تُبتَنى عليها قُبَّةُ النَّصرِ، ومتى زالت أو بعضُها زال مِن النَّصرِ بحسَبِ ما نقَصَ منها، وإذا اجتمَعَت قَوَّى بعضُها بعضًا، وصار لها أثرٌ عَظيمٌ في النَّصرِ، ولَمَّا اجتمَعَت في الصَّحابةِ، لم تقم لهم أمَّةٌ مِن

---

(١) بَطَرُ الحَقِّ: أي: دَفْعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتَجَبُّرًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٢) غَمْطُ النَّاسِ: أي: احتِقارُهم والاستهانةُ بهم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٨٧).

(٣) رواه مسلم (٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

الأمَمِ، وفَتَحوا الدُّنيا، ودانت لهم البلادُ، ولَمَّا تفرَّقَت فيمن بعدَهم وضَعُفَت، آلَ الأمرُ إلى ما آلَ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ﴾ أمَرَ بالثَّباتِ عند قتالِ الكفَّارِ، كما في الآيةِ قَبلَها النَّهيُ عن الفِرارِ عنهم، وهي قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ فالتقى الأمرُ والنَّهيُ على سواءٍ، وهذا تأكيدٌ على الوقوفِ للعَدُوِّ والتجَلُّدِ له[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّ على العبدِ ألَّا يَفتُرَ عن ذِكرِ ربِّه أشغَلَ ما يكون قلبًا، وأكثَرَ ما يكونُ هَمًّا، وأن تكونَ نَفسُه مُجتَمِعةً لذلك، وإن كانت مُتَوزِّعةً عن غيرِه[٣]، فقد أمر الله تعالى بالإكثارِ مِن ذِكرِه في أضيَقِ الأوقاتِ- وهو وقتُ الْتحامِ القتالِ- ففي ذلك دليلٌ واضِحٌ على أنَّ المُسلِمَ ينبغي له الإكثارُ مِن ذِكرِ اللهِ على كلِّ حالٍ، ولا سيَّما في وقتِ الضِّيقِ[٤].

٤- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ السِّلاحُ الأكبرُ في ميادينِ القِتالِ هو ذِكرُ اللهِ جلَّ وعلا، وطاعَتُه وامتثالُ أمرِه؛ لأنَّه هو الذي منه النَّصرُ والمَدَدُ[٥].

٥- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ الذين إذا لَقُوا

(١) يُنظر: ((الفروسية)) لابن القيم (ص: ٥٠٥، ٥٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٠٢).
(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٨).

فئةً مِن فئاتِ الكفَّارِ في ميدانِ القِتالِ، ولم يَثْبُتوا، أو لم يَذْكُروا اللهَ كثيرًا؛ أنَّهم لا يُفلِحونَ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الثَّباتَ في القِتالِ، هو من أسبابِ النَّصرِ المَعنويَّةِ، التي يحصُلُ بها ما يُعبَّرُ عنه في عُرفِ العَصرِ بالقُوَّةِ الرُّوحيَّةِ[٢].

٧- الجهادُ لا ينفَعُ إلَّا مع التمسُّكِ بسائرِ الطَّاعات؛ يبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بعد قَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ فيه ذَمُّ الاختلافِ، والنَّهيُ عن التفرُّقِ والتَّنازُعِ[٤].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾، أكبَرُ أسبابِ النِّزاعِ: تقديمُ المصالحِ الشَّخصيَّةِ والأغراضِ الدُّنيويةِ على المصالِحِ العامَّةِ، وهذه أكبَرُ البلايا التي يأتي مِن قِبَلِها الشَّرُّ للمُسلمين؛ لأنَّه قد يخالِفُ بعضُ المسلمينَ، فتكونُ العقوبةُ عامَّةً للجميعِ[٥].

١٠- التَّنازُعُ يُفضي إلى التفرُّقِ، وهو يُوهِنُ أمرَ الأمَّةِ؛ لذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٩).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٩٧).

(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٢).

١١- قولُه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فيه دلالةٌ على وجوبِ الصَّبرِ، وكَونِه أعظَمَ أسبابِ النَّصرِ؛ ولذلك عَظَّمَ اللهُ تعالى شأنَه بِقَولِه بعد الأمرِ بِطاعَتِه وطاعةِ رَسولِه وبِذِكْرِه: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وأيُّ بيانٍ لِفائدةِ الصَّبرِ أبلَغُ مِن إثباتِ مَعيَّةِ اللهِ تعالى لأهلِه[1]؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ﴾ إن قيل: هذه الآيةُ تُوجِبُ الثَّباتَ على كلِّ حالٍ، وهذا يوهِمُ أنَّها ناسخةٌ لآيةِ التحَرُّفِ والتحيُّز، فالجوابُ: أنَّ هذه الآيةَ تُوجِبُ الثَّباتَ في الجملةِ، والمرادُ مِن الثَّباتِ الجِدُّ في المحاربةِ، وآيةُ التَّحرُّفِ والتحيُّز لا تقدَحُ في حصولِ الثَّباتِ في المحاربةِ، بل كان الثَّباتُ في هذا المقصودِ، لا يحصُلُ إلَّا بذلك التحرُّفِ والتَّحيُّز[2].

٢- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ قَرنَ الذِّكرَ بالجِهادِ، فأمَرَ بذِكرِه عند مُلاقاةِ الأقرانِ ومُكافحةِ الأعداءِ، والمُحِبُّون يفتخِرونَ بذِكرِ مَن يُحِبُّونه في هذه الحالِ، وهذا كثيرٌ في أشعارِ العَرَبِ، وهو ممَّا يدُلُّ على قُوَّةِ المحبَّةِ؛ فإنَّ ذِكْرَ المُحِبِّ مَحبوبَه في تلك الحالِ التي لا يُهِمُّ المرءَ فيها غيرُ نَفسِه، يدُلُّ على أنَّه عنده بمنزلةِ نَفسِه أو أعَزُّ منها، وهذا دليلٌ على صِدْقِ المحبَّةِ[3].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٩).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٩٩، ٤٠٠).

﴿رِيحُكُمۡۖ﴾ لَمَّا كان التَّنازُعُ مِن شَأنِه أن ينشَأَ عن اختلافِ الآراءِ، وهو أمرٌ مُرتكِزٌ في الفِطرةِ- بسَطَ القرآنُ القَولَ فيه ببيانِ سَيئِ آثارِه، فجاء بالتَّفريعِ بالفاءِ في قَولِه: ﴿فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾؛ فحَذَّرهم أمرينِ مَعلومًا سُوءُ مَغَبَّتِهما: وهما الفَشَلُ وذَهابُ الرِّيحِ[١].

٤- في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ دليلٌ على أنَّه لا يَصْلُحُ في الحرب إلَّا مُدَبِّرٌ واحدٌ؛ وأنَّ منازعتَه، والخلافَ عليه داعٍ إلى الفشلِ، وتشويش الأمر، والصبرُ- واللهُ أعلمُ- في الآية جامعٌ للثباتِ، ولزومِ طاعةِ الأمير في تدبير الحرب[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قولُه تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فيه تَصديرُ الخِطابِ بحَرْفَيِ النِّداءِ والتَّنبيهِ؛ إظهارًا لكَمالِ الاعْتِناء بمضمونِ ما بعدَه[٣]؛ فافتُتحتْ هذه الوصايا بالنِّداءِ اهتمامًا بها، وجُعِلَ طريقُ تعريفِ المُنادى طريقَ الموصوليَّة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ من الاسْتِعدادِ لامتثالِ ما يَأمرُهم به اللهُ تعالى؛ لأنَّ ذلك أَخصُّ صِفاتِهم تِلْقاءَ أوامِرِ الله تعالى[٤].

- وقولُه: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ﴾ فيه تَرْكُ وَصْفِ الفِئةِ إيجازًا؛ لأنَّ المؤمنينَ ما كانوا يَلْقَون إلَّا الكُفَّار؛ فالمرادُ: فئةٌ كافرةٌ، وحُذِفتْ؛ لأنَّ الخِطابَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣١).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩).

للمُؤمنِينَ، وهم لا يُحارِبونَ إلَّا فِئةً مِن المشرِكين، أو الباغين، فحُذِفَ للإيجازِ مِن غيرِ إخلالٍ بالمعنى[١].

٢- قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فيه تَتْميمٌ في الوصيَّة، وعِدَةٌ مُؤنِسةٌ؛ وذلك أنَّ كمالَ أمْرِ الجِهادِ مبنيٌّ على الصَّبر؛ فأَمَرَهم بالصَّبر[٢].

- وقوله: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾ بمنزلةِ التَّذييلِ؛ لأنَّ الصَّبرَ هو تَحمُّلُ المكروهِ، وما هو شديدٌ على النَّفْسِ، وتلك المأموراتُ كلُّها تحتاجُ إلى تَحمُّلِ المكارِهِ؛ فالصَّبرُ يَجمَعُ تَحمُّلَ الشَّدائدِ والمصاعِب[٣].

- وجملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قائمةٌ مقامَ التعليلِ للأمْرِ ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾؛ لأنَّ حَرْف التَّأكيدِ ﴿إِنَّ﴾ في مِثلِ هذا قائمٌ مقامَ فاءِ التَّفريعِ[٤].

٣- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ...﴾ جِيءَ في نَهْيهم عن البَطَر والرِّئاء بطَريقةِ النَّهيِ عن التشبُّهِ بالمشركين؛ إدماجًا للتَّشنيعِ بالمشركين وأحوالِهم، وتَكريهًا للمُسلِمينَ تلك الأحوالَ؛ لأنَّ الأحوالَ الذَّميمةَ تتَّضِح مذمَّتُها، وتَنكشِف مزيدَ الانكشاف إذا كانت

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

من أحوالِ قومٍ مذمومين عند آخَرينَ، وذلك أبلغُ في النَّهي، وأكْشَفُ لقُبْح المنهيِّ عنه[١]، وتَضمَّن هذا الأسلوبُ الطَّعنَ على المُشارِ إليهم، وهم كفَّارُ قريشٍ، وخرَج ذلك على طَريقِ النَّهي عن سُلوكِ سبيلِهم[٢].

- قولُه: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه ذِكرُ البَطرِ والرِّئاءِ بصِيغةِ الاسمِ، وذِكرُ الصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ تعالى بصِيغةِ الفِعلِ؛ لأنَّ المشرِكين كانوا مَجبولِينَ على البَطرِ والمفاخرةِ والعُجبِ، وأمَّا صدُّهم عن سَبيلِ اللهِ فإنَّما حصَلَ في الزَّمانِ الذي بُعِث فيه النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فوَصَفَهم بالمَصدرِ؛ للمُبالغةِ في تمكُّن الصِّفتين منهم؛ لأنَّ البَطَرَ والرِّياءَ خُلُقان مِن خُلُقهم، فالتعبيرُ عنهما بالاسمِ فيه إشارةٌ إلى الثَّباتِ، وجاء الفِعْلُ ﴿يَصُدُّونَ﴾ بصِيغةِ الفِعْلِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على حُدوثِ صَدِّهم النَّاسَ عن سَبيلِ الله، وتَجدُّدِه[٣].

- وصِيغةُ المُفاعَلةِ في ﴿وَرِئَآءَ﴾؛ للمُبالغةِ أيضًا، أي: بالَغَ في إراءة النَّاس عمَلَه؛ مَحبَّةَ أن يَرَوه ليَفخرَ عليهم[٤].

- قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ خِتامُ هذه الآيةِ فيه وعيدٌ وتهديدٌ لِمَن بَقِي من الكُفَّار، ونفوذُ القَدَر فيمَنْ مَضَى بالقَتْل؛ إذ الإنسانُ ربَّما أَظْهَر من نَفْسه أنَّ الحاملَ له والدَّاعي إلى الفِعلِ المخصوصِ طلبُ مَرضاةِ اللهِ تعالى، مع أنَّه لا يكونُ الأمرُ كذلك في الحَقيقةِ؛ فبيَّن اللهُ سبحانه أنَّه عالمٌ ومحيطٌ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٣).

بما في دواخِلِ القلوبِ، وذلك كالتَّهديد والزَّجرِ عن الرِّئاءِ والتصنُّعِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٣).

الآيتانِ (٤٨-٤٩)

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جَارٌ لَّكُمْ﴾: أي: مُجِيرٌ لكم، ومانعُكم منهم[1].

﴿تَرَآءَتِ﴾: أي: تقابَلَت وتَلاقَت. وتراءى القَومُ: إذا رأى بعضُهم بعضًا، وأصلُ (رأى): يدلُّ على نظَرٍ وإبصارٍ بِعَينٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين زيَّنَ الشَّيطانُ لكُفَّارِ قُريشٍ أعمالَهم القبيحةَ، وقال لهم: لن يستطيعَ أحدٌ أن يَغلِبَكم اليومَ، وإنِّي مُجيرٌ لكم، فلمَّا تقابلَ المُسلمونَ والكُفَّارُ، ونظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ؛ قال الشَّيطانُ لكُفَّارِ قُريشٍ: إنِّي بريءٌ منكم، إنِّي أخشى اللهَ، واللهُ شَديدُ العقابِ.

ثم قال تعالى: اذكُرْ حين يقولُ المُنافِقونَ والذين في قُلوبِهم شَكٌّ: غرَّ المُسلمين دينُهم حتى تكلَّفوا قِتالَ قُريشٍ، وهم أكثَرُ وأشَدُّ قوَّةً منهم! ومَن يُفَوِّضْ أمْرَه لله فإنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى فَسادَ أعمالِ المشركينَ لفسادِ نِيَّاتِهم؛ تنفيرًا منها- زاد في التَّنفيرِ بذِكرِ العَدُوِّ المُبين، والتنبيهِ على أنَّ كُلَّ ما يأمُرُ به، إنَّما هو خيالٌ لا حقيقةَ له[١].

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

أي: واذكُرْ[٢]- يا مُحمَّدُ- حين حسَّن إبليسُ لكفَّارِ قُريشٍ أعمالَهم القبيحةَ[٣] في أعيُنِهم وقُلوبِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠).
وقال ابن جرير: (فتأويلُ الكَلامِ: وإنَّ اللهَ لَسِميعٌ عَليمٌ في هذه الأحوالِ، وحينَ زَيَّنَ لهم الشيطانُ خُروجَهم إليكم- أيُّها المؤمنونَ- لِحَربِكم وقِتالِكم، وحسَّنَ ذلك لهم، وحَثَّهم عليكم). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٥).

(٣) قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بأعمالهم هاهنا ثلاثةُ أقوالٍ: أحدها: شِرْكُهم. والثاني: مَسيرُهم إلى بدرٍ. والثالث: قتالُهم لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((زاد المسير)) (٢/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٩٤).
قال أبو حيان: (الجمهورُ على أنَّ إبليسَ تصوَّر لهم). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).
وقال الشنقيطي: (اللهُ هنا في هذه الآيةِ مِن سورةِ الأنفالِ صرحَّ بأنَّ الشَّيطانَ (قال) ولم يقُل: (وسوس)، فصرَّحَ بالقولِ ولم يذكُرِ الوسوسةَ). ((العذب النمير)) (٥/ ٩٩).

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (جاء إبليسُ يومَ بَدرٍ في جُندٍ مِن الشَّياطين، معه رايتُه، والشَّيطانُ في صورةِ رَجُلٍ من بني مُدلِج، في صورةِ سُراقةَ بنِ مالكِ بنِ جُعْشُم، فقال الشَّيطانُ للمُشركينَ: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ فلمَّا اصطفَّ النَّاسُ، أخذ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قبضةً مِن التُّرابِ، فرمى بها في وُجوهِ المُشركينَ، فوَلَّوا مُدبرين. وأقبل جبريلُ إلى إبليسَ، فلما رآه، وكانت يدُه في يدِ رَجُلٍ مِن المشركينَ، انتزعَ إبليسُ يَدَه، فولَّى مُدبِرًا هو وشيعَتُه، فقال الرَّجلُ: يا سراقةُ، تزعُمُ أنَّك لنا جارٌ؟ قال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وذلك حين رأى الملائكةَ)[1].

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

أي: وقال إبليسُ لكفَّارِ قُريشٍ: لا يُطيقُ أحدٌ من النَّاسِ اليومَ أن يتغلَّبَ عليكم؛ لِكَثرتِكم وقوَّتِكم[2].

﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾.

وقال ابن تيمية: (قد يتمثَّلُ الجنيُّ في صورةِ الإنسيِّ، حتى يظُنَّ الظانُّ أنَّه الإنسيُّ، وهذا كثيرٌ؛ كما تصوَّرَ لقُريشٍ في صورة سراقةَ بنِ مالكِ بنِ جُعشُمٍ). ((النبوات)) (٢/ ١٠٥٣).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٥/ ١٧١٥)، وابن جرير في ((تفسيره)) (١٦١٨٣)، مِن طريقِ عليِّ بن أبي طلحة عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

وعليٌّ لم يسمعْ من ابنِ عبَّاس، لكن الواسطة بينه وبين ابن عباس مجاهدٌ؛ حيث أخذ تفسيرَه منه.

قال الحافظ في ((التهذيب)): (بعد أن عُرِفت الواسطة، وهو ثقة (يعني مجاهدًا)؛ فلا ضير في ذلك).

وقال الإمام أحمد: (بمصرَ صحيفةٌ في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل فيها رجلٌ إلى مصر قاصدًا ما كان كثيرًا) اهـ.

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

أي: وإنِّي مُجيرٌ لكم، وحافظٌ لكم من أن يَأتيَكم أحدٌ تَخشَونَه، فأنتم في ذِمَّتي وحِمايَ[(١)].

وكلُّ ذلك منه، كما قال الله تعالى عنه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

أي: فلمَّا نظر كلُّ فريقٍ إلى الآخَرِ- حِزب الله، وحِزب الشَّيطان- يومَ بَدرٍ؛ رجعَ إبليسُ القَهقرى[(٢)] هاربًا[(٣)].

﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾.

أي: وقال إبليسُ لكفَّارِ قُريشٍ عندما فرَّ وخَذَلهم: إنِّي أتبرَّأُ منكم[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).
قال أبو حيان: (يحتمِلُ أن يكونَ قَولُه: ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ معطوفًا على ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، ويحتمِلُ أن تكونَ الواوُ للحالِ، أي: لا أحَدَ يَغلِبُكم، وأنا جارٌ لكم، أُعِينُكم وأنصُرُكم بنفسي وبِقَومي). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٤).
وقال السعدي: (﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ مِن أن يأتِيَكم أحدٌ مِمَّن تَخشَونَ غائِلَتَه؛ لأنَّ إبليسَ قد تبدَّى لِقُريشٍ في صورةِ سُراقةَ بنِ مالكِ بنِ جُعشُمٍ المُدْلِجيِّ، وكانوا يخافونَ مِن بني مُدْلِجٍ؛ لعداوةٍ كانت بينهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠).

(٢) القَهْقَرَى: الرُّجوعُ إلى خَلْفٍ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٠، ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٠).

مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾.

أي: قال إبليسُ لكفَّارِ قُريشٍ مبيِّنًا سببَ خِذلانِه لهم، وفِرارِه عنهم: إنِّي أرى الملائكةَ الَّتي نزَلَت لتأييدِ المُسلمينَ، وأنتم لا ترَونَهم[(١)].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾.

أي: إنِّي أخافُ أن يعاقِبَني اللهُ في الدُّنيا، فأهلِكَ معكم[(٢)].

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

أي: واللهُ شديدُ التَّنكيلِ بمن خالَفَه، وكفَرَ به[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٢).

قال ابنُ عطيةَ: (قيل: إنَّ هذه مَعذِرةٌ منه كاذِبةٌ، ولم تَلْحَقْه قطُّ مَخافةٌ، قاله قتادةُ وابنُ الكلبيِّ. وقال الزجَّاجُ وغيرُه: بل خاف ممَّا رأى مِن الأمْرِ وهَوْلِه، وأنَّه يَوْمُه الذي أُنظِرَ إليه، ويُقَوِّي هذا أنَّه رأى خَرْقَ العادةِ، ونُزولَ الملائكةِ للحَرْبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٩).

وقال ابنُ القيِّم: (صَدَقَ في قَولِه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾، وكذَبَ في قَولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾، وقيل: كان خَوفُه على نفسِه أن يَهلِكَ معهم، وهذا أظهَرُ). ((زاد المعاد)) (٣/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٢).

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

مُناسَبةُ ذِكرِ هذا الخبَرِ عَقِبَ قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ...﴾ هي أنَّ كِلا الخبَرَينِ يتضمَّنُ قُوَّةَ جيشِ المُشركينَ، وضَعفَ جَيشِ المُسلمين، ويقينَ أولياءِ الشَّيطانِ بأنَّ النَّصرَ سيكونُ للمُشركينَ على المُسلمينَ[1].

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾.

أي: اذكُرْ[2] - يا مُحمَّدُ- حينَ قال المُنافِقونَ الذين يُبطِنونَ الكُفرَ، ويُظهِرونَ الإسلامَ، والذين في قُلوبِهم شَكٌّ[3]: غرَّ الإسلامُ هؤلاءِ المُسلمينَ وخدَعهم،

قال الواحدي: (وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يجوزُ أن يكونَ مُتَّصلًا بما أخبَرَ به عن إبليسَ، ويجوز أن ينقطِعَ كلامُه عند قوله: ﴿أَخَافُ ٱللَّهَ﴾، فقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾). ((البسيط)) (١٠/ ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٧).

(٢) قال الشنقيطي: (قولُه: ﴿إِذْ﴾ ظرفٌ، بدلٌ مِن «إذ» قبلَه، أو منصوبٌ بـ (اذكر) مقدرًا. اذكرْ إذ يقولُ المنافقونَ). ((العذب النمير)) (٥/ ١٠٣). وفي العاملِ في ﴿إِذْ﴾ أقوالٌ أخرَى، يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٥).

(٣) قيل: المرادُ بالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ نفسُ المنافقينَ، وهو مِن عطفِ الصِّفاتِ، وهي لموصوفٍ واحدٍ، ويُؤيِّد هذا القولَ: أنَّ الله وصَف المنافقينَ بأنَّ في قلوبِهم مرضًا في قولِه: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وهي في المنافقين بلا نزاع.
وقيل: هم قومٌ تكلَّموا بكلمةِ الإسلامِ في مكةَ، وأبوا أن يُهاجروا، ففي قلوبِهم إيمانٌ ضعيفٌ، جاءوا مع كفارِ قريشٍ، فلما رأوا قلةَ المسلمينَ ارتابوا وقالوا ذلك، وكان الله قلَّل المسلمينَ في أعينِ الكفارِ، والكفارَ في أعينِ المسلمينَ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٤).

حتى تكلَّفوا قتالَ قُريشٍ، وهم أكثَرُ منهم، وأشَدُّ قُوَّةً، فلا طاقةَ لهم بذلك[١].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

مناسبتُها لما قبلها:

المناسبةُ بينها وبينَ الجملةِ الَّتي قبلَها: أنَّها كالعِلَّةِ لخيبةِ ظُنونِ المشركين ونُصَرائِهم، أيْ أنَّ اللَّه خَيَّب ظُنونَهم؛ لأنَّ المسلمينَ تَوَكَّلوا عليه، وهو عزيزٌ لا يُغْلَبُ، فمَنْ تمَسَّك بالاعتمادِ عليه نصَره، وهو حكيمٌ يُكوِّنُ أسبابَ النَّصرِ مِن حيثُ يجهَلُها البشرُ[٢]، قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: ومَن يُفَوِّضْ أمْرَه إلى اللهِ، ويعتَمِدْ عليه، ويَثِقْ به؛ فإنَّ اللهَ يُعِزُّه ويحفَظُه وينصُرُه؛ لأنَّ الله عزيزٌ، لا يَغلبُه ولا يقهَرُه شيءٌ، حكيمٌ في تدبيره، فلا يدخُلُه خلَلٌ، ويضَعُ كلَّ شَيءٍ مَوضِعَه اللَّائِقَ به، فينصُرُ مَن يستحِقُّ النَّصرَ، ويعذِّبُ مَن يستحِقُّ العذابَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

الفَوائِد التربويَّة:

١- مَبدأُ الاعتقادِ الباطِلِ، والإرادةِ الفاسِدةِ: مِن لَمَّةِ[٤] الشَّيطانِ؛ قال الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٣، ١٠٤، ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٨).

(٤) قال ابنُ تيميةَ: (ولَمَّةُ الشَّيطانِ هو تكذيبٌ بالحقِّ وإيعادٌ بالشَّرِّ، وهو ما كان مِنْ جنسِ إرادةِ

تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾(١).

٢- مِن كَيدِ الشَّيطانِ للإنسانِ: أنَّه يُورِدُه المواردَ التى يُخَيَّلُ إليه أنَّ فيها مَنفَعتَه، ثم يُصدِرُه المصادِرَ التي فيها عطَبُه، ويتخلَّى عنه ويُسْلِمُه، ويقِفُ يَشمَتُ به، ويضحَكُ منه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾(٢).

٣- في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ دَلالةٌ على أنَّ النصرَ إنَّما يكونُ بالتوكُّلِ على اللهِ سُبحانه، لا بالكثرةِ ولا بالعُدَدِ؛ فاللهُ عزيزٌ لا يُغالَبُ، حكيمٌ ينصرُ مَن يستحقُّ النصرَ- وإنْ كان ضعيفًا- فعزَّتُه وحكمتُه أوجبَت نَصرَ الفئةِ المتوكِّلةِ عليه(٣).

٤- مَن يُسلِّمْ أمرَه إلى اللهِ ويَثِقْ بفَضلِه، ويُعَوِّلْ على إحسانِه؛ فإنَّ اللهَ حافِظُه وناصِرُه؛ لأنَّه عزيزٌ لا يَغلِبُه شَيءٌ، حكيمٌ يُوصِلُ العذابَ إلى أعدائِه، والرَّحمةَ والثَّوابَ إلى أوليائِه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٤).

الشَّرِّ، وظَنِّ وجودِه: إمَّا معَ رجائِه إنْ كان معَ هوَى نفسٍ، وإمَّا معَ خوفِه إنْ كان غيرَ محبوبٍ لها). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣٣).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ دلالةٌ على أنَّ الشَّيطانَ يَعِدُ أولياءَه ويُمَنِّيهم، وقال تعالَى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[(١)] [النساء: ١٢٠].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ الجنَّ يتصوَّرونَ في صُورِ الإنسِ وغَيرِهم[(٢)]، وهذا على القولِ بأنَّ إبليسَ تصوَّر لهم.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الشَّياطينَ إذا رأَت ملائكةَ اللهِ- التي يُؤَيِّدُ بها عبادَه- هربتْ منهم[(٣)].

٤- في قَولِه تعالى مُخبرًا عن الشَّيطانِ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ دلالةٌ على أنَّ الجنَّ مشاركونَ للإنسِ في جِنسِ التَّكليفِ بالأمرِ والنَّهيِ والتَّحليلِ والتَّحريم، وأنَّ أهلَ الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ منهم، مُستحِقُّونَ لِعَذابِ النَّارِ -كما يدخلُها مِن الآدميِّينَ- فقد أخبرَ سبحانَه عن الشَّيطانِ أنَّه يخافُ اللهَ، والعقوبةُ إنَّما تكون على تَرْكِ مأمورٍ أو فِعْلِ محظورٍ[(٤)].

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ... وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ حُجةٌ على المعتزلة والقَدَريّة الذين يجعلون الشَّرَّ مِن الشيطان

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٣٣).

على الحقيقة بقوةٍ وسلطانٍ له فيه! وقد أنبأ الشيطانُ عن نفسه في هذا الموضع بأنه لا يَقْدِرُ على ضُرِّ أحدٍ ولا نفْعِه؛ وأنَّ تزيينَه غرورٌ؛ وقولَه كذبٌ لا حقيقةٌ(١).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ لم تدخُلِ الواوُ في قولِه: ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ ودخلَت في الآيةِ قَبلَها، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ﴾ فيه عطْفُ هذا التَّزيينِ على حالِهم وخُروجِهم بطرًا ورِئاءً، وأمَّا هنا وهو قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فليس فيه عطفٌ لهذا الكلامِ على ما قَبلَه، بل هو كلامٌ مُبتدأٌ مُنقطِعٌ عمَّا قَبلَه(٢).

٧- قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ النِّفاقُ أخَصُّ مِن مَرَضِ القلبِ؛ لأنَّ مرَضَ القَلبِ مُطلَقٌ على الكافِرِ، وعلى من اعترَضتْه شُبهةٌ، وعلى مَن بينهما(٣).

بلاغةُ الآيتين:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

- قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ خُوطِبَ به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بطَريقِ تلوينِ الخِطابِ، أي: واذْكُر وقتَ تزيينِ الشَّيطانِ أعمالَهم

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٩).

في مُعاداةِ المؤمنِين وغيرِها، بأنْ وَسْوَس إليهم[١].

- وجملةُ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ ...﴾ عَطفٌ على جُملةِ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ...﴾ وما بينهما اعتِراضٌ، رُتِّب نَظْمُه على أُسلوبِه العجيبِ؛ ليقعَ هذا الظَّرْفُ عقِبَ تلك الجُمل المُعترِضة، فيكونَ له إتمامُ المناسبةِ بحكايةِ خُروجِهم وأحوالِه، وليَقَع قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ عَقِبَ أَمْرِ المسلِمينَ بما يَنْبغي لهم عند اللِّقاءِ؛ ليَجْمعَ لهم بين الأمرِ بما ينبغي، والتَّحذيرِ ممَّا لا يَنبغي، وتَرْكِ التَّشبُّهِ بمَن لا يُرْتضَى؛ فيتمَّ هذا الأسلوبُ البديعُ المُحكَمُ الانتظامِ[٢].

- قولُه: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ قولُه: ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ مُؤكِّدٌ لمعنى ﴿نَكَصَ﴾؛ إذ النُّكوصُ لا يكونُ إلَّا على العَقِبينِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ بيانٌ لقولِه: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: أخاف عِقابَ اللهِ فيما رأيتُ من جُنودِ اللهِ[٤].

- وقولُهُ: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ فيه مُبالغةٌ في الخِذلانِ والانْفِصالِ عنهم؛ حيثُ لم يَكتفِ بالفعلِ حتَّى أكَّد ذلك بالقول[٥].

٢- **قَولُه تعالى:** ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٣٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٣٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٥).

- إسنادُ الغُرورِ إلى الدِّين في قولِهم: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ باعْتِبار ما فيه مِن الوعدِ بالنَّصر[١].

- وقولُه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ خِتامٌ حَسَنٌ؛ حيثُ تَضمَّنَ الردَّ على مَن قال: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ فكأنَّه قيل: هؤلاء في لِقاءِ عدُوِّهم هم مُتوكِّلون على الله؛ فهم الغالِبونَ، ومَنْ يتوكَّلْ على الله يَنْصُرْه ويُعِزَّه؛ فإنَّ اللهَ عزيزٌ لا يُغالَبُ بقوَّةٍ ولا بكَثْرة، حَكيمٌ يَضَعُ الأشياءَ مواضعَها، أو حاكِم بنَصْرِه مَن يتوكَّلُ عليه، فيُديل القليلَ على الكَثيرِ[٢].

- وجُعِلَ قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ جوابًا للشَّرطِ في ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ باعْتِبارِ لازِمِه، وهو عِزَّةُ المتوكِّلِ على اللهِ تعالى، وإلْفائِه مُنجِيًا مِن مَضيقِ أمْرِه؛ فهو كِنايةٌ عن الجوابِ، وهذا مِن وجوهِ البَيانِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٩).

الآيات (٥٠-٥٤)

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَدَأْبِ﴾: الدَّأْبُ: العادةُ المُستمرَّة والشَّأنُ، وأصلُ (دأب): يدلُّ على المُلازَمة والدَّوامِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ولو عايَنْتَ- يا مُحمَّدُ- حين تنزِعُ الملائكةُ أرواحَ الكفَّارِ من أجسادِهم، وهم يَضرِبونَ وُجوهَ الكُفَّارِ وأدبارَهم، لَرأيتَ أمرًا عظيمًا فظيعًا، ويقولُ لهم الملائكةُ: ذوقوا عذابَ الحَريقِ؛ ذلك بما كسَبَت أيديكم مِن الكُفرِ والمعاصي، وبأنَّ اللهَ لا يظلِمُ أحدًا مِن خَلقِه.

ثمَّ بيَّن تعالى أنَّ عادةَ هؤلاءِ المُشركينَ مِن قُريشٍ في كُفرِهم، كعادةِ قَومِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

فِرعونَ والأُمم المكَذِّبةِ مِن قَبلِهم؛ كَفَروا بآياتِ اللهِ فأهلَكَهم اللهُ بسبَبِ كُفرِهم ومعاصيهم، إنَّه تعالى قويٌّ شديدُ العقابِ، ذلك العذابُ إنَّما وقع عليهم؛ لأنَّهم بدَّلوا نعمةَ الله كُفرًا، فاللهُ تعالى لا يُغَيِّرُ نعمةً أنعَمَها على قومٍ إلَّا بسبَبِ تَغييرِهم ما بأنفُسِهم؛ بالوُقوعِ في الكُفرِ، أو ارتكابِ السَّيِّئاتِ. وأنَّ اللهَ سَميعٌ عليمٌ.

ثمَّ ذكَر تعالى أنَّ عادةَ هؤلاء المُشركينَ مِن قُريشٍ، كعادةِ آلِ فِرعونَ والَّذين مِن قَبلِهم؛ كذَّبوا بآياتِ اللهِ لَمَّا جاءَتْهم، فأهلَكَهم اللهُ بِذُنوبِهم، وأغرَقَ آلَ فِرعونَ، وكُلُّ الذينَ أهلَكَهم اللهُ مِن السَّابقينَ، ومِن كفَّارِ قُريشٍ، كانوا ظالِمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لمَّا قال سبحانَه قبلَ ذلك بإجمالٍ: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ بيَّن بعدَ ذلك بعضَ ما يتضمَّنُه هذا الإجمالُ مِن عقابِ الكفارِ[1]، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾.

أي: ولو عايَنْتَ- يا مُحمَّدُ[2]- حينَ تَنزِعُ الملائكةُ أرواحَ الكُفَّارِ مِن أجسادِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣١).

(٢) ممَّن اختار أنَّ الخِطابَ في الآيةِ مُوجَّهٌ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١١).
وقال ابنُ عاشور: (ابتُدِئَ الخبرُ بـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ مُخاطبًا به غيرُ مُعَيَّنٍ، ليعُمَّ كلَّ مُخاطبٍ، أي: لو ترَى أيُّها السامع؛ إذ ليس المقصودُ بهذا الخبرِ خُصوصَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتى يُحمَل الخطابُ على ظاهِرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٠).

وهُم يَضرِبونَ وجوهَهم وأستاهَهم[١]؛ لَرَأيتَ أمرًا عَظيمًا فَظيعًا[٢]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

أي: ويقولُ الملائكةُ للكفَّارِ: ذُوقوا عذابَ النَّارِ التي تَحرِقُكم[٣].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

---

(١) الأسْتاهُ: جمع اسْتٍ: وهو العَجُزُ، وقد يُرادُ به حَلقةُ الدُّبُرِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١١).
قال ابن كثير: (هذا السِّياقُ- وإن كان سببُه وقعةَ بَدرٍ- ولكنَّه عامٌّ في حقِّ كلِّ كافرٍ؛ ولهذا لم يخصُصْه تعالى بأهلِ بدرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٧).
واختار ابنُ جريرٍ أنَّ قولَ الملائكةِ هذا للمشركينَ الذين قُتِلوا ببَدرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١٣).
قال الشنقيطي: (قال بعضُ العلماء: ذَوْقُ عذابِ الحريقِ عند الاحتضارِ؛ لأنَّ المقامِعَ التي يضربونَهم بها تلتهِبُ عليهم نارًا، وقال بعضُ العلماء: يُبشِّرونَهم بالحريقِ يومَ القيامةِ، ولا مانِعَ مِن وقوعِ الكُلِّ). ((العذب النمير)) (٥/ ١١٤). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢١٧).

أي: ويقولُ الملائكةُ للكفَّارِ حين يَضرِبونَهم[١]: هذا الجزاءُ بسبَبِ ما عَمِلتُم من الكُفرِ والمعاصي في حياتِكم الدُّنيا، جازاكم اللهُ بها هذا الجزاءَ[٢].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ لا يَظلِمُ أحدًا مِن خَلقِه؛ فقد أرسَلَ إليهم رُسُلَه، وأنزَلَ عليهم كُتُبَه، وأقام عليهم الحجَّةَ[٣].

عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى، أنَّه قال: ((يا عبادِي، إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُهُ بينكم مُحرَّمًا، فلا تظَالَموا))[٤].

---

(١) ممَّن ذهب إلى أنَّ هذا مِن قَولِ الملائكةِ: ابنُ جريرٍ، والشِّنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١٦).
وقال ابنُ عطية: (قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ يحتملُ أن يكونَ مِن قَولِ الملائكةِ في وقتِ توفِيَتِهم لهم على الصُّورةِ المذكورةِ، ويحتملُ أن يكونَ كلامًا مُستأنَفًا؛ تقريعًا مِن الله عزَّ وجلَّ للكافرينَ حيِّهم ومَيِّتِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣١، ٢٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).
وقال الشنقيطي: (المراد ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ ما كَسَبتُم من المعاصي والكُفرِ، سواءٌ كان الذي اجترَمَته القلوبُ، أو الألسنةُ، أو الأيدي). ((العذب النمير)) (٥/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٣).
ذهب ابنُ جرير إلى أنَّ هذه الجملةَ تُعَدُّ سببًا ثانيًا لِذَوقِهم عذابَ الحريقِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٢)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٣).
وقال الواحدي: (الصَّحيحُ أنَّ قولَه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ ابتداءُ كلامٍ لا يعودُ معناه إلى ما قَبلَه مِن قَولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ليس بتعليلٍ للعذابِ ولا موجِبٍ له؛ لأنَّ معناه: نَفيُ الظُّلمِ، وإيجابُ الحُكمِ بالعدل، لا أنَّه سببُ تَعذيبِهم، فقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ سببٌ أوجبَ الحُكمَ بالتَّعذيبِ، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ نعتٌ لهذا الحُكمِ أنَّه عَدلٌ، وأنَّه ليس بجَورٍ). ((البسيط)) (١٠/ ١٩٩).

(٤) رواه مسلم (٢٥٧٧).

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى ما أنزَلَه بأهلِ بَدرٍ مِن الكُفَّارِ؛ أتبَعَه بأنْ بيَّنَ أنَّ هذه طريقَتُه وسُنَّتُه ودَأْبُه في الكُلِّ[١]، فقال:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: عادةُ وصَنيعُ هؤلاءِ المُشركينَ مِن قُريشٍ في كُفرِهم وتكذيبِهم، كعادةِ وصَنيعِ قَومِ فِرعونَ والأُمَمِ المُكذِّبةِ برُسُلِ اللهِ[٢] مِن قَبلِهم[٣].

ثمَّ فسَّرَ تعالى دأْبَ آلِ فِرعونَ ومَن قَبلَهم، وبيَّن عادَتَهم، فقال[٤]:

﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

أي: جحَد الكفَّارُ الأوَّلونَ آياتِ اللهِ التي أنزَلَها على رُسُلِه، والمُعجزاتِ التي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٥).

(٢) قال ابنُ عطيةَ: (ويحتملُ أن يكونَ المرادُ كعادةِ الله فيهم، فأضاف العادةَ إليهم؛ إذ لهم نسبةٌ إليها، يضافُ المصدرُ إلى الفاعلِ وإلى المفعولِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٠).
قال ابنُ كثيرٍ: (فعَل هؤلاءِ المشركونَ المكذِّبونَ بما أُرسِلتَ به يا محمدُ، كما فَعَل الأُممُ المكذِّبةُ قبلَهم، ففعَلْنا بهم ما هو دَأْبُنا، أي: عادتُنا وسُنَّتُنا في أمثالِهم مِن المكذِّبينَ مِن آلِ فرعونَ ومَن قبلَهم مِنَ الأُممِ المكذِّبةِ بالرُّسلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١٨).
قال الشنقيطي: (لم يبيِّنْ هنا مَن هؤلاء الذين مِن قبلِهم، وما ذنوبُهم التي أخَذهم الله بها، وبيَّن في مواضعَ أُخرَ أنَّ منهم قومَ نوحٍ، وقومَ هودٍ، وقومَ صالحٍ، وقومَ لوطٍ، وقومَ شعيبٍ؛ وأنَّ ذنوبَهم التي أخَذهم بها هي الكفرُ باللهِ، وتكذيبُ الرسل وغيرُ ذلك مِن المعاصي، كعقرِ ثمودَ للناقةِ، وكلواطِ قومِ لوطٍ، وكتطفيفِ قومِ شعيبٍ للمكيالِ والميزانِ، وغيرِ ذلك كما جاء مفصلًا في آياتٍ كثيرةٍ). ((أضواء البيان)) (١/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢٠).

أيَّدَهم بها، فعاقَبَهم اللهُ تعالى وأهلَكَهم؛ بسبَبِ كُفرِهم ومعاصيهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ۞ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ۞ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبًا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يَغلِبُه أحدٌ، ولا يُعجِزُه شيءٌ، شديدُ النَّكالِ لِمَن كفَرَ به، وكذَّب رُسلَه(٢).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

ذَكَرَ تعالى هنا في هذه الآيةِ ما يَجري مَجرى العِلَّةِ في العِقابِ، الذي ذَكَرَ أنَّه أنزَلَه بهم(٣).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾.

أي: ذلك العذابُ الذي أهلك اللهُ به كُفَّارَ قُريشٍ ومُشركي الأُمَم الماضيةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٦).

إنَّما وقع عليهم لأنَّهم بدَّلُوا نعمةَ اللهِ كُفرًا، واللهُ تعالى لا يُغيِّرُ نعمةً دينيَّةً أو دُنيويَّةً أنعَمَ بها على قومٍ، فيَسْلُبُها منهم، ويُحِلُّ مَحَلَّها النِّقَمَ والعُقوباتِ، إلَّا بِسَببِ تَغييرِهم ما بأنفُسِهم؛ بالوقوعِ في الكُفرِ، أو ارتكابِ السَّيِّئاتِ[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

وقال جلَّ جَلالُه: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ * وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢-١١٣].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢٢، ١٢٤).
قال ابنُ عطيةَ: (ومثالُ هذا: نعمةُ اللهِ على قُريشٍ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكَفَروا... فغيَّرَ اللهُ تلك النِّعمةَ بأن نقَلَها إلى غيرِهم من الأنصارِ، وأحَلَّ بهم عُقوبَتَه). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤١).
وقال ابنُ تيميةَ: (هذا التَّغييرُ نَوعانِ: أحدهما: أن يبدوَ ذلك، فيبقى قولًا وعملًا يترتَّبُ عليه الذَّمُّ والعقاب. والثاني: أن يُغَيِّروا الإيمانَ الذي في قلوبهم بضِدِّه من الرَّيبِ والشَّك والبُغضِ، ويَعزِموا على تَركِ فِعلِ ما أمَرَ اللهُ به ورسولُه، فيستحقُّونَ العذابَ هنا على تَركِ المأمورِ، وهناك على فِعلِ المحظورِ. وكذلك ما في النَّفسِ ممَّا يُناقِضُ محبَّةَ اللهِ والتوكُّلَ عليه، والإخلاصَ له والشُّكرَ له، يعاقَبُ عليه؛ لأنَّ هذه الأمورَ كلَّها واجبةٌ، فإذا خُلِّيَ القلبُ عنها، واتَّصَف بأضدادِها، استحَقَّ العذابَ على تَرْكِ هذه الواجباتِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ١٠٩).

أي: وذلك العذابُ الذي أهلَكَهم اللهُ تعالى به قد وقع عليهم؛ لأنَّ اللهَ سَميعٌ لكلامِ جَميعِ خَلْقِه، عليمٌ بما يُظهِرُونَه ويُسِرُّونه، لا يخفى عليه شيءٌ، فهو يجازيهم بما يستحقُّونَه[1].

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: عادةُ وصنيعُ هؤلاءِ المُشركينَ مِن قُريشٍ في كُفرِهم، كعادةِ وصَنيعِ قَومِ فِرعونَ والأُمَمِ المُكذِّبةِ مِن قَبلِهم[2].

﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾.

أي: كذَّبوا بآياتِ اللهِ لَمَّا جاءَتْهم، فسُلِبوا تلك النِّعمَ التي أُسدِيَت إليهم، وأهلكناهم بسبَبِ ذُنوبِهم، وأغرَقْنا قومَ فِرعونَ في البَحرِ[3].

كما قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠١)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨).
قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ يجوزُ أن تكونَ الكافُ مُتعلِّقةً بمَحذوفٍ قَبلَها، كما ذَكَرْنا في الأولى، ويجوزُ أن تتعلَّقَ بما بَعْدَها، وهو قولُه: ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: أهلُ مكَّةَ كَذَّبوا بآياتِ رَبِّهم، كصَنيعِ آلِ فِرعَونَ في التكذيبِ بما جاء به موسى). ((البسيط)) (١٠/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٣ - ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٦-١٩].

﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

أي: كلُّ الذين أهلَكْناهم مِن السَّابقينَ ومِن كُفَّارِ قُريشٍ، كانوا ظالِمينَ لأنفُسِهم بكُفرِهم وتكذيبِهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

مِن عُقوباتِ الذُّنوبِ: أنَّها تُزيلُ النِّعمَ، وتُحِلُّ النِّقمَ، فما زالت عن العَبدِ نِعمةٌ إلا بِذَنبٍ، ولا حَلَّت به نِقمةٌ إلَّا بِذَنبٍ؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فأخبَرَ الله تعالى أنَّه لا يُغيِّرُ نِعَمَه التي أنعَمَ بها على أحدٍ، حتى يكونَ هو الذي يغيِّرُ ما بنَفسِه، فيُغَيِّر طاعةَ اللهِ بمَعصِيَتِه، وشُكرَه بكُفرِه، وأسبابَ رِضاه بأسبابِ سَخَطِه، فإذا غيَّرَ غُيِّرَ عليه؛ جزاءً وفاقًا، وما ربُّك بظلَّامٍ للعبيدِ، فإنْ غيَّرَ المعصيةَ بالطَّاعةِ، غيَّرَ اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢٧).

العُقوبةَ بالعافيةِ، والذُّلَّ بالعِزِّ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- عَذابُ البَرزَخِ أوَّلُه يومُ القَبضِ والموتِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ فهذه الإذاقةُ هي في البَرزَخِ، وأوَّلُها حين الوفاةِ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ وصفُ النِّعمةِ بقَولِه: ﴿أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ للتَّذكيرِ بأنَّ أصلَ النِّعمةِ مِن اللهِ[٣].

٣- الظَّاهِرُ مِن قَولِه: ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ العمومُ في كلِّ مَن أنعَمَ اللهُ عليه؛ مِن مُسلِمٍ وكافِرٍ، وبَرٍّ وفاجِرٍ، وأنَّه تعالى متى أنعَمَ على أحدٍ فلم يَشكُرْ، بدَّلَه عنها بالنِّقمةِ[٤].

٤- في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى قد يَسْلبُ النِّعَمَ بفِعْلِ المعصيةِ عقوبةً لفاعليها[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص:٧٤)، ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٧).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٣).

قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾ إن قيل: فما كان مِن تَغييرِ آلِ فِرعونَ ومُشركي مكَّةَ، حتى غيَّرَ اللهُ تعالى نِعمَتَه عليهم، ولم تكُن لهم حالٌ مَرضِيَّةٌ فيُغَيِّروها إلى حالٍ مَسخوطةٍ؟!

أجيبَ: بأنَّه تعالى كما يُغَيِّرُ الحالَ المَرضيَّةَ إلى المسخوطةِ، يُغَيِّرُ الحالَ المسخوطةَ إلى أسخَطَ منها، وأولئك كانوا قبلَ بَعثةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كفرةً، عبَدةَ أوثانٍ، فلمَّا بُعِث إليهم بالآياتِ البيِّناتِ، فكذَّبوه وعادَوْه، وتحزَّبوا عليه ساعِينَ في إراقةِ دَمِه؛ غَيَّروا حالَهم إلى أسوأَ ممَّا كانت عليه، فغيَّرَ اللهُ تعالى ما أنعَمَ به عليهم من الإمهالِ، وعاجَلَهم بالعذابِ[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ لَمَّا أشارَ بالتَّعبيرِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ إلى أنَّه غرَّهم مُعامَلتُه بالعَطفِ والإحسانِ، قال: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾ أي: جميعًا ﴿بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ﴾ فأتى بنونِ العَظَمة؛ إشارةً إلى أنَّه أتاهم بما أنساهم ذلك البِرَّ، وإشارةً إلى أنَّهم نَسُوا أنَّ الرَّبَّ كما أنَّه يتَّصِفُ بالرَّحمةِ، فلا بدَّ أن يتَّصِفَ بالعَظَمةِ والنِّقمةِ، وإلَّا لم تتِمَّ رُبوبيَّتُه[2].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيه حذْفُ جوابِ (لو) الشَّرطيَّة؛ والحَذفُ بليغٌ في مِثْل هذا؛ لأنَّه يدلُّ على التَّعظيمِ، أي:

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠٧).

لرأيتَ أمرًا عجيبًا، وشأنًا هائلًا[١].

- وتقديمُ المفعولِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على الفاعلِ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ للاهْتِمامِ به[٢].

- قولُه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۙ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ على القَولِ بأنَّ المرادَ بالذين كَفروا: مُشركو يَومِ بَدْر، وذلك قدْ مضَى؛ فيكونُ أَتى بالمضارعِ (ترى- يَتوفَّى) في المَوضِعَين مَكانَ الماضي؛ لقَصْدِ اسْتِحضارِ تِلك الحالةِ العجيبةِ، وهي حالةُ ضَرْبِ الوجوهِ والأدبارِ؛ ليُخيِّلَ للسامعِ أنَّه يُشاهِد تِلكَ الحالة[٣].

- وذِكرُ الوجوهِ والأدبارِ في قولِه: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾؛ للتَّعميمِ، أي: يَضربونَ جَميعَ أجسادِهم، كقَولِ العربِ: ضَربتُه الظهرَ والبطنَ؛ كِنايةً عمَّا أَقبلَ وما أَدبرَ، أي: ضربتُه في جميعِ جَسدِه[٤]، أوْ خَصُّوهما بالضَّربِ؛ لأنَّ الخِزيَ والنَّكالَ في ضَربِهما أشدُّ[٥].

٢- ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾

- جملةُ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ مُستأنَفةٌ؛ لقَصدِ التَّنكيلِ والتشفِّي، وجِيءَ بإشارةِ البَعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لتعظيمِ ما يُشاهِدونَه مِن الأهوالِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٦).
والقاعدةُ: أنَّ حذفَ جوابِ الشرطِ يدلُّ على تعظيمِ الأمرِ وشدتِه في مقاماتِ الوعيدِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤١).

- وعبَّرَ بالأيدي دونَ غيرِها في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾؛ لأنَّ أكثَرَ الأفعالِ تُزاوَلُ بها[١].

- وجملةُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ، مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلها[٢]، على أحدِ الأوجهِ في الآيةِ.

- ونفيُ الظَّلَّاميةِ في قولِه تعالى: ﴿لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ لا يُفيدُ إثباتَ ظُلمٍ غيرِ قويٍّ؛ فصِياغَتُه بصِيغةِ الكثرةِ باعتبارِ تعلُّقِ الظُّلمِ المنفيِّ- لو قُدِّرَ ثبوتُه- بالعبيدِ الكثيرينَ، وعبَّرَ بالمبالغةِ عن كَثرةِ أعدادِ الظُّلمِ باعتبارِ تعدُّدِ أفرادِ معمولِه[٣]، وقيل: لأنَّ العذابَ مِن العِظَمِ بحيث لولا الاستحقاقُ لكان المعذِّبُ بمثلِه ظلَّامًا بليغَ الظُّلمِ، فنفَى المبالغةَ بهذا الاعتبارِ، ومعناها نفيُ الفعلِ مِن أصلِه[٤]، وقيل: إنَّه نفَى الظُّلمَ الكثيرَ؛ لِينتفيَ القليلُ ضرورةً؛ لأنَّ الَّذي يظلمُ، إنَّما يظلمُ لانتفاعِه بالظُّلمِ، فإذا تَرَكَ الكثيرَ معَ زيادةِ نفعِه، فلأَنْ يترُكَ القليلَ أولَى، وقيل: لأنَّ أقلَّ القليلِ لو وَرَد منه تعالَى لكانَ كثيرًا، وقيل: إنَّه قَصَد التَّعريضَ بأنَّ ثمَّ ظَلَّامًا للعبيدِ من ولاةِ الجورِ، وقِيل غيرُ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٢).
وقيل: إنَّ (ظَلَّام) هنا لا تصِحُّ للمُبالغةِ التي تدلُّ على الكثرةِ، إنَّما المرادُ بها النِّسبةُ، وهي تشمَلُ الكثرةَ والقلَّةَ؛ وذلك لأنَّه لو قيل: إنَّ المرادَ بذلك صيغةُ المبالغةِ، لكان المنفيُّ كَثرةَ الظُّلمِ، مع أنَّ اللهَ تعالى لا يَظلِمُ مِثقالَ ذَرَّةٍ، وعلى ذلك فمَعنى قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي: ليس بذِي ظُلمٍ، كما نقولُ: فلانٌ ليس نجَّارًا، يعني: ليس بذِي نِجارةٍ، أي: ليس منسوبًا للنَّجَّارِينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (ص: ٤٩٧).
وحكَى ابنُ مالكٍ هذا الوجهَ عَنِ المُحَقِّقينَ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٩)، قال الشنقيطيُّ: (وهذا الوجهُ حسنٌ جدًّا، إلا أنَّ فيه دقةً). ((العذب النمير)) (٥/ ١١٧).

(٥) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٦٥).

٣- **قولُه تعالى:** ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

- جُملةُ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ...﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ أنَّ ما حلَّ بهم من العذابِ بسَببِ كُفْرِهم، لا بشيءٍ آخَرَ من جِهةِ غيرِهم؛ بتشبيهِ حالِهم بحالِ المعروفينَ بالإهلاكِ بسببِ جَرائمِهم؛ لزيادةِ تَقبيحِ حالِهم، وللتَّنبيهِ على أنَّ ذلك سُنَّةٌ مُطَّرِدَةٌ فيما بَينَ الأُممِ المُهلَكةِ[١].

- وإنَّما خُصَّ آلُ فِرعونَ بالذِّكرِ، وذُكِر الذي أُهلِكوا به، وهو إغراقُهم؛ لأنَّه انضمَّ إلى كُفرِهم دَعْوَى الإلهيَّةِ والرُّبوبيَّة لغيرِ الله تعالى؛ فكان ذلك أَشنعَ الكُفرِ وأفظعَه[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلَه من الأَخْذ، وتكملةٌ له[٣]، مع ما فيه من تأكيدِ الخَبَرِ بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ.

٤- **قولُه تعالى:** ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً ...﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتَعليلِ ما يُفيدُ النَّظمُ الكريمُ مِن كونِ ما حلَّ بهم من العذابِ منوطًا بأعمالِهم السيِّئةِ، غيرَ واقعٍ بلا سابقةٍ[٤].

- ونفْيُ الكونِ بصِيغةِ المضارعِ في قولِه: ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً﴾ يَقتضي تجدُّدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٤).

النفيِ ومَنفيِّه[١].

- وقَولُه: ﴿لَمْ يَكُ﴾ حُذِفَت نون (يكن) إرشادًا إلى أنَّ هذه الموعظةَ خليقةٌ بأن يُوجَزَ بها غايةَ الإيجازِ، فيُبادَرَ إلى إلقائِها لِمَا في حسنِ تلقِّيها من عظيمِ المنفعةِ؛ لأنَّ منَ خالَفَها جديرٌ بتعجيلِ الانتقامِ[٢].

٥- **قولُه تعالى:** ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ...﴾ تكريرٌ لقولِه: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ...﴾ المذكورِ قَبْلَه؛ لقَصدِ التَّأكيدِ والتَّسميعِ، وهو تَقريرٌ؛ للإنذارِ والتَّهديد، وخُولِفَ بين الجُملتين تفنُّنًا في الأسلوبِ، وزيادةً للفائدةِ بذِكرِ التَّكذيبِ هنا بعدَ ذِكْرِ الكُفرِ هناك، وهُما سببانِ للأخْذِ والإهلاكِ[٣]. ومِن وجوهِ تَكريرِه أيضًا: أنَّ الثانيَ جرَى مَجرَى التَّفصيلِ للأوَّلِ؛ لأنَّ في ذلك ذِكرَ إجرامِهم، وفي هذا ذِكرَ إغراقِهم، وأُريدَ بالأوَّلِ ما نزَلَ بهم من العُقوبةِ حالَ الموتِ، وبالثَّاني ما نزَل بهم من العذابِ في الآخِرةِ، وفي الأوَّلِ: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى إنكارِ دَلائلِ الإلهيَّةِ، وفي الثَّاني: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ إشارةٌ إلى إنكار نِعَم مَن رَبَّاهم، ودلائلِ تربيتِه وإحسانِه على كَثْرتِها وتواليها، وفي الأوَّل: اللازِمُ منه الأخذُ، وفي الثَّاني: اللازمُ منه الهلاكُ والإغراقُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٨).

وقيل: قولُه في الآيةِ الأُولَى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قد قالَ قبلَه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا

- في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ زيادةُ دَلالةٍ على كُفرانِ النِّعمِ، وجُحودِ الحقِّ[١].

- وذِكرُ وصْفِ الربوبيَّة دون الاسمِ العَلَمِ في قولِه: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾؛ لزيادةِ تَفظيعِ تَكذيبِهم؛ لأنَّ الاجتراءَ على اللهِ مع مُلاحظةِ كَونِه ربًّا للمُجترِئِ يَزيدُ جَراءتَه قُبحًا؛ لإشعارِه بأنَّها جَراءةٌ في موضعِ الشُّكرِ؛ لأنَّ الرَّبَّ يَستحِقُّ الشُّكرَ[٢].

- قَولُه تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ عُبِّرَ بالإهلاكِ عِوَضَ الأخذِ المتَقَدِّمِ ذِكرُه؛ ليُفَسَّرَ الأخذُ بأنَّه آلَ إلى الإهلاكِ، وزِيدَ الإهلاكُ بيانًا بالنِّسبةِ إلى آلِ فِرعونَ بأنَّه إهلاكُ الغَرَقِ[٣].

- قَولُه تعالى: ﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ جُمِعَ الضَّميرُ في: (كانُوا)، وجُمِعَ: (ظالِمينَ) مراعاةً لمعنى (كُل)؛ لأنَّ (كُلًّا) متى قُطِعَت عن الإضافةِ جاز مراعاةُ لَفظِها تارةً، ومعناها أخرى. وإنما اختيرَ هنا مراعاةُ المعنى؛ لأجلِ الفَواصِلِ، ولو رُوعِيَ اللَّفظُ فقيل مثلًا (وكلٌّ كان ظالِمًا)، لم تتَّفِقِ الفَواصِلُ[٤].

الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فذكَر في الآيةِ الأُولَى تمثيلًا لعذابِهم بعدَ الموتِ فقالَ: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فإنَّ أخذَه يتضمَّنُ أخذَهم ليَصِلوا بعدَ الموتِ إلى العذابِ.

أمَّا في الآيةِ الثانيةِ فقد قال قبلَها: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فذكَر تمثيلًا لزوالِ النِّعمِ عنهم لما كذَّبوا بآياتِه، فقال: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ فقال: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولفظُ الهلاكِ يَقْتضي هلاكَهم في الدُّنيا، وزَوالَ النِّعمةِ عنهم، وحلولَ النقمةِ بهم. يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٥٤٥).

الآيات (٥٥-٥٩)

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٥٧ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٨ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ٥٩﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾: أي: تَجِدَنَّهم، وتظفَرَنَّ بهم، وأصلُ (ثقِف): يدلُّ على الحِذقِ في إدراكِ الشَّيءِ، وفِعلِه[1].

﴿فَشَرِّدۡ بِهِم﴾: أي: فنكِّلْ بهم، وافعَلْ بهم فعلًا من العقوبةِ يتفرَّقُ به مَن وراءَهم، وأصلُ (شرد): يدلُّ على تنفيرٍ وإبعادٍ[2].

﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ﴾: أي: فاطرَحْ إليهم عَهدَهم، وأصلُ (نبذ) يدلُّ على طَرحٍ وإلقاءٍ[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

في إعرابِ هذه الآيةِ وُجوهٌ؛ بيانُها على النَّحوِ التَّالي:

- أنَّ فاعِلَ ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ هو النبيُّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعولُ ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ الأوَّلُ.

وجملةُ ﴿سَبَقُوٓاْ﴾ في مَحلِّ نَصبٍ، مفعولٌ ثانٍ، فيكون تخريجُها مثلَ قراءةِ التَّاءِ: ﴿وَلَا تحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ بِتَوجيهِ الخِطابِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

- أنَّ الفاعِلَ مُضمَرٌ تقديرُه: (أحَدٌ) أو (حاسِبٌ) أو (مَن خَلفَهم)، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ و﴿سَبَقُوٓاْ﴾ هما مَفعولَا ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ أيضًا.

- أنَّ الفاعِلَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والمفعولُ الأوَّلُ محذوفٌ، أي: أنفُسَهم، والمفعولُ الثَّاني ﴿سَبَقُوٓاْ﴾ والتَّقديرُ: ولا يَحسبَنَّ الذينَ كَفَروا أنفُسَهم سَبَقوا.

قولُه: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ جملة مُستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ. وقُرِئَ بالفتحِ ﴿أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ على حَذْفِ لامِ العِلَّةِ، أي: لأنَّهم لا يُعْجِزون[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ اللَّه تعالى أنَّ أكثَرَ الدَّوابِّ التي تدبُّ على وجهِ الأرضِ شَرًّا في حكمِه وقضائِه، هم الذينَ كَفَروا، وقد سبَقَ في علمِ الله تعالى أنَّهم لا يُؤمنونَ، الذين أخذَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم العَهدَ عليهم، بأن يُسالِمَهم ويُسالِموه، ثم ينقضونَ عَهدَهم كلمَّا عاهدوه، وهم لا يتَّقونَ، ثمَّ يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي بن أبي طالب (١/ ٣١٨-٣١٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٢٩-٦٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٢٣-٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٣-١٤٤).

عليه وسلَّم أن يُنكِّلَ بهم، ويُعاقِبَهم عقوبةً غليظةً إنْ لاقاهم في الحَربِ؛ حتى يكونَ ذلك عبرةً وتشريدًا لغَيرِهم من الأعداءِ، لعلَّهم يذَّكَّرونَ.

أمَّا القومُ الذين بينَه وبَينَهم عهدٌ، ويخافُ أن يَغدِروا به فينقُضوا عَهدَه- وذلك لظهورِ علاماتٍ له تدلُّ على غدرِهم- فيأمره حينئذٍ أن يُلقِيَ إليهم عَهدَهم؛ حتى يكونَ الطَّرفانِ مُستَوَيَينِ في العِلمِ أنْ لا عهدَ باقٍ بينهما، فيبرَأ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الغَدرِ بهم، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن يَغدِرُ ويخونُ عهده.

ثمَّ قال الله تعالى: لا يظننَّ الذين كَفَروا أنفُسَهم أفلَتُوا من أن يُظفَرَ بهم، وأنَّهم قد فاتُونا بأنفُسِهم فلا نقدِرُ عليهم، إنَّهم لا يُمكِنُهم الإفلاتُ مِن اللهِ تعالى، ولا الهَرَبُ منه؛ فهو قادِرٌ عليهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وصفَ اللهُ تعالى كلَّ الكُفَّارِ بِقَولِه: ﴿وَكُلُّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾؛ أفرَدَ بَعضَهم بمزيَّةٍ في الشَّرِّ والعنادِ[1].

وأيضًا لَمَّا وصَفَهم اللهُ تعالى بالظُّلمِ في الآيةِ السَّابقة، علَّلَ اتِّصافَهم ذلك بأنَّهم كَفَروا بآياتِ رَبِّهم الذي تفرَّدَ بالإحسانِ إليهم[2]، فقال تعالى:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥﴾.

أي: إنَّ أكثَرَ الدَّوابِّ التي تدبُّ على وجهِ الأرضِ شَرًّا عند اللهِ، هم الذين كَفَروا بربِّهم، وتغلغَلَ الكُفرُ في نُفوسِهم، فهم مُستمرُّونَ على كُفرِهم، قد سبَقَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠٨).

في علمِ الله تعالى أنَّهم لا يُؤمنونَ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ * وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

ثمَّ ذكَرَ تعالى صفةً أخرى من صفاتِهم[٢]، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾.

أي: الَّذين أخذتَ عليهم العَهدَ- يا مُحمَّدُ- وأخَذُوا عليك العَهدَ؛ بأن يُسالِموك وتُسالِمَهم، فلا يحارِبوك ولا تُحارِبَهم، ثمَّ ينقُضونَ عَهدَهم كلَّما عاهَدوك[٣].

﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣٢).

قال ابنُ عطيةَ: (أجمع المتأوِّلونَ أنَّ الآيةَ نَزَلت في بني قُريظةَ، وهي بعدُ تَعُمُّ كُلَّ مَن اتَّصفَ بهذه الصِّفةِ، إلى يومِ القيامةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٢).

أي وهؤلاءِ الكُفَّارُ الذين ينقُضونَ عَهدَهم، ليست لهم تَقوى مِن الله تعالى تَحمِلُهم على الالتزامِ بفِعلِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهِيه، ولا يخافونَ عند نَقضِهم للعَهدِ في كُلِّ مَرَّةٍ، أن يَحُلَّ بهم عذابُ اللهِ[1].

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾.

أي: فإنْ تلْقَيَنَّ- يا مُحمَّدُ- أولئك الكُفَّارَ، الذينَ ينقُضونَ العَهدَ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ، وتَظفَرْ بهم في حالِ مُحارَبتِهم، بحيثُ لا يكونُ لهم عهدٌ معك- فنكِّلْ بهم، وعاقِبْهم عقوبةً غليظةً، تكونُ عِبرةً وتشريدًا لِغَيرِهم من الأعداءِ، فيتفرَّقوا عنك، ويخافوا منك، ولا يجتَرِئُوا عليك بعد ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣٣).

قال ابنُ عاشورٍ: (ووقوعُ فِعلِ ﴿يَتَّقُونَ﴾ في حَيِّزِ النَّفيِ، يعُمُّ سائِرَ جِنسِ الاتِّقاءِ، وهو الجِنسُ المُتَعارَف منه، الذي يتهَمَّمُ به أهلُ المُروءاتِ والمُتَدَيِّنونَ، فيعُمُّ اتِّقاءَ اللهِ، وخشيةَ عِقابِه في الدُّنيا والآخرةِ، ويعُمُّ اتِّقاءَ العارِ، واتِّقاءَ الْمَسَبَّةِ، واتِّقاءَ سُوءِ السُّمعةِ، فإنَّ الخَسيسَ بالعَهدِ والغَدْرِ، مِن القبائِحِ عند جميعِ أهلِ الأحلامِ، وعند العَرَبِ أنفُسِهم؛ ولأنَّ مَن عُرِفَ بنَقْضِ العهدِ عَدِمَ مَن يَركَنُ إلى عَهدِه وحِلْفِه، فيبقى في عُزلةٍ مِن النَّاسِ، فهؤلاء الذين نقَضُوا عَهْدَهم، قد غلَبَهم البُغضُ في الدِّينِ، فلم يعبَؤُوا بما يَجُرُّه نقضُ العهدِ مِن الأضرارِ لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣٤).

قال ابن عاشور: (المعنى: فاجعَلْهم مَثلًا وعِبرةً لغيرِهم من الكفَّارِ، الذينَ يترقَّبونَ ماذا يجتني هؤلاءِ مِن نقضِ عهدِهم، فيفعلونَ مِثلَ فِعْلِهم؛ ولأجلِ هذا الأمرِ نكَّل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقُريظةَ حين حاصَرَهم، ونزلوا على حُكمِ سَعدِ بنِ مُعاذٍ رَضِي اللهُ عنه، فحَكَم بأن تُقتَلَ المقاتِلةُ وتُسبَى الذُّرِّيَّةُ، فقتَلَهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالمدينةِ، وكانوا أكثرَ مِن

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

أي: لعلَّ مَن خَلْفَهم مِن الكُفَّارِ الذين يعلمونَ بما فعَلْتَ بناقِضي العَهدِ، يتَّعِظونَ فيَحذَروا مِن نَقضِ ما بينك وبينهم مِن عهدٍ؛ لئلَّا يُصيبَهم ما أصاب غَيرَهم مِن ناقِضي العُهودِ(١).

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾.

أي: وإمَّا تَخافَنَّ- يا مُحمَّدُ- مِن قَومٍ بينك وبينهم عَهدٌ، أن يَغدِروا بك، فينقُضُوا عَهدَهم معك، بما يظهَرُ مِن قرائِنَ تَدُلُّك على ذلك، من غيرِ تَصريحٍ منهم بالخيانةِ(٢)، فاطرَحْ إليهم عَهدَهم عَلَنًا؛ حتى تستويَ أنت وهم في العِلمِ بأنَّه

ثمانِمئةِ رجلٍ، وقد أمرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذا الأمرِ بالإغلاظِ على العدوِّ؛ لِما في ذلك مِن مصلحةِ إرهابِ أعدائِه؛ فإنَّهم كانوا يَستضعِفونَ المسلمين، فكان في هذا الإغلاظِ على النَّاكثينَ تحريضٌ على عقوبتِهم؛ لأنَّهم استحقُّوها، وفي ذلك رحمةٌ لغيرِهم؛ لأنَّه يصدُّ أمثالَهم عن النَّكثِ، ويكفي المؤمنينَ شرَّ النَّاكثينَ الخائِنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣٤).

(٢) قال ابنُ جرير: (فإن قال قائلٌ: وكيف يجوزُ نقضُ العهدِ بخوفِ الخيانةِ، والخوفُ ظنٌّ لا يقينٌ؟! قيل: إنَّ الأمرَ بخلافِ ما إليه ذهبْتَ، وإنَّما معناه: إذا ظهَرَت آثارُ الخيانةِ مِن عَدُوِّك، وخِفتَ وُقوعَهم بك؛ فألْقِ إليهم مَقاليدَ السَّلْمِ، وآذِنْهم بالحَربِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٩).
وقال الرازي: (قال أهلُ العلم: آثارُ نَقضِ العَهدِ إذا ظهَرَت: فإمَّا أن تظهَرَ ظُهورًا مُحتمَلًا، أو ظهورًا مقطوعًا به؛ فإن كان الأوَّلُ وجب الإعلامُ- على ما هو مذكورٌ في هذه الآيةِ- وذلك لأنَّ قُريظةَ عاهدوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثم أجابوا أبا سُفيانَ ومَن معه مِن المُشرِكينَ إلى مُظاهَرتِهم على رَسولِ اللهِ، فحصَلَ لرسولِ اللهِ خَوفُ الغَدرِ منهم به وبأصحابِه، فهاهنا يجبُ على الإمامِ أن ينبِذَ إليهم عُهودَهم على سواءٍ، ويُؤذِنَهم بالحربِ. أمَّا إذا ظهَرَ نَقضُ العَهدِ ظهورًا مَقطوعًا به، فهاهنا لا حاجةَ إلى نبذِ العَهدِ، كما فعلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

لا عهدَ بينَك وبينَهم، وأنَّ بعضَكم مُحارِبٌ لبعضٍ، فتبرَأَ بذلك من الغَدرِ بهم[١].

عن سُلَيمِ بنِ عامرٍ، قال: ((كان بين مُعاويةَ وبين أهلِ الرُّومِ عَهدٌ، وكان يَسيرُ في بلادِهم، حتى إذا انقضَى العَهدُ أغار عليهم، فإذا رجلٌ على دابَّةٍ أو على فَرسٍ، وهو يقولُ: اللهُ أكبَرُ، وفاءٌ لا غَدرٌ، وإذا هو عَمرُو بنُ عَبَسةَ، فسأله معاويةُ عن ذلك، فقال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: مَن كان بينه وبين قَومٍ عهدٌ، فلا يَحُلَّنَّ عهدًا، ولا يَشُدَّنَّه حتى يَمضِي أمَدُه، أو ينبِذَ إليهم على سَواءٍ، قال: فرجَعَ معاويةُ بالنَّاسِ))[٢].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لكُلِّ غادرٍ لِواءٌ يومَ القيامةِ، يُرفَعُ له بِقَدرِ غَدرِه، ألا ولا غادِرَ أعظَمُ غَدرًا مِن أميرِ عامَّةٍ))[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾.

أي: إنَّ الله لا يُحبُّ الذين يَغدِرونَ بمَن عاهَدَهم وأمِنَهم، ويخونونَ في

بأهلِ مكَّةَ؛ فإنَّهم لَمَّا نقَضُوا العهدَ بِقَتلِ خُزاعةَ- وهم مِن ذِمَّةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وصل إليهم جيشُ رسولِ اللهِ بمَرِّ الظَّهرانِ، وذلك على أربعةِ فراسِخَ من مكَّةَ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٨). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١، ٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٥٩)، والترمذي (١٥٨٠)، والنسائي في ((الكبرى)) (٨٦٧٩)، وأحمد (١٧٠١٥)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٤٨٧١).
قال الترمذي: (حسنٌ صحيحٌ). وصححه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٢٠)، والألباني في ((صحيح الترمذي)) (١٥٨٠).

(٣) رواه مسلم (١٧٣٨).

عُهودِهم وغيرِها[١].

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى ما يفعَلُ الرَّسولُ في حقِّ مَن يَجِدُه في الحَربِ، ويتمَكَّنُ منه، وذكَرَ أيضًا ما يجِبُ أن يفعَلَه فيمَن ظهَرَ منه نقضُ العَهدِ- بيَّنَ هنا حالَ مَن فاتَه في يومِ بَدرٍ وغَيرِه؛ لئلَّا يبقَى حَسرةً في قَلبِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فقد كان فيهم مَن بلَغَ في أذيَّةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَبلغًا عظيمًا[٢].

وأيضًا لمَّا كان نبذُ العهدِ مَظِنَّةُ الخوفِ مِن تكثيرِ العدوِّ وإيقاظِه، وكان الإيقاعُ أولَى بالخوفِ، أتْبَع سبحانَه ذلك ما يُسلِّي عن فوتِ مَن هرَب مِن الكفَّار في غزوةِ بدرٍ، فلم يُقتَلْ، ولم يُؤْسَرْ[٣]، فقال تعالى:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ قراءتان:

١- قِراءةُ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ قيل: على معنى: لا يحسبنَّ النبيُّ، أو لا يحسبَنَّ أحدٌ، أو لا يحسبَنَّ الَّذين كَفَروا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣١٣).

(٤) قرأ بها حفصٌ وابنُ عامرٍ وحمزةُ وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٧). ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٢)، ((الكشف عن وجوه القراءات السبع)) لمكي بن أبي طالب (١/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤).

٢- قِراءةُ ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ﴾ على أنَّ الخطابَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١]، وقيل: ولا تَحْسِبَنَّ يا سامعُ[٢].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾.

أي: لا يظُنَّ الذين كَفَروا أنفُسَهم[٣] أفلَتُوا من أن يُظفَرَ بهم، وأنَّهم قد فاتُونا بأنفُسِهم فلا نقدِرُ عليهم[٤].

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

أي: إنَّ الكافرينَ لا يُمكِنُهم الإفلاتُ مِن اللهِ تعالى في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، ولا يَقدِرونَ على الهَرَبِ منه؛ فهو قادِرٌ عليهم سبحانَه[٥].

كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧].

ذكر الشنقيطيُّ أنَّ هذه القراءةَ سبعيةٌ متواترةٌ، لا وجهَ للطعنِ فيها، وذكر أن تفسيرَها مشكلٌ، قال: (لأنَّه لا يُدرَى أين مفعولَا (حَسِب)، ولا يُدرَى الفاعلُ أينَ هو؟! وللعلماءِ فيها أقوالٌ متقاربةٌ لا يُكذِّبُ بعضُها بعضًا). ((العذب النمير)) (٥/ ١٤٥- ١٤٦).

(١) قرأ بها الباقون، وقرَأ شعبةُ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٦، ٢٧٧). ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٢)، ((الكشف)) لمكي بن أبي طالب (١/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية))، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٤٩).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

الإسلامُ لا يبيحُ لأهلِه الخيانةَ مطلقًا؛ فالخيانةُ مبغوضةٌ عندَ الله بجميعِ صُورِها ومظاهِرِها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وصَفَهم بشَرِّ الدَّوابِّ؛ لأنَّ دَعوةَ الإسلامِ أظهَرُ مِن دَعوةِ الأديانِ السَّابقةِ، ومُعجزةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أسطَعُ، ولأنَّ الدَّلالةَ على أحقيَّةِ الإسلامِ دَلالةٌ عَقليَّةٌ بيِّنةٌ، فمن يَجحَدْه فهو أشبَهُ بما لا عَقلَ له[٢]، ولإفادةِ أنَّهم ليسوا من شرارِ البَشَرِ فقط، بل هم أضَلُّ مِن عَجْماواتِ الدَّوابِّ؛ لأنَّ فيها منافِعَ للنَّاسِ، وهؤلاء لا خَيرَ فيهم، ولا نَفْعَ لِغَيرِهم منهم، فإنَّهم لشِدَّةِ تعصُّبِهم لجِنْسِهم قد صاروا أعداءً لِسائِرِ البَشَرِ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فائدةُ قَولِه: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعد ذِكرِ ما قَبلَه: أنْ يُبيِّنَ أنَّ شَرَّ الدوابِّ هم الذين كَفَروا، واستمَرُّوا على كُفرِهم إلى وقتِ مَوتِهم[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٢٢).

مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ دلَّ تقييدُ هذه العُقوبةِ ﴿فِي الْحَرْبِ﴾ على أنَّ الكافِرَ- ولو كان كثيرَ الخيانةِ سَريعَ الغَدرِ- أنَّه إذا أُعطِيَ عَهدًا لا يجوزُ خيانَتُه وعُقوبتُه[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ إنَّما قال: ﴿يَنقُضُونَ﴾ بفِعلِ الاستقبالِ، مع أنَّهم كانوا قد نَقَضوه قبلَ نُزولِ الآية؛ لإفادةِ استمرارِهم على ذلك، وأنَّه لم يكُنْ هَفوةً رَجَعوا عنها، ونَدِموا عليها، بل أنَّهم ينقُضونَه في كلِّ مَرَّةٍ، وإن تكَرَّر[٢].

٥- الذين جَمَعوا هذه الخِصالَ الثَّلاثَ: الكُفرَ، وعدمَ الإيمانِ، والخيانةَ؛ هم شَرُّ الدوابِّ عند اللهِ، فهم شَرٌّ مِن الحَميرِ والكلابِ وغَيرِها؛ لأنَّ الخيرَ مَعدومٌ منهم، والشَّرَّ مُتوقَّعٌ فيهم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ ولا تُخالِفُ هذه الشدَّةُ كَونَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُرسِلَ رحمةً للعَالَمينَ؛ لأنَّ المرادَ أنَّه رَحمةٌ لِعُمومِ العالَمينَ، وإن كان ذلك لا يخلو مِن شِدَّةٍ على قليلٍ منهم، كقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾[٤] [البقرة: ١٧٩].

٧- مِن فَوائِدِ العُقوباتِ والحدودِ المرتَّبةِ على المعاصي، أنَّها سبَبٌ لازدجارِ مَن لم يعمَلِ المعاصيَ، بل وسببُ زجرٍ لِمَن عَمِلَها ألَّا يُعاوِدَها؛ قال الله تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٠).

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[١].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ رتَّبَ نبْذَ العَهدِ على خوفِ الخيانةِ دونَ وُقوعِها؛ لأنَّ شُؤونَ المُعامَلاتِ السياسيَّةِ والحربيَّةِ تجري على حسَبِ الظُّنونِ ومخائِلِ الأحوالِ، ولا يُنتظَرُ تحقُّقُ وُقوعِ الأمرِ المَظنونِ؛ لأنَّه إذا تريَّثَ وُلاةُ الأمورِ في ذلك يكونونَ قد عرَّضُوا الأمَّةَ للخَطرِ، أو للتَّورُّطِ في غَفلةٍ وضياعِ مصلحةٍ، ولا تُدارُ سِياسةُ الأمَّةِ بما يُدارُ به القَضاءُ في الحُقوقِ؛ لأنَّ الحُقوقَ إذا فاتَتْ كانت بَلِيَّتُها على واحدٍ، وأمكَنَ تدارُكُ فائِتِها، ومصالِحُ الأمَّةِ إذا فاتت تمكَّنَ منها عَدُوُّها؛ فلذلك علَّقَ نبْذَ العَهدِ بتوقُّعِ خِيانةِ المُعاهَدينَ مِن الأعداءِ[٢].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ ﴾ فيه إباحةُ نَبذِ العَهدِ لِمَن تُوُقِّعَ منهم غائلةُ مَكرٍ، وأنْ يُعلِمَهم بذلك؛ لئلَّا يُشَنِّعوا بنَصبِ الحَربِ مع العَهدِ[٣].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ يَدلُّ على أنَّه إذا وُجِدَت الخيانةُ المُحقَّقةُ منهم، لم يُحتَجْ أن يُنبَذَ إليهم عَهدُهم؛ لأنَّه لم يُخَفْ منهم، بل عُلِمَ ذلك، ولِعَدمِ الفائدةِ، ولِقَولِه: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ وهنا قد كان معلومًا عند الجميعِ غَدرُهم[٤].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ دلَّ مفهومُه أيضًا على أنَّه إذا لم يُخَفْ منهم خيانةٌ- بأن لم يُوجَدْ منهم ما يدُلُّ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٢).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

على ذلك- أنَّه لا يجوزُ نَبذُ العهدِ إليهم، بل يجِبُ الوفاءُ إلى أن تتِمَّ مُدَّتُه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقَل به مِن الكلامِ على عُمومِ المشركينَ إلى ذِكرِ كُفَّارٍ آخَرينَ، هم الذين بيَّنهم بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ﴾[٢].

- قولُه: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فيه تَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿فَهُمۡ﴾ على الخَبرِ الفِعلي المنفيِّ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ مع عَدمِ إيلاءِ المسنَدِ إليه حرْفَ النَّفي؛ لقَصْدِ إفادةِ تقويةِ نفْيِ الإيمان عنهم، أي: الذين يَنْتفي الإيمانُ عنهُم في المستقبلِ انتفاءً قويًّا؛ فهم بُعدَاءُ عنه أشدَّ الابتعادِ[٣].

٢- **قولُه تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ﴾ فيه التعبيرُ بصِيغةِ الاستِقبالِ (المضارِع) ﴿يَنقُضُونَ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّ مِن شأنهم نَقضَ العهدِ مَرَّةً بعدَ مرَّة، وفيه دَلالةٌ على تجدُّد النَّقضِ وتعدُّدِه، وكونِهم على نِيَّته في كلِّ حالٍ، أي: يَنْقُضون عَهْدَهم الذي أخَذْته منهم؛ فهو تعريضٌ بالتأييسِ من وَفائِهم بعَهْدِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٨).

٣- قولُه تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ ﴾ فيه مَجيءُ الشَّرطِ بحرْفِ (إنْ) وبعدها (ما)؛ لإفادةِ تأكيدِ وقوعِ الشَّرطِ؛ وبذلك تَنْسلِخُ (إنْ) عن الإشعارِ بعدَمِ الجَزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، وزِيدَ التأكيدُ باجتلابِ نُونِ التوكيدِ في ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

- في هذه الآيةِ ما يُعرَفُ بالإشارةِ[2]، وبعضُهم يُدرِجُه في بابِ الإيجازِ؛ لأنَّه مُتفرِّعٌ عنه، فقولُه تعالى: ﴿فَٱنبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ يشيرُ إلى الأمرِ بالمقاتلةِ بنَبذِ العَهدِ، كما نبَذُوا عَهْدَك، مع ما يدُلُّ عليه الأمرُ بالمساواةِ في الفِعلِ مِنَ العَدلِ، فإذا أضفْتَ إلى ذلك ما تشيرُ إليه كَلِمةُ ﴿خِيَانَةً﴾ مِن وُجودِ مُعاهدةٍ سابِقةٍ؛ تَبيَّنَ لك ما انطَوَت عليه هذه الإشاراتُ الخفيَّةُ من دَلالاتٍ كأنَّها أخذةُ السِّحرِ[3].

- قولُه: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ ﴾ فيه مَجيءُ ﴿قَوْمٍ﴾ نَكِرةً في سِياق الشَّرطِ؛ لإفادةِ العُمومِ، أي: كلُّ قومٍ تَخافُ مِنهم خيانةً[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٩).

(٢) هو أن يكونَ اللَّفظُ القَليلُ دالًّا على المعنى الكثيرِ، حتى تكونَ دَلالةُ اللَّفظِ على المعنى كالإشارةِ باليَدِ، فإنَّها تُشيرُ بحركةٍ واحدةٍ إلى أشياءَ كثيرةٍ، لو عُبِّرَ عنها بأسمائِها احتاجَت إلى عبارةٍ طويلةٍ وألفاظٍ كثيرةٍ. والفَرقُ بينه وبين الإيجازِ: أنَّ الإيجازَ بألفاظِ المعنى الموضوعةِ له، وألفاظُ الإشارةِ لَمحةٌ دالَّةٌ؛ فدَلالةُ اللَّفظِ على الإيجازِ دَلالةُ مُطابَقةٍ، ودَلالةُ اللَّفظِ في الإشارةِ إمَّا دَلالةُ تَضمينٍ، أو دَلالةُ التزامٍ. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٤/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيان)) لمحيي الدين درويش (٤/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥١).

- قولُه: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ وصْفُ النَّبذِ أو النابذ بأنَّه على سواءٍ تمثيلٌ بحالِ الماشي على طَريقٍ جادَّةٍ، لا التواءَ فيها؛ فلا مُخاتَلةَ لصاحِبها[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ يَحتمِلُ أنْ تكونَ هذه الجملةُ تعليلًا معنويًّا للأمْرِ بنَبْذِ العَهدِ على عَدلٍ- وهو إعلامُهم-؛ فهي تعليلٌ للأمرِ بالنَّبذِ، والنَّهيِ عن مُناجزةِ القِتالِ المدلولِ عليه بالحالِ على طريقةِ الاستئنافِ. ويَحتملُ أنْ تكونَ مستأنفةً سِيْقَتْ لِذَمِّ مَنْ خان رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونَقَضَ عَهْدَه[٢]؛ فعلى وجْهِ التعليلِ تكونُ الجملةُ تَذييلًا لِمَا اقتضتْه جملةُ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ...﴾ تصريحًا واستلزامًا، والمعنى: أنَّ اللهَ لا يُحبُّهم؛ لأنَّهم مُتَّصِفون بالخيانةِ؛ فلا تَستمِرَّ على عَهدِهم، فتكونَ معاهدًا لِمَن لا يُحِبُّهم اللهُ، ومَوقِعُ (إنَّ) فيه مَوقِعُ التَّعليلِ للأمرِ بردِّ عهدِهم، ونَبْذِه إليهم؛ فهي مُغنِيةٌ غَناءَ فاءِ التَّفريعِ، وهذا من نُكَتِ الإعجازِ[٣].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ﴾ تعليلٌ للنَّهيِ على طريقةِ الاستئنافِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٢٢).

وقال أبو السُّعود: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ تعليلٌ للأمْرِ بالنبذِ؛ إمَّا باعتبار استلزامِه للنهي عن المناجزة، التي هي خيانةٌ؛ فيكونُ تحذيرًا لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منها، وإمَّا باعتبار استتباعِه للقتال بالآخِرة؛ فيكونُ حثًّا له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على النبذ أولًا، وعلى قِتالهم ثانيًا، كأنه قيل: وإمَّا تعلَمنَّ من قومٍ خيانةً فانبذْ إليهم، ثم قاتِلْهم؛ إنَّ الله لا يُحِبُّ الخائنين، وهم مِن جُملتِهم؛ لِمَا علمتَ مِن حالِهم). ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣١). أو على حذفِ لامِ العلةِ في قراءةِ ابنِ عامرٍ، بفتحِ الهمزةِ في ﴿أَنَّهُمۡ﴾. ويُنظر: ((إتحاف فضلاء البشر)) للبنَّاء (ص: ٢٩٩).

الآيات (٦٠-٦٢)

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾: أي: ربطُها وحَبْسُها، واقتِناؤُها للجهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى[1]، وقيل: الرباط هي الخَيل التي تُربَطُ في سَبيلِ اللهِ، وقيل: الرباطُ جمعُ ربيطٍ، وفرسٌ ربيطٌ: أي: مربوطٌ في سبيلِ الله، وأصلُ المرابطةِ والرِّباطِ: أن يربطَ هؤلاء خيولَهم، ويربطَ هؤلاء خيولَهم في الثَّغرِ، كلٌّ يُعِدُّ لصاحبِه، وأصلُ (ربط): يدلُّ على شَدٍّ وثَباتٍ، والخيلُ معروفٌ، وقيل: هي في الأصلِ اسمٌ للأفراسِ والفرسانِ جميعًا[2].

﴿جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ﴾: أي: مالُوا إلى الصُّلحِ؛ مِن قولهم: جَنَحتِ السَّفينةُ، أي:

---

(١) قال الواحديُّ: (وأكثرُ المفسرين على أنَّ المرادَ برباطِ الخيلِ هاهنا: ربطُها واقتناؤُها للغزوِ). ((البسيط)) (١٠/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٢)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٧/ ٣٠٢)، ((العذب النمير) للشنقيطي (٥/ ١٥٧).

مالَت إلى أحَدِ جانِبَيها، وأصلُ (جنح): يدلُّ على مَيلٍ، والسَّلمُ: الصلحُ[١]، وتركُ الحربِ[٢].

﴿حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾: أي: كافيكَ، وأصْلُ (حسب): كفايةٌ[٣].

﴿وَأَلَّفَ﴾: أي: جمَع، وأوْقَع الإلفَ بينَ القلوبِ، وأصلُ (ألف): اجتماعٌ معَ التئامٍ، ويدلُّ كذلك على انضمامِ الشيءِ إلى الشيءِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ عِبادَه أن يُعِدُّوا لأعدائِهم الكفَّارِ ما استطاعوا مِن قُوَّةٍ رادعة، ومِن الخَيلِ المربوطةِ المُعَدَّةِ للقتالِ عليها في سبيلِ الله تعالى؛ يُخيفونَ بها عدوَّ الله وأعداءَهم، وآخرينَ لا يَعلَمونَهم، لكنَّ اللهَ يَعلَمُهم، وبيَّن لهم أنَّ ما يُنفِقونَه مِن شَيءٍ في سبيلِه تعالى، فإنَّه يُعطِيهم ثوابَه يومَ القِيامةِ وافيًا غيرَ مَنقوصٍ.

ثم أمرَ اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَميلَ للمُصالحةِ، إنْ مال الكُفَّارُ المُحارِبونَ لها، وأنْ يُفَوِّضَ أمْرَه إلى اللهِ؛ إنَّه هو السَّميعُ العليمُ، وأعلَمَه أنَّهم إن يُريدُوا خِداعَه بِطَلَبِهم الصُّلحَ؛ فإنَّ اللهَ- وَحدَه- كافِيه وناصِرُه عليهم، هو سُبحانه الذي أيَّدَه بنَصرِه وبأصحابِه الذين آمَنوا، وجمَعَ بين قلوبِهم، لو أنفقَ

---

(١) وقيل: أصلُ (سلم) مِن الانقيادِ، وسُمِّي الصلحُ سلمًا؛ لأنَّ عندَ الصلحِ ينقادُ كلُّ واحدٍ لصاحبِه، ولا ينازعُه فيه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٩).

رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما في الأرضِ جميعًا؛ لِيَجمَعَ بين قُلوبِهم- ما استطاعَ، ولكنَّ اللهَ فعل ذلك؛ إنَّه عزيزٌ حَكيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أوجَبَ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُشَرِّدَ مَن صَدَرَ منه نقضُ العَهدِ، وأن يَنبِذَ العَهدَ إلى مَن خاف منه النَقضَ- أمَرَه في هذه الآيةِ بالإعدادِ لهؤلاءِ الكُفَّارِ[1].

وأيضًا لَمَّا اتَّفقَ في قصَّةِ بَدرٍ أنْ قَصَدوا الكُفَّارَ بلا تكميلِ آلةٍ ولا عُدَّةٍ، وأمَرَه تعالى بالتَّشريدِ وبِنَبذِ العَهدِ للنَّاقضينَ، كان ذلك سبيلًا للأخذِ في قتالِه، والتَّمالُؤ عليه- فأمَرَه تعالى والمؤمنينَ بإعدادِ ما قَدَروا عليه من القُوَّةِ للجهادِ[2].

وأيضًا لَمَّا كان ربَّما أدَّى الاعتمادُ على الوَعدِ الصَّادِقِ المُؤَيَّدِ بما وقع لهم في بَدرٍ مِن عظيمِ النَّصرِ، مع نَقصِ دَعوى العِدَّة والعُدَّة، إلى تركِ المُناصبة والمُحارَبة والمُغالبةِ- أتبَعَه ما يُبَيِّنُ أنَّ اللَّازِمَ ربطُ الأسبابِ بِمُسَبِّباتِها، ولِيَتبيَّنَ الصَّادِقُ في دعوى الإيمانِ مِن غَيرِه[3].

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن حيان)) (٥/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣١٤-٣١٥).

أي: وأعِدُّوا- أيُّها المُسلِمونَ- لأعدائِكم الكُفَّارِ- الذين يَسعَونَ في هلاكِكم- كُلَّ ما أمكَنَكم أنْ تُعِدُّوه لِقتالِهم، مِن جميعِ أنواعِ الأسلحةِ، والرأيِ والتَّدبيرِ[١].

عن عُقبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو على المنبرِ، يقول: ((﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، ألَا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ، ألَا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ، ألَا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ))[٢].

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

أي: وأعِدُّوا للكُفَّارِ ما تَستطيعونَ إعدادَه مِن الخَيلِ المربوطةِ، المُعَدَّةِ للقتالِ عليها في سبيلِ الله تعالى[٣].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الخَيلُ لثلاثةٍ: لِرَجلٍ أجرٌ، ولرَجُلٍ سِترٌ، وعلى رَجُلٍ وِزرٌ؛ فأمَّا الذي له أجرٌ: فرجُلٌ رَبَطها في سبيلِ اللهِ، فأطال في مَرْجٍ[٤] أو رَوضةٍ، فما أصابَت في طِيَلِها[٥] ذلك من المَرجِ أو الرَّوضةِ، كانت له حَسَناتٍ، ولو أنَّها قَطَعَت طِيَلَها فاستنَّتْ شَرَفًا أو شَرَفينِ[٦]، كانت أرواثُها وآثارُها حسناتٍ له، ولو أنَّها مَرَّت بنهرٍ فَشَرِبتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٤٤، ٢٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

(٢) رواه مسلم (١٩١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢١٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٧، ١٥٨).

(٤) المَرْجُ: مَوضِعُ الكَلأِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٧٤).

(٥) طِيَلِها: هو الحَبلُ الذي تُربَطُ به، ويُطَوَّلُ لها لِتَرعى، ويقالُ له (طِوَلٌ) أيضًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٦٤).

(٦) فاستنَّتْ شَرَفًا أو شَرَفينِ: عَدَتْ بمَرَحٍ ونَشاطٍ، شوطًا أو شَوطينِ، فبَعُدت عن الموضِعِ الذي ربَطَها صاحِبُها فيه ترعى، ورَعَت في غَيرِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤١٠)، ((شرح

منه، ولم يُرِدْ أن يَسقِيَها، كان ذلك حسناتٍ له، ورجلٌ رَبَطَها فخرًا ورِئاءً، ونِواءً[١] لأهلِ الإسلامِ؛ فهي وِزرٌ على ذلك))[٢].

وعن عُروةَ البارقيِّ رَضيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((الخَيلُ مَعقودٌ في نَواصيها الخَيرُ إلى يومِ القِيامةِ: الأجرُ والمَغنَمُ))[٣].

﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾.

أي: تُخيفونَ باستعدادِكم للجهادِ الذين تَعلمونَهم مِن أعداءِ اللهِ تعالى، وأعدائِكم مِن الكُفَّار[٤].

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾.

أي: وتُخيفونَ باستعدادِكم للجِهادِ أعداءً لكم آخرينَ، لا تَعلمونَهم، لكِنَّ اللهَ يَعلَمُهم[٥].

البخاري)) للقسطلاني (٥/ ٧٤).

(١) نِواء: مُعاداةً. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٧٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٦٥).

(٢) رواه البخاري (٢٨٦٠) واللفظ له، ومسلم (٩٨٧).

(٣) رواه البخاري (٢٨٥٢)، ومسلم (١٨٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٩، ٥٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٢، ٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٨).

قيل: المرادُ بهم: المُنافقون. وهذا اختيارُ الرازي، وابنِ جُزي، وأبي حيانَ، وابنِ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٢، ٨٣).

قال ابنُ كثير: (ويَشهدُ له قولُه: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡ﴾ [التوبة: ١٠١]).

وقيل: المرادُ بـ ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ﴾: الجِنُّ، وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٤٩-٢٥٠).

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أمرَ اللهُ تعالى بإعدادِ القوَّةِ المُستطاعةِ كائنةً ما كانت، وكان إعدادُها يحتاجُ إلى مادَّةٍ- رغَّبَ سبحانَه المؤمنينَ في الإنفاقِ في سبيلِه؛ لِيُنفِقوا، ويُعينوا على إعدادِ القُوَّةِ، فقال تعالى[1]:

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾.

أي: وما تُعطُوه- أيُّها المؤمنونَ- مِن نفقاتٍ قليلةً كانت أو كثيرةً، في جهادِ أعداءِ الله، يُعطِكم اللهُ ثوابَه يومَ القيامةِ، وافيًا غيرَ مَنقوصٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗىٙ لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١، ٢٦٢].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وقيل غيرُ ذلك. واختار القرطبيُّ التوقُّفَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى صرَّحَ بأنَّ المؤمنينَ لا يعلمونَهم، وإنَّما الذي يعلَمُهم هو الله تعالى وَحدَه، ولم يَرِدْ في بيانِ ذلك حديثٌ يصِحُّ عن النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٩).
وقال ابنُ عاشور: (وتدُلُّ التَّوفِيَةُ على أنَّه يشملُ الأجرَ في الدُّنيا مع أجرِ الآخِرَةِ، ونُقِل ذلك عن ابنِ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٨).

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ ما يُرهَبُ به العَدوُّ مِن القوَّةِ؛ بيَّنَ بعدَه أنَّهم عند هذا الإرهابِ إذا مالوا إلى المُصالحةِ، فالحُكمُ قَبولُ المُصالحةِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان ضَمانُ النَّصرِ والخَلَفِ في النَّفقةِ مُوجِبًا لِدَوامِ المُصادمةِ، والبُعدِ مِن المُسالَمةِ؛ أتبَعَه الأمرَ بالاقتصادِ في ذلك[2].

وأيضًا لَمَّا كان السَّلمُ هو المقصودَ الأوَّلَ- كما أفاد مفهومُ الآيةِ السَّابقةِ- أكَّدَه بمنطوقِ الآيةِ اللَّاحقةِ، فقال جلَّتْ حِكمَتُه، وسبَقَت رَحمَتُه[3]:

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾.

أي: وإنْ مال الكفَّارُ المُحارِبونَ إلى المُصالحةِ والمُسالَمةِ فأجِبْهم- يا مُحمَّدُ- إليها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦١).

قال ابنُ كثير: (وقولُ ابنِ عبَّاسٍ، ومجاهدٍ، وزيدِ بنِ أسلمَ، وعطاءٍ الخراسانيِّ، وعكرمةَ، والحسنِ، وقتادةَ: إنَّ هذه الآيةَ منسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ في براءة: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ...﴾ الآيةَ [التوبة: ٢٩] - فيه نظرٌ؛ لأنَّ آيةَ براءة فيها الأمرُ بقِتالِهم إذا أمكَنَ ذلك، فأمَّا إذا كان العدوُّ كثيفًا، فإنَّه تجوزُ مُهادَنتُهم، كما دلَّت عليه هذه الآيةُ الكريمةُ، وكما فعل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ الحُدَيبية، فلا منافاةَ، ولا نَسخَ، ولا تخصيصَ. واللهُ أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤). وهذا الذي ذهب إليه ابنُ كثيرٍ- أنَّ هذه الآيةَ غيرُ منسوخةٍ- هو اختيارُ ابنِ جريرٍ والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٣).

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: صالِحْهم، وفَوِّضْ أَمرَك إلى اللهِ، ولا تخَفْ ممَّا قد يدبِّرونَه مِن مَكرٍ وغَدرٍ في مُدَّةِ المُصالحةِ[١].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّ الله الذي تتوكَّلُ عليه، هو السَّميعُ لأقوالِك، وأقوالِ أعدائِك، العليمُ بما في قُلوبِكم، لا يَخفَى عليه شيءٌ، فإن كان الأعداءُ يُضمِرونَ المَكرَ والغَدرَ بك- يا مُحمَّدُ- أثناء مدَّةِ المُصالحةِ؛ فهو سبُحانه لن يَفوتَه شيءٌ ممَّا يَنوُونَ ويقولونَ ويُدَبِّرون؛ لأنَّه مُطَّلِعٌ عليهم، وسيَكفيكَهم[٢].

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى في الآيةِ المتقدمةِ بالصُّلحِ، وكان طلَبُ السَّلمِ والهُدنةِ من العَدُوِّ، قد يكونُ خديعةً حربيَّةً؛ لِيَغُرُّوا المُسلمينَ بالمُصالحة، ثم يأخذوهم على غِرَّةٍ؛ ذكَر في هذه الآيةِ حكمَ الصُّلح، إن صالحوا على سبيلِ المخادعةِ، وأنَّه يجبُ قبولُ ذلك الصلحِ، وأن يأخُذَ الأعداءَ على ظاهرِ حالِهم، ويحمِلَهم على الصِّدقِ؛ لأنَّه الخُلقُ الإسلاميُّ، وشأنُ أهلِ المُروءةِ، ولا تكونُ الخَديعةُ بمِثلِ نَكْثِ العهدِ، فإذا بَعثَ العَدُوَّ كُفْرُهم على ارتكابِ مثلِ هذا التسَفُّلِ؛ فإنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٢).

اللهَ تكفَّلَ للوفيِّ بِعَهدِه، أن يَقِيَه شَرَّ خيانةِ الخائِنينَ[١].

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾.

أي: وإنْ يُرِدِ الكُفَّارُ خِداعَك بطَلَبِ الصُّلحِ- يا مُحمَّدُ- بأن يُظهِروا المُسالَمةَ، ويُبطِنوا الخِيانةَ والغَدرَ؛ ليتمَكَّنوا في مدَّةِ المُصالحةِ مِن تَدبيرِ المكائِدِ؛ لِيَضُرُّوك بها؛ فإنَّ اللهَ وَحدَه كافيك، وناصِرُك عليهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقال سبحانه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [الزمر: ٣٦].

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي قوَّاك بنَصرِه إيَّاك على الكفَّارِ، وقوَّاك بأصحابِك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٣، ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٤، ١٦٥).

وقصَرَ بعضُ المفَسِّرينَ المرادَ بالمؤمنينَ المذكورينَ على الأنصارِ، وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٥)، ((الوسيط)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨).

وممَّن ذهَب إلى أنَّهم المهاجرونَ والأنصارُ: ابنُ تيميةَ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤).

قال ابنُ عطيةَ: (تظاهَرَت أقوالُ المُفَسِّرينَ أنَّها في الأَوْسِ والخَزْرجِ... ولو ذُهِبَ إلى عمومِ المُؤمِنينَ في المُهاجِرينَ والأنصارِ، وجُعِلَ التَّأليفُ ما كان مِن جَميعِهم من التَّحابِّ، حتى تكونَ أُلفةُ الأوسِ والخزرجِ جزءًا مِن ذلك- لساغ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨).

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو الذي جمعَ بين قُلوبِ أصحابِك المؤمنينَ على الحَقِّ، إيمانًا به ومناصرةً له، فأصبَحوا بنِعمَتِه إخوانًا مُتحابِّينَ مُؤتَلِفينَ، بعد أن كانوا أعداءً مُتنافرينَ مُتفرِّقينَ(١).

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: لو بَذَلْتَ- يا مُحمَّدُ- جميعَ ما في الأرضِ؛ مِن ذهبٍ وفِضَّةٍ وأموالٍ وغَيرِ ذلك؛ لِتَجمَعَ بينَ قلوبِ أصحابِك- لَما استطَعْتَ أبدًا أن تجمَعَ بينها؛ لِشدَّةِ العَداواتِ التي كانت مُستحكِمةً بينهم، ولكِنَّ اللهَ بقُدرَتِه الباهرةِ- وَحْدَه- جمَعَ بينهم على الهُدى(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٥، ١٦٦).
قال القرطبي: (﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمَعَ بين قُلوبِ الأوسِ والخَزرجِ... وقيل: أراد التَّأليفَ بين المهاجرينَ والأنصارِ. والمعنى مُتقارِبٌ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤٢).
وقال الشَّوكاني: (ظاهِرُه العمومُ، وأنَّ ائتلافَ قُلوبِ المؤمنينَ هو من أسبابِ النَّصرِ التي أيَّدَ اللهُ بها رَسولَه. وقال جمهورُ المُفَسِّرين: المراد: الأوسُ والخَزرج؛ فقد كان بينهم عصبيَّةٌ شديدةٌ، وحروبٌ عظيمةٌ، فألَّفَ اللهُ بين قلوبِهم بالإيمانِ بِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقيل: أراد التَّأليف بين المُهاجرين والأنصار. والحَملُ على العمومِ أَوْلى؛ فقد كانت العرَبُ قبل البَعثةِ المُحمديَّةِ يأكُلُ بعضُهم بعضًا، ولا يَحترِمُ مالَه ولا دَمَه، حتى جاء الإسلامُ، فصاروا يدًا واحدةً، وذهب ما كان بينهم من العصبيَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن

كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا فتح حُنينًا قسَمَ الغَنائِمَ، فأعطى المؤلَّفةَ قُلوبُهم، فبلَغَه أنَّ الأنصارَ يُحبُّونَ أن يُصيبوا ما أصاب النَّاسُ، فقام رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فخطَبَهم، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثمَّ قال: يا مَعشَرَ الأنصارِ، ألم أجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي؟ وعالةً فأغناكم الله بي؟ ومُتَفرِّقينَ فجَمَعَكم الله بي؟ ويقولون: اللهُ ورسولُه أمَنُّ، فقال: ألا تجيبوني؟! فقالوا: اللهُ ورَسولُه أمَنُّ، فقال: أمَا إنَّكم لو شِئتُم أن تقولوا كذا وكذا، وكان من الأمر كذا وكذا- لأشياءَ عَدَّدَها-، فقال: ألَا تَرضَونَ أن يذهَبَ النَّاسُ بالشَّاءِ والإبِلِ، وتذهبونَ برَسولِ اللهِ إلى رحالِكم؟! الأنصارُ شِعارٌ[(١)] والنَّاسُ دثارٌ[(٢)] ولولا الهجرةُ لكُنتُ امرأً مِن الأنصارِ، ولو سلَكَ النَّاسُ واديًا وشِعبًا، لسلكْتُ واديَ الأنصارِ وشِعبَهم، إنَّكم ستَلْقونَ بعدي أثَرةً[(٣)]، فاصبِرُوا حتى تلقَوني على الحَوضِ))[(٤)].

﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ الذي ألَّف بقُدرتِه بين قلوبِ المُؤمنينَ، عزيزٌ لا يقهَرُه ولا يَغلِبُه

كثير)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٦).

(١) الشِّعَارُ: هو الثَّوبُ الذي يلي شَعْرَ البَدَنِ. والمعنى أنَّ الأنصارَ أقرَبُ النَّاسِ إليه- صلى الله عليه وسلم- مَرتبةً وأولاهم منه مَنزِلةً. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٤٠٠٩).

(٢) الدِّثارُ: هو الثَّوبُ الذي فَوقَ الشِّعارِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٤٠٠٩).

(٣) أثَرَةً: أي: استِئثارًا؛ يستأثِرُ عليكم أُمَراؤُكم بأمورِ الدُّنيا مِنَ المَغانِمِ والفَيءِ ونَحوِهما. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٤٠٠٩).

(٤) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)، واللفظ له.

شيءٌ، ولا يَرُدُّ قَضاءَه أحدٌ، ومن ذلك قَهرُه للكُفَّارِ الجانحينَ للسَّلمِ، الذين يُريدونَ بذلك الخِداعَ، حكيمٌ في أفعالِه وشَرعِه وتدبيرِ خَلقِه، فيضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها اللَّائقةِ بها، ومن ذلك تأليفُه قلوبَ المؤمنينَ؛ لِيَجتمِعوا على نُصرةِ الحقِّ[١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أمَرَ اللهُ سبحانه وتعالى بإعدادِ القُوَّةِ للأعداءِ، مع أنَّ الله تعالى لو شاءَ لَهَزَمهم، ولكنَّه أراد أنْ يُبلِيَ بعضَ النَّاسِ بِبَعضٍ، بِعِلمِه السَّابِقِ وقَضائِه النَّافِذِ؛ فأمَرَ بإعدادِ القُوى والآلةِ في فُنونِ الحَربِ، التي تكونُ لنا عُدَّةً، وعليهم قُوَّةً، ووعَدَ على الصَّبرِ والتَّقوى بأمدادِ الملائكةِ العُليا[٢].

٢- إذا طلبت الصُّلح والإِصلاحَ بينَ قومٍ لا تتوسَّل إلى ذلك إلَّا بالتَّوكُّل، قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ نبَّه اللهُ تعالى بِقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ على الزَّجرِ عن نَقضِ العَهدِ؛ لأنَّه عالِمٌ بما يُضمِرُ العبدُ، سميعٌ لِما يقولُه[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فيه أنَّ النَّصرَ يُنالُ بالأسبابِ، وأنَّ ذلك يتوقَّفُ على التآلُفِ والاتِّحادِ، وكلُّ ذلك بفَضلِ مُقَدِّرِ الأسبابِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٥٥٨).

ورَحمتِه بالعبادِ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ هذا بيانٌ عمَّا ينبغي أن يكونَ عليه المُحِقُّ مِن الثِّقةِ باللهِ- إذا خاف مَكرَ المُبطِل به- في أن يَكفِيَه شَرَّ كَيدِه؛ لئلَّا يضطرِبَ أمرُه في تدبيرِه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ يدلُّ على أنَّ الاستعدادَ للجهادِ- بالنَّبْلِ والسِّلاحِ، وتعليمِ الفُروسيَّةِ والرَّميِ، وكلِّ ما يحصلُ به تخويفُ العدوِّ وردعُه مِن مستحدثاتِ الأسلحةِ بأنواعِها الجويةِ والبريةِ والبحريةِ وغيرِها- فريضةٌ، إلَّا أنَّه مِن فُروضِ الكِفاياتِ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ دخلَ فيه كُلُّ ما يدخُلُ تحت قُدرةِ النَّاسِ اتِّخاذُه مِن العُدَّةِ، فاتِّخاذُ السُّيوفِ والرِّماحِ والأقواسِ والنِّبالِ، مِن القُوَّةِ في جُيوشِ العُصورِ الماضيةِ، واتِّخاذُ الدَّبَّاباتِ والمدافِعِ والطَّيَّاراتِ والصَّواريخِ، مِن القُوَّةِ في جُيوشِ عَصْرِنا[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ يدلُّ على جَوازِ وَقفِ الخَيلِ والسِّلاحِ، واتِّخاذِ الخَزائِنِ والخُزَّانِ لها؛

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٦١).
(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٥).

عُدَّةً للأعداءِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ أصلٌ في المُناضَلةِ[٢]، والمُسابقةِ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ التَّقييدُ لإعدادِ المُستَطاعِ مِن القُوَّةِ، ومِن رباطِ الخَيلِ، بقَصدِ إرهابِ الأعداءِ المُجاهرينَ، والأعداءِ المُستَخْفينَ وغيرِ المَعروفينَ؛ دليلٌ على تفضيلِ جَعلِه سببًا لِمَنعِ الحَربِ، على جَعلِه سببًا لإيقادِ نارِها، فهو يقولُ: استَعِدُّوا لها لِيَرهَبَكم الأعداءُ؛ عسى أن يمتَنِعوا عن الإقدامِ على قتالِكم، وهذا عينُ ما يُسمَّى في عُرفِ دُوَلِ هذه الأيَّامِ بـ (السَّلام المُسَلَّح)، بناءً على أنَّ الضَّعفَ يُغرِي الأقوياءَ بالتَّعدِّي على الضُّعَفاءِ[٤].

٦- قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ التحَرُّزَ، وأعمالَ الواسِطاتِ غيرُ مُؤثِّرةٍ في توكُّلِ المُؤمِنينَ، ألَا ترى أنَّه جلَّ جَلالُه قد قال في هذه السُّورةِ بِعَينِها: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، ثم أمَرَ بإعدادِ القُوَّةِ؛ لإرهابِ العَدُوِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٥٥٤).

(٢) المُناضَلةُ: الرَّميُ. يُقال: ناضَلَه مُناضَلةً ونِضالًا ونِيضالًا: باراهُ في الرَّميِ. وتناضَلَ القَومُ: تَرامَوْا للسَّبْقِ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٦٦٥)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦١٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسر المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٣).

٧- قال الله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الكُفَّارُ إذا عَلِموا كَونَ المُسلمينَ مُتأهِّبينَ للجِهادِ، ومُستعِدِّينَ له مُستكمِلينَ لِجَميعِ الأسلحةِ والآلاتِ؛ خافُوهم، وذلك الخَوفُ يُفيدُ أمورًا كثيرةً:

أوَّلُها: أنَّهم لا يَقصِدونَ دُخولَ دارِ الإسلامِ.

ثانيها: أنَّه إذا اشتَدَّ خَوفُهم فربَّما التَزَموا مِن عند أنفُسِهم جزيةً.

ثالثها: أنَّه ربما صار ذلك داعيًا لهم إلى الإيمانِ.

رابعُها: أنَّهم لا يُعينونَ سائِرَ الكُفَّارِ[1].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بَعدَ قَولِه سُبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ إرشادٌ إلى إنفاقِ المالِ في سَبيلِ اللهِ لإعدادِ ما ذُكِرَ؛ إذ لا يتِمُّ بدونِ المالِ شَيءٌ منه[2].

٩- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ على تَفضيلِ السَّلْمِ على الحَربِ- إذا جنَحَ العَدُوُّ لها- إيثارًا لها على الحَربِ التي لا تُقصَدُ لِذاتِها، بل هي ضَرورةٌ مِن ضَروراتِ الاجتماعِ تُقَدَّرُ بِقَدَرِها[3].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أجِبْهم إلى ما طَلَبوا متوكِّلًا على ربِّك؛ فإنَّ في ذلك فوائِدَ كثيرةً:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

منها: أنَّ طلَبَ العافيةِ مَطلوبٌ كُلَّ وَقتٍ، فإذا كانوا هم المُبتدِئينَ في ذلك، كان أَوْلى لإجابَتِهم.

ومنها: أنَّ في ذلك إجمامًا لِقُوى المؤمنينَ، واستعدادًا منهم لقتالِهم في وقتٍ آخَرَ، إن احتِيجَ لذلك.

ومنها: أنَّهم إذا اصطلَحُوا، وأمِنَ بعضُهم بعضًا، وتمكَّنَ كلٌّ مِن معرفةِ ما عليه الآخَرُ؛ فإنَّ الإسلامَ يعلو ولا يُعلَى عليه، فكلُّ مَن له عقلٌ وبصيرةٌ إذا كان معه إنصافٌ، فلا بدَّ أن يُؤثِرَه على غيرِه من الأديانِ؛ لِحُسنِه في أوامِرِه ونواهيه، وحُسنِه في معامَلتِه للخَلقِ والعَدلِ فيهم، وأنَّه لا جَورَ فيه، ولا ظُلمَ بوجهٍ، فحينئذٍ يكثُرُ الرَّاغبونَ فيه، والمُتَّبِعونَ له، فصار هذا السَّلْمُ عونًا للمُسلمينَ على الكافرينَ، ولا يُخافُ مِن السَّلمِ إلَّا خَصلةٌ واحدةٌ، وهي أن يكونَ الكُفَّارُ قَصدُهم بذلك خَدْعُ المُسلمينَ، وانتهازُ الفُرصةِ فيهم، فأخبَرَهم اللهُ أنَّه حَسبُهم وكافيهم خِداعَهم، وأنَّ ذلك يعودُ عليهم ضَرَرُه[1].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بُرهانٌ على أنَّ الإسلامَ دينُ السَّلامِ- لكِنْ عن قُدرةٍ وعِزَّةٍ، لا عن ضَعفٍ وذِلَّةٍ- لأنَّه لَمَّا كان جنوحُ العَدُوِّ للسَّلمِ قد يكون خديعةً لنا لنكُفَّ عن القتالِ- رَيثَما يستعِدُّون هُم له، أو لغيرِ ذلك من ضروبِ الخِداعِ- وكان من المصلحةِ في هذه الحالِ ألَّا نَقبَلَ الصُّلحَ منهم ما لم نستَفِدْ كلَّ ما يُمَكِّنُنا منه تَفوُّقُنا عليهم- لم يَعُدَّ الشَّارعُ احتمالَ ذلك مانعًا من ترجيحِ السَّلمِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٢٦).

١٢- قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إن قيل: لَمَّا قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ فأيُّ حاجةٍ مع نَصرِه إلى المؤمنينَ حتى قال: ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؟! قلنا: التأييدُ ليس إلَّا مِن اللهِ، لكنَّه على قِسمينِ: أحدهما: ما يحصُلُ مِن غَيرِ واسطةِ أسبابٍ مَعلومةٍ مُعتادةٍ. والثاني: ما يحصُلُ بواسطةِ أسبابٍ معلومةٍ مُعتادةٍ. فالأوَّلُ: هو المرادُ مِن قَولِه: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ والثَّاني: هو المرادُ من قَولِه: ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[(١)].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ﴾ يدلُّ على أنَّ أحوالَ القُلوبِ؛ مِن العقائِدِ والإراداتِ والكَراهاتِ، كُلُّها مِن خَلْقِ اللهِ تعالى[(٢)].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ﴾ فيه ثناءٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ على صحابةِ رَسولِه، تُفَنِّدُ مطاعِنَ الرَّافضةِ الضَّالةِ الخاسِرةِ فيهم[(٣)].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ حرفُ الاستعلاءِ في هذا مُعلِمٌ بأنَّه يفعَلُ مع المُتوكِّلِ فِعلَ الحامِلِ لِما وُكِلَ إليه، المُطيقِ لِحَملِه[(٤)].

١٦- قال الله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أعلَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ تأليفَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسر المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣١٦).

قُلوبِ المُؤمنينَ، مِن الآياتِ العِظامِ؛ وذلك أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بُعِثَ إلى قومٍ أَنَفَتُهم شديدةٌ، ونُصرةُ بَعضِهم بعضًا ومعاونَتُه، أبلغُ نُصرةٍ ومُعاونةٍ؛ كان يُلطَمُ مِن القبيلةِ لَطمةً، فيُقاتَلُ عنه حتى يُدرَكَ ثأرُه، فألَّفَ الإيمانُ بين قُلوبِهم، حتى قاتَلَ الرَّجُلُ أباه وأخاه وابنَه، فأعلَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ هذا ما تولَّاه منهم إلَّا هو سُبحانَه[1].

١٧- في قوله تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ حجةٌ على قَبُولِ الإجماعِ، ولزومِه لزومَ نصِّ القرآنِ؛ إذ مُحالٌ أنْ تتفقَ الألْسُنُ على شيءٍ إلَّا وقد ائتلفتْ قلوبُ الناطقين به- لأنَّ الألْسِنَةَ مترجِمةٌ عن الضمائرِ ما حَوَتْها- وقد أخبر اللهُ تعالى أنه مُؤَلِّفُها[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

- عطفُ جملةِ ﴿وَأَعِدُّوا ...﴾ على جملةِ ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أو على جملةِ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ تُفيدُ مَفادَ الاحتراسِ عن مُفادِها، لأنَّ قولَه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ يفيدُ توهينًا لشأنِ المشركينَ، فتعقيبُه بالأمرِ بالاستعدادِ لهم؛ لئلا يحسبَ المسلمونَ أنَّ المشركينَ قد صاروا في مُكنتِهم، ويلزمُ مِن ذلك الاحتراسِ أنَّ الاستعدادَ لهم هو سببُ جعلِ الله إيَّاهم لا يُعجزونَ الله ورسولَه؛ لأنَّ الله هيَّأ أسبابَ

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤٢).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٤).

استئصالِهم ظاهرَها وباطنَها[١].

- وقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾، قولُه: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ يعمُّ كُلَّ مَا يُتقوَّى بِهِ عَلَى حَرْبِ الْعَدُوِّ[٢]، وعَطْفُ ﴿رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ على القُوَّةِ، وهو مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتمامِ بذلك الخَاصِّ[٣]، والتنصيصِ على فضله؛ إذ إنَّ رباطَ الخيلِ هي أصلُ الحُروبِ، والخيرُ معقودٌ بنواصيها، وهي مراكبُ الفرسانِ الشُّجعانِ[٤].

- والرِّباطُ صِيغةُ مُفاعَلة؛ أُتي بها هنا للمُبالغةِ؛ لتدلَّ على قَصْد الكثرة مِن رَبْط الخيل للغزوِ، أي: احتباسِها ورَبْطِها؛ انتظارًا للغزوِ عليها[٥].

- وقولُه: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ مُستأنَفٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن تَخصيصِ الرِّباطِ بالذِّكرِ بعدَ ذِكر ما يَعمُّه -وهو القوَّةُ- أو في مَوضِعِ الحالِ من ضَميرِ ﴿وَأَعِدُّواْ﴾[٦].

- وفيه ذِكْرُ ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ أولًا؛ تَعظيمًا لِمَا هم عليه من الكُفْر، وتقويةً لذَمِّهم، وأنَّه يجِبُ لأجْلِ عَداوتِهم للهِ أنْ يُقاتَلوا ويُبغَضوا، ثم قال: ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ على سَبيلِ التَّحريضِ على قِتالِهم؛ إذ في الطَّبْعِ أن يُعادِيَ الإنسانُ مَن عاداه، وأنْ يُريدَ له الغوائِلَ[٧].

- وفي قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ تَعريضٌ بالتَّهديدِ لهؤلاء الآخَرين- فالخبرُ هنا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٥٦).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٥).

مُستعمَلٌ في معناه الكِنائيِّ، وهو تَعقُّبُهم والإغراءُ بهم- وتَعريضٌ بالامتنانِ على المسلِمينَ بأنَّهم بمَحلِّ عِنايةِ اللهِ؛ فهو يُحصي أعداءَهم، ويُنبِّهُهم إليهم[١].

- قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ أيضًا فيه تقديمُ المسنَدِ إليه ﴿ٱللَّهُ﴾ على الخبرِ الفِعليِّ ﴿يَعۡلَمُهُمۡ﴾- حيثُ لم يَقُل: (يَعْلَمُهُمُ اللَّهُ)-؛ للتقوِّي، أي: لتَحقيقِ الخَبَر وتأكيدِه، والمقصودُ تأكيدُ لازم معناه، أمَّا أصل المعنى فلا يحتاج إلى التأكيد؛ إذ لا يُنكِرُه أحدٌ[٢].

٢- **قَولُه تعالى:** ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

- عبَّرَ عن جُنوحِهم بـ(إِنْ) التي يُعبَّرُ بها عن المَشكوكِ في وُقوعِه، أو ما مِن شأنِه ألَّا يقَعَ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم لَيسُوا أهلًا لاختيارِه لِذَاتِه، وأنَّه لا يُؤمَنُ أن يكونَ جُنوحُهم إليه كيدًا وخِداعًا[٣].

- اللَّامُ في قولِه: ﴿لِلسَّلۡمِ﴾ واقعةٌ موقِعَ (إلى)؛ لتقويةِ التَّنبيهِ على أنَّ مَيْلَهم إلى السَّلمِ مَيلُ حقٍّ، أي: وإنْ مالوا لأجْلِ السَّلمِ، ورغبةً فيه، لا لغرَضٍ آخَرَ غيرِه[٤].

- وإنَّما قال: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ ولم يَقُلْ: (وإنْ طَلَبوا السَّلْم فأَجِبْهم إليه)؛ للتَّنبيهِ على أنَّه لا يُسعِفُهم إلى السَّلمِ حتَّى يَعلمَ أنَّ حالَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسر المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٩).

حالُ الرَّاغبِ؛ لأنَّهم قد يُظهِرون المَيلَ إلى السَّلمِ كيدًا[١].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ صِيغةُ قَصْرٍ، وطَريقُ القَصرِ فيه أفادَ قَصْرَ معنى الكَمالِ في السَّمعِ والعِلمِ، أي: فهو سميعٌ منهم ما لا تَسمعُ، ويَعلمُ ما لا تَعلمُ، وقصرُ هذَينِ الوَصفينِ بهذا المعنى على اللهِ تعالى عَقِبَ الأمرِ بالتوكُّلِ عليه، يُفضي إلى الأمرِ بقَصرِ التوكُّلِ عليه، لا على غيرِه[٢].

٣- **قولُه تعالى:** ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

- قوله: ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ أُريد منه الكِنايةُ عن عَدمِ مُعاملتِهم بهذا الاحتِمالِ، وألَّا يَتوجَّسَ مِن هذا الاحتِمالِ خِيفةً، وأنَّ ذلك لا يَضرُّه، وتَأكيدُ الخبر بـ(إنَّ) مُراعًى فيه تأكيدُ معناه الكِنائيِّ؛ لأنَّ معناه الصَّريحَ ممَّا لا يَشكُّ فيه أحدٌ[٣].

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ مُستأنفٌ مَسوقٌ مساقَ الاستدلالِ على أنَّه حَسْبُه، وعلى المعنى التعريضيِّ، وهو عدمُ التحرُّجِ من احتمالِ قَصدِهم الخيانةَ، والتوجُّسِ مِن ذلك الاحتِمالِ خِيفةً، أي: فإنَّ اللهَ قد نَصرَك مِن قبلُ، وأنت أضعفُ مِنكَ اليومَ، فنَصَرَك على العَدوِّ وهو مُجاهِرٌ بعُدوانِه؛ فنَصْرُه إيَّاكَ عليهم مع مُخاتلتِهم، ومع كَونِك في قُوَّةٍ من المؤمنِينَ الذين معَكَ، أَوْلَى وأقربُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٢).

- وقولُه: ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾ في إضافةِ النَّصرِ إلى اللهِ تَنبيهٌ على أنَّه نصْرٌ خارقٌ للعادةِ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه ناشئٌ عن مَساقِ الامتِنانِ بهذا الائتلافِ، أي: لو حاولتَ تأليفَهم ببذلِ المالِ العَظيمِ، ما حَصَل التآلُفُ بينهم، وهو مُقرِّرٌ لِمَا قَبْله، ومُبيِّنٌ لعزَّة المَطْلَب، وصعوبةِ المأخَذِ، أي: تَناهي التَّعادِي فيما بينَهم[٢].

- وقولُه: ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ فيه مبالغةٌ حَسَنةٌ؛ لوقوعِها مع حَرْفِ (لو) الدَّالِّ على عدمِ الوقوعِ[٣].

- والتَّأكيدُ بـ(إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ لمجرَّدِ الاهتمامِ بالخَبَر، باعتبارِ جعْلِه دليلًا على بديعِ صُنْعِ الله تعالى[٤].

- ومَوقِعُ الاستدراكِ في قَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ﴾ لأجلِ ما يُتوَهَّمُ مِن تعذُّرِ التَّأليفِ بينهم، في قَولِه: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: ولكِنَّ تكوينَ اللهِ يَلينُ به الصُّلبُ، ويحصُلُ به المتعَذِّرُ[٥].

- ولَمَّا كان هذا التَّكوينُ صُنعًا عَجيبًا، ذيَّلَ اللهُ الخبَرَ عنه بِقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حَكِيمٌ﴾ أي: قَوِيُّ القُدرةِ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ، مُحكِمُ التَّكوينِ، فهو يُكَوِّنُ المُتَعذِّر، ويجعَلُه كالأمرِ المَسنونِ المألوفِ[١].

- وقيل: بل خَتَم اللهُ تعالى هذه الآيةَ بِقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ لأنَّه تعليلٌ لِكفايةِ اللهِ لِرَسولِه شَرَّ خِداعِ الأعداءِ، وتأييدِه بِنَصرِه وبالمؤمنينَ، لا للتَّأليفِ بين المؤمنينَ وَحدَه؛ إذْ لو كان تعليلًا للتَّأليفِ بين المؤمنينَ وَحدَه، لكانَ الأنسَبُ أن يُعَلَّلَ بِقَولِه: (إِنَّهُ رَؤوفٌ رحيمٌ)، على أنَّ هذا التَّأليفَ في هذا المقامِ، ما كان إلَّا بِعزَّةِ اللهِ وحِكمَتِه في إقامةِ هذا الدِّينِ[٢].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٦٣).

الآيات (٦٤-٦٦)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَرِّضِ﴾: أي: حُضَّ، وحُثَّ، والتَّحريضُ: الحثُّ على الشَّيءِ، وتَسهيلُ الخَطبِ فيه؛ كأنَّه في الأصلِ إزالةُ الحَرَضِ: وهو ما لا يُعتَدُّ به، ولا خيرَ فيه[1].

﴿يَفۡقَهُونَ﴾: أي: يَفْهَمونَ حَقَّ الفَهْمِ، والفِقهُ: هو التوصُّلُ إلى عِلمٍ غائبٍ بعِلمٍ شاهِدٍ. وأصلُ (فقه) يدلُّ على إدراكِ الشَّيءِ، والعِلمِ به[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ مُبتدأٌ وخَبرٌ. ﴿وَمَنِ﴾ اسمٌ موصولٌ، وفي إعرابِه أوجهٌ؛ أحدها: أن يكونَ في محلِّ جرٍّ، عطفًا على الكافِ في ﴿حَسۡبُكَ﴾ مِن العَطفِ على الضَّميرِ المَجرورِ، دونَ إعادةِ الجارِّ، وهو جائزٌ. أي: اللهُ وَحدَه كافيك، وكافي أتباعِك. الثاني: أن يكونَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

محلِّ نصبٍ، عطفًا على محلِّ الكافِ؛ لأنَّ الكافَ مخفوضٌ في محلِّ نَصبٍ؛ فإنَّ ﴿حَسْبَكَ﴾ في معنى «كافِيك»، أي: اللهُ يكفيكَ، ويكفي مَنِ اتَّبعَك. والثالث: أن يكونَ في محلِّ رفْعٍ، مبتدأً، والخبَرُ محذوفٌ، أي: ومَن اتَّبعَك من المؤمنينَ فحسبُهُم اللهُ أيضًا، فيكونُ مِن بابِ عَطفِ الجُمَلِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: يا أيُّها النبيُّ، اللهُ -وَحْدَه- هو كافيك وكافي أتباعِك مِن المُؤمِنينَ.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣١٩). ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٣٢-٦٣٤). ((إعراب القرآن)) للدعَّاس (١/ ٤٣٧-٤٣٨).

وأمَّا القَولُ بأنَّ (مَنْ) في محلِّ رفعٍ، عَطفًا على اسم الجَلالةِ ﴿اللَّهُ﴾؛ فغَلَطٌ مِن حيثُ المعنى؛ إذ يصيرُ المعنى: حَسْبُك اللهُ والمُؤمنونَ؛ وذلك لأنَّ الحَسْبَ والكفايةَ لِلَّهِ وَحدَه، فهو كافي نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكافي كذلك مَن اتَّبَعَه من المؤمنينَ؛ والآياتُ القُرآنيَّةُ تدُلُّ على تعيينِ هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: ٥٩]، فجعَلَ الإيتاءَ للَّه ورَسولِه، وجَعَلَ الحَسْبَ له وَحدَه، فلم يَقُل: (وقالوا حَسْبُنا اللهُ ورَسولُه)، بل جعَلَ الحَسْبَ مُختَصًّا به تعالى. وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] فخصَّ الكِفايةَ التي هي الحَسْبُ به وَحدَه، وتمَدَّحَ تعالى بذلك في قَولِه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢] ففرَّقَ بين الحَسْبِ والتَّأييدِ، فجعل الحَسْبَ له وَحدَه، وجعَلَ التأييدَ له بِنَصرِه وبعِبادِه، وأثنى اللهُ سُبحانه على أهلِ التَّوحيدِ والتوَكُّلِ مِن عِبادِه؛ حيث أفرَدُوه بالحَسْبِ، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ولم يقولوا: (حَسْبُنا اللهُ ورَسولُه)، فإذا كان هذا قَولَهم، ومَدَحَ الرَّبُّ تعالى لهم بذلك، فكيف يقولُ لِرَسولِه: (اللهُ وأتباعُك حَسْبُك)، وأتباعُه قد أفرَدُوا الرَّبَّ تعالى بالحَسْبِ، ولم يُشْرِكوا بينه وبين رسولِه فيه، فإذا لم يَجُزْ أن يكونَ اللهُ ورَسولُه حَسْبَ المُؤمِنِ، كيف يكونُ المؤمنونَ مع اللهِ حَسْبًا لِرَسولِه. هذا مِن أمْحَلِ المُحالِ، وأبطَلِ الباطِلِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٠٧-١٠٨)، ((منهاج السنة النبوية)) له أيضًا (٧/ ٢٠٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيِّم (١/ ٣٧، ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشِّنقيطي (٢/ ١٠٤).

يا أيُّها النبيُّ، حُثَّ المؤمنينَ على القِتالِ حثًّا شديدًا، فلْيَصبِروا عند لِقاءِ العَدُوِّ، ولْيَثبُتوا في قِتالِهم، فإنَّهم إن يوجدْ منهم عشرونَ رجلًا صابرونَ، يغلِبُوا مِئتينِ مِن الكافرينَ، وإن يُوجدْ منهم مئةٌ يغلِبوا ألفًا منهم، وذلك بسببِ أنَّ هؤلاء الكافرينَ قومٌ جهلةٌ بثوابِ الله، وما أعدَّ للمجاهدينَ في سبيلِه.

ثمَّ نسخ الله ذلك الحُكمَ الذي تقدَّمَ؛ تخفيفًا منه سبحانه، فقال: الآن خفَّفَ اللهُ عنكم- أيُّها المؤمنونَ- وعَلِمَ أنَّ فيكم مَن يَضعُفُ بَدنُه عن قتالِ عَشرةٍ مِن الكفَّارِ، فأوجَب عليكم أن يثبتَ الواحدُ منكم أمامَ اثنينِ مِن أعدائِكم بدلًا مِن عشرةٍ، معَ البشارةِ بأنَّه إن يكُن مِنكم مِئةٌ صابرةٌ، يَغلِبوا مِئتينِ، وإن يكُن منكم ألفٌ يَغلِبوا ألفينِ، بمَعونةِ الله لهم، واللهُ مع الصَّابرينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وعَدَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنَّصرِ عند مُخادَعةِ الأعداءِ؛ وَعَدَه بالنَّصرِ والظَّفَرِ في هذه الآيةِ مُطلقًا[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾.

أي: يا أيُّها النبيُّ، اللهُ- وَحدَه- هو كافيك، وكافي مَنِ اتَّبَعَك مِن المؤمنينَ، ما يُهِمُّكم من أمورِ الدِّينِ والدُّنيا والآخرةِ، ومن ذلك تأييدُكم ونَصرُكم على أعدائِكم، وإن كَثُروا، وقَلَّ عَدَدُكم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٦/ ١٥٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٩، ١٧٠).

كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقال سُبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((حَسْبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيلُ، قالها إبراهيمُ عليه السَّلامُ حين أُلقِيَ في النَّارِ، وقالها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]))[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وعَدَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالكفايةِ والنَّصرِ، وكان ذلك مشروطًا بالاجتهادِ بحسبِ الطاقةِ، وبذلِ النَّفسِ والمالِ في المُجاهدةِ؛ أمرَه بأن يأمرَهم بالجدِّ في القتالِ، وعدمِ الهيبةِ للأبطالِ، في حالٍ مِن الأحوالِ، فليس عليه إلا أن يُحَرِّضَ المؤمنينَ على القتالِ؛ فإنه تعالى إنَّما يكفيه[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾.

أي: يا أيُّها النبيُّ، حُثَّ أتباعَك المؤمنينَ حثًّا شديدًا على قتالِ الأعداءِ؛ ففي قتالِهم خَيرٌ في الدُّنيا والآخرةِ[٣].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٣-٥٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٢٣)، ((معاني القرآن))

كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وعن أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((انطلَقَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابُه حتى سبَقُوا المُشرِكينَ إلى بدرٍ، وجاء المُشرِكونَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قُوموا إلى جنَّةٍ عَرْضُها السَّمَواتُ والأرضُ، يقولُ عُميرُ بنُ الحُمَامِ الأنصاريُّ: يا رسولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُها السَّمواتُ والأرضُ؟! قال: نعم، قال: بَخٍ بَخٍ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما يَحمِلُك على قَولِك: بَخٍ بَخٍ؟! قال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، إلَّا رَجاءَةَ[1] أن أكونَ مِن أهْلِها، قال: فإنَّك مِن أهْلِها، فأخرَجَ تَمَراتٍ مِن قَرَنِه[2]، فجعَلَ يأكُلُ مِنهنَّ، ثم قال: لَئِنْ أنا حَيِيتُ حتى آكُلَ تَمَراتي هذه، إنَّها لحياةٌ طَويلةٌ. قال: فرمى بما كان معه مِن التَّمرِ، ثم قاتَلَهم حتى قُتِلَ))[3].

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

هذه الآيةُ مَنسوخةٌ، وناسِخُها الآيةُ التي بَعدَها، وهي قَولُه تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ

للنحاس (٣/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٧٤).

(١) (رجاءة) بالمدِّ ونصبِ التاءِ، ومعناه: واللهِ ما فعلتُه لشيءٍ إلا لرجاءِ أن أكونَ مِن أهلِها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ٤٥).

(٢) قَرَنِه: أي: جَعبة السِّهام، تُصنعُ مِن جلدٍ. يُنظر: ((مطالع الأنوار)) لابن قرقول (٥/ ٣٤٧).

(٣) رواه مسلم (١٩٠١).

خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ﴾[(١)].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (لَمَّا نزَلَت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ﴾ شقَّ ذلك على المُسلمين، حين فُرِضَ عليهم ألَّا يفِرَّ واحدٌ مِن عَشرةٍ، فجاء التَّخفيفُ فقال: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ﴾ فلمَّا خفَّفَ اللهُ عنهم من العِدَّةِ، نقَصَ مِن الصَّبرِ بِقَدرِ ما خَفَّف عنهم)[(٢)].

﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: إن يكُنْ منكم- أيُّها المؤمنونَ- عِشرونَ رَجُلًا، صابرونَ عندَ لِقاءِ العَدُوِّ، محتسِبونَ، ثابِتونَ، يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ من عدوِّهم ويقهرُوهم، وإن يكُن منكم- أيُّها المؤمنونَ- مِئةٌ صابرةٌ محتسبةٌ ثابتةٌ يغلبوا ألفًا مِن الكافرينَ[(٣)].

---

(١) قال ابن كثير: (عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: لَمَّا نزَلَت هذه الآيةُ ثَقُلت على المسلمينَ، وأعظَموا أن يُقاتِلَ عِشرونَ مِئَتينِ، ومئةٌ ألفًا، فخَفَّفَ اللهُ عنهم، فنسَخَها بالآيةِ الأخرى، فقال: ﴿ٱلـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗا...﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا على الشَّطرِ مِن عَدُوٍّ لهم لم ينبَغِ لهم أن يَفِرُّوا مِن عَدُوِّهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجِبْ عليهم قتالُهم، وجاز لهم أن يتحَوَّزوا عنهم... قال ابنُ أبي حاتم: ورُوِيَ عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والضحاك نحوُ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٧).
وممَّن ذهَب مِن المفسِّرين إلى أنَّها منسوخةٌ: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٨).

(٢) رواه البخاري (٤٦٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦١، ٢٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦).

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

أي: يَغلِبُ المؤمنونَ الصَّابرونَ الكافرينَ الأكثَرَ منهم عددًا؛ بسَبَبِ أنَّ الكافرينَ قَومٌ لا يفهمونَ عن الله شيئًا، ولا فقهَ عندَهم، ولا يرجونَ ثوابَ الله في قتالِهم، فلا علمَ عندهم بما أعدَّ الله للمجاهدينَ في سبيلِه؛ لذا لا يَثبُتون في القتالِ خَشيةَ أن يُقتَلوا[1].

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

أي: الآنَ[2] خفَّفَ اللهُ عنكم- أيُّها المؤمنونَ- ما أوجَبَه عليكم مِن مُصابَرةِ العِشرينَ المِئَتينِ، ومُصابرةِ المِئةِ الألفَ، وقد عَلِمَ اللهُ من قبلُ أنَّ فيكم مَن يَضعُفُ بَدَنُه عن قتالِ عَشرةٍ مِن الكافرينَ[3].

وهذه الآيةُ وإن ورَدت بصيغةِ الخبرِ إلَّا أنَّ المرادَ بها الأمرُ بالصبرِ، وثباتِ الجماعةِ منهم لعشرةِ أمثالِهم، وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والبغويُّ، والرازي، وابن كثيرٍ، والسَّعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ الجوزيِّ: (ومعنى الكلامِ: إن يكُن منكم عِشرونَ صابِرونَ يَثبُتونَ عند اللِّقاءِ، يَغلِبوا مِئَتين؛ لأنَّ المؤمنينَ يَحتَسِبونَ أفعالَهم، وأهل الشِّرك يُقاتِلون على غير احتسابٍ، ولا طلبِ ثَوابٍ). ((زاد المسير)) (٢/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٧٥، ١٧٦).

(٢) قال ابنُ عاشور: (والوقتُ المُستحضَرُ بِقَولِه: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ هو زمنُ نُزولِها... فمعنى قَولِه: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ أنَّ التَّخفيفَ المُناسِبَ لِيُسرِ هذا الدِّينِ رُوعِيَ في هذا الوقتِ، ولم يُراعَ قَبلَه لمانعٍ منَعَ مِن مُراعاتِه، فرجَحَ إصلاحُ مَجموعِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير الرازي))

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ﴾.

أي: فإنْ يكُن منكم- أيُّها المؤمنونَ- مِئةٌ، صابرةٌ، ثابتةٌ عندَ القتالِ، يغلبوا مِئَتين من الكافرينَ، وإن يكُنْ منكم ألفٌ صابرونَ كذلك، يغلِبوا ألفينِ مِن الكافرينَ بمعونةِ الله تعالى لهم(١).

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

أي: واللهُ يُؤيِّدُ الصَّابرينَ، وينصُرُهم ويُعينُهم ويُوفِّقُهم(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا وعدٌ مِن الله لعبادِه المؤمنينَ المتَّبِعينَ لِرَسولِه، بالكفايةِ والنُّصرةِ على الأعداءِ، فإذا أتَوْا بالسَّبَبِ الذي هو الإيمانُ والاتِّباعُ، فلا بدَّ أن يكفِيَهم ما أهمَّهم من أمورِ الدِّينِ والدُّنيا، وإنَّما تتخلَّفُ الكفايةُ بتخَلُّفِ شَرْطِها(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ مِن شأنِ المُؤمنينَ أن يكونوا أعلَمَ مِن الكافرينَ، وأفقَهَ بكُلِّ عِلمٍ وفَنٍّ يتعلَّقُ بحياةِ البَشَرِ، وارتقاءِ الأُمَمِ(٤).

(١٥/ ٥٠٦)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٦٧).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ ... وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فيه الحثُّ على الصَّبرِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فيه تحذيرٌ لِلمُؤمنينَ مِن الغُرورِ بِدينِهم؛ لِئلَّا يَظُنُّوا أنَّ الإيمانَ وَحدَه يقتضي النَّصرَ والغَلَبَ، وإن لم يَقترِنْ بصفاتِه اللَّازمةِ لِكَمالِه، ومن أعظَمِها الصَّبرُ والفِقه[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولم يَقلْ: (معكم)؛ ليُفيدَ أنَّ مَعونَته إنَّما تُمِدُّهم إذا صار الصَّبرُ وصفًا لازمًا لهم[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ ليس هذا تكريرًا لِما قَبلَه؛ فإنَّ الأوَّلَ ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ مُقيَّدٌ بإرادةِ الخَدْعِ، فهذه كفايةٌ خاصَّةٌ، وفي قَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ كفايةٌ عامَّةٌ غيرُ مُقيَّدةٍ، أي: حسْبُك اللهُ في كلِّ حالٍ[٤].

٢- قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ﴾ ﴿صَٰبِرُونَ﴾ أي: عُرِفوا بالصَّبرِ، والمَقدِرةِ عليه، وذلك باستيفاءِ ما يقتَضيه مِن أحوالِ الجَسدِ، وأحوالِ النَّفسِ، وفيه إيماءٌ إلى توخِّي انتقاءِ الجَيشِ، فيكونُ قيدًا للتَّحريضِ، أي: حَرِّضِ المؤمنينَ الصَّابرينَ الذين لا يَتزلزَلونَ، فالمقصودُ ألَّا يكونَ فيهم مَن هو ضَعيفُ النَّفسِ، فيفشَلَ الجَيشُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٧).

٣- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تهوينٌ لِشأنِ الكُفَّارِ في القتالِ- الذي هو مُقتضى تلك الصِّفاتِ والأحوالِ- بِجَعلِ المؤمنينَ المُستكمِلي صِفاتِ الإيمانِ يَغلِبونَ ضِعفَيهم إلى عَشرةِ أضعافِهم مِن الكُفَّارِ[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ ذُكِرَ في جانِبِ جَيشِ المُسلمينَ في المرَّتَينِ عددُ العِشرينَ وعَددُ المِئة، وفي جانبِ جيشِ المُشركينَ عَددُ المِئَتين وعددُ الألفِ؛ إيماءً إلى قِلَّةِ جيشِ المُسلمينَ في ذاتِه، مع الإيماءِ إلى أنَّ ثَباتَهم لا يختَلِفُ باختلافِ حالةِ عَددِهم في أنفُسِهم؛ فإنَّ العادةَ أنَّ زيادةَ عددِ الجَيشِ تقَوِّي نفوسَ أهلِه، ولو مع كونِ نِسبةِ عَددِهم من عددِ عَدُوِّهم غيرَ مُختلفةٍ، فجعَلَ اللهُ الإيمانَ قُوَّةً لنفوسِ المُسلمينَ، تَدفَعُ عنهم وَهَنَ استشعارِ قِلَّةِ عَددِ جَيشِهم في ذاتِه[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ اختيارُ لَفظِ العِشرينَ للتَّعبيرِ عن مرتبةِ العَشَراتِ دونَ لَفظِ العشرةِ. قيل إنَّ وَجهَه: أنَّ لَفظَ العِشرينَ أسعَدُ بتقابُلِ السَّكَناتِ في أواخِرِ الكَلِم؛ لأنَّ لِلَفْظةِ مِئَتينِ من المناسَبةِ بِسَكَناتِ كَلِماتِ الفَواصِلِ من السورة؛ ولذلك ذَكَرَ المئةَ مع الألْفِ؛ لأنَّ بَعْدَها ذِكرَ مُمَيِّزِ العَددِ بألفاظٍ تُناسِبُ سكَناتِ الفاصلةِ، وهو قَولُه: ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ﴾، فتعَيَّنَ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٧).

اللَّفظُ؛ قَضاءً لحقِّ الفَصاحةِ[١]. وقيل فيه وجهٌ آخر: أنَّه ابتُدئَ في العشراتِ بثاني عُقودِها، وفي المئاتِ والآلاف بأوَّلِها؛ لأنَّ الأصلَ الابتداءُ بأوَّلِ العُقودِ، لكِنْ لو قيلَ: (إنْ يكنْ منكم عَشرةٌ صابرةٌ يغلبوا مئةً) لربَّما تُوُهِّمَ أنَّه لا تجبُ مصابرةُ الواحِدِ للعَشرةِ إلَّا عند بلوغِ المؤمنينَ هذا العَقدَ، فعَدَلَ إلى الابتداءِ بثاني عقودِ هذه المرتبةِ؛ لينتفِيَ هذا المحذورُ، فلمَّا انتفَى، وعُلِمَ أنَّه يجِبُ مُصابرةُ كُلِّ واحدٍ لِعَشرةٍ، ذَكَرَ باقيَ المراتِبِ في الباقي، على الأصلِ المُعتادِ[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ فيه أنَّ الكُفرَ سَببٌ في انتفاءِ الفَقاهةِ؛ فالكُفرُ مِن شَأنِه إنكارُ ما ليس بمَحسوسٍ، فصاحِبُه ينشأُ على إهمالِ النَّظَرِ، وعلى تعطيلِ حَركاتِ فِكرِه، فهم لا يُؤمِنونَ إلَّا بالأسبابِ الظَّاهريَّةِ، فيحسَبونَ أنَّ كَثرَتَهم تُوجِبُ لهم النَّصرَ على الأقلِّينَ؛ ولأنَّهم لا يُؤمِنونَ بما بعد الموتِ مِن نعيمٍ وعذابٍ، فهم يَخشَونَ الموتَ، فإذا قاتلوا ما يُقاتِلونَ إلَّا في الحالةِ التي يكونُ نَصرُهم فيها أرجَحَ، والمؤمنونَ يُعوِّلونَ على نصرِ الله، ويَثْبُتونَ للعدُوِّ رجاءَ إعلاءِ كَلمةِ الله، ولا يَهابُونَ الموتَ في سبيلِ الله؛ لأنَّهم مُوقِنونَ بالحياةِ الأبَديَّةِ المُسِرَّةِ بعد الموتِ[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ نصَّ تعالى على سبَبِ الغَلَبةِ، بأنَّ الكُفَّار قومٌ لا يَفقهونَ، والمعنى أنَّهم قومٌ جَهَلةٌ؛ يُقاتِلونَ على غيرِ احتسابٍ، وطلبِ ثوابٍ، كالبهائمِ، فتُفَلُّ نِيَّاتُهم، ويَعدَمونَ لِجَهلِهم باللهِ نُصرتَه، فهو تعالى يخذُلُهم،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٨).

وذلك بخلافِ مَن يُقاتِلُ على بصيرةٍ، وهو موعودٌ مِن اللهِ بالنَّصرِ والغَلَبةِ[١].

٨- قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ فيه سِرٌّ لطيفٌ عَظيمٌ، وتعليمٌ سماويٌّ هائلٌ، يَفهَمُ به المسلمونَ أَنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ من الأساسيَّاتِ للاستعدادِ للمَيدانِ هو الفِقْهُ والفَهْمُ عن الله، فيَجِبُ كُلَّ الوجُوبِ أن يُعلَّمَ العَسْكَرِيُّونَ عَنِ اللهِ حَتَّى يَفْقَهُوا؛ لأنهم إذا كانوا فَاهِمِين عَنِ الله، عارفين بِنُبْلِ المَبْدَأ الذي يُقاتِلونَ عليه؛ كانوا شُجَعانًا وصابِرينَ، لا يَرجِعونَ القَهقَرَى، ولا يُهزَمونَ، كما سَجَّلَهُ التاريخُ لأوائِلِ هذه الأمَّةِ. وإن كانوا لا يَفقَهونَ عن الله شيئًا، جَهَلةً كالأنعامِ، لا مبدأَ لهم يُقاتِلونَ عليه، فهم ليسُوا بأساسٍ، ولا مُعَوَّلَ عليهم، يُهزَمونَ مع كلِّ ناعقٍ، كما بيَّنَتْه هذه الآيةُ العظيمةُ الكريمةُ مِن سورةِ الأنفالِ[٢].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ وقَولُه: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ ثَباتَ الواحدِ مِن المُسلمينَ للعَشرةِ مِن المشركينَ، كان وجوبًا وعزيمةً، وليس نَدبًا، خلافًا لِما نُقِلَ عن بعضِ العُلَماءِ؛ لأنَّ المندوبَ لا يَثقُلُ على المكَلَّفينَ، ولأنَّ إبطالَ مشروعيَّةِ المندوبِ لا يُسمَّى تَخفيفًا، ثمَّ إذا أُبطِلَ النَّدبُ لَزِمَ أن يصيرَ ثَباتُ الواحِدِ للعَشرةِ مُباحًا، مع أنَّه تعريضُ الأنفُسِ للتَّهلُكةِ[٣].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ فيه وجوبُ مُصابَرةِ الضِّعفِ مِن العَدُوِّ، وتحريمُ الفِرارِ، ما لم يَزِدْ عددُ الكُفَّارِ مِثلَيْنا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٠).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٦-١٣٧).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فيه الرَّدُّ على مَن اعتبرَ الكَثرةَ في السِّلاحِ والقُوَّةِ، دونَ العَددِ[١].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فيه الرَّدُّ على مَن منعَ نَسخَ الأثقَلِ بالأخَفِّ[٢].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وَصفُ المئةِ في آيةِ التَّخفيفِ بالصَّابرةِ؛ لأنَّ الصَّبرَ شَرطٌ لا بُدَّ منه في كُلِّ حالٍ وكلِّ عددٍ، مع عَدمِ وَصفِ المئةِ في الأولى؛ لِئلَّا يُتوَهَّمَ أنَّه شَرطٌ في العددِ القَليلِ كالعِشرينَ، دونَ الكثيرِ كالمِئةِ والألفِ، ولم يَذكُرْه في الألْفِ استغناءً بما قَبلَه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قولُه تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ فيه تَصديرُ الجُملةِ بحَرْفي النِّداءِ والتَّنبيهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾؛ للتَّنبيهِ على مَزيدِ الاعتِناءِ بمَضمونِها، وإيرادُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعُنوانِ النبوَّةِ؛ للإشعارِ بعِلِّيَّتِها للحُكم[٤].

٢- **قولُه تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٦-١٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٣).

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فيه تَكريرُ الخِطابِ على الوَجهِ المذكورِ؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بشَأنِ المأمورِ به[١].

- وجملةُ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ ﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ ولذلك فُصِلتْ، ولم تُعطَفْ على التي قَبْلها[٢]، وفيها وَعْدٌ كريمٌ منه تعالى بتَغليبِ كلِّ جماعةٍ من المؤمنِينَ على عَشرةِ أَمْثالِهم بطريقِ الاستئنافِ بَعدَ الأمرِ بتَحريضِهم[٣].

- قَولُ الله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ هذا أمرٌ في صُورةِ الخَبَرِ، وفي إتيانِه بِلَفظِ الخَبَرِ نكتةٌ بديعةٌ، لا تُوجَدُ فيه إذا كان بِلَفظِ الأمرِ، وهي تقويةُ قُلوبِ المؤمنينَ، والبِشارةُ بأنَّهم سيَغلِبونَ الكافِرينَ[٤].

- قَولُ الله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾ إجراءُ نَفيِ الفَقاهةِ صِفةً لـ ﴿قَوۡمٞ﴾ دونَ أن يُجعَلَ خبرًا، فيقال: (ذلك بأنَّهم لا يَفقَهونَ)؛ لِقَصدِ إفادةِ أنَّ عدَمَ الفَقاهةِ صِفةٌ ثابتةٌ لهم، ومِن مقوِّماتِ قومِيَّتِهم وخصائِصِها؛ لِئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ نَفيَ الفقاهةِ عنهم في خُصوصِ هذا الشَّأنِ[٥].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٨).

وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

- قوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ﴾ فيه ذِكْرُ الصَّبر في أُولَى جُمْلَتي التَّخفيفِ فقط، وحذْفُه من الثَّانيةِ لدَلالةِ السَّابقةِ عليه؛ وذلِك لأنَّ الصبرَ شديدُ المطلوبيَّةِ[١].

- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ﴾ أُعيدَ وَصفُ مِئةِ المُسلمين بـ ﴿صَابِرَةٌ﴾؛ لأنَّ المقامَ يقتضي التَّنويهَ بالاتِّصافِ بالثَّباتِ، ولم تُوصَفْ مِئةُ الكُفَّارِ بالكُفرِ، وبأنَّهم قومٌ لا يفقهونَ؛ لأنَّه قد عُلِمَ، ولا مُقتضِيَ لإعادَتِه[٢].

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إذنُ اللهِ حاصِلٌ في كِلتا الحالَتينِ: المَنسوخةِ والنَّاسِخةِ، وإنَّما صرَّحَ به هنا، دونَ ما سبَقَ؛ لأنَّ غَلَبَ الواحدِ لِلعَشرةِ أظهَرُ في الخَرقِ للعادةِ، فيُعلَمُ بَدءًا أنَّه بإذنِ اللهِ، وأمَّا غلَبُ الواحِدِ الاثنينِ، فقد يُحسَبُ ناشِئًا عن قوَّةِ أجسادِ المُسلِمينَ، فنبَّهَ على أنَّه ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ لِيُعلَمَ أنَّه مُطَّرِدٌ في سائِرِ الأحوالِ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْله[٤]، والخِتامُ به مُبالغةٌ في شِدَّة المطلوبيَّةِ للصَّبرِ[٥].

- وفي الآيتَينِ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حَيثُ كُرِّر المعنى الواحدُ- وهو مقاومةُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٩).

الجماعةِ لأَكْثَر منها- مرَّتينِ؛ قَبلَ التخفيفِ وبَعدَه؛ للدَّلالةِ على أنَّ الحالَ مع القِلَّةِ والكثرةِ واحدةٌ لا تتفاوتُ؛ لأنَّ الحالَ قد تتفاوتُ بين مُقاومةِ العِشرين المِئتين والمِئةِ الألْفَ، وكذلك بين مُقاومةِ المئةِ المئتَينِ والألفِ الألفينِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣٥).

الآيات (٦٧-٧١)

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُثْخِنَ﴾: أي: يُبالِغَ فِي قتلِ المُشرِكينَ ويَقهَرَهم، والإثْخانُ في كلِّ شَيءٍ: قُوَّتُه وشِدَّتُه. وأصلُ (ثخن): يدلُّ على رزانةِ الشَّيءِ في ثِقلٍ؛ فإثخانُ القَتلِ: الشِّدَّةُ والمُبالغةُ فيه حتى يُترَكَ القَتيلُ مُثقَلًا، لا حِراكَ به[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ تعالى أنَّه ما كان ينبغي لنبيٍّ أن يتَّخِذَ أسرَى من الكُفَّارِ المُحاربينَ، حتى يبالِغَ في قَتلِهم ويَغلِبَهم، فلا يَقوونَ بعدَ ذلك على قتالِ المؤمنينَ، وخاطبَ المؤمنينَ قائلًا لهم: تريدونَ نَيلَ متاعٍ دُنيويٍّ زائلٍ بأسْرِ الكُفَّارِ المُنهَزمينَ يومَ بَدرٍ؛ لأخْذِ الفِديةِ منهم، واللهُ يريدُ لكم ثوابَ الآخرةِ، واللهُ عَزيزٌ حكيمٌ، لولا قضاءٌ مِن اللهِ سبَقَ، لنالَكم بسبَبِ أخْذِكم الفِداءَ مِن كُفَّارِ قُريشٍ عذابٌ عظيمٌ.

وأمَرَهم أن يأكُلوا ممَّا غَنِمُوا حَلالًا طيِّبًا، وأن يتَّقُوا اللهَ، إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٢)، ((أساس البلاغة)) للزمخشري (١/ ١٠٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩).

ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُخاطِبَ مَن أسَرُوهم يومَ بَدرٍ، وأخَذُوا منهم الفديةَ لإطلاقِهم، فيقولَ لهم: إنْ يَعلَمِ اللهُ في قلوبِكم إسلامًا وإيمانًا صحيحًا يُعطِكم مِن خَيرِ الدُّنيا والآخرةِ أفضَلَ ممَّا أخَذَه المُسلمونَ منكم، ويستُرْ ذُنوبَكم ولا يُؤاخِذْكم بها، واللهُ غَفورٌ رحيمٌ.

ثم قال لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّهم إن يُريدُوا خيانَتك فقد خانوا اللهَ مِن قَبلُ، فأقدَرَ المؤمنينَ عليهم فأسَرُوهم، واللهُ عليمٌ حَكيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

ختَمَ اللهُ تعالى سياقَ القِتالِ في هذه السُّورةِ بأحكامٍ تتعَلَّقُ بالأَسرى؛ لأنَّ أُمورَها يُفصَلُ فيها بعد القِتالِ في الغالِبِ[1].

سَببُ النُّزولِ:

عن أبي زُمَيْلٍ سِماكٍ الحنفيِّ، قال: حدَّثني عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ قال: حدَّثني عُمَرُ بنُ الخطَّابِ قال: ((لَمَّا كان يومُ بَدرٍ نظر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى المُشركينَ وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاثُمئةٍ وتِسعةَ عَشرَ رَجلًا، فاستقبلَ نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القِبلةَ، ثمَّ مدَّ يَدَيه، فجعَلَ يهتِفُ بِرَبِّه: اللهُمَّ أنجِزْ لي ما وعَدْتَني، اللهُمَّ آتِ ما وعَدْتَني، اللهمَّ إن تَهْلِكْ هذه العِصابةُ مِن أهلِ الإسلامِ، لا تُعبَدْ في الأرضِ، فما زالَ يهتِفُ بِرَبِّه، مادًّا يَدَيه مُستقبِلَ القِبلةِ، حتى سقَطَ رِداؤُه عن مَنكِبَيه، فأتاه أبو بكرٍ، فأخذَ رداءَه، فألقاه على مَنكِبَيه،

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٢).

ثم التَزَمه مِن ورائِه، وقال: يا نبيَّ الله، كفاك مُناشَدتُك ربَّك؛ فإنَّه سيُنجِزُ لك ما وعَدَك! فأنزل الله عزَّ وجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فأمدَّه اللهُ بالملائكةِ، قال أبو زُمَيلٍ: فحدَّثني ابنُ عبَّاسٍ قال: بينما رجلٌ مِن المُسلمين يومَئذٍ يَشتَدُّ في أَثَرِ رجُلٍ مِن المُشركينَ أمامَه، إذ سَمِعَ ضَربةً بالسَّوطِ فَوقَه، وصَوتَ الفارِسِ يقولُ: أقدِمْ حَيزومُ، فنظَرَ إلى المُشرِك أمامَه فخَرَّ مُستلقِيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ[1] أَنفُه، وشُقَّ وجهُه، كضربةِ السَّوطِ، فاخضَرَّ ذلك أجمَعُ[2]! فجاء الأنصاريُّ فحَدَّث بذلك رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: صَدَقْتَ، ذلك من مَدَدِ السَّماءِ الثَّالثةِ، فقَتَلوا يومَئذٍ سَبعينَ، وأسَرُوا سبعينَ، قال أبو زُمَيلٍ: قال ابنُ عبَّاسٍ: فلمَّا أسَرُوا الأُسارى، قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي بكرٍ وعُمَرَ: ما تَرَونَ في هؤلاءِ الأُسارى؟ فقال أبو بكرٍ: يا نبيَّ الله، هم بنو العَمِّ والعشيرةِ، أرى أن تأخُذَ منهم فِديةً، فتكونَ لنا قُوَّةً على الكُفَّارِ، فعسى اللهُ أن يَهدِيَهم للإسلامِ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما ترى يا ابنَ الخطَّابِ؟ قلتُ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، ما أرى الذي رأى أبو بكرٍ، ولكنِّي أرى أن تُمكِّنَّا فنضرِبَ أعناقَهم، فتُمَكِّنَ عليًّا مِن عَقيلٍ، فيضرِبَ عُنُقَه، وتمكِّنِّي من فلانٍ- نَسيبًا لِعُمَرَ- فأضرِبَ عُنقَه؛ فإنَّ هؤلاءِ أئمَّةُ الكُفرِ وصناديدُها، فهَوِيَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما قال أبو بكرٍ، ولم يَهْوَ ما قُلتُ، فلمَّا كان من الغَدِ جِئتُ، فإذا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبو بكرٍ قاعِدَينِ يَبكيانِ، قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أخبِرْني من أيِّ شَيءٍ تبكي أنت وصاحِبُك؟! فإن وَجَدْتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجِدْ بُكاءً تباكَيتُ لِبُكائِكما، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أبكي للَّذي عَرَض عليَّ

---

(١) الخطمُ: الأثرُ على الأنفِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٨٦).

(٢) فاخضرَّ ذلك أجمعُ: أي: صار موضعُ الضربِ كلُّه أخضرَ أو أسودَ؛ فإنَّ الخضرةَ قد تُستعملُ بمعنَى السوادِ، كعكسِه؛ للمبالغةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا القاري (٩/ ٣٧٨٢).

أصحابُك مِن أخْذِهم الفِداءَ، لقد عُرِضَ علي عذابُهم أدنى مِن هذه الشَّجرةِ- شَجرةٍ قريبةٍ مِن نبيِّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) إلى قَولِه: (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا) فأحلَّ اللهُ الغنيمةَ لهم))[١].

وعن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: قال عُمَرُ: ((وافقتُ ربِّي في ثلاثٍ: في مقامِ إبراهيمَ، وفي الحِجابِ، وفي أُسارى بَدرٍ))[٢].

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ما ينبغي لنبيٍّ أن يـأسِرَ أحدًا مِن الكُفَّارِ المُحارِبين، فيحبِسَهم لأخْذِ فداءٍ ماليٍّ منهم، في مُقابِلِ إطلاقِ سَراحِهم، ما ينبغي أن يفعَلَ ذلك قبل أن يُبالِغَ في قَتلِهم ويَغلِبَهم، ويتمَكَّنَ في الأرضِ[٣].

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣).

(٢) رواه مسلم (٢٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٤١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٧٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٥٤ - ٢٥٦)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٨٠).

وقال القرطبي: (هذه الآيةُ نزلتْ يومَ بدرٍ، عتابًا مِن الله عزَّ وجلَّ لأصحابِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، والمعنَى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعلَ الذي أوجَب أن يكونَ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أسرَى قبلَ الإثخانِ، ولهم هذا الإخبارُ بقولِه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾، والنبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يأمرْ باستبقاءِ الرِّجالِ وقتَ الحربِ، ولا أراد قطُّ عرضَ الدُّنيا، وإنَّما فعلَه جمهورُ مباشري الحربِ، فالتوبيخُ والعتابُ إنَّما كان متوجهًا بسببِ مَن أشار على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأخذِ الفديةِ، هذا قولُ أكثرِ المفسِّرين، وهو الذي لا يصحُّ غيرُه، وجاء ذكرُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في الآيةِ حينَ لم ينهَ عنه حينَ رآه مِن العريشِ، وإذ كره سعدُ بنُ معاذٍ وعمرُ بنُ الخطَّابِ وعبد الله بنُ رواحةَ، ولكنَّه عليه السلامُ شغَله بغتُ الأمرِ، ونزولُ النَّصر، فترَك النهيَ عن الاستبقاءِ، ولذلك بكَى هو وأبو بكرٍ حينَ نزَلت الآياتُ. والله أعلم). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٤).

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾.

أي: تُريدونَ- أيُّها المؤمنونَ- نَيلَ مَتاعِ الدُّنيا الزَّائلةِ بأسْرِ الكُفَّارِ المُنهَزِمينَ يَومَ بَدرٍ؛ لأخْذِ الفِديةِ منهم، واللهُ يُريدُ لكم ثوابَ الآخرةِ بإثخانِهم؛ إعزازًا لِدينِه، ونُصرةً لِعبادِه، وإعلاءً لكَلِمتِه سُبحانَه وتعالى[1].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عزيزٌ لا يُغلَب ولا يُقهَرُ، فإنْ أرَدْتُم بجهادِكم الآخرةَ، نَصَرَكم اللهُ على عَدُوِّكم، وهو حكيمٌ في تدبيرِ شَؤونِ خَلْقِه ومَصالِحِهم، ولو شاء أن ينتَصِرَ مِن الكُفَّارِ دون قتالٍ لَفَعَل، لكِنَّ حِكمَتَه تقتضي أنْ يبتلِيَ بَعضَكم ببعضٍ[2].

﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾.

أي: لولا قضاءٌ من الله سبَقَ لكم- يا أهلَ بَدرٍ- في اللَّوحِ المَحفوظِ بأنَّ اللهَ مُحِلٌّ لكم الغَنائِمَ، وأخْذَ الفِداءِ مِن الكُفَّارِ، وبأنَّه لا يُعذِّبُ أحدًا إلَّا بعد قيام الحُجَّةِ عليه، وأنَّه لا يعذِّبُ أحدًا شَهِدَ بدرًا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لَنالَكم بسبَبِ أخْذِكم الفِداءَ مِن كفَّارِ قُريشٍ، عذابٌ عَظيمٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٢، ٥٥٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٨١).
قال الرازي: (أجمَعَ المُفَسِّرونَ على أنَّ المرادَ مِن عَرَضِ الدُّنيا هاهنا، هو أخْذُ الفِداءِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧٦، ٢٨٢، ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٠)، ((شفاء

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تضَمَّنَ قَولُه تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ امتنانًا عليهم بأنَّه صرَفَ عنهم العذابَ؛ فَرَّعَ على الامتنانِ الإذنَ لهم بأن ينتَفِعوا بمالِ الفِداءِ في مصالِحِهم، ويتوسَّعُوا به في نَفَقاتِهم، دونَ نَكَدٍ ولا غُصَّةٍ، فإنَّهم استغنَوْا به مع الأمْنِ مِن ضُرِّ العَدُوِّ بفَضْلِ اللهِ، فتلك نِعمةٌ لم يَشُبْها أذًى[1].

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

أي: قد أحلَلْتُ لكم- أيُّها المؤمنونَ- أخْذَ الغَنائِمِ والفِديةِ مِن الكُفَّارِ، فكُلوا ممَّا غَنِمتُم مِن أموالِهم حالَ كَونِه حلالًا قد أحلَّه الله لكم، هنيئًا مُستلذًّا، لا خُبثَ فيه[2].

العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٩، ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٩).

قال الرازي: (أجمَعُوا على أنَّ المرادَ بِقَولِه: ﴿أَخَذۡتُمۡ﴾ ذلك الفِداءُ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٩).

وقال ابن عاشور: (العذابُ يجوزُ أن يكونَ عذابَ الآخرةِ، ويجوز أن يكونَ العَذابُ المنفيُّ عذابًا في الدُّنيا، أي: لولا قَدَرٌ من الله سبَقَ مِن لُطفِه بكم، فصَرَفَ بلُطفِه وعنايَتِه عن المؤمنينَ عذابًا، كان مِن شَأنِ أخْذِهم الفداءَ أن يُسَبِّبَه لهم، ويُوقِعَهم فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٧، ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٤)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٢)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٥٧، ٦٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

قال أبو حيان: (﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي: ممَّا [غَنِمتُموه]، ومنه ما حصل بالفِداءِ الذي أقَرَّه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... وليس هذا الأمرُ مُنشِئًا لإباحةِ الغَنائِم؛ إذ قد سبق تحليلُها قبل يومِ بَدرٍ، ولكنَّه أمرٌ يُفيدُ التَّوكيدَ، واندراجَ مالِ الفداءِ في عُمومِ ما غَنِمتم؛ إذ كان

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لم تَحِلَّ الغَنائِمُ لأحدٍ مِن قَبلِنا؛ ذلك بأنَّ اللهَ تبارك وتعالى رأى ضَعْفَنا وعَجْزَنا، فطَيَّبَها لنا))[١].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أُعطيتُ خَمسًا لم يُعطَهنَّ أحَدٌ مِن الأنبياءِ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ، وجُعِلَت لي الأرضُ مَسجِدًا وطَهورًا، وأيُّما رَجُلٍ مِن أمَّتي أدرَكَتْه الصَّلاةُ فليُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائِمُ، وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ كافَّةً، وأُعطِيتُ الشَّفاعةَ))[٢].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

أي: واتَّقوا اللهَ- أيُّها المؤمنونَ- بِفعلِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نهى، فلا تَفعَلوا في دينِكم شيئًا لم يأذَنِ اللهُ لكم به[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله غفورٌ لذُنوبِ المُؤمنينَ، فيَستُرُها عليهم، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها؛ ولِهذا لم يُعاقِبْهم على أخذِهم الفداءَ، وهو رحيمٌ بهم، ومِن رَحمتِه أن أحَلَّ لهم الغنائِمَ، وأخْذَ الفِداءِ[٤].

قد وقع العِتابُ في المَيلِ للفِداءِ، ثمَّ أقرَّه الرَّسولُ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٤).

(١) رواه البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧)، واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٤٣٨) واللفظ له، ومسلم (٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أُخِذَ الفِداءُ مِن الأُسارى، وشَقَّ عليهم أخذُ أموالِهم، ذكَرَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ؛ استمالةً لهم[1]، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾.

أي: يا أيُّها النبيُّ، قلْ لِمَن أسَرْتُموهم في غَزوةِ بَدرٍ، وأخَذْتُم منهم الفِديةَ لِإطلاقِهم: إنْ يَعلَمِ اللهُ في قُلوبِكم إسلامًا وإيمانًا صحيحًا، يُعطِكم في الدُّنيا مالًا، وفي الآخرةِ ثَوابًا أفضَلَ ممَّا أخَذَه المسلمونَ مِنكم[2].

عن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رِجالًا من الأنصارِ استَأذَنوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالوا: ائذَنْ لنا فلْنَترُكْ لابنِ أُختِنا عَبَّاسٍ فِداءَهُ، قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٩٣، ١٩٤).
قال الرازي: (واختلف المُفَسِّرون في أنَّ الآيةَ نازلةٌ في العبَّاسِ خاصَّةً، أو في جُملةِ الأُسارى. قال قومٌ: إنَّها في العبَّاسِ خاصَّةً، وقال آخرون: إنَّها نزلَتْ في الكُلِّ، وهذا أَوْلى؛ لأنَّ ظاهِرَ الآيةِ يقتضي العُمومَ مِن ستَّةِ أوجُهٍ... فما الموجِبُ للتَّخصيصِ؟! أقصى ما في البابِ أنْ يُقالَ: سَبَبُ نزولِ الآيةِ هو العبَّاسُ، إلَّا أنَّ العِبرةَ بِعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبَب). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٣). وممَّن رأى عمومَ نُزولِ الآيةِ في أُسارى بدر: الشنقيطي. يُنظر: ((العذب النمير)) (٥/ ١٨٢، ١٨٣).
وجَعَلَها السَّعديُّ في أُسارى بدرٍ الذينَ ادَّعَوا الإسلامَ لَمَّا طُلِبَ منهم الفِداءُ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

واللَّهِ لا تَذَرونَ منهُ دِرهَمًا))[١].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: ويَغفِرْ لكم ذُنوبَكم فيَستُرْها عليكم، ولا يؤاخِذْكم بها، واللهُ غَفورٌ لذُنوبِ عِبادِه التَّائبينَ، رحيمٌ بهم، ومِن رَحمتِه ألَّا يُعاقِبَهم بعد تَوبتِهم[٢].

﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾.

أي: وإن يُرِدْ هؤلاءِ الأسرَى الغَدرَ بك، وخِداعَك- يا مُحمَّدُ- بإظهارِهم أقوالًا خلافَ ما يُبطِنونَ[٣]، فيَرجِعوا إلى إظهارِ الكُفرِ، وقِتالِ المُسلمينَ، والإعانةِ عليه؛ فقد كَفَروا باللهِ وعَصَوه مِن قَبلِ يَومِ بَدرٍ، فأقدَرَ اللهُ المؤمنينَ عليهم، فأسَرُوهم[٤].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٠١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٩٤).

(٣) قال الشنقيطي: (كانوا يَقولونَ: آمَنَّا بك، وشَهِدْنا أنَّك رَسولُ اللهِ، وواللَّهِ لَنَنصحَنَّ لك على قَومِك، ولنكونَنَّ معَك). ((العذب النمير)) (٥/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨١-٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٩٥، ١٩٦).

قال ابن عاشور: (فكَمُلَ ذلك الإذنُ والتَّطييبُ بالتهنئةِ والطَّمأنة بأنْ ضَمِنَ لهم- إنْ خانَهم الأسرى بعد رُجوعِهم إلى قَومِهم، ونَكَثوا عَهدَهم، وعادوا إلى القتالِ- بأنَّ اللهَ يُمكِّنُ المسلمينَ منهم مرَّةً أخرى، كما أمكَنَهم منهم في هذه المرَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨١).

أي: واللهُ عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومن ذلك ما يُضمِرُونَه في قُلوبِهم من إخلاصٍ أو خيانةٍ، حكيمٌ في جَميعِ أقوالِه وأفعالِه، يَضعُ الأشياءَ في مَواضِعِها اللَّائقةِ بها، ومن ذلك مُجازاةُ الخائِنينَ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ ختم الآيةَ بِقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾، فهو سُبحانه وتعالى يُحِبُّ للمؤمنينَ أن يكونوا أعِزَّةً غالِبينَ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، كما يُحِبُّ لهم أن يَكونوا حُكماءَ ربَّانيِّينَ، يضعونَ كلَّ شَيءٍ في مَوضِعه، وإنَّما يكونُ هذا بتقديمِ الإثخانِ في الأرضِ، والسِّيادةِ فيها، على المنافِعِ العَرضيَّةِ، بمِثلِ فِداءِ أسرى المُشركينَ، وهم في عُنفوانِ قُوَّتِهم وكَثرتِهم[٢].

٢- اللهُ تعالى لا يريدُ ما يُفضي إلى السَّعاداتِ الدُّنيويَّةِ التي تَعرِضُ وتَزولُ، وإنَّما يريدُ ما يُفضي إلى السَّعاداتِ الأُخرويَّةِ الدَّائمةِ الباقيةِ المَصُونة عن التَّبديلِ والزَّوالِ؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ فيه تحذيرٌ مِن التَّوغُّلِ في إيثارِ الحُظوظِ العاجلةِ[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ فيه بيانُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٧).

مُؤاخَذةِ اللهِ تعالى النَّاسَ على الأعمالِ النَّفسيَّةِ وإرادةِ السُّوءِ، بعد تَنفيذِها بالعَملِ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أمَرَ تعالى بِتَقواه؛ لأنَّ التَّقوى حامِلةٌ على امتثالِ أمرِ اللهِ، وعَدمِ الإقدامِ على ما لم يتقَدَّمْ فيه إذْنٌ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيه أنَّه ما دام للكُفَّارِ شَرٌّ وصَولةٌ، فالأوفَقُ ألَّا يُؤسَروا، فإذا أُثخِنُوا، وبَطَل شَرُّهم، واضمحَلَّ أمرُهم؛ فحينئذٍ لا بأسَ بأخذِ الأَسرَى منهم، وإبقائِهم[٣]، فكلمةُ ﴿حَتَّىٰ﴾ لانتهاءِ الغايةِ، فَقولُه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يدلُّ على أنَّ بعدَ حُصولِ الإثخانِ في الأرضِ له أن يُقدِمَ على الأسْرِ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لعلَّه عبَّرَ بوَصفِ النبوَّةِ؛ لِيُفيدَ مع العُمومِ أنَّ كُلًّا مِن رِفعةِ القَدْرِ، والإخبارِ مِن اللهِ، يمنَعُ مِن الإقدامِ على فِعلٍ بدونِ إذنٍ خاصٍّ[٥].

٣- قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الإثخانُ في الأرضِ ليس مَضبوطًا بضابطٍ مَعلومٍ مُعَيَّنٍ، بل المقصودُ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١١).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٣٠).

منه إكثارُ القَتلِ، بحيث يُوجِبُ وُقوعَ الرُّعبِ في قلوبِ الكافرينِ، وألَّا يَجترِئوا على مُحاربةِ المُؤمنينَ؛ وبلوغُ القَتلِ إلى هذا الحَدِّ المُعيَّنِ لا شكَّ أنَّه يكونُ مُفَوَّضًا إلى الاجتهادِ(١).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ سمَّى منافِعَ الدُّنيا ومتاعَها عَرَضًا؛ لأنَّه لا ثباتَ له ولا دَوامَ، فكأنَّه يَعرِضُ ثمَّ يزولُ(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ إنَّما ذَكرَ مع الدُّنيا المُضافَ فقال: ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ ولم يَحذِفْ؛ لأنَّ في ذكرِه إشعارًا بعُروضِه، وسُرعةِ زوالِه(٣).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ فيه بيانُ مِنَّةِ اللهِ تعالى على أهلِ بَدرٍ: أنَّه لم يُعذِّبْهم فيما أَخَذوا بسوءِ الإرادةِ، أو بغيرِ حَقٍّ، وفي هذه المنَّةِ بعد الإنذارِ الشَّديدِ خَيرُ تَربيةٍ لأمثالِهم مِن الكاملينَ، تربَأُ بأنفُسِهم عن مِثلِ ذلك الاستشرافِ، لا أنَّها تُجَرِّئهم عليه، كما توهَّم بعضُ النَّاسِ(٤).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ يدلُّ على أنَّ لِلَّه حُكمًا في كلِّ حادثةٍ، وأنَّه نصَبَ على حُكمِه أمارةً، هي دليلُ المُجتَهِد، وأنَّ مُخطِئَه مِن المُجتهدينَ لا يأثَمُ، بل يُؤجَرُ.

٨- في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٨٣).

عَظِيمٌ﴾ رَدٌّ على المعتزلةِ والقَدَرِيَّة فيما يُنكرون مِن الكتابِ السَّابقِ[١].

٩- لَمَّا تقدَّمَ الأمرُ بالإثخانِ في قَولِه تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾ ثمَّ بإعدادِ القُوَّةِ، ثمَّ التَّحريضِ على القِتالِ بعد الإعلامِ بالكِفايةِ، ثمَّ إيجابِ ثَباتِ الواحِدِ لِعَشرةٍ، ثمَّ إنزالِ التَّخفيفِ إلى اثنينِ- كان ذلك مُقتَضيًا للإمعانِ في الإثخانِ، فحَسُنَ عِتابُ الأحباب في اختيارِ غَيرِ ما أفهَمَه هذا الخِطاب؛ لِكَونِ ذلك أقعَدَ في الامتنانِ عليهم بالعَفوِ والغُفرانِ، بسبَبِ أنَّ أكثَرَهم مالَ إلى فِداءِ الأُسارى[٢].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ عبَّرَ عن الانتفاعِ الهنيءِ بالأكلِ؛ لأنَّ الأكلَ أقوى كيفيَّاتِ الانتفاعِ بالشَّيءِ؛ فإنَّ الآكِلَ يَنعَمُ بلذاذةِ المأكولِ، وبِدَفعِ أَلَمِ الجُوعِ عن نفسِه، ودفعُ الألمِ لَذاذةٌ، ويُكسِبُه الأكلُ قُوَّةً وصِحَّةً، والصِّحَّةُ مع القُوَّةِ لَذاذةٌ أيضًا[٣].

١١- في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ دليلٌ على أنَّ المفاداةَ بالمال جائزةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى- وإنْ كان أنكرَ الإبقاءَ على الأسرى قَبْلَ الإثخانِ- فقد أباح لهم ما أخَذوا مِن المالِ بالفداءِ، وسمَّاه غنيمةً، فقال: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[٤].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أقبل على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالأمرِ بِمُخاطَبتِهم؛ تنبيهًا على أنَّهم لَيسُوا بأهلٍ لِخِطابِه سبحانَه،

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٩).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٥).

بما أبعَدُوا أنفُسَهم عنه؛ مِن اختيارِهم الكَونَ في زُمرةِ الأعداءِ، على الكَونِ في عِدادِ الأولياءِ[١].

١٣- قال الله تعالى: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ يدلُّ على أنَّ محلَّ نَظرِ اللهِ مِن عَبدِه، إنَّما هو القُلوبُ، كما جاء بذلك حديثُ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللَّهَ لا ينظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولَكِنْ ينظُرُ إلى قُلوبِكم وأعمالِكم))[٢]؛ لأنَّ القَلبَ هو الذي ينظُرُ اللهُ إليه، فيَعلَمُ فيه الخيرَ والشَّرَّ؛ ولذا قال: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾[٣].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ * وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يُؤخَذُ مِن الآيتينِ ما يجِبُ على المُؤمنينَ مِن تَرغيبِ الأَسرى في الإيمانِ، وإنذارِهم عاقِبةَ خِيانَتِهم إذا ثَبَتُوا على الكُفرِ والطُّغيانِ، وعادوا إلى البَغيِ والعُدوانِ[٤].

١٥- لا يُوصَفُ اللهُ بالخيانةِ مُطلَقًا؛ لأنَّ الخيانةَ صِفةُ نَقصٍ مُطلَقٍ؛ والخيانةُ معناها: الخديعةُ في مَوضِعِ الائتمانِ، وهذا نَقصٌ؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ ولم يَقُلْ: فخَانَهم[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٣٣).
(٢) أخرجه مسلم (٤٦٥١).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٩٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٥٨).

تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ[(١)].

- قولُه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ هذه الجملةُ واقعةٌ مَوقِعَ العِلَّة للنَّهي الذي تَضمَّنه قولُه: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ فلذلك فُصِلتْ، ولم تُعْطَفْ عليها؛ لأنَّ العِلَّة بمنزلةِ الجُمْلةِ المبيِّنة، ويَجوزُ أنْ يكونَ هذا الخبرُ مُستعملًا في معنى الاستفهامِ الإنكاريِّ[(٢)].

- قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ فيه تَعليقُ فِعلِ الإرادةِ بذاتِ الآخرةِ، والمقصودُ نفْعها؛ بقرينةِ قولِه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ فحُذِف المضاف (ثواب) للإيجازِ، وقيل التقديرُ: يُريدُ عمَلَ الآخِرَة، أي: المؤدِّي إلى الثوابِ في الآخِرَة[(٣)].

٢- **قوله تعالى:** ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الكلامَ السابقَ يُؤذِن بأنَّ مُفاداةَ الأسرى أمرٌ مَرْهوبٌ تُخشَى عواقِبُه، فيستثيرُ سُؤالًا في نُفوسِهم عمَّا يُترقَّب من ذلك، فبيَّنه قولُه: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ...﴾[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٢-٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٧٥- ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٧).

٣- **قوله تعالى:** ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ الأَمْر في ﴿فَكُلُواْ﴾ مُستعمَلٌ في المِنَّة، وذُيِّل بالأمرِ بالتَّقوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لأنَّ التَّقْوى شُكرُ اللهِ على ما أَنْعَم مِن دفْعِ العذابِ عنهم(١).

- وجملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تعليلٌ للأمْر بالتقوى، وتَنبيهٌ على أنَّ التقوى شُكرٌ على النِّعمة؛ فحرْفُ التأكيدِ (إنَّ) للاهْتِمام، وهو مُغنٍ غَناءَ فاءِ التفريع(٢).

٤- **قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل ...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو إقبالٌ على خِطابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بشيءٍ يتعلَّقُ بحالِ سَرائرِ بعضِ الأَسْرى، بعدَ أنْ كان الخِطابُ مُتعلِّقًا بالتَّحريضِ على القِتالِ وما يَتْبعه(٣).

- وفيه تأكيدُ الوعدِ بالمغفرةِ ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ بما بَعدَه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ مِن الاعتراضِ التَّذييليِّ؛ فقولُه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تذييلٌ؛ للإيماءِ إلى عِظَم مغفرتِه التي يَغْفِر لهم، لأنَّها مَغفرةٌ شديدِ الغُفْرانِ، رحيمٍ بعبادِه، فمِثال المبالغةِ وهو ﴿غَفُورٞ﴾ المُقتضي قوَّة المغفرةِ وكَثْرتِها مُستعمَلٌ فيهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٨٠).

باعتبارِ كَثرةِ المُخاطَبين، وعِظَمِ المغفرةِ لكلِّ واحد منهم[١].

٥- **قوله تعالى:** ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ كلامٌ مَسوقٌ من جِهتِه تعالى؛ لتَسليتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطَريقِ الوَعدِ له، والوَعيدِ لهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٧).

الآياتُ (٧٢-٧٥)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مِّيثَٰقٞ﴾: الميثاقُ: العقدُ المؤكَّدُ بيمينٍ، أو العهدُ المُحكَم، وأصل (وثق): عقدٌ وإحكامٌ[1].

﴿ءَاوَواْ﴾: أي: ضَمُّوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُهاجرينَ إليهم، وأَعْطَوهم المَأوى. والمَأوى: المَثوى والمَسكَنُ، وأصْلُ (أوى): يدلُّ على التَّجمُّعِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

إنَّ المُهاجرينَ الذين آمَنوا بكُلِّ ما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وترَكَوا أوطانَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠).

وقَومَهم، وأنفَقُوا أموالَهم لِنُصرةِ دينِ الله، وجاهَدوا بأنفُسِهم في سبيلِه، والأنصارَ الذينَ ضَمُّوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه المُهاجرينَ، فأسكَنُوهم مَنازِلَهم، ونَصَرُوهم على أعدائِهم- بعضُهم أولياءُ بعضٍ، وأمَّا الذينَ آمَنوا لكِنَّهم لم يُفارِقوا أوطانَهم إلى بلادِ الإسلامِ، ما لكم- أيُّها المؤمنونَ- مِن وَلايتِهم مِن شَيءٍ، حتى يفارِقُوا دارَ الكُفرِ إلى دارِ الإسلامِ، لكنْ إن طَلَبَ منكم هؤلاء- الذينَ آمَنوا ولم يُهاجِروا- النَّصرَ في الدِّينِ، فعَليكم نصرَهم، إلَّا إذا طلَبَوا منكم أن تَنصُروهم على قومٍ مِن الكُفَّارِ، بينكم وبينهم عَهدٌ مُؤَكَّدٌ على تَركِ الحَربِ، فلا تَغدِرُوا بالكُفَّارِ بنقضِ ذلك العَهدِ، واللهُ بَصيرٌ بما تَعملونَ، مُطَّلِعٌ عليه، فلا تُخالِفوا أمرَه.

ثم يُخبِرُ تعالى أنَّ الكُفَّارَ بَعضُهم أولياءُ بَعضٍ، ويخاطِبُ المُؤمِنينَ أنَّهم إن لم يَفعَلُوا ذلك- مِن تَوَلِّي بعضِهم بعضًا، وتَرْكِ مُوالاةِ الكُفَّارِ- فإنَّه ستقَعُ فِتنةٌ عظيمةٌ في الأرضِ، وفسادٌ كبيرٌ.

والمؤمنونَ المُهاجِرونَ الذين جاهَدُوا في سبيلِ اللهِ، والأنصارُ الذين ضَمُّوا مَن هاجَرَ إليهم ونَصَرُوهم ونَصَروا دينَ اللهِ، أولئك هُم المؤمِنونَ حَقًّا، لهم مَغفِرةٌ مِن اللهِ ورِزقٌ كَريمٌ.

والذينَ آمنُوا مِن بعدِ بَيانِ أمْرِ تَوَلِّي المُهاجرين والأنصارِ بعضِهم بعضًا، وانقِطاعِ وَلايَتِهم مِمَّن آمَن ولم يُهاجِرْ حتَّى يُهاجِرَ، وهاجَرُوا من دارِ الكُفرِ إلى دارِ الإسلامِ، وجاهدوا في سبيلِ اللهِ؛ فأولئك معكم- أيُّها المُهاجِرونَ والأنصارُ- وذَوُو القراباتِ أَوْلى بالتَّوارُثِ بينهم في كتابِ اللهِ؛ إنَّ اللهَ بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى للأَسْرى أنَّ الخيرَ الذي لم يَطَّلِعْ عليه من قُلوبِهم غيرُ اللهِ، لا يَنفَعُهم في إسقاطِ الفِداءِ عنهم- لأنَّه لا دليلَ عليه، وكُلُّ ما لا دليلَ عليه فحُكمُه حُكمُ العَدَمِ؛ لأنَّ مَبنى الشَّرعِ على ما يُمكِنُ المُكَلَّفَ مَعرِفَتُه وهو الظَّواهِرُ- وخَتَمَ بصِفَتَي العِلمِ والحِكمةِ؛ شَرَعَ يُبَيِّنُ الخَبَرَ الذي يُفيدُ القُربَ الذي تنبني عليه المُناصَرةُ وكُلُّ خَيرٍ[1].

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ مُحكَمةٌ[2].

وقيل: بل هيَ مَنسوخةٌ بِقَولِه تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ [الأحزاب: ٦]، أو قَولِه في آخِرِ سُورةِ الأنفالِ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾[3] [الأنفال: ٧٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٣٦).

(٢) وهو قولُ ابنِ جريرٍ، وقوَّاه الرَّازي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٦، ٥١٧).

(٣) هو قَولُ أكثر المفسِّرينَ، ونقله الواحديُّ عن جميعِهم. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للقاسم بن سلَّام (١/ ٢٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٤، ٢٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٨٣)، ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢).
قال ابنُ كثير: (آخى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بين المُهاجرين والأنصارِ، كلُّ اثنينِ أخَوانِ،

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّه قال في قَولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ قال: (فكانَ الأعرابيُّ لا يرثُ المهاجرَ، ولا يرثُهُ المهاجرُ، فنَسخَتْها، فقالَ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾)[1].

وعن ابنِ عبَّاسٍ أيضًا، قال: (كان المُهاجرونَ حين قَدِموا المدينةَ يَرِثُ الأنصاريُّ المُهاجريَّ دونَ ذَوي رَحِمِه؛ لِلأُخوَّةِ التي آخى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بينهم)[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: إنَّ المُهاجرينَ الذينَ آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وهجَروا قَومَهم، وتَركوا دُورَهم، وخَرَجوا من أوطانِهم، وأنفَقوا أموالَهم؛ لِنُصرة دينِ اللهِ،

فكانوا يتوارَثونَ بذلك إرثًا مُقَدَّمًا على القرابةِ، حتى نسَخَ الله تعالى ذلك بالمواريثِ؛ ثبَت ذلك في ((صحيح البخاري))، عن ابنِ عبَّاس، ورواه العوفيُّ، وعليُّ بنُ أبي طلحةَ، عنه، وقاله مجاهدٌ، وعكرمةُ، والحسنُ، وقتادةُ، وغيرُهم. ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٥).

تنبيه: أكثرُ القائلين بنَسخِ هذه الآية ذَكَروا أنَّ الآية الناسخة لها هي قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ [الأنفال: ٧٥]، [الأحزاب: ٦] ولم يُعَيِّنوا آيةَ الأنفالِ أو آيةَ الأحزابِ، ولفظُ الآيتين واحدٌ، وبعضُهم نصَّ على أنَّ المراد آيةُ الأحزاب، منهم قتادةُ، وعِكرمةُ، والنَّحاسُ. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لقتادة (ص: ٤٣)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٤٧٥).

ومنهم من نصَّ على أن المرادَ آيةُ الأنفالِ، منهم: الزُّهري، وابنُ حزمٍ. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للزهري (ص: ٢٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٣٩).

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٢٤)، والقاسم بن سَلَّام في ((الأموال)) (٥٢٧)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٢٥٢٨)، والضياء في ((المختارة)) (٣٥٧).

قال الألباني في ((صحيح أبي داود)) (٢٩٢٤): (حسنٌ صحيحٌ).

(٢) رواه البخاري (٦٧٤٧).

وبالَغُوا في إتعابِ أنفُسِهم وبَذلِها في حَربِ الكافرينِ؛ لإعلاءِ كَلِمةِ الله تعالى[١].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾.

أي: والأنصارَ أهلَ المدينةِ، الذينَ ضمُّوا إليهم النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأصحابَه المهاجرين، فأسكَنُوهم منازِلَهم، وواسَوْهم بأموالِهم، ونَصَرُوهم على أعدائِهم[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾.

قيل: معناها: يَرِثُ بَعضُهم بعضًا دون قَراباتِهم مِن المُشركينَ، على القولِ بأنَّها منسوخةٌ[٣].

وقيل: المعنى: أولئك المُهاجِرونَ والأنصارُ، بعضُهم أنصارُ بعضٍ، وأعوانٌ على مَن سِواهم مِن المُشركينَ، وذلك على القولِ بأنَّها محكمة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٤).

(٣) وهو قَولُ ابنِ عبَّاسٍ، ومجاهدٍ، وعِكرِمةَ، والحسنِ، وقتادة، وجمهورِ المفسرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٤)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٥).

قال ابنُ عاشور: (حَمَلَها ابنُ عبَّاسٍ على ما يشمَلُ الميراثَ... وهذا قولُ مُجاهدٍ وعِكرمةَ وقتادة والحَسَن، ورُوِيَ عن عُمَرَ بن الخطَّابِ، وابنِ مَسعود، وهو قولُ أبي حنيفة وأحمدَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٥).

(٤) وهو قولُ ابنِ جريرٍ، والرازي، وأبي حيان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٩)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((المؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ؛ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا، وشبَّك بينَ أصابِعِه))[١].

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مثَلُ المؤمنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم، مَثَلُ الجَسَدِ؛ إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى))[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾.

أي: والمُؤمنونَ الذين لم يُفارِقُوا بعدُ بلادَ الكُفرِ إلى بلادِ الإسلامِ؛ فَلَستُم- أيُّها المؤمنونَ- مكلَّفينَ بِحِمايتِهم ونُصرَتِهم، ولا إرْثَ بينكم، وليسَ لهم في المغانِمِ نَصيبٌ، حتى يُهاجِروا مِن دارِ الكُفرِ إلى دارِ الإسلامِ[٣].

وعن بُريدةَ رَضِيَ الله عنه، قال: كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أمَّرَ أميرًا على جيشٍ أو سَرِيَّةٍ، أوصاه في خاصَّتِه بِتَقوى اللهِ، ومَن مَعَه من المسلمينَ خَيرًا، ثم قال: ((اغْزُوا باسمِ اللهِ في سبيلِ اللهِ، قاتِلُوا مَن كَفَر باللهِ، اغْزُوا ولا تَغُلُّوا، ولا تَغدِرُوا، ولا تَمْثُلُوا[٤]، ولا تَقتُلوا وَليدًا، وإذا لَقِيتَ عَدُوَّكَ

الرازي)) (١٥/ ٥١٦، ٥١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٧).

قال ابنُ عاشور: (قال كثيرٌ مِن المُفَسِّرين: هذه الوَلايةُ هي في المُوالاة والمُؤازرة والمُعاونة دُونَ الميراثِ؛ اعتدادًا بأنَّها خاصَّةٌ بهذا الغَرَضِ، وهو قولُ مالك بن أنس، والشافعي، ورُوي عن أبي بكر الصِّديق، وزيدِ بنِ ثابت، وابنِ عُمرَ، وأهلِ المدينةِ)). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٥).

(١) رواه البخاري (٢٤٤٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٧).

(٤) مَثَلَ به يَمثُلُ: إذا نكَّلَ به، وقَطَعَ أطرافَه. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٩٠)، ((مرقاة

مِن المُشركين، فادْعُهم إلى ثلاثِ خِصالٍ- أو خِلالٍ- فأيَّتُهنَّ ما أجابوكَ فاقبَلْ منهم، وكُفَّ عنهم، ثم ادْعُهم إلى الإسلامِ، فإنْ أجابوك فاقبَلْ منهم، وكُفَّ عنهم، ثمَّ ادعُهم إلى التَّحَوُّلِ مِن دارِهم إلى دارِ المُهاجِرينَ، وأخبِرْهم أنَّهم إن فَعَلُوا ذلك فلَهم ما للمُهاجرينَ، وعليهم ما على المُهاجرينَ، فإن أبَوْا أن يتحَوَّلوا منها فأخبِرْهم أنَّهم يكونونَ كأعرابِ المُسلِمينَ؛ يَجري عليهم حُكمُ اللهِ الذي يجري على المُؤمنينَ، ولا يكونُ لهم في الغَنيمةِ والفَيءِ شَيءٌ، إلَّا أن يُجاهِدوا مع المُسلمينَ، فإنْ هُم أبَوْا فسَلْهُم الجِزيةَ، فإنْ هم أجابوك فاقبَلْ منهم، وكُفَّ عنهم، فإن هُم أبَوْا فاستَعِنْ باللهِ وقاتِلْهم))[1].

﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾.

أي: وإن طلَبَ منكم هؤلاءِ- الذينَ آمَنوا ولم يُهاجِروا- أن تَنصُروهم على الكُفَّارِ في قتالٍ دينيٍّ؛ لأنَّكم إخوانُهم في الدِّينِ- فعليكم نَصرُهم، ولا تَخذُلوهم[2].

﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ﴾.

أي: إلَّا إذا طلَبَوا منكم أن تَنصُروهم على قومٍ مِن الكُفَّارِ بينكم وبينهم عهدٌ مؤكَّدٌ على تَركِ الحَربِ، فلا تَغدِروا بالكُفَّارِ بِنَقضِ ذلك العَهدِ[3].

المفاتيح)) للملا الهروي (٦/ ٢٥٢٨).

(١) رواه مسلم (١٧٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير))

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على ما تَعملونَ- أيُّها المُؤمِنونَ- بصيرٌ به، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم، فلا تُخالِفوا ما أمَرَكم به؛ لئلَّا يَحِلَّ بكم عِقابُه[١].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّ المُؤمِنينَ بَعضُهم أولياءُ بَعضٍ، قطَعَ المُوالاة بينهم وبين الكُفَّارِ؛ فالمُؤمِنونَ أحَقُّ أن يوالِيَ بَعضُهم بعضًا، ويترُكوا مُوالاةَ الكافرينَ وإن كانوا أقارِبَ، فقال تعالى[٢]:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾.

أي: والكُفَّارُ بَعضُهم أعوانُ بَعضٍ؛ يَرِثُ بَعضُهم بعضًا، ويتَناصَرونَ فيما بَينَهم على قتالِ المُسلمينَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ

(٤/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٠).

وقال السعدي: (﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ يعلَمُ ما أنتم عليه من الأحوالِ، فيَشرَعُ لكم من الأحكامِ ما يَليقُ بكم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٠ - ٢١٢).

وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

وعن أُسامةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا يَرِثُ المُسلِمُ الكافِرَ، ولا الكافِرُ المُسلِمَ))[(١)].

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

أي: إن لم تَفعَلوا- أيُّها المؤمِنونَ- ما أمَرْتُكم به مِن تَوَلِّي بعضِكم بعضًا، وتَرْكِ مُوالاةِ الكافرينَ[(٢)]؛ تقَعْ في الأرضِ فتنةٌ عظيمةٌ بينَ النَّاسِ، وفَسادٌ عَريضٌ في الدِّينِ والدُّنيا[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٦٧٦٤) واللفظ له، ومسلم (١٦١٤).

(٢) قال ابنُ جُزي: (﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (إلَّا) هنا مركَّبةٌ مِن (إنِ الشَّرطية) و (لا النَّافية)، والضَّميرُ في ﴿تَفْعَلُوهُ﴾ لِولايةِ المُؤمِنينَ ومُعاوَنَتِهم، أو لِحِفظِ المِيثاقِ الذي في قَولِه: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾، أو النَّصرِ الذي في قَولِه: ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٣٠). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٩).
قال الشنقيطي: (والتَّحقيقُ الذي لا شَكَّ فيه- إن شاء اللهُ- أنَّ الضَّميرَ (الهاء) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ عائِدٌ إلى ما ذكَرَه الله جلَّ وعلا مِن وَلايةِ المُسلِمينَ بَعضِهم بعضًا، ومُقاطَعَتِهم للكُفَّارِ، ووَلايةِ الكُفَّارِ بعضِهم بعضًا). ((العذب النمير)) (٥/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٤ - ٢١٦).
قال ابنُ عطية: (الفتنةُ: المِحنةُ بالحَربِ، وما انجَرَّ معها من الغاراتِ والجلاءِ والأسْر، والفسادُ الكبير: ظهورُ الشِّركِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٧).
وقال الزمخشري: (لأنَّ المسلمينَ ما لم يصيروا يدًا واحدةً على الشِّركِ، كان الشِّركُ ظاهِرًا،

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ

والفَسادُ زائدًا). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٠).

وذهَب ابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي إلى أنَّ المرادَ اختلاطُ المؤمِنِ بالكافرِ وما ينتُجُ عنه من الْتباسِ الحَقِّ بالباطِلِ، وأضرارٍ أُخرَى كثيرةٍ نتيجةَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٥) (٥/ ٢١٦).

وقال ابن الجوزي: (إذا لم يتولَّ المؤمنُ المؤمنَ تولِّيًا حَقًّا، ويتبرَّأْ مِن الكافرِ جِدًّا؛ أدى ذلك إلى الضَّلالِ والفَسادِ في الدِّينِ). ((زاد المسير)) (٢/ ٢٢٨).

وقال الشِّنقيطي: (وهذا المُشاهَدُ الآن؛ فإنَّ مَن يُسَمَّونَ بالمُسلمينَ تَوَلَّوا الكفَّارَ وقاطعوا المُسلمين، وصار هذا الكافِرُ وهذا المُسلِمُ يزعُمانِ أنَّهما أخوانِ، وأنَّهما تجمَعُهما العَصَبيَّةُ الفُلانيَّة، أو القوميَّةُ الفلانيَّة، وأنَّ هذه الدَّولة الكافرة صَديقةٌ، وأنَّ هَذينِ الشَّعبينِ شَقيقانِ وما جرى مجرى ذلك! فلم يفعلوا ما أمَرَ الله بأن يَفعَلوه، فكانت فتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبيرٌ، ومِن عظم هذه الفتنةِ اختلاطُ الحابِلِ بالنَّابلِ؛ لأنَّ المُسلمين إذا صادَقوا الكفَّارَ أعانوهم على أذيَّةِ المسلمينَ، وقَتلِهم، وكُلِّ ما يريدونَه بهم، وأطلَعُوهم على عَوْراتِهم، إلى غير ذلك، فانتشَرَ في الدُّنيا الفسادُ العريضُ العظيمُ، وانتشرت الفتنةُ، وهذا مُشاهَدٌ يجب على المؤمنينَ أن يعتَبِروا بهذا، فيقطَعُوا وَلايَتَهم من جميعِ الكُفَّارِ، ويَصْدُقوا وَلايةَ بعضِهم لبعضٍ؛ لِئَلَّا تتمادى بهم هذه الفِتنةُ والفسادُ الكبير... ووصْفُ هذا الفسادِ بالكبيرِ؛ لأنَّه ضياعُ دِينٍ، وضَعْفُ إسلامٍ، وقُوَّةُ كُفَّارٍ، واطِّلاعُهم على عَوْراتِ المُسلمين بواسطةِ مَن يُصادِقُهم ويُواليهم مِن المسلمينَ، إلى غير ذلك من البلايا). ((العذب النمير)) (٥/ ٢١٦، ٢١٨).

وقال محمد رشيد رضا: (الأظهَرُ أنَّ الفِتنةَ في الأرضِ: اضطهادُهم المسلمينَ، وصَدُّهم عن دينِهم... وهي مِن لوازِمِ قُوَّةِ الكُفرِ وسُلطانِ أهلِه... كذلك الفسادُ الكبيرُ مِن لوازِمِ ضَعْفِ الإسلامِ الذي يوجِبُ على أهله تولِّي بعضِهم لبعضٍ في التَّعاوُنِ والنُّصرةِ، وعَدَمِ تولِّي غيرِهم مِن دُونِهم... ومَن وقَفَ على تاريخِ الدُّوَلِ الإسلاميَّةِ التي سقَطَت وبادَتْ، والتي ضعُفَت بعد قوَّةٍ؛ يرى أنَّ السَّبَبَ الأعظَمَ لِفَسادِ أَمْرِها، تَرْكُ تلك الوَلايةِ، أو استبدالُ غيرِها بها). ((تفسير المنار)) (١٠/ ١٠٠).

ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤ - ٥٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقدَّمَت أنواعُ المؤمنينَ: المهاجِرُ والنَّاصِرُ والقاعِدُ، وذكَرَ أحكامَ مُوالاتِهم- أخذَ يبيِّنُ تفاوُتَهم في الفَضْلِ[1]، فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾.

أي: والمؤمِنونَ المُهاجِرونَ الذين قاتَلوا الكُفَّارَ؛ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، والأنصارُ الذين ضمُّوا مَن هاجَرَ إليهم، ونَصَرُوهم، ونَصَروا دينَ اللهِ- أولئك هم الكامِلونَ في الإيمانِ، الذين حقَّقوا إيمانَهم بفِعلِ ما يقتضيه مِن الهِجرةِ، والنُّصرةِ، والجهادِ في سَبيلِ اللهِ[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٤٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣١٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٢٤).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى حُكمَ المُؤمِنينَ في الدُّنيا، عطَفَ بذِكرِ ما لهم في الآخِرَةِ، فقال[1]:

﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: للمُهاجِرينَ والأنصارِ مَغفرةٌ تامَّةٌ مِن اللهِ تعالى، فيستُرُ ذُنوبَهم، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذَتِهم بها، ولهم رزقٌ حسنٌ كثيرٌ، هَنيءٌ طَيِّبٌ[2].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حصَرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ حقًّا في الموصوفينَ؛ بيَّنَ أنَّ مَن ترَكَ ما هو عليه مِن لُزومِ دارِ الكُفرِ، والقُعودِ عن الجِهادِ؛ لَحِقَ بمُطلَقِ دَرَجتِهم، وإنْ كانوا فيها أعلى منه[3].

وأيضًا بعدَ أن مَنَع اللَّه ولايَةَ المسلمِينَ للَّذينَ آمنوا ولم يهاجروا بالصَّراحَةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٢٧).

ذهَب ابنُ جريرٍ، والرازي وابنُ كثيرٍ، والشِّنقيطي وغيرُهم إلى أنَّ الرِّزقَ الكريمَ لهم في الآخرةِ، وذهَب السعدي إلى ذلك إلَّا أنَّه قال: (وربما حصَلَ لهم من الثَّوابِ المُعَجَّلِ ما تَقَرُّ به أعينُهم، وتطمئِنُّ به قلوبُهم). وأمَّا الشوكاني فاختار أنَّ الرِّزقَ الكريمَ لهم في الدُّنيا. يُنظر: المصادر السابقة.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٤٨).

ابْتِداءً، ونَفَى عن الَّذين لم يُهاجِروا تحقيقَ الإيمانِ، وكان ذلك مُثيرًا في نُفوسِ السَّامِعينَ أن يتَساءَلوا: هل لأولئك تمَكُّنٌ مِن تَدارُكِ أمرِهم برَأْبِ هذه الثُّلْمَةِ عنهم، ففَتَح اللَّه بابَ التَّدارُكِ بهذه الآيةِ[(١)]، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾.

أي: والَّذِينَ آمنوا مِن بَعدِ بَيانِ أمْرِ تَوَلِّي المُهاجرين والأنصارِ بعضِهم بعضًا، وانقِطاعِ وَلايَتِهم مِمَّن آمَن ولم يُهاجِرْ حتَّى يُهاجِرَ[(٢)]، وهاجَروا مِن دار الكُفر إلى دارِ الإسلامِ، وجاهَدوا في سبيلِ اللهِ معكم- أيُّها المهاجرونَ والأنصارُ-

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠٠).

قال أبو حيان: (معنى: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ مِن بعدِ الهِجرةِ الأولى، وذلك بعد الحُديبيَّة، قاله ابنُ عبَّاسٍ... وذلك أنَّ الهجرةَ مِن بعدِ ذلك كانت أقلَّ رُتبةً مِن الهجرةِ قبلَ ذلك، وكان يُقالُ لها: الهجرةُ الثَّانية؛ لأنَّ الحَربَ وَضَعَت أوزارَها نحو عامينِ، ثمَّ كان فتحُ مكَّةَ. وبه قال عليه السلام: «لا هِجرةَ بعدَ الفَتحِ». وقال ابن جرير: من بعدِ ما بيَّنْتُ حُكمَ الوَلاية، فكان الحاجِزُ بين الهجرتينِ نُزولَ الآية، فأخبرَ تعالى في هذه الآيةِ أنَّهم من الأوَّلِينَ في المُؤازرةِ وسائِرِ أحكامِ الإسلامِ، وقيل: مِن بَعدِ يَومِ بَدرٍ، وقال الأصم: مِن بعدِ الفَتحِ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٢٨).

وقال ابنُ عاشورٍ: (قولُه: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ قَرينَةٌ على أنَّ المُرادَ: إذا حَصلَ منهم ما لم يَكُنْ حاصلًا في وقتِ نُزولِ الآياتِ السَّابِقَةِ، ليكونَ أصحابُ هذه الصِّلَةِ قِسْمًا مُغايِرًا للأقسامِ السَّابِقَةِ. فليس المَعْنَى أنَّهم آمَنُوا مِنْ بَعْدِ نزولِ هذه الآيةِ، لأنَّ الَّذين لم يكونوا مؤمنينَ ثُمَّ يؤمِنونَ مِن بعدُ لا حاجةَ إلى بيانِ حُكْمِ الاعتدادِ بإيمانِهم، فإنَّ مِن المعلومِ أنَّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قبلَه، وإنَّما المقصودُ: بيانُ أنَّهم إنْ تَدارَكوا أمرَهُم بأن هاجروا قُبِلوا وصاروا مِن المؤمِنينَ المُهاجِرينَ، فيتعَيَّنُ أنَّ المضافَ إليه المحذوفَ الَّذي يشيرُ إليه بناءُ ﴿بَعۡدُ﴾ على الضَّمِّ أنَّ تقديرَه: مِن بعدِ ما قلْناه في الآياتِ السَّابقةِ، وإلَّا صار هذا الكلامُ إعادةً لبعضِ ما تقَدَّم، وبذلك تسقطُ الاحتِمالاتُ الَّتي تَرَدَّدَ فيها بعضُ المفسِّرينَ في تقديرِ ما أُضيفَ إليه ﴿بَعۡدُ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٠).

وقال القاسمي: (وهل المرادُ مِن قولِه ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ هو مِن بعدِ الهجرةِ الأُولَى، أو مِن بعدِ الحديبيةِ، وهي الهجرةُ الثانيةُ، أو مِن بعدِ نزولِ هذه الآيةِ، أو مِن بعدِ يومِ بدرٍ؟ أقولُ: اللفظُ الكريمُ يعمُّها كلَّها، والتخصيصُ بأحدِهما تخصيصٌ بلا مخصِّصٍ). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٣٧).

فأولئك منكم في الوَلايةِ؛ فلهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، مِن حَقِّ النُّصرةِ وغَيرِها، وهم معكم في الآخرةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وعن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المَرءُ مع مَن أحَبَّ))[٢].

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وذَوُو القَراباتِ أَوْلى بالتَّوارُثِ بينهم[٣] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٣٢).

(٢) رواه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠).

(٣) قال أبو حيان: (من قال: إنَّ قَولَه في المؤمنينَ المهاجرينَ والأنصارِ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في المواريثِ بالأخوَّةِ التي كانت بينهم، قال: هذه في المواريثِ، وهي نَسْخٌ للميراثِ بتلك الأُخُوَّةِ، وإيجابُ أن يَرِثَ الإنسانُ قَريبَه المؤمِنَ وإن لم يكُن مهاجرًا، واستدلَّ بها أصحابُ أبي حنيفةَ على توريثِ ذوي الأرحامِ، وقالت فِرقةٌ- منهم مالكٌ-: ليست في المواريثِ، وهذا فِرارٌ عن توريثِ الخالِ والعَمَّةِ ونحو ذلك، وقالت فِرقةٌ: هي في المواريثِ إلَّا أنَّها نَسَخَتْها آيةُ

في حُكمِ اللَّه وشَرْعِه[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللَّهَ عالِمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومن ذلك عِلمُه بما يَصلُحُ لِعِبادِه؛ فكُلُّ ما شَرَعَه لهم فهو مُوافِقٌ للحِكمةِ، كتَوريثِه بعضِهم مِن بَعضٍ بِسَبَبِ القَرابةِ والنَّسَبِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فيه تَحذيرٌ لِلمُسلمينَ؛ لِئلَّا يَحمِلَهم العَطفُ على المُسلمينَ، على أن يُقاتِلوا قَومًا بينهم وبينهم مِيثاقٌ، وفي هذا التَّحذيرِ تَنويهٌ بِشَأنِ الوَفاءِ بالعَهدِ، وأنَّه لا يَنقُضُه إلَّا أمرٌ صَريحٌ في مُخالَفتِه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ دَلالةٌ

المواريثِ المبيِّنةُ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٠).

وقال الرازي: (الذين فَسَّروا تلك الآيةَ بالنُّصرةِ والمحبَّةِ والتعظيم، قالوا: إنَّ تلك الوَلايةَ لَمَّا كانت مُحتمِلةً للوَلايةِ بسبَبِ الميراثِ، بيَّن الله تعالى في هذه الآيةِ أنَّ وَلايةَ الإرْثِ إنَّما تحصُلُ بسبَبِ القَرابةِ، إلَّا ما خصَّه الدَّليلُ، فيكون المقصودُ مِن هذا الكلامِ إزالةَ هذا الوَهمِ، وهذا أَوْلى؛ لأنَّ تكثيرَ النَّسْخِ من غيرِ ضَرورةٍ ولا حاجةٍ، لا يجوزُ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٩، ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٣٢ - ٢٣٦).

وممَّن اختار أنَّ المُرادَ بكتاب الله هنا: حُكمُه وشَرْعُه: ابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشِّنقيطي، ونسبه لجُمهورِ العُلَماء. يُنظر: المصادر السابقة.

واختار ابنُ جرير أنَّ المرادَ به: اللَّوحُ المحفوظُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠١).

واختار أبو حيَّان أنَّ المرادَ به: القُرآنُ الكريمُ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٧).

على وُجوبِ إغاثةِ المَلهوفِ، ونَصْرِ المظلومِ، وإنْ كان بعيدًا[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ في قَولِه ﴿بَصِيرٞ﴾ إشارةٌ إلى العِلمِ بما يكونُ من ذلك خالِصًا أو مَشوبًا؛ ففيه مزيدُ حَثٍّ على الإخلاصِ[٢].

٤- تركُ موالاةِ المؤمنينَ، ومعاداةِ الكافرينَ يحصل به من الشَّرِّ ما لا ينحصِرُ؛ مِن اختلاطِ الحَقِّ بالباطِلِ، والمؤمِنِ بالكافِرِ، وعَدَمِ كثيرٍ من العِباداتِ الكِبارِ- كالجِهادِ والهِجرة- وغيرِ ذلك مِن مقاصِدِ الشَّرعِ والدِّينِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾، فإذا لم يتولَّ المؤمِنُ المؤمِنَ تولِّيًا حقًّا، ويتبرَّأْ مِن الكافِرِ جِدًّا، أدَّى ذلك إلى الضَّلالِ والفَسادِ في الدِّينِ، فإذا هجَرَ المُسلِمُ أقارِبَه الكُفَّارَ، ونَصَرَ المُسلمينَ، كان ذلك أدْعَى لأقارِبِه الكُفَّارِ إلى الإسلامِ، وتَرْكِ الشِّركِ[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ هذه السَّعاداتُ العالية إنَّما حصَلَت؛ لأنَّهم أعرَضوا عن اللَّذَّاتِ الجُسمانيَّة، فتركوا الأهلَ والوَطَنَ، وبَذَلوا النَّفْسَ والمالَ[٥].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٧).
(٤) يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٢٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩).

ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ لَمَّا بيَّنَ اللهُ هنا وَصْفَهم، بيَّن ما حَباهم به بِقَولِه- دالًّا على أنَّ الإنسانَ محَلُّ النُّقصانِ؛ فهو وإن اجتهَدَ حتى كان من القِسمِ الأعلى، لا ينفَكُّ عن مُواقعةِ ما يَحتاجُ فيه إلى الغُفرانِ-: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ أي: لِزَلَّاتِهم وهَفَواتِهم؛ لأنَّ مبنى الآدميِّ على العَجزِ اللَّازِمِ عنه التَّقصيرُ وإن اجتهَدَ، والدِّينُ مَتينٌ، فلن يُشادَّه أحَدٌ إلَّا غَلَبَه[1].

٨- أوجبَ اللهُ تعالى مُوالاةَ المُؤمِنينَ بَعضِهم لبعضٍ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾[2].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ عُلِّقَت أولويَّةُ الأرحامِ بأنَّها كائنةٌ في كتابِ اللهِ، أي: في حُكمِه، فهذا الاعتناءُ مُؤذِنٌ بما لِوَشائِجِ الأرحامِ من الاعتبارِ في نظَرِ الشَّريعةِ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هؤلاء موصوفونَ بهذه الصِّفاتِ الأربَعِ:

أولها: أنَّهم آمَنُوا باللهِ ومَلائِكَتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ، وقَبِلوا جميعَ التَّكاليفِ التي بلَّغَها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولم يتمَرَّدوا.

والصفة الثانية: قولُه: ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ يعني: فارَقوا الأوطانَ، وتَرَكوا الأقارِبَ والجيرانَ؛ في طَلَبِ مرضاةِ الله، ومعلومٌ أنَّ هذه الحالةَ حالةٌ شديدةٌ.

والصفة الثالثة: قَولُه: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أمَّا المجاهدةُ بالمالِ، فلأنَّهم لَمَّا فارقوا الأوطانَ، فقد ضاعَت دُورُهم ومَساكِنُهم

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٤٧).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٤١٨-٤١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٢).

وضِياعُهم ومزارِعُهم، وبَقِيَت في أيدي الأعداءِ، وأيضًا فقد احتاجُوا إلى الإنفاقِ الكثيرِ؛ بسبَبِ تلك العزيمةِ، وأيضًا كانوا يُنفِقونَ أموالَهم على تلك الغَزَواتِ، وأمَّا المُجاهدةُ بالنَّفسِ فلأنَّهم كانوا أقدَموا على مُحارَبةِ بَدرٍ مِن غيرِ آلةٍ ولا أُهْبةٍ ولا عِدَّةٍ، مع الأعداءِ الموصوفينَ بالكثرةِ والشِّدَّةِ، وذلك يدلُّ على أنَّهم أزالوا أطماعَهم عن الحياةِ، وبَذَلوا أنفُسَهم في سبيلِ الله.

وأمَّا الصفة الرابعة: فهي أنَّهم كانوا أوَّلَ النَّاسِ إقدامًا على هذه الأفعالِ، والتزامًا لهذه الأحوالِ، ولهذه السَّابقةِ أثَرٌ عَظيمٌ في تقويةِ الدِّينِ. قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وإنما كان السَّبقُ مُوجِبًا للفَضيلةِ؛ لأنَّ إقدامَهم على هذه الأفعالِ يُوجِبُ اقتداءَ غَيرِهم بهم، فثبَتَ أنَّ حُصولَ هذه الصِّفاتِ الأربَعِ للمُهاجرينَ الأوَّلِينَ، يدلُّ على غايةِ الفَضيلةِ ونهايةِ المَنقبةِ، وأنَّ ذلك يُوجِبُ الاعترافَ بِكَونِهم رُؤساءَ المُسلِمينَ وسادةً لهم[(١)].

٢- الهِجرةُ لا تنقطِعُ أبدًا، إلَّا أنَّ الهِجرةَ المخصوصةَ التي كانت إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه بالمدينةِ، هي التي انقطَعَت بفتحِ مكَّةَ؛ لانتشارِ الإسلامِ في جزيرةِ العَرَبِ، قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا هِجرةَ بعد الفَتحِ، ولكِنْ جِهادٌ ونِيَّةٌ))[(٢)]، أمَّا الهجرةُ التي لا تنقطِعُ، فهي أنَّ كلَّ إنسانٍ تُعُرِّضَ له في دينِه، وصار لا يقدِرُ على إقامةِ شَعائِرِ دِينِه في محَلٍّ، فواجِبٌ عليه- بإجماعِ العُلَماءِ- أن ينتقِلَ من هذا المحَلِّ، ويبذُلَ في ذلك كلَّ مَجهودٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٥، ٥١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

حتى يصِلَ إلى محَلٍّ يتمكَّن فيه من إقامةِ شَعائِرِ دِينِه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[١].

٣- في قَولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قدَّم الأموالَ على الأنفسِ، وفي ذلك أوجهٌ:

الأول: أنَّ الأموالَ كانت في غايةِ العِزَّةِ في أوَّلِ الأمرِ[٢].

الثاني: أنَّ الجهادَ بالمالِ أخفُّ على النفوسِ مِن الجهادِ بالنفس، فسلَك في ذلك مسلكَ الترقِّي مِن الأدنَى إلى الأعلَى[٣].

الثالث: أنَّ الأموالَ قوامُ الأنفسِ، فمَن بذَل مالَه كلَّه لم يبخَلْ بنفسِه؛ لأنَّ المالَ قوامُها[٤].

الرابع: حرصُ الكثيرِ عليها، حتى أنَّهم يُهلكون أنفسَهم بسببِها، فالنَّاس يُقاتِلون دونَ أموالِهم؛ فإنَّ المجاهِدَ بالمالِ قد أَخرجَ مالَه حقيقةً لله، أمَّا المجاهدُ بنَفسِه لله فإنَّه يرجو النَّجاةَ، ولهذا أكثرُ القادرينَ على القتالِ يَهونُ على أحَدِهم أنْ يُقاتِلَ؛ ولا يَهونُ عليه إخراجُ مالِه[٥].

الخامس: أنَّها هي التي يُبدأُ بها في الإنفاقِ، والتجهُّزِ إلى الجهادِ، فرتَّب الأمرَ كما هو نفسُه[٦].

السادس: أنَّ ضرورةَ الجهادِ بالمالِ أكثرُ مِن ضرورتِها بالنفسِ، حتى أنَّ الذي

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٣).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٣٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٢/ ٣٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٧٨).
(٥) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣١٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٤).

يجاهدُ بنفسِه محتاجٌ إلى المالِ، فما الذي يُوصله إلى ميدانِ القتالِ إلا الأموالُ[١].

٤- قَوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ يُوهِمُ أنَّهم لَمَّا لم يُهاجِرُوا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سقَطَت وَلايَتُهم مُطلقًا، فأزال اللهُ تعالى هذا الوَهمَ بِقَولِه: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ يعني: أنَّهم لو هاجَرُوا لعادَتْ تلك الوَلايةُ وحصَلَت، والمقصودُ منه الحَملُ على المُهاجرةِ والتَّرغيبُ فيها؛ لأنَّ المُسلِمَ متى سمِعَ أنَّ اللهَ تعالى يقولُ: إنْ قَطَعَ المُهاجَرةَ انقطَعَت الوَلايةُ بينه وبين المُسلمينَ، ولو هاجَرَ حَصَلت تلك الوَلايةُ، وعادَتْ على أكمَلِ الوُجوهِ- فلا شَكَّ أنَّ هذا يصيرُ مُرَغِّبًا له في الهجرةِ، والمقَصودُ مِن المُهاجَرةِ كَثرةُ المُسلِمينَ واجتماعُهم، وإعانةُ بَعضِهم لبعضٍ، وحصولُ الأُلفةِ والشَّوكةِ وعدَمُ التَّفرقةِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المخلوقَ يجوزُ له أنْ يَطْلُبَ مِن المَخلوقِ ما يَقْدِرُ عليه مِن الأُمورِ- دونَ ما لا يَقْدِرُ عليه إلَّا اللهُ؛ فإنَّه لا يُطْلَبُ إلَّا مِنه سُبحانَه[٣].

٦- إذا أراد العَدُوُّ الهُجومَ على المُسلِمينَ؛ فإنَّه يصيرُ دَفعُه واجبًا على المقصودينَ كلِّهم، وعلى غيرِ المَقصودينَ لإعانَتِهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ﴾، وأمَر النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بنصرِ المسلمِ، وهذا يجبُ بحسبِ الإمكانِ على كلِّ أحدٍ بنَفْسِه ومالِه، مع القلَّةِ والكثرةِ، والمشيِ والرُّكوبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٠٣، ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥٨).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ استدَلَّ به بعضُ العُلَماءِ على أنَّ الكُفَّارَ في المُوارَثةِ- مع اختلافِ مِلَلِهم- كأهلِ مِلَّةٍ واحدةٍ؛ فالمجوسيُّ يَرِثُ الوَثَنيَّ، والنَّصرانيُّ يرِثُ المجوسيَّ(١).

٨- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ هذه العبارةُ ترغيبٌ وتحريضٌ، وإقامةٌ لنفوسِ المؤمنينَ، كما تقولُ لِمَن تُريدُ تحريضَه: عدُوُّك مُجتَهِدٌ، أي: فاجتَهِدْ أنت(٢).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ ليس بتكرارٍ لِما سبَقَ في قَولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [الأنفال: ٧٢]؛ وذلك لأنَّه تعالى ذَكَرَهم أوَّلًا لِيُبيِّنَ حُكمَهم- وهو وَلايةُ بَعضِهم بعضًا- ثم إنَّه تعالى ذَكَرَهم هاهنا؛ لِبَيانِ تَعظيمِ شَأنِهم، وعُلُوِّ دَرَجتِهم؛ وبيانُه مِن وَجهينِ:

الأول: أنَّ الإعادةَ تدُلُّ على مَزيدِ الاهتمامِ بِحالِهم، وذلك يدُلُّ على الشَّرَفِ العَظيمِ.

والثاني: وهو أنَّه تعالى أثنى عليهم هاهنا، وشرَحَ حالَهم في الدُّنيا وفي الآخرة، أمَّا في الدُّنيا فقد وَصَفَهم بِقَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾ وأمَّا في الآخرةِ فالمَقصودُ إمَّا دَفعُ العِقابِ، وإمَّا جَلبُ الثَّوابِ؛ أمَّا دَفعُ العِقابِ فهو المرادُ بِقَولِه: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ وأمَّا جَلبُ الثَّوابِ فهو المرادُ بِقَولِه: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٦)، ((تفسير الثعالبي)) (٣/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ هذه الشَّهادةُ المَقرونةُ بهذا الجزاءِ العَظيمِ تُرغِمُ أنوفَ الرَّوافِضِ، وتُلقِمُ كلَّ نابحٍ بالطَّعنِ في أصحابِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الحَجَرَ، ولا سيَّما زَعمُهم بأنَّ أكثَرَهم- رَضِيَ اللهُ عنهم وأرضاهم- قد ارتَدُّوا بعده صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

١١- في قولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ رَدٌّ على المرجئةِ؛ حيث أضافَ سبحانَه الهجرةَ والجهادَ والنصرةَ والإيواءَ إلى الإيمانِ، وقد شَهِدَ لقوم في أولِ السورةِ تحقيقَه؛ ولم يَذْكُرْ هذه الشرائطَ، وذَكَرَ لأولئك شرائطَ لم يذكرها لهؤلاء؛ فدلَّ على أنَّ الإيمانَ ذو أجزاءٍ[٢].

١٢- في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ بيانُ أنَّ كلَّ خيرٍ يفعلُه المؤمنُ متقرِّبًا به إلى الله فهو مِن الإيمان- فرضًا كان أو تطوعًا- فالجهادُ والنصرةُ والإيواءَ قد يكونا نافلةً في بعض الأوقاتِ- إذا لم يكن المنصورُ والمُؤْوَى مضطهدًا- والجهادُ إذا قامتْ به طائفةٌ فهو للباقي فضيلةٌ لا فريضةٌ[٣].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾ يدلُّ على أنَّ مَرتبةَ هؤلاءِ دُونَ مَرتبةِ المُهاجِرينَ السَّابقينَ؛ لأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ألحَقَ هؤلاء بهم، وجَعَلَهم منهم في مَعْرِضِ التَّشريفِ، ولولا كَونُ القِسمِ الأوَّلِ أشْرَفَ، وإلَّا لَمَا صَحَّ هذا المعنى[١].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ استدَلَّ به مَن ورَّثَ ذَوي الأرحامِ[٢].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ استدَلَّ به مَن قال: إنَّ القَريبَ أَوْلَى بالصَّلاةِ على الميِّتِ مِن الوالي[٣].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ قَولُه: ﴿أَوۡلَىٰ﴾- هو صِيغةُ تَفضيلٍ- يُفيدُ أنَّ الوَلايةَ بين ذَوِي الأرحامِ لا تُعتبَرُ إلَّا بالنِّسبةِ لِمَحلِّ الوَلايةِ الشَّرعيَّةِ، فأُولو الأرحامِ أَوْلى بالوَلايةِ ممَّن ثبَتَت لهم وَلايةٌ تامَّةٌ أو ناقِصةٌ، كالذينَ آمَنوا ولم يُهاجِروا في وَلايةِ النَّصرِ في الدِّينِ، إذا لم يَقُم دُونَها مانِعٌ مِن كُفرٍ أو تَرْكِ هِجرةٍ، فالمؤمنونَ بَعضُهم لبعضٍ أولياءُ وَلايةَ الإيمانِ، وأولو الأرحامِ منهم بعضُهم لبعضٍ أولياءُ وَلايةَ النَّسَبِ[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾

هذه الآيةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للإعلامِ بأحكامِ مُوالاةِ المسلِمين للمُسلِمين الذين

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٠).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٠).

هاجَروا، والذين لم يُهاجروا، وعدمِ مُوالاتِهم للذين كَفروا[١].

- وفيها حُسْنُ ترتيبٍ، حيثُ بَدَأَ بالمهاجرين؛ لأنَّهم أَصْلُ الإسلامِ، وأوَّلُ مَن استجابَ للهِ تعالى، وكانوا قُدوةً لغيرهم في الإيمانِ، وسببَ تقويةِ الدِّين، وثَنَّى بالأنصارِ؛ لأنَّهم ساوَوْهُم في الإيمانِ، وفي الجهادِ بالنَّفسِ والمالِ، لكِنَّه عادَلَ الهِجرةَ الإيواءُ والنَّصرُ، وانفرَد المهاجِرون بالسَّبقِ، وذَكَر ثالثًا مَن آمن ولم يُهاجِر ولم يَنْصُر؛ ففاتَهم هاتانِ الفضيلتانِ[٢]، فهؤلاءِ بسبَبِ إيمانِهم لهم فَضلٌ وكرامةٌ، وبسبَبِ تَركِ الهِجرةِ لهم حالةٌ نازِلةٌ، وذلك هو أنَّ الوَلايةَ تكون منفيَّةً عنهم، إلَّا أنَّهم يكونونَ بحيثُ لو استَنصَروا المؤمنينَ واستعانوا بهم، نَصَروهم وأعانوهم، وأمَّا الكُفَّارُ فليس لهم البتَّةَ ما يُوجِبُ شيئًا مِن أسبابِ الفضيلةِ، فوجَبَ كَونُ المُسلمين مُنقَطعينَ عنهم مِن كُلِّ الوُجوهِ، فلا يكونُ بينهم وَلايةٌ ولا مُناصرةٌ بوجهٍ مِن الوجوهِ[٣].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه مُناسَبة حَسنةٌ، حيثُ قدَّم هنا في سُورةِ الأنفال ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ على قولِه: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وَعَكَسَ في سورةِ التَّوبةِ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٠]؛ ووجهُ هذه المناسبةِ: أنَّ الآيةَ الأُولَى في سُورةِ الأنفالِ جاءتْ عَقيبَ ما أَنْكره اللهُ تعالى على مَن قال لهم: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وهم أصحابُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا أَسَرُوا المشركين، ولم يَقْتلوهم طَمعًا في الفِداءِ، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٨).

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: فيما أَخْذتُم من هؤلاء الأَسْرى من الفِداءِ، ثم قال تعالى لَمَّا غفَر لهم ما كان منهم مِن تَرْكِ قَتْلِ الأَسْرى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، أي: اسْتَمتِعوا بما نِلْتُم من أموالِ المشركين، وبما أَخْذتُم من فِدائهم، فعقَّبَ ذلك بهذِه الآيةِ التي مَدَح فيها مَن أَنْفَق أموالَه في سبيلِ الله، لا مَن يُجاهدُ طلبًا للنَّفعِ العاجلِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ فقدَّم ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ على قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ ليَعْلموا أنَّ ذلك يَجِب أنْ يكونَ أهمَّ لهم، وأَوْلى بتقديمِه عِنْدهم، صَرفًا لهم عما حرَصوا عليه من فائدةِ الفِداء، بخِلاف الآيةِ التي في سُورةِ التوبةِ، حيثُ قال في إبطالِ ما أَتى به المشرِكون من عِمارةِ المسجدِ الحرامِ، وسِقايةِ الحاجِّ من المقامِ على الكُفْر: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]؛ فكان المندوبُ إليه في هذه الآيةِ بعدَ الإيمان باللهِ الجهادَ في سَبيلِ الله، فقال سبحانه بَعْده مادحًا لِمَن تلقَّى بالطاعةِ أَمْرَه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [التوبة: ٢٠]، ثُمَّ ذَكَر ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، فقُدِّمَ ذِكْرُ ما اقْتَضى المَوضِعُ تقديمَه، وجُعِلَ المالُ والنَّفْسُ أَهمَّ إليهم مِن غيرِهما، وخالَفَ هذا المكانُ قولَه في سُورةِ الأنفالِ، فقُدِّم فيه ما أُخِّر هناك لِذلك[1].

وقيل: لأنَّ سُورةَ الأَنفالِ مقصودٌ فيها مع المِدْحةِ تعظيمُ الواقعِ منهم من الإيمانِ والهجرةِ، والجِهادِ بالأموالِ والأنفسِ، وتَغبيطُهم بما مَنَّ اللهُ عليهم به مِن ذلك، وتفخيمُ فِعْلِهم المُوجِبِ لموالاةِ بعضِهم بعضًا؛ فقُدِّم ذِكْرُ الأموالِ والأَنفُسِ؛ للتَّعريف بمَوقِع ذلك من النُّفوسِ، وأنهم بادَروا بها على حُبِّها،

(١) يُنظر: ((درة التنزيل)) للإسكافي (٢/ ٦٩٦- ٦٩٨).

وشُحِّ الطِّباعِ بها، وليس تأخيرُ هذا المجرورِ كتقديمِه؛ لأنَّه إنَّما يُقدَّمُ حيثُ يُقصَدُ اعتناءٌ وتخصيصٌ وتنبيهٌ على مَوقِعه؛ فإنَّما قُدِّمَ هذا تغبيطًا لهم، وإعظامًا لفِعلهم، أمَّا آيةُ سُورةِ التوبةِ فتعريفٌ بأمرٍ قدْ وقَع، مبنيٌّ على التعريفِ بالمُفاضَلةِ بين سِقايةِ الحاجِّ وعِمارةِ المسجدِ الحرامِ، وبَين مَن آمَن وهاجَرَ، وجاهَدَ في سبيلِ الله بمالِه ونَفْسه؛ بقَصْد رَدِّ مَن ظنَّ أنَّ السِّقايةَ وعِمارةَ المسجدِ الحرامِ أفضلُ، وعَرَف أنَّ الإيمانَ وما ذُكِر معه أعظمُ درجةً عند اللهِ؛ فلم يَعرِضْ هنا داعٍ إلى تَقديمِ ما قُدِّم في الأُخرَى، فتَمخَّضت فضيلةُ ذلك المجرورِ هنا فأُخِّر، والقَصْد تَخصيصُ كنايةِ الإخلاصِ، والتَّخصيصُ مقصودٌ في آيةِ الأنفال، ولم يُقصَد ذلك في آيةِ التوبةِ، ولا وقَع المجرورُ فيها خبرًا؛ فوَجَب بمقتضى اللِّسانِ أنْ يُقدَّم في آيةِ الأنفال قولُه: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ ويُؤخَّرَ في سورة التوبةِ، وقدْ وقَع في كلِّ واحدةٍ من الآيتينِ في كلٍّ مِن السُّورتين ما استدعَى اتصالَ ما بَعْده به، فنَاسَبَ ما ذُكِر، ولم يُناسِب العَكْس؛ وظَهَر وجهُ تَخصيصِ ما وَقَع في كلٍّ من السُّورتَين بموضعِه[1].

وقيل: لأنَّ ما هنا في الأنفال تَقدَّمه ذِكرُ المالِ والفِدَاءِ وَالغنيمَةِ، في قولِه تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾، وقولِه: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾، أي: من الفِداء، وقولِه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ فَقدَّم ذِكرَ المَال، وما في سورة التوبةِ تَقدَّمه ذِكرُ الْجِهَاد، وهو قولُه: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]، وقولُه: ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]؛ فَقدَّم ذِكرَ الجِهادِ في هذه الآي في هذه السُّورَة ثَلاثَ مَرَّات، فأوْرَد في الأُولى: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وحَذَف من الثَّانِيَة ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾؛ اكْتِفاءً بِما في الأُولى، وحذَف مِن الثَّالِثةِ ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾،

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٥).

وزادَ حذْفَ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ اكْتِفاءً بما فِي الآيَتَيْنِ قبلَها؛ فناسبَ ذلك تَقديمَ ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ هنا في الأنفالِ، وتَقديمَ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هناك في التَّوبةِ[١].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فيه مجيءُ اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لإفادةِ الاهْتِمامِ بتَمييزِهم للإخبارِ عنهم، وللتَّعريضِ بالتَّعظيمِ لشأنِهم؛ ولذلك لم يُؤتَ بمِثْله في الإخبارِ عن أحوالِ الفِرَقِ الأُخْرى[٢].

- قولُه: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ خُصَّ الاسْتِنصارُ بالدِّينِ؛ لأنَّ الاستِنصارَ بالحَميَّةِ والعَصبيَّةِ في غيرِ الدِّين منهيٌّ عنه[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ قُدِّم الخَبرُ ﴿فَعَلَيْكُمُ﴾؛ للاهْتِمامِ به[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ جملةٌ مُعترِضةٌ بينَ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، وقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾، والواوُ اعتراضيَّةٌ؛ للتَّنويهِ بالمهاجِرينَ والأنصارِ، وبيانِ جَزائهم وثَوابِهم، بعدَ بَيانِ أحكامِ ولايةِ بعضِهم لبعضٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٢- ١٣٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٢٣-٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٨٩).

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لإفادةِ الاهْتِمامِ بتَمييزِهم للإخبارِ عنهم، وللتَّعريضِ بالتَّعظيمِ لشأنِهم[١].

- وصِيغةُ ﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ صِيغةُ قَصْرٍ، وأفادتْ قَصْرَ الإيمانِ عليهم دونَ غيرِهم ممَّن لم يُهاجِروا، والقَصْرُ هنا مُقيَّدٌ بالحالِ في قولِه: ﴿حَقّٗاۚ﴾، والمعنى: أنَّهم مُحقِّقون لإيمانهم بأنْ عضَّدوه بالهِجرةِ من دارِ الكُفْر، وليس الحقُّ هنا بمعنى المقابِلِ للباطلِ، حتَّى يكونَ إيمانُ غيرِهم ممَّن لم يُهاجِروا باطلًا؛ لأنَّ قرينةَ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ مانعةٌ من ذلك؛ إذ قدْ أَثْبتَ لهم الإيمانَ، ونفَى عنهم اسْتِحقاقَ وَلايةِ المؤمنين[٢].

- وقَولُه: ﴿حَقّٗاۚ﴾ يفيدُ المبالغةَ في وَصفِهم بِكَونِهم مُحِقِّينَ، مُحَقِّقينَ في طريقِ الدِّينِ[٣].

- وتنكيرُ لَفظِ المَغفرةِ في قولِه: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ يدُلُّ على الكمالِ، والمعنى: لهم مغفرةٌ تامَّةٌ كاملةٌ عن جميعِ الذُّنوبِ والتَّبِعاتِ[٤].

٣- **قَولُه تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ تَذييلٌ مُؤذِنٌ بالتعليلِ؛ لتقريرِ أولويَّة ذوي الأرحامِ بَعضِهم ببعضٍ فيما فيه اعتدادٌ بالوَلايةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٣).

- وخَتْمُ هذِه السُّورةِ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ في غايةِ البَراعَةِ والحُسْنِ؛ إذ قد تَضمَّنتْ أحكامًا كثيرةً في مهمَّاتِ الدِّينِ وقِوامِه، وتفصيلًا لأحوالٍ؛ فصِفةُ العِلْمِ تَجمَعُ ذلك كلَّه، وتُحيط بمبادئه وغاياتِه[1].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ السابعُ

ويليه المجلدُ الثامنُ، وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ التوبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٠).

الفهرس

أسماءُ السُّورةِ: ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ: ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٨
الآيات (١-٤) ١٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٠
المَعنى الإجماليُّ: ١٠
تَفسيرُ الآياتِ: ١١
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٢
بلاغةُ الآياتِ: ٢٥
الآيات (٥-٨) ٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٩
المَعنى الإجماليُّ: ٣٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٠
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٤
بلاغةُ الآياتِ: ٣٥
الآيات (٩-١١) ٤٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٠
المَعنى الإجماليُّ: ٤١
تَفسيرُ الآياتِ: ٤١
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٨

بلاغةُ الآياتِ: ٥٠
الآيات (١٢-١٤) ٥٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٤
مُشكِلُ الإعرابِ: ٥٤
المَعنى الإجماليُّ: ٥٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٦
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦١
بلاغةُ الآياتِ: ٦٣
الآيتان (١٥-١٦) ٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٦
المَعنى الإجماليُّ: ٦٧
تَفسيرُ الآيتينِ: ٦٧
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧١
بلاغةُ الآيتَينِ: ٧٢
الآيات (١٧-١٩) ٧٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٧٤
المَعنى الإجماليُّ: ٧٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٧٥
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٨١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٨١
بلاغةُ الآياتِ: ٨٢
الآيات (٢٠-٢٣) ٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٨٤
المَعني الإجماليُّ: ٨٤

تَفسيرُ الآياتِ: ٨٥
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٨٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٩٠
بلاغةُ الآياتِ: ٩١
الآيات (٢٤-٢٦) ٩٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٩٥
المَعنى الإجماليُّ: ٩٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٩٦
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ١٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٠٨
بلاغةُ الآياتِ: ١١٠
الآيات (٢٧-٢٩) ١١٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ١١٣
المَعنى الإجماليُّ: ١١٣
تَفسيرُ الآياتِ: ١١٤
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ١٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٢١
بلاغةُ الآياتِ: ١٢٢
الآيات (٣٠-٣٥) ١٢٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٢٥
المَعنى الإجماليُّ: ١٢٦
تَفسيرُ الآياتِ: ١٢٧
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ١٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٣٧
بلاغةُ الآياتِ: ١٣٩
الآيتان (٣٦-٣٧) ١٤٥

غَريبُ الكَلِماتِ: ١٤٥
المَعنى الإجماليُّ: ١٤٥
تَفسيرُ الآيتين: ١٤٦
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ١٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٥٠
بلاغة الآيتين: ١٥١
الآيات (٣٨-٤٠) ١٥٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٥٤
المَعنى الإجماليُّ: ١٥٤
تَفسيرُ الآياتِ: ١٥٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٥٩
بلاغةُ الآياتِ: ١٦٢
الآيتان (٤١-٤٢) ١٦٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٦٤
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٦٥
المَعنى الإجماليُّ: ١٦٥
تَفسيرُ الآيتينِ: ١٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٧٦
بَلاغةُ الآيتين: ١٧٨
الآيتان (٤٣-٤٤) ١٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٨٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٨٢
المَعنى الإجماليُّ: ١٨٣
تَفسيرُ الآيتينِ: ١٨٣

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٨٧
بَلاغةُ الآيتين: ١٨٨
الآيات (٤٥-٤٧) ١٩٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٩٢
المَعنى الإجماليُّ: ١٩٢
تَفسيرُ الآياتِ: ١٩٣
الفَوائِد التربويَّة: ١٩٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٠٠
بلاغةُ الآياتِ: ٢٠١
الآيتانِ (٤٨-٤٩) ٢٠٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٠٥
المَعنى الإجماليُّ: ٢٠٥
تَفسيرُ الآيتين: ٢٠٦
الفَوائِد التربويَّة: ٢١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢١٣
بلاغةُ الآيتين: ٢١٤
الآيات (٥٠-٥٤) ٢١٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢١٧
المعنى الإجماليُّ: ٢١٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٢١٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٢٦
بَلاغةُ الآياتِ: ٢٢٧
الآيات (٥٥-٥٩) ٢٣٣
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٣٣

مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٣٣
المعنى الإجماليُّ: ٢٣٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٣٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٤٢
بلاغةُ الآياتِ: ٢٤٥
الآيات (٦٠-٦٣) ٢٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٤٨
المعنى الإجماليُّ: ٢٤٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٥٠
الفَوائِد التربويَّة: ٢٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٦٠
بلاغةُ الآياتِ: ٢٦٥
الآيات (٦٤-٦٦) ٢٧١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٧١
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٧١
المعنى الإجماليُّ: ٢٧٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٧٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٧٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٧٩
بلاغةُ الآياتِ: ٢٨٣
الآيات (٦٧-٧١) ٢٨٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٨٧
المعنى الإجماليُّ: ٢٨٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٨٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٩٦

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٩٧
بلاغةُ الآياتِ: ٣٠٠
الآياتُ (٧٢-٧٥) ٣٠٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٠٤
المعنى الإجماليُّ:..... ٣٠٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٠٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٢٠
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٢٦
الفهرس..... ٣٣٣

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٣٥ درس

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة التوبة

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الإمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثامن

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة التوبة)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر – سورة التوبة – المجلد السادس/ مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي – الظهران، ١٤٣٨هـ

٧٠٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٠-٤١-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – سورة التوبة – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٨/٩٦٥

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٩٦٥

ردمك: ٠-٤١-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة التوبة)

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر – قنا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

المجلد الثامن

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ التوبة

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ التَّوبةِ

أسماءُ السُّورةِ:

مِن أسماءِ هذه السُّورةِ[١]: التَّوبةُ[٢]، وبراءةُ[٣]، والفاضِحةُ[٤].

فعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: (قُلتُ لابنِ عبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عنهما: سورةُ التَّوبةِ؟ قال: التَّوبةُ: الفاضِحةُ)[٥].

وعن البَراءِ رَضِيَ الله عنه، قال: (آخِرُ سُورةٍ نَزَلت سورةُ بَراءة)[٦].

وعن زيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (فتتَبَّعْتُ القُرآنَ حتى وجَدْتُ آخِرَ سُورةِ التَّوبةِ مع أبي خُزيمةَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ حتى خاتِمةِ سُورةِ البراءةِ)[٧].

---

(١) وذُكر للسُّورةِ أسماء أُخرَى، يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٠)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ١٩٢).

(٢) وَجهُ تَسمِيَتِها بالتَّوبةِ: ذِكرُ لَفظِ التَّوبةِ فيها أكثَرَ مِن مَرَّةٍ، ولأنَّها ذَكَرَت توبةَ اللهِ تعالى على الثَّلاثةِ الذين خُلِّفوا عن غَزوةِ تَبوك. يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٥).

(٣) وَجهُ تَسمِيَتِها ببراءة: ذِكرُ لَفظِ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ في أوَّلِها، ولأنَّها ذَكَرَت البراءةَ مِن المُشرِكينَ وعُهودِهم. يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٥).

(٤) ووجهُ تسميتِها بالفاضحةِ أنَّها فضَحت المنافقين، وأنبأتْ بما في قلوبِهم مِن الكفرِ وسوءِ النِّيَّاتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٣١).

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٨٢)، ومسلم (٣٠٣١).

(٦) أخرجه البخاري (٤٣٦٤)، ومسلم (٤٣٦٤).

(٧) أخرجه البخاري (٧٤٢٥).

فَضلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- حَثُّ الصَّحابةِ على تعَلُّمِها:

كتب عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه: (تعلَّمُوا سورةَ براءة، وعَلِّمُوا نساءَكم سُورةَ النُّور)[١].

٢- أنَّها مِن أواخِرِ ما نزَلَ من القرآنِ:

عن البَراء بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (آخِرُ سُورةٍ أُنزِلَت: براءة)[٢].

٣- لا يُبدأُ فيها بـ(بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ) نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ[٣].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ التَّوبةِ مَدَنيَّةٌ، ونقَلَ غيرُ واحدٍ الإجماعَ على ذلك[٤].

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في ((التفسير)) (١٠٠٣).
وثَّق رجالَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الضعيفة)) (٨/ ٣٣٧).

(٢) تقدَّم تخريجُه.

(٣) ممن نقَل الإجماعَ على ذلك: مكِّي، وأبو طاهرٍ المقرئُ، وابن الباذِش، وابنُ الجزري، والشِّربيني. يُنظر: ((التبصرة)) لمكي (ص ٢٤٨)، ((العنوان في القراءات السبع)) للمقرئ (ص: ٦٥)، ((الإقناع في القراءات السبع)) لابن الباذش (ص: ٥٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٢٦٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥).
ونقَل ابنُ الباذشِ أنَّه رُوي عن أبي بكرٍ عن عاصمٍ أنَّه كان يكتبُ بينَ الأنفالِ والتوبةِ التَّسميةَ، وأنَّه يُروى ذلك عن زرٍّ عن ابنِ مسعودٍ، وأنَّه أثْبَتَه في مصحفِه، ثم قال: (ولا يُؤخَذُ بهذا).
فائدة:
قال ابنُ كثيرٍ: (وإنَّما لا يُبسمَلُ في أوَّلِها؛ لأنَّ الصَّحابةَ لم يكتُبوا البَسملةَ في أوَّلِها في المُصحَفِ الإمامِ، والاقتداءُ في ذلك بأميرِ المُؤمِنينَ عُثمانَ بنِ عَفَّانَ، رَضِيَ اللهُ عنه وأرضاه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠١). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣١٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٢٧٧).

(٤) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك القرطبيُّ، والفيروزآبادي، والبِقاعي، والقاسميُّ، ومحمد رشيد

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ التَّوبةِ:

١- رسمُ المنهاجِ الذي يجبُ أن يسلكَه المؤمنون في علاقاتِهم مع المشركينَ، ومعَ أهلِ الكتابِ، ومعَ المنافقينَ[(١)].

٢- كشفُ الغطاءِ عن المنافقينَ وأصنافِهم وأوصافِهم، وفضحُ أفاعيلِهم في المجتمعِ المسلمِ[(٢)].

٣- بيانُ كثيرٍ مِن الأحكامِ والإرشاداتِ التي تحتاجُ إليها الدولةُ الناشئةُ[(٣)].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي تناولتْها سُورةُ التَّوبةِ:

١- البَراءةُ مِن المُشرِكينَ، والأمرُ بقِتالِهم، ونبذُ عُهودِهم، ومَنعُهم من دخولِ المَسجِدِ الحرامِ، والنَّهيُ عن مُوالاتِهم، ولو كانوا ذَوي قُربى.

رضا. يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٦١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ١٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٣١).

لكن قال ابنُ الجوزي؛ قال: (هي مدنيَّةٌ بإجماعِهم، سوى الآيتينِ اللَّتينِ في آخِرِها ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فإنَّها نزَلَت بمكَّةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٠). وقيل: إنَّها مَدَنيَّةٌ إلَّا قولَه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ ...﴾. يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢١)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٨٨).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٦/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٦٦) (٢٨/ ٤٣٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٦/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٦/ ١٩٣).

٢- الإشارةُ إلى وَقعةِ حَربِ حُنَينٍ، وتربيةُ نُفوسِ المؤمنينَ بِصِدقِ التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى.

٣- إعلانُ الحَربِ على أهلِ الكِتابِ مِن العَرَبِ؛ حتى يُعطُوا الجِزيةَ، وأنَّهم ليسُوا بَعيدًا مِن أهلِ الشِّركِ، وأنَّ الجَميعَ لا تنفَعُهم قُوَّتُهم ولا أموالُهم، وتقبيحُ قَولِ اليَهودِ والنَّصارى في حَقِّ عُزَيرٍ وعِيسى عليهما السَّلامُ، وتأكيدُ رِسالةِ الرَّسولِ الصَّادِقِ المُحِقِّ، وعيبُ أحبارِ اليَهودِ في أكْلِهم الأموالَ بالباطِلِ.

٤- حُرمةُ الأشهُرِ الحُرُمِ، وضَبطُ السَّنَةِ الشَّرعيَّةِ، وإبطالُ النَّسيءِ الذي كان عند الجاهليَّةِ.

٥- الحَثُّ على الجِهادِ والنَّفيرِ العامِّ في سبيلِ اللهِ بالأموالِ والأنفُسِ، وعَدَمُ الرُّكونِ إلى الدُّنيا وزِينَتِها.

٦- نُصرةُ الله سبحانه وتعالى لنبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصاحِبِه الصِّدِّيقِ، وحِفظُه لهما مِن أعيُنِ الكُفَّارِ.

٧- ذِكرُ أوصافِ المُنافِقينَ، ودسائِسِهم الماكِرةِ، وذِكرُ أذاهُم للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقَولِ والفِعلِ، وأيمانِهم الكاذِبةِ، وأمرِهم بالمُنكَرِ ونَهيِهم عن المَعروفِ، وكَذِبِهم في عُهودِهم وسُخرَيتِهم بضُعَفاءِ المُؤمِنينَ، والأمر بجِهادِهم، والنَّهي عن الاستعانةِ بهم، ونَهْي النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الاستغفارِ لأحيائِهم، وعن الصَّلاةِ على أمواتِهم، وعَيب المُقَصِّرينَ على اعتذارِهم بالأعذارِ الباطلةِ.

٨- ذَمُّ الأعرابِ في صلابَتِهم، وتمسُّكِهم بالدِّينِ الباطِلِ، ومَدحُ بَعضِهم بصَلابَتِهم في دِينِ الحَقِّ.

٩- ذِكرُ السَّابِقينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ، وفَضلِهم، وذِكرُ المُعتَرِفينَ

بِتَقصيرِهم، وقَبولِ الصَّدَقاتِ مِن الفُقَراءِ، وقَبول تَوبةِ التَّائبينَ.

١٠- ذِكرُ بناءِ مَسجِدِ الضِّرارِ للغَرَضِ الفاسِدِ، ومَكرِ المُنافِقينَ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه.

١١- ذِكرُ بناءِ مَسجِدِ قُباءٍ على الطَّاعةِ والتَّقوى، وأنَّه أولى أن يقومَ فيه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

١٢- مُبايعةُ الحَقِّ تعالى عَبيدَه باشتِراءِ أنفُسِهم وأموالِهم، ومُعاوَضتهم عن ذلك بالجنَّةِ.

١٣- النَّهيُ عن الاستغفارِ للمُشرِكينَ.

١٤- قَبولُ تَوبةِ المُتخَلِّفينَ عن غَزوةِ تَبوك.

١٥- النَّفيرُ لِطَلَبِ العِلمِ والتَّفقُّهِ في دينِ الله تعالى، وتَبليغِ الدِّينِ.

١٦- الامتنانُ على المسلمينَ بأن أرسَلَ فيهم رسولًا منهم، جَبَلَه على صِفاتٍ فيها كلُّ خَيرٍ لهم، وأمْرُ اللهِ نَبيَّه بالتوكُّلِ عليه في جَميعِ أحوالِه.

الآيتان (١ - ٢)

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَرَآءَةٌ﴾: أي: تَبَرُّؤٌ وقَطعٌ للمُوالاةِ والعِصمةِ والأمانِ، وأصلُ (برء): يدلُّ على التباعُدِ مِن الشَّيءِ ومُزايَلتِه[1].

﴿فَسِيحُواْ﴾: أي: فَسِيروا واذهَبُوا، وأصلُ (سيح): يدلُّ على استمرارِ شَيءٍ وذَهابِه[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى: هذه بَراءةٌ مِن اللهِ ورَسولِه إلى جميعِ المُشركينَ الذين عاهَدتُموهم، أيُّها المُسلِمونَ فنقضوا عهدهم، فَسِيرُوا- أيُّها المُشرِكونَ- في الأرضِ أربعةَ أشهُرٍ- هي مدةُ الإمهالِ- أينَما شِئتُم آمِنينَ، لا يَنالُكم مِن المُسلِمينَ سُوءٌ، واعلَمُوا أنَّكم لن تُعجِزوا اللهَ، ولن تَفُوتوا مِن عِقابِه إن أرادَه بكم، واعلَمُوا أنَّ اللهَ مُذِلُّ الكافرينَ.

تَفسيرُ الآيَتَينِ:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٣).

أي: هذه بَراءةٌ مِن اللهِ ورَسولِه إلى جميعِ المُشركينَ الذين عاهَدتُموهم، أيُّها المُسلِمونَ[١].

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢﴾.

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾.

أي: فَسِيُروا واذهَبُوا- أيُّها المُشرِكونَ- في أرضِ اللهِ أينَما شِئتُم، آمِنينَ مُدَّةَ أربعةِ أشهُرٍ، لا يَنالُكم فيها مِن المُسلِمينَ سُوءٌ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٤٥).
قال ابنُ جريرٍ: (العهودُ بين المُسلِمينَ والمُشركينَ على عهدِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُن يتولَّى عَقدَها إلَّا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو من يَعقِدُها بأمرِه، ولكنَّه خاطَبَ المؤمنينَ بذلك لِعلمِهم بمعناه، وأنَّ عُقودَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أمَّتِه كانت عُقودَهم؛ لأنَّهم كانوا لكُلِّ أفعالِه فيهم راضينَ، ولعقوده عليهم مُسَلِّمين، فصار عَقْدُه عليهم كعُقودِهم على أنفُسِهم؛ فلذلك قال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لِمَا كان مِن عَقدِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعَهدِه). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤، ٥)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٠).
قال ابنُ عطية: (وأوَّلُ هذا الأجَلِ: يومُ النَّحرِ، وآخِرُه: يومُ العاشِرِ مِن ربيع الآخر). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤-٥)، وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ تيميَّة، وابنُ القيِّم. يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٨٨١-٨٨٢).
وقال الشنقيطي: (محلُّ ذلك إنَّما هو في أصحابِ العُهودِ المُطلَقةِ غيرِ المُوَقَّتةِ بوقتٍ مُعَيَّنٍ، أو من كانت مُدَّةُ عَهدِه المُوَقَّتِ أقلَّ مِن أربعة أشهُرٍ، فتكمُلُ له أربعةُ أشهرٍ، أمَّا أصحابُ العُهودِ المُوَقَّتةِ الباقي مِن مُدَّتِها أكثَرُ مِن أربعةِ أشهُرٍ، فإنَّه يجِبُ لهم إتمامُ مُدَّتِهم). ((أضواء البيان)) (٢/ ١١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٢).

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾.

أي: واعلَمُوا- أيُّها المُشرِكونَ- أنَّكم إن اختَرْتُم الاستمرارَ على الكُفرِ في مُدَّةِ عَهْدِكم- وأنتم آمِنونَ فيها مِن المُسلِمينَ- غيرُ فائِتينَ مِن عِقابِ اللهِ إن أرادَه بكم؛ فأنتُم على أرضِه وفي سُلطانِه، وتَحتَ قُدرَتِه، فبادِرُوا بالتَّوبةِ[١].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

أي: واعلَمُوا- أيُّها المُشرِكونَ- أنَّ اللهَ مُذِلُّ الكافرينَ في الدُّنيا والآخِرةِ[٢].

الفوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيه ضَمانٌ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ بِنَصرِه المُؤمِنينَ على الكافِرينَ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ افتُتِحَت السُّورةُ- كما تُفتَتَحُ العُهودُ وصُكوكُ العُقودِ- بأدَلِّ كَلِمةٍ على الغَرَضِ الذي يُرادُ منها، كما في قَولِهم: هذا ما عَهِدَ به فلانٌ، وهذا ما اصطَلَحَ عليه فُلانٌ وفُلانٌ، وقَولِ المُوَثِّقينَ: باع أو وكَّل أو تزوَّجَ، وذلك هو مقتضى الحالِ في إنشاءِ الرَّسائِلِ والمواثيقِ ونَحوِها[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٠٢).

أعلَنَ اللهُ لِهَؤلاء هذه البَراءةَ؛ لِيَأخُذوا حِذْرَهم، وفي ذلك تضييقٌ عليهم إن داموا على الشِّركِ؛ لأنَّ الأرضَ صارَت لأهلِ الإسلام، كما دلَّ عليه قولُه تعالى بَعدُ: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾[1] [التوبة: ٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لَمَّا كان الأمرُ بهذا السَّيرِ مُفرَّعًا على البراءةِ مِن العَهدِ، ومُقرِّرًا لِحُرمةِ الأشهُرِ الحُرُم؛ عُلِمَ أنَّ المُرادَ السَّيرُ بأمنٍ دُونَ خَوفٍ في أيِّ مكانٍ مِن الأرضِ، وليس هو سَيرَهم في أرضِ قَومِهم؛ دلَّ على ذلك إطلاقُ السِّياحةِ وإطلاقُ الأرضِ، فكان المعنى: فَسِيحُوا آمِنينَ حيثُما شِئتُم من الأرضِ[2].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنذَرَ المُعاهَدينَ في مُدَّةِ عَهدِهم، أنَّهم وإن كانوا آمِنينَ، فإنَّهم لن يُعجِزوا اللهَ ولن يَفُوتُوه، وأنَّه مَن استمَرَّ منهم على شِركِه فإنَّه لا بُدَّ أن يُخزِيَه، فكان هذا ممَّا يَجلِبُهم إلى الدُّخولِ في الإسلامِ، إلَّا مَن عاند وأصَرَّ، ولم يُبالِ بِوَعيدِ اللهِ له[3].

٥- المقصودُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أمورٌ: الأولُ: أن يتفكَّروا لأنفُسِهم ويَحتاطوا في هذا الأمرِ. والثاني: لئلَّا يُنسَبَ المُسلِمونَ إلى نَكثِ العَهدِ. والثالث: أراد اللهُ أن يعُمَّ جميعَ المُشرِكينَ بالجهادِ، فعَمَّ الكُلَّ بالبراءةِ، وأجَّلَهم أربعةَ أشهُرٍ؛ وذلك لقُوَّةِ الإسلامِ، وتخويفِ الكُفَّارِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٠٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

ولا يصِحُّ ذلك إلَّا بنَقْضِ العُهودِ. والرابع: أراد النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يحُجَّ في السَّنةِ الآتيةِ، فأمَرَ بإظهارِ هذه البَراءةِ؛ لئلَّا يُشاهِدَ العُراةَ[١].

٦- في قَول اللهِ تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ لَمَّا كانت السِّياحةُ تُطلَقُ على غَيرِ السَّيرِ، حقَّقَ المعنى بِقَولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لَمَّا كان الإسلامُ قد ظهَرَ بعد أن كان خَفِيًّا، وقَوِيَ بعد أن كان ضعيفًا، افتتَحَ تعالى وَعْظَهم بالكلمةِ التي تُقالُ أوَّلًا لِمَن يُرادُ تَقريعُ سَمْعِه وإيقاظُ قَلْبِه، وتَنبيهُه على أنَّ ما بَعدَها أمرٌ مُهِمٌّ، ينبغي مَزيدُ الاعتناءِ به، فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ﴾[٣].

بلاغةُ الآيَتَينِ:

١- **قَولُه تعالى:** ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾

- قولُه: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه إيثارُ الجُملةِ الاسميَّة على الفِعليَّة- فلم يُعبَّر بالجُملةِ الفِعليَّة، كأنْ يُقال: (قد بَرِئ اللهُ ورسولُه من الذين .. أو نحوُ ذلك)-؛ للدَّلالةِ على دَوامِ هذه البَراءةِ واستمرارِها، وللتَّوسُّل إلى تَهويلِها بالتنوينِ التَّفخيميِّ[٤].

٢- **قَولُه تعالى:** ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه تلوينُ الخِطابِ بصَرْفه عن المُسلِمينَ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٧١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٠).

وتَوجيهِه إلى المُشرِكينَ مع حُصولِ المقصودِ بصِيغةِ أَمْرِ الغائبِ (فَلْيَسيحوا) أيضًا؛ للمُبالغةِ في الإعلامِ بالإمهالِ حسْمًا لمادةِ تَعلُّلهم بالغفلةِ، وقطعًا لشأفةِ اعْتِذارهم بعدمِ الاستعدادِ[١]، وهو التفاتٌ من غَيْبة إلى خطابٍ، وفي ضِمنِهِ تهديدٌ[٢].

- وإيثارُ صيغةِ الأمرِ في قولِه: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مع تَسنِّي إفادةِ ذلك المعنى بطريقِ الإخبارِ أيضًا- كأن يُقال مثلًا: فلكم أنْ تَسيحوا، أو نحو ذلك-؛ لإظهارِ كَمالِ القُوَّةِ والغَلَبةِ، وعَدمِ الاكْتِراثِ لهم ولاستعدادِهم، فكأنَّ ذلك أمْرٌ مَطلوبٌ منهم[٣].

- وذُكِر ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لقَصْدِ التَّعميمِ لأقطارِ الأرضِ من دارِ الإسلامِ وغيرِها[٤].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيه وضْعُ الاسمِ الجَليلِ مَوضِعَ المُضْمَر- حيثُ لم يَقُل: (وأنَّه)-؛ لتربيةِ المهابةِ، وتَهويلِ أمْرِ الإخزاءِ، وهو الإذلالُ بما فيه فضيحةٌ وعارٌ، وإيثارُ الإظهارِ على الإضمارِ أيضًا في قولِه: ﴿مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾- حيثُ لم يَقُلْ: (وأنَّ اللهَ مُخْزيكم)-؛ لذمِّهم بالكفرِ بعدَ وصْفِهم بالإشراكِ، والإشعارِ بأنَّ عِلَّةَ الإخزاءِ هي كُفرُهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٤١).

الآيتان (٢ - ٤)

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَأَذَٰنٌ ﴾: أي: إعلامٌ، وأصلُ (أذن): يدلُّ على العِلمِ والإعلامِ[1].

﴿يُظَٰهِرُواْ ﴾: أي: يُعاوِنوا ويُعِينوا، والظَّهيرُ: العَوْنُ، وأصلُ (ظهر): يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾

﴿وَرَسُولُهُۥ﴾: مرفوعٌ على أنَّه مَعطوفٌ على الضَّميرِ في ﴿بَرِيٓءٞ﴾ وجاز ذلك العَطفُ للفَصلِ بـ ﴿مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ؛ فهو مسوِّغٌ للعَطفِ؛ لِأَنه يقومُ مقَامَ التَّوكيدِ، أو مَرفوعٌ على أنه مُبتَدأٌ، والخَبَرُ مَحذوفٌ، أي: ورَسولُه بَريءٌ، وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢١).

حُذِفَ للدَّلالةِ عليه. وقيل غيرُ ذلك[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: وهذا إعلامٌ مِن اللهِ ورَسولِه إلى جميعِ النَّاسِ مُسلِمِهم وكافِرِهم، يومَ النَّحرِ بأنَّ اللهَ بَريءٌ مِن عُهودِ المُشرِكينَ، ورسولُه كذلك بريءٌ منها، فإن تُبتُم- أيُّها المُشرِكونَ- فهو خيرٌ لكم، وإن أعرَضْتُم فاعلَمُوا أنَّكم لن تُعجِزوا اللهَ، ولن تَفُوتوا مِن عقابِه، وبَشِّرْ- يا مُحمَّدُ- الكافرينَ بعَذابٍ مُوجِعٍ.

ثمَّ استثنى اللهُ ممَّا بَرِئَ منه هو ورَسولُه مِن عُهودِ الكُفَّارِ بعضَ المُعاهَدينَ الذين عاهَدَهم المُؤمِنونَ، ثمَّ وَفَوْا بعُهودِهم مع المُؤمِنينَ، ولم ينقُصوهم شيئًا من ذلك، وأمَرَ المؤمنينَ أن يُؤَدُّوا إليهم عَهدَهم إلى أنْ تَنتهِيَ المُدَّةُ التي اتَّفَقوا عليها؛ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقينَ الذين يَفُونَ بِعُهودِهم ولا يَنقُضونَها.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣ ﴾.

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ ﴾.

أي: وهذا إعلامٌ مِنَ اللهِ ورَسولِه إلى جميعِ النَّاسِ مُسلِمِهم وكافِرِهم، يومَ

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٢٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٧).

النَّحرِ[١] بأنَّ اللهَ بريءٌ من عهودِ المُشركين، ورسولُه بريءٌ منها كذلك[٢].

عن حُميد بن عبد الرَّحمن بن عَوف، أنَّ أبا هريرةَ رَضيَ اللهُ عنه قال: ((بعثَني أبو بكرٍ في تلك الحَجَّةِ في مؤذِّنِينَ بَعَثَهم يومَ النَّحرِ يُؤَذِّنونَ بمِنًى: ألَّا يُحَجَّ بعد العامِ مُشرِكٌ، ولا يَطوفَ بالبَيتِ عُريانٌ، قال حُميدُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ: ثمَّ أردَفَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعليِّ بنِ أبي طالِبٍ، وأمَرَه أن يُؤَذِّنَ ببَراءةَ، قال أبو هريرةَ: فأذَّنَ معنا عليٌّ يومَ النَّحرِ في أهلِ مِنًى ببَراءةَ، وألَّا يحُجَّ بعد العامِ مُشرِكٌ، ولا يطوفَ بالبَيتِ عُريانٌ))[٣].

---

(١) قال ابنُ جريرٍ: (وأولى الأقوالِ في ذلك بالصِّحةِ عندنا: قولُ من قال: ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ يومُ النَّحرِ؛ لتَظاهرِ الأخبارِ عن جماعَةٍ مِن أصحابِ رسولِ اللَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ عَلِيًّا نادَى بما أرسَلَه به رسولُ اللَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مِنَ الرِّسالَةِ إلى المشرِكينَ، وتَلا عليهم براءَةَ يومَ النَّحْرِ. هذا معَ الأخبارِ الَّتي ذكَرْناها عن رسولِ اللَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال يومَ النَّحْرِ: أتدرونَ أيُّ يومٍ هذا؟ هذا يومُ الحجِّ الأكبرِ. وبعدُ: فإنَّ اليومَ إنَّما يضافُ إلى معنَى الَّذي يكونُ فيه، و... يومُ الحجِّ، يومٌ يحجُّونَ فيه. وإنَّما يَحُجُّ النَّاسُ ويَقْضونَ مَناسكَهم يومَ النَّحرِ؛ لأنَّ في ليلةِ نهارِ يومِ النَّحرِ الوقوفَ بعرفةَ كان إلى طلوعِ الفجرِ، وفي صَبيحتِها يُعْمَلُ أعمالُ الحجِّ، ... والحجُّ كُلُّه يومَ النَّحرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٣٦).

وقال ابنُ جرير أيضًا: (الحجُّ الأكبَرُ: الحَجُّ؛ لأنَّه أكبَرُ من العمرة؛ بزيادةِ عَمَلِه على عَمَلِها... وأمَّا الأصغَرُ فالعُمرةُ؛ لأنَّ عَمَلَها أقلُّ مِن عَمَلِ الحَجِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٣٩).

وقيل في معنَى الحجِّ الأكبرِ، وسببِ تسميتِه غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٢٠، ٣٢١، ٣٣٦، ٣٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٣).

قال السعدي: (أمَرَ النَّبيُّ مُؤَذِّنَه أن يُؤذِّنَ يومَ الحَجِّ الأكبَرِ، وهو يومُ النَّحرِ، وقتَ اجتماعِ النَّاسِ مُسلِمِهم وكافِرِهم، من جميعِ جزيرةِ العَرَبِ، أن يُؤذِّنَ بأنَّ اللهَ بريءٌ ورسولُه مِن المشركينَ، فليس لهم عنده عهدٌ وميثاقٌ، فأينما وُجِدوا قُتِلوا، وقيل لهم: لا تَقرَبوا المسجِدَ الحَرامَ بعد عامِكم هذا، وكان ذلك سنةَ تِسعٍ من الهجرةِ، وحجَّ بالنَّاسِ أبو بكرٍ الصِّديقُ رضي الله عنه، وأذَّنَ ببَراءةَ- يومَ النَّحرِ- ابنُ عَمِّ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

(٣) رواه البخاري (٤٦٥٥) واللفظ له، ومسلم (١٣٤٧).

﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

أي: فإن تُبتُم مِن كُفرِكم - أيُّها المُشرِكونَ - فهو خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخرةِ[١].

﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾.

أي: وإن أعرَضْتُم - أيُّها المُشرِكونَ - عن الإيمانِ وطاعةِ اللهِ ورَسولِه، وثبَتُّم على كُفرِكم؛ فأيقِنُوا أنَّكم غيرُ فائِتينَ مِن عِقابِ اللهِ؛ فأنتم تحتَ قَهرِه وقُدرَتِه[٢].

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: وبَشِّرْ - يا مُحمَّدُ - الكافِرينَ بعذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ، يُصيبُهم في الدُّنيا والآخرةِ[٣].

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أعلَمَهم اللهُ تعالى بالبَراءةِ، وبالوَقتِ الذي يؤَذَّنُ بها فيه، وكان معنى البَراءةِ منهم أنَّه لا عَهدَ لهم؛ استثنى بعضَ المُعاهَدينَ[٤]، فقال تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٧٩).

أي: هذه البراءةُ التَّامَّةُ المُطلَقةُ مِن جَميعِ المُشرِكينَ إلَّا مَن عاهَدْتُموهم[١]- أيُّها المُؤمِنونَ- ثمَّ لم يَنقُصوكم شيئًا ممَّا عاهَدْتُموهم عليه، ولم يُعِينوا عليكم أحدًا مِن أعدائِكم[٢].

﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ﴾.

أي: فأَوفُوا- أيُّها المؤمنونَ- إلى هؤلاء المُشرِكينَ، العَهدَ الذي بينكم وبَينَهم ولا تَنقُضُوه، إلى انتهاءِ المُدَّةِ التي اتَّفَقتُم عليها[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يتَّقونَه، فيَمتَثِلونَ أوامِرَه ويجتَنِبونَ مَعاصِيَه، ومن ذلك أنَّهم يُوفُونَ بِعُهودِهم ولا يَنقُضونَها[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ التَّرغيبُ في التَّوبةِ، والإقلاعِ

---

(١) قال ابنُ كثير: (هذا استثناءٌ مِن ضَربِ مُدَّةِ التَّأجيلِ بأربعةِ أشهُرٍ، لِمَن له عهدٌ مُطلَقٌ ليس بمؤقَّتٍ، فأجَلُه أربعةُ أشهُرٍ، يسيحُ في الأرضِ، يذهَبُ فيها لينجوَ بِنَفسِه حيث شاء، إلَّا مَن له عهدٌ مُؤَقَّتٌ، فأجَلُه إلى مُدَّتِه المضروبةِ التي عُوهِدَ عليها). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٠).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّه تعالى وَصَفَهم بأمرَينِ: أحدُهما: قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ﴾ والثاني: قولُه: ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾ والأقرَبُ أن يكونَ المرادُ مِن الأوَّلِ أن يُقْدِموا على المُحارَبةِ بأنفُسِهم، ومن الثَّاني: أن يُهيجُوا أقوامًا آخَرينَ ويَنصُروهم ويُرَغِّبوهم في الحَربِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٠).

عن الشِّركِ الموجِبِ لِكَونِ اللهِ ورَسولِه مَوصُوفَينِ بالبراءةِ منه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ليس تكرارًا لِقَولِه السَّابِق: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ وذلك مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ المَقصودَ مِن الكَلامِ الأوَّلِ الإخبارُ بِثُبوتِ البَراءةِ. والمقصودَ مِن هذا الكَلامِ إعلامُ جَميعِ النَّاسِ بما حصَلَ وثَبَت.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ المُرادَ مِن الكلامِ الأوَّلِ البَراءةُ مِن العَهدِ. ومِن الكلامِ الثَّاني البراءةُ التي هي نقيضُ المُوالاةِ الجارِيةِ مَجرى الزَّجرِ والوَعيدِ، والذي يدلُّ على حصولِ هذا الفَرقِ أنَّ في البراءةِ الأولى: بَرِيء إليهم، وفي الثَّانية: بَريء منهم.

الوجهُ الثَّالِثُ: أنَّه تعالى في الكَلامِ الأوَّلِ أظهَرَ البراءةَ مِن المشركينَ الذين عاهَدُوا ونَقَضوا العَهدَ، وفي هذه الآيةِ أظهَرَ البراءةَ من المُشرِكينَ مِن غيرِ أنْ يصِفَهم بوصفٍ مُعَيَّنٍ؛ تنبيهًا على أنَّ المُوجِبَ لهذه البراءةِ كُفرُهم وشِركُهم[٢].

٢- إضافةُ الأذانِ إلى اللهِ ورَسولِه دون المُسلِمينَ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾؛ لأنَّه تَشريعٌ وحُكمٌ في مَصالِحِ الأمَّةِ، فلا يكونُ إلَّا مِن اللهِ على لسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ لَمَّا كان المقصودُ الإبلاغَ الذي هو وظيفةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٠٨).

الرَّسولِ، عدَّاه بحرفِ الانتهاءِ فقال: ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: كُلِّهم[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ جاء بَعدَه قَولُه تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۖ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وليسَ بِتكرارٍ؛ لأنَّ الأوَّلَ للمَكانِ، والثَّاني للزَّمانِ، وَقد تقدَّم ذِكرُهما في قَولِه تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ﴾ الآيةُ تدُلُّ على أنَّ العَهدَ المؤقَّتَ لا يجوزُ نَقضُه إلَّا بانتهاءِ وَقتِه، وأنَّ شَرْطَ وُجوبِ الوَفاءِ به علينا، مُحافظةُ العَدُوِّ المُعاهِدِ لنا عليه بحذافِيره؛ مِن نَصِّ القَولِ وفَحواه ولَحْنِه، فإنْ نقضَ شيئًا ما مِن شُروطِ العَهدِ، وأخَلَّ بِغَرَضٍ ما من أغراضِه، عُدَّ ناقِضًا له؛ إذ قال: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ ولفظُ شَيءٍ أعَمُّ الألفاظِ، وهو نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ، فيَصدُقُ بأدنى إخلالٍ بالعَهدِ[٣].

٦- مِن شُروطِ العَهدِ التي ينتقِضُ بالإخلالِ بها، عَدَمُ مُظاهرةِ أحدٍ مِن أعدائِنا وخُصومِنا علينا، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ﴾، وقد صرَّحَ بهذا للاهتمامِ به، فهو يدخُلُ في عُمومِ ما قَبلَه[٤].

بلاغةُ الآيَتينِ:

١- **قَولُه تعالى:** ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٧٢).
(٢) يُنظر: ((البرهان في توجيه متشابه القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٣٨).

بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَۙ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَۙ وَرَسُولُهُۥۚ ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ عُلِّقتِ البراءةُ بالذين عُوهِدوا من المشركينَ، وعُلِّق الأذانُ بالنَّاسِ؛ لأنَّ البَراءةَ مُختصَّةٌ بالمعاهَدين والناكِثين منهم، وأمَّا الأذانُ فعامٌّ لجميع النَّاسِ؛ مَن عاهَد ومَن لم يُعاهِدْ، ومَن نَكَث من المعاهَدين ومَن لم يَنكُثْ[١].

- وجاء التَّصريحُ بفعلِ البراءةِ مَرَّةً ثانيةً دونَ إضمارٍ ولا اختصارٍ- بأن يُقال: (وأذانٌ إلى النَّاس بذلك، أو بها، أو بالبراءة)- لأنَّ المقامَ مَقامُ بَيانٍ وإطنابٍ؛ لأجلِ اختلافِ أفهامِ السَّامعين فيما يَسمَعونَه؛ ففيهم الذَّكيُّ والغبيُّ، ففي الإطنابِ والإيضاحِ قَطعٌ لمعاذيرِهم، واستِقصاءٌ في الإبلاغِ لهم[٢].

- قوله تعالى: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ بعد قوله: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَۙ وَرَسُولُهُۥۚ ﴾ فيه التِفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ لزِيادةِ التَّهديدِ والتَّشديدِ[٣].

- قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ جُعِل الإنذارُ بِشارةً على سَبيلِ الاسْتِهزاء بهم، وفي هذا وعيدٌ عظيمٌ بما يَحِلُّ بهم[٤].

- وقولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أيضًا فيه تَلوينٌ للخطابِ، وصَرْفٌ له عنهم إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ البِشارةَ بعذابٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٠).

أليمٍ، وإنْ كانتْ بطريقِ التهكُّمِ، إنَّما تليقُ بمَن يقِفُ على الأَسرارِ الإلهيَّةِ[١].

٢- **قولُه تعالى:** ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ فيه ذِكْرُ كَلِمة ﴿شَيْـًٔا﴾؛ للمُبالغةِ في نفْيِ الانْتِقاصِ؛ لأنَّ كلمة (شَيء) نَكِرةٌ عامَّةٌ، فإذا وقعتْ في سِياقِ النَّفيِ أفادتِ انتفاءَ كلِّ ما يَصدُقُ عليه أنَّه موجودٌ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تذييلٌ في معنى التَّعليلِ للأمرِ بإتمامِ العَهدِ إلى الأجَلِ بأنَّ ذلك من التَّقوى، أي: مِن امْتِثالِ الشَّرعِ الذي أَمَرَ اللهُ به؛ لأنَّ الإخبارَ بمحبَّةِ اللهِ المتقين عقِبَ الأمرِ كنايةٌ عن كونِ المأمورِ به من التَّقوى[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتانِ (٥ - ٦)

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿ٱنسَلَخَ﴾: أي: انقَضَى ومَضَى وخرَج، وأصلُ (سلخ): يدلُّ على إخراجِ الشَّيءِ عَن جِلدِه؛ مِن: سَلَخْتُ جِلدَ الشَّاةِ سَلخًا[١].

﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾: أي: احبِسُوهم، وامنَعوهم، وأصلُ (حصر): يدلُّ على حبسٍ ومَنعٍ[٢].

﴿مَرْصَدٍ﴾: أي: طَريقٍ ومَرقَبٍ، وأصلُ (رصد): يدلُّ على التَّهيُّؤِ لمُراقَبةِ شَيءٍ على مَسلَكِه[٣].

﴿فَخَلُّوا۟﴾: أي: اتركُوهم، ولا تتعَرَّضوا لَهُم، وأصلُ (خلو): يدلُّ على تعَرِّي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٢، ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٥).

الشَّيءِ من الشَّيءِ[١].

﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾: أي: استأمَنَك، وسألَ جِوارَك، أي: أمانَك وذِمامَك[٢].

﴿مَأۡمَنَهُۥ﴾: أي: دارَ قَومِه، والموضِعَ الذي يأمَنُ فيه، وأصلُ الأمنِ: يدلُّ على طُمأنينةِ النَّفسِ، وزوالِ الخَوفِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ عِبادَه أن يَقتُلوا المُشرِكينَ في أيِّ مَكانٍ وَجَدوهم، بعد أن تَنقَضيَ الأشهُرُ الحُرُمُ، وأن يأخُذوهم أسرَى، ويُضَيِّقُوا عليهم، ويمنعوهم مِن الانتشارِ في الأرضِ، والدخولِ إليهم، ويُحاصِرُوهم، ويَقعُدوا لِقَتلِهم وأسْرِهم بكلِّ طَريقٍ يَمُرُّونَ به، فإن تابُوا وأدَّوُا الصَّلاةَ المفروضةَ على وَجهِها الأكمَلِ، وأعطَوُا الزَّكاةَ لِمُستحقِّيها، فأمَرَ اللهُ عبادَه المؤمنينَ أن يترُكوهم، ولا يتعَرَّضوا لهم؛ إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ.

ثم أمَرَ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُعطِيَ الأمانَ كُلَّ مَن أستأمَنَه مِن المُشرِكينَ الذين أُمِرَ بِقتالِهم، حتى يسمَعَ القُرآنَ، ثمَّ إنْ لم يُسلِمْ فَلْيترُكْه يرجِعْ إلى بلَدِه ودِيارِه التي يأمَنُ فيها؛ ذلك بأنَّهم قَومٌ لا يَعلمونَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٥)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قرَّرَ اللهُ تعالى أمْرَ البراءةِ مِن المُشركينَ إثباتًا ونفيًا؛ أمَرَ بما يُصنَعُ بعد ما ضَرَبَه لهم مِن الأجَلِ [(١)]، فقال تعالى:

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾.

الناسخُ والمنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ منسوخةٌ بقولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]، وقيل: هي محكمةٌ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٠).

(٢) قال النحَّاس: (للعُلَماءِ في هذه الآيةِ ثلاثةُ أقوالٍ؛ فمنهم من قال: هي منسوخةٌ، وقال: لا يحِلُّ قَتلُ أسيرٍ صَبرًا، وإنَّما يُمَنُّ عليه أو يُفادى، وقالوا: الناسِخُ لها قَولُه تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤] فمِمَّن قال هذا: الحسَنُ... وهذا قولُ الضحَّاك، والسُّدِّي... وهو قولُ عطاء... ومِن العلماءِ من قال: لا يجوز في الأُسارى من المشركين إلَّا القتلُ، ولا يجوز أن يؤخَذَ منهم فِداءٌ، ولا يُمَنُّ عليهم، وجعَلوا قولَه تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥] ناسخًا لقولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤] وهذا قولُ قتادة ومرويٌّ عن مجاهد... والقول الثالث: أنَّ الآيتين جميعًا مُحكَمتانِ، وهو قولُ ابنِ زيد، وهو قول صحيحٌ بيِّنٌ؛ لأنَّ إحداهما لا تنفي الأُخرَى، قال جلَّ وعز: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥] أي: وخُذوهم أَسرى للقتلِ أو الْمَنِّ أو الفِداء، فيكونُ الإمامُ ينظرُ في أمورِ الأُسارى على ما فيه الصَّلاحُ؛ مِن القتل أو المَنِّ أو الفِداء، وقد فعل هذا كلَّه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في حروبِه). ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: ٤٩٣-٤٩٤)، ويُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي(٢/ ٤٦٤-٤٦٥).

وهذه الآيةُ هي آيةُ السَّيفِ، فمن أهلِ العلمِ مَن ذهب إلى أنَّها ناسخةٌ لجميع الآياتِ التي فيها الصَّفحُ والكَفُّ عمَّن لم يقاتِلْ من المشركين، ومنهم من ذهب إلى أنَّها ليست ناسخةً، ولكنَّ الأحوالَ تختلفُ، فإذا قوِيَ المسلمون وصارت لهم السُّلطة والقُوَّة والهيبة استَعمَلوا آيةَ السيف وما جاء في معناها وعمِلوا بها، وإذا ضَعُفَ المسلمون ولم يقوَوا على قتالِ الجميعِ،

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾.

أي: فإذا انقَضَتِ الأشهُرُ الحُرُمُ[١]، فاقتُلوا المُشرِكينَ[٢] أينَما لَقِيتُموهم من الأرضِ[٣].

فلا بأسَ أن يقاتِلوا بحسَبِ قُدرتِهم، ويكُفُّوا عمَّن كفَّ عنهم إذا لم يستطيعوا ذلك، فيكون الأمرُ إلى وليِّ الأمر؛ إن شاء قاتَلَ، وإن شاء كفَّ، وإن شاء قاتلَ قومًا دون قومٍ، على حسب القوَّة والقدرة والمصلحة للمسلمين، لا على حسَبِ هواه وشَهوتِه، ولكنْ ينظرُ للمسلمين وينظرُ لحالهم وقوَّتِهم.

قال ابن باز: (وهذا القولُ أظهرُ وأبينُ في الدليلِ؛ لأنَّ القاعدةَ الأصوليَّةَ أنَّه لا يُصارُ إلى النسخِ إلَّا عند تعذُّرِ الجمعِ بين الأدلَّة، والجمعُ هنا غيرُ متعَذِّر). ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣/ ١٩٤). ويُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢١).

(١) قيل: المُرادُ بالأشهُرِ الحُرُمِ: الأشهُرُ التي جعَلَها اللهُ لِلمُشركينَ يَسيحونَ في الأرضِ آمنينَ، لا يُقاتِلُهم المُسلِمونَ فيها، وأوَّلُها: يومُ إعلامِهم بالبَراءةِ؛ يوم النَّحرِ: العاشِر مِن ذي الحِجَّةِ مِن السَّنةِ التَّاسعةِ، وآخِرُها: العاشِرُ مِن ربيعٍ الآخر من السَّنة العاشرةِ للهِجرةِ.

وممَّن اختار ذلك: ابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والسعديُّ والشنقيطيُّ. ونسبه ابنُ تيميَّة إلى جمهورِ العلماءِ. يُنظر: ((الصفدية)) (٢/ ٣٢٠)، ((الجواب الصحيح)) (١/ ١٧٥)، ((زاد المعاد)) (٣/ ١٤٤، ١٤٥)، ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٨٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص:١١٠).

قال الشنقيطي: (وهو قولُ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ العوفيِّ عنه وبه قال مجاهدٌ وعمرُو بنُ شعيبٍ ومحمدُ بنُ إسحاقَ وقتادةُ وَالسُّدِّيُّ وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص:١١٠).

قال أبو حيان: (الظَّاهِرُ أنَّ هذه الأشهُرَ هي التي أُبيحَ للنَّاكثينَ أن يَسيحوا فيها، ووُصِفَت بالحُرُمِ؛ لأنَّها مُحرَّمٌ فيها القِتالُ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧١).

وقيل: المرادُ بالأشهُرِ الحُرُمِ: ذو القَعدةِ وذو الحِجَّة ومُحَرَّم، والمعنى: فإذا انقضى شَهرُ مُحَرَّم فاقتلوا المُشركينَ حيث لَقِيتُموهم، وهذا اختيارُ ابن جرير، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٣).

(٢) قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عامٌّ في كلِّ مُشرِكٍ، لكنَّ السُّنَّةَ خَصَّت منه المرأةَ والراهبَ والصبيَّ وغَيرَهم. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٢، ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١١).

﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.

أي: وخُذوا- أيُّها المُؤمِنونَ- الكُفَّارَ أسرَى، وضيِّقوا عليهم، وامنعوهم مِن الانتشارِ في الأرضِ، والدخولِ إليكم، وحاصِروهم إن تحَصَّنوا، واقعُدوا لِقَتلِهم أو أسْرِهم على كلِّ طَريقٍ يَمُرُّونَ منه[1].

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾.

أي: فإن رجَعَ المُشرِكونَ عن الكُفرِ إلى الإيمانِ، وأدَّوا ما فرَضَ اللهُ عليهم من الصَّلَواتِ؛ بالإتيانِ بها على وجهِها الأكمَلِ، وأعطَوُا الزَّكاةَ مُستحقِّيها؛ فاترُكوا- أيُّها المُسلِمونَ- طَريقَهم، لا تقعُدُوا عليها، ودَعُوهم يذهبونَ حيثما يَشاؤونَ، دون أن تتعَرَّضوا لهم[2].

عن ابنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُمِرتُ أن أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشهَدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ، ويُقيموا

قال ابنُ كثير: (هذه الآيةُ الكريمةُ هي آيةُ السَّيفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٢).

وقد اختلف العلماءُ في هذه الآيةِ الكريمةِ هل هي ناسخةٌ لقولِه تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: ١٩١] على قولين:

فذهب الجمهورُ، ومنهم ابنُ جريرٍ، إلى أنَّ آيةَ السيفِ ناسخةٌ لآيةِ البقرةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٨)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ١١١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٦).

وقيل: الآيةُ محكمةٌ، وممن ذهَب إلى ذلك: ابنُ الجوزي- ونسَبه إلى مجاهدٍ والمحققين- والقرطبيُّ، ونسَبه لطاوس وأبي حنيفةَ وأصحابِه. يُنظر: ((نواسخ القرآن)) (١/ ٢٥١- ٢٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٣، ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٦).

الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزَّكاةَ، فإذا فعَلوا ذلك عَصَموا منِّي دماءَهم وأموالَهم إلَّا بحقِّ الإسلامِ، وحِسابُهم على اللهِ))[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله غَفورٌ لِمَن تاب مِن عِبادِه، فيستُرُ ذُنوبَهم، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم، ومِن رَحمتِه أنْ وفَّقَهم للتَّوبةِ، وقَبِلَها منهم، ولا يُعاقِبُهم بعدها[٢].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وإنِ استأمَنَك- يا محمَّدُ- أحدٌ مِن المُشرِكينَ الذين أمرتُك بقِتالِهم، فأمِّنْه حتى[٣] تتلوَ عليه القرآنَ، ويسمعَه، ويفهمَ ما أُنزِل عليك؛ ليكونَ على بصيرةٍ مِن أمرِه، وتقومَ عليه حُجَّةُ اللَّهِ[٤].

---

(١) رواه البخاري (٢٥) واللفظ له، ومسلم (٣١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٨).

(٣) ذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنَى (إلى)، أي: إلى أن يَسمَعَ كلامَ الله تعالى. ومنهم: الزجَّاج، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٩).

وبعضُهم جعَلَها للتَّعليلِ. أي: لكي يسمَعَ كلامَ الله تعالى. ومنهم: ابن جرير، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩).

قال الرازي: (ليس في الآيةِ ما يدُلُّ على أنَّ مِقدارَ هذه المُهلةِ كم يكونُ، ولعَلَّه لا يُعرَفُ مِقدارُه إلَّا بالعُرفِ، فمتى ظهَرَ على المُشرِك علاماتُ كَونِه طالِبًا للحَقِّ، باحثًا عن وجهِ الاستدلالِ، أُمهِلَ وتُرِكَ، ومتى ظهَرَ عليه كونُه مُعرِضًا عن الحَقِّ، دافعًا للزَّمانِ بالأكاذيبِ، لم يُلتَفَتْ إليه. والله أعلم). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٣١)، ((تفسير

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾.

أي: ثم إنْ لم يُسلِمْ، فاترُكْه يرجِعْ إلى بلَدِه ودِيارِه التي يأمَنُ فيها[1].

القرطبي)) (٨/ ٧٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩).

قال ابن عاشور: (لم يُبَيِّنْ سبَبَ الاستجارةِ؛ لأنَّ ذلك مُختلِفُ الغَرَض، وهو موكولٌ إلى مقاصِدِ العُقَلاءِ؛ فإنَّه لا يستجيرُ أحَدٌ إلَّا لغَرَضٍ صحيح. ولمَّا كانت إقامةُ المُشرِك المستجيرِ عند النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسلامُ لا تخلو من عَرْضِ الإسلام عليه، وإسماعِه القُرآنَ- سواءٌ كانت استجارتُه لذلك أم لِغَرَضٍ آخرَ؛ لِما هو معروفٌ من شأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الحِرصِ على هُدَى النَّاس- جُعل سَماعُ هذا المُستجيرِ القُرآنَ غايةً لإقامَتِه الوقتيَّةِ عند الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فدلَّت هذه الغايةُ على كلامٍ محذوفٍ إيجازًا، وهو ما تشتَمِلُ عليه إقامةُ المستجيرِ مِن تفاوُضٍ في مُهِمٍّ، أو طلَبِ الدُّخولِ في الإسلامِ، أو عَرْضِ الإسلام عليه، فإذا سَمِعَ كَلامَ الله فقد تمَّت أغراضُ إقامَتِه؛ لأنَّ بَعضَها من مَقصِدِ المُستجيرِ وهو حَريصٌ على أن يبدأَ بها، وبعضَها مِن مَقصِدِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهو لا يترُكُه يعودُ حتى يعيدَ إرشادَه، ويكونَ آخِرَ ما يدورُ معه في آخِرِ أزمانِ إقامَتِه إسماعُه كلامَ اللهِ تعالى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٨، ١١٩).

وقال ابن كثير: (ومِن هذا كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعطي الأمانَ لِمَن جاءَه مُسترشِدًا أو في رسالةٍ، كما جاءَه يومَ الحُدَيبيَةِ جماعةٌ مِن الرُّسُلِ مِن قُريشٍ؛ منهم: عُروةُ بن مسعودٍ، ومِكْرَزُ بنُ حَفصٍ، وسُهيلُ بنُ عَمرٍو، وغيرُهم واحدًا بعد واحدٍ، يتردَّدونَ في القضيَّةِ بينه وبين المشركين، فرَأَوْا من إعظامِ المُسلِمينَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما بَهَرَهم، وما لم يُشاهِدوه عند ملِكٍ ولا قَيصرٍ، فرَجَعوا إلى قَومِهم فأخبَرُوهم بذلك، وكان ذلك وأمثالُه من أكبَرِ أسبابِ هِدايةِ أكثَرِهم... والغرَضُ أنَّ مَن قَدِمَ من دار الحَربِ إلى دار الإسلامِ في أداءِ رِسالةٍ أو تجارةٍ، أو طلَبِ صُلحٍ أو مُهادنةٍ، أو حمْلِ جِزيةٍ، أو نحوِ ذلك من الأسبابِ، فطَلَبَ مِن الإمامِ أو نائِبِه أمانًا؛ أُعطِيَ أمانًا ما دام متردِّدًا في دار الإسلامِ، وحتى يرجِعَ إلى مأمَنِه ووطَنِه. لكِن قال العلماءُ: لا يجوزُ أن يُمكَّنَ مِن الإقامةِ في دارِ الإسلامِ سَنةً، ويجوزُ أن يُمكَّنَ من إقامةِ أربعةِ أشهُرٍ، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعةِ أشهُرٍ ونقَصَ عن سنَةٍ قَولانِ، عن الإمامِ الشافعيِّ وغيرِه من العُلَماءِ- رَحِمَهم الله). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٣- ١١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٣).

قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ أمْهِلْه ولا تُهيِّجْه، حتى يبلُغَ مأمَنَه، فلمَّا كان تأمينُ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاه سببًا في بلوغِه مأمَنَه، جعَلَ التأمينَ إبلاغًا، فأمر به النبيَّ عليه الصَّلاةُ

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: أعطِ- يا مُحَمَّدُ- المُشركينَ الأمانَ، حتى يسمَعُوا القرآنَ؛ مِن أجلِ أنَّهم قومٌ جَهَلَةٌ لا يَعلمونَ دِينَ اللهِ وثَوابَه وعِقابَه، فيحصُلَ لهم العِلمُ بِسَماعِه، وتقومَ عليهم حُجَّةُ الله على عبادِه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ عمَّ جميعَ المُشرِكينَ، وعمَّ البِقاعَ والأماكِنَ مِن حِلٍّ وحَرَمٍ إلَّا ما خصَّصَتْه الأدلَّةُ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ فيه أنَّه يجوزُ الأسْرُ بَدَلَ القَتلِ، والتَّخييرُ بينهما[3].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ فيه جوازُ حِصارِهم والإغارةِ عليهم وبيَاتِهم[4].

٤- كلمةُ (كُلَّ) في قَولِ الله تعالى: ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ مُستعملةٌ في تعميمِ المراصِدِ المظنونِ مُرورُهم بها؛ تحذيرًا للمُسلِمينَ مِن إضاعَتِهم الحراسةَ في المراصدِ، فيأتيَهم العدُوُّ منها، أو مِن التَّفريطِ في بعضِ

والسَّلامُ، وهذا يتضمَّنُ أمرَ المُسلِمينَ بألَّا يتعرَّضوا له بسوءٍ حتى يبلُغَ بلادَه التي يأمَنُ فيها، وليس المرادُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتكلَّفُ تَرحيلَه، ويبعَثُ مَن يُبلِّغُه، فالمعنى: اترُكْه يبلغْ مَأمَنَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَمارِّ العَدُوِّ، فينطلِقَ الأعداءُ آمنين فيَستخِفُّوا بالمُسلمينَ، ويتَسامَعَ جماعاتُ المُشرِكينَ أنَّ المُسلِمينَ ليسُوا بِذَوي بأسٍ ولا يَقَظةٍ، فيؤُولُ معنى (كُلَّ) هنا إلى معنى الكَثرةِ؛ للتَّنبيهِ على الاجتهادِ في استقصاءِ المراصِدِ[١].

٥- التعبيرُ بالقُعودِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ للإرشادِ إلى التأنِّي[٢].

٦- في الترصُّدِ والاستقرارِ والتمَكُّنِ وإيصالِ الفِعلِ إلى الظَّرفِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾؛ إشارةٌ إلى أن يشغَلوا في الترصُّدِ كُلَّ جُزءٍ مِن أجزاءِ كُلِّ مَرصدٍ، إن قَدَروا على ذلك، بخلافِ ما لو عبَّرَ بـ (في كُلِّ مَرصدٍ) فإنَّه إنما يدلُّ على شغلِ كُلِّ مَرصدٍ الصَّادِقُ بالكَونِ في موضعٍ واحدٍ منه، أيُّ موضعٍ كان[٣].

٧- الأمرُ في قولِه: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ للإذنِ والإباحة باعتبارِ كلِّ واحدٍ من المأموراتِ على حِدَةٍ، أي: فقد أُذِن لكلٍّ في قتْلِهم وفي أخْذِهم، وفي حِصارِهم، وفي مَنْعِهم مِنَ المرورِ بالأرضِ الَّتي تحتَ حكمِ الإسلامِ، وقدْ يَعْرِضُ الوجوبُ إذا ظَهَرتْ مصلحَةٌ عَظيمَةٌ[٤].

٨- قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾ هذه الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ مَن قال: قد تُبتُ، أنَّه لا يُجتزَأُ بقَولِه حتى ينضافَ إلى ذلك أفعالُه المُحقِّقةُ للتَّوبةِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ شَرَطَ هنا مع التَّوبةِ إقامَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ؛ ليُحَقِّقَ بهما التَّوبة. وقال في آيةِ الرِّبا: ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٥).

﴾[البقرة: ٢٧٩]. وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾[(١)] [البقرة: ١٦٠].

٩- في قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ دلالةٌ على أنَّ التوبةَ مِن الشركِ تُسمَّى توبةً، كما تُسمَّى مِن الذنبِ؛ لأنَّ معناها الرجوعُ عما كان عليه[(٢)].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾ لم يُكتَفَ في تخليةِ السَّبيلِ بالتَّوبةِ مِن الشِّركِ، حتى يُقيمُوا الصَّلاةَ ويُؤتُوا الزَّكاةَ، فاستدَلَّ به من قال بقَتلِ تارِكِ الصَّلاةِ، وقتالِ مانعِ الزَّكاةِ، واستدَلَّ به من قال بتَكفيرِهما[(٣)].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾ الآيةُ تُفيدُ دَلالةَ إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، على الإسلامِ، وتوجِبُ لِمَن يُؤدِّيهما حُقوقَ المُسلمينَ؛ مِن حِفظِ دَمِه ومالِه، إلَّا بما يُوجِبُه عليه شَرعُه من جنايةٍ تقتضي حدًّا مَعلومًا، أو جريمةً تُوجِبُ تَعزيرًا أو تغريمًا[(٤)].

١٢- قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فيه لطيفةٌ، وهو أنَّه تعالى ضيَّقَ عليهم جميعَ الخَيراتِ، وألقاهم في جميعِ الآفاتِ، ثم بيَّنَ أنَّهم لو تابوا عن الكُفرِ، وأقاموا الصَّلاةَ، وآتَوُا الزَّكاةَ، فقد تخلَّصوا عن كلِّ تلك الآفاتِ في الدُّنيا، فنرجو مِن فَضلِ اللهِ أن يكونَ الأمرُ كذلك يومَ القيامةِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٥).
(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدّالّة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٨٠).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٩).

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ يدلُّ على أنَّ المقصودَ مِن شَرعِ القتلِ قَبولُ الدِّينِ، والإقرارُ بالتَّوحيدِ[١].

١٤- الخطابُ بِقَولِه: ﴿ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ يدلُّ على أنَّ أمانَ السُّلطانِ جائِزٌ[٢].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ فيه إشارةٌ إلى وجوبِ الدَّعوةِ قبل القِتالِ[٣].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ فيه حُجَّةٌ صَريحةٌ لِمَذهَبِ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ، القائلينَ بأنَّ (القُرآنَ كَلامُ اللهِ غيرُ مَخلوقٍ)؛ لأنَّه تعالى هو المتكَلِّمُ به، وأضافه إلى نفسِه إضافةَ الصِّفةِ إلى موصوفِها، وبُطلانُ مذهَبِ المُعتَزلةِ ومَن أخذَ بِقَولِهم: إنَّ القُرآنَ مَخلوقٌ[٤].

١٧- قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ نصٌّ صريحٌ في أنَّ هذا الذي نَقرؤُه ونَتلُوه، هو بِعَينِه كلامُ الله، فالصَّوتُ صَوتُ القارِئِ، والكلامُ كَلامُ البارِئِ؛ لأنَّ اللهَ صرَّح بأنَّ هذا المُشرِكَ المُستجيرَ يَسمَعُ كَلامَ اللهِ، يتلوه عليه نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فهذا المحفوظُ في الصُّدورِ، المقروءُ في الألسِنةِ، المكتوبُ في المصاحِفِ؛ هو كلامُ اللهِ جَلَّ وعلا، بمعانيه وألفاظِه[٥].

١٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٥).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٩).
(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٠).

كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ في الكلامِ تَنويهٌ بمعالي أخلاقِ المُسلِمينَ، وغَضٌّ من أخلاقِ أهلِ الشِّركِ، وأنَّ سبَبَ ذلك الغَضِّ الإشراكُ الذي يُفسِدُ الأخلاقَ؛ ولذلك جُعِلوا (قومًا لا يَعلمونَ) دونَ أن يُقالَ (بأنَّهم لا يَعلمونَ)؛ للإشارةِ إلى أنَّ نَفيَ العِلمِ مُطَّرِدٌ فيهم، فيشيرُ إلى أنَّ سبَبَ اطِّرادِه فيهم هو نَشأتُه عن الفِكرةِ الجامعةِ لأشتاتِهم، وهي عقيدةُ الإشراكِ[١].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ فيه وضْعُ المُظْهَرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ- حيثُ لم يَقُل: (فإذا انسلختْ فاقْتُلوا...)-؛ ليكون ذريعةً إلى وَصْفِها بالحُرمةِ؛ تأكيدًا لِمَا يُنبِئ عنه إباحةُ السِّياحةِ من حُرْمةِ التعرُّضِ لهم، مع ما فيهِ من مَزيدِ الاعتناءِ بشأنِها[٢].

- قولُه: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾ هذا المُركَّبُ مُستَعمَلٌ هنا تَمثيلًا في عدمِ الإضرارِ بهم ومُتاركتِهم[٣]، وهو كِنايةٌ عن الكفِّ عنهم، وإجرائِهم مجرَى المسلمين في تصرُّفاتهم حيثُما شاؤوا[٤].

- قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٣).

﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ التوبةِ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾، وقال بَعدَه في التَّوبةِ أيضًا: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾؛ فالشَّرطُ فيهما واحدٌ، لكنِ اختَلَف الجوابُ؛ ووجهُ هذه المُناسَبةِ أنَّ قولَه: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾ ورَدَ بعدَ الأمْرِ بقَتلِ المشركين؛ فناسَبَ أن يكونَ جوابُ الشرطِ فيها الأمرَ بتَرْكِه، وهو قوله تعالى: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾، أمَّا قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾، فورَدَ بعدَ إثباتِ رُسوخِ المشركين في كُفرِهم وضَلالِهم، وصَدِّهم عن سَبيلِ الله، وكونِه هو الباعثَ لهم على قِتالِ المؤمنِينَ ابتداءً، ثم على نَقْضِ عُهودِهم؛ فناسَبَ أنْ يُذكَرَ في جوابِ شَرطِها ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾؛ لأنَّ هذِه أجلبُ لقُلوبِهم، وأشدُّ استمالةً لهم إلى الإسلامِ[1].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تَذييلٌ أُريدَ به حثُّ المسلِمينَ على عَدمِ التعرُّضِ بالسُّوءِ للذين يُسْلِمونَ من المُشركينَ، وعدَم مُؤاخذتِهم لِمَا فَرَط منهم؛ فالمعنى: اغْفِروا لهم؛ لأنَّ الله غَفَر لهم، وهو غَفورٌ رحيمٌ[2].

٢- **قَولُه تعالى:** ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ عطْفٌ على جملةِ: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾؛ لتَفصيلِ مَفهومِ الشَّرْطِ، أو عطْفٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٧).

جُملة ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ لتَخصيصِ عُمومِه، أي: إلَّا مُشرِكًا استجارَك لمصلحةٍ؛ للسِّفارةِ عن قَومِه، أو لمعرفةِ شرائعِ الإسلامِ، وصِيغَ الكلامُ بطَريقةِ الشَّرْطِ؛ لتأكيدِ حُكْمِ الجوابِ، وللإشارةِ إلى أنَّ الشأنَ أنْ تقَعَ الرَّغبةُ في الجِوارِ مِن جانبِ المشركين[١].

- وجِيءَ بحرْفِ (إن) التي شأنُها أنْ يكونَ شَرْطُها نادرَ الوقوعِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ هذا شَرْطٌ فَرْضيٌّ؛ لكيلَا يَزعمَ المشرِكون أنَّهم لم يَتمكَّنوا من لِقاءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيتَّخِذوه عُذْرًا للاستمرارِ على الشِّركِ إذا غَزاهُم المسلِمون[٢].

- وجِيءَ بلَفْظِ ﴿أَحَدٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ دونَ لِفْظِ (مُشْرِكٍ)؛ للتَّنصيصِ على عُمومِ الجِنْس[٣].

- وتَقديمُ ﴿أَحَدٌ﴾ على ﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾؛ للاهْتِمامِ بالمُسنَدِ إليه؛ ليكونَ أوَّلَ ما يَقْرعُ السَّمعَ، فيَقع المُسنَدُ بعدَ ذلك من نَفْسِ السَّامعِ مَوقِعَ التمكُّن[٤].

- وجُملةُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ في مَوضِعِ التَّعليلِ؛ لتأكيدِ الأَمْرِ بالوَفاءِ لهم بالإجارةِ إلى أن يَصِلوا دِيارَهم؛ فلذلك فُصِلتْ عن الجُملةِ التي قَبْلها، ولم تُعطَف عليها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١١٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٢٠).

الآيتان (٧ - ٨)

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَرْقُبُوا۟﴾: أي: يَحفَظُوا ويُراعُوا، وأصلُ (رقب): يدلُّ على انتصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ[(١)].

﴿إِلًّا﴾: الإلُّ: الحِلْفُ والقَرابةُ والعهد والعقد، ويأتي أيضًا بمعنى الله، وأصلُ (ألل) هنا يدلُّ على السَّبَبِ يُحافَظُ عليه[(٢)].

﴿ذِمَّةً﴾: الذِّمَّةُ: العَهدُ والمِيثاقُ، وما يجِبُ أن يُحفَظَ ويُحمى، وأصلُ (ذمم): خلافُ الحَمدِ، وسُمِّي العَهْدُ ذِمامًا؛ لأنَّ الإنسانَ يُذَمُّ على إضاعتِه منه[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: كيف يكونُ للمُشرِكينَ عهدُ أمانٍ عندَ اللهِ وعندَ رَسولِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٥- ٣٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٧٥).

صلَّى الله عليه وسلَّم؟ هذا أمرٌ مُستبعَدٌ، إلَّا الذينَ عاهَدْتُم- أيُّها المُؤمِنونَ- عند المسجِدِ الحرامِ يومَ الحُدَيبيَة، فما دامُوا مُستقيمينَ لكم على ما تعاهَدْتُم عليه، فاستَقِيموا لهم كذلك، إلى انتهاءِ مُدَّةِ العَهدِ، ولا تَبدَؤُوهم بنَقضِه؛ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتَّقينَ.

كيف يكونُ للمُشرِكينَ عَهدُ أمانٍ، وهم إن يغلِبُوكم- أيُّها المُؤمِنونَ- لا يَرحَموكم، ولا يُراعُوا فيكم الله ولا قَرابةً ولا عَهدًا؟ يقولونَ لكم بألسِنَتِهم كلامًا طيِّبًا يُرضِيكم، ولكِنَّ قُلوبَهم تَمتنِعُ أن تُوافِقَ ما يتكَلَّمونَ به، وأكثَرُهم فاسِقونَ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، وقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وقال: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ فلعلَّ بعضَ قبائِلِ العَرَبِ مِنَ المشركينَ يتعجَّبُ مِن هذه البراءةِ، ويسألُ عن سَبَبِها، وكيف أُنهِيَت العُهودُ، وأُعلِنَتِ الحَربُ؟! فكان المقامُ مقامَ بيانِ سَبَبِ ذلك، والحِكمةِ المُوجِبةِ لِأن يتبَرَّأَ اللهُ ورَسولُه مِن المُشرِكينَ، وأنَّه حُكمٌ واقِعٌ في مَحلِّه، وأنَّ نَبْذَ العُهودِ إلى المُشرِكينَ أمرٌ في غايةِ الإحكامِ والصَّوابِ[1].

﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾.

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩).

أي: كيف يكونُ للمُشرِكينَ بِرَبِّهم عهدُ أمانٍ عندَ اللهِ وعندَ رَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؟! هذا أمرٌ مُستبعَدٌ؛ فهؤلاءِ قَومٌ يُضمِرونَ الغَدرَ، والواجِبُ على المؤمِنينَ قَتلُهم أينَما وَجَدُوهم؛ لِكُفرِهم باللهِ ورسولِه، ومُحارَبتِهم أولياءَه[1].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾.

أي: لا ينبغي أن يكونَ للمُشرِكينَ عَهدٌ يأمَنونَ به عَدا الذينَ عاهَدْتُموهم[2]- أيُّها المُؤمِنونَ- يومَ الحُدَيبيَةِ عند المسجِدِ الحرامِ، وهم مُوفُونَ بعَهدِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٥).
وقال الشنقيطي: (المعنى: أنَّ نَبذَ عُهودِهم إليهم حُكمٌ في غايةِ الصَّوابِ، واقِعٌ في موقِعِه، موضوعٌ في موضِعِه؛ لأنَّهم أهلُ خُبث، وأهلُ عَداوةٍ ومكْرٍ للإسلامِ، يستحِقُّونَ نَبذَ عُهودِهم إليهم، وأن يكونوا حَربًا، إلَّا الطَّائفةَ الذين ثَبَتوا. وهذا معنى قَولِه: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ﴾ يأمنونَ به على أنفُسِهم وأموالِهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يأمُرُ نَبيَّه بالوفاء به ﴿وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يعمَلُ لهم بمُقتضاه). ((العذب النمير)) (٥/ ٢٨٥).

(٢) قال ابنُ إسحاق: (هي قبائِلُ بني بكرٍ، الذين كانوا دخَلُوا في عقدِ قُريشٍ وعَهدِهم يومَ الحُدَيبيَة إلى المدَّةِ التي كانت بين رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبين قُريش، فلم يكن نَقَضَها إلا هذا الحيُّ من قريشٍ وبنو الديل من بكر، فأُمِرَ بإتمامِ العهد لِمَن لم يكن نقَضَ عَهْدَه من بني بكرٍ إلى مُدَّتِه). رواه ابن جرير (١١/ ٣٥١). يُنظر: ((سيرة ابن هشام)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٣، ٣٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٠١ - ٣٠٣).
وقال الشنقيطي: (أربعُ قبائِلَ مِن كِنانةَ بنِ مُدرِكةَ كانوا أهلَ عَهدٍ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع قريشٍ، ثم نقض العهدَ منهم بنو الدِّيلِ بنِ بكرِ بنِ عبدِ مَناةَ بن كِنانةَ، بأن عَدَوْا على خُزاعةَ، ونقَضَ معهم قريشٌ؛ حيث أعانوهم على الخُزاعيِّينَ، وبَقِيَ بنو ضَمْرةَ، وبنو جُذَيمةَ بنِ عامرٍ، وبنو مُدلجٍ على عهدِهم، لم ينقُضوا، وهم الذين استَثْناهم اللهُ، وهذه المُعاهدةُ وقع عهدُها في الحُدَيبيَةِ كما عليه جَميعُ المؤرِّخينَ. والله جلَّ وعلا ذكَرَ أنَّها في المسجِدِ الحرام، والتَّحقيقُ أنَّ الحُدَيبيَةَ بعضُها في الحِلِّ وبعضُها في الحرم. وهذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ مُعاهَدةَ الحُدَيبيَةِ وقعت في الطَّرَف منها الذي هو مِن الحَرَم؛ لأنَّه جرت العادةُ أنَّ الله ربما أطلق المسجِدَ الحَرامَ وأراد به جميعَ الحَرَمِ، فالمرادُ به هنا: إلَّا الذين عاهَدْتم في حَرَمِ اللهِ عند الحُدَيبيَةِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٢٨٦).

مُستقيمونَ عليه[١].

﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡ﴾.

أي: فما دامَ المُشرِكونَ مُستَقيمينَ لكم- أيُّها المُؤمِنونَ- على ما تعاهَدْتُم عليه، متمسِّكينَ بما عاقَدْتُموهم عليه، فاستَقِيموا لهم كذلك إلى انتهاءِ مُدَّةِ العَهدِ، وأوْفُوا لهم بعهدِهم، ولا تَبدَؤُوهم بنَقضِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٥، ٢٨٦).

قال ابنُ القيم: (هؤلاءِ- والله أعلم- هم المُستَثنَونَ في تلك الآية، وهم الذين لهم عَهدٌ إلى مُدَّةٍ؛ فإنَّ هؤلاء لو كان عَهدُهم مُطلقًا لَنُبِذَ إليهم، كما نُبِذَ إلى غيرهم، وإن كانوا مُستقيمين كافِّينَ عن قتاله، فإنَّه نُبِذَ إلى جميعِ المشركين؛ لأنه لم يكن لهم عَهدٌ مُؤجَّلٌ يستحِقُّونَ به الوفاءَ، وإنَّما كانت عهودُهم مُطلقةً غيرَ لازمةٍ، كالمُشاركة، والوَكالة، وكان عهدُهم لأجل المصلحة، فلمَّا فَتَحَ اللهُ مكَّةَ، وأعزَّ الإسلامَ، وأذلَّ أهلَ الكُفرِ، لم يبقَ في الإمساكِ عن جِهادِهم مصلحةٌ، فأمَرَ اللهُ به، ولم يأمُرْ به حتى نَبَذَ إليهم على سواءٍ؛ لِئَلَّا يكون قتالُهم قبل إعلامِهم غَدرًا). ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٨٨٤).

وقال أيضًا: (النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أرسل أبا بكرٍ، وأردَفَه بعليٍّ رَضِيَ الله عنهما يؤذِّنُ بسورةِ «براءة»، فنبذ العهودَ إلى جميعِ المُشرِكينَ مُطلقًا، لم ينبِذْها إلى مَن نقَضَ دونَ مَن لم ينقُضْ. وأيضًا فالقرآنُ نبَذَها إلى المشركين، وإنَّما استثنى مَن كان له مُدَّةٌ ووفاءٌ، فمن كان فيه هذانِ الشَّرطانِ لم يُنبَذْ إليه. وأيضًا فإنَّه سُبحانه قال: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٧] فجعل نَفسَ الشِّركِ مانعًا مِن العَهدِ إلَّا الذين لهم عَهدٌ مُؤقَّتٌ، وهم به مُوفونَ). ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٨٨٧).

وقال ابنُ عاشور: (ليس المرادُ كُلَّ مَن عاهد عند المَسجِدِ الحرامِ كما قد يتوهَّمُه المتوَهِّمُ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُنْ مأذونًا بأنْ يُعاهِدَ فريقًا آخَرَ منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٠، ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٧).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يتَّقونَ اللهَ، فيَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويجتَنِبونَ نَواهِيَه، ومن ذلك أنَّهم يُوفُونَ بالعُهودِ، ولا يَغدِرونَ[1].

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أنكَرَ سُبحانَه أن يكونَ للمُشرِكينَ غَيرِ المُستَثنَينَ عَهدٌ؛ بيَّن السَّبَبَ المُوجِبَ للإنكارِ[2]، فقال تعالى:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

أي: كيفَ يكونُ للمُشرِكينَ عَهدُ أمانٍ، والحالُ أنَّهم إن يغلِبُوكم- أيُّها المُؤمِنونَ- لا يَرحَموكم، ولا يُراعُوا فيكم اللهَ، ولا قَرابةً، ولا عَهدًا[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٤، ٣٥٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٨-٢٨٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الإلَّ هنا بمعنى القَرابةِ، والذِّمَّةَ بمعنى العَهدِ: الواحدي، وابنُ تيمية، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((الوسيط)) (٢/ ٤٧٩)، ((مجموع الفتاوى)) (٢٩/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٥).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ بأنَّ الإلَّ هي القرابةُ: ابنُ عبَّاسٍ، والضحَّاك، والسُّدِّي، ومقاتل. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٧٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٨).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ بأنَّ الذِّمَّةَ هي العَهدُ: ابنُ عبَّاسٍ، والضحَّاك في أحدِ قَولَيه، وسعيدُ بن

﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه حالَهم مع المُؤمِنينَ إن ظَهَروا عليهم، ذَكَرَ حالَهم معهم إذا كانوا غيرَ ظاهِرينَ، فقال تعالى[1]:

﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾.

أي: يَقولُ لكم المُشرِكونَ بألسِنَتِهم كلامًا طَيِّبًا يُرضيكم- أيُّها المُؤمِنونَ- لكِنَّ قُلوبَهم تمتَنِعُ أن تُوافِقَ ما يَنطِقونَ به؛ فهي مُنطَوِيةٌ على بُغضِكم وعَداوَتِكم، والامتناعِ عَن محبَّتِكم، والدُّخولِ في دِينِكم[2].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ * هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ

جُبير، وقتادة، ومجاهدٌ في إحدى الرِّوايات عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٧٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٩).

وقال ابنُ جريرٍ: (والإلُّ: اسمٌ يشتَمِلُ على معانٍ ثلاثةٍ: وهي العَهدُ والعَقدُ، والحِلْفُ، والقَرابةُ، وهو أيضًا بمعنى (الله). فإذ كانت الكَلِمةُ تَشمَلُ هذه المعانيَ الثَّلاثةَ، ولم يكُنِ اللهُ خَصَّ من ذلك معنًى دونَ معنًى، فالصَّوابُ أن يَعُمَّ ذلك، كما عَمَّ بها جَلَّ ثَناؤُه معانيَها الثَّلاثةَ، فيُقال: لا يَرقُبونَ في مؤمِنٍ اللهَ، ولا قرابةً، ولا عهدًا ولا ميثاقًا). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٨).

وقال الشِّنقيطي عن اختيارِ ابنِ جَريرٍ: (وهذا الذي ذهَبَ إليه هو مِن حَملِ المُشتَرَكِ على مَعانيه، وحَملُ المُشتَرَكِ على مَعنَيَيه أو مَعانيه، ممَّا اختلفَ فيه علماءُ الأصولِ، والذي حرَّرَه المُحَقِّقونَ مِن أصوليِّي أصحابِ المذاهِبِ الأربعةِ: هو جوازُ حَملِ المُشتَرَكِ على مَعنَيَيه أو معانيه). ((العذب النمير)) (٥/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٤).

وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

أي: وأكثَرُ أولئك القَومِ خارِجونَ عَن طاعةِ اللهِ، ناقِضونَ للعُهودِ، لا ديانةَ لهم، ولا مُروءةَ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

الوفاءُ بالعَهدِ مِن أخلاقِ المُتَّقينَ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾. في وَصفِهم بالمُشرِكينَ إيماءٌ إلى عِلَّةِ الإنكارِ على دوامِ العَهدِ مَعَهم[٣].

٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ على أنَّ مَن كانت حالُه أنَّه إذا ظهَرَ لم يَرقُبْ ما بيننا وبينه مِن العَهدِ- لم يكُنْ له عَهدٌ؛ لأنَّ مَن جاهَرَنا بالطَّعنِ في ديننا، كان ذلك دليلًا على أنَّه لو ظهر لم يَرقُبِ العَهدَ الذي بيننا وبينه؛ فإنَّه إذا كان مع وُجودِ العَهدِ والذِّلَّةِ يفعلُ هذا، فكيف

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢١).

يكونُ مع العِزَّةِ والقُدرةِ؟! خلافًا لِمَن لم يُظهِر لنا مثلَ هذا الكَلامِ؛ فإنَّه يجوزُ أنْ يَفيَ لنا بالعَهدِ لو ظَهَرَ(١).

٣- قال تعالى: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾. إن قيلَ: إنَّ الموصوفينَ بهذه الصِّفةِ كُفَّارٌ، والكُفرُ أقبَحُ وأخبَثُ مِن الفِسقِ، فكيف يَحسُنُ وَصفُهم بالفِسقِ في مَعرِضِ المبالغةِ في الذَّمِّ، وأيضًا الكُفَّارُ كلُّهم فاسِقونَ، فلا يبقى لِقَولِه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ فائدةٌ؟ فالجَوابُ: أنَّ الكافِرَ قد يكونُ عَدلًا في دِينِه، له حفظٌ لمراعاةِ الحالِ الحسنةِ مِن التعفُّفِ عمَّا يثلمُ العِرضَ، فلا ينقُضُ العَهدَ، وقد يكونُ فاسِقًا خبيثَ النَّفسِ في دينِه، لا مروءةَ تردعُه، ولا طباعَ مرضيةٌ تزَعُه، فينقُضُه، فالمرادُ بالفِسقِ هنا نَقضُ العَهدِ، وكان في المُشرِكينَ مَن وَفَى بعَهدِه؛ فلهذا قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾، أي: إنَّ هَؤلاءِ الكُفَّارَ- الذين مِن عادَتِهم نَقضُ العَهدِ- أكثَرُهم فاسِقونَ في دِينِهم وعند أقوامِهم، وذلك يُوجِبُ المُبالغةَ في الذَّمِّ(٢)، وقيل: التعبيرُ بقولِه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ لأنَّ منهم مَن قضَى الله له بالإيمانِ(٣)، وقيل: المرادُ بالأكثريةِ: الكلُّ، فمعنَى ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾: وكلُّهم فاسقونَ(٤).

بلاغَةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨).

- قولُه تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، نَشأ عن قولِه: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، ثُمَّ عن قُولِهِ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وعن قولِه: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، التي كانتْ تَدرُّجًا في إبطالِ ما بينهم وبين المسلمينَ من عُهودٍ سابقةٍ؛ لأنَّ ذلك يُثيرُ سؤالًا في نُفوسِ السَّامعينَ من المسلِمينَ الذين لم يَطَّلِعوا على دَخيلةِ الأَمْرِ؛ فلعلَّ بعضَ قَبائل العربِ من المشركين يَتعجَّب من هذه البَراءةِ، ويسألُ عن سببِها؛ فكان المقامُ مَقامَ بيانِ سَببِ ذلك، وأنَّه أمران: بُعدُ ما بين العقائدِ، وسَبْقُ الغَدْرِ[١].

- قولُهُ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ اسْتِفهامٌ بمَعْنى الإنكارِ، والاسْتِبعادِ لِأنْ يكونَ لهم عَهْدٌ ولا يَنْكُثوه مع ضِغنِ صُدورِهم وعَداوتِها، وتوقُّدِها من الغيظِ، أو لأنْ يَفيَ اللهُ تعالى ورسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعَهْدِ، وهم نَكَثوه[٢].

- وفي قولِهِ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ﴾ تَوجيهُ الإنكارِ إلى كيفيَّةِ ثُبوتِ العَهْدِ، وفيه من المُبالَغةِ ما ليس في تَوجيهِهِ إلى ثُبوتِهِ؛ لأنَّ كلَّ موجودٍ يَجِبُ أنْ يكونَ وجودُهُ على حالٍ من الأحوالِ قَطْعًا[٣].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ المقصودُ مِن تَخصيصِهم بالذِّكرِ؛ التَّنويهُ بخَصلةِ وَفائِهم بما عاهَدُوا عليه[٤].

٢- **قَولُه تعالى:** ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٠-١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢١).

- قولُه: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ ...﴾ ﴿كَيْفَ﴾ هذه مُؤكِّدةٌ لـ ﴿كَيْفَ﴾ التي في الآيةِ قَبْلها، وفي إعادةِ الاسْتِفهامِ إشعارٌ بأنَّ جُملةَ الحالِ لها مزيدُ تَعلُّقٍ بتوجُّه الإنكارِ على دَوامِ العهدِ للمُشركينَ، حتَّى كأنَّها مُستَقِلَّةٌ بالإنكارِ، لا مجرَّدُ قيدٍ للأَمْرِ الذي تَوجَّه إليه الإنكارُ ابتداءً؛ فهي تَكرارٌ لاسْتِبعادِ ثَباتِهم على العَهْدِ، أو بقاءِ حُكْمه، مع التَّنبيهِ على العِلَّةِ[1].

- وفي قوله: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ أيضًا استأنَفَ هذا الكلامَ، أي: حالُهم في الظَّاهرِ يُخالِفُ باطِنَهم، وهذا كلُّه تَقريرٌ واسْتِبعادٌ لثَباتِ قلوبِهم على العَهْد[2].

- ونِسبةُ الإرضاءِ إلى الأفواهِ في قولِهِ: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ كلامَهم مُجرَّدُ ألفاظٍ يَتفوَّهون بها، مِن غيرِ أنْ يكونَ لها مِصداقٌ في قلوبِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٦).

الآيات (٩ - ١٢)

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَّكَثُوٓاْ﴾: أي: نَقَضوا، وأصلُ (نكث): يدلُّ على نَقضِ شَيءٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ استبدَلوا بآياتِ اللهِ شَيئًا قليلًا مِن عَرَضِ الدُّنيا، فصَدُّوا أنفسهم عن قبولِ الحقِّ واتباعِه، وصدُّوا غيرَهم من النَّاسِ عن الدُّخولِ في الإسلامِ، وحاولوا ردَّ مَن أسلَمَ عن اتِّباعِ الحَقِّ، إنَّهم ساء ما كانوا يعملونَ؛ لا يُراعُونَ في مؤمِنٍ قَدَرُوا عليه اللهَ ولا قَرابةً ولا عَهدًا، وأولئك هم المُعتَدونَ.

ثم يُخاطِبُ المؤمنينَ قائِلًا لهم: فإنْ تاب المُشرِكونَ، وأدَّوُا الصَّلاةَ المفروضةَ على وجهِها الأكمَلِ، وأعطَوُا الزَّكاةَ الواجِبةَ لِمُستحِقِّيها، فهم إخوانُكم في الإسلامِ، ونُبَيِّنُ الآياتِ لِقَومٍ يَعلمونَ، وإنْ نَقَضوا عُهودَهم من بعدِ ما عاهَدُوكم، وقَدَحوا في دينِكم وانتَقَصوه، فقاتِلُوا رُؤَساءَ الكُفرِ؛ إنَّهم لا عُهودَ لهم صادقةً يُوفونَ بها؛ لعلَّهم يَنتَهونَ عَنِ الكُفرِ والضَّلالِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٢، ٥٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧)

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كشَفَ تعالى سرائِرَهم؛ شرعَ سبحانه يُقيمُ لهم الدَّليلَ على فِسقِهم وخِيانَتِهم، بتَذكيرِهم ما بدا مِن بَعضِهم مِن النَّقضِ، بعد أن أثبَتَ فيما مضى أنَّهم شَرعٌ واحِدٌ[١]، بعضُهم أولياءُ بَعضٍ[٢].

وأيضا فهذا بيانٌ مُستأنَفٌ لِمَن عساه يستغرِبُ غَلَبَةَ الفِسقِ، والخُروجَ مِن دائرةِ الفَضائِلِ الفِطريَّةِ والتقليديَّةِ على أكثَرِهم، حتى مُراعاة اللهِ والقرابةِ والوفاءِ بالعَهدِ الممدوحَينِ عِندَهم، ويسألُ عن سبَبِه، وجَوابُه[٣]:

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾.

أي: استبدَلَ أولئك المُشرِكونَ، بآياتِ القُرآنِ شَيئًا قليلًا مِن عَرَضِ الدُّنيا، ومَتاعِها الفاني، فتَرَكوا اتِّباعَها لذلك، واتَّبَعوا أهواءَهم[٤].

---

(١) أي: سواء، لا يفوقُ بعضُهم بعضًا. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٨/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٧، ٢٩٨).

قال ابنُ عاشور: (هؤلاءِ الذين بَقُوا على الشِّركِ مِن العَرَبِ بعد فتحِ مكَّةَ وظهورِ الإسلامِ على مُعظَمِ بلادِ العَرَبِ، ليس لهم امتراءٌ في صِحَّةِ الإسلامِ ونُهوضِ حُجَّتِه، ولكنَّهم بَقُوا على الشِّركِ لِمَنافِعَ يَجتنُونَها من عوائِدِ قَومِهم؛ مِن غاراتٍ يَشُنُّها بعضُهم على بعضٍ، ومحبَّةِ الأحوالِ الجاهليَّةِ مِن خَمرٍ ومَيسرٍ وزِنًا، وغير ذلك من المذمَّات واللذَّات الفائتة، وذلك شيءٌ قليلٌ، آثَرُوه على الهدى والنَّجاة في الآخرة، فلِكَونِ آياتِ صِدقِ القُرآنِ أصبحت ثابتةً عندهم جُعِلت مثلَ مالٍ بأيديهم، بذَلُوه وفرَّطوا فيه لأجلِ اقتناءِ منافِعَ قليلةٍ؛ فلذلك مثَّل حالَهم بحالِ

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾.

أي: فتسبَّبَ عن ضَلالِهم قيامُهم بإضلالِ غَيرِهم، فمَنَعوا أنفسهم من قبولِ الحقِّ واتِّباعِه، ومنعوا غيرَهم مِن الدُّخولِ في الإسلامِ، وحاوَلُوا رَدَّ المُسلِمينَ عن اتِّباعِ الحَقِّ(١).

﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: بِئسَ ما كان يعمَلُه أولئك المُشرِكونَ؛ مِن استبدالِهم الكُفرَ بالإيمانِ، وصَدِّهم النَّاسَ عن سبيلِ الرَّحمنِ(٢).

﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ تعالى بعَراقَتِهم في الفِسقِ، دلَّ عليه بأنَّ خِيانَتَهم ليست خاصَّةً

مَنِ اشترى شيئًا بِشَيءٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٥).

واستبعَدَ الشنقيطيُّ جِدًّا ما قاله جماعةٌ مِن العُلَماءِ: أنَّ هذه الآيةَ نزَلَت في قوم مِن الأعرابِ كانوا عاهَدُوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فدعاهم أبو سفيانَ بنُ حَربٍ، وأَطعَمَهم أكلةً، ونقَضُوا العهودُ بسبَبِ ذلك. قال: (لأنَّ هذه الآيةَ مِن براءةَ نزَلَت بعد إسلامِ أبي سفيانَ؛ لأنَّ أبا سفيانَ أسلَمَ عامَ الفَتحِ عامَ ثَمانٍ، وهذه نزلَتْ عامَ تِسعٍ). ((العذب النمير)) (٥/ ٢٩٧).

وقال الشنقيطي أيضًا: (واختلَفَ العلماءُ بالمراد بهذا الثَّمَنِ القَلِيل ... والتَّحقيقُ- إن شاء اللهُ تعالى- أنَّ المعنى: أنَّ الكُفَّار تبَدَّلوا من آياتِ اللهِ والعمَلِ بما جاء عن اللهِ ثَمنًا قَليلًا مِن مَتاعِ الحياةِ الدُّنيا، وهو -مَثلًا- عدَمُ التقيُّدِ بالشَّرعِ، وبقاؤُهم على ما كانوا عليه، واتِّباعُهم أهواءَهم، كما قال جلَّ وعلا: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٩٠] فتعَوَّضوا من هذا اتِّباعَهم هواهم، وبقاءَهم على ما كانوا عليه؛ لأنَّه أحَبُّ إليهم. وهذا شيءٌ تافِهٌ تَعوَّضوا منه سَعادةَ الدُّنيا والآخِرةِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٢٠).

بالمُخاطَبينَ، بل عامَّةٌ لكُلِّ مَن اتَّصَف بصِفةِ الإيمانِ[١]، فقال تعالى:

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾.

أي: لا يُراعي أولئك المُشرِكونَ في أيِّ مُؤمنٍ قَدَرُوا عليه اللهَ ولا قَرابةً ولا عَهدًا[٢].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾.

أي: وأولئك المُشرِكونَ هم المُجاوِزونَ حُدودَ اللهِ، الظَّالِمونَ لِعبادِ اللَّهِ[٣].

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ مَن لا يَرقُبُ في اللهِ إلًّا ولا ذِمَّةً، وينقُضُ العَهدَ، وينطوي على النِّفاقِ، ويتعَدَّى ما حُدَّ له؛ بيَّنَ مِن بعدُ أنَّهم إن أقاموا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ كيف حُكمُهم[٤]، فقال تعالى:

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ ﴾.

أي: فإن رجَعَ المُشرِكونَ عن كُفرِهم إلى الإيمانِ باللهِ، وأدَّوُا الصَّلواتِ المفروضةَ، وأعطَوُا الزَّكاةَ الواجبةَ مُستحِقِّيها؛ فهُم إخوانُكم- أيُّها المُسلِمونَ-

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ١٨٦، ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٠، ٣١١)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١١)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٣).

في الإسلامِ[١].

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ونُبَيِّنُ آياتِ القُرآنِ لِقَومٍ يَعقِلونَ عن اللهِ بَيانَه وآياتِه، فيَفهمُونَها، ويتفَكَّرونَ فيها، وينتَفِعونَ بها[٢].

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾.

مَناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا استوفى اللهُ تعالى بيانَ أصنافِ المُشرِكينَ، الذين أمَرَ اللهُ بالبراءةِ مِن عَهدِهم، والذينَ أمَرَ بإتمامِ عَهدِهم إلى مُدَّتِهم ما استقاموا على العَهدِ، والذين يَستجِيبونَ- عطَفَ على أولئك بيانَ الذين يُعلِنونَ بِنَكْثِ العَهدِ، ويُعلِنونَ بما يُسخِطُ المُسلِمينَ[٣]، فقال تعالى:

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾.

أي: وإن نقَضَ أولئك المُشرِكونَ عُهودَهم مِن بعدِ ما عاهَدُوكم على ألَّا يُقاتِلوكم، ولا يُظاهِروا عليكم أحدًا مِن أعدائِكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٢).

﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾.

أي: وقدحوا في دينِكم الإسلامِ، وعابُوه وانتقَصُوه[١].

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾.

أي: فقاتِلوا- أيُّها المُؤمِنونَ- رؤساءَ الكُفرِ[٢] الذين نقَضُوا العُهودَ، وطَعَنوا في الإسلامِ[٣].

قال الشنقيطي: (﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ الأيمانُ: جمعُ يمينٍ. قال بعضُ العلماء: هي العهودُ. وقال بعض العلماء: هي الأيمانُ التي تؤكَّدُ بها العهودُ؛ لأنَّهم إذا أُخِذَت عليهم العُهودُ، أكَّدُوها بالأيمانِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٠٢).

ولكِن ردَّ ابنُ تيميَّةَ هذا القولَ، فقال: (واليَمينُ هنا المرادُ بها العُهودُ لا القَسَمُ باللهِ- فيما ذَكَره المفَسِّرونَ- وهو كذلك؛ فالنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يقاسِمْهم باللهِ عامَ الحُدَيبيَةِ، وإنما عاقَدَهم عقدًا، ونسخةُ الكِتابِ معروفةٌ ليس فيها قسَمٌ؛ وهذا لأنَّ اليمينَ يقال: إنَّما سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّ المُعاهِدَينِ يمُدُّ كُلٌّ منهما يمينَه إلى الآخَرِ، ثم غُلِّبَت حتى صار مجرَّدُ الكلامِ بالعَهدِ يُسمَّى يمينًا، ويقال: سُمِّيت يمينًا؛ لأنَّ اليمينَ هي القوَّةُ والشِّدَّةُ... فلما كان الحِلْفُ معقودًا مشَدَّدًا سُمِّيَ يمينًا، فاسمُ اليمينِ جامِعٌ للعَقدِ الذي بين العَبدِ وبين ربِّه، وإن كان نَذْرًا... وللعَهدِ الذي بين المخلوقينَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ والنَّهيُ عن نقضِ العُهودِ وإن لم يكُن فيها قَسَمٌ، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾ وإنما لفظُ العهدِ: «بايعناك على ألَّا نَفِرَّ» ليس فيه قَسَمٌ، وقد سمَّاهم مُعاهِدينَ لله). ((الصارم المسلول)) (ص: ١٧- ١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٢، ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠).

قال السعدي: (ويدخُلُ في هذا جميعُ أنواعِ الطَّعنِ المُوجَّهةِ إلى الدِّينِ، أو إلى القُرآنِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠).

(٢) قال الشنقيطي: (ما جرى على ألسِنةِ كثيرٍ مِن العُلَماءِ هنا أنَّهم: أبو جهلٍ وأميَّةُ بنُ خَلفٍ وسُهَيلُ بن عمرٍو، إلى أشرافِ المذكورينَ في غزوةِ بَدرٍ، فهو خلافُ الظَّاهِرِ؛ للإجماعِ على تأخُّرِ هذه الآياتِ كثيرًا إلى عامِ تِسعٍ، أو إلى أنَّها نزلت قبل الفَتحِ عامَ ثَمانٍ). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٤).

﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿لَا إِيْمَانَ﴾ قيل: على معنى أنَّهم لا إسلامَ لهم ولا دينَ، فهم كفَّارٌ. وقيل: المرادُ معنى الأمنِ، أي: لا أمانَ لهم، فقد بطَلَ الأمانُ الذي أعطَيتُموهم؛ لأنَّهم قد نقَضُوا عَهْدَهم[١].

٢- قِراءةُ ﴿لَآ أَيْمَٰنَ﴾ على معنى أنَّه لا عَهْدَ لهم، أي: هم لا يُوفُونَ بِعُهودِهم ومَواثيقِهم[٢].

﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾.

أي: إنَّ رُؤَساءَ الكُفرِ لا عُهودَ لهم صادقةً يُوفُونَ بها[٣].

﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾.

أي: قاتِلُوهم؛ كي ينتَهُوا عن الكُفرِ والضَّلالِ[٤].

---

(١) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٨).
ويُنظر: لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٨).
ويُنظر: لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٦، ٣٠٧).
وممَّن فسَّر قولَه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ بأنَّ معناه انتهاؤُهم عن الكُفر: الواحديُّ، وابنُ

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ على ذمِّ قطيعةِ الرَّحِمِ، ونَقْضِ الذِّمَّة[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ هذه الأُخوَّةُ أوَّلُ مَزيَّةٍ دُنيويَّةٍ للإسلامِ؛ فإنَّ المُشرِكينَ كانوا مَحرومينَ مِن هذه الأُخوَّةِ العظيمةِ، بعضُهم حَربٌ لِبَعضٍ في كلِّ وَقتٍ، إلَّا ما يكونُ مِن عَهدٍ أو جِوارٍ، قلَّما يفي به القَويُّ للضَّعيفِ دائمًا[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ أي:

كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣١).

وممن فسَّره بأنه: الانتهاءُ عن الطَّعنِ في الدِّين، والمظاهرةِ على المسلمين: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٣).

وممَّن فسَّره بأنَّه: انتهاؤُهم عن الكُفرِ وعن الطَّعنِ في الإسلامِ، فجمَع بينَ المعنيينِ: السعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٦، ٣٠٧).

وذهب ابن تيميَّةَ إلى أنَّ المُرادَ: الانتهاءُ عن نقضِ العَهدِ، والطَّعنِ في الدِّينِ. يُنظر: ((الصارم المسلول)) (ص: ٣٩٢).

وردَّ ابنُ عاشورٍ أن يكونَ المرادُ بالانتهاءِ: الانتهاءُ عن نقضِ العَهدِ، أو الطَّعنِ في الدِّينِ. فقال: (لم يُذكَر مُتعَلِّق فعل ﴿يَنْتَهُونَ﴾ ولا يُحتَمَلُ أن يكونَ الانتهاءُ عن نكْثِ العَهدِ؛ لأنَّ عَهدَهم لا يُقبَلُ بعد أن نكَثوا؛ لِقَولِ الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾، ولا أن يكونَ الانتهاءُ عن الطَّعنِ في الدِّينِ؛ لأنَّه إن كان طعْنُهم في دينِنا حاصلًا في مدَّةِ قِتالِهم، فلا جَدْوى لِرَجاءِ انتِهائِهم عنه، وإن كان بعد أن تضَعَ الحَربُ أوزارَها، فإنَّه لا يستقيمُ؛ إذ لا غايةَ لِتَنهيةِ القَتلِ بين المُسلِمينَ وبينهم، فتعيَّنَ أنَّ المُرادَ: لعلَّهم ينتهونَ عن الكُفرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣١).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٦٩).

لِيكُنْ غَرَضُكم في مُقاتَلتِهم- بعد ما وُجِدَ منهم من العظائِم ما وُجِد- انتهاءَهم عمَّا هم فيه، وهذا مِن كَرَمِه سبحانَه وفَضلِه، وعَوْدِه على المُسيءِ بالرَّحمةِ[١].

٤- ممَّا امتاز به الإسلامُ على جميعِ شَرائعِ الأُمَمِ وقَوانينِها: جَعلُ الحَربِ ضَرورةً مُقَيَّدةً بإرادةِ مَنعِ الباطِلِ، وتقريرِ الحَقِّ والفضائِلِ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِۙ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ أي: قاتِلُوهم راجِينَ بِقِتالِكم إيَّاهم أن يَنتَهوا عن كُفرِهم وشِرْكِهم، وما يحمِلُهم عليه مِن نَكْثِ أيمانِهم، ونَقضِ عُهودِهم، والضَّراوةِ بِقتالِكم كلَّما قَدَرُوا عليه، وهو يتضَمَّنُ النَّهيَ عن القتالِ اتِّباعًا لِهَوى النَّفسِ أو إرادةِ منافِعِ الدُّنيا؛ مِن سَلبٍ وكَسْبٍ، وانتقامٍ مَحضٍ بالأَوْلى[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ بيَّنَ عَراقَتَهم في القبائحِ وأنَّها في جِبِلَّتِهم، بذِكرِ الكَونِ، فقال: ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾، أي: يُجَدِّدونَ عَمَلَه في كلِّ وَقتٍ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فِي مُؤۡمِنٖ ﴾ إعلامٌ بأنَّ عَداوَتَهم إنَّما هي بحسَبِ الإيمانِ فقط، وقَولُه أوَّلًا: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ ﴾ [التوبة: ٨] كان يحتمِلُ أن يظُنَّ ظانٌّ أنَّ ذلك للإحَنِ التي وقعَت، فزال هذا الاحتمالُ بِقَولِه: ﴿فِي مُؤۡمِنٖ ﴾[٤].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٧٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠).

﴿فِي ٱلدِّينِ﴾ هذه الآيةُ دليلٌ على أنَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ مَقرونتانِ بالشَّهادةِ، في كَفِّ السَّيفِ وحَقنِ الدَّمِ، ودليلٌ على أنَّ المُؤاخاةَ بالإسلامِ بين المُسلِمينَ مَوقوفةٌ على فِعلِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ جَميعًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى شَرَطَهما في إثباتِ المُؤاخاةِ، ومَن لم يكُنْ مِن أهلِ وُجوبِ الزَّكاةِ وجَبَ عليه أن يُقِرَّ بِحُكمِها، فإذا أقَرَّ بحُكمِها دخل في الصِّفةِ التي تجِبُ بها الأُخُوَّةُ(١).

٤- في قولِ الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ علَّقَ الأُخُوَّةَ في الدِّينِ على التَّوبةِ مِن الشِّركِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ؛ والمُعَلَّقُ بالشَّرطِ ينعَدِمُ عند عَدَمِه، فمَن لم يفعلْ ذلك فليس بأخٍ في الدِّينِ، ومَن ليس بأخٍ في الدِّينِ فهو كافِرٌ؛ لأنَّ المؤمنينَ إخوةٌ- رغم قيامِ الكبائرِ بهم- بدليلِ قَولِه تعالى في آيةِ المُقتَتِلين: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠]، وهذا مع أنَّه قد سمَّى قتالَ المؤمِنِ كُفرًا(٢).

٥- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ على أنَّ عَهدَ المُشرِكِ ينتقِضُ بذلك؛ فإنَّه حتى لو كان مُستقيمًا فيه بدونِ نَكْثٍ؛ فإنَّ مُجاهَرتَنا بالشَّتيمةِ، والوقيعةِ في رَبِّنا ونَبِيِّنا وكتابِنا ودِينِنا، يقدحُ في الاستقامةِ، كما تقدَحُ مُجاهَرتُنا بالمحاربةِ، في العَهدِ، بل ذلك أشَدُّ علينا إنْ كنَّا مُؤمِنينَ(٣).

٦- دَعوةُ الذِّميِّ أو المُعاهَدِ إلى دينِه، وترغيبُه المسلمينَ إليه، مِن أَوْلى الأشياءِ أن ينتقِضَ العهدُ بها؛ فإنَّه حِرابُ الله ورسولِه باللِّسانِ، وقد يكون أعظَمَ مِن الحِرابِ باليَدِ، كما أنَّ الدَّعوةَ إلى اللهِ ورَسولِه جهادٌ بالقَلبِ وباللِّسانِ، وقد يكون أفضَلَ من الجهادِ باليَدِ. ولَمَّا كانت الدَّعوةُ إلى الباطِلِ مُستلزِمةً- ولا بُدَّ-

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((شرح العمدة - كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٣).

للطَّعنِ في الحَقِّ، كان دعاؤُهم إلى دينِهم، وتَرغيبُهم فيه طعنًا في دينِ الإسلام، وقد قال تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ ﴾ ولا ريب أنَّ الطَّعنَ في الدِّينِ أعظَمُ مِن الطَّعنِ بالرُّمحِ والسَّيفِ، فأَوْلى ما انتقَضَ به العَهدُ الطَّعنُ في الدينِ، ولو لم يكُن مَشروطًا عليهم؛ فالشَّرطُ ما زادَه إلَّا تأكيدًا وقُوَّةً(١).

٧- مَن كان مِن المؤمنينَ بأرضٍ هو فيها مُستضعَفٌ، أو في وقتٍ هو فيه مُستضعَفٌ؛ فليعمَلْ بآياتِ الصَّبرِ والصَّفحِ، وأمّا أهلُ القُوَّةِ فإنَّما يَعملونَ بآيةِ قِتالِ أئمَّةِ الكُفرِ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ ﴾ الذين يطعَنونَ في الدِّينِ، وبآيةِ قِتالِ الذينَ أوتُوا الكتابَ حتى يعطُوا الجِزيةَ عن يدٍ وهم صاغِرونَ(٢).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ استدَلَّ به مَن قال: إنَّ الذِّميَّ يُقتَلُ إذا طعنَ في الإسلام، سواءٌ شَرَطَ انتقاضَ العَهدِ به أم لا. واستدَلَّ من قال بقَبولِ تَوبَتِه بقَولِه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾(٣).

٩- قال الله تعالى: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ ﴾ مِن هاهنا أُخِذَ قَتلُ مَن سَبَّ الرَّسولَ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، أو مَن طعَنَ في دينِ الإسلامِ، أو ذَكَرَه بتنَقُّصٍ(٤).

١٠- قال تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ ﴾ فسَمَّاهم أئمَّةَ الكُفرِ لِطعنِهم في الدِّينِ؛

(١) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٣/ ١٢٥٥).
(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢١).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٨)، وينظر أيضًا: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦).

فكُلُّ طاعِنٍ في الدِّينِ، فهو إمامٌ في الكُفرِ؛ وذلك لأنَّه علَّلَ ذلك بأنَّهم لا أيمانَ لهم، وذلك يشمَلُ جَميعَ النَّاكِثينَ الطَّاعِنينَ، ولأنَّ النَّكثَ والطَّعنَ وصفٌ مُشتَقٌّ مُناسِبٌ لِوجوبِ القِتالِ، وقد رُتِّبَ عليه بحرفِ الفاءِ تَرتيبَ الجَزاءِ على شرطِه، فإذا طعَنَ الذِّمِّيُّ في الدِّينِ، فهو إمامٌ في الكُفرِ، فيجِبُ قَتْلُه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ ولا يَمينَ له؛ لأنَّه عاهَدَنا على ألَّا يُظهِرَ عَيبَ الدِّينِ، وخالَفَ[1].

بلاغَةُ الآياتِ:

١- **قَولُه تعالى:** ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

- قولُهُ: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ الإضافةُ في ﴿سَبِيلِهِۦٓ﴾؛ للتَّشريفِ[2].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ مَفعولُ ﴿فَصَدُّواْ﴾ مَحذوفٌ لِقَصدِ العُمومِ، أي: صَدُّوا كلَّ قاصدٍ[3].

- قولُهُ: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فيه الافتتاحُ بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهْتِمامِ بهذا الذَّمِّ لهم، وعبَّر عن عَمَلِهم بـ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّه دَأْبٌ لهم، ومُتكرِّرٌ منهم[4].

٢- قوله تعالى: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾

- في قولِه تعالى: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ﴾ تكرارٌ لِمَعْنى

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٧-١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قولِه: ﴿ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ ﴾؛ حيث ذُكِرَ الأوَّلُ وجُعِلَ جَزاءً للشَّرْطِ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ ﴾، ثمَّ أُعيدَ ذَلِك تَقبيحًا لهم فقال: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ ﴾[1]. وفي تَكرارِ ذلِك بإبدالِ الضَّميرِ في قوله: ﴿فِيكُمۡ﴾ بقولِه: ﴿ فِي مُؤۡمِنٍ ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ إذ الأوَّلُ وقَعَ جوابًا لِقَولِه: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ ﴾، والثاني وقَعَ إخبارًا عن تَقبيحِ حالِهم[2].

- قولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴾ فيه قَصْرٌ؛ وهو إمَّا أنْ يكونَ للمُبالغةِ في اعتدائِهم؛ لأنَّه اعتداءٌ عَظيمٌ باطِنيٌّ على قومٍ حالَفوهم وعاهَدوهم، ولم يُلْحِقوا بهم ضُرًّا مع تَمكُّنهم منه، وإمَّا أن يَكونَ قَصْرَ قَلْبٍ، أي: هم المعتَدُونَ لا أنتُم؛ لأنَّهم بَدؤُوكم بنَقضِ العَهْدِ[3].

- قولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴾ عَطفٌ على جُملةِ: ﴿ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ ﴾ لِمُناسبةِ أنَّ إثباتَ الاعتداءِ العَظيمِ لهم، نَشَأ عن الحِقدِ- الشَّيءِ الذي أضمَرُوه للمُؤمِنينَ- لا لِشَيءٍ إلَّا لأنَّهم مُؤمِنونَ[4].

٣- **قَولُه تعالى**: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾

- فيه تَكرارُ قولِه: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ لاختلافِ جزاءِ الشَّرطِ؛ إذْ جزاءُ الشَّرطِ في الأوَّلِ تَخليةُ سبيلِهم في الدُّنيا،

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٢٦-٢٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهو قَولُه تعالى: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾، وفي الثَّاني إثباتُ أُخُوَّتِهم لنا في الدِّينِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾، وهي ليستْ عينَ تَخليَتِهم، بل سَبَبُها(١).

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾.

- قَولُه: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ خبرٌ لِمَحذوفٍ، أي: فَهُم إخوانُكم. وصِيغَ هذا الخبرُ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ إيمانَهم يقتَضي ثباتَ الأُخُوَّةِ ودوامَها، تنبيهًا على أنَّهم يَعودونَ كالمُؤمِنينَ السَّابقينَ مِن قَبلُ، في أصلِ الأُخُوَّةِ الدِّينيَّةِ(٢).

- قولُهُ: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ اعتراضٌ؛ للحَثِّ على التَّأمُّلِ في الأحكامِ المُندرِجةِ في تَضاعيفِها، والمحافظةِ عليها(٣)؛ فهو اعتراضٌ وتذييلٌ أيضًا، وعُطِفَ هذا التَّذييلُ على جُملةِ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾؛ لأنَّه به أَعْلَقُ؛ لأنَّهم إنْ تابوا فقد صاروا إخوانًا للمُسْلمين، فصاروا مِن قَومٍ يَعْلمونَ؛ إذ ساووا المُسلِمينَ في الاهتداءِ بالآياتِ المُفصَّلةِ(٤).

٤- قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ فيه التَّعبيرُ عن نَقْضِ العَهْدِ

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٨).

بنَكْثِ الأيمانِ؛ تَشنيعًا للنَّكْثِ [١].

- وزِيدَ قولُه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ زِيادةً في تَسجيلِ شناعةِ نَكْثِهم، بتذكيرِ أنَّه غَدْرٌ لعَهْدٍ[٢].

- وقَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ بعد قوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فالطَّعنُ في الإسلامِ ضَربٌ مِن ضُروبِ نَكْثِ الأيمانِ، ونَقضِ السَّلْمِ والوَلاءِ، كالقِتالِ ومُظاهَرةِ الأعداءِ[٣].

- قولُهُ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ فيه وَضْعُ المُظْهَرِ ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ -حيثُ لَم يَقُلْ: (فقاتِلوهم)-؛ لزيادةِ التَّشنيعِ عليهم ببُلوغِهم هذه المنزلةَ من الكُفْرِ، وللدَّلالةِ على أنَّهم صاروا بذلك ذَوي الرِّئاسةِ والتَّقدُّمِ في الكُفْرِ، أحقَّاءَ بالقَتْلِ. وعلى أنَّ المرادَ بالأئمَّةِ رؤساءُ المشركينَ؛ فالتَّخصيصُ إمَّا لأنَّ قَتْلَهم أهمُّ، وهُمْ به أحقُّ، أو للمَنْعِ من مُراقبتِهم[٤]، أو خَصَّ الأئمَّةَ بالذِّكرِ؛ لأنَّهم هم الذين يُحرِّضونَ الأتباعَ على البقاءِ على الكُفْرِ[٥].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ تَعليلٌ لقِتالِهم بأنَّهم اسْتَحقُّوه لأجْلِ اسْتِخفافهم بالأَيْمانِ التي حَلَفوها على السَّلْمِ، فغَدَروا[٦].

- ونَفْيُ الأَيْمانِ لهم: نفيٌ للماهيةِ الحقِّ لليَمينِ، وهي قَصْدُ تعظيمِه والوفاءِ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٠).

به، فلمَّا لم يُوفُوا بأيمانِهم، نُزِّلتْ أيمانُهم مَنْزلةَ العَدَمِ؛ لفُقْدانِ أَخَصِّ خواصِّها، وهو العملُ بما اقْتَضتْه[1].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٢-١٦)

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾: أي: يُذِلَّهم، والخِزْيُ: الهوانُ، وأصلُه: يدلُّ على الإبعادِ[1].

﴿وَلِيجَةٗ﴾: أي: بِطَانةً، دُخَلاءَ مِن المُشرِكينَ يُخالِطونَهم ويودُّونَهم. وكلُّ شَيءٍ أدخَلْتَه في شَيءٍ وليسَ منه، يُقالُ له: (وَليجةٌ)، وأصلُ (ولج): يدلُّ على دخولِ شَيءٍ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَوْله تعالى: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾: اسم الجلالةِ مُبتدأٌ، وفي الخَبرِ وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّه ﴿أَحَقُّ﴾ وعلى هذا فَقَولُه: ﴿أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن اسمِ الجلالةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

والمفضَّلُ عليه محذوفٌ، أي: فخَشيةُ اللهِ أحقُّ مِن خَشيَتِهم. أو ﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ في محلِّ نصبٍ أو جَرٍّ على نزْعِ الخافِضِ، والتَّقديرُ: أحقُّ بأن تَخْشَوه. الثاني: أنَّ الخبَرَ جُملةُ ﴿أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ فـ﴿أَحَقُّ﴾ خبَرٌ مُقدَّمٌ. و﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ مبتدأٌ ثانٍ مُؤخَّرٌ، والجُملة خبَرُ اسمِ الجلالةِ، أي: فاللهُ خَشْيَتُه أحقُّ[1].

وجُملةُ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ استئنافيَّةٌ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ، وجوابُ ﴿إِن﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قَبلَه، أي: إنْ كُنتُم مُؤمِنينَ فاخْشَوُا اللهَ. وقيل غيرُ ذلك[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ عِبادَه المُؤمِنينَ قائلًا لهم: ألَا تُقاتِلونَ- أيُّها المؤمنونَ- المُشركينَ الذين نقَضُوا العَهدَ الذي بينكم وبَينَهم، وعَزَموا بقُلوبِهم على إخراجِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن مكَّة، وهم بدَؤُوكم بنَقضِ العَهدِ الذي بينكم بقِتالِ حُلَفائِكم خُزاعةَ، أتخافونَهم؟! فاللهُ أحَقُّ أن تخافُوا منه إنْ كُنتم مُؤمِنينَ.

قاتِلُوهم- أيُّها المُؤمِنونَ- يُعَذِّبْهم اللهُ بأيديكم، ويُهِنْهم، ويَنصُرْكم عليهم، ويُداوِ اللهُ صُدورَ قَومٍ مُؤمنينَ، مما فيها من الألَمِ، ويُزِلِ الغَيظَ مِن قُلوبِهم، ويتوبُ سبحانه على مَن يَشاءُ مِن أولئك المُشرِكينَ، واللهُ عليمٌ حَكيمٌ.

أظَنَنتُم- أيُّها المُسلمونَ- أن يترُكَكم اللهُ دونَ أن يختبِرَكم بالجهادِ، فيعلَمَ الذين صَدَقوا في جهادِهم في سبيلِه، ولم يتَّخِذوا من دونِ اللهِ ولا رسولِه ولا المؤمنينَ بِطانةَ سُوءٍ مِن الكُفَّارِ، يُوالُونَهم ويُفشُونَ إليهم أسرارَ المُؤمِنينَ، واللهُ

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٢٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٠/ ٢٩٤)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٢/ ٣٨٧).

خَبيرٌ بما تَعملونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، أتبَعَه بذِكرِ السَّبَبِ الذي يبعَثُهم على مُقاتَلَتِهم[1]، فقال تعالى:

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ ﴾.

أي: ألَا تُقاتِلونَ- أيُّها المؤمنونَ- المُشرِكينَ الذين نقَضُوا العهدَ الذي بينَكم وبينهم[2]؟!

﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾.

أي: وعَزَموا بقُلوبِهم على إخراجِ رَسولِ اللهِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن مكَّةَ[3].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٨).
قال الرازي: (نَكْثُهم العَهدَ: كُلُّ المُفَسِّرينَ حَمَلَه على نَقْضِ العَهدِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٨، ٣٠٩).
وممَّن اختار أنَّهم همُّوا بإخراجِه مِن مكَّةَ قبل الهجرةِ: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والزمخشري، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١].

﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾.

أي: وهَؤلاءِ المُشرِكونَ بَدَؤُوكم- أيُّها المُؤمِنونَ- بنَقضِ العَهدِ الذي بينكم، بقِتالِ حُلَفائِكم خُزاعةَ[1].

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

أي: أتَخافُونَ- أيُّها المُؤمِنونَ- على أنفُسِكم مِن هؤلاءِ المُشرِكينَ، فتَترُكوا قتالَهم؛ لِئلَّا ينالَكم منهم مَكروهٌ؟ فاللهُ أَوْلى أن تخافُوا مِن عُقوبَتِه بتَركِكم جهادَ أولئكَ المُشرِكين، إن كُنتُم مُؤمِنينَ حقًّا[2].

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٠، ٣١١).
وممَّن اختار أنَّ المَقصودَ بذلك نقضُ المُشرِكينَ للعَهدِ بقتالِ خُزاعةَ حُلفاءِ المُسلمين: الواحدي، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف مجاهدٌ، وعكرمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٧٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٨).
واختار ابنُ جريرٍ أنَّ المراد: بدؤوكم بالقتالِ يومَ بَدرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٧، ٣٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بكَّتَ اللهُ تعالى المُؤمِنينَ في التَّواني عن قتالِ المُشرِكين، وأقام الحُجَجَ البَيِّنةَ على وُجوبِ قِتالِهم، ودَحْضِ شُبهةِ المانعِ منه- صَرَّحَ بالأمرِ القَطعيِّ به، مع الوعد بإظهارِ المُؤمِنينَ عليهم أكمَلَ الظُّهورِ وأتَمَّه، بما يُزيلُ خَشْيَتَهم منهم، بل يُوجِبُ إقدامَهم عليهم، ورغبَتَهم فيهم[1]، فقال تعالى:

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾.

أي: قاتِلوا- أيُّها المُؤمِنونَ- هؤلاءِ المُشرِكينَ الذين نقَضُوا عهودَهم؛ فإنَّكم

قال ابنُ عطيَّةَ: (قَولُه ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ كما تقولُ: افعَلْ كذا إن كنتَ رجلًا، أي: رجُلًا كاملًا، فهذا معناه: إن كنتُم مُؤمِنينَ كامِلِي الإيمانِ؛ لأنَّ إيمانَهم قد كان استقَرَّ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣).

وقال الشنقيطي: (﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (إنْ) في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ تُشكِلُ دائمًا على المتعلِّمينَ، وبعضِ العُلَماءِ، و (إنْ) هذه هي التي اختلَفَ فيها البصريُّونَ والكوفيُّونَ، وهي كثيرةٌ في القرآن، فالبصريونَ يقولون: إنَّ (إنْ) هذه صيغةُ شَرطٍ جِيءَ بها مُرادًا بها التَّهييجُ، وقُوَّةُ الحَملِ على الامتثالِ، وهو أسلوبٌ عربيٌّ مَعروفٌ؛ أنَّ العَرَبَ تنطِقُ بأداة الشَّرطِ، ولا تُريدُ به حقيقةَ تَعليقِ جزاءٍ على شرطٍ، وإنَّما تريدُ به التَّهييجَ والدَّعوةَ الصَّارمةَ إلى الامتثالِ... أمَّا الكوفيونَ فإنَّهم يقولون: إنَّ (إنْ) هذه بمعنى (إذْ) وأنَّها تعليليَّةٌ، ويقولون: «فَاللهُ أَحَقُّ أن تخشَوْه إذْ كُنتُم مُؤمِنينَ» أي: لأجلِ كَونِكم كنتم مُؤمِنينَ؛ فذلك يستوجِبُ منكم الخَشية). ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٢-٣١٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٩٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٧٧).

إن تُقاتِلوهم يَقتُلْهم اللهُ بأيديكم[١].

﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ويُذِلَّهم اللهُ ويُهِنْهُم بالأسرِ، ويَمنَحْكم النَّصرَ عليهم[٢].

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: ويُداوِ اللهُ صُدورَ قَومٍ مُؤمنينَ، ظَلَمَهم المُشرِكون وقَهَروهم، فتنشَرِحْ صُدورُهم بالانتصارِ عليهم وقَتْلِهم، وأَسْرِهم، ويَزُلْ ما حصَلَ في قُلوبِهم من الألَمِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٩، ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٦)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٤).

قال الشنقيطي: (﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ هذا التَّعذيبُ الذي يُعَذِّبُهم اللهُ بأيديهم: هو القَتلُ بالضَّربِ الوَجيعِ، الذي يصِلُ به صاحِبُه إلى النَّارِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٤، ٣١٥).

قال أبو حيان: (جاء التَّركيبُ ﴿صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ لِيَشمَلَ المُخاطَبينَ وكُلَّ مُؤمِنٍ؛ لأنَّ ما يُصيبُ أهلَ الكُفرِ مِن العَذابِ والخِزي هو شِفاءٌ لِصَدرِ كُلِّ مُؤمِنٍ. وقيل: المرادُ قَومٌ مُعيَّنونَ... قال مجاهِدٌ والسُّدِّي: هم خُزاعةُ. ووجهُ تَخصيصِهم أنَّهم هم الذين نُقِضَ فيهم العَهدُ ونالَتْهم الحَربُ، وكان يومَئِذٍ في خُزاعةَ مؤمنونَ كَثيرٌ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٢، ٣٨٣).

وقال الشنقيطي: (قال جماهيرُ مِن أهلِ التَّفسير: إنَّ المُرادَ بالقَومِ المؤمنينَ أنَّهم خُزاعةُ؛ حيث تمالأَ عليهم البَكْريُّونَ وقُريشٌ، وقَتَلوهم في الحَرَمِ، واستنجَدُوا بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((العذب النمير)) (٥/ ٣١٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨).

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الشِّفاءُ في قَولِه تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ قد لا يُرادُ به الكَمالُ؛ أتبَعَه تحقيقًا لِكَمالِه بقَولِه[1]:

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾.

أي: ويُزِلِ اللهُ الغَيظَ الكامِنَ في قُلوبِ المُؤمِنينَ بِسبَبِ ظُلمِ الكُفَّارِ وقَهْرِهم لهم[2].

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: ويتوبُ اللهُ على مَن يَشاءُ أن يتوبَ عليهم من أولئك المُشرِكِينَ، بأن يُوفِّقَهم للدُّخولِ في الإسلامِ، ويَقبَلَ منهم التَّوبةَ مِن الكُفرِ والآثامِ[3].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما يُصلِحُ عِبادَه، وعِلمُه بمن يستحِقُّ منهم التَّوفيقَ للتَّوبةِ، ومَن يستحِقُّ منهم الخِذلانَ عنها، حكيمٌ في أفعالِه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٨).
قال القُرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ القراءةُ بالرَّفعِ على الاستئنافِ؛ لأنَّه ليس من جنسِ الأوَّلِ؛ ولهذا لم يقُلْ (وَيَتُبْ) بالجَزمِ؛ لأنَّ القِتالَ غَيرُ موجِبٍ لهم التَّوبةَ من اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وهو مُوجِبٌ لهم العَذابَ والخِزيَ، وشِفاءَ صُدورِ المؤمنينَ، وذَهابَ غَيظِ قُلوبِهم. ونظيرُه: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] تَمَّ الكَلامُ. ثمَّ قال: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٧).

وأقوالِه وشَرْعِه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائِقِ به، ومن ذلك حِكمَتُه في تَصريفِ عِبادِه مِن حالٍ إلى حالٍ[١].

﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦ ﴾.

مَناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الآياتِ المُتقَدِّمةَ كانت مُرغِّبةً في الجهادِ، والمقصودُ مِن هذه الآيةِ مَزيدُ بَيانٍ في التَّرغيبِ[٢].

﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ ﴾.

أي: أظَنَنْتُم- أيُّها المُسلِمونَ[٣]- أن يترُكَكم اللهُ دون أن يَختَبِرَكم بالجِهادِ، فيعلَمَ الصَّادِقينَ منكم الذين يُجاهِدونَ في سبيلِه، مِن الكاذِبينَ المُضَيِّعينَ ما أمَرَ به من جهادِ الكافرينَ؛ عِلمًا ظاهِرًا مَشهودًا يترتَّبُ عليه الثَّوابُ والعِقابُ[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧).

(٣) قال ابنُ عاشور: (الخِطابُ للمُسلِمينَ، على تفاوُتِ مَراتِبِهم في مُدَّةِ إسلامِهم، فشَمِلَ المُنافِقينَ؛ لأنَّهم أظهَروا الإسلامَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٧، ١٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٩، ٣٢٠).

قال الزجَّاج: (اللهُ جَلَّ وعَزَّ قد عَلِمَ قبلَ أمْرِهم بالقِتالِ مَن يُقاتِلُ ممَّن لا يُقاتِلُ، ولكِنَّه كان يعلَمُ ذلك غيبًا، فأراد العِلمَ الذي يُجازِي عليه؛ لأنَّه جَلَّ وعَزَّ إنَّما يُجازي على ما عَمِلوا). ((معاني القرآن)) (٢/ ٤٣٧). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١).

وقال الشنقيطي: (قال البغوي رحمه الله في تفسيرِ هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾ يعني: أحَسِبْتُم أن يترُكَكم اللهُ ولم يَرَ اللهُ عَمَلَكم حتى يتبيَّنَ للنَّاسِ المُخلِصَ مِن غَيرِه. وعلى هذا

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال سُبحانه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾.

أي: ولـمَّا يَعْلمِ الله الَّذين جاهدُوا مِنكم، والَّذين لم يتَّخِذوا مِن دُونِ اللهِ ولا رَسولِه ولا المُؤمِنينَ بِطانةَ سُوءٍ مِن الكُفَّارِ، يُوالُونَهم ويُفشُونَ إليهم أسرارَ المُؤمِنينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ۞ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ

التَّفسيرِ الذي فَسَّرَها به، فالمعنى يُشبِهُ قَولَه: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: آية ١٠٥]). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٢، ٣٢٣).

جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٣].

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

أي: واللهُ عَليمٌ بِجَميعِ أعمالِكم الخَفِيَّةِ- أيُّها المُسلِمونَ- فيُجازيكم عليها؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، ومن ذلك اتِّخاذُ بِطانةٍ مِن الكافِرينَ[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ المُؤمِنَ ينبغي أن يَخشى ربَّه، وألَّا يَخشَى أحدًا سِواه[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ دليلٌ على أنَّ المُؤمِنَ حقَّ الإيمانِ يكونُ أشجَعَ النَّاسِ، وأعلاهم هِمَّةً؛ لأنَّه لا يخشى إلَّا اللهَ عَزَّ وجَلَّ[(٣)].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ المُجاهِدُ قد يُجاهِدُ، ولا يكونُ مُخلِصًا، بل يكونُ مُنافقًا، باطِنُه خلافُ ظاهِرِه، وهو الذي يتَّخِذُ الوليجةَ مِن دونِ الله ورسولِه والمُؤمنينِ، فبيَّنَ تعالى في هذه الآيةِ أنَّه لا يترُكُهم إلَّا إذا أتَوْا بالجهادِ مع الإخلاصِ؛ خاليًا عن النِّفاقِ والرِّياءِ، والتودُّدِ إلى الكُفَّارِ، وإبطالِ ما يُخالِفُ طريقةَ الدِّينِ، والمقصودُ بيانُ أنَّه ليس الغَرضُ مِن إيجابِ القتالِ نَفسَ القِتالِ فقط، بل الغَرَضُ أن يُؤتَى به انقيادًا لأمرِ اللهِ عزَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٧٧).

وجَلَّ، ولِحُكمِه وتكليفِه؛ لِيَظهَرَ به بذلُ النَّفسِ والمالِ في طلَبِ رِضوانِ الله تعالى، فحينئذٍ يحصُلُ به الانتفاعُ، وأمَّا الإقدامُ على القتالِ لِسائرِ الأغراضِ، فذاك ممَّا لا يُفيدُ أصلًا[١].

٤- شَرَعَ اللهُ الجِهادَ؛ لِيَحصُلَ به مقصودٌ أعظَمُ، وهو أن يتميَّزَ الصَّادِقونَ، الذين لا يتحَيَّزونَ إلَّا لِدينِ الله، من الكاذبينَ الذين يزعُمونَ الإيمانَ، وهم يتَّخِذونَ الولائِجَ والأولياءَ مِن دونِ الله ورَسولِه والمُؤمِنينَ؛ قال الله تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ ﴾[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ ﴾، ولا وَليجةَ أعظَمُ ممَّن جعَلَ رَجُلًا بِعَينِه مُختارًا على كلامِ اللهِ، وكَلامِ رَسولِه، وكلامِ سائرِ الأمَّةِ، يُقَدِّمُه على ذلك كُلِّه، ويَعْرِضُ كتابَ اللهِ وسُنَّةَ رَسولِه وإجماعَ الأمَّةِ على قَولِه، فما وافَقَه منها قَبِلَه؛ لِمُوافَقتِه لِقَولِه، وما خالَفَه منها تلطَّفَ في ردِّه، وتطَلَّبَ له وُجوهَ الحِيَلِ، فإن لم تكُنْ هذه وليجةً، فلا نَدري ما الوليجةُ[٣]؟!

٦- يجِبُ على الإنسانِ أن يُبالِغَ في أمرِ النيَّةِ ورعايةِ القَلبِ؛ قال الله تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ أي: عالِمٌ بنيَّاتِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣١).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٣٠).

وأغراضِهم، مُطَّلِعٌ عليها لا يخفى عليه منها شيءٌ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ يدُلُّ على أنَّ قِتالَ النَّاكثينَ أَوْلى مِن قِتالِ غَيرِهم من الكُفَّارِ؛ لِيكونَ ذلك زَجرًا لِغَيرِهم[٢].

٢- مُؤاخَذتُهم على مُجَرَّدِ الهَمِّ بإخراجِ الرَّسولِ في قَولِ الله تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ تدُلُّ على أنَّهم لم يُخرِجوه، وإلَّا لكان الأجدَرُ أن يَنعَى عليهم الإخراجَ لا الهَمَّ به[٣]، وهذا على أحدِ أوجهِ التفسيرِ للآيةِ.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ إنَّما قال: ﴿بَدَءُوكُمۡ ﴾ تنبيهًا على أنَّ البادِئَ أظلمُ[٤].

٤- إن قيل: أليسَ قال اللهُ تعالى في سورةِ الأنفالِ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ ﴾ [الأنفال: ٣٣] فكيف قال تعالى هنا: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ ﴾ فالجَوابُ: أنَّ المُرادَ مِن قَولِه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ ﴾ عذابُ الاستئصالِ، والمرادُ مِن قَولِه: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ ﴾ عذابُ القَتلِ والحَربِ. والفَرقُ بين البابَينِ أنَّ عَذابَ الاستئصالِ قد يتعَدَّى إلى غيرِ المُذنِبِ، وإن كان في حَقِّه سببًا لِمَزيدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٥)
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٥).

الثَّوابِ، أمَّا عذابُ القَتلِ فالظَّاهِرُ أنَّه يَبقَى مقصورًا على المُذنِبِ [١].

٥- في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ إثباتُ تأثيرِ الأسبابِ؛ حيث بيَّن اللهُ تعالى أنَّه هو المُعَذِّبُ؛ وأنَّ أيدينا أسبابٌ وآلاتٌ وأوساطٌ وأدواتٌ في وصولِ العَذابِ إلى المُشرِكينَ هؤلاء[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ شِفاءَ الصُّدورِ مِن ألَمِ النَّكثِ والطَّعنِ، وذَهابَ الغَيظِ الحاصِلِ في صدورِ المُؤمِنينَ مِن ذلك؛ أمرٌ مَقصودٌ للشَّارِعِ، مطلوبُ الحُصولِ، وأنَّ ذلك يحصُلُ إذا جاهَدُوا[٣]، فدلَّ على مَحبَّةِ اللهِ لعبادِه المُؤمِنينَ، واعتنائِه بأحوالِهم، حتى إنَّه جعَلَ مِن جُملةِ المقاصِدِ الشَّرعيَّةِ شِفاءَ ما في صُدورِهم، وذَهابَ غَيظِهم[٤].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ دالٌّ على المُعجِزة؛ لأنَّه تعالى أخبَرَ عن حصولِ هذه الأحوالِ، وقد وقَعَت مُوافِقةً لهذه الأخبارِ، فيكونُ ذلك إخبارًا عن الغَيبِ، والإخبارُ عن الغَيبِ مُعجِزٌ[٥].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٥).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٩٠).
(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٩، ٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦).

وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يدلُّ على كَونِ الصَّحابةِ مُؤمِنينَ في عِلمِ الله تعالى إيمانًا حَقيقيًّا؛ لأنَّها تدُلُّ على أنَّ قُلوبَهم كانت مملوءةً من الغَضَبِ ومن الحمِيَّةِ؛ لأجلِ الدِّينِ، ومن الرَّغبةِ الشَّديدةِ في عُلُوِّ دِينِ الإسلامِ، وهذه الأحوالُ لا تحصُلُ إلَّا في قلوبِ المُؤمِنينَ[١].

٩- ذكَرَ الله تعالى ما تسبَّبَ عن النَّصرِ مِن شفاءِ صُدورِ المُؤمِنينَ، وإذهابِ غَيظِهم في قَولِه: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ * وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ تتميمًا للنِّعَمِ، فذكَرَ ما تسبَّبَ عن النَّصرِ بالنِّسبةِ للكُفَّارِ، وذكَرَ ما تسبَّبَ للمُسلمينَ مِن الفَرَحِ والسُّرورِ بإدراكِ الثَّأرِ، ولم يذكُرْ ما نالوه من المغانِمِ والمطاعِمِ؛ إذ العَرَبُ قَومٌ جُبِلوا على الحميَّةِ والأنَفةِ، فرَغْبَتُهم في إدراكِ الثَّأرِ وقَتلِ الأعداءِ هي اللَّائقةُ بِطِباعِهم[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ دخَلتِ الهَمزةُ على (لا تُقاتِلُونَ) تَقريرًا بانْتِفاءِ المُقاتَلةِ، ومعناه: الحَضُّ عليها على سَبيلِ المُبالَغةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨١).

وقال ابنُ عاشور: (ولفظُ (ألَا) يَحتمِل أنْ يكون مجموعَ حَرْفَينِ؛ هما: همزة الاستفهام، و(لا) النافية، ويَحتمِل أن يكون حرفًا واحدًا للتحضيضِ؛ فعلى الاحتمالِ الأوَّل يجوزُ أن يكون الاستفهامُ إنكاريًّا، على انتفاءِ مُقاتلة المشركين في المستقبل... فيكون دفعًا لأنْ يَتوهَّمَ

- قولُهُ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ اسْتِفهامٌ على مَعْنى التَّقريرِ والتَّوبيخِ؛ فهو تَقريرٌ للخَشيةِ منهم، وتَوبيخٌ عليها[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ تجريدٌ للأمرِ بالقِتالِ بعدَ التَّوبيخِ على ترْكِهِ، ووَعْدٌ بنَصْرِهم، وبتَعذيبِ أعدائِهم وإخزائهم، وتَشجيعٌ لهم[٢].

٣- **قولُه تعالى:** ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ يُنبِئُ عمَّا سيكونُ من بعضِ أَهْلِ مَكَّةَ، من التَّوبةِ المقبولةِ بحسَبِ مَشيئتِه تعالى المَبنيَّةِ على الحِكَمِ البالِغةِ[٣].

- قال تعالى هنا: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقال فيما بعد: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٧] فاستَوَتِ الآيتانِ في إعلامِه تعالى نبيَّه والمُؤمِنينَ أنَّه يتوبُ

المسلِمون حُرمةً لتلك العهود. ويجوز أن يكون الاستفهامُ تقريريًّا...؛ تقريرًا على النَّفي تنزيلًا لهم منزلةَ من ترَك القتال؛ فاستوجب طلبَ إقرارِه بتَرْكِه... وعلى الاحتمالِ الثاني أنْ يكون (ألَا) حرفًا واحدًا للتحضيض، فهو تحضيضٌ على القتال، وجَعَل في «المغني» هذه الآية مثالًا لهذا الاستعمالِ على طريقة المبالغةِ في التحذير). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٢) باختصار.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على من يشاءُ، وفى خَتْمِ الآيتينِ بِصِفَتينِ مِن صِفاتِه سُبحانه، ثم اختلفَتِ الصِّفَتانِ، فقيل في الأولى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وفى الثَّانية: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ وذلك لِمُناسَبةٍ حَسَنةٍ: أنَّ الآيةَ الأُولى أُعقِبَ بها ما تقَدَّمَها مُتَّصِلًا بها مِن الآيِ في كُفَّارِ مَكَّةَ، وفِعْلِهم مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه؛ مِن التَّضييقِ والإخراجِ، وبَدْئِهم بالقتالِ يومَ بَدرٍ، ونَقضِهم العهدَ في قصَّةِ خُزاعةَ في صُلحِ الحُديبِيَةِ، فأمَرَ اللهُ تعالى بقِتالِهم وخِزْيِهم، والنَّصرِ عليهم، وشفاءِ صُدورِ مَن آمنَ مِن خُزاعةَ وغَيرِهم ممَّن آذَوْه، فقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ ثمَّ قال تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ ثمَّ قال ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: بما في القِتالِ، وفي طَيِّ ما جرى من ذلك كلِّه بِتَقديرِه السَّابِقِ أوَّلًا؛ إذ لا تتحَرَّكُ ذرَّةٌ إلَّا بإذنِه وتقَدُّمِ عِلْمِه أوَّلًا، وما في ذلك من الحكمةِ، وخَتَم أفعالَهم السيِّئةَ بالأوبةِ والرُّجوعِ إليه سبحانَه بِسابِقِ سَعادةٍ لِمَن شاهَدَها له منهم؛ فهذا وَجهُ النَّظمِ، والتَّناسُبُ فيه واضِحٌ.

وأمَّا الآيةُ الثَّانيةُ فسَبَبُها- والله أعلَمُ- ما جرى يومَ حُنَينٍ مِن تولِّي النَّاسِ مُدبِرينَ، حين ابتُلُوا بإعجابِهم بكَثرتِهم، فلم تُغنِ عنهم شيئًا، ولم يثبُتْ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذلك اليومِ أحَدٌ؛ إذ لم يَبرَحْ عليه السَّلامُ مِن مكانِه، فلم يثبُتْ معه إلَّا القَليلُ مِن العَدَدِ القليلِ، فنادى العباسُ رضي الله عنه بآلِ الأنصارِ فاستجابَ ناسٌ، وأنزَلَ اللهُ سَكينتَه على رسولِه وعلى المُؤمِنينَ، ومكَّنَ نبيَّه والمُسلِمينَ من أعدائِهم، فخُتِمَت هذه الآيُ بِقَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ تأنيسًا لِمَن فَرَّ مِن المسلمينَ في ذلك اليومِ، وبِشارةً لهم بتوبةِ اللهِ عليهم، وأنَّ ما وقع منهم من الفِرارِ مَغفورٌ لهم؛ رحمةً مِن اللهِ سبحانه،

فجاء كلُّ هذا على ما يناسِبُ، ولا يُلائِمُ خِلافُه[١].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تَذييلٌ؛ لإفادةِ أنَّ الله يُعامِلُ النَّاسَ بما يَعْلمُ مِن نيَّاتِهم، وأنَّه حَكيمٌ لا يأمُرُ إلَّا بما فيه تَحقيقُ الحِكْمةِ؛ فوَجَبَ على النَّاسِ امْتِثالُ أوامِرِه، وأنَّه يَقْبلُ تَوبةَ مَن تاب إليه؛ تَكثيرًا للصَّلاحِ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ﴾ (أَمْ) مُنْقَطِعةٌ؛ لإفادةِ الإضرابِ عن غَرضٍ من الكلامِ للانْتِقال إلى غَرَضٍ آخَرَ، والكلامُ بَعْدَ (أَمْ) المُنْقطِعةِ له حُكْمُ الاسْتِفهامِ دائمًا؛ فقولُه: ﴿حَسِبۡتُمۡ﴾ في قوَّةِ (أَحَسِبْتُمْ)، والاسْتِفهامُ المُقدَّرُ إنكاريٌّ[٣].

- وتَنكيرُ ﴿وَلِيجَةٗ﴾ في سِياقِ النَّفْيِ ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ﴾ يَعُمُّ سائرَ أفرادِها[٤].

- وجملةُ: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تَذييلٌ؛ لإنكارِ ذلك الحُسبانِ، أي: لا تَحسبوا ذلك مع عِلمِكم بأنَّ اللهَ خَبيرٌ بكلِّ ما تَعملونَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٦-٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٣٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٧-١٩)

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾: أي: سَقْيَ الحَجيجِ، و(سقاية) مصدرٌ مِن (سقى)، وأصلُ (سقي): إشرابُ الشيءِ الماءَ، وما أشبهَه[1].

﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ﴾: أي: القِيامَ بِمَصالِحِه ومُعاهَدتَه. والعِمارةُ: نَقيضُ الخَرابِ، و(عمارة) مصدرُ (عمَر)، وأصلُ (عمر): يدلُّ على بقاءٍ، وامتدادِ زمانٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ تعالى أنَّه لا ينبغي للمُشرِكينَ أن يَعمُرُوا مساجِدَ الله ببنائِها أو التعبُّدِ فيها، والحالُ أنَّهم شاهِدونَ على أنفُسِهم بالكُفرِ، أولئك بطَلَت أعمالُهم، وهم في نارِ جهنَّمَ، ماكثونَ فيها على الدَّوامِ.

وأخبَرَ تعالى أنَّ مساجِدَ اللهِ يعمُرُها مَن آمَنَ باللهِ وبالبَعثِ والقيامةِ، وأقام الصَّلاةَ المكتوبةَ بِحُدودِها، وأدَّى الزَّكاةَ المَفروضةَ إلى مُستحِقِّيها، ولم يخَفْ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩١).

إلَّا اللهَ تعالى، فعسَى أولئك أن يكونُوا من المُهتَدينَ.

ثم يقولُ تعالى: أجعَلْتُم- أيُّها النَّاسُ- أصحابَ سِقايةِ الحجيجِ وعِمارةِ المَسجِدِ الحرامِ، كمَن آمَنَ باللهِ وباليومِ الآخِرِ، وجاهدَ في سبيلِ الله، بل لا يَستوونَ عندَ اللهِ، واللهُ لا يهدي القَومَ الظَّالِمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه تعالى بدأ السُّورةَ بذِكرِ البراءةِ من الكُفَّارِ، وبالَغَ في إيجابِ ذلك، وذكرَ مِن أنواعِ فضائِحِهم وقبائِحِهم ما يُوجِبُ تلك البراءةَ، ثمَّ إنَّه تعالى حكى عنهم شُبَهًا احتجُّوا بها في أنَّ هذه البراءةَ غيرُ جائزةٍ، وأنَّه يجبُ أن تكونَ المُخالَطةُ والمُناصَرةُ حاصلةً؛ فأوَّلُها ما ذكَرَه في هذه الآيةِ، وذلك أنَّهم موصوفونَ بصِفاتٍ حَميدةٍ وخِصالٍ مَرضِيَّةٍ، وهي تُوجِبُ مُخالَطتَهم ومُعاوَنتَهم ومُناصَرتَهم، ومن جملةِ تلك الصِّفاتِ كَونُهم عامرينَ للمَسجِدِ الحَرامِ[1].

وأيضًا لَمَّا حَذَّرَهم اللهُ تعالى مِن اتِّخاذِ وليجةٍ مِن دُونِه، شرَعَ يُبَيِّنُ أنَّ الوليجةَ التي يتَّخِذُها بعضُهم لا تصلُحُ للعاطفةِ بما اتَّصَفَت به من محاسِنِ الأعمالِ، ما لم تُوضَعْ تلك المحاسِنُ على الأساسِ الذي هو الإيمانُ الـمُبَيِّنُ بدَلائِلِه، فقال سائقًا له مَساقَ جَوابِ قائلٍ قال: إنَّ فيهم مِن أفعالِ الخَيرِ ما يدعو إلى الكَفِّ عنهم؛ من عمارةِ المسجِدِ الحرامِ وخِدمَتِه وتَعظيمِه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٠٠).

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾.

أي: ما ينبغي للمُشركينَ أن يَعمُروا مساجِدَ اللهِ ببِنائِها وتزيينِها، والعبادةِ فيها، والحالُ أنَّهم شاهِدونَ على أنفُسِهم بالكُفرِ(١)؛ بما يأتُونَه من أقوالٍ وأفعالٍ كُفريَّةٍ، يُقِرُّونَ بها، ولا يُمكِنُهم إنكارُها(٢).

---

(١) قال الرازي: (أقرُّوا على أنفُسِهم بعبادةِ الأوثانِ وتكذيبِ القُرآنِ، وإنكارِ نُبوَّةِ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكلُّ ذلك كُفرٌ، فمَن يَشهَدْ على نَفسِه بكُلِّ هذه الأشياءِ، فقد شَهِدَ على نَفسِه بما هو كُفرٌ في نفسِ الأمرِ، وليس المرادُ أنَّهم شَهِدُوا على أنفُسِهم بأنَّهم كافِرونَ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩).

وقال ابنُ كثير: (وهم شاهدونَ على أنفسِهم بالكفرِ، أي: بحالِهم وقالِهم، كما قال السُّديُّ: لو سألتَ النصرانيَّ: ما دينُك؟ لقال: نصرانيٌّ، واليهوديَّ: ما دينُك؟ لقال: يهوديٌّ، والصابئَ، لقال: صابئيٌّ، والمشركَ، لقال: مشركٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٩).

وقال ابنُ عاشور: (وشَهادَتُهم على أنفُسِهم بالكُفرِ حاصِلةٌ في كثيرٍ مِن أقوالِهم وأعمالِهم؛ بحيث لا يستطيعونَ إنكارَ ذلك، مثل قَولِهم في التَّلبيةِ: «لبَّيكَ لا شريكَ لك، إلَّا شريكًا هو لك، تَملِكُه وما مَلَك»، ومثل سُجُودِهم للأصنامِ، وطوافِهم بها، ووضْعِهم إيَّاها في جَوفِ الكَعبةِ وحَولَها وعلى سَطْحِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٦، ٣٢٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بِعِمارةِ المساجِدِ هنا: العبادةُ: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّة، والسعدي، وابنُ عاشورٍ. إلَّا أنَّ ابنَ عاشورٍ يرى أنَّ المرادَ بـ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾: مواضِعُ عبادتِه، والمعنيُّ بذلك: المسجِدُ الحرامُ وما يَتْبَعُه من المَسعَى وعَرَفَةَ، والمشعَرِ الحرامِ والجَمَرات، والمَنْحَرِ من مِنًى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٩-١٤٠).

قال ابنُ رجبٍ: (عِمارةُ المساجِدِ تكونُ بِمَعنيينِ:

أحدُهما: عِمارَتُها الحسيَّةُ؛ ببنائِها وإصلاحِها وترميمِها، وما أشبَهَ ذلك.

والثاني: عِمارتُها المعنويَّةُ؛ بالصَّلاةِ فيها، وذِكرِ اللهِ وتلاوةِ كِتابِه، ونَشْرِ العِلمِ الذي أنزَلَه على رسولِه، ونحوِ ذلك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾.

أي: أولئك المُشرِكونَ قد بَطَلَت أعمالُهم- ومنها عِمارةُ البَيتِ الحَرامِ- فلا يُؤجَرونَ عليها في الآخرةِ؛ بِسَبَبِ شِرْكِهم[١].

كما قال سُبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾.

أي: وأولئك المُشرِكونَ في نارِ جهنَّمَ، ماكِثونَ فيها على الدَّوامِ[٢].

وقد فُسِّرَت الآيةُ بكُلِّ واحدٍ مِن المعنيَينِ، وفُسِّرَت بهما جميعًا، والمعنى الثَّاني أخصُّ بها... واتَّفقوا على مَنْعِ الكُفَّارِ مِن إظهارِ دِينِهم في مساجِدِ المسلمينَ، لا نعلَمُ في ذلك خِلافًا. وهذا ممَّا يدُلُّ على اتِّفاقِ النَّاسِ على أنَّ العِمارةَ المَعنويَّةَ مُرادةٌ مِن الآيةِ). ((فتح الباري)) (٢/ ٤٨١-٤٨٣).

وقال الواحديُّ: (أكثرُ المفسِّرين حملوا العمارةَ ههنا على دخولِ المسجدِ الحرامِ والقعودِ فيه). ((البسيط)) (١٠/ ٨٣٢).

وقال الرازي: (عمارةُ المساجدِ قسمان: إمَّا بلزومِها، وكثرةِ إتيانِها يُقال: فلانٌ يعمرُ مجلسَ فلانٍ، إذا كثُر غشيانُه إيَّاه، وإمَّا بالعمارةِ المعروفةِ في البناءِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩).

وممن رجَّح أنَّ المرادَ بها: بناءُ المساجِدِ وتَرميمُها وتزيينُها: الشنقيطي. يُنظر: ((العذب النمير)) (٥/ ٣٢٧-٣٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٩).

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى عدَمَ استحقاقِ المُشرِكينَ لِعمارةِ مَساجِدِ اللهِ، أثبَتَها للمُسلِمينَ الكامِلينَ، وجَعَلَها مقصورةً عليهم بالفِعلِ لا بمجَرَّدِ الشَّأنِ والاستحقاقِ[1]، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

أي: ما يَعمُرُ مَساجِدَ اللهِ حقًّا- بقَصْدِها وعبادةِ اللهِ تعالى وذِكْرِه فيها، وببنائِها وتَرميمِها والعنايةِ بها[2]- إلَّا المُؤمِنُ باللهِ عزَّ وجلَّ، وبالبَعْثِ والقيامةِ[3].

كما قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ * رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: ١١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٤).

قال ابنُ كثيرٍ: (ليس المرادُ مِن عِمارَتِها زَخْرَفتَها وإقامةَ صُورَتِها فقط، إنَّما عِمارَتُها بذِكرِ اللهِ فيها، وإقامةِ شَرْعِه فيها، ورَفْعِها عن الدَّنَسِ والشِّركِ). ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٦/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٣١).

وعن عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((مَن بنى مَسجِدًا يبتغي به وَجهَ اللهِ، بنى اللهُ له مِثلَه في الجنَّةِ))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((سبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ يومَ القيامةِ في ظِلِّه، يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه)) وذَكَرَ منهم: ((ورجُلٌ قَلبُه مُعَلَّقٌ في المسجِدِ))[٢].

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

أي: وأقام الصَّلاةَ المَكتوبةَ بِحُدودِها، وأدَّى الزَّكاةَ الواجبةَ عليه في مالِه إلى مُستحِقِّيها، ولم يَخَفْ إلَّا اللهَ تعالى وَحْدَه، فلم يترُكْ أمرَ اللهِ ونَهْيَه؛ لِخَشيةِ غَيرِه[٣].

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٠)، ومسلم (٥٣٣).

(٢) رواه البخاري (٦٨٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٠٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢١).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال الزجَّاجُ: تأويلُه: لم يَخَفْ في بابِ الدِّينِ إلَّا اللهَ جَلَّ وعزَّ، وقال أهل المعاني: يعني: لا يترُكُ هذه العباداتِ لِخَشيةِ أحدٍ، ولكنْ يخشى اللهَ فيُقيمُ ذلك، والخَشيةُ مِن غَيرِ اللهِ المنهيُّ عنها: أن يترُكَ أمْرَ اللهِ لِخَشيةِ غَيرِه، فأمَّا أن يخشى النَّاسَ خَشيةً لا تؤدِّيه إلى تَرْكِ أمرِ اللهِ، فليس بمنهيٍّ عنه). ((البسيط)) (١٠/ ٣٣٤).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٠).

وقال أبو حيان: (﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال ابنُ عطيةَ: يُريدُ خشيةَ التَّعظيمِ والعبادةِ والطَّاعةِ، ولا محالةَ أنَّ الإنسانَ يخشى غَيرَه، ويخشى المحاذيرَ الدُّنيويَّةَ، وينبغي أن يَخشَى في ذلك كلِّه قَضاءَ اللهِ وتَصريفَه. وقال الزَّمخشري: هي الخشيةُ والتقوى في أبوابِ الدِّينِ، وألَّا يختارَ على رِضا اللهِ رِضا غيرِه، وإذا اعترَضه أمرانِ أحدُهما حَقُّ الله تعالى، والآخَرُ حَقُّ نَفسِه؛ خاف اللهَ، وآثَرَ حَقَّ اللهِ على حقِّ نَفسِه. وقيل: كانوا يَخشَونَ الأصنامَ ويَرجُونَها، فأُريدَ نفيُ تلك الخشيةِ عنهم). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٦).

أي: فعُمَّارُ المَساجِدِ المُؤمِنونَ بالله وباليومِ الآخِرِ، المقيمونَ الصَّلاةَ والمؤتونَ الزكاةَ، الذين يَخشَونَ اللهَ تعالى وَحدَه، هم مِن الذينَ هداهم اللهُ للتمَسُّك بالحَقِّ الـمُوصِلِ إلى الجنَّةِ[1].

﴿ ۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وقَعَ الكلامُ على أنَّ المُؤمِنينَ هم الأحِقَّاءُ بعِمارةِ المَسجِدِ الحرامِ مِن المُشرِكينَ؛ دلَّ ذلك الكلامُ على أنَّ المَسجِدَ الحَرامَ لا يحِقُّ لِغَيرِ المُسلِمِ أن يُباشِرَ فيه عملًا مِن الأعمالِ الخاصَّةِ به، فكان ذلك مَثارَ ظَنٍّ بأنَّ القِيامَ بِشَعائِرِ المسجِدِ الحرامِ مُساوٍ للقيامِ بأفضَلِ أعمالِ الإسلامِ[2].

﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٢).

جماهيرُ العُلَماءِ يقولون: «عسى» مِن اللهِ واجِبةٌ؛ لأنَّ اللهَ كريمٌ لا يُطمِعُ في شيءٍ إلَّا هو فاعِلُه؛ لِشِدَّةِ كَرَمِه- جَلَّ وعلا- وفَضْلِه. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٢).

قال الواحدي: (وعسى مِن اللهِ واجبةٌ، ولكِنْ ذُكِرَ بِلَفظِ ﴿عسى﴾؛ ليكونُوا على رجاءٍ وطَمَعٍ وحَذَرٍ). ((البسيط)) (١٠/ ٣٣٥).

وقيل: هي بمعنى خَليقٌ، أي: فخليقٌ أن يكونُوا من المُهتَدينَ، وقيل: إنَّ الرَّجاءَ راجِعٌ إلى العِبادِ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٣).

أي: أجَعَلْتُم[١]- أيُّها النَّاسُ- أصحابَ[٢] سَقْيِ الحَجيجِ وعمارةِ المَسجِدِ الحرامِ[٣] المُشركينَ، كالمؤمنينَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، والمجاهدينَ في سبيلِ اللهِ[٤]؟!

عن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: ((كنتُ عند مِنبَرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال رجلٌ: ما أُبالي ألَّا أعمَلَ عَمَلًا بعد الإسلامِ إلَّا أنْ أسقِيَ الحاجَّ، وقال آخَرُ: ما أُبالي ألَّا أعمَلَ عَمَلًا بعد الإسلامِ إلَّا أن أعمُرَ المَسجِدَ الحَرامَ، وقال آخَرُ: الجِهادُ في سبيلِ اللهِ أفضَلُ ممَّا قُلتُم، فزَجَرَهم عُمَرُ، وقال: لا تَرفَعوا أصواتَكم عند مِنبَرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو

---

(١) قال الشِّنقيطي: (الظَّاهِرُ أنَّ (جَعَلَ) هنا هي التي بمعنى (اعتقَدَ)، وأنَّه أنكَرَ عليهم اعتِقادَهم تساوِيَ هذَينِ الأمرينِ، وهما بعيدٌ مِن المُساواة، بينهما بَونٌ عَظيمٌ، وبَونٌ شاسِعٌ. وكان بعضُهم يقولُ: لا يبعُدُ أن تكونَ هي التي بمعنى (صيَّر) أي: صيَّرتُم هذا كهذا، وادَّعَيتُم أنَّه مِثلُه). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٣٧).

(٢) قال الشنقيطي: (﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ لا بُدَّ أن يُقَدَّرَ مُضافٌ في أحدِ الأمرَينِ.
قال بَعضُ العُلماءِ: يُقَدَّرُ في الأوَّلِ، والمعنى: أجعَلْتُم أصحابَ سِقايةِ الحاجِّ، أو أهلَ سِقايةِ الحاجِّ وعِمارةِ المَسجِدِ الحرامِ كمَن آمَنَ، أي: كالذينَ آمنوا بالله؟
وقال بعضُ العُلَماءِ: يُقدَّرُ المضافُ في الثَّاني: أي: أجعلْتُم سقايةَ الحاجِّ وعِمارةَ المسجِدِ كعَمَلِ مَن آمَنَ باللهِ. والأمرانِ جائزانِ، وأظهَرُهما: تقديرُه في الأوَّلِ، والمعنى: أجعَلْتُم أهلَ سِقايةِ الحاجِّ وأصحابَ عِمارةِ المسجِدِ كالذين آمَنوا بالله، لا يَكونونَ مِثلَهم أبدًا). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٤١).

(٣) قال ابنُ عاشور: (السِّقايةُ: صِيغةٌ للصِّناعة، أي: صناعة السَّقي، وهي السَّقيُ مِن ماءِ زَمزم، ولذلك أُضيفَت السِّقايةُ إلى الحاجِّ. وكذلك العمارةُ صِناعةُ التَّعميرِ، أي: القيام على تعميرِ شَيءٍ بالإصلاحِ والحراسةِ ونحو ذلك... وأضيفَتْ إلى المسجِدِ الحرامِ؛ لأنَّها عمَلٌ في ذاتِ المَسجِدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٧، ٣٤١).
قال ابن جرير: (هذا توبيخٌ مِن اللهِ تعالى ذِكْرُه لِقَومٍ افتخَروا بالسِّقايةِ وسِدانةِ البَيتِ، فأعلَمَهم جلَّ ثَناؤُه أنَّ الفَخرَ في الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخِرِ والجهادِ في سبيلِه، لا في الذي افتَخَروا به من السِّدانةِ والسِّقايةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٧).

يَومُ الجُمُعةِ، ولكِنْ إذا صَلَّيْتُ الجُمُعةَ دخَلْتُ فاستفتَيْتُه فيما اختلَفْتُم فيه، فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية إلى آخِرِها))[1].

﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

أي: لا يجعَلُ اللهُ سُقاةَ الحاجِّ وعُمَّارَ المسجِدِ الحرامِ مِن الكُفَّارِ، في منزلةِ المُؤمِنينَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، والمُجاهِدينَ في سبيلِ الله[2].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

---

(١) رواه مسلم (١٨٧٩).

قال القرطبي: (هذا المَساقُ يقتضي أنَّها إنَّما نزَلَت عند اختلافِ المُسلِمينَ في الأفضَلِ مِن هذه الأعمالِ. وحينئذٍ لا يَليقُ أن يُقالَ لهم في آخِرِ الآيةِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فتعيَّنَ الإشكالُ. وإزالَتُه بأن يُقالَ: إنَّ بعضَ الرُّواةِ تَسامَحَ في قَولِه: (فأنزَلَ اللهُ الآيةَ). وإنَّما قرأ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الآيةَ على عُمَرَ حينَ سألَه، فظَنَّ الرَّاوي أنَّها نزَلَت حينئذٍ. واستدَلَّ بها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أنَّ الجهادَ أفضَلُ ممَّا قال أولئك الذين سَمِعَهم عُمرُ، فاستفتى لهم فتلا عليه ما قد كان أُنزِلَ عليه، لا أنَّها نزَلَت في هؤلاءِ. والله أعلم). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٢)، ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٦٥).

وقال الشنقيطي عن كلامِ القرطبيِّ: (وكلامُه فيه أجوَدُ ما وقفْتُ عليه في إزالةِ إشكالِه). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٣٦-٣٣٧).

وقال القاسمي: (قولُ النعمانِ (فأنزل الله) بمعنى أنَّ مثلَ هذا التحاورِ نزَل فيه فيصلٌ متقدِّمٌ، وهو هذه الآيةُ، لا بمعنى أنَّه كان سببًا لنزولِها... وهذا الاستعمالُ شائعٌ بينَ السلفِ، ومن لم يتفطَّنْ له تتناقض عندَه الرواياتُ، ويحار في المخرجِ، فافهمْ ذلك وتفطَّنْ له) ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢).

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا نفى اللهُ عزَّ وجلَّ المُساواةَ بين الفَريقينِ، أوضَحَ مَن الراجِحُ مِنهما، ولَمَّا أثبَتَ الهِدايةَ للمُؤمِنينَ بِقَولِه: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، نفاها عن المُشرِكينَ فقال[1]:

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ للتَّوبةِ، ولِفِعلِ الأعمالِ الصَّالحةِ، الكُفَّارَ والمُشرِكينَ، ومنهم أهلُ سِقايةِ الحاجِّ وعِمارةِ المَسجِدِ الحرامِ، مِن المُشرِكينَ الذين ظَلَموا بمُساواةِ أعمالِهم هذه بالإيمانِ باللهِ وباليومِ الآخِرِ والجهادِ في سبيلِ اللهِ، فوَضَعوا الأشياءَ في غيرِ مواضِعِها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ في ضِمنِ هذا الخبَرِ أمرُ المؤمنينَ بعِمارةِ المَساجِدِ، ويتناوَلُ عِمارَتُها رَمَّ ما تهدَّمَ منها، وتنظيفَها، وتنويرَها، وتعظيمَها، واعتيادَها للعِبادةِ والذِّكرِ- ومِن الذِّكرِ دَرسُ العِلمِ، بل هو أجَلُّه-

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٢).

وصَونَها عمَّا لم تُبْنَ له[١].

٢- عُمَّارُ المَساجِدِ على الحقيقةِ، وأهلُها الذينَ هم أهلُها؛ موصوفونَ بالإيمانِ النَّافِعِ، وبالقيامِ بالأعمالِ الصَّالحةِ التي أمُّها الصَّلاةُ والزَّكاةُ، وبخشيةِ الله التي هي أصلُ كُلِّ خَيرٍ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ فيه أنَّ أولئك الجامعينَ لهذه الخَمسِ مِن أركانِ الإيمانِ والإسلامِ- التي يلزَمُها سائِرُ أركانِها- هم الذين يرجُونَ بحَقٍّ، أو يُرجَى لهم بحسَبِ سُنَنِ اللهِ في أعمالِ البشَرِ، وتأثيرِها في إصلاحِهم؛ أن يكونوا من جماعةِ المُهتَدينَ إلى ما يُحِبُّ اللهُ ويرضى مِن عمارةِ مَساجِدِه حِسًّا ومعنًى، واستحقاقِ الجَزاءِ عليها بالجنَّةِ خالدين فيها، دونَ غَيرِهم من المُشرِكينَ الجامِعينَ لأضدادِها[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ (عسى) مِن اللهِ تعالى: واجِبةٌ حيثما وقعَتْ في القُرآنِ، وفي ذلك قَطعُ أطماعِ المُشرِكينَ أن يكونوا مُهتَدينَ؛ إذ مَن جمَعَ هذه الخِصالَ جُعِلَ حالُه حالَ مَن تُرجَى له الهدايةُ، فكيف بمن هو عارٍ منها، وفي ذلك ترجيحُ الخَشيةِ على الرَّجاءِ، ورَفْضُ الاغترارِ بالأعمالِ الصَّالحةِ، فربَّما دخَلَها بعضُ المُفسِداتِ وصاحِبُها

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٩٠).

لا يشعُرُ بها[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الكافِرَ ممنوعٌ مِن عمارةِ مَسجِدٍ مِن مساجِدِ المُسلمينَ، ولو أوصى بها لم تُقبَلْ وصيَّتُه، ويُمنَعُ عن دخولِ المَساجِدِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ عَمَلَ الكافِرِ مُحبَطٌ لا ثوابَ فيه[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ احتُجَّ بهذه الآيةِ على أنَّ الفاسِقَ مِن أهلِ الصَّلاةِ لا يبقى مُخلَّدًا في النَّارِ مِن وَجهَينِ: أنَّ قَولَه: ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ يُفيدُ الحَصرَ، أي: هم فيها خالِدونَ لا غيرُهم، ولَمَّا كان هذا الكلامُ واردًا في حَقِّ الكُفَّارِ، ثبت أنَّ الخُلودَ لا يحصُلُ إلَّا للكافِرِ. والثاني: أنَّه تعالى جعَلَ الخُلودَ في النَّارِ جَزاءً للكُفَّارِ على كُفرِهم، فلو كان هذا الحُكمُ جَزاءً لِغَيرِ الكافِرِ، لَمَا صَحَّ تهديدُ الكافِرِ به[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ دليلٌ على أنَّ الشَّهادةَ لعُمَّارِ المساجِدِ بالإيمانِ صحيحةٌ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانه ربَطَه بها، وأخبَرَ عنه بمُلازَمتِها. وقد قال بعضُ السَّلَفِ: (إذا رأيتم الرَّجُلَ يعمُرُ المَسجِدَ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٧).
(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٢).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٩٥).

فحَسِّنُوا به الظَّنَّ)[١].

٥- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ جرتِ العادةُ أنَّ اللَّهَ يذكرُ الإيمانَ باليومِ الآخِرِ مع الإيمانِ به؛ لأنَّ الكُفرَ باليومِ الآخِرِ سببٌ لكلِّ البَلايا، وأنواعِ الكُفرِ والجحودِ؛ لأنَّ مَطامعَ العُقلاءِ محصورةٌ في أمرينِ؛ هما: جلبُ النَّفعِ، ودفعُ الضرِّ، والذي لا يُصدِّقُ بيومِ القيامةِ لا يرغَبُ في خيرٍ في ذلك اليَومِ، ولا يخافُ من شَرٍّ في ذلك اليومِ، فلا يَنزَجِرُ عن شيءٍ، ولا يَرعَوي عن شيءٍ؛ ولذا كان التَّكذيبُ بالبعثِ من أشنعِ أنواعِ الكُفرِ باللهِ جلَّ وعلا[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ اعتبارُ إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ في عِمارةِ المسجِدِ، كأنَّه يدلُّ على أنَّ المُرادَ مِن عِمارة المسجِدِ الحضورُ فيه؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ إذا كان مُقيمًا للصَّلاةِ، فإنَّه يحضُرُ في المسجِدِ، فتحصُلُ عِمارةُ المسجِدِ به، وإذا كان مُؤتيًا للزَّكاةِ، فإنَّه يحضُرُ في المسجِدِ طوائفُ الفُقَراءِ والمساكينِ لِطَلبِ أخْذِ الزَّكاةِ، فتحصُلُ عِمارةُ المسجِدِ به. وإذا حَمَلْنا العِمارةَ على مصالحِ البِناءِ: فإيتاءُ الزَّكاةِ مُعتبَرٌ في هذا البابِ أيضًا؛ لأنَّ إيتاءَ الزَّكاةِ واجِبٌ، وبناءَ المسجِدِ نافلةٌ، والإنسانُ ما لم يَفرُغْ عن الواجِبِ لا يَشتغِل بالنَّافلةِ، والظَّاهِرُ أنَّ الإنسانَ ما لم يكُن مؤدِّيًا للزَّكاةِ لم يشتغِلْ ببناءِ المَساجِدِ[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٠).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١).

وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ناسبَ ذِكرُ إيتاءِ الزَّكاةِ مع عمارةِ المَساجِدِ؛ لأنَّها لَمَّا كانت مَجمَعًا للنَّاسِ بانَ فيها أمْرُ الغَنيِّ والفقيرِ، وعُرِفَت أحوالُ منَ يؤدِّي الزَّكاةِ، ومَن يستحِقُّها[1].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ ﴾ فيه أنَّ الجهادَ والإيمانَ باللهِ أفضَلُ مِن سقايةِ الحاجِّ وعمارةِ المسجِدِ الحرامِ بدرجاتٍ كثيرةٍ؛ لأنَّ الإيمانَ أصلُ الدِّينِ، وبه تُقبَلُ الأعمالُ، وتزكو الخِصالُ، وأمَّا الجِهادُ في سبيلِ اللهِ فهو ذِروةُ سَنامِ الدِّينِ، الذي به يُحفَظُ الدِّينُ الإسلاميُّ ويتَّسِعُ، ويُنصَرُ الحقُّ، ويُخذَلُ الباطِلُ، وأمَّا عِمارةُ المسجِدِ الحرامِ وسِقايةُ الحاجِّ، فهي وإنْ كانت أعمالًا صالحةً، فهي مُتوقِّفةٌ على الإيمانِ، وليس فيها مِن المصالِحِ ما في الإيمانِ والجهادِ؛ فلذلك قال: ﴿لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾

- قولُه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ ابتداءُ ذمٍّ لهم، وجِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الذي فيه معنى البُعدِ؛ لأنَّهم قد تميَّزوا بوَصْفِ الشَّهادةِ على أَنْفُسِهم بالكُفْرِ[3].

- قولُهُ: ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ فيه إيرادُ الجُملةِ الاسميَّةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤١).

للمُبالَغةِ في الدَّلالةِ على الخُلودِ، والظَّرفُ ﴿وَفِي ٱلنَّارِ﴾ مُتعلِّقٌ بالخَبَرِ ﴿خَٰلِدُونَ﴾، وقُدِّم عليه؛ للاهْتِمام به، ولمُراعاةِ الفاصِلَةِ[١]، وليحصُل منه تعجيلُ المَساءةِ للكُفَّارِ إذا سَمِعوه[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾

- وقولُه: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ...﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ جُملةَ: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ لَمَّا اقْتَضتْ إقْصاءَ المشركينَ عن العبادةِ في المساجِدِ، كانتْ بحيثُ تُثيرُ سؤالًا في نُفوسِ السَّامعينَ أن يَتطلَّبوا مَن هم الأحقَّاءُ بأنْ يَعْمُروا المساجدَ، فكانتْ هذه الجُمْلةُ مُفيدةً في جوابِ هذا السَّائلِ[٣].

- ومجيءُ صيغةِ القَصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾ فيها مُؤذِنٌ بأنَّ المقصودَ إقصاءُ فِرَقٍ أُخْرى عن أنْ يَعْمُروا مَساجدَ اللهِ غيرِ المشركينَ الذين كان إقصاؤُهم بالصَّريحِ؛ فتعيَّن أنْ يكونَ المرادُ من الموصولِ وصِلتِه خُصوصَ المُسلمينَ؛ لأنَّ مجموعَ الصِّفاتِ المذكورةِ في الصِّلةِ لا يَثْبُتُ لغيرِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فيه قَصْرٌ إضَافِيٌّ، وذلك باعتبارِ تعارُضِ خَشْيَتين، فإذا تَرَدَّدَ الحالُ بينَ خشْيَتِهم اللَّه وخشْيَتِهم غيرَه قَدَّموا خشيةَ اللَّه على خشيةِ غيرِه، كقولِه آنِفًا: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ [التَّوْبَة: ١٣] وليس المرادُ مِن القصرِ أنَّهم لا يخافونَ شيئًا غيرَ اللَّه، فإنَّهم قد يَخافونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأسدَ، ويخافونَ العدُوَّ[١].

- قولُه: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ فيه تَبْعيدٌ للمُشركينَ عن مواقفِ الاهتداءِ، وحَسْمٌ لأطماعِهم من الانْتِفاعِ بأعمالِهم التي اسْتَعظموها، وافْتَخروا بها، وأمَّلوا عاقِبَتَها، بأنَّ الذين آمنوا وضَمُّوا إلى إيمانِهم العملَ بالشَّرائعِ مع اسْتِشعارِ الخشيةِ والتَّقوى؛ اهتداؤُهم دائرٌ بين (عسى) و(لعلَّ)؛ فما بالُ المشركينَ يَقْطَعون أنَّهم مُهتدونَ، ونائلونَ عند اللهِ الحُسْنى[٢]؟!

- والتعبيرُ عنهم باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم اسْتَحقُّوا هذا الأملَ فيهم بسَببِ تلك الأعمالِ التي عُدَّتْ لهم[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- الاسْتِفهامُ في ﴿أَجَعَلۡتُمۡ﴾ للإنكارِ؛ وهو إنكارُ أن يُشبَّه المشركونَ، وأعمالُهم المُحبَطةُ، بالمؤمنِينَ، وأعمالِهم المُثْبَتةِ، وجَعَلَ تَسويتَهم ظُلمًا، بعدَ ظُلْمِهم بالكُفْرِ[٤].

- والخِطابُ في هذه الآيةِ إمَّا للمُشركينَ على طريقةِ الالتِفاتِ، وهو المتبادِرُ من تخصيصِ ذكرِ الإيمانِ بجانبِ المشبَّهِ به، وإمَّا لبعض المؤمنِينَ المؤْثِرين للسِّقاية والعِمارةِ ونحوِهما على الهِجرَةِ والجِهادِ ونظائرِهما، وهو المناسِبُ للاكتفاءِ في الردِّ عليهم ببيانِ عَدمِ مساواتِهم عند اللهِ للفريق

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٣).

الثاني، وبيانِ أعظميةِ درجتِهم عند الله تعالى على وجه يُشعر بعدم حِرمانِ الأَوَّلين بالكُلِّيَّةِ. أمَّا على الأوَّلِ فهو توبيخٌ للمشركين، ومدارُه على إنكار تشبيهِ أنفسِهم- مِن حيثُ اتصافُهم بوصفَيْهم المذكورينِ، مع قطعِ النظرِ عمَّا هُم عليهِ من الشركِ- بالمؤمنين، مِن حيث اتصافُهم بالإيمان والجهاد، أو على إنكارِ تشبيهِ وصفيهم المذكورين في حدِّ ذاتِهما، مع الإغماضِ عن مقارنتِهما للشِّرك بالإيمانِ والجهادِ، وأمَّا اعتبارُ مقارنتِهما له، كما قيل، فيأباه المقامُ، كيف لا وقد بيِّن آنفًا حبوطُ أعمالِهم بذلك الاعتبارِ بالمرة، وكونُها بمنزلة العدم، فتوبيخُهم بعد ذلك على تشبيهِهما بالإيمانِ والجهادِ، ثم رَدُّ ذلك بما يُشعر بعدم حِرمانِهم عن أصل الفضيلة بالكلية، كما أشير إليه، ممَّا لا يساعدُهُ النظمُ التنزيليُّ، ولو اعتُبر ذلك لما احتيج إلى تقريرِ إنكارِ التشبيهِ وتأكيدِه بشيء آخرَ؛ إذ لا شيءَ أظهرُ بطلانًا مِن تشبيهِ المعدومِ بالموجودِ[(١)].

- قولُه: ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ لم يُذْكَرِ الإيمانُ بالرِّسولِ؛ لأنَّ الإيمانَ باليومِ الآخِرِ إنَّما هو مُتلقَّفٌ مِن أخبارِ الرَّسولِ، فيَتضمَّن الإيمانَ بالرَّسولِ، أو لم يُذْكَرْ؛ لِمَا عُلِمَ وشُهِرَ مِن أنَّ الإيمانَ بالله تعالى قَرينتُه الإيمانُ بالرِّسولِ؛ لاشْتِمالِ كلمةِ الشَّهادةِ والأذانِ والإقامةِ وغيرِها عليهما، مُقترَنَيْنِ مُزْدَوجَيْنِ كأنَّهما شيءٌ واحدٌ، لا يَنْفَكُّ أَحدُهما عن صاحبِهِ؛ فانْطوى تحت ذِكْرِ الإيمانِ باللهِ تعالى الإيمانُ بالرِّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وقيل: دلَّ عليه بذِكْرِ إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ؛ إذ لا يُتلقَّى ذلك إلَّا مِنه[(٢)].

٤- قولُه تعالى: ﴿... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ التَّوبة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٧).

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، بعد قوله: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وورَد بعدَ هذا بآياتٍ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ بعدَ قوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ ...﴾ الآيَةَ [التوبة: ٢٤]، وقال بعد ذلك في هذِه السُّورةِ أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ ...﴾ الآيَةَ [التوبة: ٣٧]، وفي ذِكْرِ المنافِقينَ مِن هذِه السُّورةِ قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠]، فخُصِّصتْ بعضُ هذه الآياتِ بـ(الظَّالِمين) وبعضُها بـ(الفاسقين) وبعضُها بـ(الكافرين)؛ ووجْهُ هذِه المُناسَبةِ؛ أنَّ المراد بـ(الظَّالمين) في الآيةِ الأُولى مُشركو العربِ، الذين قاموا بسِقايةِ الحاجِّ، وأنفقوا على المسجد الحرامِ؛ فهُم لأنفُسِهم بالكُفرِ ظالِمون، وبعَمَلِهم- الذي يُؤمِّلون الانتفاعَ به مع مُضامَّةِ الكُفرِ- واضِعونَ الشَّيءَ في غيرِ موضعِه، فلمَّا فَعَل هؤلاءِ المشرِكون ذلك، وكان كلُّ مُشركٍ ظالِمًا، وكلُّ مَن وضَع شيئًا في غيرِ مَوضعِه يكونُ ظالِمًا؛ عبَّر عنهم بـ(الظَّالمين)؛ لانطِواءِ هذه الصِّفةِ على الكُفرِ، وعلى المعنَى الزَّائدِ بتَضييعِ المالِ في حالِ الشِّركِ.

وأمَّا الموضِع الثاني، وهو قولُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ فإنَّه تحذيرٌ لِمَن قال فيهم مِن المُسلِمين: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ [التوبة: ٢٤]؛ فعرَّفهم أنَّ مَن آثَرَ مُراعاةَ هذِه الأبوابِ التي عَدَّها على طاعةِ اللهِ تعالى؛ فإنَّه بفِعلِه ذلك مِن جُملةِ الفاسِقين، وأنَّ حُكمَه حُكمُهم؛ فكان ذِكرُ (الفاسقين) أليقَ بهذا المَكانِ.

وأمَّا الموضِعُ الثَّالِث، وهو قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فإنَّه

بعدَ قولِه تعالى في وصْفِ الكُفَّار: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٧]، فأخْبَر الله تعالى أنَّ ذلك زيادةٌ في كُفرِهم، ثم عَقَّبَه بوصْفِهم بأنَّه لا يَهدِيهم، فكان أحقُّ الأوصافِ في هذا المكانِ لَفْظَةَ (الكافرين) التي اقتَضاهَا هذا المعنى والذِّكرُ المتقدِّمُ في مَكانَينِ من الآيةِ.

أمَّا الموضِعُ الرابع، وهو قولُ الله تعالى في ذِكرِ المنافقِينَ مِن هذِه السُّورةِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾، فقدْ قال تعالى قَبْلَه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ الآياتِ [التوبة: ٧٥]، فوُصِفوا بالتَّظاهُرِ بالإسلامِ، ثم خَرَجوا عنه بشَنيعِ كُفرِهم، وقَبيحِ مُرتَكَباتِهم، ووصَفَهم تعالى بأنَّهم ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ إلى قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾؛ فلخُروجِهم ومُفارقتِهم ما قدْ كانوا تَظاهَروا به مِن الإسلامِ، وُصِفوا بالفِسقِ الذي هو الخُروجُ والمفارقةُ، كما يُقالُ: فَسَقتِ الرُّطبةُ، إذا خرَجتْ مِن قِشرِها[1].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٠٠-٧٠٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٧-٢٢٨).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّقِيمٌ﴾: أي: دائِمٌ ثابتٌ مُستمِرٌّ، ويُعبَّر بالإقامةِ عن الدوامِ، وأصلُ (قوم): يدلُّ على انتصابٍ أو عَزمٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّ أصحابَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذين آمَنُوا وترَكُوا ديارَ الكُفرِ إلى ديارِ الإيمانِ بِهجرَتِهم إلى المدينةِ، وجاهَدُوا بأموالِهم وأنفُسِهم؛ لِتَكونَ كَلِمةُ اللهِ هي العليا؛ هم أرفَعُ درجةً مِن سُقاةِ الحاجِّ وعُمَّارِ المسجِدِ الحرامِ مِن المُشرِكينَ، وأولئك هم الفائِزونَ، يُبشِّرُهم ربُّهم جلَّ وعلا برحمةٍ عظيمةٍ، ورضًا منه، وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ دائِمٌ لا يزولُ، ماكثينَ فيها على الدَّوامِ، إنَّ اللهَ عنده أجرٌ عَظيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما حكَم الله تعالى بأنَّ الصنفينِ لا يستوون بقولِه: ﴿لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ بيَّن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

ذلك وأوضَحه، فعدَّد الإيمانَ والهجرةَ والجهادَ، وحكَم أنَّ أهلَ هذه الخصالِ أعْظمُ دَرَجَةً عندَ اللَّهِ مِن جميعِ الخلق، ثم حكَم لهم بالفوزِ برحمتِه ورضوانِه، مع تفصيلٍ للجهادِ المذكورِ في قولِه: ﴿وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بأنَّه الجِهادُ بالأموالِ والأنفُسِ(١).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: أصحابُ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، الذين آمَنوا باللهِ تعالى، وبِكُلِّ ما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وهاجَرُوا مِن أوطانِهم ودِيارِهم إلى مَدينةِ رَسولِ اللهِ، وجاهَدوا لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ تعالى بأموالِهم وأنفُسِهم، أولئك أرفَعُ مَنزلةً، وأعلى مكانةً عِندَ اللهِ مِن سُقاةِ الحاجِّ، وعُمَّارِ المَسجِدِ الحَرامِ مِن المُشركينَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النَّبيُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٣).

((لا تسُبُّوا أصحابي؛ فلو أنَّ أحَدَكم أنفقَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما بلغ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصِيفَه[١]))[٢].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾.

أي: وأولئك- الذين آمَنوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا في سبيلِ اللهِ- هم الذينَ يَظفَرونَ بِمَطلوبِهم بِدُخولِ الجنَّةِ، والنَّجاةِ مِن النَّارِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سُبحانه: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما قال الله تعالى: ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾؛ أتبَعه ببيانِ هذه الدَّرَجةِ العَظيمةِ، وهذا الفَوزِ المُجمَلِ[٤]، فقال:

﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ﴾.

أي: يُعْلِمُ اللهُ الذين آمَنوا وهاجَروا وجاهَدوا في سبيلِ اللهِ، بأنَّ لهم رحمةً عظيمةً مِن ربِّهم، يزولُ بها عنهم الشرورُ، ويصلُ إليهم بها كلُّ خيرٍ، وأنَّه رَضِيَ

---

(١) النَّصيفُ: أي: نِصفُ الْمُدِّ. والمعنى: لا ينالُ أحَدُكم بإنفاقِ مِثلِ أُحُدٍ ذَهبًا مِن الأجْرِ والفَضلِ، ما ينالُ أحدُهم بإنفاقِ مُدِّ طَعامٍ أو نِصفٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٣٨٧٥).

(٢) رواه البخاري (٣٦٧٣) واللفظ له، ومسلم (٢٥٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٩، ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٩).

عنهم رضًا كامِلًا، فلا يسخطُ عليهم أبدًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ. فيقولون: لبَّيكَ رَبَّنا وسَعْدَيكَ، والخيرُ في يديكَ. فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نَرضَى يا رَبِّ، وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا مِن خَلْقِك؟! فيقولُ: ألَا أُعطِيكم أفضَلَ مِن ذلك؟ فيقولونَ: يا ربِّ، وأيُّ شَيءٍ أفضَلُ مِن ذلك؟! فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بَعدَه أبدًا))[٢].

﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

أي: ويُبَشِّرُهم اللهُ أيضًا بجنَّاتٍ لهم فيها نعيمٌ دائِمٌ لا يَزولُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٩).

(٢) رواه البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ [فصلت: ٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ [الطلاق: ١١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ مِئةَ درجةٍ، أعَدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سبيلِه، كُلُّ دَرَجتَينِ ما بينهما كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سألتُمُ اللهَ فَسَلُوه الفِردَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجَنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفَوقَه عَرشُ الرَّحمنِ، ومنه تفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ))[١].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

أي: ماكِثينَ في تلك الجَنَّاتِ بلا نهايةٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف: ١٠٧- ١٠٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عنده جزاءٌ وثوابٌ كَبيرٌ على الأعمالِ الصَّالحةِ، يمنَحُه للمُؤمِنينَ في الآخرةِ[٣].

---

(١) رواه البخاري (٧٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٤).

كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال سُبحانه: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ * ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨-٧٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾ قال في وَصفِهم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ مع أنَّه ليس للكُفَّارِ دَرَجةٌ؛ لِوجوهٍ:

الأول: أنَّ هذا ورَدَ على حسَبِ ما كانوا يُقَدِّرونَ لأنفُسِهم مِن الدَّرَجةِ والفَضيلةِ عند اللهِ.

الثاني: أن يكونَ المُرادُ أنَّ أولئك أعظَمُ دَرَجةً مِن كلِّ مَن لم يكُنْ مَوصوفًا بهذه الصِّفاتِ؛ تنبيهًا على أنَّهم لَمَّا كانوا أفضَلَ مِن المؤمنينَ الذين ما كانوا مَوصوفِينَ بهذه الصِّفاتِ، فبِألَّا يُقاسُوا إلى الكُفَّارِ أَوْلى.

الثالثُ: أن يكونَ المُرادُ أنَّ المُؤمِنَ المُجاهِدَ المُهاجِرَ أفضَلُ ممَّن على السِّقايةِ والعِمارةِ، والمُرادُ منه ترجيحُ تلك الأعمالِ على هذه الأعمالِ، ولا شَكَّ أنَّ السِّقايةَ والعِمارةَ مِن أعمالِ الخَيرِ، وإنَّما بطَلَ إيجابُهما للثَّوابِ في حقِّ الكُفَّارِ؛ لأنَّ قِيامَ الكُفرِ- الذي هو أعظَمُ الجِناياتِ- يمنَعُ ظُهورَ ذلك الأثَرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤).

٢- في قولِه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ ﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ رَدٌّ على المرجئةِ فيما يزعمون أنَّ المرءَ بكلمةِ الإخلاصِ وحدَها مستكملٌ الإيمانَ؛ ومَن كان مستكملَ الإيمان فهو في الجنةِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى لم يشهدْ بالفوزِ بالجنةِ والرحمةِ والرضوانِ في هذه الآيةِ إلَّا بالهجرةِ والجهادِ بالأموالِ والأنفسِ[(١)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ * يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴾ لَمَّا كانت الأوصافُ التي تحَلَّوا بها، وصارَوا بها عَبيدَه حقيقةً، هي ثلاثةً: الإيمانُ، والهِجرةُ، والجِهادُ بالمالِ والنَّفسِ- قُوبِلوا في التَّبشيرِ بثَلاثةٍ: الرَّحمةِ، والرِّضوانِ، والجنَّاتِ. فبدَأَ بالرَّحمةِ؛ لأنَّها الوَصفُ الأعَمُّ النَّاشِئُ عنها تيسيرُ الإيمانِ لهم، وثنَّى بالرِّضوانِ؛ لأنَّه الغايةُ مِن إحسانِ الرَّبِّ لِعَبدِه، وهو مُقابِلُ الجهادِ؛ إذ هو بَذْلُ النَّفسِ والمالِ، وقُدِّمَ على الجنَّاتِ؛ لأنَّ رِضا اللهِ عن العَبدِ أفضَلُ مِن إسكانِهم الجنَّةَ، وأتى ثالثًا بقَولِه: ﴿وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴾، أي: دائِمٌ لا ينقطِعُ. وهذا مُقابِلٌ لِقَولِه: ﴿وَهَاجَرُواْ ﴾ لأنَّهم تركُوا أوطانَهم التي نَشَؤوا فيها، وكانوا فيها مُنعَّمِينَ، فآثَرُوا الهِجرةَ على دارِ الكُفرِ إلى مُستَقَرِّ الإيمانِ والرِّسالةِ، فقُوبِلوا على ذلك بالجَنَّاتِ ذواتِ النَّعيمِ الدَّائِمِ، فجاء التَّرتيبُ في أوصافِهم على حسَبِ الواقِعِ: الإيمانُ، ثمَّ الهِجرةُ، ثمَّ الجِهادُ. وجاء التَّرتيبُ في المُقابِلِ على حسَبِ الأعَمِّ، ثمَّ الأشْرَفِ، ثمَّ التَّكميلِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((النُّكتُ الدّالّة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٩، ٣٩٠).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ قَولُه: ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ أي: نَوعٍ مِن الرِّضَا التَّامِّ الكامِلِ، الذي لا يَشُوبُه ولا يَعقُبُه سَخَطٌ؛ يدُلُّ على هذا المعنى زيادةُ لَفظِ (رِضوانٍ) في المبنى على لَفظِ (رِضا) مع تنكيرِه[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾

- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ المفضَّل عليه محذوفٌ؛ لظهورِه: أي أعظمُ درجةً عندَ الله مِن أصحابِ السِّقاية والعمارةِ الذين آمنوا ولم يُهاجروا، ولم يُجاهدوا الجهادَ الكثيرَ الذي جاهده المسلمونَ أيامَ بقاءِ أولئك في الكفرِ[2]. وقيل: لم يُعيِّنْ ذِكرَهم، فلم يقُلْ: (أعظَمُ درجةً مِن المشتَغِلينَ بالسِّقايةِ والعِمارةِ)؛ لأنَّه لو عيَّنَ ذِكرَهم لأوهَمَ أنَّ فَضيلَتَهم إنَّما حصَلَت بالنِّسبةِ إليهم، ولَمَّا ترَكَ ذِكرَ المَرجوحِ، دلَّ ذلك على أنَّهم أفضَلُ مِن كلِّ مَن سِواهم على الإطلاقِ؛ لأنَّه لا يُعقَلُ حُصولُ سَعادةٍ وفَضيلةٍ للإنسانِ أعلى وأكمَلَ مِن هذه الصِّفاتِ[3].

- قولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ جملةٌ مَعطوفةٌ على ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾، أي: أَعْظَمُ، وهم أصحابُ الفَوزِ، وتَعريفُ ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ باللَّامِ مُفيدٌ للقَصْرِ، وهو قَصْرٌ ادِّعائيٌّ؛ للمُبالَغةِ في عِظَمِ فوزِهِم، حتى إنَّ فوزَ غيرِهم بالنِّسبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣-١٤).

إلى فوزِهِم يُعَدُّ كالمعدومِ[١].

- والإتيانُ باسمِ الإشارةِ (أُولئِكَ)؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم اسْتَحقُّوا الفوزَ لأجْلِ تِلك الأوصافِ التي مَيَّزتْهم، وهي: الإيمانُ، والهِجْرةُ، والجِهادُ بالأموالِ والأنْفُسِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ فيه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الربوبيَّة؛ تأكيدًا للمُبشَّرِ به، وتَربيةً له[٣]؛ فأُسْنِدَ التَّبشيرُ إلى ﴿رَبُّهُم﴾؛ لِمَا في ذلك من الإحسانِ إليهم بأنَّ مالِكَ أَمْرِهم، والنَّاظِرَ في مصالِحهم هو الذي يُبشِّرُهم[٤].

- وإسنادُ التَّبشيرِ إلى اسمِ الجَلالةِ بِصيغةِ المُضارعِ- المُفيدِ للتَّجَدُّدِ- مُؤذِنٌ بتَعاقُبِ الخَيراتِ عليهم، وتَجَدُّدِ إدخالِ السُّرورِ بذلك لهم؛ لأنَّ تجَدُّدَ التَّبشيرِ يُؤذِنُ بأنَّ المُبَشَّرَ به شَيءٌ لم يكُن معلومًا للمبشَّرِ، وإلَّا لكان الإخبارُ به تحصيلًا للحاصِلِ[٥].

- قولُه: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ فيه تَنكيرُ الرَّحمةِ والرِّضوانِ؛ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ[٦].

٣- قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩٠).

- قولُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أكَّدَ الخُلُودَ بالتَّأبيدِ؛ لأنَّهُ قَدْ يُسْتَعْمَلُ للمُكْثِ الطَّويلِ[(١)].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ استئنافٌ وَقَعَ تعليلًا لِمَا سَبَق[(٢)]، مع ما فيه من التَّأكيدِ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجُمْلةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٣).

الآيتان (٢٣-٢٤)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾: العَشِيرَةُ: أهلُ الرَّجل الذين يتكثَّر بهم، أو الجماعةُ التي ترجِعُ إلى عَقدٍ واحدٍ كعَقدِ العشرةِ فما زادَ، ومنه المعاشرَةُ، وهي الاجتماعُ على الشَّيءِ، وَأصلُ (عشر): يدلُّ على مداخلةٍ ومخالطةٍ[1].

﴿ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾: أي: اكتَسَبتُموها وحصَّلْتُموها، والاقترافُ: الاكْتِسابُ، حُسنًا كان أو سُوءًا، وهو في الإساءةِ أكثرُ استعمالًا، وأصلُ (الاقترافِ): اقتطاعُ الشيءِ مِن مكانِه إلى غيرِه، وأصلُ (قرف): يَدُلُّ عَلَى مُخالطةِ الشَّيءِ، والالتِباسِ به، وادِّراعِه، ومنه: اقْتَرفْتُ الشَّيءَ: اكْتَسَبْتُه، وكأنَّه لابَسَه وادَّرَعه[2].

﴿كَسَادَهَا﴾: أي: فَوَاتَ وَقتِ رواجِها، والكَسادُ: خِلافُ النَّفاقِ ونقِيضُه،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٤).

وأصلُ (كسد): يدلُّ على الشَّيءِ الدُّونِ لا يُرغَبُ فيه[١].

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾: أي: انتَظِرُوا وتمهَّلُوا، والتَّربُّصُ: الانتِظارُ بالشَّيءِ، وأصلُ (ربص): يدلُّ على الانتظارِ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

ينهى اللهُ المُؤمِنينَ عن مُوالاةِ آبائِهم وإخوانِهم في النَّسَبِ إن اختارُوا الكُفرَ باللهِ، وآثَرُوه على الإيمانِ، وأخبَرَ أنَّه مَن يتوَلَّهم فأولئك هم الظَّالِمونَ.

وأمَرَ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنْ كان آباؤُهم وأبناؤُهم وإخوانُهم وأزواجُهم وعمومُ أقاربِهم، وأموالٌ اكتَسَبُوها، وتَعِبُوا في تحصيلِها، وتجارةٌ يَخافونَ إن هاجَرُوا أن تكسُدَ، وبيوتٌ يُحِبُّونَها، ولا يُريدونَ مُفارَقتَها؛ أحَبَّ إليهم مِن اللهِ ورَسولِه وجهادٍ لإعلاءِ كلمَتِه- فَلْينتَظِروا حتى يأتيَهم اللهُ بعُقوبةٍ عاجلةٍ أو آجِلةٍ، واللهُ لا يهدي القَومَ الفاسِقينَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

أي: يا أيُّها الذين آمَنوا، لا تتَّخِذوا آباءَكم وإخوانَكم في النَّسَبِ بِطانةً وأصدقاءَ، تُناصِرونَهم، وتُفشُونَ إليهم أسرارَ المُسلِمينَ، وتُؤثِرونَ المُكْثَ بينهم

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٠)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ١٩٨).

على الهِجرةِ إلى دارِ الإسلامِ، إن اختارُوا- على وجهِ الرِّضا والمحبَّةِ- الكُفرَ باللهِ، وآثَرُوه على الإيمانِ به سبُحانه[١].

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: ومَن يتَّخِذْ منكم- أيُّها المُؤمِنونَ- أقاربَه الكُفَّارَ بِطانةً، يُحِبُّهم ويُناصِرُهم، ويُؤثِرُ المُقامَ بينهم على الهِجرةِ إلى دارِ الإسلامِ، فأولئك هم الذينَ عَصَوُا اللهَ، وخالَفُوا أمرَه، فوَضَعوا الوَلايةَ في غَيرِ مَوضِعِها، واتَّخَذوا من يَضُرُّهم أولياءَ، وتَرَكوا ما ينفَعُهم مِن الهجرةِ والجِهادِ في سَبيلِ الله تعالى[٢].

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كانتِ الأنفُسُ مُختلِفةَ الهِمَمِ، مُتباينةَ السَّجايا والشِّيَمِ، كان هذا غيرَ كافٍ في التَّهديدِ لِكُلِّها، فأتبَعَه تَهديدًا أشَدَّ منه بالنِّسبةِ إلى تلك النُّفوسِ، فقال مُنتَقِلًا من أسلوبِ الإقبالِ إلى مقامِ الإعراضِ المُؤذِنِ بزَواجِرِ الغَضَبِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٦).
قال ابنُ عطية: (ظاهرُ هذه المُخاطَبةِ أنَّها لِجَميعِ المُؤمِنينَ كافَّةً، وهي باقيةُ الحُكمِ إلى يومِ القِيامةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٣، ٣٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٦، ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٢١).

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- للمُتخَلِّفينَ عن الهِجرةِ إلى دارِ الإسلامِ: إن كان آباؤُكم وأبناؤُكم، وإخوانُكم في النَّسَبِ وزوجاتُكم، وعمومُ أقارِبِكم[١].

﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾.

أي: وأموالٌ اكتسَبْتُموها، وتَعِبتُم في تَحصيلِها، وتجارةٌ تَخافونَ- إن هاجَرْتُم- عدَمَ بَيعِها ورواجِها، أو رُخْصَ سِعرِها ونَقصَ أرباحِها، وبيوتٌ تُحِبُّونَ سُكْناها، فلا تُريدونَ تَرْكَها[٢].

﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾.

أي: إن كانت تلك الأشياءُ أحبَّ إليكم مِن اللهِ ورَسولِه، وجهادٍ لإعلاءِ كَلِمتِه تعالى[٣].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ بهِنَّ حَلاوةَ الإيمانِ: مَن كان اللهُ ورَسولُه أحَبَّ إليه ممَّا سِواهما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلَّا لله، وأن يَكرَهَ أن يعودَ في الكُفرِ بعد أن أنقَذَه اللهُ منه، كما يكرَهُ أن يُقذَفَ في النَّارِ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٤، ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦١).

(٤) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) واللفظ له.

وعنه أيضًا، قال: قال رَسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم، حتى أكونَ أحَبَّ إليه مِن وَلَدِه ووالِدِه والنَّاسِ أجمَعينَ))[١].

وعن عبد الله بن هشام رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ، فقال له عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، لأنت أحَبُّ إليَّ مِن كُلِّ شَيءٍ إلَّا مِن نفسي، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا والذي نفسي بِيَدِه، حتَّى أكونَ أحَبَّ إليك مِن نَفسِك. فقال له عُمَرُ: فإنَّه الآنَ، واللهِ لأنتَ أحَبُّ إليَّ مِن نَفسي. فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: الآنَ يا عُمَرُ))[٢].

﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾.

أي: فانتَظِرُوا- أيُّها المُتخَلِّفونَ عن الهِجرةِ والجِهادِ- حتى يأتيَكم اللهُ بعُقوبةٍ عاجلةٍ أو آجِلةٍ[٣].

عن أبي أُمامةَ رَضِيَ الله عنه، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((مَن لم يَغْزُ أو يُجهِّزْ غازِيًا، أو يَخْلُفْ غازيًا في أهلِه بخَيرٍ؛ أصابَه اللهُ سُبحانه بقارعةٍ قبلَ يَومِ القيامةِ))[٤].

---

(١) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٦٦٣٢).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٣).
وقيل: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: فتحِ مكةَ. ونسَبه الواحديُّ للأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٨٧).
قال الشوكانيُّ: (وفيه بعدٌ؛ فقد رُوي أنَّ هذه السورةَ نزلتْ بعدَ الفتحِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٦)، ويُنظر ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٥٠٣)، وابن ماجة (٢٧٦٢) واللفظ له، والدارمي (٢٤٦٢)، وابن أبي عاصم في ((الجهاد)) (٩٩).
صحح إسناده النووي في ((رياض الصالحين)) (٤٣٧)، وحسن الحديث الألباني في ((صحيح أبي داود)) (٢٥٠٣).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن مات ولم يَغزُ، ولم يحدِّث به نفسَه، مات علَى شُعبةٍ من نِفاقٍ))[١].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إذا تَبايَعتُم بالعِينة[٢]، وأخَذْتُم أذنابَ البَقَرِ[٣]، ورَضِيتُم بالزَّرعِ، وتَرَكْتم الجِهادَ؛ سلَّطَ اللهُ عليكم ذُلًّا لا يَنزِعُه، حتى تَرجِعُوا إلى دينِكم))[٤].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ للخَيرِ الخارِجينَ عن طاعَتِه إلى مَعصِيَتِه، المُؤْثِرينَ على محبَّةِ الله تعالى شيئًا مِن تلك المذكوراتِ[٥].

---

(١) رواه مسلم (١٩١٠).

(٢) العِينَة: هي أن يبيعَ مِن الرَّجُل سلعةً بثَمَنٍ معلومٍ إلى أجَلٍ مُسمًّى، ثمَّ يَشتَريها منه نقدًا بأقَلَّ مِن الثَّمَنِ الذي باعها به. يُنظر: ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني (١/ ٦١٦).

(٣) أخَذْتُم أذنابَ البَقَرِ: كنايةٌ عن الاشتغالِ بالحَرْثِ. يُنظر: ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمناوي (١/ ٨٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢) واللفظ له، وأحمد (٥٠٠٧)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٢/ ٤٣٢) (١٣٥٨٣).

قال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٧٧١): له طريق صحيح، وصحح إسناده ابن تيمية في ((بيان الدليل)) (١٠٩)، وقال ابن عبد الهادي في ((المحرر)) (٣١٥): رجال إسناده رجال الصحيح، وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٥/ ٣١٨): له طرق يشد بعضها بعضا، وصححه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١١) بمجموع طرقه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٣).

قال الشنقيطي: (مِثلُ هذه الآياتِ فيه سُؤالٌ مَعروفٌ للعُلَماء، كقَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاللهُ جلَّ وعلا نفى هدايتَه للفاسِقينَ، ونفى هدايتَه للظَّالِمينَ، مع أنَّا نُشاهِدُ بعضَ الفاسقينَ الظَّالِمينَ يهدِيه اللهُ، وكم من كافرٍ شَديدٍ في الكُفرِ، ظالمٍ فاسقٍ يهديه اللهُ! هذا وجهُ الإشكالِ.

وأجاب العُلَماءُ عن هذا بجَوابَينِ:

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الحَذرُ مِن مُوالاةِ مَن استحَبُّوا الكُفرَ على الإيمانِ، في ظاهِرِ أمْرِهم أو باطِنِه؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّه إذا وقعَ التَّعارُضُ بين مصلحةٍ واحدةٍ مِن مصالِحِ الدِّينِ وبين جميعِ مُهِمَّاتِ الدُّنيا؛ وجب على المُسلِمِ تَرجيحُ الدِّينِ على الدُّنيا[2].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ أعظَمُ دليلٍ

أحدُهما: أنَّ قَولَه: ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ من العامِّ المخصوصِ، وأنَّ المُرادَ بها الذين سبَقَ في علمِ اللهِ أنَّهم لا يَهتَدونَ مِن الفَسَقةِ والظَّلَمةِ، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقال بعضُ العُلَماءِ: لا يهديهم ما زالوا مُتَّصِفينَ بالظُّلمِ والفِسقِ، فإذا نَزَعوا عن ذلك برحمةِ اللهِ وهِدايتِه، زال عنهم اسمُ الفِسقِ والظُّلمِ، فلا مانع إذَن مِن هُداهم. هكذا قالَه بعضُ العُلَماءِ. واللهُ تعالى أعلَمُ). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧).

على وُجوبِ محبَّةِ اللهِ ورَسولِه، وعلى تقديمِها على محبَّةِ كُلِّ شَيءٍ، وعلى الوعيدِ الشَّديدِ والمَقْتِ الأكيدِ، على من كان شَيءٌ مِن هذه المذكوراتِ أحَبَّ إليه مِن اللهِ ورَسولِه، وجهادٍ في سبيلِه، وعلامةُ ذلك أنَّه إذا عُرِضَ عليه أمرانِ؛ أحدُهما يُحبُّه اللهُ ورَسولُه، وليس لِنَفسِه فيه هوًى، والآخَرُ تُحبُّه نَفسُه وتَشتَهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا لله ورَسولِه، أو يَنقُصُه؛ فإنَّه إن قدَّمَ ما تهواه نفسُه على ما يُحبُّه الله، دلَّ ذلك على أنَّه ظالِمٌ، تارِكٌ لِما يجبُ عليه[1].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ هذه آيةٌ شَديدةٌ لا ترى أشَدَّ منها، كأنَّها تنعى على النَّاسِ ما هم عليه مِن رَخاوةِ عَقدِ الدِّينِ، واضطرابِ حَبلِ اليَقينِ، فلْيُنصِفْ أورَعُ النَّاسِ وأتقاهم مِن نَفسِه؛ هل يجدُ عنده من التصَلُّبِ في ذاتِ اللهِ، والثَّباتِ على دينِ الله ما يَستحِبُّ له دينُه، على الآباءِ والأبناءِ والإخوانِ والعشائِرِ والمالِ والمَساكِنِ وجميعِ حُظوظِ الدُّنيا، ويتجَرَّدُ منها لأجلِه، أم يَزوي اللهُ عنه أحقَرَ شَيءٍ منها لِمَصلحتِه، فلا يدري أيُّ طَرَفيه أطولُ؟ ويُغْويه الشَّيطانُ عن أجَلِّ حَظٍّ مِن حظوظِ الدِّينِ، فلا يُبالي، كأنَّما وقَعَ على أنفِه ذُبابٌ فَطَيَّرَه[2]!

٥- قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾. فكلُّ من قدَّمَ طاعةَ أحدٍ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٧).

هؤلاءِ على طاعةِ اللهِ ورَسولِه، أو قَولَ أحدٍ منهم على قَولِ اللهِ ورَسولِه، أو مرضاةَ أحدٍ منهم على مَرضاةِ اللهِ ورَسولِه، أو خَوفَ أحدٍ منهم ورجاءَه والتوكُّلَ عليه، على خَوفِ اللهِ ورَجائِه والتوكُّلِ عليه، أو مُعاملةَ أحَدِهم على مُعامَلةِ الله- فهو ممَّن ليس اللهُ ورَسولُه أحَبَّ إليه ممَّا سِواهما، وإن قالَه بلِسانِه فهو كَذِبٌ منه، وإخبارٌ بخِلافِ ما هو عليه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ افتتَحَ الخِطابَ بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ إشعارًا بأنَّ ما سيُلقى إليهم مِن الوَصايا هو مِن مُقتَضياتِ الإيمانِ وشِعارِه[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ ذَكَرَ الآباءَ والإخوانَ؛ لأنَّهم أهلُ الرَّأيِ والمَشورةِ، ولم يذكُرِ الأبناءَ؛ لأنَّهم في الغالِبِ تبَعٌ لآبائِهم[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ لَمَّا كان الوالِدونَ هم الذينَ يُقاتِلونَ، ويَحتاجُونَ إلى المُوالاةِ والمُناصَرةِ، دونَ الوالِداتِ، اقتصَرَ على ذِكرِهم[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٠٤).

ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ جَعَلَ التَّحذيرَ مِن أولئكَ بخصوصِ كَونِهم آباءً وإخوانًا؛ تنبيهًا على أقصى الجَدارةِ بالوَلايةِ، لِيُعلَمَ بفحوى الخِطابِ أنَّ مَن دونَهم أَوْلى بحُكمِ النَّهيِ(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ قولُه: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ﴾ نبَّه بصيغةِ الاستفعالِ على أنَّ الإيمانَ لِكَثرةِ مَحاسِنِه، وظُهورِ دَلائِلِه، مَعشوقٌ بالطَّبعِ، فلا يتركُه أحَدٌ إلَّا بنوعِ مُعالجةٍ ومُكابرةٍ لِعَقلِه ومُجاهَدةٍ(٢).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ ﴾ ذكَرَ تعالى الأمورَ الدَّاعيةَ إلى مُخالطةِ الكُفَّارِ، وهي أمورٌ أربعةٌ؛ أوَّلها: مُخالطةُ الأقارِبِ، وذكر منهم أربعةَ أصنافٍ على التَّفصيلِ، وهم: الآباءُ والأبناءُ والإخوانُ والأزواجُ، ثمَّ ذكَرَ البقيَّةَ بلفظٍ واحدٍ يتناوَلُ الكُلَّ، وهي لفظُ العَشيرةِ. وثانيها: المَيلُ إلى إمساكِ الأموالِ المُكتَسَبةِ. وثالثها: الرَّغبةُ في تحصيلِ الأموالِ بالتِّجارةِ. ورابعها: الرَّغبةُ في المساكِنِ. ولا شَكَّ أنَّ هذا التَّرتيبَ ترتيبٌ حَسَنٌ؛ فإنَّ أعظَمَ الأسبابِ الدَّاعيةِ إلى المُخالطةِ القَرابةُ، ثمَّ إنَّه يُتوصَّلُ بتلك المُخالَطةِ إلى إبقاءِ الأموالِ الحاصِلةِ، ثمَّ إنَّه يُتوصَّلُ بالمُخالطةِ إلى اكتسابِ الأموالِ التي هي غيرُ حاصلةٍ، وفي آخِرِ المراتِبِ الرَّغبةُ في البِناءِ في الأوطانِ، والدُّورِ التي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٢٠).

بُنِيَت لأجلِ السُّكنى، فذكَرَ تعالى هذه الأشياءَ على هذا التَّرتيبِ الواجبِ[١].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ ذكَرَ الأبناءَ هنا؛ لأنَّه ذكَرَ المحبَّةَ، وهم أعلَقُ بالنَّفسِ، بخلافِ الآيةِ قَبلَها فلم يُذكَروا؛ لأنَّ المَقصودَ منها الرَّأيُ والمَشورةُ[٢].

٨- وجهُ الاقترانِ بين محبَّةِ اللهِ ومَحبَّةِ رَسولِه، في قَولِه تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أنَّه لا تتِمُّ محبَّةُ اللهِ إلَّا بمحَبَّةِ ما يُحِبُّه، وكراهةِ ما يكرَهُه، ولا طريقَ إلى مَعرفةِ ما يُحبُّه وما يَكرَهُه- تعالى- إلَّا مِن جهةِ نبيِّه المُبَلِّغِ عنه- صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ما يُحبُّه وما يَكرَهُه، فصارت مَحبَّةُ اللهِ مُستلزِمةً لِمَحبَّةِ رَسولِه وتَصديقِه ومُتابَعتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ أخَّرَ هنا حبَّ الزوجيَّةِ عن حُبِّ البَنينَ؛ لأنَّ الكَلامَ في الحُبِّ المُعارِضِ لحُبِّ اللهِ ورَسولِه والجهادِ في سبيلِه، وما يُخشَى مِن حَملِه على مُوالاةِ أهلِ الكُفرِ في الحَربِ على المُؤمِنينَ، وقلَّما تكونُ زَوجُ الرَّجُلِ مُعارِضةً له في دينِه، ووَلايةِ مَن يَدينُ للهِ بِوَلايتِه، كما يُعارِضُه أبوه وابنُه وأخوه مِن أهلِ الحَربِ دونَ امرأتِه. وقدَّمَه على حُبِّ البَنينَ في قَولِه تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩١).
(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٦١).

وَٱلۡبَنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤]؛ لأنَّ الكلامَ في الآيةِ على حُبِّ الشَّهَواتِ، وهو أقوى الشَّهواتِ البَشَريَّةِ على الإطلاقِ(١).

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾ خَصَّ الأموالَ المُقترَفةَ بالذِّكرِ؛ لأنَّها أرغَبُ عند أهلِها، وصاحِبُها أشَدُّ حِرصًا عليها ممَّن تأتيه الأموالُ مِن غَيرِ تَعَبٍ ولا كَدٍّ؛ فحُبُّ الأموالِ المُقترَفةِ- أي: المُكتَسَبةِ- أقوى في النَّفسِ مِن حُبِّ الأموالِ المَورُوثةِ؛ لأنَّ عَناءَ الإنسانِ في اقترافِها يجعَلُ لها في قَلبِه مِن القيمةِ والمَنزِلةِ ما ليس لِمَا جاءَه عَفوًا، كما هو مشهورٌ بين النَّاسِ عِلمًا وعَمَلًا(٢).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ خَصَّ الجِهادَ بالذِّكرِ مِن عُمومِ ما يُحبُّه اللهُ منهم؛ تَنويهًا بشأنِه، ولأنَّ ما فيه من الخَطَرِ على النُّفوسِ، ومِن إنفاقِ الأموالِ، ومُفارَقةِ الإلْفِ، جعَلَه أقوى مَظِنَّةً للتقاعُسِ عنه(٣).

١٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ على أنَّ مَحبَّةَ اللهِ تعالى فَرْضٌ على العِبادِ؛ لأنَّه سُبحانه توعَّدَ مَن قدَّمَ محبَّةَ غيرِه على مَحبَّتِه ومَحبَّةِ رَسولِه، والوعيدُ لا يقَعُ إلَّا على فَرْضٍ لازمٍ، وحَتمٍ واجِبٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٢٩٧).

بلاغةُ الآيَتينِ:

١- **قولُه تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ ... ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لافْتِتاحِ غرَضٍ آخَرَ، وهو تَقْريعُ المنافقينَ ومَنْ يُواليهم[(١)].

- وصِيغةُ الحَصْرِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾؛ للمُبالَغَةِ، أي: إنَّ ظُلْم غيرِهم كَلَا ظُلمٍ بالنِّسبةِ لعَظَمةِ ظُلْمِهم[(٢)].

- والإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ لزِيادةِ تمييزِ هؤلاءِ أو هؤلاءِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ جَدارتَهم بالحُكمِ المذكورِ بَعْدَ الإشارةِ كانتْ لأجْلِ تِلك الصِّفاتِ، أي: اسْتِحبابِ الكُفْرِ على الإيمانِ[(٣)].

٢- **قولُه تعالى:** ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾

- فيه تلوينٌ للخِطابِ، وأَمْرٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُثبِّتَ المؤمنينَ، ويُقوِّيَ عَزائمَهم على الانْتِهاءِ عما نُهُوا عَنْه من موالاةِ الآباءِ والإخوانِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٥٢).

ويُزهِّدَهم فيهم، وفيمَنْ يَجْري مَجْراهم من الأبناءِ والأزواجِ، ويَقْطَعَ علائِقَهم عن زخارفِ الدُّنيا وزينتِها، على وَجْهِ التَّوبيخِ والتَّرهيبِ[١].

- وفيه تَرتيبٌ حَسَنٌ، حَيثُ قدَّم الآباءَ؛ لأنَّهم الذين يَجِبُ برُّهم وإكرامُهم وحُبُّهم، وثنَّى بالأبناء؛ لكونِهم أَعْلَقَ بالقُلوبِ، ولَمَّا ذَكَرَ الأصلَ والفَرْعَ ذكَر الحاشيةَ وهي الإخوانُ، ثُمَّ ذَكَرَ الأزواجَ، وهنَّ في المحبَّةِ والإيثارِ كالأبناءِ، ثُمَّ ذَكَر الأَبعدَ بَعدَ الأقربِ في القرابةِ، فقال: ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾[٢].

- وعطَفَ على حُبِّ اللهِ تعالى ورَسولِه الجهادَ في سبيلِه مُنكَّرًا، في قَولِه تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾؛لأنَّه أظهَرُ آياتِهما، ونُكتةُ تَنكيرِه وإبهامِه إفادةُ أنَّ كُلَّ نَوعٍ من أنواعِ الجِهادِ في سبيلِ اللهِ- قلَّ أو كَثُرَ- فإنَّ تارِكَه لأجلِ حُبِّ شَيءٍ مِن تلك الأصنافِ الثَّمانيةِ، وتَفضيلِها عليه؛ يستحِقُّ الوعيدَ الذي في الآيةِ[٣].

- وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أَمْرٌ مُتضمِّنٌ للتَّهديدِ والوعيدِ[٤] الشَّديدِ، ويؤكِّدُه إبهامُ الأمرِ، وعَدَمُ التَّصريحِ به؛ لتذهَبَ أنفُسُهم كلَّ مَذهَبٍ، وتتردَّدَ بين أنواعِ العُقوباتِ[٥].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تَذييلٌ، والواو اعتراضيَّةٌ، وهذا تهديدٌ بأنَّهم فَضَّلوا قَرابتَهم وأموالَهم على مَحبَّةِ اللهِ ورسولِه وعلى الجِهادِ؛ فقد تَحقَّقَ أنَّهم فاسِقون، واللهُ لا يَهْدي القومَ الفاسقينَ؛ فحَصَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٦).

بمَوقِعِ التَّذييلِ تَعريضٌ بهم[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٤).

الآيات (٢٥-٢٧)

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَحُبَتْ﴾: أي: اتَّسَعَت، وأصلُ (رحب): يدل على سَعَةٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: لقد نَصَرَكم اللهُ- أيُّها المُؤمِنونَ، أصحابَ رَسولِ اللهِ- على أعدائِكم الكُفَّارِ في غَزَواتٍ كَثيرةٍ، ونَصَرَكم أيضًا يوم حُنَينٍ حين أعجَبَتْكم كَثرَتُكم، فلم تُفِدْكم تلك الكَثرةُ شَيئًا، وضاقت عليكم الأرضُ على سَعَتِها؛ لِشِدَّةِ ما أصابَكم، ثم فرَرْتُم من الكُفَّارِ مُنهَزِمينَ.

ثمَّ أنزَلَ اللهُ ثَباتَه وطُمأنينَتَه على رَسولِه وعلى المُؤمِنينَ، وأنزَلَ جُنودًا مِنَ الملائكةِ لم تَرَوْها، وعذَّبَ اللهُ يومَ حُنَينٍ الذين كَفَروا، بأيدي المُؤمِنينَ، وذلك جزاءُ الكافِرينَ.

ثم يتوبُ اللهُ على من يشاءُ أن يتوبَ عليه مِنَ الكُفَّارِ، فيَهدِيه إلى الإسلامِ، واللهُ غَفورٌ رحيمٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٦، ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقدَّمَ قولُه: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤] واستطرَدَ بعد ذلك بما استطرَدَ؛ ذَكَّرَهم تعالى نَصْرَه إيَّاهم في مَواطِنَ كَثيرةٍ[(١)].

وأيضًا لَمَّا تضَمَّنَتِ الآياتُ السَّابقةُ الحَثَّ على قِتالِ المُشرِكينَ ابتداءً مِن قَولِه تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥]، وكان التَّمهيدُ للإقدامِ على ذلك مُدَرَّجًا؛ بإبطالِ حُرمةِ عَهدِهم لِشِرْكِهم، وبإظهارِ أنَّهم مُضمِرونَ العَزمَ على الابتداءِ بِنَقضِ العُهودِ التي بينهم وبين المُسلِمينَ، لو قُدِّرَ لهم النَّصرُ على المسلمين، وهَمِّهم بإخراجِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حتى إذا انتهى ذلك التَّمهيدُ المُدَرَّجُ إلى الحَثِّ على قتالِهم، وضَمانِ نَصرِ اللهِ المُسلِمينَ عليهم، وما اتَّصَل بذلك ممَّا يُثيرُ حماسةَ المُسلِمينَ- جاء في هذه الآيةِ بِشَواهِدِ ما سبق مِن نَصرِ اللهِ المُسلِمينَ في مواطِنَ كَثيرةٍ، وتذكيرٍ بِمُقارنةِ التَّأييدِ الإلهيِّ لِحالةِ الامتثالِ لأوامِرِه، وأنَّ في غَزوةِ حُنَينٍ شَواهِدَ تَشهدُ للحالَينِ[(٢)].

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾.

أي: لقد نصَرَكم اللهُ- أيُّها المُؤمِنونَ أصحابَ رَسولِ الله- على أعدائِكم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٤).

الكُفَّارِ في غَزَواتٍ كثيرةٍ[١].

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾.

أي: ونَصَرَكم اللهُ أيضًا في غَزوةِ حُنَينٍ، حين أعجَبَتْكم كَثْرَتُكم، فلم تُفِدْكم تلك الكَثرةُ شَيْئًا[٢].

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾.

أي: وضاقَت عليكم الأرضُ مع سَعَتِها؛ لِشِدَّةِ ما أصابَكم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٥).
قال القاسمي: (﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي: في مَواقِفِ حروبٍ كَثيرةٍ، ووَقَعاتٍ شَهيرةٍ؛ كغزوةِ بدرٍ وقُريظةَ، والنَّضيرِ والحُدَيبيَةِ، وخَيبر وفَتحِ مكَّة. وكانت غَزَواتُ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلم- على ما ذُكِرَ في الصَّحيحينِ من حديثِ زيدِ بنِ أرقَمَ- تِسعَ عَشرةَ غَزوةً. زاد بُريدةُ في حديثٍ: قاتَلَ في ثمانٍ منهُنَّ، ويقال: إنَّ جَميعَ غَزَواتِه وسَراياه وبُعوثِه سبعونَ، وقيل: ثَمانونَ). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٦٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٨)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٤/ ٨١-٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٦، ٣٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٤، ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٥).
قال ابنُ جرير: (حُنينٌ: وادٍ بين مكَّةَ والطَّائِفِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٦).
وقال ابن كثير: (كانت وقعةُ حُنينٍ بعدَ فَتحِ مكَّةَ في شوَّال سنةَ ثمانٍ مِن الهجرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٨٩).
قال الواحدي: (ومعنى الآية: إنَّكم لشِدَّةِ ما لَحِقَكم من الخَوفِ، ضاقَت عليكم الأرضُ، فلم تَجِدوا فيها موضِعًا يصلُحُ لكم لِفِرارِكم عن عَدُوِّكم). ((البسيط)) (١٠/ ٣٤٧).
وقال السعدي: (﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ بما أصابَكم مِنَ الهَمِّ والغَمِّ حين انهَزَمْتم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢).

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

أي: ثمَّ فَرَرتُم مِن الكُفَّارِ مُنهَزِمينَ[(١)].

عن أنسِ بنِ مالك رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ حُنَينٍ أقبَلَت هوازِنُ وغَطَفانُ وغَيرُهم بنَعَمِهم وذَرارِيِّهم، ومع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم عَشرةُ آلافٍ، ومِنَ الطُّلَقاءِ، فأدبَرُوا عنه حتى بَقِيَ وَحدَه، فنادى يومَئذٍ نِداءَينِ، لم يَخلِطْ بينهما؛ التفَتَ عن يمينِه فقال: يا معشَرَ الأنصارِ. قالوا: لبَّيكَ يا رسولَ اللهِ، أبشِرْ نَحن معَك، ثمَّ التفَتَ عن يَسارِه فقال: يا مَعشَرَ الأنصارِ. قالوا: لبَّيكَ يا رسولَ اللهِ، أبشِرْ نَحنُ معك، وهو على بَغلةٍ بَيضاءَ، فنزَلَ فقال: أنا عَبدُ اللهِ ورَسولُه، فانهزَمَ المُشرِكونَ))[(٢)].

وعن العبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلبِ رَضِيَ الله عنه، قال: ((شَهِدْتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ حُنَينٍ، فلَزِمْتُ أنا وأبو سفيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم نُفارِقْه، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على بغلةٍ له بيضاءَ، أهداها له فَروةُ ابنُ نُفاثةَ الجُذاميُّ، فلمَّا التقى المُسلِمونَ والكُفَّارُ ولَّى المُسلِمونَ مُدبِرينَ، فطَفِقَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُركِضُ بَغلَتَه قِبَلَ الكُفَّارِ، قال عبَّاسٌ: وأنا آخِذٌ بلِجامِ بَغلةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أكُفُّها؛ إرادةَ ألَّا تُسرِعَ، وأبو سُفيانَ آخِذٌ برِكابِ رَسولِ

وقال الشنقيطي: (والخائفُ يضيقُ عليه فضاءُ الأرضِ الواسعُ؛ لأن مَنِ اشتَدَّ خوفُه ضَاقَتِ الأرضُ في عينِه، وإن كانت طويلةً عريضةً واسعةً). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٨٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير الشعراوي)) (٨/ ٥٠٠٣).

قال الشوكاني: (﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ أي: انهزَمْتُم حالَ كَونِكم مُدبِرينَ، أي: مُوَلِّينَ أدبارَكم، جاعلينَ لها إلى جِهةِ عَدُوِّكم). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٧).

(٢) رواه البخاري (٤٣٣٧) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٩).

اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيْ عبَّاسُ، نادِ أصحابَ السَّمُرةِ. فقال عبَّاس- وكان رَجُلًا صَيِّتًا-: فقُلتُ بأعلى صوتي: أين أصحابُ السَّمُرةِ؟ قال: فواللهِ، لكأنَّ عَطفَتَهم- حين سَمِعوا صوتي- عَطفةُ البَقَرِ على أولادِها، فقالوا: يا لبَّيكَ، يا لبَّيكَ، قال: فاقتَتَلوا والكُفَّارَ، والدَّعوةُ في الأنصارِ يقولون: يا مَعشرَ الأنصارِ، يا مَعشرَ الأنصارِ. قال: ثمَّ قَصُرَت الدَّعوةُ على بني الحارِثِ بنِ الخَزْرجِ، فقالوا: يا بَني الحارِثِ بنِ الخَزرج، يا بني الحارِثِ ابنِ الخزرج، فنظَرَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو على بَغلَتِه كالمُتطاوِلِ عليها إلى قِتالِهم، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا حينَ حِمِيَ الوَطيسُ. ثم أخذَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حَصَياتٍ فرمى بهِنَّ وُجوهَ الكُفَّارِ، ثم قال: انهَزَموا وربِّ مُحمَّدٍ.قال: فذهَبْتُ أنظُرُ، فإذا القِتالُ على هَيئَتِه فيما أرى، قال: فواللهِ، ما هو إلَّا أن رماهم بحَصَياتِه، فما زِلْتُ أرى حَدَّهم كَليلًا، وأمْرَهم مُدبِرًا))[1].

وعن أنسِ بنِ مالك رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((افتَتَحْنا مكَّةَ، ثم إنَّا غَزَوْنا حُنَينًا، فجاء المُشركون بأحسَنِ صُفوفٍ رأيتُ، فصُفَّتِ الخَيلُ، ثم صُفَّتِ المُقاتِلة، ثم صُفَّتِ النِّساءُ مِن وراء ذلك، ثمَّ صُفَّتِ الغَنَمُ، ثم صُفَّتِ النَّعَمُ، ونحن بَشَرٌ كثيرٌ، وعلى مُجَنِّبةِ خَيلِنا خالدُ بنُ الوليد، فجَعَلَتْ خيلُنا تلوي خَلْفَ ظُهورِنا، فلم نلبَثْ أن انكشَفَت خَيلُنا، وفرَّتِ الأعرابُ ومَن نعلَمُ مِن النَّاسِ، فنادى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا لَلمُهاجِرينَ، يا لَلمُهاجِرينَ. ثم قال: يا لَلأنصارِ، يا لَلأنصارِ. قُلنا: لبَّيك يا رسولَ الله، قال: فتقَدَّمَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فَايْمُ اللهِ، ما أتَيناهم حتَّى هَزَمَهم اللهُ، فقَبَضْنا ذلك المالَ، ثم انطَلَقْنا إلى الطَّائِفِ فحاصَرْناهم أربعينَ ليلةً، ثم رَجَعْنا إلى مكَّةَ، فنَزَلْنا، فجعل رسولُ اللهِ

(١) رواه مسلم (١٧٧٥).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعطي الرَّجُلَ المِئةَ مِن الإبِلِ))[١].

وعن أبي إسحاقَ، قال: ((قال رجلٌ للبَراءِ: يا أبا عُمارةَ، أفرَرْتم يومَ حُنَينٍ؟! قال: لا واللهِ، ما ولَّى رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولكِنَّه خرَجَ شُبَّانُ أصحابِه وأخِفَّاؤُهم حُسَّرًا، ليس عليهم سِلاحٌ أو كثيرُ سِلاحٍ، فلَقُوا قومًا رُماةً، لا يكادُ يَسقُطُ لهم سَهمٌ؛ جمْعَ هوازِنَ وبني نَصرٍ، فرَشَقوهم رشْقًا ما يكادُونَ يُخطِئونَ، فأقبَلُوا هناك إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على بَغلَتِه البَيضاءِ، وأبو سفيانَ بنُ الحارِثِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ يقودُ به، فنزل فاستنصَرَ، وقال: أنا النبيُّ لا كَذِبْ، أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ))[٢].

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: ثمَّ بعد أن ولَّى المُسلِمونَ مُدبِرينَ يومَ حُنَينٍ، أنزَلَ اللهُ ثَباتَه وطُمأنينَتَه على رسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعلى أصحابِه المُؤمِنينَ، فأذهَبَ خَوفَهم[٣].

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٠٥٩).

(٢) رواه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٩٠).
قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: المُرادُ بالمُؤمِنينَ الذينَ أنزَلَ اللهُ سَكينتَه عليهم: مَن ثَبَتوا معه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقال بعضُ العُلَماءِ: يدخُلُ فيهم الذينَ رَجَعوا بعد الفِرارِ والهَزيمةِ، وقاتلوا معه عَدُوَّه. والتَّحقيقُ: أنَّ اللهَ أنزَلَ سكينَتَه على الجَميعِ: الذين بَقُوا معه ولم يَفِرُّوا، والذين رَجَعوا إليه). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٩٠).

أي: وأنزَلَ اللهُ يومَ حُنَينٍ جُنودًا مِن الملائِكةِ، لم تَرَوْها- أيُّها المُسلِمونَ- أنزَلَها اللهُ تعالى لِتَجْبينِ الكُفَّارِ، وتَقويةِ قُلوبِ المُؤمنينَ، وتَثبيتِهم، وتَبشيرِهم بالنَّصرِ[١].

﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: وعذَّب اللهُ يومَ حُنَينٍ الكافرينَ، بأيدي المُؤمِنينَ؛ بقَتلِهم وأسْرِهم، وأخْذِ أمْوالِهم، وسَبْيِ أهالِيهم وذَراريِّهم[٢].

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: وذلك التَّعذيبُ الذي أصابَهم، هو جَزاءُ أهلِ الكُفرِ في الدُّنيا؛ بسبَبِ كُفرِهم[٣].

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٧﴾.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢).
قال الرازي: (لا خلافَ أنَّ المُرادَ إنزالُ المَلائكةِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٠).
وقال القرطبي: (﴿وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ وهم الملائكةُ؛ يُقَوُّونَ المُؤمِنينَ بما يُلقونَ في قُلوبِهم مِن الخواطِرِ والتَّثبيتِ، ويُضْعِفونَ الكافِرينَ بالتَّجبينِ لهم من حيثُ لا يَرَونَهم، ومن غيرِ قِتالٍ؛ لأنَّ الملائكةَ لم تُقاتِلْ إلَّا يومَ بَدرٍ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠١).
وقال الشنقيطي: (قد قَدَّمْنَا في سورةِ الأنفالِ أنَّ أَظْهَرَ الأقوالِ أنَّ الملائكةَ قَاتَلَت يومَ بدرٍ، وأنَّها لم تُقَاتِلْ في غيرِها، بل تأتي لِتَجبينِ الكُفَّارِ، وتقويةِ قلوبِ المؤمنينَ وَنُصرتِهم، هذا هو الظَّاهرُ). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢).

أي: ثمَّ يُوفِّقُ اللهُ للتَّوبةِ- مِن بعدِ تَعذيبِ الكافِرينَ في الدُّنيا- مَن يشاءُ أن يتوبَ عليه مِنهم، فيَهديه إلى الإسلامِ[(١)].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ غَفورٌ لِذُنوبِ التَّائِبينَ إليه، فيستُرُها عليهم، ويتَجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، رَحيمٌ بهم فيُوفِّقُهم- سُبحانَه- للتَّوبةِ، ويَقبَلُها منهم، ولا يُعَذِّبُهم بَعدَها[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ يَذكُرُ تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٨، ١٥٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٠١).

وقال ابنُ عاشور: (هذا إشارةٌ إلى إسلامِ هَوازِنَ بعد تلك الهزيمةِ؛ فإنَّهم جاؤوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مسلمينَ تائِبينَ، وسألُوه أن يرُدَّ إليهم سَبْيَهم وغنائِمَهم، فذلك أكبَرُ مِنَّةٍ في نَصرِ المُسلِمينَ؛ إذ أصبحَ الجُندُ العَدُوُّ لهم مُسلِمينَ معهم، لا يَخافونَهم بعد ذلك اليَومِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٨-١٥٩).

قال ابنُ كثير: (قد تاب اللهُ على بقيَّةِ هوازِنَ، وأسلموا وقَدِموا عليه مُسلِمينَ، ولَحِقوه وقد قاربَ مكَّةَ عند الجِعْرَانةِ، وذلك بعد الوَقعةِ بقَريبٍ مِن عشرينَ يَومًا، فعند ذلك خَيَّرَهم بين سَبْيِهم وبين أموالِهم، فاختاروا سَبْيَهم، وكانوا ستَّةَ آلافِ أسيرٍ ما بين صبيٍّ وامرأةٍ، فردَّه عليهم، وقسَمَ أموالَهم بين الغانِمينَ، ونفَّلَ أناسًا مِن الطُّلَقاءِ؛ لِيَتألَّفَ قُلوبَهم على الإسلامِ، فأعطاهم مئةً مئةً مِن الإبِلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٠).

وقال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ يدخُلُ فيه المُنهَزِمونَ الذين انهَزَموا عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مَن رجَعَ منهم وكَرَّ، ومَن لم يرجِعْ. قالوا: ويدخُلُ فيه الكافِرونَ الذين قال الله [فيهم]: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ لأنَّ كَثيرًا منهم تابوا فتابَ الله عليهم... ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ على من يشاءُ أن يتوبَ عليه، وهذه يُفهَمُ منها أنَّه تعالى تاب على الذينَ انهَزموا وإن لم يُصَرِّحْ بها). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٩٤، ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٣).

للمُؤمِنينَ فَضلَه عليهم، وإحسانَه لَدَيهم في نَصرِه إيَّاهم في مواطِنَ كَثيرةٍ مِن غَزَواتِهم مع رَسولِه، وأنَّ ذلك مِن عِندِه تعالى، وبِتَأييدِه وتَقديرِه، لا بعَدَدِهم ولا بعُدَدِهم، ونبَّهَهم على أنَّ النَّصرَ مِن عِندِه، سواءٌ قَلَّ الجَمعُ أو كَثُرَ[١].

٢- الإعجابُ سُمٌّ قاتِلٌ للأسبابِ، أدَّبَنا اللهُ سبحانه بذِكرِ سُوءِ أثَرِه؛ لِنَحذَرَه، فقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾[٢].

٣- إنَّ اللهَ إذا امتحَنَ عِبادَه بالغَلَبةِ والكَسرةِ والهَزيمةِ، ذَلُّوا وانكَسَروا وخَضَعوا، فاستوجَبُوا منه العِزَّ والنَّصرَ؛ فإنَّ خِلْعةَ النَّصرِ إنَّما تكونُ مع وِلايةِ الذُّلِّ والانكسارِ؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فهو سُبحانه إذا أراد أن يُعِزَّ عَبدَه ويَجبُرَه وينصُرَه، كَسَرَه أوَّلًا، ويكونُ جَبرُه له ونَصْرُه، على مقدارِ ذُلِّه وانكسارِه[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ دَلالةٌ على وقوعِ العُقوبةِ على الإعجابِ بالكَثرةِ[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ تَخصيصُ يومِ حُنَينٍ بالذِّكرِ مِن بينِ أيَّامِ الحُروبِ؛ لأنَّ المُسلِمينَ انهَزموا في أثناءِ النَّصرِ، ثمَّ عاد إليهم النَّصرُ؛ فتخصيصُه بالذِّكرِ؛ لِما فيه مِن العِبرةِ بحُصولِ النَّصرِ عند امتثالِ أمرِ اللهِ ورسولِه عليه الصَّلاةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٢٤).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٩٨).
(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ١٧٩).

والسَّلامُ، وحُصولِ الهَزيمةِ عند إيثارِ الحُظوظِ العاجلةِ على الامتثالِ[١].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ هذه الآياتُ تذكيرٌ للمُؤمِنينَ بأنَّ عِنايةَ اللهِ تعالى وتأييدَه لِرَسولِه وللمُؤمِنينَ بالقُوى المعنويَّةِ؛ أعظَمُ شأنًا، وأدنى إلى النَّصرِ مِن القُوَّةِ الماديَّةِ، كالكثرةِ العَدَديَّةِ وما يتعلَّقُ بها، وجُعِلَ هذا التَّذكيرُ تاليًا للنَّهيِ عن وَلايةِ آبائِهم وإخوانِهم مِن الكُفَّارِ، وللوعيدِ على إيثارِ حُبِّ القَرابةِ والزوجيَّةِ والعشيرةِ- ولو كانوا مُؤمِنينَ- والمالِ والسَّكَنِ، على حبِّ اللهِ ورَسولِه والجهادِ في سبيلِه؛ تفنيدًا لوَسوسةِ شياطينِ الجِنِّ والإنسِ- مِن المنافِقينَ ومَرْضى القُلوبِ- لهم، وإغرائِهم باستنكارِ عَوْدِ حالةِ الحَربِ مع المُشرِكين، وتنفيرِهم مِن قِتالِهم لِكَثرتِهم، ولقرابةِ بَعضِهم، ولِكَسادِ التِّجارةِ التي تكونُ معهم، وذلك بعدَ إقامةِ الدَّلائِلِ على كَونِ ذلك مِن الحَقِّ والعَدلِ، والمَصلحةِ العامَّةِ في الدِّينِ والدُّنيا[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ أسنَدَ سُبحانه الفِعلَ للجَمعِ؛ إشارةً إلى أنَّهم لعُلُوِّ مَقامِهم ينبغِي ألَّا يكونَ منهم مَن يقولُ مثلَ ذلك[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ فيه تنبيهٌ على خَطئِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٢٤).

في الأدبِ مع اللهِ، المناسِبِ لمَقامِهم، أي: ما كان يَنبغي لكم أن تَعْتمِدوا على كَثرتِكم[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه تأكيدُ الكلامِ بـ﴿لَقَدْ﴾؛ لتَحقيقِ هذا النَّصرِ؛ لأنَّ القومَ كأنَّهم نَسُوه أو شَكُّوا فيه، فنُزِّلوا مَنْزلةَ مَنْ يَحتاجُ إلى تَأكيدِ الخَبَرِ[٢].

- وأُسْنِدَ النَّصرُ إلى اللهِ تعالى بالصَّراحةِ في قولِه: ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لإظهارِ أنَّ إيثارَ مَحبَّةِ اللهِ، وإنْ كان يُفوِّتُ بعضَ حُظوظِ الدُّنيا، ففيه حَظُّ الآخِرةِ، وفيه حُظوظٌ أُخرى من الدُّنيا، وهي حُظوظُ النَّصْرِ بما فيه مِن تأييدِ الجامعةِ، ومن المغانِمِ، وحِمايةِ الأُمَّةِ مِن اعْتِداءِ أعدائها، وذلك مِن فَضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٣].

٢- **قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في تَعليقِ السَّكينةِ بإنزالِ اللهِ تعالى وإضافتِها إلى ضميرِه: تَنويهٌ بشأنِها وبَركتِها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٥-١٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وإشارةٌ إلى أنَّها سَكينةٌ خارقةٌ للعادةِ، ليستْ لها أسبابٌ ومُقدِّماتٌ ظاهرةٌ، وإنَّما حَصَلتْ بمَحْضِ تَقديرِ اللهِ وتكوينِه أُنُفًا؛ كَرامةً لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإجابةً لِنِدائهِ النَّاسَ؛ ولذلك قَدَّم ذِكرَ الرَّسولِ قَبْلَ ذِكْرِ المؤمنين[١].

- قولُه: ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه إعادةُ حَرْفِ (على) بعدَ حَرْفِ العَطْفِ؛ للتَّنبيهِ على تَجديدِ تعليقِ الفِعْلِ بالمجرورِ الثَّاني؛ للإيماءِ إلى التَّفاوتِ بين السَّكِينتينِ؛ فسكينةُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ سَكينةُ اطمئنانٍ على المسلمينَ الذين معَه، وثِقةٍ بالنَّصرِ، وسكينةُ المؤمنين سَكينةُ ثباتٍ وشجاعةٍ بَعْدَ الجَزَعِ والخوفِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- قولُهُ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ فيه التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَتُوبُ﴾ دونَ الفِعْلِ الماضي؛ للإشارةِ إلى إفادةِ تَجدُّدِ التَّوبةِ على كُلِّ مَن تابَ إلى اللهِ تعالى[٣].

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تَذييلٌ للكلامِ؛ لإفادةِ أنَّ المَغْفرةَ مِن شأنِهِ تعالى، وأنَّه رَحيمٌ بعبادِهِ إنْ أَنابوا إليه، وتَرَكوا الإشراكَ به[٤].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٥٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٢٨-٢٩)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَيۡلَةٗ﴾: أي: فَقرًا وفاقةً؛ من: عال يَعيلُ عَيلةً: إذا احتاجَ[١].

﴿يَدِينُونَ﴾: أي: يُسلِمُونَ، ويُطيعونَ؛ يقالُ: دان له يَدِينُ دِينًا: إذا انقادَ وطاعَ، وأصلُ (دين): يدلُّ على جنسٍ مِن الانقيادِ[٢].

﴿ٱلۡجِزۡيَةَ﴾: أي: الخراجَ المجعولَ على رأسِ الذِّميِّ، وتسميتُها بذلك للاجتزاءِ بها عن حَقْنِ دَمِهم، وأصلُ (جزي): يدلُّ على قيامِ الشَّيءِ مَقامَ غَيرِه ومُكافأتِه إيَّاه[٣].

﴿صَٰغِرُونَ﴾: أي: أذِلَّاءُ مَقهورونَ، وأصلُ (صغر): يدلُّ على قِلَّةٍ وحَقارةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٠)، ((غريب

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: يا أيُّها المُؤمنونَ، إنَّما المُشرِكونَ بَواطِنُهم نَجِسةٌ وخَبيثةٌ، فلا تُمَكِّنوهم مِن دُخولِ الحَرَمِ بعد هذا العامِ التَّاسِعِ للهِجرةِ، الذي نَبَذْتُم فيه لِجَميعِ المُشرِكينَ عُهودَهم، وإن خِفْتُم فَقرًا بسببِ مَنْعِكم المشركينَ من دُخولِه، فسوفَ يُغنيكم اللهُ من فَضلِه إنْ شاءَ؛ إنَّ اللهَ عليمٌ حكيمٌ.

قاتِلوا الذين لا يُؤمِنون باللهِ، ولا باليومِ الآخرِ، ولا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَه اللهُ ورسولُه، ولا يَدِينونَ بالإسلامِ، مِن اليَهودِ والنَّصارى، حتى يدفَعُوا الجزيةَ بأَيْدِيهم وهم أذلَّةٌ مَقهورونَ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها رُجوعٌ إلى غَرَضِ إقصاءِ المُشرِكينَ عن المَسجِدِ الحرامِ، المُفادِ بِقَولِه: ﴿ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ جِيءَ به لتأكيدِ الأمرِ بإبعادِهم عن المسجِدِ الحَرامِ مع تَعليلِه بعِلَّةٍ أخرى تقتضي إبعادَهم عنه: وهي أنَّهم نَجَسٌ، فقد علَّلَ فيما مضى بأنَّهم شاهِدونَ على أنفسِهم بالكُفرِ، فلَيسُوا أهلًا لِتَعميرِ المسجِدِ المبنيِّ للتَّوحيدِ، وعلَّلَ هنا بأنَّهم نَجَسٌ، فلا يَعْمُروا المسجِدَ لِطَهارَتِه[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ ﴾.

القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٩).

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، المُطَهَّرةُ بواطِنُهم بالإيمانِ، ما المُشرِكونَ بِجَميعِ مِلَلِهم وأديانِهم[١] إلَّا نَجِسةٌ وخَبيثةٌ بواطِنُهم؛ بالشِّركِ والكُفرِ بالرَّحمنِ[٢].

﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾.

أي: لِأنَّ المُشرِكينَ نَجَسٌ، فلا تُمَكِّنُوهم مِن دُخُولِ جميعِ الحَرَمِ، بعد هذا

---

(١) قال ابنُ القَيِّم: (للنَّاسِ قولانِ في دخولِ أهلِ الكتابِ في لفظ المُشرِكين: فابنُ عمر وغيرُه كانوا يقولون: هم من المُشركين. قال عبد الله بنُ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما: لا أعلَمُ شِركًا أعظَمَ مِن أن يقولَ: المسيحُ ابنُ اللهِ، وعُزَيرٌ ابنُ اللهِ. وقد قال تعالى فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].
والثاني: لا يدخُلونَ في لَفظِ «المُشركينَ»؛ لأنَّ الله سبحانَه جعَلَهم غيرَهم في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ [الحج: ١٧].
قال شَيخُنا: والتَّحقيقُ: أنَّ أصلَ دِينِهم دينُ التَّوحيدِ، فَلَيسُوا مِن المُشرِكينَ في الأصلِ، والشِّركُ طارِئٌ عليهم؛ فهم منهم باعتبارِ ما عَرَضَ لهم، لا باعتبارِ أصلِ الدِّينِ، فلو قُدِّرَ أنَّهم لم يدخُلوا في لفظِ الآيةِ دَخَلوا في عُمُومِها المعنويِّ؛ وهو كَونُهم نَجَسًا، والحُكمُ يَعُمُّ بِعُمومِ عِلَّتِه). ((أحكام أهل الذمة)) (١/ ٣٩٩-٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٤٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١١٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٣).
وقال الشوكاني: (استَدَلَّ بالآيةِ من قال: بأنَّ المُشرِكَ نَجِسُ الذَّاتِ، كما ذهب إليه بعضُ الظَّاهريَّة والزيدية. ورُوِيَ عن الحسن البصري، وهو محكيٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ. وذهب الجُمهورُ مِن السَّلَفِ والخَلَفِ- ومنهم أهلُ المذاهِبِ الأربعةِ- إلى أنَّ الكافِرَ ليس بنَجِسِ الذَّاتِ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانه أحلَّ طَعامَهم، وثبت عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذلك مِن فِعْلِه وقَوْلِه ما يُفيدُ عَدمَ نَجاسةِ ذَواتِهم؛ فأكَلَ في آنِيَتِهم، وشَرِبَ منها، وتوضَّأَ فيها، وأنزَلَهم في مَسجِدِه). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٩)، ويُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٠٦).
وقال محمد رشيد رضا: (وقيل: المرادُ بنَجاسَتِهم تلبُّسُهم بها دائمًا؛ لِعَدَمِ تعبُّدِهم بالطَّهارةِ كالمُسلمين، وقولُ الجُمهورِ بأنَّ المرادَ النَّجاسةُ المَعنويَّةُ، أظهَرُ، والجَمعُ بين القولينِ أَوْلى؛ لأنَّه أعَمُّ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٢٤٣). ويُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣١).

العامِ التَّاسِعِ للهِجرةِ، الذي نبَذْتُم فيه لِجَميعِ المُشرِكينَ عُهودَهم[١].

عن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((بَعَثَني أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ في الحَجَّةِ التي أمَّرَه عليها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قبل حَجَّةِ الوَداعِ، في رَهطٍ يُؤَذِّنونَ في النَّاسِ يومَ النَّحرِ: لا يَحُجُّ بعدَ العامِ مُشرِكٌ، ولا يَطوفُ بالبَيتِ عُرْيانٌ)[٢].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾.

أي: وإنْ خِفْتُم- أيُّها المُؤمِنونَ- فَقرًا بسبَبِ مَنْعِكم المُشرِكينَ مِن دُخولِ الحَرَمِ، وانقطاعِ التِّجارةِ التي بينكم وبينهم؛ فسوف يُغنِيكم اللهُ مِن رِزقِه[٣] إن شاءَ[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما تُخفِيه صُدورُكم مِن خَوفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٢٠٧)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٠٥- ٤١٣).

قال الشِّنقيطي: (وعلى كُلِّ حالٍ، فالمشركونَ، كعَبَدةِ الأوثانِ؛ أَجْمَعَ جميعُ العلماءِ على مَنْعِهم مِن دُخولِ المسجدِ، واختلفوا في الكتابيِّ وفي غيرِ المسجدِ من سائرِ الحَرَمِ، وقد بَيَّنَّا أنَّ الصَّوابَ- إن شاء الله- مَنْعُهم مِن ذلك كُلِّه). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٠٩).

(٢) رواه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧) واللفظ له.

(٣) قال الشنقيطي: (قال بعضُ العلماءِ: أَغْناهم مِن فَضلِه بما فَتَحَ من بابِ الجِزْيةِ. قالوا: والدَّليلُ عليه أنَّ الآيةَ التي بعدَها آيةُ الجِزيةِ، فأخَذَ المُسلمونَ الجزيةَ من الكفَّارِ، واستغنَى بها المسلمونَ. وقال بعضُ العلماءِ: أغْناهم بإنزالِ المطَرِ، وأخصَبَتِ الأرضُ، فأخصَبَتْ بلادُ اليَمَنِ، وأخصبَتَ تَبالةُ وجُرَشُ، وجَلَبوا لهم مِن الطَّعامِ والوَدَكِ، وأسلَمَ قبائِلُ العَرَبِ في اليمَنِ، وفي نجدٍ وفي غيره، فكانوا يحجُّونَ كُلَّ سَنةٍ ويأتونَهم بمثْلِ ما كانوا يأتونَهم به من الطَّعامِ والأموالِ، فأغناهم اللهُ بذلك). ((العذب النمير)) (٥/ ٤١٥-٤١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٩، ٤٠٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٣).

العَيْلةِ، وعليمٌ بما يَصلُحُ لِعبادِه، فيَعلَمُ مَن يليقُ به الغِنى، ومَن لا يَليقُ به، حكيمٌ في شَرْعِه وفي تَدبيرِ شُؤونِ خَلْقِه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[١].

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حُكمَ المُشرِكينَ في إظهارِ البَراءةِ عن عَهدِهم، وفي إظهارِ البَراءةِ عنهم في أنفُسِهم، وفي وُجوبِ مُقاتَلتِهم، وفي تَبعيدِهم عن المسجِدِ الحرامِ، وأورَدَ الإشكالاتِ التي ذكَرُوها، وأجاب عنها بالجَواباتِ الصَّحيحةِ- ذكَرَ بعده حُكمَ أهلِ الكِتابِ[٢].

وأيضًا لَمَّا كان قَولُه تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ مَوضِعَ تَعَجُّبٍ، يكونُ سببًا لِأنْ يُقالَ: من أين يكونُ ذلك الغِنى؟ أجابَ بقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾؛ ففي ذلك غِنًى لا يُشْبِهُ ما كُنتُم فيه مِن قِتالِ بَعضِكم لِبَعضٍ؛ لِتَغنَمَ ما في يَدِه مِن ذلك المالِ الحَقيرِ، ولا ما كُنتُم تُعِدُّونَه غِنًى مِن المتاجِرِ التي لا يبلُغُ أكبَرُها وأصغَرُها ما أرشدناكم إليه، مع ما في ذلك مِنَ العِزِّ المُمَكِّنِ مِن الإصلاحِ والطَّاعةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٣٤-٤٣٥).

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾.

أي: قاتِلُوا- أيُّها المُؤمِنونَ- الكُفَّارَ الذين لا يُؤمِنونَ بالله إيمانًا صحيحًا، ولا يُؤمِنونَ بالبَعثِ يومَ القيامةِ، والجَنَّةِ والنَّارِ(١).

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

أي: ولا يحرِّمون ما حرَّم اللهُ، وما حرَّم رسولُه، فلا يتَّبِعونَ شَريعَتَه(٢).

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾.

أي: والكُفَّارُ الذين أمَرْناكم بقِتالِهم- أيُّها المُؤمِنونَ- مِن اليَهودِ والنَّصارى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٤).

قال ابنُ كثير: (هذه الآيةُ الكريمةُ نزَلَت أوَّلَ الأمرِ بقتالِ أهلِ الكِتابِ، بعد ما تمهَّدَتْ أمورُ المُشرِكين، ودخل النَّاسُ في دين الله أفواجًا، فلما استقامَت جزيرةُ العَرَبِ، أمر الله رسولَه بقتالِ أهلِ الكِتابَينِ: اليَهودِ والنصارى، وكان ذلك في سنةِ تِسعٍ؛ ولهذا تجهَّزَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِقِتالِ الرُّومِ، ودعا النَّاسَ إلى ذلك، وأظهَرَه لهم، وبعَثَ إلى أحياءِ العَرَبِ حولَ المدينةِ فنَدَبَهم، فأوعَبُوا معه، واجتمَعَ من المُقاتِلةِ نحوٌ مِن ثلاثينَ ألفًا، وتخلَّف بعضُ النَّاسِ مِن أهل المدينة ومَن حَولَها مِن المُنافِقينَ، وغَيرِهم، وكان ذلك في عام جَدْبٍ، ووقْتِ قَيظٍ وحَرٍّ، وخرج عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يريدُ الشَّامَ لِقتالِ الرُّومِ، فبلَغَ تَبوكَ، فنزَلَ بها، وأقام على مائِها قريبًا مِن عِشرينَ يومًا، ثم استخار اللهَ في الرُّجوعِ، فرجَعَ عامَه ذلك؛ لِضِيقِ الحالِ، وضَعْفِ النَّاسِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤١٩).

قال الرازي: (قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وفيه وجهان؛ الأول: أنَّهم لا يُحَرِّمونَ ما حُرِّمَ في القرآنِ وسُنَّةِ الرَّسولِ. والثاني: قال أبو روق: لا يعملونَ بما في التَّوراة والإنجيل، بل حَرَّفوهما، وأتَوْا بأحكامٍ كثيرةٍ مِن قِبَلِ أنفُسِهم). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٥).

وقال أبو السعود: (وقيل: المرادُ برسولِه: الرَّسولُ الذي يزعُمونَ اتِّباعَه، أي: يُخالِفونَ أصْلَ دِينِهم المنسوخِ اعتقادًا وعملًا). ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٨).

الذين آتَيْناهم التَّوراةَ والإنجيلَ، لا يدينونَ بالإسلامِ[(١)].

﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾.

أي: قاتِلوهم إلى أن يَقْبَلوا دفْعَ أموالِ الجِزْيةِ- التي تُؤخَذُ جزاءَ تركِ المسلمينَ قتالَهم، وإقامتِهم آمنينَ بينَ أظهرِ المسلمينَ، وذلك في حالِ كونِهم لم يُسلِموا- فيَبْذُلوها لكم بأيديهم، وهُم أذلَّاءُ مَقهورونَ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤١٩).

قال ابن تيمية: (دخَلَ في ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ جميعُ أهلِ الكِتابِ الذين بلَغَتْهم دعوتُه، ولم يُؤمِنوا به). ((الجواب الصحيح)) (٣/ ٦٤).

قال الشنقيطي: (وفي قولِه: ﴿دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ وجهانِ من التفسيرِ:

أحدُهما: أن (الحقَّ) هو ضِدُّ الباطلِ، وأنَّ دينَ الحقِّ من إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه. أي: الدينُ الذي هو الحقُّ الذي هو دينُ الإسلامِ. ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

الوجهُ الثانِي: أن الحقَّ هو اللَّهُ، فالحقُّ من أسماءِ اللَّهِ. ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: دين الله الذي شَرَعَهُ على لسانِ نَبيِّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٢٠).

وقال ابنُ جريرٍ: (ولا يُطيعون الله طاعةَ الحقِّ. يعني أنَّهم لا يُطيعون طاعةَ أهلِ الإسلامِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٦، ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿عَن يَدٖ﴾ هو أن يدفعوها بأيديهم، ولا يُقبل منهم إرسالُها: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٦-٤٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٤).

وممن اختار أنَّ المعنى: عن قهرٍ لهم وغلبةٍ: ابنُ كثيرٍ، والسمينُ الحلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٧).

وممن اختار أنَّ المعنى: عن قدرةٍ وسعةٍ، فلا يُظلمون ويرهقون: محمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير المنار)) (١٠/ ٢٥٥).

وقال الشنقيطي: (قولُه في هذه الآية الكريمة: ﴿عَن يَدٖ﴾ فيه أوجهٌ مِن التفسيرِ معروفةٌ عند

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الرِّزقُ ليس مقصورًا على بابٍ واحدٍ، ومحلٍّ واحدٍ، بل لا ينغلِقُ بابٌ إلَّا فُتِحَ غَيره أبوابٌ كثيرةٌ؛ فإنَّ فَضلَ اللهِ واسِعٌ، وَجُودَه عَظيمٌ، خصوصًا لِمَن ترك شيئًا لِوَجهِه الكريم، فإنَّ اللهَ أكرمُ الأكرَمِينَ؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ

العُلماءِ لا يكذبُ بعضُها بعضًا؛ قال بعضُ العلماء: ﴿يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ﴾: أي: عن قهرٍ وتحت ذُلٍّ، وكلُّ ما أعطاه الإنسانُ مقهورًا ذليلًا تقول العربُ: أعطاه عن يدٍ. وقال بعض العلماء: يعطيه عن يدٍ، معناه: يسلِّمُه بيدِه ولا يرسِلُ به غيرَه، فالدافعُ واقِفٌ والآخِذُ جالِسٌ. وقال بعض العلماء: ﴿عَن يَدٖ﴾ أي: نقدًا مُتسَلَّمًا باليدِ لا نسيئةً. وقال بعض العلماء: ﴿عَن يَدٖ﴾ أي: عن اعترافِهم بنعمةِ المُسلمين عليهم؛ حيث قَبِلوا منهم العِوَضَ ولم يقتُلوهم) ((العذب النمير)) (٥/ ٤٢١). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣).

وقد اتَّفق الفقهاءُ على أنَّ الجزيةَ تُقبلُ مِن أهلِ الكتابِ والمجوسِ، واختلفوا في المشركينَ وعبدةِ الأوثانِ، كما اختلفوا في أوصافِ أهلِ الكتابِ والمجوسِ الذين تُقبل منهم الجزيةُ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ١٦٦)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٥/ ١٦٦).

وقال ابن القيم: (الجزيةُ تؤخَذُ من كلِّ كافرٍ... ولا يُقالُ: إنَّ القُرآنَ يدُلُّ على اختصاصِها بأهلِ الكِتابِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانه أمَرَ بقِتالِ أهلِ الكتابِ، حتى يُعطُوا الجِزيةَ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمَرَ بقِتالِ المُشرِكينَ حتى يعطُوا الجزيةَ، فيُؤخَذُ مِن أهلِ الكِتابِ بالقُرآنِ، ومِن عُمومِ الكُفَّارِ بالسُّنَّةِ، وقد أخَذَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من المجوسِ، وهم عُبَّادُ النَّارِ، لا فَرْقَ بينهم وبين عَبَدةِ الأوثانِ، ولا يَصِحُّ أنَّهم من أهلِ الكِتابِ، ولا كان لهم كِتابٌ). ((أحكام أهل الذمة)) (١/ ٨٩).

وقال أيضًا: (قولُه تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ فلا يجوز الإمساكُ عن قتالِهم إلَّا إذا كانوا صاغرينَ حالَ إعطاءِ الجِزيةِ. والمرادُ بإعطاءِ الجِزيةِ من حينِ بَذْلِها أو التِزامِها إلى حينِ تَسليمها وإقباضِها، فإنَّهم إذا بَذَلوا الجزيةَ شَرَعوا في الإعطاءِ، ووجَبَ الكَفُّ عنهم إلى أن نقبِضَها منهم، فمتى لم يلتَزِموها، أو التَزَموها وامتَنَعوا من تسليمِها، لم يكونوا مُعطِينَ لها، فليس المرادُ أن يكونوا صاغرينَ حال تناوُلِ الجِزيةِ منهم فقط، ويفارِقُهم الصَّغارُ فيما عدا هذا الوقتَ، هذا باطِلٌ قطعًا). ((أحكام أهل الذمة)) (٣/ ١٣٧٧).

وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الرِّزقَ ليس بالاجتهادِ، وإنَّما هو مِن فَضلِ اللهِ، تولَّى قِسْمَتَه بين عبادِه، وذلك بيِّنٌ في قَولِه تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٢] [الزخرف: ٣٢]، وهو أيضًا يفتحُ بابَ الرَّجاءِ مع التضرُّعِ إلى اللهِ في تَحقيقِ وعْدِه؛ لأنَّه يفعلُ ما يَشاءُ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ بيانُ أنَّه لا يجِبُ الحَجُّ- الوجوبَ المقتضيَ للفِعلِ وصِحَّتِه- إلَّا على مسلمٍ؛ حيث نهى اللهُ تعالى المشركينَ أنْ يَقرَبوا المسجِدَ الحرامَ، ومَنَعَهم منه، فاستحال أنْ يُؤمَروا بحَجِّ البَيتِ[٤]!!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ فيه أنَّ الكافِرَ يُمنَعُ مِن دُخولِ الحَرَمِ؛ وأنَّه لا يُؤذَنُ له في دُخُولِه، لا لتِجارةٍ ولا لِغَيرِها، وإن كان لِمَصلحةٍ لنا[٥].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ المرادُ مِن المسجِدِ الحرامِ جَميعُ الحَرَمِ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦١).
(٤) يُنظر ((شرح العمدة – كتاب الحج)) لابن تيمية (١/ ١١٣).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٩).

والدَّليلُ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ وذلك لأنَّ مَوضِعَ التِّجاراتِ ليس هو عينَ المَسجِدِ، فلو كان المقصودُ من هذه الآيةِ المنعَ مِن المسجِدِ خاصَّةً، لَمَا خافوا بسبَبِ هذا المنعِ مِن العَيلَةِ، وإنَّما يخافونَ العَيلةَ إذا مُنِعوا مِن حُضورِ الأسواقِ والمَواسِمِ[1]، وسمَّى الحَرَمَ كلَّه مسجدًا لمجاورتِه المسجدَ[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ قَولُه: ﴿إِن شَآءَ﴾ تعليقٌ للإغناءِ بالمشيئة؛ ولسائلٍ أن يسأَلَ فَيقولَ: الغَرَضُ بهذا الخبرِ إزالةُ الخَوفِ بالعَيلةِ، وهذا الشَّرطُ يمنَعُ من إفادةِ هذا المقصودِ، فالجوابُ مِن وُجوهٍ:

الأوَّل: عَلَّقَ الإغناءَ بالمشيئةِ؛ لأنَّ الغِنى في الدُّنيا ليس من لوازِمِ الإيمانِ، ولا يدلُّ على محبَّةِ اللهِ؛ فلهذا علَّقَه اللهُ بالمشيئةِ، فإنَّ اللهَ يُعطي الدُّنيا مَن يُحِبُّ ومن لا يحِبُّ، ولا يعطي الإيمانَ والدِّينَ إلَّا مَن يُحِبُّ.

الثاني: لأنَّ الإغناءَ يقَعُ في حقِّ بَعضٍ دُونَ بَعضٍ، فالله تعالى عَلِمَ أنَّ فيهم من لا يبلُغُ هذا الغِنى الموعودَ، وأيضا فالإغناءُ يقَعُ في وقتٍ دون وقتٍ.

الثالث: لإجراءِ الحُكمِ على الحِكمةِ، فإن اقتضَتِ الحِكمةُ والمصلحةُ إغناءَكم أغناكم.

الرابع: إعلامًا بأنَّ الرِّزقَ لا يأتي بحِيلةٍ ولا اجتهادٍ، وإنَّما هو فَضلُ اللهِ.

الخامس: لكي لا يحصُلَ الاعتمادُ على حصولِ هذا المطلوبِ، فيكونُ الإنسانُ أبدًا مُتضَرِّعًا إلى اللهِ تعالى في طلَبِ الخَيراتِ، ودَفْعِ الآفاتِ، ولتنقطِعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٢)، ويُنظر أيضًا: ((النُّكتُ الدّالّة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥١٧).
(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥١٧).

الآمالُ إليه عَزَّ وجَلَّ.

السادس: أنَّ المقصودَ مِن ذِكرِ هذا الشَّرطِ تَعليمُ رِعايةِ الأدبِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[1] [الفتح: ٢٧].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ إخبارٌ عن غيبٍ في المُستقبَلِ، وقد وقع الأمرُ مُطابِقًا لذلك الخبرِ، فكان معجزةً[2].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أصلٌ في قَبولِ الجِزيةِ مِن أهلِ الكِتابِ[3].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ قَولُه: ﴿عَن يَدٖ﴾ استدَلَّ به مَن لم يُجِزْ توكيلَ مُسلمٍ في دَفْعِ الجزيةِ، ولا أن يَضمَنَها عنه، ولا يُحيلَ بها عليه[4].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ قيل: المرادُ يدُ المؤدِّي، وعلى هذا استدَلَّ به من قال: تسقُطُ الجِزيةُ بالموتِ والإسلامِ؛ لأنَّ الاستيفاءَ عن يَدِه[5].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (١/ ٥٨٢).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ استدَلَّ به من قال إنَّ الجِزيةَ تؤخَذُ بإهانةٍ[١].

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ استدَلَّ به من قال إنَّ أهلَ الذِّمَّةِ يُترَكونَ في بلدِ الإسلامِ؛ لأنَّ مَفهومَها الكَفُّ عنهم عند أدائِها، ومن الكَفِّ ألَّا يُجْلَوْا[٢].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ استدَلَّ به من قال: لا حَدَّ لأقَلِّ الجِزيةِ[٣].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ استدَلَّ به من قال: إنَّ الجِزيةَ عِوَضُ حَقنِ الدَّمِ، لا أُجرةُ الدَّارِ[٤].

١٣- في قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ نساءَهم وصبيانَهم لا جزيةَ

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٩-١٤٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:١٤٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٠).

عليهم؛ لأنَّهم لا يُقاتَلون، بل قد نُهِيَ عن قَتْلِهِم[١].

١٤- وُصِفَتِ النَّصارى في قَولِه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بأنَّهم لا يُؤمِنونَ باليومِ الآخِرِ، مع أنَّ النَّصارى يُقِرُّونَ بمَعادِ الأبدانِ! ووجهُ ذلك أنَّهم لا يُقِرُّون بما أخبَرَ اللهُ به من الأكلِ والشُّربِ واللِّباسِ والنِّكاحِ، والنَّعيم والعذابِ في الجنَّةِ والنَّارِ، بل غايةُ ما يُقِرُّونَ به من النَّعيمِ: السَّماعُ والشَّمُّ، ومنهم مُتفَلسِفةٌ يُنكِرونَ مَعادَ الأجسادِ[٢].

١٥- ليس المرادُ بالعطاءِ في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ العطاءَ الأوَّلَ وحْدَه، بل العطاءُ المستمِرُّ المتكرِّرُ كُلَّ عامٍ[٣].

١٦- دلَّ قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ على أنَّه لا يجوزُ الإمساكُ عن قتالِهم إلَّا إذا كانوا صاغِرينَ حالَ إعطائِهم الجزيةَ، ومِن المعلومِ أنَّ مَن أظهَرَ سَبَّ نبيِّنا في وجوهِنا، وشَتَمَ ربَّنا على رُؤوسِ الملإِ مِنَّا، وطعَنَ في دينِنا في مَجامِعِنا- فليس بصاغرٍ؛ لأنَّ الصاغِرَ: الذَّليلُ الحقيرُ، وهذا فِعلُ مُتعَزِّزٍ مُراغِمٍ، ففي هذه الحالِ يكونُ قتالُ هؤلاء مأمورًا به، ولا تنعقِدُ لهم ذمَّةٌ، ولو عُقِدَ لهم كان عقدًا فاسِدًا[٤].

١٧- ليس المرادُ بالصَّغَار في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أنْ يكونوا صاغرينَ حالَ تناوُلِ الجزيةِ منهم فقط؛ ويفارقُهم الصَّغَارُ

---

(١) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٦٢١)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٥٨).

(٣) يُنظر ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١١).

فيما عدا هذا الوقتَ، هذا باطِلٌ قطعًا، وإنَّما أنْ يلازِمَهم الصَّغَارُ والذُّلُّ في كامِلِ مدَّةِ أداءِ الجِزيةِ[١].

١٨- في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ دليلٌ على توهينِ قولِ مَن قال: إنَّ مَن أسلم مِن رجالهم - وقد مضى بعضُ السَّنَةِ - فعليه مِن الجزيةِ بقَدْر ما مضَى منها. لأنَّ اللهَ جلَّ جلالُه جَعَلَ الجزيةَ صَغَارًا؛ والصَّغَارُ لاحقٌ بالدافع وقتَ الدفعِ؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾؛ وكيف يُلْزَمُ المسلمُ صَغَارَ الجزيةِ وقد أَعَزَّهُ اللهُ بالإسلام؛ والإسلامُ يَجُبُّ ما قبْلَه[٢]؟!

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للرُّجوعِ إلى غَرَضِ إقصاءِ المُشركينَ عن المسجدِ الحرام، المُفادِ بقولِه: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾؛ وجِيءَ به لتأكيدِ الأَمْرِ بإبعادِهم عن المسجدِ الحَرامِ، مع تَعليلِه بعِلَّةٍ أُخْرى تَقتضي إبعادَهم عنه، وهي: أَنَّهم نَجَسٌ[٣].

- وقولُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ فيه حَصْرٌ، وصِيغةُ الحَصْرِ هذِه لإفادةِ نَفْيِ التَّردُّدِ في اعْتِبارِهم نَجَسًا؛ فهي للمُبالَغةِ في اتِّصافِهم بالنَّجاسةِ، حتَّى كأنَّهم لا وصْف لهم إلَّا النَّجَسيَّة[٤].

- ووُصِفوا بالمصْدَرِ ﴿نَجَسٞ﴾ مُبالَغةً أيضًا، كأنَّهم عينُ النَّجاسةِ، أو هم

(١) يُنظر ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٣/ ١٣٧٧).
(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٠).

ذَوُو نَجَسٍ[١].

- قولُه: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ فيه النَّهيُ عن القُرْبِ؛ للمُبالَغَةِ، أو للمَنْعِ عن دُخولِ الحَرَمِ[٢].

- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ جُعِلَ النَّهيُ على صورةِ نَهيِ المُشرِكينَ عن ذلك؛ مبالغةً في نهيِ المُؤمِنينَ حين جُعِلوا مُكَلَّفينَ بانكفافِ المُشرِكينَ عن الاقترابِ مِن المسجِدِ الحَرامِ[٣].

- قولُهُ: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ فيه إضافةُ (العامِ) إلى ضَميرِ (هُم)؛ لمزيدِ اخْتِصاصِهم بحُكمٍ هائلٍ في ذلك العامِ، ووصْفُ (العامِ) باسمِ الإشارةِ ﴿هَـٰذَا﴾؛ لزِيادةِ تمييزِه وبيانِه[٤].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تَعليلٌ لقولِه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، أي: إنَّ اللهَ يُغْنيكم؛ لأنَّه يَعْلَمُ ما لكم مِن المنافعِ من وِفادةِ القبائلِ، فلمَّا مَنَعَكم مِن تمكينِهم من الحجِّ لم يَكُنْ تاركًا مَنْفعتكم؛ فقَدَّرَ غِناكُم عنهم بوسائلَ أُخْرى عَلِمها، وأحْكَم تَدبيرَها[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ...﴾ هذه الجملةُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٠-١٦١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٦٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٦١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، لا تَتفرَّعُ على التي قَبْلَها؛ فالكلامُ انْتِقالٌ من غَرَضِ نَبْذِ العَهْدِ مَع المشركينَ، وأحوالِ المُعامَلةِ بَينهم وبين المسلِمين، إلى غرَضِ المُعامَلةِ بين المسلمينَ وأَهْلِ الكِتابِ من اليهودِ والنَّصارى[1].

- وقولُهُ: ﴿عَن يَدٍ﴾ تأكيدٌ لمعنى ﴿يُعۡطُواْ﴾؛ للتَّنصيصِ على الإعطاءِ، و(عن) فيه للمُجاوَزةِ، أي: يَدْفُعوها بأيديهم، ولا يُقبَلُ منهم إرسالُها ولا الحوالةُ فيها، ومَحَلُّ المجرورِ الحالُ مِن الجِزيةِ، والمرادُ يَدُ المُعْطي، أي: يُعْطُوها غيرَ مُمتنِعينَ، ولا مُنازِعينَ في إعطائِها، وهذا كقولِ العَربِ: (أعْطَى بيدِه) إذا انْقادَ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٦).

الآيتان (٢٠-٢١)

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾: أي: يُشابِهونَ، والمُضاهاةُ: مُعارَضةُ الفِعلِ بمِثْلِه، يقالُ: ضاهَيْتُه: إذا فعَلْتَ مثلَ فِعْلِه، وأَصْلُ (ضهي): يدلُّ على مُشابَهةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ اليهودَ قالوا: إنَّ عُزَيرًا هو ابنُ اللهِ، والنَّصارى قالوا: المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ هو ابنُ اللهِ، ذلك قولُهم بألسِنَتِهم، يُشابِهونَ قَولَ الكُفَّارِ مِن الأُمَمِ قَبْلَهم، لَعَنَهم اللهُ، كيف يُصرَفونَ عَنِ الحَقِّ؟!

اتَّخَذوا عُلَماءَهم وعُبَّادَهم سادةً يُطيعُونَهم مِن دُونِ اللهِ، في تحليلِ الحَرامِ، وتحريمِ الحَلالِ، واتَّخَذَ النَّصارى المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ إلهًا مِن دُونِ اللهِ، وما أُمِرُوا إلَّا لِيَعبُدوا إلهًا واحدًا، هو اللهُ، لا إلهَ إلَّا هو، تنَزَّهَ وتقَدَّس عن شِرْكِهم.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكَمَ اللهُ تعالى في الآيةِ المُتقَدِّمةِ على اليهودِ والنَّصارى بأنَّهم لا يُؤمِنونَ بالله، شَرَحَ ذلك في هذه الآيةِ، وذلك بأنْ نقَلَ عنهم أنَّهم أثبَتُوا لله ابنًا، ومَن جَوَّزَ ذلك في حَقِّ الإلهِ، فهو في الحقيقةِ قد أنكَرَ الإلهَ، وأيضًا بيَّنَ تعالى أنَّهم بمنزلةِ المُشرِكينَ في الشِّركِ، وإن كانت طُرُقُ القَولِ بالشِّركِ مُختلِفةً؛ إذ لا فَرقَ بين من يَعبُدُ الصَّنمَ، وبين من يعبُدُ المَسيحَ وغَيرَه؛ لأنَّه لا معنى للشِّركِ إلَّا أن يتَّخِذَ الإنسانُ مع اللهِ مَعبودًا، فإذا حصَلَ هذا المعنى، فقد حصَلَ الشِّركُ[١].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بقِتالِ أهلِ الكِتابِ، ووصَفَهم بما هو السَّبَبُ الباعِثُ على ذلك؛ عطَفَ عليه بعضَ أقوالِهم المُبيحةِ لِقِتالِهم، المُوجِبةِ لِنَكالِهم[٢].

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾.

أي: وقالت اليهودُ[٣]: عُزَيرٌ هو ابنُ اللهِ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٧-٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٣٧).

(٣) قال ابنُ تيميةَ بعدَ أن ذكَر أنَّ جمهورَ اليهودِ لا يقولون ذلك: (وبالجملة إنَّ قائِلي ذلك من اليهودِ قَليلٌ، ولكِنَّ الخبَرَ عن الجِنسِ). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٧/ ٨٨-٨٩).

وقال ابنُ الجوزي: (فإن قيل: إن كان قول بَعضِهم، فلِمَ أُضيفَ إلى جَميعِهم؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنَّ إيقاعَ اسْمِ الجماعةِ على الواحِدِ مَعروفٌ في اللُّغةِ... والثاني: أنَّ مَن لم يَقُلْه، لم يُنْكِرْه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٨).

وقال الشوكانيُّ: (وظاهرُ قولِه: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ ﴾ أنَّ هذه المقالةَ لجميعِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٢)، ونسَب ابنُ الجوزيِّ لابنِ عباسٍ أنَّ الذين قالوا هذا هم جميعُ بني إسرائيلَ. ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥١).

قال الشنقيطي: (ومما يَدُلُّ على أنَّ هذه المقالةَ صَدَرَتْ من اليهودِ أن هذا القرآنَ يُتْلَى من قديمِ الزمانِ من نزولِ هذه الآيةِ، ولم يُعْلَمْ أن يهوديًّا في زمانِها كَذَّبَ بذلك، وقال: ما قُلْنَا هذا! مع مسارعتِهم إلى التكذيبِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥١)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٨٨، ٨٩).

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾.

أي: وقالت النَّصارى: المسيحُ عيسى ابنُ مَريمَ، هو ابنُ اللهِ[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٢].

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا كان يومُ القيامةِ أذَّنَ مُؤذِّنٌ: لِيَتْبَعْ كُلُّ أمَّةٍ ما كانت تعبُدُ، فلا يبقى أحدٌ كان يعبُدُ غَيرَ اللهِ- سُبحانه- من الأصنامِ والأنصابِ إلَّا يَتَساقَطونَ في النَّارِ، حتى إذا لم يبقَ إلاَّ مَن كان يعبُدُ اللهَ من بَرٍّ وفاجرٍ وَغُبَّرٍ[٢] أهلِ الكِتابِ، فيُدعى اليَهودُ، فيقالُ لهم: ما كُنْتُم تعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ عُزَيرَ ابنَ اللهِ، فيُقال: كذَبْتُم؛ ما اتَّخَذَ اللهُ مِن صاحبةٍ ولا وَلَدٍ، فماذا تَبْغُونَ؟ قالوا: عَطِشْنا يا رَبَّنا، فاسْقِنا، فيُشارُ إليهم: ألاَ تَرِدُونَ[٣]؟ فيُحشَرونَ إلى النَّارِ كأنَّها سرابٌ، يَحطِمُ[٤] بعضُها بعضًا، فيتساقَطونَ في النَّارِ، ثم يُدعَى النَّصارى، فيُقالُ لهم: ما كُنتُم تَعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ المسيحَ ابنَ اللهِ، فيُقال لهم: كَذَبْتُم؛ ما اتَّخَذَ اللهُ مِن صاحبةٍ

قيل: كان عزير نبيًّا مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ. وقيل: كان حَبْرًا كبيرًا مِن أحبارِهم. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٧-١٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٨).

(٢) غُبَّرٍ (بِضَمِّ الغَينِ وفتح الباء المُشَدَّدة) أي: بَقايَا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٦).

(٣) تَرِدُونَ: مِن الوُرودِ على الماءِ، أي: الوُصولِ إلى تَناوُلِه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٣٢).

(٤) يَحطِمُ: أي: يَكسِرُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٨٢).

ولا وَلَدٍ، فيُقال لهم: ماذا تَبغُونَ؟ فيقولونَ: عَطِشْنا يا رَبَّنا، فاسْقِنا، قال: فيُشارُ إليهم: ألَا تَرِدُونَ؟ فيُحشَرونَ إلى جَهنَّمَ، كأنَّها سرابٌ، يَحطِمُ بعضُها بعضًا، فيتَساقَطونَ في النَّارِ))[1].

﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾.

أي: نِسبَةُ الوَلَدِ إلى اللهِ تعالى كَذِبًا وزورًا هو قولُ اليهودِ والنَّصارى بألسنتِهم، فلا مُستنَدَ لهم فيما ادَّعَوه[2].

﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: يُشابِهُ قَولُ اليهودِ والنَّصارى في نِسبَتِهم الوَلَدَ إلى الله تعالى، قَولَ الكُفَّارِ مِن الأُمَمِ قَبلَهم في ذلك[3].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٤).

قال ابن عطية: (قوله: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ يتضمَّنُ معنيَينِ: أحدهما: إلزامُهم المقالةَ، والتَّأكيدُ في ذلك، كما قال: ﴿يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة: ٧٩]، وكقَولِه تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، والمعنى الثاني في قوله: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: هو ساذَجٌ لا حُجَّةَ عليه ولا بُرهانَ، غايةُ بَيانِه أنْ يُقالَ بالأفواهِ قَولًا مُجَرَّدًا نفْس دَعْوى). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٨).

قال الرازي: (في تفسيرِ هذه الآيةِ وُجوهٌ: الأول: أنَّ المُرادَ أنَّ هذا القولَ مِن اليَهودِ والنَّصارى يُضاهي قَولَ المُشرِكينَ: الملائكةُ بناتُ اللهِ. الثاني: أنَّ الضَّميرَ للنَّصارى، أي: قولُهم: المسيحُ ابنُ اللهِ، يُضاهِي قولَ اليَهودِ: عُزَيرٌ ابنُ اللهِ؛ لأنَّهم أقدَمُ منهم. الثالث: أنَّ هذا القَولُ مِن النَّصارى يُضاهي قَولَ قُدَمائِهم، يعني: أنَّه كُفرٌ قَديمٌ، فهو غيرُ مُستَحدَثٍ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٠). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١١٨)، ((تفسير ابن جزي))

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾.

أي: لعَنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى، كيف يُصرَفونَ عَنِ الحَقِّ، فيَضِلُّونَ عنه، ويَعْدِلونَ إلى الباطِلِ، ومِن أينَ يتطرَّقُ إليهم ذلك الصَّرْفُ بعد وضوحِ الدَّليلِ على أنَّ الله تعالى لم يتَّخِذْ وَلَدًا [(١)]؟!

كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۞ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ

(١/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٠٣).

وممَّن اختار أنَّ المُرادَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾: الكُفَّارُ مِن الأمَمِ السَّابقة: ابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: يُشابِه قَولُ اليَهودِ والنصارى في نِسبَتِهم الولدَ إلى اللهِ، قَولَ أسلافِهم الذين كَفَروا مِن قَبْلِهم. وهو قولُ ابن قتيبة، والزجاج. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٤٣).

وقيل: يُشابِهُ قَولُ اليهودِ والنَّصارى في نِسبَتِهم الولدَ إلى اللهِ، قَولَ مُشرِكي العَرَبِ الذين كفَروا مِن قَبْلِهم، إذ قالوا: الملائكةُ بناتُ الله. وهذا اختيارُ السعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٨).

وقيل: يشابِهُ قَولُ النَّصارى في نِسبَتِهم الولَدَ إلى اللهِ، قَولَ اليَهودِ الذين كَفَروا مِن قَبْلِهم. وهو اختيارُ ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤١٣، ٤١٤).

قال الشنقيطي: (وهذا كلُّه لا يُكذِبُ بَعضُه بعضًا). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٣٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ بعد أن ضعَّفَ القَولَ بأنَّهم قدماءُ الذين كَفَروا، أو مُشرِكو العَرَبِ: (فلعَلَّه الصابئونَ المُشرِكونَ الذين كانوا قبلَ موسى والمسيحِ بأرْضِ الشَّامِ ومِصرَ وغيرِها، الذين يجعلونَ الملائكةَ أولادًا له). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٤٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤١٥، ٤١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٢، ٣٨٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٩).

قال الواحدي: (قال ابن الأنباري: المُقاتَلةُ أصلُها مِن القَتلِ، فإذا أُخبِرَ عن اللهِ بها، كانت بمعنى اللَّعنةِ؛ لأنَّ مَن لَعَنَه اللهُ، فهو بمنزلةِ المَقتولِ الهالِكِ). ((الوسيط)) (٢/ ٤٩٠).

إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۞ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۞ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۞ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٧].

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه تعالى وصَفَ اليَهودَ والنَّصارى بضَربٍ آخَرَ مِن الشِّرْكِ، بِقَولِه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾[1].

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: اتَّخذَ اليَهودُ عُلَماءَهم، واتَّخَذ النَّصارى عُبَّادَهم، سادةً يُطيعونَهم مِن دُونِ اللهِ، في تحليلِ الحرامِ، وتَحريمِ الحَلالِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤١٦، ٤١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥، ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٧).

﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾.

أي: واتَّخَذَ النَّصارى المسيحَ عِيسى ابنَ مَريمَ إلهًا مِن دُونِ الله سُبحانَه[١]!

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾.

أي: وما أُمِرَ اليَهودُ والنَّصارى في كُتُبِهم إلَّا أن يعبُدوا ويُطيعُوا مَعبودًا واحدًا، وهو اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه، المُتَفَرِّدُ بالتَّشريعِ والتَّحليلِ والتَّحريمِ دونَ ما سِواه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۞ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٤-٥].

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾.

أي: لا مُستَحِقَّ للعبادةِ إلَّا اللهُ وَحدَه[٣].

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

قال الرازي: (حاصِلُ الكلامِ أنَّ تلك الربوبيَّةَ يحتملُ أن يكونَ المرادُ منها أنَّهم أطاعوهم فيما كانوا مُخالِفينَ فيه لِحُكم الله، وأن يكونَ المرادُ منها أنَّهم قَبِلوا أنواعَ الكُفرِ، فكَفَروا باللهِ، فصار ذلك جاريًا مجرى أنَّهم اتَّخَذوهم أربابًا مِن دونِ اللهِ، ويحتملُ أنَّهم أثبَتُوا في حَقِّهم الحُلولَ والاتِّحادَ. وكُلُّ هذه الوجوهِ الأربعةِ مُشاهَدٌ وواقِعٌ في هذه الأمَّةِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٩٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٨).

أي: تنَزَّه اللهُ وتقَدَّسَ أتمَّ تنزيهٍ، عن شِرْكِ المُشرِكينَ، وافتراءاتِ الكافِرينَ[١].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

دلَّ قولُه تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ على أنَّ مَن أطاع أحدًا في دينٍ لم يأذَنِ اللهُ به- من تحليلٍ أو تحريمٍ، أو استحبابٍ أو إيجابٍ- فقد لَحِقَه من هذا الذمِّ نصيبٌ، ويلحق الذمُّ مَن تبيَّن له الحقَّ فترَكَه أو قصَّرَ في طلبه فلم يتبيَّنْ له، أو أعرضَ عن طلبه لهوىً أو كسلٍ ونحو ذلك[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ ﴾ في هذا دليلٌ على أنَّ مَن أخبَرَ عن كُفرِ غَيرِه، الذي لا يجوزُ لأحدٍ أن يَبتدئَ به، لا حَرَجَ عليه؛ لأنَّه إنَّما ينطِقُ به على معنى الاستعظامِ له والرَّدِّ عليه، فلا يمنَعُ ذلك منه، ولو شاء ربُّنا ما تكَلَّمَ به أحدٌ، فإذا أمكَنَ مِن انطلاقِ الألسِنَةِ به، فقد أذِنَ في الإخبارِ عنه، على معنى إنكارِه بالقَلبِ واللِّسانِ، والرَّدِّ عليه بالحُجَّةِ والبُرهانِ[٣].

٢- ذَكَرَ اللهُ تعالى اعتقادَ النَّصارى في عيسى على ثلاثةِ أشكالٍ؛ فمنها ما قال اللهُ تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾، ومنها: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧]، ومنها: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة: ٧٣]، ولكنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٤٨٣).

هذه الاعتقاداتِ حقيقتُها اعتقادٌ واحدٌ عندَهم- لا أنَّها اعتقادُ كلِّ فِرْقةٍ على حِدَةٍ- فما ذَكَرَهُ اللهُ تعالى عنهم هو قولُ جملةِ النَّصارى؛ فإنَّهم يقولونَ: إنَّه اللهُ باعتبارٍ، وإنَّه ابنُ اللهِ باعتبارٍ آخَرَ، وإنَّه ثالثُ ثلاثةٍ باعتبارٍ آخَرَ؛ حيث إنَّهم عَبَدُوا معه المسيحَ وأمَّه، فصار ثالثَ ثلاثةٍ- سُبحانه وتعالى عمَّا يُشرِكون[1].

٣- إنَّ اللهَ سُبحانه لم يذكُرْ قولًا مقرونًا بذِكرِ الأفواهِ والألسُنِ إلَّا وكان قولًا زُورًا، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾، وقال تعالى أيضًا: ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقال: ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ [الكهف: ٥]، وقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾[2] [الفتح: ١١].

٤- في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ دلالةٌ على جوازِ تسميةِ الشيءِ باسمِ الشيءِ إذا جاوَره؛ لأنَّ القولَ - لا محالةَ - بالألسنةِ لا بالأفواهِ[3].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ الإشراكُ باللهِ في حُكْمِه، والإشراكُ به في عِبادَتِه كِلاهما بمعنًى واحدٍ، لا فَرْقَ بينهما البتَّةَ؛ فالذي يَتْبَعُ نظامًا غيرَ نِظامِ اللهِ، وتشريعًا غيرَ ما شَرَعه الله، وقانونًا مُخالِفًا لِشَرعِ اللهِ، مِن وَضْعِ البَشرِ، مُعرِضًا عن نورِ السَّماءِ، الذي أنزَلَه اللهُ على لِسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، من كان يفعَلُ هذا هو ومَن يعبُدُ الصَّنَمَ ويَسجُدُ للوَثَنِ، لا فرق بينهما البتَّةَ بوجهٍ

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥١٩).

مِن الوجوهِ، فهما واحِدٌ؛ فكِلاهما مُشرِكٌ بالله: هذا أشرَكَ به في عبادَتِه، وهذا أشرَكَ به في حُكمِه، والإشراكُ به في عِبادَتِه، والإشراكُ به في حُكمِه، كِلاهما سَواءٌ، وقد قال اللهُ جلَّ وعلا في الإشراكِ به في عِبادَتِه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] وقال في الإشراكِ به في حُكْمِه أيضًا: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] وفي قراءةِ ابنِ عامرٍ مِن السَّبعةِ: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ بصيغةِ النَّهيِ المُطابِقةِ لِقَولِه: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]؛ فكِلاهما إشراكٌ باللهِ[(١)].

٦- مَن اعتقَدَ طاعةَ أحدٍ لِعَينِه أو لِصَفةٍ فيه، فأطاعه في خلافِ ما أمَرَ اللهُ، فهو من الذين ذُكِروا في قولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنَّهم كانوا يعتَقِدونَ وُجوبَ طاعةِ أحْبارِهم، فأخبَرَ اللهُ تعالى أنَّهم اتَّخَذوهم أربابًا[(٢)].

٧- هؤلاء الذينَ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾- حيث أطاعُوهم في تحليلِ ما حرَّم اللهُ وتحريمِ ما أحلَّ اللهُ- يكونونَ على وجهينِ:

أحدهما: أنْ يعلَمُوا أنَّهم بدَّلوا دينَ الله؛ فيتَّبِعونَهم على التَّبديلِ، فيعتقدونَ تحليلَ ما حرَّم اللهُ، وتحريمَ ما أحلَّ اللهُ؛ اتِّباعًا لرُؤسائِهم -مع عِلْمِهم أنَّهم خالفُوا دينَ الرُّسُلِ- فهذا كفرٌ، وقد جعَلَه اللهُ ورسولُه شِركًا، وإنْ لم يكونوا يُصَلُّونَ لهم، ويَسجُدونَ لهم.

والثاني: أنْ يكون اعتقادُهم وإيمانُهم بتحريمِ الحرامِ وتحليلِ الحلالِ ثابتًا،

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤١)، ويُنظر أيضًا: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٧، ٣٨٨).

لكِنَّهم أطاعوهم في مَعصيةِ اللهِ -كما يفعلُ المسلمُ ما يفعلُه مِن المعاصي التي يَعتقِدُ أنَّها معاصٍ- فهؤلاء لهم حُكْمُ أمثالِهم من أهلِ الذُّنوبِ، كما ثبت في الصَّحيحِ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم أنَّه قال: ((إنَّما الطَّاعةُ في المعروفِ))[١].

٨- لم تُوصفِ النَّصارى باسم (المُشرِكينَ)- يعني: بأل التَّعريفِ- وإنما وُصِفت بعمومِ فِعْلِ الشِّركِ، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ووجهُ ذلك: أنَّ أهلَ الكتابِ ليس في أصلِ دِينِهم شِركٌ؛ فإنَّ اللهَ إنَّما بعثَ الرُّسُلَ بالتَّوحيدِ، فكلُّ مَن آمن بالرُّسُلِ والكُتُبِ، لم يكنْ في أصلِ دينِهم شِرْكٌ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ ولكنَّ النَّصارى ابتَدَعوا الشِّركَ، وحيث ميَّزَهُم اللهُ عن المشركين، فعَطَفَ ذِكْرَهُم على ذِكْرِ المُشرِكينَ؛ فلِأَنَّ أصلَ دينِهم اتِّباعُ الكُتُبِ المُنزَّلةِ التي جاءت بالتَّوحيدِ لا بالشِّركِ، وفرْقٌ بين دَلالةِ اللَّفظِ مُفرَدًا ومَقرونًا، فإذا أُفْرِدَ ذِكْرُ المشركينَ دخلَ فيهم أهلُ الكتابِ، وإذا قُرِنُوا بأهلِ الكِتابِ لم يَدخُلوا فيهم[٢].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه دَلالةٌ على إطلاقِ اسمِ الشِّركِ على اليَهودِ والنَّصارى[٣].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٠).
والحديث أخرجه البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠) من حديث علي رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن حيان)) (٥/ ٤٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٠٥-٤٠٦).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ المقصودُ مِن الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ تَشهيرُ القولِ وتمييزُه؛ زِيادةً في تَشنيعِه عِندَ المسلمينَ[١].

- وقولُه: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ حالٌ مِن القولِ، والمرادُ: أنَّه قولٌ لا يَعْدو الوجودَ في اللِّسانِ، وليس له ما يُحقِّقُهُ في الواقِعِ، وهذا كِنايةٌ عن كوْنِهِ كاذبًا، وفي هذا أيضًا إلزامٌ لهم بهذا القولِ، وسَدٌّ لبابِ تَنصُّلِهم منه؛ إذ هو إقرارُهم بأفواهِهِم، وصَريحُ كلامِهم[٢].

- وجُملةُ: ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ مُستأنَفةٌ، والاسْتِفهام فيها مُستَعْمَل في التَّعجُّبِ من حالِهم في الاتِّباع الباطلِ، حتَّى شبَّهَ المكانَ الذي يُصرَفون إليه باعْتِقادِهم بمكانٍ مجهولٍ مِن شأنِهِ أنْ يُسألَ عنه باسمِ الاسْتِفهامِ عن المكانِ ﴿أَنَّىٰ﴾[٣].

٢- **قوله تعالى:** ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾

- قولُهُ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ...﴾ الجملةُ تَقريرٌ لمضمونِ جُمْلةِ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾؛ ليُبْنَى على التَّقريرِ زِيادةُ التَّشنيعِ بقولِه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٣٢-٣٣)

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَوْلُه تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾

﴿أَن يُتِمَّ﴾: مَصدرٌ مُؤَوَّلٌ، وهو في محلِّ نَصبٍ، مَفعولٌ به، والاستثناءُ هنا مُفرَّغٌ- ناقِصٌ مَنفيٌّ- وإنما دَخَلَ الاستثناءُ المفرَّغُ مع الفِعلِ الْمُثْبَتِ ﴿يَأْبَى﴾- وشَرطُ الاستثناءِ المُفَرَّغِ أن يكونَ بعد نفيٍ أو شِبْهِهِ كالاستفهامِ[1]- لأنَّ ﴿يَأْبَى﴾ في معنى النَّفيِ؛ لأنَّه في معنى (لا يُريدُ)، والتَّقديرُ: ولا يُريدُ اللهُ إلَّا إتمامَ نُورِه. وقيل: إنَّ المُستثنى منه مَحذوفٌ، وهو مفعولُ ﴿يَأْبَى﴾، والتَّقديرُ: ويأبى اللهُ كُلَّ شيءٍ إلَّا إتمامَ نورِه، وعليه فـ﴿أَن يُتِمَّ﴾ في محلِّ نَصبٍ على الاستثناءِ[2].

---

(١) قال الشيخ خالد الأزهري: (ولا يتأتَّى التَّفريغُ في الإيجابِ؛ لأنَّه يؤدِّي إلى الاستبعادِ؛ لا نقولُ: رأيتُ إلَّا زيدًا؛ لأنَّه يلزَمُ منك أنَّك رأيتَ جَميعَ النَّاسِ إلَّا زيدًا، وذلك محالٌ عادةً). يُنظر: ((شرح التصريح)) (١/ ٥٤٠).

- ولكِنْ أحصى الدكتور: محمد عبد الخالق عضيمة آياتِ الاستثناءِ في القرآنِ الكَريمِ، فوجَدَ ثمانيَ عَشْرةَ آيةً، جاء فيها الاستثناءُ المُفَرَّغُ بعد الإيجابِ، وبعض هذه الآياتِ جاء الإثباتُ فيها مُؤَكَّدًا؛ ممَّا يُبعِدُ تأويلَ هذا الإثباتِ بنَفيٍ، مثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]. ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]... ثمَّ قال: فإنَّنا لو سَلَكْنا هذا الطَّريقَ وسَوَّغْنا هذا التَّأويلَ، ما وَجَدْنا في لغةِ العَرَبِ إثباتًا يستعصي على تأويلِه بالنَّفيِ. يُنظر: ((دراسات لأسلوب القرآن الكريم)) (١/ ٧- ٢٦٦). ويُنظَرُ أيضًا: ((التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل)) لأبي حيان الأندلسي (٨/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٢٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ أهلَ الكِتابِ يُريدونَ أن يُبطِلوا دينَ اللهِ الإسلامَ، بما يَقولونَه بألسِنَتِهم مِن تكذيبٍ للحَقِّ، وافتراءاتٍ عليه، ولا يَرضى اللهُ إلَّا أن يُتِمَّ دِينَه ويُظهِرَه للنَّاسِ، ولو كَرِه الكافِرونَ، ويُخبِرُ تعالى أنَّه هو الذي أرسَلَ رَسولَه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالهُدى، وبِدِينِ الإسلامِ؛ لِيُظهِرَه على سائِرِ الأديانِ، ولو كَرِه المُشرِكونَ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَهَّى اللهُ سُبحانَه أمْرَ أهلِ الكِتابِ مِن جِهةِ استنادِهم، زاد ذلك توهيةً مِن جِهةِ مُرادِهم؛ بالإعلامِ بأنَّهم بقِتالِهم لأهلِ الطَّاعةِ إنَّما يُقاتِلونَ اللهَ تعالى، وأنَّه لا يُنَفِّذُ غَرَضَهم، بل يريدُ غَيرَ ما يريدونَ، ومِن المُقَرَّرِ أنَّه لا يكونُ إلَّا ما يريدُ سُبحانه[1].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

أي: يريدُ اليَهودُ والنَّصارى أن يُبْطِلوا دينَ اللهِ الإسلامَ، بما يقولونَه بألسِنَتِهم مِن تكذيبٍ للحَقِّ، وافتراءاتٍ عليه[2].

(٢/ ٦٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٠-٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٧، ٨].

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾.

أي: ولا يَرضى اللهُ إلَّا أن يُتِمَّ دينَه، ويُظهِرَه للنَّاس[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

أي: ولو كَرِهَ الكُفَّارُ إتمامَ اللهِ دينَه، فإنَّه سيُتِمُّه لا محالةَ[٢].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى اللهَ تعالى عن الأعداءِ أنَّهم يُحاوِلونَ إطفاءَ نورِ الله، وبيَّنَ تعالى أنَّه يأبى ذلك، وأنَّه يُتِمُّ نورَه- بَيَّنَ كيفيَّةَ ذلك الإتمامِ[٣]، وبيَّنَ النُّورَ المَذكورَ

قال ابن كثير: (مَثَلُهم في ذلك كمَثَلِ مَن يريدُ أن يُطفِئَ شُعاعَ الشَّمسِ، أو نورَ القَمرِ بنَفْخِه! وهذا لا سبيلَ إليه، فكذلك ما أَرسَلَ اللهُ به رسولَه؛ لا بُدَّ أن يَتِمَّ ويَظهَرَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٢).

الذي قد تكَفَّلَ بإتمامِه وحِفْظِه، فقال تعالى[١]:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه هو الذي بعَثَ رَسولَه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بالعِلمِ النَّافعِ المُشتَمِل على الإيمانِ الصَّحيحِ، ومعرفةِ الشَّرائعِ والأحكامِ، وبَعَثَه بدِينِ الإسلامِ المُشتَمِل على الأعمالِ الصَّالحةِ النَّافعةِ في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾.

أي: ليُعلِيَ اللهُ الإسلامَ بالغَلَبةِ والانتصارِ على أهلِ الأديانِ، ويُعلِيَه بالحُجَّةِ والبُرهانِ على سائرِ الأديانِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥١).

قال الرازي: (لا دينَ بخلافِ الإسلامِ، إلَّا وقد قَهَرَهم المسلمونَ، وظَهَروا عليهم في بعضِ المواضِعِ، وإن لم يكُن كذلك في جميعِ مَواضِعِهم، فقَهَروا اليهودَ وأخرَجُوهم من بلادِ العَرَبِ، وغَلَبوا النَّصارى على بلادِ الشَّامِ وما والاها إلى ناحيةِ الرُّومِ والغَرْبِ، وغَلَبوا المجوسَ على مُلْكِهم، وغَلَبوا عُبَّادَ الأصنامِ على كثيرٍ مِن بلادِهم ممَّا يلي التُّركَ والهِندَ، وكذلك سائِرُ الأديانِ؛ فثبت أنَّ الذي أخبَرَ الله عنه في هذه الآيةِ قد وقع وحصَل، وكان ذلك إخبارًا عن الغَيبِ، فكان مُعجِزًا). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٣).

وقال ابن عاشور: (ظهورُ الإسلامِ على الدِّينِ كُلِّه حصَلَ في العالَمِ، باتِّباعِ أهلِ المِلَلِ إيَّاه في سائِرِ الأقطارِ، بالرَّغمِ على كراهِيةِ أقوامِهم وعظماءِ مِلَلِهم ذلك، ومُقاوَمَتِهم إيَّاه بكلِّ حِيلةٍ، ومع ذلك فقد ظهرَ وعلا، وبان فضلُه على الأديانِ التي جاوَرَها... ولا يلزَمُ مِن إظهارِه على الأديانِ أن تنقَرِضَ تلك الأديانُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٣، ١٧٤).

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعْتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يذهَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ حتى تُعبَدَ اللَّاتُ والعُزَّى. فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، إن كنْتُ لَأظَنُّ حين أنزَلَ اللهُ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ أنَّ ذلك تامًّا! قال: إنَّه سيكونُ من ذلك ما شاءَ اللهُ))[١].

وعن ثوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ زَوَى ليَ الأرضَ[٢]، فرأَيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتِي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها))[٣].

وعن خبَّاب بن الأرَتِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((شَكَوْنا إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو متوسِّدٌ بُردةً له في ظِلِّ الكَعبةِ، قُلنا له: ألَا تَستَنصِرُ لنا، ألَا تدعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرَّجُلُ فيمن قبلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه، فيُشَقُّ باثنَتَينِ، وما يصدُّه ذلك عن دينِه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحَديدِ ما دونَ لَحمِه مِن عَظمٍ أو عصَبٍ، وما يصُدُّه ذلك عن دينِه، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتى يسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضرمَوتَ، لا يخافُ إلَّا اللهَ، أو الذِّئبَ على غَنَمِه، ولكنَّكم تَستعجِلون))[٤].

وقال الألباني: (تُبَشِّرُنا هذه الآيةُ الكَريمةُ بأنَّ المُستقبَلَ للإسلامِ، بسَيطَرَتِه وظُهورِه وحُكْمِه على الأديانِ كلِّها، وقد يظُنُّ بعضُ النَّاسِ أنَّ ذلك قد تحقَّقَ في عهدِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعهدِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ والملوكِ الصَّالحين، وليس كذلك، فالذي تحقَّقَ إنَّما هو جزءٌ مِن هذا الوَعدِ الصَّادِقِ). ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١/ ٣١).

(١) رواه مسلم (٢٩٠٧).

(٢) زَوَى لي الأرضَ: أي: قَبَضَها وطَوَاها، وجَعَلَها مجموعةً كَهَيئةِ كَفٍّ في مرآةِ نَظَرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٣٦٧٦).

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٤) رواه البخاري (٣٦١٢).

وعن تميم الدَّاريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: سمِعْتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لَيَبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وبَرٍ إلَّا أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ، أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ))[١].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

أي: ولو كَرِهَ المشركونَ ظُهورَ الإسلامِ على جميعِ الأديانِ، فإنَّ اللهَ سيُظهِرُه[٢].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ بُشرى وتثبيتٌ لأهلِ الإسلامِ الدَّاعِينَ له العاملينَ به، أنَّ اللهَ سبحانَه قد تكَفَّلَ لهذا الأمرِ بالتَّمامِ والظُّهورِ على جميعِ الأديانِ، وأنَّه لا بُدَّ أنْ يكونوا على ثِقةٍ مِن هذا الوعدِ الذي لا بدَّ أنْ يُنجِزَه سبحانَه[٣].

٢- بعثَ اللهُ تعالى مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ إلى النَّاسِ؛ فبالهدى يُعرَفُ الحقُّ، وبدينِ الحَقِّ يُقصَدُ الخيرُ ويُعمَلُ به، فلا بدَّ مِن عِلْمٍ بالحَقِّ، وقصْدٍ له، وقُدرةٍ عليه، والفتنةُ تضادُّ ذلك؛ فإنَّها تمنعُ معرفةَ الحَقِّ؛ لِمَا فيها من الشُّبُهاتِ التي تَلبِسُ الحقَّ بالباطِلِ، أو تمنَعُ قصدَ الحَقِّ؛ لِمَا

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٦١٥٥)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢/ ٥٨) (١٢٨٠)، والحاكم في ((المستدرك)) (٨٣٢٦).
قال الحاكم (٥/ ٦١٥): صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧): رجاله رجال الصحيح، وقال الألباني في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): على شرط مسلم.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠).

فيها من الأهواءِ والشَّهواتِ، أو تمنعُ القُدرةَ على الخيرِ؛ لِمَا فيها من ظهورِ قُوَّةِ الشَّرِّ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- طبيعةُ الموقِفِ الدَّائِمِ لأهلِ الكِتابِ، مِن نُورِ اللهِ المتمَثِّلِ في دينِه الحَقِّ، الذي يهدِي النَّاسَ- أنَّهم مُحارِبونَ لِنُورِ اللهِ، سواءٌ بما يُطلِقونَه من أكاذيبَ ودسائِسَ وفِتَنٍ، أو بما يحَرِّضونَ به أتباعَهم وأشياعَهم على حَربِ هذا الدِّينِ وأهلِه؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ بيانُ أنَّه لا هُدَى إلَّا فيما جاء به الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا يَقبلُ اللهُ مِن أحدٍ دينًا يَدينُه به إلَّا أنْ يكونَ مُوافِقًا لدينِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد نزَّه سبحانه وتعالى نفسَه عمَّا يَصِفُه به العبادُ إلَّا ما وصفَه به المُرسَلونَ، فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠- ١٨١] وسلَّمَ على المُرسَلينَ؛ لِسَلامةِ ما وصَفُوه به مِن النَّقائِصِ والعُيوبِ[٣].

٣- كثيرًا ما يجمَعُ سُبحانه بين هذينِ الأصلَينِ ﴿الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾؛ لأنَّ بهما تمامَ الدَّعوةِ، وظهورَ دِينِه على الدِّينِ كُلِّه[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ كالبَيانِ لِقَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤).

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾؛ ولذلك كَرَّرَ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، غيرَ أنَّه وضَعَ ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ مَوضِعَ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم ضَمُّوا الكُفرَ بالرَّسولِ إلى الشِّركِ باللهِ تعالى[١].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- **قولُه تعالى**: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لزِيادةِ إثارةِ غَيظِ المُسلِمينَ على أَهْلِ الكتابِ، بكَشْفِ ما يُضمِرونَه للإسلامِ من المُمالاةِ، والتألُّبِ على مُناوأةِ الدِّينِ[٢].

- وقد مَثَّلَ حالَهم في طَلَبِهم أنْ يُبطِلوا نُبوَّةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتكذيبِ، بحالِ مَن يُريدُ أنْ يَنْفُخَ في نُورٍ عَظيمٍ مُنبَثٍّ في الآفاقِ، يُريدُ اللهُ أنْ يَزيدَه ويُبلِغَه الغايةَ القُصْوى في الإشراقِ أو الإضاءةِ؛ ليُطْفئَه بنَفخِه ويَطْمِسَه، ومِن كمالِ بلاغةِ هذا الكلامِ أنَّه صالحٌ لتَفكيكِ التَّشبيهِ؛ بأن يُشبَّهَ الإسلامُ وحْدَه بالنُّورِ، ويُشبَّهَ مُحاوِلُو إبطالِه بمُريدِي إطفاءِ النُّورِ، ويُشَبَّهُ الإرجافُ والتَّكذيبُ بالنَّفخِ، ومِن الرَّشاقةِ أنَّ آلةَ النَّفخِ وآلةَ التَّكذيبِ واحدةٌ، وهي الأفواهُ[٣]، وهذا التَّمثيلُ له دَلالتانِ؛ الأُولى: قوَّةُ نورِ اللهِ، وظُهورُ أَمْرِهِ، حتَّى مَثَلَ أمامَهم نورًا حقيقيًّا، كنُورِ الشَّمْسِ. والثانيةُ: ضَعْفُ كَيدِ الكافرين؛ لأنَّ كُلَّ مُحاولاتِهم لم تَكَدْ تَعْدو النَّفْخَ بأفواهِهم، وما ذلك بمُحقِّقٍ لهم ما يُريدونَ[٤].

- قولُه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ في إضافةِ النُّورِ إلى اسمِ الجلالةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧١).
(٤) يُنظر: ((خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية)) للمطعني (٢/ ٣٩٥-٣٩٦).

بقولِه: ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾: إشارةٌ إلى أنَّ مُحاولةَ إطفائِه عَبَثٌ، وأنَّ أصحابَ تِلك المحاولةِ لا يَبلُغون مُرادَهم[١].

- وقولُهُ: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ تَعبيرٌ جميلٌ رشيقٌ؛ لأنَّ المعنى تمَّ بدُونِه؛ فجاءَ هو لإضافةِ ظِلالٍ رقيقةٍ على المعنى العامِّ، اكْتَسى بها جمالًا ورُواءً؛ فقد أفادتْ- أولًا- أنَّ كيدَهم للقرآنِ لم يَعْدُ كلماتٍ جوفاءَ اتَّهمُوه بها (أَساطيرُ الأوَّلين - رِئيٌ من الجِنِّ- شِعْرٌ- لو نَشاءُ لقُلْنا مِثْلَ هذا)؛ هذه الكلماتُ لم يَكُنْ لها نصيبٌ من الوجودِ سِوى التلفُّظِ بها لم تتمكَّنْ حتَّى من قُلوبِ قائليها، وهذا يدُلُّ على ضَعْفِ كيدِهم، وهى تُفيدُ- ثانيًا- أنَّ النُّورَ كان ماثلًا أمامَهم حتَّى قَصَدوه قصدًا في مكانٍ وجِهةٍ، وهذا يدلُّ على ظُهورِ أَمْرِ اللهِ، وقوَّةِ انْتِصارِه، وهى تُفيد - ثالثًا - أنَّ هذا النُّورَ لم يَكُنْ لأيِّ عامِلٍ آخَرَ أنْ يُطْفِئه (ريحٌ شديدةٌ مثلًا، أو عاصِفةٌ مُدمِّرةٌ)؛ فهو قائمٌ رَغْمَ هذه التقلُّباتِ التي لا يَكادُ يَخْلو منها وَقتٌ؛ فكيف يَتسنَّى لهم أنْ يُطْفِئوه بأفواهِهِم؟! إنَّه نُورٌ قويٌّ باهِرٌ، وسيَظَلُّ- هكذا- نُورًا باهرًا قويًّا، ولو كَرِهَ الكافرون[٢].

- ومِن محاسِنِ البيانِ أيضًا في قولِه تعالى: ﴿نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أنَّ فيه إضافَتينِ؛ إحْداهُما: إضافةُ النُّورِ إلى اللهِ تعالى: ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾، والمُرادُ به دِينُ الإسلامِ، والأُخْرى إضافةُ الأفواهِ، وهي الآلةُ المُستَعْملةُ للإطفاءِ إلى جماعةِ المُريدينَ لإطفاءِ النُّورِ: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ وعند التَّأمُّلِ في الإضافةِ الأُوْلى: ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ يتَّضِحُ أنَّ النُّورَ المُضافَ قَدْ اكْتَسَبَ قَدْرًا مِن خَصائصِ القوَّةِ والعَظَمةِ والشَّرَفِ والعُلوِّ والبَقاءِ من المضافِ إليه (الله)، ثم تأتي الإضافةُ الأُخْرى: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بإضافةِ الأفواهِ الضَّعيفةِ إلى نفَرٍ مِن البَشَرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية)) للمطعني (٢/ ٣٩٥-٣٩٦).

المخلوقينَ الضُّعفاءِ؛ فالمضافُ فيها- وهو كلمةُ: (أفواهٍ)- على ما فيه من الضَّعْفِ العُضويِّ والعَضَليِّ يَزدادُ ضعفًا من خلال إضافتِه إلى الضَّميرِ المُتَّصِلِ (هُمْ) العائدِ إلى أولئك المخلوقينَ المهازيلِ، وهذا مِن عجيبِ البَيانِ؛ إذ يَجْمعُ أَمْرَين؛ أحدُهما: التَّهكُّمُ بإرادتِهم، وزعْمِهم أنَّه نورٌ ضعيفٌ يُمكِنُ أنْ يَنطفِئ بمجرَّد النَّفخِ، والآخَرُ: تَصغيرُ شأنِهم، وتَضعيفُ كيدِهم؛ فهم بالمقارنةِ مع قوَّةِ الخَالقِ العظيمِ ضُعفاءُ، مهما أُوتُوا مِن قوَّةٍ، ومَحْدُودون مهما اسْتَعْملوا من آلةٍ وأداةٍ؛ فكيف إذا كانتْ أداةُ الإطفاءِ أفواهَهم[١]؟

- وقولُه: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ فيه إظهارُ النُّورِ في مَقامِ الإضمارِ مُضافًا إلى ضَميرِهِ عزَّ وجلَّ؛ زيادةً في الاعتِناءِ بشأنِهِ، وتَشريفًا له على تشريفٍ، وإشعارًا بعِلَّةِ الحُكْم[٢].

- و(لو) في قولِهِ: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ اتِّصاليَّةٌ، وهي تُفيدُ المبالغةَ بأنَّ ما بَعْدَها أجدرُ بانْتِفاءِ ما قَبْلَها لو كان مُنْتفيًا[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ عبَّرَ عن الإسلامِ بالهُدى ودينِ الحَقِّ؛ تنويهًا بِفَضلِه، وتعريضًا بأنَّ ما هم عليه ليس بهُدًى ولا حقٍّ[٤].

- قولُهُ: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ خُصَّ

(١) يُنظر: ((تأمّلات لُغوية في آيتين)) لخالد بن إبراهيم النملة (موقع البيان).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٧٣).

المشرِكون هنا بالذِّكْرِ؛ لأنَّ الكَراهةَ كراهةٌ مُختصَّةٌ بظهورِ دِينِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ ظهورَ دينِ الإسلامِ أشدُّ حسرةً على المشركين مِن كلِّ أُمَّةٍ؛ لأنَّهم الذين ابتدءُوا بمعارضتِه وعداوتِه، ودَعَوا الأُممَ للتألُّبِ عليه، واستَنْصروا بهم، فلم يُغنوا عنهم شيئًا، ولأنَّ أتمَّ مظاهرِ انتصارِ الإسلامِ كان في جزيرة العربِ، وهي ديارُ المشركينَ، وخُصَّ الكافرون قَبْلُ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ لأنَّها كراهةُ إتمامِ نُورِ اللهِ في قَديمِ الدَّهْرِ، وباقِيه يَعُمُّ الكَفَرةَ من لَدُنْ خَلْقِ الدُّنيا إلى انْقِراضِها، ووَقعتِ الكراهةُ والإتمامُ مِرارًا كثيرةً[1].

- وفي هاتَينِ الآيتَينِ مُناسَباتٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هنا في سُورةِ التَّوبةِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، بَينمَا قال عزَّ وجَلَّ في سُورةِ الصَّفِ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٨-٩]؛ فقال تعالى في الآيةِ الأُولى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾، وقال في الثَّانية: ﴿لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾: فاختُصَّتِ الأُولى بـ (أنْ)، والثانيةُ باللَّامِ دون (أنْ)؛ ووجْهُ هذِه المناسَبةِ: أنَّ الإرادةَ في الآيةِ الأُولى تَعلَّقتْ بإطفاءِ نُورِ اللهِ بأفواهِهم، وإطفاءُ نورِ اللهِ إنَّما يكونُ بما حاوَلوا مِن دَفْعِ الحَقِّ بالباطِلِ؛ فالحقُّ يُسمَّى نُورًا؛ لأنَّ حُجَجَه وبَراهينَه تُضيءُ لطالبِه بها إليه، والباطِلُ هو قولُهم بأفواهِهم، وهو ما أخْبَرَ اللهُ تعالى به قبلُ عن اليهودِ والنَّصارَى بقولِه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٤).

ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠]، أي: هو قولٌ لا حَقيقةَ له، ولا مَحصولَ، وبمِثلِه لا يُدفَعُ الحقُّ، وبالأفواهِ لا يُطفأُ هذا النورُ كما يُطفأُ السِّراجُ؛ لأنَّ هذا النُّورَ، وإنْ أَشْبَهَه في أنَّه يَهدِي، ويُبيِّن الحقَّ مِن الباطِل، فهو بخِلافِه في الامتِناعِ من الإطفاءِ كما يَتهيَّأ ذلك في السِّراجِ.

وأمَّا الآيةُ في سُورةِ الصَّفِّ، وتَعليقُ الإرادةِ فيها بالإطفاءِ مع زِيادةِ اللامِ، فعلى قولِ المحقِّقينَ مِن النَّحويِّين، فالفعلُ بعدَ هذه اللَّام مُعدًّى إلى مفعولٍ مَحذوفٍ، واللَّامُ الداخلةُ على الفِعلِ المنصوبِ تكونُ مُنبئةً على العِلَّةِ التي لها أُنشِئَ الفِعلُ، والمرادُ في الآيةِ على هذا التَّحقيقِ: يُريدون أنْ يكذبوا؛ ليُطْفِئوا نورَ اللهِ بأفواهِهم؛ لأنَّ قَبْلَها: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الصف: ٧]؛ فقوله: ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ لم يُذْكَر فيه مفعولُ ما يُريدونَ؛ اعتمادًا على ما نَبَّه عليه بقولِه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾، فكأنَّه قِيل: يُريدونَ افتراءَ الكذبِ؛ ليُطْفِئوا نورَ الله؛ فلهذا خُصَّتِ الآيةُ الثانيةُ بدُخولِ اللَّامِ على (يُطْفِئوا)، ولَمَّا كان المرادُ في الآيةِ الأُولَى الإطفاءَ بالأفواهِ لِمَا دَلَّ عليه مُفتَتَحُ الآياتِ، وهو قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ [التوبة: ٣٠]، كانتِ الإرادةُ مُعدَّاةً إلى إطفاءِ نُورِ اللهِ تعالى بأفواهِهم، أي: يُريدونَ أنْ يَدْفعوا الحقَّ بالباطِلِ مِن أفواهِهم[(١)].

وأيضًا مِمَّا يُبيِّنُ تِلك المناسباتِ ما يَلي:

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٠٤-٧٠٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٦).

أولًا: في الغاياتِ الظَّاهرةِ والمخفيَّةِ، حيثُ قال في التَّوبةِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ﴾، وفي آيةِ الصَّفِّ قال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ﴾، وقَبْلَ النَّظَرِ في دَلالاتِ هذا الاختلافِ بين الآيتَينِ، والمعنى الذي يُضيفُه دُخولُ اللامِ في الثَّانيةِ؛ يُشارُ إلى مُقدِّمة نَحْويَّةٍ يسيرةٍ تُعينُ على فَهْمِ المعنى، وهي أنَّ الفِعْلَ المُضارِعَ ﴿يُطْفِـُٔواْ﴾ في الآيتَينِ منصوبٌ بـ (أنْ) الظَّاهِرةِ في الأُولى، والمُضْمَرةِ في الثَّانيةِ، وتَقديرُ الثَّانيةِ: يُريدونْ لأنْ يُطْفِئوا، و(أنْ) والفِعْلُ المضارعُ بَعْدَها تؤوَّلُ بمَصْدرِ (إطفاء)، وعلى هذا يكونُ التَّقديرُ في آيةِ التَّوبةِ: (يُريدون إطفاءَ نَورِ اللهِ)، وفي آيةِ الصَّفِّ: (يُريدونِ لإطفاءِ نورِ اللهِ)، وهذه اللَّامُ هي لامُ التَّعليلِ، وفي هذا الاختِلافِ اللَّفظيِّ بين الآيتَينِ إشارةٌ إلى أنَّهم يُغايرونَ في إظهارِ غاياتِهم وأهدافِهم؛ ففي آيةِ التَّوبةِ: هم يُريدون إطفاءَ نُورِ اللهِ صَراحةً، وبصُورةٍ ظاهرةٍ ومباشِرةٍ؛ فالإطفاءُ (وهو المفعولُ به للفِعْلِ: يُريدونَ)، هو مُرادُهم عَلَنًا؛ فالغايةُ من إرادتِهم هنا ظاهرةٌ وصريحةٌ.

أمَّا آيةُ الصَّفِّ، وتَقديرُها: (يُريدونَ لإطفاءِ نُورِ اللهِ)؛ فالشَّيءُ المُرادُ فيها (وهو المفعولُ بِهِ للفِعْلِ: يُريدون) غيرُ مذكورٍ، أي: إنَّهم يُريدون مُراداتٍ مُخْتلِفةً يَجْعلونها وسائلَ مُوصِلةً في نهاياتِها إلى إطفاءِ نُورِ اللهِ؛ فهم لا يُظهِرون عَلَنًا أنَّهم يُريدونَ الإطفاءَ، وإنَّما يُريدونَ أنْ يَصِلوا إلى الإطفاءِ من خلالِ طُرُقٍ غير مُباشِرةٍ تُوصِلُ في زَعْمِهم وتَدْبيرِهم إليه؛ ولذلك يَظهرونَ في هذه الحالِ بعباءاتٍ مُختلِفةٍ، ويَدْعُمون البرامجَ والمشروعاتِ، ويَرْفعونَ شِعاراتٍ إصلاحيَّةً في ظاهِرِها، لكِنَّها تتغيَّا في حقيقتِها إطفاءَ نُورِ اللهِ، وما مِن شكٍّ في أنَّ خُطورةَ هؤلاء في الحالِ الثَّانيةِ، وهي حالُ الغاياتِ المخفيَّةِ؛ أشدُّ من خطورتِهم في الحالِ الأُوْلى التي يُصرِّحون فيها بمُراداتِهم، ويُعلِنونَ فيها غاياتِهم.

وقدِ اتَّفقتْ الآيتانِ في البَدْءِ بالفِعْلِ المُضارِعِ: ﴿يُرِيدُونَ﴾ الذي يَدُلُّ

على الحدوثِ والتَّجدُّدِ في الحاضِرِ والمُستقْبَلِ، ولم يأتِ التعبيرُ بالفِعْلِ الماضي (أَرَادُوا) الذي يَدُلُّ في الأَصْلِ على انْقِضاءِ حُدوثِ الفِعْلِ في الزَّمنِ الماضي؛ فهم يُريدونَ بصورةٍ مُتجدِّدةٍ ومُتكرِّرةٍ إطفاءَ نُورِ اللهِ مُنذُ ظهورِ ذلك النُّورِ إلى زمنِنا الحاضِرِ، وستتجدَّدُ معهم تلك الإرادةُ، وتَستمِرُّ ما بقي هذا النُّورُ الممتدُّ على مدَى الزَّمنِ المُتتابِعِ، وما بَقِيتْ فيهم قُوَّةٌ على النَّفْخِ؛ إنَّهم عَبْرَ التاريخِ لم يَقِفوا عند حدِّ انحرافِهم الشَّخصيِّ عن دِينِ الحَقِّ، واتِّباعِهم شهواتِهم، إنَّما هم كذلك يُعلِنونَ باستمرارٍ الحربَ على دِينِ الحَقِّ، ويُريدونَ إطفاءَ نُورِ اللهِ في الأرضِ.

ثانيًا: في الموقِفِ الرَّبَّانيِّ؛ حيثُ جاءَ الموقِفُ الربانيُّ من تلك الإراداتِ والغاياتِ في الآيتينِ مُختلِفًا في المَبْنى؛ ليُعطيَ المُتأمِّلَ دَلالاتٍ إضافيَّةً في المعنى، تَتناسَبُ مع اختلافِ الدَّلالاتِ في الغاياتِ في الآيتينِ: ففي آيةِ التَّوبةِ يَقولُ اللهُ تعالى بجُملةٍ فِعليَّةٍ حاصِرةٍ: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، والإباءُ: هو الامْتِناعُ بقوَّةٍ؛ فاللهُ تعالى هنا يأبى كُلَّ شيءٍ إلَّا إتمامَ نُورِهِ، وفي التَّعبيرِ بالفِعْلِ (يَأْبى) من المُبالَغةِ والدَّلالةِ على الامْتِناع ما ليس في نَفْي الإرادةِ، لو كان التَّعبيرُ: (ولا يُريدُ اللهُ إلا أنْ يُتِمَّ نُورَهُ)؛ فهم يُريدونَ إطفاءَ النُّورِ، واللهُ الذي له جميعُ العَظَمةِ وكمالُ القُدْرةِ والعِزِّ ونفوذُ الكَلَمةِ يَأْبى إلَّا أن يُتِمَّ نُورَه، ثُم يُجدِّدون الإرادةَ، واللهُ يَأْبَى ... وما تَزالُ إراداتُهم تَتجدَّد، ويتجدَّد معها إباءُ العظيمِ- جلَّ وعلَا- وامتناعُهُ من كلِّ شيءٍ إلَّا إتمام النُّورِ.

واسْتِعمالُ الجُملةِ الفِعْليَّةِ الحاصِرةِ بفِعْلِها المضارعِ (يَأْبَى) المُشعِرِ بقوَّةِ الامْتِناعِ؛ يَتناسَبُ مع الغايةِ الصَّريحةِ والجُرأةِ المُعلَنةِ التي ظَهَرتْ منهم في أَوَّلِ الآيةِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾؛ فرايةُ الإطفاءِ لنُورِ اللهِ المُعلَنةُ بصراحةٍ وجُرأةٍ لا يُناسِبها إلَّا القوَّةُ في بيانِ الموقفِ الإلهيِّ.

أمَّا آيةُ الصَّفِّ التي جاءتْ إرادةُ الإطفاءِ فيها عَبْرَ الوسائلِ والأعوانِ

والشِّعاراتِ الإصلاحيَّةِ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨]؛ فيُناسِبُها أنْ تكونَ صياغةُ الموقفِ الإلهيُّ فيها من خِلالِ الجُمْلةِ الاسميَّةِ الحاليَّةِ: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصف: ٨]؛ التي تَدلُّ على الدَّوامِ والثُّبوتِ، أي: إنَّهم يُريدونَ أمورًا يُخادِعونَ فيها ويَكيدونَ؛ ليَصِلوا من خلالِها إلى إطفاءِ نُورِ اللهِ، فلربَّما شَعَروا بشَيءٍ من القُدْرةِ، ووَجَدوا من الأعوانِ مَنْ يَمُدُّهم بعَونِهِ بقصدٍ سيِّئٍ، أو بنيَّةٍ حَسَنةٍ، أو وَجَد بعضُ أَهْلِ الإيمانِ في نَفْسِهِ أنَّ الدِّينَ يَتضاءلُ، وأنَّ نُورَهُ آخِذٌ في الانحسارِ؛ فيأتي الموقِفُ الإلهيُّ الواعِدُ بدوامِ إتمامِ النُّورِ، وبخاصَّةٍ في الأحوالِ التي يُريدونَ فيها الإطفاءَ من خلالِ الدُّروبِ المُلتويةِ.

وإتمامُ النُّورِ الموعودُ به في الآيتينِ لا يَقْتصِرُ على مُجرَّدِ إشراقِه، بل الموقِفُ الإلهيُّ يَعِدُ بإكمالِه وإعلائِه، ويُبشِّرُ بتبليغِه غايتَه بنَشْرِه في الآفاقِ، وإظهارِهِ على الدِّينِ كُلِّهِ، حتى يَبْلُغَ ما بَلَغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، وحتَّى لا يَبْقى بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلَّا أَدْخَلَ اللهُ فيه هذا النُّورَ.

لقدِ اجْتَمعتْ في معاني هاتَينِ الآيتَينِ الصُّورُ التكامُليَّةُ التي تُظهِر بتفنُّنٍ حالَ دِينِ الحَقِّ، وإراداتِ أعدائِه وغاياتِهم ضِدَّهُ، والموقِفُ الرَّبَّانيُّ الذي يَختِمُ فيه المؤمنُ قراءتَهُ المُتدبِّرةَ لهاتينِ الآيتينِ، لكنَّ البيانَ لم يَقِفْ عند هذا الحدِّ؛ إذ يتأكَّدُ المعنى من خلالِ الكلمةِ الختاميَّةِ الواردةِ بَعْدَ الآيتينِ في السُّورتين بلَفْظٍ واحدٍ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]؛ فهو سُبْحانه قد أَرْسَلَ رَسولَهُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حاملًا لمنهجِ النُّورِ والهُدى ودِينِ الحَقِّ؛ ليُظْهِرَ رِسالتَهَ على جميعِ الرِّسالاتِ، ولم يُرْسِلْه لتَنْتصِرَ على رِسالتِهِ إراداتُ النَّافخينَ[1].

- ومِن المُناسَبةِ الحَسنَةِ أيضًا: أنَّ آيةَ التَّوبةِ زادتْ على آيةِ الصَّفِّ عَشْرةَ

(١) يُنظر: ((تأمّلات لُغوية في آيتين)) لخالد بن إبراهيم النملة (موقع البيان).

أحرفٍ؛ ووجْهُ ذلك أنَّ زيادةَ آيةِ التَّوبةِ مُقابَلٌ بها ما ورَد من الطُّولِ في المحكيِّ في هذِه السُّورةِ مِن قولِ الطائفتَينِ مِن اليَهودِ والنَّصارَى؛ قال تعالى حاكيًا عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ...﴾ الآيةَ [التوبة: ٣٠]؛ فوقَع في المحكيِّ هنا طُولٌ اقتَضى ما بُني جوابًا عليه؛ ليتناسَبَ. وأمَّا آيةُ الصَّف فمُقابَلٌ بها قولُ عيسى عليه السَّلامُ لَمَّا قال لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، ثم قال تَعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، وإنَّما الجوابُ على المحكيِّ مِن قولِهم خاصَّةً، وهو قولهم: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وليس هذا في الطُّولِ وعِدَّةِ الكَلِمِ المحكيِّ في سُورة بَراءة؛ فالواقعُ في سُورةِ بَراءة سِتُّ كَلِماتٍ، وفي الصَّفِّ ثلاثُ كَلِماتٍ، ثمَّ إنَّ الواقِعَ في سُورةِ بَراءة مقالُ طَائفتَينِ (اليهود والنَّصارى) مُفْصَحًا به، والواقِعَ في الصَّفِّ مقالةُ طَائفةٍ واحدةٍ، وهذا مُراعًى؛ فوَرَد كلٌّ مِن الآيتَينِ مُناسِبًا لِمَا اتَّصل به وعلى ما يَجِبُ في السُّورتَينِ[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٨-٢٢٩).

الآيتان (٢٤-٢٥)

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَكۡنِزُونَ﴾: أي: يَجمَعونَ، والكَنْزُ: جعلُ المالِ بعضِه على بعضٍ وحفظُه. وكلُّ ما لم تؤدَّ زكاتُه فهو كنزٌ، وأَصلُ (كنز) يدلُّ على تجَمُّعٍ في الشَّيءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: يا أيُّها الذين آمَنوا، إنَّ كَثيرًا مِن عُلَماءِ اليَهودِ، وعُبَّادِ النَّصارى، يتمَلَّكونَ أموالَ النَّاسِ بِغَيرِ حَقٍّ، ويُعْرِضونَ عن الحَقِّ، ويَصُدُّونَ النَّاسَ عنه، والذين يَجمَعونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ، ولا يُخرِجونَ حُقوقَ الله منها، ولا يُنفِقونَ منها في سَبيلِ الله فبَشِّرْهم- يا مُحمَّدُ- بعذابٍ مُوجِعٍ، يومَ يُوقَدُ على كُنُوزِهم في نارِ جَهنَّمَ، فتُكوَى بها جِباهُهم، وجُنُوبهم وظُهورُهم، ويقالُ لهم توبيخًا وتهكُّمًا: هذا ما جَمَعْتُم لأنفُسِكم، فذُوقوا عذابَ ما كُنتُم تكنِزونَه.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٤).

أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ جلَّ وعلا أنَّ اليَهودَ والنَّصارى اتَّخَذوا أحبارَهم ورُهبانَهم أربابًا؛ بيَّنَ أنَّ الرُّهبانَ والأحبارَ لا ينبغي اتِّخاذُهم أربابًا؛ لأنَّ أكثَرَهم فَجَرةٌ غيرُ مُستَقيمينَ[١].

وأيضًا لَمَّا وصَفَ اللهُ تعالى رؤساءَ اليَهودِ والنَّصارى بالتكَبُّرِ والتَّجبُّرِ، وادِّعاءِ الرُّبوبيَّةِ والترفُّعِ على الخَلقِ؛ وصَفَهم في هذه الآيةِ بالطَّمَعِ والحِرصِ على أخذِ أموالِ النَّاسِ؛ تنبيهًا على أنَّ المَقصودَ مِن إظهارِ تلك الربوبيَّةِ والتجبُّرِ والفَخرِ، أخذُ أموالِ النَّاسِ بالباطِلِ[٢]، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

أي: يا أيُّها المُؤمِنونَ، إنَّ كثيرًا[٣] مِن عُلَماءِ اليهودِ وعُبَّادِ النَّصارى، يتملَّكونَ أموالَ النَّاسِ بِغَيرِ حَقٍّ[٤]؛ فاحْذَروا التشبُّه بعُلَماءِ السُّوءِ، والعُبَّادِ الضالِّينَ، ولا

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٣-٣٤).

(٣) قال ابن عاشور: (أسنَدَ الحُكمَ إلى كثيرٍ منهم دونَ جمَيعِهم؛ لأنَّهم لم يَخْلُوا من وجودِ الصَّالحينَ فيهم، مثل عبدِ الله ابنِ سَلَام، ومُخَيريقٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٥).

(٤) قال ابن عاشور: (الباطِلُ يشملُ وجوهًا كثيرةً؛ منها: تغييرُ الأحكامِ الدِّينيةِ؛ لِمُوافَقةِ أهواءِ النَّاسِ. ومنها: القضاءُ بين النَّاسِ بغيرِ إعطاءِ صاحِبِ الحَقِّ حَقَّه المُعَيَّنَ له في الشَّريعةِ. ومنها: جَحْدُ الأماناتِ عن أربابِها أو عن ورَثَتِهم. ومنها: أكلُ أموالِ اليتامى وأموالِ الأوقافِ والصَّدَقاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٩، ٤٤٠).

تكونُوا مِثْلَهم[١].

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾.

أي: ويُعرِضُ أولئك الأحبارُ والرُّهبانُ عن اتِّباعِ الحَقِّ، ويَمنعونَ النَّاسَ عن الدُّخولِ في الإسلامِ[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾؛ عطَف عليه قولَه هذا، والمناسبةُ بينَهما: أنَّ كلتا الجملتين تنبيهٌ على مساوي أقوامٍ يضعُهم الناسُ في مقاماتِ الرفعةِ والسؤددِ، وليسوا أهلًا لذلك، فمضمونُ الجملةِ الأُولَى بيانُ مساوي أقوامٍ رفَع الناسُ أقدارَهم لعلمِهم ودينِهم، وكانوا منطوينَ على خبائثَ خفيةٍ، ومضمونُ الجملةِ الثانيةِ بيانُ مساوي أقوامٍ رفعَهم الناسُ لأجلِ أموالِهم، فبيَّن الله أنَّ تلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٤١)، (٢٨/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٨).

قال ابنُ عاشور: (الصدُّ عن سبيلِ الله: الإعراضُ عن متابعةِ الدِّينِ الحَقِّ في خاصَّةِ النَّفسِ، وإغراءُ النَّاسِ بالإعراضِ عن ذلك، فيكون هذا بالنِّسبةِ لأحكامِ دينِهم؛ إذ يُغَيِّرونَ العمَلَ بها، ويُضَلِّلونَ العامَّةَ في حقيقَتِها، حتى يَعمَلوا بخلافِها، وهم يَحسَبونَ أنَّهم مُتَّبِعونَ لِدينِهم، ويكونُ ذلك أيضًا بالنِّسبةِ إلى دِينِ الإسلامِ؛ إذ يُنكِرونَ نُبوَّةَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُعلِّمونَ أتباعَ مِلَّتِهم أنَّ الإسلامَ ليس بِدِينِ الحَقِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٥).

الأموالَ إذا لم تنفقْ في سبيلِ الله لا تُغني عنهم شيئًا مِن العذابِ[١]؛ فإنَّ الناسَ عالةٌ على العلماءِ، وعلى العبَّادِ، وعلى أربابِ الأموالِ، فإذا فسَدتْ أحوالُ هؤلاء فسَدتْ أحوالُ الناسِ[٢].

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ مَنسوخةٌ بقَولِه تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٣] [التوبة: ١٠٣].

عن خالد بنِ أسلمَ، قال: (خرَجْنا مع عبدِ الله بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، فقال أعرابيٌّ: أخبِرْني عن قَولِ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال ابنُ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما: مَن كَنَزَها فلم يُؤَدِّ زَكاتَها، فوَيلٌ له؛ إنَّما كان هذا قَبلَ أن تُنزَلَ الزَّكاةُ[٤]، فلما أُنزِلَت جعَلَها اللهُ طُهرًا للأموالِ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٨).

(٣) وهو قولُ ابنِ عُمَرَ، وعُمرَ بن عبد العزيز، وعِراكِ بنِ مالكٍ، وهبَةِ الله بن سلامة المُقري، وابن حزم، وابن البارزي، ومرعي الحنبلي. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للمقري (ص: ٩٩)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨)، ((ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه)) لابن البارزي (ص: ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٩)، ((قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن)) لمرعي الحنبلي (ص: ١١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١٧).

(٤) قال ابن حجر: (قولُه: «إنَّما كان هذا قبلَ أَنْ تَنْزِلَ الزَّكاةُ» هذا مُشْعِرٌ بأنَّ الوَعيدَ على الاكْتِنازِ، وهو حَبْسُ ما فَضَلَ عَنِ الحاجَةِ عَنِ المُواساةِ به كان في أَوَّلِ الإسلامِ ثُمَّ نُسِخَ ذلك بفَرْضِ الزَّكاةِ، لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ الفُتوحَ، وقُدِّرَتْ نُصُبُ الزَّكاةِ، فعلى هذا المُرادُ بنُزولِ الزَّكَاةِ بَيانُ نُصُبِها ومَقاديرِها، لا إنْزالُ أصْلِها، والله أعلم). ((فتح الباري)) (٣/ ٢٧٣).

(٥) رواه البخاري (١٤٠٤).

قال محمد رشيد رضا: (المرادُ: أنَّ هذا الحُكمَ- وهو وجوبُ إنفاقِ كُلِّ ما يملِكُ المؤمِنُ مِن النَّقدَينِ- كان في أوَّلِ الإسلامِ، وقَبلَ فَرْضِ الزَّكاةِ، وليس معناه أنَّ آيةَ براءة هذه نزلت قبل

وقيل: الآيةُ مُحكَمةٌ، ولا نَسْخَ فيها[١].

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

إيجابِ الزَّكاةِ؛ لِما عليه الجمهورُ مِن أنَّ الزَّكاة فُرِضَت في السَّنَةِ الثانية من الهجرةِ، وبراءة نزَلَت سنةَ تِسعٍ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٣٥١).

(١) وهو قول جمهور المفسرين. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٩٥)، ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٤٦٧-٤٦٨).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اختلف المفَسِّرون في هذه الآية على ثلاثةِ أقوال:... الثالث: أنها في المسلمينَ، قاله ابن عباس والسُّدِّي، وفي المراد بالإنفاقِ هاهنا قولان: أحدهما: إخراجُ الزكاةِ، وهذا مذهَبُ الجمهور، والآيةُ على هذا مُحكَمةٌ... والثاني: أن المرادَ بالإنفاقِ إخراجُ ما فضَلَ عن الحاجةِ، وقد زعم بعضُ نَقَلةِ التَّفسيرِ: أنَّه كان يجب عليهم إخراجُ ذلك في أوَّلِ الإسلامِ، ثم نُسِخَ بالزكاةِ، وفي هذا القَولِ بُعدٌ). ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٤٦٧-٤٦٨).

وقال البغوي: (الآيةُ نزَلَت في مَنْعِ الزَّكاةِ، لا في جَمْعِ المالِ الحلالِ؛ قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «نِعْمَ المالُ الصَّالِحُ، للرَّجُلِ الصَّالِحِ»). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٤٣).

وقال ابن عاشور: (وجهُ مُناسَبةِ نُزولِ هذه الآيةِ في هذه السُّورةِ: أنَّ هذه السُّورةَ نَزَلت إثرَ غَزوةِ تَبوكَ، وكانت غزوةُ تَبوكَ في وقتِ عُسرةٍ، وكانت الحاجةُ إلى العُدَّةِ والظَّهرِ كثيرةً، كما أشارت إليه آيةُ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، وقد ورد في السِّيرةِ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حضَّ أهلَ الغِنى على النَّفَقةِ والحملانِ في سبيلِ اللهِ، وقد أنفق عثمانُ ابنُ عَفَّان ألفَ دينارٍ ذَهبًا على جيشِ غَزوةِ تَبوك، وحمَل كثيرٌ مِن أهل الغِنى، فالذين انكَمَشوا عن النَّفَقةِ هم الذين عَنَتْهم الآيةُ بـ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولا شَكَّ أنَّهم من المنافقين... والوعيدُ مَنوطٌ بالكَنزِ وعَدَمِ الإنفاقِ، فليس الكَنزُ وَحْدَه بمُتَوَعَّدٍ عليه، وليست الآيةُ في مَعرِضِ أحكامِ ادِّخارِ المال، وفي مَعرِضِ إيجابِ الإنفاقِ، ولا هي في تعيينِ سُبُلِ البِرِّ والمعروفِ التي يجِبُ الإخراجُ لأجْلِها من المالِ، ولا داعيَ إلى تأويلِ الكَنزِ بالمال الذي لم تؤَدَّ زَكاتُه حين وجوبِها، ولا إلى تأويلِ الإنفاقِ بأداءِ الزَّكاةِ الواجبة، ولا إلى تأويلِ سبيلِ الله بالصَّدَقاتِ الواجبة؛ لأنَّه ليس المرادُ باسمِ الموصول العمومَ، بل أُريدَ به العهدُ، فلا حاجة إلى ادِّعاءِ أنَّها نسَخَتْها آيةُ وُجوبِ الزكاة؛ فإنَّ وُجوبَ الزَّكاةِ سابِقٌ على وقتِ نُزولِ هذه الآيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٦، ١٧٧).

أي: والذين يَجمَعونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ بعضَها إلى بعضٍ، ويُمسِكُونَها، ولا يُخرِجونَ حقوقَ الله منها- مِن الزَّكاةِ والنَّفَقاتِ الواجِبةِ، وبَذْلِها في الجهادِ- فبَشِّرْهم يا مُحمَّدُ بعذابٍ مُوجِعٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٤، ٤٣٣، ٤٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٦، ١٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥٦).

قال الواحدي: (الأكثرونَ على أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ...﴾ إلى آخره، مُستأنَفٌ نازِلٌ في هذه الأمَّةِ ... واختلفوا في المرادِ بهذا الكَنزِ، وتَركِ هذا الإنفاقِ؛ فالذي عليه الأكثرونَ -وهو الإجماعُ اليَومَ- أنَّ المُرادَ بهذا الكَنزِ: هو جَمعُ المالِ الذي لا تؤدَّى زكاتُه). ((البسيط)) (١٠/ ٣٩٣، ٣٩٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١٨).

وقال القرطبي: (قال أبو ذَرٍّ وغيرُه: المرادُ بها: أهلُ الكتابِ وغَيرُهم مِن المسلمينَ، وهو الصَّحيحُ؛ لأنه لو أراد أهلَ الكِتابِ خاصَّةً، لقال: ويَكنِزونَ، بغيرِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٣). ويُنظر: ((صحيح ابن خزيمة)) (٤/ ٩،١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١٨).

وقال الشنقيطي: (كان أبو ذرٍّ رَضِيَ الله عنه عنده مذهَبٌ مَعروفٌ مُخالِفٌ لِجَميعِ أقوال الصَّحابةِ، يضيقُ في اقتناءِ المال، وكان رضي اللهُ عنه يقول: إنَّ الإنسانَ إذا ادَّخَرَ شيئًا زائدًا عن خَلَّتِه الضروريَّةِ، فهو كنزٌ يُكوى به وَجهُه وظَهرُه وجَنبُه، وكان يذكُرُ هذا للنَّاسِ؛ ومن أجلِ هذا أمَرَه عُثمانُ رَضِيَ الله عنه أيَّامَ خِلافتِه أن يخرُجَ إلى الربذةِ، وتوفِّي بها رضي الله عنه وأرضاه، وأبو ذَرٍّ معذورٌ؛ لأنه جاء النبيَّ في أوَّلِ الإسلامِ، وكان المسلمون في أوَّلِ الإسلامِ فُقَراءَ ليس عندهم شيءٌ، وكان التَّشديدُ في إمساكِ الذَّهَبِ والفضَّةِ في ذلك الوقتِ عَظيمًا، فسَمِعَ من النبيِّ شَيئًا ورجع إلى أهلِه بالباديةِ، ثم أنزل اللهُ فريضةَ الزَّكاةِ، وكثُرَ المال واتَّسعَ الأمر، وزال التَّشديدُ، ولم يَعلَمْ رَضِيَ الله عنه بشيءٍ من ذلك، فصار على التَّشديدِ الأوَّلِ؛ لأنَّه سَمِعَه من رسولِ الله، ولم يسمَعْ ما طرأ بعد ذلك). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٥٤).

وقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ * كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ١ - ٤].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((همُ الأخسَرونَ وربِّ الكعبةِ. فقلتُ: يا رسولَ الله، فِدَاك أبي وأمِّي، مَن هُم؟ قال: هم الأكثَرونَ أموالًا، إلَّا من قال هكذا وهكذا وهكذا- مِن بينِ يَدَيه ومِن خَلْفِه وعن يَمينِه وعن شِمالِه- وقليلٌ ما هم، ما مِن صاحِبِ إبلٍ ولا بقَرٍ ولا غَنَمٍ، لا يُؤدِّي زكاتَها، إلَّا جاءت يومَ القيامةِ أعظَمَ ما كانت وأسْمَنَه، تنطَحُه بِقُرونِها، وتَطَؤُه بأظلافِها، كلَّما نَفِدَت أُخْراها، عادت عليه أُولاها، حتى يُقضَى بين النَّاسِ))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((مَن آتاه اللهُ مالاً فلم يؤَدِّ زَكاتَه؛ مُثِّلَ له مالُه شُجاعًا أقرَعَ[٢] له زَبِيبَتانِ[٣]، يُطَوَّقُه يومَ القِيامةِ، يأخُذُ بلِهْزِمَتَيه- يعني بشِدْقَيه- يقولُ: أنا مالُك، أنا كَنْزُك. ثمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾... إلى آخرِ الآيةِ))[٤].

وعن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: ((كنتُ ألبَسُ أوْضاحًا[٥] مِن ذَهَبٍ، فقُلتُ: يا رسولَ الله، أكَنْزٌ هو؟ فقال: ما بلَغَ أن تُؤدَّى زكاتُه فزُكِّيَ، فليس بكَنزٍ))[٦].

---

(١) رواه البخاري (٦٦٣٨)، ومسلم (٩٩٠) واللفظ له.

(٢) أقرع: أي الذي لا شَعْرَ على رأسِه؛ لِكَثرةِ سَمِّه، وطُولِ عُمُرِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٤/ ١٢٦٧).

(٣) الزَّبيبةُ: نُكْتة سوداءُ فوقَ عين الحَيَّة وقيل غير ذلك. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٧٠٤).

(٤) رواه البخاري (٤٥٦٥).

(٥) أوْضاح: جمعُ وَضَحٍ: نوعٌ من الحَلْيِ، يُعمَلُ مِن الفِضَّةِ، سُمِّيَ به لبياضِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٤/ ١٢٩٥).

(٦) رواه أبو داود (١٥٦٤)، والطبراني (٢٣/ ٢٨١) (٦١٣)، والحاكم (١/ ٥٤٧)، والبيهقي (٤/ ٨٣) (٧٤٨٥).

وعن ثَوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نَزلَ في الفِضَّةِ والذَّهَبِ ما نَزلَ، قالوا: فأيَّ المالِ نتَّخِذُ؟ قال عُمَرُ: فأنا أعلَمُ لكم ذلك. فأوضَعَ على بَعيرِه، فأدرَكَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنا في أثَرِه، فقال: يا رسولَ الله، أيَّ المالِ نَتَّخِذُ؟ فقال: ليتَّخِذْ أحدُكم قَلبًا شاكرًا، ولِسانًا ذاكرًا، وزوجةً مُؤمِنةً تُعِينُ أحَدَكم على أمْرِ الآخِرةِ))[1].

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾.

أي: يومَ[2] يُوقَدُ فيه على كُنوزِهم في نارِ جَهنَّمَ، فتُحرق بالذَّهَبِ والفِضَّةِ المَكنُوزةِ جِباهُهم وجُنوبُهم وظهورُهم[3].

حسَّنه ابن الملقِّن في ((شرح البخاري)) (١٠/ ٤٣٩)، وحسن الألبانيُّ في ((ضعيف سنن أبي داود)) (١٥٦٤) المرفوع منه فقط، وحسَّن إسناده النوويُّ في ((المجموع)) (٦/ ١٣)، وصحَّحه ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ١٠٤).

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٤) بنحوه، وابن ماجه (١٨٥٦) واللفظ له، وأحمد (٢٢٤٣٧).
حسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (١٥١٧).

(٢) قال ابنُ جريرٍ: (فاليومُ مِن صِلَةِ العذابِ الأليمِ، كأنَّه قِيل: يُبَشِّرُهم بعذابٍ أليمٍ يُعَذِّبُهم الله به في يومِ يُحْمَى عليها). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٣٦).
وقال القرطبيُّ: («يَوْمَ» ظرفٌ، والتَّقديرُ يُعذَّبونَ يومَ يُحْمَى. ولا يصحُّ أنْ يكونَ على تقديرِ: فبشِّرْهم يومَ يُحْمَى عليها؛ لأنَّ البشارةَ لا تكونُ حينَئِذٍ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦).
قال الواحدي: (قال المفسِّرون: من كان له مالٌ في الدُّنيا لم يؤدِّ زَكاتَه، أُحمِيَ دراهمُه ودنانيرُه في نارِ جهنَّم، وكُوِيَ بها في هذه المواضِعِ؛ لا يُوضَعُ دينارٌ مكانَ دِينارٍ، ولا دِرهَمٌ مكانَ دِرهَمٍ،

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن صاحِبِ ذَهَبٍ ولا فِضَّةٍ، لا يؤدِّي منها حَقَّها، إلَّا إذا كان يومُ القِيامةِ، صُفِّحَت له صفائحَ[١] مِن نارٍ، فأُحمِيَ عليها في نارِ جَهنَّمَ، فيُكوى بها جَنْبُه وجَبِينُه وظَهْرُه، كُلَّما بَرُدَت أُعِيدَت له، في يومٍ كان مِقدارُه خَمسينَ ألفَ سَنَةٍ، حتى يُقضَى بين العِبادِ، فيُرى سَبيلَه؛ إمَّا إلى الجنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ))[٢].

وعن أبي ذَرٍّ الغفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (بَشِّرِ الكانزينَ بِرَضْفٍ[٣] يُحْمَى عليه في نارِ جهنَّمَ، ثم يُوضَعُ على حَلَمَةِ ثَدْيِ أحَدِهم حتى يَخرُجَ من نُغْضِ[٤] كَتِفِه، ويُوضَعُ على نُغْضِ كَتِفِه حتى يَخرُجَ مِن حَلَمَةِ ثَدْيِه، يتزَلزَلُ[٥])[٦].

ولكن يُوسَّعُ جِلْدُه، فيُوضَعُ بكُلِّ دِرهمٍ ودينارٍ كَيَّةٌ على جِلْدِه»، وهذا معنى قولِ ابنِ مَسعودٍ وابنِ عبَّاسٍ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٠٣).

وقال ابن عاشور: (كيفيَّةُ إحضارِ تلك الدَّراهم والدَّنانيرِ لِتُحمى؛ مِن شُؤونِ الآخرةِ الخارِقةِ للعاداتِ المألوفةِ، فبقدرةِ الله تُحضَرُ تلك الدَّنانيرُ والدَّراهمُ أو أمثالُها، كما ورد في حديثِ مانعِ الزكاةِ في المُوطَّأِ والصَّحيحين أنَّه «يُمثَّلُ له مالُه شُجاعًا أقرَعَ يأخُذُ بِلِهزِمَتَيه، يقول: أنا مالُك، أنا كَنْزُك»، وبقدرة الله يُكوى المُمتَنِعون من إنفاقِها في سبيلِ الله، وإن كانت قد تَداوَلَ أعيانَها خَلْقٌ كَثيرٌ في الدُّنيا، بانتقالها من يدٍ إلى يدٍ، ومن بلدٍ إلى بلدٍ، ومن عصرٍ إلى عصرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٩).

(١) صُفِّحَت له صفائِحَ: تصفيحُ الشَّيءِ: جَعْلُه عَريضًا، والصفائح: جَمعُ صَفيحةٍ؛ مِن صَفَّحْتُ الشَّيءَ: إذا بسطْتَه. يُنظر: ((الميسر في شرح مصابيح السنة)) للتوربشتي (٢/ ٤٠٩)، ((نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار)) للعيني (٨/ ٧٩).

(٢) رواه مسلم (٩٨٧).

(٣) الرَّضْف: الحِجَارَةُ المُحْمَاةُ على النَّار. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٣١)، ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٧٧).

(٤) النُّغْض: هو العَظمُ الرَّقيقُ على طَرَفِ الكَتِف. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٧٨).

(٥) الزَّلْزَلَةُ في الأصْل: الحَرَكَةُ العظيمةُ والإزعاجُ الشديدُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٨).

قال النوويُّ: (قولُه «يتزلزل» أي يتحرَّك. قال القاضي: قيل: معناه أنَّه بسببِ نضجِه يتحرَّك لكونِه يهتري، قال: والصوابُ أنَّ الحركةَ والتزلزلَ إنَّما هو للرضفِ، أي يتحرَّك من نغضِ كتفِه حتَّى يخرجَ مِن حلمةِ ثديِه) ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٧٨).

(٦) رواه البخاري (١٤٠٧) واللفظ له، ومسلم (٩٩٢).

﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

أي: يُقالُ تَوبيخًا وتَهكُّمًا مِن الذينَ تُكوَى جِباهُهم وجُنوبُهم وظُهورُهم، بِكُنوزِهم: هذا الذي تُكْوَونَ به في النَّارِ[١] هو ما جَمَعْتُم في الدُّنيا لأنفُسِكم، دونَ أن تُؤَدُّوا حُقوقَ الله فيه، فاطعَمُوا عذابَ هذا الذي كُنتُم تَكْنِزونَه[٢].

عن جابِرِ بنِ عبدِ الله رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما من صاحِبِ إبلٍ ولا بقَرٍ ولا غَنَمٍ، لا يؤدِّي حَقَّها، إلا أُقعِدَ لها يومَ القيامةِ بِقَاعٍ قَرقَرٍ[٣] تطؤُه ذاتُ الظِّلْفِ بظِلْفِها[٤] وتنطَحُه ذاتُ القَرنِ بقَرنِها، ليس فيها يومَئذٍ جمَّاءُ[٥] ولا مكسورةُ القرْنِ. قلْنا: يا رسولَ الله، وما حَقُّها؟ قال: إطراقُ فَحْلِها[٦]، وإعارةُ دَلْوِها، ومَنِيحَتُها[٧]، وحَلْبُها على الماءِ، وحَملٌ عليها في سبيلِ الله. ولا مِن صاحِبِ مالٍ لا يُؤَدِّي زكاتَه، إلَّا تَحوَّلَ يومَ القِيامةِ شُجاعًا أقرَعَ، يَتْبَعُ صاحِبَه حيثما ذهَبَ، وهو يفِرُّ منه، ويُقال: هذا مالُك الذي كنْتَ تَبخَلُ به، فإذا

---

(١) قال ابن عطية: (قوله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ إشارةٌ إلى المالِ الذي كُوِيَ به، ويحتملُ أن تكونَ إلى الفِعلِ النَّازلِ بهم، أي: هذا جزاءُ ما كَنَزْتُم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٠٤، ٤٠٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٠).

(٣) القَرقَر: هو المكانُ الواسِعُ المُستَوي. يُنظر: ((حاشية السيوطي على سنن النسائي)) (٥/ ١٣).

(٤) الظِّلفُ: هو للبَقَر والغَنَم كالحافِرِ للفَرَس والبغل، والخُفِّ للبَعيرِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٥٩).

(٥) الجمَّاءُ: التي لا قَرْنَ لها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٠٠).

(٦) إطراقُ فَحلِها: أي: إنزاؤُه. يقال: طرَقَ الفَحلُ النَّاقةَ: إذا نزا عليها. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٤٢٠).

(٧) المنيحةُ: ناقةٌ أو بقَرةٌ أو شاةٌ ينتفِعُ بلَبَنِها ووَبَرِها وصُوفِها وشَعرِها زمانًا ثم يردُّها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٧٢).

رأى أنَّه لا بُدَّ منه، أدخلَ يدَه في فِيه، فجعلَ يَقضَمُها[١] كما يَقْضَمُ الفَحلُ))[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ...﴾ هذا تحذيرٌ مِن الله تعالى لعبادِه المؤمنينَ عن كثيرٍ مِن العُلَماءِ والعُبَّادِ، الذين يأكلونَ أموالَ النَّاسِ بِغَيرِ حقٍّ، ويصُدُّونَ عن سَبيلِ الله؛ فإنَّهم إذا كانت لهم رواتِبُ مِن أموالِ النَّاسِ، أو بذَلَ النَّاسُ لهم من أموالِهم، فإنَّه لأجْلِ عِلْمِهم وعِبادَتِهم، ولأجْلِ هُداهم وهدايَتِهم، وهؤلاءِ يأخُذُونها، ويصُدُّونَ النَّاسَ عن سبيل الله، فيكونُ أخْذُهم لها على هذا الوَجه سُحتًا وظُلمًا؛ فإنَّ النَّاسَ ما بَذَلوا لهم مِن أموالِهم، إلَّا لِيَدُلُّوهم إلى الطَّريقِ المستقيم، ومِن أخْذِهم لأموالِ النَّاسِ بِغَيرِ حَقٍّ: أن يُعطُوهم لِيُفتُوهم، أو يَحكُموا لهم بِغَيرِ ما أنزَلَ اللهُ، فهؤلاءِ الأحبارُ والرُّهبانُ، لِيُحذَرْ منهم هاتانِ الحالتانِ: أخْذُهم لأموالِ النَّاسِ بغَيرِ حَقٍّ، وصَدُّهم النَّاسَ عن سَبيلِ الله[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ذكَرَ اللهُ هنا انحرافَ الإنسانِ في مالِه، وذلك بأحَدِ أمرَينِ: إمَّا أن يُنفِقَه في الباطِلِ الذي لا يُجدِي عليه نَفعًا، بل لا يَنالُه منه إلَّا الضَّرَرُ

(١) يَقضَمُها: أي: يأكُلُها. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٣/ ٥٠٠).

(٢) رواه مسلم (٩٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥، ٣٣٦).

المَحْضُ، وذلك كإخراجِ الأموالِ في المعاصِي والشَّهَواتِ، التي لا تُعِينُ على طاعةِ الله، وإخراجِها للصَّدِّ عن سبيلِ الله. وإمَّا أن يُمسِكَ مالَه عن إخراجِه في الواجِباتِ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فيه تحذيرُ المُؤمِنينَ مِن حالِ الذين صار جمْعُ الأموالِ، والافتِتانُ بِكَثرَتِها، وخَزْنُها في الصَّناديقِ، أعظَمَ هَمِّهم في الحياةِ[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إنْ قيل: مَن لم يكْنِزْ ولم يُنفِقْ في سبيلِ الله، وأنفَقَ في المعاصي، هل يكونُ حُكمُه في الوعيدِ حُكمَ مَن كنَزَ ولم يُنفِقْ في سبيلِ الله؟

قيل له: إنَّ ذلك أشَدُّ؛ فإنَّ مَن بذَّرَ مالَه في المعاصِي، عصى من جِهَتينِ: بالإنفاقِ والتَّناوُلِ، كشِراءِ الخَمرِ وشُربِها. بل من جهاتٍ إذا كانت المعصيةُ ممَّا تتعَدَّى، كمن أعان على ظُلمِ مُسلمٍ؛ مِن قَتلِه أو أخْذِ مالِه، إلى غيرِ ذلك. والكانِزُ عصى من جِهَتينِ، وهما منعُ الزَّكاةِ، وحَبسُ المالِ لا غيرُ، وقد لا يُراعى حبسُ المالِ. واللهُ أعلمُ[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا يندرِجُ فيه مَن كنَزَ المالَ عن النَّفَقةِ الواجبةِ في سبيل الله.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٨).

والجهادُ أحَقُّ الأعمالِ باسمِ سَبيلِ الله، سواءٌ كان مَلِكًا أو مُقَدَّمًا، أو غَنِيًّا أو غيرَ ذلك. وإذا دخَلَ في هذا ما كُنِزَ من المالِ المَورُوثِ والمكسوبِ، فما كُنِزَ مِن الأموالِ المُشتَرَكةِ التي يستحِقُّها عمومُ الأمَّةِ- ومُستَحَقُّها: مصالِحُهم- أَوْلى وأَحْرى[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ ذمٌّ ووعيدٌ لِمَن يمنعُ حقوقَ مالِه الواجبةَ، مِن الزَّكاةِ وصِلَةِ الرَّحِمِ، وقِرَى الضَّيفِ، والإنفاقِ في النَّوائِبِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ ...﴾ حُجَّةٌ لِمَن قال: إنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّريعةِ؛ وذلك على القولِ بأنَّ الآيةَ نزَلَت في أهلِ الكِتابِ[٣].

٨- من أحَبَّ شَيئًا وقَدَّمَه على طاعةِ الله، عُذِّبَ به؛ قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾؛ فهؤلاء لَمَّا كان جمعُ هذه الأموالِ آثَرَ عِندَهم مِن رِضا الله عنهم، عُذِّبوا بها[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٤٠).
(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٣٦).
(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٢٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤١).

لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إسنادُ هذه الجريمةِ المُزرِيةِ إلى الكَثيرينَ منهم دونَ جَميعِهم، مِن دقائِقِ تَحرِّي الحَقِّ في عباراتِ الكتابِ العَزيزِ؛ فهو لا يحكُمُ على الأمَّةِ الكبيرةِ بِفَسادِ جَميعِ أفرادِها، أو فِسْقِهم أو ظُلْمِهم، بل يُسنِدُ ذلك إلى الكثيرِ أو الأكثَرِ، أو يُطلِقُ اللَّفظَ العامَّ ثمَّ يستثني منه[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إطلاقُ الأكلِ على أخْذِ مالِ الغَيرِ، إطلاقٌ شائِعٌ؛ قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾[2] [الفجر: ١٩].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أفرَدَ الضَّميرَ في ﴿يُنفِقُونَهَا﴾ مع تقدُّمِ اثنَينِ ﴿ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾؛ لِيدُلَّ على الأنواعِ الكثيرةِ، أي: يُنفِقونَ ما وجَبَ عليهم من هذه الأموالِ التي جَمَعوها من هَذينِ النَّوعَينِ مُجتَمِعَينِ أو مُنفَرِدَينِ. ولو ثَنَّى لأوهَمَ أنَّ اجتماعَهما شَرطٌ للتَّرهيبِ. وقيل: يجوزُ أن يعودَ الضَّميرُ إلى الفِضَّةِ؛ لأنَّ الذَّمَّ على كَنْزِها، والحاجةَ إليها -لِكَثرَتِها- أقَلُّ، فالذَّمُّ على كَنزِ الذَّهَبِ مِن بابِ الأوْلى؛ لأنَّه أعلى منها وأعَزُّ. وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى المعنى دونَ اللَّفْظِ؛ لأنَّ المكنوزَ دراهمُ ودَنانيرُ، لأنَّ كُلَّ واحدٍ مِنْهما جُمْلةٌ وافيةٌ، وعِدةٌ كثيرةٌ ودنانيرُ ودراهمُ؛ فهو كقولِه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٢٨).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فأخبِرْهم على سبيلِ التهكُّم؛ لأنَّ الذينَ يكنِزونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ، إنَّما يكنِزونَهما ليتَوَسَّلوا بهما إلى تحصيلِ الفَرَجِ يومَ الحاجةِ. فقيل: هذا هو الفَرَجُ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡ﴾ قدَّمَ الجِباهَ ثمَّ الجُنُوبَ؛ لأنَّ مانعَ الصَّدَقةِ في الدُّنيا كان يَصرِفُ وَجْهَه أوَّلًا عن السَّائِلِ، ثم يَنُوءُ بِجانبِه، ثمَّ يتولَّى بِظَهْرِه[٢].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ افْتِتاحُ الجُمْلةِ بالنِّداءِ، واقْترانُها بحَرْفَي التَّأكيدِ (إنَّ، واللام)؛ للاهْتِمامِ بِمَضْمونِها، ورفْعِ احْتِمالِ المُبالغةِ فيه لَغَرابتِه[٣].

- وقولُه: ﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ فيه التَّعبيرُ بالأَكْلِ؛ بِناءً على أنَّهُ مُعْظَمُ الغَرَضِ مِنَ المالِ، وتَقْبيحًا لحالِهم، وتَنْفيرًا للسَّامِعينَ عنهم[٤].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ على القول بأنَّ الاسمَ الموصولَ (الذين) عِبارةٌ عَنِ الكثيرِ مِنَ الأَحْبارِ والرُّهبانِ؛ فيَكونُ مبالغةً في الوَصْفِ بالحِرْصِ والضَّنِّ بهما بَعْدَ وَصْفِهِمْ بما سَبَقَ مِنْ أَخْذِ الرِّشا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٨).
(٢) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٢٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وعلى القولِ بأنَّ الموصولَ (الذين) عِبارةٌ عَنِ الكانزينَ مِنَ المُسلِمينَ؛ فيَكونُ قَرَنَ في النَّظْمِ بين الكانِزينَ مِنَ المُسلِمينَ ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾، وبَيْنَ المُرْتَشينَ مِنَ الأحبارِ والرُّهبانِ ﴿إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾؛ تَغليظًا ودَلالةً على أنَّهم سواءٌ في التَّبشيرِ بالعذابِ في قولِه: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[1].

- وفيه تَخْصيصُ الذَّهبِ والفِضَّةِ بالذِّكْرِ مِنْ بين سائرِ الأموالِ؛ لأنَّهما قِيَمُ الأموالِ وأَثْمانُها وقانونُ التَّموُّلِ وأثمانُ الأشياءِ، وهما لا يُكْنَزانِ إلَّا عَنْ فَضْلةٍ عَنِ الحاجةِ وعن كَثْرةٍ، ومَنْ كَثُرا عِنْدَهُ حتَّى يَكْنِزَهُما لَمْ يَعْدَمْ سائرَ أَجْناسِ المالِ؛ فكان ذِكْرُ كَنْزِهما دليلًا على ما سِواهما[2].

٢- ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ ...﴾ فيه إسْنادُ الفِعْلِ المبنيِّ للمَفْعولِ ﴿يُحۡمَىٰ﴾ إلى المَجْرورِ ﴿عَلَيۡهَا﴾؛ لعَدَمِ تَعلُّقِ الغَرَضِ بذِكْرِ المفعولِ المَحْميِّ لظُهورِه؛ إذ هو النَّارُ التي تُحْمى؛ ولذَلِكَ لَمْ يُقْرَنْ بعلامةِ التَّأنيثِ، فكأنَّه قيل: يومَ يَحمِي الحامونَ عليها، وعُدِّي بـ(على)؛ لإفادةِ أنَّ الحَمْيَ تَمَكَّنَ مِنَ الأموالِ بحيثُ تَكْتَسِبُ حرارةَ المَحميِّ كُلَّها، ثُمَّ أُكِّدَ مَعْنى التَّمكُّنِ بمعنى الظَّرفيَّةِ التي في قولِه: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٣).

فصارتِ الأموالُ مَحميَّةً عليها النَّارُ، ومَوضوعةً في النَّارِ[١].

- قولُه: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ فيه تَوبيخٌ لهم؛ إذْ مَعْنى ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾: لِتَنْتَفِعَ بِه أَنْفُسُكم وتَلْتَذَّ، فصار عذابًا لكم، وزيادةُ قولِه: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾؛ للتَّنديمِ والتَّغليظِ[٢].

- وجُمْلةُ: ﴿فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ توبيخٌ وتنديمٌ، والفاءُ في ﴿فَذُوقُوا۟﴾ لتَفْريعِ مَضمونِ جُمْلةِ التَّوبيخِ على جُمْلةِ التَّنديمِ الأُوْلى ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ سُلوكُ مَسْلَكِ الإطنابِ بالتَّعدادِ في التَّعبيرِ عَنِ التَّعميمِ؛ لاسْتِحضارِ حالةِ ذَلِكَ العِقابِ الأليمِ؛ تهويلًا لشأنِه؛ فلذلك لم يَقُلْ: (فتُكْوى بها أجسادُهُمْ)[٤].

- قوله: ﴿مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بالموصوليَّةِ ﴿مَا﴾؛ للتَّنبيه على غَلَطِهم فيما كَنَزوا؛ لقَصْدِ التَّنديمِ[٥]. وفيه إيجازٌ؛ حيثُ أُضْمِرَ القولُ في ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾، أي: يُقالُ لهم وَقْتَ الكَيِّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٨٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٣).

الآيتان (٢٦-٢٧)

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عِدَّةَ﴾: أي: عَدَدَ، وأصل العدِّ: إِحْصاءُ الشيءِ[١].

﴿حُرُمٌ﴾: أي: مُحَرَّمةٌ، وأصلُ (حرم): يدلُّ على مَنعٍ وتَشديدٍ[٢].

﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾: أي: الدينُ الصَّحيحُ المستقيمُ، والحِسابُ الصَّحيحُ، والعدَدُ المُستوِي والمُستوفَى، وأصلُ (قوم): يدلُّ على مُراعاةِ الشَّيءِ وحِفظِه[٣].

﴿ٱلنَّسِىٓءُ﴾: أي: تَأْخيرُ تَحْريمِ المُحَرَّمِ، وأصلُ (نسأ): يدلُّ على تأخيرِ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٩-٦٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣، ٤٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٤).

﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾: أي: لِيُوافِقوا، والمُواطَأةُ: المُوافَقةُ، وأصلُه أن يطَأَ الرَّجُلُ برِجلِه مَوطِئَ صاحِبِه[1].

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عِنده -تعالى- اثنَا عشَرَ شَهرًا، في حكم الله وتقديره المسطَّر في اللوح المحفوظ منذُ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، منها أربَعةٌ يَحرُمُ فيها القتال وانتهاكُ المَحارِمِ أشَدَّ ممَّا يَحرُمُ في غَيرِها، ذلك الدِّينُ المُستَقيمُ، والحسابُ الصَّحيحُ، فلا تَظلِموا فيهنَّ أنفُسَكم بارتكابِكم السَّيِّئاتِ، وقاتِلوا المُشرِكينَ بأجمَعِكم، كما يُقاتِلونكم بأجمَعِهم، واعلَمُوا أنَّ اللهَ مع المتَّقِينَ.

ويُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ تأخيرَ تَحريمِ الأشهُرِ الحُرُمِ، وتغييرَها عمَّا شَرَعه اللهُ تعالى، زيادةٌ في كُفرِ مُشرِكي قُريشٍ، وقد كانوا يُحِلُّونَ شَهرَ مُحَرَّمٍ عامًا، ويَستَبدِلونَ به صَفَرًا، فيَجعَلونَه مُحَرَّمًا، وفي العامِ الذي يليه يَعودونَ لِتَحريمِ مُحَرَّمٍ، يُضِلُّ اللهُ بذلك الكُفَّارَ؛ يُحِلُّونَ ذلك التَّأخيرَ والتَّغييرَ عامًا، ويُحَرِّمونَه عامًا؛ لِيُوافِقُوا بذلك عددَ الأشهُرِ التي حَرَّمها اللهُ كلَّ عامٍ؛ فهم في كلِّ عامٍ لهم أربعةُ أشهُرٍ مُحَرَّمةٌ، كما حَرَّمَ اللهُ أربعةَ أشهُرٍ، لكِنَّهم يُؤَخِّرونَ ويُغَيِّرونَ الأشهُرَ، فيُحِلُّون ما حَرَّمَ اللهُ تعالى، حُسِّنَ لهم قَبيحُ أعمالِهم، واللهُ تعالى لا يُوَفِّقُ للحَقِّ المصرِّين على كفرهم.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ أنواعًا مِن قبائحِ أهلِ الشِّركِ وأهْلِ الكتابِ؛ ذكَرَ أيضًا نوعًا منه، وهو تغييرُ العَرَبِ أحكامَ الله تعالى؛ لأنَّه حَكَمَ في وقتٍ بحُكمٍ خاصٍّ، فإذا غَيَّروا ذلك الوَقتَ، فقد غيَّروا حُكمَ الله[1].

وأيضًا فهذه الآيةُ والتي تَليها عَودٌ إلى الكلامِ في أحوالِ المُشرِكينَ، وما يُشرَعُ مِن مُعامَلَتِهم بعد الفَتحِ، وسُقوطِ عصبيَّةِ الشِّركِ، وكان الكلامُ في قتالِ أهلِ الكِتابِ، وما يجِبُ أن ينتهيَ به من إعطاءِ الجِزيةِ مِن قَبيلِ الاستطرادِ، اقتضاه ما ذَكَرَ قبلَه من أحكامِ قِتالِ المُشرِكينَ ومُعامَلتِهم، وقد ختم الكلامَ في أهلِ الكتابِ ببيانِ حالِ كثيرٍ مِن رجالِ الدِّين الذين أفسدَتْ عليهم دينَهم المطامعُ الماليةُ، وإنذارِ مَن كانت هذه حالَهم بالعذابِ الشديدِ يومَ القيامةِ، وجعلِ هذا الإنذارِ موجهًا إلينا وإليهم جميعًا، ومِن ثمَّ كان التناسبُ بينَ الكلامِ فيما يشتركُ فيه المسلمون معَ أهلِ الكتابِ مِن الوعيدِ على أكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ، وكنزِ النَّقْدين، إلى ما يجبُ أن يخالفوا فيه المشركينَ مِن إبطالِ النسيءِ، ومِن أحكامِ القتالِ- تناسبًا ظاهرًا قويًّا[2].

وأيضًا لَمَّا تقدَّمَ كَثيرٌ ممَّا ينبني على التَّاريخِ: كالحجِّ في غير موضِعٍ، وإتمامِ عَهدِ مَن له مُدَّةٌ إلى مُدَّتِه، والزكاةِ، والجِزيةِ، وخُتِمَ ذلك بالكَنزِ الذي لا يُطلَقُ شَرعًا إلَّا على ما لم تؤَدَّ زَكاتُه، وكان مُشرِكو العَرَبِ، الذين تقدَّمَ الأمرُ بالبراءةِ منهم، والتَّأذينِ بهذه الآياتِ يومَ الحَجِّ الأكبَرِ فيهم، قد أحدَثوا في الأشهُرِ بالنَّسِيءِ الذي أُمِروا أن يُنادُوا في الحَجِّ بإبطالِه، ما غَيَّرَ السِّنينَ عن مَوضُوعِها

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٥٧).

الذي وَضَعَها اللهُ عليه، فضاهَوْا به فِعلَ أهلِ الكتابِ بالتَّدَيُّنِ بتَحليلِ أكابِرِهم وتحريمِهم، كما ضاهَى أولئك قَولَ أهْلِ الشِّركِ في النبوَّةِ والأُبُوَّةِ[١]، قال تعالى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

أي: إنَّ عدَدَ الشُّهورِ في حُكمِ الله وتَقديرِه، اثنا عشَرَ شَهرًا قَمَرِيًّا، مكتوبةٌ في اللَّوحِ المحفوظِ[٢] مُنذُ خَلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم أنَّه قال: ((إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهَيئَتِه يومَ خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ؛ السَّنةُ اثنا عشَرَ شَهرًا، منها أربعةٌ حُرُمٌ، ثلاثةٌ متواليات: ذُو القَعدةِ، وذو الحِجَّةِ، والمُحَرَّمُ، ورجَبُ شَهرُ مُضَرَ، الذي بين جُمادى وشَعبانَ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٤٩).

(٢) قال الواحدي: (﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ قال الواقدي: يعني اللَّوحَ المَحفوظَ، وهو قولُ عامَّةِ أهلِ التَّأويلِ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٠٧، ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٢، ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٠).

قال ابن رجب: (فأخبرَ سبحانه أنَّه منذُ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، وخلقَ اللَّيلَ والنَّهارَ، يدورانِ في الفَلَكِ، وخلَقَ ما في السَّماء من الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجوم، وجعَلَ الشَّمسَ والقمَرَ يسبحانِ في الفَلَك، وينشأ منهما ظُلمةُ الليل وبياضُ النَّهارِ، فمِن حينئذٍ جعَلَ السنةَ اثنَي عشَرَ شَهرًا، بحسب الهلالِ، فالسَّنَةُ في الشَّرعِ مُقدَّرةٌ بِسَيرِ القَمرِ وطُلوعِه، لا بِسَيرِ الشَّمسِ وانتقالِها، كما يفعَلُه أهلُ الكتابِ). ((لطائف المعارف)) (ص: ١١٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦).

(٤) رواه البخاري (٧٤٤٧)، ومسلم (١٦٧٩) واللفظ له.

قال ابن كثيرٍ: (قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الحديثِ: ((إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهَيئَتِه يومَ خَلَقَ

﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾.

أي: مِن هذه الشُّهورِ الاثنَي عشَرَ أربعةُ أشهُرٍ، يَحْرُم انتهاكُ المحارِمِ فيها[1]،

اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ))، تقريرٌ منه- صلواتُ الله وسلامُه عليه- وتثبيتٌ للأمْرِ على ما جعَلَه اللهُ تعالى في أوَّلِ الأمرِ، من غيرِ تَقديمٍ ولا تأخيرٍ، ولا زيادةٍ ولا نَقصٍ، ولا نَسيءٍ ولا تبديلٍ، كما قال في تحريمِ مكة: «إنَّ هذا البلَدَ حَرَّمه اللهُ يومَ خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؛ فهو حرامٌ بحُرمةِ الله إلى يومِ القيامة»، وهكذا قال هاهنا: «إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهَيئَتِه يومَ خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ» أي: الأمرُ اليومَ شَرعًا كما ابتدأ اللهُ ذلك في كتابِه يومَ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ. وقد قال بعض المفسِّرين والمتكلِّمين على هذا الحديثِ: إن المرادَ بقَولِه: «قد استدارَ كهَيئَتِه يومَ خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ» أنَّه اتَّفَقَ أنْ حَجَّ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في تلك السَّنةِ في ذي الحِجَّةِ، وأنَّ العَرَب قد كانت نَسَأتِ النَّسيءَ، يحجُّونَ في كثيرٍ من السنين، بل أكثَرِها، في غير ذي الحِجَّة!! وزعموا أنَّ حَجَّةَ الصِّدِّيقِ في سنةِ تِسعٍ كانت في ذي القَعدةِ! وفي هذا نَظَرٌ». ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤٦). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٣ - ٤٩٥).

(١) اختلف العلماءُ في تحريمِ القتالِ في الأشهرِ الحرمِ؛ فذهَب الجمهورُ إلى أنَّ تحريمَ القتالِ في الأشهرِ الحرمِ منسوخٌ بالأمرِ بقتالِ المشركين حيثما وُجِدوا، في قولِه تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، وممن ذهَب إلى ذلك سعيدُ بنُ المسيبِ، وسليمانُ بنُ يَسارٍ، وقتادةُ، والزهريُّ، وعطاءٌ الخراسانيُّ، وسفيانُ الثوريُّ، وأبو عبيدٍ القاسمُ بنُ سلَّام، وابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للقاسم بن سلام (ص: ٢٠٦- ٢٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٤).

وذهَب آخرونَ إلى أنَّ تحريمَ القتالِ في الأشهرِ الحرمِ باقٍ، غيرُ منسوخٍ، وهو قولُ عطاءِ بنِ أبي رباحٍ، ورجَّحه ابنُ القيِّم، والشوكانيُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للقاسم بن سلام (١/ ٢٠٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٢).

قال ابنُ كثيرٍ: (اختلف العُلَماءُ في تحريمِ ابتداءِ القِتالِ في الشَّهرِ الحرام: هل هو منسوخٌ أو مُحكَمٌ؟ على قولين: أحدُهما- وهو الأشهَرُ- أنَّه منسوخٌ؛ لأنَّه تعالى قال هاهنا: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، وأمر بقِتالِ المشركين، وظاهرُ السِّياقِ مُشْعِرٌ بأنَّه أمَرَ بذلك أمرًا عامًّا، فلو كان مُحَرَّمًا في الشَّهرِ الحَرامِ، لأوشَكَ أن يُقَيِّدَه بانسلاخِها؛ ولأنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حاصَرَ أهلَ الطَّائِفِ في شَهرٍ حرامٍ- وهو ذو القَعدة- كما ثبت في الصَّحيحين: أنه خرج إلى هوازِنَ في شوَّال، فلما كسَرَهم واستفاءَ أموالَهم، ورجَعَ فَلُّهم، فلجَؤوا إلى الطَّائِفِ- عَمد إلى الطَّائِفِ فحاصَرَها أربعينَ يومًا، وانصرف ولم يفتَتِحْها، فثبت أنَّه حاصر في الشَّهرِ الحرامِ. والقَولُ الآخَر: أنَّ ابتداءَ القِتالِ في الشَّهرِ الحرامِ حَرامٌ، وأنَّه لم يُنسَخْ تَحريمُ الحرامِ). ((تفسير

أشَدَّ ممَّا يَحرُمُ في غيرِها، وهي: ذو القَعدةِ، وذو الحِجَّةِ، ومُحرَّمٌ، ورجَب[(١)].

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

أي: هذا الذي أخبَرْتُكم به- مِن كَونِ الشُّهورِ اثنَي عَشَرَ شَهرًا، منها أربعةٌ

ابن كثير)) (٤/ ١٤٩).

وقال ابن القيم: (غَزوُ الطَّائِفِ كان من تمامِ غَزوةِ هَوازِنَ، وهم بدَؤُوا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقتالِ، ولَمَّا انهزموا دخَلَ مَلِكُهم- وهو مالك بن عوف النضري- مع ثقيفٍ في حِصنِ الطَّائِفِ، مُحاربينَ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكان غَزوُهم من تمامِ الغَزوةِ التي شَرَعَ فيها، واللهُ أعلم. وقال الله تعالى في سورة المائدة، وهي من آخِرِ القُرآنِ نُزولًا، وليس فيها منسوخٌ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٢]، وقال في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فهاتان آيتانِ مدنيَّتان بينهما في النُّزول نحوُ ثمانيةِ أعوام، وليس في كتابِ الله ولا سُنَّةِ رَسولِه ناسِخٌ لِحُكمِهما، ولا أجمَعَت الأمَّةُ على نَسْخِه، ومن استدَلَّ على نسخِه بِقَولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] ونحوِها من العُموماتِ، فقد استدَلَّ على النَّسخِ بما لا يدُلُّ عليه)). ((زاد المعاد)) (٣/ ٣٠٢، ٣٠٣).

ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٩، ٤١٠).

وقال الشنقيطي: (وَمِنْ أَصْرَحِ الأدلةِ في ذلك هو الحديثُ الذي أَشَرْنَا إليه؛ لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم خَطَبَ به يومَ النحرِ في حجةِ الوداعِ عامَ عَشْرٍ، ولم يَعِشْ بعد ذلك إلا نحوَ ثمانينَ يومًا، وقد صَرَّحَ فيه بأن ذلك الشهرَ حرامٌ، وذلك اليومَ حرامٌ، وذلك البلدَ حرامٌ، ولم يَأْتِ بعدَ ذلك شيءٌ يَنْسَخُ هذا التحريمَ الثابتَ عنه، صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٣).

قال الواحدي: (﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وهي: رجَب، وذو القَعدةِ، وذو الحِجَّةِ، والمُحَرَّم، في قولِ الجَميعِ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٠٩).

وقال الشنقيطي: (فالتَّحقيقُ أنَّ هذه الصورةَ التي نزل بها القرآنُ، التي كان يفعَلُ لهم الكِنانيُّونَ: أنَّهم سنةً يُحَرِّمونَ صَفرًا، ويُحِلُّونَ المُحَرَّم مكانَه، وفي سنةٍ يُبقونَ الأمرَ على حالِه، فيُحِلُّونَ المُحَرَّمَ سَنةً، ويُحَرِّمونَه سنةً؛ لِيُواطِئوا بذلك -يُوافِقوا- عِدَّةَ ما حَرَّمَ الله، وهي أربعةُ أشهُرٍ مِن السَّنَةِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٩٥).

حُرُمٌ- هو الدِّينُ المُستَقيمُ، والحِسابُ الصَّحيحُ[(١)].

﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾.

أي: فلا تَظلِموا- أيُّها النَّاسُ- أنفُسَكم في هذه الأشهُرِ الأربعةِ الحُرُمِ[(٢)]، بارتكابِ السَّيِّئاتِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٥).
وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالدِّينِ القَيِّم هنا: الدِّينُ المُستقيمُ: ابن جرير، وابن عطيَّة، وابن جُزي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.
وممَّن ذهب إلى أنَّ المراد: الحسابُ الصَّحيحُ المستقيمُ: مُقاتِل، وابنُ قتيبةَ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، والبَغَويُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ١٦٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١٠، ٤١١)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٤).
وجمعَ الشَّوكاني بين القَولَينِ، فقال: (قولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: كَونُ هذه الشهورِ كذلك، ومنها أربعةٌ حُرمٌ؛ هو الدِّينُ المستقيمُ، والحِسابُ الصَّحيحُ، والعدَدُ المُستوفى). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٩).

(٢) ذهَب جماعةٌ مِن أهلِ العلمِ إلى أنَّ معنى قولِه: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: بإيقَاعِ القتالِ فيها، والهتكِ لحرمتِها ولذا قالوا: إن تحريمَ القتالِ في الأشهرِ الحرُمِ ثابتٌ محكمٌ لم يُنْسَخْ لهذه الآيةِ وغيرِها، وذهَب آخرونَ إلى أنَّ هذه الآيةَ على هذا التأويلِ منسوخةٌ بإباحةِ القتالِ في جميعِ الشهورِ، وذهب الجمهورُ إلى أنَّ الظلمَ هنا مؤوَّلٌ بارتكابِ المعاصي، وأنَّ حرمةَ المقاتلةِ في الأشهر الحرم منسوخةٌ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٢٨٣).

(٣) وهو قولُ جمهورِ المفسِّرين، منهم: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والرازي، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشورٍ. ونسَبه الرازي للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٥).
وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٤).
قال القرطبي: (خصَّ اللهُ تعالى الأربعةَ الأشهُرِ الحُرُمَ بالذِّكرِ، ونهى عن الظُّلم فيها؛ تشريفًا لها، وإن كان منهيًّا عنه في كلِّ الزَّمانِ، كما قال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، على هذا أكثَرُ أهلِ التَّأويلِ، أي: لا تَظلِموا في الأربعةِ الأشهُرِ أنفُسَكم).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

وعن جابرِ بنِ عبد الله رَضِيَ الله عنهما، قال: ((لم يكُنْ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يغزُو في الشَّهرِ الحرامِ، إلَّا أن يُغزَى- أو يُغْزَوْا- فإذا حضَرَ ذاك، أقام حتى ينسلِخَ))[1].

﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾.

أي: وقاتِلوا- أيُّها المُسلِمونَ- المُشرِكينَ كلَّهم، وأنتم مجتَمِعونَ مُؤتَلِفونَ مُتَوافِقونَ جميعًا على قتالهم، بلا تفرُّقٍ ولا تخاذُلٍ ولا تقاطُعٍ، كما يقاتِلُكم المُشرِكونَ مُجتَمِعينَ غيرَ مُتَفَرِّقينَ[2].

((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٧).

وقيل: المعنى: فلا تَظلِموا أنفُسَكم بالمعاصي في جميعِ أشهُرِ السَّنَةِ، وممن اختاره ابنُ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٤).

وقال ابنُ عاشورٍ: (والأنفُسُ تَحتَمِلُ أنَّها أنفُسُ الظَّالِمينَ في قَولِه: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ﴾ أي: لا يظلِمْ كُلُّ واحدٍ نفسَه... ويجوز أن يكون الظُّلمُ بمعنى الاعتداءِ، ويكون المرادُ بالأنفُسِ أنفُسَ غيرِ الظَّالمينَ، وإضافتُها إلى ضميرِ المُخاطَبينَ للتَّنبيهِ على أنَّ الأمَّةَ كالنَّفسِ مِن الجَسَد). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٦).

(١) أخرجه القاسم بن سلام في ((الناسخ والمنسوخ)) (٣٨٩)، وأحمد (١٤٥٨٣)، والحارث بن أبي أسامة كما في ((بغية الباحث)) (٦٤٥)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٤٨٧٩). صحح إسناده ابن كثير في ((التفسير)) (١/ ٣٣٠)، وابن حجر في ((العجاب)) (١/ ٤٧٠)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ٦٩): رجاله رجال الصحيح، وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٢٥٦): حسن على شرط مسلم.

(٢) ممَّن اختار هذا القول: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والرازي، والشَّوكاني، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٥٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٧٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٨).

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

أي: واعلَمُوا -أيُّها المؤمِنونَ- أنَّكم إن قاتَلْتُم المُشرِكينَ كافَّةً، واتَّقَيتُم اللهَ بفِعلِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه؛ فإنَّ اللهَ معكم بِعَونِه وتَأييدِه، وينصُرُكم على أعدائِكم المُشرِكينَ[1].

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ

قال ابن عطية: (قال بعضُ النَّاسِ: كان الفَرضُ بهذه الآيةِ قد توجَّهَ على الأعيانِ، ثم نُسِخَ ذلك بعدُ، وجُعِلَ فَرضَ كِفايةٍ. وهذا الذي قالوه لم يُعلَم قطُّ مِن شَرْعِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه ألزَمَ الأمَّةَ جَميعًا النَّفْرَ، وإنَّما معنى الآية: الحضُّ على قِتالِهم والتحَزُّبُ عليهم وجَمعُ الكَلِمةِ، ثم قيَّدَها بِقَولِه: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾، فبِحَسَب قتالِهم واجتماعِهم لنا يكونُ فَرضُ اجتماعِنا لهم، وأمَّا الجِهادُ الذي يُنتَدَبُ إليه، فإنَّما هو فرضٌ على الكفايةِ؛ إذا قام به بعضُ الأمَّةِ سقَطَ عن الغَيرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦).

وقيل: المعنى: وقاتِلوا -أيُّها المُسلِمونَ- جميعَ المُشرِكينَ، كما أنَّهم يستحِلُّونَ قِتالَكم جميعًا، وممَّن اختار هذا القولَ: الواحديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ تيميةَ، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٢)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٠٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٧).

قال ابنُ تيميَّة: (وقَولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ﴾ أي: قاتِلوهم كلَّهم، لا تَدَعُوا مُشرِكًا حتى تُقاتِلوه، فإنَّها أُنزِلَت بعد نَبْذِ العُهودِ، ليس المرادُ: قاتِلوهم مُجتَمِعينَ، أو جميعُكم؛ فإنَّ هذا لا يجِبُ، بل يُقاتَلون بحسَبِ المَصلحةِ، والجهادُ فرضٌ على الكفايةِ، فإذا كانت فرائِضُ الأعيانِ لم يؤكِّدِ المأمورونَ فيها بـ﴿كَآفَّةٗ﴾، فكيفَ يؤكَّدُ بذلك في فُروضِ الكفايةِ؟! وإنما المقصودُ تعميمُ المقاتَلينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٦٧).

وقال الواحدي: (يريدُ: قاتِلوهم كُلَّهم ولا تُحابوا بعضَهم بتَرْكِ القِتالِ؛ كما أنَّهم يستحِلُّونَ قِتالَ جَميعِكم، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: قاتِلوهم بأجمَعِكم، مجتمعينَ على قتالِهم كما يفعلونَ هم. يريد: تعاوَنوا وتَناصَروا على ذلك ولا تتَجادَلوا، وكلا المعنيينِ يحتَمِلُه قوله: جميعًا). ((البسيط)) (١٠/ ٤١٥، ٤١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١٧)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦).

﴿سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الآيةَ السَّابِقةَ كالمُقَدِّمةِ إلى المقصودِ هنا، وهو إبطالُ النَّسيءِ وتَشنيعُه[1].

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾.

أي: إنَّما تأخيرُ تَحريمِ الأشهُرِ الأربعةِ الحُرُمِ، وتغييرُها عمَّا شَرَعَه اللهُ- بأن يكونَ شَهرُ مُحَرَّمٍ الحرامُ حلالًا، وشهرُ صَفَر الحَلالُ حَرامًا[2]- زيادةٌ في كُفرِ مُشرِكي العَرَبِ، الذين ابتَدَعوا هذا التَّأخيرَ[3].

﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٨).

(٢) قال الواحدي: (قال العُلماءُ وأهلُ التَّفسيرِ: إنَّ العَرَبَ كانت تحرِّمُ الشُّهورَ الأربعةَ، وكان ذلك ممَّا تمسَّكَت به مِن مِلَّةِ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلامُ، وكانت العربُ أصحابَ حُروبٍ وغاراتٍ، فشَقَّ عليهم أن يَمكُثُوا ثلاثةَ أشهُرٍ متواليةً لا يُغِيرُونَ فيها... فكانوا يؤخِّرونَ تَحريمَ المُحَرَّمِ إلى صَفَرَ، فيُحَرِّمونَه، ويستَحِلُّونَ المُحَرَّمَ، وكانوا يمكُثون بذلك زمانًا يُحَرِّمونَ صَفَرَ وهم يُريدونَ به المُحَرَّمَ، ويقولون: هو أحَدُ الصَّفَرَينِ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٢٠).

وقال ابن تيمية: (روى أحمدُ عن أبي وائلٍ، في قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ الآية [التوبة: ٣٧]، قال: كان رجلٌ ينسَأُ النَّسيءَ مِن كِنانةَ، وكان يجعَلُ المُحَرَّم صَفَرًا يستحِلُّ فيه الغنائِمَ، فنزلت: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: ٣٧]. وهذا ممَّا أجمَعَ عليه أهلُ العِلمِ بالأخبارِ والتَّفسيرِ والحديثِ). ((شرح عمدة الفقه)) (٢/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٩، ٤٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١٨، ٤٢٧)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩١، ١٩٣).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ بيانٌ لِما فَعَلَتْه العَربُ مِن جَمْعِها من أنواعِ الكُفرِ؛ فإنَّها... أنكَرَت البَعثَ فقالت: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]. وأنكَرَت بَعثةَ الرُّسُلِ، فقالوا: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤]. وزعَمَت أنَّ التَّحليلَ والتحريمَ إليها، فابتَدَعَتْه من ذاتِها مُقتَفِيةً لِشَهواتِها، فأحَلَّت ما حَرَّمَ الله، ولا مُبدِّلَ لِكَلِماتِه، ولو كَرِهَ المُشرِكونَ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٩).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ثلاثُ قِراءاتٍ:

١- قراءةُ: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بضَمِّ الياءِ وفتح الضادِ، على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، أي: أنَّ الكافرين يُضَلُّونَ(١).

٢- قراءةُ: ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بضَمِّ الياء وكسرِ الضاد، ومعناه أنَّ الكفَّارَ يُضِلُّونَ بالنَّسيءِ أتباعَهم في إِحْلالِهم المحَرَّمَ مَرَّةً، وتحريمِهم إيَّاه أخرى. أو: يُضِلُّ اللهُ الذين كفروا(٢).

٣- قراءةُ: ﴿يَضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بفَتحِ الياءِ وكَسرِ الضَّادِ، والفِعلُ للكفَّارِ الضَّالِّينَ، فهم يَضِلُّونَ لا يَهتَدونَ(٣).

﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: يُضَلُّ بتأخيرِ تَحريمِ الأشهُرِ الأربعةِ الحُرُمِ، الذينَ كفَروا(٤).

---

(١) وقرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ وحفص. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٧).

(٢) وقرأ بها يعقوبُ الحضرميُّ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٥٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٧).

(٣) وقرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٥٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٨).

(٤) قال الواحدي: (ومعناه: أنَّ كبَراءَهم يُضِلُّونَهم بحَمْلِهم على هذا التَّأخيرِ في الشُّهورِ، فأُسنِدَ الفِعلُ إلى المفعولِ، كقوله تعالى في هذه الآية: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾ أي: زَيَّنَ لهم ذلك حامِلوهم وداعُوهم إليه). ((البسيط)) (١٠/ ٤٢٧)، ويُنظر: ((تفسير الرازي))

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾.

أي: يُحِلُّ الذينَ كَفَروا ذلك النَّسيءَ عامًا دونَ عام، فيُحِلُّونَ شَهرَ مُحَرَّم عامًا، ويُحَرِّمونَه في عامٍ آخَرَ، فإذا قاتلوا في المحرَّمِ أحلُّوه، وحرَّموا مكانَه صَفرًا، وإذا لم يُقاتِلوا فيه حرَّمُوه[1].

﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾.

أي: لِيُوافِقوا بتَحليلِهم شَهرَ مُحَرَّم، وتَحريمِهم شَهرَ صَفَرٍ، عدَدَ الأشهُرِ الأربعةِ التي حَرَّمَها اللهُ كُلَّ عامٍ بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ في العَدَدِ، فيُحِلُّوا بتأخيرِ حُرمةِ شَهرٍ مُحَرَّم، ما حرَّمَه الله تعالى[2]!

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾.

أي: حُسِّنَ للمُشرِكينَ سيِّئُ أعمالِهم وقَبيحُها[3].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ للحَقِّ المصرِّين على كفرهم، ويخذُلُهم عن الهُدى[4].

(١٦/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٢٨، ٤٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٣ - ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥١، ٤٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٦).

ذهب السعدي والشنقيطي إلى أنَّ المُزَيِّنَ لهم: هو الشَّيطانُ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) (٥/ ٤٩٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٧٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير السعدي))

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ * وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ * وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ [يس: ٧ - ١١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- الحِرصُ على استعمالِ تَقوى الله في السِّرِّ والعَلَنِ، والقيامِ بِطاعَتِه، خصوصًا عند قتال الكُفَّارِ؛ فإنَّه في هذه الحالِ ربَّما ترَكَ المؤمِنُ العمَلَ بالتَّقوى

(ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٦، ٤٩٧).

قال الشوكاني: (لا يَهدِيهم هدايةً تُوصِلُهم إلى المطلوبِ، وأمَّا الهدايةُ بمعنى الدَّلالةِ على الحقِّ، والإرشادِ إليه؛ فقد نَصَبَها اللهُ سُبحانه لِجَميعِ عِبادِه). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١١).

قال الشنقيطي: (﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هذه الآيةُ وأمثالُها بالقرآنِ، فيها سؤالٌ مَعروفٌ، وإشكالٌ مشهورٌ، وهو أن يقول طالِبُ العلم: هذه الآيةُ وأمثالُها صرَّحَ الله فيها بأنَّه لا يهدي الكافرينَ، مع أنَّا نُشاهدُ اللهَ يهدي كثيرًا من الكافرين، فاللهُ يهدي من يشاءُ مِن الكفَّار، ويُضِلُّ من يشاء، فما وجهُ تعميمِه في قوله تعالى: ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هذا وجهُ السؤالِ، وللعلماءِ عنه جوابان معروفان:

أحدهما: أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ وأمثالَها في القرآنِ: مِن العامِّ المخصوصِ، أي: لا يهدي القومَ الكافرين الذين سبَقَ في عِلمِه عَدمُ هدايتِهم، وشقاؤُهم شقاءً أزليًّا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يس: ٧] ونحوِ ذلك من الآيات. وعلى أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ من العامِّ المخصوصِ بآياتٍ أُخَر، فلا إشكالَ.

وقال بعض العلماء: ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ما دامَ اللهُ جلَّ وعلا مُريدًا منهم أن يكونوا كافرينَ، فإذا شاء اللهُ أن يهديَهم هداهم. وقال بعضُ العلماءِ: لا يهديهم ما داموا مُصِرِّينَ على كُفْرِهم). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٩٦-٤٩٧).

في معاملةِ الكُفَّارِ الأعداءِ المُحارِبينَ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ جُعِلَ النَّسيءُ زيادةً في الكُفرِ؛ لأنَّ الكافِرَ كلمَّا أحدَثَ مَعصِيةً ازداد كُفرًا، فزادَتْهم رِجسًا إلى رِجْسِهم، كما أنَّ المؤمِنَ كلَّما أحدَثَ طاعةً ازدادَ إيمانًا؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾[2] [التوبة: ١٢٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ مِن أسوَأِ الأعمالِ وأخبَثِها تحليلَ ما حَرَّمَه اللهُ، وتحريمَ ما أحَلَّ اللهُ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾. فإن قيل: أجزاءُ الزَّمانِ مُتشابِهةٌ في الحقيقةِ، فما السَّبَبُ في هذا التَّمييزِ؟ فالجوابُ: أنَّ هذا المعنى غيرُ مُستبعَدٍ في الشَّرائِعِ؛ فإنَّ أمثِلتَه كثيرةٌ، ألا ترى أنَّه تعالى ميَّزَ البلدَ الحرامَ عن سائِرِ البلادِ بِمَزيدِ الحُرمةِ، ومَيَّزَ يومَ الجُمُعةِ عن سائِرِ أيَّامِ الأسبوعِ بمزيدِ الحُرمةِ، ومَيَّزَ يومَ عرفةَ عن سائِرِ الأيامِ بتلك العبادةِ المخصوصةِ، ومَيَّزَ شَهرَ رَمَضانَ عن سائِرِ الشُّهورِ بمَزيدِ حُرمةٍ، وهو وجوبُ الصَّومِ، ومَيَّزَ بعضَ ساعاتِ اليومِ بوجوبِ الصَّلاةِ فيها، ومَيَّزَ بعض

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦١٢).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٦).

اللَّيالي عن سائِرِها، وهي ليلةُ القَدْرِ، وميَّزَ بعضَ الأشخاصِ عن سائرِ النَّاسِ بإعطاءِ خِلعةِ الرِّسالةِ، وإذا كانت هذه الأمثلةُ ظاهرةً مَشهورةً، فأيُّ استبعادٍ في تخصيصِ بَعضِ الأشهُرِ بمزيدِ الحُرمةِ[١]؟!

٢- فَي قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ قال أهلُ المعاني: وفي جَعْلِ بعضِ الشُّهورِ أعظَمَ حُرمةً من بعضٍ، فوائِدُ من المصلحةِ في الكَفِّ عن الظُّلمِ فيها؛ لِعظَمِ مَنزِلَتِها في حُكمِ خالِقِها، فربَّما أدَّى ذلك إلى تَركِ الظُّلمِ رأسًا؛ لانطفاءِ الثَّائرة في تلك المدَّةِ[٢].

٣- ضَبطُ التَّوقيتِ: مِن أصولِ إقامةِ نِظامِ الأمَّةِ، ودَفْعِ الفوضى عن أحوالِها؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ...﴾، مِن أحكامِ كتابِ الله التشريعيةِ أنَّ كلَّ ما يتعلَّق بحسابِ الشهورِ والسِّنين، كالصيامِ والحجِّ وعدةِ المطلقاتِ والرضاعِ، فالمعتبرُ فيه الأشهرُ القمريةُ، ولهذا فسَّرَ النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام الأربعةَ الحرمَ، بأنها: رجبُ مُضَرَ، وذو القعدةِ، وذو الحِجَّةِ، ومُحَرَّمٌ[٤]، وهذه الشهورُ القمريةُ هي أقدمُ أشهُرِ التوقيتِ في البشرِ وأضبطِها، ويمكنُ العلمُ بها بالرؤيةِ البصريةِ للأُميينَ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤١، ٤٢).
(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٠).
(٤) تقدَّم تخريجه من حديث أبي بكرةَ.

والمتعلِّمين في البدوِ والحضرِ على سواءٍ، ولَمَّا استعمرَ الكفارُ كثيرًا مِن البلادِ الإسلاميةِ حَوَّلُوا التاريخَ إلى تاريخِهم؛ استعبادًا واستذلالًا للشعوبِ(١).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى وضَعَ هذه الأشهُرَ، وسَمَّاها ورَتَّبَها على ما هي عليه، وأنزل ذلك على أنبيائِه، فيُستَدَلُّ به لِمَن قال: إنَّ اللُّغاتِ توقيفيَّةٌ(٢).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ وجهُ تخصيصِ المعاصي في هذه الأشهُرِ بالنَّهيِ: أنَّ اللهَ جعَلَها مواقيتَ للعِبادةِ، فإنْ لم يكُنْ أحَدٌ مُتَلَبِّسًا بالعبادةِ فيها، فليَكُنْ غيرَ مُتلَبِّسٍ بالمعاصي، وليس النَّهيُ عن المعاصي فيها بمقتَضٍ أنَّ المعاصِيَ في غيرِ هذه الأشهُرِ ليست منهيًّا عنها، بل المرادُ أنَّ المعصيةَ فيها أعظَمُ، وأنَّ العمَلَ الصَّالِحَ فيها أكثَرُ أجرًا(٣).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ فيه ذِكرُ الأشهُرِ الحُرمِ، وتعظيمُ الظُّلمِ فيها زيادةً عليه في غَيرِها، ومن هنا شُرِعَ تَغليظُ الدِّيَةِ في القَتلِ فيها، على ما ذهب إليه بعضُ العُلماءِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٥٧-٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٠-١٨١)، ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٠).

٨- قولُه تعالى: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يريد: اللَّوحَ المحفوظَ. وأعاده بعد أن قال: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ كثيرًا من الأشياءِ يُوصَفُ بأنَّه عند الله، ولا يُقالُ إنَّه مكتوبٌ في كتابِ الله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[١].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ إنَّما قال: ﴿يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ لِيُبيِّنَ أنَّ قضاءَه وقَدَرَه كان قبل ذلك، وأنَّه سبحانه وضَعَ هذه الشُّهورَ وسمَّاها بأسمائِها، على ما رتَّبَها عليه يومَ خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، وأنزل ذلك على أنبيائِه في كتُبِه المُنَزَّلةِ، وهو معنى قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا﴾ وحُكمُها باقٍ على ما كانت عليه، لم يُزِلْها عن ترتيبِها تغييرُ المُشركين لأسمائها، وتقديمُ المُقَدَّمِ في الاسمِ منها، والمقصودُ من ذلك اتِّباعُ أمرِ الله فيها، ورَفضُ ما كان عليه أهلُ الجاهليَّةِ مِن تأخيرِ أسماء الشُّهورِ وتقديمِها، وتعليقِ الأحكامِ على الأسماءِ التي رتَّبوها عليه؛ ولذلك قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في خُطبَتِه في حَجَّةِ الوداعِ: ((أيُّها النَّاسُ، إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهيئَتِه يومَ خلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ))[٢]. وأنَّ الذي فعَلَ أهلُ الجاهليَّةِ مِن جَعْلِ المُحَرَّمِ صَفَرًا، وصَفَرٍ مُحَرَّمًا؛ ليس يتغيَّرُ به ما وصَفَه الله تعالى[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ هذا هو الدِّينُ القَيِّمُ؛ لِيُبيِّنَ أنَّ ما سواه من أمْرِ النَّسيءِ وغَيرِه مِن عاداتِ الأُمَمِ، ليس قَيِّمًا؛ لِمَا يَدخُلُه مِن الانحرافِ والاضطرابِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٢، ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٥/ ١٤١).

١١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أنَّ السَّيِّئَةَ- وإنْ كانت لا تتَضاعَفُ- إلَّا أنَّها قد تَعْظُمُ أحيانًا بشَرَفِ الزَّمانِ أو المكانِ(١).

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ جملةُ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تأييدٌ وضَمانٌ بالنَّصرِ عند قِتالِهم المُشرِكينَ؛ لأنَّ المعيَّةَ هنا مَعيَّةُ تأييدٍ على العمَلِ، وليست معيَّةَ عِلمٍ؛ إذ لا تختَصُّ معيَّةُ العِلمِ بالمتَّقينَ(٢).

١٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ مِن سُورةِ براءةَ، مِن أصرَحِ النُّصوصِ القُرآنيَّةِ في أنَّ كُلَّ مَن اتَّبَع نِظامًا غيرَ نِظامِ الله، وتشريعًا غيرَ تَشريعِ الله، وقانونًا غيرَ قانونِ الله؛ أنَّه كافِرٌ بالله؛ إن كان يزعُمُ الإيمانَ فقد كفَرَ، وإن كان كافرًا، فقد ازداد كُفرًا جديدًا إلى كُفرِه الأوَّلِ(٣).

١٤- قال تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾، فعَبَّرَ عن الحولِ بلفْظٍ يدورُ على معنَى السَّعةِ فقال: ﴿عَامًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّهم يَفعلونَه ولو لم يَضطرَّهم إلى ذلك جدبُ سَنةٍ ولا عَضُّ زمانٍ، بل بمُجرَّدِ التَّشهِّي؛ فإنَّهم ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ هكذا دائمًا كلَّما أرادوا، وليس المرادُ أنَّهم كلَّ سَنةٍ يَفعلون ذلك، مِن غيرِ إجلالٍ لسَنةٍ مِن السِّنينَ(٤).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- **قولُه تعالى:** ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٨).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٥٣).

أَنفُسَكُمْۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

- في قولِهِ: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ افتِتاحُ الكلامِ بحَرْفِ التَّوكِيدِ؛ للاهْتِمامِ بمضمونِه؛ لتَتوجَّهَ أَسْماعُ النَّاسِ وألبابُهم إلى وَعْيِه[١].

- وقولُه: ﴿ٱلشُّهُورِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ عبَّرَ هنا بجَمْعِ الكَثْرةِ (الشُّهورِ)؛ وذلك لأنَّها كانتْ أَزْيدَ مِنْ عَشرةٍ، بخِلافِ قولِهِ في سُورةِ البَقرةِ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، حيثُ جاء بلَفْظِ جَمْعِ القِلَّةِ ﴿أَشْهُرٌ﴾ وهو مُناسِبٌ؛ لأنَّهُ أَشْهُرٌ قليلةٌ؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُهُ[٢].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يَتضمَّنُ مَعْنى البُعْدِ، فيه تفخيمُ المُشارِ إليه، وهو الدِّينُ[٣].

- قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ فيه تَخْصيصُ النَّهْيِ عن المَظالِمِ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ؛ تَشريفًا لها، وتعظيمًا بالتَّخصيصِ بالذِّكْرِ، وإنْ كانتِ المظالِمُ مَنْهيًّا عَنْها في كُلِّ زمانٍ[٤].

- قولُه: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ احْتِراسٌ مِن ظَنِّ أنَّ النَّهيَ عن انْتِهاءِ الأَشْهُرِ الحُرُمِ يَقْتضي النَّهْيَ عن قِتالِ المشركينَ فيها إذا بَدؤوا بقِتالِ المُسلِمينَ، وبهذا يُؤذِنُ التَّشبيهُ التَّعليليُّ في قولِهِ: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٥).

فيكونُ المَعْنى: فلا تَنْتَهِكوا حُرْمةَ الأَشْهُرِ الحُرُمِ بالمعاصي، أو باعْتِدائكُم على أعدائكُم؛ فإنْ هُمْ بادَؤوكُمْ بالقتالِ فقاتِلُوهم؛ فمقصودُ الكلامِ هو الأَمْرُ بقِتالِ المُشْركِينَ الذين يُقاتِلونَ المسلمينَ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ، وتعليلُه بأَنَّهُم يَسْتحِلُّونَ تلك الأَشْهُرَ في قِتالِهم المُسلِمينَ[(١)].

- قولُه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الجُمْلةُ بمَنْزِلةِ التَّذييلِ لِمَا قَبْلَها؛ مِنْ أَجْلِ ما فيها مِن العُمومِ في المُتَّقينَ[(٢)].

- وفيه وضْعُ الظاهِرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ- حيثُ لَمْ يَقُلْ: (واعْلَموا أنَّ اللهَ مَعَكُم)-؛ مَدْحًا لهم بالتَّقوى، وحَثًّا للقاصِرينَ على القِتالِ، وإيذانًا بأنَّ مَعِيَّةَ اللهِ للمُتَّقينَ عليها المدارُ في النَّصْرِ، وقيل: هي بِشارةٌ وضَمانٌ لهم بالنُّصْرةِ؛ بسَببِ تَقْواهُمْ[(٣)]، وأيضًا أظْهرَ الوَصْفَ تَعليقًا للحُكمِ به، وتَعميمًا[(٤)].

٢- ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عَنْ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ...﴾؛ لأنَّ ذلك كالمُقدِّمةِ إلى المقصودِ، وهو إبْطالُ النَّسيءِ وتَشْنيعُه[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٤).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٥١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٨).

- وصِيغةُ القَصْرِ في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ تَقْتضي أَنَّهُ لا يَعْدُو كونَه مِنْ أَثَرِ الكُفْرِ لمَحبَّةِ الاعْتِداءِ والغاراتِ؛ فهو قَصْرٌ حقيقيٌّ، ويَلْزَمُ مِنْ كونِه زيادةً في الكُفْرِ: أنَّ الذين وَضَعوهُ ليسوا إلَّا كافرينَ وما هم بمُصْلِحينَ، وما الذين تابَعوهم إلَّا كافِرونُ كذلك، وما هم بمتَّقينَ[(١)].

- وجُمْلةُ: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ بيانٌ لسَببِ كونِ النَّسيءِ ضَلالًا[(٢)].

- واخْتيرَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ في (يُضَلُّ- يُحلُّونَهُ- يُحرِّمونَهُ)؛ لدَلالتِهِ على التَّجدُّدِ والاسْتِمرارِ، أي: هم في ضلالٍ مُتجدِّدٍ مُسْتَمِرٍّ بتَجدُّدِ سَببِه[(٣)].

- قولُه: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ فيه الإتيانُ بالموصولِ ﴿مَا﴾ دونَ أنْ يَقولَ مَثلًا: (لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ الشُّهورِ الحُرُمِ)؛ للإشارةِ إلى تَعليلِ عَمَلِهم في اعْتِقادِهِمْ بأنَّهم حافَظوا على عِدَّةِ الأشْهُرِ التي حرَّمها اللهُ تَعظيمًا؛ ففيه تَعريضٌ بالتَّهكُّمِ بهم[(٤)].

- وعطَفَ ﴿فَيُحِلُّواْ﴾ عَلَى ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ تَنزيلًا للأمْرِ المترتِّبِ على العِلَّةِ مَنزلةَ المقصودِ مِن التَّعليلِ، وإنْ لم يَكُنْ قَصْدُ صاحبِه به التَّعليلَ، على طَريقةِ التَّهكُّمِ والتَّخطئةِ، مثلُ قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾[(٥)] [القصص: ٨].

- وفي قولِه: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ- حيثُ لم

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَقُلْ: (فيُحِلُّوهُ)-؛ لزيادةِ التَّصريحِ بتَسجيلِ شَناعَةِ عَمَلِهِمْ[١].

- وجُمْلَةُ: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ مُسْتأنَفَةٌ اسْتِئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ما حُكِي مِنِ اضْطرابِ حالِهم يُثيرُ سؤالَ السائلينَ عن سببِ هذا الضِّغْثِ من الضَّلالِ الذي تَملَّؤُوه؛ فقيل: لأنَّهم زُيِّنَ لهم سوءُ أعمالِهم[٢].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ- حيث لم يَقُل: -(واللهُ لا يَهديهم)-؛ لقَصدِ إفادةِ التَّعميمِ الذي يَشمَلُهم وغيرَهم، أي: هذا شأنُ اللهِ مع جَميعِ الكافِرينَ[٣].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٩٥).

الآيات (٣٨-٤٠)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱنفِرُواْ﴾: أي: اخرُجُوا مِن مَنازِلِكم إلى مَغْزاكم، والنَّفْرُ: مُفارقةُ مكانٍ إلى مكانٍ لأمْرٍ هاجَه على ذلك، وأَصلُ (نفر): يدلُّ على تجافٍ وتباعُدٍ[(١)].

﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾: أي: تَثاقَلْتُم، وتَباطَأْتُم وتكاسَلْتُم، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّةِ[(٢)].

﴿مَتَٰعُ﴾: أي: مُتْعة، وانْتِفاع، وأصلُ (متع): المنفعةُ، وامتدادُ مدَّةٍ في خيرٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

﴿ٱلْغَارِ﴾: نَقْبٌ في الجَبَلِ، وأصلُ (غور): يدلُّ على خُفوضٍ في الشَّيءِ، وانحطاطٍ وتَطامُنٍ[1].

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: يا أيُّها الذين آمَنوا، ما بالُكم إذا دُعِيتُم إلى الجِهادِ في سبيلِ الله تكاسَلْتُم، ومِلْتُم لِلُزومِ مَساكِنِكم؟! أَرِضًا منكم بنَعيمِ الدُّنيا بَدَلًا من نعيمِ الجنَّةِ في الآخرةِ؟! فما متاعُ الحياةِ الدُّنيا مُقارنةً بِنَعيمِ الآخرةِ إلَّا قَليلٌ، إن لم تُبادِرُوا للجِهادِ الذي دُعِيتُم إليه، يُعَذِّبْكم اللهُ عذابًا مُوجِعًا، ويستبدِلْ بكم قومًا آخَرينَ، إذا دُعُوا للجِهادِ أجابُوا، ولا تضُرُّوا اللهَ شَيئًا بعَدمِ تَلبيَتِكم داعِيَ الجِهادِ، واللهُ على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

وإنْ لم تنصُروا مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فسَينصُرُه اللهُ تعالى، كما نَصَرَه مِن قَبلُ حين اضطُرَّ إلى الخروجِ مِن مكَّة، والحالُ أنَّه أحدُ اثنَينِ فحَسْبُ، ليس معه إلَّا أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنه، حين كانا في غارٍ في جبَلِ ثَورٍ للاختباءِ من كفَّارِ قُريشٍ، إذ يقولُ لأبي بكرٍ: لا تَحزَنْ؛ إنَّ اللهَ معنا، فأنزَلَ اللهُ سَكينَتَه على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقَوَّاه بجُنودٍ مِن الملائكةِ لم تَرَوْها أنتم، وجَعَلَ اللهُ كَلِمةَ الكُفَّارِ هي السُّفلى، وكِلمةُ الله هي العليا، واللهُ عزيزٌ حَكيمٌ.

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾

﴿ثَانِىَ﴾: حالٌ مِن الهاءِ في ﴿أَخْرَجَهُ﴾، أي: أحَدَ اثنَينِ. ﴿ٱثْنَيْنِ﴾

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٤).

مُضافٌ إليه مَجرورٌ، وعلامةُ جرِّه الياءُ؛ لأنَّه مُلحَقٌ بالمُثنَّى[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ (الواو) استئنافيَّة. ﴿كَلِمَةُ﴾ مبتدأٌ مَرفوعٌ. ﴿هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ جُملةٌ اسميَّةٌ في محلِّ رَفعٍ خَبَرٌ لـ (كَلِمَةُ اللَّه)، ويجوزُ أن تكونَ ﴿هِيَ﴾ ضميرَ فَصلٍ، و﴿ٱلْعُلْيَا﴾ هي الخَبَرُ. والجملةُ كُلُّها استئنافيَّةٌ، لا محَلَّ لها من الإعرابِ[٢].

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا شرَحَ معايِبَ هؤلاءِ الكُفَّارِ وفَضائِحَهم، عاد إلى التَّرغيبِ في مُقاتَلَتِهم[٣].

وأيضًا لَمَّا أوعَزَ اللهُ تعالى في أمرِ الجِهادِ، وأزاح جميعَ عِلَلِهم، وبيَّنَ أنَّ حُسْنَه لا يختَصُّ به شَهرٌ دونَ شَهرٍ، وأنَّ بَعضَهم كان يُحِلُّ لهم ويُحَرِّمُ، فيتَّبِعونَه

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٢٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٥١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٠/ ٣٤١)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٢/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٢٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٤٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٥٢-٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧).

بما يؤدِّي إلى تحريم الشَّهرِ الحلالِ، وتحليلِ الشَّهرِ الحرامِ بالقتال فيه- عاتَبَهم اللهُ سبحانه على تخلُّفِهم عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الآمِرِ لهم بالنَّفْرِ في غزوةِ تَبُوكَ عن أمْرِه سبحانَه، فقال تعالى[1]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ما الذي يَدعُوكم- أيُّها المُؤمِنونَ- إذا أُمِرْتُم بجهادِ الكُفَّارِ لإعلاءِ كَلِمةِ الله، إلى أن تَتَثاقلوا وتتَباطَؤوا وتتقاعَسُوا، وتَميلوا إلى لُزومِ أرضِكم ومَساكِنِكم[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣١، ٤٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٠، ٥٠١).

قال الواحدي: (أجمع المُفَسِّرونَ على أنَّ هذه الآيةَ حَثٌّ لِمَن تثاقَلَ عن غزوةِ تَبُوك، وذلك كان في زَمانِ عُسرةٍ مِن الناس، وجدْبٍ من البلادِ، وشدَّةٍ من الحَرِّ، حين أخرَفَت النَّخلُ، وطابَت الثِّمارُ، فعظُم ذلك على النَّاسِ، وشَقَّ عليهم الخروجُ إلى القتالِ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٣٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٩).

وقال الرازي: (إنَّما استثقَلَ النَّاسُ ذلك لوجوهٍ: أحدها: شِدَّةُ الزَّمانِ في الصَّيفِ والقَحْطِ. وثانيها: بُعدُ المسافةِ، والحاجةُ إلى الاستعدادِ الكَثيرِ الزَّائدِ على ما جرَتْ به العادةُ في سائر الغَزَوات. وثالثها: إدراكُ الثِّمارِ بالمدينةِ في ذلك الوقتِ. ورابعها: شِدَّةُ الحَرِّ في ذلك الوقت. وخامسها: مهابةُ عَسكَرِ الرُّومِ. فهذه الجِهاتُ الكثيرةُ اجتمَعَت فاقتَضَت تثاقُلَ النَّاسِ عن ذلك الغَزوِ. والله أعلم). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧).

وقال ابن عطية: (العِتابُ في هذه الآية هو للقَبائِلِ وللمؤمنينَ الذين كانوا بالمدينةِ، وخَصَّ الثلاثةَ: كعبَ بنَ مالكٍ، ومُرارةَ بن الرَّبيعِ، وهلالَ بنَ أُميَّةَ، بذلك التَّذنيبِ الشَّديدِ بحَسَب مكانِهم من الصُّحبةِ؛ إذ هم من أهلِ بَدرٍ، وممَّن يُقتَدى بهم، وكان تخلُّفُهم لِغَيرِ عِلَّةٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤).

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: ما لَكُم فَعَلْتُم ذلك- أيُّها المُؤمِنونَ- أَرِضًا منكم بنَعيمِ الحياةِ الدُّنيا وراحَتِها، بدَلًا مِن نعيمِ الجنَّةِ في الآخرةِ[1]؟!

﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

أي: فما الذي يتمَتَّعُ به المتمَتِّعونَ في الحياةِ الدُّنيا- التي مالتْ بكم- مُقارنةً بما سيتمَتَّعُ به المُؤمِنونَ في الجنَّةِ؛ إلَّا يسيرٌ مَحدودٌ، ووقتُه قصيرٌ معدودٌ، فكيف تُقَدِّمونَ القَليلَ الزَّائِلَ على الكثيرِ الباقي؟! فاطلُبوا- أيُّها المؤمنونَ- نعيمَ الآخرةِ بطاعةِ رَبِّكم، والمُسارَعةِ إلى إجابةِ أمْرِه في النَّفيرِ؛ لِجهادِ عَدُوِّه وعَدُوِّكم[2].

عن المُستَورد بن شدَّاد رَضيَ الله عنه، قال: ((سَمِعْتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: واللَّه ما الدُّنيا في الآخرةِ إلَّا مِثلُ ما يجعَلُ أحدُكم إصْبَعَه هذه في اليَمِّ، فلْينظُرْ بمَ تَرجِعُ؟))[3].

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٧).

قال الرازي: (الدليلُ على أنَّ مَتاعَ الدُّنيا في الآخرةِ قَليلٌ: أنَّ لَذَّاتِ الدُّنيا خسيسةٌ في أنفُسِها، ومَشُوبةٌ بالآفاتِ والبليَّاتِ، ومُنقطعةٌ عن قريبٍ لا محالةَ، ومنافِعُ الآخرةِ شَريفةٌ عاليةٌ، خالصةٌ عن كلِّ الآفات، ودائمةٌ أبَديَّةٌ سرمديَّةٌ؛ وذلك يوجِبُ القَطعَ بأنَّ متاعَ الدُّنيا قليلٌ حَقيرٌ خَسيسٌ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧).

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨).

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا رغَّبَهم في الآيةِ الأُولى في الجِهادِ بناءً على التَّرغيبِ في ثوابِ الآخرةِ؛ رغَّبَهم في هذه الآيةِ في الجهادِ بناءً على أنواعٍ أُخَرَ مِن الأمورِ المُقَوِّيةِ للدَّواعي، وهي ثلاثةُ أنواعٍ: قولُه تعالى: ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. الثاني: قولُه: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾. الثالث: قَولُه: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾[(١)].

وأيضًا فهذا وعيدٌ وتَهديدٌ عَقَّبَ به المَلامَ السَّابِقَ؛ لأنَّ اللَّومَ وقَعَ على تثاقُلٍ حصَلَ، ولَمَّا كان التَّثاقُلُ مُفْضِيًا إلى التخَلُّفِ عن القتالِ، صَرَّح بالوعيدِ والتَّهديدِ إن يعودُوا لِمثلِ ذلك التَّثاقُلِ[(٢)]، فقال:

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: إنْ لم تُبادِروا- أيُّها المُؤمِنونَ- بالخُروجِ إلى الجهادِ بعد أن دُعِيتُم إليه، يُعَذِّبْكم اللهُ عَذابًا مُوجِعًا في الدُّنيا والآخرةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٠، ٤٦١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٨، ٥٠٩).

قال ابنُ تيمية: (قد يكون العذابُ مِن عِندِه، وقد يكونُ بأيدي العِبادِ، فإذا ترك النَّاسُ الجِهادَ في سبيل الله، فقد يَبتَلِيهم بأن يُوقِعَ بينهم العداوةَ، حتى تقَعَ بينهم الفِتنةُ كما هو الواقِعُ؛ فإنَّ النَّاسَ إذا اشتَغَلوا بالجهادِ في سبيلِ الله، جمَعَ اللهُ قُلوبَهم وألَّف بينهم، وجعَلَ بأْسَهم على عَدُوِّ الله وعَدُوِّهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٤٤).

وقال السعدي: (عدمُ النَّفيرِ في حالِ الاستنفارِ، مِن كبائرِ الذُّنوبِ المُوجِبةِ لأشَدِّ العقاب؛ لِمَا فيها من المضارِّ الشَّديدة، فإنَّ المُتخَلِّفَ قد عصى اللهَ تعالى، وارتكَبَ نَهْيَه، ولم يساعِدْ على نصرِ دِينِ الله، ولا ذَبَّ عن كتابِ الله وشَرْعِه، ولا أعان إخوانَه المُسلمينَ على عَدُوِّهم الذي يريدُ أن يستأصِلَهم، ويمحَقَ دينَهم، وربما اقتدى به غيرُه مِن ضُعَفاءِ الإيمانِ، بل ربما فَتَّ في أعضادِ مَنْ قاموا بجهادِ أعداءِ الله؛ فحقيقٌ بمَن هذا حالُه أن يتوعَّدَه اللهُ بالوعيدِ الشَّديدِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧).

عن ابن عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: إذا تبايَعْتُم بالعِينةِ، وأخَذْتُم أذنابَ البَقَرِ، ورَضِيتُم بالزَّرعِ، وتَرَكتُم الجهادَ- سلَّطَ اللهُ عليكم ذُلًّا لا ينزِعُه، حتى تَرجِعوا إلى دينِكم))[1].

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

أي: ويَستَبدِلِ اللهُ سبحانه بكم قومًا آخَرينَ، أطوَعَ لله منكم، إذا استُنْفِروا إلى الجِهادِ أجابُوا، ونَصَروا دينَ الله عزَّ وجلَّ[2].

كما قال سبحانه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد:

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢) واللفظ له، وأحمد (٥٠٠٧)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٢/ ٤٣٢) (١٣٥٨٣).
قال ابنُ القطانِ في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٧٧١): له طريقٌ صحيحٌ، وصحَّح إسنادَه ابنُ تيمية في ((بيان الدليل)) (١٠٩)، وقال ابنُ عبد الهادي في ((المحرر)) (٣١٥): رجالُ إسنادِه رجالُ الصحيحِ، وصحَّحه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١١) بمجموعِ طرقِه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٦٠).
قال الرازي: (المرادُ تَنبيهُهم على أنَّه تعالى متكفِّلٌ بنصرِه على أعدائِه، فإنْ سارَعوا معه إلى الخُروجِ حَصَلت النُّصرةُ بهم، وإن تخَلَّفوا وقعَتِ النُّصرةُ بغَيرِهم، وحصل العُتبى لهم؛ لئلَّا يتوهَّموا أنَّ غَلَبَةَ أعداءِ الدينِ، وعِزَّ الإسلامِ، لا يحصُلُ إلَّا بهم... قال المحقِّقون: إنَّ هذه الآيةَ خِطابٌ لِمَن استنفَرَهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يَنفِروا). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٨). ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٦٨).

٣٨].

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾.

أي: ولا تَضُرُّوا اللهَ سُبحانَه شَيئًا؛ فهو غَنيٌّ عنكم، وناصِرٌ دينَه، وإنَّما تَضرُّونَ أنفُسَكم، بتَرْكِكم الجهادَ في سَبيلِه عزَّ وجلَّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال سبحانه: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ قادِرٌ على فِعلِ كلِّ شيءٍ، لا يُعجِزُه شَيءٌ أراده سبحانَه، ومِن ذلك قُدرتُه على استبدال قومٍ آخرينَ بكم، وعلى نصرِ دينِه مِن دُونِكم(٢).

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا ذِكرُ طَريقٍ آخَرَ في ترغيبِهم في الجهادِ؛ وذلك لأنَّه تعالى ذكَرَ في الآيةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٤).

الأولى أنَّهم إن لم يَنفِروا باستنفارِه، ولم يشتَغِلوا بنُصرَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّ اللهَ ينصُرُه بدليلِ أنَّ اللهَ نَصَره وقَوَّاه حالَ ما لم يكُنْ معه إلَّا رَجُلٌ واحِدٌ، فهاهنا أَوْلى[١].

وأيضًا لَمَّا وصَفَ اللهُ تعالى نَفسَه الأقدَسَ بما هو له أهلٌ مِن شُمولِ القُدرةِ، وعَظيمِ البأسِ والقُوَّةِ؛ أتبع ذلك بدَليلٍ يتضَمَّنُ أنَّ المُستَنفِرَ لهم- وهو نبيُّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- غيرُ مُحتاجٍ إليهم، ولا مُتَوقِّفٍ نَصرُه عليهم، كما لم يَحتَجْ إليهم- بحِياطةِ القادِرِ له- فيما مضى من الهجرةِ التي ذَكَرَها، وأنَّ نَفْعَ ذلك إنما هو لهم، باستجلابِ ما وُعِدُوه، واستِدْفاعِ ما أُوعِدُوه في الدَّارَينِ، قال تعالى[٢]:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: إن تَترُكوا- أيُّها المُؤمِنونَ- نُصرةَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣] على الكُفَّارِ، فسَينصُرُه اللهُ تعالى كما نَصَرَه مِن قَبلُ، حين اضطَرَّه كفَّارُ قُريشٍ إلى الخُروجِ مِن مكَّةَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٧٢).

(٣) ذكرَ الألوسيُّ أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ يَرجِعُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم اتِّفاقًا. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥١٣، ٥١٤).

قال القرطبي: (هو خرَجَ بنَفْسِه فارًّا، لكِنْ بإلجائِهم إلى ذلك حتى فعَلَه، فنسَبَ الفِعلَ إليهم، ورتَّبَ الحُكمَ فيه عليهم؛ فلهذا يُقتَلُ المُكرِه على القَتلِ، ويَضمَنُ المالَ المُتلِفَ بالإكراه؛ لإلجائِه القاتِلَ والمُتلِفَ إلى القَتلِ والإتلافِ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥١٤).

﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾.

أي: نصَرَ اللهُ رسولَه محمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حين اضطُرَّ للخُروجِ مِن مكَّةَ، والحالُ أنَّه أحدُ اثنَينِ فحَسْبُ، ليس معه إلَّا أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه[١] حين كانا مُختَفِيَينِ من كفَّارِ قُريشٍ في غارٍ في جبَلِ ثَورٍ[٢].

عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للمُسلِمينَ: ((إنِّي أُريتُ دارَ هجْرَتِكم، ذاتَ نَخلٍ بين لابَتَينِ- وهما الحَرَّتانِ- فهاجر مَن هاجَرَ قِبَل المدينةِ، ورجَعَ عامَّةُ مَن كان هاجَرَ بأرضِ الحَبَشةِ إلى المدينةِ، وتجهَّزَ أبو بكرٍ قِبَل المدينة، فقال له رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: على رِسْلِك[٣] فإنِّي أرجو أن يُؤذَنَ لي، فقال أبو بكرٍ: وهل ترجو ذلك بأبي أنتَ؟ قال: نعم، فحَبَس أبو بكرٍ نَفسَه على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيصحَبَه، وعَلَف راحِلَتينِ- كانَتا عِندَه- وَرَقَ السَّمُرِ- وهو الخَبَطُ- أربعةَ أشهُرٍ. قالت عائشةُ: فبينما نحن يومًا جُلوسٌ في بيتِ أبي بكرٍ في نحرِ الظَّهيرةِ[٤]، قال قائِلٌ لأبي بكرٍ: هذا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُتقنِّعًا، في ساعةٍ لم يكُن يأتينا

---

(١) قال ابنُ عاشور: (الاثنانِ هما النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبو بكرٍ، بتواتُرِ الخَبَر، وإجماعِ المُسلِمينَ كُلِّهم؛ ولِكَونِ الثَّاني معلومًا للسَّامعين كُلِّهم، لم يُحتَجْ إلى ذِكْرِه، وأيضًا لأنَّ المقصودَ تَعظيمُ هذا النَّصرِ مع قِلَّةِ العَدَدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٣، ٤٦٤)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ١١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٠).

قال ابن تيمية: (لا خلافَ بين أهلِ العِلمِ أنَّ الغارَ المذكورَ في القرآنِ، إنَّما هو غارٌ بجَبَل ثَورٍ، قريبٌ من مكَّةَ، معروفٌ عند أهلِ مَكَّةَ إلى اليومِ). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (٢/ ١٦٤).

ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٧).

(٣) على رِسْلِك: أي: على مَهلِكَ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٢١٧).

(٤) نحرُ الظَّهيرةِ: وقتُ القائلةِ وشِدَّةِ الحَرِّ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

فيها. فقال أبو بكرٍ: فِداءٌ له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه السَّاعةِ إلَّا أمرٌ! قالت: فجاء رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فاستأذَنَ، فأَذِنَ له فدخَلَ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي بكرٍ: أَخرِجْ مَنْ عِندك. فقال أبو بكرٍ: إنَّما هم أهلُك، بأبي أنت يا رسولَ الله! قال: فإنِّي قد أُذِنَ لي في الخُروجِ. فقال أبو بكرٍ: الصَّحابةَ[١] بأبي أنت يا رسولَ الله. قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: نعم. قال أبو بكرٍ: فخُذ- بأبي أنت يا رسولَ الله- إحدى راحِلَتيَّ هاتينِ، قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: بالثَّمَنِ. قالت عائشةُ: فجَهَّزْناهما أحَثَّ الجَهازِ[٢]، وصَنَعْنا لهما سُفرةً في جِرابٍ[٣]، فقطَعَت أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ قِطعةً من نِطاقِها[٤]، فربَطَت به على فَمِ الجِرابِ؛ فبذلك سُمِّيَت ذاتَ النِّطاقَينِ، قالت: ثم لَحِقَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبو بكرٍ بغارٍ في جبَلِ ثَورٍ، فَكَمِنا[٥] فيه ثلاثَ ليالٍ، يَبيتُ عندهما عبدُ الله بنُ أبي بكرٍ، وهو غلامٌ شابٌّ، ثَقِفٌ لَقِنٌ[٦] فيُدلِجُ[٧] مِن عِندِهما بسَحَرٍ، فيُصبِحُ مع قريشٍ بمكَّةَ كبائِتٍ، فلا يسمَعُ أمرًا يُكتادانِ به إلَّا وَعاه، حتى يأتِيَهما بخبرِ ذلك حينَ يَختلِطُ الظَّلامُ، ويرعى عليهما عامرُ بن فُهَيرةَ- مولى أبي بكرٍ- مِنْحةً مِن غَنَمٍ[٨]، .....

---

(١) الصَّحابةَ: أي: أريدُ المُصاحَبةَ وأطلُبُها. يُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (١٥/ ١١٧).

(٢) أحَثَّ الجَهازِ: أي: أسرَعَه وأعجَلَه. يُنظر: ((طرح التثريب في شرح التقريب)) للعراقي (٧/ ٢٧٥).

(٣) سُفرةً في جِرابٍ: أي: زادًا في جِرابٍ؛ لأنَّ أصلَ السُّفرةِ في اللُّغةِ الزَّادُ الذي يُصنَعُ للمُسافِرِ، ثمَّ استُعمِلَ في وعاءِ الزَّادِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٣٢).

(٤) النِّطاقُ: ما يُشَدُّ به الوسَطُ. يُنظر: ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (٦/ ١١).

(٥) فكَمِنا: أي: اختَفَيا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٢٣٧).

(٦) ثَقِفٌ لَقِنٌ: الحاذِقُ السَّريعُ الفَهمِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٢٣٧).

(٧) يُدْلِجُ: أي يَخرُجُ بسَحَرٍ إلى مكَّةَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٢٣٧).

(٨) مِنْحة مِن غَنَم: شاةٌ يُعطيها الرَّجُلُ غيرَه؛ ليحلِبَها ثمَّ يَرُدَّها إليه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٨/ ٤٣٠).

فيُريحُها[١] عليهما حين تذهَبُ ساعةٌ مِن العِشاءِ، فيَبيتانِ في رِسْلٍ- وهو لَبَنُ منحَتهما ورَضيفهما- حتى ينعقَ بها[٢] عامرُ بن فُهَيرةَ بِغَلَسٍ[٣] يفعَلُ ذلك في كلِّ ليلةٍ مِن تلك الليالي الثَّلاثِ، واستأجَرَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبو بكرٍ رَجُلًا من بني الدِّيلِ هاديًا خِرِّيتًا- والخِرِّيتُ الماهرُ بالهدايةِ- وهو على دينِ كُفَّارِ قُريشٍ، فأَمِناه فدَفَعا إليه راحِلَتَيهما، وواعَداه غارَ ثَورٍ بعد ثلاثِ لَيالٍ، براحِلَتَيهما صُبحَ ثلاثٍ، وانطلَقَ معهما عامِرُ بنُ فُهَيرةَ، والدَّليلُ، فأخَذَ بهم طريقَ السَّواحِلِ))[٤].

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

أي: إذ يقولُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِصاحِبِه أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: لا تحزَنْ- يا أبا بكرٍ- لأنَّ اللهَ مَعَنا بنَصْرِه وحِفْظِه، ولن يَصِلَ المشركونَ إلينا[٥].

عن أنسِ بنِ مالكٍ، أنَّ أبا بكرٍ الصِّديقَ رَضِيَ الله عنه حَدَّثَه، قال: ((نظَرْتُ إلى

---

(١) فيُريحُها: أي: فيَرُدُّها إلى المَراحِ، وهو مأواها في الليلِ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢١/ ٣١٠)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٦٧).

(٢) ينعق بها: أي: يصيح بغنمه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٢٣٧).

(٣) الغَلَسُ: هو ظَلامُ آخِرِ اللَّيلِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٢١٨).

(٤) رواه البخاري (٣٩٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٤)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ١١٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥١)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٠).

قال السمعاني: (﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أي: لأبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، باتِّفاقِ أهلِ العِلمِ). ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣١١).

وقال السعدي: (أجمع المُسلِمونَ على أنَّه هو المرادُ بهذه الآيةِ الكريمة؛ ولهذا عَدُّوا مَن أنكَرَ صُحبةَ أبي بكرٍ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كافِرًا؛ لأنَّه مُنكِرٌ للقُرآنِ الذي صَرَّحَ بها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٠).

أقدامِ المُشرِكينَ على رُؤوسِنا ونحن في الغارِ، فقلتُ: يا رسولَ الله، لو أنَّ أحَدَهم نظَرَ إلى قَدَمَيه أبصَرَنا تحت قَدَمَيه! فقال: يا أبا بكرٍ، ما ظَنُّك باثنينِ اللهُ ثالِثُهما؟))[١].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لو كُنتُ مُتَّخِذًا مِن أمَّتي خليلًا، لاتَّخَذتُ أبا بكرٍ، ولكِنْ أخي وصاحِبي))[٢].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عليَّ في مالِه وصُحبَتِه أبو بكرٍ، ولو كنتُ مُتَّخذًا خَليلًا، لاتَّخَذتُ أبا بكرٍ خَليلاً، ولكِنْ أخُوةُ الإسلامِ، لا تَبقَينَّ في المسجدِ خَوْخَةٌ[٣] إلَّا خَوخةُ أبي بكرٍ))[٤].

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾.

أي: فأنزَلَ اللهُ الطُّمأنينةَ والثَّباتَ على رسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٥].

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٣٦٥٦) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٣).

(٣) الخَوخَةُ: البابُ الصَّغيرُ بين البَيتَينِ أو الدَّارينِ ونحوه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٥١).

(٤) رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢) واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣١).

والقولُ بأنَّ الضَّميرَ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ عائدٌ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو اختيارُ مقاتلِ بن سليمان، وابنِ جريرٍ، وابنِ عطيةَ، وابنِ جُزيٍّ، وابنِ كثيرٍ، والقاسميِّ، والسعدي، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطي. وعزاه ابنُ عطيةَ إلى الجمهورِ. يُنظر: المصادر السابقة، و((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦١).

وقيل: فأنزل اللهُ طُمأنينَتَه على أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عنه. واختاره النحَّاس، والواحدي، وابن العربي، والرازي، والبيضاوي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٠١)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢١٠)، ((البسيط)) للواحدي

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

أي: وقَوَّى اللهُ رسولَه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأعانَه بجُنودٍ مِن الملائكةِ، لم تَرَوْها أنتم(١).

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ كَلِمةَ الكُفَّارِ- وهي الشِّركُ والكُفرُ- حقيرةً مَقهورةً، منحَطَّةً وساقطةً، فأذَلَّ اللهُ الشِّركَ وأهْلَه، وخَذَلهم ودَحَرَهم(٢).

(١٠/ ٤٤٢)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥١٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٨١).

وممَّن قال مِن السلفِ أنَّ الضَّميرَ في عليه عائدٌ على أبي بكرٍ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عباسٍ، وحبيبُ بنُ أبي ثابتٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦١).

وقيل: فأنزل الله طُمأنِينَتَه على النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وعلى أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ. وهو قولُ المُبَرِّد، واختاره ابنُ الأنباري. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٢).

قال ابنُ الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ أي: قوَّاه، يعني النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بلا خلافٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦١).

وقال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾، قال ابن عباس: يريد: وقَوَّاه بجنودٍ لم تَرَوْها، يريد: الملائكةَ، يَدعونَ اللهَ له، وقال الزجَّاج: أيَّدَه بملائكةٍ يَصرِفونَ وجوهَ الكُفَّارِ وأبصارَهم عن أن يَرَوه، وقال غيرُه: يعني ما كان من تقويةِ الملائكةِ لِقَلبِه بالبِشارةِ بالنَّصرِ مِن رَبِّه، ومن إلقاءِ اليأسِ في قُلوبِ المُشرِكينَ حتى انصَرَفوا خائِبينَ، وهذه الأقوالُ على أنَّ هذا التأييدَ بالملائكةِ كان في الغارِ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٤٢).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤٣)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٥)، ((العذب

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾.

أي: وكَلِمةُ الله- وهي كَلِمةُ التَّوحيدِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ودينُه الذي شَرَعه لعبادِه- هي الغالِبةُ المنصورةُ على الشِّركِ وأهْلِه[(١)].

عن أبي موسى الأشعريِّ رضيَ اللهُ عنه، قال: ((سُئِلَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الرَّجُلِ يُقاتِلَ شَجاعةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقاتِلُ رِياءً، أيُّ ذلك في سبيلِ الله؟ فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَن قاتَلَ لِتَكونَ كَلِمةُ الله هي العُليا، فهو في سبيلِ الله))[(٢)].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

واللهُ عَزيزٌ في انتقامِه وانتصارِه مِن الكُفَّارِ، لا يقهَرُه، ولا يَغلِبُه شَيءٌ، ولا يفوتُه أحَدٌ، قاهرٌ غالِبٌ، مَنيعُ الجَنابِ، لا يُضامُ مَن لاذ ببابِه، حكيمٌ في أقوالِه وأفعالِه، وفي تدبيرِه خَلْقَه، يضَعُ سُبحانَه الأشياءَ موَاضِعَها اللَّائِقةَ بها، وقد يؤخِّرُ نَصرَ حِزبِه إلى وقتٍ آخَرَ[(٣)].

النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٣).

وقال السعدي: (قوله ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ أي: كَلِماتُه القَدَريَّةُ وكَلِماتُه الدِّينيةُ؛ هي العاليةُ على كَلِمةِ غَيرِه، التي من جُملَتِها قَولُه تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، فدِينُ الله هو الظَّاهرُ العالي على سائِرِ الأديانِ، بالحُجَجِ الواضحةِ، والآياتِ الباهرةِ، والسُّلطانِ النَّاصِرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨).

(٢) رواه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على قَدْرِ رَغبةِ العَبدِ في الدُّنيا ورِضاه بها، يكونُ تَثاقُلُه عن طاعةِ الله، وطَلَبِ الآخرةِ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ متاعُ الدُّنيا في جَنْبِ متاعِ الآخرةِ، قليلٌ حَقيرٌ، وسعادةُ الدُّنيا بالنِّسبةِ إلى سعادةِ الآخرةِ، كالقَطرةِ في البَحرِ، وتَرْكُ الخيرِ الكَثيرِ لأجلِ الشَّرِّ القليلِ، شَرٌّ عَظيمٌ، وهو جَهلٌ وسَفَهٌ[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ هذه الآيةُ فيها سِرٌّ عَظيمٌ يعلَمُ به الإنسانُ أنَّ كُلَّ ما يفعَلُه إنَّما أثَرُه راجِعٌ إلى نَفسِه، فإن كان شَرًّا فهو يجني شَرًّا على نَفسِه، وإن كان خَيرًا فهو يجلِبُ الخيرَ لِنَفسِه ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا﴾[٣].

٤- مَن كان اللهُ تعالى معه بعِزَّتِه التي لا تُغلَب، وقُدرَتِه التي لا تُقهَر، ورَحمَتِه التي قام ويقومُ بها كلُّ شَيءٍ- فهو حقيقٌ بألَّا يستسلِمَ لِحُزنٍ ولا خوفٍ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٨).

فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾[١].

٥- قال تعالى: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ اللهُ جلَّ وعلا يَشرَعُ بأفعالِ رُسُلِه وأقوالِهم لِخَلقِه؛ فاللهُ جلَّ وعلا مع عظَمَتِه وجَلالِه وتَصريحِ النَّبيِّ بأنَّه معه، وأنَّ اللهَ أيَّدَه بجُنودِ الملائكةِ، مع هذا يدخُلُ في غارٍ في ظلمةِ اللَّيلِ، والغارُ فيه الحيَّاتُ وخَشاشُ الأرضِ؛ لِيَسُنَّ للنَّاسِ ويَشرَعَ لهم حَملَ أعباءِ تَبليغِ الرِّسالةِ والدَّعوة، وأن يتحَمَّلوا في شأنِ الدَّعوةِ إلى الله كُلَّ البَلايا والمشاقِّ، ويَستَهينوا فيها بكلِّ عَظيمٍ، هذا هو السِّرُّ في ذلك[٢].

٦- في قولِ الله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ﴾ أنَّ الحُزنَ قد يَعرِضُ لخَواصِّ عِبادِ الله الصِّدِّيقِينَ، ولا ينقصُهم إضافةُ الحزنِ إليهم، مع أنَّ الأَوْلى إذا نزَلَ بالعبدِ أن يَسعى في ذَهابِه عنه؛ فإنَّه مُضعِفٌ للقَلبِ، مُوهِنٌ للعَزيمةِ، ولم يكنْ حُزنُ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عنه لشَكٍّ وحَيرةٍ، وإنَّما كان خوفًا على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَصِلَ إليه ضَرَرٌ[٣]. وقيل: ليس في نهيِ أبي بكرٍ عن الحُزنِ ما يدُلُّ على وجودِه، بل قد يُنهى عنه؛ لئلَّا يُوجَدَ إذا وُجِدَ مُقتَضيه، فالنَّهيُ عن الشَّيءِ لا يدُلُّ على وقوعِه، بل يدُلُّ على أنَّه ممنوعٌ منه؛ لئلَّا يقَعَ فيما بعدُ، كقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، فهذا لا يدُلُّ على أنَّه كان يُطيعُهم. فقَولُه ﴿لَا تَحۡزَنۡ﴾ لا يدُلُّ على أنَّ الصِّدِّيقَ كان قد حَزِنَ، لكنْ مِن المُمكِنِ في العَقلِ أنَّه يحزَنُ، فقد يُنهى عن ذلك؛

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٧).

لئلَّا يفعَلَه[١].

٧- قولُه تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ في الآيةِ فَضيلةُ السَّكينةِ، وأنَّها مِن تمامِ نِعمةِ الله على العَبدِ في أوقاتِ الشَّدائدِ والمخاوفِ التي تَطيشُ بها الأفئدةُ، وهي تكونُ على حسَبِ مَعرفةِ العَبدِ بربِّه، وثِقَتِه بِوَعدِه الصَّادِقِ، وبحَسَبِ إيمانِه وشَجاعَتِه[٢].

٨- كلُّ مَن وافَقَ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أمرٍ خالفَ فيه غَيرَه؛ فهو من الذينَ اتَّبَعوه في ذلك؛ وله نصيبٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؛ فإنَّ المعيَّةَ الإلهيَّةَ المتضَمِّنةَ للنَّصرِ هي لِما جاء به إلى يومِ القِيامةِ[٣].

٩- قولُه تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فيه أنَّه لا حُزنَ مع الله، وأنَّ مَن كان اللهُ معه، فما له وللحُزنِ؟ وإنَّما الحُزنُ كلُّ الحُزنِ لِمَن فاته اللهُ، فمن حصَلَ اللهُ له، فعلى أيِّ شَيءٍ يَحزَنُ؟ ومن فاته اللهُ فبأيِّ شَيءٍ يَفرَحُ[٤]؟

١٠- والمعيَّةُ في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ معيَّةٌ خاصَّةٌ، غيرُ قَولِه تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] فالمعيَّةُ الخاصَّةُ تقتضي حُسنَ الظَّنِّ بإجابَتِه سُبحانَه، ورِضاه وحِفْظَه وصِيَانَتَه، وأمَّا المعيَّةُ العامَّةُ فتَقتَضي التَّحذيرَ مِن عِلمِه، واطِّلاعِه وقُدرَتِه، وبَطْشِه وانتِقامِه[٥].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هذانِ الاسمانِ مِن أسماءِ

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٥٧، ٤٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٧).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٧).
(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٨٠).
(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٣٣).

الله: (العَزيزُ الحكيمُ) المتضَمِّنانِ هاتَينِ الصِّفَتينِ مِن صِفاتِ الله، وهي عِزُّه وحِكمَتُه وحُكْمُه- هما أبلَغُ شَيءٍ في امتثالِ أمْرِه وطاعَتِه جَلَّ وعلا؛ لأنَّ عِزَّتَه- أي: غَلَبَتَه وقُوَّتَه وقَهْرَه وسُلطانَه- يجعَلُك أيُّها المِسكينُ، تخافُه وتخضَعُ لأمْرِه ونَهْيِه، وكونُه جلَّ وعلا حكيمًا لا يأمُرُك إلَّا بما فيه لك الخَيرُ، ولا ينهاك إلَّا عمَّا فيه لك الشَّرُّ؛ ذلك يقتضِي أيضًا أن تُطيعَه وتخضعَ لأمْرِه ونَهيِه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ بُنِي (قيل) للمَفعولِ، والقائِلُ هو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يُذكَرْ؛ إغلاظًا ومُخاشنةً لهم، وصَونًا لِذِكرِه؛ إذ أخلَدَ إلى الهُوَينا والدَّعةِ مَن أخلَدَ، وخالَفَ أمْرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ خِطابٌ لكلِّ قرْنٍ، وقد أَخبَرَ فيه أنَّه مَن نَكَل عن الجهادِ المأمورِ به، نَزَعَ الأمرَ منه، وعذَّبَه، واستبدَلَ به مَن يقومُ بالجهادِ- وهذا هو الواقِعُ- وإنَّ هذا الدِّينَ لِمَن ذَبَّ عنه[3].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ دلَّ على فضيلةِ أبي بكرٍ رَضِيَ الله عنه من وجوهٍ؛ منها: الأول: أنَّ الهجرةَ كانت بإذنِ الله تعالى، وكان في خِدمةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جماعةٌ مِن المُخلِصينَ، وكانوا

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٣٠١)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٣٠٠).

في النَّسَبِ إلى شجرةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أقرَبَ من أبي بكرٍ؛ فتخصيصُ الله إيَّاه بهذا التَّشريفِ دلَّ على منصبٍ عالٍ له في الدِّينِ. الثاني: أنَّه تعالى سَمَّاه ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ فجُعِل ثانيَ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حالَ كَونِهما في الغارِ، والعلماءُ أثبتوا أنَّه رَضِيَ الله عنه كان ثانيَ محمَّدٍ في أكثَرِ المناصِبِ الدينيَّةِ. الثالث: أنَّه تعالى وصَفَ أبا بكرٍ بِكَونِه صاحِبًا للرَّسولِ، وذلك يدلُّ على كمالِ الفَضلِ. الرابع: قَولُه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ولا شَكَّ أنَّ المرادَ مِن هذه المعيَّةِ: المعيَّةُ بالحِفظِ والنُّصرةِ، والحِراسةِ والمَعونةِ، وبالجملةِ فالرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام شَرَكَ بين نفسِه وبين أبي بكرٍ في هذه المعيَّةِ، وذلك منصِبٌ في غايةِ الشَّرفِ[1].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ ...﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على جوازِ الفِرارِ مِن خَوفِ العَدُوِّ، والاستخفاءِ في الغِيرانِ وغيرِها، وعدمِ الاستسلامِ المؤَدِّي إلى الآلامِ والهُمومِ، وألَّا يُلقِيَ بيَدِه إلى العدُوِّ؛ توكُّلًا على الله، واستسلامًا له، ولو شاء ربُّكم لعَصَمه مع كَونِه معهم، ولكِنَّها سُنَّةُ الأنبياءِ، وسِيرةُ الأمَمِ، حَكَمَ اللهُ بها لتكونَ قُدوةً للخَلقِ، وأنمُوذجًا في الرِّفقِ، وعمَلًا بالأسبابِ، وهذا أدَلُّ دليلٍ على فسادِ مَن منعَ ذلك، وقال: من خافَ مع الله سِواه كان ذلك نقصًا في توكُّلِه، ولم يؤمِنْ بالقَدَرِ. وهذا كلُّه في معنى الآية، ولله الحَمدُ والهداية[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ بيانُ أنَّ نَصْرَ رسولِ الله

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٠-٥٢).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٤٥).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَرْضٌ علينا؛ لأنَّه مِن التَّعزيرِ المَفروضِ؛ ولأنَّه مِن أعظَمِ الجِهادِ في سبيلِ الله؛ ولذلك قال سُبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1] [الصف: ١٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ ...﴾ جعَلَ أبا بكرٍ في مقابلةِ الصَّحابةِ أجمَعَ، فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ بِصَاحبه في الغار، بتأنيسِه له، وحَمْلِه على عُنُقِه، ووفائِه له بوقايتِه له بنفسه، وبمواساته بماله، وبهذه الفضائلِ استحَقَّ أن يقالَ فيه: ((لو كنتُ مُتَّخِذًا خَليلًا لاتَّخذْتُ أَبا بكرٍ خَليلًا))[2] وسبَقت له بذلك كُلِّه الفضيلةُ على النَّاسِ[3]. قال سفيانُ بنُ عُيَينةَ: خرج أبو بكرٍ بهذه الآيةِ مِن المعاتَبةِ التي في قَولِه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾[4]. وقال الشَّعبي: عاتبَ اللهُ عزَّ وجَلَّ أهلَ الأرضِ جميعًا في هذه الآيةِ غيرَ أبي بكرٍ الصِّديقِ رَضِيَ اللهُ عنه[5].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ أبو بكرٍ الصِّديقُ رَضِيَ الله عنه هو الثَّاني في الإسلامِ، وفي بذْلِ النَّفسِ، وفي الزُّهدِ، وفي الصُّحبةِ، وفي الخِلافةِ، وفي العُمُرِ، وفي سبَبِ الموتِ؛ لأنَّ الرَّسولَ مات عن أثَرِ السُّمِّ، وأبو بكرٍ سُمَّ فمات[6].

٨- قال بعضُ العُلَماءِ: في قَولِه تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٠٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥١٣، ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٤٩).

(٦) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٧٢).

ما يدلُّ على أنَّ الخليفةَ بعد النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ الله عنه؛ لأنَّ الخليفةَ لا يكونُ أبدًا إلَّا ثانيًا[١].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ لا يختَصُّ بمُصاحَبتِه في الغارِ، بل هو صاحِبُه المُطلَقُ الذي كَمُلَ في الصُّحبةِ كَمالًا لم يَشْرَكْه فيه غَيرُه، فصار مُختَصًّا بالأكمَليَّةِ مِن الصُّحبةِ[٢].

١٠- وُحِّدَ الضميرُ في ﴿عَلَيْهِ﴾ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾؛ لأنَّ نزولَ السَّكينةِ على أحَدِهما يستلزِمُ مُشاركةَ الآخَرِ له؛ إذ مُحَالٌ أن يَنزِلَ ذلك على الصَّاحِبَ دونَ المصحوبِ، أو على المصحوبِ دونَ الصَّاحِبِ المُلازِمِ، فلمَّا كان لا يحصُلُ ذلك إلَّا مع الآخَرِ وَحَّد الضميرَ، وأعاده إلى الرَّسولِ؛ فإنَّه هو المقصودُ، والصَّاحبُ تابِعٌ له، ولو قيل: (فأنزل السَّكينةَ عليهما وأيَّدَهما)؛ لأوهَمَ أنَّ أبا بكرٍ شريكٌ في النبوَّةِ! كهارونَ مع موسى؛ حيث قال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾[٣] [القصص: ٣٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

- قولُه: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٤٧، ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٤٩١).

اسْتِفهامٌ مَعْناهُ الإنكارُ والتَّقريعُ؛ فإنَّه وإنْ كان في الظَّاهرِ اسْتِفهامًا، إلَّا أنَّ المُرادَ منه المُبالغةُ في الإنكارِ[١].

- وقولُه: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ فيه تَمْثيلٌ لحالِ الكارِهينَ للغَزْوِ، المُتطلِّبينَ للعُذْرِ عَنِ الجِهادِ كسلًا وجُبْنًا، بحالِ مَنْ يُطْلَبُ منه النُّهوضُ والخُروجُ، فيُقابِلُ ذلك الطَّلَبَ بالالْتِصاقِ بالأرضِ، والتَّمكُّنِ مِنَ القُعودِ، فيَأبى النُّهوضَ فضلًا عن السَّيرِ[٢]، وعُدِّي التَّثاقُل بـ(إلى)؛ لأنَّه ضُمِّنَ معنى الميلِ والإخلادِ، كأنَّه تَثاقُلٌ يَطلُب فاعلُه الوصولَ إلى الأرضِ؛ للقُعودِ والسُّكونِ بها[٣].

- وفيه تعريضٌ بأنَّ بُطْأَهم ليس عن عَجزٍ، ولكنَّه عن تَعلُّقٍ بالإقامةِ في بلادِهم وأموالِهم[٤].

- قولُه: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هذا الاسْتِفهامُ فيه نوعٌ مِنَ الإنكارِ والتَّعجُّبِ؛ فهو اسْتِفهامٌ إنكاريٌّ تَعجُّبيٌّ[٥].

- واخْتيرَ فِعْلُ الرِّضا في قولِهِ: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ دونَ نَحو: (آثرتُمْ) أو (فضَّلتُمْ)؛ مُبالغةً في الإنكارِ؛ لأنَّ فِعْلَ (رَضِي بكذا) يَدُلُّ على انْشِراحِ النَّفْسِ[٦].

- قولُه: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ترشيحُ الحياةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٧-١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٩٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٨).

(٦) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الدُّنيا بما يؤذِنُ بنَفاستِها، ويَسْتدعي الرَّغبةَ فيها، وتَجْريدُ الآخِرةِ عَنْ مِثلِ ذلك، وتَخصيصُها بالذِّكرِ هنا- مبالغةٌ في بَيانِ حَقارةِ الدُّنيا ودَناءتِها، وعِظَمِ شأنِ الآخِرةِ وعُلوِّها[١].

- وفيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ- حيثُ قال: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ولَمْ يَقُلْ: فما مَتاعُها-؛ لزِيادةِ التَّقريرِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ فيه وَصْفُهم بالمُغايرةِ لهم؛ لتَّأكيدِ الوعيدِ، والتَّشديدِ في التَّهديدِ بالدَّلالةِ على المُغايرةِ الوَصْفيَّةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ تذييلٌ للكلامِ؛ لأنَّهُ يُحقِّقُ مَضمونَ لَحاقِ الضُّرِّ بِهِم؛ لأنَّهُ قَديرٌ عليهم في جُمْلةِ كُلِّ شَيءٍ، وعدَمُ لَحاقِ الضُّرِّ بِهِ؛ لأنَّهُ قَديرٌ على كُلِّ شيءٍ؛ فدَخَلتِ الأشياءُ التي مِنْ شأنِها الضُّرُّ[٤]؛ ففي خِتامِ الآيةِ بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّه سُبْحانَه لَمَّا رَتَّبَ على انْتِفاءِ نَفْرِهِم التَّعذيبَ والاسْتِبدالَ وانْتِفاءَ الضَّررِ، أَخْبَرَ تعالى أنَّه على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ؛ مِنَ التَّعذيبِ والتغييرِ وغيرِ ذلك[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٠).

ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ لقولِه: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لأنَّ نَفْيَ أنْ يكونَ قُعودُهُم عَنِ النَّفيرِ مُضِرًّا باللهِ ورسولِهِ، يُثيرُ في نَفْسِ السَّامِعِ سؤالًا عن حُصولِ النَّصْرِ بدونِ نَصيرٍ؛ فبيَّنَ بأنَّ اللهَ يَنْصُرُه، كما نَصَرَه حَينَ كان ثانيَ اثْنينِ لا جَيشَ مَعَه؛ فالذي نَصَرَه حين كان ثانيَ اثْنينِ قديرٌ على نَصْرِهِ وهو في جيشٍ عظيمٍ، فتبيَّنَ أنَّ تَقديرَ قُعودِهِمْ عن النَّفيرِ لا يَضُرُّ اللهَ شيئًا[1].

- وفي قولِه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ حُذِفَ الجزاءُ، وأقيمُ سببُه مَقامَه، والتَّقديرُ: إنْ لم تَنْصروه فسَيَنصرَهُ اللهُ الذي قد نَصَرَه في وقتِ ضرورةٍ أَشدَّ مِنْ هذه المرَّةِ، أو: إنْ لَمْ تَنْصروهُ فَقَدْ أَوْجَب له النُّصْرةَ حتَّى نَصَرَه في مِثْلِ ذلك الوَقْتِ، فلَنْ يَخذلَه في غيرِه[2].

- وجُمْلةُ: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مُستأنَفةٌ بمنزلةِ التَّذييلِ للكلامِ؛ لأنَّه لَمَّا أَخْبرَ عَنْ كلمةِ الذين كَفَروا بأنَّها صارتْ سُفْلى، أفادَ أنَّ العَلاءَ انَحْصرَ في دِينِ اللهِ وشأنِه؛ فضَميرُ الفَصْلِ ﴿هِىَ﴾ مُفيدٌ للقَصْرِ؛ ولذلك لَمْ تُعْطَفْ ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ على ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ إذْ ليس المُقصودُ إفادةَ جعْلِ كَلِمةِ اللهِ عُلْيا؛ لِمَا يُشْعِرُ بِهِ الجَعْلُ مِنْ إحداثِ الحالةِ، بِل المَقصودُ إفادةُ أنَّ العلاءَ ثابتٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٠-٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٦).

لها، ومَقْصورٌ عليها، وأنَّها في نَفْسِها كذلك لا يَتبدَّلُ شأنُها، ولا يَتغيَّرُ حالُها دونَ غَيرِها مِنَ الكَلِمِ؛ ولذلك وُسِّطَ ضميرُ الفصلِ؛ فكانتِ الجُملةُ كالتَّذييلِ لَجَعْلِ كلمةِ الذين كَفَروا سُفْلى[١].

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تذييلٌ لمضمونِ الجُمْلتينِ: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾؛ لأنَّ العزيزَ لا يَغْلِبُه شيءٌ، والحكيمُ لا يَفوتُه مَقْصِدٌ؛ فلا جَرَمَ أنْ تكونَ كلمتُه العُليا، وكَلِمةُ ضدِّهِ السُّفْلى[٢]، وناسَبَ هنا الوصْفُ بالعِزَّةِ الدَّالَّةِ على القَهْرِ والغَلَبَةِ، والحِكْمةِ الدَّالَّةِ على ما يَصْنَعُ مع أنبيائهِ وأوليائهِ، ومَنْ عاداهُم مِنْ إعزازِ دِينِه، وإخمادِ الكُفْرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٥). وهذا الوجهُ لا يَتأتَّى في قِراءة (وكَلِمَةَ اللهِ هِيَ العُلْيَا) بالنَّصب عطفًا على ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٢).

الآيات (٤١-٤٢)

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٤٢ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾: أي: خَفَّتْ عليكم الحَركةُ أو ثَقُلَت، مُوسِرينَ أو مُعسِرينَ، شبابًا أو شُيوخًا، والخِفافُ جمعُ خفيفٍ. والثقالُ: جمعُ ثقيلٍ، والخَفيفُ: بإزاءِ الثَّقيلِ، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّةِ[1].

﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾: أي: غَنيمةً حاضِرةً، سَهْلةَ التَّناوُلِ، والعَرَضُ: ما لا يكونُ له ثباتٌ، والعَرَضُ: طَمَعُ الدُّنيا، قليلًا كان أو كثيرًا، وسُمِّيَ به؛ لأنَّه يُعْرِضُ، أي: يُريكَ عُرضَه[2].

﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾: أي: مَوضعًا قريبًا سَهْلًا غيرَ شاقٍّ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٤، ٢٨٨)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/ ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٠)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩١)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩).

﴿ٱلشُّقَّةُ﴾: أي: السَّفَرُ البَعيدُ المَسافةِ، والناحيةُ التي تلحَقُك المشَقَّةُ في الوصولِ إليها، وأصل (شقق): يدلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ[1].

المعنَى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ المؤمنينَ أن يَخرُجوا لجِهادِ الكُفَّارِ مُسرِعينَ، سواءٌ كانوا خِفافًا أم ثِقالًا، وأن يُجاهدوا بأموالِهم وأنفُسِهم؛ لإعلاءِ كَلِمةِ الله تعالى؛ فإنَّ ذلك خيرٌ لهم إن كانوا يَعلَمونَ.

ثمَّ يُخاطِبُ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: لو كان ما تدعُو إليه المُنافِقينَ المُتخَلِّفينَ عن غَزوِ الرُّومِ، غنيمةً حاضرةً سهلةَ التَّناوُلِ، وسَفَرًا سَهلًا لِمَوضعٍ قَريبٍ- لَخَرجوا معك، لكِنْ طالَتْ عليهم مسافةُ السَّفَرِ لِغَزوِ الرُّومِ، فتَرَكوا المَسيرَ معك لِشدَّةِ المشَقَّةِ، وسَيَحلِفونَ لك- يا محمَّدُ- كذبًا فيَقولون: والله لو استَطَعْنا الخُروجَ معكم لَخَرجْنا، يُهلِكونَ أنفُسَهم، واللهُ يعلَمُ أنَّهم كاذِبونَ.

عفا اللهُ عنك- يا مُحمَّدُ- على إذنِك لهؤلاءِ المُنافِقينَ حين استأذَنُوك للتخَلُّفِ عن الخُروجِ معك، لأيِّ شَيءٍ أذِنْتَ لهم؟ كان ينبغي ألَّا تأذَنَ لهم حتى تعلَمَ الصَّادِقينَ في أنَّ لهم عذرًا، وتَعلَمَ الكاذبينَ الذين لا عُذرَ لهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠، ١٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وبَّخ اللهُ تعالى المُؤمِنينَ على التَّثاقُلِ عَن النَّفْرِ لَمَّا استنفَرَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتوعَّدَ تعالى مَن لا ينفِرُ مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قفَّى عليه ببيانِ حُكمِ النَّفيرِ العامِّ، وأتبَعَه بهذا الأمرِ الجَزمِ، الذي يُوجِبُ القِتالَ على كلِّ فَردٍ مِن الأفرادِ بما استطاع، ولا يُعذَر فيه أحَدٌ بالتخَلُّفِ عن الإقدامِ، وتَركِ طاعةِ الإمامِ[1]، فقال تعالى:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

أي: اخرُجوا- أيُّها المُؤمِنونَ- إلى جهادِ الكُفَّارِ[2] مُسرِعينَ، سواءٌ خَفَّ عليكم الجِهادُ وسَهُلَ، أم ثقُلَ وصَعُبَ، سواءٌ كُنتُم شبابًا أم شُيوخًا، أغنياءَ أم فُقَراءَ، أقوياءَ أم ضُعَفاءَ، نَشيطينَ أم كُسالى، فارغينَ مِن الشُّغُلِ أم مَشغولينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٩٧).

(٢) قال ابنُ كثيرٍ: (أمَرَ اللهُ تعالى بالنَّفيرِ العامِّ مع الرَّسولِ- صلواتُ الله وسلامُه عليه- عامَ غَزوةِ تبوك؛ لقتالِ أعداءِ الله من الرُّومِ الكَفَرةِ مِن أهلِ الكِتابِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٦). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٤)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤٦، ٤٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٦، ٢٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٤، ٥٣٥).
قال الجصَّاص: (معلومٌ في اعتقادِ جَميعِ المُسلِمينَ أنَّه إذا خاف أهلُ الثُّغورِ مِن العَدُوِّ، ولم تكن فيهم مقاوَمةٌ لهم، فخافوا على بلادِهم وأنفُسِهم وذراريِّهم: أنَّ الفَرضَ على كافَّةِ الأمَّةِ أن يَنفِرَ إليهم مَن يكُفُّ عادِيَتَهم عن المسلمينَ، وهذا لا خِلافَ فيه بين الأمَّةِ؛ إذ ليس مِن قَولِ أحدٍ مِن المسلمينَ إباحةُ القُعودِ عنهم، حتى يستبيحوا دماءَ المُسلمين، وسَبْيَ ذراريِّهم). ((أحكام القرآن)) (٣/ ١٤٦-١٤٧).
وقال القرطبي: (إذا تعيَّنَ الجِهادُ بِغَلَبةِ العَدُوِّ على قُطرٍ مِن الأقطارِ... وجب على جميعِ أهلِ

كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا استُنفِرْتُم فانفِرُوا))(١).

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ابذُلوا جُهدَكم واستَفرِغوا وُسْعَكم- أيُّها المؤمنونَ- في إنفاقِ أموالِكم في تجهيزِ الغُزاةِ، والإعدادِ للجِهادِ، وقتالِ الكُفَّارِ بأنفُسِكم؛ لإعلاءِ كَلِمةِ الله عزَّ وجلَّ(٢).

تلك الدَّارِ أن ينفِروا ويَخرُجوا إليه خِفافًا وثِقالًا، شبابًا وشُيوخًا، كلٌّ على قَدرِ طاقَتِه، مَن كان له أبٌ بغَيرِ إذنِه، ومَن لا أبَ له، ولا يتخَلَّف أحدٌ يقدِرُ على الخروجِ، مِن مقاتِلٍ أو مُكثِّرٍ. فإنْ عجَزَ أهلُ تلك البَلدةِ عن القيامِ بعَدُوِّهم، كان على مَن قارَبَهم وجاوَرَهم أن يخرُجوا على حسَبِ ما لَزِمَ أهلَ تلك البلدةِ، حتى يعلموا أنَّ فيهم طاقةً على القيامِ بهم ومُدافَعتِهم، وكذلك كلُّ مَن عَلِمَ بِضَعفِهم عن عَدُوِّهم، وعَلِمَ أنَّه يُدرِكُهم ويُمكِنُه غِياثُهم، لَزِمَه أيضًا الخروجُ إليهم، فالمُسلِمونَ كُلُّهم يدٌ على مَن سواهم، حتى إذا قام بدَفعِ العَدُوِّ أهلُ النَّاحيةِ التي نزل العدوُّ عليها واحتَلَّ بها؛ سقَطَ الفَرضُ عن الآخرينَ، ولو قارب العدُوُّ دارَ الإسلامِ ولم يَدخُلوها، لَزِمَهم أيضًا الخروجُ إليه، حتى يَظهَرَ دِينُ الله، وتُحمى البَيضةُ، وتُحفَظَ الحَوزةُ، ويُخزى العَدُوُّ، ولا خلافَ في هذا). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥١، ١٥٢).

(١) رواه البخاري (٣٠٧٧)، ومسلم (١٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٥)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٧).

قال الجصاص: (أوجَبَ فَرضَ الجهادِ بالمالِ والنَّفسِ جَميعًا: فمَن كان له مالٌ وهو مريضٌ أو مُقعَدٌ، أو ضعيفٌ لا يصلُحُ للقتالِ؛ فعليه الجهادُ بمالِه بأن يُعطِيَه غَيرَه فيَغزوَ به، كما أنَّ مَن له قوَّةٌ وجَلَدٌ، وأمكَنَه الجهادُ بنَفسِه؛ كان عليه الجهادُ بنَفسِه- وإن لم يكن ذا مالٍ ويَسارٍ- بعد أن يجِدَ ما يُبَلِّغُه، ومن قَوِيَ على القتالِ وله مالٌ؛ فعليه الجهادُ بالنَّفسِ والمال، ومن كان عاجزًا بنَفسِه مُعدِمًا؛ فعليه الجِهادُ بالنُّصحِ لله ولِرَسولِه، بقَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١]). ((أحكام القرآن)) (٣/ ١٥١). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤٩)، ((الفتاوى

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((جاهدُوا المُشرِكينَ بأموالِكم وأنفُسِكم وألسِنَتِكم))[(١)].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: أمْرُكم بالنَّفيرِ، وأمْرُكم بالجِهادِ بالأموالِ والأنفُسِ، فيه خيرٌ عظيمٌ لكم- أيُّها المُؤمِنونَ- في دُنياكم وآخِرَتِكم، وهو خيرٌ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا، إن كُنتُم تَعلَمونَ حقًّا شَرَفَ الجِهادِ، وفَضلَ المُجاهدينَ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ

الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٥٣٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٦٤).

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٠٤)، واللفظ له، والنسائي (٣٠٩٦)، وأحمد (١٣٦٣٨).
صححه ابن حزم في ((أصول الأحكام)) (١/ ٢٧)، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١١٤)، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (١٨/ ٤١٧)، والألباني في ((صحيح أبي داود)) (٢٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٥، ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٧، ٢٠٨).

بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ * وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((جاهدُوا في سبيلِ الله؛ فإنَّ الجِهادَ في سبيلِ الله بابٌ مِن أبوابِ الجنَّةِ، يُنَجِّي اللهُ به مِنَ الهَمِّ والغَمِّ))(١).

وعن سهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((رِباطُ يَومٍ في سبيلِ الله خَيرٌ مِن الدُّنيا وما عليها، وموضِعُ سَوطِ أحَدِكم من الجنَّةِ خَيرٌ مِن الدُّنيا وما عليها، والرَّوحةُ يَروحُها العَبدُ في سبيلِ اللهِ أو الغَدوةُ، خَيرٌ مِن الدُّنيا وما عليها))(٢).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن أحَدٍ يَدخُلُ الجنَّةَ، يُحِبُّ أن يرجِعَ إلى الدُّنيا، وأنَّ له ما على الأرضِ مِن شَيءٍ، غيرُ الشَّهيدِ؛ فإنَّه يتمَنَّى أن يرجِعَ، فيُقتَلَ عَشرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرى من الكَرامةِ))(٣).

﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ

(١) أخرجه أحمد (٢٢٦٩٩)، وابن أبي عاصم في ((الجهاد)) (١/ ١٣٣)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢٤٠٤).
صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وقال ابنُ كثير في ((التفسير)) (٤/ ٥): حسنٌ عظيمٌ، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٧٥): أحدُ أسانيدِ أحمدَ وغيره ثقاتٌ، وصحَّحه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١٩٤١): بمجموعِ طرقِه.
(٢) رواه البخاري (٢٨٩٢) واللفظ له، ومسلم (١٨٨١).
(٣) رواه البخاري (٢٨١٧)، ومسلم (١٨٧٧) واللفظ له.

﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بالغَ اللهُ تعالى في تَرغيبِهم في الجِهادِ في سبيلِ الله، وكان قد ذَكَرَ قَولَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ عاد إلى تقريرِ كَونِهم مُتَثاقِلينَ، وبيَّنَ أنَّ أقوامًا- مع كلِّ ما تقَدَّمَ مِن الوعيدِ، والحَثِّ على الجهادِ- تخلَّفوا في غَزوةِ تَبوك [١]، فقال تعالى:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾.

أي: لو كان- يا مُحمَّدُ- ما تدعُو إليه المُنافِقينَ المُتَخلِّفينَ عن غَزْوِ الرُّومِ، غنيمةً حاضِرةً سَهلةَ التَّناوُلِ، وسفَرًا سَهلًا لِمَوضعٍ قَريبٍ- لَخَرجوا معك؛ طمَعًا في متاعِ الحياةِ الدُّنيا[٢].

﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾.

أي: ولكنْ طالَتْ عليهم مَسافةُ السَّفرِ لِغَزوِ الرُّومِ، فتَرَكوا المَسِيرَ معك؛ لِشِدَّةِ المشَقَّةِ[٣].

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٠، ٤٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٩).

قال القرطبي: (المرادُ بذلك كلِّه: غَزوةُ تَبُوك). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٤).

أي: وسيَحلِفُ لك- يا مُحمَّدُ- هؤلاءِ المُنافِقونَ، فيقولونَ كاذِبينَ: والله لو أَطَقْنا الخُروجَ معكم في الغَزْوِ- بوجودِ المالِ والمراكِبِ، وقُوَّةِ البَدَنِ- لخَرَجْنا معكم لِقتالِ الرُّومِ[١].

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

أي: يُوجِبُ المنافِقونَ لأنفُسِهم غضَبَ الله وعِقابَه؛ بسبَبِ نِفاقِهم، وحَلِفِهم بالله تعالى كاذِبينَ، وتخَلُّفِهم عن الجِهادِ[٢].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

أي: واللهُ يعلَمُ أنَّ المُنافِقينَ- في اعتذارِهم عن القُعودِ، وحَلِفِهم- كاذِبونَ؛ لأنَّهم كانوا قادِرينَ على الخُروجِ لِلقتالِ، ولكِنَّهم قَعَدوا عنه؛ لِنِفاقِهم، وزُهدِهم في الخَيرِ[٣].

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بكَّتَهم على وجهِ الإعراضِ؛ لأجلِ التخَلُّفِ والحَلِفِ عليه كاذِبًا؛ أقبَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٩).

قال ابن تيميَّةَ: (هؤلاءِ هم المُنافِقونَ، بلا ريبٍ ولا خِلافٍ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٢، ٤٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٤).

إليه صلَّى الله عليه وسلَّم بالعتابِ في لذيذِ الخِطابِ على الاسترسالِ في اللِّينِ لهم والائتلافِ، وأخْذِ العَفوِ وتَرْكِ الخِلافِ إلى هذا الحَدِّ، فقال مُؤذِنًا بأنَّهم ما تخلَّفوا إلَّا بإذنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لأعذارٍ ادَّعَوها كاذبينَ فيها، كما كَذَبوا في هذا الحَلِف [(١)]:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾.

أي: سامَحَك اللهُ وغَفَرَ لك- يا مُحمَّدُ- على إذْنِك لِهؤلاءِ المُنافِقينَ، الذين استَأذَنوك في التخَلُّفِ عن الخُروجِ معك، لأيِّ شَيءٍ أذِنْتَ للمُنافِقينَ أن يتخَلَّفوا عن المَسيرِ معك لِغَزوِ الرُّومِ[(٢)]؟!

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

أي: كان ينبغي لك- يا مُحمَّدُ- عندما استأذَنَك المتخَلِّفونَ عن المَسيرِ معك لجِهادِ الرُّومِ، ألَّا تأذَنَ لأحدٍ منهم[(٣)] حتى تعلَمَ الصَّادِقينَ الذينَ لهم عُذرٌ في

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٠).
قال الواحدي: (قال قتادةُ وعمرُو بنُ ميمون: «اثنان فعَلَهما رسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولم يُؤمَرْ فيهما بشيءٍ: إذنُه للمُنافقين، وأخْذُه الفِداءَ مِن الأُسارى، فعاتبه الله كما تَسمَعونَ»... قال أهلُ المعاني: وهذا يدلُّ على أنَّه فعَلَ ما لم يؤذَنْ له فيه؛ لأنَّه لا يُقالُ: لِمَ فَعَلْتَ: فيما أُذِنَ له في فِعْلِه). ((البسيط)) (١٠/ ٤٥٥).
وقال ابنُ عاشور: (استأذَنَ فريقٌ مِن المنافقينَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أن يتخلَّفوا عن الغزوةِ؛ منهم عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلولَ، والجَدُّ بنُ قيس، ورفاعةُ بنُ التَّابوتِ، وكانوا تِسعةً وثلاثين، واعتذروا بأعذارٍ كاذبةٍ، وأذِنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِمَن استأذَنَه؛ حَملًا للنَّاسِ على الصِّدقِ؛ إذ كان ظاهرُ حالِهم الإيمانَ، وعِلمًا بأنَّ المُعتَذرينَ إذا أُلجِؤوا إلى الخُروجِ لا يُغْنونَ شَيئًا، كما قال تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٠).

(٣) قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ هذه

تخلُّفِهم، فتعذِرَهم، وتعلَمَ الكاذِبينَ الذين لا عُذرَ لهم، وإنما تخَلَّفوا نِفاقًا وشَكًّا في دينِ الله[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ

الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له الإذنُ لِمَن شاء، وقَولُه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ يُوهِمُ خلافَ ذلك. والجوابُ ظاهرُ: وهو أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له الإذنُ لِمَن شاء من أصحابِه الذين كانوا معه على أمرٍ جامعٍ، كصلاةِ جُمعةٍ أو عيدٍ أو جماعةٍ، أو اجتماعٍ في مشورةٍ، ونحو ذلك، كما بيَّنَه تعالى بقَولِه: ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢] وأمَّا الإذنُ في خُصوصِ التخَلُّفِ عن الجهادِ، فهو الذي بيَّنَ اللهُ لرسولِه أنَّ الأَوْلى فيه ألَّا يُبادِرَ بالإذنِ، حتى يتبيَّنَ له الصَّادقُ في عُذرِه من الكاذبِ، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فظهَرَ أنْ لا مُنافاةَ بين الآياتِ، والعِلمُ عند الله تعالى). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ١٧٠-١٧١).

(١) وهو قولُ ابنِ جريرٍ، والواحديِّ، والبغويِّ، والزمخشريِّ، والشوكانيِّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨).

وقيل: إنَّ معنَى الآيةِ: أنَّه كانَ يَنْبغي لك -يا محمدُ- عندما استأْذَنك المتخلِّفون عن المسيرِ معك لجهادِ الرُّوم أن لا تأذنَ لأحدٍ منهم؛ مِن أجلِ أن تعلمَ الصَّادقَ منهم مِن الكاذبِ، فإنَّ المُنافِقين كانوا مُصرِّين على القعودِ عن الغزوِ، سواء أذِنت لهم، أم لم تأذَنْ، وهو قولُ ابنِ عطية، وأبي حيان، وابنِ كثير، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، وابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٠).

قال أبو حيان: (قوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: في استئذانِك. وأنَّك لو لم تأذنْ لهم خرجوا معك. ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: يريدُ في أنَّهم استأذنوك يُظهرون لك أنَّهم يقفون عندَ حدِّك وهم كذبةٌ، وقد عزَموا على العصيانِ أذِنت لهم أو لم تأذنْ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٧).

أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ في هذا إشارةٌ إلى ذَمِّهم بِسُفولِ الهمَمِ، ودَناءَةِ الشِّيَمِ؛ بالعَجزِ والكَسَلِ، والنَّهَمِ والثِّقَلِ، وإلى أنَّ هذا الدِّينَ مَتينٌ، لا يحمِلُه إلَّا ماضي الهَمِّ، صادِقُ العَزمِ[١].

٢- حُبُّ المنافِعِ الماديَّةِ، والرَّغبةُ فيها، لاصِقٌ بِطَبعِ الإنسانِ، وناهيك بها إذا كانت سَهلةَ المأخَذِ، قَريبةَ المَنالِ، وكان الرَّاغِبُ فيها مِن غَيرِ المُوقِنينَ بالآخِرةِ، وما فيها من الأجرِ العَظيمِ، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ﴾[٢]!

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ...﴾ فيه دلالةٌ على وجوبِ الاحترازِ عن العَجَلةِ، ووجوبِ التثبُّتِ والتأنِّي، وتَركِ الاغترارِ بِظواهِرِ الأمورِ، والمُبالغةِ في التفحُّصِ، حتى يُمكِنَه أن يعامِلَ كُلَّ فَريقٍ بما يستحِقُّه مِن التَّقريبِ أو الإبعادِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ استدَلَّ بها من أوجَبَ النَّفيرَ على كلِّ أحدٍ، عند الحاجةِ وهُجومِ الكُفَّارِ[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فيه دليلٌ على أنَّه كما يجِبُ الجِهادُ في النَّفسِ، يجِبُ الجهادُ في المال، حيث اقتضَتِ الحاجةُ ودَعَت لذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٠١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٩).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٨).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال أهلُ العِلم: هذا يدُلُّ على أنَّ المُوسِرَ يجبُ عليه الجِهادُ بالمالِ، إذا عجَزَ عن الجهادِ ببَدَنِه؛ لِزَمانةٍ أو عِلَّةٍ، فوجوبُ الجِهادِ بالمالِ كوُجوبِ الجِهادِ بالبَدَنِ على الكفايةِ[١].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قد أمَرَ اللهُ بكِلَا الأمرَينِ، فمن استطاعَهما معًا وجَبا عليه، ومن لم يستَطِعْ إلَّا واحدًا منهما، وجَبَ عليه الذي استطاعَه منهما[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ اختيارُ فِعلِ (العلم) دون (الإيمان) مثلًا؛ للإشارةِ إلى أنَّ مِن هذا الخَيرِ ما يَخفى، فيَحتاجُ مُتطلِّبُ تَعيينِ شُعَبِه إلى إعمالِ النَّظَرِ، والعِلمِ[٣].

٦- الجهادُ بالنَّفسِ في قَولِه تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يشمَلُ جِهادَ اللِّسانِ وجِهادَ اليَدِ، بل قد يكونُ جهادُ اللِّسانِ أقوى منه، كما قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((جاهدُوا المُشرِكينَ بأيديكم وألسِنَتِكم وأموالِكم))[٤].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٠٦).

والحديث أخرجه أبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٣٠٩٦) واللفظ له، وأحمد (١٢٢٦٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

قال ابنُ حزمٍ في ((أصول الأحكام)) (١/ ٢٧): في غايةِ الصحةِ، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((رياض الصالحين)) (٤٣٧)، وصحَّحه ابنُ دقيقِ العيد في ((الاقتراح)) (١١٤)، وقال ابنُ عبد الهادي في ((المحرر)) (٢٨٦): إسنادُه على رسمِ مسلمٍ، وقال الشوكانيُّ في

٧- قال الله تعالى: ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ في هذه الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ تعمُّدَ اليمينِ الفاجرةِ، يُفضِي إلى الهَلاكِ[١].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ أخبَرَ عنهم أنَّهم سيَحلِفونَ، وهذا إخبارٌ عن غَيبٍ يقَعُ في المستقبَلِ، والأمرُ لَمَّا وقع كما أخبَرَ، كان هذا إخبارًا عن الغَيبِ، فكان مُعجِزًا[٢]، ودليلًا على نبوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فقد جاؤُوا فحَلَفوا كما أخبَرَ أنَّه سيكونُ منهم[٣].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ قولَه: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ إنَّما يتناوَلُ مَن كان قادِرًا متمَكِّنًا؛ إذ لو لم تكُنِ الاستطاعةُ مُعتبَرةً في ذلك التَّكليفِ، لَمَا أمكَنَهم جعلُ عَدمِ الاستطاعةِ عُذرًا في التخَلُّفِ[٤].

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ استدَلَّ به من قال بجَوازِ الاجتهادِ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لو أَذِنَ لهم عن وحيٍ، لم يُعاتَبْ، واستدَلَّ بها من قال: إنَّ اجتِهادَه قد يُخطِئُ، ولكِنْ يُنَبَّهُ عليه بسُرعةٍ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي

((نيل الأوطار)) (٨/ ٢٧): رجالُه رجالُ الصحيحِ، وصحَّحه ابنُ بازٍ في ((مجموع فتاواه)) (٤/ ٢٩٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٠٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٩٩).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٠).

سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ فيه تَخصيصُ الأموالِ والأَنْفُسِ بالذِّكْرِ؛ إذ ذلك وَصْفٌ لأَكْمَلِ ما يكونُ مِنَ الجِهادِ وأَنْفعِهِ عِنْدَ اللهِ، فحَضَّ على كَمالِ الأوصافِ، وقُدِّمتِ الأموالُ على الأنفسِ؛ إذ هي أولُ مَصرفٍ وَقْتَ التَّجهيزِ[١]، ولأنَّ الجهادَ بالأموالِ أقلُّ حضورًا بالذهنِ عندَ سماعِ الأمرِ بالجهاد، فكان ذكرُه أهمَّ بعدَ ذكرِ الجهادِ مجملًا[٢]، ولأنَّ الناسَ يُقاتلون دونَ أموالِهم؛ فإنَّ المجاهدَ بالمالِ قد أخرَج مالَه حقيقةً لله، والمجاهدُ بنفسِه لله يرجو النجاةَ، لا يُوافِقُ أنَّه يُقتلُ في الجهادِ؛ ولهذا أكثرُ القادرينَ على القتالِ يهونُ على أحدِهم أن يُقاتلَ، ولا يهونُ عليه إخراجُ مالِه[٣].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ فيه إبهامُ ﴿خَيۡرٞ﴾ وتَنْكيرُه؛ لقَصْدِ تَوقُّعِ خيرِ الدُّنيا والآخِرةِ مِنْ شُعَبٍ كثيرةٍ[٤].

- واسْمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ وما فيه مِنْ معنى البُعْدِ؛ للإيذانِ ببُعْدِ مَنْزلتِه في الشَّرَفِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٨/ ٢٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٨-٢٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٧).

- قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ﴾ اسْتئنافٌ لابْتِداءِ الكلامِ على حالِ المُنافِقينَ وغزوةِ تَبوكَ، حين تَخلَّفوا واسْتأذَنَ كثيرٌ مِنْهُم في التَّخلُّفِ، واعْتَلُّوا بِعَلَلٍ كاذِبةٍ، وهو ناشئٌ عن قولِه: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[(١)].

- وفي قولِه: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ...﴾ فيه صَرْفٌ للخِطابِ عنهم، وتوجيهٌ له إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تعديدًا لِما صدَر عنهم مِنَ الهَنَاتِ قولًا وفعلًا على طريقِ المُباثَّةِ- أي: الإظهارِ-، وبيانًا لِدَناءةِ هِممِهم، وسائرِ رَذائلِهم[(٢)].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ فيه تَعديةُ الفِعل ﴿بَعُدَتْ﴾ بحَرْفِ (عَلَى)؛ لتَضمُّنِه معنى (ثَقُلت)؛ ولذلك حَسُن الجمعُ بين فِعلِ بَعُدتْ وفاعلِه (الشُّقَّة) مع تَقارُب معنييهما، فكأنَّه قيل: ولكن بَعُد منهم المكانُ؛ لأنَّه شُقَّةٌ، فثَقُل عليهم السَّفرُ؛ فجاءَ الكلامُ مُوجزًا[(٣)].

- قولُه: ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ في تَقييدِ الخُروجِ بالمَعيَّةِ إشعارٌ بأنَّ أَمْرَ الغَزْوِ لا يُهِمُّهُم ابْتِداءً، وأنَّهم إنَّما يَخْرجونَ- لو خَرَجوا إجابةً لاسْتِنفارِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- خُروجَ النَّاصِرِ لغيرِه[(٤)].

٣- قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

- قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في إلْقاءِ العِتابِ إليه صلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عليه وسلَّم بصِيغةِ الاسْتِفهامِ عَنِ العِلَّةِ: إيماءٌ إلى أنَّه ما أَذِنَ لهم إلَّا لسببٍ تأوَّلَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورجا منه الصَّلاحَ على الجُمْلةِ، وهذا مِن صِيَغِ التَّلطُّفِ في اللَّومِ(١).

- وفي تَصديرِ فاتحةِ الخِطابِ ببِشارةِ العفوِ دونَ ما يُوهِمُ العِتابَ: مُراعاةٌ لجانبِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتعهدٌ له بحُسْنِ المفاوضةِ، ولُطْفِ المُراجَعةِ(٢)، وأيضًا في افْتِتاحِ العِتابِ بالإعلامِ بالعفوِ إكرامٌ عظيمٌ، ولَطافةٌ شريفةٌ؛ حيثُ أخْبَرَه تعالى بالعَفوِ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَبْلَ أنْ يُباشِرَه بالعِتابِ، وفي هذا الافْتِتاحِ كِنايةٌ عَنْ خِفَّةِ مُوجِبِ العِتابِ؛ لأنَّهُ بمَنْزلةِ أنْ يُقال: ما كان يَنْبغي(٣)، قال مُورِّق العجليُّ رضي الله عنه: سَمِعْتُم بمعاتبةٍ أحسَنَ من هذه، بدأ بالعَفوِ قبل المُعاتَبةِ، فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾(٤).

- قولُه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ في زِيادةِ ﴿لَكَ﴾ بعد قولِه: ﴿يَتَبَيَّنَ﴾: زِيادةُ مُلاطفةٍ بأنَّ العِتابَ ما كان إلَّا عَن تَفريطٍ في شيءٍ يَعودُ نفعُه إليه(٥).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ في تَغييرِ الأسلوبِ، حيثُ عبَّر عن الفريقِ الأوَّلِ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصِلتُه فعلٌ دالٌّ على الحُدوثِ ﴿صَدَقُواْ﴾، وعبَّر عن الفريقِ الثَّاني باسم الفاعلِ ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ المفيدِ للدَّوامِ؛ وذلِك للإيذانِ بأنَّ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٠).
(٤) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٢١٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١١).

ما ظَهَر مِن الأوَّلين صِدقٌ حادِثٌ في أمرٍ خاصٍّ، غيرُ مُصحِّحٍ لدُخولِهم في زُمرةِ الصادِقين، وأنَّ ما صدَر مِن الآخَرين وإنْ كان كَذِبًا حادثًا مُتعلِّقًا بأمرٍ خاصٍّ، لكنَّه أمرٌ جارٍ على عادتِهم المستمرَّةِ، ناشئٌ عن رُسوخِهم في الكذِب[1].

- وفيه أيضًا إسْنادُ التَّبيُّنِ إلى الأوَّلينَ ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ وتَعليقُ العِلْمِ بالآخِرينَ ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ -مع أنَّ مَدارَ الإسنادِ والتَّعلُّقِ أولًا وبالذَّاتِ هو وَصْفُ الصِّدْقِ والكَذِبِ-؛ لأنَّ المَقْصِدَ هو العِلْمُ بكِلَا الفريقينِ باعْتِبارِ اتِّصافِهما بوَصْفَيْهِما المَذكورينِ، ومُعامَلتِهما بحَسَبِ اسْتِحقاقِهما، لا العِلْمُ بوَصْفيهِما بِذَاتَيْهِما، أو باعْتِبارِ قيامِهما بمَوْصوفَيْهِما[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٨- ٦٩).

الآيات (٤٤-٤٧)

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱرْتَابَتْ﴾: أي: وشكَّت، والرَّيب: الشكُّ مع الخَوف، ومع تُهمَة المشكوكِ فيه، وتوهُّمُ أمْرٍ ما بالشَّيء[(١)].

﴿عُدَّةً﴾: أي: أُهبةَ السَّفَرِ، وما يُعَدُّ مِن مالٍ وسِلاحٍ؛ من الإعدادِ الذي هو تَهيئةُ الشَّيءِ[(٢)].

﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾: أي: نُهوضَهم لِلْخُرُوجِ ومُضِيَّهم، وأصل (بعث): يدلُّ على إثارةِ الشَّيءِ، وتَوجِيهِه[(٣)].

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾: أي: ثقَّلَ عليهم الخروجَ، وحبَسَهم عنه؛ يُقالُ: ثبَّطَه المرضُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٢-١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

وأثبَطَه: إذا حبَسَه ومنَعَه، ولم يكَدْ يُفارِقُه[١].

﴿خَبَالًا﴾: أي: فَسادًا وشرًّا، وأصلُ (خبل): يدلُّ على فَسادٍ[٢].

﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾: أي: سَعَوا، وأسرَعوا السَّيرَ وسْطَكم بالنَّميمةِ والفَسادِ؛ مِن الوَضعِ: وهو سُرعةُ السَّيرِ، والخِلالُ جَمعُ خَللٍ، وهو: الفُرجةُ بين الشَّيئينِ[٣].

﴿يَبْغُونَكُمُ﴾: أي: يَطْلبونَ لكم ما تُفتَنون به، وأصلُ (بغى): يدلُّ على طلبِ الشيءِ[٤].

﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾: أي: الشِّرْكَ، والكفرَ، وتُطلَق أيضًا على الشَّرِّ والعذابِ، وهي في الأصلِ: الاختِبارُ، والابتلاءُ، والامتِحانُ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه من رداءتِه[٥].

﴿سَمَّٰعُونَ﴾: أي: مُطيعونَ، قابِلونَ لكَلامِهم، أو عُيونٌ يتجَسَّسونَ لهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩، ١٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢ - ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠).

الأخبارَ، ويَنقِلونها إليهم، وأصل (سمع): يدلُّ على إيناسِ الشَّيءِ بالأُذُنِ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: لا يستأذِنُك- يا مُحمَّدُ- الذين يُؤمِنونَ بالله وباليومِ الآخِرِ، في تَركِ جِهادِ الكُفَّارِ بأموالِهم وأنفُسِهم، واللهُ عليمٌ بالمتَّقينَ. إنَّما يستأذِنُك في القُعودِ والتخَلُّفِ عن جِهادِ الكُفَّارِ بأعذارٍ كاذبةٍ، المُنافِقونَ الذين لا يُؤمِنونَ بالله ولا باليَومِ الآخِرِ، وقد امتلأتْ قُلوبُهم شَكًّا، فهم في شَكِّهم يتحَيَّرونَ ويتذبذَبونَ، ولو أرادوا الخُروجَ لاستعَدُّوا له بتَجهيزِ ما يلزَمُ ذلك، لكِنَّ اللهَ كَرِهَ انطِلاقَهم مع المؤمِنينَ، فكَسَّلَهم عنه، وقيل لهم: اقعُدُوا مع القاعدينَ.

لو خرَجوا فيكم- أيُّها المُؤمِنونَ- فلن يزيدُوكم بخُروجِهم إلَّا شرًّا وفَسادًا، وإيقاعَ الاضطرابِ بينكم، ولأَسْرَعوا المشيَ بينَكم بالنَّميمةِ والبَغضاءِ، وفيكم- أيُّها المؤمنونَ- مَن يسمَعُ كَلامَهم، فيقبَلُه ويستجيبُ له ويطيعُه، واللهُ عليمٌ بالظَّالمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

أي: لا يَستأذِنُك- يا محمَّدُ- أصحابُك المؤمنونَ بالله، وبالبَعثِ، والجزاءِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص:١٨٢).

في الآخرةِ، في تَركِ جهادِ الكُفَّارِ بأموالِهم وأنفُسِهم، ولا يَطلُبونَ منك أن تأذَنَ لهم في الجِهادِ، بل يُبادِرونَ إليه؛ لشِدَّةِ رَغبَتِهم في الخَيرِ[(١)].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

أي: واللهُ ذو علمٍ بهؤلاءِ المتَّقينَ، وبكُلِّ مَن يتَّقيه بامتثالِ أوامرِه، واجتنابِ نَواهيه، ومن ذلك المسارعةُ إلى جهادِ أعدائِه، وعَدمُ الاستئذانِ في تَرْكِه، وسيُجازيهم على تَقواهم له أعظَمَ الثَّوابِ[(٢)].

﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ هنا أنَّ هذا الاستِئذانَ لا يَصدُرُ إلَّا عند عدَمِ الإيمانِ بالله واليَومِ الآخِرِ، ثمَّ لَمَّا كان عدَمُ الإيمانِ قد يكونُ بسبَبِ الشَّكِّ فيه، وقد يكونُ بسبَبِ الجَزمِ والقَطعِ بِعَدَمِه- بيَّن تعالى أنَّ عدَمَ إيمانِ هؤلاءِ إنَّما كان بسبَبِ الشَّكِّ والرَّيبِ، فقال تعالى[(٣)]:

﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

أي: إنَّما يستأذِنُك- يا مُحمَّدُ- في القُعودِ والتخَلُّفِ عن جهادِ الكُفَّارِ بأعذارٍ كاذبةٍ، المُنافِقونَ الذين لا يُؤمِنونَ بالله تعالى، ولا بالبَعثِ والجَزاءِ في الآخرةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٨٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٠).

فلا يَرغَبونَ فيما عندَ الله تعالى، ولا يَخافونَ عَذابَه[١].

﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

أي: وقد شكَّت قلوبُهم في صِحَّةِ الدِّينِ، وظُهورِ أمْرِه، فهم في شَكِّهم يتحَيَّرونَ، ويتَذَبذبونَ بين الإيمانِ والكُفرِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، قال: ((مَثَلُ المُنافِقِ كمَثَلِ الشَّاةِ العائرةِ[٣] بين الغَنَمينِ؛ تَعيرُ[٤] إلى هذه مَرَّةً، وإلى هذه مَرَّةً))[٥].

﴿۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾.

﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾.

أي: ولو أراد المُنافِقونَ الخُروجَ معك- يا مُحمَّدُ- في غزوةِ تَبُوكَ، لتأهَّبُوا للخُروجِ، بإعدادِ ما يَحتاجُونَه مِن لوازِمِ السَّفَرِ والقِتالِ، لكِنَّهم تَرَكوا الاستعدادَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٠).
قال الواحدي: (أجمَعوا على أنَّ هذا الاستئذانَ في القُعودِ عن الجِهادِ، وإخبارٌ أنَّ مَن فعَلَ ذلك غَيرُ مؤمِنٍ بالله). ((البسيط)) (١٠/ ٤٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٠، ٥٤١).

(٣) الشَّاةُ العائِرةُ: أي: المتَرَدِّدةُ بين قَطيعَينِ، لا تدري أيَّهما تَتْبَعُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٢٨).

(٤) تَعيرُ (بفتح التاء): أي: تتردَّدُ وتذهَبُ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (١/ ١٣٠).

(٥) رواه مسلم (٢٧٨٤).

لِرَغبَتِهم في التخَلُّفِ عن الجِهادِ[١].

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾.

أي: ولكِنْ لم يُحِبَّ اللهُ تعالى انطلاقَ المُنافِقينَ معك- يا محمَّدُ- في تلك الغَزوةِ؛ لعِلْمِه أنَّ في خُروجِهم شرًّا وضررًا على المُؤمِنينَ[٢].

﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾.

أي: فثقَّله عليهم، وكسَّلهم عنه[٣].

﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾.

أي: وقيل[٤]: اقعُدُوا عن الجِهادِ مع الذينَ ليس من شَأنِهم النُّهوضُ والخُروجُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨١، ٤٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦)، ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (١/ ٧٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢، ١٠٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٣).

قال السعدي: (﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ قَدَرًا وقَضاءً، وإن كان قد أمَرَهم وحَثَّهم على الخُروجِ، وجعَلَهم مُقتَدرينَ عليه، ولكِنْ بحِكمَتِه ما أراد إعانَتَهم، بل خَذَلهم وثَبَّطَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩).

(٤) وهذا القولُ قولٌ قدريٌّ كونيٌّ، وممَّن اختار ذلك: ابنُ القَيِّم، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٥).

قال الشنقيطي: (﴿قِيلَ﴾ هنا: مَبنيٌّ للمَفعولِ حُذِفَ فاعِلُه، واختلَفَ العُلَماءُ في فاعِلِه

للقِتالِ، كالضُّعَفاءِ والمَرضى، والصِّبيانِ وغَيرِهم[١].

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لـمَّا ذكَر الله تعالى أنَّه كرِه خروجَهم، وثبَّطهم؛ أخبَر سبحانَه عن الحكمةِ التي تتعلَّقُ بالمؤمنين في تثبيطِ هؤلاءِ عنهم، وبيَّن لِمَ كرِه خروجَهم، فقال[٢]:

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾.

أي: لو خرَجَ هؤلاءِ المُنافِقونَ في جُملَتِكم- أيُّها المُؤمِنونَ- لِغَزوِ الرُّومِ، فلن يَزيدُوكم بخُروجِهم شيئًا سِوى الشرِّ والفَسادِ، وإيقاعِ الاضطرابِ بَينكم[٣].

المَحذوفِ، فقال بعضُ العلماء: قال بعضُهم لبعضٍ في سِرِّهم وباطِنِ أمْرِهم: ﴿ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ واستَأذِنُوه لِتَقعُدوا. وقال بعضُهم: أذِنَ لهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ﴿ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ وعلى هذا القَولِ فـ ﴿ٱقْعُدُوا۟﴾ هو الإذنُ. وبعضُهم يقولُ: قَولُه: ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أَذِنَ لهم إذنًا صاحِبُه لا يرضى عنهم. والمرادُ بالقاعدينَ: الذين ليس مِن شَأنِهم الحُضور، كالصِّبيان والزَّمنَى والنِّساءِ، ونحوِ ذلك ممَّن ليس من شأنِه الخُروجُ للقِتالِ. وقال بعضُ العلماء: هو كونيٌّ قَدَريٌّ، اللهُ يقولُ للشَّيءِ: «كُنْ، فيكونُ» فقال: ﴿ٱقْعُدُوا۟﴾ فكان قُعودُهم، واختار هذا بعضُ العُلَماءِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٦٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٣).

قال الشَّوكاني: (قيل: هذا الاستثناءُ مُنقَطِعٌ، أي: ما زادوكم قُوَّةً، ولكِنْ طَلَبوا الخَبالَ. وقيل:

﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾.

أي: ولأَسْرَعوا سَيْرَهم في الدُّخولِ والمَشيِ بينكم بالنَّميمةِ، وإفسادِ ذاتِ بَينِكم؛ لِتَفريقِ كَلِمتِكم، وإلقاءِ الأراجيفِ، وبَثِّ الإشاعاتِ لِتَثبيطِكم[(١)].

﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾.

أي: وفيكم- أيُّها المُؤمِنونَ- مَن يَسمَعُ كَلامَ المُنافِقينَ، فيقبَلُه، ويستجيبُ لهم، ويُطيعُهم[(٢)].

المعنى: لا يزيدونَكم فيما تَردَّدونَ فيه من الرأيِ إلَّا خَبالًا، فيكون متَّصلًا. وقيل: هو استثناءٌ مِن أعَمِّ العامِّ، أي: ما زادوكم شيئًا إلَّا خبالًا، فيكون الاستثناءُ مِن قِسمِ المتَّصِل). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٨).

وقال الواحدي: (والمرادُ بالخَبالِ هاهنا: الاضطرابُ في الرأيِ، وذلك بتَزيينِ أمْرٍ لفَريقٍ، وتَقبيحِه عند فريقٍ؛ ليَختَلِفوا، فتفترِقَ كَلِمَتُهم ولا تنتَظِمَ، يقول: لو خَرَجوا لأفسَدُوا عليكم أمْرَكم). ((البسيط)) (١٠/ ٤٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٣- ٤٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٣٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٢/ ١٠٥) (٥/ ٢٦٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٤).

(٢) وهو قَولُ جُمهورِ المفَسِّرين، كما نسَبَه إليهم ابنُ عطيةَ، واختاره ابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٥/ ١٢٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قتادةُ، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٥).

قال الرازي: (لا يمتَنِعُ فيمَن قَرُبَ عَهدُه بالإسلامِ أن يُؤثِّرَ قَولُ المنافقينَ فيهم، ولا يمتَنِعُ كَونُ بَعضِ النَّاسِ مَجبولينَ على الجُبنِ والفَشَلِ، وضَعفِ القَلبِ؛ فيُؤثِّرُ قولُهم فيهم، ولا يمتنِعُ أن يكونَ بعضُ المُسلِمينَ مِن أقارِبِ رُؤساءِ المُنافِقينَ، فيَنظرونَ إليهم بعَينِ الإجلالِ والتَّعظيمِ؛ فلهذا السَّبَبِ يُؤثِّرُ قَولُ هؤلاءِ الأكابِرِ من المنافقينَ فيهم). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٤).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ ذو علمٍ بأولئك المُنافِقينَ الظَّالِمينَ، وبمَن يقبَلُ كَلامَهم ويُطيعُهم، وبكُلِّ من يَظلِمُ نَفسَه ويَظلِمُ غَيرَه، بفِعْلِ ما ليس له فِعْلُه، لا يخفى عليه سُبحانَه شَيءٌ من ظواهرِهم وبواطِنِهم، وسيُجازيهم على أعمالِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- مَن ليس لهم إيمانٌ تامٌّ، ولا يقينٌ صادِقٌ؛ تقِلُّ رغبَتُهم في الخَيرِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ لذا جبَنوا عن القتالِ، واحْتاجوا أن يَسْتأذِنوا في تَركِ القتالِ[2].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ الخَبالُ: هو

وقيل: أي: وفيكم -أيُّها المؤمنونَ- جواسيسُ للمُنافقينَ، يَسْمعونَ لهم الأخبارَ، وينقلونَ إليهم أخبارَكم وأسرارَكم. وهو قولُ مقاتلِ بنِ سليمانَ، وابنِ جريرٍ، والواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٦، ٤٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: زيدُ بنُ أسلمَ، ومجاهدٌ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٥).

قال ابن عاشور: (﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ أي: في جماعةِ المُسلِمينَ، أي: مِن بينِ المُسلِمينَ سَمَّاعون لهم، فيجوزُ أن يكونَ هؤلاءِ السمَّاعونَ مُسلِمينَ يُصَدِّقونَ ما يسمعونَه مِن المنافقينَ، ويجوزُ أن يكونَ السمَّاعونَ مُنافِقينَ مَبثوثينَ بين المُسلِمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٩).

قال أبو حيَّان: (﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعُمُّ كُلَّ ظالمٍ. ومعنى ذلك: أنَّه يُجازيه على ظُلمِه. واندرَجَ فيه من يقبَلُ كَلامَ المُنافِقينَ، ومن يؤدِّي إليهم أخبارَ المُؤمِنينَ، ومن تخلَّفَ عن هذه الغَزاةِ مِن المنافقينَ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨).

الإفسادُ الذي يُوجِبُ اختلافَ الرَّأيِ، وهو من أعظمِ الأمورِ التي يجِبُ الاحترازُ عنها في الحُروبِ؛ لأنَّه عند حُصولِ الاختلافِ في الرَّأي يحصُلُ الانهزامُ والانكسارُ على أسهَلِ الوُجوه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما يقومُ بالقَلبِ مِن تصديقٍ وحُبٍّ لله ورَسولِه وتعظيم؛ لا بدَّ أنْ يظهرَ على الجوارِحِ- وكذلك بالعكسِ-؛ ولهذا يُستدَلُّ بانتفاءِ اللَّازمِ الظَّاهرِ على انتفاءِ الملزومِ الباطنِ، فإنَّ الإرادةَ التي في القَلبِ- مع القُدرةِ- تُوجبُ فِعْلَ المرادِ؛ فالسفرُ في غزوةٍ بعيدةٍ لا يكون إلَّا بعُدَّةٍ[٢]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ فشَهدَ اللهُ على المنافِقينَ في هذه الآيةِ بأنَّهم لَيسُوا مؤمِنينَ، مع أنَّهم يُقِرُّونَ ظاهرًا بالإيمانِ، ففيه ردٌّ على الكَرَّاميَّةِ في قَولِهم: الإيمانُ هو مُجرَّدُ الإقرارِ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الشَّاكَّ المُرتابَ، غيرُ مُؤمِنٍ بالله تعالى[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) ١٦/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ إخبارٌ مِن الله تعالى بأنَّ المؤمنَ لا يستأذِنُ الرسولَ في تَركِ الجهادِ، وإنَّما يستأذِنُه الذي لا يؤمِنُ، والتاركُ مِن غيرِ استئذانٍ أَوْلى بهذا الوَصفِ[١].

٤- طبيعةُ الكافرينَ بالله واليومِ الآخِرِ تقتضي كراهَتَهم للجِهادِ؛ لأنَّهم يَرَونَ بذْلَ المالِ للجِهادِ مَغْرمًا، يُفَوِّتُ عليهم بعضَ منافِعِهم به، ولا يَرجُونَ عليه ثوابًا، كما يرجو المُؤمِنون، ويَرَونَ الجهادَ بالنَّفسِ آلامًا ومتاعِبَ وتعَرُّضًا للقَتلِ، الذي ليس بعده حياةٌ عندهم؛ يُبَيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾[٢].

٥- عُدِّيَ التردُّدُ في قَولِه تعالى: ﴿فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ بأداةِ (في)؛ للدَّلالةِ على انغماسِ صاحِبِه في هذا الرَّيبِ[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴾، إنَّما أضاف الشَّكَّ والارتيابَ إلى القَلبِ؛ لأنَّه محَلُّ المعرفةِ والإيمانِ، فإذا داخَلَه الشَّكُّ كان ذلك نِفاقًا[٤].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ ختَمَ الآيةَ بقَولِه: ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ للتَّنبيه على ذَمِّهم، وإلحاقِهم بالنِّساءِ والصِّبيانِ والعاجِزينَ، الذينَ شَأنُهم القُعودُ في البُيوتِ، وهم القاعِدونَ والخالِفونَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٠٥).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦١٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٢).

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ * لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ ثبَّطَ سُبحانه أعداءَه عن مُتابعةِ رَسولِه، واللَّحاقِ به؛ غَيرةً، فغار سُبحانَه على نَبيِّه وأصحابِه أن يَخرُجَ بينهم المُنافِقونَ فيَسعَوْا بينهم بالفِتنةِ، فثبَّطَهم وأقعَدَهم عنهم[1].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ﴾ إن قيل: عَلِمَ اللهُ أنَّ المُنافِقينَ لو خرَجُوا مع المؤمنينَ للجِهادِ، ما زادُوهم إلَّا خَبالًا وفَسادًا، ولأَوضَعوا خِلالَهم، وأسْرَعوا في السَّعيِ بينهم بالنَّميمةِ، فكيف أمَرَهم بالخُروجِ مع المُؤمِنينَ؟! فالجوابُ: أنَّه إنَّما أمَرَهم بالخُروجِ مع المُؤمِنينَ؛ لإلزامِهم الحجَّةَ، ولإظهارِ نِفاقِهم[2].

١٠- عُدِّيَ السَّماعُ باللَّامِ في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾؛ لأنه مُضَمَّنٌ معنى القَبولِ والطَّاعةِ، كما في قَولِ المصلِّي: (سمِعَ اللهُ لِمَن حمِدَه) أي: استجابَ لِمَن حمِدَه، وكذلك ﴿سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ أي: مُطيعونَ لهم[3] وهذا على أحدِ أوجُهِ التأويلِ للآيةِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ ...﴾ فيه وَجْهٌ لَطيفٌ من البَلاغةِ، وإيضاحُه: أنَّ الاسْتِئذانَ يَسْتلزِمُ شَيئينِ

(١) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣٠٥).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٥/ ١٢٩).

مُتضادَّينِ، ويجوزُ أنْ يُقالَ: اسْتأذَنتُ في كذا، واسْتأذنتُ في تَرْكِ كذا؛ فلمَّا كان شأنُ المؤمنينَ الرَّغبةَ في الجِهادِ كان المذكورُ مع اسْتئذانِ المؤمنينَ في الآيةِ ﴿أَن يُجَـٰهِدُواْ﴾ دونَ (ألَّا يُجاهدوا)؛ إذ لا يَليقُ بالمؤمنينَ الاسْتِئذانُ في ترْكِ الجِهادِ؛ فإذا انتفَى أنْ يَسْتأذنوا في أن يُجاهِدوا ثبَت أنهم يُجاهِدونَ دونَ اسْتِئذانٍ[١].

- وفي قولِهِ: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُواْ ...﴾ تَنبيهٌ على أنَّه كان يَنبغي أن يُسْتَدلَّ باسْتِئذانِهم على حالِهم، ولا يُؤذَنَ لهم؛ فالخُلَّصُ من المؤمنينَ يُبادِرونَ إلى الجِهادِ مِن غَيرِ توقُّفٍ على الإذنِ، فضلًا عن أنْ يَسْتأذِنوكَ في التَّخلُّفِ، وحيثُ اسْتأذَنَكَ هؤلاءِ في التخلُّف كان ذلك علامةً للتَّأني في أَمْرِهم، بل دليلًا على نِفاقِهم[٢].

- وجُمْلَةُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ مُعترِضةٌ؛ لفائدةِ التَّنبيهِ على أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على أسرارِ المؤمنينَ؛ إذْ هُمُ المرادُ بالمُتَّقينَ[٣]، وفيه أيضًا شهادةٌ لهم بالانْتِظامِ في زُمرةِ المتَّقينَ، وعِدَةٌ لهم بأَجْزلِ الثَّوابِ، وتَقريرٌ لمضمونِ ما سَبَقَ، كأنَّهُ قيل: واللهُ عليمٌ بأنَّهُمْ كَذَلِكَ، وإشعارٌ بأنَّ ما صَدرَ عنهُم مُعلَّلٌ بالتَّقوى[٤].

- وفي هذِه الآيةُ تَعييرٌ للمُنافِقينَ، وطَعْنٌ عليهم بيِّنٌ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١١- ٢١٢). وقال: (وهذا مِن لطائفِ بلاغةِ هذِه الآية التي لم يُعرِّجْ عليها المفسِّرون، وتَكلَّفوا في إقامةِ نَظْمِ الآيةِ).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٩).

- قولُه: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ... ﴾ مُستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا نَشَأ عن تَبرئةِ المؤمنينَ مِن أنْ يَسْتأذنوا في الجِهادِ، ببيانِ الذين شأنُهم الاسْتِئذانُ في هذا الشَّأنِ، وأنَّهم الذين لا يُؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ في باطِنِ أمْرِهم؛ لأنَّ انْتِفاءَ إيمانِهم يَنْفي رَجاءَهم في ثوابِ الجِهادِ؛ فلذلك لا يُعرِّضونَ أَنْفُسَهم له[١].

- وأفادتْ ﴿ إِنَّمَا ﴾ القَصْرَ، وصِيغةُ القَصْرِ هنا دَالَّةٌ باعْتِبارِ أحَدِ مَفادَيْها على تأكيدِ جُمْلةِ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾[٢]، وقد كانتْ مُغْنيةً عَنِ الجملةِ المؤكَّدةِ، لولا أنَّ المُرادَ مِن تقديمِ تلك الجُمْلةِ التَّنويهُ بفَضيلةِ المؤمنينَ؛ فالكلامُ إطنابٌ لقَصْدِ التَّنويهِ، والتنويهُ مِن مَقاماتِ الإطنابِ[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ حَذْفُ مُتَعلِّقَ ﴿يَسْتَـْٔذِنُكَ ﴾؛ لِظُهورِه ممَّا قَبْلَه ممَّا يُؤذِنُ به فِعْلُ الاسْتئذانِ في قولِهِ: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾، والتَّقديرُ: (إنَّما يَسْتَأذِنُكَ الذين لا يُؤمنونَ في ألَّا يُجاهِدوا)[٤].

- وفي قولِه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ تَخصيصُ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخِرِ بالذِّكْرِ في المَوْضِعينِ؛ للإيذانِ بأنَّ الباعِثَ على الجِهادِ ببَذْلِ النَّفْسِ والمالِ إنَّما هو الإيمانُ بِهِما[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٢).
(٢) وذلك لأنَّ القصرَ يُفيدُ مفادَ خَبرينِ بإثباتِ شيءٍ ونفيِ ضدِّه.
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٠).

- قولُه: ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ فيه إيثارُ صِيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على تَحقيقِ الرَّيبِ وتقرُّرِه[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾

- والأمرُ في قولِهِ: ﴿ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أمرُ تَوبيخٍ، كقولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠]، بقَرينةِ قولِهِ: ﴿مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾[٢].

- وزيادةُ قولِه: ﴿مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ ذمٌّ لهم وتعجيزٌ، وإلحاقٌ بالنِّساءِ والصِّبيانِ والزَّمْنَى الذين شأنُهُم القُعودُ والجُثومُ في البُيوتِ، وهم القاعِدونَ والخالِفونَ والخوالِفُ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا ...﴾ اسْتِئنافٌ بَيانيٌّ لجُمْلةِ: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾؛ لبَيانِ الحِكْمةِ مِنْ كراهيةِ اللهِ انْبِعاثَهم، وهي إرادةُ اللهِ سَلامةَ المُسلِمينَ مِن أضرارِ وُجودِ هؤلاءِ بينهم؛ لأنَّهم كانوا يُضمِرونَ المَكرَ للمُسلِمينَ فيَخرجون مُرْغَمِين[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٦).

- قولُه: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ فيه حذف المفعول، والتقدير: لأَوْضَعُوا رَكائِبَهم، والمُرادُ به المُبالغةُ في الإسراعِ بالنَّمائمِ؛ لأنَّ الرَّاكِبَ أسرعُ مِنَ الماشي[١]. وقيل: المعنى: أَوْقَعوا الإيضاعَ، وحُذِفَ المفعولُ إشارةً إلى أنَّ مُرادَهم الإيضاعُ نَفْسُه لا بَقيدِ دَابَّةٍ، وعبَّر بالإيضاعِ؛ لأنَّه للرَّاكبِ، وهو أَسْرعُ مِن الماشِي[٢].

- وهو تمثيلٌ لحالةِ المُنافِقين حِينَ يَبذُلون جُهدَهم لإيقاعِ التَّخاذُلِ والخوفِ بَينَ جَيشِ المُؤمنِين، وإلقاءِ الأخبارِ الكاذِبةِ عن قُوَّةِ العدوِّ، بحالِ مَن يُجهِد بَعيرَه بالسَّيرِ لإبلاغِ خَبرٍ مهمٍّ، واختير هنا ذِكرُ الإيضاعِ لعِزَّةِ هذا المعنى، ولِمَا فيه مِن الصَّلاحيةِ لتَفكيكِ الهيئةِ بأنْ يُشبَّه الفاتِنون بالرَّكبِ، ووسائلِ الفِتنةِ بالرَّواحلِ، وفي ذكر ﴿خِلَٰلَكُمْ﴾ ما يَصلُح لتشبيهِ استقرائِهم الجماعاتِ والأفرادَ بتَغلْغُلِ الرَّواحلِ في خِلالِ الطُّرُقِ والشِّعابِ[٣].

- وجُملةُ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ اعْتِراضٌ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ بَغْيَهُمُ الفِتْنَةَ أشدُّ خَطَرًا على المسلِمينَ؛ لأنَّ في المُسلمينَ فَريقًا تَنْطلي عليهم حِيلُهُم، وهؤلاءِ هم سُذَّجُ المُسلِمينَ الذين يَعْجبونَ مِنْ أخبارِهم ويَتأثَّرونَ، ولا يَبْلغونَ إلى تَمييزِ التَّمويهاتِ والمَكائِدِ عَنِ الصِّدْقِ والحَقِّ[٤].

- وجاءَ قولُه: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ بصِيغةِ المُبالَغةِ (فعَّالونَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ اسْتِماعَهم تامٌّ، وهو الاسْتِماعُ الذي يُقارِنُه اعْتِقادُ ما يُسْمَعُ[٥].

- وجُملةُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَذييلٌ قُصِدَ مِنْه إعلامُ المسلمينَ بأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧١).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٦ - ٢١٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢١٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهَ يَعْلَمُ أحوالَ المُنافِقينَ الظَّالمينَ؛ ليَكونوا مِنْهُمْ على حَذَرٍ، وليَتوسَّموا فيهم ما وَسَمَهُمُ القرآنُ بِه، ولِيَعْلموا أنَّ الاسْتِماعَ لَهُمْ هو ضَرْبٌ مِنَ الظُّلْمِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وَضَعَ المُظْهَرَ مَوضِعَ المُضْمَرِ- حيثُ لم يَقُلْ: (واللهُ عليمٌ بهم)-؛ للتَّسجيلِ عليهِمْ بالظُّلْمِ، والتَّشديدِ في الوَعيدِ، والإشعارِ بتَرتُّبِه على الظُّلْمِ، ولَعلَّه شامِلٌ للفَريقينِ: السَّمَّاعِينَ والقاعِدينَ[٢].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧١).

الآيات (٤٨-٥٢)

﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٤٨ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٩ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ٥٠ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ٥٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾: أي: دَبَّروا لك الحِيَلَ والمكايِدَ، ودوَّروا الآراءَ في إبطالِ أمْرِك، وتَقليبُ الأمورِ: تَدبيرُها والنَّظرُ فيها، وأصلُ (قلب): يدلُّ على ردِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[(١)].

﴿تَرَبَّصُونَ﴾: أي: تَنتَظِرونَ، وأصل التَّربُّص: الانتِظارُ والتمَكُّثُ[(٢)].

﴿ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ﴾: أي: العاقِبَتينِ اللَّتَينِ كلٌّ منهما حسَنٌ: النُّصرةُ أو الشَّهادةُ، وأصل (حسن) ضِدُّ القُبحِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١، ٦٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُنافِقينَ طَلَبوا فِتنةَ المُسلِمينَ من قبلُ، وطَلَبوا الشَّرَّ لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فصرَّفوا آراءَهم، وأعمَلُوا الحِيَلَ والمكايِدَ؛ ليُحَقِّقوا ذلك، إلى أن جاء نصرُ الله، وغلَبَ دينُه، وهم كارِهونَ حُصولَ ذلك.

ويُبيِّنُ تعالى أنَّ مِن المُنافِقينَ مَن يقولُ لمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين دعاهم لِغَزوِ الرُّومِ: ائذَنْ لي في التخَلُّفِ عن الخُروجِ، ولا تفتِنِّي برؤيةِ نِساءِ الرُّومِ؛ فإنِّي لا أصبِرُ عنهُنَّ إن رأيتُهنَّ.

ويُبَيِّنُ تعالى أنَّهم قد وقعوا في الفِتنةِ العظيمةِ ببَقائِهم في الكُفرِ، وإثمِ تَخلُّفِهم عن الجِهادِ، وبمَعصيَتِهم لرَسولِ الله، وإنَّ جَهنَّمَ لَمُحيطةٌ بالكافرينَ.

ويُبيِّنُ تعالى أنَّه إن غزا المؤمنون ونَصَرهم اللَّهُ على أعدائِهم، وغَنِموا، ونالهم خِصْبٌ فِي مَعايِشِهم؛ ساء ذلك المُنافِقينَ وحَزِنوا من أجلِه، وإن تصِبْهم مصيبةٌ بهزيمةٍ أو قتلٍ أو جِراحٍ يَقولوا: قد احتَطْنا لأنفُسِنا، وأخَذْنا حِذْرَنا من قَبلُ، فسَلِمْنا؛ لِعَدمِ خُروجِنا معكم، وينصَرِفوا وهم فَرِحونَ، وأمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: لن يُصيبَنا إلَّا ما كتَبَ اللهُ لنا، هو سيِّدُنا وناصِرُنا، وعلى الله وَحدَه فلْيَعتَمِدِ المُؤمِنونَ، ويُفَوِّضوا أمورَهم إليه.

كما أمَرَه تعالى أن يقولَ لهم: هل تَنتَظِرونَ بنا إلَّا أن تُصيبَنا إحدى الحُسنَيَينِ: النَّصرُ أو الشَّهادةُ، ونحن ننتظِرُ أن يُصيبَكم اللهُ بِعقوبةٍ مِن عِندِه أو بأيدينا، فانتَظِروا ونحنُ معكم مُنتَظِرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٤٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمسلمينَ أنَّه ثَبَّطَ المُنافقينَ عن الخُروجِ للجِهادِ، وبيَّن أنَّهم لو خَرَجوا فيهم ما زادُوهم إلَّا خَبالًا- بَيَّنَ أنَّ هذا الذي ينطوي عليه المُنافقونَ مِن الشرِّ، كان موجودًا فيهم قبلَ ذلك؛ قبل أن يَنزِلَ القرآنُ في شأنِهم، وأن تَطَّلِعُوا عليهم، فقال تعالى[1]:

﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: لقد طلَبَ المُنافِقونَ فِتنةَ المُسلِمينَ، بصَدِّهم عن الدِّينِ، وإفسادِ ما بينهم مِن قَبلِ غَزوةِ تبوكَ، كما فعَلُوا في غزوةِ أُحُدٍ وغَيرِها[2].

﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾.

أي: وطلَبَ المُنافِقونَ الشَّرَّ لك- يا مُحمَّدُ- فصرَّفوا آراءَهم، وأجالُوا أفكارَهم، وأدارُوا عُقولَهم، وأعمَلُوا الحِيَل والمكايِدَ، ساعِينَ بذلك لإفسادِ أمْرِك، وإنكارِ دِينِك، وصَدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِك، وتخذيلِ أصحابِك عنك[3].

﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٣).

أي: سعى المُنافقونَ في ابتغاءِ الفِتنةِ، وتقليبِ الأمورِ، إلى أن جاء نَصرُ الله تعالى(١).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩].

﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

أي: وغلَبَ دينُ الله الذي أمَرَ بالدُّخولِ فيه- وهو الإسلامُ- وعلا وظهَرَ وانتصَرَ، والحالُ أنَّ المُنافِقينَ كارِهونَ لِظُهورِه، ويَسوؤُهم انتصارُه وعُلُوُّه(٢).

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٤).

قال ابنُ كثير: (لقد أعمَلوا فِكرَهم وأجالوا آراءَهم في كيدِك وكَيدِ أصحابِك، وخِذلانِ دِينِك وإخمالِه مُدَّةً طويلةً، وذلك أولَ مَقدَمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المدينةَ، رَمَتْه العربُ عن قَوسٍ واحدةٍ، وحارَبَتْه يهودُ المدينة ومُنافِقوها، فلمَّا نصَرَه اللهُ يومَ بدرٍ وأعلى كَلِمَتَه، قال عبدُ الله بنُ أُبيٍّ وأصحابُه: هذا أمرٌ قد توجَّهَ. فدَخَلوا في الإسلامِ ظاهرًا، ثمَّ كُلَّما أعزَّ اللهُ الإسلامَ وأهلَه، غاظَهم ذلك وساءَهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٠- ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٤).

قال ابن عاشور: (والمرادُ بظُهورِ أمرِ اللهِ نصرُ المُسلِمينَ بفَتحِ مَكَّةَ، ودُخول النَّاسِ في الدِّينِ أفواجًا، وذلك يكرَهُه المُنافِقونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٠).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن جابرِ بن عَبد الله رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((سمِعْتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ لجَدِّ بنِ قَيسٍ: يا جَدُّ، هل لك في جِلادِ بني الأصفَرِ؟ قال جدٌّ: أوَ تأذَنُ لي يا رسولَ الله؛ فإنِّي رجُلٌ أحِبُّ النِّساءَ، وإنِّي أخشى إنْ أنا رأيتُ نِساءَ بَني الأصفَرِ أنْ أفتَتِنَ؟! فقال رَسولُ الله- وهو مُعرِضٌ عنه-: قد أذِنْتُ لك، فعند ذلك أنزَلَ اللهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾))[1].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((لَمَّا أراد النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَخرُجَ إلى غزوةِ تَبوكَ، قال للجَدِّ بنِ قَيسٍ: يا جَدُّ بنَ قَيسٍ، ما تقولُ في مُجاهَدةِ بني الأصفَرِ؟ قال: يا رسولَ الله، إنِّي امرُؤٌ صاحِبُ نِساءٍ، ومتى أرى نِساءَ بني الأصفَرِ أفتَتِنُ؛ فائذَنْ لي في الجُلوسِ، ولا تفتِنِّي! فأنزَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾))[2].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾.

أي: ومِنَ المُنافِقينَ مَن يَقولُ لمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين دَعاهم إلى غَزوِ الرُّومِ: ائذَنْ لي في القُعودِ عن الخُروجِ معك، ولا تَبتَلِني برؤيةِ نِساءِ الرُّومِ؛

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٦/ ١٨٠٩).
وحسَّن إسنادَه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٦/ ١٢٢٥).

(٢) أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢/ ٢٧٥) (٢١٥٤)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (١٧٢٠).
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٣٣): فيه يحيى الحمَّاني وهو ضعيفٌ، وقال الألباني في ((النصيحة)) (٢٥٨): له شاهدٌ مِن حديث جابرٍ، وآخرُ مِن مرسلِ مجاهدٍ بسندٍ صحيحٍ عنه.
قال الواحديُّ: (قال ابنُ عباسٍ والمفسِّرون كلُّهم: نزلتْ في جدِّ بنِ قيسٍ المنافقِ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٧٦).

فإنِّي إن رأيتُهنَّ لا أصبرُ عَنهنَّ، فأقَعُ في الإثمِ بسبَبِ الخُروجِ معكم[١]!!

﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾.

أي: ألَا إنَّ المُنافِقينَ الذين اعتَذَروا عن الجِهادِ بسبَبِ خَوفِهم مِن الفِتنةِ بنِساءِ الرُّومِ، قد وقَعُوا في الفِتنةِ العَظيمةِ ببَقائِهم في الكُفرِ، وإثْمِهم بالتخَلُّفِ عن الجهادِ، ومَعصيةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: وإنَّ نارَ جَهنَّمَ ستُحيطُ بالكافِرينَ يَومَ القيامةِ، وتُحدِقُ بهم مِن كُلِّ جانِبٍ، فليس لهم عنها مفَرٌّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٤-٥٥].

وقال سُبحانه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال جلَّ جلاله: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٨).

رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩-٤٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٨-٩].

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن كَيدِ المُنافِقينَ، ومن خُبْثِ بَواطِنِهم[١].

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾.

أي: إن غَزَوْتُمْ وَنَصَرَكم اللَّهُ على أعدائِكم، وظَهَرْتُم عليهم وغَنِمْتُم، وتتابَعَ النَّاسُ في دُخولِ دينِكم، ونالكم خِصْبٌ فِي مَعايِشِكم؛ ساء ذلك المُنافِقينَ، وحَزِنوا من أجلِه[٢].

﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾.

أي: وإن تُصِبْكم مُصيبةٌ بهزيمةٍ أو قتلٍ أو جِراحٍ، يقُلِ المُنافِقونَ: قد احتَطْنا لأنفُسِنا، وأخَذْنا حِذْرَنا مِن قَبلِ أن يُصيبَكم هذا المَكروهُ، فسَلِمْنا لأنَّا لم نَخرُجْ معكم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦١، ١٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٩).
قال محمد رشيد رضا: (المتبادِرُ أنَّ هذا إخبارٌ عن شأنِهم في ماضِيهم وحاضِرِهم ومُستَقبلِهم، والحَسنةُ كلُّ ما يَحسُنُ وقعُه ويَسُرُّ، مِن غنيمةٍ ونُصرةٍ ونِعمةٍ، أي: أنَّه يَسوؤُهم كلُّ ما يَسُرُّك، كما ساءَهم النَّصرُ في بَدرٍ وغيرِ بَدرٍ مِن الغَزواتِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢١)،

﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾.

أي: وينصَرِفِ المُنافقونَ- إن أصابَتْكم مصيبةٌ-[١] وهم مَسرُورونَ بما أصابَكم، ومَسرُورونَ بسَلامَتِهم بتخلُّفِهم عنكم[٢].

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قَولُهم: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ متضَمِّنًا لِتوهُّمِ القدرةِ على الاحتراسِ مِن القَدَرِ؛ ومبينًا أنَّهم يَفرَحونَ بمُصيبةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمينَ، وبِعَدمِ مُشاركَتِهم لهم فيها، فقال تعالى رادًّا عليهم في ذلك[٣]، بعَدمِ اكتراثِ المُسلِمينَ بالمُصيبةِ، وانتفاءِ حُزْنِهم عليها؛ لأنَّهم يعلمونَ أنَّ ما أصابَهم ما كان إلَّا بتقديرِ الله لِمَصلحةِ المُسلِمين في ذلك، فهو نَفعٌ مَحضٌ[٤].

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٩).
قال ابن عطية: (قَولُه تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ الآية، أخبَرَ تعالى عن مُعتَقَدِهم وما هم عليه، و«الحسَنةُ» هنا بحسَبِ الغَزوةِ هي: الغنيمةُ والظَّفَر، و«المُصيبة» الهَزمُ والخَيبةُ، واللَّفظُ عامٌّ بعد ذلك في كلِّ محبوبٍ ومَكروهٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢).

(١) قال الشنقيطي: (﴿وَيَتَوَلَّوا۟﴾ عن دينِ الإسلامِ، ونُصرةِ رَسولِ الله، أو يتولَّى بعضُهم راجعًا إلى بعضٍ). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٦٠). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٩، ٥٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٣).

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للمُنافِقينَ الذين يَفرَحونَ بما يُصيبُكم مِن مَكروهٍ: لن يُصيبَنا إلَّا ما قدَّرَه اللهُ وكتَبَه لنا في اللَّوحِ المَحفوظِ[١].

كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وقال سُبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١].

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((عَجَبًا لأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمْرَه كُلَّه خَيرٌ، وليس ذاك لأحَدٍ إلَّا للمُؤمِنِ؛ إن أصابَتْه سرَّاءُ شكَرَ، فكان خَيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبَرَ، فكان خَيرًا له))[٢].

وعن عبد الله بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((سَمِعْتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: كتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائِقِ قَبلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ بِخَمسينَ ألفَ سنةٍ))[٣].

﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾.

أي: اللهُ هو سَيِّدُنا وناصِرُنا[٤].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٠، ٤٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٠).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٠).

أي: وعلى الله وَحْدَه فلْيعتَمِدِ المؤمنونَ، ويُفَوِّضوا أمورَهم إليه[١].

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لما أجابَ تعالى عن فَرَحِ المُنافِقينَ بمصائِبِ المُؤمنِينَ؛ أجاب بجوابٍ ثانٍ، وذلك لأنَّ المُسلِمَ إذا ذهَبَ إلى الغَزوِ، فإن صار مَغلوبًا مقتولًا، فاز بالاسمِ الحَسَنِ في الدُّنيا، والثَّوابِ العظيمِ الذي أعَدَّه اللهُ للشُّهَداءِ في الآخرةِ، وإن صار غالبًا فاز في الدُّنيا بالمالِ الحلالِ والاسمِ الجَميلِ، وهي الرُّجوليَّةُ والشَّوكة والقُوَّة، وفي الآخرة: بالثَّوابِ العَظيمِ. وأمَّا المنافِقُ إذا قعد في بَيتِه، قعَد مذمومًا، مَنسوبًا إلى الجُبنِ والفَشَلِ، وضَعفِ القَلبِ، والقَناعةِ بالأمورِ الخَسيسةِ من الدُّنيا على وجهٍ يُشارِكُه فيها النِّسوانُ والصِّبيانُ، والعاجِزونَ مِن النِّساء، ثم يكونونَ أبدًا خائِفينَ على أنفُسِهم وأولادِهم وأموالِهم، وفي الآخِرةِ إن ماتوا فقد انتَقَلوا إلى العذابِ الدَّائمِ في القِيامةِ، وإن أَذِنَ اللهُ في قَتْلِهم وَقَعوا في القَتلِ والأسْرِ والنَّهبِ، وانتَقَلوا من الدُّنيا إلى عذابِ النَّارِ[٢].

وأيضًا لَمَّا تضَمَّنَ ما سبقَ أنَّ سَرَّاءَ المؤمنينَ وضَرَّاءَهم لهم خَيرٌ؛ من حيثُ إنَّ الرِّضا بـمُرِّ القَضاءِ، مُوجِبٌ لإقبالِ القاضي على المقضِيِّ عليه بالرَّأفةِ والرَّحمةِ- صرَّحَ بذلك في قَولِه تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ أي: وهي أن نُصيبَ أعداءَنا، فنظفَرَ ونغنَمَ ونُؤجَرَ، أو يُصيبُونا بقَتلٍ أو غيرِه، فنؤجَرَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٧-٦٨).

وكِلَا الأمرينِ حَسَنٌ[١].

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّدُ- للمُنافِقينَ الذين يَفرَحونَ بما يُصيبُكم مِن مكروهٍ: ما تنتَظِرونَ بنا إلَّا أن تُصيبَنا إحدى الخَلَّتينِ اللَّتين هما أحسَنُ مِن غَيرِهما: النَّصرُ أو الشَّهادةُ[٢].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((تضمَّنَ اللهُ لِمَن خرَجَ في سبيلِه، لا يُخرِجُه إلَّا جِهادًا[٣] في سبيلي، وإيمانًا بي، وتصديقًا بِرُسُلي، فهو عليَّ ضامِنٌ أن أُدخِلَه الجنَّةَ، أو أَرجِعَه إلى مَسكَنِه الذي خرَجَ منه، نائلًا ما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ، والذي نفسُ مُحمَّدٍ بيَده، ما من كَلْمٍ يُكْلَمُ[٤] في سبيلِ الله، إلَّا جاء يومَ القِيامةِ كَهَيئَتِه حين كُلِمَ؛ لَونُه لَونُ دَمٍ، وريحُه مِسكٌ، والذي نفسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لولا أن يَشُقَّ على المُسلِمينَ ما قعَدْتُ خلافَ سَرِيَّةٍ تغزُو في سبيلِ الله أبدًا، ولكِنْ لا أجِدُ سَعةً فأحمِلَهم، ولا يَجِدونَ سَعةً، ويشُقُّ عليهم أن يتخَلَّفوا عني، والذي نفسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لَوَدِدْتُ أنِّي أغزو في سَبيلِ الله فأُقتَلُ، ثم أغزو فأُقتَلُ، ثمَّ أغزو فأُقتَلُ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٣، ٥٦٤).

ونسب الواحدي إلى ابنِ عبَّاسٍ وجميعِ المفسِّرينَ في: ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أنَّ الأُولى منهما تعني الغنيمةَ والفَتحَ، والثانيةَ تعني الشَّهادةَ والمغفرةَ. يُنظر: ((البسيط)) (١٠/ ٤٨٣).

(٣) قال النَّووي: (هكذا هو في جميعِ النُّسَخِ (جِهادًا) بالنَّصبِ، وكذا قال بعده: (وَإيمانًا بي وتصديقًا) وهو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ له، وتقديرُه: لا يُخرِجُه المُخرِجُ ويُحَرِّكُه المحَرِّكُ إلا للجهادِ والإيمانِ. والتصديق). ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ٢٠).

(٤) الكَلْمُ: الجُرحُ. ويُكْلَمُ: أي: يُجرَحُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ٢١).

(٥) رواه مسلم (١٨٧٦).

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾.

أي: ونحن ننتَظِرُ بكم- أيُّها المُنافِقونَ- أن يُصيبَكم اللهُ في الدُّنيا بعقوبةٍ مِن عِندِه أو بعذابٍ بأيدينا، فيُسَلِّطَنا عليكم، فنَقتُلَكم، إن أظهَرْتم نِفاقَكم[(١)].

﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

أي: وإذا كان الأمرُ كذلك إذن فانتَظِروا، ونحن مَعكم مُنتَظِرونَ ما اللهُ فاعِلٌ بنا وبكم؛ فكلٌّ منا سيَصيرُ إلى ما يتربَّصُ به الآخَرُ إليه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ من عصى اللهَ لِغَرَضٍ ما، فإنَّه تعالى يُبطِلُ عليه ذلك الغَرَضَ، ألا ترى أنَّ القَومَ إنَّما اختاروا القُعودَ؛ لِئلَّا يقَعُوا في الفتنةِ، فالله تعالى بيَّنَ أنهَّم في عَينِ الفِتنةِ واقعونَ ساقِطونَ[(٣)]؟!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه تعليمٌ للمُسلِمينَ التخَلُّقَ بألَّا يَحزَنوا لِما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٥٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٥).

يُصيبُهم؛ لِئلَّا يَهنوا وتذهَبَ قُوَّتُهم، وأن يَرضَوْا بما قَدَّرَ اللهُ لهم، ويَرجُوا رِضا رَبِّهم؛ لأنَّهم واثِقونَ بأنَّ اللهَ يُريدُ نَصرَ دِينِه(١).

٣- أخبَرَ اللهُ تعالى عن نَفسِه في قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَا﴾ أنَّه هو سُبحانه وليُّ المؤمنينَ، فلا يقضي قضاءً لهم إلَّا كان خيرًا لهم، ومَن تولَّاه اللهُ لم يَخذُلْه، وإنَّما يتولَّى مَصالِحَه(٢).

٤- إذا ترَكَ العِبادُ الذي أُمِرُوا به من الجهادِ في سَبيلِ الله، واشتَغَلوا عنه بما يصُدُّهم عنه مِن عمارةِ الدُّنيا، هلَكوا في دُنياهم بالذُّلِّ، وقَهرِ العَدُوِّ لهم، واستيلائِه على نُفوسِهم وذراريِّهم وأموالِهم، ورَدِّه لهم عن دِينِهم، وعَجْزِهم حينئذٍ عن العمَلِ بالدِّينِ، بل وعن عمارةِ الدُّنيا، وفُتورِ همَمِهم عن الدِّينِ، بل وفسادِ عَقائِدِهم فيه. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧] وتَركُ الجهادِ يُوجِبُ الهلاكَ في الدُّنيا- كما يُشاهِدُه النَّاسُ- وأمَّا في الآخرةِ فلَهم عذابُ النَّارِ. وأمَّا المؤمِنُ المجاهِدُ، فهو كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ فأخبَرَ تعالى أنَّ المُؤمِنَ لا ينتَظِرُ إلَّا إحدى الحُسنَيَينِ: إمَّا النَّصرَ والظَّفَرَ، وإمَّا الشَّهادةَ والجنَّةَ، فالمؤمِنُ المجاهِدُ إن حَيِيَ حَيِيَ حياةً طيِّبةً، وإن قُتِلَ فما عند الله خَيرٌ للأبرارِ(٣).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ﴾ هذه الآيةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٣).
(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١٤٦).
(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٣٢٧- ٣٢٨).

الكريمةُ مِن أعظَمِ الآياتِ التي تجعَلُ المُسلِمَ يَشتاقُ إلى الجهادِ غايةَ الاشتياقِ؛ لأنَّك لا تجِدُ في الدُّنيا رجلًا مآلُه إلى خيرٍ عَظيمٍ على كلِّ التَّقديراتِ إلَّا المجاهدَ في سبيلِ الله؛ لأنَّه إن مات نال أمنيَّةَ الدُّنيا والآخِرةِ، ونال الفوزَ والحياةَ الأبديَّةَ، والكرامةَ التي لا نظيرَ لها، وإنْ نصَرَه اللهُ على عدُوِّه، فرجَعَ ظافِرًا غانِمًا فائِزًا؛ فهذا أيضًا حسَنٌ، وهذا لا يكونُ لأحَدٍ إلَّا للمجاهدِ في سبيلِ الله، فمن تأمَّلَ معنى هذه الآيةِ الكريمةِ اشتاقَ لا محالةَ إلى الجهادِ في سَبيلِ الله تعالى[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ وُصِفَ أمرُ الله بالظُّهورِ؛ لأنَّه كان كالمَستورِ، أي: غلَبَ وعلا دينُ الله[٢].

٢- وقولُه: ﴿وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ فيه تَنْبيهٌ على أنَّهُ لا تَأثيرَ لِمَكْرِهم وكَيدِهم، ومُبالغتِهم في إثارةِ الشَّرِّ؛ فإنَّهم مُذْ رَامُوا ذلك رَدَّه اللهُ في نَحْرِهم، وقَلَبَ مُرادَهُم، وأتَى بِضِدِّ مَقصودِهم؛ فكما كان ذَلِكَ في الماضي كذا يَكونُ في المُستقبَلِ[٣].

٣- قولُهُ تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ إلى قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَا﴾ استُدِلَّ به على جوازِ قَتلِ الزِّنديقِ والمُنافِقِ مِن غَيرِ استتابةٍ، وجهُ ذلك أنَّ معنى قَولِه: ﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَا﴾ -أي: بالقَتلِ- إن أظهَرْتُم ما في قُلوبِكم قتَلْناكم؛ وذلك لأنَّ العَذابَ على ما يُبطِنونَه مِن النِّفاقِ بأيدينا لا يكونُ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلَّا القَتلَ لِكُفرِهم، ولو كان المنافِقُ يَجِبُ قَبولُ ما يُظهِرُه من التوبةِ بعدما ظَهَرَ نفاقُه وزَندقَتُه، لم يمكِنْ أن نتربَّصَ بهم أن يُصيبَهم اللهُ تعالى بعذابٍ مِن عِندِه أو بأيدينا؛ لأنَّا كُلَّما أرَدْنا أن نعَذِّبَهم على ما أظَهَروه أظهَرُوا التَّوبةَ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذا وعيدٌ لهم على الفِتنةِ التي ترَدَّوْا فيها، وُضِعَ فيه المُظهَرُ مَوضِعَ ضَميرِهم؛ للنَّصِّ على أنَّ عِقابَهم بإحاطةِ جَهنَّمَ بهم عقابٌ على الكُفرِ الذي حمَلَهم على ذلك الاعتذارِ، الذي هو ذنبٌ في نفسه كان أقصى عِقابِه مسَّ النَّارِ دونَ إحاطَتِها لو لم يكُن سَبَبُه الكفرَ، بتكذيبِ الرَّسولِ فيما جاء به مِن حُكمِ الجِهادِ وثَوابِه، والعِقابِ على تَرْكِه، أو الشَّكِّ في ذلك[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ دَلالةٌ على أنَّ ما يُصيبُ العبدَ في دُنياه- ممَّا يضُرُّه أو ينفَعُه- فكلُّه مُقَدَّرٌ عليه، ولا يصيبُ العبدَ إلَّا ما كُتِبَ له مِن مقاديرِ ذلك في الكتابِ السَّابِقِ، ولو اجتهَدَ على ذلك الخلقُ كلُّهم جميعًا[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يفيدُ الحَصرَ، وهذا كالتَّنبيه على أنَّ حالَ المُنافِقينَ بالضِّدِّ من ذلك، وأنَّهم لا يتوكَّلونَ إلَّا على الأسبابِ الدُّنيويَّةِ، واللَّذَّاتِ العاجلةِ الفانيةِ[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾. ولم تُذكَرْ هاتانِ العاقِبَتانِ

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٢).
(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٧).

للمُنافقينَ بِصيغةِ الحَصرِ كعاقِبَتَي المؤمنينَ؛ لجوازِ أن يَتوبوا عن نِفاقِهم، ويَصِحَّ إيمانُهم، وقد تاب بعضُهم، واعتَرَفوا بما كانوا عليه بعد ظُهورِ أمْرِهم[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَا﴾ إثباتُ تأثيرِ الأسبابِ؛ حيث بيَّن اللهُ تعالى أنَّ العذابَ قد يقَعُ بأيدي العِبادِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ في هذه الآيةِ تَحقيرٌ لشَأْنِهم؛ وذلك أنَّه أخْبَرَ أنَّهم لَمَّا سَعَوا على الإسلامِ، أبْطَلَ اللهُ سَعْيَهم[٣].

- وجُملةُ: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾ تَعْليلٌ لقولِه: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾؛ لأنَّها دَليلٌ على أنَّ ذلك دَيدنٌ لهم مِنْ قَبْلُ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قَولُه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾ عبَّرَ عن قولِه بالفعلِ المضارعِ؛ لاستحضارِ تلك الحالِ لِغَرابَتِها، فإنَّ مِثْلَه في نفاقِه لا يخشَى على نَفْسِه إثمَ الافتتانِ بالنِّساءِ؛ إذ لا يجِدُ مِن دِينِه مانعًا مِن التمتُّعِ بهنَّ وهو يحِبُّهنَّ، بل شأنُ ذلك أن يكونَ مُرَغِّبًا له في هذه الغَزوةِ[٥].

- قولُه: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْ﴾ في الإتيانِ بأداةِ الاسْتِفتاحِ ﴿أَلَا﴾:

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٣).
(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٢).

تَنبيهٌ على ما بَعْدَها من عَجيبِ حالِهم؛ إذْ عامَلَهم اللهُ بنَقيضِ مَقْصودِهم؛ فهم احْتَرَزوا عن فِتْنةٍ فوَقَعوا في الفِتْنةِ[١].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْفِتْنَةِ﴾ تَعْريفُ الجِنْسِ المؤذِنُ بكَمالِ المُعرَّفِ في جِنْسِه، أي: في الفِتْنةِ العَظيمةِ سَقَطوا[٢].

- وقَدَّمَ الظَّرفَ: ﴿فِي ٱلْفِتْنَةِ﴾ على عامِلِه: ﴿سَقَطُوا۟﴾ للدَّلالةِ على الحَصرِ، يقولُ: ألَا فلْيَعْلموا أنَّهم سَقَطوا وتَرَدَّوا بهذا القَولِ في هاويةِ الفِتنةِ بأوسَعِ مَعناها، لا في شَيءٍ آخَرَ مِن شُبُهاتِها أو مُشابهاتِها[٣].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه إيثارُ الجُمْلةِ الاسْميَّةِ؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ والاسْتِمرارِ[٤].

- في قولِه: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إيثارُ وضْعِ المُظْهَرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ -حيثُ لم يَقُلْ: مُحيطةٌ بِهم-؛ للتَّسجيلِ عليهم بالكُفْرِ، والإشعارِ بأنَّهُ مُعظمُ أسبابِ الإحاطةِ المذكورةِ[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ ...﴾ فيه إسنادُ المُساءةِ إلى الحَسَنةِ والمَسرَّةِ إلى أَنْفُسِهمْ، دونَ المصيبةِ بأنْ يُقالَ: (وإنْ تُصِبْكَ مُصيبةٌ تَسْرُرْهُمْ)؛ للإيذانِ باخْتِلافِ حالَيْهم حالَتَي عُروضِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المَساءةِ والمَسرَّةِ بأنَّهُمْ في الأُوْلى مُضطرُّونَ، وفي الثَّانيةِ مُخْتارونَ[١].

- قولُه: ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ فيه تَمْثِيلٌ لِحالِم في تَخلُّصِهم مِنَ المُصيبةِ، التي قَدْ كانتْ تَحِلُّ بهم لو خَرَجوا مع المُسْلِمينَ، بحالِ مَن أَشْرَفوا على خَطَرٍ ثُمَّ سَلِموا منه، ورَجَعوا فَرِحينَ مَسْرورينَ بسَلامتِهم، وبإصابةِ أعدائهم[٢].

- قولُه: ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ فيه إيثارُ الجُمْلةِ الاسْميَّةِ؛ للدَّلالةِ على دَوامِ السُّرورِ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ فيه تَعدِيةُ فِعْلِ ﴿كَتَبَ﴾ باللَّامِ ﴿لَنَا﴾؛ للإيذانِ بأنَّهُ كَتَبَ ذلك لنَفْعِهم؛ لأنَّهم يَعْلَمونَ أنَّ ما أَصابَهم ما كان إلَّا بتَقديرِ الله لِمَصلحةِ المُسلِمينَ في ذلك؛ فهو نَفْعٌ مَحْضٌ[٤]. فقال: ﴿لَنَا﴾ دون (علينا)؛ تنبيهًا على أنَّ الذي يُصيبُنا، نَعُدُّه نِعمةً لا نِقمةً، كما دلَّ لذلك الآيةُ التي تليها: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾[٥]. وهذه اللاَّمُ في قولِه ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أيضًا مفيدةٌ مَعْنى الاخْتِصاصِ، كأنَّه قيل: لنْ يُصيبَنا إلَّا ما اخْتَصَّنا اللهُ بِه مِنَ النُّصْرةِ عليكم أو الشَّهادةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٣).

(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٥١٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٧٨).

- قولُه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فيه إظهارُ الاسْمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإظْهارِ التَّبرُّكِ والتَّلذُّذِ به[1].

- وفي قولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ قدَّم الظَّرْفَ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ على الفِعْلِ ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ، وأَصْلُ الكلامِ في غَيرِ القُرآنِ: (ليتوكَّلِ المؤمنونَ علي الله)[2].

٥- قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ ...﴾ الاسْتِفهامُ مُستَعمَلٌ في النَّفي بقَرينةِ الاسْتِثناءِ، ومَعْنى الكلامِ تَوبيخٌ لهم، وتَخطئةٌ لتَربُّصِهم؛ لأنَّهُمْ يَتربَّصونَ بالمُسلِمينَ أنْ يُقْتلوا، ويَغْفُلونَ عن احْتِمالِ أنْ يُنْصروا؛ فكان المَعْنى: لا تَتربَّصونَ بِنا إلَّا أنْ نُقْتَلَ أو نَغْلِبَ، وذلك إحْدى الحُسْنَيَيْنِ[3].

- وجاءتْ جُملةُ: ﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ﴾ اسْميَّةً -حيثُ لَمْ يَقُلْ (ونَتَربَصُّ بِكُمْ)- بخِلافِ الجُمْلةِ الفِعليَّةِ المعطوفِ عليها ﴿هَلۡ تَرَبَّصُونَ﴾؛ لإفادةِ تَقويةِ التَّربُّصِ، وكِنايةً عن تَقويةِ حُصولِ المُتربِّصِ؛ لأنَّ تَقويةَ التَّربُّصِ تُفيدُ قوَّةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٣).
وهذا الوَجْهُ على أنَّ جُملةَ ﴿وَعَلَى اللَّه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ مِنْ تمامِ الكلامِ المأمورِ به في قولِه: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا...﴾، وأمَّا على القولِ بأنَّ الجُملةَ مَسوقةٌ مِن قِبلِه تعالى أمرًا للمُؤمنينَ بالتَّوكُّلِ إثرَ أمرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما ذُكِرَ؛ فليس فيها هذا الوَجْهُ.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٤).

الرَّجاءِ في حُصولِ المُتربِّصِ، فتُفيدُ قُوَّةَ حُصولِه، وهو المُكْنَى عنه[١].

- قولُه: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ أَمْرٌ يتضَّمنُ التَّهديدَ والوعيدَ[٢].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ تَهديدٌ للمُخاطبينَ، وفُصِلَتْ هذه الجُمْلةُ عَنِ التي قَبْلَها- أي: لَمْ تُعْطَفْ عليها-؛ لأنَّها كالعِلَّةِ للحَضِّ[٣].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٥).

الآيتان (٥٢-٥٤)

﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ للمُنافِقينَ إنَّهم سواءٌ أنفَقوا أموالَهم بِرضًا منهم أو بغيرِ رِضًا، فلن يُقبَلَ منهم إنفاقُهم؛ وذلك لأنَّهم كانوا قَومًا فاسِقينَ.

وما منَعَ قَبولَ نَفقاتِهم إلَّا كُفرُهم باللهِ وبِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكَونُهم لا يأتونَ الصَّلاةَ إلَّا وهم مُتثاقِلونَ، ولا يُنفِقونَ شَيئًا في أوجُهِ الخَيرِ إلَّا وهم كارِهونَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ الأُولَى أنَّ عاقِبةَ هؤلاءِ المُنافِقينَ، هي العذابُ في الدُّنيا وفي الآخرةِ؛ بيَّنَ أنَّهم، وإن أتَوْا بِشَيءٍ مِن أعمالِ البِرِّ، فإنَّهم لا ينتَفِعونَ به في الآخرةِ، والمقصودُ بيانُ أنَّ أسبابَ العَذابِ في الدُّنيا والآخرةِ مُجتَمِعةٌ في حَقِّهم، وأنَّ أسبابَ الرَّاحةِ والخَيرِ زائلةٌ عنهم في الدُّنيا وفي الآخرةِ[1].

﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُنافِقينَ: سواءٌ عليكم أنفَقْتُم أموالَكم باختيارِكم أم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٨).

بِغَيرِ رِضًا منكم؛ فإنَّ الله تعالى لن يتقبَّلَ منكم نفَقاتِكم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

أي: لا يتقبَّلُ اللهُ تعالى نفَقاتِكم- أيُّها المُنافِقونَ- لأنَّكم كُنتم قومًا كافرينَ، خارِجينَ عن طاعةِ ربِّ العالَمينَ[٢].

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها عَطفٌ على جملةِ ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾؛ فهي بيانٌ للتَّعليلِ لِعَدمِ قَبولِ نَفَقاتِهم، بزيادةِ ذِكرِ سَبَبينِ آخَرينِ مانِعَينِ مِن قَبولِ أعمالِهم، هما مِن آثارِ الكُفرِ والفُسوقِ. وهما: أنَّهم لا يأتونَ الصَّلاةَ إلَّا وهم كُسالى، وأنَّهم لا يُنفِقونَ إلَّا وهم كارِهونَ[٣].

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٨، ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٧).

أي: وما منَعَ قَبولَ نَفَقاتِ المُنافِقينَ إلَّا كُفْرُهم باللهِ عزَّ وجلَّ، وبِرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾.

أي: ولا يأتي المُنافِقونَ الصَّلواتِ المفروضةَ إلَّا وهم مُتَثاقِلونَ عنها، يُراؤونَ النَّاسَ بها[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ * ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦].

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

أي: ولا يُنفِقُ المُنافِقونَ شَيئًا مِن أموالِهم في أوجُهِ الخَيرِ- رعايةً لِمَصالِحِهم الخاصَّةِ- إلَّا وهم كارِهونَ لهذا الإنفاقِ، ويَعُدُّونَه مَغْرمًا لا مَغْنمًا[٣].

الفَوائِد التربويَّة:

١- رُوحُ الطَّاعاتِ الإتيانُ بها لِغَرضِ العبوديَّةِ، والانقيادِ في الطَّاعةِ، فإن لم يُؤتَ بها لهذا الغَرَضِ، فلا فائدةَ فيها، بل ربَّما صارت وَبالًا على صاحِبِها؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٩، ٥٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٩٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٥).

وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾[١].

٢- ينبغي للعَبدِ ألَّا يأتيَ الصَّلاةَ إلَّا وهو نشيطُ البدَنِ والقَلبِ إليها، ولا يُنفِقَ إلَّا وهو مُنشَرِحُ الصَّدرِ ثابتُ القَلبِ، يرجو ذُخْرَها وثوابَها مِن اللهِ وَحْدَه، ولا يتشَبَّهُ بالمُنافِقينَ الذين قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ هذا يُوجِبُ أن تكون النَّفسُ طيِّبةً عند أداءِ الزَّكاةِ والإنفاقِ في سبيلِ الله؛ لأنَّ اللهَ ذَمَّ المُنافِقينَ بِكَراهَتِهم الإنفاقَ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ سمَّى الإلزامَ إكراهًا؛ لأنهم مُنافِقونَ، فكان إلزامُ الله ورسولِه إيَّاهم الإنفاقَ شاقًّا عليهم كالإكراهِ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ اخْتِيرَ وَصفُ (الفاسقين) دونَ (الكافرينَ)؛ لأنَّهم يُظهِرونَ الإسلامَ ويُبطِنونَ الكُفرَ، فكانوا كالمائِلينَ عن الإسلامِ إلى الكُفرِ[٥].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦).

كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ الكُفرُ وإن كان وَحدَه كافيًا في عدمِ القَبولِ، إلَّا أنَّ ذِكرَ هَذينِ السَّبَبينِ إشارةٌ إلى تمكُّنِ الكُفرِ مِن قُلوبِهم، وإلى مَذَمَّتِهم بالنِّفاقِ الدَّالِّ على الجُبنِ والتردُّدِ، فذِكرُ الكُفرِ بَيانٌ لذِكرِ الفُسوقِ، وذِكرُ التَّكاسُلِ عن الصَّلاةِ؛ لإظهارِ أنَّهم مُتهاوِنونَ بأعظَمِ عبادةٍ، فكيف يكونُ إنفاقُهم عن إخلاصٍ ورَغبةٍ؟ وذِكرُ الكراهيةِ في الإنفاقِ؛ لإظهارِ عَدَمِ الإخلاصِ في هذه الخَصلةِ المُتحَدَّثِ عنها[1].

٤- في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الكافرَ لا يَصْعَدُ له عملٌ؛ ولا يُقْبَلُ منه خيرٌ يُثَابُ عليه في الآخرةِ[2].

٥- استُدِلَّ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ على أنَّ الزكاةَ المأخوذةَ قهرًا من صاحِبِها لا تُجْزِئُه في الباطِنِ؛ لِعَدمِ النيَّةِ مع القُدرةِ عليها، ولأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يأخُذُها من المنافِقينَ بإعطائِهم إيَّاها؛ وقد صرَّح القرآنُ بنَفيِ قَبولِها؛ لأنَّهم يُنفِقونَ وهم كارِهونَ، فعُلِمَ أنَّ النَّفَقةَ- مع كراهةِ الإنفاقِ- لا تُقبلُ[3].

٦- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ استدلَّ به على أنَّ المرتدَ لو أَخْرَجَ زكاةَ مالِه في

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٤١).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٢٠).

الرِّدَّةِ، ثم راجع الإسلامَ؛ لوجبتْ عليه الإعادةُ، واستئنافُ ما دَفَعَ مرةً أخرى؛ لأنَّه دَفَعَه في حينِ لم يُقْبَلْ منه، والزكاةُ أعظمُ النفقات(١).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ فيه نَظْمُ الكلامِ في سِلْكِ الأَمْرِ؛ للمُبالَغةِ في بَيانِ تَساوي الأَمْرينِ في عَدِمِ القَبولِ(٢).

- وقولُه: ﴿أَنفِقُوا﴾ أَمْرٌ في مَعْنى الخَبَرِ، ومَعْناهُ: لَنْ يُتَقبَّلَ مِنْكُم، أَنْفقتُم طَوعًا أو كَرْهًا، وفيه تَهديدٌ وتوبيخٌ لَهم(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ في مَوضِعِ العِلَّةِ لنَفْيِ التَّقبُّلِ، أي: تَعليلٌ لَرَدِّ إنفاقِهم(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ في هذه الآيةِ تَرْتيبٌ حَسَنٌ بَديعٌ، حيثُ ذَكَر السَّببَ الذي هو بمُفْرَدِه مانعٌ مِنْ قَبولِ نَفَقاتِهم، وهو الكفرُ، وأَتْبَعَه بما هو ناشِئٌ عَنِ الكُفْرِ، ومُسْتلزِمٌ له وهو دَليلٌ عليه، وذلك هو إتيانُ الصَّلاةِ وهم كُسالَى، وإيتاءُ النَّفَقةِ وهم كارِهونَ؛

---

(١) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦).

فالكَسَلُ في الصَّلاةِ، وتَرْكُ النَّشاطِ إليها، وأخذِها بالإقبالِ- مِنْ ثَمراتِ الكُفْرِ[١].

- قولُه: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ فيه تَخصيصُ هَذينِ العَمَلينِ الجَليلينِ- وهُما الصَّلاةُ والنَّفَقَةُ- بالذِّكْرِ مِنْ أعمالِ البِرِّ، والاكْتِفاءُ بهما، وإنْ كانوا أَفْسَدَ حالًا في سائرِ أعمالِ البِرِّ؛ لأنَّ الصَّلاةَ أَشْرَفُ الأعمالِ البَدنيَّةِ، والنَّفَقةَ في سَبيلِ اللهِ أَشْرفُ الأعمالِ الماليَّةِ، وهما الوصْفانِ المطلوبُ إظهارُهُما في الإسلامِ، ويُسْتدلُّ بهما على الإيمانِ، وتَعدادُ القَبائحِ يَزيدُ الموصوفَ بها ذَمًّا وتقبيحًا[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥٥-٥٧)

﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ٥٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَتَزۡهَقَ﴾: أي: تخرُجَ وتهْلِكَ، وزَهَقَتْ نفسُه: خرَجَت مِن الأسَفِ على الشَّيءِ، وأصلُ (زهق): يدلُّ على تقدُّمٍ ومُضِيٍّ وتَجاوُزٍ[١].

﴿يَفۡرَقُونَ﴾: أي: يَخافونَ، والفَرَقُ: تَفَرُّقُ القَلبِ مِن الخَوفِ والفَزَعِ، وأصلُ (فرق): يدلُّ على تمييزٍ، وتزييلٍ بين شَيئَينِ[٢].

﴿مَلۡجَـًٔا﴾: أي: مَعقِلًا، وحِصنًا، واللَّجَأُ والملْجَأُ: المكانُ يُلتجَأُ إليه[٣].

﴿مَغَٰرَٰتٍ﴾: المغاراتُ: السَّراديبُ، وغِيرانُ الجِبالِ، واحِدُها مَغارةٌ: وهي الموضِعُ الذي يَغورُ فيه الإنسانُ، أي: يغيبُ ويَستَتِرُ، وأصلُ (غور): يدلُّ على خُفُوضٍ في الشَّيءِ، وانحطاطٍ وتطامُنٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢، ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٧)،

﴿مُدَّخَلًا﴾: أي: سَرَبًا في الأرضِ يدخُلونَ فيه؛ مِن ادَّخَل يَدَّخِل: إذا اجتَهَدَ في دُخولِه، وأصلُ (دخل): يَدلُّ على وُلُوجٍ[1].

﴿يَجْمَحُونَ﴾: أي: يُسرِعونَ، ومنه قَولُهم: فَرَسٌ جَموحٌ: إذا ذهبَ في عَدْوِه، لم يَثْنِه شَيءٌ. وأصلُ (جمح): يدلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ قُدُمًا بغلَبةٍ وقُوَّةٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

ينهى اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُعجَبَ بأموالِ المُنافِقينَ وأولادِهم؛ فإنَّه تعالى إنَّما يريدُ أن يُعذِّبَهم بها في الحياةِ الدُّنيا، وأن تخرُجَ أرواحُهم، وهم مُستمِرُّونَ على كُفرِهم.

ويخبِرُ تعالى عن كذبِهم وجبنِهم، وأنَّهم يحلِفونَ باللهِ لِلمؤمنينَ إنَّهم منهم، وهم لَيسوا في الحقيقةِ منهم، ولكِنَّهم قَومٌ يخافونَ مِن المؤمنينَ، فيَحلِفونَ لهم؛ لِيَأمَنوهم. ويخبرُ أنَّهم لو يَجِدونَ مكانًا يتحَصَّنونَ فيه، أو كُهوفًا في الجِبالِ، أو نَفَقًا في الأرضِ؛ لَهَربوا إليها، وهم يُسرِعونَ في مَشيِهم؛ لشِدَّةِ كراهَتِهم للمؤمنينَ، ونُفورِهم منهم، وخوفًا مِن الخروجِ للجِهادِ معهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قطَعَ اللهُ تعالى في الآيةِ الأولى رجاءَ المُنافِقينَ عن جميعِ منافِعِ الآخرةِ؛ بيَّنَ هنا أنَّ الأشياءَ التي يظنُّونَها من بابِ المنافِعِ في الدُّنيا، فإنَّه تعالى جعَلَها أسبابَ تَعذيبِهم في الدُّنيا، وأسبابَ اجتماعِ المِحَنِ والآفاتِ عليهم في الآخِرةِ[1].

﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡ﴾.

أي: فلا تَستحسِنْ- يا مُحمَّدُ- أموالَ المُنافِقينَ ولا أولادَهم، ممَّا أنعَمْنا عليهم؛ استدراجًا لهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وقال سبحانه: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: إنَّما يريدُ اللهُ أن[3] يعذِّبَ المُنافِقينَ بأموالِهم وأولادِهم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٥، ٥٧٦).
قال الرازي: (هذا الخِطابُ وإن كان في الظَّاهر مختصًّا بالرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام، إلَّا أنَّ المرادَ منه كلُّ المؤمنين، أي: لا ينبغي أن تعجَبوا بأموالِ هؤلاء المنافِقينَ والكافرين، ولا بأولادِهم ولا بسائرِ نِعَمِ الله عليهم). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٧).

(٣) قال الشنقيطي: (هذه اللامُ التي تأتي في القرآنِ وفي كلام العربِ بعد فعلِ الإرادة، اختلف العلماءُ في معناها، وأظهَرُ أقوالهم فيها قولان:
أحدهما: أنها لامٌ نادرةُ المعنى تأتي بمعنى (أن)، وأنَّها لامٌ مصدريةٌ، وإن لم يكن علماءُ العربيَّةِ عدُّوا حرفَ اللامِ من الموصولاتِ الحرفيَّةِ المصدريَّةِ، قالوا: فهذه اللامُ بمعنى (أن)، والدليلُ

حياتِهم الدُّنيا[١].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من كانتِ الآخِرةُ هَمَّه، جعَلَ اللهُ غناه في قَلْبِه، وجمَعَ له شَمْلَه، وأتَتْه الدُّنيا وهي راغمةٌ، ومن كانت الدُّنيا همَّه، جعل اللهُ فَقْرَه بين عَينَيه[٢]، وفرَّق عليه شَملَه، ولم يأتِه مِن الدُّنيا إلَّا ما قُدِّرَ له))[٣].

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: ويريدُ اللهُ أن تَخرُجَ أرواحُ المُنافِقينَ، وهم مُستمِرُّونَ على كُفرِهم باللهِ ورَسولِه، فيتَّصِلَ لهم عذابُ الآخرةِ الدَّائِمُ، بعذابِهم في الدُّنيا[٤].

على هذا القَولِ تعاقُبُ هذه اللام و (أنْ) في قَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٢] و ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨]، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم﴾ [التوبة: ٥٥] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم﴾ في الآية الآتية. وعلى هذا القَولِ، فاللامُ المصدريَّةُ بمعنى (أن)، وهو قولٌ يقِلُّ مَن يقولُه مِن علماء العربيَّةِ.

القول الثاني: أنَّ المفعولَ مَحذوفٌ، واللامُ لامُ تَعليلٍ لِمَحذوفٍ، والمعنى على هذا القَولِ: إنَّما يريدُ اللهُ إعطاءَهم ومتاعَهم بها؛ لأجلِ أن يعَذِّبَهم بها في الحياةِ الدُّنيا). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٧).

قال الواحدي: (المعنى: ليُعَذِّبَهم بها، بأخْذِ الزكاةِ، والنَّفقةِ في سبيلِ الله، والمصايبِ فيها، والتَّعَبِ في جمْعِها، والوَجَل في حِفْظِها). ((الوسيط)) (٢/ ٥٠٤). ويُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٢، ٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٨).

(٢) كنايةٌ عن كَونِه يَصيرُ مُستَحضِرًا له أبدًا، ومُشفِقًا من الوقوعِ فيه سرمدًا. يُنظر: ((فيض القدير)) للمناوي (١/ ٢٥٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، والطيالسي في ((المسند)) (٦١٧)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٦٨٠). جوَّد إسناده ابن مفلح في ((الآداب الشرعية)) (٣/ ٢٦٣)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (٥/ ٨٨)، وصححه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (٣٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي))

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى كَونَ المُنافِقينَ مُستَجمِعينَ لكُلِّ مَضارِّ الدُّنيا والآخرةِ، خالِينَ عن جميعِ منافِعِ الآخرةِ والدُّنيا- عاد إلى ذِكرِ فضائِحِهم وقبائِحِهم، ومنها إقدامُهم على الأيمانِ الكاذبةِ، فقال تعالى[1]:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾.

أي: ويَحلِفُ المنافِقونَ باللهِ يمينًا مُؤكَّدةً لكم- أيُّها المؤمنونَ- كَذِبًا: إنَّهم مُؤمِنونَ مِثلُكم، وليسوا- في الحقيقةِ- مِن أهلِ دِينِكم، بل هم كفَّارٌ، وأعداءٌ لكم[2].

كما قال تعالى عن المُنافِقينَ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

وقال سُبحانه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾.

أي: ولكنَّ المنافِقينَ يخافونَ منكم -أيُّها المؤمِنونَ- فيَحلِفونَ لكم إنَّهم

(٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٨).

قال ابنُ عطية: (قولُه: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ يحتملُ أن يريدَ: ويموتونَ على الكُفرِ، ويحتملُ أن يريدُ ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ من شدَّةِ التعذيبِ الذي ينالُهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٩).

مُؤمِنونَ؛ لِيَأمَنوكم[١].

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى فَرَقَ المُنافِقينَ مِن المؤمنينَ، أخبَرَ بما هم عليه معهم، ممَّا يُوجِبُه الفَرَقُ، وهو: أنَّهم لو أمكَنَهم الهروبُ منهم لَهَربوا، ولكِنَّ صُحبَتَهم لهم، صُحبةُ اضطرارٍ لا اختيارٍ[٢].

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ ﴾.

أي: لو يجِدُ المُنافِقونَ مَكانًا يتحصَّنونَ فيه، أو كُهوفًا في الجبالِ، أو نَفقًا في الأرضِ، يُتكَلَّفُ الدُّخولُ إليه بمشقَّةٍ- لذَهَبوا إليه[٣]؛ هربًا منكم أيُّها المؤمِنونَ[٤].

﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾.

أي: لو يَجِدُ المُنافِقونَ مكانًا يَلجؤونَ إليه، لَهُرِعوا إليه وهم يُسرِعونَ في مَشْيِهم؛ لِشِدَّةِ كراهَتِهم لكم، ونُفورِهم منكم، وخوفًا من الخُروجِ للجِهادِ معكم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٧).

(٣) قال الرازي: (المعنى: أنَّهم لو وَجَدوا مكانًا على أحدِ هذه الوجوه الثلاثةِ- مع أنها شَرُّ الأمكنةِ- لولَّوا إليه، أي: رَجَعوا إليه). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢، ٥٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٩٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٤، ٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٩٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور))

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- النَّظرُ إلى متاعِ الدُّنيا على وجهِ المحبَّةِ والتعظيمِ لها ولأهْلِها؛ منهيٌّ عنه، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾، وأما النَّظرُ إلى المخلوقاتِ العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ على وجهِ التفكُّرِ والاعتبارِ؛ فمأمورٌ به، مندوبٌ إليه[١].

٢- لا ينبغي العَجَبُ بأموالِ المُنافقينَ والكافرينَ، ولا بأولادِهم ولا بسائرِ نِعَمِ اللهِ عليهم؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[٢].

٣- ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ في هذه الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ اختلافَ الخُلُقِ مانِعٌ من المُواصلةِ والمُوافَقةِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- النِّفاقُ جالِبٌ لجميعِ الآفاتِ في الدِّينِ والدُّنيا، ومُبْطِلٌ لجَميعِ الخَيراتِ في الدِّينِ والدُّنيا؛ فإنَّ الله تَعالى لَمَّا بيَّن قَبائحَ أفعالِهم، وفَضائحَ أعْمالِهم؛ بيَّن ما لهم في الآخِرةِ مِنَ العذابِ الشَّديدِ، وما لهم في الدُّنيا مِنْ وُجوهِ المِحْنةِ والبَليَّةِ، ثُمَّ بيَّن بَعْدَ ذلك أنَّ ما يَفْعلونَه مِنْ أعمالِ البِرِّ لا يَنْتفِعونَ بِهِ يومَ القِيامةِ البتَّةَ، ثم بيَّن أنَّ ما يَظنُّونَ أنَّهُ مِنْ مَنافِعِ الدُّنيا فهو في الحَقيقةِ سببٌ لعَذابِهم وبَلائِهم، وتَشديدِ المِحْنةِ عليهم، وجاء بيان ذلك مُرتَّبًا على أَحْسَنِ الوُجوهِ، ولا يُمْكِنُ تَرتيبُ الكلامِ على وَجْهٍ أَحْسَنَ مِن هذا[٤].

(١٠/ ٢٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٠).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي: كالفَرَسِ الجَموحِ، لا يردُّهم شَيءٌ، وهذا الوصفُ من أبلغِ مُبالغةِ القرآنِ في تصويرِ الحقائِقِ التي لا تتجَلَّى للفَهمِ والعِبرةِ بدونِها، فتُصَوِّر شُخوصَهم وهم يَعْدُونَ بغير نظام، يَلهثونَ كما تلهَثُ الكِلابُ، يتسابَقونَ إلى تلك الملاجِئِ مِن مغاراتٍ ومُدَّخَلاتٍ، فيتسَلَّقونَ إليها، أو يندَسُّون فيها، فكذلك كان تصَوُّرُهم عندما سَمِعوا الآيةَ في وَصْفِهم[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ﴾ فيه تقديمُ الأموالِ على الأولادِ؛ لأنَّها كانتْ أَعْلَقَ بقُلوبِهم، ونُفوسُهم أميلُ إليها؛ فإنَّهم كانوا يَقْتلونَ أولادَهم خَشيةَ ذَهابِ أموالِهم[٢].

- قولُه تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾ معطوف على ﴿لِيُعَذِّبَهُم ﴾ والمعنى: ليعذِّبَهم بها في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ونبَّه على عَذابِ الآخِرةِ بعِلَّتِهِ، وهو زُهوقُ أَنْفُسِهم على الكُفْرِ؛ لأنَّ مَنْ مات كافرًا عُذِّبَ في الآخِرةِ لا محالةَ، وزُهوقُ النَّفْسِ هُنا كنايةٌ عَنِ الموتِ[٣].

- وبِناءُ قولِه: ﴿مُدَّخَلًا ﴾ بِناءُ تأكيدٍ ومُبالَغةٍ؛ إذ أَصْلُه (مُدْتَخَل)، مُفْتَعَلٌ مِنِ (ادَّخَلَ)[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٤٣٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٤٣٨).

- والتَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارِعِ في قولِه: ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ وقولِه: ﴿يَفْرَقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ، وأنَّ ذلك دَأْبُهُم[١].

٢- قوله: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ اسْتِئنافٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما سَبَقَ مِنْ أنَّهم ليسوا مِنَ المُسلِمينَ، وأنَّ التِجاءَهم إلى الانْتِماءِ إليهم إنَّما هو للتَّقيَّةِ اضْطرارًا[٢].

- قولُه: ﴿لَوْ يَجِدُونَ﴾ فيه إيثارُ صِيغةِ الاسْتِقبالِ في الشَّرْطِ، وإنْ كان المعنى على المُضيِّ؛ لإفادةِ اسْتِمرارِ عَدَمِ الوِجدانِ؛ فإنَّ المُضارِعَ المَنفيَّ الواقِعَ مَوقِعَ الماضي ليس نَصًّا في إفادةِ انْتِفاءِ اسْتِمرارِ الفِعْلِ، كما هو الظَّاهرُ، بل قَدْ يُفيدُ اسْتِمرارَ انْتِفائِهِ أيضًا حَسَبما يَقْتضيهِ المَقامُ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥٨-٦٠)

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَلْمِزُكَ﴾: أي: يَعيبُك، ويطعَنُ عليك، وأصلُ (لمز): يدلُّ على العَيْبِ[١].

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: قومٌ كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتألَّفُهم على الإسلامِ بما يُعطيهم، وأصلُ (ألف): يدلُّ على انضمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ[٢].

﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾: أي: الذينَ لَزِمَهم الدَّينُ، فلا يَجِدونَ القَضاءَ، والغُرْمُ: ما ينوبُ الإنسانَ في مالِه مِن ضَررٍ، لِغَيرِ جِنايةٍ منه، أو خِيانةٍ، وأصلُ (غرم): يدلُّ على المُلازَمةِ[٣].

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: المُنقَطِعِ بالطَّريقِ يُريد بلدًا آخَرَ، وأصلُ (سبل): يدلُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

على امتدادِ شَيءٍ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

ومِن المُنافِقينَ مَن يَعيبُك- يا مُحمَّدُ- في قِسمَتِك لأموالِ الزَّكاةِ لِمُستَحقِّيها، فإنْ أُعطُوا منها مِقدارَ ما يُريدونَ، رَضُوا وسَكَتوا عنك، وإنْ لم يُعطَوا ما يُرضِيهم، غَضِبوا عليك وعابُوك، ولو أنَّهم رَضُوا بما أعطاهم اللهُ، وقَسَمَه لهم رَسُولُه، وقالوا: حَسْبُنا اللهُ، سيُعطينا اللهُ مِن فَضْلِه، وسيَقْسِمُ لنا رسولُه، إنَّا نرغَبُ إلى اللهَ وَحدَه في أن يُوسِّعَ علينا، ويُغنِيَنا من فَضْلِه- لكان خيرًا لهم في دينِهم ودُنياهم.

إنَّما أموالُ الزَّكاةِ مُستحَقَّةٌ للفُقراءِ، والمساكينِ، والعاملينِ عليها- الذين يَجمَعونَها ويُوزِّعونَها على مُستَحقِّيها- ولِمَن يُرادُ تأليفُ قُلوبِهم على الإسلامِ، وفي عِتقِ الرَّقيقِ، والمدِينينَ، وفي الإنفاقِ لِنُصرةِ دِينِ اللهِ تعالى، وللمُسافِرِ المجتازِ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، ليس معه ما يستعينُ به على سفرِه، فريضةً مِن اللهِ، واللهُ عليمٌ حكيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شَرحٌ لِنَوعٍ آخَرَ مِن قبائِحِ المُنافِقينَ وفَضائِحِهم، وهو طَعْنُهم في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ بسبَبِ أخْذِ الصَّدَقاتِ مِن الأغنياءِ، ويقولونَ: إنَّه يُؤثِرُ بها مَن يَشاءُ مِن أقارِبِه وأهلِ مَودَّتِه، ويَنسُبونَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى أنَّه لا يُراعي العَدلَ[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٥).

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

أي: ومِن المُنافِقينَ مَن يَعيبُك ويتَّهِمُك وينتقِدُكَ- يا محمَّدُ- طاعِنًا على قِسمَتِك، وتَوزيعِك أموالَ الزَّكاةِ على مُستحِقِّيها[١].

عن أبي سعيد الخُدريِّ رَضيَ الله عنه، قال: ((بَيْنا نحن عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يقسِمُ قَسمًا، أتاه ذو الخُوَيصِرةِ، وهو رجلٌ مِن بني تميم، فقال: يا رسولَ اللهِ، اعدِلْ، قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وَيلَك! ومَن يَعدِلُ إنْ لم أعدِلْ؟! قد خِبْتَ وخِسرْتَ إنْ لم أعدِلْ، فقال عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه: يا رسولَ اللهِ، ائذَنْ لي فيه أضرِبْ عُنُقَه، قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعْه؛ فإنَّ له أصحابًا يَحقِرُ أحدُكم صَلاتَه مع صَلاتِهم، وصِيامَه مع صيامهم، يَقرَؤونَ القُرآنَ، لا يُجاوزُ تَراقِيَهم[٢]؛ يَمرُقونَ مِن الإسلامِ كما يَمرُقُ السَّهمُ منَ الرَّميَّة[٣]، يُنظَرُ إلى نَصْلِه[٤]، فلا يوجَدُ فيه شيءٌ، ثم يُنظَرُ إلى رِصافِه[٥] فلا يُوجَدُ فيه شيءٌ، ثمَّ يُنظَرُ إلى نَضِيِّه[٦] فلا يوجَدُ فيه شيءٌ- وهو القِدْحُ- ثم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦، ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٣).

(٢) التَّراقي: جمع تَرْقُوَة: وهي عظمٌ واصِلٌ ما بين ثغرةِ النَّحرِ والعاتِقِ. قيل المراد: لا يُرفَعُ إلى الله منه شيءٌ؛ لعِلمِه باعتقادِهم. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٢).

وقيل: معناه أنَّ قومًا ليس حظُّهم مِن القرآنِ إلا مرورُه على اللسانِ فلا يجاوزُ تراقيَهم ليصلَ قلوبَهم، وليس ذلك هو المطلوبَ، بل المطلوب تعقلُه وتدبرُه بوقوعِه في القلبِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٠٥).

وقيل: لا يعملونَ بالقُرآنِ فلا يُثابونَ على قِراءته فلا يحصلُ لهم إلَّا سَرْدُه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٢/ ٢٩٣). ويُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا علي القاري (٩/ ٣٧٩٧).

(٣) الرميَّة: ما يُرمى مِن الصَّيدِ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٢).

(٤) النَّصلُ: حديدةُ السَّهمِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٥٨).

(٥) الرِّصافُ: هي العَقِبُ التي تكونُ فوقَ مَدخَلِ النَّصلِ في السَّهمِ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٢).

(٦) النَّضِيُّ: عودُ السَّهمِ قبل أن يُرَيَّش ويُنَصَّل، سُمِّيَ به لكثرة البَرْيِ والنَّحتِ، كأنَّه جُعل نِضْوًا، أي:

يُنظَرُ إلى قُذَذه[١] فلا يُوجَدُ فيه شيءٌ، سَبَقَ الفَرْثَ والدَّمَ[٢]، آيَتُهم رجلٌ أسوَدُ، إحدى عَضُدَيه مثلُ ثَدْيِ المرأة، أو مثلُ البَضعة تتَدردَرُ[٣]، يَخرجونَ على حينِ فُرقةٍ مِن النَّاسِ. قال أبو سعيدٍ: فأشهَدُ أنِّي سمِعْتُ هذا مِن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأشهَدُ أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه قاتَلَهم وأنا معه، فأمر بذلك الرَّجُلِ، فالتُمِسَ فوُجِدَ، فأُتيَ به حتى نَظَرْتُ إليه، على نَعْتِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي نَعَتَ!)[٤].

هَزيلًا. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٢).

(١) قُذَذِه: جَمعُ قُذَّةٍ، وهي الرِّيشُ الذي على السَّهمِ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٣).

(٢) الفَرْثُ: ما يَجتَمِعُ في الكَرِش، أي: مرَّ سريعًا في الرَّميَّة وخرَجَ منها، لم يتعلَّقْ منها بشيءٍ مِن فَرْثِها ودَمِها؛ لِسُرعتِه، شَبَّه بذلك خُروجَهم من الدِّينِ، ولم يحصلوا منه على شَيءٍ أَلبتَّةَ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٣).

(٣) تَتَدردَرُ: أي: تتحَرَّكُ وتجيءُ وتذهَبُ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٣).

(٤) رواه البخاري (٦٩٣٣)، ومسلم (١٠٦٤) واللفظ له.

وفي رواية البخاري زيادة: (قال: فنزَلَت فيه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾).

قال ابن تيمية: (رواه البخاري وغيرُه من حديث مَعمَر عن الزهري، وأخرجاه في الصحيحين من وجوهٍ أخرى عن الزهري عن أبي سَلَمة والضحاك الهمداني عن أبي سعيد.. وذكرَ حديثَ الخوارج المشهورَ، ولم يذكرْ نزول الآية .. الذي في رواية معمر- أنَّ آية الصدقات نزلت في قصَّة ذي الخويصرة- ليس بجيدٍ، بل هو مُدْرَجٌ في الحديث من كلام الزُّهري أو كلام مَعمَر؛ لأن ذا الخويصرة إنما أنكرَ عليه قَسمَ الغنائم، وليست هي الصَّدَقات التي جعلها الله لثمانيةِ أصنافٍ، ولا الْتفاتَ إلى ما ذكَره بعضُ المفسِّرين من أنَّ الآية نزلت في قَسمِ غنائِمِ حُنَين، وإمَّا أن يكونَ المعترِضُ في ذُهَيبةِ عليٍّ رضي الله عنه هو ذو الخويصرة أيضًا، وعلى هذا فتكونُ أحاديثُ أبي سعيد كلُّها في هذه القصَّة، لا في قَسمِ الغنائم، وتكونُ الآية قد نزلت في ذلك، أو يكون قد شهد القصَّتين معًا، والآيةُ نزلت في إحداهما). ((الصارم المسلول)) (ص: ٢٢٧، ٢٣١). ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨١، ٥٨٢).

وقال ابنُ حجر: (لم أقِفْ على الزيادة إلَّا في رواية مَعمَر... وله شاهدٌ من حديث ابن مسعود قال: ((لَمَّا قَسَم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غنائم حُنَينٍ، سَمِعْتُ رجلًا يقول: إنَّ هذه القِسمةَ ما أُريدَ بها وجهُ الله! قال: فنزَلَت: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾)). أخرجه ابن مردويه، وقد تقدَّم في غزوة حُنين بدون هذه الزيادة، ووقع في رواية عتبة بن وساج عن عبد الله بن عمر ما يؤيِّد هذه الزيادة: ((فجعل يقسِمُ بين أصحابِه، ورجلٌ جالِسٌ فلم يُعطِه شيئًا، فقال: يا محمَّدُ، ما أراك تَعدِلُ!)) وفي رواية أبي الوَضِي عن أبي بَرْزةَ نحوُه، فدلَّ على أنَّ الحامِلَ للقائل

﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ﴾.

أي: فإنْ أعْطَيتَ المُنافِقينَ- يا مُحمَّدُ- من الصَّدَقاتِ قَدْرَ ما يرُيدونَ، رَضُوا وسَكَتوا عنك[1].

﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

أي: وإنْ لم تُعطِ المُنافِقينَ- يا مُحمَّدُ- ما يُرضيهم مِن الصَّدَقاتِ، غَضِبوا عليك، وعابُوك[2]!

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

على ما قال من الكلامِ الجافي، وأقدَمَ عليه من الخطاب السيئِ؛ كونُه لم يُعطَ من تلك العطيَّةِ، وأنَّه لو أعطِيَ لم يقُلْ شيئًا من ذلك). ((فتح الباري)) (١٢/ ٢٩٨).

وقال محمد رشيد رضا: (الآيةُ نصٌّ في قِسمةِ الصَّدَقاتِ، فجَعلُ الغنائِمِ سَببًا لِنُزولِها، من جملةِ تساهُلِهم فيما يُسمُّونَه أسبابَ النُّزولِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٢١).

وقال الشنقيطي: (ذكرَ كثيرٌ من أهل العلم أنَّ هذه الآيةَ نزلت في حرقوص بن زهير ذي الخُوَيصرة التميميِّ، رأسِ المنافقين. قالوا: وجَدَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقسِمُ مالًا، فقال: يا نبيَّ اللهِ، اعدِلْ؛ فإنَّك لم تعدِلْ- قبَّحَه الله- وقِصةُ ذي الخويصرة معروفةٌ ثابتة في الصَّحيح، ولكنَّ الذي يظهَرُ أنَّ هذه الآيةَ ليست نازلةً فيه، وإن زَعَمَ كثيرٌ مِن كُبَراء المفسِّرين أنَّها نازلة في ذي الخُوَيصرة، وإنَّما قلنا: إنَّ الأظهَرَ أنَّها نازلةٌ في غيره؛ لأنَّ المعروف أنَّ القِسمةَ التي قال فيها حرقوص بن زهير التميمي المعروف بذي الخُويصرة؛ أصلُ الخَوارجِ- قبَّحَه وقبَّحَهم اللهُ- أنَّ ذلك في قَسمِ النبيِّ لِغَنائم حُنَينٍ، قال ذلك فيه، وهذه الآيةُ يصرِّحُ الله فيها بأنَّهم لَمَزوه في قَسمِ الصَّدَقات- وهي الزَّكواتُ- والصَّدقاتُ غيرُ الغَنائم، فالأظهَرُ أنَّ الأصوبَ فيها هو ما قالَه ابنُ جُرَيج (رحمه الله) وغيرُه: أنَّها نزلت في رجلٍ مِن الأنصارِ مِن المنافقينَ حضر النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقسِمُ مالًا من الصَّدقاتِ، فقال: يا نبيَّ الله، اعدِلْ فإنَّك لم تعدِلْ- قبَّحَه الله- فنزَلت هذه الآيةُ فيه). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٨١-٥٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٦)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ الله تعالى عن حالِ المُنافِقينَ السَّيئِ الدَّنيءِ، الذي لا يُجدِيهم في الدُّنيا، ويُهلِكُهم في الأُخرى- نَبَّهَهم على ما هو الأصلَحُ لهم؛ مِن الحالِ الشَّريفِ السَّنِيِّ، فقال تعالى[1]:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾.

أي: ولو أنَّ أولئك المُنافِقينَ قَنَعوا بما أعْطاهم اللهُ، وقَسَمَه لهم رَسولُه[2].

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾.

أي: ولو أن المُنافِقين قالوا: كافِينا اللهُ وَحدَه[3].

﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾.

أي: سيُعطينا اللهُ مِن فَضلِه العَظيمِ، وسيَقسِمُ لنا رسولُه الكريمُ[4].

﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾.

أي: وقالوا: إنَّا نرغَبُ إلى اللهِ تعالى وَحدَه، ونتضَرَّعُ إليه دونَ مَن سِواه، أن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٥).

قال محمد رشيد رضا: (﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ أي: سيُعطينا اللهُ مِن فَضلِه في المستقبَلِ مِن الغنائِمِ والكَسبِ؛ لأنَّ فَضلَه دائِمٌ لا ينقطِعُ، ويُعطينا رسولُه ممَّا يَرِدُ عليه من الغنائِمِ والصَّدَقات زيادةً ممَّا أعطانا من قبلُ، لا يَبخَسُ أحدًا منَّا حقًّا يستحِقُّه في شَرعِ الله تعالى). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٢١).

يُغنِيَنا مِن فَضْلِه، ويَرزُقَنا في الدُّنيا والآخرةِ، لو أنَّهم فعلوا ذلك لكان خيرًا لهم في دينِهم ودُنياهم[١].

عن أبي وائلٍ، عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ مُكاتَبًا جاءه، فقال: ((إنِّي قد عَجَزتُ عن مُكاتَبَتي فأعِنِّي، قال: ألَا أُعَلِّمُك كَلِماتٍ عَلَّمَنيهنَّ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لو كان عليك مِثلُ جَبلِ صِيرٍ دَينًا، أدَّاه اللهُ عنك؟! قل: اللهُمَّ اكفِنِي بحلالِك عن حَرامِك، وأغنِني بفَضلِك عمَّن سِواك))[٢].

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللَّهُ تَعالَى اعْتِراضَ المنافِقينَ الجهلَةِ على النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، ولَمْزَهم إيَّاه في قَسْمِ الصَّدقاتِ، بَيَّنَ تعالَى أنَّه هو الَّذي قَسَمها وبَيَّنَ حُكْمَها، وتَوَلَّى أمرَها بنَفْسِه، ولم يَكِلْ قَسْمَها إلى أحدٍ غيرِه، فجَزَّأَها لهؤلاء المذكورينَ[٣].

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾.

أي: إنَّما أموالُ الزَّكاةِ مُستحَقَّةٌ للفُقَراءِ وللمساكينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٢٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٦٣)، وأحمد (١٣١٩)، والطبراني في ((الدعاء)) (١٠٤٢)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٩٧٣).
قال الترمذيُّ في ((السنن))، وابنُ حجرٍ، كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٤/ ٢٩): حسنٌ غريبٌ، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٣٥٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٩، ٥١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ليس المِسكينُ الذي يطوفُ على النَّاسِ تَرُدُّه اللُّقمةُ واللُّقمَتانِ، والتَّمرةُ والتَّمرتانِ، ولكِنِ المِسكينُ الذي لا يَجِدُ غِنًى يُغنيه، ولا يُفطَنُ به فيُتصَدَّقُ عليه، ولا يقومُ فيَسألُ النَّاسَ))(١).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((لا تَحِلُّ الصَّدَقةُ لغَنيٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ(٢))(٣).

ابن عطية)) (٣/ ٤٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٥).

قال الرازي: (الآيةُ تدُلُّ على أنَّه لا حَقَّ في الصَّدَقاتِ لأحَدٍ إلَّا لهذه الأصنافِ الثَّمانيةِ، وذلك مُجمَعٌ عليه، وأيضًا فلفظةُ ﴿إِنَّمَا﴾ تفيدُ الحَصرَ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٠). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٥٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٧).

قال الشنقيطي: (والعلماءُ مختلفونَ في الفقيرِ والمسكينِ أيُّهما أسوأُ حالًا؟ فذَهَبَ جماعةٌ من فقهاءِ الأمصارِ وأهلِ اللغةِ إلى أن الفقيرَ أسوأُ حالًا من المسكينِ، وهذا مذهبُ الشافعيِّ رحمه الله، وروايةٌ قويةٌ عن أحمدَ رحمه الله، وبه قال جماعةٌ من السلفِ، أنَّ الفقيرَ أحوجُ من المسكينِ. وقالت طائفةٌ: إنَّ المسكينَ أحوجُ من الفقيرِ، وهو مذهبُ مالكٍ وأصحابِه، ومذهبُ أبي حنيفةَ). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٨٨). ويُنظر: ((الأموال)) لابن زنجويه (٣/ ١١٣٨)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٥١٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٧٤، ٣٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٠٩)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٥).

(١) رواه البخاري (١٤٧٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٣٩).

(٢) لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ: هو القَويُّ صحيحُ الأعضاءِ، تامُّ الخِلقةِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٢/ ٥١١).

(٣) أخرجه النسائي (٢٥٩٧)، وابن ماجه (١٨٣٩)، وأحمد (٩٠٦١)، وابن حبان (٣٢٩٠).
صحَّحه ابنُ كثير ((تفسير القرآن)) (٧/ ٤١٩)، وابنُ الملقنِ في ((البدر المنير)) (٧/ ٣٦٢)، والألبانيُّ في ((صحيح ابن ماجه)) (١٥٠١)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجرٍ في ((التلخيص الحبير))

وعن عُبيد الله بن عَدِيِّ بن الخيار، ((أنَّ رَجُلَين أخبَراه أنَّهما أتيَا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يسألانِه مِن الصَّدقةِ، فقلَّبَ فيهما البَصَرَ، ورآهما جَلْدَينِ، فقال: إن شِئتُما أعطيتُكما، ولا حظَّ فيها لغَنيٍّ، ولا لِقَويٍّ مُكتَسِبٍ))[1].

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾.

أي: ولِلعامِلينَ على الزَّكاةِ، الذين يَجمَعونَها ممَن وجَبَت عليهم، ويُوزِّعونَها على مُستحِقِّيها[2].

(٣/ ١١٠٦).

(١) أخرجه أبو داود (١٦٣٣)، والنسائي (٢٥٩٨)، وأحمد (١٧٩٧٢)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٢٧٢٢).

قال الإمامُ أحمدُ كما في ((التلخيص الحبير)) لابن حجر (٣/ ١١٠٥): ما أجوَدَه مِن حديثٍ، وصحَّحه النووي في ((المجموع)) (٦/ ١٨٩)، وابنُ الملقنِ في ((البدر المنير)) (٧/ ٣٦١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٦٣٣).

وقال ابنُ جرير: (المُكتَسِبُ المتَعَذِّرُ عليه الكَسبُ: حَلالٌ له الصَّدَقةُ إذا تعذَّر عليه الكَسبُ، وإن كان مِن صِفتِه أنَّه قادِرٌ على الكَسبِ إذا وَجَده). ((تهذيب الآثار)) (ص: ٤١٨).

وقال الخطابي: (فيه أنَّه لم يُعتبَرْ في منعِ الزَّكاةِ ظاهِرُ القوَّةِ والجَلَد، دون أن يُضمَّ إليه الكَسبُ؛ فقد يكون من النَّاسِ مَن يَرجِعُ إلى قُوَّةِ بَدَنِه، ويكون مع ذلك أخرَقَ اليَدِ لا يعتَمِل، فمن كان هذا سبيلَه لم يُمنَع من الصَّدَقةِ بدلالةِ الحَديثِ). ((معالم السنن)) (٢/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥١٦، ٥١٨)، ((أحكام القرآن)) للطحاوي (١/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٩).

قال ابن تيمية: (العامِلُ على الصَّدَقةِ الغَنِيُّ؛ له أن يأخُذَ بعِمالَتِه، باتِّفاقِ المُسلِمينَ). ((منهاج السنة النبوية)) (٦/ ٢٥١).

وقال ابن عاشور: (﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ معناه: العامِلونَ لأجلِها، أي: لأجْلِ الصَّدَقاتِ، فحَرفُ (على) للتَّعليلِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أي: لأجْلِ هِدايَتِه إيَّاكم. ومعنى العَمَل: السَّعيُ والخِدمةُ)) (١٠/ ٢٣٥).

وقال السعدي: (العامِلونَ على الزكاة: وهم كلُّ مَن له عَمَلٌ وشُغُلٌ فيها: مِن حافظٍ لها، أو جابٍ لها مِن أهلِها، أو راعٍ، أو حامِلٍ لها، أو كاتبٍ، أو نحوِ ذلك، فيُعطَونَ لأجلِ عِمالَتِهم، وهي أجرةٌ

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: ولِمَن يُرادُ تأليفُ قُلوبِهم على الإسلامِ[(١)].

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((بَعث عليٌّ رَضِيَ الله عنه وهو

لأعمالِهم فيها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١).

وقال ابن جرير: (وأولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ قَولُ من قال: يُعطَى العامِلُ عليها- على قَدرِ عِمالَتِه- أجرَ مِثلِه). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥١٨).

وقال ابنُ العربي: (اختلفَ النَّاسُ في المقدارِ الذي يأخُذُه العامِلونَ مِن الصدقةِ... والصَّحيحُ الاجتهادُ في قَدْرِه؛ لأنَّ البيانَ في تعديدِ الأصنافِ إنَّما كان للمَحَلِّ لا للمُستَحَقِّ). ((أحكام القرآن)) (٢/ ٥٢٥).

وقال الشنقيطي: (وأظهرُ الأقوالِ: أنَّه لا يتقدَّرُ فيه شيءٌ مُعَيَّنٌ، إلَّا بِقَدرِ أُجرتِهم). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٩).

قال ابن كثير: (وأمَّا المؤلَّفةُ قُلوبُهم فأقسامٌ: منهم من يُعطى ليُسلِمَ، كما أعطى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صفوانَ بنَ أميَّةَ من غنائم حُنَين، وقد كان شَهِدَها مُشرِكًا. قال: فلم يزَلْ يُعطيني حتى صار أحبَّ النَّاسِ إليَّ بعد أن كان أبغَضَ النَّاسِ إليَّ... ومنهم من يُعطى لِيَحسُنَ إسلامُه، ويَثبُتَ قَلبُه، كما أعطى يومَ حنينٍ أيضًا جماعةً من صناديدِ الطُّلَقاء وأشرافِهم: مائةً مِن الإبل، مائةً مِن الإبل... ومنهم من يُعطى لِما يُرجى من إسلامِ نُظَرائه، ومنهم من يُعطى لِيَجبيَ الصَّدَقاتِ ممَّن يليه، أو لِيَدفَعَ عن حَوزةِ المُسلِمين الضَّررَ مِن أطرافِ البلادِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٧). ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢٦، ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١).

وقال ابن عاشور: (قال كثيرٌ مِن العُلَماءِ: هم باقون إذا وُجِدوا؛ فإنَّ الإمام ربَّما احتاج إلى أن يستألِفَ على الإسلامِ، وبه قال الزُّهري، وعمرُ بنُ عبد العزيز، والشافعيُّ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ، واختاره عبدُ الوهابِ، وابنُ العربي، مِن المالكية. قال ابنُ العربي: الصَّحيحُ عندي أنَّه إن قَوِيَ الإسلامُ زالوا، وإن احتِيجَ إليهم أُعطُوا. أي: فهو يرى بقاءَ هذا المَصرِف، ويرى أنَّ عدَمَ إعطائِهم في زمَنِ عُمَرَ؛ لأجلِ عِزَّةِ الإسلامِ، وهذا هو الذي صحَّحه المتأخِّرونَ، قال ابنُ الحاجبِ في «المختصر»: والصَّحيحُ بقاءُ حُكمِهم إن احتِيجَ إليهم. وهذا الذي لا ينبغي تقَلُّدُ غَيرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٦).

باليمَنِ بذَهَبةٍ في تُربَتِها إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقَسَمَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بين أربعةِ نَفَرٍ: الأقرَعِ بنِ حابسٍ الحَنظليِّ، وعُيَينةَ بنِ بَدرٍ الفَزاريِّ، وعَلقمةَ بنِ عُلاثةَ العامريِّ، وزيدِ الخيرِ الطَّائيِّ، فغَضِبَت قريشٌ، فقالوا: أتُعطي صناديدَ نَجدٍ وتَدَعُنا؟! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنِّي إنَّما فعَلْتُ ذلك؛ لِأَتَأَلَّفَهم))[1].

وعن أنسٍ رَضيَ الله عنه، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنِّي أُعطِي قُريشًا أتألَّفُهم؛ لأنَّهم حديثُ عَهدٍ بجاهليَّةٍ))[2].

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾.

أي: وفي عِتقِ الرَّقيقِ، فيُشترى العبيدُ والإماءُ مِن الزكاةِ ويُحرَّرونَ، ويُعانُ المُكاتَبونَ على أداءِ مالِ المُكاتَبةِ، ويُفتَدى الأَسرى[3].

---

(١) رواه البخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٣١٤٦) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٣- ٥٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٨٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٥، ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٦، ٢٣٧).

ذهَب ابنُ تيميَّةَ إلى أنَّ هذا القَولَ هو أقوَى الأقوالِ، أي أنَّ سَهمَ ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ يدخُلُ فيه إعانةُ المُكاتَبينَ، وافتداءُ الأسرى وعِتقُ الرِّقابِ. واختاره السَّعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٦-٢٣٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٨)

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المرادَ بالرِّقابِ هنا: المُكاتَبون، ونسَبَ ذلك إلى الجُمهورِ، وممَّن اختاره الواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٣- ٥٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف مقاتلٌ، والحسنُ، والزُّهري، وعمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، وسعيدُ ابنُ جُبيرٍ، والنخعيُّ، وابنُ زيدٍ، ورُوي عن أبي موسَى الأشعريِّ نحوُه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٨).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ [النور: ٣٣].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ الله عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((من أعتَقَ رَقَبةً مُسلِمةً، أعتَقَ اللهُ بكُلِّ عُضوٍ منه عُضوًا مِن النَّارِ، حتى فَرْجَه بِفَرْجِه))(١).

وعن البَراء بن عازب رَضيَ الله عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رسولَ اللهِ، عَلِّمْني عمَلًا يُدخِلُني الجنَّةَ، فقال: لَئِن كنتَ أقصَرْتَ الخُطبةَ، لقد أعرَضْتَ المسألةَ! أعتِقِ النَّسَمةَ، وفُكَّ الرَّقبةَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، أولَيسَتا بواحدةٍ؟! قال: لا؛ إنَّ عِتقَ النَّسَمةِ أن تَفرَّدَ بعِتقِها، وفكَّ الرَّقبةِ أن تُعينَ في عِتقِها))(٢).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ثلاثةٌ حقٌّ على الله عَونُهم: المجاهِدُ في سبيلِ اللهِ، والمُكاتَبُ الذي يُريدُ الأداءَ، والنَّاكِحُ الذي يريدُ العَفافَ))(٣).

﴿وَٱلۡغَٰرِمِينَ﴾.

قال الشوكاني: (والأَوْلى حملُ ما في الآيةِ على القَولينِ جَميعًا؛ لِصدقِ الرِّقابِ على شِراءِ العَبدِ وإعتاقِه، وعلى إعانةِ المُكاتَبِ على مالِ الكِتابةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٦).

(١) رواه البخاري (٦٧١٥) واللفظ له، ومسلم (١٥٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٦٤٧)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٦٩)، وابن حبان (٣٧٤)، والدارقطني (٢٠٥٥).

صححه ابن حجر في ((فتح الباري)) (٥/ ١٧٤)، والألباني في ((صحيح الموارد)) (١٠١٧)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٤١).

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٥٥)، والنَّسائي (٣١٢٠)، وابن ماجه (٢٥١٨)، وأحمد (٧٤١٦)، وابن حبان (٤٠٣٠).

حسَّنه الترمذي، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٦٥٥)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((تحقيق المسند)) (١٣/ ١٤٩)، وجوَّد إسنادَه ابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٧٦٥).

أي: والمَدِينينَ الذين استَدانُوا في غيرِ مَعصيةٍ، وليس لديهم ما يُوَفُّونَ به دينَهم، أو تحمَّلوا مالًا للإصلاحِ بين النَّاس، فيُعطَونَ مِن الزَّكاةِ[١].

عن قَبيصةَ بنِ مُخارِق الهلاليِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((تحمَّلْتُ حَمالةً[٢]، فأتيتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أسألُه فيها، فقال: أقِمْ حتى تأتِيَنا الصَّدَقةُ، فنأمُرَ لك بها، قال: يا قَبيصةُ، إنَّ المسألةَ لا تَحِلُّ إلَّا لأحدِ ثَلاثةٍ: رَجُلٍ تحمَّلَ حَمالةً، فحَلَّت له المسألةُ حتى يُصيبَها، ثم يُمسك، ورجلٍ أصابَتْه جائِحةٌ[٣] اجتاحَتْ مالَه، فحَلَّت له المسألةُ حتى يصيبَ قِوامًا مِن عَيشٍ- أو قال: سِدادًا مِن عَيشٍ[٤]-، ورجُلٍ أصابَتْه فاقةٌ حتى يقومَ ثلاثةٌ مِن ذَوي الحِجَا مِن قَومِه: لقد أصابَتْ فلانًا فاقةٌ، فحَلَّت له المسألةُ حتى يصيبَ قِوامًا مِن عَيشٍ- أو قال: سِدادًا مِن عيشٍ- فما سواهُنَّ مِن المسألةِ يا قَبيصةُ، سُحتًا يأكُلُها صاحِبُها، سُحتًا))[٥].

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٦)، ((أحكام القرآن)) للطحاوي (١/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٨٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٧).

قال الطحاوي: (﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ فهم المَدِينونَ، لا اختلافَ في ذلك بين أهلِ العِلمِ عَلِمْناه). ((أحكام القرآن)) (١/ ٣٦٧).

وقال القرطبي: (﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ هم الذين رَكِبَهم الدَّينُ، ولا وفاءَ عِندَهم به، ولا خلافَ فيه. اللهمَّ إلَّا مَن ادَّان في سفاهةٍ، فإنَّه لا يُعطَى منها، ولا مِن غيرها، إلَّا أن يتوبَ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٨٣). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤).

(٢) الحمالةُ: أن يُصلِحَ الرجلُ بَين قومٍ قد اقتَتَلوا، وسُفِكَت بينهم دِمَاءٌ، وَيحْتَمِلُ دِيَاتِ المقتولينَ؛ رغبةً في سكونِ الفِتنةِ. يُنظر: ((كشف المُشكِل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٤/ ٢٣٩).

(٣) آفةٌ وحادِثةٌ أهلَكَت مالَه. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٢/ ٥١٢).

(٤) القِوامُ والسِّدادُ: بمعنًى واحدٍ، وهو ما يُغني مِن الشَّيءِ، وما تُسَدُّ به الحاجةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ١٣٣).

(٥) رواه مسلم (١٠٤٤).

أي: وفي النَّفَقةِ لنُصرةِ دِينِ اللهِ، فيُعطَى المُجاهِدونَ مِن الزَّكاةِ ما يُعينُهم على قِتالِ الكُفَّارِ[(١)].

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وللمُسافِرِ، المجتازِ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، ليس معه ما يستعينُ به على سفرِه، فيُعطَى مِن الزَّكاةِ ما يَستعينُ به على سَفَرِه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٧، ٢٤٠).

قال الواحدي: (﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الغُزاةَ والمُرابِطينَ، عند عامَّةِ المفسِّرين). ((البسيط)) (١٠/ ٥١٥).

وقال ابن عاشور: (وسبيلُ اللهِ: الجِهادُ، أي: يُصرَفُ من أموال الصَّدَقاتِ ما تُقامُ به وسائِلُ الجِهادِ؛ من آلاتٍ وحراسة في الثغور، كل ذلك برًّا وبحرًا... الحقُّ أنَّ سبيل الله يشمَلُ شراءَ العُدَّةِ للجهاد من سلاحٍ، وخيلٍ، ومراكِبَ بحريةٍ، ونوتيةٍ، ومجانيقَ، وللحملانِ، ولبناءِ الحصون، وحَفْرِ الخنادق، وللجواسيسِ الذين يأتونَ بأخبارِ العدُوِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٧، ٢٤٠).

وذهب ابن تيمية وابن كثير إلى أنَّ الحَجَّ مِن سبيلِ اللهِ، فيدخُلُ في هذا السَّهمِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٩).

ومِن الفُقَهاءِ مَن أدخَلَ التفَرُّغَ لِطَلَبِ العِلمِ في سبيلِ الله. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٠).

قال الطحاوي: (هم الغائِبونَ عن أموالِهم، الذين لا يَصِلون إليها؛ لبُعدِ المسافة بينهم وبينها، حتى تلحَقَهم الحاجةُ إلى الصَّدَقةِ، فالصَّدَقةُ لهم حينئذٍ مُباحة، وهم في حكمِ الفُقَراء الذين لا أموالَ لهم، حتى يَصِلوا إلى أموالهم، وهذا ممَّا لا اختلافَ فيه بين أهلِ العِلمِ). ((أحكام القرآن)) (١/ ٣٧١).

وقال ابن عاشور: (وأمَّا ابنُ السبيلِ، فلم يُختَلَف في الغريبِ المحتاجِ في بلدِ غُربَتِه: أنَّه مُرادٌ، ولو وجَدَ مَن يُسلِفُه؛ إذ ليس يلزَمُه أن يُدخِلَ نَفسَه تحت مِنَّةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٠).

وقال الشنقيطي: (أجمع العُلَماءُ على أنَّ ابنَ السَّبيلِ إذا كان مُسافِرًا في معصيةٍ، لا يجوزُ أن يُعطى مِن الزكاةِ شَيئًا؛ لأنَّه إعانةٌ له على مَعصيتِه، واللهُ يقول: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢] وإن كان سَفَرُه في قُربةٍ، فلا خلافَ في أنَّه يُعطى. وإن كان في مُباحٍ فقد اختلف

كما قال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦].

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: فرَضَ اللهُ هذه الصَّدَقاتِ فريضةً على الأغنياءِ في أموالِهم، وقَسَمَها بنَفسِه لأهلِ تلك الأصنافِ، المُستَحِقِّينَ لها دونَ غَيرِهم(١).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بمصالحِ خَلْقِه، لا يخفى عليه شَيءٌ من ظواهِرِ الأمورِ وبواطِنِها، حكيمٌ في قَولِه وفِعْلِه، وفي خَلْقِه وشَرْعِه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، ولا يَدخُلُ في تدبيرِه خَلَلٌ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ الآيةُ تدلُّ على أنَّ مَن طلَبَ الدُّنيا وحدَها، آلَ أمْرُه في الدِّينِ إلى النِّفاقِ، وأمَّا من طلَبَ الدُّنيا بقَدرِ ما أَذِنَ اللهُ فيه، وكان غَرَضُه من الدُّنيا أن يتوسَّلَ إلى مصالِحِ الدِّينِ، فهذا هو الطَّريقُ الحَقُّ،

العُلَماءُ في ذلك، فقالوا: لا يُعطى؛ لأنَّ المُباحَ لا يَلزَم. وقال بعضُ العلماء: يُعطى؛ لأنَّ السَّفَرَ المباحَ فيه جميعُ التَّسهيلاتِ التي في السَّفَرِ الواجِبِ، فالسَّفَرُ المباحُ تَقصُرُ فيه الصلاةُ، ويُفطِرُ فيه المُسافِرِ، ويُفعَلُ فيه كلُّ الترخُّصاتِ، فكذلك يعانُ صاحِبُه عليه). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٧١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٩٧).

والأصلُ في هذا البابِ أن يكونَ راضيًا بِقَضاءِ اللهِ[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ الآيتانِ تَهديانِ المؤمِنَ إلى القناعةِ بكَسْبِه، وما ينالُه بحَقٍّ مِن صدَقةٍ ونَحوِها، ثمَّ بأنْ يُوَجِّهَ قلبَه إلى ربِّه، ولا يرغَبَ إلَّا إليه في شَيءٍ مِن رغائِبِه التي وراءَ كَسْبِه وحُقوقِه الشَّرعيَّةِ، لا إلى الرَّسولِ، ولا إلى مَن دُونَه فضلًا وعَدلًا وقُربًا مِن اللهِ تعالى بالأَوْلى[٢]!

٣- لا ينبغي للعَبدِ أن يكونَ رضاه وغَضَبُه، تابعًا لِهَوى نفسِه الدُّنيويِّ وغَرَضِه الفاسِدِ، بل الذي ينبغي أن يكونَ هواه تَبعًا لِمرضاةِ رَبِّه؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ فَرِضاهم لِغَيرِ اللهِ، وسَخَطُهم لغيرِ اللهِ، وهكذا حالُ مَن كان مُتعلِّقًا برئاسةٍ أو بصورةٍ ونحوِ ذلك مِن أهواءِ نَفسِه؛ إن حصَلَ له رَضِيَ، وإن لم يحصُلْ له سَخِطَ، فهذا عبدُ ما يَهواه مِن ذلك، وهو رقيقٌ له؛ إذِ الرِّقُّ والعُبوديَّةُ في الحقيقةِ، هو رِقُّ القَلبِ وعبوديَّتُه، فما استَرَقَّ القَلبَ واستعبَدَه، فهو عَبدُه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٨١).

٥- قولُه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ يتضمَّنُ الأمرَ بالرِّضا والتوكُّلِ، والرِّضا والتوكُّلُ يكتَنِفانِ المَقدورَ، فالتوكُّلُ قبل وقوعِه، والرِّضا بعد وُقوعِه(٥).

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ بيَّنَ الله تعالى أنَّ سخَطَهم ورِضاهم مَنُوطانِ بمَصلَحتِهم الخاصَّةِ؛ إذا أُعطُوا شيئًا رَضُوا وفَرِحوا، وإذا لم يُعطَوْا شيئًا غَضِبوا وسَخِطوا، وهذه ليست حالةَ مَن يريدُ وَجهَ اللهِ، ولا المصلحةَ العامَّةَ(٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ قال أهل المعاني: إنَّ هذه الآيةَ تدلُّ على رَكاكةِ أخلاقِ المُنافقينَ ودَناءةِ طِباعِهم؛ وذلك لأنَّه لشدَّةِ شَرَهِهم إلى أخْذِ الصَّدَقاتِ عابُوا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونَسَبوه إلى الجَورِ في القِسمةِ، مع أنَّه كان أبعَدَ خَلقِ اللهِ تعالى عن المَيلِ إلى الدُّنيا(٧).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ عبَّرَ عن رضاهم بصيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّه كان يكونُ لأجلِ العطاءِ في وَقتِه وينقضي، فلا يَعُدُّونَه نعمةً، يتمنَّونَ دوامَ الإسلامِ لِدَوامِها(٨).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ دلالةٌ على أنَّ كلَّ

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٣٧).
(٦) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٣).
(٧) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٢٣).
(٨) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢١).

مَن لَمَزَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كان من المُنافِقينَ؛ لأنَّ (مَنْ) اسمٌ مَوصولٌ، وهو من صِيَغِ العُموم، والآيةُ وإنْ كانت نزَلَت بسببِ لَمْزِ قومٍ؛ فحكمُها عامٌّ كسائرِ الآياتِ اللَّواتي نزلْنَ على أسبابٍ، فهي تعُمُّ الشَّخصَ الذي نزَلَت بسبَبِه، وتعُمُّ مَن كان حالُه كحالِه، وإذا كان اللَّفظُ أعمَّ مِن السبَّبِ، فالجمهورُ على أنَّه يجِبُ الأخذُ بعمومِ القَولِ، ما لم يقُمْ دليلٌ يُوجِبُ القصرَ على السببِ، ويُقال ذلك أيضًا في قولِه تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ ... ﴾ فـ (الَّذِينَ) اسمٌ موصولٌ، وهو مِن صيغِ العمومِ[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ دلَّت (إذا) الفُجائيَّةُ على أنَّ سَخَطَهم أمرٌ يفاجِئُ العاقِلَ حين يَشهَدُه؛ لأنَّه يكونُ في غيرِ مَظِنَّةِ سَخَطٍ، وشأنُ الأمورِ المُفاجئةِ أن تكونَ غريبةً في بابِها[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ بيانُ أنَّ اللهَ وحدَه هو الكافي؛ حيث جعل اللهُ تعالى الإيتاءَ لله ولِرَسولِه؛ وأمَّا الحَسْبُ فله وَحْدَه، فلم يقُلْ: (وقالوا حسبُنا اللهُ ورسولُه) بل جعلَه خالصَ حقِّه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ ولم يقُلْ: (إلى اللهِ راغبونَ وإلى رَسولِه)، بل جعَلَ الرَّغبةَ إليه وحدَه[3].

٦- جعَلَ اللهُ تعالى في الآيةِ الكريمةِ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ الإيتاءَ أيضًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ الرَّسولَ هو الواسِطةُ بيننا وبينَ اللهِ في تبليغِ أمْرِه ونَهْيِه، وتحليلِه وتَحريمِه، ووعدِه ووعيدِه؛ فالحلالُ

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٢).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٨).

ما حلَّله اللهُ ورسولُه، والحرامُ ما حرَّمه اللهُ ورسولُه، والدِّينُ ما شرعَه اللهُ ورسولُه[١].

٧- كان سُفيانُ بنُ عُيَينةَ يَقولُ في قَولِه عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١]: (نسَبَ المغنَمَ إلى نفسِه تعالى؛ لأنَّه أشرَفُ الكَسْبِ، ولم يَقُلْ ذلك في الصَّدَقةِ، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾، ولم يَقُل: لِلَّه وللفقراءِ؛ لأنَّها أوساخُ النَّاسِ، واكتسابُها مَكروهٌ إلَّا للمُضطَرِّ إليها)[٢].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لعلَّ السَّبَبَ في وقوعِ هذه الآيةِ في تضاعيفِ ذِكرِ المُنافِقينَ ومَكائِدِهم؛ أنَّه دلَّ بِكَونِ هذه الأوصافِ مَصارِفَ الصَّدَقاتِ خاصَّةً دونَ غَيرِهم، على أنَّهم لَيسُوا منهم؛ حَسْمًا لأطماعِهم، وأنَّهم بُعَداءُ عنها وعن مصارِفِها، فما لهم ولها، وما سَلَّطَهم على الكلامِ لها ولِمَن قاسَمَها[٣]؟!

٩- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ التَّرتيبُ في هذه الأصنافِ؛ لبيانِ الأحَقِّ فالأحَقِّ للصَّدَقاتِ، على القاعدةِ الغالبةِ عند فُصَحاءِ العَرَبِ في تقديمِ الأهَمِّ فالأهَمِّ، على ما دُونَه في الموضوعِ، وإن كانَت الواوُ لا تفيدُ التَّرتيبَ في معطوفاتِها؛ فالفُقَراءُ والمساكينُ أحَقُّ مِن غَيرِهم بهذه الصَّدَقاتِ؛ لأنَّهم المقصودونَ بها أوَّلًا وبالذَّاتِ، بدليلِ:

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٢٩).
(٢) يُنظر: ((شرح السنة)) للبغوي (٦/ ٣٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٥-٤٤٦).

((تُؤخَذُ من أغنيائِهم فتُرَدُّ في فُقَرائِهم))[١]، ويليهم العامِلونَ عليها؛ لأنَّهم هم الذين يقومونَ بِجَمعِها وحِفْظِها، ويَليهم المؤلَّفةُ قُلوبُهم عند الحاجةِ إليهم، وهم يُعطَونَ مِن الغنائِمِ أيضًا، فالحاجةُ إليهم عارِضةٌ، لا كالعاملينَ على الصَّدَقاتِ، ويليهم مصلحةُ فَكِّ الرِّقابِ والعِتقِ، وهي مِن المصالِحِ الاجتماعيَّةِ الكماليَّةِ لا الضَّروريَّةِ؛ فإنَّ تأخيرَها لا يُرهِقُ مُعْوِزًا كالفَقيرِ، ولا يُضَيِّعُ مصلحةً تشَتَدُّ الحاجةُ إليها، كتأليفِ القُلوبِ، ويليها مُساعَدةُ الغارمِ على الخُروجِ مِن غُرمِه؛ فهو دونَ مُساعَدةِ الرَّقيقِ على الخُروجِ مِن رِقِّه، ويليهم المصلحةُ العامَّةُ المعَبَّرُ عنها بسبيل اللهِ[٢]، فهي من قبيلِ العامِّ الذي يُرادُ به ما وراءَ ذلك الخاصِّ ممَّا قَبلَها، الذي تكثُرُ الحاجةُ إليه، وأمَّا ابنُ السَّبيلِ فهو دونَ جَميعِ ما قَبلَه؛ لِنُدرةِ وُجودِه[٣].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إنَّما قَدَّمَ الفُقَراءَ هاهنا؛ لأنَّهم أحوَجُ مِن البقيَّةِ على المشهورِ، لِشدَّةِ فاقَتِهم وحاجَتِهم[٤].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه بيانُ مَصرِفِ الزَّكاةِ، وأنَّها لهذه الثَّمانِيةِ، لا يستحِقُّها

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٧)، ومسلم (١٩) واللفظ له، من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٢) وذلك بناءً على رأيه في المرادِ بقولِه تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فقد قال: (والتحقيقُ: أنَّ (سبيل الله) هنا: مصالحُ المسلمينَ العامةُ، التي بها قوامُ أمرِ الدينِ والدولةِ دونَ الأفرادِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٣٥). وقد تقدَّمت الإشارةُ إلى الخلافِ في معناها.

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٥).

غَيرُهم[١].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استدَلَّ بعمومِه مَن جَوَّزَ نقْلَ الصَّدَقةِ[٢].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دلَّ على أنَّ هذه الزكاةَ يتولَّى أخْذَها وتَفرِقَتَها الإمامُ، ومَن يلي مِن قِبَلِه، والدَّليلُ عليه أنَّ الله تعالى جعَلَ للعامِلينَ سَهمًا فيها، وذلك يدلُّ على أنَّه لا بدَّ في أداء هذه الزَّكواتِ مِن عامِلٍ، والعامِلُ هو الذي نصَبَه الإمامُ لأخذِ الزَّكواتِ، فدلَّ هذا النصُّ على أنَّ الإمامَ هو الذي يأخُذُ هذه الزَّكواتِ[٣].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ يدلُّ على مسألةٍ بَديعةٍ، وهي أنَّ ما كان مِن فُروضِ الكفاياتِ، فالقائِمُ به يجوزُ له أخذُ الأُجرةِ عليه[٤]، فيجوزُ أخْذُ الأجرةِ لكُلِّ مَن اشتغَلَ بشيءٍ مِن أعمالِ المُسلِمينَ، وأيضًا جوازُ أخْذِ القُضاةِ الرِّزقَ[٥].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استدَلَّ بعمومِه مَن قال: يُعطَونَ مع الغِنى، ومَن قال: يُصرَفُ منه في كلِّ ما يتعلَّقُ بالجهادِ؛ مِن مُصالحةِ عَدُوٍّ، وبناءِ حِصنٍ، وحَفرِ خَندقٍ، واتِّخاذِ سلاحٍ وعُدَدٍ، وإعطاءِ جواسِيسَ لنا، ولو كانوا

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٨).
(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥٢٤).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٤٢).

نَصارى[١].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ استدَلَّ بعُمومِه من قال: يُعطى، وإن كان له مالٌ ببَلَدِه[٢].

١٧- استُدلَّ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ على أنَّ هذه الأصنافَ مواضعُ للصدقاتِ؛ لا أنَّهم مشتركونَ فيها؛ حتى يكونَ توزيعُها على جميعِهم فرضًا لا يُجْزِئُ غيرُه، أَلَا تراه سبحانه يقولُ: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فغَيَّرَ لفظَ النسقِ والعطفِ على لامِ (الفقراء)؛ وليس يُعْرَفُ في معنى الاشتراكِ أنْ يقالَ: (هذا لفلانٍ وفلانٍ، وفي كذا). ومما يزيدُه تأكيدًا قولُه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ * وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ فأخبر أنَّ هؤلاء اللَّامِزينَ ليسوا موضعًا للصدقةِ؛ ولكنَّ مواضعَها كذا وكذا- واللهُ أعلم- فقال: إنَّما الصدقاتُ هذه مواضعُها[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٤٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٢).
(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٤٣).

فيه مَجيءٌ جوابِ هَذينِ الشَّرطينِ على أَحْسَنِ الوُجوهِ؛ لأنَّ الأوَّلَ لا يَلْزَمُ أنْ يُقارِنَه ولا أنْ يَعْتَقِبَه، بَل قد يُجوزُ أنْ يتأخَّرَ، نَحْوَ: إنْ أَسْلَمتَ دَخلتَ الجَنَّةَ، فإنَّما يَقْتضِي مُطْلَقَ التَّرتُّبِ، وأمَّا جوابُ الشَّرطِ الثَّاني فجاء بـ(إذا) الفُجَائيَّةِ، وأنَّه إذا لم يُعْطَوا فاجأَ سَخَطُهم، ولم يُمْكِنْ تَأخُّرُه؛ لِما جُبِلوا عليه من مَحبَّةِ الدُّنيا، والشَّرَهِ في تَحْصيلِها[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾

- في قولِهِ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ تَرْتيبٌ حَسَنٌ، حيثُ أَتَى أوَّلًا بمَقامِ الرِّضا بقولِه: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾، والرِّضا فِعْلٌ قلبيٌّ يَصْدُرُ عَمَّنْ عَلِمَ أنَّه تعالى مُنزَّهٌ عَنِ العَتبِ والخَطأِ، عليمٌ بالعواقبِ؛ فكلُّ قضائهِ صوابٌ وحقٌّ، لا اعْتِراضَ عليهِ، ثُمَّ ثنَّى بإظهارِ آثارِ الوَصْفِ القَلْبيِّ، وهو الإقرارُ باللِّسانِ، بقولِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ فحَسْبُنا ما رَضِيَ بِه، ثُمَّ أتَى ثالثًا بأنَّه تعالى- ما داموا في الحياةِ الدُّنيا- مادٌّ لهم بنِعَمِه وإحسانِه، بقولِه: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ فهو إخبارٌ حَسَنٌ؛ إذْ ما مِنْ مؤمنٍ إلَّا ونِعَمُ اللهِ مُترادِفةٌ عليه حالًا ومآلًا، إمَّا في الدُّنيا، وإمَّا في الآخِرةِ، ثُمَّ أتى رَابِعًا بالجُمْلةِ المُقتضيةِ الالتِجاءَ إلى اللهِ لا إلى غيرِه، والرَّغبةَ إليهِ، بقولِهِ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ فلا يُطْلَبُ بالإيمانِ أَخْذُ الأموالِ، والرِّئاسةُ في الدُّنيا، ولَمَّا كانتِ الجُملتانِ مُتغايرتَينِ- وهما ما تَضمَّنَ الرِّضا بالقلبِ، وما تَضمَّن الإقرارَ باللِّسانِ- تَعاطَفتَا، ولَمَّا كانتِ الجُمْلتانِ الأخيرتانِ مِنْ آثارِ قَولِهم: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾، لَمْ تَتَعاطَفا؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٩).

إذْ هُما كالشَّرحِ لقولِهم: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾، فلا تَغايُرَ بينهما[١].

- وجُمْلةُ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ تعليليَّةٌ لِما قَبْلَها، أي: لأنَّنا راغبونَ فَضْلَه، وتَقديمُ المجرورِ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ، أي: إلى اللهِ راغِبونَ لا إلى غيرِه[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ...﴾ اعْتِراضٌ بين جُمْلةِ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ وجُمْلَةِ: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾، وهو اسْتِطرادٌ نَشَأ عَنْ ذِكْرِ اللَّمْزِ في الصَّدقاتِ أُدْمِجَ فيه تَبيينُ مَصارِفِ الصَّدقاتِ[٣].

- والمقصودُ مِنْ أداةِ الحَصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾ أنْ ليس شيءٌ مِنَ الصَّدقاتِ بمُسْتَحَقٍّ للذين لَمَزوا في الصَّدقاتِ، وحَصْرُ الصَّدقاتِ في كونِها مُسْتحقَّةً للأصنافِ المذكورةِ في هذه الآيةِ؛ فهو قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: الصَّدقاتُ لهؤلاء لا لكم[٤].

- وفي هذه الآيةِ مُناسَبَةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ أضاف فيها الصَّدقاتِ إلى الأصنافِ الأربعةِ الأُولى بلامِ المِلْكِ، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾، وأضافَها إلى الأربعةِ الأخيرةِ بـ «في»

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٥).

الظَّرفيةِ، فقال: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ لأنَّ الأصنافَ الأربعةَ الأوائلَ يَأخُذونَ ما يُدفَعُ إليهم مِلكًا، فكان دُخولُ اللَّامِ لائقًا بهم، وأمَّا الأربعةُ الأواخرُ فلا يَمْلِكونَ ما يُصْرَفُ نَحوَهم، بلْ ولا يُصْرَفُ إليهم، ولكِنْ في مصالِحَ تتعلَّقُ بهم؛ فالمالُ الذي يُصْرَفُ في الرِّقابِ إنَّما يَتناوَلُه السَّادةُ المُكاتَبونَ والبائعونَ، فليس نَصيبُهم مصروفًا إلى أيديهم حتَّى يُعبَّرَ عَنْ ذلك باللَّامِ المُشْعِرةِ بتَملُّكِهِم لِما يُصْرَفُ نَحْوهم، وإنَّما هم مَحالُّ لهذا الصَّرْفِ والمَصْلحةِ المُتعلِّقةِ به، وكذلك الغارِمونَ إنَّما يُصْرَفُ نَصيبُهم لأربابِ دُيونِهم؛ تَخليصًا لذِمَمِهم لا لَهم، وأمَّا سبيلُ اللهِ فواضِحٌ فيه ذلك، وأمَّا ابنُ السبيلِ فكأنَّه كان مُنْدرِجًا في سبيلِ اللهِ؛ وإنَّما أُفْرِدَ بالذِّكْرِ تنبيهًا على خُصوصيَّتِهِ، مَعَ أنَّه مُجرَّدٌ مِنَ الحَرْفينِ جَميعًا، وعَطْفُه على المَجْرورِ باللَّامِ مُمْكِنٌ، ولكِنَّهُ على القريبِ منه أَقْربُ[(١)].

وقيل: عُدِلَ عنِ اللَّامِ إلى (في) في الأربعةِ الأخيرةِ؛ للإيذانِ بأنَّهُمْ أَرْسَخُ في اسْتِحقاقِ التَّصدُّقِ عليهم ممَّنْ سَبَقَ ذِكْرُه؛ لأنَّ (في) للوِعاءِ، فنبَّهَ على أنَّهُمْ أحِقَّاءُ بأنْ تُوضَعَ فيهم الصَّدقاتُ، ويُجْعلوا مَظِنَّةً لها ومَصبًّا؛ وذلك لِما في فَكِّ الرِّقابِ مِنَ الكتابةِ أو الرِّقِّ أو الأَسْرِ، وفي فَكِّ الغارِمينَ مِنَ الغُرْمِ مِنَ التَّخليصِ والإنقاذِ، وتكريرُ (في) في قولِهِ: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فيه فَضْلُ تَرجيحٍ لهذَينِ على الرِّقابِ والغارمينَ، وللإيذانِ بزيادةِ فَضْلِهما في الاسْتِحقاقِ[(٢)].

- واختيارُ حَرفِ (على) في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ لِما يُشعِرُ به أصلُ معناه مِن التمكُّنِ، أي: العاملينَ لأجْلِها عملًا قويًّا؛ لأنَّ السُّعاةَ

(١) يُنظر: ((حاشية تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٣)، ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٥٣)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٨/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٦).

يتجَشَّمونَ مَشقَّةً وعمَلًا عظيمًا، ولعلَّ الإشعارَ بذلك لِقَصدِ الإيماءِ إلى أنَّ عِلَّةَ استحقاقِهم مُركَّبةٌ من أمرينِ: كَونِ عَمَلِهم لفائدةِ الصَّدقةِ، وكونِه شاقًّا[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٥).

الآيات (٦١-٦٢)

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هُوَ أُذُنٌ﴾: أي: يقبَلُ كُلَّ ما قيلَ له، ويسمعُ مِن كلِّ أحدٍ[1].

﴿يُحَادِدِ﴾: أَي: يُخالِفْ ويحارِبْ ويُعادِ؛ يُقالُ: حادَّ فُلانٌ فُلانًا، أي: صار في حَدٍّ غَيرِ حَدِّه، وأصلُ (حدد): يدلُّ على طَرَفِ الشَّيءِ؛ وذلك لأنَّ المُحادَّ يكون فِي حَدٍّ، وَاللهُ ورَسولُه فِي حَدٍّ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ مِن المُنافِقينَ طائفةً يُؤذونَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويقولونَ عنه: هو أُذُنٌ سامِعةٌ لكل ما يُقال له ويُصدِّقه، فأمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).
قال السمين الحلبي في قولِه: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾: (فيه تأويلان أحدُهما: أنه سُمِّي بالجارحةِ؛ لأنَّها آلةُ السماعِ، وهي معظمُ ما يُقْصد منه. وقيل: المرادُ بالأُذنِ هنا الجارحةُ، وحينئذٍ تكونُ على حَذْفِ مضافٍ، أي: ذُو أُذُنٍ. والثاني: أنَّ الأُذنَ وصفٌ على فُعُل كأُنُف، يقال: أَذِن يَأْذَن فهو أُذُن). ((الدر المصون)) (٦/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنَّه أذنُ خَيرٍ لهم؛ يؤمِنُ باللهِ تعالى وَحْدَه، ويصَدِّقُ المؤمنينَ فيما يُخبِرونَه به، لا أهلَ النِّفاقِ والكُفرِ، وهو صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رحمةٌ للمُؤمِنينَ الصَّادقينَ منهم، وأمَّا الذينَ يُؤذونَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلهم عذابٌ مُوجِعٌ مُؤلِمٌ.

ويُخبِرُ تعالى أنَّ المُنافِقينَ يَحلِفونَ باللهِ للذينَ آمنوا، يبتغونَ رِضاهم، وبيَّنَ أنَّ اللهَ ورَسولَه أحَقُّ بالإرضاءِ مِن المؤمنينَ، إن كانوا حقًّا مُؤمنينَ كما يدَّعونَ.

ألم يعلَمْ هؤلاء المُنافِقونَ أنَّه مَن يخالِفِ اللهَ ورسولَه ويُعادِهِما ويُحارِبْهما؛ فأنَّ له نارَ جهنَّمَ ماكثًا فيها أبدًا، ذلك هو الهوانُ والذلُّ الكبيرُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن جَهالاتِ المُنافِقينَ، وهو أنَّهم كانوا يقولونَ في رسولِ اللهِ: إنَّه أُذُنٌ، على وجهِ الطَّعنِ والذَّمِّ[1].

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾.

أي: ومِن المُنافِقينَ جماعةٌ يؤذونَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويَعيبونَه ويقولونَ عنه: هو أُذُنٌ سامعةٌ؛ فمن قال له شيئًا صَدَّقَه، ومن حدَّثَه فينا صدَّقَه، فإذا جِئْنا وحَلَفْنا له بالكَذِبِ مُعتَذرينَ عمَّا بلَغَه منا، صَدَّقَنا[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٢١)،

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُنافِقينَ: النبيُّ مُصغٍ للخَيرِ، لا مستمِعٌ للشَّرِّ، وإن سَمِعَ ما يبلُغُه عنكم لم يؤاخِذْكم به؛ لِسَعةِ صَدرِه، ويسمَعُ مَعاذيرَكم، ويقبَلُها منكم؛ لِحُسنِ خُلُقِه[1].

﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: والنبيُّ يؤمِنُ بالله تعالى وَحْدَه وبما أوحى إليه- ومِن ذلك ما أمَرَه به من العَفوِ عن النَّاسِ، وأمرِهم بالمعروفِ، والإعراضِ عن الجاهِلينَ مِنهم- وهو

((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٢)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤١، ٢٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٩٩).

ذهب بعض المفسِّرينَ إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ تفسيرٌ لِقَولِه: ﴿يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾. وممَّن اختار هذا القولَ: الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٠).

وذهب بعضُهم إلى أنَّ ﴿يُؤْذُونَ﴾ لفظٌ يعمُّ جميعَ ما كانوا يفعلونَه ويقولونَه في جهةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من الأذى، وخصَّ بعد ذلك مِن أذاهم: قَولَهم ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾. وممَّن اختار ذلك: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢).

قال ابن عطية: (رُوِيَ عن الحسن البصري ومجاهدٍ: أنَّهما تأوَّلَا أنَّهم أرادوا بقولِهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: يسمَعُ منا معاذيرَنا وتنَصُّلَنا، ويقبَلُه، أي: فنحن لا نبالي مِن أذاه، ولا الوقوعِ فيه؛ إذ هو سمَّاعٌ لكُلِّ ما يقال من اعتذارٍ ونحوه، فهذا تنقُّصٌ بقلَّةِ الحَزامةِ، والانخداعِ، وروي عن ابن عبَّاسٍ وجماعةٍ معه: أنَّهم أرادوا بقولهم ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: يسمَعُ كُلَّ ما يُنقَل إليه عنا، ويُصغِي إليه ويَقبَلُه، فهذا تشَكٍّ منه، ووصْفٌ بأنَّه يَسوغُ عنده الأباطيلُ والنَّمائِمُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢).

وممن اختار قولَ الحسنِ ومجاهدٍ: القرطبيُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي (٨/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٩٩).

وممن اختار قول ابن عبَّاسٍ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٢٣، ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٩٩).

يُصدِّقُ المؤمنينَ فيما يُخبِرونَه به، لا أهْلَ النِّفاقِ والكُفرِ بالله تعالى[١].

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾.

أي: والنَّبيُّ رحمةٌ للمُؤمِنينَ منكم، الصَّادقينَ في إيمانِهم؛ لأنَّه سبَبُ إيمانِهم وهِدايَتِهم إلى ما فيه سَعادتُهم في دنياهم وآخِرتِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وعن سَهلِ بنِ حُنَيف رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأتي ضُعَفاءَ المُسلِمينَ، ويَزورُهم، ويعودُ مَرضاهم، ويَشهَدُ جَنائِزَهم))[٣].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٢٤، ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١١٩٤٤)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٦/ ٨٤) (٥٥٨٦)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٧٣٥)، ورواه الطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) بنحوه مختصرًا.
صحَّح إسنادَه الحاكمُ، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٥/ ٤٩٥)، والعيني في ((نخب الأفكار)) (٧/ ٣٣٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٨٧٧).

((اللهمَّ إنَّما أنا بشَرٌ، فأيُّما رجُلٍ مِن المُسلِمينَ سَبَبتُه، أو لَعَنْتُه، أو جَلَدْتُه، فاجعَلْها له زكاةً ورَحمةً))[١].

وفي رواية ((اللهُمَّ إنَّما محمَّدٌ بَشَرٌ، يغضَبُ كما يغضَبُ البشَرُ، وإنِّي قد اتَّخَذتُ عندكَ عهدًا لن تُخلِفَنِيه؛ فأيُّما مُؤمِنٍ آذيتُه، أو سبَبتُه، أو جَلَدتُه، فاجعَلْها له كفَّارةً، وقُربةً تُقَرِّبُه بها إليك يومَ القيامةِ))[٢].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾.

أي: والذين يُؤذونَ رَسولَ اللهِ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأقوالِهم أو أفعالِهم؛ لهم عذابٌ مُوجعٌ في الدُّنيا والآخرةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٦٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن قبائحِ أفعالِ المُنافِقينَ، وهو: إقدامُهم على اليَمينِ الكاذبةِ، فهم يؤذونَ النبيَّ، ويُسيئونَ القَولَ فيه، ثمَّ يَحلِفونَ لكم[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٤).

قال السعدي: (ومِن العَذابِ الأليمِ: أنَّه يتحتَّمُ قتلُ مُؤذِيه وشاتِمِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩١).

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾.

أي: يحلِفُ المُنافِقونَ باللهِ لكم كَذِبًا -أيُّها المؤمِنونَ- فيتبَرَّؤونَ مِن أذاهم لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويؤكِّدونَ لكم أنَّهم على دِينِكم؛ يبتغونَ بذلك رِضاكم[١].

عن سعيد بن جُبَير، أنَّ ابنَ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عنهما حدَّثَه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، في ظِلِّ حُجرةٍ مِن حُجَرِه، وعنده نَفَرٌ من المُسلِمينَ، قد كاد يَقلِصُ[٢] عنهم الظِّلُّ، قال: فقال: إنَّه سيأتيكم إنسانٌ ينظُرُ إليكم بعَينَي شَيطانٍ، فإذا أتاكم فلا تُكَلِّموه، قال: فجاء رجلٌ أزرَقُ، فدعاه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكلَّمه، قال: علامَ تَشتِمُني أنت وفلانٌ وفلانٌ- نفَرٌ دَعاهم بأسمائِهم؟ قال: فذهَبَ الرَّجُلُ فدعاهم، فحَلَفوا باللهِ واعتَذَروا إليه، قال: فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿يَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ ...﴾ الآية))[٣].

﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: واللهُ ورسولُه أحقُّ بالإرضاءِ منكم- أيُّها المؤمِنونَ- إن كان هؤلاءِ المُنافِقونَ مُؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه حقًّا كما يدَّعونَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٢) يَقلِصُ: أي: ينقَبِضُ. يُنظر: ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني(٢/ ١٨١).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٠٧)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٢/ ٧) (١٢٣٠٧)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٧٩٥)، والبيهقي في ((دلائل النبوة)) (٥/ ٢٨٣).

صحَّح إسناده ابن تيمية في ((الصارم المسلول)) (٢/ ٤٨)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٦/ ٢٨٤)، وأحمد شاكر في ((التعليق على المسند)) (٥/ ٩٥)، وجوَّد إسناده الزيلعي في ((تخريج الكشاف)) (٣/ ٤٣٢)، وابن كثير في ((التفسير)) (٨/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤)، ((تفسير السعدي))

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى أنَّ حَلِفَ المُنافِقينَ إنَّما هو لِكَراهةِ الخِزيِ عند المُؤمِنينَ، وبَيَّن مَن هو الأحَقُّ بأن يُرضُوه؛ أقام الدَّليلَ على ذلك في استفهامِ إنكارٍ وتَوبيخٍ، مُبَيِّنًا أنَّهم فَرُّوا من خزيٍ مُنقَضٍ، فسَقَطوا في خِزيٍ دائِمٍ، فقال تعالى[1]:

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾.

أي: ألم يعلَمِ المُنافقونَ أنَّه مَن يُخالِفِ اللهَ ورَسولَه، ويُعادِهما ويُحارِبْهما؛ فأنَّ له نارَ جهنَّمَ في الآخرةِ، ماكِثًا فيها أبدًا إلى غيرِ نِهايةٍ[2]؟!

﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

أي: دخولُ نارِ جَهنَّمَ والخلودُ فيها، هو الهوانُ والذُّلُّ الكَبيرُ[3].

كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ [المجادلة:

(ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٤)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٦، ٦٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٧).

٢٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

المؤمِنُ لا يُقدِّمُ شَيئًا على رِضا ربِّه، ورِضا رَسولِه؛ نَستفيدُ ذلك مِن قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- جَرَت العادةُ باستقراءِ القُرآنِ أنَّه إذا كان الإيمانُ باللهِ عدَّاه بالباءِ، كأن يَقولَ: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٢]، ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٤]؛ لأنَّه من باب الإقرارِ به تعالى، وإذا كان الإيمانُ معناه تصديقُ مَخلوقٍ، فإنَّه يُعَدِّيه باللامِ دائِمًا؛ ولذا قال تعالى هنا: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ معناه: ويُصَدِّقُ المُؤمنينَ. ولا يكادُ هذا التَّصديقُ المتعَلِّقُ بالآدميِّينَ يُوجَدُ في القرآنِ إلَّا مَجرورًا باللَّامِ، كقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾[2] [يوسف: ١٧].

٢- قد يُشكِلُ على بعضِهم قَولُ الله تعالى هنا: ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فقيَّد كَونَه رَحمةً للذين آمنوا، وفي سورةِ الأنبياءِ قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فلم يقَيِّدْ كونَه رحمةً بالإيمان، بل قال لجميعِ العالَمينَ، والجوابُ عن ذلك: أنَّ اللهَ جلَّ وعلا أرسَلَه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه؛ رحمةً لجميعِ الخلائِقِ، إلَّا أنَّ بَعضَهم قَبِلَ مِن الله التفَضُّلَ بتلك الرَّحمةِ فحازها، فخصَّ في قَولِه: ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وبعضُهم لم يقبَلْها ولم يَحُزْها، ولا ينافي ذلك أنَّ الله أعطاه تلك الرَّحمةَ، إلَّا أنَّه لم يقبَلْها ولم يَحُزْها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٠-٦٠١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ تضمَّنَ قَبولَ يَمينِ الحالِفِ، وإن لم يَلزَمِ المحلوفَ له الرِّضا، واليمينُ حقٌّ للمُدَّعي[١].

٤- مِن عادةِ المُنافِقينَ، والكاذبينَ مِن عُصاةِ المُؤمِنينَ وغَيرِهم، أن يُكثِروا الحَلِفَ لِيُصَدَّقوا؛ لأنَّهم لعِلْمِهم بكَذِبِهم يظنُّونَ أو يَعلَمونَ أنَّهم مُتَّهَمونَ في أقوالِهم وأعمالِهم، فيَحلِفونَ لإزالةِ التُّهمةِ، وهذا معلومٌ في كلِّ زَمانٍ؛ قال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ تضمَّنَ أن يكونَ اليمينُ باللهِ عزَّ وجلَّ[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ رضا اللهِ لا يحصُلُ بإظهارِ الإيمانِ، ما لم يقتَرِنْ به التَّصديقُ بالقَلبِ والأعمال، فيَبطُلُ بذلك قولُ الكرَّاميَّةِ الذين يزعُمونَ أنَّ الإيمانَ ليس إلَّا القَولَ باللِّسانِ[٤].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ حسُنَ قَولُه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ لأنَّه طال مُكثُ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معهم، وكثُرَت نهاياتُه للتَّحذيرِ عن معصيةِ الله والتَّرغيبِ في طاعتِه، وقد قال أهلُ المعاني: قول: (ألم تعلَمْ) خطابٌ لِمَن حاول الإنسانُ تعليمَه مُدَّةً، وبالغَ في ذلك التعليمِ، ثمَّ إنَّه لم يعلَمْ،

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٢).

فيقالُ له: ألم تعلَمْ بعد هذه السَّاعاتِ الطويلةِ والمدَّةِ المَديدةِ[١]؟!

٨- أذى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُحادَّةٌ لله ولِرَسولِه؛ لأنَّه قال هذه الآيةَ عَقِبَ قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ ثم قال: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فلو لم يكونوا بهذا الأذى مُحادِّينَ، لم يَحسُنْ أن يُوعَدوا بأنَّ للمُحادِّ نارَ جهنَّمَ[٢].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ وكذا قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بيانُ تلازُمِ الحَقَّيْن: حقِّ اللهِ وحقِّ رسولِه؛ وأنَّ جهةَ حُرمةِ اللهِ تعالى وحُرمةِ رسولِه جهةٌ واحدةٌ، فمَن آذى الرسولَ فقد آذى اللهَ، ومَن أطاعَه فقد أطاعَ الله؛ لأنَّ الأمَّةَ لا يَصِلونَ ما بينهم وبين ربِّهم إلَّا بواسطةِ الرَّسولِ، ليس لأحدٍ منهم طريقٌ غيرُه، ولا سبَبٌ سواه، وقد أقامه اللهُ مقامَ نفسِه في أمْرِه ونهيِه، وإخبارِه وبيانِه، فلا يجوزُ أنْ يُفرَّقَ بين الله ورسولِه في شيءٍ من هذه الأمورِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ التَّعبيرُ بالنبيِّ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ قَبْلَه ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، فكان مُقْتضى الظاهِرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٢).
(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١).

أنْ يُقالَ: (ومِنْهُمْ الذين يُؤذونَكَ)، فعُدِلَ عَنِ الإضمارِ إلى إظهارِ وَصْفِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ للإيذانِ بشَناعةِ قولِهِمْ، ولزِيادةِ تَنْزيهِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالثَّناءِ عليه بوَصْفِ النُّبوةِ، بحيثُ لا تُحْكَى مَقالتُهم فيه إلَّا بَعْدَ تقديمِ ما يُشيرُ إلى تَنْزيهِه، والتَّعريضِ بجُرْمِهم فيما قالوه[١].

- قولُه: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ مِنْ صِيغِ التَّشبيهِ البَليغِ، يَعْنونَ: أنَّهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كالأُذُنِ في تلقِّي المسموعاتِ لا يَرُدُّ مِنْها شيئًا، وهو كِنايةٌ عَنْ تصديقِهِ بكُلِّ ما يَسْمَعُ مِنْ دونِ تَمييزٍ بين المقبولِ والمردودِ[٢].

- وفي تَسمِيَتِهم إيَّاه- صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بالجارِحةِ ﴿أُذُنٌ﴾: مُبالغةٌ، كأنَّه مِن فَرطِ استماعِه، صار جُملَتُه آلةً للسَّماعِ،كما يُسمَّى الجاسوسُ عَينًا[٣].

- قولُه: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ فيه دَلالةٌ على المُبالَغةِ في الجَودةِ والصَّلاحِ، كأنَّهُ قيل: نَعَمْ هو أُذُنٌ، ولكِنْ نِعْمَ الأذُنُ، وهو مِن قَبيلِ قَولِهم: رَجُلُ صِدْقٍ[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ مِن بابِ أُسلوبِ الحَكيمِ[٥]؛ فهو في أوَّلِه يُوافِقُهم على قَولِهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾، ثمَّ يُتبِعُه ما يَنقُضُه عليهم حتَّى يُنقَضَ على رؤوسِهم، مِن قَبيلِ القَولِ بِموجَبِ العِلَّةِ[٦]، فلا شيءَ أبلَغُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٧).

(٥) أسلوب الحكيم: هو تَلقِّي المُخاطَبِ بغيرِ ما يَترقَّبُ؛ بحمْلِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأولَى بالقَصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السائلِ بغيرِ ما يَتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأولى بحالِه وبالسؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مُقتضَى الظَّاهِرِ.
يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢ - ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد الخطيب (ص: ١٣٢).

(٦) القول بمُوجَب -بفتح الجيم- العلة: هو تسليمُ مقتضَى الدليلِ، مع بقاءِ النزاعِ، بأن يظهرَ

الرَّدِّ عليهم بهذا الوَجهِ؛ لأنَّه في الأوَّلِ إطماعٌ لهم بالموافَقةِ، ثمَّ كَرَّ على طَمَعِهم بالحَسمِ، وأعقَبَهم في تنقُّصِه باليأسِ منه[١].

- قولُه: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ عُدِّي فِعْلُ الإيمانِ إلى اللهِ تعالى بالباءِ، وإلى المؤمنينَ باللَّامِ؛ وذلك لأنَّهُ قُصِدَ التَّصديقُ والإقرارُ باللهِ الذي هو نَقيضُ الكُفْرِ فعُدِّي بالباءِ ﴿بِٱللَّهِ﴾، وقُصِدَ الاسْتِماعُ للمؤمنينَ، وأنْ يُسَلِّمَ لهم ما يقولونَ ويُصدِّقَه؛ لكونِهم صادقينَ عِنده، فعُدِّي باللَّامِ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

- وقولُه: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تَخصيصُ المؤمنينَ بالذِّكْرِ- وإنْ كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رَحْمةً للعالَمينَ-؛ لأنَّ ما حَصَل لهم بالإيمانِ بسَببِ الرَّسولِ لم يَحْصُلْ لغيرِهم، وخُصُّوا هنا بالذِّكْرِ وإنْ كانوا قد دَخَلوا في العالَمِينَ؛ لحصولِ مَزيَّتِهم[٣].

- قولُه: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ عَطْفٌ على ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾، أي: وهو رَحْمةٌ، بطريقِ إطلاقِ المصدرِ على الفاعِلِ؛ للمُبالَغةِ[٤].

عدمُ استلزامِه الدليلَ لمحلِّ النزاعِ، أو: هو تسليمُ ما جعَله المستدلُّ موجبًا لعلتِه، مع استبقاءِ الخلافِ، أو: هو تسليمُ كونِ الوصفِ علةً، وبيانُ أنَّ معلولها غير ما ادعاه المعلل.

يُنظر: ((أصول الشاشي)) (ص: ٣٤٦)، ((الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٥)، ((الفروق)) للقرافي (٤/ ٨٨)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي الغرناطي (ص: ١٨٩)، ((كشف الأسرار شرح أصول البزدوي)) لعلاء الدين البخاري الحنفي (٤/ ١٠٣ - ١٠٤)، ((البحر المحيط في أصول الفقه)) للزركشي (٧/ ٣٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٧).

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ اعْتِراضٌ مسوقٌ مِنْ قِبَلِه عزَّ وجلَّ على نَهْجِ الوعيدِ غيرُ داخلٍ تَحْتَ الخِطابِ، وفي تَكريرِ الإسنادِ بإثباتِ العذابِ الأليمِ لهم، ثُمَّ جَعْلِ الجُملةِ خبرًا للموصولِ، ما لا يَخفَى مِنَ المُبالَغةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ إيرادُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعُنوانِ الرِّسالةِ مُضافًا إلى الاسْمِ الجليلِ؛ لغايةِ التَّعظيمِ، والتَّنبيهِ على أنْ أَذِيَّتَهُ راجعةٌ إلى جَنابِه عزَّ وجلَّ، مُوجِبةٌ لِكَمالِ السَّخَطِ والغَضَبِ[٢]، وأيضًا أبْرَز اسْمَ الرَّسولِ ولم يأتِ به ضميرًا على نَسَقِ ﴿يُؤۡمِنُ﴾ بلَفْظِ الرَّسولِ؛ تَعظيمًا لشَأنِهِ، وجَمْعًا له في الآيةِ بينَ الرُّتبتَينِ العَظيمتينِ مِنَ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ، وإضافتُه إليه زيادةٌ في تشريفِهِ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ فيه عدولٌ عن أسلوبِ الحِكايةِ عنهم، بكَلِمةِ ﴿وَمِنۡهُمۡ﴾؛ لأنَّ ما حُكِيَ هنا حالٌ مِن أحوالِ جَميعِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ فيه إفرادُ الضَّميرِ في ﴿يُرۡضُوهُ﴾ مَعَ أنَّ المذكورَ رِضا اللهِ تعالى ورِضا رَسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لا تَفاوُتَ بين رِضا اللهِ ورِضا رسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فكانَا في حُكْمِ مُرْضًى واحدٍ، فإرضاءُ الله إرضاءٌ للرسولِ، وإرضاءُ الرسولِ إرضاءٌ لله تعالى؛ قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، فلمَّا تلازما صارا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٤).

كأنهما شيءٌ واحدٌ، أو للإيذانِ بأنَّ رِضاهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنْدرِجٌ تَحتَ رِضاهُ سُبْحانَه، وذَهَب غيرُ واحدٍ من علماءِ العربيةِ وعلماءِ التفسيرِ إلى أن رجوعَ الضميرِ على أحدِ المتعاطفينِ اكتفاءً به؛ لأَنَّ الآخَرَ مفهومٌ منه، أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ، كثيرٌ في القرآنِ العظيمِ، وفي كلامِ العربِ[١].

- قولُه: ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه حَذْفُ الجوابِ؛ تعويلًا على دَلالةِ ما سَبَقَ عليه، والتَّقديرُ: إنْ كانوا مُؤمنينَ فلْيُرْضوا اللهَ ورسولَه بما ذُكِرَ؛ فإنَّهما أَحَقُّ بالإرضاءِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ هذه الجُملةُ تَتَنَزَّلُ مِنْ جُملةِ ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ مَنْزلةَ التَّعليلِ؛ لأنَّ العاقِلَ لا يَرْضَى لنَفْسِه عملًا يَؤولُ به إلى مِثْلِ هذا العذابِ، فلا يُقدِمُ على ذلك إلَّا مَنْ لا يَعْلَمُ أنَّ مَنْ يُحادِدِ اللهَ ورَسولَه يَصِرْ إلى هذا المصيرِ السَّيِّئِ[٣].

- والاسْتِفهامُ في ﴿أَلَمْ ...﴾ مُسْتَعْمَلٌ في الإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّشنيعِ؛ لأنَّ عَدَمَ عِلْمِهم بذلك مُحقَّقٌ بضَرورةِ أنَّهم كافِرونَ بالرَّسولِ، وبأنَّ رِضا اللهِ عِنْدَ رِضاه، ولكِنْ لَمَّا كان عَدَمُ عِلْمِهم بذلك غريبًا- لوجودِ الدَّلائلِ المُقْتضيةِ أنَّهُ ممَّا يَحِقُّ أنْ يَعْلموهُ- كان حالُ عَدَمِ العِلْمِ به حالًا مُنْكرًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور))

- وقولُه: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ... ﴾ ﴿... فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ فيه تكريرٌ لـ(أنَّ)؛ للتَّأكيدِ، حيثُ أُعيدتْ (أنَّ) في الجوابِ لتَوكيدِ (أنَّ) المذكورةِ قَبْلَ الشَّرطِ تَوكيدًا لفظيًّا، فإنَّها لَمَّا دَخلتْ على ضَميرِ الشَّأنِ وكانتْ جُمْلةُ الشَّرطِ وجوابِهِ تفسيرًا لضميرِ الشَّأنِ، كان حُكْمُ (أنَّ) ساريًا في الجُمْلتينِ، بحيثُ لو لَمْ تُذْكَرْ في الجوابِ لعُلِمَ أنَّ فيه مَعْناها، فلَمَّا ذُكِرتْ كان ذِكْرُها توكيدًا لها[١].

- والهاء في (أنَّه) ضميرُ الأمرِ والشَّأنِ، والمعنى: أنَّ الأمرَ والشَّأنَ كذا وكذا. والفائدةُ في هذا الضَّميرِ هو أنَّه لو ذُكِرَ بعد كلمة (أنَّ) ذلك المبتدأ والخبَر، لم يكن له كثيرُ وَقْعٍ، فأمَّا إذا قلتَ: الأمرُ والشأنُ كذا وكذا، أوجبَ مَزيدِ تَعظيمٍ وتهويلٍ لذلك الكلامِ[٢]. وفيه وجهٌ آخر: أنَّه لَمَّا كان ذِكرُ الشَّيءِ مُبهمًا ثمَّ مُفَسَّرًا أضخَمَ، أضمَرَ للشَّأنِ، فقال: ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي الشَّأن العَظيم ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾[٣].

- وجُملةُ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ تَذييلٌ لِما سَبَقَ؛ فالخزيُ: الذُّلُّ والهوانُ المُقارِنُ للفَضيحةِ والنَّدامةِ، وهي ثَمراتُ نِفاقِهم حيثُ يُفْتَضَحونَ على رُؤوسِ الأشهادِ بظُهورِها ولُحوقِ العذابِ الخالدِ بهم، والإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما ذُكِرَ مِنَ العذابِ الخالدِ بذلك؛ إيذانًا ببُعدِ دَرجتِه في الهولِ والفَظاعةِ[٤].

(١٠/ ٢٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٩).

الآيات (٦٤-٦٦)

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿نَخُوضُ﴾: أي: نَلهُو بالحديثِ، وأصلُ الخوضِ: هو الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، وتخاوَضُوا في الحَديثِ والأمرِ، أي: تَفاوَضُوا، وتداخَلَ كلامُهم، ويُستعملُ الخوضُ في كلِّ دخولٍ فيه تلويثٌ وأذًى، وأكثرُ ما ورَدَ الخوضُ في القرآنِ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، وأصل (خوض): توسُّطُ شيءٍ، ودخولٌ[(١)].

﴿مُجْرِمِينَ﴾: أي: مُذنبين أو كافِرينَ، والجُرمُ بِالضَّمِّ: لا يُطلقُ إلَّا على الذَّنبِ الغليظِ، وأصل الجَرْم: القطعُ، والجَرْم: قطع الثَّمرةِ عن الشَّجرِ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالَى: يَخشَى المُنافِقونَ أن يُنَزِّلَ اللهُ في شَأنِهم سورةً تُخبِرُهم بما يُخفونَه في قُلوبِهم من الكُفرِ والنِّفاقِ، ثم يأمرُ نبيَّه أن يقولَ لهم: استَمِرُّوا على ما أنتم عليه منَ الاستهزاءِ؛ إنَّ اللهَ مُظهِرٌ ما تَخشَونَ ظُهورَه.

ولَئِن سألتَ المُنافِقينَ -يا مُحمَّدُ- عمَّا قالوا من الطَّعنِ في أصحابِك

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧، ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

ودينِك، ليقولُنَّ: إنَّما كنَّا ندخُلُ في الباطِلِ، ونلعَبُ بذلك الحديثِ، ولم نقصِدْ به الطَّعنَ في الإسلامِ والمُسلِمينَ، قل لهم- يا مُحمَّدُ-: أبالله سُبحانه وآياتِه ورَسولِه كُنتُم تستخِفُّون وتَسخَرونَ؟! لا تعتَذِروا- أيُّها المُنافِقونَ- قد كَفَرتُم بعد أنْ كُنتُم مُؤمِنينَ، إنْ نَعْفُ عن جماعةٍ منكم لِحُسنِ تَوبتِهم، نُعَذِّبْ جماعةً أُخرَى منهم؛ لأنَّهم كانوا مُجرِمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾.

أي: يَخشى المُنافِقونَ أن يُنزِّلَ الله عزَّ وجلَّ في شأنِهم سُورةً تُخبِرُهم بما يُخفونَه في قُلوبِهم، مِن الكُفرِ والنِّفاقِ[1] فيَعلَم المؤمنونَ أسرارَهم[2].

﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- للمُنافِقينَ: استمِرُّوا على ما أنتم عليه مِن الاستهزاءِ؛ إنَّ

---

(١) قال القرطبي: (كان مِن المنافقينَ من يتردَّدُ، ولا يقطَعُ بتكذيبِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولا بِصِدقِه. وكان فيهم من يَعرِفُ صِدقَه، ويُعانِدُ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٣)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١٢، ٦١٣).

قال الزمخشري: (الضَّميرُ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿تُنَبِّئُهُم﴾ للمؤمنينَ. وفي ﴿قُلُوبِهِمْ﴾: للمُنافقين، وصحَّ ذلك؛ لأنَّ المعنى يقودُ إليه. ويجوز أن تكونَ الضَّمائِرُ للمُنافقينَ؛ لأنَّ السورةَ إذا نزلت في معناهم، فهي نازلة عليهم). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٨)، والثاني أولَى؛ لأنَّ القاعدةَ أنَّ الضمائرَ إذا تعاقبتْ فالأصلُ أن يتحدَ مرجعُها. يُنظر ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٤٠٤).

اللهَ مُظهِرٌ للمُؤمِنينَ- بما يُنَزِّلُ من القُرآنِ- ما تَخشَونَ ظُهورَه[١].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ * وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩-٣١].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبد الله بن عُمَرَ رَضيَ الله عنهما، قال: ((قال رجلٌ في غزوةِ تَبوكَ في مجلسٍ يومًا: ما رأيتُ مِثلَ قُرَّائِنا هؤلاء، لا أرغَبَ بُطونًا، ولا أكذَبَ ألسِنةً، ولا أجبَنَ عند اللِّقاءِ! فقال رجلٌ في المجلِسِ: كذَبْتَ، ولكنَّك مُنافِقٌ، لأُخبِرنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فبلغ ذلك النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونزل القرآنُ، قال عبدُ الله: فأنا رأيتُه مُتعلِّقًا بِحَقَبِ ناقةِ[٢] رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَنكُبُه الحِجارةُ[٣]، وهو يقولُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّما كنَّا نخوضُ ونَلعَبُ، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١٣).
قال أبو حيان: (وفعَلَ ذلك تعالى في هذه السُّورةِ، فهي تُسمَّى الفاضحةَ؛ لأنَّها فضحَت المنافقينَ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢).

(٢) الحَقَبُ: حَبلٌ يُشَدُّ به رحْلُ البَعيرِ إلى بطنِه؛ كي لا يتقَدَّمَ إلى كاهِلِه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٤٣).

(٣) تَنكُبُه الحِجارةُ: أي: تُمِيلُه. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣١٩).

تَسْتَهْزِءُونَ ﴾))[١].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾.

أي: ولَئِن سألتَ المُنافقينَ- يا مُحمَّدُ- عمَّا قالوه في خَلَواتِهم من الطَّعنِ في أصحابِك ودينِك، ليَقولُنَّ لك: إنَّما كنَّا ندخُلُ في الباطِلِ، ونلعَبُ بذلك الحديثِ، ولم نقصِدْ به الطَّعنَ في المسلمينَ والإسلامِ[٢].

﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- للمُنافقين: أبالله سُبحانه وآياتِ كِتابِه ورَسولِه مُحمَّدٍ، كنتُم تستخِفُّونَ وتَسخَرونَ؟! كيف تُقدِمونَ على إيقاعِ ذلك[٣]؟!

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كشَفَ اللهُ أمْرَ استهزائِهم، أردَفَه بإظهارِ قِلَّةِ جدوى اعتذارِهم؛ إذ قد تلبَّسوا بما هو أشنَعُ وأكبَرُ ممَّا اعتَذَروا عنه، وهو الْتباسُهم بالكُفرِ بعد إظهارِ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٦/ ١٨٣٠)، وابن جرير في ((تفسيره)) (١١/ ٥٤٤).
صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٤)، وقال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (١٢٢): رجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد؛ فلم يُخرج له مسلمٌ إلَّا في الشَّواهد، وله شاهد بسندٍ حسَنٍ.
وقال الشنقيطي: (نزلَتْ هذه الآيةُ في غزوةِ تَبوكَ، بإطباقِ المفسِّرينَ، في قومٍ استهزَؤوا باللهِ وآياتِه ورَسولِه). ((العذب النمير)) (٥/ ٦١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٨٠)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٤٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١٥).

الإيمانِ، فإنَّ الله لَمَّا أظهر نِفاقَهم، كان ما يصدُرُ عنهم من الاستهزاءِ أهوَنَ[١].

﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- للمُنافقينَ: لا تَذكُروا أعذارًا؛ فإنَّها لن تنفَعَكم[٢].

﴿قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾.

أي: قد أظهرتُم الكفرَ باستهزائِكم بدينِ الله بعدَ أن كنتُم تُظهرونَ الإيمانَ[٣].

وقيل: المعنى: قد كفَرْتُم باستهزائِكم باللهِ وآياتِه ورسولِه، بعد أنْ كنتُم مُؤمنينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٨).

(٣) وممَّن اختار هذا القول: الزجَّاج، والسمعانيُّ، وأبو حيَّان، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٢).

قال ابن عاشور: (والمرادُ بإسنادِ الإيمانِ إليهم: إظهارُ الإيمانِ، وإلَّا فهم لم يُؤمِنوا إيمانًا صادقًا. والمرادُ بإيمانهم: إظهارُهم الإيمانَ، لا وقوعُ حقيقتِه، وقد أنبأ عن ذلك إضافةُ الإيمانِ إلى ضَميرِهم دونَ تَعريفِ الإيمانِ باللام المفيدةِ للحَقيقةِ، أي بعد إيمانٍ هو مِن شَأنِكم، وهذا تعريضٌ بأنَّه الإيمانُ الصُّوريُّ غيرُ الحَقِّ، ونظيرُه قَولُه تعالى الآتي: ﴿وَكَفَرُوا بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ [التوبة: ٧٤] وهذا من لطائفِ القُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٢).

(٤) وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، وابنُ تيميةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٢٠، ٢٧٢، ٢٧٣).

قال ابن تيمية: (وقَولُ من يقول عن مِثل هذه الآياتِ: إنَّهم كفَروا بعد إيمانِهم بلسانِهم مع كُفرِهم أوَّلًا بقُلوبهم، لا يصِحُّ؛ لأنَّ الإيمانَ باللِّسانِ مع كُفرِ القلبِ، قد قارَنَه الكفرُ، فلا يقالُ: قد كفرْتُم بعد إيمانِكم؛ فإنَّهم لم يزالوا كافرينَ في نفسِ الأمرِ، وإن أُريدَ أنَّكم أظهَرْتم الكُفرَ بعد إظهارِكم الإيمانَ، فهم لم يُظهِروا للنَّاسِ إلَّا لخواصِّهم، وهم مع خواصِّهم ما زالوا هكذا؛ بل لَمَّا نافَقوا وحَذِروا أن تُنزَّلَ سورةٌ تُبيِّنُ ما في قلوبهم من النِّفاقِ وتكلَّموا بالاستهزاءِ، صاروا كافرينَ بعد إيمانِهم، ولا يدلُّ اللفظُ على أنَّهم ما زالوا مُنافقينَ... فبيَّنَ أنَّ الاستهزاءَ بالله وآياتِه ورسولِه، كُفرٌ يَكفُرُ به صاحبُه بعد إيمانِه، فدلَّ على أنَّه كان عندهم إيمانٌ ضعيفٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٧٢-٢٧٣).

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

أي: إن نعفُ عن جماعةٍ منكم لِتَوبتِهم الصَّادقةِ، نُعذِّبْ جماعةً أخرى منهم؛ بسببِ أنَّهم كانوا مُقيمين على كفرِهم، مُصِرِّينَ على نفاقِهم، وطَعْنِهم في رَسولِ اللَّه صلَّى الله عليه وسَلَّم مِن غيرِ توبةٍ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ مَن أسَرَّ سريرةً- خُصوصًا السَّريرةَ التي يَمكُرُ فيها بدينِ اللهِ تعالى، ويَستهزِئُ به وبآياتِه ورسولِه- فإنَّ الله تعالى يُظهِرُها ويفضَحُ صاحِبَها، ويُعاقِبُه أشَدَّ العقوبةِ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم﴾ دلَّت الآيةُ على أنَّ الاستهزاءَ بالدِّينِ -كيف كان- كُفرٌ باللهِ؛ وذلك لأنَّ الاستهزاءَ يدُلُّ على الاستخفافِ، والعُمدةُ الكُبرى في الإيمانِ تَعظيمُ اللهِ تعالى بأقصى الإمكانِ، والجمعُ بينهما مُحالٌ[٣].

٣- التوبةُ مَقبولةٌ مِن كلِّ ذَنبٍ، وإن كان عظيمًا؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١٧، ٦١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٣٤٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ إن قيل: المُنافِقُ كافِرٌ، فكيف يَحذَرُ نُزولَ الوَحيِ على الرَّسولِ؟ فالجوابُ أنَّ في ذلك وجوهًا:

الأول: أنَّ القَومَ وإن كانوا كافرينَ بِدينِ الرَّسولِ، إلَّا أنَّهم شاهَدُوا أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يُخبِرُهم بما يُضمِرونَه ويَكتمونَه؛ فلهذه التَّجربةِ وقَعَ الحَذَرُ والخَوفُ في قلوبِهم.

الثاني: أنَّهم كانوا يَعرفونَ كَونَه رَسولًا صادقًا مِن عند الله تعالى، إلَّا أنَّهم كفَروا به؛ حسَدًا وعِنادًا.

الثالث: أنَّهم كانوا شاكِّينَ في صِحَّةِ نبوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما كانوا قاطعينَ بفَسادِها. والشاكُّ خائِفٌ؛ فلهذا السَّبَبِ خافوا أن يُنزَّلَ عليه في أمْرِهم ما يفضَحُهم.

الرابع: هذا حذَرٌ أظهَرَه المُنافِقونَ على وجهِ الاستهزاءِ، حين رأوُا الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يذكُرُ كُلَّ شَيءٍ، ويُخبِرُ أنَّه عن الوَحيِ، وكان المُنافِقونَ يُكَذِّبونَ بذلك فيما بينهم، فأخبَرَ اللهُ رسولَه بذلك، وأمَرَه أن يُعلِمَهم أنَّه يُظهِرُ سِرَّهم الذي حَذِروا ظُهورَه، وفي قوله: ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾ دَلالةٌ عليه.

الخامس: معنى الحَذَرِ الأمرُ بالحَذَرِ، أي: لِيحذَرِ المُنافِقونَ ذلك[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ إن قيل: كيف قال ﴿عَلَيْهِمْ﴾، مع أنَّ إنزالَ السُّورةِ إنَّما هو على النبيِّ، لا عليهم؟ فالجوابُ: أنَّ (على) هنا بمعنى (في)، كما في قَولِه تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٣).

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أو أنَّ الإنزالَ هنا بمعنى القراءةِ عليهم(١).

٣- إن قيل في قَولِه تعالى: ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: إنَّ هذا تحصيلُ الحاصِلِ؛ لأنهم عالِمون به. قيل: تنبِّئُهم بأسرارِهم وما كَتَموه، شائعةً ذائعةً، وتفضَحُهم بظهورِ ما اعتَقَدوا أنَّه لا يَعرِفُه غيرُهم(٢).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ اللَّاعِبَ والجادَّ سواءٌ في إظهارِ كَلِمةِ الكُفرِ، وأنَّ الاستهزاءَ بآياتِ اللهِ كُفرٌ(٣).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ كَلِمةَ (إنما) تفيدُ الحَصرَ؛ إذ لو لم يكُنْ ذلك، لم يلزَمْ مِن كونِهم لاعبينَ ألَّا يكونوا مُستَهزِئينَ، فحينئذٍ لا يتِمُّ هذا العُذرُ(٤).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ يدلُّ على بُطلانِ قَولِ مَن يَقولُ: الكُفرُ لا يدخُلُ إلَّا في أفعالِ القُلوبِ(٥).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٤-٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٩٥)، وينظر أيضًا: ((التوسط والاقتصاد في أن الكفر يكون بالقول أو الفعل أو الاعتقاد)) لعلوي السقاف (ص: ١٢).

يدلُّ على أنَّ قولَهم الذي صدَر منهم، كُفرٌ في الحقيقةِ، وإن كانوا مُنافِقينَ مِن قَبلُ، وأنَّ الكُفرَ يُمكِنُ أن يتجَدَّدَ مِن الكافرِ حالًا فحالًا[١].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ لا يخلو أن يكونَ ما قالوه من ذلك جِدًّا أو هَزْلًا، وهو كيفما كان، كُفرٌ؛ فإنَّ الهَزْلَ بالكُفرِ كُفرٌ، لا خُلفَ فيه بين الأمَّةِ؛ لأنَّ أصلَ الدِّينِ مبنيٌّ على تعظيمِ اللهِ وتعظيمِ دينِه ورُسُلِه، والاستهزاءُ بِشَيءٍ من ذلك مُنافٍ لهذا الأصلِ، ومُناقِضٌ له أشَدَّ المناقَضةِ[٢].

٩- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الاستهزاءَ باللهِ كُفرٌ، وبالرَّسولِ أيضًا كُفرٌ؛ وذلك من جهةِ أنَّ الاستهزاءَ باللهِ وَحدَه كُفرٌ بالضَّرورةِ، فلم يكُن ذِكرُ الآياتِ والرَّسولِ شَرطًا، فعُلِمَ أنَّ الاستهزاءَ بالرَّسولِ كُفرٌ، وإلَّا لم يكُن لذِكْرِه فائِدةٌ، وكذلك الآياتُ، وأيضًا مِن جِهةِ أنَّ الاستهزاءَ بهذه الأمورِ مُتلازِمٌ[٣].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ إن قيل: ظاهِرُ هذا أنَّهم كانوا مُؤمِنينَ فكفروا بهذا الاستهزاءِ الذي سَمَّوه خوضًا ولَعِبًا، وظاهِرُ السياقِ أنَّ الكُفرَ الذي يُسِرُّونَه، هو سبَبُ الاستهزاءِ الذي يُعلِنونَه. قيل: كِلاهما حقٌّ، ولكُلٍّ منهما وجهٌ؛ فالأولُ: بيانٌ لحُكمِ الشَّرعِ، وهو أنَّهم كانوا مؤمنينَ حُكمًا، فإنَّهم ادَّعَوا الإيمانَ، فجَرَت عليهم أحكامُ الإسلامِ، وهي إنَّما تُبنى على الظَّواهِرِ، والاستهزاءُ بما ذُكِرَ عمَلٌ ظاهِرٌ، يقطَعُ الإسلامَ ويَقتضي الكُفرَ، فبه صارُوا كافرينَ حُكمًا، بعد أن كانوا مُؤمِنينَ حُكمًا. والثاني: وهو ما دلَّ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٨).

السِّياقُ، هو الواقِعُ بالفِعلِ[١] وذلك على أحدِ وجْهَي التأويلِ للآيةِ.

١١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ في حقِّ المُستَهزئينَ: أنَّهم كفَّارٌ بالقَولِ، مع أنَّهم لم يعتَقِدوا صِحَّتَه، وهذا بابٌ واسعٌ، وفِقهُه: أنَّ التَّصديقَ بالقَلبِ يَمنعُ إرادةَ التكلُّمِ، وإرادةَ فِعْلٍ فيه استهانةٌ واستخفافٌ بالله سُبحانه وتعالى، كما أنَّه يُوجِبُ المحبَّةَ والتَّعظيمَ[٢].

١٢- قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ الآيةُ نَصٌّ صريحٌ في أنَّ الخَوضَ في كتابِ اللهِ وفي رسولِه، وفي صفاتِ اللهِ تعالى ووَعْدِه ووَعيدِه، وجَعْلها موضوعًا للَّعِبِ والهُزُؤِ؛ كلُّ ذلك مِن الكُفرِ الحقيقيِّ الذي يَخرُجُ به المُسلِمُ مِن المِلَّة، وتَجري عليه به أحكامُ الرِّدَّةِ، إلَّا أن يتوبَ ويُجدِّدَ إسلامَه[٣].

١٣- إذا تكلَّمَ المَرءُ بكَلِمةِ الكُفرِ طَوعًا، فقد شرَحَ بها صدرًا وهي كُفرٌ، وقد دلَّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ فقد أخبَرَ أنَّهم كفروا بعد إيمانِهم مع قولِهم: إنَّا تكلَّمْنا بالكفرِ مِن غَيرِ اعتقادٍ له، بل كنَّا نَخوضُ ونَلعَبُ، وبيَّنَ أنَّ الاستهزاءَ بآياتِ اللهِ كُفرٌ، ولا يكون هذا إلَّا ممَّن شرَحَ صَدرَه بهذا الكلامِ، ولو كان

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥٧).

الإيمانُ في قَلبِه، منَعَه أن يتكَلَّمَ بهذا الكلامِ[١].

١٤- قال الله تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ فكيف حكَمَ عليهم بالكُفرِ، ومع ذلك لم يُقِم عليهم الحَدَّ؟!

والجوابُ: لأنَّه كان في تَرْكِ قَتلِهم في حياةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَصلحةٌ تتضَمَّنُ تأليفَ القلوبِ على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجَمْعَ كلمةِ النَّاسِ عليه، وكان في قَتْلِهم تنفيرٌ، والإسلامُ بعدُ في غُربةٍ، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أحرَصُ شَيءٍ على تأليفِ النَّاسِ، وأترَكُ شَيءٍ لِما يُنفِّرُهم عن الدُّخولِ في طاعَتِه، وهذا أمرٌ كان يختَصُّ بحالِ حياتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢]، وقيل غيرُ ذلك[٣].

١٥- قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ فاعتَرَفوا واعتَذَروا؛ ولهذا قيل: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ فدلَّ على أنَّهم لم يكونوا عند أنفُسِهم قد أتَوْا كُفرًا، بل ظَنُّوا أنَّ ذلك ليس بكُفرٍ، فبيَّنَ أنَّ الاستهزاءَ باللهِ وآياتِه ورسولِه، كُفرٌ يَكفُرُ به صاحِبُه بعد إيمانِه، فدلَّ على أنَّه كان عندهم إيمانٌ ضَعيفٌ، ففعلوا هذا المحرَّمَ الذي عَرَفوا أنَّه مُحرَّمٌ، ولكِنْ لم يظنُّوه كُفرًا، وكان كُفرًا كفروا به، فإنَّهم لم يعتَقِدوا جوازَه[٤]، وذلك على أحدِ وجهي التأويلِ للآيةِ.

١٦- دلَّ قولُه تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ على أنَّ الكافرَ بعد إيمانِه قد يُعفَى عنه وقد يُعذَّبُ، وإنَّما يُعفى عنه إذا تاب، فعُلِمَ أنَّ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٤٩٧).

(٣) يُنظر: ((المحلى بالآثار)) لابن حزم (١٢/ ١٣٦)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٣، ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٧٣).

توبتَه مَقبولةٌ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ فيه التَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارعِ ﴿ يَحْذَرُ ﴾؛ لِمَا تُشْعِرُ به مِنِ اسْتِحضارِ الحالةِ[٢].

- وقولُه: ﴿ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم ﴾ التَّعبيرُ بالتَّنبئةِ فيه مُبالَغةٌ في كونِ السُّورةِ مُشْتَمِلةً على أسرارِهم، كأنَّها تَعْلَمُ مِنْ أحوالِهم الباطنةِ ما لا يَعْلمونَه، فتُنبِّئهم بها، وتَنْعَى عليهم قبائحَهم[٣].

- قولُه: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ الأمرُ بالاسْتِهزاءِ أمْرُ تَهديدٍ ووعيدٍ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ فيه العُدولُ إلى التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ دونَ أنْ يُقالَ مَثلًا: (إنَّ اللهَ مُخْرِجٌ سُورةً تُنبِّئكُمْ بما في قلوبِكُمْ)؛ لأنَّ الأهمَّ مِنْ تَهديدِهم هو إظهارُ سَرائرِهم لا إنزالُ السُّورةِ؛ فذِكْرُ الصِّلَةِ وافٍ بالأمرينِ: إظهارُ سرائرِهم، وكونُه في سُورةٍ تَنْزِلُ، وهو أنْكَى لهم، ففيه إيجازٌ بديعٌ[٥]. مَعَ ما فيه مِنَ التَّأكيدِ بـ(إنَّ) واسْميَّةِ الجُملةِ.

٢- قولُه تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٩).

- قولُه: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فيه قَصْرٌ بـ﴿إِنَّمَا﴾، وهو هنا للتَّعيينِ، أي: ما تَحدَّثْنا إلَّا في خَوضٍ ولَعِبٍ دونَ ما ظَنَنتَهُ بِنا مِنَ الطَّعْنِ والأذى[١].

- قولُه: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ الاسْتِفهامُ فيه إنكاريٌّ توبيخيٌّ، وهو تَقريرٌ على اسْتِهزائِهم، وضَمَّنَه الوَعيدَ، ولم يَعْبأْ باعْتِذارِهم؛ لأنَّهم كانوا كاذبينَ فيه، فجُعِلوا كأنَّهم مُعْترِفونَ باسْتِهزائهم، وبأنَّه مَوجودٌ مِنهم، حتَّى وُبِّخوا بإخطائِهم مَوضِعَ الاسْتِهزاءِ، حيثُ جُعِلَ المُستَهزَأُ به يلي حَرْفَ التَّقريرِ، وذلك إنَّما يَستقيمُ بَعْدَ وقوعِ الاسْتِهزاءِ[٢].

- وتقديمُ المعمولِ ﴿أَبِاللَّهِ﴾ على فِعْلِه العاملِ فيهِ ﴿تَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ لقَصْدِ قَصْرِ التَّعيينِ؛ لأنَّهم لَمَّا أتوا في اعْتِذارِهِمْ ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ بصيغةِ قَصْرِ تَعيينٍ، جِيءَ في الرَّدِّ عليهم بصِيغةِ قَصْرِ تَعيينٍ؛ لإبطالِ مُغالَطتِهِمْ في الجوابِ، فأَعلَمَهم بأنَّ لَعِبَهم الذي اعْتَرَفوا به ما كان إلَّا اسْتِهزاءً باللهِ وآياتِهِ ورَسولِهِ، لا بغيرِ أولئك[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾

- وقولُه: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ فيه تَوكيدٌ لمضمونِ جُمْلةِ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، مع زيادةِ ارْتِقاءٍ في التَّوبيخِ، وارْتِقاءٍ في مَثالِبِهم بأنَّهم تَلبَّسوا بما هو أشدُّ، وهو الكُفْرُ؛ فلذلك فُصِلتِ الجُمْلةُ عن التي قَبْلَها، أي:

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥١).

لم تُعْطَفْ عليها[١].

- قولُه: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ تَعليلٌ لقولِه: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ وهو نهيٌ مُسْتَعْمَلٌ في التَّسويةِ وعدمِ الجَدْوى[٢].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٥٢).

الآيات (٦٧-٧٠)

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: أي: يُمسِكونَها عن الصَّدَقةِ والخَيرِ، وأصلُ (قبض): يدلُّ على شيءٍ مأخوذٍ، وتجمُّعٍ في شَيءٍ[1].

﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾: أي: بنَصيبِهم في الدُّنيا، والخَلاقُ: النَّصيبُ والحظُّ من الخَيرِ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠،٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

﴿وَخُضْتُمْ﴾: أي: دَخَلْتُم في الباطِلِ[١].

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾: أي: مَدائِنِ قَومِ لُوطٍ؛ ائتَفَكَت بهم، أي: انقَلَبَت، وأصلُ (أفك): يدلُّ على قلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهَتِه[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ هم صِنفٌ واحِدٌ مُتشابِهونَ في كُفرِهم ونِفاقِهم؛ يأمرونَ بالمُنكَرِ، وينهَوْنَ عن المعروفِ، ويُمسِكونَ أيديَهم عن إخراجِ ما يجِبُ عليهم من النَّفَقات، نَسُوا ذِكرَ اللهِ، فترَكَ هدايتَهم ورَحمتَهم، وأهمَلَهم وتخلَّى عنهم، ويترُكُهم مخلَّدِينَ في عذابِ جهنَّمَ في الآخرةِ، إنَّ المُنافقينَ هم الفاسِقونَ.

وعَدَ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والكُفَّارَ نارَ جهنَّمَ، ماكثينَ فيها أبدًا، هي كافيةٌ لِعقابِهم، وأبعَدَهم اللهُ مِن رَحمتِه، ولهم عذابٌ دائِمٌ غيرُ مُنقطِعٍ.

ثمَّ وجَّه تعالى الخِطابَ للمُنافِقينَ والكُفَّارِ، فقال لهم: أنتم تعمَلونَ مثلَ أعمالِ مَن قَبلَكم مِن الأمَمِ، الذين كانوا أقوَى مِنكم، وأكثَرَ أموالًا وأولادًا منكم، فتمتَّعوا بنَصيبِهم المقَدَّرِ من الدُّنيا، مُؤْثِرينَ له على نعيمِ الآخرةِ، فتمَتَّعتُم أنتم بنَصيبِكم من الدُّنيا، وأعرَضْتُم عن الآخرةِ، كما فعَلَ الذين كَفَروا من قَبلِكم، وخُضتُم في الذي خاضُوا فيه، أولئك بطَلَت أعمالُهم في الدُّنيا والآخرةِ، وأولئك هم الخاسِرونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧، ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

ألمْ يأتِ هؤلاءِ المُنافِقينَ والكُفَّارَ خَبَرُ إهلاكِ اللهِ الأمَمَ الماضيةَ؛ قومِ نوحٍ وعادٍ، وثمودَ، وقَومِ صالحٍ، وأهلِ مَدينَ، وقَومِ لوطٍ الذين انقلبت بهم أرضُهم، فصار أعلاها أسفلَها، جاءتهم رسُلُهم بالمُعجِزاتِ الواضِحةِ، فكَذَّبوا الرُّسُلَ فأهلَكَهم اللهُ، فما كان اللهُ ليَظلِمَهم، ولكِنَّهم كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بالكُفرِ والعِصيانِ وتكذيبِ الرُّسُلِ، فاستحقُّوا العُقوبةَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شَرحٌ لِنَوعٍ آخَرَ مِن أنواعِ فضائحِ المنافقين وقبائِحِهم، والمقصودُ بيانُ أنَّ إناثَهم كذُكورِهم في تلك الأعمالِ المُنكَرةِ والأفعالِ الخَبيثةِ(١).

وأيضًا فهذه الآيةُ احتراسٌ عن أن يظُنَّ المنافِقونَ أنَّ العَفوَ المفروضَ لطائفةٍ منهم، هو عفوٌ يَنالُ فريقًا منهم باقينَ على نفاقِهم؛ فعَقَّبَ ذلك ببيانِ أنَّ النِّفاقَ حالةٌ واحدةٌ، وأنَّ أصحابَه سواءٌ؛ ليُعلَمَ بذلك أنَّ افتراقَ أحوالِهم بين عَفوٍ وعذابٍ، لا يكونُ إلَّا إذا اختلَفَت أحوالُهم بالإيمانِ، والبقاءِ على النِّفاقِ(٢).

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾.

أي: المُنافِقونَ والمُنافِقات، الذين يُظهِرونَ للمُسلِمينَ الإيمانَ بألسِنَتِهم، ويُبطِنونَ الكُفرَ في قلوبِهم؛ هم صِنفٌ واحدٌ مُتشابِهونَ في كُفرِهم ونِفاقِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٣).

وأخلاقِهم وأغراضِهم، وبعضُهم أولياءُ بعضٍ[١].

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾.

أي: المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ يأمرونَ بما يُبغِضُه اللهُ ويُنكِرُه؛ من الكُفرِ والمعاصي، ويَنهونَ عن المعروفِ الذي يحِبُّه الله ويأمُرُ به؛ من الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ[٢].

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾.

أي: ويُمسِكُ المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ أيديَهم عن إخراجِ زكاةِ أموالِهم، وعن كلِّ ما وجَبَ عليهم من النَّفَقاتِ، ومن ذلك الإنفاقُ في الجِهادِ[٣].

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

أي: نَسِيَ المُنافِقونَ ذِكرَ اللهِ وتَرَكوا طاعَتَه، فتَرَكَ اللهُ هدايتَهم ورَحمَتَهم، وأهمَلَهم وتخلَّى عنهم، ويترُكُهم مخلَّدِينَ في عذابِ جهنَّمَ في الآخرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٦ - ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢١).
قال ابنُ تيمية: (﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ قال مجاهد: «يقبِضُونَها عن الإنفاقِ في سبيلِ الله». وقال قتادة: «يقبضون أيديَهم عن كلِّ خيرٍ» فمجاهدٌ أشار إلى النَّفعِ بالمالِ، وقتادةُ أشار إلى النَّفع بالمالِ والبَدَن). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ١٠٦-١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي))

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

أي: إنَّ المُنافِقين هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، والإيمانِ به سُبحانَه[1].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في المُنافِقين والمُنافِقاتِ أنَّه نَسِيَهم، أي: جازاهم على تَرْكِهم التمسُّكَ بطاعةِ الله؛ أكَّدَ هذا الوعيدَ، وضَمَّ المُنافِقين إلى الكُفَّارِ فيه، فقال تعالى[2]:

(٨/ ١٩٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٢، ١٧٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣).

قال ابن القيم: (أي: تَرَكوا طاعةَ الله والإيمانَ بما جاء به رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتَرَكهم اللهُ مِن رحمَتِه، وهذا لا خلافَ فيه، ولا يجهَلُه من له أقَلُّ علمٍ بتأويلِ القُرآنِ). ((الصلاة)) (ص: ٧٧).

وقال القرطبي: (قال قتادة: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: من الخَيرِ، فأمَّا مِن الشَّرِّ، فلم ينْسَهم). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٨).

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: وعَدَ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ وجميعَ الكُفَّارِ أنْ يُدخِلَهم نارَ جَهنَّمَ، ماكثينَ فيها أبدًا[(١)].

﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾.

أي: نارُ جهنَّمَ كافيةٌ لعقابِ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والكُفَّارِ؛ جزاءً على نفاقِهم وكُفرِهم[(٢)].

﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

أي: وأبعَدَ اللهُ المُنافِقينَ والكُفَّارَ، وطَرَدَهم مِن رَحمتِه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٣، ٥٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٥).
قال الزجاج: (أي كفايةُ ذُنُوبِهم، كما تقول: عذَّبْتُك حسبَ فِعْلِك، وحَسْبُ فُلانٍ ما نَزَل به، أي: ذلك على قَدْر فِعلِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٢/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٥).

أي: ولأهلِ النِّفاقِ والكُفرِ عذابٌ دائِمٌ لا ينقطِعُ[١].

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان حالُ المُنافِقينَ في الإقبالِ على العاجلةِ؛ لِكَونِها حاصلةً، والإعراضِ عن العاقِبةِ؛ لأنَّها غائبةٌ- مُشابِهًا لحالِ من كان قَبْلَهم من الأُمَمِ الخاليةِ، والقُرونِ الماضية؛ بيَّنَ لهم ذلك، وختَمَ ببيانِ سُوءِ أحوالِهم وقُبحِ مآلِهم، بتلاشي أعمالِهم، فقال تعالى[٢]:

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾.

أي: فعَلْتُم - أيُّها المُنافِقونَ والكفَّارُ- كفعلِ الذين مِنْ قبلِكم، فسَينزِلُ بكم مِن العُقوباتِ مثلُ ما نَزَلَ بهم، وقد كانُوا أقوى منكم، وأكثرَ منكم أموالًا وأولادًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٦).

قال ابن تيمية: (قيل: إنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى ما هو لازِمٌ لهم في الدُّنيا والآخرة من الآلامِ النَّفسية: غَمًّا وحُزنًا، وقسوةً وظُلمةَ قلبٍ، وجَهلًا؛ فإنَّ للكُفرِ والمعاصي من الآلامِ العاجِلةِ الدَّائمة ما اللهُ به عليمٌ؛ ولهذا تجِدُ غالِبَ هؤلاء لا يُطَيِّبونَ عَيشَهم إلَّا بما يُزيلُ العَقلَ، ويُلهي القَلبَ؛ من تناوُلِ مُسكِرٍ، أو رؤيةِ مُلْهٍ، أو سَماعِ مُطرِبٍ، ونحوِ ذلك). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ١١٠).

وقال الألوسي: (قيل: إنَّ الأوَّلَ عذابُ الآخرةِ، وهذا عذابُ ما يقاسونَه في الدُّنيا؛ مِن التَّعَبِ، والخَوفِ من الفضيحةِ والقَتلِ، ونَحوِه). ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٧).

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢١-٢٢].

﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ﴾.

أي: فتمتَّع كُفَّارُ الأمَمِ الماضيةِ بنَصيبِهم المقدَّرِ لهم من الدُّنيا وشَهَواتِها، مُؤثِرينَ

وفي الآيةِ أوجهٌ أخرى. قال ابنُ القيِّم: (اختُلِفَ في محلِّ هذه الكافِ وما يتعلَّقُ بها، فقيل: هو رفعٌ، خبرُ مبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: أنتم كالذين مِن قَبْلِكم. وقيل: نصبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: فعَلْتُم كفِعلِ الذين مِن قَبْلِكم، والتشبيهُ على هذينِ القَولينِ في أعمالِ الذين مِن قَبلُ. وقيل: إنَّ التَّشبيهَ في العذابِ، ثم قيل: العاملُ مَحذوفٌ، أي: لعَنَهم وعذَّبَهم كما لعنَ الذينَ مِن قَبلُ، وقيل: بل العامِلُ ما تقدَّمَ، أي: وعدَ الله المُنافِقينَ كوَعدِ الذين مِن قَبلِكم، ولعَنَهم كلَعْنِهم، ولهم عذابٌ مُقيمٌ كالعذابِ الذي لهم). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٠٤، ١٠٥). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٨)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١١٢، ١١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٢، ٤٣٣).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وإذا عرَفْتَ أنَّ مِن النَّاسِ مَن يجعَلُ التَّشبيهَ في العمل، ومنهم من يجعَلُ التَّشبيهَ في العذابِ، فالقولان متلازِمانِ؛ إذ المُشابهةُ في الموجِبِ تقتضي المُشابهةَ في الموجَبِ، وبالعكسِ، فلا خلاف معنويٌّ بين القولينِ. وكذلك ما ذكرناه من اختلافِ النَّحويينِ في وجوبٍ في الحذفِ وعَدَمِه، إنما هو اختلافٌ في تعليلاتٍ ومآخِذَ، لا تقتضي اختلافًا لا في إعرابٍ، ولا في معنًى؛ فإذن: الأحسَنُ أن تتعَلَّق الكافُ بمجموعِ ما تقدَّمَ: مِن العَمَل والجزاء، فيكونُ التَّشبيهُ فيهما لفظًا. وعلى القولينِ الأوَّلَينِ: يكون قد دلَّ على أحَدِهما لفظًا، وعلى الآخَرِ لُزومًا). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ١١٣).

وقيل: المعنى: أبالله وآياتِ كِتابِه ورَسولِه كنتُم تستَهزِئونَ كالذينَ مِن قَبْلِكم، من الأمَمِ الذين فَعَلوا فِعْلَكم، فأهلَكَهم اللهُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٠).

له على نَعيمِ الآخرةِ، فتمتَّعتُم -أيُّها المُنافِقونَ والكفَّارُ- بنَصيبِكم من شَهَواتِ الدُّنيا، وأعرَضْتُم عن الآخِرةِ كذلك، كما تمتَّعَ الكُفَّارُ الذين مِن قَبلِكم بنَصِيبِهم[١].

﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾.

مُناسَبَتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى مُشابهةَ هؤلاءِ المُنافِقينَ لأولئك المتقَدِّمينَ في طلَبِ الدُّنيا، وفي الإعراضِ عن طلَبِ الآخرةِ؛ بيَّنَ حُصولَ المُشابَهةِ بين الفَريقَينِ، في تكذيبِ الأنبياءِ، وفي المَكرِ والخديعةِ والغَدرِ بهم، فقال تعالى[٢]:

﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾.

أي: وخضتُم- أيُّها المُنافِقونَ والكُفَّارُ- في الكُفرِ والكَذِبِ، والباطِلِ والشُّبُهاتِ، والاستهزاءِ باللهِ وآياتِه ورَسولِه؛ مثلَ الخَوضِ الذي خاضَتْه الأمَمُ قَبلَكم[٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾.

أي: أولئك الذين تمتَّعوا بشَهَواتِ الدُّنيا، وخاضوا في الباطِلِ؛ بطَلَت

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٥)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٢١، ١٢٢)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٨، ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠١)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١١٨)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٥، ١٠٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٩).

قال ابن عاشور: (فأنتم وهم سَواءٌ، فيُوشِكُ أن يحيقَ بكم ما حاق بهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٩).

أعمالُهم في الدُّنيا والآخرةِ، فلا يَقبَلُها اللهُ تعالى منهم، ولا يُثيبُهم عليها[١].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

أي: وأولئك هم المَغبونونَ بحِرمانِ الخَيرِ العاجِلِ والآجِلِ، وحُصولِ العِقابِ في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَبَّه اللهُ تعالى المُنافِقينَ بالكُفَّارِ المتقَدِّمينَ، في الرَّغبةِ في الدُّنيا، وتكذيبِ الأنبياءِ، وكان لفظُ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ فيه إبهامٌ- نَصَّ على طوائِفَ بأعيانِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٧)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٣٢).

وحبوطُ الأعمالِ معناه: ذهابُها، وعدمُ الاستفادةِ منها، فأمَّا في الآخرةِ فظاهرٌ، وأمَّا في الدنيا فحبوطُها ألَّا تُقبلَ منهم، فهم لا ينتفعونَ بها، ولا يستفيدون منها، فصاروا كأنَّهم لم يعملوها. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (١/ ٤٢٤) ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٤٢). وينظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٣٢).

وقال ابنُ عطية: (قَولُه ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ معناه: إذا كان في المُنافِقينَ ما يُصيبُهم في الدُّنيا مِن المَقْتِ مِن المؤمنينَ، وفسادِ أعمالِهم عليهم، وفي الآخرةِ بألَّا تنفَعَ، ولا يقَعَ عليها جزاءٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٧).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بأعمالهم: ما كانوا يَعمَلونَه، ويَكدَحونَ فيه: مِن معالجةِ الأموالِ والعِيالِ، والانكبابِ عليهما، ومعنى حَبَطِها في الدُّنيا: استئصالُها، وإتلافُها بحلولِ مُختَلِفِ العذابِ بأولئك الأمَمِ، وفي الآخرةِ: بعَدَمِ تَعويضِها لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٩-٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٣٣).

سِتَّةٍ؛ لأنَّهم كان عندهم شَيءٌ مِن أنبائِهم، وكانت بلادُهم قريبةً مِن بلادِ العَربِ، وكانوا أكثَرَ الأمَمِ عَددًا، وأنبياؤُهم أعظَمَ الأنبياءِ(١).

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

أي: ألَمْ يَسمَعِ المُنافِقونَ والكُفَّارُ خَبَرَ إهلاكِنا الأمَمَ الكافِرةَ الماضيةَ(٢)؟!

ثمَّ بيَّن جلَّ ثناؤُه مَنْ أولئك الأممُ(٣)، فقال:

﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ﴾.

أي: قَومِ نُوحٍ، وعادٍ- قَومِ هُودٍ- وثمودَ- قَومِ صالحٍ- وقَومِ إبراهيمَ، وأهلِ مَدينَ- قَومِ شُعيبٍ- وأهلِ قُرى قَومِ لوطٍ، التي انقلَبَت بهم فصار أعلاها أسفَلَها(٤)؟!

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾.

أي: جاءَت تلك الأممَ رسُلُ اللهِ بالمُعجِزاتِ الواضِحاتِ، فكذَّبوا الرُّسُلَ، فأهلكَهم اللهُ(٥).

كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [إبراهيم: ٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٣، ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٦، ٥٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٤، ٥٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣).

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

أي: فما كان اللهُ ليظلِمَ تلك الأممَ المكَذِّبةَ، بإهلاكِهم قبلَ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، ولكِن كانوا يظلِمونَ أنفُسَهم، بالكُفرِ باللهِ وعِصيانِه، وتكذيبِ رُسُلِه، فاستحَقُّوا عِقابَه[1].

كما قال سُبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ لأنَّهم اشتَرَكوا في النِّفاق، فاشتَرَكوا في تولِّي بَعضِهم بعضًا، وفي هذا قَطعٌ للمُؤمِنينَ مِن وَلايَتِهم[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْتَعْتُم ﴾ و﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ خبرٌ عن وقوعِ ذلك في الماضي، وهو ذَمٌّ لِمن يفعَلُه، إلى يومِ القيامةِ، كسائِرِ ما أخبَرَ اللهُ به عن الكفَّار والمُنافِقين، عند مبعَثِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّه ذَمٌّ لِمَن حالُه كحالِهم، إلى يومِ القيامةِ، فيكونُ كُلُّ مَن حصل منه هذا الاستمتاعُ والخَوضُ مُخاطَبًا بِقَولِه: ﴿

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٣).

فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم﴾ و﴿وَخُضۡتُمۡ﴾[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ فَسادُ الدِّينِ إمَّا أن يقَعَ بالاعتقادِ الباطِلِ والتكَلُّمِ به، وهو (الخَوض)، أو يقَعَ في العمَلِ بخلافِ الحَقِّ والصَّوابِ، وهو (الاستمتاعُ بالخَلاقِ). فالأوَّلُ البِدَعُ، والثاني اتِّباعُ الهوى، وهذان هما أصلُ كُلِّ شَرٍّ وفِتنةٍ وبلاءٍ، وبهما كُذِّبَت الرُّسُلُ، وعُصِيَ الرَّبُّ، ودُخِلَت النَّارُ، وحَلَّت العُقوباتُ، فالأوَّلُ مِن جهةِ الشُّبُهات، والثاني من جهةِ الشَّهواتِ؛ ولهذا كان السَّلَفُ يقولونَ: احذَروا من النَّاسِ صِنفَينِ: صاحِبَ هَوًى، فِتنَتُه هَواه، وصاحِبَ دُنيا، أعجَبَتْه دُنياه، وكانوا يقولونَ: احذَروا فتنةَ العالِمِ الفاجِرِ، والعابِدِ الجاهِلِ؛ فإنَّ فِتنَتَهما فتنةٌ لكُلِّ مفتونٍ، فهذا يُشبِهُ المغضوبَ عليهم، الذين يعلمونَ الحَقَّ ويَعملونَ بخلافِه، وهذا يُشبِهُ الضَّالِّينَ الذين يعملونَ بغيرِ عِلمٍ، فقولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ﴾ إشارةٌ إلى اتِّباعِ الشَّهواتِ، وهو داءُ العُصاةِ، وقَولُه: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ إشارةٌ إلى الشُّبُهاتِ، وهو داءُ الْمُبتَدعةِ، وأهلِ الأهواءِ والخُصُوماتِ، وكثيرًا ما يجتمعانِ، فقَلَّ مَن تجِدُه فاسِدَ الاعتقادِ، إلَّا وفَسادُ اعتقادِه يظهَرُ في عَمَلِه، والمقصودُ أنَّ الله أخبَرَ أنَّ في هذه الأمَّةِ مَن يستمتِعُ بخَلاقِه، كما استمتَعَ الذين مِن قَبلِه بخَلاقِهم، ويخوضُ كَخَوضِهم، وأنَّهم لهم من الذَّمِّ والوعيدِ كما للَّذين مِن قَبلِهم[٢].

٤- عاقب اللهُ سبحانه مَن نَسِيَه عُقوبَتينِ: إحداهما: أنَّه سُبحانه يَنساه، كما

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٢١، ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١١٨، ١١٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٦).

في قولِه تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾، والثَّانية: أنَّه يُنسيه نفسَه، كما في قولِه تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الحشر: ١٩]، ونسيانُه سبحانَه للعبدِ: إهمالُه، وتركُه، وتخلِّيه عنه، وأمَّا إنساؤُه نفسَه، فهو: إنساؤُه لِحُظوظِها العاليةِ، وأسبابِ سعادتِها وفلاحِها وما تَكْمُلُ به؛ فلا يسعَى إليها، وكذا نسيانُ عُيوبِ نَفسِه ونَقصِها وآفاتِها، فلا يخطُرُ ببالِه إزالتُها، وأيضًا يُنسيه أمراضَ نفسِه وقلبِه وآلامَها، فلا يخطُرُ بِقَلبِه مُداواتُها، ولا السعيُ في إزالةِ عِلَلِها وأمراضِها التي تَؤُولُ بها إلى الفَسادِ والهلاكِ، فهو مريضٌ مُثخَنٌ بالمَرَض، ومَرَضُه مُترامٍ به إلى التَّلَفِ، ولا يشعرُ بمَرضِه، ولا يخطرُ ببالِه مُداواتُه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ وصَفَ اللهُ سُبحانَه المُنافِقينَ بأنَّ بَعضَهم مِن بَعضٍ، وقال في المؤمنينَ: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [التوبة: ٧١]؛ وذلك لأنَّ المُنافِقينَ تشابهَت قلوبُهم وأعمالُهم، وهم مع ذلك ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤] فليست قلوبُهم مُتوادَّةً مُتوالِيةً، إلَّا ما دام الغَرَضُ الذي يَؤُمُّونَه مُشترِكًا بينهم، ثم يتخَلَّى بعضُهم عن بعضٍ، بخلافِ المؤمِن، فإنَّه يُحِبُّ المؤمِنَ وينصُرُه بظَهرِ الغيبِ، وإن تناءَت بهم الدِّيارُ، وتباعَدَ الزَّمانُ[٢]، ودلَّ قولُه: ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ على أنَّ نِفاقَ الأتباعِ كالأمرِ المتفرِّعِ على نفاقِ الأسلافِ، والأمرُ في نفسِه كذلك؛ لأنَّ نِفاقَ الأتباعِ وكُفرَهم حصَلَ بسبَبِ التَّقليدِ لأولئك الأكابِرِ، وبسببِ مُقتضى الهَوى والطَّبيعةِ والعادةِ، أمَّا المُوافَقةُ الحاصِلةُ بين المؤمنينَ، فإنَّما حصَلَت لا بسبَبِ المَيلِ والعادةِ، بل بسبَبِ المُشاركةِ في الاستدلالِ والتَّوفيقِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٩)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٠٣).
(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٥).

والهِدايةِ، اللُّحْمةُ الجامعةُ بينهم هي ولايةُ الإسلامِ، فهم فيها على السَّواءِ، ليس واحدٌ منهم مقلِّدًا للآخَرِ ولا تابعًا له على غيرِ بَصيرةٍ؛ لِما في معنى الولايةِ مِن الإشعارِ بالإخلاصِ والتَّناصُرِ، بخلافِ المُنافِقينَ، فكأنَّ بَعضَهم ناشئٌ مِن بعضٍ في مَذامِّهم؛ فلهذا السَّبَبِ قال تعالى في المُنافقين: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ وقال في المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ اقتصَرَ مِن مُنكَراتِ المُنافِقينَ الفعليَّةِ على هذا؛ لأنَّه شَرُّها وأضَرُّها، وأقواها دَلالةً على النِّفاقِ[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أخَّرَ ذِكرَ الكُفَّارِ في مقامِ الوعيدِ؛ للإيذانِ بأنَّ الْمُنافِقينَ- وإن أظهَروا الإيمانَ وعَمِلوا أعمالَ الإسلامِ- شَرٌّ مِن الكفَّارِ الصُّرَحاءِ، ولا سيَّما المتديِّنونَ منهم بأديانٍ باطلةٍ مِن الأصلِ، أو مُحرَّفةٍ ومَنسوخةٍ كأهلِ الكِتابِ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ تَوبيخٌ مِن اللهِ لِمَن تشَبَّه بأهلِ الشَّرِّ- مِثل أهلِ الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ- في شيءٍ مِن قبائِحهم[4].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ لعلَّه خَصَّ هؤلاءِ بالذِّكرِ مِن بينِ بقيَّةِ الأمَمِ؛ لِمَا عند العَرَبِ مِن أخبارِهم، وقُربِ ديارِهم مِن ديارِهم، مع أنَّهم كانوا أكثَرَ الأُمَمِ عددًا، وأنبياؤُهم أعظَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦١).
(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٤٩).

الأنبياءِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ زِيدَ في هذه الآيةِ ذِكْرُ المُنافقاتِ؛ وذلك للتَّنصيصِ على تَسويةِ الأحكامِ لجَميعِ المُتَّصفينَ بالنِّفاقِ ذُكورِهم وإناثِهم؛ كيلا يَخْطُرَ بالبالِ أنَّ العفوَ يُصادِفُ نِساءَهم، وأنَّ المؤاخذةَ خاصَّةٌ بذُكرانِهم؛ ليَعلَمَ النَّاسُ أنَّ لنِساءِ المُنافِقينَ حَظًّا مِنْ مُشاركةِ رِجالِهِنَّ في النِّفاقِ فيَحذَروهنَّ[٢]، والتَّعرضُ لأحوالِ الإناثِ أيضًا؛ للإيذانِ بكمالِ عراقتِهم في الكُفْرِ والنِّفاقِ[٣].

- قولُه: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ على القَولِ بأنَّه اسْتِئنافٌ، فهو مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما سَبَق، ومُفْصِحٌ عن مُضادَّةِ حالِهم لحالِ المؤمنينَ[٤].

- قولُه: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ قَبْضُ اليدِ كِنايةٌ عَنِ البُخْلِ والشُّحِّ، والأصْلُ في هذه الكِنايةِ أنَّ المُعطي يَمُدُّ يدَهُ، ويَبْسُطُها بالعَطاءِ، فقيل لِمَنْ مَنَعَ وبَخِلَ: قد قَبَضَ يَدَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٤).

- قولُه: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، أي: تَركُوهُ حين تَركوا نبيَّهُ وشِرْعتَه، فتَركَهم حين لم يَهْدِهم، ولا كَفاهم عذابَ النَّارِ؛ ففيهِ التَّعبيرُ عَنِ التَّرْكِ بالنِّسيانِ؛ وإنَّما يُعبَّرُ بالنِّسيانِ عَنِ التَّركِ مُبالغةً؛ إذ أبلَغُ وجوهِ التَّرْكِ الوَجْهُ الذي يَقْتَرِنُ به نِسيانٌ، أو مُبالَغةً في أنَّه لا يَخْطُرُ ذلك ببالٍ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ -حيثُ لم يَقُلْ: (إنَّهم)-؛ لزِيادةِ تَقريرِهم في الذِّهْنِ لهذا الحُكْمِ، ولِتكونَ الجُمْلةُ مُسْتَقِلَّةً حتَّى تكونَ كالمَثَلِ[٢].

- وقولُه: ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ صِيغةُ قَصْرٍ، أي: هم الكامِلونَ في الفِسْقِ، وهو قَصْرٌ ادِّعائيٌّ للمُبالَغةِ؛ لأنَّهُمْ لَمَّا بَلَغوا النِّهايةَ في الفُسوقِ جُعِلَ غيرُهم كمَنْ ليس بفاسِقٍ[٣]، فحَصَرَ الفِسقَ فيهم؛ لأنَّ فِسقَهم أعظَمُ مِن فِسقِ غَيرِهم؛ بدليلِ أنَّ عَذابَهم أشَدُّ مِن عذابِ غَيرِهم، وأنَّ المُؤمِنينَ قد ابتُلُوا بهم؛ إذ كانوا بين أظهُرِهم، والاحترازُ منهم شديدٌ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

- جُمْلةُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ اسْتِئنافٌ بيانيٌّ ناشِئٌ عَنْ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، أو مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾؛ لأنَّ الخُلودَ في جَهنَّمَ واللَّعنَ بَيانٌ للمرادِ مِنْ نِسيانِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٣).

إيَّاهم[١].

- وفي قولِهِ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ -حيثُ لم يَقُلْ: (وَعَدَهُمُ اللهُ)-؛ لتقريرِ المحكومِ عليه في ذِهْنِ السَّامِعِ حتَّى يتمكَّنَ اتِّصافُهم بالحُكْمِ. وزيادةُ ذِكْرِ الكُفَّارِ هنا؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُنافِقين ليسوا بأهونَ حالًا مِنَ المشركينَ؛ إذْ قَدْ جَمَعَ الكُفْرُ الفريقينِ[٢].

- وعبَّر بصيغةِ الماضي ﴿وَعَدَ﴾؛ للإخبارِ عَنْ وعيدٍ تَقدَّمَ، وَعَدَهُ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ تذكيرًا بِهِ؛ لزيادةِ تَحقيقِهِ، أو لصَوغِ الوعيدِ في الصِّيغةِ التي تَنشأُ بِها العُقودُ، مِثْلَ: (بِعْتُ ووَهَبْتُ)؛ إشعارًا بأنَّهُ وعيدٌ لا يتخلَّفُ مِثْلَ العَقْدِ والالْتِزامِ[٣].

- قوله: ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ فيه مُبالَغةٌ في عِظَمِ عذابِها، وأنَّهُ لا شيءَ أبْلَغَ مِنه، وأنَّهُ بحيثُ لا يُزادُ عليه[٤].

- قولُه: ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه إظهارُ الاسْمِ الجليلِ (الله)؛ للإيذانِ بشِدَّةِ السَّخَطِ عليهم[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨١).

وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةً﴾ فيه الْتِفاتٌ عن ضمائرِ الغَيبةِ الرَّاجِعةِ إلى المُنافِقينَ، إلى خِطابِهم؛ لقَصْدِ التَّقريعِ والتَّهديدِ بالمَوعظةِ، والتَّذكيرِ عَنِ الغُرورِ بما هم فيه مِنْ نِعْمةِ الإمهالِ بأنَّ آخِرَ ذلك حَبطُ الأعمالِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وأنْ يَحِقَّ عليهم الخُسرانُ[(١)].

- وقولُه: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةً وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ تَفْسيرٌ وبيانٌ لِشَبَهِهم بهم، وتمثيلٌ لحالِهم بحالِهم[(٢)].

- قولُه: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ فيه مِنْ محاسِنِ البلاغةِ: أنَّه لَمَّا ذَكَرَ تَشبيهَهم بمَنْ قَبْلَهم، وذَكَر ما كانوا فيه مِنَ شِدَّةِ القُوَّةِ، وكَثْرةِ الأولادِ، واسْتِمتاعِهم بما قُدِّرَ لهم مِنَ الأنصباءِ، أي: الحُظوظِ، شَبَّهَ اسْتِمتاعَ المُنافِقينَ باسْتِمتاعِ الذين مِنْ قَبْلِهم، وأبْرَزَهم بالاسمِ الظَّاهِرِ فقال: ﴿كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾، ولَمْ يَكُنِ التَّركيبُ (كما اسْتَمْتَعوا بخلاقِهِمْ)، فأوْقَع الظَّاهِرَ مَوقِعَ المُضْمَرِ؛ ليَدُلَّ بذلك على التَّحقيرِ لهم؛ لأنَّهُ كما يَدُلُّ بإعادةِ الظاهِرِ مَكانَ المُضْمَرِ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ، كذلك يَدلُّ بإعادتِهِ على التَّحقيرِ والتَّصغيرِ لشأنِ المذكورِ؛ كما في قولِهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾[(٣)] [مريم: ٤٤].

- قولُه: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ في صِيغةِ الاسْتِفعالِ ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ﴾ ما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٨٥).

ليس في صِيغةِ التَّفعُّلِ (تَمتَّعوا) مِنَ الاسْتِزادةِ والاسْتِدامةِ في التَّمتُّعِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ فيه للمُبالَغةِ في قُوَّةِ التَّمتُّعِ[١].

- وقولُه: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ﴾ فيه التَّكريرُ في تَرديدِ فِعْلِ الاسْتِمتاعِ؛ ذلك أنَّهُ شَبَّهَ حالَهم بحالِ الأوَّلينَ؛ ففي التَّكريرِ تأكيدٌ ومُبالَغةٌ في ذَمِّ المُخاطَبينَ، وتَقبيحُ حالِهم، واسْتِهجانُ أَمْرِهم[٢].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ فيه إعادةُ اسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للاهْتِمامِ بتَمييزِ المُتحَدَّثِ عنهم؛ لزِيادةِ تَقريرِ أحوالِهم في ذِهْنِ السَّامِعِ[٣]، وللإشعارِ بعِلِيَّةِ الأوصافِ المُشارِ إليها للحُبوطِ والخُسْرانِ[٤].

- وفي الالتفاتِ إلى مَقامِ الخِطابِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى تحذيرِ كُلِّ سامِعٍ عَن مِثلِ هذه المقالةِ[٥].

٤- قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ...﴾ اسْتِفهامٌ للتَّقريرِ والتَّحذيرِ[٦].

- قولُه: ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ اسْتئنافٌ بيانيٌّ نَشأ عَنْ قولِه: ﴿نَبَأُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٩).
(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٣٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢).

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾، أي: أتتْهُم رُسُلُهم بدَلائلِ الصِّدقِ والحَقِّ[١].

- قولُه: ﴿أَنَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ ﴾ فيه حذْفٌ بَيْنَ قولِه: ﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ وقولِه: ﴿فَمَا كَانَ ﴾، والتَّقديرُ: فكذَّبوا فأهْلَكَهمُ اللهُ ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ ﴾[٢]؛ فتَفريعُ ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ ﴾ على قوله: ﴿أَنَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ إيجازُ حذْفٍ بديعٌ؛ لأنَّ مَجيءَ الرُّسلِ بالبيِّناتِ يَقتضي تصديقًا وتكذيبًا، فلمَّا فرَّعَ عليه أنَّهم ظَلموا أنفُسَهم، عُلِمَ أنَّهم كذَّبوا الرُّسُلَ، وأنَّ اللهَ جازاهم على هذا بأنْ عاقَبَهم عِقابًا لو كان لغيرِ جُرمٍ لشابَهَ الظُّلمَ؛ فجُعِلَ مِن مجموع نفْيِ ظُلمِ الله إيَّاهم، ومِن إثباتِ ظُلمِهم أنفُسَهم، مَعرفةُ أنَّهم كذَّبوا الرُّسُلَ وعانَدوهم، وحَلَّ بهم ما هو معلومٌ مِن مُشاهدةِ دِيارِهم، وتَناقُل أخبارِهم[٣].

- والتعبيرُ بقولِه: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ ﴾ فيه مُبالَغةٌ في تَنزيهِ اللهِ سُبْحانَه عن الظُّلْمِ، أي: ما صَحَّ وما اسْتقامَ له أنْ يَظْلِمَهم، ولكِنَّهم ظَلَموا أَنْفُسَهم[٤].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ فيه الجَمعُ بينَ صِيغَتَي الماضي والمُسْتقبلِ؛ للدَّلالةِ على اسْتِمرارِ ظُلْمِهم، حيثُ لم يَزالوا يُعَرِّضونَها للعقابِ بالكُفْرِ والتَّكذيبِ[٥].

- وفيه تقديمُ المفعولِ ﴿أَنفُسَهُمۡ ﴾ على الفِعْلِ ﴿يَظۡلِمُونَ ﴾؛ للاهْتِمامِ به،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مع مُراعاةِ الفاصِلةِ[١].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٧١-٧٢)

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَدْنٍ﴾: أي: إقامَةٍ وخُلدٍ، واستقرارٍ وثباتٍ، يُقال: عَدَن بالمكانِ، يَعْدِنُ عَدْنًا، إذا لَزِمه، ولم يبْرَح منه، وأصلُ (عدن): يدلُّ على الإقامةِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُؤمِنينَ والمؤمناتِ بَعضُهم أنصارُ بَعضٍ؛ يأمرونَ بالمعروفِ، وينهَونَ عن المُنكَرِ، ويؤدُّونَ الصَّلاةَ المفروضةَ كما يجِبُ، ويُعطونَ الزَّكاةَ لِمُستحقِّيها، ويُطيعونَ الله ورسولَه، أولئك سيرحَمُهم الله تعالى؛ إنَّ اللهَ عزيزٌ حَكيمٌ.

ويخبِرُ تعالى أنَّه وَعَدَهم جناتٍ تَجري من تحتِ أشجارِها الأنهارُ، ماكثينَ فيها أبدًا، ووَعَدَهم أن يُسكِنَهم منازِلَ حَسَنةً، لا عيبَ فيها، في جناتِ إقامةٍ دائمةٍ، لا يُخرجونَ منها، ورِضوانٌ منه تعالى عن المؤمنينِ والمؤمِناتِ أعظَمُ مِن نعيمِ الجنَّةِ، ذلك الذي وعَدَ اللهُ به المؤمنينَ والمؤمناتِ هو الفَوزُ العظيمُ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وصَف الله تعالى المُنافقين بالأعمالِ الفاسِدة، والأفعالِ الخَبيثةِ، ثمَّ ذكَرَ عَقيبَه أنواعَ الوَعيدِ في حقِّهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ ذكَرَ بعدَه- في هذه الآيةِ- كَونَ المُؤمِنينَ مَوصوفينَ بصِفاتِ الخَيرِ، وأعمالِ البِرِّ، على ضِدِّ صِفاتِ المُنافِقينَ[١].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ سبحانَه أنَّ المُنافِقينَ بَعضُهم من بعضٍ، وما توعَّدَهم به وما استَتبَعَه مِن تهديدِهم بإهلاكِ مَن شابَهوه، وختَمَ بما سبَّبَ هلاكَهم من إصرارِهم وعدَمِ اعتبارِهم- عطَفَ ببيانِ حالِ المؤمنينَ؛ ترغيبًا في التوبةِ، طَمَعًا في مِثلِ حالِهم[٢]، فقال:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾.

أي: وأمَّا المؤمِنونَ والمؤمناتُ فبَعضُهم أنصارُ بعضٍ، متحابُّونَ في اللهِ، مُتعاطِفونَ، غيرُ مُتفرِّقينَ[٣].

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ؛ يشُدُّ بعضُه بعضًا))[٤].

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٣)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

(٤) رواه البخاري (٢٤٤٦) ومسلم (٢٥٨٥).

وسلَّم: ((مثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم، مَثَلُ الجَسَدِ؛ إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى))[(١)].

ثمَّ بيَّن أوصافَهم الحميدةَ، كما بيَّن أوصافَ مَن قبلَهم مِن المنافقينَ، فقال[(٢)]:

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

أي: المؤمنونَ والمؤمِناتُ يأمُرونَ النَّاسَ بكُلِّ خَيرٍ يُحبُّه اللهُ، مِن الإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ، ويَنهونَهم عن كلِّ شَرٍّ يُبغِضُه اللهُ، مِن الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: ويؤدُّونَ الصَّلواتِ المفروضةَ بِشُروطِها وأركانِها وواجباتِها، ويُعطونَ زكاةَ أموالِهم لِمُستحِقِّيها[(٤)].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٦٢) و (١٠/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٨).

اختيارُ ابنِ جرير أنَّ المرادَ الصَّلاةُ المفروضةُ والزكاةُ المفروضةُ. ونقَل عن ابنِ عباسٍ في قولِه تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أنَّها الصلواتُ الخمسُ. ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٧).

﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

أي: ويُلازِمونَ طاعةَ اللهِ تعالى فيما أمَرَهم به أو نهاهم عنه، ويُلازِمونَ طاعةَ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما أمَرَهم به، أو نهاهم عنه[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

أي: هؤلاءِ الذينَ هذه صفتُهم سيرحَمُهم اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى ذو عزَّةٍ، فمن أطاعه أعَزَّه، ومن عَصاه وكفَرَ به فإنَّه ينتقِمُ منه، لا يمنَعُه منه مانِعٌ، ولا ينصُرُه منه ناصِرٌ، فهو قَوِيٌّ قاهِرٌ، حكيمٌ في انتقامِه منهم، وفي جميعِ ما يفعَلُه، فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائقِ به[٣].

قال القرطبيُّ- بعدَ ذكرِ قولِ ابنِ عبَّاسٍ السابقِ- قال: (وبحسبِ هذا تكونُ الزكاةُ هنا المفروضةَ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٣).

وذهب ابنُ عطيَّةَ إلى أنَّ المدحَ بالنوافل أبلغُ، قال: (إذ مَن يقيمُ النَّوافِلَ أحرى بإقامةِ الفَرضِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٨).

واختار محمد رشيد رضا أنَّ المرادَ الفرائضُ والنوافلُ، فقال: (﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يؤدُّونَ الصلاةَ المفروضةَ، وما شاؤوا من التطوُّعِ، على أقومِ وجهٍ وأكمَلِه في شروطِها وأركانِها وآدابِها، ولا سيَّما الخشوعُ لله تعالى، وكثرةُ ذِكْرِه فيها، وما يُوجِبُه الإيمانُ مِن حضورِ القَلبِ في مُناجاتِه، ويُعطونَ الزَّكاةَ المفروضةَ عليهم لِمَن فُرِضَت لهم في الآيةِ الستين من هذه السورة، وما وُفِّقُوا له من التطوُّعِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦، ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الوَعدَ في الآيةِ الأُولَى على سبيلِ الإجمالِ؛ ذكَرَه في هذه الآيةِ على سبيلِ التَّفصيلِ؛ وذلك لأنَّه تعالى وعَدَ بالرَّحمةِ، ثمَّ بَيَّن في هذه الآيةِ أنَّ تلك الرحمةَ هي هذه الأشياءُ[١].

وأيضًا لَمَّا أعقَبَ المُنافِقينَ بذِكرِ ما وعَدَهم به من نارِ جهنَّمَ، أعقَبَ المؤمنينَ بذِكرِ ما وعَدَهم به من نعيمِ الجِنانِ[٢].

وأيضًا لما ذكَرَ الله تعالى كَونَ المُؤمِنينَ مَوصوفينَ بصِفاتِ الخَيرِ، وأعمالِ البِرِّ؛ ذكَرَ بَعدَه أنواعَ ما أعَدَّ الله لهم من الثَّوابِ الدَّائمِ، والنَّعيمِ المُقيمِ[٣].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: وعَدَ اللهُ المُؤمِنينَ والمؤمِناتِ بَساتينَ تجري من تحتِ أشجارِها أنهارُ الجنَّةِ، ماكثينَ فيها أبدًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٧)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).
قال الرازي: (قولُه: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ والأقرَبُ أن يقال: إنه تعالى أراد بها البساتينَ التي يتناولُها المناظِرُ؛ لأنه تعالى قال بعده: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ والمعطوفُ يجب أن يكون مُغايرًا للمعطوفِ عليه، فتكون مساكِنُهم في جنَّاتِ

كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلٗا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾.

أي: ووعَد اللهُ المؤمنينَ والمؤمِناتِ أن يُسْكِنَهم منازِلَ حَسَنةً، لا عَيبَ فيها[١]، مبنيَّةً في بساتينِ إقامةٍ دائمةٍ، لا يُخرَجونَ منها[٢].

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((جنَّتانِ مِن فِضَّةٍ آنيَتُهما وما فيهما، وجنَّتانِ مِن ذَهَبٍ آنيَتُهما وما فيهما، وما بين القَومِ وبين أن ينظُروا إلى ربِّهم إلَّا رِداءُ الكِبرِ على وَجهِه، في جنَّةِ عَدْنٍ))[٣].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

عَدْنٍ، ومناظِرُهم الجنَّاتِ التي هي البَساتينُ، فتكون فائدةُ وصفِها بأنَّها عَدنٌ، أنَّها تجري مجرى الدَّارِ التي يسكُنُها الإنسانُ، وأمَّا الجنَّات الآخِرةُ فهي جاريةٌ مجرى البساتينِ التي قد يذهبُ الإنسانُ إليها؛ لأجل التنزُّه، وملاقاةِ الأحبابِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠١).

(١) قال ابن كثير: (حَسَنةُ البناءِ، طَيِّبةُ القَرارِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥).

وقال السعدي: (قد زُخرِفَت وحُسِّنَت وأُعِدَّت لعبادِ الله المتَّقين، قد طاب مرآها، وطاب مَنزِلُها ومَقيلُها، وجَمَعَت من آلاتِ المساكِنِ العالية ما لا يتمنَّى فَوقَه المتمَنُّون، حتى إنَّ الله تعالى قد أعدَّ لهم غُرفًا في غايةِ الصَّفاءِ والحُسنِ، يُرى ظاهِرُها من باطِنِها، وباطِنُها مِن ظاهِرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

وقال ابن عاشور: (﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾، أي: ليس فيها شيءٌ مِن خَبَثِ المساكِنِ، مِن الأوساخِ وآثارِ علاجِ الطَّبخِ ونَحوِه، نظيرُ قَولِه: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ [البقرة: ٢٥]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٧، ٥٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٤)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٤).

(٣) رواه البخاري (٧٤٤٤)، ومسلم (١٨٠).

قال: ((إنَّ للمُؤمِنِ في الجنَّةِ لَخَيمةً مِن لؤلؤةٍ واحدةٍ مُجَوَّفةٍ، طُولها سِتُّون مِيلًا، للمُؤمِنِ فيها أهلُونَ، يطوفُ عليهم المؤمِنُ، فلا يرى بعضُهم بعضًا))[١].

﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

أي: ورضا الله تعالى عن المؤمِنينَ والمؤمناتِ أعظمُ وأفضَلُ ممَّا هم فيه مِن نَعيمِ الجنَّةِ[٢].

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيقولون: لبَّيك ربنا وسَعدَيك، والخَيرُ في يَدَيك، فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضَى يا رَبِّ، وقد أعطَيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا مِن خَلْقِك؟! فيقولُ: ألَا أعطِيكم أفضَلَ مِن ذلك؟ فيقولونَ: يا ربِّ، وأيُّ شَيءٍ أفضَلُ من ذلك؟! فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بعده أبدًا))[٣].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، يقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: هل تَشتَهونَ شَيئًا فأزيدَكم؟ فيقولونَ: ربَّنا، وما فوقَ ما أعطيتَنا؟! يقول: رِضواني أكبَرُ))[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٣) ومسلم (٢٨٣٨)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٥).

(٣) رواه البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٤) أخرجه ابن حبان (٧٤٣٩)، والطبراني في ((الأوسط)) (٩٠٢٥)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢٧٦).

قال ابنُ كثيرٍ في ((البداية والنهاية)) (٢/ ٢٩٨): على شرطِ البخاري، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٢٤).

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: ما وعدَ اللهُ تعالى به المؤمنينَ والمُؤمِناتِ مِن النَّعيم والرِّضوانِ في الآخرةِ، هو النَّجاةُ العظيمةُ، والظَّفَر الكبيرُ الذي لا أكبَرَ ولا أعظَمَ منه[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۞ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧-٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أنَّ المؤمنَ يحبُّ المؤمنَ، وينصُرُه بظَهرِ الغَيبِ، وإنْ تناءَت بهم الدِّيارُ، وتباعدَ الزَّمانُ[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هذه الأمورُ الخَمسةُ بها يتميَّزُ المؤمِنُ مِن المنافِقِ، فالمنافِقُ- على ما وصَفَه اللهُ تعالى في الآيةِ المتقَدِّمة- يأمرُ بالمنكَرِ، وينهى عن المعروفِ، والمؤمِنُ بالضِّدِّ منه. والمنافِقُ لا يقومُ إلى الصَّلاةِ إلَّا مع نوعٍ مِن الكسَلِ، والمؤمِنُ بالضِّدِّ منه. والمنافِقُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٥).

يبخَلُ بالزكاة وسائِرِ الواجباتِ، والمؤمنونَ يُؤتونَ الزَّكاةَ. والمنافِقُ إذا أمَرَه الله ورسولُه بالمسارعةِ إلى الجهادِ، فإنَّه يتخلَّفُ بنَفسِه، ويثَبِّطُ غَيرَه، والمؤمنونَ بالضدِّ منهم(١).

٣- في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ دلالةٌ على أنَّ دخولَ المؤمنين الجنةَ إنَّما هو برحمتِه سبحانه لا بأعمالِهم؛ لأنَّه- تبارك وتعالى- بعدَ ما وصفَهم به مِن كثرةِ الأعمالِ، وَعَدَهم الرحمةَ قبلَ الجنةِ، حتى يكونَ دخولُهم إيَّاها برحمتِه لا بأعمالِهم؛ إذْ أعمالُهم لو قِيْسَتْ ببعضِ النِّعَمِ لاستفرغَتْها؛ فلا يحصلُ لهم إلَّا رحمتُه، فلمَّا تغمدتْهم وأدخلَتْهم دارَ كرامتِه؛ عَطَفَ عليهم بفضلٍ جديدٍ، ونعمةٍ مثناةٍ(٢).

٤- اللهُ تعالى جعلَ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ، فَرْقَ ما بين المؤمِنينَ والمُنافِقينَ؛ لأنَّه قال: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧] وقال: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ فثبَت بذلك أنَّ أخَصَّ أوصافِ المُؤمِنينَ وأقواها دَلالةً على صِحَّةِ عَقْدِهم، وسلامةِ سَريرتِهم، هو الأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المُنكَر، وهاتان الصِّفتانِ هما سِياجُ حِفظِ الفَضائِلِ، ومَنعِ فشُوِّ الرذائلِ، وقد فضَّلَ الله تعالى بهما أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على سائرِ الأمَمِ في قَولِه تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(٣) [آل عمران: ١١٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٠-١٠١).

(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((شعب الإيمان)) للبيهقي (١٠/ ٥٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٧).

٥- قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ هؤلاء الآمِرونَ بالمَعروفِ، والنَّاهونَ عن المُنكَرِ أطبَّاءُ الأديانِ، الذين تشفَى بهم القلوبُ المريضةُ، وتهتدي بهم القُلوبُ الضالَّةُ، وتَرشُدُ بهم القلوبُ الغاويةُ، وتستقيمُ بهم القُلوبُ الزائغةُ، وهم أعلامُ الهدى ومصابيحُ الدُّجى(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ مَنْ كان مُؤْمِنًا وجَبَتْ مُوالاتُه مِن أيِّ صِنْفٍ كان، ومَنْ كان كافِرًا وَجَبَتْ مُعاداتُه مِن أيِّ صِنْفٍ كان، ومَن كان فيه إيمانٌ وفيه فجورٌ، أُعطِيَ مِن المُوالاةِ بحسَبِ إيمانِه، ومِن البُغضِ بحسَبِ فُجورِه(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ وظيفةَ الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ ليست خاصةً بالرِّجالِ، بل حتى النِّساءُ عليهنَّ أن يأمُرنَ بالمعروفِ، ويَنهَينَ عن المُنكَر، ليس في مجامعِ الرِّجالِ، وفي أسواقِ الرِّجالِ، لكنْ في حقولِ النِّساءِ، ومُجتَمَعاتِ النِّساءِ(٣).

٢- قَولُه تبارك وتعالى: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ أي: في سائرِ الأمورِ، في مُقابلةِ وَصْفِ المنافقينَ بكَمالِ الفِسقِ، والخُروجِ عن الطَّاعةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٤١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٩).

٣- لا يُشرَعُ اجتماعُ طائفةٍ وتحزُّبُهم على التَّناصُرِ المُطلَق، بحيث ينصُرُ بعضُهم بعضًا في الحقِّ والباطلِ، بل الواجبُ على كلِّ أحدٍ اتِّباعُ كتابِ الله وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمؤمنونَ إخوةٌ يجِبُ موالاةُ بعضِهم بعضًا وتناصرُهم، وتعاونُهم على البرِّ والتَّقوى، قال تعالى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ ﴾[1].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ الآيةُ نَصٌّ في مساواةِ النِّساءِ للرِّجالِ في نعيمِ الآخرةِ كُلِّه حتى أعلاه، بالتَّبَعِ؛ لِمُساهَمتِهنَّ لهم في التَّكليفِ ووَلايةِ الإيمان، إلَّا ما خَصَّهنَّ الشَّرعُ به لِضَعفِهنَّ، وانفِرادِهنَّ بوظائفِهنَّ الخاصَّةِ بهنَّ؛ إذ حَطَّ عنهنَّ وُجوبَ القتالِ، والصَّلاةَ والصِّيامَ في بعضِ الأحوالِ، وهذا من المعلومِ بالضَّرورةِ مِن أحكامِ الإسلام، وإنْ جَهِلَه أو تجاهَلَه أعداؤُه الطَّغام[2].

٥- رِضا اللهِ عن العبدِ أكبَرُ مِن الجنَّةِ وما فيها؛ لأنَّ الرِّضا صفةُ اللهِ، والجنَّةُ خَلْقُه؛ قال الله تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ بعد قولِه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ وهذا الرِّضا جزاءٌ على رِضاهم عنه في الدُّنيا، ولَمَّا كان هذا الجزاءُ أفضَلَ الجزاءِ، كان سبَبُه أفضَلَ الأعمالِ[3].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٩).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٠٨).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قولُه: ﴿أَكْبَرُ﴾ تفضيلٌ لم يُذكَرْ معه المفضَّلُ عليه؛ لظهورِه مِن المقام، أي: أكبَرُ مِن الجنَّاتِ؛ لأنَّ رِضوانَ الله أصلٌ لجميعِ الخَيراتِ، وفيه دليلٌ على أنَّ السَّعاداتِ الرُّوحانيَّةَ أعلى وأشرَفُ مِن الجُثمانيَّة[1].

بلاغةُ الآيتَين:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ عَبَّر عَنْ نِسبةِ المؤمنينَ بعْضِهم إلى بعضٍ بالوَلايةِ، وعن نِسْبةِ المُنافِقينَ بـ﴿مِنْ﴾ الاتِّصاليَّةِ؛ للإيذانِ بأنَّ نِسْبةَ هؤلاءِ -أي: المُؤمنِينَ- بطَريقِ القَرابةِ الدِّينيَّةِ، المبنيَّةِ على المُعاقَدةِ، المُسْتتبِعَةِ للآثارِ مِنَ المعونةِ والنُّصْرةِ وغيرِ ذلك، وأنَّ نِسْبةَ أولئكَ-أي: المُنافِقينَ- بمُقْتضَى الطَّبيعةِ والعادةِ[2]؛ فقولُه في المُؤمنِينَ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ مُقابِلُ قولِه في الْمُنَافِقِينَ: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، وعَبَّرَ في جانِبِ المؤمنينَ والمؤمناتِ بأنَّهُمْ أولياءُ بَعْضٍ؛ للإشارةِ إلى أنَّ اللُّحْمةَ الجامعةَ بَيْنَهُمْ هي وَلايةُ الإسلامِ؛ فهم فيها على السَّواءِ، ليس واحدٌ مِنْهم مُقلِّدًا للآخَرِ، ولا تابعًا له على غيرِ بصيرةٍ؛ لِما في مَعْنى الوَلايةِ مِنَ الإشعارِ بالإخلاصِ والتَّناصُرِ، بخِلافِ المنافقينَ، فكأنَّ بَعْضَهم ناشئٌ مِنْ بَعْضٍ في مَذامِّهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٢).

- قولُه: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ لَمَّا وَصَفَ المؤمنينَ بقولِه: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ذَكَرَ بَعْدَه ما يجرِي كالتَّفسيرِ والشَّرْحِ له، وهي الخَمسةُ التي يُميِّزُ بها المؤمِنُ على المنافِقِ؛ فالمُنافِقُ يَأْمُرُ بالمُنْكَرِ، ويَنْهَى عَنِ المعروفِ، ولا يَقومُ إلى الصَّلاةِ إلَّا وهو كَسْلانُ، ويَبْخَلُ بالزَّكاةِ، ويَتخلَّفُ بنَفْسِهِ عَنِ الجِهادِ، وإذا أمَرَه اللهُ تَثبَّطَ وثَبَّطَ غيرَه، والمؤمنُ بضِدِّ ذلك كُلِّه[١].

- وزِيدَ في وَصْفِ المؤمنينَ هُنا: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تَنويهًا بأنَّ الصَّلاةَ هي أعظمُ المعروفِ[٢]، ومُقابلةً لِمَا سَبَقَ مِنْ قولِهِ تَعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾[٣].

- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ خصَّصَ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ بالذِّكرِ مِن جملةِ العباداتِ؛ لِكَونِهما الرُّكنَينِ العَظيمَينِ فيما يتعلَّقُ بالأبدانِ والأموالِ[٤].

- قولُه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه الإتيانُ بالسِّينِ التي تَدُلُّ على اسْتِقبالِ الفِعْلِ؛ لأنَّ الرَّحْمةَ هنا عِبارةٌ عمَّا يَترتَّبُ على تِلْكَ الأعمالِ الصَّالِحةِ مِنَ الثَّوابِ والعِقابِ في الآخِرةِ[٥]، وهذه السِّينُ تفيدُ تَأكيدَ حُصولِ الرَّحمةِ في المُسْتَقْبَلِ؛ فحَرْفُ الاسْتِقبالِ يُفيدُ مَعَ المُضارِعِ ما تُفيدُ (قَدْ) مَعَ الماضي[٦].

- واسْمُ الإشارةِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ ما سَيَرِدُ بَعْدَ اسْمِ الإشارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢).
(٤) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/ ٤٣٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٣).

صاروا أَحْرياءَ به مِنْ أجْلِ الأوصافِ المذكورةِ قَبْلَ اسْمِ الإشارةِ[١].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تعليلٌ لجُمْلةِ: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: إنَّهُ تعالى لِعزَّتِهِ يَنْفَعُ أولياءَه، وإنَّهُ لِحَكْمتِه يَضَعُ الجزاءَ لِمُسْتَحِقِّه[٢]. وقيل: هي تَعليلٌ للوَعْدِ اللَّاحِقَ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ ...﴾[٣].

وقيل: لأنَّه لا يرحمُ إلا مَن ليس فوقَه أحدٌ يردُّ عليه حُكمَه، وهو العزيزُ؛ لأنَّ العزيزَ في صفاتِ الله هو الغالبُ، ووصف بالحكيم أيضًا؛ لأنَّ الحكيمَ مَن يضعُ الشيءَ في محلِّه، فالله تعالى كذلك، إلَّا أنَّه قد يُخفي وجهَ الحكمةِ في بعضِ أفعالِه، فيتوهمُ الضعفاءُ أنَّه خارجٌ عن الحكمةِ، فكان في الوصفِ بالحكيمِ احتراسٌ حسنٌ[٤].

وقيل: ختَم الآيةَ بوصفِ العزةِ والحكمةِ؛ ليناسبَ افتتاحَها بالموالاةِ، وتعقيبَها بآيةِ الجهادِ[٥].

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يوجبُ المبالغةَ في الترغيبِ والترهيبِ؛ لأنَّه عزيزٌ لا يمنعُ مِن مرادِه في عبادِه مِن رحمةٍ أو عقوبةٍ، وحكيمٌ يدبرُ أمرَ عبادِه على ما يقتضيه العدلُ والصوابُ[٦].

ولولا أنَّ الوعدَ هنا للمُقابلةِ بالوعيدِ الَّذي قبلَه، لكانَ المناسِبُ أنْ يُقالَ: (إِنَّ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٨٩ - ٩٠)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٤٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠١).

اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ تَفصيلٌ لآثارِ رَحْمتِهِ الأخرويَّةِ إِثْرَ ذِكْرِ رَحْمتِهِ الدُّنيويَّةِ، وفيه إظهارٌ في مَوقِعِ الإضمارِ- حيثُ لم يَقُلْ: وَعَدَهم اللهُ-؛ لِزيادةِ التَّقريرِ، والإشعارِ بعِلِّيَّةِ وَصْفِ الإيمانِ لحُصولِ ما تَعلَّقَ به الوَعْدُ، وعَدَمُ التَّعرُّضِ لذِكْرِ ما مَرَّ مِن الأمرِ بالمعروفِ وغيرِ ذلك؛ للإيذانِ بأنَّهُ مِنْ لوازِمِه ومُسْتَتْبعاتِه[٢].

- قولُه: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ... ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فيه تفصيلٌ للوعدِ الإجماليِّ الذي في قولِه: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ تَنْبيهًا على أنَّ تِلْكَ الرَّحْمةَ هي هذه الأشياءُ[٣].

- قولُه: ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ مُنكَّرٌ للتَّنويعِ، يَدُلُّ على جِنْسِ الرِّضوانِ، وإنَّما لَمْ يُقْرَنْ بلامِ تَعريفِ الجِنْسِ؛ ليُتوسَّلَ بالتَّنكيرِ إلى الإشعارِ بالتَّعظيمِ؛ فإنَّ رِضوانَ اللهِ تعالى عظيمٌ[٤]، وتأمَّلْ كيف جاء بالرِّضوانِ مُبتدأً مُنكَّرًا في سِياقِ الإثباتِ، مُخبرًا عنه بأنَّه أكبَرُ مِن كُلِّ ما وُعِدوا به فأيُّ شَيءٍ كان مِن رضاه عن عَبدِه، وأيسَرُ شَيءٍ مِن رضوانِه؛ أكبَرُ مِن الجنَّاتِ وما فيها مِن المساكِنِ الطَّيِّبةِ وما حَوَتْه[٥]، وعَدَمُ نَظْمِه في سِلكِ الوَعْدِ مع عِزَّتِه في نَفْسِه؛

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٤).
(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٧٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٦٦)،

لأنَّه مُتحقِّقٌ في ضِمْنِ كُلِّ موعودٍ، ولأنَّه مُسْتَمِرٌّ في الدَّارينِ[١].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فيه التعبيرُ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وما فيه مِنْ معنى البُعْدِ؛ للإيذانِ ببُعْدِ دَرَجتِهِ في العِظَمِ والفخامةِ[٢].

- وفيه التأكيدُ بضميرِ الفَصلِ ﴿هُوَ﴾ وبالجملةِ الاسميَّةِ، والوصفِ بـ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ المفيدِ للأهميَّة، وكذلك أُتِي بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ لتخصيصِ الفوزِ بالفضلِ المشارِ إليه، وهو قصرٌ لإفادةِ معنى الكمالِ، كأنَّه لا فوزَ غَيرُه[٣]، ودخولُ ضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ أيضًا فيه تَنْبِيهٌ على عِظَمِ شَأنِ الْمَذْكُورِ[٤].

((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ١٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٠) و(٢٥/ ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٣).

الآيتان (٧٢-٧٤)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱغۡلُظۡ﴾: أي: اشْدُدْ، وأصلُ (غلظ): يدلُّ على ضِدِّ الرِّقَّةِ[(١)].

﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾: أي: ومصيرُهم، ومثواهم ومقامُهم، ومسكنُهم ومكثُهم، أو مرجعُهم الذي يَعُودون إليه، والمَأْوى: مَكَانُ كلِّ شَيْءٍ ومرجعُه الَّذي يعودُ إليه ليلًا أو نهارًا؛ يُقال: أَوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه، وأصْلُه: التَّجمُّع[(٢)].

﴿نَقَمُوٓاْ﴾: أي: كَرِهوا وأنكَروا، وأصلُ (نقم): يدلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيبِه[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يجاهِدَ الكفَّارَ والمُنافِقينَ، وأن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٩، ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٤، ٤٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢، ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢، ٩١٦).

يَشدُدَ عليهم بالقَولِ والفِعلِ، ومصيرُهم في الآخرةِ نارُ جهنَّم، وبِئس المكانُ الذي صاروا إليه.

ويخبِرُ تعالى أنَّ المُنافِقينَ يَحلِفونَ باللهِ كَذِبًا على أنَّهم لم يتفوَّهوا بكلمةِ الكُفرِ، ولم يَقولوها، ولقد قالوها، وكَفَروا بعد إسلامِهم، وهمُّوا بما لم يستطيعوا الوصولَ إليه، وما عابُوا وما أنكَروا إلَّا أنْ أغناهم اللهُ ورسولُه مِن فَضلِه، فإن يتوبوا من نفاقِهم وكُفرِهم، يكُن ذلك خيرًا لهم، وإن يُعرِضوا عن الإيمانِ والتَّوبةِ يُعذِّبْهم اللهُ عذابًا مُوجِعًا في الدُّنيا والآخرةِ، وما لهم من وليٍّ يُحصِّلُ لهم الخيرَ، ولا نصيرٍ يدفَعُ عنهم الشرَّ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثبَتَت مُوالاةُ المُؤمِنينَ ومُقاطَعتُهم للمُنافِقينَ والكافرينَ، وكان ما مضى من التَّرغيبِ والتَّرهيبِ كافيًا في الإنابةِ، وكان مَن لم يرجِعْ بذلك عظيمَ الطُّغيانِ، غَريقًا في الكُفرانِ- أتبَعَ ذلك الأمرَ بجِهادِهم بما يليقُ بعِنادِهم[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾.

أي: يا أيُّها النبيُّ جاهدِ الكُفَّارَ المُحاربينَ، بالسِّلاحِ، وجاهِدْ غيرَ المحاربينَ مِنهم بالحُجَّةِ، وجاهِدِ المنافقينَ بالسِّلاحِ إنْ أظهَروا نفاقَهم، وبالحُجَّةِ لِرَدِّ شُبُهاتِهم، وبإقامةِ الحُدودِ على من يقَعُ فيها منهم[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٦٦، ٥٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٦١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٩)، ((تفسير الرازي))

كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وقال عز وجل: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا * مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما مِن نبيٍّ بعثَه اللهُ في أمَّةٍ قبلي إلاَّ كان له مِن أمَّتِه حواريُّونَ[1]

(١٦/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٤)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٧، ٣٤٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٢).

قال القرطبي: (الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتدخُلُ فيه أمَّتُه مِن بَعدِه). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٤).

وقال محمد رشيد رضا: (اتَّفَق علماءُ الملَّةِ على أنَّ المُنافقين يُعامَلونَ بأحكامِ الشَّريعةِ كالمُسلمين الصَّادقين، فلا يُقاتَلون إلَّا إذا أظهروا الكُفرَ البَواحَ بالرِّدَّةِ، أو بَغَوا على جماعةِ المُسلِمين بالقوَّةِ، أو امتنَعَ بعضُ طوائِفِهم من إقامةِ شَعائِرِ الإسلامِ وأركانِه). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٧٣، ٤٧٤).

وقال الرازي: (الجهادُ عبارةٌ عن بذلِ الجُهد، وليس في اللَّفظِ ما يدلُّ على أنَّ ذلك الجهادَ بالسَّيف أو باللِّسانِ أو بطريقٍ آخَرَ، فنقول: إنَّ الآيةَ تدُلُّ على وجوبِ الجهادِ مع الفريقينِ، فأمَّا كيفيَّةُ تلك المجاهدةِ فلفظُ الآيةِ لا يدلُّ عليها، بل إنما يُعرَفُ من دليلٍ آخَرَ، وإذا ثبت هذا فنقولُ: دلَّت الدَّلائلُ المنفصلةُ على أنَّ المجاهدةَ مع الكفَّارِ يجب أن تكونَ بالسَّيفِ، ومع المنافقينَ بإظهارِ الحجَّةِ تارةً، وبِتَركِ الرِّفقِ ثانيًا، وبالانتهارِ ثالثًا). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٣).

(١) الحواريُّونَ: الخواصُّ الأصفِياءُ. وَقيل: هم النَّاصِرونَ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث

وأصحابٌ، يأخُذونَ بسُنَّته، ويَقتَدونَ بأمْره، ثمَّ إنَّها تَخلُفُ من بعدهم خُلوفٌ[١]، يقولونَ ما لا يَفعلونَ، ويَفعلونَ ما لا يُؤمَرونَ، فمن جاهَدَهم بيَدِه فهو مؤمِنٌ، ومن جاهَدَهم بلسانِه فهو مؤمِنٌ، ومن جاهَدَهم بقَلبِه فهو مُؤمِنٌ، وليس وراءَ ذلك من الإيمانِ حَبَّةُ خَردلٍ))[٢].

﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: واشدُدْ- يا محمَّدُ- بالقَولِ والفِعلِ على الكفَّارِ والمُنافِقينَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ يهوديًّا رضَّ[٤] رأسَ جاريةٍ بين حَجَرينِ، فقيل لها: مَن فعلَ بك هذا؟ أفلانٌ أو فلانٌ، حتى سُمِّيَ اليهوديُّ، فأُتيَ به النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يزَلْ به حتى أقَرَّ به، فرَضَّ رأسَه بالحِجارةِ))[٥].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قَدِمَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه

الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٣٢٠).

(١) الخُلُوفُ: الخالِفونَ بعد السَّالِفينَ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٣٢٠).
قال النوويُّ: (أمَّا الخُلوفُ فبضمِّ الخاءِ، وهو جمعُ «خلْف» باسكانِ اللام، وهوالخالفُ بشرٍّ، وأمَّا بفتحِ اللام فهو الخالفُ بخيرٍ، هذا هو الأشهرُ) ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٢٨).

(٢) رواه مسلم (٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٦).
قال محمد رشيد رضا: (الغِلظةُ في اللغة: الخُشونةُ والشدَّةُ، ومعاملةُ العدُوِّ المحارِب بهما، مِن وَضعِ الشَّيءِ في موضِعِه، ومعامَلتُه باللِّينِ والرَّحمةِ وضعٌ لهما في غيرِ مَوضِعِهما). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٧٤).

(٤) الرَّضُّ: الكَسرُ والدَّقُّ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٤/ ١٩٥).

(٥) رواه البخاري (٦٨٧٦) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٢).

وسلَّم نفرٌ من عُكْلٍ، فأسلَموا، فاجتَوَوُا المدينةَ[١]، فأمَرَهم أن يأتوا إبلَ الصَّدَقةِ، فيَشرَبوا مِن أبوالِها وألبانِها، ففَعَلوا فصَحُّوا، فارتَدُّوا وقَتَلوا رُعاتَها، واسْتاقُوا الإبلَ، فبعَثَ في آثارِهم، فأُتيَ بهم، فقطَعَ أيديَهم وأرجُلَهم، وسَمَلَ أعيُنَهم[٢]، ثمَّ لم يَحسِمْهم[٣] حتى ماتوا))[٤].

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى عذابَهم في الدُّنيا بالجهادِ والغِلظةِ؛ ذكَرَ عذابَهم في الآخرةِ، فقال[٥]:

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: ومَقَرُّ الكفَّارِ والمُنافِقينَ في الآخرةِ نارُ جهنَّمَ لا يَخرُجونَ منها، وبِئسَ المكانُ الذي صاروا إليه[٦].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

---

(١) اجتَوَوا المَدينةَ: كَرِهوا المُقامَ بها؛ لِضَجَرٍ ونَوعٍ مِن سَقَمٍ. وأصلُه مِن الجَوى، وهو داءٌ يُصيبُ الجَوفَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٣١).

(٢) سَمَلَ أَعيُنَهم: أي: فقَأَها وأذهَبَ ما فيها. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٣/ ٢٨٥).

(٣) ولم يَحسِمْهم: أي: ولم يَكْوِهم. والحسم: كيُّ العِرقِ بالنَّارِ؛ لينقَطِعَ الدَّمُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٥٦).

(٤) رواه البخاري (٦٨٠٢) واللفظ له، ومسلم (١٦٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذه الآيةَ بيانٌ للسَّبَبِ المقتَضي لجهادِ المُنافِقينَ كالكُفَّار، وهو أنَّهم أظهَروا الكُفرَ بالقَولِ، وهمُّوا بشَرِّ ما يُغري به مِن الفِعلِ، وهو الفَتكُ برَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

وأيضًا لَمَّا كان معظَمُ ما أُخِذَ على المُنافِقينَ هو كَلِماتٍ دالَّةً على الطَّعنِ في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونحو ذلك من دلائِلِ الكُفرِ، وكانوا إذا نُقِلَ ذلك عنهم تنصَّلوا منه بالأيمانِ الكاذبةِ- عُقِّبَت آيةُ الأمرِ بجِهادِهم بالتَّنبيهِ على أنَّ ما يتنَصَّلونَ به تَنصُّلٌ كاذِبٌ، وأنْ لا ثِقةَ بحَلِفِهم، وعلى إثباتِ أنَّهم قالوا ما هو صريحٌ في كُفرِهم[2].

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾.

أي: يحلِفُ المنافِقونَ بالله كَذِبًا على أنَّهم لم يتفوَّهوا بكَلِمةِ الكُفرِ، كسَبِّ النبيِّ، والطَّعنِ في الدِّينِ، ولقَدْ نطَقوا بكلمةِ الكُفرِ التي يُنكِرونَ قَولَها[3].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٨).

في ظِلِّ حُجرةٍ مِن حُجَرِه وعنده نفَرٌ من المسلمين، قد كاد يَقلِصُ عنهم الظِّلُّ، فقال: إنَّه سيأتيكم إنسانٌ ينظُرُ إليكم بِعَينَي شَيطانٍ، فإذا أتاكم فلا تكَلِّموه، فجاء رجلٌ أزرَقُ، فدعاه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكلَّمَه، قال: علامَ تَشتِمني أنت وفلانٌ وفلانٌ- نفَرٌ دعاهم بأسمائِهم- قال: فذهَبَ الرَّجُلُ فدعاهم فحَلَفوا بالله واعتَذَروا إليه، قال: فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]))[(١)].

﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾.

أي: وأظهَرَ المُنافِقونَ كُفرَهم بما قالوه من الكُفرِ، بعد أن كانوا يُظهِرونَ الإسلامَ[(٢)].

﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾.

أي: وهمَّ المُنافِقونَ أن يفعلوا من الشَّرِّ والفَتْكِ برَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين رجَعَ مِن غزوةِ تَبوكَ، ما لم يستطيعوا الوصولَ إليه؛ إذ عصَمَه اللهُ

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٩).

قال ابن تيمية: (هذا الإسلامُ قد يكونُ مِن جِنسِ إسلامِ الأعرابِ، فيكونُ قَولُه: ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ و﴿بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ سواءً، وقد يكونون ما زالوا مُنافِقينَ، فلم يكنْ لهم حالٌ كان معهم فيها من الإيمانِ شَيءٌ؛ لِكَونِهم أظهَروا الكُفرَ والرِّدَّةَ؛ ولهذا دعاهم إلى التوبةِ، فقال: ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ ...﴾). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٧٢-٢٧٣).

وقيل: والمرادُ بإسنادِ الإسلامِ إليهم: إظهارُ الإسلام، لا وقوعُ حَقيقَتِه، فهم لم يُسلموا إسلامًا صادِقًا. وقد أنبأ عَن ذلك إضافةُ الْإِسلامِ إلى ضميرِهم دونَ تعريفِ الإسلامِ باللَّامِ المفيدةِ للحقيقةِ، أي بعدَ إسلامٍ هو مِن شأنِكم، وهذا تعريضٌ بأنَّه الإسلام الصُّوريُّ غيرُ الحقِّ ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦] وهذا مِن لطائفِ القرآن. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٢).

تعالى منهم[١].

﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

أي: والحالُ أنَّ المُنافِقينَ ما عابُوا وما أنكَرُوا إلَّا ما هو جديرٌ حقًّا بالمَدحِ والشُّكرِ والثَّناءِ، وهو إغناءُ اللهِ لهم مِن فَضلِه بسبَبِ رَسولِه، وبركةِ رسالَتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعد أن كانوا فُقَراءَ[٢]!

عن عبد الله بن زَيد بن عاصمٍ رَضيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا أفاء اللهُ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ حُنَينٍ، قسَمَ في النَّاسِ؛ في المؤلَّفةِ قُلوبُهم، ولم يُعطِ الأنصارَ شَيئًا، فكأنَّهم وجَدوا إذ لم يُصِبْهم ما أصابَ النَّاس، فخَطَبَهم فقال: يا معشَرَ الأنصارِ، ألَمْ أجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وكُنتُم متفرِّقينَ فألَّفَكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم اللهُ بي؟!))[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٠، ٣٧١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٧٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٤٧٧، ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٠).
قال ابن تيمية: (﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْ﴾ وهو يدلُّ على أنَّهم سَعَوا في ذلك فلم يَصِلوا إلى مَقصودِهم؛ فإنَّه لم يقُل: هَمُّوا بما لم يفعَلوا، لكِنْ ﴿بِمَا لَمۡ يَنَالُواْ﴾ فصدَرَ منهم قولٌ وفِعلٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).
قال ابن عاشور: (إنَّما أغناهم اللهُ ورسولُه بما جلَبَه حلولُ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بينهم من أسبابِ الرِّزقِ، بكثرةِ عَمَلِ المهاجرينَ، وبوَفرةِ الغنائِمِ في الغَزَواتِ، وبالأمنِ الذي أدخَلَه الإسلامُ فيهم؛ إذ جعل المؤمنينَ إخوةً، فانتفَتِ الضَّغائِنُ بينهم والثَّاراتُ، وقد كان الأوسُ والخزرجُ قبل الإسلامِ أعداءً، وكانت بينهم حروبٌ تفانوا فيها قُبَيلَ الهجرةِ، وهي حُروبُ بُعاثٍ. والفَضلُ: الزِّيادةُ في البَذلِ والسَّخاء). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٠).

(٣) رواه البخاري (٤٣٣٠) واللفظ له، ومسلم (١٠٦١).

﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾.

أي: فإن يتُبِ المُنافِقونَ مِن نِفاقِهم وكُفرِهم، يكُنْ رُجوعُهم إلى الحَقِّ خَيرًا لهم في دينِهم ودُنياهم وآخِرتِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [محمد: ٢١].

﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

أي: وإن يُعرِضِ المُنافِقونَ عن الإيمانِ والتَّوبةِ، ويستَمِرُّوا على النِّفاقِ؛ يعذِّبْهم اللهُ عذابًا مُؤلِمًا في الدُّنيا- بالهَمِّ والحُزنِ والخِزيِ، وبالقَتلِ إن أظهَروا نِفاقَهم- ويُعَذِّبْهم في الآخرةِ بعذابِ النَّارِ[2].

﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

أي: وما للمُنافِقينَ في الأرضِ كُلِّها أيُّ ولِيٍّ يتولَّاهم، ويُحصِّلُ لهم الخيرَ، ولا أيُّ نَصيرٍ ينصُرُهم ويدفَعُ عنهم الشَّرَّ[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- كلُّ من وُقِفَ منه على فسادٍ في العقائدِ، فحُكمُه أن يُجاهَدَ بالحُجَّةِ، ويُستعمَلَ معه الغِلَظُ ما أمكَنَ؛ نَستفيدُ ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير المنار)) محمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٠، ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥).

جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾[١] [التوبة: ٧٣].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾ فالحجَّةُ على المنافِقِ جِهادٌ لهم، وعلى هذا، فالاحتجاجُ على المُنافِقينَ والمُلحِدينَ، والرَّادِّينَ للكِتابِ والسنَّةِ، والمُخالفينَ لهما؛ من الجِهادِ[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾ جِهادُ المنافقينَ أصعَبُ مِن جهادِ الكفَّارِ، وهو جهادُ خواصِّ الأمَّةِ، ووَرَثةِ الرُّسُلِ، والقائِمونَ به أفرادٌ في العالَم، والمُشارِكونَ فيه والمُعاونون عليه، وإن كانوا هم الأقلِّينَ عددًا، فهم الأعظَمونَ عند اللهِ قَدْرًا[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ هذه الغِلْظةُ الإراديَّةُ (أي غيرُ الطَّبيعيَّةِ) تربيةٌ للمُنافِقينَ وعقوبةٌ، يُرجى أن تكونَ سببًا لهدايةِ مَن لم يُطبَعِ الكُفرُ على قَلبِه، وتُحِطْ به خطايا نفاقِه[٤].

٥- التوبةُ أصلٌ لسَعادةِ الدُّنيا والآخرةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴾[٥].

٦- مَن خذَلَه اللهُ تعالى وآذَنَه بحَربٍ منه، لا يَقدِر أحَدٌ أن يُجيرَه منه؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٤).
(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥٢).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ قرَنَ المُنافقينَ هنا بالكُفَّار؛ تنبيهًا على أنَّ سبَبَ الأمرِ بجِهادِ الكُفَّارِ قد تحقَّقَ في المُنافِقينَ، فجِهادُهم كجِهادِ الكفَّارِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ استدَلَّ به من قال بقَتلِ المُنافِقينَ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ أي: ما وقَعَ منهم قَولٌ، فقصَرَ الفِعلَ تَعميمًا للمَفعولِ؛ إعلامًا بأنَّهم مهما عُنِّفُوا على قولٍ كائنًا ما كان، بادَرُوا إلى الحَلِف على نَفيِه كذِبًا؛ لأنَّهم مَرَدوا على النِّفاقِ، فتطَبَّعوا بأعلى الكَذِبِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ فيه أنَّ الاستهزاءَ بآياتِ اللهِ كُفرٌ[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ التكفيرَ يقَعُ بما يدُلُّ على الكُفرِ مِن قائِلِه أو فاعِلِه، دَلالةً بيِّنةً، وإنْ لم يكُن أعلَنَ الكُفرَ[٥].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ فقال: ﴿بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ ولم يقُل: (بعد إيمانهم) لأنَّ ذلك لم يتجاوَزْ ألسِنَتَهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٥).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٤٧).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٠).

٧- قيل للبَجليِّ[١]: أتجِدُ في كتابِ اللهِ تعالى (اتَّقِ شَرَّ مَن أحسَنْتَ إليه؟) قال نعم: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ عُطِفَ الرَّسولُ على اسمِ الجلالةِ في فِعلِ الإغناءِ؛ لأنَّه السَّببُ الظَّاهِرُ المُباشِرُ[٣].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فيه دليلٌ على قَبولِ تَوبةِ الزِّنديقِ المُسِرِّ للكُفرِ المُظهِرِ للإيمانِ[٤]، وقَبولِ تَوبةِ مَن كفَرَ بعد إسلامِه[٥].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ جُمْلةٌ مُسْتأنَفةٌ لبيانِ آجِلِ أَمْرِهم إِثْرَ بيانِ عاجِلِه[٦].

- وقولُه: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تذييلٌ لِمَا قَبْلَه[٧].

٢- قوله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ

---

(١) هو الحسينُ بنُ الفضلِ بن عميرٍ، أبو عليٍّ البجلي النيسابوري، إمامٌ لغويٌّ، مفسِّر محدِّثٌ، تُوفِّي سنة (٢٨٢هـ). يُنظر: ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٣/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٦)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).

(٥) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣١٧)، ويُنظر أيضًا: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٤٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ اسْتِئنافٌ لبيانِ ما صَدَرَ عنهم مِنَ الجرائمِ المُوجِبةِ لِمَّا مَرَّ مِنَ الأمرِ بالجِهادِ والغِلْظةِ عليهم، ودُخولِ جَهنَّمَ[١].

- وإيثارُ صيغةِ الاسْتِقبالِ ﴿ يَحْلِفُونَ ﴾؛ لاسْتِحضارِ الصُّورةِ، أو للدَّلالةِ على تَكريرِ الحَلِفَ، وإيثارُ صِيغةِ الجَمْعِ في ﴿قَالُواْ ﴾ مَعَ أنَّ القائلَ هو بعضُهم؛ للإيذانِ بأنَّ بَقِيَّتَهم برِضاهُم صَارُوا بمَنْزلةِ القائلِ[٢].

- وأكَّدَ صُدورَ كَلِمةِ الكُفْرِ منهم بصِيغةِ القَسَمِ ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ ﴾ في مُقابَلةِ تأكيدِهم نَفْيَ صُدورِها؛ ليكونَ تَكذيبُ قولِهم مُساويًا لقولِهم في التَّأكيدِ[٣].

- قولُه: ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ اسْتِثناءٌ تَهكُّميٌّ، وهو مِنْ تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشْبِهُ ضِدَّهُ، ونُكْتَتُه أنَّ المُتكلِّمَ يَظْهَرُ كأنَّه يَبْحَثُ عَنْ شيءٍ يَنْقُضُ حُكْمَه الخَبَريَّ ونَحْوَه، فيَذْكُرُ شيئًا هو مِنْ مؤكِّدات الحُكْمِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه اسْتَقصى فلم يَجِدْ ما يَنْقُضُه[٤].

- قولُه: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ... ﴾ فيه مجِيءُ الفِعْلِ ﴿يَكُ ﴾ في جَوابِ الشَّرطِ دَونَ أنْ يُقالَ: (فإنْ يَتوبوا فهو خَيرٌ لَهُمْ)؛ لتَأكيدِ وقوعِ الخيرِ عِنْدَ التَّوبةِ، والإيماءِ إلى أنَّه لا يَحْصُلُ الخيرُ إلَّا عِنْدَ التَّوبةِ؛ لأنَّ فِعْلَ التَّكوينِ مُؤذِنٌ بذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧١).

- وقَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ خصَّصَ الأرضَ بالذِّكرِ، مع أنَّهم لا ولِيَّ لهم في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ولا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ لأنَّهم لَمَّا كانوا لا يعتَقِدونَ الوحدانيَّةَ، ولا يصَدِّقونَ بالآخرةِ، كان اعتقادُهم وجودَ الوَليِّ والنَّصيرِ مقصورًا على الدُّنيا، فعبَّرَ عنها بـ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أو أراد بالأرضِ أرضَ الدُّنيا والآخرةِ[1].

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٣٦-٢٣٧).

الآيات (٧٥-٧٨)

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾: أي: أورَثَهم، وأصلُ (عقب): يدلُّ على تأخيرِ شيءٍ، وإتيانِه بعدَ غيرِه[1].

﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾: أي: حَديثَهم بينهم، وأصلُ (نجو): يدلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّ مِن المُنافِقينَ مَن عاهد اللهَ لَئِن رزَقَهم مِن فَضلِه لَيُخرِجَنَّ الصَّدقةَ، ولَيكونَنَّ من الصَّالحينَ الذين يؤدُّونَ حَقَّ اللهِ وحَقَّ عِبادِه، فلمَّا رزَقَهم اللهُ مِن فَضلِه بَخِلوا به، وتوَلَّوا عن طاعةِ اللهِ تعالى، والوفاءِ بِعَهدِه، مُعرِضينَ ومُنصَرفينَ عن ذلك، فجعل اللهُ عاقبةَ ذلك نِفاقًا في قلوبِهم، يستمِرُّ معهم إلى يومِ يُتوَفَّونَ ويَلقَونَ اللهَ؛ بسبَبِ إخلافِهم اللهَ ما وَعَدوه، وبسببِ كَذِبِهم في كلامِهم.

ألم يعلَمْ هؤلاءِ المُنافِقونَ أنَّ الله يعلمُ ما يُخفونَه وما يتَناجَونَ به، وأنَّه تعالى

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٦، ٥٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٢- ٧٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١))، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

علَّامٌ لِجَميعِ ما غابَ عن حواسِّ خَلْقِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ختم الله تعالى الآية السابقة بأنَّه أغناهم من فضلِه؛ أتبَعَها بإقامةِ الدَّليلِ عليها، وعلى أنَّهم يَقبِضونَ أيديَهم، وعلى اجترائِهم على أقبَحِ الكَذِبِ، فقال تعالى[1]:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾.

أي: ومِن المُنافِقينَ من أعطى اللهَ عَهدًا بقَولِه: واللهِ لَئِن رَزَقَنا اللهُ مِن فَضلِه، لنُخرِجَنَّ الصَّدَقةَ ممَّا أعطانا[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٦، ٥٧٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٢).

قال الشوكاني: (ومعنى: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ لَنُخرِجُ الصَّدقةَ، وهي أعَمُّ من المفروضةِ وغيرِها). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨).

ما ورد في أنَّ ثعلبةَ بنَ حاطبٍ هو سببُ نزولِ هذه الآياتِ، لا يصحُّ؛ ضعَّفه ابنُ حزم في ((المحلى)) (١١/ ٢٠٧)، والقرطبي في ((تفسيره)) (١٠/ ٣٠٦)، والذهبي في ((تجريد أسماء الصحابة)) (١/ ٦٦)، وأحمد شاكر في تحقيق ((تفسير الطبري)) (١٤/ ٣٧١)، والألباني في ((سلسلة الأحاديث الضعيفة)) (١٦٠٧)، وضعَّف إسنادَه البيهقي في ((دلائل النبوة)) (٥/ ٢٩٠)، والزيلعي في ((تخريج الكشاف)) (٢/ ٨٥)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (٣/ ٣٣٤)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٣٤)، وابن حجر في ((الكافي الشاف)) (١٣٢)، والسيوطي في ((لباب النقول)) (١٥٧).

﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: ولَنكونَنَّ- إن بسَطَ اللهُ علينا الرِّزقَ- من جملةِ الصَّالحينَ الذين يؤدُّونَ حَقَّ اللهِ وحَقَّ عبادِه[1].

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ٧٦﴾.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾.

أي: فلمَّا رزَقَهم اللهُ وأعطاهم مِن فَضلِه بَخِلوا بما آتاهم، فلم يُنْفِقوا منه في حقِّ الله، ولم يتصدَّقوا بشيءٍ منه، كما حلَفوا[2].

﴿وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

أي: وأدبَرُوا عن طاعةِ اللهِ تعالى والوفاءِ بِعَهدِه، مُعرِضينَ ومُنصَرفينَ عن ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٧)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨١، ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥).

وقال القرطبي: (﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: عن الإسلامِ، أي: مُظهِرونَ للإعراضِ عنه). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٢).

وقال النسفي: (﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ مُصِرُّونَ على الإعراض). ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٩٦).

وقال الشوكاني: (﴿وَتَوَلَّواْ﴾ أي: أعرَضوا عن طاعةِ الله، وإخراجِ صَدَقاتِ ما أعطاهم اللهُ مِن فَضلِه، والحالُ أنَّهم مُعرِضونَ في جميعِ الأوقات، قبل أن يُعطيَهم اللهُ ما أعطاهم من الرِّزقِ وبعدَه). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨).

وقال محمد رشيد رضا: (ولم يكُن تولِّيهم هذا أمرًا عارضًا شَغَلَهم عنه شاغِلٌ يزولُ بزوالِه، بل تولَّوا وهم مُعرِضونَ بكُلِّ قواهم، عن الصَّدقةِ والعمَلِ الصَّالح، فكان الإعراضُ صِفةً

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾.

أي: فجعل اللهُ عاقبةَ أمرِهِم نِفاقًا كائنًا في قلوبِهم، متمكِّنًا منها، مستمرًّا فيها إلى يومِ يلقون الله تعالى، بموتِهم، وخروجِهم مِن الدُّنيا[1].

﴿ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾.

أي: فجعل اللهُ في قلوبِهم النِّفاقَ، وحَرَمَهم التوبةَ منه؛ بسبَبِ إخلافِهم ما عاهدوا اللهَ عليه، مِن الصَّدَقةِ والصَّلاحِ؛ ولأنَّهم كانوا يَكذِبونَ في كلامِهم وعهدهم[2].

راسخةً فيهم، حاكمةً عليهم، بحيث إذا ذُكِّروا بما يجِبُ عليهم، لا يذكُرونَ، وإذا دُعُوا إليه لا يستجيبونَ. ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٢).

وقيل: الضميرُ في قولِه: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ يرجعُ إلى البخلِ، فالمعنى: أعقبهم بخلُهم بما نذروا نفاقًا. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٨٣).

قال ابن عاشور: (مَعنى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ إلى يومِ الحَشرِ؛ لأنَّه يومُ لِقاءِ اللهِ للحِسابِ، أو إلى يومِ الموتِ؛ لأنَّ الموتَ لِقاءُ الله، كما في الحديث: «من أحبَّ لقاءَ اللهِ، أحَبَّ اللهُ لقاءَه»). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٣).

وقيل: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ أي: يلقون عملَهم، أي جزاءَه، وهو يوم القيامةِ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٦٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٦٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٢).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((آيةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ: إذا حدَّثَ كَذَب، وإذا وعَدَ أخلَفَ، وإذا اؤتُمِنَ خان))(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((أربَعٌ مَن كُنَّ فيه كان مُنافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصلةٌ منهنَّ كانت فيه خَصلةٌ مِن النِّفاقِ حتى يدَعَها: إذا اؤتُمِنَ خان، وإذا حدَّثَ كَذَب، وإذا عاهَد غَدَر، وإذا خاصَم فَجَر))(٢).

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت المُعاهَدةُ سَببًا للإغناءِ في الظَّاهرِ، وكان ذلك ربَّما كان مَظِنَّةً لأنْ يتوهَّمَ مَن لا عِلمَ له أنَّ ذلك لخفاءِ أمرِ البَواطِنِ عليه سُبحانه، وكان الحُكمُ هنا واردًا على القَلبِ بالنِّفاقِ الذي هو أقبَحُ الأخلاقِ، مع عدمِ القُدرةِ لِصاحِبِه على التخلُّصِ منه، كان ذلك أدَلَّ دَليلٍ على أنَّه تعالى أعلَمُ بما في كلِّ قَلبٍ مِن صاحِبِ ذلك القَلبِ، فعَقَّبَ ذلك بالإنكارِ على مَن لا يعلَمُ ذلك، والتَّوبيخِ له والتَّقريعِ، فقال تعالى(٣):

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾.

أي: ألم يعلَمِ المُنافِقونَ الذين يُبطِنونَ الكُفرَ، ويُظهرونَ الإسلامَ، أنَّ اللهَ يعلَمُ ما يُخفونَه مِن الكُفرِ والنِّفاقِ، ويَعلَمُ ما يتناجَونَ به فيما بينهم مِن الطَّعنِ

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).
(٢) رواه البخاري (٣٤) واللفظ له، ومسلم (٥٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٥٤).

في الإسلامِ والمُسلِمينَ، وسيُجازيهم على أعمالِهم[١]؟!

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

أي: ألم يعلَمِ المُنافِقونَ أنَّ اللهَ يعلَمُ جَميعَ ما غاب عن حواسِّ خَلْقِه، لا يخفى عليه شَيءٌ مِن المغيَّباتِ[٢]؟!

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ ظاهِرُ هذه الآيةِ يدُلُّ على أن نَقضَ العَهدِ، وخُلفَ الوَعدِ يُورِثانِ النِّفاقَ، فيجِبُ على المُسلمِ أن يُبالِغَ في الاحترازِ عنهما، فإذا عاهدَ اللهَ في أمرٍ، فليجتَهِدْ في الوَفاءِ به[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ فيه دَلالةٌ على وُجوبِ الحَذَرِ مِن إحداثِ الأفعالِ الذَّميمةِ؛ فإنَّها تُفسِدُ الأخلاقَ الصَّالحةَ، ويزدادُ الفَسادُ تمكُّنًا مِن النَّفسِ بطبيعةِ التولُّدِ الذي هو ناموسُ الوُجودِ[٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ هذا بيانٌ عما يُوجِبُه الكَذِبُ مع إخلافِ الوعدِ مِن النِّفاقِ، فمن أخلَفَ في المواثيقِ مع اللهِ، فقد تعرَّضَ للنِّفاقِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨٧، ٥٨٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٣).

وكان جزاؤُه مِن اللهِ إفسادَ قلْبِه بما يُكسِبُه النِّفاقَ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أعاد اللَّامَ الواقعةَ في جوابِ القَسَمِ في (لنكُونَنَّ)؛ لتأكيدِ العَزمِ على الاستعانةِ، والتوسُّلِ بفَضلِ المالِ إلى الاستقامةِ على منهجِ الصَّلاحِ، بما هو وراءَ الصَّدَقاتِ، التي عقَدُوا العَهدَ والقَسَمَ عليها[٢].

٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ على صِحَّةِ تَعليقِ النَّذرِ بالمِلْكِ، مِثلُ قَولِ القائلِ: إنْ رزَقَني اللهُ مالًا فلِلَّه عليَّ أنْ أتصدَّقَ به أو بشيءٍ منه، فهذا يصِحُّ اتِّفاقًا[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ فيه أنَّ إخلافَ الوَعدِ والكَذِبَ، مِن خِصالِ النِّفاقِ، فيكونُ الوفاءُ والصِّدقُ مِن شُعَبِ الإيمانِ[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ فيه المعاقبةُ على الذَّنبِ بما هو أشَدُّ منه[٥].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٤٩٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٢)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ استدلَّ به قومٌ على أنَّ مَن حلَفَ إن فعَلَ كذا، فللَّهِ عليَّ كذا، أنَّه يلزَمُه[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ النِّفاقُ إذا كان في القَلبِ، فهو الكُفرُ، فأمَّا إذا كان في الأعمالِ فهو معصيةٌ، قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافِقًا خالصًا، ومَن كانت فيه خصلةٌ منهنَّ كانت فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفاقِ حتَّى يَدَعَها إذا اؤْتُمِنَ خانَ، وإذا حَدَّث كَذَب، وإذا عاهدَ غَدَرَ ، وإذا خاصَم فَجَرَ))[2].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ عُطِفَت النَّجوى على السِّرِّ مع أنَّه أعَمُّ منها؛ لينبِّهَهم باطِّلاعِه على ما يتناجَونَ به من الكيدِ والطَّعنِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ عبَّرَ عَنْ كَذِبِهم بصيغةِ ﴿كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ لدَلالةِ ﴿كَانَ﴾ على أنَّ الكَذِبَ كائنٌ فيهم، ومُتمكِّنٌ منهم،

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٢).

والحديثُ أخرجه البخاري (٣٤)، واللفظ له، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٤).

ودَلالةِ المُضارِعِ ﴿يَكْذِبُونَ﴾ على تَكرُّرِهِ وتَجدُّدِه[١]، واستمرارِه؛ لأنَّ ذلك شأْنُهم الدَّائِمُ، الذي هو أخَصُّ لوازمِ النِّفاقِ، بينما عبَّرَ عن إخلافِهم الوعدَ بالفِعلِ الماضي، فقال: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾؛ لأنَّه في حادثةٍ وَقَعَت[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ اسْتِفهامٌ تَضمَّنَ التَّوبيخَ والتَّقريعَ والتَّهديدَ[٣].

- وإظهارُ اسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في الموقِعينِ؛ لإلقاءِ الرَّوعةِ، وتَربيةِ المهابةِ[٤].

- وفي إيرادِ العِلْمِ المُتعلِّقِ بسِرِّهِم ونجواهُم بصِيغةِ الفِعْلِ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ الدَّالِ على الحُدوثِ والتَّجدُّدِ، والعِلْمِ المُتعلِّقِ بالغُيوبِ الكثيرةِ الدَّائمةِ بصِيغةِ الاسْمِ ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ الدَّالِ على الدَّوامِ والمُبالَغةِ: فخامةٌ وجَزالةٌ لا تَخْفى[٥].

- وتَقديمُ السِّرِّ على النَّجوى؛ لأنَّ العِلمَ به أعظَمُ في الشَّاهِدِ مِنَ العِلمِ بها، مع ما في تَقديمِه وتعليقِ العِلمِ به مِن تعجيلِ إدخالِ الرَّوعةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٣٤).

الآيتان (٧٩-٨٠)

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جُهۡدَهُمۡ﴾: أي: طاقَتَهم ووُسعَهم، وأصلُ (جهد): يدلُّ على مَشقَّةٍ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ ﴾: اسمٌ مَوصولٌ مَبنيٌّ في محلِّ رفعٍ مُبتدأٌ، ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بـ ﴿يَلۡمِزُونَ ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ ﴾ في محلِّ نصبٍ عطفًا على ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ ﴾[٢]، أي: يلمِزونَ المطَّوِّعينَ، ويَلمِزونَ الذين لا يَجِدونَ، وجملةُ ﴿ فَيَسۡخَرُونَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿يَلۡمِزُونَ ﴾، وجُملة: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ في محلِّ رفْعٍ خبرُ المُبتدأِ ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ﴾، وقيلَ غيرُ ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) وليس في محلِّ جرٍّ عطفًا على ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ كما يُتوهَّمُ؛ لأنه يُفهِمُ أنَّ الذين لا يَجِدونَ ليسُوا مُؤمِنينَ؛ لأنَّ أصلَ العطفِ الدَّلالةُ على المغايرةِ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٥٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٨٨-٩٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) (١٠/ ٤٠١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُنافِقينَ الذين يَعيبونَ المُتطَوِّعينَ مِن المؤمِنينَ الأغنياءِ، ويَعيبونَ الفُقَراءَ الذين لا يجِدونَ إلَّا شيئًا يسيرًا بحسَبِ طاقَتِهم يتصَدَّقونَ به، فيَسخَرونَ منهم- أنَّه سُبحانه سَخِرَ منهم مقابلَ ذلك، ولهم عذابٌ مُوجِعٌ في نارِ جَهنَّمَ.

ثمَّ يُخاطِبُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: استغفِرْ لهم- يا مُحمَّدُ- أوْ لا تستغفِرْ لهم، فلن يَغفِرَ اللهُ لهم، حتى وإن استغفَرْتَ لهم سبعينَ مرَّةً، فلن يغفِرَ اللهُ لهم؛ ذلك بسبَبِ كُفرِهم باللهِ ورَسولِه، واللهُ لا يهدي القَومَ الفاسِقينَ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ الله تعالى أنَّه لم يكْفِ المُنافقينَ كُفرانُ نِعمةِ الغنى من غيرِ مُعاهدةٍ، حتى ارتكَبوا الكُفرانَ بمَنعِ الواجِبِ مع المعاهَدةِ؛ أخبَرَ أنَّه لم يَكفِهم أيضًا ذلك، حتى تعَدَّوه إلى عيبِ الكُرَماءِ الباذِلينَ بصِفةِ حُبِّهم لرَبِّهم ما لم يُوجِبْه عليهم[1]، فقال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

سبَبُ النُّزولِ:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

عن أبي مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا أُمِرْنا بالصَّدقةِ كنَّا نتحامَلُ، فجاء

(١) ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٥٥).

أبو عَقيلٍ بنِصفِ صاعٍ، وجاء إنسانٌ بأكثَرَ منه، فقال المُنافِقونَ: إنَّ اللهَ لَغنِيٌّ عن صدقةِ هذا، وما فعَلَ هذا الآخَرُ إلَّا رِئاءً، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ...﴾ الآية))[١].

وعن كعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه- في حديثِ الثَّلاثةِ الذين خُلِّفوا- قال: ((بينما رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ذلك، رأى رجلاً مُبَيِّضًا[٢]، يزولُ به السَّرابُ[٣]، فقال: كنْ أبا خيثمةَ، فإذا هو أبو خيثمةَ الأنصاريُّ، وهو الذي تصَدَّقَ بصاعِ التَّمرِ حين لَمَزه المُنافِقونَ))[٤].

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

أي: المُنافِقونَ الذين يَعيبونَ المُتطوِّعينَ مِن المؤمِنينَ الأغنياءِ في صَدَقاتِهم الكبيرةِ، فيَزعُمونَ أنَّهم يُراؤونَ بها[٥].

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾.

أي: ويَعيبونَ أيضًا المتطَوِّعينَ مِن المُؤمِنينَ الفُقَراءِ، الذين لا يجِدونَ ما يتصدَّقونَ به إلَّا شيئًا يَسيرًا بِقَدرِ طاقَتِهم، فيَستَهزِئُون بهم[٦].

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦٨) واللفظ له، ومسلم (١٠١٨).

(٢) مُبَيِّضًا: أَي: عليه ثِيابٌ بِيضٌ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٢/ ١٢٥).

(٣) يَزولُ به السَّرابُ: أي: يتحَرَّكُ ويَنهَضُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٠).

(٤) رواه مسلم (٢٧٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨٨، ٥٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٦١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٥).

﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾.

أي: سَخِرَ اللهُ مِن هؤلاء المُنافِقينَ، في مُقابِلِ سُخرِيَتِهم من المؤمِنينَ(١).

كما قال تعالى عن المُنافقينَ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤-١٥].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: وللمُنافِقينَ يومَ القِيامةِ عَذابٌ مُؤلِمٌ في نارِ جهنَّمَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٦١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٧).
قال ابن تيمية: (وكذلك ما ادَّعوا أنَّه مجازٌ في القرآنِ كلَفظِ «المكر» و «الاستهزاء» و «السُّخرية» المضافِ إلى الله، وزَعَموا أنَّه مُسمَّى باسمِ ما يقابِلُه على طريقِ المجازِ، وليس كذلك، بل مُسمَّياتُ هذه الأسماءِ إذا فُعِلَت بمن لا يستحِقُّ العقوبةَ كانت ظُلمًا له، وأمَّا إذا فُعِلَت بمن فعَلَها بالمجنيِّ عليه عقوبةً له بمِثلِ فِعلِه، كانت عدلًا، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]، فكاد له كما كادت إخوتُه، لَمَّا قال له أبوه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ [النمل: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾؛ ولهذا كان الاستهزاءُ بهم فِعلًا يستحِقُّ هذا الاسمَ.. وعن مقاتلٍ: إذا ضُرِبَ بينهم وبين المؤمنينَ بسُورٍ له بابٌ، باطِنُه فيه الرَّحمةُ، وظاهِرُه مِن قِبَلِه العذابُ، فيَبقَونَ في الظُّلمةِ، فيُقال لهم: ارجِعوا وراءَكم فالتمِسوا نورًا. وقال بعضُهم: استهزاؤُه: استدراجُه لهم. وقيل: إيقاعُ استهزائِهم ورَدُّ خداعِهم ومكرِهم عليهم. وقيل: إنَّه يُظهِرُ لهم في الدُّنيا خلافَ ما أبطنَ في الآخرةِ. وقيل: هو تجهيلُهم وتخطِئَتُهم فيما فعلوه؛ وهذا كلُّه حَقٌّ، وهو استهزاءٌ بهم حقيقةً). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١١١، ١١٢). ويُنظر: ((صفاتُ الله عزَّ وجلَّ الواردةُ في الكتابِ والسنَّة)) لعَلَوي السَّقَّاف (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٦).

﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠ ﴾.

﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾.

أي: سواءٌ طلَبْتَ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُنافِقينَ المغفِرةَ، أو لم تطلُبْها لهم، فلَن يغفِرَ اللهُ لهم(١).

عن ابنِ عبَّاس، عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضيَ الله عنهم، أنَّه قال: ((لَمَّا مات عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلولَ، دُعِيَ له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليُصلِّيَ عليه، فلمَّا قام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وثَبْتُ إليه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أتصلِّي على ابنِ أُبيٍّ، وقد قال يومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟! أُعدِّدُ عليه قَولَه، فتبسَّمَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال: أخِّرْ عني يا عُمَرُ، فلمَّا أكثَرْتُ عليه، قال: إنِّي خُيِّرتُ فاختَرْتُ، لو أعلَمُ أنِّي إن زِدتُ على السَّبعينَ يُغفَرْ له، لَزِدْتُ عليها، قال: فصلَّى عليه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثمَّ انصَرَف،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٦).

قال ابن جرير: (هذا كلامٌ خرج مخرَجَ الأمرِ وتأويلُه الخبَرُ، ومعناه: إنِ استَغفَرْتَ لهم- يا محمَّدُ- أو لم تستغفِرْ لهم؛ فلن يغفِرَ اللهُ لهم). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩٨).

وقال ابن عاشور: (الذي يظهرُ لي أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا أُوحِيَ إليه بآيةِ سُورةِ المُنافقين، وفيها أنَّ استغفارَه وعَدَمَه سواءٌ في حَقِّهم؛ تأوَّلَ ذلك على الاستغفارِ غيرِ المؤكَّدِ، وبعَثَتْه رحمَتُه بالنَّاسِ، وحِرصُه على هداهم، وتكَدُّرُه من اعتراضِهم عن الإيمانِ، أن يستغفِرَ للمُنافقينَ استغفارًا مُكَرَّرًا مُؤكَّدًا؛ عسى أن يغفِرَ اللهُ لهم، ويزولَ عنهم غضبُه تعالى، فيَهديَهم إلى الإيمانِ الحَقِّ، بما أنَّ مُخالَطتَهم لأحوالِ الإيمانِ- ولو في ظاهِرِ الحالِ- قد تجرُّ إلى تعلُّقِ هَدْيِه بقلوبِهم بأقلِّ سَببٍ، فيكونُ نزولُ هذه الآيةِ تأييسًا مِن رضا اللهِ عنهم، أي: عن البقيَّةِ الباقيةِ منهم، تأييسًا لهم ولِمَن كان على شاكِلَتِهم ممَّن اطَّلعَ على دخائِلِهم، فاغتبَطَ بحالِهم؛ بأنَّهم انتفَعوا بصحبةِ المُسلِمينَ والكُفَّار، فالآيةُ تأييسٌ مِن غَيرِ تَعيينٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٧).

فلم يمكُثْ إلَّا يسيرًا، حتى نزَلَت الآيتانِ مِن براءةَ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤] قال: فعَجِبْتُ بعدُ مِن جُرأتي على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَئذٍ، واللهُ ورسولُه أعلَمُ))[١].

﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

أي: إنْ تسألِ اللهَ المَغفِرةَ- يا مُحمَّدُ- لذنوبِ هؤلاءِ المُنافِقينَ سَبعينَ مَرَّةً، فلَن يستُرَها اللهُ عليهم، ولن يتجاوَزَ عن مؤاخَذتِهم بها[٢].

كما قال تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المنافقون: ٦].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: عدمُ مَغفرةِ اللهِ ذنوبَ المُنافِقينَ، بسبَبِ كُفرِهم باللهِ سُبحانه وتعالى وبرَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٨)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٨).
قال الرازي: (العلَّةُ التي لأجْلِها لا ينفَعُهم استغفارُ الرَّسولِ وإن بلغ سبعينَ مَرَّةً؛ كُفرُهم وفِسقُهم، وهذا المعنى قائمٌ في الزيادةِ على السَّبعينَ، فصار هذا التَّعليلُ شاهدًا بأنَّ المرادَ إزالةُ الطَّمعِ في أن ينفَعَهم استغفارُ الرَّسولِ عليه السَّلامُ، مع إصرارِهم على الكُفرِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).

أي: واللهُ لا يُوفِّقُ للإيمانِ به وبِرَسولِه القَومَ الخارِجينَ عن طاعتِه، المُؤْثِرينَ للكُفرِ به، المصرِّينَ على فِسْقِهم[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مَن أطاعَ اللهَ وتطَوَّعَ بخَصلةٍ مِن خِصالِ الخَيرِ؛ فإنَّ الذي ينبغي هو إعانَتُه، وتنشيطُه على عَملِه، وهؤلاء قصَدوا تثبيطَهم بما قالوا فيهم، وعابُوهم عليه[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في هذه الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ لَمْزَ المؤمِنِ والسُّخريةَ منه، مِن الكبائِرِ؛ لِما يَعقُبُهما من الوَعيدِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- النكتةُ في عَطْفِ الخاصِّ، وهو قَولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ على العامِّ، وهو قَولُه تعالى: ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هي: التَّنويهُ بهذا الخاصِّ؛ لأنَّ السُّخريةَ مِن المُقِلِّ أشدُّ مِن المُكْثِرِ غالبًا[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ جاحِدَ نبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يُطلَقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٣٢).

عليه كافرٌ[١].

٣- الكافِرُ لا ينفَعُه الاستغفارُ ولا العمَلُ ما دام كافرًا؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ﴾[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿سَبۡعِينَ مَرَّةٗ﴾ غيرُ مُرادٍ به المقدارُ من العَدَدِ، بل هذا الاسمُ مِن أسماءِ العَدَد التي تُستعمَلُ في معنى الكَثرةِ[٣].

٥- في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ﴾ دلالةٌ على أنَّ الاستغفارَ للناس نافعُهم ولاحِقٌ بهم؛ لأنَّ الذي حالَ بينَ أهلِ هذه الآيةِ وبينَ استغفارِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لهم هو كُفْرُهم لا غيرُه[٤].

٦- جَرَت سنَّةُ الله تعالى في الرَّاسِخينَ في فُسوقِهم وتمرُّدِهم- المُصِرِّينَ على نِفاقِهم، الذين أحاطت بهم خطاياهم- أن يَفقِدوا الاستعدادَ للتَّوبةِ والإيمانِ، فلا يَهتَدونَ إليهما سبيلًا؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[٥].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٨).
(٤) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٩).

- اخْتيرَ المضارعُ في قولِه: ﴿يَلْمِزُونَ﴾، وقولِه: ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَكرُّر هذا منهم[١].

- قولُه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إيرادُ الجُمْلةِ اسْميَّةً؛ للدَّلالةِ على الاسْتِمرارِ، وتَنوينُ العذابِ وصِفتِه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ للتَّهويلِ والتَّفخيمِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الأَمْرُ فيه مُبالَغةٌ في الإياسِ[٣]، وتصويرُهُ بصورةِ الأَمْرِ للمُبالَغةِ في بيانِ اسْتِوائِهما، كأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُمِرَ بامْتِحانِ الحالِ بأنْ يَسْتغفِرَ تارةً، ويَتْرُكَ أُخْرى؛ ليَظْهَرَ له جليةُ الأَمْرِ، كما في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾[٤] [التوبة: ٥٣].

- وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ بيانٌ للعِلَّةِ التي لأجْلِها لا يَنْفَعُهم اسْتِغفارُ الرَّسولِ لهم، وإنْ بَلَغَ سَبْعينَ مَرَّةً، وهي كُفْرُهم وفِسْقُهم[٥].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تَذييلٌ مُؤكِّدٌ لِما قَبْلَهُ مِنَ الحُكْمِ؛ فإنَّ مَغْفرةَ الكافِرِ إنَّما هي بالإقلاعِ عَنِ الكُفْرِ، والإقبالِ إلى الحَقِّ، والمُنْهمِكُ فيه المطبوعُ عليه بمَعْزِلٍ مِن ذلك[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٧).

الآيتان (٨١-٨٢)

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾: أي: الذين تخلَّفوا عن غزوةِ تبوكَ، وأصلُ (خلف): يدلُّ على مجيءِ شَيءٍ بعد شيءٍ، وقيامِه مَقامَه [(١)].

﴿خِلَٰفَ﴾: أي: بعدَ، أو مُخالِفينَ [(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ اللهُ تعالى أنَّ المنافقينَ الذين ترَكَهم اللهُ، ولم يوفِّقْهم للجهادِ، فَرِحوا بقُعودِهم بعد خروجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى تَبوكَ، مُخالفينَ أمْرَه بالنُّهوضِ للجِهادِ، وكَرِهوا أن يُجاهِدوا الكفَّارَ بأموالِهم وأنفُسِهم؛ لنُصرةِ دينِ اللهِ، وإعلاءِ كَلِمتِه، وقال بعضُهم لبعضٍ: لا تخرُجوا مع المُسلمينَ إلى تَبوكَ لِغَزوِ الرُّوم في شدَّةِ الحَرِّ، فأمر اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنَّ نارَ جهنَّمَ أَشَدُّ حرًّا، لو كان يفهمونَ عن اللهِ، ويعقلونَ كَلامَه.

فلْيَضحكِ المُنافقونَ قليلًا في هذه الدُّنيا الزَّائلةِ، ولْيَبكوا في الآخرةِ الأبديَّةِ كثيرًا في نار جهنَّمَ؛ جزاءً من اللهِ بسبَبِ ما كانوا يعملونَه في الدُّنيا، من الكُفرِ والنِّفاقِ والمعاصي.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما ظهَرَ مِن النِّفاقِ والهُزءِ من الذين خَرَجوا معه إلى غزوةِ تَبوكَ مِن المُنافقين؛ ذكرَ حالَ المُنافِقينَ الذين لم يَخرُجوا معه، وتخلَّفوا عن الجهادِ، واعتَذَروا بأعذارٍ وعِلَلٍ كاذبةٍ، حتى أذِنَ لهم، فكشفَ اللهُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن أحوالِهم، وأعلَمَه بسوءِ فِعالِهم[١].

وأيضًا لَمَّا علَّلَ سُبحانَه عدَمَ المَغفِرةِ للمُنافِقينَ بفِسقِه؛ علَّلَ رُسوخَهم في الفِسقِ[٢].

وأيضًا مُناسبةُ وُقوعِها في هذا الموضِعِ أنَّ فَرَحَ المنافقينَ بتخَلُّفِهم قد قوِيَ لَمَّا استغفَرَ لهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وظنُّوا أنَّهم استغفَلوه فقَضَوا مَأرَبَهم، ثمَّ حَصَّلوا الاستغفارَ؛ ظنًّا منهم أنَّ مُعاملةَ اللهِ إيَّاهم تجري على ظواهرِ الأمورِ[٣].

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: فَرِحَ المُنافِقونَ- الذين تَرَكَهم اللهُ، ولم يُوفِّقْهم للجهادِ- بقُعودِهم بعد خروجِ رَسولِ اللهِ إلى تَبوكَ؛ مخالفةً منهم لأمْرِه بالنُّهوضِ للجِهادِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٧٤ - ٥٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٥، ٦٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٣)، ((تفسير ابن الجوزي))

﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وكَرِهَ هؤلاءِ المُنافِقونَ أن يجاهِدوا الكفَّارَ ببَذلِ أموالِهم، وغَزْوِهم بأنفُسِهم لنُصرةِ دِينِ اللهِ سبحانَه، وإعلاءِ كَلِمتِه تعالى(١).

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ﴾.

أي: وقال المُنافِقونَ بعضُهم لبعضٍ: لا تَخرجُوا مع المسلمينَ إلى تبوكَ؛ لِغَزوِ الرُّومِ في وَقتِ شدَّةِ الحرِّ(٢).

﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗا﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- للمُنافِقينَ الذين يتعلَّلونَ عن الجهادِ بسبَبِ شِدَّةِ الحَرِّ: نارُ جهنَّمَ التي يدخُلُها في الآخرةِ مَن خالف أمْرَ اللهِ، وعَصى رسولَ الله- أشَدُّ حرارةً مِن حَرِّ الدُّنيا الذي لا تريدونَ النَّفرَ فيه، فاتَّقوها بالجِهادِ(٣).

(٢/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٠).

قال القرطبي: (المخَلَّفُ: المَتروكُ، أي: خلَّفَهم اللهُ وثبَّطَهم، أو خلَّفهم رسولُ الله والمؤمنونَ لَمَّا عَلِموا تثاقُلَهم عن الجهادِ: قولان، وكان هذا في غزوةِ تَبوكَ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨١).

قال ابنُ جرير: (كَرِه هؤلاءِ المخَلَّفونَ أن يغزُوا الكفَّارَ بأموالِهم وأنفُسِهم في سبيلِ الله...؛ ميلًا إلى الدَّعةِ والخَفضِ، وإيثارًا للرَّاحةِ على التعبِ والمشقَّة، وشُحًّا بالمالِ أن يُنفِقوه في طاعةِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣).

وقال الرازي: (كَرِهَ الخُروجَ إلى الغزوِ؛ لأنَّه تعريضٌ للمالِ والنَّفسِ للقَتلِ والإهدارِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٩، ١٩١).

وقال ابن تيمية: (عاب اللهُ عزَّ وجلَّ المُنافقين الذين يتعلَّلون بالعوائِق، كالحرِّ والبرد. فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي

﴿لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾.

أي: لو كان هؤلاء المُنافقون يفهمونَ عن اللهِ تعالى، ويعقِلونَ كَلامَه، لَنَفَرُوا مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْحَرِّ؛ لِيَتَّقوا به حَرَّ جهنَّمَ، الَّذي هو أضعافُ أضعافِ هذا، ولما فرُّوا مِن المشقةِ الخفيفةِ المنقضيةِ، إلى المشقَّةِ الشديدةِ الدائمةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((نارُكم هذه التي يوقِدُ ابنُ آدمَ- جُزءٌ مِن سبعينَ جُزءًا مِن حَرِّ جهنَّمَ، قالوا: واللهِ إن كانت لَكافيةً يا رسولَ اللهِ! قال: فإنَّها فُضِّلَت عليها بتِسعةٍ وسِتِّينَ جُزءًا، كلُّها مثلُ حَرِّها))[2].

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: سمعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ أهونَ أهلِ النَّارِ عذابًا يومَ القيامةِ لَرَجلٌ تُوضَعُ في أخمَصِ[3] قَدَميه جَمرتانِ، يغلي مِنهما دماغُه))[4].

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ وهكذا الذين يقولونَ: لا تنفِروا في البَردِ، فيقال: نارُ جهنَّمَ أشَدُّ بردًا، كما أخرجاه في الصَّحيحينِ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((اشتكَتِ النَّارُ إلى ربِّها، فقالت: ربِّي أكلَ بَعضي بعضًا، فأذِنَ لها بنفَسَينِ: نفسٍ في الشِّتاءِ، ونَفَسٍ في الصَّيفِ؛ فأشَدُّ ما تجِدونَ مِن الحرِّ والبَردِ، فهو من زَمهريرِ جهنَّمَ)). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٩، ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).

قال ابن جرير: (ولكنَّهم لا يفقهونَ عن الله، فهم يحذَرونَ مِن الحرِّ أقَلَّه مَكروهًا وأخفَّه أذًى، ويوافِقونَ أشدَّه مَكروهًا وأعظَمَه على من يَصلاه بلاءً). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣).

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) واللفظ له.

(٣) الأَخمَصُ: باطِنُ القَدَمينِ الذي لا يَصِلُ إلى الأرضِ عند المَشيِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٩/ ٣٢٣).

(٤) رواه البخاري (٦٥٦١)، ومسلم (٢١٣) واللفظ له.

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أدنى أهلِ النَّارِ عذابًا، ينتعِلُ بنَعلَينِ مِن نارٍ، يغلي دماغُه من حرارةِ نَعلَيه))[١].

ثُمَّ قال اللَّهُ جلَّ جلالُه، مُتَوَعِّدًا لهؤلاءِ المنافِقينَ على صَنيعِهم هذا[٢]:

﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا ﴾.

أي: فلْيضحَكِ المُنافِقونَ قليلًا في هذه الدُّنيا الزَّائلةِ، ولْيَبكوا في الآخرةِ الأبديَّةِ كَثيرًا، في نارِ جهنَّمَ[٣].

﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

أي: فسَيبكي المُنافِقونَ كثيرًا في الآخرةِ؛ جزاءً مِن اللهِ لهم بسبَبِ ما كانوا يعمَلونَه في الدُّنيا من الكُفرِ والنِّفاقِ والمعاصي[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي لِمَن لا يصبِرُ على حرِّ الشَّمسِ في الدُّنيا أنْ يجتَنِبَ من الأعمالِ ما يَستوجِبُ به صاحبُه دُخولَ النَّارِ؛ فإنَّه لا قوَّةَ لأحدٍ عليها ولا صبْرَ[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).
قال الرازي: (معنى الآية: أنَّهم وإن فَرِحوا وضَحِكوا في كلِّ عُمرِهم فهذا قليلٌ؛ لأنَّ الدُّنيا بأسرِها قليلةٌ، وأمَّا حَزَنُهم وبكاؤُهم في الآخرةِ فكثيرٌ؛ لأنَّه عقابٌ دائمٌ لا ينقطِعُ، والمنقطِعُ بالنسبةِ إلى الدائمِ قَليلٌ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٢).

(٥) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣٢١).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ قولُه: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ لفظٌ يقتضي تحقيرَهم، وأنَّهم الذين أبعَدَهم اللهُ مِن رِضاه، وهذا أمكَنُ في هذا مِن أن يُقالَ (المتخَلِّفون)، ولم يفرَحْ إلَّا مُنافِقٌ، فخرج من ذلك الثلاثةُ الذين خُلِّفوا، وتاب اللهُ عليهم، وأصحابُ العُذرِ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ ذِكرُ فَرَحِهم دَلالةٌ على نفاقِهم؛ لأنَّهم لو كانوا مؤمنينَ لكان التخلُّفُ نَكدًا عليهم ونَغصًا، كما وقعَ للثَّلاثةِ الذين خُلِّفوا فتاب اللهُ عليهم[٢].

٣- مِن نُكتةِ اختيارِ لَفْظِ ﴿خِلَٰفَ﴾ دُونَ (خَلْفَ)- معَ أنَّ (خِلاف) لغةٌ في خَلْف- أنَّه يُشيرُ إلى أنَّ قُعودَهم كان مُخالفةً لإرادةِ رَسولِ اللهِ، حين استنفَرَ النَّاسَ كُلَّهم للغَزوِ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ المؤمِنُ يَدفَعُ- بِصَبرِه على الحرِّ والبَردِّ في سَبيلِ اللهِ- حرَّ جهنَّمَ وبَردَها؛ والمنافِقُ يفِرُّ مِن حرِّ الدُّنيا وبَرْدِها، حتى يقعَ في حرِّ جهنَّمَ وزَمهريرِها[٤].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤١٩).

- قولُه: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ ...﴾ هذه الآيةُ تَقْتضي التَّوبيخَ والوعيدَ، ولَفْظةُ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ تَقْتضي الذَّمَ والتَّحقيرَ[١]، وهذا فيه اسْتِجهالٌ لهم؛ لأنَّ مَنْ تَصوَّنَ مِنْ مَشقَّةِ ساعةٍ، فوَقَعَ بذَلِكَ التَّصونِ في مَشقَّةِ الأَبَدِ، كان أَجْهلَ مِنْ كُلِّ جاهلٍ[٢]، فأظهَرَ الوصفَ بالتخَلُّفِ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ موضِعَ الضَّميرِ (فَرِحوا)؛ زيادةً في تهجينِ ما رَضُوا به لأنفُسِهم[٣].

- وقال: ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ﴾، ولم يَقُلْ: (وكَرِهوا أنْ يَخْرجوا إلى الغزوِ)؛ إيذانًا بأنَّ الجِهادَ في سَبيلِ اللهِ- مَعْ كونِهِ مِنْ أَجَلِّ الرَّغائبِ، وأَشْرفِ المطالِبِ التي يَجِبُ أنْ يَتنافَسَ فيها المتنافِسونَ- قد كَرِهوهُ، كما فَرِحوا بأقبحِ القبائحِ، الذي هو القُعودُ خِلافَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤].

- وفي قولِه: (فَرِحَ وكَرِهوا) مُقابَلةٌ مَعنويَّةٌ؛ لأنَّ الفَرَحَ مِن ثَمَراتِ المَحبَّةِ[٥].

- والفَرَحُ بالإقامةِ يدُلُّ على كراهةِ الذَّهابِ؛ إلَّا أنه تعالى أعاده للتأكيدِ[٦].

- وفي قولِه: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ تنويهٌ بالمؤمنينَ، وبتحمُّلِهم المشاقَّ العظيمةَ لوَجْهِ اللهِ تعالى، وبما فَعَلوا مِنْ بَذْلِ أموالِهم وأرواحِهم في سَبيلِ اللهِ تعالى، وإيثارِهم ذلك على الدَّعةِ والخَفْضِ[٧].

- قولُه: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ خَبَرٌ مُسْتَعملٌ في التَّذكيرِ بما هو مَعْلومٌ- لأنَّ كونَ نارِ جَهنَّمَ أشدَّ حرًّا مِنْ حَرِّ القيظِ أَمْرٌ مَعلومٌ، لا يتعلَّقُ الغرضُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٦١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٣).
(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٤).

بالإخبارِ عنه-؛ تعريضًا بتجهيلِهم؛ لأنَّهم حَذِروا مِنْ حَرٍّ قليلٍ، وأَقْحَموا أَنْفُسَهم فيما يَصيرُ بِهم إلى حَرٍّ أَشَدَّ، فيكونُ هذا التَّذكيرُ كِنايةً عَنْ كونِهم واقعينَ في نارِ جَهنَّمَ؛ لأَجْلِ قُعودِهم عَنِ الغزوِ في الحَرِّ[١].

- وجُمْلةُ: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ تَتميمٌ للتَّجهيلِ والتَّذكيرِ، أي: يُقالُ لهم ذلك لو كانوا يَفْقهونَ الذِّكرى، ولكِنَّهُمْ لا يَفْقهونَ، فلا تُجْدي فيهم الذِّكرى والموعظةُ[٢]، وهذه الجملةُ أيضًا اعْتِراضٌ تذييليٌّ مِنْ جِهتِه سُبْحانَه وتعالى غيرُ داخلٍ تَحْتَ القولِ المأمورِ بِه، وهو مُؤكِّدٌ لِمَضمونِه[٣]، ولَفْتُ الكلامِ إلى الغَيبةِ يدُلُّ على أنَّ أعظَمَ المُرادِ بهذا الوَعظِ ضُعَفاءُ المُؤمِنينَ؛ لئلَّا يتشبَّهوا بهم طَمعًا في الحِلمِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ إخبارٌ عمَّا يؤولُ إليهِ حالُهم في الدُّنيا والآخِرةِ، أي: فسَيَضْحكونَ قليلًا، ويبكونَ كثيرًا؛ إلَّا أنَّه أَخْرَجَه على صِيغةِ الأَمْرِ؛ للدَّلالةِ على أنَّه حَتْمٌ واجِبٌ، لا يكونُ غيرُه، وعلى تَحتُّمِ وقوعِ المُخبَرِ به؛ فإنَّ أَمْرَ الآمرِ المُطاعِ ممَّا لا يَكادُ يتخلَّفُ عنه المأمورُ[٥].

- ويَجوزُ أن يكونَ (الضَّحِك) كنايةً عَنِ الفَرَحِ، و(البُكاء) كِنايةً عَنِ الغَمِّ[٦].

- قولُه: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فيه الجَمْعُ بين صِيغتَي الماضي والمُسْتقبَلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٦٢-٥٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٩).

﴿كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاسْتِمرارِ التَّجدُّدي ما داموا في الدُّنيا[١].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨٢-٨٥)

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾: المتخلِّفين[1] بعدَ القومِ، أو المتخلِّفينَ لعذرٍ، كالنساءِ والأطفالِ والعَجزةِ وأهلِ الأعذارِ، والخالفُ: المتأخِّر لنقصانٍ أو قصورٍ، ومَن يَخْلُف الرجلَ في مالِه وبيتِه، وقيل: الخالفُ: الفاسدُ، مِن: خَلَف، أي: فَسَد[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنْ ردَّك اللهُ تعالى مِن غَزوةِ تَبوكَ إلى جماعةٍ مِن هؤلاء المُنافِقينَ الذين تخَلَّفوا عنك في المدينةِ بلا عُذرٍ، فاستأذَنوك للخُروجِ معك للجِهادِ في غزوةٍ أخرى؛ فقل لهم: لن تخرُجوا معيَ أبدًا، ولن تقاتِلوا معيَ عدُوًّا؛ وذلك لأنَّكم رَضِيتُم بالتخَلُّفِ عن الجهادِ، حين دُعيتُم أوَّلَ مَرَّةٍ للخُروجِ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى تَبوكَ، فاقعُدوا مع المتخَلِّفينَ عن الجهادِ.

---

(١) قال الألوسي: (وتفسيرُ الخالفِ بالمتخلِّفِ هو المأثورُ عن أكثرِ المفسِّرين السَّلفِ). ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

ثم ينهَى اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يصلِّيَ على أيِّ أحدٍ مِن هؤلاء المُنافِقينَ إذا مات، أو يقِفَ على قَبرِه، لأنَّهم كَفَروا باللهِ ورَسولِه، وماتوا وهم فاسِقونَ.

وينهاه أيضًا عن أن يستحسِنَ أموالَهم وأولادَهم، فيغتَرَّ بها؛ فاللهُ تعالى إنَّما يريدُ أن يعذِّبَهم بها في الدُّنيا، وأن تَخرُجَ أرواحُهم وهم مستمِرُّون على كُفرِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى مَخازِيَ المُنافِقينَ، وسُوءَ طَريقَتِهم؛ بيَّنَ أنَّ الصَّلاحَ في ألَّا يستصحِبَهم في غزَواتِه؛ لأنَّ خُروجَهم معه يُوجبُ أنواعًا من الفسادِ[1].

وأيضًا لما قال الله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ...﴾ فُرِّع على الغضبِ عليهم وتهديدِهم عقابٌ آخرُ لهم، بإبعادِهم عن مشاركةِ المسلمين في غزواتِهم[2].

وأيضًا لَمَّا كان المسرورُ بشيءٍ، الكارِهُ لضِدِّه، النَّاهي عنه؛ لا يفعَلُ الضِّدَّ إلَّا تكلُّفًا، ولا قَلْبَ له إليه، وكان هذا الدِّينُ مَبنيًّا على العِزَّةِ والغِنى؛ أتبَعَ ذلك بقَولِه مُسبِّبًا عن فَرَحِهم بالتخَلُّفِ[3]:

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾.

أي: فإن أرجَعَك اللهُ وردَّك -يا مُحمَّدُ- من غزوةِ تَبوكَ، إلى جماعةٍ من

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٦٤).

هؤلاءِ المُنافِقينَ- الذين تخلَّفوا عنك في المدينةِ بغَيرِ عُذرٍ، وفَرِحوا بذلك- فاستأذَنوك للخُروجِ معك للجِهادِ في غزوةٍ أُخرَى[1].

﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾.

أي: فقُل- يا مُحمَّدُ- عقوبةً لهم: لن تَصحبوني أبدًا في أيِّ سَفرٍ؛ للجِهادِ، ولا لغَيرِه، كالنُّسُك، ولن تُقاتِلوا معيَ عدُوًّا من الأعداءِ أبدًا[2].

كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُ﴾ [الفتح: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٢، ٢٨٣).
قال ابن عاشور: (المرادُ بالطَّائفةِ هنا جماعةٌ من المخلَّفينَ، دلَّ عليها قَولُه: ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾ أي: إلى طائفةٍ منهم يبتغونَ الخُروجَ للغَزوِ، فيجوزُ أن تكونَ هذه الطائفةُ من المُنافقين أرادوا الخروجَ للغَزوِ؛ طمعًا في الغنيمةِ أو نحو ذلك. ويجوز أن تكونَ طائفةٌ مِن المخلَّفينَ تابوا وأسلموا، فاستأذنوا للخُروجِ للغَزْوِ. وعلى الوجهينِ يحتملُ أنَّ مَنْعَهم مِن الخروجِ للخَوفِ مِن غَدرِهم إن كانوا مُنافقينَ، أو لمجَرَّد التأديبِ لهم إن كانوا قد تابُوا وآمنوا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).
قال محمد رشيد رضا: (﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ مِنَ الأعداء بِصفةٍ ما، لا بالخروجِ والسَّفَرِ إليهم، ولا بغيرِ ذلك؛ كأن يُهاجِموا المؤمنينَ في عاصِمَتِهم، كما فعلوا يومَ الأحزابِ مَثلًا، فكلٌّ مِن الخروجِ المُطلَق الذي حُذِفَ مُتعَلِّقُه، والقتالِ الذي ذُكِرَ مُتعَلِّقُه، نكرةٌ منفيَّةٌ عامةٌ، فيَصْدُقَانِ بكلِّ خُروجٍ، وكلِّ قتالٍ لعدوٍّ في أي مكانٍ، وقد يكون كلٌّ منهما بدونِ الآخَرِ، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ مُطلَق، وقد غفَل عن هذا مَن غفَل من المفسِّرين، فزعموا أنَّ الثانيَ تأكيدٌ للأوَّلِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٩٣).

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: وذلك لأنَّكم رَضِيتُم -أيُّها المُنافِقونَ- بالتخلُّفِ عن الجهادِ، حين دُعيتُم أوَّلَ مرَّةٍ للخروجِ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى تَبوكَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾.

أي: فاقعُدوا- أيُّها المنافقونَ- مع المتخَلِّفينَ عن الجهادِ، من الأشرارِ الفاسدينَ الذين تخلَّفوا بغيرِ عُذرٍ، ومن المَعذُورينَ مِن المَرضى والضُّعَفاءِ، والنِّساءِ والصِّبيانِ(٢).

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى أمَرَ رَسولَه بأن يسعى في تخذيلِ المُنافِقينَ، وإهانَتِهم وإذلالِهم، فالذي سبق ذِكرُه في الآيةِ الأولى- وهو مَنْعُهم من الخروجِ معه إلى الغَزَواتِ-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٨ - ٦١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٢، ٤٤٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٩٣).
قال ابنُ جريرٍ: (أُريدَ به: فاقعُدوا معَ مرضَى الرِّجالِ وأهلِ زَمانَتِهم والضُّعفاءِ مِنهم والنِّساءِ ... ولو وُجِّه معنَى ذلك إلى: فاقعُدوا معَ أهلِ الفسادِ، من قولِهم: خَلَفَ الرِّجالَ عن أهلِه يَخْلُفُ خُلُوفًا، إذا فَسَد، ومِن قولِهم: هو خَلَفُ سُوءٍ، كان مذهبًا). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٩ - ٦١٠).

سببٌ قويٌّ من أسبابِ إذلالِهم وإهانتِهم، وهذا الذي ذكَرَه في هذه الآيةِ -وهو مَنعُ الرَّسولِ من أن يصلِّيَ على من مات منهم- سببٌ آخَرُ قويٌّ في إذلالِهم وتَخذيلِهم[١].

وأيضًا لَمَّا انقضى الكلامُ على الاستغفارِ للمُنافقينَ، النَّاشئِ عن الاعتذارِ والحَلِف الكاذِبَينِ، وكان الإعلامُ بأنَّ اللهَ لا يغفِرُ لهم، مَشُوبًا بصورةِ التَّخييرِ في الاستغفارِ لهم، وكان ذلك يُبقي شيئًا مِن طَمَعِهم في الانتفاعِ بالاستغفارِ؛ لأنَّهم يحسَبونَ المعامَلةَ الرَّبانيَّةَ تجري على ظواهِرِ الأعمالِ والألفاظِ- تهيَّأ الحالُ للتَّصريحِ بالنَّهيِ عن الاستغفارِ لهم، والصَّلاةِ على موتاهم[٢]، فقال تعالى:

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾.

سبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاس، عن عُمرَ بنِ الخطَّابِ رَضيَ الله عنهم، أنَّه قال: ((لَمَّا مات عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سلولَ، دُعِيَ له رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليُصَلِّيَ عليه، فلمَّا قام رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وثَبْتُ إليه، فقلتُ: يا رسولَ الله، أتُصلِّي على ابنِ أُبيٍّ، وقد قال يومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟! أعَدِّدُ عليه قَولَه، فتبسَّمَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال: أخِّرْ عنِّي يا عُمرُ، فلمَّا أكثَرْتُ عليه، قال: إنِّي خُيِّرتُ فاختَرتُ، لو أعلَمُ أنِّي إن زدْتُ على السَّبعينَ يُغفَرْ له لَزِدْتُ عليها. قال: فصلَّى عليه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثم انصرَفَ، فلم يمكُثْ إلَّا يسيرًا، حتى نزَلَت الآيتانِ مِن براءةَ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾. قال: فعَجِبْتُ بعدُ مِن جُرأتي

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٤).

على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَئذٍ، واللهُ ورسولُه أعلَمُ))[١].

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾.

أي: ولا تُصَلِّ- يا مُحمَّدُ- على أحدٍ من هؤلاءِ المُنافِقينَ إذا مات، أبدًا[٢].

عن أبي قَتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا دُعِيَ لِجنازةٍ سأل عنها، فإن أُثنِيَ عليها خيرًا، قام فصلَّى عليها، وإن أُثنِيَ عليها غيرَ ذلك، قال لأهلِها: شأنَكم بها، ولم يُصَلِّ عليها))[٣].

﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾.

أي: ولا تَقُم- يا مُحمَّدُ- على قبرِ أحدٍ مِن هؤلاء المُنافِقينَ؛ لِتَولِّي دَفنِه، والاستغفارِ والدُّعاءِ له[٤].

---

(١) تقدَّم تخريجُه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٤).

قال ابن جرير: (يقولُ جلَّ ثناؤه لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ولا تُصَلِّ- يا محمَّدُ- على أحدٍ مات من هؤلاء المنافقينَ الذين تخلَّفوا عن الخُروجِ معك أبدًا). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٠).

وقال ابن كثير: (هذا حكمٌ عامٌّ في كلِّ مَن عُرِفَ نِفاقُه، وإن كان سببُ نزولِ الآيةِ في عبدِ الله بنِ أُبيٍّ ابنِ سلولَ؛ رأسِ المنافقينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٣). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٨٥، ٢٨٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٥٥٥)، والطيالسي (٦٢٩)، وابن حبان (٣٠٥٧)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٣٤٨).

قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٦٥)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٣/ ٦): رجالُه رجالُ الصحيح، وقال ابنُ حجرٍ، كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٤/ ٢١٠): صحيحٌ غريبٌ، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣٥١٧)، والوادعي في ((الفتاوى الحديثية)) (١/ ٤٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور))

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: لا تُصَلِّ على المُنافقينَ إذا ماتوا، ولا تقُمْ على قُبورِهم؛ لأنَّهم كَفروا باللهِ سُبحانه، وكَفَروا برَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

أي: وماتوا وهم خارِجونَ عن الإيمانِ، وطاعةِ الرَّحمنِ[2].

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما يدلُّ على شَقاوةِ المُنافقين في الحياةِ الآخرةِ، كان ذلك قد يُثيرُ في نفوسِ النَّاسِ أنَّ المنافقين حصَّلوا سعادةَ الحياةِ الدُّنيا، بكثرةِ الأموالِ والأولادِ، وخَسِروا الآخرةَ. وربَّما كان في ذلك حَيرةٌ لبعضِ المُسلمين أن يقولوا: كيف منَّ الله عليهم بالأموالِ والأولادِ، وهم أعداؤه وبُغَضاءُ نبيِّه. وربَّما كان في ذلك أيضًا مَسلاةٌ لهم بين المُسلمين، فأعلمَ اللهُ المُسلِمينَ أنَّ تلك الأموالَ والأولادَ- وإن كانت في صورةِ النِّعمةِ- فهي لهم نِقمةٌ وعذابٌ، وأنَّ اللهَ عذَّبهم بها في الدُّنيا[3]، فقال تعالى:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾.

(١٠/ ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٦).

أي: ولا تَستحسِنْ - يا مُحمَّدُ - أموالَ المُنافِقينَ وأولادَهم، ممَّا أنعَمْنا عليهم؛ استدراجًا لهم[١].

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: إنَّما يريدُ اللهُ أن يعذِّبَ المُنافقينَ بأموالِهم وأولادِهم في حياتِهم الدُّنيا، بالهُمومِ والغُمومِ، بأخذِ الزَّكاةِ منهم، وبما أُلزِموا بالإنفاقِ فيه، وبما يعتري أموالَهم وأولادَهم من مصائِبَ وتعبٍ في جمعِ الأموالِ، ووَجَلٍ في حِفظِها، وخوفٍ مِن زَوالِها، وغَيرِ ذلك[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

وعن زيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن كانت الدُّنيا همَّه، فرَّقَ اللهُ عليه أمْرَه، وجعَلَ فَقرَه بين عينَيه، ولم يأتِه مِن الدُّنيا إلَّا ما كُتِبَ له، ومَن كانت الآخرةُ نيَّتَه، جمَعَ اللهُ له أمْرَه، وجعَل غِناه في قَلبِه، وأتَتْه الدُّنيا وهي راغمةٌ))[٣].

---

(١) تقدم نظيرها في الآية (٥٥) من هذه السورة.
قال ابن عطية: (الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ أمَّتُه؛ إذ هو - بإجماعٍ - ممَّن لا تفتِنُه زخارِفُ الدُّنيا، ويحتمل أن يكونَ معنى الآية: ولا تُعجِبْك أيُّها الإنسانُ، والمرادُ الجِنسُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٠٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٤/ ٣٠٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، والطيالسي في ((المسند)) (٦١٧)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٦٨٠).

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: ويريدُ اللهُ أن تَخرُجَ أرواحُ المُنافِقينَ مِن أجسادِهم، وهم مُقيمونَ على كُفرِهم[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قال الله تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ لا خِزيَ أعظَمُ مِن أن يكونَ إنسانٌ قد رفَضَه الشَّرعُ ورَدَّه، كالجَمَلِ الأجرَبِ[(٢)].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ الرجُلَ إذا ظهَرَ له من بعضِ مُتعلِّقيه مَكرٌ وخِداعٌ وكيدٌ، ورآه مُشَدِّدًا فيه مُبالغًا في تقريرِ مُوجِباتِه، فإنَّه يجِبُ عليه أن يقطَعَ العُلقةَ بينه وبينه، وأن يحتَرِزَ عن مُصاحَبتِه[(٣)].

٣- ينبغي الحذرُ مِن أمرينِ لهما عواقِبُ سُوءٍ:

أحدُهما: ردُّ الحَقِّ؛ لِمُخالفَتِه هواك؛ فإنَّك تُعاقَبُ بتَقليبِ القَلبِ، ورَدِّ ما يَرِدُ عليك مِن الحَقِّ رأسًا، ولا تَقبَلُه إلَّا إذا برَزَ في قالبِ هواك؛ قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] فعاقَبَهم على ردِّ

قال ابنُ عبدِ البرِّ في ((التمهيد)) (٢١/ ٢٧٦): ثابتٌ، وجوَّد إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٥/ ٨٨)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (٣٣٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).

قال ابن كثير: (ليكونَ ذلك أنكى لهم وأشَدَّ لعذابِهم، عياذًا باللهِ من ذلك، وهذا يكونُ مِن باب الاستدراجِ لهم فيما هم فيه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٥).

الحَقِّ أوَّلَ مَرَّةٍ بأنْ قَلَّبَ أفئِدَتَهم وأبصارَهم بعد ذلك.

والثاني: التَّهاونُ بالأمرِ إذا حضر وَقتُه؛ فإنَّك إن تهاونْتَ به ثبَّطَك الله وأقعَدَك عن مراضيه وأوامرِه؛ عقوبةً لك، قال تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾ فمن سَلِمَ مِن هاتَينِ الآفتَينِ والبليَّتَينِ العظيمَتينِ، فلْيَهْنِه السَّلامةُ[1].

٤- المُتثاقِلُ المتخَلِّفُ عن المأمورِ به عند انتهازِ الفُرصةِ، لا يُوفَّقُ له بعدَ ذلك، ويُحالُ بينه وبينه؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾[2].

٥- إنَّ مِن جزاءِ السَّيِّئةِ السَّيِّئةَ بعدَها، كما أنَّ مِن ثوابِ الحسنةِ الحسنةَ بعدَها؛ لذا عَلَّلَ قولَه لهم: ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ بقولِه: ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، وهذا كقولِه تعالَى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[3] [الأنعام:١١٠].

٦- إنَّ طُلَّابَ الدُّنيا ومُحِبِّيها ومُؤثِريها على الآخرةِ، يُعَذَّبونَ بها، فهم مُعذَّبونَ بالحِرصِ على تحصيلِها، والتَّعَبِ العظيمِ في جَمعِها، ومُقاساةِ أنواعِ المَشاقِّ في ذلك، فلا تجِدُ أتعَبَ ممَّن الدُّنيا أكبَرُ هَمِّه، وهو حريصٌ بجُهدِه على تحصيلِها، وهذا هو معنى تعذيبِهم بها، ومِن أبلَغِ العذابِ في الدُّنيا: تَشتيتُ الشَّملِ، وتفرُّقُ القُلوبِ، وكونُ الفَقرِ نُصبَ عَينَيِ العَبدِ لا يُفارِقُه، ولولا سَكرةُ عُشَّاقِ الدُّنيا بحُبِّها، لاستَغاثوا مِن هذا العذابِ! فمُحِبُّ الدُّنيا لا ينفَكُّ مِن ثلاثٍ: همٍّ لازمٍ،

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٨٠، ١٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢).

وتعَبٍ دائم، وحَسرةٍ لا تنقضي. قال تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا ﴾[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ هذه الآيةُ دَليلٌ على أنَّ مَن ظهَرَ منه نِفاقٌ وتَخذيلٌ، لا يجوزُ للإمامِ أن يستصحِبَه في الغَزوِ؛ اقتداءً برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما أمَرَه اللهُ به، مِن مُباعَدتِهم عن الجَماعةِ التي تَصحَبُ في السَّفرِ، وتَنصُرُ على العَدُوِّ، مِن أهلِ الطَّاعةِ[٢].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فِعلُ: ﴿رَضِيتُم ﴾ يدلُّ على أنَّ ما ارتكَبوه من القُعودِ عمَلٌ مِن شأنِه أن يأباه النَّاسُ حتى أُطلِقَ على ارتكابِه فِعلُ (رَضِيَ) المُشعِرُ بالمحاولة والمُراوضة؛ جُعِلوا كالذي يحاوِلُ نَفسَه على عمَلٍ، وتأبى حتى يُرضِيَها، كَقولِه تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[٣] [التوبة: ٣٨].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ فيه تحريمُ الصَّلاةِ على الكافِرِ، والوقوفِ على قَبرِه، والدُّعاءِ له، والاستغفارِ[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).

كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ فيه دليلٌ على مشروعيَّةِ الصَّلاةِ على المؤمنينَ، والوقوفِ عند قُبورِهم للدُّعاءِ لهم؛ فإنَّ تَقييدَ النَّهيِ بالمنافقينَ يدُلُّ على أنَّه قد كان مُتقرِّرًا في المؤمِنينَ(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ ﴾ دليلٌ على انتفاعِ المقبورِ بوقوفِ مَن يقفُ عنده مِن الدَّاعينَ؛ إذْ كلُّ ما مُنِعَ منه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في هذه الآيةِ هي عقوبةٌ للمقبورِ لا محالةَ(٢).

٦- مَن كان مُظهِرًا للإسلامِ؛ فإنَّه تجري عليه أحكامُ الإسلامِ الظَّاهرةُ: مِن المُناكَحة والمُوارَثةِ، وتغسيلِه والصَّلاةِ عليه، ودَفنِه في مقابرِ المُسلمين ونحوِ ذلك؛ لكِن مَن عُلِمَ منه النِّفاقُ والزَّندقةُ، فإنَّه لا يجوزُ لِمَن عَلِمَ ذلك منه الصَّلاةُ عليه، وإن كان مُظهِرًا للإسلامِ؛ فإنَّ اللهَ نهى نبيَّه عن الصَّلاةِ على المُنافِقينَ. فقال: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ فكُلُّ مَن لم يُعلَمْ منه النِّفاقُ وهو مُسلِمٌ، يجوزُ الاستغفارُ له والصَّلاةُ عليه، بل يُشرَعُ ذلك ويُؤمَرُ به، كما قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾(٣).

٧- قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ ﴾ استدلَّ به على أنَّ الإمامَ إذا حضرَ جنازةً؛ فهو المُقَدَّمُ عليها في الصلاةِ دونَ الأولياءِ، كما تكونُ في سائرِ الصلاةِ؛ إذ لو كان الأولياءُ أحقَّ منه- كما يزعم مَن يقولُ: إنَّ الصلاةَ على الميتِ مِن الأمورِ الخاصةِ؛ فيتقدمُ الوليُّ عليه- كان النهيُ واقعًا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٧)، ويُنظر أيضًا: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٤).
(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧).

على مَنْعِ وَلِيِّ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سلولَ، النازلِ فيه هذه الآيةُ، مِن الصلاةِ عليه، لا على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الذي هو الإمامُ(١).

٨- قولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ لَمَّا ذكَرَ في تعليلِ هذا النهيِ كَونَه كافرًا، وصَفَه بعد ذلك بكونِه فاسقًا- مع أنَّ الفِسقَ أدنى حالًا مِن الكُفرِ- لأنَّ الكافِرَ قد يكونُ عَدلًا في دينِه، وقد يكونُ فاسقًا في دينِه خَبيثًا مَمقوتًا عند قَومِه، والكَذِبُ والنِّفاقُ والخِداعُ والمكرُ والكَيدُ، أمرٌ مُستقبَحٌ في جميعِ الأديان، فالمُنافِقونَ لَمَّا كانوا موصوفينَ بهذه الصِّفاتِ، وصَفَهم اللهُ تعالى بالفِسقِ بعد أن وصَفَهم بالكُفرِ؛ تَنبيهًا على أنَّ طريقةَ النِّفاقِ طَريقةٌ مَذمومةٌ عند كلِّ أهلِ العالَم(٢).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ تقدَّمَ نظيرُه في السورةِ، وأعيدَ هنا؛ لأنَّ أشدَّ الأشياءِ جَذبًا للقلوبِ، وجَلبًا للخواطِرِ إلى الاشتغالِ بالدُّنيا، هو الاشتغالُ بالأموالِ والأولادِ، وما كان كذلك يجِبُ التحذيرُ عنه مرَّةً بعد أخرى(٣).

وقيل: وجهُ تَكريرِها تأكيدُ هذا المعنى وإيضاحُه؛ لأنَّ النَّاسَ كانوا يُفتَنونَ بصلاحِ حالِ المُنافقينَ في دنياهم(٤).

وقيل: أُعيدَ ذلك؛ لأنَّ تجدُّدَ النُّزولِ له شأنٌ في تقريرِ ما نزَلَ له وتأكيدِه، وإرادة أن يكونَ على بالٍ مِن المخاطَبِ لا ينساه ولا يسهو عنه، وأن يعتقِدَ أنَّ العمَلَ به مهِمٌّ يفتقِرُ إلى فضلِ عنايةٍ به، لا سيَّما إذا تراخى ما بين النُّزولين. فأشبه

(١) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٨).

الشَّيءَ الذي أهَمَّ صاحِبَه، فهو يرجِعُ إليه في أثناءِ حَديثِه، ويتخلَّصُ إليه. وإنَّما أعيدَ هذا المعنى لِقوَّتِه فيما يجِبُ أن يَحذَر منه(١).

وقيل: ظاهِرُه أنَّه تكريرٌ، وليس بتكريرٍ؛ لأنَّ الآيتينِ في فَريقينِ مِن المنافقينَ، ولو كان تكريرًا لكان مع تباعُدِ الآيتينِ لِفائدةِ التَّأكيدِ والتَّذكيرِ(٢).

وقيل: أراد بالأُولى لا تُعَظِّمْهم في حالِ حياتهم بسبَبِ كَثرةِ المالِ والولَدِ، وبالثانيةِ لا تُعَظِّمهم بعد وفاتِهم لمانعِ الكُفرِ والنِّفاق(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ فيه دُخولُ (إنْ) هنا- وهي للمُمكِنِ وقوعُه غالبًا-؛ إشارةً إلى أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يعلمُ بمُسْتقبلاتِ أَمْرِهِ مِنْ أَجَلٍ وغيرِهِ إلَّا أنْ يُعْلِمَه اللهُ(٤).

- قولُه: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ فيه مِن مَحاسِن البَلاغةِ: الانْتِقالُ بالنَّفي مِنَ الشَّاقِّ عليهم- وهو الخروجُ إلى الغُزاةِ- إلى الأشقِّ، وهو قِتالُ العَدوِّ؛ لأنَّه عُظمُ الجِهادِ، وثمرةُ الخروجِ، ومَوضِعُ بارقةِ السُّيوفِ التي تحتها الجَنَّةُ، ثُمَّ عَلَّلَ انْتِفاءَ الخروجِ والقِتالِ بكونِهِم رَضُوا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٥).

بالقُعودِ أوَّلَ مَرَّةٍ، ورِضاهم ناشئٌ عن نِفاقِهم وكُفْرِهم وخِداعِهم، وعصيانِهم أمْرَ اللهِ في قولِهِ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، وقالوا هم: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾؛ فعلَّلَ بالمُسبَّبِ، وهو الرِّضا النَّاشئُ عَنِ السَّببِ، وهو النِّفاقُ[١].

- وقَولُ الله تعالى: ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ إخبارٌ بمعنى النَّهيِ؛ للمُبالغةِ[٢].

- وجُمْلةُ: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مُستأنَفةٌ؛ للتَّعدادِ عليهم والتَّوبيخِ، أي: إنَّكُمْ تُحِبُّونَ القُعودَ، وتَرْضونَ به، فقد زِدْتُكم منه[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَّاتَ ...﴾ و﴿وَمَاتُواْ﴾ ماضٍ بمَعْنى المُسْتقبلِ؛ وإنَّما قيل: (مَاتَ)، و(ماتوا) بلَفْظِ الماضي- والمَعْنى على الاسْتِقبالِ- على تقديرِ الكونِ والوجودِ؛ لأنَّه كائنٌ موجودٌ لا محالةَ؛ فموتُهم غيرُ مَوجودٍ في حالِ التَّكلُّمِ ولا قَبْلَه، وإنَّما جِيءَ بصيغةِ الماضي؛ تَنْبيهًا على تَحقُّقِ وقوعِ الموتِ لا مَحالةَ[٤].

- وجُمْلةُ: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ تعليلٌ للمَنْعِ مِنَ الصَّلاةِ والاسْتِغفارِ لهم، والقيامِ بما يَقْتضي الامْتِناعَ مِنْ ذلك، وهو الكُفْرُ والموافاةُ عليهِ[٥]؛ فهي تعليليَّةٌ للنَّهي ﴿وَلَا تُصَلِّ ...﴾؛ ولِذَلِكَ لَمْ تُعْطَفْ،

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٠).

وقد أَغْنى وجودُ (إِنَّ) في أوَّلِها عنْ فاءِ التَّفريعِ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ﴾ تكريرٌ لِما سَبَقَ، وتقريرٌ لِمَضْمونِهِ بالإخبارِ بوقوعِه[٢].

- وفيه تَقديمُ الأموالِ على الأولادِ، مَعَ كونِهِمْ أَعزَّ مِنْها؛ إمَّا لعُمومِ مَسيسِ الحاجةِ إليها بحَسَبِ الذَّاتِ وبحَسَبِ الأفرادِ والأوقاتِ؛ فإنَّها ممَّا لا بُدَّ منه لكُلِّ أَحَدٍ مِنَ الآباءِ والأمهاتِ والأولادِ في كُلِّ وقتٍ وحينٍ، حتَّى إنَّ مَنْ له أولادٌ ولا مالَ لَهُ، فهو وأولادُهُ في ضيقٍ ونَكالٍ، وأمَّا الأولادُ فإنَّما يَرْغَبُ فيهم مَنْ بَلَغَ مَبلَغَ الأُبوَّة[٣]، وقيل: لأنَّها أقدَمُ في الوجودِ منهم[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾، وقال تعالى قَبْلَ ذلك في السُّورةِ نَفْسِها: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾، فهناك تَشابُهٌ واخِتْلافٌ بين ألفاظِ الآيتينِ، وذلك على النحوِ الآتي:

١- بَدأتِ الآيةُ الأُوْلى بالفاءِ والثَّانيةِ بالواوِ؛ لأنَّ الآيةَ الثَّانيةَ مَعطوفةٌ على ما قَبْلَها؛ فسِياقُ الآياتِ السَّابقةِ يَقْتضي العَطْفَ، فهو نَهْيٌ عُطِفَ على ﴿ وَلَا تُصَلِّ ﴾، ﴿وَلَا تَقُمْ﴾، ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ ﴾ فناسبتِ الواو، أمَّا الآيةُ الأُوْلى فالفاءُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٣).

للاسْتِئنافِ، وليس هناك عَطفٌ، وقيل: مُناسَبةُ الفاءِ أنَّهُ عَقِبَ قولِه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾، أي: للإنفاقِ، فهم مُعجَبونَ بَكْثرةِ الأموالِ والأولادِ؛ فنَهاه عَنِ الإعجابِ بفاءِ التَّعقيبِ.

٢- الآيةُ الأولى ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ...﴾ وردتْ في سِياقِ الإنفاقِ، أي: إنفاق الأموالِ، ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾، ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾، ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾؛ فالكلامُ كلُّهُ -إذنْ- في الإنفاقِ في الآياتِ التي قَبْلها وبَعْدَها، أمَّا الآيةُ الثَّانيةُ فسِياقُ الآياتِ قَبْلَها وبَعْدَها في الجِهادِ، وليس الإنفاق، فلمَّا كان السِّياقُ في الأموالِ أَضافَ ﴿لَا﴾، وفَصَلَ الأولادَ والأموالَ للتَّوكيدِ، وقيل: ذِكْرُ ﴿لَا﴾ مُشْعِرٌ بالنَّهي عَنِ الإعجابِ بكلِّ واحدٍ واحدٍ على انْفِرادٍ، ويتضمَّنُ ذلك النَّهيَ عَنِ المجموعِ، ولم تذكرْ في الثانيةِ؛ فكان نهيًا عن إعجابِ المَجموعِ، ويَتضمَّنُ ذلك النَّهيَ عَنِ الإعجابِ بكلِّ واحدٍ واحدٍ، فدلَّتِ الآيتانِ بمَنْطوقِهما ومَفهومِهما على النَّهيِ عن الإعجابِ بالأموالِ والأولادِ مُجْتمعين ومُنْفرِدين.

٣- ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾ زِيادةُ اللَّام في الآيةِ الأُوْلى زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ لأنَّ السِّياقَ في الأموالِ والإنفاقِ، وكما أكَّدَ بـ (لا) أكَّدَ باللَّام بمعنى (إنَّما يُريدُ اللهُ أنْ يُعَذِّبَهم)؛ فزِيادةُ اللَّام قِياسيَّةٌ للتَّوكيدِ (تؤكِّدُ معنى الإرادةِ)، فلمَّا كانوا مُتعلِّقينَ بالمالِ تعلُّقًا شديدًا أكَّدَ باللَّام ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾، فكان التَّعذيبُ أشدَّ، وقيل: أَتى باللَّامِ المُشْعِرةِ بالتَّعليلِ، ومفعولُ ﴿يُرِيدُ﴾ محذوفٌ، أي: إنَّما يُريدُ اللهُ ابْتِلاءَهم بالأموالِ والأولادِ لِتَعذيبِهم، وأتى بـ(أَنْ)؛ لأنَّ مَصَبَّ الإرادةِ هو التَّعذيبُ، أي: (إنَّما يُريدُ اللهُ تعذيبَهم)؛ فَقَدِ اخْتَلفَ مُتعلِّقُ الفِعْلِ في الآيتينِ، هذا الظَّاهِرُ، وإنْ كان يَحْتَمِلُ زيادةَ اللَّامِ، والتَّعليل بـ(أَنْ).

٤- وذَكَرَ (الحياةَ الدُّنيا) في الآيةِ الأُولى و(الدُّنيا) في الآيةِ الثَّانيةِ: فأمَّا الآيةُ الأولى فهي في سياقِ الأموالِ، والأموالُ عِنْدَ النَّاسِ هي مَبْعثُ الرَّفاهيةِ والحياةِ والسَّعادةِ، والمالُ هو عَصَبُ الحياةِ، أمَّا الآيةُ الثَّانيةُ فهي في الجِهادِ، وهو مَظِنَّةُ مُفارَقةِ الحياةِ في القِتالِ، فاقْتَضى السَّياقُ ذِكْرَ (الحياةِ) في الآيةِ الأُوْلى، وحَذْفَها في الآيةِ الثَّانيةِ ، وقيل: أَثْبَتَ (في الحياةِ) على الأصلِ، وحُذِفتْ هنا تنبيهًا على خِسَّةِ الدُّنيا، وأنَّها لا تَستحِقُّ أنْ تُسمَّى حياةً، ولا سيَّما حين تَقدَّمَها ذِكْرُ موتِ المنافقينَ، فنَاسَبَ ألَّا تُسمَّى حياةً[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((لمسات بيانية في نصوص من التنزيل)) للسامرائي (ص: ٥٠٩).

الآيات (٨٦-٨٩)

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ ﴾: أي: ذَوو الغِنى والسَّعةِ، وأصلُ (طول): يدُلُّ على فَضْلٍ، وامْتِدادٍ في الشَّيءِ[1].

﴿ ٱلۡخَوَالِفِ ﴾: أي: النِّساءِ، وأصلُ (خلف): يدلُّ على مجيءِ شَيءٍ بعد شيءٍ، وقيامِه مَقامَه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وإذا أُنزِلَت سورةٌ مِن القُرآنِ فيها الأمرُ بالإيمانِ باللهِ، والجهادِ مع رَسولِه، استأذَنَك في التخلُّفِ عن الجهادِ أصحابُ الأموالِ مِن المُنافِقينَ، وقالوا: دَعْنا نكُنْ مع القاعدينَ، رَضُوا أن يكونوا في منازِلِهم مع النِّساءِ، وختم اللهُ على قلوبِهم، فهم لا يَفهَمونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٢٨).

لكن إنْ تخلَّفَ هؤلاء المُنافِقونَ عن الجهادِ فلا ضيرَ؛ لأنَّه قد نهض إليه مَن هو خيرٌ منهم؛ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابُه، فقد جاهدوا بأموالِهم وأنفُسِهم، وأولئك لهم النِّعَمُ الكثيرةُ في الدُّنيا والآخرةِ، وأولئك هم الذين ظَفِروا بما طَلَبوا مِن النَّعيم، أعدَّ اللهُ لهم بساتينَ تجري من تحتِ أشجارِها ومَبانيها الأنهارُ، ماكثينَ فيها أبدًا، ذلك الفوزُ العظيمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

مَناسبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لما بيَّنَ اللهَ تعالى في الآياتِ المتقدِّمةِ أنَّ المُنافِقينَ احتالوا في رُخصةِ التخَلُّفِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والقعودِ عن الغَزوِ؛ زادَ في هذه الآيةِ دقيقةً أُخرَى، وهي أنَّه متى نزَلَت آيةٌ مُشتَمِلةٌ على الأمرِ بالإيمانِ، وعلى الأمرِ بالجهادِ مع الرَّسولِ، استأذَنَ أولو الثَّروةِ والقُدرةِ منهم في التخلُّفِ عن الغَزوِ، وقالوا لرَسولِ اللهِ: ﴿ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ أي: مع الضُّعَفاءِ مِن النَّاسِ، والسَّاكِنينَ في البلَدِ[1].

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ ﴾.

أي: وإذا أُنزِلَت عليك -يا محمَّدُ- سورةٌ من القرآنِ، فيها أمرُ النَّاسِ بالإيمانِ باللهِ، وجِهادِ الكُفَّارِ مع رسولِ اللهِ؛ استأذَنَك في التخَلُّفِ عن الجهادِ أصحابُ الغِنى والأموالِ مِن المُنافِقينَ[2]!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن

﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾.

أي: وقال لك المُنافِقونَ- يا مُحمَّدُ: اترُكْنا نكُنْ مع القاعدينَ في بُيوتِهم؛ مِنَ الضُّعَفاءِ والمَرضى والعاجزينَ عن الجِهادِ[1].

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾.

أي: رَضِيَ المُنافقونَ المُستأذِنونَ في التخَلُّفِ عن الجهادِ أن يكونوا في مَنازِلِهم مع النِّساءِ[2]!

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

أي: وختَمَ اللهُ على قلوبِ المُنافِقينَ بسبَبِ تَخلُّفِهم عن الجهادِ بلا عُذرٍ، فهم لا يَفهَمونَ مواعِظَ اللهِ، وأنَّ الجِهادَ خَيرٌ لهم في الدُّنيا والآخرةِ[3].

عطية)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٣)، ((حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٨).

قال القاسمي: (إنَّما خَصَّ ذوي الطَّولِ؛ لأنَّهم المذمومونَ، وهم مَن له قدرةٌ ماليَّةٌ، ويُعلَمُ منه البدنيَّةُ أيضًا بالقياسِ). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٤).

وقال محمد رشيد رضا: (المراد بهم هنا أولو المقدِرةِ على الجهادِ المفروضِ، بأموالِهم وأنفُسِهم). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٥٠٢).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الطَّولُ: السَّعةُ في المالِ... والاقتصارُ على الطَّولِ يدُلُّ على أنَّ أُولي الطَّولِ مُرادٌ بهم مَن له قدرةٌ على الجِهادِ بصِحَّةِ البَدَنِ، فبوجودِ الطَّولِ انتفى عُذرُهم؛ إذ مَن لم يكُنْ قادِرًا ببَدَنِه، لا يُنظَرُ إلى كَونِه ذا طَولٍ، كما يدلُّ عليه قَولُه بعدُ ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير))

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا شرحَ حالَ المُنافقينَ في الفِرارِ عن الجِهادِ؛ بيَّنَ أنَّ حالَ الرَّسولِ والذين آمَنوا معه بالضِّدِّ منه؛ حيث بذَلُوا المالَ والنَّفسَ في طلَبِ رِضوانِ اللهِ، والتقرُّبِ إليه[1].

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

أي: لكنْ الرَّسولُ محمدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأصحابُه الذين آمَنوا معه، قد جاهَدوا الكُفَّارَ ببَذلِ أموالِهم وقاتَلوهم بأنفُسِهم، فهم ليسُوا كالمُنافِقينَ المتخَلِّفينَ، فلئن تخَلَّفَ هؤلاء المنافِقونَ عن الجهادِ، فلا ضَيرَ؛ لأنَّه قد نهضَ إليه مَن هو خيرٌ منهم[2].

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤٤].

(٤/ ١٩٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).

قال ابن عطية: (الأكثَرُ في (لكِنْ) أن تجيء بعد نفيٍ، وهو هاهنا في المعنى، وذلك أنَّ الآيةَ السَّالفةَ معناها أنَّ المُنافِقينَ لم يجاهِدوا، فحَسُنَ بَعدَها ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩).

وقال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾.

أي: والرَّسولُ والذين آمَنوا معه، وجاهَدوا بأموالِهم وأنفُسِهم؛ لهم النِّعَمُ الكثيرةُ الحَسَنةُ في الدُّنيا والآخرةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٨، ٦١٩)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (٤/ ٣٠٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، (تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩١).

أي: وأولئكَ هم الذينَ ظَفِروا بما طَلَبوا منَ النَّعيمِ[١].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: هيَّأَ اللهُ لِرَسولِه وللمُؤمِنينَ معه بساتينَ تجري مِن تَحتِ أشجارِها ومَبانيها الأنهارُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: لابثينَ فيها، لا يَموتونَ، ولا يُخرَجونَ منها أبدًا[٣].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: دُخولُ الجنَّاتِ التي أعدَّها اللهُ للرَّسولِ وللمُؤمِنينَ معه، هو النَّجاةُ العظيمةُ، والظَّفَرُ الكبيرُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).
قال القنوجي: (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) المرادُ بهم هنا الفائزونَ بالمطلوبِ). ((فتح البيان)) (٥/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩)، ((الهداية)) لمكي (٤/ ٣٠٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ قدَّمَ الأمرَ بالإيمانِ على الأمرِ بالجِهادِ؛ لأنَّ الجِهادَ بغَيرِ الإيمانِ لا يُفيدُ شَيئًا[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ في تخصيصِ ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ ﴾ بالذكرِ وجهانِ: الأوَّل: أنَّ الذمَّ لهم ألزمُ؛ لأجلِ كونِهم قادرينَ على السَّفرِ والجهادِ. والثَّاني: أنَّه تعالى ذكَرَ أولي الطَّولِ؛ لأنَّ مَن لا مالَ له ولا قُدرةَ على السَّفَرِ، لا يحتاجُ إلى الاستئذانِ؛ لأنَّه مَعذورٌ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ عطفَ ﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ على ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ ﴾ لِمَا بينَهما من المغايرةِ في الجملةِ، بزيادةٍ في المعطوفِ؛ لأنَّ الاستِئذانَ مُجمَلٌ، وقولَهم المحكيَّ فيه بيانُ ما استأذَنوا فيه، وهو القُعودُ، وفي نَظْمِه إيذانٌ بتَلفيقِ مَعذِرتِهم، وأنَّ الحقيقةَ هي رغبتُهم في القُعودِ؛ ولذلك حُكِيَ قَولُهم بأن ابتُدِئَ بـ ﴿ذَرۡنَا﴾ المقتضي الرَّغبةَ في تَرْكِهم بالمدينةِ، وبأن يكونوا تبَعًا للقاعِدينَ الذين فيهم العُجَّزُ والضُّعَفاءُ والجُبَناءُ؛ لِما تُؤذِنُ به كَلمةُ (مع) من الإلحاقِ والتَّبَعيَّةِ[٣].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ ﴾ اختيارُ فِعل ﴿رَضُواْ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٤٠).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٩).

إشعارٌ بأنَّ ما تلبَّسوا به من الحالِ، مِن شأنِه أن يتردَّدَ العاقِلُ في قَبولِه[١].

٥- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ * رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ دليلٌ على جُبنِ المُنافِقينَ وضُعَفاءِ الإيمانِ، ورضاهم لأنفُسِهم بالذُّلِّ والهَوانِ[٢]، فلو فَقِه المنافِقونَ حَقيقةَ الفِقهِ، لم يَرضَوا لأنفُسِهم بالحالِ التي تحُطُّهم عن منازِلِ الرِّجالِ، ولم يَرضَوا أن يكونوا مع النِّساءِ المتخَلِّفاتِ عن الجهادِ[٣].

٦- في قولِه تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ دليلٌ على أنَّ النساءَ لا جهادَ عليهنَّ، وإنْ أَطَقْنَه؛ لأنَّه سبحانه قد ذَكَرَ الخوالفَ مرَّتين في الآيةِ الأُولَى والثانية ولم يخرجهنَّ، إنَّما أَخرجَ مَن تَشَبَّه في التخلفِ عنه بمَن لا جهادَ عليه؛ ورضِي الكينونةَ معه عمَّا هو مندوبٌ إليه[٤].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾، قوله: ﴿مَعَهُۥ﴾ في موضعِ الحالِ من (الذينَ) لتدُلَّ على أنَّهم أتباعٌ له في كلِّ حالٍ، وفي كلِّ أمرٍ، فإيمانُهم معه؛ لأنَّهم آمنوا به عندَ دَعوتِه إيَّاهم، وجهادُهم بأموالِهم وأنفُسِهم معه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الخَيراتِ المبثوثةَ لهم في الدُّنيا والآخرةِ تابعةٌ لِخَيراتِه ومَقاماتِه[٥].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٧).
(٤) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩١).

وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ لَمَّا كان السِّياقُ لبُخلِ المنافقينَ بالنَّفسِ والمالِ، ولِسَلبِ النَّفعِ مِن أموالِهم وأولادِهم، اقتصَرَ في مدحِ أوليائِه على الجهادِ بالنَّفسِ والمالِ، ولم يَذكُرِ السَّبيلَ[١].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ قَولُه: ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتُ﴾ تعريضٌ بذوي الأموالِ مِن المُنافِقينَ؛ لأنَّ الخيرَ يُطلَقُ على المالِ، وتَحليتُه بـ (أل) تدلُّ على استغراقِه لجَميعِ منافِعِ الدَّارينِ[٢].

١٠- قال الله تعالى: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ الإعدادُ: التَّهيئةُ، وفيه إشعارٌ بالعِنايةِ[٣].

١١- في قولِه تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ شاهدٌ لكل مَن حَضَرَ مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم غزوةَ تبوك مِن أصحابِه بالجنةِ، فكلُّ مَن شَهِدَ غزوةَ تبوك مِن أصحابِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فهو معه في الجنةِ على ما كان فيه بشهادةِ هذه الآيةِ له، وهي حقٌّ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾ فيه الْتِفاتٌ؛ إذْ هو خُروجٌ مِنْ لَفْظِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٧١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩١).
(٤) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٧).

الغَيبةِ -وهو قولُه: ﴿رَسُولِهِ﴾- إلى ضَميرِ الخِطابِ في ﴿ٱسْتَـٔذَنَكَ﴾، فلو جاءَ على الأصلِ لقِيلَ: استأذَنَه[١].

- وقولُه: ﴿وَقَالُواْ﴾ عَطْفٌ تَفسيريٌّ لـ﴿ٱسْتَـٔذَنَكَ﴾، وهو مُغْنٍ عَنْ ذِكْرِ ما اسْتأذَنوا فيه- يعني القُعودَ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ...﴾ اسْتِئنافٌ؛ لبيانِ سُوءِ صَنيعِهم، وعَدَمِ امْتِثالِهم لِكِلا الأمرينِ، وإنْ لم يَردُّوا الأوَّلَ صريحًا[٣].

- وفيه تَهجينٌ لهم، ومبالَغةٌ في الذَّمِّ؛ لأنَّ كونَهم رَضُوا بأنْ يَكونوا قاعِدينَ مَعَ النِّساءِ في المدينةِ أبْلغُ ذَمٍّ لهم وتَهجينٍ؛ لأنَّهم نَزَّلوا أَنفُسَهم مَنْزِلةَ النِّساءِ العَجَزَةِ اللَّواتي لا مُدافعةَ عندَهنَّ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ فيه تَعريضٌ بأنَّ الذين لَمْ يُجاهِدوا دونَ عُذْرٍ ليسوا بمُؤمنينَ[٥].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ عُطِفَت جملةُ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٠).

لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ على جملةِ ﴿جَٰهَدُواْ﴾ ولم تُفصَل- مع جوازِ الفَصلِ- ليدُلَّ بالعطفِ على أنَّها خبرٌ عن (الذين آمنوا)، أي: على أنَّها مِن أوصافِهم وأحوالِهم؛ لأنَّ تلك أدلُّ على تمكُّنِ مَضمونِها فيهم مِن أن يُؤتى بها مُستأنفةً، كأنَّها إخبارٌ مُستأنَفٌ[١].

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الإتيانُ باسمِ الإشارةِ؛ لإفادةِ أنَّ استحقاقَهم الخَيراتِ والفَلاحَ، كان لأجل جهادِهم[٢].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في التعبيرِ بأداةِ البُعدِ إشارةٌ إلى عُلوِّ مَقامِ أوليائِه، وبُعدِ مَنالِه إلَّا بفَضلٍ منه تعالى[٣].

- قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فيه تَكريرُ اسْمِ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنويهِ لشأنِهِمْ، ولِرَفعِ مَكانِهم[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ اسْتِئنافٌ بيانيٌّ لجوابِ سؤالٍ يَنشأُ عَنِ الإخبارِ بـ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩١).

الآيات (٩٠-٩٢)

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٠ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩١ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٩٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾: أي: المُعتَذِرونَ الَّذين لَهُم عُذرٌ، وَقد يكون المعَذِّرُ غيرَ مُحِقٍّ، فالمعنى المقصِّرونَ بِغَيْر عُذرٍ. والعُذْرُ: تحرِّي الإنسانِ ما يمحو به ذُنوبَه[1].

﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾: أي: سُكَّانِ الباديةِ، وأصلُ (عرب): يدلُّ على الإبانةِ والإفصاحِ[2].

﴿حَرَجٌ﴾: أي: إثمٌ، والحرَجُ كذلك: الشكُّ والضِّيقُ، وأصلُ الحَرَجِ: تجمُّعُ الشَّيءِ وضِيقُه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧).

﴿تَفِيضُ﴾: أي: تَسيلُ، وفَيضُ العَينِ مِن الدَّمعِ: امتلاؤُها منه، ثمَّ سَيلانُه منها كفَيضِ النَّهرِ من الماءِ، وفيضِ الإناءِ، وأصلُ (فيض): يدلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بِسُهولةٍ[١].

﴿ٱلسَّبِيلُ﴾: أي: العقوبةُ والمأثَمُ، ويُستعمَلُ السَّبيلُ لكُلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شيءٍ، خيرًا كان أو شرًّا، وأصلُ (سبل): يدلُّ على امتدادِ شَيءٍ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُعتَذرينَ مِن الأعرابِ أتَوا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليأذَنَ لهم في التخلُّفِ عن الجهادِ، وقعدَ عن المجيءِ للاعتذارِ المُنافِقونَ الذين كَذَبُوا اللهَ ورَسولَه، وأخبَرَ أنَّه سيُصيبُ الكافرينَ مِن الأعرابِ عَذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ.

ثم ذكَر الله تعالى الأعذارَ المقبولةَ في التخلُّفِ عن الجهادِ، فقال: ليس هناك إثمٌ في التخلُّفِ عن الجهادِ مِن قِبَل الضُّعَفاءِ والمَرضى، والذين لا يجِدونَ مالًا يتجهَّزونَ به، إذا كانوا ناصحينَ لله ورسولِه، ما على المُحسنينَ مِن طريقٍ لِمُؤاخَذتِهم وعُقوبتِهم، واللهُ غفورٌ رحيم. ولا عقوبةَ أيضًا على الذين إذا أتَوْك -يا مُحمَّدُ- يطلبونَ منك ما يركبونَ عليه للغَزوِ معك، قلتَ لهم مُعتذرًا: لا أجِدُ ما تَركبونَ عليه، فانصَرَفوا مِن عِندِك، وهم يَبكونَ مِن الحَزَنِ على عدَمِ تَوفُّرِ ما يتجَهَّزونَ به للجِهادِ.

ثم بيَّن تعالى أحكامَ أصحابِ الأعذارِ الكاذبةِ، فقال: إنَّما العقوبةُ والمؤاخذةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٠).

على المنافقينَ الذين يَستأذِنونَك في التخلُّفِ عن الجهادِ وهم أغنياءُ، رضُوا بأن يكونُوا في بيوتِهم مع النِّساءِ، وختَمَ اللهُ على قلوبِهم، فهم لا يَعلَمونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شرَحَ الله تعالى أحوالَ المُنافِقينَ الذين كانوا في المدينةِ؛ ابتدأ في هذه الآيةِ بشَرحِ أحوالِ المنافقينَ مِن الأعرابِ[1].

وأيضًا لَمَّا خَتمَ قَصصَ أهلِ المَدَرِ بذَمِّ أُولي الطَّولِ منهم بتخلُّفِهم، وكان ذمُّهم إنَّما هو لِكَونِهم قادرينَ على الخروجِ في ذلك الوَجهِ، وقدَّمَهم لِكَثرةِ سمَاعِهم للحِكمةِ، وكان أهلُ الوَبَرِ أقدَرَ النَّاسِ على السَّفَرِ؛ لأنَّ مبنى أمرِهم على الحَلِّ والارتحالِ، فهم أجدَرُ بالذمِّ؛ لأنَّهم في غايةِ الاستعدادِ لذلك- تلاهم بهم، فقال تعالى[2]:

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿الْمُعْذِرُونَ﴾ بسكونِ العينِ وتخفيفِ الذالِ، بمعنى: الذينَ جاؤوا بعُذرٍ صحيحٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٧٢).

(٣) قرأ بها يعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري

٢- قراءةُ ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ بفتحِ العينِ وتشديدِ الذالِ، أي: المُعتذرونَ، قيل: بمعنى اعتذروا بحقٍّ، فتكونُ بمعنَى القراءةِ الأُولَى، وقيل: المعنى: المقصِّرون الذين أوْهَموا أنَّ لهم عذرًا، ولا عُذرَ لهم[(١)].

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾.

أي: وأتى المُعتَذِرونَ مِن سكَّانِ البوادي التي حولَ المدينةِ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليأذَنَ لهم في التخلُّفِ عن الجِهادِ[(٢)].

(١/ ٤٦٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٨).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٩ - ٥٩١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٦٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٢).

قال محمد رشيد رضا: (والحكمةُ في القِراءَتين على اختلافِ معاني الصِّيغَتينِ بيانُ اختلافِ أحوالِ أولئك الأعرابِ في أعذارِهم؛ فمنهم مَن له عُذرٌ صَحيحٌ هو موقِنٌ به، ومن له عُذرٌ صوريٌّ لا حقيقيٌّ، وهو يُوهِمُ أنَّه حقيقيٌّ، عالِمًا بأنَّه مخادعٌ، ومنهم من له عُذرٌ ضَعيفٌ هو في شَكٍّ منه، إن نُوقِشَ فيه عجَزَ عن إثباتِه، ومنهم مَن لا عُذرَ له في الواقِعِ، فهو كاذبٌ في انتحالِه، وهذا من إيجازِ القُرآنِ العَجيبِ، بالإتيانِ بلَفظٍ مُفرَدٍ يتناوَلُ هذه الأقسامَ كُلَّها، مبهمةً إلَّا عند أهلِها؛ للحِكمةِ الآتيةِ المُقتَضيةِ لإبهامِها). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩، ٦٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٩، ٥٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٣).

قيل: المرادُ بالمعذِّرين هنا: الذين اعتَذَروا بأعذارٍ صادقةٍ وصَحيحةٍ، وممَّن اختار ذلك: الرازي، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٧-١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٦٠).

وقيل: المرادُ بهم: الذين اعتَذَروا بأعذارٍ كاذبةٍ، وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: قتادةُ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وأبو إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: وقعَدَ عن المجيءِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للاعتذارِ إليه عن الجهادِ معه، الأعرابُ المُنافِقونَ الذين كَذَبوا اللهَ ورَسولَه في دَعواهم الإيمانَ المُقتضيَ للخُروجِ للجِهادِ(١).

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: سيصيبُ الكافرينَ مِن الأعرابِ(٢) عذابٌ مُؤلِمٌ(٣).

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا

أبي حاتم)) (٦/ ١٨٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٣).

(٢) قال القاسمي: (الضميرُ في ﴿مِنْهُمْ﴾ إمَّا للأعرابِ مطلقًا، فالذين كفروا منافِقوهم، أو أعَمُّ، وإمَّا للمُعَذِّرينَ؛ فإنَّ منهم من اعتذرَ لكسَلِه، لا لكُفرٍ، وجُوِّز أن يكون المعنيَّ بالذين كَفَروا منهم، المُصِرُّونَ على الكُفرِ). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٦).

وقال محمد رشيد رضا: (الظَّاهِرُ المختار أنَّ هذا الوعيدَ يعودُ على ما قبله من الفريقينِ، عامًّا في المكَذِّبين، وخاصًّا ببعض المعَذِّرينَ، كما هو المتبادِرُ مِن قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: الأعراب الذين اعتذر بعضُهم، وقعد بعضٌ؛ فإنَّ الذين كَذَّبوا اللهَ ورَسولَه كُلُّهم كفَّارٌ، وأمَّا المُعتَذِرونَ فمنهم الصَّادقُ في عُذرِه والكاذِبُ فيه؛ لِمَرضٍ في قلبه، أو لتَكذيبِه لله ورَسولِه، وكلٌّ منهم يعرِفُ نَفسَه فيحاسِبُها إذا وجد الوعيدَ موضعًا للعِبرةِ منها، ولو جعل التبعيضَ لهم وحدَهم لظَلَّ القاعدونَ الكاذِبونَ بغَيرِ وعيدٍ، وهم شَرٌّ مِن شَرِّهم، فلا يصِحُّ التبعيضُ فيهم وَحدَهم، ومن ثمَّ اقتضى التحقيقُ أن يُوجَّهَ الوعيدُ إلى الذين كَفَروا منهم؛ لكُفرِهم لا لاعتذارِهم، وإلى الذين قَعَدوا لكُفرِهم لا لقُعودِهم، بل للكَذِبِ الذي كان سبَبَه، وهو عينُ الكفرِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩، ٦٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).

قال ابن عطية: (توعَّدَ في آخِرِ الآيةِ الكافِرينَ بـ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيحتمِلُ أن يريدَ في الدُّنيا بالقَتلِ والأسرِ، ويحتمل أن يريدَ في الآخرةِ بالنَّارِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٠).

يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى حالَ مَن تخلَّفَ عن الجهادِ مع القُدرةِ عليه؛ ذكرَ حالَ مَن له عُذرٌ في تَركِه[1]، فقال تعالى:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾.

أي: ليس على ضُعَفاءِ الأبدانِ، العاجِزينَ عن الخُروجِ للقِتالِ، ولا على المرضى الذين لا يَقدِرونَ على الجهادِ، ولا على الفُقَراءِ الذين لا يجِدونَ مالًا يتجهَّزونَ به- إثمٌ في تخلُّفِهم عن الجِهادِ[2].

كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧].

﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: إذا أخلَصوا إيمانَهم وأعمالَهم وقَصدَهم وحُبَّهم في حال قُعودِهم، وبَذَلوا جُهدَهم في نُصرةِ الإسلامِ، ونَفْعِ المُسلِمينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٩٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٦، ٢٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

عن تميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الدِّينُ النَّصيحةُ. قلنا: لِمَن؟ قال: لِلَّهِ ولِكتابِه ولِرَسولِه ولأئمَّةِ المُسلِمينَ وعامَّتِهم))[١].

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾.

أي: ليس على المُحسِنينَ الذين نصَحوا للَّه ورَسولِه من طريقٍ إلى مؤاخَذتِهم وعُقوبتِهم[٢].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: والله ساتِرٌ ذُنوبَ المُحسِنينَ، ومُتجاوِزٌ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم فلا يعاقِبُهم عليها، بل يُثيبُهم ثوابَ القادِرينَ العامِلينَ[٣].

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الضُّعَفاءَ والمرضى والفُقَراءَ، وبيَّنَ أنَّه يجوزُ لهم التخلُّفُ عن الجِهادِ، بشَرطِ أن يكونوا ناصِحينَ لله ورسولِه، وبيَّنَ كَونَهم مُحسِنينَ، وأنَّه ليس لأحدٍ عليهم سبيلٌ- ذكَرَ قِسمًا آخرَ مِن المعذورينَ، فقال[٤]:

---

(١) رواه مسلم (٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٤).

قال ابن الجوزي: (لأنَّ المحسِنَ قد سدَّ بإحسانِه بابَ العِقابِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٢).

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾.

أي: ولا عقوبةَ على الذين إذا أتَوْك- يا مُحمَّدُ- يسألونَك ما يَركَبونَ عليه في غزوةِ تَبوكَ، قلتَ لهم مُعتذرًا: لا أجِدُ ما تركبونَ عليه، فانصرفوا مِن عِندِك، وهم يبكونَ مِن الحَزَنِ على عدَمِ توفُّرِ ما يتجهَّزونَ به للجِهادِ[1].

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ كُلَّ أولئك ما عليهم مِن سَبيلٍ، بَقِيَ بيانُ مَن عليهم السَّبيلُ في تلك الحالِ، فذَكَرَهم[2]، فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾.

أي: إنَّما العُقوبةُ- يا مُحمَّدُ- على المُنافِقينَ الذين يَستأذِنونَك في التخَلُّفِ عن الجهادِ، وهم أغنياءُ قادِرونَ على الخُروجِ معك للقِتالِ[3].

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾.

أي: رَضِيَ المُنافِقونَ الذين يستأذِنونَك في التخَلُّفِ عن الجهادِ، بالقُعودِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٨، ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

قال ابن تيمية: (هذه الآيةُ نزلت بالإجماعِ في غَزوةِ تَبوكَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٩/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

بيوتِهم مع النِّساءِ اللاتي لا يجِبُ عليهنَّ الجِهادُ[١].

﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: وختَمَ اللهُ على قلوبِ المُنافِقينَ عُقوبةً لهم، فهم لا يَعلمونَ سُوءَ عاقِبةِ تخلُّفِهم عن الجهادِ عاجلًا وآجلًا، ولا ما يفوتُهم بذلك مِن مَصالحِ الدُّنيا والآخرةِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- إذا أحسَنَ العَبدُ فيما يَقدِرُ عليه، سقَطَ عنه ما لا يقدِرُ عليه؛ نَستفيدُ ذلك مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖ﴾[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ * وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ قال بعضُ العُلَماءِ: هذا -واللهِ- بُكاءُ الرِّجالِ؛ بكَوا على فَقْدِهم رواحِلَ يُحمَلونَ عليها إلى الموتِ، في مواطِنَ تُراقُ فيها الدِّماءُ في سبيلِ اللهِ، وتُنزَعُ فيها رؤوسُ الرِّجالِ عن كواهِلِها بالسُّيوفِ، فأمَّا من بكى على فَقْدِ حظِّه من الدُّنيا وشَهواتِه العاجلةِ، فذلك شبيهٌ ببُكاءِ الأطفالِ والنِّساءِ على فَقْدِ حُظوظِهم العاجلةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٧، ٦٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٧).

وينبغي التنبيهُ هنا على أن مَن تبرَّع بالقيامِ بعملٍ فلا يحلُّ له أن يخلَّ به، ويفرطَ فيما أُسنِد إليه؛ بحجةِ أنَّه متبرعٌ، وأنَّه (ما على المحسنين من سبيل)، فهذا وضعٌ للآيةِ في غيرِ موضعِها؛ لأنَّ الواجبَ أن يلتزمَ بما التزمَ بالقيامِ به، وأن يقومَ به على وجهِ الكمالِ.

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٤٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ فيه رفعُ الجِهادِ عن الضَّعيفِ والمريضِ، ومَن لا يجِدُ نَفقةً ولا أُهبةً للجِهادِ، ولا مَحمَلًا[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ النُّصحَ في الدِّينِ واجبٌ، وأنَّه يدخُلُ في ذلك الأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المُنكَر، والشَّهاداتُ والأحكامُ، والفَتاوى وبيانُ الأدلَّةِ[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في سُقوطِ التَّكليفِ عن العاجزِ، فكُلُّ من عجَزَ عن شيءٍ سَقَط عنه، فتارةً إلى بدَلٍ هو فِعلٌ، وتارةً إلى بدَلٍ هو غُرمٌ، ولا فَرقَ بين العَجزِ من جهةِ القُوَّةِ، أو العَجزِ مِن جهةِ المالِ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في رَفعِ العِقابِ عن كلِّ مُحسنٍ[٤].

٥- فائدةُ قَولِه: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بعدما ذكَرَ عُذرَهم: أنَّ المَعذورَ يكونُ على قِسمينِ: أحدُهما فريقٌ منهم يغتَنِمونَ عُذرَهم، فهؤلاء ليسوا ممَّن نصحَ للَّهِ ورَسولِه، وفريقٌ يتمَنَّونَ أنْ لم يكُنْ لهم عذرٌ فيتمَكَّنوا من الجهادِ،

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٢٧).

فهؤلاء هم الذينَ نَصَحوا لله ورسولِه[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ يُستدَلُّ به على أنَّ مَن أحسَنَ على غيرِه، في نفسِه أو في مالِه، ونحو ذلك، ثمَّ ترتَّبَ على إحسانِه نَقصٌ أو تلَفٌ، أنَّه غيرُ ضامنٍ؛ لأنَّه مُحسِنٌ، ولا سبيلَ على المُحسنينَ، كما أنَّه يدُلُّ على أنَّ غيرَ المُحسِنِ- وهو المُسيءُ- كالمُفَرِّط، أنَّ عليه الضَّمانَ[٢].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قَولُه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ كُلَّ أحدٍ عاجِزٌ محتاجٌ للمغفرةِ والرَّحمةِ؛ إذ الإنسانُ لا يخلو من تفريطٍ ما، فلا يقالُ: إنَّه نفى عنهم الإثمَ أوَّلًا، فما الاحتياجُ إلى المغفرةِ المقتضيةِ للذَّنبِ؟ فإن أريدَ ما تقدَّمَ مِن ذُنوبِهم دخلوا بذلك الاعتبارِ في المُسيءِ[٣].

٨- دلَّ قَولُه تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ على أنَّ العادِمَ للنَّفَقةِ، الطَّالِبَ للإعانةِ، إذا لم تحصُلْ له، فلا حرَجَ عليه. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المعونةَ إذا بُذِلَت له من الإمامِ، لَزِمَه الخروجُ[٤].

٩- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على أنَّ العاجزَ بمالِه لا يُعْذَرُ حتى يبذُلَ جُهدَه، ويتحقَّقَ عَجزُه؛ فإنَّ اللهَ سُبحانه إنَّما نفى الحرجَ عن هؤلاءِ العاجِزينَ بعد أنْ أتَوْا رسولَ

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٩٣- ٥٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٨).

الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليحمِلَهم[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ هذه قصَّةُ البكَّائينَ صَرَّحَ بها -وإن كانوا داخلينَ في ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾- إظهارًا لِشَرفِهم وتقريرًا؛ لأنَّ النَّاصِحَ -وإن اجتهَدَ- لا غنى له عن العَفوِ؛ حيثُ بيَّنَ أنَّهم -مع اجتهادِهم في تحصيلِ الأسبابِ، وتحسُّرِهم عند فَواتِها بما أفاض أعيُنَهم- ممَّن لا سبيلَ عليه، أو ممَّن لا حرَجَ عليه، المَغفورِ له[٢].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾ دلَّت الآيةُ على جوازِ البُكاءِ، وإظهارِ الحُزنِ على فواتِ الطَّاعةِ، وإن كان معذورًا[٣].

١٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ على قُوَّةِ رغبةِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم، في الأعمالِ الصَّالحةِ المُوجِبةِ للدَّرَجاتِ العُلا، والنَّعيمِ المُقيمِ؛ وأنَّهم كانوا يَحزَنونَ على العَجزِ عن شَيءٍ مِن الطَّاعاتِ ممَّا يَقْدِرُ عليه غيرُهم[٤].

١٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ لم يُمدَحوا على نَفسِ الحزنِ، وإنَّما مُدِحوا على ما دلَّ عليه الحزنُ مِن قُوَّةِ إيمانِهم؛ حيث تخلَّفوا عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِعَجزِهم عن النَّفقةِ، ففيه تعريضٌ بالمُنافِقينَ الذين لم يَحزَنوا على تخلُّفِهم، بل غَبَطوا نفوسَهم به[٥].

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٨).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ٢٤١).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠١).

١٤- في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ دليلٌ على أنَّ تمنِّي المالِ ليُطاعَ اللهُ فيه، والحزنَ على فواتِه طاعةٌ، وهو رَدٌّ على مَن يزعمُ مِن متنطعي المتصوفة أنَّ عَدَمَ المالِ أربحُ للمرء مِن وجودِه - وإنْ كان ناويًا طاعةَ اللهِ فيه- للمخاطرةِ دونَ القيامِ بالطاعةِ، وأداءِ حقِّ اللهِ فيه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

- قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ فيه مِن لَطائِفِ بَلاغةِ القرآنِ: اختيارُ صِيغةِ (المُعذِّرين)؛ لتشمَلَ الذين صَدَقوا في العُذرِ، والذين كَذَبوا فيه[٢].

- وجملةُ: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ مُستأنَفة لابتداءِ وعيدٍ، وتَنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾؛ للتَّهويلِ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ ...﴾ اسْتِئنافٌ بيانيٌّ لجوابِ سؤالٍ مُقدَّرٍ يَنْشأُ عَنْ تهويلِ القُعودِ عَنِ الغزوِ، وما تَوجَّهَ إلى المُخلَّفينَ مِنَ الوعيدِ[٤].

- قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ ...﴾ فيه إعادةُ حَرْفِ

(١) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٩٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٩٤).

النَّفْي ﴿لَا﴾ في عَطْفِ الضُّعفاءِ والمَرْضى؛ لتوكيدِ نَفْي المؤاخذةِ عَنْ كُلِّ فريقٍ بخُصوصِهِ(١).

- قولُه: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ اسْتِئْنافٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما سَبَق، أي: ليس عليهم جُناحٌ، ولا إلى مُعاتَبتِهم سبيلٌ، وهذه الجُمْلةُ واقعةٌ مَوقِعَ التَّعليلِ لنَفْي الحَرَجِ عنهم، والمعنى: ليس على الضُّعفاءِ، ولا على مَنْ عُطِفَ عليهم حَرَجٌ إذا نَصَحوا للهِ ورَسولِهِ؛ لأنَّهم مُحْسنونَ، غيرُ مُسيئينَ(٢).

- ووُضِعَ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ للدَّلالةِ على انْتِظامِهم بنُصْحِهم للهِ ورسولِهِ في زُمرةِ المُحْسنينَ، أو ليكونَ تعليلًا لنَفْي الحَرَجِ عنهم، أي: ما على جِنْسِ المُحْسنينَ مِنْ سبيلٍ، وهم مِن جُمْلتِهم(٣).

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ صِلةٌ للتَّأكيدِ، وهي مؤكِّدةٌ لشُمولِ النَّفي لكُلِّ سبيلٍ(٤).

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييلٌ مؤيِّدٌ لِمَضمونِ ما ذُكِرَ، وهو يُشيرُ إلى أنَّ بهم حاجةً إلى المغفرةِ، وإنْ كان تَخلُّفُهم بعُذْرٍ(٥).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٤).
قال محمد رشيد رضا: (الجملةُ تتضمَّنُ تعليلَ رفعِ الحَرَجِ عنهم بما ينتظِمونَ به في سِلك المُحسِنينَ، فيكونُ رفعُه عنهم مَقرونًا بالدَّليلِ، فكلُّ ناصحٍ لله ورسولِه مُحسِنٌ، ولا سبيلَ إلى مُؤاخَذةِ المُحسِن، وإيقاعِه في الحَرَج، وهذه المبالغةُ في أعلى مكانةٍ مِن أساليبِ البلاغةِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢).

- قوله: ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ في إيثارِ التعبيرِ بـ ﴿لَآ أَجِدُ﴾ على (لَيْسَ عِنْدي): تَلطيفٌ للكَلامِ، وتَطييبٌ لقُلوبِ السَّائلينَ؛ كأنَّهُ صلَّى الله عليه وسلَّم يَطْلُبُ ما يَسألونَهُ على الاسْتِمرارِ فلا يَجِدُه[١].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ للبيانِ، وهي مَعَ المجرورِ في مَحلِّ النَّصْبِ على التَّمييزِ، والتَّقديرُ: تَفيضُ دَمْعًا، وهو أَبْلَغُ مِنْ (يَفيضُ دَمْعُها)؛ لأنَّ العَينَ جُعِلتَ كأنَّ كُلَّها دَمْعٌ فائضٌ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ صِيغةُ قَصرٍ، والقَصْرُ فيه إضافيٌّ بالنِّسبةِ للأصنافِ الذين نُفِي أنْ يكونَ عليهم سَبيلٌ، وفي هذا الحَصْرِ تأكيدٌ للنَّفي السَّابقِ، أي: لا سَبيلَ عِقابٍ إلَّا على الذين يَسْتأذنونَكَ وهم أغنياءُ[٣].

- وقولُه: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ اسْتِئنافٌ تعليليٌّ لِما سَبَقَ، وهو اسْتِئنافٌ قُصِدَ منه التَّعجيبُ مِنْ دَناءةِ نُفوسِهم، وقِلَّةِ رُجْلَتِهم؛ بأنَّهم رَضُوا لأَنْفُسِهم بأنْ يَكونوا تَبَعًا للنِّساءِ، كأنَّهُ قيل: ما بالُهم اسْتأذَنوا وهم أغنياءُ؟! فقيل: رَضُوا بالدَّناءةِ والضَّعةِ، والانْتِظامِ في جُملةِ الخَوالفِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٩).

الآيات (٩٤-٩٦)

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿انقَلَبْتُمْ﴾: أي: رَجعْتُم، وأصلُ (قلب): يدلُّ على ردِّ الشَّيءِ مِن جِهةٍ إلى جهةٍ[(١)].

﴿رِجْسٌ﴾: أي: نجسٌ، والرجسُ كذلك: القذرُ والمنتنُ، وأصلُ (رجس): يدلُّ على اختلاطٍ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى المؤمِنينَ قائلًا لهم: إنَّ المُنافِقينَ المُتخلِّفينَ عن الجهادِ بلا عُذرٍ، سيعتَذِرونَ إليكم إذا رَجَعْتُم إليهم مِن سفَرِكم وجهادِكم، فقلْ لهم يا مُحمَّدُ: لا تعتَذِروا، لن نُصَدِّقَكم؛ قد أعلَمَنا اللهُ بأسرارِكم، وعَرَفْنا كذِبَكم في اعتذارِكم، وسيرى اللهُ عمَلَكم ورسولُه، ثمَّ تُرجَعونَ بعد مَوتِكم إلى عالِمِ كُلِّ سِرٍّ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٩).

وعلانِيةٍ، وظاهرٍ وباطنٍ، فيُخبِرُكم بما كُنتم تَعمَلونَه في الدُّنيا، ويُجازيكم عليه.

سيَحلِفونَ لكم باللهِ إذا رجَعْتُم إليهم من غزوةِ تَبوكَ: إنَّهم لم يستَطيعوا الخروجَ معكم؛ لكي تُعرِضوا عنهم؛ فلا توبِّخوهم على قعودِهم ولا تعاتبوهم، فأعْرِضوا عنهم؛ احتقارًا وإهانةً لهم؛ لأنَّهم نَجَسٌ وقَذَرٌ، ومَصيرُهم في الآخرةِ نارُ جهنَّمَ؛ بسبَبِ ما كسَبوا.

يحلِفُ لكم هؤلاءِ المُنافِقونَ لِتَرضَوا عنهم، فإن تَرضَوا عنهم، فلا ينفَعُهم رِضاكم، ولا ينبغي أن يكونَ منكم رضًا عنهم؛ فإنَّ اللهَ لا يَرضى عن القَومِ الفاسِقينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٤﴾.

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ﴾.

أي: يَعتَذِرُ إليكم المُنافِقونَ المتخَلِّفونَ عن الجِهادِ بلا عُذرٍ، إذا رَجَعْتُم- أيُّها المؤمِنونَ- إليهم من سَفَرِكم وجِهادِكم[1].

﴿قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾.

أي: قلْ لهم- يا مُحمَّدُ-: لا تعتَذِروا إلينا؛ إذ لن نصَدِّقَكم في اعتذارِكم الكاذِبِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾.

أي: قد أخبَرَنا اللهُ بأسرارِكم - أيُّها المنافِقونَ - وعَلِمْنا كذِبَكم في اعتذارِكم[1].

﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾.

أي: وسيرى اللهُ ورَسولُه أعمالَكم - أيُّها المنافِقونَ - في الدُّنيا، ويَظهَرُ صِدقُكم أو كذِبُكم في التَّوبةِ مِن النِّفاقِ[2].

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: ثمَّ تُرجَعونَ - أيُّها المُنافِقونَ - بعد مَوتِكم إلى اللهِ الذي يعلَمُ كُلَّ سِرٍّ وعلانيةٍ، وظاهرٍ وباطنٍ، فيُخبِرُكم بما كنتُم تَعملونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، ويُجازيكم عليه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧).

قال محمد رشيد رضا: (ولم يقُل: «نبَّأني» وهو صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المنبَّأُ من اللهِ وَحدَه؛ لأنَّ المرادَ أنَّه أمَرَه أن ينبِّئَ بذلك أصحابَه، ولم يكن هذا النبأُ خاصًّا به، واعتذارُهم للجميع يقتضي أن يعلَموا أنَّ الجميعَ عالِمونَ بما فضَحَهم الله به، وإن كان المبَلِّغُ لهم هو الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بما له من الرِّياسة، وما لِخَبَره من الثقةِ التي لا يشُكُّ فيها أحَدٌ، والتأثيرِ الذي يُحسَبُ له كلُّ حِسابٍ. فهو من قَبيلِ التبليغاتِ الرَّسميةِ العُليا الصادرةِ عن الملوكِ والسَّلاطينِ، دَعْ كونَه أسمى وأعلى؛ لأنَّه نبأُ الرَّسولِ المعصومِ عن اللهِ عَزَّ وجَلَّ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧).

قال ابنُ عاشور: (جملة: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾، أي: لا فائدةَ في اعتذارِكم، فإن خَشِيتُم المؤاخذةَ، فاعملوا الخيرَ للمُستقبَلِ، فسَيَرى اللهُ عَمَلَكم ورسولُه إن أحسَنْتُم، فالمقصودُ فَتحُ بابِ التوبةِ لهم، والتنبيهُ إلى المَكِنة من استدراكِ أمرِهم. وفي ذلك تهديدٌ بالوعيدِ إن لم يتوبُوا). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨، ٦٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٧)، ((تفسير

﴿ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن المنافِقينَ في الآيةِ الأولى أنَّهم يعتَذِرونَ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ أنَّهم كانوا يؤكِّدونَ تلك الأعذارَ بالأيمانِ الكاذبةِ[1]، فقال تعالى:

﴿ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ ﴾.

أي: سيحلِفُ المُنافِقونَ المتخَلِّفونَ، باللَّهِ لكم- أيُّها المؤمنونَ- إذا رجَعْتُم إليهم مِن غزوةِ تبوكَ: إنَّهم ما استطاعُوا الخروجَ مَعَكم للجهادِ؛ لِتَترُكوا تأنيبَهم ومعاتَبَتَهم[2].

﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞ ﴾.

أي: فاترُكوا- أيُّها المؤمنونَ- تأنيبَهم ولَومَهم؛ احتقارًا وإهانةً لهم؛ لا مسامحةً وعفوًا، لأنَّهم نجَسٌ وقذَرٌ، خَبيثةٌ بَواطِنُهم، وقبيحةٌ أعمالُهم[3].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾.

ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩، ١٠).

أي: ومصيرُ المُنافِقينَ في الآخرةِ نارُ جهنَّمَ؛ مجازاةً لهم بسببِ ذُنوبِهم التي كانوا يَعمَلونَها في الدُّنيا[١].

عن كعب بن مالك رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((واللهِ ما أنعَمَ اللهُ عليَّ مِن نِعمةٍ قطُّ، بعد إذ هَدَاني اللهُ للإسلام، أعظَمَ في نفسِي مِن صِدقِي رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ألَّا أكونَ كَذَبتُه فأَهلِكَ كما هلَكَ الذين كذَبوا، إنَّ الله قال للذينَ كَذَبوا -حين أنزَلَ الوَحيَ- شَرَّ ما قال لأحَدٍ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾))[٢].

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّهم يحلِفونَ باللهِ؛ لِيُعرِضَ المسلِمونَ عن إيذائِهم- بيَّنَ أيضًا هنا أنَّهم يحلِفونَ لِيَرضى المسلِمونَ عنهم، ثمَّ إنَّه تعالى نهى المُسلِمينَ عن أن يَرضَوا عنهم[٣]، فقال:

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾.

أي: يحلِفُ هؤلاءِ المُنافِقونَ لكم- أيُّها المؤمِنونَ- بالكَذِبِ؛ مِن أجلِ أن ترضَوا عنهم، فتَستَديموا مُعامَلَتَهم السَّابقةَ، كأنَّهم لم يُذنِبوا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠).

(٢) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٨١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

أي: فإنْ تَرضَوا- أيُّها المؤمِنونَ- عن المُنافِقينَ، فَرِضاكم عنهم لا ينفَعُهم، ولا ينبغي لكم أن ترضَوا عنهم؛ فإنَّ اللهَ لا يرضَى عن القومِ الخارجينَ عن طاعَتِه[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ مِن الفِقهِ في الآيةِ أنَّ مِن آدابِ الإسلامِ تحاميَ كلِّ ذَنبٍ أو تقصيرٍ يحتاجُ فاعِلُه إلى الاعتذارِ[٢].

٢- العمَلُ هو ميزانُ الصِّدقِ مِن الكَذِبِ، وأمَّا مجرَّدُ الأقوالِ، فلا دلالةَ فيها على شيءٍ مِن ذلك، قال الله تعالى: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ إرشادٌ إلى أنَّه لا ينبغي لأحدٍ أنْ يزكِّيَ عملَه، وإنَّما يُفوِّضُه إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى[٤].

٤- في قَولِ الله تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞ﴾ ذكَرَ العِلَّةَ في وجوبِ الإعراضِ عنهم، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).
وقال محمد رشيد رضا: (مُقتضاه أنَّه إذا فُرِضَ أنَّ بعضَ المؤمنينَ رَضِيَ عنهم وآمَنَ لهم باعتذارِهم بعد النَّهيِ عنه، كان فاسقًا مِثلَهم، محرومًا مِن رضائِه تعالى). ((تفسير المنار)) (١١/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٥٠٤).

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ والمعنى: أنَّ خُبثَ باطِنِهم رِجسٌ رُوحانيٌّ، فكما يجِبُ الاحترازُ عن الأرجاسِ الجُسمانيَّة، فوجوبُ الاحترازِ عن الأرجاسِ الرُّوحانيَّةِ أَولى؛ خَوفًا من سَرَيانِها إلى الإنسانِ، وحَذرًا مِن أن يميلَ طَبعُ الإنسانِ إلى تلك الأعمالِ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فإن رَضِيَ المسلِمونَ عنهم وأعرضوا عن لَوْمِهم؛ فإنَّ اللهَ لا يرضى عن المُنافِقينَ، وهذا تحذيرٌ للمُسلِمينَ من الرِّضا عن المُنافِقينَ بطريقِ الكِنايةِ؛ إذ قد عَلِمَ المُسلِمونَ أنَّ ما لا يُرضي اللهَ، لا يكونُ للمُسلِمينَ أن يرضَوا به[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ حجةٌ في تَرْكِ قَبولِ الاعتذارِ ممَّن يُعْرَفُ كَذِبُهُ، بأيِّ وجهٍ عُرِفَ منه؛ بعد أنْ يكونَ يقينًا[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ لله، الواقعةِ بمشيئتِه تعالى وقُدرَتِه[٤].

٣- لم يُذكرِ المُؤمِنونَ في قَولِه تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ لأنَّ هذا خِطابٌ للمُنافِقينَ؛ وهم لم يَكونوا يُطْلِعونَ المؤمِنينَ على ما في بُطونِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠).
(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٨).
(٥) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٨٠).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ فيه إثباتُ الرِّضا لله عن المُحسِنينَ، والغضَبِ والسَّخَطِ على الفاسقينَ[١].

٥- في قولِه تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن لم يُقْبَلْ عُذْرُه مِن الكذَّابين بغيرِ يمينٍ؛ فحَلَفَ قُبِلَ منه؛ لأنَّ اللهَ تبارك وتعالى لم يأمرْ برَدِّ اليمينِ عليهم، كما أَمَرَ برَدِّ الاعتذارِ، حيث قال سبحانه: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾، فإنَّما أخْبَر سبحانَه عن نفسِه بأنَّه لا يرضَى عنهم- وإنْ رضِي عنهم المحلوفُ له- ويؤيدُ هذا المعنَى حديثُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن حَلَفَ بالله فلْيَصْدُقْ، ومَن حُلِفَ له بالله فلْيَرْضَ، ومَن لم يَرْضَ بالله فليس مِن الله))[٢]، فالمُتَعَذِّرُ إليه ينبغي له أنْ يَقْبَلَ يمينَ المعتذرِ على الظاهر؛ ويَكِلَ سريرتَه إلى الله تعالى[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ لم يُذكَرِ المحلوفُ عليه؛ للدَّلالةِ على شُمولِه لكُلِّ ما يُعتَذرُ عنه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢١٠١)، والبيهقي (٢١٢٤٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
قال البيهقي: له متابعةٌ، وجوَّد إسنادَه وقوَّاه ابنُ كثيرٍ في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ٤١٣)، وصحَّح إسنادَه، ووثَّق رجالَه البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (١/ ٣٦٠)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٥٤٤)، وذكر الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٩/ ٢٢٤) أنَّ فيه محمدَ بنَ إسماعيل ثقةٌ، وبقيةُ إسنادِه رجالُ الصحيح، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٠١).

(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ أحكامَ الإسلامِ تجري على الظَّاهِرِ؛ فلم يَجعَلِ اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يقضِيَ عليهم في الدُّنيا بخلافِ ما أظهَروا، وقد جعلَ اللهُ حُكْمَه عليهم على سرائِرِهم، فأعلَمَ نبيَّه أنَّهم في الدَّركِ الأسفَلِ مِن النَّارِ، وجعَلَ حُكْمَ نبيِّه عليهم في الدُّنيا على علانِيَتِهم، بإظهارِ التَّوبةِ وما قامَتْ عليه بيِّنَةٌ من المسلِمينَ، وبما أقرُّوا بِقَولِه، وبما جَحَدوا به[١].

٨- المنافقونَ هم أخبثُ بني آدَمَ وأقذَرُهم وأرذَلُهم؛ فقد قال تعالى واصفًا لهم: ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞ ﴾ والرِّجسُ مِن كُلِّ جِنسٍ أخبَثُه وأقذرُه[٢].

٩- قال الله تعالى: ﴿ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ هذه الآيةُ وما قَبْلَها دليلٌ على أنَّ المنافِقينَ تُحقَنُ دِماؤُهم؛ بسبَبِ الشَّهادَتينِ، ولا تجوزُ مُوالاتُهم والرِّضا عنهم[٣].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ شرطٌ يتضَمَّنُ النَّهيَ عن الرِّضا عنهم، وحُكمُ هذه الآيةِ يستمِرُّ في كلِّ مَغموصٍ عليه ببدعةٍ ونَحوِها، فإنَّ المؤمِنَ ينبغي أن يُبغِضَه، ولا يرضَى عنه لسبَبٍ مِن أسبابِ الدُّنيا[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ إرشادٌ إلى أنَّ رِضا المُسلِمينَ عن القَومِ الفاسِقينَ، ليس مِمَّا يُحبُّه اللهُ ويَرضاه، وهو سُبحانَه لا يرضَى عنهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٨٣).
(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٠٥).
(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٠٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ استِئْنافٌ لِبَيانِ ما يتَصدَّرون له عِندَ القُفولِ إليهِم[١].

- قولُه: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا﴾ تَخْصيصُ هذا الخِطابِ برسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ تَعميمِه فيما سبَق لأصحابِه أيضًا؛ لأنَّ الجوابَ وظيفتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأمَّا اعتِذارُهم فكان شامِلًا للمُسلمين شُمولَ الرُّجوعِ لهم[٢].

- قولُه: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ استِئْنافٌ تعليليٌّ للنَّهيِ: ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا﴾، مبنيٌّ على سؤالٍ نشَأ مِن قِبَلِهم، مُتفرِّعٍ على ادِّعاءِ الصِّدقِ في الاعتِذارِ، كأنَّهم قالوا: لِمَ لا نَعتَذِرُ؟ فقيل: لأنَّا لا نُصدِّقُكم أبدًا[٣]؛ فالجُملةُ علَّةٌ للنَّهيِ عَن الاعتِذارِ؛ لأنَّ غرَضَ المعتَذِرِ أن يُصدَّقَ فيما يَعتَذِرُ به، فإذا علِم أنَّه لا يُصدَّقُ، ترَك الاعتذارَ[٤].

- قولُه: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ جمَعَ ضميرَ المتكلِّمِ في ﴿نُّؤْمِنَ- نَبَّأَنَا﴾؛ للمُبالَغةِ في حَسْمِ أطماعِهم مِن التَّصديقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٩).

رأسًا؛ ببَيانِ عدَمِ رَواجِ اعتِذارِهم عندَ أحَدٍ مِن المؤمِنين أصلًا[١].

- قولُه: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ تعليلٌ لنفيِ تَصْديقِهم، أي: قد نبَّأَنا اللهُ مِن أخبارِكم بما يَقْتَضي تكذيبَكم[٢]، وهذه الجُملَةُ علَّةٌ لانتِفاءِ تَصْديقِهم؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا أوحَى إلى رسولِه الإعلامَ بأخبارِهم، وما في ضَمائرِهم مِن الشَّرِّ والفسادِ، لم يَستَقِمْ معَ ذلك تَصديقُهم في مَعاذيرِهم[٣].

- قولُه: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ تقديمُ مَفعولِ الرُّؤيةِ ﴿عَمَلَكُمْ﴾ على ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ المعطوفِ على الفاعِلِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ للإيذانِ باختلافِ حالِ الرُّؤيتَينِ وتَفاوُتِهما، وللإشعارِ بأنَّ مَدارَ الوعيدِ هو عِلمُه عزَّ وجلَّ بأعمالِهم[٤].

- قولُه: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ فيه وَضْعُ المُظهَرِ ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ مَوضِعَ المُضمَرِ- حيثُ لم يَقُلْ: (إليه)- لِتَشديدِ الوَعيدِ؛ فإنَّ عِلمَه سُبحانَه وتَعالى بجَميعِ أعمالِهم الظَّاهرةِ والباطنةِ، وإحاطتَه بأحوالِهم البارزةِ والكامِنةِ ممَّا يوجِبُ الزَّجرَ العَظيمَ[٥]، ففي الإظهارِ تنبيهٌ على أنَّه لا يَعزُبُ عنه شيءٌ مِن أعمالِهم، زيادةً في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ ليعلَموا أنَّه لا يخفى على اللهِ شَيءٌ[٦].

٢- قولُه تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨).

- قولُه: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ...﴾ الجُملةُ مُستأنَفةٌ ابتِدائيَّةٌ، تَعْدادٌ لأحوالِهم، ومَعناها ناشئٌ عن مضمونِ جُملةِ ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾؛ تنبيهًا على أنَّهم لا يَرْعَوُون عَن الكذبِ، ومُخادَعةِ المسلِمين[١].

- قولُه: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالإعراضِ، ووُقوعُ (إنَّ) في أوَّلِها مُؤْذِنٌ بمَعنى التَّعليلِ[٢]؛ فالجُملةُ تَعليلٌ لِتَرْكِ مُعاتبَتِهم، يَعْني: أنَّ المُعاتَبةَ لا تَنفَعُ فيهم ولا تُصلحُهم، إنَّما يُعاتَبُ الأديمُ ذو البَشَرةِ[٣]، والمؤمنُ يُوبَّخُ على زَلَّةٍ تَفرُطُ منه؛ ليُطهِّرَه التوبيخُ بالحملِ على التَّوبةِ والاستغفارِ، وأمَّا هؤلاء فأرجاسٌ لا سبيلَ إلى تَطهيرِهم[٤].

- والإعراضُ في قَوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ إعراضُ إهانةٍ واحتقارٍ، لا إعراضُ صَفحٍ وإعذارٍ، وهذا التعبيرُ مِن أسلوبِ الحَكيمِ: وهو قَبولُ ما يَبغونَ من الإعراضِ عنهم، ولكِنْ على غيرِ الوَجهِ الذي يرجونَه منه، بل على ضِدِّه[٥].

٣- قولُه تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فيه احتراسٌ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ رِضا المؤمنين يَقتضِي رِضَا الله عنهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٩).

(٣) أي: إنَّمَا يُعَاتب من فيه رَجاءٌ ومُستعتَبٌ، ويُراجَع من تصلُحُ مُرَاجعَتُه، والمعاتبةُ: المعاودةُ، وبَشَرةُ الأديمِ: ظاهرُه الذي عليه الشَّعَر، أي أنَّ ما يُعادُ إلى الدباغِ مِن الأديمِ ما سلِمت بشرتُه. يُنظر: ((جمهرة الأمثال)) للعسكري (١/ ٦٩)، ((مجمع الأمثال)) للميداني (١/ ٤٠)، ((المعجم الوسيط (١/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٢).

- قوله: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ على القولِ بأنَّ المرادَ به النهيُ؛ فيكون فيه نهيُ المُخاطَبِينَ عن الرِّضا عنهم، والاغترارِ بمعاذيرِهم الكاذبةِ على أَبلغِ وجهٍ وآكدِه؛ فإنَّ الرِّضا عمَّن لا يَرضَى عنه الله تعالى ممَّا لا يَكادُ يصدُرُ عن المؤمنِ[١]؛ فأبرز النَّهيَ عن الرِّضا في صورةِ شَرطيَّةٍ، لأنَّ الرِّضا مِن الأمورِ القَلبيَّةِ التي تَخفَى، وخرَج مخرجَ المتردِّدِ فيه، وجُعِلَ جوابُه انتفاءَ رضا الله عنهم؛ فصار رضا المؤمنين عنهم أبعدَ شيءٍ في الوقوعِ؛ لأنَّه معلومٌ منهم أنَّهم لا يَرْضَونَ عمَّن لا يَرضَى اللهُ عنهم[٢]، وهو أيضًا تحذيرٌ للمُسلِمينَ مِن الرِّضا عن المُنافِقين بطريقِ الكنايةِ؛ إذ قد علم المسلمون أنَّ ما لا يُرضِي اللهَ لا يكونُ للمُسلِمينَ أن يَرْضَوْا به[٣].

- قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فيه وضْعُ المُظهَرِ ﴿عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ مَوضِعَ ضَميرِهم (عنهم)؛ فعدَل عن الإتيانِ بضَميرِ (هم) إلى التَّعبيرِ بصِفتِهم؛ للتسجيل عليهم بالخُروجِ عن الطاعةِ، المُستوجِبِ لِمَا حلَّ بهم مِن السُّخطِ، وللإيذانِ بشُمولِ الحُكمِ لِمَن شارَكهم في ذلك الفسق؛ ففيه دَلالةٌ على ذَمِّهم، وتَعليلِ عَدمِ الرِّضا عنهم؛ فاشتملَ الكلامُ على خبَرٍ وعلى دَليلِه؛ فأفاد مَفادَ كلامَينِ؛ إذ التقديرُ: (فإنْ تَرْضَوا عنهم فإنَّ الله لا يَرضَى عنهم؛ لأنَّ الله لا يَرضَى عن القومِ الفاسِقين)[٤]، وأيضًا ليدُلَّ ذلك على أنَّ بابَ التوبةِ مَفتوحٌ، وأنَّهم مهما تابوا هم أو غيرُهم، فإنَّ الله يتوبُ عليهم، ويرضَى عنهم، وأمَّا ما داموا فاسِقينَ، فإنَّ اللهَ لا يرضَى عليهم، لوجودِ المانِعِ مِن رضاه، وهو خروجُهم عمَّا رَضِيَه اللهُ لهم من

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٤- ٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠).

الإيمانِ والطَّاعةِ، إلى ما يُغضِبُه من الشِّرك، والنِّفاقِ، والمعاصي[١].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (٣٤٨).

الآيتان (٩٧-٩٨)

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَغْرَمًا﴾: أي: غُرمًا وخُسرانًا، وأصلُ (غرم): يدلُّ على مُلازمةٍ [(١)].

﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾: أي: ينتَظِرُ، وأصلُ التربُّصِ: الانتظارُ والتمَكُّثُ[(٢)].

﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾: أي: دوائِرَ الزَّمانِ بالمَكروهِ. ودوائِرُ الزَّمانِ: صُروفُه التي تأتي مرَّةً بخيرٍ ومرَّةً بشَرٍّ. والدائرةُ تكونُ في المَكروهِ، وأصلُ (دور): يدلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِن حوالَيه[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ الأعرابَ أشَدُّ كُفرًا باللهِ، وأشَدُّ نِفاقًا مِن كُفَّارِ ومُنافِقي أهلِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٥).
قال الواحدي: (معنى الغُرمِ: لُزومُ نائبةٍ في المالِ، مِن غيرِ جِنايةٍ، فيثقُلُ ذلك على الإنسانِ). ((البسيط)) (١١/ ١٥).
وقال ابن عطية: (أصلُ «المَغرَم» الدَّيْنُ، ومنه تعوَّذَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن المَغرَمِ والمَأثَم، ولكنْ كثُرَ استعمالُ المَغرَمِ فيما يؤدِّيه الإنسانُ، ممَّا لا يلزَمُه بحَقٍّ، وفي اللَّفظِ معنى اللُّزومِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٨).

الحضَرِ، وأَولى وأحرى ألَّا يَعلَموا الحلالَ والحَرامَ، والشَّرائِعَ التي أنزَلَها اللهُ على رَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واللهُ عليمٌ حَكيمٌ.

ويُخبِرُ أنَّ مِن الأعرابِ مَن يحتَسِبُ ما يُنفِقُه في الخيرِ غُرمًا وخَسارةً، فيُنفِقُ وهو كارهٌ، لا يرجو ثوابًا عندَ الله تعالى، ويتربَّصُ بالمُسلِمينَ المصائِبَ، واختلالَ الأمورِ، وغَلَبَةَ الأعداءِ عليهم، جعَلَ اللهُ عليهم وَحْدَهم المصائِبَ التي تَسوؤُهم، وتُفسِدُ أمورَهم، واللهُ سَميعٌ عَليمٌ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ عَزَّ وجَلَّ أحوالَ المُنافِقينَ بالمدينةِ؛ ذكَرَ مَن كان خارجًا منها، ونائيًا عنها مِن الأعرابِ[1].

وأيضًا لَمَّا رتَّبَ اللهُ سُبحانه الاستئذانَ في القُعودِ، والرِّضا بما فيه من الدَّناءةِ، على عدَمِ الفِقهِ تارةً، والعِلمِ أُخرَى، وختَمَ بصِنفِ الأعرابِ؛ بيَّنَ أنَّ الأعرابَ أوْلَى بذلك؛ لِكَونِهم أعرَقَ في هذا الوصفِ، وأجرأَ على الفِسقِ؛ لبُعدِهم عن مَعدِنِ العِلمِ، وصَرفِهم أفكارَهم في غير ذلك مِن أنواعِ المَخازي لتحصيلِ المالِ، الذي كلَّما داروا عليه طار عنهم فأبعَدَ، فهم لا يزالونَ في همِّه، قد شغَلَهم ذلك عن كُلِّ هَمٍّ، وهم يحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا[2].

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣١)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤).

أي: سُكَّانُ البوادي[١] أَشَدُّ كُفرًا باللهِ، وأَشَدُّ نِفاقًا، مِن كفَّارِ ومُنافقي أهلِ الحضَرِ في المُدنِ والقُرى[٢].

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾.

أي: والأعرابُ أَوْلى وأحرَى بأَلَّا يَعلَموا الحلالَ والحرامَ، والشَّرائعَ التي أنزَلَها اللهُ على رَسولِه محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣].

---

(١) قال ابن تيمية: (لفظُ: (الأعرابِ) هو في الأصلِ: اسمٌ لِبَادِيةِ العَربِ؛ فإنَّ كُلَّ أمَّةٍ لها حاضرةٌ وباديةٌ، فبادِيةُ العَربِ: الأعرابُ). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣١)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١).

قال ابن جرير: (وإنَّما وصَفَهم جلَّ ثناؤه بذلك؛ لِجَفائِهم، وقسوةِ قُلوبِهم، وقلَّةِ مُشاهَدتِهم لأهلِ الخَيرِ؛ فهم لذلك أقسَى قلوبًا، وأقَلُّ عِلمًا بحقوقِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٢).

وقال الواحدي: (قال أبو إسحاقَ: كُفرُهم أشَدُّ؛ لأنَّهم أقسَى وأجفَى مِن أهلِ المَدَرِ، وهم أيضًا أبعَدُ عن سَماعِ التَّنزيلِ، وإنذارِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعنى: أشدُّ كفرًا مِن أهلِ الحَضَرِ؛ لجَفاءِ صُدورِهم ونبُوِّ طِباعِهم). ((البسيط)) (١١/ ١٣).

وقال ابنُ عطيةَ: (هذه الآيةُ إنَّما نزَلَت في مُنافِقينَ كانوا في البوادي، ولا محالةَ أنَّ خَوفَهم هناك أقلُّ مِن خوفِ مُنافقي المدينةِ، فألسِنَتُهم لذلك مُطلَقةٌ، ونِفاقُهم أنجَمُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣).

وقال ابن عاشور: (﴿أَشَدُّ﴾ و﴿أَجْدَرُ﴾ اسمَا تفضيلٍ، ولم يُذكَرْ معهما ما يدُلُّ على مُفضَّلٍ عليه، فيجوزُ أن يكونَا على ظاهِرِهما، فيكون المفضَّلُ عليه أهلَ الحضَرِ، أي: كفَّار ومُنافِقي المدينةِ. وهذا هو الذي تواطأَ عليه جميعُ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٣)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٤١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١، ١٢).

قال ابن عاشور: (إنَّما كانوا أجدَرَ بعَدمِ العِلمِ بالشَّريعةِ؛ لأنَّهم يَبعُدونَ عن مجالِسِ التَّذكيرِ ومنازِلِ الوَحيِ، ولقلَّةِ مُخالَطتِهم أهلَ العِلمِ، مِن أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بخَلقِه، لا يخفى عليه شيءٌ مِن أحوالِهم، فيعلَمُ مُنافِقَهم وكافِرَهم، ويَعلَمُ مَن يستحِقُّ أن يُعلِّمَه منهم العِلمَ والإيمانَ، ممَّن لا يستحِقُّ، كأولئك الأعرابِ، حكيمٌ في تدبيرِ خَلْقِه ومُجازاتِهم، فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائِقِ به[1].

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ أنَّ الأعرابَ أَولى بعَدَمِ الفِقهِ والعلمِ؛ لِكَونِهم أعرَقَ في هذا الوَصفِ، وأجرأَ على الفِسقِ، فلمَّا أثبت هذا الوصفَ لهم؛ بيَّنَ أنَّ أفرادَه انقسَمُوا إلى مَن ثبَت على ما هو الأليقُ بحالِهم، وقِسمٌ نزَعَ إلى ما هو الأليقُ بأهلِ المَدَرِ، كما انقسَمَ أهلُ المَدَرِ إلى مثلِ ذلك، وبدأَ بالخبيثِ؛ لأنَّه الأصلُ فيهم[2].

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾.

أي: ومِن سُكَّانِ البوادي من يَعُدُّ ما يُنفِقُه في الخيرِ غُرمًا ونَقصًا وخَسارةً، فيُنفِقُ ما يُنفِقُ مُكرَهًا لا يرجو ثوابَه عند اللهِ تعالى[3].

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٠، ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣).

أي: ومِن الأعرابِ مَن ينتَظِرُ أن تحُلَّ بكم- أيُّها المُسلِمونَ- المصائِبَ، واختلالَ الأمورِ، وغَلَبَةَ الأعداءِ عليكم[(١)].

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾.

أي: جعَلَ اللهُ على الأعرابِ المُنافِقينَ- وَحْدَهم- المصائِبَ التي تَسوؤُهم، وتُفسِدُ أمورَهم، لا عليكم أيُّها المؤمِنونَ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ سَميعٌ لأقوالِ عِبادِه من الأعرابِ المُنافِقينَ وغَيرِهم، عليمٌ ببواطِنِهم، عليمٌ بتَدبيرِهم، وبمن يستحِقُّ منهم النَّصرَ، ومَن يستحِقُّ الخِذلانَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥، ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣).

قال ابن عاشور: (المعنى أنَّهم ينتظرونَ ضَعْفَكم وهزيمَتكم، أو يَنتَظِرونَ وفاةَ نَبيِّكم، فيُظهِرونَ ما هو كامِنٌ فيهم من الكُفرِ. وقد أنبأَ اللهُ بحالِهم التي ظهَرَت عَقِبَ وفاةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهم أهلُ الرِّدَّةِ من العَرَبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣).

قال محمد رشيد رضا: (﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دعاءٌ عليهم بما يتربَّصونَه بالمؤمنينَ، أو خبرٌ بحقيقةِ حالِهم معهم، ومآلُ الاحتمالينِ واحِدٌ؛ لأنَّ الخَبَرَ في كلامِه تعالى حقٌّ، ومَضمونَه كمضمونِ الدُّعاءِ واقِعٌ ما له من دافِعٍ، والدعاءُ منه عزَّ وجَلَّ يرادُ به مآلُه، وهو وقوعُ السَّوءِ عليهم وإحاطَتُه بهم). ((تفسير المنار)) (١١/ ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود))

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فضيلةُ العِلم، وأنَّ فاقِدَه أقربُ إلى الشرِّ ممَّن يَعرِفُه؛ لأنَّ اللهَ ذَمَّ الأعرابَ، وأخبَرَ أنَّهم أشَدُّ كُفرًا ونِفاقًا، وذكرَ السَّبَب الموجِبَ لذلك، وأنَّهم أجدَرُ ألَّا يَعلَموا حدودَ ما أنزَلَ اللهُ على رسولِه[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أنَّ العِلمَ النَّافِعَ الذي هو أنفَعُ العلومِ، معرفةُ حُدودِ ما أنزَلَ الله على رسولِه، من أصولِ الدِّينِ وفُروعِه؛ كمَعرفةِ حُدودِ الإيمانِ والإسلامِ والإحسانِ، والتَّقوى والفَلاحِ، والطَّاعةِ والبِرِّ، والصِّلةِ والإحسانِ، والكُفرِ والنِّفاقِ، والفُسوقِ والعِصيانِ، والزِّنا والخَمرِ والرِّبا، ونحو ذلك؛ فإنَّ في معرفتها يتمَكَّنُ مِن فِعْلِها- إن كانت مأمورًا بها- أو تَرْكِها- إن كانت محظورةً- ومِن الأمرِ بها، أو النَّهيِ عنها[2].

٣- لَمَّا ذكر اللهُ المُنافِقينَ الذين استأذَنُوه في التخلُّفِ عن الجهادِ في غزوةِ تَبوكَ، وذَمَّهم، وهؤلاء كانوا من أهلِ المَدينةِ؛ قال سبحانه: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾؛ فإنَّ الخَيرَ كُلَّه- أصلَه وفَصْلَه- مُنحصِرٌ في العلمِ والإيمانِ كما قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الروم: ٥٦] وضِدُّ الإيمانِ: إمَّا الكُفرُ الظَّاهِرُ، أو النِّفاقُ

(٤/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الباطِنُ، ونقيضُ العِلمِ: عَدَمُه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ أنَّ الكُفرَ والنِّفاقَ يَزيدُ وينقُصُ، ويَغلُظُ ويخِفُّ بحسَبِ الأحوالِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ إن كان اللهُ تعالى قد وصفَ العرَبَ بالجهلِ في القرآنِ، بِقَولِه تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ فكيف يصيرُ الاحتجاجُ بألفاظِهم وأشعارِهم على كتابِ اللهِ تعالى وسنَّةِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟ فالجواب: هذا وصفٌ مِن اللهِ تعالى لهم بالجَهلِ في أحكامِ القُرآنِ لا في ألفاظِه، ونحن لا نحتَجُّ بلُغَتِهم في بيانِ الأحكامِ، بل نحتَجُّ بلُغَتِهم في بيانِ مَعاني الألفاظِ؛ لأنَّ القُرآنَ والسنَّةَ جاءا بلُغَتِهم[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لَمَّا كانت الغِلظةُ والجَفاءُ في أهلِ البوادي، لم يبعَثِ اللهُ منهم رسولًا، وإنما كانت البَعثةُ مِن أهلِ القُرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾[٤].

٤- في قَولِه تعالى عن الأعرابِ: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ مدحٌ للحافِظينَ لِحُدودِ الله، وذَمٌّ لِمَن لا يعرفُ حدَّ الحَلالِ منَ الحَرامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٦١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾ هؤلاء وإن كانوا من جملةِ مُنافقي الأعرابِ، فتخصيصُهم بالتَّقسيمِ هنا منظورٌ فيه إلى ما اختُصُّوا به من أحوالِ النِّفاقِ؛ لأنَّ التَّقاسيمَ في المقاماتِ الخِطابيَّةِ والمجادلاتِ، تعتمِدُ اختلافًا ما في أحوالِ المُقَسَّم، ولا يُعبأُ فيها بدخولِ القسمِ في قَسيمِه[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ رجَع به الكلامُ إلى أحوالِ (المُعذِّرين مِن الأعرابِ)، و(الَّذين كذَبوا اللهَ ورسولَه مِنهم)، وما بينَ ذلك استِطرادٌ دَعا إليه قَرْنُ الَّذين كذَبوا اللهَ ورسولَه في الذِّكرِ معَ الأعرابِ، فلمَّا تَقضَّى الكلامُ على أولئك تخلَّص إلى بقيَّةِ أحوالِ الأعرابِ؛ وللتَّنبيهِ على اتِّصالِ الغرَضَينِ وقعَ تَقديمُ المسنَدِ إليه، وهو لفظُ ﴿ ٱلْأَعْرَابُ ﴾؛ للاهتِمامِ به مِن هذه الجِهَةِ، ومِن وراءِ ذلك تنبيهُ المسلِمين لأحوالِ الأعرابِ؛ لأنَّهم لِبُعدِهم عَن الاحتِكاكِ بهم، والمُخالَطةِ معَهم قد تَخْفَى عليهم أحوالُهم، ويَظُنُّون بجَميعِهم خيرًا[2].

- وإنَّما أعادَ هذه الأحكامَ؛ لأنَّ المقصودَ مِنها مُخاطَبةُ مُنافِقي الأعرابِ؛ ولهذا السَّببِ بيَّن أنَّ كُفرَهم ونِفاقَهم أشدُّ، وجَهْلَهم بحُدودِ ما أنزَل اللهُ أكمَلُ[3].

- ولفظةُ ﴿ ٱلْأَعْرَابُ ﴾ لفظةٌ عامَّةٌ، ومَعْناها الخُصوصُ، وهم جَمعٌ مُعيَّنون مِن مُنافِقي الأعرابِ، كانوا يُوالون مُنافِقي المدينةِ، فانصرَف هذا اللَّفظُ إليهم، وهذا مَعلومٌ بالوُجودِ، وكيف كان الأمرُ، وهو مِن بابِ وصْفِ الجِنْسِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٠- ١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٤).

بأحَدِ أفرادِه أو بَعضِهم؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]؛ إذ ليس كلُّهم كما ذُكِر[١].

- وجملةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تَذْييلٌ لهذا الإفصاحِ عَن دَخيلَةِ الأعرابِ وخُلقِهم، أي: عليمٌ بهم وبغَيرِهم، وحَكيمٌ في تَمييزِ مَراتبِهم[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ ﴿ٱلسَّوْءِ﴾ بالفَتحِ مصدرٌ، وأُضيفَ إلى الدَّائرةِ - الَّتي هي في الأصلِ مصدرٌ أو اسمُ فاعلٍ، مِن دارَ يَدورُ، وسُمِّي به عاقبةُ الزَّمانِ (أي: حادثته) للمُبالَغةِ؛ مِثلُ: رَجُلُ صِدْقٍ[٣]. وقيلَ: معنى الدَّائرةِ يَقتَضي مَعنى السَّوْءِ؛ وإنَّما هي إضافةُ بيانٍ وتأكيدٍ، كما قالوا: شَمسُ النَّهارِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٤/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٤)، وينظر أيضا: ((فتح البيان)) للقنوجي (١٣/ ٩١).

الآيتان (٩٩-١٠٠)

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾: أي: دعاءَ الرَّسولِ واستغفارَه، وأصلُ (صلى): يدلُّ على الدُّعاءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ تعالى أنَّ مِن الأعرابِ مَن يؤمِنُ باللهِ تعالى وبيَومِ القيامةِ، ويحتَسِبُ ما يُنفِقُه في الخيرِ عند اللهِ، يرجو به القُرْبَ منه عزَّ وجلَّ، ويبتغي دعاءَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عند أخْذِ الصَّدَقةِ منه، ألَا إنَّ دُعاءَ الرَّسولِ قُربةٌ عَظيمةٌ لهم، تُقَرِّبُهم إلى ربِّهم، سيُدخِلُهم ربُّهم في رَحمتِه؛ إنَّه غَفورٌ رَحيمٌ.

ثمَّ أخبَرَ الله تعالى أنَّ أصحابَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذين سبَقوا بالإيمانِ مِن المُهاجِرينَ والأنصارِ، والتَّابعينَ لهم الذين سَلَكوا طريقَهم المُستَقيمَ في الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ رَضِيَ الله عنهم، ورَضُوا عنه، وأعَدَّ لهم جنَّاتٍ تَجري من تحتِ أشجارِها ومبانيها الأنهارُ، لابثينَ فيها على الدَّوامِ، ذلك هو الفَوزُ العظيمُ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٥٠).

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه حصَلَ في الأعرابِ مَن يتَّخِذُ إنفاقَه في سبيلِ اللهِ مَغرمًا؛ بيَّنَ أيضًا أنَّ فيهم قومًا مُؤمِنينَ صالِحينَ مُجاهِدينَ، يتَّخِذُونَ إنفاقَهم في سبيلِ اللهِ مَغنمًا[1]، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾.

أي: ومِن سُكَّانِ البوادي مَن يُؤمِنُ باللهِ تعالى، وبِيَومِ القيامةِ وما فيه من الثَّوابِ والعِقابِ[2].

﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ويحتَسِبُ ما يُنفِقُه في الخيرِ عندَ اللهِ، يرجو به القُرْبَ منه سُبحانَه وتعالى[3].

﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴾.

أي: ويبتغي الأعرابُ المؤمِنونَ بنَفَقاتِهم أيضًا دعاءَ الرَّسولِ لهم عند أخْذِه صَدَقاتِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي))

كما قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وعن عبد الله بن أبي أوفَى رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أتاه قومٌ بصَدَقتِهم قال: اللهُمَّ صَلِّ على آلِ فُلانٍ، فأتاه أبي بصَدَقتِه، فقال: اللهمَّ صَلِّ على آلِ أبي أوفى))[(١)].

﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡ﴾.

أي: ألا إنَّ صلواتِ الرَّسولِ[(٢)] قُربةٌ عظيمةٌ لهم، تقرِّبُهم إلى الله تعالى[(٣)].

(٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥).

قال ابنُ عطيةَ: (الصَّلاةُ في هذه الآيةِ: الدُّعاءُ إجماعًا). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٤).

(١) رواه البخاري (١٤٩٧) واللفظ له، ومسلم (١٠٧٨).

(٢) وهو اختيار ابنِ جريرٍ، والواحديِّ، والسعديِّ، أنَّ الضَّميرَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهَا﴾ يعودُ على صلواتِ الرَّسولِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٦)، ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩).

وممَّن اختار عودَه على النَّفَقات: القرطبيُّ، والشوكاني، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦).

وقيل المعنى: أنَّها شهادةٌ مِن الله للمتصدقِ بصحةِ ما اعتقد- مِن كونِ نفقتِه قرباتٍ وصلواتٍ- وتصديقٌ لرجائِه. وممَّن اختار هذا القول: الزمخشريُّ، والرازيُّ، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٣).

قال ابنُ كثيرٍ: (هم الذين يتخذونَ ما ينفقونَ في سبيلِ الله قربةً يتقربون بها عندَ الله، ويبتغونَ بذلك دعاءَ الرسولِ لهم، ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡ﴾ أي: ألَا إنَّ ذلك حاصلٌ لهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩).

عن أبي هُريرةَ رَضيَ الله عنه، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: أنا عند ظَنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكُرُني، إن ذَكَرني في نفسِه، ذكَرْتُه في نفسي، وإن ذكَرَني في ملأٍ، ذكرتُه في ملأٍ هم خَيرٌ منهم، وإن تقرَّبَ منِّي شِبرًا، تقرَّبتُ إليه ذِراعًا، وإن تقرَّبَ إليَّ ذِراعًا، تقرَّبتُ منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هَرولةً))[(١)].

﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾.

أي: سيُدخِلُ اللهُ هؤلاء الأعرابَ المؤمنينَ في جملةِ عِبادِه المرحومينَ أصحابِ الجنَّةِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غفورٌ لذُنوبِهم فيَستُرُها لهم، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم في الدُّنيا والآخرةِ، فلا يعذِّبُهم، بل يُفيضُ عليهم نِعَمَه، ويوفِّقُهم للخيرِ، ويُثيبُهم عليه[(٣)].

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى فضائِلَ الأعرابِ الذين يتَّخِذونَ ما يُنفِقونَ قُرباتٍ عند اللهِ وصَلَواتِ الرَّسولِ، وما أعَدَّ لهم مِن الثَّوابِ؛ بيَّنَ أنَّ فوقَ مَنزلتِهم منازِلَ أعلى وأعظَمَ منها، وهي منازِلُ السَّابقينَ الأوَّلينَ[1]، فعقَّبَ بذِكرِ القُدوةِ الصَّالحةِ والمَثَلِ الكاملِ في الإيمانِ والفَضائِلِ، والنُّصرةِ في سَبيلِ الله؛ لِيَحتَذيَ متطلِّبُ الصَّلاحِ حَذْوَهم، ولئلَّا يخلوَ تقسيمُ القبائِلِ السَّاكنةِ بالمَدينةِ وحَوالَيها وبَواديها، عن ذِكرِ أفضَلِ الأقسامِ تَنويهًا به، وبهذا تمَّ استقراءُ الفِرَقِ وأحوالِها[2].

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾.

أي: وأصحابُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذين سَبَقوا المُسلِمينَ أوَّلًا إلى الإيمانِ، مِن الذين تركوا قومَهم، وفارَقُوا أوطانَهم، ومِن أهلِ المدينةِ الذين نَصَروا الرَّسولَ على الكافرينَ، وآوَوْا أصحابَه المهاجِرينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧).

قال ابنُ عطيةَ: (لو قال قائلٌ: إنَّ السَّابقينَ الأوَّلينَ هم جميعُ مَن هاجرَ إلى أن انقطَعَت الهجرةُ، لكان قولًا يقتضيه اللَّفظُ، وتكونُ ﴿مِنۡ﴾ لِبيانِ الجِنسِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٥).

وقال الرازي: (كلمة (مِن) في قولِه: ﴿مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ ليست للتبعيضِ، بل للتَّبيينِ، أي: والسَّابقون الأولونَ الموصوفونَ بوَصفِ كَونِهم مهاجرينَ وأنصارًا، كما في قولِه تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] وكثيرٌ من النَّاسِ ذهبوا إلى هذا القَولِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٩).

وعلى هذا فالمدحُ الحاصلُ في هذه الآيةِ يتناولُ جميعَ الصحابة؛ لأنَّ جملةَ الصحابةِ موصوفونَ بكونِهم سابقينَ أوَّلينَ بالنسبةِ إلى سائرِ المسلمينَ. يُنظر: المصدر السابق.

وقيل: إنَّ (مِن) تبعيضيةٌ، وعلى ذلك يكونُ معنَى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ أي: الذين اتبعوا

كما قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨-٩].

وعن غَيلانَ بنِ جَرير، قال: قلتُ لأنَسِ بنِ مالك: (أرأيتَ اسمَ الأنصارِ، كُنتُم تُسَمَّونَ به أم سمَّاكم اللهُ؟ قال: بل سَمَّانا اللهُ عَزَّ وجَلَّ)[1].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾.

أي: والتَّابعونَ للسَّابِقينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ، الذين سَلَكوا طريقَهم المستقيمَ في الإيمانِ، والعمَلِ الصَّالحِ[2].

السَّابقين الأوَّلين مِن المهاجرينَ والأنصارِ، وهم المتأخرونَ عنهم مِن الصحابةِ فمَن بعدَهم إلى يومِ القيامةِ، وقد اختلفوا في السابقينَ الأوَّلين مِن المهاجرينَ والأنصارِ، مَن هم؟ وما هي المدةُ التي عندَها ينتهي وصفُ السَّابقين مِن المهاجرينَ والأنصارِ معًا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧).

وقال القرطبي: (اتَّفقوا على أنَّ مَن هاجَر قبلَ تحويلِ القِبلةِ، فهو من المهاجِرينَ الأوَّلينَ مِن غَيرِ خِلافٍ بينهم). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٦).

وقال ابن تيمية: (والسَّابقون الأوَّلونَ أفضَلُ مِن الذين أنفَقوا من بعدِ الفَتحِ وقاتلوا، وهم- على أصَحِّ القولَينِ- الذين بايَعوا تحت الشَّجرةِ عام الحُدَيبيةِ، وقيل: من صلى إلى القِبلَتينِ، وليس بشيءٍ). ((منهاج السنة النبوية)) (٤/ ٣٩٧).

(١) رواه البخاري (٣٧٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٧، ٦٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨).

قال البغوي: (﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ قيل: بقيَّةُ المهاجرينَ والأنصارِ سوى السَّابقينَ الأوَّلين. وقيل: هم الذين سَلَكوا سبيلَهم في الإيمانِ والهِجرةِ أو النُّصرةِ إلى يومِ القيامةِ. وقال عطاءٌ: هم الذين يذكُرونَ المُهاجِرينَ والأنصارَ بالترحُّمِ والدُّعاءِ). ((تفسير البغوي))

كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾.

أي: رَضِيَ اللهُ عن الصَّحابةِ السَّابقينَ، والتَّابعينَ لهم بإحسانٍ، لِمَا أطاعُوه، ورَضُوا هم عن اللهِ؛ لما أنعَمَ عليهم في الدُّنيا، وأثابَهم في الآخرةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ [الفتح: ١٨].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: وهيَّأَ اللهُ تعالى لأصحابِ النبيِّ والتَّابعينَ لهم بإحسانٍ، جَنَّاتٍ في الدَّارِ الآخرةِ تجري تحت أشجارِها وغُرَفِها وقصورِها الأنهارُ[2].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾.

أي: لابثينَ فيها على الدَّوامِ بلا انتهاءٍ، فلا يموتونَ فيها، ولا عنها ينتَقِلونَ[3].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

(٢/ ٣٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

أي: دُخولُ الجنَّةِ والخلودُ فيها أعظَمُ فَوزٍ يحصُلُ به كلُّ مرغوبٍ، ويَندفِعُ به كلُّ مَحذورٍ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ ينبغي للمؤمِنِ أن يؤدِّيَ ما عليه من الحُقوقِ، مُنشرِحَ الصَّدرِ، مطمَئِنَّ النَّفسِ، ويحرِصَ أن تكونَ مَغنَمًا، لا مَغرمًا[٢].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ مع قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ حجةٌ في إبطالِ أعمالِ الرياءِ، وإحباطِ أَجْرِ النفقةِ إذا لم تُحْتَسَبْ، وفيه الحَثُّ على استشعارِ الاحتسابِ فيها، واتِّخاذِها قُرْبَةً[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ إرشادٌ كريمٌ إلى أنَّه لا يُكتَفى بمجَرَّدِ الدَّعوَى في اتِّباعِ الصَّحابةِ الكِرامِ، وإنَّما لا بدَّ أنْ يكونَ المتَّبِعُ مُحسِنًا بأداءِ الفَرائِضِ، واجتنابِ المَحارِمِ؛ لئلَّا يقَعَ الاغترارُ بمجَرَّدِ الموافَقةِ بالقَولِ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ إرشادٌ كريمٌ إلى أنْ يُحسِنَ المُتَّبِعُ لهم القولَ فيهم، ولا يقدَحَ فيهم، وقد اشتَرَط اللهُ ذلك؛ لعِلْمِه بأنَّه سيكون

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٩٦).

أقوامٌ ينالونَ منهم، وهذا مِثلُ قَولِه تعالى بعد أنْ ذكَرَ المُهاجِرينَ والأنصارَ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[1] [الحشر: ١٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لا بدَّ في جميعِ الطَّاعاتِ مِن تقَدُّمِ الإيمانِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الأعرابَ كأهلِ الحاضِرةِ؛ منهم الممدوحُ، ومنهم المذمومُ، فلم يذُمَّهم اللهُ على مجرَّدِ تَعَرُّبِهم وباديَتِهم، إنَّما ذَمَّهم على تَرْكِ أوامِرِ الله، وأنَّهم في مَظِنَّةِ ذلك[3].

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ جُمعَ قُرُبات باعتبارِ تعدُّدِ الإنفاقِ، فكُلُّ إنفاقٍ هو قُربةٌ عند الله؛ لأنَّه يُوجِبُ زيادةَ القُرْبِ[4].

٤- قوله تعالى: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ جُمِعَت كلمةُ (صلوات)؛ لأنَّ كلَّ إنفاقٍ يقَدِّمونَه إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعو لهم بسبَبِه دعوةً، فبتكَرُّرِ الإنفاقِ تتكرَّرُ الصَّلاةُ[5].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ فيه تفضيلُ السَّابقِ إلى الإسلامِ والهِجرةِ، وأنَّ السَّابقينَ مِن الصَّحابةِ أفضَلُ ممَّن تلاهم[١].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أخبرَ اللهُ العظيمُ أنَّه قد رَضِيَ عن السَّابقينَ الأوَّلينَ مِن المهاجرينَ والأنصارِ والذين اتَّبَعوهم بإحسانٍ، فيا ويلَ مَن أبغَضَهم أو سبَّهم، أو أبغَضَ أو سَبَّ بَعضَهم!

ولا سيَّما سيِّدُ الصَّحابةِ بعد الرَّسولِ وخَيرُهم وأفضَلُهم، الصِّدِّيقُ الأكبَرُ، والخليفةُ الأعظَمُ أبو بكرِ بنُ أبي قُحافةَ، رَضِيَ اللهُ عنه وأَرضاه؛ فإنَّ الطَّائفةَ المَخذولةَ مِن الرَّافضةِ يعادُونَ أفضَلَ الصَّحابةِ، ويُبغِضُونَهم ويَسُبُّونَهم، عياذًا باللهِ من ذلك. وهذا يدلُّ على أنَّ عُقولَهم مَعكوسةٌ، وقلوبَهم مَنكوسةٌ، فأين هؤلاء من الإيمانِ بالقُرآنِ، إذ يسُبُّونَ مَن رَضِيَ اللهُ عنهم؟! وأمَّا أهلُ السنَّةِ فإنَّهم يترَضَّونَ عَمَّن رَضِيَ الله عنه، ويَسبُّونَ مَن سَبَّه اللهُ ورَسولُه، ويُوالونَ مَن يوالي اللهَ، ويُعادونَ مَن يُعادي اللهَ، وهم مُتَّبِعونَ لا مُبتدِعونَ، ويقتَدونَ ولا يَبتَدُونَ؛ ولهذا هم حِزبُ اللهِ المُفلِحونَ، وعِبادُه المؤمِنونَ[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ يدخُلُ في هذا اللَّفظِ التَّابِعونَ، وسائِرُ الأمَّةِ، لكِنْ بِشَرطِ الإحسانِ[٣].

٨- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٥).

بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ على وجوبِ اتِّباعِ الصَّحابةِ الكِرام، ووجهُ الدَّلالةِ أنَّ اللهَ تعالى أثنى على مَن اتَّبَعَهم، فإذا قالوا قولًا فاتَّبَعَهم متَّبِعٌ عليه قبل أنْ يَعرِفَ صِحَّتَه، فهو متَّبِعٌ لهم، فيجِبُ أنْ يكون محمودًا على ذلك، وأنْ يستحِقَّ الرِّضوانَ[1].

٩- اقتضى قولُه تعالى: ﴿ٱتَّبَعُوهُم﴾ الثناءَ على مَن يتَّبِعُ كلَّ واحدٍ منهم؛ لأنَّه حُكْمٌ عُلِّقَ عليهم، فقد تناولَهم مجتَمِعينَ ومُنفَرِدينَ، والأصلُ في الأحكامِ المعَلَّقةِ بأسماءٍ عامَّةٍ ثُبوتُها لكُلِّ فردٍ مِن تلك المسَمَّياتِ[2].

١٠- اللهُ سُبحانه رَضِيَ عن الصَّحابةِ السَّابقِينَ رِضًا مُطلقًا، بِقَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ فَرَضِيَ عن السَّابقينَ مِن غَيرِ اشتراطِ إحسانٍ، ولم يرضَ عن التَّابعينَ إلَّا أن يتَّبِعوهم بإحسانٍ وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[3] [الفتح: ١٨].

١١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ أنَّهم مِن أهلِ الثَّوابِ في الآخرةِ؛ وأنَّهم يموتونَ على الإيمانِ الذي به يستحِقُّونَ ذلك، فالرِّضا مِن اللهِ صِفةٌ أَزَليَّةٌ؛ فلا يرضى إلَّا عن عبدٍ عَلِمَ أنَّه يُوافِقُه على مُوجِبات الرِّضا، ومَن رَضِيَ اللهُ عنه لم يسخَطْ عليه أبدًا[4].

١٢- كلُّ مَن أخبَرَ اللهُ أنَّه رَضِيَ عنه؛ فإنَّه مِن أهلِ الجنَّةِ -وإنْ كان رِضاه عنه بعد إيمانِه وعملِه الصَّالحِ- فإنه يَذْكُرُ ذلك في مَعْرِضِ الثَّناءِ عليه والمَدحِ له،

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٩٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٧٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فلو علِمَ أنَّه يَتعقَّبُ ذلك ما يُسخِطُ الرَّبَّ، لم يكن مِن أهلِ ذلك[١].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر تعالى مَن يتَّخِذُ ما يُنفِقُ مَغرَمًا في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾- ذَكَر مُقابِلَه، وهو مَن يتَّخِذُ ما يُنفِقُ مَغنَمًا: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وذَكَر هنا الأصلَ الَّذي يترتَّبُ عليه إنفاقُ المالِ في القُرباتِ، وهو الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخِرِ؛ ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ إذ جَزاءُ ما يُنفِقُ إنَّما يَظهَرُ ثوابُه الدَّائمُ في الآخِرَةِ، وفي قصَّةِ أولئك اكتَفى بذِكْرِ نَتيجةِ الكُفرِ، وعدَمِ الإيمانِ، وهو اتِّخاذُه ما يُنفِقُ مَغرَمًا، وتَربُّصُه بالمؤمِنينَ الدَّوائِرَ، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾[٢].

- قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡ﴾ في استِئْنافِ هذه الجُملةِ، وتَصديرِها بحَرفَيِ التَّنبيهِ والتَّحقيقِ (ألَا، إنَّ)، المُؤْذِنَينِ بثَباتِ الأمرِ وتمكُّنِه: شهادةٌ مِن اللهِ بصِحَّةِ ما اعتَقَده مِن إنفاقِه، فهي مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ مَساقَ البِشارةِ لهم بقَبولِ ما رَجَوه، ومِثلُه قولُه: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ وما في السِّينِ مِن تَحقيقِ الوَعدِ[٣].

- وقولُه: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ أيضًا جملةٌ واقِعةٌ مَوقِعَ البيانِ لجُملَةِ ﴿إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡ﴾؛ لأنَّ القُربةَ عِندَ اللهِ هي الدَّرَجاتُ العُلا ورِضْوانُه، وذلك

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦).

مِن الرَّحمةِ[١].

- وقَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ هذا أبلَغُ مِن مِثلِ ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ [التوبة: ٢١]، فإنَّ معنَى إدخالِهم فيها أن يكونوا مَغْمورين فيها، وتكونَ هي محيطةً بهم، شاملةً لهم[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾

- في هذه الآيةِ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، فإنَّه تَعالى لَمَّا بَيَّن فَضائِلَ الأعرابِ المؤمِنين المتصَدِّقين، وما أعَدَّ لهم مِن النَّعيمِ، بيَّن حالَ هؤلاءِ السَّابِقين وما أعَدَّ لهم، وشَتَّانَ ما بينَ الإعدادَينِ والثَّناءَينِ؛ فهُناك قال: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾، وهنا: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾، وهناك: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓ﴾، وهنا: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وهناك ختَم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وهنا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[٣].

- وفيه تَقديمُ ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾؛ لفَضلِهم وشرَفِهم[٤].

- وجملة: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ خبرٌ عَن ﴿السَّابِقُونَ﴾، وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ على خبَرِه الفِعليِّ ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾؛ لقَصدِ التَّقوِّي والتَّأكيدِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٤- ٤٩٥).
(٤) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٢٥٥- ٢٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨).

- قولُه: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث خالَفَت هذه الآيةُ أخواتِها؛ إذ لم تُذكَرْ فيها (مِنْ) معَ (تَحْتَهَا)- في غالِبِ المَصاحِفِ، وفي رِوايةِ جُمهورِ القُرَّاءِ- فكانَت خالِيةً مِن التَّأكيدِ؛ إذ ليسَ لِحَرفِ (مِن) مَعنًى معَ أسماءِ الظُّروفِ إلَّا التَّأكيدُ، ويَكونُ خُلُوُّ الجملةِ مِن التَّأكيدِ؛ لِحُصولِ ما يُغْني عنه مِن إفادةِ التَّقوِّي بتَقديمِ المسنَدِ إليه على الخَبَرِ الفِعليِّ، ومِن فِعْلِ (أَعَدَّ) المُؤْذِنِ بكَمالِ العِنايةِ، فلا يَكونُ المعَدُّ إلَّا أكمَلَ نَوعِه[1].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ في التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ وما فيه مِن مَعنى البُعدِ: بيانٌ لِبُعدِ مَنزلتِهم في مَراتِبِ الفضلِ، وعِظَمِ الدَّرجةِ مِن مُؤمِني الأعرابِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٧).

الآيتان (١٠١-١٠٢)

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾: أي: عَتَوا فيه ومَرِنوا عليه، وأصلُ (مرد): يدلُّ على تجريدِ الشَّيءِ مِن قِشرِه، أو ما يعلوه مِن شَعْرِه[(١)].

﴿خَلَطُوا۟﴾: أي: تعاطَوْا هذا مرَّةً وذاك مرَّةً، وأصلُ الخَلطِ: الجَمعُ بين أجزاءِ الشَّيئينِ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول اللهُ تعالى: إنَّ مِن سكانِ البوادي الذين حولَكم- أيُّها المسلمونَ- مُنافقينَ، ومن أهلِ المدينةِ النبويَّةِ منافِقونَ تَمَرَّنوا على النِّفاقِ حتى أصبَحَ سَجِيَّةً لهم، واستمَرُّوا عليه ولم يتوبوا، لا تعلَمُهم يا محمَّدُ، نحن نعلَمُهم، سنعَذِّبُهم مرَّتينِ: في الدُّنيا وفي القَبرِ، ثم يُردُّونَ إلى عذابٍ عَظيمٍ في نارِ جهنَّمَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٨).

قال الرازي: (وأصلُ المُرودِ الملاسةُ، ومنه صَرحٌ مُمَرَّدٌ، وغلامٌ أمْرَدُ، والمرداءُ: الرَّملة التي لا تُنبِتُ شيئًا، كأنَّ من لم يقبَلْ قولَ غَيرِه ولم يَلتفِتْ إليه، بقيَ كما كان على صِفتِه الأصليَّةِ، مِن غيرِ حدوثِ تَغيُّرٍ فيه البتَّةَ، وذلك هو الملاسةُ، إذا عرفتَ أصلَ اللَّفظِ فنقولُ: قَولُه تعالى: ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي: ثَبَتوا واستَمَرُّوا فيه، ولم يتوبوا عنه). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٣).

وقومٌ آخرونَ أقرُّوا بذُنوبِهم، جمعوا عملًا صالحًا وعملًا سيِّئًا، لعلَّ اللهَ أن يقبَلَ تَوبتَهم؛ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا استوفى الأقسامَ الأربعةَ: قِسمَي الحضَرِ وقِسمَي البَدوِ، ثمَّ خلَطَ بين قِسمَينِ منهم تشريفًا للسَّابقِ، وتَرغيبًا للَّاحقِ؛ خلط بين الجميعِ على وجهٍ آخرَ، ثم ذكرَ منهم فِرَقًا؛ منهم مَن نجَزَ الحكم بجزائِه بإصرارٍ أو مَتابٍ. ومنهم من أخَّرَ أمْرَه إلى يومِ الحسابِ، وابتدأ الأقسامَ بالمستورِين الذين لا يعلمُهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم؛ ليَعلمَ أهلُ ذلك القِسمِ أنَّه- سُبحانه- عالمٌ بالخفايا، فلا يزالوا أذلَّاءَ؛ خَوفًا ممَّا هدَّدَهم به[1].

وأيضًا بعدَ أن بيَّنَ تعالى حالَ كَمَلةِ المؤمنينَ كُلِّهم؛ قفَّى عليه بذِكرِ مَرَدةِ المُنافِقينَ مِن أهلِ البَدوِ والحَضَر، وعطَفَهم عليهم من بابِ عَطفِ الضِّدِّ على الضِّدِّ[2].

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ﴾

أي: ومِن سكَّانِ البوادي الذين حولَ مَدينَتِكم- أيُّها المسلمونَ- مُنافِقونَ[3].

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٤).

أي: ومِن أهلِ المدينةِ النَّبويَّةِ[١] مُنافقونَ تمرَّنوا على النِّفاقِ، حتى أصبح سجيَّةً لهم مِن غيرِ تكلُّفٍ، ومَهَروا في إتقانِه، فلا يَشعُرُ به الآخرونَ، واستمرُّوا عليه، ولم يَتوبوا[٢].

﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡ﴾.

أي: لا تعلَمُ -يا مُحمَّدُ- نفاقَ هؤلاءِ المَرَدةِ مِن المُنافِقينَ، ولكِنْ نحن نعلَمُهم[٣].

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾.

أي: سنعذِّبُ هؤلاء الذين مَرَدوا على النِّفاقِ، في الدُّنيا وفي القَبرِ[٤].

---

(١) قال ابن تيمية: (فجميعُ الأبنِيَةِ تدخلُ في مسمَّى المدينةِ، وما خرَجَ عن أهلِها، فهو من الأعرابِ أهلِ العَمودِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٤/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٥، ٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٤).

وممَّن اختار أنَّ المراد بـ﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾: العذابُ في الدُّنيا، والعذابُ في القبر: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٤، ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٥).

وممَّن ذهَب مِن السَّلفِ إلى أنَّ العذابَ الأوَّل في الدُّنيا، والثاني في القبرِ: ابنُ عبَّاس ومجاهدٌ ومقاتلُ بنُ سليمانَ، مع اختلافِهم في صورةِ عذابِ الدُّنيا؛ فقال ابنُ عبَّاسٍ: هو فضيحتُهم بالنفاقِ، وفي روايةٍ: إقامةُ الحدودِ عليهم، وقال مجاهدٌ: الجوعُ، وقال مقاتلٌ: عندَ الموتِ، تضربُ الملائكةُ وجوهَهم وأدبارَهم. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٩٢).

قال الثعالبي: (وأكثرُ النَّاسِ أنَّ العذابَ المتوسِّطَ هو عذابُ القبرِ). ((تفسير الثعالبي)) (٣/ ٢٠٩).

وقيل: المراد بالمرَّتين: تكثيرُ تَعذيبِهم وتكرُّرُه في الدُّنيا مرَّةً بعد مرَّةٍ. وممن اختار ذلك: الشوكانيُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور))

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: ثم يُرَدُّ هؤلاء المُنافِقونَ بعد تعذيبِهم مرَّتينِ، إلى عذابٍ عظيمٍ في نارِ جَهنَّمَ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالَى حالَ المنافقينَ المتخَلِّفينَ عنِ الغَزاةِ؛ رغبةً عنها، وتكذيبًا وشَكًّا؛ شَرَع في بيانِ حالِ المذنِبينَ الَّذينَ تأخَّروا عنِ الجهادِ كَسَلًا وميلًا إلى الرَّاحَةِ، معَ إيمانِهم وتصديقِهم بالحَقِّ[٢]، فقال تعالى:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾.

أي: وقومٌ آخَرونَ أقَرُّوا بذُنوبِهم بتخَلُّفِهم عن الجهادِ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غزوةِ تَبوكَ، جَمَعوا عملًا صالحًا بالتَّوبةِ وغَيرِها من الطَّاعاتِ، وعملًا سَيِّئًا بالتخَلُّفِ عن الجهادِ وغيرِ ذلك من المعاصي والسَّيِّئاتِ[٣].

(١١/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١٦).

قال ابنُ عطيةَ: (لا خلافَ بين المتأوِّلينَ أنَّ العذابَ العظيمَ الذي يُردُّونَ إليه، هو عذابُ الآخرةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٦).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٠، ٦٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٩٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٢-١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور))

عن سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لنا: ((أتاني الليلةَ آتيانِ فابتَعَثاني، فانتهَينا إلى مدينةٍ مَبنيَّةٍ بلَبِنِ ذَهَبٍ، ولَبِنِ فِضَّةٍ، فتلقَّانا رجالٌ شَطرٌ مِن خَلْقِهم كأحسَنِ ما أنت راءٍ، وشطرٌ كأقبَحِ ما أنت راءٍ، قالا لهم: اذهَبُوا فقَعُوا في ذلك النَّهرِ، فوَقَعوا فيه، ثمَّ رَجَعوا إلينا، قد ذهَبَ ذلك السُّوءُ عنهم، فصاروا في أحسَنِ صُورةٍ، قالا لي: هذه جَنَّةُ عَدْنٍ، وهذاك مَنزِلُك، قالا: أمَّا القَومُ الذين كانوا شَطرٌ منهم حَسَنٌ، وشَطرٌ منهم قَبيحٌ، فإنَّهم خَلَطوا عملًا صالحًا وآخَرَ سَيِّئًا، تجاوَزَ اللهُ عنهم))[1].

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: سيقبلُ اللهُ توبةَ أولئك الذين اعترَفوا بذُنوبِهم[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غَفورٌ يَستُرُ ذُنوبَ مَن تابَ إليه، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم، فلا يُعَذِّبُهم بها[3].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ

(١١/ ٢١).

قال القرطبي: (يحتملُ أنَّهم كانوا مُنافِقينَ وما مَرَدوا على النِّفاقِ، ويحتمل أنَّهم كانوا مؤمنينَ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤١، ٢٤٢). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٢).

(١) رواه البخاري (٤٦٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

قال الواحديُّ: (قولُه تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، قال ابنُ عباسٍ والمفسِّرونَ: «عسى» مِن اللهِ واجبٌ؛ لأنَّه قال: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ [المائدة: ٥٢] ففعَل ذلك، وكذلك تابَ على هؤلاءِ). ((البسيط)) (١١/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ * وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡ﴾ استُدِلَّ بالآيةِ على أنَّه لا ينبغي الإقدامُ على دعوى معرفةِ الأمورِ الخَفيَّةِ من أعمالِ القَلبِ ونَحوِها[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ هذه الآيةُ دلَّت على أن المُخَلِّطَ الذي خلطَ الأعمالَ الصَّالحةَ بالأعمالِ السَّيِّئةِ؛ من التجرُّؤِ على بعضِ المُحَرَّمات، والتقصيرِ في بعضِ الواجِباتِ، مع الاعترافِ بذلك والنَّدَمِ، والرَّجاءِ بأن يغفِرَ اللهُ له- أنَّه تحت الخَوفِ والرَّجاءِ، وهو إلى السَّلامةِ أقرَبُ، وأمَّا المخَلِّطُ الذي لم يَعتَرِف ويَندَمْ على ما مضى منه، بل لا يزالُ مُصرًّا على الذُّنوبِ، فإنَّه يُخافُ عليه أشَدَّ الخَوفِ[٢].

٣- عن أبي عُثمانَ النَّهدي قال: ما في القرآنِ آيةٌ أرجى عندي لهذه الأمَّةِ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا...﴾[٣].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا...﴾ هذه الآيةُ عامَّةٌ في كلِّ المُذنِبينَ الخاطئينَ المُخلِصينَ المُتَلوِّثينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٠).
(٣) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٢٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٦).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ مُجرَّدُ الاعترافِ بالذَّنبِ لا يكونُ تَوبةً، فأمَّا إذا اقترَن به النَّدمُ على الماضي، والعزمُ على ترْكِه في المستقبَلِ، وكان هذا النَّدمُ والتَّوبةُ لأجلِ كَونِه مَنهيًّا عنه مِن قِبَلِ الله تعالى؛ كان هذا المجموعُ تَوبةً، فقَولُه تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ يقتضي أنَّ هذه التَّوبةَ إنَّما تحصُلُ في المستقبَلِ. وقَولُه: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ دلَّ على أنَّ ذلك الاعترافَ حصل في الماضي، وذلك يدلُّ على أنَّ ذلك الاعترافَ ما كان نَفسَ التَّوبةِ، بل كان مُقَدِّمةً للتَّوبةِ، وأنَّ التَّوبةَ إنَّما تحصُلُ بَعدَها[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بيانُ أنَّ اعترافَ المُذنِبِ بِذَنبِه مع النَّدَمِ عليه، هي توبةٌ مقبولةٌ؛ فإنَّ (عسى) من اللهِ واجِبةٌ[2]؛ لأنَّها إطماعٌ، ومَن أكرمُ مِن الله حتَّى يحقِّقَ ما أطمَع فيه عبدَه؟!!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ...﴾ العِبرةُ في هذا السِّياقِ أنَّ هؤلاءِ المُنافِقينَ فَريقانِ: فَريقٌ عُرِفوا بأقوالٍ قالوها، وأعمالٍ عَمِلوها، وفريقٌ مَرَدوا على النِّفاقِ وحَذِقوه، حتى صار أملَسَ ناعِمًا لا يكادُ يَشعُرُ أحَدٌ بِشَيءٍ يَستَنكِرُه منه، فيظهَر عليه، وكلٌّ من الفريقينِ يُوجَدُ في كلِّ عَصرٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٢- ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٩)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٥٦)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١٦، ١٧)

٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ أنَّه لم يكُنْ مِن المُهاجِرينَ مَن نافقَ، وإنَّما كان النِّفاقُ في قبائِلِ الأنصارِ، لَمَّا ظَهرَ الإسلامُ بالمدينةِ، ودخل فيه مِن قبائِلِ الأَوْسِ والخزرَجِ، ولَمَّا صار للمُسلِمينَ دارٌ يمتَنِعونَ بها ويُقاتِلون، دَخلَ في الإسلامِ مِن أهلِ المدينةِ وممَّنْ حولَهم مِن الأعراب مَن دَخلَ- خوفًا وتقيَّةً- وكانوا مُنافِقينَ[١].

٣- دلَّ قولُه تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ﴾ مع قَولِه تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ على أنَّ مَن لم يعترِفْ بذَنْبِه مِن هؤلاءِ، كان مِن المُنافِقينَ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ لا ينافي قَولَه تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠]؛ لأنَّ هذا من باب التوسُّمِ فيهم بصِفاتٍ يُعرَفونَ بها، لا أنَّه يَعرِفُ جميعَ مَن عِندَه مِن أهلِ النِّفاقِ والرَّيبِ على التَّعيينِ[٣]، وقيل: لا تَنافيَ؛ لأن آيةَ النَّفيِ نزلت قبل آيةِ الإثباتِ[٤].

٥- لَمَّا كشفَ اللهُ المُنافِقينَ بسورةِ براءة بِقَولِه: ﴿وَمِنْهُم﴾ ﴿وَمِنْهُم﴾ صار يُعرفُ نفاقُ ناسٍ منهم لم يكن يُعرفُ نفاقُهم قبل ذلك، كما قال تعالى: ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾، فإنَّ اللهَ وصَفهم بصفاتٍ علِمَها الناسُ منهم؛ وما كان الناسُ يجزمون بأنها مستلزمةٌ لنفاقهم- وإنْ كان بعضُهم يظنُّ ذلك وبعضُهم

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٤٧٦).
(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٤).
(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٠-٢٤١).

يعْلَمُه- فلم يكنْ نفاقُهم معلومًا عند الجماعة؛ بخلافِ حالِهم لمّا نزل القرآنُ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ فيه دليلٌ على الردِّ على مَن يزعمُ الكشفَ والاطلاعَ على المغيَّباتِ بمجردِ صفاءِ القلبِ، وتجرُّدِ النَّفسِ عن الشواغلِ، وبعضُهم يتساهلونَ في هذا البابِ جدًّا[٢].

٧- استُدِلَّ بقولِه تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ على إثباتِ عَذابِ القَبرِ؛ حيث كان العذابُ الأولُ عذابًا في الدُّنيا، والثَّاني عذابًا في القَبرِ[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿عَسَى﴾ منه سُبحانه وتعالى واجِبةٌ؛ لأنَّ هذا دأْبُ الملوكِ، ولعلَّ التَّعبيرَ بها يفيدُ- مع الإيذانِ بأنَّه لا يجِبُ عليه لأحدٍ شَيءٌ[٤]، وأنَّ كُلَّ إحسانٍ يَفعَلُه، فإنَّما هو على سبيلِ الفَضلِ- إشارةً إلى أنَّهم صاروا كغَيرِهم مِن خُلَّصِ المؤمنينَ غَيرِ المعصومينَ في مُواقعةِ التَّقصيرِ، وتَوقُّعِ الرحمةِ مِن اللهِ بالرُّجوعِ بهم إلى المُراقبةِ، فكما أنَّ أولئك مَعدودونَ في حِزبِ الله مع هذا التَّقصيرِ المرجُوِّ له العَفوُ، فكذلك هؤلاءِ[٥].

٩- من كان مؤمِنًا وعَمِلَ عَملًا صالحًا لوَجهِ الله تعالى، فإنَّ الله لا يَظلِمُه، بل يُثيبُه عليه، وأمَّا ما يفعَلُه مِن المُحَرَّم اليسيرِ، فيستَحِقُّ عليه العُقوبةَ، ويُرجى له من اللهِ التَّوبةُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وإن مات ولم يتُبْ، فهذا أمْرُه إلى الله،

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٢٣٣).

(٤) لكن لله تعالى أن يوجبَ على نفسِه ما شاء، وله أن يحرِّمَ على نفسِه ما شاء. يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (ص ٤٠٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١١).

هو أعلَمُ بمقدارِ حَسَناتِه وسَيِّئاتِه، لا يُشهَدُ له بجنَّةٍ ولا نارٍ، بخلافِ الخوارجِ والمُعتَزلةِ، فإنَّهم يقولونَ: إنَّ مَن فعَلَ كبيرةً أحبَطَت جميعَ حَسَناتِه، وأهلُ السُّنَّةِ والجماعة لا يقولونَ بهذا الإحباطِ، بل أهلُ الكبائرِ معهم حسَناتٌ وسيِّئاتٌ، وأمرُهم إلى اللهِ تعالى(١).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه خبرٌ، لا نَعتٌ. و(مِن) في قَولِه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ للتَّبعيضِ، و(مِن) في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ لبَيانِ (مَن) المَوصولةِ(٢).

- قولُه: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ في تعليقِ نفْيِ العِلمِ بهم معَ أنَّه مُتعلِّقٌ بحالِهم- مبالَغةٌ في ذلك، وإيماءٌ إلى أنَّ ما هُم فيهِ مِن صِفَةِ النِّفاقِ لِعَراقَتِهم ورُسوخِهم فيها صارَت بمَنزِلَةِ ذاتيَّاتِهم أو مُشخَّصاتِهم؛ بحيث لا يُعَدُّ مَن لا يَعرِفهم بتِلك الصِّفَةِ عالِمًا بهم(٣).

- قولُه: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ، والخبَرُ مُستعمَلٌ في الوعيدِ؛ ففيه تهديدٌ، ورَتَّب عليه قَولِه: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾(٤).

فـ ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ وعيدٌ لهم، وتحقيقٌ لعَذابِهم حسَبَما عَلِم اللهُ فيهِم مِن

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠).

مُوجِباتِه، والسِّينُ للتَّأكيدِ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ استِئْنافٌ بيانيٌّ للجَوابِ عن سؤالٍ يُثيرُه قولُه: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، وهو أن يَسأَلَ سائلٌ عَن أثَرِ كَونِ اللهِ تَعالى يَعلَمُهم، فأَعْلَم أنَّه سيُعذِّبُهم على نِفاقِهم، ولا يُفْلِتُهم منه عدَمُ عِلمِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بهِم[٢].

- وفي تغييرِ السبكِ مِن نونِ العظمةِ في قولِه: ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ إلى ما لم يسمَّ فاعلُه في قولِه ﴿يُرَدُّونَ﴾؛ لأنَّ في بنائِه لما لم يُسمَّ فاعلُه مِن التعظيمِ ما فيه، فيناسبُ العذابَ العظيمَ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ ...﴾ فيه ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالحَذفِ المقابليِّ (الاحتِباكِ)، وهو: أن يَجتَمِعَ في الكلامِ مُتَقابِلان، فيُحذَفَ مِن واحدٍ مِنهُما مُقابِلُه؛ لدَلالةِ الآخَرِ عليه، فأصلُ الكلامِ: «خَلَطوا عمَلًا صالِحًا بسَيِّئٍ، وآخَرَ سيِّئًا بصالحٍ»؛ لأنَّ الخلْطَ يَسْتَدعي مَخلوطًا ومَخلوطًا به، أي: تارةً أطاعوا وخلَطوا الطَّاعةَ بمَعصيةٍ، وتارةً عصَوْا وتدارَكوا المعصيةَ بالتَّوبةِ[٤]، وهو من ألطَفِ شاهِدٍ لنوعِ الاحتباكِ، ولعلَّ التعبيرَ بما أفهَمَ ذلك إشارةٌ إلى تَساوي العَمَلينِ، وأنَّه ليس أحَدُهما بأولَى مِن الآخَرِ أن يكونَ أصلًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٢).
(٤) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ١٢٩- ١٣١).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٠).

- قولُه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ عبَّر بفِعْلِ الرَّجاءِ (عَسَى)، وهي مِن كلامِ اللهِ تعالى المخاطَبِ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهي كنايةٌ عن وُقوعِ المرجُوِّ، وأنَّ اللهَ قد تاب علَيهم، ولكِنَّ ذِكْرَ فِعْلِ الرَّجاءِ يَستَتبِعُ مَعنى اختِيارِ المتكلِّمِ في وُقوعِ الشَّيءِ وعدَمِ وُقوعِه، وإنَّما جاء بلَفظِ (عسى)؛ ليَكونَ المؤمِنُ على وجَلٍ؛ إذ لَفظةُ (عسى) طمَعٌ وإشفاقٌ، فأُبرِزَتِ التَّوبةُ في صورتِه[١]؛ لِيَأمُلوا ولا يتَّكِلوا[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ عبَّر بقولِه تعالى: ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ معَ أنَّه لم تُذكَرَ توبتُهم؛ لأنَّه إذا ذُكِر اعترافُهم بذُنوبِهم، وهو دليلٌ على التَّوبةِ، فقد ذُكِرَت توبتُهم[٣]، فالاعترافُ بالذَّنبِ كنايةٌ عن التَّوبةِ منه؛ لأنَّ الإقرارَ بالذَّنبِ الفائتِ إنَّما يَكونُ عِندَ النَّدمِ والعزمِ على عدَمِ العَودِ إليه، ولا يُتَصوَّرُ فيه الإقلاعُ الَّذي هو مِن أركانِ التَّوبةِ؛ لأنَّه ذنبٌ مَضى، ولكن يُشترَطُ فيه العزمُ على أنْ لا يَعودَ[٤].

- وجملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ تذييلٌ مُناسِبٌ للمَقامِ، حيث ختَم ذلك بما دلَّ على قَبولِ التَّوبةِ، وذلك صفةُ الغُفرانِ والرَّحمةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (١/ ٦١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

الآيتان (١٠٢-١٠٤)

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَتُزَكِّيهِم﴾: أي: تُطَهِّرُهم، وتُنَمِّيهم وتَرفَعُهم، وأصلُ (زكو): يدلُّ على نماءٍ وزيادةٍ[١].

﴿وَصَلِّ﴾: أي: استَغفِرْ وادعُ لهم[٢].

﴿سَكَنٌ﴾: أي: تثبيتٌ لهم، وطُمأنينةٌ وسكونٌ، وأصلُ (سكن): يدلُّ على خِلافِ الاضطرابِ والحَرَكةِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يأخُذَ مِن أموالِ المُسلِمينَ صَدَقةً يُطَهِّرُهم بها مِن دَنَس ذُنوبِهم، ويُزَكِّيهم بها، كما أمَرَه بالدُّعاءِ لهم عند أخذِ الصَّدَقاتِ؛ لأنَّ دُعاءَه لهم طُمأنينةٌ، وراحةٌ لِقُلوبِهم، واللهُ سَميعٌ عَليمٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠، ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٨).

ألم يَعلَموا أنَّ الله وَحْدَه هو مَن يَقبَلُ التَّوبةَ مِن التَّائبينَ، ويقبَلُ صَدَقاتِ عِبادِه، وأنَّه هو التَّوابُ الرَّحيمُ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّهم لَمَّا أظهَروا التَّوبةَ والنَّدامةَ، عن تخلُّفِهم عن غزوةِ تَبوكَ، وهم أقَرُّوا بأنَّ السَّبَبَ الموجِبَ لذلك التخَلُّفِ حُبُّهم للأموالِ، وشِدَّةُ حِرصِهم على صَونِها عن الإنفاقِ، فكأنَّه قيل لهم: إنَّما يظهرُ صِحَّةُ قَولِكم في ادِّعاءِ هذه التَّوبةِ والنَّدامةِ، لو أخرَجتُم الزَّكاةَ الواجِبةَ، ولم تُضايقوا فيها؛ لأنَّ الدَّعوى لا تتقَرَّرُ إلَّا بالمعنى، وعند الامتحانِ يُكرَمُ الرَّجُلُ أو يهانُ؛ فإن أدَّوا تلك الزَّكَواتِ عن طِيبةِ النَّفسِ، ظهَرَ كَونُهم صادقينَ في تلك التَّوبةِ والإنابةِ، وإلَّا فهم كاذِبونَ مُزَوِّرونَ بهذا الطَّريقِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان مِن شَرطِ التَّوبةِ تَدارُكُ ما يمكِنُ تَدارُكُه ممَّا فات، وكان التخلُّفُ عن الغَزوِ مُشتَمِلًا على أمرينِ، هما: عدمُ المُشاركةِ في الجهادِ، وعَدَمُ إنفاقِ المالِ في الجهادِ؛ جاء في هذه الآيةِ إرشادٌ لِطَريقِ تَدارُكِهم ما يمكِنُ تَدارُكُه ممَّا فات، وهو: نفعُ المُسلِمينَ بالمالِ[2].

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

أي: خُذ- يا محمَّدُ- من أموالِ المُسلِمينَ[١] صَدقةً[٢] تُطَهِّرُهم[٣] مِن دَنَسِ ذُنوبِهم[٤].

عن جابرِ بنِ عبدِ الله رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((والصَّدَقةُ تُطفِئُ الخَطيئةَ كما يُطفِئُ الماءُ النَّارَ))[٥].

﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾.

---

(١) ذهَب بعضُ المفسِّرينَ إلى أن الضَّميرَ في قولِه:﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ يعودُ إلى الذين اعترَفوا بذنوبِهم، فتابوا منها. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ عبَّاسٍ، وزيدُ بنُ أسلمَ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ، والضحَّاك، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩).
وذهب بعضُهم إلى أنَّ المرادَ العمومُ، وممَّن اختار ذلك: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٤).

(٢) قيل: المرادُ بها: الزَّكاةُ المفروضةُ، وممَّن اختار ذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).
وأكثرُ الفقهاءِ استدلُّوا بهذه الآيةِ في إيجابِ الزَّكوات. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٤).

(٣) قال القرطبي: (﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ حالَينِ للمُخاطَبِ، التقديرُ: خُذْها مُطَهِّرًا لهم ومُزَكِّيًا لهم بها. ويجوزُ أن يجعَلَهما صِفَتينِ للصَّدقة، أي صدقةً مُطَهِّرةً لهم مُزَكِّيةً، ويكون فاعِلُ ﴿تُزَكِّيهِمْ﴾ المُخاطَب، ويعودُ الضَّميرُ الذي في ﴿بِهَا﴾ على الموصوفِ المُنكَّرِ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤٩).
وقال ابنُ عاشور: (التاءُ في ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ تحتمِلُ أن تكونَ تاء الخطاب؛ نَظرًا لِقَولِه: ﴿خُذْ﴾، وأن تكونَ تاء الغائبةِ عائدةً إلى الصَّدقةِ. وأيًّا ما كان، فالآية دالَّةٌ على أنَّ الصَّدَقةَ تُطَهِّرُ وتزَكِّي). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٢٨٤)، وأبو يعلى في ((المسند)) (١٩٩٩)، وابن حبان في ((الصحيح)) (١٧٢٣)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٥٣٧٧).
صحَّح إسنادَه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٢/ ٥٨)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٨٦٦)، وحسَّنه الوادعي في ((صحيح دلائل النبوة)) (٥٦٤).

أي: وتُنَمِّي أموالَهم، وتزيدُ في أخلاقِهم الحسَنةِ، وأعمالِهم الصَّالحةِ، وفي ثوابِهم الدُّنيويِّ والأُخرويِّ[١].

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾.

أي: وادْعُ -يا مُحمَّدُ- للمُسلِمينَ عند أخْذِك صَدَقاتِهم؛ لأنَّ دُعاءَك لهم طُمأنينةٌ، وراحةٌ لقُلوبِهم[٢].

عن عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أتاه قومٌ بصَدَقَتِهم قال: اللَّهُمَّ صَلِّ عليهم، فأتاه أبي أبو أوفَى بصَدَقته، فقال: اللهُمَّ صَلِّ على آلِ أبي أوفَى[٣]))[٤].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ سَميعٌ لأقوالِ عبادِه، مُجيبٌ لِدُعائِهم- ومن ذلك سماعُه دُعاءَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- عليمٌ بنِيَّاتِهم وأحوالِهم، ويُجازيهم بحسَبِ أعمالِهم[٥].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩، ٦٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣).

(٣) اللهُمَّ صَلِّ على آلِ أبي أوفَى: أي: اغفِرْ لهم وارحمْهم. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٧٩).

(٤) رواه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن القومِ الذينَ تقَدَّمَ ذِكرُهم أنَّهم تابوا عن ذُنوبِهم، وأنَّهم تصَدَّقوا، وهناك لم يُذكَرْ إلَّا قولُه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وما كان ذلك صريحًا في قَبولِ التَّوبةِ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ أنَّه يقبَلُ التَّوبةَ، وأنَّه يأخُذُ الصَّدَقاتِ، والمقصودُ ترغيبُ مَن لم يتُبْ في التوبةِ، وترغيبُ كلِّ العُصاةِ في الطاعةِ[1].

﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

أي: ألَم يَعلَمُوا[2] أنَّ اللهَ وَحْدَه هو الذي يقبَلُ التَّوبةَ من التَّائبينَ، ويقبَلُ الصَّدَقاتِ مِن عبادِه إذا كانت طيِّبةً خالصةً للهِ ربِّ العالَمينَ[3]؟

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أيُّها النَّاسُ، إنَّ الله طيِّبٌ لا يقبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمَرَ المؤمنينَ بما أمَرَ به المُرسَلينَ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثمَّ ذكَرَ الرَّجُلَ يُطيلُ السَّفَرَ أشعَثَ أغبَرَ، يمُدُّ يَدَيه إلى السَّماءِ: يا ربِّ، يا ربِّ، ومَطعَمُه حَرامٌ، ومَشرَبُه حرامٌ، ومَلبَسُه حَرامٌ، وغُذِيَ بالحرامِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٩).

(٢) قال محمد رشيد رضا: (أي: ألم يعلَمْ أولئك التائبونَ من ذَنبِهم أنَّ الله هو الذي يقبلُ توبةَ التَّائبينَ مِن عبادِه، ولم يجعَلْ ذلك لرسولِه، بَلْهَ مَن دونه مِن خَلْقِه، فالاستفهامُ لتقريرِ ما دلَّ عليه القرآنُ، وكونه هو الذي حمَلَهم على التَّوبةِ- أو ألمْ يعلَمِ المؤمنون كافَّةً هذا، وهو مقتضى الإيمانِ ومُوجِبُه؟ والاستفهامُ على هذا تحضيضٌ على هذا العِلمِ وما يستلزِمُه من التَّوبة. وقبولُ التوبةِ عنهم. قيل: إنَّه بمعنى قَبولِها منهم، نحو: لا صدقةَ إلَّا عن غنًى ومِن غِنًى، وقيل: إنَّ القبولَ هنا قد تضمَّنَ معنى التجاوُزِ والصَّفحِ، أي: هو الذي يقبَلُها منهم متجاوِزًا عن ذنوبِهم عَفوًا عنها، وهذا أبلَغُ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).

فأنَّى يُستجابُ لذلك؟!))[١].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((ما تصدَّقَ أحدٌ بصدقةٍ من طيِّبٍ -ولا يقبلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ- إلَّا أخَذَها الرَّحمنُ بيَمينِه، وإن كانت تَمرةً، فتَربُو في كفِّ الرَّحمنِ حتى تكونَ أعظمَ من الجبلِ، كما يُربِّي أحدُكم فَلُوَّه[٢] أو فصيلَه[٣]))[٤].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: وأيضًا ألم يعلموا أنَّ الله كثيرُ التَّوبةِ عن عبادِه، ويعفو عمَّن تاب إليه، ولو تكرَّرَ منه الذَّنبُ مِرارًا، واسِعُ الرَّحمةِ بالتَّائبينَ، فلا يُعاقِبُهم بل يُثيبُهم[٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِ الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أنَّ العَبدَ لا يُمكِنُه أن يتطهَّرَ ويتزكَّى حتى يُخرِجَ زكاةَ مالِه، وأنَّه لا يُكَفِّرُها شيءٌ سوى أدائِها؛ لأنَّ الزكاةَ والتطهيرَ متوقِّفٌ على إخراجِها[٦].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ يُؤخَذُ من المعنى أنَّه ينبغي إدخالُ السُّرورِ على المؤمِنِ بالكلامِ اللَّيِّنِ، والدُّعاءِ له، ونحو ذلك ممَّا

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥).

(٢) الفَلُوُّ: المُهرُ، وهو الصَّغِيرُ من أولادِ الفَرَسِ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه فُصِلَ وعُزِلَ عن أمه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).

(٣) الفَصيلُ: ولَدُ النَّاقةِ إذا فُصِلَ مِن إرضاعِ أمِّه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).

(٤) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤) واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٠).

يكونُ فيه طُمأنينةٌ وسكونٌ لِقَلبِه مشروعٌ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ يُؤخَذُ من المعنى أنَّه ينبغي تنشيطُ مَن أنفَقَ نفقةً، وعَمِلَ عملًا صالحًا، بالدُّعاءِ له والثَّناءِ ونحوِ ذلك[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ فيه دَلالةٌ على وجوبِ الزَّكاةِ في جميعِ الأموالِ، وهذا إذا كانت للتِّجارةِ ظاهرةً، فإنَّها أموالٌ تُنمَّى ويُكتسَبُ بها، فمِنَ العَدلِ أن يُواسى منها الفُقراءُ، بأداءِ ما أوجَبَ الله فيها من الزَّكاةِ، وما عدا أموالَ التِّجارةِ، فإن كان المالُ يُنمَّى، كالحُبوب، والثِّمار، والماشية المُتَّخَذة للنَّماءِ والدَّرِّ والنَّسل، فإنها تجِبُ فيها الزكاةُ، وإلَّا لم تجِبْ فيها؛ لأنَّها إذا كانت للقِنيةِ، لم تكُن بمنزلةِ الأموالِ التي يتَّخِذُها الإنسانُ في العادةِ مالًا يُتمَوَّلُ، ويُطلَبُ منه المقاصِدُ الماليَّةُ، وإنَّما صُرِفَ عن الماليَّةِ بالقِنيةِ ونَحوِها[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ يُستدَلُّ به في وجوبِ الزَّكاةِ في الماشيةِ والثِّمارِ؛ لأنَّها أكثَرُ أموالِ الصَّحابةِ إذ ذاك[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ يدلُّ على أنَّ القَدرَ المأخوذَ بعضُ تلك الأموالِ لا كُلُّها؛ إذ مقدارُ ذلك البعضِ غيرُ مذكورٍ هاهنا بصريحِ اللَّفظِ، بل المذكورُ هاهنا قولُه: ﴿صَدَقَةٗ﴾، ومعلومٌ أنَّه ليس المرادُ منه التَّنكيرَ حتى يكفِيَ أخْذُ أيِّ جزءٍ كان، وإن كان في غايةِ القِلَّةِ، مثل الحبَّةِ الواحدة من الحِنطةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٤).

أو الجزءِ الحَقيرِ مِن الذَّهَب، فوجبَ أن يكونَ المرادُ منه صدَقةً مَعلومةَ الصِّفةِ والكيفيَّة والكمِّيَّة عندَهم، حتى يكونَ قَولُه: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ أمرًا بأخذِ تلك الصَّدَقةِ المعلومةِ، فحينئذٍ يزولُ الإجمالُ، ومعلومٌ أنَّ تلك الصَّدَقةَ ليست إلَّا الصَّدَقاتِ التي وصَفَها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبيَّنَ كَيفيَّتَها، فكان قَولُه تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ أمرًا بأن يأخُذَ تلك الأشياءَ المخصوصةَ والأعيانَ المخصوصةَ، وظاهِرُ الآيةِ للوُجوبِ[١].

٤- ظاهِرُ عُمومِ قَولِ الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ يوجِبُ الزكاةَ في مالِ المَديونِ، وفي مالِ الضَّمانِ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الإمامَ هو الذي يتولَّى أخذَ الصَّدَقاتِ وينظُرُ فيها[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ﴾ إنَّما حسُنَ جعْلُ الصَّدَقةِ مُطهِّرةً؛ لِما جاء أنَّ الصَّدَقةَ أوساخُ النَّاسِ، فإذا أُخِذَت الصَّدَقةُ فقد اندَفَعَت تلك الأوساخُ، فكان اندفاعُها جاريًا مَجرى التَّطهيرِ، والله أعلم[٤].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيه استحبابُ الدُّعاءِ مِن الإمامِ أو نائبِه لِمَن أدَّى زكاتَه بالبَرَكةِ، وأنَّ ذلك ينبغي أن يكونَ جهرًا، بحيث يسمَعُه المتصَدِّقُ فيسكُنُ إليه[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ﴾ دليلٌ على أنَّ عمَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٤- ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٠).

الحسَناتِ يُطَهِّرُ النفسَ ويزكِّيها من الذُّنوبِ السَّالفةِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ دليلٌ على أنَّ الصَّدَقةَ تُوجبُ الطَّهارةَ من الذُّنوبِ، وتُوجِبُ الزكاةَ، التي هي العمَلُ الصالحُ[٢].

١٠- التَّطهيرُ من الذَّنبِ يكونُ إمَّا بألَّا يفعلَه العبدُ، وإمَّا بأنْ يتوبَ منه، كما في قَولِه تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٣].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ في التَّعبيرِ بأخذِ اللهِ تعالى بعدَ قَولِه للنبيِّ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ تشريفٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ بِكونِه تعالى هو الذي يأخُذُ ما أمَرَه بأخْذِه[٤]، كما أنَّ في إسنادِ الأخذِ إليه سُبحانه بعد أمْرِه لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأخْذِها، تشريفًا عظيمًا لهذه الطَّاعةِ، ولِمَن فعَلَها[٥].

١٢- قال الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، في قولِه: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ إشارةٌ إلى مقامِ التَّخليةِ عن السَّيِّئاتِ، وقولُه: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ إشارةٌ إلى مقامِ التَّحليةِ بالفضائِلِ والحَسَناتِ، ولا جرَمَ أنَّ التَّخليةَ مُقَدَّمةٌ على التَّحليةِ[٦].

١٣- دلَّ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ أنَّ المُؤمِنَ ينتَفِعُ بما ليس مِن سَعْيِه -كما قد ثبَتَ بالنُّصوصِ المُتواتِرةِ وإجماعِ سَلَفِ الأمَّةِ- كدُعاءِ المُصَلِّينَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٣٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٨٧).
(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

للمَيِّتِ، ولِمَن زاروا قبرَه مِن المُؤمِنينَ[١].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ نزَّلَ جميعَهم منزلةَ مَن لا يعلَمُ قَبولَ التَّوبةِ؛ لأنَّ حالَهم حالُ مَن لا يعلَمُ ذلك، سواءٌ في ذلك مَن يعلَمُ قَبولَها، ومن لا يعلَمُ حَقيقةً، وكان الكلامُ أيضًا مَسوقًا للتَّحضيضِ[٢].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ تعليلٌ للأَمرِ بالصَّلاةِ علَيهِم بأنَّ دُعاءَه سكَنٌ لهم، أي: سبَبُ سكَنٍ لهم، أي: خيرٍ[٣]، مع ما فيه مِن التَّأكيدِ بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجُملةِ.

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن التَّعليلِ بقولِه: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾؛ لأنَّه يُثيرُ سؤالَ مَن يَسأَلُ عَن مُوجِبِ اضطِرابِ نُفوسِهم بعدَ أن تابوا، فيَكونُ الاستِفْهامُ تقريرًا مَشوبًا بتَعْجيبٍ مِن تَردُّدِهم في قَبولِ توبتِهم، والمقصودُ منه التَّذكيرُ بأمرٍ معلومٍ؛ لأنَّهم جرَوْا على حالِ نِسْيانِه، ويَكونُ ضميرُ ﴿يَعْلَمُوٓاْ﴾ عائدًا

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٣).

إلى الَّذين اعترَفوا بذُنوبِهم[١].

- قولُه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾، ﴿هُوَ﴾ للتَّخصيصِ والتَّأكيدِ أنَّ اللهَ تعالى مِن شأنِه قَبولُ توبةِ التَّائبين، ومعنى التَّخصيصِ في ﴿هُوَ﴾ أنَّ ذلك ليس إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنَّما اللهُ سُبحانَه هو الَّذي يَقبَلُ التَّوبةَ ويَرُدُّها، فاقصِدوه بها، ووَجِّهوها إليه[٢].

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هذه الجملةُ الاسميَّةُ المؤكَّدةُ بـ (أنَّ) وبضميرِ الفَصلِ (هو)، الدَّالَّة على الحصرِ، وما فيها من صيغةِ المبالغةِ بمعنى الكثرةِ مِن التَّوبةِ، ومُبالغةِ الصِّفةِ الرَّاسخة من الرَّحمةِ؛ تفيدُ أعظَمَ البُشرى للتَّائِبينَ، وأبلغَ التَّرغيبِ في التَّوبة للمُذنِبينَ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧).

الآيتان (١٠٥-١٠٦)

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٠٦ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُرۡجَوۡنَ﴾: أي: مُؤَخَّرونَ، وأصلُ (رجأ): يدلُّ على التَّأخيرِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول اللهُ تعالى لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قلْ -يا محمدُ-: اعمَلُوا؛ فإنَّ اللهَ سَيَرى أعمالَكم كُلَّها، فيُجازِيكم عليها، ويرى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمِنونَ ما يُطلِعُهم اللهُ عليه منها، فيَشهَدونَ عليكم بالخَيرِ أو الشَّرِّ، وسَتُرجَعونَ يومَ القيامةِ إلى الله الذي يعلَمُ الغَيبَ والشَّهادةَ، فيُخبِرُكم بما كُنتم تَعملونَ.

ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ مِن المتخَلِّفينَ عن غزوةِ تَبوكَ قَومًا آخرينَ مُؤَخَّرٌ حُكمُهم إلى أن يقضِيَ اللهُ تعالى فيهم بما شاء؛ إمَّا أن يُعَذِّبَهم أو أنْ يتوبَ عليهم، والله عليمٌ حَكيمٌ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ ﴾ الذي هو في قُوَّةِ إخبارِهم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٥).

بأنَّ اللهَ يقبَلُ التَّوبةَ، وكانت التَّوبةُ تَرفَعُ المؤاخذةَ بما مضى؛ أُمِروا بالعمَلِ عَقِبَ الإعلامِ بِقَبولِ تَوبتِهم؛ لأنَّهم لَمَّا قُبِلَت توبتُهم، كان حقًّا عليهم أن يَدُلُّوا على صِدقِ تَوبتِهم، وفَرطِ رَغبتِهم في الارتقاءِ إلى مراتِبِ الكمالِ؛ حتى يَلحَقوا بالذينَ سَبقوهم، وذلك بالزيادةِ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ؛ لجَبرِ ما فات من الأوقاتِ التي كانت حقيقةً بأن تُعمَرَ بالحَسَناتِ، فعُمِرَت بالسَّيِّئاتِ، فقال تعالى[1]:

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾.

أي: وقُل- يا مُحمَّدُ-: اعمَلوا[2]؛ فسيَرَى اللهُ أعمالَكم كُلَّها؛ ظاهِرَها وخَفِيَّها، فيُجازيكم عليها، ويرى رسولُ اللهِ والمؤمِنونَ ما يُطلِعُهم اللهُ عليه منها، فيَشهَدونَ عليكم بالخَيرِ أو الشَّرِّ[3].

عن أنسِ بنِ مالك رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((مَرُّوا بجِنازةٍ، فأثنَوْا عليها خيرًا، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وَجَبَت، ثمَّ مَرُّوا بأخرى، فأثنَوا عليها شَرًّا، فقال: وَجَبَت، فقال عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه: ما وجَبَت؟! قال: هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥).

(٢) اختلف المفسِّرون فيمنْ توجَّه إليه الأمرُ هاهنا، فقيل: هو للذينَ اعتَذَروا من المتخَلِّفينَ وتابوا. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وأبو حيانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠١).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٩٦).
وقيل: هو للذينَ اعتَذَروا ولم يتوبوا. وممَّن اختار ذلك: ابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٠).
وقيل: الخِطابُ عامٌّ. وممَّن اختار ذلك: الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٢).
قال ابنُ عاشور: (حُذِفَ مفعولُ (اعملوا)؛ لأجلِ التَّعويلِ على القرينةِ، ولأنَّ الأمرَ مِن اللهِ لا يكونُ بعَملٍ غيرِ صالحٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥).

أثنَيتُم عليه خيرًا، فوجَبَت له الجنَّةُ، وهذا أثنَيتُم عليه شرًّا، فوجبَتْ له النَّارُ؛ أنتم شُهداءُ اللهِ في الأرضِ))[(١)].

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

أي: وقُلْ- يا محمَّدُ-: وسَتُرجَعون يوم القيامةِ إلى الله الذي يعلَمُ ما غاب وما يُشاهَدُ، فيَعلمُ سرائِرَكم وعلانِيتَكم، لا يخفَى عليه شيءٌ من أمورِكم[(٢)].

كما قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: فيُخبِرُكم اللهُ يومَئذٍ بما كُنتم تعملونَه في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ، ويُجازيكم عليه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

وقال سُبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا فريقٌ آخَرُ عُطِفَ خَبَرُه على خبَرِ الفِرَقِ الآخَرِينَ، والمرادُ بهؤلاءِ مَن بَقِيَ من المخَلَّفينَ لم يتُبِ اللهُ عليه، وكان أمْرُهم موقوفًا إلى أن يقضِيَ اللهُ بما يشاءُ (١).

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾.

أي: ومِنَ المتخَلِّفينَ عن غزوةِ تَبوكَ قومٌ آخَرونَ مُؤخَّرٌ حُكمُهم إلى أن يقضِيَ اللهُ فيهم بما شاء؛ إمَّا أن يُعَذِّبَهم بذُنوبِهم، وإمَّا أن يوفِّقَهم للتَّوبةِ فيتوبَ عليهم (٢).

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٨، ٦٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦، ٢٨).
قال الرازي: (اعلَمْ أنَّه تعالى قسَّم المتخلِّفينَ عن الجهادِ ثلاثةَ أقسامٍ: القسم الأول: المُنافِقونَ الذين مَرَدوا على النِّفاق. القسم الثاني: التَّائبون وهم المُرادون بقوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ وبيَّن تعالى أنَّه قَبِلَ توبَتَهم. والقسم الثالث: الذين بَقُوا موقوفينَ وهم المذكورونَ في هذه الآيةِ، والفَرْقُ بين القِسمِ الثاني وبين هذا الثَّالث، أنَّ أولئك سارَعوا إلى التوبةِ، وهؤلاء لم يسارِعوا إليها). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٤).
وقال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ وعامَّةُ المفسِّرينَ: نزلت هذه الآيةُ في ثلاثةِ نَفَر: كعبِ بنِ مالكٍ من بني سَلِمةَ، وهلالِ ابن أميَّة الواقفيِّ، ومُرارةَ بنِ الرَّبيعِ الزَّبيديِّ، كانوا تخلَّفوا عن غزوةِ تَبوكَ وكانوا مياسيرَ، ثم لم يتَّسِعْ لهم العذرُ كما اتَّسَع للآخرينَ الذين ذُكِروا قبل هذا، ولم يبالِغوا في التنصُّلِ والاعتذارِ كما فعل الآخَرون، ولم يُوثِقوا أنفُسَهم بالسَّواري، فوقف رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمْرَهم، ونهى النَّاسَ عن مكالَمتِهم ومُخالَطتِهم، حتى نزلَ قَولُه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ [التوبة: ١١٨] الآيات، بعد خمسينَ ليلةً). ((البسيط)) (١١/ ٤٢).
ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٠).

أي: واللهُ عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، ومن ذلك عِلمُه بأحوالِ هذا الفَريقِ ونيَّاتِه، وبما يستحِقُّونَه مِن عُقوبةٍ أو عفْوٍ، حكيمٌ في حُكمِه فيهم، وفي جميعِ أقوالِه وأفعالِه، فيَضَع كلَّ شَيءٍ في مَوضعِه اللَّائقِ به[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ ترغيبٌ عظيمٌ للمُطيعينَ، وترهيبٌ عَظيمٌ للمُذنِبينَ، فكأنَّه تعالى قال: اجتَهِدوا في المستقبَلِ؛ فإنَّ لِعَمَلِكم في الدُّنيا حُكمًا، وفي الآخرةِ حُكمًا؛ أمَّا حُكمُه في الدُّنيا فهو أنَّه يراه اللهُ، ويراه الرَّسولُ، ويراه المُسلِمونَ، فإنْ كان طاعةً حصَلَ منه الثَّناءُ العَظيمُ، والثَّوابُ العظيمُ في الدُّنيا والآخرةِ، وإن كان معصيةً حصَلَ منه الذَّمُّ العظيمُ في الدُّنيا، والعقابُ الشَّديدُ في الآخرة، فثبَت أنَّ هذه اللَّفظةَ الواحدةَ جامعةٌ لِجَميعِ ما يَحتاجُ المرءُ إليه في دينِه ودُنياه، ومَعاشِه ومَعادِه[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ فيه تحذيرٌ مِن التَّقصيرِ، أو مِن ارتكابِ المعاصي؛ لأنَّ كَونَ عَمَلِهم بمرأًى من اللهِ، ممَّا يبعَثُ على جَعْلِه يُرضِي اللهَ تعالى[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الرؤيةُ المذكورةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ المقصودُ منها هنا: لازِمُهَا، وهو إحصاءُ ذلك العمَلِ، والجزاءُ عليه بالثَّوابِ والعِقابِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ١٦٨).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ يدلُّ على كونِه تعالى رائيًا للمرئيَّاتِ؛ لأنَّ الرُّؤيةَ المُعدَّاةَ إلى مفعولٍ واحدٍ، هي الإبصارُ، والمُعدَّاةَ إلى مفعولينِ هي العِلمُ[1]، فالرؤيةُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجَلَّ، وليس رؤيةُ اللهِ تعالى أعمالَ بني آدَمَ كرؤيةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنـيَن، وإن كان اسمُ الرُّؤيةِ يقَعُ على الجميعِ[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إن قيل: ما الفائدةُ في ذِكرِ الرَّسولِ والمؤمنينَ بعد ذِكرِ اللهِ في أنَّهم يَرَونَ أعمالَ هؤلاء التَّائبينَ؟ قيل: فيه وجوهٌ:

الوجه الأول: أنَّ أجدَرَ ما يدعو المرءَ إلى العمَلِ الصَّالحِ ما يحصُلُ له من المَدحِ والتَّعظيمِ والعِزِّ الذي يلحَقُه عند ذلك، فإذا عَلِمَ أنَّه إذا فعَلَ ذلك الفِعلَ عَظَّمَه الرَّسولُ والمؤمنونَ، عَظُمَ فَرَحُه بذلك، وقَوِيَت رَغبتُه فيه، وممَّا يُنبِّه على هذه الدقيقةِ أنَّه ذكَرَ رُؤيةَ الله تعالى أوَّلًا، ثم ذكَرَ عَقيبَها رؤيةَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمُؤمنين، فكأنَّه قيل: إن كنتَ من المُحقِّينَ المُحَقِّقينَ في عبوديَّةِ الحَقِّ، فاعمَلِ الأعمالَ الصَّالحةَ لله تعالى، وإن كنتَ من الضُّعَفاءِ المَشغولين بثناءِ الخَلْقِ، فاعمَلِ الأعمالَ الصَّالحةَ لِتَفوزَ بثَناءِ الخَلقِ، وهو الرَّسولُ والمؤمنونَ.

الوجه الثاني: أنَّ المؤمنينَ شُهَداءُ الله يومَ القيامةِ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: ١٤٣] والرَّسولُ شهيدُ الأمَّةِ، كما قال تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٤١] فثَبَت أنَّ الرَّسولَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) لعلوي السقاف (ص: ١٨٤، ١٨٥).

والمُؤمنينَ شُهداءُ اللهِ يومَ القيامةِ، والشَّهادةُ لا تصِحُّ إلَّا بعد الرُّؤيةِ، فذكَرَ اللهُ أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمؤمنينَ يَرَونَ أعمالَهم، والمقصودُ التَّنبيهُ على أنَّهم يَشهَدونَ يومَ القيامةِ عند حضورِ الأوَّلِينَ والآخِرينَ، بأنَّهم أهلُ الصِّدقِ والسَّدادِ، والعَفافِ والرَّشادِ[١].

الوجه الثالث: أنَّ عَطفَ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ على اسمِ الجلالة؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هو المبلِّغُ عن الله، وهو الذي يتولَّى مُعامَلَتَهم على حسَبِ أعمالِهم، وعَطْفَ ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّ الذين تابُوا قد رَجَعوا إلى جماعةِ الصَّحابةِ، فإنْ عَمِلوا مِثلَهم كانوا بمحَلِّ الكرامةِ منهم، وإلَّا كانوا ملحوظينَ مِنهم بعَينِ الغَضَبِ والإنكارِ، وذلك ممَّا يَحذَرُه كلُّ أحدٍ هو مِن قَومٍ يَرمُقونَه شَزْرًا، ويَرونَه قد جاء نُكْرًا[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يَهدينا إلى أنَّ مَرضاةَ جماعةِ المُؤمِنينَ القائِمينَ بحُقوقِ الإيمانِ، المقرَّرةِ صِفاتُهم في القرآنِ، تلي مرضاةَ اللهِ ورسولِه، وأنَّهم لا يَجتَمِعونَ على ضلالةٍ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن قيل: إنَّ كلمةَ (إمَّا) للشَّكِّ، واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عنه؟ فجوابُه: أنَّ المرادَ منه: لِيَكنْ أمرُهم على الخوفِ والرَّجاءِ، فجعَلَ أناسٌ يقولون: هَلَكوا إذْ لم يُنْزِلِ اللهُ تعالى لهم عُذرًا. وآخَرونَ يَقولونَ: عسى اللهُ أن يغفِرَ لهم[٤]. فحِكمةُ إبهامِ أمْرِ هؤلاءِ عليهم: إثارةُ الهَمِّ والخَوفِ في قلوبِهم؛ لتصِحَّ تَوبَتُهم، وحكمةُ إبهامِه على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ: تَرْكُهم مُكالَمتَهم ومُخالَطتَهم؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥-٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٥).

تربيةً للفَريقينِ على ما يجِبُ في أمثالِهم مِن الذينَ يُؤثِرونَ الرَّاحةَ، ونِعمةَ العَيشِ على طاعةِ اللهِ ورَسولِه، والجهادِ في سبيلِه[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ قَدَّمَ قَولَه: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ تخويفًا لهم، حملًا على المبادرةِ إلى التَّوبةِ، وتَصفيَتِها والإخلاصِ فيها، وحَثًّا على أن يكونَ الخَوفُ- ما دام الإنسانُ صَحيحًا- أغلَبَ، وثَنَّى بِقَولِه: ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إن تابُوا؛ ترجيةً لهم وترقيقًا لِقُلوبِهم بالتَّذكيرِ بِمَنزِلِ الأُنسِ الذي أخرَجُوا أنفُسَهم منه، ومَنَعُوها مِن حُلولِه[٢].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ ﴾ صيغةُ أمرٍ، ضمَّنَها الوعيدَ[٣].

- قولُه: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ خبرٌ فيه وعيدٌ لهم، وتحذيرٌ مِن عاقبةِ الإصرارِ، والذُّهولِ عن التَّوبةِ[٤]، أو هو تأكيدٌ للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والسِّينُ للتَّأكيدِ[٥]، فتَفْريعُ ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ زيادةٌ في التَّحضيضِ[٦].

- قولُه: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فيه وضعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٤-١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٨).
وهذا على القولِ بأنَّ هذا الخطابَ لغيرِ التائبينَ.
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥).

المضمَرِ- حيثُ لم يَقُلْ: (وستُرَدُّون إليه)- لتَهويلِ الأمرِ، وتَرْبيَةِ المهابةِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ تذييلٌ مناسبٌ لإبهامِ أمرِهم على النَّاسِ، أي: واللهُ عَليمٌ بما يَليقُ بهِم مِن الأمرَينِ، مُحكِمٌ تَقديرَه حينَ تتَعلَّقُ به إرادتُه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨).

الآيات (١٠٧-١١٠)

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَواْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ضِرَارًا﴾: أي: مُضارَّةً، وأصلُ (ضرر): خِلافُ النَّفعِ[١].

﴿وَإِرۡصَادًا﴾: أي: ترقُّبًا بالعَداوةِ. وَيُقَال أرصدتُ له الشَّيْء، إذا جعلتَه له عدَّةً. والرَّصَدُ: الاستعداد للترقُّبِ، وأصلُ (رصد): يدلُّ على التهيُّؤِ لرِقْبَةِ شَيءٍ على مَسلَكِه[٢].

﴿أَسَّسَ﴾: أي: ابتُدِئ أساسُه، وأصلُ (أس): يدلُّ على الأصلِ والشَّيءِ الوطيدِ الثَّابتِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥).

﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾: الشَّفَا: الحرفُ والحَدُّ، ويُضربُ به المثلُ في القربِ مِن الهلاكِ، والجُرُفُ والجُرْفُ: المكان الَّذى يأْكله الماءُ فيجْرُفُه أى: يذهبُ به، وما ينجَرِفُ بالسُّيولِ مِن الأودِيَةِ، وأصلُه مِن الجرفِ والاجْتِرافِ، وهو اقتلاعُ الشَّيءِ مِن أصلِه، والهار: الساقِط، يقال: هارَ البناءُ، وتَهَوَّرَ: إذا سقط، وانْهارَ[١].

﴿رِيبَةً﴾: أي: شكًّا ونِفاقًا، وأصلُ (ريب): يدلُّ على شَكٍّ[٢].

﴿تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: أي: تتصَدَّعَ قُلوبُهم فيَموتوا، وأصلُ (قطع): يدلُّ على صَرمٍ وإبانةِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن فريقٍ آخر من المُنافِقينَ بَنَوا مسجِدًا في المدينةِ مُضارَّةً للمُؤمنِينَ، ولِمَسجِدِهم الذي يجتَمِعونَ فيه، وكُفرًا باللهِ عَزَّ وجَلَّ، وتَفريقًا بين جماعةِ المُسلِمينَ، وإعدادًا وانتظارًا لِمَجيءِ مَن حاربَ اللهَ ورسولَه مِن قَبلِ بناءِ المَسجِدِ، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّهم مع هذه المقاصِدِ الخَبيثةِ سَيَحلِفونَ لكم- أيُّها المُؤمِنونَ- أنَّهم ما أرادوا مِن بِنائِه إلَّا الحُسنى، واللهُ يشهَدُ إنَّهم لكاذِبونَ.

ثم نهى اللهُ نَبِيَّه أن يُصلِّيَ في مسجِدِ المُنافِقينَ في أيِّ وقتٍ مِن الأوقاتِ، وبيَّنَ أنَّ المسجِدَ الذي أُسِّسَ على تقوى اللهِ مِن أوَّلِ يَومٍ بُنِيَ فيه- أَولى بأنْ يُصَلِّيَ فيه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ فيه رِجالًا يحبُّونَ أن يتطَهَّروا من

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٧).

النَّجاساتِ والذُّنوبِ، واللهُ يحِبُّ المُتَطَهِّرينَ.

ثمَّ بيَّن تعالى أنه لا يستوي مَن أسَّسَ بُنيانَه على تقوى مِن الله تعالى، ومَن أسَّسَ بُنيانَه على طَرَفِ حُفرةٍ يُوشِكُ أن تنهارَ بما بُنِيَ عليها، فانهارَت الحُفرةُ بالبُنيانِ والباني في نارِ جَهنَّمَ، واللهُ لا يهدي القَومَ الظَّالِمينَ.

وأخبَرَ تعالى أنَّه لا يزالُ مَسجِدُ الضِّرارِ الذي بناه المُنافِقونَ يُورِثُهم شَكًّا ونِفاقًا في قُلوبِهم إلى أن تتصَدَّعَ قُلوبُهم فيموتوا على ذلك، واللهُ عليمٌ حَكيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ طرائِقَ ذَميمةً لأصنافِ المُنافِقينَ أقوالًا وأفعالًا؛ ذكَرَ أنَّ منهم من بالغَ في الشَّرِّ حتى ابتَنى مَجمعًا للمُنافِقينَ، يُدبِّرونَ فيه ما شاؤُوا من الشَّرِّ، وسَمَّوه مَسجِدًا[1]، فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا﴾

أي: ومِنهم- أي المُنافِقينَ- الذين بَنَوا مَسجِدًا في المدينةِ؛ مُضارَّةً للمُؤمِنينَ ولِمَسجِدِهم الذي يجتَمِعونَ فيه، وكُفرًا باللهِ عزَّ وجلَّ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٢، ٦٧٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٣).

﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وبَنى المُنافِقونَ مَسجِدَهم؛ لأجلِ التَّفريقِ بين جماعةِ المُؤمِنينَ، فيصلِّي بعضُهم في مسجِد، وبَعضُهم في مسجِد آخر، فيتفرَّقوا ويختَلِفوا بسبب ذلك[1].

﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

أي: وبَنَوه كذلك إعدادًا وانتظارًا وترقُّبًا لمَجيءِ مَن حاربَ اللهَ ورسولَه مِن قَبلِ بِناءِ هذا المسجِدِ[2].

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: وسيَحلِفُ لكم المُنافقونَ الذين بَنَوا مسجِدَ الضِّرارِ أنَّهم ما أرادوا ببِنائِه إلَّا الخَيرَ للمُسلمينَ والرِّفقَ بهم؛ إحسانًا إلى الضُّعَفاءِ والعاجِزينَ منهم، بجَعْلِهم

قال الواحدي: (﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ معطوفٌ على ما قَبْلَه مِن قَولِه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ [التوبة: ١٠١] ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ﴾ [التوبة: ١٠٢] ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ [التوبة: ١٠٦] أي: ومِنهم آخَرونُ). يُنظَر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).

قال ابن عطية: (قَولُه ﴿بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يريدُ: بين الجماعةِ التي كانت تصلِّي في مسجِدِ قُباءٍ؛ فإنَّ مَن جاوَزَ مَسجِدَهم كانوا يَصرِفونَه إليه، وذلك داعيةٌ إلى صَرْفِه عن الإيمانِ، وقيل: أراد بقَولِه ﴿بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جماعةَ مسجِدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا بحسَبِ الخِلافِ في المسجِدِ المؤسَّسِ على التَّقوى). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٨، ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠).

قال محمد رشيد رضا: (اتَّفَقَ المفَسِّرونَ على أنَّ الذي أغراهم ببناءِ هذا المسجِدِ لهذا الغَرَضِ رجلٌ مِن الخزرَجِ، يُعرَفُ بأبي عامرٍ الرَّاهب، وَعَدَهم بأنْ سيأتيهم بجيشٍ مِن الرُّومِ لقتالِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه). ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٢).

مسجِدَ الضِّرارِ أقرَبَ إليهم مِن غَيرِه[١].

﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

أي: واللهُ يَشهَدُ إنَّ المُنافِقينَ لكاذِبونَ في حَلِفِهم ذلك، وإنَّما بَنَوه ضِرارًا، وكُفرًا باللهِ، وتفريقًا بين المُؤمِنينَ، وإرصادًا لِمَن حارَبَ اللهَ ورسولَه[٢].

﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾.

﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾.

أي: لا تُصَلِّ- يا مُحمَّدُ- في مسجِدِ المُنافِقينَ ما عِشْتَ أبدًا[٣].

﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾.

أي: لَمسجِدٌ أُسِّسَ بنيانُه على تقوى اللهِ مِن أوَّلِ يَوم ابتدَأَ بانُوه في تأسيسِه- وهو مسجِدُ قُباءٍ، ومِثلُه بل أولَى منه في الحُكمِ المَسجِدُ النَّبويُّ- أَولى بأن تقومَ فيه- يا مُحمَّدُ- للصَّلاةِ والعبادةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).
قال ابن كثير: (قولُه: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾ نهيٌ من الله لرَسولِه، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، والأمَّةُ تبَعٌ له في ذلك، عن أن يقومَ فيه، أي: يصلِّيَ فيه أبدًا). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨١، ٦٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٩، ٢٦١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٦٨، ٤٦٩) و(٢٧/ ٤٠٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢ - ٢١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢)،

عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه، قال: ((دَخَلْتُ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في بيتِ بعضِ نسائِه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَيُّ المسجدَيْنِ الَّذي

((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢).

واختلف المفسِّرونَ في تحديدِ المرادِ بالمسجِدِ الذي أُسِّسَ على التَّقوى، فقيل: هو مسجِدُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وممَّن اختارَ ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٨١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ عمرُ بنُ الخطَّاب، وابنُ عمرَ، وزيدُ بنُ ثابتٍ، وأبو سعيدٍ الخدريُّ، وسعيدُ بنُ المسيَّبِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٦).

وقيل: هو مسجِدُ قُباءٍ، وممن اختار ذلك: القرطبيُّ، وابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والشوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٦٨) (٢٧/ ٤٠٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ عبَّاسٍ، وعطيةُ العوفيُّ، وابنُ بريدةَ، وابنُ زيدٍ، وعروةُ بنُ الزُّبيرِ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ، وعروةُ، وأبو سلمةَ بنُ عبدِ الرحمنِ، والضحَّاكُ، ومقاتلٌ، والشعبيُّ، والحسنُ البصريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٤).

قال ابنُ حجرٍ: (الجمهورُ على أَنَّ المرادَ به مسجدُ قُباءَ، هذا هو ظاهرُ الآيةِ... والحقُّ أنَّ كُلًّا منهما أُسِّس على التَّقوَى، وقولهُ تعالَى في بقيَّةِ الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ يُؤَيِّدُ كونَ المرادِ مسجدَ قُباءَ). ((فتح الباري)) (٧/ ٢٤٥).

قال ابن كثير: (ورد في الحديثِ الصَّحيح: أنَّ مَسجِدَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي هو في جَوفِ المدينةِ، هو المسجِدُ الذي أسِّسَ على التقوَى. وهذا صحيحٌ. ولا منافاةَ بين الآية وبينَ هذا؛ لأنَّه إذا كان مسجِدُ قُباءٍ قد أُسِّسَ على التَّقوى من أوَّلِ يَومٍ، فمسجِدُ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بطريقِ الأَولى والأحرى). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٤).

وذهب محمد رشيد رضا إلى أنَّ لفظَ الآيةِ لا يمنَعُ من إرادةِ كُلٍّ مِن المسجِدَينِ. يُنظر: ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٤).

ويرى ابنُ تيميَّةَ أنَّ الآيةَ وإن كانت قد نزلت بسببِ مَسجِدِ قُباءٍ، إلَّا أنَّ الحُكمَ يتَناوَلُه ويتناوَلُ ما هو أحقُّ منه بذلك، وهو مسجِدُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويتناوَلُ كُلَّ مَسجِدٍ أسِّسَ على التقوى، بخلافِ مَساجِدِ الضِّرارِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٦٩)، ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ٧٤)، وممَّن اختار ذلك: ابنُ عاشور في ((تفسيره)) (١١/ ٣٢).

أُسِّسَ على التَّقوَى؟ قال: فأخَذَ كَفًّا مِن حَصْباءَ، فضَرَب به الأرضَ، ثُمَّ قال: هو مَسجِدُكم هذا. لِمسجدِ المدينةِ))[١].

عن أبي سعيد أيضًا قال: ((امترَى رجلٌ مِن بني خدرةَ، ورجلٌ مِن بني عمرِو بنِ عوفٍ في المسجدِ الذي أُسِّس على التقوَى، فقال الخدريُّ: هو مسجدُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وقال الآخرُ: هو مسجدُ قباء، فأتيا رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في ذلك، فقال هو هذا -يعني مسجدَه- وفي ذلك خيرٌ كثيرٌ))[٢].

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾.

أي: في مسجدِ قُباءٍ رِجالٌ من أصحابِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم يُحبُّونَ أن يتطهَّروا مِن النَّجاساتِ ومِنَ الذُّنوبِ[٣].

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾.

أي: واللهُ يُحبُّ المتطَهِّرينَ المُبالِغينَ في الطَّهارةِ مِن النَّجاساتِ، ومِنَ الذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٩٨).
والمَزِيَّة الَّتي اقتضَتْ تَعْيِينَ مسجدِه دُونَ مسجدِ قُباءَ لِما اتُّفِقَ مِن طولِ إقامَتِه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بمسجدِ المدينةِ، بخلافِ مسجدِ قُباء، فما أقامَ به إلَّا أيَّامًا قَلائِل، وأيضًا لرفعِ تَوَهُّمِ أنَّ ذلك خاصٌّ بمسجدِ قُبَاء. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣) واللفظ له، والنسائي (٦٩٧)، وأحمد (١١١٧٨).
قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ، وصحَّحه الطبري في ((التفسير)) (٧/ ١/ ٣٩)، وقال ابنُ عبد البر في ((الاستذكار)) (٣١٩): ثابتٌ، وصحَّحه ابنُ دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٢٣)، والألباني في ((صحيح النسائي)) (٦٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤، ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨٨، ٦٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا بيانٌ مُستأنَفٌ للفَرقِ بين أهلِ المَسجِدَينِ في مقاصِدِهما منهما: أهلِ مسجِدِ الضِّرارِ الذينَ زادوا به رِجسًا إلى رِجسِهم، وأهلِ مَسجِدِ التَّقوى، وهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأنصارُه الذين يحبُّونَ أكمَلَ الطَّهارةِ لِظاهِرِهم وباطِنِهم، فاستفادوا بذلك محبَّةَ الله لهم[(١)].

وأيضا هي تفريعٌ على قَولِه تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾؛ لزيادةِ بَيانِ أحقيَّةِ المسجِدِ المؤسَّسِ على التَّقوى بالصَّلاةِ فيه، وبيانِ أنَّ تَفضيلَ ذلك المسجِدِ في أنَّه حقيقٌ بالصَّلاةِ فيه تفضيلٌ مَسلوبُ المُشاركةِ؛ لأنَّ مَسجِدَ الضِّرارِ ليس حقيقًا بالصَّلاةِ فيه بعدَ النَّهيِ؛ لأنَّ صَلاةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لو وقعَتْ لأكسَبَت مقصِدَ واضِعيه رَواجًا بين الأمَّةِ، وهو غَرَضُهم: التَّفريقُ بين جماعاتِ المُسلِمين[(٢)].

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾.

أي: أيُّ البانِينَ خَيرٌ؛ مَن أسَّسَ بناءَ مَسجِدٍ مُتَّقيًا لله، مُخلِصًا له، طالبًا رِضاه، أم مَن أسَّسَ بناءَ مَسجِدٍ بنفاقٍ وكُفرٍ وضلالٍ، فهو كمَن يبني بناءً على طَرَفِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٣).

حُفرةٍ يُوشِكُ أن تنهارَ بما بُنِيَ عليها[١]؟!

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، قال: ((صلاةٌ في مسجِدي هذا أفضَلُ مِن ألفِ صَلاةٍ فيما سِواه، إلَّا المسجِدَ الحَرامَ))[٢].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((لا تشُدُّوا الرِّحالَ إلَّا إلى ثلاثةِ مَساجِدَ: مسجدي هذا، والمسجِدِ الحَرامِ، والمسجِدِ الأقصى))[٣].

وعن سَهلِ بنِ حُنَيفٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((من تطَهَّرَ في بيتِه، ثمَّ أتى مسجِدَ قُباءٍ، فصلَّى فيه صلاةً؛ كان له كأجرِ عُمرةٍ))[٤].

﴿فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

أي: فانهار الجُرُفُ بالبُنيانِ والباني جميعًا في نارِ جهنَّمَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٥، ٦٩٦)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).
قال ابن عطية: (وأمَّا البُنيانُ الذي أُسِّسَ على شفا جُرُفٍ هارٍ، فهو مسجِدُ الضِّرارِ بإجماعٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٤).

(٢) رواه مسلم (١٣٩٥).

(٣) رواه البخاري (١٩٩٥)، ومسلم (٨٢٧) واللفظ له.

(٤) أخرجه النسائي (٦٩٩)، وابن ماجه (١٤١٢)، وأحمد (١٥٩٨١).
صحَّحه ابنُ تيميةَ في ((الإخنائية)) (١٤٣)، والألباني في ((إصلاح المساجد)) (١٩٨)، وصحَّح إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٣٤٧)، وقال ابنُ باز، كما في ((الفوائد العلمية من الدروس البازية)) (٥/ ١٢٦): جيدٌ حسنُ الإسناد.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٠)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٤٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٧، ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٥).

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ هؤلاءِ الذين بَنَوا مسجِدَ الضِّرارِ، ولا يُوفِّقُ غَيرَهم ممَّن يظلِمُ نفسَه بالكُفرِ والنِّفاقِ، لا يوفِّقُهم لِما فيه مصالحُ دِينِهم ودُنياهم وآخِرتِهم، ما داموا مُقيمينَ على ظُلمِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَواْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠﴾.

﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَواْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾.

أي: لا يزالُ مَسجِدُ الضِّرارِ الذي بناه المُنافِقونَ يُورِثُهم نِفاقًا في قلوبِهم، وشَكًّا في الإسلامِ(٢).

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡ﴾.

أي: حتَّى تتصَدَّعَ قُلوبُهم فيَموتوا على شَكِّهم ونِفاقِهم(٣).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٣، ١٠٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٦٠، ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٦).

أي: واللهُ عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بأحوالِ المُنافِقينَ، فيعلَمُ ما في قُلوبِهم، وما تصيرُ إليه أمورُهم في الدُّنيا والآخرةِ، حكيمٌ يضَعُ كلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائقِ به، ومِن ذلك حِكمَتُه في الحُكمِ على أولئك المُنافِقينَ ومُجازاتهم(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- المَعصيةُ تؤثِّرُ في البِقاعِ، وكذلك الطَّاعةُ تؤثِّرُ في الأماكِنِ؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ * لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ فقد أثَّرَت معصيةُ المُنافِقينَ في مسجِدِ الضِّرارِ، ونُهِيَ عن القيامِ فيه، وأثَّرَت الطَّاعةُ في مسجِدِ قُباء، حتى قال الله فيه: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾(٢).

٢- كلُّ حالةٍ يحصُلُ بها التَّفريقُ بين المُؤمِنينَ، فإنَّها من المعاصي التي يتعيَّنُ تَركُها وإزالتُها، كما أنَّ كُلَّ حالةٍ يحصُلُ بها جمعُ المُؤمِنينَ وائتِلافُهم، يتعيَّنُ اتِّباعُها والأمرُ بها والحثُّ عليها؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ * لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾ فعلَّلَ اللهُ اتِّخاذَهم لمسجِدِ الضِّرارِ بهذا المقصِدِ المُوجِبِ للنَّهيِ عنه، كما يوجِبُ ذلك الكُفرُ والمُحاربةُ للَّه ورَسولِه(٣).

٣- العَملُ -وإن كان فاضلًا- تُغيِّرُه النيَّةُ الفاسِدةُ، فينقلِبُ منهيًّا عنه؛ نستفيدُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ذلك من قولِ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ * لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾ فقَلَبَت نيَّةُ أصحابِ مَسجِدِ الضِّرارِ عمَلَهم إلى هذه الحالِ[١].ء

٤- مِن أعظَمِ خِصالِ النِّفاقِ العَمَليِّ: أن يعمَلَ الإنسانُ عمَلًا، ويُظهِرُ أنَّه قصَدَ به الخيرَ، وإنَّما عَمِلَه ليتوصَّلَ به إلى غرَضٍ له سيِّئٍ، فيتِمُّ له ذلك، ويتوصَّلُ بهذه الخديعةِ إلى غَرَضِه، ويفرَحُ بمَكرِه وخِداعِه، وحَمْدِ النَّاسِ له على ما أظهَرَه، وتوصَّلَ به إلى غرَضِه السيِّئِ الذي أبطَنَه، وهذا قد حكاه اللهُ في القرآنِ عن المنافقينَ، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ المقصِدَ الأكبَرَ والغرَضَ الأظهَرَ مِن وضْعِ الجماعةِ: تأليفُ القُلوبِ والكَلِمةِ على الطَّاعةِ، وعقدُ الذِّمامِ والحُرمةِ بفِعلِ الدِّيانةِ حتى يقَعَ الأُنسُ بالمُخالطةِ، وتصفوَ القُلوبُ مِن وَضَرِ الأحقادِ[٣].

٦- الطَّاعةُ لا تكونُ طاعةً إلَّا عند الرَّهبةِ والرَّغبةِ؛ نَستفيدُ ذلك مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ﴾ أي: للخَوفِ مِن عقابِ اللهِ، والرَّغبةِ في ثوابِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).
(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٨).

٧- العملُ المبنيُّ على الإخلاصِ والمُتابَعةِ، هو العمَلُ المؤسَّسُ على التَّقوى، الموصِلُ عامِلَه إلى جنَّاتِ النَّعيمِ، والعمَلُ المبنيُّ على سوءِ القَصدِ وعلى البِدَعِ والضَّلالِ، هو العمَلُ المؤسَّسُ على شَفا جُرُفٍ هارٍ، فانهار به في نارِ جهنَّمَ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾[1].

٨- قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ كُلَّ شَيء ابتُدِئَ بنيَّةِ تَقوى اللهِ تعالى والقَصدِ لِوَجهِه الكريمِ، فهو الذي يَبقى ويسعَدُ به صاحِبُه، ويصعَدُ إلى اللهِ ويُرفَعُ إليه[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ فيه أنَّ اتِّخاذَ المسجدِ الذي يُقصَدُ به الضِّرارُ لِمَسجِدٍ آخَرَ بِقُربِه- مُحَرَّمٌ، ويجِبُ هدمُ مَسجِدِ الضِّرارِ، الذي اطُّلِعَ على مقصودِ أصحابِه[3].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ فيه النَّهيُ عن الصَّلاةِ في أماكِنِ المَعصيةِ، والبعدُ عنها، وعن قُربِها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- كلُّ عمَلٍ فيه مُضارَّةٌ لِمُسلم، أو فيه معصيةٌ لله، أو فيه تفريقٌ بين المُؤمِنينَ، أو فيه مُعاونةٌ لِمَن عادى اللهَ ورَسولَه؛ فإنَّه مُحرَّمٌ مَمنوعٌ منه، وعَكسُه بِعَكسِه؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ * لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾[1].

٤- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ يَدخُلُ في معنى مسجدِ الضِّرارِ: مَن بنى أبنيَةً يُضاهي بها مساجدَ المُسلِمينَ لِغَيرِ العباداتِ المَشروعةِ؛ مِن المَشاهِدِ وغَيرِها، لا سيَّما إذا كان فيها مِن الضِّرارِ والكُفرِ والتَّفريقِ بين المُؤمِنينَ، والإرصادِ لأهلِ النِّفاقِ والبِدَعِ المُحادِّينَ للَّه ورَسولِه- ما يَقْوَى بها شَبَهُها[2].

٥- حرَقَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مسجِدَ الضِّرارِ، وأمَرَ بِهَدمِه، وهو مسجِدٌ يُصَلَّى فيه، ويُذكَرَ اسمُ الله فيه؛ لَمَّا كان بناؤُه ضِرارًا، وتفريقًا بين المُؤمِنينَ، ومأوًى للمُنافِقينَ، وكلُّ مكانٍ هذا شأنُه فواجِبٌ على الإمامِ تَعطيلُه؛ إمَّا بهَدمٍ وتَحريقٍ، وإمَّا بتَغييرِ صُورتِه، وإخراجِه عمَّا وُضِعَ له، وإذا كان هذا شأنَ مَسجِدِ الضِّرارِ، فمَشاهِدُ الشِّركِ- التي تدعو سَدَنتُها إلى اتِّخاذِ مَن فيها أندادًا مِن دُونِ اللهِ- أحقُّ بالهَدمِ وأوجَبُ، وكذلك مَحالُّ المعاصي والفُسوقِ، كالحاناتِ وبيوتِ الخمَّارينَ وأربابِ المُنكَراتِ[3].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ يتناوَلُ مَسجِدَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومسجِدَ قُباءٍ، ويتناوَلُ كُلَّ مَسجِدٍ أُسِّسَ على التَّقوى بخلافِ مَساجِدِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥١).
(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٤١).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥٠٠).

الضِّرارِ؛ ولهذا كان السَّلَفُ يكرهونَ الصَّلاةَ فيما يُشبِهُ ذلك، ويَرَونَ العَتيقَ أفضَلَ مِن الجَديدِ؛ لأنَّ العتيقَ أبعَدُ عن أن يكونَ بُنِيَ ضِرارًا من الجديدِ الذي يُخافُ ذلك فيه، وعتقُ المسجدِ ممَّا يُحمَدُ به؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ وقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ فإنَّ قِدَمَه يقتضي كثرةَ العبادةِ فيه أيضًا[1].

٧- قَولُه تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ دليلٌ على استحبابِ الصَّلاةِ في المساجِدِ القَديمةِ المؤسَّسةِ مِن أوَّلِ بنائِها على عبادةِ اللهِ وَحدَه لا شريكَ له، وعلى استحبابِ الصَّلاةِ مع جماعةِ الصَّالِحينَ، والعبادِ العاملينَ المُحافِظينَ على إسباغِ الوُضوءِ، والتنَزُّه عن مُلابَسةِ القاذُوراتِ[2].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ مِن جليلِ المَنازِعِ من هذه الآيةِ ما فيها من حُجَّةٍ لِصِحَّةِ آراءِ أصحابِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ جَعَلوا العامَ الذي كان فيه يومُ الهِجرةِ مبدَأَ التَّاريخِ في الإسلامِ. حينما شاوَر عمرُ الصحابةَ في التاريخِ، فاتَّفق رأيُهم أن يكونَ التاريخُ مِن عامِ الهجرةِ؛ لأنَّه الوقتُ الذي عزَّ فيه الإسلامُ، وأمِن فيه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فوافَق هذا ظاهرَ التنزيلِ[3].

٩- قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ أُطلِقَت المحبَّةُ في قَولِه: ﴿يُحِبُّونَ﴾ كنايةً عن عمَلِ الشَّيءِ المَحبوبِ؛ لأنَّ الذي يُحِبُّ شيئًا مُمكِنًا يعمَلُه لا محالةَ، فقَصَدَ التَّنويهَ بهم بأنَّهم يتطَهَّرونَ؛ تَقَرُّبًا إلى اللهِ بالطَّهارةِ،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢).

وإرضاءً لِمَحبَّةِ نُفوسِهم إيَّاها، بحيث صارت الطَّهارةُ خُلُقًا لهم، فلو لم تَجِبْ عليهم لفَعَلوها مِن تِلقاءِ أنفُسِهم[١].

١٠- قال ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ حاصِلُ الكلامِ أنَّ أحَدَ البِناءَينِ قَصَدَ بانيه ببِنائِه تَقوى اللهِ ورِضوانَه، والبناءُ الثَّاني قصَدَ بانيه ببنائِه المعصيةَ والكُفرَ، فكان البِناءُ الأوَّلُ شَريفًا واجِبَ الإبقاءِ، وكان الثَّاني خسيسًا واجِبَ الهَدمِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾

- قوله: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ فيه نهيٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُؤمنينَ بالتَّبَعِ، مؤكَّدٌ بلفظِ الأبَدِ الذي يستغرِقُ الزَّمَنَ المُستقبَلَ[٣].

- قولُه: ﴿أَحَقُّ﴾ اسمُ تفضيلٍ، ولكنَّه هنا غيرُ مُرادٍ منه المفاضَلةُ؛ لأنَّ النَّهيَ عَن صلاتِه في مَسجِدِ الضِّرارِ أزال كونَه حَقيقًا بصَلاتِه فيه أصلًا، ونُكْتةُ الإتيانِ باسْمِ التَّفضيلِ أنَّه تَهكَّم على المنافِقين بمُجاراتِهم ظاهِرًا في دَعوتِهمُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم للصَّلاةِ فيه، بأنَّه- وإن كان حَقيقًا بصَلاتِه بمسجِدٍ أُسِّس على التَّقْوى- أحقُّ منه، فيُعرَفُ مِن وصفِه بأنَّه أُسِّس على التَّقْوى أنَّ هذا أُسِّس على ضِدِّها[٤]، وقيل: إنما قال: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ مع أنَّه لا يجوزُ قِيامُه في الآخَرِ؟ لأنَّ المعنى أنَّه لو كان ذلك جائزًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١).

لكان هذا أَولى؛ للسَّبَبِ المذكورِ[١].

- قولُه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ مبيِّنةٌ لأحقِّيَّتِه بقِيامِه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم فيه؛ مِن جهةِ الحالِ، بعدَ بَيانِ أحقِّيَّتِه به مِن حيثُ المحَلُّ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ ثناءٌ على مُؤمِني الأنصارِ الذين يُصلُّونَ بمسجدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم وبمَسجدِ قُباءٍ، وفيه تعريضٌ بأنَّ أهلَ مسجِدِ الضِّرارِ ليسوا كذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ تذييلٌ مُناسِبٌ للمَقامِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ نُفوسَهم وافَقَت خُلقًا يُحِبُّه اللهُ تعالى، وكَفى بذلك تنويهًا بزَكاءِ أنفُسِهم[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ ...﴾ تفريعٌ على قولِه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾؛ لزِيادةِ بَيانِ أحقِّيَّةِ المسجِدِ المؤسَّسِ على التَّقوى بالصَّلاةِ فيه[٥].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ تذييلٌ، وهو عامٌّ يَشمَلُ هؤلاءِ الظَّالِمين الَّذين بنَوْا مسجِدَ الضِّرارِ وغيرَهم[٦]؛ قيل: وفيه طعنٌ على هؤلاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٣٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٣٥).

المنافِقين وإشارةٌ إليهِم، والمعنى: لا يَهْديهم مِن حيثُ هُم الظَّالمون، أو يَكونُ المرادُ الخُصوصَ فيمَن يُوافي على ظُلمِه[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ فيه وصفُ البُنيانِ بالموصولِ الَّذي صِلَتُه فِعْلُه ﴿ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾؛ للإيذانِ بكيفيَّةِ بِنائِهم له وتَأسيسِه على أوهَنِ قاعدةٍ، وأوهى أساسٍ، وللإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ، أي: لا يَزالُ مَسجِدُهم ذلك مَبنيًّا ومَهْدومًا[٢]. وأيضًا في ذِكْر قولِه: ﴿ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ بعدَ ﴿بُنْيَٰنُهُمُ﴾ تأكيدٌ وتصريحٌ بأمرِ المسجِدِ، ورفعٌ للإشكالِ[٣].

- وجُعِلَ نفسُ ذلك البُنيانِ رِيبةً؛ لِكَونِه سببًا للرِّيبةِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٩).

الآيتان (١١١-١١٢)

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾: أي: الصَّائمونَ، وأصلُ السَّائِحِ: الذَّاهِبُ في الأرضِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه اشتَرَى من المؤمنينَ أنفُسَهم وأموالَهم، وجعَلَ ثَمنَ ذلك أن تكونَ لهم الجنَّةُ، يُقاتِلونَ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ تعالى، وسواءٌ يَقتُلونَ الكُفَّارَ أو يقتُلُهم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٧).
قال الأزهري: (وقِيل للصَّائِمِ: سائحٌ؛ لأنَّ الذي يسيحُ مُتَعبِّدًا يذهبُ في الأرضِ لا زادَ معه، فحينَ يَجِدُ الزَّادَ يَطْعَمُ، والصائمُ لا يَطْعَم أَيْضًا، فلشَبهِه به سُمِّي سائحًا). ((تهذيب اللغة)) (٥/ ١١٣).
وقال الرَّازي بعد أنْ ذكَرَ الوجهَ الأوَّلَ في تسميةِ الصَّائم سائحًا -ونقَلَه عن الأزهري- قال: (الثاني: أنَّ أصلَ السياحةِ الاستمرارُ على الذَّهابِ في الأرضِ، كالماءِ الذي يسيحُ، والصَّائِمُ يستمِرُّ على فعلِ الطَّاعةِ، وتَركِ المُشتَهى، وهو الأكلُ والشُّرب والوِقاعُ، وعندي فيه وجهٌ آخَرُ: وهو أنَّ الإنسانَ إذا امتنَعَ مِن الأكلِ والشُّربِ والوِقاعِ، وسَدَّ على نفسِه أبوابَ الشَّهواتِ؛ انفتَحَت عليه أبوابُ الحكمةِ، وتجَلَّت له أنوارُ عالَم الجلالِ... فيصيرُ مِن السَّائحينَ في عالَمِ جلالِ اللهِ، المُنتَقلينَ مِن مقامٍ إلى مقامٍ، ومن درجةٍ إلى درجةٍ، فيحصلُ له سياحةٌ في عالَمِ الرُّوحانيَّاتِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٤).

الكُفَّارُ، فقد وجَبَت لهم الجنَّةُ، وعدًا عليه حقًّا ثابتًا في التَّوراة والإنجيلِ والقرآنِ، ولا أحَدَ أحسَنُ وفاءً بعَهدِه مِن اللهِ تعالى، ثم أمَرَ سُبحانَه المؤمنينَ المجاهدينَ أن يَفرَحوا بهذا البَيعِ الذي بايَعوا به اللهَ تعالى، وذلك هو الفَوزُ العظيمُ.

ثمَّ وصَف الله تعالى المؤمنينَ الذينَ اشتَرَى منهم أنفُسَهم وأموالَهم، فأخبَرَ أنَّهم هم التَّائبون، العابِدونَ، الذين يحمَدونَ اللهَ في جميعِ الأحوالِ، الصَّائمونَ، المصَلُّونَ، الآمِرونَ بالمعروفِ والنَّاهونَ عن المُنكَر، والعامِلونَ بأمرِ اللهِ ونَهيِه، الذين لا يُضَيِّعونَ شَيئًا من أحكامِ شَريعتِه، وبَعدَها أمَرَ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يبشِّرَ المؤمنينَ بكُلِّ خَيرٍ في الدُّنيا والآخرةِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شرَعَ اللهُ تعالى في شَرحِ فضائحِ المُنافِقينَ وقبائحِهم؛ لسَبَبِ تخلُّفِهم عن غزوةِ تَبوكَ، فلمَّا تمَّم ذلك الشَّرحَ والبيانَ، وذكَرَ أقسامَهم، وفرَّعَ على كلِّ قِسمٍ ما كان لائقًا به- عاد إلى بيانِ فضيلةِ الجِهادِ وحَقيقَتِه[1].

وأيضًا أنَّه لَمَّا تقَدَّمَ الإنكارُ على المُتثاقلينَ عن النَّفْرِ في سبيلِ اللهِ، في قَولِه تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ثمَّ الحَزمُ بالجهادِ بالنَّفسِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٠).

والمالِ، في قَولِه تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾- ذكَرَ فضيلةَ الجهادِ وحَقيقَتَه[١].

وأيضًا فهذه الآيةُ والتي بعدَها في بيانِ حالِ المُؤمِنينَ حَقَّ الإيمانِ، البالغينَ فيه ما هو غايةٌ له مِن الكَمالِ؛ وُضِعَتا بعد بيانِ حالِ المُنافِقينَ، وأصناف المُؤمنين المقصِّرين، ومنهما تُعرَفُ جميعُ درجاتِ المُسلِمينَ، ولا سيَّما المتخلِّفَين عن الجهادِ في سبيلِ اللهِ[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ اشتَرَى من المؤمنينَ أنفُسَهم لِيُقاتِلوا بها الكُفَّار، واشتَرَى أموالَهم لِيَبذُلوها في جهادِهم، وجعَلَ ثَمنَ تَقديمِهم أنفُسَهم وأموالَهم في سبيلِ اللهِ، أن تكونَ لهم الجنَّةُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾.

أي: يُقاتِلُ المؤمنونَ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، ونُصرةِ دينِه، فإمَّا أن يَقتُلوا الكُفَّارَ، أو يَقتُلَهم الكُفَّارُ، فسواءٌ قَتَلوا أو قُتِلَوا فقد وجَبَت لهم الجنَّةُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٧).

قال ابن عاشور: (المرادُ بالمؤمنينَ في الأظهَرِ أن يكونَ مُؤمِني هذه الأمَّة. وهو المناسِبُ لِقَولِه بعدُ: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾.

أي: وعدًا على اللهِ ثابتًا مَكتوبًا في التَّوراةِ التي أنزَلَها على موسى، والإنجيلِ الذي أنزَلَه على عيسى، والقُرآنِ الذي أنزَلَه على مُحمَّدٍ- عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنَّه سيُوفِّي المُجاهدينَ في سبيلِه ما وعَدَهم به، فيُدخِلُهم جنَّتَه[١].

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: لا أحدَ أحسنُ وفاءً بما عاهَدَ عليه مِن اللهِ؛ فإنَّه صادِقٌ لا يُخلِفُ الميعادَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾.

أي: فأظهِرُوا السُّرورَ- أيُّها المُؤمِنونَ المُجاهِدونَ- وافرَحوا بهذا البَيعِ الذي بايَعتُم به اللهَ[٣].

كثير)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩).

قال محمد رشيد رضا: (قَولُه: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ بيانٌ لصفةِ تسليمِ المَبيعِ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٦٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٢، ١٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٤)، ((تفسير

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: وهذا البَيعُ هو النَّجاةُ العظيمةُ، والظَّفَرُ الكبيرُ الذي لا أعظَمَ منه؛ فالجِهادُ سببٌ لِمَغفرةِ الذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ، ورَفعِ الدَّرَجاتِ، ودُخولِ الجنَّاتِ[1].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۞ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۞ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ - ١٢].

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّه اشتَرَى من المُؤمِنينَ أنفُسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنَّةَ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ أولئك المُؤمِنينَ هم المَوصوفونَ بهذه الصِّفاتِ الجَميلةِ والخِلالِ الجَليلةِ[2]، فقال تعالى:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾.

أي: الذين اشتَرَى اللهُ منهم أنفُسَهم وأموالَهم، هم الرَّاجِعونَ مِن مَعصيةِ اللهِ إلى طاعَتِه[3].

السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ١٣٦)، ((تفسير ابن

﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾.

أي: الذين ذَلُّوا لِلَّه وأطاعوه؛ محبةً له، واجتَهَدوا في عبادَتِه وَحْدَه[١].

﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾.

أي: الذينَ يَحمَدونَ اللهَ في جميعِ أحوالِهم[٢].

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾.

أي: الصَّائِمونَ[٣].

عطية)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤١).

(٣) ممن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وابنُ عطيةَ، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني ونسَبه لجمهورِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٦٩ - ٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو هريرةَ، وابنُ عبَّاسٍ، وعائشةُ، وعبدُ الله بنُ مسعودٍ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وعطاءٌ، والضحَّاكُ، وقتادةُ، والربيع بن أنس وغيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٠٣).

وقيل: السَّائحونَ هم المُسافِرونَ في القُرُبات؛ كالسَّفَر للجهادِ، والحجِّ والعمرة، وطلَبِ العِلم، وصِلَةِ الأرحامِ. وممَّن اختار هذا القولَ: القاسمي، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١١ - ٥١٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤١).

قال عِكْرِمةُ في تفسير ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾: طلبةُ العلمِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٨٩)

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾.

أي: المُصَلُّونَ الرَّاكِعونَ والسَّاجِدونَ في صَلَواتِهم المكتوبةِ والمَندوبةِ[1].

﴿ٱلْأٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

أي: الذينَ يأمُرونَ النَّاسَ بكُلِّ ما أمَرَ اللهُ ورسولُه به، من الإيمانِ باللهِ وطاعتِه وطاعةِ رَسولِه، ويَنهَونَهم عن كلِّ ما نهى اللهُ ورسولُه عنه، مثل الشِّركِ باللهِ ومَعصِيَتِه ومَعصيةِ رَسولِه[2].

قال ابنُ عاشور: (السَّائحون: مُشتَقٌّ من السياحةِ. وهي السَّيرُ في الأرض. والمرادُ به سيرٌ خاصٌّ محمودٌ شَرعًا. وهو السَّفرُ الذي فيه قُربةٌ لله وامتثالٌ لأمره، مِثلُ سَفَرِ الهجرة من دارِ الكُفرِ أو السَّفَر للحجِّ، أو السَّفَر للجهاد. وحملُه هنا على السَّفرِ للجِهادِ أنسَبُ بالمقام، وأشمَلُ للمؤمنينَ المأمورينَ بالجهادِ، بخلاف الهجرةِ والحَجِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤١).

وقيل: السَّائحون بقُلوبِهم في ذكرِ الله ومحبَّتِه، والإنابةِ إليه والشَّوقِ إلى لقائِه، وإنَّه يترتَّبُ عليها كلُّ ما ذُكِرَ من الأعمالِ الصَّالحة. وممَّن اختار هذا القولَ: ابن القيم. يُنظر: ((حادي الأرواح)) (ص: ٨٥).

قال ابنُ القَيِّم: (فُسِّرَت السِّياحةُ بالصِّيام وفُسِّرَت بالسَّفَرِ في طلَبِ العِلمِ، وفُسِّرَت بالجهادِ، وفُسِّرَت بدوامِ الطَّاعة، والتَّحقيقُ فيها أنَّها سياحةُ القَلبِ في ذكْرِ اللهِ ومَحبَّتِه، والإنابةِ إليه والشَّوقِ إلى لقائِه، ويترتَّبُ عليها كلُّ ما ذُكِرَ من الأفعالِ). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٨٥).

وقال القرطبي: (قيل: هم الجائلونَ بأفكارِهم في توحيدِ رَبِّهم ومَلَكوتِه وما خلَقَ مِن العِبَرِ والعلاماتِ الدَّالَّة على توحيدِه وتعظيمِه، حكاه النقاش... قلت: لفظ «س ي ح» يدلُّ على صحَّة هذه الأقوال؛ فإنَّ السياحةَ أصلُها الذَّهابُ على وجهِ الأرضِ كما يسيحُ الماءُ، فالصَّائمُ مستمِرٌّ على الطاعةِ في تَرْكِ ما يترُكُه من الطَّعامِ وغَيرِه، فهو بمنزلة السَّائِح، والمتفكِّرون تجولُ قلوبُهم فيما ذَكَروا). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥، ١٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾.

أي: والعامِلونَ بأمرِ اللهِ ونَهيِه، الذينَ لا يُضَيِّعونَ شَيئًا من أحكامِ شَريعتِه[١].

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وبَشِّرْ- يا مُحمَّدُ- جميعَ المُؤمِنينَ، بكُلِّ خَيرٍ في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ العجَبُ ممَّن يدَّعونَ الإيمانَ وهم ينكُثونَ بيعةَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فهم لا يبذُلونَ أنفُسَهم ولا شيئًا مِن أموالِهم في سبيلِ اللهِ، وإنَّما يَطلُبونَ الجنَّةَ بِغَيرِ ثَمَنِها، كما يَطلُبونَ سَعادةَ الدُّنيا وسيادَتَها مِن غيرِ طَريقِها، ولا طريقَ لها إلَّا الجِهادُ بالمالِ والنَّفسِ، والقرآنُ حُجَّةٌ عليهم، وهو حُجَّةُ اللهِ البالغةُ، التي لا يَدحَضُها شيءٌ، وهي تَدحَضُ كُلَّ شَيءٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

قال ابنُ جريرٍ: (وأمَّا قَولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنَّه يعني: وبَشِّرِ المُصَدِّقينَ بما وَعَدَهم اللهُ إذا هم وَفوا اللهَ بعَهدِه، أنَّه مُوفٍ لهم بما وَعَدَهم من إدخالِهم الجنَّةَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨).

وقال ابنُ عطيةَ: (﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هو لفظٌ عامٌّ أُمِرَ به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أن يُبَشِّرَ أمَّتَه جميعًا بالخيرِ مِن اللهِ. وقيل: بل هذه الألفاظُ خاصَّةٌ لِمَن لم يغْزُ، أي: لَمَّا تقدَّمَ في الآيةِ وعدُ المجاهدينَ وفَضْلُهم، أُمِرَ أن يُبَشِّرَ سائرَ النَّاسِ ممَّن لم يغْزُ، بأنَّ الإيمانَ مُخلِّصٌ مِن النَّارِ، والحمدُ لله ربِّ العالَمينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤١، ٤٢).

٢- باع المَغبونونَ مَنازِلَهم من الجنةِ بأبخَسِ الحَظِّ، وأنقَصِ الثَّمَنِ، وباع المُوفَّقونَ نُفوسَهم وأموالَهم مِنَ اللهِ، وجَعَلوها ثمَنًا للجَنَّةِ، فرَبِحَت تِجارتُهم، ونالوا الفوزَ العَظيمَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هذه أوصافُ الكَمَلةِ من المُؤمِنينَ، ذَكَرَها اللهُ تعالى؛ لِيَستبِقَ إلى التحلِّي بها عِبادُه، ولِيَكونوا على أوفَى دَرَجاتِ الكَمالِ[2].

٤- قول الله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه أنَّ مِن شُعَبِ الإيمانِ: التوبةَ والعبادةَ، وحَمدَ اللهِ على كلِّ حالٍ، والسياحةَ والصَّلاةَ، والأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَر، وحِفظَ حُدودِ الله، باتِّباعِ أوامِرِه واجتنابِ نواهِيه[3].

٥- قال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ والتَّوبة إنَّما تحصُلُ عند حصولِ أمورٍ أربعةٍ:

أولها: احتراقُ القلبِ في الحالِ على صُدورِ تلك المعصيةِ عنه.

وثانيها: ندَمُه على ما مضى.

وثالثها: عَزْمُه على التَّركِ في المُستقَبلِ.

ورابعُها: أن يكونَ الحامِلُ له على هذه الأمورِ الثَّلاثة طلبَ رِضوانِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٤-١٤٥).

تعالى وعبوديَّتِه؛ فإن كان غَرَضُه منها دَفْعَ مَذَمَّةِ النَّاسِ، وتحصيلَ مَدْحِهم أو سائِرَ الأغراضِ؛ فهو ليس من التَّائبينَ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ عبَّر بالشراءِ مع أنَّ ما في الكونِ ملكٌ له وحدَه؛ وإنَّما يشتري المشتري ما لا يملكُ؛ لِحُسنِ التلطُّفِ في الدُّعاءِ إلى الطَّاعةِ[٢].

٢- الجهادُ مَقصودُه أن تكونَ كَلِمةُ اللهِ هي العُليا، وأن يكونَ الدِّينُ كُلُّه لله؛ فمقصودُه إقامةُ دينِ الله لا استيفاءُ الرَّجُلِ حَظَّه؛ ولهذا كان ما يُصابُ به المجاهِدُ في نفسِه ومالِه أجرُه فيه على اللهِ؛ فإنَّ الله اشترى من المؤمنينَ أنفُسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنَّةَ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ حتى إنَّ الكُفَّارَ إذا أسلَموا أو عاهَدوا لم يَضمَنوا ما أتلَفوه للمُسلِمينَ مِن الدِّماءِ والأموالِ، بل لو أسلَموا وبأيديهم ما غَنِموه من أموالِ المُسلِمينَ، كان مِلكًا لهم عند جُمهورِ العُلَماءِ، كمالكٍ وأبي حنيفةَ وأحمدَ، وهو الذي مضَتْ به سنَّةُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وسُنَّةُ خُلَفائه الرَّاشِدينَ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ في لفظةِ ﴿ٱشۡتَرَىٰ﴾ لطيفةٌ، وهي: رغبةُ المُشتَري فيما اشتَراه، واغتباطُه به، ولم يأتِ التَّركيبُ: (إن المؤمنينَ باعوا)[٤].

٤- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٠).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٧٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٩).

ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ إذا أردْتَ أن تعرِفَ مِقدارَ الصَّفقةِ، فانظُر إلى المشتري من هو: وهو اللهُ جلَّ جَلالُه، وإلى العِوَض: وهو أكبَرُ الأعواضِ وأجَلُّها: جنَّاتُ النَّعيمِ، وإلى الثَّمَن المبذولِ فيها: وهو النَّفسُ، والمالُ الذي هو أحبُّ الأشياءِ للإنسان، وإلى مَن جرى على يَدَيه عقدُ هذا التَّبايع: وهو أشرَفُ الرُّسُل، وبأيِّ كتابٍ رُقِمَ: وهي كُتُبُ اللهِ الكِبارُ المنزَّلةُ على أفضَلِ الخَلقِ[1].

٥- في قولِه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ قرأ الجُمهورُ بتَقديمِ (يَقْتُلُونَ) المبنيِّ للفاعلِ، وحمزةُ والكِسائيُّ بتقديمِ المبني للمَفعولِ، فدلَّت القراءتانِ على أنَّ الواقِعَ هو أن يُقتَلَ بَعضُهم ويَسلَمَ بَعضٌ، وأنَّه لا فَرْقَ بين القاتِلِ والمقتولِ في الفَضلِ، والمثوبةُ عند اللهِ عَزَّ وجلَّ؛ إذ كلٌّ منهما في سبيلِه، لا حُبًّا في سَفْكِ الدِّماءِ، ولا رغبةً في اغتنامِ الأموالِ، ولا توسُّلًا إلى ظُلمِ العباد، كما يفعَلُ عُبَّادُ الدُّنيا من الملوكِ، ورُؤساءِ الأجنادِ[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ يدلُّ أنَّ أهلَ كُلِّ مِلَّةٍ أُمِروا بالقِتالِ، وأُوعِدوا عليه الجنَّةَ- إذ هو سنةٌ إلهيةٌ للتمكينِ لدينِ الله، والذودِ عنه- وقد بَقيَ في التوراةِ والإنجيلِ الموجُودَينِ- على تحريفِهما- ما يُشيرُ إلى الجهادِ والحَثِّ عليه[3].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩، ٤٠).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٤٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٠).

ٱلَّذِى بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ * ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في خَتمِ الآيتَينِ بالبِشارةِ -تارةً من الخالقِ، وتارةً مِن أكمَلِ الخلائِقِ- أعظَمُ مَزيَّةٍ للمُؤمنينَ، وفي جَعْلِ الأُولَى مِن اللهِ أعظمُ تَرغيبٍ في الجهادِ، وأعلى حَثٍّ على خَوضِ غَمَراتِ الجِلادِ[1].

٨- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ * ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في ابتداءِ الآيتَينِ بالوَصفِ المُشعِرِ بالرُّسوخِ في الإيمانِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وخَتْمِهما بمِثْلِه ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذه مائدةٌ لا يجلِسُ عليها طُفَيليٌّ، وأنَّ مَن عدا الرَّاسخينَ، في دَرَجةِ الإهمالِ؛ لا كلامَ معهم، ولا التفاتَ بوجهٍ إليهم[2].

٩- دلَّ قولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعۡتُم بِهِۦ﴾ أنَّ مَن سعَى في طاعةِ اللَّهِ، فقد باع نفسَه لله، وأعتقَها مِن عذابِه[3].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٨).

وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ خُصَّت تلك الخِلالُ التِّسْعُ بالذِّكرِ؛ لأنَّها هي التي تُمثِّلُ في نفسِ القارئِ أكمَلَ ما يكونُ المؤمِنُ به مُحافِظًا على حدودِ اللهِ تعالى[١].

١١- ذكَرَ اللهُ تعالى خِصالَ التَّائِبِ في آخِرِ سُورةِ براءة، فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ فلا بُدَّ للتَّائِبِ مِن العبادةِ والاشتغالِ بالعَمَلِ للآخرةِ، وإلَّا فالنَّفسُ همَّامةٌ مُتَحرِّكةٌ، إنْ لم تشغَلْها بالحَقِّ، وإلَّا شَغَلتْك بالباطِلِ، فلا بُدَّ للتَّائِبِ مِن أن يبَدِّلَ تلك الأوقاتِ التي مَرَّت له في المعاصي بأوقاتِ الطَّاعاتِ، وأنْ يتدارَكَ ما فرَطَ فيها، وأن يبَدِّلَ تلك الخُطُواتِ بخُطواتٍ إلى الخَيرِ، ويحفظَ لَحَظاتِه وخُطُواتِه، ولَفظاتِه وخَطَراتِه[٢].

١٢- لَمَّا قال تعالى في الآيةِ المتقَدِّمةِ: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦ﴾ ثمَّ ذكَرَ هذه الصِّفاتِ التِّسعةَ؛ ذكر عَقيبَها قَولَه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تنبيهًا على أنَّ البِشارةَ المذكورةَ في قَولِه: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ﴾ لم تتناوَلْ إلَّا المؤمنينَ الموصوفينَ بهذه الصِّفاتِ[٣].

١٣- ذكَر الله تعالى في هذه الآيةِ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ...﴾ تسعةَ أوصافٍ للمؤمنينَ؛ الستةُ الأُولَى منها تتعلَّق بمعاملةِ الخالقِ، والوصفانِ السابعُ والثامنُ يتعلَّقانِ بمعاملةِ المخلوقِ، والوصفُ التاسعُ يعمُّ القَبيلينِ[٤].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٥).
(٢) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٩/ ١٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٦).
(٤) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٢/ ٣٣٦).

ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للتَّنويهِ بأهلِ غزوةِ تَبوكَ، وهم جيشُ العُسْرةِ، وافتُتِحَت الجملةُ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بالخبَرِ[(١)].

- وفيه تمثيلُ اللهِ إثابتَهم بالجنَّةِ على بَذْلِهم أنفُسَهم وأموالَهم في سَبيلِه بالشَّرْوى[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ قدَّم الأنفُسَ على الأموالِ؛ ابتِداءً بالأشرَفِ وبِما لا عِوَضَ له إذا فُقِد[(٣)].

- وأيضًا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قَدَّمَ هنا الأنفسَ على الأموالِ، وفي غيرِه مِن آياتِ الجِهادِ حيثُما وقَعَ في القرآنِ قَدَّمَ الأموالَ على الأنفسِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وقوله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ١٥]، وقوله: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١١]؛ وذلك لأنَّ تقديمَ الأنفسِ هنا في سُورةِ التوبةِ هو الأَوْلى؛ لأنَّها هي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٩).

المُشتراةُ في الحقيقةِ، وهي مَوردُ العقدِ، وهي السِّلعةُ التي استَلَمها ربُّها، وطلَب شِراءَها لنَفْسِه سبحانَه، وجعَل ثمَنَ هذا العقدِ رِضاه وجَنَّتَه؛ فكانتْ هي المقصودَ بعقدِ الشِّراءِ، والأموالُ تبَعٌ لها؛ فإذا مَلَكها مُشتريها مَلَك مالَها؛ فإنَّ العبدَ وما يَملِكُه لسيِّدِه، والمالكُ الحقُّ إذا مَلَك النَّفْسَ ملَكَ أموالَها ومُتعلَّقاتِها؛ فحَسُنَ تقديمُ النَّفْسِ على المالِ في هذِه الآيةِ حُسنًا لا مَزيدَ عليه. وأمَّا تقديمُ الأموالِ على الأنفسِ في آياتِ الجِهادِ الأخرى؛ فقيل: إنَّه للإشارةِ إلى وجوبِ الجهادِ بالمالِ كما يجبُ بالنَّفسِ؛ فإذا دَهَم العدوُّ وجَبَ على القادرِ الخروجُ بنَفْسِه، فإنْ كان عاجزًا وجَبَ عليه الجهادُ بمالِه إنْ كان له مالٌ؛ فتقديمُ المالِ في الذِّكرِ مُشعرٌ بإنكارِ وهْمِ مَن يَتوهَّم أنَّ العاجزَ بنفْسِه إذا كان قادرًا على أن يغزوَ بمالِه لا يجِبُ عليه شيءٌ، بل قد يُقال: إنَّ وجوبَ الجهادِ بالمالِ أعظمُ وأقْوَى مِن وُجوبِه بالنَّفْسِ؛ وعلى هذا فتظهرُ الفائدةُ في تقديمِ المالِ في الذِّكر على الأنفسِ. وعلى تقديرِ عَدمِ وجوبِ الجهادِ بالمالِ؛ ففي تقديمِ المالِ على النَّفسِ في تِلكَ الآياتِ فائدةٌ أخرى، وهي: أنَّ المالَ محبوبُ النفْسِ ومَعشوقُها التي تَبذُلُ ذاتَها في تَحصيلِه، وتَرتكِبُ الأخطارَ، وتَتعرَّضُ للموتِ في طلبِه، وهذا يدلُّ على أنَّه هو محبوبُها ومعشوقُها؛ فندَب اللهُ تعالى مُحبِّيه المجاهدِينَ في سبيلِه إلى بذْلِ مَعشوقِهم ومحبوبِهم في مَرضاتِه؛ فإنَّ المقصودَ أنْ يكونَ اللهُ هو أحَبَّ شيءٍ إليهم، ولا يكونَ في الوجودِ شيءٌ أحبَّ إليهم منه، فإذا بذَلوا مَحبوبَهم في حُبِّه نقَلَهم إلى مَرتبةٍ أخرى أكملَ منها، وهي بذْلُ نُفوسِهم له، فهذا غايةُ الحُبِّ؛ فإنَّ الإنسانَ لا شيءَ أحبُّ إليه مِن نفْسِه، فإذا أحَبَّ شيئًا بذَل له محبوبَه مِن نفْسِه ومالِه، فإذا آل الأمرُ إلى بذْلِ نفْسِه ضَنَّ بنَفْسِه، وآثَرَها على محبوبِه؛ هذا هو الغالبُ وهو مُقتضَى الطَّبيعةِ، واللهُ تعالى لم يَرْضَ مِن مُحبِّيه إلَّا أنْ يَبذُلوا له نُفوسَهم بعدَ أنْ بذَلوا له مَحبوباتِهم، وأيضًا فبَذْلُ

النفسِ آخِرُ المراتبِ؛ فإنَّ العبدَ يَبذُلُ مالَه أولًا؛ يَقِي به نفْسَه، فإذا لم يَبْقَ له مالُه بذَلَ نفْسَه؛ فكان تقديمُ المالِ على النَّفسِ في الجِهادِ مُطابِقًا للواقِع[١].

- قولُه: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ مُبالَغةٌ في تقريرِ وُصولِ الثَّمَنِ إليهم، واختصاصِه بهم، كأنَّه قيل: بالجنَّةِ الثَّابتةِ لهم، المختصَّةِ بهم[٢]، وقيل: اللامُ في ﴿لَهُمُ﴾ للمِلْك[٣] والاستحقاقِ، والمجرورُ مَصدرٌ، والتقديرُ: بتحقيقِ تَملُّكِهم الجنَّةَ، وإنَّما لم يَقُل (بالجنَّة)؛ لأنَّ الثَّمنَ لَمَّا كان آجِلًا، كان هذا البيعُ مِن جِنسِ السَّلَم[٤].

- قولُه: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ اشتِراءَ الأنفُسِ والأموالِ لِغَرابتِه في الظَّاهِرِ، يُثيرُ سؤالَ مَن يَقولُ: كيفَ يَبذُلون أنفُسَهم وأموالَهم؟ فكان جوابُه: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾[٥].

- قولُه: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ تذييلٌ؛ فإنَّ الكلامَ قد تمَّ وكَمَل قبلَ ذلك، ثمَّ أتَت جُملةُ التَّذييلِ؛ لِتُحقِّقَ ما قبلَها وتُؤكِّدَه[٦].

- قولُه: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الاستفهامُ فيه إنكاريٌّ بتَنزيلِ السَّامعِ مَنزِلةَ مَن يَجعَلُ هذا الوعدَ مُحتمِلًا للوفاءِ وعدَمِه، كغالِبِ الوُعودِ، فيُقالُ: ومَن أوفى بعَهدِه مِن اللهِ؟! إنكارًا عليه، وهو استفهامٌ على جِهةِ التَّقريرِ، أي: لا أحَدَ أوفَى بعَهدِه مِن اللهِ تعالى[٧]، وهذه الجملةُ اعتراضٌ

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٧ - ٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٥).
(٣) ومنع بعضُهم كونَ اللامِ للملكِ. يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوِي)) (٤/ ٣٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٨٠).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٩).

مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قَبلَه مِن حقِّيَّةِ الوعدِ على نَهجِ المبالَغةِ في كونِه سبحانَه أوفَى بالعهدِ مِن كلِّ وافٍ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ زيادةُ تأكيدٍ، فإنَّه لَمَّا أكَّد الوعدَ بقولِه: ﴿عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أبرَزَه هنا في صورةِ (العهدِ) الَّذي هو آكَدُ وأوثَقُ مِن الوعدِ؛ إذ الوعدُ في غيرِ حقِّ اللهِ تعالى جائزٌ إخلافُه، والعهدُ لا يَجوزُ إلَّا الوفاءُ به؛ إذْ هو آكَدُ مِن الوعدِ[٢].

- قولُه: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ في قولِه: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ فيه التفاتٌ إلى الخِطابِ؛ تَشْريفًا لهم على تَشريفٍ، وزيادةً لسُرورِهم على سرورٍ[٣].

- وقولُه: ﴿بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ فيه إضافةُ البيعِ إلى ضَميرِهم؛ إظهارًا لاغتِباطِهم به، وفي وَصْفِه بالموصولِ وصِلَتِه: ﴿ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾: تأكيدٌ لمَعنى ﴿بِبَيْعِكُمُ﴾؛ فهو وصْفٌ على سَبيلِ التَّوكيدِ، وتأكيدٌ لفظيٌّ بلَفظٍ مُرادِفٍ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّـٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث ذكَر حَرْفَ العطفِ هنا دون ما قَبْلَه: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ... ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ لِتَبايُنِ ما بينَ الوَصفَينِ، فالأمرُ مُبايِنٌ للنَّهيِ؛ إذِ الأمرُ طلَبُ فِعْلٍ، والنَّهيُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٠).

تركُ فعلٍ؛ لذا حَسُن العطفُ بالواوِ هنا[١].

- وجاء ترتيبُ هذه الصِّفاتِ في غايةٍ مِن الحُسنِ؛ إذ بدَأ أوَّلًا بما يخُصُّ الإنسانَ، مُرتَّبةً على ما سعَى، فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾، ثمَّ بما يتَعدَّى مِن هذه الأوصافِ مِن الإنسانِ إلى غَيرِه، وهو الأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المنكَرِ، فقال: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، ثمَّ بما شَمِل ما يخُصُّه في نفسِه وما يتَعدَّى إلى غيرِه، وهو الحِفظُ لحُدودِ اللهِ، فقال: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه وضعُ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ موضِعَ ضميرِ الموصوفينَ بتِلك الفضائلِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إيمانَهم دَعاهم إلى ذلك، وأنَّ المؤمِنَ الكاملَ مَن كان كذلك[٣].

- وحذَف المبشَّرَ به؛ للتَّعظيمِ، كأنَّه قيل: وبَشِّرْهم بما يَجِلُّ عن إحاطةِ الأفهامِ، وتعبيرِ الكلامِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الآيات (١١٢-١١٦)

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَأَوَّٰهٌ﴾: أي: كثيرُ التَّوجُّعِ شَفَقًا وفَرَقًا، كثيرُ التضرُّعِ والدُّعاءِ لله، وكلُّ كلامٍ يدُلُّ على حُزنٍ يُقالُ له: التَّأَوُّه [(١)].

﴿حَلِيمٌ﴾: أي: بَطيءُ الغَضَبِ، يَصبِرُ على الأذى. والحِلمُ: الأناةُ والسُّكونُ مع القُدرةِ والقُوَّةِ، وأصلُ (حلم): يدلُّ على تَرْكِ العَجَلةِ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ما كان ينبغي للنَّبيِّ والمؤمنينَ أن يستغفِروا للمُشرِكينَ، ولو كانوا مِن أقاربِهم، مِن بعدِ ما تبيَّنَ لهم أنَّهم أهلُ النَّارِ المُخَلَّدونَ فيها، إن ماتوا على كُفْرِهم.

وبيَّنَ تعالى أنَّ استِغفارَ إبراهيمَ لأبيه إنَّما كان بسبَبِ وَعْدِه له بذلك، فلمَّا اتَّضَح لإبراهيمَ أنَّ أباه عدُوٌّ لله، تبرَّأَ منه، وترَكَ الاستغفارَ له؛ إنَّ إبراهيمَ لكثيرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٤).

التضرُّعِ والدُّعاءِ لله؛ خوفًا وحَزنًا، ذو رحمةٍ بهم، وصفحٍ عما يصدرُ منهم إليه.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّه ما كان لِيُضِلَّ قومًا بعد هدايتِه لهم إلى الإيمانِ، حتى يُبيِّنَ لهم ما يجِبُ عليهم تَركُه؛ إنَّه بكلِّ شَيءٍ عَليمٌ.

ويُخبِرُ تعالى أنَّ له وَحْدَه مُلكَ السَّمواتِ والأرضِ، يُحيي ويُميتُ، وأنه ليس للنَّاسِ مِن أحدٍ ينفَعُهم غيرُه سبحانَه، ولا أحَد ينصُرُهم سواه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى مِن أوَّلِ هذه السُّورةِ إلى هذا المَوضِع وُجوبَ إظهارِ البَراءةِ عن الكُفَّار والمُنافِقينَ مِن جَميعِ الوُجوهِ؛ بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّه تجِبُ البراءةُ عن أمواتِهم، وإن كانوا في غايةِ القُربِ مِن الإنسانِ كالأبِ والأمِّ، كما أوجبَت البراءةَ عن أحيائِهم، والمقصودُ منه بيانُ وجوبِ مُقاطَعتِهم على أقصى الغاياتِ، والمنع مِن مُواصَلتِهم بسببٍ مِن الأسبابِ[1].

وأيضًا لَمَّا كَثُرَت في هذه السُّورةِ الأوامِرُ بالبراءةِ مِن أحياءِ المُشرِكينَ، وجاء الأمرُ أيضًا بالبراءةِ من أمواتِ المُنافِقينَ بالنَّهيِ عن الدُّعاءِ لهم؛ جاءت هذه الآيةُ مُشيرةً إلى البراءةِ مِن كُلِّ مُشرِكٍ، فوقَعَ التَّصريحُ بعدها بما أشارَت إليه[2].

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

عن سعيدِ بنِ المُسيِّبِ، عن أبيه، قال: ((لَمَّا حَضَرت أبا طالبٍ الوفاةُ جاءه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٩).

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فوجَدَ عنده أبا جهلٍ، وعبدَ اللهِ بنَ أبي أميَّةَ بن المُغيرةِ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا عَمِّ، قلْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، كَلِمةً أشهَدُ لك بها عند اللهِ، فقال أبو جهلٍ، وعبدُ اللهِ بنُ أبي أميَّةَ: يا أبا طالبٍ، أترغَبُ عن ملَّةِ عبد المطَّلِب؟! فلم يزَلْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعرِضُها عليه، ويُعيدُ له تلك المقالةَ، حتى قال أبو طالبٍ آخِرَ ما كلَّمَهم: هو على مِلَّةِ عبد المطَّلِب، وأبى أن يقولَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أمَا واللهِ لأستَغفِرَنَّ لك ما لم أُنهَ عنك، فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، وأنزل اللهُ تعالى في أبي طالبٍ، فقال لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾))[1] [القصص: ٥٦].

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤) واللفظ له.

قال الواحدي: (قال عامَّةُ المفسِّرين: إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عرَضَ على عمِّه أبي طالبٍ الإسلامَ عند وفاتِه، وذكَرَ له وجوبَ حَقِّه عليه، وقال: ((أعنِّي على نفسِك بكلمةٍ أشفَعُ لك بها عندَ الله يومَ القيامة))، فأبى أبو طالبٍ، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم: ((لأستغفِرَنَّ لك حتى أُنهى عن ذلك)) فاستغفَرَ له بعدما مات، فاستغفَرَ المُسلِمونَ لآبائهم وذوي قَراباتِهم، فنزلت هذه الآيةُ... واستبعَدَه الحسين بن الفضل؛ لأنَّ هذه السورةَ مِن آخِرِ القُرآنِ نُزولًا، ووفاةُ أبي طالبٍ كانت بمكَّةَ في عنفوانِ الإسلامِ، والله أعلم). ((البسيط)) (١١/ ٧٣).

وقال الرازي: (هذا الاستبعادُ عندي مُستبعَدٌ، فأيُّ بأسٍ أن يقالَ: إنَّ النبيَّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ بَقِيَ يستغفِرُ لأبي طالبٍ من ذلك الوقتِ إلى وقتِ نُزولِ هذه الآية؟! فإنَّ التَّشديدَ مع الكفَّارِ إنَّما ظهر في هذه السُّورة، فلعلَّ المؤمنينَ كان يجوزُ لهم أن يستغفِروا لأبوَيهم مِن الكافرينَ، وكان النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أيضًا يفعَلُ ذلك، ثمَّ عند نزولِ هذه السُّورةِ مَنَعَهم اللهُ منه، فهذا غيرُ مُستبعَدٍ في الجملة). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٧).

وقال ابنُ حجر: (قولُه: فنزلَت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾، أمَّا نزولُ هذه الآيةِ الثَّانية فواضِحٌ في قصة أبي طالبٍ، وأمَّا نزولُ التي قبلها ففيه نظرٌ، ويظهَرُ أنَّ المرادَ أنَّ الآيةَ المتعلِّقةَ بالاستغفارِ نزلت بعد أبي طالبٍ بمدَّةٍ، وهي عامَّةٌ في

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾.

أي: ما ينبغي للنبيِّ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُؤمِنينَ أن يسألوا اللهَ المَغفِرةَ للَّذينَ يَعبُدونَ معه غيرَه[١].

﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ ﴾.

أي: ولو كانوا مِن أقاربِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وعَن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قَالَ: ((زارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ قبرَ أُمِّه، فبَكَى وأبكَى مَن حولَه، فقالَ: اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي في أنْ أستغْفِرَ لها فلم يُؤْذَنْ لي، واستأذنْتُه في أنْ أزورَ قبرَها فأُذِنَ لي، فَزُوروا القبورَ فإنَّها تُذَكِّرُ الموتَ))[٣].

حقِّه وفي حقِّ غَيرِه، ويوضِّحُ ذلك ما سيأتي في التَّفسيرِ بلفظِ: فأنزل اللهُ بعد ذلك: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ الآية، وأنزل في أبي طالبٍ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾، ولأحمد من طريقِ أبي حازم عن أبي هريرةَ في قصَّة أبي طالبٍ قال: فأنزل الله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾). ((فتح الباري)) (٧/ ١٩٥).

وقال القاسمي: (ساق المفسِّرون هاهنا رواياتٍ عديدةً في نزولِ الآيةِ، ولَمَّا رآها بعضُهم مُتنافيةً حاول الجمعَ بينها بتعدُّدِ النُّزول، ولا تنافيَ؛ لِمَا قدَّمناه من أنَّ قولَهم: نزلت في كذا. قد يرادُ به: أنَّ حكمَ الآيةِ يشمَلُ ما وقَعَ مِن كذا، بمعنى: أنَّ نزولَها يتناولُه. وقد يرادُ به: أنَّ كذا كان سببًا لنزولِها، وما هنا من الأوَّلِ، ونظائرُه كثيرةٌ في التنزيلِ). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩، ٢٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٥).

(٣) أخرجه مسلم (٩٧٦).

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

أي: مِن بعدِ ما تبيَّن لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وللمُؤمنينَ أنَّ المُشرِكينَ هم أهلُ النَّارِ الخالِدونَ فيها؛ بمَوتِهم على الكُفرِ[1].

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المقصودَ ألَّا يتوهَّمَ إنسانٌ أنَّه تعالى منَعَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن بَعضِ ما أذِنَ لإبراهيمَ فيه[2]؛ فقد بيَّنَ تعالى أنَّ هذا الحُكمَ- وهو إيجابِ الانقطاعِ عن الكُفَّارِ أحيائِهم وأمواتِهم- غَيرُ مُختَصٍّ بدِينِ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل المبالغةُ في تقريرِ وُجوبِ الانقطاعِ كانت مشروعةً أيضًا في دِينِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فتكونُ المبالغةُ في تقريرِ وُجوبِ المُقاطعةِ والمُباينةِ مِن الكفَّارِ أقوى[3].

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾.

أي: وما وقعَ استغفارُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأبيه، إلَّا بِسبَبِ وَعدِه له بأنَّه سيستغفِرُ له[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩، ٢٦، ٢٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩، ٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٨).
قال ابن عطية: (المعنى: لا حُجَّةَ -أيُّها المؤمنونَ- في استغفارِ إبراهيمَ الخليلِ لأبيه؛ فإنَّ ذلك لم يكُنْ إلَّا عن مَوعدةٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩١).

كما قال تعالى حاكيًا عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قولَه: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقال سُبحانه عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦-٤٧].

وقال عزَّ وجَلَّ حاكيًا عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قولَه: ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الشعراء: ٨٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾.

أي: فلمَّا عَلِمَ إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ أباه عدوٌّ لله، تبرَّأَ منه، وترَكَ الاستغفارَ له[1].

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾.

أي: إنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لكثيرُ التضرُّعِ والدُّعاءِ لله؛ خوفًا وحَزنًا،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩، ٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).
قال الرازي: (اختلفوا في السَّبَب الذي به تبيَّنَ لإبراهيمَ أنَّ أباه عدوٌّ لله. فقال بعضُهم: بالإصرارِ والموتِ. وقال بعضُهم: بالإصرارِ وحده. وقال آخرون: لا يَبعُد أنَّ الله تعالى عرَّفَه ذلك بالوحي، وعند ذلك تبرَّأ منه. فكأنَّه تعالى يقول: لَمَّا تبيَّنَ لإبراهيمَ أنَّ أباه عدوٌّ لله تبرَّأ منه، فكونوا كذلك؛ لأنِّي أمرْتُكم بمتابعةِ إبراهيمَ في قولِه: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النساء: ١٢٥]). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٩)، ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٦).

صابرٌ على أذى النَّاسِ له، ذو رحمةٍ بهم، وصفحٍ عما يصدرُ منهم إليه[١].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٤ - ٧٦].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ۝ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٦ - ٤٨].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا منَعَ اللهُ تعالى المُؤمِنينَ من أن يستَغفِروا للمُشرِكينَ، والمُسلِمونَ كانوا قد استغفَروا للمُشرِكينَ قبلَ نُزولِ هذه الآيةِ، فإنَّهم قبلَ نُزولِ هذه الآيةِ كانوا يستغفِرونَ لآبائِهم وأُمَّهاتِهم وسائرِ أقربائِهم ممَّن مات على الكُفرِ، فلمَّا نزَلَت هذه الآيةُ خافوا بسبَبِ ما صدَرَ عنهم قبل ذلك من الاستغفارِ للمُشرِكينَ.

وأيضًا فإنَّ أقوامًا مِن المُسلِمينَ الذين استغفَروا للمُشرِكينَ، كانوا قد ماتوا قبلَ نُزولِ هذه الآيةِ، فوقعَ الخوفُ عليهم في قلوبِ المُسلِمينَ أنَّه كيف يكونُ حالُهم، فأزال اللهُ تعالى ذلك الخَوفَ عنهم بهذه الآيةِ، وبيَّنَ أنَّه تعالى لا يؤاخِذُهم بعمَلٍ إلَّا بعد أن يُبيِّنَ لهم أنَّه يجِبُ عليهم أن يتَّقوه ويَحترِزوا عنه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤، ٤٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٠).

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّه لا يُستغفَرُ لِلمشركينَ ولو كانوا أُولي قربَى، فمُنِعَ رسولُ اللَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الاستغفارِ لعَمِّه أبي طالِبٍ، ومُنِعَ إبراهيمُ مِنَ الاستغفارِ لأبيه، وكذلك مُنِعَ المسلمونَ مِنَ الاستغفارِ للمشركينَ أقرباءَ وغيرَ أقْرِباءَ، فكأنَّه قِيل: لا تَعْجَبْ لتبايُنِ هؤلاءِ، فإضلالُ هؤلاءِ لم يكُنْ إلَّا بعدَ أنْ أرشدَهم اللَّهُ إلى طريقِ الحقِّ بما ركَز فيهم مِن حُجَجِ العقولِ الَّتي أغْفَلوها، وتبيينِ ما يتَّقُونَ بطريقِ الوحيِ، فتظافَرتْ عليهم الحُجَجُ العقليَّةُ والسمعيَّةُ، ومعَ ذلك لم يُؤْمِنوا ولم يَتَّبِعوا ما جاءتِ الرُّسلُ به عن اللَّه تعالَى، ولذلك خَتَمها بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، فيُضلُّ مَن يشاءُ، ويختصُّ بالهدايةِ مَن يشاءُ[1].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾.

أي: وليس مِن سُنَّةِ اللهِ في خَلْقِه، ولا مِن حِكمَتِه وعَدْلِه أن يُضِلَّ قومًا بعد هِدايَتِه لهم إلى الإيمانِ، حتى يبيِّنَ لهم ما يجِبُ عليهم تَركُه، فإذا بيَّنَ لهم ولم يتَّقوا استحَقُّوا إضلالَه لهم، وعقابَه عليهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧-١٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٥-٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٧).

أي: إنَّ الله عليمٌ بجميعِ الأشياءِ، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالبَراءةِ مِن الكفَّارِ؛ بيَّنَ أنَّه له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، فإذا كان هو ناصِرًا لكم، فهم لا يَقدِرونَ على إضرارِكم[٢].

وأيضًا فإنَّه حينَ أمرَهم بالبراءةِ مِن المشركينَ، فإنَّه لا يمكنُهم الاختلاطُ بآبائِهم وأولادِهم وإخوانِهم؛ لأنَّه ربَّما كان الكثيرُ منهم كافرينَ، فقد يتطرقُ إلى نفوسِهم ما يصيرونَ إليه مِن نقصٍ وحاجةٍ إلى المعينِ والناصرِ، والمرادُ أنَّكم إن صِرْتُم مَحرومينَ عن مُعاوَنتِهم ومُناصَرتِهم، فالإلهُ الذي هو المالِكُ للسَّمَواتِ والأرضِ، والمُحْيي والمُميتُ؛ ناصِرُكم، فلا يضُرُّكم أن يَنقَطِعوا عنكم[٣].

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا أمَرَ بهذه التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ، كأنَّه قال: وجَبَ عليكم أن تَنقادوا لحُكمي وتَكليفي؛ لِكَوني إلهَكم، ولِكَونِكم عبيدًا لي[٤].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى عِلْمَه بكُلِّ شَيءٍ، فهو يعلَمُ ما يَصلُحُ لكُلِّ أحَدٍ، وما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٧).

قال القاسمي: (قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ تعليلٌ لِما سبَقَ، أي: إنَّه تعالى عليمٌ بجميعِ الأشياءِ التي من جُملَتِها حاجَتُهم إلى بيانِ قُبحِ ما لا يستقِلُّ العَقلُ بمَعرفتِه، فبيَّنَ لهم ذلك، كما فعلَ هنا). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هُيِّئَ له في سابِقِ الأزَلِ؛ ذكَرَ ما دَلَّ على القُدرةِ الباهرةِ مِن أنَّه له ملكُ السَّمَواتِ والأرضِ، فيتصَرَّفُ في عبادِه بما شاء، ثمَّ ذكَرَ مِن أعظَمِ تَصَرُّفاتِه الإحياءَ والإماتةَ، أي: الإيجادَ والإعدامَ[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه له سُلطانُ السَّمواتِ والأرضِ، لا شَريكَ له في خَلْقِه ولا تَدبيرِه ولا تشريعِه[٢].

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه يُحيي مَن يشاءُ، ويُميتُ مَن يَشاءُ[٣].

كما قال سبُحانَه: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

أي: وما لكم -أيُّها النَّاسُ- من أحدٍ غيرِ اللهِ ينفَعُكم، وما لكم من أحدٍ سواه ينصُرُكم، ويدفَعُ عنكم ما يضُرُّكم[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ فيه مدحُ الحِلمِ والتَّأويه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ فيه تحريمُ الدُّعاءِ للكُفَّارِ بالمغفرةِ أحياءً وأمواتًا[١]، وكذلك وصفُهم بذلك، كقَولِهم: المغفورُ له، المرحومُ فلانٌ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ هذه الآيةُ تضمَّنَت قَطعَ مُوالاةِ الكُفَّارِ حَيِّهم ومَيِّتِهم؛ فإنَّ الله لم يجعَلْ للمُؤمِنينَ أن يستَغفِروا للمُشرِكينَ، فطَلَبُ الغُفرانِ للمُشرِك ممَّا لا يجوزُ[٣].

٣- دلَّ قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ على أنَّ استغفارَ الإنسانِ لِغَيرِه، لا ينفَعُه إلَّا مع الإيمانِ[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ هذا التعبيرُ نفيٌ بمعنى النَّهيِ، ويُسمَّى نفيَ الشَّأنِ، وهو أبلَغُ في نفي الشَّيءِ نَفسِه؛ لأنَّه نَفيٌ مُعَلَّلٌ بالسَّبَبِ المُقتَضي له[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ قولُه ﴿تَبَرَّأَ﴾ صيغةُ (تفعَّلَ) تفيدُ أنَّه أكرَهَ نَفسَه عليه السَّلامُ على البراءةِ، ثمَّ علَّلَ تعالى ما أفهَمَتْه صيغةُ التفعُّل من المعالجةِ بقَولِه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ أي: شديدُ الرِّقَّةِ الموجِبةِ للتأوُّه من خوفِ اللهِ، ومِن الشَّفَقةِ على العِبادِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٦، ٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٣).
(٤) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٢٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٦).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣١).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ إنَّما وصَفَه تعالى بهَذَينِ الوَصفَينِ في هذا المقامِ؛ لأنَّه مَن كان كذلك، فإنَّه تَعظُمُ رِقَّتُه على أبيه وأولادِه؛ فبَيَّنَ تعالى أنَّه مع هذه العادةِ تبَرَّأَ من أبيه، وغلُظَ قلبُه عليه، لَمَّا ظَهرَ له إصرارُه على الكُفرِ، فأنتم بهذا المعنى أَولى، كذلك وصفُه أيضًا بأنَّه حليمٌ؛ لأنَّ أحدَ أسبابِ الحِلمِ رِقَّةُ القلبِ، وشِدَّةُ العَطفِ، لأنَّ المرءَ إذا كان حالُه هكذا اشتَدَّ حِلمُه عند الغضَبِ(١).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يدلُّ على بُطلانِ قَولِ بَعضِ المُبتَدعةِ بالمؤاخَذةِ على ما يجِبُ بحُكمِ العَقلِ، كالصِّدقِ والأمانةِ. نعَمْ، إنَّ حُسنَه يُعلَمُ بالعَقلِ، ولكِنَّ التَّكليفَ الذي يُبنى عليه جزاءُ الآخرةِ لا يصِحُّ إلَّا بالشَّرعِ، كما تدلُّ عليه الآيةُ(٢).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ يُؤخَذُ منه أنَّ أحكامَ الإسلامِ العامَّةَ التي عليها مدارُ الجزاءِ في الآخرةِ، ويكَلَّفُ العَملَ بها كُلُّ مَن بلَغَتْه- إن كانت من الأحكامِ الشَّخصيَّةِ التي خوطِبَ بها أفرادُ الأمَّةِ كُلُّهم، ويُنَفِّذُها أئمَّتُها وأمراؤُها فيها- هي ما كانت قطعيَّةَ الدَّلالةِ ببَيانٍ مِن اللهِ تعالى ورَسولِه، لا حُجَّةَ معه لأحدٍ في تَرْكِه، وأنَّ ما عداها مَنوطٌ بالاجتهادِ، فمن ظهَرَ له مِن نَصٍّ ظنِّيِّ الدَّلالةِ حُكمٌ، واعتقَدَ أنَّه مُرادُ اللهِ مِن الآيةِ، وجَبَ عليه اتِّباعُه، ومَن لا فَلا(٣).

٩- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٥٠).

لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ في هذا أدَلُّ دليلٍ على أنَّ المعاصيَ إذا ارتُكِبَت وانتُهِكَ حِجابُها، كانت سببًا إلى الضَّلالةِ والرَّدى، وسُلَّمًا إلى تَرْكِ الرَّشادِ والهُدى[١].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ يعني أنَّ الله تعالى إذا مَنَّ على قومٍ بالهدايةِ، وأمَرَهم بسُلوكِ الصِّراطِ المُستَقيمِ؛ فإنَّه تعالى يتَمِّمُ عليهم إحسانَه، ويبَيِّنُ لهم جميعَ ما يحتاجونَ إليه، وتدعو إليه ضَرورتُهم، فلا يترُكُهم ضالِّينَ، جاهلينَ بأمورِ دِينِهم، ففي هذا دليلٌ على كمالِ رَحمتِه، وأنَّ شَريعتَه وافيةٌ بجَميعِ ما يحتاجُه العِبادُ، في أصولِ الدِّينِ وفُروعِه[٢].

١١- في قولِه تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ حجةٌ على المعتزلةِ واضحةٌ؛ إذ قد جَمَعَ سبحانه بينَ الإضلالِ والهدَى منه؛ ولزومِ الحُجَّةِ للمُضَلِّينَ أو المهدِيِّينَ في آيةٍ واحدةٍ متصلةِ المعاني بعضِها ببعضٍ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾

- قولُه: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ ﴾ جاءَت صيغةُ النَّهيِ عنِ الاستغفارِ للمُشرِكين بطريقِ نفيِ الكونِ؛ مُبالَغةً في التَّنزُّهِ عن هذا الاستغفارِ، وزيادةُ ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤).
(٣) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥٧٨).

﴾؛ للمُبالَغةِ أيضًا في استِقْصاءِ أقرَبِ الأحوالِ إلى المعذرةِ[١]، فدلَّتِ الآيةُ على المبالَغةِ في إظهارِ البَراءَةِ عَن المشرِكينَ والمنافِقين، والمنعِ مِن مُواصَلتِهم ولو كانوا في غايةِ القُربِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ مَسوقَةٌ لِتَقريرِ ما سبَق، ودَفْعِ ما يتَراءى بِحسَبِ الظَّاهِرِ مِن المُخالَفةِ[٣].

- قولُه: ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا كان استِغْفارُ إبراهيمَ لأبيهِ بصَددِ أن يُقتدَى به، بيَّن العِلَّةَ في استِغْفارِ إبراهيمَ لأبيه، وذكَر أنَّه حينَ اتَّضحَت له عَداوتُه للهِ ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ الجملةُ استِئنافٌ لبيانِ ما كان يَدعُو إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ إلى ما صدَر عنه مِن الاستغفارِ، وما حمَله على الاستِغْفارِ لأبيه معَ شَكاسَتِه عليه[٥].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ تأكيدٌ لوُجوبِ الاجتِنابِ عنه بعدَ التَّبيُّنِ بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تبرَّأ مِن أبيه بعدَ التَّبيُّنِ وهو في كَمالِ رقَّةِ القلبِ والحِلْمِ، فلا بُدَّ أن يَكونَ غيرُه أكثرَ مِنه اجتِنابًا وتبرُّؤًا، والأوَّاهُ: كثيرُ التَّأوُّهِ، وهو كِنايةٌ عن كَمالِ الرَّأفةِ، ورقَّةِ القلبِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٢، ٥١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٨).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ مناسِبٌ للجُملةِ السَّابقةِ، ووُقوعُ ﴿إِنَّ﴾ في أوَّلِها يُفيدُ مَعْنى التَّفريعِ والتَّعليلِ لِمَضمونِ الجُملةِ السَّابقةِ، وهو أنَّ اللهَ لا يُضِلُّ قومًا بعدَ أن هَداهم حتَّى يُبيِّنَ لهم الحَقَّ[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ تذييلٌ ثانٍ في قوَّةِ التَّأكيدِ لِقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، ولذلك فُصِلَ بدون عَطفٍ؛ لأنَّ ثُبوتَ مُلكِ السَّمواتِ والأرضِ للهِ تعالى يَقْتضي أن يَكونَ عَليمًا بكلِّ شيءٍ؛ لأنَّ تَخلُّفَ العِلمِ عن التَّعلُّقِ ببَعضِ المتَمَلَّكاتِ يُفْضي إلى إضاعةِ شُؤونها؛ فافتِتاحُ الجُملةِ بـ(إِنَّ) معَ عدَمِ الشَّكِّ في مَضمونِ الخبَرِ يُعَيِّنُ أنَّ (إِنَّ) لِمُجرَّدِ الاهتِمامِ، فتَكونُ مُفيدةً مَعْنى التَّفريعِ بالفاءِ والتَّعليلِ[2].

- قولُه: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ فيه زيادةُ جُملتَي: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ لِتَصويرِ مَعْنى المُلْكِ في أتَمِّ مَظاهِرِه المَحسوسةِ للنَّاسِ، المُسَلَّمِ بينَهم أنَّ ذلك مِن تصرُّفِ اللهِ تَعالى لا يَستطيع أحَدٌ دَفْعَ ذلك ولا تأخيرَه، وعَطْفُ جملةِ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ لتأييدِ المسلِمين بأنَّهم مَنصورونَ في سائرِ الأحوالِ؛ لأنَّ اللهَ وَليُّهم فهو نَصيرٌ لهم، ولإعلامِهم بأنَّهم لا يَخشَوْن الكفَّارَ؛ لأنَّ الكافِرين لا مَولَى لهم؛ لأنَّ اللهَ غاضِبٌ عليهِم، فهو لا يَنصُرُهم، وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٨).

مُناسِبٌ لغرَضِ الكَلامِ المتعلِّقِ باستِغْفارِهم للمُشرِكين بأنَّه لا يُفيدُهم[١].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١٧-١١٩)

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَزِيغُ﴾: أي: تَعدِلُ وتَميلُ عن الحَقِّ، وأصلُ (زيغ): يدلُّ على مَيلِ الشَّيءِ عن الاستقامةِ[١].

﴿رَءُوفٌ﴾: أي: شديدُ الرَّحمةِ، أو ذو رحمةٍ واسعةٍ، وأصلُ (رأف): يدلُّ على رِقَّةٍ ورَحمةٍ[٢].

﴿رَحُبَتْ﴾: أي: اتَّسَعَت، وأصلُ (رحب): يدلُّ على سَعةٍ[٣].

﴿مَلْجَأَ﴾: أي: حِرْزَ أو مَعْقِلَ، أو نَجاة، وأصلُ (لجأ): يدلُّ على المكانِ يُلتَجأُ إليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢، ٥٠٤)،

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّه تاب على النبيِّ والمُهاجِرينَ والأنصارِ، الذين أطاعوه بالخُروجِ معه في غَزوةِ تَبوكَ في حرٍّ شَديدٍ، وطولِ سَفَرٍ، وضِيقٍ في الزَّادِ والماءِ والرَّاحِلةِ، لقد تاب عليهم مِن بَعدِ ما أوشَكَت قلوبُ بعضِ أولئك الصَّحابةِ أن تميلَ عنِ الحَقِّ، ثم تاب عليهم؛ إنَّه بهم رؤوفٌ رحيمٌ، وبيَّنَ تعالى أنَّه تاب أيضًا على أصحابِ النبيِّ الثَّلاثةِ الذين أخَّرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الحُكمَ في أمْرِهم إلى أن يَحكُمَ اللهُ تعالى فيهم، حتى إذا ضاقَتِ الأرضُ عليهم مع سَعَتِها، وضاقت عليهم أنفُسُهم؛ بسَبَبِ ما أصابَهم مِن الهَمِّ والكَربِ والحَزَنِ، وأيقَنوا أنَّه لا مَلجأَ مِن اللهِ إلَّا إليه، ثم تاب عليهم سبحانَه وتعالى لِيَتوبوا؛ إنَّه هو التَّوَّابُ الرَّحيمُ، ثمَّ أمر اللهُ الذين آمَنوا أن يتَّقوه ويكونوا مع الصَّادِقينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقدَّمَ الكلامُ في أحوالِ المُنافِقينَ مِن تَخَلُّفِهم عن غزوةِ تَبوكَ، واستطرَدَ إلى تقسيمِ المُنافِقينَ إلى أعرابٍ وغَيرِهم، وذكَرَ ما فعلوا مِن مَسجِدِ الضِّرارِ، وذكَرَ مُبايعةَ المؤمنينَ اللهَ في الجِهادِ وأثنَى عليهم، وأنَّه ينبغي أن يُباينوا المُشرِكينَ، حتى الذين ماتوا منهم بتَرْكِ الاستغفارِ لهم- عاد إلى ذِكْرِ ما بَقِيَ مِن أحوالِ غَزوةِ تَبوكَ [1]، فهذه الآياتُ تَتِمَّةُ ما تقدَّمَ مِن موضوعِ تَوبةِ المتخَلِّفينَ

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٦).

عن غزوةِ تَبُوكَ، أُخِّرَت على سُنَّةِ القرآنِ في تفريقِ الآياتِ في الموضوعِ الواحِدِ؛ لأنَّه أدنى ألَّا يَسأَمَ التَّالي لها في الصَّلاةِ وغَيرِها، وأقوى في تجديدِ الذِّكرى، والتأثيرِ في النَّفسِ(١).

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾.

أي: لقد رزَق الله الإنابةَ إلى أمرِه وطاعتِه، نبيَّه محمَّدًا، وأصحابَه الذينَ هاجَروا مِن دِيارِهم، وأهلَ المدينةِ النبويَّةِ، الذين نَصَروا دينَ اللهِ، وناصَروا مَن هاجَرَ إليهم، وتجاوَز عنهم، وغفَر لهم(٢).

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٠).

قال ابنُ عطيَّةَ: (التَّوبةُ مِن الله: رجوعُه بعَبْدِه من حالةٍ إلى أرفَعَ منها، فقد تكونُ في الأكثَرِ رُجوعًا مِن حالةِ طاعةٍ إلى أكمَلَ منها، وهذه توبتُه في هذه الآيةِ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه رجع به من حالَةٍ قبل تحصيلِ الغَزوةِ وأَجْرِها وتحمُّلِ مَشَاقِّها إلى حالَةٍ بعد ذلك أكمَلَ منها، وأمَّا توبتُه على المُهاجِرينَ والأنصارِ، فحالُها معرَّضةٌ لأنْ تكونَ مِن تَقصيرٍ إلى طاعةٍ وَجِدٍّ في الغَزوِ ونُصرةِ الدِّينِ، وأمَّا توبتُه على الفَريقِ الذي كاد أن يزيغَ، فرجوعٌ من حالةٍ مَحطوطةٍ إلى حالِ غُفرانٍ ورِضًا). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٢).

وقال القرطبي: (اختلَفَ العُلَماءُ في هذه التَّوبةِ التي تابها اللهُ على النبيِّ والمُهاجِرينَ والأنصارِ على أقوالٍ: فقال ابنُ عبَّاسٍ: كانت التوبةُ على النبيِّ؛ لأجل إذْنِه للمُنافِقينَ في القعودِ. دليلُه قَولُه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]. وعلى المؤمنينَ مِن مَيلِ قُلوبِ بَعضِهم إلى التخَلُّفِ عنه. وقيل: توبةُ اللهِ عليهم استِنقاذُهم مِن شِدَّةِ العُسرةِ. وقيل: خَلاصُهم مِن نكايةِ العَدُوِّ، وعبَّرَ عن ذلك بالتَّوبةِ وإن خرَجَ عن عُرفِها؛ لوجودِ معنى التوبةِ فيه، وهو الرُّجوعُ إلى الحالةِ الأولى. وقال أهلُ المعاني: إنَّما ذُكِرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في التوبةِ؛ لأنَّه لَمَّا كان سببَ تَوبَتِهم ذُكِرَ معهم، كقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٨).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦١، ١٦٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥١).

أي: الذين أطاعوا نبيَّه بالخُروجِ معه في غزوةِ تَبُوكَ في وقتِ العُسرةِ؛ بسَبَبِ شِدَّةِ الحَرِّ، وطُولِ السَّفَرِ، وقِلَّةِ الرَّاحلةِ والماءِ، والطَّعامِ والنَّفَقةِ[١].

عن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّه قيل لعُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه في شَأنِ العُسرةِ، فقال عمر: ((خَرَجْنا مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى تَبُوكَ في قَيظٍ شَديدٍ، فنَزَلْنا مَنزِلًا أصابَنا فيه عطَشٌ، حتى ظَنَنَّا أنَّ رِقابَنا ستنقَطِعُ، حتى إن كان الرَّجُلُ لَيَذهَبُ يلتَمِسُ الماءَ فلا يرجِعُ حتى يظُنَّ أنَّ رَقَبَتَه ستنقَطِعُ، حتى إنَّ الرَّجُلَ لَينحَرُ بَعيرَه فيعصِرُ فَرْثَه فيَشرَبُه، ويَجعَلُ ما بَقِيَ على كَبِدِه؛ فقال أبو بكرٍ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ الله قد عَوَّدَكَ في الدُّعاءِ خيرًا، فادعُ لنا. قال: تحِبُّ ذلك؟ قال: نعم. فرَفَعَ يدَيه، فلم يَرجِعْهما حتى قالتِ السَّماءُ، فأظَلَّتْ ثم سَكَبَت، فمَلَؤوا ما معهم، ثم رَجَعْنا ننظُرُ فلم نَجِدْها جاوَزَتِ العَسكَرَ))[٢]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٢، ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٠).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾، قال أبو إسحاق: معناه في وقتِ العُسرةِ؛ لأنَّ السَّاعةَ تقَعُ على كلِّ الزَّمانِ، فهي عبارةٌ عن جميعِ وَقتِ تلك الغَزوةِ، وهذا معنى قولِ الكلبي: «في حينِ العُسرةِ». وقال غيره: يريدُ أشَدَّ السَّاعاتِ التي مَرَّت بهم في تلك الغزوةِ، وهي السَّاعةُ التي كادت قلوبُهم تزيغُ فيها، والعُسرةُ: تعَذُّرُ الأمرِ وصُعوبتُه). ((البسيط)) (١١/ ٨١).

(٢) أخرجه البزار (٢١٤)، وابن خزيمة (١٠١)، وابن حبان (١٣٨٣)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٣٢٩٢).

قال الضياء المقدسي في ((السنن والأحكام)) (١/ ٢٣٢): إسناده على شرط الصحيح، وحسَّنه وقوَّاه الذهبي في ((تاريخ الإسلام)) (٢/ ٦٣٥)، وجوَّد إسناده وقوَّاه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (٦/ ٩٦)، وقال ابنُ الملقِّن في ((شرح البخاري)) (٤/ ٤٥٣): إسنادُه على شرطِ الصحيح كما قال الضياء، ووثَّق رجالَه الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٩٧)، وقال الألباني في ((فقه السيرة)) (٤٠٧): حسنٌ أو صحيحٌ.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾.

أي: تاب اللهُ على النبيِّ وأصحابِه الذين اتَّبَعوه في غزوةِ تَبُوكَ، من بعد ما أوشَكَت قلوبُ بعضِ الصَّحابةِ أن تميلَ عَنِ الحَقِّ، فيَشُكُّوا ويَرتابوا؛ بسبَبِ المشَقَّةِ الشَّديدةِ التي نالَتْهم في تلك الغَزوةِ[1].

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: ثمَّ رزق اللهُ الصَّحابةَ- الذين كادَتْ قُلوبُهم أن تزيغَ- الإنابةَ إلى ربِّهم، والرجوعَ إلى الثباتِ على دينِه[2].

﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: تاب اللهُ على الفريقِ الذين كادَتْ قُلوبُهم أن تزيغَ عنِ الحَقِّ؛ لأنَّ اللهَ بصَحابةِ نَبيِّه رؤوفٌ رحيمٌ، ومن رأفَتِه ورَحمَتِه بهم أنَّه لا يريدُ إهلاكَهم، بل رزَقَهم التَّوبةَ وعافاهم مِن زَيغِ القُلوبِ وثَبَّتَهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٠).
وممن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢٩).
وقيل: المرادُ: مِن بَعدِ ما كادوا يَرجِعونَ مِن غَزوتِهم؛ للشِّدَّةِ، وليس المرادُ الزَّيغَ عن الإيمانِ. وممَّن اختار ذلك: الزجاج. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٢/ ٤٧٤).
وقيل: المرادُ: مِن بَعدِ أن خامَرَ فريقًا منهم خاطرُ التَّثاقُلِ والقُعودِ والمعصيةِ، بحيث يُشبِهونَ المُنافِقينَ، وذلك قبل الخروجِ للغَزوِ. وممن اختار ذلك: ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥١).

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا صَرَّحَ تعالى بالتَّوبةِ على مَن قارب الزَّيغَ، وخَلَطَ معهم أهلَ الثَّباتِ؛ إشارةً إلى أنَّ كُلَّ أحدٍ فَقيرٌ إلى الغنيِّ الكبيرِ، ولِيَكونَ اقترانُهم بأهلِ المعالي، وجعلُهم في حَيِّزِهم تشريفًا لهم وتأنيسًا؛ لئلَّا يشتدَّ إنكارُهم- أتبَعَه التَّوبةَ على مَن وقَعَ منه الزَّيغُ، فقال غيرَ مصَرِّحٍ بالزَّيغِ تعليمًا للأدبِ، وجَبرًا للخواطِرِ المُنكَسِرةِ[1]:

سببُ النُّزولِ:

عن كَعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، يحَدِّثُ حَديثَه حين تخلَّفَ عن رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم في غزوة تَبُوكَ، قال كعبُ بنُ مالك: ((لمْ أتخلَّفْ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في غزوةٍ غزاها قطُّ، إلَّا في غزوةِ تبوكَ، غيرَ أنِّي قد تخلَّفتُ في غزوةِ بدرٍ، ولم يعاتِبْ أحدًا تخلَّفَ عنه، إنَّما خرج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُسلِمونَ، يريدون عِيرَ قريشٍ، حتى جمَع اللهُ بينهم وبينَ عدوِّهم على غيرِ مِيعادٍ، ولقد شهدتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليلةَ العَقَبةِ حين تواثقْنا على الإسلامِ، وما أُحِبُّ أنَّ لي بها مَشهدَ بدرٍ، وإن كانت بدرٌ أذكَرَ في النَّاسِ مِنها، وكان مِن خَبَري حين تخلَّفتُ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في غزوةِ تبوكَ أنِّي لم أكُنْ قَطُّ أقْوى، ولا أيسَرَ منِّي حين تخلَّفتُ عنه

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٨).

في تلك الغزوةِ؛ واللهِ ما جمعتُ قبلَها راحلتَين قطُّ، حتى جمعتُهما في تلك الغزوةِ، فغزاها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حرٍّ شديدٍ، واستقبَلَ سفرًا بعيدًا ومَفازًا[١]، واستقبل عدوًّا كثيرًا، فجَلَا للمُسلِمينَ أمرَهم؛ ليتأهَّبوا أُهبَةَ غَزوِهم، فأخبَرَهم بوجهِهم الذي يريدُ، والمُسلِمونَ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كثيرٌ، ولا يَجمَعُهم كتابٌ حافظٌ- يريد بذلك الدِّيوانَ- قال كعبٌ: فقلَّ رجلٌ يريدُ أن يتغيَّبَ يَظُنُّ أنَّ ذلك سيَخفى له، ما لم يَنزِلْ فيه وحيٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ، وغزا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تلك الغزوةَ حين طابتِ الثِّمارُ والظِّلالُ، فأنا إليها أصعَرُ[٢]، فتجهَّز رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُسلِمونَ معه، وطفِقتُ أغدو لكي أتجهَّزَ معهم، فأرجِعُ ولم أقضِ شيئًا، وأقولُ في نفسي: أنا قادرٌ على ذلك إذا أردتُ، فلم يزلْ ذلك يتمادَى بي حتى استمرَّ بالنَّاسِ الجِدُّ، فأصبح رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غاديًا والمُسلِمونَ معه، ولم أقضِ من جَهازي شيئًا، ثمَّ غدوتُ فرجعتُ ولم أقضِ شيئًا، فلم يزلْ ذلك يتمادَى بي حتى أسرعوا، وتفارَطَ الغَزْوُ[٣]، فهمَمْتُ أن أرتحلَ فأُدرِكَهم، فيا ليتني فعلتُ! ثم لم يُقَدَّرْ ذلك لي، فطفقتُ إذا خرجتُ في النَّاسِ بعدَ خروجِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، يَحزُنُني أنِّي لا أرى لي أُسوةً إلاَّ رجلاً مغموصًا عليه[٤] في النِّفاقِ، أو رجلًا ممَّن عذَر اللهُ من الضُّعفاءِ، ولم يَذكُرْني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتى بلغَ تَبوكَ، فقال وهو جالسٌ في القومِ بتَبوكَ: ما فعل كعبُ بنُ مالكٍ؟

---

(١) مَفازًا: أي: بَرِّيَّةً طويلةً قليلةَ الماءِ، يُخافُ فيها الهلاكُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٨).

(٢) أصعَرُ: أي: أَميلُ. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٨/ ٢٧٥).

(٣) تفارَطَ الغَزْوُ: أي: فات وسبَقَ. ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٤٥٣).

(٤) مغموصًا عليه: أي: مُتَّهمًا مُستحقَرًا. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٨/ ٢٧٥)

قال رجلٌ من بَني سَلِمةَ: يا رسولَ الله، حبَسه بُرْدَاه، والنَّظَرُ في عِطْفَيه[١]، فقال له معاذُ بنُ جبلٍ: بئسَ ما قلتَ، واللهِ يا رسولَ اللهِ، ما علِمْنا عليه إلَّا خَيرًا. فسَكَتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فبينما هو على ذلك رأى رجلًا مُبَيِّضًا[٢] يزولُ به السَّرابُ[٣]، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كُن أبا خَيثمةَ، فإذا هو أبو خيثمةَ الأنصاريُّ، وهو الذي تصدَّق بصاعِ التَّمرِ حين لَمَزَه المُنافِقونَ. فقال كعبُ بنُ مالكٍ: فلمَّا بلَغَني أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد توجَّه قافلاً من تبوكَ، حَضَرني بثِّي[٤]، فطَفِقْتُ أتذكَّرُ الكذبَ، وأقولُ: بم أَخرجُ من سَخَطِه غَدًا؟ وأستعينُ على ذلك كلَّ ذي رأيٍ من أهلي، فلمَّا قيل لي: إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد أظلَّ قادمًا، زاح عني الباطلُ، حتى عرفتُ أنِّي لن أنجوَ منه بشيءٍ أبدًا، فأجمعتُ صِدْقَه، وصبَّحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قادمًا، وكان إذا قدِم مِن سَفَرٍ بدأَ بالمَسجِدِ، فركع فيه ركعتَينِ، ثمَّ جلَسَ للنَّاسِ، فلما فعل ذلك جاءَه المُخلَّفونَ، فطَفِقوا يَعتَذِرونَ إليه ويحلِفون له، وكانوا بِضعةً وثمانينَ رَجُلًا، فقَبِل منهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علانِيَتَهم، وبايعَهم، واستغفَرَ لهم، ووكَل سرائرَهم إلى اللهِ، حتى جئتُ، فلمَّا سَلَّمتُ تبسَّمَ تبسُّمَ المُغضَبِ، ثم قال: تعالَ، فجِئْتُ أمشي حتى جلَسْتُ بين يدَيه. فقال لي: ما خلَّفَك؟ ألم تكُنْ قد ابتَعْتَ ظهرَك؟ قال: قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي- واللهِ- لو جلستُ عند غيرِك مِن أهلِ الدُّنيا، لرأيتُ أنِّي سأخرُجُ مِن سَخَطِه

---

(١) عِطفَيه: أي: جانِبَيه، وهو إشارةٌ إلى إعجابِه بنَفسِه ولِباسِه. ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٩).

(٢) مُبَيِّضًا: أَي: عليه ثِيابٌ بِيضٌ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٢/ ١٢٥).

(٣) يَزولُ به السَّرابُ: أي: يتحَرَّكُ ويَنهَضُ. والسَّرابُ: هو ما يظهَرُ للإنسانِ في الهواجِرِ في البراري، كأنَّه ماءٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٠).

(٤) البثُّ: أشَدُّ الحُزنِ. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٨/ ٢٧٦).

بعُذرٍ، ولقد أُعطِيتُ جَدَلًا، ولَكنِّي - واللهِ- لَقَد عَلِمْتُ لئن حدَّثتُك اليومَ حديثَ كَذِبٍ ترضَى به عني، لَيُوشِكَنَّ اللهُ أن يُسخِطَك عليَّ، ولَئِنْ حدَّثتُك حديثَ صدقٍ تجدُ عليَّ فيه، إنِّي لأرجو فيه عُقبَى اللهِ[1]، واللهِ ما كان لي عُذرٌ. واللهِ ما كنتُ قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلَّفتُ عنك. قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمَّا هذا فقَد صَدَق، فقُمْ حتى يقضيَ اللهُ فيك، فقُمْتُ وثار رجالٌ من بني سَلِمةَ فاتَّبَعوني، فقالوا لي: واللهِ ما علِمْناك أذنبتَ ذنبًا قبلَ هذا. لقد عَجَزتَ في ألَّا تكونَ اعتذرتَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما اعتذر به إليه المُخلَّفونَ؛ فقد كان كافِيَك ذنبَك استغفارُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لك. قال: فواللهِ ما زالوا يُؤنِّبونَني حتى أردتُ أن أرجِعَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأُكذِّبَ نفسي. قال: ثمَّ قلتُ لهم: هل لقِيَ هذا معي من أحدٍ؟ قالوا: نعم، لَقِيه معك رَجُلانِ قالا مثلَ ما قلتَ. فقيل لهما مثلُ ما قيل لك. قال: قلتُ: مَن هما؟ قالوا: مُرارةُ بنُ ربيعةَ العامريُّ، وهلالُ بنُ أميَّةَ الواقِفيُّ. قال: فذكروا لي رجلَينِ صالِحَينِ قد شَهِدا بدرًا فيهما أُسْوةٌ. قال فمضيتُ حين ذَكَروهما لي. قال: ونهَى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُسلِمينَ عن كلامِنا أيُّها الثلاثةُ، مِن بينِ مَن تخلَّف عنه. قال: فاجتنَبَنا النَّاسُ، وقال: تغيَّروا لنا حتى تنكَّرَتْ لي في نَفسي الأرضُ؛ فما هي بالأرضِ التي أعرِفُ، فلَبِثْنا على ذلك خمسينَ ليلةً، فأمَّا صاحباي فاستكانا وقَعَدا في بُيوتِهما يَبكِيانِ، وأمَّا أنا فكنتُ أشَبَّ القَومِ وأجلدَهم، فكُنتُ أخرُجُ فأَشهَدُ الصَّلاةَ، وأطوفُ في الأسواقِ، ولا يكلِّمني أحدٌ، وآتي رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأسَلِّمُ عليه وهو في مجلسِه بعد الصَّلاةِ، فأقولُ في نفسي: هل حرَّك شفتَيه بردِّ السلامِ أم لا؟ ثم أصلِّي قريبًا منه، وأُسارِقُه النَّظرَ، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظَرَ إليَّ، وإذا التفتُّ نَحوَه أعرَضَ عنِّي،

(١) عُقبى اللهِ: أي: أن يُعقِبَني خيرًا، وأن يُثيبَني عليه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩١).

حتى إذا طال ذلك عليَّ مِن جَفوةِ المُسلِمينَ، مَشيتُ حتى تسوَّرتُ جِدارَ حائطِ أبي قتادةَ، وهو ابنُ عمِّي، وأحَبُّ النَّاسِ إليَّ، فسَلَّمتُ عليه، فواللهِ ما ردَّ عليَّ السلامَ، فقلتُ له: يا أبا قتادةَ، أَنشُدُك باللهِ، هل تعلمَنَّ أنِّي أُحِبُّ اللهَ ورسولَه؟ قال: فسَكَتَ. فعُدتُ فناشَدْتُه فسَكَتَ. فعُدْتُ فناشَدْتُه. فقال: اللهُ ورسولُه أعلمُ. ففاضَتْ عيناي، وتَولَّيتُ حتى تسوَّرتُ الجدارَ، فبَيْنا أنا أمشِي في سوقِ المدينة، إذا نَبَطِيٌّ[1] مِن نَبَطِ أهلِ الشَّامِ، ممَّن قَدِمَ بالطعامِ يبيعُه بالمَدينةِ، يقول: مَن يدلُّ على كعبِ بنِ مالكٍ؟ قال: فطفِق النَّاسُ يُشيرونَ له إليَّ. حتى جاءني فدفَعَ إليَّ كتابًا من ملِك غسَّانَ، وكنتُ كاتبًا فقرأتُه، فإذا فيه: أمَّا بعدُ؛ فإنَّه قد بلَغَنا أنَّ صاحبَك قد جفَاك، ولم يَجعَلْك اللهُ بدارِ هوانٍ ولا مَضْيَعةٍ، فالحَقْ بنا نُواسكَ. قال: فقلتُ حين قرأتُها: وهذه أيضًا من البلاء، فتيامَمتُ[2] بها التَّنُّورَ فسجَرتُه بها[3]، حتى إذا مَضَت أربعونَ من الخَمسينَ واستلبَثَ الوحيُ[4]، إذا رسولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يأتيني، فقال: إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يأمُرُك أن تعتزلَ امرأتَك. قال: فقُلتُ: أُطلِّقُها أم ماذا أفعَلُ؟ قال: لا، بل اعتَزِلْها فلا تقرَبَنَّها. قال: فأرسَلَ إلى صاحِبَيَّ بمثلِ ذلك. قال: فقلتُ لامرأَتي: الْحَقي بأهلِكِ فكوني عِندَهم حتى يقضِيَ اللهُ في هذا الأمرِ. قال: فجاءت امرأةُ هلالِ بنِ أميَّةَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالت له: يا رسولَ اللهِ، إنَّ هلالَ بنَ أميَّةَ شيخٌ ضائعٌ، ليس له خادِمٌ، فهل تكرَهُ أن أخدمَه؟ قال: لا، ولكِنْ لا يَقربَنَّكِ، فقالت: إنَّه- واللهِ- ما به حركةٌ إلى شَيءٍ، وواللهِ ما زال يبكي منذ كان مِن أمرِه ما كان إلى يومِه هذا. قال: فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسولَ

(١) النَّبَطُ والأنباطُ: فلاَّحو العَجَمِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٣).

(٢) تَيامَمْتُ: أي: قَصَدتُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٤).

(٣) سَجَرْتُه بها: أي: أوقَدْتُه. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٨/ ١٣١).

(٤) واستلبثَ الوَحيُ: أي: أبطأَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٤).

اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في امرأتِك؟ فقد أذِن لامرأةِ هلالِ بنِ أميَّةَ أن تخدمَه. قال: فقلتُ: لا أستأذنُ فيها رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما يُدريني ماذا يقولُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا استأذنتُه فيها، وأنا رجلٌ شابٌّ. قال: فلبثْتُ بذلك عشرَ ليالٍ، فكَملَ لنا خمسونَ ليلةً مِن حينِ نُهِيَ عن كلامِنا. قال: ثمَّ صلَّيتُ صلاةَ الفَجرِ صباحَ خَمسينَ ليلةً على ظهرِ بيتٍ مِن بيوتِنا، فبَيْنا أنا جالسٌ على الحالِ التي ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنَّا؛ قد ضاقَت عليَّ نَفسِي، وضاقَتْ عليَّ الأرضُ بما رَحُبَت- سَمِعْتُ صوتَ صارخٍ أَوفَى على سَلْعٍ[1] يقولُ بأعلى صوتِه: يا كعبُ بنَ مالكٍ أبشِرْ! قال فخَرَرْتُ ساجِدًا، وعرفتُ أنْ قد جاء فَرَجٌ. قال: فآذَنَ[2] رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الناسَ بتوبةِ اللهِ علينا، حين صلَّى صلاةَ الفجرِ، فذهَبَ الناسُ يبَشِّرونَنا، فذَهَبَ قِبَلَ صاحِبَيَّ مُبشِّرون، ورَكَضَ رجلٌ إليَّ فَرسًا، وسعى ساعٍ مِن أسلمَ قِبَلي، وأوفى الجبلَ، فكان الصوتُ أسرعَ من الفَرَسِ، فلمَّا جاءني الذي سمعتُ صوتَه يُبشِّرُني، فنزعتُ له ثوبَيَّ فكَسوتُهما إيَّاه ببِشارتِه، واللهِ ما أملِك غيرَهما يومَئذٍ، واستَعَرْتُ ثوبَين فلَبِسْتُهما، فانطلقتُ أتأمَّمُ[3] رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، يتلقَّاني الناسُ فوجًا فوجًا، يُهنِّئونَني بالتوبة، ويقولون: لِتَهنِئْكَ[4] توبةُ اللهِ عليك، حتى دخلتُ المسجدَ، فإذا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جالسٌ في المسجدِ، وحولَه الناسُ، فقام طلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ يُهرولُ حتى صافحَني وهنَّأني، واللهِ ما قام رجلٌ من المهاجرينَ غيرُه.

---

(١) أَوْفَى عَلَى سَلعٍ: أي: صَعِدَه وارتفَعَ عليه. وسَلْعٌ: جبَلٌ بالمدينةِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٥).

(٢) آذَنَ: أي: أعلَمَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٥).

(٣) أَتَأَمَّمُ: أي: أَقْصِدُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٦).

(٤) لِتَهنِئْكَ: كلمةٌ تُقال عند التهنئةِ، من هنَّأَه بالأمرِ والولايةِ تَهْنِئَةً وتَهْنِيئًا، وهَنَأَه هَنْأً إذا قال له: لِيَهْنِئْكَ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١/ ٢٨٧).

قال: فكان كعبٌ لا ينساها لطلحةَ. قال كعبٌ: فلما سلَّمتُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال، وهو يبرُقُ وَجهُه من السُّرورِ ويقول: أبشِرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليك منذُ ولدَتْك أمُّك. قال: فقلتُ: أمِن عِندِك يا رسولَ اللهِ، أم مِن عندِ اللهِ؟ فقال: لا، بل مِن عندِ اللهِ، وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا سُرَّ استنارَ وجهُه، كأنَّ وجهَه قِطعةُ قمَرٍ. قال: وكنَّا نَعرِفُ ذلك. قال: فلمَّا جلستُ بين يدَيه، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ من توبتي أن أنخلِعَ من مالي صدقةً إلى اللهِ وإلى رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمسِكْ بعضَ مالِك؛ فهو خيرٌ لك. قال: فقلتُ: فإني أُمسِكُ سَهمي الذي بخَيبرَ. قال: وقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ اللهَ إنَّما أنجاني بالصِّدقِ، وإنَّ مِن تَوبتي ألَّا أُحدِّثَ إلاَّ صِدْقًا ما بقِيتُ. قال: فوالله ما علمتُ أنَّ أحدًا من المسلمينَ أبلاه اللهُ[1] في صدقِ الحديثِ منذ ذكرتُ ذلك لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى يومي هذا، أحسنَ ممَّا أبلاني اللهُ به. واللهِ ما تعمَّدتُ كَذبةً منذُ قلتُ ذلك لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظَني اللهُ فيما بقِيَ، فأنزل الله عزَّ وجَلَّ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٩]. قال كعب: واللهِ ما أنعَمَ اللهُ عليَّ من نعمةٍ قطُّ- بعد إذ هداني اللهُ للإسلامِ- أعظَمَ في نفسي مِن

(١) أبلاه اللهُ: أي: أنعَمَ عليه. والبلاءُ والإبلاءُ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، لكنْ إذا أُطلِقَ كان للشَّرِّ غالبًا، فإذا أريد الخيرُ قُيِّدَ كما قيَّدَه هنا، فقال: (أحسن مما أبلاني). يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٧).

صِدقي رسولَ الله صلى الله عليه وسلَّم، ألَّا أكونَ كَذَبتُه فأهلِكَ كما هلك الذين كَذَبوا، إنَّ الله قال للذينَ كَذَبوا- حين أنزل الوَحْي- شَرَّ ما قال لأحدٍ، وقال الله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦]، قال كعبٌ: كنا خُلِّفنا- أيُّها الثَّلاثةُ- عن أمْرِ أولئك الذينَ قَبِل منهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين حَلَفوا له، فبايَعَهم واستغفَرَ لهم، وأرجأَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمْرَنا حتى قضَى اللهُ فيه، فبذلك قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨]، وليس الذي ذكَرَ اللهُ ممَّا خُلِّفْنا، تَخَلُّفَنا عن الغَزْوِ، وإنَّما هو تخليفُه إيَّانا، وإرجاؤُه أمْرَنا، عمَّنْ حلَفَ له واعتذَرَ إليه فقَبِلَ منه))[1].

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾.

أي: وتاب اللهُ على أصحابِ النبيِّ الثَّلاثةِ الذين أخَّرَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الحُكمَ في أمْرِهم إلى أن يَحكُمَ اللهُ تعالى فيهم، ويبُتَّ في شأنِهم[2].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾.

أي: حتى إذا ضاقَتِ الأرضُ على هؤلاء الثلاثةِ مع سَعَتِها، وذلك أنَّهم أُمِروا باعتزالِ أزواجِهم، ومُنِع المسلمون مِن معاملتِهم وكلامِهم، مع إعراضِ النبيِّ

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣، ٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٤)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥١، ٥٢).

صلَّى الله عليه وسلَّم عنهم[١].

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

أي: وضاقَتْ عليهم أنفُسُهم؛ بسبَبِ الهَمِّ والكَربِ والحُزنِ الذي أصابَهم[٢].

﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾.

أي: وأيقَنوا أنَّه لا شَيءَ لهم يَرجِعونَ إليه؛ لِيَسلَموا مِن عَذابِ اللهِ وسَخَطِه، ويرتَفِع عنهم الكَربُ والبَلاءُ، إلَّا اللهُ وَحْدَه دُونَ مَن سِواه[٣].

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾.

أي: ثمَّ وفَّقَ اللهُ الأصحابَ الثَّلاثةَ للتَّوبةِ؛ لِتَقَعَ منهم فيَرجِعُوا إلى اللهِ،

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٠٨) ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥١، ٥٢).
وقال ابنُ جريرٍ: (﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ يقول: بسعتِها غمًّا وندمًا على تخلفِهم عن الجهادِ مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤).
وقال ابنُ عطيةَ: (وإنَّما ضاقتْ عليهم الأرضُ عن تخليفِهم عن قبولِ العذرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد ر شيد رضا (١١/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٣).
قال محمد رشيد رضا: (﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ واعتَقَدوا أنَّه لا ملجأَ لهم مِن سَخَطِ الله يلجَؤونَ إليه إلَّا إليه تعالى، بأن يتوبوا إليه ويَستَغفِروه، ويَرجوا رَحمَتَه؛ فإنَّ الرَّسولَ البَرَّ الرَّؤوفَ الرَّحيمَ بأصحابِه، ما عاد ينظُرُ إليهم ولا يكَلِّمُهم، حتى يطلُبوا دُعاءَه واستغفارَه). ((تفسير المنار)) (١١/ ٥٣).

ويَستَقيموا على طاعَتِه[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهُ هو كثيرُ قَبولِ التَّوبةِ، فيُوفِّقُ مَن يشاء مِن عِباده للتَّوبةِ، ويَقبَلُها منهم، واسِعُ الرَّحمةِ، ومِن رَحمتِه ألَّا يُعاقِبَ التَّائبينَ بعد تَوبتِهم[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

هذا الأمرُ بالكَونِ مع أهلِ الصِّدقِ حَسُنَ بعد قصَّةِ الثَّلاثةِ حين نفَعَهم الصِّدقُ، وذهَبَ بهم عن منازِلِ المُنافِقينَ، فجاء هذا الأمرُ اعتراضًا في أثناءِ الكلامِ؛ إذ عنَّ في القِصَّةِ ما يجب التنبيهُ على امتثالِه[٣].

وأيضًا أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكَمَ بِقَبولِ تَوبةِ الثَّلاثةِ؛ ذكَرَ ما يكونُ كالزَّاجِرِ عَن فِعلِ ما مضَى، وهو التخَلُّفُ عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الجِهادِ[٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

أي: يا أيُّها المُؤمِنونَ اتَّقُوا اللهَ، بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهِيه[٥].

﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٣، ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

أي: وكونوا- أيُّها المُؤمِنونَ- مع الصَّادقينَ في إيمانِهم وأقوالِهم وأفعالِهم، لا تتخَلَّفوا عن صُحبَتِهم، واتَّبِعوا سبيلَهم، والزَموا الصِّدقَ؛ لِتَكونوا معهم في الآخرةِ[١].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((عليكم بالصِّدقِ؛ فإنَّ الصِّدقَ يهَدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يهدي إلى الجنَّةِ، وما يزالُ الرَّجُلُ يَصدُقُ، ويتحَرَّى الصِّدقَ حتى يُكتَبَ عند اللهِ صِدِّيقًا، وإيَّاكم والكَذِبَ؛ فإنَّ الكَذِبَ يَهدي إلى الفُجورِ، وإنَّ الفُجورَ يَهدي إلى النَّارِ، وما يزالُ الرَّجُلُ يَكذِبُ ويتحَرَّى الكَذِبَ حتى يُكتَبَ عند اللهِ كذَّابًا))[٢].

وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّها سَتَكونُ أُمَراءُ يَكذِبونَ ويَظلِمونَ، فمن صدَّقَهم بكَذِبِهم، وأعانهم على ظُلمِهم، فليس منِّي ولستُ منه، ولا يَرِدُ عليَّ الحوضَ، ومَن لم يُصَدِّقْهم بكَذِبِهم، ولم يُعِنْهم على ظُلْمِهم، فهو منِّي وأنا منه، وسَيَرِدُ عليَّ الحوضَ))[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٤، ٩٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

(٢) رواه البخاري (٣٨٦)، ومسلم (٢٦٠٧) واللفظ له.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٣٠٨)، والبزار (٢٨٣٤).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٥١): رجالُه رجالُ الصحيحِ، وصحَّحه ابنُ حجرٍ في ((الأمالي المطلقة)) (٢١٦)، وجوَّد إسنادَه الألباني في ((تخريج كتاب السنة)) (٧٥٩).

وأخرجه من طريق آخر البزار (٢٨٣٢)، والطبراني (٣/ ١٦٨) (٣٠٢٠).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٥١) في إسنادِ البزارِ: رجالُه رجالُ الصحيحِ.

ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ هو بَعثٌ للمُؤمِنينَ على التَّوبةِ، وأنَّه ما من مؤمِنٍ إلَّا وهو مُحتاجٌ إلى التَّوبةِ والاستغفارِ، حتى النبيُّ والمهاجرون والأنصارُ، وإبانةٌ لِفَضلِ التَّوبةِ ومِقدارِها عند الله، وأنَّ صِفةَ التَّوابينَ الأوَّابينَ صِفةُ الأنبياءِ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا مِن أعظَمِ ما يُعَرِّفُ العَبدَ قَدْرَ التَّوبةِ وفَضْلها عند اللهِ، وأنَّها غايةُ كَمالِ المؤمِنِ؛ فإنَّه سُبحانه أعطاهم هذا الكَمالَ بعد آخِرِ الغَزَواتِ بعد أن قَضَوا نَحْبَهم، وبَذَلوا نفوسَهم وأموالَهم وديارَهم لله، وكان غايةَ أمْرِهم أن تابَ عليهم؛ ولهذا جعل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ توبةِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه خيرَ يَومٍ مَرَّ عليه منذ ولَدَتْه أمُّه إلى ذلك اليومِ، ولا يَعرِفُ هذا حَقَّ مَعرِفَتِه إلَّا مَن عرَفَ اللهَ، وعرَفَ حُقوقَه عليه، وعرَفَ ما ينبغي له من عبوديَّتِه، وعرف نفسَه وصِفاتِها وأفعالَها، وأنَّ الذي قام به من العبوديَّةِ بالنِّسبةِ إلى حَقِّ رَبِّه عليه كقَطرةٍ في بَحرٍ، هذا إذا سَلِمَ مِن الآفاتِ الظَّاهرة والباطنةِ، فسُبحان مَن لا يسَعُ عبادَه غيرُ عَفْوِه ومَغفِرتِه وتَغَمُّدِه لهم بمَغفِرتِه ورَحمتِه، وليس إلَّا ذلك أو الهَلاك، فإنْ وضَعَ عليهم عَدْلَه فعَذَّبَ أهلَ سَمواتِه وأرضِه، عذَّبَهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، وإنْ رَحِمَهم فرَحْمَتُه خيرٌ لهم من أعمالِهم، ولا يُنجي أحدًا منهم عمَلُه[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥١٧ - ٥١٨).

ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه التَّنبيهُ على لُطفِ اللهِ بعبادِه، وتَثبيتِهم في إيمانِهم عند الشَّدائِدِ، والنَّوازِلِ المُزعِجةِ[١]، فسُنَّةُ الحقِّ مع أوليائه إذا أشْرَفوا على العَطَب، ووطَّنوا أنفُسَهم على الهلاكِ، أمطَرَ عليهم سحائِبَ الجُودِ، فأحيا قُلوبَهم[٢].

٤- العبادةُ الشَّاقَّةُ على النَّفسِ، لها فضلٌ ومَزيَّةٌ ليست لِغَيرِها، وكلَّما عَظُمَت المشقَّةُ، عَظُمَ الأجرُ؛ نستفيدُ ذلك من قَولِ اللهِ تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾[٣].

٥- توبةُ الله على عَبدِه بحَسَبِ نَدَمِه وأسَفِه الشَّديدِ، وأنَّ مَن لا يُبالي بالذَّنبِ، ولا يُحرَجُ إذا فعَلَه، فإنَّ تَوبتَه مَدخولةٌ، وإن زَعَم أنَّها مقبولةٌ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾[٤].

٦- علامةُ الخَيرِ، وزَوالِ الشِّدَّةِ: إذا تعلَّقَ القَلبُ باللهِ تعالى تعلُّقًا تامًّا، وانقطَعَ عن المَخلوقينَ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ دالٌّ على فَضلِ الصِّدقِ، وكمالِ دَرَجتِه[١].

٨- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ حَقُّ مَن فَهِمَ عن الله وعَقَلَ عنه، أن يُلازِمَ الصِّدقَ في الأقوالِ، والإخلاصَ في الأعمالِ، والصَّفاءَ في الأحوالِ، فمَن كان كذلك لَحِقَ بالأبرارِ، ووصَلَ إلى رِضا الغفَّارِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ذَكَرَ التوبةَ في أوَّلِ الآيةِ وفي آخِرِها، فما الفائدةُ في التَّكرارِ؟ قيل: فيه وجوه:

الوجه الأول: أنَّه تاب عليهم أوَّلًا بتوفيقِهم للتَّوبةِ، فلمَّا تابوا تاب عليهم ثانيًا بِقَبولِها منهم، وهو الذي وفَّقَهم لفِعْلِها، وتفضَّل عليهم بقَبولِها[٣]، فتوبةُ العَبدِ إلى اللهِ مَحفوفةٌ بتَوبةٍ مِن اللهِ عليه قَبْلَها، وتوبةٍ منه بَعْدَها، فتَوبتُه بين تَوبتَينِ مِن رَبِّه؛ سابقةٍ ولاحقةٍ، فإنَّه تاب عليه أوَّلًا إذْنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبدُ، فتاب اللهُ عليه ثانيًا قبولًا وإثابةً[٤].

الوجه الثاني: أنَّه تعالى ابتدأ بذِكرِ التَّوبةِ قَبلَ ذِكرِ الذَّنبِ؛ تَطييبًا لِقُلوبِهم، ثمَّ ذكَرَ الذَّنبَ، ثمَّ أردَفَه مرَّةً أخرى بذِكرِ التَّوبةِ، والمقصودُ منه تعظيمُ شأنِهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٩).

الوجه الثالث: أنَّه إذا قيل: عفا السُّلطانُ عن فلانٍ، ثم عفا عنه، دلَّ ذلك على أنَّ ذلك العفوَ عَفوٌ مُتأكِّدٌ، بلغ الغايةَ القُصوى في الكَمالِ والقُوَّةِ.

الوجه الرابع: أنَّه قال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ وهذا الترتيبُ يدلُّ على أنَّ المرادَ أنَّه تعالى تاب عليهم مِن الوَساوِسِ التي كانت تقَعُ في قلوبِهم في ساعةِ العُسرةِ، ثم إنَّه تعالى زاد عليه فقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ فهذه الزيادةُ أفادت حصولَ وَساوِسَ قَويَّةٍ، فلا جرَمَ أتبَعَها تعالى بذِكرِ التَّوبةِ مرَّةً أخرى؛ لئلَّا يبقى في خاطِرِ أحَدِهم شَكٌّ في كَونِهم مُؤاخَذينَ بتلك الوساوِسِ[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ الأنبياءُ صَلَواتُ الله وسلامُه عليهم معصومونَ مِن الإقرارِ على الذُّنوبِ كبارِها وصِغارِها، ومع هذا جاء الإخبارُ عنهم من اللهِ تعالى بالتَّوبةِ، وهم بما أخبَرَ الله به عنهم من التَّوبةِ، يرفَعُ دَرجاتِهم، ويُعَظِّم حسناتِهم، فإنَّ اللهَ يحِبُّ التوَّابينَ، ويحِبُّ المتطَهِّرينَ، وليست التوبةُ نَقصًا، بل هي من أفضَلِ الكمالاتِ، وهي واجبةٌ على جميعِ الخَلقِ كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فغايةُ كُلِّ مُؤمنٍ هي التوبةُ، ثمَّ التَّوبةُ تتنَوَّعُ، كما يقال: حَسَناتُ الأبرارِ سَيِّئاتُ المقرَّبينَ[(٢)]، واللهُ تعالى قد أخبَرَ عن عامَّةِ الأنبياءِ بالتَّوبةِ والاستغفارِ؛ عن آدَمَ ونوحٍ، وإبراهيمَ وموسى وغَيرِهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٣).

(٢) قال ابنُ تيمية: (هذا اللَّفْظُ ليس محفوظًا عَمَّن قَوْلُه حجَّةٌ؛ لا عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ولا عن أحدٍ من سلفِ الأمةِ وأئمتِها، وإنَّما هو كَلامٌ، وله معنًى صحيحٌ، وَقد يُحملُ على معنًى فاسدٍ). ثم ذكَر تفصيلَ ذلك. يُنظر: ((جامع الرسائل لابن تيمية)) (١/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥١).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كان جيشُ العُسرةِ من المهاجرينَ والأنصارِ ومِن غَيرِهم مِن القَبائِلِ التي حَولَ المَدينةِ ومَكَّةَ، ولكنَّهم خُصُّوا بالثَّناءِ؛ لأنَّهم لم يتردَّدوا ولم يَتَثاقلوا، ولا شَحُّوا بأموالِهم، فكانوا أُسوةً لِمَن ائتَسى بهم مِن غَيرِهم من القَبائِلِ[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ سمَّاها (ساعة) تهوينًا لأوقاتِ الكُروبِ، وتشجيعًا على مُواقعةِ المَكارِه؛ فإنَّ أمَدَها يسيرٌ، وأجْرَها عظيمٌ خَطيرٌ[2].

٥- قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إنما عَظُمَ ذَنْبُهم، واستحَقُّوا عليه ذلك؛ لأنَّ الشَّرعَ يَطلُبُهم مِن الجِدِّ فيه بحسَبِ مَنازِلِهم منه وتَقَدُّمِهم فيه؛ إذ هم أُسوةٌ وحُجَّةٌ للمُنافقين والطَّاعنينَ، إذ كان كعبٌ من أهلِ العَقَبةِ، وصاحباه من أهلِ بَدرٍ، وهذا يقتضي أنَّ الرَّجُلَ العالِمَ والمُقتَدَى به، أقَلُّ عُذرًا في السُّقوطِ مِن سِواه[3].

٦- معنى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي: لطَفَ لهم في التَّوبةِ ووفَّقَهم لها، وهذا دليلٌ على أنَّه ما لم يُرِدِ اللهُ تعالى توبةَ العبدِ ولم يُوَفِّقْه لها، لا يُمكِنُه ذلك[4]، فالله تعالى أخبَرَ أنَّ تَوبتَه عليهم سبَقَت توبتَهم، وأنَّها هي التي جعَلَتْهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٤).
(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٦).

تائبينَ، فكانت سببًا مُقتضيًا لِتَوبتِهم، فدلَّ على أنَّهم ما تابوا حتى تاب اللهُ تعالى عليهم، والحُكمُ ينتفي لانتفاءِ عِلَّتِه[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ مِن لُطفِ اللهِ بالثَّلاثةِ أنْ وَسَمَهم بوَسْمٍ ليس بعارٍ عليهم، فقال: ﴿خُلِّفُواْ﴾ إشارةً إلى أنَّ المُؤمِنينَ خَلَّفوهم، أو خُلِّفوا عمَّنْ بَتَّ في قَبولِ عُذرِهم، أو في رَدِّه، وأنَّهم لم يكُن تَخلُّفُهم رَغبةً عن الخَيرِ؛ ولهذا لم يقُلْ: (تَخَلَّفوا)[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ذِكرُ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ عَقِبَ ذِكرِ ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ يدلُّ على أنَّ قَبولَ التَّوبةِ؛ لِمَحضِ الرَّحمةِ والكَرَمِ[٣].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: في كلِّ أمرٍ يُطلَبُ منهم، ولعلَّه أخرَجَ الأمرَ مَخرَجَ العُمومِ؛ لِيشملَ كُلَّ مُؤمِنٍ، فمن كان مُقصِّرًا كانت آمرةً له باللَّحاقِ، ومن كان مُسابِقًا كانت حاثَّةً له على حِفظِ مَقامِ الاسْتِباقِ[٤].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لعَلَّه عَبَّرَ بـ﴿مَعَ﴾ ليشمَلَ أدنى الدَّرَجاتِ، وهو الكَونُ بالجُثَثِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٢٣٤).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤١-٤٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٤٢).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أمرَ المؤمنينَ بالكَونِ مع الصَّادقينَ، ومتى وجبَ الكَونُ مع الصَّادقينَ، فلا بدَّ مِن وجودِ الصَّادقينَ في كُلِّ وقتٍ، وذلك يمنَعُ من إطباقِ الكُلِّ على الباطِلِ، ومتى امتنع إطباقُ الكُلِّ على الباطِلِ، وجب إذا أطبَقوا على شَيءٍ أن يكونوا مُحِقِّينَ، فهذا يدلُّ على أنَّ إجماعَ الأمَّةِ حُجَّةٌ[(١)].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ: هم أصحابُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا ريبَ أنَّهم أئمَّةُ الصَّادِقينَ، وكُلُّ صادِقٍ بَعدَهم، فبهم يأتَمُّ في صِدْقِه، بل حَقيقةُ صِدقِه اتِّباعُه لهم، وكونُه معهم، ومعلومٌ أنَّ مَن خالَفَهم في شيءٍ- وإن وافَقَهم في غيرِه- لم يكن معهم فيما خالَفَهم فيه، وحينئذٍ فيَصْدُقُ عليه أنَّه ليس معهم، فتَنتفي عنه المعيَّةُ المُطلَقةُ، وإن ثبَتَ له قِسطٌ مِن المعيَّةِ فيما وافَقَهم فيه، فلا يَصدُقُ عليه أنَّه معهم بهذا القِسطِ[(٢)].

١٣- استُدلَّ بقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ على خلافةِ أبي بكرٍ رضي الله عنه؛ فقَدْ بيَّن الله تعالى فِي سورةِ الحشرِ مَن الصادِقونَ، وأنَّهم المهاجرون، بقولِه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ إلى قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] فأمر الذين تبوَّؤا الدَّارَ والإيمانَ أَنْ يكونُوا معهم، أي: تَبَعًا لهم، فحصَلَتْ الخلافَةُ في الصادِقِينَ بهذه الآيةِ، فاسْتَحَقُّوها بهذا الاسم، ولم يَكُنْ في الصادِقِينَ مَن سمَّاه اللهُ الصِّدِّيقَ إلَّا أبو بكرٍ، فكانت له خَاصَّةً، ثُمَّ لِلصَّادِقينَ بعدَه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((الروض الأنف)) للسهيلي (٦/ ٨٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، وفي افتِتاحِ الآيَةِ بحَرفِ التَّحقيقِ ﴿لَّقَد﴾ تَأكيدٌ لِمَضمونِها المتقرِّرِ فيما مَضى مِن الزَّمانِ[١].

- قولُه: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ فيه ضمُّ ذِكْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم إلى ذِكْرِهم؛ تَنبيهًا على عِظَمِ مَراتِبِهم في قَبولِ التَّوبةِ[٢]، وتَقديمُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم في تعَلُّقِ فِعْلِ التَّوبةِ بالغزاةِ؛ للتَّنويهِ بشَأنِ هذه التَّوبةِ، وإتيانِها على جَميعِ الذُّنوبِ؛ إذ قد عَلِم المسلِمون كُلُّهم أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم قد غفَر اللهُ ما تقَدَّم مِن ذَنبِه وما تأخَّر[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ...﴾ فيه وصفُ المهاجِرين والأنصارِ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ لِصِلَةِ الموصولِ تَسبُّبًا في هذه المغفرةِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليلٌ لِما قَبلَها[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٥٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥١).

لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ مثَلٌ للحَيرةِ في أمرِهم، كأنَّهم لا يَجِدون فيها مَكانًا يَقَرُّون فيه قَلقًا وجزَعًا ممَّا هم فيه[١].

- وفيه ترتيبٌ حسَنٌ؛ حيثُ ذكَر أوَّلًا ضِيقَ الأرضِ عليهم، وهو كِنايةٌ عَن استِيحاشِهم، ونَبْوَةِ النَّاسِ عَن كَلامِهم، وثانيًا ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ وهو كِنايةٌ عن تَواتُرِ الهمِّ والغمِّ على قُلوبِهم، حتَّى لم يَكُنْ فيها شيءٌ مِن الانشِراحِ والاتِّساعِ، فذَكَر أوَّلًا ضِيقَ المحَلِّ، ثمَّ ثانيًا ضِيقَ الحالِ فيه[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ فيه تكريرٌ للتَّأكيدِ، وتنبيهٌ على أنَّه يُتابُ عليهم؛ مِن أجلِ ما كابَدوا مِن العُسْرةِ[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ مِن مَحاسِنِ البلاغةِ، وإعجازِ النَّظْمِ القرآنيِّ: أنَّه لَمَّا كان هذا القولُ في تَعْديدِ نِعَمِه بدَأ في تَرتيبِه بالجِهَةِ الَّتي هي عَنِ اللهِ تعالى؛ لِيَكونَ ذلك مُنبِّهًا على تلَقِّي النِّعْمةِ مِن عِندِه لا ربَّ غَيرُه، ولو كان القولُ في تَعديدِ ذَنبٍ لَكانَ الابتِداءُ بالجِهَةِ الَّتي هي عَن المذنِبِ، كما قال تَعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ ﴾ [الصف: ٥]؛ لِيَكونَ هذا أشدَّ تَقْريرًا للذَّنبِ عَليهِم، وهذا مِن فَصاحةِ القرآنِ وبَديعِ نَظْمِه ومُعجِزِ اتِّساقِه[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٠- ٥٢١).

هذه الآيةُ بمَنزِلَةِ التَّذييلِ للقِصَّةِ؛ فإنَّ القِصَّةَ مُشتمِلةٌ على ذِكْرِ قومٍ اتَّقَوُا اللهَ فصَدَقوا في إيمانِهم وجِهادِهم فرَضِيَ اللهُ عنهم، وذِكْرِ قومٍ كذَبوا في ذلك، واختَلَقوا المعاذيرَ وحَلَفوا كَذِبًا، فغَضِبَ اللهُ عليهِم، وقوم تَخلَّفوا عَن الجهادِ، وصدَقوا في الاعترافِ بعدَمِ العُذرِ فتابَ اللهُ علَيهم، فلمَّا كان سببُ فَوزِ الفائزين في هذه الأحوالِ كلِّها هو الصِّدْقَ، أمَر اللهُ المؤمِنين بتَقْواه وبأن يَكونوا في زُمْرَةِ الصَّادِقين، مِثْلَ أولئكَ الصَّادِقين الَّذين تضَمَّنَتهم القِصَّةُ[١].

- والأمرُ بقَولِه: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أبلَغُ في التَّخَلُّقِ بالصِّدْقِ مِن نحوِ: (اصْدُقوا)[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (١٢٠-١٢١)

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَصَبٌ﴾: أي: تَعَبٌ ومشَقَّةٌ[١].

﴿مَخْمَصَةٌ﴾: أي: مَجاعةٌ، مُشتقَّةٌ مِن خَمَصِ البَطنِ، أي: ضُمورِه، وأصلُ (خمص): يدلُّ على الضُّمرِ والتَّطامُنِ[٢].

﴿مَوْطِئًا﴾: أي: أرضًا، أو مَنزِلًا، وأصلُ (وطأ): يدلُّ على تمهيدِ شَيءٍ وتَسهيلِه[٣].

﴿نَّيْلًا﴾: أي: قتلًا وهزيمةً أو أَسْرًا، وأصلُ (نيل): ما ينالُه الإنسانُ بِيَدِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٩)،

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّه ما كان ينبغي لأهلِ المَدينةِ ومَن حولَهم مِن سُكَّانِ البادِيةِ أن يتخَلَّفوا عن الخُروجِ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غزوةِ تَبوكَ، ولا يترَفَّعوا بأنفُسِهم عن نَفسِه، ويَرضَوا لأنفُسِهم بالرَّاحةِ، وهو في تعَبٍ ومشقَّةٍ، ما كان ينبغي لهم ذلك؛ لأنَّه لا يُصيبُهم مِن عَطَشٍ ولا تعبٍ ولا مجاعةٍ شَديدةٍ في سبيلِ اللهِ، ولا يَطَؤونَ أرضًا يُغضِبُ الكُفَّارَ وَطؤُهم إيَّاها، ولا يُصيبونَ مِن عَدُوِّهم شيئًا مِن قَتلٍ أو هزيمةٍ ونحوِها، إلَّا كَتَبَ اللهُ لهم بذلك عمَلًا صالحًا؛ إنَّ اللهَ لا يضيعُ أجْرَ المُحسِنينَ.

ولا يُنفِقونَ نَفَقةً صَغيرةً ولا كبيرةً، ولا يقطعونَ في غَزوِهم واديًا، إلَّا كُتِبَ لهم ثوابُ ذلك؛ ليجزيَهم الله عليه، كأحسنِ ما يجزيهم على أحسنِ أعمالِهم التي كانوا يعملونها.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بِقَولِه: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بوجوبِ الكونِ في

((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩١).

مُوافَقةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في جميعِ الغَزَواتِ والمَشاهِدِ، أكَّدَ ذلك، فنهَى في هذه الآيةِ عن التخَلُّفِ عنه(١).

وأيضًا لَمَّا أمَرَ المُؤمِنينَ بتَقوى اللهِ، وأمَرَ بكَينونَتِهم مع الصَّادِقينَ، وأفضَلُ الصَّادِقينَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ المُهاجِرونَ والأنصارُ؛ اقتضى ذلك مُوافَقةَ الرَّسولِ وصُحبَتَه أنَّى توجَّهَ مِن الغَزَواتِ والمَشاهِدِ، فعُوتِبَ العِتابَ الشَّديدَ مَن تخلَّفَ عن الرَّسولِ في غَزوةٍ، واقتضى ذلك الأمرَ لِصُحبَتِه، وبذلَ النُّفوسِ دُونَه(٢).

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ما كان ينبغي للمُسلِمينَ مِن سُكَّانِ مَدينةِ النبيِّ ومَن حولَهم مِن سُكَّانِ البوادي أنْ يتخَلَّفوا عن الخُروجِ مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غَزوةِ تَبوكَ(٣).

﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

أي: وما كان ينبغي لهم أن يترَفَّعوا بأنفُسِهم عن نَفسِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٥).
قال ابن الجوزي: (ذهب طائفةٌ من المفَسِّرينَ إلى أنَّ هذه الآيةَ اقتضَتْ أنَّه لا يجوزُ لأحدٍ أن يتخَلَّفَ عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا كان في أوَّلِ الأمْرِ، ثمَّ نُسِخَ ذلك بقولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]، قال أبو سليمان الدمشقي: لكلِّ آيةٍ وَجْهُها، وليس للنَّسخِ على إحدى الآيتَينِ طَريقٌ. وهذا هو الصَّحيحُ). ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٤٧٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧٣)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦١).

وسلَّم، في صُحبَتِه في الجِهادِ، ويَرضَوا لأنفُسِهم بالرَّاحةِ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في تعَبٍ ومَشقَّةٍ[١]!

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾.

أي: ما كان ينبغي لهم ذلك؛ لأنَّه لا يصيبُهم في الجهادِ مِن عَطَشٍ ولا تَعَبٍ[٢].

﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا يُصيبُهم مِن مجاعةٍ شَديدةٍ في جهادِهم لإعلاءِ كَلِمةِ الله[٣].

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

أي: ولا تَصِلُ أقدامُهم إلى أرضٍ يغضَبُ الكفَّارُ مِن وُصولِهم إليها[٤].

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٦).
قال ابنُ عاشورٍ: (أُريدَ برَغبَتِهم عن نَفْسِه محَبَّتُهم أنفُسَهم، وحِرصُهم على سلامَتِها، دون الحِرصِ على سلامةِ نَفسِ الرَّسولِ، فكأنَّهم رَغِبوا عن نفسِه؛ إذ لم يخرُجوا معه مُلابِسينَ لأنفُسِهم، أي: محتفظينَ بها؛ لأنَّهم بمقدارِ مَن يتخَلَّف منهم يزدادُ تعَرُّضُ نَفسِ الرَّسولِ مِن التَّلَفِ قُربًا، فتخَلُّفُ واحدٍ منهم عن الخروجِ معه عَونٌ على تقريبِ نَفسِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن التَّلَف). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٦).

أي: ولا يُصيبونَ من الكفَّارِ مِن شَيءٍ قليلٍ أو كثيرٍ؛ من قتلٍ أو جراحٍ أو أسْرٍ، أو غنيمةٍ أو هزيمةٍ[١].

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾.

أي: إلَّا كتَبَ اللهُ لهم بهذه الأعمالِ أعمالًا صالحةً[٢] وثوابًا جزيلًا[٣].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الخيلُ ثلاثةٌ: هي لرَجُلٍ وِزرٌ، وهي لِرَجُلٍ سِترٌ، وهي لرجُلٍ أجْرٌ، فأمَّا التي هي له وِزرٌ، فرَجُلٌ ربَطَها رياءً وفَخرًا ونِواءً[٤] على أهلِ الإسلامِ، فهي له وِزرٌ، وأمَّا التي هي له سِترٌ، فرجلٌ رَبَطَها في سبيلِ اللهِ، ثمَّ لم ينسَ حَقَّ اللهِ في ظُهورِها ولا رِقابِها، فهي له سِترٌ، وأمَّا التي هي له أجرٌ، فرَجُلٌ ربَطَها في سبيلِ اللهِ لأهلِ الإسلامِ، في مَرجٍ وَرَوضةٍ[٥]، فما أكلَتْ من ذلك المَرجِ أو الرَّوضةِ مِن شَيءٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

(٢) قال ابن عاشور: (معنى: ﴿كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ أن يُكتَبَ لهم بكلِّ شَيءٍ مِن أنواعِ تلك الأعمالِ عمَلٌ صالِحٌ، أي: جعَلَ اللهُ كُلَّ عمَلٍ من تلك الأعمالِ عمَلًا صالحًا، وإن لم يَقصِدْ به عامِلوه تقرُّبًا إلى الله؛ فإنَّ تلك الأعمالَ تَصدُرُ عن أصحابِها وهم ذاهِلونَ في غالبِ الأزمانِ أو جميعِها عن الغايةِ منها، فليست لهم نيَّاتٌ بالتقرُّبِ بها إلى الله، ولكِنَّ اللهَ تعالى بفَضْلِه جعَلَها لهم قُرُباتٍ باعتبارِ شَرَفِ الغايةِ منها، وذلك بأنْ جعَلَ لهم عليها ثوابًا، كما جعل للأعمالِ المقصودِ بها القُربةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

(٤) نِوَاءً: أي: مُناوأةً ومُعاداةً. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٦٦).

(٥) في مَرْج: أي: مَرعًى، وهو الأرضُ الواسعةُ ذاتُ النَّباتِ الكثيرِ، (ورَوْضةٍ) عطفُ تفسيرٍ، أو الرَّوضةُ أخصُّ مِن المَرعَى. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٤/ ١٢٦٥).

إلَّا كُتِبَ له عددَ ما أكَلَت حَسَناتٌ، وكُتِبَ له عددَ أرواثِها وأبوالِها حَسَناتٌ، ولا تَقطَعُ طِوَلَها[١]، فاستَنَّتْ شَرَفًا أو شَرَفينِ[٢]، إلَّا كتَبَ اللهُ له عدَدَ آثارِها وأرْواثِها حَسَناتٍ، ولا مَرَّ بها صاحِبُها على نهرٍ فشَرِبَت منه، ولا يريدُ أن يسقِيَها، إلَّا كتَبَ اللهُ له عدَدَ ما شَرِبَت حسناتٍ))[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: يُؤتَونَ تلك الأجورَ؛ لأنَّهم مُحسِنونَ، واللهُ لا يترُكُ إثابةَ مُحسِنٍ في عبادةِ اللهِ، مُحسِنٍ إلى عبادِ اللهِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ﴾ وهو انتقالٌ مِن عِدادِ الكُلَفِ

---

(١) طِوَلَها: أي: حَبلَها الطَّويلَ الذي شُدَّ أحَدُ طَرَفيه في يَدِ الفَرَسِ، والآخَرُ في وَتِدٍ أو غيرِه؛ لِتَدورَ فيه وترعى من جوانِبِها، ولا تذهبَ لِوَجهِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للمُلا الهروي (٤/ ١٢٦٦).

(٢) استَنَّت: أي: جَرَت. وشَرَفًا: أي: شَوطًا أو مَوضِعًا عاليًا مِن الأرضِ. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٣/ ٤٩٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٤/ ١٢٦٦).

(٣) رواه البخاري (٢٨٦٠)، ومسلم (٩٨٧) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

التي تَصدُرُ عنهم بلا قَصدٍ، في سبيلِ اللهِ، إلى بعضِ الكُلَفِ التي لا تخلو عن استشعارِ مَن تحُلُّ بهم بأنَّهم لَقُوها في سبيلِ اللهِ، فالنَّفقةُ في سبيلِ اللهِ لا تكونُ إلَّا عن قَصدٍ، يتذكَّرُ به المُنفِقُ أنَّه يسعى إلى ما هو وسيلةٌ لِنَصرِ الدِّينِ[١].

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾.

أي: ولا يُنفِقُ الغازونَ في سبيلِ اللهِ نَفقةً صَغيرةً ولا نَفَقةً كَبيرةً، ولا يُجاوِزونَ في غَزْوِهم واديًا ذاهِبينَ أو راجعينَ، إلَّا كُتِبَ لهم ثوابُ ذلك[٢].

عن عبدِ الرَّحمنِ بنِ جَبرٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما اغبَرَّت قدَمَا عبدٍ في سبيلِ الله فتمَسَّه النَّارُ))[٣].

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: كُتِب لهم ثوابُ عملِهم ذلك؛ ليَجْزيَهم الله عليه، كأحْسنِ ما يَجزيهم على أحسنِ أعمالِهم التي كانوا يعملونها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٧-٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٨).

(٣) رواه البخاري (٢٨١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧٥).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٧١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٢).

قال الواحدي: (قال أكثر المفسِّرينَ: هذه الآيةُ خاصَّةٌ في صُحبةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والخروجِ معه، وقال الأوزاعي، وابن المبارك: هي لآخِرِ هذه الأمَّةِ وأوَّلِها). ((البسيط)) (١١/ ٩٢).

قال الرازي: (قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وفيه وجهان:

الأول: أنَّ الأحسَنَ مِن صِفةِ فِعْلِهم، وفيها الواجِبُ والمندوبُ والمباحُ، واللهُ تعالى يَجزِيهم على الأحسَنِ، وهو الواجِبُ والمندوبُ، دون المُباحِ.

كما قال سبحانه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾ دلَّتْ هذه الآيةُ على أنَّ مَن قصَدَ طاعةَ اللهِ، كان قيامُه وقُعودُه ومِشيَتُه وحَرَكتُه وسُكونُه، كلُّها حَسَناتٍ مكتوبةً عند الله، وكذا القَولُ في طَرَفِ المَعصيةِ، فما أعظَمَ بَرَكةَ الطاعةِ، وما أعظَمَ شُؤمَ المَعصيةِ[1]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ

والثاني: أنَّ الأحسَنَ صِفةٌ للجَزاءِ، أي: يَجزِيهم جزاءً هو أحسَنُ مِن أعمالِهم وأجَلُّ وأفضَلُ، وهو الثَّوابُ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٠).

وقال محمد رشيد رضا: (النَّصُّ على جزائِهم أحسَنَ ما كانوا يعملونَ، لا ينافي جزاءَهم بما دونَه، وقد قال آنفًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهو فيه، وإنَّما المرادُ النصُّ على أنَّ هذا العمَلَ أحسَنُ أعمالِهم أو مِن أحسَنِها؛ لأنَّه جمَعَ بين الجهادِ بالمالِ، والجِهادِ بالنَّفسِ، وما قَبلَه من الثَّاني فقط، والجزاءُ على الأحسَنِ يكونُ أحسَنَ منه، على قاعدةِ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩] وبيانُ ذلك بقاعدةِ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال بعضُهم: إنَّ معنى الجملةِ أنَّه تعالى يَجزيهم بكُلِّ عمَلٍ ممَّا ذُكِرَ أحسَنَ جَزاءٍ على أعمالِهم الحَسَنةِ، أي: في غيرِ الجهاد بالمالِ والنَّفسِ، بأن تكونَ النَّفَقةُ الصغيرةُ فيه كالنَّفَقةِ الكبيرةِ في غيره مِن المبرَّاتِ، والمشَقَّةُ القليلةُ فيه كالمشَقَّةِ الكثيرةِ فيما عداه من الأعمالِ الصَّالحاتِ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩).

عَدُوٍّ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ فيه أشَدُّ تَرغيبٍ وتَشويقٍ للنُّفوسِ إلى الخُروجِ إلى الجهادِ في سَبيلِ الله، والاحتساب لِمَا يُصيبُهم فيه من المشَقَّاتِ، وأنَّ ذلك لهم رفعةُ دَرَجاتٍ، وأنَّ الآثارَ المترتِّبَةَ على عملِ العبدِ، له فيها أجرٌ كبيرٌ[(١)].

٣- النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَولَى بالمُؤمِنينَ مِن أنفُسِهم، فعلى كلِّ مُسلِم أن يَفدِيَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بِنَفسِه، ويُقَدِّمَه عليها؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾[(٢)].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أُمِروا بأن يَصحَبوه على البأساءِ والضَّرَّاءِ، وأن يُكابِدوا معه الأهوالَ بِرَغبةٍ ونَشاطٍ واغتِباطٍ، وأن يُلَقُّوا أنفُسَهم من الشَّدائِد ما تَلقاه نَفْسُه، عِلمًا بأنَّها أعزُّ نَفسٍ عندَ اللهِ وأكرَمُها عليه، فإذا تعَرَّضَت مع كرامَتِها وعِزَّتِها للخَوضِ في شِدَّةٍ وهَولٍ، وجَبَ على سائِرِ الأنفُسِ أن تتهافَتَ فيما تعَرَّضَت له، ولا يكتَرِثَ لها أصحابُها ولا يُقيموا لها وزْنًا، وتكون أخَفَّ شَيءٍ عليهم وأهوَنَه، فضلًا عن أن يَربَؤوا بأنفُسِهم عن مُتابَعتِها ومُصاحَبتِها، ويَضِنُّوا بها على ما سَمَحَ بنَفسِه عليه[(٣)]، ففي قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ دَلالةٌ على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أولى بالمُؤمِنينَ مِن أنفُسِهم، ومِن حقِّه أنَّه يجبُ أنْ يُؤثِرَه العطشانُ بالماءِ، والجائِعُ بالطَّعامِ، وأنَّه يجبُ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢١).

يُوقَى بالأنفُسِ والأموالِ، وعُلِمَ بهذا أنَّ رغبةَ الإنسانِ بنَفْسِه أنْ يُصيبَه ما يُصيبُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن المشقَّةِ معه- حَرامٌ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لعلَّه قلَّلَهم بصيغة القِلَّةِ(٢) بالنِّسبةِ إلى من أيَّدَه به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من جُنودِه(٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ لَمَّا كان العطَشُ أشَقَّ الأشياءِ المُؤذيةِ للمُسافِرِ بكَثرةِ الحَرَكةِ، وإزعاجِ النَّفسِ -وخصوصًا في شِدَّةِ الحَرِّ كغزوة تَبُوكَ- بُدِئَ به أوَّلًا، وثنَّى بالنَّصَبِ وهو التَّعَب؛ لأنَّه الكَلالُ الذي يلحَقُ المُسافِرَ، والإعياءُ النَّاشِئُ عن العطَشِ والسَّيرِ، وأتَى ثالثًا بالجُوعِ؛ لأنَّه حالةٌ يُمكِنُ الصَّبرُ عليها الأوقاتَ العديدةَ، بخلافِ العطَشِ والنَّصَبِ المُفضِيَينِ إلى الخلودِ والانقطاعِ عَن السَّفرِ، فكان الإخبارُ بما يَعرِضُ للمُسافِرِ أوَّلًا فثانيًا فثالثًا(٤).

٤- كلُّ ما يُؤلِمُ النُّفوسَ، ويَشُقُّ عليها، فإنَّه كفَّارةٌ للذُّنوبِ، وإنْ لم يكُنْ للإنسانِ فيه صُنعٌ ولا تسَبُّبٌ، كالمَرَضِ وغيره، كما دلَّت النُّصوصُ الكثيرةُ على ذلك، وأمَّا إن كان ناشِئًا عن فِعْلٍ هو طاعةٌ لله، فإنَّه يُكتَبُ لصاحِبِه به أجرٌ، وتُرفَعُ به دَرَجات، كالألمِ الحاصِلِ للمُجاهِدِ في سبيلِ الله تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٤٢١).

(٢) جمعُ القِلَّة: ما وُضِعَ للعددِ القليلِ، وهو مِن الثَّلاثةِ إلى العَشرةِ، كأحمالٍ. ولجموع القِلَّة أربعةُ أوزانٍ، هي: أفعُل (كأنفُس)، وأفعال (كأجداد)، وأفعِلَة (كأعمدة)، وفِعْلَة (كفِتْيَة). يُنظر: ((جامع الدروس العربية)) للدماميني (٢/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٣).

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾[(١)].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ استدَلَّ به من قال: إنَّ الفارِسَ يستحِقُّ سَهمَ الفَرَسِ بدُخولِ أرضِ الحَربِ، لا بالحيازةِ؛ لأنَّ وَطءَ دِيارِهم يُدخِلُ عليهم الذُّلَّ[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مُغايظةَ الكُفَّارِ غايةٌ مَحبوبةٌ للرَّبِّ مَطلوبةٌ له[(٣)].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ لَمَّا كان ربَّما تعنَّتَ مُتعَنِّتٌ فجعَلَ ذِكرَ (الصغيرة) قيدًا، قال: ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ إعلامًا بأنَّه مُعتَدٌّ به؛ لئَلَّا يُترَكَ[(٤)].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقُل هاهنا «به» لأنَّ هذه أفعالٌ صادرةٌ عنهم[(٥)].

٩- قَولُه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ الجِهادَ مِن أحسَنِ أعمالِ العِبادِ[(٦)]. وذلك على أحدِ وجهي تأويلِ الآيةِ.

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ١٧).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٥).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٤١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٥).
(٦) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٢).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ ... ﴾ الآيةَ، استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، وفيه تَعريضٌ بالَّذين تَخلَّفوا مِن أهلِ المدينةِ ومِن الأعرابِ[١].

- وصِيغةُ ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ خبرٌ مستعمَلٌ في إنشاءِ الأمرِ على طَريقِ المبالَغةِ؛ إذ جعَل التَّخلُّفَ ليس مِمَّا ثبَت لهم؛ فهُم بُرآءُ مِنه، فيَثبُتُ لهم ضِدُّه، وهو الخروجُ معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم إذا غزَا[٢].

- وخصَّ أهلَ المدينةِ ومَن حولَهم مِن الأعرابِ بالذِّكرِ معَ أنَّ كلَّ النَّاسِ في ذلك سواءٌ؛ لِقُربِهم مِنه، وأنَّه لا يَخْفى علَيهِم خُروجُه[٣].

- قولُه: ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ نهيٌ بليغٌ، معَ تقبيحٍ لأمرِهم، وتوبيخٍ لهم علَيه، وتهييجٍ لِمُتابعتِه بأنَفةٍ وحَميَّةٍ[٤].

- والباءُ في قولِه: ﴿ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ للمُلابَسةِ، حيثُ نزلَ الضَّنُّ بالأنفُسِ والحذَرُ مِن هَلاكِها بالتَّلبُّسِ بها في شدَّةِ التَّمكُّنِ؛ فاستُعمِلَ له حرفُ باءِ الملابَسةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٢).

وهذه ملابَسةٌ خاصَّةٌ، وإن كانَت النُّفوسُ في كلِّ حالٍ مُتلبِّسًا بها، وهذا تركيبٌ بديعُ الإيجازِ، بالغُ الإعجازِ[١].

- قولُه: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ﴾، بَدَأ في هاتَين الجملتَين بالأسبَقِ وهو الوَطْءُ، ثُمَّ ثَنَّى بالنَّيل مِن العدوِّ، وجاء العمومُ في ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ بالألفِ واللَّامِ، وفي ﴿مِنۡ عَدُوّٖ﴾؛ لِكَونِه نكرة في سياقِ النَّفيِ، وبُدِئ أوَّلًا في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بما يَحُضُّ المسافِرَ في الجهادِ في نفسِه، ثمَّ ثانيًا بما يترتَّبُ على تَحمُّلِ تلك المشاقِّ مِن غيظِ الكفَّارِ، والنَّيلِ مِن العدوِّ[٢].

- وقولُه: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ فيه تنكيرُ ﴿نَّيۡلًا﴾؛ لِيَعُمَّ القليلَ والكثيرَ ممَّا يَسوؤُهم؛ قتلًا وأَسرًا وغنيمةً وهزيمةً[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تعليلٌ لـ﴿كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ﴾، وتنبيهٌ على أنَّ الجهادَ إحسانٌ[٤]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تذييلٌ دلَّ على أنَّهم كانوا بتِلكَ الأعمالِ مُحسِنين، فدخَلوا في عُمومِ قضيَّةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بوجهِ الإيجازِ[٥].

- وفيه وضعُ المُظهَرِ موضِعَ المُضمَرِ- حيثُ لم يَقُلْ: (لا يُضِيعُ أجْرَهم)- لِمَدْحِهم، والشَّهادةِ عليهم بالانتِظامِ في زُمرةِ المُحسِنين، وأنَّ أعمالَهم مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٣- ٥٢٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٥٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٧).

قَبيلِ الإحسانِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ فيه إطنابٌ في عدِّ مَناقِبِهم في الغَزوِ؛ لِتَصويرِ ما بذَلوه في سَبيلِ اللهِ، والنَّفقةُ الكبيرةُ أدخَلُ في القَصْدِ؛ فلِذلك نبَّه عليها وعلى النَّفقةِ الصَّغيرةِ؛ لِيُعْلِمَ بذِكْرِ الكَبيرةِ حُكْمَ النَّفقةِ الصَّغيرةِ؛ لأنَّ العِلَّةَ في الكبيرةِ أظهَرُ[٢]، وإنَّما قدَّم الصَّغيرةَ على سَبيلِ الاهتِمامِ، وإذا كتَب أجْرَ الصَّغيرةِ فأَحْرى أجرُ الكبيرةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ فيه تَوسيطُ (لَا)؛ للتَّنصيصِ على استِبْدادِ كُلٍّ مِنهما بالكَتْب والجَزاءِ، لا لِتَأكيدِ النَّفيِ كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾[٤].

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ الوادي: هو مَسيلُ الماءِ في مُنفَرَجاتِ الجِبالِ وأغوارِ الآكامِ، خَصَّه بالذِّكرِ؛ لِمَا فيه من المشَقَّةِ[٥].

- قولُه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في ذِكْرِ ﴿كَانُوا۟﴾ والإتيانِ بخبَرِها مُضارِعًا ﴿يَعْمَلُونَ﴾: إفادةُ أنَّ مِثْلَ هذا العمَلِ كان دَيدنَهم[٦].

- وفي هذه الآيةِ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير أبي حيان))(٥/ ٥٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١١).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٨).

وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾، وقال بعدَها في هذه الآيةِ: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم﴾ بدونِ (عَمَلٌ صَالِحٌ)؛ وذلك لأنَّ ما في الآيةِ الأولى مُشتمِلٌ على ما هو مِن عَملِهم، وهو قولُه: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ...﴾، وعلى ما ليس مِن عَملِهم، وهو قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ...﴾؛ فتفَضَّل اللهُ بإجرائِه مُجْرى عمَلِهم في الثَّوابِ؛ فناسبَ ذلك زيادةُ قولِه ﴿بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾؛ ولهذا عمَّ عَقِبَه في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. وأمَّا ما ذُكِرَ في الآيةِ الثَّانيةِ هنا، فهو مُختَصٌّ بما هو مِن عمِلِهم، وهو قولُه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً ...﴾؛ ليُكتَبَ لهم ذلك بِعَينِه؛ ولهذا خَصَّهم عَقِبه في قولِه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1]، فالفَرقُ بينهما: أنَّ الأوَّلَ ليس مِن فِعْلِهم، وإنَّما تولَّدَ عنه، فكُتِبَ لهم به عمَلٌ صالِحٌ، والثَّاني نفسُ أعمالِهم، فكُتِبَ لهم[2].

- وأيضًا تَأخَّرَت هاتانِ الجُملَتانِ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾، وقُدِّمَت تلك الجُمَلُ السَّابقةُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾؛ لأنَّها أشَقُّ على النَّفسِ، وأنْكَى في العدوِّ، وهاتانِ أهوَنُ؛ لأنَّهما في الأموالِ وقَطْعِ الأرضِ إلى العدُوِّ، سواءٌ حصَل غيظُ الكفَّارِ والنَّيلُ مِن العدوِّ أوْ لَم يَحصُلا، فهذا أعَمُّ وتلك أخَصُّ، وكان تعليلُ تلك آكَدَ؛ إذ جاء بالجُملةِ الاسميَّةِ المؤكَّدةِ بـ(إنَّ)، وذكَر فيه الأجْرَ ولفْظَ (الْمُحْسِنِينَ)؛

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٤١- ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٠٥)، ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٥٢٢).

تنبيهًا على أنَّهم حازوا رُتَبَ الإحسانِ الَّتي هي أعلى رُتَبِ المؤمِنين، وفي هاتَينِ الجُملَتَينِ أتَى بِلامِ العِلَّةِ، وهي مُتعلِّقةٌ بـ (كُتِبَ)، والتَّقديرُ: أحسَنُ جَزاءِ الَّذي كانوا يَعمَلون؛ لأنَّ عمَلَهم له جزاءٌ حسَنٌ، وله جزاءٌ أحسَنُ، وهنا الجزاءُ أحسنُ جزاءٍ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٤).

الآيتان (١٢٢-١٢٣)

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِيَنفِرُواْ﴾: أي: لِيخْرُجوا إلى الغزوِ، والنَّفْر: الانزعاجُ عن الشيءِ، وإلى الشيءِ، كالفَزَعِ إلى الشيءِ وعن الشيءِ، وأصلُ (نفر): يدلُّ على تجافٍ وتباعدٍ[1].

﴿يَلُونَكُم﴾: أي: يَقرُبونَ منكم، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّه لا ينبغي لجَميعِ المُؤمِنينَ أن يَنفِروا كلُّهم للجهادِ في وقتٍ واحدٍ، فهلَّا نفَرَ من كلِّ فِرقةٍ جماعةٌ منهم للقِتالِ؛ ليتسَنَّى لجملةِ المُؤمِنينَ تعَلُّمُ دِينِ اللهِ، ببقاءِ طائفةٍ أخرى منهم لهذا الغَرَضِ، ولِيُنذِرَ الذين قعَدوا للتفَقُّه النَّافرينَ للجهادِ إذا رَجَعوا إليهم؛ لعلَّهم يَحذَرونَ غضَبَ اللهِ وعَذابَه.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ الذين آمنوا أن يُقاتِلوا الكفَّارَ القَريبينَ مِن دِيارِهم، وأنْ يَجِدَ الكُفَّارُ منهم غِلظةً عند قِتالِهم، وأن يتيقَّنوا أنَّ الله مع المتَّقينَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص ٤٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٧).

لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذه الآيةَ مِن تَتِمَّةِ أحكامِ الجهادِ بالقِتالِ، مع زيادةِ حُكمِ طَلَبِ العِلمِ، والتفَقُّهِ في الدِّينِ، وهو آلةُ الجهادِ بالحُجَّةِ والبُرهانِ، الذي عليه مدارُ الدَّعوةِ إلى الإيمانِ، وإقامة دعائِمِ الإسلامِ، وإنَّما جِهادُ السَّيفِ حمايةٌ وسِياجٌ[١].

وأيضًا لَمَّا كان غالِبُ ما تقدَّمَ مِن هذه السُّورةِ تَحريضًا على الجِهادِ، وتنديدًا على المقَصِّرينَ في شأنِه، وانتهى الكلامُ قبل هذا بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ...﴾؛ فلا جرَمَ كانت قوَّةُ الكلامِ مُؤذِنَةً بوُجوبِ تمحُّضِ المسلمينَ للغَزوِ. وإذ قد كان مِن مَقاصِدِ الإسلامِ بَثُّ علومِه وآدابِه بين الأمَّةِ، وتكوينُ جَماعاتٍ قائمةٍ بعِلمِ الدِّينِ وتَثقيفِ أذهانِ المُسلِمينَ؛ كي تصلُحَ سِياسةُ الأمَّةِ على ما قصَدَه الدِّينُ منها؛ من أجلِ ذلك عقَّبَ التَّحريضَ على الجِهادِ بما يبَيِّنُ أنْ ليس من المَصلحةِ تمَحُّضُ المُسلِمينَ كُلِّهم لأن يكونوا غُزاةً أو جُندًا، وأنْ ليس حظُّ القائِمِ بواجِبِ التَّعليمِ، دونَ حَظِّ الغازي في سبيلِ اللهِ؛ من حيثُ إنَّ كِليهما يقومُ بعمَلٍ لتأييدِ الدِّينِ، فهذا يؤيِّدُه بتوسُّعِ سُلطانِه، وتكثيرِ أتباعِه، والآخَرُ يؤيِّدُه بتثبيتِ ذلك السُّلطانِ، وإعدادِه لأنْ يَصْدُرَ عنه ما يضمَنُ انتظامَ أمْرِه، وطولَ دَوامِه[٢].

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾.

أي: وما ينبغي للمُؤمِنينَ أن ينفِروا كلُّهم في وقتٍ واحدٍ للجهادِ في سَبيلِ اللهِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٨-٥٩).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٤٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير))

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾.

أي: فهلَّا نفَرَ مِن كُلِّ قَبيلةٍ أو أهلِ مَدينةٍ، جمَاعةٌ مِن المُسلِمينَ للقِتالِ، تحصُلُ بهم الكفايةُ؛ ليتأتَّى لجُملةِ المُؤمِنينَ القاعدينَ تعلُّمُ دِينِ اللهِ، والتفقهُ فيه[1].

(٤/ ٢٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

قال أبو عُبيد القاسم بن سلام في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً...﴾: (فلولا هذه الآيةُ، لكان الجِهادُ حَتمًا واجبًا على كلِّ مُؤمِنٍ في خاصَّةِ نَفسِه ومالِه، كسائِرِ الفَرائِضِ، ولكِنَّ هذه الآيةَ جعَلَت للنَّاسِ الرُّخصةَ في قيامِ بَعضِهم بذلك عن بَعضٍ). ((الناسخ والمنسوخ)) (١/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٤٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٤، ٢٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٢، ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

وممَّن اختار هذا المعنَى المذكورَ: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابن القيم- وعزاه للأكثرينَ- ومحمد رشيد رضا، والسعدي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٨٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٣-٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

وممن قال بهذا القول مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ- في روايةٍ عنه- وابنُ زيدٍ، وقتادةُ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣١١).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: إذا رجعتِ السَّرايا، وقد نزَل بعدَهم قرآنٌ، وتعلَّمه القاعدونَ، قالوا لهم إذا رجَعوا: إنَّ الله تعالى قد أنزلَ بعدَكم على نبيِّكم قرآنًا، وقد تعلَّمناه. فتتعلَّم السَّرايا ما أنزَل الله على نبيِّهم بعدَهم، فذلك قولُه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: وليعلِّموهم بالقرآنِ ويخوِّفوهم به، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ولا يَعملونَ بخلافِه). ((البسيط)) (١١/ ٩٥).

قال محمد رشيد رضا: (إنَّ اعتبارَ طائفةِ السَّرِيَّةِ بما قدْ يحصلُ لها مِنَ النَّصرِ - وهو غيرُ مضمونٍ ولا مُطَّرِدٍ - لا يُسَمَّى تَفَقُّهًا في الدِّينِ وإنْ كان يدخلُ في عمومِ معنَى الفقهِ، فإنَّ التَّفَقُّه هو: التَّعَلُّمُ الَّذي يكونُ بالتَّكلُّفِ وَالتَّدرُّجِ والمُتبادرِ مِنَ الدِّينِ عِلْمُه، ولا يَصِحُّ هذا المعنَى في ذلك العهدِ إلَّا في الَّذينَ يبقَوْنَ معَ النَّبيِّ - صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم - فيَزْدادونَ كلَّ يومٍ علمًا وفقهًا بنزولِ القرآنِ) ((تفسير المنار)) (١١/ ٦٤).

واختار ابنُ جريرٍ أنَّ المعنى: (ليتفقَّهَ الطائفةُ النافرةُ بما تُعاينُ مِن نصرِ الله أهلَ دينِه، وأصحابَ رسولِه على أهلِ عداوتِه والكفرِ به، فيفقهُ بذلك مِن معاينتِه حقيقةَ علمِ أمرِ الإسلامِ، وظهورِه

﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾.

أي: ولِيُعلِّمَ القاعدون قومَهم الذين نفَروا إلى الغزوِ، إذا رجَعوا إليهم، ويُخوِّفوهم ويَعِظوهم؛ رجاءَ أنْ يحذَروا عاقبةَ عصيانِ الله، وألَّا يعملوا بخلافِ ما تعلَّموه[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذا إرشادٌ آخَرُ، بعدما أرشَدَ تعالى إلى التَّدبيرِ فيمن يُباشِرُ القِتالَ، أرشَدَهم إلى أنَّهم يَبدَؤونَ بالأقرَبِ فالأقرَبِ مِن الكفَّارِ، والغِلظةِ عليهم، والشِّدَّةِ في

على الأديانِ مَن لم يكنْ فقهَه). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٢)، قال ابن الجوزي: (وهو أشبهُ بظاهرِ الآيةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣١١).

وممن قال بذلك مِن السَّلف: الحسنُ البصريُّ. ينظر ((تفسير ابن جرير)) الموضع السابق.

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٢).

قال ابن القيِّم: (وقد اختُلِفَ في الآيةِ، فقيل: المعنى أنَّ المؤمنينَ لم يكونوا لِيَنفِروا كلُّهم للتفقُّهِ والتعلُّم، بل ينبغي أن ينفِرَ مِن كلِّ فِرقةٍ منهم طائفةٌ، تتفقَّه تلك الطائفةُ ثم ترجِعُ تُعَلِّمُ القاعدينَ، فيكونُ النَّفيرُ على هذا نفيرَ تعلُّم، والطائفةُ تُقال على الواحدِ فما زاد، قالوا: فهو دليلٌ على قَبولِ خَبَرِ الواحِدِ، وعلى هذا حَمَلَها الشافعيُّ وجماعةٌ. وقالت طائفةٌ أخرى: المعنى: وما كان المُؤمِنونَ لِيَنفِروا إلى الجهادِ كُلُّهم، بل ينبغي أن تنفِرَ طائفةٌ للجهادِ، وفِرقةٌ تقعُدُ تتفقَّه في الدِّينِ، فإذا جاءت الطَّائفةُ التي نفَرَت، فقَّهَتْها القاعدة، وعَلَّمَتْها ما أُنزِلَ من الدِّينِ والحلالِ والحرامِ، وعلى هذا فيكونُ قولُه: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾، ﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾ للفِرقةِ التي نفَرَت منها طائفةٌ، وهذا قولُ الأكثرينَ، وعلى هذا فالنَّفيرُ نفيرُ جِهادٍ على أصلِه؛ فإنه حيث استُعمِلَ إنَّما يُفهَم منه الجهادُ، قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ وقال النبيُّ: «لا هجرةَ بعد الفتحِ، ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ، وإذا استُنفِرْتُم فانفِروا»، وهذا هو المعروفُ مِن هذه اللَّفظةِ). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٥٦).

القِتالِ، والشَّجاعةِ والثَّباتِ[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، ابدَؤوا في الغَزوِ بقِتالِ الكُفَّارِ القَريبينَ مِن ديارِكم[٢].

﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾.

أي: ولْيَجِدِ الكُفَّارُ المُحارِبونَ لكم- أيُّها المُؤمِنونَ- شِدَّةً وخُشونةً منكم عندَ قِتالِهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ٧٣].

وقال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٥، ٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).
قال ابن كثير: (أمَرَ اللهُ تعالى المؤمِنينَ أن يُقاتِلوا الكُفَّارَ أوَّلًا فأوَّلًا، الأقرَبَ فالأقرَبَ إلى حوزةِ الإسلامِ؛ ولهذا بدأ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقتالِ المُشرِكينَ في جزيرةِ العَرَب، فلمَّا فرَغَ منهم وفتحَ الله عليه مكَّةَ والمدينةَ، والطَّائِفَ واليَمَن واليَمامة، وهجَر وخيبَرَ وحَضْرَموت، وغيرَ ذلك من أقاليمِ جَزيرةِ العَرَبِ، ودخل الناسُ من سائِرِ أحياء العَرَبِ في دين اللهِ أفواجًا- شرَعَ في قتالِ أهلِ الكِتابِ، فتجهَّزَ لغَزوِ الرُّومِ الذين هم أقرَبُ النَّاسِ إلى جزيرة العرب، وأَولى النَّاسِ بالدَّعوةِ إلى الإسلام؛ لِكَونِهم أهلَ الكِتابِ، فبلغ تبوكَ، ثم رجَعَ لأجلِ جَهدِ النَّاسِ، وجَدْبِ البلادِ، وضِيقِ الحالِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٧- ٢٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٥-٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٣).

أي: وأيقِنُوا- أيُّها المُؤمِنونَ- أنَّ اللهَ معكم بالنَّصرِ على أعدائِكم إن اتَّقَيتُموه، بامتثالِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه، ومن ذلك تَقواه في جِهادِكم[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ فيه فضيلةُ العِلمِ، وخصوصًا الفِقهَ في الدِّينِ، وأنَّه أهَمُّ الأمورِ[٢].

٢- مَن تعَلَّمَ عِلمًا، فعليه نَشرُه وبَثُّه في العبادِ، ونصيحتُهم فيه؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٣].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٣١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

قال محمد رشيد رضا: (﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ له، في مُراعاةِ أحكامِه وسُنَنِه، بالمعونةِ والنَّصرِ، وأهمُّها ما يجِبُ اتِّقاؤُه في الحَربِ؛ من التقصيرِ في أسبابِ النَّصرِ والغَلَبِ، التي بَيَّنَها في كتابِه، والتي تُعرَف بالعِلمِ والتَّجارِبِ؛ كإعدادِ ما يُستطاعُ مِن قوَّةٍ، والصَّبرِ والثَّباتِ، والطَّاعةِ والنِّظامِ، وتَرْكِ التَّنازُعِ والاختلافِ، وكثرةِ ذِكرِ الله، والتوكُّلِ عليه فيما وراء الأسبابِ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٦٦).

وقال السعدي: (﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ولْيكُنْ لَديكم علمٌ أنَّ المَعونةَ مِن اللهِ تَنزِلُ بحسَبِ التَّقوى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٥).

يَحۡذَرُونَ﴾ دَلَّت الآيةُ على أنَّه يجِبُ أن يكونَ المقصودُ مِن التفَقُّهِ والتعَلُّم دَعوةَ الخَلقِ إلى الحَقِّ، وإرشادَهم إلى الدِّينِ القَويم والصِّراطِ المُستقيم، فكُلُّ مَن تفَقَّه وتعَلَّم لهذا الغرَضِ، كان على المنهَجِ القَويم، والصِّراطِ المُستَقيم، ومَن عدَلَ عنه، وطلَبَ الدُّنيا بالدِّينِ، كان من الأخسَرينَ أعمالًا، الذين ضلَّ سعيُهم في الحياةِ الدُّنيا، وهم يحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ الآيةُ تدُلُّ على وُجوبِ تعميمِ العِلمِ، والتفَقُّهِ في الدِّينِ، والاستعدادِ لِتَعليمِه في مواطِنِ الإقامةِ، وتفقيهِ النَّاسِ فيه على الوجهِ الذي يَصلُحُ به حالُهم، ويكونونَ به هُداةً لِغَيرهم، وأنَّ المتخَصِّصينَ لهذا التفَقُّه بهذه النيَّة، لا يقِلُّونَ في الدَّرَجةِ عند الله عن المُجاهِدينَ بالمالِ والنَّفسِ؛ لإعلاءِ كَلِمةِ الله، والدِّفاعِ عن المِلَّةِ والأُمَّة(٢).

٥- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ المؤمِنُ الكامِلُ هو الذي يكونُ رَفيقًا لأخيه المؤمِنِ، غليظًا على عَدُوِّه الكافِرِ، كما قال تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾(٣) [الفتح: ٢٩].

٦- قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ فيه حَضُّ اللهِ تعالى على التَّقْوى الَّتي هي مِلاكُ الدِّين والدُّنيا، وبها يُلْقى العدوُّ، وقد قال بعضُ الصَّحابةِ: إنَّما

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٨).

تُقاتِلون النَّاسَ بأعمالِكم. وأهلُها هم المُجِدُّون في طرُقِ الحقِّ، فوعَد تعالى أنَّه معَ أهلِ التَّقْوى ومَن كان اللهُ معَه فلَن يُغلَبَ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ حجةٌ في أنَّ النفيرَ والنفقةَ فرضانِ على الكفايةِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ التفقُّهَ والتَّذكيرَ مِن فُروضِ الكفايةِ، وأنَّه ينبغي أن يكونَ غرَضُ المتَكَلِّمِ فيه أن يستقيمَ ويُقيمَ، لا الترفُّعَ على النَّاسِ، وصَرْفَ وجوهِهم إليه، والتبَسُّطَ في البلادِ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في وجوبِ طَلَبِ العِلمِ[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ لَمَّا كان مصيرُ الفِقهِ سَجيَّةً، لا يحصُلُ إلَّا بمُزاولةِ ما يُبلِّغُ إلى ذلك، كانت صيغةُ التفَعُّلِ المُؤذِنَةُ بالتكَلُّفِ مُتعَيِّنةً لأن يكونَ المرادُ بها تكلُّفَ حُصولِ الفِقهِ، أي: الفَهمِ في الدينِ، وفي هذا إيماءٌ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٧- ٩٨).
(٢) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦١).

أنَّ فَهمَ الدِّينِ أمرٌ دَقيقُ المَسلَكِ لا يحصُلُ بسُهولةٍ [١].

٥- دلَّ قولُه تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ على أنَّ الفِقهَ في الدِّينِ هو فَهمُ معاني الأمرِ والنَّهيِ؛ لِيَستبصرَ الإنسانُ في دينِه؛ حيثُ قَرَنَ اللهُ تعالى الإنذارَ بالفِقهِ؛ فدلَّ على أنَّ الفِقهَ ما وَزَعَ عن مُحَرَّمٍ، أو دعا إلى واجبٍ، وخوَّفَ النفوسَ مُواقعةَ المحظورِ، لا ما هَوَّنَ عليها استحلالَ المحارمِ بأدنى الحِيَلِ [٢].

٦- اشتملتِ الآيةُ الكريمة: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ على بيانِ حُكْمِ النَّافرينَ والقاعِدينَ، وعلى بيانِ اشتِراكِهم في الجِهادِ والعِلمِ؛ فالنَّافِرونَ أهلُ الجِهاد، والقاعِدونَ أهلُ التفَقُّهِ، والدِّينُ إنَّما يتِمُّ بالجِهادِ والعِلمِ، فإذا اشتغَلَت طائفةٌ بالجِهادِ وطائفةٌ بالتفَقُّه في الدِّينِ، ثمَّ يعَلِّم أهلُ الفِقهِ المُجاهدينَ إذا رجعوا إليهم، حصَلَت المصلحةُ بالعِلمِ والجِهادِ [٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ إن قيل: كان الظَّاهِرُ في الآيةِ (ليتفَقَّهوا في الدِّين ولِيُعَلِّموا قومَهم إذا رجعوا إليهم؛ لعلَّهم يَفقَهونَ) فلِمَ وُضِعَ مَوضِعَ (التَّعليم) الإنذارُ، وموضِعَ (يفقهون) يَحذَرونَ؟ يجاب: بأنَّ ذلك آذَنُ بالغَرَضِ منه، وهو اكتسابُ خَشيةِ اللهِ، والحذَرُ مِن بأسِه [٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٩-٥٣٠).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ هذه الآيةُ حُجَّةٌ قويَّةٌ تدلُّ على أنَّ خَبَرَ الواحِدِ حُجَّةٌ، فكلُّ ثلاثةٍ فِرقةٌ، وقد أوجَبَ الله تعالى أن يخرُجَ مِن كلِّ فِرقةٍ طائفةٌ، والخارِجُ من الثَّلاثةِ يكونُ اثنين أو واحدًا، فوجب أن يكونَ الطَّائفةُ إمَّا اثنينِ وإمَّا واحدًا، ثمَّ إنه تعالى أوجَبَ العمَلَ بأخبارِهم؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾ عبارةٌ عن إخبارِهم، وقولَه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ إيجابٌ على قومِهم أن يَعمَلوا بإخبارِهم، وذلك يقتضي أن يكونَ خَبَرُ الواحِدِ أو الاثنينِ حُجَّةً في الشَّرعِ[(١)].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ الإنذارُ هو المَوعِظةُ، وإنَّما اقتصَرَ عليه؛ لأنَّه أهَمُّ، لأنَّ التَّخليةَ مُقَدَّمةٌ على التَّحليةِ، ولأنَّه ما مِن إرشادٍ إلى الخَيرِ إلَّا وهو يشتَمِلُ على إنذارٍ مِن ضِدِّه[(٢)].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ فيه جوازُ التَّقليدِ في الفِقهِ للعامِّيِّ[(٣)].

١١- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ وإرشادٌ، وتَنبيهٌ لطيفٌ لفائدةٍ مُهِمَّةٍ، وهي: أنَّ المُسلِمينَ ينبغي لهم أن يُعِدُّوا لكلِّ مَصلحةٍ مِن مَصالِحِهم العامَّةِ مَن يقومُ بها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧١-١٧٢)، ويُنظر أيضًا: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٥).

ويوفِّرُ وَقتَه عليها، ويجتَهِدُ فيها، ولا يلتَفِتُ إلى غيرِها؛ لِتَقومَ مَصالِحُهم، وتتِمَّ مَنافِعُهم، ولتكونَ وِجهةُ جَميعِهم ونهايةُ ما يقصِدونَ، قَصدًا واحدًا، وهو قيامُ مَصلحةِ دينِهم ودُنياهم، ولو تفرَّقَت الطُّرُق، وتعدَّدَت المشاربُ، فالأعمالُ مُتباينةٌ، والقَصدُ واحِدٌ، وهذه مِن الحِكمةِ العامَّةِ النَّافعةِ في جميعِ الأمور[1].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ فيه أنَّه يجِبُ الابتداءُ في القتالِ بالأقرَبِ إلى بلَدِ المُقاتِلينَ[2].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ إنَّ الابتداءَ بالغَزوِ مِن المواضِعِ القريبةِ أَوْلى لوجوهٍ:

الأول: أنَّ مُقابلةَ الكُلِّ دَفعةً واحدةً مُتعَذِّرةٌ، ولَمَّا تساوى الكُلُّ في وجوبِ القِتالِ، لِما فيهم من الكُفرِ والمحاربةِ، وامتنَعَ الجَمْعُ؛ وجَبَ التَّرجيحُ، والقُربُ مُرجِّحٌ ظاهِرٌ كما في الدَّعوةِ، وكما في سائِرِ المُهِمَّاتِ، ألا ترى أنَّ في الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَر، الابتداء بالحاضِرِ أَوْلى مِن الذَّهابِ إلى البلادِ البَعيدةِ؛ لهذا المُهِمِّ، فوجب الابتداءُ بالأقرَبِ.

الثاني: أنَّ الابتداءَ بالأقرَبِ أَوْلى؛ لأنَّ النَّفَقاتِ فيه أقَلُّ، والحاجةَ إلى الدَّوابِّ والآلاتِ والأدواتِ أقَلُّ.

الثالث: أنَّ الفِرقةَ المُجاهِدةَ إذا تجاوَزوا مِن الأقرَبِ إلى الأبعَدِ، فقد عَرَّضوا الذراريَّ للفِتنةِ.

الرابع: أنَّ المُجاوِرينَ لدار الإسلامِ إمَّا أن يكونوا أقوياءَ أو ضُعَفاءَ؛ فإن كانوا أقوياءَ كان تعرُّضُهم لدارِ الإسلامِ أشَدَّ وأكثَرَ مِن تعَرُّضِ الكفَّارِ المُتباعِدينَ، والشَّرُّ الأقوى الأكثَرُ أَوْلى بالدَّفعِ، وإن كانوا ضُعَفاءَ كان استيلاءُ المُسلِمينَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٦).

عليهم أسهَلَ، وحصولُ عِزِّ الإسلامِ لسبَبِ انكسارِهم أقرَبَ وأيسَرَ، فكان الابتداءُ بهم أوْلَى.

الخامس: أنَّ وُقوفَ الإنسانِ على حالِ مَن يَقرُبُ منه أسهَلُ مِن وُقوفِه على حالِ مَن يَبعُدُ منه، وإذا كان كذلك كان اقتدارُ المُسلِمينَ على مُقاتَلةِ الأقرَبينَ أسهَلَ؛ لِعِلمِهم بكيفيَّةِ أحوالِهم، وبمقاديرِ أسلِحَتِهم، وعدَدِ عَساكِرِهم.

السادس: أنَّ دارَ الإسلامِ واسِعةٌ، فإذا اشتغلَ أهلُ كُلِّ بلَدٍ بقتالِ مَن يَقرُبُ منهم من الكُفَّارِ، كانت المُؤنةُ أسهَلَ، وحصولُ المقصودِ أيسَرَ[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ تنبيهٌ على أنَّه لا يجوزُ الاقتصارُ على الغِلظةِ البتَّةَ؛ فإنه يُنفِّرُ ويوجِبُ تفرُّقَ القَومِ، فقوله: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ يدلُّ على تقليلِ الغِلظةِ، كأنَّه قيل: لا بدَّ أن يكونوا بحيث لو فتَّشوا على أخلاقِكم وطبائِعِكم، لوَجَدوا فيكم غِلظةً، وهذا الكلامُ إنَّما يصِحُّ فيمن أكثَرُ أحوالِه الرَّحمةُ والرَّأفةُ، ومع ذلك فلا يخلو عن نَوعِ غِلظةٍ، فالأمرُ في هذا البابِ لا يكونُ مُطَّردًا، بل قد يُحتاجُ تارةً إلى الرِّفقِ واللُّطفِ، وأخرى إلى العُنفِ[٢].

١٥- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ مِن وراءِ صَريحِ هذا الكلامِ تَعريضٌ بالتَّهديدِ للمُنافِقينَ؛ إذ قد ظُهِرَ على كُفرِهم، وهم أشَدُّ قُربًا من المُؤمِنينَ في المدينة، وفي هذا السِّياقِ جاء قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[٣].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٤).

وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ تنكيرُ (غِلْظة) في الآيةِ يدُلُّ على أنَّ لِأُولي الأمرِ أن يحَدِّدوها في كلِّ زَمَنٍ وكلِّ حالٍ، بما يتَّفِقُ مع المَصلَحةِ(١).

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ في توجيهِ الخِطابِ للذينَ آمَنوا دونَ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إيماءٌ إلى أنَّه لا يغزو بعد ذلك، وأنَّ أجَلَه الشَّريفَ قد اقتَرَب، ولعلَّ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إيماءً إلى التَّسليةِ على فَقدِ نَبيِّهم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ اللهَ معهم(٢).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ الإتيانُ بصِيغةِ لامِ الجُحودِ تأكيدٌ للنَّفيِ، وهو خبَرٌ مستعمَلٌ في النَّهيِ؛ فتَأكيدُه يُفيدُ تأكيدَ النَّهيِ، أي: كونَه نهيًا جازِمًا يَقْتَضي التَّحريمَ(٣).

- ومِن مَحاسِن هذا البيانِ أنْ قابَل صيغةَ التَّحريضِ على الغَزوِ بمِثْلِها في التَّحريضِ على العِلمِ؛ إذ افتُتِحَت صيغةُ تحريضِ الغزوِ بصيغةِ الجُحودِ في قولِه: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ ...﴾، وافتُتِحَت صيغةُ التَّحريضِ على العِلْمِ والتَّفقُّهِ بمِثلِ ذلك في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٩).

- قولُه: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾، أي: لِيَجعَلوا غايةَ سَعيِهم، ومُعظَمَ غرَضِهم مِن الفَقاهَةِ إرشادَ القَومِ وإنذارَهم، وتخصيصُه بالذِّكْرِ؛ لأنَّه أهَمُّ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ فيه مبالَغةٌ في الأمرِ بالشِّدَّةِ؛ لأنَّه أمرٌ لهم بأن يَجِدَ الكفَّارُ فيهم الشِّدَّةَ، وذلك الوجدانُ لا يتحقَّقُ إلَّا إذا كانت الغلظةُ بحيثُ تظهرُ، وتنالُ العدوَّ فيُحِسُّ بها[٢].

- قولُه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ فيه وضعُ الظَّاهرِ موضِعَ الضَّميرِ؛ للتَّنصيصِ على أنَّ الإيمانَ والقتالَ على الوجهِ المذكورِ مِن بابِ التَّقْوى، والشَّهادةِ بكَونِهم مِن زُمرةِ المتَّقين[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٢).

الآيات (١٢٤-١٢٧)

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه إذا ما أنزَلَ سُورةً مِن القُرآنِ على نبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فمِنَ المُنافِقينَ مَن يَقول لِغَيرِه؛ احتقارًا لِمَا أنزَلَ اللهُ: أيُّكم زادَتْه هذه السُّورةُ إيمانًا، ويبيِّنُ تعالى أنَّ المُؤمِنينَ زادَتْهم السُّورةُ إيمانًا إلى إيمانِهم، وهم يَستَبشِرونَ، وأمَّا الذين في قُلوبِهم شَكٌّ ونِفاقٌ، فزادَتْهم كُفرًا وشَكًّا إلى كُفرِهم وشَكِّهم، وماتوا وهم كافِرونَ.

أَوَلا يرى المُنافِقونَ أنَّهم يُختَبَرونَ في كلِّ عامٍ مرَّةً أو مرَّتينِ، ثم لا يتوبونَ، ولا هم يتَّعِظونَ؟!

ويُخبِرُ تعالى أنَّه إذا أَنزَلَ سورةً من القُرآنِ، فيها فَضْحُ أسرارِ المُنافِقينَ، نظر بعضُهم إلى بعضٍ، وقالوا: هل يَراكم أحَدٌ ينقُلُ كَلامَكم إلى محمَّدٍ، فيَطَّلِع على أسرارِنا؟! ثم انصَرَفوا عن الإيمانِ والعمَلِ بما سَمِعوا في السُّورةِ، ولم يَهتَدُوا مع إخبارِ القُرآنِ بأسرارِهم، صرَفَ اللهُ قُلوبَهم؛ بسببِ أنَّهم قومٌ لا يَفهَمونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾.

أي: وإذا أنزَلَ اللهُ سُورةً مِن القُرآنِ على نبيِّه مُحَمَّدٍ، فمِنَ المُنافِقينَ مَن يقولُ لِغَيرِه[1]؛ احتقارًا لِمَا أنزَلَ اللهُ: أيُّكم زادَتْه هذه السُّورةُ إيمانًا باللهِ وبآياتِه[2]؟!

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾.

أي: فأمَّا المُؤمِنونَ فزادَتْهم السُّورةُ- التي أنزَلَها اللهُ- إيمانًا إلى إيمانِهم[3] وهم فَرِحونَ بفَضْلِ اللهِ، وما أنزَلَ عليهم في القُرآنِ مِن الهُدى والرَّحمةِ، والوَعدِ بالخَيرِ في الدُّنيا والآخرةِ[4].

---

(١) قال ابن عطية: (﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾: يَحتَمِل أن يكونَ لِمُنافِقينَ مِثلِهم، ويَحتَمِل أن يكونَ لِقَومٍ مِن قراباتِهم من المُؤمِنينَ، يَستنيمونَ إليهم، ويَثِقونَ بِسَترِهم عليهم، ويَطمَعونَ في رَدِّهم إلى النِّفاقِ، ومعنى ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾ الاستخفافُ والتَّحقيرُ لِشَأنِ السُّورةِ، كما تقولُ: أيُّ غَريبٍ في هذا، أو أيُّ دَليلٍ؟!). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٨).

وقال الرازي: (اعلَمْ أنَّه تعالى لَمَّا ذكَرَ مخازيَ المُنافِقينَ وذكَرَ أعمالَهم القبيحةَ، فقال: وإذا ما أُنزِلَت سورةٌ، فمِن المُنافِقينَ مَن يقول: أيُّكم زادَتْه هذه إيمانًا؟ واختلفوا فقال بعضهم: يقولُ بعضُ المُنافِقينَ لبعضٍ، ومقصودُهم تَثبيتُهم قومَهم على النِّفاقِ. وقال آخرون: بل يقولونَه لأقوامٍ مِن المُسلِمينَ، وغَرَضُهم صَرْفُهم عن الإيمانِ. وقال آخرون: بل ذَكَروه على وجهِ الهُزءِ. والكلُّ مُحتَمَلٌ، ولا يُمكِنُ حَملُه على الكُلِّ؛ لأنَّ حِكايةَ الحالِ لا تُفيدُ العُمومَ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

قال الواحدي: (﴿فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾ يعني: من المُنافِقين. قاله جميعُ أهلِ التَّفسيرِ). ((البسيط)) (١١/ ٩٨).

(٣) قال ابن تيمية: (هذه «الزِّيادةُ» ليست مجرَّدَ التَّصديقِ بأنَّ الله أنزَلَها، بل زادَتْهم إيمانًا بحسَبِ مقتضاها؛ فإنْ كانت أمرًا بالجهادِ أو غيرِه، ازدادوا رغبةً، وإن كانت نَهيًا عن شيءٍ، انتَهَوا عنه، فكَرِهوه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ والاستبشارُ غَيرُ مُجَرَّدِ التَّصديقِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٢٨).

وقال السعدي: (قال تعالى مُبَيِّنًا الحالَ الواقعةَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ بالعِلمِ بها وفَهْمِها، واعتقادِها والعمَلِ بها، والرَّغبةِ في فِعلِ الخَيرِ، والانكفافِ عن فِعلِ الشَّرِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٨، ٨٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢٨) و(١٠/ ٦٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٧٥)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ * قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا﴾.

أي: وأمَّا الذينَ في قُلوبِهم شكٌّ ونِفاقٌ، فزادَتْهم السُّورةُ- التي أنزَلَها اللهُ- كُفرًا إلى كُفرِهم، وشَكًّا إلى شَكِّهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سُبحانه: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ

المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾، قال الحسَنُ والأكثرون: زادَتْهم كُفرًا إلى كُفرِهم). ((البسيط)) (١١/ ٩٩).

قال ابن القيِّم: (السُّورةُ لَمَّا أُنزِلَت اقتضَى نزولُها الإيمانَ بها، والتَّصديقَ والإذعانَ لأوامِرِها ونواهيها، والعَمَلَ بما فيها، فوطَّنَ المؤمِنونَ أنفُسَهم على ذلك، فازدادوا إيمانًا بسَبَبِها، فنُسِبَت زيادةُ الإيمانِ إليها؛ إذ هي السَّبَبُ في زيادتِه، وكذَّبَ بها الكافِرونَ وجَحَدوها، وكذَّبوا من جاء بها، ووطَّنوا أنفُسَهم على مخالفةِ ما تضَمَّنَتْه وإنكارِه، فازدادوا بذلك رِجسًا، فنُسِبَ إليها؛ إذ كان نُزولُها ووصولُها إليهم هو السَّبَبَ في تلك الزِّيادةِ). ((شفاء العليل)) (ص: ٨٨- ٨٩).

ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: ومات المُنافِقون وهم مُصِرُّونَ على كُفرِهم، لم يتوبوا إلى اللهِ(١).

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الذينَ في قُلوبِهم مَرَضٌ يموتونَ وهم كافِرونَ، وذلك يدُلُّ على عذابِ الآخرةِ؛ بيَّنَ أنَّهم لا يتخَلَّصونَ في كلِّ عامٍ مَرَّةً أو مرَّتَينِ من عذابِ الدُّنيا(٢).

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ بالتَّاءِ، ويكونُ الخِطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، بمعنى: أوَلَا تَرَونَ- أيُّها المُؤمِنونَ- أنَّ المُنافِقين يُفتَنونَ في كُلِّ عامٍ مَرَّةً أو مَرَّتَينِ(٣)؟!

٢- قراءةُ ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ بالياءِ، ويكونُ الضَّميرُ عائدًا على المُنافِقينَ، بمعنى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٠)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٧١٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٥).

(٣) قرأ بها حمزةُ ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٠)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٦٧)، ((الكشف عن وجوه القراءات السبع)) لمكي (١/ ٥٠٢-٥٠٣).

أوَلا يَرى المُنافِقونَ أنَّهم يُفتَنونَ في كلِّ عامٍ مَرَّةً أو مَرَّتَينِ(١)؟!

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾.

أي: أوَلا يرى المُنافِقونَ أنَّ اللهَ يَختَبِرُهم في بعضِ الأعوامِ مرَّةً، وفي بعض الأعوامِ مرَّتينِ(٢)؟!

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٠)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٠).
اختَلف أهلُ التأويلِ في معنَى الفتنةِ التي ذكَر الله أنَّ هؤلاءِ المنافقينَ يُفتنونَ بها، فقيل: هي اختبارُ الله إيَّاهم بالقحطِ والشِّدَّةِ. وقيل: هي اختبارُهم بالغزوِ والجهادِ. وقيل: هي اختبارُهم بما يُشيع المشركون مِن الأكاذيبِ على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابِه. وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٦).
قال ابنُ جريرٍ بعدَ أن ذكَر هذه الأقوالَ: (وأَولَى الأقوالِ في ذلك بالصحَّةِ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ عجَّبَ عِبادَه المؤمِنينَ مِن هؤلاءِ المُنافِقينَ، ووبَّخَ المُنافِقين في أنفُسِهم بقِلَّةِ تذَكُّرِهم، وسُوءِ تنبُّههم لِمَواعِظِ اللهِ التي يَعِظُهم بها، وجائزٌ أن تكونَ تلك المواعِظُ الشَّدائِدَ التي يُنزِلُها بهم من الجُوعِ والقَحطِ، وجائزٌ أن تكونَ ما يُريهم مِن نُصرةِ رَسولِه على أهلِ الكُفرِ به، ويَرزُقُه من إظهارِ كَلِمتِه على كَلِمتِهم، وجائزٌ أن تكونَ ما يظهَرُ للمُسلِمينَ مِن نِفاقِهم، وخُبثِ سَرائِرِهم؛ بركونِهم إلى ما يَسمعونَ مِن أراجيفِ المُشرِكينَ بِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، ولا خبرَ يُوجِبُ صِحَّةَ بعضِ ذلك دونَ بَعضٍ، مِن الوَجهِ الذي يجِبُ التَّسليمُ له، ولا قولَ في ذلك أولَى بالصَّوابِ مِن التَّسليمِ لِظاهِرِ قَولِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣١٢).
وقال ابن عاشور: (الفتنةُ: اختلالُ نِظامِ الحالةِ المُعتادة للنَّاسِ واضطرابُ أمرِهم، مثل الأمراضِ المُنتَشرةِ، والتَّقاتُل، واستمرار الخَوفِ... فمعنى أنَّهم يُفتَنونَ أنَّ اللهَ يُسَلِّطُ عليهم المصائِبَ والمضارَّ، تنالُ جَماعتَهم ممَّا لا يُعتادُ تَكَرُّرُ أمثالِه في حياة الأمم، بحيث يدُلُّ تكرُّرُ ذلك على أنَّه مرادٌ منه إيقاظُ اللهِ النَّاسَ إلى سوءِ سِيرَتِهم في جانبِ الله تعالى؛ بعَدَمِ اهتدائِهم إلى الإقلاعِ عمَّا هم فيه مِن العِنادِ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّهم لو رُزِقوا التَّوفيقَ لأفاقوا مِن غَفلَتِهم، فعَلِموا أنَّ ما يحُلُّ بهم كلَّ عامٍ، ما طرأ عليهم إلَّا مِن وَقتِ تلبُّسِهم بالنِّفاقِ، ولا شَكَّ أنَّ الفِتنةَ التي أشارت إليها الآيةُ كانت خاصَّةً بأهلِ النِّفاقِ مِن أمراضٍ تحُلُّ بهم، أو متالِفَ

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

أي: ثمَّ لا يتوبونَ عن ذُنوبِهم رغمَ البلاءِ الذي يُصيبُهم اللهُ به في كلِّ عامٍ، ولا هم يتَّعِظونَ فيَرجِعونَ إلى الله[1]!!

كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن مخازي المُنافِقينَ، وهو أنَّه كُلَّما نزَلَت سورةٌ مُشتَمِلةٌ على ذِكرِ المُنافِقينَ، وشَرْحِ فَضائِحِهم، وسَمِعوها- تأذَّوا مِن سَماعِها، ونظَرَ بَعضُهم إلى بعضٍ نظَرًا مَخصوصًا دالًّا على الطَّعنِ في تلك السُّورةِ، والاستهزاءِ بها، وتحقيرِ شَأنِها[2].

وأيضا فإنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ ما يَحدُثُ مِن المُنافِقينَ مِن القَولِ استهزاءً؛ أتبَعَه- تأكيدًا لزيادةِ كُفرِهم، وتوضيحًا لِتَصويرِه- ما يحدُثُ مِن فِعلِهم استهزاءً

تُصيبُ أموالَهم، أو جوائِحَ تصيبُ ثِمارَهم، أو نقصٍ مِن أنفُسِهم ومواليدِهم، فإذا حصَلَ شَيئانِ مِن ذلك في السَّنةِ كانت الفِتنةُ مَرَّتينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٦).

مِن الإيمانِ، والتَّغامُزِ بالعُيونِ[١].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾.

أي: وإذا أنزَلَ اللهُ سُورةً مِن القُرآنِ فيها فضحُ أسرارِ المُنافِقينَ، نظَرَ بَعضُهم إلى بعضٍ وقالوا خُفيةً أو بالإشارةِ المُفهِمةِ[٢]: هل يراكم أحَدٌ إذا خلوتُم، ودبَّرتُم أُمورَكم، فينقُلُ كَلامَكم إلى محمَّدٍ، ويُطلِعُه على أسرارِنا[٣]؟!

﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾.

أي: ثمَّ انصرَفَ المُنافِقونَ عن الاهتداء بما سَمِعوا في السُّورةِ التي أنزَلَها اللهُ على رسولِه، ولم يَهتَدوا مع إخبارِ القُرآنِ بأسرارِهم[٤].

وقيل: المعنى: ثم انصرَف المنافقونَ مِن عندِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠).

قال الواحدي: (﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ فيه إضمار أي: نظر بعضُهم إلى بعضٍ وقال: هل يَراكم مِن أحَدٍ. وقال الأخفَشُ: معنى ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ قال بعضُهم لِبَعضٍ؛ لأنَّ نظَرَهم في هذا المَكانِ كان قولًا، فعلى هذا لا يَحتاجُ إلى إضمارٍ؛ لأنَّ نظَرَهم قام مقامَ قَولِهم: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ في المفهوم، وذلك أنَّه لَمَّا جَرَت عادتُهم بأنَّهم إذا نظَرَ بَعضُهم إلى بعضٍ أرادوا هذا المعنى، صار كأنَّهم تلفَّظوا به. وقولُه تعالى: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ إنْ أضمَرْنا القولَ في الآيةِ كان هذا ملفوظًا به، وإن جعَلْنا النَّظَرَ بمعنى القَولِ، لم يكُنْ ملفوظًا به، وعُرِفَ ذلك بدَلالةِ الحالِ). ((البسيط)) (١١/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٩، ٣٠٠).

وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ عطيةَ، والقرطبي. يُنظر: المصدريْن السابقيْن.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والسعدي. يُنظر: المصدران السابقان.

قال الزجاج: (أي يفْعَلون ذلك وينصرفونَ، فجائزٌ أن يكونَ ينصرفونَ عن المكانِ الذي

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

أي: صرَفَ اللهُ قُلوبَ المُنافِقين عن الانتفاعِ بتلك السُّورةِ، وصَرَفَهم عن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وخَذَلَهم وأضلَّهم؛ بسبَبِ أنَّهم قومٌ لا يَفهَمونَ كِتابَ اللهِ، ويتكبَّرونَ عن سَماعِ آياتِه والعمَلِ بها(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المُنافِقون: ٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ينبغي للمُؤمِنِ أن يتفقَّدَ إيمانَه ويتعاهَدَه، فيُجَدِّدَه ويَنمِّيَه؛ ليكونَ دائمًا في صعودٍ؛ فالإيمانُ يَزيدُ ويَنقُصُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(٢).

استحقوا فيه، وجائزٌ أن يكونَ ينصرفون عن العملِ بشيءٍ مما يستمعونَ)) ((معاني القرآن وإعرابه)) (٢/ ٤٧٧).

وقال النحاس: (يجوزُ أن يكونَ المعنى: ثمَّ انصرفوا مِن موضعِهم، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: ثم انصرفوا عن الإيمانِ)) ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٦).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يدلُّ على أنَّ الرُّوحَ لها مَرَضٌ، فمَرَضُها الكُفرُ والأخلاقُ الذَّميمةُ، وصِحَّتُها الإيمانُ والعِلمُ والأخلاقُ الفاضِلةُ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الآيةُ ذامَّةٌ لهم على عدَمِ التَّوبةِ بإصابةِ المصائِبِ؛ لعَدَمِ تذَكُّرِ أنَّه سبحانه ما أصابَهم بها إلَّا بذُنوبِهم(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ هذه الآيةُ مِن أكبَرِ الدَّلائِلِ على أنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُصُ، كما هو مذهَبُ أكثَرِ السَّلَفِ والخَلَفِ مِن أئمَّةِ العُلَماءِ، بل قد حكى الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ(٣)، فالآيةُ حجةٌ على المرجئةِ فيما ينكرونَه مِن زيادةِ الإيمان ونقصِه، وهذا نَصُّ القرآنِ ينطقُ بزيادتِه(٤).

٢- الفرَحُ باللهِ وبِرَسولِه، وبالإيمانِ وبالسنَّةِ، وبالعِلم وبالقُرآنِ: من أعلى مَقاماتِ العارِفينَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦] فالفرَحُ بالعِلمِ والإيمانِ والسنَّةِ، دليلٌ على تعظيمِه عند صاحِبِه، ومحَبَّتِه له، وإيثارِه له على غَيرِه، فإنَّ فرَحَ العَبدِ بالشَّيءِ عند حصولِه له: على قَدْرِ مَحَبَّتِه له، ورَغبَتِه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٩).
(٤) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥٨٣).

فيه. فمَن ليس له رغبةٌ في الشَّيءِ لا يُفرِحُه حُصولُه له، ولا يَحزُنُه فَواتُه؛ فالفَرَحُ تابعٌ للمحبَّةِ والرَّغبةِ[١].

٣- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ على أنَّ الهُدى تخلَّفَ عنهم؛ لأنَّ المحَلَّ الذي سيتأثَّرُ به غيرُ قابلٍ له- وهو القَلبُ- فمَرَضُ قُلوبِهم كان هو المانِعَ مِن الهُدى[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم ...﴾ هذه الآيةُ زِيدَت فيها (مَا) عَقِبَ (إِذَا)؛ للتَّأكيدِ، أي: لِتَأكيدِ مَعْنى (إذا) وهو الشَّرطُ؛ لأنَّ هذا الخبرَ لِغَرابتِه كان خَليقًا بالتَّأكيدِ، ولأنَّ المنافِقين يُنكِرون صُدورَه مِنهم[٣].

- قولُه: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ الاستفهامُ في قولِهم: ﴿أَيُّكُمْ﴾ قالوه إنكارًا واستهزاءً بالمؤمنِين، واعتقادِهم زيادةَ الإيمانِ بزيادةِ العِلمِ الحاصِلِ بالوحيِ والعَملِ به؛ فتتَضَّمنُ مَعنى إنكارِ أن يَكونَ نُزولُ سُوَرِ القرآنِ يَزيدُ سامِعيها إيمانًا؛ توَهُّمًا مِنهم بأنَّ ما لا يَزيدُهم إيمانًا لا يَزيدُ غيرَهم إيمانًا يَقيسون على أحوالِ قُلوبِهم[٤].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ...﴾؛ للتَّفريعِ على حِكايةِ استِفْهامِهم بِحَملِه على ظاهِرِ حالِه، وصَرفِه عن مَقصِدِهم مِنه. وتلك طريقةُ الأسلوبِ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٥).

الحكيم، وهو: تلَقِّي المخاطَبِ بغَيرِ ما يتَرقَّبُ؛ بحَمْلِ كلامِه على خِلافِ مُرادِه لِنُكتةٍ، وهي هنا إبطالُ ما قصَدوه مِن نَفيِ أن تَكونَ السُّورةُ تَزيدُ أحَدًا إيمانًا قياسًا على أحوالِ قُلوبِهم؛ فأُجيبَ استِفْهامُهم بهَذا التَّفصيلِ المتفرِّعِ عليه، فأثبَت أنَّ للسُّورةِ زيادةً في إيمانِ بعضِ النَّاسِ، وأكثرَ مِن الزِّيادةِ، وهو حُصولُ البِشْرِ لهم، وارتُقِيَ في الجوابِ عن مَقصدِهم مِن الإنكارِ بأنَّ السُّورةَ ليسَت منفيًّا عنها زيادةٌ في إيمانِ بعضِ النَّاسِ فقط، بل الأمرُ أشدُّ؛ إذ هي زائدةٌ في كُفرِهم، فالقِسمُ الأوَّلُ المؤمِنون: زادَتْهم إيمانًا، وأكسَبَتْهم بُشْرى، فحَصَل مِن السُّورةِ لهم نَفْعانِ عَظيمانِ، والقِسْمُ الثَّاني الَّذين في قُلوبِهم مرَضٌ: زادَتْهم رِجْسًا إلى رِجْسِهم، وماتوا وهم كافِرون(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ في جانبِ المنافِقين، قُوبِلَ به قولُه: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ في جانبِ المؤمِنين؛ تَحسينًا بالازدِواجِ، بحيثُ كانَت للسُّورةِ فائِدَتانِ للمُؤمِنين، ومُصيبَتان على المنافِقين؛ فجعَل موتَهم على الكُفرِ- المتسبَّبَ على زيادةِ السُّورةِ في كُفرِهم- بمَنزلةِ مصيبةٍ أخرى غيرِ الأولى، وإن كانَت في الحقيقةِ زيادةً في المصيبَةِ الأولى(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ...﴾ فيه تَقديمُ همزةِ الاستِفْهامِ على حرْفِ العطفِ؛ على طريقةِ تَصْديرِ أدَواتِ الاستِفْهامِ، والتَّصديرُ للتَّنبيهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٦٦).

على أنَّ الجملةَ في غرَضِ الاستِفْهامِ، والاستفهامُ هنا إنكارٌ وتعجُّبٌ؛ لعدَمِ رُؤيتِهم فِتنَتَهم، فلا تَعقُبُها توبتُهم، ولا تُذكِّرُهم أمرَ ربِّهم، والغرَضُ مِن هذا الإنكارِ هو الاستدلالُ على ازدِياد كُفرِ المنافِقين، وتَمكُّنِه كلَّما نزَلَت سُورةٌ مِن القرآنِ بإيرادِ دليلٍ واضحٍ يَنزِلُ مَنزِلةَ المحسوسِ المرئيِّ؛ حتَّى يتوجَّهَ الإنكارُ على مَن لا يَراه[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ بيانٌ لجملةِ: ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾؛ لأنَّ النَّظرَ تَفاهَموا به فيما هو سرٌّ بينَهم؛ فلمَّا كان النَّظرُ نظرَ تَفاهُمٍ صحَّ بيانُ جُملتِه بما يدُلُّ على الاستِفْهامِ التَّعجُّبيِّ، ففي هذا النَّظْمِ إيجازُ حذفٍ بديعٌ دلَّت عليه القرينةُ، والتَّقديرُ: وإذا ما أُنزِلَت سورةٌ فيها فَضيحةُ أمْرِهم، نظَر بعضُهم إلى بعضٍ بخائِنَةِ الأعيُنِ، مُستَفهِمين مُتعجِّبين مِن اطِّلاعِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم على أسرارِهم، أي: هل يَراكم مِن أحدٍ إذا خلَوتُم، ودبَّرتُم أمورَكم؛ لأنَّهم بكُفرِهم لا يَعتَقِدون أنَّ اللهَ أَطْلَعَ نبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على دَخيلةِ أمرِهم[٢].

- قولُه: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ مُستأنَفٌ استِئنافًا بيانيًّا[٣]، وصيغتُه خبرٌ، غرَضُه الدُّعاءُ عليهم بِصَرفِ قُلوبِهم عمَّا في قلوبِ أهلِ الإيمانِ[٤].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣١).

مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ حُسْنُ ترتيبٍ، حيث ذكَر أوَّلًا ما يَحدُثُ عنهم مِن القولِ على سَبيلِ الاستِهْزاءِ، ثمَّ ذكَر ثانيًا ما يَصدُرُ مِنهم مِن الفعلِ على سَبيلِ الاستِهزاءِ وهو الإيماءُ والتَّغامُزُ بالعُيونِ إنكارًا للوحيِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣١).

الآيتان (١٢٨-١٢٩)

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَزِيزٌ﴾: أي: شديدٌ أو صَعْبٌ، وأصلُ (عز): يدلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ[١].

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾: أي: ما شَقَّ عليكم وآذاكم، والعَنَتُ: لِقاءُ الشِّدَّةِ؛ من قولهم: عَنِتَ فُلانٌ: إذا وقَعَ في أمرٍ يُخافُ منه التَّلَفُ، وأصلُ (عنت): يدلُّ على مشقَّةٍ[٢].

﴿تَوَلَّوْاْ﴾: أي: أعرَضوا؛ فالتولي إذا وُصِلَ بـ (عن) لفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنَى الإعراضِ، وتَركِ القُربِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مُخاطِبًا العَرَبَ: قد جاءَكم رسولٌ -هو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- مِنكم، يَشُقُّ عليه ما يشُقُّ عليكم ويُؤذِيكم، حريصٌ على هِدايتِكم، وإيصالِ الخَيرِ لكم، بالمُؤمِنينَ رؤوفٌ رَحيمٌ.

ثمَّ وجَّه الخِطابَ إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: فإنْ أعرَضوا عن الإيمانِ بك وطاعَتِك، فقُلْ: يَكفيني اللهُ ما أهمَّني، لا معبودَ بِحَقٍّ إلَّا هو،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

عليه وَحْدَه اعتَمَدْتُ، وفوَّضتُ جميعَ أموري، وهو رَبُّ العرشِ العَظيمِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ خَتمِ سُورةِ التَّوبةِ بهاتَينِ الآيتَينِ:

لَمَّا أمَرَ تعالى رسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أن يبَلِّغَ في هذه السُّورةِ إلى الخَلقِ تكاليفَ شاقَّةً شديدةً صَعبةً، يَعسُرُ تَحمُّلُها إلَّا لِمَن خَصَّه الله تعالى بوجوهِ التَّوفيقِ والكرامة- ختَمَ السُّورةَ بما يُوجِبُ سُهولةَ تحَمُّلِ تلك التكاليفِ، وهو أنَّ هذا الرَّسولَ منكم؛ فكُلُّ ما يحصُلُ له من العِزِّ والشَّرَفِ في الدُّنيا، فهو عائدٌ إليكم، وأيضًا فإنَّه بحالٍ يَشُقُّ عليه ضَرَرُكم، وتَعظُمُ رَغبتُه في إيصالِ خَيرِ الدُّنيا والآخرةِ إليكم؛ فهو كالطَّبيبِ المُشفِقِ، والأبِ الرَّحيمِ، في حَقِّكم، والطبيبُ المُشفِقُ ربَّما أقدَمَ على عِلاجاتٍ صَعبةٍ يَعسُرُ تَحمُّلُها، والأبُ الرَّحيمُ ربَّما أقدَمَ على تأديباتٍ شاقَّةٍ، إلَّا أنَّه لَمَّا عُرِفَ أنَّ الطَّبيبَ حاذِقٌ، وأنَّ الأبَ مُشفِقٌ؛ صارت تلك المُعالجاتُ المُؤلِمةُ مُتحَمَّلةً، وصارت تلك التَّأديباتُ جاريةً مَجرى الإحسانِ، فكذا هاهنا؛ لَمَّا عَرَفتُم أنَّه رسولٌ حَقٌّ مِن عندِ الله، فاقبَلوا منه هذه التَّكاليفَ الشَّاقَّةَ؛ لتفوزوا بكلِّ خَيرٍ، ثمَّ قال للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: فإنْ لم يَقبَلوها بل أعرَضوا عنها وتوَلَّوا، فاترُكْهم ولا تلتَفِتْ إليهم، وعَوِّلْ على اللهِ، وارجِعْ في جميعِ أمورِك إلى الله، فجاءت هذه الخاتمة في غايةِ الحُسنِ ونِهايةِ الكَمالِ[1].

وأيضًا ففيهما تذكيرُهم بالمنَّةِ ببَعثةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّنويهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٧).

بصِفاتِه الجامعةِ للكَمالِ، ومِن أخَصِّها حِرصُه على هداهم، ورَغبتُه في إيمانِهم، ودُخولِهم في جامعةِ الإسلامِ؛ ليكونَ رَؤوفًا رحيمًا بهم، ليعلَموا أنَّ ما لَقِيَه المُعرِضونَ عن الإسلامِ مِن الإغلاظِ عليهم بالقَولِ والفِعلِ، ما هو إلَّا استصلاحٌ لحالِهم، وهذا مِن مَظاهِرِ الرَّحمةِ التي جعَلَها اللهُ تعالى مُقارِنةً لِبَعثةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقَولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ بحيث جاء في هاتينِ الآيتَينِ بما شأنُه أن يُزيلَ الحَرَجَ من قلوبِ الفِرَقِ التي نزَلَت فيهم آياتُ الشِّدَّةِ، وعُومِلوا بالغِلظةِ؛ تَعقيبًا للشِّدَّةِ بالرِّفقِ، وللْغِلظةِ بالرَّحمةِ، وكذلك عادةُ القرآنِ. فقد انفتَحَ بهاتينِ الآيتَينِ بابُ حَظيرةِ الإيمانِ والتَّوبةِ؛ لِيَدخُلَها مَن وفَّقَه اللهُ إليها[1].

فائدة:

عن زيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((أرسلَ إليَّ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: إنَّك كنتَ تكتُبُ الوحيَ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاتَّبِعِ القُرآنَ، فتتَبَّعتُ حتى وجدْتُ آخِرَ سورةِ التَّوبةِ آيتَينِ مع أبي خُزَيمةَ الأنصاريِّ، لم أجِدْهما مع أحَدٍ غَيرِه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ * فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾))[2].

﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٠).

(٢) رواه البخاري (٤٩٨٩).

قال محمد رشيد رضا: (المرادُ أنَّه لم يَجِدْهما مَكتوبَتَينِ عندما جمَعَ المكتوبَ في الرِّقاعِ والأكتافِ والعُسُبِ في هذه السُّورةِ، إلَّا عند خُزيمةَ، وفي روايةٍ في البخاري وغيره: عند أبي خزيمةَ، وهي أرجَحُ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٧٤). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ١٥).

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

أي: لقد أرسَلَ اللهُ إليكم- أيُّها العرَبُ- مُحمَّدًا رَسولَ اللهِ، عربيًّا منكم، تَعرِفونَ لُغَتَه ونَسَبَه فيكم، وحالَه ونُصحَه لكم(١).

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ نَبيِّه إبراهيمَ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وعن واثِلةَ بنِ الأسقَعِ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ اللهَ اصطَفَى كِنانةَ مِن ولَدِ إسماعيلَ، واصطفى قُرَيشًا مِن كِنانةَ، واصطفى مِن قُرَيشٍ بَني هاشِمٍ، واصطفاني مِن بني هاشِمٍ))(٢).

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.

أي: يَشُقُّ على رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم دخولُ المشقَّةِ عليكم، ولحوقُ الضررِ والأذَى بكم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٧٠)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦). قال ابنُ عطية: (قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ مُخاطَبَةٌ للعَرَبِ، في قولِ الجُمهورِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠). ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٧١).

(٢) رواه مسلم (٢٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير

عن عبد الله بن عَمرو بن العاص رَضِيَ الله عنهما، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تلا قَولَ اللهِ عزَّ وجَلَّ في إبراهيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسى عليه السَّلامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفَعَ يَدَيه وقال: اللهُمَّ أُمَّتي أُمَّتي، وبكى، فقال اللهُ عزَّ وجَلَّ: يا جِبريلُ اذهَبْ إلى محمَّدٍ -وربُّك أعلَمُ- فسَلْه: ما يُبكيك؟! فأتاه جبريلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فسأله، فأخبَرَه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما قال- وهو أعلمُ- فقال الله: يا جِبريلُ، اذهَبْ إلى محمَّدٍ، فقل: إنَّا سنُرضيك في أمَّتِك، ولا نَسوءُك))[(١)].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((إنَّ الدِّينَ يُسرٌ، ولن يُشادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلَّا غلَبَه، فسَدِّدوا وقارِبوا، وأبشِروا، واستَعِينوا بالغُدوةِ والرَّوحةِ[(٢)]، وشَيءٍ من الدُّلْجةِ[(٣)]))[(٤)].

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾.

أي: حريصٌ على هِدايتِكم، وإيصالِ الخَيرِ لكم في دُنياكم وآخِرَتِكم[(٥)].

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((تَرَكَنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما

السعدي)) (ص: ٣٥٦).

(١) رواه مسلم (٢٠٢).

(٢) الغُدْوَة: أولُ النَّهارِ، والرَّوْحَة: آخِرُه. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٢/ ٢٨٠).

(٣) الدُّلْجَة: أي: السَّيرُ في آخِرِ اللَّيلِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٢/ ٢٨٠)

(٤) رواه البخاري (٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

طائِرٌ يقَلِّبُ جناحَيه في الهواءِ، إلَّا وهو يُذكِّرُنا منه عِلْمًا، قال: فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما بَقِيَ شيءٌ يُقَرِّبُ منَ الجنَّةِ، ويُباعِدُ مِن النَّارِ، إلَّا وقد بُيِّنَ لكم))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّما مَثَلي ومَثَلُ أمَّتي، كمَثَلِ رَجُلٍ استوقَدَ نارًا، فجعَلَتِ الدَّوابُّ والفَراشُ يَقَعْنَ فيه، فأنا آخِذٌ بحُجَزِكم[٢] وأنتم تَقَحَّمونَ[٣] فيه))[٤].

وعن العرباض بن ساريةَ رَضيَ الله عنه، قال: ((وعَظَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَوعِظةً ذرَفَت منها العُيونُ، ووَجِلَت منها القُلوبُ، فقُلنا: يا رسولَ اللهِ، إنَّ هذه لَمَوعِظةُ مُوَدِّعٍ، فماذا تعهَدُ إلينا؟ قال: قد ترَكْتُكم على البَيضاءِ ليلُها كنهارِها، لا يَزيغُ عنها بعدي إلَّا هالِكٌ))[٥].

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: هو شَديدُ الرقَّةِ والرِّفقِ والشَّفَقةِ بالمؤمنينَ، شديدُ الرَّحمةِ بهم[٦].

---

(١) أخرجه الطبراني (٢/ ١٥٥) (١٦٤٧)، وأخرج ابن حبان (٦٥) أولَه فقط بنحوِه.
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/ ٢٦٦): رجاله رجالُ الصَّحيحِ، غيرَ محمَّدِ بن عبد الله بن يزيد المُقرئ، وهو ثقة، وصحح إسناده ووثق رجالَه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١٨٠٣).

(٢) الحُجَزُ: جمعُ حُجزةٍ، وهي مَعقِدُ الإزارِ والسَّراويل. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٥٠).

(٣) تقَحَّمونَ: أي: تَرمونَ أنفُسَكم في النَّارِ بفِعلِ المعاصي. يُنظر: ((شرح المصابيح)) لابن الملك (١/ ١٥٥).

(٤) رواه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤) واللفظ له.

(٥) أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (١٧١٨٢).
حسَّن إسنادَه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٦٨)، وقال الشوكاني في ((الفتح الرباني)) (٥/ ٢٢٢٩): ثابتٌ، ورجالُه رجالُ الصحيحِ، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٣).

كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال سُبحانه: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضيَ الله عنهما، قال: ((كنَّا نُبايعُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على السَّمعِ والطَّاعةِ، يقول لنا: فيما استطعْتَ))(١).

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يأنَفُ أو لا يستكبِرُ أن يمشِيَ مع الأرملةِ والمِسكينِ، فيقضِيَ له حاجَتَه))(٢).

وعن أنسٍ رَضيَ الله عنه، ((أنَّ أعرابيًّا بال في المسجِدِ، فقام إليه بعضُ القَومِ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعُوه ولا تُزرِمُوه قال: فلمَّا فرغَ دعا بدَلوٍ مِن ماءٍ، فصَبَّه عليه))(٣).

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٨٦٧).
وأخرج البخاري (٧٢٠٤)، ومسلم (٥٦) قريبًا منه من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في ((العلل الكبير)) (٦٧٠) واللفظ له، والنسائي (١٤١٤)، والدارمي (٧٤)، وابن حبان (٦٤٢٤).
حسَّنه البخاري كما في ((العلل الكبير)) للترمذي (٣٦٠)، وصحح إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٢/ ٢٤٣)، وابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٣٠٣)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (١٤١٤).

(٣) رواه البخاري (٦٠٢٥)، ومسلم (٢٨٤)، واللفظ له.

أي: فإنْ أعرَضَ الكفَّارُ والمُشرِكونَ عن الإيمانِ بك وطاعَتِك- يا مُحمَّدُ- فقل: يكفيني اللهُ جميعَ ما أهمَّني، وهو ناصري على عدُوِّي، لا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو، وَحْدَه لا شريكَ له[1].

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

أي: على اللهِ وَحْدَه اعتمَدْتُ، وإليه استنَدْتُ، وفوَّضتُ جميعَ أموري، واللهُ هو مالِكُ العَرشِ العظيمِ وخالقُه، ومالكُ وخالقُ جميعِ ما دونَه مِن المخلوقاتِ[2].

كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ عند الكَربِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ العَرشِ العظيمِ، لا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ السَّمواتِ وربُّ الأرضِ، وربُّ العَرشِ الكريمِ))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٣).

قال ابنُ جرير: (وإنَّما عَنَى بوصْفِه جلَّ ثناؤُه نفسَه بأنَّه رَبُّ العرشِ العظيمِ، الخبرَ عَن جميعِ ما دُونَه أنَّهم عبيدُه وفي مُلْكِه وسلطانِه؛ لأنَّ العرشَ العظيمَ إنَّما يكونُ للملوكِ، فوصَفَ نَفْسَه بأنَّه ذو العرشِ دُونَ سائِرِ خَلْقِه، وأنَّه الملكُ العظيمُ دُونَ غيره، وأنَّ مَن دونَه في سلطانِه ومُلْكِه، جارٍ عليه حكمُه وقضاؤُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠٠).

قال السعدي: (﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الذي هو أعظمُ المخلوقاتِ، وإذا كان ربَّ العرشِ العظيمِ، الذي وسِع المخلوقاتِ، كان ربًّا لما دونَه مِن بابِ أولَى وأحرَى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).

وعن أبي الدَّرداء رَضِيَ الله عنه، قال: ((من قال إذا أصبحَ وإذا أمسى حسبيَ اللهُ لا إلهَ إلَّا هو، عليه توكلتُ وهو ربُّ العَرشِ العظيمِ- سبعَ مرَّاتٍ- كفاه اللهُ ما أهمَّه))[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يُفيدُ التَّنويهَ بهذه الكَلِمة المُبارَكة؛ لأنَّه أمَرَ بأن يقولَ هذه الكَلِمةَ بعَينِها، ولم يُؤمَر بمجَرَّدِ التوكُّلِ، ولا أُخبِرَ بأنَّ اللهَ حَسْبُه مجَرَّدَ إخبارٍ، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾[٢] [الأنفال: ٦٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه إيماءٌ إلى اقترابِ أجَلِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ التَّذكيرَ بقَولِه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ يؤذِنُ بأنَّ هذا المجيءَ- الذي مضى عليه زمَنٌ طَويلٌ- يُوشِكُ أن ينقضِيَ، لأنَّ لكُلِّ واردٍ قُفولًا، ولكلِّ طالعٍ أُفولًا[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كَونُه صلَّى اللهُ عليه

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٨١)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٣٦/ ١٥٠).
قال الشوكاني في ((تحفة الذاكرين)) (١٢٠): مدركُ بنُ سعدٍ لا بأسَ به، وقال ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢٩٤/ ٩): موقوفٌ إسنادُه جيدٌ، وقال الألباني في ((سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة)) (١١ / ٤٥٠): إسنادُ الموقوفِ رجالُه ثقاتٌ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٤).

وسلَّم مِن أنفُسِهم، هي صِفةٌ مُؤَثِّرةٌ في التبليغِ والفَهمِ عنه والتأنُّسِ به، والخِطابُ للعَرَبِ، ففي هذه الصِّفةِ التَّنبيهُ على شَرَفِهم، والتَّحريضُ على اتِّباعِه[١]. وذلك على أحدِ الوجهينِ في تأويلِ الآيةِ.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ يُومِئُ إلى أنَّ شَرْعَ اللهِ تعالى جاء مناسِبًا لخَلْقِه، فانتفى عنه الحرَج والعُسر[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ * فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ في هاتين الآيتَينِ إشعارٌ بالإيداعِ والإعذارِ للنَّاسِ، وتنبيهٌ إلى المبادرةِ باغتنامِ وجودِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بين أظهُرِهم؛ ليتشَرَّفوا بالإيمانِ به وهم يشاهِدونَه، ويقتَبِسونَ مِن أنوارِ هَدْيِه؛ لأنَّ الاهتداءَ بمُشاهَدتِه والتلقِّي منه، أرجى لحصولِ كَمالِ الإيمانِ، والانتفاعِ بقَليلٍ من الزَّمانِ؛ لتحصيل وافرِ الخَيرِ الذي لا يحصُلُ مِثلُه في أضعافِ ذلك الزَّمانِ[٣].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ...﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٤).

فيه الافتتاحُ بحَرفَيِ التَّأكيدِ، وهُما اللَّامُ و(قد)، معَ كَوْنِ مَضمونِها ممَّا لا يتَطرَّقُ إليه الإنكارُ؛ لِقَصدِ الاهتِمامِ بهذه الجُملةِ لأهمِّيَّةِ الغرَضِ الَّذي سِيقَتْ لأجلِه، ولأنَّ فيما تضمَّنَته ما يُنكِرُه المنافِقون وهو كونُه رسولًا مِن اللهِ، ولأنَّ في هذا التَّأكيدِ ما يَجعَلُ المخاطَبين به مُنَزِّلِينَ مَنزِلَةَ المنكِرين لِمَجيئِه؛ مِن حيثُ إنَّهم لم يَنفَعوا أنفُسَهم بهذا المَجيءِ، وفيه أيضًا تعريضٌ بتَحريضِهم على اتِّباعِه، وتَرْكِ مُناوَأتِه، وأنَّ الأجدَرَ بِهِم الافتخارُ به، والالتفافُ حولَه[1].

- وفي العُدولِ عن الإتيانِ بلفظِ (العَنَتِ)- الَّذي هو المصدَرُ الصَّريحُ- إلى الإتيانِ بالفعلِ مع (ما) المصدريَّةِ السَّابِكةِ للمَصدَرِ: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾: نُكتةٌ، وهي إفادةُ أنَّه قد عَزَّ عليه عنَتُهم الحاصِلُ في الزَّمنِ الذي مضَى، وذلك بما لَقُوه مِن قتلِ قومِهم، ومِن الأَسْرِ في الغزَواتِ، ومِن قَوارِعِ الوَعيدِ والتَّهديدِ في القرآنِ، فلو أُتِي بالمصدرِ لم يَكُنْ مُشيرًا إلى عنَتٍ معيَّنٍ ولا إلى عنَتٍ وقَع؛ فالمصدَرُ لا زمانَ له، ولكنَّ مَجيءَ المصدَرِ مُنسبِكًا مِن الفعلِ الماضي يَجعَلُه مَصدرًا مُقيَّدًا بالحُصولِ في الماضي؛ لِتكونَ هذه الآيةُ تنبيهًا على أنَّ ما لَقُوه مِن الشِّدَّةِ إنَّما هو لاستِصْلاحِ حالِهم؛ لعَلَّهم يَخفِضُون بعدَها مِن غُلَوائِهم، ويَرْعَوُون عن غيِّهم، ويَشعُرون بصَلاحِ أمرِهم[2].

- وفي قَوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وصفُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بستَّةِ أوصافٍ، ولَمَّا كانت الرسالةُ أشرَفَها بُدِئَ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٢).

بذِكْرِها[١].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّه لَمَّا قال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ فهذا النَّسَقُ يُوجِبُ أن يقال: (رؤُوفٌ رحيمٌ بالمُؤمنين)، فلمَ تُرِكَ هذا النَّسَقُ، وقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؟

والجوابُ: أنَّ قولَه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يفيدُ الحَصرَ، بمعنى أنَّه لا رأفةَ ولا رحمةَ له إلَّا بالمُؤمِنينَ، فأمَّا الكافِرونَ فليس له عليهم رأفةٌ ورَحمةٌ، وهذا كالمتَمِّمِ لِقَدْرِ ما وردَ في هذه السُّورةِ مِن التَّغليظِ، كأنَّه يقولُ: إنِّي وإن بالغتُ في هذه السُّورةِ في التَّغليظِ، إلَّا أنَّ ذلك التَّغليظَ على الكافرينَ والمُنافِقينَ، وأمَّا رحمتي ورأفَتي فمخصوصةٌ بالمُؤمنينَ فقط[٢].

- وفي قول الله تعالى: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قدَّمَ الأبلغَ منهما، وهي الرَّأفةُ التي هي عبارةٌ عن شِدَّةِ الرَّحمةِ؛ مُحافظةً على الفواصِلِ[٣]، كما أنَّ تقديمَ الرؤوفِ على الرَّحيم هو الواجِبُ، كأنَّه قال: رؤوفٌ بضُعفاءِ المُؤمِنينَ، وأُولي القُربى منهم، ورحيمٌ بهم كلِّهم[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ للتَّفريعِ على إرسالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٧٢).

وسلَّم صاحِبِ هذه الصِّفاتِ إليهم؛ فإنَّ صِفاتِه المذكورةَ تَقتَضي مِن كلِّ ذي عقلٍ سليمٍ مِن العربِ الإيمانَ به، واتِّباعَه؛ لأنَّه مِن أنفُسِهم، ومُحِبٌّ لخَيرِهم، رؤوفٌ رحيمٌ بمَن يتَّبِعُه مِنهم، فتَفرَّع عليه أنَّهم مَحْقوقون بالإيمانِ به؛ فإن آمَنوا فذاك، وإن لم يُؤمِنوا فإنَّ اللهَ حَسيبُه وكافيه[١].

- وبعدَ التَّفريعِ الْتفَت الكلامُ مِن خطابِ العرَبِ إلى خِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بما كان مُقتَضى الظَّاهرِ أن يُخاطَبوا هم به؛ اعتِمادًا على قَرينةِ حرفِ التَّفريعِ؛ فقيل له: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾، والتَّقديرُ: فإن تولَّيتُم عنه فحَسبُه اللهُ، وقُل: حَسْبي اللهُ؛ فجِيءَ بهذا النَّظْمِ البديعِ الإيجازِ معَ ما فيه مِن بَراعةِ الإيماءِ إلى عدَمِ تأهُّلِهم لخِطابِ اللهِ على تَقْديرِ حالةِ تَولِّيهم[٢].

- وقولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبلَه[٣].

- قولُه: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾ فيه تخصيصُ العَرْشِ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أعظمُ المخلوقاتِ[٤].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثامنُ

ويليه المجلدُ التاسعُ، وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ يونسَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣٤).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ التَّوبةِ ١٣
أسماءُ السُّورةِ: ١٣
فَضلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ١٤
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ: ١٤
مَقاصِدُ السُّورةِ: ١٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ١٥
الآيتان (١ – ٢) ١٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٨
المعنى الإجماليُّ: ١٨
تَفسيرُ الآيَتَينِ: ١٨
الفوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٠
بلاغةُ الآيَتَينِ: ٢٢
الآيتان (٣ – ٤) ٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٤
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٤
المعنى الإجماليُّ: ٢٥
تَفسيرُ الآيَتَينِ: ٢٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٩
بلاغةُ الآيَتينِ: ٣٠
الآيتانِ (٥ – ٦) ٣٣
غريبُ الكلماتِ: ٣٣
المَعنى الإجماليُّ: ٣٤
تَفسيرُ الآيَتَينِ: ٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٠
بلاغةُ الآيتينِ: ٤٤
الآيتان (٧ – ٨) ٤٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٧
المعنى الإجماليُّ: ٤٧
تَفسيرُ الآيتينِ: ٤٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٣
بلاغَةُ الآيتينِ: ٥٤
الآيات (٩ – ١٢) ٥٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٧
المعنى الإجماليُّ: ٥٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٥
بلاغَةُ الآياتِ: ٦٨
الآيات (١٣–١٦) ٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٧٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٧٣
المَعنى الإجماليُّ: ٧٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٧٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٨٤

بلاغةُ الآياتِ: ٨٦
الآيات (١٧-١٩) ٩٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٩٠
المعنى الإجماليُّ: ٩٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٩١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٩٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٠١
بلاغةُ الآياتِ: ١٠٣
الآيات (٢٠-٢٢) ١٠٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٠٩
المعنى الإجماليُّ: ١٠٩
تَفسيرُ الآياتِ: ١٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١١٤
بلاغةُ الآياتِ: ١١٦
الآيتان (٢٣-٢٤) ١١٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ١١٩
المَعنى الإجماليُّ: ١٢٠
تَفسيرُ الآيَتَينِ: ١٢٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٢٧
بلاغةُ الآيَتينِ: ١٣١
الآيات (٢٥-٢٧) ١٣٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٣٤
المَعنى الإجماليُّ: ١٣٤
تَفسيرُ الآياتِ: ١٣٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٤٣
بلاغةُ الآياتِ: ١٤٤
الآيتان (٢٨-٢٩) ١٤٦
غريبُ الكَلِماتِ: ١٤٦
المَعنى الإجماليُّ: ١٤٧
تَفسيرُ الآيتينِ: ١٤٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٥٤
بلاغةُ الآيتينِ: ١٥٩
الآيتان (٣٠-٣١) ١٦٢
غريبُ الكلماتِ: ١٦٢
المَعنى الإجماليُّ: ١٦٢
تَفسيرُ الآيتينِ: ١٦٢
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ١٦٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٦٩
بلاغةُ الآيتينِ: ١٧٢
الآيتان (٣٢-٣٣) ١٧٤
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٧٤
المَعنى الإجماليُّ: ١٧٥
تَفسيرُ الآيتين: ١٧٥
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ١٧٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٨٠
بلاغةُ الآيَتينِ: ١٨١
الآيتان (٣٤-٣٥) ١٩٠
غريبُ الكَلِماتِ: ١٩٠
المَعنى الإجماليُّ: ١٩٠

تَفسيرُ الآيتينِ:..... ١٩٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:..... ٢٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٠٢
بلاغةُ الآيتينِ:..... ٢٠٤
الآيتان (٣٦-٣٧) ٢٠٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٠٧
المَعْنَى الإجماليُّ:..... ٢٠٨
تَفسيرُ الآيَتَينِ:..... ٢٠٨
الفَوائِد التربويَّة:..... ٢١٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٢٠
بلاغةُ الآيَتَينِ:..... ٢٢٤
الآيات (٣٨-٤٠)..... ٢٢٩
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٢٩
المعنَى الإجماليُّ:..... ٢٣٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٣٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٣١
الفَوائِدُ التَّربويَّة:..... ٢٤٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٤٧
بلاغةُ الآياتِ:..... ٢٥٠
الآيات (٤١-٤٣)..... ٢٥٥
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٥٥
المعنَى الإجماليُّ:..... ٢٥٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٥٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:..... ٢٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٦٥
بلاغةُ الآياتِ:..... ٢٦٧
الآيات (٤٤-٤٧)..... ٢٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٧٢
المَعنى الإجماليُّ:..... ٢٧٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٧٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:..... ٢٨٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٨١
بلاغةُ الآياتِ:..... ٢٨٣
الآيات (٤٨-٥٢) ٢٨٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٨٩
المَعنى الإجماليُّ:..... ٢٩٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٩٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:..... ٣٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٠٢
بلاغةُ الآياتِ:..... ٣٠٤
الآيتان (٥٣-٥٤) ٣٠٩
المَعنى الإجماليُّ:..... ٣٠٩
تَفسيرُ الآيَتَينِ:..... ٣٠٩
الفَوائِد التربويَّة:..... ٣١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣١٢
بلاغةُ الآيتينِ:..... ٣١٤
الآيات (٥٥-٥٧)..... ٣١٦
المَعنى الإجماليُّ:..... ٣١٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٣١٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة:..... ٣٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٢٢
بلاغةُ الآياتِ:..... ٣٢٣

الآيات (٥٨-٦٠) ٣٢٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٢٥
المَعنى الإجماليُّ: ٣٢٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٢٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٤١
بلاغةُ الآياتِ: ٣٤٦
الآيات (٦١-٦٣) ٣٥١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٥١
المَعنى الإجماليُّ: ٣٥١
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٥٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٥٨
بلاغةُ الآياتِ: ٣٦٠
الآيات (٦٤-٦٦) ٣٦٦
غريبُ الكلماتِ: ٣٦٦
المَعنى الإجماليُّ: ٣٦٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٦٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٧٢
بلاغةُ الآياتِ: ٣٧٧
الآيات (٦٧-٧٠) ٣٨٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٨٠
المَعنى الإجماليُّ: ٣٨١
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٨٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٩٣
بلاغةُ الآياتِ: ٣٩٥
الآيتان (٧١-٧٢) ٤٠٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٠٢
المَعنى الإجماليُّ: ٤٠٢
تَفسيرُ الآيتين: ٤٠٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤١١
بلاغةُ الآيتَين: ٤١٣
الآيتان (٧٣-٧٤) ٤١٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤١٨
المَعنى الإجماليُّ: ٤١٨
تَفسيرُ الآيتين: ٤١٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٢٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٢٨
بلاغةُ الآيتَينِ: ٤٢٩
الآيات (٧٥-٧٨) ٤٣٢
غريبُ الكلماتِ: ٤٣٢
المَعنى الإجماليُّ: ٤٣٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٣٣
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٤٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٣٨
بلاغةُ الآياتِ: ٤٣٩
الآيتان (٧٩-٨٠) ٤٤١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٤١
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٤١

المَعنى الإجماليُّ: ٤٤٢
تَفسيرُ الآيتينِ: ٤٤٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٤٧
بلاغةُ الآيتينِ: ٤٤٨
الآيتان (٨١-٨٢) ٤٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٥٠
المَعنى الإجماليُّ: ٤٥٠
تَفسيرُ الآيتين: ٤٥١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٥٤
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٥٥
بلاغةُ الآيتَينِ: ٤٥٥
الآيات (٨٣-٨٥) ٤٥٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٥٩
المَعنى الإجماليُّ: ٤٥٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٦٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤٦٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٦٩
بلاغةُ الآياتِ: ٤٧٢
الآيات (٨٦-٨٩) ٤٧٧
غريبُ الكَلِماتِ: ٤٧٧
المَعنى الإجماليُّ: ٤٧٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٧٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٨٣
بلاغةُ الآياتِ: ٤٨٥
الآيات (٩٠-٩٣) ٤٨٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٨٨
المَعنى الإجماليُّ: ٤٨٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٩٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٩٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٩٧
بلاغةُ الآياتِ: ٥٠٠
الآيات (٩٤-٩٦) ٥٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٠٣
المَعنى الإجماليُّ: ٥٠٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٠٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٠٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٠٩
بلاغةُ الآياتِ: ٥١٢
الآيتان (٩٧-٩٨) ٥١٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥١٧
المَعنى الإجماليُّ: ٥١٧
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٥١٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٢٣
بلاغةُ الآياتِ: ٥٢٤
الآيتان (٩٩-١٠٠) ٥٢٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٢٦
المَعنى الإجماليُّ: ٥٢٦
تَفسيرُ الآيتينِ: ٥٢٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٣٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٣٤

بلاغةُ الآيتينِ: ٥٣٧
الآيتان (١٠١-١٠٢) ٥٤٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٤٠
المَعنى الإجماليُّ: ٥٤٠
تَفسيرُ الآيتين: ٥٤١
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٥٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٤٦
بلاغةُ الآيتينِ: ٥٤٩
الآيتان (١٠٣-١٠٤) ٥٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٥٢
المَعنى الإجماليُّ: ٥٥٢
تَفسيرُ الآيَتينِ: ٥٥٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٥٨
بلاغةُ الآيَتينِ: ٥٦١
الآيتان (١٠٥-١٠٦) ٥٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٦٣
المَعنى الإجماليُّ: ٥٦٣
تَفسيرُ الآيَتينِ: ٥٦٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٦٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٦٧
بلاغةُ الآيتينِ: ٥٧٠
الآيات (١٠٧-١١٠) ٥٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٧٢
المَعنى الإجماليُّ: ٥٧٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٧٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٨٤
بلاغةُ الآياتِ: ٥٨٧
الآيتان (١١١-١١٢) ٥٩٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٩٠
المَعنى الإجماليُّ: ٥٩٠
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٥٩١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٩٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٩٩
بلاغةُ الآيتَينِ: ٦٠٢
الآيات (١١٣-١١٦) ٦٠٨
غريبُ الكَلِماتِ: ٦٠٨
المَعنى الإجماليُّ: ٦٠٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٠٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦١٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦١٨
بلاغةُ الآياتِ: ٦٢٠
الآيات (١١٧-١١٩) ٦٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٢٤
المَعنى الإجماليُّ: ٦٢٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٢٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٤٢
بلاغةُ الآياتِ: ٦٤٧
الآيتان (١٢٠-١٢١) ٦٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٥٠

المَعنى الإجماليُّ: ٦٥١
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٦٥١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٥٧
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٥٨
بلاغةُ الآيتَينِ: ٦٦١
الآيتان (١٢٢-١٢٣) ٦٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٦٦
المَعنى الإجماليُّ: ٦٦٦
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٦٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٧٣
بلاغةُ الآيتَينِ: ٦٧٨
الآيات (١٢٤-١٢٧) ٦٨٠
المَعنى الإجماليُّ: ٦٨٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٨٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٨٨
بلاغةُ الآياتِ: ٦٨٩
الآيتان (١٢٨-١٢٩) ٦٩٣
غريبُ الكَلِماتِ: ٦٩٣
المَعنى الإجماليُّ: ٦٩٣
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٦٩٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٧٠١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٠١
بلاغةُ الآيتَينِ: ٧٠٢
الفهرس ٧٠٩

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٣٥ درس

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة يونس

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد التاسع

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة يونس)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر – سورة يونس – المجلد التاسع/ مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي – الظهران، ١٤٣٨هـ

٤٣٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٤-٤٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير ٢- القرآن سورة يونس – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٣٨/١٥٦٤

رقم الإيداع: ٤-٤٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

ردمك: ١٤٣٨/١٥٦٤

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣ / فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة يونس)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد التاسع

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ
سُورَةِ يُونُس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ يُونُس

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بِسُورةِ يُونُس[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ يُونُسَ مَكِّيَّةٌ[٢]، ونقَلَ غيرُ واحدٍ الإجماعَ على ذلك[٣].

---

(١) سُمِّيَت بذلك لِذِكْرِها قِصَّةَ يُونُسَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع قَومِه في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨] يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣).

قال ابنُ عاشورٍ: (والأظهرُ عندي أنَّها أُضيفَتْ إلى يونسَ تمييزًا لها عن أخواتِها الأربعِ المفتتحةِ بـ «الر»، ولذلك أُضيفَتْ كلُّ واحدةٍ مِنها إلى نَبيٍّ أوْ قومِ نَبيٍّ عوضًا عن أنْ يُقالَ: «الر» الأُولَى و«الر» الثَّانيةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٧).

وقد وردتْ آثارٌ فيها تسميتُها بذلك: منها ما أخرَجه النحاسُ في ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: ٥٢٩)، وأبو الشيخ وابنُ مردويه- كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٣٣٩)- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (نزَلَت سورةُ يُونُسَ بمكَّةَ).

ومنها ما أخرجه ابنُ أبي شيبةَ في ((المصنف)) (٣٥٦٦) عَنِ الأحنفِ قالَ: (صليتُ خلفَ عمرَ الغداةَ، فقرأ بيونسَ، وهودٍ، ونحوِهما).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٠٢)، ((الهداية)) لمكي القيسي (٥/ ٣٢٠٥)، ((جمال القراء)) للسخاوي (١/ ١٢١)، وممَّا يدُلُّ على كَونِها مكيَّةً ما اشتمَلَت عليه من موضوعات تَميَّزَت بها السُّوَرُ المكيَّةُ؛ مِن تقريرٍ للعَقيدةِ والرِّسالةِ، والنبواتِ، وأخبارِ الأُمَمِ الماضيةِ.

وقيل: إنَّها مكيَّةٌ إلَّا ثلاثَ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤] إلى آخر الآياتِ الثلاث، فمَدَنيَّةٌ، وقيل: مكيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ...﴾ [يونس: ٤٠] مع الثلاثِ السَّابقة، فمدنيَّةٌ، وقيل: نزل مِن أوَّلها نحوٌ مِن أربعينَ آيةً بمكَّةَ، وباقيها بالمدينةِ.

ينظر ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٧)،((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٦))، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٢).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك الفيروزابادي، والبقاعي، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٣٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ١٦٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٦).

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ سُورةِ يُونُس:

١- تقريرُ أصولِ العقيدةِ، وإثباتُ التوحيدِ والرسالةِ والبعثِ[(١)].

٢- دفعُ شُبَهِ المشركينَ[(٢)].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ الموضوعات التي اشتَمَلت عليها السُّورةُ:

١- إثباتُ رسالةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم.

٢- إثباتُ انفرادِ الله تعالَى بالإلهيةِ.

٣- إثباتُ الحشرِ والجزاءِ، والتَّذكيرُ بِمَصيرِ الخَلائِقِ إليه، وانقسامِ البَشَرِ إلى مُؤمِنينَ وكُفَّارٍ، وجزاء كُلٍّ منهم.

٤- توضيحُ عقائِدِ المُشرِكينَ، وموقفِهم من القُرآنِ، مع ذكرِ شُبهِهم والردِّ عليها، وإثباتُ أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ.

٥- التذكيرُ بما حلَّ بأهلِ القرونِ الماضيةِ لمَّا أشركوا وكذَّبوا الرسلَ.

٦- الاعتبارُ بما خلَق الله للناسِ مِن القدرةِ على السيرِ في البرِّ والبحرِ، وما في أحوالِ السيرِ في البحرِ من الألطافِ.

٧- ضربُ المَثَل للدُّنيا وبَهجَتِها، وسرعة زوالِها.

٨- ذِكرُ اختلافِ أحوالِ المُؤمِنين والكافرينَ في الآخرةِ، وتبَرُّؤ الآلهةِ الباطلةِ مِن عَبَدتِها، وإبطال إلهيَّةِ غَيرِ الله تعالى.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٦)، ((الوسيط)) لطنطاوي (٧/ ١١).

٩- إثباتُ أنَّ القرآنَ منزَّلٌ من عندِ الله، وأنَّ الدلائلَ على بطلانِ أن يكونَ مفترًى واضحةٌ، وتحدِّي المشركين بأن يأتوا بسورةٍ مثلِه.

١٠- إثباتُ عُمومِ العِلمِ لله تعالى، وذِكرُ آثارِ القُدرةِ الإلهيَّةِ الباهِرةِ.

١١- تَبشيرُ أولياءِ الله في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ، وتمييزُهم عن غيرِهم، وتَسليةُ الرَّسولِ عَمَّا يقولُه الكافِرونَ.

١٢- الأمرُ بإظهارِ السُّرورِ والفَرَحِ بالإسلامِ والقُرآنِ.

١٣- تَسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ شَيءٍ مِن قِصَّةِ نوح عليه السلام، وقِصَّةِ موسى عليه السلام، وبني إسرائيلَ مع قومِ فِرعونَ، ونجاةِ قَومِ يُونُسَ بإخلاصِ الإيمانِ في وقت اليَأسِ.

١٤- تأْكيدُ نبوَّةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأَمرُه بالصبرِ على جفاءِ المشركين وأذاهم.

الآيتان (١-٢)

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَدَمَ صِدۡقٍ﴾: أي: تَقدِمةَ خَيرٍ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ. وكلُّ سَابقٍ فِي خيرٍ أَو شَرٍّ، فهو عند العَربِ قَدَمٌ. وأصلُ (قدم): يدلُّ على سَبْقٍ، والصِّدقُ يُعبَّرُ به عن كلِّ فعلٍ فاضلٍ ظاهرًا وباطنًا، وكلُّ شيءٍ أُضيفَ إليه فهو ممدوحٌ، وأصلُ (صدق): يدلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيرَه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ هذهِ السورةَ العظيمةَ بالحروفِ المقطَّعة؛ لبيانِ إعجازِ القُرآنِ، فمع أنَّه مُركَّبٌ مِن هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يتكلَّمون بها، إلَّا أنَّهم عاجزونَ عن مُعارَضتِه بالإتيانِ بِشَيءٍ مِن مِثلِه، ثمَّ بَيَّنَ تعالى أنَّ تلك الآياتِ الرَّفيعةَ الشَّأنِ، هي آياتُ القُرآنِ الحكيمِ.

ثمَّ قال تعالى: كيف يتعَجَّبُ الكفَّارُ مِن قُريشٍ والعَرَبِ مِن إيحاءِ اللَّهِ إلى رجُلٍ مِن البشَرِ، أنْ يُنذِرَ جَميعَ النَّاسِ عِقابَ اللهِ على الكُفرِ والمَعصيةِ، ويُبَشِّرَ المُؤمِنينَ بأنَّ لهم أجرًا حَسنًا؛ بما قَدَّموا من أعمالٍ صالحةٍ، فتعَجَّبَ الكُفَّارُ مِن هذا الرَّسولِ، فقالوا: إنَّه لَساحرٌ ظاهِرُ السِّحرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾.

﴿الٓر﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغَيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها[١].

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

أي: تلك الآيات الرَّفيعة الشَّأن[٢] هي آياتُ القرآنِ المحكَم، المشتملِ على الحكمةِ والأحكامِ[٣]، قد أحكَم الله ألفاظَه ومعانيَه، وجعَله حاكمًا بينَ عبادِه؛ يبيِّنُ لهم الحقَّ مِن الباطل، والصَّواب من الخطأ، والحلالَ مِن الحرامِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (١/ ٢٥، ٢٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٨، ٨١).

(٢) قال الرازي: (قوله: ﴿تِلۡكَ﴾ يحتملُ أن يكونَ إشارةً إلى ما في هذه السورةِ مِن الآياتِ، ويحتملُ أن يكونَ إشارةً إلى ما تقدَّم هذه السورةَ مِن آياتِ القرآنِ). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٨٣).
وقال ابنُ عاشور: (المختارُ في الحروفِ المقطَّعة في فواتحِ السورِ أن المقصودَ مِن تعدادِها التحدِّي بالإعجازِ، فهي بمنزلةِ التهجِّي للمتعلِّم. فيصحُّ أن يجعلَ (الر) في محلِّ ابتداءٍ، ويكون اسمُ الإشارةِ خبرًا عنه. والمعنى: تلك الحروفُ آياتُ الكتابِ الحكيم، أي: مِن جنسِها حروفُ الكتابِ الحكيم، أي: جميعُ تراكيبِه مِن جنسِ تلك الحروفِ. والمقصودُ تسجيلُ عجزِهم عن معارضتِه بأنَّ آياتِ الكتابِ الحكيم كلَّها مِن جنسِ حروفِ كلامِهم، فما لكم لا تستطيعونَ معارضتَها بمثلِها إن كنتُم تكذبونَ بأنَّ الكتابَ منزَّلٌ مِن عندِ الله؟! فلولا أنَّه مِن عندِ الله لكان اختصاصُه بهذا النظمِ المعجزِ دونَ كلامِهم محالًا؛ إذ هو مركبٌ مِن حروفِ كلامِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨١-٨٢).

(٣) قال الواحدي: (﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ القرآنُ في قولِ أكثرِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١١/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٨٣ - ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)،

كما قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾.

أي: كيف يتعَجَّبُ كفَّارُ قُريشٍ وكُفَّارُ العَرَبِ[١] من إيحائِنا القرآنَ إلى رجلٍ من البَشَرِ[٢]، يُنذِرُ جَميعَ النَّاسِ عِقابَ اللهِ، على الكُفرِ به ومَعصِيَتِه[٣]؟!

((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٢).

(١) قال محمد رشيد رضا: (المرادُ بالنَّاسِ كُفَّارُ مَكَّةَ ومَن تَبِعَهم في إنكارِ نبُوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم). ((تفسير المنار)) (١١/ ١١٨).

وقال ابنُ عاشورٍ: (أُطلِقَ النَّاسُ على طائفةٍ مِن البشَرِ، والمرادُ المُشرِكونَ مِن أهلِ مكَّةَ؛ لأنَّهم المقصودُ مِن هذا الكلامِ. وهذا الإطلاقُ مِثلُ ما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾... والنَّاسُ الثاني يعُمُّ جَميعَ البشَرِ الذين يُمكِنُ إنذارُهم، فهو عمومٌ عُرفيٌّ؛ ولِكَونِ المرادِ بالنَّاسِ ثانيًا غيرَ المُرادِ به أوَّلُ، ذُكِرَ بلَفْظِه الظَّاهِرِ دون أن يقالَ: أن أنذِرْهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٤).

(٢) قال الرازي: (هذا التَّعجُّبُ يحتمِلُ وَجهين: أحدُهما: أن يتعَجَّبوا من أن يَجعَلَ اللهُ بشَرًا رسولاً، كما حكى عن الكُفَّارِ أنَّهم قالوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤]. والثاني: ألَّا يتعَجَّبوا من ذلك، بل يتعَجَّبوا من تخصيصِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالوحيِ والنبوَّةِ، مع كونِه فَقيرًا يَتيمًا، فهذا بيانُ أنَّ الكفَّارَ تعَجَّبوا من ذلك، وأمَّا بيانُ أنَّ الله تعالى أنكَر عليهم هذا التعجُّبَ، فهو قَولُه في هذه الآيةِ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾؛ فإنَّ قَولَه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ لفظُه لفظُ الاستفهامِ، ومعناه الإنكارُ). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٨، ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٤).

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾.

أي: وكيف عَجِبَ الكُفَّارُ مِن إيحائِنا إلى بَشَرٍ منهم، أن يبشِّرَ المُؤمِنينَ بأنَّه سبَقَت لهم مِن الله السَّعادةُ في اللَّوحِ المحفوظِ بما قَدَّموا من أعمالٍ صالحةٍ، وإيمانٍ بمحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذي أرشَدَهم إلى ذلك الخَيرِ الذي ينالون به الجنَّةَ[(١)]؟!

﴿قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾.

القراءاتُ التي لها أثَرٌ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿لَسَٰحِرٞ﴾ يقصِدُ الكافرونَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٢)].

٢- قراءةُ ﴿لَسِحۡرٞ﴾ يَعْنون القُرآنَ الكريمَ[(٣)].

قال ابن تيمية: (قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أولَم يعلَموا أنَّ إرسالَ رسولٍ مِن البشَرِ يُبَلِّغُهم رسالاتِ رَبِّهم، ويهديهم إلى صراطٍ مُستقيمٍ، أبلَغُ في قدرةِ الرَّبِّ، ورَحمتِه بعبادِه، وإحسانِه إليهم، وأعظَمُ إثباتًا للكمالِ مِن كَونِ ذلك [غيرَ] ممكِنٍ له، ومِن امتناعِه عن فِعْلِه). ((درء تعارض العقل والنقل)) (١٠/ ٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١١، ١١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٤).

قال ابنُ القيِّم: (وفسَّر قومٌ ﴿قَدَمَ صِدۡقٍ﴾ بالجنةِ، وفسِّر بالأعمالِ التي تُنالُ بها الجنةُ، وفُسِّر بالسابقةِ التي سبَقت لهم مِن الله، وفسِّر بالرسولِ الذي على يدِه وهدايتِه نالوا ذلك، والتحقيقُ أنَّ الجميعَ حقٌّ؛ فإنَّهم سبَقت لهم مِن الله الحسنَى بتلك السابقةِ، أي: بالأسبابِ التي قدَّرها لهم على يدِ رسولِه، وادَّخر لهم جزاءَها يومَ لقائِه). ((حادي الأرواح)) (ص: ١٠١).

(٢) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكسائيُّ، وابنُ كثيرٍ، وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦). ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٩)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٦).

(٣) قرَأ بها الباقونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٩)، ((الحجة

﴿قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾.

أي: مع أنَّا بعَثْنا إليهم رسولًا منهم، رجلًا مِن جنسِهم، بشيرًا ونذيرًا[١]، قال الكافرون: إنَّ هذا الرَّجُلَ لَساحِرٌ ظاهِرُ السِّحرِ، يسحَرُ النَّاسَ بالقُرآنِ الذي جاء به[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قدَّمَ الإنذارَ على التَّبشيرِ؛ لأنَّ التَّخليةَ مُقَدَّمةٌ على التَّحليةِ، وإزالةَ ما لا ينبغي مُقَدَّمٌ في الرُّتبةِ على فِعلِ ما ينبغي[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لَمَّا كان الإنذارُ عامًّا، كان متعَلَّقُه- وهو الناس- عامًّا، والبِشارةُ خاصَّةً، فكان متعَلَّقُها خاصًّا، وهو (الذينَ آمنوا)[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ عبَّرَ عن كُفَّارِ مَكَّةَ ومَن تَبِعَهم بالنَّاسِ؛ لأنَّ هذه الشُّبهةَ على الرِّسالةِ،

للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٦).

قال ابن جرير: (وفي الكلامِ مَحذوفٌ، استُغنِيَ بدَلالةِ ما ذُكِرَ عما تُرِكَ ذِكرُه، وهو: فلمَّا بشَّرَهم وأنذَرَهم وتلا عليهم الوحيَ، قال الكافرونَ: إنَّ هذا الذي جاءَنا به لَسِحرٌ مُبينٌ). ((تفسير ابن جرير)) ١٢/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩).

قد سبَقَتْهم إليها أقوامُ الأنبياءِ قَبلَ نَبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ بيانُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنذِرٌ لجنسِ النَّاسِ، وأنَّه مِن جِنْسِ النَّاسِ، وأنَّه لا يختصُّ به العرَبُ دونَ غَيرِهم، وإنْ كانوا هم أوَّلَ مَن أُرْسِلَ إليهم وبِلسانِهم[٢].

٤- ذكَرَ اللهُ تعالى في كتابِه خمسةَ أشياءَ مُضافةً إلى الصِّدقِ، وهي: قدَمُ الصِّدقِ، كما هنا في سورة يونسَ، ومُدخَلُ الصِّدقِ، ومُخرَجُ الصِّدقِ، كما في سورةِ الإسراءِ (الآية: ٨٠)، ولسانُ الصِّدقِ، كما في سورة الشُّعَراء (الآية: ٨٤)، ومَقعَدُ الصِّدقِ، كما في سورة القمر (الآية: ٥٥)، وحقيقةُ الصِّدقِ في هذه الأشياءِ: هو الحقُّ الثَّابِتُ، المتَّصِلُ باللهِ، المُوصِلُ إلى اللهِ- وهو ما كان به وله، من الأقوالِ والأعمالِ- وجزاءُ ذلك في الدُّنيا والآخرةِ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾ يُشيرُ إلى إثباتِ رِسالتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ قَولَهم: إنَّ القرآنَ سِحرٌ جاء به ساحِرٌ، يتضَمَّنُ اعترافَهم بأنَّهما فوقَ المعهودِ والمعلومِ للبَشَرِ في عالَمِ الأسبابِ المَقدورةِ لهم[٤].

بلاغةُ الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾

- قولُه: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ في اختيارِ وصْفِ ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ هنا مِن بينِ أوصافِ الكَمالِ الثَّابتةِ للقُرآنِ؛ لأنَّ لهذا الوَصفِ مَزيدَ اختِصاصٍ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٨).
(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٧٩).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٩).

بمَقامِ إظهارِ الإعجازِ مِن جهةِ المعنى بعدَ إظهارِ الإعجازِ مِن جهةِ اللَّفظِ بقولِه: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، ولِمَا اشتَمَلَت عليه السُّورةُ مِن براهينِ التَّوحيدِ وإبطالِ الشِّركِ(١).

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، وكذلك في سورةِ لُقمانَ قال: ﴿الٓمٓ * تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١-٢]، بَينما قال في مَطلعِ سُورةِ يوسُفَ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]؛ فوصَفه في السُّورتَين بالحكيمِ، وفي سورةِ يوسُفَ بالمبينِ؛ وذلك لأنَّ سُورتَيْ يونُسَ ولُقمانَ تردَّد فيهما مِن الآياتِ المعتبَرِ بها، الـمُطْلِعَةِ على عظيمِ حِكْمتِه تعالى، وإتقانِه للأشياءِ ما لم يَرِدْ في سورةِ يوسُفَ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: ٣]، وقد تَبِع الآيةَ المذكورةَ مِن سورةِ يونُسَ ما يُجاريها في التَّنبيهِ بما به الاعتبارُ، كقولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، ثمَّ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَّقُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [يونس: ٦، ٧]، لم يتَخلَّلْها ما يَخرُجُ عن بابِ الاعتبارِ، مِن الأحكامِ أو القَصصِ أو غيرِها، إلَّا ما تضَمَّن اعتبارًا كالواردِ مِن قصَّةِ نوحٍ في خِطابِه لقومِه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِى ...﴾ الآيةَ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، وفي هذا أعظمُ عِبرةٍ، ولم يَرِدْ هذا الضَّربُ المقتضَبُ مِن قصَّةِ نوحٍ عليه السَّلامُ على هذه الصِّفةِ في غيرِ هذه السُّورةِ لِما قدَّمْنا ذِكرَه، ولم يَكُنْ لِيُناسِبَ ما بُنِيَت عليه السُّورةُ غيرُ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٢).

الواردِ، وكذلك ما ورَد فيها مِن قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ ودُعائِه في قولِه: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [يونس: ٨٨]، فكان ذلك حسْبُ ما دَعاه إلى ذِكْرِ إغراقِ فِرْعونَ وملَئِه، وطمَعِه في الإيمانِ حينَ أدرَكه الغرَقُ، فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، فلم ينفَعْه ذلك لِفَواتِ وقتِه، فاقتصَر أيضًا على هذا القَدْرِ مِن قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ؛ لِما تقدَّم مِن مُناسَبةِ هذه السُّورةِ.

وسورةُ لُقمانَ ورَد فيها قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾، إلى قولِه: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١٠، ١١]، وبعد ذلك قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ...﴾ الآيةَ [لقمان: ٣٤]، وفي هذه السُّورةِ أيضًا ما مُنِح لقمانُ مِن الحِكْمةِ، وما انطوَت عليه قصَّتُه مِن حِكمةٍ، وما صدَر عنه في وصيَّتِه، ولم تَخرُجْ آيُ هذه السُّورةِ عن هذا، فهذا وجهُ وصفِ الكتابِ في هاتَين السُّورتَين بالحكيمِ.

وأمَّا سورةُ يوسُفَ عليه السَّلامُ فلم تَنطَوِ على غيرِ قصَّتِه، وبسْطِ التَّعريفِ بقَضيَّتِه، وبيانِ ما جرَى له مع أبيه؛ مِن فِراقِه، وامتِحانِه بإلقائِه في الجُبِّ، والبيعِ والتَّعرُّضِ له بالفِتْنةِ، وتَخلُّصِه بسابقِ اصطِفائِه ممَّا كِيدَ له به، وابتلائِه بالسَّجنِ، ثمَّ لِقائِه بأخيه، واجتماعِ شَملِه بأبيه عليهما السَّلامُ وإخوتِه، ولم تَخرُجْ آيةٌ مِن آيِ هذه السُّورةِ عن هذا مِن بَسْطِ هذه القصَّةِ، فلِهذا أتبعَ الكتابَ بالوصفِ بالمبينِ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٣٧-٢٣٨).

- قولُه: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الهَمزةُ في ﴿ أَكَانَ ﴾ لإِنْكارِ التَّعجُّبِ والتَّعجيبِ مِنه[١]، وفائدةُ إدخالِ الاستفهامِ المستعمَلِ في الإنكارِ على (كَانَ) دونَ أن يُقالَ: (أَعَجِبَ النَّاسُ): الدَّلالةُ على التَّعجُّبِ مِن تعَجُّبِهم المرادِ به إحالةُ الوحيِ إلى بشَرٍ[٢].

- وقولُه: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قالَ: ﴿لِلنَّاسِ ﴾ باللَّامِ ولَم يَقُلْ: (أكان عِندَ النَّاسِ عجبًا)؛ لأنَّ معنى ﴿لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ أنَّهم جعَلوه لهم أُعْجوبةً يتَعجَّبون مِنها، ونصَبوه عَلمًا لهم يُوجِّهون نَحوَه استِهْزاءَهم وإنكارَهم، وليس في (عِندَ النَّاسِ) هذا المعنى[٣].

- وقولُه أيضًا: ﴿لِلنَّاسِ ﴾ مُتعلِّقٌ بـ(كَانَ)؛ لِزيادةِ الدَّلالةِ على استِقْرارِ هذا التَّعجُّبِ فيهم؛ لأنَّ أصلَ اللَّامِ أن تُفيدَ المِلْكَ، وتستعملُ أيضًا في التَّمكُّنِ، أي: لِتَمكُّنِ الكونِ عجَبًا مِن نُفوسِهم[٤].

- وفيه كذلك تقديمُ خبَرِ (كان) وهو قولُه: ﴿عَجَبًا﴾ على اسمِها وهو قولُه: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ ﴾؛ للاهتِمامِ به؛ لكَونِه مَدارَ الإنكارِ والتَّعجُّبِ، وتشويقًا إلى المؤخَّرِ[٥].

- وَجِيءَ في ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ ﴾ بـ(أَنْ) والفِعلِ، دون المصدَرِ الصَّريحِ وهو (وَحْيُنا)؛ لِيُتوسَّلَ إلى ما يُفيدُه الفعلُ مِن التَّجدُّدِ، وصيغةُ المُضِيِّ مِن الاستقرارِ؛ تحقيقًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٣).

لوُقوعِ الوحيِ المتعجَّبِ منه وتجَدُّدِه، وذلك ما يَزيدُهم كمَدًا[١].

- وفي قولِه: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾: حُذِفَ المنذَرُ به؛ للتَّهويلِ، ولأنَّه يُعلَمُ حاصِلُه مِن مُقابَلتِه بقولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾[٢].

- قولُه: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾، أي: سابقةٌ ومنزلةٌ رفيعةٌ؛ سُمِّيَت قَدَمًا لأنَّ السَّبقَ بِها، كما سُمِّيَت النِّعمةُ يَدًا؛ لأنَّها تُعطَى باليَدِ، وإضافةُ (قَدَمَ) إلى (صِدْقٍ)؛ لِتَحقُّقِها، والتَّنبيهِ على أنَّهم إنَّما يَنالونها بصِدْقِ القولِ والنِّيَّةِ، ودَلالةً على زيادةِ فضلٍ، وأنَّه مِن السَّوابقِ العظيمةِ[٣].

- قولُه: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ترَكَ العاطِفَ فلَم يَقُلْ: (وقال)؛ لِجَرَيانِه مَجْرى البَيانِ لِجُملةِ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ...﴾، أو لكونِه استِئنافًا مَبنيًّا على السُّؤالِ؛ كأنَّه قيل: ماذا صنَعوا بعدَ التَّعجُّبِ؛ هل بَقُوا على التَّردُّدِ والاستِبْعادِ أو قطَعوا فيه بشيءٍ؟ فقيل: قال الكافِرون؛ على طريقةِ التَّأكيدِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٧)، ويُنظر أيضًا: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢١١).

الآيتان (٢-٤)

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شَفِيعٍ﴾: أي: ناصرٍ ومُعينٍ؛ يقال: شفَع لفلانٍ: إذا جاء مُلتَمِسًا مطلبَه، ومعينًا له، والشَّفْعُ: ضمُّ الشيءِ إلى مثلِه، وأصلُ (شفع): يدلُّ على مُقارنةِ الشَّيئَينِ[1].

﴿حَمِيمٍ﴾: الحميمُ: الماءُ الشَّديدُ الحرارةِ، وأصل (حمم): يدلُّ على الحرَارةِ، وعلى معانٍ أخرى متفاوِتَةٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

إنَّ رَبَّكم- أيُّها النَّاسُ- هو الله الذي خلقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ، ثمَّ علا وارتفَعَ على عَرْشِه، يُدَبِّرُ أمورَ جَميعِ الخَلائِقِ، ولا أحَدَ يَشفَعُ عِندَه يومَ القيامةِ إلَّا مِن بعدِ أن يأذَنَ له سُبحانَه بذلك، ذلكم هو اللَّهُ ربُّكم فاعبُدوه وَحْدَه، أفلا تذَكَّرونَ.

إليه وَحْدَه مَرجِعُكم جميعًا يومَ تَخرُجونَ مِن قُبورِكم أحياءً يومَ القيامةِ، وَعَدَكم اللهُ وَعدًا حَقًّا لا يُخلَفُ، إنَّه يبدأُ إنشاءَ الخَلْقِ ثمَّ يُعيدُه بعد مَوتِه، يومَ القيامةِ؛

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤، ٤٤٨).

لِيُثِيبَ المُؤمِنينَ الذين عَمِلوا الصَّالِحاتِ بالعَدلِ، والذين كَفَروا لهم شَرابٌ من ماءٍ حارٍّ، قد بلَغَت حرارتُه الغايةَ، ولهم عذابٌ مُوجِعٌ؛ بسبَبِ كُفرِهم في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾.

أي: إنَّ مالِكَكم- أيُّها النَّاسُ- وخالقَكم، ومدبِّرَ شُؤونِكم، هو المُستحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه؛ الذي خلَقَ السَّمواتِ السَّبعَ، والأَرَضينَ السَّبعَ في ستَّة أيَّامٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [السجدة: ٤].

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾.

أي: ثمَّ علا اللهُ وارتفَعَ على عَرشِه المُحيطِ بِجَميعِ خَلْقِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

قال ابن عطيَّةَ: (قَولُه ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قيل: هي من أيَّامِ الآخرةِ، وقال الجمهور- وهو الصواب- بل من أيَّامِ الدنيا. قال القاضي أبو محمد: وذلك في التقديرِ؛ لأنَّ الشَّمسَ وجَرْيَها لم يتقَدَّمْ حِينئذٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾.

أي: يُدبِّر أمورَ جَميعِ خَلْقِه وشُؤونَهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۞ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٤، ٥].

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾.

أي: لا يَشفَعُ عندَ الله أيُّ شافعٍ يومَ القِيامةِ إلَّا مِن بَعدِ أن يأذَنَ اللهُ بذلك(٢).

كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٣، ١١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

قال الزَّجَّاج: (قولُه: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ ولم يجْرِ للشَّفيعِ ذِكرٌ قبلَ هذا، ولكِنَّ الذين خُوطِبوا كانوا يقولونَ: إنَّ الأصنامَ شُفَعاؤُنا عند الله، فالذِّكرُ جرى بعدُ في الشُّفَعاءِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٦).

وقال ابنُ عطيةَ: (قَولُه: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ ردٌّ على العَرَبِ في اعتقادِها أنَّ الأصنامَ تَشفَعُ لها). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤).

يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦].

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾.

أي: ذلكم الذي هذا شأنُه، وهذه صفتُه، وفعَلَ تلك الأشياءَ العظيمةَ، هو المستَحِقُّ لإفرادِ العبادةِ له دونَ مَن سِواه، وهو مالِكُكم وخالِقُكم ومُدَبِّرُ أمورِكم- أيُّها النَّاسُ- فاعبُدوه وَحْدَه، ولا تَعبُدوا غَيرَه(١).

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

أي: أفلا تتَّعِظونَ- أيُّها النَّاسُ- بتلك الآياتِ والبَراهينِ، وتتذكَّرون أنَّ اللهَ هو المتفَرِّدُ بالخَلقِ، فتَعبُدونَه وَحْدَه، وتَتْرُكونَ عبادةَ غَيرِه مِن مَخلوقاتِه(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

وقال سبحانه: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

﴿أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللَّهَ تعالى لَمَّا ذَكَرَ الدَّلائِلَ الدَّالَّةَ على إثباتِ المبدأِ، أردَفَه بما يدُلُّ على صِحَّةِ القَولِ بالمَعادِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى حُكْمَه القَدَريَّ، وهو التَّدبيرُ العامُّ، وحُكمَه الدينيَّ وهو شَرعُه، الذي مضمونُه ومقصودُه عبادَتُه وَحْدَه لا شريكَ له- ذكَرَ الحُكمَ الجَزائيَّ، وهو مُجازاتُه على الأعمالِ بعد الموتِ[٢]، فقال تعالى:

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا﴾.

أي: إلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُكم جميعًا- أيُّها النَّاسُ- يوم تَخرُجونَ مِن قُبورِكم أحياءً يومَ القِيامةِ[٣].

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾.

أي: يَعِدُكم اللهُ- أيُّها النَّاسُ- وعدًا صِدقًا لا يُخلَفُ: أنَّه سيبعَثُكم مِن قُبورِكم أحياءً[٤].

﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

قال ابن عاشور: (وانتصَب ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ على المفعوليةِ المطلقةِ... ويقدَّر له عاملٌ محذوفٌ... والتقديرُ: وعَدكم اللهُ وعدًا حقًّا). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٠).

أي: إنَّ اللهَ يبدأُ إنشاءَ الخَلْقِ، وإيجادَه مِن العَدَمِ، ثمَّ يعيدُه بعدَ مَوتِه، ويُحييه يومَ القيامةِ كما بدأه أوَّلَ مرَّةٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس: ٣٤].

وقال سبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١].

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا كان الكلامُ في سِياقِ البَعثِ، قَدَّمَ أهلَ الجَزاءِ، وبدأ بأشرافِهم، فقال[٢]:

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾.

أي: يُحيي اللهُ الخَلقَ بعدَ مَوتِه، يومَ القِيامةِ؛ لِيُثيبَ المُؤمِنينَ الذين عَمِلوا ما أمَرَهم اللهُ به، وترَكَوا ما نهاهم عنه، بالعَدلِ، وهو مجازاتُهم على الحَسَنِ مِن أعمالِهم، الحَسَنَ من الثوابِ في الآخرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨).

قال ابنُ جرير: (يقول: لِيَجزِيَهم على الحَسَنِ مِن أعمالِهم التي عَمِلوها في الدُّنيا، الحسَنَ مِن الثَّوابِ، والصَّالِحَ مِن الجَزاءِ في الآخرةِ، وذلك هو القِسطُ، والقِسطُ: العَدلُ والإنصافُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٧).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾.

أي: وللكفَّارِ في الآخرةِ ماءٌ قد أُغلِيَ، وبلَغَت حرارتُه الغايةَ، ولهم أيضًا عذابٌ مُوجِعٌ؛ وذلك كلُّه بسبَبِ كُفرِهم في الدُّنيا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ * جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ * هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ * وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٥ - ٥٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا * جَزَآءٗ وِفَاقًا * إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا * وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾ [النبأ: ٢٤ - ٢٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾ لَمَّا بيَّنَ تعالى هذه الدَّلائِلَ، وشَرَحَ هذه الأحوالَ؛ ختمَها بقَولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ مُبيِّنًا بذلك أنَّ العبادةَ لا تصلُحُ إلَّا له، ومنبِّهًا على أنَّه سُبحانَه هو المستَحِقُّ لِجَميعِ العباداتِ؛ لأجلِ أنَّه هو المُنعِمُ بِجَميعِ النِّعَمِ التي ذكَرَها ووصَفَها(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فيه حَضٌّ على التدَبُّرِ والتفكُّرِ في الدَّلائِلِ الدَّالَّةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٩٣).

ربُوبيَّتِه تعالى، وإمحاضِ العِبادةِ له[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ لو شاء تعالى لخَلَقَهما في لَمحةٍ، ولكِنْ لحِكمةٍ بالغةٍ عَدَلَ عن ذلك، وخَلَقَهما في ستَّةِ أيَّامٍ، وتخصيصُ ذلك بالعدَدِ المعَيَّنِ، أمْرٌ قد استأثَرَ بعِلمِ ما يَستَدعيه علَّامُ الغُيوبِ- جَلَّت قُدرَتُه ودَقَّت حِكمَتُه[٢]، وقيل في حكمةِ خلقِهما في ستةِ أيَّامٍ: لتعليمِ خَلْقِه التأنِّي[٣]. وقيل: لِتُشاهِدَ الملائكةُ الخَلقَ شَيئًا بعد شيءٍ، فيعتَبِروه ويُدرِكُوه. وقيل: لأنَّ تصريفَ الخَلقِ حالًا بعد حالٍ أحكَمُ، وأبعَدُ مِن شُبهةِ الاتِّفاقِ[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ناسبَ ذِكرُ الشَّفاعةِ- التي تكونُ في القيامةِ- بعد ذِكرِ المَبدأِ؛ ليجمَعَ بين الطَّرَفينِ: الابتداءِ والانتهاءِ[٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أُفرِدت الأرضُ، ولم تُجمَعْ -بخلافِ السمواتِ- لِثِقَلِ جَمْعِها وهو (أَرَضُونَ)، وأَمَّا السَّمَوات فذُكِرَتْ بصيغَةِ الجمعِ؛ لأنَّه أُرِيدَ العددُ، فأُتِيَ بِصِيغَةِ الجمعِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣).
(٤) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (١/ ٦٢٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢).

الدَّالَّةِ عَلَى سَعَةِ العظمةِ والكثرةِ، وإذا أُرِيدَ الجهةُ أُتِيَ فيها بصيغةِ الإفرادِ[١]، وقيل: إيثارُ صِيغةِ الجَمعِ في السَّمواتِ؛ لِما هو المشهورُ مِن الإيذانِ بأنَّها أجرامٌ مُختَلِفةُ الطِّباعِ، مُتَباينةُ الآثارِ والأحكامِ[٢].

٤- التدبيرُ يُضاف إلى اللهِ تارةً؛ وإلى الملائكةِ تارةً؛ فيُضافُ إلى الله تعالى أمرًا وإذنًا ومشيئةً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، ويُضافُ إلى الملائكةِ تارةً أخرى؛ لِكَونِهم هم المُباشِرينَ والمُمتَثلينَ للتَّدبيرِ؛ قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وهذا كما أضاف التوفِّيَ إليهم تارةً، كقَولِه تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وإليه تارةً، كقَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾[٣] [الزمر: ٤٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ فيه إثباتُ الشَّفاعةِ لِمَن أَذِنَ له[٤].

٦- إنَّ شَفاعةَ المَخلوقِ عند المَخلوقِ تكونُ بإعانةِ الشَّافِعِ للمَشفوعِ له، بغيرِ إذْنِ المَشفوعِ عِندَه، بل يشفَعُ إمَّا لحاجةِ المَشفوعِ عنده إليه، وإما لِخَوفِه منه، فيحتاجُ أنْ يقبلَ شفاعتَه، واللهُ تعالى غنيٌّ عن العالَمينَ، وهو وَحْدَه سبحانَه يُدَبِّرُ العالَمينَ كلَّهم؛ فإنَّه ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾، فهو الذي يأذَنُ للشَّفيعِ في الشَّفاعة، وهو يقبلُ شفاعتَه، كما يُلْهِمُ الداعيَ الدُّعاءَ، ثمَّ يُجيبُ دعاءَه، فالأمرُ كلُّه له[٥].

---

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٣٥٥)، ويُنظر أيضًا: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤).

(٥) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٦٢).

٧- قال الله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾، والشَّفاعةُ بإذنِه ليست شفاعةً مِن دُونِه، ولا الشَّافِعُ شَفيعٌ مِن دونِه، بل شفيعٌ بإذْنِه، والفرقُ بين الشَّفيعَين هو كالفَرقِ بين الشَّريكِ والعبدِ المأمورِ، فالشَّفاعةُ التي أبطَلَها اللهُ: شفاعةُ الشَّريكِ؛ فإنَّه لا شريكَ له، والتي أثبَتَها: شفاعةُ العبدِ المأمورِ، الذي لا يشفَعُ ولا يتقَدَّمُ بين يدَي مالكِه، حتى يأذَنَ له، ويقولَ: اشفَعْ في فُلانٍ؛ ولهذا كان أسعَدَ النَّاسِ بشَفاعَةِ سَيِّدِ الشُّفَعاءِ يومَ القيامةِ أهلُ التَّوحيدِ، الذين جرَّدُوا التَّوحيدَ، وخَلَّصوه مِن تعَلُّقاتِ الشِّركِ وشَوائِبِه، وهم الذين ارتَضى اللهُ سبحانه[1].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يدُلُّ على أنَّه تعالى يعيدُ جَميعَ المَخلوقاتِ، وإعادتُها لا يُمكِنُ إلَّا بعد إعدامِها، وإلَّا لَزِمَ إيجادُ الموجودِ، وهو مُحالٌ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فحكَمَ بأنَّ الإعادةَ تكونُ مِثلَ الابتداءِ[2].

٩- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ردٌّ على المُشرِكينَ الذين أنكَروا البَعثَ، فاحتَجَّ الله عليهم بالنَّشأةِ الأولَى، فالقادِرُ على ابتداءِ الخَلقِ قادِرٌ على إعادتِه، والذي يرى ابتداءَه بالخَلقِ، ثمَّ يُنكِرُ إعادتَه للخَلقِ، فهو فاقِدُ العَقلِ مُنكِرٌ لأحَدِ المِثْلَينِ، مع إثباتِ ما هو أَولى منه، فهذا دليلٌ عَقليٌّ واضحٌ على المَعادِ[3].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ لم يُعيِّنِ الله تعالى ثوابَ المؤمنينَ وجزاءَهم؛ لأنَّه تعالَى يتولَّى إثابةَ المؤمنينَ بما يليقُ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

بلطفِه وكرمِه[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ إنَّما خَصَّ بالقِسطِ جزاءَ المُؤمِنينَ، مع أنَّ الجَزاءَ كُلَّه عَدلٌ، بل ربَّما كانت الزيادةُ في ثَوابِ المُؤمِنينَ فَضلًا زائدًا على العَدلِ؛ وذلك لتأنيسِ المُؤمِنينَ وإكرامِهم بأنَّ جَزاءَهم قد استحَقُّوه بما عَمِلوا[٢]، وأيضًا لأنَّه لو جمع اللهُ الصِّنفَينِ بالقِسطِ، لم يتبَيَّنْ ما يقَعُ بالكافرينَ مِن العذابِ الأليمِ، ففَصَلَهم من المُؤمِنينَ؛ ليُبَيِّنَ ما يجزيهم به ممَّا هو عدلٌ غيرُ جَورٍ، فلهذا خصَّ المُؤمِنينَ بالقِسطِ، وأفرد الكافرينَ بخَبرٍ يرجِعُ إلى تأويلِه بزيادةٍ في الإبانةِ والفائدةِ[٣].

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ مِن عَطفِ العامِّ على الخاصِّ ﴿شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾، ونكتةُ هذا الخاصِّ أنَّ العرَبَ الذين خُوطِبوا به أوَّلًا ونزَلَ بلُغَتِهم، يَشعُرونَ بما لا يَشعُرُ غَيرُهم من الوَعيدِ بِشُربِ الماءِ الحَميمِ، والحِرمانِ مِن الماءِ البارِدِ[٤].

بلاغةُ الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٤٦).

- في قولِه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ إيثارُ صيغةِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ التَّدبيرِ واستمرارِه[١].

- قولُه: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ نفيٌ للشَّفاعةِ الَّتي هي مِن غيرِ إذنِه على أبلَغِ الوُجوهِ؛ فإنَّ نفيَ جميعِ أفرادِ الشَّفيعِ بـ(مِن) الاستِغْراقيَّةِ يَستَلزِمُ نفْيَ الشَّفاعةِ على أتَمِّ الوجوهِ[٢].

- وفي زيادةِ قولِه: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ احْتِراسٌ؛ لإثباتِ شَفاعةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم وغيرِه بإذنِ اللهِ[٣].

- والإتيانُ باسْمِ الإشارةِ في صَدْرِ قولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾؛ لِتَمييزِه أكمَلَ تمييزٍ؛ لأنَّهم امترَوْا في صِفةِ الإلهيَّةِ، وضَلُّوا فيها ضلالًا مُبينًا، فكانوا أَحْرِيَاءَ بالإيقاظِ بطَريقِ اسْمِ الإشارةِ[٤].

- قولُه: ﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾ هذا الأمرُ مُفرَّعٌ على كونِه ربَّهم، والمفرَّعُ هو المقصودُ مِن الجملةِ، وما قَبلَه مُؤكِّدٌ لجملةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ تأكيدًا بِفَذْلَكةٍ[٥] وتحصيلٍ، والتَّقديرُ: (إنَّ ربَّكم اللهُ...) إلى قولِه: ﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾، كقولِه: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]؛ إذ وقَع قولُه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) الفَذْلكة: كلمةٌ منحوتةٌ، كالبَسملةِ والحوقلةِ مِن قولهم: (فذْلَك كذا)، أي: ذَكَر مُجمَل ما فُصِّل أولًا وخلاصته. وقد يُراد بالفذلكة النتيجة لِمَا سبَق من الكلام، والتفريع عليه، ومنها فذلكة الحساب، أي: مُجمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ بعد قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨ - ٦٣٩).

﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ تأكيدًا لجُملةِ ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾، وأوقَع بعدَه الفرْعَ وهو ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾، والتَّقديرُ: قُل بفضلِ اللهِ وبرَحمتِه فليَفرَحوا بذَلك[1].

- قولُه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: جملةٌ ابتدائيَّةٌ للتَّقْريعِ، وهو غرَضٌ جديدٌ؛ فلِذَلكِ لم تُعطَفْ؛ فالاستِفْهامُ إنكارٌ لانتِفاءِ تذَكُّرِهم؛ إذ أشرَكوا معَه غيرَه، ولم يتَذكَّروا في أنَّه المنفرِدُ بخَلْقِ العوالِمِ، وبمِلْكِها وبتَدبيرِ أحوالِها[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾

- وقولُه: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ فيه ذِكرُ ما يَقتَضي التَّذكيرَ، وهو كونُ مَرجِعِ الجميعِ إليه، وأكَّد هذا الإخبارَ بأنَّه وعدُ اللهِ الَّذي لا شكَّ في صِدْقِه، ثمَّ استأنَف الإخبارَ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾، وهو استئنافٌ مَعناه التَّعليلُ بابتِداءِ الخَلْقِ وإعادَتِه، وأنَّ الغرَضَ ومُقتَضى الحِكمةِ بذَلك هو جَزاءُ المكلَّفينَ على أعمالِهم[3].

- وقولُه: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ ﴿إِلَيۡهِ﴾؛ لإفادَةِ القَصْرِ، أي: إلَيْه لا إلى غَيرِه[4].

- وفيه مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال هنا: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾، وقال أيضًا في سورةِ المائدة: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: ٤٨، ١٠٥]، بينما في سُورةِ هود قال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ [هود: ٤]، ولم يَقُلْ: (جَميعًا)؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٨)،((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٠).

وذلك لأنَّ ما في سورةِ يونُسَ والمائدةِ خِطابٌ للمؤمِنينَ والكافِرين جميعًا؛ يدُلُّ عليه قولُه بعدَه في سورةِ هودٍ: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ الآيةَ [يونس: ٤]، وقولُه بعدَه في سورةِ المائدةِ: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، وأمَّا ما في هودٍ فهو خِطابٌ للكفَّارِ فقط؛ يدُلُّ عليه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[1] [هود: ٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾: وموقعُ (إنَّ) تأكيدُ الخبرِ؛ نظَرًا لإنكارِهمُ البَعثَ، فحصَل التَّأكيدُ مِن قولِه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أمَّا كَوْنُه بدَأ الخلْقَ فلا يُنكِرونه[2].

- وجملةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه لَمَّا ورَد ذِكْرُ جَزاءِ المؤمِنين على أنَّه العِلَّةُ لِرُجوعِ الجَميعِ إلَيه، ولَم يَذكُرْ في العِلَّةِ ما هو جَزاءُ الجميعِ؛ لا جَرَمَ يَتشوَّفُ السَّامعُ إلى معرفةِ جزاءِ الكافرين؛ فجاء الاستِئنافُ للإعلامِ بذلك، ونُكتةُ تَغييرِ الأسلوبِ- حيث لم يَعطِفْ جَزاءَ الكافِرين على جَزاءِ المؤمِنين فيُقالَ: (ويَجْزِيَ الَّذين كفَروا بعَذابٍ...)- الإشارةُ إلى الاهتمامِ بجَزاءِ المؤمِنين الصَّالِحين، وأنَّه الذي يُبادَرُ بالإعلامِ به، وأنَّ جزاءَ الكافِرين جديرٌ بالإعراضِ عَن ذِكْرِه لولا سؤالُ السَّامِعين[3].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٨-١٣٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٩٣).

الآيتان (٥-٦)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

اللهُ الذي جعل الشَّمسَ مُضيئةً في النَّهارِ، وصيَّرَ القَمَرَ مُنيرًا في اللَّيلِ، وقَدَّرَ سَيرَه في منازِلَ؛ لِتَعلَموا- أيُّها النَّاسُ- عدَدَ السِّنينَ، وتَعلَموا حِسابَ اللَّيالي والشُّهورِ، لم يخلُقِ اللهُ ذلك إلَّا بالحَقِّ، يُبَيِّنُ اللهُ الحُجَجَ والأدلَّةَ والبَراهينَ لِقَومٍ يَعلَمونَ.

إنَّ في تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وفي كلِّ ما خلَقَ اللهُ في السَّمواتِ والأرضِ، لَأدِلَّةً واضِحةً على الخالِقِ جلَّ وعلا، وعلى ثُبوتِ المَرجِعِ إليه يومَ القيامةِ، لِقَومٍ يتَّقونَ غضبَ الله وعقابَه.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قَرَّرَ اللهُ تعالى ربوبيَّتَه وإلهيَّتَه؛ ذكَرَ الأدلَّةَ العقليَّةَ الأفقيَّةَ الدَّالَّةَ على ذلك، وعلى كمالِه في أسمائِه وصِفاتِه؛ مِن الشَّمسِ والقَمَرِ، والسَّمَواتِ والأرضِ، وجَميعِ ما خلَقَ فيهما مِن سائِرِ أصنافِ المَخلوقاتِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٠٧)، ((تفسير

فهذا استدلالٌ آخَرُ على انفرادِه تعالى بالتصَرُّفِ في المَخلوقاتِ، وهذا لونٌ آخَرُ مِن الاستدلالِ على الإلهيَّةِ، مَمزوجٌ بالامتنانِ على المحَجوجينَ به[١].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي صيَّرَ الشَّمسَ مُضيئةً إضاءةً ساطِعةً قَويَّةً في النَّهارِ، وصيَّرَ القمَرَ مُنيرًا في اللَّيلِ[٢].

كما قال سُبحانه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۞ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۞ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١١ - ١٣].

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾.

أي: وقدَّر اللهُ وقضى مَسيرَ القَمَرِ في منازِلَ، يَنْزِلُ في كلِّ يومٍ وليلةٍ مَنزِلًا منها، وهيَّأ ذلك في كلِّ شَهرٍ[٣].

أبي حيان)) (٦/ ١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٣، ٤٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٥).

قال البغوي: (مَنازِلُ القَمَرِ ثمانيةٌ وعِشرونَ مَنزِلًا... وهذه المنازِلُ مَقسومةٌ على البُروجِ، وهي اثنا عشر بُرجًا... فلكُلِّ بُرجٍ مَنزِلانِ وثُلُثُ مَنزِلٍ، فينزلُ القَمَرُ كُلَّ ليلةٍ مَنزِلًا منها، ويستَتِرُ ليلتينِ إن كان الشَّهرُ ثلاثينَ، وإن كان الشَّهرُ تِسعًا وعشرينَ، فليلة واحدة، فيكونُ انقضاءُ الشَّهرِ بنُزولِ

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.

أي: قدَّرَ اللهُ القَمَرَ مَنازِلَ؛ لِتَعرِفوا -أيُّها النَّاسُ- عدَدَ السَّنواتِ، وتَعرِفوا حسابَ اللَّيالي والشُّهورِ، فتَنتَفِعوا بذلك في أمورِ دِينِكم ودُنياكم[١].

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: لم يخلُقِ اللهُ الشَّمسَ والقَمَرَ ومَنازِلَه، إلَّا لحكمةٍ عظيمةٍ تدلُّ على وحدانيَّتِه وعظمةِ صِفاتِه، ولم يخلُقْ ذلك عَبَثًا وباطِلًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: يُبيِّنُ اللهُ الحُجَجَ والأدلَّةَ الباهرةَ[٣] لقومٍ يَعلَمونَ- إذا تدبَّروها- وَحدانيَّةَ اللهِ تعالى وقُدرَتَه، وآثارَ إحسانِه، ويستدِلُّونَ بها على شُؤونِ وصِفاتِ مُبدِعِها سُبحانه[٤].

تلك المنازِلِ، ويكونُ مقامُ الشَّمسِ في كلِّ مَنزلةٍ ثلاثةَ عَشَرَ يَومًا وثُلُثَ يومٍ، فيكون انقضاءُ السَّنةِ مِن انقضائِها). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٠-٤١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥٨-٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨).

(٣) قال الشوكاني: (المرادُ بالآيات: التكوينيَّةُ أو التَّنزيليةُ، أو مجموعُهما، وتدخُلُ هذه الآياتُ التَّكوينيَّةُ المذكورةُ هنا دُخولًا أوَّليًّا في ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٧)، ((تفسير ابن

كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٦، ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا استدَلَّ اللهُ تعالى على إثباتِ الإلهيَّةِ والتَّوحيدِ بِقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وثانيًا بأحوالِ الشَّمسِ والقَمَرِ؛ استدَلَّ ثالثًا بِقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: بالمجيءِ والذَّهابِ، والزِّيادةِ والنُّقصانِ، ورابعًا بِقَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مِن ملائكةٍ وشَمسٍ وقَمَرٍ ونجومٍ وغيرِ ذلك(١).

فهذا استدلالٌ آخَرُ على انفرادِ الله تعالى بالخَلقِ والتَّقديرِ، وهو استدلالٌ بأحوالِ الضَّوءِ والظُّلمةِ، وتعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وفي ذلك عِبرةٌ عَظيمةٌ، وهو بما فيه مِن عَطفِ قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أعَمُّ مِن الدَّليلِ الأوَّلِ؛ لِشُمولِه ما هو أكثَرُ مِن خَلْقِ الشَّمسِ والقَمَرِ، ومِن خَلْقِ اللَّيلِ والنَّهارِ، ومِن كُلِّ ما في الأرضِ والسَّماءِ، مِمَّا تبلُغُ إليه مَعرِفةُ النَّاسِ في مُختَلِفِ العُصورِ، وعلى تفاوُتِ مَقاديرِ الاستدلالِ مِن عُقولِهم(٢).

عطية)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٧).

﴿ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴾.

أي: إنَّ في تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وخَلْفِ أحدِهما الآخَرَ، وفي كلِّ ما خلَقَ اللهُ في السَّمواتِ والأرضِ، لَأدلَّةً واضحةً على خالِقِها، وعلى ثُبوتِ المَعادِ إليه يومَ القيامةِ، لقومٍ يتَّقونَ غَضَبَ اللهِ وعِقابَه، فيَصرِفونَ العبادةَ له وَحْدَه لا شَريكَ له، ويَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويَجتَنِبونَ نواهِيَه، لا يحمِلُهم هواهم على خِلافِ ما وضَحَ لهم من الحَقِّ[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال سُبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ * وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ * وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ * تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٣ - ٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٦)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ في هذه الآياتِ الحَثُّ والتَّرغيبُ على التفكُّرِ في مخلوقاتِ الله، والنَّظرِ فيها بعَينِ الاعتبارِ؛ فإنَّ بذلك تنفتحُ البَصيرةُ، ويزدادُ الإيمانُ والعَقلُ، وتَقوَى القريحةُ، وفي إهمالِ ذلك تهاونٌ بما أمَرَ اللهُ به، وإغلاقٌ لزيادةِ الإيمانِ، وجمودٌ للذِّهنِ والقريحةِ[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فيه تنويهٌ بفَضلِ العِلمِ، وكونِ الإسلامِ دِينًا عِلميًّا لا تقليديًّا؛ ولذلك قَفَّى على هذه الآياتِ السَّماويَّةِ في الشَّمسِ والقَمَرِ بآيةٍ مذَكِّرةٍ بسائِرِ الآياتِ السَّماويَّةِ والأرضيَّةِ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في علمِ المواقيتِ والحسابِ ومنازلِ القمرِ والتاريخِ[(٣)].

٢- سَمَّى سُبحانه الشَّمسَ سِراجًا وضياءً؛ لأنَّ فيها مع الإنارةِ والإشراقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٧).

تَسخينًا وإحراقًا، فهي بالنَّارِ أشبَهُ، بخلافِ القَمَرِ؛ فإنَّه ليس فيه مع الإنارةِ تَسخينٌ، فلِهذا قال: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾[1].

٣- قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ وقال أيضًا: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] فخَصَّ القَمَرَ بذِكرِ تَقديرِ المَنازِلِ دونَ الشَّمسِ، وإن كانَت مُقَدَّرةَ المَنازِلِ؛ لظُهورِ ذلك للحِسِّ في القَمرِ، وظهورِ تَفاوُتِ نُورِه بالزِّيادةِ والنُّقصانِ في كلِّ مَنزِلٍ؛ ولذلك كان الحِسابُ القَمَريُّ أشهَرَ وأعرَفَ عند الأُمَمِ، وأبعَدَ مِن الغَلَطِ، وأصَحَّ للضَّبطِ مِن الحِسابِ الشَّمسيِّ، ويَشتَرِك فيه النَّاسُ دون الحِسابِ الشَّمسيِّ؛ ولهذا قال تعالى في القَمَرِ: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ ولم يقُل ذلك في الشَّمسِ؛ ولهذا كانت أشهُرُ الحَجِّ والصَّومِ، والأعيادُ ومواسِمُ الإسلامِ، إنَّما هي على حِسابِ القَمَرِ وسَيرِه ونُزولِه في مَنازِلِه، لا على حسابِ الشَّمسِ وسَيرِها؛ حِكمةً مِن اللهِ ورَحمةً وحِفظًا لدِينِه، لاشتراكِ النَّاسِ في هذا الحِسابِ، وتعَذُّرِ الغلَطِ والخطأِ فيه، فلا يدخُلُ في الدِّينِ مِن الاختلافِ والتَّخليطِ ما دخلَ في دينِ أهلِ الكتابِ[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ ...﴾ في هذه الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ مَعرفةَ ضَبطِ التَّاريخِ نِعمةٌ أنعَمَ الله بها على البَشَرِ[3].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٣٦٨).
(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٦).

لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ﴾، أي: ذاتَ ضياءٍ، أو مُضيئةً، أو نَفْسَ الضِّياءِ، وفيه مُبالَغةٌ، ﴿وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾، أي: ذا نورٍ، أو مُنوَّرًا، أو نفْسَ النُّورِ، وفيه مُبالغةٌ[١].

- ولَمَّا كانَت الشَّمسُ أعظمَ جِرْمًا خُصَّتْ بالضِّياءِ؛ لأنَّه هو الَّذي له سُطوعٌ ولَمَعانٌ، وهو أعظَمُ مِن النُّورِ[٢]؛ لِقُوَّتِه وكَمالِه، وخُصَّ القمَرُ بالنُّورِ؛ لأنَّه أضعَفُ مِن ذلك الضِّياءِ[٣].

- قولُه: ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ، مَسوقةٌ للامتِنانِ بالنِّعمةِ، ولِتَسجيلِ المؤاخَذةِ على الَّذينَ لم يَهتَدوا بهذه الدَّلائلِ إلى ما تَحتَوي عليه مِن البيانِ، والإتيانُ بالفِعلِ المضارِعِ ﴿يُفَصِّلُ﴾؛ لإفادةِ التَّكْرارِ[٤].

- في قولِه: ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ خُصَّ مَن يَعلَمُ بتَفصيلِ الآياتِ لهم، مع أنَّه تعالى فَصَّل الآياتِ للجُهَلاءِ أيضًا؛ لأنَّ انتِفاعَهم بالتَّفصيلِ أكثرُ؛ فهُم الَّذين يَنتَفِعون بتَفصيلِ الآياتِ، ويتَدبَّرون بها في الاستِدْلالِ، والنَّظرِ الصَّحيحِ[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((بيان المعاني)) للعاني (٣/ ٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٦- ٩٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٤٣).

- قولُه: ﴿ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ... ﴾ فِيه تأكيدُ هذا الاستدلالِ بحَرفِ ﴿ إِنَّ ﴾؛ لأجلِ تَنزيلِ المخاطَبين به الَّذين لم يَهتَدوا بتِلْك الدَّلائلِ إلى التَّوحيدِ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ في ذلك آياتٍ على الوَحدانيَّةِ، بعَدمِ جَرْيِهم على مُوجِبِ العلمِ[1].

- قولُه: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴾ خَصَّ المتَّقينَ؛ لأنَّهم الَّذين يحذرون من الوُقوعِ في شَيءٍ مِمَّا يخالِفُ مُرادَ الله سُبحانه، ويَخافون العَواقِبَ، فيَحمِلُهم الخوفُ على التدَبُّرِ والنَّظَرِ[2]، وفيه مُناسَبَةٌ حسَنةٌ، حيث جُعِلَت الآياتُ هنا لقومٍ يتَّقون؛ لأنَّ السِّياقَ تعريضٌ بالمشرِكين الَّذين لم يهتَدوا بالآياتِ؛ لِيَعلَموا أنَّ بُعْدَهم عن التَّقوى هو سببُ حِرمانِهم مِن الانتِفاعِ بالآياتِ، وأنَّ نَفْعَها حاصِلٌ للَّذين يتَّقون، أي: يَحذَرون الضَّلالَ؛ فالمتَّقون هم المتَّصِفون باتِّقاءِ ما يوقِعُ في الخُسْرانِ، فيَبعَثُهم على تَطلُّبِ أسبابِ النَّجاحِ، فيتَوجَّهُ الفِكْرُ إلى النَّظرِ والاستِدْلالِ بالدَّلائلِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٩)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٨).

الآيات (٧-١٠)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾: أي: سَكَنوا إليها، والطُّمأنينةُ والاطمِئنانُ: السُّكونُ بعد الانزِعاجِ[1].

﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا﴾: أي: دُعاؤُهم وقولُهم وكلامُهم؛ فالدَّعوى تُطلَقُ على: الادِّعاءِ والدُّعاءِ والقَولِ كذلِك، وأصلُ (دعو): أنْ يُمِيلَ الشَّخصُ الشَّيءَ إليه بصَوتٍ وكَلامٍ يكونُ منه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يبَيِّنُ تعالى أنَّ الذينَ لا يتوقَّعونَ لِقاءَه يومَ القيامةِ، ورَضُوا بالحياةِ الدُّنيا بدلًا مِن الآخرةِ وسَكَنوا إليها، والذين هم عن آياتِه مُعرِضونَ؛ أولئك مَقَرُّهم ومَسكَنُهم النَّارُ في الآخرةِ؛ بسبَبِ ما كانوا يكسِبونَه من الكُفرِ والمعاصي.

والذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ يَهديهم اللهُ ويُرشِدُهم في الآخرةِ إلى

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٧، ٤٥٣).

جنَّاتِه؛ بسبَبِ إيمانِهم، تجري مِن تحتِهم الأنهارُ في جنَّاتِ النَّعيمِ، دُعاؤُهم في الجنَّةِ أن يقولوا: سُبحانَك يا أللهُ، وتَحيَّةُ بعضِهم لبعضٍ فيها: سلامٌ، وخاتِمةُ دُعائِهم أن يقولوا: الحمدُ للَّهِ رَبِّ العالَمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أقام اللهُ تعالى الدَّلائِلَ القاهِرةَ على صِحَّةِ القَولِ بإثباتِ الإلهِ الرَّحيمِ الحكيمِ، وعلى صحَّةِ القَولِ بالمَعادِ والحَشرِ والنَّشرِ؛ شَرَعَ بعْدَه في شرحِ أحوالِ مَن يَكفُرُ بها، وفي شَرحِ أحوالِ مَن يُؤمِنُ بها، فأمَّا شَرحُ أحوالِ الكافرينَ، فهو المذكورُ في هذه الآيةِ[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾.

أي: إنَّ الَّذين لا يتوقَّعونَ لِقاءَنا يومَ القيامةِ، فلا يَخافونَ مِن لِقاءِ اللَّهِ، ولا يَطمَعونَ فيه، ولا يَخافونَ مِن عِقابِه، ولا يَطمَعونَ في ثوابِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٩)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٩).

قال الشوكاني: (ومعنى الرجاءِ هنا: الخوفُ... وقيل: يَرجُون: يَطمَعون... فالمعنى على الأوَّلِ: لا يخافونَ عقابًا، وعلى الثاني: لا يطمعونَ في ثوابٍ، إذا لم يكن المرادُ باللِّقاءِ حَقيقتَه، فإن كان المرادُ به حقيقَتَه كان المعنى: لا يخافونَ رُؤيتَنا، أو لا يَطمعونَ في رُؤيَتِنا. وقيل: المرادُ بالرَّجاءِ هنا: التوقُّعُ، فيدخُلُ تحته الخوفُ والطَّمَعُ، فيكون المعنى: لا يرجونَ لِقاءَنا: لا

﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾.

أي: ورضُوا بالحياةِ الدُّنيا بدلًا من الآخرةِ، وفرحوا بها وركَنوا وسَكَنوا إليها[١].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾.

أي: والذين هم[٢] عن آياتِنا الكونيَّةِ والتَّنزيليَّةِ مُعرِضونَ، لا يتفكَّرونَ فيها، ولا يَعتَبِرونَ بها[٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨﴾.

يتوقَّعونَ لِقاءَنا، فهم لا يخافونَه، ولا يطمعونَ فيه). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٥).

وقال محمد رشيد رضا: (فسَّرَ بعضُ المحقِّقينَ الرجاءَ هنا بمجَرَّدِ التوقُّعِ الذي يشملُ ما يسُرُّ وما يسوءُ. واللِّقاء: الاستِقبال والمُواجَهة. والمعنى: إنَّ الذين لا يتوقَّعونَ لِقاءَنا في الآخرةِ للحِسابِ، وما يتلوه مِن الجزاءِ على الأعمالِ؛ لإنكارِهم البعثَ. ويلزَمُه أنَّهم لا يؤمِّلونَ لِقاءَه الخاصَّ بالمتَّقينَ في دارِ الكرامةِ، وخصَّه بَعضُهم بلقاءِ الرُّؤيةِ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٨، ١٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٩).

(٢) قال ابن عطية: (قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ يحتَملُ أن يكونَ ابتداءَ إشارةٍ إلى فرقةٍ أخرى مِن الكُفَّارِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

قال ابن عاشور: (المراد بالغفلة: إهمالُ النَّظرِ في الآيات أصلًا، بقرينة المقامِ والسِّياقِ، وبما تومئُ إليه الصِّلةُ بالجملة الاسمية ﴿هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ الدالَّة على الدوامِ، وبتقديم المجرورِ في قولِه: ﴿عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ مِن كَونِ غَفلَتِهم غفلةً عن آياتِ الله خاصَّةً دون غيرها من الأشياءِ، فليسوا من أهل الغفلةِ عنها؛ ممَّا يدُلُّ مجموعُه على أنَّ غَفلتَهم عن آياتِ اللهِ دأبٌ لهم وسجيَّةٌ، وأنهم يتعمَّدونَها، فتؤُولُ إلى معنى الإعراضِ عن آياتِ اللهِ، وإباءِ النَّظرِ فيها عنادًا ومكابرةً، وليس المرادُ مَن تَعرِضُ له الغفلةُ عن بعض الآياتِ في بعض الأوقاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

أي: أولئك الذين تلك صِفاتُهم، مَقَرُّهم ومَسكَنُهم في الآخرةِ: النَّارُ؛ بسبَبِ ما كانوا يكسِبونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي(١).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا شَرَح الله تعالَى أحوالَ المنكرينَ والجاحدينَ في الآيةِ المتقدِّمةِ؛ ذكَر في هذه الآيةِ أحوالَ المؤمنينَ، فذكَر صفاتِهم أولًا، ثمَّ ذكَر ما لهم مِن الأحوالِ السَّنِيَّةِ والدَّرجاتِ الرَّفيعةِ ثانيًا(٢).

فمناسبةُ ذكرِ هذه الآيةِ مقابلةُ أحوالِ الذينَ يكَذِّبونَ بلِقاءِ اللهِ بأضدادِها؛ تنويهًا بأهلِها وإغاظةً للكافرينَ(٣).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ ﴾.

أي: إنَّ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ؛ يَزيدُهم ربُّهم في الدُّنيا هدًى إلى هداهم، ويُرشِدُهم في الآخرةِ إلى جنَّاتِه، وذلك بِسَببِ إيمانِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٩، ١٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٧٤، ١٧٥)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

أي: تَجري مِن تحتِ هؤلاءِ- الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ- الأنهارُ، فتَجْري مِن تحتِ غُرَفِهم ومقاعِدِهم وسُرُرِهم في بساتينِ النَّعيم[1].

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾.

أي: دُعاءُ المُؤمِنينَ في الجنَّةِ أن يقولوا: سُبحانَك اللَّهُم، أي: ننزِّهُك يا أللهُ تنزيهًا مِن كلِّ عيبٍ ونَقصٍ[2].

عن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، قال: سمعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٦، ١٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٤١٧، ٤١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).
قال الرازي: (المرادُ اشتِغالُ أهلِ الجنَّةِ بتَقديسِ اللهِ سُبحانَه وتَمجيدِه والثَّناءِ عليه؛ لأجلِ أنَّ سَعادَتَهم في هذا الذِّكرِ، وابتهاجَهم به وسُرورَهم به، وكمالَ حالِهم لا يَحصُلُ إلَّا منه). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٦).

وسلَّم يقولُ: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ يأكلونُ فيها ويَشرَبونَ، ولا يَتفِلونَ ولا يَبولونَ، ولا يتغوَّطونَ ولا يَمتَخِطونَ. قالوا: فما بالُ الطَّعامِ؟! قال: جُشاءٌ ورَشحٌ كرَشحِ المِسكِ، يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ، كما تُلهَمونَ النَّفَسَ))(١).

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

أي: وتحيَّةُ المؤمنينَ في الجنَّةِ: دعاءُ بَعضِهم لِبَعضٍ بالسَّلامةِ مِن كُلِّ سُوءٍ(٢).

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وخاتِمةُ دُعائِهم أن يقولوا: الحمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمينَ، أي: جميعُ المحامِدِ مُستحَقَّةٌ لله تعالى ربِّ العالمينَ؛ فهو وَحدَه الموصوفُ بالكَمالِ، مع محبَّتِه وتعظيمِه عزَّ وجلَّ(٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ

---

(١) رواه مسلم (٢٨٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧، ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).
وقال الواحدي: (قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يحيي بعضُهم بعضًا بالسلامِ، وتحيةُ الملائكةِ إيَّاهم، وتحيةُ الله سلامٌ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٥٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٣).
قال ابنُ كثيرٍ: (جاءَ في الحديثِ: «إنَّ أهلَ الجنةِ يُلْهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ كما يُلْهَمونَ النَّفَسَ» وإنَّما يكونُ ذلك كذلك؛ لِمَا يَرَونَ مِن تضاعُفِ نِعَمِ اللهِ عليهم، فتُكَرَّرُ وتُعادُ وتُزادُ، فليس لها انقضاءٌ ولا أمَدٌ، فلا إلهَ إلَّا هو، ولا ربَّ سواه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥١).
وقال ابن عاشور: (معنى آخِر دَعواهم: أنَّهم يَختِمونَ به دُعاءَهم، فهم يكَرِّرونَ: سُبحانَك اللهُمَّ، فإذا أرادوا الانتقالَ إلى حالةٍ أخرى مِن أحوالِ النَّعيمِ، نَهَّوْا دعاءَهم بجملةِ: الحمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٤).

﴾ في الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ البَهجةَ بالحياةِ الدُّنيا والرِّضا بها، يكونُ مِقدارُ التوغُّلِ فيهما بمِقدارِ ما يَصرِفُ عن الاستعدادِ إلى الحياةِ الآخرةِ، وليس ذلك بمُقتضٍ الإعراضَ عن الحياةِ الدُّنيا؛ فإنَّ اللهَ أنعَمَ على عبادِه بنِعَمٍ كثيرةٍ فيها، وجَبَ الاعترافُ بفَضْلِه بها، وشُكْرُه عليها، والتعَرُّفُ بها إلى مراتِبَ أعلى، هي مراتبُ حياةٍ أخرى، والتزوُّد لها[١].

٢- قال تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ جُعِلَ الإيمانُ وَحْدَه سبَبَ الهدايةِ؛ لأنَّه هو الباعِثُ النَّفسيُّ لها[٢].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ في هذه اللَّفظةِ رَدٌّ على الجَبريَّةِ[٣]، فقد أَثْبَتَ الله تعالى للعبادِ كَسْبًا، والكَسْبُ: هو الفعلُ الَّذي يعودُ على فاعلِه منه نفعٌ أو ضَرَرٌ، فالعبادَ فاعِلونَ لأفعالِهم حقيقَةً، ويَسْتَوْجِبونَ عليها المدحَ والذَّمَّ[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ الباءُ في قَولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ الأعمالَ السَّابِقةَ هي المؤثِّرةُ في حُصولِ هذا العذابِ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٥] [الحج: ١٠].

٣- قال الله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أضافها اللهُ إلى النَّعيمِ؛ لاشتمالِها على النَّعيمِ التَّامِّ؛ نعيمِ القَلبِ: بالفَرَحِ والسُّرورِ، والبهجةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧).
(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٦٤١، ٦٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٢).

والحُبورِ، ورؤيةِ الرَّحمنِ وسَماعِ كَلامِه، والاغتباطِ برِضاه وقُربِه، ولقاءِ الأحبَّةِ والإخوانِ، والتمتُّعِ بالاجتماعِ بهم، وسَماعِ الأصواتِ المُطرِباتِ، والنَّغَماتِ المُشجِياتِ، والمَناظِرِ المُفرِحات، ونعيمِ البَدَنِ: بأنواعِ المآكِلِ والمَشارِبِ والمناكِحِ، ونحوِ ذلك ممَّا لا تَعلَمُه النُّفوسُ، ولا خطَرَ بِبالِ أحدٍ، أو قدَرَ أن يَصِفَه الواصِفونَ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ و﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه أنَّ التَّسبيحَ والحَمدَ قد يُسمَّى دُعاءً، وكذلك التهليلُ، فعن ابنِ عبَّاس: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ عند الكَربِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ العظيمُ الحَليمُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ رَبُّ العَرشِ العَظيمِ، لا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ السَّمَواتِ، ورَبُّ الأرضِ، ورَبُّ العَرشِ الكَريمِ))[٢]، وكان السَّلَفُ يُسَمُّونَه دعاءَ الكَربِ، وعن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((دعوةُ ذي النُّونِ إذ دعا بها في بطنِ الحُوتِ: لا إلهَ إلَّا أنت سُبحانَك إنِّي كنتُ مِن الظَّالِمينَ؛ فإنَّه لن يدعُوَ بها مُسلِمٌ في شَيءٍ إلَّا استُجيبَ له))[٣].

٥- وَجهُ ذِكْرِ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ في عدَدِ أحوالِهم أنَّها تدُلُّ على أنَّ ما هُم فيه مِن النَّعيمِ هو غاياتُ الرَّاغِبينَ بحيثُ إن أرادوا أن يَنعَموا بمقامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٤).

والحديث أخرجه الترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٤٩٢) واللفظ له، وأحمد (١٤٦٢).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ١٦١): رجال أحمد رجال الصحيح غير إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقاص وهو ثقة، وحسنه ابن حجر كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٤/ ١١)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/ ٣٦)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٠٥).

دُعاءِ ربِّهم، الَّذي هو مَقامُ القُربِ لم يَجِدوا أنفُسَهم مُشتاقِين لشيءٍ يَسأَلونه، فاعتَاضوا عَن السُّؤالِ بالثَّناءِ على ربِّهم، فأُلهِموا إلى الْتِزامِ التَّسبيحِ؛ لأنَّه أدَلُّ لفظٍ على التَّمْجيدِ والتَّنزيهِ، فهو جامِعٌ للعِبارةِ عَن الكمالاتِ[١].

٦- يُستحَبُّ للدَّاعي أن يقولَ في آخرِ دُعائِه (الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ)، كما قال الله تعالى عن أهلِ الجنَّةِ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

٧- قولُه: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا فيه دلالَةٌ علَى أنَّ اللَّهَ تعالَى هو المحمودُ أبدًا، المعبودُ على طولِ المَدَى؛ ولهذا حَمِد نفسَه عندَ ابتداءِ خَلْقِه واستمرارِه، وفي ابتداءِ كتابِه، وعندَ ابتداءِ تنزيلِه، حيثُ يقولُ تعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الْكَهْف: ١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[الأنعام: ١] إلى غيرِ ذلك مِن الأحوالِ الَّتي يطولُ بسطُها[٣]، ويختمُ الأمورَ بالحَمدِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزُّمَر: ٧٥]، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، وهو سبحانه ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٤] [القَصص: ٧٠].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٤)، ((الأذكار)) للنووي (ص: ١١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٠).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٤).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ استِئْنافُ وعيدٍ للَّذين لم يُؤمِنوا بالبَعثِ، ولا فكَّروا في الحياةِ الآخِرَةِ، ولم يَنظُروا في الآياتِ، نشَأ عَن الاستدلالِ على ما كفَروا به مِن ذلك؛ جَمعًا بينَ الاستِدلالِ المناسبِ لأهلِ العقولِ، وبينَ الوعيدِ المناسِبِ للمُعرِضين عن الحقِّ. ولِوُقوعِ هذه الجملةِ مَوقِعَ الوعيدِ الصَّالحِ لأَنْ يَعلَمَه النَّاسُ كلُّهم مُؤمِنُهم وكافِرُهم؛ عدَل فيها عن طريقةِ الخطابِ بالضَّميرِ إلى طريقةِ الإظهارِ، وجيءَ بالموصولةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ ...﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ الصِّلَةَ عِلَّةٌ في حُصولِ الخبَرِ[(١)].

- وفي الكلامِ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: ورَضُوا بالحياةِ الدُّنيا مِن الآخرةِ، كقولِه: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾[(٢)] [التوبة: ٣٨].

- وفيه اختيارُ صيغةِ الماضي (رَضُوا- اطْمَأَنُّوا)؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ والتَّقرُّرِ، كما أنَّ اختِيارَ صِيغةِ المستقبَلِ ﴿لَا يَرۡجُونَ﴾؛ للإيذانِ باستِمْرارِ عدَمِ الرَّجاءِ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث أُعيد الموصولُ؛ للاهتِمامِ بالصِّلةِ، والإيماءِ إلى أنَّها وحْدَها كافيةٌ في استِحْقاقِ ما سَيُذكَر بعدَها مِن الخبَرِ، وإنَّما لم يُعِدِ الموصولَ في قولِه: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ لأنَّ الرِّضا بالحياةِ الدُّنيا مِن تَكْملةِ مَعْنى الصِّلةِ الَّتي في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾[(٤)].

٢- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ فيه الإتيانُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٨- ٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

باسْم الإشارةِ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾؛ لِزيادَةِ إحصاءِ صِفاتِهم في أذهانِ السَّامِعين، ولِمَا يُؤْذِنُ به مَجيءُ اسْمِ الإشارةِ مُبتَدَأً عَقِبَ أوصافِهم مِن التَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليه جديرٌ بالخبَرِ مِن أجلِ تلك الأوصافِ[١].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ في تَسميةِ دارِ العذابِ (مأوًى) معنًى دقيقٌ في البلاغةِ، يُشعرُ بأنَّ أولئك المُطمئِنِّينَ بالشَّهواتِ، والغافلينَ عن الآياتِ؛ ليس لهم مصيرٌ يَلجَؤونَ إليه بعد هَولِ الحِسابِ، إلَّا جَهنَّمُ دارُ العذابِ، فوَيلٌ لِمَن كانت هذه الدَّارُ له كالمَلجأِ والمَوئِلِ؛ إذ لا مأوَى له يلجأُ إليه بَعدَها[٢].

- قولُه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ فيه الإتيانُ بـ (ما)؛ للإيماءِ إلى عِلَّةِ الحُكمِ، أي: إنَّ مَكْسوبَهم سببٌ في مَصيرِهم إلى النَّارِ، فأفاد تأكيدَ السَّببيَّةِ المفادَةِ بالباءِ، والإتيانُ بـ(كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا المكسوبَ دَيدَنُهم[٣].

- ومَجيءُ قولِه: ﴿يَكْسِبُونَ ﴾ بصِيغةِ المضارِعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم لم يَزالوا مُستمِرِّين على ذلك ماضِيَ زَمانِهم ومُستَقبَلَه؛ ففيه دَلالةٌ على التَّكريرِ، فيَكونُ دَيدَنُهم تَكْريرَ ذلك الَّذي كسَبوه[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

- قولُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ ... ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِتَكونَ أحوالُ المؤمِنين مُستقِلَّةً بالذِّكْرِ غيرَ تابعةٍ في اللَّفظِ لأحوالِ الكافِرين، وهذا مِن طُرقِ الاهتِمامِ بالخبَرِ[١].

- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ ﴾ وصَفَهم أوَّلًا بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ بصيغةِ الماضي؛ لبيانِ صِنفِهم وفريقِهم المُقابِلِ للفَريقِ الذي ذُكِرَ قبلَهم، وأخبَرَ عن هدايتِه لهم بصيغةِ المضارِعِ ﴿يَهۡدِيهِمۡ ﴾ الدالَّةِ على الاستمرارِ والتجَدُّدِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم ﴾ أُوثِرَ الالتِفاتُ؛ تَشْريفًا لهم بإضافةِ الرَّبِّ، وإشعارًا بعِلَّةِ الهدايةِ[٣]، وفي العُدولِ عَنِ اسمِ الجلالةِ العَلَمِ- حيثُ لم يَقُلْ: (يَهْديهم اللهُ)- إلى وصفِ الرُّبوبيَّةِ مُضافًا إلى ضَميرِ الَّذين آمَنوا ﴿رَبُّهُم ﴾: تنويهٌ بشأنِ المؤمنينَ وشأنِ هِدايتِهم، بأنها ناتجةٌ عن كونِه سبحانَه مولى لأوليائِه؛ فشَأْنُها أن تَكونَ عطيَّةً كاملةً مَشُوبةً برحمةٍ وكرامةٍ[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الاقتِصارُ على كَونِ دَعْواهُم فيها كَلِمةَ ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ يُشعِرُ بأنَّهم لا دَعْوى لهم في الجنَّةِ غيرَ ذلك القولِ؛ لأنَّ الاقتِصارَ في مَقامِ البيانِ يُشعِرُ بالقَصْرِ -وإن لم يَكُنْ هو مِن طُرقِ القَصْرِ، لكنَّه يُستَفادُ مِن المقامِ- ولكنَّ قولَه: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ يُفيدُ أنَّ هذا التَّحميدَ مِن دَعْواهم؛ فتَحَصَّل مِن ذلك أنَّ لهم دَعْوى وخاتِمةَ دَعْوى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٠٣).

الآيتان (١١-١٢)

﴿ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾: أي: عُتُوِّهِمْ وتكبُّرِهم. وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوزةُ الحدِّ[1].

﴿يَعۡمَهُونَ﴾: أي: يتردَّدونَ ويتَحيَّرونَ. وأصلُ (عمه): يدلُّ على حَيرةٍ، وقِلَّةِ اهتداءٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ اللهُ تعالى أنَّه لو يعَجِّلُ للنَّاسِ الشَّرَّ كاستِعجالِهم بالخَيرِ، لَهَلكوا، ويَترُكُ اللهُ الذينَ لا يَرجُونَ لِقاءَه في الآخرةِ في ضَلالِهم متحَيِّرينَ مُتَردِّدينَ.

وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعا ربَّه عَزَّ وجَلَّ، في جميعِ أحوالِه: مُضطجِعًا على جَنْبِه أو قاعدًا أو قائِمًا، فلمَّا كشَفَ اللهُ عنه ضُرَّه، استمَرَّ على ما كان عليه مِنَ الكُفرِ أو المعاصي، ونَسِيَ أو تناسى ما كان عليه مِن الشِّدَّةِ، ولم يشكُرِ اللهَ الذي فرَّجَ عنه، وكأنَّه لم يَدْعُه إلى رَفْعِ ما أصابَه، كذلك زُيِّنَ للكافرين المُجاوِزينَ الحَدَّ في الكُفرِ والعِصيانِ ما كانوا يَعملونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ١٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

تفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وصَفَ الكُفَّارَ بأنَّهم لا يرَجُونَ لِقاءَ اللهِ، ورَضُوا بالحياةِ الدُّنيا واطمَأنُّوا بها، وكانوا عن آياتِ الله غافلينَ- بَيَّنَ أنَّ مِن غَفلَتِهم أنَّ الرَّسولَ متى أنذَرَهم استعجَلوا العذابَ؛ جهلًا منهم وسَفَهًا[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله عَجَبَ النَّاسِ مِن إيحائِه تعالى إلى رَجُلٍ منهم، وكان فيما أُوحِيَ إليه الإنذارُ والتَّبشيرُ، وكانوا يستهزِئونَ بذلك، ولا يعتَقِدونَ حُلولَ ما أنذَروه بهم، ثمَّ استطرَدَ مِن ذلك إلى وحدانيَّتِه تعالى، وذِكْرِ إيجادِه العالَمَ، ثم إلى تقسيمِ النَّاسِ إلى مؤمِنٍ وكافرٍ، وذِكْرِ منازِلِ الفريقينِ- رجع إلى أنَّ ذلك المُنذَرَ به الذي طلَبوا وقوعَه عَجَلًا، لو وقَعَ لَهَلكوا، فلم يكُن في إهلاكِهم رجاءُ إيمانِ بَعضِهم، وإخراجُ مُؤمنٍ مِن صُلبِهم، بل اقتضَتْ حِكمتُه ألَّا يُعجِّلَ لهم ما طَلَبوه؛ لِمَا ترتَّبَ على ذلك[2].

وأيضًا هذه الجُملةَ مَعطوفةٌ على جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الآية، فحيث ذَكَرَ عذابَهم الذي هم آيِلونَ إليه، ناسَبَ أن يبيِّنَ لهم سبَبَ تأخيرِ العذابِ عنهم في الدُّنيا؛ لتُكشَفَ شُبهةُ غُرورِهم، ولِيَعلَمَ الذين آمنوا حكمةً مِن حِكَمِ تصَرُّفِ اللهِ في هذا الكَونِ[3].

﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٦).

أي: ولو يُعجِّلُ الله للنَّاسِ الشرَّ إذا دَعَوْا به، كاستعجالِهم بالخيرِ[(١)]، لهلَكوا[(٢)].

عن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ، رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تَدْعُوا على أنفُسِكم، ولا تَدْعُوا على أولادِكم، ولا تَدعُوا على أمْوالِكم؛ لا تُوافِقوا مِن اللهِ ساعةً يُسألُ فيها عطاءً، فيستجيبَ لكم))[(٣)].

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.

أي: فنَترُكُ الذين لا يُؤمِنونَ بلِقائِنا، فلا يخافونَ عِقابَنا، ولا يَطمَعونَ في

---

(١) ذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ يعني تعجيلَ اللهِ الخيرَ لهم. أي: ولو يعجِّلُ الله للنَّاسِ إجابةَ دُعائِهم فيما فيه عليهم مضَرَّةٌ، كتعجيلِه لهم الإجابةَ في الخيرِ إذا دَعَوه به. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).
وجعل بعضُ المفَسِّرينَ الاستعجالَ مِن فِعلِ العبادِ، كما قال تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ [الإسراء: ١١]. ومنهم: ابنُ قتيبةَ، والواحديُّ، والبغويُّ، وابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٥، ٢٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣٣-١٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).
قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ﴾، قال عامة المفَسِّرين: أي: لَماتوا وهلكوا جميعًا وفُرِغَ مِن هلاكهم، وقال أبو عبيدةَ: لفُرِغَ عن أجَلِهم، والتقدير: لفُرِغَ مِن أجلهم ومدَّتِهم المضروبةِ للحياة، فإذا انتهت مدّتُهم المضروبةُ للحياة هلكوا، ومعنى الفراغِ مِن المدة: انقضاؤها، والشَّيءُ إذا انقضى فُرِغَ منه). ((البسيط)) (١١/ ١٣٦).
وقال ابنُ جُزي: (نزلت الآيةُ- عندَ قومٍ- في دعاءِ الإنسانِ على نفسِه ومالِه وولده، وقيل: نزلَتْ في الذينَ قالوا: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٥٣).
وقال ابنُ عطيةَ: (حُذف بعدَ ذلك مِن القولِ جملةٌ يتضمَّنُها الظاهرُ، تقديرُها: «ولا يفعلُ ذلك، ولكن يذرُ الذين لا يَرْجون ...» فاقتضَب القولَ، وتوصَّل إلى هذا المعنَى بقولِه: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فتأملْ هذا التقديرَ تجِدْه صحيحًا). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٨).

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠٩).

ثَوابِنا، نَترُكُهم في تَمَرُّدِهم مُتردِّدينَ مُتحَيِّرينَ، لا يَهتَدونَ إلى الحَقِّ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى حكى عن الكافرينَ أنَّهم يَستعجِلونَ في نزولِ العَذابِ، ثمَّ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّهم كاذِبونَ في ذلك الطَّلَبِ والاستعجالِ؛ لأنَّه لو نزَلَ بالإنسانِ أدنى شَيءٍ يَكرَهُه ويُؤذيه، فإنَّه يتضَرَّعُ إلى اللهِ تعالى في إزالَتِه عنه، وفي دَفْعِه عنه، وذلك يدُلُّ على أنَّه ليس صادِقًا في هذا الطَّلَبِ[٢].

وأيضًا لَمَّا استدعَى الكافِرونَ حُلولَ الشَّرِّ بهم، وأنَّه تعالى لا يفعَلُ ذلك بطَلَبِهم، بل يترُكُ مَن لا يرجو لقاءَه يَعمَهُ في طُغيانِه؛ بيَّنَ شِدَّةَ افتقارِ النَّاسِ إليه، واضطرارَهم إلى استمطارِ إحسانِه؛ مُسيئِهم ومُحسِنِهم، وأنَّ مَن لا يرجو لِقاءَه مُضطَرٌّ إليه حالةَ مَسِّ الضُّرِّ له، فكُلٌّ يلجأُ إليه حينَئذٍ، ويُفرِدُه بأنَّه القادِرُ على كَشفِ الضُّرِّ[٣].

وأيضًا فإنَّ هذه الآيةَ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠).

لأنَّ الغَرَضَ الأهَمَّ مِن كِلتَيهما، هو الاعتبارُ بذَميمِ أحوالِ المُشرِكينَ؛ تَفظيعًا لحالِهم، وتحذيرًا مِن الوقوعِ في أمثالِها، بقرينةِ تَنهيةِ هذه الآيةِ بِجُملةِ: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلمَّا بَيَّنَ في الآية السَّابقةِ وَجْهَ تأخيرِ عَذابِ الاستئصالِ عنهم، وإرجاءِ جَزائِهم إلى الآخرةِ، بَيَّنَ في هذه الآيةِ حالَهم عِندَما يَمَسُّهم شيءٌ من الضُّرِّ، وعِندَما يُكشَفُ الضُّرُّ عنهم[1].

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾.

أي: وإذا أصابَ الإنسانَ الشِّدَّةُ والكَربُ اجتهَدَ في دعائِنا في جميعِ أحوالِه؛ مُضطَجِعًا على جَنْبِه، أو قاعدًا، أو قائمًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾.

أي: فلمَّا فَرَّجْنا عن الإنسانِ المُضطَرِّ، واستجَبْنا دُعاءَه، استمَرَّ على ما كان عليه مِن الكُفرِ أو المعاصي، ونَسِيَ أو تناسى ما كان فيه مِن الشِّدَّةِ، ولم يتَّعِظْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٢).
قال السعدي: (هذا إخبارٌ عن طبيعةِ الإنسانِ مِن حيث هو). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).
قال ابن عطية: (الضُّرُّ لَفظٌ لِجَميعِ الأمراضِ والرَّزايا في النَّفسِ والمالِ والأحبَّةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٩). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٠٥).

بذلك، ولم يَشكُرِ، كأنَّه لم يَدْعُنا إلى رَفعِ ما أصابَه[١]!

كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥-٦٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر: ٨].

﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

أي: كما زُيِّنَ للإنسانِ الدُّعاءُ عند البَلاءِ، والإعراضُ عند الرَّخاءِ، واستمرارُه على ما كان عليه مِن كُفرانٍ بعد كَشْفِ ضُرِّه، كذلك زُيِّنَ للكافرين المُجاوِزينَ الحَدَّ في الكُفرِ والعِصيانِ ما كانوا يَعملونَه من ذلك[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٢، ١٣٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣٩، ١٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٢).

قال الشوكاني: (والتزيينُ هو إمَّا مِن جهةِ الله تعالى على طريقةِ [التخليةِ] وعدمِ اللطفِ بهم، أو مِن طريقِ الشيطانِ بالوسوسةِ، أو مِن طريقِ النفسِ الأمَّارة بالسوءِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٨).

وقال ابنُ عطيةَ: (ولفظةُ التَّزيينِ قد جاءت في القرآنِ بهذينِ المَعنَيينِ: مِن فِعلِ الله تعالى، ومرَّةً مِن فِعلِ الشَّياطينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٩).

كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾. المَقصودُ مِن هذه الآيةِ بيانُ أنَّ الإنسانَ قَليلُ الصَّبرِ عندَ نُزولِ البَلاءِ، قليلُ الشُّكرِ عندَ وِجدانِ النَّعماءِ والآلاءِ؛ فإذا مَسَّه الضُّرُّ أقبَلَ على التضَرُّعِ والدُّعاءِ، مُضطَجِعًا أو قائمًا أو قاعِدًا، مجتَهِدًا في ذلك الدُّعاءِ، طالبًا مِن اللهِ تعالى إزالةَ تلك المِحنةِ، وتبديلَها بالنِّعمةِ والمِنحةِ، فإذا كشَفَ تعالى عنه ذلك بالعافيةِ، أعرَضَ عن الشُّكرِ، ولم يتذَكَّرْ ذلك الضُّرَّ، ولم يَعرِفْ قَدْرَ الإنعامِ، وصار بمنزلةِ مَن لم يَدْعُ اللهَ تعالى لِكَشفِ ضُرِّه، وذلك يدُلُّ على ضَعفِ طبيعةِ الإنسانِ، وشِدَّةِ استيلاءِ الغَفلةِ والشَّهوةِ عليه، وإنَّما ذكَرَ الله تعالى ذلك؛ تنبيهًا على أنَّ هذه الطريقةَ مَذمومةٌ، بل الواجِبُ على الإنسانِ العاقِلِ أن يكونَ صابِرًا عند نزولِ البَلاءِ، شاكِرًا عند الفَوزِ بالنَّعماءِ، ومِن شَأنِه أن يكونَ كَثيرَ الدُّعاءِ والتضَرُّعِ في أوقاتِ الرَّاحةِ والرَّفاهيةِ؛ حتى يكونَ مُجابَ الدَّعوةِ في وقتِ المِحنةِ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ هو إجمالٌ يُنبئُ بأنَّ الله جعَلَ نِظامَ هذا العالَمِ على الرِّفقِ بالمخلوقاتِ، واستبقاءِ الأنواعِ إلى آجالٍ أرادَها، وجعَلَ لهذا البَقاءِ وَسائِلَ الإمدادِ بالنِّعَمِ التي بها دوامُ الحياةِ، فالخيراتُ المُفاضةُ على المخلوقاتِ في هذا العالَمِ كثيرةٌ، والشُّرورُ العارِضةُ نادرةٌ، ومُعظَمُها مُسبَّبٌ عن أسبابٍ مَجعولةٍ في نظامِ الكَونِ وتصَرُّفاتِ أهلِه، ومنها ما يأتي على خِلافِ العادةِ عند محَلِّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٠).
وقال ابنُ عطيةَ: (قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ ...﴾ الآية، هذه الآيةُ أيضًا عِتابٌ على سوءِ الخُلُقِ من بعضِ النَّاسِ، ومُضَمَّنُه النَّهيُ عن مِثلِ هذا، والأمرُ بالتَّسليمِ إلى الله تعالى والضَّراعةِ إليه في كلِّ حالٍ، والعِلمُ بأنَّ الخَيرَ والشَّرَّ منه، لا رَبَّ غَيرُه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٩).

آجالِه التي قَدَّرَها الله تعالى بِقَولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [يونس: ٤٩]، وقولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[١] [الرعد: ٣٨].

٢- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ جاء (الضرُّ) بالألف واللام؛ لأنَّه إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ من الشَّرِّ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾؛ فإنَّ الضُّرَّ والشَّرَّ واحِدٌ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ فائدةُ ذِكرِ هذه الأحوالِ أنَّ المضرورَ لا يزالُ داعيًا، لا يفتُرُ عن الدُّعاءِ، إلى أن يزولَ عنه الضُّرُّ، سواءٌ كان مُضطَجِعًا أو قاعدًا أو قائمًا[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قد أُسنِدَ التَّزيينُ هنا إلى المَفعولِ؛ لأنَّه المقصودُ بالعِبرةِ دونَ فاعِلِه[٤].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ فيه وَضْعُ ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ موضِعَ (تَعْجيلِه لهم الخَيرَ)- لأنَّ أصلَه: (ولو يُعجِّلُ اللهُ للنَّاسِ الشَّرَّ تَعْجيلَه لهم الخيرَ)-؛ إشعارًا بسُرعةِ إجابَتِه لهم، وإسعافِه بِطَلِبَتِهم، حتَّى كأنَّ استِعْجالَهم بالخَيرِ تعجيلٌ لهم[٥] وذلك على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٦).
(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣١- ٣٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩).

أحدِ أوجهِ التأويلِ.

٢- قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ وصفٌ للمُستقبَلِ، وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ للماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّه هكذا كان فيما مَضَى، وهكذا يَكونُ في المستقبَلِ؛ فدَلَّ ما في الآيةِ مِن الفعلِ المستقبَلِ على ما فيه مِن المعنى المستقبَلِ، وما فيها مِن الفِعْلِ الماضي على ما فيه مِن المعنى الماضي[(١)].

- وزيادةُ قولِه: ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾؛ لِقَصْدِ تعميمِ الأحوالِ وتَكْميلِها؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ الإطنابِ لِزِيادَةِ تمثيلِ الأحوالِ، أي: دَعانا في سائرِ الأحوالِ لا يُلْهيه عَن دُعائِنا شيءٌ[(٢)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيث ابتَدَأ بالحالةِ الشَّاقَّةِ ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ ﴾، وهي اضطِجاعُه وعَجْزُه عن النُّهوضِ، وهي أعظَمُ في الدُّعاءِ وآكَدُ، ثُمَّ بما يَليها، وهي حالةُ القُعودِ: ﴿أَوْ قَاعِدًا ﴾، وهي حالَةُ العَجزِ عن القيامِ، ثمَّ بما يَليها

وقيل: حقيقةُ قَولِك: عَجَّلتُ فُلانًا: طلبتُ عَجَلتَه، وكذلك عجلَّتُ الأمرَ: إذا أتيتَ به عاجلًا، كأنَّك طلبتَ فيه العَجَلةَ، والاستعجالُ أشهَرُ وأظهَرُ في هذا المعنى، وعلى هذا الوجهِ يَصيرُ معنى الآية: لو أراد اللهُ عَجَلةَ الشَّرِّ للنَّاسِ- كما أرادوا عجَلَةَ الخَيرِ لهم- لقُضِيَ إليهم أجَلُهم، وعلى هذا التقدير: فلا حاجةَ إلى العدولِ عن ظاهِرِ الآية. وقيل: إنَّ كُلَّ مَن عَجَّل شيئًا فقد طلب تعجيلَه، وإذا كان كذلك، فكلُّ من كان مُعَجِّلًا كان مُستعجِلًا، فيصير التقديرُ: ولو استعجل اللهُ للنَّاسِ الشَّرَّ استعجالَهم بالخيرِ. إلَّا أنَّه تعالى وصف نفسَه بتكوينِ العَجَلةِ ووصَفَهم بطَلَبِها؛ لأنَّ اللائِقَ به تعالى هو التكوينُ، واللائقَ بهم هو الطَّلَبُ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٨-٢١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٩).

وهي حالةُ القيامِ: ﴿أَوۡ قَآئِمٗا﴾، وهي حالةُ العَجزِ عَن المشيِ، فتَراه يَضْطَرِبُ ولا يَنهَضُ للمَشيِ كحالَةِ الشَّيخِ الهَرِمِ[1]، وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ تذييلٌ يَعُمُّ ما تقَدَّم وغيرَه، والإشارةُ إلى التَّزيينِ المستَفادِ هنا، وهو تزيينُ إعراضِهم عن دُعاءِ اللهِ في حالةِ الرَّخاءِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٢).

الآيتان (١٣-١٤)

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْقُرُونَ﴾: جمعُ قَرْنٍ، والقرنُ: القومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المقترنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْر مُقَدَّرٍ بمدةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّة القرنِ مئةُ سنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقترانِ، وهو اجتماعُ شيئينِ، أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدلُّ على جمعِ شيءٍ إلى شيءٍ[(١)].

﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: أي: سُكَّانًا يخلُفُ بَعضُكم بعضًا، وأصلُ (خلف): أن يَجيءَ شَيءٌ بعدَ شَيءٍ يقومُ مَقامَه[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى المُشرِكينَ أنَّه قد أهلَكَ الأمم مِن قَبْلِهم لَمَّا ظَلَموا بإشراكِهم باللهِ، وتكذيبِهم رُسُلَه، وأتتْ تلك الأممَ الماضيةَ رُسُلُ اللهِ إليهم بالمُعجزاتِ والبَراهينِ الواضِحاتِ، فما كانوا ليُؤمِنوا؛ لأنَّ اللهَ طَبَع على قُلوبِهم؛ لِشِدَّةِ كُفرِهم، ومُعانَدتِهم للحَقِّ، كذلك يَجزي الله القَومَ المُجرِمينَ.

ثم جَعَلَهم خلائِفَ في الأرضِ من بعدِ أولئك الأمَمِ التي أهلَكَها اللهُ، ليَنظُرَ كيف يَعملونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠).

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه عاد الخِطابُ إلى المُشرِكينَ عودًا على بَدْئِه، في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ... ﴾ إلى قَولِه ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس: ٣- ٥] بمناسبةِ التَّماثُلِ بينهم وبين الأُمَم قَبْلَهم في الغُرورِ بتَأخيرِ العَذابِ عنهم، حتى حَلَّ بهم الهلاكُ فجأةً، وهذه الآيةُ تَهديدٌ ومَوعظةٌ بما حلَّ بأمثالِهم[١].

وأيضًا لَمَّا كان مَحَطُّ نظَرِ الكافرينَ الدُّنيا، وكان ما سبَقَ صَريحًا في الإمهالِ للظَّالِمينَ، والإحسانِ إلى المُجرِمينَ؛ أتبَعَه بِقَولِه تعالى مُهَدِّدًا لهم، رادعًا عمَّا هم فيه[٢]:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾.

أي: ولقد أهلَكْنا بالاستئصالِ الأمم الماضيةِ التي كانت قَبْلَكم- أيُّها المُشرِكونَ[٣]- لَمَّا أشرَك أهلُها باللهِ، وكَذَّبوا رُسُلَه، وخالفوا أمْرَه ونَهْيَه[٤].

كما قال سُبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٨٥).

(٣) ممَّن نَصَّ على أنَّ المُرادَ بالمُخاطَبينَ هنا: أهلُ مكَّة: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والقرطبيُّ. وذكر ابنُ جريرٍ أنَّهم المُشرِكونَ بربِّهم. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٣).

مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦].

﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

أي: وأتت الأممَ الماضيةَ رُسُلُ اللهِ بالمُعجِزاتِ والبَراهينِ الواضِحةِ التي تدُلُّ على صِدقِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾.

أي: فلم يكُن أهلُ القُرونِ الماضيةِ لِيُؤمِنوا برُسُلِ اللهِ الذين جاؤوهم بالمُعجِزاتِ؛ لأنَّ اللهَ طبَعَ على قُلوبِهم لشِدَّةِ كُفرِهم، ومُعانَدتِهم للحَقِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وقال سُبحانه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٣، ١٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٧).

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

أي: كما أهلَكْنا أهلَ القُرونِ الماضيةِ مِن قَبلِكم -أيُّها المُشرِكونَ- بسبَبِ شِرْكِهم، كذلك نُهلِكُكم إذا لم تَتوبوا وتُؤمِنوا باللهِ ورُسُلِه، ونُهلِكُ كُلَّ مُشرِكٍ وكافرٍ كذلك[1].

كما قال سبحانه: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۞ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦-١٨].

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ هذا الخِطابَ مَعطوفٌ على الذي قَبلَه، أي: ثمَّ جَعلْناكم خلائفَ في الأرضِ مِن بَعدِ أولئك الأقوامِ كُلِّهم بما آتيناكم في هذا الدِّينِ مِن أسبابِ المُلكِ والحُكمِ، وقَدَّرناه لكم باتِّباعِه، إذ كان الرَّسولُ الذي به جاءَكم هو خاتَمَ النَّبيِّينَ، فلا يُوجَدُ بعد أمَّتِه أمَّةٌ أخرى لنبيٍّ آخَرَ، فاللهُ يُبشِّرُ قَومَ مُحمَّدٍ وأمَّةَ مُحمَّدٍ بأنَّها ستَخلُفُهم في الأرضِ، إذا آمَنَت به، واتَّبَعَت النُّورَ الذي أُنزِلَ معه[2].

وأيضًا لَمَّا صَرَّحَ تعالى بأنَّ الجزاءَ المذكورَ عامٌّ لكُلِّ مُجرِمٍ، أتبَعَه قَولَه: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ أي: أيُّها المُرسَلُ إليهم أشرَفُ رُسُلِنا ﴿خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ فيتعَلَّقُ نظَرُنا بأعمالِكم موجودةً؛ تخويفًا للمُخاطَبينَ مِن أن يُجرِموا فيُصيبَهم ما أصابَ مَن قَبْلَهم[3].

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٨٦).

أي: ثمَّ جَعَلْناكم[١] سكَّانًا في الأرضِ، تكونون فيها مِن بَعدِ الأمَمِ الماضيةِ التي أهلَكْناها[٢].

﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: استَخلَفْناكم بَعْدَهم؛ لِنَنظُرَ أيَّ عَمَلٍ تَعملونَ من أعمالِ الخَيرِ أو الشَّرِّ، فنُجازيكم عليه[٣].

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الدُّنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ[٤]، وإنَّ اللهَ مُستَخلِفُكم فيها، فينظُرُ كيف تَعمَلونَ))[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- سبَبُ هلاكِ الأُمَمِ السَّابقةِ وُقوعُ الظُّلمِ مِنهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾[٦].

---

(١) قال الخازن: (الخطابُ لأهلِ مَكَّةَ الذين أُرسِلَ فيهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعنى: ثمَّ جَعَلْناكم- أيُّها النَّاسُ- خُلَفاءَ في الأرضِ مِن بَعدِ القُرونِ الماضيةِ الذين أهلَكْناهم). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٣٢).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ(الأرض) بلادُ العَرَب، فالتعريفُ فيه للعَهدِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ خَلَفوا عادًا وثَمودَ وطَسمًا وجَدِيسًا وجُرْهُمًا في منازِلِهم على الجملةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٧)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١١).

(٤) حُلْوَة خَضِرة: أي: غضَّةٌ ناعِمةٌ طيِّبةٌ، مُزَيَّنةٌ في عيونِكم وقلوبِكم، وإنَّما وصَفها بالخَضِرَة؛ لأنَّ العربَ تُسمِّي الشَّيءَ النَّاعمَ خَضِرًا، أو لتشَبُّهِها بالخُضْرواتِ في سرعةِ زَوالِها. يُنظر: ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازري (٢/ ٣٣) ((مرقاة المفاتيح)) للمُلا الهروي (٥/ ٢٠٤٤).

(٥) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٨).

٢- قولُه تعالى: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ مِن أدلَّةِ إثباتِ الصِّفاتِ الاختياريَّةِ لِلَّهِ تعالى؛ ففيه إثباتُ صِفةِ النَّظَرِ، فإنَّ اللامَ هنا هي لامُ (كي)، وهي تقتضي أنَّ ما بَعدَها متأخِّرٌ عن المعلولِ، فنَظَرُه لـ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ هو بعدَ جعْلِهم خلائفَ[١].

بلاغةُ الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فيه توكيدُ التَّهديدِ والوَعيدِ؛ حيثُ أُكِّدَت الجُملةُ بلامِ القسَمِ و(قد) الَّتي للتَّحقيقِ[٢].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ الخِطابُ لأمَّةِ الدَّعوةِ المُحمَّديةِ، وُجِّهَ أوَّلًا وبالذَّاتِ إلى قَومِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأهلِ وَطَنِه مكَّةَ؛ إذ أُنزِلَت السُّورةُ فيها، فهو التفاتٌ يُفيدُ مَزيدَ التَّنبيهِ، وتوجيهَ أذهانِ المُخاطَبينَ لِمَوضوعِه[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ اللَّامُ لِتَأكيدِ النَّفيِ، أي: وما صَحَّ وما استَقام لهم أن يُؤمِنوا؛ لِفَسادِ استِعْدادِهم، وخِذْلانِ اللهِ تعالى إيَّاهم. أو: ما كانوا يُؤمِنون حقًّا، تأكيدًا لِنَفيِ إيمانِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ على القولِ بأنَّ الضَّميرَ عائدٌ على أهلِ مكَّةَ، فيَكونُ الْتِفاتًا؛ لأنَّه خرَج مِن ضميرِ الخطابِ إلى ضَميرِ الغيبةِ، ويَكونُ مُتَّسِقًا معَ قولِه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[٥].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢).

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾، بالواوِ تَبعًا لها في قولِه: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، وقال في موضعٍ آخَرَ مِن سورةِ يونُسَ: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ﴾ [يونس: ٧٤]، وكذلك في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُ﴾ [الأعراف: ١٠١] بالفاءِ للتَّعقيبِ، على أصلِها[١].

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٣).

الآيات (١٥-١٧)

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ تعالى أنَّه إذا قُرِئَ على المُشركينَ آياتُ القُرآنِ واضحاتٍ، دالَّاتٍ على الحَقِّ، قال المُشركونَ- الذين يكذِّبونَ بالبَعثِ- لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أحضِرْ قُرآنًا آخَرَ ليس فيه ما نَكْرَه، أو غيِّرْه بنَفسِك على الوَجهِ الذي نحِبُّ، فأمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجيبَهم قائلًا: لا يحِقُّ لي أن أغيِّرَه مِن قِبَلِ نَفسي، ما أتَّبِعُ إلَّا ما يوحيهُ اللَّهُ إليَّ؛ إني أخافُ إن عصيتُ ربِّي عذابَ يومٍ عَظيمٍ، وهو يومُ القيامةِ.

وأمَرَه أيضًا أن يقولَ لهم: لو شاءَ اللهُ ما تَلَوتُ عليكم القُرآنَ، ولا أعلَمَكم اللهُ به؛ فقد أقمْتُ فيكم- يا أهلَ مكَّةَ- حِينًا طويلًا قبلَ أن يُوحَى إليَّ هذا القُرآنُ، أفلا تَعقِلونَ؟!

فلا أحَدَ أظلَمُ ممَّن تقوَّلَ على اللهِ الكَذِبَ، أو كذَّبَ بآياتِه؛ إنَّه لا يُفلِحُ المُجرِمونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ

﴿أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بُدِئَت السُّورةُ بالكتابِ الحكيم (القُرآن)، وإنكارِ المُشرِكينَ للوَحيِ بشُبهتِهم المعروفةِ، وسِيقَت بَعدَها الآياتُ في إقامةِ الحُجَجِ عليهم؛ مِن خَلقِ العالَمِ عُلْويِّه وسُفليِّه، ومِن طبيعةِ الإنسانِ وتاريخِه، متضمِّنةً لإثباتِ أهَمِّ أركانِ الدِّينِ، وهو الوحيُ والتَّوحيدُ والبَعثُ- جاءت هذه الآياتُ الثَّلاثُ بعد ذلك في شأنِ الكتابِ نَفسِه، وتفنيدِ ما اقتَرَحه المُشرِكونَ على الرَّسولِ فيه، وحُجَّتِه البالغةِ عليهم، في كونِه وَحيًا مِن اللهِ تعالى[(١)].

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾.

أي: وإذا قُرِئَ على مُشرِكي قُريشٍ آياتُ القُرآنِ واضحاتٍ دالَّاتٍ على الحَقِّ، قال الذين يكَذِّبونَ بالبَعثِ، ولا يخافونَ عِقابَنا، ولا يَطمعونَ في ثَوابِنا: أحضِرْ- يا محمَّدُ- قُرآنًا آخَرَ ليس فيه ما نَكْرَهُ مِن التَّوحيدِ، والنَّهيِ عن الشِّركِ، وعَيبِ آلهَتِنا، وذِكرِ البَعثِ والنُّشورِ، أو غيِّرْ هذا القُرآنَ بنَفسِك على الوَجهِ الذي نُحِبُّ[(٢)].

﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الكُفَّارِ: لا يحقُّ لي أن أُغيِّرَ القُرآنَ بمَحضِ رأيي، ومُقتضَى اجتهادِي، بِغَيرِ وَحْيٍ مِن اللَّهِ؛ فليس لي مِن الأمرِ شَيءٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٠-٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٣، ١٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٤)، ((تفسير

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الكُفَّارِ: إنَّما أنا عبدٌ مأمورٌ، ليس لي إلَّا أن أتَّبِعَ ما يُوحيه اللَّهُ إليَّ ويأمُرُني به، مِن غَيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ، ولا تبديلٍ ولا تَحريفٍ(١).

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: إنِّي أخشى- إن خالَفْتُ أمْرَ اللهِ، وبدَّلْتُ شَيئًا مِن كِتابِه- عذابَ يومِ القيامةِ العظيمِ الأهوالِ(٢).

كما قال تعالى عن يومِ القِيامةِ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ الكافرينَ التَمَسوا مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذلك الالتِماسَ المذكورَ في الآيةِ السَّابقةِ؛ لأجلِ أنَّهم اتَّهَموه بأنَّه هو الذي يأتي بهذا الكِتابِ مِن عندِ نَفسِه، على سبيلِ الاختلاقِ والافتِعالِ، لا على سَبيلِ كَونِه وَحيًا من عندِ الله تعالى؛ فلهذا المعنى احتَجَّ النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على فَسادِ هذا الوَهمِ بما

البيضاوي)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٢).

ذكَرَه اللهُ تعالى في هذه الآية[١].

﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ الكُفَّارِ: لو أراد اللَّهُ ما تَلَوتُ عليكم القُرآنَ؛ فاللهُ وَحْدَه هو الذي أنزَلَه عليَّ، وأمَرَني بتِلاوَتِه عليكم، فهو ليس من قِبَلي، ولا أقدِرُ على ذلك، ولا أقدِرُ على الإتيانِ بقرآنٍ غَيرِه[٢].

﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ ﴾.

أي: ولو أراد اللهُ لَمَا أعلَمَكم بالقرآنِ، ولا أخبَرَكم به، لكِنَّه أدْراكم به بعد أنْ لم تكونوا كذلك، فلو كان كَذِبًا وافتراءً كما تقولونَ، لأمكَنَ لِغَيري أن يَتلوَه عليكم، وتَدرونَ به مِن جِهَتِه؛ لأنَّ الكَذِبَ لا يَعجِزُ عنه البشَرُ، وأنتم لم تَدْروا بهذا مِن قَبْلُ، ولم تَسمَعوه مِن بشَرٍ غَيري[٣].

﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾.

أي: فقد أقمْتُ فيكم- يا أهلَ مَكَّةَ- حينًا طويلًا مِن عُمُري- أربعينَ سنةً- قبلَ أن يُوحَى إليَّ هذا القرآنُ، ما جرَّبتُم عليَّ كذبًا قطُّ، تَعرِفونَ صدقي وأمانتي، وأنِّي لستُ ممَّن يقرأُ أو يكتبُ، ثمَّ جِئتُكم بالقُرآنِ، أفلا تَعقِلونَ بذلك أنَّه وحيٌ مِن عندِ الله تعالى[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٥-٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٠).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٧، ١٤٨)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٥، ٢٢٦)،

كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۞ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩-٧٠].

وعن ابن عبَّاس رَضِيَ الله عنهما: ((أنَّ أبا سُفيانَ أخبَرَه أنَّ قَيصَرَ سألَه عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: هل كُنتُم تتَّهِمونَه بالكَذِب قبلَ أن يقولَ ما قال؟ قلتُ: لا...)) وذكر الحَديثَ بطولِه، وفيه: ((قال: سألتُك هل كُنتُم تتَّهِمونَه بالكَذِب قبلَ أن يقولَ ما قال؟ فذَكَرْتَ أنْ لا، فقد أعرِفُ أنَّه لم يكُنْ لِيَذَرَ الكَذِبَ على النَّاسِ ويكذِبَ على اللهِ!))[1].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآيةُ تَتِمَّةُ الرَّدِّ على اقتراحِ المُشرِكينَ؛ فإنَّه رَدَّ عليهم أوَّلًا ببيانِ حَقيقةِ الأمرِ الواقِعِ، وهو أنَّ تبديلَ القُرآنِ ليس مِن شَأنِ الرَّسولِ في نَفسِه، ولا ممَّا أَذِنَ اللهُ له به، بل يُعاقِبُه عليه أشَدَّ العِقابِ في الآخرةِ إنْ فُرِضَ وُقوعُه منه؛ لأنَّه كلامُه الخاصُّ به. وثانيًا: بإقامةِ الحُجَّةِ العَقليَّةِ على أنَّه كلامُ الله، وأنَّه ليس في استطاعتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الإتيانُ بمِثلِه، ثمَّ عَزَّز هاتينِ الحُجَّتَينِ بثالثةٍ أدبيَّةٍ، وهي: أنَّ شَرَّ أنواعِ الظُّلمِ والإجرامِ في البَشَرِ شيئان؛ أحدُهما: افتراءُ الكَذِبِ على اللهِ، وهو ما اقتَرَحوه عليه بجُحودِهم، وثانيهما: التَّكذيبُ بآياتِ

((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٨٨)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٧١، ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٣).

(١) رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

الله، وهو ما اجترَحوه بإجرامِهم[١].

وأيضًا فإنَّ الكافرينَ التَمَسوا مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قُرآنًا يَذكُرُه مِن عندِ نَفْسِه، ونَسَبوه إلى أنَّه إنَّما يأتي بهذا القُرآنِ مِن عِندِ نَفسِه، ثمَّ إنَّه أقام البُرهانَ القاهِرَ الظَّاهِرَ على أنَّ ذلك باطِلٌ، وأنَّ هذا القُرآنَ ليس إلَّا بِوَحيِ اللهِ تعالى وتَنزيلِه، فعندَ ذلك قال[٢]:

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾.

أي: فلا أحَدَ أشَدُّ كَذِبًا، وأوضَعُ لِقَولِه في غيرِ مَوضِعِه ممَّن تقوَّلَ الكَذِبَ على اللهِ سُبحانه- كمَن زعَمَ أنَّ اللهَ أوحَى إليه- أو كذَّبَ بآياتِ كِتابِه فلم يُصَدِّقْها[٣].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

أي: إنَّه لا يفوزُ الكافرونَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩١).
قال ابن عاشور: (الظُّلم هنا: بمعنى الاعتداءِ، وإنَّما كان أحدُ الأمرَينِ أشَدَّ الظُّلمِ؛ لأنَّه اعتداءٌ على الخالِقِ بالكَذِبِ عليه وبتكذيبِ آياتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٤).
وهذه الآيةُ قيل: إنَّها مِن جُملةِ رَدِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على المُشرِكينَ، لَمَّا طلَبوا منه أن يأتيَ بقُرآنٍ غَيرِ هذا القرآنِ، أو يُبَدِّلَه. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤١)، ((الوجيز)) (ص: ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٢).
قال الشَّوكاني: (﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ تعليلٌ لِكَونِه لا أظلَمَ ممَّن افترَى على اللهِ كَذِبًا أو كذَّبَ بآياتِه، أي: لا يظفَرونَ بمَطلوبٍ، ولا يَفوزونَ بِخَيرٍ، والضميرُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشَّأنِ: أي: إنَّ الشَّأنَ هذا). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآئِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ هذا جوابٌ حَسَنٌ؛ فإنَّه لَمَّا كان أحدُ المَطلوبَينِ التَّبديلَ، بدأ به في الجوابِ، ثمَّ أُتبِعَ بأمرٍ عامٍّ يشمَلُ انتفاءَ التَّبديلِ وغَيرِه، ثمَّ أتى بالسَّبَبِ الحامِلِ على ذلك، وهو الخوفُ، وعَلَّقَه بمُطلَقِ العِصيانِ، فبِأَدنَى عصيانٍ ترتَّبَ الخَوفُ[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآئِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ هم طَلَبوا مِن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أحدَ أمرَينِ على البَدَلِ: فالأوَّلُ: أن يأتيَهم بقرآنٍ غيرِ هذا القُرآنِ. والثاني: أن يُبدِّلَ هذا القُرآنَ، وفيه إشكالٌ؛ لأنَّه إذا بدَّلَ هذا القرآنَ بغَيرِه، فقد أتى بقرآنٍ غيرِ هذا القُرآنِ، وإذا كان كذلك، كان كلُّ واحدٍ منهما شيئًا واحدًا، وإذا ثبت أنَّ كُلَّ واحدٍ مِن هذينِ الأمرينِ هو نفسُ الآخَرِ، كان إلقاءُ اللَّفظِ على التَّرديدِ والتَّخييرِ فيه باطلًا.

والجواب: أنَّ أحَدَ الأمرينِ غيرُ الآخَرِ؛ فالإتيانُ بكتابٍ آخَرَ لا على ترتيبِ هذا القرآنِ، ولا على نَظمِه، يكونُ إتيانًا بقُرآنٍ آخَرَ، وأمَّا إذا أتى بهذا القُرآنِ، إلَّا أنَّه وضع مكانَ ذَمٍّ بعضَ الأشياءِ مَدَحَها، ومكانَ آيةِ رحمةٍ آيةَ عَذابٍ، كان هذا تبديلًا، أو يقالُ: الإتيانُ بقُرآنٍ غَيرِ هذا، هو أن يأتيَهم بكتابٍ آخَرَ سِوى هذا الكِتابِ، مع كَونِ هذا الكتابِ باقيًا بحالِه، والتَّبديلُ هو أن يغيِّرَ هذا الكتابَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٤).

٣- إذا قيلَ: هم طَلَبوا مِن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أحدَ أمرَين: إمَّا أن يأتيَهم بقُرآنٍ غيرِ هذا القُرآنِ، أو أن يبَدِّلَ هذا القرآنَ، ومع ذلك اكتفَى في الجوابِ على نَفيِ أحدِ القِسمَينِ وهو قولُه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ ...﴾[1]. فيُقال: الجوابُ المذكورُ عن أحَدِ القِسمَينِ هو عَينُ الجوابِ عن القِسمِ الثَّاني، وإذا كان كذلك وقَعَ الاكتفاءُ بذِكرِ أحَدِهما عن ذِكرِ الثَّاني[2]. وقيل: نفَى عن نَفسِه أحَدَ القِسمَينِ، وهو التَّبديلُ؛ لأنَّه الذي يُمكِنُه- لو كان ذلك جائزًا- بخِلافِ القِسمِ الآخَرِ، وهو الإتيانُ بقرآنٍ آخَرَ؛ فإنَّ ذلك ليس في وُسعِه، ولا يقدِرُ عليه. وقيل: إنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نفَى عن نَفسِه أسهَلَ القِسمَينِ؛ ليكونَ دليلًا على نَفيِ أصعَبِهما بالطَّريقِ الأَوْلى، وهذا منه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن بابِ مُجاراةِ السُّفهاءِ؛ إذ لا يَصدُرُ مِثلُ هذا الاقتراحِ عن العُقَلاءِ بعد أنْ أمَرَه اللهُ سُبحانَه بذلك[3].

٤- قال الله تعالَى عن المشركينَ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وقولُهم هذا يحتَمِلُ أن يكونَ جِدًّا، ويحتَمِلُ أن يُريدوا به الاستهزاءَ، وعلى الاحتمالينِ فقد أمرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يُجيبَهم بما يَقلَعُ شُبهَتَهم مِن نُفوسِهم إن كانوا جادِّينَ، أو مِن نُفوسِ مَن يَسمَعونَهم مِن دَهْمائِهم فيَحسَبون كلامَهم جِدًّا، فيتَرَقَّبون تبديلَ القُرآنِ، فقال تعالى له: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ

(١) لكن قال محمد رشيد رضا: (لَقَّنَه الجوابَ عنِ الشِّقِّ الأوَّلِ مفصولاً لأهمِّيَّتِه بقولِه: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ولو شاء ألَّا يُدرِيَكم ويُعْلِمَكم به بإرسالي إليكم، لَمَا أرسَلَني، ولَمَا أدراكم به، ولكِنَّه شاء أن يَمُنَّ عليكم بهذا العِلمِ الأعلى؛ لِتَدرُوه فتَهتَدوا به، وتكونوا بهِدايتِه خلائِفَ الأرضِ، وقد عُلِمَ أنَّ هذا إنَّما يكونُ به لا بقُرآنٍ آخَرَ... ومِن الغَريبِ أن ترى أساطينَ المُفَسِّرينَ لم يَفهَموا من الآيةِ أنَّ فيها جوابًا عن الشِّقِّ الأوَّلِ مِن اقتراحِ المُشرِكينَ، وهو الإتيانُ بقُرآنٍ آخَرَ، وقد هدانا اللهُ تعالى إليه مع بُرهانِه بفَضلِه، وكم تَرَكَ الأوَّلُ للآخِرِ!). ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٦٢، ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٩).

نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓ﴾ يُفهَمُ مِن قَولِه تعالى: ﴿مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يُبدِّلُ مِنه ما شاء بما شاء، وصَرَّحَ بهذا المفهومِ في مواضِعَ أُخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖۙ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل: ١٠١]، وقولِه تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] ، وقولِه تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾[٢] [الأعلى: ٦- ٧].

٦- في قوله: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ دلَّ سياقُ الكلامِ على أنَّ الإتيانَ بقرآنٍ آخرَ غيرِ هذا، بمعنَى إبطالِ هذا القرآنِ، وتعويضِه بغيرِه، وأنَّ تبديلَه بمعنَى تغييرِ معاني وحقائقِ ما اشْتَملَ عليه ممتنِعٌ، ولذلك لم يُلَقَّنِ الرسولُ صلَّى الله عليه وسَلَّم أنْ يقولَ هنا: إلَّا ما شاءَ اللَّه، أوْ نحو ذلك[٣].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ لَمَّا كان هذا الكتابُ العَظيمُ قد جاء على يَدِ مَن لم يتعَلَّمْ، ولم يُتلمذْ، ولم يطالعْ كِتابًا، ولم يمارِسْ مُجادلةً، عُلِمَ بالضَّرورةِ أنَّه لا يكونُ إلَّا على سبيلِ الوَحيِ والتَّنزيلِ، وإنكارُ العُلومِ الضَّروريةِ يَقدَحُ في صِحَّةِ العَقلِ، فلِهذا السَّبَبِ قال: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٧).
(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٦).

٨- قال الله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾ قولُه تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ المقصودُ منه نفيُ الكَذِبِ عن نَفسِه، وقَولُه تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾ المقصودُ منه إلحاقُ الوَعيدِ الشَّديدِ بهم؛ حيث أنكَروا دَلائِلَ اللهِ، وكَذَّبوا بآياتِ الله تعالى[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن خِطابِهم إلى الغيبةِ؛ إعراضًا عنهُم، وتَوجيهًا الخطابَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بتَعْديدِ جِناياتِهم المضادَّةِ لما أُريدَ مِنهم بالاستِخْلافِ مِن تكذيبِ الرَّسولِ والكفرِ بالآياتِ البيِّناتِ[٢]، ويظهَرُ في هذه الآيةِ أنَّ نُكتةَ حكايةِ هذا الاقتراحِ السَّخيفِ بأسلوبِ الإخبارِ عن قَومٍ غائبينَ إفادةُ أمرَينِ؛ أحدُهما: إظهارُ الإعراضِ عنهم كأنَّهم غيرُ حاضرينَ؛ لأنَّهم لا يستحِقُّونَ الخِطابَ به مِنَ الله تعالى. ثانيهما: تلقينُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الجوابَ عنه بما ترى مِن العبارةِ البليغةِ التَّأثيرِ[٣].

- قولُه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ فيه تقديمُ الظَّرفِ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ... ﴾ على عامِلِه، وهو قولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾؛ للاهتِمام بذِكْرِ ذلك الوقتِ الَّذي تُتلى فيه الآياتُ عليهم،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦١).

فيَقولون فيه هذا القولَ؛ تعجُّبًا مِن كَلامِهم، ووَهنِ أحلامِهم[١].

- والتَّعبيرُ بالفِعلِ المضارعِ ﴿تُتۡلَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّكرُّرِ والتَّجدُّدِ، أي: ذلك قولُهم كُلَّما تُتلى علَيهم الآياتُ[٢]، وبُني للمَفعولِ؛ إيذانًا بتَكذيبِهم عند تلاوةِ أيِّ تالٍ كان[٣].

- قولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فيه وضعُ الموصولِ موضِعَ الضَّميرِ -حيث لم يَقُلْ: (قَالُوا)- إشعارًا بعِلِّيَّةِ ما في حَيِّزِ الصِّلةِ؛ للعَظيمةِ المَحكيَّةِ عَنهم، وأنَّهم إنَّما اجترَؤوا عليها لِعدَمِ خوفِهم مِن عِقابِه تَعالى يومَ اللِّقاءِ؛ لإنكارِهم له، ولِما هو مِن مَباديه مِن البَعثِ[٤].

- قولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ لَمَّا كان لاقتِراحِهم مَعنًى صريحٌ، وهو الإتيانُ بقُرآنٍ آخَرَ، أو تبديلُ آياتِ القرآنِ الموجودِ، ومعنًى التزاميٌّ كنائيٌّ، وهو أنَّه غيرُ مُنزَّلٍ مِن عِندِ اللهِ، وأنَّ الَّذي جاء به غيرُ مُرسَلٍ مِن اللهِ؛ كان الجوابُ عن قولِهم جَوابَين، أحَدُهما: ما لَقَّنه اللهُ بقولِه: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓ﴾، وهو جوابٌ عن صريحِ اقتراحِهم، وثانيهما: ما لقَّنه بقولِه: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهو جوابٌ عن لازِمِ كلامِهم، وقد جاء الجوابُ عن اقتراحِهم كَلامًا جامِعًا؛ قضاءً لِحَقِّ الإيجازِ البديعِ، وجاءَ بأبلَغِ صِيَغِ النَّفيِ، وهو: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾، أي: ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٧).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٨).

يَكونُ التَّبديلُ مِلكًا بيَدي[١].

- وجملةُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ في موضعِ التَّعليلِ لِجُملةِ ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ ولذلك فُصِلَت عنها- أي: لم تُعطَفْ- واقترَنَت بحَرفِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ، و(إنَّ) تُؤْذِنُ بالتَّعليلِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ فيه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، معَ الإضافةِ إلى ضَميرِه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم؛ لِتَهويلِ أمرِ العِصْيانِ، وإظهارِ كَمالِ نَزاهتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عنه[٣].

- قولُه: ﴿يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ فيه إيرادُ اليومِ بالتَّنوينِ التَّفخيميِّ، ووصفُه بالعِظَمِ؛ لِتَهويلِ ما فيه مِن العذابِ وتَفظيعِه[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ فيه مُبالَغةٌ في التَّبرئةِ ممَّا طلَبوا منه، أي: إنَّ تِلاوتَه عليهم هذا القرآنَ إنَّما هو بمَشيئةِ اللهِ تَعالى، وإحداثِه أمرًا عجيبًا خارِجًا عن العاداتِ[٥].

- ومفعولُ ﴿شَآءَ﴾ محذوفٌ، أي: (قُل لو شاء اللهُ أنْ لا أَتلُوَه...)، وجاء جوابُ (لو) على الفصيحِ مِن عدمِ إتيانِ اللَّامِ؛ لِكَونِه مَنفيًّا بما[٦].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٧-١١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾

- قوله: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، وتقريرٌ، أي: لا أحَدَ أظلَمَ مِمَّن افْتَرى على اللهِ كَذِبًا، أو ممَّن كَذَّب بآياتِه بعدَ بَيانِها[1].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ تذييلٌ، وموقِعُه يَقتَضي شُمولَ عُمومِه للمَذكورين في الكَلامِ المذيَّلِ، فيَقْتَضي أنَّ أولئِك مُجرِمون، وأنَّهم لا يُفلِحون[2].

- وقولُه أيضًا: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ فيه تأكيدُ الجملةِ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ وذلك نَظرًا إلى شُمولِ عُمومِ المُجرِمين للمُخاطَبين؛ لأنَّهم يُنكِرون أن يَكونوا مِن المجرِمين. وفيه افتِتاحُ الجملةِ بضَميرِ الشَّأنِ ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ لِقَصدِ الاهتِمامِ بمَضمونِها[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٨-٢٠)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ يعبدونَ مِن دونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهم ولا ينفَعُهم، ويقولونَ إنَّ هؤلاءِ الذين نَعبُدُهم يَشفَعونَ لنا عندَ الله، وأمَرَ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا أن يقولَ لهم: أتُخبِرونَ الله بما ليس موجودًا في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، تَنزَّه الله وتقَدَّسَ عمَّا يُشرِكونَ.

ويبَيِّنُ تعالى أنَّ النَّاسَ كانوا مُجتَمِعينَ على دينِ التَّوحيدِ، فاختلفوا في دينِهم، وأشرَكوا بالله، ولولا أنَّه سبَقَ مِن اللهِ أنَّه يُمهِلُ المُشرِكينَ والعُصاةَ، ويؤخِّرُ جزاءَهم إلى يومِ القيامةِ؛ لحَكَم سبحانه بينَ مَن اختلَفوا في الدُّنيا، فيُنَجِّي أهلَ التَّوحيدِ، ويعجِّلُ بعقوبةِ المُشرِكينَ.

ويخبِرُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ يقولون: هلَّا أُنزِلَ على محمَّدٍ مُعجِزةٌ مِن رَبِّه ممَّا نقتَرِحُ عليه؛ حتى نعلَمَ أنَّه رسولٌ مِن عندِ الله حقًّا، وأمَرَ نَبيَّه أن يقولَ لهم: إنَّما إنزالُ الآياتِ مِن الغَيبِ الذي لا يعلَمُه إلَّا اللهُ، ولا يقدِرُ على إنزالِه إلَّا هو، فإن شاء أنزَلَها، وإن شاء لم يُنزِلْها، فانتظروا حُكمَ اللهِ فينا بعقوبةِ المُبطِلِ مِنَّا، ونصْرِ المُحِقِّ، إنَّا معكم مُنتَظِرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ الكافرينَ إنَّما التَمَسوا من الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قرآنًا غيرَ هذا القرآنِ، أو تبديلَ هذا القُرآنِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ مُشتَمِلٌ على شَتمِ الأصنام التي جَعَلوها آلهةً لأنفُسِهم؛ فلهذا السَّبَبِ ذكَرَ اللهُ تعالى في هذا الموضِعِ ما يدُلُّ على قُبحِ عبادةِ الأصنامِ؛ لِيُبيِّنَ أنَّ تَحقيرَها والاستخفافَ بها أمرٌ حَقٌّ، وطريقٌ مُتيَقَّنٌ[1].

وأيضًا فهذه الآيةَ عَطفٌ على قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ [يونس: ١٥] عطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، فهذه قصَّةٌ أخرى مِن قَصَصِ أحوالِ كُفرِهم، أن قالوا: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾ [يونس: ١٥] حين تُتلى عليهم آياتُ القرآنِ، ومِن كُفرِهم أنَّهم يعبدونَ الأصنامَ، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ والمناسبةُ بين القِصَّتَينِ أنَّ في كِلتَيهما كُفرًا أظهَرُوه في صورةِ السُّخريةِ والاستهزاءِ، وإيهامِ أنَّ العُذرَ لهم في الاسترسالِ على الكُفرِ[2].

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾.

أي: ويَعبُدُ المُشرِكونَ مِن دُونِ الله آلهةً مِن الأصنامِ وغَيرِها، لا تَضُرُّهم إن تركوا عِبادتَها، ولا تنفَعُهم في الدُّنيا ولا في الآخرةِ إنْ عَبَدوها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].

﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: ويقولُ المُشرِكونَ: هؤلاء الذين نعبُدُهم يَشفَعونَ لنا عند الله[١].

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُشرِكينَ: أتُخبِرونَ اللهَ بما لا يقعُ، ولا يَكونُ أبدًا في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، وهو أنَّ له شركاءَ يشفعون لكم عندَ الله، وقد أخبركم بأنَّه ليس له شريكٌ، أفتخبرونَه بأمرٍ خفِي عليه، وعلِمْتوه[٢]؟

ثمَّ نزَّه نفسه عمَّا افتروه، فقال[٣]:

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

كثير)) (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠).

قال الواحدي: (﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، قال أهلُ المعاني: توهَّموا أنَّ عِبادَتَها أشَدُّ في تعظيمِ اللهِ مِن قَصْدِه بالعبادةِ، فعَبَدوها وأحَلُّوها محَلَّ الشَّافِعِ عندَ اللهِ). ((البسيط)) (١١/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٢، ١٤٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٩٢).

أي: تقدَّس اللهُ وتنزَّهَ عن أن يكونَ له شريكٌ[١].

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللَّهَ تعالى لَمَّا أقام الدَّلالةَ القاهرةَ على فسادِ القَولِ بعبادةِ الأصنامِ؛ بَيَّنَ السَّببَ في كيفيَّةِ حُدوثِ هذا المذهَبِ الفاسِدِ، والمقالةِ الباطلةِ[٢].

وأيضا لَمَّا بَيَّنَ تعالى شَرَّهم بعبادةِ غَيرِه، وختَمَ بتَنزيهِه وكَمالِه؛ بَيَّنَ أنَّ هذا الدِّينَ الباطِلَ حادِثٌ، وبيَّنَ نزاهَتَه وكمالَه ببيانِ أنَّ النَّاسَ كانوا أوَّلًا مُجتَمِعينَ على طاعَتِه، ثمَّ خالَفوا أمْرَه فلم يَقطَعْ إحسانَه إليهم، بل استمَرَّ في إمهالِهم مع تمادِيهم في سوءِ أعمالِهم، على ما سبَقَ في عِلمِه، ومضى به قَضاؤُه[٣].

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْ﴾.

أي: وما كان النَّاسُ إلَّا مُجتَمِعينَ على توحيدِ اللهِ، فاختَلَفوا في دينِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٣)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩٢).

قال محمد رشيد رضا: (تقدَّمَ في هذا السِّياقِ من أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا أنَّ أهلَ مكَّةَ لم يكن دأْبُهم في تكذيبِهم للوحيِ المُحمَّديِّ إلَّا كدأبِ مَن قَبلَهم من الأقوامِ الذين كذَّبوا رُسُلَهم، ولم يكونوا في استعجالِ نَبيِّهم العذابَ إلَّا كالذين استعجَلوا رسُلَهم العذابَ أيضًا، وتقَدَّمَ فيه بيانُ بعضِ طِباعِ البَشَرِ- ولا سيَّما الكفَّارُ- في الرُّعونةِ والعَجلةِ، وفي الضَّراعةِ إلى الله، والإخلاصِ له عند الشِّدَّةِ، ونسيانِه عند الرخاءِ، وفي الإشراكِ باللهِ بدعوى أنَّ لهم شُفَعاءَ عند الله يَدفَعونَ عنهم الضُّرَّ، ويَجلِبونَ لهم النَّفعَ بوجاهتِهم عنده، ثم جاءت هذه الآيةُ في بيانِ ما كان عليه النَّاسُ مِن الوَحدةِ، وما صاروا عليه مِن الاختلافِ والفُرقةِ، فالتَّناسُبُ بينها وبين ما قبلها في غايةِ القُوَّةِ). ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٨).

وأشرَكوا بالله[١].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: ولولا أنَّه سبَقَ مِن اللهِ أنَّه يُمهِلُ المُشرِكينَ والعُصاةَ، ويؤخِّرُ جزاءَهم إلى يومِ القيامةِ؛ لحَكَم في الدُّنيا بين المُختَلِفينَ، فيُنَجِّي أهلَ التَّوحيدِ، ويعجِّلُ عُقوبَتَه على المُشرِكينَ، وينزلُ بهم عذابَه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨- ١١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى * فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٢٩- ١٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ هذه الآيةَ عَطفٌ على جُملةِ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٠)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٢، ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٩).

وَلَا يَنفَعُهُمۡ ﴾ [يونس: ١٨]، فبعد أنْ ذكَرَ افتراءَهم في جانِبِ الإلهيَّةِ، نفى بُهتانَهم في جانِبِ النبوَّةِ(١).

﴿ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾.

أي: ويقولُ مُشرِكو قُرَيشٍ: هلَّا أنزلَ اللهُ على محمَّدٍ مُعجِزةً مِمَّا نقتَرِحُ عليه؛ حتَّى نعلَمَ أنَّه رسولٌ مِن عندِ الله حقًّا(٢)؟

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا * وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا * أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا * أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾ [الإسراء: ٨٩ - ٩٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾ [الفرقان: ٧-٨].

﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ ﴾.

أي: فقُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُشرِكينَ: إنزالُ الآياتِ مِن الغَيبِ الذي لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٩، ١٣٠).

يَعلَمُه إلَّا اللهُ، ولا يَقدِرُ أن يُنزِلَ آيةً إلَّا اللهُ، فإن شاء أنزَلَها، وإن شاء لم يُنزِلْها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠- ٥١].

﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا مُحَمَّدُ: فانتَظِروا حُكمَ اللهِ فينا، بعقوبةِ المُبطِلِ مِنَّا، ونَصرِ المُحِقِّ، إنِّي معكم ممَّن ينتَظِرُ ذلك[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣١).
قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ قال المفسرون: يعني: قُل لهم: إنَّ قولَكم: هلَّا أُنزِلَ عليه آيةٌ؛ غَيبٌ، وإنَّما الغَيبُ لله، لا يعلَمُ أحَدٌ لمَ لمْ يفعَلْ ذلك، وهل يفعَلُه أم لا، وإنْ فعَلَه متى يفعَلُ؟ وهذا على التسليمِ أنَّه مما لا يَعلَمُه العبادُ، فيجبُ أن يوكَلَ إلى علَّامِ الغُيوبِ). ((البسيط)) (١١/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ: انتَظِروا قضاءَ الله بيننا: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).
وقيل المراد: انتَظِروا نزولَ آيةٍ ممَّا اقتَرَحتُموه. وممَّن اختار ذلك: الواحديُّ، والزمخشريُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٧).
قال ابنُ عاشورٍ: (وجملة: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ تفريعٌ على جملة: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: ليس دأبي ودأبُكم إلَّا انتظارَ ما يأتي به اللهُ إن شاء، كقولِ نوحٍ لِقَومِه: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣]، وهذا تعريضٌ بالتَّهديدِ لهم أنَّ ما يأتي به اللهُ لا يترَقَّبونَ منه إلَّا شَرًّا لهم، كقولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾[الأنعام: ٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣١).

كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٢-١٠٣].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٨-٣٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- أساسُ عَقيدةِ الشِّركِ أنَّ جَميعَ ما يَطلُبونَه مِن اللهِ لا بُدَّ أن يكونَ بوَساطةِ المقرَّبينَ عنده؛ لأنَّهم لا يُمكِنُهم القُربُ مِن اللهِ والحُظوةُ عنده بأنفُسِهم؛ لأنَّها مُدَنَّسةٌ بالمعاصي، بخلافِ دِينِ التَّوحيدِ، فإنَّه يُوجِبُ على العاصي أن يتوَجَّهَ إلى اللهِ وَحْدَه، تائبًا إليه، طالبًا مَغفِرتَه ورَحمتَه؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يتضَمَّنُ الوعيدَ على اختلافِ النَّاسِ المُفضي إلى الشِّقاقِ والعُدوانِ، ولا سيَّما الاختلافُ في كتابِ اللهِ الذي أنزَلَه لإزالةِ الشِّقاقِ بحُكمِه، وإدالةِ الوَحدةِ والوِفاقِ منه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٦٩).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ هذه غايةُ الجَهالةِ منهم؛ حيث يَنتَظِرونَ الشَّفاعةَ في المآلِ، ممَّن لا يُوجَدُ منه نَفعٌ ولا ضَرٌّ في الحالِ[١].

٢- كان المُشرِكونَ مُعتَرِفينَ بأنَّ آلهتَهم لم تُشارِكِ اللهَ في خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، ولا خلْقِ شيءٍ؛ وإنَّما كانوا يتَّخِذونَهم شُفَعاءَ ووسائِطَ، كما قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ لَمَّا كان السِّياقُ للتَّهديدِ والتَّخويفِ، قدَّمَ (الضَّرَّ) فقال: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ ﴾، وتنبيهًا لهم على أنَّهم مَغمورونَ في نِعَمِه التي لا قُدرةَ لِغَيرِه على مَنعِ شَيءٍ منها، فعليهم أن يُقَيِّدوها بالشُّكرِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فيه أنَّ مِن الشِّركِ اتِّخاذَ الوُسَطاءِ عند الله، وأنَّه عَينُ الشِّركِ[٤].

٥- المُشرِكُ يقصِدُ فيما يُشرِكُ به أنْ يشفعَ له، أو يتقَرَّبَ بعِبادَتِه له إلى اللهِ، أو هو يُحبُّه كما يحبُّ اللهَ، والمُشرِكونَ بأصحابِ القُبورِ تُوجَدُ فيهم الأنواعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٧).

الثَّلاثةُ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1] [البقرة: ١٦٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ كلَّ مَن يملكُ الضَّرَّ والنَّفعَ؛ فإنَّه هو المعبودُ حقًّا؛ فالمعبودُ لا بدَّ أنْ يكونَ مالِكًا للنَّفعِ والضَّرَرِ؛ ولهذا أنكرَ اللهُ تعالى على مَن عَبَدَ مِن دُونِه ما لا يَملِكُ ضَرًّا ولا نفعًا، وذلك كثيرٌ في القُرآنِ[2].

٧- في قَولِ اللهِ تعالى هنا أيضًا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ نفى عن الأصنام الضُّرَّ والنَّفعَ، وأثبَتَهما لها في قَولِه تعالى في سورةِ الحَجِّ: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ [الحج: ١٣]؛ فنَفيُهما عنها باعتبارِ الذَّاتِ، وإثباتُهما لها باعتبارِ السَّبَبِ[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ اللهَ يَعلمُ الأشياءَ على ما هي عليه؛ وما لم يكُنْ مَوجودًا لا يَعلَمُه مَوجودًا، ولا يكون نفيُ هذا العِلمِ نقصًا، بل هو مِن تمامِ كَمالِه تعالى؛ لأنَّه يقتضي أنْ يعلمَ الأشياءَ على ما هي عليه[4].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ﴾ يَستَدِلُّ

---

(١) يُنظر: ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٤٤-٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١١).

به من قال: إنَّ الأصلَ في النَّاسِ الإيمانُ حتى كفَروا[١].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ إخبارٌ بأنَّ الحَقَّ واحِدٌ، وأنَّ ذلك الاختلافَ مَذمومٌ[٢].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ فيه أنَّ مِن أصولِ الدِّينِ أنَّ شُؤونَ الرَّبِّ، وسائِرَ ما في عالَمِ الغَيبِ، تَوقيفيٌّ لا يُعلَمُ إلَّا بخَبَرِ الوَحيِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ هذا إخبارٌ على سَبيلِ التَّجهيلِ والتَّحقيرِ للكُفَّارِ ولِمَعبوداتِهم، وللتَّنبيهِ على أنَّهم عبَدوا مَن لا يَستحِقُّ العبادةَ[٤].

- واختيارُ صيغةِ المضارِعِ في قولِه: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ و﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ لاستِحْضارِ الحالةِ العَجيبةِ مِن استمرارِهم على عِبادتِها -أي: عبَدوا الأصنامَ ويَعبُدونها-، فجاء بالمضارِعِ الدَّالِّ على أنَّهم على الشِّركِ في المستقبَلِ، كما كانوا عليه في الماضي؛ تَعجُّبًا مِن تَصميمِهم على ضَلالِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦- ٢٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٥).

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾، بينما قال في سورة الفرقان: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥] فقدَّم: ﴿يَضُرُّهُمْ﴾ على ﴿يَنفَعُهُمْ﴾ في آيةِ يونُسَ، وقدَّم ﴿يَنفَعُهُمْ﴾ على ﴿يَضُرُّهُمْ﴾ في آيةِ الفرقانِ؛ قيل: ووجهُ ذلك أنَّه إنَّما قدَّم: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ على ﴿لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ في الآيةِ الأولى في سورةِ يونُسَ؛ لأنَّ العبادةَ تُقامُ للمَعبودِ خوفًا مِن العقابِ أوَّلًا، ثمَّ رجاءً للثَّوابِ ثانيًا، وقد تقدَّم في هذا المكانِ ما أوجَبَ تقديمَ ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ على ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ في الآيةِ الأولى، وهو قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥]، فكأنَّه قال: ويَعبُدون مِن دونِ اللهِ ما لا يَخافون ضَررًا في مَعصيتِه، ولا يَرجون نفعًا في طاعتِه، فتقدَّم ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ على ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ في هذا المكانِ لهذا المعنى، ولهذا اللَّفظِ المتقدِّمِ.

وأمَّا سورةُ الفرقانِ فقد تقدَّمَت فيها آياتٌ قُدِّم فيها الأفضلُ على الأدْوَنِ، كقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وكقولِه بعدَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، وصِلَةُ النَّسَبِ أفضَلُ مِن صِلَةِ المصاهَرةِ، كما أنَّ العذْبَ مِن الماءِ أفضلُ مِن المِلحِ، ثمَّ قال بعدَه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥]؛ فقدَّم الأفضلَ على الأدْوَنِ لهذا المعنى، وللبناءِ على ما تقدَّم مِن الآياتِ، فجاء في كلِّ موضعٍ ما يُناسِبُ السِّياقَ، وصحَّ المعنى الذي اعتَمَد عليه[1]. وقيل: وجهُ ذلك أنَّ الموجِبَ لتأخيرِ ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ في سورةِ يونُسَ ما وصَل به مِن قولِهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٣٣-٧٣٥).

﴾ [يونس: ١٨]، فكأنَّه قيل: ويَعبُدون مِن دونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهم ولا ينفَعُهم، ويَزعُمون أنَّ ذلك يَنفَعُهم؛ فلم يَكُنْ لِيُناسِبَ لو قيل: (ويَعبُدون مِن دونِ اللهِ ما لا يَنفَعُهم ولا يضُرُّهم، ويقولون: هؤلاء شُفعاؤُنا عندَ اللهِ)- تَناسُبَ الوارِدِ مِن متَّصِلِ قولِه: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ بقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ فلمَّا كان الاتِّصالُ فيما ذُكِر أنسَبَ، وردَت الآيةُ بحسَبِ ذلك. أمَّا آيةُ الفرقانِ فإنَّ قبْلَها ذِكْرَ دَلائِلَ وشَواهِدَ مِن مَصنوعاتِه تعالى، يَهْتدي المعتبِرُ بالنَّظرِ فيها، تُخلِّصُه مِن ورَطاتِ الشُّكوكِ، ويَستقيمُ له دينُه، وذلك أعظمُ النَّفعِ وأجَلُّه، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]، إلى قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، فلمَّا تقدَّم التَّنبيهُ بهذه الآياتِ الواضحاتِ الموقِظاتِ مِن سِنَاتِ الغَفلاتِ، والمحصِّلاتِ أعظَمَ النَّفعِ في امتِثالِ الواجباتِ، والنَّجاةِ مِن الضَّلالاتِ؛ ناسبَها تقديمُ ما قُدِّم في الآيةِ مِن قولِه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥]، وصار الكلامُ بقوَّتِه مجاوبًا لقولِه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]؛ فورَد كلٌّ على ما يُناسِبُه[١].

- قولُه: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾ استفهامٌ على سبيلِ التَّهكُّمِ والتَّوبيخِ بما ادَّعَوه مِن المُحالِ، الَّذي هو شَفاعةُ الأصنامِ، وإعلامٌ بأنَّ الَّذي أنبَؤوا به باطلٌ، غيرُ مُنطَوٍ تحتَ الصِّحَّةِ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أتَى بالمضارِعِ، ولم يَقُلْ: (عمَّا أشرَكوا)؛ للدَّلالةِ على استِمْرارِ حالِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ جاء بصيغةِ القَصرِ: (ما... إلَّا)؛ للمُبالَغةِ في تأكيدِ الخبَرِ؛ لأنَّه خبرٌ مهِمٌّ عجيبٌ؛ إذِ القصرُ تأكيدٌ على تأكيدٍ؛ باعتِبارِ اشتِمالِه على صيغَتَيْ إثباتٍ للمُثبَتِ، ونفيٍ عمَّا عَداه، فهو أقوى مِن تأكيدِ ردِّ الإنكارِ؛ ولذلك يُؤْذِنُ برَدِّ إنكارٍ شديدٍ[1].

- وحسَّنَ القَصْرَ هنا وُقوعُه عَقِبَ الجدالِ معَ الَّذين غيَّروا الدِّينَ الحقَّ، وروَّجوا نِحْلتَهم بالمَعاذيرِ الباطلةِ؛ كقولِهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، بخِلافِ آيةِ سورةِ البقرَةِ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ فإنَّها وقَعَت في سياقِ المجادلةِ مع أهلِ الكتابِ؛ لقولِه: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةٖ بَيِّنَةٖ﴾ [البقرة: ٢١١]، وأهلُ الكتابِ لا يُنكِرون أنَّ النَّاسَ كانوا أمَّةً واحدةً؛ فآيةُ سورةِ يونُسَ تُشيرُ إلى الوَحْدةِ الاعتِقاديَّةِ؛ ولذلك عبَّر عَنِ التَّفرُّقِ الطَّارئِ عليها باعتِبارِ الاختِلافِ المُشعِرِ بالمَذمَّةِ، والمعقَّبِ بالتَّخويفِ في قولِه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ ...﴾، وآيةُ سورةِ البقَرةِ تُشيرُ إلى الوَحْدةِ الشَّرعيَّةِ الَّتي تَجمَعُها الحنيفيَّةُ الفِطريَّةُ؛ ولذلك عبَّر عن التَّفرُّقِ الَّذي طرَأ عليها بقولِه: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، ثمَّ جاء ذِكْرُ الاختِلافِ عرَضًا عَقِبَ ذلك بقولِه: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وأريدَ به الاختِلافُ بينَ أتباعِ الشَّرائعِ؛ لقولِه: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾[2] [البقرة: ٢١٣].

- قولُه: ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ؛ للرِّعايةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٧).

الفاصِلةِ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ فيه التَّعبيرُ بصيغةِ المُضارِعِ (يَقُولُونَ)؛ لاستِحْضارِ صورةِ مَقالَتِهم الشَّنعاءِ، والدَّلالةِ على الاستِمْرارِ[٢].

- قولُه: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ فيه الإتيانُ بصيغةِ القَصْرِ؛ للرَّدِّ عليهم في اعتِقادِهم أنَّ في إمكانِ الرَّسولِ الحقِّ أن يَأتِيَ بما يَسأَلُه قومُه مِن الخوارقِ، فجَعَلوا عدَمَ وُقوعِ مُقتَرَحِهم عَلامةً على أنَّه ليس برَسولٍ مِن اللهِ؛ فلذلك رَدَّ عليهم بصِيغَةِ القَصرِ الدَّالَّةِ على أنَّ الرَّسولَ ليس له تَصرُّفٌ في إيقاعِ ما سأَلوه؛ لِيَعلَموا أنَّهم يَرمُون بسُؤالِهم إلى الجَراءةِ على اللهِ تعالى بالإفحامِ[٣].

- وجملةُ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ تفريعٌ على جملةِ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾، أي: ليس دَأْبي ودَأْبكم إلَّا انتِظارُ ما يَأتي به اللهُ إن شاءَ، وهذا تعريضٌ بالتَّهديدِ لهم أنَّ ما يأتي به اللهُ لا يترقَّبون مِنه إلَّا شرًّا لهم[٤]، فقولُه: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ وعيدٌ، وقد صدَّقه اللهُ تعالى بنُصرتِه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩).

الآيات (٢١-٢٢)

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ضَرَّآءَ﴾: أي: مرَضًا وضُرًّا، والضَّرَّاءُ كذلك: سوءُ الحالِ، والفقرُ والقحطُ، والضرُّ: خلافُ النَّفْعِ[(١)].

﴿مَّكۡرٞ﴾: أي: استِهزاءٌ وتكذيبٌ، والمكرُ: صَرفُ الغَيرِ عمَّا يَقصِدُه بحيلةٍ، فسمَّى استهزاءَهم وتكذيبَهم مكرًا؛ لاحتيالِهم لدفعِ آياتِ الله بكلِّ سبيلٍ، وأصلُ (مكر): يدلُّ على احتيالٍ وخِداعٍ[(٢)].

﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾: أي: السُّفنِ، وواحده وجمْعه بلفظٍ واحد، وأصلُ (الفلك): الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفن سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٣- ٥٠٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)،

﴿عَاصِفٌ﴾: أي: شَديدةُ الهُبوبِ. وأصلُ (عصف): يدلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[١].

﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾: أي: هلَكوا، وأصلُ هذا أنَّ العدوَّ إذا أحاطَ ببلدٍ، فقد دنَا أهلُه مِن الهلَكَةِ، وأصلُ (حوط): الشيءُ يطيفُ بالشيءِ[٢].

﴿مَّتَٰعَ﴾: المتاع: المَنفعةُ، وكلُّ ما حَصَل التمتُّع والانتفاعُ به على وجهٍ ما، أو ما يُنتفعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، بل يَنقضي عن قَريبٍ، وأصل (متع): يدلُّ على مَنفعةٍ، وامتدادٍ مُدَّةً في خيرٍ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

﴿مَّتَٰعَ﴾: منصوبٌ على المَصدرِ، أي: تتمتَّعونَ متاعَ الحياةِ الدُّنيا، أو منصوبٌ على الحالِ، أي: متمتِّعينَ. أو على أنَّه مَفعولٌ لأجلِه، أي: لأجلِ مَتاعِ. وعلى ذلك فـ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ متعَلِّقٌ بمحذوفٍ خَبَرُ ﴿بَغْيُكُمْ﴾، وقيل: الخبَرُ مَحذوفٌ تَقديرُه: مذمومٌ، ونحوُ هذا.

وقُرِئ ﴿مَّتَٰعَ﴾ بالرَّفعِ، وفي رفْعه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه خبرُ ﴿بَغْيُكُمْ﴾ وعلى هذا فقَولُه: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ متعلِّقٌ بـ﴿بَغْيُكُمْ﴾؛ لأنَّه مصدرٌ. الثاني: أن يكونَ ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ خبرًا لـ﴿بَغْيُكُمْ﴾، و﴿مَّتَٰعَ﴾ خبرًا ثانيًا. الثالث: أن يكونَ

((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٨)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو متاعُ الحياةِ الدُّنيا(١).

المعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه إذا أذاقَ المُشرِكينَ رَحمةً بعد أن أصابَهم البَلاءُ، سَعَوا بكلِّ حيلةٍ بالباطِلِ؛ لإبطالِ الحَقِّ وتكذيبِه، ومقابِلَ هذا المَكرِ أمَرَ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنَّ اللهَ أعجَلُ منكم مكرًا؛ إنَّ رُسُلَه يكتبونَ ما تَمكرونَ.

هو سُبحانه وتعالى الذي يُسَيِّرُكم في البَرِّ والبَحرِ، حتَّى إذا كُنتُم في السُّفُنِ، وجَرَت بكم بريحٍ طَيِّبةٍ، وفَرِحَ ركَّابُ السَّفينةِ بها، جاءَتْها ريحٌ شَديدةُ الهُبوبِ، وجاء ركابَ السَّفينةِ الموجُ مِن كُلِّ جَوانبِ السَّفينةِ، وأيقَنوا أنَّ الهلاكَ قد أحاط بهم، وأنَّهم سيَغرَقونَ- دَعَوُا اللهَ مُخلِصينَ له الدِّينَ لَئِن أنجاهم من هذه الشِّدَّةِ ليَكونُنَّ مِن الشَّاكرينَ.

فلمَّا أنجاهم أخلَفوا اللهَ ما وعدوه، فبَغَوا في الأرضِ بإشراكِهم باللهِ، وإفسادِهم في الأرضِ بالكُفرِ والظُّلمِ والمعاصي، يا أيُّها النَّاسُ إنَّما وبالُ بَغيِكم عائِدٌ على أنفُسِكم، تتمتعون به مدة حياتكم القصيرة، ثمَّ إلى الله مَرجِعُكم يومَ القيامةِ، فيُخبِرُكم بما كُنتُم تعملونَ في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، ويُجازيكم به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الكافرينَ لَمَّا طَلَبوا من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم آيةً أخرى سوى القُرآنِ، وأجابَهم بما في قَولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠] ذكَرَ جوابًا آخرَ،

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٤١-٣٤٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ١٧٤-١٧٥).

وهو المذكورُ في هذه الآيةِ، وهو أنَّه تعالى بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ عادةَ هؤلاءِ الأقوامِ المَكرُ واللَّجاجُ، والعِنادُ وعدمُ الإنصافِ، وإذا كانوا كذلك فبِتَقديرِ أن يُعطَوا ما سألوه من إنزالِ مُعجِزاتٍ أخرى، فإنَّهم لا يؤمنونَ، بل يَبقَونَ على كُفرِهم وجَهلِهم[١].

وأيضًا لَمَّا حكى اللهُ تعالى تمَرُّدَ المُشرِكينَ، وذكر قَولَه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وذلك على سبيلِ التعنُّتِ؛ أخبَرَ أنَّ هؤلاء إنَّما يصيرونَ لهذه المقالاتِ عندما يكونونَ في رخاءٍ مِن العَيشِ، وخُلُوِّ بالٍ، وأنَّهم في ذلك لاهون ببَطَرِهم، وازدهائِهم بالنِّعمةِ والدَّعَة، وأنَّ إحسانَ اللهِ تعالى قابَلوه بما لا يجوزُ من ابتغاءِ المَكرِ لآياتِه، وتفَنَّنوا في التكذيبِ بوعيدِ اللهِ أفانينَ الاستهزاءِ، وكان خليقًا بهم أن يكونوا أوَّلَ مَن صدَّقَ بآياتِه[٢].

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾.

أي: وإذا فرَّجنا عن المُشرِكينَ ورَحِمناهم، من بعدِ بَلاءٍ أصابَهم، سَعَوا بكلِّ حيلةٍ بالباطِلِ؛ لإبطالِ آياتِنا[٣] .....

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٢).

(٣) ذهب بعضُ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ المُرادَ بالآيات هنا: الآياتُ الكونيَّةُ، وممَّن اختار ذلك: محمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٣-٢٧٤).

قال الرازي: (فقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ المرادُ منه تلك الأمطارُ النَّافعةُ. وقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ المرادُ منه ذلك القَحطُ الشَّديدُ. وقوله: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ المرادُ منه إضافَتُهم تلك المنافِعَ الجليلةَ إلى الأنواءِ والكواكِبِ، أو إلى الأصنامِ). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣١).

وذهب آخرونَ إلى أنَّها آياتُ القُرآنِ الكريمِ. وممن اختار ذلك: الواحدي، وابن عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) (٢/ ٥٤٢) للواحدي، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٣).

وردِّها وتكذيبِها[١]!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٣-٣٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر: ٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت: ٥٠-٥١].

وعن زيد بن خالد الجُهَني رَضيَ الله عنه، قال: ((صلَّى بنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ الصُّبحِ بالحُدَيبية في إثْرِ السَّماءِ[٢] كانت من اللَّيلِ، فلما انصرَفَ أقبَلَ على النَّاسِ فقال: هل تَدرونَ ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: اللهُ ورَسولُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤، ١٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٣).

(٢) أي: بعد نُزولِ المَطَرِ، وأصلُ السماءِ: كلُّ ما ارتفَع فأظلَّ وعلا، فالسحابُ يُسمَّى سماءً، وسُمِّي المطرُ بذلك؛ لمجيءِ السحابِ به. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (١/ ٣٣٠)، ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٩٩).

أعلَمُ، قال: قال: أصبحَ مِن عبادي مؤمِنٌ بي وكافِرٌ، فأمَّا من قال: مُطِرْنا بفَضلِ الله ورَحمته، فذلك مُؤمنٌ بي، كافرٌ بالكوكَب، وأمَّا من قال: مُطِرْنا بنَوءِ كذا وكذا[١]، فذلك كافِرٌ بي، مُؤمِنٌ بالكوكبِ))[٢].

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت جملةُ ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ دالَّةً على إسراعِ الكافرينَ بالمَكرِ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ: التعبيرُ بالذَّوقِ الذي هو أوَّلُ المُخالطةِ، ولفظُ (مِن) التي هي للابتداءِ، و(إذا) الفجائيَّة، كان كأنَّه قيل: أسرَعوا جُهدَهم في المَكرِ، فقيل[٣]:

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: اللهُ أعجَلُ مَكرًا بكم- باستدراجِكم وتعجيلِ عُقوبتِكم- مِن مَكرِكم في آياتِه[٤].

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾.

أي: إنَّ المَلائكةَ الحَفَظةَ يَكتُبونَ مَكْرَكم في آياتِي- أيُّها المُشرِكونَ- ويُحصُون أعمالَكم؛ للحِسابِ عليها في الآخرةِ[٥].

---

(١) النَّوءُ: الكَوكَبُ؛ ولذلك سَمَّوا مَنازِلَ القَمَرِ الأنواءَ. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (١/ ٥٥٣).

(٢) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي))

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ كان هذا الكلامُ كلامًا كُلِّيًّا لا ينكَشِفُ معناه تمامَ الانكشافِ إلَّا بذِكرِ مِثالٍ كاملٍ، فذكرَ اللهُ تعالى لِنَقلِ الإنسانِ مِن الضُّرِّ الشَّديدِ إلى الرَّحمةِ مِثالًا، ولِمَكر الإنسانِ مِثالًا؛ حتى تكونَ هذه الآيةُ كالمُفَسِّرةِ للآيةِ التي قَبلَها[(١)].

وأيضًا لَمَّا قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أخذ سبحانَه يبيِّنُ ما يتَّضِحُ به أسرعيَّةُ مَكرِه، في مثالٍ دالٍّ على نَقْلِه سبحانَه لِعبادِه مِن الضُّرِّ إلى النِّعمةِ، ومِن سُرعةِ تَقَلُّبِهم[(٢)].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى القاعدةَ العامَّةَ في أحوالِ النَّاسِ عند إصابةِ الرَّحمةِ لهم بعد الضَّرَّاءِ، واليُسرِ بعد العُسرِ؛ ذكَرَ حالةً تؤيِّدُ ذلك، وهي حالُهم في البَحرِ عند

(٨/ ٣٢٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٤، ٢٧٥).

قال أبو حيان: (والرُّسلُ هنا الحفظةُ بلا خلافٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩٨).

اشتدادِه، والخوفِ مِن عَواقِبِه، فقال تعالى[١]:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿يَنْشُرُكُمْ﴾ مِن النَّشرِ، أي: يبثُّكم[٢]

٢- قراءةُ ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ مِنَ التَّسييرِ، أي: يَحمِلُكم في البَرِّ والبَحرِ[٣].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

أي: اللهُ هو الذي يُسَيِّرُكم في البَرِّ؛ بإقدارِه لكم على المَشيِ على أقدامِكم، وبما سَخَّرَه لكم من الدوابِّ وغَيرِها، ويُسَيِّرُكم في البَحرِ في السُّفُنِ التي يَسَّرَ لكم صُنعَها[٤].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾.

أي: حتى إذا[٥] كُنتم في السُّفُنِ، وجَرَت بكم؛ بسَبَبِ ريحٍ لَيِّنةِ الهُبوبِ، مُوافِقةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

(٢) قرأ بها ابن عامر، وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤١)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٦٥)، ((حجة القراءات)) (ص: ٣٢٩) لابن زنجلة.

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤١)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٦٥)، ((حجة القراءات)) (ص: ٣٢٩) لابن زنجلة.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

(٥) قال الزمخشري: (إن قلتَ: كيف جعَلَ الكَونَ في الفُلكِ غايةً للتَّسييرِ في البحرِ، والتَّسييرُ في

لرَغبتِكم، وفَرِحَ رُكَّابُ السَّفينةِ بتلك الرِّيحِ، واطمأنُّوا بها، فبينما هم كذلك إذ جاءت السَّفينةَ ريحٌ شديدةُ الهُبوبِ[١].

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾.

أي: وجاء ركابَ السَّفينةِ مَوجُ البَحرِ مِن كُلِّ جانبٍ مِن جوانِبِ السَّفينةِ[٢].

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾.

أي: وأيقَنُوا أنَّ الهَلاكَ قد أحاط بهم، وأنهم سيَغرَقونَ في البَحرِ الهائِجِ[٣].

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

أي: دَعُوا اللهَ وَحْدَه أن يُنجيَهم مِن الكَربِ، وأخلصوا له الدُّعاءَ دون آلهتِهم[٤].

البحر إنَّما هو بالكَونِ في الفُلكِ؟ قلتُ: لم يُجعَلِ الكونُ في الفلك غايةً للتَّسييرِ في البحر، ولكِنْ مَضمون الجملة الشَّرطية الواقعة بعد ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بما في حَيِّزها، كأنَّه قيل: يسَيِّرُكم حتى إذا وقعَتْ هذه الحادثةُ، وكان كيت وكيت؛ مِن مجيءِ الرِّيحِ العاصِفِ، وتَراكُمِ الأمواجِ، والظنِّ للهَلاكِ، والدُّعاءِ بالإنجاءِ. فإن قلتَ: ما جوابُ ﴿إِذَا﴾؟ قلتُ: ﴿جَآءَتۡهَا﴾. فإن قلتَ: فـ «دَعَوا»؟ قلتُ: بدَلٌ مِن «ظَنُّوا»، لأنَّ دعاءَهم من لوازمِ ظَنِّهم الهلاكَ، فهو مُلتَبِسٌ به). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ١٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦، ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٨).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أي: وقالوا: واللهِ لَئِنْ أنجيتَنا- يا ربَّنا- من هذه الشِّدَّةِ، لنكونَنَّ مِن الشَّاكرينَ لنِعَمِك، المُطيعينَ أمْرَك، ولا نُشرِكُ بك شيئًا في عبادَتِك[١].

عن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ فَتحِ مَكَّةَ أمَّنَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ النَّاسَ، إلَّا أربعةَ نَفَرٍ وامرأتينِ، وقال: اقتُلوهم، وإن وَجَدتُموهم متعَلِّقينَ بأستارِ الكَعبةِ: عِكرمةُ بنُ أبي جَهلٍ، وعبدُ الله بنُ خطَل، ومقيسُ بنُ صُبابةَ، وعبدُ اللهِ بنُ سعدِ بن أبي السَّرحِ... وأمَّا عِكرمةُ فرَكِبَ البَحرَ، فأصابتهم عاصِفٌ، فقال أصحابُ السَّفينةِ: أخلِصوا؛ فإنَّ آلهَتَكم لا تُغني عنكم شيئًا هاهنا. فقال عكرمةُ: واللهِ لَئِنْ لم ينجِّني من البَحرِ إلَّا الإخلاصُ، لا ينَجِّيني في البَرِّ غَيرُه، اللهمَّ إنَّ لك عليَّ عَهدًا، إن أنت عافيتَني ممَّا أنا فيه، أنْ آتيَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حتى أضَعَ يَدي في يَدِه، فلأَجِدَنَّه عَفُوًّا كريمًا، فجاء فأسلَمَ))[٢].

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

(٢) أخرجه النسائي (٤٠٦٧) واللفظ له، والبزار (١١٥١)، وأبو يعلى (٧٥٧).
صحَّح إسنادَه ابنُ القيِّم في ((زاد المعاد)) (٣/ ١١٠)، وصحَّحه ابنُ الملقنِ في ((البدر المنير)) (٩/ ١٥٣)، ووثَّق رجالَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧١)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٥/ ٢٤٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٤٠٦٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن الكافرينَ هذا التضُرَّعَ الكامِلَ عند البَليَّةِ؛ بيَّنَ أنَّهم بعدَ الخلاصِ مِن تلك البَليَّةِ والمِحنةِ أقدَموا في الحالِ على البَغيِ في الأرضِ بِغَيرِ الحَقِّ[١].

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾.

أي: فلمَّا أنقَذَ اللهُ رُكَّابَ السَّفينةِ أخلَفوا اللهَ ما وَعَدوه، فأشرَكوا به، وأفسَدوا في الأرضِ بالكُفرِ والظُّلمِ والمعاصي[٢]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ إنَّما وَبالُ بَغيِكم هذا عائدٌ على أنفُسِكم في الدُّنيا والآخِرةِ، ولن تَضُرُّوا اللهَ شيئًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣].

وعن أبي بَكرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن ذَنبٍ أجدَرُ أن يُعَجِّلَ اللهُ لِصاحِبِه العُقوبةَ في الدُّنيا مع ما يَدَّخِرُ له في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١١٥).

الآخرةِ، مِن البَغيِ وقَطيعةِ الرَّحِم))[١].

﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: تتمَتَّعونَ به مُدَّةَ حَياتِكم القصيرةِ الفانيةِ[٢].

﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ثمَّ إلينا يكونُ مَصيرُكم بعد مَوتِكم، فنُخبِرُكم يومَ القيامةِ بما كُنتُم تعملونَ في الدُّنيا، ونجازيكم عليه[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ تضمَّنَتِ الآيةُ البَيانَ عَمَّا توجِبُه بديهةُ العَقلِ مِن الفَزعِ عند الشِّدَّةِ إلى واهِبِ السَّلامةِ، ومُسبِغِ النِّعمةِ، في كَشفِ تلك البَليَّةِ[٤].

٢- البَغيُ يُجازَى أصحابُه عليه في الدُّنيا والآخرةِ؛ نَستفيدُ ذلك مِن قَولِ الله

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١) واللفظ له، وأحمد (٢٠٤١٤).
قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ، وصحَّحه ابنُ بازٍ في ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٢٣١)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٩)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).
قال الرازي: (والإنباءُ هو الإخبارُ، وهو في هذا الموضعِ وعيدٌ بالعذابِ، كقولِ الرجلِ لغيرِه: سأخبرُك بما فعلتَ). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩٩).

تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ ﴾ سمَّى تكذيبَهم بآياتِ اللهِ (مكرًا)؛ لأنَّ المكرَ عِبارةٌ عن صَرفِ الشَّيءِ عن وَجهِه الظَّاهِرِ بطريقِ الحِيلةِ، وهؤلاء يحتالونَ لِدَفعِ آياتِ اللهِ بكُلِّ ما يَقدِرونَ عليه؛ مِن إلقاءِ شُبهةٍ، أو تخليطٍ في مناظرةٍ، أو غيرِ ذلك من الأمورِ الفاسدةِ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴾ تضمَّنَت الآيةُ البَيانَ عَمَّا يُوجِبُه حالُ الجاهِلِ مِن تَضييعِ حَقِّ النِّعمةِ والمَكرِ فيها، وإن جَلَّتْ مَنزِلتُها، وأتتْ على فاقةٍ إليها، وشِدَّةِ حاجةٍ إلى نُزولِها، مع الوعيدِ بعائدِ الوَبالِ على الماكرِ فيها[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾ فيه جوازُ رُكوبِ البَحرِ مُطلقًا في الغَزوِ، وفي غيرِ الغَزوِ[٤].

٤- قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ في هذا دَليلٌ على أنَّ المُضطرَّ يُجابُ دُعاؤه وإن كان كافرًا؛ لانقطاعِ الأسبابِ،

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩٧).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٧).

ورُجوعِه إلى الواحِدِ رَبِّ الأربابِ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الاعترافُ باللهِ مَركوزٌ في طبائعِ العالَم، وهم مَجبولونَ على أنَّه المتصَرِّفُ في الأشياءِ، فإذا حقَّت الحقائِقُ رَجَعوا إليه كُلُّهم؛ مُؤمِنُهم وكافِرُهم[٢]؛ فقد جُبِلوا على الرُّجوعِ إليه في الشَّدائِدِ[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ لَمَّا كان الخَوفُ في البَحرِ أغلَبَ على الإنسانِ منه في البَرِّ؛ وقع المِثالُ به لذلك المَعنى الكُليِّ؛ مِن التجاءِ العَبدِ لِرَبِّه تعالى حالةَ الشِّدَّةِ، والإهمالِ لجانِبه حالةَ الرَّخاءِ[٤].

٧- ذُكرتِ الرياحُ في القُرآنِ جَمعًا ومُفردةً، فحيث كانت في سياقِ الرَّحمةِ أتت مجموعةً، وحيثُ وقعتْ في سياقِ العَذابِ أتت مُفردةً، وسرُّ ذلك أنَّ رياحَ الرَّحمةِ مُختلفةُ الصِّفاتِ والمهابِّ والمَنافِعِ، وأمَّا في العذابِ فإنَّها تأتي مِن وجهٍ واحدٍ وصِمَام واحدٍ لا يقومُ لها شيءٌ، ولا يعارِضُها غيرُها حتى تنتهيَ إلى حيث أُمِرَتْ، ولهذا وصفَ سُبحانه الريحَ التي أرسلَها على عادٍ بأنَّها عقيمٌ، فقال سُبحانه: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] وهي التي لا تُلقِحُ[٥]، ولا خيرَ فيها، إلَّا أنَّ هذا لم يَطَّرِدْ هنا في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣).
(٥) أي: لا تُلقِحُ شَجرًا، ولا تُنشِئُ سَحابًا، ولا تَحمِلُ مطرًا، إنَّما هي ريحُ الإهلاكِ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١/ ١٨٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ٤١٣).

يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ حيث جاءت بالإفرادِ، ووُصِفَت بأنها طَيِّبةٌ! ووجهُ ذلك: أنَّ تمامَ الرَّحمةِ هنا إنَّما تحصُلُ بوَحدةِ الرِّيحِ لا باختلافِها، بخلافِ المقصودِ منها في البَرِّ؛ فإنَّ السفينةَ لا تسيرُ إلَّا بريحٍ واحدةٍ مِن وجهٍ واحدٍ تُسَيِّرُها، فإذا اختَلَفَت عليها الرِّياحُ وتصادَمَتْ وتقابَلَتْ، فهو سببُ الهلاكِ، فالمطلوبُ هنا ريحٌ واحدةٌ لا رياحٌ، وأكَّدَ هذا المعنى بوصفِها بالطَّيِّبةِ؛ دفعًا لتوهُّمِ أنْ تكون ريحًا عاصفةً؛ بل هي ممَّا يُفرحُ بها لِطِيبِها[1].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فيه بَيانُ أنَّ هؤلاءِ المُشرِكينَ كانوا لا يَلتَفِتونَ إلى أصنامِهم في هذه الحالةِ وما يُشابِهُها، والعجب مِن طوائِفَ يَعتَقِدونَ في الأمواتِ!! فإذا عَرَضَت لهم في البَحرِ مثلُ هذه الحالةِ دَعُوا الأمواتَ، ولم يُخلِصُوا الدُّعاءَ لله كما فعَلَه المُشرِكونَ، فلينظُر المرء إلى ما فعَلَت تلك الاعتقاداتُ الشَّيطانيَّةُ، وأين وصل بها أهلُها، وإلى أينَ رمى بهم الشَّيطانُ، وكيف اقتادَهم وتسَلَّطَ عليهم؟! حتى انقادوا له انقيادًا ما كان يَطمَعُ في مِثلِه ولا في بَعضِه عُبَّاد الأوثانِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾

- ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ ...﴾ فيه إسنادُ المِساسِ إلى

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٨)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠١).
(٢) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/ ٤٩٥).

الضَّرَّاءِ بعدَ إسنادِ الإذاقةِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ، وهذا مِن الآدابِ القُرآنيَّةِ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] ونَظائرِه[١].

- وجاء الكلامُ على طَريقةِ الحِكايةِ عن حالِهم، والمُلْقَى إليه الكلامُ هو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمِنون، وفيه تعريضٌ بتَذْكيرِ الكُفَّارِ بحالِ حُلولِ المصائبِ بِهم؛ لعلَّهم يتَذكَّرون، فيُعِدُّوا عُدَّةَ الخوفِ مِن حُلولِ النِّقْمةِ الَّتي أنذَرَهم بها في قولِه: ﴿فَٱنظُرُوٓاْ﴾[٢].

- قولُه: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ فيه تنكيرُ ﴿مَكْرٌ﴾؛ للتَّفخيمِ[٣].

- قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾، فجاءَت أفعَلُ التَّفضيلِ؛ لأنَّ جُملةَ ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ قبْلَها تتَضمَّنُ سُرعةَ المَكْرِ مِنهم؛ لأنَّ هذه الجملةَ دليلٌ على سُرعةِ تَقلُّبِ ابنِ آدَمَ مِن حالةِ الخيرِ إلى حالةِ الشَّرِّ، وذلك بلَفْظِ ﴿أَذَقْنَا﴾، كأنَّه قيلَ: أوَّلَ ذَوْقِه الرَّحمةَ قبلَ أن يُداوِمَ استِطْعامَها مَكروهٌ، وبلفظِ ﴿مِّنۢ﴾ الْمُشْعِرِ بابتِداءِ الغايةِ، أي: يُنشِئُ المَكْرَ إثْرَ كَشْفِ الضَّرَّاءِ لا يُمهِلُ ذلك، وبلَفظِ (إذا) الفُجائيَّةِ الواقعةِ جَوابًا لـ(إذا) الشَّرطيَّةِ، أي: في وقتِ إذاقةِ الرَّحمةِ، كأنَّه قال: وإذا رَحِمْناهم مِن بعدِ ضرَّاءَ فاجَؤوا وُقوعَ المكرِ مِنهم، وسارَعوا إليه قبل أن يَغسِلوا رُؤوسَهم مِن مَسِّ الضَّرَّاءِ، ولم يتَلبَّثوا ريثَما يُسيغُون غُصَّتَهم[٤].

- وجملةُ: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ استِئْنافُ خِطابٍ للمُشرِكينَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠- ٣١).

مُباشَرةً؛ تَهديدًا مِن اللهِ؛ فلِذَلِك فُصِلَت ولم تُعطَفْ على الَّتي قبلَها؛ لاختِلافِ المُخاطَبِ، وتأكيدُ الجملةِ بـ﴿إِنَّ﴾؛ لِكَونِ المخُاطَبين يَعتقِدون خِلافَ ذلك؛ إذْ كانوا يَحسَبون أنَّهم يَمكُرون بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ مَكْرَهم يتَمشَّى عليه ولا يَشعُرُ به، فأعلَمَهم اللهُ بأنَّ الملائِكةَ الموكَّلِين بإحصاءِ الأعمالِ يَكتُبون ذلك[١]. وهذه الجملةُ أيضًا تَعليلٌ مِن جِهتِه تعالى لأسرَعيَّةِ مَكرِه سبحانه، وفيه مِن المبالَغةِ ما لا يوصَفُ، وصيغةُ الاستقبالِ في (يَكْتُبون- تَمكُرون)؛ للدَّلالةِ على الاستِمرارِ التَّجدُّديِّ[٢]، والتَّكرُّرِ، أي: تتَكرَّرُ كِتابتُهم كلَّما يتَكرَّرُ مَكرُهم[٣].

- وفي قولِه: ﴿تَمۡكُرُونَ﴾ -بالتَّاءِ على الخِطابِ- مُبالَغةٌ لهم في الإعلامِ بحالِ مَكرِهم[٤].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الْتِفَاتٌ -حيث لم يَقُلْ: (إنَّ رُسلَه)- فهو تلوينٌ للخِطابِ بصَرفِه عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم؛ للتَّشديدِ في التَّوبيخِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

- في قولِه: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ التفاتٌ، حيث عدَل عن الخِطابِ إلى الغيبةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣).

للمُبالغةِ، كأنَّه تذكِرةٌ لغَيرِهم؛ لِيتعجَّبَ مِن حالِهم ويُنكِرَ عليهم[١]، ومِن بديعِ الأسلوبِ في الآيةِ: أنَّها لَمَّا كانت بصَددِ ذِكْرِ النِّعمةِ جاءَت بضَمائرِ الخِطابِ الصَّالحةِ لِجَميعِ السَّامِعين، فلمَّا تَهيَّأَت للانتِقالِ إلى ذِكْرِ الضَّرَّاءِ وقَع الانتِقالُ مِن ضَمائرِ الخِطابِ إلى ضَميرِ الغيبةِ؛ لِتَلوينِ الأسلوبِ بما يُخلِّصُه إلى الإفضاءِ إلى ما يَخُصُّ المشرِكين، فقال: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ على طريقةِ الالتِفاتِ، أي: وجرَيْن بكُم، وهكذا أُجرِيَت الضَّمائرُ جامِعةً للفريقَين، إلى أن قال: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ فإنَّ هذا ليس مِن شِيَمِ المؤمِنين، فتَمحَّضَ ضميرُ الغيبةِ هذا للمُشركين، فقد أخرَج مِن الخبَرِ مَن عَدا الَّذين يَبغُون في الأرضِ بغيرِ الحقِّ؛ تعويلًا على القَرينةِ؛ لأنَّ الَّذين يَبغون في الأرضِ بغيرِ الحقِّ لا يَشمَلُ المسلِمين[٢].

- وأيضًا ابتُدِئ الإتيانُ بضَميرِ الغيبةِ مِن آخِرِ ذكرِ النِّعمةِ عندَ قولِه: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾؛ للتَّصريحِ بأنَّ النِّعمةَ شَمِلَتهم، وللإشارةِ إلى أنَّ مَجيءَ العاصفةِ فجأةً في حالِ الفرَحِ مُرادٌ مِنه ابتِلاؤُهم وتخويفُهم؛ فهو تمهيدٌ لقولِه: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾[٣].

- قولُه: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فيه تأكيدُ وَعْدِهم بالشُّكرِ بثَلاثِ مُؤكِّداتٍ: لامِ تَوطِئةِ القَسَمِ، ونونِ التَّوكيدِ، والتَّعبيرِ بصيغةِ ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وهو أبلَغُ مِن (لنَكونَنَّ شاكِرين)؛ لِما يُفيدُه مِن كَونِهم مِن هذه الزُّمرةِ الَّتي دَيدَنُها الشُّكرُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٣٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٣٨).

٣- قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ أتى بـ(إذا) الفُجائيَّةِ في جوابِ (لَمَّا)؛ للدَّلالةِ على تَعجيلِهم بالبَغي في الأرضِ عَقِبَ النَّجاةِ[١].

- وزيادةُ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للدَّلالةِ على شُمولِ بَغيِهم لأقطارِها، وصيغةُ المضارعِ ﴿يَبۡغُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ[٢].

- وقولُه: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ قيدٌ كاشفٌ لِمَعنى البغي؛ إذ البغيُ لا يَكونُ بحقٍّ، فهو كالتَّقييدِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٣] [القصص: ٥٠].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ توجيهٌ للخِطابِ إلى أولئك الباغينَ؛ للتَّشديدِ في التَّهديدِ، والمبالَغةِ في الوَعيدِ[٤]. وافتُتِح الخِطابُ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ لاستِصْغاءِ أسماعِهم، والمقصودُ مِن هذا تَحذيرُ المشرِكين ثمَّ تَهديدُهم[٥].

قولُه: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ في قَصْرِ البَغي على كونِه مُضِرًّا بهم- كما هو مُفادُ حرفِ الاستِعْلاءِ (على)- تنبيهٌ على حَقيقةٍ واقعيَّةٍ وموعظةٍ لهم؛ لِيَعلَموا أنَّ التَّحذيرَ مِن الشِّركِ والتَّهديدَ عليه لِرَعْيِ صَلاحِهم، لا لأنَّهم يَضُرُّونه سُبحانَه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ ...﴾ فيه تقديم الجارِّ والمجرورِ؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ والقَصْرِ[١]، وإفادةِ الاختِصاصِ، أي: تُرجَعون إلينا لا إلى غيرِنا؛ تَنزيلًا للمُخاطَبين منزلةَ مَن يظُنُّ أنَّه يُرجَعُ إلى غيرِ اللهِ؛ لأنَّ حالَهم في التَّكذيبِ بآياتِه، والإعراضِ عن عِبادتِه إلى عبادةِ الأصنامِ كحالِ مَن يظُنُّ أنَّه يُحشَرُ إلى الأصنامِ، وإن كان المشرِكون يُنكِرون البَعثَ مِن أصلِه[٢].

- وعُطِفَت هذه الجملةُ بـ (ثُمَّ)؛ لإفادةِ التَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ مضمونَ هذه الجملةِ أصرَحُ تَهديدًا مِن مَضمونِ جُملةِ: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾[٣].

- قولُه: ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فيه تفريعُ ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ على جملةِ: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ تفريعَ وعيدٍ على تهديدٍ، والإنباءُ هنا كنايةٌ عَن الجزاءِ؛ لأنَّ الإنباءَ يَستلزِمُ العِلمَ بأعمالِهم السَّيِّئةِ، والقادِرُ إذا عَلِم بسوءِ صَنيعِ عَبدِه لا يَمنَعُه مِن عقابِه مانِعٌ، وفي ذِكْرِ ﴿كُنتُمۡ﴾ والفِعْلِ المضارعِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ دَلالةٌ على تكرُّرِ عمَلِهم، وتَمكُّنِه مِنهم[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٢٤-٢٥)

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زُخْرُفَهَا﴾: أي: حُسنَها وبَهاءَها، وزينَتَها بالنَّباتِ، وأصلُ الزخرف: الذَّهَبُ والزِّينةُ المُزَوَّقةُ[١].

﴿حَصِيدًا﴾: أي: محصودةً، ومقطوعةً مِن أصولِها. وأصلُ (حصد): يدلُّ على قَطعِ الشَّيءِ[٢].

﴿لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾: أي: لم تَكُنْ عامِرةً، مِن: غَنِيَ في المكانِ: إذا أقامَ فيه وعَمَّره، ومِنه المَغاني: المَنازِلُ التي يَعمُرُها النَّاسُ. وأصلُ (غني): يدلُّ على الكِفايةِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ مَثَلَ زينةِ الحياةِ الدُّنيا، في سُرعةِ زَوالِها، كمَثَلِ مَطَرٍ أنزَلَه اللهُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٨).

مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، فنبَتَ به أنواعٌ مِن نباتِ الأرضِ، اختلط بعضُها ببعضٍ، ممَّا يأكُلُه النَّاسُ والأنعامُ، حتى إذا ظهر حُسنُ الأرضِ بألوانِ النَّباتِ المُختَلِفةِ، وتزَيَّنَت بأنواعِ الحُبوبِ والثِّمارِ، والأزهارِ المتعَدِّدةِ الألوانِ والأشكالِ، وأيقنَ أهلُها أنَّهم قادِرونَ على حَصدِ زَرْعِها، وقَطْفِ ثِمارِها؛ أتاها قضاءُ اللهِ بإهلاكِ نَباتِها، فصَيَّرَ تعالى النَّباتَ مَقلوعًا هالِكًا، كأنْ لم يكُنْ قائمًا على ظَهرِ الأرضِ مِن قَبلُ، كذلك يُفصِّلُ اللهُ الآياتِ لِقَومٍ يتفَكَّرونَ.

ويُبيِّنُ تعالى أنَّه يدعو عِبادَه لِدُخولِ جَنَّتِه، السَّالِمةِ مِن جميعِ الآفاتِ، ويُرشِدُ ويُوفِّقُ من يشاءُ مِن عِبادِه لسُلوكِ الطَّريقِ المُستقيمِ، المُوصِلِ إلى الجنَّةِ، وهو الإسلامُ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وكان سبَبُ ما ذُكِرَ مِن البَغيِ هو الإفراطَ في حبِّ التمتُّعِ بما في الدُّنيا من الزِّينةِ واللَّذَّاتِ؛ ضرَبَ مثلًا بَليغًا عَجيبًا للحياةِ الدُّنيا، يُذَكِّرُ من يبغي فيها على سُرعةِ زَوالِها وانقضائِها، ويَصرِفُ العاقِلَ عن الغُرورِ بها، ويهديه إلى القَصدِ والاعتدالِ فيها، واجتنابِ التوسُّلِ إليها بالبَغيِ والظُّلمِ، وحُبِّ العُلُوِّ والفَسادِ في الأرضِ، وأنَّها بحالِ ما تُعِزُّ وتُسِرُّ، تَضمَحِلُّ ويَؤُولُ أمرُها إلى الفَناءِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٤).

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: إنَّما مَثَلُ زِينةِ الحياةِ الدُّنيا في سُرعةِ زَوالِها، كمَثَلِ مَطرٍ أنزلناه من السَّماءِ إلى الأرضِ[١].

﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾.

أي: فنَبَتَ بذلك المطَرِ أنواعٌ مِن نَباتِ الأرضِ مُتداخِلٌ بعضُها في بعضٍ[٢] ممَّا يأكُلُه النَّاسُ من الحُبوبِ والثِّمارِ والبُقولِ، وممَّا تأكُلُه الأنعامُ مِن الكَلأِ والعُشبِ[٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾.

أي: حتَّى إذا ظهَرَ حُسنُ الأرضِ بألوانِ النَّباتِ المُختَلفةِ، وتزيَّنَت بأنواعِ الحُبوبِ والثِّمارِ والأزهارِ المتعدِّدةِ الأشكالِ والألوانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠).

(٢) ممَّن اختار هذا المعنى لقوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٣).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٩٤١).
قال الشوكاني: (والباءُ في: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ للسببيةِ، أي: فاختلَط بسببِه نباتُ الأرضِ، بأن اشتبَك بعضُه ببعضٍ حتى بلَغ إلى حدِّ الكمالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٧).
وقيل: المرادُ: امتزجَ الماءُ بالنَّباتِ لِسَرَيانِه فيه. وممَّن اختار هذا المعنَى: القاسمي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ٧ - ١٠].

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾.

أي: وأيقَنَ أهلُ الأرضِ -الذين زَرَعوها وغَرَسوها- أنَّهم قادِرونَ على حَصدِ زَرعِها، وقَطْفِ ثِمارِها[1].

﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾.

أي: جاء الأرضَ قضاؤُنا بإهلاكِ نَباتِها فجأةً؛ إمَّا ليلًا أو نهارًا، فصيَّرْنا النَّباتَ مَقلوعًا هالِكًا، كأنْ لم يكُنْ قائمًا على ظَهرِ الأرضِ يُزَيِّنُها بجمالِه مِن قَبلُ[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: كما بيَّنَّا لكم -أيُّها النَّاسُ- مَثَلَ الدُّنيا بهذا المِثالِ، وعرَّفناكم أمْرَها؛ نُبَيِّنُ ونُوضِّحُ -بمِثلِ ذلك التَّفصيلِ البديعِ- الآياتِ لقومٍ يتفكَّرونَ ويعتبرونَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠، ١٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٢، ١٤٤).

فلا يغترُّونَ بالدُّنيا الفانيةِ[(١)].

كما قال سُبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٢١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى الدُّنيا، وسُرعةَ عَطَبِها وزَوالِها، ونَفَّرَ عن المَيلِ إليها بالمَثَلِ السَّابقِ؛ رغَّبَ في الآخرةِ، ودعا إلى الجنَّةِ[(٢)]، فقال:

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾.

أي: واللهُ يدعو عِبادَه إلى دُخولِ جَنَّتِه السَّالِمةِ مِن جميعِ الآفاتِ، فاطلُبوها بِطاعَتِه، ولا تطلُبوا الدُّنيا وزينَتَها؛ فإنَّها مليئةٌ بالآفاتِ والنَّكَباتِ، ومصيرُها إلى زوالٍ وفَناءٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٥)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاءتْ ملائكةٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو نائِمٌ، فقال بعضُهم: إنَّه نائمٌ، وقال بعضُهم: إنَّ العَينَ نائِمةٌ، والقلبَ يَقظانُ، فقالوا: إنَّ لِصاحِبِكم هذا مَثلًا، فاضرِبوا له مَثلًا، فقال بعضُهم: إنَّه نائِمٌ، وقال بعضُهم: إنَّ العَينَ نائمةٌ، والقَلبَ يَقظانُ، فقالوا: مَثَلُه كمَثَلِ رَجُلٍ بنى دارًا، وجعل فيها مأدُبةً[١]، وبعثَ داعيًا، فمن أجابَ الدَّاعيَ دخل الدَّارَ، وأكلَ مِن المَأدُبةِ، ومَن لم يُجِبِ الدَّاعيَ لم يدخُلِ الدَّارَ، ولم يأكلْ من المأدُبة، فقالوا: أوِّلُوها له يَفْقَهْها، فقال بعضُهم: إنَّه نائمٌ، وقال بعضُهم: إنَّ العَينَ نائمةٌ، والقَلبَ يَقظانُ، فقالوا: فالدَّارُ الجنَّةُ، والدَّاعي مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فمن أطاع محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقد أطاعَ الله، ومَن عصى محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقد عصى اللهَ، ومُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم فَرْقٌ[٢] بين النَّاسِ))[٣].

﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: واللهُ يُرشِدُ ويوفِّقُ مَن يَشاءُ مِن عِبادِه إلى الإسلامِ، وهو الطَّريقُ المُستَقيمُ المُوصِلُ مَن سلَكَه إلى الجنَّةِ[٤].

قال الخازن: (قال قتادة: اللهُ هو السَّلامُ ودارُه الجنَّةُ، فعلى هذا، السَّلامُ اسمٌ مِن أسماءِ الله عزَّ وجَلَّ، ومعناه: أنَّه سبحانه وتعالى سَلِمَ مِن جميعِ النَّقائِصِ والعُيوبِ والفناء... وقيل: إنَّه سبحانه وتعالى يُوصَفُ بالسَّلامِ؛ لأنَّ الخَلقَ سَلِموا مِن ظُلمِه. وقيل: إنَّه تعالى يُوصَفُ بالسَّلامِ، بمعنى: ذي السَّلامِ، أي: لا يقدِرُ على تخليصِ العاجِزينَ مِن المكارِهِ والآفاتِ إلَّا هو. وقيل: دارُ السَّلامِ اسمٌ للجنَّةِ، وهو جمعُ سلامةٍ. والمعنى: أنَّ مَن دخَلَها فقد سَلِم من جميعِ الآفات، كالمَوتِ والمَرَض والمصائبِ، والحُزنِ والغَمِّ والتَّعَب والنَّكَد. وقيل: سُمِّيَت الجنَّةُ دارَ السَّلامِ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى يُسلِّمُ على أهلِها، أو تُسلِّمُ الملائكةُ عليهم). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٣٨). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٧، ١٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٧، ١٣٨).

(١) المَأدُبة: الطعامُ يُصنَعُ، ويُدعا إليه الناسُ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (١٠/ ١٥٣).

(٢) فَرْقٌ: أي: فارِقٌ بين النَّاجي والهالِك مِن النَّاسِ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (١٠/ ١٥٤).

(٣) رواه البخاري (٧٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٧٨)، ((تفسير المنار))

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ شَبَّه الحياةَ الدُّنيا بماءِ السَّماءِ دونَ ماءِ الأرضِ؛ لأنَّ ماءَ السَّماءِ- وهو المطَرُ- لا تأثيرَ لِكَسبِ العَبدِ فيه بزيادةٍ أو نقصٍ، أو لأنَّه يستوي فيه جميعُ الخلائِقِ، بخلافِ ماءِ الأرضِ، فكان تشبيهُ الحياةِ به أنسَبَ[(١)].

٢- الأمرُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ هو الأمْرُ الكونيُّ، ويقابلُه: الأمْرُ الدينيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[(٢)] [النحل: ٩٠].

٣- الإرادةُ نوعان: إرادةٌ كونيَّةٌ قَدَريَّةٌ، وهي المشيئةُ، ولا مُلازمةَ بينها وبين المحبَّةِ والرِّضا، بل يدخُلُ فيها الكُفرُ والإيمانُ، والطَّاعاتُ والعِصيانُ، والمَرضِيُّ والمحبوبُ والمكروهُ وضِدُّه، وإرادةٌ دينيَّةٌ شَرعيَّةٌ مختَصَّةٌ بمراضي اللهِ ومَحابِّه، وعلى مقتضاها أمَرَ عِبادَه ونهاهم، وتجتَمِعُ الإرادةُ الكونيَّةُ والشَّرعيَّةُ في حَقِّ المُؤمِنِ الطائعِ، وتنفَرِدُ الكونيَّةُ في حقِّ الفاجِرِ العاصي؛ فالله سبحانه دعا عبادَه عامَّةً إلى مرضاتِه، وهدى لإجابتِه من شاء منهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فعمَّمَ سُبحانه

لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٦، ٢٨٧).

قال السعدي: (خَصَّ بالهدايةِ مَن شاء استخلاصَه واصطفاءَه، فهذا فَضلُه وإحسانُه، واللهُ يختَصُّ برَحمتِه من يشاءُ، وذلك عَدلُه وحِكمتُه، وليس لأحدٍ عليه حُجَّةٌ بعد البيانِ والرُّسُلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٥-٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٧).

الدَّعوةَ، وخَصَّ الهدايةَ بمَن شاء[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: يدعو النَّاسَ جميعًا إلى دارِ السَّلامةِ عن كُلِّ مَكروهٍ وآفةٍ، وهي الجنَّةُ، وإنَّما ذُكِرَت بهذا الاسمِ لذِكْرِ الدُّنيا بما يُقابِلُه مِن كَونِها مَعرِضًا للآفاتِ[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ عَمَّ سبحانَه وتعالى بالدَّعوةِ أوَّلًا؛ إظهارًا للحُجَّةِ، وخَصَّ بالهدايةِ ثانيًا؛ استغناءً عن خَلْقِه، وإظهارًا للقُدرةِ، لأنَّ الحُكمَ له في خَلْقِه[٣]، وقيل أيضًا: عمَّ بالدَّعوةِ إلى دارِ السَّلامِ، وخَصَّ بالهدايةِ مَن يشاءُ، فذاك عَدلُه، وهذا فَضلُه[٤].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ هذه الآيةُ بَيِّنةُ الحُجَّةِ في الرَّدِّ على القَدَريَّةِ؛ لأنَّهم قالوا: هَدى اللهُ الخَلقَ كُلَّهم إلى صراطٍ مُستقيمٍ، واللهُ قال: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فردُّوا على اللهِ نُصوصَ القُرآنِ[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ حثٌّ مِن الله تعالى لعبادِه على إجابةِ هذه الدَّعوةِ، والمبادرةِ إليها، والمُسارعةِ في الإجابةِ[٦].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ

---

(١) يُنظر: ((أعلام السنة المنشورة)) للحكمي (ص: ٨٨)، وينظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٧-١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٩)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٩).

(٦) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٧٩).

ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ...﴾ فيه تشبيهٌ، وهو مِن التَّشبيهِ المركَّبِ؛ شُبِّهَت حالُ الدُّنيا في سُرعةِ تَقَضِّيها، وانقِراضِ نَعيمِها بعدَ الإقبالِ، بحالِ نَباتِ الأرضِ في جَفافِه وذَهابِه حُطامًا بعدَما الْتَفَّ وتكاثَفَ، وزيَّن الأرضَ بخُضرته ورَفيفِه[1]، وهذه الآيةُ تتنزَّلُ مَنزِلةَ البيانِ لقَولِه: ﴿مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ المؤذِنةِ بأنَّ تَمتُّعَهم بالدُّنيا ما هو إلَّا لمدَّةٍ قصيرةٍ، فبيَّنَت هذه الآيةُ أنَّ التَّمتُّعَ صائِرٌ إلى زَوالٍ، وأطنَبَت فشبَّهَت هيئةَ التَّمتُّعِ بالدُّنيا لأصحابِها بهيئةِ الزَّرعِ في نَضارتِه، ثمَّ في مَصيرِه إلى الحَصْدِ[2].

وفي هذه الآيةِ عَشْرُ جُمَلٍ وقَع التَّركيبُ مِن مَجموعِها، بحيث لو سقَط مِنها شيءٌ اختَلَّ التَّشبيهُ، قيل: وجهُ تشبيهِ الدُّنيا بالماءِ أمْرانِ؛ أحَدُهما: أنَّ الماءَ إذا أخَذتَ مِنه فوقَ حاجَتِك تضَرَّرتَ، وإن أخذتَ قدْرَ الحاجةِ انتفعتَ به، فكَذلك الدُّنيا. والثَّاني: أنَّ الماءَ إذا طبَّقتَ عليه كفَّك لِتَحفَظَه لم يَحصُلْ فيه شيءٌ فكذلك الدُّنيا[3].

- وصيغةُ القَصرِ ﴿إِنَّمَا﴾ هنا لِتَأكيدِ المقصودِ مِن التَّشبيهِ، وهو سُرعةُ الانقِضاءِ، ولِتَنزيلِ السَّامِعين مَنزلةَ مَن يَحسَبُ دَوامَ بهجةِ الحياةِ الدُّنيا؛ لأنَّ حالَهم في الانكِبابِ على نَعيمِ الدُّنيا كحالِ مَن يَحسَبُ دَوامَه، ويُنكِرُ أن يَكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦).
والرَّفيفُ: النَّباتُ الذي يهتزُّ خُضرةً وتَلألُؤًا مِن نضارتِه. يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ٢٥٥)، ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (١/ ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤١).
(٣) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٤/ ١٥٣٨).

له انقِضاءٌ سريعٌ ومُفاجئٌ، والمعنى: قَصرُ حالةِ الحياةِ الدُّنيا على مُشابهةِ حالةِ النَّباتِ الموصوفِ؛ فالقصرُ قَصْرُ قَلبٍ، بُنِيَ على تنزيلِ المُخاطَبينَ منزلةَ مَن يَعتقِدُ عَكسَ تِلك الحالةِ؛ شُبِّهتْ حالةُ الحياةِ في سُرعةِ تَقضِّيها، وزوالِ نَعيمِها بعدَ البهجةِ به، وتَزايُدِ نَضارتِها بحالِ نباتِ الأرضِ في ذَهابِه حُطامًا، ومَصيرِه حَصيدًا، ومِن بديعِ هذا التَّشبيهِ: تَضمُّنُه لتشبيهاتٍ مُفرَّقةٍ من أطوارِ الحالينِ المتشابهَينِ بحيثُ يَصلُحُ كلُّ جزءٍ مِن هذا التشبيهِ المركَّبِ لتشبيهِ جُزءٍ مِن الحالينِ المتشابِهينِ؛ ولذلك أَطْنَبَ وصْفَ الحالينِ مِن ابتدائِه[١].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ ...﴾ كلامٌ فصيحٌ بديعُ اللَّفظِ، حيث جُعِلَت الأرضُ آخِذةً زُخرُفَها على التَّمثيلِ بالعَروسِ، إذا أَخَذَت الثِّيابَ الفاخِرةَ مِن كلِّ لونٍ، فاكْتَسَتها وتزَيَّنَت بغيرِها مِن ألوانِ الزِّيَنِ[٢].

- قولُه: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ فيه مُبالَغةٌ في التَّلَفِ والهلاكِ، حتَّى كأنَّها لم تُوجَدْ قَبلُ، ولم يَقُمْ بالأرضِ بهجةٌ خَضِرةٌ نضِرةٌ تَسُرُّ أهلَها[٣].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تذييلٌ جامعٌ؛ أي مِثْلَ هذا التَّفصيلِ نُفصِّلُ، أي: نُبيِّنُ الدَّلالاتِ كلَّها الدَّالَّةَ على عُمومِ العلمِ والقدرةِ، وإتقانِ الصُّنعِ[٤]، وفيه تعريضٌ بأنَّ الذين لم ينتَفِعوا بالآياتِ، ليسوا مِن أهلِ التفَكُّرِ، ولا كان تفصيلُ الآياتِ لأجْلِهم[٥].

- وفي قولِه: ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ خَصَّ (الْمُتَفَكِّرِينَ) بالذِّكرِ؛ تَشريفًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤١)، ويُنظَر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٠٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للمنزلةِ، ولِيَقعَ التَّسابُقُ إلى هذه الرُّتبةِ[١]، ولأنَّهم هم المنتَفِعون بتَفصيلِ الآياتِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

- قولُه: ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ فيه إضافةُ الدَّارِ إلى اسمِه سُبحانَه؛ تَعظيمًا وتَشريفًا لها[٣]، وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

- وفي قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا كان الدُّعاءُ عامًّا لم يتَقيَّدْ بالمشيئةِ، ولَمَّا كانت الهدايةُ خاصَّةً تقيَّدَت بالمشيئةِ، فقال: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠).

الآيتان (٢٦-٢٧)

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَا يَرۡهَقُ﴾: أي: لا يَغشَى، ولا يَعلُو، وأصلُ (رهق): غِشْيانُ الشَّيءِ الشَّيءَ[1].

﴿قَتَرٞ﴾: أي: غبارٌ وكآبةٌ، وأصلُ (قتر): يدلُّ على تجميعٍ وتَضييقٍ[2].

﴿ذِلَّةٞ﴾: أي: صَغارٌ، وأصْلُ الذُّلِّ: الخُضُوعُ والاستكانةُ[3].

المعنَى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّ الَّذينَ أحسَنوا في الدُّنيا لهم الجنَّةُ في الآخرةِ، وزيادةٌ على ذلك، ومِن الزيادةِ- بل أعظمُها- النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ الكريمِ، ولا يغشَى وُجوهَهم غُبارٌ ولا هَوانٌ ولا صَغارٌ، أولئك أصحابُ الجنَّةِ هم فيها ماكِثونَ أبدًا.

والذين عمِلوا السَّيِّئاتِ فعَصَوا وكفَروا بالله ورسولِه، فلهم جزاءٌ يسوؤُهم بحسبِ ما عمِلوا مِن السيئاتِ، دونَ زيادةٍ، ويغشاهم هَوانٌ وذُلٌّ وخِزيٌ، ليس لهم مِن اللهِ مِن مانعٍ يمنَعُ عنهم سَخَطَه وعذابَه، كأنَّما أُلبِسَت وجوهُهم- مِن شِدَّةِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٨).

سَوادِها- أجزاءً مِن اللَّيلِ في حالِ ظُلمَتِه، أولئك أصحابُ النَّارِ هم فيها ماكِثونَ أبدًا.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا دعا اللهُ تعالى عِبادَه إلى دارِ السَّلامِ؛ ذكَرَ السَّعاداتِ التي تحصُلُ لهم فيها[١].

وأيضًا لَمَّا أفهم خَتمُ الآيةِ بِقَولِه: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أنَّ مِن النَّاسِ مَن يهديه، ومنهم مَن يُضِلُّه، وأنَّ الكُلَّ فاعلونَ لِما يَشاءُ، كان موضِعَ أن يُقالَ: هل هم واحِدٌ في جزائِه، كما هم واحِدٌ في الانقيادِ لِمُرادِه؟ فقيل: لا، بل هم فَريقانِ، فذَكَرَهما[٢].

وأيضًا أنَّه لَمَّا دعا تعالى إلى دارِ السَّلامِ، كأنَّ النُّفوسَ تَشَوَّقَت إلى الأعمالِ المُوجِبةِ لها المُوصِلةِ إليها، فأخبَرَ عنها بقَولِه تعالى[٣]:

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾.

أي: للَّذين أحسَنوا في الدُّنيا بالإيمانِ، وأحسَنوا في طاعةِ الرَّحمنِ؛ امتثالًا لأمرِه، واجتنابًا لِنَهيِه، على وَجهِ المُراقَبةِ له سُبحانه، وأحسَنوا إلى عبادِ اللهِ تعالى؛ هؤلاء لهم الجنَّةُ، ولهم زيادةٌ على ذلك، وأعظمُ أنواعِها النَّظَرُ إلى وجهِ الله عزَّ وجلَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٦، ١٦٤)، ، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٥، ١١٦)،، ((تفسير القرطبي))

كما قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وعن صُهَيب رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم قال: ((إذا دخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، يَقولُ اللهُ تبارك وتعالى: تُريدونَ شَيئًا أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّضْ وُجوهَنا؟! ألم تُدخِلْنا الجنَّةَ، وتُنْجِنا من النَّارِ؟! قال: فيَكشِفُ الحِجابَ، فما أُعطُوا شَيئًا أحَبَّ إليهم مِن النَّظَرِ إلى رَبِّهم عزَّ وجَلَّ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ:

(٨/ ٣٣٠)، ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تيمية (١/ ٣٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

الجمهورُ على أنَّ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الجنَّةُ، و(الزيادة) هي النَّظَرُ إلى وجهِ الله عزَّ وجلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٥).

وذهب بعضُ المفَسِّرينَ- كابن جريرٍ، وابن كثيرٍ- إلى أنَّ المرادَ بالزيادةِ ما هو أعم من النَّظَرِ إلى وجهِ الله تعالى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٢).

قال ابنُ جريرٍ: (ومِن الزيادةِ على إدخالِهم الجنةَ أن يكرمَهم بالنظرِ إليه، وأن يُعطيَهم غُرفًا مِن لآلئ، وأن يزيدَهم غفرانًا ورضوانًا؛ كلُّ ذلك مِن زياداتِ عطاءِ الله إيَّاهم على الحسنَى التي جعَلها الله لأهلِ جناتِه، وعمَّ ربُّنا جلَّ ثناؤُه بقولِه: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ الزياداتِ على الحسنَى، فلم يخصصْ منها شيئًا دونَ شيءٍ، وغيرُ مستنكَرٍ مِن فضلِ الله أن يجمعَ ذلك لهم، بل ذلك كلُّه مجموعٌ لهم إن شاء الله. فأولَى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أن يعمَّ كما عمَّه عزَّ ذكرُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٤)

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقولُه: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيفُ ثوابِ الأعمالِ بالحسنةِ عشرَ أمثالِها إلى سبعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وزيادَةٌ على ذلك أيضًا ويشملُ ما يُعْطيهم اللَّهُ في الجِنانِ مِنَ القُصورِ والحُورِ والرِّضا عنهم، وما أخفاه لهم مِن قُرَّةِ أعْيُنٍ، وأفضلُ مِنْ ذلك وأعلاهُ النظرُ إلى وجهِه الكريمِ، فإنَّه زيادةٌ أعظمُ مِنْ جميعِ مَا أُعْطُوه، لا يَسْتَحِقُّونَها بعَمَلِهم، بلْ بفَضْلِه ورَحْمَتِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٢).

وقال ابنُ القيمِ: (ولما عطَفَ سبحانَه الزيادةَ على الحسنَى التي هي الجنةُ، دلَّ على أنَّها أمرٌ آخرُ مِن وراءِ الجنةِ، وقدرٌ زائدٌ عليها، ومَن فسَّر الزيادةَ بالمغفرةِ والرضوانِ فهو مِن لوازمِ رؤيةِ الربِّ تبارَك وتعالَى). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٢٩١).

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾))[١].

﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا شرَحَ اللهُ تعالى ما يحصُلُ لأهلِ الجنَّةِ مِن السَّعاداتِ، شرَحَ بعد ذلك الآفاتِ التي صانَهم اللهُ بفَضلِه عنها، فقال تعالى[٢]:

﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌ﴾.

أي: ولا يَغشى وجوهَ أهلِ الجنَّة غُبارٌ ولا كآبةٌ، ولا هوانٌ أو صَغَارٌ[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ [الإنسان: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ * ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: أولئك -الذين أحسَنوا- أهلُ الجنَّةِ، هم فيها ماكِثونَ أبدًا[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا أخبَر تعالَى عن حالِ السُّعداءِ؛ عَطَف بذكرِ حالِ الأشقياءِ، فذَكَر عدلَه تعالى فيهم، وأنَّه يُجازيهم على السَّيِّئةِ بمثلِها، لا يزيدُهم على ذلك[١].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى كما شرحَ حالَ المُسلِمينَ في الآيةِ المتقَدِّمةِ، شَرحَ حال مَن أقدَمَ على السيِّئاتِ في هذه الآيةِ[٢]، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾.

أي: والَّذين عمِلوا السيِّئاتِ[٣] في الدُّنيا، فعَصَوا وكفَروا بالله ورسولِه، فلهم جزاءٌ يسوؤُهم بحسبِ ما عمِلوا مِن السيئاتِ، دونَ زيادةٍ على ما يستحقُّونَ[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٢).

(٣) قيل: تعمُّ السيئات هاهنا الكفرَ والمعاصي، وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

وقيل: المرادُ بها: الشركُ. وممن قال بذلك: الواحديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٤٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٨). وهذا القولُ مرويٌّ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٢٧).

وقيل: المرادُ بها المعاصي. وممَّن قال بذلك: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

أي: ويَغشاهم هوانٌ وخِزيٌ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

أي: ما لهم مِن اللهِ مِن مانعٍ يمنَعُ عنهم سَخَطَه وعذابَه[٢].

كما قال تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

وقال سُبحانه: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر: ٣٣].

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾.

أي: كأنَّما أُلبِسَت وجوهُهُم- مِن شِدَّةِ سَوادِها- أَجزاءً مِن اللَّيلِ في حالِ ظُلمَتِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٢).

قال السعدي: (﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تَغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ في قلوبِهم، وخَوفٌ مِن عذابِ اللهِ، لا يدفَعُه عنهم دافِعٌ، ولا يَعصِمُهم منه عاصِمٌ، وتسري تلك الذِّلَّةُ الباطنةُ إلى ظاهِرِهم، فتكونُ سَوادًا في الوُجوهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٧٧ - ١٧٩)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

أي: أولئك- الموصوفونَ بهذه الصفاتِ الذميمةِ- أهلُ النَّارِ، هم فيها ماكِثونَ أبدًا[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

لا عاصِمَ مِن اللهِ لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ فإنَّ قضاءَه مُحيطٌ بِجَميعِ الكائِناتِ، وقدَرَه نافِذٌ في كلِّ المُحدَثاتِ، إلَّا أنَّ الغالِبَ على الطِّباعِ العاصيةِ، أنَّهم في الحياةِ العاجلةِ مُشتَغِلونَ بأعمالِهم ومُراداتِهم، أمَّا بعد الموتِ فكُلُّ أحدٍ يُقِرُّ بأنَّه ليس له مِن اللهِ مِن عاصمٍ، قال تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

في قَولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ مُناسبةٌ بينَ الإحسانِ، وبينَ النَّظَرِ إلى وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ووجهُ ذلك أنَّ الإحسانَ هو أنْ يَعبُدَ المؤمِنُ ربَّه في الدُّنيا على وَجهِ الحُضورِ والمُراقبةِ، كأنَّه يراهُ بقَلبِه، وينظرُ إليه في حالِ عبادَتِه، فكان جزاءُ ذلك النَّظَرَ إلى اللهِ عِيانًا في الآخرةِ، وعكسُ هذا ما أخبَرَ اللهُ

الرازي)) (١٧/ ٢٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٢).

تعالى به عن جزاءِ الكفَّارِ في الآخرةِ: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وجَعَلَ ذلك جزاءً لحالِهم في الدُّنيا، وهو تَراكُمُ الرَّانِ على قُلوبِهم؛ حتى حُجِبَتْ عن مَعرِفتِه، ومُراقَبتِه في الدُّنيا، فكان جزاؤُهم على ذلك أنْ حُجِبُوا عن رؤيَتِه في الآخرةِ[١].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ؛ لبيانِ أمْنِهم مِن المكارِه، بَعدَ بَيانِ فوزِهم بالمطالِبِ بقولِه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وإنَّما ذَكرَ أمْنَهم مِن المكارِهِ- مع أنَّ فَوْزَهم بالمطالِبِ يَقتضِيه-؛ تَذكيرًا بما يُنقِذُهم اللهُ تعالى مِنه برحمتِه[٢].

- وفيه تقديمُ المفعولِ: ﴿وُجُوهَهُمْ﴾، على الفاعلِ: ﴿قَتَرٌ﴾؛ للاهتمامِ ببيانِ أنَّ المَصونَ مِن الرَّهَقِ أشرفُ أعضائِهم، وللتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ؛ فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّر تَبْقَى النَّفسُ مُترقِّبةً لوُرودِه، فعند ورودِه عليها يتَمكَّنُ عندَها فضْلَ تمكُّنٍ، ولأنَّ في الفاعلِ ضرْبَ تَفْصيلٍ[٣].

- وكنَى بالوجهِ عن جملةِ الجسَدِ؛ لكونِ الوجهِ أشرَفَه، ولِظُهورِ أثرِ السُّرورِ والحزنِ فيه[٤]، والمرادُ: لا ينالُهم مكروهٌ، بوجهٍ مِن الوجوهِ؛ لأنَّ المكروهَ إذا وقَع بالإنسانِ، تبيَّن ذلك في وجهِه، وتغيَّر وتكدَّر[٥].

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

- وفيه تعريضٌ بالَّذين لم يَهدِهِمُ اللهُ إلى صراطٍ مستقيم، وهم الَّذين كسَبوا السَّيِّئاتِ؛ تعجيلًا للمَساءةِ إليهم بطريقِ التَّعريضِ قبلَ التَّصريحِ، الذي يأتي في قولِه: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ إلى قولِه: ﴿مُظْلِمًا﴾[1] [يونس: ٢٧].

- وجملةُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ نتيجةٌ للمقدِّمةِ؛ فبَيْنها وبينَ التي قبلَها كمالُ الاتِّصالِ؛ ولذلك فُصِلَت عنها، ولم تُعطَفْ[2].

- واسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّهم استَحقُّوا الخلودَ لأجلِ إحسانِهم، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ دَرجتِهم، وسُموِّ طبَقتِهم[3].

٢- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وعبَّر في جانبِ المسيئين بفِعلِ ﴿كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، دونَ فِعْل (أَساؤوا) كما عبَّر في جانبِ الَّذين أحسَنوا؛ للإشارةِ إلى أنَّ إساءتَهم مِن فِعْلِهم وسعيِهم؛ فما ظلَمَهم اللهُ ولكنْ أنفسَهم يَظلِمون[4].

- وفيه تغييرُ السَّبْكِ حيثُ لم يَقُل: (ولِلَّذين كسَبوا السَّيِّئاتِ السُّوأى)، في مقابلةِ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ لِمُراعاةِ ما بينَ الفريقينِ مِن كمالِ التَّنائي والتَّبايُن، وإيرادُ (الكَسْبِ)؛ للإيذانِ بأنَّ ذلك إنَّما هو لسوءِ صَنيعِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٧).

وبسبب جِنايتِهم على أنفُسِهم[١].

- وأيضًا قوله: ﴿أَحۡسَنُواْ﴾، و﴿كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ المؤمِنَ لَمَّا خُلِقَ على الفِطرةِ واصَلَها بالإحسانِ، وعلى أنَّ الكافِرَ لَمَّا خُلِقَ على الفطرةِ انتقَلَ عنها، وكسَبَ السَّيِّئاتِ، فجَعلَ ذلك مُحسِنًا، وهذا كاسِبًا للسيِّئاتِ؛ ليدُلَّ على أنَّ المؤمِنَ سلك ما يَنبغي، وهذا سلَك ما لا يَنبغي[٢].

- قولُه: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ فيه إسنادُ الرَّهَقِ إلى أنفُسِهم دون وُجوهِهم؛ للإيذانِ بأنَّها محيطةٌ بهم غاشيةٌ لهم جميعًا، وتنكيرُ ﴿ذِلَّةٞ﴾ للتَّفخيمِ[٣].

- قولُه: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾: نفْيُ العاصمِ فيه مُبالغةٌ ظاهرةٌ في نفْيِ العِصمةِ من الله تعالى[٤].

- في قولِه: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا﴾ مبالغةٌ في سَوادِ الوُجوهِ، ولَمَّا كانت ظُلمةُ اللَّيلِ نهايةً في السَّوادِ شبَّه سَوادَ وُجوهِهم بقِطَعٍ مِن اللَّيلِ حالَ اشتدادِ ظُلمتِه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧).

الآيات (٢٨-٣٠)

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَزَيَّلْنَا﴾: أي: فَرَّقْنا. وأصلُ التزايُل: التبايُن[1].

﴿تَبْلُوا﴾: أي: تَختَبِرُ وتَعلَمُ. وأصلُ (بلو): يدلُّ على اختبارٍ[2].

﴿أَسْلَفَتْ﴾: أي: قَدَّمَت وعَمِلَت، وأصلُ (سلف): يدلُّ على تقدُّمٍ وسَبْقٍ[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾

﴿مَكَانَكُمْ﴾ اسمُ فِعلِ أمرٍ، مبنيٌّ على الفَتحِ، لا محَلَّ له من الإعرابِ، بمعنى: اثبُتُوا، منقولٌ عن الظَّرفِ، والفاعِلُ ضَميرٌ مُستَتِرٌ وُجوبًا، تقديرُه (أنتم)، و﴿أَنتُمْ﴾ ضميرٌ مبنيٌّ في محلِّ رفعٍ توكيدٌ للضَّميرِ المُستَتِرِ في اسمِ الفِعلِ، ﴿

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٤). قال أبو حيان: (تختبرُ ما أسلفَتْ من العملِ، فتعرفُ كيف هو أقبيحٌ أم حسنٌ، أنافعٌ أم ضارٌّ، أمقبولٌ أم مردودٌ؟ كما يتعَرَّفُ الرجلُ الشَّيءَ باختبارِه). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٤).

وَشُرَكَآؤُكُمۡ﴾ معطوفٌ على الضَّميرِ المُستَتِرِ، مرفوعٌ. وقيل: ﴿مَكَانَكُمۡ﴾ مفعولٌ به منصوبٌ لفِعلٍ محذوفٍ، تَقديرُه (الزموا)[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: واذكرْ- يا مُحمَّدُ- يومَ نَجمَعُ الخَلقَ جميعًا لِمَوقفِ الحسابِ يومَ القيامةِ، ثمَّ نقولُ للذينَ أشرَكوا: الزَمُوا مَكانكم أنتم ومَن زَعَمتُم أنَّهم شُرَكاءُ لله في العبادةِ، وفرَّقْنا بين المُشرِكينَ وشُرَكائِهم، وقال لهم شُركاؤهم الذين كانوا يعبدونَهم مِن دُونِ اللهِ: ما كُنتم تَعبُدونَنا في الحقيقةِ، بل كُنتُم تعبدونَ أهواءَكم وشَياطينَكم الذين أمَرُوكم بعبادَتِنا، فحَسْبُنا اللهُ شاهِدًا بيننا وبينكم؛ فهو سبحانَه وتعالى قد عَلِمَ أنَّا لم نأمُرْكم بعِبادَتِنا، ولم نكُن نَشعُرُ بعِبادتِكم لنا.

في ذلك المَوقِفِ في أرضِ المَحشَرِ يومَ القيامةِ تعلَمُ كُلُّ نَفسٍ ما قَدَّمَت من خيرٍ أو شَرٍّ، وتَجِدُه مكتوبًا لِتُحاسَبَ عليه، ورُدَّ المُشرِكونَ إلى اللهِ رَبِّهم الحَقِّ؛ لِيُجازيَهم بالعدلِ، وزال عنهم ما كانوا يختَلِقونَه من الكَذِبِ على اللهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ في الآيتينِ السَّابِقَتينِ ما يختَصُّ به كلُّ فريقٍ مِن الفَريقينِ مِن الجَزاءِ وسِماتِه، (الذين أحْسَنوا والذين كسَبوا السَّيِّئاتِ)؛ جاءت هذه الآيةُ بإجمالِ حالةٍ جامعةٍ للفَريقَينِ، ثمَّ بتَفصيلِ حالةٍ يَمتازُ بها المُشرِكونَ؛ لِيَحصُلَ بذلك

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ١٨٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١١/ ١١٤).

ذِكرُ فَظيعٍ مِن أحوالِ الذين بَلَغوا الغايةَ في كَسبِ السَّيِّئاتِ، وهي سَيِّئةُ الإشراكِ الذي هو أكبَرُ الكبائرِ، وبذلك حصَلَت المُناسَبةُ مع الجُملةِ التي قَبلَها المُقتَضيةِ عَطْفَها عليها(١).

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾.

أي: واذكُرْ- يا مُحَمَّدُ- يومَ نَجمَعُ جَميعَ الخَلقِ لِمَوقِفِ الحسابِ يومَ القيامةِ؛ الإنسَ والجِنَّ، والمُؤمِنينَ والكافرينَ، والعابدينَ والمَعبودينَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾.

أي: ثمَّ نقولُ للمُشرِكينَ: الزَموا مكانَكم، وقِفوا في مَوضعِكم، أنتم والذين زَعَمتُم أنَّهم شركاءُ لله في عبادتِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٢].

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾.

أي: ففرَّقْنا بين المُشرِكينَ العابدينَ، ومَعبُوديهم مِن دونِ اللهِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٠، ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٢، ١٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣)،

كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢].

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾.

أي: وقال المعبودونَ للمُشرِكينَ الذين عَبَدوهم: ما كُنتُم تعبدونَنا في الحقيقةِ، بل كُنتم تعبدونَ أهواءَكم وشَياطينَكم الذين أمَروكم بعبادَتِنا[1].

((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠١ - ١٠٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥١، ١٥٢).

قال البيضاوي: (قيل: يُنطقُ الله الأصنامَ، فتشافهُهم بذلك مكانَ الشفاعةِ التي يتوقَّعون منها. وقيل: المرادُ بالشركاءِ الملائكةُ والمسيحُ: وقيل: الشياطينُ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣).

وممن ذهب إلى أن المراد بالشركاء هنا: الأصنام: البغوي، وابن عطية، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥١- ١٥٢).

وقيل: المرادُ بهم الملائكةُ، وممَّن ذهَب إلى ذلك: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣).

وقيل: المرادُ بالشُّركاءِ: جميعُ ما عُبِد مِن دونِ الله تعالى مِن ذَوي العقولِ وغيرِهم. وممَّن قال بذلك: الألوسي. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠٣).

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [النحل: ٨٦].

وقال سُبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ [الفرقان: ١٧-١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الروم: ١٢-١٣].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

أي: قال المَعبودونَ للذين عَبَدوهم: فحَسْبُنا اللهُ شاهدًا بيننا وبينكم، أيُّها المُشرِكونَ؛ فإنَّه قد عَلِمَ أنَّكم عَبَدتُمونا من غيرِ أن نأمُرَكم، ومِن دونِ أن نَشعُرَ بعِبادتِكم لنا[1].

كما قال تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿تَتْلُو﴾ مِن التِّلاوةِ، أي: تقرأُ كُلُّ نَفسٍ أعمالَها مِن كِتابِها يومَ القيامةِ، وقيل: المعنى: تَتبَعُ كُلُّ نَفسٍ ما قدَّمَتْ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ(١).

٢- قِراءةُ ﴿تَبْلُو﴾، أي: تَخْبُرُ، فالمعنى: تَعلَمُ كُلُّ نَفسٍ ما قدَّمَت مِن خَيرٍ أو شَرٍّ(٢).

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾.

أي: في ذلك المَقامِ في أرضِ المَحشَرِ يومَ القيامةِ تَعلَمُ كلُّ نفسٍ ما قدَّمَت مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وتَجِدُه مكتوبًا لِتُحاسَبَ عليه(٣).

---

(١) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٤، ١٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٤، ١٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٩١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٤)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٤)،

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال سُبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣- ١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: ورُجِعَ هؤلاء المُشرِكونَ إلى اللهِ الذي هو ربُّهم ومالِكُهم، والمتولِّي أمرَهم، الحَقُّ لا شكَّ فيه، دُونَ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ مِن آلهةٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

أي: وزال عن المُشرِكينَ وبطَلَ ما كانوا يختَلِقونَه مِن الكَذِبِ على اللهِ، بدعواهم أنَّ له شُرَكاءَ يَنفَعونَ مَن عَبَدَهم، ويَدفَعونَ عنه الضُّرَّ، ويُقَرِّبونَه إلى اللهِ[(٢)].

((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٦)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ۞ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٨٦-٨٧].

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۞ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٤-٧٥].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ العبادةَ المَشوبةَ لا اعتدادَ بها، وأنَّ مَن استحَقَّ العبادةَ استحَقَّ الإخلاصَ فيها، وأنْ لا يُشرَك به أحدٌ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ مِن نُكَتِ ذِكرِ حَشرِ الجَميعِ هنا: التَّنبيهُ على أنَّ فظيعَ حالِ المُشرِكينَ، وافتِضاحَهم، يكون بمرأًى ومَسمَعٍ من المؤمِنينَ، فتكونُ السَّلامةُ من تلك الحالةِ زيادةً في النِّعمةِ على المُسلِمينَ، وتقويةً في النِّكايةِ للمُشرِكينَ(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ كَلِمةُ ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ جاءت

القرطبي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٠).

على لفظِ المُضيِّ بعدَ قَولِه: ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ وهو مُنتظَرٌ في المُستقبَلِ، والسَّببُ فيه أنَّ الذي حكَمَ اللهُ فيه بأن سيكونُ، صار كالكائنِ الرَّاهِنِ الآن[١].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ إنَّما أضاف الشُّرَكاءَ إليهم لوجوهٍ:

منها: أنَّه يكفي في الإضافةِ أدنَى تعلُّقٍ، فلمَّا كان الكفارُ هم الذين أثْبَتوا هذه الشركةَ؛ لا جرمَ حسنتْ إضافةُ الشركاءِ إليهم[٢]؛ تهكمًا مِن جهةٍ، وإشارةً إلى أنَّهم مِن صنعِهم هم، ولم يكونوا يومًا شركاءَ لله.

وقيل: إنَّه تعالى لما خاطَب العابدينَ والمعبودينَ بقولِه: ﴿مَكَانَكُمْ﴾ صاروا شركاءَ في هذا الخطابِ[٣].

٤- إن قيل: كيف قال: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ وقد أخبرَ تعالى بـ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، فالجوابُ: لا تناقُضَ بينهما، فالإخبارُ بأنَّه مولاهم؛ ذلك لأنَّه تعالى مَولى عبادِه جَميعًا، على معنى: أنَّه رَبُّهم ومالِكُ أمْرِهم، والمتصَرِّفُ فيهم بما شاء، وهو مَولاهم جميعًا في الرِّزقِ وإدرارِ النِّعَم، وأمَّا النَّفيُ فهو على معنى وِلايةِ المحبَّةِ والتَّوفيقِ والنَّصرِ، فهو مَولى المُؤمِنينَ خاصَّةً، وليس للكافرينِ نصيبٌ فيها[٤].

٥- اللهُ سبحانه يَقرِنُ في كتابِه بين الشِّركِ والكَذِب، كما يَقرِنُ بين الصِّدقِ والإخلاصِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٩)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٨٩).

مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، وقال تعالى عن الخليلِ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾[1] [الصافات: ٨٥ - ٨٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا...﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، مَسُوقٌ لبيانِ بعضٍ آخرَ مِن أحوالِهم الفظيعةِ، وتأخيرُه في الذِّكرِ مع تقدُّمِه في الوجودِ على بعضِ أحوالِهم المحكيَّةِ سابقًا؛ للإيذانِ باستقلالِ كلٍّ مِن السَّابقِ واللَّاحقِ بالاعتبارِ[2].

- وقولُه: ﴿فَزَيَّلْنَا﴾، الفاءُ للدَّلالةِ على وقوعِ التَّزْييلِ ومَباديه عَقِيبَ الخِطابِ مِن غيرِ مُهلةٍ، وإيثارُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ الموروثِ؛ لزيادةِ التَّوبيخِ والتَّحسيرِ[3].

- وقال: ﴿فَزَيَّلْنَا﴾، ولم يَقُلْ: (فَزِلْنا بينَهم)؛ إرادةَ تكثيرِ الفعلِ، وتكريرِه[4].

٢- قولُه تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، تذييلٌ وفَذْلَكةٌ للجُمَلِ السَّابقةِ، مِن قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] إلى هنا[5].

---

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥ / ٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٣).

- وقدَّم الظَّرفَ ﴿هُنَالِكَ﴾؛ للاهتمامِ به؛ لأنَّه الغرضُ الأهَمُّ مِن الكلامِ؛ لعِظَمِ ما يقَعُ فيه[١].

- وقولُه: ﴿تَبْلُواْ﴾ أي: تَختبِرُ، وهو هنا كنايةٌ عن التَّحقُّقِ وعِلمِ اليقينِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾، جُعل الضَّميرُ في ﴿رُدُّوا﴾ للنُّفوسِ المدلولِ عليها بـ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ على أنَّه معطوفٌ على ﴿تَبْلُو﴾، وعُدِل إلى الماضي؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ والتَّقرُّرِ، وإيثارُ صيغةِ الجمعِ؛ للإيذانِ بأنَّ ردَّهم إلى اللهِ يكونُ على طريقةِ الاجتماعِ، لا يُلائِمُه التَّعرُّضُ لوصفِ الحقِّيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾؛ فإنه للتَّعريضِ بالمردودينَ؛ فقولُه عز وجل: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ممَّا لا مجالَ فيه للتَّدارُكِ قطعًا؛ فإنَّ ما فيهِ من الضَّمائرِ الثَّلاثةِ للمُشركين، فيَلزَمُ التَّفكيكُ حتمًا، وتخصيصُ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بالنُّفوسِ المشركةِ مع عُمومِ البلوى للكلِّ يأباه مَقامُ تَهويلِ المقامِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤١).

الآيات (٢١-٢٢)

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿حَقَّتْ﴾: أي: وجَبَتْ وثبَتَتْ؛ يُقال مِنه: حقَّ على فُلانٍ كذا، يَحِقُّ عليه: إذا ثبَت ذلك عليه ووجَبَ، وأصلُ (حقَّ): يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يسألَ المُشرِكينَ: مَن الذي يرزُقُكم من السَّماءِ والأرضِ، أمْ مَن يملِكُ السَّمعَ والأبصارَ، ومن يُخرِجُ الشَّيءَ الحيَّ من الشيءِ الميِّتِ بقُدرتِه العظيمةِ، ويُخرِجُ الشَّيءَ الميِّتَ من الشَّيءِ الحيِّ، ومن يدبِّرُ أمرَ جَميعِ الخلائقِ، ويتصَرَّفُ في السَّماءِ والأرضِ بما شاء، فسيقولُ المُشرِكونَ: اللهُ وَحدَه من يفعَلُ ذلك، فقُل لهم يا محمَّدُ: أفلا تتَّقونَه، وتخافونَ عِقابَه؟!

فذلكم اللهُ الذي يفعَلُ كُلَّ ذلك، هو المستحِقُّ للعبادةِ وَحدَه، وهو ربُّكم الحقُّ الذي لا شَكَّ فيه، فأيُّ شَيءٍ غيرِ الحَقِّ إلا الضَّلالُ، فأنَّى تُصرفونَ؟!

ثم بيَّنَ تعالى أنَّه كما صُرِفَ المُشرِكونَ عن الحقِّ، واستَمَرُّوا على شِركِهم، كذلك حقَّت كلمةُ اللهِ على الذين فَسَقوا أنَّهم لا يُؤمِنونَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى فضائِحَ عَبَدةِ الأوثانِ؛ أتبَعَها بذِكرِ الدَّلائلِ على فسادِ مَذهَبِهم بما يوبِّخُهم، ويَحُجُّهم بما لا يُمكِنُ إلَّا الاعترافُ به من حالِ رِزقِهم وحواسِّهم، وإظهارِ القُدرةِ الباهرةِ في الموتِ والحياةِ[1].

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن الذي يرزُقُكم من السَّماءِ مياهَ الأمطارِ، ويَرزُقُكم من الأرضِ أنواعًا من الحبوبِ والثِّمارِ والبُقولِ والمعادِنِ[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٤)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

أي: أم مَن الذي يملِكُ سَمعَكم وأبصارَكم، ولو شاء لسَلَبَكم إيَّاها[(١)]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦].

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾.

أي: ومَنْ يُخرِجُ الشَّيءَ الحَيَّ مِن الشَّيءِ الميِّتِ بقُدرتِه العظيمةِ، فيُخرجُ الإنسانَ الحيَّ والأنعامَ والبهائمَ الأحياءَ من النُّطَف الميِّتةِ، ويُخرِجُ الزَّرعَ من الحَبَّةِ، والنَّخلةَ من النَّواةِ، والدَّجاجةَ مِن البيضةِ، والمؤمنَ من الكافِرِ، إلى غيرِ ذلك[(٢)]؟!

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

أي: ومَنْ يُخرِجُ الشَّيءَ الميِّتَ مِن الشَّيءِ الحَيِّ بقُدرتِه العظيمةِ، فيُخرجُ النُّطفةَ الميِّتةَ مِن الإنسانِ الحيِّ والأنعامِ والبهائمِ الأحياءِ، ويُخرجُ الحَبَّةَ من الزَّرعِ، والنَّواةَ من النَّخلةِ، والبيضةَ من الدَّجاجةِ، والكافرَ من المؤمِنِ، إلى غيرِ ذلك[(٣)]؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

أي: ومَنْ يُقدِّر أمرَ جَميعِ الخلائِقِ، ويتصَرَّفُ في السَّماءِ والأرضِ بما يشاء[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥].

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾.

أي: فسيقولُ المُشرِكونَ: الله وَحدَه هو الذي يرزُقُنا من السَّماءِ والأرضِ، ويَملِكُ السَّمعَ والأبصارَ، ويُخرِجُ الحَيَّ من الميِّتِ، ويُخرِجُ الميِّتَ مِن الحيِّ، ويُدَبِّرُ الأمرَ[٢].

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

أي: فقُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: أفلا تتَّقونَ الله، وتخافونَ عِقابَه على إصرارِكم على الشِّركِ، فتُخلِصون له العبادةَ؟! فأنتم مُقِرُّونَ أنَّه خالِقُكم ورازِقُكم، ومدبِّرُ أمورِكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦، ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٧).

لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦ - ٨٧].

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢﴾.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: فهذا الذي يفعَلُ هذه الأفعالَ؛ فَيرزُقُكم من السَّماءِ والأرضِ، ويَملِكُ السَّمعَ والأبصارَ، ويُخرِجُ الحَيَّ مِنَ الميِّتِ، ويُخرِجُ الميِّتَ مِن الحَيِّ، ويُدَبِّرُ الأمرَ؛ هو المستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه دونَ ما سواه، وهو ربُّكم الحَقُّ الذي لا شَكَّ فيه[1].

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ إذا قام إلى الصلاةِ مِن جَوفِ اللَّيلِ: اللهمَّ لك الحمدُ، أنت نورُ السَّموات والأرضِ، ولك الحَمدُ، أنت قيَّامُ السَّمواتِ والأرضِ، ولك الحمدُ، أنت ربُّ السَّمواتِ والأرضِ ومَن فيهنَّ، أنت الحقُّ، ووَعدُك الحَقُّ، وقَولُك الحَقُّ، ولِقاؤك حَقٌّ، والجنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والسَّاعةُ حَقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكَّلتُ، وإليك أنَبْتُ، وبك خاصَمتُ، وإليك حاكَمتُ، فاغفِرْ لي ما قدَّمتُ وأخَّرتُ، وأسرَرتُ وأعلَنتُ، أنت إلهي، لا إلهَ إلَّا أنت))[2].

﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

أي: فأيُّ شَيءٍ غيرِ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ؟! فلا واسطةَ بين الحَقِّ والباطِلِ، فمن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٢) رواه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩) واللفظ له.

عبدَ غَيرَ اللهِ المستَحِقِّ وَحدَه للعبادةِ، فقد ضلَّ[١].

﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾.

أي: فكيف يَقَعُ صَرفُكم بعدَ وضوحِ الحقِّ، فتَعدِلونَ عن عبادةِ الله إلى عبادةِ ما سواه، وأنتم تعلمونَ أنَّ الله وَحْدَه هو المتفرِّدُ بالخَلقِ والتَّدبيرِ[٢]؟!

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾.

أي: كما صُرِف المُشرِكونَ عَن الحقِّ، واستمرُّوا على شِركِهم، كذلك وجب قضاءُ الله وحُكمُه السَّابِقُ الصادر عن عِلمِه، على الذين خَرَجوا عن الحقِّ إلى الباطِلِ، بأنَّهم لا يُؤمنونَ، وأنَّهم مُعَذَّبونَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقال سبحانه: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٠ - ١٩٢)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧).

لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لم يقتصِرْ برزقِ الناسِ على جهةٍ واحدةٍ؛ ليُفيضَ عليهم نعمتَه، ويوسِّعَ رحمتَه[١].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ يدلُّ على أنَّ المُخاطَبينَ بهذا الكلامِ كانوا يَعرِفونَ اللهَ تعالى، ويُقِرُّونَ به، وهم الذين قالوا في عبادَتِهم للأصنام: (إنَّها تقرِّبُنا إلى الله زُلفى، وإنَّهم شفعاؤنا عند الله)، وكانوا يعلمونَ أنَّ هذه الأصنامَ لا تنفَعُ ولا تضُرُّ[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ فيه تقريرُ أنَّ التَّوحيدَ لا يصِحُّ مع الفَصلِ بين الربوبيَّةِ والألوهيَّة، كما كانوا يفعلونَ، فيقرُّونَ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ دونَ توحيدِ الألوهيَّةِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ بيانُ أنَّ المُشرِكينَ لم يكونوا يُسَوُّونَ بين آلِهَتِهم وبين اللهِ في كُلِّ شَيءٍ، بل كانوا يؤمِنونَ بأنَّ اللهَ هو الخالقُ المالِكُ لهم، وهم مخلوقونَ مَملوكونَ له، ولكنْ كانوا يُسَوُّونَ بينه وبينها في المحبَّةِ والتَّعظيمِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢ / ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٣).

والدُّعاءِ والعبادةِ والنَّذرِ لها، ونحوِ ذلكِ مما يُخَصُّ به الرَّبُّ سُبحانَه[١].

٥- التَّدبيرُ يُضافُ إلى اللهِ تارةً؛ وإلى الملائكةِ تارةً، فيُضافُ إلى الله تعالى أمرًا وإذنًا ومَشيئةً، كقولِه تعالى عن نَفسِه: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، ويُضافُ إلى الملائكةِ تارةً أخرى؛ لِكَونِهم هم المباشِرينَ والمُمتَثلينَ للتَّدبيرِ، قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وهذا كما أضاف التوفِّيَ إليهم تارةً، كقوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]؛ وإليه تارةً، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾[٢] [الزمر: ٤٢].

٦- قول الله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عبَّرَ عن الباطِلِ بالضَّلالِ؛ لأنَّ الضَّلالَ أشنَعُ أنواعِ الباطلِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ بيانُ أنَّ مَن عَبَدَ غيرَ اللهِ، فما عَبَدَ إلَّا الضلالَ المحضَ، والباطلَ البَحتَ[٤]، فاللهُ تعالى هو الإلهُ الذي يُعبَدُ بحَقٍّ، وعبادَتُه وَحْدَه هي الهُدى، فما سواها من عبادةِ الشُّركاءِ والوُسَطاءِ ضَلالٌ، فكُلُّ مَن يَعبُدُ غَيرَه معه، فهو مُشرِكٌ مُبطِلٌ ضالٌّ[٥].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ فيه مِن قواعِدِ العقائِدِ الدينيَّةِ، وأصولِ التَّشريعِ والعِلمِ، أنَّ الحَقَّ والباطِلَ ضِدَّانِ لا يَجتَمِعانِ، وأنَّ الهُدى والضَّلالَ ضِدَّانِ لا يجتَمِعانِ، ولهذا

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٨).
(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٩).
(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٣).

الأصلِ فروعٌ كثيرةٌ في الدِّينِ والعِلمِ العَقليِّ[١].

٩- الكلامُ المذكورُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هو الكلامُ الكونيُّ، ويقابلُه: الكلامُ الدينيُّ- وهو الذي يأمُرُ به ويَنهى- كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[٢] [التوبة: ٦].

بلاغةُ الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استفهامٌ تقريريٌّ، وجاء الاستدلالُ بطريقِ الاستفهامِ والجوابِ؛ لأنَّ ذلك في صورةِ الحوارِ، فيكون الدَّليلُ الحاصلُ به أوقَعَ في نُفوسِ السَّامِعين[٣].

- وفي قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هنا: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ... فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾، وفي سورةِ سبأٍ قال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]، فأفرَد لفْظَ السَّماءِ في الأولى، وجمَعه في الثَّانيةِ مع اتِّحادِ المعنى، والتَّساوي في ألفاظِ الآيتَينِ غير ما ذُكِر، وقال في يونُسَ: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ وقال في سبأٍ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ ووجهُ ذلك: أنَّ الآياتِ التي في يونُسَ سِيقَت مَساقِ الاحتجاجِ عليهم بما أقَرُّوا به ولم يُمكِنْهم إنكارُه، مِن

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٣-٢٩٤).
(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٥).

كَونِ الرَّبِّ تعالى هو رازِقَهم ومالِكَ أسماعِهم وأبصارِهم ومُدَبِّرَ أمورِهم وغيرِها، ومُخرِجَ الحَيِّ مِن المَيِّتِ، والمَيِّتِ مِن الحيِّ، فلمَّا كانوا مقِرِّينَ بهذا كُلِّه، حَسُنَ الاحتجاجُ به عليهم أنَّ فاعِلَ هذا هو اللهُ الذي لا إلهَ غَيرُه، فكيف يعبُدونَ معه غيرَه، ويجعلونَ له شُرَكاءَ لا يَملِكونَ شَيئًا من هذا، ولا يستطيعونَ فِعلَ شَيءٍ منه؟! ولهذا قال- بعد أن ذكَرَ ذلك مِن شأنِه تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا بُدَّ أنَّهم يُقِرُّونَ بذلك ولا يَجحَدونَه، فلا بدَّ أن يكونَ المذكورُ ممَّا يُقِرُّونَ به، والمُخاطَبونَ المحتَجُّ عليهم بهذه الآيةِ إنَّما كانوا مُقرِّينَ بنُزولِ الرِّزقِ مِن قِبَلِ هذه السَّماءِ التي يشاهِدونَها بالحِسِّ، ولم يكونوا مقِرِّينَ ولا عالِمينَ بنُزولِ الرِّزقِ مِن سَماءٍ إلى سماءٍ حتى تنتهيَ إليهم، ولم يصِلْ عِلمُهم إلى هذا، فأُفرِدَ لفظُ السَّماءِ هنا؛ فإنَّه لا يمكِنُهم إنكارُ مَجيءِ الرِّزقِ منها، لا سيَّما والرِّزقُ هاهنا إن كان هو المطرَ، فمجيئُه من السَّماءِ التي هي السَّحابُ؛ فإنَّه يُسمَّى سَماءً لعُلُوِّه، فلمَّا انتظمَ هذا بذِكرِ الاحتجاجِ عليهم، لم يصلُحْ فيه إلَّا إفرادُ السَّماءِ؛ لأنَّهم لا يُقِرُّونَ بما ينزِلُ من فوقِ ذلك من الأرزاقِ العظيمةِ للقُلوبِ والأرواحِ، ولا بُدَّ من الوحيِ الذي به الحياةُ الحقيقيَّةُ الأبديَّةُ، وهو أَولى باسمِ الرِّزقِ مِن المطَرِ الذي به الحياةُ الفانيةُ المنقَضِيةُ، فما يَنزِلُ من فوقِ ذلك مِن الوحيِ والرَّحمةِ والألطافِ والمواردِ الربَّانيَّة والتنَزُّلاتِ الإلهيَّة، وما به قِوامُ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ- مِن أعظَمِ أنواعِ الرِّزقِ، ولكِنَّ القَومَ لم يكونوا مقِرِّينَ به فخُوطِبوا بما هو أقرَبُ الأشياءِ إليهم، بحيث لا يُمكِنُهم إنكارُه.

وأمَّا الآيةُ التي في سورة سبأ فلم يَنتظِمْ بها ذِكرُ إقرارِهم بما يَنزِلُ مِن السَّمواتِ؛ ولهذا أمَرَ رسولَه بأن يتولَّى الجوابَ فيها، ولم يذكُرْ عنهم أنَّهم المُجيبونَ المُقِرُّونَ، فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾

ولم يقُل: (سَيقُولونَ اللهُ) فأمرَ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجيبَ بأنَّ ذلك هو اللهُ وَحدَه الذي يُنزِلُ رِزقَه على اختلافِ أنواعِه ومنافِعِه من السَّمواتِ السَّبعِ، وأمَّا الأرضُ فلم يَدْعُ السِّياقُ إلى جَمعِها في واحدةٍ مِن الاثنتَينِ؛ إذ يُقِرُّ به كُلُّ أحدٍ؛ مُؤمِنٍ وكافرٍ، وبَرٍّ وفاجرٍ[١].

وقيل: إنَّ الإفرادَ الوارِدَ في آيةِ يونُسَ مُحصِّلٌ للمعنى مع الإيجازِ، وأمَّا الواردُ في سورةِ سبأٍ على الجمعِ فرُوعِيَ فيه ما تقَدَّم مِن قولِه تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴾ [سبأ: ٢٢]، والمرادُ بذلك: نَفْيُ الشُّرَكاءِ له تعالى، ثمَّ عاد الكلام إلى ذلك أيضًا، فقال تعالى: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ على الجمعِ مُناسَبةً؛ إذِ الآيةُ قبلَ هذه في قضيَّةٍ واحدةٍ، وهي نفيُ الشُّركاءِ والأندادِ، فجاءت على ما يُناسِبُ الَّتي قبلَها[٢].

- قولُه تعالى: ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ فيه إفرادُ السَّمعِ؛ لأنَّه مصدَرٌ فهو دالٌّ على الجنسِ الموجودِ في جميعِ حواسِّ النَّاسِ، وأمَّا الأبصارُ فجيءَ به جمعًا؛ لأنَّه اسمٌ، فهو ليس نصًّا في إفادةِ العمومِ؛ لاحتمالِ توَهُّمِ بصَرٍ مخصوصٍ، فكان الجمعُ أدَلَّ على قصدِ العمومِ، وأنفى لاحتمالِ العهدِ[٣].

وقيل: وحَّدَ السَّمعَ؛ لأنَّ إدراكَه لِجنسٍ واحدٍ هو الأصواتُ، وجمع البَصرَ لِتَعدُّدِ أجناسِ المُبصَراتِ[٤]، وأفرَد البصرَ في سورةِ الإسراءِ، في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾[الإسراء: ٣٦]؛ لأنَّ المرادَ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٧).
(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٠-٢٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩١).

الواحدُ لكلِّ مخاطَبٍ بقولِه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[١] [الإسراء: ٣٦].

- وخَصَّ هاتين الحاسَّتينِ بالذِّكرِ ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ لأنَّ عليهما مدارَ الحياةِ الحيوانيَّة، وكمالَ البَشَريَّة، وتحصيلَ العلومِ الأوَّلية[٢]. وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّه خَصَّهما بالذِّكرِ مِن بابِ التَّنبيهِ على المفضولِ بالفاضِلِ، ولكمالِ شَرَفِهما ونَفْعِهما[٣]، ولما فيهما مِن الصنعةِ العجيبةِ، والقدرةِ الباهرةِ العظيمةِ[٤].

- قولُه: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: فيه الإتيانُ بالعُموم بعدَ الخُصوص[٥]، فلَمَّا ذكَرَ تعالى التَّفصيلَ في قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾؛ ذكَرَ بعده كلامًا كليًّا، وهو قَولُه: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ وذلك لأنَّ أقسامَ تَدبيرِ اللهِ تعالى في العالَمِ العُلويِّ، وفي العالَم السُّفليِّ، وفي عالَمَي الأرواحِ والأجسادِ، أمورٌ لا نهايةَ لها، وذِكرُ كُلِّها كالمتعَذِّر، فلمَّا ذكَرَ بعضَ تلك التفاصيلِ؛ لا جرَمَ عَقَّبَها بالكلامِ الكُليِّ؛ لِيدُلَّ على الباقي[٦]، وإيثارُ صيغةِ المضارِعِ؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ التَّدبيرِ واستمرارِه[٧].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٣)، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢ / ٣٤٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٧).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١١٨).

- قولُه: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ فَذْلَكَةٌ لِما تقدَّم، أي: ذلكم الذي اعترَفتُم باتِّصافِه بالنُّعوتِ المذكورةِ هو اللهُ، واسمُ الإشارةِ عائدٌ إلى اسمِ الجلالةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليه جَديرٌ بالحُكمِ الَّذي سيُذكَرُ بعدَ اسْمِ الإشارةِ، من أجْلِ الأوصافِ المتقدِّمةِ على اسمِ الإشارةِ، وهي كونُه الرَّازِقَ، الواهبَ الإدراكِ، الخالِقَ، المدبِّرَ؛ لأنَّ اسْمَ الإشارةِ قد جمَعها[1].

- قولُه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ الاستفهامُ هنا إنكاريٌّ في معنى النَّفيِ، أي: إنكارُ الواقعِ ونَفيُه واستبعادُه؛ ولذلك وقَع بعدَه الاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾؛ فلذلك دخلَت (إلَّا)، وصَحِبَه التَّقريرُ والتَّوبيخُ، والتَّقديرُ: ليس بَعْدَ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ، فمَن تَخطَّى الحقَّ الَّذي هو عبادةُ اللهِ تعالى وقَعَ في الضَّلالِ، وفيه مِن المبالَغةِ ما ليس في توجيهِ الإنكارِ إلى نفْسِ الفِعلِ؛ لأنَّ كلَّ موجودٍ لا بدَّ مِن أن يَكونَ وُجودُه على حالٍ مِن الأحوالِ قَطعًا، فإذا انتَفى جميعُ أحوالِ وُجودِه، فقد انتَفى وجودُه، والضَّلالُ هو الباطلُ الضَّائعُ المضمَحِلُّ؛ وإنَّما سُمِّي بالمصدَرِ مُبالَغةً، كأنَّه نفْسُ الضَّلالِ والضَّياعِ[2].

- وقولُه: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، بمعنى إنكارِ الواقعِ واستبعادِه، والتَّعجُّبِ منه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٢).

قال الألوسي: (الإنكارُ والتعجبُ متوجِّهانِ في الحقيقةِ إلى منشأِ الصرفِ، وإلَّا فنفسُ الصرفِ منه تعالى، على ما هو الحقُّ، فلا معنَى لإنكارِه، والتعجُّبِ منه مع كونِه فعلَه جلَّ شأنُه، وإنَّما لم يُسندِ الفعلَ إلى الفاعلِ؛ لعدمِ تعلُّقِ غرضٍ به). ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠٥، ١٠٦).

- وفي إيثارِ صيغةِ المبنيِّ للمفعولِ ﴿تُصْرَفُونَ﴾ إيذانٌ بأنَّ الانصِرافَ مِن الحقِّ إلى الضَّلالِ ممَّا لا يَصدُرُ عن العاقلِ بإرادتِه، وإنَّما يقَعُ عندَ وُقوعِه مِن جهةِ صارفٍ خارجيٍّ[(١)].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تذييلٌ للتَّعجُّبِ مِن استِمْرارِهم على الكفرِ بعدَما ظهَر لهم مِن الحُجَجِ والآياتِ، وتَأْييسٌ مِن إيمانِهم، بإفادةِ أنَّ انتِفاءَ الإيمانِ عنهم بتقديرٍ مِن اللهِ تعالى عليهم؛ فقد ظهَر وُقوعُ ما قدَّره مِن كلمتِه في الأزَلِ[(٢)].

- وفي قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، بينَما قال في سورةِ غافرٍ: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦]، ففي الأولى قال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، وفي سورةِ غافرٍ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ بالواوِ، وقال في الأولى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وقال في الأولى: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ ووجهُ تركِ الواوِ في هذا الموضعِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وإثباتِها في سورةِ غافرٍ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: أنَّ القصَّةَ بعد ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هي الَّتي قَبْلَها؛ فهي مرتبطةٌ بها بعَودِها إليها، وبكافِ التَّشبيهِ؛ فاستغنَت بهذين الرَّابِطَينِ عن حرفِ العطفِ، وهؤلاء الَّذين حقَّت عليهم كلمةُ اللهِ أنَّهم لا يُؤمنون، هم الَّذين خُوطبوا بقولِه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وليس كذلك ما في سورةِ غافرٍ؛ لأنَّه وإن تَعلَّق به بكافِ التَّشبيهِ فإنَّه يَنقَطِعُ عنه بأنَّ المذكورين بعدَ ﴿كَذَٰلِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٩).

﴾ غيرُ المذكورين قبلَها؛ فقولُه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [غافر: ٥] خبرٌ عن الَّذين كانوا قبلَ النَّبيِّ، وما بعدَه مِن قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ إنَّما هو وعيدٌ لِمَن هو في عصرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فلمَّا انقطَع ما بعدَ (كَذَلِكَ) عمَّا قبلَها احتاج إلى الواوِ، وما في سورةِ يونُسَ لَمَّا لم ينقَطِعْ ما بعدَها عمَّا قبلَها، لم يحتَجْ إليها.

ووجهُ اختصاصِ ما في سورةِ يونُسِ بقولِه: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾، واختصاصُ ما في سورةِ غافر بقولِه: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾؛ فلأنَّ الأوَّلَ في ذِكرِ قومٍ أخبَر عنهم بقولِه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١]، فأخَذ إقرارَهم بأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يَرزُقُهم مِن مطرِ السَّماءِ، ونباتِ الأرضِ، وهو الَّذي يَملِكُ أسماعَهم وأبصارَهم، وهو الَّذي يُخرِجُ الحيَّ مِن الميِّتِ، وأنَّه هو الَّذي يُدبِّرُ أمورَ الخلقِ مِن ابتداءِ أحوالِهم إلى انتهائِها، وكانوا ممَّن أخبَر اللهُ تعالى عنهم بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فبايَنوا بإثباتِ الخالقِ وما زعَموه مِن معرفةِ الخالقِ، وقد أنكَروه وجحَدوا بآياتِه، وفسَقوا- بأنْ عبَدوا معه غيرَه ولم يُثبِتوا النَّبيَّ ونُبوَّتَه- الفسْقَ الَّذي هو كفرٌ، لا يَنفَعُ معه الإقرارُ الأوَّلُ، فقال تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الَّذين أقَرُّوا بالخالقِ وصفاتِ فِعلِه، ثمَّ خرَجوا عمَّا دخَلوا فيه بإنكارِ نُبوَّةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبعبادةِ آلهةٍ مع اللهِ تعالى، كان ذلك فسقًا؛ لخُروجِهم عن حُكمِ مَن يُقِرُّ بما أقَرُّوا به، والفسقُ فسقان: كفرٌ، وفسقٌ ليس بكفرٍ؛ فأخبَر عن هؤلاء بـ﴿ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ في سورةِ يونُسَ لذلك.

وأمَّا في سورةِ غافرٍ فإنَّه لم يتَقدَّمْه مثلُ ما تقدَّم هنا، بل قال تعالى قبلَه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ

قَوْمُ نُوحٍ ﴾ [غافر: ٤-٥]؛ فأخبَر عن الكفَّارِ الَّذين في عصرِه بأنَّهم كفَروا بمُجادَلتِهم في آياتِ اللهِ، فشبَّههم بالقومِ الَّذين مضَوْا قبلَهم؛ حيث قال: ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾، ثمَّ قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾، فلمَّا أراد الَّذين قدَّم ذِكرَهم مِن أوَّلِ القصَّةِ، كان وصفُهم بما وصَفَهم به قبلُ مِن الكفرِ أولى وأدَلَّ على أنَّ المعنَيَين بوجوبِ النَّارِ لهم.

ووجهُ مُناسبةِ قولِه تعالى هنا في سورةِ يونُسَ: ﴿ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، وقولُه في سورةِ غافرٍ: ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [غافر: ٦]: أنَّه تعالى أراد أن يُبيِّنَ في سورةِ يونُسَ أنَّهم- وإن أقَرُّوا باللهِ تعالى، وأثبَتوه خالِقًا قادِرًا- غيرُ مؤمنين، وما داموا يَعبُدون غيرَه لا يُؤمِنون؛ فالقصدُ إلى إبطالِ ما بذَلوه بألسِنَتِهم من الإقرارِ بخالِقِهم، والمرادُ في آيةِ غافرٍ توَعُّدُهم على كُفرِهم بالنَّارِ؛ إذ لم يتَقدَّمْ ذِكرُ إقرارٍ يُشبِهُ إقرارَ المؤمنين، فيَبطُلُ بتَركِهم سائرَ ما أمر اللهُ تعالى به؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ السِّياقَ[1].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٣٦-٧٤١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤١-٢٤٢).

الآيات (٢٤-٢٦)

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿تُؤْفَكُونَ﴾: أي: تُصرَفون عن الحقِّ، وتُصَدُّون عن الصوابِ، وتَعْدلونَ، يُقالُ: أفَكَ الرجلُ عن كذا: إذا عدَل عنه، والإفْكُ: كلُّ مصروفٍ عن وجهِه الذي يحقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): قلبُ الشيءِ، وصرفُه عن جهتِه[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ للمُشرِكينَ: هل مِن آلهتِكم- الذين زعَمتُم أنَّهم شُرَكاءُ لله في العبادةِ- مَن يَبتَدِئُ خلقَ أيِّ شَيءٍ، ثمَّ إذا مات يُعيدُه مَرَّةً أُخرَى؟ ثم يأمرُه أن يجيبَهم قائلًا: اللهُ وَحدَه يبدأُ الخَلقَ ثُمَّ يعيدُه، فكيف تُصرَفونَ عن اتِّباعِ الحقِّ إلى الباطلِ؟!

ويأمُرُه تعالى أن يقولَ لهم: هل من آلهتِكم- الذين زعمتُم أنَّهم شُرَكاءُ للهِ في العبادةِ- مَن يهدي إلى الحَقِّ، وأن يجيبَهم بقولِه: اللهُ وَحدَه مَن يَهدِي إلى الحَقِّ، آللَّهُ الذي يهدي إلى الحَقِّ أحَقُّ أن يُطاعَ، أم شُرَكاؤُهم الذين لا يَهتَدونَ، ولا يَهدُونَ إلَّا أن يهدِيَهم غيرُهم؟! فما لكم- أيُّها المُشرِكونَ- كيف تحكمونَ؟

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥).

ويُبَيِّنُ الله تعالى أنَّه ما يتَّبِعُ أكثرُ هؤلاء المُشرِكينَ في إشراكِهم باللهِ تعالى إلَّا مُجَرَّدَ ظَنٍّ ضعيفٍ، مِن غَيرِ يَقينٍ، وهو لا يُغني من اليقينِ شَيئًا، إنَّ اللهَ عليمٌ بما يَفعلونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا استفْهَم الكافرينَ عن أشياءَ مِن صِفاتِ اللهِ تعالى واعترَفوا بها، ثمَّ أنكَرَ عليهم صَرْفَهم عن الحَقِّ وعبادةِ اللهِ، استَفْهَم عن شيءٍ هو سبَبُ العبادةِ، وهو إبداءُ الخَلقِ، وهم يُسَلِّمونَ ذلك: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ثمَّ أعاد الخَلقَ وهم مُنكِرونَ ذلك، لكِنَّه عَطَفَه على ما يُسَلِّمونَه؛ لِيُعلَمَ أنَّهما سواءٌ بالنِّسبةِ إلى قُدرةِ الله تعالى، وأنَّ ذلك لِوضوحِه وقيامِ بُرهانِه، قُرِنَ بما يُسلِّمونَه؛ إذْ لا يدفَعُه إلَّا مكابِرٌ، إذ هو من الواضحاتِ التي لا يختَلِفُ في إمكانِها العُقَلاءُ[1].

وأيضًا بعدَ أن أقام عليهم الدليلَ على انفرادِ الله تعالى بالرزقِ، وخلقِ الحواسِّ، وخلقِ الأجناسِ، وتدبيرِ جميعِ الأمورِ، وأنَّه المستحقُّ للإلهيةِ بسببِ ذلك الانفرادِ؛ بيَّن هنا أنَّ آلهتَهم مسلوبةٌ مِن صفاتِ الكمالِ، وأنَّ اللهَ متَّصفٌ بها، فقال تعالى[2]:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٠).

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: هل من آلهَتِكم- التي زَعَمتُم أنَّها شُرَكاءُ لله في العبادةِ- مَن يبتدِئُ خَلقَ أيِّ شَيءٍ مِن العَدَمِ، ثمَّ إذا مات يُعيدُه إلى الحياةِ مَرَّةً أخرى[1]؟!

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

أي: قُل -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: اللهُ وَحدَه هو الذي يَبتَدِئُ خَلقَ كُلِّ شَيءٍ مِن العدَمِ، ثمَّ يُعيدُه بعد مَوتِه متى شاء مِن غَيرِ مُعاوِنٍ ولا شريكٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: ٤].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾.

أي: فكيف تُصرَفونَ وتُقلَبونَ عن اتِّباعِ الحَقِّ إلى الباطِلِ[3]؟!

﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٧، ١٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ عَجزَ أصنامِ الكافرينَ عن الإبداءِ والإعادةِ- اللَّذينِ هما من أقوى أسبابِ القُدرةِ، وأعظَمِ دَلائِلِ الألوهيَّةِ- بَيَّنَ عَجزَهم عن هذا النَّوعِ مِن صفاتِ الإلهِ، وهو الهِدايةُ إلى الحَقِّ، وإلى مناهِجِ الصَّوابِ[١].

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: هل مِنْ آلهتِكم مَنْ يُرشِدُ الضَّالَّ، ويُوفِّقُه إلى مَعرفةِ الحَقِّ واتِّباعِه[٢]؟!

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا كان الكافِرونَ مُعتَقدينَ أنَّ شُركاءَهم تهدي إلى الحَقِّ، ولا يُسَلِّمونَ حَصرَ الهدايةِ لله تعالى، أمَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يبادِرَ بالجوابِ، فقال[٣]:

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: اللهُ وَحدَه هو الذي يُرشِدُ ويُوفِّقُ مَن يَشاءُ إلى مَعرفةِ الحَقِّ واتِّباعِه[٤].

كما قال تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥-٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٨، ١٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨، ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه، عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ((أنَّه كان إذا قام إلى الصَّلاةِ قال: وجَّهتُ وجهيَ للَّذي فطر السَّمواتِ والأرضَ حَنيفًا، وما أنا من المُشرِكينَ، إنَّ صلاتي ونسكي ومحيايَ ومماتي للَّه رَبِّ العالمينَ، لا شريكَ له، وبذلك أُمِرتُ وأنا من المُسلِمينَ، اللهمَّ أنت المَلِكُ لا إله إلا أنت، أنت ربِّي، وأنا عبدُك، ظلمتُ نفسي، واعتَرَفتُ بذنبي، فاغفِرْ لي ذنوبي جميعًا؛ إنَّه لا يغفِرُ الذُّنوبَ إلا أنت، واهدِني لأحسَنِ الأخلاقِ لا يهدي لأحسَنِها إلَّا أنت، واصرِفْ عني سَيِّئَها لا يَصرِفُ عني سَيِّئَها إلا أنت...))[(١)].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما، أنَّه سَمِعَ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ قُلوبَ بني آدَمَ كُلَّها بين إصبَعَينِ مِن أصابِعِ الرَّحمنِ كقلبٍ واحدٍ، يُصَرِّفُه حيث يشاءُ. ثم قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اللهمَّ مُصَرِّفَ القُلوبِ، صَرِّفْ قلوبَنا على طاعَتِك))[(٢)].

﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰ﴾.

أي: آللهُ الذي يهدي إلى الحَقِّ أحقُّ أن يُطاعَ ويُعبَدَ، أم شُركاؤُهم الذين لا يَهتَدونَ بأنفُسِهم، ولا يَهدُونَ مَن يَعبُدُهم، إلَّا أن يهدِيَهم غيرُهم[(٣)]؟!

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤١)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ١٣٨، ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

و﴿يَهِدِّيٓ﴾ -بفتحِ الياءِ وكسرِ الهاءِ وتشديدِ الدالِ المكسورةِ، على قراءةِ حفصٍ، ويَعْقُوبَ الحضرميِّ- أصلُه (يهتدي)، فأُدْغِمت التاءُ في الدالِ، وكُسِرت الهاءُ؛ لالتقاء الساكنين. يُنظر:

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

أي: فما بالُكم- أيُّها المُشرِكونَ- تَعبُدونَ المخلوقَ العاجِزَ، وتترُكونَ عبادةَ الخالقِ الذي يَهدِيكم؟! كيف تحكمونَ بالباطلِ فتُساوونَ بين الله وبين خَلْقِه في العبادةِ[1]؟!

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعدَ أن أمَرَ اللهُ رَسولَه بأن يَحُجَّهم فيما جَعلوهم آلهةً، وهي لا تَصَرُّفَ ولا تدبيرَ ولا هدايةَ لها؛ أعقب ذلك بأنَّ عِبادتَهم إيَّاها اتِّباعُ لظَنٍّ باطلٍ[2].

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾.

أي: وما يتَّبِعُ أكثَرُ هؤلاء المُشرِكينَ في إشراكِهم باللهِ إلَّا مُجَرَّدَ ظَنٍّ ضعيفٍ واهٍ، من غيرِ يقينٍ ولا دليلٍ على صِحَّةِ إشراكِهم بالله عزَّ وجلَّ[3].

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّ الظَّنَّ لا يُوصِلُ إلى الحَقِّ، ولا يُنتفَعُ به في شيءٍ يَحتاجُ إلى اليقينِ[4].

((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٤)، ((تفسير

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو علمٍ بما يفعَلُ المُشرِكونَ، وسيُجازيهم على ذلك[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

ينبغي أن يكونَ غَرَضُ المُسلِمِ مِن حياتِه تزكيةَ نَفسِه، وتكميلَها باتِّباعِ الحَقِّ في كلِّ اعتقادٍ، والهدى- وهو الصَّلاحُ- في كُلِّ عَملٍ، وبناؤُهما على أساسِ العِلمِ دونَ الظَّنِّ وما دونَه من الخَرْصِ والوَهمِ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۞ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ الفائدةُ في ذِكرِ هذه الحُجَّةِ على سبيلِ السُّؤالِ والاستفهامِ؛ أنَّ الكلامَ إذا كان ظاهِرًا جَليًّا، ثمَّ ذُكِرَ على سبيلِ الاستفهامِ،

المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٦).

قال الخازن: (﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ يعني: أنَّ الشَّكَّ لا يُغني عن اليقينِ شَيئًا، ولا يقومُ مقامَه، وقيل في الآية: إنَّ قَولَهم: إنَّ الأصنامَ آلهةٌ، وإنَّها تشفَعُ لهم ظنٌّ منهم لم يَرِدْ به كتابٌ، ولا يَعني أنَّها لا تدفَعُ عنهم من عذابِ اللهِ شيئًا). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤٣).

ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٣).

وتَفويضِ الجوابِ إلى المَسؤول، كان ذلك أبلَغَ وأوقَعَ في القَلبِ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ هم لا يَقدِرونَ على دعوى ذلك لِمَعبوداتِهم، وفي ذلك الحُجَّةُ القاطعةُ والدَّلالةُ الواضِحةُ على أنَّهم في دعواهم أنَّها أربابٌ، وشُرَكاءُ لله في العبادةِ- كاذِبونَ مُفتَرونَ، وهذا توقيفٌ على قصورِ الأصنامِ وعَجزِها، وتنبيهٌ على قدرةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الآية، احتجاجٌ على الكفَّارِ، فإنْ قِيل: كيفَ يحتجُّ عليهم بإعادةِ الخلقِ، وهم لا يعترفون بها؟ فالجوابُ: أنَّهم معترفونَ أنَّ شركاءَهم لا يقدرونَ على الابتداءِ ولا على الإعادةِ، وفي ذلك إبطالٌ لربوبيتِهم، وأيضًا فوُضِعتِ الإعادةُ موضعَ المتفقِ عليه؛ لظهورِ برهانِها[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فيه سؤال: لِمَ أمَرَ رَسولَه بأن يَعترِفَ بذلك، والإلزامُ إنَّما يحصُلُ لو اعترَفَ الخَصمُ به؟ والجوابُ: ذكر العُلَماءُ لذلك عِدَّةَ أوجُهٍ:

الوجه الأول: أنَّ الدَّليلَ لَمَّا كان ظاهرًا جَليًّا، فإذا أُوردَ على الخَصمِ في مَعرِضِ الاستفهامِ- ثمَّ إنَّه بنَفسِه يقولُ الأمرَ كذلك- كان هذا تنبيهًا على أنَّ هذا الكلامَ بلغَ في الوضوحِ إلى حيثُ لا حاجةَ فيه إلى إقرارِ الخَصمِ به، وأنَّه سواءٌ أقَرَّ أو أنكرَ، فالأمرُ مُتقَرِّرٌ ظاهِرٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٨-٢٤٩).

الوجه الثاني: أنَّه لَمَّا كان الكافِرونَ لِمُكابَرتِهم لا يُقِرُّونَ بذلك، أمَرَ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجيبَ، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[(١)].

الوجه الثالث: أنَّه لَمَّا كان هذا السُّؤالُ ممَّا لا يُجيبونَ عنه، كما أجابوا عن أسئلةِ الخِطابِ الأوَّلِ؛ لإنكارِهم البَعثَ والمَعادَ، لا لاعتقادِهم أنَّ شُرَكاءَهم تفعَلُ ذلك- لقَّنَ اللهُ رَسولَه الجوابَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[(٢)].

٥- قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ بيَّنَ سبحانَه بما هو مُسْتَقِرٌّ في الفِطَرِ أنَّ الذي يهدي إلى الحَقِّ أحقُّ بالاتِّباعِ ممَّن لا يهتَدي إلَّا أنْ يهديَه غيرُه؛ فلَزِمَ أنْ يكونَ الهادِي بنَفسِه هو الكامِلَ، دون الذي لا يهتدي إلَّا بِغَيرِه، وإذا كان لا بُدَّ مِن وجودِ الهادي لِغَيرِ المُهتَدي بنَفسِه، فهو الأكملُ[(٣)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰ﴾ بيانُ أنَّ الذي يَهدي إلى الحَقِّ مُطلقًا هو اللهُ، والذي لا يَهدِي إلَّا أن يُهدَى صفةُ كلِّ مخلوقٍ؛ لا يُهدَى إلَّا أنْ يَهدِيَه اللهُ تعالى، وهذا هو المقصودُ بالآيةِ، وهي أنَّ عبادةَ اللهِ أَولى مِن عبادةِ خلْقِه[(٤)].

٧- الظنُّ لا يُرادُ به في الكِتابِ والسُّنَّةِ الاعتقادُ الرَّاجِحُ، كما هو في اصطلاحِ طائفةٍ مِن أهلِ الكلامِ في العِلمِ، ويسمُّونَ الاعتقادَ المرجوحَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨٢).
(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ٤٧٥).

وهمًا، بل قد قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظنَّ أكذَبُ الحديثِ))[١]، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾، فالاعتقادُ المرجوحُ هو ظنٌّ، وهو وهْمٌ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ...﴾ استِئنافٌ على طريقةِ التَّكريرِ لقولِه قبْلَه: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّ هذا مقامُ تَقريرٍ وتعديدِ الاستدلالِ، وهو مِن دَواعي التَّكريرِ[٣]، وإنَّما لم يُعطَفْ على ما قَبْلَه؛ إيذانًا باستقلالِه في إثباتِ المطلوبِ[٤].

- والاستفهامُ في ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم ...﴾ إنكارٌ، وتقريرٌ بإنكارِ ذلك، وللتَّبكيتِ والإلزامِ؛ إذ ليس المتكلِّمُ بطالبٍ للجوابِ، ولا يسَعُهم إلَّا الاعترافُ بذلك؛ فهو في مَعنى نفيِ أن يكونَ مِن آلِهَتِهم مَن يَبدَأُ الخلقَ ثُمَّ يُعيدُه[٥].

- قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ فيه إعادةُ الجملةِ في الجوابِ بتَمامِها غيرَ مَحذوفةِ الخبَرِ، كما في الجوابِ السَّابقِ؛ لِمَزيدِ التَّأكيدِ والتَّحقيقِ، حيث أُبرِزَ الجوابُ في جُملةٍ مُبتدَأةٍ مُصرَّحٍ بخبَرِها؛ فعاد

(١) رواه البخاري (٥١٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٧٦)،
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٤٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦١).

الخبرُ فيها مُطابِقًا لخبرِ اسمِ الاستفهامِ، وذلك تأكيدٌ وتثبيتٌ[١].

- قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ذِكْرُ إعادةِ الخَلْقِ في الموضعَينِ، مع أنَّهم لا يَعترِفون بها نوعٌ مِن الإدماجِ في الحِجاجِ[٢]، وهو فنٌّ بديعٌ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ...﴾ تكريرٌ آخرُ بَعْدَ قولِه: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ومجموعُ الجُملتَين مفيدٌ قَصْرَ صفةِ الهدايةِ إلى الحقِّ على اللهِ تعالى، دونَ آلِهَتِهم، وهو قصرُ إفرادٍ[٤]، وهو احتِجاجٌ آخرُ على ما ذُكِر؛ جيءَ به إلزامًا لهم بعدَ إلزامٍ، وإفحامًا إثرَ إفحامٍ، وفَصْلُه عمَّا قَبْلَه وعدَمُ عَطفِه عليه؛ للدَّلالةِ على استقلالِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٤٣).

(٢) الإدماجُ: لُغةً: هو الإدخالُ واللَّفُّ؛ يُقال: أدْمجَ الشَّيءَ في ثوبٍ، إذا لَفَّه فيه، وأدْمَجْتُ متاعي، إذا أدخلتَه في ثوبٍ أو حقيبةٍ أو نحوها. واصطلاحًا: هو تَضمُّن كلامٍ سِيقَ لمعنًى- مَدحًا كان أو غيرَه- مَعنًى آخَرَ، كإدْخالِ فِكْرةٍ في فكرةٍ، أو غَرضٍ بلاغيٍّ في غَرضٍ آخَرَ، أو وَجْهٍ من وُجُوه البدِيع في وجهٍ منه آخَرَ، بأسلوبٍ مِن الكلامِ لا يَظهرُ منه إلَّا إحدَى الفِكرتين، أو أحدُ الغرَضينِ، أو أحدُ الوجْهَين؛ فإذا تأمَّل المتفكِّرُ ظهَر له المُدْمَجُ، وسَرَّه هذا الإدماجُ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ فأُدْمِجَ غَرَضٌ في غَرضٍ؛ فإنَّ الغرضَ منها تفردُه تعالى بوصفِ الحمدِ، وأُدمِج فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٠٥)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (٢/ ٤٢٧)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٦١-١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٤٣).

- وقولُه: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ ...﴾ تفريعُ استفهامٍ تقريريٍّ على ما أفادَتْه الجملَتان السَّابِقَتان مِن قَصْرِ الهدايةِ إلى الحقِّ على اللهِ تعالى دونَ آلِهَتِهم[١]، وهذا الاستفهامُ للإلزامِ[٢].

- قولُه: ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ فيه مِن المبالغةِ ما لا يَخْفى، وإنَّما نفى عنه الاهتِداءَ مع أنَّ المفهومَ ممَّا سبَق نفيُ الهدايةِ؛ لأنَّ نفْيَها مُستتبِعٌ لنفيِه غالبًا؛ فإنَّ مَن اهتَدى إلى الحقِّ لا يَخْلو عن هدايةِ غيرِه في الجملةِ[٣].

- قولُه: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ الاستفهامُ في ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ للإنكارِ التَّوبيخيِّ، وفيه تعجُّبٌ مِن حالِهم[٤].

- وجملةُ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهامٌ يتنزَّلُ مَنزِلةَ البيانِ لِما في جملةِ: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ مِن الإجمالِ؛ ولذلك فُصِلَت عنها، أي: لم تُعطَفْ، فهو مِثلُه استفهامٌ تعجُّبيٌّ من حُكمِهم الضَّالِّ إذ حَكَموا بإلهيَّةِ مَن لا يَهتَدي، فهو تعجُّبٌ على تعجُّبٍ[٥].

- ومِن محاسِنِ البلاغةِ في هذه الآيةِ: الجمْعُ بين تَعديةِ الفِعل (يهدي) بالحرفَين، وبين ترْكِ التَّعديةِ وهو حذفُ المتعلِّقِ الدَّالِّ على العمومِ؛ ففِعلُ الهُدَى يتَعدَّى بنَفسِه، وبـ (اللَّام)، وبـ (إلى)، وكلٌّ مِنها وقَع في مَوقِعِه الَّذي تَقتَضيه البلاغةُ؛ أمَّا الأوَّلُ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾؛ فقد عدَّاه بإلى في حيِّزِ الاستفهامِ الإنكاريِّ؛ للإيذانِ بأنَّه لا أحَدَ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٤٣-١٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٤).

هؤلاءِ الشُّركاءِ المتَّخَذين بالباطلِ يدُلُّ النَّاسَ على الطَّريقِ الَّذي يَنتَهي سالِكُه إلى الحقِّ مِن علمٍ وعملٍ وهو التَّشريعُ؛ فهو يَنفي المقدِّماتِ ونَتائِجَها، والأسبابَ ومُسبَّباتِها، ولو عدَّاه بنَفسِه لَمَا أفاد إلَّا إنكارَ هدايةِ الإيصالِ إلى الحقِّ بالفعلِ، دون هدايةِ التَّشريعِ الموصلةِ إليه، ولو عدَّاه باللَّام لكان بمعنى تَعديَتِه بنفسِه إن كانت اللَّامُ للتَّقويةِ أو لإنكارِ هدايةٍ يُقصَدُ بها الحقُّ إن كانت للتَّعليلِ، والأوَّلُ أعَمُّ وأبلَغُ كما هو ظاهرٌ. وأمَّا الثَّاني ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّ﴾ وهو تَعدِيَتُه باللَّام فهو يَستلزِمُ الأوَّلَ، وعلى جوازِ استِعْمالِ اللَّام بمَعنَيَيْها، يكونُ مَعناه: قُل اللهُ يَهْدي لِما هو الحقُّ؛ لأجْلِ أن يَكونَ المهتدون به على الحقِّ. وأمَّا الثَّالثُ- أي حَذْفُ المتعلِّقِ-: فهو في الشِّقِّ الثَّاني مِن قولِه: ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰ﴾، ومعناه مع ما قَبْلَه نصًّا واقتِضَاءً: أفمَن يَهْدي إلى الحقِّ ويَهْدي له ويَهْديه- وهو اللهُ تعالى- أحَقُّ أن يُتَّبَعَ فيما يَشرَعُه، أم مَن لا يَهْدي غيرَه ولا هو يَهْتدي بنفسِه- ممَّن عُبِد مَن دونَه- إلَّا أن يَهدِيَه غيرُه، أي: اللهُ تعالى؛ إذ لا هادِيَ غيرُه؟ وهذا استِثْناءٌ مُفرَّغٌ مِن أعمِّ الأحوالِ؛ لأنَّ مَن نفَى عَنهم الهدايةَ ممَّن اتُّخِذوا شُركاءَ للهِ تعالى يَشمَلُ المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ وعُزيرًا والملائكةَ عليهم السَّلامُ، وهؤلاء كانوا يَهْدون إلى الحقِّ بهدايةِ اللهِ ووَحْيِه كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقيل: الاستثناءُ مُنقَطِعٌ، فمعنى ﴿إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰ﴾: لكنَّه يَحتاجُ أن يُهْدى[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٦-٢٩٧).

- قولُه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ فيه تخصيصُ هذا الاتِّباعِ بأكثَرِهم مع مُشاركةِ المعانِدين لهم في ذلك؛ للتَّلويحِ بما سيَكونُ مِن بَعضِهم مِن اتِّباعِ الحقِّ والتَّوبةِ[١]، وقِيلَ: المرادُ بأكثَرِهم جَمِيعُهم[٢].

- وتنكيرُ ﴿ظَنًّا﴾ للتَّحقيرِ، أي: ظنًّا واهيًا، ودلَّت صيغةُ القَصرِ (ما... إلَّا) على أنَّهم ليسوا في عَقائدِهم المنافيةِ للتَّوحيدِ على شيءٍ من الحقِّ؛ ردًّا على اعتِقادِهم أنَّهم على الحقِّ[٣].

- وجملةُ ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ تعليلٌ لما دلَّ عليه القَصْرُ مِن كونِهم ليسوا على شيءٍ من الحقِّ؛ فكيف يَزعُمون أنَّهم على الحقِّ[٤]؟!

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ استئنافٌ للتَّهديدِ بالوَعيدِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٧-٤٠)

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَأْوِيلُهُۥ﴾: أي: عاقِبَتُه، وما يَؤُولُ إليه، ووقوعُ ما أخبَر به، وأصلُ (أول) هنا: يدُلُّ على انتِهاءِ الأمرِ[1].

﴿عَٰقِبَةُ﴾: عاقبةُ كلِّ شيءٍ: آخرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تختصُّ بالثوابِ إذا أُطْلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شيءٍ، وإتيانُه بعدَ غيرِه[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾: مَصدرٌ مُؤوَّلٌ في محَلِّ نَصبٍ، خَبرُ كان، أي: وما كان هذا القُرآنُ افتِراءً، والمَصدرُ هنا بمعنى المَفعولِ، أي: مُفتَرًى. ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ﴾: ﴾

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

تَصْدِيقَ ﴾ منصوبٌ، خبَرُ (كان) الـمحذوفةِ هي واسمُها، والتقديرُ: ولكِنْ كان تَصديقَ، أو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ مِن أجلِه لفِعل مقدَّرٍ، أي: وما كان هذا القرآنُ أن يُفتَرَى، ولكن أُنزِلَ للتَّصديقِ، والجُملةُ معطوفةٌ بـ (الواو) على ما قَبْلَها[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ تعالى أنَّه لا يُمكِنُ أن يكونَ هذا القرآنُ مَكذوبًا، يأتي به أحَدٌ غيرُ اللهِ تعالى، ولكِنْ أنزَلَه اللهُ مُصَدِّقًا للكتُبِ السَّابقةِ المُنَزَّلةِ على أنبيائِه، وتِبيانًا لِمَا كتَبَه اللهُ على هذه الأمَّةِ مِن الفرائِضِ والأحكامِ، والعقائِدِ والأخبارِ، لا شَكَّ في أنَّه مِن رَبِّ العالَمينَ.

أم يقولُ المُشرِكونَ: اختلقَ مُحمَّدٌ القُرآنَ، فأمرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنْ كنتُ قد افتَرَيتُه- كما تزعمونَ- فأْتُوا بسُورةٍ واحدةٍ مِثلِ القُرآنِ؛ فأنتم عَرَبٌ مِثلي، وادعُوا مَن قَدَرتُم أن تَدْعُوه؛ لِيُعينَكم على المجيءِ بسُورةٍ مِثلِ سُوَرِ القرآنِ، إنْ كُنتُم صادقينَ في دعواكم أنِّي افتَرَيتُه.

بل كذَّبَ المُشرِكونَ بالقُرآنِ الذي لم يُحيطُوا بعِلمِ ما فيه، وقبل أن يقَعَ ما أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه آتيهم، مِن العُقوبةِ التي توعَّدَهم اللهُ بها على تكذيبِهم بالقُرآنِ، كذلك كذَّبَ اللهَ مَن قَبلَهم، فانظُرْ- يا مُحمَّدُ- كيف كانت نهايةُ المُكَذِّبينَ بآياتِ اللهِ مِن الأُمَمِ الماضيةِ.

ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ مِن المُشرِكينَ مَن سيُؤمِنُ بالقُرآنِ، ويتوبُ مِن الكُفرِ، ومنهم من

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٤٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٠١-٢٠٢).
قال ابنُ هشامٍ: (ما بعد (لكن) ليس معطوفًا بها؛ لدُخولِ الواو عليها، ولا بالواوِ؛ لأنَّه مُثبَتٌ وما قبلها منفيٌّ، ولا يُعطَفُ بالواو مُفرَدٌ على مُفرَدٍ إلَّا وهو شريكُه في النَّفيِ والإثباتِ، فإذا قُدِّرَ ما بعد الواوِ جُملةً صحَّ تَخالُفُهما، كما تقولُ: ما قام زيدٌ وقام عمرٌو). يُنظر: ((مغني اللبيب)) (ص: ٧٩٠).

لا يؤمِنُ به، وسيبقَى على كُفرِه حتى يموتَ، وربُّك- يا مُحمَّدُ- أعلَمُ بالمُفسِدينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لما فرَغ سبحانَه مِن دلائلِ التوحيدِ وحُجَجِه؛ شرَع في تثبيتِ أمرِ النبوَّةِ[١].

وأيضًا لَمَّا تقدَّم قولُهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وكان مِن قَوْلِهم: (إنَّه افْتَراه)؛ قال تعالَى[٢]:

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ما يَنْبغي لهذا القرآنِ أن يختلِقَه أحدٌ مِن الخلقِ على الله، ولا يمكنُ أن يكونَ إلَّا مِن عندِ اللَّهِ[٣].

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

أي: ولكِنْ أنزَلَه الله مُصَدِّقًا للكتُبِ السَّابقةِ التي أنزَلَها على أنبيائِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨١، ١٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٩، ٢٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٩).
قال السَّعدي: (أنزَلَه ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِن كُتُبِ اللهِ السَّماويَّةِ، بأنْ وافَقَها، وصَدَّقَها بما شَهِدَت به، وبشَّرَت بنزولِه، فوقع كما أخبَرَت). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

أي: وتبيانًا لِما كتَبَه اللهُ على أُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الفرائِضِ والأحكامِ، والعقائِدِ والأخبارِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: لا شكَّ في أنَّ القُرآنَ مِن عندِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ[(٢)] وليس كلامَ غَيرِه[(٣)].

وقال ابنُ عاشور: (﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كونُه مُصَدِّقًا للكتُبِ السَّالفةِ، أي، مُبَيِّنًا للصادقِ منها، ومُميِّزًا له عمَّا زِيدَ فيها، وأُسيءَ مِن تأويلِها، كما قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾... وأيضًا هو مُصَدَّقٌ (بفتح الدال) بشَهادةِ الكتُبِ السَّالفةِ فيما أخذَتْ مِن العَهدِ على أصحابِها أن يؤمِنوا بالرَّسولِ الذي يجيءُ مُصَدِّقًا وخاتَمًا، فالوصفُ بالمَصدرِ صالحٌ للأمرينِ؛ لأنَّ المَصدرَ يقتَضي فاعلًا ومفعولًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).
وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.
وقيل: المرادُ أنَّ القُرآنَ مُبيِّنٌ لِما جاء في الكتُبِ السَّابقةِ. وممَّن اختار هذا المعنى: القرطبيُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٩).

(٢) قال السعدي: (تنزيلٌ ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي ربَّى جميعَ الخَلقِ بنِعَمِه، ومِن أعظَمِ أنواعِ تَربيتِه أنْ أنزَلَ عليهم هذا الكتابَ الذي فيه مصالِحُهم الدينيَّةُ والدُّنيويَّةُ، المُشتَمِلَ على مكارِمِ الأخلاقِ ومحاسِنِ الأعمالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سُبحانه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ٢].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نفى اللهُ تعالى أن يكونَ القُرآنُ مُفترًى، بل جاء مُصَدِّقًا لِما بين يَدَيه من الكُتُبِ، وبيانًا لِما فيها؛ ذكَرَ هنا أعظَمَ دَليلٍ على أنَّه مِن عندِ الله، وأقام البرهانَ القاطعَ على ذلك ، وهو الإعجازُ الذي اشتمَلَ عليه، فتحدَّى جميعَ الخلقِ بسورةٍ واحدةٍ مثلِه، فأبطلَ بذلك دعواهم افتراءَه[(١)].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

أي: أم[(٢)] يقولُ المُشرِكونَ المُكَذِّبونَ: اختلَقَ مُحمَّدٌ القُرآنَ مِن نَفسِه، وكذَبَ على اللهِ[(٣)]؟!

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنْ كنتُ قد افتَرَيتُ هذا القُرآنَ- كما

كثير)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٦).

(٢) اختُلِف في المرادِ بـ (أم) فقِيل: هي المتضمنةُ معنَى (بل)، والهمزةِ، أي: بل أيقولونَ. وقيل: (أم) هذه بمنزلةِ همزةِ الاستفهامِ، وقيل: (أم) هي المعادلةُ للهمزةِ، وحُذِفت الجملةُ قبلَها، والتقديرُ: أيُقِرُّون به أم يقولون: افتراه. وقِيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير أبي حيان) (٦/ ٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

تَزعُمونَ- فأنتم عرَبٌ مِثلي، فأْتُوا بسُورةٍ واحدةٍ مِن جِنسِ القُرآنِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: وادْعُوا- أيُّها المُشرِكونَ- مَن قَدَرتُم أن تَدْعُوه مِن شُرَكائِكم وأولِيائِكم؛ لِيُعينوكم على المجيءِ بسُورةٍ واحدةٍ مِثلِ سُوَرِ القُرآنِ، إن كُنتُم صادِقينَ في زَعمِكم أنِّي افتريتُ القُرآنَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مجموعَ الدَّلائِلِ التي في إثباتِ أنَّ القُرآنَ مُعجِزٌ، ذكَرَ السَّبَبَ الذي لأجْلِه كذَّبُوا القُرآنَ[٣].

وأيضًا لَمَّا أقام اللهُ تعالى الدَّليلَ على أنَّ القُرآنَ كلامُه، وكان الدَّليلُ إنَّما مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢، ١٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).
قال ابنُ عطيةَ: (الضَّميرُ عائِدٌ على القُرآنِ المتَقَدِّمِ الذِّكرِ، كأنَّه قال: فأْتُوا بسورةٍ مِثلِ القُرآنِ، أي: في معانيه وألفاظِه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٣، ١٨٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٥٥).

شَأنِه أن يُقامَ على مَن عَرَض له غَلَطٌ أو شُبهةٌ، وكان قَولُ الكافرينَ ﴿افْتَرَاهُ﴾ لا عن شُبهةٍ، وإنَّما هو مجَرَّدُ عِنادٍ- نبَّه سُبحانه على ذلك، وعلى أنَّه إنَّما أقام الدَّليلَ لإظهارِ عِنادِهم، لا لأنَّ عِندَهم شُبهةً في كونِه حَقًّا، بالإضرابِ عَن قَولِهم[1]، فقال تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾.

أي: بل كذَّب المُشرِكونَ بالقُرآنِ الذي لم يُحيطوا بعِلمِ ما فيه مِنَ الحَقِّ، ولم يَفهَموه[2].

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾.

أي: ولَمْ يأتِهم بعدُ حَقيقةُ ما وُعِدوا في الكِتابِ، بما يَؤُولُ إليه أمْرُهم مِن العُقوبةِ، ونزولِ العذابِ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٢، ٢٨٣، ٣١٣) و (١٧/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٢، ١٧٣).
قال القرطبي: (قولُه: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: ولم يأتِهم حقيقةُ عاقبةِ التَّكذيبِ مِن نُزولِ العذابِ بهم. أو كذَّبوا بما في القُرآنِ مِن ذِكرِ البَعثِ والجنَّةِ والنَّارِ، ولم يأتِهم تأويلُه، أي: حقيقةُ ما وُعِدوا في الكتابِ. قاله الضحَّاكُ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥).
قال ابنُ عاشورٍ: (والتَّأويلُ الَّذي في هذه الآيةِ يَحْتَمِلُ المعنيينِ ولعلَّ كِلَيْهما مرادٌ، أي لَمَّا يأتِهم تأويلُ مَا يدَّعونَ أنَّهم لم يفهموه مِن معاني القرآنِ؛ لعدمِ اعتيادِهم بمعرفةِ أمثالِها، مثلَ حكمةِ

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: كما كذَّب المُشرِكونَ بالحَقِّ، كذلك كذَّبَ المُشرِكونَ مِن الأُمَم الماضيةِ بالحَقِّ الذي جاءَهم مِن اللهِ تعالى(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥-٢٦].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فانظُرْ- يا مُحمَّدُ- كيف كانت نهايةُ المكذِّبينَ بآياتِ اللهِ مِن الأُمَمِ الماضية؛ أهلَكْناهم، وسنُهلِكُ كذلك الظَّالِمينَ المكَذِّبينَ مِن هذه الأمَّةِ، فلا تحسبَنَّهم يُفلِتونَ منَّا(٢).

التَّشريعِ، ووقوعِ البعثِ، وتفضيلِ ضعفاءِ المؤمنينَ على صناديدِ الكافرينَ، وتنزيلِ القرآنِ مُنَجَّمًا، ونحوِ ذلك. فهم كانوا يعتبرونَ الأمورَ بما ألِفوه في المحسوساتِ، وكانوا يقيسون الغائِبَ على الشَّاهِدِ، فكذَّبوا بذلك وأمثالِه قبلَ أن يأتِيَهم تأويلُه. ولو آمنوا ولازموا النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم لعَلِموها واحدةً بعدَ واحدةٍ. وأيضًا لَمَّا يَأْتِهم تأويلُ ما حَسِبُوا عدمَ التَّعجيلِ به دليلًا على الكذبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٢، ١٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٣، ١٧٤).
وممن صرَّح بأنَّ الخطابَ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ابنُ جريرٍ وابنُ عاشورٍ.
قال الخازن: (وقيل: يحتمِلُ أن يكونَ الخِطابُ لكُلِّ فَردٍ مِن النَّاسِ، والمعنى: فانظُرْ -أيُّها الإنسانُ- كيف كان عاقِبةُ مَن ظلَمَ، فاحذَرْ أن تفعَلَ مِثلَ فِعلِه). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤٤).

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وقال سُبحانه: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ۞ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٩].

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى تكذيبَ مُشرِكي قُريشٍ، كان ذلك ربَّما أيأسَ مِن إذعانِهم وتَصديقِهم، وآذَنَ باستئصالِهم لِتَكمُلَ المُشابهةُ للأوَّلينَ، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شديدَ الشَّفَقةِ عليهم، والحِرصِ على إيمانِهم، فأتبَعَه تعالى بقَولِه هذا؛ بيانًا لأنَّ عِلمَه بانقسامِهم أوجَبَ عدَمَ استئصالِهم[(١)].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ تعالى في الآياتِ السَّابقةِ حالَ مُشرِكي قُرَيشٍ في اتِّهامِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بافتراءِ القُرآنِ، وبتكذيبِهم بوَعيدِه لهم؛ بَيَّنَ في هاتينِ الآيتينِ أقسامَ هؤلاءِ القَومِ في تَكذيبِهم ومُستقبَلِ أمْرِهم، أو حالِهم ومُستقبَلِهم في الإيمانِ، وفي عَمَلِ المكَذِّبينَ بمُقتَضى تكذيبِهم، وعَمَلِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمُقتَضى رسالتِه إلى أنْ يأتيَ أمرُ اللهِ فيهم[(٢)].

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾.

أي: ومِنَ المُشرِكينَ مَن سَيُؤمِنُ بالقُرآنِ، ويتوبُ مِن الكُفرِ، ومِنهم مَن لا يُؤمِنُ بالقُرآنِ أبدًا، ويستمِرُّ على كُفرِه حتى يموتَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أي: وربُّك- يا مُحمَّدُ- أعلَمُ بالمكذِّبينَ، ومَن يبقَى منهم مُصِرًّا على الكُفرِ، فيُجازيهم بأعمالِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٦٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ في هذا دليلٌ على التثبُّتِ في الأمورِ، وأنَّه لا ينبغي للإنسانِ أن يُبادِرَ بقَبولِ شَيءٍ أو رَدِّه، قبل أن يحيطَ به عِلمًا[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما كان لِأنْ يُفتَرى، يقولُ: ما كان لِيُفعَلَ هذا، فلم ينفِ مُجَرَّدَ فِعلِه، بل نفى احتمالَ فِعلِه، وأخبَرَ بأنَّ مِثلَ هذا لا يقَعُ، بل يمتَنِعُ وقوعُه، فيكونُ المعنى: ما يُمكِنُ، ولا يحتَملُ، ولا يجوزُ أن يُفتَرَى هذا القُرآنُ مِن دُونِ الله؛ فإنَّ الذي يفتَريه مِن دونِ

حيان)) (٦/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠).

وممن قال بهذا القول المذكور: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وأبو حيانَ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل المراد: ومِنَ المُشرِكينَ مَن يُصدِّقُ بأنَّ القُرآنَ حَقٌّ، ولكِنَّه يجحَدُ به عنادًا واستكبارًا، ومِنَ المُشرِكينَ مَن لا يُصدِّقُ بالقُرآنِ أصلًا، وممن اختار هذا القول: النَّحاسُ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٤)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٤).

اللهِ مَخلوقٌ، والمخلوقُ لا يقدِرُ على ذلك[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ ففرَّقَ بين الإحاطةِ بعِلمِه وبين إتيانِ تأويلِه، فتبيَّنَ أنَّه يُمكِنُ أن يُحيطَ أهلُ العِلمِ والإيمانِ بعِلمِه، ولَمَّا يأتِهم تأويلُه، وأنَّ الإحاطةَ بعِلمِ القُرآنِ ليست إتيانَ تأويلِه؛ فإنَّ الإحاطةَ بعِلمِه معرفةُ معاني الكلامِ على التَّمامِ، وإتيانَ التَّأويلِ نَفسُ وُقوعِ المُخبَرِ به[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ ذمٌّ لِمَن كذَّبَ بما لم يُحِطْ بعِلْمِه، فما قاله الناسُ من الأقوالِ المُختَلِفةِ في تفسيرِ القُرآنِ وتأويلِه، ليس لأحدٍ أنْ يُصَدِّقَ بقَولٍ دونَ قولٍ بلا عِلمٍ، ولا يُكذِّبَ بشيءٍ مِنها إلَّا أنْ يحيطَ بعِلمِه، وهذا لا يُمكِنُ إلَّا إذا عَرفَ الحقَّ الذي أُريدَ بالآيةِ، فيَعلَم أنَّ ما سواه باطلٌ، فيُكَذِّب بالباطِلِ الذي أحاط بعِلمِه، وأمَّا إذا لم يَعرِفْ مَعناها، ولم يُحِطْ بشَيءٍ منها عِلمًا؛ فلا يجوزُ له التكذيبُ بشَيءٍ منها[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مَن جَهِلَ شيئًا عاداه[٤].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ فيه تفريقُ كَلِمةِ الكُفَّارِ، وأنَّهم لَيسُوا مُستَوينَ في اعتقاداتِهم، بل هم مُضطَرِبونَ، وإن شَمِلَهم التَّكذيبُ والكُفرُ[٥]، وذلك على أحد وجْهَي تأويلِ الآيةِ.

---

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٤٢٥).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٤٠٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٢).

٦- في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إخبارٌ أنَّ مَن قَبْلَ المكَذِّبين أصلٌ يُعتبَرُ به، والفرعُ نفوسُهم، فإذا ساوَوهم في المَعنى ساوَوهم في العاقِبةِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾ يفيدُ المبالغةَ في نفْيِ أن يكونَ القرآنُ مُفترًى مِن غيرِ اللهِ، أي: مَنسوبًا إلى اللهِ كَذبًا وهو آتٍ مِن غيرِه، فإنَّ قولَه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾ أبلَغُ مِن أن يُقالَ: (ما هو بِمُفترًى)؛ لما يَدُلُّ عليه فِعلُ الكَونِ مِن الوجودِ، أي: ما وُجِدَ أن يُفترى، أي: وجودُه مُنافٍ لافترائِه؛ فدَلالةُ ذاتِه كافيةٌ في أنَّه غيرُ مفترًى[٢].

- قولُه: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ الإشارةُ بـ﴿هَٰذَا﴾ فيها تفخيمُ المشارِ إليه وتَعظيمُه، وكونُه جامِعًا للأوصافِ الَّتي يَستحيلُ وُجودُها فيه أن يَكونَ مُفترًى[٣].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، لَمَّا نَفى عن القرآنِ الافتراءَ أخبَرَ عنه بأنَّه تصديقٌ وتفصيلٌ، فجَرَت أخبارُه كلُّها بالمصدَرِ؛ تَنْويهًا ببلوغِه الغايةَ في هذه المعاني حتَّى اتَّحد بأجناسِها[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧).
(٤) يُنظر: . ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٩).

- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، (أم) للإضرابِ الانتقاليِّ مِن النَّفيِ في ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾ إلى الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّعجُّبيِّ، وهو ارتقاءٌ بإبطالِ دَعْواهم أن يَكونَ القُرآنُ مُفترًى مِن دونِ اللهِ، والاستفهامُ مقدَّرٌ، والمعنى: بل أيَقولون: افْتَراه بعدَما تبيَّن لهم مِن الدَّلائلِ على صِدْقِه وبَراءتِه مِن الافتراءِ، وهذا الاستفهامُ تقريرٌ لإلزامِ الحُجَّةِ عليهم، أو إنكارٌ لقولِهم واستِبْعادٌ[1]، وهذا على أحدِ أوجهِ تأويلِ (أم).

- ومِن بَديعِ الأسلوبِ وبَليغِ الكلامِ: أنْ قَدَّمَ وصْفَ القرآنِ بما يَقْتَضي بُعْدَه عن الافتراءِ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾ وبما فيه مِن أجَلِّ صِفاتِ الكتُبِ، وبِتَشريفِ نِسْبتِه إلى اللهِ تعالى، ثمَّ أعقَب ذلك بالاستِفْهامِ في قولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ عن دَعْوى المشرِكين افتراءً؛ لِيَتلقَّى السَّامعُ هذه الدَّعوى بمَزيدِ الاشمئزازِ والتَّعجُّبِ مِن حَماقةِ أصحابِها؛ فلذلك جُعِلَت دَعْواهم افتِراءَه في حيِّزِ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّعجُّبيِّ[2].

٣- قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ (بل) إضرابٌ انتقاليٌّ لبيانِ كُنْهِ تَكْذيبِهم، وأنَّ حالَهم في المبادَرةِ بالتَّكذيبِ قبْلَ التَّأمُّلِ أعجَبُ مِن أصلِ التَّكذيبِ؛ إذ إنَّهم بادَروا إلى تَكْذيبِه دونَ نظَرٍ في أدلَّةِ صِحَّتِه التي أشار إليها قولُه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٧١).

- وعبَّر بقولِه: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ دونَ أن يُقالَ: (بل كذَّبوا به مِن غيرِ أن يُحيطوا بعِلمِه)، أو نحوُ ذلك؛ للإيذانِ بكمالِ جَهلِهم به، وأنَّهم لم يَعلَموه إلَّا بعُنوانِ عدمِ العلمِ به، وبأنَّ تكذيبَهم به إنَّما هو بسبَبِ عدمِ عِلْمِهم به؛ لأنَّ إدارةَ الحكمِ على الموصولِ (ما) مُشعِرةٌ بعِلِّيَّةِ مَا في حيِّزِ الصِّلةِ له[١].

- وفيه نفيُ إتيانِ التَّأويلِ بكلمةِ (لَمَّا) الدَّالَّةِ على التَّوقُّعِ بعدَ نفيِ الإحاطةِ بعِلمِه بكلمةِ (لم)؛ لتَأكيدِ الذَّمِّ، وتَشديدِ التَّشنيعِ؛ فإنَّ الشَّناعةَ في تكذيبِ الشَّيءِ قبْلَ عِلمِه المتوقَّعِ إتيانُه، أفحَشُ منها في تَكذيبِه قبلَ علمِه مُطلقًا[٢].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ التَّكذيبَ عادةُ المعانِدين الكافرين؛ لِيَعلَمَ المشرِكون أنَّهم مُماثِلون للأُممِ الَّتي كذَّبَت الرُّسلَ فيَعتبِروا بذلك، وتعريضٌ بالنِّذارةِ لهم بحُلولِ العذابِ بهم، كما حلَّ بأولئك الأممِ الَّتي عرَفَ السَّامِعونَ مَصيرَها وشاهَدوا دِيارَها، وتسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه ما لَقِي مِن قومِه إلَّا مِثلَ ما لَقِي الرُّسلُ السَّابقون مِن أقوامِهم[٣].

- قولُه: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه وضعُ المُظهَرِ ﴿عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ موضِعَ المُضمَرِ (عاقِبتُهم)؛ للإيذانِ بكونِ التَّكذيبِ ظُلمًا، أو بعِلِّيَّتِه لإصابةِ ما أصابهم مِن سوءِ العاقبةِ، وبدُخولِ هؤلاء الظَّالِمين في زُمرَتِهم جُرمًا ووَعيدًا دُخولًا أوَّليًّا[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٤٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٧).

بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾، في اختيارِ صيغةِ المُضارعِ ﴿يُؤۡمِنُ﴾ دلالةٌ على استمرارِ الإيمانِ به مِن بَعضِهم معَ المعانَدةِ، واستمرارِ عدمِ الإيمانِ به مِن بعضِهم أيضًا[١]، وذلك على أحدِ وجهي تأويلِ الآيةِ.

- وجملةُ: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ مُعترِضةٌ في آخِرِ الكلامِ، وهي تعريضٌ بالوعيدِ والإنذارِ[٢]، وفي تعلُّقِ العلمِ بالمفسِدين وَحْدَهم: تهديدٌ عظيمٌ لهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٢).

الآيات (٤١-٤٤)

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وإن كذَّبَك المُشرِكونَ، ولم يُؤمِنوا بما جِئتَهم به من الحَقِّ، فقل لهم: لي عَمَلي ولكم عمَلُكم، لا تُؤاخَذونَ بما أعمَلُ، ولا أُؤاخَذُ بما تَعمَلونه.

ويخبرُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ مِن الكُفَّارِ مَن يستَمِعُ إلى تلاوتِك- يا مُحمَّدُ- للقُرآنِ، وإلى حديثِك، وقلوبُهم غافلةٌ لا ينتَفِعونَ بما سَمِعوه من ذلك، أفأنت تستطيعُ أن تُسمِعَ الصُّمَّ، خصوصًا إذا كانوا لا عَقلَ لهم، وأنَّ منهم من ينظُرُ إليك- يا مُحمَّدُ- أفأنت تُرشِدُ العُميَ، ولو كانوا مع ذلك بدونِ بَصيرةٍ.

إنَّ اللهَ لا يَظلِمُ أحدًا من النَّاسِ شَيئًا، ولكنَّ النَّاسَ هم الذين يَظلِمونَ أنفُسَهم بكُفرِهم ومَعاصيهم، فيَستَحِقُّونَ عِقابَه عَزَّ وجلَّ، ولا يضرُّونَه شيئًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾.

أي: وإنْ كذَّبَك -يا مُحمَّدُ- المُشرِكونَ، ولم يُؤمِنوا بما جئتَهم به من الحَقِّ، فقل

لهم: لي عمَلي الذي سيُجازيني اللهُ به، ولكم عَمَلُكم الذي سيُجازيكم اللهُ عليه[١].

كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩].

﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وقُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: لا تُؤاخَذونَ بِجَريرةِ أعمالي، ولا أُؤاخَذُ بجَريرةِ أعمالِكم[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١- ٦].

وقال سُبحانه: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنبأَ اللهُ رَسولَه بأنَّ مِن قَومِه مَن لا يؤمِنُ بهذا القُرآنِ حالًا ولا استِقبالًا؛ إذ لا ينفَعُهم البيانُ مهما يكُنْ ناصِعًا، ولا ينفَعُهم البُرهانُ وإن كان قاطِعًا، وأنَّ الذي عليه في المُصِرِّينَ على تكذيبِه منهم بعدما جاءَهم به مِن الآياتِ التي دمَغَتْهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٨).

بالحُجَج البَيِّناتِ، أن يتبرَّأَ منهم، وينتظِرَ أمرَ اللهِ فيهم- كان مِن شأنِ هذا النَّبأِ أن يُثيرَ عَجَبَه؛ لِغَرابتِه في نفسِه، وأن يسوءَه؛ لِما يشيرُ إليه مِن انتقامِ الله منهم؛ بَيَّنَ له مَثَلَ الذين فَقَدوا الاستعدادَ للإيمانِ، وعَلَّمَه ما لم يكُن يَعلَمُه مِن سُنَّةِ الله تعالى فيهم، وكَونِ مُصيبتِهم من أنفسِهم، فلا حولَ له ولا قُوَّةَ على هدايتِهم[١].

وأيضًا لَمَّا سبَقَ تَقسيمُ المُشرِكينَ بالنِّسبةِ إلى اعتقادِهم في الأصنامِ إلى مَن يَتَّبِعُ الظَّنَّ، ومَن يُوقِنُ بأنَّ الأصنامَ لا شيءَ، وتقسيمُهم بالنِّسبةِ لتصديقِ القُرآنِ إلى قِسمَينِ: من يؤمِنُ بصِدقِه ومَن لا يؤمِنُ بصِدقِه؛ كمَّلَ في هذه الآيةِ تَقسيمَهم بالنِّسبةِ للتلقِّي مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى قِسمَينِ: قسمٌ يَحضُرونَ مَجلِسَه، ويستمعونَ إلى كلامِه، وقِسمٌ لا يحضُرونَ مَجلِسَه وإنَّما يتوسَّمونَه، وينظُرونَ سَمتَه، وفي كلا الحالينِ مَسلكٌ عَظيمٌ إلى الهُدى لو كانوا مهتدينَ[٢].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾.

أي: ومِن الكُفَّارِ مَن يستَمِعُ إلى تلاوتِك للقرآنِ وحديثِك- يا مُحمَّدُ- وقلوبُهم غافلةٌ، لا ينتَفِعونَ بسَماعِهم ذلك[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

أي: أفأنت -يا مُحمَّدُ- تستطيعُ أن تُسمِعَ الصُّمَّ، وخصوصًا إذا كانوا مع صَمَمِهم جُهَّالًا، لا عَقلَ لهم[1]؟! فكذلك لا تقدِرُ على جَعلِ الكُفَّارِ ينتَفِعونَ بالسَّماعِ منك[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ * وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾[الأنفال: ٢١ - ٢٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابًا مَّسۡتُورًا﴾[الإسراء: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾[النمل: ٨٠].

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ٤٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ طَريقًا عظيمًا من طُرُقِ العِلمِ قد انسَدَّ على المُشرِكينَ،

---

(١) قال أبو حيانَ: (حَريٌّ بمن عَدِمَ السَّمعَ والعَقلَ ألاَّ يكونَ له إدراكٌ لشيءٍ البتَّةَ، بخلاف أنْ لو كان الأصَمُّ عاقلًا؛ فإنَّه بِعَقلِه يهتدي إلى أشياءَ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٣).
وقال ابنُ عاشورٍ: (أي: ولو انضَمَّ إلى صمَمِهم عدَمُ عُقولِهم؛ فإنَّ الأصَمَّ العاقِلَ ربَّما تفرَّسَ في مُخاطِبِه، واستدَلَّ بملامِحِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

وهو طريقُ المَسموعاتِ المُتعَلِّقةِ بالخَيرِ، ذكَرَ انسدادَ الطَّريقِ الثَّاني، وهو: طريقُ النَّظَرِ، فقال تعالى[١]:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾.

أي: ومِن الكُفَّارِ مَن ينظُرُ إليك- يا مُحمَّدُ- ولا ينتَفِعونَ بذلك النَّظَرِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١- ٤٢].

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

أي: أفأنتَ- يا مُحمَّدُ- تستطيعُ أن تُرشِدَ العُمْيَ الذين لا بَصرَ لهم ينتَفِعونَ به، وخصوصًا إذا انضَمَّ إلى ذلك فقدُ البَصيرةِ[٣]؟! فكذلك لا تَقدِرُ على هدايةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

قال ابن كثير: (أي: ينظُرونَ إليك، وإلى ما أعطاك اللهُ؛ مِن التُّؤَدةِ، والسَّمتِ الحَسَنِ، والخُلُقِ العَظيمِ، والدَّلالةِ الظَّاهرةِ على نُبُوَّتِك لأولي البصائِرِ والنُّهَى، وهؤلاءِ يَنظُرونَ كما يَنظُرُ غَيرُهم، ولا يحصُلُ لهم من الهدايةِ شَيءٌ ممَّا يحصُلُ لِغَيرِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠-٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير المنار)) (١١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٩).

قال الزمخشري: (أتحسَبُ أنَّك تقدِرُ على هدايةِ العُمي، ولو انضَمَّ إلى العمَى- وهو فَقدُ البَصَرِ- فقدُ البصيرةِ؛ لأنَّ الأعمى الذي له في قَلبِه بصيرةٌ، قد يَحدِسُ ويتظَنَّنُ، وأمَّا العَمى مع الحُمقِ، فجَهدُ البَلاءِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٩).

وقال ابنُ عاشور: (وأما معنى: لا يُبصِرونَ، فإنَّهم لا بصيرةَ لهم يتبصَّرونَ بها. وهو الذي فسَّرَ به «الكشَّاف» وهو الوجهُ؛ إذ بدونِه يكون معنى: لا يُبصِرونَ مُساويًا لمعنى العَمَى، فلا تقَعُ المبالغةُ بـ (لو) الوصليَّةِ مَوقِعَها، إذ يصيرُ: أفأنت تهدي العُميَ ولو كانوا عُميًا. ومقتضى كلام «الكشَّاف» أنه يقال: أبصَرَ: إذا استعمَلَ بصيرتَه، وهي التفكيرُ والاعتبارُ بحقائقِ الأشياءِ، وكلام

الكُفَّارِ الذين عَمِيَت قلوبُهم عن رؤيةِ الحَقِّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ [النمل: ٨١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى في الآيتَينِ السَّابِقَتينِ فَريقَينِ، ووصَفَهما بالشِّقْوةِ؛ يَنظُرونَ ويَسمَعونَ، ولا يَعقِلونَ ولا يُؤمِنونَ؛ وذلك للقَضاءِ السَّابقِ عليهم- أخبَرَ اللهُ في هذه الآيةِ أنَّ تَقديرَ الشِّقْوةِ عليهم ما كان ظُلمًا منه؛ وذلك لكمالِ عدلِه؛ حيثُ يضعُ الأمورَ في مواضعِها، ويوقعُها في مواقعِها عن علمٍ بمن يستحقُّ الهدَى أو الضلالةَ والعمَى، وإذا كَسَبوا المعاصيَ فقد ظَلَموا أنفُسَهم؛ لأنَّ الفِعلَ مَنسوبٌ إليهم، وإن كان القضاءُ لله تعالى[(٢)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يفعلُ بخلقِه ما لا يستحقُّون منه؛ فلا يسلبُ أحدًا الإيمانَ، ولا يصرفُه عن الهدَى إلَّا إذا استحقَّ ذلك؛ لكمالِ علمِه سبحانَه وحكمتِه وعدلِه، وأيضًا فهو لا يُعاقِبُ مَن لم يستوجِبِ العقابَ، ولا يزيدُ في سَيِّئاتِ المُسيئينَ،

«الأساس» يحومُ حَولَه، وأيًّا ما كان فالمرادُ بِقَولِه: لا يُبصِرونَ، معنى التأمُّلِ، أي: ولو انضَمَّ إلى عمَى العُمْيِ عدَمُ التَّفكيرِ، كما هو حال هؤلاء الذين ينظُرونَ إليك). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٩).

ولا يَنقُصُ مِن حَسَناتِ المُحسِنينَ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روى عن الله تبارك وتعالى، أنَّه قال: ((يا عبادِي، إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نَفسِي، وجَعَلتُه بينكم مُحرَّمًا، فلا تَظَالَموا))[٢].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ النَّاسَ هم الذينَ يَظلِمونَ أنفُسَهم، ويضُرُّونَها بكُفرِهم باللهِ ومَعصيتِه، فيستَحِقُّونَ عقابَه، ولا يضرُّونَ اللهَ شَيئًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ * وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإيمانَ والتوفيقَ به تعالى لا بِغَيرِه، وفي ذلك تسليةٌ مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٤].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٠).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٣٣٨).

يَعۡقِلُونَ * وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ المرادُ مِن الآيتَينِ: أنَّ هدايةَ الدِّينِ كهدايةِ الحِسِّ، ولا تكونُ إلَّا للمُستعِدِّ لها بهدايةِ العَقلِ، وأنَّ هدايةَ العَقلِ لا تحصُلُ إلَّا بتوجُّهِ النَّفسِ، وصِحَّةِ القَصدِ، وهذا الصِّنفُ مِن الكُفَّارِ قد انصَرَفت أنفُسُهم عن استعمالِ عُقولِهم في الدَّلائلِ البَصَريَّةِ والسَّمعيةِ؛ لإدراكِ مَطلَبٍ مِن المطالِبِ ممَّا وراءَ شهواتِهم وتقاليدِهم، وليس المرادُ أنهم فقَدوا نعمةَ العَقلِ الغَريزيِّ، ولا نعمةَ الحواسِّ، بل استعمالَها النَّافِعَ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فيه أنَّ اللهَ لا يؤاخِذُ أحدًا مِن النَّاسِ بعَمَلِ الآخَرِ[2].

٢- النَّظَرُ إلى حالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهديِه وأخلاقِه، وأعمالِه وما يدعو إليه؛ مِن أعظَمِ الأدلَّةِ على صِدقِه وصِحَّةِ ما جاء به، ويكفي البَصيرَ عَن غيرِه من الأدلَّةِ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ * وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ إيئاسُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من إسماعِ هؤلاء الصُّمِّ، وهدايةِ هؤلاء العُمي، وقفَّى على ذلك بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ فأمثالُ هذه الآياتِ تَحثُو التُّرابَ في فِي مَن يزعُمُ أنَّ الآيةَ تدُلُّ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٣١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٥).

على الجَبرِ، وعَدَمِ اختيارِ العبدِ في كُفرِه وإيمانِه[١].

٤- قولُه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ ذِكْرُ هذا عَقِبَ ما تَقَدَّم مِن عدمِ الاهتداءِ بالأسماعِ والأبصارِ؛ لبيانِ أَنَّ ذلك لم يَكُنْ لأجلِ نَقْصٍ فيما خَلَقَه اللَّهُ لهم مِن السَّمْعِ والعقلِ والبصرِ والبصيرةِ، بل لأجلِ ما صارَ في طبائِعِهم مِن التَّعَصُّبِ والمُكابرةِ للحقِّ، والمجادلةِ بالباطلِ، والإصرارِ على الكفرِ، فهم الَّذين ظَلموا أنفسَهم بذلك، ولم يَظْلِمْهم اللَّهُ شيئًا مِن الأشياءِ، بل خَلَقَهم، وجعلَ لهم مِنَ المشاعرِ ما يُدركونَ به أكملَ إدراكٍ، وركَّبَ فيهم مِن الحواسِّ ما يَصِلونَ به إلى ما يريدونَ، ووَفَّرَ مَصالحَهم الدُّنيويَّةَ عليهم، وخلَّى بينَهم وبينَ مصالحِهم الدِّينيَّةِ، فعلَى نفسِها بِراقِشُ[٢] تَجْني[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡ ﴾ فيه معنى الحصرِ بتَقْديمِ المعمولِ ﴿لِّي﴾ ﴿وَلَكُمۡ﴾، وبالتَّعبيرِ بالإضافةِ بـ﴿عَمَلِي﴾ و﴿عَمَلُكُمۡ﴾[٤].

- وقولُه: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ بيانٌ لجملةِ: ﴿لِّي

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٢٢).

(٢) بَراقِشُ: اسْمُ كَلبةٍ نبَحَت جَيشًا كانوا قصَدُوا أهلَها، فخفيَ عليهم مكانُهم، فلمَّا نبَحَتْهم عَرَفوهم فعَطَفوا عليهم فاجتاحُوهم، فذهَبَت مثَلًا، ويُضرَبُ هذا المثلُ للرجُلِ يرجِعُ إصلاحُه بإفسادٍ، ويُوافيه الشَّرُّ مِن نَفسِه. يُنظر: ((جمهرة الأمثال)) للعسكري (٢/ ٥٢)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٦/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٦).

عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾؛ ولذلك فُصِلَت، أي: لم تُعطَفْ على الَّتي قبلَها[١]، وهي أيضًا تأكيدٌ لِمَا أفادَتْه لامُ الاختصاصِ مِن عدَمِ تعدِّي جَزاءِ العمَلِ إلى غيرِ عاملِه[٢].

- وقولُه: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فيه العُدولُ عن الإتيانِ بالعملِ مَصدَرًا، كما أُتي به في قولِه: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ إلى الإتيانِ به فِعْلًا صِلَةً لِـ(ما) الموصولةِ؛ للدَّلالةِ على البراءةِ مِن كلِّ عملٍ يَحدُثُ في الحالِ والاستقبالِ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث بدَأ في المأمورِ بقولِه: ﴿لِّي عَمَلِي﴾؛ لأنَّه آكَدُ في الانتفاءِ مِنهم، وبَدَأ في البراءةِ بقولِه: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ﴾؛ لأنَّ هذه الجملةَ جاءت كالتَّوكيدِ والتَّتميمِ لِما قبْلَها؛ فناسَب أن تَلِيَ قولَه: ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، ولِمُراعاةِ الفواصلِ؛ إذ لو تَقدَّم ذِكْرُ براءةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم كما تقدَّم ذِكْرُ ﴿لِّي عَمَلِي﴾ لم تقَعِ الجملةُ فاصلةً؛ إذ كان يكونُ التَّركيبُ: (وأنتم بَريئون ممَّا أعمَلُ)[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ * وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾ وقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَ﴾ جيءَ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾ ﴿يَنظُرُ﴾ دونَ اسمِ الفاعلِ (مُستَمِعون-

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٢).

ناظِرٌ)؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ الاستماعِ والنَّظرِ[١].

- قولُه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ جمَع الضَّميرَ الرَّاجِعَ إلى كلمةِ (مَنْ) مع الاستماعِ؛ رعايةً لجانبِ المعنى، وأفرَدَه مع النَّظَرِ؛ مُحافَظةً على ظاهرِ اللَّفظِ، ولعلَّ ذلك للإيماءِ إلى كَثرةِ المستَمِعين بِناءً على عدمِ توقُّفِ الاستماعِ على ما يتَوقَّفُ عليه النَّظرُ مِن المقابلةِ، وانتفاءِ الحجابِ والظُّلمةِ[٢]، وقيل: لعلَّ اختلافَ الصِّيغتين للمُناسَبةِ مع مادَّةِ فِعْلَيْ (يَسْتَمِعُ) و(يَنْظُرُ)؛ ففِعلُ (يَنظُر) لا تُلائِمُه صيغةُ الجمعِ؛ لأنَّ حُروفَه أثقَلُ مِن حروفِ (يَستمِعُ)؛ فيكونُ العدولُ استِقْصاءً لِمُقتَضى الفصاحةِ[٣].

- قولُه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ وقولُه: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ استِفْهامان مُستعمَلان في التَّعجُّبِ مِن حالِهم؛ إذ يَستمِعون إلى دعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولا يَعقِلونها، وإذ يَنظُرون أعمالَه وسيرتَه ولا يَهتَدون بها، فليس في هذين الاستِفْهامَين معنى الإنكارِ على مُحاولة النَّبيِّ إبلاغَهم وهدْيَهم؛ لأنَّ المقامَ يَنْبو عن ذلك[٤]، وفي هذا مبالغةٌ عظيمةٌ في انتفاءِ قَبولِ ما يُلْقى إلى هؤلاء؛ إذ جمَعوا بين الصَّممِ وانتفاءِ العقلِ، وبين العمَى وفَقْدِ البصيرةِ[٥].

- وفي الاستِفْهامَين تقديمُ المسنَدِ إليه (أنتَ) على الخبَرِ الفِعْليِّ بقولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ﴾ وقولِه: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى﴾ دون أن يُقالَ: (أَتُسمِعُ الصُّمَّ) و(تَهْدي العُمْي)؛ فكان هذا الاستفهامُ التَّعجُّبيُّ فيهما مُؤكَّدًا مُقَوًّى[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٧٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٨).

- و(لو) في قولِه: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وقولِه: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وَصْليَّةٌ دالَّةٌ على المبالغةِ في الأحوالِ، وهي الَّتي يكونُ الَّذي بعدَها أقصى ما يَعْلَقُ به الغَرَضُ[١]، وجوابُ (لو) في الجُملَتَين محذوفٌ؛ لِدَلالةِ قولِه تعالى: ﴿تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ و﴿تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ عليه، وكلٌّ منهما مَعطوفةٌ على جُملةٍ مقدَّرةٍ مقابِلةٍ لها في الفَحْوى، أي: أفأَنتَ تُسمِعُ الصُّمَّ لو كانوا يَعقِلون، ولو كانوا لا يَعقِلون، أفأنتَ تَهدي العُميَ لو كانوا يُبصِرون، ولو كانوا لا يُبصِرون؟! أي: على كلِّ حالٍ مفروضٍ، وقد حُذِفَت الأولى في البابِ حذفًا مُطَّرِدًا؛ لِدَلالةِ الثَّانيةِ عليها دلالةً واضحةً؛ فإنَّ الشَّيءَ إذا تحقَّق عند تحقُّقِ المانعِ، أو المانعِ القويِّ فلأَنْ يتَحقَّقَ عند عدَمِه، أو عند تحقُّقِ المانعِ الضَّعيفِ أولَى، وعلى هذه النُّكْتةِ يدورُ ما في (لو) و(أنْ) الوَصليَّتين مِن التَّأكيدِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تذييلٌ، وشَمِل عمومَ النَّاسِ المشرِكين الَّذين يَستمِعون ولا يَهْتَدون، ويَنظُرون ولا يَعتبِرون، والمقصودُ مِن هذا التَّذييلِ: التَّعريضُ بالوعيدِ بأنْ سيَنالُهم ما نال جَميعَ الَّذين ظلَموا أنفُسَهم بتكذيبِ رُسلِ اللهِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ ...﴾ فيه وضْعُ الظَّاهِرِ مَوضِعَ الضَّميرِ -إذ قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ ولم يقُل: (ولكِنَّهم)-؛ لزيادةِ تعيينٍ وتقريرٍ[٤]، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الظُّلمَ خاصٌّ بهم دونَ سائِرِ أنواعِ الحَيوانِ؛ فإنَّها لا تعدو في

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٨- ١٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٩).

استعمالِ مَشاعِرِها وقُواها ما خُلِقَت لأجلِه مِن حِفظِ حياتِها الشَّخصيَّةِ والنَّوعيَّةِ، وأمَّا النَّاسُ فقد يستَعمِلونَها فيما يَضُرُّهم في حياتِهم الحيوانيَّةِ الدُّنيويَّةِ، وفي حياتِهم الرُّوحيَّةِ الأُخرويَّةِ[١].

- وقولُه: ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فيه تقديمُ المفعولِ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ على عامِلِه ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ لإفادةِ تَغْليطِهم بأنَّهم ما جَنَوْا بكُفْرِهم إلَّا على أنفُسِهم، وما ظلَموا اللهَ ولا رُسلَه، فما أضَرُّوا بعمَلِهم إلَّا أنفُسَهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٠).

الآيات (٤٥-٤٧)

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يَقولُ تعالى: ويومَ يَجمَعُ اللهُ الكافرينَ في موقِفِ الحِسابِ، كأنَّهم لم يَمكُثوا في الدُّنيا إلَّا ساعةً مِن نهارٍ، يتعارَفُ النَّاسُ بينهم يومَ القيامةِ، كما كانوا يتعارَفونَ في الدُّنيا، قد خَسِرَ ثوابَ اللهِ وجَنَّتَه الذين كذَّبوا بلِقاءِ اللهِ، وما كانوا مُهتَدينَ.

وإمَّا نُرِكَ -يا مُحمَّدُ- عُقوبةَ الكُفَّارِ في حياتِك بأن نُعَجِّلَها لهم، أو نُمِتْك قبل أن نُرِيَك ذلك؛ فإلينا مَرجِعُهم ومَصيرُهم، ثمَّ اللهُ شاهِدٌ على ما كانوا يَفعَلونَه في الدُّنيا، وسيُجازيهم به.

ثمَّ يبَيِّنُ تعالى أنَّ لكُلِّ أمَّةٍ رَسولًا مِن اللهِ، يدعوهم إلى الإيمانِ وعِبادةِ اللهِ وَحدَه، فإذا جاء الأمةَ رَسولُهم يومَ القيامةِ لِيَشهَدَ عليهم، حكَمَ اللهُ بينهم بالعَدلِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وصَفَ الكُفَّارَ بقِلَّةِ الإصغاءِ، وتَرْكِ التَّدبُّرِ؛ أتبَعَه بالوعيدِ لهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٥٩).

وأيضًا لَمَّا كان في سابقِ الآياتِ ما ذُكِرَ مِن أفانينِ جِدالِهم في أباطيلِهم وضَلالِهم، وكان فِعلُ ذلك- ممَّن لا يرى حَشرًا ولا جزاءً، ولا نعيمًا وراء نعيمِ هذه الدَّارِ- فِعلَ فارِغِ السِّرِّ، مُستطيلٍ للزَّمانِ، آمِنٍ مِن نوازلِ الحَدَثانِ- حَسُنَ تَعقيبُه بأنَّهم يَرَونَ يومَ الحَشرِ مِن الأهوالِ ما يَستَقصِرونَ معه مُدَّةَ لُبثِهم في الدُّنيا، فقد خَسِروا إذَن دُنياهم بالنِّزاعِ، وآخِرتَهم بالعذابِ الذي لا يُستطاعُ، وليس له انقِطاعٌ[١].

وأيضًا لمَّا جاء فيما مضَى ذكرُ يومِ الحشرِ، إذ هو حينُ افتضاحِ ضلالِ المشركينَ ببراءةِ شركائِهم منهم- أتبعَ ذلك بالتقريعِ على عبادتِهم الأصنامَ، مع وضوحِ براهينِ الوحدانيةِ للهِ تعالى، وإذ كان القرآنُ قد أبلغهم ما كان يعصمُهم مِن ذلك الموقفِ الذَّليلِ لو اهْتَدَوا به، أتْبَع ذلك بالتنويهِ بالقرآنِ، وإثباتِ أنَّه خارجٌ عن طوقِ البشرِ، وتسفيهِ الذين كذَّبوه، وتفنَّنوا في الإعراضِ عنه، واستوفَى الغرض حقَّه، عاد الكلامُ إلى ذِكرِ يومِ الحشرِ مرةً أُخرَى؛ إذ هو حينُ خيبةِ أولئك الذين كذَّبوا بالبعثِ، وهم الذين أشْرَكوا، وظهَر افتضاحُ شركِهم في يومِ الحشرِ، فكان مثلَ ردِّ العجزِ على الصدرِ[٢].

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾.

أي: ويومَ[٣] يَجمَعُ اللهُ الكافرينَ في موقِفِ الحِسابِ، فيَستقِلُّون حِينذاك مُدَّةَ مُكثِهم في الدُّنيا، كأنَّهم لم يَعيشوا فيها إلَّا ساعةً مِن نَهارٍ[٤]!

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨١).

(٣) قال ابنُ عطيةَ: (﴿ وَيَوْمَ ﴾ ظرفٌ، ونصبُه يصحُّ بفعلٍ مضمَرٍ، تقديرُه: «واذكرْ يومَ»، ويصحُّ أن ينتصبَ بالفعلِ الذي يتضمَّنُه قولُه: ﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾، ويصحُّ نصبُه بـ﴿ يَتَعَارَفُونَ ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٢، ١٢٣)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

وقال سبحانه: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا * يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا * نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥-٥٦].

وقال سُبحانه: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

الرازي)) (١٧/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٧).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ: ابنُ كثيرٍ، والشوكانيُّ، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، والشِّنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير المنار)) (١١/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((أضواء البيان)) (٢/ ١٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ مقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٣).

وقيل: المعنى: كأنَّهم لم يَمكُثوا في قُبورِهم بين مَوتِهم وحَشْرِهم إلَّا ساعةً مِن نهارٍ. وممن اختار هذا القولَ: ابنُ الأنباريِّ، والسمعانيُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢١١)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٣).

قال الشوكاني: (المرادُ باللُّبثِ: هو اللُّبثُ في الدُّنيا، وقيل: في القُبورِ، استَقَلُّوا المدَّةَ الطَّويلةَ؛ إمَّا لأنَّهم ضيَّعوا أعمارَهم في الدُّنيا، فجعلوا وجودَها كالعَدمِ، أو استقصَروها للدَّهَش والحَيرةِ، أو لِطُولِ وُقوفِهم في المَحشَرِ، أو لِشدَّةِ ما هم فيه من العذابِ، نسوا لذاتِ الدُّنيا، وكأنَّها لم تكُن). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٤).

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: يَعرِفُ النَّاسُ بَعضُهم بعضًا يومَ القيامةِ، كما كانوا في الدُّنيا يَعرِفونَ بَعضَهم[١].

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾.

أي: قد خَسِرَ ثوابَ اللهِ وجَنَّتَه الجاحِدونَ لِلِقاءِ اللهِ، يومَ القيامةِ، فاستحَقُّوا دخولَ النَّارِ، وما كانوا موفَّقينَ للحَقِّ بتكذيبِهم بالبَعثِ بعدَ المَوتِ[٢].

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذه الآيةَ تتمَّةُ الرَّدِّ على المُشرِكينَ في تكذيبِ ما لم يُحيطوا بعِلمِه، ولَمَّا يأتِهم تأويلُه، مِن العقابِ الذي سبَقَ ذِكرُه[٣].

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

قال الزجاج: (وفي معرفةِ بَعضِهم بعضًا، وعِلمِ بَعضِهم بإضلالِ بَعضٍ، التوبيخُ لهم، وإثباتُ الحجَّةِ عليهم). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٢).

قال ابنُ عطيةَ: (وأما قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ فيحتملُ أن يكونَ معادلة لقولِه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ كأنَّه أخبَر أنَّهم يومَ الحشرِ يَتعارَفونَ، وهذا التعارفُ على جهةِ التلاومِ والخزي مِن بعضِهم لبعضٍ، ويحتملُ أن يكونَ في موضعِ الحالِ مِن الضمير في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، ويكونُ معنى التعارفِ كالذي قبلَه، ويحتملُ أن يكونَ حالًا مِن الضميرِ في ﴿يَلْبَثُوٓا۟﴾، ويكونُ التعارفُ في الدُّنيا، ويجيءُ معنَى الآيةِ: ويومَ نحشرُهم للقيامةِ فتنقطعُ المعرفةُ بينَهم والأسبابُ، ويصيرُ تعارفُهم في الدُّنيا كساعةٍ مِن النَّهارِ لا قدرَ لها). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٩).

أي: وإمَّا نُعجِّلْ عُقوبةَ الكُفَّارِ في حياتِك- يا مُحمَّدُ- فتَراها[١]، أو نُمِتْك قبل أن نُرِيَك ذلك فيهم؛ فمَصيرُهم إلينا بكلِّ حالٍ[٢].

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾.

أي: ثمَّ اللهُ شاهدٌ على ما كانوا يفعَلونَه في الدُّنيا، وسيُجازيهم به[٣].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٤٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ حالَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَومِه؛ بيَّنَ حالَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مع أقوامِهم؛ تسليةً له، وتطمينًا لِقَلبِه[٤].

وأيضًا لَمَّا كان في الآيةِ السَّابقةِ التَّهديدُ بالعذابِ- إمَّا في الدُّنيا أو في الآخرةِ-

---

(١) قال الشوكاني: (وقد أراه اللهُ سُبحانه قَتْلَهم وأسْرَهم، وذُلَّهم وذَهابَ عِزِّهم، وانكسارَ سَورةِ كِبرِهم؛ بما أصابهم به في يومِ بَدرٍ وما بعدَه مِن المواطِنِ، فلله الحَمدُ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٨، ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٤).

وممَّن اختار المعنَى المذكورَ، على اعتبارِ أنَّ قَولَه تعالى: ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ جوابٌ للشَّرطِ ﴿إِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾، وما عُطِفَ عليه ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والقرطبي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٤).

وقال الزمخشري: (﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ جوابُ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وجوابُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوفٌ، كأنَّه قيل: وإمَّا نُرينَّك بعضَ الذي نَعِدُهم في الدُّنيا فذاك، أو نتوفَّينَّك قبلَ أن نُرِيَكه فنحن نُريكَه في الآخرةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٧).

غيرَ مُعَيَّنٍ له صلَّى الله عليه وسلَّم واحدةٌ منهما- أتبَعَها بما هو صالحٌ للأمرَينِ بالنِّسبةِ إلى كلِّ رَسولٍ؛ إشارةً إلى أنَّ أحوالَ الأُمَمِ على غيرِ نِظامٍ؛ فلذلك لم يَجزِمْ بتعيينِ واحدةٍ مِن الدارَينِ للجَزاءِ، وجعل الأمرَ مَنوطًا بالقِسطِ(١).

وأيضًا فإنَّها بمنزلةِ السَّبَبِ لِمَضمونِ الجملةِ التي قبلَها؛ فقد بيَّنتْ أنَّ مَجيءَ الرَّسولِ للأمَّةِ هو مُنتهى الإمهالِ، وأنَّ الأمَّةَ إن كذَّبَت رسولَها استحقَّت العقابَ على ذلك، فهذا إعلامٌ بأنَّ تكذيبَهم الرَّسولَ هو الذي يجُرُّ عليهم الوعيدَ بالعقابِ(٢).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾.

أي: ولكلِّ أمَّةٍ من الأُمَمِ الماضيةِ رَسولٌ أرسَلَه اللهُ إليهم، يدعوهم إلى الإيمانِ، وعبادةِ اللهِ وَحْدَه(٣).

﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: فإذا أتَى الأمةَ رسولُهم يومَ القيامةِ؛ لِيَشهَدَ عليهم، حَكَم اللهُ بينهم بالعَدلِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٠).

وممَّن اختار هذا المعنَى المذكورَ: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، وابنُ كثيرٍ، والقاسميُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٩).

وقيل: فإذا أتَى الأمةَ رسولُهم في الدُّنيا فكذَّبوه، حَكَم الله بين الرُّسُلِ وأتباعِهم وبين المكَذِّبينَ بالعَدلِ، فأنجَى عبادَه المؤمنينَ، وعذَّب الكافرينَ في الدُّنيا بعذابِ الاستئصالِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وممَّن اختار هذا المعنى: أبو السعودِ، والشوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير أبي

كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ تنبيهٌ على قِصَرِ الأمَلِ، وهو العِلمُ بقُرْبِ الرَّحيلِ، وسرعةِ انقضاءِ مدةِ الحياةِ، وهو مِن أنفعِ الأمورِ للقَلبِ؛ فإنه يبعَثُه على مبادرةِ طَيِّ صحائِفِ الأعمالِ، ويثيرُ ساكِنَ عَزَماتِه إلى دارِ البقاءِ، ويَحُثُّه على قضاءِ جَهازِ سَفَرِه، وتدارُكِ الفارِطِ، ويُزَهِّدُه في الدنيا، ويرَغِّبُه في الآخرة، فيقومُ بقَلبِه- إذا داومَ مُطالعةَ قِصَرِ الأمَلِ- شاهِدٌ من شواهِدِ اليَقينِ، يُريهِ فَناءَ الدُّنيا، وسُرعةَ انقضائِها، وقلَّةَ ما بَقِيَ منها، وأنَّها قد ترحَّلَت مُدبِرةً، وأنَّها لم يبقَ مِنها إلَّا كما بَقِيَ مِن يومٍ صارت شَمسُه على رؤوسِ الجبالِ، ويُريه بقاءَ الآخرةِ ودوامَها، وأنَّها قد ترحَّلَت مُقبِلةً، وقد جاء أشراطُها وعلاماتُها، وأنَّه مِن لقائِها كمُسافرٍ خرج صاحِبُه يتلقَّاه، فكلٌّ منهما يسيرُ إلى الآخَرِ، فيُوشِكُ أن يلتَقيا سريعًا[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيه تحذيرٌ مِن مُشاقَّةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ

السعود)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٧).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٣).

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٨).

شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى يُري رَسولَه أنواعًا مِن ذُلِّ الكافرينَ وخِزيِهم في الدُّنيا، وسيَزيدُ عليه بعد وفاتِه، ولا شكَّ أنَّه حصل الكثيرُ منه في زمانِ حياةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحصل الكثيرُ أيضًا بعد وفاتِه، والذي سيحصُلُ يومَ القيامةِ أكثَرُ، وهو تنبيهٌ على أنَّ عاقِبةَ المُحِقِّينَ مَحمودةٌ، وعاقبةَ المُذنِبينَ مَذمومةٌ(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ جاء الكلامُ على طريقةِ إبهامِ الحاصِلِ مِن الحالَينِ؛ لإيقاعِ النَّاسِ بين الخَوفِ والرَّجاءِ، وإن كان المخاطَبُ به النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ رتَّبَ شَهادتَه تعالى على فِعلِهم، على رجوعِهم إليه في القيامةِ، مع أنَّه شهيدٌ عليهم في الدُّنيا أيضًا؛ لأنَّ المرادَ بما ذُكِرَ نَتيجتُه، وهو العذابُ والجزاءُ، كأنَّه قال: ثمَّ اللهُ مُعاقِبٌ، أو مُجازٍ على ما يَفعَلونَ(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ كُلَّ جماعةٍ ممَّن تقدَّمَ، قد بَعثَ الله إليهم رسولًا، وأنَّ اللهَ تعالى ما أهمَلَ أمَّةً مِن الأمَمِ قَطُّ، ويتأكَّدُ هذا بقَولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٧).

وقال العكبري: (﴿ثُمَّ﴾ هاهنا غيرُ مُقْتَضِيَةٍ ترتيبًا في المعنَى، وإنَّما رَتَّبَتِ الأخبارَ بعضَها علَى بعضٍ، كقولِك: زيدٌ عالمٌ، ثُمَّ هو كريمٌ). ((التبيان في إعراب القرآن)) (٢/ ٦٧٦).

فإنْ قيل: كيف يصِحُّ هذا مع أحوالِ الفَترةِ، ومع قَولِه سُبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦]؟ فالجواب: أنَّ الآيةَ لا تُوجبُ أن يكونَ الرَّسولُ حاضرًا مع القَومِ، لأنَّ تقدُّمَ الرَّسولِ لا يمنَعُ مِن كَونِه رسولًا إليهم، كما لا يَمنَعُ تقَدُّمُ رسولِنا من كونِه مَبعوثًا إلينا إلى آخِرِ الأبدِ، وتُحمَلُ الفَترةُ على ضَعفِ دَعوةِ الأنبياءِ، ووُقوعِ مُوجِباتِ التَّخليطِ فيها(١).

وقيل: آباءُ القومِ الَّذين لم يُنْذَروا ليسوا أُمَّةً مستقلَّةً حتَّى يردَ الإشكالُ في عدمِ إنذارِهم، معَ قولِه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ بل هم بعضُ أُمَّةٍ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾

- قولُه: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ فيه تخصيصُ السَّاعةِ بالنَّهارِ؛ لأنَّ ساعاتِه أعرَفُ حالًا مِن ساعاتِ اللَّيلِ(٣)، فكأنَّ هؤلاءِ يتحَقَّقونَ قِلَّةَ ما لَبِثوا؛ إذْ كلُّ أمَدٍ طَويلٍ إذا انقضى، فهو واليَسيرُ سَواءٌ(٤).

- وقولُه: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ فيه معنى التَّعجُّبِ، كأنَّه قيل: ما أخْسَرَهم(٥)!

- وفيه إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ، والتَّعبيرُ عنهم بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦١).
(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٥).

مع كَونِ المقامِ مَقامَ إضمارٍ- حيث لم يَقُل: خَسِروا-؛ لِذَمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ، والإشعارِ بعِلِّيَّتِه لِما أصابَهم؛ فنبَّه على العِلَّةِ الموجبةِ للخُسرانِ، وهو التَّكذيبُ بلقاءِ اللهِ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ فيه العدولُ إلى صيغةِ الاستقبالِ ﴿نَعِدُهُمْ﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ، أو للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، أي: نَعِدُهم وعدًا مُتجدِّدًا حسَبما تَقْتَضيه الحِكمةُ مِن إنذارٍ غِبَّ إنذارٍ، وفي تخصيصِ البعضِ بالذِّكرِ رمزٌ إلى العِدَةِ بإراءةِ بعضِ الموعودِ[2].

- وجملةُ: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ اسميَّةٌ تُفيدُ الدَّوامَ والثَّباتَ، وتقديمُ المجرورِ ﴿فَإِلَيْنَا﴾ على عامِلِه، وهو ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾؛ للاهتمامِ[3].

- وقوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرتبي (أي: كون الجملةِ المعطوفةِ بها أعلَى رتبةً مِن المعطوفةِ عليها)؛ فإنَّ جملةَ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ لاشتمالِها على التعريضِ بالجزاءِ على سوءِ أفعالِهم كانت أهمَّ مرتبةً في الغرضِ، وهو غرضُ الإخبارِ بأنَّ مرجعَهم إلى اللهِ؛ لأنَّ إرجاعَهم إلى الله مجملٌ، واطلاعَه على أفعالِهم المكنى به عن مؤاخذتِهم بها هو تفصيلٌ للوعيدِ المجملِ، والتفصيلُ أهمُّ مِن الإجمالِ، وقد حصَل بالإجمالِ ثم بتفصيلِه تمامُ تقريرِ الغرضِ المسوقِ له الكلامُ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٦).

وتأكيدُ الوعيدِ[١]، وقيل: جاء بـ(ثم) الدالةِ على التبعيدِ، مع كونِ الله سبحانَه شهيدًا على ما يفعلونَه في الدارين؛ للدلالةِ على أنَّ المرادَ بهذه الأفعالِ ما يترتَّب عليها مِن الجزاءِ، أو ما يحصلُ مِن إنطاقِ الجوارحِ بالشهادةِ عليهم يومَ القيامةِ، فجعَل ذلك بمنزلةِ شهادةِ اللهِ عليهم[٢].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وقال فيما بعدُ مِن هذه السُّورةِ: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤]، وقال في سورةِ الزُّمَرِ: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]، وفي آخرِ السُّورةِ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]؛ فورَد في الموضِعَين من سورةِ يونُسَ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، وفي الموضِعَين مِن سورةِ الزُّمرِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ وذلك لأنَّ القِسْطَ يُرادُ به العملُ، والتَّسويةُ في الحكمِ، فمَظِنَّةُ وُرودِه حيث يُرادُ مُوازَنةُ الجزاءِ بالأعمالِ مِن غيرِ زيادةٍ، والحقُّ: الصِّدقُ، فوُرودُه حيث يُرادُ تَصديقُ وعيدٍ، أو إخبارٌ متقدِّمٌ، وإنَّ اللهَ سبحانه وعَد المؤمِنين بزِيادةِ الأُجورِ والإحسانِ بما يَفوتُ الغاياتِ، ويَفوقُ الحصرَ، ولم يَجعَلْ جَزاءَهم على أعمالِهم الدِّينيَّةِ وِفاقًا لأعمالِهم في مَقاديرِ الجزاءِ، بل قال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ومنه جعَل الحسَنةَ بعَشْرِ أمثالِها؛ ولَمَّا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (٦/ ٧٢).

كان الواردُ في آيتَي الزُّمرِ مُنزَّلًا على الحُكمِ حقًّا بين النَّبيِّين والشُّهداءِ والملائكةِ قال تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم﴾ [الزمر: ٧٥]، والضميرُ في الأولى إمَّا أن يَكونَ للنَّبيِّين والشُّهداءِ، وهؤلاء ممَّن يُضاعَفُ أُجورُهم؛ فجيءَ بقولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ تصديقًا لما وُعِدوا مِن الزِّيادةِ، وليس مَوضع وُرودِ القِسْطِ، وإمَّا أن يكونَ للخَلقِ كافَّةً- وفيهم المؤمِنُ والكافرُ-؛ فورَد قولُه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ تصديقًا لِما ورَد في حقِّ الفريقَين: مِن الزِّيادةِ في أجْرِ المؤمنِ، والعدلِ في حقِّ الكافرِ، فلا يُظلَمُ مِثقالَ ذرَّةٍ، وإنَّما جَزاؤُه وِفاقُ عمَلِه، ولا يَصِحُّ هذا إنْ لو قيل: (وقُضي بينَهم بالقسطِ)، وعلى هذا ما ورَد في الآيةِ الأخيرةِ مِن فُروقٍ.

وأمَّا آيَتا يُونُسَ فقد تقدَّم الأولَى مِنهما آياتٌ في تأنيسِ نبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم، وتعنيفِ كفَّارِ قُريشٍ ووَعيدِهم، وتَسْليتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في إبراهيمَ؛ فخِتامُ الآياتِ قَبْلَها بقولِه: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ [يونس: ٤٦]، ثمَّ قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ﴾ [يونس: ٤٧]، أي: حضَرهم في القيامةِ وقد كذَّبوه في الدُّنيا قُضي بينَهم وبينَه، فنَجا المصدِّقُ، وهلَك المكذِّبُ، ولما لم يَقصِدْ هنا تفضيلَ أحوالِ المصدِّقين، بل لَحْظَ الطَّرَفين من التَّصديقِ والتَّكذيبِ، كان موضعُ التَّعبيرِ بـ (القِسْطِ) الَّذي هو العدلُ بينَ المصدِّقِ والمكذِّبِ، وبِناءُ الآياتِ على إرغامِ المكذِّبين، ولا يُناسِبُ هذا إلَّا ذِكْرُ العدلِ بحسَبِ ما بُنِيَت عليه الآياتُ قبلَه، وأمَّا قولُه في الآيةِ بعدُ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾، فمُسِرُّو نَدامتِهم هم المكذِّبون، وهم المشاهِدون العذابَ، والضَّميرُ في قولِه: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم﴾ عائدٌ عليهم؛

فليس موضع التَّعبيرِ بقولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ فوضَح وُرودُ كلٍّ مِن هذه الآياتِ على ما يُناسِبُ ويُلائِمُ[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٤-٢٤٦).

الآيات (٤٨-٥٢)

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَيَٰتًا﴾: أي: ليلًا، وَقتَ اشتِغالِهم بالنَّومِ، وأصلُ (بيت): يدلُّ على مأوى الإنسانِ باللَّيلِ[(١)].

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾: أي: يَستخبِرونَك، والنبأُ: خبرٌ له شأنٌ عظيمٌ. وأصلُ (نبأ): يدلُّ على الإتيانِ من مكانٍ إلى مكانٍ[(٢)].

﴿إِى﴾: أي: نَعَم، وهي كلمةٌ موضوعةٌ لتحقيقِ كلامٍ مُتقَدِّمٍ[(٣)].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ يقولونَ مُخاطبينَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَن

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣١).

اتَّبَعه: متى سيأتي عذابُ اللهِ الذي تَعِدونَنا به إن كُنتم صادقينَ؟

فأمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا أن يُجيبَهم: أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَقدِرُ على ضَرِّ نَفسِه ولا نَفْعِها، إلَّا ما شاء اللهُ أن يَملِكَه ويقدِرَ عليه، وليس ممَّا يقدِرُ عليه أن يأتيَهم بما سألوا من العذابِ، لكلِّ قَومٍ وقتٌ مُحَدَّدٌ قَدَّرَه اللهُ لانقضاءِ مُدَّتِهم، فإذا جاء ذلك الوقتُ فلا يُؤخَّرونَ عنه ساعةً، ولا يتقَدَّمُ أجَلُهم عنه، وأمَرَه أن يقولَ لهم: أخبِروني إن أتاكم عذابُ اللهِ ليلًا أو نهارًا، ماذا يستعجِلُ المجرمونَ مِن العذابِ سِوى الشَّرِّ الذي لا يستطيعونَ اجتنابَه؟! أثمَّ إذا وقع العذابُ بكم آمَنتُم، حين لا ينفَعُكم الإيمانُ، آلآنَ تؤمِنونَ وقد كنتم تستعجِلونَه مُكَذِّبينَ به؟!

ثمَّ يُبَيِّنُ تعالى أنَّه يُقالُ يومَ القيامةِ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم: ذوقوا العذابَ الدَّائِمَ، فهل يَجزيكم اللهُ إلَّا بما كُنتم تَعمَلونه في الدُّنيا.

ثمَّ يقولُ اللهُ لنبيِّه: يستخبِرُك المُشرِكونَ قائلينَ: أحقٌّ ما تَعِدُنا به؟ قل لهم: نعَم وربِّي، إنَّه لحَقٌّ لا شَكَّ فيه، وما أنتم بمعجزينَ الله، بل هو قادِرٌ عليكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

عَطفٌ على جُملةِ ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ [يونس: ٤٦] والمناسَبةُ أنَّه لَمَّا بَيَّنَت الآيةُ السَّالفةُ أنَّ تعجيلَ الوعيدِ في الدُّنيا للمُشرِكينَ وتأخيرَه سواءٌ عند الله تعالى؛ إذ الوعيدُ الأتَمُّ هو وعيدُ الآخرةِ- أُتبِعَت بهذه الآيةِ حكايةً لتهكُّمِهم على تأخيرِ الوَعيدِ[1].

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٨).

أي: ويقولُ المُشرِكونَ: متى سيأتينا عذابُ اللهِ إن كُنتُم- أيُّها الرَّسولُ ومَن اتَّبَعَك- صادقينَ فيما تَعِدونَنا به مِن العَذابِ[١]؟!

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٤٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أمَرَ اللهُ تعالى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يُجيبَ عن شُبهةِ تأخُّرِ الوعيدِ بجوابٍ يحسِمُ المادَّةَ، وهو قولُه: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ والمرادُ أنَّ إنزالَ العذابِ على الأعداءِ، وإظهارَ النُّصرةِ للأولياءِ، لا يَقدِرُ عليه أحَدٌ إلَّا اللهُ سُبحانه، وأنَّه تعالى ما عَيَّنَ لذلك الوعدِ والوعيدِ وقتًا مُعَيَّنًا[٢].

وأيضًا لَمَّا تضَمَّنَ قولُهم: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ ﴾ استعجالَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما يتوعَّدُهم به، أمَرَه بأن يتبَرَّأَ من القدرةِ على شيءٍ لم يُقْدِرْه اللهُ عليه[٣].

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا مُحمَّدُ-: لا أقدِرُ على ضَرِّ نَفسي ولا نَفْعِها في ديني ولا دُنياي، إلَّا ما شاء اللهُ أن أملِكَه وأقدِرَ عليه، ولستُ قادرًا على الإتيانِ بما

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٩).

قيل: المرادُ بالوَعدِ: قيامُ السَّاعةِ. وممَّن اختار ذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٩).

وقيل: الوعدُ المذكورُ هو ما هُدِّدوا به من عذابِ الدُّنيا. وممَّن اختار ذلك: ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٩).

وممَّن قال بنحو هذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٤).

تسألونَني عنه مِن العذابِ[١].

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

أي: لكلِّ قومٍ وقتٌ محددٌ قدَّره اللهُ لانقضاءِ مُدَّتِهم[٢].

﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

أي: إذا جاء وقتُ انقضاءِ أجَلِ كلِّ أمةٍ، فلا يُؤخَّرونَ عن ذلك الوَقتِ الذي قدَّرَه اللهُ لهلاكِهم ساعةً، ولا يتقدَّم أجَلُهم عنه[٣].

كما قال تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان جُلُّ قَصدِ المُشرِكينَ بِقَولِهم السَّابِقِ: الاستهزاءَ، وكان وقوعُه أمرًا مُمكِنًا، وكان مِن شأنِ العاقِلِ أن يَبعُدَ عن كلِّ خَطَرٍ ممكِنٍ- أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بجوابٍ آخَرَ[٤].

وأيضًا فإنَّ هذا جوابٌ ثانٍ عَن قَولِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ باعتبارِ ما يتضَمَّنُه قَولُهم مِن الوَعدِ بأنَّهم يُؤمِنونَ إذا حَقَّ الوَعدُ الذي توعَّدَهم به، وهذا الجوابُ إبداءٌ لخَلَلِ كَلامِهم واضطرابِ استهزائِهم، وقع هذا الأمرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٦-١٣٧).

بأن يُجيبَهم هذا الجوابَ بعد أن أُمِرَ بأن يجيبَهم بِقَولِه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهذا الجوابُ واقِعٌ موقِعَ التَّسليمِ الجَدَليِّ بعد أن يُجابَ المُخطئُ بالإبطالِ[١].

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارًا﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ: أخبِروني إن أتاكم عذابُ اللهِ ليلًا، وقتَ نَومِكم، أو نهارًا، وقتَ اشتغالِكم بمَعاشِكم[٢].

﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

أي: أيَّ شيءٍ[٣] يَستعجِلُ المُشرِكونَ مِن العذابِ إلا الشَّرَّ الذي لا يستطيعونَ دَفْعَه عن أنفُسِهم[٤]؟

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ٥١﴾.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٣).

(٣) على اعتبارِ أنَّ (ما) و (ذا) اسمًا واحدًا، في موضع نصب، ويجوز أن يكون (ما) استفهامًا، و(ذا) بمعنى (الذي)، ويكون المعنى: ما الذي يستعجل منه المجرمون؟ كقولك: أيُّ شيء الذي يستعجل منه المجرمون؟ يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٣).

قال ابنُ عطيَّةَ: (الضميرُ في ﴿مِنۡهُ﴾ يحتملُ أن يعودَ على اللهِ عزَّ وجَلَّ، ويحتملُ أن يعودَ على العَذابِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٠).

قال القرطبي: (أي: إنْ أتاكم العذابُ، فما نَفْعُكم فيه؟! ولا يَنفَعُكم الإيمانُ حِينئذٍ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٠).

أي: أإذا نزَلَ عذابُ اللهِ بكم- أيُّها المُشرِكونَ- آمَنتُم به[١] حين لا ينفَعُكم الإيمانُ[٢]؟!

قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

أي: آلآنَ تُؤمِنونَ- أيُّها المُشرِكونَ- بعد أن وقَعَ بكم العذابُ، وقد كنتُم قبل مَجيئِه تَستعجِلونَه مُكَذِّبينَ به[٣]؟

كما قال تعالى عن فِرعونَ لَمَّا أدرَكَه الغَرَقُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١].

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾.

أي: ثمَّ يُقالُ يومَ القيامةِ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ بالله: تجرَّعوا العَذابَ

---

(١) قيل: المرادُ آمَنتُم بالله، وممَّن اختار ذلك: البغويُّ، وابنُ كثيرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).
وقيل: المرادُ آمَنتُم بالعذابِ. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي(١١/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٤).

الدَّائمَ الذي لا ينقَطِعُ[١].

﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾.

أي: يُقالُ للذينَ ظَلَموا: هل يُجازيكم اللهُ إلَّا بما كُنتُم تعملونَ في الدُّنيا من الكُفرِ والتَّكذيبِ والمعاصي[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ * ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣ - ١٦].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادًا * لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا * لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا * لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَآءً وِفَاقًا * إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبًا * فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢١ - ٣٠].

﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لما أخبَر عن الكفارِ بقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، وأجابَ عنه؛ حكَى عنهم أنَّهم رجَعوا إلى الرسولِ مرةً أخرَى في عينِ هذه الواقعةِ، وسألوه عن ذلك السُّؤالِ مرةً أُخرَى[٣].

وأيضًا فإنَّ هذا حِكايةُ فَنٍّ مِن أفانينِ تكذيبِ المُشرِكينَ، فمَرَّةً يتظاهرونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٤).

باستبطاءِ الوَعدِ استخفافًا به، ومَرَّةً يُقبِلونَ على الرَّسولِ في صورةِ المُستَفهِمِ الطَّالبِ، فيسألونَه: أهذا العذابُ الخالِدُ- أي: عذابُ الآخرةِ- حَقٌّ؟! فالجملةُ مَعطوفةٌ على جملةِ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾[1] [يونس: ٤٨].

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾.

أي: ويَستخبِرُك المُشرِكونَ- يا محمَّدُ- فيقولونَ لك: أحقٌّ ما تَعِدُنا به[2]؟

﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ-: نعَمْ، وأُقسِمُ بربِّي إنَّ ما وعَدْتُكم به لَحَقٌّ واقعٌ، لا شكَّ فيه، وما أنتم بفائِتي اللهِ؛ فهو قادرٌ عليكم[3].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أعظَمُ واعظٍ، وأبلَغُ زاجرٍ لِمَن صار ديدَنُه وهِجِّيراه المُناداةَ لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والاستغاثةَ به عندَ نُزولِ النَّوازِلِ التي لا يَقدِرُ على دَفْعِها إلَّا اللهُ سبحانه، وكذلك مَن صار يطلُبُ مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما لا يقدِرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).
ممَّن اختار أنَّ الضميرَ ﴿هُوَ﴾ يعودُ على البعثِ وقيامِ السَّاعةِ: ابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.
وقيل: المرادُ به العذابُ الأُخرويُّ. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٥).
وقيل: المرادُ به العذابُ الدُّنيويُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٤).
وقال القُرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ أي: يَستَخبرونَك- يا مُحمَّدُ- عن العذابِ وقيامِ السَّاعةِ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

على تحصيلِه إلَّا اللهُ سُبحانَه، فإنَّ هذا مقامُ رَبِّ العالمينَ الذي خلقَ الأنبياءَ والصَّالحين وجميعَ المخلوقينَ، ورَزَقهم، وأحياهم ويُميتُهم، فكيف يُطلَبُ من نبيٍّ من الأنبياءِ، أو مَلَكٍ من الملائكةِ، أو صالحٍ مِن الصالحينَ ما هو عاجزٌ عنه، غيرُ قادرٍ عليه، ويُترَكُ الطَّلَبُ لِرَبِّ الأربابِ، القادرِ على كلِّ شَيءٍ، الخالق الرزاق، المعطي المانِعُ؟! وحَسبُك بما في هذه الآيةِ مَوعِظةً؛ فإنَّ هذا سَيِّدُ ولَدِ آدَمَ، وخاتَمُ الرُّسُل، يأمُرُه اللهُ بأن يقولَ لعبادِه: لا أملِكُ لِنَفسي ضَرًّا ولا نفعًا، فكيف يملِكُه لِغَيره، وكيف يملِكُه غيرُه- مَن رُتبَتُه دون رُتبَتِه، ومَنزِلَتُه لا تبلُغُ إلى مَنزِلتِه- لنفسِه، فضلًا عن أن يَملِكَه لِغَيرِه، فيا عجبًا لِقَومٍ يعكُفونَ على قبورِ الأمواتِ، الذين قد صاروا تحت أطباقِ الثَّرى، ويطلُبونَ منهم من الحوائجِ ما لا يقدِرُ عليه إلَّا اللهُ عزَّ وجَلَّ! كيف لا يتيقَّظونَ لِما وقَعوا فيه مِن الشِّركِ، ولا يتنَبَّهونَ لِما حَلَّ بهم من المُخالفةِ لِمَعنى: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ومَدلولِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1]؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ أحدًا لا يموتُ إلَّا بانقضاءِ أجَلِه، وكذلك المقتولُ لا يُقتَلُ إلَّا على هذا الوجهِ[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجيبَهم بهذا القَسَمِ، والفائدةُ فيه أمورٌ:

أحدها: أن يَستَميلَهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويتكَلَّمَ معهم بالكلامِ

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٢)، ويُنظر أيضًا: ((شرح العقيدة الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ١٢٧).

المُعتادِ، ومن الظَّاهِرِ أنَّ مَن أخبَرَ عن شيءٍ وأكَّدَه بالقَسَمِ، فقد أخرَجَه عن الهَزْلِ، وأدخَلَه في بابِ الجِدِّ. وثانيها: أنَّ النَّاسَ طَبَقاتٌ؛ فمِنهم مَن لا يُقِرُّ بالشَّيءِ إلَّا بالبُرهانِ الحَقيقيِّ، ومنهم من لا ينتَفِعُ بالبُرهانِ الحَقيقيِّ، بل ينتَفِعُ بالأشياءِ الإقناعيَّةِ نحو القَسَمِ[1].

٣- كثرةُ الحَلِفِ مكروهٌ، ولكنْ قد يُستحَبُّ إذا كان فيه مصلحةٌ شرعيَّةٌ، كما أمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾، ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[2] [سبأ: ٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيه حكايةُ قولِهم بصيغةِ المضارِعِ (يَقولون)؛ لِقَصدِ استِحْضارِ الحالةِ، وللدَّلالةِ على تَكرُّرِ صُدورِه مِنهم، والسُّؤالُ مُستعمَلٌ في الاستِبْطاءِ، وهو كِنايةٌ عن عدَمِ اكْتِراثِهم به، وأنَّهم لا يَأْبَهون به؛ لِيَنتقِلَ مِن ذلك إلى أنَّهم مُكذِّبون بحُصولِه بطريقِ الإيماءِ بقَرينةِ قولِهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهُم يُريدون أنَّنا لا نُصدِّقُك حتَّى نرى ما وعَدتَنا؛ كنايةً عن اعتِقادِهم عدَمَ حُلولِه، وأنَّهم لا يُصدِّقون به[3].

٢- قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾: فيه تقديمُ الضَّرِّ؛ لأنَّ مَساقَ النَّظْمِ لإظهارِ العَجْزِ عنه، وأمَّا ذِكْرُ النَّفعِ فلِتَوسيعِ الدَّائرةِ تَكمِلةً للعَجزِ، وما وقَع في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٤).
(٢) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٥٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٩).

سورةِ الأعرافِ مِن تقديمِ النَّفعِ في قوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]؛ للإشعارِ بأهمِّيَّتِه والمقامُ مَقامُه[١].

- قولُه: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ فيه إظهارُ ﴿أَجَلُهُمۡ﴾ في موقعِ الإضمارِ؛ فعلى القولِ بأنَّ الضَّميرَ في ﴿أَجَلُهُمۡ﴾ جُعِل للأُمَمِ المدلولِ عليها بـ (كلِّ أمَّةٍ)؛ فإظهارُ (الأجَلِ) مُضافًا إليه؛ لإفادةِ المعنى المقصودِ الَّذي هو بُلوغُ كلِّ أمَّةٍ أجَلَها الخاصَّ بها، فالإظهارُ في موقعِ الإضمارِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ، والإضافةُ إلى الضَّميرِ؛ لإفادةِ كَمالِ التَّعيينِ، أي: إذا جاءَها أجَلُها الخاصُّ بها[٢].

- قولُه: ﴿فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قدَّم بيانَ انتفاءِ الاستِئْخارِ على بيانِ انتفاءِ الاستقدامِ؛ لأنَّ المقصودَ الأهَمَّ بيانُ عدَمِ خَلاصِهم مِن العذابِ ولو ساعةً، وذلك بالتَّأخُّرِ، بخِلافِ ما في قولِه تعالى: ﴿مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَأۡخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥، والمؤمنون:٤٣]، حيث تقدَّم (السَّبقُ) في الذِّكرِ؛ لأنَّ المرادَ بيانُ سِرِّ تأخيرِ عَذابِهم مع استحقاقِهم له حسَبما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]؛ فالأهَمُّ إذ ذاك بيانُ انتفاءِ السَّبْقِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾

- أمَرَ تعالى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بجوابٍ آخَرَ بعدَ الجوابِ في الآيةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٢).

المتقَدِّمةِ، في قَولِه تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا ﴾، حذَف مِن هذا الجوابِ الآخرِ واوَ العطفِ؛ لئلا يُظنَّ أنَّه لا يكفي في كونِه جوابًا إلا بضمِّه إلى ما عُطِف عليه[١].

- قال: ﴿بَيَٰتًا ﴾ ولم يَقُل: (لَيْلًا) مع أنَّه أكثَرُ استعمالًا، وأظهَرُ مطابقةً مع النَّهارِ؛ لأنَّ المعهودَ في الاستعمالِ عندَ ذِكرِ الإهلاكِ والتَّهديدِ ذِكرُ البَياتِ، وإنْ قُرِنَ به النَّهارُ[٢].

- لَمَّا كان أخذُ اللَّيلِ أنكى وأسرَعَ، قَدَّمَه فقال: ﴿بَيَٰتًا ﴾ أي: في اللَّيلِ بَغتةً وأنتم نائِمونَ[٣].

- لَمَّا كان الظَّفَرُ ليلًا لا يستلزِمُ الظَّفَرَ نهارًا مُجاهرةً، قال: ﴿أَوۡ نَهَارًا ﴾ أي: مُكاشَفةً، وأنتم مُستَيقِظونَ[٤].

- قولُه: ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ يحتملُ أن تَكونَ جملةُ الاستفهامِ جاءت على سبيلِ التَّلطُّفِ بهم، والتَّنبيهِ لهم على أنَّ العذابَ لا ينبَغي أن يُستعجَلَ، ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ جاءَت على سبيلِ التَّعجُّبِ والتَّهويلِ للعذابِ، أي: أيَّ شيءٍ شديدٍ تَستعجِلون مِنه، أي: ما أشدَّ وأهوَلَ ما تستَعجِلون مِن العذابِ[٥]! ويحتملُ أنَّ الاستفهامَ مُستعمَلٌ في الإنكارِ عَليهم، وفي التَّعجُّبِ مِن تَعجُّلِهم العذابَ بنِيَّةِ أنَّهم يُؤمِنون به عندَ نُزولِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٦-١٣٧).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٢).

- وقولُه أيضًا: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، حيث لم يَقُلْ: (ماذا يَستعجِلون منه)؛ لِقَصدِ التَّسجيلِ عليهم بالإجرامِ، وللتَّنبيهِ على خطَئِهم في استعجالِ الوعيدِ؛ لأنَّه يأتي عليهم بالإهلاكِ فيَصيرون إلى الآخرةِ[١]، فإنَّهم لِجُرمِهم ينبغي أن يَفزَعوا من مجيءِ الوَعيدِ لا أن يَستعجِلوا[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ استفهامٌ مستعمَلٌ في الإنكارِ بمعنى التَّغليطِ، وإفسادِ رأيِهم؛ فإنَّهم وعَدوا بالإيمانِ عند نزولِ العذابِ؛ استِهْزاءً مِنهم، فوقَع الجوابُ بمُجاراةِ ظاهرِ حالِهم، وبيانِ أخطائِهم[٣].

- قولُه: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ الاستفهامُ في ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ عن حصولِ إيمانِهم عند حُلولِ ما توَعَّدهم؛ فعبَّر عن وقتِ وُقوعِه باسمِ الزَّمانِ الحاضرِ، وهو (الآنَ)؛ حكايةً لِلسانِ حالِ مُنكِرٍ عليهم في ذلك الوقتِ؛ استحضَر حالَ حُلولِ الوعدِ، كأنَّه حاضرٌ في زمنِ التَّكلُّمِ، وهذا الاستحضارُ مِن تخييلِ الحالةِ المستقبَلةِ واقعةً[٤].

- قولُه: ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يُفيدُ تَشديدَ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، وزيادةَ التَّنديمِ والتَّحسيرِ؛ وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهِۦ﴾ على الفعلِ ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ للاهتمامِ بالوعدِ الَّذي كذَّبوا به، ولِمُراعاةِ الفواصلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٤).

٥- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

- في الإتيانِ بـ(ثُمَّ) إشارةٌ إلى تراخي ذلك عن الإهلاكِ في الدُّنيا بالمُكثِ في البَرزخِ، أو إلى أنَّ عَذابَه أدنى مِن عذابِ يَومِ الدِّينِ[(١)].

- قولُه: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ فيه استعمالُ صِيغةِ المُضِيِّ ﴿قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ في معنى المستقبَلِ؛ تَنبيهًا على تحقيقِ وُقوعِه، مِثلُ ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾[(٢)] [النحل: ١].

- وقولُه: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ- حيث لم يَقُلْ: (قيل لهم)- فوضَع الموصولَ موضِعَ الضَّميرِ؛ لِتَسجيلِ وصفِ الظُّلمِ عليهم، أي: لِذَمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ، وللإشعارِ بعِلِّيَّتِه لإصابةِ ما أصابَهم[(٣)].

- وقولُه: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ بمعنى النَّفيِ؛ ولذلك جاء بعدَه الاستثناءُ ﴿إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وفيه توبيخٌ لهم، وتوضيحُ أنَّ الجزاءَ هو على كَسْبِ العبدِ[(٤)].

- قَولُ الله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ بناه للمَفعولِ؛ لأنَّ المُخيفَ مُطلَقُ الجَزاءِ[(٥)].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٨).

- الاستِفْهامُ في قولِه: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ استفهامٌ على جهةِ الإنكارِ والاستهزاءِ[١].

- وقولُه أيضًا: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ فيه تقديمُ الخبَرِ (حقٌّ) على المبتدَأِ ﴿هُوَ﴾؛ للاهتمامِ به[٢].

- قولُه: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ فيه زيادةُ توكيدٍ بإظهارِ الجملةِ الَّتي كانَت تُضمَرُ بعدَ قولِه: ﴿إِى وَرَبِّىٓ﴾، وهي مَسوقةٌ مُؤكَّدةٌ بـ(إنَّ) واللَّامِ؛ مُبالَغةً في التَّوكيدِ في الجوابِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧١).

الآيات (٥٤-٥٦)

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ تعالى أنَّه لو كان لكُلِّ نَفسٍ كفَرَت باللهِ أو أشركَت به جميعُ ما في الأرضِ، لبَذَلتْه يومَ القيامةِ- لو كان يُقبَلُ منها- لِتَفتديَ به من عذابِ اللهِ تعالى، وأخفى الكُفَّارُ الحَسرةَ والتأسُّفَ على كُفرِهم حين رأَوا عذابَ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ، وتيقَّنوا أنَّه واقِعٌ بهم، وقضى اللهُ بينهم بالعَدلِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم.

ألَا إنَّ لله وَحدَه كلَّ ما في السَّمواتِ والأرضِ، ألا إنَّ وَعدَه تعالى حقٌّ لا محالةَ، ولكِنَّ أكثَرَ أولئك المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ.

هو سبحانَه وَحْدَه يُحيي ويُميتُ، وإليه وَحْدَه- أيُّها النَّاسُ- مَرجِعُكم ومَصيرُكم بعد مَوتِكم، فيُجازيكم يومَ القيامةِ بأعمالِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى العذابَ، وأقسَمَ على حقيقَتِه، وأنَّ المُشرِكينَ لا يُفلِتونَ منه؛ ذكَرَ بعضَ أحوالِ الظَّالِمينَ في الآخرةِ[1]، فقال:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٢).

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾.

أي: ولو أنَّ لكُلِّ نَفسٍ كفَرَت باللهِ، جميعَ ما في الأرضِ، لبَذَلَت ذلك يومَ القيامةِ- لو كان يُقبَلُ منها- لتفتَدِيَ به من عذابِ اللهِ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾.

أي: وأخفَى الكُفَّارُ[٢] الحَسرةَ والتأسُّفَ على كُفرِهم حين رأَوْا عذابَ اللهِ يومَ القيامةِ، واستيقَنوا أنَّه واقعٌ بهم[٣].

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: وقضَى اللهُ بينَ الكُفَّارِ بالعَدلِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٢) ذهب عامَّةُ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ المُرادَ بالكُفَّارِ هنا رُؤساؤُهم، فأخفَوا النَّدامةَ مِن أتباعِهم الذين أضَلُّوهم. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٤).

وذهب ابنُ عطيَّةَ إلى أنَّه عامٌّ في جميعِهم. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٨).

قيل: المراد: وقضى اللهُ يومئذٍ بين الأتباعِ والرُّؤساءِ منهم بالعَدلِ. وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٢).

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى قال قبلَ هذه الآيةِ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ [يونس: ٥٤]، فلا جرَمَ قال في هذه الآيةِ: ليس للظالمِ شَيءٌ يَفتَدي به؛ فإنَّ كلَّ الأشياءِ مِلكُ اللهِ تعالى ومُلكُه[١].

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ألَا[٢] إنَّ لِلَّهِ وَحْدَه جميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، فلا مانِعَ يَمنَعُه من إنفاذِ حُكمِه[٣].

﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ألا إنَّ وعدَ اللهِ[٤] حقٌّ لا محالةَ، ولكنَّ أكثَرَ أولئك المُشرِكينَ لا يعلمونَ

وقيل: معنى: قُضِيَ بينهم: قُضِيَ فيهم، أي: قضِيَ على كلِّ واحدٍ منهم بما يستحِقُّه بالعدل، وليس المعنى أنَّه قُضِيَ بين كلِّ واحدٍ وآخَرَ. وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ عاشورٍ، فقال: (لأنَّ القَضاءَ هنا ليس قضاءَ نزاعٍ، ولكنَّه قَضاءُ زَجرٍ وتأنيبٍ؛ إذ ليس الكلامُ هنا إلَّا على المُشرِكينَ، وهم صِنفٌ واحد، بخلافِ قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [يونس: ٤٧] فإنَّ ذلك قضاءٌ بين المُرسَلِ إليهم وبين الرُّسُلِ، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦- ٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٦).

(٢) قال القرطبي: (﴿أَلَآ﴾ كلمةُ تَنبيهٍ للسَّامِعِ، تُزادُ في أوَّلِ الكلامِ، أي: انتَبِهوا لِما أقولُ لكم). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٤) قيل: المرادُ به: عذابُه للمُشرِكينَ. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٩).

ذلك، فهم به يُكذِّبونَ[١].

﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٥٦﴾.

﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

أي: اللهُ وَحدَه هو المتصَرِّفُ بالإحياءِ والإماتةِ، فلا يتعذَّرُ عليه إحياءُ المُشرِكينَ وغَيرِهم، ولا إماتَتُهم إذا أراد ذلك[٢].

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه مَصيرُكم- أيُّها النَّاسُ- بعد مَوتِكم، فيُجازيكم يومَ القيامةِ بأعمالِكم[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

النفعُ والضرُّ، والثوابُ والعقابُ يكون على الأعمالِ الصالحةِ والسيئةِ، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾، فـ﴿لَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ﴾ بالكفرِ والمعاصي جميعَ ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن ذهبٍ وفضةٍ وغيرهما، لتفتديَ به مِن عذابِ اللهِ يومَ القيامةِ ﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ ولما نفَعها ذلك[٤].

وقيل: المرادُ به: البَعثُ وقيامُ السَّاعةِ. وممن اختار ذلك: ابنُ كثيرٍ، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ ذكَرَ ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ دون أن يُقالَ (ولو أنَّ لكم ما في الأرضِ لافتَدَيتُم به)؛ لأنَّ المعنى أنَّ هذا العذابَ لا تتحَمَّلُه أيَّةُ نَفسٍ على تفاوُتِ الأنفُسِ في احتمالِ الآلامِ[١].

٢- قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ وإنَّما يقَعُ هذا الكِتمانُ منهم قبلَ إحراقِ النَّارِ لهم، فإذا أحرَقَتْهم النَّارُ ألهَـتْهم عن هذا التصَنُّعِ لِمَن كان يَتبَعُهم في الدُّنيا؛ يدلُّ على هذا قَولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ...﴾ الآيات [المؤمنون: ١٠٦]، فهم في هذه الحالِ لا يكتُمونَ نَدَمَهم[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صَدَّرَ الجملةَ بِحَرفِ التَّنبيهِ (ألا) الذي يُفتَتَحُ به الكلامُ؛ لِتَنبيهِ الغافلينَ عن هذه الحَقيقةِ، وإن كانوا يعرفونَها؛ لكثرةِ ذُهولِ النَّاسِ عن تذكُّرِ أمثالِها[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه تقييدُ نَفيِ العِلمِ بالأكثَرِ؛ إشارةً إلى أنَّ منهم مَن يعلَمُ ذلك، ولكِنَّه يجحَدُه مكابرةً[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٥) ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٠).

ويحتملُ أن يكونَ ذكَر الأكثَرَ، والمرادُ به الجميعُ؛ لأن عُظْمَ الشيءِ يقومُ مقامَ جميعِه، فذِكرُ الأكثرِ كذِكْرِ الجميعِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٦٤).

- قولُه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾، فيه تقديمُ خبرِ (أنَّ) ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ على الاسمِ ﴿مَا﴾؛ للاهتمامِ بما فيه مِن العمومِ؛ بحيث يَنُصُّ على أنَّه لا تَسلَمُ نفسٌ مِن ذلك[1].

- وقولُه: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ فيه التَّعبيرُ عن الإسرارِ المستقبَليِّ بلفظِ الماضي ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾؛ تَنبيهًا على تحقيقِ وُقوعِه حتَّى كأنَّه قد مضَى، والمعنى: وسيُسِرُّون النَّدامةَ قطعًا، وكذلك قولُه: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾[2].

- والعدولُ إلى صيغةِ الجمعِ ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ مع تحقُّقِ العمومِ في صورةِ الإفرادِ أيضًا (وأسَرَّت)؛ لإفادةِ تَهويلِ الخَطْبِ بكَونِ الإسرارِ بطريقِ المعيَّةِ والاجتماعِ، ولم يُراعَ ذلك فيما سبَق لتحقيقِ ما يُتوخَّى مِن فرضِ كَونِ جميعِ ما في الأرضِ لكلِّ واحدةٍ من النُّفوسِ[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ تذييلُ إنهاءٍ للكلامِ المتعلِّقِ بصدقِ الرَّسولِ والقرآنِ وما جاء به مِن الوعيدِ، وتَرقُّبِ يومِ البعثِ ويومِ نُزولِ العذابِ بالمشرِكين، وقد اشتَمل هذا التَّذييلُ على مُجمَلِ تفصيلِ ذلك الغرَضِ، وعلى تعليلِه بأنَّ مَن هذه شُؤونُه لا يَعجِزُ عن تَحقيقِ ما أخبَر بوُقوعِه، وافتُتح هذا التَّذييلُ بحَرفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَآ﴾، وأُعيدَ فيه حرفُ التَّنبيهِ للتأكيدِ على استِماعِه، وللتَّنبيهِ على أنَّه كلامٌ جامعٌ هو مُحصِّلةُ الغرَضِ الَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٤).

سَمِعوا تَفصيلَه آنِفًا[١]، وقيل: أعاد حرفَ التنبيهِ (ألا) تأكيدًا لتمييزِه تعالى بهذا التنبيهِ عما سبَقه؛ لأنَّه المقصودُ هنا بذاتِه، وإنَّما ذكر قبلَه للاستدلالِ عليه، أي كلُّ ما وعَد به على لسانِ رسلِه حقٌّ واقعٌ، لا ريبَ فيه؛ لأنَّه وعدُ المالكِ القادرِ على إنجازِ ما وعَد، لا يعجزُه منه شيءٌ[٢].

- وفيه تأكيدُ الخبرِ بحرفِ (إنَّ)؛ للرَّدِّ على المشركين؛ لأنَّهم لَمَّا جعَلوا للهِ شُرَكاءَ فقد جعَلوها غيرَ مَملوكةٍ للهِ، وكذلك أَكَّد بحرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) بعدَ حرفِ التَّنبيهِ (ألَا) في الموضِعَين؛ للاهتمامِ به، ولِرَدِّ إنكارِ مُنكِري بعضِه والَّذين هم بمَنزِلةِ المنكِرين بعضَه الآخَرَ[٣].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تقديمُ خبَرِ إنَّ ﴿لِلَّهِ﴾ على اسمِها ﴿مَا﴾؛ للاهتمامِ باسمِه تعالى، ولإفادةِ القَصْرِ؛ لِرَدِّ اعتقادِهم الشِّرْكَةَ[٤].

- وفي قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ثم قال بعدَ عشرِ آياتٍ مِن الآيةِ المذكورةِ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ [يونس: ٦٦]، ثم قال بعدَ ذلك: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآ﴾ [يونس: ٦٨]، فقال في الآيةِ الأولى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٨- ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ وذلك لأنَّ الأُولى جاءَت بعدَ قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ [يونس: ٥٤]، فكان المعنى: أنَّ النَّفْسَ الظَّالمةَ إذا رأَتْ عذابَ اللهِ تعالى لو مَلَكَت جميعَ ما في الأرضِ لبذَلَته في فداءِ نفسِها، وهي تَحرِصُ على اليَسيرِ مِن حُطامِها في ظُلمِ أهلِها؛ فكرَّر على ذلك بقولِه: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾، أي: إنَّ النَّفسَ الظَّالمةَ لا تَملِكُ ما في الأرضِ فتَفتَدي به، ولو ملَكَتْه لَما قُبِلَ في فِدائِها، وكيف يكونُ لها ذلك، واللهُ تعالى مالِكُ ما في السَّمواتِ والأرضِ، وليس للعبدِ ذلك، ولا مَحِلُّه هنالك؟! فناسَب لهذا المكان: (ما).

وأمَّا الموضعُ الَّذي ذُكِر فيه (مَن) فلم يَصِحَّ فيها غيرُها؛ لأنَّ قبْلَه: ﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ * أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [يونس: ٦٥- ٦٦]، والمعنى: لا يَحزُنْك ما يتَوعَّدُك به الكفَّارُ مِن القتلِ وأنواعِ المكروهِ؛ فإنَّ العزَّةَ للهِ تعالى، لا يَمنَحُ الكفَّارَ قُدرةً على ما يُريدونه مِنك، بل يُعطيك القدرةَ عليهم، والغلَبةَ لهم، فإنَّه يَملِكُ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ، ولا قوَّةَ لهم إلَّا به، ولا قُدرةَ لهم إلَّا مِن عِندِه، فاقتضى هذا المكانُ (مَن)[1].

والسَّببُ في إعادةِ (مَن) في قولِه: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [يونس: ٦٦]، وتَرْكِ إعادةِ (ما) في الآيةِ الأولى ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [يونس: ٥٥]، فلَم يَقُلْ: (وما في الأرضِ): أنَّ المقصودَ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٤٣-٧٤٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٨).

بالذِّكرِ أنَّه قادرٌ على أن يَكفِيَ نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أمْرَه مِمَّن في الأرضِ مِن الكفَّارِ الَّذين بُعِث إليهم، وخوَّفوه أذاهم؛ فقرَن إلى ذِكْرِهم ذِكْرَ مَن في السَّمواتِ، وهم أكبَرُ شأنًا وأعظَمُ أمرًا؛ فإذا مُلِكوا كان مَن دونهم أدْوَنَ؛ فإعادةُ (مَن) مع ذِكرِ الأرضِ؛ للتَّوكيدِ الَّذي اقتَضاه القَصدُ إلى ذِكْرِهم. وأمَّا حذفُ (ما) في الآيةِ الأولى عندَ ذِكْرِ الأرضِ؛ فلأنَّ ذِكرَها قد تَقدَّم، وهو: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٥٤]، فلمَّا قال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، كان ما في ذِكْرِ الأرضِ هناك، ورُجوعُ هذا إلى ذلك المعنى مِثلُ ذِكْرِه في هذا الموضِعِ، فأغْنَى ذلك عن التَّكريرِ[1].

- ووجهُ تَكْرارِ (ما) في قولِه: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ [يونس: ٦٨]، وحَذْفِها من الآيةِ الأولى: أنَّ قَبْلَه: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨]، فنزَّه نفْسَه تعالى عن الولَدِ، وأخبَر أنَّه غنيٌّ عمَّا يُجلَبُ باتِّخاذِه، ويُستفادُ بمَكانِه، إذ كان مالِكًا لكلِّ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، فكان الموضعُ موضعَ توكيدٍ؛ فكأنَّه قال: (إذا كان له كلُّ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، فلِماذا يتَّخِذُ الولدَ؟)، فإعادةُ (ما) في هذا المكانِ؛ لهذا الضَّربِ من التَّوكيدِ، أي: هو غنيٌّ لا يَحتاجُ إلى ولَدٍ يُعينُه على شيءٍ ممَّا في السَّمواتِ، وهو مالِكٌ له كلِّه، ولا إلى أن يُعينَه على شيءٍ ممَّا في الأرضِ، وهو مالِكٌ له بأَسْرِه، فلمَّا تأكَّد الكلامُ في مثلِ هذا المكانِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٤٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٩).

جاءت (ما) مُعادَةً لهذا الشَّأنِ[١].

- وفي قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ إظهارُ اسمِ الجلالةِ دونَ الإتيانِ بضَميرِه؛ لِتَفخيمِ شأنِ الوعدِ، والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ[٢]، ولِتَكونَ الجملةُ مُستقلَّةً؛ لِتَجريَ مَجْرى المثَلِ، والكلامِ الجامعِ[٣].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٤٦-٧٤٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٣-٢٤٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٩).

الآيتان (٥٧-٥٨)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّوۡعِظَةٞ﴾: الوعظُ: تخويفٌ، أو: زجْرٌ مُقترِنٌ بتَخويفٍ، وتذكيرٌ بالخيرِ وما يَرِقُّ له القلبُ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُوجِّهُ الله سُبحانَه نداءً إلى النَّاسِ كافَّةً، فيقولُ: يا أيُّها النَّاسُ، قد أتاكم من ربِّكم قرآنٌ يأمُرُكم ويزجُرُكم، ويرَقِّقُ قُلوبَكم، وهو دواءٌ للقلوبِ مِن الشَّهواتِ والشُّبُهاتِ، ورُشدٌ لِمن اتَّبَعه مِن الخَلقِ، فيُنجيه مِن الهلاكِ، وهو رحمةٌ يحصُلُ به الخيرُ والإحسانُ والثَّوابُ للمُؤمِنينَ، ثمَّ أمر رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ: افرَحوا بالإيمانِ والقُرآنِ، لا بمتاعِ الدُّنيا، وأموالِها الزَّائلةِ؛ فذلك خيرٌ ممَّا يجمَعُه النَّاسُ مِن حُطامِها الفاني.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ الأدلَّةَ على الألوهيَّةِ والوحدانيَّةِ والقدرةِ؛ ذكَرَ الدلائِلَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

الدالَّةَ على صحَّةِ النبوَّةِ، والطَّريقَ المؤدِّيَ إليها وهو القُرآنُ، والمتَّصِفُ بهذه الأوصافِ الشَّريفةِ هو القُرآنُ[١].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّ الرَّسولَ حَقٌّ وصِدقٌ بظهورِ المُعجزاتِ على يَدَيه، في قَولِه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧]، إلى قَولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨] وصَفَ القرآنَ هنا بصفاتٍ أربعٍ: أوَّلُها: كونُه مَوعِظةً. وثانيها: كونُه شِفاءً لِما في الصُّدورِ. وثالثُها: كونُه هدًى. ورابعُها: كونُه رحمةً للعالَمينَ[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ، قد أتاكم قرآنٌ يأمُرُكم ويزجُرُكم، ويرقِّقُ قُلوبَكم، وتَصلُحُ به أحوالُكم، مُنزَّلٌ مِن عندِ رَبِّكم[٣].

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: ودواءٌ للقُلوبِ مِن الشَّهَواتِ والشُّبُهاتِ، يشفي من الجَهلِ والشَّكِّ، والنِّفاقِ والغَيِّ[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٣)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٥، ٤٤ - ٤٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٢٢، ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).

ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: وبيانٌ للحَلالِ مِن الحرامِ، ودليلٌ على الطَّاعةِ والمعصية، ورشدٌ لمن اتَّبَعه، وهو رحمةٌ يحصلُ به الخَيرُ والإحسانُ والثوابُ للمُؤمِنينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سُبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه يتفرَّعُ على كونِ القُرآنِ هُدًى ورحمةً للمُؤمِنينَ تَنبيهُهم إلى أنَّ ذلك فضلٌ مِن اللهِ عليهم ورحمةٌ بهم، يحِقُّ لهم أن يَفرَحوا بهما، وأن يَقْدُروا قَدْرَ نِعمَتِهما، وأن يعلَموا أنَّها نِعمةٌ تَفوقُ نعمةَ المالِ التي حُرِمَ منها أكثَرُ المؤمنينَ، ومُنِحَها أكثَرُ المُشرِكينَ(٢).

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ(٣)-: بالإسلامِ والقرآنِ فلْيَفرَحوا، لا بمتاعِ الدُّنيا الفانيةِ، وأموالِها الزَّائلةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣، ١٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٣).

(٣) قيل: المرادُ: قُلْ للمُشرِكينَ. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٤، ١٩٨).

وقيل: المرادُ: قُلْ لجَميعِ النَّاسِ. وممَّن اختار ذلك: ابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٤، ١٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣١).

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

أي: الإسلامُ والقُرآنُ خَيرٌ مما يجمَعُ النَّاسُ في الدُّنيا مِن مَتاعٍ وأموالٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. قَولُه: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: دواءٌ للقُلوبِ مِن داءِ الجَهلِ والشبهات والشهوات وغيرها؛ لأنَّ داءَ الجهلِ أضرُّ للقلبِ مِن المَرَض للبَدَن، وأمراضُ القلبِ هي الأخلاقُ الذَّميمةُ، والعقائِدُ الفاسدةُ، والجَهالاتُ المُهلِكةُ، والقرآنُ مُزيلٌ لهذه الأمراضِ كُلِّها؛ لأنَّ فيه المواعِظَ والزَّواجِرَ، والتخويفَ، والتَّرغيبَ والتَّرهيبَ، والتَّحذيرَ والتَّذكيرَ، فهو

قال الواحدي: (قال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ: فضلُ الله الإسلامُ، ورحمتُه القرآنُ. وهذا قولُ عامةِ المفسِّرين). ((الوسيط)) (٢/ ٥٥١).

قال ابنُ القَيِّم: (قال أبو سعيدٍ الخُدريُّ: فضلُ الله: القرآنُ، ورحمتُه: أنْ جَعَلَكم مِن أهلِه، وقال هلالُ بنُ يساف: بالإسلامِ الذي هداكم إليه، وبالقرآنِ الذي علَّمَكم إيَّاه، هو خيرٌ مما تَجمَعون: من الذَّهَبِ والفِضَّة، وكذلك قال ابنُ عبَّاس والحَسَن وقتادة: فَضْلُه: الإسلامُ، ورحمتُه: القرآنُ، وقالت طائفةٌ من السَّلَفِ: فَضْلُه: القرآنُ، ورَحمتُه: الإسلامُ.

والتحقيقُ: أنَّ كُلًّا منهما فيه الوَصفانِ؛ الفَضلُ والرحمةُ، وهما الأمرانِ اللَّذانِ امتَنَّ الله بهما على رسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٣١).

وقال ابن عاشور: (لم يختلف المفسِّرون في أنَّ القرآنَ مرادٌ مِن فَضلِ اللهِ ورَحمتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٤، ١٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٥).

قال ابنُ عاشورٍ: (ضَميرُ ﴿يَجْمَعُونَ﴾ عائدٌ إلى النَّاسِ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾ [يونس: ٥٧] بقرينةِ السِّياقِ، وليس عائدًا إلى ما عاد إليه ضميرُ ﴿فَلْيَفْرَحُوا۟﴾؛ فإنَّ القَرائنَ تصرِفُ الضَّمائِرَ المُتشابِهةَ إلى مصارِفِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٥).

الشِّفاءُ لهذه الأمراضِ القَلبيَّةِ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إذا حصل الهُدى، وحَلَّت الرَّحمةُ النَّاشِئةُ عنه، حصلتِ السَّعادةُ والفلاحُ، والرِّبحُ والنَّجاحُ، والفَرَح والسُّرورُ؛ ولذلك أمَرَ تعالى بالفَرَحِ بذلك، فقال: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ إذا حَصَلَت اللَّذَّاتُ الرُّوحانيَّةُ، فإنَّه يجِبُ على العاقِلِ ألَّا يفرَحَ بها من حيثُ هي هي، بل يجِبُ أن يفرَحَ بها من حيثُ إنَّها مِن اللهِ تعالى، وبفضلِ اللهِ وبِرحمتِه[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ فيه كراهةُ تأسفِ القارئِ والعالمِ على ضيقِ حالِه في الدُّنيا، واستحبابُ تذكرِه أنَّ ما أُوتي أفضلُ مما أُوتي أصحابُ الأموالِ[٤].

٥- نِعمةُ الدِّينِ المتَّصِلةُ بسَعادةِ الدَّارَينِ، لا نسبةَ بينها وبين جميعِ ما في الدُّنيا، ممَّا هو مُضمَحِلٌّ زائِلٌ عن قَريبٍ، قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ مِن مَتاعِ الدُّنيا ولذَّاتِها[٥].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ إنَّما أمَرَ اللهُ تعالى بالفَرَح بفَضلِه ورَحمتِه؛ لأنَّ ذلك ممَّا يُوجِبُ انبساطَ النَّفسِ ونَشاطَها،

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٠).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٦).

وشُكرَها لله تعالى وقوَّتَها، وشِدَّةَ الرَّغبةِ في العِلمِ والإيمانِ الدَّاعي للازديادِ منهما، وهذا فَرَحٌ مَحمودٌ، بخلافِ الفَرَحِ بشهواتِ الدُّنيا ولذَّاتِها، أو الفَرَحِ بالباطلِ؛ فإنَّ هذا مذمومٌ(١).

٧- الفَرحُ في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ هو فرحُ القَلبِ، وهو مِن الإيمانِ، ويثابُ عليه العبدُ، فإنَّ فَرَحَه به يدلُّ على رِضاه به، بل هو فَوقَ الرِّضا؛ لأنَّه يكونُ على قَدْرِ محبَّتِه، فإنَّ الفَرحَ إنَّما يكونُ بالظَّفَرِ بالمحبوبِ، وعلى قَدْرِ محبَّتِه يفرحُ بحُصولِه له، فالفرَحُ باللهِ وأسمائِه وصِفاتِه، ورَسولِه وسُنَّتِه وكلامِه، محضُ الإيمانِ وصَفوتُه ولُبُّه، وله عبوديَّةٌ عجيبةٌ، وأثَرُ القَلبِ لا يعبِّرُ عنه، فابتهاجُ القَلبِ وسُرورُه وفَرَحُه باللهِ وأسمائِه وصِفاتِه، وكلامِه ورَسولِه ولقائِه؛ أفضَلُ ما يُعطاه، بل هو أجَلُّ عطاياه، والفَرَحُ في الآخرةِ باللهِ ولقائِه بحَسَبِ الفَرَحِ به ومحبَّتِه في الدُّنيا، فالفَرَحُ بالوصولِ إلى المحبوبِ يكونُ على حسَبِ قُوَّةِ المحبَّةِ وضَعفِها، فهذا شأنُ فَرَحِ القَلبِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ المرادُ بما جاءَهم وبَلَغَهم هو ما أُنزِلَ من القرآنِ، وقُرِئَ عليهم، وقد عبَّرَ عنه بأربعِ صِفاتٍ هي أصولُ كَمالِه وخَصائِصِه وهي: أنَّه مَوعِظةٌ، وأنَّه شِفاءٌ لِما في الصُّدورِ، وأنَّه هُدًى، وأنَّه رَحمةٌ للمُؤمِنينَ(٣).

٢- قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٦).
(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠١).

وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فالقُرآنُ شِفاءٌ لِما في الصُّدورِ مِن مَرَضِ الجهلِ والغَيِّ؛ فإنَّ الجَهلَ مَرَضٌ شفاؤه العِلمُ والهُدى، والغَيَّ مَرَضٌ شِفاؤُه الرُّشدُ(١).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جعَلَه تبارك وتعالى رحمةً للمُؤمِنينَ به دونَ الكافرينَ به؛ لأنَّ مَن كفَرَ به فهو عليه عَمًى، وفي الآخرةِ جزاؤُه على الكُفرِ به الخلودُ في لظَى(٢).

٤- قال تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الهدُى أجلُّ الوسائِلِ، والرَّحمةُ أكمَلُ المقاصِدِ والرَّغائِبِ(٣).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ دخولُ الباءِ على كلٍّ مِن الفَضلِ والرَّحمةِ هنا يدلُّ على استقلالِ كلٍّ منهما بالفَرَحِ به(٤).

٦- شَرَعَ اللهُ لهذه الأُمَّةِ الفرحَ والسرورَ بتمامِ نِعمَتِه وكمالِ رَحمَتِه، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾(٥).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ لا تَنافي بين الأمرِ بالفَرَحِ هنا، وبين النَّهيِ عنه في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] لاختلافِ المتعَلَّقِ، فالمأمورُ به هنا الفَرَحُ بفَضلِ اللهِ وبرَحمتِه، والمنهيُّ هناك الفَرَحُ بجَمعِ الأموالِ لرئاسةِ الدُّنيا، وإرادةِ العُلُوِّ بها، والفَسادِ والأشَرِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٣).
(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٦٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٦).

بَلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فيه الْتِفاتٌ، ورجوعٌ إلى استِمالَتِهم نحوَ الحقِّ، واستنزالِهم إلى قَبولِه واتِّباعِه، بعدَ تحذيرِهم مِن غَوائلِ الضَّلالِ بما تُلِيَ عليهم مِن القوارِعِ النَّاعيةِ عليهم سوءَ عاقبتِهم، وإيذانٌ بأنَّ جميعَ ذلك مَسوقٌ لِمَصالِحِهم ومَنافعِهم[١].

- وافتِتاحُ الكلامِ بـ ﴿قَدۡ﴾؛ لِتَأكيدِه؛ لأنَّ في المُخاطَبين كثيرًا ممَّن يُنكِرُ هذه الأوصافَ للقرآنِ[٢].

- قولُه: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فيه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، وهو حَسنُ الموقِعِ هنا؛ ففيه تنبيهٌ على أنَّها بالغةٌ غايةَ كَمالِ أمثالِها[٣]، وتذكيرٌ بما يَزيدُها تعظيمًا، وتبيينٌ لوجوبِ الاتِّعاظِ بها إيمانًا وتسليمًا؛ لأنَّها مِن مالكِ أمرِ النَّاسِ، ومُرَبِّيهم بفَضلِه ورَحمتِه، وعِلمِه وحِكمتِه[٤].

- وقَولُه تعالى: ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ خُصَّ الصَّدرُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه مَوضِعُ القَلبِ وغيرِه، وهو أعزُّ مَوضعٍ في الإنسانِ لِمكانِ القَلبِ[٥].

- وفيه تنكيرُ كلٍّ مِن ﴿مَّوۡعِظَةٞ﴾ ﴿وَشِفَآءٞ﴾ ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾؛ للتَّفخيمِ[٦].

٢- قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٥).

- قولُه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ فيه تلوينٌ للخِطابِ، وتوجيهٌ له إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَأمرَ النَّاسَ بأن يَغتنِموا ما في القرآنِ العظيمِ مِن الفضلِ والرَّحمةِ[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ فيه حذْفُ أحَدِ الفِعلَين؛ لِدَلالةِ المذكورِ عليه؛ إذ أصلُ الكلامِ: (بِفَضلِ اللهِ وبِرَحمتِه فَلْيَفرَحوا، فبذلك فَليَفرحوا)، والتَّكريرُ للتَّأكيدِ والتَّقريرِ[٢].

- وأخَّرَ الأمرَ، وقدَّمَ عليه متعَلَّقَه؛ لإفادةِ الاختصاصِ؛ فإنَّ أصلَ المعنى بدونِهما: (قُل لِيَفرَحوا بفضلِ الله وبِرَحمتِه)، كأنَّه قال: (إنْ كان في الدنيا شيءٌ يستَحِقُّ أن يُفرَحَ به، فهو فضلُ اللهِ ورَحمتُه)[٣].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ للمذكورِ، وهو مجموعُ الفضلِ والرَّحمةِ، واخْتِير للتَّعبيرِ عنه اسمُ الإشارةِ (ذَلِكَ)؛ لِما فيه مِن الدَّلالةِ على التَّنويهِ والتَّعظيمِ، مع زيادةِ التَّمييزِ والاختصارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٤).

الآيتان (٥٩-٦٠)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ للمُشرِكينَ: أخبِروني عن هذا الرِّزقِ الذي خلَقَه اللهُ لكم، فأحللتُم بعضَ ذلك لأنفُسِكم، وحرَّمتُم بَعضَه، قلْ لهم: هل اللهُ أباح لكم تحليلَ ما أحلَلْتُم، وتحريمَ ما حرَّمتُم، أم أنَّكم تَختَلِقونَ عليه الكَذِبَ؟!

ثمَّ توعَّدَهم سبحانَه بسوءِ المَصيرِ على جُرأتِهم وكَذِبِهم، فقال: وما يظُنُّ هؤلاءِ الذينَ يتخَرَّصونَ على اللهِ الكَذِبَ، أنَّ اللهَ فاعِلٌ بهم يومَ القيامةِ بكَذِبِهم وفِريَتِهم عليه؟! أيحسَبونَ أنَّه سيتركُهم بدونِ عِقابٍ؟ كلَّا، إنَّ عقابَهم لَشديدٌ بسببِ افترائِهم عليه الكَذِبَ، إنَّ اللهَ لذو فَضلٍ على خَلْقِه بنِعَمِه الكثيرةِ، والتي منها تسخيرُه نِعَمَ الدُّنيا لهم، وإمهالُه العاصينَ وعدمُ مُعاجَلتِهم بالعقوبةِ، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكرونَ اللهَ على تفَضُّلِه عليهم بذلك.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الدَّلائِلَ الكثيرةَ على صِحَّةِ نبُوَّةِ نَفسِه، وبيَّنَ فسادَ سؤالاتِهم وشُبُهاتِهم في إنكارِها- أتبَعَ ذلك ببيانِ فَسادِ طَريقتِهم في شرائِعِهم

وأحكامِهم، وبيَّنَ أنَّ التَّمييزَ بين هذه الأشياءِ بالحِلِّ والحُرمةِ- مع أنَّه لم يشهَدْ بذلك لا عَقلٌ ولا نَقلٌ- طريقٌ باطِلٌ، ومَنهجٌ فاسِدٌ، والمقصودُ إبطالُ مذاهِبِ القومِ في أديانِهم وفي أحكامِهم، وأنَّهم ليسُوا على شيءٍ في بابٍ مِن الأبوابِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى قولَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[يونس: ٥٧]، وكان المرادُ بذلك كتابَ اللهِ المُشتَمِلَ على التَّحليلِ والتَّحريمِ- بيَّنَ فسادَ شَرائِعِهم وأحكامِهم من الحلالِ والحرامِ مِن غَيرِ مُستنَدٍ في ذلك إلى وَحيٍ(٢).

وأيضًا فهذا الكلامُ وقَع عقبَ ما تقدَّم مِن تكذيبِهم بالقرآنِ، وادعائِهم أنَّه مفترى، وأنَّه ليس بحقٍّ، ثم إبطالِ أن يكونَ القرآنُ مفترًى على الله؛ لأنَّه اشتَمل على تفصيلِ الشريعةِ، وتصديقِ الكتبِ السالفةِ، ولأنَّه أعجزَ مكذِّبيه عن معارضتِه، فلما استوفَى ذلك بأوضحِ حجَّةٍ، وبانَتْ لقاصدِ الاهتداءِ المحجةُ، لا جرَمَ دالت النوبةُ إلى إظهارِ خَطلِ عقولِهم، واختلالِ تكذيبِهم(٣).

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: أخبِروني عن الرِّزقِ الذي خَلَقَه اللهُ لكم، فجعَلْتُم بعضَه حرامًا عليكم، وبَعضَه حلالًا لكم(٤).

﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).

ومعنى إنزالِ الرزق: كونُه مقَدَّرًا في السماءِ، محصَّلٌ هو أو ما يتوقَّفُ عليه وجودًا أو بقاءً بأسبابٍ سَماويَّةٍ، كالمطرِ الذي ينزلُ من جهةِ العلوِّ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٩).

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: آللَّهُ أذِنَ لكم بأن تُحَرِّموا ما حرَّمتُم، وتُحِلُّوا ما أحلَلْتُم، أم أنَّكم تكذِبونَ على اللهِ في ذلك[1]؟!

كما قال سُبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨-١٣٩].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).
قال أبو حيان: (والظَّاهرُ أنَّ «أم» مُتَّصلةٌ، والمعنَى: أخْبِرونِي آللَّهُ أذِنَ لكم في التَّحليلِ والتحريمِ، فأنتم تفعلونَ ذلك بإذنِه، أم تكذبونَ على اللَّه في نسبةِ ذلك إليه؟ فنبَّه بتوقيفِهم على أحدِ القسمينِ، وهم لا يمكنُهم ادِّعاءُ إذنِ اللَّه في ذلك فثبَت افتراؤُهم. وقال الزمخشري: ويجوزُ أن تكونَ الهمزةُ للإنكارِ، و(أم) منقطعةٌ بمعنى (بل) أتفترونَ على الله تقريرًا للافتراءِ. انتهَى). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٧)، ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٤).

[الأعراف: ٣٢].

﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان قد مضَى من أدلَّةِ المعادِ ما صَيَّرَه كالشَّمسِ، وكان افتراؤُهم قد ثبت بعَدَمِ قُدرتِهم على مُستنَدٍ بإذنِ اللهِ لهم في ذلك؛ قال مشيرًا إلى أنَّ القيامةَ ممَّا هو معلومٌ لا يَسوغُ إنكارُه[1]:

﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾.

أي: وما ظنُّ الذين يتقوَّلونَ على اللهِ الكَذِبَ أن يَحُلَّ بهم يومَ القيامةِ مِن النَّكالِ؟ أيحسَبونَ أنَّ اللهَ لا يُعاقِبُهم به[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لَصاحِبُ تفَضُّلٍ على النَّاسِ بنِعَمِه الكثيرةِ؛ ومنها: ما سخَّره لهم من نِعَمِ الدُّنيا وأباحه لهم، ومنها إمهالُ العاصِينَ، وعَدَمُ معاجَلتِهم بالعقوبةِ، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ اللهَ على ما تفضَّلَ به مِن نِعَمٍ، بل يستعينون بها على مَعصِيتِه، ويحرِّمون بَعضَها[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ فيه إنكارٌ على من حَرَّمَ ما أحَلَّ الله، أو أحَلَّ ما حرَّمَ، بمجَرَّدِ الآراءِ والأهواءِ التي لا مُستنَدَ لها، ولا دليلَ عليها[١]، وكفَى بهذه الآيةِ زاجرةً زجْرًا بليغًا عن التَّجوُّزِ فيما يُسأَلُ عنه مِن الأحكامِ، وباعثًا على وُجوبِ الاحتياطِ فيه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ عبَّرَ عن الخَلْقِ بالإنزالِ؛ تنبيهًا على أنَّه شَيءٌ لا يُمكِنُ للمُشرِكينَ ادِّعاؤه لأصنامِهم؛ لنزولِ أسبابِه من موضِعٍ لا تعلُّقَ لهم به بوجهٍ[٣].

٢- الأصلُ في العباداتِ التَّوقيفُ، فلا يُشرَعُ منها إلَّا ما شَرَعه اللهُ تعالى، وإلَّا دخَلْنا في معنى قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. والعاداتُ الأصلُ فيها العفوُ، فلا يُحظَرُ منها إلَّا ما حَرَّمَه، وإلَّا دَخَلْنا في معنى قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٧).

حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴾ فيه أنَّ كُلَّ ما خلقَه اللهُ تعالى للنَّاسِ، وسَخَّرَه من سائرِ مَنافعِ الكونِ، الأصلُ فيه الإباحةُ كالرِّزقِ، ويؤخَذُ من هذه الآيةِ بالفحوَى، وبناءِ المِنَّةِ فيه على كَونِه منه تعالى[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴾ ذَمٌّ لمَن دانَ بغير شرعِ اللهِ سبحانه[٢].

٥- الإذنُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴾ هو إِذْنٌ شرعيٌّ- وهو ما يأمرُ به سبحانَه ويَرضاه- وأمَّا الإذنُ الكَونيُّ، فهو كقولِه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: بمَشيئَتِه وقدَرِه[٣].

٦- إنَّ المشركين قد ارتكبوا في دينِهم بما يلزمُهم منه مماثلةُ الحالةِ التي أنكروها، فإنَّهم قد وضعوا دينًا، فجعلوا بعضَ أرزاقِهم حلالًا لهم، وبعضَها حرامًا عليهم، كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴾ فإن كان ذلك حقًّا بزعمِهم، فمَن الذي أبلَغهم تلك الشرائعَ عن الله، ولماذا تقبَّلوها عمَّن شرَعها لهم، ولم يكذِّبوه، وهم لا يستطيعون أن يلتزموا ذلك، وإن كان ذلك مِن تلقاءِ أنفسِهم فقد افتروا على الله، فلزِمهم ما ألصقوه بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فعلق بهم، وبرأ الله منه رسولَه، فهذا الاستدلالُ مِن الطريقِ المسمَّى بالقلبِ[٤]

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).

(٤) المعارضةُ على سبيلِ القلبِ: هي معارضةُ دليلِ المعللِ بعينِ دليلِه، وإيضاحُه أن يقولَ له: دليلُك هذا ينتجُ نقيضَ دعواك، فهو حجةٌ عليك لا لك، وسُمِّيت معارضةً بالقلبِ؛ لأنَّه قلَب

في علمِ الجدلِ[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ هذه الآيةُ وإن كانت في صُورةِ الاستعلامِ، إلَّا أنَّ المرادَ منها تعظيمُ وعيدِ مَن يَفتَري عليه تعالى[٢].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ هذا تهديدٌ، فكيف ناسَبَه قَولُه بعدُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؟ الجواب: هو مُناسِبٌ لأنَّ مَعناه: إنَّ الله لذو فَضلٍ على النَّاسِ؛ حيث أنعمَ عليهم بالعَقلِ، وإرسالِ الرُّسُلِ، وتأخيرِ العذابِ، وفتحِ بابِ التَّوبةِ، أي: كيف تَفتَرونَ على اللهِ الكَذِبَ مع تضافُرِ نِعَمِه عليكم[٣]؟!

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴾، الاستفهامُ في ﴿أَرَءَيۡتُم﴾ و﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡ﴾ تقريريٌّ، باعتبارِ إلزامِهم بأحَدِ الأمْرَينِ؛ إمَّا أن يكونَ اللهُ أَذِن لهم، أو أنْ يَكونوا مُفتَرين على اللهِ، وقد شِيبَ التَّقريرُ في ذلك بالإنكارِ[٤].

- و﴿ قُلۡ ﴾ الثَّاني تأكيدٌ لـ﴿ قُلۡ ﴾ الأوَّلِ، وهو معترِضٌ بينَ جملةِ الاستفهامِ

عليه دليلَه بعينِه حجةً عليه لا له. يُنظر: ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (ص: ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٩-٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٨).

الأولى وجملةِ الاستفهامِ الثَّانيةِ؛ لزيادةِ إشرافِ الأسماعِ عليه[١].

- قولُه: ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ و(أَمْ) متَّصِلةٌ، والاستفهامُ للتَّقريرِ والتَّبكيتِ؛ لتَحقُّقِ العلمِ بالشِّقِّ الأخيرِ قطعًا، كأنَّه قيل: أم لم يَأذَنْ لكم، بل تَفترون عليه سُبحانه؛ ويجوزُ أن يكون الاستفهام للإنكارِ، و﴿أَمْ﴾ منقطِعةٌ، بمعنى: بَلْ أَتَفْتَرون على اللهِ؛ تقريرًا للافتراءِ[٢].

- وفيه: إظهارُ الاسمِ الجليلِ، وتقديمُه على الفعلِ ﴿تَفْتَرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على كمالِ قُبحِ افترائِهم، وتأكيدًا للتَّبكيتِ إثْرَ تأكيدٍ، مع مُراعاةِ الفَواصلِ[٣].

- واختيارُ الاستدلالِ عليهم بشيءٍ مِن تشريعِهم في خصوصِ أرزاقِهم في قولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ...﴾ يزيدُ هذا الاستدلالَ مناسبةً بآخرِ الكلامِ الذي قبلَه؛ ليظهرَ ما فيه مِن حسنِ التخلُّصِ إليه، وذلك أنَّ آخرَ الكلامِ المتقدِّم جملةُ ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، أي: مِن أموالِهم، وتلك الأموالُ هي التي رزَقهم الله إيَّاها، فجعَلوا منها حلالًا، ومنها حرامًا، وكفَروا نعمةَ الله؛ إذ حرَّموا على أنفسِهم مِن طيِّباتِ ما أعطاهم ربُّهم، وحسبُهم بذلك شناعةً بهم ملصقةٌ، وأبوابًا مِن الخيرِ في وجوهِهم مغلقةٌ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ (ما) للاستفهامِ، وهذا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٧-٢٠٨).

الاستفهامُ مُستعمَلٌ هنا في التَّعجُّبِ مِن حالِهم، والمقصودُ به: التَّعريضُ بالمشرِكين؛ لِيَستَفيقوا مِن غَفلتِهم، ويُحاسِبوا أنفُسَهم[١].

- وأبْهمَ الأمرَ، أي: لم يُوضِّحْ جَزاءَهم، على سبيلِ التَّهديدِ والإيعادِ يومَ يكونُ الجزاءُ بالإحسانِ والإساءةِ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ العدولُ عن مُقتَضى الظَّاهرِ إلى الإتيانِ بالموصولِ بالصِّلةِ المختصَّةِ بهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ ...﴾- إذْ كان مُقتَضى الظَّاهرِ أن يُؤتى بضَميرِ (هُم) مُضافًا إليه الظَّنُّ، إمَّا ضميرَ خطابٍ أو غَيبةٍ، فيُقالَ: (وما ظَنُّكم) أو (وما ظنُّهم)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ التَّرديدَ بين أن يَكونَ اللهُ أَذِن لهم فيما حرَّموه، وبين أن يَكونوا مُفتَرين عليه قد انحصَر في القسمِ الثَّاني، وهو كونُهم مُفتَرين؛ إذ لا مَساغَ لهم في ادِّعاءِ أنَّه أَذِن لهم، فإذا تعيَّن أنَّهم مُفتَرون، فقد صار الافتراءُ حالَهم المختصَّ بهم، وفي الموصولِ إيذانٌ بعِلَّةِ التَّعجُّبِ مِن ظنِّهم بأنفُسِهم يومَ القيامةِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ تذييلٌ للكلامِ المفتتَحِ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وفيه قطعٌ لِعُذرِ المشركين، وتَسجيلٌ عليهم بالتَّمرُّدِ بأنَّ اللهَ تفضَّل عليهم بالرِّزقِ والموعظةِ والإرشادِ، فقابَلوا ذلك بالكفرِ دون الشُّكرِ، وجعَلوا رِزقَهم أنَّهم يُكذِّبون، في حينِ قابَله المؤمِنون بالفرَحِ والشُّكرِ فانتفَعوا به في الدُّنيا والآخرةِ[٤]، مع ما فيه من التَّأكيدِ بـ(إنَّ) واللاَّمِ واسْميَّةِ الجملةِ.

- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢١١).

﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وكذلك في سورةِ النَّملِ قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٣]، وأمَّا في البقرةِ ويوسُفَ وغافرٍ، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣، يوسف: ٣٨، غافر: ٦١]، ووجهُ ذلك: أنَّ في سورةِ يونُسَ تقدَّم قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥] فوافَقه، وفي غيرِها جاء بلفظِ الصَّريحِ[1]، وأيضًا لأنَّ آيةَ غافرٍ لَمَّا تقدَّمها قولُه تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، ومقصودُ هذه الآيةِ تحريكُ الخلقِ للاعتبارِ، والتَّذكيرُ بما نصَب سبحانه مِن الدَّلائلِ والآياتِ؛ فاقتَضى ذلك تَكْرارَ الظَّاهرِ، كما في آيةِ التَّذكيرِ والتَّنبيهِ، ثمَّ جيءَ بعدَ هذا بقولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾؛ فنُوسِبَ بينَ هذا وبينَ ما تقدَّم؛ لِتَجيءَ هذه الآياتُ على مِنهاجٍ واحدٍ مِن التَّذكيرِ، فاقتضَتِ الثَّانيةُ تَكْريرَ الظَّاهرِ. وأمَّا آيةُ يونُسَ فإنَّما تقدَّمها تأنيسٌ بقولِه تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ...﴾ الآيةَ [يونس: ٥٨]، ثمَّ رجَع الكلامُ إلى تَعنيفِ الكُفَّارِ في تَحْكيمِهم، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، ثمَّ قال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، ولم يتقدَّمْ تَكريرٌ يُطلَبُ بمُناسَبةٍ؛ فلِذلك ورَد الكلامُ على ما هو الأصلُ مِن الإتيانِ بالضَّميرِ؛ لِيَحصُلَ به ربطُ الكلامِ، فجاء كلٌّ مِن الموضِعَينِ على ما يَقتَضيه ما قَبلَه؛ رَعيًا لِتَناسُبِ الكلامِ[2].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤١).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٦).

الآيات (٦١-٦٤)

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُفِيضُونَ﴾: أي: تأخُذونَ فيه، وتَخوضونَ، وأصلُ (فيض): يدلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بسُهولةٍ[١].

﴿يَعْزُبُ﴾: أي: يَبعُدُ ويَغيبُ، وأصلُ (عزب): يدلُّ على تباعُدٍ وتنَحٍّ[٢].

﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: أي: زنةِ نملةٍ صغيرةٍ، يقالُ: هذا على مثقالِ هذا أي: على وزنِ هذا، وأصلُ (ثقل): ضدُّ الخفةِ، والذَّرَّةُ هي أصغرُ النَّملِ، وتُطلقُ كذلك على ما لا وزنَ لها، وما يرفعُه الريحُ مِن الترابِ، وأجزاءِ الهواءِ في الكوةِ[٣]، وأصلُ (ذَرَّ): يَدُلُّ على لَطافَةٍ وانتشارٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٧، ٣٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢).

(٣) الكوةُ- بفتحِ الكافِ وضمِّها- : الخرقُ في الحائطِ ونحوِه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٩/ ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)،

مشكلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾

﴿مِن مِّثۡقَالِ﴾: فاعلٌ لـ﴿يَعۡزُبُ﴾ مرفوعٌ محلًّا، مجرورٌ لَفظًا، و (مِنْ) حرفُ صِلةٍ، ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ (ولا): الواوُ عاطفةٌ. (لا) زائدةٌ؛ لتأكيدِ النفي. (أصغَرَ وأكبرَ) مجروران عطفًا على لفظِ ﴿مِّثۡقَالِ﴾، أو على﴿ذَرَّةٖ﴾، وجرُّهما بالفتحةِ نيابةً عن الكسرةِ؛ لأنَّهما ممنوعانِ مِن الصَّرفِ؛ للوَصفيَّةِ ووَزنِ الفِعلِ. و﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾: أي: إلَّا هو في كتابٍ، والاستثناءُ مُنقطِعٌ. وقيل: (لا) فيهما نافيةٌ للجنسِ و (أصغر) و(أكبر) اسماها، فهما مَبْنيانِ على الفتحِ. ويوقَفُ على ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ومَا بعْدهَا مُسْتَأْنف ليس معطوفًا على ما قبلَه. و﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ (إلَّا) أداةُ حصرٍ، و (فِي كِتَابٍ) متعلِّقٌ بمحذوفٍ خبر (لا) النافيةِ للجنسِ.

وقُرِئ: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ بالرفع فيهما عطفًا على محلِّ ﴿مِّثۡقَالِ﴾؛ لأنَّه في موضعِ رفعٍ بـ﴿يَعۡزُبُ﴾. أو هو مبتدأٌ، و (في كتاب) متعلقٌ بمحذوفٍ خبرٌ له[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وما تكونُ- يا مُحمَّدُ- في أيِّ عملٍ من الأعمالِ، وما تتلو من سورةٍ من القُرآنِ، ولا تعملونَ- أيُّها النَّاسُ- عملًا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، صغيرًا أو كبيرًا، إلَّا واللهُ مطَّلِعٌ عليكم، حين تأخُذونَ فيه وتَعمَلونَه، فنَحفَظُه عليكم

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٧)، ، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٨/ ١٥٧).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٤٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٣٠)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٣١٧).

ونَجزيكم به، وما يغيبُ عن ربِّك- يا مُحمَّدُ- مِن زِنةِ نَملةٍ صَغيرةٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ولا أصغَرِ الأشياءِ ولا أكبَرِها، إلَّا وهو في لوحٍ مَحفوظٍ مكتوبٍ فيه كلُّ شَيءٍ، ألَا إنَّ مَن تولَّاهم اللهُ تعالى بنَصرِه ومحَبَّتِه ورعايتِه، لا خوفٌ عليهم ممَّا يَستَقبِلونَه، ولا هم يَحزنونَ على ما فاتهم، وهؤلاء الأولياءُ هم الذين آمنوا بما وجبَ عليهم الإيمانُ به، وكانوا يتَّقونَ اللهَ بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه، فلهؤلاءِ الأولياءِ البُشرى مِن اللهِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ بما يَسُرُّهم، لا تغييرَ لِقَولِ اللهِ، ولا خُلْفَ لوَعدِه، ذلك هو الفوزُ العظيمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أطال اللهُ تعالى الكلامَ في أمرِ الرَّسولِ، بإيرادِ الدَّلائلِ على فسادِ مذاهِبِ الكفَّارِ، وفي أمْرِه بإيرادِ الجَوابِ عن شُبُهاتِهم، وفي أمرِه بتحَمُّلِ أذاهم، وبالرِّفقِ معهم- ذكَرَ هذا الكلامَ ليحصُلَ به تمامُ السَّلوةِ والسُّرورِ للمُطيعينَ، وتمامُ الخوفِ والفَزَعِ للمُذنبينَ، وهو كونُه سُبحانَه عالِمًا بعمَلِ كُلِّ واحدٍ، وبما في قَلْبِه من الدَّواعي والصَّوارف؛ فإنَّ الإنسانَ ربَّما أظهَرَ مِن نفسِه نُسُكًا وطاعةً، وزُهدًا وتقوى، ويكونُ باطِنُه مملوءًا من الخَبَث، وربما كان بالعَكسِ مِن ذلك، فإذا كان الحَقُّ سُبحانَه عالِمًا بما في البواطِنِ، كان ذلك من أعظَمِ أنواعِ السُّرورِ للمُطيعينَ، ومن أعظَمِ أنواعِ التَّهديدِ للمُذنِبينَ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى جُملةً مِن أحوالِ الكُفَّارِ ومذاهِبِهم، والرَّدَّ عليهم،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٢).

ومحاورةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهم، وذكَرَ فَضْلَه تعالى على النَّاسِ، وأنَّ أكثَرَهم لا يشكُرُه على فَضلِه- ذكَرَ تعالى اطِّلاعَه على أحوالِهم وحالِ الرَّسولِ معهم في مجاهَدتِه لهم، وتلاوةِ القرآنِ عليهم، وأنَّه تعالى عالمٌ بجميعِ أعمالِهم، واستطرَدَ من ذلك إلى ذِكرِ أولياءِ الله تعالى، ليُظهِرَ التفاوتَ بين الفريقينِ؛ فريقِ الشَّيطانِ وفَريقِ الرَّحمنِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَّرَ اللهُ تعالى عبادَه بفَضلِه، وما يجِبُ عليهم مِن شُكرِه، وبكونِ أكثَرِهم لا يَشكرونَه كما يجِبُ عليهم- عطفَ على ذلك تذكيرَه لهم بإحاطةِ عِلمِه بشُؤونِهم وأعمالِهم كُلِّها؛ صغيرِها وكبيرِها، جليلِها وحقيرِها، وبكُلِّ ما في العوالِمِ عُلويِّها وسُفليِّها؛ ليحاسِبُوا أنفُسَهم على تقصيرِهم في ذِكْرِه وشُكرِه وعبادتِه[٢].

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

أي: وما تكونُ- يا محمَّدُ[٣]- في أيِّ عملٍ من الأعمالِ، وما تتلو من سورةٍ مِن القرآنِ، ولا تعملونَ- أيُّها النَّاسُ- مِن عَمَلٍ صغيرٍ أو كبيرٍ، من خيرٍ أو شَرٍّ، إلَّا واللهُ مطَّلِعٌ عليكم حين تأخذونَ فيه، وتَقومونَ به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٨).

(٣) قال الواحدي: (الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأُمَّتُه داخلونَ في هذا الخطابِ؛ لأنَّ خِطابَ الرَّئيسِ خطابٌ له ولأتباعِه، يدلُّ على هذا قَولُه: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾. ((الوسيط)) (٢/ ٥٥٢).

وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ عطيةَ والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١١-٢١٣).

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: وما يغيبُ عن رَبِّك- يا مُحمَّدُ- وزنُ نَملةٍ صَغيرةٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ولا أصغَرَ مِن ذلك ولا أكبَرَ، فلا يخفَى عليه سبحانَه أصغرُ الأشياءِ، وإنْ خفَّ في الوزنِ كلَّ الخِفَّةِ، ولا أكبرُها وإنْ عَظُمَ وثَقُل وزنُه، وكلُّ ذلك في لوحٍ مَحفوظٍ، مكتوبٍ فيه كلُّ شَيءٍ[(١)].

كما قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ

اختلف المفسِّرون في الضَّميرِ في ﴿مِنْهُ﴾ إلى ماذا يعودُ؟ فقيل: يعودُ إلى القرآن. وممن ذهب إلى ذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٤).

وقيل: يعودُ إلى الشَّأنِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: الزَّجَّاج، وابن عطية. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧).

وقيل: يعودُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ. وممَّن ذهب إلى ذلك: الواحدي. يُنظر: ((الوسيط)) (٢/ ٥٥٢).

قال الخازن: (اختلَفوا في الضَّميرِ في ﴿مِنْهُ﴾ إلى ماذا يعودُ؟ فقيل: يعودُ إلى الشأنِ؛ إذ تلاوةُ القرآنِ شأنٌ مِن شؤونِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل هو أعظَمُ شُؤونِه، فعلى هذا يكونُ داخلًا تحت قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ إلَّا أنَّه سبحانه وتعالى خصَّه بالذِّكرِ لِشَرَفِه وعلوِّ مَرتبتِه. وقيل: إنَّه راجعٌ إلى القرآنِ؛ لأنَّه قد تقدَّمَ ذِكرُه في قولِه سُبحانه وتعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ [يونس: ٥٨]، فعلى هذا يكونُ المعنى: وما تتلو من القرآنِ مِن قرآنٍ، يعني: من سورةٍ وشَيءٍ منه؛ لأنَّ لفظَ القُرآنِ يُطلَقُ على جميعِه وعلى بَعضِه. وقيل: الضَّميرُ في ﴿مِنْهُ﴾ راجِعٌ إلى اللهِ تعالى، والمعنى: وما تتلو من اللهِ مِن قُرآنٍ نازلٍ عليك). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤٩).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٤-٢١٥).

قال ابنُ عاشورٍ: (والمرادُ بالأرضِ والسماءِ هنا العالمُ السفليُّ والعالمُ العلويُّ، والمقصودُ تعميمُ الجهاتِ والأبعادِ بأخصرِ عبارةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٤).

إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا بيَّن سبحانه إحاطتَه بجميعِ الأشياءِ، وكان في ذلك تقويةٌ لقلوبِ المطيعين، وكسرٌ لقلوبِ العاصينَ؛ ذكَر حالَ المطيعينَ[(١)]، فقال:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: ألَا إنَّ مَن تولَّاهم اللهُ تعالى بنَصرِه ومحبَّتِه ورعايَتِه، لا خوفٌ عليهم ممَّا يستَقبِلونَه، ولا هم يَحزَنونَ على ما مَضَى[(٢)].

ثمَّ ذكَر وصفَهم، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: هم الذين آمَنوا بما وجبَ عليهم الإيمانُ به، وصدَّقوا إيمانَهم بلزومِ تقوى اللهِ، بفِعلِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهيه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٧، ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٨).

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: لأولياءِ الله البُشرى من اللهِ في الحياةِ الدُّنيا- ومن ذلك ما وُعِدوا به من الخَيرِ في القرآنِ والسُّنَّةِ، ومن البِشاراتِ الرُّؤيا الصَّالحةُ، والثَّناءُ الحَسَنُ- ولهم البُشرى في الآخرةِ بدُخولِ الجنَّةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١-٢٢].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٥١، ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٩).
قال ابن عطية: (أمَّا بُشرى الآخرةِ، فهي بالجنَّةِ. قولًا واحِدًا). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٩).

وعن البراءِ بنِ عازبٍ رضي الله عنه، قال: قال النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزَل إليه ملائكةٌ مِن السماءِ بيضُ الوجوهِ، كأنَّ وجوهَهم الشمسُ، معهم كفنٌ مِن أكفانِ الجنةِ، وحنوطٌ[1] مِن حنوطِ الجنةِ، حتى يجلسوا منه مدَّ البصرِ، ثم يجيءُ ملكُ الموتِ عليه السَّلام حتى يجلسَ عندَ رأسِه، فيقول: أيَّتُها النفسُ الطيبةُ، اخرُجي إلى مغفرةٍ مِن الله ورضوانٍ، فتخرج تسيلُ كما تسيلُ القطرةُ من فِي السِّقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدَعوها في يدِه طرفةَ عينٍ حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفنِ، وفي ذلك الحنوطِ، ويخرج منها كأطيبِ نفحةِ[2] مسكٍ وُجِدت على وجهِ الأرضِ، فيصعدون بها، فلا يمرُّون - يعني بها - على ملإٍ من الملائكةِ إلا قالوا: ما هذا الروحُ الطيبُ؟! فيقولون: فلانُ بنُ فلانٍ، بأحسنِ أسمائِه التي كانوا يسمُّونه بها في الدُّنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماءِ الدنيا، فيستفتحون له، فيُفتح لهم، فيشيِّعُه من كلِّ سماءٍ مقرَّبوها إلى السماءِ التي تليها، حتى يُنتهَى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عزَّ وجلَّ: اكتبوا كتابَ عبدي في عِلِّيين[3]، وأعيدوه إلى الأَرضِ، فإنِّي منها خلقتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخرجُهم تارةً أخرَى، فتُعاد روحُه في جسدِه، فيأتيه ملَكانِ، فيُجلسانِه، فيقولانِ له: مَن ربُّك؟ فيقول: ربِّي الله، فيقولان له: ما دينُك؟ فيقول: ديني الإسلامُ، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعِث فيكم؟ فيقول: هو رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيقولان له: وما علمُك؟ فيقولُ: قرأتُ كتابَ الله، فآمنتُ به، وصدَّقت، فينادي منادٍ في السماءِ: أن صدَق عبدي، فأفْرِشوه مِن الجنة، وألْبِسوه مِن الجنةِ، وافتحوا له بابًا إلى

(١) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٦).

(٢) النَّفحةُ: المرَّةُ مِن نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحَتِه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).

(٣) عِلِّيِّينَ: هو دِيوانُ المُقَرَّبينَ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٦).

الجنة، فيأتيه من رَوْحها[١]، وطِيبها، ويُفسحُ له في قبرِه مدَّ بصرِه، ويأتيه رجلٌ حسنُ الوجهِ، حسنُ الثيابِ، طيِّبُ الرِّيحِ، فيقول: أبْشِرْ بالذي يَسرُّك، هذا يومُك الذي كنتَ تُوعَدُ، فيقولُ له: مَن أنت؟ فوجهُك الوجهُ يجيءُ بالخيرِ، فيقولُ: أنا عملُك الصالحُ، فيقول: ربِّ أقمِ الساعةَ حتى أرجعَ إلى أهلِي ومالِي))[٢].

وعن أبي ذَرٍّ رَضيَ الله عنه، قال: ((قيل لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أرأيتَ الرَّجُلَ يعمَلُ العمَلَ مِن الخَيرِ، ويَحمَدُه النَّاسُ عليه؟ قال: تلك عاجِلُ بُشرى المؤمِنِ))[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لم يَبْقَ من النُّبُوَّةِ إلا المُبَشِّراتُ، قالوا: وما المُبَشِّراتُ؟ قال: الرؤيا الصالحةُ))[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أيها الناسُ، إنه لم يبقَ من مبشراتِ النبوةِ إلا الرؤيا الصالحةُ، يراها المسلمُ، أو تُرى له))[٥].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

لا خُلْفَ لوعدِ الله؛ فما وعَد الله فهو حقٌّ، لا يمكنُ تغييرُه ولا تبديلُه، وهو كائنٌ لا محالةَ[٦].

---

(١) مِن رَوْحِها- بفتح الراء-: أي: مِن نَسيمِها. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤)، والطيالسي (٧٨٩)، والحاكم (١٠٧).
صحَّح إسناده الطبري في ((مسند عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وقال ابنُ منده في ((الإيمان)) (٣٩٨): إسنادُه متَّصلٌ مشهورٌ ثابتٌ على رسمِ الجماعةِ، وحسَّنه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠).

(٣) رواه مسلم (٢٦٤٢).

(٤) رواه البخاري (٦٩٩٠).

(٥) رواه مسلم (٤٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي))

كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: ما يُبشَّرُ به أولياءُ اللهِ هو الظَّفَرُ العَظيمُ بكلِّ مَحبوبٍ، والنجاةُ الكبيرةُ مِن كُلِّ مَحذورٍ[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- مما يُوجبُ خشيةَ اللهِ تعالى في السِّرِّ والعَلانيةِ ضرورةُ مُراقبتِه تعالى؛ والعلمُ بأنَّه شاهِدٌ ورقيبٌ على قلوبِ عبادِه وأعمالِهم، وأنَّه مع عبادِه حيث كانوا، كما دلَّ القرآنُ على ذلك في مواضِعَ، منها قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[(٢)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ الإفاضةُ في العمَلِ أخَصُّ مِن إتيانِه مُطلقًا، وحِكمةُ تَخصيصِها بالذِّكرِ دونَ اللَّفظِ الأعمِّ منها، هي أنَّ ما يُفيضُ فيه الإنسانُ مهتَمًّا به مندفِعًا فيه، جديرٌ بألَّا يَنسى أو يَغفُل عن مراقبةِ رَبِّه فيه، واطِّلاعِه عليه؛ فاللَّفظُ يذَكِّرُه به تذكيرًا منبِّهًا مُؤثِّرًا، وكذلك لفظُ (يَعزُب) الدالُّ على الخفاءِ والبُعدِ معًا، فكأنَّه يقولُ: إنَّ ما شأنُه أن يَبعُدَ ويَخفى عليكم مِن أعمالِكم لا يغيبُ عن

(٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٤).

عِلمِ رَبِّكم؛ فإنَّه لا يَعزُبُ عنه مِن مثقالِ ذَرَّةٍ[١].

٣- أولياءُ اللهِ هم الذين جَمَعوا بين الإيمانِ الصَّحيحِ ومَلَكةِ التقوى له عزَّ وجلَّ، وما تقتضيه مِن عمَلٍ، فظاهِرُ الآيةِ أنَّ مَن آمَن واتَّقى، فهو داخِلٌ في أولياءِ اللهِ، وهذا هو الذي تقتضيه الشَّريعةُ في الوليِّ، فكلُّ من كان مؤمنًا تقيًّا كان لِلَّه وليًّا، وقد ضَمِنَ اللهُ تعالى لأوليائِه ألَّا يحصُلَ لهم ما يخافونَه، وألَّا يحُلَّ بهم ما يَحزُنُهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ﴾ التعبيرُ في خطابِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالشَّأنِ- وهو الأمرُ العظيمُ أو ذو البالِ- يدلُّ على أنَّ جَميعَ أمورِه وأعمالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كانت عظيمةً، حتى العاداتِ منها؛ لأنَّه كان قُدوةً صالحةً فيها كلِّها[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ إن قيل: كيف جُمِعَ الضَّميرُ، مع أنَّه أُفرِدَ قبلُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ﴾ والخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟

الجواب: جُمِعَ ليدُلَّ على أنَّ الأُمَّةَ داخِلونَ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما خوطِبَ به قبلُ[٤]، .....

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٢٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٩).

(٤) والقاعدةُ أنَّ الخطاباتِ الموجهةَ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، تشملُ الأُمَّةَ إلا لدليلٍ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٥٧٨).

أو جُمِعَ تعظيمًا للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ الذرُّ: صغارُ النملِ، جعَلها الله مثالًا؛ إذ لا يُعرفُ في الحيوانِ المتغذِّي المتناسلِ المشهورِ النوعِ والموضعِ أصغرُ منه[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إنَّما قُيِّد بقَولِه تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ تقريبًا لعُقولِ العامَّةِ[٣]، فعبَّر بالأرضِ والسماءِ مع أنَّه سبحانَه لا يغيبُ عنه شيءٌ، لا فيهما، ولا فيما هو خارجٌ عنهما؛ لأنَّ الناسَ لا يشاهدونَ سواهما، وسوَى ما فيهما مِن المخلوقاتِ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى ما في الوجودِ مِن أشياءَ لا تُدرِكُها الأبصارُ، وقد رُئِيَ كثيرٌ منها في هذا العَصرِ بالآلاتِ التي تكبِّرُ المرئيَّاتِ أضعافًا كثيرةً، ولم يكُنْ هذا ممَّا يَخطُرُ في البالِ في عصرِ التَّنزيلِ، فهو من دقائقِ تَعبيرِ القُرآنِ، التي تَظهَرُ حِكمتُها للنَّاسِ آنًا بعد آنٍ[٥].

٦- من ظنَّ أنَّ أحدًا مِن الذين لا يؤدُّونَ الواجباتِ، ولا يترُكونَ المُحَرَّماتِ- سواءٌ كان عاقلًا، أو مجنونًا، أو مُولَهًا أو مُتَوَلِّهًا- فمن اعتقَدَ أنَّ أحدًا مِن هؤلاء، مِن أولياءِ اللهِ المُتَّقينَ، وحِزبِه المُفلِحينَ، وعبادِه الصَّالحينَ، وجُندِه الغالبينَ، السَّابقينَ المُقَرَّبينَ والمُقتَصدينَ، الذين يرفَعُ الله درجاتِهم بالعِلمِ والإيمانِ، مع

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤٠).

كونِه لا يؤدِّي الواجباتِ، ولا يترُكُ المُحَرَّمات- كان المُعتَقِدُ لولايةِ مِثلِ هذا كافرًا مرتدًّا عن دينِ الإسلامِ، غيرَ شاهدٍ أنَّ مُحمَّدًا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل هو مكَذِّبٌ لمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما شَهِدَ به؛ لأنَّ محمَّدًا أخبَرَ عن الله أنَّ أولياءَ اللهِ هم المُتَّقونَ المؤمِنونَ؛ قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[1].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ فيه أنَّ أهلَ الثَّوابِ لا يحصُلُ لهم خوفٌ في مَحفِلِ القيامةِ، كما قال تعالى أيضًا: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾[2] [الأنبياء: ١٠٣].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هذه البُشرى مُبَيَّنَةٌ في مواضِعَ مِن كتابِ الله تعالى، وقد يُرادُ بها متعَلَّقُها الذي يبشَّرونَ به، ولم يُذكَرْ هنا؛ ليشمَلَ كلَّ ما بُشِّروا به في كتابِ الله تعالى، وعلى لسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأمَّا البُشرَى في الحياةِ الدُّنيا فأهمُّها البِشارةُ بالنَّصرِ، وبحُسنِ العاقِبةِ في كلِّ أمرٍ، وباستخلافِهم في الأرضِ ما أقاموا شَرعَ اللهِ وسُنَنَه، ونَصَروا دينَه، وأعلَوْا كَلِمتَه، وأمَّا في الآخرةِ فمِن أكمَلِها وأجمَعِها لمعاني الآيةِ لأكمَلِهم قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ * نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٤٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٧).

مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾[(١)] [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ اشتمَلَ على النجاةِ مِن كلِّ محذورٍ، والظَّفَرِ بكلِّ مَطلوبٍ مَحبوبٍ، وحُصِرَ الفَوزُ فيه؛ لأنَّه لا فوزَ لِغَيرِ أهلِ الإيمان والتَّقوى[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ﴾: على القولِ بأنَّ الضَّميرَ في ﴿مِنْهُ﴾ عائدٌ على شأنٍ، و﴿مِن قُرْءَانٍ ﴾ تفسيرٌ للضَّميرِ؛ فيكون خُصَّ ﴿مِن قُرْءَانٍ ﴾ مِن العمومِ؛ لأنَّ القرآنَ هو أعظَمُ شُؤونِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتنبيهًا على علُوِّ مَرتبتِه، وعلى القولِ بأنَّه يعودُ على التَّنزيلِ، وفُسِّر بالقرآنِ لأنَّ كلَّ جزءٍ منه قرآنٌ، فيكونُ أُضْمِرَ قبلَ الذِّكْرِ على سَبيلِ التَّفخيمِ له[(٣)].

- قولُه: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ فيه تعميمٌ للخطابِ بعدَ تخصيصِه بمَن هو رأسُهم؛ ولذلك ذُكِر حيث خصَّ ما فيه فخامةٌ، وذُكر حيث عمَّ ما يتَناوَلُ الجليلَ والحقيرَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٨-٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٦-١١٧).

- قولُه: ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ مفعولُ ﴿تَعْمَلُونَ﴾، فهو مَصدرٌ بمعنى المفعولِ، وأُدخِلَت عليه (مِن)؛ لإفادة التَّعميمِ؛ لِيَشمَلَ العملَ الجليلَ والحقيرَ، والخيرَ والشَّرَّ[١]، فدخولُ ﴿مِنْ﴾ التبعيضيَّةِ على النكرةِ المنفيةِ يؤكِّدُ هذا العُمومَ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ فيه مُواجَهةُ اللهِ تعالى بالخطابِ لرسولِ اللهِ وحدَه؛ تَشريفًا له وتَعظيمًا[٣].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾؛ لِتَأكيدِ عُمومِ النَّفيِ الَّذي في ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾[٤].

- قولُه: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ناسبَ تقديمُ ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّه ذكَر تعالى أنَّه لا يَغيبُ عن عِلمِه أدقُّ الأشياءِ الَّتي نُشاهِدُها، وهي الذَّرَّةُ، ثمَّ أتى بقولِه: ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾ على سبيلِ إحاطةِ عِلمِه بجَميعِ الأشياءِ؛ فمَن عَلِم أدَقَّ الأشياءِ وأخفاها كان عِلمُه مُتعلِّقًا بأكبَرِ الأشياءِ وأظهَرِها[٥]، ولأنَّ ذكرَ الأصغرِ هو الأهَمُّ في سياقِ العِلمِ بالخفيِّ، وعَطفَ عليه الأكبَرَ؛ لإفادةِ كونِ الأكبَرِ لا يكبُرُ عليه سُبحانه، كما أنَّ الأصغَرَ لا يَعزُبُ عنه[٦].

- وفي قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤٠).

تعالى هنا: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾، وقال في سورةِ سبأٍ: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٣]، وقال فيما بعدُ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: ٢٢]؛ فقدَّم الأرضَ على السَّماءِ في سورةِ يونُسَ، وعكَس ذلك في الموضِعَين من سورةِ سبأٍ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ آيةَ يونُسَ مقصودٌ فيها من تأكيدِ الاستيفاءِ والاستغراقِ ما لم يُقصَدْ في الأُخرَيَينِ، وإن كان العمومُ مُرادًا في الجميعِ، إلَّا أنَّ آيةَ يونُسَ قضَت بزيادةِ التَّأكيدِ؛ ولذلك تَكرَّرَت فيها معَ ما قبلَها (ما) النَّافيةُ المتلقَّى بها القَسَمُ في قولِه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾ [يونس: ٦١]، فقوَّى بذلك قصْدَ تأكيدِ الاستغراقِ، وتَضمينِ الكلامِ معنى القسَمِ؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾ بزيادةِ (مِن) في الفاعلِ، وهي مقتَضِيةٌ معنى الاستغراقِ في مثلِ هذا. ثمَّ إنَّه قد تَقدَّم قبلَ هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ فدخولُ (مِن) في المفعولِ في الموضِعَين مِن قولِه: ﴿وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾- حيث زِيدَت في المفعولِ، وهو اسمٌ نَكِرةٌ، وارِدٌ في سياقِ النَّفيِ- وذلك محصِّلٌ للاستغراقِ، ثمَّ حُمِل عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾؛ فناسبَ هذا تقديمَ ذِكرِ الأرضِ على السَّماءِ؛ لأنَّ السَّماءَ مَصعَدُ الأمرِ ومحَلُّ العُلوِّ ومسكَنُ الملائكةِ، وهي مُشاهَدةٌ لهم ومُستقبَلُ الدَّاعين، منها يُنزَّلُ الأمرُ ورِزقُ العبادِ، وفيها الخزَنةُ

مِن الملائكةِ، وإليها يُصعَدُ بأرواحِ المؤمِنين ويَعرُجُ الملائكةُ السَّيَّاحون في الأرضِ المسؤولون عن أفعالِ العبادِ، فكان العِلمُ بما فيها أجلى وأظهرَ، وكان العلمُ بما في الأرضِ أخفى، وهذا بالنَّظرِ إلينا وبحسَبِ مُتعارَفِ أحوالِنا، وإلَّا فعِلمُ اللهِ سبحانه بما في الأرضِ وما في السَّماءِ سواءٌ، كما أنَّ عِلمَه بالسِّرِّ والجهرِ مُستوٍ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، ولكنَّا إنَّما خُوطِبْنا على أحوالِنا وبما نتَعاهَدُه ونتَعارَفُه مِن المعاني والصِّفاتِ؛ ولذلك ورَد في القرآنِ التَّعجُّبُ والدُّعاءُ والتَّرجِّي وغيرُ ذلك، فخُوطِبَ العبادُ بما يتَعارَفون عليه ويَألَفونه فيما بينَهم؛ فلمَّا كانت الأرضُ بالنِّسبةِ إلى اسْمِها- فيما ذكَرْنا- كان أمرُها أخفى، وكان أمرُ السَّماءِ أوضَحَ وأقرَبَ من حيثُ ما ذكَرْنا، خُوطِب الخلقُ على ذلك، فقُدِّم ذِكرُ ما هو عِندَنا كافَّةً أخفى، فقيل عند قصدِ المبالَغةِ في تأكيدِ الاستغراقِ والقسَمِ على ذلك: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[1] [يونس: ٦١].

وقيل: إنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَر في هذه الآيةِ شَهادتَه على أحوالِ أهلِ الأرضِ وأعمالِهم، ثمَّ وصَل بذلك قولَه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ [يونس: ٦١]، ناسَب أن تُقدَّمَ الأرضُ على السَّماءِ في هذا الموضعِ[2].

وقيل: إنَّ تقديمَ الأرضِ هنا؛ لأنَّ ما فيها أعلَقُ بالغرَضِ الَّذي فيه الكلامُ، وهو أعمالُ النَّاسِ فقد قال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾؛ فإنَّهم مِن أهلِ الأرضِ، بخلافِ ما في سورةِ سبأ: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]؛ فإنَّه لَمَّا كان المقامُ لذِكْرِ عِلمِ الغيبِ، والغيبُ ما غاب عن النَّاسِ،

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٦-٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٩).

ومُعظمُه في السَّماءِ لاءَم ذلك أنْ قُدِّمَت السَّماءُ على الأرضِ[١]، فاقتضَى حسنُ النظمِ تقديمُها مرتبةً في الذكرِ مع المخاطبينَ الذين هم أهلُها، بخلافِ الآيةِ التي في سبأ، فإنَّها منتظمةٌ بقولِه ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾[٢]. وقيل: إنَّه قدَّم ذِكْرَ الأرضِ؛ لأنَّ الكلامَ مع أهلِها، وأخَّره في آيةِ سبأٍ وقدَّم السَّماءَ؛ لأنَّها في سِياقِ ثَنائِه تعالى على نفسِه ووَصْفِه بإحاطةِ عِلمِه؛ فناسَب تقديمُ السَّماءِ لأنَّها أعظَم، فإنَّ فيها مِن الشُّموسِ وعَوالِمِها ما يَبعُدُ بعضُه عن بعضٍ مَسافةَ أُلوفٍ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ فيه افتتاحُ الكلامِ بأداةِ التَّنبيهِ ﴿أَلَآ﴾؛ للإيماءِ إلى أهميَّةِ شأنِه؛ ولذلك أُكِّدت الجملةُ بـ ﴿إِنَّ﴾ بعدَ أداةِ التَّنبيهِ؛ فصُدِّرَتِ الجملةُ بحَرْفَيِ التَّنبيهِ (ألَا)، والتَّحقيقِ (إنَّ)؛ لزيادةِ تقريرِ مَضْمونِها[٤].

- قولُه: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ فيه تَقْديمُ المُسنَدِ إليه ﴿هُمۡ﴾ على الخبَرِ الفِعْليِّ ﴿يَحۡزَنُونَ﴾؛ لِتَقويةِ الحُكْمِ الحاصلِ بالخبرِ الفعليِّ، أي: لا يَحصُلُ لهم خوفٌ متمكِّنٌ ثابتٌ يَبقَى فيهم، ولا يَجِدون تَخلُّصًا منه[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿وَكَانُواْ﴾، وهو يَدُلُّ على أنَّ التَّقْوى مُلازِمةٌ لهم، وجاء بصِيغةِ المضارعِ قولُه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٤).
(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٧).

﴿يَتَّقُونَ﴾، وهو يَدُلُّ على أنَّها مُتجدِّدةٌ منهم؛ ففي قولِه: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ إشعارٌ بمُصاحبَتِهم للتَّقوى مُدَّةَ حياتِهم؛ فحالُهم في المستقبَلِ كحالِهم في الماضي[١].

٤- قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: هل لهم وراءَ ذلك مِن نِعمةٍ وكَرامةٍ؟ فقيل: لهم ما يَسُرُّهم في الدَّارَين[٢].

- وفيه إيثارُ الإبهامِ والإجمالِ في البُشْرى؛ للإيذانِ بكونِه وراءَ البيانِ والتَّفصيلِ[٣].

- وجملةُ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ مُؤَكِّدةٌ لجملةِ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ ومُقرِّرةٌ لِمَضمونِها؛ فلذلك فُصِلَت- أي: لم تُعطَفْ بالواوِ[٤].

- واختيارُ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّه أجمَعُ لِمَا ذُكِر، وفيه كمالُ تمييزٍ له؛ لزيادةِ تقريرِ مَعناه، وذُكِر ضميرُ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ بعدَ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لزيادةِ التَّأكيدِ، ولإفادةِ القصرِ، أي: هو الفوزُ العظيمُ لا غيرُه ممَّا يتقلَّبُ فيه المشرِكون في الحياةِ الدُّنيا مِن رزقٍ ومَنَعةٍ وقوَّةٍ[٥].

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فيه تفسيرٌ لِما أُبهِم فيما سبَق، وهذه الجملةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والَّتي قَبلَها اعتراضٌ؛ لِتَحقيقِ المبشَّرِ به، وتعظيمِ شأنِه، أو هذه تَذْييلٌ، والسَّابقةُ اعتِراضٌ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٠).

الآيتان (٦٥-٦٦)

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَخۡرُصُونَ﴾: أي: يَحْدِسُون ويحزُرونَ، أو يكذِبونَ، لأَنَّ الكاذبَ لا يتحرَّى في الأمورِ، بل يُخمِّنُ ويحزُر، ولا يتحرَّى الحقائقَ، وكلُّ قولٍ عن ظنٍّ وتخمينٍ، يُقال له: خرصٌ، سواءٌ كان ذلك مطابقًا للشيءِ أو مخالفًا له، وأصلُ الخرصِ: حَزْرُ الشَّيءِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَوْلُه تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾

﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾: في (ما) وجهان؛ الأول: أن تكونَ نافيةً، و﴿شُرَكَآءَ﴾ مفعولُ ﴿يَتَّبِعُ﴾، ومفعولُ ﴿يَدۡعُونَ﴾ محذوفٌ لفَهْمِ المعنى، والتَّقديرُ: وما يتَّبعُ الذين يَدْعُون مِنْ دون اللهِ آلهةً شُرَكاءَ، ومعنى: وما يتَّبِعونَ شُرَكاء، أي: وما يتَّبِعونَ حقيقةَ الشُّرَكاءِ، وإن كانوا يسمُّونَها شُرَكاءَ. الثاني: أن تكونَ استفهاميَّةً في محلِّ نصبٍ، مفعولٌ مقدَّم لـ﴿يَتَّبِعُ﴾، أي: وأيَّ شيءٍ يَتَّبعونَ؟ و﴿شُرَكَآءَ﴾ على هذا مفعولٌ به لـ﴿يَدۡعُونَ﴾، وقيل غيرُ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨، ١٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨، ٢٣١، ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٧)، (تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٤)، ((الدر المصون))

المعنَى الإجماليُّ:

يخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مسلِّيًا له عمَّا لَقِيَه من أعدائِه مِن أذًى، فيقولُ له: ولا يَحزُنْك قَولُ المُشرِكينَ، كافترائِهم على اللهِ وتكذيبِهم لك، واستهزائِهم بالحَقِّ؛ لأنَّ اللهَ هو المنفَرِدُ بجميعِ العِزَّةِ في الدُّنيا والآخرةِ، فهو مانِعُك من أذى المُشرِكينَ، وهو السَّميعُ العليمُ.

ويبيِّنُ تعالى أنَّه له كلُّ مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ؛ وأيَّ شيءٍ يتَّبِعُ مَن يدعو غيرَ اللهِ من الشُّرَكاءِ؟ ما يتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ بلا دليلٍ، وإنْ هم إلَّا يكذِبونَ فيما ينسُبونَه إلى اللهِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكَى عن الكفَّارِ شُبهاتِهم المتقَدِّمةَ، وأجاب عنها؛ عدلوا إلى طريقٍ آخَرَ، وهو أنَّهم هدَّدوه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وخوَّفوه بأنَّهم أصحابُ أموالٍ وأتباعٍ، فنسعَى في قَهرِك وفي إبطالِ أمْرِك، فأجاب تعالى عن هذا الطَّريقِ[1].

وأيضًا فإنَّه بعد أن بيَّن اللهُ تعالى لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حالَ أوليائِه وصِفتَهم وما بشَّرَهم به في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ، وكونَه لا تبديلَ لِكلماتِه فيما بشَّرَهم ووعَدَهم، كما أنَّه لا تبديلَ لها فيما أَوعَدَ به أعداءَه المُشرِكينَ، وكان هذا يتضَمَّنُ الوعدَ بنَصرِه ونَصرِ مَن آمن له -وهم أولياءُ اللهِ وأنصارُ دينِه- على ضَعفِهم وفَقرِهم، وكانت العِزَّةُ -أي: القوَّةُ والغَلَبةُ- في مكَّةَ لا تزالُ للمُشرِكينَ

للسمين الحلبي (٦/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٣٦٨).

بكَثرتِهم، وكانوا لغُرورِهم بكَثرتِهم وثَروتِهم يُكَذِّبونَ بوَعدِ الله، وكان ذلك يَحزُنُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قال تعالى مسلِّيًا له ومؤكِّدًا وَعدَه له ولأوليائِه، ووعيدَه لأعدائِهم وأعدائِه[(١)]:

﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ ﴾.

أي: ولا يُحزِنْك- يا مُحمَّدُ- قَولُ المُشركينَ، كافترائِهم على اللهِ، وتكذيبِهم لك، واستهزائِهم بالحَقِّ[(٢)].

﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾.

أي: فإنَّ اللهَ هو المُنفَرِدُ بجميعِ العِزَّةِ في الدُّنيا والآخرةِ، فله وَحْدَه القوَّةُ الكامِلةُ، والقُدرةُ التامَّةُ، والغَلَبةُ الشَّاملةُ، فهو ناصِرُك ومُعينُك، ومانِعُك مِن أذَى المُشرِكينَ- يا مُحمَّدُ- وهو القادِرُ على عقابِهم، والانتقامِ منهم، حتى تصيرَ أعَزَّ منهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨).

قال ابنُ عاشورٍ: (وَصِيغَةُ ﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ ﴾ خطابٌ للنَّبِي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وظاهرُ صِيغَتِه أنَّه نهيٌ عن أنْ يُحزِنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم كلامُ المشركينَ، معَ أنَّ شأنَ النَّهيِ أنْ يَتَوَجَّه الخطابُ به إلى مَن فعَل الفعلَ المنهيَّ عنه، ولكنَّ المقصودَ من مثلِ هذا التَّرْكيبِ نهيُ النَّبي- عليه الصَّلاةُ والسَّلام- عن أنْ يتأثَّرَ بما شأنُه أنْ يُحزنَ النَّاسَ من أقوالِهم، فلمَّا وجَّه الخطابَ إليه بالنَّهيِ عن عملٍ هو مِن عملِ غيرِه تعيَّنَ أنَّ المرادَ بذلك الكنايةُ عن نهيِه هو عن حصولِ ذلك الحزنِ في نفسِه بأنْ يصرفَ عن نفسِه أسبابَه وملزوماتِه، فيؤول إلى معنَى لا تترُكْ أقوالَهم تُحْزِنك). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢١).

والوقفُ يكون على كلمةِ ﴿قَوۡلُهُمۡۘ ﴾، والابتداءُ يكونُ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾؛ لكي لا يُتوهَّمَ أنَّ جملةَ ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ مِن قولِهم. يُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) للأنباري (٢/ ٧٠٧)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: وهو -سُبحانَه- السَّميعُ لأقوالِ عِبادِه، العليمُ بأحوالِهم، ومن ذلك سَماعُه لأقوالِ المُشرِكينَ، وعِلمُه بأعمالِهم، وما في قُلوبِهم، فيُجازيهم بذلك، ويدفَعُ عنك أذاهم- يا مُحمَّدُ- فاكتفِ بعِلمِ اللهِ وكفايتِه عزَّ وجلَّ[١].

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ العِزَّةَ له، وهي القَهرُ والغَلَبةُ- ذكَرَ ما يُناسِبُ القَهرَ، وهو كَونُ المخلوقاتِ مِلكًا له تعالى[٢]، فقال:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ألا إنَّ لله كلَّ مَن في السَّمواتِ وكُلَّ مَن في الأرضِ، فهم مِلكُه، يتصَرَّفُ فيهم كيف يشاءُ، وهو المستَحِقُّ وَحدَه للعبادةِ[٣].

﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾.

أي: وأيَّ شيءٍ يتَّبِعُ هؤلاء الذين يقولونَ: إنَّ لله شُرَكاءَ[٤]؟!

السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير آيات

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

أي: ما يتَّبِعُ المُشرِكونَ في دَعواهم الشُّرَكاءَ لله إلَّا مُجَرَّدَ الظَّنِّ بلا دليلٍ، وما هم إلَّا يتقوَّلونَ الكَذِبَ على اللهِ ظنًّا بِلا عِلمٍ[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ اللامُ في قَولِه: ﴿لِلَّهِ﴾ للمِلكِ، وقد أفاد جعلُ جِنسِ العزَّةِ مِلكًا للهِ أنَّ جميعَ أنواعِها ثابتٌ لله[(٢)]؛ فالغَلَبةُ والقُوَّةُ والمَنَعةُ لله جميعُها لا يَملِكُ أحَدٌ مِن دُونِه شَيئًا منها، فهو يَهَبُها لِمَن يشاءُ، ويَحرِمُها مَن يشاءُ، وليسَت للكَثرةِ دائمًا كما يدَّعونَ؛ فكم مِن فئةٍ قليلةٍ غَلَبَت فئةً كثيرةً بإذنِ الله، وقد وعدَ بها رسُلَه والذينَ آمَنوا بهم واتَّبَعوهم من أوليائِه، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، و﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، و﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فعِزَّتُه تعالى ذاتيَّةٌ له، وعِزَّةُ رَسولِه والمُؤمِنينَ به ومنه عزَّ وجَلَّ، كما قال

أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ١٤٤- ١٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٧٦).

وممن ذهب إلى أنَّ (ما) هنا استفهاميةٌ: ابنُ جريرٍ، ومال إليه ابنُ عطيةَ، واختاره ابنُ تيميةَ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: إنَّ (ما) نافيةٌ، ومعنَى الآيةِ على ذلك: ما يتَّبعونَ في الحقيقةِ شركاءَ للهِ؛ فإنَّه ليس لله شريكٌ، وإنَّما يتَّبعونَ الظنَّ، وممن ذهب إلى أنَّ (ما) نافيةٌ: الواحدي، وابنُ الجوزي، والقرطبي، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٣).

تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾[١] [آل عمران: ٢٦].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عبَّرَ بـ (مَن) التي للعُقَلاءِ، والمرادُ كلُّ ما في الكونِ؛ لأنَّ السِّياقَ لِنَفي العِزَّةِ عن غَيرِه، والعقلاءُ بها أجدَرُ، فنفيُها عنهم نفيٌ عن غيرِهم بطريقِ الأَوْلى، ثم غُلِّبوا لشَرَفِهم على غيرِهم[٢].

وقيل: خص العُقَلاءَ المميِّزين، وهم الملائكةُ والثَّقلان في قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لِيُؤذِنَ أنَّ هؤلاء إذا كانوا له وفي مُلكِه فهُم عَبيدٌ كُلُّهم، وهو سبحانه وتعالى ربُّهم، ولا يَصلُحُ أحدٌ مِنهم للرُّبوبيَّةِ، ولا أن يكونَ شَريكًا له فيها، فما وَراءهم ممَّا لا يُعقَلُ أحَقُّ أن لا يكونَ له نِدًّا وشَريكًا، ولِيَدُلَّ على أنَّ مَن اتَّخَذ غيرَه ربًّا مِن ملَكٍ أو إنسيٍّ، فضلًا عن صنمٍ أو غيرِ ذلك، فهو مُبطِلٌ[٣].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ على القولِ بأنَّ المرادَ بقولِهم بعضُ أفرادِه، وهو التَّكذيبُ والتَّهديدُ، وما يتَشاوَرون به في أمرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فيكونُ مِن إطلاقِ العامِّ المرادِ به الخاصُّ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ استئنافٌ بمعنى التَّعليلِ، كأنَّه قيل: ما لي لا أحزَنُ؟ فقيل: إنَّ العزَّةَ للهِ جميعًا؛ تعليلًا لِدَفعِ الحزنِ عنه؛ ولذلك فُصِلَتْ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٣- ٨٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٢- ٨٣).

عن جملةِ النَّهيِ: ﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ ﴾ ولم تُعطَفْ عليها[١].

- وقولُه: ﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾ مؤكِّدةٌ لمضمونِ الجملةِ قبْلَها، المفيدِ لاختصاصِه تعالى بجميعِ جنسِ العزَّةِ؛ لِدَفعِ احتمالِ إرادةِ المبالَغةِ في مِلْكِ ذلك الجنسِ[٢].

- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[يونس: ٦٥]، وقال في سورةِ (المنافقون): ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ لأنَّ المرادَ في سورةِ يونُسَ: العزَّةُ الخاصَّةُ باللهِ، وهي: عِزَّةُ الإلهيَّةِ، والخَلْقِ والإماتةِ، والإحياءِ والبقاءِ الدَّائمِ، وشِبْهِها، وفي سورةِ (المنافقون) العزَّةُ المشترَكةُ، وهي في حقِّ اللهِ تعالى: القدرةُ والغَلَبةُ، وفي حقِّ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: عُلُوُّ كَلمتِه، وإظهارُ دينِه، وفي حقِّ المؤمنين: نَصرُهم على الأعداءِ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فيه افتتاحُ الجملةِ بحرفِ التَّنبيهِ ﴿ أَلَآ ﴾، والمقصودُ منه إظهارُ أهمِّيَّةِ العلمِ بمَضمونِها وتَحقيقِه؛ ولذلك عُقِّب بحرفِ التَّأكيدِ ﴿إِنَّ ﴾، وزِيدَ ذلك تأكيدًا بتقديمِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢١-٢٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٣).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٥١).

الخبَرِ ﴿لِلَّهِ﴾ على الاسمِ ﴿مَن﴾ وباجتلابِ لامِ المِلْكِ في ﴿لِلَّهِ﴾[١].

- وابتدأ بالسَّموات؛ لأنَّ مِلكَها يدُلُّ على مِلكِ الأرضِ بطَريقِ الأَولى[٢]، وأيضا لعظَمِها، ولأنَّها أشرفُ مِن الأرضِ وأعلَى[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ على القولِ بأنَّ ﴿مَا يَتَّبِعُ﴾ في مَعْنى الاستفهامِ- أيْ: وأيَّ شيءٍ يتَّبِعون، فـ ﴿مَا﴾ استفهامٌ بمعنى الإنكارِ والتَّوبيخِ، فتكونُ اسمًا في موضعِ نصبٍ بـ ﴿يَتَّبِعُ﴾، كأنَّه قيل: وأيَّ شيءٍ يتَّبِعُ الَّذين تَدْعونهم شُركاءَ مِن الملائكةِ والنَّبيِّين؛ تقريرًا لكونِهم مُتَّبِعين للهِ تعالى مُطيعين له، وتَوبيخًا لهم على عدَمِ اقتدائِهم بهم في ذلك[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((كشف المعانى)) لابن جماعة (ص: ٢٥١)، ((تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٣٦).

الآيات (٦٧-٧٠)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِى ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُلۡطَٰنِۭ﴾: أي: حُجَّة، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقهرُ، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[1].

﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾: أي: تهدءُوا فيه مِن التصرُّفِ والحركةِ، وتستقرُّوا لراحةِ أبدانِكم، والسُّكونُ: ثبوتُ الشيءِ بعدَ تحرُّكٍ، وأصلُ (سَكَنَ): يَدُلُّ على خِلافِ الاضْطِرابِ والحركةِ[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى النَّاسَ مبينًا بعضَ مظاهرِ نِعمِه عليهم، فيقولُ: إنَّه وَحْدَه الذي خلَقَ لهم اللَّيلَ؛ لأجلِ أن يَهدَؤوا ويَستَريحوا فيه مِن العَناءِ والتَّعَب، وجعَلَ لهم النَّهارَ مُضيئًا؛ لِيَسعَوْا لطَلَبِ رِزقِهم، وقَضاءِ حَوائِجِهم، إنَّ في ذلك لدَلالاتٍ للَّذينَ يَسمَعونَ آياتِ اللهِ، ويَعتَبِرونَ بها.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٧) (١٨/ ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٧).

ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ مُشركي العرَبِ زَعَموا أنَّ لله ولدًا، تنزَّه سُبحانَه عن ذلك، هو الغنيُّ عن الزَّوجةِ والوَلَدِ، وعن جميعِ خَلْقِه، له جميعُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، فكيف يكونُ له ولَدٌ ممَّن خلَقَ، وكلُّ شَيءٍ مملوكٌ له؟ وليس عند هؤلاء المُشركينَ دليلٌ على أنَّ الله اتَّخذَ ولدًا مِن خَلْقِه، أيقولونَ على الله ما لا يعلمونَ حَقيقتَه وصِحَّتَه؟

ثمَّ وجَّه سُبحانه الخطابَ إلى نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: قلْ- يا محمَّدُ-: إنَّ الذينَ يَختَلِقونَ على الله الكَذِبَ لا يَفوزونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، لهم في الدُّنيا متاعٌ قليلٌ، ثمَّ إلينا مَصيرُهم، ثمَّ نُذيقُهم في النَّارِ العذابَ المُوجِعَ؛ بسبَبِ كُفرِهم بالله.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها استدلالٌ على مَضمونِ ما قَبلَها مِن نَفيِ وُجودِ شُرَكاءَ له في الخلقِ والتَّقديرِ، ولا بالشَّفاعةِ عنده في التصَرُّفِ والتَّدبيرِ؛ فهو الذي جعلَ لكم الوقتَ قِسمَينِ بمقتضى عِلمِه ومَشيئتِه بدونِ مُساعدٍ ولا شفيعٍ، بل بمَحضِ الحِكمةِ البالغةِ والرَّحمةِ الشَّاملةِ؛ أحدُهما: اللَّيلُ، جعَلَه مُظلِمًا لأجلِ أن تسكُنوا فيه بعد طولِ الحَرَكةِ والتقلُّبِ في الأرضِ، تستريحونَ مِن التَّعَبِ في طلَبِ الرِّزقِ، وثانيهما: النَّهارُ، جعَلَه مُضيئًا ذا إبصارٍ لتَنتَشِروا في الأرضِ، وتقوموا بجميعِ أعمالِ العُمرانِ والكَسبِ[1].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧١).

أي: اللهُ وَحْدَه هو الذي خلَقَ لكم -أيُّها النَّاسُ- اللَّيلَ؛ لأجل أن تَهدَؤوا عن الحَرَكةِ، وتستريحوا فيه مِن العَناءِ والتَّعَب، وجعل لكم النَّهارَ مُضيئًا تُبصِرونَ فيه لِمَعاشِكم، وقضاءِ حوائِجِكم[1].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

أي: إنَّ في اختلافِ حالِ اللَّيلِ والنَّهارِ بالظُّلمةِ والضِّياءِ، واختلافِ حالِ أهلِهما فيهما بالسُّكونِ والحَرَكةِ، لدَلالاتٍ للَّذينَ يَسمَعونَ آياتِ الله ويَعُونَها، فيَقبلونَها، ويعتَبِرونَ بها على عَظَمتِه وعِلمِه، وقُدرتِه ورَحمتِه، وحِكمَتِه واستحقاقِه وَحْدَه للعبادةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥- ٦].

وقال سُبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦].

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦١)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٧، ٢٢٨).

﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾.

أي: قال مُشرِكو العَرَبِ: الملائكةُ بناتُ اللهِ[(١)]!!

﴿ سُبۡحَٰنَهُۥۖ ﴾.

أي: تنزَّه اللهُ عن أن يكونَ له ولَدٌ[(٢)].

﴿ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: اللهُ هو الغنيُّ عن الزَّوجةِ والوَلَدِ، وعن جميعِ خَلْقِه، له جميعُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، خَلقًا ومُلكًا وتصَرُّفًا، فكيف يَحتاجُ إلى شيءٍ مِن خَلْقِه، وكيف يتَّخِذُ منهم ولدًا[(٣)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٩).
وممن اختار أنَّ الضميرَ في ﴿ قَالُواْ ﴾: عائدٌ على المشركينَ الذين قالوا: الملائكةُ بناتُ الله: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والبغوي وابنُ عطيةَ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: المصادر السابقة.
قال ابنُ عطيةَ: (الضَّميرُ في ﴿ قَالُواْ ﴾ للكفَّارِ العَرَب، وذلك قولُ طائفةٍ منهم: الملائكةُ بناتُ الله، والآيةُ بعدُ تعُمُّ كُلَّ مَن قال نحو هذا القَولِ، كالنصارى ومن يُمكِنُ أن يعتَقِدَ ذلك مِن الكَفَرةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١).
ومِن المفسِّرين مَن جعَل الضميرَ في ﴿ قَالُواْ ﴾ عائدًا على مَن نسَب إلى الله الولدَ، ممن قال: الملائكةُ بناتُ الله، أو عزيرٌ ابنُ الله، أو المسيحُ ابنُ الله. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٧٢).
وقال الرازي: (ويحتملُ أن يكونَ قد كان فيهم قومٌ مِن النَّصارَى قالوا ذلك). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٠).
لكن قال ابنُ عاشورٍ بعدَ أن بيَّن أنَّ الضميرَ في ﴿ قَالُواْ ﴾ يعودُ إلى الذين يَدْعون مَن دونِ الله شركاءَ، قال: (وليسَ المرادُ مِن الضميرِ غيرَهم مِن النَّصارى؛ لأنَّ السورةَ مكيةٌ، والقرآنُ المكيُّ لم يتصدَّ لإبطالِ زيغِ عقائدِ أهلِ الكتابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي))

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا * لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا * وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا * لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا * وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآ﴾.

أي: ليس عندكم- أيُّها المشركون- دليلٌ وحجَّةٌ على أنَّ الله اتَّخذ ولدًا مِن خَلْقِه[1].

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: أتقولونَ- أيُّها المُشرِكونَ- على اللهِ قَولًا لا تَعلَمونَ حَقيقتَه وصِحَّتَه، فتنسُبونَ إليه الولَد جهلًا منكم بغيرِ دَليلٍ[2]؟!

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا بيَّنَ بالدَّليلِ القاهرِ أنَّ إثباتَ الوَلَدِ لله تعالى قولٌ باطِلٌ، ثم بيَّنَ أنَّه ليس لهذا القائلِ دَليلٌ على صِحَّةِ قَولِه، فقد ظهَرَ أنَّ ذلك المذهَبَ افتراءٌ على الله، ونِسْبة ما لا يليقُ به إليه؛ فبيَّنَ أنَّ مَن هذا حالُه، فإنَّه لا يُفلِحُ البتَّةَ[3].

(٨/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦١)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦١)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٢).

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ-: إنَّ الذين يَكذِبونَ على اللهِ فيَنسُبونَ إليه الولدَ، لا يفوزونَ، ولا يَنجُونَ، ولا يأمنونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[(١)].

﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾.

أي: لهم مَتاعٌ قليلٌ في الدُّنيا يتمَتَّعونَ به إلى انقضاءِ آجالِهم، ثمَّ إلينا مَصيرُهم بعد مَوتِهم[(٢)].

﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾.

أي: ثمَّ نُذيقُهم في النَّارِ العذابَ الغليظَ المُوجِعَ؛ بسبَبِ كُفرِهم باللهِ في الدُّنيا[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ مِن لطائفِ المُناسَبة أنَّ النورَ الذي هو كيفيَّةُ زَمَنِ النَّهارِ، شيءٌ وُجوديٌّ، فكان زمانُه حقيقًا بأن يُوصَفَ بأوصافِ العُقَلاءِ، بخلافِ اللَّيلِ؛ فإنَّ ظُلمَتَه عَدَميَّةٌ، فاقتُصِرَ في العبرةِ به على ذِكرِ الفائدةِ الحاصلةِ فيه، وهي أن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦١)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣).

يسكُنوا فيه[١].

٢- إن قيل: إنَّ قولَ الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى ما خلَقَ اللَّيلَ إلَّا لهذا الوجهِ، وقولَه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى أراد بتخليقِ اللَّيلِ والنَّهارِ أنواعًا كثيرةً مِن الدلائلِ، فالجوابُ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿لِتَسۡكُنُواْ ﴾ لا يدلُّ على أنَّه لا حِكمةَ فيه إلَّا ذلك، بل ذلك يقتضي حصولَ تلك الحكمةِ، أمَّا قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾ فالمرادُ: يتدبَّرونَ ما يَسمَعونَ ويَعتَبِرونَ به[٢].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ يدلُّ على أنَّ صِفةَ العبوديَّةِ تُنافي صِفةَ البُنُوَّةِ، ويؤخَذُ مِن هذا أنَّ الوَلَدَ لا يُستَرَقُّ لأبيه ولا لأُمِّه؛ ولذلك يُعتَقُ الولدُ على مَن يَملِكُه مِن أبٍ أو أمٍّ وإنْ عَلَيَا[٣].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ في هذه الآيةِ سَمَّى اللهُ تعالى الحُجَّةَ العِلميَّةَ سُلطانًا؛ لأنَّها تُوجِبُ تسَلُّطَ صاحِبِها واقتدارَه، فله بها سُلطانٌ على الجاهلينَ، بل سُلطانُ العِلمِ أعظَمُ مِن سُلطانِ اليَدِ، ولهذا ينقادُ النَّاسُ للحُجَّة ما لا ينقادونَ لليَدِ؛ فإنَّ الحُجَّةَ تنقاد لها القلوبُ، وأمَّا اليدُ فإنَّما ينقادُ لها البدنُ، فالحجَّةُ تأسِرُ القلبَ وتقودُه، وتُذِلُّ المُخالِفَ، وإن أظهَرَ العِنادَ والمكابرةَ، فقَلبُه خاضِعٌ لها ذليلٌ، مقهورٌ تحت سُلطانِها، بل سلطانُ الجاهِ إن لم يكُن معه عِلمٌ يُساسُ به فهو بمَنزلةِ سُلطانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣١).

السِّباعِ والأُسودِ ونحوِها، قُدرة بلا عِلمٍ ولا رحمةٍ، بخلافِ سُلطانِ الحُجَّة، فإنَّه قُدرةٌ بعِلمٍ ورحمةٍ وحِكمةٍ، ومَن لم يكن له اقتدارٌ في عِلمِه، فهو إمَّا لِضَعفِ حُجَّتِه وسُلطانِه، وإمَّا لِقَهرِ سُلطانِ اليَدِ والسَّيفِ له، وإلَّا فالحُجَّةُ ناصرةٌ نَفسَها، ظاهِرةٌ على الباطِلِ، قاهِرةٌ له[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ لما نفَى البُرهانَ عنهم جعَلَهم غيرَ عالِمينَ، فدلَّ على أنَّ كُلَّ مَقالةٍ لا دليلَ عليها ولا برهان، فهي جَهالةٌ، وليسَتْ مِن العلمِ في شيءٍ[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ لا يختَصُّ هذا الوعيدُ بالصورةِ المذكورةِ، بل كلُّ من قال في ذاتِ اللهِ تعالى وفي صفاتِه قَولًا بغيرِ عِلمٍ وبِغَيرِ حُجَّةٍ بَيِّنةٍ؛ كان داخلًا في هذا الوعيدِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾: فيه طريقٌ مِن طُرقِ القَصرِ، وهو تعريفُ المسنَدِ والمسنَدِ إليه ﴿هُوَ ٱلَّذِي﴾، وهو هنا قصرٌ حقيقيٌّ[٤].

- وذكَر عِلَّةَ خلقِ اللَّيلِ فقال: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾، وحذَفها من النَّهارِ،

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٧).

وذكَر وصْفَ النَّهارِ ﴿مُبْصِرًا﴾ وحذَفه مِن اللَّيلِ، وكلٌّ مِن المحذوفِ يدُلُّ على مُقابِلِه، والتَّقديرُ: جعَل اللَّيلَ مُظلِمًا؛ لِتَسكُنوا فيه، والنَّهارَ مُبصِرًا؛ لِتتحرَّكوا فيه في مَكاسِبِكم وما تَحتاجون إليه بالحرَكةِ، وهو مِن بابِ الاحتباكِ؛ حيث حَذَفَ مِن كُلٍّ مِن آيتَيِ اللَّيلِ والنَّهارِ ما أثبَتَ مُقابِلَه في الأُخرَى، والعَكس[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلةِ المشارِ إليه، وعُلوِّ رُتبتِه[2].

- وقولُه: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ فيه تخصيصُ الآياتِ بالَّذي يَسمَعون معَ أنَّها منصوبةٌ لِمَصلحةِ الكلِّ؛ لأنَّهم المنتَفِعون بها[3]، وفي وَصْفِ القومِ بأنَّهم يَسمَعون إشارةٌ إلى أنَّ تلك الآياتِ والدَّلائلَ تَنهَضُ دَلالتُها للعُقولِ بالتَّأمُّلِ فيها، وأنَّ توجُّهَ التَّفكيرِ إلى دَلائلِها غيرُ مُحتاجٍ إلَّا إلى التَّنبيهِ عليها، ولَفْتِه إليها، والوصفُ بالسَّمعِ تعريضٌ بأنَّ الَّذين لم يَهتَدوا بها، ولا تَفطَّنُوا لِدَلالتِها بمَنزِلةِ الصُّمِّ، كقولِه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾[4] [الزخرف: ٤٠].

٢- قوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهٌ وتقديسٌ له عمَّا نَسَبوا إليه، وتعجُّبٌ مِن كَلمَتِهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٤، ٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٨).

الحمقاءِ[١].

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ علَّةٌ لِنَفيِ الولَدِ؛ لأنَّ ما يُطلَبُ به الولَدُ مَن يَلِدُ، وما يَطلُبُه له السَّببُ في كلِّه الحاجةُ، فمَنِ الحاجةُ منتفِيَةٌ عنه كان الولَدُ عنه مُنتفِيًا[٢].

- وجملةُ: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُقرِّرةٌ لوصفِ الغِنى بأنَّ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِلكُه[٣].

- ولَمَّا كان سياقُ الاستدلالِ يَقتَضي التَّأكيدَ، أعاد (ما) فقال: ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٤].

- قولُه: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن الغيبةِ إلى الخطابِ؛ لِمَزيدِ المبالَغةِ في الإلزامِ والإفحامِ[٥].

- و﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾؛ لتأكيدِ النَّفيِ بالاستغراقِ، أي: استغراقِ نفيِ جميعِ أنواعِ الحجَّةِ قَوِيِّها وضَعيفِها، عَقْليِّها وشَرعيِّها[٦].

- وقولُه: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ استفهامٌ مستعمَلٌ في التَّوبيخِ والتَّقريعِ على جَهلِهم واختلافِهم[٧].

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٥٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣١).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٣).

- قولُه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فيه تلوينٌ للخِطابِ، وتوجيهٌ له إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيُبيِّنَ لهم سوءَ مَغبَّتِهم، ووَخامةَ عاقِبَتِهم[1].

٤- قوله تعالى: ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ القضاءَ عليه بعدَمِ الفلاحِ يتَوجَّه عليه أن يَسأَلَ سائلٌ: كيف نَراهم في عِزَّةٍ وقُدرةٍ على أذى المسلِمين، وصدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم؟! فهو جوابٌ على تقديرِ سؤالٍ، أنَّ قائلًا قال: كيف لا يُفلِحون وهم في الدُّنيا مُفلِحون بأنواعٍ ممَّا يتَلذَّذون به؟! فيُجابُ السَّائلُ بأنَّ ذلك تَمتيعٌ في الدُّنيا لا يُعبَأُ به، أو لهم مَتاعٌ في الدُّنيا زائلٌ لا بقاءَ له، ثمَّ يَلْقَون الشَّقاءَ المؤبَّدَ في الآخرةِ، وإنَّما عدَمُ الفلاحِ مَظهَرُه الآخرةُ[2].

- ومادَّةُ (متع) مُؤذِنةٌ بأنَّه غيرُ دائمٍ، وتنكيرُه مؤذِنٌ بتقليلِه، وتقييدُه بأنَّه ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ مؤكِّدٌ للزَّوالِ وللتَّقليلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٣).

الآيات (٧١-٧٢)

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ كَبُرَ ﴾: أي: شَقَّ، وعَظُمَ وصَعُبَ. وأصلُ (كبر): يدلُّ على خِلافِ الصِّغَر[١].

﴿مَّقَامِي ﴾: أي: لُبثي وطولُ مُكثي بينَ أظهرِكم، وقيل: المرادُ بالمَقامِ القيامُ؛ أي: قيامي لوعظِكم؛ لأنَّ الواعظَ يقومُ حالَ وعظِه، والمَقامُ يكونُ مصدرًا، واسمَ مكانِ القيامِ، وزمانِه، وأصلُ (قوم): يدلُّ على انْتِصابٍ أو عَزْمٍ[٢].

﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ ﴾: أي: فأعِدُّوا أمْرَكم، واعْزِموا على ما تُقْدِمون عليه في أمري، يُقالُ: أَجْمَعْتُ على كذا، بمعنَى: عَزَمْتُ عليه، وأَجْمَعْتُ كذا: أكثرُ ما يُقالُ فيما يكونُ جمعًا يُتوصَّلُ إليه بالفكرةِ، وأصل (جمع): يَدُلُّ عَلَى تَضَامِّ الشَّيْءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٩)، ، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠١).

﴿غُمَّةً﴾: أي: مُلتَبِسًا مُشكِلًا مُبهَمًا. وأصلُ (غم): يدُلُّ على تَغطيةٍ وإطباقٍ[١].

﴿ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾: أي: أمضُوا إليَّ ما في أنفُسِكم وافرُغُوا منه. وأصلُ (قضي): يدلُّ على إنفاذِ أمرٍ لجِهَتِه[٢].

﴿تُنظِرُونِ﴾: أي: تؤخِّرونِ، وأصلُ (نظر): يدلُّ على انتظارٍ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾

﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾: مَنصوبٌ عطفًا على ﴿أَمۡرَكُمۡ﴾ بتقديرِ حذفِ مُضافٍ، أي: وأمْرَ شركائِكم، وإنَّما قُدِّر مضافٌ محذوفٌ؛ لأنَّ الأكثَرَ أنَّ فِعلَ (أَجْمع) يُستعمَلُ في المعاني، و (جَمَع) يُستعمَل في الأعيانِ، فيُقال: أجمعَ أمْرَه، وجَمَع شُركاءَه. وقيل: إنَّه منصوبٌ بإضمارِ فعلٍ لائقٍ، أي: واجْمَعوا أو ادْعُوا شُركاءَكم. وقيل: إنَّه مفعولٌ معه، والواوُ هنا واو المعيَّةِ[٤].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يتلوَ على كفَّارِ مَكَّةَ خبَرَ نُوحٍ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٥).

(٣) ينظر ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٤٩-٣٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٨٠-٦٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٤٠-٢٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٦٩).

عليه السَّلامُ مع قومِه حين قال لهم: إنْ كان عَظُمَ عليكم وُجودي بين أظهُرِكم، وتذكيري إيَّاكم بحُجَجِ اللهِ وبراهينِه، فعلى اللهِ توكَّلتُ، فأعِدُّوا أمْرَكم، وادعُوا شُرَكاءَكم لإعانتِكم، ثمَّ لا تجعَلوا أمْرَكم عليكم مُستَتِرًا مُشكِلًا، ثمَّ أَمضُوا إليَّ ما في أنفُسِكم، ولا تُمهِلوني، فإن أعرَضتُم عن دَعوتي، فإنَّني لم أسأَلْكم عليها أجرًا؛ لأنَّ ثوابي عند ربِّي وأجري عليه سُبحانَه، وأُمِرتُ أن أكونَ مِن المُسلِمينَ.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ نوحًا كذَّبَه قومُه، فنجَّاه اللهُ هو ومَن معه في السَّفينةِ، وجعَلَهم يَخْلُفونَ المكَذِّبينَ في الأرضِ، وأغرقَ الذين جَحَدوا حُجَجَه، ثمَّ أمرَ الله تعالى نبيَّه مُحمَّدًا أن يتأمَّلَ كيف كان عاقبةُ القَومِ الذين أنذَرَهم رسولُهم عذابَ اللهِ وبأسَه؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى الدَّلائِلَ على وحدانيَّتِه، وذكَرَ ما جرى بين الرَّسولِ والكفَّارِ؛ ذكَرَ قَصصًا مِن قَصَصِ الأنبياءِ، وما جرى لهم مع قَومِهم من الخِلافِ؛ وذلك تسليةً للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولِيَتأسَّى بمَن قَبلَه من الأنبياءِ، فيَخِفَّ عليه ما يلقَى مِن التَّكذيبِ، وقِلَّةِ الأتباعِ، ولِيَعلمَ المتلوُّ عليهم هذا القَصَصُ عاقبةَ مَن كذَّبَ الأنبياءَ، وما منح اللهُ نبيَّه مِن العلمِ بهذا القَصَصِ، وهو لم يُطالِعْ كتابًا، ولا صَحِبَ عالِمًا، وأنَّها طِبقُ ما أخبَرَ به، فدلَّ ذلك على أنَّ

الله أوحاه إليه، وأعلَمَه به، وأنَّه نبيٌّ لا شَكَّ فيه[١].

وأيضًا فهي انتقالٌ مِن مُقارعةِ المُشرِكينَ بالحُجَج السَّاطعةِ على بُطلانِ دِينِهم، وبالدَّلائِلِ الواضحةِ على تفنيدِ أكاذيبِهم وتكذيبِهم، وما تخلَّلَ ذلك مِن الموعظةِ والوعيدِ بالعذابِ العاجِلِ والآجِلِ، إلى التَّعريضِ لهم بذِكرِ ما حَلَّ بالأُمَمِ المُماثلةِ أحوالُها لأحوالِهم؛ استِقصاءً لطرائِقِ الحِجاجِ على أصحابِ اللَّجاجِ، ففي ذِكرِ عاقِبةِ قَومِ نُوحٍ عليه السَّلامُ تعريضٌ للمُشرِكينَ بأنَّ عاقِبتَهم كعاقبةِ أولئك، أو أنَّهم إنَّما يُمتَّعونَ قليلًا، ثم يُؤخَذونَ أخذةً رابيةً، كما مُتِّعَ قَومُ نوحٍ زمنًا طويلًا، ثمَّ لم يُفلِتوا من العذابِ في الدُّنيا، فذكَرَ قِصَّةَ نُوحٍ مع قومِه عِظةً للمُشرِكينَ، ومُلقيًا بالوَجَلِ والذُّعرِ في قلوبهم، وفي ذلك تأنيسٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم وللمُسلمينَ بأنَّهم أُسوةٌ بالأنبياءِ والصَّالحينَ مِن أقوامِهم[٢].

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾.

أي: واقرأْ- يا مُحمَّدُ- على قَومِك المُشرِكينَ خَبَرَ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع قَومِه الذينَ كذَّبوه فأهلَكَهم اللهُ؛ لِيَحذَرَ قومُك من أن يُصيبَهم اللهُ بعِقابِه[٣].

﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾.

أي: حين قال لِقَومِه: يا قومي، إن كان عَظُم وثقُلَ عليكم لُبثِي بين أظهُرِكم، وشَقَّ عليكم وَعظي إيَّاكم بالدَّلائِلِ والبراهينِ الإلهيَّةِ، فعَزَمتُم على أن تنالوني

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٤-٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٥).

بسوءٍ- فَعَلى اللهِ اعتمَدْتُ؛ فهو مَن ينصُرُني، ويمنَعُ أذاكم عني[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦ - ١١٨].

﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾.

أي: فأعِدُّوا أمْرَكم، واعزِموا جميعًا على إيذائي، وادعُوا مَن تدعونَ مِن دونِ اللهِ لإعانتِكم[(٢)].

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾.

أي: ثمَّ لا يكُنْ أمرُكم خفيًّا مُشكِلًا، فيه لبسٌ عليكم[(٣)].

﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣١، ٢٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

قال القرطبي: (أي: لِيَكنْ أمرُكم ظاهرًا مُنكَشِفًا، تتمَكَّنونَ فيه ممَّا شِئتُم، لا كمَن يخفَى أمرُه، فلا يقدِرُ على ما يُريدُ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٣).

وقال ابنُ كثير: (أي: ولا تجعَلوا أمَركم عليكم مُلتَبِسًا، بل افصِلوا حالَكم معي). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣).

وقال محمد رشيد رضا: (أي: خفيًّا فيه شيءٌ مِن الحَيرةِ أو اللَّبسِ الذي يقتضي التردُّدَ في الإنفاذِ، بعد العزمِ والإجماعِ، بل كونوا على عِلمٍ وبصيرةٍ فيه؛ لكيلا تتحَوَّلوا عنه بظهورِ الخطأِ أو التردُّدِ في كونِه هو الصَّوابَ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٧٦).

أي: ثمَّ أَمضُوا ما تحدِّثونَ أنفسَكم به فيَّ، وأنفِذوا قضاءَكم نَحوِي، وافرُغُوا مِن أمري، ولا تُمهِلوني[١].

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: فإن أعرَضْتُم -يا قومِ- عن دَعوتي لكم إلى توحيدِ اللهِ وطاعتِه، فإنِّي لم أسألْكم على دَعوتي مالًا، حتى تُعرِضوا عن الحَقِّ[٢].

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

أي: ما ثَوابي على دَعوتِكم إلى الحَقِّ إلَّا على اللهِ الذي أرسَلَني إليكم، ولا أريدُ ثوابًا مِن غيرِه[٣].

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

أي: وأمَرَني اللهُ أن أكونَ مِن المُستَسلمينَ له، الموحِّدينَ المُنقادينَ له بالطَّاعةِ، وأنا مُمتَثِلٌ ما أمَرَني به[٤].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤١، ٢٤٢).

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى الكَلِماتِ التي جَرَت بينَ نوحٍ وأولئك الكُفَّار، ذكَرَ ما إليه رجعَتْ عاقِبةُ تلك الواقِعةِ، أمَّا في حقِّ نوحٍ وأصحابِه فأمرانِ؛ أحدُهما: أنَّه تعالى نجَّاهم مِن الكُفَّارِ. الثاني: أنَّه جعَلَهم خلائِفَ بمعنى أنَّهم يَخلُفونَ مَن هلك بالغَرَق، وأمَّا في حَقِّ الكُفَّار فهو أنَّه تعالى أغرَقَهم وأهلَكَهم[1].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾.

أي: فكذَّب نوحًا قومُه، فنجَّيناه مِن الغَرَق هو ومَن معه على دينِه، ممَّن حُمِلَ معه في السَّفينةِ[2].

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾.

أي: وجَعَلْنا مَن نجَّينا في السَّفينةِ مع نوحٍ خلائِفَ في الأرضِ، يخلُفُ بَعضُهم بعضًا بعد إغراقِ قَومِ نُوحٍ[3].

﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٠).
قال ابن عطية: (الفُلك: السَّفينةُ، والمفسِّرونَ وأهلُ الآثارِ مُجمِعونَ على أنَّ سَفينةَ نُوحٍ كانت واحدةً). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣).
وكلمة (فُلْك) تُستعمَلُ للواحدِ وللجمعِ. يُنظر: المصدر السابق، و((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠).

أي: وأغرَقْنا بالطُّوفانِ قَومَ نوحٍ؛ لأنهم كذَّبوا برسالةِ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

كما قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وقال سُبحانه: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ [الفرقان: ٣٧].

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾.

أي: فانظُرْ -يا محمَّدُ- كيف كان آخِرُ أمرِ القَومِ الذين أنذَرَهم نوحٌ عِقابَنا على شِرْكِهم باللهِ وتكذيبِهم لِرَسولِه؛ أعقَبَهم ذلك أنَّا أهلَكْناهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قولُ الله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، أي: ما أنصَحُكم إلَّا لوجهِ اللهِ تعالى، لا لغَرَضٍ من أغراضِ الدُّنيا، وهكذا ينبغي لكلِّ مَن ينفَعُ النَّاسَ بعِلمٍ أو إرشادٍ إلى طريقِ الله تعالى[٣]. فالآية فيها إشارةٌ إلى أنَّه ما أخَذَ منهم مالًا على دَعوتِهم إلى دِينِ اللهِ تعالى، ومتى كان الإنسانُ فارغًا مِن الطَّمَعِ كان قَولُه أقوَى تأثيرًا في القَلبِ[٤]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤).

قال ابن عطية: (قوله: ﴿فَٱنظُرْ﴾ مخاطبةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُشارِكُه في معناها جميعُ الخَلقِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٥).

ففي الآيةِ بيانٌ عن إخلاصِ الدُّعاةِ إلى اللهِ جلَّ وعَزَّ، مِن تَرْكِ الأجرِ؛ لتتوَفَّرَ الدَّواعي إلى الحَقِّ، وذلك أنَّ النَّاصِحَ إذا طلَبَ على نُصحِه أجرًا ربَّما كان ذلك سببًا لامتناعِ النَّاسِ عن القَبولِ منه والإقبالِ عليه، وإذا لم يَطلُبِ الأجرَ كان ذلك أدعى إلى قَبولِ قَولِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ هذا مِن أقوى آياتِ النبوَّةِ؛ أن يقولَ النبيُّ لِقَومِه، وهم متعاوِنونَ عليه: افعلوا بي ما شِئتُم[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ ...﴾ هذا وإن كان خبرًا مِن اللهِ تعالى عن نوحٍ، فإنَّه حَثٌّ مِن الله لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على التأسِّي به، وتعريفٌ منه سبيلَ الرَّشادِ فيما قلَّدَه من الرِّسالةِ، والبلاغِ عنه[٣].

٣- في قولِه تعالى: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ بيانُ أنَّ تَوَكُّلَ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على اللهِ يَدفعُ عنه شرَّ أعدائِه، فقَولُ نوحٍ: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ لولا أنَّ تَحقيقَه هذه الكَلِمةَ- وهو توكُّلُه على اللهِ- يَدفَعُ ما تحدَّاهم به، ودعاهم إليه تعجيزًا لهم من مناجَزَتِه، لكان قد طلَبَ منهم أن يُهلِكوه، وهذا لا يجوزُ، وهذا طلَبُ تعجيزٍ لهم، فدلَّ على أنَّه بتوكُّلِه على اللهِ يُعجِزُهم عمَّا تحدَّاهم به[٤].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٩٦).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ...﴾، ومعنى ﴿كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾: ثَقُل عليكم، وشقَّ عليكم، وعَظُمَ أمرُه عندَكم، وسببُ هذا الثِّقلِ أمرانِ: أحدهما: أنَّه عليه السَّلامُ مكَثَ فيهم ألفَ سَنَةٍ إلَّا خمسينَ عامًا. والثاني: أنَّ أولئك الكُفَّارَ كانوا قد أَلِفُوا تلك المذاهِبَ الفاسِدةَ والطَّرائِقَ الباطلةَ، والغالِبُ أنَّ مَن أَلِفَ طريقةً في الدِّينِ، فإنَّه يَثقُلُ عليه أن يُدعى إلى خلافِها، ويُذكرَ له ركاكتُها، فإن اقترَن بذلك طولُ مُدَّةِ الدعاءِ، كان أثقَلَ، وأشَدَّ كراهيةً، فإن اقترَن به إيرادُ الدلائِلِ القاهرةِ على فسادِ تلك المذاهبِ، كانت النُّفرةُ أشَدَّ، فهذا هو السَّبَبُ في حصولِ ذلك الثِّقلِ[(١)].

٥- بيَّنَ نُوحٌ عليه السَّلامُ أنَّه لا يَخافُ من قومِه بوجهٍ مِن الوجوهِ؛ وذلك لأنَّ الخَوفَ إنَّما يحصُلُ بأحدِ شَيئينِ؛ إمَّا بإيصالِ الشَّرِّ أو بِقَطعِ المنافِعِ، فبيَّنَ أنَّه لا يخافُ شَرَّهم بقوله: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾، وبيَّن أنَّه لا يخافُ أن يقطَعوا عنه خيرًا؛ لأنَّه ما أخَذ منهم شيئًا، وذلك في قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى عن نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ بيانُ أنَّ الإسلامَ هو دينُ الرُّسُلِ كلِّهم؛ أوَّلِهم وآخرِهم، وأنَّهم كلَّهم بُعِثوا بالإسلامِ[(٣)].

٧- قولُه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فيه توعُّدٌ للكفَّارِ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وضربُ مثالٍ لهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٨٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ١٤٩).

في أنَّهم بحالِ هؤلاء مِن التَّكذيبِ، فسيَكونُ حالُهم كحالِهم في التَّعذيبِ[١].

٨- قولُه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ تعظيمٌ لما جَرى عليهم، وتحذيرٌ لِمَن أنذَرَهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم عن مِثلِه، وتسليةٌ له[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾

- في افتتاحِ خطابِ نوحٍ عليه السَّلامُ لقومِه بقولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ إيذانٌ بأهمِّيَّةِ ما سيُلْقيه إليهم؛ لأنَّ النِّداءَ طلَبُ الإقبالِ، واختيارُ التَّعبيرِ عنهم بوصفِ كونِهم قَوْمَه تَحْبيبٌ لهم في نفسِه؛ لِيَأخُذوا قولَه مأخَذَ قولِ النَّاصحِ المتطلِّبِ الخيرَ لهم؛ لأنَّ المرءَ لا يُريدُ لقومِه إلَّا خيرًا[٣].

- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ...﴾ خَصَّ بالذِّكرِ مِن أحوالِه فيهم تذكيرَه إيَّاهم بآياتِ اللهِ؛ لأنَّ ذلك من أهَمِّ شُؤونِه مع قَومِه، فعَطْفُه مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ[٤].

- قولُه: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾: صيغةُ الأمرِ في قولِه: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ﴾ مُستعمَلةٌ في التَّسويةِ، أي: إنَّ عَزْمَهم لا يَضيره بحيث هو يُغْريهم بأخذِ الأُهْبَةِ التَّامَّةِ لِمُقاوَمتِه، وزاد ذِكْرَ شُركائِهم؛ لِلدَّلالةِ على أنَّه لا يَخْشاها؛ لأنَّها في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٣٧).

اعتِقادِهم أشدُّ بَطشًا مِن القومِ، وذلك تَهكُّمٌ بهم[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ فيه إظهارُ الأمرِ في موقعِ الإضمارِ؛ لزيادةِ تقريرٍ يَقتَضيها مقامُ الأمرِ بالإظهارِ، الَّذي يَستلزِمُه النَّهيُ عن التَّستُّرِ والإسرارِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فيه تعميمٌ لنفيِ تَطلُّبِه أجرًا على دَعوتِهم، سواءٌ مِنهم أو مِن غيرِهم؛ فالقَصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ (إنْ... إلَّا) حقيقيٌّ، وبه يَحصُلُ تأكيدُ جملةِ: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ مع زيادةِ التَّعميمِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فيه تقديمُ ذِكْرِ إنجائِه قبل ذِكرِ الإغراقِ الَّذي وقَع الإنجاءُ منه؛ للإشارةِ إلى أنَّ إنجاءَه أهمُّ عندَ اللهِ تعالى مِن إغراقِ مُكذِّبيه، ولإظهارِ كمالِ العنايةِ بشأنِ المقدَّمِ، ولتعجيلِ المَسرَّةِ للمُسلِمين السَّامعين لهذه القصَّةِ، وللإيذانِ بسَبقِ الرَّحمةِ على الغضَبِ[٤]، وأيضًا لأنَّه هو الأهَمُّ في سياقِ صِدقِ الوعدِ والوعيدِ مِن وَجهينِ؛ أوَّلُهما: تقديمُ مِصداقِ الوعدِ لِتَسليةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٥- ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٣).

النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتسريةِ حُزنِه على قومِه، وثانيهما: كونُه هو الأظهَرَ في الحُجَّةِ على أنَّهما- أي: الوعدَ والوعيدَ- مِن الله تعالى القادِرِ على إيقاعِهما، على خلافِ ما يعتَقِدُ المُشرِكونَ المكَذِّبون، المَغرورون بكَثرتِهم وقلَّةِ أتباعِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وخلافِ الأصلِ المعهودِ في المصائبِ العامَّةِ في العادةِ، وهو أنَّها تُصيبُ الصَّالحَ والطَّالِحَ على سواءٍ، فلا تمييزَ فيها ولا استثناءَ، ولكنَّه هو الذي جَرَت به سنَّةُ الله تعالى في مُكَذِّبي الرُّسُل مِن بَعدِ نوحٍ، فكان آيةً لهم، فلولا أنَّ الأمرَ بِيَدِ اللهِ على وَفقِ وَعدِه ووعيدِه، لَما هلَكَ الألوفُ الكثيرونَ، ونجا أفرادٌ قليلون لهم صِفةٌ خاصَّةٌ أخرَجَهم منهم تصديقًا لخبَرِ رسولِهم، وما سِيقَ هذا النبأُ هنا إلَّا لتقريرِ هذا المَعنى[1].

- وتعريفُ قومِ نوحٍ بطريقِ الموصوليَّةِ في قولِه: ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ للإيماءِ إلى سبَبِ تَعذيبِهم بالغرَقِ، وأنَّه التَّكذيبُ بآياتِ اللهِ؛ إنذارًا للمُشرِكين مِن العرَبِ؛ ولذلك ذُيِّل بقولِه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، أي: المنذَرين بالعذابِ، المكذِّبين بالإنذارِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٣).

الآيات (٧٤-٧٨)

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: الملأ: أشرافُ النَّاسِ ووجُوهُهم، أو الجماعةُ يجتمعونَ على رأيٍ، فيملؤونَ العيونَ منظرًا، والنفوسَ بهاءً وجلالًا، ويُقالُ: فلانٌ ملءُ العيونِ، أي: معظَّمٌ عندَ مَن رآه، وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنَّهم يتمالئونَ، أي: يتظاهرونَ عليه ، وأصلُ (ملأ): يدلُّ على المساواةِ، والكمالِ في الشيءِ[١].

﴿لِتَلْفِتَنَا﴾: أي: لتَصْرِفَنا، والالتفاتُ: الانصرافُ عمَّا كنتَ مُقبلًا عليه، وأصلُ (لفت): يدلُّ على اللَّيِّ، وصَرفِ الشَّيءِ عن جِهتِه المُستَقيمةِ[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه بعثَ بعد نوحٍ رُسُلًا إلى قَومِهم بالمُعجزاتِ والبَراهينِ التي تدُلُّ على صِحَّةِ رسالتِهم، فما كان هؤلاء المُشرِكونَ لِيُؤمِنوا؛ بسبَبِ تكذيبِهم إيَّاهم أوَّلَ ما أُرسِلوا إليهم. وكما ختم اللهُ على قُلوبِ هؤلاء الأقوامِ فلم يُؤمِنوا،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٧).

كذلك يختِمُ على قلوبِ المُعتَدينَ، ثمَّ بعث اللهُ مِن بعد أولئك الرُّسُلِ موسى وهارونَ عليهما السَّلامُ إلى فرعونَ وأشرافِ قَومِه بالمُعجزاتِ الدَّالَّةِ على صِدقِهما، فاستكبَروا عن قَبولِ الحَقِّ، وكانوا قومًا مُجرمينَ.

فلما أتى فرعونَ وقومَه الحقُّ الذي جاء به موسى، قالوا: إنَّ الذي جاء به موسى مِن الآياتِ إنما هو سِحرٌ ظاهِرٌ، فقال لهم موسى مُنكرًا عليهم: أتقولونَ للحَقِّ لَمَّا جاءَكم إنَّه سِحرٌ مُبينٌ؟! أسِحرٌ هذا الحَقُّ الذي تُبصِرونَه؟! ولا يفوزُ السَّاحِرونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، فقال فرعونُ وملَؤه لموسى: أجِئتَنا لِتَصرِفَنا عمَّا وَجَدْنا عليه آباءَنا من عبادةِ غَيرِ الله، وتكونَ لكما أنت وهارونَ العظَمةُ والسُّلطانُ في أرضِ مِصرَ؟ وما نحنُ لكما بمُؤمِنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ في هذه الآيةِ عِبرةً أُخرَى مِن عِبَرِ مُكَذِّبي الرُّسُلِ، وسُنَّةً مِن سُنَنِه فيهم؛ تكملةً لِما بيَّنَه في حالِ قَومِ نُوحٍ مع رسولِهم، عسَى أن يعتبِرَ بها أهلُ مَكَّة، فيَعلموا كيف يتَّقونَ عاقِبةَ المكَذِّبينَ مِن قَومِ نُوحٍ وغَيرِهم، فإنَّ كُلَّ سوءٍ وضُرٍّ عُلِمَ سَبَبُه، أمكن اتِّقاؤُه باتِّقاءِ سَبَبِه، إذا كان من عمَلِ النَّاسِ الاختياريِّ، كالكُفرِ والاعتداءِ والظُّلمِ[1].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: ثمَّ أرسَلْنا من بعدِ نوحٍ رُسُلًا إلى قَومِهم، فجاؤوهم بالمُعجزاتِ،

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٨).

والبَراهينِ الواضحةِ الدالَّةِ على صِدقِهم[١].

﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: فما كان المُشرِكونَ لِيُؤمِنوا بما جاءتهم به رسُلُهم؛ بسبَبِ تكذيبِهم بالحَقِّ حين جاءَهم أوَّلَ مرَّةٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

أي: كما خَتَمْنا على قلوبِ السَّابِقينَ فلم يُؤمِنوا، نختِمُ أيضًا على قلوبِ المُجاوِزينَ الحَدَّ بالشِّركِ، وتكذيبِ الرُّسُلِ، فلا يؤمِنون؛ عقوبةً لهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١).
وقيل: فما كانوا ليُؤْمنوا عندَ إرسالِ الرُّسلِ بما كذَّبوا به يومَ أخذِ ميثاقِهم حينَ أخرَجهم مِن صُلبِ آدمَ، فآمنوا كرهًا حيثُ أقرُّوا بالألسنِ، وأضْمَروا التكذيبَ، قاله ابنُ عباسٍ، والسديُّ.
وقيل: فما كانوا لو ردَدْناهم إلى الدُّنيا بعدَ موتِهم ليُؤْمِنوا بما كذَّبوا به مِن قبلِ هلاكِهم، وهو قولُ مجاهدٍ.
وقيل: الضميرُ في (كانُوا)، (لِيُؤْمِنُوا) (كَذَّبُوا) يعودُ إلى قومِ الرُّسلِ على معنَى أنَّهم بادروا رسلَهم بالتكذيبِ كلَّما جاء رسولٌ، ثم لجُّوا في الكفرِ، وتمادَوْا، فلم يَكونوا لِيُؤْمِنوا بما سبَق به تكذيبُهم، وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣، ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٥).

فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠١].

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾.

أي: ثمَّ أرسَلْنا من بعد الأنبياءِ الذين جاؤوا بعدَ نوحٍ، موسى وهارونَ إلى فِرعونَ والأشرافِ مِن قَومِه بمُعجِزاتِنا الواضحةِ، فكذَّبوا بها، واستكبَروا عن اتِّباعِ الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾.

أي: وكان فِرعونُ وقَومُه أصحابَ ذُنوبٍ كبيرةٍ وآثامٍ عظيمةٍ؛ ولذلك استكبَروا عن اتِّباعِ الحَقِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

وقال سُبحانه: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٨).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى باستكبارِ آلِ فِرعونَ؛ بيَّنَ أنَّه تسبَّبَ عنه طعنُهم في معجزاتِه مِن غَيرِ تأمُّلٍ، بل بغايةِ المُبادَرةِ والإسراعِ بما أشعَرَت به الفاءُ والسِّياقُ[1].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

أي: فلمَّا جاءَتْهم المُعجزاتُ الواضحةُ التي أيَّدنا بها موسى، قالوا: إنَّ هذا الَّذي جاء به موسى لَسِحْرٌ ظاهِرٌ[2]!!

كما قال تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ * فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ * وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [النمل: ١٢-١٤].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤].

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾.

أي: قال موسى لهم مُنكِرًا عليهم ومُوبِّخًا لهم: أتقولونَ عن المُعجزاتِ التي

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠).

جِئتُكم بها: إنَّها سِحرٌ مُبينٌ؟! أسِحرٌ هذا الحَقُّ الذي تُبصِرونَه[١]؟!

﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾.

أي: ولا ينجو السَّاحِرونَ، ولا يفوزونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾.

أي: قالوا: أجِئتَنا -يا موسى- لِتصرِفَنا بسِحرِك عن دينِنا الذي وَجَدْنا عليه آباءَنا مِن قبلِ مجيئِك، وتأمُرَنا أن نَعبُدَ اللهَ وحده، ونتركَ عبادةَ آلهَتِنا[٣]؟!

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ولتكونَ لكما عَظمةُ المُلكِ، وعِزُّ السُّلطانِ في أرضِ مِصرَ[٤]؟

﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: وقالوا تكبُّرًا وعنادًا: وما نحنُ لكما- يا موسى وهارونُ- بمصدِّقينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٢).

ومُقِرِّينَ بأنَّكما رسولانِ مِن عندِ اللهِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ * فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ * فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢-١٣٥].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ نُوحًا أوَّلُ الرُّسُلِ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ فيه تَنبيهٌ على فَسادِ السِّحرِ، وسُوءِ عاقِبةِ مُعالِجيه[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ فيه سؤالٌ: أنَّه كيف قال موسى إنَّهم قالوا: أسِحرٌ هذا، بطريقِ الاستفهام، مع أنَّهم إنَّما قالوه بطريقِ الإخبارِ المؤكَّدِ في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾؟!

الجوابُ: أنَّ فيه إضمارًا تقديرُه: أتقولونَ للحَقِّ لَمَّا جاءَكم: إنَّ هذا لَسِحرٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٤).

وقد ورَد ذلك صريحًا، كما في حديثِ الشفاعةِ، وفيه: ((ائتُوا نوحًا؛ فإنَّه أوَّلُ رسولٍ بعثَه الله إلى أهلِ الأرضِ)). أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) مِن حديثِ أنسٍ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٠).

مُبينٌ؟ ثمَّ قال لهم: أسِحرٌ هذا؟! إنكارًا لِما قالوه، فالاستفهامُ للإنكارِ، مِن قَولِ موسى لا مِن قَولِهم[١].

٤- قولُه: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ إنَّما أعْلَمَ أنَّ السَّاحِرَ لا يُفلِحُ، أي: لو كان ساحِرًا لَما شَنَّع حالَ السَّاحِرين، إذ صاحِبُ الصِّناعةِ لا يَحقِرُ صِناعتَه؛ لأنَّه لو رآها مُحقَّرةً لَما الْتزَمَها[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ لَمَّا كان موسى عليه السَّلامُ هو الأصلَ في الرِّسالةِ، وكان أخوه له تبعًا، وحَّدوا الضميرَ فقالوا: ﴿أَجِئۡتَنَا﴾[٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ حكى عن فِرعونَ وقَومِه أنَّهم لم يَقبَلوا دعوةَ موسى عليه السَّلامُ، وعَلَّلوا عدمَ القَبولِ بأمرَينِ؛ الأول: قَولُه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ وفيه إشارةٌ إلى التمَسُّكِ بالتَّقليدِ. والثاني: قولُه: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وفيه إشارةٌ إلى الحِرصِ على طلبِ الدُّنيا والجِدِّ في بقاءِ الرِّياسةِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥١-٢٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٧).

- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾: فيه تنكيرُ ﴿رُسُلًا﴾؛ للتَّفخيمِ ذاتًا ووَصفًا، أي: رُسلًا كِرامًا ذَوِي عددٍ كثيرٍ[١].

- قولُه: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾: فيه التَّعبيرُ عن النَّفيِ بصيغةِ لامِ الجُحودِ؛ مُبالَغةً في انْتِفاءِ الإيمانِ عنهم بأَقْصى أحوالِ الانتفاءِ؛ فمَجيءُ النَّفيِ بلامِ الجُحودِ يَدُلُّ على أنَّ إيمانَهم في حيِّزِ الاستحالةِ والامتناعِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ فيه تخصيصُ فِرْعونَ ومَلَئِه بالذِّكرِ مع عُمومِ رسالةِ موسى عليه السَّلامُ لقَومِه كافَّةً- حيث كانوا جَميعًا مأمورين بعبادةِ ربِّ العالَمين عزَّ سُلطانُه، وتَرْكِ العَظيمةِ الشَّنعاءِ الَّتي كانَ يدَّعِيها الطَّاغيةُ، ويَقبَلُها منهُ فئتُه الباغيةُ- لأصالتِهم في تدبيرِ الأمورِ، واتِّباعِ غيرِهم لهم في الوُرودِ والصُّدورِ[٣].

- قولُه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ السِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ في التَّكبُّرِ[٤].

- وقولُه: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبلَه، أي: كانوا معتادين لارتكاب الذنوبِ العظامِ؛ فإنَّ الإجرامَ مؤذنٌ بعِظَمِ الذنبِ[٥].

٣- قَوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٦٧).

- قولُه: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ استِئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ تَنْساقُ إليه الأذهانُ، كأنَّه قيل: فماذا قال لهم مُوسى حينَئذٍ؟ فقيل: قال: ﴿أَتَقُولُونَ ...﴾[١].

- قولُه: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، ومفعولُ ﴿أَتَقُولُونَ﴾ محذوفٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه، وهو: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[٢].

- ولَمَّا كان تكريرُهم لذلك القَولِ أجدَرَ بالإنكارِ، عبَّرَ بالمضارِعِ ﴿أَتَقُولُونَ﴾ الدَّالِّ على أنَّهم كَرَّروه؛ لِيَنسخوا ما ثبتَ في قلوبِ النَّاسِ مِن عَظمتِه[٣].

- وجملةُ: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ مُستأنَفةٌ للتَّوبيخِ والإنكارِ؛ أنكَر موسى عليهم وصْفَهم الآياتِ الحقَّ بأنَّها سِحرٌ، والإشارةُ بـ ﴿هَٰذَا﴾ تُفيدُ التَّعريضَ بجَهْلِهم، وفسادِ قولِهم، بأنَّ الإشارةَ إلى تلك الآياتِ كافيةٌ في ظُهورِ حَقيقتِها، وأنَّها ليسَتْ مِن السِّحرِ في شيءٍ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾: الاستِفْهامُ في قولِه: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ إنكاريٌّ؛ بنَوْا إنكارَهم على تَخطئةِ موسى فيما جاء به[٥].

- واخْتِير التَّعبيرُ بـ ﴿وَجَدْنَا﴾؛ لِما فيه مِن الإشارةِ إلى أنَّهم نشَؤوا عليها وعقَلوها، وذلك ممَّا يُكسِبُهم تَعلُّقًا بها، وأنَّها كانت أحوالَ آبائِهم، وذلك ممَّا يَزيدُهم تَعلُّقًا بها تبَعًا لِمَحبَّةِ آبائِهم؛ لأنَّ مَحبَّةَ الشَّيءِ تَقْتَضي محبَّةَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٥١).

أحوالِه ومُلابَساتِه[١].

- وجملةُ: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿أَجِئْتَنَا﴾، وهي في قوَّةِ النَّتيجةِ لِتلك الجُملةِ بما مَعها مِن العلَّةِ، أي: لَمَّا تبيَّن مَقصَدُكما، فما نحن لَكُما بمُؤمِنين[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تقديمُ ﴿لَكُمَا﴾ على مُتعلَّقِه ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ المخاطَبَينِ هما الأهمُّ مِن جملةِ النَّفيِ؛ لأنَّ انتِفاءَ إيمانِهم في زَعمِهم كان لأجلِ موسى وهارونَ؛ إذ توَهَّموهما مُتطَلِّبَي نفْعٍ لأنفُسِهما[٣].

- وصِيغَتْ جُملةُ: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ اسميَّةً دونَ أن يَقولوا: (وما نُؤمِنُ لكُما)؛ لإفادةِ الثَّباتِ والدَّوامِ، وأنَّ انتفاءَ إيمانِهم بهِما مُتقرِّرٌ مُتمكِّنٌ، لا طَماعِيَةَ لأحدٍ في ضدِّه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧٩-٨٢)

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ فِرعونَ قال لِقَومِه بعد أن رأى مِن موسى الإصرارَ على دَعوتِه ودَعوةِ قَومِه إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه: جِيئوني بكلِّ ساحرٍ مُتقِنٍ للسِّحرِ، فلمَّا جاء السَّحرةُ فِرعونَ قال لهم موسى: ألقُوا على الأرضِ ما معكم مِن حِبالِكم وعِصيِّكم، فلمَّا ألقَوا حِبالَهم وعِصيَّهم قال لهم موسى: إنَّ الذي جِئتُم به وألقَيتُموه هو السِّحرُ، إنَّ اللهَ سيُذْهِبُه؛ إنَّ اللهَ لا يُصلِحُ عَمَلَ مَن سعى في الأرضِ بالفَسادِ، ويُثبِّتُ اللهُ الحَقَّ الذي جِئتُكم به مِن عِندِه فيُعليه على باطِلِكم، بكَلِماتِه وأمْرِه، ولو كَرِه المُجرِمون.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ادَّعى فِرعونُ ومَلؤُه أنَّ ما جاء به موسى عليه السَّلامُ هو سِحرٌ؛ أخَذوا في مُعارضتِه بأنواعٍ مِن السِّحرِ، لِيَظهَرَ لسائِرِ النَّاسِ أنَّ ما أتَى به من بابِ السِّحرِ[1].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٢).

أي: وقال فِرعونُ لِقَومِه: أحضِروا إليَّ مِن المدائِنِ كلَّ ساحرٍ ماهرٍ بالسِّحرِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾[الأعراف: ١٠٩-١١٢].

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

أي: فلمَّا جاء السَّحرةُ قال لهم موسى: اطرَحوا على الأرضِ ما تريدون طرحَه، مما مَعَكم من الحِبالِ والعِصِيِّ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُواْ ﴾[الأعراف: ١١٣-١١٦].

وقال سُبحانه: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾[طه: ٦٥-٦٦].

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ بالمَدِّ والهَمزِ، على أنَّ الاستفهامَ مِن موسى للسَّحَرةِ عما جاؤوا به، أسِحرٌ هو أم غيرُه؟ فهو استفهامٌ على جهةِ التَّوبيخِ؛ لأنَّهم قد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤١)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٧).

عَلِموا أنَّه سِحرٌ[١].

٢- قِراءةُ ﴿السِّحْرُ﴾ بألف وصلٍ مِن غَيرِ مَدٍّ ولا همزٍ، على وجهِ الخَبَرِ مِن موسى أنَّ الذي جاء به سَحَرةُ فِرعونَ هو السِّحرُ، لا ما جاء به موسى[٢].

﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُ ﴾.

أي: فلمَّا ألقَى السَّحرةُ حِبالَهم وعِصيَّهم، وسَحَروا أعيُنَ النَّاسِ، قال موسى للسَّحَرةِ: الذي جِئتُم به هو السِّحرُ، وليس ما جئتُكم به ممَّا أسمَيتُموه سِحرًا[٣].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سيُذهِبُ سِحرَكم، ويُظهِرُ بُطلانَه للنَّاسِ بما يُظهِرُه على يَدي من المعجزةِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ * وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ * فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٦-١١٩].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾.

---

(١) قرأ بها أبو عمرٍو، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٨).
ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٩).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٨).
ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٦).

أي: إنَّ اللهَ لا يُصلِحُ أعمالَ الذين يَسعَونَ في أرضِ اللهِ بما يَكرَهُه كالسَّحَرةِ، فلا يُتِمُّها لهم فينتَفِعونَ بها، ولا يثيبُهم عليها[1].

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

أي: ويُثبِّتُ اللهُ الحَقَّ الذي جاء مِن عندِه، ويُوضِّحُه ويُظهِرُه على مَن خالَفَه، بكَلِماتِه الكونيَّةِ، وكَلِماتِه التنزيليَّةِ التي يُوحيها إلى رسلِه، ومِنها الإخبارُ بإظهارِ الحقِّ وإعزازِه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٧).
قال ابنُ عطيةَ: (قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يصِحُّ أن يكونَ مِن كلامِ موسى عليه السَّلامُ، ويصِحُّ أن يكونَ ابتداءَ خَبَرٍ من اللهِ تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٦).
وقال ابنُ عاشورٍ: (إنما كان السحرةُ مفسدينَ؛ لأنَّ قصدَهم تضليلُ عقولِ الناسِ؛ ليكونوا مسخَّرين لهم، ولا يعلموا أسبابَ الأشياءِ، فيبقوا آلةً فيما تأمرُهم السحرةُ، ولا يهتدوا إلى إصلاحِ أنفسِهم سبيلًا، أمَّا السحرةُ الذين خاطَبهم موسَى عليه السلام فإفسادُهم أظهرُ؛ لأنَّهم يُحاوِلونَ إبطالَ دَعوةِ الحَقِّ والدِّينِ القَويمِ، وتَرويجَ الشِّركِ والضَّلالاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٨٢).
قال ابن عطيَّةَ: (قَولُه: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يحتملُ أن يكونَ مِن كلامِ موسى عليه السَّلامُ، ويحتملُ أن يكونَ مِن إخبارِ الله عزَّ وجَلَّ، وكونُ ذلك كلِّه من كلامِ موسى أقرَبُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٦).

أي: يُحِقُّ اللهُ الحَقَّ وإن كَرِه العُصاةُ الآثمونَ ذلك[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ هكذا كلُّ مُفسدٍ عَمِلَ عملًا، واحتال كَيدًا، أو أتى بمكرٍ، فإنَّ عمَلَه سيَبطُلُ ويضمَحِلُّ، وإن حصَلَ لعَمَلِه رَوَجانٌ في وقتٍ ما، فإنَّ مآلَه الاضمحلالُ والمَحْقُ، وأمَّا المُصلِحونَ الذين قَصْدُهم بأعمالِهم وَجهُ الله تعالى- وهي أعمالٌ ووسائِلُ نافعةٌ، مأمورٌ بها- فإنَّ اللهَ يُصلِحُ أعمالَهم ويُرَقِّيها، ويُنَمِّيها على الدَّوامِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴾، فأمَرهم موسَى عليه السلامُ بالإلقاءِ؛ لأنَّه علِم أنَّهم لا بدَّ أن يُلقوا تلك الحبالَ والعصيَّ، وإنَّما وقَع التخييرُ في التقديمِ والتأخيرِ، فأذِن لهم في التقديمِ؛ لتظهرَ معجزتُه أيضًا بغلَبِهم؛ لأنَّه لو ألقَى أوَّلًا لم يكنْ له غلَبٌ وظهورٌ عليهم، فلهذا المعنَى أمَرهم بالإلقاءِ أولًا[٣]، وهو بمنزلةِ تَقريرِ شُبهةِ المُلحِدِ ممَّن يتَصدَّى لإبطالِها بعد تقريرِها[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴾ إطلاقُ الإلقاءِ على عمَلِ السِّحرِ؛ لأنَّ أكثَرَ تصاريفِ السَّحَرةِ في أعمالِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٥).

السِّحريةِ يكونُ برَمي أشياءَ إلى الأرضِ[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ۞ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ طُويَ ذِكرُ صورةِ سِحرِهم في هذه الآيةِ؛ لأنَّ الغرضَ مِن العبرةِ في هذه الآيةِ وَصفُ إصرارِ فِرعونَ ومَلَئِه على الإعراضِ عن الدعوةِ، وما لَقِيَه المُستَضعَفونَ الذين آمَنوا بموسى عليه السَّلامُ مِن اعتلاءِ فِرعونَ عليهم، وكيف نصَرَ اللهُ رَسولَه والمُستَضعفَينَ معه، وكيف كانت لهم العاقِبةُ الحُسنى، ولِمَن كفروا عاقبةُ السَّوءِ، ليكونوا مثلًا للمُكَذِّبينَ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولذلك لم يُعرِّجْ بالذِّكرِ إلَّا على مقالةِ موسى عليه السَّلامُ حين رأى سِحرَهم، الدَّالَّةِ على يقينِه برَبِّه ووَعدِه، وبأنَّ العاقِبةَ للحَقِّ، وذلك أهَمُّ في هذا المقامِ مِن ذِكرِ اندحاضِ سِحرِهم تجاهَ مُعجزةِ موسى عليه السَّلامُ؛ ولأجلِ هذا لم يذكُرْ مَفعولَ ﴿أَلۡقَوۡاْ﴾ لتنزيلِ فِعلِ ﴿أَلۡقَوۡاْ﴾ منزلةَ اللَّازمِ؛ لِعَدمِ تعَلُّقِ الغَرَضِ ببيانِ مَفعولِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ عطفٌ على مُقدَّرٍ يَستَدعيهِ المقامُ قد حُذِف؛ إيذانًا بسُرعةِ امتثالِهم لأمرِ فرعونَ، كما هو شأنُ الفاءِ الفصيحةِ في كلِّ مَقامٍ، والتَّقديرُ: فأتَوْا به، فلَمَّا جاؤوا ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ ...﴾[٣].

- قولُه: ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ فيه استعمالُ فعلِ الأمرِ ﴿أَلۡقُواْ﴾ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٩).

التَّسويةِ المرادِ منها الاختيارُ، وإظهارُ قِلَّةِ الاكتراثِ بأحَدِ الأمْرَين؛ وفيه استِطالةٌ عليهم، وعدَمُ مُبالاةٍ بهم[١].

- وفي إبهامِ: ﴿مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ تخسيسٌ له وتقليلٌ، وإعلامٌ أنَّه لا شيءَ يُلتَفَتُ إليه[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ جملةٌ معترِضةٌ، وهي تعليلٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾، وتذييلٌ للكلامِ بما فيه نفيُ الإصلاحِ، وإضافةُ ﴿عَمَلَ﴾ إلى ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ يُؤْذِنُ بأنَّه عملٌ فاسدٌ[٣].

- وفيه وضْعُ المظهَرِ ﴿عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ موضِعَ المضمَرِ- حيث لم يَقُلْ: إنَّ اللهَ لا يُصلِحُ عمَلَكم- للتَّسجيلِ عليهم بالإفسادِ، والإشعارِ بعلَّةِ الحكمِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾ فيه إظهارُ اسمِ الجلالةِ في هذه الجملةِ، مع أنَّ مُقتَضى الظَّاهرِ الإضمارُ؛ لِقَصدِ تربيةِ المهابةِ في نُفوسِهم[٥].

- وقولُه: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ المرادُ (بالمجرمين) فِرعونُ ومَلؤُه؛ فعَدَل عن ضميرِ الخِطابِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ؛ لِما فيه مِن وَصفِهم بالإجرامِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٧).

تَعريضًا بهم، وإنَّما لم يُخاطِبْهم بصفةِ الإجرامِ بأن يَقولَ: (وإنْ كَرِهتُم أيُّها المُجرِمون) عُدولًا عن مُواجَهتِهم بالذَّمِّ، وُقوفًا عندَ أمرِ اللهِ تعالى؛ إذ قال له: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾[1] [طه: ٤٤]، وذلك على القولِ بأنَّه مِن كلامِ موسَى عليه السلامُ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٨).

الآيات (٨٢-٨٦)

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ ذُرِّيَّةٌ ﴾: الذُّرِّيَّةُ: الأولادُ وأولادُ الأولادِ، فهي اسمٌ يَجمعُ نَسلَ الإنسانِ مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، قيل: أصلُها مِن ذرَأ، أي: خلَق؛ لأنَّها خلقُ الله، وحُذِفت الهمزةُ منها، وقيل: أصلُها مِن الذَّرِّ، بمعنَى التَّفريقِ؛ لأنَّ اللَّه تعالى ذَرَّهم في الأرضِ[(١)].

﴿ يَفۡتِنَهُمۡ ﴾: أي: يَقتُلَهم ويُعَذِّبَهم، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ[(٢)].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لم يُؤمِنْ لِموسى عليه السَّلامُ- مع ما أتى به مِن الحُجَج والأدِلَّةِ على صِدقِه- إلَّا عدَدٌ قليلٌ مِن شَبابِ قَومِه من بني إسرائيلَ، وهم خائفونَ مِن فرعونَ وأشرافِ قَومِهم أن يَفتِنوهم بالعذابِ، فيصدُّوهم عن دينِهم، وإنَّ فِرعونَ لَجبَّارٌ مُستكبِرٌ في الأرضِ، وإنَّه لَمِن المُتَجاوزينَ الحَدَّ في الكفرِ والفَسادِ، وقال موسى لِقَومِه- تَطمينًا لقلوبهم-: يا قَومي، إن كُنتم آمَنتُم باللهِ، فثِقوا به، وسلِّموا لأمْرِه إن كُنتم مُذعِنينَ له بالطَّاعة، فقالوا: على اللهِ وَحْدَه لا شريكَ له اعتَمَدْنا، وإليه فوَّضْنا أمْرَنا، ربَّنا لا تُظْهِرْهم علينا فيَروا أنَّهم خيرٌ منا فيزدادوا طغيانًا،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥٧، ٣٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢-٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٦).

ويقولوا: لو كانوا على حقٍّ ما سُلِّطنا عليهم، فيُفتنوا بذلك، ويَصُدَّهم عن الإقرارِ بالحَقِّ واتِّباعِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٨٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا حكى سُبحانَه أنَّ موسى عليه السَّلامُ أبان ما أبان مِن بُطلانِ السِّحرِ، وكونِه إفسادًا، فثَبَت ما أتَى به لِمُخالفَتِه له؛ أخبَرَ تعالى- تسليةً للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وفَطمًا عن طلَبِ الإجابةِ للمُقترَحاتِ- أنَّه ما تسبَّبَ عن ذلك في أوَّلِ الأمرِ عَقِبَ إبطالِ سِحرِهم مِن غيرِ مُهلةٍ، إلَّا إيمانُ ناسٍ ضُعفاءَ، غيرِ كثيرٍ[(١)].

وأيضًا فإنَّ هذه الآيةَ تَفريعٌ على ما تقَدَّمَ مِن المحاورةِ، أي: فتفَرَّع على ذلك أنَّ فِرعونَ ومَلأَه لم يُؤمِنوا بموسى[(٢)].

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ ﴾.

أي: فلم يصدِّقْ بموسى في أوَّلِ دَعوتِه، ويُقِرَّ له بالنبوَّةِ إلَّا قَليلٌ مِن أولادِ قَومِه بني إسرائيلَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٨٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٢٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٨ - ٢٦٠).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بـ﴿ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ ﴾: أبناءُ قَومِ موسى من بني إسرائيلَ: ابنُ جريرٍ، والشوكانيُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٩-٥٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٩).

﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾.

أي: آمَنوا وهم خائفونَ مِن فِرعونَ ومِن أشرافِ قَومِهم- الذين كانوا على مِثلِ ما كان عليه فرعونُ- أن يَصرِفَهم فِرعونُ عن اتِّباعِ الحَقِّ، بمِحنةٍ وبليَّةٍ يُوقِعُها عليهم[1].

ثم بيَّن أسبابَ خوفِهم منه بقولِه:

﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

أي: وإنَّ فِرعونَ لجبَّارٌ، متكبِّرٌ على الحَقِّ والخَلْقِ في أرضِ مِصرَ، وإنَّه لَمِنَ المجاوزينَ الحدَّ في الكُفرِ والقَتلِ والبَغيِ[2].

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، والأعمشُ، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٧).

وقيل المراد: شبابٌ مِن قَومِ فِرعونَ، وممن ذهَب إلى ذلك: ابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٧-٢٨٨).

وممَّن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباسٍ في الروايةِ الثانيةِ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٧).

قال ابن عاشور: (المعنى: أنَّهم آمنوا عند ظهورِ مُعجزتِه، أي أعلنوا الإيمانَ به في ذلك الموطنِ؛ لأن الإيمانَ لا يُعرَف إلَّا بإظهاره، ولا فائدة منه إلا ذلك الإظهارُ، أي: من الحاضرين في ذلك المشهدِ من بني إسرائيل، فإنَّ عادةَ هذه المجامعِ أن يغشاها الشبابُ واليافعون، فعبَّرَ عنهم بالذرية، أي: الأبناء، كما يقال: الغِلمان، فيكونون قد آمنوا من تلقاءِ أنفسهم، وكلُّ هذا لا يقتضي أن بقيَّةَ قَومِه كفروا به؛ إذ يحتملُ أن يكونوا آمنوا به بعد ذلك لَمَّا بلغَتْهم دعوتُه؛ لأنَّه يكونُ قد ابتدأ بدعوةِ فِرعونَ مبادرةً لامتثالِ الأمرِ مِن الله بقولِه: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣] فيكونُ المأمورُ به ابتداءً هو دعوةُ فرعونَ، وتخليصُ بني إسرائيل من الأَسْرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٩-٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٠، ٢٦١).

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ الله تعالى خَوفهم وعُذرَهم؛ أتبَعَه ما يُوجِبُ طُمَأنينَتَهم، وهو التوكُّلُ على اللهِ الذي مَن راقَبَه تلاشى عنده كلُّ عَظيمٍ[١].

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

أي: وقال موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ: يا قومِ، إن كُنتم آمَنتُم باللهِ حقًّا فاعتَمِدوا عليه وَحْدَه في نَصْرِكم، ودَفْعِ الضُّرِّ عنكم، وبه ثِقوا، ولأمْرِه سَلِّموا، إن كنتم مُذعِنينَ له بالطَّاعةِ[٢].

﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا ﴾.

أي: فقال بنو إسرائيلَ: على اللهِ وَحْدَه اعتَمَدْنا، وإليه فوَّضْنا أمْرَنا[٣].

﴿ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: قال قَومُ موسى عليه السَّلامُ: ربَّنا؛ لا تُظفِر الكافرينَ بنا، وتُسَلِّطْهم علينا، فيَعتَقِدوا أنَّ غَلَبتَهم علينا لم تقَعْ إلَّا لأنَّهم على الحَقِّ، ونحن على الباطِلِ، فيُفتَنوا بذلك، ويُعرِضوا عن الإقرارِ بالحَقِّ واتِّباعِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٠، ٢٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٣، ٢٦٤).

أو: ربَّنا؛ لا تُسَلِّطْهم علينا فيَفْتنونا عن دينِنا[(١)].

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: وخلِّصْنا- يا رَبَّنا- برَحمتِك مِن بَطشِ وسُلطانِ قَومِ فِرعونَ الكافرينَ[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ

وممن اختار هذا المعنى المذكور للفتنة هنا: الزجاج، وابن جرير، والواحدي والبغوي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٣١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ- في إحدى الروايتين عنه- وأبو مجلزٍ، وأبو الضُّحَى. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٩٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥١، ٢٥٢).

قال ابنُ عاشورٍ: (ووصَفوا الكفَّارَ بالظَّالمينَ لأنَّ الشِّركَ ظلمٌ، ولأنَّه يشعرُ بأنَّهم تَلبَّسوا بأنواعِ الظُّلمِ: ظلمِ أنفسِهم، وظلمِ الخلائقِ) ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٤).

قال ابنُ عطيَةَ: (فهذا الدعاءُ على هذا التأويلِ يتضمَّنُ دفعَ فصلينِ؛ أحدُهما: القتلُ والبلاءُ الذي توقَّعه المؤمنونَ، والآخرُ: ظهورُ الشركِ باعتقادِ أهلِه أنَّهم أهلُ الحقِّ، وفي ذلك فسادُ الأرضِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٥).

وممن اختار المعنَى المذكورَ: أبو حيانَ، والبيضاوي، والشربيني، والقاسمي، تُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في الروايةِ الثانيةِ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٩٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٢ (.

قال محمد رشيد رضا: (ولفظُ (فتنة) هنا يحتملُ معنَى (الفاتن) و(المفتون)، فكأنَّهم قالوا: ربَّنا لا تُسلِّطْهم علينا فيفتنونا، ولا تفتنَّا بهم فنتولَّى عن اتباعِ نبيِّنا، أو نضعف فيه؛ فرارًا مِن شدةِ ظلمِهم لنا، ولا تفتنْهم بنا فيزدادوا كفرًا وعنادًا وظلمًا بظهورِهم علينا، ويظنُّوا أنَّهم على الحقِّ، وأنَّنا على الباطلِ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٤)، ((البسيط)) الواحدي (١١/ ٢٨٧، ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٤).

قال الواحدي: (﴿وَنَجِّنَا...﴾ الآية، وذلك أنَّهم كانوا يستعبِدونَهم، ويأخذونَهم بالأعمالِ الشَّاقَّةِ، والمِهَن الخَسيسةِ). ((البسيط)) (١١/ ٢٨٧-٢٨٨).

وَمَلَإِيْهِمْ ﴾ الحِكمةُ- واللهُ أعلَمُ- مِن كونِه ما آمَنَ لموسى إلَّا ذرِّيَّةٌ مِن قَومِه: أنَّ الذريَّةَ والشَّبابَ أقبَلُ للحَقِّ، وأسرَعُ له انقيادًا، بخلافِ الشُّيوخِ ونَحوِهم ممَّن تربَّى على الكُفرِ؛ فإنَّهم- بسبَبِ ما مكَثَ في قلوبِهم من العقائِدِ الفاسِدةِ- أبعَدُ مِن الحَقِّ مِن غَيرِهم[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ في تقديمِ التوكُّلِ على الدُّعاءِ تَنبيهٌ على أنَّ الدَّاعيَ ينبغي أن يتوكَّلَ أولًا؛ لِتُجابَ دَعوتُه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ فيه مَسْلاةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بقِلَّةِ مَن آمَن لموسَى، ومَن استَجاب له، معَ ظهورِ ذلك المعجزِ الباهرِ، ولم يُؤمِنْ له إلَّا ذُرِّيَّةٌ مِن قومِه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ بيانُ أنَّ مُسمَّى الإسلامِ غيرُ مُسمَّى الإيمانِ؛ لأنَّه لو كان مُسمَّاهما واحدًا لكان هذا تكريرًا[٤].

٣- قولُه: ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ فيه إثارةُ صِدْقِ إيمانِهم، وإلهابُ قُلوبِهم بِجَعلِ إيمانِهم مُعلَّقًا بالشَّرطِ مُحتمِلِ الوقوعِ، حيث تَخوَّفوا مِن فِرعَونَ أن يَفتِنَهم، فأرادوا أن يَكتُموا إيمانَهم تَقيَّةً مِن فرعونَ ومَلئِهم، وإنَّما جعَل عدَمَ اكتِراثِهم ببَطْشِ فِرعونَ علامةً على إيمانِهم؛ لأنَّ الدَّعوةَ في أوَّلِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٦/ ٩٥).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٧٨).

أمرِها لا تتقوَّمُ إلَّا بإظهارِ مُتَّبِعيها جَماعتَهم، فلا تُغتفَرُ فيها التَّقيَّةُ حينَئذٍ(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مِصرَ، التي هي بكثرةِ ما فيها من المرافِقِ كأنَّها جميعُ الأرضِ(٢).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ إذا ضُمَّت هذه الآيةُ إلى قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣] كان قياسًا صريحًا قطعيًّا أنَّ فِرعونَ مِن أصحابِ النَّارِ؛ تكذيبًا لأهلِ الوَحدةِ في قَولِهم: إنَّه آمَنَ، لِيُهَوِّنوا المعاصيَ عند النَّاسِ، فيَحُلُّوا بذلك عقائِدَ أهلِ الدِّينِ(٣).

٦- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وصَفوا الكفَّارَ بالظَّالمينَ؛ لأنَّ الشِّركَ ظلمٌ، ولأنَّه يشعرُ بأنَّهم تَلبَّسوا بأنواعِ الظُّلمِ: ظلمِ أنفسِهم، وظلمِ الخلائقِ(٤).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ زيادةُ ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ للتبَرُّؤِ من الإدلالِ بإيمانِهم؛ لأنَّ المِنَّةَ لله عليهم(٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابنُ تيميةَ: (كفرُ فرعونَ، وموتُه كافرًا، وكونُه مِن أهلِ النَّارِ هو ممَّا عُلِم بالاضطرارِ مِن دينِ المسلمينَ، بل ومِن دينِ اليهودِ والنَّصارى؛ فإنَّ أهلَ المِلَلِ الثَّلاثةِ متفقونَ على أنَّه مِن أعظمِ الخلقِ كفرًا). ((جامع الرسائل لابن تيمية)) (١/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ معطوفٌ على مقدَّرٍ يَستدعيهِ المقامُ قد حُذِف، أي: فألقَى عَصاهُ فَإِذَا هِي تَلقَفُ ما يَأفِكون... إلخ، ولم يُذكَرْ؛ لِدَلالةِ المقامِ عليه، وإيثارًا للإيجازِ، وإيذانًا بأنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ ممَّا لا يَحتَمِلُ الخُلفَ أصلًا، وعطفُه على ذلك بالفاءِ مع كونِه عَدمًا مستمرًّا مِن قَبيلِ ما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ [هود: ٩٧]، وما في قولِك: وعَظْتُه فلم يتَّعِظْ، والسِّرُّ في ذلك: أنَّ الإتيانَ بالشَّيءِ بعدَ وُرودِ ما يوجِبُ الإقلاعَ عنه، وإن كان استمرارًا عليه، لكنَّه بحسَبِ العُنوانِ فِعلٌ جديدٌ، وصُنعٌ حادثٌ[١].

- قولُه: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث جاء هنا بضميرِ الجمعِ ﴿وَمَلَإِيْهِمۡ﴾؛ لِعَودِه إلى الذُّريَّةِ، أو القومِ، لتَقدُّمِهما عليه[٢]، بخِلافِ بقيَّةِ الآياتِ ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الأعراف: ١٠٣، يونس: ٧٥، هود: ٩٧، المؤمنون: ٤٦، القصص: ٣٢، الزخرف: ٤٦]؛ فإنَّه بضميرِ المفرَدِ؛ لعَوْدِه إلى فِرعونَ[٣].

- قَولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡ﴾، وحَّد الضميرَ في قوله: ﴿يَفۡتِنَهُمۡ﴾ ولم يجمَعْه؛ لأنَّه لَمَّا كان إنكارُ الملأِ إنَّما هو بسبَبِ فِرعونَ أن يَسلُبَهم رئاستَهم، انحصَرَ الخَوفُ في فِرعونَ، فأشارَ إلى ذلك بوَحدةِ الضَّميرِ، فقال: ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡ﴾[٤]، وأيضًا فإسنادُ الفعلِ إلى فرعونَ خاصَّةً؛ لأنه الآمِرُ بالتعذيب[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٠).
(٢) وذكَر القرطبيُّ أوجهًا أخرَى، يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٩).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٥٢).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧١).

- قولُه: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جملةٌ في موضِعِ الحالِ، وهي تُفيد معنى التَّعليلِ لِخَوفِهم مِن فِرعونَ[١].

- وتأكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ)؛ للاهتمامِ بتَحقيقِ بَطشِ فرعونَ[٢].

- وقَولُه: ﴿لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أبلغُ في وصفِه بالإسرافِ مِن أن يُقالَ: وإنَّه لمسرفٌ، والتَّعريفُ في المُسرفينَ تعريفُ الجنسِ، فالإخبارُ عن فرعونَ بأنَّه مِنَ المُسرفينَ يفيدُ أنَّه واحدٌ مِنَ الفئةِ الَّتي تُعْرَفُ عندَ النَّاسِ بفئةِ المُسرفينَ، فيُفيدُ أنَّه مسرفٌ، فهو مِنْ قبيلِ الكنايةِ الَّتي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ مَلزومِه، وهي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾

- في قولِه: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ قُدِّم المجرورُ ﴿فَعَلَيْهِ﴾ على مُتعلَّقِه ﴿تَوَكَّلُوٓاْ﴾؛ لإفادةِ القصرِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ[٤]،كأنَّه عليه السَّلامُ أمَرَهم بالتوكُّلِ عليه، ونهاهم عن التوكُّلِ على الغَيرِ[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه تقديمُ ما كان عِندَهم أهمَّ، وهو سلامةُ دينِهم لهم، فسألوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٦١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٦١) و: (٧/ ٢٦٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٩٠).

اللهَ تعالى ألَّا يُفتَنوا عن دينِهم، وتأخيرُ سلامةِ أنفُسِهم، فسأَلوه أن يُخلِّصوا مِن الكفَّارِ؛ إذ الاهتمامُ بمَصالِحِ الدِّينِ آكَدُ مِن الاهتمامِ بمَصالحِ الأبدانِ[1]. وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٦).

الآيات (٨٧-٨٩)

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿تَبَوَّءَا﴾: أي: اتَّخِذا، وأصلُ (بوأ): يدُلُّ على رجوعٍ إلى الشَّيءِ[١].

﴿قِبْلَةً﴾: أي: مَساجِدَ، وأصلُ (قبل): يدلُّ على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[٢].

﴿زِينَةً﴾: الزِّينةُ: اسمٌ لكلِّ ما يُتَزَيَّنُ به: مِن مَلْبوسٍ ومركوبٍ وحِلْيَةٍ وفِراشٍ وسِلاحٍ، والزَّينُ نَقيضُ الشَّينِ، يُقال: زانَه كذا، وزَيَّنه: إذا أظْهَر حُسنَه؛ إمَّا بالفِعل، أو بالقولِ، وأصلُ (زين) يدلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[٣].

﴿ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾: أي: أهلِكْها، وأذهِبْ آثارَها. وأصلُ (طمس): يدلُّ على مَحوِ الشَّيءِ، ومَسحِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٨- ٣٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٤).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أوحَى إلى موسَى وأخيه هارونَ أن يتَّخِذا لقومِهما بيوتًا في مِصرَ، تكونُ مساكِنَ لهم، وأن يجعَلوا بُيوتَهم مساجِدَ يُصلُّونَ فيها، وأن يؤدُّوا الصَّلاةَ المفروضةَ في أوقاتِها، وأن يبشِّرَ موسى المؤمنينَ بالنَّصرِ والثَّوابِ منه سبحانه وتعالى.

وقال موسى: ربَّنا إنَّك أعطيتَ فِرعونَ وأشرافَ قَومِه زينةً مِن متاعِ الدُّنيا؛ استدراجًا منك لِتَفتِنَهم فيَضِلُّوا ويُضِلُّوا غيرَهم؛ عقوبةً منك لهم، ربَّنا فأهلِكْ أموالَهم، فلا ينتَفِعوا بها، واختِمْ على قلوبِهم حتى لا تنشَرِحَ للإيمانِ، فلا يؤمِنوا حتى يَرَوا العذابَ الشَّديدَ المُوجِعَ، فلا ينفَعُهم إيمانُهم حينئذٍ. قال الله تعالى لهما: قد أجيبَت دَعوتُكما في فرعونَ ومَلَئِه وأموالِهم، فاستَقيما على دينِكما، واستَمِرَّا على دعوتِكما فرعونَ وقَومَه إلى توحيدِ اللهِ وطاعتِه، ولا تَسلُكا طريقَ مَن لا يعلَمُ حقيقةَ وعيدي، وأنِّي لا أخلِفُ الميعادَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أجابوه إلى إظهارِ الاعتمادِ عليه سُبحانَه، وفوَّضوا الأمورَ إليه؛ أتبَعَه ما يزيدُهم طُمأنينةً مِن التوطُّنِ في أرضِ العَدُوِّ؛ إشارةً إلى عدَمِ المبالاةِ به[1].

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾.

أي: وأوحَينا إلى موسى وأخيه هارونَ أن اتَّخِذا لِقَومِكما بني إسرائيلَ في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٨).

أرضِ مِصرَ مساكِنَ[١].

﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾.

أي: واجعَلوا مَساكِنَكم مساجِدَ تصلُّونَ فيها[٢].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وأدُّوا ما أمَرَكم اللهُ به من الصَّلَواتِ بحُدودِها في أوقاتِها[٣].

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: وبَشِّر- يا موسى- المؤمنينَ بالنَّصرِ والثَّوابِ[٤].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).
قال ابن عاشور: (معنى تبَوُّؤِ البيوتِ لِقَومِهما أن يأمُرا قومَهما باتخاذِ البُيوتِ على الوصفِ الذي يأمُرانِهم به، وإذ قد كان لبني إسرائيلَ ديارٌ في مصرَ مِن قَبلُ- إذ لا يكونونَ قاطنينَ مِصرَ بدون مساكِنَ-.. لا جرم أن تكونَ البيوتُ المأمورُ بتبَوُّئِها غيرَ البُيوتِ التي كانوا ساكِنيها... فالذي يظهَرُ أنَّ هذه البيوتَ خِيامٌ أو أخصاصٌ أمَرَهم الله باتِّخاذِها تهيئةً للارتحالِ، وهي غيرُ ديارِهم التي كانوا يسكُنونَها). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (١٢/ ٢٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).
وممن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والزمخشريُّ، والقاسمي، والسعدي.
يُنظر: المصادر السابقة.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ختَمَ الآيةَ السابقةَ ببِشارةِ المؤمنينَ، وكان هلاكُ المُشانئِ مِن أعظَمِ البَشائِرِ، وكان ضلالُ فِرعونَ وقَومِه بالزِّينةِ والمالِ إضلالًا لِغَيرِهم، سأل موسى عليه السَّلامُ إزالةَ ذلك كلِّه؛ للرَّاحةِ مِن شرِّه[١].

وأيضًا فإنَّ موسى عليه السَّلامُ لَمَّا بالغَ في إظهارِ المُعجزاتِ الظَّاهرةِ القاهرةِ، ورأى القومَ مُصرِّينَ على الجُحودِ والعِنادِ والإنكارِ، أخذ يدعو عليهم، ومن حَقِّ مَن يدعو على الغيرِ أن يذكُرَ أوَّلًا سبَبَ إقدامِه على تلك الجرائِمِ، وكان جُرمُهم هو أنَّهم لأجلِ حُبِّهم الدُّنيا تَرَكوا الدِّينَ؛ فلهذا السَّبَبِ قال موسى عليه السَّلامُ[٢]، فيما يحكيه الله عنه:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وقال موسى: يا رَبَّنا إنَّك أعطيتَ فِرعونَ وأشرافَ قَومِه زينةً يتزَيَّنونَ بها، كالأثاثِ، وأنواعِ الحُلِيِّ، والثِّيابِ، والبيوتِ، والمَراكِبِ، وأعطيتَهم أموالًا كثيرةً في هذه الحياةِ الدُّنيا[٣].

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ بمعنى: ليُضِلُّوا النَّاسَ عن سبيلِك، ويَصُدُّوهم عن دينِك[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٤) قرأ بها عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخَلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٢).

٢- قراءةُ ﴿لِيَضِلُّوا﴾ بمعنى: ليَضِلُّوا هم أنفُسُهم عن سبيلِك[(١)].

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾.

أي: قال موسى: يا ربَّنا إنَّك أعطيتَهم الزِّينةَ والأموالَ استدراجًا منك؛ كي تفتِنَهم فيَضِلُّوا ويُضِلُّوا غيرَهم عن اتِّباعِ دينِك؛ عقوبةً منك لهم[(٢)].

﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقَدَّم ذِكرُ الأموالِ- وهي أعَزُّ ما ادُّخِر- دعا بالطُّموسِ عليها[(٣)].

﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾.

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٥).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٠).

ذهب بعض المفَسِّرين إلى أنَّ اللام في قوله تعالى: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ هي لامُ كي (لام التعليل)، وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٠).

قال ابن كثير: (﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ -بفتح الياء- أي: أعطيتَهم ذلك وأنت تعلَمُ أنَّهم لا يؤمِنونَ بما أرسلتَني به إليهم؛ استدراجًا منك لهم، كما قال تعالى: ﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾. وقرأ آخرون: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ بضم الياء، أي: ليفتَتِنَ بما أعطيتَهم من شئتَ مِن خَلقِك، ليظُنَّ مَن أغويتَه أنَّك إنما أعطيتَ هؤلاءِ هذا؛ لحُبِّك إيَّاهم واعتنائِك بهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٠).

وذهَب بعضُهم إلى أنَّها لامُ العاقبةِ والصيرورةِ. وممن اختار ذلك: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٩).

أي: يا ربَّنا أتْلِفْ أموالَ فِرعونَ ومَلَئِه، فلا ينتَفِعوا بها[١].

﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾.

أي: واطبعْ- يا ربَّنا- على قلوبِهم بالكُفرِ، واجعَلْها قاسيةً[٢].

﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾.

أي: فلا يُؤمِنوا بالحَقِّ حتى يُعاينوا العذابَ المُوجِعَ الذي يَهلِكونَ به، فلا ينفعُهم إيمانُهم حينئذٍ[٣].

﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾.

﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾.

أي: قال الله: قد أجبتُ دَعوتَكما- يا موسى وهارونُ- على فِرعونَ ومَلَئِه[٤].

﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾.

أي: فاستَقِيما واثْبُتا على دينِكما، واستمِرَّا على دعوةِ فِرعونَ وقومِه إلى الحَقِّ إلى أن يأتيَهم العذابُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٦٢).
ذهب ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما إلى أنَّ العذابَ الأليمَ هنا: هو الغَرَقُ، وبه قال الواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٣٢)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٠٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولا تسلُكا طريقَ الذين يَجهَلونَ أنَّ اللهَ لا يُخلِفُ الميعادَ، فيَستعجِلونَ وعيدَه وقضاءَه، فعذابي واقعٌ بفِرعونَ وقَومِه[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ قدَّم بين يدَي الدُّعاءِ ما آتاهم اللهُ مِن النِّعمةِ في الدُّنيا، وكان اللائقُ أن يكونَ ذلك سببًا للإيمانِ به ولِشُكرِ نِعَمِه، فجَعَلوا ذلك سببًا لِجُحودِه ولكُفرِ نِعَمِه[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ استشكلَ بعضُ النَّاسِ هذه الآيةَ، فقال: كيف دعا عليهم، وحُكمُ الرُّسُلِ استدعاءُ إيمانِ قَومِهم؟ فالجوابُ: أنَّه لا يجوزُ أن يدعوَ نبيٌّ على قَومِه إلَّا بإذنٍ مِن اللهِ، وإعلامٍ أنَّه ليس فيهم من يؤمِنُ، ولا يخرجُ مِن أصلابِهم مَن يُؤمِنُ، دليلُه قَولُه تعالى لنوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] وعند ذلك قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[3] [نوح: ٢٦].

عطية)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٥).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ دليلٌ على جوازِ الدُّعاءِ على الظَّالمِ المعيَّنِ بما يَستلزِمُ النَّقصَ في دينِه، وليس هو مِن طلَبِ وقوعِ المَعصيةِ، ولكِنْ مِن حيثُ إنَّه يؤدِّي إلى نِكايةِ الظَّالمِ وعُقوبتِه[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ الشَّدُّ على القَلبِ: هو الصَّدُّ والمَنعُ، وهذا الشدُّ والتقسيةُ مِن كمالِ عَدْلِ الربِّ سُبحانه في أعدائِه؛ حيث جعَلَه عقوبةً لهم على كُفرِهم وإعراضِهم- وهذا كعُقوبتِه لهم بالمصائِبِ- ولهذا كان محمودًا عليه، فهو حسَنٌ منه سُبحانه، وأقبحُ شيءٍ منهم؛ فإنَّه عَدْلٌ منه وحِكمةٌ، وهو ظُلْمٌ منهم وسَفَهٌ، فالقضاءُ والقَدَرُ فِعلُ عادلٍ حكيمٍ غَنيٍّ عليمٍ، يضعُ الخَيرَ والشَّرَّ في أليقِ المواضِعِ بهما[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ يفعَلُ ذلك بمن يَشاءُ، ولولا ذلك ما حسُنَ مِن موسى هذا السُّؤالُ[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ جعلَ رُؤيةَ العَذابِ نهايةً وغايةً، وذلك لعِلمِه مِن قِبَلِ اللهِ أنَّ الذي يؤمن عند رؤيةِ العَذابِ لا ينفَعُه إيمانُه في ذلك الوقتِ، ولا يُخرِجُه مِن كُفرِه، ثم أجاب اللهُ هذه الدَّعوةَ في فرعونَ نَفسِه[٤].

٦- في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ بعد قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٢٤١).
(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٧).
(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٩).

دلالةٌ على أنَّ فِرعونَ مات كافِرًا؛ لأنَّ اللهَ استجابَ دعوةَ موسى وهارون أنَّ فِرعونَ ومَلأَه لا يُؤمِنونَ حتى يَرَوا العذابَ الأليمَ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ إن قال قائِلٌ: كيف نُسِبَت الإجابةُ إلى اثنينِ، والدُّعاءُ إنَّما كان من واحدٍ؟ قيل: إنَّ الداعيَ وإن كان واحدًا، فإنَّ الثانيَ كان مؤَمِّنًا وهو هارونُ؛ فلذلك نُسِبَت الإجابةُ إليهما، لأنَّ المؤَمِّنَ داعٍ[٢]، وقيل: إنَّما أُضيفَت الدَّعوةُ إلى ضميرِ التَّثنيةِ المخاطَبِ به موسى وهارونُ- وإن كانَت الدَّعوةُ إنَّما حُكِيَت عن موسى عليه السَّلامُ وحْدَه-؛ لأنَّ موسى عليه السَّلامُ دعا لِما كان هارونُ مُواطِئًا له، وقائِلًا بمِثلِه؛ لأنَّ دعوتَهما واحدةٌ[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ بناه للمَفعولِ، والبناءُ للمَفعولِ أدَلُّ على القُدرةِ وأوقعُ في النَّفسِ، من جهةِ الدَّلالةِ على الفاعِلِ بالاستدلالِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تنويعُ الخطابِ، حيث ثَنَّى أوَّلًا، ثمَّ جمَع، ثمَّ وحَّدَ آخِرًا؛ فخُوطِبَ موسى وهارونُ عليهما السَّلامُ أن يتبوَّآ لقومِهما بُيوتًا، ويَختاراها للعِبادةِ، وذلك ممَّا يفوَّضُ إلى الأنبياءِ، ثمَّ سيقَ الخطابُ عامًّا لهما ولِقَومِهما باتِّخاذِ المساجدِ والصَّلاةِ فيها؛ لأنَّ ذلك

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٢).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٨٢).

واجبٌ على الجمهورِ، ثمَّ خُصَّ موسى عليه السَّلامُ بالبِشارةِ الَّتي هي الغرَضِ؛ تعظيمًا لها وللمُبشَّرِ بها[١].

- وعَطفُ جملةِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على ما قبلَها يؤذِنُ بأنَّ ما أُمِروا به مِن اتِّخاذِ البيوتِ، أمْرٌ بحالةٍ مُشعِرةٍ بتَرقُّبِ أخطارٍ وتَخوُّفٍ؛ فإنَّهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ...﴾؛ فأمر موسى أن يُبشِّرَهم بحُسنِ العاقبةِ، وأنَّهم مَنصورون على عَدوِّهم، وناجون منه[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾

- في قولِه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا﴾ توطِئةٌ للدُّعاءِ عليهم؛ فليس المقصودُ به حَقيقةَ الإخبارِ؛ ضرورةَ أنَّ موسى يوقِنُ أنَّ اللهَ يَعلَمُ ذلك، فتَعيَّن أنَّ الخبرَ مُستعمَلٌ في التَّمهيدِ لطَلَبِ سَلْبِ النِّعمةِ عَنهم في قولِهم: ﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾، ثمَّ الانتقالِ إلى الدُّعاءِ بسَلبِ ما أُوتوه[٣].

- واقترانُ الخبرِ بحَرفِ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ ...﴾ مقصودٌ به الاهتمامُ بهذا المعنى الَّذي استُعمِل فيه الخبرُ؛ إذ ليس المقامُ مَقامَ دَفعِ تردُّدٍ، أو دفعِ إنكارٍ[٤].

- وعلى القولِ بأنَّ اللَّامَ في ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ للعِلَّةِ- لأنَّ إيتاءَ النِّعَمِ على الكُفرِ استِدْراجٌ، وتثبيتٌ على الضَّلالِ، ولأنَّهم لَمَّا جعَلوها ذَريعةً إلى الضَّلالِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٨).

فكأنَّهم أُوتوها ليُضِلُّوا- فيَكونُ ﴿رَبَّنَا﴾ تكريرًا للأوَّلِ؛ تأكيدًا أو تنبيهًا على أنَّ المقصودَ عرضُ ضلالِهم وكُفرانِهم؛ تَقْدِمةً لقولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾، ففيه إعادةُ النِّداءِ ﴿رَبَّنَا﴾ بينَ الجملةِ المعَلَّلةِ ﴿إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ ...﴾ والجملةِ المعلِّلةِ ﴿لِيُضِلُّواْ﴾؛ لِتأكيدِ التَّذلُّلِ والتَّعرُّضِ للإجابةِ، ولإظهارِ التَّبرُّؤِ مِن قصدِ الاعتراضِ، وتوكيدًا للدُّعاءِ والاستغاثةِ[1].

- وأُعيد النِّداءُ ثالِثَ مرَّةٍ في قولِهم: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾؛ لِزيادةِ تأكيدِ التَّوجُّهِ والتَّضرُّعِ[2].

- وتعدِيَةُ ﴿ٱطۡمِسۡ﴾ بـ (عَلَى)؛ لإرادةِ تَمكُّنِ الفعلِ مِن المفعولِ، أو لِتَضمينِ الطَّمسِ مَعْنى الاعتلاءِ بآلةِ المحوِ والإزالةِ؛ فطَمْسُ الأموالِ إتلافُها وإهلاكُها[3].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ فيه افتتاحُ الجملةِ بـ (قد)، والفعلُ الماضي ﴿أُجِيبَت﴾ يُفيدُ تَحقيقَ الحصولِ في المستقبَلِ؛ فشُبِّه بالمضيِّ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٧٢).

الآيات (٩٠-٩٢)

﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَغْيًا﴾: أي: ظلمًا، مصدرُ بَغَى يَبْغي إذا ظلَم، أو: هو طلبُ الاستعلاءِ بغيرِ حقٍّ، وأصلُ البغي: الفسادُ، وتجاوزُ الحدِّ، يقال: بَغَى الجرحُ: إذا ترامَى إلى فسادٍ[1].

﴿وَعَدْوًا﴾: أي: اعتداءً، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تجاوُزٍ في الشَّيءِ، وتقدُّمٍ لِما ينبغي أن يُقتصَرَ عليه[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وقطَعْنا ببني إسرائيلَ البَحرَ حتى جاوَزوه، فتَبِعَهم فرعونُ وجُنودُه ظلمًا وعُدوانًا، فسَلَكوا البحرَ وراءَهم، حتى إذا أحاط بفرعونَ الغَرَقُ قال: آمنتُ أنَّه لا إلهَ إلَّا الذي آمنتْ به بنو إسرائيلَ، وأنا من الموحِّدينَ المُستَسلِمينَ بالانقيادِ والطَّاعة، فقال اللهُ له: آلآنَ تؤمِنُ يا فرعونُ، وقد نزل بك الموتُ، تقرُّ لله بالعبوديَّةِ، وقد عصيتَه قبلَ نُزولِ عَذابِه بك، وكنتَ مِن المفسدينَ الصَّادِّينَ عن سبيلِه؟! فاليومَ نجعَلُك على مرتفَعٍ مِن الأرضِ بجَسَدِك، ينظُرُ إليك مَن

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٢٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٧).

كذَّب بهلاكِك؛ لتكونَ لِمَن بَعدَك من النَّاسِ عِبرةً يَعتَبِرونَ بك؛ فإنَّ كثيرًا مِن النَّاسِ عن حُجَجِنا وأدلَّتِنا لَغافِلونَ، لا يتفكَّرونَ فيها ولا يعتَبِرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا أمَر بالتأنِّي الذي هو نتيجةُ العلمِ، عطَف على ذلك الإخبارَ بالاستجابةِ[1]، فقال تعالى:

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾.

أي: وقَطَعنا ببني إسرائيلَ البَحرَ عندما خرجوا من مِصرَ مع نبيِّهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2].

﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًا﴾.

أي: فتَبِعَ بني إسرائيلَ فرعونُ وجنودُه؛ استعلاءً عليهم واعتداءً[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٤).

قال ابن عاشور: (إنَّما كان اتِّباعُه إيَّاهم ظُلمًا وعُدوانًا؛ إذ ليس له فيه شائِبةُ حَقٍّ؛ لأنَّ بني إسرائيلَ أرادوا مفارقةَ بلادِ فرعونَ، وليست مُفارَقةُ أحدٍ بلَدَه محظورةً، إن لم يكن لأحدٍ عليه حقٌّ في البقاء... فلمَّا رام فرعونُ منعَ بني إسرائيلَ مِن الخُروجِ، وشَدَّ لِلَّحاقِ بهم لِرَدِّهم كُرهًا؛ كان في

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾.

أي: حتى إذا أحاط الغَرَقُ بفِرعونَ قال عند الموتِ: أقررتُ بأنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ الذي آمَنَ به قومُ موسى، وأنا من الموحِّدينَ لله، المُستَسلِمينَ المُنقادينَ له بالطَّاعةِ[1].

﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

أي: قال اللهُ لِفَرعونَ: آلآنَ تتوبُ، وتؤمِنُ باللهِ، وتستسلِمُ له بعد فواتِ الأوانِ، وقد عصيتَه قبلَ نزولِ عذابِه، وكنتَ مِن المُفسِدينَ في الأرضِ الذين ظَلَموا العبادَ، وأضَلُّوهم، وصَدُّوهم عن سبيلِ الله[2]؟!

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾.

أي: قال اللهُ لِفَرعونَ: فاليومَ نجعَلُ جَسَدَك وما تقلَّدتَه مِن دروعِ الحربِ بعدَ غَرَقِك، على مكانٍ مرتَفعٍ مِن الأرضِ، فيَتَبَيَّن للنَّاسِ هلاكُك[3].

ذلك ظالِمًا مُعتَدِيًا؛ لأنه يبتغي بذلك إكراهَهم على البقاءِ، ولأنَّ غَرَضَه من ذلك تسخيرُهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٧، ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٨، ٢٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠٦، ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٨).
قال السعدي: (قال المفسرون: إنَّ بني إسرائيلَ لِمَا في قلوبِهم من الرُّعبِ العَظيمِ مِن

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

أي: لِتَكونَ -يا فرعونُ- لِمَن بَعدَك من النَّاسِ عِبرةً بعد إيقانِهم بهلاكِك وقدرةِ الله على كلِّ ذلك، فيَنزَجِروا عن الكُفرِ باللهِ ومَعصيتِه، ويَرَوا عاقِبةَ الطُّغيانِ، ويخافوا غضَبَ اللهِ[1].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

أي: وإنَّ كثيرًا مِن النَّاسِ مُعرِضونَ عن تأمُّلِ آياتِنا، وعن التفكُّرِ فيها، والاعتبارِ بها[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- التَّوبةُ بعد المُعاينةِ لا تنفَعُ؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[3]؛ إذ إنَّ إيمانَ فِرعونَ في تلك اللَّحظةِ كان إيمانًا مُشاهَدًا غيرَ نافعٍ، فالإيمانُ الذي ينفَعُ إنَّما هو الإيمانُ بالغَيبِ[4].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ

فِرعونَ، كأنَّهم لم يصَدِّقوا بإغراقِه، وشَكُّوا في ذلك، فأمر اللهُ البَحرَ أن يُلقِيَه على نَجوةٍ مُرتَفعةٍ ببَدَنِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٢).

ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ الآيةُ تفيدُ أنَّه لم يَسَعْه إلَّا الإيمانُ باللهِ؛ لأنَّه قَهَرتْه أدلَّةُ الإيمانِ، وهذه مُستفادةٌ مِن رَبطِ جُملة إيمانِه بالظَّرفِ في قوله: ﴿إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ وهذه مَنقبةٌ للإيمانِ، وأنَّ الحَقَّ يَغلِبُ الباطِلَ في النِّهايةِ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ فيه ذمٌّ للغَفلةِ وعدمِ التفكُّرِ في أسبابِ الحَوادِثِ وعَواقِبِها، واستبانةِ سُنَنِ الله فيها للاعتبارِ والاتِّعاظِ بها[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ جملةُ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ تذييلٌ لِمَوعظةِ المُشرِكينَ، والمرادُ منه: دَفعُ توهُّمِ النَّقصِ عن آياتِ اللهِ عندما يُحرَمُ كَثيرٌ مِن النَّاسِ الاهتداءَ بها، فهي في ذاتِها دلائِلُ هُدًى سواءٌ انتفَعَ بها بعضُ النَّاسِ أم لم ينتَفِعوا، فالتَّقصيرُ منهم[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ...﴾ الإدراكُ: اللَّحاقُ وانتهاءُ السَّيرِ، وهذا التَّعبيرُ يُؤْذِنُ بأنَّ الغرَقَ دَنا مِنه تَدريجيًّا بهَولِ البحرِ ومُصارَعتِه الموجَ، وهو يَأمُلُ النَّجاةَ منه، وأنَّه لم يُظهِرِ الإيمانَ حتَّى أَيِسَ مِن النَّجاةِ، وأيقنَ بالموتِ، وذلك لِتَصلُّبِه في الكفرِ[٤].

٢- قولُه: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٥).

لم يَقُلْ فرعونُ كما قاله السَّحرةُ: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ بل عبَّر عنه تعالى بالموصولِ، وجعَل صِلتَه إيمانَ بَني إسرائيلَ به تعالى؛ للإشعارِ برُجوعِه عن الاستعصاءِ، وباتِّباعِه لِمَن كان يَستتبِعُهم؛ طمعًا في القَبولِ، والانتظامِ معَهم في زُمرةِ النَّجاةِ[1]؛ وقد كرَّر المخذولُ المعنى الواحدَ ثلاثَ مرَّاتٍ في ثلاثِ عباراتٍ؛ حِرصًا على القَبولِ، ثمَّ لم يُقبَلْ منه حيث أخطَأ وقْتَه، وقاله حين لم يبقَ له اختيارٌ قطُّ، وكانت المرَّةُ الواحدةُ كافيةً في حالِ الاختيارِ، وعِندَ بقاءِ التَّكليفِ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ردٌّ على مَن زعم إيمانَ فِرعونَ؛ وذلك لأنَّ الاستفهامَ هنا هو استِفهامُ إنكارٍ وذَمٍّ، ولو كان إيمانُه صَحيحًا مقبولًا عند الغَرَق، لَمَا قيلَ له ذلك[3].

٤- قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ في تعليلِ تنجِيَتِه بما ذُكِر إيذانٌ بأنَّها ليسَت لإعزازِه أو لفائدةٍ أُخرَى عائدةٍ إليه، بل لِكَمالِ الاستهانةِ به، وتَفْضيحِه على رُؤوسِ الأشهادِ، وزيادةِ تفظيعِ حالِه؛ كمن يُقتَلُ ثمَّ يُجرُّ جسَدُه في الأسواقِ، أو يُدارُ برأسِه في البلادِ[4].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ ردٌّ على مَن زعم إيمانَ فرعونَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جعَلَه عبرةً وعلامةً لِمَن يكونُ بعده مِن الأمَمِ؛ ليَنظُروا عاقِبةَ مَن كفَرَ باللهِ تعالى؛ ولهذا ذَكَرَ اللهُ تعالى الاعتبارَ بقصَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢ / ٣٦٧).
(٣) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٤).

فِرعونَ وقَومِه في غيرِ موضِعٍ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾

- قوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فيه إيثارُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ؛ لادِّعاءِ الدَّوامِ والاستمرارِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾: الاستفهامُ إنكاريٌّ، والإنكارُ مُؤذِنٌ بأنَّ الوقتَ الَّذي عُلِّق به الإنكارُ ليس وقتًا يَنفَعُ فيه الإيمانُ؛ لأنَّ الاستِفْهامَ الإنكاريَّ في قوَّةِ النَّفيِ[٣].

- وجملةُ: ﴿وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ حالٌ مِن فاعلِ الفعلِ المقدَّرِ؛ جيءَ به لِتَشديدِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ على تأخيرِ الإيمانِ إلى هذا الآنِ[٤]، وهي مؤكِّدةٌ لِمَا في الاستفهامِ ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ مِن معنى الإنكارِ؛ فإنَّ إيمانَه في ذلك الحينِ مُنكَرٌ، ويَزيدُه نُكْرًا أنَّ صاحِبَه كان عاصيًا للهِ، ومفسِدًا للدِّينِ الَّذي أرسَلَه اللهُ إليه، ومُفسِدًا في الأرضِ بالجَورِ والظُّلمِ، والتَّمويهِ بالسِّحرِ[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٨).

ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ اعتِراضٌ تذييليٌّ، جيءَ به عندَ الحكايةِ؛ تَقريرًا لِفَحوَى الكلامِ المحكيِّ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٤).

الآيات (٩٢-٩٥)

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: أي: مَنزِلًا مَحمودًا مُختارًا، وأصل (بوأ): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى شَيءٍ[1].

﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: أي: المتردِّدينَ، من المِريةِ: وهي التردُّدُ في الأمرِ، وهي أخصُّ من الشَّكِّ[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى عمَّا أنعَمَ به على بني إسرائيلَ مِن النِّعَم قائلًا: ولقد أنزَلْنا بني إسرائيلَ مَنازِلَ صالحةً محمودةً، ورَزَقناهم الرِّزقَ الحَلالَ الطَّيِّبَ مِن خيراتِ الأرضِ المُبارَكةِ، فما اختَلَفوا في تصديقِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه نبيٌّ حَقٌّ مَبعوثٌ، حتى جاءَهم القُرآنُ والبيانُ بأنَّه رسولُ اللهِ صِدقٌ، ودينَه حَقٌّ، إنَّ رَبَّك- أيُّها الرَّسولُ- يقضي بينهم يومَ القيامةِ، ويَفْصِلُ فيما كانوا يختَلِفونَ فيه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

مِن أمرِك، فيُدخِلُ المكَذِّبينَ النَّارَ، والمؤمنينَ الجنَّةَ، فإن كنتَ- أيُّها الرَّسولُ- في ريبٍ مِن حقيقةِ ما أخبَرناك به فاسألِ الذينَ يَقرؤونَ الكتابَ مِن قبلِك، من أهلِ التَّوراةِ والإنجيلِ؛ فإنَّ ذلك ثابتٌ في كتُبِهم، لقد جاءك الحَقُّ اليقينُ مِن رَبِّك بأنَّك رسولُ الله، وأنَّ هؤلاءِ اليَهودَ والنَّصارى يعلمونَ صِحَّةَ ذلك، ويَجِدونَ صِفتَك في كُتُبِهم، ولكِنَّهم يُنكِرونَ ذلك مع عِلمِهم به، فلا تكونَنَّ من الشاكِّينَ في صِحَّةِ ذلك، ولا تكونَنَّ مِن الذينَ كذَّبوا بآياتِ القُرآنِ، فتكونَ مِن الخاسرينَ الذين سخِطَ اللهُ عليهم ونالوا عقابَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا ذكَر تعالى ما جرَى لفرعونَ وأتباعِه مِن الهلاكِ؛ ذكَر ما أحسنَ به لبني إسرائيلَ، وما امتنَّ به عليهم[1]، وكيف كانت عاقبتُهم الحسنَى؛ ليظهرَ الفرقُ بينَ مصيرَيْ فريقينِ جاءَهم رسولٌ، فآمنَ به فريقٌ، وكفَر به فريقٌ، ليكونَ ذلك ترغيبًا للمشركينَ في الإيمانِ، وبشارةً للمؤمنينَ مِن أهل مكةَ[2].

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾.

أي: ولقد أنزَلْنا وأسكنَّا بني إسرائيلَ مَنازِلَ حَسَنةً محمودةً مُختارةً[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٦١).

كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر أنَّه بوَّأهم مُبوَّأَ صِدقٍ؛ ذكَر امتِنانَه عليهم بما رزَقهم مِن الطَّيباتِ[١].

﴿وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾.

أي: ورَزَقْنا بني إسرائيلَ مِن الرِّزقِ الحلالِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ، من الأطعِمةِ والأشرِبةِ وغَيرِها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾.

والمرادُ ببني إسرائيلَ أصحابُ موسَى عليه السلامُ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٤٩).

وقال ابنُ جرير في قولِه: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: (قيل: عنَى بذلك الشَّامَ وبيتَ المَقدِس. وقيل: عنَى به الشَّامَ ومِصرَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٣).

أي: فما اختلَفَ بنو إسرائيلَ في الإقرار بنبوَّة محمَّدٍ صلى الله عليه وسلَّم وبمبعثِه، حتَّى جاءَهم ما كانوا به عالِمينَ، فبُعِثَ صلَّى الله عليه وسلَّم بنعتِه وصفتِه، وجاءَهم القُرآنُ، فاختَلفوا حينئذٍ، فآمن بعضُهم بنبوَّتِه، وكفر بها بعضُهم، ولم يكنْ ينبغي لهم ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٦-١٨].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا مُحمَّدُ- يحكُمُ بين المُختَلِفينَ فيك مِن بني إسرائيلَ يومَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١).

وممن قال بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾- على التفسير المذكور- هم اليهودُ المعاصرونَ لمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، ممن كانوا في زمانه: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الرازي عن هذا القول: (فهذا قال به قومٌ عظيمٌ مِن المفسِّرينَ). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٩٩).

ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٧).

وقيل: معنَى الآيةِ: فما اختَلف اليهودُ في أمرِ دينهم، وتشعَّبوا فيه شعبًا بعدَ ما كانوا على طريقةٍ واحدةٍ غيرِ مختلفةٍ، حتى جاءَهم العلمُ؛ بقراءتِهم التوراةَ، وعلمِهم بأحكامِها.

وممن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والشوكاني، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩١).

قال ابنُ كثير: (وقولُه: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: ما اختلفوا في شيءٍ مِن المسائلِ إلَّا مِن بعدِ ما جاءَهم العلمُ، أي: ولم يكنْ لهم أن يختلفوا، وقد بيَّن الله لهم، وأزال عنهم اللبسَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٥).

القيامةِ فيما كانوا فيه يختَلِفونَ مِن أمرِك، فيُدخِلُ المؤمنينَ بك الجنَّةَ، ويُدخِلُ المكذِّبينَ بك النَّارَ[١].

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكرَ مِن قبلُ اختلافَ أهلِ الكتابِ عندما جاءَهم العِلمُ؛ أوردَ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذه الآيةِ ما يُقَوِّي قلبَه في صِحَّةِ القُرآنِ والنبُوَّةِ[٢].

وأيضًا فإنَّ هذه الآيةَ تَفريعٌ على سياقِ القِصَصِ التي جعَلَها اللهُ مَثلًا لأهلِ مكَّةَ، وعِظةً بما حَلَّ بأمثالِهم، فانتقل بهذا التَّفريعِ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ كِلاهما تعريضٌ بالمُكَذِّبينَ، فالأسلوبُ السَّابِقُ تعريضٌ بالتَّحذيرِ مِن أن يحُلَّ بهم ما حَلَّ بالأممِ المماثلةِ لهم، وهذا الأسلوبُ الموالي تعريضٌ لهم بشَهادةِ أهلِ الكتابِ على تلك الحَوادِثِ، وما في الكُتُبِ السَّابقةِ مِن الإنباءِ برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[٣].

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ ﴾.

أي: فإنْ كنتَ -يا محمَّدُ- في شكٍّ من حقيقةِ ما أخبَرْناك في القرآنِ مِن أنَّ بني إسرائيلَ لم يختَلِفوا في أمرِك إلَّا مِن بعدِ مَجيئِك- لأنَّهم يَجِدونَك مكتوبًا عندهم، ويَعرِفونك بصِفاتِك الواردةِ في كُتُبِهم- فاسألْ أهلَ الكِتابِ الذين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٤).

يقرؤونَ التوراةَ والإنجيلَ مِن قبلِك؛ فإنَّهم يَعلَمونَ صحَّةَ ذلك[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٢٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٧، ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٦).

قال ابنُ عطيةَ: (وقولُه: ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يريدُ به من أنَّ بني إسرائيلَ لم يختلفوا في أمرِه إلَّا مِن بعدِ مجيئِه، وهذا قولُ أهلِ التأويلِ قاطبةً. وهذا هو الذي يُشبه أن تُرتجَى إزالةُ الشكِّ فيه مِن قِبَلِ أهلِ الكتابِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٣).

قال ابنُ القيِّم: (أشكلتْ هذه الآيةُ على كثيرٍ مِن النَّاس.. وليس في الآيةِ ما يدلُّ على وقوعِ الشكِّ، ولا السؤالِ أصلًا، فإنَّ الشرطَ لا يدلُّ على وقوعِ المشروطِ، بل ولا على إمكانِه، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقولِه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ونظائره، فرسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يشكَّ ولم يسألْ، .. فإنْ قيل: فإذا لم يكنْ واقعًا ولا ممكنًا فما مقصودُ الخطابِ والمرادُ به؟! قيل: المقصودُ به إقامةُ الحجةِ على منكري النبَّواتِ والتوحيدِ، وأنَّهم مقرُّونَ بذلك، لا يجحدونَه ولا ينكرونَه، وأنَّ الله سبحانه أرسَل إليهم رسلَه، وأنزَل عليهم كتبَه بذلك، وأرسَل ملائكتَه إلى أنبيائِه بوحيه وكلامِه، فمن شكَّ في ذلك فليسألْ أهلَ الكتابِ، فأخرَج هذا المعنَى في أوجزِ عبارةٍ، وأدلِّها على المقصودِ، بأن جعَل الخطابَ لرسولِه الذي لم يشكَّ قطُّ، ولم يسألْ قط، ولا عرَض له ما يقتضي ذلك، وأنت إذا تأمَّلتَ هذا الخطابَ بدا لك على صفحاتِه: مَن شكَّ فليسألْ، فرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يشكَّ ولم يسألْ). ((أحكام أهل الذمة)) (١/ ٩٩ - ١٠٥). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣١٤، ٣١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٣).

وقيل: هذا خطابٌ للرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ به غيرُه على عادةِ العربِ، فإنَّهم يُخاطبونَ الرَّجلَ، ويُريدونَ به غيرَه، أو يكونُ الخطابُ شاملًا للخلقِ، والمعنى: فإنْ كنتُم في شكٍّ فاسألوا، والدليلُ علي ذلك قولُه في آخرِ السورةِ: ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ﴾ الآيةَ [يونس: ١٠٤]، فأعْلَم الله أنَّ نبيَّه ليس في شكٍّ، وأمَره أن يتلوَ عليهم ذلك. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣١٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٢٥).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٦-١٩٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

أي: أُقسِمُ إنَّه قد جاءك- يا محمَّدُ- الحَقُّ اليقينُ مِن ربِّك بأنَّك رسولُ اللهِ، وأنَّ الذين أُوتوا الكتابَ مِن قَبلِك يَعلَمونَ ذلك، فلا تكونَنَّ مِن الشاكِّينَ في صحَّةِ ذلك، واستمِرَّ على ما أنت عليه من اليَقينِ[(١)].

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: ولا تكونَنَّ- يا محمَّدُ- من المكذِّبينَ بآياتِ القُرآنِ، فتكونَ من الخاسرينَ أنفُسَهم بدخولِ النَّارِ، المُضَيِّعينَ سعادةَ الدُّنيا والآخرةِ، فاثبُتْ على ما أنت عليه من التَّصديقِ بالقُرآنِ[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾. هذا هو الداءُ الذي يعرضُ لأهلِ الدِّينِ الصحيحِ، وهو: أنَّ الشيطانَ إذا أعجَزوه أن يُطيعوه في تركِ الدينِ بالكُلِّيةِ، سعَى في التحريشِ بينَهم، وإلقاءِ العداوةِ والبغضاءِ، فحصَل مِن الاختلافِ ما هو موجبُ ذلك، ثم حصَل مِن تضليلِ بعضِهم لبعضٍ، وعداوةِ بعضِهم لبعضٍ، ما هو قرةُ عينِ اللعينِ، وإلَّا فإذا كان ربُّهم واحدًا، ورسولُهم واحدًا، ودينُهم واحدًا، ومَصالِحُهم العامةُ متفقةً، فلأيِّ شيءٍ يختلفونَ اختلافًا يفرِّقُ شملَهم، ويشتتُ أمرَهم، ويحلُّ رابطتَهم ونظامَهم، فيفوتُ مِن مصالحِهم الدينيةِ والدنيويةِ ما يفوتُ، ويموتُ مِن دينِهم بسببِ ذلك ما يموتُ[1]؟!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ جملةُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تذييلٌ وتوعُّدٌ، والمقصودُ منه: أنَّ أولئك قومٌ مَضَوا بما عَمِلوا وأنَّ أمرَهم إلى ربِّهم، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ﴾ [البقرة: ١٣٤] وفيه إيماءٌ إلى أنَّ على الحاضرينَ اليومَ أن يفكِّروا في وسائلِ الخلاصِ مِن الضَّلالِ، والوقوعِ في المؤاخَذةِ يومَ القيامةِ[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ من خالجَتْه شبهةٌ في الدِّينِ، ينبغي أن يسارعَ إلى حَلِّها بالرُّجوعِ إلى أهلِ العِلمِ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٨).

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يشُكَّ ولم يَسألْ، ولكنْ هذا حُكمٌ مُعَلَّقٌ بشَرطٍ؛ والمُعلَّقُ بالشَّرطِ يعدَمُ عند عَدَمِه، وفي ذلك سَعَةٌ لِمَن شكَّ، أو أراد أنْ يحتَجَّ، أو يزدادَ يقينًا[1].

٢- قول الله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ الفائدةُ في إنزالِ هذه الآيةِ على الرسولِ: أنَّ تكثيرَ الدلائلِ وتقويتَها مما يزيدُ في قوةِ اليقينِ، وطمأنينةِ النفسِ، وسكونِ الصدرِ، ولهذا السببِ أكثَر الله في كتابِه مِن تقريرِ دلائلِ التوحيدِ والنُّبوةِ[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ كثيرًا من أهلِ الكتابِ من اليهودِ والنَّصارى -بل ربما كان أكثَرُهم ومعظَمُهم- كذَّبوا رسولَ اللهِ وعانَدوه، ورَدُّوا عليه دَعوتَه. واللهُ تعالى أمر رسولَه أن يستشهِدَ بهم، وجعَلَ شهادتَهم حُجَّةً لِما جاء به، وبرهانًا على صِدقِه، فكيف يكونُ ذلك؟ الجوابُ من عدَّةِ أوجهٍ؛ منها: أنَّ الشَّهادةَ إذا أضيفَت إلى طائفةٍ، أو أهلِ مَذهبٍ أو بلدٍ، ونحوِهم، فإنَّها إنما تتناولُ العُدولَ الصادقينَ منهم. وأمَّا مَن عداهم، فلو كانوا أكثَرَ مِن غيرهم فلا عِبرةَ بهم؛ لأن الشَّهادةَ مَبنيَّةٌ على العدالةِ والصِّدقِ، وقد حصل ذلك بإيمانِ كثيرٍ مِن أحبارِهم الربَّانيِّين، كعبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ وأصحابِه، وكثيرٍ ممَّن أسلم في وقتِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وخُلَفائِه ومَن بعده، وكعبِ الأحبارِ وغيرهما. ومنها: أنَّ شَهادةَ أهلِ الكِتابِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مبنيَّةٌ على كتابِهم التَّوراةِ الذي ينتسبونَ إليه، فإذا كان موجودًا في التوراةِ ما يوافِقُ القرآنَ ويُصَدِّقُه، ويشهَدُ له بالصحَّة؛ فلو اتَّفَقوا من أوَّلِهم لآخرِهم على إنكارِ ذلك، لم يقدَحْ بما جاء به الرَّسولُ. ومنها: أنَّ الله تعالى أمَرَ رسولَه أن يستشهِدَ بأهلِ الكتابِ على صحَّةِ ما جاءه، وأظهَرَ ذلك،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٠).

وأعلَنَه على رؤوسِ الأشهادِ، ومن المعلومِ أنَّ كثيرًا منهم مِن أحرصِ النَّاسِ على إبطالِ دَعوةِ الرَّسولِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فلو كان عندهم ما يرُدُّ ما ذكَرَه اللهُ، لأبدَوْه وأظهَروه وبيَّنوه، فلمَّا لم يكنْ شَيءٌ من ذلك، كان عدَمُ رَدِّ المُعادي، وإقرارُ المُستجيبِ، مِن أدَلِّ الأدلَّةِ على صِحَّةِ هذا القرآنِ وصِدقِه.

ومنها: أنَّه ليس أكثَرُ أهلِ الكتابِ رَدَّ دعوةَ الرَّسولِ، بل أكثَرُهم استجاب لها، وانقاد طَوعًا واختيارًا؛ فإنَّ الرَّسولَ بُعِث وأكثَرُ أهل الأرضِ المتَديِّنينَ أهلُ كتابٍ، فلم يمكُثْ دينُه مُدَّةً غيرَ كثيرةٍ، حتى انقاد للإسلامِ أكثَرُ أهل الشَّامِ ومصرَ والعراقِ، وما جاورَها من البلدانِ التي هي مقَرُّ دينِ أهلِ الكتابِ، ولم يبقَ إلَّا أهلُ الرِّياساتِ الذين آثَروا رياساتِهم على الحَقِّ، ومَن تَبِعَهم من العوامِّ الجَهَلةِ، ومَن تديَّنَ بدينِهم اسمًا لا معنًى، كالإفرنجِ الذين حقيقةُ أمرِهم أنَّهم دهريَّةٌ مُنحَلُّونَ عن جميعِ أديانِ الرُّسُلِ، وإنَّما انتَسَبوا للدِّينِ المَسيحيِّ؛ ترويجًا لمُلكِهم، وتمويهًا لباطِلِهم، كما يَعرِفُ ذلك مَن عرَفَ أحوالَهم البيِّنةَ الظَّاهرةَ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ؛ سِيقَ لِبَيانِ النِّعَمِ الفائضةِ عليهم إثْرَ نعمةِ الإنجاءِ على وجهِ الإجمالِ، وإخلالِهم بشُكرِها، وأداءِ حقوقِها[2].

- وقولُه: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ تفريعٌ على ﴿بَوَّأْنَا﴾ وما عُطِف عليه، وهو تفريعُ ثناءٍ عليهم بأنَّهم شكَروا تِلك النِّعمَةَ، ولم يَكفُروها كما كفَرها المشرِكون الَّذين بوَّأهم اللهُ حرَمًا آمِنًا تُجبَى إليه ثمراتُ كلِّ شيءٍ، فجَعَلوا للهِ شُركاءَ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٤).

ثمَّ كفَروا بالرَّسولِ المرسَلِ إليهم؛ فوقَع في الكلامِ إيجازُ حذفٍ، والتَّقديرُ: فشَكَروا النِّعمَةَ، واتَّبَعوا وصايا الأنبياءِ، وما خالَفوا ذلك إلَّا مِن بعدِ ما جاءَهم العلمُ[1].

- قولُ اللهِ تعالى هنا: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]، وفي سورةِ الجاثيةِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦-١٧]، ووجهُ هذا الاختلافِ الواردِ في هاتَين السُّورتَين، وزيادةِ ما ورَدَ في سورةِ الجاثيةِ مِن الألفاظِ، مع اتِّحادِ المعنى المقصودِ في الموضِعَينِ مِن مَنحِهم واختلافِهم:

أنَّ آيةَ يونُسَ تقدَّم قبلَها دُعاءُ موسى عليه السَّلامُ على فِرْعونَ ومَلئِه بقولِه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ...﴾ [يونس: ٨٨]، فأجاب سبحانه دُعاءَ نبيِّه، وطمَس على أموالِ آلِ فِرْعونِ ومَلئِه، وأغرَقه وآلَه، ونجَّى بَني إسرائيلَ مِن الغرَقِ، وقطَع دابرَ عدوِّهم، وأورَث بني إسرائيلَ أرْضَهم وديارَهم، يتَبوَّؤون منها حيث شاؤوا، فقال سبحانه مُعرِّفًا نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٩٣]؛ فبعد تَمكُّنِ أمرِهم، واستِحْكامِ حالِهم، واستقرارِ أمرِ دينِهم بما شاهَدوه مِن الآياتِ، وعَظيمِ البَراهينِ المعْقِبَةِ لِمَن شاهَدَها اليقينَ، اختَلفوا جَرْيًا على ما سبَق لهم ولغيرِهم ممَّن أشار إليه قولُه تعالى في أوَّلِ هذه السُّورةِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس: ١٩]، ويُناسِبُ هذا كلَّه تَناسُبًا لا تَوقُّف في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٢).

وُضوحِه، ولم يتَقدَّمْ في سورةِ يونُسَ ما يَستدعي مِن حالِهم أكثرَ مِن هذا.

أمَّا آيةُ الجاثيةِ فتَقدَّمَ قبلَها بَسطُ الدَّلائلِ والبَراهينِ مِن لَدُنْ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، إلى ما تَبِع هذا مِن التَّنبيهِ بخَلقِها، وما بثَّ سبحانه فيهما مِن أصنافِ المخلوقاتِ، واختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ وتَعاقُبِهما، وإنزالِ الرِّزقِ مِن السَّماءِ، وإحياءِ الأرضِ بعدَ مَوتِها، بما يَنزِلُ مِن الرِّزقِ إليها، وتَصريفِ الرِّياحِ، ثمَّ ذكَر سبحانه أنَّ هذه الآياتِ إنَّما يَعتبِرُ بها، ويَهتَدي بأنوارِها مَن منَحه اللهُ تعالى العقْلَ، وهَداه إلى الاعتبارِ، فقال: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]، ولم يَرِدْ ذِكرُ هذه الجملةِ للاعتبارِ بها في موضعٍ مِن كتابِ اللهِ تعالى أوعَبَ مِنها في هذه السُّورةِ وفي سورةِ البقرةِ، وهي هناك أوعَبُ لذِكْرِ الفُلكِ، وجَرْيِها في مَنافعِ العبادِ، وتسخيرِ السَّحابِ بينَ السَّماءِ والأرضِ، وذِكْرِ تَصريفِ الرِّياحِ، وقد أعقَب ذِكْرَ هذه الآياتِ في الموضِعَين بقولِه في سورةِ البقرةِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، إشارةً إلى كُفَّارِ العرَبِ، وسوءِ مُرتكَبِهم، وتَعاميهم عن الاعتبارِ والاستدلالِ مع وُضوحِ الأمرِ؛ إذ لا يَقبَلُ العقلُ تكوُّنَ هذه المخلوقاتِ العِظامِ بأنفُسِها، ولا أنَّ بعضَها أوجَد بعضًا؛ لِتَساويها فيما قام مِن دلائلِ الحدوثِ، فلا بدَّ مِن خالقٍ مُريدٍ مختارٍ قادرٍ منزَّهٍ عن شُبَهِ هذه الجملةِ، وإلَّا لافتقَرَ إلى موجِدٍ آخرَ، وذلك يؤدِّي إلى التَّسلسُلِ، وهو مُحالٌ عقلًا، والاثنينيَّةُ ممتنِعةٌ عقلًا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فتعيَّن توحيدُ الحقِّ، وأنَّه ليس كمِثْلِه شيءٌ.

ولَمَّا كان الاستدلالُ بهذه الجُمَلِ المفصَّلةِ أوضحَ شيءٍ؛ أتبعَها سبحانه بقولِه: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، ولكونِه أبسَطَ ما ذُكِّر به

مَن خوطِب بالقرآنِ، ثمَّ لم يُجدِ ذلك في حقِّ مَن سبَق له الشَّقاءُ مِنهم إلَّا المنافَرةَ والمخالفةَ؛ أُعقِبَت بذِكرِ مَن ترادَفَت وتوالَت عليه الآياتُ، وكَثُرَت في حقِّه الشَّواهدُ، ثمَّ لم يُعقِبْه ذلك إلَّا الاختلافَ والعدولَ عن سُلوكِ المنهجِ الواضحِ، وهم الممتَحَنون بالاختلافِ مِن بني إسرائيلَ، ولَمَّا لم يَكُنْ تَقدَّم آيةَ سورةِ يونُسَ مِن الدَّلالاتِ مثلُ ما بُسِط في سورةِ الجاثيةِ مِن الاعتبارِ لِما يُناسِبُه الواقعُ في الجاثيةِ مِن الإطنابِ، فنُوسِب الإيجازُ بالإيجازِ، والإطنابُ بالإطنابِ، وجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ، مع اتِّحادِ المقصودِ في السُّورتَين[1].

٢- قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، وقُرِنَت الجملةُ بحَرفَيِ التَّأكيدِ، وهُما: لامُ القسَمِ و(قد)؛ لِدَفعِ إنكارِ المُعَرَّضِ بهم[2].

- قولُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ يجوزُ أن يَكونَ هذا النَّهيُ على طريقةِ التَّهْييجِ والإلهابِ، كقَولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، ولزيادةِ التَّثبيتِ والعِصمةِ[3].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هذا النَّهيُ مِن بابِ التَّهْييجِ والإلهابِ، والمرادُ به: إعلامُ أنَّ التَّكذيبَ مِن القُبحِ والمحذوريَّةِ بحيث يَنبَغي أن يُنْهَى عنه مَن لا يُتصوَّرُ إمكانُ صُدورِه عنه؛ فكيف بِمَن

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٨-٢٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٠).

يُمكِنُ اتِّصافُه به، وفيه قطعٌ لأطماعِ الكفَرةِ[١]؟!

- وفيه تأكيدُ الفعلِ المنهيِّ عنه ﴿تَكُونَنَّ﴾ بنونِ التَّوكيدِ؛ للمُبالَغةِ في النَّهيِ عنه؛ اعتِناءً بالتَّبرُّؤِ مِن الشِّركِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٤).

الآيات (٩٦-١٠٠)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿ٱلرِّجۡسَ﴾: أي: العذابَ، ويُطلَقُ أيضًا على: القذرِ المنتنِ، وأصلُ (رجس): يَدُلُّ على اختِلاطٍ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قائلًا له: إنَّ الذين وجَبَت عليهم كَلِمةُ رَبِّك -أيُّها الرَّسولُ- بمَوتِهم على الكُفرِ وطَردِهم مِن رَحمتِه وعذابِه لهم، لا يؤمنونَ إيمانًا ينفَعُهم قبل مَوتِهم، ولو جاءتْهم كلُّ مَوعظةٍ وعِبرةٍ، حتى يُعاينوا العذابَ المُوجِعَ، فحينئذٍ يُؤمِنونَ، ولا ينفَعُهم إيمانُهم، وما آمَنَ أهلُ قريةٍ مِن القُرى الهالكةِ في وقتٍ ينفَعُهم إيمانُهم فيه، إلَّا قَوم النَّبيِّ يُونُسَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، فإنَّهم لـمَّا أيقَنوا أنَّ العذابَ نازِلٌ بهم تابوا إلى الله تعالى توبةً

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٢، ١٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٩).

نَصوحًا، فكشفَ اللهُ عنهم عذابَ الخِزيِ بعد أن رأَوا بعضَ الآياتِ الدالةِ على نزولِه، وتَرَكهم في الدُّنيا يَستمتِعونَ إلى وقتِ انتهاءِ آجالِهم، ولو شاء ربُّك -أيُّها الرَّسولُ- الإيمانَ لأهلِ الأرضِ كُلِّهم، لآمَنوا جميعًا بما جئتَهم به، ولكِنْ له تعالى حكمةٌ في ذلك؛ فإنَّه يهدي من يشاءُ، ويُضِلُّ من يشاء وَفْقَ حِكمتِه، وليس في استطاعتِك أن تُكرِهَ النَّاسَ على الإيمانِ، وما ينبغي أن تُؤمِنَ نفسٌ إلَّا بمشيئةِ الله وقضائِه وقدرِه، فلا تُجهِدْ نفسَك في ذلك؛ فإنَّ أمرَهم إلى اللهِ، ويجعَلُ اللهُ غَضَبَه وعذابَه على الذينَ لا يَعقِلونَ أمْرَه ونَهيَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان ما مضَى من الآياتِ وما كان مِن طرازِها، قاضيًا بأنَّه لا تُغني الآياتُ عن المُشرِكينَ- صرَّح به هنا بقَولِه[1]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ الذين وجبَت عليهم كَلِمةُ رَبِّك- يا مُحمَّدُ- بأنَّهم يصيرونَ إلى ما قدَّرَه اللهُ لهم مِن الاستمرارِ على الكُفرِ والموتِ عليه؛ لا يُؤمِنونَ إيمانًا ينفَعُهم قبل مَوتِهم[2].

﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٧).

أي: ولو جاءتْهم كلُّ آيةٍ مِن الآياتِ الكونيَّةِ المُعجِزة الخارِقةِ، والآياتِ الشَّرعيَّةِ المُنزَّلةِ كالقُرآنِ، فإنَّهم لا يُؤمِنونَ حتى يُعاينوا العذابَ المُوجِعَ فيُؤمِنوا، وحينئذٍ لا ينفَعُهم الإيمانُ(١).

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ مِن قَبلُ أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾؛ أتبَعَه بهذه الآيةِ؛ لأنَّها دالَّةٌ على أنَّ قومَ يُونُسَ آمَنوا بعد كُفرِهم، وانتَفَعوا بذلك الإيمانِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ الكُفَّارَ فَريقانِ؛ منهم من حُكِمَ عليه بخاتمةِ الكُفرِ، ومنهم من حُكِمَ عليه بخاتمةِ الإيمانِ، وكُلُّ ما قضَى اللهُ به فهو واقِعٌ(٢).

وأيضًا فهذه الآيةُ والآيتانِ بعدَها تفريعٌ على الآياتِ السابقةِ، وتكميلٌ لها في بيانِ سُنَّةِ اللهِ في الأمَمِ مع رُسُلِهم، وفي خَلْقِ البَشَرِ مُستعِدِّينَ للأمورِ المتضادَّةِ من الإيمانِ والكُفرِ، وفي تعلُّقِ مَشيئةِ اللهِ وحِكمتِه بأفعالِه وأفعالِ عِبادِه، ووقوعِها على وَفْقِهما(٣).

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٣).

أي: ما آمَنَ أهلُ قريةٍ مِن القُرى الهالكةِ في وقتٍ ينفَعُهم إيمانُهم فيه، إلَّا قَومَ النَّبيِّ يُونُسَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، آمَنوا كُلُّهم في وقتٍ يَنفَعُهم فيه الإيمانُ، حين رأَوا آيةً تدُلُّ على العذابِ قبل نُزولِه بهم[1].

﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾.

أي: لَمَّا آمَنَوا رَفَعْنا عنهم عذابَ الذُّلِّ الذي وعدَهم به نبيُّهم في الحياةِ الدُّنيا- وكان قد قرُبَ نُزولُه بهم- وتَرَكْناهم يستَمتِعونَ في الدُّنيا إلى آخِرِ أعمارِهم المكتوبةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٩).

وممن ذهَب إلى المعنَى المذكورِ، وهو أنَّهم رأوا علاماتٍ دالةً على العذابِ دونَ العذابِ عينِه، فآمنوا فتاب الله عليهم: الزجاجُ، والواحدي، وابنُ عطيةَ، والرازي، والقرطبي، وابن تيمية، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٤- ٣٨٥)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (ص: ٣٦٤- المجموعة الثامنة)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٩).

وقيل: إنَّ قَومَ يُونُسَ خُصُّوا من بين الأمَمِ بأنْ تِيبَ عليهم لما آمنوا بعدَ مُعاينةِ العَذابِ، وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، والواحدي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩١)، ((الوسيط)) (٢/ ٥٦٠)، ((الوجيز)) (ص: ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاس، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٣٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٤).

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما مضَى ربَّما أوجبَ اعتقادَ أنَّ إيمانَ مِثلِ أولئك مُحالٌ، جاءت هذه الآيةُ في مَقامِ الاحتراسِ منه مع البيانِ؛ لأنَّ حِرصَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على إيمانِهم لا ينفعُ، ومبالغتَه في إزالةِ الشُّبُهاتِ وتقريرِ الدَّلائِلِ لا تفيدُ إلَّا بمَشيئةِ الله تعالى لِتَوفيقِهم وهدايتِهم، ولو كان ذلك وَحْدَه كافيًا لآمنوا بهذه السُّورةِ؛ فإنَّها أزالت شُبُهاتِهم، وبيَّنَت ضلالاتِهم، وحقَّقَت بقصَّتَي نوحٍ وموسى عليهما السَّلامُ ضَعْفَهم، ووَهَنَ مُدافعاتِهم[1].

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا﴾.

أي: ولو شاء ربُّك- يا محمَّدُ- لألهَمَ كلَّ من في الأرضِ الإيمانَ فآمنوا باللهِ، وبما جِئتَ به، لكنَّه لم يشَأْ ذلك؛ لِمُخالفتِه مقتضَى حِكمتِه سُبحانَه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨- ١١٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

أي: أفأنت- يا مُحمَّدُ- تُلزِمُ النَّاسَ، وتضطرُّهم إلى الإيمانِ، حتى يكونوا مُؤمِنينَ بما جئتَهم به؟ ليس ذلك إليك، ولا قُدرةَ لك عليه، بل اللهُ تعالى هو من يَهدي ويُضِلُّ مَن يشاءُ مِن عِبادِه، لا بإكراهِك لهم على ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذه الآيةَ عَطفٌ على جملةِ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ لتقريرِ مَضمونِها؛ لأنَّ مَضمونَها إنكارُ أن يَقدِرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على إلجاءِ النَّاسِ إلى الإيمانِ؛ لأنَّ اللهَ هو الذي يَقدِرُ على ذلك(٢).

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وما ينبغي لنفسٍ أن تؤمِنَ وتهتديَ إلَّا بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه ومَشيئتِه، فلا تُجهِدَنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٤).

نفسَك- يا مُحمَّدُ- في طلَبِ هُداها، وبلِّغْها وعيدَ اللهِ، ثمَّ خَلِّها؛ فإنَّ هُداها بِيَدِ خالِقِها، ولا تكفي دعوتُك في حصولِ الإيمانِ حتى يأذَنَ اللهُ لِمَن دَعَوتَه أن يؤمِنَ[(١)].

﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

أي: ويجعَلُ اللهُ غضَبَه وعذابَه على الذينَ لا يَعقِلونَ آياتِه، وحُجَجَه، ومواعِظَه، وأوامِرَه ونواهِيَه[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

الدَّليلُ لا يهدي إلَّا بإعانةِ الله تعالى، وإذا لم تحصُلْ تلك الإعانةُ ضاعت تلك الدَّلائِلُ؛ نستفيد ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[(٣)].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ الله تعالى حكى عن فِرعونَ أنَّه تاب في آخِرِ الأمرِ ولم يَقبَلْ تَوبتَه، وحكى عن قومِ يُونُسَ أنَّهم تابوا وقَبِلَ تَوبتَهم فما الفَرقُ؟ والجوابُ: أنَّ فِرعونَ إنَّما تاب بعد أن شاهدَ العذابَ، وأمَّا قَومُ يُونُسَ فإنَّهم تابوا قبل ذلك، فإنَّهم لَمَّا ظَهَرت لهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٢٥، ٣٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٨).

أماراتٌ دلَّت على قُربِ العَذابِ تابوا قبل أن يُشاهِدوه[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ فيه ردٌّ على القَدَريَّة[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ دلالةٌ على أنَّ مُجرَّدَ الدَّعوةِ لا تكفي في حصولِ الإيمانِ، حتى يأذنَ اللهُ لِمَن دُعِيَ أن يؤمِنَ[٣].

٤- الإذنُ في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ إذنٌ قَدَريٌّ- أي: قضاؤُه وقَدَرُه - لا مجرَّد أمْرِه وشَرْعِه[٤].

٥- الجَعْلُ المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ هو جَعْلٌ كونيٌّ، ويُقابِلُه: الجعلُ الدينيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] أي: ما شَرَعَ ذلك ولا أَمَرَ به، وإلَّا فهو مخلوقٌ له، واقعٌ بقدَرِه ومَشيئتِه[٥].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أبهَمَ ﴿حِينٍ﴾؛ لأنَّه مختلِفٌ باختلافِ آجالِ آحادِهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٩).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٠).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩١).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا﴾ فائدةُ ذِكرِ ﴿جَمِيعًا﴾ بعدَ ﴿كُلُّهُمۡ﴾، مع أنَّ كُلًّا منهما يفيدُ الإحاطةَ والشُّمولَ، هي الدَّلالةُ على وجودِ الإيمانِ منهم بصفةِ الاجتماعِ الذي لا يدُلُّ عليه ﴿كُلُّهُمۡ﴾ كقولك: جاء القومُ جمَيعًا، أي: مجتَمِعينَ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾

- قولُه: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ...﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ؛ لتقريرِ ما سبَق مِن استِحالةِ إيمانِ مَن حقَّت عليهم كلمتُه تعالى؛ لِسُوءِ اختِيارِهم مع تَمكُّنِهم مِن التَّدارُكِ[2]، و(لولا) حرفٌ يَرِدُ لِمَعانٍ مِنها التَّوبيخُ، وهو هنا مُستعمَلٌ في لازمِ التَّوبيخِ، كِنايةً عن التَّغليطِ؛ لأنَّ أهْلَ القُرى قد انقَضَوْا، وذلك أنَّ أصلَ معنى (لولا) التَّحضيضُ، وهو طلبُ الفعلِ بحَثٍّ، فإذا دخلَت على فعلٍ قد فات وقوعُه كانت مُستعمَلةً في التَّغليطِ، والتَّنديمِ، والتَّوبيخِ على تَفْويتِه، ويكونُ ما بَعدَها في هذا الاستعمالِ فِعْلَ مُضيٍّ؛ فهي هنا مُستعمَلةٌ في لازمِ التَّوبيخِ، كنايةً عن التَّغليطِ[3].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥٤-٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٨).

ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا ...﴾ فيه حذفُ مفعولِ المشيئةِ؛ لِوُجودِ ما يَقْتَضيه مِن وقوعِها شرطًا، وكونِ مَفعولِها مضمونَ الجزاءِ، وألَّا يكونَ في تَعلُّقِها به غرابةٌ، والتَّقديرُ: لو شاء سبحانه إيمانَ مَن في الأرضِ مِن الثَّقلَين لآمَن[1].

- وفيه التَّأكيدُ بـ ﴿كُلُّهُمۡ﴾؛ للتَّنصيصِ على العمومِ المستفادِ مِن ﴿مَن﴾ الموصولةِ؛ فإنَّها للعُمومِ، والتَّأكيدُ بـ ﴿جَمِيعًا﴾؛ لِزيادةِ رَفْعِ احتِمالِ العُمومِ العُرفيِّ دونَ الحقيقيِّ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٢).

الآيات (١٠١-١٠٢)

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قُل- يأيُّها الرَّسولُ- للمُشرِكينَ الذين يسألونَك الآياتِ: تفكَّروا، واعتَبِروا بما في السَّمَواتِ والأرضِ مِن آياتِ اللهِ البَيِّناتِ؛ فإنَّها تُغنيكم عن طَلَبِ الآياتِ، والآياتُ والعِبرُ والرُّسُلُ المُنذِرةُ عبادَ اللهِ عقابَه، لا تنفَعُ قَومًا لا يُؤمِنونَ بِشَيءٍ من ذلك؛ لإعراضِهم وعنادِهم، فهل ينتظِرُ هؤلاء إلَّا أن يحُلَّ عليهم عذابُ اللهِ مِثلَ أسلافِهم المُكَذِّبينَ الذين مَضَوا قَبلَهم؟ قل لهم- أيُّها الرَّسولُ-: فانتَظِروا عقابَ اللهِ، إنِّي معكم مِن المُنتَظِرينَ عِقابَكم، ثمَّ نُنَجِّي رسُلَنا والذين آمَنوا معهم، وكما نجَّينا أولئك الرُّسُلَ والمؤمنينَ بهم، ننجِّيك- أيُّها الرَّسولُ- ومَن آمن بك؛ تفضُّلًا منَّا ورحمةً.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآياتِ السَّالِفةِ أنَّ الإيمانَ لا يحصُلُ إلَّا بتَخليقِ الله تعالى ومَشيئتِه؛ أمَرَ بالنَّظَرِ والاستدلالِ في الدَّلائلِ حتى لا يُتَوهَّمَ أنَّ الحقَّ هو الجَبرُ المَحضُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٦).

وأيضًا لما تقرَّر ما مضَى مِن النَّهيِ عن الإصغاءِ إليهم في طلبِ الآياتِ، وختَم بتعليقِ الأمرِ بمجرَّد المشيئةِ، كان كأنَّه قِيل: فماذا يُقال لهم إذا طلَبوا[١].

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحَمَّدُ- للمُشرِكينَ الذين يسألونَك الآياتِ: انظُروا ماذا في السَّمواتِ مِن الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ والسَّحابِ، وفي الأرضِ مِن الجِبالِ والبِحارِ، والأنهارِ والأشجارِ، والثِّمارِ والدوابِّ وغيرِ ذلك من المخلوقاتِ الصَّغيرةِ والكبيرةِ، فتفَكَّروا فيها واعتَبِروا؛ فإنَّها دالَّةٌ على وحدانيَّةِ اللهِ في ربوبيَّتِه وألوهيَّتِه، وعلى كمالِ قُدرتِه وعظيمِ صِفاتِه، فتُغنيكم عن طلَبِ الآياتِ[٢].

﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: وما تنفَعُ[٣] الآياتُ السَّماويةُ والأرضيَّةُ، والرسلُ المُنذِرةُ[٤] قومًا سبَقَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٣) قال الواحدي: (يجوزُ أن تكونَ (ما) نفيًا بمعنى: ما تغني عنهم شيئًا بدَفعِ الضَّررِ، واجتلابِ النَّفعِ، كقولِك: ما يُغني عنك المالُ إذا لم تُنفِقْ، ويجوز أن يكون استفهامًا كقولِك: أيَّ شيءٍ يُغني عنهم؟). ((البسيط)) (١١/ ٣٢٩).

وممن اختار أنَّ (ما): نافيةٌ: الواحديُّ، والقرطبي، وأبو حيان. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠).

وممن اختار أنَّ (ما) استفهاميةٌ: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩).

(٤) قال أبو حيان: (﴿النُّذُرُ﴾ جمعُ نَذير، إمَّا مَصدرٌ، فمعناه: الإنذارات، وإمَّا بمعنى مُنذِر، فمعناه: المُنذِرونَ والرُّسُل). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠).

وممن قال: إنَّ المراد بـ﴿النُّذُرُ﴾: الرسلُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦).

وممن قال: إنَّ المرادَ بها الإنذاراتُ: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٦- ٢٩٧).

في علمِ اللهِ أنَّهم لا يُؤمِنونَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا كان ما في السمواتِ والأرضِ مِن الآياتِ في غايةِ الدلالةِ؛ نبَّه سبحانَه على أنَّ التوقفَ عن الإيمانِ بعدَ التنبيهِ على كيفيةِ الاستدلالِ معاندةٌ، فقال: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، فكان ذلك سببًا لتهديدِهم بقولِه[(٢)]:

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: فهل ينتَظِرُ هؤلاء المُشركونَ المكَذِّبونَ لك- يا مُحمَّدُ- من النِّقمةِ والعذابِ، إلَّا مِثلَ وقائعِ اللهِ تعالى في الأممِ الماضيةِ مِن قَبلِهم، المكَذِّبةِ لِرُسُلِهم[(٣)]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٣٠)، ((تفسير

﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهم: فانتَظِروا عذابَ اللهِ، إنِّي معكم من المُنتَظرينَ ما يحُلُّ بكم مِن العذابِ والهلاكِ الذي وعَدَكم اللهُ[1].

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أُمِرَ الرَّسولُ في الآيةِ السَّابقةِ أن يُوافِقَ الكُفَّارَ في انتظارِ العَذابِ؛ ذكَرَ التَّفصيلَ، فقال: العذابُ لا يَنزِلُ إلَّا على الكُفَّارِ، وأمَّا الرَّسولُ وأتباعُه فهم أهلُ النَّجاةِ[2].

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: ثم نُنجِّي رسُلَنا والمُؤمِنينَ بهم مِن عَذابِنا الواقِعِ على قَومِهم[3].

﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: كما أنجَينا الرُّسُلَ السَّابقينَ والمؤمنينَ بهم حين نزولِ العَذابِ، كذلك نفعَلُ بك- يا مُحمَّدُ- وبالمُؤمِنينَ بك، فنُنَجِّيكم جميعًا، حقًّا ووعدًا أوجَبْناه علينا لا نُخلِفُه[4].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩).

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أمَرَ تعالى بالفِكرِ فيما أودَعَه تعالى في السَّمَواتِ والأرضِ؛ إذ السَّبيلُ إلى مَعرِفتِه تعالى هو بالتفكُّرِ في آياتِه ومخلوقاتِه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هذا مِن دَفْعِه سبحانَه عن المُؤمِنينَ؛ فإنَّ اللهَ يُدافِعُ عن الذين آمنوا، فإنَّه بحسَبِ ما مع العبدِ مِن الإيمانِ تحصُلُ له النَّجاةُ مِن المكارِه[٢]، فمدارُ النَّجاةِ هو الإيمانُ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عمَّم ما في السَّمواتِ والأرضِ؛ لتتوجَّهَ كُلُّ نَفسٍ إلى ما هو أقرَبُ إليها، وأيسَرُ استدلالًا عليه لَدَيها[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أشار بأداةِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ إلى طولِ زَمانِ الابتلاءِ، وعظيمِ رُتبةِ التَّنجيةِ[٥].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ قَولَه ﴿حَقًّا﴾ يقتضي الوجوبَ، واللهُ تعالى لا يجِبُ عليه شيءٌ! الجوابُ: أنَّ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٥).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٣).

حقٌّ بحَسَبِ الوَعدِ والحُكم، لا أنَّه حَقٌّ بحسَبِ الاستحقاقِ[١]؛ فالله سبحانه أحَقَّه على نفسِه بحُكمِ إحسانِه وفَضلِه ووَعدِه، لا هم أحَقُّوه عليه كالحَقِّ الذي لإنسانٍ على مَن له عنده يَدٌ، وكقوله أيضًا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ استفهامٌ فيه تقريرٌ وتَوعُّدٌ، وحضٌّ على الإيمانِ[٣].

- قولُه: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وقَع الاستفهامُ بـ (هَلْ) لإفادَتِها تَحقيقَ السُّؤالِ، وهو باعتبارِ تحقيقِ المسؤولِ عنه، وأنَّه جديرٌ بالجوابِ بالتَّحقيقِ، وهو استفهامٌ تَهكُّميٌّ إنكاريٌّ، نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَنتظِرون شَيئًا يَأتيهم لِيُؤمِنوا، وليس ثَمَّةَ شيءٌ يَصلُحُ لأنْ يَنتَظِروه إلَّا أن يَنتظِروا حُلولَ مِثلِ أيَّامِ الَّذين خلَوا مِن قَبلِهم الَّتي هلَكوا فيها، وضُمِّن الاستفهامُ مَعْنى النَّفيِ، والتَّقديرُ: فهل ينتَظِرون شيئًا؟ ما ينتَظِرون إلَّا مِثلَ أيَّامِ الَّذين خَلَوا مِن قبلِهم[٤].

- وقولُه: ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ أمرٌ مُرادٌ منه التَّهديدُ، أي: انتَظِروا ما يَحِلُّ بكُم كما حَلَّ بمَن قَبلَكم مِن مُكذِّبي الرُّسُلِ[٥].

- وجملةُ: ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ مُفرَّعةٌ على جملةِ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٠).
(٢) يُنظر: ((الرد على البكري)) لابن تيمية (١/ ٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٧- ٢٩٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠).

وفُصِلَ بينَ المفرَّعِ والمفرَّعِ عليه بـ ﴿قُلْ﴾؛ لزيادةِ الاهتمامِ، ولِيَنتقِلَ مِن مُخاطَبَةِ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم إلى مُخاطَبَةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم قومَه، وبهذا النَّسْجِ حصَل إيجازٌ بديعٌ؛ لأنَّه بالتَّفريعِ اعتُبِر ناشِئًا عن كلامِ اللهِ تعالى، فكأنَّ اللهَ بلَّغه النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم، ثمَّ أمَر النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بأن يُبلِّغَه قومَه؛ فليس له فيه إلَّا التَّبليغُ، وهو يتَضمَّنُ وعْدَ اللهِ نبيَّه بأنَّه يَرى ما يَنتظِرُهم مِن العذابِ؛ فهو وعيدٌ، وهو يتَضمَّنُ النَّصرَ عليهم[١].

- وجملةُ: ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن جملةِ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾؛ لأنَّها تُثيرُ سُؤالَ سائلٍ يَقولُ: ها نحن أولاءِ نَنتظِرُ، وأنت ماذا تَفعَلُ؟ وهذا مُستعمَلٌ كنايةً عن تَرقُّبِه النَّصرَ؛ إذ لا يُظَنُّ به أنَّه يَنتظِرُ سوءًا؛ فتَعيَّن أنَّه يَنتظِرُ مِن ذلك ضِدَّ ما يَحصُلُ لهم، فالمعيَّةُ في أصلِ الانتظارِ، لا في الحاصلِ بالانتظارِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ معطوفٌ على كلامٍ محذوفٍ، يَدُلُّ عليه قولُه: ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾، كأنَّه قيل: نُهلِكُ الأُممَ ثمَّ نُنجِّي رُسلَنا، على حكايةِ الأحوالِ الماضيةِ[٣]، وهذا التَّعبيرُ مِن أعجبِ إيجازِ القُرآنِ المُعجِزِ الذي انفرَدَ به في العَطفِ على محذوفٍ، وهو ذِكرُ شَيءٍ يدُلُّ دلالةً واضحةً على أمرٍ عامٍّ: كسُنَّةٍ اجتماعيَّةٍ تُستنبَطُ مِن قِصَّةٍ أو قِصَص واقعةٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٩٨-٢٩٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٨).

ثم يأتي بجملةٍ مَعطوفةٍ لا يصِحُّ عَطفُها على ما قَبلَها من الجُمَل، فيتبادَرُ إلى الذِّهنِ وُجوبُ عَطفِها على ذلك الأمرِ العامِّ، بحرفِ العطفِ المُناسِب للمَقامِ، بحيث يُستَغنى به عن ذِكرِه، وتقديرُه هنا: تلك سُنَّتُنا في رسُلِنا مع قومِهم: يُبَلِّغونَهم الدَّعوةَ، ويُقيمونَ عليهم الحُجَّةَ، ويُنذِرونَهم سوءَ عاقبةِ الكُفرِ والتَّكذيبِ، فيؤمِنُ بعضٌ، ويُصِرُّ الآخرونَ، فنُهلِكُ المكَذِّبينَ، ثمَّ نُنَجِّي رسُلَنا والذين آمَنوا بهم، ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

- وفي صيغةِ الاستقبالِ ﴿نُنجِ﴾ لحكايةِ الأحوالِ الماضيةِ: تهويلٌ لأمرِها باستحضارِ صُوَرِها[2].

- وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تذييلٌ لما قبلَه مقرِّرٌ لمضمونِه، والمرادُ بالمؤمنين إمَّا الجنسُ المتناوِلُ للرُّسلِ عليهم السَّلامُ والأتباعِ، وإمَّا الأتباعُ فقط ولم يَذكُرْ إنجاءَ الرُّسلِ؛ إيذانًا بعدَمِ الحاجةِ إليه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٨).

الآيات (١٠٤-١٠٩)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ
لِلدِّينِ حَنِيفًا ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا
يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ
لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ
ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ
فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾
وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مُقبلًا على اللهِ، مُعرضًا عما سِواه، وقيل: مائلًا عن الشركِ والدِّينِ الباطلِ إلى التوحيدِ، والدِّينِ الحقِّ المستقيمِ، وأصلُ الحنفِ: الميلُ عن الشيءِ بالإقبالِ على آخرَ، فالحنفُ ميلٌ عن الضلالةِ إلى الاستقامةِ، وأصلُه ميلٌ في إبهامي القدمينِ، كل واحدةٍ على صاحبتِها[(١)]، وقيل: حنيفًا، أي: مسلمًا مستقيمًا[(٢)].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (١/ ٢٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

(٢) وذلك بناءً على قولِ مَن قال: إنَّ الحنيفَ هو المستقيمُ مِن كلِّ شيءٍ. والحنفَ الاستقامةُ، وجعلوا الرَّجلَ الَّذي تُقبلُ إحدَى قَدَميه على الأُخرى، إنَّما قِيل له: أحنفُ، على جهة التفاؤلِ، كما قِيل للمَهْلَكةِ مِن البلادِ: المفازَةُ، بمعنَى الفوزِ بالنَّجاةِ منها والسَّلامةِ؛ وكما قِيل لِلَّديغِ: السَّليمُ؛ تفاؤلًا له بالسَّلامةِ مِن الهلاكِ، وما أشبهَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٦).

﴿بِوَكِيلٍ﴾: الوكيلُ: المانعُ والحافظُ والكفيلُ، ووكيلُ الرجلِ في مالِه هو الذي كفَله له، وقام به، والتوكُّلُ يُقال على وجهينِ، يُقال: توكَّلتُ لفلانٍ بمعنى: توليتُ له، ويُقال: وكلتُه فتوكَّل لي، وتوكلتُ عليه بمعنَى: اعتمدتُه، وأصلُ (وكل): يدلُّ على اعتمادِ غيرِك في أمرِك[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالَى: قُل -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء النَّاسِ: إن كُنتُم في شَكٍّ مِن صِحَّةِ ديني الذي دَعَوتُكم إليه، وهو الإسلامُ، فإنِّي لا أعبدُ في حالٍ مِن الأحوالِ أحدًا من الذين تَعبدونَهم ممَّا اتَّخَذتُم مِن الأصنامِ والأوثانِ، ولكِنْ أعبدُ اللهَ وَحْدَه الذي يُميتُكم، وأمرني الله عزَّ وجلَّ أن أكونَ مِن المؤمنينَ. وأمَرني بقولِه: أَقِمْ- أيُّها الرَّسولُ- نَفسَك على دينِ الإسلامِ مُستقيمًا عليه، غيرَ مائلٍ عنه، ولا تكونَنَّ ممَّن يُشرِكُ في عبادةِ رَبِّه الآلهةَ والأندادَ، فتكونَ مِن الهالكينَ، ولا تعبُدْ مِن دونِ الله شيئًا من الأوثانِ والأصنامِ وغيرِها؛ لأنَّها لا تنفَعُ ولا تضُرُّ، فإن فعَلْتَ ذلك وعبَدْتَها مِن دونِ اللهِ، فإنَّك إذًا من الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بالشِّركِ، وإن يُصِبْك اللهُ -أيُّها الرَّسولُ- بشدَّةٍ أو بلاءٍ، فلا كاشِفَ لذلك إلَّا هو جلَّ وعلا، وإن يُرِدْك برَخاءٍ أو نعمةٍ، فلا يمنَعُه عنك أحدٌ، يصيبُ اللهُ عزَّ وجلَّ بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ مَن يشاءُ مِن عبادِه، وهو الغَفورُ لذنوبِ مَن تاب، الرَّحيمُ بمن آمنَ به وأطاعه، وقل- أيُّها الرَّسولُ- للنَّاسِ: قد جاءكم القرآنُ الذي فيه بيانُ هِدايتِكم، فمَن اهتدى بهذا القرآنِ، فإنَّما ثَمرةُ عَمَلِه راجعةٌ إليه، ومَن انحرَفَ عن القرآنِ، وأصرَّ على الضَّلالِ، فإنَّما ضلالُه وضرَرُه على نفسِه، وما أنا بمسلَّطٍ عليكم حتى تكونوا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨، ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

مؤمنينَ، ولا بحفيظٍ عليكم حتى أحفظَ أعمالَكم وأحاسِبَكم عليها، واتَّبِع وحيَ اللهِ الذي يُوحيه إليك، فاعمَلْ به، واصبِرْ على طاعةِ الله تعالى، وعلى أذى مَن آذاك في تبليغِ رِسالتِه، حتى يقضيَ اللهُ بينك وبينهم، وهو عزَّ وجَلَّ خيرُ الحاكِمينَ؛ فإنَّ حُكمَه مُشتَمِلٌ على العَدلِ التَّامِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الدَّلائِلَ على أقصى الغاياتِ، وأبلَغِ النِّهاياتِ، أمرَ رَسولَه بإظهارِ دِينِه، وبإظهارِ المُبايَنةِ عن المُشرِكينَ؛ لكي تزولَ الشُّكوكُ والشُّبُهاتُ في أمرِه، وتخرُجَ عبادةُ اللهِ مِن طريقةِ السِّرِّ إلى الإظهارِ[1].

وأيضًا لَمَّا تقَدَّمَ الفِطامُ عن الميلِ لِمن يطلُبُ الآياتِ، وكان طلَبُهم لها إنَّما هو على وجهِ الشَّكِّ، وإن لم يكُن على ذلك الوجهِ، فإنَّه فِعلُ الشَّاكِّ غالبًا، وتقَدَّمَت أجوبةٌ لهم، وخُتِمَ ذلك بتَهديدِهم وبشارةِ المُؤمِنينَ المُوجبة لثباتِهم- ناسَبَه كلَّ المُناسَبةِ أن أُتبِعَ الأمرُ بجوابٍ آخَرَ دالٍّ على ثباتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّه مُظهِرٌ دِينَه، رَضِيَ مَن رَضِيَ، وسَخِطَ مَن سَخِطَ[2].

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٥).

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: يا أيُّها النَّاسُ[١]، إن كُنتُم في شَكٍّ مِن صِحَّةِ دِينِ الإسلامِ الذي أدعوكم إليه، فإنِّي لا أعبدُ الذين تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ، مِن الأصنامِ والأوثانِ وغَيرِها من المخلوقاتِ التي لا تستحِقُّ العبادةَ[٢].

﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾.

أي: ولكنْ أعبدُ اللهَ الذي يُميتُكم ويَقبِضُ أرواحَكم، ثمَّ يَبعَثُكم وإليه مَرجِعُكم؛ لِيُجازيَكم بأعمالِكم، فهو وَحْدَه المُستحِقُّ للعبادةِ[٣].

﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: وأمَرَني اللهُ أن أكونَ مِن جملةِ المُؤمِنينَ المصدِّقينَ بما أوحَى إليَّ، الموعودينَ بالنَّجاةِ مِن العذابِ، والنصرِ على أعدائهم وأعدائِه[٤].

---

(١) ذهَب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المرادَ بالنَّاس هنا: مُشرِكو قريش. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٣).
وذهب ابن عطيَّة إلى أنَّها مُخاطَبَةٌ عامَّةٌ للنَّاسِ أجمعينَ إلى يوم القيامةِ، يدخلُ تحتَها كلُّ مَن اتَّصَف بالشَّكِّ في دينِ الإسلامِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).
قال ابن جرير: (وهذا تعريضٌ ولَحنٌ مِن الكلامِ لَطيفٌ، وإنَّما معنى الكلامِ: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾ لا ينبغي لكم أن تشُكُّوا فيه، وإنَّما ينبغي لكم أن تشُكُّوا في الذي أنتم عليه من عبادةِ الأصنامِ التي لا تعقِلُ شيئًا، ولا تضُرُّ ولا تنفَعُ، فأمَّا ديني فلا ينبغي لكم أن تشُكُّوا فيه؛ لأني أعبدُ اللهَ الذي يقبِضُ الخَلقَ فيُميتُهم إذا شاء، وينفَعُهم ويضُرُّهم إذا شاء؛ وذلك أنَّ عبادةَ من كان كذلك لا يستَنكِرُها ذو فطرةٍ صَحيحةٍ، وأمَّا عبادةُ الأوثانِ فيُنكِرُها كلُّ ذي لُبٍّ وعَقلٍ صَحيحٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٩).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

﴿وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٥﴾.

﴿وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾.

أي: وأمَرَني اللهُ بِقَولِه: أقمْ نفسَك على دينِ الإسلامِ، واستَقِمْ عليه مُخلِصًا لله وَحدَه، مائلًا عن كلِّ دينٍ سواه[1].

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

أي: ولا تكونَنَّ -يا محمَّدُ- من المُشرِكينَ في عبادةِ اللهِ، لا في حالِهم ولا عقائِدِهم، ولا أعمالِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ * بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧، ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا نهى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الشِّركِ، أكَّدَه بما هو كالتَّعليلِ له بِقَولِه[1]:

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾.

أي: ولا تَعبُدْ- يا مُحمَّدُ- مِن دونِ اللهِ مِن الأصنامِ وغَيرِها ما لا ينفَعُك إن عبَدْتَه، ولا يضُرُّك إن عصَيتَه[2].

﴿ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: فإنْ عَبَدتَ غَيرَ اللهِ، فإنَّك -يا محمَّدُ- من الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بالشِّركِ، الواضعينَ العبادةَ في غيرِ مَوضِعِها[3].

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى في الآيةِ الأولى في صفةِ الأصنامِ أنَّها لا تضُرُّ ولا تنفَعُ؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّها لا تَقدِرُ أيضًا على دَفعِ الضَّرَرِ الواصلِ مِن الغَيرِ، وعلى الخيرِ الواصلِ مِن الغَيرِ[4]، وذكَر أنَّ الحَولَ والقُوَّةَ والنَّفعَ والضُّرَّ، ليس ذلك إلَّا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٠).

لله، وأنَّه تعالى هو المُنفَرِدُ بذلك[١].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: وإن يُصِبْك اللهُ -يا مُحمَّدُ- بشدَّةٍ وبلاءٍ -كمَرَضٍ أو فقرٍ- فلا يَكشِفُه عنك ويَرفَعُه إلَّا اللهُ وَحدَه المُستَحِقُّ للعبادةِ[٢].

كما قال سُبحانه: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨].

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾.

أي: وإنْ يُرِدِ اللهُ لك الخيرَ- يا محمَّدُ- فلا أحدَ مِن الخَلقِ يَقدِرُ على ردِّ فَضلِه وإحسانِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كنتُ خَلفَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا، فقال: يا غُلامُ، إنِّي أعَلِّمُك كَلِماتٍ: احفَظِ اللهَ يَحفَظْك، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَك، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعَنْتَ فاستعِنْ بالله، واعلَمْ أنَّ الأمَّةَ لو اجتمَعَت على أن ينفَعوك بشَيءٍ، لم ينفَعوك إلَّا بشَيءٍ قد كتَبَه الله لك، ولو اجتَمَعوا على أن يضُرُّوك بشَيءٍ، لم يضُرُّوك إلَّا بشيءٍ قد كتَبَه اللهُ عليك،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ٢٣٦)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

رُفِعَت الأقلامُ، وجَفَّت الصُّحُف))[١].

﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: يُصيبُ اللهُ بالضُّرِّ والخيرِ من يَشاءُ مِن عبادِه[٢].

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: وهو الغَفورُ لذُنوبِ عِبادِه التَّائبين، الرَّحيمُ بالمؤمنينَ[٣].

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كَثُرَت في هذه السُّورةِ الأوامِرُ والنَّواهي والأجوبةُ بسبَبِ ما يقتَرِحونَه

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥٤١٧).
صحَّحه الترمذيُّ، وحسَّنه ابنُ رجبٍ في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابنُ حجرٍ في ((موافقة الخبر الخبر)) (١/ ٣٢٧)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٣٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٢٥١٦)، وابنُ بازٍ في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٦٨).
وممن ذهب إلى أنَّ الضميرَ في (به) يعودُ إلى الضرِّ والخيرِ: ابنُ جريرٍ والقرطبي والخازنُ. يُنظر: ((المصادر السابقة)).
وممن ذهَب إلى أنَّه يعودُ إلى الخيرِ: الشوكاني، ومحمد رشيد رضا، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨).

على وجهِ التعَنُّت، وخُتِمَ بأنَّ من دعا غيرَه كان راسخًا في الظُّلم، لا مُجيرَ له منه؛ ختَم ذلك بجوابٍ مُعلِمٍ بأنَّ فائدةَ الطَّاعةِ ليست راجعةً إلَّا إليهم، وضرَرَ النُّفورِ ليس عائدًا إلَّا عليهم[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا قرَّرَ تعالى الدَّلائِلَ المذكورةَ في التوحيدِ والنبوَّةِ والمعادِ، وزَيَّنَ أمرَ هذه السُّورةِ بهذه البياناتِ الدَّالَّةِ على كونِه تعالى مُبتَدئًا بالخَلقِ والإبداعِ، والتَّكوينِ والاختراعِ- ختَمَها بهذه الخاتمةِ الشَّريفةِ العاليةِ؛ لئلَّا يبقى لأحدٍ عُذرٌ[٢].

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾.

أي: قُل- يا محمَّدُ- لجميعِ النَّاسِ: يا أيُّها النَّاسُ، قد أتاكم الحَقُّ المبينُ الذي لا مِريةَ فيه ولا شَكَّ، وهو القُرآنُ الذي نزَلَ مِن عند رَبِّكم، فيه بيانُ دِينِكم، وصَلاحُ أحوالِكم[٣].

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾.

أي: فمَن اهتَدى بهذا القرآنِ واتَّبَعه، فإنَّما ينفَعُ نَفسَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٨).

قال ابن عاشور: (الخطابُ لجَميعِ النَّاسِ مِن مؤمنٍ وكافرٍ، والمقصودُ منه ابتداءً المُشرِكون؛ ولذلك أطيلَ الكلامُ في شأنِهم، وقد ذُكِرَ معهم من اهتدى تشريفًا لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾.

أي: ومن ضلَّ عن القرآنِ فخالفَ طريقَ الحَقِّ، فإنَّما يضرُّ نفسَه[١].

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾.

أي: وقُلْ- يا محمَّدُ- للنَّاسِ: وما أنا بمسَلَّطٍ عليكم، وقاهرٍ لكم حتى تُؤمِنوا، ولا بحفيظٍ عليكم حتى أحفظَ أعمالَكم وأحاسِبَكم عليها[٢].

كما قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١].

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أكثَرُ ما ذُكِرَ وعظًا لهم وتذكيرًا؛ ختَمَه الله تعالى بأمرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما يفعَلُه في خاصَّةِ نَفسِه، أجابوا أو لم يُجيبوا[٣]، فقال تعالى:

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٠).

أي: واتَّبعْ - يا محمَّدُ- ما أوحَى اللهُ إليك من القرآنِ، فصدِّقْ بأخبارِه، واعمَلْ بأحكامِه[١].

﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾.

أي: واصبِرْ على التمسُّكِ بما يُوحَى إليك، وعلى أذى المُشرِكينَ، حتَّى يقضيَ اللهُ بينك وبينهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ۞ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٨-٧٩].

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

أي: واللهُ خيرُ الحاكِمينَ بالعدْلِ بين المُتَخاصِمينَ، فسيَحكُمُ بينك -يا محمَّدُ- وبين مَن خالَفوك[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٠).
قال السعدي: (وقد امتثَلَ صلَّى الله عليه وسلَّم أمرَ رَبِّه، وثبَتَ على الصِّراطِ المُستقيمِ، حتى أظهَرَ الله دينَه على سائرِ الأديانِ، ونصَرَه على أعدائِه بالسَّيفِ والسِّنانِ، بعدما نصَرَه اللهُ عليهم، بالحجَّة والبُرهان). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ فلا أحدَ ولا شيءَ يَرُدُّ فَضلَه تعالى الذي تتعَلَّقُ به إرادتُه، فما شاء كان حتمًا، فلا ينبغي لأحدٍ أن يرجوَ الخَيرَ والنَّفعَ إلَّا مِن فَضلِه، ولا أن يخاف رَدَّ ما يريدُه له من أحدٍ غَيرِه(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أعلَمَت هذه الآيةُ أنَّ من اتَّبَعَ الوَحيَ ابتُلِيَ بما ينبغي الصَّبرُ عليه، وأفهَمَت أنَّ من كان له أشدَّ اتباعًا، كان أشَدَّ بلاءً(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال ﴿فِى شَكٍّ﴾ وهم كفَّارٌ يَعتَقِدونَ بُطلانَ ما جاء به؟

الجوابُ: أنَّه كان فيهم شاكُّونَ، أو أنَّهم لَمَّا رأوُا الآياتِ اضطَرَبوا، وشَكُّوا في أمرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٣).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه سؤالٌ: ما الحكمةُ في ذِكرِ المَعبودِ الحَقِّ في هذا المقامِ بهذه الصِّفةِ، وهي قولُه: ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾؟ **الجواب** مِن وجوهٍ:

الأول: أنَّه إنَّما خُصَّ التَّوفِّي هاهنا بالذِّكرِ دونَ الإحياءِ؛ لأنَّه يتضَمَّنُ تهديدًا لهم؛ لأنَّ وفاةَ المُشرِكينَ ميعادُ عذابِهم(٤).

الثاني: لِمَا فيها مِن الدَّلالةِ على كمالِ التَّصرُّفِ في المخلوقِ؛ فإنَّ المشرِكين

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٠١).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٣٢).

لم يَبلُغْ بهم الإشراكُ إلى ادِّعاءِ أنَّ الأصنامَ تُحْيي وتُميتُ[١].

الثالث: يحتملُ أن يكونَ المرادُ: أنِّي أعبُدُ اللهَ الذي خلَقَكم أوَّلًا ثم يتوفَّاكم ثانيًا، ثمَّ يُعيدكم ثالثًا، فاكتفى بذِكرِ التوفِّي منها؛ لِكَونِه منبِّهًا على البَواقي.

الرابع: أنَّ الموتَ أشَدُّ الأشياءِ مَهابةً، فخُصَّ هذا الوصفُ بالذِّكرِ في هذا المقامِ؛ لِيَكونَ أقوى في الزَّجرِ والرَّدعِ.

الخامس: أنَّهم لَمَّا استعجَلوا نزولَ العذابِ قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۞ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فهذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّه تعالى يُهلِكُ أولئك الكُفَّارَ، ويُبقي المؤمنينَ، ويُقَوِّي دولتَهم، فلمَّا كان قريبَ العَهدِ بذِكرِ هذا الكلامِ؛ لا جرَمَ قال هاهنا: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ وهو إشارةٌ إلى ما قَرَّره وبَيَّنَه في تلك الآيةِ، كأنَّه يقولُ: أعبدُ ذلك الذي وعَدَني بإهلاكِهم وبإبقائي[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ اختيرَ في الآيةِ الثَّانيةِ صِيغةُ الطَّلَبِ وفيما قَبلَه الخَبَر؛ ذلك بأنَّ الخَبَر هو المناسِبُ لعلاقةِ هذا الأمرِ بالماضي، وهو أن يكونَ مِن جماعةِ المؤمنينَ المَوعودينَ بما تقَدَّمَ من سنَّةِ الله في النبيِّينَ، والطَّلَبُ هو المناسِبُ لعَلاقتِه هو وما عُطِفَ عليه مِن النَّهيِ بالحالِ والاستقبالِ، من دعوةِ هذا الدِّينِ المُوجَّهةِ إلى أهلِ مَكَّةَ وسائرِ النَّاسِ[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نهيٌ عن الإشراكِ على التَّصريحِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٩).

لتأكيدِ التَّحذيرِ والذَّمِّ لأهلِه؛ لأنَّه إذا قيل: لا تكُنْ منهم، اقتضى أنَّهم على نهايةِ الخِزيِ والمَقتِ[١].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المقصودُ مِن هذا الفَرضِ: تنبيهُ النَّاسِ على فظاعةِ عِظَمِ هذا الفِعلِ، حتى لو فعَلَه أشرفُ المَخلوقينَ، لكان من الظَّالِمينَ[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ فيه سؤالٌ: لمَ ذُكِرَ المَسُّ في أحَدِهما، والإرادةُ في الثَّاني؟

الجوابُ: أنَّ للعُلَماءِ وجوهًا في تعليلِ ذلك:

الوجه الأول: أنَّه لَمَّا كان الضرُّ أمرًا وجوديًّا، لا جرمَ قال فيه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ولَمَّا كان الخيرُ قد يكونُ وجوديًّا، وقد يكون عَدميًّا؛ لا جرَمَ لم يُذكَرْ لفظُ الإمساسِ فيه، بل قال: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾[٣].

الوجه الثاني: كأنَّه أراد أن يَذكُرَ الأمرينِ جَميعًا: الإرادةَ والإصابةَ في كلِّ واحدٍ مِن الضُرِّ والخَيرِ، وأنَّه لا رادَّ لِما يرُيدُه منهما، ولا مُزيلَ لِما يُصيبُ به منهما، فأوجز الكلامَ بأن ذكَرَ المسَّ وهو الإصابةُ في أحَدِهما، والإرادةَ في الآخرِ؛ ليدُلَّ بما ذُكِرَ على ما تُرِكَ، على أنَّه قد ذكَرَ الإصابةَ بالخَيرِ في قَولِه تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[٤].

الوجه الثالث: أنَّه عبَّرَ بالمسِّ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ لأنَّه

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٥).

أخوَفُ.

الوجه الرابع: أنَّه عبَّرَ بالإرادةِ في الخيرِ، وبالمسِّ في الضُّرِّ؛ تنبيهًا على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مرادٌ بالخَيرِ بالذَّاتِ، وبالضُّرِّ بالعَرضِ تطييبًا لقَلبِه[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ دالٌّ على أنَّ الضُّرَّ والخيرَ واقعانِ بقُدرةِ الله تعالى وبقَضائِه، فيدخلُ فيه الكفرُ والإيمانُ والطاعةُ والعِصيانُ، والسُّرورُ والآفاتُ، والخيراتُ والآلامُ، واللَّذَّاتُ والرَّاحاتُ والجِراحات، فبيَّن سُبحانه وتعالى أنَّه إن قضى لأحدٍ شرًّا، فلا كاشِفَ له إلَّا هو، وإن قضى لأحدٍ خَيرًا فلا رادَّ لِفَضلِه البتَّةَ[٢].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيه دَقيقةٌ، وهي أنَّه تعالى رجَّحَ جانِبَ الخَيرِ على جانِبِ الشَّرِّ، وذلك من أوجهٍ، منها:

الأول: أنَّه تعالى لَمَّا ذكر إمساسَ الضُّرِّ، بيَّنَ أنَّه لا كاشِفَ له إلَّا هو، وذلك يدُلُّ على أنَّه تعالى يُزيلُ المَضارَّ؛ لأنَّ الاستثناءَ مِن النَّفيِ إثباتٌ، ولَمَّا ذكَرَ الخَيرَ لم يَقُلْ بأنَّه يَدفَعُه بل قال إنَّه: ﴿لَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، وذلك يدلُّ على أنَّ الخيرَ مَطلوبٌ بالذَّاتِ، وأنَّ الشَّرَّ مطلوبٌ بالعَرضِ.

الثاني: أنَّه قال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهذا أيضًا يدُلُّ على قوَّةِ جانبِ الرَّحمةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٨-٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٠).

٩- التقديمُ في اللفظِ يدلُّ على زيادةِ العنايةِ، فقولُه: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يدلُّ على أنَّ المقصودَ هو الإنسانُ، وسائرُ الخيراتِ مخلوقةٌ لأجلِه، فهذه الدقيقةُ لا تُستفادُ إلا مِن هذا التركيبِ[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ سمَّى الخيرَ فَضلًا؛ إشعارًا بأنَّ الخُيورَ من الله تعالى، هي صادرةٌ على سبيلِ الفَضلِ والإحسانِ والتفَضُّل[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فيه إيثارُ الخطابِ باسْمِ الجنسِ مُصدَّرًا بحرفِ التَّنبيهِ؛ تَعميمًا للتَّبليغِ، وإظهارًا لكمالِ العنايةِ بشأنِ ما بُلِّغ إليهم[٣].

- قولُه: ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾، فيه الجمعُ بينَ نفيِ أن يَعبُدَ الأصنامَ وبين إثباتِ أنَّه يَعبُدُ اللهَ، وهو يقومُ مَقامَ صيغةِ القصرِ لو قال: فلا أَعبُدُ إلَّا اللهَ؛ ووجهُ العدولِ عن صيغةِ القصرِ: أنَّ شأنَها أن يُطْوَى فيها الطَّرَفُ المنفيُّ للاستغناءِ عنه بالطَّرَفِ المثبَتِ؛ لأنَّه المقصودُ، وذلك حين يكونُ الغرضُ الأصليُّ هو طرَفَ الإثباتِ، فأمَّا إذا كان طرَفُ النَّفيِ هو الأهمَّ كما هنا، وهو إبطالُ عبادةِ الأصنامِ أوَّلًا؛ عَدَل عن صيغةِ القصرِ إلى ذِكْرِ صيغتَيْ نفيٍ وإثباتٍ؛ فهو إطنابٌ اقتَضاه المقامُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠١-٣٠٢).

- وعُومِلَت الأصنامُ مُعاملةَ العُقلاءِ، فأُطلِقَ عليها اسمُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الَّذي لجماعةِ العقلاءِ؛ مُجاراةً لِما يَعتقِدونه فيها مِن العقلِ والتَّدبيرِ[١].

- وتقديمُ تركِ عبادةِ الغير على عبادته تعالى في قولِه: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾؛ لتقدُّمِ التخليةِ على التحليةِ، كما في كلمةِ التَّوحيدِ، وللإيذانِ بالمخالفةِ مِن أوَّلِ الأمرِ[٢].

- قولُه تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه جعلُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن جملةِ المؤمِنين؛ تشريفًا لهذا الجمعِ، وتنويهًا به[٣].

- وفي قولِه تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وقال في سورةِ النَّملِ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]، فاختُصَّ هذا المكانُ بـ(المؤمنين)، واختُصَّ آخِرُ سورةِ النَّملِ بـ(المسلمين)؛ ووجهُ ذلك: أنَّ قبل هذه الآيةِ في سورةِ يونسَ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، فقال بعدَه: وأُمِرتُ أن أكونَ مِنهم. وأمَّا في سورةِ النَّملِ فإنَّ قبلَ هذه الآيةِ مِنها: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [النمل: ٨١]، فكأنَّه قال: وأُمِرتُ أن أكونَ ممَّن إذا سَمِع بآياتِه آمَن بها، وكان مِن المسلِمين الَّذين مُدِحوا بأنَّ النَّبيَّ يُسمِعُهم؛ إذْ يَنتفِعون بما يَسمَعونه منه، فلمَّا تقاربَتِ اللَّفظَتان وكانَتا تُستعمَلان لمعنًى واحدٍ، حُمِلَت كلُّ واحدةٍ مِنهما على اللَّفظِ الَّذي تَقدَّمها ولاءَمها[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٤٨-٧٤٩)، ((أسرار التكرار في القرآن))

وأيضًا لأنَّ آيةَ سورةِ يونسَ قد ورَد قبلَها قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠]، وبعدَ هذا: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وبعدَ هذا: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، وبعدَ هذا الآيةُ المذكورةُ مِن قولِه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، وتناسُبُ هذا كلِّه ظاهرٌ، ثمَّ إنَّ ما تقدَّم قبلَ آيةِ يونُسَ مِن تَكْرارِ اسمِ الإيمانِ لم يَكُنْ لِيُلائِمَه إطلاقُ اسمِ الإسلامِ؛ لأنَّ رُتبةَ الإيمانِ فوق رُتبةِ الإسلامِ، ومَقامَه أعلى، وهذا على إطلاقِ كلِّ واحدٍ مِن الاسمَينِ على مُسمَّاه لغةً، وعلى رَعْيِ التَّفصيلِ، فكأنْ يكونَ عَكْسَ التَّرقِّي إلى الأعلى أبَدًا، فلا يُمكِنُ في آيةِ يونُسَ إلَّا ما ورَدَت عليه.

أمَّا آيةُ النَّملِ فإنَّ قبْلَها قولَه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١]، وقولُه: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ يَقتَضي تسليمَ كلِّ شيءٍ له، والتَّبرِّيَ مِن توهُّمِ شَريكٍ أو نظيرٍ؛ فناسبَ هذا قولَه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]، وجاء كلٌّ على ما يَجِبُ[(١)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ اللَّامُ في ﴿لِلدِّينِ﴾ للعلَّةِ، أي: لأجلِ الدِّينِ، وهو كنايةٌ عن توجيهِ نفْسِه بأَسْرِها لأجلِ ما أمَره اللهُ به مِن التَّبليغِ، وإرشادِ الأمَّةِ وإصلاحِها[(٢)].

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نهيٌ مؤكِّدٌ لمعنى الأمرِ الَّذي قَبْلَه

للكرماني (ص: ١٤٢-١٤٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥٥) .

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٥٠-٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٣).

﴿أَقِمْ﴾، وتأكيدُ الفعلِ المنهيِّ عنه بنونِ التَّوكيدِ؛ للمُبالَغةِ في النَّهيِ عنه؛ اعتِناءً بالتَّبرُّؤِ مِن الشِّركِ[١].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ تأكيدٌ للنَّهيِ المذكورِ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وتفصيلٌ لما أُجمِلَ فيه؛ إظهارًا لكمالِ العنايةِ بالأمرِ، وكشفًا عن وجهِ بُطلانِ ما عليه المشركون[٢].

- قولُه: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تفريعٌ على النَّهيَين: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّه لا مَعذِرَةَ لِمَن يَأتي ما نُهي عنه بعدَ أن أُكِّد نهيُه، وبُيِّنَت عِلَّتُه، فمَن فعَله فقد ظلَم نفسَه، واعتَدى على حقِّ ربِّه[٣].

- قولُه: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ مَعْناه: فإنْ دعَوتَ مِن دونِ اللهِ ما لا ينفَعُك ولا يضُرُّك؛ فكنَى بالفِعلِ عن الدُّعاءِ إيجازًا، وتنويهًا لشأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتنبيهًا على رِفْعةِ مَكانِه مِن أن يُنسَبَ إليه عبادةُ غيرِ اللهِ سبحانه، ولو في ضِمْنِ الجملةِ الشَّرطيَّةِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أكَّد الكَونَ مِنَ الظَّالِمين بـ(إنَّ)؛ لِزيادةِ التَّحذيرِ، وأُتِي بـ﴿إِذًا﴾؛ للإشارةِ إلى سؤالٍ مقدَّرٍ؛ كأنَّ سائلًا سأَل:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٩- ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٠).

فَإن فعَلتُ فماذا يكونُ[١]؟

٤- قولُه تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- مِن المناسبةِ الحسنةِ: أنَّه أتَى في الضُّرِّ بلَفظِ المسِّ، فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ...﴾، وفي الخيرِ بلَفظِ الإرادةِ: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾، وطابَق بينَ الضُّرِّ والخيرِ مُطابَقةً معنويَّةً لا لفظيَّةً؛ لأنَّ مُقابِلَ الضُّرِّ النَّفْعَ، ومُقابِلَ الخيرِ الشَّرَّ؛ فجاءَت لفظةُ الضُّرِّ أَلْطَفَ وأخَصَّ مِن لفظةِ الشَّرِّ، وجاءت لفظةُ الخيرِ أَتَمَّ مِن لفظةِ النَّفعِ، ولفظةُ المسِّ أوجَزُ مِن لفظِ الإرادةِ، وأكثَرُ تَنصيصًا على الإصابةِ، وأنسَبُ لقولِه: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، ولفظةُ الإرادةِ أدَلُّ على الحصولِ في وقتِ الخطابِ وفي غيرِه، وأنسَبُ لِلَفظِ الخيرِ، وإن كان المسُّ والإرادةُ مَعناهما الإصابةَ[٢].

- وأيضًا جاء جوابُ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ بنفيٍ عامٍّ وإيجابٍ: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، وجاء جوابُ: ﴿وَإِن يُرِدْكَ﴾ بنفيٍ عامٍّ: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾؛ لأنَّ ما أراده لا يَرُدُّه رادٌّ لا هو ولا غيرُه؛ فلذلك لم يَجِئِ التَّركيبُ: فلا رادَّ له إلَّا هو، والمسُّ مِن حيث هو فِعلٌ صفةُ فعلٍ يوقِعُه ويَرفَعُه بخِلافِ الإرادةِ؛ فإنَّها صفةُ ذاتٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، الفضلُ: هو الخيرُ، وأوقَع الاسْمَ الظَّاهِرَ ﴿لِفَضْلِهِۦ﴾ موقِعَ الضَّميرِ- فلم يَقُلْ: فلا رادَّ له-؛ للدَّلالةِ على أنَّ الخيرَ الواصِلَ إلى النَّاسِ فضلٌ مِن اللهِ لا استِحْقاقَ لهم فيه؛ لأنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٤- ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٣، ١١٤).

عَبيدٌ له يُصيبُهم بما يَشاءُ[١].

- وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تذييلٌ لقولِه تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ مقرِّرٌ لمضمونِه، والكلُّ- أي قولُه: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾- تذييلٌ للشَّرطيَّةِ الأخيرةِ: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، محققٌ لمضمونِها[٢].

- ولَمَّا تقدَّم قولُه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾، فأخَّر الضُّرَّ؛ ناسَب أن تكونَ البَداءةُ بجُملةِ الشَّرطِ المتعلِّقةِ بالضُّرِّ، وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان الكُفَّارُ يُتوقَّعُ منهم الضُّرُّ للمُؤمِنين، والنَّفعُ لا يُرجَى مِنهُم، كان تقديمُ جملةِ الضُّرِّ آكَدَ في الإخبارِ، فبُدِئ بها[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾، فيه اختيارُ وصفِ الرَّبِّ المضافِ إلى ضميرِ النَّاسِ على اسمِ الجلالةِ؛ حيث قال: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾، ولم يَقُلْ: (مِنَ اللهِ)؛ للتَّنبيهِ على أنَّه إرشادٌ مِن الَّذي يُحِبُّ صَلاحَ عِبادِه، ويَدْعوهم إلى ما فيه نَفعُهم شأنُ مَن يَرُبُّ، أي: يَسُوس ويُدبِّرُ[٤].

- وفي وصْفِ الحقِّ بـ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾: تنويهٌ بأنَّه حقٌّ مُبينٌ، لا يَخلِطُه باطلٌ ولا رَيبٌ؛ فهو معصومٌ مِن ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٦)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقولُه: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ تفريعٌ على جملةِ: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَجيءَ الحقِّ الواضِحِ يترتَّبُ عليه أنَّ اتِّباعَه غُنْمٌ لِمُتَّبِعِه، وليس مَزِيَّةً له على اللهِ؛ لِيُتوَصَّلَ مِن ذلك إلى أنَّ المعرِضَ عنه قد ظلَم نفْسَه، ورتَّب عليها تَبِعَةَ الإعراضِ(١).

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ فيه الإتيانُ بالجملةِ الاسميَّةِ المنفيَّةِ؛ للدَّلالةِ على دَوامِ انتِفاءِ ذلك الحُكمِ، وثَباتِه في سائرِ الأحوالِ(٢).

- وفي قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث عبَّر هنا بقولِه: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾، وقال في آخِرِ سورةِ النَّملِ: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢]؛ ففي الأولى قال: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾؛ وهذا لأنَّ الآيةَ الأولى في سورةِ يونسَ لَمَّا قال فيها: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾، أي: منفعةُ اهتدائِه له، وهي دوامُ النِّعمةِ، والخلودُ في الجنَّةِ- اقتضَى هذا في الضَّلالِ ضدَّه، فقال: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾، أي: ضررُ ضلالِه عليه، وهو دوامُ العقابِ بأليمِ العذابِ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾، ولا يَلزَمُني أن أقِيَكم ما لا تَقُونه أنفُسَكم، كالوكيلِ الَّذي يَلزَمُه حفظُ ما وُكِّل به ممَّا يَضُرُّه.

وأمَّا في الآيةِ الثَّانيةِ في آخرِ سورةِ النَّملِ فإنَّه عدَل بها عِندَ ذِكرِ الضَّلالِ عمَّا حُمِلَت عليه في الآيةِ التي في آخرِ سورةِ يونسَ؛ لِتُحمَلَ على الفواصلِ التي قَبلَها، وهي مختومةٌ بالواوِ والنُّونِ، أو الياءِ والنونِ، فقال تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٣٠٩).

إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل:٩٢]، أي: ممَّن يُعلِمُكم ما يَلزَمُكم أن تَحْذَروه، ويُخوِّفُكم ما يَجِب عليكم أن تَجتنِبوه؛ فاشتمَل هذا على معنى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾؛ لأنَّ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾، أي: لستُ ممَّن يُكرِهُ على ما يَحْميكم مِن النَّارِ، ويَقيكم حرَّ العقابِ، كالوكيلِ الَّذي يُحامي على ما وُكِّل به أن يَنالَه ضررٌ، مثل: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾؛ فجاء على لفظِ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾؛ لتكونَ الفاصلةُ مُشاكِلةً للفواصلِ الَّتي قبلَها، مع تأديةِ مِثلِ المعنى الذي أدَّته الآيةُ التي شابَهَتْها[1].

- قولُه: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ فيه التَّعبيرُ بالمضارعِ ﴿يُوحَىٰٓ﴾ على نَهْجِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ من الحقِّ المذكورِ المتأكِّدِ يومًا فيومًا، وفي التَّعبيرِ عن بُلوغِه إليهم بالمجيءِ ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ﴾، وإليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالوحيِ ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾: تنبيهٌ على ما بين المرتبتَينِ مِن التَّنائي[2].

- قولُه: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ ثناءٌ وتذييلٌ؛ لِما فيه مِن العمومِ، أي: وهو خيرُ الحاكِمين بينَ كلِّ خَصمَين في هذه القضيَّةِ وفي غيرِها، والتَّعريفُ في الحاكِمين للاستِغْراقِ بقَرينةِ التَّذييلِ[3].

تمَّ بحمدِ اللهِ المجلدُ التَّاسعُ

ويَليهِ المجلدُ العاشرُ، وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ هودٍ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٥٠-٧٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٠).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سُورةُ يُونُس ٧
أسماءُ السُّورةِ: ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ: ٧
مقاصِدُ السُّورةِ: ٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٨
الآيتان (١-٢) ١٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٠
المَعنى الإجماليُّ: ١٠
تَفسيرُ الآيتَين: ١١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٤
بلاغةُ الآيتين: ١٥
الآيتان (٣-٤) ٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٠
المَعنى الإجماليُّ: ٢٠
تَفسيرُ الآيتَين: ٢١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٧
بلاغةُ الآيتين: ٣٠
الآيتان (٥-٦) ٣٤
المَعنى الإجماليُّ: ٣٤
تَفسيرُ الآيتَين: ٣٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٩
بلاغةُ الآيتَين: ٤٠
الآيات (٧-١٠) ٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٣
المَعنى الإجماليُّ: ٤٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٨
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٩
بلاغةُ الآياتِ: ٥١
الآيتان (١١-١٢) ٥٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٥
المَعنى الإجماليُّ: ٥٥
تفسيرُ الآيتَين: ٥٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦١
بلاغةُ الآيتين: ٦٢
الآيتان (١٣-١٤) ٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٥
المَعنى الإجماليُّ: ٦٥
تَفسيرُ الآيتَين: ٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٩
بلاغةُ الآيتين: ٧٠
الآيات (١٥-١٧) ٧٢
المَعنى الإجماليُّ: ٧٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٧٢

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٨
بلاغةُ الآياتِ:..... ٨١
الآيات (١٨-٢٠)..... ٨٥
المَعنى الإجماليُّ:..... ٨٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٩٣
بلاغةُ الآياتِ:..... ٩٥
الآيات (٢١-٢٣)..... ١٠٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٠٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٠١
المعنَى الإجماليُّ:..... ١٠٢
تَفسيرُ الآياتِ: ١٠٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١١٢
بلاغةُ الآياتِ:..... ١١٤
الآيتان (٢٤-٢٥) ١٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٢٠
المَعنى الإجماليُّ:..... ١٢٠
تَفسيرُ الآيتَين:..... ١٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٢٦
بلاغةُ الآيتين:..... ١٢٧
الآيتان (٢٦-٢٧) ١٣١
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٣١
المعنَى الإجماليُّ:..... ١٣١
تَفسيرُ الآيتَين:..... ١٣٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:..... ١٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٣٧
بلاغةُ الآيتين:..... ١٣٨
الآيات (٢٨-٣٠)..... ١٤١
غريبُ الكَلِماتِ: ١٤١
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٤١
المَعنى الإجماليُّ:..... ١٤٢
تَفسيرُ الآياتِ: ١٤٢
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ١٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ: ١٤٨
بلاغةُ الآياتِ:..... ١٥٠
الآيات (٣١-٣٣)..... ١٥٢
غريبُ الكلماتِ: ١٥٢
المَعنى الإجماليُّ:..... ١٥٢
تَفسيرُ الآياتِ: ١٥٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٥٨
بلاغةُ الآيات:..... ١٦٠
الآيات (٣٤-٣٦)..... ١٦٨
غريب الكلمات: ١٦٨
المَعنَى الإجماليُّ:..... ١٦٨
تَفسيرُ الآياتِ: ١٦٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:..... ١٧٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٧٤
بلاغةُ الآياتِ:..... ١٧٧
الآيات (٣٧-٤٠)..... ١٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٨٢

مُشكِلُ الإعرابِ: ١٨٢
المَعنَى الإجماليُّ: ١٨٣
تَفسيرُ الآياتِ: ١٨٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٩١
بلاغةُ الآياتِ: ١٩٣
الآيات (٤١-٤٤) ١٩٧
المَعنَى الإجماليُّ: ١٩٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٩٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٠٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٠٤
بلاغةُ الآياتِ: ٢٠٥
الآيات (٤٥-٤٧) ٢١٠
المَعنَى الإجماليُّ: ٢١٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٢١٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢١٦
بلاغةُ الآياتِ: ٢١٨
الآيات (٤٨-٥٣) ٢٢٣
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٢٣
المَعنَى الإجماليُّ: ٢٢٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٢٤
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٢٣٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٣١
بلاغةُ الآياتِ: ٢٣٢
الآيات (٥٤-٥٦) ٢٣٨
المَعنَى الإجماليُّ: ٢٣٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٣٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٤٢
بلاغةُ الآياتِ: ٢٤٢
الآيتان (٥٧-٥٨) ٢٤٨
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٤٨
المَعنَى الإجماليُّ: ٢٤٨
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٢٤٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٥١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٥٣
بَلاغةُ الآيتينِ: ٢٥٥
الآيتان (٥٩-٦٠) ٢٥٧
المَعنَى الإجماليُّ: ٢٥٧
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٢٥٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٦١
بلاغةُ الآيتينِ: ٢٦٣
الآيات (٦١-٦٤) ٢٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٦٧
مشكلُ الإعرابِ: ٢٦٨
المَعنَى الإجماليُّ: ٢٦٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٦٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٧٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٧٧
بلاغةُ الآياتِ: ٢٨٠

الآيتان (٦٥-٦٦) ٢٨٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٨٧
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٨٧
المعنَى الإجماليُّ: ٢٨٨
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٢٨٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٩٢
بلاغةُ الآيتينِ: ٢٩٢
الآيات (٦٧-٧٠) ٢٩٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٩٥
المَعنَى الإجماليُّ: ٢٩٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٩٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٠٠
بلاغةُ الآياتِ: ٣٠٢
الآيات (٧١-٧٣) ٣٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٠٦
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٠٧
المَعنَى الإجماليُّ: ٣٠٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٠٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣١٤
بلاغةُ الآياتِ: ٣١٦
الآيات (٧٤-٧٨) ٣١٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣١٩
المَعنَى الإجماليُّ: ٣١٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٢٠
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٢٥
بلاغةُ الآياتِ: ٣٢٦
الآيات (٧٩-٨٢) ٣٣٠
المَعنَى الإجماليُّ: ٣٣٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٣٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٣٤
بلاغةُ الآياتِ: ٣٣٥
الآيات (٨٣-٨٦) ٣٣٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٣٨
المَعنَى الإجماليُّ: ٣٣٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٣٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٤٣
بلاغةُ الآياتِ: ٣٤٤
الآيات (٨٧-٨٩) ٣٤٨
غريبُ الكلماتِ: ٣٤٨
المَعنَى الإجماليُّ: ٣٤٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٤٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٥٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٥٤
بلاغةُ الآياتِ: ٣٥٦
الآيات (٩٠-٩٢) ٣٥٩
غريبُ الكَلِماتِ: ٣٥٩
المَعنَى الإجماليُّ: ٣٥٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٦٠

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٦٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٦٣
بلاغةُ الآياتِ:..... ٣٦٥
الآيات (٩٣-٩٥)..... ٣٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٦٧
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٣٦٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٦٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٧٤
بلاغةُ الآياتِ:..... ٣٧٦
الآيات (٩٦-١٠٠)..... ٣٨١
غريبُ الكلماتِ: ٣٨١
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٣٨١
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٨٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٨٧
الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٨٧
بلاغةُ الآياتِ:..... ٣٨٩
الآيات (١٠١-١٠٣) ٣٩١
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٣٩١
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٩١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٩٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٩٥
بلاغةُ الآياتِ:..... ٣٩٦
الآيات (١٠٤-١٠٩) ٣٩٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٩٩
المَعنَى الإجماليُّ:..... ٤٠٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٠١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤١٠
بلاغةُ الآياتِ:..... ٤١٤
الفهرس ٤٢٥

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٣٥ ر.س

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة هود

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الإمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد العاشر

الدرر السنية
www.dorar.net

www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة هود)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر – سورة هود – المجلد العاشر/ مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي – الظهران، ١٤٣٨هـ

٤٣٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٥-٤٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن سورة يونس – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٨/٤٧٧٣

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٤٧٧٣

ردمك: ٥-٤٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة هود)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد العاشر

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ هُودٍ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورة هود

أسماءُ السورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (هود)[١]، ولم يُعرَفْ لها اسمٌ سِواه.

فعن عُقبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ الله، أَقْرِئْني سورةَ هودٍ، وسورةَ يوسفَ... الحديثَ))[٢].

بيانُ المكيِّ والمدنيِّ:

سورةُ هودٍ مكِّيَّةٌ[٣]، وحُكي الإجماعُ على ذلك[٤].

مقاصدُ السورةِ:

مِن أهمِّ مَقاصدِ سورةِ هودٍ:

---

(١) سُمِّيتْ هذه السورةُ باسمِ نبيِّ الله هودٍ عليه السَّلامُ؛ لتكَرُّرِ اسمِه فيها خمسَ مرَّاتٍ، ولأنَّ ما حُكِي عنه فيها أطولُ مما حُكِيَ عنه في غيرِها، ولأنَّ عادًا وُصِفوا فيها بأنَّهم قومُ هودٍ في قولِه: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾، وأيضًا لتَمييزِها مِن بينِ السُّوَرِ ذواتِ الافتتاحِ بـ (الر). يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١١).

(٢) أخرجه النَّسائيُّ (٩٥٣) وأحمد (١٧٤١٨) وابنُ حِبَّان (١٨٤٢) والحاكِمُ (٣٩٨٨).
صحَّح إسنادَه الحاكمُ (٣٩٨٨)، وجوَّد إسنادَه ابنُ مفلحٍ في ((الآداب الشرعية)) (٣/ ٢٣٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٥٤٥٤).

(٣) وقيل: مكيةٌ إلَّا قولَه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ ...﴾ إلى آخرِ الآية؛ فإنَّها مدنيةٌ. وقيل: مكيةٌ إلا الآياتِ (١٢) و (١٧) و(١١٤) فمدنيةٌ.
يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٨).

(٤) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الفيروزابادي، والبقاعيُّ، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٤٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ١٧٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٣).

تثبيتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَسلِيتُه[١].

موضوعاتُ السورةِ:

من أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتملَتْ عليها سورةُ هودٍ:

١- التَّنويهُ بشأنِ القُرآنِ، وإقامةُ الأدلَّةِ على أنَّه مِن عندِ اللَّهِ.

٢- بيانُ أنَّ اللَّهَ سُبحانَه مُطَّلِعٌ على سَرائرِ الخَلقِ وضَمائرِهم، وأنَّه ضَمِنَ الأرزاقَ للمَخلوقاتِ.

٣- إثباتُ البَعثِ والجزاءِ.

٤- بيانُ أحوالِ النَّاسِ في الشِّدَّةِ والرَّخاءِ.

٥- تثبيتُ النبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، وتَسليتُه عمَّا يقولُه المُشرِكونَ وما يَقتَرحونَه مِن آياتٍ.

٦- بيانُ حالِ فريقِ الكافرينَ، وفريقِ المؤمنينَ، وضربُ المَثَلِ لهما.

٧- ذِكرُ بَعضِ قَصصِ الأنبياءِ، وتفصيلُ بعضِ أحداثِها، وما جرَى لهم مع أقوامِهم، ومِن ذلك قِصَّةُ نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، وإبراهيمَ، ولوطٍ، وشعيبٍ، وموسَى- عليهم صَلَواتُ اللَّهِ وسَلامُه.

٨- الإرشادُ إلى ما يُوجِبُ السَّعادةَ؛ كالاستقامةِ على الدِّينِ، وعَدَمِ الرُّكونِ إلى الظَّالمينَ، وإقامةِ الصَّلاةِ.

٩- بيانُ الفائدةِ مِنَ القَصَصِ، وذكْرِ أنباءِ الرُّسُلِ؛ مِن تثبيتِ قلبِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

١٠- خُتِمت السورةُ بالأمرِ بالتوكُّلِ على اللهِ في كلِّ حالٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٣).

الآيات (١-٥)

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فُصِّلَتۡ﴾: أي: بُيِّنتْ، وأصلُ (فصل): يدلُّ على تَمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه[١].

﴿لَّدُنۡ﴾: أي: عندَ، أو لدَى، لكن (لدن) أخصُّ مِن (عند)[٢].

﴿يَثۡنُونَ﴾: أي: يَطوونَ ويُخفونَ[٣].

﴿يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾: أي: يَستَتِرونَ بها، ويُغَطُّونَ رُؤوسَهم، وأصلُ (غشي): يدلُّ على تَغطيةِ شيءٍ بِشَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص:٧٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨١)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٨٠١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦)، ((الكليات)) للكفوي

المعنَى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ هذه السورةَ العظيمةَ بالحُروفِ المُقطَّعةِ؛ لبيانِ إعجازِ القُرآنِ، إذ إنَّها تشيرُ إلى الحالةِ التي كان عليها العربُ مِن العجزِ عن مُعارضتِه بالإتيانِ بِشيءٍ مِن مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها، ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ هذا الكتابَ الذي أنزَلَه على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُحكِمَت آياتُه، فلا خَللَ فيها ولا باطِلَ، ثم بُيِّنَت بالأمرِ والنَّهيِ والأخبارِ الصادقةِ مِن عندِ اللهِ، الحكيمِ بتدبيرِ الأمورِ، الخبيرِ بما تؤولُ إليه عواقِبُها، وكان ذلك لأجلِ أن لا تعبُدوا إلَّا اللهَ وَحدَه لا شريكَ له، ثمَّ أمر اللهُ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ للنَّاسِ: إنَّني لكم نذيرٌ مِن عندِ اللهِ أُنذِرُكم عقابَه، وبشيرٌ أُبشِّرُكم بثوابِه، واسألوه أن يغفِرَ لكم ذنوبَكم، ثمَّ ارجِعوا إليه نادمينَ، يُمَتِّعْكم في دُنياكم متاعًا حسنًا بالحياةِ الطيِّبةِ فيها إلى أن يحينَ أجَلُكم، ويُعطِ كلَّ ذي فضلٍ مِن قولٍ أو عمَلٍ جزاءَ فَضلِه كاملًا لا نقصَ فيه، وإن تُعرِضوا عمَّا أدعوكم إليه؛ فإنِّي أخشَى عليكم عذابَ يومٍ شَديدٍ، وهو يومُ القيامةِ، إلى اللهِ رُجوعُكم بعد موتِكم فاحذَروا عقابَه، وهو سُبحانه قادِرٌ على بَعثِكم وحَشرِكم وجَزائِكم، ألا إنَّ هؤلاء المُشرِكينَ يُضمِرونَ في صدورِهم الكُفرَ؛ ظنًّا منهم أنَّه يخفَى على الله ما تُضمِرُه نفوسُهم، ألا يَعلمونَ حينَ يُغطُّونَ أجسادَهم بثيابِهم أنَّ اللهَ لا يخفى عليه سِرُّهم وعلانيتُهم؟ إنَّه عليمٌ بكُلِّ ما تُكِنُّه صُدورُهم من النيَّاتِ والضَّمائرِ والسَّرائرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾.

(ص: ٩٨٧).

﴿الٓر﴾.

تقدَّمَ الكلامُ عن هذه الحروفِ المقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سورةِ البَقَرةِ[١].

﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾.

أي: هذا القُرآنُ أتقَنَ اللهُ آياتِه فلا خللَ فيها ولا باطِلَ ولا تَناقُضَ، ثمَّ بُيِّنَتْ بالأخبارِ الصَّادقةِ، والأحكامِ العادلةِ مِن أوامِرَ ونواهٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

وقال سُبحانه: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۞ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٤-١١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ [الكهف: ٥٤].

﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

---

(١) يُنظر ما تقدَّم مِن هذا التفسيرِ (١/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٨، ٣١٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢، ٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٦)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

أي: أُحكِمَت آياتُ القرآنِ ثمَّ فُصِّلَت من عند حكيم في تدبيرِ الأشياءِ وتقديرِها، فيضعُ كُلَّ شيءٍ في مَوضِعِه اللَّائقِ به، خبيرٍ مُطَّلِعٍ على الظَّواهرِ والبواطِنِ، وعواقبِ الأمورِ وأحوالِ عبادِه وما يُصلِحُهم[١].

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا تفسيرٌ أو بيانٌ لأوَّلِ ما أُحكِمَت وفُصِّلَت به وله الآياتُ، وهو أن تَجعلوا عبادتَكم له وَحْدَه، لا تُشرِكوا به شيئًا[٢].

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

أي: أُحكِمَت آياتُ القُرآنِ ثم فُصِّلَت؛ لئلَّا تَعبُدوا- أيُّها النَّاسُ- إلَّا اللهَ وَحدَه، ولا تُشرِكوا به شيئًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٦٨، ١٦٩).

وممَّن اختار المعنى المذكورَ: الزجاج، وابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال القرطبي: (قوله تعالى ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال الكسائي والفراء: أي: بألَّا، أي أُحكمتْ ثم فُصِّلت بألَّا تعبدوا إلا الله). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣).

وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٢).

قال النحاسُ: (يجوزُ أن يكونَ المعنى بأن لا تعبدوا إلا الله، ويجوزُ أن يكونَ المعنى لئلَّا تعبدوا، ويجوزُ أن يكونَ المعنى أُمِرتم أن لا تَعْبدوا إلا الله). ((معاني القرآن)) (٣/ ٣٢٨).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ: إنَّني لكم من عندِ اللهِ نذيرٌ؛ أُخَوِّفُكم عقابَه في الدُّنيا والآخرةِ، إن كَفَرتُم به وعَصَيْتُموه، وبشيرٌ؛ أُبَشِّرُكم بثوابِ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ، إن آمَنتُم به وأطعتُموه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها عطفٌ على جملةِ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وهو تفسيرٌ ثانٍ يَرجِعُ إلى ما في الجُملةِ الأُولَى مِن لفظِ التَّفصيلِ، فهذا ابتداءُ التَّفصيلِ؛ لأنَّه بيانٌ وإرشادٌ لوسائلِ نَبذِ عبادةِ ما عدا اللهَ تعالى، ودلائِلُ على ذلك وأمثالٌ ونُذُرٌ[2].

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾.

أي: وأنِ استَغفِروا ربَّكم -أيُّها النَّاسُ- فاطلُبوا منه سَترَ ذُنوبِكم، والتَّجاوُزَ عن مؤاخَذتِكم بها، ثمَّ توبوا إليه فيما تَستَقبِلونه من أعمارِكم، بالرُّجوعِ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٧).

عبادتِه وَحْدَه، وطاعتِه، وتَرْكِ مَعصِيتِه[١].

عن الأغرِّ المُزَنيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا أيُّها النَّاسُ توبوا إلى اللهِ؛ فإنِّي أتوبُ في اليومِ إليه مئةَ مَرَّةٍ))[٢].

وعن شَدَّادِ بنِ أوسٍ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((سَيِّدُ الاستغفارِ أن تقولَ: اللهمَّ أنت ربِّي لا إلهَ إلَّا أنت، خَلقتَني وأنا عبدُك، وأنا على عَهدِك ووَعدِك ما استطعْتُ، أعوذُ بك مِن شَرِّ ما صنَعتُ، أبوءُ لك بنِعمَتِك عليَّ، وأبوءُ لك بذَنبي، فاغفِرْ لي؛ فإنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنت، قال: مَن قالها مِن النَّهارِ مُوقِنًا بها، فمات مِن يَومِه قبل أن يُمسيَ، فهو من أهلِ الجنَّةِ، ومن قالَها من اللَّيلِ وهو موقِنٌ بها، فمات قبل أن يُصبِحَ، فهو من أهلِ الجنَّةِ))[٣].

﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾.

أي: فإنَّكم إن استَغفَرتُم ربَّكم ثمَّ تُبتُم إليه، يُمتِّعْكم في الدُّنيا بسَعةِ الرِّزقِ ورَغَدِ العَيشِ، وحصولِ العافيةِ إلى حُضورِ أجَلِكم[٤].

كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال سُبحانه: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٢، ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٤، ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٠).

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾.

أي: ويُعطِ كلَّ ذي إحسانٍ وبرٍّ- بقَولِه أو بفِعلِه، أو قُوَّتِه أو مالِه، أو غيرِ ذلك- أجْرَه وثوابَه[1].

كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى: ٢٣].

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).
قال الشوكاني: (قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: يُعطِ كلَّ ذي فضلٍ في الطَّاعةِ والعَمَلِ فَضلَه: أي: جزاءَ فَضلِه؛ إمَّا في الدُّنيا، أو في الآخرةِ، أو فيهما جميعًا، والضميرُ في ﴿فَضْلَهُ﴾ راجِعٌ إلى كلِّ ذي فَضلٍ، وقيل: راجِعٌ إلى اللهِ سبحانه، على معنى: أنَّ الله يعطي كلَّ مَن فَضَلتْ حَسَناتُه فَضْلَه الذي يتفَضَّلُ به على عبادِه). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٥٧).
وقال الواحديُّ: (وقال ابنُ عباسٍ، وابنُ مسعودٍ، والكلبيُّ: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ كلَّ مَن فضَلت حسناتُه على سيئاتِه ﴿فَضْلَهُ﴾ يعني الجنةَ، وهي فضلُ الله، والكنايةُ في ﴿فَضْلَهُ﴾ على هذا تعودُ إلى الله تعالى ذكرُه. وهذا القولُ أحسنُ الأقوالِ وعليه المفسِّرون). ((البسيط)) (١١/ ٣٤٧).

لَمَّا انقضى التَّبشيرُ مجزومًا به، أتبَعَه التَّحذيرَ مخوفًا منه؛ لطفًا بالعبادِ، فقال تعالى[١]:

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾.

أي: وإن تُعرِضوا عمَّا دَعَوتُكم إليه، من إخلاصِ العِبادةِ لله تعالى وَحدَه، والاستغفارِ والتَّوبةِ إليه؛ فإنِّي أخاف عليكم عذابَ يومٍ كَبيرٍ شأنُه، عظيمٍ هولُه[٢].

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا خوَّفَ تعالى المُنذَرينَ باليومِ الكبيرِ، كانوا كأنَّهم قالوا: ما هذا اليومُ؟ فكان الجوابُ: يومَ يُرجعونَ إليه[٣].

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾.

أي: إلى اللهِ وَحْدَه مَصيرُكم بعدَ مَوتِكم، فيُجازيكم بأعمالِكم، فاحذَروه[٤].

كما قال تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).
قال القرطبي: (﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ يجوزُ أن يكونَ ماضيًا، ويكونَ المعنى: وإنَ تَوَلَّوا فقُلْ لهم: إني أخافُ عليكم. ويجوزُ أن يكونَ مُستَقبلًا حُذِفَت منه إحدى التَّاءينِ، والمعنى: قل لهم: إن تتَوَلَّوا فإنِّي أخافُ عليكم). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٩).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ على كلِّ شَيءٍ قادِرٌ، فلا يُعجِزُه بعثُ عبادِه بعدَ مَوتِهم، ومُجازاتُهم على أعمالِهم[١].

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ يعني: عن عبادتِه وطاعتِه ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾؛ بيَّن بعده أنَّ التَّولِّيَ عن ذلك باطنًا كالتَّولِّي عنه ظاهِرًا[٢].

وأيضًا لَمَّا قال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن عبادةِ اللهِ وطاعتِه؛ بيَّن بَعده صِفةَ ذلك التولِّي[٣].

وأيضًا فهذا الكلامَ قد نشأ عن قَولِه تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لِمُناسبةِ أنَّ المرجوعَ إليه لَمَّا كان مَوصوفًا بتمامِ القُدرةِ على كلِّ شَيءٍ، هو أيضًا مَوصوفٌ بإحاطةِ عِلمِه بكُلِّ شَيءٍ؛ للتَّلازُمِ بين تمامِ القُدرةِ وتمامِ العِلمِ[٤].

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢٠).

أي: ألا إنَّ المُشرِكينَ يَعطِفونَ صُدورَهم ويَطوونَها على الشِّركِ والشَّكِّ في الحَقِّ، وعداوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ، يَظنُّونَ -جَهلًا منهم باللهِ- أنَّ ثَنيَ صُدورِهم يَحجُبُ عن علمِ اللهِ ما يُخفونَه فيها[١]!

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

أي: ألا إنَّ اللهَ -حين يتغطَّى المُشرِكونَ بثِيابِهم- يَعلَمُ ما يُسرُّونَه وما يُعلِنونَه، من الأقوالِ والأفعالِ، لا يخفَى عليه شيءٌ مِن سرائرِ عبادِه وعلانِيتِهم[٢].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بما تُخفي صدورُ عِبادِه، من العقائدِ والإراداتِ، والأفكارِ والوساوسِ مِن خيرٍ وشَرٍّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٧، ٣٢٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٥).
قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾، في سبب نزولها خمسة أقوال:... والثاني: أنَّها نزلت في ناسٍ كانوا يَسْتحيون أن يُفضوا إلى السماءِ في الخلاءِ ومجامعةِ النساءِ، فنزلتْ فيهم هذه الآيةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٥٧).
وقال ابنُ كثير: (قال ابنُ عبَّاس: كانوا يكرهون أن يَسْتقبِلوا السماءَ بفروجِهم، وحالَ وقاعِهم، فأنزل الله هذه الآيةَ. رواه البخاريُّ [٤٦٨٢] مِن حديثِ ابنِ جريجٍ، عن محمدِ بنِ عبَّاد بنِ جعفرٍ؛ أنَّ ابنَ عباسٍ قرأ: «أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي [أي: تستترُ] صُدُورُهُمْ»، فقلتُ: يا أبا عباسٍ، ما «تَثْنَوْنِي صُدُورُهمْ؟» قال: الرجلُ كان يجامعُ امرأتَه فيَسْتَحيي، أو يتخلَّى فيَسْتَحيي فنزلَتْ: «ألا إنَّهم تَثْنَوْني صُدُورُهُمْ». وفي لفظٍ آخرَ له [٤٦٨١]: قال ابنُ عباسٍ: أناسٌ كانوا يَسْتحيون أن يتخلَّوا، فيُفْضوا إلى السماءِ، وأن يجامعوا نساءَهم فيُفضوا إلى السماءِ، فنزَل ذلك فيهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي))

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ أشارت الآيةُ إلى أنَّ الاستغفارَ والتَّوبةَ سببُ السَّعةِ، وأنَّ الإعراضَ سببُ الضِّيقِ، وقَولُه: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ إشارةٌ إلى ثوابِ الآخرةِ، فالتَّوبةُ سببُ طِيبِ العَيشِ في الدُّنيا والآخرةِ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ سمَّى منافعَ الدُّنيا بالمتاعِ؛ لأجلِ التَّنبيهِ على حَقارتِها وقِلَّتِها، ونبَّهَ على كونِها مُنقَضيةً بقَولِه تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ فصارت هذه الآيةُ دالَّةً على كَونِها حقيرةً خَسيسةً مُنقَضيةً[٢]، ووصفُ المتاعِ بالحسَنِ إنَّما هو لطِيبِ عَيشِ المؤمِنِ برَجائِه في اللهِ عزَّ وجلَّ، وفي ثَوابِه وفرَحِه بالتَّقرُّبِ إليه بِمَفروضاتِه، والسُّرورِ بمَواعيدِه، والكافِرُ ليس في شيءٍ مِن هذا[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ فيه إعلامٌ بتَفاوُتِ الدَّرَجاتِ في الآخرةِ، وترغيبٌ في العَمَلِ لها[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ على

(ص: ٣٧٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ٦٥١).

أنَّ القرآنَ كلامُ الله مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، منه بَدأ، فلم يبتدئْ مِن غيره مِن الموجوداتِ، وإليه يعودُ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بناه للمَفعولِ؛ بيانًا لأنَّ إحكامَه أمرٌ قد فُرِغَ منه على أيسَرِ وَجهٍ عنده سبحانه، وأُتقِنَ إتقانًا لا مزيدَ عليه[٢].

٣- العُمرُ يطولُ، والرِّزقُ يُبسَطُ بالتَّوبةِ، والاستغفارِ، والعَمَلِ الصَّالحِ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، وَقَالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من أحبَّ أن يُبسَطَ له في رزقِه، ويُنسأَ له في أثره[٣]؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَه))[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فيه عُطِف الأمرُ بالتوبةِ على الاستغفارِ بحرفِ التراخي (ثمَّ)، وذلك لأنَّ مرتبةَ العَمَلِ متأخِّرةٌ عن مرتبةِ القَولِ؛ فكم من مستغفِرٍ، وهو مصِرٌّ على الذَّنبِ[٥]، فالتَّائِبُ يستغفِرُ أوَّلًا، ثمَّ يتوبُ ويتجرَّدُ من ذلك الذَّنبِ المُستغفَرِ منه[٦]، وأيضًا فإنَّه أشار بأداة التَّراخي إلى علوِّ رُتبةِ التَّوبةِ، وأنْ لا سبيلَ إلى طلَبِ الغُفرانِ إلَّا بها[٧].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٥).

(٣) يُنسَأَ له في أثَرِه: أي: يُؤَخَّرَ له في أجَلِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٢٤٩).

والحديثُ أخرجه البخاريُّ (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٣١).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٧).

مُّسَمًّى﴾ فيه سؤالٌ: أنَّنا نجدُ من لم يستغفِرِ اللهَ ولم يتُب يُمَتِّعه الله متاعًا حَسنًا إلى أجَلِه، أي: يَرزُقه ويوسِّع عليه، أو يُعمِّره، فما فائدةُ التقييدِ بالاستغفارِ والتَّوبةِ؟

الجواب: أنَّ المتاعَ الحَسَن -المقيَّد بالاستغفارِ والتَّوبةِ- هو الحياةُ في الطاعةِ والقَناعةِ، ولا يكونانِ إلَّا للمُستغفِرِ التَّائبِ[١].

٦- قول الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ لَمَّا كان التَّمتيعُ- وهو المتاعُ البالغُ فيه حتى لا يكونَ فيه كدَرٌ- لا يكونُ إلَّا في الجنَّة، جعل المصدرَ ﴿مَّتَٰعًا﴾ ووَضَعَ موضِعَ (تَمتيعًا) هذا المصدرَ، ووَصفَه بِقَولِه: ﴿حَسَنًا﴾؛ ليدُلَّ على أنَّه أنهى ما يليقُ بهذه الدَّارِ[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ في التَّعبيرِ عن العملِ بالفَضلِ إشارةٌ إلى أنَّه لم يقَع التكليفُ إلَّا بما في الوُسعِ؛ لأنَّ الفَضلَ في الأصلِ ما فضَلَ عن الإنسانِ من كريمِ الشَّمائلِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فيه طِباقٌ حَسنٌ؛ لأنَّ معنى ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾: أحكَمَها حكيمٌ، وفصَّلَها- أي: بيَّنَها وشرَحها- خبيرٌ عالِمٌ بكَيفيَّاتِ الأمورِ، ولَفظةُ ﴿ثُمَّ﴾

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٧-٢٢٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٩).

جاءت لِتَرتيبِ الأخبارِ، لا لِتَرتيبِ الوقوعِ في الزَّمانِ[١].

- وفي بناءِ ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ و﴿وَفُصِّلَتۡ﴾ للمفعولِ، ثمَّ إيرادِ الفاعلِ بعنوانِ الحِكمةِ البالغةِ والإحاطةِ بجَلائلِها ودَقائقِها مُنكَّرًا بالتَّنكيرِ التَّفخيميِّ ﴿مِنۡ لَدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، ورَبطِهما به لا على النَّهجِ المعهودِ في إسنادِ الأفاعيلِ إلى قَواعدِها، مع رِعايةِ حُسنِ الطِّباقِ- مِن الجَزالةِ، والدَّلالةِ على فَخامتِهما، وكونِهما على أكمَلِ ما يكونُ، ما لا يُكتَنَهُ كُنهُه[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾

- جُملةُ: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ مُعترِضةٌ بينَ جُملةِ ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وَجُمْلَةِ ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، وهو اعتراضٌ للتَّحذيرِ مِن مُخالَفةِ النَّهيِ، والتَّحريضِ على امتِثالِه[٣].

- ولَمَّا كان إرسالُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رحمةً للعالَمينَ، قدَّمَ ضَميرَهم، فقال: ﴿لَكُم مِّنۡهُ﴾ أي: خاصَّةً[٤].

- قولُه: ﴿نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ فيه تقديمُ النَّذيرِ؛ لأنَّ الخطابَ وُجِّه أوَّلًا إلى المشركينَ[٥]، ولأنَّ التخويفَ أهمُّ إذ يحصُل به الانزجارُ[٦].

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٦).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٨١).

- في قولِه: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ تقدَّم أمْرانِ بينَهما تراخٍ، ورُتِّب عليهما جَوابان بينَهما تَراخٍ؛ ترتَّب على الاستغفارِ التَّمتيعُ المتاعَ الحسَنَ في الدُّنيا، كما قال: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۞يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ الآياتِ [نوح: ١٠-١١]، وتَرتَّب على التَّوبةِ إيتاءُ الفضلِ في الآخِرةِ، وناسَب كلُّ جوابٍ لِما وقَع جوابًا له؛ لأنَّ الاستغفارَ مِن الذَّنبِ أوَّلُ حالِ الرَّاجعِ إلى اللهِ، فناسَب أن يُرتَّبَ عليه حالُ الدُّنيا، والتَّوبةُ هي المنجِّيةُ من النَّارِ، والَّتي تُدخِلُ الجنَّةَ، فناسَبَ أن يُرتَّب عليها حالُ الآخِرةِ[١].

- قولُه: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ فيه تأكيدُ جملةِ الجزاءِ: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ﴾ بـ (إنَّ)، وبكونِ المسنَدِ إليه فيها (الضَّميرِ) اسمًا مُخبَرًا عنه بالجُملَةِ الفِعليَّةِ ﴿أَخَافُ﴾؛ لِقَصدِ شدَّةِ تأكيدِ تَوقُّعِ العذابِ[٢].

- قولُه: ﴿يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ فيه تنكيرُ (يوم)؛ للتَّهويلِ؛ لِتَذهَبَ نفوسُهم إلى الاحتمالِ الممكِنِ أن يَكونَ يومًا في الدُّنيا أو في الآخِرَةِ؛ لأنَّهم كانوا يُنكِرون الحشرَ، فتَخْويفُهم بعذابِ الدُّنيا أوقَعُ في نُفوسِهم، ووَصفُه بالكبيرِ؛ لزِيادةِ تَهويلِه[٣].

- وقَدَّم بِشارةَ المُؤمِنينَ، وأخَّرَ إنذارَ الكافرينَ المُصرِّينَ؛ تأليفًا لهم، لأنَّ تواليَ الإنذارِ مُنفِّرٌ من الاستماعِ، مُغرٍ بالتَّولِّي والإعراضِ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٩).

- قولُه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، جملةٌ في موضعِ التَّعليلِ للخَوفِ عليهم؛ فلذلك فُصِلَت، أي: لم تُعطَفْ بالواوِ على الَّتي قبلَها[١].

وتضَمَّنَت هذه الجملةُ تهديدًا عظيمًا، حيثُ صرَّح بالبعثِ، وذكَر أنَّ قُدرتَه عامَّةٌ لجميعِ ما يَشاءُ- ومِن ذلك البعثُ- فهو لا يُعجِزُه ما شاء مِن عَذابِهم[٢].

- وفي قولِه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ تقديمُ المجرورِ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ على عامِلِه: ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ للاهتمامِ والتَّقوِّي، وليس المرادُ منه الحَصْرَ؛ إذ هم لا يَحسَبون أنَّهم مُرجَعون بعدَ الموتِ، فضلًا عن أن يَرجِعوا إلى غيرِه[٣].

- قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ تقريرٌ لِما سلَف مِن كِبَرِ اليومِ، وتعليلٌ للخوفِ[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

- قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ﴾، فيه افتِتاحُ الكلامِ بحَرفِ التَّنبيهِ: ﴿أَلَآ﴾؛ للاهتمامِ بمَضمونِه؛ لِغَرابةِ أمْرِهم المحكيِّ، وللعنايةِ بتَعليمِ إحاطةِ علمِ اللهِ تعالى[٥]، وإشعارًا بأنَّ ما يَعقُبها مِن هَناتِهم[٦] أمرٌ يَجِبُ أن يُفهَمَ، ويُتعجَّبَ منه؛ لأنه لَمَّا أُلقيَ إليهم فحْوَى الكِتابِ على لِسانِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وسِيق إليهم ما يَنبغي أن يُساقَ من التَّرغيبِ والتَّرهيبِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٤- ١٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢٠).
(٦) هَنَات: أي: خِصالُ سُوءٍ. يُنظر: ((أساس البلاغة)) للزمخشري (٢/ ٣٨١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٣٦٦).

وقَعَ في ذِهنِ السَّامعِ أنَّهم بعدَ سماعِهم مِثلَ هذا المقالِ الذي تخِرُّ له صُمُّ الجبالِ؛ هل قابَلُوه بالإقبالِ أم تَمادَوْا فيما كانُوا عليهِ من الإعراضِ والضلالِ؛ فقيل لذلك: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ مُصدَّرًا بكلمة التَّنبيهِ[١]؛ ليتأمَّلَ السَّامعُ حالَ المشركينَ، وصِفتَهم عندَ تبليغِهم الدَّعوةَ، وإقامة الحجَّة، ويتصوَّرَها في صِفتِها الغَريبةِ الدَّالَّةِ على أعراضِ الحَيرةِ والعَجزِ، ومنتهى الجَهلِ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ...﴾ تمثيلٌ لحالةِ إضمارِهم العداوَةَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في نُفوسِهم، وتمويهُ ذلك عليه وعلى المؤمِنين به بحالِ مَن يَثْني صَدرَه لِيُخفِيَه، ومَن يَستَغْشي ثوبَه على ما يُريد أن يَستُرَه به[٣]. وذلك على أحدِ أوجُهِ تأويلِ الآيةِ.

- قولُه: ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ فيه تقديمُ السِّرِّ على العلَنِ؛ نعيًا عليهم مِن أوَّلِ الأمرِ ما صنَعوا، وإيذانًا بافتِضاحِهم ووقوعِ ما يَحذَرونه، وتحقيقًا للمُساواةِ بين العِلْمَين على أبلَغِ وجهٍ؛ فكأنَّ عِلمَه بما يُسِرُّونه أقدَمُ منه بما يُعلِنونه[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليلٌ لما سبَق، وتقريرٌ له، وفي صِيغةِ الفَعيلِ ﴿عَلِيمُۢ﴾، وتَحْليةِ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ بلامِ الاستغراقِ، والتَّعبيرِ عن الضَّمائرِ بعنوانِ صاحِبيَّتِها -فالضمائرُ لا تكادُ تفارقُ الصدورَ بل تلازمُها وتصاحبُها-: منَ البراعةِ ما لا يَصِفُه الواصِفون، كأنَّه قيلَ: إنَّه مبالِغٌ في الإحاطةِ بمُضمَراتِ جميعِ النَّاسِ، وأسرارِهم الخفيةِ المستكنَّةِ في صُدورِهم، بحيثُ لا تُفارِقُها

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٤- ١٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٦).

أصلًا؛ فكيف يَخْفى عليه ما يُسِرُّون وما يُعلِنونَ[١]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٦) و (٢/ ١٠٢).

الآيتان (٦-٧)

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾: أي: مأواها الذي تأوي إليه ليلًا أو نهارًا، وأصلُ (قرر): يدلُّ على تمكُّنٍ[1].

﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: أي: الموضِعَ الذي يُودِعُها، إمَّا بِمَوتِها فيه، أو دَفنِها، وأصلُ (ودع): يدُلُّ على تَركٍ وتخليةٍ[2].

المعنَى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ الله تعالى أنَّه ما من حيٍّ يدِبُّ على الأرضِ إلَّا على الله تعالى غِذاؤُه ومَعاشُه، فضلًا منه سبحانه، وكَرمًا، ويعلَمُ مكان استقرارِ كلِّ دابَّةٍ، والموضِعَ الذي تموتُ فيه، كلُّ ذلك مكتوبٌ في كتابٍ عندَ الله مُبينٍ عن جميعِ ذلك، ثمَّ يخبرُ سُبحانه أنَّه هو الذي خلقَ السَّمَواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّام، وكان عرشُه على الماءِ قبل ذلك؛ لِيَختبرَ النَّاسَ أيُّهم أحسَنُ له طاعةً وعَملًا. وخاطَب نبيَّه قائلًا له: ولَئِن قلتَ -أيُّها الرَّسولُ- لهؤلاءِ المُشرِكينَ: إنَّكم مبعوثونَ أحياءً بعدَ مَوتِكم، لَسارعوا إلى التَّكذيبِ، وقالوا: ما هذا القرآنُ الذي تَتلوه علينا إلَّا سِحرٌ بيِّنٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨).

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ في الآيةِ الأولى أنَّه يَعلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعلِنونَ، أردَفَه بما يدُلُّ على كونِه تعالى عالِمًا بجميعِ المعلوماتِ، فبيَّن أنَّ رِزقَ كُلِّ حَيوانٍ إنَّما يَصِلُ إليه مِنَ الله تعالى، فلو لم يكُنْ عالِمًا بجميعِ المعلوماتِ لَما حصَلَت هذه الـمُهِمَّات[1].

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

أي: وما مِن دابةٍ تدبُّ على الأرضِ -مِن آدميٍّ، أو حيوانٍ؛ بريٍّ أو بحريٍّ، أو طائرٍ أو زاحفٍ، أو كبيرٍ أو صغيرٍ- إلَّا وقد تكفَّل اللهُ بقُوتِها وغِذائِها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ مَأوى كُلِّ دابَّةٍ في اللَّيلِ أو في النَّهارِ، ويَعلَمُ المَوضِعَ الذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

قال الرازي في قوله: ﴿دَآبَّةٍ﴾: (المرادُ بهذا اللفظِ في هذه الآيةِ الموضوعُ الأصليُّ اللغويُّ، فيدخلُ فيه جميعُ الحيواناتِ، وهذا متفقٌ عليه بينَ المفسِّرين). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٨).

تموتُ فيه أو تُدفَنُ[(١)].

﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: كلُّ الدوابِّ مُثبَتٌ تفاصيلُ أحوالِها- في أرزاقِها ومستَقَرِّها ومُستودَعِها- في اللَّوحِ المَحفوظِ المُظهرِ لكلِّ ما قدَّره اللهُ لجَميعِ الخَلقِ بالتَّفصيلِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨).

وهذا المعنى المذكور للمستقرِّ والمستودَعِ هو اختيارُ الفرَّاءِ، وابنِ جريرٍ، والقرطبي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وأبو صالحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٤٠٢).

وقيل: مستقرُّها: منتهَى سيرِها في الأرضِ، ومستودُعها ما تأوي إليه مِن أوكارِها. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٥).

وقيل: مستقرُّ هذه الدوابِّ هو: المكانُ الذي تُقيم فيه وتستقرُّ، وتأوي إليه، ومستودعُها: المكانُ الذي تنتقلُ إليه في ذهابِها ومجيئِها، وعوارضِ أحوالِها. وممَّن قال بذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

وقيل: مستقرُّها في الرحمِ، ومستودعُها في الصلبِ. وممن رُوِي عنه القولُ بذلك: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

قال ابنُ جرير: (وهذا إخبارٌ منَ اللهِ جلَّ ثناؤه الذين كانوا يَثنونَ صُدورَهم لِيَستَخفوا منه: أنَّه قد عَلِمَ الأشياءَ كُلَّها، وأثبَتَها في كتابٍ عِندَه قبل أن يخلُقَها ويُوجِدَها؛ يقولُ لهم تعالى ذِكرُه: فمن كان قد عَلِمَ ذلك منهم قبل أن يُوجِدَهم، فكيف يخفى عليه ما تنطوي عليه نفوسُهم إذا ثَنَوا به صدورَهم واستغشَوا عليه ثيابهم؟!). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٨).

وقال سُبحانه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سمعتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم يقولُ: ((كتبَ اللهُ مَقاديرَ الخلائقِ قبلَ أن يخلُقَ السَّمواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألفَ سنةٍ))(١).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا أثبت بالدَّليلِ المتقدِّمِ كَونَه عالِمًا بالمعلوماتِ؛ أثبَتَ بهذا الدَّليلِ كونَه تعالى قادرًا على كلِّ المَقدوراتِ(٢).

وأيضًا لَمَّا كان خلقُ ما منه الرِّزقُ أعظمَ مِن خَلقِ الرِّزقِ وتوزيعِه في شمولِ العِلمِ والقدرةِ معًا؛ تلاه بقَولِه تعالى(٣):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٣٨).

أي: واللهُ هو الذي خلق السَّمواتِ السَّبعَ والأرضَ في ستَّةِ أيامٍ[١].

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

أي: وكان عَرشُ اللهِ على الماءِ قبل أن يخلُقَ السَّمواتِ والأرضَ[٢].

عن عمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضيَ الله عنهما، قال: ((دخلتُ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعقَلتُ ناقَتي بالبابِ، فأتاه ناسٌ مِن بني تميمٍ، فقال: اقبَلوا البُشرى يا بني تميمٍ، قالوا: قد بشَّرْتَنا فأعْطِنا -مَرَّتينِ- ثمَّ دخل عليه ناسٌ مِن أهلِ اليَمَنِ، فقال: اقبَلوا البُشرى يا أهلَ اليَمَنِ إذ لم يَقبَلْها بنو تميمٍ، قالوا: قد قَبِلْنا يا رسولَ اللهِ، قالوا: جِئناكَ نسألُك عن هذا الأمرِ؟ قال: كان اللهُ ولم يكنْ شَيءٌ غَيرُه، وكان عرشُه على الماءِ، وكتب في الذِّكرِ كلَّ شَيءٍ، وخلَقَ السَّمواتِ والأرضَ))[٣].

وعن عبدِ الله بنِ عمرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((كتَب الله مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أن يخلقَ السمواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، قال: وعرشُه على الماءِ))[٤].

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

أي: خلقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ، وخَلقَكم- أيُّها النَّاسُ- ليَختبِرَكم، فينظُرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذِكرُه: الله الذي إليه مَرجِعُكم أيُّها النَّاسُ جميعًا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يقول: أفيَعجِزُ مَن خلقَ ذلك من غيرِ شَيءٍ أن يُعيدَكم أحياءً بعد أن يُميتَكم؟). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٦)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٩١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

أيُّكم أحسَنُ طاعةً للهِ بالإخلاصِ له، واتِّباعِ شَريعتِه[١].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

ولما كان الابتلاءُ يتضمَّنُ حديثَ البعثِ؛ أتبَع ذلك بذكرِه[٢].

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿سِحْرٌ﴾ قراءتان:

١- قراءةُ ﴿سَاحِرٌ﴾ على أنَّ مرادَهم بذلك: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم[٣].

٢- قراءةُ ﴿سِحْرٌ﴾ على أنَّ مرادَهم بذلك: القرآنُ الكريمُ[٤].

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: ولَئِنْ قُلتَ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنَّ اللهَ سَيبعَثُكم يومَ القيامةِ أحياءً بعد مَوتِكم، فتَلَوتَ عليهم القرآنَ بذلك؛ لَيقولُنَّ تكذيبًا وعنادًا: ما هذا القرآنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((فتح البيان)) للقنوجي (٦/ ١٤٥).

(٣) قرأ بها: حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٦).

(٤) قرأ بها: الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٦).

الذي تَتلوه علينا إلَّا سِحرٌ واضِحٌ، يَظهَرُ لِمَن يستمِعُه أنَّه سِحرٌ[١]!!

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ثمَّ بيَّن الحكمةَ، فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وقال تعالى في أولِ سورةِ الكهفِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثمَّ بيَّن الحكمةَ، فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال في أولِ سورةِ الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، ثمَّ بيَّن الحكمةَ، فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ولم يقُلْ: أكثرُ عملًا، فإذا عَرَف العبدُ أنَّه خُلِق لأجلِ أن يُختبَرَ في إحسانِ العملِ كان حريصًا على الحالةِ التي ينجحُ بها في هذا الاختبارِ؛ لأنَّ اختبارَ ربِّ العالمينَ يومَ القيامةِ مَنْ لم ينجَحْ فيه جُرَّ إلى النَّارِ، فعدمُ النجاحِ فيه مهلكةٌ[٢]، ففي ذلك الحثُّ على محاسنِ الأعمالِ، والترقِّي دائمًا في مراتبِ الكمالِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((أضواء القرآن)) للشنقيطي (٧/ ٢١٤).
وممَّن اختار عودَ اسمِ الإشارةِ في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ﴾ على القرآنِ: ابن جرير، والشنقيطي. يُنظر: المصدران السابقان.
وبعضُ المفَسِّرينَ جعل اسمَ الإشارةِ عائدًا على القَولِ بالبعثِ بعد الموتِ عُمومًا دون تَخصيصِ ذلك بآياتِ القُرآنِ، ومنهم: القرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩).
وقال ابن عاشور: (وَقَرَأَ حَمْزَةُ، وَالْكِسَائِيُّ، وَخَلَفٌ: ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾ فالإشارةُ بقولِه هذا إلى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم المفهومِ مِن ضميرِ ﴿قُلْتَ﴾ أي: أنَّه يقولُ كلامًا يَسْحَرُنا بذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩).
قال ابنُ كثيرٍ: (وقولُهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: يقولونَ كفرًا وعنادًا: ما نصدِّقُك على وقوعِ البعثِ، وما يَذكرُ ذلك إلا مَن سَحرتَه، فهو يتَّبِعُك على ما تقولُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٠).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ مِن حِكمةِ خَلقِ الأرضِ صدورَ الأعمالِ الفاضلةِ مِن أشرَفِ المخلوقاتِ فيها، ثمَّ إنَّ ذلك يقتضي الجزاءَ على الأعمالِ؛ إكمالًا لمُقتضى الحِكمةِ؛ ولذلك أُعقِبَت بقَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾[1].

٣- قال تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال الفضيلُ بنُ عياضٍ: أخلصُه وأصوبُه. والخالصُ أن يكونَ لله، والصوابُ أن يكونَ على السنةِ، وهما أصلانِ عظيمانِ: أحدُهما: أن لا نعبدَ إلا الله، والثاني: أن لا نعبدَه إلا بما شرَع، لا نعبدُه بعبادةٍ مبتدعةٍ، وهذان الأصلانِ هما تحقيقُ شهادةِ أن لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله[2].

٤- قال تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ والعملُ الأحسنُ هو الأخلصُ والأصوبُ، وهو الموافقُ لمرضاتِه ومحبتِه، دونَ الأكثرِ الخالي مِن ذلك، فهو سبحانَه وتعالى يحبُّ أن يتعبدَ له بالأرضَى له، وإن كان قليلًا دونَ الأكثرِ الذي لا يُرضيه، والأكثرِ الذي غيرُه أرضَى له منه، ولهذا يكونُ العملانِ في الصورةِ واحدًا، وبينَهما في الفضلِ، بل بينَ قليلِ أحدِهما وكثيرِ الآخرِ في الفضلِ أعظمُ مما بينَ السماءِ والأرضِ[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ لم يقُل (على الأرضِ)، مع أنَّه أنسَبُ بتَفسيرِ الدابَّةِ لغةً -لأنَّها ما يدِبُّ على الأرضِ- لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٣٣).
(٣) يُنظر: ((المنار المنيف)) لابن القيم (ص: ٣١).

(في) أعمُّ مِن (على)؛ لأنَّها تتناوَلُ من الدوابِّ ما على ظَهرِ الأرضِ، وما في بَطنِها[١].

٢- الرِّزقُ مَقسومٌ لكلِّ أحَدٍ مِن بَرٍّ وفاجرٍ، ومؤمنٍ وكافرٍ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ هذا مع ضَعفِ كَثيرٍ مِن الدوابِّ، وعَجزِها عن السَّعي في طلَبِ الرِّزقِ؛ قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠] فما دام العبدُ حيًّا، فرِزقُه على اللهِ، وقد يُيَسِّرُه الله له بكَسبٍ وبغَيرِ كَسبٍ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ظاهِرٌ في الوجوبِ، بينما رِزقُ اللهِ لكُلِّ ما دبَّ على الأرضِ هو تفَضُّلٌ، وللعُلماءِ في التَّوفيقِ بين ذلك وجوهٌ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّه لَمَّا ضَمِنَ تعالى أن يتفضَّلَ به عليهم، أبرَزَه في حيِّزِ الوُجوبِ[٣]. فكأنَّه لضمانتِه، وعدمِ تخلُّفِه كأنَّه واجبٌ عليه.

الوجه الثاني: أنَّ المرادَ بالوجوبِ هنا وجوبُ اختيارٍ، لا وجوبُ إلزامٍ، كقولِ الإنسانِ لصاحِبِه: حقُّك واجِبٌ عليَّ.

الوجه الثالث: أنَّ (على) بمعنى (مِن)، كما في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾[٤] [المطففين: ٢].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ رُدَّ به على المُعتزلةِ في قولِهم: (إنَّ الحرامَ ليس برزقٍ)؛ لأنَّه يلزمُ عليه أنَّ من تغذَّى طولَ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥٨).
(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٤).
(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥٨-٢٥٩).

عُمُرِه بالحرامِ لم يرزُقْه اللهُ، وهو خلافُ ما في الآيةِ؛ لأنَّه تعالى لا يترُكُ ما أخبَرَ بأنَّه عليه[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيه سؤالٌ: كيف قيل: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وأعمالُ المؤمنينَ هي التي تتفاوتُ إلى حسَنٍ وأحسَنَ، فأمَّا أعمالُ المؤمنينَ والكافرينَ فتفاوُتُها إلى حَسَنٍ وقبيحٍ؟

الجوابُ: أنَّ الذين هم أحسَنُ عملًا هم المتَّقونَ، وهم الذين استَبَقوا إلى تحصيلِ ما هو مقصودُ اللهِ مِن عبادِه، فخَصَّهم بالذِّكرِ، واطَّرَح ذِكرَ مَن وراءَهم؛ تشريفًا لهم، وتنبيهًا على مكانِهم منه، وليكون ذلك تيقُّظًا للسَّامعينَ، وتَرغيبًا في حيازةِ فَضلِهم[٢]، وأيضًا للتَّحريضِ على أحاسِنِ المَحاسنِ[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فيه أنَّ العَرشَ ذاتٌ مَخلوقةٌ فوق السَّمَواتِ، وذلك يقتضي أنَّ العَرشَ مخلوقٌ قبل السَّمَواتِ والأرضِ، وكذلك الماءُ[٤] فالله تعالى أخْبَر أنَّ عرشَه كان على الماءِ قبلَ خلقِ السمواتِ والأرضِ، وثَبَت ذلك في ((صحيحِ البخاريِّ))[٥] عن عِمرانَ بنِ حُصينٍ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم قال: ((كان

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٠).
وينقسمُ الرزقُ إلى قسمينِ: عامٍّ وخاصٍّ، فالعامُّ: كلُّ ما ينتفعُ به البدنُ، سواءٌ كان حلالًا أو حرامًا، وسواءٌ كان المرزوقُ مسلمًا أو كافرًا، أمَّا الرزقُ الخاصُّ، فهو ما يقومُ به الدينُ مِن العلمِ النافعِ، والعملِ الصالحِ، والرزقِ الحلالِ المعينِ على طاعةِ الله. يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧).

(٥) ((صحيح البخاري)) (٧٤١٨).

اللَّهُ ولا شيءَ غيرُه، وكان عرشُه على الماءِ، وكَتَب في الذِّكرِ كلَّ شيءٍ، ثُمَّ خَلَق السَّمواتِ والأرضَ))[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ دلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ لِيبتليَ عبادَه بأمْرِه ونَهيِه، وهذا مِن الحَقِّ الذي خلَقَ به خلْقَه[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ قال أهل المعاني: وفي وقوفِ العَرشِ على الماءِ -والماءُ غيرُ قرارٍ- أعظَمُ الاعتبارِ لأهلِ الأفكارِ[٣].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فيه زيادةُ قولِه: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تأكيدًا لمعنَى ﴿دَآبَّةٍ ﴾؛ للتَّنصيصِ على أنَّ العُمومَ مُسْتَعملٌ في حقيقتِه[٤].

- وتقديمُ ﴿عَلَى ٱللَّهِ ﴾ قَبْلَ ﴿رِزْقُهَا﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ؛ أي: على اللهِ لا على

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٤٥).
قال ابنُ حجر: (وقد وقَع... بلفظ: «كان عرشُه على الماءِ، ثمَّ خلَق القلمَ، فقال: اكتبْ ما هو كائنٌ ثم خلَق السمواتِ والأرضَ وما فيهنَّ»، فصرَّح بترتيبِ المخلوقاتِ بعدَ الماءِ والعرشِ... ولم يقعْ بلفظِ: «ثم» إلَّا في ذكرِ خلقِ السمواتِ والأرضِ، وقد روَى مسلمٌ مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عمرو مرفوعًا: «أنَّ الله قدَّر مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أن يخلقَ السمواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، وكان عرشُه على الماء»، وهذا الحديثُ يؤيدُ روايةَ مَن روَى: «ثمَّ خلَق السمواتِ والأرضَ» باللفظِ الدالِّ على الترتيبِ). ((فتح الباري)) (٦/ ٢٨٩).
(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٥).
(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥).

غيرِه، وأيضًا التَّركيبُ ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ يُفيدُ معنى أنَّ اللهَ تكفَّل برِزْقِها ولم يُهْمِلْه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

- قَولُ الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أنَّ الحِكمةَ في خَلقِ ذلك أنَّه يَخْتَبِركم، ودلَّ على شِدَّةِ الاهتمامِ بذلك بسَوقِه مَساقَ الاستفهامِ في قَولِه: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟... ﴾ فيه تأكيدُ الجملةِ باللَّام الموطِّئةِ للقَسَم في ﴿وَلَئِن﴾ وما يَتْبَعُه مِن نونِ التوَّكيدِ في ﴿لَيَقُولَنَّ﴾؛ لِتَنزيلِ السَّامعِ مَنزِلةَ المتردِّدِ في صُدورِ هذا القولِ مِنهم؛ لِغَرابةِ صُدورِه مِن العاقلِ؛ فيكونُ التَّأكيدُ القويُّ والتَّنزيلُ مُستعمَلًا في التَّعجُّبِ مِن حالِ الَّذين كفَروا أن يُحِيلوا إعادةَ الخلقَ، وقد شاهَدوا آثارَ بدْءِ الخلقِ، وهو أعظَمُ وأبدَعُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥-٦)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩).

الآيات (٨-١١)

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿أُمَّةٍ﴾: الأُمَّةُ: الحينُ والزمانُ[١].

﴿يَحْبِسُهُۥٓ﴾: أي: يَمنَعُه أو يؤخِّرُه، وأصلُ (حبس): يدلُّ على المَنعِ[٢].

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: أي: نزل بهم وأصابَهم، وأصلُ (حيق): يدلُّ على نزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[٣].

المعنَى الإجماليُّ:

يُقسِمُ الله تعالى قائلًا: ولئن أخَّرْنا عن هؤلاء المُشرِكينَ العذابَ إلى أجَلٍ معلومٍ فاستبطَؤوه، ليقولُنَّ استهزاءً وتكذيبًا: أيُّ شيءٍ يمنَعُ هذا العذابَ مِن الوقوعِ إن كان حقًّا؟ ألا يومَ يأتيهم ذلك العذابُ لا يستطيعُ أن يَصرِفَه عنهم صارِفٌ، ولا يَدفَعَه دافِعٌ، وأحاط بهم مِن كُلِّ جانبٍ العذابُ الذي كانوا يَستَهزئونَ به قبلَ وقوعِه بهم، ولَئِن أعطَينا الإنسانَ مِنَّا نِعمةً مِن صِحَّةٍ وأمنٍ وغَيرِهما، ثمَّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٢/ ٣٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦).

سَلَبْناها منه؛ إنَّه لَشديدُ اليأسِ مِن رَحمةِ الله، جَحودٌ بالنِّعَمِ التي أنعَمَ اللهُ بها عليه، ولَئِن بسَطْنا للإنسانِ في دُنياه، ووسَّعْنا عليه في رِزقِه بعد ضِيقٍ مِن العَيشِ، ليقولَنَّ عند ذلك: ذهب الضِّيقُ عني، وزالت الشَّدائِدُ، إنَّه لشديدُ الفَرحِ بالنِّعَمِ، مُبالِغٌ في الفَخرِ والتَّعالي على النَّاسِ بها، لكنِ الذين صبَروا وعَمِلوا الصَّالحاتِ شُكرًا لله على نِعَمِه، هؤلاء لهم مغفرةٌ لذُنوبِهم، وأجرٌ كبيرٌ في الآخرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان ما تقدَّم عن المُشركينَ مِن الأفعالِ، ومضَى مِن الأقوالِ مَظِنَّةً لِمُعاجلتِهم بالأخذِ، وكان الواقِعُ أنَّه تعالى يعامِلُهم بالإمهالِ فَضلًا منه وكَرَمًا- حكَى مقالتَهم في مُقابَلةِ رَحمتِه تعالى لهم[1].

وأيضًا فمُناسبةُ هذه الآيةِ لِما قَبْلَها: أنَّ في كِلتَيهما وَصْفَ فَنٍّ مِن أفانينِ عِنادِ المُشرِكينَ وتهَكُّمِهم بالدَّعوةِ الإسلاميَّةِ؛ فإذا خبَّرهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالبَعثِ، وأنَّ شِركَهم سبَبٌ لتَعذيبِهم، جعلوا كلامَه سِحرًا، وإذا أنذَرَهم بعقوبةِ العَذابِ على الإشراكِ، استَعجلوه، فإذا تأخَّر عنهم إلى أجَلٍ اقتَضَتْه الحِكمةُ الرَّبانيَّةُ، استَفهَموا عن سبَبِ حَبسِه عنهم استِفهامَ تهكُّمٍ؛ ظنًّا أنَّ تأخُّرَه عَجزٌ[2].

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾.

أي: ولَئِنْ أخَّرْنا عن هؤلاءِ المُشرِكينَ -يا مُحمَّدُ- العذابَ إلى مُدَّةٍ معلومةٍ،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠).

فلم نُعجِّلْه لهم؛ لَيقولُنَّ تكذيبًا واستهزاءً: أيُّ شيءٍ يحبِسُ عنَّا نزولَ العذابِ[١]؟!

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾.

أي: ألَا يومَ يأتيهم ذلك العذابُ- الذي كذَّبوا به- لا يَرُدُّه شَيءٌ، فلا يَصرِفُه عنهم صارِفٌ، ولا يدفَعُه عنهم دافِعٌ[٢].

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أي: ونزل بالمُشرِكينَ وأحاط بهم العذابُ الذي كانوا يستهزِئونَ به، ويَستعجِلونَه[٣].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا وما بَعدَه بيانٌ لحالِ الإنسانِ في اختبارِ اللهِ له في قَولِه تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٤] [هود: ٧].

وأيضًا فإنَّ هذه الآيةَ عَطفٌ على جملةِ ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾؛ فإنَّه لَمَّا ذكرَ تعالى عن المُشرِكينَ أنَّ ما هم فيه متاعٌ إلى أجَلٍ مَعلومٍ عنده، وأنَّهم بَطِروا نعمةَ التَّمتيعِ، فسَخِروا بتأخيرِ العذابِ، فبَيَّنَت هذه الآيةُ أنَّ أهلَ الضَّلالةِ راسِخونَ في ذلك؛ لأنَّهم لا يفكِّرونَ في غيرِ اللَّذَّاتِ الدُّنيويَّةِ، فتجري انفعالاتُهم على حسَبِ ذلك دونَ رجاءٍ لتغيُّرِ الحالِ، ولا يتفكَّرونَ في أسبابِ النَّعيمِ والبُؤسِ، وتصَرُّفاتِ خالقِ النَّاسِ، ومُقَدِّرِ أحوالِهم، ولا يتَّعِظونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٦، ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩، ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٤).

بتقَلُّباتِ أحوالِ الأمَمِ، فشأنُ أهلِ الضَّلالةِ أنَّهم إن حلَّت بهم الضَّراءُ بعد النِّعمةِ ملَكَهم اليأسُ مِن الخيرِ، ونَسُوا النِّعمةَ فجَحَدوها وكَفَروا مُنعِمَها، فإنَّ تأخيرَ العذابِ رَحمةٌ، وإتيانَ العذابِ نَزعٌ لتلك الرَّحمةِ[١].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾.

أي: ولَئِن أعطَينا الإنسانَ[٢] منَّا نِعمةً- كالعافيةِ وسَعةِ الرِّزقِ وطِيبِ العَيشِ- فوجدَ لذَّتَها، ثمَّ سَلَبْناها منه؛ يظلُّ شديدَ اليأسِ مِن حصولِ الخَيرِ له في المُستقبَلِ، جَحُودًا نِعَمَ اللهِ عليه، قَليلَ الشُّكرِ لرَبِّه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذه الجُملةَ تَتميمٌ للتي قَبلَها؛ لأنَّها حكَت حالةً ضِدَّ الحالةِ في التي قَبلَها[٤].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢).

(٢) المرادُ بالإنسانِ هنا جنسُ الإنسانِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٢٠-١٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣).

أي: ولَئِن أذَقْنا الإنسانَ نِعمةً بعدَ ضيقٍ كان فيه، ليقولَنَّ غِرَّةً باللهِ عزَّ وجلَّ، وجرأةً عليه، وجهلًا بإنعامِه: ذهبَ الضِّيقُ والشِّدَّةُ والمكروهُ عنِّي، ولن يُصيبَني بعد ذلك سوءٌ[(١)]!!

كما قال الله سبحانَه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۞ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۞ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٤٩-٥١].

﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

أي: إنَّه لشديدُ الفرحِ بنِعَم اللهِ عليه، فخورٌ على غيرِه بها، ولا يشكُرُ اللهَ عليها، وينسى تقلُّباتِ أحوالِ الدُّنيا ونكَدَها، وينسى طلَبَ النَّعيمِ الباقي، والسُّرورِ الدَّائِمِ في الآخرةِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ [الروم: ٣٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

أي: إلَّا[(٣)] الذين صَبَروا عند الضَّرَّاءِ، ونزولِ الشدائدِ والمكارِه، وعَمِلوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

(٣) الاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ استثناءٌ متصلٌ، وقيل: منقطعٌ. وهذا بناءً على

الصَّالحاتِ فِي السرَّاءِ، وحلولِ الرَّخاءِ والعافيةِ؛ شكرًا لله على نعمائِه، أولئك لهم مَغفِرةٌ من اللهِ لِذُنوبِهم، ولهم جزاءٌ عظيمٌ[(١)].

كما قال سُبحانه: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ، وأبي هريرةَ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما يُصيبُ المُسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ[(٢)]، ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ، ولا أذًى ولا غَمٍّ، حتى الشَّوكةُ يُشاكُها، إلَّا كفَّرَ اللهُ بها مِن خَطاياه))[(٣)].

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((عجبًا لأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمْرَه كُلَّه خَيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلَّا للمؤمِنِ؛ إن أصابَته سرَّاءُ شكَرَ فكان خيرًا له، وإن أصابَته ضرَّاءُ صبَرَ فكان خيرًا له))[(٤)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ * وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ لفظُ الإذاقةِ والذَّوقِ يفيدُ أقَلَّ ما يوجَدُ به الطَّعمُ، فكان المرادُ أنَّ الإنسانَ بوِجدانِ أقَلِّ القليلِ مِن الخيراتِ العاجلةِ يقَعُ في التمَرُّدِ والطُّغيانِ، وبإدراكِ أقَلِّ القليلِ مِن المِحنةِ والبَليَّةِ يقَعُ في اليأسِ والقُنوطِ والكُفرانِ، فالدُّنيا

كونِ المرادِ بالإنسانِ في قولِه: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ الإنسانَ الكافرَ، أو إنسانًا معينًا. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٩).

(٢) الوصَبُ: الألمُ اللازِمُ، والسَّقَمُ الدَّائِمُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

في نَفسِها قليلةٌ، والحاصِلُ منها للإنسانِ الواحدِ قَليلٌ، والإذاقةُ من ذلك المقدارِ خَيرٌ قليلٌ، ثمَّ إنَّه في سرعةِ الزَّوالِ يُشبِهُ أحلامَ النَّائمينَ، وخَيالاتِ المُوَسوسينَ، فهذه الإذاقةُ مِن قليلٍ، ومع ذلك فإنَّ الإنسانَ لا طاقةَ له بتحَمُّلِها، ولا صَبرَ له على الإتيانِ بالطَّريقِ الحَسَنِ معها[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ بيَّن سُبحانه وتعالى في هذه الآيةِ أنَّ أحوالَ الدُّنيا غيرُ باقيةٍ، بل هي أبدًا في التغَيُّرِ والزَّوالِ والتحوُّلِ والانتقالِ؛ فإنَّ الإنسانَ إمَّا أن يتحوَّلَ مِن النِّعمةِ إلى المِحنة، ومن اللَّذَّاتِ إلى الآفاتِ كالقِسمِ الأوَّلِ، وإمَّا أن يكونَ بالعَكسِ مِن ذلك، وهو أن ينتَقِلَ مِن المكروهِ إلى المَحبوبِ كالقِسمِ الثَّاني[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- اليومُ قد يعبَّرُ به عن الوقتِ قَلَّ أو كثُرَ، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ والمرادُ: وقتُ مَجيءِ العذابِ، وقد يكونُ ليلًا ويكون نهارًا، وقد يستمِرُّ وقد لا يستَمِرُّ[٣].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ لم يُسنِدِ (المسَّ) إليه سبحانَه، كما فعل في (النَّعماءِ)؛ تعليمًا للأدبِ[٤]. وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّ في اختلافِ الفِعلينِ- وهما أذقناه ومَسَّتْه- من حيث الإسنادُ إليه تعالى في الأوَّلِ، وإلى الضَّرَّاء في الثَّاني؛ نكتةً: وهي أنَّ النِّعمةَ صادرةٌ مِن اللهِ تعالى تفضُّلًا منه، وأمَّا الضَّررُ فالسَّببُ فيه هو العبدُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٧).
(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٨٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٥٢٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٣).

باجتلابِه إيَّاه بالمعاصي غالبًا، ولا ينافي ذلك قَولَه تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]؛ فإنَّ الكُلَّ منه إيجادًا، غيرَ أنَّ الحَسَنةَ إحسانٌ وامتحانٌ، والسَّيِّئةَ مُجازاةٌ وانتقامٌ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ استفهامٌ، غرَضُهم منه إنكارُ المجيءِ والحبْسِ رأسًا، لا الاعترافُ به والاستفسارُ عن حابِسِه؛ كأنَّهم يَقولونَه بطريقِ الاستعجالِ؛ استِهْزاءً(٢).

- قولُه: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ واقعٌ موقعَ الجوابِ عن كلامِهم؛ إذ يَقولون: ما يَحبِسُ عنَّا العذابَ؟ فلذلك فُصِلَتْ- لم تُعطَف- كما تُفصَلُ المحاوَرةُ، وفيه تهديدٌ وتخويفٌ بأنَّه لا يُصرَفُ عنهم، ولكنَّه مؤخَّرٌ(٣).

- وافتُتِح الكلامُ بحرفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾؛ للاهتمامِ بالخبَرِ؛ لتحقيقِه، وإدخالِ الرَّوعِ في ضَمائرِهم(٤).

- وتقديمُ الظَّرفِ ﴿يَوْمَ﴾؛ للإيماءِ بأنَّ إتيانَ العذابِ لا شكَّ فيه حتَّى إنَّه يوقَّتُ بوقتٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بالماضي ﴿وَحَاقَ﴾، والمعنى: (ويَحيقُ بهم)، إلَّا أنَّه جاء على عادةِ اللهِ في أخبارِه؛ لأنَّها في تَحقُّقِها وتَيَقُّنِها بمنزلةِ الكائنةِ الموجودةِ، وفي ذلك مِن الفَخامةِ والدَّلالةِ على عُلوِّ شأنِ المخبِرِ، وتقريرِ وقوعِ المخبَرِ به ما لا يَخْفى[١].

- وفي قولِه: ﴿بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ قدَّمَ الظَّرفَ (به)؛ إشارةً إلى شدَّةِ إقبالِهم على الهُزءِ به، حتى كأنَّهم لا يَهزؤونَ بغَيرِه[٢].

- وفيه الإتيانُ بالموصولِ ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ في مَوضِعِ الضَّميرِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ استِهْزاءَهم كان مِن أسبابِ غضَبِ اللهِ عليهم، وتَقْديرِه إحاطةَ العذابِ بهم؛ بحيثُ لا يَجِدون منه مَخلَصًا[٣]، والمرادُ بقولِه: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ العذابُ الَّذي كانوا به يَستعجِلون، وإنَّما وضَعَ ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ موضِعَ (يَستعجِلون)؛ لأنَّ استِعْجالَهم كان على جِهَةِ الاستهزاءِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾

- فيه تأكيدُ الجملةِ باللَّامِ الموطِّئةِ للقَسَمِ في ﴿وَلَئِنۡ﴾ وبـ (إنَّ) واللَّامِ في جُملةِ جوابِ القَسَمِ ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ﴾؛ لقصْدِ تحقيقِ مَضمونِها، وأنَّه حقيقةٌ ثابتةٌ، لا مُبالَغةَ فيها ولا تَغليبَ[٥].

- واخْتِيرَتْ مادَّةُ الإذاقةِ في ﴿أَذَقۡنَا﴾؛ لِمَا تُشعِرُ به من إدراكِ أمرٍ محبوبٍ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣).

لأنَّ المرْءَ لا يَذوقُ إلَّا ما يَشتَهيه[١]، ومادَّةُ النَّزْعِ في ﴿نَزَعْنَٰهَا﴾؛ للإشعارِ بشِدَّةِ تَعلُّقِ الإنسانِ بها وحِرْصِه عليها[٢].

- ولَمَّا كانت النِّعمُ عَواريَّ مِن اللهِ يمنَحُها مَن شاء مِن عِبادِه، قدَّمَ الصِّلةَ دليلًا على العاريَّةِ، فقال: ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾[٣].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ النَّزْعَ إنَّما كان بسَببِ كُفْرانِهم بما كانوا يتَقلَّبون فيه مِن نِعَمِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

٣- قولُه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾

- قولُه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عبَّر عن مُلابَسةِ الرَّحمةِ والنَّعماءِ بالذَّوقِ ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾ المؤذِنِ بلَذَّتِهما، وكَونِهما مِمَّا يُرغَبُ فيه، وعن مُلابَسةِ الضَّرَّاءِ بالمَسِّ ﴿مَسَّتْهُ﴾ المشعِرِ بكونِها في أدنى ما يُطلَقُ عليه اسْمُ الملاقاةِ مِن مَراتِبِها[٥]؛ فاختيارُ فعلِ المسِّ في ﴿مَسَّتْهُ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ إصابةَ الضَّرَّاءِ أخَفُّ مِن إصابةِ النَّعْماءِ، وأنَّ لُطْفَ اللهِ شاملٌ لعبادِه في كلِّ حالٍ[٦].

- وجعَل جوابَ القسَمِ (القَوْلَ) في ﴿لَيَقُولَنَّ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّه تبَجُّحٌ وتَفاخُرٌ؛ فالخبَرُ في قولِه: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ مُستعمَلٌ في الازْدِهاءِ والإعجابِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤).

وذلك هو مُقتَضى زيادةِ ﴿عَنِّيٓ﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿ذَهَبَ﴾؛ للإشارةِ إلى اعْتِقادِ كلِّ واحدٍ أنَّه حَقيقٌ بأن تَذهَبَ عنه السَّيِّئاتُ غُرورًا منه بنَفسِه، كما في قولِه: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾[1] [فصلت: ٥٠].

- وجملةُ ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للتَّعجُّبِ مِن حالِه، و﴿فَرِحٞ﴾ و﴿فَخُورٌ﴾ مِن أوزانِ المبالَغةِ، أي: لَشَديدُ الفرَحِ، شَديدُ الفَخرِ[2].

- وفيه مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا في سورةِ هودٍ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]، وقال في سورةِ فُصِّلَت: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ [فصلت: ٥٠]؛ ففيه زيادةُ (مِنَّا) وزيادةُ (مِن) في سورةِ فُصِّلَت عمَّا في سورةِ هودٍ؛ ووجهُ ذلك أنَّه لم يَرِد في هودٍ ما يَستَدعي تلك الزِّيادةَ، وأمَّا سورةُ فُصِّلَت فتقدَّم فيها قولُه: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾ [فصلت: ٤٧]؛ قَطعًا بهم، وتَنبيهًا على سوءِ مُرتكَبِهم، وقد عايَنوا الحقَّ، وضلَّ عنهم ما كانوا يَدَّعون مِن قَبلُ مِن شُركاءِ اللهِ سبحانه، وأيقَنوا وعَلِموا أنَّه لا مَحيصَ لهم ولا مَفرَّ؛ فلمَّا تَقدَّم ذِكْرُ الشُّرَكاءِ قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ [فصلت: ٥٠]، فنَبَّه تعالى بقولِه: ﴿مِّنَّا﴾ على أنْ لا شَريكَ له، ولا مُعطِيَ غيرُه، وأنَّه لا يأتي العبدَ شيءٌ مِن أحَدٍ سِواه سُبحانه. ولَمَّا لم يَتقدَّمْ في سورةِ هودٍ ذِكرٌ لذلك لم يَرِد فيها التَّنبيهُ بقولِه: ﴿مِّنَّا﴾. وأمَّا زيادةُ: (مِن) في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ [فصلت: ٥٠]؛ فمُناسِبٌ لإطنابِ هذا الغرَضِ في هذه السُّورةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فناسَب ذلك الزِّيادةَ، ولإيجازِ هذا القصدِ في سورةِ هودٍ ناسَبَه سُقوطُ (مِن)؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[١].

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه في سورةِ فُصِّلَت بيَّن تعالى جِهةَ الرَّحمةِ، بقولِه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩]؛ فناسَب ذِكْرُ ﴿مِّنَّا﴾، وحَذَفَه هنا اكتفاءً بقولِه قبلُ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هود: ٩]، وزاد (مِن) في سورةِ فُصِّلَت؛ لأنَّه لَمَّا حدَّ الرَّحمةَ وجِهَتَها حدَّ الظَّرْفَ بعْدَها؛ لِيَتَشاكَلا في التَّحديدِ، وهنا لَمَّا لم يَذكُرِ الأوَّلَ، لم يَذكُرِ الثَّانيَ لِيَتَشاكَلا[٢].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٥٩-٢٦٠) .

الآيات (١٢-١٤)

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

المعنَى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: فلعلَّك- أيُّها الرَّسولُ- تارِكٌ بعضَ ما يُوحَى إليك ممَّا أنزَلَه اللهُ عليك، وأمَرَك بتبليغِه، وضائِقٌ به صَدرُك؛ خَشيةَ أن يطلُبوا منك بعضَ المَطالبِ على وجهِ التَّعنُّتِ، كأنْ يقولوا: لولا أُنزِلَ عليه مالٌ كثيرٌ، أو جاء معه ملَكٌ يصَدِّقُه في رسالتِه، فبَلِّغْهم ما أوحيتُه إليك؛ فإنَّه ليس عليك إلَّا الإنذارُ بما أُوحيَ إليك، واللهُ على كلِّ شَيءٍ حَفيظٌ، يدَبِّرُ جميعَ شُؤونِ خَلقِه. بل أيقولُ هؤلاء المُشركونَ: إنَّ مُحمدًا قد افترى هذا القُرآنَ؟ قلْ لهم: إن كان الأمرُ كما تَزعمونَ، فأْتُوا بعَشرِ سُوَرٍ مِثلِه مُفتَرَياتٍ، وادعُوا من استطعتُم مِن جميعِ خَلقِ الله؛ لِيُساعِدوكم على الإتيانِ بهذه السُّوَرِ العَشرِ، إنْ كنتُم صادقينَ في دَعواكم. فإن لم يَأتوا بمُعارضةِ ما دَعَوْتُموهم إليه، فأيقِنوا أنَّما أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن عندِ الله، مشتملًا على عِلْمه، ومُتَضَمِّنًا أمرَه وَنَهْيَه، وأيقِنوا أنْ لا إلهَ يُعبَدُ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، فهل أنتم- بعد قيامِ هذه الحُجَّةِ عليكم- مُسلِمونَ مُنقادونَ لله ورَسولِه؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا تفريعٌ على قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ إلى قَولِه ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مِن ذِكرِ تكذيبِهم وعِنادِهم، ويشيرُ هذا التَّفريعُ إلى أنَّ مَضمونَ الكلامِ المفرَّعِ عليه سببٌ لِتَوجيهِ هذا التوقُّعِ؛ لأنَّ مِن شأنِ المفرَّعِ عليه اليأسُ من ارعوائِهم لتكَرُّرِ التَّكذيبِ والاستهزاءِ يأسًا قد يبعَثُ على تَركِ دُعائِهم[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا استثنى اللهُ تعالى مِن الجارينَ مع الطَّبعِ، الطَّائِشينَ في الهَوى، مَن تحلَّى برَزانةِ الصَّبرِ النَّاشئِ عن وَقارِ العِلمِ، المُثمرِ لصالحِ العمَلِ، وكان صلَّى الله عليه وسلم رأسَ الصَّابرينَ، وكان ما مضى مِن أقوالِهم وأفعالِهم ربَّما كان مَظِنَّةً لرَجائِهم تَرْكَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعضَ ما يُوحى إليه؛ مِن عَيبِ آلهتِهم، وتضليلِ آبائِهم، وتسفيهِ أحلامِهم، وغيرِ ذلك ممَّا يشُقُّ عليهم؛ طمعًا في إقبالِهم أو خوفًا من إدبارِهم- قال تعالى مسبِّبًا عن ذلك، ناهيًا في صيغةِ الخَبرِ[2]:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾.

أي: فلعلَّك -يا مُحمَّدُ- تاركٌ تبليغَ قَومِك بعضَ ما أوحَى اللهُ إليك مِن القُرآنِ، وضائِقٌ صَدرُك بما أمَرَك اللهُ أن تبلِّغَهم؛ كراهةَ أن يقولَ المُشرِكونَ: لولا أنزَلَ اللهُ عليه كنزًا، أو جاء معه ملَكٌ؛ لنؤمِنَ بأنَّه رَسولُ الله، فاصبِرْ على تكذيبِهم، واستمِرَّ في دَعوتِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥-١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).
قال الشوكاني: (قيل: وهذا الكلامُ خارِجٌ مخرجَ الاستفهام، أي: هل أنت تاركٌ؟ وقيل: هو في معنى النَّفيِ مع الاستبعادِ أي: لا يكونُ منك ذلك، بل تُبَلِّغُهم جميعَ ما أنزلَ الله عليك، أحَبُّوا

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا * وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا * أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا * أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا * ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ [الفرقان: ٧-٩].

وقال سبحانه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

ذلك أم كَرِهوه، شاؤوا أم أبَوا). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢).

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾.

أي: إنَّما أنت- يا محمَّدُ- نذيرٌ لقَومِك تُنذِرُهم عِقابي، وليس عليك أن تأتيَهم بما يقتَرِحونَه مِن الآياتِ[١].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾.

أي: واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قيِّمٌ، بِيَدِه تدبيرُ الأمورِ، وهو حافِظٌ يحفَظُ أعمالَ عبادِه، ويُجازيهم بها[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: ٦٢].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ القَومَ لَمَّا طَلَبوا من النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المُعجِزَ؛ قال: مُعجزي هذا القُرآنُ، ولَمَّا حصل المُعجِزُ الواحِدُ، كان طلَبُ الزيادةِ بَغيًا وجهلًا، ثم قرَّرَ كَونَه مُعجِزًا بأنْ تحدَّاهم بالمُعارَضةِ[٣].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾.

أي: بل أيقولُ المُشرِكونَ: افترى محمَّدٌ القُرآنَ، وليس هو مِن عندِ اللهِ[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩).

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾.

أي: قل لهم- يا مُحمَّدُ-: فإن كنتُ افتريتُ القُرآنَ كما تَزعُمونَ، فأْتُوا أنتم بعَشرِ سُوَرٍ مِثلِه مُختَلَقاتٍ مِن عندِ أنفُسِكم[1].

﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

أي: وادعُوا- أيُّها المُشرِكونَ- مَنْ تستَطيعونَ دَعوتَه، من الإنسِ والجِنِّ، وآلهتِكم المزعومةِ؛ لِيُعينَكم على اختلاقِ عَشرِ سُوَرٍ مِن القُرآنِ، إن كنتُم صادقينَ في أنِّي افتريتُ هذا القُرآنَ[2].

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه لنَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كفاك حجَّةً على حقيقةِ ما أتيتَهم به ودلالةً على صحَّةِ نبوَّتِك، هذا القرآنُ مِن سائرِ الآياتِ غَيرِه؛ إذ كانت الآياتُ إنمَّا تكونُ لِمَن أعطِيَها دلالةً على صِدقِه، لعَجزِ جميعِ الخَلقِ عن أن يأتوا بمِثلِها، وهذا القرآنُ جميعُ الخَلقِ عَجَزةٌ عن أن يأتوا بمِثلِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٨).

قال ابن عاشور: (قال ابنُ عباسٍ وجمهورُ المفسرين: كان التحدِّي أوَّل الأمرِ بأن يأتوا بعشرِ سُور مثلِ القرآنِ، وهو ما وقَع في سورةِ هودٍ، ثم نُسِخ بأن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ، كما وقَع في سورةِ البقرةِ، وسورة يونس. فتخطَّى أصحابُ هذا القولِ إلى أن قالوا: إنَّ سورةَ هودٍ نزلَت قبلَ سورةِ يونسَ، وهو الذي يُعتمدُ عليه.

وقال المبردُ: تحدَّاهم أولًا بسورةٍ ثم تحدَّاهم هنا بعشرِ سورٍ؛ لأنَّهم قد وُسِّع عليهم هنا بالاكتفاءِ بسورٍ مفترياتٍ، فلمَّا وُسِّع عليهم في صفتِها أُكثر عليهم عددُها، وما وقَع مِن التحدِّي بسورةٍ اعتُبر فيه مماثلتُها لسورِ القرآنِ في كمالِ المعاني، وليس بالقويِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠).

وذهَب محمد رشيد رضا إلى أنَّ جميعَ آياتِ التحدِّي لم يكنْ مراعًى بها الترتيبُ التاريخيُّ في مخاطبةِ المشركينَ -كما ذهَب جمهورُ المفسِّرين- بل ذُكر كلٌّ منها بمناسبةِ سياقِ سورتِه. يُنظر: ((تفسير المنار)) (١٢/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان أدنَى دَرَجاتِ الافتراءِ إتيانَ الإنسانِ بكلامِ غَيرِه من غيرِ عِلمِه، وكان عَجزُهم عن المُعارَضةِ دليلًا قاطعًا على أنَّهم لم يَصِلوا إلى شيءٍ مِن كَلامِه تعالى بغيرِ عِلمِه، ولا وجَدوا مُكافِئًا له يأتيهم بمِثلِه- ثبت قطعًا أنَّ هذا القرآنَ غيرُ مُفترًى، فقال تعالى مُخاطبًا للجميعِ إشارةً إلى وضوحِ الأمرِ -لا سيَّما في الافتراءِ عند كلِّ أحدٍ- وأنَّ المُشرِكينَ قد وصَلوا من ذلِّ التَّبكيتِ بالتَّحدِّي مَرَّةً بعد مَرَّة، وزورِهم لأنفُسِهم في ذلك المضمارِ كَرَّةً في إثرِ كَرَّة، إلى حدٍّ مِن العَجزِ لا يَقدِرونَ معه على النُّطقِ في ذلك ببِنتِ شَفةٍ[1]، قال:

﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: فإن لم يَأتوا بمُعارضةِ ما دَعَوْتُموهم إليه[2] فاعْلَموا وأيقِنوا أنَّما أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن عندِ الله، مشتملًا على عِلْمه، ومُتَضَمِّنًا أمرَه وَنَهْيَه، واعلَموا أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ وَحدَه[3].

كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٩-٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).
قال الواحدي: (هذا الذي ذكرنا مِن أن قولَه: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ خطابٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، مذهبُ المفسِّرين وأصحابِ المعاني). ((البسيط)) (١١/ ٣٦٥).
وقيل: الخطابُ فيه للمشركين؛ أي: فإن لم يستجيبوا لكم مَن تدعونهم إلى المعاونةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٦٤، ٤٦٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣٦، ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦].

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾.

أي: فهل أنتم -أيُّها المُشرِكونَ- مُستَسلِمونَ لله بالتَّوحيدِ، مُنقادونَ له بالطَّاعةِ، بعد ثُبوتِ الحُجَّةِ عليكم بعَجزِكم عن الإتيانِ بمِثلِ هذا القرآنِ، وتحَقُّقِكم أنَّه مِن عندِ الله(١)؟

كما قال الله سبحانه: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

الفَوائِد التربويَّة:

قال الله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ * أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ في هذه الآياتِ إرشادٌ إلى أنَّه لا ينبغي للدَّاعي إلى اللهِ أن يَصُدَّه اعتراضُ المُعترِضينَ، ولا قَدحُ القادحينَ -خصوصًا إذا كان القَدحُ لا مُستنَدَ له، ولا يَقدَحُ فيما دعا إليه- وأنَّه لا يَضيقُ صَدرُه، بل يطمئِنُّ بذلك، ماضيًا على أمرِه، مُقبِلًا على شأنِه، وأنَّه لا يجِبُ إجابةُ اقتراحاتِ المُقترِحينَ للأدلَّةِ التي يختارونَها؛ بل يكفي إقامةُ الدَّليلِ السَّالمِ عن المُعارِضِ، على جميعِ المَسائلِ والمَطالبِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢).

قال الواحدي: (﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ استفهامٌ معناه الأمرُ، كَقَولِه: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾). ((الوجيز)) (ص: ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ لَمَّا كان المُوحَى به قد صار معلومًا لهم -وإن نازعوا فيه- بنى للمَفعولِ قَولَه: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ بَنَوه للمَفعولِ؛ لأنَّ المَقصودَ مُطلَقُ حُصولِه[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ دلالةٌ على ثبوتِ الرِّسالةِ والقُرآنِ والتَّوحيدِ، ووجهُ ذلك: أنَّه لَمَّا تحدَّاهم سُبحانه بالإتيانِ بعَشرِ سُوَرٍ مِثلِه مُفتَرياتٍ- هم وجميعَ مَن يستطيعونَ مِن دونِه- فكان في مضمونِ تحدِّيه أنَّ هذا لا يقْدِرُ أحدٌ على الإتيان بمِثلِه مِن دونِ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ وحينئذٍ فَعُلِمَ أنَّ ذلك مِن خصائصِ مَن أَرسلَه اللهُ، وما كان مختصًّا بنوعٍ فهو دليلٌ عليه؛ فإنَّه مُستلزِمٌ له، وكلُّ مَلزومٍ دليلٌ على لازِمِه -كآياتِ الأنبياء كلِّها؛ فإنَّها مختصَّةٌ بجِنسِهم- وهذا القرآنُ مختصٌّ بجِنسِهم، ومِن بينِ الجنسِ خاتَمُهم ،لا يمكِنُ أن يأتيَ به غيرُه، وكان ذلك برهانًا بَيِّنًا على أنَّ اللهَ أنزله؛ وأنَّه نَزلَ بعِلمِ الله، فهو الذي أخبرَ بخبَرِه، وأمرَ بما أمرَ به، كما قال سُبحانه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]، وثبوتُ الرسالةِ ملزومٌ لثبوتِ التَّوحيدِ؛ وأنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ، مِن جهة أنَّ الرسولَ أخبرَ بذلك، ومِن جهةِ أنَّه لا يقدِرُ أحدٌ على الإتيانِ بهذا القرآنِ إلَّا اللهُ، فإنَّ مِن العِلمِ ما لا يعلَمُه إلَّا اللهُ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٦).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ لم يُكَلِّفْهم نَفْسَ الإحداثِ، بل طالَبَهم بالإتيانِ بمِثلِه، إمَّا إحداثًا، وإمَّا تبليغًا عن اللهِ أو عن مخلوقٍ. والإتيانُ بالشَّيءِ: جَلبُه، سواءٌ كان بالاسترفادِ مِن الغَيرِ أم بالاختراعِ مِن الجالبِ، وهذا توسِعةٌ عليهم في التَّحدِّي؛ ليُظْهِرَ عجزَهم مِن جميعِ الجِهاتِ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وَصفٌ لـ ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ ونكتةُ ذِكرِ هذا الوَصفِ: التَّذكيرُ بأنَّهم أنكَروا أن يكونَ مِن عندِ اللهِ، فلمَّا عمَّم لهم في الاستعانةِ بمَن استطاعوا، أكَّدَ أنَّهم دونَ اللهِ تعالى، فإن عَجَزوا عن الإتيانِ بعَشرِ سُورٍ مِثلِه- مع تمكُّنِهم من الاستعانةِ بكُلِّ مَن عدا اللهَ- تبيَّن أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ الله تعالى[٢].

٦- قول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ فيه أنَّ هذا القُرآنَ مُعجِزٌ بنَفسِه، لا يَقدِرُ أحدٌ مِن البَشَرِ أن يأتيَ بمِثلِه، ولا بعَشرِ سُوَرٍ مِن مِثلِه، بل ولا بسُورةٍ مِن مِثلِه؛ لأنَّ الأعداءَ البُلَغاءَ الفُصَحاءَ تحدَّاهم اللهُ بذلك، فلم يُعارِضوه؛ لعِلمِهم أنَّهم لا قُدرةَ فيهم على ذلك[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾.

- قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾، التَّوقُّعُ المستَفادُ مِن (لعلَّ) مُستعمَلٌ في تحذيرِ مَن شأنُه التَّبليغُ، وعلى القول بتَقديرِ استِفْهامٍ

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠-٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٨).

حُذِفَت أداتُه، والتَّقديرُ: أَلَعلَّك تارِكٌ؟! فيكونُ الاستفهامُ مُستعمَلًا في النَّفْيِ للتَّحذيرِ[١].

- قولُه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ...﴾ فيه اختيارُ التَّعبيرِ بـ ﴿ضَائِقٌ﴾ بدلَ (ضيِّقٌ)؛ لِمُوافَقةِ قولِه قبلَه: ﴿تَارِكٌۢ﴾، ولِيَدُلَّ على أنَّه ضِيقٌ عارِضٌ لا ثابتٌ؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان أوْسَعَ النَّاسِ صدرًا، ونظيرُه قولُ القائِلِ: زيدٌ سائدٌ وجائدٌ، يُريدُ به أنَّه حَدَثَ فيه السِّيادةُ والجودُ، فإنْ أُرِيدَ وصْفُه بثُبوتِهما، قيل: زيدٌ سيِّدٌ وجَوَادٌ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ في موقعِ العِلَّةِ للتَّحذيرِ مِن ترْكِه بعْضَ ما يُوحى إليه، وضِيقِ صَدْرِه مِن مَقالَتِهم؛ فكأنَّه قيل: لا تَترُكْ إبلاغَهم بعْضَ ما يُوحَى إليك، ولا يَضِقْ صدْرُك مِن مَقالِهم؛ لأنَّك نذيرٌ، لا وكيلٌ على تَحصيلِ إيمانِهم؛ حتَّى يترتَّبَ على يَأسِك مِن إيمانِهم ترْكُ دعوتِهم[٣].

- والقَصْرُ فيه بـ﴿إِنَّمَآ﴾ قصرٌ إضافيٌّ؛ أي: أنتَ نذيرٌ، لا موكَّلٌ بإيقاعِ الإيمانِ في قُلوبِهم؛ إذْ ليس ذلك إليكَ بل هو للَّه[٤].

- واقتصَرَ على النِّذارةِ؛ لأنَّ المقامَ يقتضيها؛ من أجلِ أنَّهم أهلٌ لها[٥].

- وجملةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ تذييلٌ لقولِه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، وهي مَعطوفةٌ على جملةِ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾؛ لِما اقتَضاه القَصرُ مِن إبطالِ أن يَكونَ وَكيلًا على إلجائِهم للإيمانِ، ومِمَّا شَمِلَه عُمومُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٧).

﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ أنَّ اللهَ وكيلٌ على قلوبِ المكذِّبين، وهم المقصودُ، وإنَّما جاء الكلامُ بصِيغةِ العُمومِ؛ لِيَكونَ تَذييلًا، وإتيانًا للغرَضِ بما هو كالدَّليلِ[١].

- ولَمَّا كان السِّياقُ لإحاطتِه سُبحانه، قدَّمَ قولَه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٢].

٢- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ للتَّوبيخِ والإنكارِ والتَّعجُّبِ، والتَّقديرُ: بل أيَقولون: افتَراه؟! والإضرابُ بقولِه: ﴿أَمْ﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ في قُوَّةِ الاستئنافِ الابتدائيِّ، فلِلجُملَةِ حُكمُ الاستئنافِ، والمناسَبةُ ظاهرةٌ؛ لأنَّ الكلامَ في إبطالِ مَزاعِمِ المشرِكين- فإنَّهم قالوا: هذا كلامٌ مُفترًى- وقَرْعِهم بالحُجَّةِ[٣].

- قولُه: ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾، ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ أي: أمثالِه، وعُبِّر بالمُفردِ إمَّا باعتبارِ مُماثَلةِ كلِّ واحدٍ منها، أو لأنَّ المطابقةَ ليسَت بشَرطٍ حتَّى يُوصَف المثنَّى بالمفرَدِ، كما في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾، أو للإيماءِ إلى أنَّ وجهَ الشَّبَهِ ومَدارَ المماثلةِ في الجميعِ شيءٌ واحدٌ؛ هو البلاغةُ المؤدِّيةُ إلى مَرتَبةِ الإعجازِ، فكأنَّ الجميعَ واحدٌ[٤].

- وقولُه: ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ صِفةٌ أُخرَى لـ﴿سُوَرٍ﴾، وأُخِّرَت عن وصْفِها بالمماثَلةِ لِما يُوحَى؛ لأنَّ المماثلةَ هي الصِّفةُ المقصودةُ بالتَّكليفِ؛ إذْ بها يَظهَرُ عجزُهم وقُعودُهم عن المعارَضةِ، وأمَّا وصفُ الافتراءِ فلا يتَعلَّقُ به غرَضٌ يَدورُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩١).

شيءٌ في مَقامِ التَّحدِّي، وإنَّما ذُكِر على نَهْجِ المُساهَلةِ، وإرخاءِ العِنانِ، ولأنَّه لو عُكِس التَّرتيبُ لرُبَّما تُوُهِّم أنَّ المرادَ هو المماثلةُ في الافتراءِ(١).

- وجوابُ الشَّرطِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ المذكورِ عليه، وهو قولُه: ﴿فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾، ووجهُ الملازَمةِ بينَ الشَّرطِ وجَزائِه أنَّه إذا كان الافتراءُ يأتي بهذا القرآنِ؛ فما لكم لا تَفترون أنتم مِثلَه، فتَنهَضَ حُجَّتُكم(٢)؟!

٣- قولُه تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ تفريعٌ على ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾، والاستجابةُ: الإجابةُ، والسِّينُ والتَّاءُ فيه للتَّأكيدِ(٣).

- قولُه: ﴿لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ فيه جمعُ الخطابِ بعدَ إفرادِه في قولِه: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ مَعْناه: فإنْ لَم يَستَجيبوا لك وللمُؤمِنين؛ لأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم والمؤمنين كانوا يَتَحَدَّوْنهم(٤)، أو لأنَّهم أتباعٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الأمْرِ بالتَّحدِّي، وفيه تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ حقَّهم أنْ لا يَنفَكُّوا عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُناصِبوا معه لِمُعارَضةِ المعارِضينَ كما كان يَفعَلونه في الجِهادِ، وإرشادٌ إلى أنَّ ذلك ممَّا يُفيدُ الرُّسوخَ في الإيمانِ، والطُّمأنينةَ في الإيقانِ، ولذلك رُتِّب عليه قولُه عزَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٣).

وجلَّ: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ ...﴾[١].

- وعلى القول بأنَّ المعنى: فإن لم تستَجِبْ لكم آلهتُكم، وسائرُ مَنْ إليهم تَجْأَرون في مُهِمَّاتِكم ومُلِمَّاتِكم إلى المعاوَنةِ والمظاهَرَةِ؛ فاعلَموا أنَّ ذلك خارِجٌ عن دائرةِ قُدْرةِ البشَرِ، وأنَّه مُنزَّلٌ مِن خالِقِ القُوى والقُدَرِ؛ فيكونُ إيرادُ كَلِمةِ الشَّكِّ حينَئذٍ مع الجزْمِ بعدَمِ الاستجابةِ من جِهَةِ آلهتِكم تَهكُّمًا بهم، وتَسجيلًا عليهم بكمالِ سَخافةِ العقلِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ بحَذفِ النُّونِ والجَمعِ، وأمَّا في سورةِ القَصصِ فقال: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ﴾ [القصص: ٥٠] على الواحِدِ؛ ووجهُ جمعِ الخِطابِ هاهنا وتوحيدِه في القصَصِ: أنَّ ما في هذه السُّورةِ خِطابٌ للرَّسولِ وللمؤمنِينَ، ويجوز أنْ يكون الجمعُ لتَعظيمِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. وقيل: لأنَّه خِطابٌ للكفَّارِ، والفعلَ يَعودُ لـ ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾- على أحد أوجه التفسير- وأمَّا ما في القَصصِ فهو خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم، والفِعلُ للكفَّارِ[٣].

- والفاءُ في ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ للتَّفْريعِ على ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في الحثِّ على الفعلِ وعدَمِ تأخيرِه، والمعنى: فهل تُسْلِمون بعدَ تَحقُّقِكم أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللهِ[٤]؟ وقيل: قَولُ الله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: أسلِموا، وفي مثلِ هذا الاستفهامِ إيجابٌ بليغٌ؛ لِما فيه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١١٠٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢).

معنى الطَّلَبِ، والتنبيهِ على قيامِ المُوجِبِ، وزوالِ العُذرِ[١].

- وجِيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ الدَّالةِ على دَوامِ الفعلِ وثَباتِه؛ لِتَأكيدِ الطَّلَبِ لهذا الوصفِ؛ فإنَّ الجملةَ الاسميَّةَ أدَلُّ على حُصولِ المطلوبِ وثُبوتِه، وهو أدَلُّ على طلَبِه، ولَم يَقُلْ: (فهَل تُسلِمون)؛ لأنَّ حالةَ عدَمِ الاستجابةِ تُكسِبُ اليقينَ بصِحَّةِ الإسلامِ، فتَقْتَضي تَمكُّنَه مِن النُّفوسِ، وذلك التَّمكُّنُ تَدُلُّ عليه الجملةُ الاسميَّةُ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢).

الآيات (١٥-١٧)

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾: أي: نُوصِلْها إليهم وافيةً كاملةً، وأصلُ (وفي): يدلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ[١].

﴿يُبْخَسُونَ﴾: أي: يُنقصونَ، والبخسُ: نقصُ الشيءِ على سبيلِ الظُّلم، وأصلُ (بخس): النَّقصُ[٢].

﴿مِرْيَةٍ﴾: أي: شكٍّ، وقيل: المريةُ: التردُّدُ في الأمرِ، وهو أخصُّ مِن الشكِّ[٣].

المعنَى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ سُبحانه سوءَ مَصيرِ الذين لا يُريدونَ بأقوالِهم وأعمالِهم وجهَ اللهِ تعالى،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

فيقولُ: من كان يُريدُ بعَمَلِه الحياةَ الدُّنيا ومُتَعَها، نُعطِهم ما قُسِمَ لهم مِن ثوابِ أعمالِهم في الحياةِ الدُّنيا، كاملًا غيرَ مَنقوصٍ، أولئك ليس لهم في الآخرةِ إلَّا نارُ جهنَّمَ، يُقاسونَ حَرَّها، وذهَب عنهم نَفْعُ ما عَمِلوه، وباطلٌ ما كانوا يعملون مِن الخيرِ؛ لأنَّه لم يكُن لِوَجهِ الله.

ثم يقولُ تعالى: أفمَن كان على بينةٍ مِن رَبِّه، ويَتْبَعُه شاهِدٌ آخَرُ مِن اللهِ، يوافِقُ هذه البينةَ ويَتْبَعُها -وهو القُرآن- وشاهِدٌ آخَرُ مِن قَبلِ القرآنِ، وهو التَّوراةُ- الكتابُ الذي أُنزِلَ على موسى إمامًا ورحمةً لِمَن آمن به- كمن كان همُّه الحياةَ الفانيةَ بزِينتِها؟ أولئك يصدِّقونَ بهذا القُرآنِ، ويَعمَلونَ بأحكامِه، ومَن يكفُرْ بهذا القرآنِ مِن الذين تحزَّبوا على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فجزاؤه النَّارُ يَرِدُها لا محالةَ، فلا تكُنْ- أيُّها الرَّسولُ- في شَكٍّ مِن أمرِ القُرآنِ، وكَونِه مِن عندِ الله تعالى بعد ما شَهِدَت بذلك الأدلَّةُ والحُجَجُ، واعلَمْ أنَّ هذا القرآنَ هو الحَقُّ مِن ربِّك، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمنونَ بأنَّه حَقٌّ مِن عندِ الله؛ عنادًا واستكبارًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سبق فيه مِن الحَثِّ على الثَّباتِ على الإسلامِ والدُّخولِ فيه، والوعيدِ على التقاعُسِ عنه ما مِن حَقِّ السَّامعِ أن يُبادِرَ إليه، وكان حقُّ المُسلِمِ الإعراضَ عن الدُّنيا؛ لسُوءِ عاقِبتِها، وكان أعظَمُ الموانعِ للمُشرِكينَ مِن التَّصديقِ استيلاءَ أحوالِ الدُّنيا عليهم، ولذلك تعنَّتوا بالكَنزِ- أشار هنا إلى عواقبِ ذلك[1].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٥١).

وأيضًا فإنَّه بعدَ أن قامت الحُجَّةُ القَطعيَّةُ على إعجازِ القُرآنِ، وحقِّيَّةِ دعوةِ الإسلامِ، بما يقطَعُ ألسِنةَ المُفتَرينَ، ويُبطِلُ مَعاذيرَهم؛ بيَّن لهم في هذه الآيةِ والتي تليها الصَّارِفَ النَّفسيَّ لهم عنه، وكونَه شَرًّا لهم لا خيرًا، وهو أنَّه لا حَظَّ لهم من حياتِهم إلَّا شَهواتُ الدُّنيا وزِينتُها، والإسلامُ يَدعوهم إلى إيثارِ الآخرةِ على الأُولَى[1].

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾.

أي: من كان يَقصِدُ بسَعيِه وأعمالِه الصَّالحةِ الحياةَ الدُّنيا وزِينَتَها، نُعطِه ثوابَ أعمالِه فيها كامِلًا، كسَعةِ الرِّزقِ، ودَفعِ المَكارِه وغيرِ ذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨].

وقال سُبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٧٦)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٦٣، ١٦٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٢).
ذهَب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ هذه الآيةَ خاصَّةٌ بالكُفَّارِ الذين يريدونَ بأعمالِهم الدُّنيا وزينَتَها، وممَّن اختار ذلك: ابنُ عطيةَ، وابنُ جزيٍّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).
وممن قال به مِن السلفِ: قتادةُ والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٦).
وقيل: الآيةُ عامَّةٌ في كلِّ مَن ينوي بعَمَلِه غيرَ الله تعالى، سواء كان معه أصلُ إيمانٍ أو لم يكُن. قاله مجاهد وميمون بن مهران، وإليه ذهب معاوية وقال ابنُ الجوزي: (وهو قولُ الأكثرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لا يَظلِمُ مُؤمِنًا حَسَنةً؛ يُعطَى بها في الدُّنيا، ويُجزَى بها في الآخرةِ، وأمَّا الكافِرُ فيُطعَمُ بحَسَناتِ ما عَمِلَ بها لله في الدُّنيا، حتى إذا أفضَى إلى الآخرةِ لم تكُن له حَسَنةٌ يُجزى بها))[١].

وعن أبي هريرة رضي اللهُ عنه، أنَّ رسول الله صلى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أولَ الناسِ يُقضى[٢] يومَ القيامَةِ عليه، رجُلٌ استُشهِد، فأتى به فعرَّفه نِعَمَه فعرَفها، قال: فما عمِلتَ فيها؟ قال: قاتَلتُ فِيكَ حتى استُشهِدتُ، قال: كذَبتَ، ولكنَّكَ قاتَلتَ لِأَنْ يُقالَ: جَريءٌ. فقد قيل، ثم أمَر به فسُحِب على وجهِه حتى أُلقِيَ في النارِ. ورجُلٌ تعلَّم العِلمَ وعلَّمه، وقرَأ القرآنَ، فأُتِي به، فعرَّفه نِعَمَه فعرَفها، قال: فما عمِلتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العِلمَ وعلَّمتُه، وقرَأتُ فيكَ القرآنَ، قال: كذَبتَ، ولكنَّكَ تعلَّمتَ العِلمَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وقرَأتَ القُرآنَ لِيُقالَ: هو قارِئٌ، فقد قيل، ثم أمَر به فسُحِبَ على وجهِه حتى أُلقِي في النارِ. ورجُلٌ وسَّع اللهُ عليه، وأعطاه مِن أصنافِ المالِ كلِّه، فأتَى به فعرَّفه نِعَمَه فعرَفها، قال: فما عمِلتَ فيها؟ قال: ما ترَكتُ مِن سبيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنفَقَ فيها إلَّا أنفَقتُ فيها لكَ، قال: كذَبتَ، ولكنَّكَ فعَلتَ لِيُقالَ هو جَوَادٌ، فقد قيل، ثم أمَر به فسُحِب على وجهِه، ثم أُلقِي في النارِ))[٣].

﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾.

أي: ولا يَنقُصُهم اللهُ ثوابَ أعمالِهم الصَّالحةِ في الدُّنيا[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٨).

(٢) يُقضَى: أي: يُحاسَبُ، ويُسألُ عن أفعالِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى حال من يريدُ الحياةَ الدُّنيا في الدُّنيا؛ بيَّنَ حالَهم في الأُخرَى[1]، فقال:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾.

أي: أولئك الذين يُريدونَ بأعمالِهم الصَّالحةِ الحياةَ الدُّنيا وزِينتَها، لا يكونُ لهم في الآخرةِ إلَّا النَّارُ، فيصلَونَها[2].

عن أُبيِّ بنِ كعبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بشِّرْ هذه الأُمَّةَ بالسَّناءِ[3] والرِّفعةِ، والدِّينِ والنَّصرِ، والتَّمكينِ في الأرضِ، فمَن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٤).

قال الشوكاني: (الإشارةُ إلى المُريدينَ المذكورينَ، ولا بدَّ مِن تقييدِ هذا بأنَّهم لم يُريدوا الآخرةَ بشَيءٍ من الأعمالِ المعتَدِّ بها المُوجِبةِ للجَزاءِ الحسَن في الدار الآخرةِ، أو تكونُ الآيةُ خاصَّةً بالكفَّارِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٤).

قال ابنُ القيم بعد أن ذكَر أنَّ هذه الآيةَ أشكَل فهمُها على كثيرٍ مِن الناسِ، وذكَر الخلافَ في معناها، قال: (والآيةُ بحمدِ الله لا إشكالَ فيها، والله سبحانه ذكر جزاءَ من يريدُ بعَمَله الحياةَ الدُّنيا وزينتها- وهو النَّارُ- وأخبَرَ بحُبوطِ عَمَله وبُطلانِه، فإذا أُحبِط ما ينجو به وبطل، لم يبقَ معه ما يُنجيه، فإن كان معه إيمانٌ لم يُرِدْ به الدُّنيا وزينتَها، بل أراد اللهَ به والدارَ الآخرة، لم يدخُل هذا الإيمانُ في العمل الذي حَبِطَ وبطل، وأنجاه إيمانُه من الخلودِ في النار، وإن دخلها بحُبوطِ عَمَلِه الذي به النَّجاةُ المُطلقةُ، والإيمانُ إيمانان: إيمانٌ يمنع من دخول النَّارِ، وهو الإيمانُ الباعِثُ على أن تكونَ الأعمالُ لله، يُبتغى بها وجهُه وثوابُه، وإيمانٌ يمنع الخلودَ في النارِ، وإن كان مع المرائي شيءٌ منه، وإلَّا كان من أهل الخلودِ، فالآية لها حُكم نظائِرِها من آياتِ الوعيدِ، والله الموفِّق). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٦٥- ١٦٦).

(٣) بالسَّناءِ: أي: بارتِفاعِ المَنزلةِ والقَدْرِ عند الله تعالى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤١٤).

عَمِلَ منهم عمَلَ الآخرةِ للدُّنيا، لم يكُن له في الآخرةِ نَصيبٌ))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من تعلَّم علمًا ممَّا يُبتَغَى به وجهُ الله، لا يتعلَّمُه إلاَّ ليُصيبَ به عرَضًا[٢] منَ الدُّنيا؛ لم يجِدْ عَرْفَ الجنَّةِ يومَ القيامةِ)) يعني: رِيحَها[٣].

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾.

أي: وذهبَ وبطَلَ ما عَمِلوا من الأعمالِ الصَّالحةِ في الدُّنيا، فلا يُثابون عليها في الآخرةِ[٤].

﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: وباطلٌ ما كانوا يعملونَه مِن الخيرِ لغَيرِ اللهِ، فلا ينفَعُهم عندَ الله[٥].

عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه، قال: سمعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّما الأعمالُ بالنيَّةِ، وإنَّما لامرئٍ ما نوى، فمن كانت هِجرتُه إلى اللهِ ورَسولِه فهِجرتُه إلى الله ورسولِه، ومن كانت هِجرتُه لدنيا يصيبُها أو امرأةٍ

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٢٢٠) واللفظ له، وابن حبان (٤٠٥)، والحاكم (٧٨٦٢).
قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٢٢٣): رجالُه رجالُ الصحيحِ، ووثَّق رواته البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٣٤٨)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٨٢٥).

(٢) عَرَضًا: العَرَضُ: مَتاعُ الدُّنيا وحُطامُها. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢١٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وأحمد (٨٤٥٧).
صحَّح إسنادَه النوويُّ في ((المجموع)) (١/ ٢٣)، وابنُ تيمية في ((شرح حديثِ جبريلَ)) (٥٨٥)، والذهبيُّ في ((الكبائر)) (٢٨٤)، وجوَّد إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٨٩)، وصحَّح إسناده الهيتميُّ المكي في ((الزواجر)) (١/ ٤١)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٦/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٤).

يتزَوَّجُها فهِجرتُه إلى ما هاجرَ إليه))[١].

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

تعَلُّقُ هذه الآيةِ بما قَبلَها ظاهِرٌ، فالتَّقديرُ: أفمَن كان على بيِّنةٍ مِن ربِّه، كمَن يريدُ الحياةَ الدُّنيا وزينَتَها وليس لهم في الآخرةِ إلَّا النَّارُ، إلَّا أنَّه حُذِف الجوابُ لِظُهورِه[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى حالَ من يريدُ الحياةَ الدُّنيا، ذكَرَ حالَ مَن يريدُ وَجهَ اللهِ تعالى بأعمالِه الصَّالحةِ[٣].

وأيضًا لَمَّا اتَّضَحت الحُجَجُ، وانتهَضَت الدَّلائلُ، كان ذلك موضِعَ الإنكارِ على مَن يُسَوِّي بينَ المُهتَدي والمُعتَدي[٤].

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾.

أي: أفمَن[٥] كان على بيِّنةٍ[٦] مِن رَبِّه، ويَتبَعُه شاهِدٌ آخَرُ مِن اللهِ يوافِقُ هذه

(١) أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٥٢).

(٥) قال ابنُ تيمية: (أمَّا مَن قال: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾: إنَّه محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم -كما قاله طائفةٌ مِن السلفِ- فقد يريدون بذلك التمثيلَ لا التخصيص؛ فإنَّ المفسرينَ كثيرًا ما يريدونَ ذلك، ومحمدٌ هو أولُ مَن كان على بينةٍ مِن ربِّه، وتلاه شاهدٌ منه، وكذلك الأنبياءُ، وهو أفضلُهم وإمامُهم، والمؤمنونَ تبعٌ له، وبه صاروا على بينةٍ مِن ربِّهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٨١).

(٦) قيل: المرادُ بها: الفطرةُ على التوحيدِ. وممن قال بذلك: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير))

البينةَ ويَتْبَعُها، وهو القرآنُ الذي شَهِدَ اللهُ فيه بِمْثلِ ما عليه المؤمِنُ من بيِّنةٍ[(١)].

(٤/ ٣١١).

وقيل: المرادُ بها: القرآنُ. وممن قال بذلك: ابنُ القيم، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((مدارج السالكين)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

وقيل: المرادُ بالبينةِ: هدَى الإيمانِ، والبصيرةُ في الدينِ، والعلمُ النافع. وهذا محصلةُ ما قاله ابنُ تيميةَ عن البينةِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٦٩) و (١٥/ ٦٢، ٧١، ٧٨).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٦٩) و (١٥/ ٦٤ – ٦٨، ٧١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١١).

وممن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ مِن أنَّ المرادَ بالشاهدِ: هو القرآنُ: ابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير. يُنظر: المصادر السابقة.

ومِن المفسِّرين مَن جعَل الشاهدَ هو جبريلَ عليه السلامُ. ومنهم: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٢).

ومنهم مَن جعَل الشاهدَ هو الفطرةُ المستقيمةُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

وقيل: الشاهدُ هو القرآنُ يشهدُ بكونِه مِن عندِ الله تعالى. وممن قال بذلك: القاسمي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٣).

ومثله قولُ ابن القيم حيث قال: (القرآنُ العظيمُ قد اجتَمع فيه ما لم يجتمعْ في غيرِه، فإنَّه هو الدعوةُ والحجةُ، وهو الدليلُ والمدلولُ عليه، وهو الشاهدُ والمشهودُ له، وهو الحكمُ والدليلُ، وهو الدعوَى والبينةُ، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: مِن ربِّه، وهو القرآنُ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٤٣٥).

قال الواحدي: (قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: ١٧] يعني النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قولِ عامةِ المفسِّرين، قال ابنُ عبَّاسٍ: يريدُ على يقينٍ وبيانٍ. ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧] وهو جبريلُ عليه السلامُ في قولِ أكثرِ المفسِّرين، قال ابنُ قتيبةَ: والشاهدُ مِن الله لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كِتابُ مُوسَى. يعني: التوراةَ، يتلوه أيضًا في التصديقِ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بشَّر به موسى في التوراةِ). ((الوسيط)) (٢/ ٥٦٨).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقولُه: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: وجاءَه شاهدٌ مِن الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياءِ مِن الشرائعِ المطهرةِ المكملةِ المعظَّمةِ، المختتمةِ بشريعةِ محمَّد، صلواتُ الله وسلامُه عليه وعليهم أجمعين. ولهذا قال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وأبو العاليةِ، والضحَّاك، وإبراهيمُ النخعيُّ، والسُّديُّ، وغيرُ واحد في قولِه تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: إنَّه جبريلُ عليه السلامُ. وعن عليٍّ، والحسنِ، وقتادةَ: هو محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم. وكلاهما قريبٌ في المعنى؛ لأنَّ كلًّا من جبريلَ ومحمدٍ صلواتُ الله عليهما، بلَّغ رسالةَ الله تعالى، فجبريلُ

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾.

أي: وشاهدٌ آخَرُ مِن قَبلِ القُرآنِ، وهو التَّوراةُ التي أنزَلَها اللهُ على نبيِّه موسى إمامًا لبني إسرائيلَ؛ يَأْتمُّونَ بها ويَتَّبِعونها، ورحمةً مِن الله بهم[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

أي: أولئك الذين على بيِّنةٍ من ربِّهم يُؤمِنونَ بالقُرآنِ حقًّا[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩٢].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

أي: ومَن يكفُرْ بالقُرآنِ مِن أهلِ المِلَلِ كُلِّها، فالنَّارُ مَوعِدُه يومَ القيامةِ، فيكونُ مِن أهلِها[٣].

إلى محمدٍ، ومحمدٌ إلى الأمةِ. وقيل: هو عليٌّ. وهو ضعيفٌ لا يثبتُ له قائلٌ، والأوَّل والثاني هو الحقُّ؛ وذلك أنَّ المؤمن عنده مِن الفطرة ما يشهدُ للشريعةِ مِن حيثُ الجملةُ، والتفاصيلُ تؤخذُ مِن الشريعةِ، والفطرةُ تصدِّقُها وتؤمنُ بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، وهو القرآنُ، بلَّغه جبريلُ إلى النبيِّ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبلَّغه النبيُّ محمدٌ إلى أمتِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

قال ابنُ جرير: (وفي الكلام مَحذوفٌ قد تُرِكَ ذِكرُه؛ اكتفاءً بدَلالةِ ما ذُكِرَ عليه منه، وهو: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ كمَن هو في الضَّلالةِ مُتَردِّدٌ، لا يهتدي لرُشدٍ، ولا يعرِفُ حَقًّا مِن باطلٍ، ولا يطلبُ بعَمَلِه إلَّا الحياةَ الدُّنيا وزينتَها؟). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧٥، ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧)، ((مجموع الفتاوى))

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((والذي نفسُ محمَّدٍ بِيَدِه، لا يسمَعُ بي أحدٌ مِن هذه الأمَّةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثمَّ يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرسِلتُ به، إلَّا كان من أصحابِ النَّارِ))(١).

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾.

أي: فلا تكنْ في شكٍّ- يا محمَّدُ- مِن أنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، وأنَّ مَن كذَّب به فالنَّارُ مَوعِدُه(٢).

كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١-٢].

﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

أي: إنَّ القرآنَ الذي أنزَلْناه إليك -يا محمَّدُ- حقٌّ من عندِ رَبِّك، لا شكَّ في ذلك(٣).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ بأنَّ القُرآنَ حقٌّ مِن عندِ اللهِ، إمَّا جهلًا

لابن تيمية (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(١) أخرجه مسلم (١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٤٥).

قال ابنُ قتيبة: (الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ غَيرُه). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٢٧).

وقال القرطبي: (والخِطابُ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ جميعُ المُكلَّفين). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٥).

وتقليدًا للمَتبوعينَ، وإمَّا عِنادًا واستكبارًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مَن كانتِ الدُّنيا مُرادَه ولها يَعمَلُ، وهي غايةُ كَدْحِه؛ لم يكنْ له في الآخرةِ نَصيبٌ، ومَن كانتِ الآخرةُ مرادَه ولها عمَلُه، وهي غايةُ سَعيِه؛ فهي له[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الناويَ الجازِمَ، الآتيَ بما يُمكِنُه؛ فإنَّه بمنزلةِ الفاعلِ التَّامِّ، وقد دلَّ قولُه: ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾، وقولُه: ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ على أنَّه كان لهم أعمالٌ بطلتْ، وعُوقِبوا على أعمالٍ أُخرَى عمِلوها، وأنَّ الإرادةَ هنا مستلزمةٌ للعملِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لما كان الذي يمنعُ الإنسانَ مِن اتباعِ الرسولِ شيئانِ: إمَّا الجهلُ، وإمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٤٤).

فسادُ القصدِ؛ ذكَر ما يزيلُ الجهلَ، وهو الآياتُ الدالةُ على صدقِه، بقولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ...﴾ ثمَّ ذكَر أهلَ فسادِ القصدِ بقولِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ...﴾ فهؤلاء أهلُ فسادِ القصدِ، فهذان الأمرانِ هما المانعانِ للخلقِ مِن اتباعِ هذا الرسولِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ قال بعضُ العُلَماءِ: معنى هذه الآيةِ قَولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ))[٢]، وفيها دلالةٌ على أنَّ مَن صام في رمضانَ لا عن رمضانَ، لا يقَعُ عن رَمَضانَ، وعلى أنَّ من توضَّأَ للتبَرُّدِ والتنظُّفِ، لا يقَعُ قُربةً عن جهةِ الصَّلاةِ، وهكذا كلُّ ما كان في معناه[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ أي: هُدَى الإيمانِ، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: القرآنُ شاهدٌ مِن الله يُوافقُ الإيمانَ ويتبعُه؛ لذا قال: (يَتْلُوهُ)؛ لأنَّ الإيمانَ هو المقصودُ؛ لأنَّه إنَّما يُراد بإنزالِ القرآنِ الإيمانُ وزيادتُه، ولهذا كان الإيمانُ بدونِ قراءةِ القرآنِ ينفعُ صاحبَه، ويدخلُ به الجنةَ، والقرآنُ بلا إيمانٍ لا ينفعُ في الآخرةِ، بل صاحبُه منافقٌ[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ لَمَّا كان كتابُ موسى سببًا للرَّحمةِ، أطلَق اسمَ الرَّحمةِ عليه إطلاقًا لاسمِ المُسبَّبِ على السَّبَبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٩٣).
(٢) أخرجه البخاري (١) واللفظ له، ومسلم (١٩٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٠).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ قال بعضُ العُلَماءِ: لَمَّا دلَّت الآيةُ على أنَّ من يكفُر به كانت النَّارُ مَوعِدَه، دلَّ على أنَّ مَن لا يكفُر به كانت الجنَّةُ مَوعِدَه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾

- قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ فيه إدخالُ (كان) عليه؛ للدَّلالةِ على استِمْرارِها منهم بحيثُ لا يَكادون يُريدون الآخِرةَ أصلًا[٢]، وفِعلُ الشَّرطِ في المَقامِ الخِطابيِّ يُفيدُ اقتِصَارَ الفاعِلِ على ذلك الفِعْلِ، فالمعنى: مَن كان يُريدُ الحياةَ الدُّنْيا فقَط؛ بقرينةِ قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾؛ إذْ حصَر أمْرَهم في استحقاقِ النَّارِ، وهو مَعْنى الخلودِ[٣]، وهذا على أحدِ القولينِ في الآيةِ.

- قولُه تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ فيه إطلاقُ الأعمالِ في ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وإرادةُ ثَمراتِها؛ فالمعنى: نُوصِلُ إليهم ثَمراتِ أعمالِهم في الحياةِ الدُّنيا كامِلةً[٤].

- ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ عن النَّقصِ بالبَخْسِ -حيث قال: ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ بدَلَ (لا يُنقَصون)- وإنَّما عبَّر عن ذلك بالبَخْسِ الَّذي هو نَقْصُ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٣).

الحقِّ، مع أنَّه ليس لهم شائِبةُ حقٍّ فيما أُوتوه، كما عبَّر عن إعطائِه بالتَّوْفيَةِ الَّتي هي إعطاءُ الحقوقِ، مع أنَّ أعمالَهم بمَعزِلٍ عن كونِها مُستوجِبةً لذلك؛ بِناءً للأمرِ على ظاهرِ الحالِ، ومُحافَظةً على صُوَرِ الأعمالِ، ومُبالَغةً في نفْيِ النَّقْصِ؛ كأنَّ ذلك نقصٌ لحُقوقِهم، فلا يَدخُلُ تحتَ الوُقوعِ والصُّدورِ عن الكريمِ أصلًا[1].

- وكرَّرَ لفظَ (فيها) للتَّأكيدِ والإعلامِ بأنَّ الآخرةَ ليست كالدُّنيا في وفاءِ كَيلِ الجزاءِ وفي بَخسِه؛ فإنَّه فيها مَنوطٌ بأمرينِ: كسبُ الإنسانِ، ونِظامُ الأقدارِ، وقد يتعارضانِ، وأمَّا جزاءُ الآخرةِ فهو بفِعلِ اللهِ تعالى مباشرةً: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2] [الكهف: ٤٩].

٢- قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

- جملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ مُستأنَفةٌ، ولكنَّ اسْمَ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يَربِطُ بينَ الجُملتَينِ، وأُتي باسْمِ الإشارةِ؛ لِتَمييزِهم بتلك الصِّفاتِ المذكورةِ قبْلَ اسْمِ الإشارةِ. وأيضًا في اسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تنبيهٌ على أنَّ المشارَ إليه استَحقَّ ما يُذكَرُ بعدَه مِن الحُكْمِ، مِن أجْلِ الصِّفاتِ الَّتي ذُكِرت قبلَ اسْمِ الإشارةِ[3].

- وأيضًا في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ التَّعبيرُ باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعْدِ مَنزِلَتِهم في سوءِ الحالِ، أي: أولئك المُريدون للحياةِ الدُّنيا وزينَتِها المُوَفَّوْن فيها ثَمراتِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤، ٢٥).

أعمالِهم مِن غَيرِ بَخْسٍ[١].

- وفي زِيادةِ (كان) في الثاني ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ الأوَّلِ ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ صُدورَ أعمالِ البرِّ منهم وإنْ كان لغَرَضٍ فاسدٍ، ليس في الاستمرارِ والدَّوامِ كصُدورِ الأعمالِ التي هي مِن مُقدِّماتِ مَطالبِهم الدَّنيَّة[٢].

٣- قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فيه إيرادُ الفاءِ بعدَ الهمزةِ في ﴿أَفَمَن﴾؛ لإنكارِ تَرتُّبِ توهُّمِ المماثَلةِ على ما ذُكِرَ مِن صِفاتِهم وعُدِّد مِن هَنَاتِهم؛ كأنَّه قيل: أبَعْدَ ظُهورِ حالِهم في الدُّنيا والآخِرَةِ كما وُصِف يُتَوهَّمُ المماثَلةُ بينَهم وبينَ مَن كان على أحسَنِ ما يكونُ في العاجلِ والآجلِ[٣]؟!

- قولُه: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ فيه تخصيصُ التَّوراةِ بالذِّكْرِ؛ قيل: وذلك لأنَّ المِلَّتَين (اليَهودَ والنَّصارى) مُجتمِعتانِ على أنَّها مِن عندِ اللهِ، والإنجيلُ يُخالِفُ فيه اليهودُ؛ فكان الاستِشهادُ بما تقومُ به الحُجَّةُ على الفَريقين أَوْلى[٤]، وأيضًا لأنَّ التوراةَ هي الأصلُ، والإنجيلُ تبعٌ لها في كثيرٍ مِن الأحكامِ، وإن كان مغايرًا لبعضِها[٥].

- وذكرُ اسمِ الإشارةِ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ يُشبِهُ ذكرَ ضَميرِ الفصلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٥).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٥).

وفيه تَنبيهٌ على أنَّ ما بعدَه من الخبرِ مُسبَّبٌ على ما قبل اسمِ الإشارةِ من الأوصافِ، وهي كونُهم على بيِّنةٍ مِن ربِّهم مُعضَّدةٍ بشواهدَ من الإنجيلِ والتوراةِ[١].

- قولُه: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تفريعٌ على جُملةِ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾، والخطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والنَّهيُ مُستعمَلٌ كنايةً تَعريضيَّةً بالكافِرين بالقُرآنِ؛ لأنَّ النَّهيَ يَقْتَضي فَسادَ المنهيِّ عنه ونَقْصَه، فمِن لَوازِمِه ذَمُّ المتلبِّسِ بالمنهيِّ عنه، ولَمَّا كان المخاطَبُ غيرَ مَظِنَّةٍ للتَّلبُّسِ بالمنهيِّ عنه فيُطلَبَ مِنه تَرْكُه، ويَكونُ النَّهيُ طلَبَ تَحصيلِ الحاصلِ، تَعيَّنَ أن يَكونَ النَّهيُ غيرَ مُرادٍ به الكَفُّ والإقلاعُ عن المنهيِّ عنه، فيكونُ مُستعمَلًا في لازِمِ ذلك بقرينةِ المَقامِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ مُستَأنَفٌ تأكيدًا لِما دَلَّت عليه جُملةُ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾، مِن أنَّه لِوُضوحِ حَقيقتِه لا يَنبَغي أن يُمترى في صِدْقِه، وحَرفُ التَّأكيدِ يقومُ مقامَ الأمرِ باعتقادِ حَقيَّتِه؛ لِمَا يَدُلُّ عليه التَّأكيدُ مِن الاهتمامِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾، اخْتِيرَ النَّهيُ عن المِرْيَةِ دونَ النَّهيِ عن اعتِقادِ أنَّه كذِبٌ، كما هو حالُ المشرِكين؛ لأنَّ النَّهيَ عنِ الامْتِراءِ فيه يقتَضي النَّهيَ عن الجزْمِ بالكذِبِ بالأَوْلى، وفيه تعريضٌ بأنَّ ما فيه المشرِكون مِن اليقينِ بكَذِبِ القرآنِ أشَدُّ ذمًّا وشَناعةً[٤].

- وتعريفُ ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ لإفادةِ قَصْرِ جِنْسِ الحقِّ على القرآنِ، وهو قَصرُ مُبالَغةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٣١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لكمالِ جِنسِ الحقِّ فيه، حتَّى كأنَّه لا يوجَدُ حقٌّ غيرُه، مثلَ قولِك: حاتِمٌ الجَوَادُ[١].

- وقولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ استدراكٌ ناشئٌ على حُكمِ الحصْرِ؛ فإنَّ الحصْرَ يَقتَضي أن يُؤمِنَ به كلُّ مَن بلَغَه، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يؤمنون، وحذَف مُتعلِّقَ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّ المرادَ انتفاءُ حقيقةِ الإيمانِ عنهم في كلِّ ما طُلِب الإيمانُ به مِن الحقِّ[٢].

- قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في آخِرِ هذه السُّورةِ -بعدَ قولِه: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾[هود: ١٠٨]-: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُ﴾ [هود: ١٠٩]، وقال في سورةِ السَّجدةِ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ [السجدة: ٢٣]، بإثباتِ نونِ (تَكُنْ)، وحذْفِها في آيَتَيْ سورةِ هودٍ، ومناسَبةُ هذا الاختلافِ: أنَّ العرَبَ تصرَّفَت في (يَكونُ) عِندَ دُخولِ الجازِمِ عليها تَصرُّفًا لم تَفعَلْه في نَظائِرِها وما يُشبِهُها، فيَكونُ الوجهُ في (يكونُ) عندَ دخولِ الجازمِ عليها تَسْكينَ النُّونِ؛ فتُحذَفُ الواوُ عندَ الْتِقاءِ السَّاكِنَينِ كما ورَد في سورةِ السَّجدةِ، إلَّا أنَّ حذْفَ النُّونِ في (يكونُ) مِن فَصيحِ كَلامِهم ما لم تَكُنْ مُتحرِّكةً، فإن كانت مُتحرِّكةً لم تُحذَفْ لِقُوَّتِها بالحرَكةِ، وإن كانت عارِضةً كقولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البينة: ١]، ولا تُحذَفُ هذه إلَّا في الشِّعرِ؛ فورَد في سورةِ هودٍ على ما اعتَمَدوه مِن تخفيفِ هذا اللَّفظِ؛ لِيُناسِبَ بذلك إيجازَ الكلامِ المتعلِّقِ بقولِه: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ [هود: ١٧]، والمتَّصِلِ به تَمامُه تمامُ مَعنى المقصودِ، وذلك

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣١).

قولُه: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وكذلك قولُه في آخِرِ السُّورةِ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود: ١٠٩] إلى قولِه: ﴿غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ [هود: ١٠٩]. وورَد في سورةِ السَّجدةِ على أصْلِ الكلمةِ قبلَ حذْفِها، فقيل: ﴿فَلَا تَكُن﴾؛ لِيَجري ذلك مع ما ورَد في هذه السُّورةِ مِن طولِ الكلامِ المتعلِّقِ بقولِه: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ [السجدة: ٢٣]؛ فنُوسِبَ الإيجازُ بالإيجازِ والطُّولُ بالطُّولِ[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٣-٢٥٤).

الآيات (١٨-٢٤)

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَصُدُّونَ﴾: أي: يُعرِضون وينصرَفون، أو يصرفون غيرَهم، والصدودُ والصَّدُّ قد يكونُ انصرافًا عن الشَّيء وامتناعًا؛ إذا كان لازمًا غير مُتعدٍّ، وقد يكونُ صرفًا ومنعًا؛ إذا كان مُتعدِّيًا بمعنى يصَدُّون غيرَهم، وأصلُ (صدد): إعراضٌ وعدولٌ[(١)].

﴿عِوَجًا﴾: أي: زيغًا وتحريفًا وضلالًا، واعوجاجًا في الدِّين، وأصل (عوج): الميلُ في الشيءِ[(٢)].

﴿لَا جَرَمَ﴾: أي: حقًّا، وأصلُ (جرم): قطع[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨ب/ ١٣٩).

(٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤)، ((غريب

﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ﴾: أي: تواضَعوا، وخَضَعوا، والإخباتُ: التواضُعُ واللِّينُ، وأصلُ (خبت): يدلُّ على خُشوعٍ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾

﴿لَا جَرَمَ﴾: كلمةُ جزم ويقينٍ جَرَت مجرى المَثَل. وفي هذا التَّركيبِ أقوالٌ: أحدها: أنَّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ بمعنى (لا بُدَّ ولا محالةَ)، فـ (لا) نافيةٌ للجِنسِ، و(جَرَم) اسمُها مبنيٌّ على الفَتحِ في محلِّ نَصبٍ، والمصدرُ المؤوَّلُ من أنَّ ومعمولَيها في محلِّ جَرٍّ بحَرفِ جَرٍّ محذوفٍ، فيصيرُ المعنى: لا بدَّ مِن خُسرانِهم ولا محالةَ فيه. الثاني: أنَّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمةٌ واحِدةٌ مرَكَّبةٌ تركيبَ خَمسةَ عشَرَ، وبعد التَّركيبِ صار معناها معنى فعلٍ، وهو (حَقَّ)، والمصدرُ المؤوَّلُ من أنَّ ومعمولَيها فاعِلٌ لمَجموعِ ﴿لَا جَرَمَ﴾ لتأويله بالفعلِ (حقَّ)، وقيل: مُؤَوَّلٌ بمصدرٍ قائمٍ مقامَه، وهو (حَقًّا) فيصيرُ المعنى: حَقَّ ووجَبَ خُسرانُهم. الثالث: أنَّ (لا) نافيةٌ لكلامٍ سابقٍ مُقَدَّرٍ، والوقفُ على (لا) تامٌّ، ثم قال: (جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ)، أي: حَقَّ ووجب خُسرانُهم، وعليه فالمصدرُ المؤوَّلُ مِن أنَّ ومَعمولَيها في محلِّ رَفعٍ فاعِلٌ لـ ﴿جَرَمَ﴾. وقيل غيرُ ذلك[2].

القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٥٧-٣٥٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٩٣)، ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٣٤٧)، ((الجنى الداني في حروف المعاني)) للمرادي (ص: ٤١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٠٣)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٣١٤)، ((ارتشاف الضرب)) لأبي حيان الأندلسي (٣/ ١٢٦١)،

المَعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ تعالى أنَّه لا أحدَ أظلَمُ ممَّن اختلقَ على اللهِ كذبًا، وأنَّ أولئك سيُعرَضونَ على ربِّهم يومَ القيامةِ؛ ليُحاسِبَهم على أعمالِهم، ويقولُ الأشهادُ مِن الملائكةِ والنبيِّينَ والمُؤمِنينَ: هؤلاء الذين كَذَبوا على ربِّهم في الدُّنيا، ألا لعنةُ اللهِ على هؤلاء الظَّالِمينَ الذين يَمنَعونَ النَّاسَ عن دينِ الله، ويُريدونَ أن يكونَ مائلًا، وهم كافرونَ بالآخرةِ، لا يُؤمِنونَ ببعثٍ ولا جزاءٍ. أولئك الكافرونَ لم يكونوا لِيَفوتوا اللهَ في الدُّنيا هَربًا، وما كان لهم مِن أنصارٍ يَمنَعونَهم مِن عِقابِه، يُضاعَفُ لهم العذابُ في جهنَّمَ؛ فقد كانوا لا يَستطيعونَ أن يسمَعوا القرآنَ سَماعَ مُنتَفِعٍ، أو يُبصِروا آياتِ اللهِ في هذا الكونِ إبصارَ مُهتَدٍ. أولئك الذين خَسِروا أنفُسَهم بافترائِهم على اللهِ، وذهب عنهم ما كانوا يفترونَ مِن الآلهةِ التي يدَّعونَ أنَّها تشفَعُ لهم. حقًّا أنَّهم في الآخرةِ أخسَرُ النَّاسِ صَفقةً؛ لأنَّهم استبدلوا الدَّرَكاتِ بالدَّرَجاتِ، فكانوا في جهنَّم، وذلك هو الخُسرانُ المُبينُ.

إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ، وخَضَعوا لله وخَشَعوا، أولئك هم أهلُ الجنَّة، لا يموتونَ فيها، ولا يُخرجونَ منها أبدًا.

ثمَّ ضرَب الله مَثلًا لفريقِ الكافرينَ ولفريقِ المؤمنينَ، فقال: مثَلُ فريقَي الكُفرِ والإيمانِ كمَثَلِ الأعمى الذي لا يرى، والأصَمِّ الذي لا يسمَعُ، والبصيرِ والسَّميعِ: ففريقُ الكُفرِ لا يُبصِرُ الحَقَّ فيَتَّبِعَه، ولا يسمَعُ داعيَ اللهِ فيهتديَ به، أمَّا فريقُ الإيمانِ فقد أبصر الحَقَّ، وسَمِعَ داعيَ اللهِ فأجابه، هل يستوي هذان الفَريقانِ؟ أفلا تَعتَبِرونَ وتتفَكَّرونَ؟

((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٨).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الكُفَّارَ كانت لهم عاداتٌ كثيرةٌ، وطُرُقٌ مُختَلِفةٌ، فمنها شِدَّةُ حِرصِهم على الدُّنيا، ورغبتُهم في تَحصيلِها، وقد أبطلَ اللهُ هذه الطَّريقةَ بقَولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ...﴾ [هود: ١٥]، ومنها أنَّهم كانوا يُنكِرونَ نبُوَّةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويَقدَحونَ في مُعجزاتِه، وقد أبطلَ اللهُ تعالى ذلك بِقَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ...﴾ [هود: ١٧]، ومنها أنَّهم كانوا يَزعُمونَ في الأصنامِ أنَّها شُفَعاؤهم عند الله، وقد أبطل اللهُ تعالى ذلك بهذه الآيةِ؛ وذلك لأنَّ هذا الكلامَ افتراءٌ على اللهِ تعالى، فلمَّا بيَّنَ وعيدَ المُفتَرينَ على الله، فقد دخل فيه هذا الكلامُ[(١)].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا سبق قَولُهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ذكَرَ أنَّه لا أحدَ أظلَمُ ممَّن افترى على اللهِ كَذِبًا، وهم المُفتَرون الذين نَسَبوا إلى اللهِ الولَدَ، واتَّخَذوا معه آلهةً، وحَرَّموا وحَلَّلوا من غيرِ شَرعِ اللهِ[(٢)].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

أي: لا أحدَ أظلَمُ ممَّن اختلقَ على اللهِ الكَذِبَ، كمن زعم أنَّ لله ولدًا، أو شريكًا في العبادةِ أو التَّشريعِ، أو نسَبَ القُرآنَ لِغَيرِ اللهِ، أو ادَّعى النبُوَّةَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

أي: أولئك- الذين يَفترونَ على اللهِ الكَذِبَ- يُعرَضونَ يومَ القيامةِ على اللهِ، فيُحاسِبُهم على أعمالِهم، ويُجازيهم بظُلمِهم[(١)].

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

أي: ويقولُ الملائكةُ والأنبياءُ والمُؤمنونَ يومَ القيامةِ: هؤلاء الذين كَذَبوا في الدُّنيا على ربِّهم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

وممن اختار أنَّ الأشهادَ هم الملائكةُ والأنبياءُ والمؤمنونَ: الواحديُّ، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥١٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٤٧).

وقيل: الأشهادُ هم الملائكةُ والأنبياءُ. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والزمخشري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٥).

وقيل: هم الملائكةُ والأنبياءُ والجوارحُ. وممن قال بذلك: القاسمي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٤).

وقيل: هم الأنبياءُ والمؤمنون. وممن ذهب إلى ذلك: الزجاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٣/ ٤٤).

وقيل: هم الملائكةُ. وممن اختار ذلك: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٣).

وقال أبو حيان: (الأشهادُ الملائكةُ الذين يحفظونَ عليهم أعمالَهم في الدُّنيا، أو الأنبياءُ، أو هما والمؤمنون، أو ما يشهدُ عليهم مِن أعضائِهم). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٦).

وقال ابنُ كثيرٍ: (يبينُ تعالى حالَ المفترين عليه وفضيحتَهم في الدارِ الآخرةِ على رؤوسِ

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: سمعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((يُدنَى المؤمنُ يومَ القيامة من رَبِّه عزَّ وجلَّ، حتى يضعَ عليه كَنَفَه[١]، فيقَرِّرُه بذُنوبِه، فيقولُ: هل تَعرِفُ؟ فيقولُ: أي ربِّ، أعرِفُ. قال: فإنِّي قد سَترتُها عليك في الدُّنيا، وإنِّي أغفِرُها لك اليومَ، فيُعطَى صحيفةَ حَسَناتِه، وأمَّا الكُفَّارُ والمُنافِقونَ فيُنادَى بهم على رؤوسِ الخلائقِ: هؤلاء الذين كَذَبوا على اللهِ))[٢].

﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: ألا سخَطُ اللهِ الدَّائمُ وإبعادُه مِن رَحمتِه، على المُعتَدينَ الذين وَضَعوا العبادةَ في غيرِ مَوضِعِها[٣].

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الكافرينَ كما ظَلَموا أنفُسَهم بالتزامِ الكُفرِ والضَّلالِ، فقد أضافوا إليه المَنعَ مِن الدِّينِ الحَقِّ، وإلقاءَ الشُّبُهاتِ، وتعويجَ الدَّلائلِ المُستَقيمةِ[٤].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَر تعالى الظَّالمين، وصَفَ ظُلمَهم، فقال[٥]:

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾.

أي: الذين يَردُّونَ النَّاسَ عن دينِ اللهِ، ويمنعونَهم مِن الدخولِ فيه، ويُريدونَ

الخلائقِ؛ مِن الملائكةِ، والرسلِ، والأنبياءِ، وسائرِ البشرِ والجانِّ. ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٣).

(١) كَنَفَه: أي: حِفْظَه وسِتْرَه. يُنظر: ((شرح البخاري)) للقسطلاني (٤/ ٢٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٥) ومسلم (٢٧٦٨)، واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٩).

أن يكونَ دينُ اللهِ مائلًا زائغًا عن الحَقِّ، ويُنفِّرونَ النَّاسَ عنه، ويُزيِّنون لهم الباطِلَ[١].

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم مكذبونَ بيَومِ القِيامةِ، منكرونَ لوقوعِه، لا يُؤمنون بالبَعثِ بعد الموتِ[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا هدَّد تعالى الكافرينَ بأمورِ الآخرةِ، أشار إلى بيانِ قُدرتِه على ذلك في الدَّارينِ[٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: أولئك الكُفَّارُ لا يُعجِزونَ اللهَ في الأرضِ بالهَرَبِ إن أراد عذابَهم في الدُّنيا؛ فهم في مُلكِه، وتحتَ قَهرِه وتَصَرُّفِه[٤].

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾.

أي: ولم يكُنْ لهم- إذا جاءهم العذابُ- أنصارٌ مِن دونِ اللهِ ينصُرونَهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).
وذكَر القرطبيُّ والسعدي أنَّهم يصدُّون أنفسَهم عن سبيلِ الله، ويصدون غيرَهم عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

ويَدفَعونَ عنهم عذابَه[١].

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾.

أي: يُزادُ في عذابِهم، ويُغلَّظُ عليهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال سُبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾.

أي: ما كانوا يستطيعونَ سَماعَ الحَقِّ سَماعَ انتفاعٍ به، ولا يُبصِرونَه إبصارَ مُهتَدٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٥، ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٠، ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩، ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٥).
قال ابنُ كثيرٍ: (أي: يُضاعَفُ عليهم العذابُ، وذلك لأنَّ الله تعالى جعَل لهم سمعًا، وأبصارًا، وأفئدةً، فما أغْنَى عنهم سمعُهم، ولا أبصارُهم، ولا أفئدتُهم مِن شيءٍ، بل كانوا صمًّا عن سماعِ الحقِّ، عُميًا عن اتِّباعِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤).
وفي قولِه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ أوجهٌ:
منها: أنَّ عدمَ الاستطاعةِ المذكورِ في الآية إنَّما هو لاشتغالِهم بالكفرِ الذي كانوا عليه مقيمينَ عن استعمالِ جوارحِهم في طاعةِ الله تعالى. وممَّن اختاره: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (١٢/ ٣٧١).
ومنها: أنَّ عدمَ الاستطاعةِ المذكورَ في الآيةِ إنَّما هو للختمِ الذي ختَم الله على قلوبِهم وأسماعِهم، والغشاوةِ التي جعَل على أبصارِهم. وممَّن اختاره: الشنقيطي في ((أضواء البيان)) (٢/ ١٧٥).
ومنها: أنَّ المعنى: ما كانوا يستطيعونَ السَّمعَ، أي: لشدةِ كراهيتِهم لكلامِ الرسلِ، على عادةِ

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦- ٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ * وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢- ٤٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾.

أي: هؤلاء- الذين تلك صفاتُهم- همُ الذينَ أضاعوا حظَّ أنفُسِهم من الثَّوابِ، وأهلَكوها بالعَذابِ[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

أي: اضمحلَّ دينُهم الذي كانوا يَدعونَ إليه، وبطَل كَذِبُهم وفريتُهم على الله بادِّعائِهم له شُركاءَ، وذَهَبتْ عنهم آلهتُهم التي عبَدوها مِن دونِ الله، ولم تُغنِ

العربِ في قولِهم: لا أستطيعُ أن أسمعَ كذا: إذا كان شديدَ الكراهيةِ والبغضِ له، وممَّن اختاره: الزجاجُ، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

عنهم شيئًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: حقًّا وصِدقًا أنَّهم يومَ القيامةِ هم أخسَرُ النَّاسِ؛ لاستبدالِهم دَركاتِ النَّارِ بمنازلِ الجنَّةِ[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى حالَ الأشقياءِ، ثنَّى بذِكرِ السُّعَداءِ، فقال تعالى[٣]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

أي: إنَّ الذين آمَنوا بما وجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ -فأتَوا بالطَّاعاتِ، وتَرَكوا المُنكَراتِ- وتواضَعوا لله وخَشَعوا واطمأنُّوا إليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٣، ٣٧٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٥، ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: أولئك أهلُ الجنَّةِ، هم فيها لابِثونَ أبدًا، لا يُخرَجونَ منها ولا يَموتونَ[١].

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعدَ أن تبيَّنَ الاختلافُ بينَ حالِ المُشرِكينَ المُفتَرينَ على اللهِ كَذِبًا، وبين حالِ الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ في منازِلِ الآخرةِ؛ أعقبَ ببيانِ التَّنظيرِ بين حالَي الفَريقَينِ: المُشرِكينَ والمؤمنينَ، بطريقةِ تَمثيلِ ما تستحِقُّه مِن ذَمٍّ ومدحٍ[٢].

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾.

أي: مثَلُ الكافرينَ والمؤمنينَ كمَن لا يرى ولا يسمَعُ، ومَن يرَى ويسمَعُ؛ فالكافِرُ لا يرى الحقَّ فيهتديَ به، ولا يسمَعُ الحقَّ سماعًا ينتَفِعُ به، والمؤمِنُ يرى الحقَّ ويتَّبِعُه، ويَسمَعُه، وينتَفِعُ به[٣].

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((الأمثال في القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٢).

أي: هل يستوي هذان الفَريقانِ عندكم، أيُّها النَّاسُ؟! فكذلك الكافِرُ والمؤمِنُ، لا يستويان عند اللهِ، أفلا تَعتَبِرونَ وتتفكَّرونَ في حالِ الكافرينَ والمؤمنينَ، فتترُكوا الكُفرَ والعِصيانَ، وتُؤمِنوا باللهِ وتَعمَلوا الصَّالحاتِ(١)؟

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۞ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۞ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۞ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

وقال سُبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، قَولُه تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟﴾ فيه إشارةٌ إلى أعمالِ القُلوبِ، وهي الخُشوعُ والخضوعُ لله تعالى، وأنَّ هذه الأعمالَ الصَّالحةَ لا تنفَعُ في الآخرةِ إلَّا بحُصولِ أعمالِ القَلبِ، وهي الخُشوعُ والخُضوعُ(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ عدَمُ هذه الاستطاعةِ كان بتَفريطِه وعُدوانِه، ومَن كان تَركُه للمأمورِ بذَنبٍ منه، أو صَيرورتُه إلى المحظورِ بذَنبٍ منه؛ لم يكُن ذلك مانعًا مِن ذَمِّه وعقابِه(٣).

٣- قال الله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ وعدمُ الاستطاعةِ هنا -على أحدِ الأوجهِ- إنَّما هو للختمِ على قلوبِهم وأسماعِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٤٦).

والغشاوةِ التي جُعِلت على أبصارِهم، وذلك الخَتمُ والأكِنَّةُ على القلوبِ جزاءٌ مِن اللهِ تعالى لهم على مبادَرتِهم إلى الكُفرِ، وتكذيبِ الرُّسُلِ باختيارِهم ومَشيئتِهم، كما دلَّت عليه آياتٌ كثيرةٌ، كقولِه تعالى: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥]، وقولِه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا﴾ [البقرة: ١٠]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]، وقَولِه تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ جاء ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لِيُنَبِّهَ على أنَّه يمكِنُ زوالُ هذا العمَى وهذا الصَّمَم، فيجبُ على العاقِلِ أن يتذكَّرَ ما هو فيه، ويسعَى في هدايةِ نَفسِه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الافتراءَ على اللهِ تعالى أعظَمُ أنواعِ الظُّلمِ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ خَصَّهم بهذا العَرضِ -وإن كان العَرضُ عامًّا في كلِّ العِبادِ- لأنَّهم يُعرَضونَ فيُفتَضَحونَ بأنْ يقولَ الأشهادُ عند عَرضِهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٥-١٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣١).

عَلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ فيلحَقُهم مِن الخزيِ والنَّكالِ ما لا مَزيدَ عليه[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ...﴾ هذه الآياتُ، وإن كانت في حَقِّ المُشرِكينَ والكُفَّارِ، فإنَّها مُتَناوِلةٌ لِمَن كذَبَ على اللهِ في توحيدِه ودينِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، ولا تتناوَلُ المُخطِئَ المأجورَ إذا بذَل جُهدَه، واستفرغَ وُسعَه في إصابةِ حُكمِ اللهِ وشَرعِه؛ فإنَّ هذا هو الذي فرَضَه اللهُ عليه، فلا يتناوَلُ المطيعَ للهِ وإن أخطأ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ الفائِدةُ في إخبارِ الأشهادِ بما اللهُ يَعلَمُه: تعظيمُ الأمرِ على المشهودِ عليه، وحَسمُ طَمَعِه مِن أن يَجِدَ سبيلًا إلى التخلُّصِ، بمُجاحَدةٍ أو مُدافعةٍ، وقيل: هو توبيخٌ لهم مِن الشُّهَداءِ، وهَتكُ سِترِهم، وإظهارُ فَضيحتِهم[٣].

٥- الكَذِبُ على الله أشدُّ مِن الكَذِبِ على المَخلوقينَ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٤].

٦- أهلُ العِلمِ يَختارونَ فيمن عُرِفَ بالظُّلمِ ونَحوِه مع أنَّه مُسلِمٌ له أعمالٌ صالحةٌ في الظَّاهِرِ- كالحجَّاج بنِ يوسفَ وأمثالِه - أنَّهم لا يَلعَنونَ أحدًا منهم بعَينِه، بل يقولونَ كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فيَلعنونَ مَن لعَنَه اللهُ ورسولُه عامًّا، ولا يلعنونَ المعيَّنَ، فقد ثبَت: ((أنَّ رَجُلًا كان يُدعَى حمارًا، وكان يشرَبُ الخمرَ، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يجلِدُه، فأُتيَ به مرَّةً فلَعَنَه رجلٌ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا تلعَنْه؛ فإنَّه يحِبُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٥٩).
(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٧٩- ٣٨٠).
(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٢/ ٤٢٨).

اللهَ ورَسولَه))[١]؛ وذلك لأنَّ اللَّعنةَ مِن بابِ الوعيدِ، والوعيدُ العامُّ لا يُقطَعُ به للشَّخصِ المُعَيَّن؛ لأحدِ الأسبابِ المذكورةِ: من توبةٍ، أو حسَناتٍ ماحيةٍ، أو مصائِبَ مُكَفِّرةٍ، أو شفاعةٍ مَقبولةٍ، وغيرِ ذلك[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الأرضُ: الدُّنيا، وفائدةُ ذِكرِها أنَّهم لا ملجأَ لهم مِن اللهِ لو أراد الانتقامَ منهم، فلا يجِدونَ مَوضِعًا من الأرضِ يَستَعصِمونَ به، فهذا نفيٌ للملاجِئِ والمعاقِلِ التي يستعصِمُ فيها الهارِبُ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ذكَرَ المؤمنينَ، ووصَفَهم بالإيمانِ، والعَمَلِ الصَّالحِ، والإخباتِ إلى ربِّهم، فوصَفَهم بعبوديَّةِ الظَّاهِرِ والباطِنِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- جملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ مُستأنَفةٌ، وتصديرُها باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أَحْرِياءُ بما سَيَرِدُ بعدَ اسْمِ الإشارةِ مِن الخبَرِ؛ بسبَبِ ما قبْلَ اسْمِ الإشارةِ مِن الوصفِ[٥]، وفيه أيضًا أنَّ عَرْضَهم على ربِّهم عرضُ زجرٍ وانتقامٍ؛ وذلك لِمَا يُؤْذِنُ به اسْمُ الإشارةِ مِن مَعنى تعليلِ ما قَبْلَه

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٠) بنحوه.
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٥).
(٤) يُنظر: (إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٢-٣٣).

فيما بعدَه[١].

- وقولُه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فيه إشارةٌ إلى تَحقيرِهم وإصغارِهم بسوءِ مُرتَكَبِهم[٢].

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ في الإتيانِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ في الخبَرِ عنهم: إيماءٌ إلى سَبَبيَّةِ ذلك الوصفِ الَّذي في الصِّلَةِ- وهو الكَذِبُ على ربِّهم- فيما يَرِدُ عليهم من الحُكمِ، وهو ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣].

- قولُه: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه الافتتاحُ بحرفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾؛ وذلك مُناسَبَةً لِمَقامِ التَّشهيرِ، والخبرُ هنا مُستعمَلٌ في الدُّعاءِ؛ خِزيًا وتَحقيرًا لهم[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾

- فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ اختُصَّتْ هذه الآيةُ على نَظيرَتِها في الأعرافِ، وهي قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥]- بزِيادَةِ (هُمْ) في قولِه: ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، وهو توكيدٌ يُفيدُ تَقوِّيَ الحُكْمِ؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ تسجيلِ إنكارِهم البَعْثَ وتَقريرِه؛ إشعارًا بما يَترقَّبُهم مِن العقابِ المناسِبِ؛ فحُكي به مِن كَلامِ الأشهادِ ما يُناسِبُ هذا، وما في سورةِ الأعرافِ حكايةٌ لِمَا قيل في شأنِ قومٍ أُدخِلوا النَّارَ، وظهَر عِقابُهم، فلا غرَضَ لحِكايةِ ما فيه تأكيدٌ مِن كلامِ الأشهادِ، وكِلا المَقالَين واقعٌ؛ وإنَّما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٢-٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٣٣).

يَحكي البليغُ فيما يَحْكيه ما له مُناسَبةٌ لِمَقامِ الحِكايةِ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن الاقتِصَارِ في تَهْديدِهم على وصْفِ بعضِ عِقابِهم في الآخِرَةِ؛ فإنَّ ذلك يُثيرُ في نَفْسِ السَّامعِ أن يَسأَلَ: هل هم سالِمون مِن عذابِ الدُّنيا؟ فأُجيبَ بأنَّهم لم يَكونوا مُعجِزين في الدُّنيا، أي: لا يَخرُجون عن مَقدِرةِ اللهِ على تَعذيبِهم في الدُّنيا إذا اقتَضَتْ حِكمتُه تَعجيلَ عَذابِهم[٢].

- وإعادةُ الإشارةِ إليهم بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بعدَ أن أُشيرَ إليهم بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [هود: ١٨]؛ لتقريرِ فائدةِ اسمِ الإشارةِ السَّابقِ[٣].

- وقولُه: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ كنايةٌ عن عدَمِ قَبولِهم للحَقِّ، ونفيُ الاستطاعةِ أعرَقُ في العَيبِ، وأدَلُّ على النَّقصِ، وأنكى مِن نفيِ السَّمعِ؛ لأنَّهم قد يَحمِلونَه على الإجابةِ[٤].

- قولُه: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ فيه تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ لأنَّه تشبيهُ مركَّبٍ بمركَّبٍ، شبَّهَهم في فرْطِ تَصامِّهم عن استماعِ الحقِّ، ونُبُوِّ أسماعِهم عنه بمَن لا يَستَطيعُ السَّمعَ، وفي إعراضِهم عن نُذُرِ الآياتِ بأنَّ أبصارَهم لم تَنفَعْهم، فكأنَّهم لم يُبصِروا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٧)،

- ولمَّا كان قُبحُ حالِهم في عدم إذعانِهم للقرآن الذي طريقُ تلقِّيه السمعُ أشدَّ منه في عدم قَبولِهم لسائرِ الآياتِ المنوطةِ بالإبصارِ؛ بالغَ في نفْي الأولِ عنهم حيثُ نفَى عنهم الاستطاعةَ، واكتفَى في الثاني بنَفْي الإبصارِ[١]. وقيل: لأنَّ الإبصارَ المنفيَّ هو النظرُ في المصنوعاتِ الدالةِ على الوحدانيةِ، أي: ما كانوا يُوجِّهون أنظارَهم إلى المصنوعاتِ توجيهَ تأملٍ واعتبارٍ، ولذلك لم يقلْ هنا: (وما كانوا يَسْتطيعونَ أن يُبْصِروا)؛ لأنَّهم كانوا يُبصرونَها، ولكنَّ مجرَّدَ الإبصارِ غيرُ كافٍ في حُصولِ الاستِدْلالِ حتَّى يُضَمَّ إليه عمَلُ الفِكْرِ، بخلافِ السَّمعِ في قولِه: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾[٢].

- والإتيانُ بأفعالِ الكَوْنِ في هذه الجُمَلِ أربَعَ مرَّاتٍ ابتِداءً مِن قولِه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾؛ لإفادةِ ما يَدُلُّ عليه فعلُ الكَونِ مِن تَمكُّنِ الحدَثِ المخبَرِ به؛ فقولُه: ﴿لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ﴾ آكَدُ مِن: (لا يُعجِزون)، وكذلك أخَواتُه[٣].

٤- قولُه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ استِئْنافٌ، واسمُ الإشارةِ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ هنا تأكيدٌ ثانٍ لاسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[٤] [هود: ١٨].

((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٣١- ٣٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) ٤/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٦-٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٨).

- قولُه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فيه إسنادُ الضَّلالِ إلى الأصنامِ؛ تَهكُّمًا على أصحابِها، حيث شُبِّهَت أصنامُهم بمن سلَك طَريقًا لِيَلحَقَ بمَن استَنْجَد به، فضَلَّ في طَريقِه[١].

٥- قولُه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ، وهي فَذْلَكةٌ[٢] ونَتيجةٌ للجُمَلِ المتقدِّمةِ مِن قولِه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ لأنَّ ما جُمِع لهم مِن الزَّجِّ للعُقوبةِ، ومِن افتِضاحِ أمْرِهم، ومِن إعراضِهم عَن استِماعِ النُّذُرِ، وعن النَّظَرِ في دَلائلِ الوحدانيَّةِ يُوجِبُ اليَقينَ بأنَّهم الأخسَرون في الآخِرةِ[٣].

- والضَّميرُ في ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ ضميرُ فصْلٍ يُفيدُ القَصْرَ، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ[٤]؛ لأنَّهم بلَغوا الحَدَّ الأقصى في الخَسارةِ، فكأنَّهم انفَرَدوا

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) الفَذْلكة: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملةِ والحوقلةِ، من قولهم: (فذَلِك كذا)، ومعناها: ذكرُ مُجمَل ما فُصِّل أولًا وخلاصته. وقد يُراد بالفذلكة النتيجة لِمَا سبَق من الكلام، والتفريع عليه، ومنها فذلكة الحساب، أي: مُجمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨ - ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٨).

(٤) القصر في اصطلاح البلاغيين: هو تخصيصُ شيءٍ بشيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأولُ: مقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. وينقسمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ: فالحقيقي: هو أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِع، بألَّا يتعدَّاه إلى غيره أصلًا، مِثل: لا إله إلا الله، حيثُ قُصر وصف الإلَهيَّة الحقِّ على موصوفٍ هو الله وحده، وهذا مِن قصرِ الصِّفة على الموصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والادِّعائي: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاء والمبالغةِ، بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدم، وقصرِ الشيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن

بالأخسَرِيَّةِ[(١)].

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢]، وقال في سورةِ النَّحلِ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٩]؛ فخَصَّ سورةَ هودٍ بـ(الأَخْسَرون)، وسورةَ النَّحلِ بـ (الخاسِرون)، ووجهُ هذا الاختلافِ: أنَّ الآيةَ الَّتي في سورةِ هودٍ قد تَقدَّمَها قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وإنَّما قال: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ لأنَّه خبَرٌ عن قومٍ أخبَرَ عنهم بالفِعلِ الَّذي استَحَقُّوا به مُضاعَفةَ العذابِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٩]، فإذا صُدُّوا هم عن الدِّينِ صُدودًا، وصَدُّوا غيرَهم عنه صَدًّا استحَقُّوا مُضاعَفةَ العذابِ؛ لأنَّهم ضَلُّوا وأضَلُّوا، فهذا لـ (الأَخْسرون) دونَ (الخاسِرون) مِن طريقِ المعنى، وهاهنا ما يُضامُّه من طريقِ اللَّفظِ، وهو أنَّ ما قبْلَه مِن الفَواصِلِ ﴿يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [هود: ٢١]؛ فاجتِماعُ المعنى والتَّوفِقَةِ بينَ الفواصِلِ أوْجَبَا اختِيَارَ (الأَخْسَرون) في هذا الموضِعِ على (الخاسِرون). وأمَّا في سورةِ النَّحْلِ فإنَّ الآيةَ لم يُخبِرْ فيها عن الكفَّارِ بأنَّهم معَ ضَلالِهم أضَلُّوا مَن سِواهم، وإنَّما قال فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧]، فلم يَذكُرْ ما يُوجِبُ مُضاعَفةَ العذابِ، ثمَّ كانت الفَواصِلُ الَّتي حُمِلَت هذه عليها وِزانَ (الكافِرينَ) و(الغافِلِينَ)؛

حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧- ١٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٩).

فاقتَضى هذانِ الشَّيئانِ أن يُقالَ: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، كما اقْتَضى السَّببانِ في الأُولَى المخالِفان للسَّببَينِ هُنا أنْ قال: ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾[1].

وفيه وجهٌ آخَرُ: وهو أنَّ آيةَ هودٍ تَقدَّمَها ما يُفهِمُ المفاضَلةَ؛ فقولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ ...﴾ الآيةَ [هود: ١٧]، يُفهَمُ منه: أفَمَن كان على بيِّنةٍ مِن ربِّه كمَن كفَر وجحَد وكذَّب الرُّسلَ؟ ثمَّ أتبَعَ هذا بقولِه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [هود: ١٨]؛ فهذا صَريحُ مُفاضَلةٍ، ثمَّ استَمرَّتِ الآياتُ في وصْفِ مَن ذُكِر، واستَمرَّ ذِكرُهم إلى قولِه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾؛ فناسَب لَفْظُ (الأَخْسَرون) بصيغةِ التَّفْضيلِ، ولو ورَد هنا ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ مَكانَ ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ لتَنافَى النَّظْمُ، وتَبايَنَ السِّياقُ ولم يتَناسَبْ. وأمَّا آيةُ النَّحلِ فلم يقَعْ قَبْلَها (أفعَلُ) الَّتي للمُفاضَلةِ والتَّفاوُتِ، ولا ما يُفهِمُهما، وإنَّما قَبْلَها: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، وبعدَ هذا: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧]، وبعدَ هذا: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨]؛ فجاءت هذه الفَواصِلُ مُتَّفِقةً في اسْمِ الفاعِلِ المجموعِ جمْعَ السَّلامةِ، إلى أن خَتَم وصْفَهم وما قصَد مِن ذِكْرِهم بقولِه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٩]؛ فتناسبَت الآيُ في السِّياقِ والفَواصلِ، وخُتِمَت بمِثلِ ما به بُدِئَت، ولم يَكُن ليناسِبَ ما ورَد هنا لفْظُ المفاضلةِ؛ إذ ليس في الكلامِ ما يَستَدْعي ذلك لا مِن لَفْظِه ولا مَعناه[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٥٣-٧٥٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٣-١٤٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٤-٢٥٥).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ النُّفوسَ تَشرئِبُّ عندَ سماعِ حُكمِ الشَّيءِ إلى معرفةِ حُكمِ ضِدِّه، وجملةُ ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مُستأنَفةٌ لبيانِ ما قبلَها؛ فمَنزِلتُها منزلةُ عطفِ البيانِ، ولا تُعرَبُ في موضِعِ خبَرٍ ثانٍ عن اسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[1].

- تعديةُ (الخَبْتِ) -وهو التَّواضُعُ- بـ (إلى) في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ تَضمينٌ لمعنى الطُّمأنينةِ والإنابةِ والسُّكونِ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ[2].

٧- قولُه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

- الجملةُ فَذلكةٌ لما تقدَّم مِن بيانِ الاختلافِ بينَ حالِ المشركينَ والمؤمنينَ في منازلِ الآخرةِ، وتحصيلٌ له، وللتَّحذيرِ مِن مُواقعةِ سَبَبِه[3].

- فيه تشبيهٌ؛ حيثُ شبَّه حالَ الفَريقَين- المشرِكين والمؤمِنين- بحالِ الأعمى الأصمِّ مِن جهةٍ، وحالِ البصيرِ السَّميعِ من الجهةِ الأخرى؛ فَشَبَّه حالَ فريقِ الكفَّارِ في عدَمِ الانتفاعِ بالنَّظرِ في دلائلِ وَحْدانيَّةِ اللهِ الواضحةِ مِن مَخلوقاتِه بحالِ الأعمى، وشَبَّههم في عدَمِ الانتفاعِ بأدلَّةِ القرآنِ بحالِ مَن هو أصَمُّ، وشبَّه حالَ فَريقِ المؤمِنين في ضدِّ ذلك بحالِ مَن كان سَليمَ البصَرِ، سَليمَ السَّمعِ؛ فهو في هُدًى ويقينٍ مِن مُدرَكاتِه، وترتيبُ الحالَين المشبَّهِ بهِما في الذِّكْرِ على ترتيبِ ذِكْرِ الفَريقين فيما تقدَّم- يُنبِئُ بالمرادِ من كلٍّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٩- ٤٠).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٠).

فريق على طَريقة النَّشرِ المرتَّبِ[١]، فشبَّه فريقَ الكافرين بالأعمَى والأصَمِّ، وفريقَ المؤمِنين بالبصيرِ والسَّميعِ، وهو مِن اللَّفِّ والطِّباقِ، ومِن بابِ تَشْبيهِ اثنَينِ باثنَين؛ فقُوبِلَ الأعمى بالبصيرِ وهو طباقٌ، وقوبِلَ الأصَمُّ بالسَّميعِ وهو طِباقٌ أيضًا، والعَمى والصَّمَمُ آفَتان تَمنَعانِ مِن البصَرِ والسَّمعِ، وليسَتا بضِدَّينِ؛ لأنَّه لا تَعاقُبَ بينَهما، ويحتملُ أن يَكونَ مِن تشبيهِ واحدٍ بوصفَيْهِ بواحدٍ بوصْفَيه، فيكونَ مِن عطْفِ الصِّفاتِ، ولم يَجِئِ التَّركيبُ: (كالأَعْمى والبصيرِ، والأصَمِّ والسَّميعِ)، فيكونُ مُقابَلةً في لفظِ الأعمَى وضدِّه، وفي لفظةِ الأصَمِّ وضدِّه؛ لأنَّه تعالى لَمَّا ذكَر انْسِدادَ العينِ؛ أتْبَعَه بانسدادِ السَّمعِ، ولَمَّا ذكَرَ انفِتاحَ البصَرِ أتْبعَه بانفِتاحِ السَّمعِ؛ وذلك هو الأسلوبُ في المقابَلةِ، والأتَمُّ في الإعجازِ[٢].

- وجملةُ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ واقعةٌ مَوقِعَ البيانِ للغرَضِ مِن التَّشبيهِ، وهو

---

(١) اللَّف والنَّشر إمَّا مُرتَّب، وإمَّا غيرُ مُرتَّب؛ فاللَّف والنشرُ المُرتَّب، هو أن يأتي النشر على وفق ترتيب اللَّف؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ، ويُضافُ إلى كلٍّ ما يليقُ به على الترتيب، كقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارة ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفقَ توزيعٍ مُرتَّب؛ فقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيل، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهار.
وغيرُ المرتَّب: هو أن يأتيَ النشرُ على غَيرِ ترتيب اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨]، فهذه الجُمَل لفٌّ مُفَصَّل، وجاء بعدَها نَشْرٌ غيرُ مُرَتَّب؛ فجملة: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ملائمة للجملة الأُولى ومتعلِّقةٌ بها. وجُملَةُ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثالثة ومُتعلِّقةٌ بها. وجُملةُ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثانيةِ ومتعلِّقةٌ بها.
يُنظر: ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠- ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٨- ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٢-٤١).

نفْيُ استِواءِ حالِهما، والاستِفْهامُ فيها إنكاريٌّ[١].

- وجملةُ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فيها استفهامٌ غرَضُه إنكارُ انتِفاءِ تَذكُّرِهم، واستِمْرارِهم في ضَلالِهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٥-٣١)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا
ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن
قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا
بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ۖ أَنُلْزِمُكُمُوهَا
وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ
أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾
وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى
خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ
لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ أَرَاذِلُنَا ﴾: أي: سَفِلَتُنا وأخِسَّاؤُنا، والرَّذلُ: المرغوبُ عنه لرَداءتِه، والدُّونُ مِن كلِّ شَيءٍ في مَنظَرِه وحالاتِه[1].

﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾: أي: في ظاهِرِ الرَّأيِ والنَّظَرِ؛ مِن قَولِهم: بدا الشَّيءُ يَبدو: إذا ظهرَ، وأصلُ (بدو): يدلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ[2].

﴿ فَعُمِّيَتْ ﴾: أي: أُخفِيَت، وأصلُ (عمي): يدلُّ على سَترٍ وتَغطيةٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤/ ٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٧)، ((مقاييس

﴿تَزْدَرِيٓ﴾: أي: تحتَقِر وتَعيبُ، وأصلُ (زري): يدلُّ على احتقارِ الشَّيءِ، والتَّهاوُنِ به[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾

﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ بادِيَ: ظرفُ زَمانٍ منَصوبٌ، والعامِلُ فيه ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ أي: اتَّبَعوك في أوَّلِ الرأيِ، أو فيما ظهَرَ منه مِن غَيرِ أن يَبحَثوا. أو العاملُ فيه ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ أي: هم أراذِلُنا بظاهِرِ الرَّأيِ نَعلَمُ ذلك. وإضافةُ (بادي) إلى (الرأي) مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: في الرأيِ البادي. وقيل: ﴿بَادِيَ﴾ حالٌ مِن مفعولِ «اتَّبَعَكَ»، أي: اتَّبَعوك وأنت مكشوفُ الرأيِ، لا حصافةَ لك. وقيل غير ذلك[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾

﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ جملةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ، معطوفةٌ على قولِه: ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾، كأنَّه أخبَرَ عن نفسِه بهذه الجُمَل، وليس معطوفًا على قَولِه: ﴿عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه يؤدِّي إلى أن يصيرَ التَّقديرُ: ولا أقولُ لكم لا أَعْلَمُ الغيبَ، فيَفسُد المعنى[٣].

اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٦٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣١٨)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (١/ ٢٦٩).

المَعنى الإجماليُّ:

يُقسِمُ تعالى أنَّه أرسلَ نوحًا إلى قومِه، فقال لهم: إنِّي نذيرٌ لكم مِن عذابِ الله، مُبيِّنٌ ما أُرسِلتُ به إليكم مِن أمرِ اللهِ ونَهيِه، بألَّا تعبدُوا إلَّا اللهَ، إنِّي أخافُ عليكم- إن لم تُفرِدوا اللهَ وحْدَه بالعبادةِ- عذابَ يومٍ مُوجِعٍ، فقال رؤساءُ الكُفرِ مِن قَومِه: ما نراك -يا نوحُ- إلَّا بشرًا مِثلَنا، ولستَ بمَلَكٍ، فكيف أُوحِيَ إليك مِن دُونِنا؟! وما نراك اتَّبَعَك إلَّا الذين هم أسافِلُنا، وإنَّما اتَّبعوك مِن غيرِ تفكُّرٍ ولا رويَّةٍ، وما نرَى لكم مِن شَرَفٍ ومزيَّةٍ علينا حينَ دخَلتُم في دينِكم، فنَتَّبِعَكم، بل نعتَقِدُ أنَّكم كاذبونَ فيما تدَّعونَ، قال نوحٌ: يا قومي أرأيتُم إن كنتُ على حُجَّةٍ ظاهرةٍ مِن ربِّي فيما جئتُكم به، وآتاني رحمةً مِن عندِه- وهي النبوَّةُ والرِّسالةُ- فأخفاها عليكم عقابًا لكم، أنُلزِمُكم إيَّاها بالإكراهِ، وأنتم جاحِدونَ بها؟ لا نفعَلُ ذلك، ولكِنْ نَكِلُ أمرَكم إلى اللهِ حتى يقضيَ في أمرِكم ما يشاءُ.

قال نوحٌ عليه السَّلامُ لِقَومِه: يا قومِ لا أسألُكم على دَعوتِكم لتوحيدِ اللهِ مالًا، ولكِن ثوابُ نُصحي لكم على اللهِ وَحدَه، وليس مِن شأني أن أطرُدَ المُؤمِنينَ؛ فإنَّهم مُلاقو ربِّهم يومَ القيامةِ، ولكِنِّي أراكم قومًا تَجهَلونَ؛ إذ تأمرونَني بطَردِ أولياءِ اللهِ، وإبعادِهم عنِّي، ويا قومِ مَن يمنَعُني مِن عِقابِ الله إن عاقَبَني على طَردي المؤمنينَ؟ أفلا تتدبَّرونَ الأمورَ فتَنتَهوا عن جهلِكم وضَلالِكم؟ ولا أقولُ لكم: إنِّي أملِكُ التصرُّفَ في خزائنِ اللهِ، ولا أدَّعي علمَ الغَيبِ، ولستُ بمَلَكٍ مِن الملائكةِ، ولا أقولُ لهؤلاء الذين تحتَقِرونَ مِن ضُعَفاءِ المؤمنينَ لن يؤتِيَهم اللهُ ثوابًا على إيمانِهم؛ فاللهُ وَحدَه أعلَمُ بما في قلوبِهم، ولئن فعلتُ ذلك إنِّي إذًا لَمِنَ الظَّالمينَ لأنفُسِهم ولغَيرِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه قد جَرَت العادةُ بأنَّ اللهَ تعالى إذا أوردَ على الكافِرِ أنواعَ الدَّلائلِ أتبَعَها بالقَصَصِ؛ ليصيرَ ذِكرُها مُؤَكِّدًا لتلك الدَّلائلِ، وفي هذه السُّورةِ ذَكرَ أنواعًا مِن القَصَصِ؛ القِصَّةُ الأولى قِصَّةُ نوحٍ عليه السَّلامُ(١).

وأيضًا فإنَّ هذا انتِقالٌ مِن إنذارِ المُشرِكينَ ووَصفِ أحوالِهم وما ناسبَ ذلك، إلى مَوعِظتِهم بما أصاب المكَذِّبينَ قَبلَهم من المصائبِ، وفي ذلك تسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما لاقاه الرُّسُلُ عليهم السَّلامُ قَبلَه مِن أقوامِهم(٢).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: ولقد بعَثْنا نبيَّنا نوحًا إلى قَومِه المُشرِكينَ، فقال لهم: إنِّي نذيرٌ لكم، أُخوِّفُكم عذابَ اللهِ إن عبَدتُم غيرَه، وأُبيِّنُ لكم ما أرسَلَني اللهُ به مِن أمرِه ونَهيِه(٣).

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

أي: أرسَلْناه إلى قَومِه بأنْ لا تعبُدوا إلَّا اللهَ وَحْدَه(٤).

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: إنِّي أخافُ عليكم -يا قَومِ- إن لم توحدوا اللهَ، وتَتركوا عِبادةَ الأصنامِ-

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

ومن المفسرين من جعل كلمة ﴿مُّبِينٌ﴾ وصفًا للنذارةِ. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

أن يُعَذِّبَكم عذابًا مُؤلِمًا مُوجعًا يومَ القيامةِ[١].

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن نوحٍ عليه السَّلامُ أنَّه دعا قَومَه إلى عبادةِ الله تعالى؛ حكَى عنهم أنَّهم طَعَنوا في نبوَّتِه بثلاثةِ أنواعٍ مِن الشُّبُهاتِ[٢].

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾.

أي: فقال الأشرافُ والكُبَراءُ الكافرونَ مِن قَومِ نُوحٍ: ما نراك -يا نوحُ- إلَّا آدميًّا مِثلَنا، ولستَ مِن الملائكةِ، فكيف يُرسِلُك اللهُ مِن دُوننا[٣]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣-٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٦)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿بَادِئَ﴾ بهَمزةٍ في آخِرِه، أي: ابتداءَ الرَّأيِ، والمعنى: اتَّبَعوك ابتداءَ الرَّأيِ مِن غيرِ أن يتدَبَّروا ما قُلتَ، ولم يتفَكَّروا فيه، ولو تفَكَّروا وتدَبَّروا لم يتَّبِعوك(١).

٢- قراءةُ ﴿بَادِيَ﴾ بغيرِ همزٍ. مِن: بدا يبدو: إذا ظهَرَ، والمعنى: لم يتَّبِعْك إلَّا الذين هم أراذِلُنا فيما يظهرُ لنا ولا يخفَى على أحدٍ. وقيل: المعنى: اتَّبَعوك في الظَّاهِرِ وباطِنُهم على خلافِ ذلك، أي: أنَّهم أظهَروا الإسلامَ، وأبطَنوا الكُفرَ. وقيل: المعنى: اتَّبَعوك في ظاهرِ الرَّأيِ، ولم يتدَبَّروا ما قلتَ، ولم يتفَكَّروا فيه، فتكونُ بمعنى القراءةِ الأولى(٢).

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ﴾.

أي: قال الكُبَراءُ مِن قَومِ نُوحٍ: وما نراك اتَّبَعَك على دينِك إلَّا الضُّعَفاءُ الذين هم سَفِلَتُنا فيما يظهَرُ لنا ولِغَيرِنا(٣).

---

(١) قرأ بها أبو عمرٍو البصريُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٤٠٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٣١٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٨).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٤٠٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٣٤١، ٣٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٩٤)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٣١٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤).

(٣) هذا المعنى هو اختيارُ ابنِ جريرٍ في تفسير ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٩٤).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعطاءٌ، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٦٨).
وقيل: المعنى: وإنَّما اتَّبَعوك في ظاهرِ الرَّأيِ، ولم يُفَكِّروا فيما دَعَوتَهم إليه، ولو تفَكَّروا

كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ * وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الشعراء: ١١١-١١٥].

وعن أبي سُفيانَ بنِ حَربٍ رَضِيَ الله عنه، في حديثِ هِرقلَ الطَّويلِ، عندَما سأله عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفيه: (قال: وسألتُك عن أتباعِه: أضُعفاؤُهم أم أشرافُهم؟ فقُلتَ: بل ضُعَفاؤُهم، وهم أتباعُ الرُّسُلِ)[١].

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾.

أي: قال الكُبَراءُ مِن قَومِ نُوحٍ له ولأتباعِه المُؤمِنينَ: وما نرى أنَّه حصل لكم شَرَفٌ ومزيَّةٌ علينا حين دخَلتُم في دينِكم هذا، فتَستحقُّوا اتباعَنا لكم[٢].

﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾.

أي: بل نظُنُّكم[٣] كاذبينَ فيما تدَّعونَه[٤].

لم يتَّبِعوك. وهو اختيار ابن كثير والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

(١) أخرجه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٠، ٣٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٦٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

(٣) قال ابنُ عاشور: (هذا الظنُّ الذي زعموه مستندٌ إلى الدليلِ المحسوسِ في اعتقادهم، واستُعمل الظنُّ هنا في العلمِ، كقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ٤٦]، وهو إطلاقٌ شائعٌ في الكلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٩). ويُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٨/ ١٥٢)، ((المخصص)) لابن سيده (٤/ ١٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٩، ٥٤٠)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٥٥، ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٠).

اختلف المفَسِّرون في تحديدِ المُخاطَب بذلك، فبَعضُهم يرى أنَّ المُخاطَب هو نوحٌ عليه السَّلامُ وحده. وممَّن اختار ذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨١).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها جوابٌ عن شُبهةِ قَومِ نُوحٍ الأولى، والمعنى: أنَّ حُصولَ المُساواة في البَشَريَّةِ لا يمنَعُ مِن حُصولِ المُفارَقةِ في صِفةِ النبوَّةِ والرِّسالةِ، وذكَرَ الطَّريقَ الدَّالَّ على إمكانِه، وهو كونُه على بيِّنةٍ مِن ربِّه[1].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾.

أي: قال نوحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِقَومِه: يا قومِ أخبِروني إن كنتُ على يقينٍ وعلمٍ مِن اللهِ، وبُرهانٍ على صحَّةِ نبوَّتي[2]، وبما يجِبُ عليَّ من إخلاصِ العبادةِ له وَحْدَه سُبحانَه[3].

﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ بضَمِّ العينِ وتشديدِ الميمِ بالبناءِ للمَفعولِ، بمعنى: أُخفِيَت، أي: أخفاها اللهُ عليكم وخَذَلكم؛ عقوبةً لكم[4].

وذهب بعضُهم إلى أنَّ المخاطَبَ نُوحٌ ومن آمن مِن قَومِه. وممَّن اختار ذلك: الواحدي، والقرطبي، وهو ظاهِرُ اختيار ابن كثيرٍ، وجعله ابن عطيةَ احتمالًا. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٦٤).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ هذا خطابًا للأراذلِ وحدَهم. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨١).

(٤) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ وحفص عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٨).

٢- قراءةُ ﴿فَعَمِيَتْ﴾ بفَتحِ العَينِ وتخفيفِ الميمِ، بمعنى: فعَمِيَت عليكم، فلم تهتَدوا إليها[١].

﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: ورَزَقني اللهُ النبوَّةَ، فخَفِيَت عليكم، ومنَعَكم اللهُ معرفةَ الحَقِّ عقوبةً لكم، فلم تهتَدوا إلى اتِّباعي[٢].

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾.

أي: أنغصِبُكم، ونُكرِهُكم على التَّصديقِ بها واتِّباعِها، والحالُ أنَّكم تكرهونَها، وتنفِرونَ منها[٣]؟!

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣١٣).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٧، ١٧٨).
قال القُرطبي: (﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ قيل: شهادة أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ. وقيل: الهاءُ ترجِعُ إلى الرَّحمة. وقيل: إلى البيِّنة، أي أنُلزِمُكم قَبولَها، وأُوجِبُها عليكم؟!). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا هو الجوابُ عن الشُّبهةِ الثَّانيةِ، وهي قَولُهم: لا يتَّبِعُك إلَّا الأراذِلُ مِن النَّاسِ، وتقريرُ ذلك من وجوهٍ:

الوجه الأول: أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: أنا لا أطلبُ على تبليغِ دَعوةِ الرِّسالةِ مالًا حتى يتفاوتَ الحالُ بسبَبِ كَونِ المُستَجيبِ فقيرًا أو غنيًّا، وإنَّما أَجْري على هذه الطَّاعةِ الشَّاقَّةِ على ربِّ العالَمينَ، وإذا كان الأمرُ كذلك فسواءٌ كانوا فُقَراءَ أو أغنياءَ، لم يتفاوتِ الحالُ في ذلك.

الوجه الثاني: كأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال لهم: إنَّكم لَمَّا نَظَرتُم إلى ظواهرِ الأمورِ وَجَدتُموني فقيرًا، وظَنَنتُم أنِّي إنما اشتغلتُ بهذه الحِرفةِ؛ لأتوسَّلَ بها إلى أخذِ أموالِكم، وهذا الظنُّ منكم خطأٌ؛ فإنِّي لا أسألُكم على تبليغِ الرِّسالةِ أجرًا؛ إنْ أجريَ إلَّا على ربِّ العالَمينَ، فلا تَحرِموا أنفُسَكم من سعادةِ الدِّينِ؛ بسبب هذا الظَّنِّ الفاسدِ.

الوجه الثالث: أنَّهم قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ إلى قَولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ فهو عليه السَّلامُ بيَّنَ أنَّ اللهَ تعالى أعطاه أنواعًا كثيرةً توجِبُ فَضلَه عليهم؛ ولذلك لم يسْعَ في طلَبِ الدُّنيا، وإنَّما يسعى في طلَبِ الدِّينِ، والإعراضُ عن الدُّنيا من أُمَّهاتِ الفضائِلِ باتِّفاقِ الكُلِّ، فلعلَّ المرادَ تقريرُ حُصولِ الفَضيلةِ مِن هذا الوَجهِ[1].

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: ويا قَومِ لا أطلُبُ منكم مالًا أجرةً لي على تبليغي رسالةَ اللهِ، ما أجري على نَصيحَتي ودَعوتي لكم إلَّا على اللهِ الذي أرسَلَني، فهو الذي يُثيبُني[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٠٣)، ((تفسير

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

أي: وما أنا بمُقْصٍ الضُّعَفاءَ المُؤمنينَ مِن قُربي وجواري؛ لاحتقارِكم لهم[(١)].

كما قال الله تعالى لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ناهيًا إيَّاه أن يطرُدَ جماعةً من ضُعَفاءِ المؤمنينَ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء المُؤمِنينَ الضُّعَفاءَ صائِرونَ إلى اللهِ يومَ القيامةِ، فيسألُهم عن أعمالِهم، لا عن شَرَفِهم وحسَبِهم، ويُثيبُهم عليها، ويُجازي مَن ظَلَمَهم[(٢)].

﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

أي: ولكِنِّي أراكم قومًا تجهلونَ كُلَّ ما تنبغي مَعرِفتُه؛ ومن ذلك عَظَمةُ اللهِ وتَوحيدُه، ومَنزلةُ المؤمنينَ عِندَه، فمِن جَهْلِكم سألتُموني طَردَهم، وهم خيرٌ منكم[(٣)].

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾.

القرطبي)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٦).

أي: قال نوح عليه الصَّلاة والسَّلام: ويا قَومِ مَن يمنَعُني مِن عذابِ اللهِ إن طَردتُ المؤمنينَ فعاقَبَني[(١)]؟

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: أفلا تتَفَكَّرونَ وتتَّعظونَ، فتَنزَجِروا عمَا تقولونَ، وتَنتَهوا عن جَهلِكم وضَلالِكم[(٢)]؟!

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا تفصيلٌ لِما رَدَّ به نوحٌ عليه السَّلامُ مقالةَ قَومِه إجمالًا؛ فهم استدَلُّوا على نفيِ نُبوَّتِه بأنَّهم لم يَرَوا له فضلًا عليهم، فجاء هو في جوابِهم بالقَولِ بالمُوجِبِ[(٣)] أنَّه لم يدَّعِ فَضلًا غيرَ الوحيِ إليه[(٤)].

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا أقولُ لكم: عندي خزائِنُ رِزقِ اللهِ، أتصرَّفُ فيها بالإعطاءِ والمَنعِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦١).

(٣) القولُ بالموجِبِ هو عبارةٌ عن تسليمِ مقتضَى ما جعَله المستدلُّ دليلًا لحكمٍ، مع بقاءِ الخلافِ بينَهما فيه، وذلك بأن يتخيَّلَ أنَّ ما ذكَره مِن النصِّ أو القياسِ مستلزمٌ لحكمِ المسألةِ المتنازَعِ فيها، مِن أنَّه غيرُ مستلزمٍ له، فلا ينقطعُ النزاعُ بتسليمِه. يُنظر: ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) (ص: ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٧).

فأدعوكم إلى اتِّباعي عليها[١].

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾.

أي: ولا أدَّعي أنِّي أعلَمُ ما غاب وخَفِيَ من السَّرائِرِ، وغير ذلك ممَّا لا يعلَمُه إلَّا اللهُ وَحْدَه[٢].

﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾.

أي: ولا أقولُ لكم: إنِّي مَلَكٌ مِن الملائكةِ، بل أنا بشَرٌ مِثلُكم أبلِّغُكم ما أرسَلَني اللهُ به[٣].

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا﴾.

أي: ولا أقولُ عن المؤمنينَ الذين تحتَقِرُهم أعيُنُكم: لن يُعطِيَهم اللهُ أجورَهم وثوابَهم على إيمانِهم[٤].

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾.

أي: اللهُ أعلَمُ بما في قلوبِ أولئك المُؤمِنينَ مِن اعتقاداتٍ ونيَّاتٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨).

قال البغوي: (﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ هذا جوابُ قَولِهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٦). وكذا قال ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٦١، ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)،

﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: إنِّي - إن ادَّعيتُ أنَّ اللهَ لن يؤتيَ المؤمنينَ خَيرًا، وحكمتُ بأنَّهم يُظهِرونَ غيرَ ما يُبطِنونَ في نفوسِهم وطَرَدتُهم - لَمِنَ المُعتَدينَ ما أمَرَهم اللهُ به، القائلينَ ما لا عِلمَ لهم به، الفاعلينَ ما ليس لهم فِعلُه[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ قَولُهم هذا قَولُ مَن يعرِفُ الحَقَّ بالرِّجالِ، ولا يَعرِفُ الرِّجالَ بالحَقِّ؛ وذلك أنَّه يستدِلُّ على كونِ الشَّيءِ حَقًّا بعَظَمةِ مُتَّبِعه في الدُّنيا، وعلى كونِه باطلًا بحَقارتِه فيها[2].

٢- قولُهم: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ ليس بمذمةٍ ولا عيبٍ؛ لأنَّ الحقَّ إذا وضَح لا يبقَى للتروِّي ولا للفكرِ مجالٌ- وهذا على أحدِ القولين في التفسيرِ- بل لا بدَّ مِن اتباعِ الحقِّ- والحالة هذه- لكلِّ ذي زكاءٍ وذكاءٍ، ولا يفكِّر وينزوي هاهنا إلا عيِيٌّ أو غبيٌّ، والرسلُ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاءوا بأمرٍ

((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

قال ابنُ القيم: (والذي يظهرُ مِن الآيةِ: أنَّ الله يعلمُ ما في أنفسِهم، إذ أهَّلهم لقبولِ دينِه وتوحيدِه، وتصديقِ رسلِه، واللهُ سبحانَه وتعالَى عليمٌ حكيمٌ، يضعُ العطاءَ في مواضعِه... فإنَّهم أنكروا أن يكونَ الله سبحانَه أهَّلهم للهدَى والحقِّ، وحرَمه رؤساءَ الكفارِ وأهلَ العزةِ والثروةِ منهم، كأنَّهم استدلُّوا بعطاءِ الدُّنيا على عطاءِ الآخرةِ، فأخبَر الله سبحانه أنَّه أعلمُ بمَن يؤهِّلُه لذلك). ((مدارج السالكين)) (٣/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٠).

جليٍّ واضحٍ[١].

٣- إنَّ العَقلُ والشَّرعُ تطابقا على أنَّه لا بُدَّ مِن تعظيمِ المؤمِنِ البَرِّ التقيِّ، وإهانةِ الفاجرِ الكافرِ، فلو عُكِسَت القضيةُ، فقُرِّبَ الكافِرُ الفاجِرُ على سبيلِ التَّعظيمِ، وطُرِدَ المؤمِنُ التَّقيُّ على سبيلِ الإهانةِ، كان ذلك على ضِدِّ أمرِ الله تعالى، وعلى عَكسِ حُكمِه مِن إيصالِ الثَّوابِ إلى المحقِّينِ، والعِقابِ إلى المُبطِلينَ، قال تعالى حكايةً عن نوحٍ عليه السلامُ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ذكَر الله سبحانَه قصصَ الأنبياءِ عليهم السَّلام للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم تنبيهًا له على ملازمةِ الصبرِ على أذَى الكفارِ إلى أن يكفيَه الله أمرَهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ ...﴾[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ بادرَ الملأُ- أي: الأشرافُ والزُّعَماءُ الذين كَفَروا مِن قَومِه- إلى الجوابِ؛ لِيكونَ الدَّهْماءُ تَبعًا لهم كعادَتِهم، واقتَرَن جوابُهم هنا بـ(الفاء)؛ لأنَّه هو الأصلُ في الرَّدِّ السَّريعِ[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ كرَّرَ نوحٌ عليه السَّلامُ هذه اللَّفظةَ كُلَّ قليلٍ؛ تذكيرًا لهم أنَّه منهم؛ لِتُعَطِّفَهم الأرحامُ، وتَرُدَّهم القَراباتُ عن حَسَدِه أو اتِّهامِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٥٢).

إلى قَبولِ ما يُلقي إليهم مِن الكلامِ[١].

٤- عُطِفَت جُملةُ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على جملةِ ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًا﴾؛ لأنَّ مَضمونَها كالنَّتيجةِ لِمَضمونِ المَعطوفِ عليها، لأنَّ نَفيَ طَمَعِه في المُخاطَبينَ يَقتَضي أنَّه لا يُؤذي أتباعَه لأجلِ إرضاءِ هؤلاء[٢].

٥- صِفاتُ الكَمالِ تَرجِعُ إلى ثلاثةٍ: العلمِ والقُدرةِ والغِنَى، وهذه الثَّلاثةُ لا تَصلحُ على وجهِ الكَمالِ إلَّا لله وَحدَه؛ فإنَّه الذي أحاط بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا، وهو على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ، وهو غنيٌّ عن العالَمين، وقد أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يبرأَ مِن دعوى هذه الثَّلاثةِ بقَولِه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وكذلك قال نوحٌ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فهذا أوَّلُ أولي العَزمِ وأوَّلُ رَسولٍ بَعَثَه الله تعالى إلى أهلِ الأرضِ، وهذا خاتَمُ الرُّسُلِ وخاتَمُ أولي العَزمِ، كِلاهما يتبَرَّأُ من ذلك[٣].

٦- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ على أنَّه ليس مِن شَرْطِ الرَّسولِ أن يَعلمَ كلَّ ما يكونُ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾

- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ فيه تأكيدُ الجملَةِ بلامِ القسَمِ و(قَدْ)؛ لأنَّ المخاطَبين لَمَّا غفَلوا عَن الحذَرِ ممَّا بِقَومِ نوحٍ مَع مُماثَلةِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٣١٢).
(٤) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١٥٩).

حالِهم؛ نُزِّلوا مَنزِلةَ المنكرِ لوقوعِ رِسالتِه[١].

- قولُه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ اقتَصر على النذارةِ دونَ البشارةِ؛ لأنَّ دعوتَه كانت لمجردِ الإنذارِ، أو لكونِهم لم يعمَلوا بما بشَّرهم به[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾

- جملةُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ تَعليليَّةٌ لِمُوجِبِ النَّهيِ المستَفادِ مِن ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾، والمعنى: نَهيتُكم عن عبادةِ غيرِ اللهِ؛ لأنِّي أخافُ عليكم، وفيها تَحقيقٌ لِمَعنى الإنذارِ[٣].

- وقولُه: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ فيه وصفُ اليومِ بالأليمِ؛ لِوُقوعِ الألَمِ فيه، وهو أبلَغُ مِن أن يُوصَفَ العذابُ بالأليمِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ فيه عطْفُ قولِ الملَأِ مِن قومِه بالفاءِ على فِعْلِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم بادَروه بالتَّكذيبِ والمُجادَلةِ الباطلةِ لَمَّا قال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ...﴾ [هود: ٢٥] إلى آخِرِه، ولَم تقَعْ حِكايةُ ابتداءِ مُحاوَرتِهم إيَّاه بـ(قال) مجرَّدًا عن الفاءِ، كما وقَع في سورةِ الأعرافِ؛ لأنَّ ابتداءَ مُحاوَرتِه إيَّاهم هنا لم يقَعْ بلَفظِ القولِ؛ فلم يَحْكِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٠)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/ ٥٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٤).

جَوابَهم بطَريقةِ المُحاوَراتِ بخِلافِ آيةِ الأعرافِ[١].

- قولُه: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ فيه تعريضٌ مِنهم بأنَّهم أحَقُّ منه بالنُّبوَّةِ، وأنَّ اللهَ لو أراد أن يَجعَلَها في أحَدٍ مِن البشَرِ لجعَلَها فيهم[٢].

- وقولُه: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ مُبالَغةٌ في الإخبارِ، وكأنَّه مُؤْذِنٌ بتَأكيدِ حَصْرِ مَن اتَّبَعه، وأنَّهم هم الأراذِلُ لم يَشرَكْهم شَريفٌ في ذلك[٣]، وعُبِّر عنهم بالموصولِ والصِّلةِ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ دونَ أن يُقالَ: (إلَّا أراذِلُنا)؛ لِحكايةِ أنَّ في كلامِ الَّذين كفَروا إيماءً إلى شُهرَةِ أتباعِ نوحٍ عليه السَّلامُ بينَ قومِهم بوصفِ الرَّذالةِ والحَقارةِ، وكان أتباعُ نوحٍ عليه السَّلامُ مِن ضُعفاءِ القومِ، ولكنَّهم مِن أَزْكياءِ النُّفوسِ ممَّن سبَق لهم الهُدى[٤].

- وقولُهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ فيه جمعُ الضَّميرِ في ﴿لَكُمْ﴾؛ لأنَّهم لَمَّا وصَفوا كلَّ فَريقٍ مِن التَّابعِ والمتبوعِ بما يَنْفي سِيادةَ المَتْبوعِ، وتَزْكيةَ التَّابعِ- جمَعوا الوَصْفَ الشَّاملَ لهما، وهو المقصودُ مِن الوَصْفَينِ المفرَّقَين، فنَفَوْا أن يَكونَ لنوحٍ عليه السَّلامُ وأتباعِه فضلٌ على الَّذين لم يُؤمِنوا به حتَّى يكونَ نوحٌ عليه السَّلامُ سيِّدًا لهم، ويَكونَ أتباعُه مُفضَّلين بسِيَادةِ مَتْبوعِهم[٥].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٤٩).

فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾

- فُصِلَت جملةُ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ﴾ عن الَّتي قبْلَها -أي: لم تُعطَفْ عليها- على طريقةِ حِكايَةِ الأقوالِ في المحاوَراتِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فلمَّا وقَعَت هذه الجملةُ مُقابِلًا لكَلامٍ مَحْكيٍّ يُقالُ، فُصِلَت الجملةُ ولم تُعطَفْ، بخلافِ ما تقدَّم آنِفًا في قولِه: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾[1] [هود: ٢٧].

- قولُه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ﴾ فيه افتِتاحُ مُراجَعتِه عليه السَّلامُ بالنِّداءِ؛ لِطلَبِ إقبالِ أَذْهانِهم لوَعْيِ كلامِه، واختيارِ استِحْضارِهم بعُنوانِ قومِه؛ لاستِنْزالِ طَائرِ نُفورِهم؛ تَذكيرًا لهم بأنَّه مِنهم فلا يُريدُ لهم إلَّا خيرًا[2].

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتُمْ ﴾ استِفهامٌ تقريريٌّ، وهو بمعنى: أَخبِروني[3].

- قولُه: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ فيه اختيارُ وَصْفِ الرَّبِّ دونَ اسْمِ الجَلالةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ إعطاءَه البيِّنةَ والرَّحمةَ فضلٌ مِن اللهِ، أراد به إظْهارَ رِفْقِه، وعِنايَتِه به[4].

- قولُه: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ فيه عطفُ فِعْلِ (عُمِّيَت) بفاءِ التَّعقيبِ؛ إيماءً إلى عدَمِ الفترةِ بينَ إيتائِه البيِّنةَ والرَّحمةَ وبينَ خَفائِها عليهم، وهو تعريضٌ لهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٢).

بأنَّهم بادَروا بالإنكارِ قبلَ التَّأمُّلِ[١].

- عُدِّي فِعلُ (عُمِّيَت) بحرفِ (عَلى)؛ لِتَضْمينِه مَعنى: الخَفاءِ[٢].

- ومِن بَديعِ هذا الاستِعْمالِ هنا أنَّ فيه طِباقًا؛ لِمُقابَلةِ قولِهم في مُجادَلتِهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾ ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾، فقابَل نوحٌ عليه السَّلامُ كَلامَهم مُقابَلةً بالمعنى واللَّفظِ؛ إذ جعَل عدَمَ رُؤيتِهم مِن قَبيلِ العَمى[٣].

- قولُه: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾، الاستِفْهامُ إنكاريٌّ، أي: ما كان لنا ذلك؛ لأنَّ اللهَ لم يَأمُرْه بإكْراهِهم إعراضًا عن العنايةِ بهم، فتُرِك أمْرُهم إلى اللهِ، وذلك أشَدُّ في تَوقُّعِ العقابِ العظيمِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾، جيءَ بضَميرِ المتكلِّمِ المشارِكِ هنا، فلم يَقُلْ: (أَأُلْزِمُكُموها)؛ للإشارةِ إلى أنَّ الإلزامَ لو فُرِض وُقوعُه لكان له أعوانٌ عليه وهم أتباعُه؛ فأراد ألَّا يُهمِلَ ذِكْرَ أتباعِه، وأنَّهم أنصارٌ له، لو شاء أن يُهيبَ بهم، والقَصْدُ مِن ذلك التَّنويهُ بشَأنِهم في مُقابَلةِ تَحقيرِ الآخَرين إيَّاهم[٥].

- وتَقْديمُ المجرورِ ﴿لَهَا﴾ على ﴿كَٰرِهُونَ﴾؛ لرِعايةِ الفاصِلَةِ مع الاهتمامِ بشَأنِها، والمقصودُ مِن كَلامِه بَعْثُهم على إعادةِ التَّأمُّلِ في الآياتِ، وتَخفيضِ نُفوسِهم، واستِنْزالِهم إلى الإنصافِ، وليس المقصودُ مَعذِرَتَهم بما صنَعوا،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٢).

ولا العُدولَ عن تَكْريرِ دَعوَتِهم[(١)].

- والتعبيرُ في قَولِ الله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ بالجُملةِ الاسميَّةِ واسمِ الفاعلِ إشارةٌ إلى أنَّ أفعالَهم أفعالُ مَن كراهتُه لها ثابتةٌ مُستحكمةٌ[(٢)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا في قصَّةِ نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨]، وقال في قصَّةِ صالحٍ عليه السَّلامُ في هذه السُّورةِ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ [هود: ٦٣]؛ فتَساوَيا في اللَّفْظَين، واختَلفا في تقديمِ المفعولِ الثَّاني في الآيةِ الأولى على الجارِّ والمجرورِ، حيث قال: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾، وتأخيرِه عَنهما في الآيةِ الثَّانيةِ حيث قال: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّ قومَ صالحٍ عليه السَّلامُ بالَغوا في إساءةِ الجوابِ حينَ قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢]، فرَمَوا مَقامَه النَّبويَّ بِحَطِّ مَرتَبتِه عنهم، فلمَّا بالَغوا في إساءةِ الجوابِ ردَّ عليهم عليه السَّلامُ ردًّا لِمَقالِهم الشَّنيعِ بقولِه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ فخاطَبهم على ما يَجْري في مُناظَرةِ مَن فَرَض ما لا يَعتَقِدُه المناظِرُ على حسَبِ نُطقِه، ولكنَّه يَستنزِلُ بذلك مُناظِرَه؛ لِيُقيمَ الحُجَّةَ عليه، فيَقولُ: هَبْ كذا على ما تَقولُه، فعلى هذا جَرى قولُ النَّبيِّ الكريمِ: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾، أي: كيف ترَون إنْ كنتُ على واضحةٍ وعلى يقينٍ مِن ربِّي، وآتاني مِنه رحمةً فعَصَيتُه بمُوافَقتِكم، فإن فعَلتُ ذلك فمَن يَنصُرُني ويَمنَعُني مِن عَذابِه، وأكَّد بتَقدُّمِ المجرورِ في قولِه: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾؛ لِمَا يُحرِزُ تَقديمُه مِن التَّأكُّدِ،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٣-٢٧٤).

ويَعِيه مَفهومُه مِن أنَّ الرَّحمةَ مِنه سُبحانه لا يُشرَكُ فيها غيرُه، فهو مخصوصٌ لا يَحصُلُ مع تأخيرِه، فلمَّا بالَغُوا في قُبْحِ الجوابِ بالَغ عليه السَّلامُ في ردِّ مَقالِهم؛ فقَدَّم المجرورَ لتأكيدِ أنَّ الرَّحمةَ مِن عندِ اللهِ تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾. ولَمَّا لم يَكُنْ في مُراجَعةِ قومِ نوحٍ مثلُ هذا في شَناعةِ الجوابِ؛ لأنَّ أقصى المفهومِ مِن قولِهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾، إلحاقُه بهم، ومُماثلتُه إيَّاهم، وكلُّهم يقولُ: لو كُنتَ رسولًا لكنتَ مِن الملائكةِ ولم تَكُنْ لِتُماثِلَنا، فلم يَكُنْ في قولِ هؤلاء ما في قولِ قومِ صالحٍ، فجرَى جَوابُه عليه السَّلامُ على نِسْبةِ ذلك، فقال: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾، فأتى بالمجرورِ مؤخَّرًا في مَحلِّه على ما يَجِبُ، حيث لا يُقصَدُ في إحرازِ المفهومِ ما قُصِد في الآيةِ الأخرى؛ فورَد كلٌّ على ما يُلائِمُ[1].

- وأيضًا مِن حُسْنِ المناسَبةِ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾، وبعدَه: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ [هود: ٦٣]، وبعدَهما: ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ [هود: ٨٨]، فقال في الأوَّلَيْن ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾، وفي الثَّالثِ: ﴿وَرَزَقَنِي﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّ الثَّالِثَ تَقدَّمه ذِكرُ الأموالِ، وتأخَّر عنه قولُه: ﴿رِزۡقًا حَسَنٗا﴾، وهُما خاصَّان؛ فناسَبَهما قولُه: ﴿وَرَزَقَنِي﴾، بِخِلافِ الأوَّلَين؛ فإنَّه تَقدَّمَهما أمورٌ عامَّةٌ، فناسَبها قولُه: ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾[2].

- وأيضًا ناسبَ قولُه تعالى هنا: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾، وبعدَه: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ [هود: ٦٣]، وبعدَهما: ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ [هود: ٨٨]؛ لأنَّ ﴿عِندِهِۦ﴾ وإن كان ظرفًا فهو اسمٌ، فذَكَر الأُولى بالتَّصريحِ والثَّانيةَ والثَّالثةَ بالكنايةِ؛ لِتَقدُّمِ ذِكْرِه، فلمَّا كَنَى عنه قدَّمَه؛ لأنَّ الكنايةَ يتَقدَّمُ عليها

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٥-٢٥٦).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٦٣).

الظَّاهرُ نحوُ: ضرَب زيدٌ عَمْرًا، فإنْ كَنَيتَ عن عَمْرٍو قدَّمتَه، نحوُ: عَمرٌو ضرَب زيدًا، وكذلك: زيدٌ أعطاني دِرْهَمًا مِن مالِه، فإن كنَيْتَ عن المالِ قلتَ: المالُ زيدٌ أَعْطاني منه دِرهَمًا[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًا﴾ في إعادةِ الخِطابِ بـ ﴿يَا قَوۡمِ﴾ تأكيدٌ لِمَا في الخطابِ به أوَّلَ مرَّةٍ مِن المعاني، وعُطِف النِّداءُ بالواوِ- مع أنَّ المخاطَبَ به واحدٌ، وشأنُ عطفِ النِّداءِ أن يَكونَ عندَ اختلافِ المنادَى، فأمَّا إذا اتَّحد المنادى فالشَّأنُ عدَمُ العطفِ، فتَعيَّن هنا أن يَكونَ العطفُ مِن مَقولِ نوحٍ عليه السَّلامُ لا مِن حكايةِ اللهِ عنه، ويجوزُ أن يَكونَ تَنبيهًا على اتِّصالِ النِّداءاتِ بعضِها ببعضٍ، وأنَّ أحَدَها لا يُغْني عن الآخَرِ، ولا يكونُ ذلك مِن قَبيلِ الوصْلِ؛ لأنَّ النِّداءَ افتِتاحُ كلامٍ، فجُملتُه ابتدائيَّةٌ، وعَطفُها إذا عُطِفَت مجرَّدُ عطفٍ لفظيٍّ، ويجوز أيضًا أنْ يكونَ ذلك تَفنُّنًا عربيًّا في الكلامِ عندَ تَكرُّرِ النِّداءِ؛ استِحْسانًا للمُخالَفةِ بينَ التَّأكيدِ والمؤكَّدِ[٢].

- جملةُ ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ احتِراسٌ؛ لأنَّه لَمَّا نفى أن يَسألَهم مالًا، والمالُ أجرٌ، نشَأ توهُّمٌ أنَّه لا يَسألُ جَزاءً على الدَّعوةِ؛ فجاء بجملةِ: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ احْتِرَاسًا[٣].

- وفيه المُخالَفةُ بينَ العِبارتَينِ في قولِه: ﴿مَالًا﴾ و﴿أَجۡرِيَ﴾؛ لإفادةِ أنَّه لا

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٣- ٥٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٥).

يَسْأَلُ مِن اللهِ مالًا، ولكنَّه يَسأَلُ ثَوابًا[١].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فيه التَّعبيرُ عن أَتْباعِه بطريقِ الموصوليَّةِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لِمَا يُؤْذِنُ به الموصولُ مِن تغليظِ قومِه في تعريضِهم له بأن يَطرُدَهم بما أنَّهم لا يُجالِسون أمثالَهم؛ إيذانًا بأنَّ إيمانَهم يوجِبُ تَفضيلَهم على غيرِهم الَّذين لم يُؤمِنوا به، والرَّغبةَ فيهم؛ فكيف يَطرُدُهم؟! وفيه أيضًا إبطالٌ لِما اقتَضاه قولُهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧] مِن التَّعريضِ بأنَّهم لا يُماثِلونهم في مُتابَعتِه[٢].

- وجملةُ: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ في مَوضِعِ التَّعليلِ لِنَفْيِ أن يَطرُدَهم؛ بأنَّهم صائِرُون إلى اللهِ في الآخِرةِ، فمُحاسِبٌ مَن يَطرُدُهم[٣]، وتأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) لِرَدِّ إنكارِ قومِه البَعْثَ، أو للاهتمامِ بذلك اللِّقاءِ، وقد زِيدَ هذا التَّأكيدُ تأكيدًا بجُملةِ ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾[٤].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ استدراكٌ، وموقِعُ هذا الاستدراكِ هو أنَّ مضمونَ الجُملةِ ضدُّ مَضمونِ التي قبلَها، وهي جملةُ ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾، أي: لا ريبَ في ذلك، ولكنَّكم تَجهلونَ فتَحسَبونَهم لا حُضرةَ لهم، وأنْ لا تَبِعةَ في طَرْدِهم[٥].

- وزيادةُ لفظةِ ﴿قَوْمًا﴾ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على أنَّ جَهْلَهم صفةٌ لازمةٌ لهم؛ كأنَّها مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم، وحذَفَ مفعولَ ﴿تَجۡهَلُونَ﴾؛ للعِلْمِ به، أي: تَجهَلون ذلك[١].

- وفي تَعبيرِه بـ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ دون (جاهلينَ) إشارةٌ إلى أنَّ الجَهلَ مُتجَدِّدٌ لهم، وهو غيرُ عادتِهم؛ استعطافًا لهم إلى الحِلمِ[٢].

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا في قصَّةِ نوحٍ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، وقاله بعدُ- حِكايةً عن هودٍ- بلفظِ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ [هود: ٥١]؛ وذلك لأنَّه في قصَّةِ نوحٍ وقَعَ بعدَها ﴿خَزَآئِنُ﴾ ولفظُ المالِ بالخزائنِ أَلْيَقُ[٣]، أو يكونُ هذا الاختلافُ توسِعةً في التَّعبيرِ عن المرادِ بمُتساوِيَيْن[٤].

- ومِن حُسْنِ المناسَبةِ كذلك قولُه أيضًا هنا: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ بالواوِ، وفي الثَّانيةِ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ [هود:٥١] بدُونِها؛ وذلك لطولِ الكلامِ الواقعِ بين النِّداءَينِ في قصَّةِ نوحٍ، وقِصَرِ ما بينَهما في قصَّةِ هودٍ، فناسَب ذِكْرُ الواوِ في الأوَّلِ؛ لِتَوصيلِ ما بَعدَها بما قبلَها[٥].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٦٣-٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ إضافةُ خَزائِنَ إلى اللهِ لاختِصاصِ اللهِ بها[١].

- قولُه: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فيه إعادةُ فِعلِ القولِ؛ لأنَّه نفيٌ لِشُبهةِ قولِهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، وإبطالُ دَعْوى أُخرَى ألصَقُوها به، وتأكيدُه بـ(إنَّ) لأنَّه قولٌ لا يَقولُه قائلُه إلَّا مؤكَّدًا؛ لشِدَّةِ إنكارِه لو ادَّعاه مُدَّعٍ؛ فلمَّا نَفاه نفَى صيغةَ إثباتِه[٢].

- قولُه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ إبطالٌ لقولِهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ بطريقةِ التَّغليطِ؛ لأنَّهم جعَلوا ضعْفَهم وفَقْرَهم سببًا لانتِفاءِ فَضْلِهم، فأبطَلَه بأنَّ ضعْفَهم ليس بحائلٍ بينَهم وبينَ الخيرِ مِن اللهِ؛ إذْ لا ارتِباطَ بينَ الضَّعفِ في الأمورِ الدُّنيَويَّةِ مِن فقرٍ وقلَّةٍ، وبينَ الحرمانِ مِن نَوالِ الكمالاتِ النَّفْسانيَّةِ والدِّينيَّةِ[٣].

- وقولُه: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ فيه الإتيانُ بحرفِ النَّفيِ ﴿لَن﴾ الدَّالِّ على تأكيدِ نفْيِ الفعلِ في المستقبَلِ؛ تَعْريضًا بقومِه؛ لأنَّهم جعَلوا ضعْفَ أتباعِ نوحٍ عليه السَّلامُ وفَقْرَهم دليلًا على انتِفاءِ الخيرِ عنهم؛ فاقتَضى دَوامَ ذلك ما داموا ضُعَفاءَ فُقراءَ، فلِسانُ حالِهم يقولُ: لن يَنالوا خيرًا، فكان ردُّه عليهم بأنَّه لا يَقولُ: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾[٤].

- وجملةُ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ تعليلٌ لنَفْيِ أن يَقولَ: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾؛ ولذلك فُصِلَت عن الجُملةِ قبْلَها، ولم تُعطَفْ عليها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٩).

- وجملةُ ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعليلٌ ثانٍ لِنَفيِ أن يقولَ: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا﴾، وقد أكَّدها بثلاثِ مؤكِّداتٍ: (إنَّ)، ولامِ الابتِداءِ، وحَرْفِ الجزاءِ ﴿إِذٗا﴾؛ تحقيقًا لِظُلمِ الَّذين رمَوُا المؤمِنين بالرَّذالةِ، وسَلَبوا الفضْلَ عنهم؛ لأنَّه أرادَ التَّعريضَ بقومِه في ذلك، وقولُه: ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أبلَغُ في إثباتِ الظُّلمِ مِن: (إنِّي ظالمٌ)[1].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٢-٢٥)

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿يُغۡوِيَكُمۡ﴾: أي: يُضِلَّكم، وقيل: يُهْلِكَكم؛ لأنَّ الإضلالَ يُفْضي إلى الهلاكِ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمرِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى عن قومِ نُوحٍ أنَّهم قالوا له: يا نوحُ قد حاجَجْتَنا فأكثَرتَ مُحاجَّتَنا، فأْتِنا بما تَعِدُنا مِن العذابِ إن كنتَ مِن الصَّادقينَ في دعواك، فقال لهم نوحٌ: إنَّ اللهَ وَحدَه هو الذي يأتيكم بالعذابِ إن شاء، ولَستُم بفائِتِيه إذا أراد أن يعَذِّبَكم؛ لأنَّه سُبحانَه لا يُعجِزُه شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ولا ينفَعُكم نُصحي واجتهادي في دَعوتِكم للإيمانِ، إن كان اللهُ يريدُ أن يُضِلَّكم، هو سبحانَه مالِكُكم، وإليه تُرجَعونَ في الآخرةِ للحِسابِ والجزاءِ.

بل أيقولُ مُشرِكو قَومِك- يا مُحمَّدُ: إنَّك اختلقتَ القُرآنَ، واختلقتَ قِصَّةَ نُوحٍ مِن تِلقاءِ نَفسِك؟! قلْ لهم: إن كنتُ قد افتريتُ ذلك على اللهِ، فعليَّ وحدي إثمُ ذلك، وإذا كنتُ صادقًا فأنتم المُجرِمونَ الآثِمونَ، وأنا بريءٌ مِن كُفرِكم وتكذيبِكم وإجرامِكم.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ ﴾.

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا ﴾.

أي: قال المُشرِكونَ مِن قَومِ نوحٍ: يا نوحُ، قد حاجَجتَنا وخاصَمتَنا، فأكثَرْتَ محاجَّتَنا وخُصومَتَنا، وبالغْتَ فيها[١].

﴿ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

أي: فعجِّلْ لنا- يا نوحُ- الذي تَعِدُنا به من العَذابِ، إن كنتَ من الصَّادقينَ في أقوالِك ودعواك أنَّك رسولُ اللهِ حقًّا[٢].

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣ ﴾.

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ ﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: إنَّما يأتيكم بالعَذابِ ويُعجِّلُه لكم اللهُ وَحْدَه، إن أراد أن يُهلِكَكم[٣].

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾.

أي: ولستُم بفائتينَ اللهَ بالهَرَبِ من عقابه، ولا قدرةَ لكم على دَفعِ عَذابِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير الشوكاني))

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ نوحٌ عليه السَّلامُ أنَّهم إنَّما هم في قَبضتِه تعالى؛ زاد في بيانِ عَظَمتِه، وأنَّ إرادتَه تضمحِلُّ معها كلُّ إرادةٍ، في سياقٍ دالٍّ على أنَّه بذلك ناصِحٌ لهم، وأنَّ نُصحَه خاصٌّ بهم[١].

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾.

أي: ولا ينفَعُكم ما أبذُلُه لكم مِن نُصحٍ إن كان اللهُ يشاءُ أن يُضِلَّكم ويَخذُلَكم، ويُوقِعَ الغَوايةَ في قلوبِكم[٢].

﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: الله هو ربُّكم المتصَرِّفُ في أمورِكم بما يشاءُ، فإليه وحده الهِدايةُ والغَوايةُ، وإليه وَحدَه تصيرونَ بعد هلاكِكم، فيُجازيكم على أعمالِكم[٣].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

(٢/ ٥٦٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧١، ٥٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ١٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).
قال السمعاني في قوله: ﴿يُغْوِيَكُمْ﴾: (أَكثرُ المفسِّرينَ على أنَّ مَعْناه: يُضلَّكم). ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها جُملةٌ مُعتَرِضةٌ بينَ جملةِ أجزاءِ القِصَّةِ، وليست مِن القِصَّةِ، ومناسَبةُ هذا الاعتراضِ أنَّ تفاصيلَ القِصَّةِ التي لا يَعلَمُها المُخاطَبونَ تفاصيلُ عَجيبةٌ تدعو المُنكِرينَ إلى أن يتذكَّروا إنكارَهم، ويُعيدوا ذِكرَه. وكونُ ذلك مطابقًا لِما حصلَ في زَمَنِ نوحٍ عليه السَّلامُ، وشاهِدةً به كُتُبُ بني إسرائيلَ، يدُلُّ على صِدقِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ عِلمَه بذلك مع أميَّتِه وبُعدِ قَومِه عن أهلِ الكِتابِ، آيةٌ على أنَّه وَحيٌ مِن اللهِ لا يأتيه الباطِلُ مِن بين يَدَيه ولا مِن خَلْفِه[1].

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ ﴾.

أي: أم يقولُ مُشرِكو قَومِك- يا مُحمَّدُ: اختلقَ محمَّدٌ هذا القُرآنَ، واختلق قِصَّةَ نوحٍ مِن تِلقاءِ نَفسِه[2]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٣-٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٣-٦٤).

وممن اختار المعنَى المذكورَ؛ أنَّ الضميرَ في ﴿يَقُولُونَ﴾ لكُفَّارِ قُريشٍ، وفي ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جريرٍ، وابنُ جُزي، ونسَبَه لجميع المفسِّرين، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

واختار أنَّها حِكايةٌ عن نوحٍ وما قاله لِقَومِه: القرطبيُّ، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٦٧).

قال السعدي: (﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ ﴾ هذا الضميرُ محتملٌ أن يعودَ إلى نوحٍ، كما كان السياقُ في قصتِه مع قومِه، وأنَّ المعنى: أنَّ قومَه يقولونَ: افترَى على الله كذبًا، وكذَّب بالوحي الذي يزعمُ أنَّه مِن الله، وأنَّ الله أمَره أن يقولَ: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴾ أي: كلٌّ عليه وزرُه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾.

ويحتمِلُ أن يكونَ عائدًا إلى النبيِّ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتكونَ هذه الآيةُ معترضةً، في أثناءِ قصةِ نوحٍ وقومِه؛ لأنَّها مِن الأمورِ التي لا يعلمُها إلَّا الأنبياءُ، فلمَّا شرَع الله في قصِّها على رسولِه، وكانت مِن جملةِ الآياتِ الدالةِ على صدقِه ورسالتِه، ذكرَ تكذيبَ قومِه له مع البيانِ

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾.

أي: قل -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إن اختلقْتُ القُرآنَ وافتعلتُه- كما تَزعمونَ- فعلَيَّ وحدي إثمي في كَذِبي على اللهِ، وأنا بريءٌ ممَّا تُذنِبونَ مِن الكُفرِ والكَذِب على اللهِ، والتَّكذيبِ بالحَقِّ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ دَلالةٌ على المُجادلةِ المَشروعةِ- وقد تجبُ وقد تُستحَبُّ- وأمَّا المذمومةُ شَرعًا فهي: الجَدلُ بالباطِلِ، والجدلُ بغيرِ عِلمٍ، والجدلُ في الحقِّ بعد ما تبيَّن[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ سَمَّوه (وَعْدًا) سُخريةً به، أي: أنَّ هذا الذي جعلْتَه وعيدًا هو عندنا وعدٌ حسَنٌ سارٌّ، باعتبارِ أنَّا نحِبُّ حُلولَه، فالمعنى: أنَّك لستَ قادرًا على ذلك، ولا أنت صادِقٌ فيه، فإن كان حقًّا فائْتِنا به[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الإغواءَ بإرادةِ الله، وهي بذلك تدُلُّ على بُطلانِ مَذهَبِ المُعتَزلةِ والقَدَريَّةِ ومَن وافقَهما؛ إذ زعموا أنَّ الله تعالى لا يُريدُ أن يَعصيَ العاصي، ولا يكفُرَ الكافِرُ، ولا يغويَ الغاوي، فرَدَّ الله عليهم بقَولِه تعالى: ﴿إِن

التامِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٨).

كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾، فأضاف إغواءَهم إلى اللهِ سبحانه وتعالى؛ إذ هو الهادي والمُضِلُّ، سبحانه عمَّا يقولُ الجاحِدونَ والظَّالِمونَ عُلُوًّا كبيرًا[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾ بيانُ نوعِ الإرادةِ الكونيَّةِ- وهي الإرادةُ المُستَلزِمةُ لوقوعِ المُرادِ- ويُقابِلُها الإرادةُ الدينيَّةُ الشَّرعيَّةُ- وهي محبَّةُ المرادِ ورِضاه، ومحبَّةُ أهلِه والرِّضا عنهم، وجزاؤُهم بالحُسنى- كقَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾[٢] [البقرة: ١٨٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- قولُهم: ﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ خبرٌ مستعمَلٌ في التَّذمُّرِ والتَّضْجيرِ والتَّأييسِ مِن الاقتناعِ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ فيه قَصْرُ قَلْبٍ[٤]، بِناءً على ظاهِرِ طلَبِهم؛ حَملًا لِكلامِهم على ظاهِرِه، على طَريقةِ مُجاراةِ الخَصْمِ في المناظَرةِ، وإلَّا فإنَّهم جازِمون بتَعذُّرِ أن يأتِيَهم بما وعَدهم؛ لأنَّهم يَحسَبونه كاذِبًا، وهم جازِمون بأنَّ اللهَ لم يتَوعَّدْهم، ولعلَّهم كانوا لا يُؤمِنون بوجودِ اللهِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٠).

(٤) قصر القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلمُ فيه حُكمَ السامع، كقولك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لمن يعتقد أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معينةٍ أو طرفٍ معينٍ، لكنَّه يقول: ما زيدٌ هناك بشاعر. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦١).

- وقولُه: ﴿إِن شَآءَ﴾ احتراسٌ راجعٌ إلى حَملِ العذابِ على عذابِ الدُّنيا[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ فيه تعريضٌ بتَحْميقِهم، وتسفيهِ آرائِهم؛ حيث كَرِهوا النُّصْحَ الَّذي هو نفْعٌ لهم[٢].

- وجملةُ ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ابتدائيَّةٌ لِتَعليمِهم أنَّ اللهَ ربُّهم؛ إن كانوا لا يُؤمِنون بوجودِ اللهِ، أو لِتَذكيرِهم بذلك إن كانوا يُؤمِنون بوجودِه، ويُشرِكون معه وَدًّا وسُواعًا ويَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْرًا[٣].

- وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ في ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ للاهتمامِ، ولرِعايةِ الفاصلةِ[٤].

٤- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾

- لفظةُ ﴿أَمْ﴾ هنا للإضرابِ للانتقالِ مِن غرَضٍ إلى غرضٍ، والاستفهامُ الذي يُؤْذِنُ به حرفُ ﴿أَمْ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، وموقعُ الإنكارِ بديعٌ؛ لِتَضمُّنِه الحُجَّةَ عليهم[٥].

- قولُه: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيَّ﴾، وهو مُؤذِنٌ بالقَصْرِ، أي: إجرامي عليَّ لا علَيكم؛ فلماذا تُكثِرون ادِّعاءَ الافتِراءِ كأنَّكم ستُؤاخَذون بتَبِعَتِه؟! وهذا جارٍ على طريقةِ الاستِدْراجِ لهم،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٦٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٦٤).

والكلامِ المنصِفِ[١].

(١) يُنظر: (تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٤).

الآيات (٢٦-٢٩)

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: أي: لا تَحْزَن، مِن البُؤسِ: وهو الضُّرُّ والشِّدَّةُ[١].

﴿وَوَحْيِنَا﴾: أي: أمرِنا وتعليمِنا، والوحيُ: الإشارةُ، وأيضًا: الكتابُ والرسالةُ، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرِك حتى علِمه فهو وحيٌ كيف كان، وأصلُ (وحي): يدلُّ على إلقاءِ علمٍ في إخفاءٍ[٢].

﴿مُّقِيمٌ﴾: أي: دائمٌ سرمديٌّ أبديٌّ، وأصلُ (قوم): انْتِصابٌ أو عَزْمٌ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه أوحَى إلى نوحٍ عليه السَّلامُ أنَّه لن يؤمِنَ باللهِ مِن قومِك إلا مَن قد آمنَ مِن قبلُ، فلا تَحزَنْ على ما كانوا يفعلونَ، واصنَعِ السفينةَ بمرأًى منَّا وبأمْرِنا لك تحتَ حِفظنا وكِلاءَتِنا، ولا تطلُبْ مني العفوَ عن هؤلاء الذين

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص٨٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

ظَلَموا أنفُسَهم من قومِك بكُفرِهم؛ فإنَّهم مُغرَقون بالطُّوفانِ.

ثمَّ أخبَر تعالى أنَّ نوحًا عليه السلامُ شرع يَصنَعُ السفينةَ كما أُمِر، وكلَّما مرَّ عليه جماعةٌ مِن كُبَراءِ قَومِه سَخِروا منه، قال لهم نوحٌ رادًّا عليهم: إن تسخَروا منَّا اليومَ لجَهلِكم بصِدقِ وعدِ اللهِ، فإنَّا نسخَرُ منكم كما تسخرونَ منَّا، فسوف تعلمون مَن الذي يأتيه في الدُّنيا عذابُ اللهِ الذي يُهينُه، ويَنزِلُ به في الآخرةِ عذابٌ دائِمٌ لا انقِطاعَ له؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾.

أي: وأوحَى اللهُ إلى نبيِّه نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه لن يؤمِنَ باللهِ ويتَّبِعَك من قومِك إلَّا مَن سبق أن آمَن مِن قَبلُ[1].

﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.

أي: فلا تَحزَنْ- يا نوحُ- بما كان يفعَلُ قَومُك من الكُفرِ والتكذيبِ، ولا يُهمَّنَّك أمرُهم؛ فإنِّي مُهلِكُهم[2].

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان نهيُه تعالى نوحًا عليه السَّلامُ عن الابتئاسِ بفِعلِهم- مع شِدَّةِ جُرمِهم-

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٥).

مؤذِنًا بأنَّ الله ينتَصِرُ له؛ أعقَبَه بالأمرِ بصُنعِ الفُلكِ؛ لتهيئةِ نجاتِه، ونجاةِ مَن قد آمنَ به من العذابِ الذي قدَّرَه الله لِقَومِه[١].

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾.

أي: واصنَعِ السَّفينةَ بمرأًى منَّا، وتحت حِفْظنا، وبتعليمِنا لك كيفيَّةَ صِناعتِها[٢].

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾

أي: ولا تسألْني -يا نوحُ- العفوَ عن قَومِك المُشرِكينَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكفرِ؛ إنَّهم محكومٌ عليهم بالغَرَقِ بالطوفانِ، فلا سبيلَ إلى طلَبِ الشفاعةِ لهم[٣].

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾.

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُ﴾.

أي: وطَفِقَ نوحٌ يصنَعُ السَّفينةَ، وكلَّما مرَّ عليه جماعةٌ من كُبَراءِ قَومِه المشركينَ ورأَوْا ما يصنَعُ هَزِئوا منه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

قال القرطبي: (في سُخرِيَتِهم منه قولان: أحدُهما: أنَّهم كانوا يرَونَه يبني سفينتَه في البَرِّ فيسخرون به ويستهزِئونَ، ويقولون: يا نوحُ، صِرتَ بعد النبوَّةِ نجَّارًا. الثاني: لَمَّا رأوه يبني السفينةَ ولم يشاهِدوا قبلها سفينةً بُنِيَت، قالوا: يا نوحُ، ما تصنعُ؟ قال: أبني بيتًا يمشي على الماءِ، فعَجِبوا من قولِه، وسَخِروا منه). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢-٣٣).

﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: إن تستَهزِئوا بنا عند بناءِ السَّفينةِ، فإنَّا نستهزِئُ بكم كما تستَهزِئونَ بنا[١].

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩﴾.

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾.

أي: قال نوحٌ مهدِّدًا قومَه: فسوف تعلمونَ إذا نزل بكم عِقابُ اللهِ مَن يأتيه[٢] عذابٌ يُهينُه في الدُّنيا[٣].

﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٣)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٤٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣٤).

اختار ابنُ جرير أنَّ المرادَ نهزأُ منكم في الآخرةِ كما تهزؤون منا في الدُّنيا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٣).

واختار ابن عطية أنَّ المرادَ نسخَرُ منكم الآن لغفلَتِكم عما سيحُلُّ بكم من العذابِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٠).

واختيارُ القرطبيِّ: نسخَرُ منكم غدًا عند الغَرَق. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣).

واختيارُ البيضاوي: إذا أخذَكم الغرَقُ في الدنيا والحَرَقُ في الآخرة. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣٤).

(٢) (من) في قوله: ﴿مَن يَأۡتِيهِ﴾ فيها وجهان: أحدُهما: أن يكونَ بمعنى (الذي)، والثاني: أن يكونَ استفهامًا بمعنى (أي)، كأنَّه قيل: فسوف تعلمون أيُّنا يأتيه عذابٌ... يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٣، ٤٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٠).

قال ابن عطية: (العذابُ المُخزي هو الغَرَقُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٠).

أي: ومَن يَنزِلُ به في الآخرةِ عذابٌ دائِمٌ لا ينقَطِعُ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ في إسنادِ (العِلم) إلى ضَميرِ المخاطَبين دونَ الضَّميرِ المشارِكِ- بأن يُقالَ: (فسوف نَعلَمُ)- إيماءٌ إلى أنَّ المخاطَبين هم الأحَقُّ بعِلْم ذلك، وهذا يُفيدُ أدَبًا شَريفًا بأنَّ الواثِقَ بأنَّه على الحَقِّ لا يُزَعزِعُ ثِقتَه مُقابَلةُ السُّفهاءِ أعمالَه النَّافعةَ بالسُّخريةِ، وأنَّ عليه وعلى أتباعِه أن يَسْخَروا مِن السَّاخِرين[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ يدلُّ على إثباتِ القضاءِ والقَدَرِ؛ لأنَّه تعالى أخبَرَ بأنَّهم لا يؤمنونَ بعدَ ذلك[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، الهاءُ في ﴿أَنَّهُۥ﴾ ضميرُ الشَّأنِ، وهو دالٌّ على أنَّ الجُملةَ بعدَه أمْرُها خطيرٌ؛ لأنَّها تأييسٌ له مِن إيمانِ بقيَّةِ قومِه، وذلك شديدٌ عليه؛ ولذلك عُقِّب بتَسْليتِه بجملةِ ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾؛ فالفاءُ لِتَفريعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٨١).

التَّسليةِ على الخبَرِ المحزِنِ[١].

- قولُه: ﴿مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ فيه تأكيدُ الفعلِ بـ﴿قَدۡ﴾؛ للتَّنصيصِ على أنَّ المرادَ مَن حصَل مِنهم الإيمانُ يَقينًا دونَ الَّذين تَرَدَّدوا[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾

- قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ جملةُ ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ تعليليَّةٌ للنَّهيِ في ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي﴾؛ عَلَّل منْعَ مُخاطَبتِه بأنَّه حَكَم عليهم بالغرَقِ في قولِه: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾، وفيها إخبارٌ بما سيَقَعُ، وبيانٌ لِسَببِ الأمرِ بصُنعِ الفُلكِ[٣].

- وقوله: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ فيه مجيءُ الخبرِ إنكاريًّا مؤكَّدًا بـ (إنَّ) تأكيدًا للكلام، وتنزيلًا للسَّامعِ مَنزلةَ المتردِّد؛ لأنَّه للنَّفسِ اليقْظَى مَظِنَّةُ التردُّدِ في حُكمِ الخَبرِ ومَؤونةِ الطَّلبِ له؛ فقال أولًا: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، أي: لا تَدْعُني يا نوحُ في استدفاعِ العذابِ عنهم، ثم قال: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾؛ لأنَّ الكلامَ مَظِنَّةُ أنْ يَتردَّدَ نوحٌ بأنَّه هلْ يُصيبُهم بأسٌ، بل بأنَّهم هل هم مُغرَقون بملاحظةِ ما تَقدَّم من قولِه: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾؛ فأوردَ الخبرَ مؤكَّدًا، فقال: إنَّهم محكومٌ عليهم بالإغراقِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٧).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٥٣).

فيه التَّعبيرُ عن صُنعِه الفُلْكَ بصيغةِ المضارعِ في ﴿وَيَصْنَعُ﴾؛ وذلك لاستِحْضارِ الحالةِ؛ لِتَخْييلِ السَّامعِ أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ بصَدَدِ العمَلِ[١].

- وجَمْعُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿مِنَّا﴾ يُشيرُ إلى أنَّهم يَسْخَرون مِنه في عمَلِ السَّفينةِ، ومِن الَّذين آمَنوا به؛ إذ كانوا حوْلَه واثِقين بأنَّه يَعمَلُ عَملًا عَظيمًا، وكذلك جمعُه في قولِه: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾[٢].

- قولُه: ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ فيه تشبيهٌ، ووجهُه أنَّه تشبيهٌ في السَّببِ الباعثِ على السُّخريةِ، وإن كان بينَ السَّببَينِ بَوْنٌ، ويجوزُ أن تكونَ كافُ التَّشبيهِ مُفيدةً معنى التَّعليلِ كالَّتي في قولِه تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]؛ فيُفيدُ التَّفاوُتَ بينَ السُّخريَتينِ؛ لأنَّ السُّخريَةَ المعلَّلَةَ أحَقُّ مِن الأُخرَى؛ فالكُفَّارُ سَخِروا مِن نوحٍ عليه السَّلامُ لِعَملٍ يَجهَلون غايتَه، ونوحٌ عليه السَّلامُ وأتباعُه سَخِروا مِن الكفَّارِ؛ لعِلْمِهم بأنَّهم جاهِلون في غُرورٍ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ تفريعٌ على جملةِ ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾، أي: سيَظهَرُ مَن هو الأحَقُّ بأن يُسخَرَ منه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٦٩).

الآيات (٤٠-٤٤)

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلتَّنُّورُ﴾: هو الكانونُ (الموْقِدُ) الذي يُخبَزُ فيه[١].

﴿مَجْرٖىٰهَا﴾: أي: مَسيرُها، وأصلُ (جري): يدلُّ على انسياحِ شَيءٍ[٢].

﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾: أي: رُسُوُّها، وانتهاءُ سَيرِها، وأصلُ (رسو): يدلُّ على ثباتٍ[٣].

﴿مَعْزِلٍ﴾: أي: مكانٍ مُنقَطِعٍ، وأصلُ (عزل): يدلُّ على تَنحيةٍ وإمالةٍ[٤].

﴿سَـَٔاوِىٓ﴾: أي: أَرجِعُ وألجأُ، وأصلُ (أوى): يدلُّ على تَجمُّعٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/ ٩٥)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٠/ ٢٩٤) (٣٦/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٩/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير

﴿أَقۡلِعِي﴾: أي: أمسِكي عن المَطَر، وأصلُ (قلع): يدلُّ على انتزاعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[١].

﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾: أي: غارَ في الأرضِ ونضَبَ، وأصلُ (غيض): يدلُّ على نُقصانٍ في شَيءٍ وقِلَّةٍ[٢].

﴿ٱلۡجُودِيِّ﴾: هو اسمُ جَبَلٍ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ في هذا الاستثناءِ وَجهانِ؛ أحدهما: أنَّه مُنقَطِعٌ، و﴿مَن رَّحِمَ﴾ بمعنى (المرحوم)، أي: لكِنْ مَن رَحِمَه اللهُ مَعصومٌ. وعليه فـ ﴿مَن﴾ فِي مَحلِّ نصبٍ على الاستِثناءِ المُنقَطِع. الثاني: أنَّه استِثناءٌ متَّصِلٌ، و﴿مَن رَّحِمَ﴾ بمعنى (الرَّاحِم)، وهو اللهُ تعالى، أي: لا عاصِمَ إلَّا الرَّاحمُ؛ فـ ﴿مَن﴾ فِي مَوضِع رفعٍ على البدَلِ من محلِّ ﴿عَاصِمَ﴾. وقيل: إنَّ ﴿عَاصِمَ﴾ بمعنى (معصوم)، أي: لا معصومَ إلَّا المرحومُ. والاستثناءُ متَّصِلٌ أيضًا. وخبرُ ﴿لا﴾ محذوفٌ تقديرُه (مانعٌ)، وكلٌّ مِن ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ و﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّقٌ بالخبرِ المحذوفِ، والتَّقديرُ: لا عاصِمَ مانعٌ اليومَ مِن أَمرِ اللهِ[٤].

القرطبي)) (٩/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩، ٤٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٦٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: حتى إذا جاء أمرُنا بإهلاكِ قومِ نوحٍ، كما وَعدْنا نوحًا بذلك، ونبَعَ الماءُ بقُوَّةٍ مِن التنُّورِ- وهو المكانُ الذي يُخبَزُ فيه- علامةً على مجيءِ العَذابِ؛ قُلنا لنوحٍ: احمِلْ في السَّفينةِ مِن كُلِّ نَوعٍ مِن أنواعِ المَخلوقاتِ ذكرًا وأُنثَى، واحمِلْ فيها أهلَ بَيتِك إلَّا مَن سبَق عليهم القَولُ بالعذابِ، واحمِلْ فيها مَن آمن معك مِن قَومِك، وما آمن معه إلَّا قليلٌ.

وقال نوحٌ لِمن آمن معه: اركبُوا في السَّفينةِ، باسمِ اللهِ يكونُ جَريُها على وجهِ الماءِ، وباسمِ اللهِ يكونُ مُنتهَى سَيرِها ورُسُوُّها، إنَّ ربِّي لَغفورٌ رحيمٌ.

ثمَّ وصَف الله تعالى جريانَ السفينةِ، فقال: وهي تجري بهم في موجٍ يعلو ويرتَفِعُ حتى يصيرَ كالجبالِ، ونادى نوحٌ ابنَه- وكان في ناحيةٍ بعيدةٍ عن السفينةِ- فقال له: يا بُنَيَّ اركبْ معنا في السَّفينةِ، ولا تكُنْ مع الكافرينَ باللهِ فتَغرقَ.

فقال له ابنُه: سألجأُ إلى جبلٍ أتحصَّنُ به من الماءِ، فيَمنَعُني من الغَرَقِ، فأجابه نوحٌ: لا مانعَ اليومَ مِن أمرِ اللهِ وقَضائِه الذي قد نزل بالخَلقِ من الغَرَقِ والهلاكِ إلَّا الرَّاحِمُ، وهو اللهُ تعالى، وحال الموجُ المُرتَفِعُ بين نوحٍ وابنِه، فكان من المُغرَقينَ الهالكينَ، وقال اللهُ للأرضِ- بعد هلاكِ قَومِ نُوحٍ: يا أرضُ اشرَبي ماءَك، ويا سَماءُ أمسِكي عن المَطَر، وغار الماءُ ونَضَب، وقُضِيَ أمرُ اللهِ بهَلاكِ قَومِ نُوحٍ، ونجاةِ المؤمنينَ، ورَسَت السَّفينةُ على جَبَلِ الجُوديِّ، وقيل: هلاكًا وبُعدًا للقَومِ الظَّالمينَ.

(٢/ ٧٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٥٨-١٥٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٣٢-٣٣٣).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾.

أي: حتى إذا جاء أمرُ الله بعذابِ قَومِ نوحٍ وهلاكِهم بالطوفانِ، ونبَعَ الماءُ بشِدَّةٍ مِن الموضعِ الذي يُخبزُ فيه؛ علامةً على مجيءِ العذابِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠١، ٤٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢٠)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٧).

والمعنى المذكورُ للتنورِ هو اختيارُ ابنِ جريرٍ، والواحديِّ، والرازي. يُنظر: المصادر السابقة، وقد نسَبه غيرُ واحدٍ إلى أكثرِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٠).

قال الطبري: (أولَى هذه الأقوالِ عندَنا بتأويلِ قولِه: ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ قولُ من قال: هو التَّنُّورُ الَّذي يُخْبَزُ فيه؛ لأنَّ ذلك هو المعروفُ من كلامِ العربِ، وكلامُ اللَّهِ لا يُوَجَّه إلَّا إلى الأغلبِ الأشهرِ مِنْ معانيه عندَ العربِ إلَّا أنْ تقومَ حُجَّةٌ على شيءٍ منه بخلافِ ذلك فيسَلَّمُ لها. وذلك أنَّه جلَّ ثناؤُه إنَّما خاطَبَهم بما خاطَبَهم به لإفهامِهم معنَى ما خاطَبَهم به). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠٦).

وممن قال به من السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، والحسنُ، ومجاهدٌ، وقتادةُ- في رواية معمرٍ عنه- ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٨٢).

وقيل: التنورُ: وجهُ الأرضِ. وممن قال به من السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وعليٌّ، وعكرمةُ، والزهريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٣).

قال ابنُ كثيرٍ: (وأما قولُه: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فعن ابن عباسٍ: التنورُ: وجهُ الأرضِ، أي: صارتِ الأرضُ عيونًا تفورُ، حتى فار الماءُ مِن التنانيرِ التي هي مكانُ النارِ، صارت تفورُ ماءً، وهذا قولُ جمهورِ السلفِ وعلماءِ الخلفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٠). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

وقيل في المرادِ بالتنورِ غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧١).

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

أي: قُلنا لنوحٍ عليه الصلاةُ والسَّلامُ حين جاء موعِدُ هلاكِ قَومِه: احمِلْ في السَّفينةِ مِن كُلِّ صنفٍ من أصنافِ المخلوقاتِ ذكَرًا وأنثى[١].

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾.

أي: واحمِلْ أيضًا في السفينةِ أهلَ بَيتِك إلَّا من قدَّر اللهُ هلاكَه لكُفرِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾.

أي: واحملْ في السفينةِ أيضًا مَن آمنَ بالله واتَّبَعَك[٣].

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وما آمنَ مع نوحٍ عليه السلامُ إلَّا نفرٌ قليلٌ مِن قَومِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

قال القرطبي: (﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ يعني ذكرًا وأنثى؛ لبقاءِ أصلِ النَّسلِ بعد الطوفانِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

قال ابن جرير: (الصوابُ مِن القَولِ في ذلك أن يقالَ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ يصِفُهم بأنَّهم كانوا قليلًا، ولم يحدِّدْ عددُهم بمقدارٍ ولا خبرٍ عن رسولِ الله صلَّى الله

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾.

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾.

أي: وقال نوحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِمَن معه: اركَبوا في السفينةِ باسمِ الله يكونُ مسِيرُها السَّريعُ على وجهِ الماءِ، وباسمِ اللهِ يكونُ مُنتَهى سيرِها ورسوُّها على الشَّاطئِ، فهي تجري وتقِفُ بتسخيرِ اللهِ وأمْرِه[1].

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: إنَّ ربِّي لَساتِرٌ ذنوبَ من تاب إليه من أصحابِ السَّفينةِ وغَيرِهم، مُتجاوِزٌ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم حيث نجَّاهم من عذابِه، ومِن القومِ الظَّالمينَ[2].

﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢﴾.

﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾.

أي: والسَّفينةُ تجري بنوحٍ ومَن رَكِبَ معه بإذنِ اللهِ وحِفظِه في أمواجٍ مُرتَفعةٍ كالجبالِ[3].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

عليه وسلَّم صحيحٍ، فلا ينبغي أن يُتجاوَزَ في ذلك حَدُّ الله؛ إذ لم يكُن لمبلَغِ عدَدِ ذلك حدٌّ من كتابِ اللهِ أو أثرٌ عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٣، ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

وقال سُبحانه: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٣ - ١٥].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: ونادى نوحٌ ابنَه الكافِرَ[١] وكان في ناحيةٍ بعيدةٍ عن السَّفينةِ قائلًا له: يا بُنيَّ اركَبْ معنا السفينةَ، ولا تكنْ مع الكافرينَ فتَغرَقَ مِثلَهم[٢].

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾.

أي: قال ابنُ نوحٍ عليه السلامُ: سألجأُ إلى جبلٍ عالٍ أتحصَّنُ به، يمنَعُني من الماءِ، فلا أغرَقُ[٣].

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾.

أي: قال نوحٌ لابنِه: لا مانِعَ اليومَ مِن عذابِ اللهِ إلَّا الرَّاحِمُ، وهو اللهُ الذي يرحَمُ من يشاءُ فيُنَجِّيه من الغَرَقِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٧، ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

أي: وحال بين نوحٍ وابنِه موجُ الماءِ، فكان ممَّن أهلَكَهم الله بالغَرَقِ من قومِ نوحٍ الكافرينَ(١).

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكرَ الله تعالى وقوعَ الغَرَقِ الموعودِ به على وجهِ الإيجازِ؛ انتقل الكلامُ إلى انتهاءِ الطُّوفانِ(٢).

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾.

أي: وأمَرَ الله الأرضَ بعد غَرَقِ قَومِ نُوحٍ: أنْ يا أرضُ تشرَّبي الماءَ الذي على وَجهِك، ويا سَماءُ أمسِكي عن الإمطارِ(٣).

﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾.

أي: نقصَ الماءُ الذي على الأرضِ حتى نضبَ، وفُرِغ من هلاكِ قَومِ نُوحٍ

قال البيضاوي: (﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ إلَّا الرَّاحِمُ، وهو الله تعالى... وقيل: الاستثناء منقطِعٌ أي: لكِنْ مَن رَحِمَه الله يعصِمُه). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

الكافرينَ، وإنجاءِ المؤمنينَ[١].

﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾.

أي: ورَسَت السفينةُ، واستقرَّت بمن فيها على جبلِ الجُوديِّ[٢].

﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: وقيل[٣]: بُعدًا وسُحقًا مِن رحمةِ اللهِ لِلقومِ الكافرينَ[٤].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ لا ينبغي أن يَشرعَ في أمرٍ من الأمورِ إلَّا ويكونُ في وقتِ الشُّروعِ فيه ذاكِرًا لاسمِ الله تعالى بالأذكارِ المشروعة؛ حتى يكون- ببَرَكةِ ذلك الذِّكرِ- سببًا لتمام ذلك المقصودِ[٥].

٢- الواجِبُ ربطُ الهِمَّة، وتعليقُ القلبِ بفَضلِ الله تعالى، والبراءةُ عن الحَولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).
قال البغوي: (هو جبلٌ بأرضِ الجزيرة بقُرب المَوصِل). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥١).
وكذا قال عددٌ من المفسرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٣) قال أبو حيَّان: (الظاهر أنَّ قَولَه: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا﴾ مِن قول الله تعالى كالأفعالِ السابقة، وبني الجميعُ للمفعولِ للعلمِ بالفاعل، وقيل: من قولِ نوحٍ والمؤمنين، قيل: ويحتملُ أن يكون من قولِ الملائكة). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٩).

والقوَّةِ، وقطعُ النَّظَرِ عن الأسبابِ، يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾[١].

٣- قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقلْ: (معَ المغرقينَ) إشارةً إلى أنَّ مَن له عقلٌ وهمَّةٌ ينبغي أن يكونَ تحفُّظُه على صونِ دينِه آكدَ مِن تحفظِه على صونِ نفسِه؛ لأنَّ حفظَ الأديانِ آكدُ مِن حفظِ النُّفوسِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ احتُجَّ به في إثباتِ القَضاءِ اللازمِ والقدَرِ الواجبِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ كلَّ من سبق عليه القَولُ، فإنَّه لا يتغيَّرُ عن حالِه[٣].

٢- قولُه: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ اعتبارُ المعيَّةِ في إيمانِهم للإيماءِ إلى المعيَّةِ في مَقرِّ الأمانِ والنَّجاةِ[٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على ذِكرِ البسملةِ عند ابتداءِ كُلِّ فِعلٍ[٥].

٤- كلُّ مَقامٍ يُقصَدُ فيه التيمُّنُ والانتسابُ إلى الربِّ الواحدِ يُعدَّى فيه الفعلُ إلى لفظِ اسمِ الله، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾، وكذلك المقامُ الذي يُقصَدُ فيه ذِكرُ اسمِ الله تعالى، كقولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: قل: سُبحانَ الله، وكلُّ مَقامٍ يُقصَدُ فيه طلبُ التَّيسيرِ والعَونِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٢/ ٣٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧).

مِن الله تعالى يعَدَّى الفعلُ المسؤولُ إلى عَلَمِ الذَّاتِ باعتبارِ ما له من صفاتِ الخَلقِ والتَّكوينِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ [الإنسان: ٢٦] وقولِه في الحديث: ((اللهمَّ بك أصبحنا وبك أمسينا))[١] أي: بقُدرتِك ومَشيئتِك، وكذلك المقامُ الذي يُقصَدُ فيه توجُّهُ الفعلِ إلى اللهِ تعالى، كقَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ﴾ أي: نَزِّهْ ذاتَه وحقيقتَه عن النقائصِ[٢].

٥- حيلولةُ الموجِ بينَ نوحٍ عليه السلامُ وابنِه في آخِرِ المُحاوَرةِ يُشيرُ إلى سُرعةِ فيَضانِ الماءِ في حينِ المُحاوَلةِ، قال تعالى: ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ يُقالُ: أكرمَ الله ثلاثةَ جبالٍ بثلاثةِ نَفَرٍ: الجُوديَّ بنوحٍ، وطورَ سيناءَ بموسى، وحِراءَ بمحمَّدٍ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعينَ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فيه إيجازٌ بديعٌ؛ فـ (حتَّى) غايةٌ

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٨) واللفظ له، والترمذي (٣٣٩١)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٣٩٩)، وابن ماجه (٣٨٦٨) باختلاف يسير، وأحمد (٨٦٤٩) أوله.
حسَّنه الترمذيُّ، وأخرجه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (٩٦٤)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (١٠٧)، وصحَّحه ابن دقيق في ((الاقتراح)) (١١٨)، وابن القيم في ((زاد المعاد)) (٢/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٢).

لـ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: ٣٨]، أي: يَصنَعُه إلى زمَنِ مَجيءِ أمْرِنا، فـ(إذا) ظرفٌ مضمَّنٌ معنى الشَّرطِ؛ ولذلك جيءَ له بجوابٍ، وهو جملةُ ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ﴾، وإضافةُ الأمرِ إلى (نَا العَظَمةِ) في ﴿أَمۡرُنَا﴾؛ لِتَهويلِه بأنَّه فوقَ ما يَعرِفون[١].

- قولُه: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيث جيءَ بـ(على)؛ لكونِ السَّابِقِ ضارًّا لهم، بينَما جيءَ باللَّامِ فيما هو نافِعٌ لهم مِن قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١]، وقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾[٢] [الأنبياء: ١٠١]. ويُمكن أنْ يكونَ فيها معنى العُلوِّ؛ وذلك أنَّ المقضيَّ نازلٌ بِهم لا مَناصَ لهم منه.

- وجملةُ ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ اعتراضٌ لِتَكميلِ الفائدةِ مِن القصَّةِ في قلَّةِ الصَّالِحين[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ (في) للتَّأكيدِ كقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] وفائدةُ (في) أنَّهم أُمِروا أن يكونوا في جَوفِها لا على ظَهرِها[٤]، وقيل: تعدِيَةُ فِعْلِ اركَبوا بـ(في)؛ جَرْيًا على الفَصيحِ؛ فإنَّه يُقالُ: رَكِب الدَّابَّةَ إذا عَلاها، وأمَّا رُكوبُ الفُلْكِ فيُعَدَّى بـ(في) لأنَّه جُلوسٌ واستقرارٌ؛ فلا يُقالُ: رَكِب السَّفينةَ، فأرادوا التَّفرقةَ بينَ الرُّكوبِ الحقيقيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٩- ٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦).
وأُمِروا بذلك -واللهُ أعلمُ- حتى لا تفجعَهم رؤيةُ الموجِ وشِدَّةُ اندفاعِه، حيث كان موجًا هائلًا كالجِبالِ.

والرُّكوبِ المشابِهِ له، وهي تفرِقةٌ حسَنةٌ[١].

- وجملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَعليليَّةٌ للأمرِ بالرُّكوبِ المقيَّدِ بالملابَسةِ لذَكْرِ اسْمِ اللهِ تعالى، ففي التَّعليلِ بالمغفرةِ والرَّحمةِ رمزٌ إلى أنَّ اللهَ وعَدَه بنَجاتِهم؛ وذلك مِن غُفرانِه ورَحمتِه، وأكِّد بـ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ تَحقيقًا لأتباعِه بأنَّ اللهَ رَحِمَهم بالإنجاءِ مِن الغرَقِ[٢].

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾، وفي سورةِ المؤمنونَ قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فقال في سورةِ (هودٍ): ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ﴾، وفي سورة (المؤمنونَ): ﴿فَٱسْلُكْ﴾؛ ووجهُ ذلك الاختلافِ:

أنَّ آيةَ سورةِ (هُودٍ) حَكَتْ ما خاطَبه اللَّهُ به عندَ حدوثِ الطُّوفانِ وذلك وقتٌ ضَيِّقٌ، فأُمِرَ بأنْ يَحمِلَ في السَّفينةِ مَنْ أراد اللَّهُ إبقاءَهم، فأُسنِدَ الحملُ إلى نوحٍ تمثيلًا للإسراعِ بإركابِ ما عُيِّن له في السَّفِينَةِ حتَّى كأنَّ حالَه في إدخالِه إيَّاهم حالُ مَنْ يحملُ شيئًا لِيضعَه في مَوضعٍ، وآيَةُ سورةِ (المؤمنون) حَكَتْ ما خاطَبه اللَّهُ به مِن قبلِ حُدوثِ الطُّوفانِ إنباءً بما يفعلُه عندَ حُدوثِ الطُّوفانِ، فأمَره بأنَّه حينئذٍ يُدْخِلُ في السَّفِينَةِ مَنْ عَيَّنَ اللَّهُ إدخالَهم، معَ ما في ذلك مِنَ التَّفَنُّنِ في حكايةِ القِصَّة[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٦)، ويُنظر أيضًا: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٦-٢٥٧).

مَعۡـزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَـب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

- قولُه: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَـالِ﴾ جملةٌ مُعترِضةٌ، دعا إلى اعتِراضِها هنا ذِكرُ (مَجْرَاهَا)؛ إتمامًا للفائدةِ، ووَصْفًا لعِظَمِ اليومِ، وعجيبِ صُنعِ اللهِ تعالى في تَيْسيرِ نَجاتِهم، وقدَّم المسنَدَ إليه (هِيَ) على الخبَرِ الفعليِّ (تَجْري)؛ لِتَقوِّي الحكْمِ وتَحقيقِه[١].

- قولُه: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَـالِ﴾ فيه عُدولٌ عن الفعلِ الماضي إلى المضارِعِ في ﴿تَجۡرِي﴾؛ لاستِحْضارِ الحالةِ[٢]، وقولُه: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾ اتَّصَل بمحذوفٍ دلَّ عليه الأمرُ بالرُّكوبِ ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، أي: فرِكبوا فيها مُسمِّين، وهي تَجري مُلتبسةً لهم، كأنَّه قيل: فرَكِبوا فيها يَقولون: بِسْمِ اللهِ، ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾، أي: تَجْري وهم فيها في موجٍ كالجبالِ[٣].

- وقولُه: ﴿فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَـالِ﴾ فيه تشبيهُ موجِ الطُّوفانِ بالجبالِ؛ شَبَّه كلَّ موجةٍ منه بالجبَلِ في تَراكُمِها وارتِفاعِها وضَخامتِها[٤].

- وقولُه عليه السَّلامُ: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ عبَّر بـ (بُنَيَّ) وهو تصغيرُ (ابنٍ) مُضافًا إلى ياءِ المتكلِّمِ، وتصغيرُه هنا تصغيرُ شفَقةٍ؛ بحيث يُجعَلُ كالصَّغيرِ في كونِه مَحَلَّ الرَّحمةِ والشَّفقةِ[٥].

- وجُمْلَةُ ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ فيها كِنايةٌ عن دَعوَتِه ابْنَه إلى الإيمانِ بطَريقةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٦).

العَرْضِ والتَّحذيرِ[١].

- وجملةُ ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿ٱرْكَب مَّعَنَا﴾؛ لإعلامِه بأنَّ إعراضَه عن الرُّكوبِ يَجعَلُه في صفِّ الكفَّارِ؛ إذ لا يَكونُ إعراضُه عن الرُّكوبِ إلَّا أثَرًا لِتكذيبِه بوُقوعِ الطُّوفانِ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾

- وجملةُ ﴿يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ يحتملُ أن تكونَ صِفةً لـ (جَبَلٍ)، أي: جبَلٍ عالٍ، ويحتملُ أن تكونَ استِئْنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّه استَشعَر أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ يَسأَلُ: لماذا يَأْوي إلى جبَلٍ؟ حيث ظنَّ ابنُ نوحٍ أنَّ أرفَعَ الجِبالِ لا يَبلُغُه الماءُ، وأنَّ أباه ما أراد إلَّا بُلوغَ الماءِ إلى غالِبِ المرتفَعاتِ دونَ الجبالِ الشَّامخاتِ؛ ولذلك أجابه نوحٌ عليه السَّلامُ بأنَّه لا عاصِمَ اليومَ مِن أمرِ اللهِ- وهو الطُّوفانُ- إلَّا مَن رَحِم[٣].

- قولُه: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾، أي: (لا عَاصِمَ... إلَّا اللهُ)، وإنَّما قيلَ: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾؛ تفخيمًا لشأنِه الجَليلِ سبحانه وتعالى بالإبهامِ ثمَّ التَّفسيرِ، وبالإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ، وإشعارًا بعِلِّيَّة رَحْمتِه في ذلك بمُوجِبِ سَبْقِها على غضَبِه[٤].

- قولُه: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ فيه إيجازٌ بديعٌ، حيث أفاد أنَّه غَرِق، وغَرِق

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١١).

معَه مَن توَعَّده بالغرَقِ[١]، وفي إيرادِ الفِعْلِ (كَان) دونَ (صارَ) مبالَغةٌ في كَونِه منهم[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- هذه الآيةُ بلَغَت مِن أسرارِ الإعجازِ غايَتَها، وحَوَتْ مِن بَدائعِ الفرائدِ نِهايَتَها، واشتَمَلَت على وُجوهٍ كثيرةٍ مِن جوانبِ البلاغةِ، والفصاحةِ المعنويَّةِ، والفَصاحةِ اللَّفظيَّةِ، وقد اهتمَّ عُلماءُ البيانِ لإيضاحِ نُخَبٍ مِن لَطائِفِها؛ فهي نَظْمٌ للمَعاني لطيفٌ، وتأديةٌ لها مُلخَّصةٌ مُبينةٌ، لا تَعقيدَ يُعْثِرُ الفِكرَ في طلَبِ المرادِ، ولا الْتِواءَ يُشِيكُ الطَّريقَ إلى المُرْتادِ، بل إذا جرَّبتَ نفْسَك عندَ استِماعِها، وجَدْتَ ألْفاظَها تُسابِقُ مَعانيَها، ومَعانِيَها تُسابِقُ ألْفاظَها؛ فما مِن لفظةٍ في تركيبِ الآيةِ ونَظْمِها تَسبِقُ إلى أُذنِك، إلَّا ومَعْناها أسبَقُ إلى قَلبِك.

وأمَّا النَّظرُ فيها مِن جانبِ الفصاحةِ اللَّفظيَّةِ: فألفاظُها على ما نَرى عرَبيَّةٌ، مُستعمَلةٌ جاريةٌ على قَوانينِ اللُّغةِ، سَليمةٌ مِن التَّنافُرِ، بعيدةٌ عن البَشاعةِ، عَذْبةٌ سَلِسةٌ، كلٌّ مِنها كالماءِ في السَّلاسةِ، وكالعسَلِ في الحلاوةِ، وكالنَّسيمِ في الرِّقَّةِ.

ومن حيث البلاغةُ والمناسبةُ، فقد اخْتِير (يا) دونَ سائرِ أخَواتِها؛ لِكَونِها أكثَرَ في الاستِعْمالِ وأنَّها دالَّةٌ على بُعْدِ المنادَى الذي يَسْتَدعيه مَقامُ إظهارِ العظَمةِ، وهو تَبْعيدُ المنادى المؤْذِنُ بالتَّهاوُنِ به، واخْتِيرَ ﴿ٱبۡلَعِي﴾ على (ابتَلِعي)؛ لكونِه أخْصَرَ، ولِمَجيءِ حظِّ التَّجانُسِ بينَه وبينَ ﴿أَقۡلِعِي﴾ أوفَرَ، وقيل: ﴿مَآءَكِ﴾ بالإفرادِ دونَ الجمْعِ لِمَا كان في الجمْعِ مِن صورةِ الاستِكْثارِ المتأتِّي عنها مَقامُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١١).

إظهارِ الكبرياءِ والجبَروتِ، وإنَّما لم يَقُلِ: (ابْلَعي) فقَط بدونِ المفعولِ؛ حتَّى لا يَستَلزِمَ تَرْكُه ما ليسَ بمُرادٍ مِن تعميمِ الابتلاعِ للجِبالِ والتِّلالِ والبحارِ وساكناتِ الماءِ بأَسْرِهنَّ؛ نظَرًا إلى مَقامِ وُرودِ الأمرِ الَّذي هو مَقامُ عظَمةٍ وكِبْرياءٍ، ثمَّ لَمَّا تبيَّن المرادُ اختَصَر الكلامَ فقال: ﴿أَقْلِعِي﴾ فقط؛ احترازًا عن الحَشْوِ المستغنَى عنه، وهو الوجهُ في أنَّه لم يَقُلْ: (قيلَ يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ فبَلَعَت، ويا سماءُ أقلِعي فأقلَعَت)، وقيل: ﴿ٱلْمَآءُ﴾، دون أن يُقالَ: (ماءُ طُوفانِ السَّماءِ)، وكذا قيل: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ دونَ أن يُقالَ: (أمرُ نوحٍ)؛ لقصْدِ الاختِصارِ، والاستِغْناءِ بحَرْفِ التَّعريفِ عن ذلك. ولم يَقُلْ: (سُوِّيَتْ على الجوديِّ) على نحوِ: (قيلَ) و(غِيضَ) و(قُضِي) في البناءِ للمفعولِ؛ اعتِبارًا لبِناءِ الفِعلِ للفاعلِ معَ السَّفينةِ في قولِه: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ﴾، مع قصْدِ الاختصارِ في اللَّفظِ، ثمَّ قيل: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دونَ أن يُقالَ: لِيَبْعُدِ القومُ؛ طلَبًا للتَّأكيدِ معَ الاختصارِ، وهو نزولُ ﴿بُعْدًا﴾ مَنزِلةَ (لِيَبعُدوا بُعدًا)، مع فائدةٍ أُخْرى، وهي استِعمالُ اللَّام مع ﴿بُعْدًا﴾ الدَّالُّ على معنى أنَّ البُعدَ يَحِقُّ لهم، ثمَّ أطلَقَ الظُّلمَ؛ لِيَتناوَلَ كلَّ نوعٍ حتَّى يَدخُلَ فيه ظُلمُهم أنفُسَهم؛ لزِيادَةِ التَّنبيهِ على فَظاعةِ سوءِ اختِيارِهم في تكذيبِ الرُّسلِ.

ومن حيث التَّرتيبُ؛ فقد قدَّم أمْرَ الأرضِ على أمرِ السَّماءِ، وابتُدِئ به لابتِداءِ الطُّوفانِ مِنها، وبنُزولِها لذلك في القصَّةِ مَنزِلةَ الأصلِ، والأصلُ بالتَّقديمِ أولَى، ثمَّ أتبَعَها قولَه: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾؛ لاتِّصالِه بقِصَّةِ الماءِ، وأخْذِه بحُجْزَتِها. ألَا تَرى أصْلَ الكلامِ: (قيلَ: يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ، فبَلَعَت ماءَها، ويا سماءُ أقلِعي عن إرسالِ الماءِ، فأقلَعَت عن إرسالِه، وغِيضَ الماءُ النَّازلُ مِن السَّماءِ، فغاضَ)، ثمَّ أتبَعَه ما هو مقصودٌ مِن القصَّةِ، وهو قولُه: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: أُنجِزَ الموعودُ مِن إهلاكِ الكفَرةِ، وإنجاءِ نوحٍ ومَن معَه في السَّفينةِ، ثمَّ أتبَعَه حديثَ السَّفينةِ،

وهو قولُه: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾، ثمَّ خُتِمَت القصَّةُ بما خُتِمَت[١].

وجاء بِناءُ الأفعالِ ﴿وَقِيلَ﴾ ﴿وَغِيضَ﴾ ﴿وَقُضِيَ﴾ ﴿وَقِيلَ﴾ للمَفعولِ، وهو أبلَغُ في التَّعظيمِ والجبَروتِ، وأخْصَرُ، وأيضًا في مَجيءِ أخبارِه تعالى على الفعلِ المبنيِّ للمفعولِ: دَلالةٌ على الجلالِ والكبرياءِ، وأنَّ تلك الأمورَ العِظامَ لا تَكونُ إلَّا بفِعْلِ فاعلٍ قادرٍ، وتكوينِ مُكوِّنٍ قاهرٍ، وأنَّ فاعِلَها فاعلٌ واحدٌ لا يُشارَكُ في أفعالِه سبحانه؛ فلا يَذهَبُ الوَهْمُ إلى أن يَقولَ غيرُه: يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ، ويا سَماءُ أقلِعي، ولا أن يَقضِيَ ذلك الأمْرَ الهائلَ غيرُه، ولا أن تَستوِيَ السَّفينةُ على مَتْنِ الجوديِّ، وتستقِرَّ عليه إلَّا بتَسْويتِه وإقرارِه[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ تقديمُ الأمرِ بالبلعِ؛ لأنَّه السَّببُ الأعظمُ لِغَيضِ الماءِ[٣].

- قولُه: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه كِنايةٌ عن تَحْقيرِهم وكَراهيَتِهم؛ فالبُعْدُ كنايةٌ عَن التَّحقيرِ بِلازِمِ كراهيَةِ الشَّيءِ؛ فلذلك يُقالُ: بَعُدَ أو نحوُه لِمَن فُقِد، إذا كان مَكْروهًا كما هنا[٤].

- والتَّعرُّضُ لوَصفِ الظُّلمِ ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للإشعارِ بعِلِّيَّتِه للهلاكِ، ولِتَذكيرِه ما سبَقَ مِن قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٩٧- ٣٩٨)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤١٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٩٧- ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٠- ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١١).

الآيات (٤٥-٤٩)

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

المعنَى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ ناداه، فقال: ربِّ إنَّك وعَدْتني أن تُنجِّيَني وأهلي من الغَرَقِ والهلاكِ، وإنَّ ابني هذا من أهلي، وإنَّ وَعدَك الحَقُّ الذي لا خُلْفَ فيه، وأنت أحكَمُ الحاكمينَ وأعدَلُهم.

قال الله: يا نوحُ إنَّ ابنَك الذي هلك ليس مِن أهلِك الذين وَعَدتُك أن أُنجيَهم؛ لأنَّه صاحبُ عملٍ غيرِ صالحٍ وهو الكفرُ، وإنِّي أنهاك أن تسألَني أمرًا لا عِلمَ لك به، إنِّي أعِظُك أن تكونَ مِن الجاهلينَ في مسألتِك إيَّاي عن ذلك.

قال نوحٌ: يا رَبِّ إنِّي أعتَصِمُ وأستجيرُ بك أن أسألَك ما ليس لي به عِلمٌ، وإنْ لم تغفِرْ لي ذنبي، وترحَمْني برَحمتِك، أكنْ مِن الهالكينَ. قال الله: يا نوحُ اهبِطْ مِن السَّفينةِ إلى الأرضِ بأمنٍ وسَلامةٍ منَّا وبركاتٍ عليك وعلى أممٍ مِن ذُرِّيةِ المؤمنينَ الذين معك في السَّفينةِ، ومنهم أمَمٌ وجَماعاتٌ مِن أهلِ الشَّقاءِ سنُمَتِّعُهم في الحياةِ الدُّنيا إلى أن يبلُغوا آجالَهم، ثمَّ ينالُهم منَّا العذابُ المُوجِعُ يومَ القيامةِ.

تلك القِصَّةُ التي قصَصْناها عليك -يا مُحمَّدُ- عن نوحٍ وقَومِه، هي من أخبارِ

الغَيبِ السَّابقةِ، نوحيها إليك، ما كنتَ تَعلَمُها أنت ولا قَومُك مِن قبلِ هذا البَيانِ، فاصبِرْ على تكذيبِ قَومِك وإيذائِهم لك، كما صبَرَ الأنبياءُ مِن قَبلُ؛ إنَّ العاقِبةَ الطَّيِّبةَ في الدُّنيا والآخرةِ للمُتَّقينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ ﴾.

أي: ونادى نوحٌ ربَّه فقال: يا ربِّ، إنَّ ابني من أهلي الذين وعدْتَني أن تنجِّيَهم من الغَرَقِ، وإنَّ وَعْدَك الصِّدقُ الذي لا يُخلَفُ[1].

﴿ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

قال ابن تيمية: (وكان ابنُه قد سبق عليه القولُ، ولم يكن نوحٌ يعلمُ ذلك؛ فلذلك قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ ظانًّا أنَّه دخل في جملةِ مَن وُعِد بنجاتِهم). ((منهاج السنة النبوية)) (٤/ ٣٤٨-٣٤٩).

وقال الشوكاني: (فإن قيل: كيف طلب نوحٌ عليه السلامُ إنجازَ ما وعده اللهُ بقولِه: ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ [هود: ٤٠] وهو المستثنى منه، وترَكَ ما يفيده الاستثناءُ، وهو ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾؟! فيجاب: بأنه لم يعلم إذ ذاك أنَّه ممَّن سبق عليه القول، فإنه كان يظنُّه من المؤمنين). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٠). وذهب ابنُ عطيةَ والشنقيطي أيضًا إلى أنَّ نوحًا عليه السلامُ ظنَّ أنَّ ابنَه مؤمنٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٣٣).

قال ابن جزي: (﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ هذا النداءُ قبلَ الغرقِ، فيكون العطفُ مِن غيرِ ترتيبٍ، أو يكونَ بعدَه). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٧١).

وقال ابنُ عطية في قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾: (هذه جملةٌ معطوفةٌ على التي قبلَها دونَ ترتيبٍ، وذلك أنَّ هذه القصةَ كانت في أوَّلِ ما ركِب نوحٌ في السفينةِ، ويظهرُ مِن كلامِ الطبريِّ أنَّ ذلك كان بعدَ غرقِ الابنِ، وهو محتملٌ، والأوَّلُ أليقُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٦).

أي: وأنت- يا ربِّ- أعدَلُ الحاكمينَ، لا ظُلمَ في حُكمِك، ولا خطأَ[١].

﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

أي: قال الله: يا نوحُ، إنَّ ابنَك ليس مِن أهلِك المؤمنينَ[٢] الذين أمرتُك بحَملِهم، ووعَدتُك بأن أنجِّيَهم[٣].

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ قراءتان:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٢٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧٠).
قال محمد رشيد رضا: (حُكمُه تعالى يُطلَقُ على ما يَشرَعُه من الأحكام، وعلى ما ينفِّذُه في عباده من جزاءٍ على الأعمال). ((تفسير المنار)) (١٢/ ٧٠).

(٢) قال ابنُ كَثيرٍ: (وقد نَصَّ غيرُ واحدٍ مِن الأئمَّةِ على تَخطِئةِ مَن ذهَب في تفسيرِ هذا إلى أنَّه ليس بابنِه، وإنَّما كان ابنَ زَنْيَةٍ، وقال ابنُ عبَّاسٍ، وغيرُ واحدٍ مِن السَّلف: ما زنَت امرأةُ نَبيٍّ قَطُّ. قال: وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] أي: الَّذين وَعدْتُكَ نَجاتَهُم. وقولُ ابنِ عبَّاسٍ في هذا: هو الحَقُّ الذي لا مَحيدَ عنه، فإنَّ الله سُبحانه أَغْيَرُ مِن أن يُمَكِّنَ امرأةَ نَبيٍّ مِن الفاحشةِ؛ ولهذا غَضِبَ اللهُ على الَّذين رَمَوْا أُمَّ المؤمنين عائشةَ بنتَ الصِّدِّيق زوجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنكَر على المؤمنين الَّذين تَكلَّموا بهذا وأشاعوه ... قال ابنُ عُيينةَ: وأخبرني عمَّارٌ الدُّهْنِيُّ: أنَّه سأل سعيدَ ابنَ جُبيرٍ عن ذلك، فقال: كان ابنَ نُوحٍ، إنَّ الله لا يَكذِب! قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ [هود: ٤٢] قال: وقال بعضُ العُلماءِ: ما فَجَرَتْ امرأةُ نَبيٍّ قَطُّ. وكذا رُوِي عن مُجاهدٍ أيضًا، وعِكرمةَ، والضَّحَّاكِ، ومَيمونِ بنِ مِهرانَ، وثابتِ ابنِ الحَجَّاج، وهو اختِيارُ أبي جَعفرِ بنِ جَريرٍ، وهو الصَّوابُ الذي لا شَكَّ فيه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن للشافعي)) جمع البيهقي (١/ ٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٢٥، ٤٣٣)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٥، ٣٢٦).

١- قراءةُ ﴿عَمِلَ غَيْرَ﴾ بجَعلِ (عَمِلَ) فعلًا ماضيًا، والفاعلُ ضميرٌ مُستترٌ عائدٌ على ابنِ نوحٍ، والتقدير: إنه عَمِلَ عملًا غيرَ صالحٍ، مِن الكفرِ والتَّكذيبِ[١].

٢- قراءةُ ﴿عَمَلٌ غَيْرُ﴾ بجَعْلِ (عَمَلٌ) اسمًا، فالتقديرُ: إنَّ ابنَك ذو عملٍ غيرِ صالحٍ، وقيل معناه: إنَّ سؤالَك إيَّاي أن أنجيَ كافرًا ليس مِن أهلِك عملٌ غيرُ صالحٍ، وقيل غيرُ ذلك[٢].

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾.

أي: إنَّ ابنَك يا نوحُ ليسَ مِن أهلِك؛ لأنَّه صاحبُ عملٍ غيرِ صالحٍ، وهو الكفرُ باللهِ تعالى؛ فلم يستحقَّ لذلك النجاةَ مِن الهلاكِ[٣].

---

(١) قرأ بها الكسائي ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٣٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٤١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٠٢)، ((تفسير المنار)) لرضا (١٢/ ٧٠- ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٦).
وممن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: القرطبي، والشوكاني، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة. وأيضًا ذهب إليه السمعاني في ((تفسيره)) (٢/ ٤٣٣) ونسَبه الواحديُّ إلى أبي إسحاقَ الزجاجِ، وأبي بكرِ بنِ الأنباري، وأبي عليٍّ الفارسي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٣٧)، ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٧).
وعلى هذا القولِ الضميرُ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود على ابنِ نوحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٥٧).
وقيل: المراد: إنَّ سُؤالَك إيَّاي أن أُنجيَ ابنَك الكافِرَ مِن الهلاكِ عَملٌ غيرُ صالحٍ. وممن ذهب إلى هذا المعنى: ابن جرير، والواحدي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٦)،

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

أي: إنِّي يا نوحُ قد أخبَرتُك عن سؤالِك سببَ إهلاكي ابنَك، فلا تسألْني بعدَها عن أسبابِ أفعالي التي لا عِلمَ لك بها، ولا تطلُبْ مني شيئًا لا تعلمُ جوازَ مسألتِه، ولا تعلمُ يقينًا أنَّ حصولَه خيرٌ وموافِقٌ للحِكمةِ(١).

﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

أي: إني أحذِّرُك - يا نوحُ - من السُّؤالِ عمَّا لا تعلمُ؛ لئلَّا تكونَ من الجاهلينَ(٢).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٤٧﴾.

((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

وعلى هذا القولِ تكون الهاءُ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ﴾ راجعةٌ على السؤالِ؛ لأنه قد تقدَّم دليلُ السؤالِ في قولِه: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

قال ابنُ عاشور: (إن كان نوحٌ عليه السلام لم يسبِقْ له وحيٌ من الله بأنَّ الله لا يغفِرُ للمشركينَ في الآخرةِ، كان نهيُه عن أن يسألَ ما ليس له به علمٌ نهيَ تنزيهٍ لأمثاله؛ لأنَّ درجة النبوَّة تقتضي ألَّا يُقدِمَ على سؤال ربه سؤالًا لا يعلمُ إجابته،... وإن كان قد أوحي إليه بذلك من قبلُ، كما دلَّ عليه قوله: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ وكان سؤالُه المغفرةَ لابنه طلبًا تخصيصَه من العموم، كان نهيُه نهيَ لوم وعتاب؛ حيث لم يتبيَّنْ من ربِّه جوازَ ذلك. وكان قولُه: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ محتمِلًا لظاهره، ومحتمِلًا لأن يكونَ كنايةً عن العلم بضِدِّه، أي: فلا تسألْني ما علمتَ أنه لا يقعُ، ثم إن كان قولُ نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ إلى آخره تعريضًا بالمسؤول، كان النهيُ في قوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ نهيًا عن الإلحاحِ أو العودِ إلى سؤالِه، وإن كان قولُ نوحٍ عليه السلامُ مجرَّدَ تمهيدٍ للسؤال لاختبار حالِ إقبال الله على سؤالِه، كان قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ نهيًا عن الإفضاء بالسؤالِ الذي مهَّدَ له بكلامه، والمقصودُ من النهي تنزيهُه عن تعريض سؤالِه للردِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾.

أي: قال نوحٌ: يا ربِّ، إني أستجيرُ بك أن أسألَك بعد الآن ما لا عِلمَ لي بصحَّتِه[١].

﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

أي: وإنْ لم تغفِرْ لي - يا ربِّ - ما وقع مني من السؤالِ عمَّا لا أعلمُ، وترحمْني بقبولِ توبتي؛ أكنْ من الخاسرينَ أنفُسَهم وأعمالَهم[٢].

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾.

أي: قيل[٣] عند استقرارِ السَّفينةِ على جبلِ الجُوديِّ: يا نوحُ، انزِلْ من السَّفينةِ إلى الأرضِ بسلامةٍ وأمنٍ منَّا لك ولأتباعِك المؤمنينَ[٤].

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾.

أي: وبركاتٍ ثابتةٍ عليك، وعلى أُمَمٍ كثيرةٍ ستأتي من ذريَّةِ المؤمنينَ الذين معك في السَّفينة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧١).

(٣) قال القرطبي: (قالت له الملائكةُ، أو قال الله تعالى له). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٠).

قال السعدي: (﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ من الآدميِّينَ وغيرِهم من الأزواجِ التي حمَلَها معه،

كما قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۞ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٧-٧٩].

ثمَّ أخبر الله تعالى نوحًا عمَّا هو فاعلٌ بأهلِ الشقاءِ مِن ذرِّيتِه، فقال له[١]:

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: وأُمَمٌ كثيرةٌ سنُمَتِّعُهم في الدُّنيا، ثم نُذيقُهم منا في الآخرةِ عذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا[٢].

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾.

أي: تلك -قصَّة نوحٍ- من أخبار الغيوبِ السَّابقةِ، نوحيها إليك- يا محمَّدُ- لتَعلَمَها[٣].

﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾.

أي: ما كنتَ تعلمُ قِصَّةَ نوحٍ، ولا يعلَمُها أيُّ أحدٍ من قومِك من قبلِ هذا القرآنِ[٤].

فبارك اللهُ في الجميعِ، حتى ملؤوا أقطارَ الأرضِ ونواحيَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

أي: فاصبرْ- يا محمَّدُ- على الدَّعوةِ إلى اللهِ، وتبليغِ رِسالتِه، وتحمَّلْ تكذيبَ قَومِك المشركينَ وأذاهم، كما صبر نوحٌ على قومِه؛ إنَّ العاقِبةَ المحمودةَ في الدُّنيا والآخرةِ للذينَ يتَّقونَ الله تعالى، فامتثَلوا أوامِرَه، واجتنَبوا نواهِيَه[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ يدلُّ على أنَّ الاتِّفاقَ في الدينِ أقوَى مِن النَّسَبِ[٢]. فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ أي: في الدينِ والحرمةِ لا في النسبِ، ولهذا قِيل: أُخوَّةُ الدِّينِ أثبتُ مِن أُخوَّةِ النَّسبِ؛ فإنَّ أُخوةَ النسبِ تنقطعُ بمخالفةِ الدِّينِ، وأُخوةُ الدينِ لا تنقطعُ بمخالفةِ النسبِ[٣].

٢- إنَّ الإيمانَ والصَّلاحَ لا علاقةَ له بالوِراثةِ والأنسابِ، وقد يختلِفُ باختلافِ استعدادِ الأفراد، وما يحيطُ بهم من الأسبابِ، وما يكونونَ عليه من الآراءِ والأعمالِ؛ يبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾[٤].

٣- إنَّ الله تعالى يَجزي النَّاسَ في الدُّنيا والآخرةِ بإيمانهم وأعمالِهم لا بأنسابِهم، ولا يُحابي أحدًا منهم لأجلِ آبائِه وأجدادِه الصالحينَ، وإن كانوا من الأنبياءِ المُرسَلين؛ قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧٢).

فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ هذا النهيُ يدلُّ على أنَّه يُشترَطُ في الدُّعاءِ أن يكونَ بما هو جائزٌ في شرعِ الله وسُنَنِه في خَلقِه، فلا يجوزُ سؤالُ ما هو محرَّمٌ، وما هو مخالِفٌ لسُنَنِ الله القطعيَّةِ بما يقتضي تبديلَها، أو تحويلَها، وقلبَ نظامِ الكونِ لأجلِ الدَّاعي[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ في هذه الآيةِ تَسليةٌ للخَلقِ في فسادِ أبنائِهم، وإن كانوا صالحينَ[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ فيه أنَّ حقيقةَ التَّوبةِ تقتضي أمرينِ: أحدهما في المستقبلِ، وهو العزمُ على التَّركِ، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾، والثاني في الماضي، وهو النَّدمُ على ما مضى، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لَمَّا ذكر تعالى أحوالَ المؤمنينَ، لم يذكُرِ البتَّةَ أنَّه يُعطيهم الدُّنيا أم لا، ولَمَّا ذكر أحوالَ الكافرينَ ذكَرَ أنَّه يُعطيهم الدنيا، وهذا تنبيهٌ عظيمٌ على خساسةِ الدُّنيا، وخساسةِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٧٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٥٩).

السَّعادات الجُسمانيَّة، والترغيب في المقامات الرُّوحانيَّة[١].

٨- قال الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ الصَّبرَ عاقبتُه النَّصرُ والظَّفَرُ، والفرَحُ والسُّرورُ[٢].

٩- سنَّةُ اللهِ في رُسُلِه وأقوامِهم أن تكونَ العاقبةُ بالفوزِ والنَّجاةِ للمُتَّقينَ؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[٣].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لما نهَى الله تعالى نوحًا عليه السلام عن سؤالِهِ، حكَى عنه أنَّه قال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، والمعنى أنَّه تعالى لما قال له: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ فقال عندَ ذلك: قبلتُ يا ربِّ هذا التكليفَ، ولا أعودُ إليه، إلَّا أنِّي لا أقدرُ على الاحترازِ منه إلا بإعانتِك وهدايتِك، فلهذا بدأ أولًا بقولِه: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ﴾[٤].

٢- في قولِ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ نسبَ نوحٌ النَّقصَ والذَّنبَ إلى نفسِه؛ تأدُّبًا مع ربِّه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾، أي: ما فرطَ من سؤالي، ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ بفَضلِك[٥].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ دَلالةٌ على

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٣).

أنَّ مَن لم يتفضَّلِ اللهُ عليه بمغفرةِ ذُنوبِه؛ أوبقَتْه خطاياه في الآخرةِ[١].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ السؤالَ والطلبَ قد يكون بصيغةِ الشَّرطِ[٢].

٥- إنَّ الطَّالبَ السائلَ تارةً يَسألُ بصيغةِ الطَّلبِ، وتارةً يَسألُ بصيغةِ الخبَرِ؛ إمَّا بوصفِ حالِه، وإمَّا بوصفِ حالِ المسؤولِ، وإمَّا بوصفِ الحالَين، وقولُ نوحٍ عليه السلامُ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ليس صيغةَ طلَبٍ، وإنما هو إخبارٌ عن الله أنَّه إنْ لم يَغْفِرْ له ويرحمْه خَسِرَ، ولكنَّ هذا الخبَرَ يتضمَّنُ سؤالَ المغفرةِ، كما في قَوْلِ يونسَ عليه السلامُ: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فإنَّه اعترافٌ بالذَّنبِ، وهو يَتَضَمَّنُ طلبَ المغفرَةِ[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الابنَ مِن الأهلِ، فمَنْ وصَّى لأهلِه دخَل ابنُه في الوصيَّةِ هو ومن يضُمُّه منزِلُه مِن عيالِه[٤].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ يشيرُ إلى اجتهادِ الأنبياءِ، وجوازِ الخطأِ فيه[٥]. وأنَّ أحدَهم لو سَأَل دُعاءً لا يَصلحُ له لا يُقَرُّ عليه؛ فإنَّهم مَعصومونَ أنْ يُقرُّوا على ذلك[٦].

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٨).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٧٥).
(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٢٣).
(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٧)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٦٩).
(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٣١).

٨- في قولِه تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ العاقبةَ للمتَّقينَ، وأنَّ غيرَ المتَّقينَ لهم العاجلةُ دون العاقبةِ، وأنَّ العاقبةَ -وإنْ كانت في الآخرة- فتكونُ في الدُّنيا أيضًا[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ خبرٌ مُستعمَلٌ في الاعتذارِ والتَّمهيدِ؛ لأنَّه يُريدُ أن يَسأَلَ سُؤالًا لا يَدْري قَبولَه، ولكنَّه اقتَحَمه لأنَّ المسؤولَ له مِن أهلِه، فله عُذرُ الشَّفقةِ عليه، وتأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ)؛ للاهتمامِ به، وكذلك جُملَةُ: ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في لازِمِ الفائدةِ، وهو: أنَّه يَعلَمُ أنَّ وعْدَ اللهِ حقٌّ[٢].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ بالفاءِ في ﴿فَقَالَ رَبِّ﴾، وقال في سورةِ مريمَ في قصَّةِ زَكريَّا: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا * قَالَ رَبِّ﴾ [مريم: ٣، ٤] بلا فاءٍ، ووجهُ ذلك: أنَّه أريدَ بالنِّداءِ هنا في سورةِ هودٍ إرادتُه؛ فهي سببٌ له؛ فناسَبَتِ الفاءُ الدَّالَّةُ على السَّببيَّةِ، وهناك لم يُرِدْ ذلك؛ فناسَب ترْكُ الفاءِ[٣]؛ فجملةُ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ بيانٌ للنِّداءِ، ومُقتَضى الظَّاهرِ ألَّا تُعطَفَ بفاءِ التَّفريعِ كما لم يُعطَفِ البيانُ في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا * قَالَ رَبِّ إِنِّي

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٥).

وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى ﴾ [مريم: ٣، ٤]، وخولِفَ ذلك هنا؛ ووجْهُ اقترانِه بالفاءِ أنَّ فِعلَ ﴿نَادَىٰ﴾ مُستعمَلٌ في إرادةِ النِّداءِ، أي: مِثْلُ فِعْلِ ﴿قُمْتُمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] الآيةَ، وذلك إخراجٌ للكَلامِ على خِلافِ مُقتضَى الظَّاهرِ؛ فإنَّ وُجودَ الفاءِ في الجملةِ الَّتي هي بيانٌ للنِّداءِ قرينةٌ على أنَّ فِعْلَ ﴿نَادَىٰ﴾ مُستَعارٌ لمعنى إرادةِ النِّداءِ، أي: أراد نِداءَ ربِّه فأعقَبَ إرادتَه بإصدارِ النِّداءِ، وهذا إشارةٌ إلى أنَّه أراد النِّداءَ فتردَّد في الإقدامِ عليه؛ لِمَا عَلِم مِن قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]؛ فلم يَطُلْ تَردُّدُه لَمَّا غلَبَتْه الشَّفقةُ على ابنِه، فأقدَم على نداءِ ربِّه؛ ولذلك قدَّم الاعتِذارَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

- قولُه عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فيه تَعْريضٌ بالمطلوبِ؛ لأنَّه لم يَذكُرْه، بل اقتَصَر على هذه الجُمَلِ الثَّلاثِ في مَقامِ الدُّعاءِ، وذلك ضَرْبٌ مِن ضُروبِ التَّأدُّبِ، والتَّردُّدِ في الإقدامِ على المسؤولِ؛ استِغْناءً بعِلْمِ المسؤولِ، كأنَّه يَقولُ: أسأَلُك أم أترُكُ[2].

- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ فيه نَفْيُ أن يَكونَ ابنُه مِن أهلِ دينِه، وتأكيدُه بـ (إنَّ) لِتَحقيقِه؛ إعلامًا بأنَّ قَرابةَ الدِّينِ بالنِّسبةِ لأهلِ الإيمانِ هي القَرابةُ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٥).

- وجملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ تعليلٌ لِمَضمونِ جملةِ ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾[1].

- و﴿عَمَلٌ﴾ مصدرٌ أُخبِرَ به للمُبالَغةِ؛ حيث جَعَل ابنَه نَفْسَ العمَلِ؛ مبالغةً في ذَمِّه[2].

- وإيثارُ ﴿غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ على (فاسِدٌ)؛ إمَّا لأنَّ الفاسِدَ ربَّما يُطلَقُ على ما فسَدَ ومِن شَأنِه الصَّلاحُ؛ فلا يَكونُ نَصًّا فيما هو مِن قَبيلِ الفاسِدِ المَحْضِ، كالقَتلِ والْمَظالِمِ، وإمَّا للتَّلويحِ بأنَّ نجاةَ مَن نَجا إنَّما هي لِصَلاحِه[3].

- وفي قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۞ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ على القول بأنَّ هذا النِّداءِ كان قبلَ غرقِ ابنِه؛ فيكون أُخِّرَ عن حِكايةِ الأمرِ الوارِدِ على الأرضِ والسَّماءِ، وما يَتْلوه مِن زَوالِ الطُّوفانِ، وقَضاءِ الأمْرِ، واستِواءِ الفُلْكِ على الجُوديِّ، والدُّعاءِ بالهَلاكِ على الظَّالِمين، مع أنَّ حقَّه أن يُذْكَرَ عَقِيبَ قولِه تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ حسَبَما وقَع في الخارِجِ؛ إذ حينَئذٍ يُتَصوَّرُ الدُّعاءُ بالإنجاءِ لا بَعْدَ العلمِ بالهلاكِ، ووجهُ هذا التَّأخيرِ: أنَّ ذِكْرَ هذا النِّداءِ مُستَدْعٍ لذِكْرِ الجوابِ المستدعي لذِكْرِ ما مرَّ مِن تَوبتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ المؤدِّي ذِكْرُها إلى ذِكْرِ قَبولِها في ضِمْنِ الأمرِ الوارِدِ بنُزولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن الفُلْكِ بالسَّلامِ والبَرَكاتِ الفائضةِ عليه وعلى المؤمنين، وهذه المعاني آخِذٌ بعضُها بحُجْزةِ بعضٍ بحيثُ لا يَكادُ يُفرَّقُ الآياتُ الكريمةُ المنطوِيَةُ عليها بعضُها مِن بَعضٍ، وأنَّ ذلك إنَّما يَتِمُّ بتَمامِ القِصَّةِ، وذلك إنَّما يكونُ بتمامِ الطُّوفانِ؛ فاقتَضى الحالُ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((البحر المحيط)) (٦/ ١٦٠-١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٢).

ذِكرَ تمامِها قبلَ هذا النِّداءِ؛ ولهذه النُّكتةِ ازدادَ حُسْنُ موقعِ الإيجازِ البليغِ.

وفيه فائدةٌ أخرى: وهي التَّصريحُ بهَلاكِ ابْنِه الكافرِ مِن أوَّلِ الأمرِ، ولو ذُكِر النِّداءُ الثَّاني عَقيبَ قولِه تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ لَرُبَّما تُوُهِّم مِن أوَّلِ الأمرِ إلى أن يَرِدَ قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أنَّه يَنْجو بدُعائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فنُصَّ على هَلاكِه مِن أوَّلِ الأمرِ، ثمَّ ذُكِرَ الأمرُ الواردُ على الأرضِ والسَّماءِ مِن الغَيْضِ والإقلاعِ، وبيَّنَ بُلوغَ أمرِ اللهِ مَحلَّه، وجريانَ قَضائِه ونُفوذَ حُكمِه عليهم بهَلاكِ مَن هلَك ونَجاةِ مَن نجا بتَمامِ ذلك الطُّوفانِ، واستواءِ الفُلْكِ على الجوديِّ؛ فقُصَّتِ القِصَّةُ إلى هذه المرتَبةِ وبُيِّن ذلك أيَّ بيانٍ، ثمَّ تَعرَّضَ لِمَا وقعَ في تَضاعيفِ ذلكَ ممَّا جَرى بينَ نوحٍ عليه السَّلامُ وبينَ ربِّ العِزَّةِ جلَّتْ حِكمَتُه، فذَكَر بعدَ توبَتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قَبولَها بقَولِه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ ...﴾[(١)].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فيه حُسنُ تَرتيبٍ، حيث قدَّم طلَبَ المغفرةِ ابتداءً؛ لأنَّ التَّخْليَةَ مُقدَّمةٌ على التَّحْليةِ، ثمَّ أعقَبَها بطلَبِ الرَّحمةِ؛ لأنَّه إذا كان بمحَلِّ الرِّضا مِن اللهِ كان أهلًا للرَّحمةِ[(٢)].

٤- قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- فُصِلَتِ الجُملَةُ ولم تُعطَفْ؛ لِوُقوعِها في سِياقِ المُحاوَرةِ بينَ نوحٍ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٨).

السَّلامُ وربِّه؛ فإنَّ نوحًا عليه السَّلامُ لَمَّا أجابَ بقَولِه: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ إلى آخِرِه [هود: ٤٧] خاطَبَه ربُّه إتمامًا للمُحاوَرةِ بما يُسَكِّنُ جَأْشَه، وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ أن يَقولَ: (قال: يا نوحُ اهبِطْ)، ولكنَّه عدَل عنه إلى بناءِ الفِعْلِ للنَّائبِ؛ لِيَجيءَ على وَتيرةِ حِكايةِ أجزاءِ القِصَّةِ المتقدِّمةِ مِن قولِه: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي﴾... ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]؛ فحصَل بذلك البِناءِ قَضاءُ حَقِّ الإشارةِ إلى جُزءِ القصَّةِ، كما حصَل بالفَصْلِ قَضاءُ حقِّ الإشارةِ إلى أنَّ ذلك القوْلَ جزءُ المحاوَرةِ[1].

- وقولُه هنا: ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ﴾ نَظيرُ قولِه: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]؛ فإنَّ السَّلامَ ظاهِرٌ في التَّحيَّةِ لِتَقييدِه بـ(آمِنِينَ)، ولو كان السَّلامُ مُرادًا به السَّلامةُ لكان التَّقييدُ بـ(آمِنِينَ) توكيدًا وهو خِلافُ الأصلِ، و﴿مِّنَّا﴾ تأكيدٌ لتوجيهِ السَّلامِ إليه؛ لأنَّ (مِن) ابتِدائيَّةٌ، فالمعنى: بسَلامٍ ناشئٍ مِن عِندِنا، كقَولِه: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨]. وذلك كثيرٌ في كَلامِهم، وهذا التَّأكيدُ يُرادُ به زيادةُ الصِّلةِ والإكرامِ؛ فهو أشَدُّ مُبالَغةً مِن الَّذي لا تُذكَرُ معَه (مِن)[2].

- وتنكيرُ (أُمَم) في قولِه: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾؛ لأنَّه لم يُقصَدْ به التَّعميمُ؛ تَمهيدًا لقولِه: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾[3].

- وجُملةُ ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ...﴾ إلخ، عطفٌ على جُملةِ ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ إلى آخِرِها، وهي استِئْنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّها تَبْيينٌ لِمَا أفادَه التَّنكيرُ في قولِه:

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٠).

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ مِن الاحترازِ عن أُممٍ آخَرينَ[١].

- وفي ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ حُذِفُ الخبر، أي: ومنهم؛ لدَلالةِ ما سبق عليه، والتقدير: (وممَّن معَك أُممٌ سنُمتِّعهم)؛ وإنَّما حذف لأنَّ قوله: ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾ يدلُّ عليه، والمعنى: أنَّ السَّلامَ منَّا والبركاتِ عليك وعلى أُممٍ مؤمنين يَنشؤُون ممَّن معك؛ فإنَّ إيرادَ الأممِ المبارَكِ عليهم المتَشعِّبةِ منهم نَكِرةً يَدُلُّ على أنَّ بعضَ مَنْ يتشعَّبُ منهم لَيْسوا على صِفَتِهم، أي: ليس جَميعُ مَن تشعَّب منهم مُسلِمًا ومُبارَكًا عليه، بل مِنهم أممٌ مُمتَّعون في الدُّنيا، مُعذَّبون في الآخرةِ، وعلى هذا لا يَكونُ الكائِنون معَ نوحٍ عليه السَّلامُ مُسلَّمًا ومُبارَكًا عليهم صَريحًا، وإنَّما يُفهَمُ ذلك مِن كَونِهم مع نُوحٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومِن كونِ ذُرِّيَّاتِهم كذلك، بدَلالةِ النَّصِّ، ويَجوزُ أن تَكونَ (مِن) بَيانيَّةً، أي: وعلى أُمَمٍ هم الَّذين معَك، وإنَّما سُمُّوا أممًا؛ لأنَّهم أممٌ مُتحزِّبةٌ، وجماعاتٌ مُتفرِّقةٌ، أو لأنَّ جميعَ الأممِ إنَّما تشعَّبَت منهم؛ فحينَئذٍ يكونُ المرادُ بالأممِ المشارِ إليهم في قولِه تعالى: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ بعضَ الأممِ المتشعِّبةِ منهم، وهي الأممُ الكافرةُ المتناسِلةُ منهم إلى يومِ القيامةِ، ويَبْقى أمرُ الأممِ المؤمنةِ النَّاشئةِ مِنهم مُبهَمًا، غيرَ مُتعرَّضٍ له، ولا مَدلولٍ عليه مع ذلك؛ ففي دَلالةِ المذكورِ على خبَرِه المحذوفِ خَفاءٌ؛ لأنَّ (مِن) المذكورةَ بيانيَّةٌ، والمحذوفةَ تبعيضيَّةٌ أو ابتدائيَّةٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فيه تنبيهٌ على الإيمانِ بأنَّ المتَّصِفين به مِن اللهِ عليهم سلامٌ وبرَكةٌ، وعلى الكفرِ بأنَّ المتَّصِفين به يُمَتَّعون في الدُّنيا، ثمَّ يُعذَّبون في

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٥).

الآخرةِ، وذلك مِن بابِ الكِنايةِ، كقَولِهم: فُلانٌ طَويلُ النِّجادِ، كَثيرُ الرَّمادِ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ إلى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ استِئْنافٌ أُريدَ به الامتنانُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والموعظةُ والتَّسليةُ؛ فالامتِنانُ من قولِه: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا﴾، والموعظةُ مِن قولِه: ﴿فَاصْبِرْ﴾، والتَّسليةُ مِن قولِه: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

- وقولُه: ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى ما قُصَّ مِن قِصَّةِ نوحٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ إمَّا لكونِها بتَقَضِّيها في حُكْمِ البعيدِ، أو الدَّلالةِ على بُعْدِ مَنزِلَتِها[٣].

- قولُه: ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ فيه التَّعبيرُ بصيغةِ المضارِعِ ﴿نُوحِيهَا﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ، أو هو حالٌ مِنْ أَنباءِ الغيبِ، أي: مُوحاةً إليك[٤].

- قولُه: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ في ذِكْرِ جَهْلِهم تنبيهٌ على أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لَم يتَعلَّمْه إذ لم يُخالِطْ غيرَهم، وأنَّهم مع كثرَتِهم لَمَّا لم يَعلَموه؛ فكيف بواحدٍ منهم[٥]؟!

- وعَطْفُ ﴿وَلَا قَوْمُكَ﴾ من التَّرقِّي؛ لأنَّ في قومِه مَن خالَطَ أهْلَ الكتابِ، ومَن كان يَقرَأُ ويَكتُبُ، ولا يَعلَمُ أحَدٌ مِنهم كثيرًا مِمَّا أوحي إليه مِن هذه القصَّةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٣).

- قولُه: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ فيه تفريعُ أمرِ الرَّسولِ بالصَّبرِ على هذه القصَّةِ، ووجهُه أنَّ فيها قياسَ حالِه معَ قومِه على حالِ نوحٍ عليه السَّلامُ معَ قومِه؛ فكما صبَر نوحٌ عليه السَّلامُ؛ فكانت العاقبةُ له، كذلك تَكونُ العاقبةُ لك على قومِك[١].

- وجملةُ ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ عِلَّةٌ للصَّبرِ المأمورِ به؛ أي: اصبِرْ؛ لأنَّ داعِيَ الصَّبرِ قائمٌ، وهو أنَّ العاقِبةَ الحَسَنةَ تكونُ للمُتَّقين، فستَكونُ لك وللمُؤمِنين معَك[٢].

- واللَّامُ في ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ للاختصاصِ والمِلْكِ؛ فيَقْتَضي مِلْكَ المتَّقينَ لجِنْسِ العاقبةِ الحسَنةِ، فهي ثابتةٌ لهم، لا تَفوتُهم، وهي مُنتَفِيَةٌ عن أضدادِهم[٣].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥٠-٦٠)

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُفْتَرُونَ﴾: أي: كاذِبونَ، والافتِراءُ: اختِلاقُ الكَذِبِ، وأصلُه مِن: (فَرْيِ الأديمِ)، وهو: قَطْعُهُ، فقيل للكَذِبِ: افتراءٌ؛ لأنَّ الكاذِبَ يقطَعُ به على التَّقديرِ، مِن غيرِ تحقيقٍ[1].

﴿فَطَرَنِىٓ﴾: أي: خَلَقَني، وأصلُ (فطر): يدلُّ على الشَّقِّ، فكُلُّ من أظهَرَ أمرًا

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٤٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٢٠).

اختَرَعه على غيرِ مِثالٍ، يُقال: قد فطَرَه[١].

﴿مِّدۡرَارٗا﴾: أي: مُتتابعًا غزيرًا، وأصلُ (درر): يدلُّ على تولُّدِ شَيءٍ عن شيءٍ[٢].

﴿ٱعۡتَرَىٰكَ﴾: أي: أصابَك، أو ألمَّ بك، وأصلُ (عرو): يدلُّ على ثَباتٍ ومُلازمةٍ وغِشيانٍ[٣].

﴿بِنَاصِيَتِهَآ﴾: النَّاصِيةُ: شَعرُ مُقَدَّمِ الرَّأسِ، وأصلُ (نصو): يدُلُّ على عُلُوٍّ، وسُمِّيَت النَّاصِية؛ لارتفاعِ مَنبَتِها[٤].

المعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ إلى عادٍ أخاهم هودًا، فقال لهم: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم مِن إلهٍ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه جلَّ وعلا، فأخلِصوا له العبادةَ، فما أنتم إلَّا كاذِبونَ في إشراكِكم باللهِ، ويا قومِ لا أسألُكم على ما أدعوكم إليه- مِن إخلاصِ العِبادةِ لله، وتَركِ عبادةِ الأوثانِ- أجرًا، ما أجري على دَعوتي لكم إلَّا على اللهِ الذي خلَقَني، أفلا تَعقِلونَ فتُمَيِّزوا بين الحَقِّ والباطلِ؟! ويا قوم اطلُبوا مَغفِرةَ الله، ثمَّ تُوبوا إليه مِن ذُنوبِكم؛ يُرسِلِ المطَرَ عليكم مُتتابعًا كثيرًا، فتَكثُرْ خَيراتُكم، ويَزِدْكم قُوَّةً إلى قُوَّتِكم، بكَثرةِ ذُرِّيَّاتِكم، وتتابُعِ النِّعَمِ عليكم، ولا تُعرِضوا عمَّا دعَوتُكم إليه، مُصِرِّينَ على إجرامِكم.

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٣)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان الأندلسي (ص: ٣٠٤).

قالوا: يا هودُ ما جِئتَنا بحُجَّةٍ واضحةٍ على صِحَّةِ ما تَدعونا إليه، وما نحن بتاركي آلهَتِنا مِن أجلِ قَولِك، وما نحن بمصَدِّقينَ لك فيما تدَّعيه، ما نقولُ إلَّا أنَّ بعضَ آلهتِنا أصابك بجُنونٍ؛ بسبَبِ نَهيك عن عبادتِها. قال لهم: إني أُشهِدُ اللهَ على ما أقولُ، واشهَدوا أنَّني بريءٌ ممَّا تُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ؛ من الأندادِ والأصنامِ، فاجتَهِدوا أنتم ومَن زعَمتُم من آلهتِكم في إلحاقِ الضَّرَرِ بي، ثمَّ لا تؤخِّروا ذلك طرفةَ عَينٍ؛ إنِّي توكَّلتُ على اللهِ ربِّي وربِّكم، مالكِ كُلِّ شَيءٍ، والمتصَرِّفِ فيه، فلا يصيبُني شيءٌ إلَّا بأمرِه تعالى، وهو القادِرُ على كلِّ شَيءٍ، فليس من شيءٍ يدِبُّ على هذه الأرضِ إلَّا واللهُ مالِكُه، وهو في سُلطانِه وتصَرُّفِه، إنَّ رَبِّي عَدلٌ في قَضائِه وشَرعِه وأمرِه، يُجازي المحسِنَ بإحسانِه، والمُسيءَ بإساءتِه، فإن تُعرِضوا عمَّا أدعوكم إليه مِن توحيدِ اللهِ، وإخلاصِ العبادةِ له؛ فقد أبلغتُكم رسالةَ رَبِّي إليكم، وقامت عليكم الحُجَّةُ، وحيث لم تُؤمِنوا بالله فسيُهلِكُكم، ويأتي بقومٍ آخرينَ يَخلُفونكم في ديارِكم وأموالِكم، ويُخلِصونَ لله العبادةَ، ولا تَضُرُّونَه شيئًا؛ إنَّ ربِّي على كلِّ شَيءٍ حفيظٌ، فهو الذي يحفَظُني من أن تنالوني بسُوءٍ.

ولَمَّا جاء أمرُنا بعذابِ قَومِ هودٍ؛ نجَّينا هُودًا والمؤمنينَ بفَضلٍ منَّا عليهم ورحمةٍ، ونجَّيناهم من عذابٍ شديدٍ؛ عذابِ يومِ القيامةِ، وتلك عادٌ كَفَروا بآياتِ اللهِ، وعصَوا رسُلَه، وأطاعوا أمرَ كُلِّ مُستكبِرٍ على اللهِ، لا يقبَلُ الحَقَّ ولا يُذْعِنُ له، وأُتبِعوا في هذه الدُّنيا لعنةً مِن اللهِ، وسَخَطًا منه يومَ القيامةِ، ألا إنَّ عادًا جَحَدوا ربَّهم، ألا بُعْدًا وهَلاكًا لعادٍ قَومِ هُودٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾.

أي: وأرسَلْنا إلى قبيلةِ عادٍ أخاهم في النَّسَبِ هودًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

أي: قال لهم: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غيرُ اللهِ، فلا تُشرِكوا به شيئًا[٢].

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

أي: ما أنتم في عبادتِكم غيرَ اللهِ إلَّا كاذِبونَ على اللهِ[٣].

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعدما أوضحَ لهم وجوبَ عبادةِ اللهِ، وفسادَ عبادةِ ما سواه؛ ذكَرَ عدمَ المانعِ لهم من الانقيادِ، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: غرامةً مِن أموالِكم، على ما دعوتُكم إليه، فتقولوا: هذا يريدُ أن يأخذَ أموالَنا[٤].

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾.

أي: يا قَومِ لا أطلبُ منكم أُجرةً على تبليغي رسالةَ اللهِ، ما ثوابي على دعوتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٣).

لكم إلَّا على اللهِ الذي خلقَني[١].

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

أي: أفلا تعقِلونَ أنِّي أدعوكم لمصلَحتِكم في الدُّنيا والآخرةِ مِن غيرِ أُجرةٍ؟! فلو كنتُ أبتغي بدعوتِكم إلى اللهِ غيرَ النَّصيحةِ لكم، لطلبتُ منكم أجرًا على ذلك[٢].

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا هو النَّوعُ الثَّاني من التَّكاليفِ التي ذكَرَها هودٌ عليه السَّلامُ لِقومِه؛ وذلك لأنَّه في المقامِ الأوَّلِ دعاهم إلى التَّوحيدِ، وفي هذا المقامِ دعاهم إلى الاستغفارِ ثمَّ إلى التوبةِ[٣].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا دعا هودٌ قَومَه مُشيرًا إلى ترهيبِهم مستدِلًّا على الصِّدقِ بنفي الغَرَضِ؛ رغَّبَهم في إدامةِ الخوفِ ممَّا مضى[٤].

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾.

أي: ويا قومِ اطلُبوا من رَبِّكم سَترَ ذُنوبِكم الماضيةِ، والتَّجاوُزَ عن المؤاخَذةِ بها، ثمَّ توبوا إليه فيما تستقبِلونَه، وذلك بالتَّوبةِ النَّصوحِ، والرُّجوعِ إلى عبادتِه وَحدَه وطاعتِه؛ فإنَّكم إن فعلتُم ذلك يُرسِلِ المطرَ عليكم كثيرًا مُتتابعًا، فتُخصِب

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٠٧).

الأرضُ، ويكثُر خَيرُها[١].

كما حكى الله تعالى عن نوحٍ عليه السَّلامُ أنَّه قال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

أي: ويَزِدْكم اللهُ -إن استغفَرتُم وتُبتُم- شِدَّةً مُضافةً إلى شِدَّتِكم، وأموالًا وأولادًا[٢].

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

أي: ولا تُعرِضوا عمَّا أدعوكم إليه من توحيدِ اللهِ وعبادتِه، وتُصِرُّوا على الكُفرِ والعِصيانِ[٣].

﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾.

أي: قال قومُ هودٍ: يا هودُ، ما أتيتَنا ببُرهانٍ وحُجَّةٍ واضحةٍ تشهَدُ على صِحَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٣، ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

قال الواحدي: (﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ فُسِّرَت القوةُ هاهنا بالمالِ والولد والشِّدةِ، وكلُّ هذا ممَّا يَقوَى به الإنسانُ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٥٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

ما تدعونا إليه[١]!

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾.

أي: وما نحنُ -يا هودُ- بتاركي عبادةِ آلهَتِنا بمُجَرَّدِ نَهيِك لنا عن عبادتِهم، دونَ بُرهانٍ على صحَّةِ ما تقولُ[٢].

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وما نحنُ لك بما تدَّعي من النبوَّةِ والرِّسالةِ بمُصَدِّقينَ[٣] ومقرِّين ومنقادين ومُذْعِنين.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾.

أي: ما نقولُ إلَّا أصابَك بعضُ أصنامِنا بجُنونٍ؛ بسبَبِ نهيِك عن عبادتِها، وذمِّك لها[٤].

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾.

أي: قال هودٌ لهم: إنِّي أُشهِدُ اللهَ على نفسي، وأُشهِدُكم أنِّي بَريءٌ مِن عبادتِكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

للأصنامِ مِن دونِ اللهِ تعالى[١].

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾.

مُناسَبتُها لما قَبلَها:

لَمَّا كانت البراءةُ من الشُّرَكاءِ تقتضي اعتقادَ عَجزِها عن إلحاقِ إضرارٍ به؛ فرَّع على البراءةِ هذه الجملةَ[٢]، فقال:

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: فاحْتالوا أنتم وجميعُ آلهتِكم لتضرُّوني، ثمَّ لا تُمهِلوني، ولا تؤخِّروا ذلك[٣].

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾.

أي: إنِّي اعتمدتُ على اللهِ مالكي ومالِكِكم، ومدبِّرِ أمورِ خَلقِه؛ ليمنَعَني منكم، فلا تصيبوني بسُوءٍ[٤].

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾.

أي: ما من شيءٍ يدِبُّ على الأرضِ إلَّا وهو في قبضةِ اللهِ، وتحت قَهرِه وسُلطانِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

يُصرِّفُه كيف يشاءُ، ويمنَعُه ممَّا يشاءُ، فلا تَصِلونَ إلى إلحاقِ الضَّررِ بي[١].

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمُرُنا إذا أخذْنا مضجَعَنا أن نقول: اللهمَّ رَبَّ السَّمواتِ، وربَّ الأرضِ، وربَّ العرشِ العظيمِ، ربَّنا ورَبَّ كُلِّ شيءٍ، فالقَ الحَبِّ والنَّوى، ومُنزِلَ التَّوراةِ والإنجيلِ والفُرقانِ، أعوذُ بك من شَرِّ كُلِّ شَيءٍ أنت آخِذٌ بناصيتِه، اللهمَّ أنت الأوَّلُ فليس قبلَك شيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بعدك شيءٌ، وأنت الظَّاهرُ فليس فوقَك شيءٌ، وأنت الباطِنُ فليس دونك شيءٌ، اقضِ عنَّا الدَّينَ، وأغنِنا مِن الفَقرِ))[٢].

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

أي: إنَّ ربِّي على طريقِ الحَقِّ والعَدلِ لا يظلِمُ أحدًا، ولا تخرجُ أقوالُه وأفعالُه عن الصَّوابِ والحِكمةِ في شَرعِه وقضائِه[٣].

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓۚ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا استوفَى تشييدَه أمْرَه، وهدمَ قَولِهم؛ أخَذ يحَذِّرُهم، فقال[٤]:

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡ﴾.

أي: فإن تُعرِضُوا عمَّا أدعوكم إليه من عبادةِ اللهِ وحدَه، فقد قامت عليكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٧٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣١٢).

الحُجَّةُ بإبلاغي إيَّاكم رسالةَ اللهِ، ولم تبقَ عليَّ تَبِعَةٌ من شأنِكم[١].

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾.

أي: ويَستبدِلُ ربِّي قومًا غيرَكم يُطيعونَه ويعبُدونَه وَحدَه بعد أن يُهلِكَكم، ولا تضُرُّونَ اللهَ شيئًا بكُفرِكم[٢].

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

أي: إنَّ ربِّي ذو حِفظٍ لكُلِّ شَيءٍ، حافِظٌ لأقوالِ عبادِه وأفعالِهم، ويجزيهم عليها، ويحفَظُني من أن تنالوني بسوءٍ[٣].

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾.

أي: ولَمَّا أتَى عذابُنا، وأهلكْنا جميعَ الكافرينَ، نجَّيْنا هودًا والمؤمنينَ معه برَحمتِنا، وبفضلٍ منَّا عليهم[٤].

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لن يُدخِلَ أحدًا منكم عملُه الجنَّةَ، قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟! قال: ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

وذهب ابن جرير إلى أنَّ المرادَ بقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾: ولا تقدِرونَ له على ضُرٍّ إذا أراد إهلاكَكم أو أهلَكَكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

أنا، إلَّا أن يتغمَّدَني اللهُ منه بفضلٍ ورحمةٍ))[١].

﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

أي: ونجَّيْنا المؤمنينَ من عذابِ يومِ القيامةِ[٢].

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾.

أي: وتلك عادٌ- الذين أوقعَ اللهُ بهم ما أوقعَ- كذَّبوا بالمُعجزاتِ التي أيَّد اللهُ بها الرسُلَ، وأنكَروا ما أنزل اللهُ عليهم من الحُجَجِ والبراهينِ، وعَصَوا رسُلَ اللهِ بعصيانِهم لرَسولِهم هودٍ عليه وعليهم السَّلامُ[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٤).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بـ ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾: عذابُ يوم القيامة: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الواحدي: (وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾... قال بعضُهم: يعني عذابَ القيامةِ، وهذا أحسنُ؛ لأنَّ الإنجاءَ مِن عذابِ الدُّنيا قد سبَق، كما نجَّيناهم في الدنيا مِن العذابِ، كذلك نجَّيناهم في الآخرةِ مِن العذابِ). ((البسيط)) (١١/ ٤٥٢).

وقيل: المرادُ: النجاةُ مِن عذابِ عادٍ. وممن قال بذلك: البغويُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

وقال ابنُ جزي: (﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يحتملُ أن يريدَ به عذابَ الآخرةِ، ولذلك عطَفه على النجاةِ الأولَى التي أراد بها النجاةَ مِن الريحِ، ويحتملُ أن يريدَ بالثاني أيضًا الريحَ، وكرَّره إعلامًا بأنَّه عذابٌ غليظٌ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٧٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

قال القرطبي: (﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ يعني هودًا وحدَه؛ لأنَّه لم يُرسلْ إليهم من الرُّسُلِ سواه... وإنما جُمِعَ هاهنا؛ لأنَّ من كذَّب رسولًا واحدًا فقد كفر بجميعِ الرُّسُل. وقيل: عصَوا هودًا

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾.

أي: واتَّبَعوا كلَّ متكَبِّرٍ مِن كبَرائِهم ورؤسائِهم، متسَلِّطٍ على الخلقِ، طاغيةٍ معاندٍ، لا يقبَلُ الحَقَّ[١].

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكر أوصافَ قَومِ عادٍ، ذكر بعد ذلك أحوالَهم[٢]، فقال تعالى:

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

أي: وألحقَ اللهُ بقومِ هودٍ في هذه الدُّنيا لعنةً مِنه ومِن المؤمنينَ، وتلحَقُهم لعنةٌ أُخرَى يومَ القيامةِ[٣].

﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾.

أي: ألا إنَّ عادًا كفروا بربِّهم الذي خلَقَهم ورزَقَهم وربَّاهم، وعَصَوه[٤].

والرسُلَ قبله، وكانوا بحيث لو أُرسِلَ إليهم ألفُ رَسولٍ لجَحَدوا الكلَّ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٧).

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

أي: ألا أبعَدَ اللهُ عادًا قومَ هودٍ عن كلِّ خَيرٍ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- خاطَب نوحٌ عليه السلامُ قومَه قائلًا: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ خاطبَهم بذلك إزالةً للتُّهمةِ، وتمحيضًا للنَّصيحةِ؛ فإنَّها لا تَنجَعُ ما دامت مَشوبةً بالمطامعِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ دلالةٌ مِن كلامِ المرسَلينَ أنَّه بتوكُّلِهم على اللهِ يُدفَعُ شرُّ عدوِّهم عنهم[٣].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أرسلَ اللهُ إليهم ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النَّسَبِ ﴿هُودًا﴾ ليتَمَكَّنوا من الأخذِ عنه، والعلم بصِدقِه[٤].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ فيه سؤالٌ: وصفَ تعالى هودًا بأنَّه أخوهم، ومعلومٌ أنَّ تلك الأخوَّةَ ما كانت في الدِّينِ، وإنَّما كانت في النَّسَبِ، وقد قال تعالى في ابنِ نوحٍ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، فبيَّن أنَّ قَرابةَ النَّسَبِ لا تُفيدُ إذا لم تحصُلْ قَرابةُ الدِّينِ، وهاهنا أثبتَ هذه الأُخُوَّةَ مع الاختلافِ في الدِّينِ، فما الفرقُ بينهما؟

الجواب: أنَّ المرادَ مِن هذا الكلامِ استمالةُ قَومِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

وسلَّم؛ لأنَّ قَومَه كانوا يستبعِدونَ في محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- مع أنَّه واحِدٌ من قبيلتِهم- أن يكونَ رسولًا إليهم من عندِ الله، فذكرَ الله تعالى أنَّ هودًا كان واحدًا مِن عاد؛ لإزالةِ هذا الاستِبعاد(١).

٣- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ على أنَّ هؤلاء المعبودينَ مِن دونِ اللهِ إنَّما هم آلهةٌ في نفوسِ المُشرِكينَ، ليسوا آلهةً في نفسِ الأمرِ؛ ولهذا كان ما في قلوبِهم مِن الشِّركِ إفكًا(٢).

٤- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ على أنَّ الأفعالَ قَبْلَ الرِّسالةِ منها الحسَنُ ومنها القبيحُ، إلَّا أنَّهم لا يستَحِقُّونَ العذابَ إلَّا بعد مجيءِ الرَّسولِ إليهم، فقد جعل هودٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قومَه مُفتَرينَ قبلَ أن يحكُمَ بحُكمٍ يُخالِفونَه؛ لِكونِهم جعلوا مع الله إلهًا آخرَ(٣).

٥- في قَولِه تعالى عن هودٍ: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ بيانُ أنَّ عبادةَ اللهِ وحدَه هي أوَّلُ الواجباتِ، وهي مِفتاحُ دعوةِ المُرسَلينَ كلِّهم(٤).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ هذا غايةُ ما يُرادُ مِن السَّعاداتِ الدنيوية: كثرةُ النعمِ، وكمالُ القوةِ للاستمتاعِ بها؛ فقولُه تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ إشارةٌ إلى تكثيرِ النِّعَم؛ لأنَّ مادةَ حُصولِ النِّعَمِ هي الأمطارُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٨٠).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٣٧).
(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٥٤).

المُوافِقة، وقولُه: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ إشارةٌ إلى كمالِ حالِ القُوى التي بها يمكِنُ الانتفاعُ بتلك النِّعمةِ[١].

٧- (ثمَّ) في قولِه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتْبيِّ؛ لأنَّ الدَّوامَ على الإقلاعِ أهَمُّ مِن طلَبِ العفْوِ عمَّا سلَف[٢].

٨- كثيرًا ما يُقرن الاستغفارُ بذكر التوبةِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، فيكونُ الاستغفارُ حينئذٍ عبارةً عن طلبِ المغفرةِ باللسانِ، والتوبةُ عبارةٌ عن الإقلاع عن الذنوبِ بالقلوبِ والجوارح[٣].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يقتضي أنَّه -سُبحانَه- لا يقولُ إلَّا الحقَّ، ولا يأمرُ إلَّا بالعدلِ، ولا يفعلُ إلَّا ما هو مصلحةٌ ورحمةٌ وحكمةٌ وعَدْلٌ؛ فهو على الحقِّ في أقوالِه وأفعالِه، فلا يقضي على العبدِ بما يكونُ ظالِمًا له به، ولا يأخذُه بغير ذنبِه، ولا يَنقُصُه مِن حسناتِه شيئًا، ولا يَحمِلُ عليه مِن سيِّئاتِ غَيرِه -التي لم يعملْها ولم يتسبَّبْ إليها- شيئًا، ولا يؤاخِذُ أحدًا بذنبِ غيرِه، ولا يفعلُ قطُّ ما لا يُحمَدُ عليه، ويُثنَى به عليه، ويكونُ له فيه العواقبُ الحميدةُ والغاياتُ المطلوبةُ؛ فإنَّ كونَه على صراطٍ مُستقيمٍ يأبى ذلك كلَّه[٤].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ﴾ فيه تأنيثُ اسمِ الإشارةِ ﴿تِلۡكَ﴾ على تأويلِ الأُمَّةِ، أو أنَّث اسْمَ الإشارةِ باعتبارِ القَبيلةِ، أو لأنَّ الإشارةَ إلى قُبورِهم وآثارِهم[٥].

١١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٦).
(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٠٧).
(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٥).

كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ على إطلاقِ مَعصيةِ الرُّسُلِ عُمومًا على مَن عصى نبيَّه، فأطلقَ معصيتَهم للرُّسُلِ- بأنَّهم عصَوا هودًا- مَعصيةَ تكذيبٍ لجنسِ الرُّسُلِ، فكانت المعصيةُ لجنسِ الرُّسُلِ كمعصيةِ مَن قال: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الملك: ٩]، وكمعصيةِ مَن كذَّبَ وتوَلَّى في قولِه تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[1] [الليل: ١٥- ١٦].

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ فيه الردُّ على الذين يصَوِّبونَ جميعَ المِلَل- وخَصُّوا عادًا هذه؛ لكونِها أغناهم بأن قالوا: إنَّهم من المقرَّبينَ إلى اللهِ، وإنَّهم بعينِ الرِّضا منه- وهم أتباعُ ابنِ عرَبي الكافرِ العنيدِ، أهلُ الاتِّحادِ، المُجاهِرونَ بعَظيمِ الإلحادِ، المستخِفُّونَ برَبِّ العبادِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ فيه تقديمُ المجرورِ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ على المنصوبِ ﴿أَخَاهُمْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ العطْفَ مِن عَطْفِ المفرَداتِ لا مِن عطْفِ الجُمَلِ؛ لأنَّ الجارَّ لا بدَّ له مِن متعلِّق، وقضاءً لحقِّ الإيجازِ؛ لِيَحضُرَ ذِكرُ عادٍ مرَّتَينِ بلَفْظِه ثمَّ بضَميرِه[3].

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيه افتِتاحُ دَعوتِه بنِداءِ قومِه؛ لاستِرْعاءِ أَسْماعِهم؛ إشارةً إلى أهمِّيَّةِ ما سيُلْقي إليهم، ووَجْهُ التَّصريحِ بفِعْلِ القولِ؛

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٤).

لأنَّ فِعْلَ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ محذوفٌ؛ فلو بُيِّن بجملةِ ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ﴾ دون (قال) كما بُيِّن في قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥]، لكان بَيانًا لمعدومٍ، وهو غيرُ جَلِيٍّ[١].

- قولُه: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استِئْنافٌ يَجْري مَجْرى البيانِ للعِبادةِ المأمورِ بها، والتَّعليلِ للأمْرِ بها، كأنَّه قيل: خُصُّوه بالعبادةِ وَلا تُشْرِكوا بِه شَيئًا؛ إذْ ليس لكم مِن إلهٍ سِواه[٢].

- وجملةُ: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ بيانٌ لِجُملَةِ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، وفيها توبيخٌ وإنكارٌ لهم[٣].

٢- قولُه: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

- جملةُ ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فيه إعادةُ النِّداءِ في أثناءِ الكلامِ، والتَّكريرُ للأهَمِّيَّةِ، ويُقصَدُ به تَهْويلُ الأمْرِ، واسترْعاءُ السَّمْعِ اهتِمامًا بما يَستَسمِعونَه، والنِّداءُ هو الرَّابِطُ بين الجُملتَين[٤].

- قولُه: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ دونَ الاسْمِ العلَمِ (فَاطِرٌ)؛ لزيادةِ تحقيقِ أنَّه لا يَسأَلُهم على الإرشادِ أجْرًا بأنَّه يَعلَمُ أنَّ الَّذي خلَقَه يَسوقُ إليه رِزقَه؛ لأنَّ إظْهارَ المتكلِّمِ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذا الوجهُ هو على أنَّ هذه الجملةَ كان قالها مع الجُملةِ التي قبلها، وإنْ كانت مقولةً في وقتٍ غيرِ الذي قِيلتْ فيه الجملةُ الأُولَى؛ فليس فيه هذا الوجهُ.

عِلْمَه بالأسبابِ يُكْسِبُ كلامَه على المسبِّباتِ قوَّةً وتحقيقًا[١].

- قولُه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ عن عدَمِ تَعقُّلِهم، أي: تأمُّلِهم في دَلالةِ حالِه على صِدْقِه فيما يُبلِّغُ، ونُصْحِه لهم فيما يَأمُرُهم[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يَزِدۡكُمۡ﴾، وإنَّما عُدِّي بـ (إلى) لِتَضمينِه مَعْنى يَضُمُّ، وهذا وعْدٌ لهم بصَلاحِ الحالِ في الدُّنيا، وعُطِفَ عليه ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾؛ تحذيرًا مِن الرُّجوعِ إلى الشِّركِ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ فيه افتِتاحُ كَلامِهم بالنِّداءِ، وهو يُشيرُ إلى الاهتمامِ بما سيَقولونَه، وأنَّه جديرٌ بأن يُتَنبَّهَ له؛ لأنَّهم نَزَّلوه مَنزِلةَ البعيدِ لِغَفلتِه فنادَوْه؛ فهو مُستعمَلٌ في معناه الكِنائيِّ[٤].

- قولُهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾، ﴿عَن قَوۡلِكَ﴾ للتَّعليلِ كقولِه تعالى: ﴿إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾، فتَتعلَّقُ ﴿بِتَارِكِيٓ﴾، كأنَّه قيل: لِقَولِك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٧).

- قولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أفادت الجملةُ الاسميةُ وزيادةُ الباءِ وتقديمُ المسندِ إليه المفيدِ للتقوِّي أنَّهم لا يُرجَى منهم الإيمانُ بأيِّ وجهٍ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

- ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ استِئْنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مِن شأنِه أن يُثيرَ للسَّامعِ ومَن معَه في أنفُسِهم أن يَقولوا: إن لم تُؤمِنوا بما جاء به أنَّه مِن عندِ اللهِ؛ فماذا تَعُدُّون دَعوتَه فيكم؟[٢]، وقد جعَلوا ذلك مِن فِعْلِ بعضِ الآلهةِ؛ تهديدًا للنَّاسِ بأنَّه لو تَصدَّى له جميعُ الآلهةِ لَدَكُّوه دَكًّا[٣].

- والتَّنكيرُ في (سُوءٍ) للتَّقليلِ؛ كأنَّهم لم يُبالِغوا في السُّوءِ، كما يُنْبِئُ عنه نِسبةُ ذلك إلى بعضِ آلهتِهم دونَ كُلِّها[٤].

- قولُه: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ جملةُ ﴿أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ إنشاءٌ لإشهادِ اللهِ بصيغةِ الإخبارِ؛ لأنَّ كلَّ إنشاءٍ لا يَظهَرُ أثَرُه في الخَلْقِ مِن شأنِه أن يقَعَ بصيغةِ الخبَرِ؛ لِمَا في الخبَرِ مِن قصْدِ إعلامِ السَّامعِ بما يُضمِرُه المتكلِّمُ، وقال: ﴿أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟﴾، ولم يَقُل: (وأُشْهِدُكم) لِيَكون مُوازِنًا له وبمعناه؛ لأنَّ إشهادَه اللهَ على البراءةِ مِن الشِّركِ صحيحٌ ثابتٌ، وأمَّا إشهادُهم فما هو إلَّا تَهاوُنٌ بدِينِهم، ودَلالةٌ على قِلَّةِ المبالاةِ بهم؛ ولذلك عَدَل به عن لَفْظِ الأوَّلِ؛ لاخْتِلافِ ما بَينَهما، وجيءَ به على

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٢٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٧).

لفْظِ الأمْرِ؛ تَهكُّمًا بهم واستِهانَةً بحالِهم؛ هذا مِن جِهَةٍ، ومِن جهةٍ ثانيةٍ: عدَل إلى صيغةِ الأمرِ ﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ﴾ عن صيغةِ الخبَرِ؛ للتَّمييزِ بينَ خِطابِه اللهَ تعالى وخِطابِه إيَّاهم؛ بأن يُعبِّرَ عن خِطابِ اللهِ تعالى بصيغةِ الخبَرِ الَّتي هي أجَلُّ وأشرَفُ وأوقَرُ للمُخاطَبِ مِن صِيغةِ الأمرِ[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾

- الفاءُ في ﴿فَكِيدُونِي﴾؛ لِتَفْريعِ الأمْرِ على زَعْمِهم في قدرةِ آلهتِهم على ما قالوا، وعلى البراءةِ كِلَيهما[2]، والأمرُ بـ (كِيدُونِي) مُستعمَلٌ في الإباحةِ؛ كِنايةً عن التَّعجيزِ بالنِّسبةِ للأصنامِ وبالنِّسبةِ لقومِه، وجَعَل الخطابَ لقومِه؛ لِئَلَّا يكونَ خِطابُه لِمَا لا يَعقِلُ ولا يَسمَعُ، فأمَر قومَه بأن يَكِيدوه، وأدخَلَ في ضَميرِ الكائِدين أصنامَهم؛ مُجاراةً لاعتِقادِهم، واستِقْصاءً لِتَعجيزِهم.

و(ثُمَّ) في ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ تَحدَّاهم بأن يَكِيدوه، ثمَّ ارتَقى في رُتبَةِ التَّعجيزِ والاحتقارِ، فنَهاهم عن التَّأخيرِ بكَيدِهم إيَّاه، وذلك نِهايةُ الاستِخْفافِ بأصنامِهم وبهم، وكنايةٌ عن كَونِهم لا يَصِلون إلى ذلك[3].

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

- قولُه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ تعليلٌ لمضمونِ ﴿فَكِيدُونِي﴾، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٨)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لمحمود صافي (١٢/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٠).

للتَّعجيزِ والاحتقارِ[١]، وإنَّما جِيءَ بلفظِ الماضي ﴿تَوَكَّلْتُ﴾؛ لِكَونِه أدَلَّ على الإنشاءِ المناسِبِ للمقامِ[٢].

- قولُه: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ الأخْذُ بالنَّاصيةِ هنا تَمثيلٌ للتَّمكُّنِ، تَشْبيهًا بهيئةِ إمساكِ الإنسانِ مِن ناصيتِه حيث يَكونُ رأسُه بيَدِ آخِذِه فلا يَستَطيعُ إفلاتًا، وإنَّما كان تَمثيلًا؛ لأنَّ دَوابَّ كثيرةً لا نَواصِيَ لها، فلا يَلتَئِمُ الأخْذُ بالنَّاصيةِ مع عُمومِ ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾، ولكنَّه لَمَّا صار مَثَلًا صار بِمَنزلةِ: ما مِن دابَّةٍ إلَّا هو مُتصرِّفٌ فيها، ومِن بَديعِ هذا المثَلِ أنَّه أشَدُّ اختِصاصًا بالنَّوعِ المقصودِ مِن بينِ عُمومِ الدَّوابِّ، وهو نوعُ الإنسانِ، والمقصودُ مِن ذلك أنَّه المالِكُ القاهِرُ لِجَميعِ ما يَدِبُّ على الأرضِ؛ فكونُه مالِكًا للكُلِّ يَقتَضي ألَّا يَفوتَه أحَدٌ منهم، وكونُه قاهِرًا لهم يَقتَضي ألَّا يُعجِزَه أحَدٌ منهم[٣].

- قولُه: ﴿ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ فيه تخصيصُ النَّاصيةِ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ العرَبَ إذا وصَفَتْ إنسانًا بالذِّلَّةِ والخُضوعِ قالت: ما ناصِيَةُ فُلانٍ إلَّا بيَدِ فُلانٍ، أي: إنَّه مُطيعٌ له، يصرفُه كيف يَشاءُ[٤].

- وجملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تعليلٌ لِجُملةِ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: توكَّلتُ عليه؛ لأنَّه أهلٌ لِتَوكُّلي عليه، لأنَّه متَّصِفٌ بإجراءِ أفعالِه على طريقِ العَدْلِ والتَّأييدِ لرُسلِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٠-١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٨- ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠١).

٨- قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾

- قولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ جُعل جوابُ شرطِ التَّولِّي قولَه: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾، مع أنَّ الإبلاغَ سابقٌ على التَّولِّي المجعولِ شَرطًا؛ لأنَّ المقصودَ بهذا الجوابِ هو لازمُ ذلك الإبلاغِ، وهو انتِفاءُ تَبِعَةِ تولِّيهم عنه، وبَراءتُه مِن جُرْمِهم؛ لأنَّه أدَّى ما وجَب عليه مِن الإبلاغِ[(١)].

- و﴿شَيْـًٔا﴾ مَصدرٌ مؤكِّدٌ للفعلِ ﴿تَضُرُّونَهُۥ﴾ المنفيِّ، وتنكيرُه للتَّقليلِ، والمقصودُ مِن التَّأكيدِ: التَّنصيصُ على العُموم بنَفْي الضُّرِّ؛ لأنَّه نَكِرةٌ في حيِّزِ النَّفْيِ، أي: فاللهُ يُلْحِقُ بكم الاستِئْصالَ، وهو أعظَمُ الضُّرِّ، ولا تَضُرُّونه أقلَّ ضُرٍّ[(٢)].

- وجملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ تعليلٌ لِجُملةِ ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾؛ فموقِعُ (إنَّ) فيها موقِعُ فاءِ التَّفريعِ[(٣)].

- ولما كان الأهمُّ في هذا السياقِ بيانَ استعلائِه تعالى وقدرتِه، قدَّم قولَه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾[(٤)].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ الأمرُ هنا كِنايةٌ عن العذابِ، أو عن القضاءِ بهَلاكِهم[(٥)].

- وفي قولِه: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧٠).

تكرَّرَت التَّنْجيَةُ على سَبيلِ التَّوكيدِ، ولِقَلَقِ (مِنْ) في قولِه: ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لوْ لاصَقَتْ (مِنَّا) في ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾- حيثُ يكون: (بِرَحْمَةٍ مِنَّا مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ)-؛ فأُعيدَت التَّنجيةُ، وهي التَّنجيةُ الأُولى؛ فمَعْنى التَّكريرِ أنَّه سبحانه ذكَر أوَّلًا أنَّه حينَ أهْلَك عدُوَّهم نَجَّاهم، ثمَّ قال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، على معنى: وكانتِ التَّنْجيةُ مِن عذابٍ غليظٍ. أو تَكونُ هذه التَّنْجيةُ هي مِن عذابِ الآخرةِ، ولا عذابَ أغلَظُ منه؛ فأُعيدَتْ لأجلِ اختِلافِ مُتَعلَّقيها[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا في قصَّةِ هودٍ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، وقال في قصَّةِ شُعيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٩٤]؛ فعُطِفَت (لَمَّا) على ما قَبْلَها بواوِ العَطْفِ في هذَينِ الموضِعَين، وخالَفَت قصَّةُ صالحٍ وقصَّةُ لوطٍ عليهما السَّلامُ في الحرفِ المعطوفِ به هذه الجملةُ المصدَّرةُ بحرفِ الوجوبِ؛ فقيل في قصَّةِ صالحٍ عليه السَّلامُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٦٦]، وفي قصَّةِ لوطٍ عليه السَّلامُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢]، بعَطْفِ لَمَّا على ما قَبْلَها مِن هاتَين الآيتَين بفاءِ التَّعقيبِ، ووجْهُ ذلك: أنَّ العذابَ في قصَّةِ هودٍ وشُعيبٍ تأخَّر عن وقْتِ الوعيدِ، فإنَّ في قصَّةِ هودٍ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود: ٥٧]، وفي قصَّةِ شُعيبٍ ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٩٣]، والتَّخويفُ قارَنَه التَّسويفُ، فجاء بالواوِ. وفي قصَّةِ صالحٍ ولوطٍ وقَع العذابُ عَقِيبَ الوعيدِ؛ فإنَّ في قصَّةِ صالحٍ ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، وفي قصَّةِ لوطٍ ﴿أَلَيْسَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧٠).

ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]؛ فجاء الفاءُ للتَّعجيلِ والتَّعقيبِ(١).

وفيه وجهٍ آخَرَ: أنَّ آيَتَيْ صالِحٍ ولوطٍ ورَد فيهما ما يَقتَضي مَعْناه أن يَربِطَ بالفاءِ المقتَضِيَةِ التَّعقيبَ، أمَّا قصَّةُ صالِحٍ مِنهُما فتَقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، فكأنْ قد قيل: فلمَّا انقَضَتْ، فالموضوعُ للفاءِ لمقصودِ التَّعقيبِ، ومِثلُ هذا مِن غيرِ فَرْقٍ قولُه تعالى في قصَّةِ لوطٍ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ﴾ [هود: ٨١]، ولا شَكَّ أنَّ المعنى يَستَدْعي تَقْديرَ (فلَمَّا أصبَح)؛ تَحقيقًا لصِدْقِ الوعيدِ، وإعقابًا لا يتَحصَّلُ بغيرِ الفاءِ؛ فهذا يوجِبُ خُصوصَ الفاءِ بهَذَينِ الموضِعَينِ. وأمَّا قصَّةُ هودٍ عليه السَّلامُ، فلم يَرِدْ فيها ما يَسْتَدعي تَعْقيبًا، بل قَبْلَها ما يَقتَضي أن يُنسَّقَ ما بعدَه عليه بواوِ العطفِ، وذلك قولُه تعالى مُخبِرًا عن قومِ هودٍ: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔا﴾ [هود: ٥٧]، ثمَّ قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ [هود: ٥٨]، فعطَف هذه الجُمَلَ بَعْضَها على بعضٍ بما يُعْطي ذلك، ويُناسِبُ العطفُ بالواوِ، وعلى هذا ورَدَت آيةُ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ؛ فورَد قبْلَها: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ [هود: ٩٣]، ثمَّ بعْدَ ذلك: ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ [هود: ٩٣]، وليس هذا ما يَقْتَضي تَعقيبًا، بل بابُه حَمْلُ الآياتِ بعضِها على بعضٍ بحَرْفِ التَّشْريكِ وهو الواوُ؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ(٢).

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾

- جملةُ ﴿جَحَدُواْ﴾ وما بعْدَها تمهيدٌ للمَعطوفِ، وهو ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٧).
(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٧-٢٥٨).

لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [هود: ٦٠]؛ لزيادةِ تَسْجيلِ التَّمهيدِ بالأَجْرامِ السَّابقةِ، وهو الَّذي اقتَضاه اسمُ الإشارةِ؛ لأنَّ جميعَ ذلك مِن أسبابِ جَمْعِ العَذابَينِ لهم[1].

- وجمَعَ الرُّسُلَ في قولِه: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾، وإنَّما عَصَوْا رَسولًا واحدًا، وهو هودٌ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ المرادَ ذِكْرُ إجرامِهم؛ فناسَب أن يُناطَ الجُرْمُ بعِصْيانِ جِنْسِ الرُّسلِ؛ لأنَّ تَكْذيبَهم هودًا لم يَكُنْ خاصًّا بشَخْصِه؛ لأنَّهم قالوا له: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾؛ فكلُّ رسولٍ جاء بأمرِ ترْكِ عبادةِ الأصنامِ فهُم مُكذِّبون به. ومِثلُه قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[2] [الشعراء: ١٢٣].

١١- قولُه تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾

- قولُه: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾، أي: أصابتهم إصابةً عاجلةً دونَ تأخيرٍ كما يُتْبَعُ الماشي بمَن يَلْحَقُه، وعُبِّر عن ذلك بالتَّبعِيَّةِ للمُبالَغةِ؛ فكأنَّها لا تُفارِقُهم وإن ذهَبوا كلَّ مذهَبٍ، بل تَدورُ معَهم حيثُما داروا، مع ما في ذلك مِن المشارَكةِ ومِن مُماثَلةِ العقابِ للجُرْمِ؛ لأنَّهم اتَّبَعوا الملعونِينَ فأُتْبِعُوا باللَّعنةِ؛ جَزاءً لِصَنيعِهم جَزاءً وِفاقًا[3].

- وبُني فِعْلُ (أُتْبِعُوا) للمفعولِ؛ إذ لا غرَضَ في بيانِ الفاعلِ، ولم يُسنَدِ الفعلُ إلى اللَّعنةِ؛ لِيَدُلَّ على أنَّ إتْباعَها لهم كان بأمرِ فاعلٍ؛ للإشعارِ بأنَّها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٦).

تَبِعَتْهم عِقابًا مِن اللهِ لا مُجرَّدَ مُصادَفةٍ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾ قَرَنَ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ باسْمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِ﴾؛ لِقَصْدِ تَهْوينِ أمْرِها بالنِّسبةِ إلى لَعْنةِ الآخِرَةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، أي: أُتبِعوا يومَ القيامةِ أيضًا لعنةً، وحُذِفَت لِدَلالةِ الأُولى عليها، وللإيذانِ بكَوْنِ كلٍّ مِن اللَّعنتَين نوعًا برأسِه، لم تُجمَعا في قَرَنٍ واحدٍ؛ بأن يُقالَ: (وأُتبِعوا في هذه الدُّنيا ويومَ القيامةِ لَعنةً)، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأعراف: ١٥٦]؛ إيذانًا باختِلافِ نوعَي الحسَنَتينِ؛ فإنَّ المرادَ بالحسنَةِ الدُّنيَويَّةِ نحْوُ الصِّحَّةِ والكَفافِ والتَّوفيقِ للخيرِ، وبالحسنَةِ الأُخرَويَّةِ الثَّوابُ والرَّحمةُ[٣].

- وجملةُ ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ، افتُتِحَت بحرفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَآ﴾؛ لِتَهويلِ الخبَرِ، وأُكِّدَت بحرفِ (إنَّ)؛ لإفادةِ التَّعليلِ بجُملَةِ ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ تعريضًا بالمشرِكين؛ لِيَعتَبِروا بما أصاب عادًا[٤].

- ونبَّه على علَّةِ إتْباعِ اللَّعنةِ لهم في الدَّارَين بأنَّهم ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾؛ فالكفرُ هو الموجِبُ للَّعنةِ[٥].

- قولُه: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ جملةٌ ابتدائيَّةٌ؛ لإنشاءِ ذمٍّ لهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٧).

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ تكريرُ حرْفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾ وإعادةُ (عَادٍ) في الدُّعاءِ عليهم؛ تَهْويلًا لأمرِهم، وتَفْظيعًا له، وبَعْثًا على الاعتِبارِ بهم، والحذَرِ مِن مِثلِ حالِهم، والحثِّ على الاعتبارِ بقِصَّتِهم[1].

- و﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطفُ بيانٍ لـ(عَادٍ)، وفائدةُ هذا البيانِ- مع أنَّ البيانَ حاصِلٌ بدونِه-: أنْ يُوسَموا بهذه الدَّعْوةِ وَسْمًا، وتُجعَلَ فيهم أمرًا مُحقَّقًا لا شُبهَةَ فيه بوَجْهٍ مِن الوجوهِ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ له أثرًا في الذَّمِّ بإعراضِهم عن طاعةِ رسولِهم، والإيماءُ إلى أنَّ استِحْقاقَهم للبُعْدِ بسبَبِ ما جرَى بينَهم وبينَ هودٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وهم قومُه؛ فيكونُ تَعريضًا بالمشرِكين من العرَبِ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في قصَّةِ سورةِ (هودٍ) عليه السَّلامُ وذِكْرِ قومِه: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]، وقال في قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ في هذه السُّورةِ، وإرسالِه إلى فرعونَ ومَلَئِه: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]؛ فحَذَف (الدُّنيا) مِن الآيةِ الثَّانيةِ، وأثبَتَها في الأولى، ووجهُ ذلك: أنَّ قِصَّةَ هودٍ عليه السَّلامُ في هذه السُّورةِ أكثَرُ استيفاءً مِن قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ بكَثيرٍ؛ فناسَب الطُّولُ الطُّولَ، والإيجازُ الإيجازَ، ولا يَليقُ العَكْسُ؛ فالواردُ عليه كلٌّ مِن الآيتَينِ لا يَحسُنُ خِلافُه ولا يُناسِبُ[3].

وقيل: وجهُ ذلك أنَّ الأُولى أتى فيها بالموصوفِ والصِّفةِ جَميعًا، وهو الأصلُ الأوَّلُ، ثمَّ اكتَفى بالصِّفةِ عن الموصوفِ بعْدَه؛ لقيامِ الدَّلالةِ على الموصوفِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٧-٢٥٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٨).

فيَجوزُ لذلك حَذْفُه، وإقامةُ الصِّفةِ مَقامَه، ولَمَّا جاءَتِ الآيَتان في سورةٍ واحدةٍ وُفِّيَت الأُولى ما هو بها أَوْلى مِن الإجراءِ على الأصلِ، والإتيانِ بالموصوفِ والوصفِ، فقال تعالى: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾، واكتَفى في الثَّانيةِ لَمَّا قامَتِ الدَّلالةُ على الموصوفِ بالصِّفةِ وحْدَها، فقال: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةً﴾؛ فورَد الأوَّلُ على الأصلِ مِن الجمْعِ بينَ التَّابعِ نَعْتًا أو عَطْفَ بيانٍ وبينَ مَتْبوعِه، وجاء في قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةً﴾ على حَذْفِ الوصفِ؛ للاكتفاءِ باسْمِ الإشارةِ، وكلٌّ فَصيحٌ، فجيءَ بما هو في الأصلِ أوَّلًا، ثمَّ جيءَ ثانيًا بما هو ثانٍ عنه على ما يَنبَغي، ولا يَحسُنُ العكسُ؛ لأنَّ ذلك شِبْهُ التَّفسيرِ، وبابُه أن يتَقدَّمَ[1].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٥٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٨).

الآيات (٦١-٦٨)

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: أي: جعَلَكم عُمَّارَها، وأصلُ (عمر): يدُلُّ على بقاءٍ، وامتدادِ زَمانٍ[1].

﴿مَرْجُوًّا﴾: أي: نُؤَمِّلُ فيك أن تكونَ لنا سَيِّدًا، وأصلُ (رجا): يدُلُّ على الأمَلِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٣).

﴿مُرِيبٍ﴾: أي: مُوقِعٍ للتُّهمةِ، والريبةُ: التهمةُ، وهي ظنُّ السوءِ، فهي قسمٌ مِن الشكِّ، والريبةُ: قَلَقُ النَّفسِ، وانتفاءُ الطُّمأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[١].

﴿تَخْسِيرٍ﴾: أي: نقصانٍ، أو: هلكةٍ، أو: تضليلٍ وإبعادٍ مِن الخيرِ، وأصل (خسر): يَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ[٢].

﴿فَعَقَرُوهَا﴾: أي: فنَحَروها، وأصلُ (عقر): يدلُّ على جَرْحٍ[٣].

﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾: المرَّةُ من الصَّوتِ الشَّديدِ، وهي صاعِقةُ العذابِ، وأصلُ (صيح): يدلُّ على الصَّوتِ العالي[٤].

﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي: خامِدينَ، لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم ووُجوهِهم، وأصلُ (جثم): يدُلُّ على تجمُّعِ شَيءٍ[٥].

﴿يَغْنَوْاْ﴾: أي: يَعيشوا، أو يُقيموا، وغَنِيَ القومُ في دارِهم: أقاموا، كأنَّهم استغنَوْا بها، وأَصْلُ (غني): يدُلُّ على الكِفايةِ، والاسْتغناءِ عن الغَيرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٠)، ((تفسير المنار)) لرشيد رضا (١٢/ ١٠٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٢).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)،

المعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه أرسلَ إلى ثمودَ أخاهم صالحًا، فقال لهم: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم من إلهٍ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه جلَّ وعلا، فأخلِصوا له العبادةَ، هو الذي بدأ خَلقَكم من الأرضِ بخَلقِ أبيكم آدمَ منها، وجعَلَكم عُمَّارًا لها، فاسألوه أن يغفِرَ لكم ذُنوبَكم، وارجِعوا إليه بالتَّوبةِ النَّصوحِ؛ إنَّ ربي قريبٌ لِمَن أخلصَ، ورَغِبَ إليه في التَّوبةِ، مُجيبٌ له إذا دعاه.

فقال قومُ صالحٍ له: لقد كنَّا نرجو أن تكونَ فينا صاحبَ مكانةٍ، سيِّدًا مُطاعًا قبل هذا القَولِ الذي قُلتَه لنا، أتَنهانا أن نعبُدَ الآلهةَ التي كان يعبُدُها آباؤنا؟ وإنَّنا لفي شكٍّ مُريبٍ مِن دعوتِك لنا إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، فقال لهم: يا قومِ أخبِروني إن كنتُ على برهانٍ مِن اللهِ، وآتاني منه النبوَّةَ والحِكمةَ؛ فمَن الذي يدفَعُ عني عِقابَ اللهِ تعالى لو استجبتُ لكم وعصيتُه؛ فلم أبلِّغِ الرِّسالةَ، وأنصحْ لكم؟ فما تزيدونَني غيرَ تَضليلٍ، وإبعادٍ عن الخيرِ، ويا قومِ هذه ناقةُ اللهِ جعَلَها لكم حُجَّةً وعلامةً تدُلُّ على صِدقي فيما أدعوكم إليه، فاترُكوها تأكُلْ في أرضِ الله؛ فليس عليكم رِزقُها، ولا تمَسُّوها بسُوءٍ من عَقرٍ أو غيرِه؛ فإنَّكم إن فعلتُم ذلك يأخُذْكم من اللهِ عذابٌ قريبٌ مِن وَقتِ إيذائِكم للنَّاقة، فكذَّبوه ونَحَروا النَّاقةَ، فقال لهم صالحٌ: استمتِعوا بحياتِكم في بلَدِكم ثلاثةَ أيَّامٍ؛ فإنَّ العذابَ نازِلٌ بكم بعدَها، وذلك وَعْدٌ مِن الله غيرُ مَكذوبٍ، لا بدَّ مِن وقوعِه.

فلمَّا جاء أمرُنا بهلاكِ ثمودَ نَجَّينا صالحًا والذين آمَنوا معه من الهلاكِ برَحمةٍ مِنَّا، ونجَّيناهم مِن هوانِ ذلك اليوم وذِلَّتِه، إنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- هو القَويُّ العزيزُ، وأخذَتِ الصَّيحةُ القويَّةُ ثَمودَ الظَّالمينَ، فأصبحوا في ديارِهم موتى ساقطينَ

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

على وُجوهِهم، كأنَّهم في سرعةِ زَوالِهم وفنائِهم لم يَعيشوا فيها، ألا إنَّ ثَمودَ كفروا بربهم وجَحَدوا بآياتِه وحُجَجِه، ألا بُعْدًا لثمودَ وطردًا لهم مِن رَحمةِ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا انقَضَت قِصَّةُ عادٍ على ما أراد سُبحانه، أتبَعَها قِصَّةَ من كانوا عَقِبَهم في الزَّمَنِ، ومِثلَهم في سُكنَى أرضِ العَرَبِ، وعبادةِ الأوثانِ[1].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾.

أي: وأرسَلْنا إلى قبيلةِ ثَمودَ أخاهم في النَّسَبِ صالِحًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

أي: قال لهم: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم معبودٌ يستَحِقُّ العبادةَ غيرُ اللهِ، فلا تُشرِكوا به شيئًا[3].

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

أي: اللهُ هو الذي ابتدأَ خَلْقَكم من الأرضِ بخَلقِ أبيكم آدَمَ منها، وجعَلَكم

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

قال ابن كثير: (كانوا يسكُنونَ مدائِنَ الحِجرِ بين تبوكَ والمدينةِ، وكانوا بعد عادٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٢، ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

تسكُنونَها وتَعمُرونَها وتستغِلُّون خيراتِها[١].

﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾.

أي: فاطلُبوا من اللهِ سَترَ ذُنوبِكم الماضِيةِ، والتَّجاوُزَ عن مؤاخَذتِكم بها، ثمَّ توبوا إلى اللهِ توبةً نَصوحًا فيما تستَقبِلونَه، بالرُّجوعِ إلى عبادتِه وَحدَه وطاعتِه[٢].

﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾.

أي: إنَّ رَبِّي قريبٌ ممَّن أطاعَه مخلِصًا له، وتابَ إليه، مُجيبٌ له إذا دعاه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾.

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾.

أي: قال قومُ صالحٍ عليه السلامُ له: يا صالِحُ قد كنَّا نرجو فيك الخيرَ، وكَمالَ العقلِ، ونُؤمِّلُ أن تكونَ فينا سيِّدًا قبل هذا القولِ الذي تدَّعي فيه النبُوَّةَ، وتَدعُونا إلى تَركِ عِبادةِ غيرِ الله[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٠).

﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

أي: أتنهانا- يا صالِحُ- أن نعبُدَ الأصنامَ التي كان يعبُدُها أسلافُنا[١]؟!

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

أي: وإنَّنا لفي شكٍّ كبيرٍ مِن صِحَّةِ ما تدعُونا إليه مِن توحيدِ اللهِ، شَكًّا يُوجِب تُهمَتَك[٢].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾.

أي: قال صالحٌ عليه الصلاةُ والسلامُ: يا قومِ أخبِروني إن كنتُ على بُرهانٍ من اللهِ قد عَلِمتُه وأيقَنتُه، ورَزَقني مِن عندِه النبوَّةَ والرِّسالةَ رَحمةً للخلقِ[٣].

﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾.

أي: فمَن يمنَعُني من عذابِ اللهِ إنْ عصيتُه، فتَرَكتُ دَعْوتَكم للحقِّ، وعبادةِ اللهِ وَحدَه، بعد أنْ أنعَمَ عليَّ بالنُّبوَّةِ[٤]؟!

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢).

أي: لو تابعتُكم فتَرَكتُ تبليغَكم رِسالةَ اللهِ وعبادتَه وَحدَه، فلن تَزيدوني غيرَ الخَسارةِ والضَّرَرِ والتَّضليلِ، والإبعادِ مِن الخَيرِ[١].

﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ العادةَ فيمن يدَّعي النبوَّةَ عند قومٍ يَعبُدونَ الأصنامَ أن يبتدئَ بالدَّعوةِ إلى عبادةِ اللهِ، ثمَّ يُتبِعَه بدَعوَى النبوَّةِ، لا بدَّ أن يَطلُبوا منه المعجزةَ، وأمرُ صالحٍ عليه السَّلامُ هكذا كان[٢].

﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ ﴾.

أي: ويا قَومِ هذه ناقةُ اللهِ حُجَّةً وعلامةً ودَلالةً لكم على صِدقِ نبوَّتي، وصِحَّةِ ما أدعوكم إليه[٣].

﴿ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: فاترُكوا هذه النَّاقةَ تأكُلْ ممَّا شاءت في أرضِ اللهِ؛ فليس عليكم رِزقُها ولا مُؤنَتُها[٤].

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٥)، ((السراج المنير)) للشربيني (٢/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

أي: ولا تَنالوا النَّاقةَ بشَيءٍ مِن الأذى -مِن عَقرٍ أو غيرِه- فيُصيبَكم كلَّكم عذابٌ قريبُ النُّزولِ، عَاجِلٌ لَا يَتَأَخَّرُ عن إيذائِكم للنَّاقةِ[١].

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾.

أي: فقتل الكُفَّارُ النَّاقةَ، فقال لهم نبيُّهم صالحٌ: استمتِعوا بالحياةِ والعَيشِ في دارِكم[٢] ثلاثةَ أيَّامٍ قبل نزولِ العذابِ بكم[٣].

﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾.

أي: نُزولُ العَذابِ بكم بعدَ ثلاثةِ أيَّامٍ وعدٌ صادِقٌ، لا بدَّ مِن وُقوعِه[٤].

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ﴾.

أي: فلمَّا جاء عذابُنا نجَّينا صالحًا والمؤمنينَ معه بنعمةٍ وفَضلٍ منَّا عليهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٠٣).

(٢) قيل: المرادُ: في دارِ الدُّنيا. وممن اختاره: ابنُ جريرٍ: يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٦).
وقيل: المرادُ: في بلَدِكم. وممن اختاره: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٣).
وقيل: في منازِلِكم. وممن اختاره: الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

ونجَّيناهم من هوانِ ذلك اليومِ وذُلِّ عذابِه الذي أصاب الكافرينَ[١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

أي: إنَّ رَبَّك- يا مُحمَّدُ- هو القويُّ في بَطشِه، القادِرُ على إنجاءِ المُؤمِنينَ، وإهلاكِ الكافرينَ، العزيزُ القاهِرُ الذي لا يَغلِبُه شَيءٌ[٢].

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بيَّن تعالى إيقاعَه بأعدائِه بعد إنجائِه لأوليائِه، فقال[٣]:

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾.

أي: وأصاب الذين ظَلموا أنفُسَهم بالكُفرِ، وعَقرِ النَّاقةِ، الصيحةُ العَظيمةُ[٤].

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

أي: فصار الكُفَّارُ في ديارِهم ساقطينَ على ركبِهم ووُجوهِهم، موتَى خامِدينَ[٥].

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٢)، (٩/ ٦٢).

أي: كأنَّ الكفَّارَ لَمَّا جاءهم العذابُ لم يعيشُوا في ديارِهم، ولم يتمتَّعوا فيها[١].

ثمَّ نبَّه على ما استحَقُّوا به ذلك بقَولِه[٢]:

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾.

أي: ألَا إنَّ ثمودَ- قومَ صالحٍ- كفروا بربِّهم، وجَحَدوا وحدانيتَه، وكَفَروا بآياتِه[٣].

﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾.

أي: ألا أبعدَ اللهُ ثمودَ عن كلِّ خَيرٍ وأهلَكَهم[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ يدُلُّ على أنَّ اللهَ يُريدُ عِمارةَ الأرضِ، لا التخلِّيَ والتبتُّلَ[٥].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ دَلالةٌ على أنَّ قُربَه سُبحانه مَقرونٌ بالتَّوبةِ والاستغفارِ، وأراد به: قريبٌ مُجيْبٌ لاستغفارِ المُستَغفرينَ التَّائبينَ إليه، وقد قُرِنَ القريبُ بالمُجيبِ؛ ومعلومٌ أنَّه لا يُقالُ: إنه مُجيْبٌ لكلِّ موجودٍ، وإنَّما الإجابةُ لِمَن سألَه ودعاه؛ فكذلك قُربُه سُبحانه وتعالى[٦]، فهو سبحانه قريبٌ ممَّن دعاه دعاءَ مَسألةٍ، أو دعاءَ عبادةٍ، يُجيبُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٦٠)، ((السراج المنير)) للشربيني (٢/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ٦٦٧).

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٩٣).

بإعطائِه سُؤلَه، وقَبولِ عِبادتِه، وإثابتِه عليها أجلَّ الثَّوابِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قربُ الله تعالى نوعانِ: عامٌّ، وخاصٌّ، فالقربُ العامُّ: قربُه بعلمِه مِن جميعِ الخلقِ، والقربُ الخاصُّ: قربُه مِن عابديه، وسائليه، ومحبِّيه، وهو المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، وفي قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ وهذا النوعُ قربٌ يقتضي إلطافَه تعالى، وإجابتَه لدعواتِهم، وتحقيقَه لمراداتِهم، ولهذا يقرنُ باسمِه (القريبِ) اسمَه (المجيبَ)[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ نُسِبَ إلى جميعِهم -وإن كان العاقِرُ واحدًا- لأنَّه كان برِضًا منهم وتَمالُؤٍ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ عبَّر عن الحياةِ بالتمتعِ؛ لأنَّ التمتُّع لا يحصُلُ إلَّا للحَيِّ، فالحيُّ يكونُ متمتعًا بالحواسِّ[٤].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ استُدِلَّ به في إمهالِ الخَصمِ ونَحوِه ثلاثةً، وفيه دليلٌ على أنَّ للثَّلاثةِ نَظرًا في الشَّرعِ؛ ولهذا شُرِعَت في الخِيارِ ونَحوِه[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ بيَّن أنَّ إحسانَه سُبحانَه لا يكونُ إلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٩)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٩).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥١).

فَضلًا منه[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ مُتعلِّقُ ﴿نَجَّيْنَا﴾ مَحذوفٌ، وعُطِف ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ على مُتعلِّقِ ﴿نَجَّيْنَا﴾ المحذوفِ، أي: نجَّينا صالِحًا عليه السَّلامُ ومَن معَه مِن عذابِ الاستئصالِ، ومِن الخزْيِ المكيَّفِ به العذابُ؛ فإنَّ العذابَ يكونُ على كَيفيَّاتٍ، بعضُها أخزَى مِن بعضٍ؛ فالمقصودُ مِن العطفِ عطفُ مِنَّةٍ على مِنَّةٍ، لا عطْفُ إنجاءٍ على إنجاءٍ؛ ولذلك عطَفَ المتعلِّقَ، ولم يَعطِفِ الفِعلَ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ في موضِعِ التَّعليلِ للأمْرِ بعبادةِ اللهِ، ونَفْيِ إلهيَّةِ غيرِه في قولِه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، وكأنَّهم كانوا مِثْلَ مُشرِكي قُريشٍ، لا يَدَّعُون لأصنامِهم خَلْقًا ولا رِزْقًا؛ فلذلك كانت الحُجَّةُ عليهم ناهِضةً واضحةً[٣].

- وَفَرَّعَ على التَّذْكيرِ بهذه النِّعَمِ أَمْرَهم باستغفارِه وَالتَّوْبَةِ إليه، أَيْ طَلَبِ مغْفرَة إجرامِهم، والإقلاعِ عمَّا لا يرضاه مِنَ الشِّركِ والفسادِ. ومِن تفنُّنِ الأسلوبِ أنْ جُعلت هذه النعم علةً لأمرِهم بعبادةِ اللَّهِ وَحْدَه بطريقِ جملةِ التَّعليلِ، وَجُعِلَتْ عِلَّةً أيضًا للأمرِ بالاستغفارِ والتَّوبةِ بطريقِ التَّفْريعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٠٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٠٨).

- وجعَلَ الخبَرينِ عن الضَّميرِ ﴿هُوَ﴾ فِعْلَين (أَنْشَأَكُمْ- اسْتَعْمَرَكُمْ)؛ لإفادةِ القَصْرِ، أي: لم يُنشِئْكم مِن الأرضِ إلَّا هو، ولم يَستعمِرْكم فيها غيرُه[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّهم استَعظَموا أن يَكونَ جُرْمُهم ممَّا يَقبَلُ الاستغفارَ عنه، فأُجيبوا بأنَّ اللهَ قريبٌ مُجيبٌ، وبذلك ظهَر أنَّ الجملةَ ليسَت بتَعليلٍ، وحرفُ (إنَّ) فيها للتَّأكيدِ؛ تَنْزيلًا لهم في تَعْظيمِ جُرمِهم منزِلةَ مَن يَشُكُّ في قَبولِ استغفارِه[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ فيه افتتاحُ الكلامِ بالنِّداءِ؛ لِقَصْدِ التَّوبيخِ، وهو مُستَفادٌ مِن قولِهم: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾؛ فإنَّه تَعريضٌ بخَيبةِ رَجائِهم فيه؛ فهو تَعْنيفٌ، وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿مَرْجُوًّا﴾ لِدَلالةِ فِعْلِ الرَّجاءِ على أنَّه ترقُّبُ الخيرِ، أي: مرجُوًّا للخيرِ[٣].

- وجملةُ ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ بيانٌ لجُملَةِ ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ باعتِبارِ دَلالتِها على التَّعنيفِ، والاستفهامُ فيها: للإنكارِ والتَّوبيخِ[٤].

- قولُهم: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فيه العُدولُ إلى صيغةِ المضارِعِ ﴿يَعْبُدُ﴾ لحِكايةِ الحالِ الماضيةِ، كأنَّ آباءَهم مَوجودُونَ؛ فلا تُمكِنُ مُخالفتُهم؛ إجلالًا لهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٠٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) .
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١١٠).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢١).

- وفي قولِهم: ﴿مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ عَبَّروا عن أصنامِهم بالموصولِ ﴿مَا﴾؛ لِمَا في الصِّلَةِ ﴿يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ مِن الدَّلالةِ على استِحْقاقِ تلك الأصنامِ أن يَعبُدوها في زَعْمِهم اقتِداءً بآبائِهم؛ لأنَّهم أُسْوةٌ لهم، وذلك مِمَّا يَزيدُ الإنكارَ اتِّجاهًا في اعتِقادِهم[1].

- وجملةُ ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ﴾ تُفيدُ شَكَّهم في صِدْقِ أنَّه مُرسَلٌ إليهم، ولتأكيد ذلك زِيدَ حرف التَّأكيدِ (إنَّ) مع إثباتِ نونِ (إنَّ) مع نونِ ضَميرِ الجمعِ؛ زِيادةَ إظهارٍ لحَرْفِ التَّوكيدِ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا في قِصَّةِ صالِحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾، وقال في سورةِ (إبراهيمَ) عليه السَّلامُ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ [إبراهيم: ٩]. فقال في الأُولى: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ﴾ على الأصلِ، و﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ﴾ بنونٍ واحدةٍ، وقال في الثَّانيةِ: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ﴾ على التَّخفيفِ، بحذفِ إحدى النُّوناتِ وهي المتوسِّطةُ، ثمَّ جاء بعْدَه: ﴿تَدۡعُونَنَآ﴾ بنونَينِ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ ﴿تَدۡعُونَآ﴾ في الأولى و﴿تَدۡعُونَنَآ﴾ في الثَّانيةِ لا يَصِحُّ مَكانَهما غَيرُهما؛ فلا يَجوزُ في الأولى إلَّا (نونٌ) واحدةٌ ولا يَجوزُ في الثَّانيةِ إلَّا (نونانِ) اثنَتانِ؛ لأنَّ الأولى خِطابٌ لصالِحٍ عليه السَّلامُ، و(النُّونُ) معَ (الألِفِ) ضَميرُ المتكلِّم، و(تَدْعو) فِعْلٌ واحدٌ، لا (نونَ) فيه، وليس كذلك ﴿تَدۡعُونَنَآ﴾ الثَّانيةُ؛ لأنَّه خطابٌ للرُّسلِ وهم جَماعةٌ، ولا يُقالُ لهم في حالِ الجمعِ إلَّا ﴿تَدۡعُونَنَآ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عِندَ الرَّفْعِ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي...﴾ جوابٌ عن كَلامِهم؛ فلِذلك لَم تُعطَفْ جملةُ ﴿قَالَ﴾، وهو الشَّأنُ في حكايةِ المُحاوَراتِ، وابتداءُ الجوابِ بالنِّداءِ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾؛ لِقَصدِ التَّنبيهِ إلى ما سيَقولُه اهتِمامًا بشأنِه[٢].

- وفي قولِه: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ صَدَّر كلامَه بالحرْفِ المفيدِ للشَّكِّ ﴿إِن﴾ مع أنَّ هذه الأمورَ محقَّقةُ الوُقوعِ؛ اعتبارًا لحالِ المخاطَبين، ورِعايةً لِحُسنِ المحاوَرةِ؛ لاستِنْزالِهم عن المُكابَرةِ[٣]، فخِطابُ المُخالِفِ على هذا الوَجهِ أقرَبُ إلى القَبولِ[٤].

- قولُه: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ فيه العدولُ إلى الإظهارِ في موضِعِ الإضمارِ -حيث لَم يَقُلْ: (فمَنْ يَنصُرُني مِنه)-؛ لِزيادةِ التَّهويلِ، والفاءُ لِتَرتيبِ إنكارِ النُّصرةِ على ما سبَق مِن إيتاءِ النُّبوَّةِ، وكونِه على بيِّنَةٍ مِن رَبِّه على تقديرِ العِصْيانِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قدَّم الجارَّ والمجرورَ ﴿مِنۡهُ﴾ على المفعولِ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ هنا، بينَما تأخَّر ﴿مِنْ عِنْدِهِ﴾ عن ﴿رَحۡمَةٗ﴾

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٦٠-٧٦٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢١).

في قصَّةِ نوحٍ السَّابقةِ، ووجهُ ذلك: أنَّ ذلك معَ ما فيه مِن التَّفنُّنِ بعدَمِ الْتِزامِ طريقةٍ واحدةٍ في إعادةِ الكلامِ المتماثِلِ، هو أيضًا أسعَدُ بالبيانِ في وُضوحِ الدَّلالةِ، ودَفْعِ اللَّبْسِ؛ فلمَّا كان مجرورُ (مِن) الابتدائيَّةِ ظرْفًا وهو (عِنْدَ) كان صَريحًا في وصْفِ الرَّحمةِ بصِفَةٍ تَدُلُّ على الاعتناءِ الرَّبَّانيِّ بها وبمَن أُوتِيَها، ولَمَّا كان المجرورُ هنا ضميرَ الجلالةِ كان الأحسَنُ أن يقَعَ عَقِبَ فِعْلَ ﴿آتَانِي﴾ لِيَكونَ تَقْييدُ الإيتاءِ بأنَّه مِن اللهِ مُشيرًا إلى إيتاءٍ خاصٍّ ذي عِنايةٍ بالمؤتَى؛ إذ لولا ذلك لكان كونُه مِن اللهِ تَحصيلًا لِما أُفيدَ مِن إسنادِ الإيتاءِ إليه؛ فتَعيَّن أن يَكونَ المرادُ إيتاءً خاصًّا، ولو أُوقِعَ منه عَقِبَ ﴿رَحْمَةً﴾ لتَوهَّم السَّامعُ أنَّ ذلك عِوَضٌ عن الإضافةِ، أي: عن أن يُقالَ: وآتاني رَحمتَه، كقولِه: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: ٢١]، أي: ورَحمتَنا لهم، أي: لِنَعِظَهم ونَرحَمَهم[(١)].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ الإضافةُ في ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ للتَّشريفِ، والتَّنبيهِ على أنَّها مُفارِقةٌ لِسائرِ ما يُجانِسُها من حيث الخِلْقةُ، ومِن حيثُ الطبعُ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ فيه المبالغةُ في النَّهيِ عن التَّعرُّضِ لها بما يَضُرُّها؛ حيث نَهى عن المسِّ الَّذي هو مِن مَبادِئِ الإصابةِ، ونَكَّر السُّوءَ؛ أي: لا تَضْربوها ولا تَطرُدوها، ولا تَقْرَبوها بشَيءٍ مِن السُّوءِ، فَضلًا عن عَقْرِها وقَتْلِها[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ فيه التَّعبيرُ عن ثَمودَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ للإيماءِ بالموصولِ إلى عِلَّةِ تَرتُّبِ الحُكمِ، أي: لِظُلمِهم، وهو ظلمُ الشِّركِ، وفيه تعريضٌ بمُشركي أهْلِ مكَّةِ بالتَّحذيرِ مِن أن يُصيبَهم مِثلُ ما أصاب أولئك؛ لأنَّهم ظالِمون أيضًا[1].

- وقولُه: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ﴾ وُضِعَ موضِعَ الضَّميرِ لزيادةِ البيانِ[2].

- قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ فيه التَّصريحُ بكُفْرِهم مع كَونِه مَعلومًا ممَّا سبَق مِن أحوالِهم؛ تَقْبيحًا لحالِهم، وتَعليلًا لاستِحْقاقِهم بالدُّعاءِ عليهم بالبُعْدِ والهلاكِ[3].

- وفيه مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال تعالى هنا في قصَّةِ صالِحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، وقال في هذه السُّورةِ في قصَّةِ شُعيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]؛ فاختَلَف الفِعْلان في اتِّصالِ عَلامةِ التَّأنيثِ بأحَدِهما، وسُقوطِها مِن الآخَرِ، مع أنَّ الفاعِلَ في الموضِعَين شيءٌ واحدٌ، وهو ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ مع أنَّ الحاجِزَ بين الفعلِ والفاعلِ في المكانَينِ حاجِزٌ واحدٌ، وهو ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، وهذا إذا جاء في كلامِ العرَبِ سَهُلَ الكلامُ فيه؛ لأنَّه يُقالُ: حُمِل على المعنى، والصَّيحةُ بمعنى الصِّياحِ، إلَّا أنَّ تَخْصيصَ قصَّةِ شُعيبٍ بـ ﴿أَخَذَتِ﴾ إنَّما هو لفائدةٍ ليستْ في قِصَّةِ صالِحٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عليه السَّلامُ، وهي: أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ عن العذابِ الَّذي أهلَكَ به قومَ شُعيبٍ عليه السَّلامُ بثلاثةِ ألفاظٍ: مِنها (الرَّجْفةُ) في سورةِ الأعرافِ في قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ * ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٠ - ٩٢]، وذكَر ذلك قبْلَه في مكانٍ آخَرَ، ومنها (الصَّيحةُ) في سورةِ (هودٍ) في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]، ومنها (الظُّلَّةُ) في سورةِ الشُّعراءِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]؛ فلمَّا اجتمَعَتْ ثلاثةُ أشياءَ مُؤنَّثةِ الألفاظِ في العبارةِ عن العَذابِ الَّذي أُهلِكوا به، غُلِّب التَّأنيثُ في هذا المكانِ على المكانِ الَّذي لم تتَوالَ فيه هذه المؤنَّثاتُ؛ فلذلك جاء في قِصَّةِ شُعَيبٍ: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾[1] [هود: ٩٤]. وقيل: وجهُ ذلك أنَّ التَّذكيرَ والتَّأنيثَ حَسَنانِ، لكنَّ التَّذكيرَ أخفُّ في ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ بحذْفِ حرفٍ منه، وفي الأُخرَى ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [هود: ٩٤]، حيث وافَقَ ما بَعْدَها، وهو ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[2] [هود: ٩٥].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٦٤-٧٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (٢٦٨-٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤٦).

الآيات (٦٩-٧٦)

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَنِيذٍ﴾: أي: مَشويٍّ، وأصلُ (حنذ): يدلُّ على إنضاجِ شَيءٍ[١].

﴿نَكِرَهُمْ﴾: أي: أنكَرَهم، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرفةِ[٢].

﴿بَعْلِى﴾: بَعْل المرأةِ زَوجُها[٣].

﴿ٱلرَّوْعُ﴾: أي: الفَزَعُ والخَوفُ، وأصلُ (روع): يدلُّ على فَزَعٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم

﴿أَوَّٰهٌ﴾: أي: كثيرُ التضَرُّعِ والتأوُّهِ شَفَقًا وفَرَقًا، وأصلُها يدُلُّ على التحَزُّنِ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾

﴿سَلَٰمًا﴾: مفعولٌ به منصوبٌ بـ ﴿قَالُواْ﴾، أو مفعولٌ مُطلَقٌ لفِعلٍ مَحذوفٍ تقديرُه: نُسَلِّمُ، وذلك الفِعلُ في محلِّ نصبٍ بالقَوْلِ، تقديرُه: قالوا: نُسَلِّمُ سلامًا. ﴿سَلَٰمٞ﴾: مبتدأٌ وخبَرُه محذوفٌ، أي: سلامٌ عليكم. أو خبَرُ مبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: أمري أو قَولي سلامٌ.

﴿أَن جَآءَ﴾: في محلِّ نَصبٍ أو جرٍّ على نَزعِ الخافِضِ، تقديرُه: فما تأخَّرَ إبراهيمُ عن أن جاء. وقيل: في محَلِّ رفعٍ فاعِلُ ﴿لَبِثَ﴾ والتَّقديرُ: فما لَبِثَ مجيئُه، أي: ما أبطأَ ولا تأخَّرَ مجيئُه بعِجلٍ[٢].

المعنَى الإجماليُّ:

يُخبرُ اللهُ تعالى أنَّه قد جاءت الملائكةُ إبراهيمَ يُبَشِّرونَه هو وزوجَه سارَة بإسحاقَ، ويعقوبَ مِن بَعدِه، قالوا: سلامًا، فقال ردًّا على تحيَّتِهم: سلامٌ، فذهبَ سريعًا، وجاءَهم بعِجلٍ مَشويٍّ ليأكلوا منه، فلمَّا رأى إبراهيمُ عليه السَّلامُ أيديَهم لا تَصِل إلى العِجلِ الذي أتاهم به، ولا يأكلونَ منه، أنكرَ ذلك منهم، وأحسَّ في نفسِه خيفةً وأضمَرَها، فقالت الملائكةُ لَمَّا رأت ما بإبراهيمَ مِن الخَوفِ: لا تَخَفْ؛ إنَّا ملائكةُ رَبِّك أُرسِلْنا إلى قومِ لُوطٍ لإهلاكِهم، وامرأةُ إبراهيمَ سارَّةُ كانت

(ص: ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢، ٤٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٦٨- ٣٦٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٠٥-٧٠٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٥١-٣٥٣).

قائمةً مِن وراءِ السِّترِ تَسمعُ الكلامَ، فضَحِكَت تعجُّبًا ممَّا سَمِعَت، فبَشَّرْناها على ألسِنةِ الملائكةِ بأنَّها ستلِدُ مِن زوجِها إبراهيمَ ولدًا يُسمَّى إسحاقَ، وسيعيشُ ولَدُها، وسيكونُ لها بعد إسحاقَ حفيدٌ منه، وهو يعقوبُ، عليهم السَّلامُ.

قالت سارَةُ لَمَّا بُشِّرَت بإسحاقَ مُتعجِّبةً: يا ويلتا، كيف يكونُ لي ولدٌ وأنا عجوزٌ، وهذا زوجي في حالِ الشَّيخوخةِ والكِبَرِ؟! إنَّ إنجابَ الولَدِ مِن مِثلي ومِثلِ زَوجي مع كِبَرِ السِّنِّ لَشيءٌ عجيبٌ، فقالت الرسُلُ لها: أتعجَبينَ مِن أمرِ الله وقضائِه؟ رحمةُ اللهِ وبَركاتُه عليكم معشرَ أهلِ بيتِ النبُوَّةِ؛ إنَّه سبحانه وتعالى حميدُ الصِّفاتِ والأفعالِ، ذو مَجدٍ وعظمةٍ فيها. فلمَّا ذهب عن إبراهيمَ الخَوفُ، وجاءته البُشرى بإسحاقَ ويعقوبَ؛ أخذ يجادِلُ رُسُلَنا فيما أرسَلْناهم به من عقابِ قَومِ لوطٍ وإهلاكِهم؛ إنَّ إبراهيمَ كثيرُ الحِلمِ لا يحِبُّ المُعاجَلة بالعِقابِ، كثيرُ التضَرُّعِ إلى اللهِ والدُّعاءِ له، رجَّاعٌ إلى اللهِ في أمورِه كُلِّها. فقالت الملائكةُ لإبراهيمَ عليه السَّلامُ: يا إبراهيمُ أعرِضْ عن هذا الجِدالِ في أمرِ قَومِ لوطٍ، والتِماسِ الرَّحمةِ لهم؛ فإنه قد حَقَّ عليهم العذابُ، وجاء أمرُ رَبِّك الذي قدَّرَه عليهم بهلاكِهم، وإنَّهم نازِلٌ بهم عذابٌ مِن اللهِ، غيرُ مصروفٍ عنهم ولا مَدفوعٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا انقَضَت القِصَّةُ السَّابقةُ على هذا الوجهِ الرَّائعِ، أتبَعَها قصةَ لوطٍ عليه السَّلامُ؛ إذ كانت أشهرَ الوقائعِ بعدَها، وقَدَّمَ عليها ما يتعلَّقُ بها مِن أمرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وذِكرِ بُشْراه؛ لِما في ذلك كلِّه مِن التَّنبيهِ لِمن تعنَّتَ بطَلبِ إنزالِ الملائكةِ في قَولِهم: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]، هذا مع ما في ذلك مِن

مُناسبةِ أمرِ هذا الولَدِ لأمرِ النَّاقةِ، في تكوينِ كُلٍّ منهما بخارِقٍ للعادةِ؛ إشارةً إلى تمامِ القُدرةِ وكَمالِ العِلمِ المبنيِّ عليه أمرُ السُّورةِ في إحكامِ الكِتابِ وتَفصيلِه، وتَناسُب جِدالَي نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السَّلامُ؛ فكلٌّ منهما كان مُشفِقًا على الكافرينَ، يرجو نجاتَهم من العذابِ[١].

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾.

أي: ولقد جاءت رسُلُنا مِن الملائكةِ نبيَّنا إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالبِشارةِ بالولَدِ[٢].

﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾.

أي: سلَّمَ الملائكةُ على إبراهيمَ سَلامًا، فقال إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لهم: سلامٌ عليكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤- ٢٥].

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾.

أي: فما تأخَّرَ إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن المجيءِ مِن بَيتِه بعِجلٍ مَشويٍّ لضُيوفِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٥، ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣).

كما قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۞ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦- ٢٧].

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾.

أي: فلمَّا رأى إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أيديَ ضُيوفِه لا تصِلُ إلى العِجلِ المشويِّ الذي أتاهم به، أنكَرَهم، وأضمرَ في نَفسِه خوفًا منهم[1].

﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾.

أي: قالت الملائكةُ لإبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: لا تخَفْ منَّا؛ فإنَّا ملائِكةٌ أرسَلَنا اللهُ إلى قومِ لوطٍ لإهلاكِهم بالعذابِ[2].

كما قال تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الذاريات: ٢٨].

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٠، ٤٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٧١، ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

أي: وامرأةُ إبراهيمَ قائمةٌ[١] فضَحِكَت[٢].

﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

أي: فبشَّرنا امرأةَ إبراهيمَ بإسحاقَ ابنًا لها، ووَهْبنا لها مِن بعدِ إسحاقَ يعقوبَ ابنًا لابنِها[٣].

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾.

أي: قالت امرأةُ إبراهيمَ متَعَجِّبةً: يا ويلتَى[٤] أيكونُ لي ولدٌ، وأنا عجوزٌ لا يلِدُ

---

(١) قال ابن جرير: (﴿قَآئِمَةٌ﴾ قيل: كانت قائمةً من وراءِ السِّترِ تستمعُ كلامَ الرسُلِ، وكلامَ إبراهيمَ عليه السَّلام. وقيل: كانت قائمةً تخدُم الرسُلَ، وإبراهيمُ جالسٌ مع الرُّسُل). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٢، ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

قيل: ضَحِكَت تعجُّبًا من غَفلةِ قَومِ لُوطٍ عمَّا قد أحاط بهم من عذابِ الله. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٨).

وممن قال بهذا القول من السلف قتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٤).

وقيل: ضَحِكَت استبشارًا بهلاكِ قومِ لوطٍ؛ لكثرة فسادِهم، وغِلظِ كُفرِهم وعنادِهم. وممَّن اختار ذلك: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٣). وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٨٦، ٣٨٧).

وقال ابنُ جزي: (واختلفوا مِن أيِّ شيءٍ ضحِكت، فقيل: سرورًا بالولدِ الذي بُشِّرت به، ففي الكلامِ على هذا تقديمٌ وتأخيرٌ، وقيل: سرورًا بالأمنِ بعدَ الخوفِ، وقيل: سرورًا بهلاكِ قومِ لوطٍ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٤).

(٤) قال ابنُ جريرٍ: (هي كلِمةٌ تقولُها العربُ عندَ التعجُّبِ مِن الشيءِ، والاستنكارِ للشَّيءِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٤).

مثلي، وهذا زوجي إبراهيمُ شَيخًا كبيرًا، لا يُولَدُ لِمثلِه[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۞ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٩- ٣٠].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

أي: قالت امرأةُ إبراهيمَ: إنَّ ولادتي وأنا وزوجي على السِّنِّ التي نحن بها، لشيءٌ غريبٌ، لم تجرِ به العادةُ[٢]!

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

أي: قالت الملائكةُ لها: أتعجَبينَ مِن شَيءٍ قضاه الله بمشيئَتِه وقُدرتِه[٣]؟!

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

أي: رَحمةُ اللهِ وإحسانه وخَيراتُه النَّامِيةُ المُتكاثِرةُ عليكم يا أهلَ بيتِ إبراهيمَ عليه السلامُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٣ - ٤٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

قال ابن عطية: (يحتمِلُ اللَّفظُ أن يكونَ دُعاءً، وأن يكونَ إخبارًا، وكونُه إخبارًا أشرفُ؛ لأنَّ ذلك يقتضي حصولَ الرَّحمةِ والبَرَكةِ لهم، وكونُه دعاءً إنَّما يقتضي أنَّه أمرٌ يُترجَّى، ولم يتحَصَّلْ

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ محمودٌ في جميعِ صِفاتِه وأفعالِه وأقوالِه، ذو عَظَمةٍ وسَعةٍ في صفاتِ كمالِه[١].

عن أبي حُمَيد السَّاعديِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّهم قالوا: ((يا رسولَ اللهِ كيف نصلِّي عليك؟ فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وأزواجِه وذرِّيَّتِه، كما صلَّيتَ على آلِ إبراهيمَ، وبارِكْ على محمَّدٍ وأزواجِه وذرِّيَّتِه، كما باركتَ على آلِ إبراهيمَ؛ إنَّك حميدٌ مَجيدٌ))[٢].

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾.

أي: فلمَّا زال عن إبراهيمَ الخَوفُ مِن رُسُلِنا حين لم يأكُلوا، وجاءَتْه البُشرى منهم بإسحاقَ فطابت نفسُه، وأعلَموه بهلاكِ قَومِ لوطٍ- أخذ يحاجِجُ الملائكةَ في إهلاكِ قَومِ لوطٍ[٣].

بعدُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٦٩)، واللفظ له، ومسلم (٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٦، ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

قال الواحدي: (معنى ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ يجادِلُ رسُلَنا من الملائكةِ، في قولِ جميع المفسرين). ((البسيط)) (١١/ ٤٩٠).

وقال القرطبي: (﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ أي: يجادِلُ رُسُلَنا، وأضافه إلى نفسِه تعالى؛ لأنَّهم نزلوا بأمرِه). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٢).

وقال الشنقيطي: (حاصِلُ جِدالِه لهم أنَّه يقولُ: إن أهلكتُم القريةَ وفيها أحدٌ من المؤمنينَ، أهلكتُم ذلك المؤمِنَ بغير ذنبٍ، فأجابوه عن هذا بقولِهم: نحن أعلمُ بمَن فيها). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٨٧).

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۞ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١- ٣٢].

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: إنَّ إبراهيمَ لبطيءُ الغضَبِ، واسِعُ الصَّدرِ، متذلِّلٌ إلى ربِّه، كثيرُ التضَرُّعِ إليه بالدُّعاءِ، رجَّاعٌ إلى اللهِ بطاعتِه ومَعرفتِه ومحبَّتِه، ورجَّاعٌ في جميعِ أمورِه إلى اللهِ[1].

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان أكثَرُ مُجادَلةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لِما عِندَه من الشَّفَقةِ على عبادِ اللهِ؛ لِما له مِن هذه الصِّفاتِ الجليلةِ- أعلَمَه اللهُ أنَّ الأمرَ قد حُسِم؛ بقَولِه حكايةً على لسانِ الرُّسُلِ[2]:

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾.

أي: قالت الملائِكةُ لإبراهيمَ: يا إبراهيمُ، اترُكِ الجِدالَ في أمرِ قَومِ لوطٍ[3].

﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤، ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٣٣-٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٣).

أي: إنَّه قد أتى أمرُ رَبِّك بهلاكِ قَومِ لوطٍ، فلا فائدةَ في جِدالِك عنهم[١].

﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

أي: وإنَّ قومَ لوطٍ نازِلٌ بهم عذابٌ غيرُ مَدفوعٍ عنهم، ولا مَصروفٍ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ فيه مشروعيَّةُ الضِّيافةِ والمبادرة إليها، واستحبابُ مبادرةِ الضَّيفِ بالأكلِ منها[٣]. وفيه تَقديمُ ما يتيسَّرُ من الموجودِ في الحالِ، ثمَّ يُتبِعُه بغَيرِه إن كان له جِدَةٌ، ولا يتكَلَّف ما يضُرُّ به[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ وقَولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ دَلالةٌ على استحبابِ بِشارةِ مَن وُلِدَ له وَلَدٌ، وتهنِئتِه[٥].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ فيه أنَّ السَّلامَ قبلَ الكلامِ[٦].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ فيه مشروعيَّةُ السَّلامِ، وأنَّه لم يزَلْ مِن ملَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص:١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٥٢٣).

(٥) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ يدلُّ على أنَّ تحيَّةَ الملائكةِ (السلام)، كتحيَّةِ بني آدمَ[١].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ فيه أنَّ ردَّ السلامِ واجبٌ، وبدأه سنةٌ، وذلك لأنَّ التعبيرَ بالمصدرِ مرفوعًا هو سبيلُ الواجباتِ، والتعبيرُ به منصوبًا هو سبيلُ المندوباتِ؛ فالجملةُ الاسميةُ أثبتُ وآكدُ مِن الجملةِ الفعليةِ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ إنَّما بَشَّروها دونَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ المرأةَ أعجَلُ فَرَحًا بالولَدِ، ولأنَّ إبراهيمَ قد بشَّروه وأمَّنوه مِن خوفِه، فأتبَعوا بِشارتَه ببشارتِها. وفيه وجه آخر: أنَّها خُصَّت بالبِشارةِ؛ حيث لم يكنْ لها ولَدٌ، وكان لإبراهيمَ عليه السَّلامُ ولَدُه إسماعيلُ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ يدلُّ على أنَّ إسماعيلَ هو الذَّبيحُ؛ لأنَّ سارَةَ حين أخدَمَها المَلِكُ الجبَّارُ هاجَرَ أُمَّ إسماعيلَ كانت شابَّةً جميلةً، فاتَّخذَ إبراهيمُ هاجرَ سُرِّيَّةً، فغارت منها سارَةُ، فخرج بها وبابنِها إسماعيلَ مِن الشَّامِ إلى مكَّة، ثمَّ كانت البِشارةُ بإسحاقَ وسارَةُ عجوزٌ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ۞ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ قد

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٥١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٢/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٨٢-١٨٣).

يُستدَلُّ به على جوازِ مُراجعةِ[١] المرأةِ[٢].

٦- في قولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الذَّبيحَ ليس هو إسحاقَ، فكيف يأمرُ بعد ذلك بذَبحِه؛ والبشارةُ بيعقوبَ تقتضي أنَّ إسحاقَ يعيشُ ويُولدُ له يعقوبُ[٣].

٧- في قولِه تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ دلالةٌ على أنَّ الرجُلَ يدخُلُ في أهلِ بيتِه، كما دخل إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قولِ الملائكةِ: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[٤].

٨- قَوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ يُستدلُّ به على جوازِ الدُّعاءِ بالرَّحمةِ للنبيِّ[٥].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ خِطابُ الملائكةِ إيَّاها بقَولِهم: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ دليلٌ على اندراجِ الزَّوجةِ في أهلِ البَيتِ[٦]؛ لأنَّ الملائكةَ خاطبوا سارَةَ بأهلِ البيتِ، وسَمَّوها أهلَ بيتِ إبراهيم، وفي هذا دليلٌ على أنَّ أزواجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ بيتِه؛ تكذيبًا لِمن أنكرَ ذلك، فعائِشةُ رَضِيَ اللهُ عنها وغيرُها مِن جملةِ أهلِ بيتِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ممَّن قال اللهُ فيهم: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٧].

---

(١) والمراجعةُ هنا بمعنى رَدِّ القَولِ ومُعاوَدتِه والمُناظَرةِ فيه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٢٨٢)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٨٢).

(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ١٧٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٤-١٨٥).

(٧) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ فيه تأكيدُ الخبَرِ بحَرْفِ (قَدْ)؛ للاهتِمام به[(١)].

- وقُدِّمَت قِصَّةُ إبراهيمَ؛ لأنَّ الغرَضَ مِن هذه القِصَّةِ الموعظةُ بمَصيرِ قوم لوطٍ؛ إذ عصَوْا رسولَ ربِّهم، فحَلَّ بهم العذابُ، ولم تُغْنِ عنهم مُجادَلَةُ إبراهيمَ، وللتَّنويهِ بمَقامِه عِندَ ربِّه على وجْهِ الإدماجِ؛ ولذلك غيَّر أسلوبَ الحكايةِ في القَصصِ الَّتي قَبْلَها والَّتي بعدَها نحوُ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ ...﴾[(٢)] [هود: ٥٠].

- قولُه: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾، أسنَد إليهم مُطلَقَ المَجيءِ بالبُشْرى دونَ الإرسالِ؛ لأنَّهم لم يَكونوا مُرسَلين إليه عليه السَّلامُ، بل إلى قومِ لوطٍ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾، وإنَّما جاؤوه لِداعيةِ البُشْرى[(٣)].

- وجملةُ ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ في موضعِ البَيانِ للبُشْرى؛ لأنَّ قولَهم ذلك مَبدَأُ البُشْرى، وإنَّ ما اعتَرَض بينَها حكايةُ أحوالٍ، وقد انتَهى إليها في قولِه: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٦).

- والمخالَفةُ بينَ (سلامًا، وسلامٌ) في قولِه: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ردَّ السَّلامَ بعبارةٍ أحسَنَ مِن عبارةِ الرُّسلِ؛ زِيادةً في الإكرامِ؛ وذلك لأنَّ ﴿سَلَٰمٗا﴾ الَّتي هي مِن قولِ الملائكةِ: مفعولٌ مُطلَقٌ وقَع بدَلًا مِن الفِعْلِ، والتَّقديرُ: سلَّمْنا سَلامًا؛ فجُملَتُه فِعليَّةٌ، و﴿سَلَٰمٞ﴾ الَّتي هي مِن قولِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: خبَرٌ لِمُبتدَأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: أَمْري سَلامٌ، فجملتُه اسميَّةٌ، ورَفْعُ المصدَرِ أبلَغُ مِن نَصْبِه؛ فهو أدَلُّ على الدَّوامِ والثَّباتِ؛ لِكَونِ جُملَتِه اسميَّةً؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ السَّلامِ، كأنَّه قصَد أنْ يُحيِّيَهم بأحسَنَ مِمَّا حيَّوْه به؛ أخذًا بأدَبِ اللهِ تعالى، وهذا أيضًا مِن إكْرامِه لهم؛ فحيَّا الخليلُ بأحسَنَ ممَّا حُيِّي به؛ نظَرًا إلى الأدَبِ الإلهيِّ الَّذي عَلَّمَه اللهُ عزَّ وجلَّ لنا في القرآنِ بقولِه: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾[1] [النساء: ٨٦]، وقَولُه: ﴿سَلَٰمٞ﴾ أكملُ من قولِه: (السلام)؛ لأنَّ التنكيرَ يفيدُ الكمالَ والمبالغةَ والتَّمامَ[2].

وهناك وجهٌ آخرُ وهو: أنَّ النُّكتةُ في نَصْبِ سلامِ الملائكةِ، ورَفْعِ سلامِ إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أنَّ قولَه تعالى عن الملائكة: ﴿سَلَٰمٗا﴾ لم يُقصدْ به حكايةُ سلامِ الملائكة! وإنما هو مفعولُ القولِ المفردِ، كأنه قيل: قالوا قولًا سلامًا؛ وقالوا سدادًا وصوابًا ونحو ذلك؛ فإنَّ القولَ إنما تُحكى به الجملُ، وأمَّا المُفردُ فلا يكون محكيًّا به، بل منصوبًا به انتصابَ المفعول به، وسُمِّيَ القولُ سلامًا؛ لأنَّه يؤدِّي معنى السلامِ ويتضمَّنُه، مِن رَفْعِ الوَحْشَةِ، وحصولِ الاستئناسِ، وأمَّا سلامُ إبراهيم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأتى به على لفْظِه مرفوعًا بالابتداءِ، مَحْكِيًّا بالقول، ولولا قَصْدُ الحكايةِ لقال: (سلامًا) بالنصب؛ لأنَّ ما بعدَ القولِ إذا كان

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٦- ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٩).

مرفوعًا فعلى الحكايةِ ليس إلَّا، فحصَل مِن الفَرْقِ بين الكلامينِ في حكايةِ سلامِ إبراهيم ورفْعِهِ؛ ونَصْبِ سلامِ الملائكةِ: إشارةٌ إلى معنىً لطيفٍ جدًّا، وهو أنَّ قولَه (سلامٌ عليكم) هو مِن دين الإسلامِ المُتلقَّى عن إمامِ الحنفاءِ وأبي الأنبياءِ؛ وأنَّه مِن مِلَّةِ إبراهيمَ التي أَمَرَ اللهُ بها وباتِّبَاعِها، فحكَى لنا قولَه؛ ليَحْصُلَ الاقتداءُ به، والاتِّبَاعُ له، ولم يحكِ قولَ أضيافِه، وإنما أَخْبَر به على الجملةِ دونَ التفصيلِ[(١)].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَمَا لَبِثَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعقيبِ؛ إسراعًا في إكرامِ الضَّيفِ؛ ظنَّهم إبراهيمُ عليه السَّلامُ ناسًا، فبادَرَ إلى قِرَاهم[(٢)].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾

- قولُه: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فيه تأخيرُ المفعولِ الصَّريحِ ﴿خِيفَةً﴾ عن الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنْهُمْ﴾؛ لأنَّ المرادَ الإخبارُ بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أوجَسَ مِن جِهَتِهم شيئًا هو الخِيفةُ، لا أنَّه أوجَسَ الخِيفةَ مِن جِهَتِهم، لا مِن جهةِ غيرِهم؛ وتأخيرُ ما حَقُّه التَّقديمُ يوجِبُ تَرقُّبَ النَّفسِ إليه، فيَتمَكَّنُ عِندَ وُرودِه عليها فَضْلَ تمَكُّنٍ[(٣)].

- وجُملةُ ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ جاءتْ مفصولةً عمَّا قبلَها، أي: لم تُعطَفْ عليها؛ لأنَّها أشبَهَتِ الجوابَ؛ لأنَّه لَمَّا أوجَس مِنهم خِيفةً ظهَر أثَرُها على مَلامِحِه، فكان ظهورُ أثَرِها بمنزلةِ قولِه: (إنِّي خِفتُ مِنكم)؛ ولذلك أجابوا ما في نفْسِه بقولِهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾، فحُكي ذلك عنهم بالطَّريقةِ الَّتي تُحْكَى

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٤- ٢٢٥).

بها المحاوَراتُ، أو هو جوابُ كلامٍ مقدَّرٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، أي: وقال لهم: إنِّي خفتُ منكم، كما حُكي في سورةِ الحِجْرِ: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢]، ومِن شأنِ النَّاسِ إذا امتَنَع أحَدٌ مِن قَبولِ طَعامِهم أن يَقولوا له: لعلَّك غادِرٌ أو عدُوٌّ، وقد كانوا يَقولون للوافِدِ: أحَرْبٌ أم سِلْمٌ[١].

- وقولُهم: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لسبَبِ مَجيئِهم[٢]، وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿أُرْسِلْنَآ﴾ إيجازًا؛ لِظُهورِه مِن هذه القصَّةِ وغيرِها، وعبَّر عن الأقوامِ المرادِ عَذابُهم بطَريقِ الإضافةِ ﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾؛ إذ لم يَكُنْ لأولئك الأقوامِ اسمٌ يَجمَعُهم، ولا يَرجِعون إلى نسَبٍ، بل كانوا خَليطًا مِن فَصائِلَ عُرِفوا بأسماءِ قُراهم[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾

- جملةُ ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ تفريعٌ على جملةِ ﴿فَضَحِكَتْ﴾ باعتبارِ المعطوفِ، وهو ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾؛ لأنَّها ما ضَحِكَت إلَّا بَعْدَ أنْ بَشَّرَها الملائكةُ بابنٍ- وذلك على أحدِ الأقوالِ- فلمَّا تعجَّبَت مِن ذلك بشَّروها بابنِ الابنِ؛ زِيادةً في البُشْرى، والتَّعجُّبُ بأن يُولَدَ لها ابنٌ ويَعيشَ، وتَعيشَ هي حتَّى يُولَدَ لابْنِها ابنٌ، وذلك أدخَلُ في العجَبِ[٤].

- وقد اختُصِرَت هذِه القِصَّةُ هنا اختِصارًا بَديعًا؛ لِوُقوعِها في خلالِ الحوارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١١٩).

بينَ الرُّسلِ وإبراهيمَ عليه السَّلامُ، وحكايةُ ذلك الحِوَارِ اقتَضَتْ إتمامَه بحكايةِ قولِهم: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، وأمَّا البُشْرى فقد حصَلَت قبلَ أن يُخبِروه بأنَّهم أُرسِلوا إلى قومِ لوطٍ، كما في آيةِ سورةِ الذَّارياتِ: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]؛ فلمَّا اقتَضى ترتيبُ المحاوَرةِ تقديمَ جملةِ ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾؛ حُكِيَت قصَّةُ البُشْرى وما تَبِعَها مِن المحاوَرةِ بطريقةِ الحالِ؛ لأنَّ الحالَ تَصلُحُ للقَبْليَّةِ وللمقارَنةِ وللبَعْديَّةِ، وهي الحالُ المقدَّرةُ(١).

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾

- قولُه: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ الاستِفْهامُ في ﴿ءَأَلِدُ﴾ مستعمَلٌ في التَّعجُّبِ(٢).

- وكِلْتا الجُملتَين: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ وقعَتْ حالًا مِن الضَّميرِ في ﴿ءَأَلِدُ﴾؛ لِتَقريرِ ما فيه مِن الاستِبْعادِ وتَعليلِه، أي: أَأَلِدُ وكِلانا على حالةٍ مُنافِيَةٍ لذلك؟! وإنَّما قَدَّمَت بيانَ حالِها على بيانِ حالِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ مُبايَنةَ حالِها لِمَا ذُكِرَ مِن الولادةِ أكثرُ؛ إذ رُبَّما يُولَدُ للشُّيوخِ مِن الشَّوابِّ، أمَّا العَجائزُ دَاؤُهن عَقامٌ، ولأنَّ البِشارةَ مُتوجِّهةٌ إليها صَريحًا، ولأنَّ العكْسَ في البيانِ ربَّما يُوهِمُ مِن أوَّلِ الأمرِ نِسبةَ المانعِ من الولادةِ إلى جانبِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفيه ما لا يَخفَى مِن المحذورِ، واقتِصارُها الاستبعادَ على ولادتِها مِن غيرِ تَعرُّضٍ لحالِ النَّافلةِ؛ لأنَّها المستبعَدُ، وأمَّا وِلادةُ ولَدِها

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٠).

فلا يتَعلَّقُ بها استِبعادٌ[١].

- قولُها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ جملةٌ مؤكِّدةٌ لِصيغةِ التَّعجُّبِ؛ فلذلك فُصِلَت عن الَّتي قبْلَها- أي: لم تُعطَفْ عليها- لكمالِ الاتِّصالِ[٢]، وهذه الجملةُ أيضًا لِتَعليلِ الاستبعادِ بطريقِ الاستِئْنافِ التَّحقيقيِّ، ومَقصِدُها استعظامُ نِعمةِ اللهِ تعالى عليها في ضِمْنِ الاستعجابِ العاديِّ، لا استِبْعادُ ذلك بالنِّسبةِ إلى قُدرتِه سبحانه وتعالى[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ عُلِّل به إنكارُ التَّعجُّبِ، كأنَّه قيل: إيَّاكِ والتَّعجُّبَ؛ فإنَّ أمثالَ هذه الرَّحمةِ والبرَكةِ مُتكاثِرةٌ مِن اللهِ عليكم[٤].

- والاستفهامُ في ﴿أَتَعۡجَبِينَ﴾ استفهامُ إنكارٍ لعَجَبِها[٥].

- وجُمْلَةُ ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ تعليلٌ لإنكارِ تعجُّبِها؛ لأنَّ الإنكارَ في قوَّةِ النَّفيِ، فصار المعنى: لا عجَبَ مِن أمْرِ اللهِ؛ لأنَّ إعطاءَكِ الوَلَدَ رَحمةٌ مِن اللهِ وبرَكةٌ، فلا عجَبَ في تَعلُّقِ قُدرةِ اللهِ بها، وأنتم أهلٌ لتِلكَ الرَّحمةِ والبَرَكةِ، فلا عجَبَ في وُقوعِها عندَكم[٦].

- وتعريفُ ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾ تعريفُ حُضورٍ، وهو البيتُ الحاضِرُ بينَهم الَّذي جَرى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٢).

فيه هذا التَّحاوُرُ، أي: بَيْتُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، والمعنى: أهلَ هذا البيتِ[١].

- وفيه صرْفُ الخطابِ مِن صيغةِ الواحدةِ: ﴿أَتَعۡجَبِينَ﴾ إلى جمْعِ المذكَّرِ: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾؛ لِتَعميمِ حُكمِه لإبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أيضًا؛ لِيَكونَ جَوابُهم لها جَوابًا له أيضًا إنْ خطَر بِبَالِه مِثلُ ما خطَر ببالِها[٢].

- وجملةُ ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ تَعليلٌ لِتَوجُّهِ رحمتِه وبرَكاتِه إليهم؛ بأنَّ اللهَ يَحمَدُ مَن يُطيعُه، وبأنَّه مَجيدٌ، أي: عَظيمُ الشَّأنِ، لا حَدَّ لنِعَمِه، فلا يَعظُمُ عليه أن يُعطِيَها ولَدًا، وفي اختيارِ وصْفِ الحميدِ مِن بينِ الأسماءِ الحُسْنى كِنايةٌ عن رِضا اللهِ تعالى على إبراهيمَ عليه السَّلامُ وأهلِه[٣].

٦- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ الفاءُ لِرَبْطِ بعضِ أحوالِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ببعضٍ، إثْرَ انفِصالِها بما ليس بأجنَبيٍّ مِن كلِّ وجهٍ، بل له مَدْخلٌ تامٌّ في السِّباقِ والسِّياقِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ تأخيرُ الفاعلِ ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾ عن الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ لأنَّه مَصَبُّ الفائدةِ؛ فإنَّ بِتَأخيرِ ما حَقُّه التَّقديمُ تَبْقى النَّفسُ مُنتظِرةً إلى وُرودِه، فيتَمكَّنُ فيها عِندَ وُرودِه إليها فضْلَ تَمكُّنٍ[٥].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾ وفي ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ تعريفُ العهْدِ الذِّكْريِّ، وهما

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المذكورانِ آنفًا[١].

- وقولُه: ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ هو جوابُ ﴿فَلَمَّا﴾، وصِيغَ بصيغةِ المضارِعِ؛ لاستحضارِ الحالةِ العجيبةِ[٢].

- قولُه: ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ (الأَوَّاهُ) فيه كنايةٌ عن شِدَّةِ اهتمامِه عليه السَّلامُ بهُمومِ النَّاسِ، وأصلُه الَّذي يُكثِرُ التَّأَوُّهَ[٣].

٧- قوله: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾

- جملةُ ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ﴾ مَقولُ مَحذوفٍ دلَّ عليه المقامُ، وهو مِن بَديعِ الإيجازِ، وهو وَحيٌ مِن اللهِ إلى إبراهيمَ عليه السَّلامُ، أو جوابُ الملائكةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فإذا كان مِن كلامِ اللهِ فقولُه: ﴿أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإدخالِ الرَّوْعِ في ضميرِ السَّامعِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٤).

الآيات (٧٧-٨٢)

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾: أي: ساءَه مَجيئُهم، مِن السُّوءِ: وهو كُلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِن الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ[1].

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: ذَرعُ الإنسانِ: مُنتهى طاقتِه التي يحمِلُها بمشَقَّةٍ. يُقالُ: ضاق بهذا الأمرِ ذَرعًا: إذا تكلَّفَ أكثَرَ ممَّا يُطيقُ فعجَزَ، وأصلُ (ذرع): يدُلُّ على امتدادٍ، وتحَرُّكٍ إلى قُدُمٍ[2].

﴿عَصِيبٌ﴾: أي: شَديدٌ شَرُّه، عظيمٌ بلاؤه، كأنه قد عُصِب به الشرُّ والبلاءُ، أي: شدَّ به، مأخوذٌ مِن العصابةِ التي تُشدُّ بها الرأسُ، وأصلُ (عصب): يدلُّ على

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١١١).

ربطِ شَيءٍ بشيءٍ[١].

﴿يُهۡرَعُونَ﴾: أي: يُسرِعونَ، وأصلُ (هرع): يدلُّ على حركةٍ واضطرابٍ[٢].

﴿رُكۡنٍ﴾: أي: عشيرةٍ، ورُكْنُ الشَّيءِ: جانِبُه الأقوى، وأصلُ (ركن): يدلُّ على قوَّةٍ[٣].

﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾: أي: ببقيَّةٍ تبقَى مِن آخِرِه، أو بقِطعةٍ منه، وأصلُ (قطع): يدلُّ على صَرمٍ، وإبانةِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[٤].

﴿سِجِّيلٖ﴾: أي: طينٍ مُتحَجِّرٍ، وقيل: أصلُها فارسيٌّ (سَنكِ وكِل) أَي: الحَجَر والطِّين[٥].

﴿مَّنضُودٖ﴾: مَوضوعٍ بعضُه على بعضٍ، أو مُتَتابعٍ، وأصلُ (نضد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شيءٍ في اتِّساقٍ وجَمعٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٠)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٩/ ١٧٩).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٥)،

﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾: أي: مُعَلَّمةً؛ من السِّيماءِ: أي: العلَامةِ[١].

المعنَى الإجماليُّ:

تُبَيِّنُ لنا الآياتُ حالَ لوطٍ عليه السَّلامُ لَمَّا جاءته الملائِكةُ؛ أنَّه ساءه مجيئُهم واغتمَّ لذلك؛ خوفًا عليهم مِن قَومِه، وقال: هذا يومُ بلاءٍ وشِدَّةٍ، وأنَّ قومَه جاؤوه يُسرِعونَ المشيَ إليه لطلَبِ الفاحشةِ، وكانوا مِن قبلِ مجيئِهم يأتونَ الرِّجالَ شَهوةً مِن دونِ النِّساءِ، فقال لوطٌ لهم: هؤلاء نِساءُ أمَّتي تَزَوَّجوهنَّ؛ فهنَّ أطهَرُ لكم ممَّا تُريدونَ، فاخشَوُا اللهَ واحذروا عقابَه، ولا تفضَحوني بالاعتداءِ على ضيفي، أليس منكم رجلٌ ذو رَشَدٍ ينهى من أراد ركوبَ الفاحشةِ، فيَحولُ بينهم وبين ذلك؟ فقالوا له: لقد علمتَ من قبلُ أنَّه ليس لنا في النِّساءِ مِن حاجةٍ أو رغبةٍ، وإنَّك لَتعلَمُ ما نريدُ، فقال لهم حين أبَوا إلَّا فعلَ الفاحشةِ: لو أنَّ لي بكم قوَّةً وأنصارًا معي، أو أركَنُ إلى عشيرةٍ تمنَعُني منكم!

قالت الملائكةُ: يا لوطُ إنَّا رسُلُ ربِّك أرسَلَنا لإهلاكِ قَومِك، وإنَّهم لن يصِلوا إليك، فاخرُجْ أنت وأهلُك ببقيَّةٍ من اللَّيلِ، ولا يلتَفِتْ منكم أحدٌ وراءَه إلَّا امرأتَك فلا تخرج معكم؛ لأنه سيُصيبُها ما أصاب قومَك من الهلاكِ، إنَّ مَوعِدَ هلاكِهم الصُّبحُ، وهو موعِدٌ قريبُ الحُلولِ. فلمَّا جاء أمرُنا بهلاكِ قَومِ لوطٍ جعَلْنا عاليَ قراهم- التي كانوا يعيشونَ فيها- سافِلَها، فقَلَبْناها، وأمطَرْنا عليهم حجارةً مِن طينٍ متصَلِّبٍ، قد صُفَّ بعضُه إلى بعضٍ، مُعلَّمةً عند اللهِ بعلامةٍ مَعروفةٍ لا تُشاكِلُ حِجارةَ الأرضِ، وما هذه الحِجارةُ- التي أمطَرَها اللهُ

((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

على قَومِ لوطٍ- مِن الظالمين ببعيدٍ أن يُمْطَروا بمِثلِها.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ قُرِئَ ﴿ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنَّصبِ والرَّفعِ؛ أمَّا النَّصبُ: فعلى أنَّه مُستثنًى متَّصِلٌ مِن (أهلك) في قَولِه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، والمعنى: لا تَسْرِ بها. وجُملةُ ﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ مُعترِضةٌ بين المُستثنَى والمُستثنَى منه. وأمَّا الرَّفعُ: فعلى أنَّ (امْرَأَتُكَ) بدلٌ مِن ﴿أَحَدٌ﴾ الواقِعُ في سياقِ النَّهيِ ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾، وهو في معنى النَّفيِ. وقيل: إنَّ الاستثناءَ على كِلتا القِراءتَينِ مُنقَطِعٌ مِن جُملةِ الأمرِ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، بِدَليلِ سُقوطِ جُملةِ النَّهيِ ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ في قِراءةِ ابنِ مَسعودٍ، ويكونُ النَّصبُ فيها على الاستثناءِ المُنقَطِعِ، والرَّفعُ على أنَّ (امْرَأَتُكَ) مبتدأٌ، و﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ جملةُ الخَبَرِ، وجملةُ المبتدأِ وخبَرِه في محلِّ نَصبٍ على الاستثناءِ المُنقَطِعِ، ويقوِّي كونَ الاستثناءِ مُنقَطِعًا أنَّ مثلَ هذه الآيةِ جاءت في سورةِ الحِجرِ، وليس فيها استثناءُ البتَّةَ؛ قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥]. وقيل غيرُ ذلك[(١)].

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾.

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٧١- ٣٧٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٦٥-٣٦٩)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٧٧٩-٧٨٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٥-٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا انقضى أمرُ إنبائِهم ببِشارةِ الأولياءِ، وهلاكِ الأعداءِ، وعُلِمَ من ذلك أنَّهم لا يَنزِلونَ إلَّا للأمورِ الهائلةِ، والأحوالِ المُعجِبةِ؛ أخذَ يقُصُّ أمرَهم مع لوطٍ عليه السَّلامُ[١].

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾.

أي: ولَمَّا جاءت الملائكةُ نبيَّنا لوطًا عليه السَّلامُ- ولم يعلَمْ أنَّهم ملائِكةٌ- ساءه مجيئُهم، وضاقتْ نفسُه غَمًّا بحُضورِهم؛ خوفًا عليهم مِن قَومِه[٢].

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

أي: وقال لوطٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمَّا عَلِمَ أنَّه سيحتاجُ إلى مُدافعةِ قَومِه عن أضيافِه: هذا يومٌ شديدٌ شَرُّه، عظيمُ البَلاءِ[٣].

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾.

أي: وجاء لوطًا قومُه يُسرِعونَ إليه[٤]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((الهداية)) لمكي (٥/ ٣٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٨).

كما قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۞ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۞ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴾ [الحجر: ٦٧ - ٦٩].

﴿ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾.

أي: ومن قبلِ مجيءِ الرُّسُلِ[١] إلى لوطٍ كانوا على عادتِهم يأتونَ الرِّجالَ في أدبارِهم، فجاؤوا إلى الأضيافِ لذلك[٢].

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ ﴾.

أي: قال لوطٌ مُدافِعًا عن أضيافِه: يا قومِ هؤلاء نِساءُ أُمَّتي فانكِحوهنَّ؛ فهذا أطهَرُ لكم مِن إتيانِ الذُّكورِ[٣].

---

(١) قال ابن جرير: (من قبلِ مجيئِهم إلى لوطٍ كانوا يأتونَ الرجال في أدبارهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٢).
وقال القرطبي: (أي ومِن قبلِ مجيءِ الرُّسُلِ. وقيل: من قبلِ لوطٍ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير المنار)) (١٢/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٧).
وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بـقَولِه ﴿بَنَاتِي﴾: نساءُ أمَّتِه عليه السَّلام: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثير، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.
قال القرطبي: (وقالت فِرقةٌ- منهم مجاهدٌ وسعيدُ بنُ جبيرٍ- أشار بقوله: ﴿بَنَاتِي﴾ إلى النِّساءِ جُملةً؛ إذ نبيُّ القوم أبٌ لهم، ويُقَوِّي هذا أنَّ في قراءةِ ابنِ مسعودٍ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾[الأحزاب: ٦] «وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ». ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٦).
قال الشنقيطي: (وبهذا القَولِ قال كثيرٌ من العلماء.
وهذا القَولُ تُقَرِّبُه قرينةٌ وتُبعِدُه أخرى؛ أمَّا القرينةُ التي تقرِّبُه فهي: أنَّ بناتِ لوطٍ لا تَسَعُ جَميعَ رِجالِ قَومِه كما هو ظاهِرٌ، فإذا زوَّجَهنَّ لرجالٍ بقَدرِ عَدَدِهنَّ بَقِيَ عامَّةُ رجالِ قَومِه لا أزواجَ لهم، فيتعَيَّن أنَّ المرادَ عمومُ نِساءِ قَومِه، ويدُلُّ للعُمومِ قَولُه: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقَولُه: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النمل: ٥٥]، ونحوُ ذلك من الآيات.

كما قال تعالى حاكيًا قولَ لوطٍ لِقَومِه: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾.

أي: فاخشَوُا اللهَ، واحذَروا عقابَه، ولا تُذِلُّوني وتُهينوني بانتهاكِ حُرمةِ ضُيوفي بفِعلِ الفاحشةِ بهم[1].

وأمَّا القرينةُ التي تُبعِدُه: فهي أنَّ النبيَّ ليس أبًا للكافراتِ، بل أبُوَّةُ الأنبياءِ الدينيَّةُ للمؤمِنينَ دون الكافرينَ، كما يدُلُّ عليه قولُه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الآية، وقد صرَّح تعالى في «الذاريات»: بأنَّ قَومَ لوطٍ ليس فيهم مُسلِمٌ إلَّا أهلَ بَيتٍ واحدٍ، وهم أهلُ بيتِ لوط، وذلك في قَولِه: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦]). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٩٠).

وقيل: المرادُ ببَناتِه عليه السَّلامُ هنا: بناتُه مِن صُلبِه. أي: عَرَضَ على قَومِه أن يتزوَّجوهنَّ. وممَّن قال بذلك: البغوي، وابنُ عطيةَ، وابنُ القيم. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٩٤)، ((الجواب الكافي)) (ص: ١٧٢).

وقال ابن الجوزي: (فإن قيل: كيف عرَضَ تزويجَ المُؤمِناتِ على الكافرين؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنَّه قد كان يجوزُ ذلك في شريعته، وكان جائزًا في صدر الإسلام حتى نُسِخَ. قاله الحسن. والثاني: أنَّه عَرَض ذلك عليهم بشَرطِ إسلامِهم. قاله الزجَّاج، ويؤكِّدُه أنَّ عَرْضَهنَّ عليهم موقوفٌ على عَقدِ النكاح، فجاز أن يَقِفَ على شرطٍ آخَرَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٠).

وقال القاسمي: (ظاهِرٌ أنَّه عليه السَّلامُ كان واثِقًا بأنَّ قَومَه لا يُؤثِرونَهنَّ بوَجهٍ ما، مهما أطرى وأطنَبَ، وشَوَّق ورَغَّب، فكان إظهارُه وقايةَ ضِيفانِه وفداءَهم بهنَّ- مع وثوقِه المذكورِ وجَزْمِه- مُبالغةً في الاعتناءِ بحِمايتِهم، وقيامًا بالواجِبِ في مثلِ هذا الخَطبِ الفادحِ الفاضِحِ، الذي يَدوم عارُه وشَنارُه، من الدفاع عنهم بأقصى ما يمكِنُ؛ لكيلا يُنسَبَ إلى قصورٍ، ولِيُعلَمَ أنْ لا غايةَ وراء هذا لِمَن لا رُكْنَ له مِن عَشيرةٍ أو قبيلةٍ، فذلك غايةُ الغاياتِ في حَيطتِهم ووقايتِهم. وفي قَولِه: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ مِن التَّشويقِ، على مرأًى مِن ضِيفانِه ومَسمَعٍ، ما فيه مِن زيادةِ الكَرَمِ والإكرام، ورعاية الذِّمام. وبالجُملةِ فهو ترغيبٌ بمُحالِ الوقوعِ باطنًا، وإعذارٌ لِنُزلائِه ظاهِرًا. والله أعلم). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٨).

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

أي: أليسَ منكُم رجلٌ ذو رَشَدٍ وخيرٍ، فينهاكم عن طلَبِ الفاحِشةِ بضُيوفي[١]؟!

﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾.

أي: قالوا له: لقد علمتَ- يا لوطُ- ما لنا في النِّساءِ مِن حاجةٍ أو رغبةٍ[٢] وإنَّك لتعلَمُ أنَّنا نريدُ الرِّجالَ دون النِّساءِ[٣].

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾.

أي: قال لوطٌ لَمَّا رأى إصرارَ قَومِه على طلَبِ الفاحشةِ مِن ضُيوفِه، وعَجَزَ عن ردِّهم: ليتَ لي أنصارًا وأعوانًا يُعينونَني على رَدِّكم[٤].

﴿أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٢) قال ابنُ الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ فيه قولان: أحدُهما: ما لنا فيهنَّ حاجةٌ، قاله أبو صالحٍ عن ابنِ عباسٍ. والثاني: لسنَ لنا بأزواجٍ فنستحقهنَّ، قاله ابنُ إسحاقَ وابنُ قتيبةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٠).

وممَّن قال بالأوَّل من المفسِّرين: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٨).

وممَّن قال بالثَّاني: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٧).

ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٠).

وقال البغوي: (أراد قُوَّةَ البدَنِ، أو القوَّةَ بالأتباعِ). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٨٠).

أي: أو ألجأُ وأنضَمُّ إلى عشيرةٍ تمنَعُني وتعصِمُني منكم، فأحولُ بينكم وبين ما تريدونَ مِن ضيوفي[١].

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَرحَمُ الله لوطًا؛ لقد كان يأوي إلى رُكنٍ شَديدٍ))[٢].

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾.

أي: قالت الملائِكةُ للوطٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمَّا اشتدَّ به الكَربُ: إنَّا ملائِكةُ رَبِّك، أرسَلَنا لإهلاكِ قَومِك؛ فلن يَصِلوا إليك بمكروهٍ، فاطمئِنَّ وهوِّنْ على نفسِك[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ * إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٣- ٣٤].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٣، ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧٢) ومسلم (١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٠).

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾.

أي: فاخرُجْ أنت وأهلُك مِن أرضِ قَومِك بعد مُضيِّ وقتٍ مِن اللَّيلِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ [الحجر: ٦١-٦٥].

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿ ٱمْرَأَتَكَ ﴾ قراءتانِ:

١- ﴿امْرَأَتُكَ﴾ بضمِّ التاءِ، قيل: الاستثناءُ منقطعٌ مِن جُملةِ الأمرِ ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾، و﴿امْرَأَتُكَ﴾ مبتدأٌ خبرُه ﴿ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾، وقيل: معنى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتُكَ﴾ أي: لا يتخلَّفْ منكم أحدٌ إلا امرأتُك، وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٠).

قال الشنقيطي: (﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ ذكرَ تعالى في هذه الآية الكريمة: أنَّه أمر نبيَّه لوطًا أن يسريَ بأهلِه بقِطعٍ من اللَّيلِ، ولم يبيِّنْ هنا هل هو من آخرِ اللَّيلِ، أو وسَطِه أو أوَّلِه، ولكنَّه بيَّن في «القمر» أنَّ ذلك من آخرِ اللَّيلِ وقتَ السَّحَرِ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]، ولم يبيِّنْ هنا أنَّه أمرَه أن يكونَ مِن ورائِهم وهم أمامَه، ولكنَّه بيَّن ذلك في «الحِجر» بقوله تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ [الحجر: ٦٥]). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٩٠-١٩١).

(٢) قرأ بهذه القراءةِ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٠)، ((حجة

٢- ﴿ٱمۡرَأَتَكَ﴾ بفتحِ التاءِ، أي: فأسْرِ بأهلِك إلَّا امرأتَك، على أن لوطًا أُمِر أن يسريَ بأهلِه سوَى زوجتِه، فإنَّه نُهِي أن يسريَ بها[(١)].

﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾.

أي: ولا ينظُرْ أحدٌ منكم وراءَه، واستَمِرُّوا ذاهبينَ، إلَّا امرأتَك، فلا تُخرِجْها معكم[(٢)].

﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾.

أي: إنَّه مُصيبٌ امرأتَك -يا لوطُ- العذابُ الذي أصاب قومَك[(٣)].

القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٤٧-٣٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٦٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٥)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٥٥٨).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤-٥١٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٤٨).

قال الشنقيطي بعدَ أن ذكَر أنَّه على قراءةِ الجمهورِ (بالنصب) فهو لم يَسْرِ بها، وأنَّ ظاهرَ القراءةِ الثانيةِ (بالرفع)- على أحدِ الأوجهِ-: أنَّه أسرَى بها والتفتَتْ فهلَكتْ، قال: (الظاهِرُ أنَّ وجهَ الجمعِ بين القراءتينِ المذكورتينِ أنَّ السِّرَّ في أمرِ لوطٍ بأن يسريَ بأهله هو النَّجاةُ من العذابِ الواقعِ صُبحًا بقومِ لوط، وامرأةُ لوطٍ مُصيبها ذلك العذابُ الذي أصاب قومَها لا محالة، فنتيجةُ إسراءِ لوطٍ بأهلِه لَم تدخُلْ فيها امرأتُه على كلا القولينِ، وما لا فائدةَ فيه كالعدمِ، فيستوي معنى أنَّه تركها، ولم يَسْرِ بها أصلًا، وأنَّه أسرى بها وهَلَكت مع الهالكينَ. فمعنى القولينِ راجِعٌ إلى أنَّها هالكة، وليس لها نفعٌ في إسراءِ لوطٍ بأهلِه، فلا فرقَ بين كونِها بَقِيَت معهم، أو خَرَجَت وأصابَها ما أصابهم. فإذا كان الإسراءُ مع لوطٍ لم يُنجِها من العذابِ، فهي ومَن لم يسْرِ معه سواءٌ، والعلم عند الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

كما قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [النمل: ٥٧].

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾.

أي: إنَّ مَوعِدَ إهلاكِ قَومِك -يا لوطُ- الصُّبحُ بعد انقضاءِ هذه اللَّيلةِ، أليس وقتُ الصبحِ بقريبٍ لنُزولِ العذابِ بهم[(١)]؟!

كما قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر: ٦٦].

وقد بيَّن الله تعالى أنَّ صبيحةَ العذابِ وقَعتْ عليهم وقتَ الإشراقِ، وهو وقتُ طلوعِ الشمسِ[(٢)]، وذلك في قولِه: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ [الحجر: ٧٣].

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾.

أي: فلمَّا جاء أمرُنا بهلاكِ قومِ لُوطٍ، جَعَلْنا عاليَ قراهم أسفَلَها[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر: ٧٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٢).
قال القاسمي: (أي: مَوعِدُهم بالهلاكِ الصُّبحُ، والجملةُ كالتعليلِ للأمرِ بالإسراءِ، أو جوابٌ لاستعجالِ لوطٍ واستبطائِه العذابَ، أو ذُكِرَت ليتعجَّلَ في السَّيرِ؛ فإنَّ قُربَ الصُّبحِ داعٍ إلى الإسراعِ في الإسراءِ، للتَّباعُدِ عن موقعِ العذابِ). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٢١).
(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٤).

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾.

أي: وأرسَلْنا على قرى قَومِ لوطٍ حِجارةً مِن طينٍ، شديدِ القوةِ، قد ضُمَّ بعضُه إلى بعضٍ، فصار حجارةً[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨].

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾.

أي: حجارةً مُعلَّمةً عند اللهِ بعلاماتٍ[2].

﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾.

أي: وما هذه الحِجارةُ -التي أُمطِرَت على قومِ لوطٍ- ببعيدةٍ مِن الظالمين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٢٥، ٥٢٨، ٥٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٠).

قال القرطبي: (﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي معلمةً، من السيما وهي العلامةُ، أي كان عليها أمثالُ الخواتيمِ. وقيل: مكتوبٌ على كلِّ حجرٍ اسمُ مَن رُمي به، وكانت لا تشاكلُ حجارةَ الأرضِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٣).

الفاعلينَ مثلَ فِعلِهم[١]؛ فلْيَحذروا أن يُصيبَهم ما أصابَهم[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ تضمَّن البيانَ عمَّا يُوجبُه حالُ المؤمنِ إذا رأى مُنكَرًا لا يقدِرُ على إزالتِه؛ أنَّه يتحَسَّرُ على فَقدِ قوة أو مُعينٍ على دَفعِه؛ لحرصِه على طاعةِ ربِّه، وجَزَعِه مِن مَعصيتِه[٣].

٢- في قولِه تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فيه أنَّ المؤمنَ إذا رأَى منكَرًا لا يقدِرُ على إزالته أنْ عليه أن يُنكِرَ بلسانه ثم بقلبه إذا لم يُطِقِ الدفعَ[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ التَّعبيرُ بصفةِ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ وكون العقوبةِ آيةً مُرادةً لا مُصادفةً؛ يجعَلُ العبارةَ عِبرةً لكُلِّ الأقوامِ الظَّالِمةِ في كلِّ زمانٍ، وإن كان العذابُ يختَلِفُ باختلافِ الأحوالِ مِن أنواعِ الظُّلمِ وكَثرتِه

---

(١) وممن اختار هذا المعنى المذكور: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٣).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿الظَّالِمِينَ﴾ مُشركو قُرَيشٍ، وممن اختار هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣١).

وممن رُوي عنه هذا القولُ من السلفِ: مجاهدٌ، وقتادةُ، والسديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٤٦٥).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ قومُ لوطٍ، والمعنى: أنَّ الحجارةَ لم تكنْ لتخطيءَ قومَ لوطٍ، وضعَّفه الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((شرح صحيح البخارى)) لابن بطال (١٠/ ٢٩٤) (١٣/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٢٢٧).

وعُمومِه وما دونَهما[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ﴾ أي: حصَلَت له المَساءةُ بسببِ مجيئِهم إلى قريتِه؛ لِما يعلَمُ مِن لُؤمِ أهلِها، والتَّعبيرُ عن هذا المعنى بالمبنيِّ للمفعولِ أوقَعُ في النَّفسِ وأرشَقُ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ سؤالٌ: وهو أن يقالَ: إنَّ قولَه ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ من باب أفعل التَّفضيلِ، فيقتضي أن يكونَ الذي يطلبونَه من الرِّجالِ طاهرًا، ومعلومٌ أنَّه مُحرَّمٌ فاسِدٌ نَجِسٌ، لا طهارةَ فيه البتَّةَ، فكيف قال: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾؟!

والجوابُ: أنَّ صيغةَ التفضيلِ قد تُطلق في القرآنِ واللغةِ مرادًا بها الاتصافُ، لا تفضيلُ شيءٍ على شيءٍ[٣]، وأيضًا فهذا جارٍ مجرى قولِه تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢]، ومعلومٌ أنَّ شَجرةَ الزَّقُّومِ لا خيرَ فيها، وكقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا قيل يومَ أحُدٍ: اعلُ هُبَلُ، قال: ((اللهُ أعلى وأجَلُّ))[٤]؛ إذ لا مماثلةَ بين اللهِ- عزَّ وجلَّ- والصَّنمِ، وإنَّما هو كلامٌ خرجَ مَخرجَ المقابلةِ[٥].

٣- قولُه: ﴿وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾، أي: لا تَجعَلوني مَخْزيًّا عِندَ ضَيْفي؛ إذ يَلحَقُهم أذًى في ضِيافَتي؛ لأنَّ الضِّيافةَ جِوارٌ عندَ ربِّ المنزِلِ، فإذا لَحِقَت

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٣٨).
(٣) يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٢٥٨).
(٤) أخرجه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.
(٥) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٩٦).

الضَّيفَ إهانةٌ كانت عارًا على ربِّ المنزِلِ[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ يحتمل أن سِرَّ النَّهيِ عن الالتفاتِ- إذا كان بمعنى النَّظَرِ إلى وراءٍ- هو أن يجِدُّوا في السَّيرِ؛ فإنَّ من يلتَفِتُ إلى ورائِه لا يخلو عن أدنى وَقفةٍ، أو ألَّا يَرَوا ما ينزِلُ بقَومِهم من العذابِ فيَرِقُّوا لهم[٢]، ويحتملُ أنَّ سببَ النَّهيِ عن الالْتِفاتِ التَّقصِّي في تحقيقِ معنى الهجرةِ غضَبًا لحُرماتِ اللهِ، بحيث يَقطَعُ التَّعلُّقَ بالوطَنِ، ولو تَعلُّقَ الرُّؤيةِ، وكان تَعْيينُ اللَّيلِ للخُروجِ؛ كَيْلا يُلاقِيَ مُمانَعةً مِن قومِه أو مِن زَوْجِه فيَشُقَّ عليه دِفاعُهم[٣].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ فيه أنَّ المرأةَ والأولادَ مِن الأهلِ[٤].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ ابتدأ الملائِكةُ خِطابَهم لوطًا عليه السَّلامُ بالتَّعريفِ بأنفُسِهم؛ لتعجيلِ الطُّمأنينةِ إلى نفسِه، لأنَّه إذا علمَ أنَّهم ملائِكةٌ علِمَ أنَّهم ما نزلوا إلَّا لإظهارِ الحَقِّ[٥].

٧- صرَفَ اللهُ الكفَّارَ عن لُوطٍ عليه السَّلامُ، فرَجَعوا مِن حيثُ أتَوْا، ولو أزال عَن الملائكةِ التَّشكُّلَ بالأجسادِ البشَريَّةِ فأخفاهم عن عُيونِ الكُفَّارِ لحَسِبوا أنَّ لوطًا عليه السَّلامُ أخْفاهم، فكانوا يُؤْذون لوطًا عليه السَّلامُ؛ ولذلك قال له الملائكةُ: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾، ولم يَقولوا: لن يَنالوا؛ لأنَّ ذلك معلومٌ؛ فإنَّهم لَمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٢).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣١).

أعلَموا لوطًا عليه السَّلامُ بأنَّهم ملائكةٌ ما كان يَشُكُّ في أنَّ الكفَّارَ لا يَنالونَهم، ولكنَّه يَخْشى سَوْرتَهم أن يتَّهِموه بأنَّه أخْفاهم(١).

٨- في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ...﴾ في هذه القِصَّةِ إثباتُ الملائكةِ، وأنَّهم أحياءٌ، ناطِقونَ، مُنفَصِلونَ عن الآدميِّينَ، يخاطِبونَهم ويرونَهم في صورِ الآدميِّينَ أحيانًا- الأنبياءُ وغيرُ الأنبياءِ- كما رأتْهم سارَةُ امرأةُ الخليلِ عليه السَّلامُ، وكما كان الصَّحابةُ يَرَون جبريلَ إذا جاء، لَمَّا جاء في صورةِ أعرابيٍّ(٢)، وتارةً في صورةِ دِحيةَ الكَلبيِّ(٣).

٩- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ لعلَّ جَعْلَ الصُّبحِ ميقاتًا لهلاكِهم؛ لِكونِ النُّفوسِ فيه أسكنَ وأودعَ، والرَّاحةُ فيه أجمَعُ(٤)، فيَكونُ حُلولُ العذابِ حينَئذٍ أفظَعَ، ولأنَّه أنسَبُ بكَوْنِ ذلك عِبرةً للنَّاظِرين(٥).

١٠- لما قلَب قومُ لوطٍ الأوضاعَ بإتيانِ الذُّكورِ دونَ الإناثِ؛ كان جزاؤُهم مِن جنسِ عملِهم، فقلَب الله عليهم قُراهم، قال الله تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾(٦).

١١- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ استدلَّ به من قال بِرَجمِ الفاعلِ والمفعولِ به في اللُّواطِ أُحصِنا أو لا(٧).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٩٦).

ويُنظر ما أخرجه البخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٤٥١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٠).

(٦) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٢٥٩).

(٧) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥١).

قال الشنقيطي: (وحجةُ مَن قال: إنَّ قتلَه بالرجمِ هو ... روايةُ سعيدِ بنِ جُبيرٍ، ومجاهدٍ، عن ابنِ

١٤- قولُ الله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ عبَّرَ بالرَّبِّ إشارةً إلى كثرةِ إحسانِه إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه إنَّما أمَرَه بالإنذارِ رحمةً لأمَّتِه التي جعَلَها خيرَ الأُمَم، وسيجعَلُها أكثَرَ الأمَمِ، ولا يُهلِكُها كما أهلَكَهم[(١)].

١٥- في قولِه: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ جُرِّد (بَعِيد) عن تاءِ التَّأنيثِ مع كونِه خبَرًا عن الحجارةِ، وهي مؤنَّثٌ لفْظًا، ومع كونِ (بَعِيد) هنا بمَعْنى (فاعِلٍ) لا بمَعْنى (مفعولٍ)؛ فالشَّأنُ أن يُطابِقَ مَوصوفَه في تأنيثِه، ولكنَّ العرَبَ قد يُجْرون (فَعيلًا) الَّذي بمَعْنى (فاعِلٍ) مَجْرى الَّذي بمَعْنى (مفعولٍ) إذا جَرى على مؤنَّثٍ غيرِ حقيقيِّ التَّأنيثِ زيادةً في التَّخفيفِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وقيل: إنَّ (بَعِيد) صفةٌ لِمَحذوفٍ، أي: بِمَكانٍ بعيدٍ، أو بشيءٍ بعيدٍ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ فيه حذْفُ ما دَلَّ عليه المقامُ إيجازًا قرآنيًّا بديعًا، والتَّقديرُ: ففارَقوا إبراهيمَ، وذهَبوا إلى لوطٍ عليهما السَّلامُ، فلمَّا جاؤوا لوطًا... إلخ[(٣)].

عباس: أنَّه يُرجَم، وما ذكَره البيهقيُّ، وغيرُه عن عليٍّ أنَّه رجَم لوطيًّا، ويُستأنسُ لذلك بأنَّ الله رمَى أهلَ تلك الفاحشةِ بحجارةِ السجيلِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٩٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٤- ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٤).

- ومِن بَديعِ تَرتيبِ هذه الجُمَلِ أنَّها جاءتْ على تَرتيبِ حُصولِها في الوجودِ؛ فإنَّ أوَّلَ ما يَسبِقُ إلى نَفْسِ الكارِهِ للأمْرِ أن يُساءَ به، ويَتَطَلَّبَ المخلَصَ من هذا الأمْرِ؛ وذلك قولُه: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾، فإذا عَلِم أنَّه لا مَخلَصَ مِنه ضاق به ذَرْعًا، وذلك قولُه: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾، ثمَّ يُصدِرُ- تعبيرًا عن المعاني، وترتيبًا عنه- كلامًا يُريحُ به نفْسَه، وذلك قولُه عليه السَّلامُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ كنايةٌ عن شدَّةِ الانقِباضِ؛ للعجْزِ عن مُدافَعةِ المكروهِ والاحتيالِ فيه[2].

- وفيه مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سورةِ (هودٍ): ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾، وفي سورةِ (العنكبوتِ) قال: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]، فورَدَت آيةُ (العنكبوتِ) بزيادةِ (أنْ) بعد (لَمَّا) بخِلافِ آيةِ هودٍ، ووجهُ ذلك: أنَّ (أنْ) هذه الخفيفةَ كثيرًا ما تُزادُ، وزيادتُها على ضَرْبَين؛ بقياسٍ، وغيرِ قياسٍ؛ فأمَّا الَّتي تُزادُ بقياسٍ فبعدَ (لَمَّا)، ولَمَّا ورَد في آيةِ (هودٍ) قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾، ثمَّ ورَد هذا اللَّفظُ بجُملَتِه في سورةِ (العَنكَبوتِ) مُتكرِّرًا بعَينِه، ورَد أوَّلًا بغيرِ (أنْ) على الأصلِ، وورَد ثانيًا بزيادةِ (أنْ) على الثَّاني؛ لِيَحصُلَ التَّوارُدُ بينَ ما يَرفَعُ تَثاقُلَ اللَّفْظِ المذكورِ مع تَباعُدِ ما بينَ الآيتَينِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا كان اللَّفظُ هو اللَّفْظَ، وكان زيادةُ (أنْ) وعدَمُ زيادتِها هنا هيِّنًا فصيحًا جيء بالجائِزَين معًا،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٨).

وتأخَّرَت الزِّيادةُ؛ إذ هي غيرُ الأصلِ إلى المتأخِّرِ مِن الآيتَينِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾

- قولُه: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ فيه إسنادُ الفِعلِ إلى القَبيلةِ إذْ فعَله بعضُها؛ إذ التَّقديرُ: جاءه بعضُ قومِه، وإنَّما أُسنِد المجيءُ إلى القومِ؛ لأنَّ مِثلَ ذلك المجيءِ دَأبُهم وقد تَمالَؤوا على مِثلِه، فإذا جاء بعضُهم فسَيَعقُبُه مَجيءُ بعضٍ آخَرَ في وقتٍ آخَرَ[٢].

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ جملةُ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ...﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بيانيًّا ناشئًا عن جملةِ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾؛ إذ قد عَلِم السَّامعُ غرَضَهم مِن مَجيئِهم، فهو بحيث يَسأَلُ عمَّا تلَقَّاهم به[٣].

- وفي افتِتاحِ الكَلامِ بالنِّداءِ وبأنَّهم قومُه بقولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ ترقيقٌ لنُفوسِهم عليه؛ لأنَّه يَعلَمُ تَصلُّبَهم في عادَتِهم الفَظيعةِ[٤].

- قولُه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ الإشارةُ بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مُستعمَلةٌ في العرْضِ، و﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ تعليلٌ للعَرْضِ، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارةٌ إلى جمعٍ؛ إذ بُيِّن بقولِه: ﴿بَنَاتِي﴾، وإطلاقُ البناتِ هنا؛ قيل: هو مِن قَبيلِ التَّشبيهِ البليغِ -لِمَا رُوِي أنَّه لم يَكُنْ له إلَّا ابنَتان- أي: هؤلاءِ نِساؤُهنَّ كبَناتي، وأرادَ نِساءً

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن قومِه بعدَدِ القومِ الَّذين جاؤوا يُهْرَعون إليه فإنَّ قومَه الَّذين حضَروا عِندَه كثيرون، فيكونُ المعنى: هؤلاءِ النِّساءُ فتَزوَّجوهنَّ[١].

- واسمُ التَّفضيلِ ﴿أَطْهَرُ﴾ مسلوبُ المفاضَلةِ؛ قُصِد به قوَّةُ الطَّهارةِ[٢].

- قولُه: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ الاستفهامُ في ﴿أَلَيْسَ ...﴾ للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ لأنَّ إهانةَ الضَّيفِ مَسبَّةٌ لا يَفعَلُها إلَّا أهلُ السَّفاهةِ، وقولُه: ﴿مِنكُمْ﴾ بمَعنى بَعْضِكم؛ أنكَر عليهم تَمالُؤَهم على الباطِلِ، وانعِدامَ رجُلٍ رَشيدٍ مِن بَينِهم، وهذا إغراءٌ لهم على التَّعقُّلِ؛ لِيَظهَرَ فيهم مَن يتَفطَّنُ إلى فَسادِ ما هم فيه فيَنْهاهم، فإنَّ ظُهورَ الرَّشيدِ في الفئةِ الضَّالَّةِ يَفتَحُ بابَ الرَّشادِ لهم، وبالعَكْسِ تَمالُؤهم على الباطلِ يَزيدُهم ضَراوةً به[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾

- جملةُ ﴿قَالُواْ ...﴾ فُصِلَت عن الَّتي قبْلَها، ولم تُعْطَفْ علَيها؛ لِوُقوعِها موقِعَ المحاوَرةِ مع لوطٍ عليه السَّلامُ[٤].

- وجملةُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ ...﴾ تأكيدٌ لكونِه يَعلَمُ؛ بتَنْزيلِه مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ أنَّه يَعلَمُ؛ لأنَّ حالَه في عرْضِه بَناتِه عليهم كحالِ مَن لا يَعلَمُ خُلقَهم، وكذلك التَّوكيدُ في ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[٥].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾

- وجملةُ ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ مُبيِّنةٌ لإجمالِ جملةِ ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾؛ فلذلك فُصِلَت فلم تُعطَفْ على الَّتي قَبْلَها؛ لأنَّها بمَنزِلَةِ عطْفِ البيانِ، وهي موضِّحةٌ للَّتي قبْلَها؛ لأنَّهم إذا كانوا رسُلَ اللهِ لم يَصِلوا إليه، ولم يَقْدِروا على ضَررِه، وجيءَ بحرْفِ تأكيدِ النَّفْيِ (لَن)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم خاطَبوه بما يُزيلُ الشَّكَّ مِن نفْسِه[1].

- قولُه: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ الفاءُ لِتَرتيبِ الأمْرِ بالإسراءِ على الإخبارِ برِسالَتِهم، المؤْذِنَةِ بوُرودِ الأمرِ والنَّهْيِ مِن جَنابِه عزَّ وجلَّ إليه عليه السَّلامُ[2]، وتَفْريعُ الأمْرِ بالسُّرَى على جُملةِ ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾؛ لِمَا في حرْفِ (لَن) مِن ضَمانِ سَلامتِه في المستقبَلِ؛ فلمَّا رأى ابتِداءَ سَلامتِه منهم بانصِرافِهم؛ حَسُن أن يُبيِّنَ له وجْهَ سَلامتِه في المستقبَلِ منهم باستِئْصالِهم وبِنَجاتِه، فذلك موقِعُ فاءِ التَّفريعِ[3].

- جملةُ ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشِئٌ عن الاستثناءِ مِن الكلامِ المقدَّرِ، وفيه استِعْمالُ فِعْلِ المضِيِّ ﴿مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ في مَعْنى الحالِ، ومُقتَضى الظَّاهرِ أن يُقالَ: (ما يُصيبُهم)؛ فاستِعْمالُ فِعلِ المُضِيِّ لِتَقريبِ زمَنِ الماضي مِن الحالِ، أو في مَعْنى الاستقبالِ؛ تَنْبيهًا على تَحقُّقِ وُقوعِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٥، ٤١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣١- ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٢).

نحوُ قولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾[١] [النحل: ١].

- وأيضًا في جُملَةِ ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ تَفْخيمُ شأنِ ما أصابَهم؛ إذِ الضَّميرُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشَّأنِ، وقولُه تعالى: ﴿مُصِيبُهَا﴾ خبرٌ، وقولُه: ﴿مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ مُبتدَأٌ، والجملةُ خبَرٌ لـ(إِنَّ) الَّذي اسمُه ضميرُ الشَّأنِ[٢].

- وجملةُ ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ﴾ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ، قُطِعَت عن الَّتي قبْلَها- أي: فُصِلَت ولم تُعْطَفْ عليها-؛ اهتِمامًا وتَهويلًا[٣].

- قولُه: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ جملةُ استِئْنافٍ بيانيٍّ؛ صدَر مِن الملائكةِ جَوابًا عن سُؤالٍ يَجيشُ في نفْسِه مِن استِبْطاءِ نُزولِ العذابِ، والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَلَيۡسَ﴾ تقريريٌّ؛ ولذلك يقَعُ في مِثلِه التَّقريرُ على النَّفيِ إرخاءً للعِنانِ مع المخاطَبِ المقرَّرِ؛ لِيَعرِفَ خطَأَه[٤].

- وأيضًا هذه الجملةُ ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ فيها إرسالُ المثَلِ أو التَّمثيلِ، وهو فَنٌّ يُمكِنُ تَعريفُه بأن يَكونَ ما يُخرِجُه المتكلِّمُ سارِيًا مَسيرَ الأمثالِ السَّائرةِ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سورةِ (هودٍ): ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾، وقال في سورةِ (الحِجْرِ): ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥]؛ فاستَثْنى

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٣-١٣٤).
(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٤١١).

في سورةِ (هودٍ) مِن قولِه تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قولَه: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾، ولم يَستَثنِ ذلك في سورةِ (الحِجرِ)، ووجهُ هذه المناسَبةِ: أنَّ الاستِثْناءَ في سورةِ (الحِجْرِ) أغْنى مِنه قولُه تعالى فيما حَكى عن الرُّسلِ: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٥٨-٦٠]، فهذا الاستثناءُ الَّذي لم يقَعْ مِثلُه في سورةِ (هودٍ) أغنى عن الاستثناءِ في قولِه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾[(١)].

- ومِن المناسبةِ أيضًا، أنَّه قال في سورةِ الحجرِ: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥]، وترَكه هنا في سُورةِ هودٍ، ووجهُ ذلك: أنَّه لَمَّا اقتَصَّ في هذه السُّورةِ بعضَ ما اقتَصَّ في الأُخرَى؛ فذَكَر أنَّ الرُّسُلَ قالوا له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾، والمعنى: لن يَصِلوا إليك وإلى المؤمِنين مِن أهلِك، قيَّد ذلك في قولِه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بأنْ أمَروه بإخراجِ أهلِه مِن بينِ أظهُرِهم ليلًا مِن غيرِ أن يُعرِّجَ أحدٌ منهم على شيءٍ خلْفَه يَعُوقُه عن المضيِّ إلى حيث ما أُمِر به، ولَمَّا قال في سورةِ الحجرِ: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [الحجر: ٥٩-٦٠] إخبارًا عن الرُّسلِ أنَّهم خاطَبوا إبراهيمَ عليه السَّلامُ به، ثمَّ أخبَر عن مُخاطَبتِهم لوطًا في هذه السُّورةِ بما يُضاهي قولَهم لإبراهيمَ عليه السَّلامُ، حيث أردَفوا قولَهم له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بقولِهم: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥]؛ لأنَّه إذا ساقَهم وكان مِن وَرائِهم، كان تحقيقًا لِخبَرِهم أنَّهم مُنجُّوهم أجمَعين، فزِيدَ:

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٧٠-٧٧١)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤٧-١٤٨)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٩).

﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾؛ لِتُجاوِبَ مُخاطبَتُهم له مُخاطبَتَهم لإبراهيمَ عليه السَّلامُ بسبَبِه[١].

- وأيضًا قال في سورةِ (الحِجْرِ): ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥]، ولم يَذكُرْه في سورةِ (هودٍ)؛ وذلك أنَّ قولَه في سورةِ (الحِجْرِ): ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥] زيادةُ إخبارٍ بما ليس في سورةِ هودٍ، وقد تأخَّرَت سورةُ الحجرِ عنها؛ فوَفَّت بما لم يُذكَرْ في سورةِ هودٍ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾

- قولُه: ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا﴾ فيه الاقتِصارُ على ذِكْرِ جَعْلِ العالي سافِلًا، حيث جُعل عالِيها مَفعولًا أوَّلَ للجَعْلِ، وسافِلُها مَفعولًا ثانيًا له، وإنْ تَحقَّق القلبُ بالعَكْسِ أيضًا؛ لأنَّه أَدخَلُ في الإهانةِ، وأيضًا لِتَهويلِ الأمرِ، وتفظيعِ الخَطْبِ؛ لأنَّ جَعْلَ عالِيها- الَّذي هو مَقارُّهم ومَساكِنُهم- سَافِلَها أشَدُّ عليهم وأشَقُّ مِن جَعْلِ سافِلِها عالِيَها، وإن كان مُستلزِمًا له[٣].

- وفي قولِه: ﴿جَعَلۡنَا﴾ و﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ إسنادُ الجَعْلِ والإمطارِ إلى ضَميرِه سبحانه باعتبارِ أنَّه المسبِّبُ لِتَفخيمِ الأمرِ، وتَهويلِ الخَطْبِ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سورةِ (هودٍ): ﴿فَلَمَّا جَآءَ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٧١-٧٧٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٠).

أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾، وفي سورةِ (الحِجْرِ) قال: ﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر: ٧٤]؛ ففي الأُولَى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾، والضَّميرُ للقريةِ، والمرادُ أهلُها، وفي الثَّانيةِ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾، والضَّميرُ لِقَومِ لوطٍ، فاختَلَف الضَّميرُ مع اتِّحادِ المقصودِ، ووجهُ ذلك: أنَّ كُلًّا مِن الموضوعَين مُراعًى فيه مُناسَبةُ ما تَقدَّمَه؛ فلمَّا تقدَّم آيةَ (الحِجْرِ) قولُه تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الحجر: ٥٨]، فذكَر قومَ لوطٍ موصوفِين بالإجرامِ الموجِبِ لِهَلاكِهم، فرُوعِيَ هذا المتقدِّمُ، فقيل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحجر: ٧٤]، ونَظيرُ هذا قولُه تعالى في سورةِ (الذَّارياتِ): ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الذاريات: ٣٢- ٣٣]، فقيل: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لَمَّا تَقدَّم قولُه: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾، وأمَّا آيةُ (هودٍ) فلم يتَقدَّمْ فيها مثلُ هذا، فاكتَفى بضَميرِ القَريةِ، فقيل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [هود: ٨٢]، وأغنى ذلك عن ذِكْرِ المهلَكين؛ إذ هم المقصودون بالعذابِ؛ فورَد كلٌّ على ما يُناسِبُ[١].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٢-٢٦٣).

الآيات (٨٤-٨٦)

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبۡخَسُواْ﴾: أي: تَنْقُصُوا، وتَظْلِموا، والبَخْسُ: نقص الشيء على سبيل الظلم، وأصلُ (بخس): نقص[(١)].

﴿تَعۡثَوۡاْ﴾: العثوُّ أشدُّ الفَسادِ، وأصلُ (عثي): يدُلُّ على فَسادٍ[(٢)].

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾: أي: ما يُبقيه اللهُ لكم، وأصلُ (بقي): يدلُّ على دَوامٍ[(٣)].

المعنَى الإجماليُّ:

يُخبرُ اللهُ تعالى أنَّه أرسلَ إلى مَدْينَ أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا، فقال: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم مِن إلهٍ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه جلَّ وعلا، فأخلِصوا له العبادةَ، ولا تنقُصوا النَّاسَ حُقوقَهم في مَكاييلِهم ومَوازينِهم، إنِّي أراكم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص:٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٦).

في سَعَةِ عَيشٍ، وإنِّي أخاف عليكم -بسبَبِ شِركِكم، وإنقاصِكم المكيالَ والميزانَ- عذابَ يومٍ يُحيطُ بكم، ويا قومِ أتِمُّوا المكيالَ والميزانَ بالعَدلِ، ولا تَنقُصوا النَّاسَ حَقَّهم، ولا تَسيروا في الأرضِ تَعملونَ فيها بمعاصي اللهِ ونَشرِ الفَسادِ، إنَّ ما يبقَى لكم بعدَ إيفاءِ الكَيلِ والميزانِ مِن الرِّبحِ الحلالِ خيرٌ لكم ممَّا تأخذونَه بالتَّطفيفِ ونَحوِه من الكَسبِ الحَرامِ، إن كُنتُم تؤمِنونَ باللهِ حَقًّا، فامتَثِلوا أمْرَه، وما أنا عليكم برقيبٍ أُحصي عليكم أعمالَكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا انتَهَت قصَّةُ لوطٍ عليه السَّلامُ مُعلِمةً لِما قام به مِن أمرِ اللهِ غيرَ وانٍ فيه لرغبةٍ ولا رهبةٍ، وبما في إنزالِ الملائكةِ مِن الخطَرِ- أُتبِعت أقربَ القصَصِ الشَّهيرةِ إليها في الزَّمَن[1].

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾.

أي: وأرسَلْنا إلى أهلِ مَدينَ أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

قال ابنُ كثيرٍ: (هم قبيلةٌ من العَرَب، كانوا يسكنونَ بين الحِجازِ والشَّام، قريبًا من بلاد مَعان، في بلدٍ يُعرَف بهم، يقال لها «مَدْيَن»). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾.

أي: قال: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه لا شريكَ له، ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه[١].

﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا دعا إلى العدلِ فيما بينَهم وبينَ الله، دعاهم إلى العدلِ فيما بينَهم وبينَ عَبيدِه في أقبَحِ ما كانوا قد اتَّخَذوه بعدَ الشِّركِ دَيدنًا، فقال[٢]:

﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾.

أي: ولا تنقُصوا النَّاسَ حُقوقَهم في الكَيلِ والوَزنِ لهم[٣].

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾.

أي: إنِّي أراكم في سَعةٍ مِن الرِّزقِ، وكثرةِ نِعَمٍ، وخَيرٍ في معيشتِكم، فاشكُروا الله على ذلك[٤].

﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾.

أي: وإنِّي أخافُ عليكم -بسبَبِ شِركِكم، وبَخسِكم حقوقَ النَّاسِ- أن يَنزِلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٧١)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

بكم عذابُ يومٍ يحيطُ بكم، فلا يُفلِتُ منه أحدٌ[١].

﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان عدمُ النَّقصِ قد يُفهَمُ منه التَّقريبُ، أتبَعَه بما ينفي هذا الاحتمالَ، وللتَّنبيهِ على أنَّه لا يكفي الكفُّ عن تعمُّدِ التَّطفيفِ، بل يلزمُ السَّعيُ في الإيفاءِ، ولو بزيادةٍ لا يتأتَّى بدونِها[٢].

﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾.

أي: ويا قومِ أتمُّوا للنَّاسِ حُقوقَهم في الكَيلِ والوَزنِ لهم بالعَدلِ، مِن غيرِ نَقصٍ[٣].

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ ﴾.

أي: ولا تَنقُصوا النَّاسَ مِن حُقوقِهم شَيئًا[٤].

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

قال الواحدي: (والمحيطُ مِن صفةِ اليومِ في الظَّاهر، وهو في المعنى من صفةِ العذابِ؛ وذلك أنَّ يومَ العذابِ إذا أحاط بهم فقد أحاط بهم العذابُ). ((البسيط)) (١١/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

أي: ولا تَسيروا في الأرضِ بمَعصيةِ اللهِ، والإضرارِ بالخَلقِ[١].

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

أي: قال شُعَيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِقَومِه: ما يُبقيه اللهُ لكم بعد أن تُوَفُّوا النَّاسَ حُقوقَهم خيرٌ لكم من الحرامِ الذي تَجمَعونَه بظُلمِ النَّاسِ، شريطةَ أن تكونوا مؤمنينَ بما جئتُكم به[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾.

أي: وما أنا برقيبٍ عليكم عند كيلِكم ووَزنِكم، وليس عليَّ حفظُ أعمالِكم، وإنَّما عليَّ إبلاغُكم رسالةَ اللهِ[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الأنبياءُ عليهم السَّلامُ يَشرَعونَ في أوَّلِ الأمرِ بالدَّعوةِ إلى التوحيدِ؛ فلهذا قال شعيبٌ عليه السَّلامُ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ ثمَّ إنَّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٤).

قال القرطبي: (شَرطَ هذا؛ لأنَّهم إنما يعرفونَ صِحَّةَ هذا إن كانوا مؤمنينَ. وقيل: يحتملُ أنَّهم كانوا يعترفونَ بأنَّ الله خالقُهم، فخاطبهم بهذا). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

بعد الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، يَشرَعونَ في الأهمِّ ثمَّ الأهمِّ، ولَمَّا كان المعتادُ مِن أهلِ مَدْينَ البَخسَ في المكيالِ والميزانِ، دعاهم إلى تركِ هذه العادةِ في قولِه: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾[1].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ * وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ سلكَ شعيبٌ عليه السَّلامُ في نهيِهم عن الفَسادِ مَسلَك التدرُّجِ، وهذا من أساليبِ الحِكمةِ في تهيئةِ النُّفوسِ بقَبولِ الإرشادِ والكَمالِ، فابتدأ بنَهيِهم عن نوعٍ مِن الفسادِ فاشٍ فيهم، وهو التَّطفيفُ، ثمَّ ارتقَى فنهاهم عن جِنسِ ذلك النَّوعِ، وهو: أكلُ أموالِ النَّاسِ، ثمَّ ارتقَى فنهاهم عن الجِنسِ الأعلى للفَسادِ الشَّاملِ لجميعِ أنواعِ المفاسدِ، وهو: الإفسادُ في الأرضِ كُلِّه[2].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ أي: فلا تتَسَبَّبوا إلى زوالِه بفِعلِكم، ففيه أنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العمَلِ، فمَن بخسَ أموالَ النَّاسِ، يريدُ زيادةَ مالِه؛ عوقِبَ بنقيضِ ذلك، وكان سببًا لزوالِ الخيرِ الذي عندَه مِن الرِّزقِ[3].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ فيه أنَّ على العبدِ أن يقنَعَ بما آتاه اللهُ، ويقنعَ بالحلالِ عن الحرامِ، وبالمكاسبِ المُباحةِ عن المكاسبِ المحرَّمةِ، وأنَّ ذلك خيرٌ له؛ ففي ذلك من

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٨).

البَرَكةِ، وزيادةِ الرِّزقِ ما ليس في التكالُبِ على الأسبابِ المحرَّمةِ مِنَ المَحْقِ، وضِدِّ البَرَكةِ[١].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فيه أنَّ القناعةَ بالحلالِ عن الحرامِ، وبالمكاسبِ المباحةِ عن المكاسبِ المحرمةِ مِن لوازمِ الإيمانِ وآثارِه؛ فإنَّه رتَّبَ العملَ به على وجودِ الإيمانِ، فدَلَّ على أنَّه إذا لم يوجَدِ العمَلُ، فالإيمانُ ناقِصٌ أو معدومٌ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ دعاءُ شُعَيبٍ إلى عبادةِ اللهِ يقتضي أنَّهم كانوا يعبُدونَ الأوثانَ، وذلك بيِّنٌ مِن قَولِهم فيما بعدُ، وكُفرُهم هو الذي استوجَبوا به العذابَ لا معاصيهم؛ فإنَّ الله لم يعذِّبْ قطُّ أُمَّةً (عذابَ استئصالٍ عامٍّ) إلَّا بالكُفرِ، فإن انضافَت إلى ذلك معصيةٌ كانت تابعةً[٣].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ هذا النَّهيُ يتضمَّنُ الأمرَ بالإيفاءِ، وصرَّحَ به بعدُ في قولِه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ وهو يتضمَّنُ النَّهيَ عن النَّقصِ، ففي ذلك تأكيدٌ على الحَثِّ على عدمِ البَخسِ، وعلى الحثِّ على العدلِ[٤].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ فيه أنَّ نَقصَ المكاييلِ والموازينِ مِن كبائرِ الذُّنوبِ، وتُخشَى العقوبةُ العاجلةُ على مَن تعاطَى ذلك،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٩٩).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٩).

وأنَّ ذلك مِن سَرِقةِ أموالِ النَّاسِ، وإذا كانت سَرِقتُهم في المكاييلِ والموازينِ مُوجِبةً للوعيدِ، فسَرِقتُهم على وجهِ القَهرِ والغَلَبةِ مِن بابِ أَولَى وأحرَى[١].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ فيه أنَّ الكفَّارَ كما يُعاقَبونَ ويُخاطَبونَ بأصلِ الإسلامِ، فكذلك بشَرائِعِه وفروعِه؛ لأنَّ شُعَيبًا عليه السَّلامُ دعا قومَه إلى التَّوحيدِ، وإلى إيفاءِ المكيالِ والميزانِ، وجعلَ الوعيدَ مُرَتَّبًا على مجموعِ ذلك[٢].

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ بيَّن أنَّ ما فعلوه كان بَخسًا للنَّاسِ أشياءَهم؛ وأنَّهم كانوا عاثينَ في الأرضِ مُفسِدينَ قبل أن ينهاهم، بخلافِ قولِ «المُجْبرةِ» أنَّ ظُلمَهم ما كان سيِّئةً إلَّا لَمَّا نهاهم، وأنه قَبلَ النَّهيِ كان بمنزلةِ سائرِ الأفعالِ مِن الأكلِ والشُّربِ وغيرِ ذلك، كما يقولونَ في سائرِ ما نهت عنه الرسُلِ مِن الشِّركِ والظُّلمِ والفواحشِ[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ قيَّدَه بقَصدِ الإفسادِ؛ لأنَّ بعضَ ما هو إفسادٌ في الظَّاهرِ قد يرادُ به الإصلاحُ، أو دَفعُ أخَفِّ الضَّرَرينِ، كالذي يقعُ في الحربِ مِن قَطعِ الأشجارِ، أو فَتحِ سُدودِ الأنهارِ، أو إحراقِ بعضِ الأشياءِ بالنَّارِ، ومنه خَرقُ الخَضِرِ للسَّفينةِ التي كانت لمساكينَ يعمَلونَ في البَحرِ؛ لِمنعِ المَلِكِ الظَّالمِ الذي وراءَهم[٤].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾ لفظُ ﴿بَقِيَّتُ﴾ كلمةٌ جامعةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١١٧).

لمعانٍ في كلامِ العرَبِ، منها: الدَّوامُ، ومُؤذِنةٌ بضِدِّه وهو: الزَّوالُ، فأفادت أنَّ ما يقترِفونَه متاعٌ زائِلٌ، وما يَدعوهم إليه حظٌّ باقٍ غيرُ زائلٍ، وبقاؤُه دُنيويٌّ وأخرويٌّ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟﴾ استِئْنافٌ وقَع جَوابًا عن سؤالٍ نشَأ عن صدرِ الكلامِ، فكأنَّه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال كما قال مَنْ قبلَه مِن الرُّسلِ عليهم السَّلامُ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾[٢].

- قولُه: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ تحقيقٌ للتَّوحيدِ، وتعليلٌ للأمرِ به[٣].

- قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ...﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ فقدَّمَ النَّهيَ على الأمرِ؛ لأنَّ دفْعَ المفاسدِ آكَدُ مِن جلْبِ المصالحِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾: جملةٌ تعليليَّةٌ للنَّهيِ عن نقْصِ المكيالِ والميزانِ، أي: إنَّكم في غِنًى عن هذا التَّطفيفِ بما أُوتيتُم مِن النِّعمةِ والثَّرْوةِ، وهذا التَّعليلُ يَقْتَضي قُبحَ ما يَرتكِبونه مِن التَّطفيفِ في نظَرِ أهْلِ المُروءةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٦٩).

ويَقطَعُ مِنهم العُذرَ في ارتِكابِه، وهذا حَثٌّ على وسيلةِ بَقاءِ النِّعمةِ[١]؛ ونبَّه بقولِه: ﴿بِخَيْرٍ﴾ على العلَّةِ المقتضِيَةِ للوفاءِ لا للنَّقصِ[٢].

- قولُه: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ فيه وصْفُ اليومِ بالإحاطةِ، وهو أبلَغُ مِن وصْفِ العذابِ به؛ لأنَّ اليومَ زَمانٌ يَشتمِلُ على الحوادثِ، فإذا أحاط بعَذابِه فقد اجتمَع للمُعذَّبِ ما اشتمَل عليه منه، كما إذا أحاط بنَعيمِه[٣]، وفيه أيضًا ارتِقاءٌ في تعليلِ النَّهيِ بأنَّه يَخافُ عليهم عَذابًا يَحِلُّ بهم؛ إمَّا يومَ القيامةِ وإمَّا في الدُّنيا، ولِصُلوحيَّتِه للأمْرَينِ أجمَلَه بقولِه: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾، وهذا تحذيرٌ مِن عَواقِبِ كُفْرانِ النِّعمةِ، وعِصْيانِ واهِبِها[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ فيه إعادةُ النِّداءِ في جُملةِ ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ﴾؛ لزِيادةِ الاهتمامِ بالجُمْلةِ، والتَّنبيهِ لِمَضمونِها، وهو الأمرُ بإيفاءِ المكيالِ والميزانِ[٥].

- قولُه: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ فيه تصريحٌ بالأمرِ بالإيفاءِ بعدَ النَّهيِ عن ضدِّه، وهو قولُه: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٣- ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وَٱلۡمِيزَانَ ﴾؛ مبالَغةً وتنبيهًا على أنَّه لا يَكْفيهم الكفُّ عن تَعمُّدِهم التَّطفيفَ، بل يَلزَمُهم السَّعيُ في الإيفاءِ؛ فهذا الأمرُ تأكيدٌ للنَّهيِ عن نَقصِهما، والشَّيءُ يُؤكَّدُ بنفيِ ضدِّه؛ لزيادةِ التَّرغيبِ في الإيفاءِ بطلَبِ حُصولِه بعدَ النَّهيِ عن ضدِّه، كقولِه تعالى: ﴿ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾[1] [طه: ٧٩].

- وعبَّر بقولِه: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ ﴾؛ لِيَكونَ الإيفاءُ على جِهَةِ العدلِ والتَّسويةِ وهو الواجبُ؛ لأنَّ ما جاوزَ العدلَ فضلٌ، وأمرٌ مندوبٌ إليه[2].

- قولُه: ﴿مُفۡسِدِينَ ﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ لِعامِلِها ﴿تَعۡثَوۡاْ ﴾؛ مُبالَغةً في النَّهيِ عن الفسادِ[3].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ حصَل النَّهيُ عن الأعَمِّ بعدَ النَّهيِ عن العامِّ، وبه حصَلَت خَمسةُ مُؤكِّداتٍ: أوَّلُها: الأمرُ بعدَ النَّهيِ عن الفسادِ الخاصِّ، ثانيها: التَّعميمُ بعدَ التَّخصيصِ، ثالِثُها: زيادةُ التَّعميمِ، رابعًا: تأكيدُ التَّعميمِ الأعَمِّ بتعميمِ المكانِ، خامِسُها: تأكيدُه بالمؤكِّدِ اللَّفظيِّ[4].

٣- قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾

- قولُه: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾، أي: افْعَلوا ذلك باختيارِكم؛ لأنَّه لِصَلاحِكم، ولَسْتُ مُكْرِهَكم على فِعْلِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٧- ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٣٨).

والمقصودُ من ذلك استِنْزالُ طائرِهم لئلَّا يَشمئِزُّوا مِن الأمرِ، وهذا استقصاءٌ في التَّرغيبِ، وحُسْنِ الجدالِ[١].

- قولُه: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فيه إضافةُ ﴿بَقِيَّتُ﴾ إلى اسْمِ الجلالةِ على المعاني كلِّها جَمْعًا وتفريقًا، إضافةَ تَشريفٍ وتيَمُّنٍ، وهي إضافةٌ على معنى اللَّامِ؛ لأنَّ البقيَّةَ مِن فضْلِه أو ممَّا أمَر به[٢].

- وفي قولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ جاء باسْمِ الفاعلِ ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ الَّذي هو حقيقةٌ في الاتِّصافِ بالفعلِ في زَمانِ الحالِ؛ تقريبًا لإيمانِهم بإظهارِ الحِرْصِ على حُصولِه في الحالِ، واستعجالًا بإيمانِهم؛ لِئَلَّا يَفْجَأَهمُ العذابُ فيَفُوتَ التَّدارُكُ[٣].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٤١).

الآيات (٨٧-٩٠)

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾: يَحمِلنَّكم أو يُكسِبنَّكم، وأصلُ (جرم): يدلُّ على قَطعٍ[1].

﴿شِقَاقِيٓ﴾: أي: عداوتي، أو مُخالفتي، وأصلُ (شقق): يدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾

﴿أَن نَّفۡعَلَ﴾: مصدرٌ مُؤَوَّلٌ في محلِّ نَصبٍ عطفًا على (ما) في ﴿مَا يَعۡبُدُ﴾، والتَّقديرُ: أصلاتُك تأمُرُك أن نترُكَ ما يعبُدُ آباؤُنا، أو أن نترُكَ أن نفعَلَ في أموالِنا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠).

ما نشاءُ، وليس بمعطوفٍ على ﴿أَن نَّتۡرُكَ﴾؛ إذ ليس المعنى: أصلاتُك تأمُرُك أن نفعَلَ في أموالِنا ما نشاءُ[(١)].

المعنَى الإجماليُّ:

تُبيِّنُ الآياتُ ما ردَّ به قومُ شُعَيبٍ عليه، فقالوا له: يا شُعَيبُ أهذه الصَّلاةُ التي تُداوِمُ عليها تأمُرُك بأن نترُكَ ما يعبُدُ آباؤنا من الأصنامِ والأوثانِ، أو أن نترُكَ التصَرُّفَ في كَسبِ أموالِنا بما نستطيعُ مِن احتيالٍ ومكرٍ؟ وقالوا- استهزاءً به-: إنَّك لأنت الحليمُ الرَّشيدُ، فقال لهم: يا قومِ أرأيتُم إن كنتُ على طريقٍ واضحٍ مِن ربِّي فيما أدعوكم إليه مِن إخلاصِ العِبادةِ له، وفيما أنهاكم عنه مِن ظُلمِ النَّاسِ، ورزَقَني منه رِزقًا واسِعًا حلالًا طَيِّبًا، أفأضِلُّ كما ضَلَلتُم؟ وما أريدُ أن أخالِفَكم فأرتكِبَ أمرًا نهيتُكم عنه، وما أريدُ فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه إلَّا إصلاحَكم قَدْرَ طاقتي واستطاعَتي، وما توفيقي- في إصابةِ الحَقِّ، ومحاولةِ إصلاحِكم- إلَّا باللهِ، على اللهِ وَحْدَه توكَّلتُ، وإليه أرجِعُ بالتَّوبةِ والإنابةِ، ويا قومِ لا تحمِلنَّكم عداوتي وبُغضي ومُخالفتي في ديني على العنادِ والإصرارِ على ما أنتم عليه من الكُفرِ باللهِ، فيُصيبَكم مثلُ ما أصاب قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قومَ صالحٍ مِن الهلاكِ، وما قومُ لوطٍ- الذين حلَّ بهم العذابُ- ببَعيدٍ منكم لا في الدَّارِ ولا في الزَّمانِ، واطلُبوا من ربِّكم المغفرةَ لذُنوبِكم، ثمَّ ارجِعوا إلى طاعتِه واستمِرُّوا عليها؛ إنَّ ربِّي رحيمٌ كثيرُ المودَّةِ والمحبَّةِ لِمَن تاب إليه وأناب.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾.

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٧٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧١١-٧١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٧٢-٣٧٣).

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾.

أي: قال قومُ شُعَيبٍ مُستهزئينَ بنبيِّهم: يا شُعيبُ، أصلاتُك[١] تأمُرُك أن نترُكَ ما يعبُدُ آباؤُنا من الأوثانِ والأصنامِ[٢]؟!

﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾.

أي: أو تأمُرُك صلاتُك أن نترُكَ فِعلَ ما نريدُ في أموالِنا من التَّطفيفِ في الكَيلِ والميزانِ[٣]؟!

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

أي: قال قومُ شُعَيبٍ مُستهزئينَ بنبيِّهم: إنَّك- يا شُعَيبُ- لأنت الحليمُ الرَّشيدُ[٤] في أمرِك لنا بتَركِ عبادةِ الأصنامِ، وتَركِ بَخسِ النَّاسِ، يعنونَ بذلك وصفَه عليه السَّلامُ بالسَّفَهِ والجَهلِ[٥]!

---

(١) ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾: الصلواتُ المعروفةُ: الزمخشريِّ والقرطبيِّ والسعدي وابنِ عاشورٍ، وهو قولُ الحسنِ، وجعَل ابنُ عطيةَ هذا القولَ- وكذلك القولُ بأنَّها (الدعوات)- أقربَ الأقوال. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٠).
وقيل: إنَّ المرادَ بها: دينُه، قاله عطاءٌ. وقيل: قراءتُه، قاله الأعمش. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٣).

(٤) قال ابن عاشور: (والحليمُ: ذو الحِلْمِ، أي: العقلِ، والرَّشيدُ: الحسنُ التَّدبيرِ في المالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٤، ٥٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٢).

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا اتَّهمَ قومُ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ شُعَيبًا بأنه يأمرهم بالقطيعةِ لآبائهم واتهموه بالسَّفَهِ، وعَنوا بقولِهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ نسبتَه إلى السفهِ والغيِّ على طريقِ التهكمِ؛ شرعَ في إبطالِ ما قالوا، ونَفيِ التُّهمةِ فيه[1].

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا ﴾.

أي: قال شُعَيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: يا قومِ أخبِروني إن كنتُ على يقينٍ وعلمٍ مِن الله فيما أمَرَني أن أدعوَكم إليه من توحيدِه، وفيما أنهاكم عنه مِن ظُلمِ

قيل: المرادُ بقولهم: (الحليم الرشيد): (السفيه الجاهل)، فوصفوه بالحلمِ والرشدِ على سبيلِ التهكُّمِ والاستهزاءِ به. وممن قال بذلك: ابنُ جرير والواحديُّ، والزمخشري، والشوكانيُّ، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٨- ٥٨٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٢).

وممن قال ذلك من السلف: ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، وميمونُ بنُ مهران، وابنُ جريج، وابنُ أسلمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤).

وقيل: إنَّه عليه السلامُ كان مشهورًا عندَهم بأنَّه حليمٌ رشيدٌ، فلمَّا أمَرهم بمفارقةِ طريقتِهم قالوا له: إنَّك لأنت الحليمُ الرشيدُ، المعروفُ الطريقةِ في هذا البابِ، فكيف تنهانا عن دينٍ ألفيناه مِن آبائِنا وأسلافِنا، فما تأمرُ به لا يطابقُ حالَك، وما شُهِرت به. والمقصودُ استبعادُ مثلِ هذا العملِ ممن كان موصوفًا بالحلمِ والرشدِ. وممن اختار هذا المعنى: الرازي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٢٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥٧).

النَّاسِ، وأعطاني اللهُ مِن فَضلِه مالًا حلالًا طيِّبًا، أفأتَّبِعُ الضَّلالَ، وأضِلُّ كما ضَلَلتُم[(١)]؟

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾.

أي: وما أريدُ أن أنهاكم عن شيءٍ ثمَّ أفعلَ خِلافَه[(٢)].

عن أسامةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((يُؤْتَى بالرَّجُلِ يومَ القيامة فيُلقى في النَّار، فتندلِقُ أقتابُ بَطنِه[(٣)]، فيدورُ بها كما يدورُ الحِمارُ بالرَّحى، فيَجتَمِعُ إليه أهلُ النَّارِ، فيقولونَ: يا فلانُ، ما لك؟! ألم تكُن تأمُرُ بالمعروفِ وتنهى عن المُنكَر؟! فيقولُ: بلى، قد كنتُ آمُرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنًا﴾: المالُ الحلالُ الطَّيِّبُ: ابنُ جرير، والواحدي- ونسَبه لأكثرِ المفسِّرينَ- والسعدي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).
وممَّن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباسٍ، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٧٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٤٦٧).
وممَّن اختار أنها النبُوَّة: الزمخشري وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٣).
وقال ابن كثير: (قيل: أراد النبوَّة. وقيل: أراد الرِّزقَ الحلالَ، ويحتمِلُ الأمرينِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤).
وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٣).
قال ابن عاشور: (معنى ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ عند جميع المفسِّرينَ من التابعينَ فمَن بَعدَهم: ما أريدُ ممَّا نهيتُكم عنه أن أمنَعَكم أفعالًا وأنا أفعَلُها، أي: لم أكنْ لأنهاكم عن شيءٍ وأنا أفعَلُه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٣).

(٣) فتندلقُ أقتابُ بطنِه: أي تخرجُ أمعاؤُه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١١٧).

بالمعروفِ ولا آتيه، وأنهى عن المُنكَرِ وآتيه))[١].

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾.

أي: ما أُريدُ بنصيحتي لكم إلَّا إصلاحَ أمورِكم وأحوالِكم، ونَفْعَكم في دُنياكم وآخِرتِكم بقَدرِ جُهدِي[٢].

﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الكلامُ السَّابِقُ فيه نوعُ تَزكيةٍ للنَّفسِ، دفَعَ هذا بقولِه[٣]:

﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

أي: وما إصابتي الحَقَّ فيما أريدُه، وتيسُّرُ الخيرِ لي، إلَّا بإعانةِ اللهِ وَحدَه[٤].

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

أي: على اللهِ اعتمَدتُ، وفوَّضتُ إليه جميعَ أموري، وإليه وَحْدَه أرجِعُ بالتَّوبةِ والطَّاعةِ والدُّعاءِ[٥].

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٠، ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن شُعَيبٌ عليه السَّلامُ لِقَومِه عُذرَه بما انتَفَت به تُهمتُه، أتبَعَه بما يدُلُّهم على أنَّ الحَقَّ وضَحَ لهم وضوحًا لم يبقَ معه إلَّا المُعاندةُ، فحَذَّرَهم عواقِبَها، وذكَّرَهم أمرَ مَن ارتكَبَها[1].

﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖ ﴾.

أي: قال شُعيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِقَومِه: ويا قومِ لا تحمِلَنَّكم مُخالفتي في ديني، وبُغضُكم لي، على الإصرارِ على الكُفرِ، وظُلمِ النَّاسِ، فيُصيبَكم مِن عذابِ اللهِ مثلُ ما أصاب قومَ نُوحٍ مِن الغرَقِ، أو قومَ هُودٍ مِن الرِّيحِ، أو قومَ صالحٍ مِن الرَّجفةِ[2].

﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾.

أي: وما قومُ لوطٍ ببعيدٍ مِنكم، بل هم قريبٌ مِن ديارِكم، وأهلَكَهم اللهُ في زمانٍ قريبٍ مِن زمانِكم، فاعتَبِروا بهم[3].

﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠ ﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا رهَّبَ شُعَيبٌ عليه السَّلامُ قَومَه، أتبَعَه التَّرغيبَ في سياقٍ مُؤذِنٍ بأنَّهم

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦). قال ابن كثير: (قيل: المرادُ في الزَّمان... وقيل: في المكانِ، ويحتملُ الأمران). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦).

إن لم يبادِروا إلى المَتاب، بادَرَهم بالعذاب[١].

﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾.

أي: واستَغفِروا ربَّكم- يا قومِ- فاطلُبوا منه سَترَ ذُنوبِكم السَّالفةِ مِن الكُفرِ وظُلمِ النَّاسِ، والتَّجاوُزَ عن مؤاخَذتِكم بذلك، ثم توبُوا إلى ربِّكم فيما تَستَقبِلونَه؛ بالتَّوبةِ النَّصوحِ، والرُّجوعِ إلى طاعتِه، وامتثالِ أمرِه، وتَركِ مَعصيتِه[٢].

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴾.

أي: إنَّ ربِّي رحيمٌ بمن رجع إليه، محِبٌّ لعبادِه المُنيبينَ التَّائبينَ[٣].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ ﴾ نبَّهَت هذه الأجوبةُ الثَّلاثةُ على أنَّ العاقِلَ يجِبُ أن يُراعيَ في كلِّ ما يأتي ويذَرُ أحدَ حُقوقٍ ثلاثةٍ؛ أهمُّها وأعلاها: حقُّ اللهِ، وثانيها: حقُّ النَّفسِ، وثالثُها: حقُّ العبادِ، على وجهِ الإخلاصِ في الكُلِّ[٤].

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الواعظَ إذا أراد أن يُقبَلَ منه الأمرُ والنَّهيُ، فلا بدَّ له إذا أَمَرَ بشيءٍ أن يكونَ أوَّلَ الفاعلينَ له المُؤتَمِرينَ به، وإذا نهى عن شيءٍ أن يكونَ أوَّلَ المُنتهينَ عنه؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٢)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٦٢ - ٣٦٤)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥٩).

النُّفوسَ مَجبولةٌ على عدمِ الانتفاعِ بكلامِ مَن لا يعملُ بعلمِه، ولا يَنتَفِعُ به[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ فيه ما يدُلُّ على أنَّ المُنتَقدينَ قِسمانِ: قسِمٌ ينتَقِدُ الشَّيءَ، ويقِفُ عند حدِّ النَّقدِ دون ارتقاءٍ إلى بيانِ ما يُصلِحُ المَنقودَ، وقِسمٌ ينتقِدُ ليبيِّنَ وجهَ الخطأ، ثم يُعقِبُه ببيان ما يُصلِحُ خَطأَه[٢].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ هذه الصيغةُ تفيدُ الحصرَ، فلا ينبغي للإنسانِ أن يتوكَّلَ على أحدٍ إلَّا على الله تعالى[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ النَّدمَ على فِعلِ الفَسادِ والظُّلمِ- بالتَّوبةِ واستغفارِ الرَّبِّ تعالى- من أسبابِ خيرِ الدُّنيا والآخرةِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ بيانُ أنَّ وُدَّه سُبحانه هو لِمَن تابَ إليه وأنابَ، فلا يَستوحِش أهلُ الذُّنوبِ، ويَنفِرونَ منه؛ فإنَّه ودودٌ رحيمٌ بالمؤمنينَ، يحبُّ التَّوابين ويحِبُّ المتطهِّرينَ[٥].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ﴾ سمَّوه باسمِه جفاءً وغِلظةً[٦].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٨٩)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٢١).
(٥) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٦٩).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥٦).

ءَابَآؤُنَآ﴾ لَمَّا كانت الصلاةُ أخَصَّ أعمالِه المُخالفةِ لمُعتادِهم، جعلوها المُشيرةَ عليه بما بلَّغَه إليهم من أمورٍ مُخالِفةٍ لمُعتادِهم[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ المقصودُ: بيانُ أنَّه مأمورٌ بذلك أمرًا يعُمُّ الأُمَّةَ وإيَّاه، وذلك شأنُ الشَّرائعِ، فخِطابُ الأمَّةِ يشمَلُ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ما لم يدُلَّ دليلٌ على تخصيصِه بخلافِ ذلك، ففي هذا إظهارُ أنَّ ما نهاهم عنه ينهى أيضًا نفسَه عنه[٢].

٤- في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ دلالةٌ على أنَّه يُشترطُ فيمَن يَختارُ الإمامُ لمنصبِ الحِسْبَةِ[٣] أنْ يكونَ مُخلِصًا متجرِّدًا للنُّصحِ، فلا تكونُ له مصلحةٌ شخصيَّةٌ فيما يأمرُ أو يَنهى عنه، وإنَّما تكونُ غايتُه الإصلاحَ[٤].

٥- جَمَعَ قولُه تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ بين الأصلينِ: التوكُّلِ (وهو الوسيلةُ)، وبين الإنابةِ (وهي الغايةُ)؛ فإنَّ العبدَ لا بُدَّ له مِن غايةٍ مطلوبةٍ، ووسيلةٍ مُوصلةٍ إلى تلك الغايةِ، فأشرفُ غاياتِه التي لا غايةَ له أَجَلُّ منها: عبادةُ ربِّه والإنابةُ إليه، وأعظمُ وسائلِه التي لا وسيلةَ له غيرُها البتَّةَ: التوكُّلُ على اللهِ والاستعانةُ به[٥]، وهذان الأصلانِ يجمعانِ الدِّينَ كلَّه[٦].

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ إثباتُ الصِّفاتِ الاختياريَّةِ لله تعالى، ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى يحِبُّ أصحابَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٤٤).

(٣) الحِسْبَة: منصبٌ كان يَتولَّاه فِي الدُّوَلِ الإسلامية رَئِيسٌ يُشرِفُ على الشؤونِ العامَّة؛ مِن مراقبةِ الأسعارِ ورعايةِ الآدَابِ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((الحسبة)) لابن تيمية (ص: ٧٨).

(٥) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٦).

(٦) يُنظر: ((التحفة العراقية)) لابن تيمية (ص: ٤٣).

هذه الأعمالِ، فهو يحبُّ التَّوابينَ، وإنَّما يكونون توَّابينَ بعد الذَّنبِ، ففي هذه الحالِ يحبُّهم[١].

٧- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ بعد قولِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ بيانُ مودَّتِه سُبحانه للمُذنِبِ إذا تاب إليه[٢].

٨- قال شعيبٌ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ما ألطَفَ اقترانَ اسمِ الودودِ بالرَّحيمِ وبالغفورِ؛ فإنَّ الرجُلَ قد يغفِرُ لِمَن أساء إليه ولا يحِبُّه، وكذلك قد يرحَمُ من لا يحِبُّ، والرَّبُّ تعالى يغفِرُ لعبدِه إذا تاب إليه، ويرحَمُه ويحِبُّه مع ذلك؛ فإنَّه يحِبُّ التوَّابينَ، وإذا تاب إليه عبدُه أحبَّه، ولو كان منه ما كان[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾

- جملةُ: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ فيه وصْفُهم لِشُعيبٍ عليه السَّلامُ بالوَصْفَين على طريقةِ التَّهكُّمِ، وإنَّما أرادوا بذلك وصْفَه بضِدَّيْهما[٤].

- وقد جاءت الجملةُ مؤكَّدةً بحرفِ (إنَّ)- في: ﴿إِنَّكَ﴾- ولامِ القسَمِ، وبصيغةِ القَصْرِ في جُملةِ: ﴿لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾، وهي تعريفُ الجُزأَين (أنتَ- الحليمُ)؛ فاشتمَلَت على أربعةِ مؤكِّداتٍ[٥].

- وفي جملة ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ ما يُعرَفُ بالتمكينِ أو ائتلافِ

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٥٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٩).
(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٢).

الفاصلةِ، ويُسمِّيه بعضُهم المُلاءَمَة[١]؛ وذلك أنَّه لَمَّا تقدَّم في الآية ذِكرُ العبادةِ، وتلاه ذِكرُ التصرُّفِ في الأموالِ في قولِه: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾؛ اقتضَى ذلك ذِكرَ الحِلمِ والرُّشدِ على الترتيبِ؛ لأنَّ الحِلمَ العقلُ الذي يَصِحُّ به تكليفُ العباداتِ ويَحضُّ عليها، والرشدَ حُسنُ التصرُّفِ في الأموالِ؛ فكان آخِرُ الآيةِ مُناسِبًا لأوَّلِها مُناسَبةً معنويَّةً[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾

- قولُه: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ...﴾ فيه مُراجَعةٌ لطيفةٌ، واستِنْزالٌ حسَنٌ، واستِدْعاءٌ رقيقٌ، وهو ما يُسمَّى باستِدْراجِ المخاطَبِ؛ للبُلوغِ إلى الغرَضِ[٣].

- وحُذِف جوابُ ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ ولَم يُثبَتْ كما أُثبِتَ في قصَّةِ نوحٍ ولوطٍ؛ لأنَّ إثباتَه في القِصَّتَين دلَّ على مَكانِه، ومعنى الكلامِ يُنادي عليه[٤].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ فيه إيرادُ حرْفِ الشَّرطِ ﴿إِن﴾ معَ جَزْمِ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ بكَونِه على ما هو عليه مِن البيِّناتِ والحُجَجِ؛ لاعتبارِ حالِ

---

(١) التمكينُ (الملائمة): هو أن يُمَهَّد قبلَ الفاصلةِ تمهيدٌ تأتي به الفاصلةُ مُمَكَّنةً في مكانها، مُستقرَّةً في قرارِها، مُطمئِنَّةً في موضعها، غيرَ نافرةٍ ولا قَلِقَةٍ، مُتعلِّقًا معناها بمعنى الكلامِ كلِّه تَعلُّقًا تامًّا، بحيثُ لو طُرِحتْ لاختلَّ المعنى، واضطرَب الفَهمُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٧٩)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٨٠)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩٨).

المخاطَبين ومُراعاةِ حُسنِ المحاورةِ معَهم[١].

- قولُه: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ على القول بأنَّ المرادَ بالرِّزقِ الحسَنِ هنا هو نِعمةُ النُّبوَّة؛ ففيه تعبيرُ شُعيبٍ عليه السَّلامُ عَن النُّبوَّةِ بالرِّزقِ؛ على وجْهِ التشبيهِ مُشاكَلةً لقولِهم: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾؛ لأنَّ الأموالَ أرزاقٌ[٢].

- قولُه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ بيانٌ لقولِه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾؛ لأنَّ انتِفاءَ إرادةِ المخالَفةِ إلى ما نَهاهم عنه مُجمَلٌ فيما يُريدُ إثباتَه مِن أضدادِ المنفيِّ، فبيَّنه بأنَّ الضِّدَّ المرادَ إثباتُه هو: الإصلاحُ في جميعِ أوقاتِ استطاعته بتَحْصيلِ الإصلاحِ؛ فالقَصْرُ قَصرُ قَلبٍ[٣]، وأفادَت صيغةُ القصرِ (إنْ... إلَّا) تأكيدَ ذلك؛ لأنَّ القَصْرَ قد كان يَحصُلُ بمجرَّدِ الاقتصارِ على النَّفيِ والإثباتِ، نحوُ أن يَقولَ: (ما أريدُ أن أُخالِفَكم، أُريدُ الإصلاحَ)[٤].

- قولُه: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فيه إيثارُ صيغةِ الاستقبالِ ﴿أُنِيبُ﴾ على الماضي الأنسَبِ للتَّقرُّرِ والتَّحقُّقِ كما في ﴿تَوَكَّلْتُ﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٢).

(٣) القصر- في اصطلاح البلاغيين -: هو تخصيص شيء بشيء وحصره فيه، ويُسمَّى الأمر الأول: مقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنما زيد قائم، و: ما ضربت إلَّا زيدًا. وقصر القلب: أن يقلب المتكلم فيه حُكم السامع، كقولك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لمن يعتقد أنَّ شاعرًا في قبيلة معينة أو طرف معين، لكنَّه يقول: ما زيدٌ هناك بشاعر. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧- ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٧).

والدَّلالةِ على الاستمرارِ[١].

- وقولُه تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ يفيدُ الحصرَ، فيدُلُّ على أنَّه لا مآبَ للخَلقِ إلَّا إلى اللهِ تعالى[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ جملةٌ تعليليَّةٌ للأمرِ بالاستغفارِ والتَّوبةِ[٣].

- ولفظةُ: ﴿وَدُودٞ﴾ بِناءُ مُبالَغةٍ مِن وَدَّ الشَّيءَ، أي: أحَبَّه وآثرَه[٤].

- وقولُه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، و﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ فيه تَفنُّنٌ في إضافةِ الرَّبِّ إلى ضميرِ نفسِه مرَّةً، وإلى ضميرِ قومِه أخرى؛ لِتَذكيرِهم بأنَّه ربُّهم؛ كَيْلا يَستمِرُّوا على الإعراضِ، وللتَّشرُّفِ بانتِسابِه إلى مَخلوقيَّتِه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٧).

الآيات (٩١-٩٥)

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَفۡقَهُ﴾: أي: نفهمُ، ويقال: فقهتُ الكلام إذا فهمتَه حقَّ فهمِه، والفقهُ: هو التوصلُ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، وأصلُ (فقه): يدلُّ على إدراكِ الشيءِ، والعلمِ به(٦).

﴿رَهۡطُكَ﴾: أي: عشيرتُك وقومُك، وأصلُ (رهط): يدلُّ على تجمُّعٍ في النَّاسِ وغيرِهم(٧).

﴿لَرَجَمۡنَٰكَ﴾: أي: لقتلناك رميًا بالحجارةِ، أو لَسَبَبْناك، وأصلُ (رجم): رميٌ بالحجارةِ(٨).

---

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١).

(٨) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١)، ((الكليات))

﴿ظِهْرِيًّا﴾: الظِّهْريُّ: كلُّ شَيءٍ تجعَلُه بظَهرٍ، أي: تَنساه، كأنَّك قد جعلتَه خلفَ ظَهرِك؛ إعراضًا عنه وتركًا له، وأصلُ (ظهر): يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ[١].

﴿مَكَانَتِكُمْ﴾: أي: طَريقتِكم التي أنتم عليها، تقولُ للرَّجُلِ إذا أمَرْتَه أن يَثبُتَ على حالِه: على مكانَتِك، أي: اثبُتْ على ما أنت عليه[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى عن قومِ شُعَيبٍ أنَّهم قالوا له: يا شُعَيبُ لا نفهم كثيرًا ممَّا تقولُ، وإنَّنا لَنراك فينا ضعيفًا، ولولا مُراعاةُ عَشيرتِك- الذين هم من أهلِ مِلَّتِنا- لرجمناك، وليس لك قَدْرٌ أو مكانةٌ في نفوسِنا. قال: يا قومِ أعشيرتي أعزُّ وأكرَمُ عليكم من اللهِ؟ وجعلتُموه خلفَ ظُهورِكم، لا تأتَمِرونَ بأمره، ولا تنتَهونَ بنهيِه، إنَّ ربِّي بما تَعملونَ مُحيطٌ، لا يخفى عليه من أعمالِكم مِثقالُ ذَرَّةٍ، وسيُجازيكم عليها.

ويا قومِ اعمَلوا على طريقتِكم وحالتِكم، إنِّي عاملٌ مُثابِرٌ على طريقتي ودِيني، سوف تعلمونَ مَن مِنَّا يأتيه عذابٌ يذلُّه، ومَن منَّا كاذبٌ في قولِه، أنا أم أنتم؟ وانتَظِروا ما سيَحُلُّ بكم، إنِّي معكم من المُنتَظرينَ، ولَمَّا جاء أمرُنا بإهلاكِ قَومِ شُعَيبٍ نجَّينا رسولَنا شُعيبًا والذين آمنوا معه برحمةٍ منَّا، وأخذتِ الذين ظلَموا الصَّيحةُ من السَّماءِ فأهلكَتْهم، فأصبحوا في ديارِهم باركينَ على رُكَبِهم، مُنكبِّينَ على وُجوهِهم؛ ميِّتينَ، لا حِرَاك بهم، كأنْ لم يُقيموا في ديارِهم وقتًا من الأوقاتِ، ألا بُعدًا لـمَدينَ- إذ أهلَكها اللهُ وأخزاها- كما بَعِدَت قبلَهم ثمودُ.

للكفوي (ص: ٤٨٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٤٥٠).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا رأى قومُ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ أنَّه لا يَنزِعُ عنهم، ولم يَقدِروا لكلامِه على جوابٍ؛ أيأسُوه من الرُّجوعِ إليه بأن أنزَلوا أنفُسَهم- عنادًا في الفَهمِ لهذا الكلامِ الواضحِ جِدًّا- إلى عِدادِ البهائمِ، وهَدَّدوه[1].

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾.

أي: قال قومُ شُعَيبٍ: يا شُعَيبُ لا نفهَمُ كثيرًا ممَّا تَعِظُنا وتُخبِرُنا به[2].

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗا﴾.

أي: وإنَّا لنراك فينا ضعيفًا، لا قُوَّةَ لك تقدِرُ بها على أنْ تمنعَ نفسَكَ مِنَّا[3].

﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦).

قال القرطبي: (﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: ما نفهمُ؛ لأنَّك تحمِلُنا على أمورٍ غائبةٍ مِن البعث والنُّشورِ، وتَعِظُنا بما لا عهدَ لنا بمِثلِه. وقيل: قالوا ذلك إعراضًا عن سماعِه، واحتقارًا لكلامِه). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٩٠)، ((تفسير المنار)) (١٢/ ١٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٢٧).

قيل في معنَى ﴿ضَعِيفٗا﴾ أي: ليس لك جندٌ وأعوانٌ تقدرُ بها على مخالفتِنا، وقيل: المعنى: لست من الكبارِ والرؤساءِ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

أي: ولولا معَزَّتُنا لِعَشيرتِك وجماعتِك -الذين هم على دينِنا- لرجمناك[١].

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾.

أي: وما أنت علينا بكَريمٍ، ولا مَعَزَّةَ لك عندنا ولا قدْرَ، ولا نُبالي بإذلالِك[٢].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِۖ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قال شعيبٌ لقومِه: يا قومِ أعشيرتي أعظَمُ مِن اللهِ في قُلوبِكم وأعَزُّ عليكم منه، فتركتُم رجمي لأجلِ عَشيرتي وليس لله عزَّ وجلَّ[٣]؟!

﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾.

أي: وجعلتُم اللهَ خلفَ ظُهورِكم مُستخِفِّينَ به، لا تخافونَ منه، ولا تُطيعونَه، ولا تعَظِّمونَه[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).
قيل: معنى ﴿لَرَجَمۡنَٰكَ﴾: لقتلناك رجمًا بالحجارةِ. وممَّن اختار هذا المعنى: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١).
وقيل المراد: لسَبَبْناك. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).
قال الواحدي: (وجميعُ أهلِ المعاني قالوا: الكِنايةُ في قولِه: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ تعودُ إلى أمرِ اللهِ، وما جاءَهم به شُعَيبٌ مِن الله تعالى، وهو في الظَّاهِر يعودُ على اسمِ اللهِ تعالى، ولكنَّه يُعرَفُ

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

أي: إنَّ ربِّي مُحيطٌ عِلمًا بجميعِ أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها[١].

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا يئِسَ نبيُّ الله شُعيبٌ مِن استجابةِ قَومِه له، وأعيَوه، وعجَزَ عنهم، قال[٢]:

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ﴾.

أي: ويا قومِ، اعمَلوا على حالِكم وطريقتِكم التي أنتم عليها، إنِّي عامِلٌ على طريقتي وديني[٣].

كما قال سُبحانَه لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ

بالمعنى: أنَّ المرادَ منه الأمرُ، كما تقولُ العرَبُ: جعلتَني خَلْفَ ظَهرِك ودَبْرَ أذُنِك؛ يريدونَ: جعلتَ أمري وحاجَتي وكَلامي). ((البسيط)) (١١/ ٥٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٢) ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۞ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۞ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۞ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾.

أي: سوفَ تعلمونَ مَن يأتيه عذابٌ من اللهِ يُذِلُّه، ومَن هو كاذِبٌ منا، أنا أم أنتم[١]؟

﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾.

أي: وانتَظِروا نزولَ العذابِ، إنِّي معكم مُنتَظِرٌ نُزولَه بكم[٢].

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾.

أي: ولَمَّا أتى عذابُنا نجَّينا شُعَيبًا والمؤمنينَ معه بفَضلٍ منَّا عليهم[٣].

﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

أي: وأصابت الصَّيحةُ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ، فصاروا في مَنازِلِهم لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم، ومُنكَبِّينَ على وُجوهِهم صَرْعى، خامِدينَ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

قال ابن عطية: (قوله: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ إمَّا أن يُقصَدَ الإخبارُ عن الرحمةِ التي لحِقَت شُعيبًا لنبوَّتِه وحُسنِ عَمَلِه وعمَلِ متَّبِعيه، وإمَّا أن يُقصَدَ أنَّ التَّنجيةَ لم تكنْ إلَّا بمجَرَّدِ رحمةٍ، لا بعمَلٍ من أعمالِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٤).

حياةَ فيهم[١].

كما قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[الأعراف: ٩١].

وقال سُبحانه: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ﴾.

أي: كأنَّ قومَ شُعَيبٍ لَمَّا جاءهم العذابُ لم يعيشُوا في ديارِهم، ولم يتمتَّعوا فيها[٢].

﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾.

أي: ألا أبعدَ اللهُ مَدْيَنَ مِن رحمتِه، كما بَعِدَت مِن قَبلِهم ثمودُ[٣].

كما قال تعالى عن ثمود: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ * وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٦ - ٦٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

أنَّه تعالى إنَّما خَلَّصَه من ذلك العذابِ لِمَحضِ رحمتِه؛ تنبيهًا على أنَّ كُلَّ ما يصِلُ إلى العبدِ، فليس إلَّا بفَضلِ اللهِ ورَحمتِه[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] من يتدَبَّرْ ما ذكَرَه اللهُ عن أعداءِ الرُّسُلِ مِن نفيِ فِقهِهم وتكذيبِهم، يجِدْ بعضَ ذلك فيمن أعرَضَ عن ذِكرِ اللهِ وعن تدبُّرِ كتابِه، واتَّبَع ما تتلوه الشَّياطينُ، وما تُوحيه إلى أوليائِها[٢].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ﴾ فيه أنَّ اللهَ يَدفَعُ عن المؤمنينَ بأسبابٍ كثيرةٍ قد يعلمونَ بعضَها، وقد لا يعلمونَ شَيئًا منها، وربَّما دفع عنهم بسبَبِ قَبيلتِهم أو أهلِ وَطنِهم الكُفَّارِ، وأنَّ هذه الرَّوابِطَ التي يحصُلُ بها الدَّفعُ عن الإسلامِ والمُسلمينَ لا بأسَ بالسَّعيِ فيها، بل ربَّما تعيَّنَ ذلك؛ لأنَّ الإصلاحَ مَطلوبٌ على حسَبِ القُدرةِ والإمكانِ[٣].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ﴾ الرَّجمُ: القتلُ بالحِجارةِ رَميًا -على أحدِ وجْهَي التفسيرِ- وهو قِتلةُ حَقارةٍ وخِزيٍ، وفيه دَلالةٌ على أنَّ حُكمَ من يخلعُ دينَه الرَّجمُ في عوائِدِهم[٤].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ ذكرَ هاهنا أنَّه أتَتهم صيحةٌ، وفي الأعرافِ رَجفةٌ، وفي الشُّعَراءِ عذابُ يومِ الظُّلَّة،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٩٣).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٠).

وهم أمَّةٌ واحدةٌ[(١)]، اجتمع عليهم يومَ عذابِهم هذه النِّقَمُ كُلُّها، وإنَّما ذُكِرَ في كلِّ سياقٍ ما يُناسِبُه، ففي الأعرافِ لَمَّا قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ [الأعراف: ٨٨] ناسبَ أن يُذكَرَ هناك الرَّجفةُ، فرجَفَت بهم الأرضُ التي ظَلَموا بها، وأرادوا إخراجَ نبيِّهم منها، وهاهنا لَمَّا أساؤوا الأدبَ في مقالتِهم على نبيِّهم ناسب ذِكر الصَّيحةِ التي أسكَتَتْهم وأخمَدَتهم، وفي الشُّعَراءِ لَمَّا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] وهذا من الأسرارِ الغريبةِ الدَّقيقةِ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾

---

(١) قال الشنقيطي: (والعلماءُ مختلفونَ: هل أصحابُ الأيكةِ هم مَدْيَنُ أنفسُهم، فيكون شعيبٌ أُرْسِلَ إلى أُمَّةٍ واحدةٍ، أو مدينُ أمةٌ، وأصحابُ الأيكةِ أمةٌ أخرى، فيكون شعيبٌ قد أُرْسِلَ إلى أُمَّتَيْنِ؟ هذا خلافٌ معروفٌ بَيْنَ العلماءِ، وأكثرُ أهلِ العلمِ على أنهم أمةٌ واحدةٌ، كانوا يعبدونَ أيكةً، أي: شجرًا مُلْتَفًّا، وأن اللَّهَ سماهم مرةً بنسبهم «مدين» ومرةً أضافهم إلى الأيكةِ التي يعبدونَها. وجزمَ بصحةِ هذا ابنُ كثيرٍ في تاريخِه وتفسيرِه، وَمِمَّنِ اشتهر عنه أنهم أُمَّتَانِ قتادةُ وجماعةٌ، وهو خلافٌ معروفٌ.

والذين قالوا: إنهما أُمَّتانِ قالوا: في «مدين» قال: إنَّه أخوهم حيث قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الأعراف: ٨٥] أما أصحابُ الأيكةِ فلم يَقُلْ: إنَّه أخوهم، بل قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧] ولم يقلْ: أخوهم شعيبٌ.

وأُجِيب عن هذا بأنَّه لَمَّا ذَكَر مَدينَ ذَكَر الجدَّ الذي يشملُ القبيلةَ، ومِنْ جُملتِها شعيبٌ، ذكر أنه أخوهم من النسبِ. أما قولُه: ﴿أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ فمعناه: أنَّهم يعبدونها، ولَمَّا ذَكَرهم في مقامِ الشركِ وعبادةِ غيرِ اللَّهِ لم يُدْخِلْ معهم شعيبًا في ذلك وهم أمةٌ واحدةٌ. هكذا قاله بعضُهم، واللَّهُ أعلمُ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧).

- قولُه: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ فيه تأكيدُهم للكلامِ بـ(إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ مُبالَغةً في تنزيلِه مَنزِلةَ مَن يَجهَلُ أنَّهم يَعلَمون ذلك فيه، أو مَن يُنكِرُ ذلك[١].

- وجملةُ ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ مؤكِّدةٌ لمضمونِ قولِه: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ﴾؛ لأنَّه إذا انتَفى كونُه قويًّا في نُفوسِهم، تَعيَّن أنَّ كَفَّهم عن رَجْمِه -مع استِحْقاقه إيَّاه في اعتقادِهم- ما كان إلَّا لأجلِ إكرامِهم رَهْطَه، لا للخوفِ منهم، وعُطِفَت هذه الجملةُ على الَّتي قبْلَها -مع أنَّ حقَّ الجملَةِ المؤكِّدةِ أنْ تُفصَلَ ولا تُعطَفَ- لأنَّها مع إفادتِها تأكيدَ مضمونِ الَّتي قبْلَها أفادَت أيضًا حُكمًا يَخُصُّ المخاطَبَ؛ فكانت بهذا الاعتبارِ جَديرةً بأن تُعطَفَ على الجُمَلِ المفيدةِ أحوالَه مِثلُ جملةِ ﴿مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ والجُمَلِ بَعدَها[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِۖ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾

- الاستفهامُ في قولِه: ﴿أَرَهۡطِيٓ﴾ إنكاريٌّ؛ أي: اللهُ أعَزُّ مِن رَهْطي، وهو كنايةٌ عن اعتِزازِه باللهِ لا برَهْطِه، فلا يَريبُه عدَمُ عِزَّةِ رَهْطِه عليهم، وهذا تهديدٌ لهم بأنَّ اللهَ ناصِرُه؛ لأنَّه أرسَلَه فعِزَّتُه بعِزَّةِ مُرْسِلِه[٣]، وإنَّما أنكَر عليهم أعَزِّيَّةِ رهطِه منه تعالى مع أنَّ ما أثبَتوه إنَّما هو مُطْلَقُ عزَّةِ رهطِه، لا أعَزِّيَّتُهم منه عزَّ وجلَّ، مع الاشتِراكِ في أصلِ العزَّةِ؛ لِتَثنيةِ التَّقريعِ، وتَكْريرِ التَّوبيخِ؛ حيث أنكَر عليهم أوَّلًا تَرجيحَ جَنْبةِ الرَّهطِ على جَنْبةِ اللهِ تعالى،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وثانيًا بنَفْيِ العِزَّةِ بالمرَّةِ[١].

- قولُه: ﴿ظِهْرِيًّا﴾ فيه كِنايةٌ عن النِّسيانِ؛ لأنَّ الشَّيءَ الموضوعَ بالوَراءِ يُنْسى؛ لقِلَّةِ مُشاهَدتِه؛ فهو يُشبِهُ الشَّيءَ المجعولَ خَلْفَ الظَّهرِ في ذلك[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ استئنافٌ، أو تعليلٌ لِمَفهومِ جُملةِ ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ الَّذي هو تَوكُّلُه عليه واستِنْصارُه به، وفيه تعريضٌ بالتَّهديدِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾

- قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ ذَكَر عمَلَهم على مكانتِهم وعمَلَه على مكانتِه، ثم أتْبعه ذِكرَ عاقبةِ العاملينَ منه ومنهم، وكان الظاهرُ أنْ يقولَ: (مَن يأتيه عذابٌ يُخزيه ومَن هو صادقٌ)؛ حتَّى يَنصرِفَ ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ إلى الجاحِدين، و(مَن هو صادقٌ) إلى النبيِّ المبعوثِ إليهم؛ ولكنَّهم لَمَّا كانوا يَدْعُونه كاذبًا، قال: ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ يعني: في زعْمِكم ودَعواكم؛ تَجهيلًا لهم. وقيل: إنَّ الكَلامينِ ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ جميعًا لهم؛ فالأوَّل مُضمَّنٌ ذِكرَ جُرمِهم الذي يُجازون به، وهو الكذبُ، ويكون مِن بابِ عَطفِ الصِّفةِ على الصِّفةِ، والموصوفُ واحدٌ، كما تقولُ لِمَن تُهدِّدُه: ستَعلمُ مَن يُهانُ ومَن يُعاقبُ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٥١-١٥٢).

والمخاطبُ هو المقصودُ في الكلامَينِ؛ فإذا ثبَت صَرْفُ الكلامينِ إليهم كان فيه دَلالةٌ على ذِكرِ عاقبتِه هو؛ لأنَّ أحدَ الفريقين إذا كان مُبطِلًا فالآخَرُ هو المحقُّ قطعًا؛ فذِكرُه لإحْدى العاقبتَينِ صريحًا يُفهِمُ ذِكرَ الأخرى تَعريضًا، والتعريضُ في كثيرٍ مِن مواضعِه أبلغُ وأوقعُ من التصريحِ، وهذا مِنه، ويَدُلُّ على أنَّ الكَلامَين لهما أنَّ عاقِبةَ أمْرِ شُعيبٍ لم تُذكَرْ؛ استِغْناءً عنها بذِكْرِ عاقِبَتِهم، وكذلك قولُه في سورةِ الأنعام: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾؛ فذكَر هناك أيضًا إحْدى العاقِبَتَين؛ لأنَّ المرادَ بهذه العاقبةِ عاقبةُ الخيرِ، ومَتى أُطلِقَت فلا يُعْنى إلَّا ذلك، كقولِه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ واستَغْنى عن ذِكْرِ مُقابِلَتِها، وهنا في آيةِ هودٍ فقد ذكَر عاقبتَهم، وهي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، واستَغْنى بها عن عاقِبَتِه، فلْيُتأمَّلْ هذا؛ فإنَّه تُحفةٌ لِمَن همُّه نَظمُ دُررِ الكِتابِ العزيزِ، وضَمِّ بعضِها إلى بَعضٍ[٤].

- والأمرُ في ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ للتَّهديدِ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا في سورةِ (هودٍ): ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾، وقال في (الأنعام): ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩]، وكذلك في سورةِ (الزُّمرِ) في قولِه: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- الحاشية)) (٢/ ٤٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٤٢١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٢).

مُّقِيمٌ ﴾ [الزمر: ٣٩-٤٠]؛ فأُفرِدَت آيةُ (هودٍ) هذه بمَجيءِ حرْفِ التَّسويفِ (سوف) بلا فاءِ التَّعقيبِ، بخلافِ الأُخرَيَينِ مع اتِّفاقِ الآياتِ الثَّلاثِ في التَّهديدِ، وحرْفِ التَّسويفِ، ووجهُ ذلك: أن قولَه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ بالفاءِ حيثُ وقَع، وفى هودٍ: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ بغيرِ فاءٍ؛ لأنَّه تقدَّم فى هذه السورةِ وغيرِها ﴿قُلْ﴾ فأمَرهم أمرَ وعيدٍ بقولِه: ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ أى: اعملوا فستجزَونَ، فوقَع جوابًا بالأمرِ قبْلَه، ولم يكُنْ فى (هودٍ) (قل) فصار استئنافًا؛ لأنَّه لم يتقدَّمْه أمرٌ. وقيل: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فى سورةِ (هودٍ) صفةٌ لـ ﴿عَٰمِلٌ﴾، أَى: إنِّى عاملٌ سوفَ تعلمون، فحَذَف الفاءَ[1].

وقيل: لم يُقرَنْ حرفُ (سَوف) في قولِه: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ في هذه الآيةِ بالفاءِ، وقُرِن في آيةِ سورةِ (الأنعام) بالفاءِ مِن قولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥]؛ لأنَّ جُملةَ ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ هنا جُعِلَت مُستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا؛ إذ لَمَّا فاتَحَهم بالتَّهديدِ كان ذلك يُنشِئُ سُؤالًا في نُفوسِهم عمَّا يَنشَأُ على هذا التَّهديدِ، فيُجابُ بالتَّهديدِ بـ ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾؛ ولكونِه كذلك كان مُساويًا للتَّفريعِ بالفاءِ الواقِعِ في آيةِ (الأنعام) في المآلِ، ولكنَّه أبلَغُ في الدَّلالةِ على نَشْأةِ مَضمونِ الجملَةِ المستأنَفةِ عن مضمونِ الَّتي قبْلَها؛ ففي خِطابِ شُعيبٍ عليه السَّلامُ قومَه مِن الشِّدَّةِ ما ليس في الخِطابِ المأمورِ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سورةِ (الأنعام)؛ جَريًا على ما أرسَل اللهُ به رَسولَه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن اللِّينِ لهم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وكذلك التَّفاوُتُ بين مَعمولَيْ ﴿تَعْلَمُونَ ﴾؛ فهو هنا غَليظٌ شديدٌ:

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٧٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ١٩٨). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل)) للإسكافي (٢/ ٥٥١- ٥٥٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧١- ١٧٢).

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾، وهو هنالِك ليِّنٌ: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾[١].

- وأيضًا مِن الفَرْقِ بينَ إدخالِ الفاءِ ونَزْعِها في ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: أنَّ إدخالَ الفاءِ وصْلٌ ظاهرٌ بحَرْفٍ موضوعٍ للوَصْلِ، ونَزْعَها وصْلٌ خفيٌّ تقديريٌّ بالاستِئْنافِ الَّذي هو جَوابٌ لسُؤالٍ مقدَّرٍ، فيَجعَلُه جوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: أنَّه لَمَّا قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾، فكأنَّهم قالوا: فماذا يَكونُ إذا عَمِلنا نحنُ على مَكانتِنا وعَمِلتَ أنت؟ فقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ فوصَل تارةً بالفاءِ وتارةً بالاستئنافِ؛ للتَّفنُّنِ في البلاغةِ، كما هو عادةُ البُلَغاءِ، وأقوى الوَصْلَين وأبلَغُهما الاستئنافُ، وهو بابٌ مِن أبوابِ عِلمِ البيانِ، تتَكاثَرُ مَحاسِنُه؛ فظهَر أنَّ حذْفَ حرْفِ الفاءِ هاهنا أكمَلُ في بابِ الفظاعةِ والتَّهويلِ[٢].

- قولُه: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فيه وصْفُ العذابِ بالإخزاءِ؛ تَعْريضًا بما أَوعَدوا شُعيبًا عليه السَّلامُ به مِن الرَّجْمِ؛ فإنَّه مع كونِه عَذابًا فيه خِزْيٌ ظاهِرٌ، حيث لا يكون إلَّا بجنايةٍ عَظيمةٍ تُوجِبُه[٣].

- قولُه: ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: في زيادةِ ﴿مَعَكُمْ﴾ إظهارٌ مِنه عليه السَّلامُ لكَمالِ الوُثوقِ بأمرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٢-١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ولفظةُ: ﴿رَقِيبٌ﴾ على وَزْنِ فَعيلٍ؛ للمُبالَغةِ[١].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ فيه مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث ساق قصَّةَ عادٍ وقصَّةَ مَدْيَنَ بالواوِ، وساقَ الوُسْطَيَينِ (قِصَّتَيْ صالحٍ ولوطٍ) بالفاءِ؛ لأنَّ الوُسْطَيَين وقَعَتا بعد ذِكْرِ الوعدِ، وذلك قولُه: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾، وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾؛ فجيءَ بالفاءِ الَّذي هو للتَّسْبيبِ، كما تقولُ: وعَدتُه، فلمَّا جاء الميعادُ كان كَيْتَ وكَيْتَ، وأمَّا الأُخْرَيانِ فلَم تَقَعا بتِلك المثابةِ، وإنَّما وقَعَتا مُبتدَأَتَين؛ إذْ لم يَسبِقْه ذِكْرُ وعدٍ يَجْري مَجْرى السَّببِ له؛ فكان حقُّهما أن تُعطَفا بحرفِ الجمعِ على ما قَبْلَهما، كما تُعطَفُ قصَّةٌ على قصَّةٍ[٢].

- قولُه: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ فيه وضعُ الظَّاهرِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ مَوضِعَ المضمَرِ -حيث لم يَقُلْ: (وأخَذَتْهم)-؛ تسجيلًا عليهم بالظُّلم، وإشعارًا بأنَّ ما أخَذَهم إنَّما أخَذَهم بسَببِ ظُلمِهمُ الَّذي فُصِّل فيما سبَق[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾

- قولُه: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ فيه العُدُولُ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ؛ لِيَكونَ أدَلَّ على طُغْيانِهم الَّذي أدَّاهم إلى هذه المرتَبةِ، ولِيَكونَ أنْسَبَ بمَنْ شُبِّهَ هَلاكُهم بهَلاكِهم وهم ثَمودُ، وإنَّما شُبِّه هَلاكُهم بهَلاكِهم؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٧).

لأنَّهما أُهلِكَتا بنَوعٍ من العذابِ، وهو الصَّيحةُ[١].

- قولُه: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ فيه تَشبيهُ (البعد) الَّذي هو انقِراضُ مَدْينَ بانقراضِ ثَمودَ، ووَجهُ الشَّبَهِ التَّماثُلُ في سبَبِ عِقابِهم بالاستئصالِ، وهو عَذابُ الصَّيحةِ، ويجوزُ أن يكونَ المقصودُ من التَّشبيهِ الاستِطْرادَ بذَمِّ ثَمودَ؛ لأنَّهم كانوا أشَدَّ جُرأَةً في مُناوَأَةِ رُسلِ اللهِ تعالى، فلمَّا تَهيَّأ المقامُ لاختِتامِ الكلامِ في قَصصِ الأممِ البائدةِ؛ ناسَب أن يُعادَ ذِكرُ أشَدِّها كُفرًا وعِنادًا، فشُبِّه هُلْكُ مَدْينَ بهُلْكِهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٤).

الآيات (٩٦-٩٩)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُلْطَانٍ﴾: أي: حُجَّة، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقهرُ، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[(١)].

﴿ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾: أي: المَدخَلُ المَدخولُ، وأصلُ (ورد): يدلُّ على المُوافاةِ إلى الشَّيءِ[(٢)].

﴿ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾: أي: العطاءُ المُعطَى، والعونُ المُعانُ، وأصلُ (رفد): يدلُّ على مُعاونةٍ ومُظاهرةٍ بالعَطاءِ وغيرِه[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى أنَّه قد أرسَلَ مُوسى بحُجَجٍ مِن عندِه سُبحانَه، ومُعجزةٍ باهرةٍ ظاهرةٍ، دالَّةٍ على صِدقِه ونبُوَّتِه، إلى فِرعَونَ وأتباعِه وأشرافِ قَومِه، فاتَّبَعوا طريقةَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٢). ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

فِرعَونَ، وما هو عليه مِن الكُفرِ، وتَرَكوا الإيمانَ بما جاءهم به موسى، وما طريقُ فِرعونَ وما هو عليه بسديدٍ ولا حميدِ العاقبةِ، ولا يدعو إلى خيرٍ، يَتقَدَّمُ فِرعونُ قَومَه يومَ القيامةِ حتى يُدخِلَهم النَّارَ، فكما كان قُدوتَهم في الضَّلالِ والكُفرِ في الدُّنيا، فكذلك هو قُدوتُهم وإمامُهم في النَّارِ، وقَبُحَ المَدخلُ الذي يدخُلونَه! وأتبَعَهم اللهُ في هذه الدُّنيا طردًا وبُعدًا عن الرَّحمةِ، وكذلك يومَ القيامةِ، وبِئسَ العطاءُ المُعطَى؛ حيث ترادَف عليهم لعنةٌ في الدُّنيا، ولعنةٌ في الآخرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا نبيَّنا موسى بمُعجِزاتِنا الدَّالةِ على صِدقِه- كالعصا واليدِ ونحوِهما من الآياتِ- وبحُجَّةٍ ظاهرةٍ؛ ليؤمِنوا بالله وحدَه[1].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾.

أي: أرسَلْناه إلى فِرعونَ وأشرافِ قَومِه، فاتَّبعوا مَنهجَ فِرعونَ وطَريقتَه في الغَيِّ والضَّلالِ، وكفَروا باللهِ ورَسولِه[2].

﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

أي: وما مَنهَجُ فِرعونَ بصوابٍ يهدي النَّاسَ إلى الهُدى والخيرِ والصَّلاحِ، وإنَّما هو جَهلٌ وضَلالٌ، وكُفرٌ وعِنادٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير))

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾.

أي: يتقدَّمُ فِرعونُ قَومَه يومَ القيامةِ، فيَمضي بهم إلى النَّارِ فيَدخُلونَها معه[١].

﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾.

أي: وبئسَ المَدخَلُ الذي يدخُلونَه[٢].

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

أي: وأتبَعَهم اللهُ في هذه الدُّنيا -مع غَرقِهم في البحرِ- لعنةً، ويومَ القيامةِ يُلعَنونَ لَعنةً أخرى[٣].

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾.

أي: بئسَ ما اجتَمع لهم، وترادَف عليهم؛ حيث ترافَدَت عليهم لعنتانِ مِن اللهِ؛ لعنةُ الدُّنيا، ولَعنةُ الآخرةِ[٤].

(٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ العِبرةُ في هذه الآياتِ: أنَّه لا يزالُ يوجَدُ في البشَرِ فَراعنةٌ يَغوونَ النَّاسَ ويستخِفُّونَهم ويَستعبِدونَهم، فيُطيعونَهم، ويَذِلُّونَ لهم ذُلَّ العبدِ لسَيِّده، والحيوانِ لمالِكِه، ولم يَستفيدوا شيئًا من هدايةِ القرآنِ ورُشدِه، وتجهيلِه لقومِ فِرعونَ في اتِّباعِ أمْرِه، مع وَصفِه بقَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وبيانِ أنَّه كان سببًا لإتْباعِهم لعنةً في الدُّنيا ولعنةً يومَ القيامةِ، وأنَّه سيقودُهم في الآخرةِ إلى النَّارِ، كما قادهم في الدُّنيا إلى الغَيِّ والفَسادِ، ومنهم من يدَّعونَ الإسلامَ، ولم يفقَهوا قولَ الله تعالى لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في آيةِ مُبايعةِ النِّساءِ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢]، وقولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا طاعةَ في معصيةِ اللهِ، إنَّما الطاعةُ في المعروفِ))[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ فرعونَ مات كافرًا، ووجهُ ذلك: إخبارُه سبحانَه عن فرعونَ أنَّه يَقدُمُ قومَه -ولم يقُلْ: يَسوقُهم- وأنَّه أورَدَهم النَّارَ، ومعلومٌ أنَّ المتقدِّمَ إذا أَوردَ المتأخِّرينَ النَّارَ، كان هو أوَّلَ مَن يَرِدُها، وإلَّا لم يكُنْ قادِمًا، بل كان سائِقًا؛ يوضِّحُ ذلك أنَّه قال سُبحانَه: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ فعُلِمَ أنَّه وهُم يَرِدونَ النَّارَ؛ وأنَّهم جميعًا ملعونونَ في الدُّنيا والآخرةِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٢٦).
والحديث أخرجه البخاري (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٨٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ﴾ لَمَّا كان فِرعونُ مَوصوفًا بعِظَمِ الحالِ وكَثرةِ الجُنودِ والأموالِ، وضَخامةِ المَملكةِ؛ حقَّرَ تعالى دُنياه بتَحقيرِ جميعِ الدُّنيا التي هي منها، بإسقاطِها في الذِّكرِ؛ اكتفاءً بالإشارةِ إليها[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ﴾ فيه تأكيدُ الخبَرِ بـ(قَدْ)[2].

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ فيه مُناسَبَةٌ حسَنةٌ، حيث قال في سورةِ (غافرٍ): ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]، وقال في سورةِ (الزُّخرُفِ): ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]، وقال في سورةِ (المؤمِنون): ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ * فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٧]، وفي سورةِ (الأعرافِ): ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣]، وفي سورةِ (يونُسَ): ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥]؛ فورَد في سورةِ (هودٍ) وفي سورةِ (المؤمِنون) وسورةِ (غافِرٍ) زيادةُ قولِه: ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾، ولم تَرِدْ هذه الزِّيادةُ في السُّوَرِ الثَّلاثِ الأُخَرِ، وورَد في سُورةِ (يونُسَ) وسورةِ (المؤمِنون) ذِكْرُ تأييدِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٥).

موسى بأخيه هارونَ عليهما السَّلامُ، ولم يَرِدْ ذلك في غيرِهما، وانفرَدَت سورةُ (المؤمِنون) بالجَمْعِ بينَ تأييدِه عليه السَّلامُ بأخيه وسُلطانٍ مُبينٍ، ووجهُ ذلك: أنَّه حيث يُذكَرُ سُوءُ ردِّ المرسَلِ إليهم، وقُبْحُ جَوابِهم، يُقابَلُ أبَدًا بتأييدِه بأخيه أو تَعضيدِه بالآياتِ؛ ممَّا يَقتَضي القَهْرَ والإرغامَ، وهو المعبَّرُ عنه بـ (السُّلطانِ المبينِ)؛ فيَكونُ ذلك مُقابَلةً لِشَنيعِ مُجاوَبتِهم وسوءِ رَدِّهم بالجملةِ، فإذا اجتمَع إفصاحُهم بالتَّكذيبِ واستكبارُهم، جَمَع في التَّهديدِ المتقدِّمِ بينَ التَّأييدِ بهارونَ وسلطانٍ مبينٍ، وحيث يُصرِّحُ بالتَّكذيبِ أو ما يُعْطيه بَيانًا كقولِه في سورةِ هودٍ: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ﴾ يُقدَّمُ ذلك التَّأييدُ بـ (السُّلطانِ المبينِ)، وحيثُ تُذكَرُ صِفَتانِ مُحتوِيتَانِ على تَكذيبٍ مِن غيرِ إفصاحٍ، يُقدَّمُ ذِكْرُ التَّأييدِ بهارونَ عليه السَّلامُ، وما كان دونَ ما ذُكِر لم يُذكَرْ هارونُ ولا السُّلطانُ المبينُ. أمَّا حيثُ لم يَرِدْ ذِكرُ السُّلطانِ، فنَجِدُ جَوابَهم في ذلك دونَ ما تقدَّم مِن التَّشديدِ، كقَولِهم في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣]، وقولِه في سورةِ (الزُّخرُفِ): ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧]؛ فليس موقِعُ جَوابِهم في هاتَين السُّورتَينِ كمَوقِعِ ما تَقدَّم في الآيتينِ؛ فنُوسِبَ بينَ طرَفَي الادِّعاءِ والجوابِ[1].

وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّه لَمَّا قال في سُورةِ (هود): ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾، وقال في سورةِ غافرٍ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]، وقال في سورةِ (الزخرف): ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]، جاء في الآيتَينِ المتقدِّمَتين مع ذِكْرِ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٣-٢٦٤).

السُّلطانِ المبينِ، ولم يَجِئْ في الآيةِ الأخيرةِ إلَّا الآياتُ وحْدَها؛ لأنَّ الآياتِ هي الأَماراتُ الَّتي يُكتَفى بها في صِدْقِ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ، وبها تَقومُ الحُجَّةُ على مَن تُبعَثُ إليهم، والسُّلطانُ المبينُ هو الحُججُ القاهرةُ التي تَقهَرُ القومَ، كأنواعِ العذابِ الَّتي أُنزِلَت على قومِ موسى عليه السَّلامُ وكانت عندَ قولِه؛ فلمَّا كان القصدُ في الآيتَينِ المتقدِّمتَين ذِكْرَ جُملَةِ أمْرِهم إلى مُنتَهى حالِهم مِن هلاكِ الأبَدِ، انطَوَتْ تلك الجملةُ على جَميعِ ما احتَجَّ به عليهم إلى أنْ زال التَّكليفُ عنهم، وأخبَر عن مُستقَرِّهم مِن العقابِ الدَّائمِ عليهم؛ فذكَر في الآيتَين جَميعَ ما احتجَّ به عليهم مِن الآياتِ الَّتي سَخِروا بِها عندَ رؤيتِها، والآياتِ الَّتي فَزِعوا إلى مَسألتِه عندَ مُشاهَدتِها في كَشْفِها. وأمَّا الآيةُ الثَّالثةُ الَّتي اقتصَر فيها على ذِكْرِ (آيَاتِنَا) دونَ (السُّلْطَانِ الْمُبِينِ) وهي قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٦- ٤٧]، فلم يَكُنِ القَصدُ إلى ذِكْرِ جُملَةٍ ممَّا عُومِلوا به في الدُّنيا وانتهائِه بهم إلى عذابِ الأخرى، بل كان بعدَه: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨]؛ فاقتَصَّ ما عُومِلوا به حالًا بعدَ حالٍ إلى أن أُهلِكوا في الدُّنيا، حيث قال: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥- ٥٦].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾

- عقَّب ذِكْرَ إرسالِ موسى عليه السَّلامُ بذِكْرِ اتِّباعِ الملَأِ أمْرَ فِرعونَ؛ لأنَّ اتِّباعَهم أمْرَ فِرعَونَ حصَل بأثَرِ الإرسالِ؛ ففُهِم منه أنَّ فِرعونَ أمَرَهم بتَكْذيبِ تلك الرِّسالةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٥).

- قولُه: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيۡهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ﴾ فيه تَخصيصُ مَلأِ فِرعونَ بالذِّكرِ، مع عُمومِ رِسالةِ مُوسَى عليه السَّلامِ لقَومِه كافَّةً؛ لأصالةِ هؤلاءِ الملأِ في الرأيِ، وتَدبيرِ الأمورِ واتِّباعِ غيرِهم لهم في الوُرودِ والصُّدورِ[١].

- واقتُصِرَ هنا على ذِكْرِ شَأنِ ملأِ فِرعونَ -حيثُ قال: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ...﴾- ولم يُصرِّحْ بكُفرِ فِرْعونَ بآياتِ اللهِ تعالى، وانهِماكِه فيما كان عليه مِن الضَّلالِ والإضلالِ؛ للإيذانِ بوُضوحِ حالِه؛ فكأنَّ كُفرَه وأمْرَ ملَئِه بذلك أمرٌ محقَّقُ الوُجودِ غيرُ مُحتاجٍ إلى الذِّكرِ صَريحًا، وإنَّما المحتاجُ إلى ذلك شأنُ مَلئِه المتردِّدين بينَ هادٍ إلى الحقِّ وداعٍ إلى الضَّلالِ، فنَعى عليهم سوءَ اختيارِهم[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ إيرادُ الفاءِ في اتِّباعِهم المترتِّبِ على أمرِ فِرعونَ المبنيِّ على كفرِه المسبوقِ بتَبليغِ الرِّسالةِ؛ للإشعارِ بمُفاجأَتِهم في الاتِّباعِ، ومُسارَعةِ فِرعونَ إلى الكُفرِ وأمْرِهم به؛ فكأنَّ ذلك كلَّه لم يتَراخَ عن الإرسالِ والتَّبليغِ، بل وقَع جميعُ ذلك في وقتٍ واحدٍ، فوقَع إثرَ ذلك اتِّباعُهم[٣].

- قولُه: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ -حيث لم يَقُلْ: و(أَمْرُه)- فأظهَر اسْمَ فِرعونَ في المرَّةِ الثَّانيةِ والمرَّةِ الثَّالثةِ دونَ الضَّميرِ؛ للتَّشهيرِ بهِم، والإعلانِ بذَمِّه، وهو انتفاءُ الرُّشدِ عن أمرِه، ولزيادةِ تَقْبيحِ حالِ المتَّبعين؛ فإنَّ فرعونَ عَلَمٌ في الفسادِ والإفسادِ، والضَّلالِ والإضلالِ؛ فاتِّباعُه لِفَرْطِ الجَهالةِ، وعدَمِ الاستبصارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٥).

- قولُه: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ فيه إجراءُ وصْفِ (رَشِيدٍ) مُبالَغةً في اشتمالِ الأمرِ على ما يَقتَضي انتفاءَ الرُّشدِ؛ فكأنَّ الأمرَ هو الموصوفُ بعدَمِ الرُّشدِ، وعَدَلَ عن وصْفِ أمرِه بالسَّفيهِ إلى نَفْيِ الرُّشدِ عنه؛ تَجهيلًا للَّذين اتَّبَعوا أمرَه؛ لأنَّ شأنَ العُقلاءِ أن يتَطلَّبوا الاقتداءَ بما فيه صلاحٌ، وأنَّهم اتَّبَعوا ما ليس فيه أَمارةٌ على سَدادِه واستحقاقِه لأن يُتَّبَعَ، فماذا غرَّهم باتِّباعِه[1]؟!

٣- قولُه تعالى: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾

- قولُه: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ فيه تهَكُّمٌ؛ حيث عبَّر بالإيرادِ عن التَّقدُّمِ بالنَّاسِ إلى العذابِ، وهو تَهكُّمٌ؛ لأنَّ الإيرادَ يَكونُ لأجلِ الانتفاعِ بالسَّقْيِ، وأمَّا التَّقدُّمُ بقومِه إلى النَّارِ؛ فهو ضدُّ ذلك[2].

- وجاء ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾ بصيغةِ الماضي؛ للتَّنبيهِ على تَحْقيقِ وُقوعِ ذلك الإيرادِ، وإلَّا فقَرينةُ قولِه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تَدُلُّ على أنَّه لم يقَعْ في الماضي[3].

- وقولُه أيضًا: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ فيه تشبيهٌ لفِرعونَ بالفارِطِ الَّذي يتَقدَّمُ الوارِدةَ إلى الماءِ، وتَشبيهُ أتباعِه بالواردةِ، وتشبيهُ النَّارِ بالماءِ الَّذي يَرِدونه[4].

٤- قوله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾

- قولُه: ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ لإنشاءِ ذَمِّ اللَّعنةِ[5].

- وأيضًا في قولِه: ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ حَذْفُ المخصوصِ بالذَّمِّ، وهو إيجازٌ؛ لِيَكونَ الذَّمُّ متوجِّهًا لإحدى اللَّعنتَينِ لا على التَّعْيينِ؛ لأنَّ كِلتَيهِما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٧).

بَئِيسٌ[١].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٠٠ - ١٠٨)

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَحَصِيدٌ﴾: خَرابٌ قد مُحِيَ أثَرُه، وأصلُ (حصد): يدلُّ على قَطعِ شَيءٍ[1].

﴿تَتْبِيبٍ﴾: أي: تَخسيرٍ وهلاكٍ، وأصلُ (تبب): يدلُّ على خُسرانٍ[2].

﴿زَفِيرٌ﴾: الزَّفيرُ: إخراجُ النَّفَسِ بقُوَّةٍ وشِدَّةٍ مِن الهَمِّ والكَربِ، وهو بمَنزلةِ ابتداءِ صَوتِ الحِمارِ بالنَّهيقِ، وأصلُ (زفر): يدلُّ على صَوتٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((الكليات))

﴿وَشَهِيقٌ﴾: الشَّهيقُ: النَّشيجُ في البُكاءِ، إذا اشتَدَّ تَرَدُّدُه في الصَّدرِ، وارتفَعَ به الصَّوتُ، وهو بمنزلةِ آخرِ صَوتِ الحِمارِ، وأصلُ (شهق): يدُلُّ على عُلُوٍّ[1].

﴿مَجْذُوذٍ﴾: أي: مَقطوعٍ، وأصلُ (جذذ): يدلُّ على قَطعٍ[2].

المعنَى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ الله تعالى نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: ذلك الذي ذكَرْناه لك -يا محمَّدُ- مِن أخبارِ القُرى التي أهلَكْنا أهلَها نُخبِرُك به، ومِن تلك القُرى ما له آثارٌ باقيةٌ، ومنها ما قد مُحِيَت آثارُه، فلم يَبقَ منه شيءٌ، وما كان إهلاكُهم بغيرِ سَبَبٍ وذنبٍ يستَحِقُّونَه، ولكِنْ ظَلَموا أنفُسَهم بشِرْكِهم، وإفسادِهم في الأرضِ، فما نفَعَتْهم آلهتُهم -التي كانوا يدعُونَها، ويطلُبونَ منها أن تدفَعَ عنهم الضُّرَّ- لمَّا جاء أمرُ رَبِّك بعَذابِهم، وما زادَتْهم آلهتُهم غيرَ تدميرٍ وإهلاكٍ وخُسرانٍ، وكما أخذتُ أهلَ القُرى الظَّالمةِ بالعذابِ؛ لِمُخالفتِهم أمري وتكذيبِهم برُسلي، آخُذُ غيرَهم مِن أهلِ القُرى إذا ظلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والمعاصي، إنَّ أخْذَ اللهِ للظَّالِمينَ لأليمٌ مُوجِعٌ شَديدٌ، إنَّ في أخْذِنا لأهلِ القُرى السَّابقةِ الظَّالِمةِ لَعِبرةً وعِظةً لِمَن خاف عقابَ اللهِ وعذابَه في الآخرةِ، ذلك اليومُ الذي يُجمَعُ له النَّاسُ جميعًا للمُحاسَبةِ والجَزاءِ، ويشهَدُه الخلائِقُ كُلُّهم، وما نُؤخِّرُ يومَ القيامةِ عنكم إلَّا لانتهاءِ مُدَّةٍ معدودةٍ في عِلمِنا، لا تزيدُ ولا تَنقُصُ عن تَقديرِنا لها بحِكمَتِنا.

يوم يأتي يومُ القيامةِ لا تتكَلَّمُ نَفسٌ إلَّا بإذنِ رَبِّها؛ فمنهم شقيٌّ مستَحِقٌّ

للكفوي (ص: ٤٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (٤/ ١٨٨).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٨)، ((تفسير المنار)) لرشيد رضا (١٢/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٣).

للعذابِ، وسعيدٌ مُتفَضَّلٌ عليه بالنَّعيمِ؛ فأمَّا الذين شَقُوا فالنَّارُ مُستَقَرُّهم، لهم فيها- مِن شِدَّةِ ما هم فيه مِن العذابِ- زفيرٌ وشَهيقٌ، وهما أشنَعُ الأصواتِ وأقبَحُها، ماكثينَ في النَّارِ أبدًا ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، فلا ينقَطِعُ عذابُهم ولا ينتهي، إلَّا ما شاء ربُّك من إخراجِ عُصاةِ الموحِّدينَ بعدَ مُدَّةٍ مِن مُكثِهم في النَّارِ، إنَّ رَبَّك -أيُّها الرَّسولُ- فعَّالٌ لِما يريدُ، وأمَّا الذين رزَقَهم اللهُ السَّعادةَ فيدخُلونَ الجنَّةَ خالدينَ فيها ما دامَتِ السَّمواتُ والأرضُ، إلَّا الفريقَ الذي شاء اللهُ تأخيرَه، وهم عُصاةُ الموَحِّدينَ؛ فإنَّهم يَبقَونَ في النَّارِ مدَّةً مِن الزَّمَن، ثمَّ يخرُجونَ منها إلى الجنَّةِ بمشيئةِ اللهِ ورَحمتِه، ويُعطي ربُّك هؤلاءِ السُّعَداءَ في الجنَّةِ عطاءً غيرَ مَقطوعٍ عنهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ ﴾.

أي: ذلك الذي قصَصْناه عليك- يا محمَّدُ- في هذه السُّورةِ مِن أخبارِ القُرى التي أهلَكْنا أهلَها نُخبِرُك به؛ لتُنذِرَ به النَّاسَ، ويكونَ آيةً على رسالتِك، وموعظةً وذِكرى للمُؤمنينَ[1].

﴿ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴾.

أي: مِن تلك القرى التي قَصَصْنا عليك قُرًى عامِرٌ بُنيانُها، ومنها خَرابٌ قد تهدَّمَ بُنيانُها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾.

أي: وما ظَلَمْنا أهلَ تلك القرَى حينَ أهلَكْناهم، ولكنْ ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والمعاصي فاستحَقُّوا العِقابَ[١].

﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾.

أي: فما نفعَتْهم آلهتُهم التي كانوا يعبُدونَها من دونِ اللهِ، ولم تدفَعْ عنهم شيئًا لَمَّا أتاهم عذابُ الله[٢].

﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾.

أي: وما زادت هذه الآلهةُ عابِدِيها غيرَ تخسيرٍ وإهلاكٍ وتدميرٍ، عندَما جاءَ أمرُ اللهِ بعقابِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٨، ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

قال ابن الجوزي: (فإن قيل: الآلهةُ جَمادٌ، فكيف قال: ﴿زَادُوهُمْ ﴾؟! فعنه جوابان: أحدهما: وما زادتهم عبادتُها. والثاني: أنَّها في القيامة تكونُ عونًا عليهم فتزيدُهم شَرًّا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠٠).

وقال ابن عطية: (صورةُ زيادة الأصنام التتبيبَ إنَّما يُتصَوَّر: إمَّا بأنَّ تأليهَها والثِّقةَ بها والتعَبَ في عبادتِها، شغَلَت نُفوسَهم وصَرفَتْها عن النظَرِ في الشَّرعِ وعاقَتْها، فلَحِقَ عن ذلك عنَتٌ

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في كتابِه بما فعلَ بأُممٍ من تقَدَّمَ مِن الأنبياءِ- لَمَّا خالفوا الرُّسُلَ وردُّوا عليهم- مِن عذابِ الاستئصالِ، وبيَّنَ أنَّهم ظَلَموا أنفُسَهم فحَلَّ بهم العذابُ في الدُّنيا- بيَّن بَعدَه أنَّ عذابَه ليس بمقتَصِرٍ على من تقدَّمَ، بل الحالُ في أخذِ كُلِّ الظالمينَ يكونُ كذلك[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾.

أي: وكما أهلَك ربُّك -يا محمَّدُ- أهلَ القُرى التي قصَصْنا عليك، كذلك نُهلِكُ أمثالَهم مِن الظَّالمينَ لأنفُسِهم بالكُفرِ والمعاصي[2].

عن أبي موسى رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملِي للظَّالمِ، حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾))[3].

﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾.

أي: إنَّ إهلاكَ اللهِ وعِقابَه للظَّالمينَ مُوجِعٌ، شديدُ الإيلامِ[4].

وخُسرانٌ، وإمَّا بأنَّ عذابَهم على الكُفرِ يزادُ إليه عذابٌ على مجرَّدِ عبادةِ الأوثانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٨).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان ممَّا جَرَّ هذه القِصَص وهذه المواعِظَ تكذيبُ الكافرينَ لِما يُوعَدونَ مِن العذابِ النَّاشئِ عن إنكارِ البَعثِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أشار تعالى إلى تحقُّقِ أمرِ الآخرةِ، وأنَّه ممَّا ينبغي الاهتمامُ به؛ إعلامًا بأنَّه لا فرقَ بينه وبين ما تحقَّقَ إيقاعُه من عذابِ هذه الأمَمِ في القُدرةِ عليه، بقولِه مؤكِّدًا لأجلِ جُحودِهم أن يكونَ في شيءٍ ممَّا مضى دلالةٌ عليه بوجهٍ مِن الوجوهِ[1].

وأيضًا فهي بَيانٌ للتَّعريضِ وتَصريحٌ بعد تلويحٍ، والمعنى: وكذلك أخذُ ربِّك فاحذَرُوه، واحذَرُوا ما هو أشدُّ منه، وهو عذابُ الآخرةِ[2].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾.

أي: إنَّ في إهلاكِ اللهِ للظَّالمينَ لَعِبرةً وعِظةً لِمَن يخافُ عذابَ اللهِ في الآخرةِ[3].

﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾.

أي: هذا اليومُ -يومُ القيامةِ- يَجمَعُ اللهُ فيه كُلَّ النَّاسِ أوَّلَهم وآخِرَهم؛

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٧٤-٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

ليُجازيَهم فيه بأعمالِهم[١].

﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾.

أي: وهو يومٌ يشهَدُه جميعُ الخلائقِ؛ مِن الملائكةِ والإنسِ، والجِنِّ والطَّيرِ، والوُحوشِ والدوابِّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال سُبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۞ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۞ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ [التكوير: ٥].

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤﴾.

أي: وما نؤخِّرُ مجيءَ يومِ القيامةِ إلَّا لوقتٍ مُحدَّدٍ معدودٍ عندَ الله، لا يُزادُ فيه ولا يُنقَصُ منه[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۞ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ جُملةَ ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ تفصيلٌ لِمَدلولِ جُملةِ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وبيَّنَت عظَمةَ ذلك اليوم في الشَّرِّ والخيرِ تبعًا لذلك التَّفصيلِ. فالقصدُ الأوَّلُ من هذه الجملةِ هو قولُه تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وما بعدَه، وأمَّا ما قَبلَه فتمهيدٌ له أفصحَ عن عظَمةِ ذلك اليومِ[(١)].

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

أي: حينَ يأتي يومُ القيامةِ لا تتكلَّمُ أيُّ نَفْسٍ إلَّا إذا أذِنَ اللهُ لها بذلك[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه في حديثِ الشَّفاعةِ الطَّويلِ: أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ولا يتكَلَّمُ يومَئذٍ إلَّا الرُّسُلُ، ودعوى الرُّسُلِ يومَئذٍ: اللهُمَّ سلِّمْ سلِّمْ))[(٣)].

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

أي: فمِن النَّاسِ أشقياءُ يومئذٍ، وهم الكافرونَ، وسُعَداءُ، وهم المُؤمِنونَ المُتَّقون[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٥، ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

أي: فأمَّا الذين حصَلَت لهم الشَّقاوةُ، فهم مُنغَمِسونَ في عذابِ النَّارِ، لهم فيها زفيرٌ قبيحٌ يخرجُ مِن حُلوقِهم، وشَهيقٌ شديدٌ في صُدورِهم؛ مِن شِدَّةِ العذابِ الذي هم فيه[1].

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾.

أي: لابثينَ في النَّارِ أبدًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).
قال ابنُ الجوزي في قولِه: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾: (فيه قولان: أحدُهما: أنَّها السَّمواتُ المعروفة عندنا، والأرضُ المعروفة. قال ابن قتيبة، وابن الأنباري: للعربِ في معنى الأبدِ ألفاظٌ؛ تقول: لا أفعل ذلك ما اختلف الليلُ والنَّهار، وما دامت السَّموات والأرض... في أشباه لهذا كثيرةٍ؛ ظنًّا منهم أنَّ هذه الأشياءَ لا تتغيَّرُ، فخاطبَهم الله بما يستعمِلونَ في كلامِهم. والثاني: أنَّها سمواتُ الجنَّة والنارِ وأرضُهما). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠١). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٣٦).
وقال ابن تيميَّة: (قال طوائفُ من العُلَماءِ: إنَّ قولَه: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ أراد بها سماءَ الجنَّة وأرضَ الجنَّة كما ثبت في الصَّحيحين عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «إذا سألتُم اللهَ الجنَّةَ فاسألوه الفِردوسَ؛ فإنَّه أعلى الجنةِ، وأوسَطُ الجنَّة، وسَقفُه عرشُ الرَّحمن»، وقال بعض العلماءِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] هي أرضُ الجنة. وعلى هذا فلا مُنافاة بين انطواءِ هذه السَّماء وبقاءِ السَّماءِ التي هي سقفُ الجنَّة؛ إذ كلُّ ما علا فإنَّه يسمَّى في اللغة سماءً، كما يُسمَّى السحابُ سماءً، والسَّقفُ سماءً، وأيضًا فإنَّ السَّمواتِ وإن طُوِيَت وكانت كالمُهلِ واستحالَت عن صورتِها؛ فإنَّ ذلك لا يوجِبُ عدَمَها وفسادَها، بل أصلُها باقٍ بتحويلِها من حالٍ إلى حالٍ،

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

أي: إلَّا من[(١)] شاء ربُّك- يا محمَّدُ- أن يُخرِجَهم من النَّارِ مِن عُصاةِ الموحِّدينَ، فيُدخِلهم الجنَّةَ برَحمتِه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وإذا بُدِّلَت فإنَّه لا يزالُ سماءٌ دائمةٌ وأرضٌ دائمة. والله أعلم). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٠٩-١١٠).

(١) ومعنى ﴿مَا شَآءَ﴾: (من شاء)؛ لأنَّه لما كان هؤلاء صنفًا ساغَتْ في العبارةِ عنهم ﴿مَا﴾، وإطلاقُ ﴿مَا﴾ وإرادةُ (من) نظيرُه في القرآنِ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٤٥)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٦٠).

وممَّن ذهب إلى هذا القولِ المُختارِ في معنى الاستثناءِ المذكور: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، ونسبه ابنُ كثير إلى كثيرٍ مِن العلماءِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥١، ٣٥٢).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباس، وأبو سنان، والضحاكُ بنُ مزاحم، وخالدُ بنُ معدان، والحسنُ البصري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠٢).

وقيل المعنى: إلَّا المدَّةَ التي شاء الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولِها، فالاستثناءُ على هذا راجعٌ إلى ما قبل دخولِها، فهم خالدون فيها جميعَ الأزمانِ، سوى الزَّمَن الذي قبل الدُّخولِ فيها. وممَّن اختار هذا القول: السعدي، ونسبه إلى جمهورِ المفَسِّرين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

وذهب القاسمي إلى أنَّ الاستثناءَ بالمشيئةِ قد استُعمِلَ في أسلوبِ القُرآنِ للدَّلالةِ على الثبوتِ والاستمرارِ، والنُّكتةُ في الاستثناءِ بيانُ أنَّ هذه الأمورَ الثَّابتةَ الدائمة إنَّما كانت كذلك بمشيئةِ الله تعالى لا بطبيعتِها في نفسِها، ولو شاء تعالى أن يغيِّرَها لفعل. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٣٢).

قال ابن القيم: (الذي دلَّ عليه القُرآنُ أنَّ الكُفَّارَ خالدونَ في النَّارِ أبدًا، وأنَّهم غير خارجينَ منها، وأنَّه لا يُفَتَّرُ عنهم عذابُها وأنَّهم لا يموتونَ فيها، وأنَّ عذابَهم فيها مقيمٌ، وأنَّه غرامٌ لازِمٌ لهم، وهذا كلُّه ممَّا لا نزاع فيه بين الصَّحابة والتابعين وأئمَّة المُسلِمينَ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٣٦٣). وممَّن ذكر الإجماعَ على هذه المسألةِ: القرطبي، والألوسي. يُنظر: ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٤٠).

كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وفي حديثِ الشَّفاعةِ الطَّويلِ عن أنسٍ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ثمَّ أعودُ الرَّابعةَ فأحمَدُه بتلك المحامدِ، ثمَّ أخِرُّ له ساجدًا، فيُقال: يا محمَّدُ، ارفَعْ رأسَك، وقُل يُسمَعْ، وسَلْ تُعطَه، واشفَعْ تُشَفَّعْ، فأقولُ: يا ربِّ، ائذَنْ لي فيمن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فيقول: وعِزَّتي وجلالي، وكبريائي وعظَمتي لأُخرجَنَّ منها من قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ))[١].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَخرُجُ من النَّارِ مَن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وفي قَلبِه وزنُ شعيرةٍ مِن خَيرٍ، ويخرجُ من النَّارِ من قال: لا إلهَ إلَّا الله، وفي قلبِه وزنُ بُرَّةٍ مِن خيرٍ، ويخرجُ مِن النَّارِ من قال: لا إلهَ إلَّا الله، وفي قلبه وزن ذَرَّةٍ من خيرٍ))[٢].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللَّهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُدخِلُ اللهُ أهلَ الجَنَّةِ الجنَّةَ، يُدخِلُ مَن يشاءُ برَحمَتِه، ويُدخِلُ أهلَ النَّارِ النَّارَ، ثمَّ يقولُ: انظُروا مَن وجدْتُم في قلبِه مِثقالَ حبَّةٍ مِن خردلٍ مِن إيمانٍ فأخرجوه، فيخرجونَ منها حُمَمًا[٣] قد امْتَحَشُوا[٤]، فيُلقَونَ في نَهرِ الحياةِ أو الحَيا، فيَنبُتونَ فيه كما تَنبُتُ الحِبَّةُ[٥] إلى جانبِ السَّيلِ، ألم تَروها كيف تَخرُجُ صَفراءَ مُلتَويةً؟!))[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠) واللفظ له، ومسلم (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤) واللفظ له، ومسلم (١٩٣).

(٣) الحممُ: الفحمُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٣٦).

(٤) امتَحَشوا: أي: احترَقوا. يُنظر ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٠٢).

(٥) الحِبَّةُ (بالكسر): بُزورُ البُقولِ وحَبُّ الرَّياحين. وقيل: هو نبتٌ صغيرٌ يَنبُتُ في الحَشيشِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٢٦).

(٦) أخرجه البخاري (٢٢) ومسلم (١٨٤)، واللفظ له.

وعن عمرانَ بنِ حصينٍ رضي الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَخرجُ قومٌ مِن النارِ بشفاعةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيدخلونَ الجنةَ، يُسمَّون الجهنَّميينَ))[١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا محمَّدُ- لا يمنَعُه مانِعٌ مِن فِعلِ ما يُريدُه، بحسَبِ ما تقتَضيه حِكمتُه سُبحانه[٢].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

أي: وأمَّا الذين رزَقَهم اللهُ السَّعادةَ برَحمتِه، فهم في الجنَّةِ لابثينَ فيها أبدًا[٣].

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

أي: إلَّا من شاء ربُّك- يا مُحمَّدُ- أن يُدخِلَهم النَّارَ مِن عُصاةِ الموحِّدينَ، ثمَّ يُخرِجهم إلى الجنَّةِ برَحمتِه[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٤، ٥٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٦٠).

وممَّن ذهب إلى هذا القولِ المختارِ في معنى الاستثناءِ المذكور: ابن جرير، والسمعاني. يُنظر: المصدران السابقان، و((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاس، والضحَّاك، ومقاتلٌ، وخالدُ بنُ مهران، والحسنُ البصري. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٢).

﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾.

أي: عطاءً مِن اللهِ لأهلِ الجنَّةِ مُستمِرًّا غيرَ مَقطوعٍ عنهم[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ هذا الخبَرُ مِن الله تعالى ذِكرُه، وإن كان خبرًا عمَّن مضى من الأمَم قبلَنا، فإنَّه وعيدٌ مِن الله جلَّ ثناؤُه لنا- أيَّتُها الأمَّةُ- أنَّا إن سلَكْنا سبيلَ الأمَم قَبْلَنا في الخلافِ عليه وعلى رَسولِه، سلَكَ بنا سبيلَهم في العُقوبةِ، وإعلامٌ منه لنا أنَّه تعالى لا يظلِمُ أحدًا مِن خَلْقِه، وأنَّ العِبادَ هم الذين يظلِمونَ أنفُسَهم[(٢)].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ وهكذا كلُّ من التجأ إلى غيرِ اللهِ، لم ينفَعْه ذلك عند نزولِ الشَّدائدِ[(٣)].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ بيَّنَ أنَّ عذابَه تعالى ليس بمقتَصِرٍ على من تقَدَّمَ، بل الحالُ في أخذِ كلِّ الظالمينَ يكونُ كذلك، والآيةُ تدُلُّ على أنَّ من أقدَمَ على ظُلمٍ فإنَّه يجِبُ

وقال ابن كثير: (معنى الاستثناءِ هاهنا: أنَّ دوامَهم فيما هم فيه من النَّعيم ليس أمرًا واجبًا بذاتِه، بل هو موكولٌ إلى مشيئةِ الله تعالى، فله المنَّةُ عليهم دائمًا؛ ولهذا يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ، كما يُلهَمونَ النَّفَس). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٢).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: أبو سنان. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٠-٥٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٩).

عليه أن يتدارَكَ ذلك بالتَّوبةِ والإنابةِ؛ لئلَّا يقعَ في الأخذِ الذي وصفَه الله تعالى بأنَّه أليمٌ شَديدٌ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ عُومِلَ ﴿زَادُوهُمۡ﴾ مُعاملةَ العُقلاءِ في الإسنادِ إلى واوِ الضَّميرِ الذي هو لِمَن يعقِلُ؛ لأنَّهم نزَّلوهم منزلةَ العُقَلاءِ في اعتقادِهم أنَّها تنفَعُ، وعبادتِهم إيَّاهم[٢].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ هذه آيةُ وعيدٍ تعُمُّ قُرى المؤمنينَ؛ فإنَّ (ظَالِمة) أعَمُّ مِن (كافرة)، وقد يمُهِلُ الله تعالى بعضَ الكَفَرةِ، وأمَّا الظَّلَمةُ في الغالبِ فمُعاجَلونَ[٣]. وقوله: ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ فيه تحذيرٌ عظيمٌ عن الظلمِ كفرًا كان أو غيرَه، لغيرِه أو لنفسِه، ولكلِّ أهلِ قريةٍ ظالمةٍ[٤].

٣- لَمَّا ذكر سُبحانَه عقوباتِ الأُمَمِ المكَذِّبينَ للرسُلِ وما حَلَّ بهم في الدُّنيا من الخِزيِ، قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ فأخبرَ أنَّ عُقوباتِه للمُكذِّبينَ عِبرةٌ لِمَن خاف عذابَ الآخرةِ، وأمَّا من لا يؤمِنُ بها ولا يخافُ عذابَها، فلا يكونُ ذلك عبرةً وآيةً في حَقِّه؛ إذا سَمِعَ ذلك قال: لم يزَلْ في الدَّهرِ الخَيرُ والشَّرُّ، والنَّعيمُ والبُؤسُ، والسَّعادةُ والشَّقاوةُ، وربما أحال ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٦).
(٤) يُنظر: ((شرح البخاري)) للقسطلاني (٧/ ١٧٢).

على أسبابٍ فلَكيَّةٍ وقُوًى نفسانيَّةٍ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ أشار إلى يُسرِ البَعثِ وسُهولتِه عليه وأنَّه أمرٌ ثابتٌ لا بدَّ منه، باسمِ المفعولِ، مِن قَولِه: ﴿مَّجۡمُوعٞ لَّهُ﴾[٢].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف الجمعُ بين هذه الآيةِ وبين سائرِ الآياتِ التي تُوهِمُ كونَها مُناقِضةً لهذه الآيةِ؛ منها قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، ومنها أنَّهم يَكذِبونَ ويَحلِفونَ بالله عليه، وهو قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ومنها قولُه تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، ومنها قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ۞ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦].

والجوابُ من أوجهٍ:

الأولُ: أنَّه حيث ورد المنعُ مِن الكلامِ، فهو محمولٌ على الجواباتِ الصَّحيحةِ.

الثاني: أنَّ ذلك اليومَ يومٌ طويلٌ وله مواقِفُ؛ ففي بعضِها يُجادِلونَ عن أنفُسِهم، وفي بعضِها يكُفُّونَ عن الكلامِ، وفي بعضِها يُؤذَنُ لهم فيتكَلَّمون، وفي بعضِها يُختَمُ على أفواهِهم، وتتكَلَّمُ أيديهم، وتشهَدُ أرجُلُهم[٣].

الثالثُ: أنَّهم لا ينطقونَ بما لهم فيه فائدةٌ، وما لا فائدةَ فيه كالعدمِ.

الرابعُ: أنَّهم بعدَ أن يقولَ الله لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٩٨).

١٠٨] ينقطعُ نطقُهم، ولم يبقَ إلَّا الزَّفيرُ والشهيقُ(١).

٦- قول الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هذا الاستِثناءُ يُفيدُ إخراجَ أهلِ التَّوحيدِ مِن النَّارِ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ﴾ يفيدُ أنَّ جُملةَ الأشقياءِ مَحكومٌ عليهم بهذا الحُكمِ، ثمَّ قَوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ يُوجِبُ ألَّا يبقى ذلك الحُكمُ على ذلك المَجموعِ، ويكفي في زوالِ حُكمِ الخُلودِ عن المَجموعِ زوالُه عن بعضِهم، فوجبَ ألَّا يبقى حُكمُ الخلودِ لبَعضِ الأشقياءِ، ولَمَّا ثَبَت أنَّ الخُلودَ واجِبٌ للكُفَّارِ، وجَبَ أن يُقالَ: الذين زال حُكمُ الخُلودِ عنهم هم الفُسَّاقُ من أهلِ الصَّلاةِ(٢).

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ثمَّ عقَّبَ ذلك بقَولِه تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غير مقطوع؛ لئلَّا يتوهَّمَ مُتَوهِّمٌ بعد ذِكرِه المَشيئةَ أنَّ ثَمَّ انقطاعًا، أو لبسًا، أو شيئًا، بل ختَمَ له بالدَّوامِ وعدمِ الانقطاعِ، كما بيَّنَ هنا أنَّ عذابَ أهلِ النَّارِ في النَّارِ دائمًا مردودٌ إلى مشيئتِه، وأنَّه بعَدلِه وحِكمتِه عذَّبَهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، وهنا طَيَّبَ القُلوبَ وثَبَّتَ المقصودَ بقَولِه تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(٣).

٨- في قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ دلالةٌ على أبديَّةِ الجنَّةِ؛ وأنَّها لا تفنى

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٣). ويُنظر أيضًا: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٢).

ولا تَبيدُ[١].

٩- دلَّ الاستثناءُ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ على خُلُودِ السُّعَدَاءِ في الجنَّةِ كلَّ وقتٍ؛ إلَّا وقتًا يشاءُ اللهُ ألَّا يكونوا فيها، وذلك يتناولُ وَقتَ كونِهم في الدُّنيا، وفي البَرزَخِ، وفي موقفِ يومِ القيامةِ، وعلى الصِّراطِ، وكَونِ بعضِهم في النَّارِ مُدَّةً[٢]. هذا على أحدِ أوجهِ تأويلِ الآيةِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾

- جملةُ ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ حالٌ مِن اسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، وعبَّر بالمضارعِ ﴿نَقُصُّهُۥ﴾ مع أنَّ القَصصَ مَضى؛ لاستِحْضارِ حالةِ هذا القَصصِ البليغِ[٣].

- قولُه: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ فيه تَشبيهٌ بليغٌ؛ فالقائمُ: الزَّرعُ المستقِلُّ على سُوقِه. والحَصيدُ: الزَّرعُ المحصودُ، وكِلاهما مُشبَّهٌ به للباقي مِن القرى والعافي. والمرادُ بالقائمِ ما كان مِن القرى الَّتي قصَّها اللهُ في القرآنِ قُرًى قائمًا بعضُها كآثارِ بلَدِ فِرعونَ، وقُرى بائدةً مِثلَ دِيارِ عادٍ، وقُرى قومِ لوطٍ، والمقصودُ مِن هذه الجملةِ الاعتبارُ[٤].

- قولُه: ﴿وَحَصِيدٌ﴾ جعَل حَصْدَ الزَّرعِ كنايةً عن الفَناءِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٤٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٧).

ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴾

- قولُه: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ﴾ تفريعٌ على قولِه: ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ ووجهُ ذلك التَّفريعِ: أنَّ ظُلمَهم أنفُسَهم مَظهَرُه في عِبادتِهم الأصنامَ، والغرضُ مِن هذا التَّفريعِ التَّعريضُ بتَحذيرِ المشرِكين مِن العرَبِ من الاعتمادِ على نَفعِ الأصنامِ[1].

- وأُوثِرَت صيغةُ المضارِعِ في قولِه: ﴿يَدۡعُونَ﴾؛ حِكايةً للحالِ الماضيَةِ، أو دَلالةً على استمرارِ عِبادتِهم لها[2].

٣- قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ تذييلٌ فيه تعريضٌ بتهديدِ مُشرِكي العرَبِ مِن أهلِ مكَّةَ وغيرِها[3].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ فيه تشبيهٌ في الكيفيَّةِ والعاقبةِ؛ إذِ الإشارةُ بـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إلى استِئْصالِ تلك القُرى، وهو ما يدُلُّ عليه قولُه: ﴿أَخۡذُ رَبِّكَ﴾، والتَّقديرُ: وكذلك الأخذِ الَّذي أخَذْنا به تلك القُرى أخْذُ ربِّك إذا أخَذَ القُرى[4].

- وقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ قولُه: ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ حالٌ مِن القُرى، وهي في الحقيقةِ لأهلِها، لكنَّها لَمَّا أُقيمَت مَقامَهم في الأخْذِ أُجرِيَتِ الحالُ عليها، وفائدتُها: الإشعارُ بأنَّهم إنَّما أُخِذوا بظُلمِهم؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٠).

لِيَكونَ ذلك عِبْرةً لكلِّ ظالمٍ[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ في موضِعِ البيانِ لِمَضمونِ قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ﴾، وفيها إشارةٌ إلى وجْهِ الشَّبهِ[٢]، وفيه ما لا يَخفَى مِن التَّهديدِ والتَّحذيرِ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى يومِ القيامةِ؛ لأنَّ عذابَ الآخِرةِ دَلَّ عليه؛ وتذكيرُ اسْمِ الإشارةِ مُراعاةً لِمَعنى الآخِرةِ[٤].

- وأوثِرَ اسْمُ المفعولِ ﴿مَّجْمُوعٌ﴾ على فِعْلِه (يُجْمَعُ)؛ لِما في اسْمِ المفعولِ مِن دَلالةٍ على ثَباتِ مَعنى الجمْعِ لليومِ، وأنَّه يومٌ لا بدَّ مِن أن يَكونَ ميعادًا مَضروبًا لجَمْعِ النَّاسِ له، وأنَّه الموصوفُ بذلك صِفةً لازِمةً، وهو أثبَتُ أيضًا لإسنادِ الجمعِ إلى النَّاسِ، وأنَّهم لا يَنفكُّون منه[٥].

- وعَطفُ جُملةِ ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ على جُملَةِ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾؛ لزِيادةِ التَّهويلِ لليَومِ بأنَّه يُشهَدُ، وطُوِيَ ذِكْرُ الفاعلِ- فلم يُقَلْ: (يَشْهَدُه الشَّاهِدون)-؛ إذ ليس القَصْدُ إلى شاهِدين مُعيَّنين[٦].

- قولُه: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ مُعترِضٌ بينَ قولِه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ وبينَ قولِه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، والمقصودُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٧- ٤٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦١).

بالاعتراضِ الرَّدُّ على المنكِرين للبعثِ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾

- قوله: ﴿نَفْسٌ﴾ يَعمُّ جميعَ النُّفوسِ؛ لوقوعِه في سِياق النَّفي مع كونِه نَكِرةً؛ فشَمِلَ النُّفوسَ البرَّةَ والفاجرةَ، وشمِلَ كلامَ الشافعِ وكلامَ المجادِلِ عن نفْسِه، وقد فُصِّلَ عُمومُ النفوسِ باختلافِ أحوالِها، وهذا التَّفصيلُ مُفيدٌ تَفصيلَ النَّاسِ في قوله: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾، ولكنَّه جاء على هذا النَّسْجِ لأجلِ ما تَخلَّل ذلك مِن شِبْهِ الاعتراضِ بقولِه: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، إلى قولِه: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، وذلك نسيجٌ بديعٌ[٢].

- وقولُه: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فيه تقديمُ الشَّقيِّ على السَّعيدِ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تحذيرٍ وإنذارٍ[٣]، وقد جاء نَظْمُ الكلامِ على تَقديمٍ وتأخيرٍ اقتَضاه وضْعُ الاستطرادِ بتَعظيمِ هَولِ اليومِ في موضِعِ الكلامِ المتَّصِلِ؛ لأنَّه أسعَدُ بتَناسُبِ أغراضِ الكلامِ، والظُّروفُ صالِحةٌ لاتِّصالِ الكلامِ كصَلاحيةِ الحروفِ العاطفةِ وأدواتِ الشَّرطِ[٤].

- قولُه: ﴿وَسَعِيدٌ﴾، أي: (ومِنْهم سَعيدٌ)؛ حُذِف الخبَرُ؛ لِدَلالة الأوَّلِ عليه[٥].

٦- قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٦٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤١).

خَصَّ بالذِّكرِ مِن أحوالِهم في جَهنَّمَ الزَّفيرَ والشَّهيقَ؛ تَنفيرًا مِن أسبابِ المصيرِ إلى النَّارِ؛ لِما في ذِكْرِ هاتَينِ الحالَتَينِ مِن التَّشويهِ بهم؛ وذلك أخوَفُ لهم مِن الألَمِ[1].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾

- في قولِه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ...﴾ الآيات: ما يُعرَفُ بالجمعِ مع التفريقِ والتقسيمِ؛ فالجمعُ في قولِه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾؛ لأنَّها مُتعدِّدةٌ معنًى؛ إذ النَّكرةُ في سِياقِ النفيِ تعمُّ، والتفريقُ في قولِه: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾، والتقسيمُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٤٣٠).

الآيات (١٠٩-١١٥)

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

غَريبُ الكلماتِ:

﴿تَرْكَنُوٓا۟﴾: أي: تَميلُوا أو: تَطمئِنُّوا، وتَسْكُنوا[1].

﴿وَزُلَفًا﴾: الزُّلَفُ: السَّاعاتُ القَريبُ بَعضُها مِن بَعضٍ، مِن أزلَفَه: إذا قَرَّبَه؛ لأنَّ كُلَّ ساعةٍ منها تَقرُبُ مِن الأخرى، وأصل (زلف): يَدُلُّ على انْدِفاعٍ، وَتَقَدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شيءٍ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

﴿كُلًّا﴾ اسم إنَّ منصوبٌ، و﴿لَّمَّا﴾ حرفُ نَفيٍ وجَزمٍ، حُذِفَ فِعلُه المجزومُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١١٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢).

به، والتقديرُ: لَمَّا يُوَفَّوْا أعمالَهم[(١)]، ودلَّ على المحذوفِ قَولُه: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾، والجملةُ مِن (لَمَّا) ومدخولِها المحذوفِ (يُوَفَّوْا أعمالَهم) في محلِّ رفعٍ خبرُ إنَّ، وجملة: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ ...﴾ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ، جوابُ قَسَمٍ مقدَّرٍ، والقسَمُ وجوابُه كلامٌ مُستأنَفٌ. وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فلا تكُنْ- يا محمَّدُ- في شَكٍّ مِن بُطلانِ ما يعبُدُ هؤلاء المُشرِكونَ مِن قَومِك؛ ما يعبُدونَ مِن الأوثانِ إلَّا مِثلَ ما يعبُدُ آباؤهم مِن قبلُ، وإنَّا لمُوفُّوهم ما وعَدْناهم تامًّا غيرَ مَنقوصٍ، ولقد آتَينا موسى التَّوراةَ، فاختلفَ فيها قومُه؛ فآمنَ بها جماعةٌ وكفرَ بها آخرونَ، كما فعل قومُك بالقُرآنِ، ولولا كَلِمةٌ سبَقَت من ربِّك بأنَّه لا يُعجِّلُ لخَلْقِه العذابَ، لحلَّ بهم في دُنياهم قضاءُ اللهِ بإهلاكِ المكَذِّبينَ، ونجاةِ المُؤمنينَ، وإنَّ أهل الكتاب لفي شَكٍّ مِن كتابِهم، موقعٍ في الريبةِ والتهمةِ، وإنَّ كُلَّ أولئك الأقوامِ المُختَلفينَ الذين ذكَرْنا لك أخبارَهم، ليُوفِّيَنَّهم ربُّك جزاءَ أعمالِهم يومَ القيامةِ؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا

---

(١) هذا رأيُ ابنِ هشام في ((المغني))، وقدَّره ابن الحاجب في ((أماليه)): لَمَّا يُهمَلوا، أو لَمَّا يُترَكوا؛ لِما تقدَّمَ من الدَّلالةِ عليه مِنْ تفصيل المجموعين لقَولِه ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، ثم ذكرَ الأشقياءَ والسُّعَداءَ ومجازاتَهم، ثم بيَّن ذلك بقولِه: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾، وقد ردَّ ابن هشام هذا التقديرَ بقوله: (إنَّ منفيَّ «لَمَّا» متوقَّعُ الثبوتِ، والإهمالُ غيرُ متوقَّعِ الثُّبوت). ويُنظر: ((أمالي ابن الحاجب)) (١/ ١٦٤)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (١/ ٣٧١).

أمَّا أبو حيَّان فقد قدَّر الفعل بقوله: (وإنَّ كلًّا لَمَّا يُنقَصْ من جزاءِ عَمَلِه؛ لأنَّ جواب القسَم في قولِه تعالى: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ يدلُّ عليه).اهـ. هذا وحذفُ منفيِّ (لَمَّا) وارد في لسان العرب؛ يقولون: قاربتُ المدينةَ ولَمَّا.. أي: ولَمَّا أدخُلْها. وثمَّةَ أقوالٌ كثيرة في تأويل (لَمَّا) المشدَّدةِ، وكلُّها تخريجاتٌ ضعيفةٌ جدًّا يُنَزَّه القرآنُ عنها، كما قال أبو حيان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢١٨)، ويُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لصافي (١٢/ ٣٦١)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (١/ ٦٧٧).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤١٠).

فشَرٌّ، إنَّ رَبَّك بما يعملونَ خَبيرٌ.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم وأتباعَه بالاستقامةِ والثباتِ على هذا الدينِ، فيقولُ: فاستقِمْ -أيُّها النبيُّ- كما أمَرَك ربُّك، أنت ومن تاب معك، ولا تتَجاوَزوا ما حدَّه اللهُ لكم؛ إنَّ ربَّكم بما تَعمَلونَ مِن الأعمالِ كلِّها بصيرٌ، لا يخفى عليه شيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها، ولا تَميلوا إلى هؤلاء الظَّلَمةِ فتُصيبَكم النَّارُ، وما لكم مِن دونِ اللهِ مِن ناصرٍ ينصُرُكم، ويتولَّى أمورَكم، وأدِّ الصَّلاةَ- أيُّها النبيُّ- على أتمِّ وجهٍ طَرَفَي النَّهارِ في الصَّباحِ والمساءِ، وفي ساعاتٍ مِن اللَّيلِ؛ إنَّ فِعْلَ الخيراتِ يكفِّرُ الذُّنوبَ السَّالفةَ، ويمحو آثارَها، ذلك الذي تقدَّم- ممَّا أمَرَكم اللهُ به ونهاكم عنه- مَوعِظةٌ لِمَن اتَّعظَ بها وتذكَّرَ، واصبِرْ- أيُّها النبيُّ- على ما أمَرَك اللهُ به وعلى ما تَلْقَى مِن الأذَى مِن مُشركي قومِك؛ فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ ثوابَ المُحسنينَ في أعمالِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ قصَصَ عبَدةِ الأوثانِ مِن الأمَمِ السَّالِفةِ، وأتبعَ ذلك بذِكرِ أحوالِ الأشقياءِ والسُّعَداءِ؛ شرحَ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أحوالَ الكُفَّارِ مِن قَومِه، وأنَّهم متَّبِعو آبائِهم، كحالِ من تقدَّمَ مِن الأمَمِ في اتِّباعِ آبائِهم في الضَّلالِ[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بوقوعِ القَضاءِ بتَمييزِ النَّاسِ في اليومِ المَشهودِ، كان ذلك كافيًا في الثَّباتِ على أمرِ اللهِ، والمضيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢١٥).

لإنفاذِ جميعِ ما أُرسِلَ به- وإن شقَّ- اعتمادًا على النُّصرةِ في ذلك اليومِ بحضرةِ تلك الجُموعِ، فكان ذلك سببًا للنَّهيِ عن القلَقِ في شيءٍ مِن الأشياءِ، وإن جَلَّ وقعُه وتعاظمَ خَطبُه(١).

وأيضًا فهذه الآيةُ تفريعٌ على القصَصِ الماضيةِ؛ فإنَّها تُكسِبُ سامِعَها يقينًا بباطلِ ما عليه عبَدةُ الأصنامِ، وبخَيبةِ ما أمَّلوه فيهم من الشَّفاعةِ في الدُّنيا، وأنَّ سابِقَ شَقائِهم في الدُّنيا بعذابِ الاستِئصالِ يؤذِنُ بسوءِ حالِهم في الآخرةِ؛ ففرَّعَ على ذلك نهيَ السَّامعِ أن يشُكَّ في سوءِ الشِّركِ وفَسادِه(٢).

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

أي: فلا تكُنْ -يا مُحمَّدُ- في شكٍّ ممَّا يعبُدُ مُشرِكو قومِك من الأصنامِ أنَّه باطلٌ، وضلالٌ، وشركٌ باللهِ تعالى(٣).

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾.

أي: ما يعبُدُ هؤلاء المُشرِكونَ إلَّا كعبادةِ آبائِهم مِن قبلُ، فهم يقلِّدونَهم بلا حجَّةٍ(٤).

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).
قال ابن عطية: (لفظُ الخِطابِ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمعنى له ولأمَّتِه، ولم يقَعْ لأحدٍ شَكٌّ فيقَعَ عنه نهيٌ، ولكن من فصاحةِ القَولِ في بيانِ ضلالةِ الكَفَرةِ إخراجُه في هذه العبارةِ، أي: حالُهم أوضَحُ مِن أن يُمترى فيها). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٨).

أي: وإنَّا سنُوفِّي هؤلاء المُشرِكينَ حظَّهم ممَّا كُتِبَ لهم مِن الخيرِ في الدُّنيا، وحَظَّهم من العذابِ في الآخرةِ كاملًا بلا نقصٍ[١].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى في الآيةِ الأولى إصرارَ كفَّارِ مكَّةَ على إنكارِ التَّوحيدِ؛ بيَّن أيضًا إصرارَهم على إنكارِ نبوَّةِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتكذيبَهم بكتابِه، وبيَّن تعالى أنَّ هؤلاء الكُفَّارَ كانوا على هذه السِّيرةِ الفاسدةِ مع كلِّ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وضرب لذلك مثلًا، وهو: أنَّه لَمَّا أنزل التَّوراةَ على موسى عليه السَّلامُ اختلفوا فيه، فقَبِلَه بعضُهم، وأنكَره آخرون، وذلك يدلُّ على أنَّ عادةَ الخَلقِ هكذا[٢].

وأيضًا لما ذكَّر اللهُ قومَ خاتَمِ النبيِّينَ وأمَّتَه أوَّلًا بالأقوامِ الذين غلَبَ عليهم الكُفرُ والجُحودُ، فلم يؤمِنْ إلَّا قليلٌ منهم، فوفَّاهم اللهُ جزاءَ أعمالِهم في الدُّنيا، وسيُوَفِّيهم إيَّاها في الآخرةِ- ذكَّرَهم في هاتينِ الآيتينِ بقَومِ موسى الذين آتاهم الكِتابَ فاختَلَفوا فيه، وكلِمَته في تأخيرِ جزائِهم إلى الآخرةِ؛ لأنَّهم لم يستحِقُّوا عذابَ الاستئصالِ في الدُّنيا، وأنَّ مَثَلَ الذين يختَلِفون من أمَّتِه في الكتابِ كمَثَلِ هؤلاء[٣].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾.

أي: ولقد آتَينا موسَى التَّوراةَ، فاختَلَف قومُ موسى فيها، فآمنَ بها بعضُهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٤-٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٣٤).

ولم يؤمِنْ بها بعضٌ آخَرون[١] فلا تحزَنْ- يا محمَّدُ- من تكذيبِ مُشركي قومِك بما آتيناك من القُرآنِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦، ١٧].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: ولولا كَلِمةٌ سبَقَت من ربِّك- يا محمَّدُ- بتأخيرِهم، وعدمِ معاجلتِهم بالعذابِ، لأهلَكَهم في الحالِ، وميَّز بين أهلِ الحَقِّ بنَجاتِهم، وأهلِ الباطلِ بهلاكِهم[٣].

---

(١) قال محمد رشيد رضا: (أي: فاختلف فيه قومُه مِن بعدِه بغيًا بينهم، وتنازُعًا على الرِّياسةِ، فكانوا شِيَعًا، كلُّ شِيعةٍ تنتَحِلُ مذهبًا، وتُعادي من يخالفُها فيه، وإنَّما أوتوا الكتابَ لجَمعِ الكَلِمةِ). ((تفسير المنار)) (١٢/ ١٣٤، ١٣٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).
وقال ابن عاشور: (معنى الاختلافِ فيه: اختلافُ أهلِ التَّوراةِ في تقريرِ بعضِها، وإبطالِ بعضٍ، وفي إظهارِ بعضِها، وإخفاءِ بعضٍ، مثل حُكمِ الرَّجمِ، وفي تأويلِ البَعضِ على هواهم، وفي إلحاقِ أشياءَ بالكتابِ على أنَّها منه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٩، ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٠ - ١٧٢).
قال ابن عطية: (قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ...﴾ إلى آخرِ الآية، يحتمِلُ أن يريدَ به أمَّةَ موسى، ويحتملُ أن يريدَ به مُعاصري محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وأن يعُمَّهم اللَّفظُ أحسَنُ عندي، ويؤكِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٠).
قال ابنُ كثير: (ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بالكلمةِ: أنَّه لا يعذِّبُ أحدًا إلَّا بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليه، وإرسالِ الرَّسولِ إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ فإنَّه قد قال في الآيةِ الأخرى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى * فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا

كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

أي: وإنَّ المنتسبينَ إلى كتابِ موسَى عليه السلامُ لفي شكٍّ مِن أمرِ كتابِه التوراةِ، مُوقِعٍ فِي الريبةِ والتهمةِ، فلا يَدرونَ أحقٌّ هو أمْ باطِلٌ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٢٩، ١٣٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٣) (١٣/ ٦٠٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

وممن اختار أنَّ الضمير في قولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ يعودُ على أهلِ الكتابِ: ابنُ جريرٍ، ومحمد رشيد رضا، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال القرطبي: (﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ إن حُمِلتْ على قومِ موسَى، أي: لفي شكٍّ مِن كتابِ موسَى، فهم في شكٍّ مِن القرآنِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٤).

قال السعدي: (وإذا كانتْ هذه حالَهم، معَ كتابِهم، فمع القرآنِ الذي أوحاه الله إليك، غيرُ مستغربٍ مِن طائفة اليهودِ، أن لا يؤمنُوا به، وأن يكونُوا في شكٍّ منه مريبٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

وممن اختار أنَّ الضميرَ يعودُ على كفارِ مكةَ: الرازي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، واختيارُ القاسمي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٣٣).

وقال الشوكاني: (﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: من القرآنِ، إن حُمِل على قومِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو مِن التوراةِ إن حُمِل على قومِ موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٩٩).

سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾[الشورى: ١٤].

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

أي: وإنَّ كلَّ المُختَلِفينَ ليُوفيَنَّهم ربُّك- يا محمَّدُ- جزاءَ أعمالِهم يومَ القيامةِ، فيُجازي كلَّ إنسانٍ بما يستحِقُّه[١].

﴿ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بأعمالِهم كُلِّها، لا يخفَى عليه شيءٌ منها[٢].

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ تعالى بعدمِ استقامةِ أهلِ الكِتابِ، التي أوجَبَت اختلافَهم وافتراقَهم، أمر نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَن معه مِن المؤمنينَ أن يستَقيموا كما أُمِروا، فيَسلُكوا ما شرَعَه اللهُ مِن الشَّرائع، ويعتَقِدوا ما أخبَرَ الله به من العقائدِ الصَّحيحةِ، ولا يَزيغوا عن ذلك يَمنةً ولا يَسرةً، ويَدوموا على ذلك، ولا يطغَوا بأن يتجاوَزوا ما حَدَّه اللهُ لهم من الاستقامةِ[٣].

وأيضًا فإنَّه ترتَّبَ على التَّسليةِ التي تضَمَّنَها قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٠).

ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ [هود: ١١٠] وعلى التَّثبيتِ المُفادِ بقَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود: ١٠٩] الحَضُّ على الدَّوامِ على التمَسُّكِ بالإسلامِ على وجهٍ قويمٍ، وعبَّرَ عن ذلك بالاستقامةِ(١).

وأيضًا فسياقُ هذه الآيةِ والتي تليها تفصيلٌ للأوامرِ والنَّواهي التي هي ثمرةُ الاعتبارِ بما كان مِن سيرةِ الأُمَم مع الرُّسُل؛ مَن جَحَدوا فأُهلِكوا، ومن آمَنوا ثم اختَلَفوا وتفرَّقوا، فمن جمع بين هذا الأمرِ والنَّهيِ كَمَلَ إيمانُه، وما بعدهما تفصيلٌ لهما(٢).

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾.

أي: فاثبُتْ- يا محمَّدُ- على الدِّينِ الذي أمَرَك الله به أنت ومَن اتَّبَعك من المؤمنينَ الذين رجَعوا معك إلى طاعةِ اللهِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

وعن سُفيانَ بنِ عبدِ الله الثَّقَفيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، قلْ لي في الإسلامِ قولًا، لا أسألُ عنه أحدًا بَعدَك، قال: قل: آمنتُ باللهِ، فاستَقِمْ))(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

قال ابنُ رجبٍ: (الاستقامةُ: هي سُلوكُ الصِّراطِ المستقيمِ، وهو الدينُ القيِّمُ مِن غيرِ تعريجٍ عنه يَمنةً ولا يَسرةً، ويشملُ ذلك فعلَ الطاعاتِ كلِّها؛ الظاهرةِ والباطنةِ، وترْكَ المنهيَّاتِ كلِّها كذلك). ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٥١٠).

(٤) أخرجه مسلم (٣٨).

﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾.

أي: ولا تتَجاوَزوا ما حدَّه اللهُ لكم من الاستقامةِ إلى ما نهاكم عنه[١].

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بما تَعملونَ- أيُّها النَّاسُ- بصيرٌ، لا يخفَى عليه شيءٌ مِن أعمالِكم؛ خيرِها وشَرِّها، وسيُجازيكم عليها[٢].

﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنه بعدَ أن نهاهم عن الطُّغيانِ الذي يشملُ أصولَ المفاسدِ، وكان هذا النهيُ جامعًا لأحوالِ مصادرِ الفسادِ مِن نفسِ المفسدِ، وبقِي ما يُخشَى عليه مِن عدوَى فسادِ خليطِه؛ لذا نهاهم عن التَّقارُبِ مِن الظالمينَ[٣]، فقال:

﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: ولا تَميلوا -أيُّها النَّاسُ- إلى الظَّلَمةِ؛ فإنكم إن مِلتُم إليهم، ووافقتُموهم على أفعالِهم ورضيتُم بها، وداهنتُموهم؛ تُصِبْكم[٤] النارُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٧-١٧٨).

(٤) قال ابن عاشور في قوله: ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾: (والمسُّ: مستعملٌ في الإصابةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٨).

(٥) يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

أي: ولا تَجِدونَ- إن رَكَنتُم إلى الظَّلَمةِ- أعوانًا مِن دونِ اللهِ يَنفعونكم، ولا تَجِدونَ مَن يُخلِّصُكم مِن عذابِه[1].

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا أمرٌ بأعظَمِ العباداتِ وبأعظَمِ الأخلاقِ، اللَّذَينِ يُستَعانُ بهما على ما قَبلَهما؛ من الأمرِ بالاستقامةِ، والنَّهيِ عن الطُّغيانِ، والرُّكونِ إلى أولي الظُّلمِ؛ ولذلك عُطِفا عليهما[2].

سببُ النُّزُولِ:

عن عبد الله بن مَسعود رَضيَ الله عنه: ((أنَّ رجُلًا أصاب من امرأةٍ قُبلةً، فأتى رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذكَرَ ذلك له، فأُنزِلَت عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾، قال الرَّجُل: ألي هذه؟ قال: لِمَن عَمِلَ بها مِن أُمَّتي))[3].

قال القُرطبي: (قولُه تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ قيل: أهلُ الشِّركِ. وقيل: عامَّةٌ فيهم وفي العُصاة، على نحوِ قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ...﴾ الآية [الأنعام: ٦٨] وهذا هو الصَّحيحُ في معنى الآيةِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٩)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٦) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٣).

قال ابنُ تيمية: (قولُه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وغير ذلك مِن الآياتِ التي نزلَتْ بمكةَ ثمَّ جرَى بالمدينةِ سببٌ يقتضي الخطابَ، فأُنزِلَت مرة

وعن أبي اليَسَرِ كعب بن عَمرو رَضِيَ الله عنه، قال: ((أَتَتْني امرأةٌ تبتاعُ تمرًا، فقُلتُ: إنَّ في البيتِ تَمرًا أَطيَبَ منه، فدخَلَت معي في البيتِ، فأهويتُ إليها فقبَّلتُها، فأتيتُ أبا بكرٍ فذكَرتُ ذلك له، قال: استُرْ على نفسِك وتُبْ، ولا تخبِرْ أحدًا، فلم أصبِرْ، فأتيتُ عُمرَ فذكَرتُ ذلك له، فقال: استُرْ على نفسِك وتُبْ، ولا تخبِرْ أحدًا، فلم أصبِرْ، فأتيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذكَرتُ ذلك له، فقال: أخلَّفتَ غازيًا في سبيلِ اللهِ في أهلِه بمِثلِ هذا؟! حتى تمنَّى أنَّه لم يكُنْ أسلَمَ إلَّا تلك السَّاعةَ، حتى ظَنَّ أنَّه من أهلِ النَّارِ، قال: وأطرَقَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طويلًا حتى أوحى اللهُ إليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ قال أبو اليَسَر: فأتيتُه فقَرَأها عليَّ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال أصحابُه: يا رسولَ اللهِ، ألهذا خاصَّةً أم للنَّاسِ عامَّةً؟ قال: بل للنَّاسِ عامَّةً))[1].

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾.

أي: وأقِمِ الصلاةَ المفروضةَ، في أوَّلِ النهارِ وآخرِه، وهي صلاةُ الفجرِ والظهرِ والعصرِ[2].

ثانية). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٣١٤-٣١٥).

(١) أخرجه الترمذي (٣١١٥) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٣٢٧)، والبزار (٢٣٠٠). قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ، وقال الزيلعي في ((تخريج الكشاف)) (٢/ ١٥٣): أصلُ الحديثِ في الصحيحين، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٩).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ في المرادِ بالصَّلواتِ طَرَفَي النهار: الزجاجُ، والزمخشري، وابنُ عطية، وابنُ تيمية، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٨٠).

﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾.

أي: وأقمِ الصلاةَ أيضًا في ساعاتٍ مِن الليلِ، وهي صلاةُ المغربِ والعشاءِ[(١)].

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ، ومحمدُ بن كعب القرظيُّ، وهو رواية عن الحسن البصري، ورواية عن الضحاك. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤).

وقيل: المرادُ: صلاةُ الفجرِ والمغربِ. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠٥)، ((الوجيز)) (ص: ٥٣٦).

وقيل: المرادُ: صلاةُ الفجرِ والعصرِ، وممن اختار ذلك: الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٨).

قال ابن جرير: (اختلف أهلُ التَّأويلِ في التي عُنِيَت بهذه الآيةِ مِن صلواتِ العَشيِّ بعد إجماعِ جميعِهم على أنَّ التي عُنِيَت من صلاةِ الغداةِ: الفَجر). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠١-٦٠٢).

وقال ابنُ عاشور: (انتقَل مِن خطابِ المؤمنين إلى خطابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا الخطابُ يتناولُ جميعَ الأمةِ بقرينةِ أنَّ المأمورَ به مِن الواجباتِ على جميعِ المسلمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٩).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكور في المرادِ بـ﴿زُلَفًا مِنَ اللَّيۡلِ﴾: الزجاج، والزمخشري، وابن عطية، وابن تيمية، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٨٠).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه، والحسنُ البصري في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، ومحمدُ بنُ كعبٍ القرظي، والضحَّاك، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٥).

قال السعدي: (﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ ويدخلُ في ذلك صلاةُ المغربِ والعشاءِ، ويتناولُ ذلك قيامَ الليلِ؛ فإنها مما تزلفُ العبدَ، وتقرِّبُه إلى اللهِ تعالى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

وقيل: المرادُ: صلاةُ العشاءِ. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٣٦).

﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

أي: إنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ مِن الصَّلاةِ وغَيرِها تُكفِّرُ صغائِرَ الذُّنوبِ[١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّه سَمِعَ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: ((أرأيتُم لو أنَّ نهرًا ببابِ أحَدِكم يغتَسِلُ منه كلَّ يومٍ خَمسَ مرَّاتٍ، هل يبقى مِن دَرَنِه[٢] شيءٌ؟ قالوا: لا يبقى مِن دَرَنِه شيءٌ، قال: فذلك مثَلُ الصَّلواتِ الخَمسِ؛ يمحو اللهُ بهنَّ الخَطايا))[٣].

وعنه أيضًا رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ: ((الصَّلواتُ الخمسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورمضانُ إلى رَمضانَ؛ مكَفِّراتٌ ما بينهُنَّ إذا اجتَنَبَ الكبائِرَ))[٤].

﴿ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

أي: ذلك -الذي تقدَّمَ ممَّا أمَرَكم اللهُ به ونهاكم عنه- تذكِرةٌ وعِظةٌ للمتَّعِظينَ

وقيل: المرادُ: صلاةُ المغربِ والعشاءِ والوترِ. وممن اختار ذلك الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٥).

وذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المراد بالحَسَنات هنا الصلواتُ الخَمسُ، وهو من بابِ التفسيرِ بالمثالِ، ومن هؤلاء: ابن جرير، ونسبه ابن عطية والقرطبي إلى جمهورِ المفسِّرينَ مِن الصَّحابة والتَّابعين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، وابنُ مسعودٍ، وسلمانُ، وكعبٌ، وسعيدُ بنُ المسيب، ومحمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، والحسنُ البصري، والضحَّاك، ومسروقٌ، ومقاتلُ بنُ سليمانَ، ومقاتلُ بنُ حيانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠٦).

(٢) الدَّرَنُ: الوسَخُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ١٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٨) ومسلم (٦٦٧)، واللفظ له.

(٤) أخرجه مسلم (٦٦٧).

الذين يذكُرونَ اللهَ، ويذكُرونَ وَعْدَه ووعيدَه، فيَرجونَ ثوابَه ويخافون عِقابَه[١].

﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ وقوعِ الأمرِ بالصَّبرِ عَقِبَ الأمرِ بالاستقامةِ والنَّهيِ عن الرُّكونِ إلى الذين ظَلَموا: أنَّ المأموراتِ لا تخلو عن مشَقَّةٍ عَظيمةٍ، ومُخالَفةٍ لِهَوى كثيرٍ منَ النُّفوسِ، فناسب أن يكونَ الأمرُ بالصَّبرِ بعد ذلك؛ ليكونَ الصَّبرُ على الجميعِ، كلٌّ بما يناسِبُه[٢].

﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾.

أي: واحبِسْ نفسَك على طاعةِ اللهِ، وتَرْكِ مَعصيتِه، وتحمُّلِ أذى الكفَّارِ؛ فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ ثوابَ المُطيعينَ لله، ويُعطيهم ثوابَهم كاملًا غيرَ مَنقوصٍ[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ يدُلُّ على وجوبِ اتِّباعِ النُّصوصِ

(١) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦١٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٩٣).

وممَّن قال بعودِ الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدَّم مِن الأمرِ بالاستقامةِ وما بعدَها: الرازي، والشوكاني، ومال إليه السعدي، واختاره ابنُ عاشورٍ، ونسَبه الخازنُ إلى جمهورِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨١)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠٧).

وقيل: الإشارةُ تعودُ إلى القرآنِ. وممن قال بذلك: الواحديُّ، والقرطبي. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٣).

وقيل: تعودُ إلى الصلواتِ. وممن قال بذلك: ابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

في الأمورِ الدِّينيَّةِ[١].

٢- قولُه: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أفاد قولُه: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ ﴾ الدَّوامَ على العمَلِ بتعاليمِ الإسلامِ دوامًا جِماعُه الاستقامةُ عليه، والحذَرُ مِن تغييرِه[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن الرُّكونِ إلى كلِّ ظالمٍ، والمرادُ بالرُّكونِ: المَيلُ والانضمامُ إليه بظُلمِه، وموافقتُه على ذلك، والرِّضا بما هو عليه من الظُّلم، وإذا كان هذا الوعيدُ في الرُّكونِ إلى الظَّلَمةِ، فكيف حالُ الظَّلَمةِ أنفُسِهم[٣]؟! فهذه الآيةُ مِن أشدِّ الآياتِ النازلةِ في زجرِ الظلمةِ وردعِهم[٤].

٤- قَوْلُهُ: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ فيه دليلٌ على المنعِ من مصادقةِ المشركين، وموالاةِ الظالمينَ، والميلِ إليهم بالمحبةِ والسُّكونِ[٥].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ المقصودُ أن تكونَ الصَّلاةُ أوَّلَ أعمالِ المُسلِمِ إذا أصبحَ- وهي صلاةُ الصُّبحِ- وآخِرَ أعمالِه إذا أمسى- وهي صلاةُ العِشاءِ- لتكونَ السَّيِّئاتُ الحاصِلةُ فيما بين ذلك ممحُوَّةً بالحَسَناتِ الحافَّةِ بها[٦].

٦- إقامةُ الصَّلواتِ المَفروضاتِ على وجهِها يُوجِبُ مُباعدةَ الذُّنوبِ، ويُوجِبُ أيضًا إنقاءَها وتطهيرَها؛ قال الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٠).
(٤) يُنظر: ((رموز الكنوز)) للرسعني (٣/ ٢٥١).
(٥) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٧٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٩).

وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[١].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بل يتقبَّلُ اللهُ عنهم أحسَنَ الذي عَمِلوا، ويجزيهم أجرَهم بأحسَنِ ما كانوا يعمَلونَ، وفي هذا ترغيبٌ عظيمٌ لِلُزومِ الصَّبرِ، بتشويقِ النَّفسِ الضَّعيفةِ إلى ثوابِ اللهِ كلَّما وَنَت وفتَرَت[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ لَمَّا كانت التَّوفيةُ قد تُطلَقُ على مجرَّدِ الإعطاءِ، وقد يكون ذلك على التَّقريبِ؛ نفَى هذا الاحتمالَ بقَولِه تعالى: ﴿غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾[٣].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ لَمَّا كان من المقطوعِ به أنَّ الآمِرَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَن له الأمرُ كُلُّه، بُني للمفعولِ قَولُه: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾[٤].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ عَظيمٌ في الشَّريعةِ؛ وذلك لأنَّ القرآنَ لَمَّا ورد بالأمرِ بأعمالِ الوُضوءِ مُرتَّبةً في اللَّفظِ، وجب اعتبارُ التَّرتيبِ فيها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾، ولَمَّا ورد الأمرُ في الزَّكاةِ بأداءِ الإبِلِ مِن الإبلِ، والبقَرِ مِن البقَرِ؛ وجبَ اعتبارُها، وكذا القولُ في كلِّ ما ورد أمرُ الله تعالى به[٥].

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٣٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩١).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٨٧).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٦).

٤- جَمَع قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ وقولُه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أصلَي الدِّينِ، وهما: الإيمانُ والعملُ الصَّالحُ، وقال الحسنُ: (جَعَلَ اللَّهُ الدِّين بَين لائين ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾)[١].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ استدَلَّ به من مَنع الاستِعانةَ بالكفَّارِ في الحربِ، ومَنع استِعمالَهم في مصالحِ المُسلمينَ[٢].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في سَدِّ ذرائعِ الفسادِ المحَقَّقةِ أو المَظنونةِ[٣].

٧- لَمَّا كان الرُّكونُ إلى الظَّالمِ -وهو الميلُ إليه، والاعتِمادُ عليه- دونَ مُشارَكتِه في الظُّلمِ؛ أخبر أنَّ العِقابَ عليه دونَ العقابِ على الظُّلمِ، فأتى بلفظِ (المسِّ) الَّذي هو دونَ الإحراقِ والاصطِلاءِ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾، وإنْ كان المسُّ قد يُطلقُ ويُرادُ به الإشعارُ بالعذابِ[٤].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ لَمَّا أمر تعالى بالاستقامةِ، أردَفَه بالأمرِ بالصَّلاةِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ أعظمَ العِباداتِ -بعد الإيمانِ بالله- الصَّلاةُ[٥].

٩- تكفيرُ الصَّغائرِ يقَعُ بشَيئينِ: أحدهما: الحسَناتُ الماحيةُ، والثاني: اجتِنابُ الكبائرِ. وقد نصَّ عليها سبحانَه وتعالى في كتابِه، فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٣٧٩)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٥/ ١٧٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٧).

طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾، وقال تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾[(١)] [النساء: ٣١].

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أتى بعد أن أمَرَ بالصَّبرِ بلفظٍ عامٍّ، وهو ﴿أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ ليندرِجَ فيه كلُّ من أحسَنَ بسائرِ خِصالِ الإحسانِ ممَّا يحتاجُ إلى الصَّبرِ فيه، وما قد لا يحتاجُ، كطَبعِ مَن خُلِقَ كريمًا، فلا يتكَلَّفُ الإحسانَ؛ إذ هو مركوزٌ في طبعِه[(٢)].

١١- قولُ الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، أي: أجرَ أعمالِهم، عدلَ عن الضَّميرِ؛ ليكونَ كالبُرهانِ على المقصودِ، ودليلًا على أنَّ الصَّلاةَ والصَّبرَ إحسانٌ، وإيماءً بأنَّه لا يُعتَدُّ بهما دونَ الإخلاصِ[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾

- قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ﴾ الفاءُ لترتيبِ النَّهْيِ على ما قُصَّ من القصصِ، وبُيِّن في تَضاعيفِها مِن العَواقبِ الدُّنيَويَّةِ والأُخرَويَّةِ[(٤)].

- جُمْلَةُ ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُ﴾ مُستأنَفةٌ؛ تعليلًا لانتفاءِ الشَّكِّ في عاقبةِ أمرِهم في الدُّنيا[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٨).

- وعبَّر عن عبادةِ الآباءِ بالمضارعِ ﴿يَعۡبُدُ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِهم على تلك العبادةِ؛ أي: إلَّا كما اعتاد آباؤُهم عبادتَهم، والقرينةُ على المُضِيِّ قولُه: ﴿مِّن قَبۡلُ﴾[1].

- وقولُه: ﴿لَمُوَفُّوهُمۡ﴾ و﴿نَصِيبَهُمۡ﴾ واردٌ على سبيلِ التَّهكُّمِ؛ كأنَّ لهم عَطاءً يَسألونه فوُفُّوه[2].

- قولُه: ﴿غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ وقَع حالًا مؤكِّدةً مِن النَّصيبِ؛ لتحقيقِ التَّوفيةِ؛ زيادةً في التَّهكُّمِ، لأنَّ مِن إكرامِ الموعودِ بالعطاءِ أن يُؤكَّدَ له الوعدُ، ويُسمَّى ذلك بالبشارةِ، والمرادُ نَصيبُهم مِن عذابِ الآخرةِ، ومِن فَوائدِه أيضًا: دفْعُ تَوهُّمِ التَّجوُّزِ وجَعلُها مُقيدةً له؛ لِدَفعِ احتِمالِ كَونِه مَنقوصًا في حَدِّ نفسِه، مبنيٌّ على الذُّهولِ عن كَونِ العاملِ هو التَّوفيةَ[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾ اعتِراضٌ لِتَثبيتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَسْليَتِه بأنَّ أهْلَ الكتابِ- وهُم أحسَنُ حالًا مِن أهلِ الشِّركِ- قد أُوتوا الكتابَ فاختَلفوا فيه، وهم أهلُ مِلَّةٍ واحدةٍ؛ فلا تأْسَ مِن اختِلافِ قومِك عليك[4].

- قولُه: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾ هذا الاختلافُ بأنواعِه وأحوالِه يَرجِعُ إلى الاختلافِ في شيءٍ مِن الكتابِ، فجُمِعَت هذه المعاني جَمعًا بديعًا في تعديَةِ الاختلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٩).

بحَرْفِ (في)، وهي كالمُلابَسةِ، أي: فاختُلِف اختِلافًا يُلابِسُه، أي: يُلابِسُ الكتابَ[١].

- وبُني فعلُ (اختُلِف) للمجهولِ؛ إذ لا غرَضَ إلَّا في ذِكْرِ الفعلِ لا في فاعِلِه؛ لأنَّ الغرَضَ لم يَكُنْ مُتعلِّقًا ببيانِ المختلِفين ولا بذَمِّهم، بل كان للتَّحذيرِ مِن الوقوعِ في مثلِه[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تَضمَّنَت هذه الآيةُ عِدَّةَ توكيداتٍ: التَّوكيدَ بـ (إنَّ)، وبـ (كلٍّ)، وباللَّام في الخبَرِ وبالقسَمِ، وبـ (ما) إذا كانت زائدةً، وبنونِ التَّوكيدِ وباللَّام قبْلَها؛ وذلك مُبالَغةً في وعْدِ الطَّائعِ ووعيدِ العاصي، وأردَفَ ذلك بالجملةِ المؤكِّدةِ، وهي: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، وهذا الوصفُ يَقتَضي عِلمَ ما خَفي[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ استِئنافٌ وتعليلٌ للتَّوفيَةِ؛ لأنَّ إحاطةَ العلمِ بأعمالِهم مع إرادةِ جَزائِهم تُوجِبُ أن يَكونَ الجزاءُ مُطابِقًا للعمَلِ تمامَ المطابَقةِ؛ وذلك محقِّقُ التَّوفيةِ[٤].

٤- قولُه: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

- في قولِه: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾ توجيهُ الأمرِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تَنويهًا بشأنِه؛ لِيَبنِيَ عليه قولَه: ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾؛ فيُشيرَ إلى أنَّه المتلقِّي للأوامرِ الشَّرعيَّةِ ابتِداءً، وهذا تنويهٌ له بمقامِ رسالتِه، ثمَّ أعلَم بخِطابِ أمَّتِه بذلك بقولِه:

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٥).

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[١].

- قولُه: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ فيه تشبيهُ الاستقامةِ المأمورِ بها بما أُمِر به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِكَونِ الاستقامةِ مُماثِلةً لسائرِ ما أُمِر به، وهو تشبيهُ المجمَلِ بالمفصَّلِ في تفصيلِه بأن يَكونَ طِبْقَه، ويَؤُولُ هذا المعنى إلى أن تَكونَ الكافُ في مَعْنى (عَلى)، كما يُقالُ: كُن كَما أنت، أي: لا تَتغيَّرْ، ولْتُشْبِهْ أحوالُك المستقبَلةُ حالَتَك هذه[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ في معنى التَّعليلِ للأمْرِ والنَّهيِ[٣].

- وفي قولِه تعالى هنا: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ * وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ * فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال في مثلِ هذا السِّياقِ مِن سورةِ (الشُّورى): ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ * فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾[الشورى:١٤- ١٥]؛ ووجهُ ذلك: أنَّه في سورةِ (هودٍ) اكتَفى بالأمرِ بالاستقامةِ على الجادَّةِ، والنَّهيِ عن الطُّغيانِ، ومنه البغيُ الَّذي يورِثُ الاختلافَ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ العِبْرةِ العامَّةِ بقَصصِ الرُّسلِ كافَّةً، لا بحالِ قومِ موسى ومَن أورِثوا الكتابَ خاصَّةً، وأمَّا في سورةِ الشُّورى فأمَرَه أن يَدْعوَ إلى الدِّينِ الذي كان عليه الرُّسلُ في

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٧٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٥١).

عُصورِهم، قبلَ الاختلافِ فيه الَّذي ابتُدِع مِن بَعدِهم، وأن يَستَقيمَ عليه كما أمَرَه اللهُ، وأن يُخاطِبَ أهلَ الكتابِ بما يَتبرَّأُ به مِن الاختلافِ، ومِن إثارتِه بحُججِ الجدالِ؛ فهذا فرقُ ما بين المقامَين في هذه الآياتِ المتشابِهة[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾؛ والرُّكونُ هو الْمَيلُ اليَسيرُ، وقال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، أي: إلى الَّذين وُجِد منهم الظُّلمُ، ولم يَقُلْ: (إلى الظَّالِمين)، وهو أبلَغُ؛ فقد حُكي عن بعضِ السَّلفِ: أنَّه صلَّى خلْفَ الإمامِ فقرَأ بهذه الآيةِ فغُشي عليه، فلمَّا أفاق قيل له، فقال: هذا فيمَن ركَن إلى مَن ظلَم؛ فكيف بالظَّالِم[٢]؟!

- لفظةُ: ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ المسُّ كنايةٌ عن الإصابةِ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾

- جملةُ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مَسوقةٌ مَساقَ التَّعليلِ للأمرِ بإقامةِ الصَّلواتِ، وتأكيدُ الجملةِ بحَرفِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ وتحقيقِ الخبَرِ، و(إنَّ) فيه مُفيدةٌ معنى التَّعليلِ والتَّفريعِ، وهذا التَّعليلُ مُؤْذِنٌ بأنَّ اللهَ جعَل الحسَناتِ يُذْهِبْن السَّيِّئاتِ، والتَّعليلُ مُشعِرٌ بعُمومِ أصحابِ الحسَناتِ؛ لأنَّ الشَّأنَ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢١).

أن تكونَ العِلَّةُ أعَمَّ مِن المعلولِ مع ما يَقتَضيه تعريفُ الجمعِ باللَّامِ مِن العمومِ[١].

- وخَصَّ الذَّاكرينَ بالذِّكرِ؛ لأنَّهم المُنتَفِعونَ بالذِّكرى[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فيه الرجوعُ إلى التَّذكيرِ بالصَّبرِ بعدَما جاء بما هو خاتِمةٌ للتَّذكيرِ، وهذا الرجوعُ لِفَضلِ خُصوصيَّةٍ ومَزيَّةٍ، وتَنبيهٌ على مَكانِ الصَّبرِ ومَحلِّه، كأنَّه قال: (وعَليك بما هو أهَمُّ ممَّا ذُكِّرتَ به، وأحَقُّ بالتَّوصيَةِ، وهو الصَّبرُ على امتِثالِ ما أُمِرتَ به والانتهاءُ عما نُهيتَ عنه)؛ فلا يَتِمُّ شيءٌ منه إلَّا به[٣].

- قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ حرفُ التَّأكيدِ (إنَّ) مَجلوبٌ للاهتمامِ بالخبَرِ، وسُمِّي الثَّوابُ أجْرًا؛ لوُقوعِه جَزاءً على الأعمالِ ومَوعودًا به؛ فأشبَهَ الأجرَ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٢).

الآيات (١١٦-١١٩)

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾: أي: ذوو فَضلٍ ودينٍ وعِلمٍ، وسُمِّي الفضلُ (بقيةً)؛ لأنَّ الرجلَ يَستَبقي مِمَّا يُخرِجُه أجوَدَه وأفضَلَه، فصار لفظُ (البقيَّةِ) مثلًا في الجَودةِ والفَضلِ، وأصلُ (بقي): يدلُّ على الدَّوامِ[1].

﴿أُتْرِفُواْ﴾: أي: أُعطوا من الأموالِ ونُعِّموا؛ مِن التَّرَف: وهو السَّعةُ والنَّعيمُ[2].

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالَى: فهلَّا وُجِدَ مِن القُرونِ الماضيةِ بقايا مِن أهلِ الخيرِ والصَّلاحِ، ينهونَ أهلَ الكُفرِ عن كُفرِهم، وعن الفَسادِ في الأرضِ، لم يُوجَدْ من أولئك الأقوامِ إلَّا قليلٌ ممَّن آمنَ، فنجَّاهم الله بسبَبِ ذلك مِن عذابِه حين أخذ الظَّالمينَ، واتَّبع عامَّتُهم -من الذين ظَلَموا أنفُسَهم- ما مُتِّعوا فيه مِن لذَّاتِ الدُّنيا ونعيمِها،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٥).

وكانوا مُجرمينَ ظالمينَ باتِّباعِهم ما تنَعَّموا فيه، فحقَّ عليهم العذابُ.

وما كان ربُّك -يا مُحمَّدُ- لِيُهلِكَ قريةً مِن القرى وأهلُها مُصلِحونَ في الأرضِ، مُجتَنِبونَ للفَسادِ والظُّلمِ، ولو شاء ربُّك لجعل النَّاسَ كُلَّهم جماعةً واحدةً على دينٍ واحدٍ، وهو دينُ الإسلامِ، ولكنَّه سُبحانَه لم يشأْ ذلك، فلا يزالُ النَّاسُ مُختلفينَ في أديانِهم، إلَّا مَن رَحِمَ ربُّك فآمَنوا به واتَّبَعوا رُسُلَه، فإنَّهم لا يختَلِفونَ في توحيدِ اللهِ وما جاءت به الرُّسُلُ مِن عندِ الله، وقد اقتَضَت حِكمتُه سُبحانه وتعالى أنَّه خَلقَهم مُختَلفينَ: فريقٌ شَقيٌّ وفريقٌ سعيدٌ، وكلٌّ ميسَّرٌ لِما خُلِق له، وبهذا يتحقَّقُ وعدُ رَبِّك في قضائِه وقَدَرِه: أنَّه سُبحانَه سيملأُ جهنَّمَ مِن الجِنِّ والإنسِ الذين اتَّبَعوا إبليسَ وجُندَه ولم يَهتَدوا للإيمانِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّ الأممَ المتقدِّمينَ حَلَّ بهم عذابُ الاستِئصالِ؛ بيَّنَ أنَّ السَّببَ فيه أمرانِ: السَّببُ الأوَّل: أنَّه ما كان فيهم قومٌ ينهَونَ عن الفَسادِ في الأرضِ، والسَّببُ الثَّاني: قولُه: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى إهلاكَ الأُممِ المكَذِّبةِ للرُّسُل، وأنَّ أكثَرَهم مُنحَرِفونَ، حتى أهلَ الكُتُبِ الإلهيَّة، وذلك كلُّه يقضي على الأديانِ بالذَّهابِ والاضمحلالِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٩).

ذكَرَ أنَّه لولا أنَّه جعلَ في القُرونِ الماضيةِ بقايا من أهلِ الخَيرِ يَدعُونَ إلى الهُدى، ويَنهَونَ عن الفَسادِ والرَّدَى، فحصل مِن نَفْعِهم ما بقِيَت به الأديانُ، ولكنَّهم قليلون جِدًّا، وغايةُ الأمرِ أنَّهم نَجَوا باتِّباعِهم المُرسَلين، وقيامِهم بما قاموا به مِن دينِهم، وبكونِ حُجَّةِ الله أجراها على أيديهم[١].

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: فهلَّا وُجِدَ من أهلِ القُرونِ الماضيةِ- الذين أهلَكْناهم بذُنوبِهم ممَّن قصَصْتُ عليك يا محمَّدُ نبأَهم في هذه السُّورةِ- بقايا مِن أصحابِ العُقولِ والإيمانِ والخَيرِ، يَنهَونَ النَّاسَ عن الفَسادِ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي[٢].

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

أي: لكن قليلًا مِن أولئك كانوا يَنهَونَ عن الفَسادِ في الأرضِ، وهم أتباعُ الرُّسُلِ الذين أنجاهم اللهُ تعالى من الهَلاكِ[٣].

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾.

أي: واتَّبَعَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم من الأمَمِ الماضيةِ ما نُعِّموا فيه من لذَّاتِ الدُّنيا، وانشغلوا به، وآثَرُوه على الآخرةِ[٤].

﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسر السعدي)) (ص:٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٢٧، ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٣).

أي: وكان الظَّالِمونَ المُترَفونَ مُجرمينَ باكتسابِ الكُفرِ والمعاصي، فاستحَقُّوا عِقابَ اللهِ[١].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا لاح بما مضَى أنَّ العِبرةَ في الإهلاكِ والإنجاءِ للأكثَرِ؛ قرَّرَه وأكَّدَه وبيَّنَه[٢].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

أي: وما كان ربُّك- يا محمَّدُ- ليُهلكَ أهل القرى بظلمٍ منه لهم، والحالُ أنَّ أهلَها مُصلِحونَ في أعمالِهم؛ فاللهُ تعالى لم يُهلِكْ قَريةً إلَّا وهي ظالِمةٌ لنَفسِها[٣].

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٦، ١٨٧).
قال ابن جرير: (وقد قيل: معنى ذلك: لم يكن ليُهلِكَهم بشِركِهم بالله، وذلك قولُه: ﴿بِظُلْمٍ﴾، يعني: بشِركٍ، وأهلُها مُصلحون فيما بينهم لا يتظالَمون، ولكنَّهم يتعاطَونَ الحَقَّ بينهم، وإن كانوا مُشركين، وإنَّما يُهلِكُهم إذا تظالَموا). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٤).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان النَّعيُ على الأمَمِ الذين لم يقعْ فيهم من يَنهَونَ عن الفَسادِ، فاتَّبَعوا الإجرامَ، وكان الإخبارُ عن إهلاكِهم بأنَّه ليس ظُلمًا مِن اللهِ، وأنَّهم لو كانوا مُصلِحينَ لَما أُهلِكوا، لَمَّا كان ذلك كلُّه قد يثيرُ توَهُّمَ أنَّ تعاصيَ الأمَمِ عمَّا أراد اللهُ منهم خروجٌ عن قبضةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ؛ أعقَبَ ذلك بما يرفَعُ هذا التوهُّمَ بأنَّ اللهَ قادِرٌ أن يجعَلَهم أمَّةً واحدةً متَّفِقةً على الحَقِّ، مُستمرَّةً عليه كما أمَرَهم أن يكونوا[1].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

أي: ولو شاء ربُّك- يا محمَّدُ- لجعل جميعَ النَّاسِ على ملَّةٍ واحدةٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦١).

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

أي: ولا يزالُ النَّاسُ مُختَلفينَ في أديانِهم ومذاهِبِهم وآرائِهم[١].

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أشعَرَ الاختلافُ بأنَّه اختلافٌ في الدِّينِ، وأنَّ معناه العدولُ عن الحَقِّ إلى الباطلِ -لأنَّ الحَقَّ لا يقبَلُ التعدُّدَ والاختلافَ- عقَّبَ عمومَ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ باستثناءِ مَن ثَبَتوا على الدِّينِ الحَقِّ ولم يُخالِفوه، بقَولِه تعالى[٢]:

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾.

أي: إلَّا مَن رَحِمَهم اللهُ، فهداهم إلى الإيمانِ به، واتِّباعِ رُسُلِه؛ فإنَّهم لا يختَلِفونَ فيما جاءهم مِن عندِ ربِّهم[٣].

عن عوفِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((افتَرَقت اليهودُ على إحدى وسبعينَ فِرقةً؛ فواحدةٌ في الجنَّةِ، وسبعونَ في النَّارِ، وافتَرَقت النَّصارى على ثِنتَينِ وسبعين فِرقةً؛ فإحدى وسبعونَ في النَّارِ، وواحِدةٌ في الجنَّةِ، والذي نفسُ محمَّدٍ بِيَدِه لتفتَرِقنَّ أمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ فِرقةً؛ واحدةٌ في الجنَّةِ، وثِنتانِ وسَبعون في النَّارِ، قيل: يا رسولَ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

من هم؟ قال: الجماعةُ))[١].

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ﴾.

أي: وللاختلافِ بالشَّقاءِ والسَّعادةِ خَلَقَهم، فخلَقَ قومًا للاختلافِ والشَّقاءِ، وقَومًا للرَّحمةِ والسَّعادةِ، وذلك بحسَبِ ما تقتَضيه حِكمتُه عزَّ وجلَّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾ [التغابن: ٢].

وعن ابنِ مسعود رضي الله عنه، قال: ((حدَّثنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو الصَّادِقُ المصدوقُ: إنَّ أحَدَكم يُجْمَعُ خَلْقُه في بطنِ أُمِّه أربعينَ يومًا، ثُمَّ يكونُ في ذلك عَلَقَةً مثلَ ذلك، ثُمَّ يكونُ في ذلك مُضغةً مثلَ ذلك، ثُمَّ يُرسَلُ الملَكُ فينفخُ فيه الرُّوحَ، ويُؤْمَرُ بأربعِ كلماتٍ: بكَتْبِ رِزْقِه، وأجَلِه، وعملِه، وشقِيٌّ أو سعيدٌ))[٣].

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾.

أي: وتمَّ أمرُ اللهِ ونفَذَ قضاؤُه بما سبقَ في عِلمه ليَمْلأنَّ جهنَّم ممَّن يستحِقُّها

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢)، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (٦٣)، والطبراني (١٨/ ٧٠) (١٢٩).
قال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (١٩/ ٣٦): إسنادُه لا بأسَ به، وجوَّد إسنادَه العراقي في ((الباعث على الخلاص)) (١٧)، ووثَّق رجالَه السخاوي في ((الأجوبة المرضية)) (٢/ ٥٧١)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٩٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٠، ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٣٦) و(٨/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٢٠).
وممن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، وابنُ تيميةَ، والسعدي، والشنقيطي.
يُنظر: المصادر السابقة.
وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، والحسنُ، وعطاءٌ، ومالكُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣٧-٦٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٠٨) مسلم (٢٦٤٣).

من الجِنِّ والإنسِ أجمعينَ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال سُبحانه مخاطبًا إبليسَ: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((احتجَّت النَّارُ والجنَّةُ، فقالت هذه: يَدخُلُني الجبَّارون والمتكبِّرون، وقالت هذه: يَدخُلُني الضُّعَفاءُ والمساكينُ، فقال الله عزَّ وجلَّ لهذه: أنتِ عذابي أُعَذِّبُ بكِ من أشاء- وربَّما قال: أصيبُ بكِ من أشاء- وقال لهذه: أنتِ رحمتي أرحمُ بكِ من أشاء، ولكلِّ واحدةٍ منكما مِلؤُها))[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه تنبيهٌ لهذه الأمَّةِ، وحَضٌّ لها على تغييرِ المُنكَر[٣]، وأن يكون فيهم بقايا مُصلِحون لِما أفسَدَ النَّاسُ، قائِمونَ بدِينِ اللهِ؛ يدعونَ من ضلَّ إلى الهُدى، ويَصبِرون منهم على الأذى، ويُبَصِّرونَهم مِن العَمى[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٩) ومسلم (٢٨٤٦)، واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩١).

فيه أنَّه تعالى لا يُهلِكُ أهلَ القُرى بمجَرَّدِ كَونِهم مُشرِكينَ، إذا كانوا مُصلِحينَ في المُعاملاتِ فيما بينهم، بل إنَّما يُنزِلُ ذلك العذابَ إذا أساؤوا في المُعاملات وسَعَوا في الإيذاءِ والظُّلمِ[١]، وذلك على أحدِ أوجهِ تأويلِ الآيةِ.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ الاختلافُ المذمومُ المحَذَّرُ منه هو الاختلافُ في أصولِ الدِّينِ الذي يترتَّبُ عليه اعتبارُ المخالفِ خارجًا عن الدِّينِ، وإن كان يزعُمُ أنَّه مِن متَّبِعيه، فإذا طرأ هذا الاختلافُ وجبَ على الأمَّةِ قَصمُه، وبَذلُ الوُسعِ في إزالتِه مِن بينهم بكُلِّ وسيلةٍ مِن وسائلِ الحَقِّ والعدلِ، بالإرشادِ والمُجادَلة الحَسَنة والمُناظَرة، فإنْ لم يَنجَعْ ذلك فبالقِتالِ، كما فعل أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنه في قتالِ العَرَبِ الذين جَحَدوا وجوبَ الزَّكاةِ، وكما فعل عليٌّ رَضِيَ الله عنه في قِتالِ الحَرُوريَّة الذين كفَّروا المُسلمينَ، وهذه الآيةُ تحذيرٌ شديدٌ من ذلك الاختلافِ[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في تعقيبِ هذه الآيةِ لآيةِ الصَّبرِ إشارةٌ إلى أنَّ الصَّبرَ على الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَر، في الذِّروةِ العُليا[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في هذا تنويهٌ بأصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٩٩).

أولو بقيَّةٍ مِن قُريشٍ، يَدعونَهم إلى الإيمانِ حتى آمنَ كُلُّهم، وأولو بقيَّةٍ بين غيرِهم من الأُمَم الذين اختَلَطوا بهم، يدعونَهم إلى الإيمانِ والاستقامةِ بعد الدُّخولِ فيه، ويُعَلِّمونَ الدِّينَ، كما قال تعالى فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1] [آل عمران: ١١٠].

٣- الاختلافُ في كتابِ الله على وجهينِ:

أحدُهما: أن يكونَ كلُّه مذمومًا، كقولِه: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

والثاني: أن يكونَ بعضُهم على الحقِّ، وبعضُهم على الباطلِ، كقولِه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. لكن إذا أُطلِق الاختلافُ، فالجميعُ مذمومٌ، ومِن ذلك قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ...﴾[2].

٤- إن قيل: ظاهرُ قوله تعالَى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يتعارضُ مَعَ قولِه تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالجوابُ عن هذا: أنَّ الإرادةَ في قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إرادةٌ كونيةٌ قدريةٌ، والإرادةُ في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إرادةٌ شرعيةٌ دينيةٌ، فبيَّن في قولِه: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾؛ أنَّه أراد بإرادتِه الكونيةِ القدريةِ صيرورةَ قومٍ إلى السعادةِ، وآخرين إلى الشقاوةِ، وبيَّن بقولِه: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أنه يريدُ العبادةَ بإرادتِه الشرعيةِ الدينيةِ مِن الجنِّ والإنسِ، فيوفِّق مَن شاء بإرادتِه الكونيةِ فيعبده، ويخذلُ مَن شاء فيمتنع

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٥٨).

مِن العبادةِ، وقيل غيرُ ذلك[١] .

٥- لا تجِدُ اتِّفاقًا وائتلافًا إلَّا بسبَبِ اتِّباعِ آثارِ الأنبياءِ مِن القُرآنِ والحَديثِ، وما يَتبعُ ذلك، ولا تجِدُ افتراقًا واختلافًا إلَّا عند مَن ترَكَ ذلك، وقدَّمَ غَيرَه عليه؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ فأخبَرَ أنَّ أهلَ الرَّحمةِ لا يَختَلِفونَ، وأهلُ الرَّحمةِ هم أتباعُ الأنبياءِ قولًا وفِعلًا، وهم أهلُ القرآنِ والحديثِ مِن هذه الأمَّةِ، فمَن خالَفَهم في شيءٍ فاته مِن الرَّحمةِ بقَدرِ ذلك[٢].

٦- أهلُ الإشراكِ مُتفرِّقون، وأهلُ الإخلاصِ متَّفِقونَ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ فأهلُ الرَّحمةِ مُتَّفِقونَ مُجتَمِعونَ، والمُشرِكونَ فرَّقوا دينَهم، وكانوا شِيَعًا[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ قال قتادةُ: (أهلُ رَحمةِ اللهِ أهلُ الجَماعةِ، وإن تفرَّقت ديارُهم وأبدانُهم، وأهلُ مَعصيتِه أهلُ فُرقةٍ، وإن اجتَمَعت دِيارُهم وأبدانُهم)[٤].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فيه ردٌّ على القَدَريَّةِ[٥].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ صريحٌ بأنَّ اللهَ تعالى خلقَ أقوامًا للجنَّةِ والرَّحمةِ، فهداهم ووفَّقَهم لأعمالِ أهلِ الجنَّةِ، وخلقَ أقوامًا للضَّلالةِ والنَّار، فخَذَلهم ومنَعَهم من الهدايةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٢١).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٥٢).
(٣) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٢).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٨٦).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بيانُ الكلامِ الكونيِّ، ويُقابِلُه الكلامُ الدينيُّ، كقولِه تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[1] [التوبة: ٦].

١١- اتَّفقَ العُلَماءُ على أنَّ كفَّارَ الجِنِّ يَدخُلونَ النَّارَ، كما أخبَرَ الله بذلك في قولِه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ فيه الإتيانُ بفاءِ التَّفريعِ؛ لأنَّه في موقعِ التَّفصيلِ والتَّعليلِ لِجُملةِ ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] وما عُطِف عليها، كأنَّه قيل: (وإنَّ كُلًّا لَمَّا ليُوفِّيَنَّهم ربُّك أعمالَهم؛ فلَولا كان مِنهم بَقيَّةٌ ينهَوْن عن الفسادِ في الأرضِ...) إلى آخرِه، أي: فاحْذَروا أن تكونوا كما كانوا، فيُصيبَكم ما أصابَهم، وكُونوا مُستَقيمين ولا تَطْغَوا، ولا تَرْكَنوا إلى الظَّالِمين، وأقيموا الصَّلاةَ، فغيَّر نَظْمَ الكلامِ إلى هذا الأسلوبِ الَّذي في الآيةِ؛ لِتَفنُّنِ فَوائدِه ودَقائقِه، واستقلالِ أغراضِه، مع كونِها آيلَةً إلى غرَضٍ يَعُمُّها، وهذا مِن أبدَعِ أساليبِ الإعجازِ الَّذي هو كَرَدِّ العجُزِ على الصَّدرِ مِن غَيرِ تَكلُّفٍ، ولا ظُهورِ قَصدٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٣).

- وفيه إطلاقُ البقيَّةِ على الفضلِ؛ وهي كنايةٌ غَلَبَت فسارَت مَسْرى الأمثالِ؛ لأنَّ شأنَ الشَّيءِ النَّفيسِ أنَّ صاحِبَه لا يُفرِّطُ فيه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾

- صيغةُ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ﴾ تَدُلُّ على قوَّةِ انتفاءِ الفعلِ؛ وأصلُ هذا التَّركيبِ في الكلامِ: ما كان فُلانٌ فاعِلًا كذا، فلمَّا أُريدَتِ المبالغةُ في النَّفيِ عُدِل عن نفْيِ الفعلِ إلى نفْيِ المصدَرِ الدَّالِّ على الجنسِ، وجُعِل نفْيُ الجنسِ عن الشَّخصِ بواسِطَةِ نَفْيِ الاستحقاقِ؛ فصار التَّركيبُ: ما كان له أن يَفعَلَ[٢].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِيُهْلِكَ﴾ لِتَأكيدِ النَّفيِ[٣]، وهي لامُ الجُحودِ؛ لِقَصدِ المبالَغةِ في النَّفيِ، بحيث يُنفَى أن يَكونَ وُجودُ المسنَدِ إليه مَجعولًا لأجْلِ فِعْلِ كذا، أي: فهو بَريءٌ منه بالأصلِ؛ ولذلك سُمِّيَت جُحودًا[٤].

- وتَنكيرُ ﴿بِظُلْمٍ﴾؛ للتَّفخيمِ، والإيذانِ بأنَّ إهلاكَ المصلِحين ظُلمٌ عظيمٌ، والمرادُ: تنزيهُ اللهِ تعالى عن ذلك بالكُلِّيَّةِ بتَصْويرِه بصورةِ ما يَستَحيلُ صُدورُه عنه تعالى[٥].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، وفي سورةِ (القَصص) قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٨٦) و(٣/ ٢٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٧).

إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[القصص: ٥٩]، فقال في أُولَى الآيتَينِ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿وَمَا كُنَّا ﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّ آيةَ (هودٍ): ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ ﴾ بإضافةِ اسْمِ الرَّبِّ جلَّ وتعالى إلى ضميرِ نَبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المخاطَبِ بهذه؛ مُلاطَفةً له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتأنيسًا له ولأُمَّتِه، وإشعارًا بعظيم حَظْوَتِه ومَنزِلتِه لدَيه سبحانَه، ثمَّ أتبَع تعالى هذا بقولِه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩]؛ فأخبَر تعالى أنَّه ما أهلَكَهم إلَّا بعدَ استِحْقاقِ جَميعِهم العذابَ وتَساويهم في الظُّلم، وقيل في هذه الآيةِ الأخيرةِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ ﴾؛ لئلَّا يتَكرَّرَ اللَّفظُ بعينِه مع الاتِّصالِ والقربِ وليس مِن مَواضِعِه[1].

- ومِن المناسَبةِ أيضًا قولُه هنا في سورةِ (هودٍ): ﴿لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾، وقال في سورةِ (القَصصِ): ﴿مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ ﴾، و﴿مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [القصص: ٥٩]؛ فاختصَّتِ الآيةُ الَّتي في سورةِ (هودٍ) بلَفظِ الفعلِ في خبَرِ كان، والأُخرَيانِ بالاسْمِ وهو (مُهْلِكَ)؛ ووجهُ ذلك: أنَّ اللَّامَ في قولِه ﴿لِيُهْلِكَ ﴾ تُسمَّى لامَ الجُحودِ، ولا تَخْلو منه، فالمعنى: لم يَكُنْ فيما مضى يقَعُ منِّي هذا الفعلُ، ولا يقَعُ فيما يُستقبَلُ ولا في الحالِ، وإذا كان كذلك وكان هذا نهايةَ ما يُخاطِبُ به العرَبُ في نفْيِ الفعلِ، وامتِناعِ وُقوعِه، خصَّه اللهُ تعالى بالمكانِ الَّذي لا يقَعُ ذلك مِنه أبدًا، ولم يقَعْ منه قَطُّ، وهو أنَّه لم يَكُنْ فيما مَضى يُهلِكُ القرى ظالِمًا لها مع صلاحِ أهلِها، ولا يَفعَلُه، ولا يَليقُ بعَدلِه، وهو مُنزَّهٌ عنه تعالى اللهُ عن ذلك.

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[القصص: ٥٩]، فإنَّه

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٤-٢٦٥).

لم يَكُنْ فيها صريحُ ظُلمٍ يُنسَبُ إليه، ولم يَكُنْ مَلفوظًا به، فيُؤتى باللَّفظِ الأبلَغِ في نفْيِه، كما كان في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾، فإنَّه أبلَغُ في الانتفاءِ مِن الظُّلمِ[1].

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه جيءَ بالفعلِ في قولِه: ﴿لِيُهْلِكَ﴾ إشارةً إلى التَّكرُّرِ بحسَبِ ما يَكونُ منهم؛ فلو كان في كلِّ أمَّةٍ وقَرْنٍ بعدَ قرنٍ مَن يَنهى عن الفسادِ والظُّلمِ، لَمَا أخَذ بِذَوي الظُّلمِ منهم، ولكان تعالى يَدْفَعُ بعضَهم عن بعضٍ، ولكنْ تَكرَّرَ الفسادُ وعَمَّ كلَّ قرنٍ، فتكرَّر عليهم الجزاءُ والأخذُ، فأشار الفعلُ إلى التَّكرُّرِ، ولم يَكُنِ الاسمُ لِيُعطِيَ ذلك، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]، ولَم يَقُلْ: (وقَابِضاتٍ)؛ لِمَا قصَده مِن مَعنى التَّكرُّرِ، وأمَّا قولُه في سورةِ (القصص): ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩]؛ فإنَّه تَقدَّم هذا في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١]، أي: أَتْبَعْنا ووالَيْنا التَّذكارَ، ويَشهَدُ له قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، فلمَّا أعلَم سبحانه تَتابُعَ التَّذكارِ وتَعاقبُ الإنظارِ، قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩]، وناسب هذا ذِكْرَ اسْمِ الفاعلِ؛ لأنَّه قصَد ذِكْرَ الاتِّصافِ بهذا، ولم يَقصِدِ التَّكرُّرَ، ولم يَكُنْ حاصِلَه[2].

- ومن المناسَبةِ الحسَنةِ كذلك: قولُه أيضًا في الأولى: ﴿مُصْلِحُونَ﴾ وفي الثَّانيةِ: ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾، وفي الثَّالثةِ: ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾؛ لأنَّ آيةَ هودٍ تَقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٨٣-٧٨٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٤-٢٦٥).

يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [هود: ١١٦]، أي: فهَلَّا كان مِنهم خِيارٌ يَنهَوْن عن الفسادِ والظُّلم؛ فلو كان مِنهم ذلك لَمَا هلَكوا، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧]، أي: ما كان لِيَفعَلَ بهم ذلِك وإنْ وقَع منهم ظُلمٌ، إذا كان فيهم مُغيِّرٌ للظُّلمِ وناهٍ عن الفسادِ، ولكنَّهم كانوا كما أخبَر تعالى عن المعتَدِين مِن بَني إسرائيلَ في قولِه تعالى عنهم: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾[1] [المائدة: ٧٩].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾

- في قولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ حُذِفَ مفعولُ فِعْلِ المشيئةِ؛ لأنَّ المرادَ منه ما يُساوي مَضْمونَ جَوابِ الشَّرطِ؛ فحُذِف إيجازًا، والتَّقديرُ: ولو شاء ربُّك أن يَجعَل النَّاسَ أمَّةً واحدةً لجعَلهم كذلك[2].

٤- قولُه تعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

- قَولُ الله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ ﴾ أي: قَبيلِ الجِنِّ، قيل: قدَّمَهم لأنَّهم أصلٌ في الشَّرِّ، ثمَّ عَمَّ فقال: ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[3]، ويحتمِلُ أنَّه قدَّمهم لسبقِهم في الخلقِ.

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١٢/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤٠٣).

الآيات (١٢٠-١٢٢)

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ونَقصُّ عليك- أيُّها النَّبيُّ- من أخبارِ الرُّسُلِ- الذين كانوا قَبلَك- كلَّ ما تحتاجُ إليه ممَّا يُقوِّي قَلبَك للقيامِ بأعباءِ الرِّسالةِ، وقد جاءك في هذه السُّورةِ وما اشتَمَلت عليه من أخبارٍ بيانُ الحقِّ الذي أنت عليه، ومَوعِظةٌ مِن اللهِ- يتَّعظ بها المؤمنون إذا سَمِعوا فيها ما نزَل بالأُمَم مِن العذابِ- وتذكيرٌ للمؤمنينَ، وقُلْ -يا محمَّدُ- للكافرينَ الذين لا يُقرُّونَ بوحدانيَّةِ اللهِ: اعمَلوا ما أنتم عامِلونَ، على حالتِكم وطريقَتِكم في مقاومةِ الدَّعوةِ، وإيذاءِ الرَّسولِ والمُستَجيبينَ له، فإنَّا عامِلونَ على مكانَتِنا وطريقَتِنا مِن الثَّباتِ على دينِنا، وتَنفيذِ أمرِ اللهِ، وانتَظِروا عاقِبةَ أمرِنا؛ فإنَّا مُنتَظِرونَ عاقِبةَ أمرِكم، ولله سُبحانَه وتعالى عِلمُ كُلِّ ما غاب في السَّمَواتِ والأرضِ، وإليه يُرجَعُ الأمرُ كلُّه يومَ القيامةِ، فاعبُدْه -أيُّها النبيُّ- وفوِّضْ أمرَك إليه، وما ربُّك بغافِلٍ عمَّا تعملونَ مِن الخيرِ والشَّرِّ، وسيُجازي كُلًّا بعَمَلِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى في هذه السُّورةِ مِن أخبارِ الأنبياءِ ما ذكَرَ؛ ذكَرَ الحِكمةَ في ذِكرِ ذلك[١]، فقال:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾.

أي: ونَقُصُّ عليك- يا مُحمَّدُ- كلَّ ما تحتاجُ إلى مَعرفتِه مِن أخبارِ الرُّسُلِ المتقَدِّمينَ؛ ما نُثَبِّتُ به قَلبَك، فتزدادُ إيمانًا ويقينًا وصبرًا على تكذيبِ قَومِك، كما صبَرَ المُرسَلونَ مِن قَبلِك[٢].

﴿ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ ﴾.

أي: وجاءك- يا مُحمَّدُ- في هذه السُّورةِ الحَقُّ الذي لا شَكَّ فيه[٣].

﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: وجاءَك في هذه السورةِ أيضًا مَوعِظةٌ مِن اللهِ يتَّعظ بها المؤمنون إذا سَمِعوا فيها ما نزَل بالأُمَم مِن العذابِ، ويَحترِزونَ عمَّا أهلكها، فتلينُ قلوبُهم لسلوكِ الحقِّ- وتذكيرٌ للمؤمنينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٣).

وممن قال بأنَّ الموعظةَ والذكرى كلاهما للمؤمنينَ: الواحدي وابنُ الجوزي، وابنُ عطية،

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ١٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بالغَ تعالى في الإعذارِ والإنذارِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ أتبَعَ ذلك بالتَّهديدِ والوَعيدِ[(١)].

وأيضًا فإنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾ [هود: ١٢٠]؛ لأنَّها لَمَّا اشتَمَلت على أنَّ في هذه القِصَّةِ ذِكرى للمُؤمنين؛ أُمِرَ بأن يُخاطِبَ الذين لا يُؤمِنونَ بما فيها خطابَ الآيسِ مِن انتفاعِهم بالذِّكرى، الذي لا يعبأُ بإعراضِهم، ولا يصُدُّه عن دَعوتِه إلى الحَقِّ تألُّبُهم على باطِلِهم، ومقاومتُهم الحَقَّ[(٢)].

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ١٢١﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ- للذين لا يُقرُّونَ بتوحيدِ اللهِ، ولا يصدِّقونَك: اعمَلوا على طَريقتِكم وحالتِكم التي أنتم عليها، متمَكِّنينَ مِن العمَلِ الذي تعملونَه، إنَّا مُستَمِرُّونَ على العمَلِ بمَنهجِنا الذي أمَرَنا اللهُ به[(٣)].

والقرطبي، وأبو حيان، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: المصادر السابقة.
وقال ابن جرير: (وجاءَك موعظةٌ تَعِظُ الجاهلينَ بالله). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٧).
وقال ابنُ كثيرٍ: (وموعظةٌ يرتَدِعُ بها الكافرونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

﴿ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

أي: وانتَظِروا ما يحُلُّ بنا من رحمةِ اللهِ، إنَّا مُنتَظِرونَ ما وعدَنا اللهُ مِن عُقوبتِكم ونَصْرِنا عليكم[1].

كما قال تعالى حكايةً عن شُعَيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴾ [هود: ٩٣].

﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: ولله مُلكُ كُلِّ ما غاب عن عبادِه في السَّموات والأرضِ، وهو العالمُ بكُلِّ ما فيهما من الخَفايا والغُيوبِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [فاطر: ٣٨].

وقال سُبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٨].

﴿ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

أي: وإلى الله وَحْدَه مَرجِعُ كُلِّ عاملٍ وعَمَلِه، فيُجازيهم يومَ القيامةِ على جميعِ أعمالِهم[١].

كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

أي: فاعبُدِ اللهَ وَحدَه -يا محمَّدُ- وفوِّضْ إليه جميعَ أمورِك، واستَعِنْ به[٢].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وما ربُّك- يا محمَّدُ- بغافلٍ عمَّا تَعملونَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وسيُجازي كلَّ واحدٍ بعَمَلِه[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه أنَّ سَماع أخبارِ الأخيارِ فيه تقويةٌ للعزائمِ، وإعانةٌ على اتِّباعِ تلك الآثارِ؛ فإنَّ النفوسَ تأنسُ بالاقتداءِ، وتنشطُ على الأعمالِ، وتريدُ المنافسةَ لغيرِها، ويتأيَّد الحقُّ بذكرِ شواهدِه، وكثرةِ مَن قام به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ تضمَّنَت الآيةُ الاعتبارَ مِن قَصَصِ الرُّسُل، بما فيها مِن حُسنِ صَبرِهم على أُمَمِهم، واجتهادِهم على دُعائِهم إلى عبادةِ الله بالحَقِّ، وتذكير الخيرِ والشَّرِّ، وما يدعو إليه كلٌّ منهما مِن عاقبةِ النَّفعِ والضُّرِّ؛ للثَّباتِ على ذلك جميعِه اقتداءً بهم[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ اشتَمل على خمسِ جُملٍ: الجملةُ الأولى: دلَّت على أنَّ عِلمَه محيطٌ بجميعِ الكائناتِ؛ كُلِّيِّها وجُزئيِّها، حاضِرِها وغائِبِها؛ لأنَّه إذا أحاط عِلمُه بما غاب فهو بما حضر مُحيطٌ؛ إذ عِلمُه تعالى لا يتفاوَتُ. والجُملةُ الثانية: دلَّت على القُدرةِ النَّافذة والمَشيئة. والجملة الثالثة: دلَّت على الأمرِ بإفرادِ مَن هذه صِفاتُه، بالعبادةِ الجسَديَّة والقَلبيَّة، والجملة الرابعة: دلَّت على الأمرِ بالتوكُّلِ. والجملة الخامسة: تضمَّنَت التنبيهَ على المجازاة، فلا يُضيعُ طاعةَ مُطيعٍ، ولا يُهمِلُ حالَ متمَرِّدٍ[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ التوكُّلُ لا يصِحُّ بغير العبادةِ، والأخذِ بالأسبابِ المُستطاعةِ، وإنَّما يكونُ بدونِهما من التمنِّي الكاذبِ، والآمالِ الخادعةِ، كما أنَّ العِبادةَ- وهي ما يُرادُ به وَجهُ اللهِ مِن كُلِّ عَملٍ- لا تَكمُلُ إلَّا بالتوكُّلِ الذي يَكمُلُ به التَّوحيدُ[٣]، فصلاحُ العبدِ وسعادتُه في تحقيقِ معنى قولِه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقد جمَع الله سبحانه بين هذين الأصلين في مواضعَ من كتابِه، كقوله عن نبيِّه شعيبٍ: ﴿وَمَا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٦٣).

تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] وقوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا * رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٨-٩]، وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقوله عن الحنفاءِ أتباعِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤] فهذه سبعةُ مواضعَ تنتظمُ هذين الأصلين الجامعين لمعنيي التوحيدِ، اللذين لا سعادةَ للعبدِ بدونهما البتةَ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾ ذكَرَ العُلَماءُ في تخصيصِ هذه السورةِ بوَصفِها بالحَقِّ- والقرآنُ كُلُّه حقٌّ- أوجُهًا:

الوجهُ الأولُ: أنَّ ذلك يتضمَّنُ معنى الوعيدِ للكَفَرةِ والتَّنبيهِ للنَّاظر، أي: جاءك في هذه السُّورةِ الحَقُّ الذي أصاب الأُمَم الظَّالمة، وهذا كما يُقالُ عند الشَّدائدِ: جاء الحقُّ، وإن كان الحقُّ يأتي في غيرِ شَديدةٍ وغيرِ ما وجهٍ، ولا تستَعملُ في ذلك جاء الحقُّ[٢].

الوجهُ الثاني: خصَّ هذه السُّورةَ؛ لأنَّ فيها أخبارَ الأنبياءِ والجنَّةِ والنَّارِ.

الوجهُ الثالثُ: خصَّها بالذِّكرِ تأكيدًا، وإن كان الحقُّ في كلِّ القُرآنِ، وهذا تشريفٌ لهذه السورة؛ لأنَّ غيرَها من السُّوَرِ قد جاء فيها الحقُّ والموعِظةُ والذِّكرى[٣].

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٦).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ * وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ في أمرِ اللهِ رَسولَه بأن يقولَ ذلك على لسانِ المُؤمنين شهادةٌ مِن اللهِ بصِدقِ إيمانِهم، وفيه التَّفويضُ إلى رأسِ الأمَّةِ بأن يقطعَ أمرًا عن أُمَّتِه؛ ثِقةً بأنَّهم لا يردُّونَ فِعلَه[١].

٣- ختم اللهُ سورةَ هودٍ بقولِه تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ إلى آخِرِها، كما افتَتَحها بقولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ فذَكَرَ التوحيدَ والإيمانَ بالرُّسُلِ، وهذا فيه بيانُ دينِ اللهِ في الأوَّلين والآخِرينَ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ تذييلٌ وحَوْصَلةٌ لِمَا تقدَّم مِن أنباءِ القُرى وأنباءِ الرُّسلِ[٣].

- و﴿كُلّٗا﴾ منصوبٌ على المفعوليَّةِ للفِعْلِ ﴿نَّقُصُّ﴾، وتَقديمُه على فِعلِه؛ للاهتمامِ، ولِمَا فيه مِن الإبهامِ؛ لِيَأتِيَ بَيانُه بعدَه فيَكونَ أرسَخَ في ذِهْنِ السَّامعِ[٤].

- قولُه: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ بيانٌ لـ ﴿كُلّٗا﴾ أو بدَلٌ منه، وفائدتُه: التَّنبيهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على المقصودِ مِن الاقتِصاصِ، وهو زِيادةُ يَقينِه، وطُمأنينَةُ قلْبِه، وثَباتُ نَفْسِه على أداءِ الرِّسالةِ، واحتِمالِ أذى الكفَّارِ[١].

- قولُه: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ فيه تقديمُ الظَّرفِ ﴿فِي هَٰذِهِ﴾ على الفاعلِ ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ لأنَّ المقصودَ بَيانُ مَنافِعِ السُّورةِ أو الأنباءِ المقصوصةِ فيها، واشتِمالِها على ما ذُكِر مِن المنافعِ المفصَّلةِ، لا بَيانُ كَوْنِ ذلك فيها لا في غَيرِها، ولأنَّ عِندَ تَأخيرِ ما حَقُّه التَّقديمُ تَبْقى النَّفسُ مُترقِّبةً له؛ فيتَمكَّنُ فيها عندَ الوُرود فضْلَ تَمكُّنٍ، ولأنَّ في المؤخَّرِ نَوعَ طُولٍ يُخِلُّ تَقديمُه بتَجاوُبِ أطرافِ النَّظْمِ الكريمِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ﴾ فيه تنكيرُ الموعظةِ والذِّكْرى؛ للتَّعظيمِ[٣].

- قوله: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ خَصَّ المؤمنينَ؛ لكونِهم المتأهِّلينَ للاتعاظِ والتذكُّرِ، وهم المتَّعِظونَ إذا سَمِعوا قَصَص الأنبياءِ[٤].

- قولُه: ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ صيغةُ أمرٍ، ومعناه: التَّهديدُ والوعيدُ[٥].

- قولُه: ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أمرٌ فيه تهديدٌ ووَعيدٌ[٦]، مع ما في تأكيدِ الكلامِ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجُمْلةِ.

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٤).

وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ كلامٌ جامعٌ، وهو تذييلٌ للسُّورةِ مُؤْذِنٌ بخِتامِها، فهو مِن بَراعةِ المَقطَعِ[١].

- وتقديمُ المجرورَينِ في قولِه: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ ﴾ لإفادةِ الاختصاصِ، وهو تَعريضٌ بفَسادِ آراءِ الَّذين عبَدوا غيرَه؛ لأنَّ مَن لم يَكُنْ كذلك لا يَستحِقُّ أن يُعبَدَ، ومَن كان كذلك كان حَقيقًا بأن يُفْرَدَ بالعبادةِ[٢].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ تعريفُ الجنسِ فيَعُمُّ الأمورَ، وتأكيدُ ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ بـ﴿ كُلُّهُۥ ﴾ للتَّنصيصِ على العُمومِ[٣].

- قولُه: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ في تأخيرِ الأمْرِ بالتَّوكُّلِ عن الأمرِ بالعبادةِ: إشعارٌ بأنَّه لا يَنفَعُ دُونَها[٤].

- وخصَّ التوكل بِالذكر وهو الاسْتِعانَة وهِي من عبَادَة الله؛ ليقصدها المتعبد بخصوصها، فإنَّها هِيَ العونُ على سَائِرِ أنواعِ العبادَةِ؛ إِذْ هو سبحانَه لا يُعبدُ إِلَّا بمعونتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٩٥-١٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٧٥).

- قولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ تَذييلٌ لِمَا تَقدَّم؛ فإنَّ عدَمَ غَفلَتِه عن أيِّ عمَلٍ تَعني أنَّه يُعْطي كلَّ عامِلٍ جَزاءَ عمَلِه؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ؛ ولذلك عُلِّق وصْفُ الغافِلِ بالعمَلِ، ولم يُعلَّقْ بالذَّواتِ نَحْوُ: (بغافِلٍ عَنكُم)؛ إيماءً إلى أنَّ على العمَلِ جزاءً[1].

تمَّ بحمدِ اللهِ المجلدُ العاشرُ
ويَليهِ المجلدُ الحادي عشرَ
وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ يوسفَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٦).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورة هود ٧
أسماءُ السورةِ: ٧
بيانُ المكيِّ والمدنيِّ: ٧
مقاصدُ السورةِ: ٧
موضوعاتُ السورةِ: ٨
الآيات (١-٥) ٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٩
المعنَى الإجماليُّ: ١٠
تَفسيرُ الآياتِ: ١٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٩
بلاغةُ الآياتِ: ٢١
الآيتان (٦-٧) ٢٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٧
المعنَى الإجماليُّ: ٢٧
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٢٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٤
بلاغةُ الآيتينِ: ٣٧
الآيات (٨-١١) ٣٩
غريبُ الكَلِماتِ: ٣٩
المعنَى الإجماليُّ: ٣٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٥
بلاغةُ الآياتِ: ٤٦
الآيات (١٢-١٤) ٥١
المعنَى الإجماليُّ: ٥١
تَفسيرُ الآياتِ: ٥١
الفَوائِد التربويَّة: ٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٨
بلاغةُ الآياتِ: ٥٩
الآيات (١٥-١٧) ٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٥
المعنَى الإجماليُّ: ٦٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٥
بلاغةُ الآياتِ: ٧٧
الآيات (١٨-٢٤) ٨٣

غَريبُ الكَلِماتِ: ٨٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٨٤
المَعنى الإجماليُّ: ٨٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٩٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٩٥
بلاغةُ الآياتِ: ٩٧
الآيات (٢٥-٣١) ١٠٧
غريبُ الكَلِماتِ: ١٠٧
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٠٨
المَعنى الإجماليُّ: ١٠٩
تَفسيرُ الآياتِ: ١٠٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٢١
بلاغةُ الآياتِ: ١٢٢
الآيات (٣٢-٣٥) ١٣٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٣٤
المَعنى الإجماليُّ: ١٣٤
تَفسيرُ الآياتِ: ١٣٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٣٨
بلاغةُ الآياتِ: ١٣٩
الآيات (٣٦-٣٩) ١٤٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٤٢
المَعنى الإجماليُّ: ١٤٢
تَفسيرُ الآياتِ: ١٤٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٤٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٤٦
بلاغةُ الآياتِ: ١٤٦
الآيات (٤٠-٤٤) ١٤٩
غريبُ الكَلِماتِ: ١٤٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٥٠
المَعنى الإجماليُّ: ١٥١
تَفسيرُ الآياتِ: ١٥٢
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ١٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٥٨
بلاغةُ الآياتِ: ١٥٩
الآيات (٤٥-٤٩) ١٦٧
المعنَى الإجماليُّ: ١٦٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٦٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٧٤
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٧٦
بلاغةُ الآياتِ: ١٧٨
الآيات (٥٠-٦٠) ١٨٦

غريبُ الكَلِماتِ: ١٨٦
المعنَى الإجماليُّ: ١٨٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٨٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٩٨
الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٩٨
بلاغةُ الآياتِ: ٢٠١
الآيات (٦١-٦٨) ٢١٤
غريبُ الكَلِماتِ: ٢١٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٢١٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٢٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٢٤
بلاغةُ الآياتِ: ٢٢٥
الآيات (٦٩-٧٦) ٢٣٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٣٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٣٣
المعنَى الإجماليُّ: ٢٣٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٣٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٤٢
بلاغةُ الآياتِ: ٢٤٤
الآيات (٧٧-٨٣) ٢٥٢
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٥٢
المعنَى الإجماليُّ: ٢٥٤
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٥٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٥٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٦٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٦٦
بلاغةُ الآياتِ: ٢٦٩
الآيات (٨٤-٨٦) ٢٧٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٧٨
المعنَى الإجماليُّ: ٢٧٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٧٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٨٤
بلاغةُ الآياتِ: ٢٨٦
الآيات (٨٧-٩٠) ٢٩٠
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٩٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٩٠
المعنَى الإجماليُّ: ٢٩١
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٩١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٩٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٩٨
بلاغةُ الآياتِ: ٣٠٠
الآيات (٩١-٩٥) ٣٠٤

غريبُ الكَلِماتِ: ٣٠٤
المعنى الإجماليُّ: ٣٠٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٠٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣١١
بلاغةُ الآياتِ: ٣١٢
الآيات (٩٦-٩٩) ٣٢٠
غريبُ الكَلِماتِ: ٣٢٠
المعنى الإجماليُّ: ٣٢٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٢١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٢٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٢٣
بلاغةُ الآياتِ: ٣٢٤
الآيات (١٠٠ - ١٠٨) ٣٣٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٣٠
المعنَى الإجماليُّ: ٣٣١
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٣٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٤٣
بلاغةُ الآياتِ: ٣٤٦
الآيات (١٠٩-١١٥)..... ٣٥١
غَريبُ الكلماتِ: ٣٥١
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٥١
المعنَى الإجماليُّ: ٣٥٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٥٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٦٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٦٧
بلاغةُ الآياتِ: ٣٦٩
الآيات (١١٦-١١٩)..... ٣٧٥
غريبُ الكَلِماتِ: ٣٧٥
المعنَى الإجماليُّ: ٣٧٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٧٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٨٣
بلاغةُ الآياتِ: ٣٨٦
الآيات (١٢٠-١٢٣)..... ٣٩١
المعنَى الإجماليُّ: ٣٩١
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٩١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٩٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٩٧
بلاغةُ الآياتِ: ٣٩٨
الفهرس ٤٠٥

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٢٥ ر.س

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة يوسف

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الحادي عشر

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة يوسف)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر – سورة يوسف – المجلد الحادي عشر/ مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي – الظهران، ١٤٣٨هـ

٣٨٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٦-٤٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٣٨/٨٠٤٩

رقم الإيداع: ٦-٤٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

ردمك: ١٤٣٨/٨٠٤٩

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة يوسف)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الحادي عشر

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ يُوسُف

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ يُوسُفَ

أَسماءُ السُّورَةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورَةُ بسورَةِ (يُوسُفَ)[١]:

فعن عُقبَةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((قُلتُ يا رَسولَ الله، أَقْرِئْنِي سُورةَ هودٍ، وسُورةَ يُوسُفَ...)) الحديثَ[٢].

وعن ابنِ مسعود رضي الله عنه، قال: (كنتُ بحمصَ فقال لي بعضُ القومِ: اقرأْ علينا. فقرأتُ عليهم سورةَ يُوسفَ)[٣].

وعن عمرِو بنِ ميمون، في قصة مقتلِ عمرَ رضي الله عنه، قال: (وكان [أي: عُمَر] إذا مَرَّ بين الصَّفَّيْنِ قال: استووا، حتى إذا لم يرَ فيهنَّ خللًا تقدَّم فكبَّر، وربما قرأ سورةَ يوسفَ، أو النَّحلِ، أو نحوَ ذلك في الركعةِ الأُولَى)[٤].

فضائلُ السورةِ وخَصائِصُها:

١- أنَّها السُّورةُ الوَحيدَةُ التي أُفْرِدَت لِقِصَّةِ نَبِيِّ الله يُوسُفَ عليه السلامُ، ولم تُذكَرْ قِصَّتُه في غَيرِها[٥].

---

(١) وجهُ تسميةِ هذه السورةِ بسورةِ (يوسف): اشتمالُها على قصَّتِه كلِّها، ولم تُذكَرْ قصَّتُه في غيرِها، ولم يُذكَرِ اسمُه في غيرِها إلَّا في سورةِ (الأنعام) و(غافر).
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٥٥)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٧).

(٢) أخرجه النسائي (٩٥٣) وأحمد (١٧٤١٨) وابن حبان (١٨٤٢) والحاكم (٣٩٨٨).
صحَّح إسنادَه الحاكم (٣٩٨٨)، وجوَّد إسنادَه ابن مفلح في ((الآداب الشرعية)) (٣/ ٢٣٢)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٥٤٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٠١)، ومسلم (٨٠١) واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٠٠).

(٥) ينظر ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٧).

وإذا قيل: ما الحكمةُ في عدمِ تكريرِ قِصَّةِ يُوسُفَ، وسَوقِها مَساقًا واحِدًا في موضعٍ واحدٍ دُونَ

٢- لم تُذكَرْ قِصَّةُ نَبِيٍّ فِي القرآنِ بمثلِ هذا الإطْنابِ كما ذُكِرَتْ قِصَّةُ يُوسُفَ عليه السَّلامُ في هذه السُّورَة، فهي أطوَلُ قِصَّةٍ في القُرآنِ(١).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورَةُ يُوسُفَ مَكِّيَّةٌ، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِن أهلِ العِلْمِ(٢).

غيرِها مِنَ القصصِ؟

فالجوابُ: أنَّ قَصصَ الأنبياءِ إنَّما كُرِّرَتْ؛ لأنَّ المقصودَ بها إفادَةُ إهلاكِ مَن كذَّبوا رُسُلَهم، والحاجةُ دَاعِيَةٌ إلى ذلك؛ لتكريرِ تكذيبِ الكفارِ لرسولِ الله، فكلَّما كذَّبوا أُنزِلت قِصَّةٌ مُنذِرةٌ بحلولِ العذابِ كما حلَّ على المكذِّبينَ، ولهذا قال تعالى فِي آياتٍ: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨] ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [الأنعام: ٦]، وقِصَّةُ يُوسُفَ لم يُقْصَدْ منها ذلك، وقيل: لأنَّها اختصَّتْ بحصولِ الفرجِ بعدَ الشِّدَّةِ بخلافِ غيرِها مِن القَصصِ، وقيل غير ذلك. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٠٧).

قال محمد رشيد رضا: (وهي أطولُ قِصَّةٍ في القرآنِ افتُتِحت بثلاثِ آياتٍ تمهيدِيَّةٍ في ذكرِ القرآنِ وحسنِ قَصَصِه، ثُمَّ كانت إلى تمامِ المائةِ في تاريخِ يُوسفَ، وخُتِمت بإحدَى عشرةَ آيَةً في الاستدلالِ بها على ما أنزلَها الله لأجلِه مِن إثباتِ رسالةِ خاتَمِ النَّبيِّينَ، وإعجازِ كتابِه، والعبرةِ العامَّةِ بقَصَصِ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ). ((تفسير المنار)) (١٢/ ٢٠٧).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الخازنُ، ومجدُ الدينِ الفيروزابادي، والبقاعيُّ.

يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥١٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٥٥)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ١٨٤).

وقيل: سورةُ يوسفَ مكِّيَّةٌ إلا الثلاثَ الأُوَل منها، قال السُّيوطي: (وهو واهٍ جدًّا لا يُلتفت إليه). ((الإتقان في علوم القرآن)) (١/ ٥٩).

وقال محمد رشيد رضا: (وما قِيل مِن أنَّ الثَّلاثَ منها مدنِيَّاتٌ فلا تصحُّ روايتُه، ولا يظهرُ له وجهٌ، وهو يُخِلُّ بنَظْمِ الكلامِ). ((تفسير المنار)) (١٢/ ٢٠٦)، وزاد بعضُهم الآيةَ السَّابعةَ من هذه السورةِ.

يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٤٠)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥).

مَقاصِد السُّورَة:

مِن أهمِّ مَقاصِدِ سُورَةِ يُوسُفَ:

١- بَيانُ أنَّ العاقِبَةَ للمُؤمِنينَ المُتَّقِينَ الصَّابِرينَ رُغْمَ الابْتِلاءاتِ والمِحَنِ[(١)].

٢- تَسْلِيَةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم وأَصحابِه، وتَطْمِينُ نُفوسِهم[(٢)].

مَوْضوعات السُّورَة:

ذُكِرَت قِصَّةُ يُوسُفَ عليه السَّلامُ في هذه السُّورةِ مُفَصَّلَةً في مكانٍ واحِدٍ، دونَ غَيرِها مِن قَصَصِ الأَنبياءِ، ومِن أبرَزِ ما اشتملتْ عليه هذه السورةُ مِن تفاصيلِ هذه القِصَّةِ وغيرِها مِن موضوعاتٍ:

١- ذِكْرُ جانبٍ مِن فَضائِلِ القُرآن الكَريم، وإعْجازِه في أُسلوب القَصَص وعَرْضِها.

٢- رُؤْيا يُوسُف عليه السَّلامُ، ومَكْرُ إِخْوَتِه به، وحَسَدُهُم له وتَآمُرُهم عليه.

٣- انْتِشالُ السَّيَّارَةِ ليُوسُفَ مِن الجُبِّ، وبَيْعُهم له، ومِحْنَتُه في قَصْرِ العَزيز، ومُراوَدَة امْرأَةِ العَزيز له، وشُيوعُ خَبَرِها، وما فعلتْه امرأةُ العزيزِ مع النِّسوةِ اللاتي تكلمْنَ بذلك.

٤- حادِثَة دُخولِ يوسفَ السِّجْنَ بعدَ ظُهورِ بَراءَتِه، ودَعْوَتُه إلى الله فيه.

٥- الرُّؤْيا التي رَآها المَلِكُ، وتَفْسيرُ يُوسُف لها، وثُبوتُ بَراءَةِ يُوسُفَ، وخُروجُه مِن السِّجْنِ، واسْتِلامُه للمُلْكِ والوِزارَةِ، وظُهورُ شَأْنِه.

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٧/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((البرهان في تناسب سور القرآن)) للغرناطي (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٨)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٧/ ٣١١).

٦- لِقاءُ يُوسُف بإِخْوَتِه دونَ أن يَعْرِفوهُ، وطَلَبُه حُضورِ أَخيهِم معهم في المَرَّةِ القادِمَة، ثم احْتِجازُه عنده بِحيلَةٍ دَبَّرَها بإلهامٍ مِن الله، وما حَصَل لِأَبيهِم بعدَ ذلك مِن الحُزْنِ.

٧- لِقاءُ يُوسُف بإِخْوَتِه مَرَّةً ثانِيَة، وكَشْفُه عن نَفسِه، وتَذْكيرُهم بما فعلوا به، وعَفْوُه عنهم، ثم أَمْرُهم بالعَوْدَةِ إلى أَبيهم، وإلْقاءِ قَميصِه على وَجْهِه؛ ليرجعَ بَصَرُه إليه.

٨- حُضورُهُم بعدَ ذلك إلى يُوسُف، واجْتِماعُه بِأَبَوَيْهِ وأَهلِه في مِصْرَ، وإكْرامُه لهم.

٩- تَعْقيباتٌ على ما وَرَدَ في قِصَّة يُوسُف، فذكَر تعالى ما يَدُلُّ على أنَّ القُرآن مِن عند الله، وما يَشهَد بِصِدْقِ النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما يُبَلِّغُه عن رَبِّهِ، وبيَّن وَظيفَة الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم ومَوْقِف المُشركين مِن دَعْوَتِه، وأَنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ليس بِدْعًا مِن الرُّسُل، وأنَّ العاقِبَة له ولِأَتْباعِه مِن المُؤْمِنين.

الآيات (١-٢)

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿نَقُصُّ﴾: أي: نُخبِرُ ونبيِّنُ، والقصصُ: الأثرُ والأخبارُ المتُتبَّعةُ، وأصلُ (القصِّ): تتبُّعُ الأثرِ أو الشيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ الله سبحانه هذه السُّورةَ الكريمةَ بالحُروفِ المُقطَّعةِ، ثم أخبَرَ تعالى أنَّ هذه آياتُ القُرآنِ الواضِحِ من جهةِ أحكامِه، وألفاظِه، وسائِرِ ما حَواهُ مِنْ صُنوفِ مَعانيه، البَيِّنِ صِدْقُه، الذي يُفْصِحُ عمَّا أُبْهِم ويُبَيِّنُه، وأنَّه سُبحانَه أنزلَ هذا القُرآنَ بلُغةِ العَرَبِ؛ لعلَّهم يَعقِلونَ معانيَه ويفهَمونَها، ويَعمَلونَ بهَديِه، ثمَّ توجَّه بالخِطابِ لِنَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: نحن نقصُّ عليك أحسَنَ القَصَصِ بوَحيِنا إليك هذا القُرآنَ، وإن كُنتَ قبل إنزالِه عليك لَمِنَ الغافلينَ عن هذه الأخبارِ، لا تدري عنها شيئًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١﴾.

سبَبُ النُّزولِ:

عن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((أُنزِلَ القرآنُ على رسولِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٢٧١).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتلا عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسولَ الله، لو قَصَصتَ علينا، فأنزل الله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسُف: ١] إلى قولِه تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسُف: ٣] فتلاها عليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زمانًا، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، لو حَدَّثتَنا، فأنزل الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: ٢٣] الآية، كلُّ ذلك يُؤمَرونَ بالقُرآنِ))[١].

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١﴾.

﴿الٓرۚ﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ البَقَرةِ[٢].

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾.

أي: هذه آياتُ القُرآنِ الواضِحِ مِن جهةِ أحكامِه، وألفاظِه، وسائِرِ ما حَواهُ مِنْ صُنوفِ مَعانيه، البَيِّنِ صِدْقُه، الذي يُفْصِحُ عمَّا أُبْهِم ويُبَيِّنُه[٣].

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾.

أي: إنَّا أنزَلْناه كِتابًا يُقرَأُ بلُغَتِكم -أيُّها العربُ- كي تعلَموا وتفهَموا مَعانيَه[٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في ((المذكر والتذكير)) (ص١٠٣)، والبزار (١١٥٣)، وأبو يعلى (٧٤٠) واللفظ له.
حسَّن إسنادَه ابنُ تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٠)، وحسَّنه البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٦/ ٢٢٢)، وابن حجر في ((المطالب العالية)) (٤/ ١٢٦)، وصححه الألباني في ((صحيح الموارد)) (١٤٦٢).

(٢) يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ البقرةِ (١/ ٦٤) من هذا ((التفسير المحرَّر)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠١).

كما قال تعالى: ﴿حمٓ ۞ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۞ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١ - ٣].

﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾.

﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

أي: نحن نقُصُّ عليك- يا محمَّدُ- أحسَنَ أخبارِ الأُمَم الماضيةِ[1]؛ بإيحائِنا

(١) قال القُرطبي: (الحُسْنُ يَعودُ إلى القَصَصِ لا إلى القِصَّةِ. يُقال: فُلانٌ حَسَنُ الاقْتِصاصِ للحَدِيثِ؛ أي جَيِّدُ السِّياقَةِ له. وقِيلَ: القَصَصُ ليس مصدرًا؛ بل هو في معنَى الاسْم، كما يُقالُ: الله رَجاؤُنا، أي مَرْجُوُّنا، فالمعنى على هذا: نحن نُخبِرُك بِأَحسَنِ الأَخبارِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٩).

وقال ابنُ تَيمية: (المَقصودُ هنا أنَّ قولَه: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ قد قِيلَ: إنَّه مَصدَرٌ. وقيلَ: إنَّه مَفعولٌ به. والقَولانِ مُتَلازِمان؛ لكنَّ الصَّحيحَ أنَّ القَصَصَ مَفعولٌ به، وإن كان أَصلُه مَصدرًا فقد غَلَبَ اسْتِعمالُه في المَقْصُوصِ،كما في لَفْظِ الخَبَرِ والنَّبَأ ،والاسْتِعمالُ يَدُلُّ على ذلك ... وقد اعْتَرَف بذلك أهلُ اللُّغةِ، قال الجَوهري: وقد قَصَّ عليه الخَبَرَ قَصَصًا، والاسْمُ أيضًا القَصَصُ بالفَتحِ، وُضِعَ مَوضِعَ المَصدَرِ حَتَّى صار أَغْلَب عليه، فقولُه: أَحسَن القَصَصِ كقَولِه: نُخبِرُك أَحسَنَ الخَبَرِ، ونُنْبِئُك أَحسَنَ النَّبَأِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٢).

وقال أيضًا: (المُرادُ الكلامُ الذي هو أَحسَن القَصَص، وهو عامٌّ في كُلِّ ما قَصَّهُ الله، لم يَخُصَّ به سُورةَ يُوسُف؛ ولهذا قال: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ ولم يَقُل: بما أَوحَينا إليك هذه السُّورَة... فسواء كان ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ مَصدَرًا أو مَفعولًا أو جامِعًا للأَمرَينِ، فهو يَدُلُّ على أنَّ القُرآنَ وما في القُرآنِ مِن القَصَص أَحسَنُ مِن غَيرِه، فإنَّا قد ذَكَرنا أنَّهما مُتَلازِمان، فأيُّهما كان أَحسَن كان الآخَر أَحسَن، فتَبَيَّنَ أنَّ قولَه تعالى: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ كقولِه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٩).

وقال أيضًا: (رَوَى ابنُ أبي حاتِم، عن قَتادَة: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ قال: مِن الكُتُبِ الماضِيَةِ وأُمورِ الله السَّالِفَة في الأُمم ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾. وهذا يدُلُّ على أنَّ أحسَنَ القَصَصِ يَعُمُّ هذا كلَّه؛ بل لفظُ «القَصَص» يَتناوَل ما قَصَّهُ الأنبياءُ مِن آياتِ الله غيرَ أخبارِ الأمم، كقولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٢).

وقال أيضًا: (ليس المُراد بقَولِه: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ قِصَّةَ يُوسُف وَحْدَها؛ بل هي ممَّا قَصَّهُ الله

إليك هذا القرآنَ[١].

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

أي: والشَّأنُ أنَّك كنتَ- يا محمَّدُ- من قبلِ أن نوحيَ إليك هذا القُرآنَ، مِن جملةِ قَومِك الذين لا عِلْمَ لهم بما في القُرآنِ؛ من الإيمانِ والهُدَى، وأخبارِ الأنبياءِ والأُمَمِ الماضيةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

وممَّا يَدخُل في أَحسَن القَصَص... مِن المَعلُوم أنَّ قِصَّةَ موسى وما جَرَى له مع فِرعَون وغَيرِه أَعظَم وأَشرَف مِن قِصَّة يُوسُف بكَثيرٍ كَثير؛ ولهذا هي أَعظَم قَصَص الأَنبياء التي تُذكَر في القُرآن ثَنَّاها اللهُ أَكثرَ مِن غَيرِها، وبَسَطَها وطَوَّلَها أَكثرَ مِن غَيرِها؛ بل قَصَص سائِر الأَنبياء-كنُوح وهُود وصالِح وشُعَيب وغَيرِهم مِن المُرسَلين- أَعظَم مِن قِصَّة يُوسُف؛ ولهذا ثَنَّى اللهُ تلك القَصَص في القُرآن ولم يُثَنِّ قِصَّة يُوسُف، وذلك لأنَّ الذين عادوا يُوسُف لم يُعادُوه على الدِّين بل عادُوه عَداوَةً دُنْيَوِيَّة، وحَسَدوه على مَحَبَّةِ أَبيه له، وظَلَموه فصَبَرَ واتَّقَى الله، وابْتُلِيَ صَلوات الله عليه بِمَن ظَلَمَه وبِمَن دَعاهُ إلى الفاحِشَة فصَبَرَ واتَّقَى الله في هذا وفي هذا، وابْتُلِيَ أيضًا بالمُلْك، فابْتُلِيَ بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ فصَبَرَ واتَّقَى الله في هذا وهذا، فكانت قِصَّتُه مِن أَحسَن القَصَص وهي أَحسَن مِن القَصَص التي لم تُقَصَّ في القُرآن، فإنَّ النَّاس قد يُظلَمونَ ويُحسَدونَ ويُدْعَونَ إلى الفاحِشَة ويُبْتَلَوْنَ بالمُلْك؛ لكن ليس مَن لم يُذكَر في القُرآن ممَّن اتَّقَى الله وصَبَرَ مِثلَ يُوسُف، ولا فيهم مَن كانت عاقِبَتُه أَحسَنَ العَواقِب في الدُّنيا والآخِرَة مِثلَ يُوسُف). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٢٠-٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٤).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ إشارةٌ إلى ضرورةِ العِلمِ بمعاني الكتابِ العزيزِ، ووجهُ ذلك: أنَّه سُبحانه بَيَّنَ أنَّه أنزَلَه عربيًّا كي نعقِلَه، والعقلُ لا يكونُ إلَّا مع العِلمِ بمعانيه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾، إنَّما وُصِفَ القرآنُ بكونِه مُبينًا؛ لوجوهٍ:

الأوَّل: أنَّ القرآنَ مُعجِزةٌ قاهرةٌ، وآيةٌ بيِّنةٌ لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم.

الثاني: أنَّه بيَّنَ فيه الهدى والرُّشد، والحلالَ والحرامَ، ولَمَّا بُيِّنَت هذه الأشياءُ فيه، كان الكتابُ مُبينًا لهذه الأشياءِ.

الثَّالث: أنَّه بُيِّنَت فيه قَصصُ الأوَّلينَ، وشُرِحَت فيه أحوالُ المتقدِّمينَ[٢].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ اللِّسانَ العربيَّ أفصَحُ الألسنةِ وأوسَعُها وأقوَمُها وأعدَلُها؛ لأنَّ مِن المقرَّرِ أنَّ القولَ- وإن خُصَّ بخِطابِه قومٌ- يكونُ عامًّا لِمَن سِواهم[٣].

٣- قوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ هذه الجُملةُ تتنزَّلُ مِن جُملةِ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ مَنزلةَ بدَلِ الاشتمالِ؛ لأنَّ أحسَنَ القصَصِ ممَّا يشتَمِلُ عليه إنزالُ القُرآنِ، وكونُ القَصَصِ مِن عند الله يتنزَّلُ منزلةَ الاشتمالِ مِن جملةِ تأكيدِ إنزالِه مِن عندِ الله، وقولُه: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ يتضَمَّنُ رابطًا

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤١٦).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٦).

بين جملةِ البدَلِ والجُملةِ المُبدَلِ منها[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ وذلك لأنَّ لُغةَ العَربِ أفصَحُ اللُّغاتِ وأبيَنُها وأوسَعُها، وأكثَرُها تأديةً للمعاني التي تقومُ بالنُّفوسِ؛ فلهذا أُنزِلَ أشرفُ الكُتُبِ بأشرَفِ اللُّغاتِ، على أشرفِ الرُّسُلِ، بسِفارةِ أشرَفِ الملائكةِ، وكان ذلك في أشرَفِ بِقاعِ الأرضِ، وابتُدِئَ إنزالُه في أشرفِ شُهورِ السَّنةِ، وهو رمضانُ، فكمُلَ مِن كُلِّ الوجوهِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ ردٌّ على مَن زَعمَ أنَّ في القُرآنِ ما لا يَفْقَهُ ولا يَفْهَمُ معناه لا الرَّسولُ ولا المُؤمِنونَ؛ فإنَّ هذا مِن المنكرِ الذي أنكَرَه العُلَماءُ[٣].

٦- ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى أنَّه يقُصُّ على رَسولِه أحسَنَ القَصَصِ في هذا الكتابِ؛ حيث قال جلَّ وعلا: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ ثمَّ ذكَرَ هذه القِصَّةَ وبَسَطَها، وذكَرَ ما جرى فيها، فعُلِمَ بذلك أنَّها قِصَّةٌ تامَّةٌ كامِلةٌ حَسَنةٌ، فمن أراد أن يُكمِلَها أو يحَسِّنَها بما يُذكَرُ في الإسرائيليَّاتِ التي لا يُعرَفُ لها سنَدٌ ولا ناقِلٌ، وأغلَبُها كذِبٌ؛ فهو مُستدرِكٌ على اللهِ، ومُكمِلٌ لشيءٍ يزعُمُ أنَّه ناقِصٌ، وحَسبُك بأمرٍ ينتهي إلى هذا الحَدِّ قُبحًا! فإنَّ تضاعيفَ هذه السُّورةِ قد مُلِئَت في كثيرٍ مِن التَّفاسيرِ من الأكاذيبِ والأمورِ الشَّنيعةِ المُناقِضةِ لِما قَصَّه الله تعالى بشيءٍ كثيرٍ، فعلى العبدِ أن يفهمَ عن الله ما قَصَّه، ويدَعَ ما سِوى ذلك، ممَّا ليس عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُنقَلُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٥-٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٣).

٧- ذكَرَ اللهُ أقاصيصَ الأنبياءِ في القُرآنِ، وكرَّرَها بمعنًى واحدٍ في وجوهٍ مُختَلفةٍ، بألفاظٍ مُتباينةٍ على درجاتِ البلاغةِ، وقد ذكرَ قِصَّةَ يُوسُفَ ولم يكَرِّرْها، فلم يَقدِرْ مُخالِفٌ على مُعارضةِ ما تكرَّر، ولا على مُعارضةِ غيرِ المُتكَرِّر، والإعجازُ لِمن تأمَّل[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾

- قولُه: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾، وفي سُورةِ (يُونُسَ) وسُورة (لُقمانَ) قال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ فوَصَفَ الكِتابَ في سُورةِ (يُوسُف) بالمُبين، وفي السُّورتَينِ بالحَكيم؛ ووجهُ ذلك: أنَّ ذِكْرَ وَصْفِ إبانتِه هنا أنسَبُ؛ إذ كانت القِصَّةُ التي تَضَمَّنَتها هذه السُّورةُ مُفصَّلةً مُبيِّنةً لأهمِّ ما جَرَى في مدَّةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ بمِصْرَ[٢]؛ فسورةُ (يُوسُفَ) عليه السَّلامُ لم تَنطوِ على غيرِ قِصَّتِه وبسْطِ التعريفِ بقَضيَّتِه، وبيانِ ما جرَى له مع أبيه وإخوتِه، وامتحانِه وتخلُّصِه بسابقِ اصطفائِه ممَّا كِيدَ به، وجَمْعِه بأخيه، ثُمَّ بأبيه وإخوتِه؛ فلهذا أُتْبِع الكتابُ بالوصفِ بـ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾، وأمَّا سُورتَا (يُونُسَ) و(لُقمانَ) فقدْ تَردَّد فيهما من الآياتِ المُعتبَرِ بها، المطْلِعةِ على عَظيمِ حِكمتِه تعالى وإتْقانِه للأشياءِ ما لم يَرِدْ في سُورةِ (يُوسُفَ)، كخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، وجَعْلِ الشَّمسِ ضِياءً والقَمرِ نُورًا، واختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ وما خَلَقَ اللهُ في السَّمواتِ والأرضِ، وما في ذلك مِن عِبَرٍ وآياتٍ، وكذلك ما في سُورة (لُقمان) في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٠).

تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١٠-١١]، وما ذَكَره فيها أيضًا عن لُقمانَ وما آتاهُ من الحِكمةِ، وما انطوتْ عليه قِصَّتُه مِن حِكمةٍ، وما صُدِّرَ عنه في وصيَّتِه؛ فهذا وجهُ وصْفِ الكِتابِ في هاتَينِ السُّورتَينِ بالحَكيمِ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ استِئنافٌ يُفيدُ تَعليلَ الإبانةِ مِن جِهَتَيْ لَفظِه ومَعناه؛ فإنَّ كونَه قُرآنًا يَدُلُّ على إبانةِ المعاني؛ لأنَّه ما جُعِل مَقروءًا إلَّا لِما في تَراكيبِه مِن المعاني المفيدةِ للقارئِ، وكونُه عَربيًّا يُفيدُ إبانةَ ألفاظِه المعانِيَ المقصودةَ للَّذين خُوطِبوا به ابتِداءً، وهم العرَبُ(٢).

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) مُتوجِّهٌ إلى خبَرِها، وهو فِعْلُ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ ردًّا على الَّذين أنكَروا أن يَكونَ مُنزَّلًا مِن عندِ اللهِ(٣).

- وقولُه: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ عن العلمِ بالعقلِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ دَلالةَ القرآنِ على هذا العِلمِ قد بلَغَت في الوُضوحِ حَدَّ أن يُنزَّلَ مَن لم يَحصُلْ له العِلمُ منها مَنزِلةَ مَن لا عَقْلَ له، وأنَّهم ما داموا مُعْرِضين عنه فهُم في عِدادِ غيرِ العُقَلاءِ(٤).

- وحَذَف مفعولَ ﴿تَعْقِلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ إنزالَه كذلك هو سبَبٌ لحُصولِ تَعقُّلٍ لأشياءَ كثيرةٍ مِن العلومِ مِن إعجازٍ وغيرِه(٥).

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٣٧- ٢٣٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سورةِ (يوسفَ): ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وفي سورةِ (الزُّخرُفِ) قال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]؛ فقال هنا ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، وقال في (الزخرف): ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾، ووجهُ ذلك: أنَّ آيةَ سورةِ (يوسُفَ) لَمَّا كانت توطِئةً لذِكْرِ قَصصِه عليه السَّلامُ، ولم تتَضمَّنِ السُّورةُ غيرَ ذلك إلَّا ما أُعقِبَ به في آخِرِها، ممَّا يُعرَفُ بعجيبِ ما تَضمَّنَتْه ما كان غَيبًا عندَ قُريشٍ والعرَبِ، مُستوفِيًا ما كان أهلُ الكتابِ يَظُنُّون أنَّهم انفَرَدوا بعِلمِه، فأنزَل اللهُ هذه السُّورةَ موفِيَةً مِن ذلك أتَمَّه، ومُعرِّفةً مِن قَصصِه العجيبَ، ومؤدِّيةً أكمَلَه وأعَمَّه، ولا أنسَبَ عِبارةً هنا مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾؛ لِيَعلَمَ العربُ والجميعُ أنَّ نبيَّنا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يتَلقَّ ذلك القَصصَ مِن أحَدٍ مِن العرَبِ؛ إذ لم يَكُنْ عِندَهم مِنه نبأٌ، ولا رحَل في تَعرُّفِه إلى أحَدٍ؛ فالتَّعبيرُ بالإنزالِ هنا بيِّنٌ، وأمَّا آيةُ الزُّخرُفِ فلم تُبْنَ على أخبارٍ[1].

٢- قولُه: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ﴾: فيه افتِتاحُ الجُملَةِ بضَميرِ العظَمةِ ﴿نَحۡنُ﴾؛ للتَّنويهِ بالخبَرِ، وتقديمُ ﴿نَحۡنُ﴾ على الخبَرِ الفعليِّ ﴿نَقُصُّ﴾ يفيدُ الاختصاصَ، أي: نَحن نقُصُّ لا غيرُنا؛ ردًّا على مَن يَطعُنُ مِن المشرِكين في القرآنِ بقولِهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾[2] [النحل: ١٠٣].

- قولُه: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ فعُبِّر بـ ﴿ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ دونَ أن يُوصَفَ وحْدَه بالغَفلةِ؛ ونُكتةُ ذلك الإشارةُ إلى تَفضيلِه بالقرآنِ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٦، ٢٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٣).

على كلِّ مَن لم يَنتَفِعْ بالقرآنِ؛ فدخَل في هذا الفَضلِ أصحابُه والمسلِمون على تَفاوُتِ مَراتبِهم في العلمِ، ومَفهومُ قولِه: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾ مقصودٌ منه التَّعريضُ بالمشرِكين المعْرِضين عن هَدْيِ القرآنِ[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ التَّعبيرُ عن عدَمِ العلمِ بالغفلةِ؛ لإجلالِ شأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وإنْ غفَل عنه بعضُ الغافِلين[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥١).

الآيات (٤-٦)

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: اذكُرْ- يا محمَّدُ- لقومِك قولَ يوسُفَ لأبيه يعقوبَ عليهما السلام: إنِّي رأيتُ في المنامِ أحدَ عشَرَ كوكبًا، والشَّمسَ والقمَرَ رأيتُهم لي ساجدينَ، فقال يعقوبُ لابنه يوسُفَ: يا بُنيَّ لا تذكُرْ لإخوتِك هذه الرُّؤيا فيَحسُدوك ويُعادوك، ويَحتالوا في إنزالِ الضررِ بكَ؛ إنَّ الشَّيطانَ للإنسانِ عدُوٌّ ظاهِرُ العداوةِ. وكما أراك ربُّك هذه الرُّؤيا فكذلك يَصطَفيك للنبُوَّةِ، ويعَلِّمُك من تعبيرِ الرُّؤى التي يراها النَّاسُ في منامِهم، ومِن معاني كتبِ الله وسننِ الأنبياءِ، ويُتِمُّ نِعمتَه عليك وعلى آلِ يَعقوبَ بالنبُوَّةِ والرِّسالة، كما أتمَّها مِن قبلُ على أبوَيك إبراهيمَ وإسحاقَ بالنبُوَّةِ والرِّسالةِ، إنَّ ربَّك عليمٌ بمن يَصطفيه مِن عبادِه، حَكيمٌ في تدبيرِ أمورِ خَلقِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا مدحَ ما اشتمَلَ عليه هذا القُرآنُ مِن القَصَص، وأنَّها أحسَنُ القَصَصِ

على الإطلاقِ، فلا يُوجَدُ مِن القَصَصِ في شيءٍ مِن الكتُبِ مِثلُ هذا القرآنِ- ذكرَ قِصَّةَ يوسُفَ وأبيه وإخوتِه، القِصَّةَ العجيبةَ الحَسَنةَ[١]، فقال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

أي: اذكُرْ- يا محمَّدُ- لقَومِك حين قال يوسُفُ لأبيه يعقوبَ- عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ: يا أبتِ، إنِّي رأيتُ في المنامِ أحَدَ عشَرَ نَجمًا، والشَّمسَ والقمَرَ، رأيتُهم ساجدينَ لي[٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أكرمُ الناسِ يوسُف نبيُّ الله، ابنُ نبيِّ الله، ابنِ نبيِّ الله، ابنِ خليلِ الله))[٣].

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٧، ٢٠٨).

قال ابنُ كثيرٍ: (تكلمَّ المفَسِّرون على تعبيرِ هذا المنام: أنَّ الأحدَ عشَرَ كوكبًا عبارةٌ عن إخوتِه، وكانوا أحدَ عشَرَ رجلًا سِواه، والشَّمس والقمَر عِبارةٌ عن أبيه وأمِّه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٩).

وقال الشنقيطي: (لم يُبيِّنْ هنا تأويلَ هذه الرُّؤيا، ولكنَّه بيَّنَه في هذه السورة الكريمة في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: ٩٩- ١٠٠]، ومِن المعلومِ أنَّ رُؤيا الأنبياءِ وحيٌ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٠٢).

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٩) واللفظ له، ومسلم (٢٣٧٨).

أي: قال يعقوبُ لابنه يوسُفَ: يا بُنيَّ لا تَقصُصْ هذه الرُّؤيا على إخوتِك، فيَحسُدوك، ويَحتالوا لك حيلةً ليَضُرُّوك[١].

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ لآدمَ وذريتِه عدوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ، يَحمِلُهم على الحسَدِ والكَيدِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ [الإسراء: ٥٣].

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾.

أي: قال يعقوبُ لابنِه يوسُفَ: وكما أراك ربُّك في منامِك سُجودَ الكواكبِ والشَّمسِ والقَمَرِ لك، فكذلك يَختارُك ربُّك، ويَصطفيك للنبُوَّةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٧٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٩٥).

قال ابن عاشور: (عقَّبَ كلامَه بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ لِيَعلمَ أنَّه ما حذَّره إلَّا مِن نَزغِ الشَّيطانِ في نفوسِ إخوتِه، وهذا كاعتذارِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للرَّجُلَينِ مِن الأنصارِ اللَّذينِ لَقياه ليلاً وهو يُشَيِّعُ زوجَه أمَّ المؤمنينَ إلى بيتِها، فلما رأياه ولَّيا، فقال: «على رِسْلِكما، إنَّها صَفيَّةُ. فقالا: سبحانَ اللهِ، يا رسولَ الله!! وأكبَرَا ذلك، فقال لهما: إنَّ الشَّيطانَ يجري من ابنِ آدمَ مجرى الدَّمِ، وإني خشيتُ أن يَقذِفَ في نُفوسِكما»). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٣).

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

أي: ويُعلِّمُك مِن تعبيرِ الرُّؤى التي يراها النَّاسُ في مَنامِهم، وما يؤولُ أمرُها إليه[١]، ومن معاني كتُبِ الله وسُنَنِ الأنبياءِ[٢].

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

أي: ويُتِمُّ نِعمَتَه عليك في الدُّنيا والآخرةِ، وعلى أهلِ مِلَّةِ يعقوبَ مِن ذرِّيَّتِه وغيرِهم، كما أتمَّ نِعمَتَه من قبلِ ذلك على أبوَيك إبراهيمَ وإسحاقَ بالنِّعَم

---

(١) وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابن جرير، والواحدي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧١).
قال السمعاني: (وأكثرُ المُفسِّرينَ على أنَّ المُرادَ مِن هذا علمُ التَّعبير، وما تؤولُ إليه الرُّؤيا). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٨)، وحكَى القرطبيُّ الإجماعَ على ذلك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٢، ٢٠٣).
وممن جمَع بينَ المعنيينِ المذكورينِ لتأويلِ الأحاديثِ في الجملةِ: السعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((المصدران السابقان)).
وعلى المعنَى الأوَّل سُمِّيت أحاديثَ؛ لأنَّها إمَّا حديثُ نَفسٍ، أو مَلَك، أو شيطان، وعلى المعنى الثاني سُمِّيَت أحاديثَ؛ لأنَّها يُحدَّثُ بها عن الله ورُسُلِه، فيُقال: قال الله كذا، وقال رسولُه كذا، ألا ترى إلى قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقَولِه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]؟ يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٣).
وقال ابن عاشور: (التَّأويلُ: إرجاعُ الشَّيءِ إلى حقيقتِه ودَليلِه...والأحاديثِ: يَصِحُّ أنْ يكونَ جمعَ حديثٍ بمعنَى الشَّيءِ الحادثِ، فتأويلُ الأحاديثِ: إرجاعُ الحوادِثِ إلى عِلَلِها وأسبابِها بإدراكِ حقائقِها على التَّمام. وهو المعنيُّ بالحكمةِ، وذلك بالاستدلالِ بأصنافِ الموجوداتِ على قُدرةِ اللَّهِ وحكمتِه، ويَصِحُّ أنْ يكونَ الأحاديثُ جمعَ حديثٍ بمعنَى الخبرِ المتحدَّثِ به، فالتَّأويل: تعبيرُ الرُّؤيا. سُمِّيَتْ أحاديثُ لأنَّ المرائِيَ يتحدثُ بها الراؤون، وعلى هذا المعنَى حَمَلها بعضُ المفسِّرينَ. واستدَلُّوا بقولِه في آخرِ القصَّةِ وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولعلَّ كلا المعنيين مرادٌ بناءً على صِحَّةِ استعمالِ المشتركِ في مَعْنيَيه وهو الأصحُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١٦).

العظيمةِ في دِينِهم ودُنياهم[١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ ربَّك عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بمن يستحِقُّ إتمامَ النِّعمةِ، حَكيمٌ يضَعُ كلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، ومِن ذلك حِكمتُه في تدبيرِ خَلْقِه[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ في خِطابِ يعقوبَ ليُوسُفَ تنهيةٌ عن أن يقُصَّ على إخوتِه- مَخافةَ كَيدِهم- دَلالةٌ على تحذيرِ المُسلِمِ أخاه المُسلِمَ ممَّن يخافُه عليه، والتَّنبيهِ على بعضِ ما لا يَليقُ، ولا يكونُ ذلك داخِلًا في بابِ الغِيبةِ[٣].

٢- ينبغي البعدُ عن أسبابِ الشَّرِّ، وكِتمانُ ما تُخشى مضَرَّتُه؛ لقولِ يعقوبَ ليُوسفَ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾[٤]، ففيه الحثُّ على التحَرُّزِ ممَّا يُخشَى ضُرُّه؛ فالإنسانُ مأمورٌ بالاحترازِ، فإن نفَعَ فذاك، وإلَّا لم يَلُمِ العبدُ نَفسَه[٥].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٣).

قال تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ وأعظَمُ ذلك نعمةُ النُّبوَّة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٥) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٢١).

﴾ يدُلُّ على جوازِ تَركِ إظهارِ النِّعمةِ لِمَن يُخشَى منه حَسَدٌ ومَكرٌ[١]، فليس للمَحسودِ أسلَمُ مِن إخفاءِ نِعمتِه عن الحاسِدِ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ فيه حُكمٌ بالعادةِ أنَّ الإخوةَ والقَرابةَ يَحسُدونَ[٣].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ في الآيةِ دليلٌ على أنَّ الرُّؤيا لا تُقَصُّ على غيرِ شَفيقٍ ولا ناصِحٍ، ولا على امرئٍ لا يُحسِنُ التَّأويلَ فيها[٤].

٦- مِن الحَزمِ إذا أراد العَبدُ فِعلًا مِن الأفعالِ أن يَنظُرَ إليه مِن جَميعِ نواحيه، ويُقَدِّرَ كُلَّ احتمالٍ مُمكِنٍ، وأنَّ الاحترازَ بسُوءِ الظَّنِّ لا يَضُرُّ إذا لم يُحقَّق، بل يُحترَزُ مِن كُلِّ احتِمالٍ يُخشى ضَرَرُه، ولو تضَمَّنَ ظَنَّ السُّوءِ بالغَيرِ، إذا كانت القرائِنُ تَدُلُّ عليه وتَقتَضيه، كما في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، وكما قَوِيَت القرائِنُ في قَولِه: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: ٦٤]؛ فإنَّه سبَقَ لهم في أخيه ما سَبَق، فلا يُلامُ يعقوبُ إذا ظَنَّ بهم هذا الظَّنَّ، وإن كانوا في الأخِ الأخيرِ لم يَجرِ منهم تفريطٌ ولا تَعَدٍّ[٥].

٧- إنَّ نِعمةَ اللهِ على العبدِ نِعمةٌ على من يتعلَّقُ به من أهلِ بَيتِه وأقارِبِه وأصحابِه، وأنَّه رُبَّما شَمِلَتهم، وحصل لهم ما حصَلَ له بسَبَبِه، كما قال يعقوبُ

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٣).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٨).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ١٧).
(٥) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٢٢).

في تفسيره لرؤيا يوسُفَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾، ولَمَّا تمَّت النِّعمةُ على يوسُفَ، حصلَ لآلِ يعقوبَ مِن العِزِّ والتَّمكينِ في الأرضِ، والسُّرورِ والغِبطةِ ما حصلَ بسبَبِ يوسُفَ[١].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ جعلَ اللهُ تلك الرُّؤيا تنبيهًا ليُوسُفَ عليه السَّلامُ بعُلُوِّ شأنِه؛ ليتذَكَّرَها كلَّما حلَّت به ضائِقةٌ، فتَطمئِنَّ بها نَفسُه أنَّ عاقِبتَه طَيِّبةٌ، وهكذا إذا أراد اللهُ أمرًا مِن الأمورِ العِظامِ قدَّمَ بين يديه مُقَدِّمةً؛ تَوطئةً له، وتسهيلًا لأمرِه، واستعدادًا لِما يَرِدُ على العبدِ مِن المشاقِّ؛ لُطفًا بعبده، وإحسانًا إليه، وقد كانت هذه الرُّؤيا مُقَدِّمةً لِما وصَلَ إليه يوسُفُ عليه السَّلامُ مِن الارتفاعِ في الدُّنيا والآخرةِ، وإنَّما أخبَرَ يوسُفُ عليه السَّلامُ أباه بهاتِه الرُّؤيا؛ لأنَّه عَلِمَ بإلهامٍ أو بتعليمٍ سابقٍ مِن أبيه أنَّ للرُّؤيا تعبيرًا[٢].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا...﴾ أصلٌ في تعبيرِ الرُّؤيا[٣].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ دليلٌ على مَعرفةِ يعقوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بتأويلِ الرُّؤيا؛ فإنَّه عَلِمَ مِن تأويلِها أنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٨).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٣).

سيظهَرُ عليهم[١]، وأنَّها تقتضي تقدُّمَه فيهم؛ لذا نهَى ابنَه عن ذكرِها، وخاف مِن إخوتِه أن يكيدوا له مِن أجلِها[٢].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الجَدَّ أبٌ[٣]؛ لأنَّ إسحاقَ جدُّ يوسفَ، وإبراهيمَ جدُّ أبيه[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾

- النِّداءُ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ في الآيةِ- مع كَوْنِ المنادَى حاضِرًا- مقصودٌ به الاهتمامُ بالخبَرِ الَّذي سيُلقَى إلى المخاطَبِ، فيُنزَّلُ المخاطَبُ منزِلةَ الغائبِ المطلوبِ حُضورُه، وفيه كِنايةٌ عن الاهتمامِ[٥].

- قولُه: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ فيه تأخيرُ الشَّمسِ والقمَرِ؛ لِيَعطِفَهما على الكواكِبِ على طَريقِ الاختصاصِ؛ إثباتًا لِفَضلِهما، واستبدادِهما بالمَزيَّةِ على غَيرِهما مِن الطَّوالِعِ[٦]. وقيل: إنَّ التأخيرَ إنَّما هو مِن بابِ الترقِّي مِن الأدْنَى إلى الأعلَى، وَقُدِّمَتْ الشمسُ على القمرِ؛ لِسُطوعِ نُورِها، وكِبَرِ جِرمِها، واستمدادِه منها، وعُلُوِّ مكانِها[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ١٤).
(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٨).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٣).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٧).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٨).
وقال أبو حيان: (ولم يقعِ التَّرقِّي في الشَّمسِ والقمرِ جَرْيًا على ما استقرَّ في القرآنِ مِنْ أنَّه إذا

- وقولُه: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ فيه تكرارُ ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ على سَبيلِ التَّوكيدِ للفِعلِ الأوَّل ﴿رَأَيْتُ﴾؛ لطُولِ الكَلامِ والفَصلِ بَينَ الفِعلِ ﴿رَأَيْتُ﴾ الأوَّل وبين ﴿سَٰجِدِينَ﴾؛ فطولُ الفَصلِ بالمفاعيلِ ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ استَدَعَى ذلك؛ فجِيءَ بـ ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ تَطريةً وتَنويعًا للحَديثِ[(١)].

وقيل: إنَّه ليس بتَكْرارٍ لـ ﴿رَأَيْتُ...﴾، وإنَّما هو كَلامٌ مُستأنَفٌ ببَيانِ حالِهم الَّتي رآهم عليها، على تَقديرِ سُؤالٍ وقَع جوابًا له؛ كأنَّ يعقوبَ عليه السَّلامُ- أو كأنَّ سائلًا سأَلَ- قال له عندَ قولِه: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾: كيف رأيتَها؟ سائلًا عن حالِ رُؤيتِها، فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[(٢)]؛ فجُملةُ ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ مؤكِّدةٌ لجُملَةِ ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾؛ جيءَ بها على الاستِعْمالِ في حِكايةِ الْمَرائي الحُلميَّةِ أن يُعادَ فِعلُ الرُّؤيةِ؛ تأكيدًا لَفظيًّا، أو استِئنافًا بيانيًّا، كأنَّ سامعَ الرُّؤيا يَستزيدُ الرَّائيَ أخبارًا عمَّا رأى[(٣)].

- قولُه: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ فيه إجراءُ الكواكِبِ والشَّمسِ والقَمرِ مجرَى العُقَلاءِ، حَيثُ عبَّر عنها بقولِه: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ بضَميرِ جمْعِ المذكَّرِ (هُم) وصِيغتِه ﴿سَٰجِدِينَ﴾؛ لأنَّه لَمَّا وصَفها بما هو خاصٌّ بالعُقَلاءِ- وهو السُّجودُ- أَجرَى عليها حُكمَهم، وهذا شائعٌ في كلامِ العَرَب، وهو أنْ يُعطى الشَّيءُ حُكمَ الشَّيءِ؛ للاشتِراكِ في وَصفٍ ما، أو يُلابِسُه ويُقارِبُه من بعضِ الوُجوهِ، فيُعطَى حُكمًا مِن أحكامِه؛ إظهارًا لأثرِ الملابسةِ والمقاربةِ، وإنْ كان ذلك الوَصفُ أصلُه أنْ يَخُصَّ أحدَهما[(٤)]، فلمَّا وصَفها صفةَ مَن يَعقِلُ،

اجْتَمعا قُدِّمَتْ عليه). ((المصدر السابق)).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٤٣، ٤٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود))

جمَعها جَمعَ مَن يَعْقِلُ[١].

- وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لِي﴾ على عامِلِه ﴿سَٰجِدِينَ﴾؛ لإظْهارِ العِنايةِ والاهتِمامِ بما هو الأهَمُّ، وهو ذِكرُ يُوسُفَ عليه السَّلامُ، مع ما في ضِمْنِه مِن رِعايةِ الفاصلةِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ جاءتْ هذه الجُملةُ مَفصولةً عن الَّتي قَبْلَها- أي: لم تُعْطَفْ عليها- على طَريقةِ المُحاوَراتِ[٣].

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ...﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالِ مَن قال: فماذا قال يعقوبُ بعد سماعِ هذه الرُّؤيا العجيبةِ؟ فقيل: قال:...[٤]، والنِّداءُ فيه مع حُضورِ المخاطَبِ مُستعمَلٌ في طَلبِ إحضارِ الذِّهنِ؛ اهتِمامًا بالغرَضِ المخاطَبِ فيه[٥].

- و﴿بُنَيَّ﴾ تَصغيرُ (ابنٍ)؛ كنايةً عن تَحبيبٍ وشفقةٍ، وفيه أيضًا كنايةٌ عن إمحاضِ النُّصحِ له[٦].

- قولُه: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ فيه تنكيرُ ﴿كَيۡدًا﴾؛ للتَّعظيمِ والتَّهويلِ، زيادةً في تحذيرِه مِن قَصِّ الرُّؤيا عليهم[٧]، وأُكِّد بالمصدَرِ للمبالَغةِ[٨]؛ فهذا الأسلوبُ

(٤/ ٢٥٢).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٦)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢١٣).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٨) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٩).

آكَدُ مِن أن يُقالَ: (فيَكيدوك كيدًا)؛ إذ ليس فيه دَلالةٌ على كَوْنِ نَفْسِ الفِعلِ مقصودَ الإيقاعِ، وقيل: إنَّما جيءَ باللَّام لِتَضمينِه معنى الاحتيالِ المتعدِّي باللَّام؛ لِيُفيدَ معنى المضمَّنِ والمضمَّنِ فيه للتَّأكيدِ، أي: فيَحْتالوا لك ولإهلاكِك حيلةً وكيدًا[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ واقعٌ موقِعَ التَّعليلِ للنَّهيِ عن قَصِّ الرُّؤيا على إخوتِه، وعداوَةُ الشَّيطانِ لجنسِ الإنسانِ تحمِلُه على أَنْ يَدْفَعَهم إلى إضرارِ بعضِهم ببعضٍ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ عطَف هذا الكَلامَ على تَحذيرِه مِن قَصِّ الرُّؤيا على إخوتِه؛ إعلامًا له بعُلوِّ قَدرِه، ومستقبَلِ كَمالِه؛ كي يَزيدَ تَملِّيًا مِن سُموِّ الأخلاقِ؛ فيتَّسِعَ صدرُه لاحتمالِ أذَى إخوتِه، وصفحًا عن غيرتِهم منه، وحسَدِهم إيَّاه؛ لِيَتمحَّضَ تحذيرُه للصَّلاحِ، وتَنتفِيَ عنه مفسَدةُ إثارةِ البغضاءِ ونحوِها، حِكْمةً نبويَّةً عظيمةً، وطِبًّا رُوحانيًّا ناجعًا[٣].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ فيه تشبيهٌ، وهو تشبيهُ تعليلٍ؛ لأنَّه تشبيهُ أحَدِ المعلولَينِ بالآخَرِ؛ لاتِّحادِ العِلَّةِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ تذييلٌ بتَمجيدِ هذه النِّعَمِ، وأنَّها كائنةٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢١٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وَفْقِ عِلمِه وحِكْمتِه، وتصديرُ الجملةِ بـ ﴿إِنَّ﴾ للاهتمامِ لا للتَّأكيدِ؛ إذْ لا يَشُكُّ يوسفُ عليه السَّلامُ في عِلمِ اللهِ وحِكْمتِه، والاهتمامُ ذَريعةٌ إلى إفادةِ التَّعليلِ، والتَّفريعُ في ذلك تَعريضٌ بالثَّناءِ على يوسُفَ عليه السَّلامُ، وتَأهُّلِه لمثلِ تلك الفضائلِ[1].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢١٧).

الآيات (٧-١٠)

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عُصْبَةٌ﴾: أي: جَماعةٌ ذَوو عدَدٍ، وعَدَدُها من العَشرةِ إلى الأربعينَ، وأصلُ (عصب): يدُلُّ على رَبطِ شَيءٍ بشَيءٍ، وسُمِّيَت بذلك كأنَّها رُبِطَ بعضُها ببعضٍ[١].

﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾: أي: قَعرِ البِئرِ، والغيابةُ: كلُّ ما غاب، أو غيَّب عنك شيئًا، وأصلُ (غيب): يدلُّ على تستُّر الشَّيء عن العُيونِ، والجبُّ: البئرُ التي ليسَتْ بمطويةٍ[٢]، وأصلُ (جبب): يدلُّ على قَطعٍ، كأنَّها قُطِعت، ولم يحدثْ فيها شيءٌ بعدَ القطعِ[٣].

﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾: أي: مارَّةِ الطَّريقِ مِن المُسافرينَ، وأصلُ (سير): يدلُّ على مُضيٍّ وجَرَيانٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣٦). ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٤).

(٢) البئرُ المطويةُ هي التي تُبنَى كلُّها بالحجارةِ. يُنظر: ((المنتخب من غريب كلام العرب)) للهنائي (ص: ٤٤٠)، ((المخصص)) لابن سيده (٣/ ٢٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٧/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٩٤)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٣) (٤/ ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٢)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس(٣/ ١٢٠)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٧).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾

﴿أَرۡضٗا﴾: مَنصوبةٌ على نزعِ الخافِضِ؛ أي: في أرضٍ، أو ظَرفٌ لـ ﴿ٱطۡرَحُوهُ﴾[1]، أو مفعولٌ به ثانٍ بتَضمينِ ﴿ٱطۡرَحُوهُ﴾ معنى: (أنزِلوه)[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: لقد كان في قِصَّةِ يوسُفَ وإخوتِه عِبَرٌ، وأدلَّةٌ تدُلُّ على قُدرةِ اللهِ وحِكمتِه، لِمن يسألُ عن أخبارِهم، ويرغَبُ في مَعرفتِها، إذ قال إخوةُ يوسُفَ مِن أبيه فيما بينهم: إنَّ يُوسُفَ وأخاه الشَّقيقَ أحَبُّ إلى أبينا مِنَّا؛ يُفَضِّلُهما علينا ونحن جماعةٌ ذَوو عَددٍ، إنَّ أبانا لفي خطأٍ بيِّنٍ، اقتُلوا يوسُفَ، أو ألقُوه في أرضٍ مجهولةٍ، بعيدةٍ عن العُمرانِ، يَخلُصْ لكم حُبُّ أبيكم، وإقبالُه عليكم، ولا يلتفِتْ عنكم إلى غيرِكم، وتكونوا مِنْ بعد قَتْلِ يُوسُفَ أو إبعادِه تائبينَ إلى اللهِ، مُستَغفرينَ له مِن بعدِ ذَنبِكم.

قال قائلٌ مِن إخوةِ يوسُفَ: لا تقتُلوا يوسُفَ، وألقوه في جَوفِ البِئرِ يلتَقِطْه بعضُ المارَّةِ مِن المُسافرينَ فتَستريحوا منه، ولا حاجةَ إلى قَتلِه، إنْ كنتُم عازمينَ على فِعلِ ما تقولونَ.

---

(١) لأنَّ ﴿أَرۡضٗا﴾ اسمُ مكانٍ، فلمَّا كان غيرَ محدودٍ، وزاد إبهامًا بالتَّنكيرِ، عُومِلَ معاملةَ الظُّروفِ المُبهَمةِ، وهذا قولُ الزمخشريِّ وتبعه أبو البقاء العكبري؛ ونصُّه في الكشَّاف: (﴿أَرۡضٗا﴾ أرضًا منكورةً مَجهولةً بعيدةً مِن العُمران، وهو معنى تنكيرِها وإخلائِها من الوَصفِ؛ ولإبهامِها من هذا الوجهِ نُصِبَت نصبَ الظُّروفِ المُبهَمةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٤٧)، ويُنظر: ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٧٢٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٨٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٢٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٤٣، ٤٤٤).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾.

أي: لقد كان في قِصَّةِ يوسُفَ وإخوتِه الأحدَ عشَرَ عِبَرٌ ومواعِظُ ودَلالاتٌ للسَّائلينَ عن خَبَرِهم وقِصَّتِهم[١].

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾.

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

أي: اذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين قال إخوةُ يوسُفَ فيما بينهم: واللهِ لَيوسُفُ وشَقيقُه[٢] أحبُّ إلى أبينا يعقوبَ مِنَّا، والحالُ أنَّنا جماعةٌ ذوو عَددٍ، فكيف أحبَّ هذينِ الاثنينِ أكثرَ مِن الجماعةِ[٣]؟!

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: إنَّ أبانا لَفي خطأٍ واضحٍ، وذَهابٍ عن العِلمِ بالحقيقةِ والصَّوابِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٤٥٧).
قال ابن جرير: (﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾: يعني: السَّائلينَ عن أخبارِهم وقِصَصِهم. وإنَّما أراد جلَّ ثناؤه بذلك نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك أنَّه يقال: إنَّ الله تبارك وتعالى إنَّما أنزل هذه السُّورةَ على نبيِّه يُعَلِّمُه فيها ما لَقِيَ يوسُفُ مِن أَدانيه وإخوَتِه مِن الحسَدِ، مع تَكرُمةِ اللهِ إيَّاه؛ تسليةً له بذلك ممَّا يلقى من أدانيه وأقاربه مِن مُشركي قريشٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧).

(٢) قال ابنُ كثيرٍ: (يعنونَ بنيامينَ، وكان شقيقَه لأُمِّه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢).
وقال ابنُ عاشورٍ: (وكان بقيَّةُ إخوتِه إخوةً للأبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).

إيثارِه يوسُفَ وشقيقِه علينا بالمحبَّةِ، ونحن العَشرةُ أنفَعُ له منهما[١]!

﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾.

﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ بعضُهم لبعضٍ: اقتُلوا يوسُفَ أو ألقُوه في أرضٍ بعيدةٍ مِن العُمرانِ، يتفرَّغْ لكم أبوكم مِن شُغْلِه بيوسُفَ، ويُقبِلْ عليكم بكُلِّيَّتِه[٢].

﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾.

أي: وتكونوا مِن بعدِ ما تفعلونَه بيوسُفَ قومًا صالحينَ، تتوبونَ إلى اللهِ مِن ذلك الصَّنيعِ[٣].

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾.

أي: قال قائلٌ مِن إخوةِ يوسُفَ: لا تقتُلوا يوسُفَ؛ فإنَّ قَتلَه أعظَمُ إثمًا[٤].

﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).

أي: واطرَحوه وغيِّبوه في قَعرِ البئرِ، يأخُذْه بعضُ المارَّةِ في الطَّريقِ مِن المُسافرينَ، إن كُنتُم فاعلينَ ما أردتُم مِن التَّفريقِ بينه وبين أبيه[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ فيه أنَّ العَدلَ مَطلوبٌ في كُلِّ الأمورِ؛ في مُعاملةِ السُّلطانِ رَعيَّتَه وفيما دونَه، حتى في مُعاملةِ الوالِدِ لأولادِه- في المحبَّةِ والإيثارِ وغَيرِه- وأنَّ في الإخلالِ بذلك يختَلُّ عليه الأمرُ، وتَفسُدُ الأحوالُ؛ ولهذا لَمَّا قدَّمَ يعقوبُ يوسُفَ- عليهما السَّلامُ- في المحبَّةِ، وآثَرَه على إخوتِه؛ جرى منهم ما جرى على أنفُسِهم، وعلى أبيهم وأخيهم[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ فيه وُجوبُ عِنايةِ الوالِدَينِ بمُداراةِ الأولادِ، وتَربيتِهم على المحبَّةِ والعدلِ، واتِّقاءِ وُقوعِ التَّحاسُدِ والتَّباغُضِ بينهم، ومنه اجتنابُ تَفضيلِ بعضِهم على بعضٍ بما يَعُدُّه المفضولُ إهانةً له، ومُحاباةً لأخيه بالهَوى، ومنه سُلوكُ سَبيلِ الحِكمةِ في تفضيلِ مَن فضَّلَ اللهُ تعالى بالمواهِبِ الفِطريَّةِ، كمكارِمِ الأخلاقِ والتَّقوى، والعِلمِ والذَّكاء[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١، ٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٠٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢١٦).

إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ لَمَّا حَسَدوا يوسُفَ على تقديمِ أبيهم له، لم يرضَ- سُبحانه- حتى أقامَهم بين يدَي يوسُفَ عليه السَّلامُ، وخرُّوا له سُجَّدًا؛ ليعلَموا أنَّ الحَسُود لا يَسُود، ويُقال: أطوَلُ النَّاسِ حُزنًا مَن لاقى النَّاس عن مرارةٍ، وأراد تأخيرَ مَن قدَّمه اللهُ أو تقديمَ مَن أخَّره الله؛ فإخوةُ يوسفَ- عليه السلام- أرادوا أن يجعَلوه فى أسفَلِ الجُبِّ، فرَفَعَه اللهُ فوقَ السَّريرِ[(١)].

٤- قال الله تعالى: ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾ هذه آيةٌ مِن عِبَرِ الأخلاقِ السَّيِّئة، وهي التخَلُّصُ مِن مُزاحمةِ الفاضِلِ بفَضلِه لِمَن هو دونَه فيه أو مساويه، بإعدامِ صاحِبِ الفَضلِ، وهي أكبرُ جريمةٍ؛ لاشتِمالها على الحسَدِ، والإضرارِ بالغيرِ، وانتهاكِ ما أمرَ الله بحِفظِه، وهم قد كانوا أهلَ دينٍ ومِن بيتِ نُبُوَّة، وقد أصلح اللهُ حالَهم من بعدُ[(٢)].

٥- لا يحِلُّ أن يُواقِعَ العبدُ الذَّنبَ بأيِّ حالةٍ تكونُ، ولو أضمَرَ أنَّه سيتوبُ منه؛ فالذَّنبُ يجِبُ اجتنابُه، فإذا وقَع وجَبَت التوبةُ منه، وقد قال تعالى عن إخوةِ يوسفَ: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾ تائِبينَ إلى الله مِن هذه الجريمةِ، مُصْلِحينَ لأعمالِكم بما يُكَفِّرُ إثْمَها، وعدمِ التَّصَدِّي لمِثْلِها، فيَرْضَى عنكم أبُوكم، ويَرضَى رَبُّكم، فهم قدَّموا العزمَ على التوبةِ قبلَ صدورِ الذنبِ منهم؛ تسهيلًا لفعلِه، وإزالةً لشناعتِه، وتنشيطًا مِن بعضِهم لبعضٍ، وهكذا يُزَيِّنُ الشَّيطانُ للمؤمنِ المتديِّنِ معصيةَ الله تعالَى، ولا يَزالُ يَنْزَغُ له ويُسَوِّلُ، ويَعِدُ ويُمَنِّي ويُؤَوِّلُ، حتَّى يُرَجِّحَ داعِيَ الإيمانِ، أو يُجيبَ داعِيَ الشَّيطانِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((لطائف الإشارات)) للقشيري (٢/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٤)، ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٢١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قولُه: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يَقْتضي تَحْضيضًا للنَّاسِ على تعَلُّم هذه الأنباءِ؛ لأنَّ المرادَ آياتٌ للنَّاسِ، فوصَفَهم بالسُّؤالِ؛ إذ كُلُّ واحدٍ ينبغي أن يسألَ عن مِثلِ هذه القصَصِ، إذ هي مقَرُّ العِبَرِ والاتِّعاظِ[١]؛ فإنَّ السَّائلين- سواء مَن سأَلَ عنها بلِسانِ الحالِ أو بلِسانِ المَقالِ- همُ الَّذين ينتَفِعونَ بالآياتِ والعِبَرِ، وأمَّا المُعْرِضونَ فلا ينتَفِعون بالآياتِ، ولا بما في القِصَصِ والبيِّناتِ[٢].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ مِن المَعلومِ أنَّ تفضيلَ بعضِ الأولادِ على بعضٍ يُورِثُ الحِقدَ والحسَدَ، فلمَ أقدَمَ يعقوبُ عليه السَّلامُ على ذلك؟

الجوابُ: أنَّه إنَّما فضَّلَهما في المحبَّةِ، والمحبَّةُ ليست في وُسعِ البشَرِ، فكان معذورًا فيها، ولا يلحَقُه في ذلك لَومٌ[٣].

٣- ظاهرُ سياقِ قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يدُلُّ على عدمِ نُبوَّةِ إخوةِ يوسفَ، ولم يقُمْ دَليلٌ على نبُوَّتهم، ومِن النَّاسِ مَن يزعُمُ أنَّهم أُوحيَ إليهم بعدَ ذلك، وفي هذا نظرٌ، ويحتاجُ مُدَّعي ذلك إلى دليلٍ، ولم يذكُروا سوى قَولِه تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتِمالٌ؛ لأنَّ بُطونَ بني إسرائيلَ يُقالُ لهم: الأسباطُ، كما يُقالُ للعَرَبِ: قبائِلُ، وللعَجَم: شعوبٌ، يذكُرُ تعالى أنَّه أوحى إلى الأنبياءِ مِن أسباطِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٩٢).

بني إسرائيلَ، فذكَرَهم إجمالًا؛ لأنَّهم كثيرونَ، ولكِنْ كُلُّ سِبطٍ مِن نَسلِ رَجلٍ مِن إخوةِ يوسُفَ، ولم يقُمْ دليلٌ على أعيانِ هؤلاء أنَّهم أُوحيَ إليهم، والله أعلم[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في أحكامِ اللَّقيطِ[٢].

٥- قوله: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ لم يَبُتَّ القولَ عليهم، بل إنَّما عرَض عليهم ذلك تأليفًا لقَلبِهم، وتوجيهًا لهم إلى رأيِه، وحَذرًا من نِسبَتِهم له إلى التَّحكُّمِ والافتياتِ[٣]، وقيل: فيه تعريضٌ بزيادةِ التَّريُّثِ فيما أضمَروه؛ لعَلَّهم يرَوْن الرُّجوعَ عنه أولى مِن تَنفيذِه[٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ في هذا دليلٌ على أنَّ توبةَ القاتلِ مقبولةٌ؛ لأنَّ الله تعالى لم ينكرْ هذا القولَ منهم[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ فيه جمعُ الآياتِ، وهو هنا مُراعًى فيه تَعدُّدُها، وتعدُّدُ أنواعِها؛ ففي قصَّةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ دَلائلُ على ما للصَّبرِ وحُسنِ الطَّوِيَّةِ مِن عواقبِ الخيرِ والنَّصرِ، أو على ما للحسَدِ والإضرارِ بالنَّاسِ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٣١).

الخيبةِ والانْدِحارِ والهُبوطِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

- قَولُه: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ أفادَت لامُ الابتداءِ في ﴿لَيُوسُفُ ﴾ التَّأكيدَ والتَّحقيقَ لمضمونِ الجملةِ؛ أي: أرادوا أنَّ زِيادةَ مَحبَّتِه وكثرةَ حبِّه لهما ثابتٌ، لا شُبهةَ فيه[٢].

- وخَصُّوا يوسفَ عليه السَّلامُ بالأُخوَّةِ، فقالوا: ﴿وَأَخُوهُ ﴾؛ لأنَّه كان شَقيقَه، وكان بقيَّةُ إخوتِه إخوةً للأبِ[٣]، ولم يَذكُروه باسمِه؛ إشعارًا بأنَّ محبةَ يعقوبَ عليه السلامُ له لأجلِ شقيقِه يوسفَ عليه السلامُ، ولذا لم يتعرَّضوه بشيءٍ مما أُوقِع بيوسفَ عليه السلامُ[٤].

- وجملةُ ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ في موضعِ الحالِ، والمقصودُ مِن هذه الحالِ: التَّعجُّبُ مِن تَفْضيلِهما في الحبِّ في حالِ أنَّ رجاءَ انتِفاعِه مِن إخوَتِهما أشَدُّ مِن رَجائِه مِنهما[٥].

- وجملةُ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ تعليلٌ للتَّعجُّبِ المستفادِ مِن جملةِ ﴿

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٩١).

وهذا الوجهُ هو على القولِ بأنَّ هذه اللَّامَ لامُ الابتداءِ، وأمَّا على القولِ بأنَّ اللَّامَ لامُ قسَمٍ، والتَّقديرُ: واللهِ لَيُوسُفُ؛ فليس فيه هذا الوجهُ.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢١).

وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾، وتفريعٌ عليها[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾

- جملةُ: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الكلامَ المتقدِّمَ يُثيرُ سُؤالًا في نُفوسِ السَّامِعين عن غرَضِ القائِلين ممَّا قالوه، فهذا المقصودُ للقائِلين، وإنَّما جعَلوا له الكلامَ السَّابِقَ كالمقدِّمةِ؛ لِتَتأثَّرَ نفوسُ السَّامعينَ، فإذا أُلْقِي إليها المطلوبُ كانت سريعةَ الامتثالِ إليه[٢].

- وتنكيرُ ﴿أَرْضًا ﴾ وإخلاؤُها مِن الوصفِ يُفيدُ الإبهامَ؛ أي: أرضًا مَنكورةً مجهولةً بعيدةً مِن العُمرانِ[٣].

- قولُه: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ ... ﴾ فيه إيثارُ الخطابِ في ﴿لَكُمْ ﴾ وما بَعدَه؛ للمُبالَغةِ في حَمْلِهم على القَبولِ؛ فإنَّ اعتِناءَ المرءِ بشأنِ نفْسِه، واهتمامَه بتحصيلِ مَنافِعِه أتَمُّ وأكمَلُ[٤].

- وقولُه: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ فيه ذِكرُ الوجهِ لِتَصويرِ معنى إقبالِه عليهم؛ لأنَّ مَن أقبَل عليك صرَف وجْهَه إليك، وفيه كِنايةٌ عن خُلوصِ مَحبَّتِه لهم دونَ مُشارِكٍ[٥].

- قولُه: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ فيه التَّعبيرُ بـ﴿قَوْمًا ﴾ دونَ الاكتفاءِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٣-٢٢٤).

بـ ﴿صَٰلِحِينَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ صَلاحَ الحالِ صِفةٌ متمكِّنةٌ فيهم؛ كأنَّه مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ- حيث لم يَقُلْ: (لا تَقْتُلوه)-؛ استِجْلابًا لِشفَقتِهم عليه، أو استِعْظامًا لقَتلِه[٢].

- قولُهم: ﴿يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ في قولِه: ﴿بَعۡضُ﴾ مِن الإبهامِ؛ لتحقيقِ ما يتَوخَّاه مِن ترويجِ كَلامِه بموافَقتِه لغرَضِهم الَّذي هو تَنائي يوسُفَ عنهم، بحيث لا يُدرَى أثرُه، ولا يُروَى خبَرُه[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١-١٤)

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَرۡتَعۡ﴾: أي: يأكلْ ويَنعَمْ، وأصلُ (رتع): يدل على الاتِّساعِ في المأكَلِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن طلبِ إخوةِ يوسُفَ من أبيهم أن يأذنَ في خروجِ يوسفَ معهم، وذلك بعدَ اتِّفاقِهم على إبعادِه، وأنهم قالوا لأبيهم: يا أبانا ما لك لا تأمَنُنا على يوسُفَ مع أنَّه أخونا، ونحن نُريدُ له الخيرَ، ونُشفِقُ عليه ونرعاه، ونخُصُّه بخالِصِ النُّصحِ؟ أرسِلْه معنا غدًا يأكُلْ ويَنشَطْ ويَفرحْ، ويلعَبْ بالاستِباقِ ونحوِه، وإنَّا لحافِظونَ له من كلِّ ما تخافُ عليه. قال يعقوبُ: إنِّي لَيؤلِمُ نفسي ذهابُكم به، ومُفارقتُه لي، وأخشى أن يأكُلَه الذِّئبُ وأنتم عنه غافِلونَ، فقال إخوةُ يوسُفَ لوالِدِهم: لئنْ أكَلَه الذِّئبُ ونحن جماعةٌ قويَّةٌ، إنَّا إذًا لخاسِرونَ، لا خيرَ فينا، ولا نَفعَ يُرْجَى منَّا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا تقرَّرَ في أذهانِ إخوةِ يوسُفَ التَّفريقُ بين يوسُفَ وأبيه، أعمَلوا الحِيلةَ على يعقوبَ، وتلطَّفوا في إخراجِه معهم، وذَكَروا نُصحَهم له، وما في إرسالِه معهم مِن انشراحِ صَدرِه بالارتِعاءِ واللَّعِب، وذكَروا حِفظَهم له ممَّا يَسوءُه[١].

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ لأبيهم يعقوبَ عليه السَّلامُ، وقد عزموا على إلقاءِ يوسُفَ في قَعرِ البِئرِ: يا أبانا لِمَ تخافُ منَّا على يوسُفَ، فلا تأمَنُنا عليه[٢]؟!

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾.

أي: وإنَّا لناصِحونَ ليوسُفَ بالحِفظِ والرِّعايةِ والنَّفعِ له[٣].

﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَفَوا عن أنفُسِهم التُّهمةَ المانِعةَ مِن عدَمِ إرسالِه معهم، ذَكَروا له مِن مَصلحةِ يوسُفَ وأُنسِه -الذي يُحبُّه أبوه له- ما يقتضي أن يسمَحَ بإرسالِه معهم، فقالوا[٤]:

﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿نَرْتَعِ وَنَلْعَبْ﴾ بالنونِ فيهما، وكسرِ العينِ في ﴿نَرْتَعِ﴾؛ بإخبارِ إخوةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ عن أنفُسِهم[١].

٢- قراءةُ ﴿يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ﴾ بالياءِ فيهما، وكسرِ العينِ في ﴿يَرْتَعِ﴾ ؛ بإسنادِ الفِعلِ إلى يوسُفَ، والإخبارِ بذلك عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

وقراءةُ ﴿نَرْتَعِ﴾ و﴿يَرْتَعِ﴾ بكسرِ العينِ فيهما، مِن الرعي، على معنَى: يَرتعِي ماشيتَنا، قيل: ليتدربَ على الرعيِ وحفظِ المالِ، أو مِن الرعايةِ، وهي الحفظُ، على معنَى: نرعَى ويحرسُ بعضُنا بعضًا[٣].

٣- قراءةُ ﴿نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾ بالنُّونِ فيهما؛ بإخبارِ إخوةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ عن أنفُسِهم[٤].

٤- قراءةُ ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بالياءِ فيهما؛ بإسنادِ الفِعلِ إلى يوسُفَ، والإخبارِ بذلك عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٥].

والمعنَى على هاتينِ القراءتينِ: ﴿نَرْتَعْ﴾ و﴿يَرْتَعْ﴾ بسكونِ العينِ فيهما- هو: اللهوُ والاتساعُ في أكلِ الفواكهِ وغيرِها[٦].

---

(١) قرأ بها ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٣).

(٢) قرأ بها أبو جعفرٍ ونافعٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٣، ١٩٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٢٤).

(٤) قرأ بها أبو عمروٍ وابنُ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٣).

(٥) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٣).

(٦) يُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٣، ١٩٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٢٨٢)،

﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾.

أي: ابعَثْه معَنا غدًا يأكُلْ ويَلْهُ، ويتنزَّهْ في البرِّيَّة، وينشَطْ ويلعَبْ[١].

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

أي: وإنَّا لحافِظونَ ليوسُفَ، وسنَحميه من أن ينالَه مَكروهٌ أو أذًى[٢].

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ﴾.

أي: قال يعقوبُ لأولادِه: إنِّي ليَحزُنُني ذَهابُكم بيوسُفَ إلى البَرِّيَّة، ويشُقُّ عليَّ غيابُه عنِّي[٣].

﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ﴾.

أي: وأخافُ أن يأكُلَه الذِّئبُ، وأنتم مَشغولونَ عنه، لا تَشعرونَ بذلك[٤].

﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾.

أي: قالوا لأبيهم: لَئِن أكلَ الذِّئبُ يوسُفَ، والحالُ أنَّنا جماعةٌ معه، ولم نستَطِعْ حِفظَه من الذِّئبِ- إنَّا إذًا لعَجَزةٌ هالِكونَ، لا خيرَ فينا، ولا نفعَ منَّا[٥].

((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير))

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ إنَّما ذكَرَ يعقوبُ عليه السَّلامُ أنَّ ذَهابَهم به غدًا يُحدِثُ به حُزنًا مُستقبلًا؛ ليصرِفَهم عن الإلحاحِ في طلَبِ الخُروجِ به؛ لأنَّ شأنَ الابنِ البارِّ أن يتَّقيَ ما يَحزُنُ أباه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ * أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ في هذا القَولِ الذي تواطَؤوا عليه عند أبيهم عبرةٌ مِن تواطُؤِ أهلِ الغرَضِ الواحِدِ على التحَيُّلِ لنَصبِ الأحابيلِ لتَحصيلِ غرَضٍ دَنيءٍ[٢].

٢- في قَولِهم: ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا﴾ دليلٌ على أنَّهم تقدَّمَ منهم سؤالٌ في أن يَخرُجَ معهم، وذكروا سبَبَ الأمنِ وهو النُّصحُ، أي: لمَ لا تأمَنُنا عليه، وحالتُنا هذه؟ والنُّصحُ دليلٌ على الأمانة؛ ولهذا قُرِنَا في قَولِه: ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وكان قد أحَسَّ منهم قبلُ ما أوجبَ ألَّا يأمَنَهم عليه[٣].

٣- قولُهم: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ في لَفْظةِ: ﴿أَرۡسِلۡهُ﴾ دليلٌ على أنَّ يعقوبَ عليه السلامُ كان يُمسِكُه، ويَصحَبُه دائمًا[٤].

٤- قال تعالى حكايةً لِقَولِ إخوةِ يوسُفَ: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فعَلَّلوا طَلَبَه، والخروجَ به، بما يمكِنُ أن يستهويَ يوسُفَ

(٤/ ٣٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٤٥).

لِصِباه؛ من الرُّتوعِ، واللَّعِب، والنَّشاطِ[١].

٥- قيل: قد صدَّقَت هذه القِصَّةُ المَثَلَ السَّائرَ، وهو قولُهم: (البَلاءُ مُوكَّلٌ بالمَنطِقِ)؛ فإنَّ يعقوبَ عليه السَّلامُ قال في حقِّ يوسُفَ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، فابْتُلِيَ مِن ناحيةِ هذا القولِ؛ لأنَّهم لم يَعْتَلُّوا على أبيهم إلا بالشيءِ نفسِه الذي سمِعوه يَنطِقُ به، لا غيرِه[٢].

٦- اقتَصَر إخوةُ يوسفَ على جوابِ خوفِ يعقوبَ عليه السَّلامُ مِن أكلِ الذِّئبِ بقولهم: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ لأنَّه السَّببُ القويُّ في المنعِ، دونَ الحزنِ؛ لِقصَرِ مُدَّتِه، بِناءً على أنَّهم يأتون به عن قريبٍ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ سَوْقَ القِصَّةِ يَستَدعي تَساؤُلَ السَّامعِ عمَّا جَرى بعدَ إشارةِ أخيهم عليهم، وهل رجَعوا عمَّا بَيَّتوا، وصمَّموا على ما أشار به أخوهم[٤].

- قولُه: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾ فيه الخطابُ بنَسَبِ الأُبوَّةِ؛ تَحريكًا لِسلسلةِ النَّسَبِ بينَه وبينَهم، وتذكيرًا لِرابطةِ الأُخوَّةِ بينَهم وبينَ يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِيَتَسبَّبوا بذلك إلى استِنْزالِه عليه السَّلامُ عن رأيِه في حِفْظِه منهم، لَمَّا أحَسَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٢٤).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦١١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٧).

منهم بأماراتِ الحسَدِ والبغي[١].

- قولُه: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الاستفهامُ في ﴿مَا لَكَ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ على نفْيِ الائتمانِ[٢].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾ على المبتَدَأِ ﴿لَنَٰصِحُونَ﴾؛ للقَصْرِ الادِّعائيِّ؛ جعَلوا أنفُسَهم لِفَرْطِ عِنايتِهم به بمَنزِلةِ مَن لا يَحفَظُ غيرَه، ولا يَنصَحُ غَيرَه[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فيه التَّأكيدُ بإيرادِ الجملةِ اسميَّةً، وتَحلِيَتِها بـ (إنَّ) واللَّامِ، وإسنادُ الحفظِ إلى كلِّهم، وتقديمُ ﴿لَهُۥ﴾ على الخبَرِ؛ احتِيالًا في تَحصيلِ مَقصِدِهم[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ فيه التَّأكيدُ بـ (إنَّ) واللَّامِ؛ لِقَطعِ إلحاحِهم بتَحْقيقِ أنَّ حُزنَه لفِراقِه ثابتٌ؛ تَنزيلًا لهم مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ ذلك، إذ رأى إلحاحَهم[٥].

- قولُه: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ خصَّ الذِّئبَ؛ لأنَّه كان السَّبُعَ الغالِبَ على قُطْرِه، أو لصِغَرِ يُوسُفَ؛ فخاف عليه هذا السَّبُعَ الحقيرَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤٦).

٤- قولُه تعالى: ﴿ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ فيه التَّأكيدُ باللَّامِ الموطِّئةِ للقَسَمِ في ﴿لَئِنۡ﴾، و(إنَّ) ولامِ الابتداءِ، و(إذًا) الجوابيَّةِ في ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾؛ تحقيقًا لِحُصولِ خُسرانِهم على تقديرِ حُصولِ الشَّرطِ، والمرادُ: الكنايةُ عن عدَمِ تَفريطِهم فيه، وعن حِفظِهم إيَّاه؛ لأنَّ المرء لا يَرضى أن يوصَفَ بالخُسرانِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣٢).

الآيات (١٥-١٨)

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾: أي: عَزَموا، وصمَّموا، يقالُ: أجْمَعتُ على كذا، بمعنَى: عزمتُ عليه، وأجْمَعْتُ كذا: أكثرُ ما يُقالُ فيما يكونُ جمعًا يُتوصَّلُ إليه بالفكرةِ، وأصلُ (جمع): يدلُّ على تضامِّ الشيءِ[١].

﴿نَسۡتَبِقُ﴾: أي: يسابقُ بعضُنا بعضًا في الرَّمْي، وقيل: نشتدُّ ونَعْدو؛ ليتبيَّنَ أيُّنا أسرعُ عَدْوًا، والاسْتِباقُ: التَّسابُقُ، وأصلُ (السبق): التقدُّمُ في السيرِ[٢].

﴿سَوَّلَتۡ﴾: أي: زيَّنَت وسَهَّلَت، والتَّسويلُ: تفعيلٌ مِن (السُّول)، وهو أمنيَّةُ الإنسانِ يتمنَّاها، فتُزَيِّنُ لطالِبِها الباطِلَ وغَيرَه مِن غرورِ الدُّنيا[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٣٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٩/ ٢٣٩).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فلمَّا ذهبَ إخوةُ يوسُفَ به، وأجمَعوا على إلقائِه في جَوفِ البئرِ، فعَلوا به ما فعلوا من الأذى، ونفَّذوا ما يُريدونَ تنفيذَه بدونِ رَحمةٍ أو شفَقةٍ، وأوحَينا إلى يوسُفَ لتُخبِرَنَّ إخوتَك مُستقبَلًا بفِعلِهم هذا الذي فعَلوه بك، وهم لا يَعلَمونَ أنَّك أخوهم يوسُفُ، وجاء إخوةُ يوسُفَ إلى أبيهم في وقتِ العِشاءِ يَبكونَ، ويُظهِرونَ الأسفَ والجَزعَ، قالوا: يا أبانا إنَّا ذَهَبْنا نتسابَقُ، وترَكْنا يوسُفَ عند زادِنا وثيابِنا فأكَلَه الذِّئبُ، وما أنت بمُقِرٍّ ومُصَدِّقٍ لنا ولو كنَّا مَوصوفينَ بالصِّدقِ؛ لتُهمتِكَ لنا، وجاؤوا بقميصِه مُلطَّخًا بدَمٍ غيرِ دَمِ يوسُفَ؛ ليشهَدَ على صِدقِهم، فكان دليلًا على كَذِبِهم، فقال لهم أبوهم يعقوبُ عليه السَّلامُ: ما الأمرُ كما تقولونَ، بل زيَّنَت لكم أنفُسُكم الأمَّارةُ بالسُّوءِ أمرًا قبيحًا في يوسُفَ، فرأيتُموه حسَنًا وفعَلتُموه، فصبري صبرٌ جميلٌ لا شكوى معه لأحدٍ مِن الخَلقِ، وأستعينُ باللهِ على احتمالِ ما تَصِفونَ مِن الكَذِبِ، لا على حَولي وقوَّتي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾.

أي: فلما ذهب إخوةُ يوسُفَ به من عندِ أبيه، وأجمعوا رأيَهم وعزَموا على أن يُلقوه في قَعرِ البئرِ، قاموا بفعلِ ذلك[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).
قال ابن عاشور: (جوابُ «لَمَّا» محذوفٌ دلَّ عليه ﴿أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾، والتقديرُ: جعلوه في الجُبِّ، ومِثلُه كثيرٌ في القرآن، وهو من الإيجازِ الخاصِّ بالقرآن، فهو تقليلٌ في اللَّفظِ لظهورِ

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: وأوحَينا إلى يوسُفَ لتُخبِرَنَّهم بفِعلِهم هذا الذي فعَلوه بك، وهم في حالٍ لا يعلمونَ فيها أنَّك أخوهم يوسُفُ(١).

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: وجاء إخوةُ يوسُفَ -بعدما ألقَوه في غيابةِ الجُبِّ- أباهم يعقوبَ في ظُلمةِ اللَّيلِ يتباكَونَ على يوسُفَ(٢).

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.

أي: قالوا مُعتَذرينَ كَذِبًا لأبيهم: يا أبانا إنَّا ذَهَبْنا نتسابَقُ(٣)، وترَكْنا يوسُفَ عند

المعنى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤٨)، وقيل غير ذلك، يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣١، ٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٤).

قال الشَّوكاني: (وجُملَة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ في مَحَلِّ نَصْبٍ على الحالِ أي: لا يَشعُرون بأنَّك أَخوهُم يُوسُف؛ لاعْتِقادِهم هَلاكَك بإلْقائِهم لك في غَيابَة الجُبِّ، ولِبُعْدِ عَهْدِهِم بك، ولِكَونِك قد صِرْتَ عند ذلك في حالٍ غير ما كُنتَ عليه، وخِلاف ما عَهِدُوه منك). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٩١).

(٣) قال السعدي: (إمَّا على الأقدام، أو بالرمي والنضالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

قال الواحدي: (قال أكثرُ المفسِّرين: يسابقُ بعضُنا بعضًا في الرمي؛ ليَتبيَّنَ أيُّنا أسبقُ سهمًا). ((الوسيط)) (٢/ ٦٠٣).

أمتِعَتِنا، فأكَلَه الذِّئبُ، ونحن غائبونَ عنه[١].

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

أي: وما أنت بمُقِرٍّ ومُصَدِّقٍ لقَولِنا هذا، ولو كنَّا عندَك مِن أهلِ الصدقِ؛ لسوءِ ظَنِّكَ بنا، وتُهمتِكَ لنا[٢].

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾.

أي: وأتَوا بقَميصِ يوسُفَ مُتلَطِّخًا بدَمٍ مكذوبٍ، يزعُمونَ أنَّه دمُ يوسُفَ حين أكَلَه الذِّئبُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٢١، ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

وَقِيلَ: معْنَى ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾: إنَّا وإن كنَّا صادِقينَ فإنَّك لا تصدِّقُنا؛ لأنَّه لم تظهَرْ عندَكَ أمارَةٌ تدلُّ على صِدْقِنا. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٥)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٥، ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

قال القرطبي: (أجمعوا على أنَّ يعقوبَ عليه السَّلامُ استدَلَّ على كَذِبِهم بصِحَّةِ القَميصِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٥٠).

وقال ابنُ كَثير: (﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ أي: مَكذُوب مُفْتَرَى. وهذا مِن الأَفعال التي يُؤَكِّدُون بها ما تَمالَئوا عليه مِن المَكيدَة، وهو أنَّهم عَمَدوا إلى سَخْلَةٍ -فيما ذَكَرَه مُجاهِد، والسُّدِّيُّ، وغَيرُ واحِدٍ- فذَبَحوها، ولَطَّخُوا ثَوْبَ يُوسُف بدَمِها، مُوهِمين أنَّ هذا قَميصُه الذي أَكَلَه فيه الذِّئْبُ، وقد أصابَه مِن دَمِهِ، ولكنَّهم نَسوا أن يَخْرِقوه، فلهذا لم يَرُجْ هذا الصَّنِيع على نَبِيِّ الله يَعقوب). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٥).

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.

أي: قال يعقوبُ مُكَذِّبًا لأولادِه فيما زعَموا مِن أكلِ الذِّئبِ ليوسُفَ: ليس الأمرُ كما ادَّعيتُم، بل زيَّنَت لكم أنفُسُكم أمرًا في شأنِ يوسُفَ غيرَ ما تَصِفونَ[(١)].

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

أي: فصَبري على ما فعَلْتُم بيوسُفَ صبرٌ جَميلٌ، لا جزعَ فيه، ولا شكوَى إلى الخَلقِ[(٢)].

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

أي: وباللهِ أستعينُ على ما تذكُرونَ مِن الكَذِبِ[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ * قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٩٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٦٦)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥).

قال ابن عاشور: (وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ عَطفٌ على جملةِ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فتكونُ محتَمِلةً للمعنيَينِ المذكورَينِ، مِن إنشاءِ الاستعانةِ، أو الإخبارِ بحُصولِ استعانته بالله على تحَمُّلِ الصَّبرِ على ذلك، أو أراد الاستعانةَ بالله ليوسُفَ عليه السَّلامُ على الخَلاصِ مِمَّا أحاط به). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٠).

وقال السمين الحلبي: (وقد كثُر ذِكرُ «الوصفِ» بمعنَى الكذبِ). ((عمدة الحفاظ)) (٤/ ٣١٧).

كُنَّا صَٰدِقِينَ ۞ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ ﴾ الحذَرُ مِن شُؤمِ الذُّنوبِ، وأنَّ الذَّنبَ الواحِدَ يستَتبِعُ ذنوبًا متعدِّدةً، ولا يتِمُّ لفاعِلِه إلَّا بعدَّةِ جرائِمَ؛ فإخوةُ يوسُفَ عليه السَّلامُ لَمَّا أرادوا التَّفريقَ بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواعٍ مِن الحِيَلِ، وكذَبوا عدَّةَ مرَّاتٍ، وزوَّروا على أبيهم في القَميصِ والدَّمِ الذي فيه، وفي إتيانِهم عِشاءً يَبكونَ، ولا تَستَبْعِد أنَّه قد كثر البَحْث فيها في تلك المدة؛ بل لَعَلَّ ذلك اتَّصَل إلى أن اجْتَمَعوا بيُوسُف، وكُلَّما صار البَحْثُ، حَصَلَ مِن الإخبارِ بالكَذِب والافْتِراء ما حَصَل، وهذا شُؤْمُ الذَّنْبِ، وآثارُه التَّابِعَة والسَّابِقَة واللَّاحِقَة[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ فيه أنَّ النَّظرَ إلى الغاياتِ المحبوبةِ يُهَوِّنُ المشاقَّ المُعترِضةَ في وسائِلِها، فمتى علِمَ العبدُ عاقبةَ الأمرِ، وما يَؤُولُ إليه مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ، هانت عليه المشقَّةُ، وتسلَّى بالغايةِ؛ فالله تعالى أوحَى إلى يوسُفَ في هذه الحالِ المُزعِجةِ أنَّ الأمرَ سيكونُ إلى خيرٍ وسَعةٍ، وبعد هذه الإهانةِ الصادرةِ مِن إخوتِك لك، ستكونُ لك الأثَرةُ عليهم، والعاقبةُ الحميدةُ، وفي هذا من اللُّطفِ والتَّسليةِ وتخفيفِ البلاءِ ما هو مِن أعظمِ نِعَمِ اللهِ على العبدِ؛ ولهذا المعنى الجليلِ يُذَكِّرُ اللهُ عبادَه عند المشاقِّ والأمورِ المُزعِجة ما يترتَّبُ على ذلك من الثَّوابِ والخيرِ والطَّمعِ في فَضلِه؛ قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾[2] [النساء: ١٠٤].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ المعنى أنَّ إقدامَ يعقوبَ عليه السَّلامُ على الصَّبرِ لا يُمكِنُ إلَّا بمعونةِ الله تعالى؛ لأنَّ الدَّواعيَ النَّفسانيَّةَ تدعوه إلى إظهارِ الجزَعِ، وهي قويَّةٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٢).

والدَّواعيَ الرُّوحانيَّةَ تدعوه إلى الصَّبرِ والرِّضا، فكأنَّه وقعت المحاربةُ بين الصِّنفينِ، فما لم تحصُلْ إعانةُ الله تعالى لم تحصُل الغلَبَةُ، فقولُه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يجري مجرى قَولِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يجري مجرى قولِه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١] [الفاتحة: ٥].

٤- العبدُ مُحتاجٌ إلى الاستعانةِ بالله في فِعلِ المأموراتِ، وفي تَركِ المحظوراتِ، وفي الصَّبرِ على المقدوراتِ، كما في قولِ يعقوبَ عليه السَّلامُ لبَنيه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٢]، ففيه ما يَنْبغي استعمالُه عندَ المصائبِ، وهو الصبرُ الجميلُ، والاستعانةُ باللهِ، وأنَّ التكلُّمَ بذلك حسنٌ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّه ليس كلُّ مَن أُوحِيَ إليه الوحيَ العامَّ يكونُ نبيًّا؛ فإنَّه قد أُوحِيَ إلى يوسُفَ وهو صغيرٌ، كما أنَّه قد يُوحَى إلى غيرِ النَّاسِ؛ قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[٤] [النحل: ٦٨].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ إنَّما جاؤوا عِشاءً؛ ليكونَ أقدرَ على الاعتذارِ في الظُّلمةِ؛ ولذا قيل: لا تَطلُبِ الحاجةَ باللَّيلِ؛ فإنَّ الحياءَ في العينَينِ، ولا تعتَذِرْ في النَّهارِ مِن ذنبٍ؛ فتَتلجلَجَ في الاعتذارِ[٥]، وأيضًا جاؤوا عِشاءً؛ ليكون إتْيانُهم مُتَأَخِّرًا عن عادَتِهم، وأتَوْا باكِين؛ ليكون بُكاؤُهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٣٢).
(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١٣٤).
(٣) يُنظر: ((مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب- تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤٩).

دَلِيلًا لهم، وقَرينَةً على صِدْقِهم[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾ هذه الآيةُ دليلٌ على أنَّ بُكاءَ المرءِ لا يدلُّ على صِدقِ مَقالِه؛ لاحتمالِ أن يكونَ تصنُّعًا، فمِن الخَلقِ مَن يقدِرُ على ذلك، ومنهم من لا يقدِرُ[٢]، فمِن فوائدِ الآيةِ عدمُ الاغترارِ ببكاءِ الخصمِ، وعدمُ الاغترارِ بزخرفِ القولِ[٣].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ فيه مشروعيَّةُ المُسابَقةِ[٤].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ فيه من الطِّبِّ: رياضةُ النَّفسِ والدوابِّ، وتمرينُ الأعضاءِ على التصَرُّفِ[٥].

٦- قولُهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ تلطُّفٌ عَظيمٌ في تقريرِ ما يُحاوِلونَه؛ يقولون: ونحن نعلمُ أنَّك لا تصَدِّقُنا- والحالةُ هذه- لو كنَّا عندك صادقينَ، فكيف وأنت تتَّهِمُنا في ذلك؛ لأنَّك خَشيتَ أن يأكُلَه الذِّئبُ فأكَلَه الذِّئبُ، فأنت معذورٌ في تكذيبِك لنا؛ لِغَرابةِ ما وقع، وعجيبِ ما اتَّفقَ لنا في أمْرِنا هذا[٦].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾ فيه إعمالُ الأماراتِ والحُكمُ بها، والآيةُ أصلٌ في الحُكمِ بالقرائِنِ، لكنْ محَلُّ العمَلِ بالقَرينةِ ما لم تُعارِضْها قرينةٌ أقوى منها، فإن عارَضَتْها قرينةٌ أقوى منها أبطَلَتْها؛ فأولادُ يعقوبَ لَمَّا جعلوا يوسُفَ في غيابةِ الجُبِّ، جعلوا على

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).
(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٨).
(٣) يُنظر: ((مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب- تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:١٥٣، ١٥٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٥).

قَميصِه دَمًا؛ ليكونَ وجودُ الدَّمِّ على قميصِه قَرينةً على صِدقِهم في دعواهم أنَّه أكَلَه الذِّئبُ، ولا شَكَّ أنَّ الدَّمَ قرينةٌ على افتِراسِ الذِّئبِ له، ولكِنَّ يعقوبَ أبطَلَ قَرينتَهم هذه بقرينةٍ أقوى منها، وهي عدَمُ شَقِّ القَميصِ؛ ولذا صَرَّحَ بتكذيبِه لهم في قَولِه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فيجِبُ على النَّاظِرِ أن يلحَظَ القرائِنَ والأماراتِ والعَلاماتِ إذا تعارَضَت، فما ترجَّحَ منها قضَى بجانِبِ التَّرجيحِ(١).

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فيه أنَّ سُوءَ الظَّنِّ مع وجودِ القَرائنِ الدَّالَّةِ عليه غيرُ ممنوعٍ ولا محَرَّمٍ(٢).

٩- قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُو أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ إنَّما لم يصَدِّقْ يعقوبُ بنيه حين قالوا: أكَلَه الذِّئبُ، وعَمِلوا تلك القرائِنَ المُبَرِّرة لقولِهم؛ لأنَّ المعلومَ لا يُعارِضُه الشَّكُّ والوَهمُ، فإنَّه قد علم برؤيا يوسُفَ- وربَّما بغيرِها- ما يَؤولُ إليه حالُ يوسُفَ؛ مِن تمامِ النِّعمةِ التي تشمَلُه وتشمَلُ آلَ يعقوبَ(٣).

١٠- في قولِه تعالى: ﴿وَجَاءُو أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٥٠)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٩).

وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أنَّه لا ينبغي أن يُغتَرَّ بمُجرَّدِ صُورةِ القرائنِ، فكم حصلَ بمثل هذه التَّمويهاتِ مِن الاغترارِ وقلبِ الحقائقِ؛ لهذا كان الأذكياءُ يجعلونَ كلَّ احتمالٍ على بالهم، وينظُرونَ إلى الأمورِ مِن جميعِ جِهاتِها ونواحيها(١).

١١- قال الله تعالى حكايةً عن يعقوبَ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، إنما فوَّض يعقوبُ- عليه السلام- الأمرَ إلى الله، ولم يسْعَ للكشفِ عن مصيرِ يوسفَ عليه السلامُ؛ لأنَّه علِم تعذرَ ذلك عليه؛ لكبرِ سنِّه، ولأنَّه لا عضدَ له يستعينُ به على أبنائِه أولئك، وقد صاروا هم الساعين في البعدِ بينَه وبينَ يوسفَ عليه السلامُ، فأيِس مِن استطاعةِ الكشفِ عن يوسفَ- عليه السلامُ- بدونِهم، ألا ترَى أنَّه لما وجَد منهم فرصةً قال لهم: ﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾(٢) [يوسف: ٨٧].

١٢- في قولِه تعالى عن يعقوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ مع قَولِه سُبحانه عنه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسُف: ٨٦] أنَّ الشَّكوى إلى اللهِ لا تُنافي الصَّبرَ الجميلَ(٣).

١٣- ذكَرَ اللهُ في القرآن: الصَّبرَ الجَميلَ، والصَّفحَ الجَميلَ، والهَجرَ الجَميلَ؛ فالصَّبرُ الجَميلُ: الذي لا شكوَى معه إلى المخلوقِ، والهَجرُ الجَميلُ: الذي لا أذى معه، والصَّفحُ الجَميلُ: الذي لا عِتابَ معه(٤).

---

(١) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٦٦).

(٤) يُنظر: ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٦٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾

- تفريعُ حكايةِ الذَّهابِ به، والعَزْمِ على إلْقائِه في الجُبِّ، على حِكايةِ المحاوَرةِ بينَ يعقوبَ عليه السَّلامُ وبَنيه في مُحاوَلةِ الخروجِ بيوسُفَ عليه السَّلامُ إلى الباديةِ، يُؤذِنُ بجُمَلٍ محذوفةٍ، فيها ذِكرُ أنَّهم ألَحُّوا على يعقوبَ عليه السَّلامُ حتَّى أقنَعوه، فأَذِن ليوسُفَ عليه السَّلامُ بالخروجِ معَهم، وهو إيجازٌ[(١)].

- وجملةُ ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿أَوۡحَيۡنَا﴾، وأُكِّدَت باللَّامِ ونونِ التَّوكيدِ؛ لتحقيقِ مَضمونِها، سواءٌ كان المرادُ منها الإخبارَ عن المستقبَلِ، أو الأمرَ في الحالِ[(٢)].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾

- قولُهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ خبَرٌ مستعمَلٌ في لازِمِ الفائدةِ، أي: إنَّ المتكلِّمَ عَلِم بمَضمونِ الخبَرِ، وهو تعريضٌ بأنَّهم صادِقون فيما ادَّعَوْه؛ لأنَّهم يَعلَمون أباهم لا يُصدِّقُهم فيه، فلم يَكونوا طامِعين بتَصْديقِه إيَّاهم[(٣)].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ وُصِفَ الدَّمُ بالكذبِ مُبالَغةً، كأنَّه نفْسُ الكَذِبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣٣)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢٣٧).

وعَينُه، كما يُقالُ للكذَّابِ: هو الكَذِبُ بعَينِه، والزُّورُ بذاتِه[١]، أو معناه (ذِي كَذِبٍ)[٢].

- قولُه: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًا﴾ التَّعبيرُ بحرفِ الإضرابِ ﴿بَلۡ﴾ يُفيدُ إبطالَ دَعْواهم أنَّ الذِّئبَ أكَلَه؛ فقد صَرَّح لهم بكَذِبِهم[٣].

- وتنكيرُ ﴿أَمۡرًا﴾ للتَّهويلِ[٤].

- وقولُه: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ نائبٌ مَنابَ: اصْبِرْ صبرًا جَميلًا، وعُدِلَ به عن النَّصبِ إلى الرَّفعِ؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ والدَّوامِ[٥].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ عمَّا أصاب يوسُفَ عليه السَّلامُ بـ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ وهو في غايةِ البلاغةِ؛ لأنَّه كان واثِقًا بأنَّهم كاذِبون في الصِّفةِ، وواثِقًا بأنَّهم ألحَقوا بيوسُفَ عليه السَّلامُ ضُرًّا، فلمَّا لم يتَعيَّنْ عِندَه المُصابُ أجْمَلَ التَّعبيرَ عنه إجمالًا مُوجَّهًا؛ لأنَّهم يَحسَبون أنَّ ما يَصِفونه هو موتُه بأكْلِ الذِّئبِ إيَّاه، ويعقوبُ عليه السَّلامُ يُريدُ أنَّ ما يَصِفونه هو المصابُ الواقِعُ، الَّذي وصَفوه وصْفًا كاذِبًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٠، ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢٣٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢٤٠).

الآيات (١٩-٢١)

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَارِدَهُمْ﴾: الذي يتقَدَّمُهم إلى الماءِ ليَستقيَ لهم، وأصلُ (ورد): يدلُّ على المُوافاةِ إلى الشَّيءِ[(١)].

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾: أي: أرسَلَها، والدَّلوُ: إناءٌ مَعروفٌ يُوضَعُ فيه الماءُ، وأصلُ (دلى): يدُلُّ على مُقاربةِ الشَّيءِ، ومُداناتِه بسُهولةٍ ورِفقٍ[(٢)].

﴿وَأَسَرُّوهُ﴾: أي: أخْفَوه، وأصلُ (سرَّ): يدُلُّ على إخفاءِ الشَّيءِ[(٣)].

﴿بِضَٰعَةً﴾: البِضاعةُ: القِطعةُ مِن المالِ تُجعَلُ للتِّجارةِ؛ مِن: بَضَعتُ الشَّيءَ: إذا قَطَعْتَه، وأصل (بضع): يدلُّ على الطَّائفةِ مِن الشَّيءِ عُضْوًا أو غيرَه[(٤)].

﴿ وَشَرَوْهُ﴾: أي: باعُوه، يُقالُ: شَرَيتُ الشَّيءَ: إذا بِعتَه وإذا اشتَرَيتَه، فهو مِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٤)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٢/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٨).

الأضدادِ، وهو بمعنَى (بعتُ) أكثرُ[١].

﴿بَخْسٍ﴾: أي: ناقصٍ، وقيل: ﴿بَخْسٍ﴾: بمعنى مَبْخُوس أي: منقوصٍ، والبَخْسُ والبَاخِسُ: الشيء الطفيف الناقص، يُقَال: بخسه حَقَّه إذا نقَصه، وأصلُ البخسِ: نقصُ الشيءِ على سبيلِ الظُّلمِ[٢].

﴿مَثْوَىٰهُ﴾: أي: منزلَه ومقامَه، وأصلُ (ثوي): إقامة[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مخبرًا عمَّا جرَى ليوسفَ عليه السَّلامُ بعدَ إلقاءِ إخوتِه له في الجُبِّ: وجاءت جماعةٌ مِن المُسافرينَ فأرسَلوا مَن يطلُبُ لهم الماءَ، فلمَّا أرسَلَ دَلْوَه في البئرِ تعلَّقَ بها يوسُف، فقال ذلك الوارِدُ: يا بُشرايَ هذا غلامٌ نَفيسٌ، وأخفَى السيارةُ أمرَ يوسُفَ، وجعَلوه بضاعةً وعزَموا على بيعِه، واللهُ عليمٌ بما يَعمَلونَه بيوسُفَ، وباعه السيارةُ بثَمَنٍ قليلٍ مِن الدَّراهمِ، وكانوا زاهدينَ فيه، راغبينَ في التخَلُّصِ منه، ولَمَّا ذهب المُسافِرونَ بيوسُفَ إلى «مصر» اشتَراه منهم عزيزُها -وهو الوزيرُ- وقال لامرأتِه: أحسِني مُعامَلتَه، واجعلي مَقامَه عندنا كريمًا؛ لعلَّنا نستفيدُ مِن خِدمتِه، أو نُقيمُه عندنا مقامَ الولَدِ.

وكما أنجَينا يوسُفَ مِن الجُبِّ، وجَعَلْنا عزيزَ «مصر» يَعطِفُ عليه، فكذلك مكَّنَّا له في أرضِ «مِصرَ»، وجعَلْناه على خزائِنِها، ولِنُعَلِّمَه تفسيرَ الرُّؤى، ومعاني

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٠٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٣).

كتُبِ الله وسُنَن الأنبياءِ، واللهُ غالِبٌ على أمرِه، فحُكمُه نافِذٌ لا يُبطِلُه مُبطِلٌ، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلمونَ أنَّ الأمرَ كُلَّه بيَدِ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أراد اللهُ تعالى خَلاصَ يوسُفَ عليه السَّلامُ من الجُبِّ، بيَّنَ سَبَبه بقَولِه تعالى[1]:

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾.

أي: وجاءت جَماعةٌ مارَّةٌ في الطَّريقِ مِن المُسافرينَ، فأرسلوا مُقدَّمَهم الَّذي يَرِدُ الماءَ لِيَسْتَقيَ لهم، فأرسلَ دَلوَه في البئرِ ليَملأَها، فتعلَّقَ يوسُفُ بالدَّلوِ وخرَجَ[2].

﴿قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ﴾.

أي: قال واردُهم حين رأى يوسُفَ: أبْشِروا، هذا غُلامٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

قال ابنُ جرير: (وفي الكلامِ محذوفٌ، استُغْني بدلالةِ ما ذُكِر عليه، فتُرِك، وذلك: ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ فتعلَّق به يُوسفُ، فخرَج، فقال المدْلي: ﴿يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

قال أبو حيان: (والَّذي يظهرُ مِن سياقِ الأخبارِ والقصصِ أنَّ يوسفَ كان صغيرًا، فقيل: كان عُمُرُه إذْ ذاك سبعَ سِنِينَ. وقيل: سِتٌّ، قاله الضَّحَّاكُ... ويدلُّ على أنَّه كان صغيرًا بحيثُ لا يدفعُ عن نفسِه قولُه: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ و: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، وأخذُ

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗ﴾.

أي: وأخْفَى السيارةُ[١] أمْرَ يوسُفَ، وجعَلوه بِضاعةً مِن جُملةِ تجارتِهم، وعزَمُوا على بيعِه[٢].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بما يعمَلُون بيوسُفَ[٣]، ولكِنَّه ترَكَ تغييرَ ذلك؛ ليَمضيَ فيه

السَّيَّارةِ له، وقولُ الواردِ: ﴿هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾، وقولُ العزيزِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤٩).

(١) وممن اختار أن السيارةَ هم الذين أسرُّوا يوسفَ بضاعةً: ابنُ جزي، وأبو حيان، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٢).

وقيل: إنَّ الذين أسرُّوا يوسفَ بضاعةً: هم الواردُ ومَن كان معه؛ ونسبه الواحدي لأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٣).

وقيل: إنَّ إخوتَه هم الذين أسرُّوا أمرَه وباعوه، وقالوا: هو بضاعةٌ لنا. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٢).

ومعنَى أسرُّوه: أخْفَوه مِن الرُّفقةِ، أو كتَموا أمرَه مِن وجدانِهم له فِي الجُبِّ، وقالوا: دَفَعه إلينا أهلُ الماءِ لِنبيعَه لهم بمصرَ. ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٢).

وقيل: إنَّهم أسرُّوا في أنفسِهم يتَّخِذونه بضاعةً لأنفسِهم أي متجرًا، ولم يخافوا مِن أهلِ الرفقةِ شيئًا. ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٢٩).

(٣) قال ابن عطية: (قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ إن كانت الضمائرُ لإخوةِ يوسفَ ففي ذلك توعدٌ، وإن كانت الضمائرُ للواردينَ ففي ذلك تنبيهٌ على إرادةِ الله تعالى ليوسفَ، وسوقِ الأقدارِ بحسبِ بناءِ حالِه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٢٩).

وقيل: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي: بما يعمَلُه هَؤُلَاءِ السَّيَّارَةُ، وما يعملُه إخوةُ يُوسُفَ. يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٣).

وقيل: قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ يعمُّ الباعةَ والمشترينَ ليوسفَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٢٢).

وفيهم قَدَرُه السَّابِقُ في عِلمِه، وذلك بحسَبِ ما اقتضَتْه حِكمتُه سُبحانَه[١].

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾.

أي: وباع السيارةُ يوسُفَ بثَمَنٍ منقوصٍ؛ دراهِمَ قليلةٍ مَعدودةٍ غيرِ وافيةٍ[٢].

﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾.

وكان السيارةُ في يوسُف مِن الرَّاغبينَ عنه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٦).

قال القنوجي: (﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي: بما يترتَّبُ على عملِهم القبيحِ بحسبِ الظاهرِ مِن الأسرارِ والفوائدِ المنطويةِ تحتَ باطِنِه، فإنَّ هذا البلاءَ الذي فعلوه به كان سببًا لوصولِه إلى مصرَ، وتنقُّلِه في أطوارٍ حتى صار ملكَها، فرحِم الله به العبادَ والبلادَ خصوصًا في سِني القحطِ الذي وقَع بها). ((تفسير القنوجي)) (٦/ ٣٠٣).

(٢) ممن اختار أنَّ الذين باعوا يوسفَ هم السيارةُ: ابنُ جزي، وأبو حيانَ، والبقاعي، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير البقاعي)) (١٠/ ٣٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٣، ٢٤٤).

وممن قال بهذا القولِ من السلف: قتادةُ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢١١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٢٢).

وقيل: إنَّ الذين باعوا يوسفَ هم إخوتُه، وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والسمعانيُّ -ونسبه لأكثرِ المفسرينَ-، والقرطبيُّ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠، ٥٣، ٥٦، ٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٧).

قال ابنُ كثيرٍ: (ولما استشْعَر إخوةُ يوسفَ بأخذِ السيارةِ له، لحقوهم، وقالوا: هذا غلامُنا أبق منَّا، فاشْتَروه منهم بثمنٍ بخسٍ). ((البداية والنهاية)) (١/ ٢٣٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

(٣) وممن اختار هذا القولَ المذكور: البقاعي، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾.

أي: وقال الذي اشترى يوسُفَ مِن بائِعِه بمصرَ لامرأتِه: أكرمي مَنزِلَه ومُقامَه عِندَك[1].

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

أي: عسى أن يَكفيَنا يوسُفُ بعضَ أمورِنا، أو نجعَلَه ولدًا لنا بالتبنِّي[2].

البقاعي)) (١٠/ ٤٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٤).

قيل: كانوا فيه مِن الزَّاهدينَ؛ لأنَّهم يُريدون التخلُّصَ مِن تُهمةِ استرقاقِه وبيعِه. يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٤).

وقيل: لقلةِ معرفتِهم بالأسعارِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٤).

قال البقاعي: (﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي: كمال الزهدِ حتَّى رغِبوا عنه، فباعوه بما طفَّ، والزُّهدُ: انصرافُ الرغبةِ عن الشيءِ إلى ما هو خيرٌ مِنه عندَ الزاهدِ، وهذا يعيِّنُ أنَّ الضميرَ للسيارةِ؛ لأنَّ حالَ إخوتِه في أمرِه فوقَ الزهدِ بمراحلَ، فلو كان لهم لقيل: وكانوا له مِن المبعدينَ أو المبغضينَ، ونحوَ ذلك). ((تفسير البقاعي)) (١٠/ ٤٧).

وممن اختار أنَّ إخوةَ يوسفَ هم الذين كانوا فيه من الزاهدين: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: الضحَّاك، وابنُ جريج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وكما أنقَذْنا يوسُفَ مِن إخوتِه، وأخرَجْناه مِن الجُبِّ، وصيَّرناه إلى الكَرامةِ والمَنزِلةِ الرَّفيعةِ عندَ عزيزِ مِصرَ، كذلك مكَّنَّا له في أرضِ مِصرَ، حتى بلغ فيها ما بلغَ[1].

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

أي: ولنُعَلِّمَ يوسُفَ مِن تعبيرِ الرُّؤى -التي يراها النَّاسُ في منامِهم- ومعاني كتُبِ الله، وسُنَنِ الأنبياءِ، مكَّنَّا له في الأرضِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦١)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

قال ابن عاشور: (التَّمكينُ في الأرضِ هنا مرادٌ به ابتداؤه وتقديرُ أوَّلِ أجزائِه، فيوسُفُ عليه السَّلامُ بحُلولِه محلَّ العنايةِ مِن عزيزِ مِصرَ قد خُطَّ له مُستقبَلُ تمكينِه من الأرضِ، بالوجهِ الأتَمِّ الذي أُشيرَ له بقَولِه تعالى بعدُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، فما ذُكِرَ هنالك هو كَرَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ ممَّا هنا، وهو تمامُه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٢، ٢٠٣).

ممن جمَع بينَ معنيي ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ بنحوِ المعنى المختارِ: الشوكانيُّ، والسعدي والشنقيطي ، وأجاز الزجاج المعنيين. تنظر: المصادر السابقة.

وممن اقتَصر في قوله تعالى: ﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ على معنى تعبيرِ الرُّؤيا: ابنُ جريرٍ، والقرطبي وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٨).

قال الشوكاني: (قولُه: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ هو عِلَّةٌ لِمُعَلَّلٍ محذوفٍ، كأنَّه قيلَ: فعلْنا ذلك التَّمكينَ ﴿لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أوْ كانَ ذلك الإنجاءُ لهذه الْعِلَّةِ، أوْ معطوفٌ على مُقَدَّرٍ، وهو أنْ يُقالَ: مَكَنَّا ليوسفَ ليترتَّبَ على ذلك ما يَتَرَتَّبُ مِمَّا جرَى بينَه وبينَ امرأةِ العزيزِ ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧).

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾.

أي: واللهُ غالِبٌ على أمرِه سبحانَه[١]، يفعَلُ ما يشاءُ، فلا يُرَدُّ أمرُه ولا يُمانَعُ، ولا يُنازَعُ فيما أرادَه[٢]، ومِنْ ذلك ما يتعلَّقُ بيوسُفَ عليه السَّلامُ مِنَ الأمورِ الَّتي أرادَها اللَّهُ سبحانَه في شأنِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١].

وقال سُبحانه: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلمونَ أنَّ اللهَ غالِبٌ على أمرِه، وأنَّ تدبيرَ الأمورِ بيَدِه، ولا يَدرُونَ حِكمَتَه في خَلقِه، وتلَطُّفَه لِما أراد سُبحانَه[٤].

---

(١) ممن اختار أن الضَّميرَ في قوله تعالى: ﴿أَمۡرِهِۦ﴾ يعودُ إلى الله تعالى: القرطبي، وأبو حيان، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، ومحمد رشيد رضا، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٠-١٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).
وقيل: يعودُ الضَّميرُ إلى يوسفَ عليه السَّلامُ، أي: اللهُ غالبٌ على أمر يوسُفَ، يدَبِّرُه ويَحوطُه، ولا يكِلُه إلى غيره، حتى لا يصِلَ إليه كيدُ كائدٍ. وممن اختار هذا: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٥).
قال ابنُ الجَوزي: (﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ في هاء الكِنايةِ قَولان: أحدُهما: أنَّها تَرجِعُ إلى الله تعالى، فالمعنى: أنَّه غالِب على ما أراد مِن قَضائِه، وهذا معنى قَول ابنِ عَبَّاس. والثَّاني: أنَّها تَرجِع إلى يُوسُف، فالمعنى: غالِب على أمرِ يُوسُفَ حتَّى يُبَلِّغَه ما أرادَه له، وهذا معنى قَولِ مُقاتِل). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٢٤)، ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٨).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ هذا وإن كان خبرًا مِن اللهِ -تعالى ذِكرُه- عن يوسُفَ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّه تذكيرٌ مِن اللهِ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتسليةٌ منه له عمَّا كان يَلقَى مِن أقربائِه وأنسِبائِه المُشرِكينَ مِن الأذى فيه، يقولُ له: فاصبِرْ يا محمَّدُ على ما نالَك في الله؛ فإنِّي قادِرٌ على تغييرِ ما ينالُك به هؤلاء المُشرِكونَ، كما كنتُ قادرًا على تغييرِ ما لَقِيَ يوسُفُ مِن إخوتِه في حالِ ما كانوا يفعَلونَ به ما فَعَلوا، ولم يكُنْ تَركي ذلك لهوانِ يوسُفَ عليَّ، ولكِنْ لماضي عِلمي فيه وفي إخوتِه، فكذلك تَرْكي تغييرَ ما ينالُك به هؤلاء المُشرِكونَ؛ لِغيرِ هوانٍ بك عليَّ، ولكِنْ لسابقِ عِلمي فيك وفيهم، ثمَّ يصيرُ أمرُك وأمرُهم إلى علُوِّك عليهم، وإذعانِهم لك، كما صار أمرُ إخوةِ يوسُفَ إلى الإذعانِ ليوسُفَ بالسُّؤدَدِ عليهم، وعلُوِّ يوسُفَ عليهم[1].

٢- من بُلِيَ وهو من أهلِ الخيرِ والصَّلاحِ بشَيءٍ مِن الأذى والمكرِ، فليتَّقِ اللهَ ويستعِنْ به ويصبِرْ؛ فإنَّ العاقبةَ للتَّقوى، كما قال تعالى بعد أن قَصَّ قِصَّةَ يوسُفَ وما حصل له من أنواعِ الأذى بالمَكرِ والمُخادعة: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقال تعالى حكايةً عنه أنَّه قال لإخوتِه: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسُف: ٩٠] الآية. وقال تعالى في قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ وما حصلَ له ولقَومِه مِن أذى فرعونَ وكيدِه، قال لقَومِه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقد أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ المكرَ يعودُ وَبالُه على صاحِبِه، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠) ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٦).

ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ...﴾ الآية [الأنعام: ١٢٣]. والواقِعُ يشهَدُ بذلك؛ فإنَّ مَن سَبَرَ أخبارَ النَّاسِ، وتواريخَ العالَم، وقَف من أخبارِ مَن مكَرَ بأخيه فعاد مَكرُه عليه، وكان ذلك سببًا لنَجاتِه وسَلامتِه، على العجَبِ العُجابِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ...﴾ استنبط الناسُ مِن هذه الآيةِ أحكامَ اللقيطِ؛ فأخذوا منها: أنَّ اللقيطَ يُؤخَذُ ولا يُترَكُ. ومِن قولِه: ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ أنَّه كان صغيرًا، وأنَّ الالتقاطَ خاصٌّ به، فلا يُلتقَطُ الكبيرُ، وكذا قولُه: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾؛ لأنَّ ذلك أمرٌ يختصُّ بالصغارِ، ومِن قولِه: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ أنَّ اللقيطَ يُحكَمُ بحريتِه[٢]، وموضعُ الحجةِ مِن الآيةِ أنَّ اللقيطَ لو كان مملوكًا لمن التقَطه، لما احْتاجُوا إلى شرائِه[٣]، وهذا على القولِ بأنَّ الذين باعوه إنَّما هم إخوتُه.

٢- مِنْ عَجائبِ الجَزاءِ في الدُّنْيا أنَّه لَمَّا امتدَّتْ أَيْدِي الظُّلم مِن إخْوَةِ يُوسفَ: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ امتدَّتْ أَكُفُّهُم بين يَدَيْه بالطَّلَبِ يقولُونَ: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾[٤] [يوسف: ٨٨].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ فيه أنَّ الشَّيءَ إذا تداوَلَته الأيدي، وصار مِن جُملةِ الأموالِ، ولم

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٤١٧).
(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٥٤).
(٣) يُنظر: ((المقدمات الممهدات)) لابن رشد الجد (٢/ ٤٧٦).
(٤) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٦٦).

يُعلَمْ أنَّه كان على غيرِ وَجهِ الشَّرعِ، أنَّه لا إثمَ على مَن باشَرَه ببيعٍ أو شِراءٍ، أو خِدمةٍ أو انتفاعٍ أو استعمالٍ[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ لم يبيِّن القُرآنُ اسمَ الذي اشتَراه مِن السَّيَّارةِ في مصر ولا مَنصِبَه ولا اسمَ امرأتِه؛ لأنَّ القُرآنَ ليس كتابَ حَوادِثَ وتاريخٍ، وإنَّما قَصَصُه حِكَمٌ ومواعِظُ، وعِبَرٌ وتهذيبٌ[٢].

٥- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: (أفرس الناس ثلاثة: العزيز، حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ وبنت شعيب التي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] وأبو بكر، حين تفرَّس في عمر رضي الله عنه وولاه من بعده)[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ﴾ مُستأنَفٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ذِكْرَ إدْلاءِ الدَّلْوِ يُهيِّئُ السَّامِعَ للسُّؤالِ عمَّا جَرى حينَئذٍ فيَقَعُ جوابُه: ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ﴾[٤].

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ﴾ هذا النداءُ تنبيهٌ للمخاطبينَ وتوكيدٌ للقصةِ ؛ لأنَّ البشرَى لا تُجيبُ ولا تعقلُ، والمعنَى: أبْشِروا، ويا أيُّها البشرَى هذا مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٣٨٢١٣) مختصرًا، والطبراني (٩/ ١٨٥) (٨٨٢٩) واللفظ له، والحاكم (٣٣٢٠) باختلاف يسير، وصححه على شرط الشيخين.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤١).

أوانِك، وقيل: إنَّ هذه الكلمةَ تُستعملُ للتبشيرِ مِن غيرِ قصدٍ إلى النداءِ[١].

- قولُه: ﴿مَعۡدُودَةٖ﴾ أي: غيرِ موزونةٍ؛ فهو بَيانٌ لقِلَّتِه، ونُقصانِه مِقدارًا، بعدَ بيانِ نُقصانِه في نفسِه؛ إذِ المعتادُ فيما لا يَبلُغُ أربَعين العَدُّ دونَ الوزنِ[٢]، وهو كِنايةٌ عن كَونِها قليلةً؛ لأنَّ الشَّيءَ القليلَ يَسهُلُ عَدُّه، فإذا كَثُر صار تَقديرُه بالوزنِ أو الكَيلِ، ويُقالُ في الكنايةِ عن الكَثرةِ: لا يُعَدُّ[٣].

- قولُه: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ فيه صَوْغُ الإخبارِ عن زَهادَتِهم في يوسُفَ عليه السَّلامُ بصِيغةِ ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾؛ وهي أشَدُّ مُبالَغةً ممَّا لو أخبَر بـ(كانوا فيه زاهِدين)؛ لأنَّ جَعْلَهم مِن فريقٍ زاهِدينَ يُنْبِئُ بأنَّهم جَرَوْا في زُهدِهم في أمثالِه على سَنَنِ أمثالِهم البُسَطاءِ الَّذين لا يُقدِّرون قدْرَ نَفائِسِ الأمورِ[٤].

- وفيه تقديمُ المجرورِ: ﴿فِيهِ﴾ على عامِلِه ﴿ٱلزَّٰهِدِينَ﴾؛ للتَّنويهِ بشَأنِ المزهودِ فيه، وللتَّنبيهِ على ضَعْفِ تَوسُّمِهم وبَصارتِهم، معَ الرِّعايةِ على الفاصلةِ[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التَّمكينُ في الأرضِ هنا مرادٌ به ابتداؤه، وتقديرُ أوَّلِ أجزائِه، فيوسُفُ- عليه السَّلام- بحلولِه محَلَّ العِنايةِ مِن عزيزِ مِصرَ قد خُطَّ له مُستقبَلُ تَمكينِه من الأرضِ بالوجهِ الأتَمِّ الذي أُشيرَ له بقَولِه تعالى بعدُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، فما ذُكِرَ هنالك هو كرَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ ممَّا هنا، وهو تمامُه[١].

- قولُه: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ مَثْواهُ: مَكانُ إقامَتِه، وهو كنايةٌ عن الإحسانِ إليه في مَأكَلٍ ومشرَبٍ وملبَسٍ[٢].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا﴾، (ذَلِكَ) إشارةٌ إلى ما يُفهَمُ من كلامِ العزيزِ، وما فيه مِن معنَى البُعدِ لتَفخيمِه، أي: مِثْلَ ذلك التَّمكينِ البديعِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ لعلَّ ترْكَ المعطوفِ عليه (وهو: ولِيَصِلَ إلى مَنصِبِ الرِّئاسةِ بسَببِ تأويلِه لرُؤيا الملِكِ)؛ للإشعارِ بعدَمِ كَونِه مُرادًا بالذَّاتِ، أو جعَلْناه عِلَّةً لِمُعلَّلٍ محذوفٍ، كأنَّه قيل: ولهذه الحكمةِ البالِغةِ فعَلْنا ذلك التَّمْكينَ دونَ غيرِها ممَّا ليس له عاقبةٌ حميدةٌ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٦٣).

الآيات (٢٢-٢٩)

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي
هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ
أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا
بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ
٢٤ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا
جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ
وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ
٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ
قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ
وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ٢٩ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾: أي: بلغ مُنْتهَى شَبابِه وقُوَّتِه، والأَشُدُّ قيل: جمعٌ لا واحدَ له، وقيل: مفردُه شَدٌّ، وأصلُ (شدد): يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ[1].

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾: أي: أرادَتْه على ما تُريدُ، والمُراوَدة: مُفاعَلةٌ مِن راد يَرودُ: إذا جاء وذهبَ، وهي عِبارةٌ عن التحَيُّلِ لِمُواقَعتِه إيَّاها[2].

﴿هَيۡتَ﴾: أي: هَلُمَّ وأقبِلْ إلى ما أدعوك إليه، يقال: هَيَّتَ فلانٌ لفلانٍ؛ إذا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١١٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٢).

دعاه وصاح به، وأصلُ (هَيَتَ): يَدُلُّ عَلَى الصَّيحةِ[١].

﴿هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾: الهمُّ بالشيءِ: هو حديثُ المرءِ نفسَه بمواقعتِه ما لم يُواقِعْ، أو: هو المقاربةُ مِن الفعلِ مِن غيرِ دُخولٍ فيه، والهمُّ نوعانِ: همُّ خطراتٍ وكان هذا همَّ يوسفَ عليه السلامُ، وهمُّ اصرارٍ وكان هذا همَّ المرأةِ، وأصل (همَّ): يدلُّ على ذَوْبٍ وجَريانٍ ودبيبٍ وما أشبهَ ذلك[٢].

﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: السُّوءُ: الْقَبِيحُ، وهو خيانةُ مَن ائتَمَنه، وقيل: هو مُقدِّماتُ الفاحِشَةِ، وأصلُ (سوء): يدُلُّ على القُبحِ[٣].

﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾: أي: المَعصيةَ، وهي الزِّنا، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبْحٍ فِي شيءٍ وشناعةٍ[٤].

﴿وَقَدَّتْ﴾: أي: شقَّتْ، وأصلُ (قدَّ): يدلُّ على قَطعِ الشَّيءِ طولًا[٥].

﴿دُبُرٍ﴾: أي: خلفٍ، وأصلُ الدبر: آخرُ الشيءِ، وخلفُه، خلافُ قُبُلِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٢٧)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٥).

(٥) ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٧).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٠).

﴿وَأَلْفَيَا﴾: أي: وجدَا، وأصلُ (لفا): يدلُّ على انكشافِ شَيءٍ وكَشْفِه[١].

﴿قُبُلٍ﴾: القُبُل مِن كلِّ شيءٍ: خلافُ دُبُرِه، وذلك أنَّ مُقَدَّمَه يُقبِلُ على الشيءِ[٢].

﴿كَيْدَكُنَّ﴾: أي: حيلتِكنَّ، و صنيعِكنَّ، والكَيْدُ: ضربٌ مِن الاحتيالِ، وقد يكونُ مذمومًا وممدوحًا، وإن كان يُستعمَلُ في المذمومِ أكثرَ، وأصلُ (كيد): يدُلُّ على مُعالجةٍ لشيءٍ بشِدَّةٍ[٣].

المعنى الإجمالي:

يخبرُ الله تعالى أنَّه لَمَّا بلغ يوسُفُ مُنتهى قوَّتِه في شبابِه أعطاه النُّبوَّةَ والعِلمَ، ومِثلَ هذا الجزاءِ الذي جَزَينا به يوسُفَ على إحسانِه نَجزي المُحسنينَ على إحسانِهم، ودَعَت امرأةُ العزيزِ يوسُفَ إلى نَفسِها، وغلَّقَت الأبوابَ عليها وعلى يوسُفَ، وقالت: هلمَّ إليَّ، فقال: معاذَ اللهِ! أعتَصِمُ به وأستجيرُ مِن الذي تدعِينَني إليه مِن خيانةِ سَيِّدي الذي أحسنَ مَنزِلتي وأكرَمَني، فلا أخونُه في أهلِه؛ إنَّه لا يُفلِحُ مَن ظَلمَ فَفَعل ما ليس له فِعلُه، ولقد عزَمَت امرأةُ العزيزِ على فِعلِ الفاحِشةِ، وخطرَ ليوسُفَ خاطِرٌ عارِضٌ في قَلبِه لم يَثبُتْ ولم يتحَوَّلْ إلى عَزمٍ، لولا أنْ رأى آيةً مِن آياتِ رَبِّه امتنَعَ بها عن ذلك الخاطِرِ، وإنَّما أريناه ذلك لندفَعَ عنه السُّوءَ والفاحِشةَ في جميعِ أمورِه؛ إنَّه من عبادنا المُطَهَّرينَ المُصطَفَينَ للرِّسالةِ، الذين أخلَصْتُهم من الشِّركِ والسُّوءِ والفَحشاءِ.

وأسرعَ يوسُفُ إلى البابِ يريدُ الخُروجَ، وأسرَعَت تُحاوِلُ الإمساكَ به،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٤).

وجذَبَت قميصَه مِن خَلْفِه؛ لتَحُولَ بينه وبين الخروجِ فشَقَّته، ووجدا زوجَها عند البابِ، فقالت: ما جزاءُ مَن أراد بامرأتِك فاحِشةً إلَّا أن يُسجَنَ أو يُعذَّبَ العذابَ المُوجِعَ. قال يوسُفُ: هي التي طلَبَت منِّي ذلك، فشَهِدَ شاهِدٌ مِن أهلها فقال: إن كان قميصُه شُقَّ من الأمامِ فصَدَقت في اتِّهامِها له، وهو مِن الكاذبينَ، وإن كان قميصُه شُقَّ من الخَلفِ فكَذَبت في قَولِها، وهو من الصَّادقينَ. فلمَّا رأى زوجُ المرأةِ قميصَ يوسُفَ شُقَّ مِن خَلفِه عَلِمَ براءةَ يوسُفَ، وقال لزَوجتِه: إنَّ هذا الكَذِبَ الذي اتَّهَمتِ به هذا الشَّابَّ هو مِن جملةِ مَكرِكُنَّ- أيَّتُها النِّساءُ- إنَّ مَكرَكُنَّ عظيمٌ، وقال ليوسُفَ: يوسُفُ، اترُكْ ذِكرَ ما كان منها، فلا تَذكُرْه لأحدٍ، واطلُبي- أيَّتُها المرأةُ- المغفرةَ لذَنبِك؛ إنَّك كنتِ من الآثمينَ في مُراودةِ يوسُفَ عن نفسِه، وفي افترائِك عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢ ﴾.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾.

أي: ولَمَّا بلغ يوسُفُ مُنتهى شِدَّتِه وقوَّتِه وشَبابِه، واكتمل خَلْقُه وعَقلُه[1]؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦، ٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

واختُلِف في مقدارِ المدَّةِ الَّتي بَلَغ فيها أشدَّه، فقيل: ثلاثٌ وثلاثونَ، وممن قال به مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ، ونسَبه الواحديُّ لأكثرِ المفسرين. وقيل: عشرونَ، وممن قال به مِن السلفِ: الضَّحَّاكُ، وقيل: الأشدُّ: الحُلُمُ، وممن قال به من السلفِ: الإمامُ مالكٌ، وربيعةُ، وزيدُ بنُ أسلمَ، والشَّعبيُّ. وقيل غير ذلك. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٨).

قال ابنُ جرير: (جائزٌ أنْ يكونَ آتاه ذلك وهو ابنُ ثماني عَشْرَةَ سَنَةً، وجائزٌ أنْ يكونَ آتاه وهو ابنُ عشرينَ سَنَةً، وجائزٌ أنْ يكونَ آتاه وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثينَ سَنَةً، ولا دلالةَ في كتابِ اللَّهِ، ولا

أعطَيناه النُّبوَّةَ والعِلمَ[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: ومِثلَ ذلك الجزاءِ نَجْزي كلَّ مَن أحْسَن[٢].

أثَرَ عنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا في إجماعِ الأُمَّةِ على أيِّ ذلك كان، وإذا لم يكُنْ ذلك موجودًا مِن الوجهِ الَّذي ذكرتُ، فالصَّوابُ أنْ يُقالَ فيه كما قال عزَّ وجلَّ، حتَّى تَثْبُتَ حُجَّةٌ بصحَّةِ ما قيلَ في ذلك مِن الوجهِ الَّذي يجبُ التَّسليمُ له فيُسَلِّمُ لها حينئذٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨).

(١) ممَّن اختار أنَّ الحُكمَ هنا مرادٌ به النبوَّةُ: البغوي، والرسعني، وابنُ كثير، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٨).

وممَّن قال بهذا القول من السلفِ: السُّديُّ، وابنُ السائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢١٢٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٢٥).

وقيل: المراد بالحُكم هنا: العمَلُ بالعِلم، وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ العربي. يُنظر: ((أحكام القرآن)) (٣/ ٦٤) لابن العربي، ويُنظر أيضًا ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٠).

وقيل: المرادُ: الفَهمُ. وممن اختار ذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلف: مجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢١١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨).

وقوله: ﴿عِلۡمًا﴾ قيل: المراد: عِلمُ تعبير الرُّؤيا. ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٨)، وينظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣٠٦).

وقيل: المراد به: الفقه في الدين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨)، ((تفسير القنوجي)) (٦/ ٣٠٩) ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

وليس المعنى أنَّه يجزي كلَّ مَن أحسَن عينَ ما جزَى يوسفَ عليه السلامُ، ولكن يجزيه جزاءَ الإحسانِ، فالمرادُ مطلقُ المشابهةِ في مقابلةِ الإحسانِ بالإحسانِ مِن غيرِ بخسٍ، لا المماثلةُ مِن كلِّ وجهٍ، فالنبوةُ غيرُ مكتسبةٍ باتفاقِ العلماءِ. ينظر: ((تفسير الماتريدي)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٨).

قال الشوكاني: (فكلُّ مَنْ أحْسَن في عملِه أحْسَنَ اللَّهُ جزاءَه، وجعلَ عَاقبةَ الخيرِ مِنْ جملةِ ما يَجزيه به، وهذا عامٌّ يدخلُ تحتَه جزاءُ يوسفَ على صبرِه الحَسنِ دخولًا أَوَّلِيًّا. قال الطَّبريُّ: هذا وإنْ كان مَخْرَجُه ظاهِرًا على كلِّ محسنٍ فالمرادُ به محمدٌ صَلَّى الله عليه وسلَّم، يقولُ

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال سُبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

أي: ودعتْ امرأةُ العزيزِ يوسفَ- التي هو مقيمٌ في بيتِها، وتحتَ تدبيرِها- إلى نفسِها، وطلبتْ منه أن يواقعَها[1].

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾.

أي: وغلَّقَت امرأةُ العزيز جميعَ أبوابِ البَيتِ عليها وعلى يوسُفَ[2].

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

أي: وقالت ليوسُفَ: تعالَ وأقبِلْ إليَّ[3].

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾.

اللَّهُ تعالى كما فَعَل هذا بيوسف ثُمَّ أعطيتُه ما أعطيتُه كذلك أُنجيكَ مِنْ مشركي قَوْمِكَ الَّذين يَقْصِدونَك بالعداوةِ، وأُمَكِّنُ لك في الأرضِ. والأولَى ما ذكَرْناه مِنْ حملِ العمومِ على ظاهرِه فيدخُلُ تحتَه ما ذَكَره ابنُ جريرٍ الطَّبريُّ. ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨) وينظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

أي: قال يوسُفُ لامرأةِ العزيزِ حين دعتْه إلى نفسِها: أعتَصِمُ باللهِ مِن فِعلِ الفاحشةِ التي تَدعينَني إليها؛ إنَّ زوجَكِ سيِّدي، أكرَمَني وأحسنَ إليَّ، فلا أقابِلُ مَعروفَه بخيانتِه في أهلِه[١].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: إنَّه لا يفوزُ ولا ينجَحُ الظَّالِمونَ الذين يفعلونَ ما ليس لهم فِعلُه، وهذا الذي تَدعينَني إليه ظُلمٌ وخِيانةٌ لسَيِّدي الذي أحسَنَ إليَّ[٢].

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾.

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾.

أي: ولقد همَّت امرأةُ العزيزِ -همَّ عزمٍ- بمُواقعةِ الفاحِشةِ مع يوسُفَ، وهمَّ يوسُفُ بامرأةِ العزيزِ، وكان همُّه خطرةً عارضةً، وحديثَ نفسٍ، مِن غيرِ اختيارٍ ولا عزمٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).
والقولُ بأنَّ قولَه: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ أي: العزيزُ زوجُ المرأةِ، هو قولُ أكثرِ المفسرينَ. ينظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٧١).
وقيل: المرادُ: إنَّ الله ربِّي تولَّاني في طولِ مقامي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٨٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٠١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٨٠، ٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨١).
قال ابنُ تَيمية: (فَالهَمُّ اسْمُ جِنْسٍ تحته «نَوعان» كما قال الإمامُ أَحمدُ: الهَمُّ هَمَّان: هَمُّ خَطَراتٍ، وهَمُّ إصْرارٍ، وقد ثَبَتَ في الصَّحيحِ عنِ النَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم «أنَّ العَبْدَ إذا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لم

تُكتَب عليه، وإذا تَركَها لله كُتِبَت له حَسَنَة، وإن عَمِلَها كُتِبَ له سَيِّئَة واحِدَة» وإن تَرَكَها مِن غَيرِ أن يَتْرُكَها لله لم تُكتَب له حَسنَة ولا تُكتَب عليه سَيِّئَة، ويُوسُف صلَّى الله عليه وسلَّم هَمَّ هَمًّا تَرَكَهُ لله، ولذلك صَرَفَ الله عنه السُّوءَ والفَحْشاءَ لإخْلاصِه، وذلك إنَّما يكون إذا قام المُقْتَضَى للذَّنْبِ وهو الهَمُّ، وعارَضَه الإخلاصُ المُوجِب لانْصِرافِ القَلْبِ عن الذَّنْبِ لله.

فيُوسُف عليه السَّلام لم يَصدُر منه إلَّا حَسَنَةٌ يُثابُ عليها، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وأمَّا ما يُنقَل: مِن أنَّه حَلَّ سَراوِيلَه، وجَلَس مَجلِس الرَّجُل مِن المَرأَة، وأنَّه رأى صُورةَ يَعقوب عاضًّا على يَدِهِ، وأَمثالِ ذلك، فكُلُّه ممَّا لم يُخبِر اللهُ به ولا رَسولُه، وما لم يكُن كذلك فإنَّما هو مَأخُوذٌ عن اليَهودِ الذين هُم مِن أَعظَم النَّاس كَذِبًا على الأَنبياء وقَدْحًا فيهم، وكُلُّ مَن نَقَلَهُ مِن المسلمين فعنهم نَقَلَهُ، لم يَنْقُلْ مِن ذلك أَحَدٌ عن نَبِيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم حَرْفًا واحِدًا). ((الفتاوى الكبرى)) (٥/ ٢٦١).

وقال الشَّنقيطي في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾: (فالجَوابُ مِن وَجهَين: الأوَّل: أنَّ المُرادَ بِهَمِّ يُوسُفَ بها خاطِرٌ قَلْبيٌّ صَرَفه عنه وَازِعُ التَّقْوَى، وقال بَعضُهم: هو المَيْلُ الطَّبيعي والشَّهْوَة الغَرِيزِيَّة المَزمومَة بالتَّقْوَى، وهذا لا مَعصِيَة فيه؛ لأنَّه أَمْرٌ جِبلِّي لا يَتعَلَّق به التَّكليف... ومِثالُ هذا مَيْلُ الصَّائِم بطبعِه إلى الماءِ البارِد، مع أن تَقواه تمنعُه مِن الشُّرْب وهو صائِم، وقد قال صَلَّى الله عليه وسلَّم: «ومَن هَمَّ بسَيِّئَةٍ فلم يَعْمَلْها كُتِبَت له حَسَنَة كامِلَة». لأنَّه تَرَك ما تَميلُ إليه نَفسُه بالطَّبعِ خَوفًا مِن الله، وامتثالًا لِأَمْرِه... والجَوابُ الثَّاني وهو اخْتيارُ أبي حَيَّان: أن يُوسُف لم يَقَعْ منه هَمٌّ أصلًا؛ بل هو مَنْفِيٌّ عنه لوجودِ البُرهان.

قال مُقَيِّدُه عَفَا اللهُ عنه: هذا الوَجه الذي اخْتارَهُ أبو حَيَّان وغَيرُه هو أَجْرَى الأقوالِ على قَواعِد اللُّغَة العَربيَّة؛ لأنَّ الغالِبَ في القُرآن وفي كَلام العَرَب: أنَّ الجَوابَ المَحْذُوف يُذكَر قَبلَه ما يَدُلُّ عليه، كقولِه: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] أي: إن كُنتُم مُسلمين فتَوَكَّلُوا عليه، فالأَوَّل: دَليلُ الجَوابِ المَحْذوف لا نَفْسُ الجَوابِ؛ لأنَّ جَوابَ الشُّروطِ وجَواب لَوْلَا لا يَتَقَدَّم، ولكن يكون المَذكور قَبلَه دَليلًا عليه كالآيَةِ المَذكورَة... وعلى هذا القَولِ: فمَعنى الآيَة: وهَمَّ بها لولا أن رَأَى بُرهانَ رَبِّه، أي: لولا أن رَآه هَمَّ بها، فما قبلَ «لَوْلَا» هو دليلُ الجوابِ المَحْذوف، كما هو الغالِبُ في القُرآنِ واللُّغَة. ونَظيرُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، فما قبلَ «لولا» دليلُ الجَواب، أي: لولا أن رَبَطْنا على قَلبِها لَكادَت تُبدِي به... فبهذين الجَوابَين تَعلَم أنَّ يُوسُفَ عليه وعلى نَبِيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ بَرِيءٌ مِن الوقوعِ فيما لا يَنبَغي، وأنَّه إمَّا أن يكون لم يَقَعْ منه أصلًا بِناءً على أنَّ الهَمَّ مُعَلَّقٌ بأداةِ الامْتِناعِ التي هي «لَوْلَا» على انْتِفاءِ رؤيةِ البُرهانِ، وقد رَأَى البُرهانَ فانتفَى المُعَلَّقُ عليه، وبانتِفائِه يَنْتَفي المُعَلَّقُ الذي هو هَمُّه بها، وإمَّا أن يكون هَمُّه خاطِرًا قلبيًّا

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِي اللَّه عنهما، ((عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما يَرْوي عَن رَبِّه عزَّ وجلَّ قال: قال إنَّ اللَّهَ كَتَب الحسناتِ والسَّيِّئاتِ ثُمَّ بَيَّن ذلك فمَن هَمَّ بحسنةٍ فلم يَعْمَلْها كَتَبها اللَّهُ له عندَه حسنةً كامِلَةً فإنْ هو هَمَّ بها فعمِلَها كَتَبها اللَّه له عندَه عشرَ حسناتٍ إلى سَبعِمئةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ومَن هَمَّ بسَيِّئَةٍ فلم يَعْمَلْها كَتَبها اللَّهُ له عندَه حسنةً كامِلَةً، فإنْ هو هَمَّ بها فعَمِلَها كتَبها اللَّهُ له سَيِّئَةً واحدةً))[1].

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

أي: لولا أنْ رأى يوسُفُ آيةً مِن اللهِ قَوِيَ بها إيمانُه، وامتنَعَ بسَبَبِها مِن عِصيانِه[2].

صَرَفه عنه وازِعُ التَّقْوَى، أو هو الشَّهْوَة والمَيْل الغَرِيزِي المَزْموم بالتَّقْوَى). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٠٥ - ٢١٠)، ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٧).

ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٦، ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٧، ١٦٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٩٦، ٢٩٧)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٤٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، واللفظ له، ومسلم (١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٩٩، ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢).

قال ابنُ جَرير: (وأَوْلَى الأَقوال في ذلك بالصَّوابِ أن يُقال: إنَّ الله جَلَّ ثَناؤُه أَخبَر عن هَمِّ يُوسُفَ وامرأةِ العَزيز كُلِّ واحِدٍ منهما بصاحبِه، لولا أن رَأَى يُوسُف بُرهانَ رَبِّه، وذلك آيَةٌ مِن الله زَجَرَتْه عن رُكوبِ ما هَمَّ به يُوسُف مِن الفاحِشَة، وجائِزٌ أن تكونَ تلك الآيَةُ صُورَةَ يَعقوبَ، وجائِزٌ أن تكونَ صُورَةَ المَلَكِ، وجائِزٌ أن يكونَ الوَعِيد في الآيات التي ذَكَرَها اللهُ في القُرآن على الزِّنَى، ولا حُجَّةَ للعُذْرِ قاطِعَة بأَيِّ ذلك كان مِن أَيٍّ. والصَّوابُ أن يُقالَ في ذلك ما قالَه الله تَبارَك وتَعالى، والإيمان به، وتَرْك ما عَدَا ذلك إلى عالِمِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٩٩).

وقال ابنُ تَيمية: (هو بُرهانُ الإيمان الذي حَصَل في قَلْبِه فصَرَف اللهُ به ما كان هَمَّ به). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ١٠١). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

وجوابُ ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ محذوفٌ، تقديرُه: لكانَ ما كان، أو: لارتكبَ المعصيةَ.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾.

أي: أرَينا يوسُفَ كتلك الإراءةِ؛ كي نَقِيَه السُّوءَ والفَحشاءَ في جميعِ أمورِه[١].

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه: ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ قراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بفَتحِ اللامِ: اسمُ مفعولٍ، بمعنى: أنَّ اللهَ أخلَصَهم من الشِّركِ والسُّوءِ والفَحشاءِ، فصاروا مُخلَصينَ، أي: اختارَهم اللهُ[٢].

٢- قِراءةُ ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكسرِ اللامِ: اسمُ فاعلٍ، بمعنى: أنَّهم أخلَصوا لله دينَهم وأعمالَهم مِن الشِّركِ والرِّياءِ[٣].

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٨٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ١٠٣).

وتقدَّم قريبًا ذكرُ الوجهِ الآخرِ، وهو أنَّ ما قبلَ (لَوْلَا) هو دَليلُ الجَوابِ المَحْذوف، ومعنَى الآيَة على ذلك: وهَمَّ بها لولا أن رَأَى بُرهانَ رَبِّهِ، أي: لولا أن رَآهُ هَمَّ بها.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٤).

قال ابن تيمية: (أخبَرَ سُبحانه أنَّه صرفَ عنه السُّوءَ والفَحشاءَ، ومِن السُّوءِ عِشقُها ومحبَّتُها، ومن الفَحشاءِ الزِّنا). ((جامع الرسائل)) (٢/ ٢٦٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٠).

قال الشوكاني: (السوء أي: كل ما يسوؤه، والفحشاء: كلُّ أمرٍ مفرطِ القبحِ، وقيل: السوءُ: الخيانةُ للعزيزِ في أهلِه، والفحشاءُ: الزِّنا، وقيل: السوءُ: الشهوةُ، والفحشاءُ: المباشرةُ، وقيل: السوءُ: الثناءُ القبيحُ. والأولَى الحملُ على العمومِ، فيدخلُ فيه ما يدلُّ عليه السياقُ دخولًا أوليًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢).

(٢) قرأ بها نافعٌ وعاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠٠)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٩).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾.

أي: إنَّ يوسُفَ مِن عبادِنا المُطَهَّرينَ المختارينَ المصطفَيْنَ، الذين أخلَصوا لله التوحيدَ والعبادةَ[١].

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عنها أنَّها همَّت، أتبَعَه بكيفيَّةِ طَلَبِها وهَرَبِه، فقال[٢]:

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾.

أي: واستبقَ يوسُفُ وامرأةُ العزيزِ إلى بابِ البيتِ؛ يوسُفُ يفِرُّ منها، وهي تطلُبُه ليرجِعَ إلى البيتِ؛ لتقضيَ حاجَتَها منه، الَّتِي راودَتْه عليها[٣].

﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾.

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠١)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٨).

قال ابنُ جرير: (والصَّوابُ مِنَ القولِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّهما قراءتانِ معروفتانِ قد قرأَ بهما جماعةٌ كثيرةٌ مِنَ القُرَّاءِ، وهما مُتَّفِقَتا المعنَى؛ وذلك أنَّ مَنْ أخْلَصه اللَّهُ لنفسِه فاختارَه، فهو مُخْلِصٌ لِلَّهِ التَّوحيدَ والعبادَةَ، ومَنْ أخْلَص توحيدَ اللَّهِ وعبادتَه فلم يُشْرِكْ باللَّهِ شيئًا، فهو مَن أخْلَصه اللَّهُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠١).

وقال السعدي عن هاتينِ القراءتينِ: (وهما متلازمتانِ، فأخلَصهم لإخلاصِهم، فمَن أخلَص للهِ أخلَصه، وخلَّصه مِن الشرورِ، وعصَمه مِن السوءِ والفحشاءِ). ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) (ص: ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

أي: وأدرَكَت امرأةُ العزيزِ يوسُفَ، فأمسَكَت بقميصِه، وجَذبَته لتَمنَعَه من الخروجِ، فشَقَّت قميصَه مِن الخَلفِ؛ مِن شِدَّةِ الجَذبِ[١].

﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِ﴾.

أي: وصادفَ يوسُفُ وامرأةُ العزيزِ زوجَها عند البابِ[٢].

﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أي: قالت امرأةُ العزيزِ لِزَوجِها لَمَّا وجَدَته عند البابِ، مُتَّهِمةً يوسُفَ بمُراودتِها: ما جزاءُ مَن أراد فِعلَ الفاحِشةِ بزَوجتِك إلَّا أن يُحبَسَ في السِّجنِ، أو يُضرَبَ ضَربًا مُوجِعًا[٣].

﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦﴾.

﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾.

أي: قال يوسُف للعزيزِ مُدافِعًا عن نفسِه: لم أُراوِدْ زوجَتَك عن نفسِها، بل هي مَن طلَبَت منِّي فِعلَ الفاحشةِ، فأبيتُ[٤].

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣).

أي: وحكمَ بينَ امرأةِ العزيزِ وبين يوسُفَ حاكِمٌ مِن أهلِها لَمَّا اختلفَ قولاهما[(١)].

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٧).

قال ابنُ كثير: (وقد اخْتَلَفوا في هذا الشَّاهِدِ: هل هو صغيرٌ أو كبيرٌ، على قولينِ لعلماءِ السَّلَفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣).

وممن قال مِن السلفِ أنَّه كان رجلًا: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، ومجاهدٌ في روايةٍ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ في روايةٍ، وعكرمةُ، والحسنُ، وقتادةُ، وابنُ أبي مليكةَ، والسُّدِّي، ومحمدُ بنُ إسحاقَ، وزيدُ بنُ أسلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣).

وممن قال من السلف أنَّه كان صغيرًا في المهدِ: ابنُ عباسٍ في الروايةِ الثانية عنه، ورُوي عن أبي هريرةَ، وهلالِ بنِ يَساف، والحسنِ، وسعيدِ بنِ جُبيرٍ في رواية، والضَّحَّاكِ بنِ مُزاحم، ونسَبه الرسعني لأكثرِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠٥، ١١١)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣)، واختاره ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (١٣/ ١١١)، والشنقيطي في ((أضواء البيان)) (٢/ ٢١٧).

وقد رُوي مرفوعًا وموقوفًا أنَّ هذا الشاهدَ أحدُ الذين تكلَّموا في المهدِ. يُنظر الكلامُ عن هذه الراوياتِ في: ((سلسلة الأحاديث الضعيفة)) للألباني (٢/ ٢٧١- ٢٧٣).

قال ابنُ عطيةَ: (ومما يُضعفَ هذا أنَّ في «صحيحِ البخاريِّ» [٣٤٣٦] ومسلم [٢٥٥٠]: «لم يتكلَّمْ في المهدِ إلَّا ثلاثةٌ: ...»، فقال: «لم يتكلمْ» وأسقَط صاحبَ يوسفَ منها، ومنها: أنَّ الصبيَّ لو تكلَّم لكان الدليلُ نفسَ كلامِه دونَ أن يحتاجَ إلى الاستدلالِ بالقميصِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣٦).

وقال الألباني: (ظاهِرُ القرآنِ في قِصَّةِ الشاهدِ أنَّه كان رجلًا لا صبيًّا في المهد؛ إذ لو كان طفلًا لكان مجرَّدُ قولِه: إنَّها كاذبةٌ، كافيًا وبرهانًا قاطعًا؛ لأنَّه من المعجزات، ولَمَا احتِيجَ أن يقول: ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، ولا أن يأتيَ بدليلٍ حيٍّ على براءةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ، وهو قولُه: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦- ٢٧] الآية، وقد روى ابنُ جرير بإسنادٍ رجاله ثقات عن ابن عباس: أنَّ الشاهِدَ كان رجلًا ذا لحيةٍ، وهذا هو الأرجَحُ، والله أعلم). ((سلسلة الأحاديث الضعيفة)) (٢/ ٢٧٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٣، ١٧٤).

أي: قال الشَّاهِدُ حاكِمًا بين يوسُفَ وامرأةِ العزيزِ: إن كان قميصُ يوسُفَ شُقَّ مِن الأمامِ فصدَقَت في دعواها أنَّ يوسُفَ راودها، وهو مِن الكاذبينَ في دَعواه أنَّها التي راوَدَته، بدليلِ أنَّها دافعتْه عن نفسِها حتَّى شقَّت قميصَه مِن الأمامِ[1].

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧﴾.

أي: وإن كان قميصُ يوسُفَ شُقَّ مِن الخَلفِ فكَذَبت في دَعواها أنَّ يوسُفَ راودَها، وهو مِن الصَّادقينَ في دعواه أنَّها التي راوَدَته، بدليلِ أنَّه فرَّ منها حينَ راودتْه، فاتَّبعتْه، وجذَبتْ قميصَه حتَّى شقَّته مِن ورائِه[2].

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ٢٨﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾.

أي: فلمَّا رأى زوجُ المرأةِ قميصَ يوسُفَ شُقَّ مِن خلفٍ، وتبيَّن له صِدقُه؛ قال لزوجتِه: إنَّ هذا الكَذِبَ الذي ادَّعَيتِه على يوسُفَ مِن جملةِ مَكرِكُنَّ وحِيَلِكُنَّ -أيَّتُها النِّساءُ[3].

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

أي: قال العزيزُ لزوجتِه[4]: إنَّ مَكرَكنَّ واحتيالَكنَّ -أيَّتُها النِّساءُ- عظيمٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٤١٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٨).

(٤) وممَّن اختار أنَّ قائلَ ذلك وما بعدَه إلى قولِه: ﴿ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ هو زوجُ المرأةِ العزيزُ: أبو حيان، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، وابنُ عاشور، والشنقيطي.

شديدُ التَّأثيرِ في النُّفوسِ[١].

﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۖ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ٢٩ ﴾.

﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا ﴾.

أي: وقال ليوسُف عليه السَّلامُ: يا يوسُفُ، أعرِضْ عن ذِكرِ ما جرَى منها، ولا تُخبِرْ به أحدًا[٢].

﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ﴾.

أي: قال العزيزُ لامرأتِه: واطلُبي المَغفِرةَ[٣] لذَنبِك الذي وقعَ منكِ، مِن مُراودةِ يوسُفَ عن نفسِه، وخيانةِ زَوجِك، ثمَّ قَذْفِ يوسُفَ بما هو بريءٌ منه؛

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٦).

وقيل: القائلُ هو الشاهدُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٩).

(٣) طلَب منها زوجُها الاستغفارَ مِن الله، فقد كان أُولئك الأَقْوامُ يُقرُّون بالربِّ سبحانَه وتعالى وبحقِّه، وإن أشْرَكوا معه غيرَه، بدَليلِ أنَّ يُوسُفَ عليه السَّلامُ قال: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٤٧)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣٢١)).

وقيل: إنَّ معنَى ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ أي: واعْتَذري إلى زوجِك، واسْتَعْفيه ألَّا يعاقِبَك، وهذا مرويٌّ نحوُه عن ابنِ زيدٍ. وهذا على أنَّ قائلَ: ﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۖ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ ...﴾ هو الشاهدُ، وممن اختار ذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٥).

إنَّكِ كُنتِ من جملةِ المتعمِّدينَ الوقوعَ في الخَطايا[١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في ذِكْرِ المحسِنين إيماءٌ إلى أنَّ إحسانَه هو سبَبُ جَزائِه بتِلك النِّعمةِ، وأنَّ اللهَ آتاه الحُكْمَ والعِلمَ جَزاءً على إحسانِه؛ لِكَونِه مُحسِنًا في أعمالِه، مُتَّقِيًا في عُنفُوانِ أمرِه؛ هَلْ جَزَاءُ الإحسانِ إلاَّ الإحسانُ؟![٢].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾ فيه الحذَرُ مِن الخَلوةِ بالنِّساءِ، التي يُخشَى منها الفِتنةُ[٣].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ فيه أنَّ الهمَّ الذي همَّ به يوسُفُ بالمرأةِ ثمَّ ترَكَه لله، ممَّا يقرِّبُه إلى اللهِ زُلفى؛ لأنَّ الهمَّ داعٍ مِن دواعي النَّفسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ، وهو طبيعةٌ لأغلَبِ الخَلقِ، فلمَّا قابلَ بينه وبين محبَّةِ اللهِ وخَشيَتِه، غلَبَت محبَّةُ اللهِ وخَشيتُه داعيَ النَّفسِ والهوى، فكان ممَّن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ ومِن السَّبعةِ الذين يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّ عَرشِه يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه؛ أحَدُهم: ((رجلٌ دعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنصبٍ وجمالٍ، فقال: إنِّي أخافُ اللهَ))[٤]، وإنَّما الهمُّ الذي يُلامُ عليه العبدُ: الهمُّ الذي يُساكِنُه، ويصيرُ عزمًا ربَّما اقتَرَن به الفِعلُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

٤- قال ابنُ الجَوْزِيِّ: (نازَعَتْنِي نَفْسِي إلى أمْرٍ مَكْروهٍ في الشَّرْعِ، وجَعَلَتْ تَنْصِبُ لِيَ التَّأْوِيلاتِ وتَدْفَعُ الكَراهةَ، وكانتْ تَأْويلاتُها فاسِدَةً، والحُجَّةُ ظاهِرةً على الكَراهَةِ، فلجَأْتُ إلى اللَّهِ تعالى في دَفْعِ ذلك عنْ قَلْبي، وأقْبَلْتُ على القِراءةِ، وكان دَرْسي قد بَلَغَ سُورةَ يُوسفَ؛ فاتِحَتَها، وذلك الخاطِرُ قد شَغَلَ قَلْبي حتَّى لا أدْري ما أَقْرَأُ، فلمَّا بَلَغْتُ إلى قولِه تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ انتَبَهْتُ لها، وكأنِّي خُوطِبْتُ بها، فأَفَقْتُ مِن تلك السَّكْرَةِ، فقُلْتُ: يا نَفْسُ، أَفَهِمْتِ؟ هذا حُرٌّ بِيعَ ظُلْمًا، فَرَاعى حَقَّ مَن أحْسَنَ إليه، وسمَّاه مالِكًا، وإنْ لمْ يكُنْ له عليه مُلْكٌ، فقالَ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾، ثُمَّ زادَ في بَيانِ مُوجِبِ كَفِّ كَفِّه عمَّا يُؤْذِيه، فقالَ: ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾. فكيف بكَ وأنت عَبْدٌ على الحَقِيقةِ لِمَوْلًى ما زالَ يُحْسِنُ إليك مِن ساعَةِ وُجودِك، وإنَّ سَتْرَه عليك الزَّلَلَ أكْثرُ مِن عَدَدِ الحصَى؟!

أَفَمَا تَذْكُرِينَ كيف ربَّاكِ، وعلَّمَكِ، ورَزَقَكِ، ودَافَعَ عنكِ، وساقَ الخَيْرَ إليكِ، وهَداكِ أَقْوَمَ طَريقٍ، ونَجَّاكِ مِن كلِّ كيدٍ، ولوْ ذَهَبْتُ أَعُدُّ مِن هذه النِّعَمِ ما سَنَحَ ذكْرُه امْتَلأت الطُّروسُ[(١)]، ولمْ تنقَطِعِ الكِتابةُ، فكيف يَحْسُنُ بكِ التَّعرُّضُ لِمَا يَكْرَهُه؟! ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾)[(٢)].

٥- في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بيانُ أنَّ حِفْظَ الإحسانِ لِمَن أَحْسَنَ، هو مِن أخلاقِ الأنبياءِ وذوي الفَضلِ؛ وأنَّ حُرْمَةَ نسائِهم أعظمُ مِن غيرهِنَّ؛ إذْ في مواقعةِ المعصيةِ معهنَّ- سوى تحريمِ الزِّنا - خيانةٌ، وإضاعةُ حُرْمَةٍ[(٣)].

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ فيه أنَّ الواجِبَ عند الدُّعاءِ إلى المعصيةِ

(١) الطُّروسُ: الكُتبُ والصُّحفُ، جمعُ طِرس. يُنظر: ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (٢/ ٧١٣).
(٢) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٢١٥) بتصرف.
(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦١٢).

الاستِعاذةُ باللهِ من ذلك، ليعصِمَه منها، ويدخُلُ فيه دُعاءُ الشَّيطانِ، ودُعاءُ شَياطينِ الإنسِ، ودُعاءُ هوى النَّفسِ(١).

٧- مَن دخلَ الإيمانُ قَلبَه، وكان مُخلِصًا لله في جميعِ أمورِه، فإنَّ الله يَدفَعُ عنه- ببُرهانِ إيمانِه، وصِدقِ إخلاصِه- مِن أنواعِ السُّوءِ والفَحشاءِ وأسبابِ المعاصي، ما هو جزاءٌ لإيمانِه وإخلاصِه؛ لقَولِ الله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ على قراءةِ مَن قرأها بكسرِ اللامِ، ومَن قرأها بالفتحِ، فإنَّه مِن إخلاصِ اللهِ إيَّاه، وهو متضمِّنٌ لإخلاصِه هو بنفسِه، فلمَّا أخلصَ عملَه للهِ أخلَصه اللهُ، وخلَّصه مِن السوءِ والفحشاءِ(٢)، فالقلْبُ إذا ذاقَ حَلاوةَ عُبوديَّتِه للَّهِ ومَحبَّتِه لَهُ لم يكُنْ شَيْءٌ أحَبَّ إليه مِن ذَلِك حَتَّى يُقَدِّمَهُ عليه، وبذلك يُصْرَفُ عن أهلِ الإخلاصِ للَّهِ السُّوءُ والفحشاءُ؛ فَإِنَّ المُخلِصَ للَّهِ ذاقَ مِن حَلاوةِ عُبوديَّتِه للَّهِ مَا يمنَعُهُ عَن عُبوديَّتِه لغيرِه، ومِن حَلاوةِ مَحبَّتِه للَّهِ مَا يمنَعُهُ عَن مَحبَّةِ غَيرِه؛ إِذْ ليس عِنْد الْقلبِ السَّلِيمِ أحْلَى وَلَا ألذُّ وَلَا أطْيَبُ وَلَا أسَرُّ وَلَا أنْعَمُ مِن حَلاوةِ الإيمانِ المُتَضَمِّنِ عُبوديَّتَه للَّهِ، ومحبَّتَه لَهُ، وإخْلاصَ الدِّينِ لَهُ، وذَلِك يَقْتَضي انْجِذابَ الْقلبِ إلى اللَّهِ، فَيَصِيرُ الْقلبُ مُنِيبًا إلى اللَّهِ، خَائفًا مِنْهُ، رَاغِبًا رَاهِبًا(٣).

٨- عِشقُ الصُّوَرِ إنَّما تُبتلَى به القلوبُ الفارِغةُ مِن محبَّةِ الله تعالى، المُعرِضةُ عنه، المتعَوِّضةُ بغيرِه عنه، فإذا امتلأ القلبُ مِن محبَّةِ اللهِ، والشَّوقِ إلى لقائِه، دفَعَ ذلك عنه مرَضَ عِشقِ الصُّوَرِ؛ ولهذا قال تعالى في حَقِّ يوسُفَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فدَلَّ على أنَّ الإخلاصَ

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).
(٣) يُنظر: ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ١٢٣).

سبَبٌ لدَفعِ العِشقِ، وما يترتَّبُ عليه من السُّوءِ والفَحشاءِ التي هي ثَمرتُه ونَتيجتُه، فصَرفُ المُسَبَّبِ صَرفٌ لِسَبَبِه[١]، بل هو أكبَرُ الأسبابِ لحُصولِ كلِّ خَيرٍ، واندفاعِ كُلِّ شَرٍّ[٢].

٩- معلومٌ أنَّ الزانيَ حين يزني إنَّما يزني لحُبِّ نفسِه لذلك الفعلِ، فلو قام بقَلبِه خشيةُ الله التي تقهَرُ الشَّهوةَ، أو حُبُّ الله الذي يغلِبُها- لم يَزْنِ؛ ولهذا قال تعالى عن يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فمن كان مُخلِصًا لله حَقَّ الإخلاصِ، لم يَزْنِ، وإنَّما يزني لخُلُوِّه عن ذلك، وهذا هو الإيمانُ الذي يُنزَعُ منه، لم يُنزَعْ منه نفسُ التَّصديقِ؛ ولهذا قيل: هو مُسلِمٌ وليس بمؤمِنٍ؛ فإنَّ المسلِمَ المُستحِقَّ للثَّوابِ لا بدَّ أن يكونَ مُصدِّقًا، وإلَّا كان مُنافِقًا؛ لكنْ ليس كلُّ مَن صدَّقَ قام بقَلبِه مِن الأحوالِ الإيمانيَّةِ الواجبةِ مِثلُ كَمالِ محبَّةِ الله ورَسولِه، ومِثلُ خَشيةِ اللهِ، والإخلاصِ له في الأعمالِ، والتوكُّلِ عليه، بل يكون الرجُلُ مصَدِّقًا بما جاء به الرَّسولُ، وهو مع ذلك يُرائي بأعمالِه، ويكونُ أهلُه ومالُه أحبَّ إليه مِن اللهِ ورَسولِه، والجهادِ في سَبيلِه[٣].

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ فيه أنَّه ينبغي للعبدِ -إذا رأى محَلًّا فيه فتنةٌ وأسبابُ معصيةٍ- أن يفِرَّ منه، ويهربَ غايةَ ما يُمكِنُه؛ ليتمَكَّنَ مِن التخَلُّصِ مِن المعصيةِ، لأنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ لَمَّا راودَتْه التي هو في بَيتِها، فرَّ هاربًا يطلُبُ البابَ؛ ليتخَلَّصَ مِن شَرِّها[٤].

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٤٦) ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٢٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٠٦، ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّما قال: ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ ولم يقُلْ: (امرأةُ العَزيزِ)، ولا ذَكَرَ اسْمَها؛ قَصْدًا إلى زِيادةِ التَّقريرِ مع اسْتِهْجَانِ التَّصْريحِ باسْمِ المرأةِ، والمُحَافظةِ على السِّتْرِ عليها[١]، والعرَبُ تُضيفُ البُيوتَ إلى النِّساءِ، فتقولُ: ربَّةُ البَيتِ، وصاحبةُ البيتِ[٢].

٢- قول الله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ذُكِر وصفُ الربِّ على الاحتمالينِ؛ احتمالِ أنَّه اللهُ، واحتمالِ أنَّه سيدُه-؛ لما يؤذنُ به مِن وجوبِ طاعتِه وشكرِه على نعمةِ الإيجادِ بالنسبةِ إلى الله، ونعمةِ التربيةِ بالنسبةِ لمولاه العزيزِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى عن يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اسمَ «الرَّبِّ» قد يُرادُ به السَّيِّدُ، وكما في قولِ يوسُفَ أيضًا لغُلامِ المَلِك: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وكذا عن الغُلامِ: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾[٤] [يوسف: ٤٢]، وفيه حُجَّةٌ في أنَّ تسميةَ المخلوقِ بذلك غيرُ منكَرٍ[٥].

٤- قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ما أحسَنَ هذا التنَصُّلَ مِن الوقوعِ في السُّوءِ! استعاذ أوَّلًا باللهِ الذي بيَدِه العِصمةُ، ومَلكوتُ كلِّ شَيءٍ، ثمَّ نبَّه على أنَّ إحسانَ اللهِ أو إحسانَ العزيزِ الذي سبقَ منه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٢).
(٤) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ٤٥٣).
(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦١٢).

لا يُناسِبُ أن يُجازَى بالإساءةِ، ثمَّ نفى الفلاحَ عن الظَّالِمينَ، وهو الظَّفَرُ والفَوزُ بالبُغْيةِ، فلا يناسِبُ أن أكونَ ظالِمًا أضَعُ الشَّيءَ غيرَ مَوضِعِه، وأتعدَّى ما حدَّه اللهُ تعالى لي[١].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فيه إرشادٌ لها إلى رعايةِ حقِّ العزيزِ بألطَفِ وجْهٍ، وفيه تحذيرٌ لها مِن عقابِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ فيه أنَّه يجوزُ تَركُ القبيحِ لِقُبحِه، ورعايةِ حَقِّ غَيرِه، وخشيةِ العار أو الفَقرِ أو الخوفِ، ونحو ذلك. ولا يقالُ: التَّشريكُ غيرُ مُفيدٍ في كونِه تاركًا للقبيحِ، وأنَّه لا يُثابُ[٣].

٧- قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ إجابتَها لِمَا راوَدَتْه: ظُلمٌ؛ لأنَّ فيها ظُلْمَ كِلَيهما نفْسَه بارتكابِ معصيةٍ ممَّا اتَّفقَت الأديانُ على أنَّها كبيرةٌ، وظُلمَ سيِّدِه الَّذي آمَنَه على بيتِه، وآمَنَها على نفْسِها؛ إذ اتَّخَذها زوجًا وأحصَنَها[٤].

٨- قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تدلُّ الآيةُ على لزومِ حُسنِ المكافأةِ بالجَميلِ، وأنَّ من أخلَّ بالمكافأةِ عليه، كان ظالِمًا[٥].

٩- قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٦٦).

ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ في صَرفِ السُّوءِ والفَحشاءِ عنه عليه السَّلامُ، وكَونِه مِن المُخلَصينَ؛ دليلٌ على عِصمتِه[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ بيانُ أنَّ الحَسَنةَ الثَّانيةَ قد تكون مِن ثوابِ الأولى، وكذلك السَّيئةُ الثَّانيةُ قد تكونُ مِن عقوبةِ الأولى؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[٢] [محمد: ١].

١١- مِن رَحمةِ اللهِ تعالى بِعَبْدِهِ المُخلصِ أن يصرِفَ عنه ما يَغارُ عليه منه؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ شاهِدٌ على نَفيِ ما قد ذَكَره طائِفةٌ مِن المفَسِّرينَ مِن أنَّه وُجِدَ مِن يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعضُ المُقدِّماتِ، مثل حَلِّ السَّراويلِ، والجلوسِ مَجْلِسَ الخاتنِ، ولو كان قد فَعَلَ صغيرةً لتابَ منها، والقرآنُ ليس فيه ذِكرُ تَوبتِه، بل إنَّه مَن وَقعَ منه بعضُ أنواعِ السُّوءِ والفَحشاءِ لم يكن ذلك قد صُرِفَ عنه، بل يكونُ قد وَقعَ وتاب اللهُ عليه منه، والقرآنُ يدلُّ على خِلافِ هذا، وقد شَهِدت النِّسوةُ له أنَّهنَّ ما عَلِمنَ عليه من سُوءٍ، ولو كان قد بَدَت منه هذه المقَدِّمات لكانت المرأةُ قد رأت ذلك، وهي من النِّسوةِ اللَّاتي شَهِدنَ وقُلنَ: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ وقالت مع ذلك: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ وقالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٠).

١٣- قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ ولم يقُلْ: سيِّدَهُما؛ لِأنَّ يُوسفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يَدْخُلْ في رِقٍّ، ولم يكنْ مملوكًا لذلك الرجلِ على الحقيقةِ[١].

١٤- في قولِه تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ حجةٌ في أنَّ تسميةَ المخلوقينَ بالسَّادة جائزٌ[٢].

١٥- قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فبادرَتَ إلى الكَذِبِ؛ أنَّ المراودةَ قد كانت من يوسُفَ، وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ ولم تقُلْ «مَن فعلَ بأهلِك سُوءًا» تبرئةً لها، وتبرئةً له أيضًا مِن الفِعلِ، وإنَّما النِّزاعُ عند الإرادةِ والمُراودةِ[٣].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يدلُّ على عِظَمِ مَوقِعِ السَّجنِ مِن ذَوي الأقدارِ؛ حيث قرَنَته بالعذابِ الأليمِ[٤].

١٧- في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ حُجَّةٌ في إباحةِ الانتصارِ، ومقابلةِ الظَّالمِ بمِثلِ فِعلِه[٥].

١٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ إنَّما قال: ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ ليكونَ أَولى بالقَبولِ في حَقِّ المرأةِ؛ لأنَّ الظَّاهِرَ مِن حالِ مَن يكونُ مِن أقرِباءِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٦٦).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٠).
(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦١٤).

المرأةِ ومِن أهلِها ألَّا يَقصِدَها بالسُّوءِ والإضرارِ، فالمقصودُ بذِكرِ كَونِ ذلك الرَّجُلِ مِن أهلِها تَقويةُ قَولِ ذلك الرَّجُلِ[١].

١٩- إنْ قيل: كيف جاز الجَمْعُ بين ﴿إِن﴾ الَّذي هو للاستِقْبالِ وبينَ ﴿كَانَ﴾؟ **فالجوابُ**: لأنَّ المعنى: إنْ يَعلَمْ أنَّه كان قميصُه قُدَّ، ونحوُه، كقولِك: إنْ أحسَنْتَ إليَّ فقد أحسَنتُ إليك مِن قبلُ، لِمَن يَمتَنُّ عليك بإحسانِه، تُريدُ: إنْ تَمتَنَّ عليَّ أمتَنَّ عليك[٢].

٢٠- قولُ الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يَحتَجُّ به من يرى الحُكمَ بالقرائنِ والأماراتِ والعَلاماتِ فيما لا تحضُرُه البيِّناتُ؛ كاللُّقَطةِ والسَّرِقة والوديعةِ[٣]، فالقرائنُ الجازمةُ رُبَّمَا قَامَتْ مقامَ البيِّناتِ؛ ذلك لأَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ يُوسُفَ لَمَّا بَهَتَتْه امرأةُ العزيزِ، واضْطُرَّ إلى الدفاعِ، ولم تَكُنْ هناك بينةٌ، ولا شيءٌ يُصدِّقُه أو يُصدِّقُها، جاءَ ذلك الشاهدُ، وجعَل شقَّ قميصِه مِن دُبُرٍ قرينةً على صدقِه، وكذبِ المرأةِ، فذِكرُه تعالى لهذا مقرِّرًا له يدلُّ على جوازِ العملِ به[٤].

٢١- قال الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في الآيةِ دَليلٌ على القياسِ والاعتبارِ، والعمَلِ بالعُرفِ والعادةِ؛ لِمَا ذُكِرَ مِن قَدِّ القميصِ مُقبلًا ومُدبرًا[٥].

٢٢- قال الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٦١).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٤).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧١).

فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ قدَّمَ أمارةَ صِدقِها؛ لأنَّه ممَّا يُحبُّه سَيِّدُها، فهو في الظاهرِ اهتمامٌ بها، وفي الحقيقةِ تقريرٌ لِكَذِبها مرَّتينِ: الأُولَى باللُّزومِ، والثَّانية بالمُطابقة[١].

٢٣- مِن اللَّطائِفِ في قولِه تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ما قيل: إنَّ هذا الشَّاهِدَ أراد ألَّا يكونَ هو الفاضِحَ لها، ووَثِقَ بأنَّ انقِطاعَ قَميصِه إنَّما كان مِن دُبُر، فنَصَبه أمارةً لصِدقِه وكَذِبِها، ثمَّ ذكَرَ القِسمَ الآخَر، وهو قدُّه مِن قُبُلٍ، على علمٍ بأنَّه لم ينقَدَّ مِن قُبُلٍ حتى ينفِيَ عن نَفسِه التُّهمةَ في الشهادةِ وقَصْدَ الفَضيحةِ، ويُنصِفَهما جميعًا، فيَذكُر أمارةً على صِدقِها المعلومِ نَفيُه، كما ذكَرَه أمارةً على صِدقِه المعلومِ وُجودُه؛ ومِنَ ثمَّ قَدَّمَ أمارةً على صِدقِها، على أمارةِ صِدقِه في الذِّكرِ؛ إزاحةً للتُّهمةِ، ووُثوقًا بأنَّ الأمارةَ الثَّانيةَ هي الواقِعةُ، فلا يَضُرُّه تأخيرُها[٢].

٢٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وُصِفَ كَيدُ النِّساءِ بالعِظَم، وإن كان قد يُوجَدُ في الرِّجالِ؛ لأنهُنَّ ألطَفُ كَيدًا بما جُبِلنَ عليه، وبما تفرَّغنَ له، واكتسَبَ بعضُهنَّ مِن بَعضٍ، وهنَّ أنفَذُ حِيلةً[٣].

٢٥- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ تَعميمُ الخِطابِ للتَّنبيهِ على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٦٩).
دلالةُ اللزومِ: هي دلالةُ اللفظِ على لازمٍ مسمَّاه، كدلالةِ السقفِ على الجدارِ.
ودلالةُ المطابَقةِ: هي دلالةُ اللفظِ على كمالِ مسمَّاه، كدلالةِ لفظ البيتِ على جميعِه. يُنظر: ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٢).

ذلك خُلُقٌ لهنَّ عريقٌ[١].

٢٦- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ كيف وُصِفَ كَيدُ النِّساءِ بالعَظيمِ مع قَولِه تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: ٢٨] وهلَّا كان مكرُ الرِّجالِ أعظمَ مِن مَكرِ النِّساءِ؟

الجوابُ: أمَّا كونُ الإنسانِ خُلِقَ ضَعيفًا فهو بالنِّسبةِ إلى خَلقِ ما هو أعظَمُ منه؛ كخَلقِ الملائكةِ، والسَّمواتِ والأرضِ، والجبالِ ونحو ذلك، وأمَّا عِظَمُ كَيدِ النِّساءِ ومَكرِهنَّ في هذا البابِ فهو أعظَمُ مِن كيدِ جَميعِ البشَرِ؛ لأنَّ لهنَّ مِن المَكرِ والحِيَلِ والكيدِ في إتمامِ مُرادِهنَّ ما لا يَقدِرُ عليه الرِّجالُ في هذا البابِ[٢].

٢٧- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ إذا ضُمَّت لها آيةٌ أُخرَى حصَل بذلك بيانُ أنَّ كيدَ النساءِ أعظمُ مِن كيدِ الشيطانِ، والآيةُ المذكورةُ هي قولُه: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]؛ لأنَّ قولَه في النساءِ: ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾، وقوله في الشيطانِ: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ يدلُّ على أنَّ كيدهنَّ أعظمُ مِن كيدِه[٣]، وعن بعضِ العلماءِ: (إنِّي أخافُ مِن النساءِ ما لا أخافُ مِن الشيطانِ؛ فإنَّه تعالى يقولُ: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، وقال للنساءِ: ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾، ولأنَّ الشيطانَ يوسوسُ مسارقةً، وهنَّ يواجِهْنَ به الرجالَ)[٤].

وقيل: لا دلالةَ فيه، فالمقامُ مختلفٌ؛ فإنَّ ضعفَ كيدِ الشيطانِ إنَّما هو في مقابلةِ كَيْدِ الله تعالى، وعظمَ كيدِهنَّ إنَّما هو بالنسبةِ الى كيدِ الرجالِ، وإنَّما كيدُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٢٤).
(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢١٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (٦/ ٣٢٠).

النسوانِ بعضُ كيدِ الشيطانِ[١].

٢٨- بَيَّنَ القُرآنُ العَظيمُ بَراءةَ يُوسُف عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن الوُقوعِ فيما لا يَنبَغِي؛ حيث بَيَّنَ شَهادةَ كُلِّ مَن له تَعَلُّق بالمَسأَلَةِ بِبَراءَتِه، وشَهادةَ الله له بذلك، واعْتِراف إبليس به. أمَّا الذين لهم تَعَلُّق بتِلك الواقِعَة فهم: يُوسُف، والمَرأَةُ، وزَوْجُها، والنِّسْوَةُ، والشُّهودُ. أمَّا جَزْمُ يُوسُف بأنَّه بَرِيءٌ مِن تِلك المَعصِيَة فذَكَرَهُ تعالى في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾، وأمَّا اعْتِرافُ المَرأَةِ بذلك ففي قولِها للنِّسْوَةِ: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]. وأمَّا اعْتِراف زَوْجِ المَرأَةِ ففي قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ * يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ﴾. وأمَّا اعْتِراف الشُّهود بذلك ففي قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ...﴾. وأمَّا شَهادَةُ الله جَلَّ وعَلَا بِبَراءَتِه ففي قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾. وأمَّا إِقْرار إبليس بطَهارَةِ يُوسُف ونَزاهَتِه ففي قولِه تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، فأَقَرَّ بأنَّه لا يُمكِنُه إِغْواءُ المُخْلَصِين، ولا شَكَّ أنَّ يُوسُف مِن المُخْلَصِين، كما صَرَّحَ تعالى به في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، فظَهَرَت دِلالَةُ القُرآنِ مِن جِهاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ على بَراءَتِه ممَّا لا يَنْبَغي[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤١٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٣٨).

وقال القنوجي: (وفي «حاشيةِ الخفاجي»: وقيل عليه: إنَّ ضعفَ كيدِ الشيطانِ في مقابلةِ كيدِ الله، وعظم كيدِهنَّ بالنسبةِ للرجالِ، وهو ليس بشيءٍ؛ لأنَّه استدلَّ بظاهرِ إطلاقِهما، ومثلُه مما تنقبضُ له النفسُ وتنبسطُ يكفي فيه ذلك القدر. انتهى. قال الحفناوي: هذا فيما يتعلَّقُ بأمرِ الجماعِ والشهوةِ لا عظيمٌ على الإطلاقِ؛ إذ الرجالُ أعظمُ منهنَّ في الحيلِ والمكايدِ في غيرِ ما يتعلَّقُ بالشهوةِ). ((تفسير القنوجي)) (٦/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٥).

٢٩- في قَولِه تعالى عن العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّهم كانوا يَرَونَ ذلك ذنبًا ويَستَغفِرونَ منه -وإن كانوا مع ذلك مُشرِكينَ- وقد كانت العرَبُ مُشرِكينَ، وهم يُحَرِّمونَ الفواحِشَ ويَستغفِرونَ اللهَ منها، وكان الزِّنا معروفًا عندهم في الإماءِ[١]، وذلك على القولِ بأنَّه طلبَ منها استغفارَ الله.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

- التنكيرُ في قوله: ﴿حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ للتفخيمِ[٢].

- ومِن قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ اعتراضٌ جيءَ به أُنموذَجًا للقِصَّةِ؛ لِيَعلَمَ السَّامعُ مِن أوَّلِ الأمرِ أنَّ ما لَقِيه عليه السَّلامُ مِن الفتنِ الَّتي ستُحْكَى بتَفاصيلِها له غايةٌ جميلةٌ وعاقبةٌ حميدةٌ، وأنَّه عليه السَّلامُ مُحسِنٌ في جَميعِ أعمالِه لم يَصدُرْ عنه في حالَتَيِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ما يُخِلُّ بنَزاهتِه، ومَدارُ حُسنِ التَّخليصِ إلى هذا الاعتِراضِ قبلَ تَمامِ الآيةِ الكريمةِ: هو التَّمكينُ البالغُ المفهومُ مِن كلامِ العزيزِ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ فيه تشبيهُ حالِ المحاوِلِ أحَدًا على فِعْلِ شيءٍ مُكرِّرًا ذلك بحالِ مَن يَذهَبُ ويَجيءُ في المعاوَدةِ إلى الشَّيءِ المذهوبِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٤).

عنه، فأُطلِقَ (راوَد) بمعنى (حاوَل)[١]؛ فالمراودةُ المطالَبةُ، مِن: رادَ يَرُودُ؛ إذا جاء وذهَب لطَلَبِ شيءٍ، وهي مُفاعَلةٌ مِن واحدٍ نَحوُ مُطالبةِ الدَّائنِ ومُماطَلةِ المديونِ ونَظائِرِها ممَّا يكونُ مِن أحَدِ الجانِبَين الفِعلُ ومِن الآخَرِ سبَبُه؛ فإنَّ هذه الأفعالَ وإن كانت صادِرةً عن أحَدِ الجانِبَين لكنْ لَمَّا كانت أسبابُها صادِرةً عن الجانبِ الآخَرِ جُعِلَت كأنَّها صادِرةٌ عنهما، وهذا بابٌ لَطيفُ المسلَكِ مَبنيٌّ على اعتبارٍ دقيقٍ، تَحقيقُه: أنَّ سببَ الشَّيءِ يُقامَ مَقامَه، ويُطلَقُ عليه اسمُه، كما في قولِهم: كما تَدينُ تُدانُ، أي: كما تَجْزي تُجْزى؛ فإنَّ فعْلَ البادي وإن لم يَكُنْ جَزاءً، لكنَّه لِكَونِه سببًا للجزاءِ أُطلِقَ عليه اسمُه، وهذه قاعدةٌ مُطَّرِدةٌ مُستمِرَّةٌ، ولَمَّا كانت أسبابُ الأفعالِ المذكورةِ هنا صادِرةً عن الجانبِ المقابلِ لجانبِ فاعِلِها؛ فإنَّ مُراودَتَها لِجَمالِ يوسُفَ عليه السَّلامُ نُزِّلَ صُدورُها عن مَحالِّها بمَنزِلةِ صُدورِ مُسبِّباتِهما التي هي تلك الأفعالُ، فبُني الصيغةُ على ذلك، ورُوعيَ جانبُ الحقيقةِ بأن أُسند الفعلُ إلى الفاعل، وأُوقِعَ على صاحبِ السَّببِ. ويَجوزُ أن يُرادَ بصيغةِ المغالَبةِ مجرَّدُ المبالَغةِ، وقيل: الصِّيغةُ على بابِها، بمعنى أنَّها طَلَبَت منه الفِعلَ، وطلَب هو مِنها التَّرْكَ، ويَجوزُ أنْ يكونَ مَنْ الرُّوَيدِ، وهو الرِّفْقُ والتَّحمُّلُ، وتَعدِيَتُها بـ (عَنْ)؛ لتَضمينِها معنى المخادَعةِ؛ فالمعنى: خادَعَتْه عَنْ نَفْسِه[٢].

- والتَّعبيرُ عن امرأةِ العزيزِ بطَريقِ الموصوليَّةِ في قولِه: ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾؛ لِقَصدِ ما تُؤْذِنُ به الصِّلةُ مِن تقريرِ عِصْمةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ كوْنَه في بيتِها مِن شأنِه أن يُطوِّعَه لِمُرادِها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٠).

- قولُه: ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ و(عَن) للمُجاوَزةِ، أي: راوَدَتْه مُباعِدةً له عن نَفسِه، أي: بأنْ يَجعَلَ نفْسَه لها؛ قيل: وهذا التَّركيبُ مِن مُبتكَراتِ القرآنِ؛ فالنَّفسُ هنا كِنايةٌ عن غرَضِ المواقَعةِ، أي: فالنَّفسُ أُريدَ بها عَفافُه، وتَمكينُها مِنه لِما تُريدُ، فكأنَّها تُراوِدُه عن أن يُسلِّمَ إليها إرادتَه، وحُكمَه في نفسِه، بخلافِ تَعْديَةِ هذا الفعلِ بـ(على)؛ فإنَّ ذلك إلى الشَّيءِ المطلوبِ حُصولُه[١].

- قولُه: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ فيه تضعيفُ (غَلَّقَتْ)؛ لإفادةِ شِدَّةِ الفعلِ وقوَّتِه، أي: أغلَقَت إغلاقًا مُحْكَمًا[٢]، فقال: ﴿وَغَلَّقَتِ﴾؛ للمبالَغةِ في الإيثاقِ والإحكامِ، وقيل: كانت الأبوابُ سَبعةً؛ ولذلك جاء الفعلُ بصيغةِ التَّفعيلِ دون الإفعالِ؛ للتكثيرِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ تعليلٌ لامتناعِه، وتعريضٌ بها في خيانةِ عهدِها[٤].

- والضَّميرُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ ضميرُ الشَّأنِ، ومدارُ وضْعِه مَوضعَه ادِّعاءُ شُهرتِه المُغْنيةِ عن ذِكرِه، وفائدةُ تصديرِ الجملةِ به: الإيذانُ بفَخامةِ مَضمونِها، مع ما فيه مِن زيادةِ تقريرِه في الذِّهنِ؛ فإنَّ الضَّميرَ لا يُفهَمُ مِنه مِن أوَّلِ الأمرِ إلَّا شأنٌ مُبهَمٌ له خطَرٌ، فيَبْقَى الذِّهنُ مُترقِّبًا لِما يَعقُبُه، فيَتمَكَّنُ عِندَ وُرودِه له فَضْلَ تَمكُّنٍ؛ فكأنَّه قيل: إنَّ الشَّأنَ الخطيرَ هذا وهو ربِّي، أي: سيِّدي العزيزُ -وقيل: الضَّميرُ للهِ عزَّ وجلَّ- أحسَنَ مَثواي؛ فكيف يُمكِنُ أن أُسيءَ إليه بالخيانةِ في حَرَمِه، وفي الاقتصارِ على ذِكْرِ هذه الحالةِ، مِن غيرِ تَعرُّضٍ لاقتِضائِها الامتناعَ عمَّا دعَتْه إليه إيذانٌ بأنَّ هذه المرتبةَ مِن البيانِ كافيةٌ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٢).

الدَّلالةِ على استِحالتِه، وكونِه ممَّا لا يَدخُلُ تحتَ الوُقوعِ أصلًا[١].

- وجملةُ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليلٌ ثانٍ للامتناعِ المذكورِ، وهو تعليلٌ بعدَ تعليلٍ، والضَّميرُ المجعولُ اسْمًا لـ (إنَّ) ضميرُ الشَّأنِ يُفيدُ أهميَّةَ الجملةِ المجعولةِ خبَرًا عنه؛ لأنَّها موعِظةٌ جامعةٌ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾

- جملةُ ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وأكَّد همَّها بـ (قد) ولامِ القَسَمِ؛ لِيُفيدَ أنَّها عزَمَت عَزْمًا مُحقَّقًا[٣].

- قولُه: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أشيرَ إلى اختلافِ الهَمَّينِ باختلافِ التَّعبيرِ عنهُما، حيث لم يَقُلْ: (ولَقَد هَمَّا) بالمخالَطةِ أو (هَمَّ كُلٌّ مِنهما بالآخَرِ)، وصُدِّر الأوَّلُ بما يُقرِّرُ وُجودَه مِن التَّوكيدِ القَسَميِّ ﴿وَلَقَدۡ﴾، وعُقِّب الثَّاني بما يَعْفو أثَرَه مِن قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[٤].

- قولُه: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ التَّقديرُ فيها: (ولولا أنْ رأَى بُرهانَ ربِّه هَمَّ بها)؛ فقُدِّم الجوابُ ﴿هَمَّ بِهَا﴾ على شَرْطِه ﴿لَوۡلَآ﴾؛ للاهتمامِ به، وقد يُجعَلُ المذكورُ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ قبلَ ﴿لَوۡلَآ﴾ دليلًا للجوابِ، والجوابُ محذوفٌ لِدَلالةِ ما قَبْل ﴿لَوۡلَآ﴾ عليه، فيَحْسُنُ الوقفُ على قولِه: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾؛ لِيَظهَرَ مَعْنى الابتداءِ بجُملَةِ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ واضِحًا، وبذلك يَظهَرُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٦).

أنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ لم يُخالِطْه همٌّ بامرأةِ العزيزِ؛ لأنَّ اللهَ عصَمَه مِن الهمِّ بالمعصيةِ بما أراه مِن البُرهانِ[١]. وذلك على أحدِ أوجهِ تفسيرِ الآيةِ.

- وجملةُ ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ تعليلٌ لحِكْمَةِ صَرفِه عن السُّوءِ والفحشاءِ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ وحَّدَ البابَ هنا، وجمَعَه قبلُ في قَولِه تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾؛ لأنَّ إغلاقَ البابِ للاحتياطِ لا يتِمُّ إلَّا بإغلاقِ الجَميعِ، وأمَّا هُروبُه منها فلا يكونُ إلَّا إلى بابٍ واحدٍ، حتى لو تعدَّدَت أمامَه، لم يقصِدْ منها أوَّلًا إلَّا الأوَّلَ؛ فلهذا وحَّدَ البابَ هنا، وجمَعَه ثَمَّ[٣].

- وإسنادُ القَدِّ إليها خاصَّةً مع أنَّ لِقُوَّةِ يوسفَ أيضًا دَخْلًا فيه؛ إمَّا لأنَّها الجُزءُ الأخيرُ للعِلَّةِ التَّامَّةِ، وإمَّا للإيذانِ بمُبالَغتِها في منْعِه عن الخروجِ، وبَذلِ مَجهودِها في ذلك؛ لِفَوْتِ المحبوبِ، أو لخوفِ الافتضاحِ[٤].

- قولُه: ﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ﴾ مستأنف استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ السَّامعَ يَسأَلُ: ماذا حدَث عِندَ مُفاجَأَةِ سيِّدِها وهُما في تلك الحالةِ[٥]؟

- قوله: ﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ لم تُصرِّحْ في قَولِها بذِكْرِ يوسُفَ، وأنَّه أراد بها سُوءًا؛ قَصدًا للعُمومِ، وأنَّ كلَّ مَن أراد بأهلِك سوءًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٥).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٦).

فحَقُّه أن يُسجَنَ أو يُعذَّبَ؛ لأنَّ ذلك أبلَغُ فيما قصَدَتْه مِن تخويفِ يوسُفَ؛ ففي إبهامِ المُريدِ تَهويلٌ لشأنِ الجزاءِ المذكورِ بكَونِه قانونًا مطَّرِدًا في حقِّ كلِّ أحدٍ كائنًا مَنْ كان(١).

وقيل: إنَّها لم تَذكُر أنَّ يُوسُفَ يجبُ أن يُعامَل بِأَحَدِ هَذينِ الأَمْرَينِ، بل ذَكَرت ذلك ذِكْرًا كُلِّيًّا صَوْنًا للمَحْبوب عن الذِّكْرِ بالسُّوءِ والأَلَم(٢).

وفي ذِكْرِ نفْسِها بعُنوانِ أهليَّةِ العزيزِ ﴿بِأَهْلِكَ﴾ إعظامٌ للخَطْبِ، وإغراءٌ له على تَحقيقِ ما تتوخَّاه بحُكْمِ الغضَبِ والحَميَّةِ(٣).

- وبَدأَت بِذِكْرِ السِّجْنِ، وأَخَّرَت ذِكْرَ العَذابَ قيل: لشدَّةِ حبِّها يوسفَ؛ فالمُحِبُّ لا يَسعَى في إيلامِ المَحْبوبِ، ولذلك قالت: ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ﴾، والمُرادُ: أنْ يُسْجَنَ يومًا أو أَقَلَّ على سَبيلِ التَّخْفِيف، فأمَّا الحَبْسُ الدَّائِم فإنَّه لا يُعَبَّر عنه بهذه العِبارَةِ؛ بل يُقال: يجبُ أن يُجْعَلَ مِن المَسجونينَ، كما قال فِرعَونُ حين تَهَدَّدَ موسَى عليه السَّلام في قولِه: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾(٤) [الشعراء: ٢٩].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي﴾ فيه تقديمُ المبتدَأِ ﴿هِيَ﴾ على خبَرِه الفعليِّ ﴿

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٤٥).

رَٰوَدَتۡنِي﴾ وهو يُفيدُ القَصْرَ، وهو قصْرُ قلْبٍ[١]؛ للرَّدِّ عليها[٢].

- وفي التَّعبيرِ عنها بضَميرِ الغيبةِ ﴿هِيَ﴾ دونَ الخطابِ أو اسْمِ الإشارةِ: مُراعاةٌ لحُسنِ الأدبِ، مع الإيماءِ إلى الإعراضِ عنها[٣]، وقيل: أَتَى بضَميرِ الغَيبةِ؛ لاستيحائِه عن مواجهتِها بإشارةٍ أو ضميرِ خِطابٍ؛ إذ كان غلبَ عليه الحَياءُ أنْ يُشيرَ إليها ويُعيِّنَها بالإشارةِ، فيقول: هذِه راودتْني، أو تِلك راودتْني؛ لأنَّ في المواجهةِ بالقبيحِ ما ليس في الغَيبةِ[٤].

- قولُه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ سُمِّي قولُه شهادةً؛ لأنَّه يؤولُ إلى إظهارِ الحقِّ في إثباتِ اعتداءِ يُوسُفَ عليه السَّلامُ على امرأة العزيزِ أو دَحْضِه[٥].

- قوله: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۞ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ جملةُ ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ﴾ مُبيِّنةٌ لفِعل (شَهِد)، وفي زيادةِ ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ بعدَ ﴿فَصَدَقَتۡ﴾، وزيادةِ ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بعدَ ﴿فَكَذَبَتۡ﴾: تأكيدٌ لزيادةِ تَقْريرِ الحقِّ، كما هو شأنُ الأحكامِ[٦].

- ولَمَّا كانت كلُّ جملةٍ مُستقِلَّةً بنَفْسِها أبرَزَ اسْمَ كانَ بلَفْظِ المظْهَرِ: ﴿قَمِيصُهُۥ﴾، ولم يُضْمِرْ ويَقُلْ: (إن كان قُدَّ) لِيَدُلَّ على الاستقلالِ، ولكونِ

---

(١) قصر القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلمُ فيه حُكمَ السامع، كقولك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لمن يعتقد أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معينةٍ أو طرفٍ معينٍ، لكنَّه يقول: ما زيدٌ هناك بشاعر. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢٥٨).

التَّصريحِ به أوضَحَ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ﴾

- قولُه: ﴿ يُوسُفُ ﴾ حذَف منه حَرْفَ النِّداء؛ لأنَّه مُنادًى قريبٌ، مُفاطِنٌ[٢] للحديثِ، وفيه تقريبٌ له، وتلطيفٌ لِمَحلِّه[٣].

- قولُه: ﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ﴾ جملةُ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ ﴾ عطفٌ على جملة ﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ ﴾ وهو عطفُ أمرٍ على أمرٍ، والمأمورُ مُختلِفٌ؛ فبَعدَ أنْ خاطبَها بأنَّ ما دَبَّرتْه هو من كيدِ النِّساءِ وجَّه الخِطابَ إلى يُوسُفَ عليه السَّلامُ بالنِّداء، ثم أعادَ الخِطابَ إلى المرأةِ، وهذا الأسلوبُ من الخِطابِ يُسمَّى بالإقبالِ، وقد يُسمَّى بالالتفاتِ بالمعنى اللُّغويِّ، وهو عزيزٌ في الكلامِ البَليغِ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال: ﴿مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ﴾ بلَفْظِ التَّذكيرِ تَغليبًا للذُّكورِ على الإناثِ؛ لأنَّه لم يَقصِدْ بذلك قصْدَ الخبَرِ عن النِّساءِ، وإنَّما قصَد به الخبَرَ عمَّن يفعَلُ ذلك فيَخطَأُ، ولأنَّ الخاطِئين أعَمُّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٢).

(٢) فاطَنه في الكلامِ، أي: راجَعه. يُنظر ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٥/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٢).

الآيات (٢٠-٢٥)

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شَغَفَهَا﴾: أي: أصاب حبُّه شَغافَ قلبها، والشَّغافُ: غِلافُ القَلبِ[(١)].

﴿وَأَعْتَدَتْ﴾: أي: هَيَّأَتْ وأعَدَّتْ، وأصلُه مِن الإعدادِ الذي هو تَهيئةُ الشَّيءِ[(٢)].

﴿مُتَّكَـًٔا﴾: أي: مجلسًا يُتكأُ فيه، أو وَسائِدَ يُتكأُ عليها، وأصلُ (وكأ): يدلُّ على شدِّ شيءٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٣).
قال محمد رشيد رضا: (والاتكاءُ على الشَّيءِ هو التمكُّنُ بالجلوسِ عليه، أو الاعتمادُ عليه باليدِ أو اليديْنِ). ((تفسير المنار)) (١٢/ ٢٤١)، ويُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٩٣).

﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾: أي: أجلَلْنَه وأعظَمْنَه، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[١].

﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾: أي: معاذَ اللهِ، وتنزيهًا له؛ من المحاشاةِ: وهي التَّخليةُ والتَّبعيدُ[٢].

﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾: أي: امتنَعَ، وتحرَّى ما يَعصِمُه، وأصلُ (عصم): يدلُّ على إمساكٍ، ومَنعٍ، ومُلازمةٍ[٣].

﴿أَصْبُ﴾: أي: أمِلْ، يُقال: صَبَا فلانٌ: إذا نزَع واشتاق، وفعَل فعلَ الصِّبيانِ، وأصلُ (صبا): يدلُّ على صِغَرِ السِّنِّ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن شيوعِ خبرِ امرأةِ العزيزِ، وأنَّ نِسوةً في المدينةِ تحَدَّثنَ به، وقُلنَ مُنكِراتٍ عليها: امرأةُ العزيزِ تُراوِدُ غُلامَها عن نفسِه، وتدعوه إلى نَفسِها، وقد بلَغ حبُّها له مبلغًا عظيمًا، إنَّا لَنَراها في هذا الفِعلِ في ضلالٍ واضِحٍ، فلمَّا سَمِعَت امرأةُ العزيزِ بغِيبتِهنَّ إيَّاها، واحتيالِهنَّ في ذمِّها، أرسَلَت إليهنَّ تَدعوهنَّ لزيارتِها، وهيَّأَت لهنَّ ما يتَّكِئنَ عليه مِن الوسائِدِ، وما يأكُلنَه مِن الطَّعامِ، وأعطَتْ

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٠٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٤)، ((مختار الصحاح)) للفيومي (ص: ٧٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٦/ ٢٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٣).

قال الواحدي: (حاش وحاشا يُستعملان في الاستثناءِ والتبرئةِ، والأصلُ حاشا؛ لأنَّه مِن فاعلِ المحاشاةِ، يُقال: حاشَى يحاشي. والحشاءُ: الناحيةُ). ((الوسيط)) (٢/ ٦١٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٤).

كلَّ واحدةٍ منهنَّ سِكِّينًا؛ ليُقَطِّعنَ الطَّعامَ، ثمَّ قالت ليوسُفَ: اخرُجْ عليهنَّ، فلمَّا رأينَه أعظَمْنَه وأجلَلْنَه، وأخَذَهنَّ حُسنُه وجَمالُه، فجَرَحنَ أيديَهنَّ وهُنَّ يُقَطِّعنَ الطَّعامَ؛ مِن فَرطِ الدَّهشةِ والذُّهولِ، وقُلنَ مُتعَجِّباتٍ: مَعاذَ اللهِ، ما هذا مِن جِنسِ البشَرِ؛ لأنَّ جمالَه غيرُ مَعهودٍ في البشَرِ، ما هو إلَّا مَلَكٌ كريمٌ مِن الملائكة.

قالت امرأةُ العزيزِ للنِّسوةِ اللَّاتي قطَّعْنَ أيديَهنَّ: فهذا -الذي أصابَكنَّ في رؤيَتِكنَّ إيَّاه ما أصابَكنَّ- هو الفتى الذي لُمتُنَّني في الافتتانِ به، ولقد راودتُه عن نفسِه، فامتنَعَ وأبى، ولئنْ لم يفعَلْ ما آمُرُه به لَيُعاقَبَنَّ بدخولِ السِّجنِ، ولَيكونَنَّ مِن الأذلَّاءِ.

قال يوسُفُ مُستعيذًا مِن شَرِّهنَّ ومَكرِهنَّ: يا ربِّ، السِّجنُ أحَبُّ إليَّ ممَّا يدعونَني إليه مِن عمَلِ الفاحِشةِ، وإنْ لم تدفَعْ عنِّي مَكرَهنَّ أَمِلْ إليهنَّ، وأكُنْ مِن الجاهلينَ، فاستجاب اللهُ ليوسُفَ دعاءَه، فصرف عنه ما أرادت منه امرأةُ العزيزِ وصَواحِباتُها مِن معصيةِ الله، إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لدُعاءِ يوسُفَ، ودُعاءِ كُلِّ داعٍ مِن خَلقِه، العليمُ بمَطلبِه وحاجتِه وما يُصلِحُه، وبحاجةِ جميعِ خَلقِه وما يُصلِحُهم، ثمَّ ظهر للعزيزِ وأصحابِه -من بعدِ ما رأَوا الأدلَّةَ على براءةِ يوسُفَ وعِفَّتِه- أن يسجُنوه إلى مُدَّةٍ مِن الزَّمَن؛ لينقطِعَ بذلك الخبرُ، ويتناساه النَّاسُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾.

﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾.

أي: وقال نساءٌ في مدينة مصرَ: امرأةُ العزيزِ ذاتُ القَدرِ الكبيرِ تُراوِدُ غُلامَها

عن نَفسِه، وتدعوه إلى مواقَعتِها[١]!

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾.

أي: قد وصل حُبُّ فتاها إلى شَغافِ قَلبِها، وبلغ حبُّها له مبلغًا عظيمًا[٢]!

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: إنَّا لنرى امرأةَ العزيزِ في خطأٍ واضحٍ في مُراودتِها فتاها، وحُبِّها له[٣].

﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٤، ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٥)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).
قال ابنُ القَيِّم: (يُقال: شُغِفَ بكذا. فهو مَشْغوفٌ به. وقد شَغَفه المحبوبُ. أي وصَل حُبُّه إلى شَغافِ قلبِه. كما قال النِّسوةُ عن امرأةِ العزيز: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] وفيه ثلاثةُ أقوالٍ:
أَحدُها: أنَّه الحُبُّ المستولي على القلبِ، بحيثُ يَحْجُبُه عن غيرِه. قال الكلبيُّ: حَجَب حُبُّه قلبَها حتَّى لا تعقلُ سِواه.
الثَّاني: الحُبُّ الواصِلُ إلى داخِلِ القلبِ. قال صاحِبُ هذا القَول: المعنى أَحَبَّتْه حَتَّى دَخَل حُبُّه شَغافَ قلبِها، أي داخِلَه.
الثَّالِث: أنَّه الحُبُّ الواصِل إلى غِشاءِ القلبِ. والشَّغافُ غِشاءُ القلبِ إذا وَصَل الحُبُّ إليه باشَر القلبَ. قال السُّدِّيُّ: الشَّغافُ جلدَة رقيقةٌ على القلبِ. يقولُ: دَخَله الحُبُّ حتَّى أصابَ القلبَ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦١).

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾.

أي: فلمَّا سَمِعَت امرأةُ العزيزِ مقالةَ[١] النِّساءِ اللاتي تكلَّمْنَ عن مراوَدتِها يوسُفَ، وشِدَّةِ حُبِّها له، أرسلَتْ إليهنَّ تدعوهنَّ إلى بَيتِها؛ لتُضيفَهُنَّ[٢].

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله: ﴿مُتَّكَأً﴾ قراءتان:

١- ﴿مُتَّكًا﴾: مشددُ التاءِ دونَ همزٍ، وفيها وجهان: أحدهما: أن يكونَ أصلُه ﴿مُتَّكَأً﴾ كالقراءةِ الأُخرَى، وإنما خُفِّفَ همزُه. والثاني: أن يكونَ مُفْتَعَلًا، مِن: أوكَيْتُ القِرْبةَ إذا شَدَدْتَ فاها بالوِكاءِ، فالمعنى: أَعْتَدَتْ شيئًا يَشْتَدِدْنَ عليه: إمَّا بالاتِّكاءِ، وإمَّا بالقطعِ بالسِّكِّينِ[٣].

٢- ﴿مُتَّكَأً﴾: والمتَّكأُ الشيءُ الذي يُتَّكَأُ عليه من وسادةٍ ونحوها. وقيل:

---

(١) إنَّما سُمِّي قولُهنَّ مَكرًا؛ لأنَّ قولَهنَّ لم يكُنْ على وجه النَّصيحةِ، والنَّهي عن المُنكَر، ولكن كان على وجهِ الشَّماتةِ والتَّعيير، وسيأتي في الفوائدِ العلميةِ بيانُ ما اشتَمل عليه كلامُهنَّ مِن وجوهِ المكرِ، أو لأنَّ النِّسوةَ قُلنَ ما قُلنَه استدعاءً لرؤيةِ يوسُفَ، والنَّظَرِ إلى وجهِه، فعِبْنَها بحُبِّها يوسُفَ؛ لتُريَهنَّ يوسُفَ -وكان يوصَفُ لهنَّ حُسنُه وجمالُه- فلمَّا كان هذا القولُ منهنَّ طمعًا في أن يكونَ سببًا لمشاهدةِ يوسُفَ، سُمِّيَ مكرًا، لَمَّا خالفَ ظاهرُه باطِنَه؛ وذلك أنهنَّ قَدَّرنَ أنَّ هذا القولَ إذا اتَّصلَ بها، أبرَزَت لهنَّ يوسُفَ ليَعذُرنَها، ويُزِلنَ العيبَ عنها. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٢).

(٣) قرأ بها أبو جعفر. يُنظر: ((المبسوط في القراءات العشر)) للنيسابوري (ص: ٢٤٦)، ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٧٧).

المتكأ: مكان الاتِّكاء. وقيل غيرُ ذلك[١].

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾.

أي: وهيَّأت لهنَّ مجلِسًا يتَّكِئنَ عليه، مِن الوسائدِ والفُرُشِ[٢].

﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾.

أي: وأعطَتْ كلَّ واحدةٍ مِن النِّساءِ اللَّاتي حَضَرنَ مَجلِسَها سِكِّينًا؛ لتُقَطِّعَ به ما يحتاجُ إلى تقطيعٍ مِن الطَّعامِ[٣].

﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾.

أي: وقالت ليوسُفَ: اخرُجْ على هؤلاءِ النِّسوةِ[٤].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((المبسوط في القراءات العشر)) للنيسابوري (ص: ٢٤٦)، ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٢).
قال الرسعني: (أعَدَّتْ وهَيَّأتْ لهنَّ مجلسًا يتكِئْنَ عليه من النَّمَارق والفُرشِ، كعادةِ المترفين. هذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ والأكثرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣٢٤).
وقال ابنُ كثيرٍ: (قال ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ، والسُّدِّيُّ، وغيرُهم: هو المجلسُ المعدُّ، فيه مفارشُ ومخادُّ وطعامٌ، فيه ما يُقْطَعُ بالسَّكاكِينِ من أُتْرُجٍّ ونحوِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥).
وقال ابنُ عاشورٍ: (المتَّكأُ: محَلُّ الاتِّكاءِ. والاتِّكاءُ: جِلسةٌ قريبةٌ من الاضطجاعِ على الجَنبِ مع انتصابٍ قليلٍ في النِّصف الأعلى، وإنَّما يكونُ الاتِّكاءُ إذا أُريدَ إطالةُ المكثِ والاستراحة). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور))

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾.

أي: فخرج يوسفُ عليهنَّ، فلمَّا رأى النِّسوةُ يوسُفَ أعظَمْنَ جمالَه، وأجلَلْنَ قَدْرَه[١].

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

أي: وجَرَحنَ أيديَهنَّ بالسَّكاكينِ، وهُنَّ يَحسَبنَ أنَّهنَّ يُقَطِّعنَ الطَّعامَ؛ لدَهشتِهنَّ بما رأينَ مِن جمالِ يوسُفَ[٢].

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾.

أي: وقالت النِّسوةُ: مَعاذَ اللهِ، وتنزيهًا له[٣].

(١٢/ ٢٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٣).

وممن قال بنحوِ المعنَى المذكورِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، وقَتادَةُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٣٦).

قال السمعاني: (الأكثرونَ على أنَّ هذا خدشٌ وجرحٌ بِلَا إبانةٍ، وقال بعضُهم: إنَّهنَّ قطَّعْنَ أيديَهنَّ على تحقيقِ قطعِ اليدِ جملَةً، والأوَّلُ أصحُّ. يُقَال: قطَع فلانٌ يدَه إذا خدَشها وجرَحها). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

قال الواحدي: (ومعنى ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ صار يوسفُ في حشا أي: في ناحيةٍ مما قُذف به أي: لم يلابسْه، كأنَّ المعنى: بعُد يوسفُ عن هذا الذي رُمِي به، أي: لخوفِه ومراقبتِه أمرَه، وهذا قولُ أكثرِ المفسِّرين، قالوا: هذا تنزيهٌ ليوسفَ عما رَمَتْه به امرأةُ العزيزِ، وقال آخرونَ: هذا تنزيهٌ له مِن تهمةِ البشرِ؛ لفرطِ جمالِه، يدلُّ على هذا سياقُ الآيةِ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٦١٠).

وممن قال بالمعنى الثاني: الواحديُّ، وابنُ الجوزيِّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٤٤)،

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾.

أي: ما هذا مِن البشَرِ، ما هو إلَّا ملَكٌ مِن الملائكةِ، كريمٌ على اللهِ[١].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، في حديثِ الإسراءِ والمِعراجِ الطَّويلِ: قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((ثمَّ عُرِجَ بي إلى السَّماءِ الثَّالثة، فاستفتَحَ جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِح لنا، فإذا أنا بيوسُفَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إذا هو قد أُعطِيَ شَطرَ الحُسنِ، فرَحَّبَ ودعا لي بخيرٍ))[٢].

﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾.

﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِ﴾.

أي: قالت امرأةُ العزيزِ للنِّسوةِ لَمَّا رأت افتِتانَهنَّ بيوسُفَ: فهذا الذي أصابَكنَّ حين نظرتنَّ إليه ما أصابكُنَّ؛ مِن الذهولِ وغيابِ العقل، حتَّى قطَّعتنَّ أيديَكنَّ- هو الفتَى الذي لُمتُنَّني في الافتتانِ به، وعيَّرتُموني في مُراودتي له، وحُبِّي إيَّاه[٣]!

﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٣٦).

وقال القاسمي: (أي تنزيهًا له سبحانَه عن صفاتِ النقصِ والعجزِ، وتعجبًا مِن قدرتِه على مثلِ ذلك الصنعِ البديعِ). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٤٠، ١٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٢) رواه مسلم (١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٤٢، ٢٤٣).

لمَّا تَقَرَّرَ عِندهُنَّ جَمالُ يُوسُف الظَّاهِر، وأَعْجَبَهُنَّ غايَة، وظَهَرَ مِنهُنَّ مِن العُذْرِ لِامْرَأَةِ العزيز شَيْءٌ كَثيرٌ -أَرادَت أن تُرِيهنَّ جَمالَه الباطِنَ بالعِفَّةِ التَّامَّة، فقالت[١]:

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

أي: ولقد راوَدْتُ يوسُفَ عن نَفسِه فدَعوتُه إلى الفاحشةِ، فامتنَعَ[٢].

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

أي: وَلَئِن لم يفعَلْ يوسُفُ ما آمُرُه به ليُلقَيَنَّ في السِّجنِ، ولَيكونَنْ من الأذلَّاءِ المُهانِينَ[٣].

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عَلِمَ يوسُفُ أنَّ القُوَّةَ البشَريَّةَ والطَّاقةَ الإنسانيَّةَ لا تفي بحُصولِ هذه العِصمةِ القَويَّة، فعند هذا التجأ يوسُفُ عليه السَّلامُ إلى الله تعالى[٤].

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾.

أي: قال يوسُفُ مُتضَرِّعًا إلى الله: يا ربِّ، دخُولي السِّجنَ، وتحمُّلُ مَشاقِّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٥١).

أفضَلُ لديَّ وأهوَنُ ممَّا يَدعونَني إليه مِن مَعصيتِك، ويُراوِدنَني عليه مِن الفاحِشةِ[١].

﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

أي: وإنْ لم تدفَعْ عنِّي كيدَ أولئك النِّسوةِ أمِلْ إليهنَّ لضَعفي، وأُتابِعْهنَّ على ما يُرِدْنَ منِّي، وأكُنْ من الجاهلينَ بحقِّك، المُخالفينَ لأمرِك ونَهيِك، فاعصِمْني، ولا تَكِلْني إلى نَفسي[٢].

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّ﴾.

أي: فاستجاب اللهُ ليوسُفَ دُعاءَه، فدفع عنه ما أرادَت منه امرأةُ العزيزِ وصواحِباتُها مِن معصيةِ الله[٣].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لدُعاءِ يوسُفَ حين دعاه، ويسمَعُ كُلَّ داعٍ مِن خَلقِه، العليمُ بمَكرِ النِّسوةِ، وبنِيَّةِ يوسُفَ وحاجتِه وبما يُصلِحُه، ويعلمُ جميعَ أحوالِ عبادِه[٤].

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٤٣، ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

أي: ثمَّ ظهَر للعزيزِ وأصحابِه من بعدِ ما رأَوُا الأدلَّةَ المُبَرِّئةَ ليوسُفَ أنَّ المصلَحةَ في إيداعِه السِّجنَ مدَّةً مِن الزَّمَن(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ فيه الحذَرُ مِن المحبَّةِ التي يُخشى ضَررُها؛ فإنَّ امرأةَ العزيزِ جرى منها ما جرى، بسبَبِ توحُّدِها بيوسُفَ، وحُبِّها الشَّديدِ له، الذي ما ترَكَها حتى راودَتْه تلك المُراوَدةَ، ثمَّ كذَبَت عليه، فسُجِنَ بسَبَبِها مدَّةً طويلةً(٢).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ هكذا ينبغي للعبدِ إذا ابتُلِيَ بين أمرينِ: إمَّا فِعلِ مَعصيةٍ، وإمَّا عُقوبةٍ دُنيويَّةٍ، أن يختارَ العُقوبةَ الدُّنيويَّةَ على مواقَعةِ الذَّنبِ المُوجِبِ للعُقوبةِ الشَّديدةِ في الدُّنيا والآخرةِ؛ ولهذا مِن علاماتِ الإيمانِ: أن يكرهَ العبدُ أن يعودَ في الكُفرِ بعد أن أنقَذَه اللهُ منه، كما يكرَهُ أن يُلقى في النَّارِ(٣).

٣- قال اللَّهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾، مَن احْتَمَل الهَوانَ والأذَى في طاعَةِ اللَّهِ على الكَرامَةِ والعِزِّ في مَعْصيةِ اللَّهِ-كما فَعَل يُوسفُ عليه السَّلامُ وغيرُه مِنَ الأنبياءِ والصَّالحينَ- كانتِ العاقِبةُ له في الدُّنيا والآخرةِ،

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

قال ابن كثير: (فكأنَّهم -والله أعلم- إنَّما سجنوه لَمَّا شاع الحديثُ؛ إيهامًا أنَّ هذا راودَها عن نفسِها، وأنَّهم سَجَنوه على ذلك؛ ولهذا لَمَّا طلبه الملِكُ الكبيرُ في آخر المدَّة، امتنع من الخروجِ حتى تتبيَّنَ براءتُه ممَّا نسب إليه من الخيانة، فلمَّا تقرَّرَ ذلك خرج وهو نقيُّ العِرضِ- صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وكان ما حَصَل له مِنَ الأذَى قد انقَلَب نَعيمًا وسُرورًا، كما أنَّ ما يحصُلُ لأربابِ الذُّنوبِ مِنَ التَّنعُّمِ بالذُّنوبِ ينقَلِبُ حُزْنًا وثُبورًا[١].

٤- ينبغي للعبدِ أن يلتجئَ إلى اللهِ، ويحتميَ بحِماه عند وجودِ أسبابِ المَعصيةِ، ويتبَرَّأَ مِن حولِه وقُوَّتِه؛ لقولِ يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[٢].

٥- قال الله تعالى عن يوسُفَ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ فاختار السِّجنَ على الفاحِشةِ، ثمَّ تبرَّأ إلى اللهِ مِن حَولِه وقُوَّتِه، وأخبَرَ أنَّ ذلك ليس إلَّا بمعونةِ اللهِ له وتوفيقِه وتأييدِه لا مِن نَفسِه، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ فلا يركَن العبدُ إلى نفسِه وصَبرِه وحالِه وعِفَّتِه، ومتى ركنَ إلى ذلك تخلَّت عنه عِصمةُ اللهِ، وأحاط به الخِذلانُ؛ وقد قال اللهُ تعالى لأكرمِ الخَلقِ عليه وأحبِّهم إليه، صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـًٔا قَلِيلًا﴾[٣] [الإسراء: ٧٤]، فكيف بمن يُعرِّضُ نفسَه للفتنةِ بالخلوةِ أو المخالطةِ للأجنبياتِ أو بالسفرِ إلى بلادٍ تكثرُ فيها الفتنُ، ويزعمُ أنَّه واثقٌ مِن نفسِه.

٦- الجَهلُ- كما يُطلَقُ على عدمِ العِلمِ- يُطلَقُ على عدَمِ الحِلمِ، وعلى ارتكابِ الذَّنبِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، وقوله: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩] ليس المعنى في ذلك عدَمَ العِلمِ، وإنَّما هو عدمُ العمَلِ به، واقتحامُ الذُّنوبِ، ومنه قولُ موسى صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).
(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٥٩).

[البقرة: ٦٧]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء: ١٧]، وكلُّ من عصى الله فهو جاهِلٌ باعتبارِ عدمِ العمَلِ بالعِلمِ؛ لأنَّ العِلمَ الحقيقيَّ ما زال الجهلُ به، وأوجَبَ العملَ[١].

٧- ابْتُلِي يُوسُف عليه السَّلامُ بِأَمْرٍ لا يَصبِر عليه إلَّا مَن صَبَّرَهُ الله، فإنَّ مُواقَعَة الفِعْل بِحَسْبِ قُوَّةِ الدَّاعِي وزَوالِ المانِع، وكان الدَّاعي هاهنا في غايَةِ القُوَّة، وذلك مِن وُجوهٍ:

أَحَدُها: ما رَكَّبَهُ الله سُبحانه في طبعِ الرَّجُلِ مِن ميلِه إلى المرأَةِ.

الثَّاني: أنَّ يُوسُفَ عليه السَّلامُ كان شَابًّا، وشهوةُ الشَّبابِ وَحِدَّتُه أقوَى.

الثَّالِث: أنَّه كان عَزَبًا، ليس له زَوجَة ولا سُرِّيَّة تَكْسرُ شِدَّةَ الشَّهوةِ.

الرَّابِع: أنَّه كان في بِلادِ غُرْبَةٍ، يَتَأَتَّى للغَريبِ فيها مِن قَضاءِ الوَطَرِ ما لا يَتَأَتَّى له في وطنِه وبينَ أهلِه ومَعارِفِه.

الخامِس: أنَّ المَرأَةَ كانت ذاتَ مَنْصِبٍ وجَمالٍ، بحيث إنَّ كُلَّ واحِدٍ مِن هَذينِ الأَمرَينِ يَدعو إلى مُواقعتِها.

السَّادِس: أنَّها طَلَبَت وأَرادَت وبَذَلت الجهدَ، فكَفَتْه مُؤْنَةَ الطَّلَبِ وذُلَّ الرَّغبةِ إليها؛ بل كانت هي الرَّاغبةَ الذَّليلةَ، وهو العَزيزُ المَرغوبُ إليه.

السَّابِع: أنَّه في دارِها، وتحت سُلطانِها وقَهْرِها، بحيثُ يخشَى إن لم يُطاوِعْها مِن أذاها له، فاجْتَمَع داعي الرَّغبةِ والرَّهبةِ.

الثَّامِن: أنَّه لا يخشَى أن تَنُمَّ عليه هي، ولا أحدٌ مِن جِهَتِها، فإنَّها هي الطَّالِبَةُ الرَّاغبةُ، وقد غَلَّقَت الأَبوابَ، وغَيَّبَت الرُّقَباء.

---

(١) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٤٦).

التَّاسع: أنَّه كان في الظَّاهِر مَمْلوكًا لها في الدَّار، بحيث يَدخُل ويَخرُج ويَحْضُر معها ولا يُنْكَر عليه، وكان الأُنْسُ سابِقًا على الطَّلَب وهو مِن أَقوَى الدَّواعِي.

العاشِر: أنَّها اسْتَعانَت عليه بأئمَّةِ المكرِ والاحتيالِ، فأَرَتْه إيَّاهنَّ، وشَكَتْ حالَها إليهنَّ؛ لتستعينَ بهنَّ عليه.

الحادي عَشَر: أنَّها تَوعَّدَتْه بالسَّجنِ والصَّغارِ، وهذا نَوعُ إكراهٍ، إذ هو تهديدُ مَن يَغْلِبُ على الظَّنِّ وُقوعُ ما هَدَّدَ به.

الثَّاني عَشَر: أنَّ الزَّوجَ لم يُظهِرْ مِن الغَيرةِ والنَّخْوةِ ما يُفَرِّقُ به بينَهما، ويُبْعِدُ كُلًّا منهما عن صاحبِه؛ بل كان غايةُ ما قابَلَها به أن قال لِيُوسُف: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ وللمرأةِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَٰطِـِٔينَ﴾، وشِدَّةُ الغَيْرَةِ للرَّجُل مِن أَقوَى المَوانِع، وهنا لم تَظْهَرْ منه غَيرةٌ.

ومع هذه الدَّواعِي كُلِّها فآثَر مَرضاةَ الله وخَوفَه، وحَمَله حُبُّه لله على أن اخْتار السِّجنَ على الزِّنا: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾، وعَلِمَ أنَّه لا يَطيقُ صَرْفَ ذلك عن نَفسِه، وأنَّ رَبَّه تعالى إن لم يعصِمْه، ويصرِفْ عنه كيدَهنَّ؛ صَبَا إليهنَّ بطبعِه، وكان مِن الجاهِلينَ، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وهذا مِن كمالِ معرفتِه برَبِّه وبنفسِه[(١)].

٨- قَولُه تعالى على لسانِ يوسُفَ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ ﴿أَحَبُّ﴾ هنا ليسَتْ على بابها من التفضيلِ؛ لأنَّه لم يحِبَّ ما يدعونَه إليه قطُّ، وإنَّما هذان شَرَّان، فآثرَ أحدَ الشَّرَّينِ على الآخرِ، وإن كان في أحدِهما مَشقَّةٌ وفي الآخر لذَّةٌ، لكنْ لِمَا يترتَّبُ على تلك اللذَّةِ مِن معصيةِ اللهِ وسُوءِ العاقبة،

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠)، وينظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٣٨، ١٣٩).

لم يخطُرْ له ببالٍ، ولِمَا في الآخَرِ مِن احتمالِ المشقَّةِ في ذاتِ الله، والصَّبرِ على النَّوائب، وانتظارِ الفرَجِ، والحضورِ مع الله تعالى في كلِّ وقتٍ داعيًا له في تخليصِه- آثَرَه، ثمَّ ناط العِصمةَ بالله، واستسلمَ لله كعادةِ الأنبياءِ والصَّالحينَ، وأنَّه تعالى لا يَصرِفُ السُّوءَ إلَّا هو[١].

٩- في قولِه تعالى عن يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ طَلَبُ سؤالِ اللهِ ودُعائِه أنْ يُثَبِّتَ القلبَ على دينِه، ويصرِفَه إلى طاعتِه، وإلَّا فإذا لم يُثَبِّتِ القلبَ صَبَا إلى الآمِرينَ بالذُّنوبِ، وصارَ مِن الجاهلين[٢].

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ فيه أنَّ العِلمَ والعَقلَ يدعُوانِ صاحِبَهما إلى الخيرِ، ويَنهَيانِه عن الشَّرِّ، وأنَّ الجَهلَ يدعو صاحِبَه إلى مُوافَقةِ هوى النَّفسِ، وإن كان معصيةً ضارًّا لصاحِبِه[٣].

١١- قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ فإنَّ هذا جَهْلٌ؛ لأنَّه آثَرَ لذَّةً قَليلَةً مُنَغَّصَةً على لذَّاتٍ مُتَتابِعاتٍ، وشَهَواتٍ مُتَنَوِّعاتٍ في جنَّاتِ النَّعيمِ، ومَن آثَرَ هذا على هذا فمَنْ أجْهَلُ منه؟! فإنَّ العلمَ والعقلَ يدعو إلى تقديمِ أعظمِ المصلحتينِ وأعظمِ اللَّذَّتينِ، ويُؤثِرُ ما كان محمودَ العاقبةِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾، قوله: ﴿فَتَىٰهَا﴾ إضافتُه إلى ضميرِ امرأةِ العزيزِ؛ لأنَّه غلامُ زوجِها، فهو غلامٌ لها

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٣).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٧).

بالتبعِ، ما دامتْ زوجةً لمالكِه[١].

٢- في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ إنْ قيل: فما كان مَكرُ النِّسوةِ اللَّاتي مكَرْنَ به، وسمِعَت به امرأةُ العزيزِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانه لم يقُصَّه في كتابِه؟

قيل: بلى، قد أشارَ إليه بقَولِه: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

وهذا الكلامُ متضَمِّنٌ لوجوهٍ مِن المَكرِ:

أحدها: قولُهنَّ: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ ولم يُسَمُّوها باسمِها، بل ذكَرُوها بالوَصفِ الذي يُنادي عليها بقبيحِ فِعلِها؛ بكَونِها ذاتَ بَعْلٍ، فصُدورُ الفاحشةِ منها أقبَحُ مِن صُدورِها ممَّن لا زوجَ لها.

الثاني: أنَّ زَوجَها عزيزُ مِصرَ ورئيسُها وكبيرُها، وذلك أقبحُ لوقوعِ الفاحشةِ منها.

الثالث: أنَّ الذي تُراوِدُه مملوكٌ لا حُرٌّ، وذلك أبلغُ في القبح.

الرابع: أنَّه فتاها الذي هو في بيتِها وتحت كَنَفِها، فحُكمُه حُكمُ أهلِ البيتِ، بخلافِ مَن طلب ذلك مِن الأجنبيِّ البعيدِ.

الخامس: أنَّها هي المُراوِدةُ الطَّالبةُ.

السادس: أنَّها قد بلغ بها عِشقُها له كلَّ مَبلغٍ، حتى وصل حُبُّها له إلى شَغافِ قَلبِها.

السابع: أنَّ في ضِمنِ هذا أنَّه أعَفُّ منها وأبَرُّ وأوفى؛ حيث كانت هي المُراوِدةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٠).

الطَّالبةَ، وهو المُمتنِعَ؛ عَفافًا وكَرَمًا وحَياءً، وهذا غايةُ الذَّمِّ لها.

الثامن: أنهنَّ أتينَ بفِعلِ المُراوَدةِ بصيغةِ المُستقبَلِ الدَّالَّةِ على الاستمرارِ والوُقوعِ حالًا واستقبالًا، وأنَّ هذا شأنُها، ولم يقُلْنَ: راودَت فتاها. وفَرقٌ بين قولك: فلانٌ أضاف ضيفًا، وفلانٌ يَقري الضَّيفَ، ويُطعِمُ الطَّعامَ، ويَحمِلُ الكَلَّ؛ فإنَّ هذا يدُلُّ على أنَّ هذا شأنُه وعادتُه.

التاسع: قولُهنَّ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، أي: إنَّا لَنستقبِحُ منها ذلك غايةَ الاستقباحِ، فنَسَبنَ الاستقباحَ إليها، ومِن شأنهنَّ مُساعدةُ بعضِهنَّ بعضًا على الهوى، ولا يَكَدْنَ يرَينَ ذلك قبيحًا، كما يساعِدُ الرِّجالُ بعضُهم بعضًا على ذلك؛ فحيث استقبحْنَ منها ذلك كان هذا دليلًا على أنَّه من أقبحِ الأمورِ، وأنَّه ممَّا لا ينبغي أن تُساعَدَ عليه، ولا يَحسُنُ مُعاونتُها عليه.

العاشر: أنهنَّ جَمَعْن لها في هذا الكلامِ واللَّومِ بين العِشقِ المُفرِط، والطَّلبِ المُفرِط، فلم تقتَصِدْ في حُبِّها، ولا في طَلَبِها؛ أمَّا العِشقُ فقولُهنَّ: ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبّٗا﴾، أي: وصل حُبُّه إلى شَغافِ قَلبِها، وأمَّا الطَّلَبُ المُفرِطُ فقَولُهنَّ: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾، والمُراودةُ: الطَّلَبُ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ، فنَسَبوها إلى شِدَّةِ العِشقِ، وشِدَّةِ الحِرصِ على الفاحِشةِ، فلمَّا سَمِعَت بهذا المكرِ منهنَّ هيَّأتْ لهنَّ مكرًا أبلَغَ منه[1].

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ لَمَّا كان عَزمُها على السَّجنِ أقوى مِن العَزمِ على إيقاعِ الصَّغارِ به، أكَّدَتْه بالنُّونِ الثَّقيلةِ، فقالت: ﴿لَيُسۡجَنَنَّ﴾، وقالت: ﴿وَلَيَكُونٗا﴾ بالنُّونِ الخفيفة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: الأذلَّاء. وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّ الزِّيادةَ في تأكيدِ السَّجنِ؛ لأنَّه يلزَمُ منه إبعادُه، وإبعادُ الحبيبِ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١١٥).

أولى بالإنكارِ مِن إهانتِه[١].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ المؤمِنَ إذا ارتكبَ ذَنبًا، يرتكِبُه عن جَهالةٍ[٢].

٣- في قولِه تعالى عن يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۞ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّ﴾ رَدٌّ على المعتزلة والجَهميَّة فيما يزعمونَ أنَّ الإنسانَ مالِكُ نفسِه؛ لا يحتاجُ إلى عصمة ربِّه عن المعاصي؛ فهذا نبيُّ اللهِ يوسفُ صلَّى الله عليه وسلَّم يدعو بصرفِ كيدِهِنَّ عنه؛ عِلمًا منه أنَّ العِصمةَ هي التي تُنجيه، وتُحولُ بينه وبينَ المعصيةِ، فأخبر اللهُ عن إجابةِ دعوتِه؛ وصَرَفَ عنه كيدَهنَّ[٣].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ عطْفُ استجابةِ رَبِّه له، وصَرْفِ كيدِهنَّ عنه بالفاء الدالَّةِ على التَّعقيبِ، وتَعليلُها بأنَّها مقتضى كمالِ صِفتَي السَّمعِ والعِلم- دليلٌ على أنَّ رَبَّه تعالى لم يتخَلَّ عن عنايتِه بتربيتِه أقصَرَ زمَنٍ يهتَمُّ فيه بأمرِ نَفسِه ومُجاهدتِه[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾

- قولُه: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ صرَّحَ النِّسوةُ بإضافتِها إلى العزيزِ؛ مُبالَغةً في التَّشنيعِ؛

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٧٤-٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٩٧).
(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٤٧).

لأنَّ النُّفوسَ أقبَلُ لِسَماعِ ذَوي الأخطارِ وما يَجْري لهم[١].

- قولُه: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ فيه التَّعبيرُ بصِيغةِ المضارعِ ﴿تُرَٰوِدُ﴾ مع كَوْنِ المراوَدةِ مضَتْ؛ لِقَصْدِ استِحْضارِ الحالةِ العَجيبةِ؛ لِقَصدِ الإنكارِ عليها في أنفُسِهنَّ ولَوْمِها على صَنيعِها؛ وللدَّلالةِ على أنَّ ذلك صارَ سجيَّةً لها؛ تُخادِعُه دائمًا عن نفسِه[٢].

- قولُه: ﴿فَتَىٰهَا﴾ في التَّعبيرِ عن يوسُفَ عليه السَّلامُ بذلك مُضافًا إليها لا إلى العزيزِ- الَّذي لا تَستلزِمُ الإضافةُ إليه الهوانَ، بل ربَّما يُشعِرُ بنوعِ عزَّةٍ-؛ لإبانةِ ما بينَهما مِن التَّبايُنِ البيِّنِ النَّاشئِ عن المالكيَّةِ والمملوكيَّةِ، وذلك للمُبالَغةِ والإشباعِ في اللَّومِ؛ فإنَّ مَن لا زوجَ لها مِن النِّساءِ، أو لها زوجٌ دَنيءٌ قد تُعذَرُ في مُراوَدةِ الأخدانِ لا سيَّما إذا كان فيهم عُلوُّ الجَنابِ، وأمَّا الَّتي لها زوجٌ وأيُّ زوجٍ! عزيزُ مِصرَ؛ فمُراوَدتُها لغَيرِه- لا سيَّما لِمَن لا كَفاءةَ بينَها وبينَه أصلًا، وتَماديها في ذلك- غايةُ الغيِّ، ونهايةُ الضَّلالِ[٣].

- قولُه: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ تكريرٌ للَّومِ، وتأكيدٌ للعَذْلِ ببَيانِ اختلالِ أحوالِها القَلبيَّةِ كأحوالِها القالَبيَّةِ[٤].

- ولِمَا في ﴿قَدْ شَغَفَهَا﴾ مِن الإجمالِ جِيءَ بالتمييزِ للنِّسبةِ بقولِه: ﴿حُبًّا﴾، وأصله: شغَفَها حبُّه، أي: أصاب حبُّه شغافَها، أي: اخترَقَ الشَّغافَ فبلَغَ القلبَ؛ كنايةً عن التمكُّنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٠).

- قولُه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ جملةٌ مُقرِّرةٌ لِمَضمونِ الجُملتَين السَّابِقَتين المسوقَتَين لِلَّومِ والتَّشنيعِ، وتَسجيلٌ عليها بأنَّها في أمرِها على خطَأٍ عظيمٍ، وهي استئنافٌ ابتدائيٌّ لإظهارِ اللومِ والإنكارِ عليها. والتأكيدُ بـ (إنَّ) واللامِ؛ لتحقيقِ اعتقادهنَّ ذلك، وإبعادًا لتُهمتِهنَّ بأنهنَّ يَحسِدْنَها على ذلِك الفتى، وإنَّما لم يَقُلْن: (إنَّها لَفي ضَلالٍ مبينٍ)؛ إشعارًا بأنَّ ذلك الحُكْمَ غيرُ صادرٍ عنهنَّ مُجازَفةً، بل عن عِلمٍ ورأيٍ، مع التَّلويحِ بأنَّهنَّ مُتنزِّهاتٌ عن أمثالِ ما هي عليه[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾

- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ﴾: حَقُّ (سَمِع) أن يُعَدَّى إلى المسموعِ بنَفسِه، فتَعديَتُه بالباءِ هنا إمَّا لأنَّه ضُمِّن معنى أُخبِرَتْ، كقولِ المثَلِ: «تَسْمَعُ بالمعيديِّ خيرٌ مِن أن تَراه» أي تُخبَرُ عنه. وإمَّا أن تكونَ الباءُ مَزيدةً للتَّوكيدِ، مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾[2] [المائدة: ٦].

- قولُه: ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ﴾ عَطفٌ على مُقدَّرٍ يَستَدْعيه الأمرُ بالخروجِ، ويَنسحِبُ عليه الكلامُ، والتَّقديرُ: فخرَج عليهِنَّ فرأَينَه، وإنَّما حُذِف تَحقيقًا لِمُفاجَأةِ رُؤيتِهنَّ، كأنَّها تَفوتُ عند ذِكرِ خُروجِه عليهِنَّ، وفيه إيذانٌ بسُرعةِ امتِثالِه عليه السَّلامُ بأمرِها فيما لا يُشاهِدُ مَضرَّتَه مِن الأفاعيلِ[3].

- قولُه: ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ في التَّعبيرِ عن الجَرْحِ بالقَطعِ دَلالةٌ على كَثرةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٠).

جَرحِهنَّ، ومع ذلك لم يُبالينَ بذلك، ولم يَشعُرْنَ به[١]؛ فأطلق عليه القطعَ؛ للمبالغةِ في شِدَّتِه حتَّى كأنَّه قَطَع قطعةً مِن لحمِ اليدِ[٢].

- قولُه: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ اللَّامُ في ﴿لِلَّهِ﴾ للتَّعليلِ، أي: جانَبَ يوسُفُ المعصيَةَ لأجْلِ طاعةِ اللهِ[٣]، و﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تركيبٌ عربيٌّ جرَى مجرَى المَثَل؛ يُرادُ منه إبطالُ شيءٍ عن شيءٍ وبراءتُه منه[٤].

- وقولُهنَّ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ مُبالَغةٌ في فَوْتِه مَحاسِنَ البشَرِ، فمَعناه التَّفضيلُ في مَحاسِنِ البَشَرِ، وهو ضِدُّ معنى التَّشابُهِ في بابِ التَّشبيهِ، ثمَّ شبَّهنَه بواحِدٍ مِن الملائكةِ بطَريقةِ حَصْرِه في جِنْسِ الملائكةِ تَشْبيهًا بَليغًا مؤكَّدًا، وأُطلِقَ في الآيةِ اسْمُ الملَكِ على ما كانتْ حَقيقتُه مُماثِلةً لحقيقةِ مُسمَّى الملَكِ في اللُّغةِ العَرَبيَّةِ؛ تَقريبًا لأَفْهامِ السَّامِعين؛ فهذا التَّشْبيهُ مِن تَشبيهِ المحسوسِ بالمتخيَّلِ[٥].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ والإشارةُ بما يُشارُ به إلى البعيدِ في قولِها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾، فلم تقُلْ: (فهذا)، مع قربِ المُشارِ إليه وحضورِه؛ رفعًا لمنزلتِه في الحُسنِ، واستبعادًا لمحلِّه فيه، وإشارةً إلى أنَّه لغرابتِه بعيدٌ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أن يوجدَ مثلُه[١].

- وقولُها: ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ قيل: إنَّه بناءُ مُبالَغةٍ يدُلُّ على الامتناعِ البليغِ، والتَّحفُّظِ الشَّديدِ، كأنَّه في عِصْمةٍ، وهو يَجتَهِدُ في الاستِزادةِ منها، كما في استَمسَك واستجمَع الرَّأيَ، وفيه بُرهانٌ نيِّرٌ على أنَّه لم يَصدُرْ عنه عليه السَّلامُ شيءٌ مُخِلٌّ باستعصامِه، والمعنى: أنَّه امتنَع امتِناعَ مَعصومٍ، أي: جاعِلًا المراوَدةَ خَطيئةً عصَم نفْسَه منها[٢]، وقيل: بل ﴿اسْتَعْصَمَ﴾ موافِقٌ لاعتَصَم؛ فاستَفْعَل فيه مُوافِقٌ لافتَعَل، وهذا أجوَدُ مِن جَعْلِ استَفعَل فيه للطَّلبِ؛ لأنَّ اعتَصَم يَدُلُّ على وُجودِ اعتِصامِه، وطلَبُ العصمةِ لا يَدُلُّ على حُصولِها، وأمَّا أنَّه بِناءُ مُبالَغةٍ يَدُلُّ على الاجتهادِ في الاستزادةِ مِن العصمةِ، فلم يَذكُرِ التَّصريفيُّون هذا المعنى لاستَفعَل[٣].

- قولُها: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ فيه التَّعبيرُ عن مُراوَدتِها بالأمرِ -وذلك في قولِها: ﴿آمُرُهُ﴾-؛ إظهارًا لجرَيانِ حُكومتِها عليه، واقتِضاءً للامتثالِ بأمرِها[٤].

- قولُه: ﴿لَيُسۡجَنَنَّ﴾ فيه بناءُ الفعلِ للمفعولِ؛ جَريًا على رَسْمِ الملوكِ، أو إيهامًا لِسُرعةِ تَرتُّبِ ذلك على عدَمِ امتِثالِه لأمْرِها؛ كأنَّه لا يَدخُلُ بينَهما فِعلُ فاعِلٍ[٥]، وأكَّدَت حُصولَ سَجْنِه بنُونَيِ التَّوكيدِ، وقد قالت ذلك بمَسمَعٍ منه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٦٦)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إرهابًا له[١].

- قولُها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيث لم يَذكُرْ هنا العذابَ الأليمَ الَّذي ذكَرَتْه في قولِها السَّابِقِ: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]؛ لأنَّها إذْ ذاك كانت في طَراوةِ غَيظِها، ومُتنصِّلةً مِن أنَّها هي الَّتي راوَدَتْه، فناسَب هناك التَّغليظُ بالعقوبةِ، وأمَّا هنا فإنَّها في طَماعيَةٍ ورَجاءٍ، وأقامَت عُذرَها عِندَ النِّسوةِ، فرَقَّت عليه، فتوَعَّدَتْه بالسَّجنِ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ما حُكي قَبْلَه مَقامُ شِدَّةٍ، مِن شأنِه أن يَسأَلَ سامِعُه عن حالِ تَلقِّي يوسُفَ عليه السَّلامُ فيه لِكَلامِ امرأةِ العزيزِ[٣].

- وقولُه: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ فيه الاقتصارُ على ذِكرِ السِّجنِ؛ لأنَّ الصَّغارَ مِن فُروعِه ومُستتبَعاتِه[٤].

- وعبَّر عما عرَضتْه المرأةُ بالموصوليَّةِ ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ﴾؛ لِمَا في الصِّلةِ من الإيماءِ إلى كونِ المطلوبِ حالةً هي مَظِنَّةُ الطواعيةِ؛ لأنَّ تَمالُؤَ الناسِ على طلبِ الشيءِ من شأنِه أن يُوطِّنَ نفسَ المطلوبِ للفِعلِ؛ فأظهرَ أنَّ تمالُؤَهنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٤).

على طَلَبهنَّ منه امتثالَ أمْرِ المرأةِ لم يَفُلَّ من صارم عزْمِه على الممانعةِ، وجعَل ذلك تمهيدًا لسُؤالِ العِصمةِ من الوُقوعِ في شَرَكِ كَيدِهنَّ؛ فانتقَلَ مِن ذِكر الرِّضا بوعيدِها إلى سؤالِ العِصمةِ مِن كيدِها[١].

- وأُسنِد فِعْلُ ﴿يَدْعُونَنِيٓ﴾ إلى ضَميرِ جَمْعِ النِّساءِ (نونِ النِّسوةِ) مع أنَّ الَّتي دعَتْه امرأةٌ واحدةٌ؛ إمَّا لأنَّ تِلك الدَّعوَةِ مِن رَغَباتِ صِنْفِ النِّساءِ؛ فيَكونُ على وِزَانِ جَمْعِ الضَّميرِ في ﴿كَيْدَهُنَّ﴾، وإمَّا لأنَّ النِّسوَةَ اللَّاتي جمَعَتْهنَّ امرأةُ العزيزِ لَمَّا سَمِعْن كلامَها تَمالَأْن على لَوْمِ يوسُفَ عليه السَّلامُ، وتَحريضِه على إجابةِ الدَّاعيَةِ، وتَحْذيرِه مِن وَعيدِها بالسِّجنِ[٢]، وقيل: دعَوْنه إلى أنفُسِهنَّ[٣].

- وجملةُ ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ خبرٌ مُستعمَلٌ في التَّخوُّفِ والتَّوقُّعِ؛ الْتِجاءً إلى اللهِ ومُلازَمةً للأدَبِ نحوَ ربِّه؛ بالتَّبرُّؤِ مِن الحولِ والقوَّةِ، والخشيةِ مِن تَقلُّبِ القلبِ، ومِن الفتنةِ بالميلِ إلى اللَّذَّةِ الحرامِ؛ فالخبَرُ مُستعمَلٌ في الدُّعاءِ؛ ولذلك فرَّع عنه جُملةَ ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾[٤].

- قولُه: ﴿أَصْبُ﴾ كلمةٌ مُشعِرةٌ بالمَيلِ فقَط، لا بمُباشَرةِ المعصيةِ[٥].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

- قولُه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ فيه العطفُ بفاءِ التَّعقيبِ في قولِه: ﴿فَٱسْتَجَابَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ اللهَ عجَّل إجابةَ دُعائِه الَّذي تَضمَّنه قولُه: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾[٦]، وفي إسنادِ الاستجابةِ إلى الرَّبِّ مضافًا إلى يوسُفَ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٧).

السَّلامُ ما لا يَخفَى مِن إظهارِ اللُّطفِ[١].

- وجملةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ في موضِعِ العِلَّةِ لقولِه: ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾ المعطوفِ بفاءِ التَّعقيبِ، أي: أجاب دُعاءَه بدُونِ مُهلَةٍ؛ لأنَّه سَريعُ الإجابةِ، وعليمٌ بالضَّمائرِ الخالصةِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٧).

الآيات (٣٦-٤٢)

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿مِلَّةَ﴾: أي: دينَ، وطريقةَ، مشتقَّة من أَمْلَلْتُ (أي: أَمْلَيْتُ)؛ لأنَّها تُبنَى على مسموعٍ ومتلوٍّ؛ فإذا أُريدَ الدِّينُ باعتبارِ الدُّعاءِ إليه؛ قيل: (مِلَّة)، وإذا أُريدَ باعتبارِ الطَّاعةِ والانقيادِ له؛ قيل: (دين)[1].

﴿ٱلۡقَيِّمُ﴾: أي: المستقيمُ الذي لا عِوجَ فيه، أو: القائمُ الدائمُ الذي لا يزولُ، وأصلُ (قوم): يدلُّ على مراعاةِ الشيءِ وحِفظِه[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣، ٧٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١١)، ((تذكرة

﴿بِضۡعَ﴾: البِضْعُ هو ما بينَ الثَّلاثِ إلى العَشرةِ[١]، وقيل غير ذلك، واشتقاقُه مِن (بَضَعْت) بمعنَى (قَطَعت)، ومعناه القطعةُ مِن العَدَدِ، وأصلُ (بضع): يدلُّ على طائفةٍ مِن الشَّيءِ عُضْوًا أو غيرَه[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ يوسفَ عليه السلامُ دخَل معه السجنَ فتيانِ، وأنَّ أحدَهما قال: إنِّي رأيتُ في المنام أنِّي أعصِرُ عِنبًا ليصيرَ خَمرًا، وقال الآخرُ: إنِّي رأيتُ أنِّي أحمِلُ فوقَ رأسي خُبزًا تأكلُ الطَّيرُ منه، أخبِرْنا- يا يوسُفُ- بتفسيرِ ما رأينا، إنَّا نراك من المحسنين. قال لهما يوسفُ: لا تريانِ في مَنامِكما طَعامٌ تُرزَقانِه إلَّا أخبَرتُكما بتفسيرِه في اليقَظةِ قبل أن يأتيَكما، ذلك التَّعبيرُ الذي سأعبِّرُه لكما ممَّا علَّمَني ربِّي؛ إنِّي آمنتُ به، وأخلصتُ له العبادةَ، وابتعدتُ عن دينِ قَومٍ لا يُؤمِنونَ بالله، وهم بالبَعثِ والحِسابِ جاحِدونَ، واتَّبَعتُ دينَ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، فعبدتُ الله وَحدَه، ما كان لنا أن نجعلَ لله شريكًا في عبادتِه، ذلك التَّوحيدُ بإفرادِ اللهِ بالعبادةِ، ممَّا تفضَّلَ الله به علينا وعلى النَّاسِ الذين جعَلَنا دُعاةً لهم إلى توحيدِه، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يشكُرونَ.

وقال يوسُفُ للفَتَيينِ اللَّذينِ معه في السِّجنِ: يا ساكِنَي السِّجنِ، أعبادةُ آلهةٍ مخلوقةٍ شَتَّى خيرٌ أم عبادةُ اللهِ الواحدِ القَّهارِ؟ ما تعبُدونَ مِن دونِ اللهِ إلَّا أسماءً لا معانيَ وراءَها، جعلتُموها أنتم وآباؤكم أربابًا، جهلًا منكم وضلالًا، ما أنزل

الأريب)) لابن الجوزي (ص:٢٩٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٠٩).

(١) قال ابنُ عطية: (و«بِضْع» في كلامِ العربِ اختُلِف فيه، فالأكثرُ على أنَّه مِن الثلاثةِ إلى العشرةِ، قاله ابنُ عباسٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: (غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨).

اللهُ مِن حُجَّةٍ أو برهانٍ على صِحَّتِها، وما الحُكمُ إلَّا لله تعالى وَحدَه لا شريكَ له، أمَرَ ألَّا تعبُدوا أحدًا غيرَه، وهذا هو الدِّينُ القيِّمُ الذي لا عِوَجَ فيه، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ يجهَلون ذلك، فلا يعلمونَ حقيقتَه.

يا ساكِنَي السِّجنِ، إليكما تفسيرَ رُؤياكما: أمَّا أحدُكما فإنَّه يخرجُ مِن السِّجنِ، ويكونُ ساقيَ الخَمرِ للمَلِك، وأمَّا الآخَرُ فإنَّه يُصلَبُ ويُترَكُ، فتأكُلُ الطَّيرُ مِن رأسِه، قُضيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيانِ وفُرِغَ منه، وقال يوسُفُ للذي علِمَ أنَّه ناجٍ من صاحِبَيه: اذكُرني عند سيِّدِك المَلِك، وأخبِرْه بأنِّي مظلومٌ، قد سُجِنْتُ بلا ذَنبٍ، فأنسَى الشَّيطانُ ذلك الرَّجُلَ أن يَذكُرَ للمَلِك حالَ يوسُفَ، فمكثَ يوسُفُ بعد ذلك في السِّجنِ عِدَّةَ سَنواتٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكرَ السِّجنَ وكان سببًا ظاهِرًا في الإهانةِ، شَرعَ سُبحانه يقُصُّ مِن أمْرِه فيه ما حاصِلُه أنَّه جعَلَه سببَ الكرامةِ، كلُّ ذلك بيانًا للغَلَبةِ على الأمرِ، والاتِّصافِ بصِفاتِ القَهرِ، مع ما في ذلك مِن بيانِ تحقُّقِ ما تقدَّمَ به الوعدُ الوفيُّ ليوسُفَ عليه السَّلامُ، وغير ذلك مِن الحِكَم[1].

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ ﴾

أي: فسَجَنوا يوسُفَ، ودخل معه السِّجنَ شابَّانِ[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾.

أي: قال أحدُ الشَّابَّينِ ليوسُفَ: إنِّي رأيتُ في المنامِ أنِّي أعصِرُ عِنبًا[١].

﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُ﴾.

أي: وقال الشَّابُّ الآخَرُ ليوسُفَ: إنِّي رأيتُ في المنامِ أنِّي أحمِلُ على رأسي خُبزًا تنهَشُ الطَّيرُ منه[٢].

﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ﴾.

أي: أخبِرْنا بتفسيرِ ما رَأينا في منامِنا[٣].

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: إنَّا نراك من المُحسِنينَ[٤]، فأحسِنْ إلينا بتعبيرِ رُؤيانا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٨).

قال الواحدي: (معنى ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾ أعصِرُ عنبَ خَمرٍ، أي: العنبَ الذي يكونُ عصيرُه خمرًا، فحُذِفَ المضافُ، وقال الزجَّاج وابن الأنباري: العربُ تسمِّي الشيء باسم ما يؤولُ إليه الشيءُ، إذا انكشف المعنى ولم يلتبِسْ؛ يقولون: فلانٌ يطبُخُ الآجُرَّ ويطبُخُ الدِّبَسَ، وإنما يطبخُ اللَّبِنَ والعصيرَ. وقومٌ يقولون: إنَّ بعضَ العرَبِ يسمُّونَ العنبَ خَمرًا). ((الوسيط)) (٢/ ٦١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٣٨، ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٤) اختُلف في معنى ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فقيل: أي: إلى أهلِ السِّجنِ، وقيل: مِن الذين يحسنونَ عبارةَ الرُّؤيا، أو مِن المحسنينَ في العلمِ، وقيل: مِن المحسنينَ إلينا إن فسَّرتَ لنا ما رأيناه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لمَّا وصَفاه بالإحسانِ، ورأَى منهما ميلًا إليه، ووثاقًا به؛ أخَذ في استدراجِهما في التوحيدِ الذي هو المقصودُ الكليُّ مِن أصلِ التخليقِ، قبلَ الشُّروعِ في عبارةِ الرُّؤْيا[1].

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾.

أي: قال يوسُفُ للشَّابَّينِ: لا تريانِ في مَنامِكما طعامًا يأتيكما إلَّا أخبرتُكما بتعبيرِه في اليَقَظةِ قبلَ أن يقعَ[2].

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣٣٩).

(٢) وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وابنُ تيميةَ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥٩، ١٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦١٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: مجاهدٌ، والسديُّ، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢١٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥٩).

قال ابن تيميةَ: (هذا قولُ أكثَرِ المفَسِّرينَ، وهو الصَّوابُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٦٥).

ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ٢٢٣).

وقيل: المعنى: لا يأتيكما طعامٌ تُرزَقانِه في اليقَظةِ إلَّا أخبرتُكما به قبل أن يصِلَ إليكما؛ لأنَّه كان يخبِرُ بما غابَ، فيقولُ: اليومَ يأتيكما طعامٌ مِن صفتِه كيت وكيت، فيجدانِه كما أخبَرهما.

وممن قال بهذا القول: الزجَّاجُ، والزمخشري، والقرطبي، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧٥).

وممن قال به مِن السلفِ: الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٣٩).

أي: هذا العِلمُ بتعبيرِ الرُّؤى ممَّا علَّمَني ربِّي[١].

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: إنِّي تبرَّأتُ مِن مِلَّةِ الكُفَّارِ الذين لا يؤمِنونَ بالله وبوَحدانيَّتِه، ولا يُقِرُّونَ بالبعثِ ولا بالثَّوابِ والعِقابِ يومَ الحِسابِ[٢].

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

أي: واتَّبعتُ دينَ آبائي الأنبياءِ؛ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ- عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- الذين دعَوا إلى توحيدِ اللهِ[٣].

عن أبي هُريرةَ رَضيَ الله عنه، قال: ((قيل يا رسولَ الله: من أكرَمُ النَّاسِ؟ قال: أتقاهم، فقالوا: ليس عن هذا نسألُك، قال: فيوسُفُ نبيُّ اللهِ، ابنُ نبيِّ اللهِ، ابنِ نبيِّ اللهِ، ابنِ خَليلِ اللهِ))[٤].

﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).
قال الواحدي: (﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ أي: لم أُخبِرْكما على جهةِ التكهُّنِ والتنجُّمِ، وإنَّما أُخبِرُكما بوحيٍ مِن الله وعِلمٍ). ((البسيط)) (١٢/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٢).

(٤) رواه البخاري (٣٣٥٣) ومسلم (٢٣٧٨).

أي: ما ينبغي لنا أن نجعلَ لله شريكًا في عبادتِه وطاعتِه[١].

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

أي: ذلك التَّوحيدُ- الذي أكرَمَنا اللهُ تعالى به- ممَّا تفضَّلَ به علينا، وعلى النَّاسِ الذين جعَلَنا دُعاةً لهم إلى توحيدِه وطاعتِه[٢].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ نِعَمَ اللهِ عليهم، فيُؤْمِنونَ به ويُوحِّدونَه، ويعملونَ بما شرَعه لهم، بل يُشركونَ[٣].

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما ذكَر ما هو عليه مِن الدينِ الحنيفيِّ؛ تلطَّف في حسنِ الاستدلالِ على فسادِ ما عليه قومُ الفتَيَينِ مِن عبادةِ الأصنامِ، فناداهما باسْمِ الصُّحبةِ في المكانِ الشَّاقِّ الَّذي تخلُصُ فِيه المودَّةُ، وتتمحَّضُ فيه النَّصيحَةُ، ثُمَّ أورَد الدَّلِيلَ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٩).

قال الشوكاني في قولِه: ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: (ومِنْ فضلِ اللَّهِ على النَّاسِ كافَّةً ببعثةِ الأنبياءِ إليهم، وهدايَتِهم إلى ربِّهم، وتبيينِ طرائقِ الحقِّ لهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢)، ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٣).

وقال ابنُ الجوزي: (﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يعني المؤمنين بأن دلَّهم على دينِه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤٠)، ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٣).

بُطلانِ مِلَّةِ قومِهما[١]، فقال:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ ﴾.

أي: قال يوسُفُ للشَّابَّينِ: يا ساكِنَي السِّجنِ[٢]، آلِهةٌ شتَّى لا تنفَعُ ولا تضُرُّ خيرٌ، أم المعبودُ الواحِدُ الذي لا ثانيَ له في ذاته وصفاتِه وكمالِه، الذي قهرَ كلَّ شَيءٍ مِن خَلْقِه، المستحِقُّ للعبادةِ وَحدَه[٣]؟!

﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ ﴾.

﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم ﴾.

أي: ما تعبُدونَ[٤] مِن دونِ اللهِ إلَّا أسماءً سمَّيتُموها آلهةً أنتم وآباؤُكم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٨).

(٢) المراد بقولِه: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ﴾ أي: يا ساكِنَي السِّجنِ، فجَعَلهما مُصاحبَيْنِ للسِّجنِ؛ لطولِ مُقامِهما فيه، وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩٢).
وقيلَ: المرادُ: يا صاحِبَيَّ في السِّجنِ؛ لأنَّ السِّجنَ ليس بمصحوبٍ، بل مصحوبٍ فِيهِ، وممن اختار هذا القولَ: الخازنُ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٣، ١٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

(٤) قال ابن جرير: (وقال: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ وقد ابتدأ الخِطاب بخطابِ اثنين، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ﴾؛ لأنَّه قصدَ المخاطَبَ به ومن هو على الشِّركِ باللهِ مُقيمٌ من أهلِ مِصرَ، فقال للمُخاطَب بذلك: ما تعبدُ أنت ومَن هو على مثلِ ما أنت عليه مِن عبَدةِ الأوثانِ ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٥).
وقال البغوي: (وإنَّما ذُكِرَ بلَفظِ الجَمعِ وقد ابتدأ الخطاب للاثنينِ؛ لأنَّه أراد جميعَ أهلِ السِّجنِ وكلَّ مَن هو على مِثلِ حالِهما مِن أهلِ الشِّركِ). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩٣).

واعتقَدتُم ألوهيَّتَها، وليست في الحقيقةِ بآلهةٍ تستَحِقُّ العبادةَ[١].

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾.

أي: لم يُنزِل اللهُ أيَّ حُجَّةٍ تدُلُّ على ثبوتِ أسماءِ تلك الآلهةِ الباطلةِ، ولا على استحقاقِها للعبادةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٌ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

أي: ما الحُكمُ إلَّا للهِ المُستحِقِّ للعبادةِ دونَ ما سواه؛ فهو وحدَه الحاكِمُ بين عبادِه، المشَرِّعُ لهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٦].

﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).
قال ابن القيم: (هي مُجرَّدُ أسماءٍ كاذبةٍ باطلةٍ، لا مُسمَّى لها في الحقيقةِ؛ فإنَّهم سَمَّوها آلهةً وعَبَدوها؛ لاعتقادِهم حقيقةَ الإلهيَّةِ لها، وليس لها من الألوهيَّةِ إلَّا مجردُ الأسماءِ، لا حقيقةُ المُسمَّى، فما عبدوا إلا أسماءً لا حقائقَ لمُسمَّياتها، وهذا كمَن سمَّى قشورَ البصَلِ لحمًا وأكَلَها، فيقال: ما أكلتَ مِن اللَّحمِ إلَّا اسمَه لا مُسمَّاه! وكمَن سمَّى الترابَ خُبزًا وأكلَه، يقالُ: ما أكلتَ إلَّا اسم الخبزِ! بل هذا النفيُ أبلغُ في آلهتِهم؛ فإنَّه لا حقيقةَ لإلهيَّتِها بوجهٍ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٩، ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٩، ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

أي: أمَرَكم الله -أيُّها النَّاسُ جميعًا- ألَّا تعبُدُوا إلَّا اللهَ وحدَه، ولا تُشرِكوا به شيئًا[١].

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

أي: ذلك التَّوحيدُ وإخلاصُ العبادةِ لله وحدَه، هو الدِّينُ المُستقيمُ الذي أمرَ الله به عبادَه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يعلمونَ أنَّ توحيدَ اللهِ هو الدِّينُ المُستقيمُ الذي أمَرَ اللهُ به عبادَه؛ فهم لجهلِهم يُشرِكونَ بالله[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

قال السعدي: (يوسفُ عليه السَّلامُ دعا صاحبَي السِّجنِ لعبادةِ الله وحدَه، وإخلاصِ الدِّينِ له، فيحتملُ أنَّهما استجابا وانقادا، فتَمَّت عليهما النِّعمةُ، ويحتملُ أنَّهما لم يزالا على شِركِهما، فقامت عليهما- بذلك- الحُجَّةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لَمَّا فرغَ يوسفُ عليه السلامُ مِن دَعوتِهما؛ شرعَ في تعبيرِ رُؤياهما[١]، فقال:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا ﴾.

أي: قال يوسفُ عليه السلامُ للشَّابين اللذينِ سألاه تعبيرَ رُؤْياهما: يا ساكِنَي السِّجنِ، أمَّا أحَدُكما[٢] فإنَّه يخرجُ مِن السِّجنِ، ويَسقي سيِّدَه المَلِكَ خَمرًا[٣].

﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ﴾.

أي: وأمَّا الآخَرُ فإنَّه يُقتَلُ، ويُعلَّقُ على خشَبةٍ، فتأكلُ الطَّيرُ مِن لحمِ رأسِه وشَحمِه[٤].

﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾.

أي: فُرِغَ من الأمرِ الذي تسألانِ عن تَعبيرِه، وهو واقعٌ لا محالةَ[٥].

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٠).

(٢) قال الشوكاني: (المرادُ بقوله: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ هو السَّاقي، وإنَّما أبهَمَه؛ لكونِه مفهومًا، أو لكراهةِ التَّصريحِ للخبَّازِ بأنَّه الذي سيُصلَبُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

أي: وقال يوسُفُ لصاحِبِه الذي تيقَّنَ أنَّه سينجو من القتلِ، ويخرُجُ مِن السِّجنِ: اذكُرني عند سيِّدِك الملِك، وأخبِرْه بأنِّي مسجونٌ بلا ذنبٍ(١).

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾.

أي: فأنسَى الشَّيطانُ الفَتى الذي خرجَ مِن السِّجنِ أن يَذكُرَ يوسُفَ عند المَلِك، كما أوصاه بذلك(٢).

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

أي: فمكث يوسُفُ في الحبسِ مَظلومًا مَنسيًّا بضعَ سنينَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١١٣ - ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٨ - ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٩).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ تيميةَ، وأبو حيانَ، وابنُ كثيرٍ، والقاسميُّ، ومحمد رشيد رضا، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩١).

وقيل المراد: فأنسى الشيطانُ يوسفَ ذكر الله تعالى، فلم يَدْعُ الله أن يُخرجَه مِن السجنِ. وممن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والزجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١١٢).

وممن قال بنحو ذلك مِن السلفِ: أنسٌ، وابنُ عباس في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وعكرمة، والثوري. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢١٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩٣)، ((تفسير المنار))

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ فيه أنَّ العالمَ إذا جُهِلَت منزِلتُه في العِلمِ، فوصفَ نفسَه بما هو بصَددِه- وغرَضُه أن يُقتبَسَ منه، ويُنتفَعَ به في الدِّينِ- لم يكُن من بابِ التَّزكيةِ[(١)].

٢- عنْ قتادةَ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قال: (إنَّ المؤمنَ ليَشْكُرُ ما به مِن نِعمةِ اللَّهِ، ويَشْكُرُ ما في النَّاسِ مِن نِعمةِ اللَّهِ)[(٢)].

٣- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ فيه وُجوبُ الاعترافِ بنِعَمِ الله الدِّينيةِ والدُّنيوية؛ فهو الذي مَنَّ بالعافيةِ والرِّزقِ وتَوابِعِ ذلك، وهو الذي مَنَّ بنِعمةِ الإسلامِ والإيمانِ والطَّاعةِ وتوابِعِ ذلك، فعلى العبدِ أن يعترفَ بها بقَلبِه ويتحدَّثَ بها، ويستعينَ بها على طاعةِ المُنعِم[(٣)].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ

لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٨).

قال أبو حيان: (الظاهرُ أنَّ قوله: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ﴾ إخبارٌ عن مدَّةِ مُقامِه في السِّجنِ منذ سُجِنَ إلى أن أُخرِج. وقيل: هذا اللُّبثُ هو ما بعد خروجِ الفَتَيين). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٠).

وقال الثعلبي: (أكثرُ المفسِّرين على أنَّ البِضعَ في هذه الآيةِ سبعُ سنينَ). ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ٢٢٥).

وقال محمد رشيد رضا بعد أن ذكَر أنَّ البِضعَ أكثرُ مَا يُطلَقُ على السَّبْعِ، قال: (وعليه الأكثرونَ في مدَّةِ سَجنِ يوسُفَ من أوَّلِها إلى آخِرِها). ((تفسير المنار)) (١٢/ ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥١).

وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ من العجَبِ أنَّ هذه الحقيقةَ التي بيَّنَها القرآنُ في مئاتٍ مِن الآياتِ البيِّناتِ تُتلى في السُّوَر الكثيرةِ بالأساليبِ البليغة؛ صار يجهَلُها كثيرٌ مِن الذين يدَّعونَ اتِّباعَ القرآنِ؛ فمنهم من يجهَلُ حقيقةَ التوحيدِ نفسِه، فيتوجَّهونَ إلى غيرِ الله إذا مسَّهم الضرُّ أو عجزوا عن بعضِ ما يحبُّونَ مِن النَّفعِ، فيدعونَهم خاشعينَ راغبينَ مِن دونِ الله، ويُسمُّونَهم شُفَعاءَ ووسائلَ عند الله، كما كان يفعلُ من كان قبلَهم من المُشركين[1].

٥- أنَّ الدِّينَ المُستقيمَ- الذي عليه جميعُ الرُّسُلِ وأتباعهم- هو عبادةُ اللهِ وَحدَه لا شريكَ له؛ لِقَولِه: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠]، فهو الدِّينُ المستقيمُ، المقيمُ للعقائدِ والأخلاقِ والأعمالِ، الذي لا تستقيمُ أمورُ الدِّينِ والدُّنيا إلَّا به[2].

٦- قولُ الله تعالى حكايةً عن يوسفَ عليه السلام: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ فيه أنَّه كما على العبدِ عبوديَّةٌ لله في الرَّخاءِ، فعليه عبوديَّةٌ له في الشِّدَّةِ؛ فيوسفُ عليه السلامُ لم يزَلْ يدعو إلى اللهِ، فلمَّا دخلَ السِّجنَ استمَرَّ على ذلك، ودعا الفتَيَين إلى التَّوحيدِ، ونهاهما عن الشِّركِ، ومِن فِطنتِه عليه السَّلامُ أنَّه لَمَّا رأى فيهما قابليَّةً لدَعوتِه؛ حيث ظنَّا فيه الظَّنَّ الحسَنَ وقالا له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وأتَياه ليُعبِّرَ لهما رُؤياهما، فرآهما متشَوِّفَينِ لتَعبيرِها عنده- رأى ذلك فرصةً فانتهَزَها، فدعاهما إلى اللهِ تعالى قبل أن يعبِّرَ رُؤياهما؛ ليكونَ أنجحَ لمقصودِه، وأقربَ لحُصولِ مَطلوبِه، وبيَّنَ لهما أوَّلًا أنَّ الذي أوصَلَه إلى الحالِ -التي رأيَاه فيها من الكَمالِ والعِلمِ- إيمانُه وتوحيدُه، وتركُه ملَّةَ مَن لا يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ، وهذا دعاءٌ لهما بالحالِ، ثمَّ دعاهما

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥١).

بالمقالِ، وبيَّنَ فسادَ الشِّركِ وبرهنَ عليه، وحقيقةَ التَّوحيدِ وبرهَنَ عليه[١].

٧- قولُ الله تعالى حكايةً عن يوسفَ عليه السلام: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ فأوردَ يوسفُ عليه السلامُ الدَّليلَ على بُطلانِ مِلَّةِ قَومِهما في صورةِ الاستفهامِ؛ حتى لا تنفِرَ طباعُهما من المفاجأةِ بالدَّليلِ مِن غير استفهامٍ، وهكذا الوجهُ في محاجَّةِ الجاهلِ؛ أن يُؤخَذَ بدرجةٍ يسيرةٍ مِن الاحتجاجِ يقبَلُها، فإذا قَبِلَها لَزِمته عنها درجةٌ أخرى فوقَها، ثمَّ كذلك إلى أن يصِلَ إلى الإذعانِ بالحَقِّ[٢].

٨- قولُه تعالى في دَعوةِ يُوسُفَ للتَّوحيدِ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ فيه الإرشادُ إلى طَريقٍ نافعٍ مِن طُرُقِ الجدالِ، والمقابلةِ بينَ الحَقِّ والباطِلِ، وهو بيانُ ما في الحَقِّ مِن الخيرِ والمنافعِ العاجلةِ والآجلةِ، وما في الباطِلِ مِن ضِدِّ ذلك؛ قال تعالى في دعوةِ يوسُفَ للتوحيد: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ فذكَرَ ما في الشِّركِ مِن القُبحِ وسُوءِ الحالِ، واتِّباعِ الظُّنونِ الباطِلةِ، وأنَّ كُلَّ طائفةٍ مِن طوائِفِ الشِّركِ لهم مَعبودٌ؛ إمَّا نارٌ أو صَنمٌ، أو قبرٌ أو مَيِّتٌ، أو غيرُ ذلك من المعبوداتِ المتفرِّقةِ التي لا تَملِكُ لنَفسِها ولا لأهلِها نَفعًا ولا ضَرًّا، ولا مَوتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، وكلُّ طائفةٍ تُضَلِّلُ الأخرى، وكُلُّهم ضالُّونَ هالِكونَ، فهل هذه الأربابُ والمعبوداتُ خيرٌ أم اللهُ الواحِدُ القهَّارُ؟ فذكَرَ له ثلاثةَ أوصافٍ عامَّةٍ عَظيمةٍ:

الأوَّل: أنَّه اللهُ الذي له الأسماءُ والصِّفاتُ العُليا، ومنه النِّعَمُ كُلُّها، وبذلك استحَقَّ أن يكونَ اللهَ المألوهَ، إلهَ أهلِ الأرضِ وأهلِ السَّماءِ، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٨).

الثَّاني: أنَّه الواحِدُ المتفرِّدُ بكُلِّ صِفةِ كَمالٍ، المتوحِّدُ بنُعوتِ الجلالِ والجَمالِ، الذي لا شريكَ له في شَيءٍ مِن الأفعالِ.

الثَّالث: أنَّه القهَّارُ لكُلِّ شَيءٍ؛ فجميعُ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ كُلُّهم مقهورونَ بقُدرتِه، خاضِعونَ لعَظَمتِه، مُتذَلِّلونَ لعِزَّتِه وجَبَروتِه، فمَن هذه صِفاتُه العظيمةُ هو الذي لا تنبغي العبادةُ إلَّا له وحدَه، لا شريكَ له[١].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ...﴾ مِن فوائدِ هذه الآياتِ: أنَّه يُبدأُ بالأهَمِّ فالأهمِّ، وأنَّه إذا سُئِلَ المفتي- وكان السَّائِلُ حاجتُه في غيرِ سؤالِه أشَدُّ- أنَّه ينبغي له أن يُعلِّمَه ما يحتاجُ إليه قبل أن يجيبَ سؤالَه؛ فإنَّ هذا علامةٌ على نُصحِ المعَلِّم وفطنتِه، وحُسنِ إرشادِه وتَعليمِه؛ فإنَّ يوسُفَ لَمَّا سأله الفَتَيانِ عن الرُّؤيا قدَّمَ لهما قبل تعبيرِها دعوتَهما إلى اللهِ وحدَه لا شريكَ له، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ...﴾[٢]، وهذه طريقةٌ على كُلِّ ذي عِلمٍ أن يسلُكَها، خاصةً مع الجُهَّال والفَسَقة إذا استفتاه واحدٌ منهم؛ أن يقَدِّمَ الهدايةَ والإرشادَ والمَوعِظةَ والنَّصيحةَ أوَّلًا، ويَدعوَه إلى ما هو أولى به وأوجَبُ عليه ممَّا استفتى فيه، ثمَّ يُفتيَه بعد ذلك[٣].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾

(١) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٠).

أصلٌ في عبارةِ الرُّؤيا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ إيذانٌ بأنَّ الله تعالى علَّمَه عُلومًا أُخرَى، وهي علومُ الشَّريعةِ والحِكمةِ، والاقتصادِ والأمانةِ[٢].

٣- إذا قيل: إنَّ قَولَ يوسفَ عليه السلامُ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ظاهِرُه أنَّ يوسفَ عليه السَّلامُ كان داخلًا في هذه الملَّةِ ثمَّ ترَكَها.

فالجوابُ عن ذلك من وجهينِ:

الأوَّل: أنَّ المُرادَ بِالتَّركِ هو عدمُ التَّلَبُّسِ بذلك مِن الأصلِ، لا أنَّه قد كان تَلَبَّس به، ثُمَّ تَرَكه، كما يَدُلُّ عليه قولُه: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ﴾، فالتركُ كما يكونُ للداخلِ في شيءٍ، ثمَّ ينتقلُ عنه، يكونُ لمن لم يدخُلْ فيه أصلًا، وليس مِن شَرطِه أن يكونَ قد كان داخلًا فيه ثمَّ ترَكَه ورجَع عنه[٣]، ويوسفُ عليه السلام لما كان على التَّوحيدِ والإيمانِ الصَّحيحِ؛ صحَّ قَولُه: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فترَكَ ملَّتَهم وأعرض عنهم، ولم يوافِقْهم على ما كانوا عليه[٤].

الثاني: أنَّ يوسفَ عليه السَّلامُ كان عبدًا لهم بِحَسَبِ زعمِهم، واعتقادِهم الفاسدِ، ولعلَّه قبلَ ذلك كان لا يُظهِرُ التَّوحيدَ والإيمانَ؛ خوفًا منهم على سبيلِ التَّقِيَّةِ، ثُمَّ إنَّه أظهرَه في هذا الوقتِ، فكان هذا جاريًا مجرَى تركِ مِلَّةِ أولئكَ الكفرةِ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٥٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٥٦).

٤- قولُه: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ إنَّما قال يوسفُ عليه السَّلامُ ذلك؛ تَرغيبًا لِصاحِبَيه في الإيمانِ والتَّوحيدِ، وتَنفيرًا لهما عمَّا كانا عليه مِن الشِّركِ والضَّلالِ[١]، فذَكَر آباءَه؛ لِيُرِيَهما أنَّه مِن بيتِ النُّبوَّةِ؛ لِيُقوِّيَ رغبَتَهما في الاستماعِ إليه، واتِّباعِ قولِه[٢].

٥- لم يذكُرِ اللهُ تعالى جُحودَ الصَّانعِ إلَّا عن فرعونِ موسى، وأمَّا الذين كانوا في زمَنِ يوسُفَ، فالقرآنُ يدُلُّ على أنَّهم كانوا مقرِّينَ بالله وهم مُشرِكونَ به؛ ولهذا كان خِطابُ يوسُفَ للمَلِك وللعزيزِ ولهم يتضَمَّنُ الإقرارَ بوجودِ الصَّانعِ، كقوله: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[٣].

٦- الحُكمُ لله وحدَه، ورسُلُه يبلِّغونَ عنه؛ فحُكمُهم حُكمُه، وأمرُهم أمرُه، وطاعتُهم طاعتُه، فما حكمَ به الرَّسولُ وأمَرَهم به وشرَعَه مِن الدِّينِ، وجبَ على جميعِ الخلائقِ اتِّباعُه وطاعتُه؛ فإنَّ ذلك هو حكمُ اللهِ على خَلقِه؛ قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وهذه القاعدةُ هي أساسُ دينِ الله تعالى على ألسنةِ جميعِ رسُلِه، لا تختلفُ باختلافِ الأزمِنةِ والأمكِنةِ[٤].

٧- لم يَكتَفِ يوسفُ عليه السَّلامُ بمجرَّدِ تأويلِ رُؤياهما مع أنَّ فيه دَلالةً على فَضلِه؛ لأنَّهما لَمَّا نعَتاه عليه السَّلامُ بالانتظامِ في سِمْطِ[٥] المحسِنين، وأنَّهما قد عَلِما ذلك حيث قالا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، توسَّم عليه السَّلامُ فيهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٣٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٦٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٤).

(٥) السِّمطُ: الخيطُ ما دام فيه الخَرَزُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٥٤).

خيرًا، وتَوجُّهًا إلى قَبولِ الحقِّ، فأراد أن يَخرُجَ آثِرَ ذي أثيرٍ[١] عمَّا في عُهدتِه مِن دعوةِ الخلقِ إلى الحقِّ، فمَهَّد قبلَ الخوضِ في ذلك مُقدِّمةً تَزيدُهما عِلمًا بعِظَمِ شأنِه، وثقةً بأمرِه، ووُقوفًا على عُلوِّ طبَقتِه في بَدائعِ العُلومِ؛ تَوسُّلًا بذلك إلى تحقيقِ ما يتَوخَّاه، وقد تَخلَّص إليها مِن كلامِهما[٢].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ فيه أنَّ عِلمَ التَّعبيرِ مِن العُلومِ الشَّرعيَّة، وأنَّه يُثابُ الإنسانُ على تعلُّمِه وتعليمِه، وأنَّ تعبيرَ المَرائي داخِلٌ في الفتوَى؛ فلا يجوزُ الإقدامُ على تعبيرِ الرُّؤيا من غيرِ عِلمٍ[٣].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ فيه أنَّ من وقع في مكروهٍ وشِدَّةٍ، لا بأس أن يستعينَ بمن له قدرةٌ على تخليصِه، أو الإخبارِ بحالِه، وأنَّ هذا لا يكونُ شكوى للمخلوقِ؛ فإنَّ هذا من الأمورِ العاديَّةِ التي جرى العُرفُ باستعانةِ النَّاسِ بعضِهم ببعضٍ[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ دليلٌ على جوازِ إطلاقِ اسمِ (الربِّ) -مع الإضافةِ- على غيرِ الله تعالى، وكذا قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أمَّا بلا إضافةٍ فلا يجوزُ إطلاقُه إلَّا على اللهِ فقط[٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ نسيانَ

(١) آثِرَ ذي أثيرٍ: أي: أوَّلَ كلِّ شيء. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٥٧٥)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٣٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ١٧٩).

الخيرِ يكونُ مِن الشَّيطانِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ ﴾ فيه تأخيرُ الفاعلِ عن المفعولِ؛ للاهتمامِ بالمقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ؛ ليَتمكَّنَ عند النَّفسِ حينَ وُرودِه عليها فضلَ تمكُّنٍ[٢].

- قولُه: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالِ مَن يقولُ: ما صَنَعا بعدَما دخَلا معه السِّجنَ؟ فأُجيبَ بأنَّه: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾[٣].

- قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ فيه التَّعبيرُ بالمضارعِ ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾ دون الماضي (رَأيتُني)؛ لاستِحْضارِ الصُّورةِ الماضيَةِ[٤].

- قولُه: ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾ يَعني عِنَبًا؛ ففيه تَسْميةُ الشَّيءِ بما يَؤُولُ إليه؛ لِكَونِه المقصودَ مِن العَصْرِ[٥].

- قولُه: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ﴾ فيه إجراءُ الضَّميرِ مَجرى اسمِ الإشارةِ (ذلك)؛

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٥).

فإنَّ اسمَ الإشارةِ يُشارُ به إلى مُتعدِّدٍ، والسِّرُّ في المصيرِ إلى إجراءِ الضَّميرِ مَجرى اسمِ الإشارةِ مع أنَّه لا حاجةَ إليه بعدَ تأويلِ المرجعِ بما ذُكِر أو بما رُئي: أنَّ الضَّميرَ إنَّما يتعرَّضُ لنفسِ المرجعِ مِن حيثُ هو مِن غيرِ تعرُّضٍ لحالٍ مِن أحوالِه؛ فلا يتَسنَّى تأويلُه بأحَدِ الاعتبارَينِ إلَّا بإجرائِه مَجرى اسمِ الإشارةِ الَّذي يدُلُّ على المشارِ إليه بالاعتبارِ الَّذي جَرى عليه في الكلامِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ للمُستفادِ مِن ﴿نَبِّئْنَا﴾ وهو عَرْضُ رُؤْياهما عليه، واستِفْسارُها منه عليه السَّلامُ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا...﴾ هذه الجملةُ جوابٌ عن كلامِهما؛ ففُصِلتْ -أي: لم تُعطَفْ على التي قبلَها- على أسلوبِ حِكايةِ جُمَلِ التَّحاوُرِ[٣].

- وقولُه: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ...﴾ فيه تَخصيصُ الطَّعامِ بالذِّكرِ؛ لكونِه عَريقًا في ذلك بحسَبِ الحالِ، مع ما فيه مِن مُراعاةِ حُسنِ التَّخلُّصِ إليه ممَّا استَعبَراه مِن الرُّؤيَيْنِ المتعلِّقتَين بالشَّرابِ والطَّعامِ[٤].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ ما في اسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ مِن مَعنى البُعدِ؛ للإشارةِ إلى عُلوِّ درَجتِه، وبُعدِ مَنزلتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٧٧).

- وجُملةُ ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ تعليلٌ لِمَا قبْلَها، أي: علَّمَني ذلك؛ لأنِّي ترَكتُ مِلَّةَ أولئك[١]، فأخْبَر بأنَّ سَببَ عِنايةِ اللهِ به أنَّه انفرَدَ في ذلك المكانِ بتَوحيدِ اللهِ، وترْكِ مِلَّةِ أهلِ المدينةِ، فأرادَ الله اختيارَه لدَيهم[٢].

- قولُه: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فيه التَّعبيرُ عن كُفرِهم باللهِ تعالى بسَلبِ الإيمانِ به؛ للتَّنصيصِ على أنَّ عِبادتَهم له تعالى مع عِبادةِ الأوثانِ ليسَت بإيمانٍ به تعالى، كما هو زَعمُهم الباطلُ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فيه تَكْرارُ ﴿هُمْ﴾ على سَبيلِ التَّوكيدِ، وحَسَّن ذلك الفَصْلُ[٤]؛ وقيل: للدَّلالةِ على أنَّهم خُصوصًا كافِرون بالآخرةِ، وأنَّ غيرَهم كانوا قومًا مؤمِنين بها، وهم الَّذين على مِلَّةِ إبراهيمَ[٥].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

- قُدِّم ذِكرُ تَركِه لمِلَّتِهم على ذِكرِ اتِّباعِه لملَّةِ آبائِه؛ لأنَّ التَّخلِيَةَ متقدِّمةٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٠).

وذكَر أبو حيان كلامَ الزمخشري، ثم قال: (وليسَت عندنا «هم» تدلُّ على الخصوصِ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٧)

قال السمين الحلبي: (قلتُ: لم يَقُل الزمخشري: إن «هم» تدلُّ على الخصوصِ، وإنَّما قال: تكرير «هم» للدلالة، فالتكريرُ هو الذي أفاد الخصوصَ، وهو معنًى حَسَنٌ فهِمه أهلُ البيانِ). ((الدر المصون)) (٦/ ٤٩٧).

التَّحليةِ[١].

- وجملةُ ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ في قوَّةِ البيانِ لِمَا اقتَضَتْه جُملَةُ ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ﴾ مِن كَونِ التَّوحيدِ صار كالسَّجيَّةِ لهم؛ عُرِف بها أسلافُه بينَ الأممِ، وعَرَّفهم بها لِنَفْسِه في هذه الفرصةِ[٢].

- وصيغةُ الجُحودِ ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ﴾ تَدُلُّ على المبالَغةِ في انتفاءِ الوصفِ عن الموصوفِ[٣].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ لتأكيدِ النَّفيِ، وأُدخِلتْ على المقصودِ بالنَّفيِ[٤].

- وجملةُ ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ زيادةٌ في الاستئنافِ والبيانِ؛ لقصدِ الترغيبِ في اتِّباعِ دِينِ التَّوحيدِ بأنَّه فضلٌ[٥].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فيه وضْعُ الظَّاهِرِ مَوضِعَ الضَّميرِ الرَّاجِعِ إلى النَّاسِ -حيث لم يَقُلْ: (أَكْثَرَهم)-؛ لزيادةِ توضيحٍ وبَيانٍ، ولِقَطعِ تَوهُّمِ رُجوعِه إلى المجموعِ الموهِمِ لعدَمِ اختِصاصِ غيرِ الشَّاكرِ بالنَّاسِ[٦].

٤- قولُه تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾

- قولُه: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ ناداهُما بعُنوانِ الصُّحبَةِ؛ ليُقْبِلا عليه ويَقْبَلا مَقالَتَه[٧] -وذلك على أحدِ وَجْهي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٨).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٨).

التفسيرِ- والجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ، مصدَّرةٌ بتوجيهِ الخطابِ إلى الفَتَيَيْنِ بطَريقِ النِّداءِ المستَرعِي سَمْعَهما إلى ما يَقولُه؛ للاهتمامِ به[١].

- قولُه: ﴿ءَأَرْبَابٌ﴾ فيه استفهامٌ تقريريٌّ؛ أراد به تَقْريرَهما بإبطالِ دينِهما[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، فإنَّه لما قال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾، قابَل تَفرُّقَ أربابِهم بقولِه: ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾، وجاء بصِفةِ ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّه تعالى له هذا الوصفُ الَّذي مَعناه الغَلَبةُ والقُدرةُ التَّامَّةُ، وإعلامًا بعُرُوِّ أصنامِهم عن هذا الوصفِ الَّذي لا يَنبَغي أن يُعبَدَ إلَّا المتَّصِفُ به[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ فيه قَصْرٌ إضافيٌّ، ومعنى قَصْرِها على أنَّها أسماءٌ، أنَّها أسماءٌ لا مُسمَّياتِ لها؛ فليس لها في الوجودِ إلَّا أسماؤُها[٤].

- وفي قولِه: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ لم يَذكُرِ المسمَّياتِ؛ تربيةً لِمَا يقتَضيه المقامُ من إسقاطِها عن مَرتَبةِ الوُجودِ، وإيذانًا بأنَّ تَسميَتَهم في البُطلانِ حيث كانت بلا مُسمًّى، كعِبادتِهم حيث كان بلا مَعبودٍ[٥].

- قولُه: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ فيه كنايةٌ عن بُطْلانِها؛ إذ إنزالُ السُّلطانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٨).

كنايةٌ عن إيجادِ دَليلِ إلهيَّتِها في شَواهِدِ العالَمِ، وليس ثَمَّةَ سُلطانٌ مُنزَّلٌ مِن اللهِ تعالى[١].

- وجملةُ ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ انتقالٌ مِن أدلَّةِ إثباتِ انْفِرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ إلى التَّعليمِ بامْتِثالِ أمْرِه ونَهْيِه؛ لأنَّ ذلك نتيجةُ إثباتِ الإلهيَّةِ والوَحْدانيَّةِ له؛ فهي بيانٌ لجُملَةِ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ مِن حيث ما فيها مِن مَعْنى الحُكمِ[٢].

- وجملةُ ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ خُلاصةٌ لِما تَقدَّم مِن الاستدلالِ، أي: ذلك الدِّينُ لا غَيرُه ممَّا أنتُم عليه وغيرُكم، وهو بمنزلةِ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ؛ لقولِه: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ * وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾

- قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ فيه افتتاحُ خِطابِهما بالنِّداءِ؛ اهتمامًا بما يُلقِيه إليهما مِن التعبيرِ، وخاطبَهما بوصْفِ صاحبي السِّجنِ أيضًا[٤].

- قولُه: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، إنَّما أخبَرَهما عليه السَّلامُ بذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢٧٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٧).

تَحقيقًا لِتَعبيرِه وتأكيدًا له. وفيه التَّعبيرُ عمَّا رَأَياه مِن الرُّؤيَيْنِ بالأمرِ، وعن طلَبِ تَأويلِه بالاستفتاءِ؛ تَهويلًا لأمرِه، وتفخيمًا لشأنِه؛ إذِ الاستفتاءُ إنَّما يَكونُ في النَّوازِلِ المشْكِلَةِ الحُكمِ، المبهَمَةِ الجوابِ، ووحَّد الأمرَ مع تَعدُّدِ رُؤياهما؛ لأنَّه وارِدٌ على حسَبِ ما وحَّدَه في قولِهما: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾[1].

- وفيه أيضًا إيثارُ صيغةِ الاستِقْبالِ ﴿تَسْتَفْتِيَانِ﴾ مع سَبْقِ استفتائِهما في ذلك؛ لأنَّهما بصَددِه إلى أن يَقضيَ عليه السَّلامُ مِن الجوابِ وَطَرَه[2].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾، فيه إيثارُ التَّعبيرِ بهذا عن صيغةِ المضارعِ (أنَّه سيَنجو)؛ مبالَغةً في الدَّلالةِ على تحقُّقِ النَّجاةِ حسَبما يُفيدُه قولُه تعالى: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، وهو السِّرُّ في إيثارِ ما عليهِ النَّظمُ الكريمُ، على أن يُقالَ: (للَّذي ظنَّه ناجيًا)، وإنَّما ذُكِر بوَصْفِ النَّجاةِ؛ تمهيدًا لِمَناطِ التَّوصيَةِ بالذِّكرِ عند الملِكِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٨٠).

الآيات (٤٢-٤٩)

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿عِجَافٌ﴾: أي: مَهازيلُ في غايةِ الضَّعفِ والهُزالِ، وأصلُ (عجف): يدلُّ على هُزالٍ[(١)].

﴿تَعْبُرُونَ﴾: أي: تفَسِّرونَ، والتَّعبيرُ: تفسيرُ ما تدُلُّ عليه الرُّؤيا، وتأويلُ إشاراتِها ورُموزِها، وأصلُ (عبر): يدلُّ على النُّفوذِ والمُضيِّ في الشَّيءِ[(٢)].

﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾: أي: أخلاطُ أحلامٍ، لا تأويلَ لها، وأصلُ (ضغث): يدلُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨١).

على التِباسِ الشَّيءِ بعضِه ببعضٍ، والأحلامُ جمعُ حُلْمٍ، وهو ما يراه الإنسانُ في نومِه[١].

﴿وَٱدَّكَرَ﴾: أي: تَذكَّرَ، وأصلُ (ذكر): يدلُّ على خِلافِ النِّسيانِ[٢].

﴿أُمَّةٍ﴾: أي: حِينٍ ومُدَّةٍ منَ الدَّهرِ، وأصلُ إطلاقِ الأُمَّةِ على المُدَّةِ الطويلةِ هو أنَّها زمَنٌ ينقَرِضُ في مِثلِه جِيلٌ، والجِيلُ يُسمَّى أُمَّةً[٣].

﴿دَأَبًا﴾: أي: مُلازَمةً لعادتِكم في الزِّراعةِ، والدَّأبُ: العادةُ والمُلازَمةُ، وأصلُ (دأب): يدُلُّ على مُلازمةٍ ودَوامٍ[٤].

﴿تُحۡصِنُونَ﴾: أي: تدَّخِرونَ وتَخزِنونَ، والإحصان: الإحرازُ، وهو إلقاءُ الشَّيءِ فيما هو كالحِصنِ- وهو الحِرزُ والمَلجأُ، وأصلُ (حصن): يدُلُّ على الحِفظِ والحِياطةِ والحِرْزِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٣).
قال أبو حيانَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ﴾: (وأصلُه: «واذْتَكَر» أُبْدِلَتِ التَّاءُ دالًا، وأُدْغِمَتِ الذَّالُ فيها، فصار «ادَّكَرَ»). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٠)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١/ ٣٦٨).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩١)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٣٨).

﴿يُغَاثُ﴾: أي: يُمطَرُ؛ مِن الغَيثِ: وهو المَطَرُ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وقال مَلِكُ مصرَ: إنِّي رأيتُ في منامي سبعَ بقَراتٍ سِمانٍ، يأكُلُهنَّ سَبعُ بقَراتٍ نَحيلاتٍ مِن الهُزالِ، ورأيتُ سبعَ سُنبُلاتٍ خُضرٍ، وسَبعَ سُنبُلاتٍ يابساتٍ، يا أيُّها الأشرافُ والكُبَراءُ أخبِروني عن هذه الرُّؤيا، إن كنتُم على علمٍ بتفسيرِ الرُّؤى، قالوا: رؤياك هذه أخلاطُ أحلامٍ لا تأويلَ لها، وما نحن بتفسيرِ الأحلامِ المختلطةِ بعالِمينَ، وقال الذي نجا من الفَتيَينِ اللَّذينِ كانا في السِّجنِ معَ يُوسفَ، وتذكَّرَ بعدَ مُدَّةٍ ما نَسيَ مِن أمرِ يوسُفَ، قال: أنا أُخبِرُكم بتأويلِ هذه الرُّؤيا، فابعَثوني إلى يوسُفَ المسجونِ؛ لآتيَكم بتفسيرِها، وعندما وصل الرَّجُلُ إلى يوسُفَ قال له: يوسُفُ أيُّها الصِّدِّيقُ فسِّرْ لنا رؤيا مَن رأى سبعَ بقراتٍ سِمانٍ يأكلُهنَّ سَبعُ بقَراتٍ هَزيلاتٍ، ورأى سبعَ سُنبُلاتٍ خُضرٍ وأُخَرَ يابساتٍ؛ لعلِّي أرجِعُ إلى المَلِك وأصحابِه فأُخبِرُهم؛ لِيعلموا تأويلَ ما سألتُك عنه، ولِيعلَموا مكانتَك وفَضلَك.

قال يوسُفُ لسائِلِه عن رُؤيا المَلِك: تفسيرُ هذه الرُّؤيا: أنَّكم تزرعونَ سبعَ سِنينَ مُتتابِعةً جادِّينَ لِيَكْثُرَ العَطاءُ، فما حصدتُم منه في كلِّ مرَّةٍ فادَّخِروه واترُكوه في سُنبُله؛ ؛ لئلَّا يَفْسُدَ، إلَّا قليلًا ممَّا تأكُلونَه من الحُبوبِ، ثمَّ يأتي بعد هذه السِّنينَ الخِصْبةِ سبعُ سنينَ شديدةُ الجَدْبِ، يُؤكَلُ فيهنَّ كلُّ ما ادَّخَرتُم لهنَّ مِن قَبلُ، إلَّا قليلًا ممَّا تَحفَظونَه وتدَّخِرونَه، ثمَّ يأتي مِن بعدِ هذه السِّنينَ المُجدِبةِ عامٌ يُمطَرُ فيه النَّاسُ، فيرفَعُ اللهُ تعالى عنهم الشِّدَّةَ، ويَعصِرونَ فيه الثِّمارَ؛ مِن كثرةِ الخِصْبِ والنَّماءِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا بطلَ السَّببُ الذي أمَرَ به يوسُفُ عليه السَّلامُ- وهو تذكيرُ السَّاقي به- أثار اللهُ سُبحانه سَببًا يُنفِّذُ به ما أراد مِن رئاستِه[١].

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾.

أي: وقال مَلِكُ مِصرَ[٢] لجُلَسائِه: إنِّي رأيتُ في المنامِ سبعَ بقَراتٍ سِمانٍ يأكُلُهنَّ سبعُ بقراتٍ هَزْلى[٣]!

﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾.

أي: ورأيتُ في منامي سبعَ سُنبُلاتٍ خُضرٍ، وسبعَ سُنبُلاتٍ أُخرَى يابسة[٤]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٩٨).

(٢) قال ابنُ عاشورٍ: (سمَّاه القرآنُ هنا ملكًا، ولم يسمِّه فرعونَ؛ لأنَّ هذا الملكَ لم يكنْ مِن الفراعنةِ ملوكِ مصرَ القبطِ، وإنَّما كان ملكًا لمصرَ أيامَ حَكَمها «الهِكْسُوسُ»، وهم العمالقةُ، وهم مِن الكنعانيين، أو مِن العربِ، ويُعبِّر عنهم مؤرخو الإغريقِ بملوكِ الرعاةِ، أي: البدوِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٠) ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣٤٨).

قال الرسعني: (﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي: وسبعًا أخرَ يابساتٍ قد استُحصدنْ يأكُلْنَ الخضرَ، فحُذِف اكتفاءً بدلالةِ الأولِ عليه). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣٤٩).

وممن نصَّ على أنَّ المراد: أكلُ السَّنابلِ اليابساتِ للخُضْرِ، كما وقع بين البقَرِ السِّمانِ والعِجافِ: ابن الجوزي، القرطبي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي))

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾.

أي: قال المَلِكُ لِمن حَولَه: يا أيُّها الأشرافُ، أخبِروني بتفسيرِ رُؤياي إن كنتُم على عِلمٍ ودرايةٍ بذلك[1].

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾.

أي: قال الأشرافُ للمَلِك: رُؤياك هذه ليسَت بشيءٍ، إنَّما هي أخلاطُ أحلامٍ، لا حقيقةَ لها[2].

﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

أي: ولَسْنا على علمٍ بتفسيرِ الأحلامِ المُختلِطةِ[3].

(٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٩).

وقال الشوكاني: (والمعنَى: وأرى سبعًا أُخَرَ يابِساتٍ، وكان قد رأى أنَّ السَّبعَ السُّنبلاتِ اليابِساتِ قد أدْرَكتِ الخضْرَ والتَوَتْ عليها حتَّى غَلَبَتها، ولعلَّ عدمَ التَّعَرُّضِ لذِكْرِ هذا في النَّظمِ القرآنيِّ للاكتفاءِ بما ذُكِر مِن حالِ البقراتِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧)، وممن نصَّ على نحو هذا المعنَى: السمعاني والواحدي والبغوي والزمخشري والرازي وأبو حيان. ينظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦١٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧٧، ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧٨، ١٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨٠، ١٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤٢).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: الزجاج، وابن جرير، وابن الجوزي. يُنظر: المصادر السابقة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾.

أي: وقال الذي نجا من الفَتيَينِ اللَّذينِ كانا في السِّجنِ معَ يُوسفَ، وتذكَّرَ بعدَ مُدَّةٍ مِن الزَّمنِ ما كان من شأنِ يوسُفَ مِن عِلمِه بتعبيرِ الرُّؤى، وما أوصاه به مِن ذِكرِ أمْرِه عند سَيِّدِه المَلِك[1].

﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾.

أي: أنا أُخبِرُكم بتأويلِ رُؤيا المَلِك، فابعَثوني أذهَبْ إلى يوسُفَ المَسجونِ؛ لأسألَه تَعبيرَها[2].

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾.

أي: فأرسَلوه إليه، فقال له: يا يوسُفَ، يا كثيرَ الصِّدقِ في أقوالِك وأفعالِك، أخبِرْنا بتعبيرِ رُؤيا سبعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يأكُلُهنَّ سبعُ بقراتٍ هَزْلى، وسَبعِ سُنبُلاتٍ

وقيل المراد: أنَّهم نفَوا عن أنفُسِهم العلمَ بتأويلِ الرُّؤى قاطبةً. وممن اختار هذا القول: ابنُ جزي، وأبو حيانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٢)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٩).

خُضرٍ، وسَبعِ سُنبُلاتٍ أخرى يابسةٍ[١].

﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: فسِّرْ هذه الرُّؤيا؛ لَعلِّي أرجِعُ إلى المَلِك وجُلَسائِه لِيَعلَموا تعبيرَها، ويَعلَموا عِلمَك وفَضلَك، فتخرُجَ مِن السِّجنِ[٢].

﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾.

﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾.

أي: قال يوسُفُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُفَسِّرًا رُؤيا المَلِك: تَزرعونَ سَبعَ سَنواتٍ خِصبةٍ مُتَتابعةٍ، على عادتِكم في الزِّراعةِ[٣].

﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾.

أي: اترُكوا محصولَ زَرعِكم في سُنبُلِه؛ لئلَّا يَفْسُدَ، وكُلوا منه قليلًا بقَدرِ حاجتِكم، وادَّخِروا أكثَرَ مَحصولِكم[٤].

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨﴾.

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾.

أي: ثمَّ يجيءُ مِن بعدِ السِّنينَ السَّبعِ الخِصبةِ سَبعُ سَنواتٍ شَديدةِ الجَدبِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

يُؤكَلُ فيهنَّ جميعُ ما ادَّخَرتُم لأجلِهنَّ مِن مَحصولِ زَرعِكم في السنين السبعِ الخصبةِ، إلَّا قليلًا منه يبقَى في حِرزِه[١].

عن أبي هُريرةَ رَضيَ الله عنه، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعو في القُنوتِ: اللهُمَّ أنجِ سَلَمةَ بنَ هِشامٍ، اللهمَّ أنجِ الوليدَ بنَ الوَليدِ، اللهمَّ أنجِ عيَّاشَ بنَ أبي ربيعةَ، اللهُمَّ أنجِ المُستَضعفينَ مِن المُؤمنينَ، اللهمَّ اشدُدْ وطأتَك على مُضَرَ، اللهمَّ سِنينَ كَسِنِي يوسُفَ[٢]))[٣].

وعَنْ مَسْرُوق قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَبْد الله فَقَالَ: ((إنَّ النَّبِيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا رأَى مِنَ النَّاسِ إدبارًا قالَ: اللَّهُمَّ سَبْعٌ كسَبْعِ يُوسُفَ))[٤].

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾.

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾.

أي: ثمَّ يجيءُ مِن بعدِ سَبعِ السَّنواتِ المُجدِبةِ عامٌ يُمطِرُ اللهُ فيه النَّاسَ الأمطارَ الكثيرةَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).
قال القرطبي: (﴿مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ أي: ممَّا تحبِسونَ لِتَزرعوا؛ لأنَّ في استبقاءِ البَذرِ تَحصينَ الأقواتِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٤).

(٢) قال ابنُ حجر: (والمرادُ «بسني يوسف» ما وقَع في زمانِه عليه السلامُ مِن القحطِ في السنينَ السبعِ، كما وقَع في التنزيلِ، وقد بيَّن ذلك في الحديثِ الثاني حيث قال: «سبعًا كسبعِ يوسفَ»، وأُضِيفتْ إليه؛ لكونِه الذي أنذَر بها، أو لكونِه الذي قام بأمورِ الناسِ فيها). ((فتح الباري)) (٢/ ٤٩٣).

(٣) رواه البخاري (٢٩٣٢) واللفظ له، ومسلم (٦٧٥).

(٤) أخرجه البخاري (١٠٠٧)، ومسلم (٢٧٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).
﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ معناه يُمطرونَ، وهو قولُ جمهورِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥١).

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾.

أي: وفي ذلك العامِ يَعصِرُ النَّاسُ الأعنابَ والدُّهنَ وغيرَ ذلك[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ هذا جَزمٌ منهم بما لا يَعلَمونَ، وتعَذُّرٌ منهم بما ليس بعُذرٍ، فجمَعوا بين الجهلِ والجَزمِ بأنَّها أضغاثُ أحلامٍ، والإعجابِ بالنَّفسِ، بحيث إنَّهم لم يقولوا: لا نعلَمُ تأويلَها، وهذا من الأمورِ التي لا تنبغي لأهلِ الدِّينِ والحِجا[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ من أراد أن يتعلَّمَ مِن رجلٍ شَيئًا، فإنَّه يجِبُ عليه أن يُعظِّمَه، وأن يُخاطِبَه بالألفاظِ المُشعِرةِ بالإجلالِ[٣].

وقال الواحدي: (ويجوزُ أن يكونَ مِن قولِهم: أغاثه الله، إذا أنقَذه مِن كربٍ أو غمٍّ. ومعناه يُنقَذُ الناسُ فيه مِن كربِ الجدبِ). ((البسيط)) (١٢/ ١٣٩).

قال ابن جرير: (وهذا خبرٌ مِن يوسُفَ عليه السَّلامُ للقومِ عمَّا لم يكنْ في رؤيا مَلِكِهم، ولكنَّه مِن عِلمِ الغيبِ الذي آتاه الله؛ دلالةً على نبوَّتِه، وحُجَّةً على صِدقِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩٢).

وقال ابنُ عطيةَ: (ويحتملُ هذا ألَّا يكونَ غيبًا، بل علمُ العبارةِ أعطَى انقطاعَ الجدبِ بعدَ سبعٍ، ومعلومٌ أنَّه لا يقطعُه إلا خصبٌ شافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٠).

وقال السعدي: (ولعلَّ استدلالَه على وجودِ هذا العامِ الخصبِ، مع أنَّه غيرُ مصرَّحٍ به في رُؤيا الملك؛ لأنَّه فهِم مِن التقديرِ بالسبعِ الشدادِ، أنَّ العامَ الذي يَلِيها يزولُ به شدَّتُها، ومِن المعلومِ أنَّه لا يزولُ الجدبُ المستمرُّ سبعَ سنينَ متوالياتٍ، إلا بعامٍ مخصبٍ جدًّا، وإلَّا لما كان للتقديرِ فائدةٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠)، ويُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) (ص: ١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٦٥).

٣- ينبغي للمَسؤولِ أن يدُلَّ السَّائلَ على أمرٍ ينفَعُه ممَّا يتعلَّقُ بسُؤالِه، ويُرشِدُه إلى الطَّريقِ التي ينتَفِعُ بها في دينِه ودُنياه؛ فإنَّ هذا مِن كمالِ نُصحِه وفِطنتِه، وحُسنِ إرشادِه؛ فإنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ لم يقتصِرْ على تعبيرِ رُؤيا المَلِك، بل دلَّهم مع ذلك على ما يصنعونَ في تلك السِّنينَ المُخصِباتِ مِن كثرةِ الزَّرعِ، وكَثرةِ جِبايتِه، فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾[1].

٤- ينبغي ويتأكَّدُ على المعَلِّم استعمالُ الإخلاصِ التامِّ في تعليمِه، وألَّا يجعَلَ تعليمَه وسيلةً لمعاوَضةِ أحدٍ في مالٍ أو جاهٍ أو نفعٍ، وألَّا يمتنِعَ مِن التَّعليم، أو لا ينصَح فيه، إذا لم يَفعَل السائلُ ما كلَّفَه به المعلِّمُ؛ فإنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ وصَّى أحدَ الفَتيينِ أن يذكُرَه عند ربِّه؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ فلم يذكُرْه ونَسِيَ، فلمَّا بدَت حاجتُهم إلى سؤالِ يوسُفَ أرسَلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلًا مُستفتيًا عن تلك الرُّؤيا قائلًا: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فلم يعَنِّفْه يوسفُ ولا وبَّخَه لِتركِه ذِكرَه، بل أجابه عن سؤالِه جوابًا تامًّا مِن كلِّ وَجهٍ ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ...﴾[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- اللهُ سُبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا هيَّأَ له أسبابًا، ولَمَّا دنا فرَجُ يوسُفَ عليه السَّلامُ، رأى مَلِكُ مصرَ في النَّومِ تلك الرُّؤيا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٦٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ ... ﴾ هذه الآيةُ مِن أُصولِ التَّعبيرِ[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ ... ﴾ فيه صِحَّةُ رُؤيا الكافرِ[٢].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ ﴾ فيه جوازُ تَسميةِ الكافرِ مَلِكًا[٣].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ فيه أنَّ مَن قال: إنَّ الرُّؤيا لأوَّلِ عابرٍ، ليس عامًّا في كلِّ رُؤيا؛ لأنَّهم قالوا: ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ ولم تَسقُطْ بقَولِهم ذلك، فتُخَصُّ تلك القاعدةُ بما يَحتمِلُ مِن الرُّؤيا وُجوهًا فيُعبَّرُ بأحدِها فتقَعُ عليه[٤].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ هذا مِن لُطفِ اللهِ بيوسُفَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّه لو عبَّرَها ابتداءً- قبل أن يَعرِضَها المَلِكُ على الملأِ مِن قَومِه وعُلمائِهم فيَعجِزوا عنها- لم يكن لها ذلك الموقِعُ، ولكِنْ لَمَّا عرَضَها عليهم فعَجَزوا عن الجوابِ، وكان المَلِكُ مهتَمًّا لها، فعبَّرَها يوسُفُ- وقَعَت عندهم موقعًا عظيمًا[٥].

٧- قال الله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ إنَّما وصفَه بالصِّدِّيقِ -وهو المُبالِغُ في الصِّدقِ- لأنَّه جرَّبَ أحوالَه، وعرَفَ صِدقَه في تأويلِ رُؤياه ورُؤيا

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٩).

صاحِبِه[١].

٨- قوله: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ أي: في تأويلِ رؤيا ذلك، ولم يُغيِّرْ لفظَ الملكِ؛ لأنَّ التعبيرَ يكونُ على وَفْقِه، كما بيَّنوه[٢].

٩- قال الله تعالى حاكيًا عن يوسفَ: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أشار إلى إبقاءِ ما فضَل عن أقواتِهم في سنبلِه؛ ليكونَ أسلمَ له من إصابةِ السوسِ الذي يصيبُ الحبَّ إذا تراكَم بعضُه على بعضٍ، فإذا كان في سنبلِه دفَع عنه السوسَ[٣].

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في القَولِ بالمصالحِ الشَّرعيَّةِ- التي هي حِفظُ الأديانِ والنُّفوسِ، والعُقولِ والأنسابِ والأموالِ- فكُلُّ ما تضمَّنَ تحصيلَ شَيءٍ من هذه الأمورِ فهو مصلحةٌ، وكلُّ ما يُفوِّتُ شيئًا منها فهو مَفسَدةٌ، ودَفعُه مصلحةٌ، ولا خِلافَ أنَّ مقصودَ الشَّرائعِ إرشادُ النَّاسِ إلى مصالحِهم الدُّنيويَّةِ؛ ليحصُلَ لهم التمَكُّنُ مِن معرفةِ الله تعالى وعبادتِه المُوصِلَتينِ إلى السَّعادةِ الأُخرويَّة، ومراعاةُ ذلك فضلٌ مِن اللهِ -عزَّ وجَلَّ- ورحمةٌ[٤].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ فيه أنَّ جِبايةَ الأرزاقِ- إذا أُريدَ بها التَّوسِعةُ على النَّاسِ مِن غيرِ ضَررٍ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٣).

يَلحَقُهم- لا بأسَ بها؛ لأنَّ يوسُفَ أمَرَهم بجِبايةِ الأرزاقِ والأطعِمةِ في السِّنينَ المُخصِباتِ؛ للاستعدادِ للسِّنينَ المُجدِبة، وأنَّ هذا غيرُ مُناقِضٍ للتوكُّلِ على اللهِ، بل يتوكَّلُ العَبدُ على اللهِ ويعمَلُ بالأسبابِ التي تنفَعُه في دِينِه ودُنياه[١].

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ هذا زيادةٌ على ما وقعَ السُّؤالُ عنه، فيُستدَلُّ به على أنَّه لا بأسَ بذلك في تعبيرِ الرُّؤيا والفتوى[٢].

١٣- قولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ أحكامُ هذا العامِ المبارَكِ ليست مُستنبَطةً مِن رؤيا الملِكِ وإنَّما تلَقَّاها عليه السَّلامُ مِن جهةِ الوحيِ، على أحدِ القولينِ، فبشَّرهم بها بعدَما أوَّلَ الرُّؤيا بما أوَّلَ، وأمرَهم بالتَّدبيرِ اللَّائقِ في شأنِه؛ إبانةً لِعُلوِّ كَعبِه ورُسوخِ قَدمِه في الفضلِ، وأنَّه مُحيطٌ بما لَمْ يَخطُرْ ببالِ أحدٍ، فضلًا عمَّا يُرى صورتُه في المنامِ على نحوِ قولِه لِصاحِبَيهِ عندَ استِفْتائِهما في مَنامِهما: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧]، وإتمامًا للنِّعمةِ عليه حيث لم يُشارِكْه عليه السَّلامُ في العِلمِ بوُقوعها أحدٌ، ولو برؤيةِ ما يَدُلُّ عليها في المنامِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾، أي: (رَأيتُ)، وإيثارُ صيغةِ المضارِعِ لحِكايةِ الحالِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٣).

الماضيةِ[١].

- قولُه: ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ فيه العُدولُ إلى صيغةِ المضارعِ؛ لاستِحْضارِ الصُّورةِ؛ تعجُّبًا[٢].

- وبينَ ﴿سِمَانٍ﴾ و﴿عِجَافٌ﴾ مُزاوَجةٌ بَلاغيَّةٌ حسَنةٌ؛ ذلك أنَّ ﴿عِجَافٌ﴾ جَمعُ عَجْفاءَ، والقياسُ في جَمْعِ عَجْفاءَ (عُجْفٌ)، لكنَّه صِيغَ هنا بوَزنِ فِعَالٍ؛ لِمُزاوَجةِ (سِمَانٍ)[٣].

- وفي قولِه: ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث لم يَقُل: (سبعُ عِجافٍ) بالإضافةِ؛ لأنَّ التَّمييزَ موضوعٌ لبيانِ الجنسِ، والصِّفةُ ليست بصالحةٍ؛ لذلك فلا يُقالُ: ثلاثةُ ضِخامٍ وأربعةُ غِلاظٍ، وأمَّا قولُك: ثلاثةُ فُرسانٍ وخمسةُ رُكبانٍ؛ فلِجَرَيانِ الفارسِ والرَّاكبِ مَجرى الأسماءِ[٤].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ فيه التَّعبيرُ عن التَّعبيرِ بالإفتاءِ؛ لِتَشريفِهم، وتَفخيمِ أمرِ رؤياه[٥].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ فيه الجمعُ بينَ الماضِي والمستقبَلِ؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ، واللَّامُ في ﴿لِلرُّءْيَا﴾ للبيانِ، أو لتقويةِ العاملِ المؤخَّرِ لرعايةِ الفواصِلِ، أو لِتَضمينِ ﴿تَعْبُرُونَ﴾ معنى فِعلٍ متعَدٍّ باللَّامِ، كأنَّه قيل: (إن كُنتم تَنتدِبون لعِبارتِها)[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٨٠، ٢٨١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٨١).

- وتَقديمُ ﴿لِلرُّءۡيَا﴾ على عاملِه وهو ﴿تَعۡبُرُونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ مع الاهتمامِ بالرُّؤيا في التَّعبيرِ[١].

- قولُه: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السُّؤالِ؛ كأنَّه قيل: فماذا قال الملأُ للمَلِكِ؟ فقيل: قالوا: هي ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾[٢].

- وجمَعوا الأحلامَ وهي رُؤيا واحدةٌ؛ مُبالَغةً في وصفِها بالبُطلانِ، كما في قولِهم: فلانٌ يَركَبُ الخيلَ، ويَلبَسُ العَمائمَ، لِمَن لا يَملِكُ إلَّا فرَسًا واحدًا، وعِمامةً فَرْدةً؛ تَزيُّدًا في الوصفِ، فهؤلاء أيضًا تَزيَّدوا في وصْفِ الحُلمِ بالبطلانِ، فجعَلوه أضغاثَ أحلامٍ. أو جمَعوها لِتَضمُّنِها أشياءَ مُختلِفةً مِن البقَراتِ السَّبعِ السِّمانِ والسَّبعِ العِجافِ، والسَّنابلِ السَّبعِ الخُضرِ والأُخَرِ اليابساتِ. وقيل: ويجوزُ أن يكونَ قد قَصَّ عليهم مع هذه الرُّؤيا رُؤيا غيرَها[٣].

- جملةُ: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ فيها ابتداءُ الكَلامِ بضَميرِ السَّاقي ﴿أَنَا۠﴾، وجَعَله مُسنَدًا إليه؛ وجَعَل خبَرَه فِعليًّا ﴿أُنَبِّئُكُم﴾؛ لِقَصدِ استِجْلابِ تَعجُّبِ الملِكِ مِن أن يَكونَ السَّاقي يُنبِّئُ بتَأويلِ رُؤيا استَعْصَت على عُلماءِ بَلاطِ الملِكِ، مع إفادةِ تَقَوِّي الحُكْمِ، وهو إنباؤُه إيَّاهم بتَأويلِها[٤].

- وضمائرُ جمْعِ المخاطَبِ في ﴿أُنَبِّئُكُم﴾ ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ مُخاطَبٌ بها الملِكُ على وجْهِ التَّعظيمِ[٥].

- وقولُه أيضًا: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ فيه حذفُ المعمولِ؛ حيثُ لم يُسمِّ لهم المُرسَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إليه؛ لأنَّه أراد أنْ يُفاجِئَهم بخبرِ يُوسُفَ عليه السَّلامُ بعدَ حُصولِ تَعبيرِه؛ ليكونَ أوقعَ؛ إذ ليس مِثلُه مَظِنَّةَ أنْ يكونَ بينَ المساجِينِ[١].

٢- **قولُه تعالى:** ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ مِن بابِ بَراعةِ الاستِهْلالِ؛ حيث وصَفه بالمبالَغةِ في الصِّدقِ حسَبَما شاهَده وذاق أحوالَه وجرَّبَها، وتَعرَّف صِدقَه في تأويلِ رُؤياه ورُؤيا صاحبِه، حيث جاء كما أوَّلَ؛ لِكَونِه بصَدَدِ اغتنامِ آثارِه، واقتباسِ أنوارِه[٢].

- قولُه: ﴿أَفۡتِنَا﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ حيث قال: ﴿أَفۡتِنَا﴾، ولم يَقُلْ كما قال هو وصاحبُه أوَّلًا: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ﴾؛ لأنَّه عايَنَ عُلوَّ رُتبتِه عليه السَّلامُ في الفضلِ، فعبَّر عن ذلك بالإفتاءِ، وأيضًا في قولِه: ﴿أَفۡتِنَا﴾ مع أنَّه المستفتي وحْدَه إشعارٌ بأنَّ الرُّؤيا ليسَت له، بل لِغَيرِه ممَّن له مُلابَسةٌ بأمورِ العامَّةِ، وأنَّه في ذلك مَعْبرٌ وسَفيرٌ[٣].

- وكلَّمَه كلامَ مُحترِزٍ فقال: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، ولم يَبُتَّ القولَ في ذلك مُجاراةً معه على نَهجِ الأدبِ، واحترازًا عن المجازفةِ؛ لأنَّه ليس على يقينٍ مِن الرُّجوعِ؛ فربَّما اختُرِم دونَه، ولا مِن عِلمِهم؛ فرُبَّما لم يَعلَموا، أو معنى ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ لعلَّهم يعلَمون فضْلَك ومَكانَك مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢).

العلمِ، فيَطلُبوك، ويُخلِّصوك مِن مِحنتِك[١].

- قولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (لعلَّ) كالتَّعليلِ لقولِه: ﴿أَفْتِنَا﴾[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾

- قولُه: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ خبرٌ في مَعنى الأمرِ: (ازْرَعوا)[٣]؛ للمُبالَغةِ في إيجابِ إنجازِ المأمورِ به، فيُجعَلُ كأنَّه وُجِد، فهو يُخبِرُ عنه، والدَّليلُ على كونِه في معنى الأمرِ قولُه: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن بعدِ السِّنينَ السَّبعِ المذكوراتِ، وإنَّما لم يَقُلْ: (مِن بعدِهنَّ) قصدًا إلى الإشارةِ إلى وَصفِهنَّ؛ فإنَّ الضَّميرَ ساكتٌ عن أوصافِ المرجعِ بالكُلِّيَّةِ[٥].

- قولُه: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ أمْرَه عليه السَّلامُ بذلك كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٥).

(٣) لكن قال أبو حيان: (ولا يدلُّ الأمرُ بتركِه في سنبلِه على أنَّ ﴿تَزْرَعُونَ﴾ في معنى ازْرَعوا، بل ﴿تَزْرَعُونَ﴾ إخبارُ غيبٍ بما يكونُ منهم مِن توالي الزرعِ سبعَ سنين. وأمَّا قولُه: ﴿فَذَرُوهُ﴾ فهو أمرُ إشارةٍ بما يَنْبغي أن يَفْعلوه). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٥)، وتبعه السمينُ فقال: (قلت: هذا هو الظاهرُ، ولا مَدْخَلَ لأمرِه لهم بالزِّراعةِ؛ لأنَّهم يَزْرعون على عادتِهم، أمَرَهم أو لم يأمرْهم، وإنَّما يحتاجُ إلى الأمرِ فيما لم يكنْ مِن عادةِ الإنسانِ أن يفعلَه كتَرْكِه في سُنْبله). ((الدر المصون)) (٦/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٣).

لوقتِ الضَّرورةِ، وفيه تَلويحٌ بأنَّه تأويلٌ لأكلِ العِجافِ السِّمانَ، واللَّامُ في ﴿لَهُنَّ﴾ تَرشيحٌ لذلك؛ فكأنَّ ما ادُّخِرَ في السَّنابلِ مِن الحبوبِ شيءٌ قد هُيِّئَ وقُدِّم لهنَّ كالَّذي يُقدَّمُ للنَّازلِ، وإلَّا فهو في الحقيقةِ مُقدَّمٌ للنَّاسِ فيهِنَّ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيث عبَّر عنه بالعامِ، ولم يُعبِّرْ عنه بالسَّنةِ؛ تَحاشِيًا عن المدلولِ الأصليِّ لها مِن عامِ القَحطِ، وتَنبيهًا مِنْ أوَّلِ الأمرِ عَلى اختِلافِ الحالِ بينَه وبينَ السَّوابقِ[٢].

- قولُه: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ فيه التَّعرُّضُ لذِكرِ العَصرِ -مع جَوازِ الاكتفاءِ عنه بذِكرِ الغيثِ المستلزِمِ له عادةً، كما اكتُفي به عن ذِكرِ تَصرُّفِهم في الحبوبِ-؛ إمَّا لأنَّ استِلزامَ الغيثِ له ليس كاستِلزامِه للحبوبِ؛ إذِ المذكوراتُ يتَوقَّفُ صَلاحُها على مَبادٍ أخرى غيرِ المطَرِ، وإمَّا لمراعاةِ جانبِ المستفتي باعتبارِ حالتِه الخاصَّةِ به بِشارةً له، وهي الَّتي يَدورُ عليها حُسْنُ موقِعِ تَغليبِه على النَّاسِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥٠-٥٢)

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَطْبُكُنَّ﴾: أي: أمرُكنَّ وشَأنُكنَّ. والخَطْبُ: الأمرُ العظيمُ، وأصلُ (خطب): يدُلُّ على الأمرِ يقَعُ؛ وإنَّما سُمِّيَ بذلك لِما يقَعُ فيه من التَّخاطُبِ والمُراجَعةِ[١].

﴿حَصْحَصَ﴾: أي: وضَحَ وتَبيَّنَ، وأصلُ (حصَّ): يدلُّ على وُضوحِ الشَّيءِ وتَمكُّنِه[٢].

﴿لَأَمَّارَةٌ﴾: أي: كثيرةُ الأمرِ، وأصلُ (أمر): خلافُ النَّهيِ[٣].

المعنَى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ المَلِكَ لَمَّا علِمَ بتأويلِ رُؤياه قال لأعوانِه: أخرِجوا هذا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١٠).

الرجُلَ المعبِّرَ للرُّؤيا من السِّجنِ، وأحضِروه لي، فلمَّا جاءه رسولُ المَلِك يدعوه، قال يوسُفُ للرَّسولِ: ارجِعْ إلى سَيِّدِك المَلِك، واطلُبْ منه أن يسألَ النِّسوةَ اللَّاتي جَرَحْنَ أيديَهنَّ عن حقيقةِ أمْرِهنَّ وشأنِهنَّ معي؛ لتظهَرَ الحقيقةُ للجميعِ، وتتَّضِحَ براءتي، إنَّ رَبِّي عليمٌ بصَنيعِهِنَّ وأفعالِهِنَّ، لا يخفى عليه- سُبحانه- شَيءٌ مِن ذلك، فدعا المَلِكُ النِّسوةَ اللَّاتي جرَحْنَ أيديَهنَّ، وقال لهنَّ: ما شأنُكنَّ حين راودتُنَّ يوسُفَ عن نفسِه يومَ الضِّيافةِ؟ فهل رأيتُنَّ منه ما يَريبُ؟ قُلنَ: معاذَ اللهِ ما عَلِمْنا عليه أدنى شيءٍ يَشِينُه، عند ذلك قالت امرأةُ العزيزِ: الآنَ ظهرَ الحَقُّ بعدَ خفائِه، فأنا التي حاوَلْتُ فِتنَتَه بإغرائِه فامتنَعَ، وإنَّه لَمِنَ الصَّادقينَ في كُلِّ ما قاله، ذلك القَولُ الذي قُلتُه في تنزيهِه والإقرارِ على نفسي؛ ليعلمَ يوسُفُ أنِّي لم أخُنْه بالكَذِبِ عليه حالَ غَيبتِه عنِّي، وأنَّ اللهَ لا يُوَفِّقُ أهلَ الخيانةِ، ولا يُرشِدُهم في خيانتِهم، قالت امرأةُ العزيز: وما أزَكِّي نفسي ولا أُبَرِّئُها؛ إنَّ النَّفسَ لَكثيرةُ الأمرِ لصاحِبِها بعمَلِ المعاصي؛ طلبًا لمَلذَّاتِها، إلَّا مَن عصَمَه الله، إنَّ اللهَ غفورٌ لذُنوبِ مَن تاب مِن عبادِه، رحيمٌ بهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾.

أي: ولَمَّا عَلِمَ المَلِكُ بتأويلِ رُؤياه قال: أخرِجوا الذي عبَّرَ رُؤيايَ هذه مِن السِّجنِ، وأحضِروه إليَّ[1].

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

﴿ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾.

أي: فلمَّا جاء يوسفَ رسولُ المَلِك؛ ليُخرِجَه من السِّجنِ، قال له يوسُفُ: ارجِعْ إلى سيِّدِك المَلِك فاسأَلْه ما شأنُ النِّساءِ اللَّاتي قطَّعْنَ أيديَهنَّ؛ ليعلَمَ صِحَّةَ براءتي[١].

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لو لبثتُ في السِّجنِ طولَ لُبْثِ يوسُفَ، لأجبتُ الدَّاعيَ[٢]))[٣].

﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بمَكرِ النِّساءِ بي وبغيري من النَّاسِ عليمٌ، لا يخفى عليه ذلك[٤].

﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾.

﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾.

أي: فرجَع رسولُ الملكِ إليه، وأخبَره برسالةِ يوسفَ، فدعا الملكُ النسوةَ اللاتي قطَّعن أيديهنَّ وامرأةَ العزيزِ، فقال لهن: ما شأنُكنَّ وخبَرُكنَّ حين راودتُنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

(٢) قال ابن حجر: («لأَجَبْتُ الدَّاعِي» أي لأسرعتُ الإجابةَ في الخروجِ مِن السِّجنِ ولَمَا قَدَّمْتُ طَلَبَ البراءةِ، فوصَفَه بشِدَّةِ الصَّبرِ، حيثُ لم يُبادِرْ بالخروجِ، وإنَّما قاله صلَّى الله عليه وسلَّم تواضعًا، والتَّواضعُ لا يَحُطُّ مرتبةَ الكبيرِ، بل يَزيدُه رفعةً وجلالاً، وقيلَ هو من جنسِ قولِه: «لا تُفَضِّلوني على يُونُسَ» وقد قيلَ: إنَّه قالَه قبلَ أنْ يعلمَ أنَّه أفضلُ مِن الجميعِ). ((فتح الباري)) (٦/ ٤١٣).

(٣) رواه البخاري (٣٣٧٢) ومسلم (١٥١)، واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٠٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٣٣).

يوسُفَ عن نفسِه[١]؟!

﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

أي: قال النِّسوةُ للمَلِك: معاذَ اللهِ أن يكونَ يوسُفُ متَّهمًا بسوءٍ، ما عَلِمْنا على يوسُفَ مِن ذنبٍ صغيرٍ ولا كبيرٍ[٢]!

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

أي: قالت امرأةُ العزيزِ: الآن تبيَّنَ الحَقُّ وظهر، أنا راودتُ يوسُفَ عن نفسِه، وإنَّه لَمِنَ الصَّادقينَ في قولِه: هي راودَتْني عن نفسي[٣].

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾.

أي: قالت امرأةُ العزيزِ: ذلك الإقرارُ والاعترافُ بالحَقِّ؛ ليعلمَ يوسُفُ أنِّي لم أكذِبْ عليه، ولم أرْمِه بالذَّنبِ في حالِ غَيبتِه عنِّي[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

(٤) وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ تيميَّة، وأبو حيانَ، وابنُ القيم، والقاسميُّ، ومحمد رشيد رضا، واستظهره ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٩٨) و (١٥/ ١٣٩ - ١٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣١٩ - ٣٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٩٢).

قال السعدي: (يحتملُ أنَّ مُرادَها بذلك زوجُها، أي: ليعلمَ أني حين أقررتُ أنِّي راودتُ يوسُفَ، أنِّي لم أخُنْه بالغيبِ، أي: لم يجْرِ مني إلَّا مجرَّدُ المراودةِ، ولم أُفسِدْ عليه فِراشَه، ويحتملُ أنَّ

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾.

أي: وصدْعتُ بالحَقِّ؛ لأنَّ الله لا يسَدِّدُ حِيَلَ مَن خان الأماناتِ، بل يُبطِلُ كَيدَهم، ويَحرِمُهم الهِدايةَ[1].

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان في الكلامِ السَّابقِ نوعُ تَزكيةٍ لنَفسِها، وأنَّه لم يجْرِ منها ذنبٌ في شأنِ يوسُفَ عليه السَّلامُ؛ استدركَتْ فقالت[2]:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾.

أي: ولسْتُ أُبرِّئُ نفسي من الخطأِ والهَمِّ بذلك الإثمِ، والقيامِ بالمكائدِ

المراد بذلك: ليعلمَ يوسُفُ حين أقررتُ أنِّي أنا الذي راودتُه، وأنَّه صادِقٌ، أني لم أخُنْه في حالِ غيبتِه عنِّي). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠)، ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٨٦).
والاحتمالُ الأولُ هو اختيارُ ابنِ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٤، ٣٩٥).
وقيل: القائل هو يوسُفُ، والمعنى: ما فعلتُه مِن عدَمِ خُروجي من السِّجنِ مع رسولِ المَلِك، وطَلَبي من المَلِك أن يسأل النسوةَ اللاتي قطَّعنَ أيديَهنَّ عن قصَّتِهنَّ، إنَّما فعَلْتُه ليعلمَ العزيزُ أنِّي لم أرتكِبْ فاحشةً مع زوجتِه في حالِ غَيبتِه عنِّي. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، والواحديُّ- ونسبه لعامة المفسِّرين- والزمخشري، والجلال السيوطيُّ، والألوسي، ونسبه الشوكانيُّ إلى أكثرِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢١٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٩، ٤٨١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٣١١)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١).
وممن قال مِن السلف أنَّ هذا من قولِ يوسفَ: مجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وعكرمة، وابنُ أبي الهذيلِ، والضحَّاكُ، والحسنُ، وقتادةُ، والسديُّ، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٥).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٥١)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٠).

والحِيَلِ؛ لأجلِ ذلك[١].

﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾.

أي: لا أدَّعي براءةَ نفسي؛ لأنَّ نُفوسَ العبادِ كثيرًا ما تأمُرُهم بما تَهواه من المعاصي، إلَّا مَن رَحِمَ الله فعصَمَهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥).

واختار أنَّ هذا قولُ امرأةِ العزيزِ: ابنُ تيمية، وأبو حيان، وابنُ القيم، وابنُ كثيرٍ، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٩٨) و (١٥/ ١٣٩-١٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣١٩-٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٩٢).

قال ابن تيمية: (ما ذُكِرَ مِن قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣] إنما يناسِبُ حالَ امرأة العزيزِ، لا يناسِبُ حال يوسف؛ فإضافةُ الذنوبِ إلى يوسُفَ في هذه القضيةِ فِريةٌ على الكتابِ والرَّسولِ، وفيه تحريفٌ للكَلِم عن مواضعه، وفيه الاغتيابُ لنبيٍّ كريم، وقولُ الباطلِ فيه بلا دليلٍ، ونِسبتُه إلى ما نزَّهَه الله منه، وغيرُ مُستبعَدٍ أن يكونَ أصلُ هذا منَ اليهودِ أهلِ البُهتِ، الذين كانوا يرمونَ موسى بما برَّأه الله منه، فكيف بغيرِه من الأنبياءِ؟!). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٤٩، ١٥٠).

وقيل: هو قولُ يوسُفَ عليه الصَّلاة والسَّلام. ونسبه الخازن إلى أكثر المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٣٤). واختاره ابنُ جرير وغيره. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٠٩).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ قيل: هو مِن قولِ المرأةِ. وقال القشيري: فالظَّاهِرُ أنَّ قولَه: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾، وقولَه: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ من قولِ يوسُفَ. قلت: إذا احتمَل أن يكونَ مِن قولِ المرأةِ فالقولُ به أولَى حتى نبرئَ يوسفَ مِن حلِّ الإزارِ والسراويلِ، وإذا قدَّرناه مِن قولِ يوسفَ فيكونُ مما خطَر بقلبِه، على ما قدَّمناه مِن القولِ المختارِ في قولِه: ﴿وَهَمَّ بِهَاۖ﴾ [يوسف: ٢٤]). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥).

قال ابنُ عطية: (﴿ٱلنَّفۡسَ﴾ اسمُ جنسٍ، فصحَّ أن تقعَ ﴿مَا﴾ مكان «من»؛ إذ هي كذلك في صفاتِ مَن يعقلُ، وفي أجناسِه... ويجوزُ أن تكونَ ﴿مَا﴾ ظرفيةً، والمعنى: إنَّ النفسَ

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ مِن شأنِه أنَّه كثيرُ الصَّفحِ عن ذنوبِ عبادِه التَّائبينَ، فيَستُرُها عليهم، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم فلا يعذِّبُهم، ويقبَلُ توبتَهم، ويوفِّقُهم للخيرِ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ يدلُّ على فضيلةِ العِلم؛ فإنَّه سُبحانه جعل علمَ يوسُفَ عليه السَّلامُ سببًا لخَلاصِه مِن المِحنةِ الدُّنيويَّة، فكيف لا يكونُ العِلمُ سَببًا للخَلاصِ مِن المِحَن الأُخرويَّة[٢].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فيه سَعيُ الإنسانِ في براءةِ نَفسِه؛ لئلَّا يُتَّهمَ بخيانةٍ أو نَحوِها، خصوصًا الأكابرَ، ومَن يُقتدى بهم[٣]، فتبرئةُ العِرضِ مِن التُّهَمِ الباطلةِ مَقصِدٌ شَرعيٌّ[٤].

لأمارةٌ بالسوءِ إلا مدةَ رحمةِ الله العبدَ، وذهابِه عن اشتهاءِ المعاصي). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

قال ابنُ القيِّم: (فتأمَّلْ: ما أعجَبَ أمْرَ هذه المرأةِ؛ أقَرَّت بالحَقِّ، واعتَذَرت عن محبوبِها، ثمَّ اعتَذَرت عن نَفسِها، ثمَّ ذَكَرت السَّببَ الحامِلَ لها على ما فعَلَت، ثمَّ ختمت ذلك بالطَّمَعِ في مَغفرةِ اللهِ ورَحمتِه، وأنَّه إن لم يرحَمْ عَبدَه وإلَّا فهو عُرضةٌ للشَّرِّ!! فوازِنْ بين هذا وبين تقديرِ كَونِ هذا الكلامِ كَلامَ يُوسُفَ عليه السَّلامُ لفظًا ومعنًى، وتأمَّلْ ما بين التَّقديرينِ مِن التفاوُتِ! ولا يُستبعَدُ أن تَقولَ المرأةُ هذا وهي على دينِ الشِّركِ؛ فإنَّ القومَ كانوا يُقِرُّونَ بالرَّبِّ سُبحانه وتعالى وبحَقِّه، وإن أشركوا معه غيرَه، ولا تنْسَ قَولَ سَيِّدِها لها في أوَّلِ الحالِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَٰطِـِٔينَ﴾). ((روضة المحبين)) (ص: ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٨).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ هذه حِكمةٌ عظيمةٌ تحِقُّ بأن يُؤتَسى بها، وهي تطَلُّبُ المسجونِ باطلًا أن يبقى في السِّجنِ حتى تتبيَّنَ براءتُه من السبَبِ الذي سُجِنَ لأجلِه، وهي راجِعةٌ إلى التحلِّي بالصبرِ حتى يظهرَ النَّصرُ(١).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ في اعترافِ امرأةِ العزيزِ بحضرةِ المَلِك عِبرةٌ بفضيلةِ الاعترافِ بالحَقِّ، وتبرئةِ البَريءِ ممَّا أُلصِقَ به، ومِن خشيةِ عِقابِ الله الخائنينَ(٢).

٥- مِنْ عَجائبِ الجَزاءِ في الدُّنْيا أنَّه لمَّا بَغَتْ على يوسف عليه السلام المرأةُ بدَعْواها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ أنْطَقَها الحقَّ بقولِها: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾(٣).

٦- عاقبَ اللهُ كلَّ خائنٍ بأنَّه يُضِلُّ كَيدَه ويُبطِلُه، ولا يهديه لمقصودِه وإن نال بعضَه، فالذي ناله سببٌ لزيادةِ عُقوبتِه وخَيبتِه؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾(٤).

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ أُطلِقَت الهدايةُ- التي هي الإرشادُ إلى الطريقِ المُوصلةِ إلى تيسيرِ الوُصولِ- وأُطلِقَ نفيُها على نفيِ ذلك التَّيسيرِ، أي: أنَّ سُنَّةَ الله في الكونِ جَرَت على أنَّ فُنونَ الباطِلِ- وإن راجَت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٦).
(٣) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٦٦).
(٤) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٥٩).

أوائِلُها- لا تلبَثُ أن تنقَشِعَ[١].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ أصلٌ في التَّواضُعِ، وكَسرِ النَّفسِ، وهَضمِها[٢].

٩- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ دليلٌ على أنَّ هذا وصفُ النَّفسِ مِن حيثُ هي، وأنَّها لا تخرُجُ عن هذا الوَصفِ إلَّا برَحمةٍ مِن اللهِ وعنايةٍ منه؛ لأنَّ النَّفسَ ظالِمةٌ جاهِلةٌ، والظُّلمُ والجَهلُ لا يأتي منهما إلَّا كُلُّ شَرٍّ، فإنْ رَحِمَ اللهُ العبدَ، ومَنَّ عليه بالعِلمِ النَّافعِ، وسُلوكِ طريقِ العَدلِ في أخلاقِه وأعمالِه، خرَجَت نفسُه مِن هذا الوَصفِ، وصارت مُطمَئنَّةً إلى طاعةِ اللهِ وذِكرِه، ولم تأمُرْ صاحِبَها إلَّا بالخيرِ، ويكونُ مآلُها إلى فضلِ الله وثوابِه؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠] فعلى العبدِ أن يسعَى في إصلاحِ نَفسِه، وإخراجِها مِن هذا الوصفِ المذمومِ، وهو أنَّها أمَّارةٌ بالسُّوءِ، وذلك بالاجتهادِ، وتخَلُّقِها بأحسَنِ الأخلاقِ، وسُؤالِ اللهِ على الدَّوامِ، وأن يُكثِرَ مِن الدعاءِ المأثورِ[٣]: ((اهدِني لأحسَنِ الأخلاقِ؛ لا يَهدي لأحسَنِها إلَّا أنت، واصرِفْ عنِّي سَيِّئَها؛ لا يصرِفُ عني سَيِّئَها إلَّا أنت))[٤].

١٠- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ هذا يدُلُّ على أنَّه ليس كلُّ نفسٍ أمَّارةً بالسُّوءِ، بل ما رَحِمَ ربِّي ليس فيه النَّفسُ الأمَّارةُ بالسُّوءِ، وقد ذكَرَ طائفةٌ مِن النَّاسِ أنَّ النَّفسَ لها ثلاثةُ أحوالٍ: تكونُ أمَّارةً بالسُّوءِ، ثم تكونُ لوَّامةً، أي: تفعلُ الذَّنبَ، ثمَّ تلومُ عليه، أو تتلوَّمُ فتترَدَّدُ بين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٥).
(٣) أخرجه مسلم (٧٧١) مطولًا من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٤) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٤٣).

الذَّنبِ والتَّوبة، ثمَّ تصيرُ مُطمَئنَّةً[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ...﴾ الذي فَعلَه يُوسُف مِن الصَّبْر والتَّوَقُّف إلى أن تَفَحَّصَ المَلِكُ عن حالِه هو اللَّائِق بالحَزْم والعَقْل، وبَيانُه مِن وُجوه:

الأَوَّل: أنَّه لو خَرَج في الحالِ فرُبَّما كان يَبْقَى في قلبِ المَلِك مِن تلك التُّهْمَةِ أثرُها، فلمَّا الْتَمَس مِن المَلِكِ أن يَتَفَحَّص عن حالِ تلك الواقِعَة دَلَّ ذلك على بَراءَتِه مِن تلك التُّهْمَة، فبعدَ خُروجِه لا يَقدِرُ أحدٌ أن يُلَطِّخَه بتلك الرَّذيلَةِ، وأن يَتَوَسَّل بها إلى الطَّعْنِ فيه.

الثَّاني: أنَّ الإنسانَ الذي بَقِيَ في السِّجْنِ بِضْعَ سِنين إذا طَلَبه المَلِكُ وأمَر بإخْراجِه؛ الظَّاهِرُ أنَّه يُبادِرُ بالخُروجِ، فحيثُ لم يَخرُجْ عرَف منه كونَه في نِهايةِ العَقْلِ والصَّبرِ والثَّباتِ، وذلك يَصيرُ سَبَبًا لأن يَعتَقِدَ فيه بالبَراءَةِ عن جَميعِ أَنواعِ التُّهَمِ، ولأن يَحكُمَ بأنَّ كُلَّ ما قِيلَ فيه كان كَذِبًا وبُهتانًا.

الثَّالِث: أنَّ الْتِماسَه مِن المَلِك أن يَتَفَحَّصَ عن حالِه مِن تلك النِّسْوَة يَدُلُّ أيضًا على شِدَّةِ طَهارَتِه؛ إذ لو كان مُلَوَّثًا بوجهٍ ما، لكان خائِفًا أن يَذكُرَ ما سبَق[٢].

٢- قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾، إنَّما قال: ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ وسَكَتَ عنِ امرأةِ العَزيزِ، وفي ذلك عدةُ أوجهٍ:

الأول: أنَّه جعَلَ السُّؤالَ عن النِّسوةِ اللاتي قطَّعنَ أيديَهنَّ دونَ امرأةِ العزيز؛ تسهيلًا للكشفِ عن أمرِها؛ لأنَّ ذِكرَها مع مكانةِ زَوجِها من المَلِك ربَّما

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٦٦).

يصرِفُ المَلِكَ عن الكشفِ؛ رعيًا للعزيز، ولأنَّ حديثَ المتَّكأِ شاع بينَ الناسِ، وأصبحت قضيَّةُ يوسفَ عليه السلام مشهورةً بذلك اليوم، وأيضًا فإنَّ النسوةَ كنَّ شواهدَ على إقرارِ امرأةِ العزيزِ بأنَّها راودَتْ يوسُفَ عليه السلامُ عن نفسِه[١].

الثاني: أنَّه سكَت عنها، أدبًا واحترامًا، وحُسْنَ عِشْرَةٍ[٢] ورِعايَةً لِذِمَامِ العَزيزِ، ووفاءً له فهو زوجُها[٣].

الثالثُ: أنَّ في سؤالِه عنها تهمةً، ربَّما صار بها متَّهمًا[٤].

الرابعُ: خَوْفًا مِن كَيْدِها، وعَظيمِ شَرِّها، واحترازًا عن مكرِها[٥].

٣- في قولِه: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ حثٌّ للمَلِكِ على الجِدِّ في التَّفتيشِ؛ لِتتبيَّنَ بَرءاتُه، وتتَّضِحَ نَزاهتُه؛ إذ السُّؤالُ ممَّا يُهيِّجُ الإنسانَ على الاهتمامِ في البحثِ للتَّقصِّي عمَّا توجَّه إليه؛ لأنَّه يأنفُ مِن الجهلِ، وأمَّا الطَّلبُ فمِمَّا قد يُتسامَحُ ويُتساهَلُ فيه، ولا يُبالَى به؛ لذا لم يَقُلْ: فاسأَلْه أن يُفتِّشَ عن ذلك[٦].

٤- في قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ذَكَرَ يُوسفُ عليه السَّلامُ السَّؤالَ عن تَقْطِيعِ الأَيْدِي، ولم يذكُرْ مُراودتَهنَّ له؛ تَنَزُّهًا منه عن نِسْبَةِ ذلك إليهنَّ، ولذلك لم يَنْسِبِ المُراودةَ فيما تَقَدَّمَ إلى امرأةِ العَزيزِ إلَّا بعدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١١٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١)، ((روح البيان)) للخلوتي (٤/ ٢٧١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤٤٧).

أنْ رَمَتْه بِدائِها وانْسَلَّتْ. وقد اكتَفَى هنا بالإِشارَةِ الإجماليَّةِ بقولِه: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، فجَعَل عِلْمَ اللَّهِ سبحانه بما وَقَع عليه مِن الكيدِ منهنَّ مُغْنيًا عن التَّصريحِ[١]، مُجاملةً معَهنَّ، واحتِرازًا عن سوءِ قالَتِهنَّ عندَ المَلِكِ وانتِصابِهنَّ للخُصومةِ؛ مُدافَعةً عن أنفُسِهنَّ متى سَمِعنَ بنِسْبتِه لهنَّ إلى الفسادِ[٢]. وقيل: اقتصَر على وصفِهنَّ بتَقطيعِ الأيدي، ولم يُصرِّحْ بمُراودَتِهنَّ له؛ لأنَّه كان يَطمَعُ في صَدْعِهنَّ بالحقِّ، وشَهادتِهنَّ بإقرارِها بأنَّها راوَدَتْه عن نفسِه، فاستَعصَم[٣].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ في قَولِ المَلِك لهنَّ: ﴿رَاوَدتُّنَّ﴾ دليلٌ على أنَّ براءتَه كانت متحَقِّقةً عند كلِّ مَن عَلِمَ القِصَّةَ[٤].

٦- في قَولِه تعالى عن امرأةِ العزيزِ: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وكذا عن النِّسوةِ: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ إشارةٌ إلى نَفيِ ما قد ذَكَرَه طائفةٌ مِن المفسِّرينَ مِن أنَّه وُجِدَ مِن يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعضُ المقَدِّماتِ، مثلُ حَلِّ السَّراويلِ، والجلوسِ مَجْلِسَ الخاتِنِ، فلو كان قد بَدَتْ منه هذه المقَدِّماتُ لكانت المرأةُ قد رأتْ ذلك، وقولُه تعالى: ﴿مِن سُوءٍ﴾ نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ، فدلَّ ذلك على أنَّ المرأةَ لم تَرَ منه سوءًا[٥].

٧- قولُ امرأةِ العزيزِ: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ هذا القولُ منها- وإنْ لم يكُنْ سأل عنه -إظهارٌ لتوبتِها، وتحقيقٌ لِصدقِ يوسُفَ وكرامتِه؛ لأنَّ إقرارَ المُقِرِّ على نفسِه أقوى من الشَّهادةِ عليه، فجمع اللهُ تعالى ليوسُفَ-

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٨٥).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٢٥).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٠).

لإظهارِ صِدقِه- الشَّهادةَ والإقرارَ، حتى لا يخامِرَ نَفسًا ظَنٌّ، ولا يُخالِطَها شَكٌّ[١].

٨- تَمَدَّحَت امْرأةُ العَزيز بِعَدَم الخِيانَة على أَبلَغِ وَجْهٍ بِقَولِها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ إذْ نَفَت الخِيانَة في المَغيب، وهو حائِل بينه وبين دِفاعِه عن نَفسِه، وحالةُ المَغيب أَمكَن لِمُريدِ الخِيانَة أن يَخونَ فيها مِن حالَةِ الحَضْرَةِ؛ لأنَّ الحاضِر قد يَتَفَطَّن لِقَصْدِ الخائِن فَيَدفَع خِيانَتَه بالحُجَّة[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾، هذا السُّؤالُ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ دُون طلَبِ الفَهم؛ لأنَّ السائِلَ عالِمٌ بالأمْرِ المسؤولِ عنه، وإنَّما يُريدُ السائلُ حَثَّ المسؤولِ عن عِلمِ الخَبرِ على ما يُريدُ[٣].

- وقدَّمَ سُؤالَ النِّسوةِ؛ لِيُظهِرَ بَراءَةَ ساحَتِه عمَّا رُمي به وسُجِن فيه؛ لِئَلَّا يتَسلَّقَ به الحاسِدون إلى تَقْبيحِ أمْرِه عِندَه، ويَجعَلوه سُلَّمًا إلى حَطِّ مَنزِلتِه لدَيْه، ولِئَلَّا يَقولوا: ما خُلِّد في السِّجنِ بضعةَ سِنينَ إلَّا لأمْرٍ عَظيمٍ، وجُرْمٍ كبيرٍ، حقَّ به أن يُسجَنَ ويُعذَّبَ، ويُستَكَفَّ شَرُّه[٤].

- جملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ تَذييلٌ وتعريضٌ بأنَّ الكشْفَ المطلوبَ سيَنْجَلي عن بَراءتِه، وظهورِ كَيْدِ الكائداتِ له؛ ثِقةً باللهِ ربِّه أنَّه ناصِرُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٩).

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- جُمْلَةُ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الجُمَلَ الَّتي سبَقَتْها تُثيرُ سُؤالًا في نَفْسِ السَّامعِ عمَّا حصَل مِن الملِكِ لَمَّا أُبلغَ إليه اقتراحُ يوسُفَ عليه السَّلامُ[١].

- قولُه: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ فيها مُبالَغةٌ في النَّفيِ والتَّنزيهِ، وتَعجُّبٌ مِن نَزاهتِه وعِفَّتِه عليه السَّلامُ[٢].

- وجملةُ ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ مُبيِّنةٌ لإجمالِ النَّفيِ الَّذي في ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾، وفيها مُبالَغةٌ في نَفْيِ جِنْسِ السُّوءِ عنه بتَنْكيرِ ﴿سُوٓءٍ﴾، وزيادةِ ﴿مِن﴾[٣].

- وجاءت جُملةُ ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ مَفصولةً- أي: غيرَ مَعطوفةٍ على التي قَبْلَها-؛ لأنَّها حِكايةُ جوابٍ عن سؤالِ الملِكِ، والتَّعبيرُ بالماضِي ﴿حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ مع أنَّه لم يَثبُتْ إلَّا مِن إقرارِها الذي لم يَسبِقْ؛ لأنَّه قريبُ الوقوعِ؛ فهو لتقريبِ زَمَنِ الحالِ مِن المضيِّ، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ ثُبوتَ الحقِّ بقولِ النِّسوةِ: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾؛ فيَكونَ الماضِي على حقيقتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٩١).

- وفي قولِها: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ تقديمُ اسم الزَّمانِ ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاختصاصِ، أي: الآن لا قبْلَه؛ للدَّلالةِ على أنَّ ما قَبلَ ذلك الزمانِ كان زَمنَ باطلٍ، وهو زمنُ تُهمةِ يُوسُفَ عليه السَّلامُ بالمراودةِ؛ فالقَصرُ قَصْرُ تعيينٍ؛ إذ كان الملكُ لا يَدري أيُّ الوقتَينِ وقتُ الصِّدقِ؛ أهو وقتُ اعترافِ النِّسوةِ بنزاهةِ يُوسفَ عليه السَّلامُ، أم هو وقتُ رمْيِ امرأةِ العزيزِ إيَّاه بالمُراودةِ[١].

- وجملةُ ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ فيها تَقديمُ المسنَدِ إليه ﴿أَنَا۠﴾ على المسنَدِ الفعليِّ ﴿رَٰوَدتُّهُۥ﴾ وهو يُفيدُ القَصْرَ؛ وذلك لإبطالِ أن يَكونَ هو راوَدَها، فهذا إقرارٌ مِنها على نَفْسِها، وشَهادةٌ لِغَيرِها بالبراءةِ، وزادَت فأكَّدَت صِدقَه بـ (إنَّ) واللَّامِ في: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

- ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ كالاحْتِراسِ ممَّا يقْتَضيه قولُها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] مِن أنَّ تَبْرِئةَ نَفْسِها مِن هذا الذَّنْبِ العظيمِ ادَّعاءٌ بأنَّ نَفْسَها بَريئةٌ بَراءةً عامَّةً فقالتْ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾[٣].

- جُمْلَةُ ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ تعليلٌ لجملةِ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾؛ أي: لا أدَّعي بَراءةَ نَفْسي مِن ارتكابِ الذَّنبِ؛ لأنَّ النُّفوسَ كثيرةُ الأمرِ بالسُّوءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥).

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه إيثارُ الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ مع التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ؛ لتربيةِ مَبادئِ المغفرةِ والرَّحمةِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٦).

الآيات (٥٤-٥٧)

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾: أي: أجعَلْه مِن خُلَصائي دونَ غيري، أو أُفوِّضْ إليه أمرَ مَملكتي، وأصْلُ (خلص): يدلُّ على تنقيةِ الشَّيءِ وتهذيبِه[١].

﴿مَكِينٌ﴾: أي: مُتمكِّنٌ ممَّا أردتَ، نافذُ القولِ، أو: ذو مَكانةٍ ومنزِلةٍ خاصَّةٍ[٢].

﴿يَتَبَوَّأُ﴾: أي: يَنزِلُ، وأصْلُ (بوأ): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ[٣].

المعنى الإجْماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ مَلِكَ مصرَ قال حين عَلِمَ بَراءةَ يوسُفَ: جيئُوني به أجعَلْه مِن خُلَصائي وأهلِ مَشورتي، فلَمَّا جاء يوسُفُ، وكلَّمَه المَلِكُ، وعرَفَ براءتَه، وعظيمَ أمانتِه، وحُسنَ خُلُقِه؛ قال له: إنَّك اليومَ عندنا عظيمُ المَكانةِ، ومُؤتمَنٌ على كلِّ شَيءٍ، وأراد يوسُفُ أن ينفعَ العبادَ، ويُقيمَ العدلَ بينهم، فقال للمَلِكِ: اجعَلْني واليًا على خزائنِ مِصرَ؛ فإنِّي خازِنٌ أمينٌ، ذو عِلمٍ وبصيرةٍ بما أتولَّاه، وكما أنعَمَ اللَّهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) (٢/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١٢)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيَّان (ص: ٢٨٥)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٨).

على يوسُفَ بالخَلاصِ مِن السِّجنِ، مكَّنَ له في أرضِ مصرَ ينزِلُ منها أيَّ مَنزِلٍ شاءَه، يُصيبُ اللهُ برَحمتِه مَن يشاءُ مِن عبادِه المتَّقينَ، ولا يُضيعُ أجرَ مَن أحسَنَ شيئًا مِن العمَلِ الصَّالحِ، ولَثوابُ الآخرةِ عندَ اللهِ لأهلِ الإيمانِ والتَّقوى- الَّذين يخافونَ عِقابَ اللهِ، ويُطيعونَه في أمرِه ونَهيِه- أعظَمُ مِن ثوابِ الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓۖ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓۖ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾.

أي: وقال ملِكُ مصرَ لَمَّا عَلِمَ بَراءةَ يوسُفَ، وعرَفَ فضْلَه وعِلْمَه، وحِكمتَه وحُسْنَ خُلُقِه، وصَبْرَه وعِفَّتَه: ائْتوني بيوسُفَ مِن السِّجنِ أجعَلْه مِن خاصَّتي وأهلِ مَشورَتي، خالِصًا لنَفْسي لا يُشارِكُني فيه أحدٌ[1].

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾.

أي: فلَمَّا كلَّمَه الملِكُ، ورَأى فضْلَه وخِصالَه الحميدةَ، زادت مكانتُه لديه، فقال له: إنَّك قد صِرْتَ عندنا ذا مَكانةٍ وأمانةٍ، مُتمكِّنًا ممَّا أردْتَ، أمينًا على ما نأْتَمِنُك عليه[2].

﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١٠، ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

وقال القرطبيُّ: (﴿مَكِينٌ أَمِينٞ﴾: أي: متمكِّنٌ، نافذُ القولِ، ﴿أَمِينٞ﴾: لا تخافُ غدرًا). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١٢).

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلها:

أنَّه لَمَّا وصَفَه الملِكُ بالتَّمكُّنِ عنده والأمانةِ، طلَبَ مِن الأعمالِ ما يُناسِبُ هذينِ الوصفينِ[(١)].

﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: قال له يوسُفُ طلبًا للمصلحَةِ العامَّةِ: وكِّلْني على خَزائنِ الأموالِ والطَّعامِ في أرضِ مصرَ؛ لحفْظِها وتدْبيرِها[(٢)].

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾.

أي: إنِّي حافظٌ وخازنٌ، أمينٌ للخَزائنِ الَّتي استودعْتَني، ذو عِلْمٍ وبصَرٍ بما أتولَّاه منها، فأعْلَمُ كيفيَّةَ تدْبيرِها والتَّصرُّفِ فيها، دون أنْ يضيعَ شيءٌ منها في غيرِ مَحَلِّه[(٣)].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿نَشَاءُ﴾ بالنُّونِ، بجَعلِ الفِعلِ للَّهِ تعالى[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

(٤) قرأ بها ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجَّة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٦)، ((الكشف عن وجوه القراءات السبع)) لمكي بن أبي طالب (٢/ ١١).

٢- قِراءةُ ﴿يَشَاءُ﴾ بالياءِ، بجَعلِ الفِعلِ لِيوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾.

أي: ومثْلَ ما أنعَمْنا على يوسُفَ بإنْجائِه مِن السِّجنِ، وتقْريبِه إلى قلْبِ الملِكِ، أقْدَرْناه في أرضِ مصرَ، يتَّخذُ منها منزِلًا حيث يشاءُ[٢].

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾.

أي: نُصيبُ برحْمتِنا في الدُّنيا والآخِرةِ مَن نشاءُ مِن عِبادِنا، كما رَحِمْنا يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣].

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: ولا نُبْطِلُ جَزاءَ الَّذينَ أحْسَنوا أعمالَهم بالطَّاعةِ، وترْكِ المَعصيةِ، فنُثيبُهم في الدُّنيا والآخِرةِ كما أثَبْنا يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٤].

كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٦).
قال ابنُ عاشورٍ: (قرأ الجمهورُ ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ بياءِ الغَيبةِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ بنونِ العظمةِ، أي: حيث يشاءُ اللهُ، أي: حيث نأمرُه أو نُلهمُه، والمعنى متَّحدٌ؛ لأنَّه لا يشاء إلَّا ما شاءه اللهُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).
قال ابنُ كثيرٍ: (﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وما أضَعْنا صبْرَ يُوسفَ على أذى إخوتِه، وصبْرَه على الحبسِ بسببِ امرأةِ العزيزِ؛ فلهذا أعقَبَه اللهُ عزَّ وجلَّ السَّلامةَ والنَّصرَ والتَّأييدَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٦).

دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلها:

لَمَّا كان عِزُّ الدُّنيا لا يُعَدُّ في الحقيقةِ إلَّا إنْ كان موصولًا بنَعيمِ الآخِرةِ؛ نبَّهَ على ما له في الآخِرةِ ممَّا لا يُعَدُّ هذا في جنْبِه شيئًا، فقال تعالى[1]:

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾.

أي: ولَثوابُ اللَّهِ في الآخِرةِ خيرٌ مِن ثَوابِ الدُّنيا، للمُؤمنينَ المتَّقينَ، الَّذينَ يُؤمنونَ بِما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، ويمتثِلونَ ما أمَرَ اللَّهُ تعالى به، ويجْتنِبونَ ما نهَى عنه[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه فَضيلةُ العِلْمِ؛ عِلْمِ الأحكامِ والشَّرعِ، وعِلْمِ تعْبيرِ الرُّؤيا، وعِلْمِ التَّدبيرِ والتَّربيةِ، وأنَّه أفضَلُ مِن الصُّورةِ الظَّاهِرةِ، ولو بلَغَ الشَّخصُ في الحُسْنِ جَمالَ يوسُفَ؛ فإنَّ يوسُفَ -بسَبَبِ جَمالِه- حصَلَت له تلك المِحنةُ والسِّجنُ، وبسَبَبِ عِلْمِه حصَلَ له العِزُّ والرِّفعَةُ والتَّمكينُ في الأرضِ؛ فإنَّ كلَّ خيرٍ في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

الدُّنيا والآخِرةِ مِن آثارِ العِلْمِ وموجِباتِه[١].

٢- قال اللَّهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ هذه الآيةُ أصْلٌ لوُجوبِ عرْضِ المَرءِ نفسَه لِولايةِ عمَلٍ مِن أمورِ الأُمَّةِ إذا علِمَ أنَّه لا يصلُحُ له غيرُه؛ لأنَّ ذلك مِن النُّصحِ للأُمَّةِ، وخاصَّةً إذا لم يكُنْ ممَّن يُتَّهمُ على إيثارِ منفعَةِ نفسِه على مصلحَةِ الأُمَّةِ، وقد علِمَ يوسُفُ عليه السَّلامُ أنَّه أفضلُ النَّاسِ هنالك؛ لأنَّه كان المُؤمنَ الوحيدَ في ذلك القُطْرِ، فهو لإيمانِه باللَّهِ يبُثُّ أصولَ الفضائلِ الَّتي تقْتَضيها شَريعةُ آبائِه إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، عليهم السَّلامُ[٢].

٣- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ فيه أنَّ المؤمنَ يُثابُ على حَسَناتِه في الدُّنيا والآخِرةِ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، وكذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، فيه أنَّ الإحسانَ في عبادةِ اللهِ، والإحسانَ إلى العبادِ سببٌ يُنالُ به العِلمُ، وتُنالُ به خيراتُ الدُّنيا والآخرةِ، فجعل اللهُ الإحسانَ سببًا لنَيلِ هذه المراتبِ العاليةِ[٤].

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ فيه أنَّ اللَّهَ واسِعُ الجودِ والكرَمِ؛ يجودُ على عبْدِه بخيرِ الدُّنيا والآخرةِ، وأنَّ خيرَ الآخرةِ له سَبَبانِ: الإيمانُ والتَّقوى، وأنَّه خيرٌ مِن ثَوابِ الدُّنيا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٢).
(٤) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٢).

ومُلْكِها، وأنَّ العبدَ ينبَغي له أن يدعُوَ نفسَه ويُشوِّقَها لِثَوابِ اللَّهِ، ولا يدَعَها تحزَنُ إذا رأَت أهلَ الدُّنيا ولذَّاتِها وهي غيرُ قادرةٍ عليها، بل يُسلِّيها بثَوابِ اللَّهِ الأُخرويِّ وفضلِه العظيمِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[1].

٦- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ الآيةُ فيها مِن العِبرةِ: أنَّ المَظلومَ المَحسودَ إذا صبَرَ واتَّقى اللَّهَ، كانت له العاقِبةُ[2].

٧- مَن ترَكَ للَّهِ شيئًا عوَّضَه اللَّهُ خيرًا منه؛ كما ترَكَ يوسُفُ الصِّدِّيقُ عليه السَّلامُ امرأَةَ العزيزِ للَّهِ، واخْتارَ السِّجنَ على الفاحِشةِ، فعوَّضَه اللَّهُ أنْ مكَّنَه في الأرضِ يتبوَّأُ منها حيث يشاءُ، فتأمَّلْ كيف جَزاهُ اللَّهُ سبحانه وتعالى على ضِيقِ السِّجنِ أنْ مكَّنَه في الأرضِ ينزِلُ منها حيث يشاءُ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ وأذلَّ له العزيزَ وامرأَتَه، وأقرَّتِ المرأةُ والنِّسوةُ ببَراءتِه، وهذه سُنَّتُه تعالى في عِبادِه قديمًا وحديثًا إلى يومِ القيامةِ[3].

٨- في قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الطَّاعةَ تُثْمِرُ الرِّزقَ في الدُّنيا، ويُعْطَى المؤمنُ الأجْرَ عليها في الدُّنيا، ولا يَنْقُصُ ذلك مِن ثوابِه عند اللَّهِ شيئًا، كما يُعْطَى الكافِرُ بالشَّيْءِ يَسْكُنُ له في الدُّنيا، ولا يكونُ لهُ في الآخِرَةِ نَصيبٌ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٨١)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٤٥).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦١٩).

٩- في قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ نَيْلَ الدُّنيا- إذا لم يَشغَلْ عنِ الآخِرةِ- غيرُ مَذْموم، ويكونُ المُعْطَى به مرحومًا، غيرَ مَسْخوطٍ عليه، وأنَّه وإنْ كان كذلك فأَجْرُ الآخِرةِ خَيْرٌ منه؛ لقولِه تبارك وتعالى مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[1].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- الوِلايةُ لها رُكنانِ: القوَّةُ والأمانةُ، قال اللَّهُ تعالى عن صاحبِ مصرَ: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ وقال تعالى أيضًا عنِ ابنةِ الرَّجلِ الصَّالحِ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[2] [القصص: ٢٦]، فالوِلاياتُ الكِبارُ والصِّغارُ لا بُدَّ لِمُتولِّيها أن يكونَ كُفوًا في قُوَّتِه وأمانتِه وعِلمِه بأمورِ الوِلايةِ؛ لأنَّ المَلِكَ لَمَّا كلَّمَ يوسُفَ ورأى مِن عِلمِه وخِبرتِه بالأمورِ وحُسنِ نَظَرِه؛ استخلَصَه لنفسِه، وقال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ وقال يوسفُ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، فعلَّلَ ذلك بكمالِ حِفظِه لِما تحتَ يدِه وتصَرُّفِه، وكمالِ عِلمِه بوجوهِ المُستخرَجِ والمُنصَرِفِ، وحُسنِ التَّدبيرِ[3].

٢- في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ قال بعضُ أهلِ العِلْمِ: في هذه الآيةِ ما يُبيحُ للرَّجلِ الفاضِلِ أنْ يعمَلَ للرَّجلِ الفاجِرِ والسُّلطانِ الكافِرِ بما يقْتَضيه الشَّرعُ والعدْلُ، بشرْطِ أنْ يعلَمَ أنَّه يفوِّضُ إليه في فعْلٍ لا يعارِضُه فيه، فيُصلِحُ منه ما شاء، وأمَّا إذا كان عمَلُه بحسبِ اختيارِ الفاجِرِ وشَهواتِه وفُجورِه،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من سورة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٩).

فلا يجوزُ ذلك[١].

٣- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ دلَّ ثناءُ يوسُفَ على نفْسِه أنَّه يجوزُ للإنسانِ أنْ يُثنِيَ على نفسِه بالحقِّ إذا جُهِلَ أمْرُه، ولا يكونُ ذلك مِن التَّزكيةِ المَنْهِيِّ عنها[٢].

٤- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ استُدِلَّ به على جَوازِ طلَبِ الوِلايةِ- كالقَضاءِ ونحوِه- لِمَن وَثِقَ مِن نفْسِه بالقِيامِ بحُقوقِه[٣]، فهذا الطلبُ لم يكنْ حِرصًا مِن يوسُفَ عليه السلام على الولايةِ، وإنَّما هو رغبةٌ منه في النَّفعِ العامِّ، وقد عرَفَ مِن نفْسِه مِن الكَفاءةِ والأمانةِ والحفْظِ ما لم يكونوا يعرِفونَه[٤].

٥- قال تعالى حِكايةً عن يوسُفَ: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ اقتِراحُ يوسُفَ عليه السَّلامُ ذلك، إعدادٌ لنفْسِه للقيامِ بمصالِحِ الأُمَّةِ، على سُنَّةِ أهلِ الفضْلِ والكَمالِ مِن ارتِياحِ نُفوسِهم للعمَلِ في المصالِحِ؛ ولذلك لم يسأَلْ مالًا لنفْسِه ولا عرَضًا مِن مَتاعِ الدُّنيا، ولكنَّه سأَلَ أنْ يُوَلِّيَه خَزائنَ المملَكةِ؛ ليحفَظَ الأموالَ، ويعدِلَ في توزيعِها، ويرفُقَ بالأُمَّةِ في جمْعِها وإبلاغِها لمَحالِّها[٥].

٦- سُؤالُ الوِلايةِ ذمَّه النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ[٦]، وأمَّا سُؤالُ يوسُفَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٥).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨).
(٦) يُنظر ما أخرجه البخاري (٦٦٢٢) ومسلم (١٦٥٢) من حديث عبد الرحمن بن سمرة.
وما أخرجه البخاري (٢٢٦١) ومسلم (١٧٣٣) من حديث أبي موسى الأشعري.

﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فلأنَّه كان طريقًا إلى أنْ يدعُوَهم إلى اللَّهِ، ويعدِلَ بين النَّاسِ، ويرفَعَ عنهم الظُّلمَ، ويفعَلَ مِن الخيرِ ما لم يكونوا يفعَلونَه، مع أنَّهم لم يكونوا يعرِفونَ حالَه، وقد عَلِمَ بتأْويلِ الرُّؤيا ما يَؤولُ إليه حالُ النَّاسِ، ففي هذه الأحوالِ ونحوِها ما يُوجِبُ الفَرقَ بين مِثلِ هذه الحالِ وبين ما نُهِيَ عنه[١].

٧- قال اللَّهُ تعالى مُخبِرًا عن يوسُفَ: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ لم يقُلْ: إنِّي حسيبٌ كريمٌ، وإنْ كان كما قال النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّمَ: ((الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ يوسُفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ))[٢]، ولا قال: إنِّي جميلٌ مليحٌ، إنَّما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ فسألَها بالحفْظِ والعلْمِ، لا بالنَّسبِ والجَمالِ[٣].

٨- إذا كانت اللَّذَّةُ مَطْلوبَةً لنَفْسِها فهي إنَّما تُذَمُّ إذا أعقَبَت ألَمًا أعظمَ منها، أو منَعَت لَذَّةً خيرًا منها، وتُحْمَدُ إذا أعانَت على اللَّذَّةِ المُستقِرَّةِ؛ وهو نَعيمُ الآخرةِ الَّتي هي دائمةٌ عظيمةٌ، كقولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۞ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[٤].

٩- في قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فيه دليل على ذِكْرِ العُموم وإرادةِ الخُصوصِ؛ إذْ لا مَحالَةَ تمكينُ يوسُفَ لم يكُنْ في جَميعِ الأرْضِ، بلْ كان بأرْضِ مصرَ، دُون سائرِ الأرْضِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٥/ ١٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٩٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١٥١).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦١٨).

١٠- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ يدلُّ على أنَّ الأمورَ مُعلَّقةٌ بالمشيئةِ الإلهيَّةِ، والقُدرةِ المَحْضةِ[١].

١١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ حالَ يوسُفَ عليه السَّلامُ في الآخرةِ خيرٌ مِن حالتِه العظيمةِ في الدُّنيا[٢].

١٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ على أنَّ الإصابةَ تُطلقُ على الخيرِ أيضًا؛ إذ يصحُّ أنْ يُقالَ: أصابَه بخيرٍ، وأصابَه بِشرٍّ[٣].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ في الكلامِ حذْفٌ؛ للإيذانِ بسُرْعةِ الإتيانِ به، والتَّقديرُ: فأَتَوا به، فلَمَّا كلَّمَه... فكأنَّه لم يكنْ بين الأمرِ بإحْضارِه والخِطابِ معه زَمانٌ أصلًا[٤].

- والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾ للمُبالغَةِ، أي: أَجْعَلْه خالِصًا لِنَفْسي، خاصًّا بي، لا يُشارِكُني فيه أحدٌ، وهذا كِنايةٌ عن شِدَّةِ اتِّصالِه به، والعَمَلِ معه[٥].

- قولُه: ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ اليومُ ليس بمِعْيارٍ لمُدَّةِ المَكانةِ

أو تَكونُ الألفُ واللامُ في كلمةِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للعهدِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥).

والأمانةِ، بلْ هو آنُ التَّكلُّمِ، والمرادُ تحديدُ مَبْدَئِهما؛ احترازًا عنِ احتمالِ كونِهما بعد حينٍ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ فيه عَدَمُ ذِكرِ إجابةِ الملِكِ إلى ما سأَلَه يوسُفُ عليه السَّلامُ مِن جَعْلِه على خَزائنِ الأرضِ؛ إيذانًا بأنَّ ذلك أمرٌ لا مَردَّ له، غَنيٌّ عنِ التَّصريحِ به، لا سِيَّما بَعْدَ تَقْديمِ ما يَندرِجُ تحتَه مِن أحْكامِ السَّلطنةِ بِحَذافيرِها، مِن قولِه: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا﴾ في التَّعبيرِ عنِ الجَعْلِ المَذْكورِ بالتَّمْكينِ في الأرضِ، مع الإسْنادِ إلى ضَميرِ اللَّهِ عزَّ سلطانُه: تَشْريفٌ له عليه السَّلامُ، ومُبالغةٌ في كَمالِ وِلايتِه، وإشارةٌ إلى حُصولِ ذلك مِن أوَّلِ الأمرِ، لا أنَّه حصَلَ بعدَ السُّؤالِ[٣].

- قولُه: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ﴾ كِنايةٌ عنْ تصرُّفِه في جميعِ مَمْلكةِ مصرَ؛ فهو عند حُلولِه بمكانٍ منَ المَمْلكةِ لو شاءَ أنْ يَحُلَّ بغيرِه لَفَعل[٤].

- وجُملةُ ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ إلى آخرِها تذْييلٌ لِمُناسبةِ عُمومِه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٨٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) ١٣/ ١٠).

لخُصوصِ ما أصابَ يوسُفَ عليه السَّلامُ منَ الرَّحمةِ في أحوالِه في الدُّنيا، وما كان له مِن مواقِفِ الإحسانِ الَّتي كان ما أُعطِيَه منَ النِّعَمِ وشَرَفِ المَنْزِلةِ جزاءً لها في الدُّنيا؛ لأنَّ اللَّهَ لا يُضيعُ أجْرَ المُحْسنين[١].

- قولُه: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّ مَدارَ المَشيئةِ المَذْكورةِ إحسانُ مَن تُصيبُه الرَّحمةُ المَرْقومةُ، وأنَّها أجْرٌ له؛ ولِدَفْعِ تَوَهُّمِ انحصارِ ثَمَراتِ الإحسانِ فيما ذُكِرَ منَ الأجْرِ العاجِلِ قيل على سبيلِ التَّوكيدِ: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ فيه وضْعُ الموصولِ ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ إذ التقديرُ: (خَيْرٌ لهم)، أي: للمُحسِنينَ المَذْكورِينَ، وإنَّما قيل: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾؛ تَنْبيهًا على أنَّ المُرادَ بالإحْسانِ إنَّما هو الإيمانُ والثَّباتُ على التَّقوى، المُسْتفادُ من جَمْعِ صِيغتَيِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ وَكَانُواْ﴾ والمستقبَلِ ﴿يَتَّقُونَ﴾[٣].

- والتَّعبيرُ في جانِبِ الإيمانِ بِصيغةِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ وفي جانِبِ التَّقوى بِصيغةِ المُضارِعِ ﴿يَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ عَقْدُ القلْبِ الجازمُ، فهو حاصلٌ دُفعةً واحدةً، وأمَّا التَّقوى فهي مُتَجدِّدةٌ بتجدُّدِ أسبابِ الأمرِ والنَّهْيِ، واختلافِ الأعمالِ والأزمانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠).

الآيات (٥٨-٦٢)

﴿ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُنكِرُونَ﴾: أي: لا يعرِفونَه، وأصْلُ (نكر): يدلُّ على خِلافِ المعرفةِ الَّتي يسكُنُ إليها القلْبُ[١].

﴿بِجَهَازِهِمۡ﴾: الجَهازُ: ما يَحتاجُ إليه المُسافِرُ مِن زادٍ، ومَتاعٍ، وكُلِّ ما يُحمَلُ، وأصلُ (جهز): يدُلُّ على شَيءٍ يُحوَى[٢].

﴿أُوفِي﴾: أي: أُتِمُّ ولا أَبْخَسُ، وأصْلُ (وفي): يدلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ[٣].

﴿ٱلۡمُنزِلِينَ﴾: أي: المُضِيفينَ، وأصلُ (نزل): يدُلُّ هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٩)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٦٢).

﴿بِضَٰعَتَهُمۡ﴾: أي: أثمانَ الطَّعامِ التي دَفَعوها[١].

﴿رِحَالِهِمۡ﴾: أي: أمتعتِهم وأوعِيَتِهم، جمعُ رَحْلٍ: وهو كلُّ شيءٍ يعَدُّ للرَّحيلِ؛ مِن وِعاءٍ للمَتاعِ ومَركبٍ للبَعيرِ، وأصْلُ (رحل): يدلُّ على مُضِيٍّ في سفَرٍ[٢].

﴿ٱنقَلَبُوٓاْ﴾: أي: رجَعوا، وانصَرَفوا، وأصْلُ (قلب): صرْفُ الشَّيءِ عن وجْهٍ إلى وجْهٍ، أو ردُّه مِن جِهةٍ إلى جهةٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وقدِمَ إخوةُ يوسُفَ إلى مِصرَ بعد أنْ حلَّ بهم الجَدبُ في أرضِهم؛ ليَجلِبوا منها الطَّعامَ، فدَخَلوا على يوسفَ، فعَرَفهم ولم يَعرِفوه؛ لطولِ المدَّةِ، وتغيُّرِ هيئتِه، وقد أمَرَ يوسُفُ بإكرامِهم وحُسنِ ضيافتِهم، ثمَّ أعطاهم مِن الطَّعامِ ما طلَبوا، وكانوا قد أخبَروه أنَّ لهم أخًا مِن أبيهم لم يُحضِروه معهم- يُريدونَ شَقيقَه- فقال: ائتُوني بأخيكم مِن أبيكم، ألم تَرَوا أنِّي أوفيتُ لكم الكَيلَ، وأكرَمتُكم في الضِّيافةِ، وأنا خيرُ المُضْيفينَ لِمَن نزَلَ بي؟ فإنْ لم تأتوني به فليس لكم عندي طعامٌ أكيلُه لكم، ولا تأْتوا إليَّ. قالوا: سنبذُلُ جُهدَنا لإقناعِ أبيه أنْ يُرسِلَه معنا، ولن نُقصِّرَ في ذلك. وقال يوسُفُ لغِلمانِه: اجعَلوا ثمَنَ ما أخَذوه في أمتعتِهم سِرًّا؛ رجاءَ أن يَعرِفوه إذا انصرفوا إلى أهلِهم، لكي يرْجِعوا إلينا مرَّةً أُخرى.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٦٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨﴾.

أي: وجاء إخوةُ يوسُفَ إلى مِصرَ لَمَّا أصابَهم القحْطُ؛ ليأْتوا بالطَّعامِ لأهليهم، فدخَلوا على يُوسفَ، فعرَفَهم حين رآهم، وهم لا يعرِفونَه[1].

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩﴾.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡ﴾.

أي: ولَمَّا أوفى يوسُفُ إخوتَه الطَّعامَ، وحمَّلَ لكلِّ واحدٍ منهم بعيرَه، قال لهم: ائْتوني بأخيكم هذا الَّذي ذكَرتُموه لِي مِن أبيكم؛ لِتَزْدادوا حِملَ بعيرٍ آخرَ[2].

ثم قال يوسُفُ ترْغيبًا لإخوتِه في الرُّجوعِ إليه:

﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).
عرَفهم يوسفُ عليه السلام لأنَّه فارَقَهم رِجالًا، وهم لم يعرفوه؛ لأنَّهم فارَقوه صَبِيًّا، وهو الآنَ رجلٌ عليه أُبَّهَةُ الملكِ، ورَونقُ الرئاسةِ، وعندَه الخدَمُ والحشمُ، ولعدمِ خطورِه ببالِهم لطولِ العهدِ، مع هيبةِ الملكِ وعزِّ السلطانِ، وقيل: لتوهُّمِهم أنَّه هَلَكَ، وقيلَ: كانوا بَعيدًا منه، فلم يَعْرِفُوهُ، وقيلَ غيرُ ذلك. ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير البقاعي)) (١٠/ ١٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).
قال ابن عاشور: (وقولُه: ﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٍ لَّكُم﴾ يقتضي وقوعَ حديثٍ منهم عن أنَّ لهم أخًا مِن أبيهم لم يحضُرْ معهم، وإلَّا لكان إنباءُ يوسفَ عليه السلامُ لهم بهذا يُشعرُهم أنَّه يكلِّمُهم عارفًا بهم، وهو لا يريدُ أن يكشفَ ذلك لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢).

أي: ألَا ترَونَ أنَّ عادتي هي إتمامُ الكيلِ دائمًا، وأنِّي لا أبْخَسُ النَّاسَ شيئًا[١].

﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾.

أي: وأنا خيرُ المُضْيفينَ في مصرَ لِمَن نزَلَ بي، وسأُحسِنُ إليكم، وأُكرِمُكم إذا أتيتُم بأخيكم[٢].

﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ٦٠﴾.

أي: فإنْ لم تُحْضِروا إليَّ أخاكم حين تأْتونَ إليَّ في المرَّةِ التَّاليةِ، فليس لكم عندي طعامٌ أكيلُه لكم، ولا تقْرُبوا أرضَ مصرَ[٣].

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ لِيوسُفَ حين أمَرَهم أن يأتوا إليه بأخيهم: سنسأَلُ أباه يعقوبَ أن يترُكَه يسافِرُ معنا، وسنجتهِدُ في إقناعِه حتَّى نأْتِيَ به معنا، وإنَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٤، ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣). قال الخازِنُ: (هذا هو نهايةُ التَّخويفِ والتَّرهيبِ؛ لأنَّهم كانوا مُحتاجينَ إلى تحصيلِ الطَّعامِ، ولا يُمكنهم تحصيلُه إلَّا مِن عنده؛ فإذا منَعَهم منَ العَودِ كان قد ضَيَّق عليهم). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٣٨).

قال أبو السعود: (﴿وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾... فيه دليلٌ على أنَّهم كانوا على نيةِ الامتيارِ مرةً بعدَ أُخرَى، وأنَّ ذلك كان معلومًا له عليه السلامُ). ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٩).

وقيل: ﴿وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾ أي: لا أنزلُكم عندي منزلةَ القريبِ، فلا أُنزلُكم عندي كما أنزلتُكم هذه المرةَ، ولم يُرِدْ أنَّهم لا يقربون بلادَه، ولا يعودونَ إليه؛ لأنَّه على العودِ حثَّهم. ينظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥).

لفاعِلونَ ما أمرْتَنا به[١].

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾.

أي: وقال يوسُفُ لغِلمانِه: اجْعَلوا أثمانَ ما اشتَرَوه من الطَّعامِ في أمتِعَتِهم، من حيث لا يشعُرونَ[٢].

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: لكي يعْرِفوا بِضاعتَهم[٣] إذا انصْرَفوا إلى أهلِهم، وفتَحوا أمتِعَتَهم فوجَدوها؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المُرادَ بقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أي: فاعلون ما أمَرْتَنا به من جلْب أخينا إليك: القرطبيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤).

وقيل: المُرادُ: وإنَّا لفاعلون ما وَعَدْناك منَ المُراودةِ، وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

قال ابنُ عاشورٍ: (والبِضاعةُ: المالُ أو المتاعُ المُعَدُّ للتِّجارةِ، والمُرادُ بها هنا الدَّراهمُ الَّتي ابتاعوا بها الطَّعامَ، كما في التَّوراةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤).

(٣) وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿يَعْرِفُونَهَآ﴾ أي: بضاعتَهم: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والخازنُ، والشوكانيُّ، والسعدي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: يعرفونَ حقَّ ردِّها والتكرُّمَ بذلك: السمرقندي، والزمخشري، وابنُ عطيةَ، وأبو حيان، وابنُ جُزَي.

لكي يرْجِعوا إلينا مرَّةً أُخرى[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه كان يُباشِرُ الأمورَ بنفْسِه، كما هو فِعْلُ الكُفاةِ الحَزَمَةِ، لا يثِقُ فيه بغيرِه[٢].

٢- في قولِ يوسُفَ لإخوتِه: ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ مشروعيَّةُ الضِّيافةِ، وأنَّها مِن سُنَنِ المُرسَلينَ، وقرَّرتْها هذه الشريعةُ[٣].

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩١).

قال الألوسي: (﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ﴾ أي يعرفون حقَّ ردِّها والتكرُّمِ بذلك، فـ «لعلَّ» على ظاهرِها، وفي الكلامِ مضافٌ مقدَّرٌ، ويحتملُ أن يكونَ المعنَى: «لكي يعرفوها»، فلا يحتاجُ إلى تقديرٍ، وهو ظاهرُ التعلُّقِ بقولِه: ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ أي: رجَعوا ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ﴾؛ فإنَّ معرفتَهم لها مقيَّدةٌ بالرجوعِ، وتفريغِ الأوعيةِ قطعًا، وأمَّا معرفةُ حقِّ التكرُّمِ في ردِّها، وإن كانت في ذاتِها غيرَ مقيَّدةٍ بذلك، لكن لما كان ابتداؤُها حينئذٍ قيِّدت به). ((تفسير الألوسي)) (٧/ ١١).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

قال ابنُ القيِّم: (قولُه لفتيانِه: ﴿ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ فإنَّه تسبَّبَ بذلك إلى رُجوعِهم، وقد ذكروا في ذلك معانيَ: منها أنَّه تخوَّفَ ألَّا يكونَ عندهم ورقٌ يرجعون بها، ومنها أنَّه خشِيَ أن يضرَّ أخْذُ الثَّمنِ بهم، ومنها أنَّه رأى لؤمًا أخْذَ الثَّمنِ منهم [أي: مع حاجتِهم إليه]، ومنها أنَّه أراهم كرَمَه في ردِّ البِضاعةِ؛ ليكون أدْعَى لهم إلى العَودِ، ومنها أنَّه علِمَ أنَّ أمانتَهم تُحوجُهم إلى العَودِ؛ ليردُّوها إليه). ((إعلام الموقعين)) (٣/ ١٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧)، ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٣٥).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ...﴾ لم يعرِّفْهم نفْسَه لأسبابٍ فيها مَنفعَةٌ لهم ولأبيهم وله، وتمامٌ لِما أرادَه اللَّهُ تعالى بهم مِن الخيرِ في هذا البَلاءِ، وأيضًا فلو عرَّفَهم نفْسَه في أوَّلِ مرَّةٍ لم يقَعِ الاجتماعُ بهم وبأبيه ذلك الموقِعَ العظيمَ، ولم يَحُلَّ ذلك المَحَلَّ، وهذه عادةُ اللَّهِ سبحانه في الغاياتِ العظيمةِ الحميدةِ: إذا أرادَ أنْ يُوصِّلَ عبْدَه إليها هيَّأَ لها أسبابًا مِن المِحَنِ والبَلايا والمَشاقِّ، فيكونُ وُصولُه إلى تلك الغاياتِ بعدها كوُصولِ أهلِ الجنَّةِ إليها بعدَ الموتِ وأهوالِ البرزَخِ، والبعْثِ والنُّشورِ، والموقِفِ والحِسابِ، والصِّراطِ، ومُقاساةِ تلك الأهوالِ والشَّدائدِ، وكما أُدخِلَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليه وآله وسلَّمَ إلى مكَّةَ ذلك المَدخَلَ العظيمَ، بعد أنْ أخرَجَه الكفَّارُ ذلك المَخْرَجَ، ونصَرَه ذلك النَّصرَ العزيزَ، بعد أنْ قاسى مع أعداءِ اللَّهِ ما قاساه[1].

٢- قولُه تعالى إخْبارًا عن يوسُفَ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أوضحُ حُجَّةٍ، وأبْلَغُها نِهايةً في مدحِ النَّفْسِ وتزكيتِها عندَ الحاجَةِ، أَلَا تَرَاهُ يقولُ في سُورةِ (المؤمنين): ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، فقدْ سَمَّى يوسُفُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم نَفْسَه بخَيْرِ المُنْزِلينَ في المعنى الذي أرادَه، ولم يكُنْ مُنْكَرًا عليه، ولا مُسْتَقْبَحًا منه، وفيه حُجَّةٌ لمَنْ يقولُ إذا أرادَ مَدْحَ إنْسانٍ: فُلانٌ خَيرُ مَن فَعَلَ كذا، وفُلانٌ أَحْسَنُ النَّاسِ وَجْهًا، وإنْ كان في النَّاسِ مَنْ هو خَيْرٌ مِنه وأَحْسَنُ، إذا

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٠٨).

أَضْمَرَ القائلُ ناسَ عَصْرِه، وعَزَلَ مَنْ تَقَدَّمَهُم مِن الأفضَلِ بِنِيَّتِه، فلا يكونُ كاذِبًا ولا آثِمًا بِمَا يدلُّ عليه ظاهِرُ قولِه[١].

٣- قولُه: ﴿أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ لم يَقُلْه يوسفُ عليه السَّلامُ بطريقِ الامْتِنانِ، بل لحثِّهم على تحقيقِ ما أَمَرَهم به. والاقتِصارُ في الكَيْلِ على ذِكْرِ الإيفاءِ؛ لأنَّ مُعاملتَه عليه السَّلامُ معهم في ذلك كمُعامَلَتِه مع غيرِهم في مُراعاةِ مَواجِبِ العدْلِ، وأمَّا الضِّيافَةُ فليس للنَّاسِ فيها حقٌّ، فخَصَّهم في ذلك بما شاء[٢].

٤- المالُ قد يُضافُ إلى المالِكِ الَّذي قد ملَكَه في بعضِ الأوقاتِ بعد زَوالِ مُلْكِه عنه، كقولِه تعالى: ﴿ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ﴾ فأضافَ البِضاعةَ إليهم بعد اشْتِرائِهم بها طعامًا[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ وقَعَ الإخبارُ عنهم بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ عَدَمَ مَعْرفتِهم به أمْرٌ ثابتٌ مُتَمَكِّنٌ منهم، وأنَّ إنكارَهم له كان أمرًا مُستمرًّا في حالتَي المَحْضَرِ والمغيبِ، وكان الإخبارُ عن مَعْرفتِه إيَّاهم بالجُملةِ الفِعليَّةِ ﴿فَعَرَفَهُمۡ﴾ المُفيدةِ للتَّجدُّدِ[٤]؛ للدَّلالةِ على أنَّ مَعْرفتَه إيَّاهم حَصَلَت بحِدْثانِ رُؤْيتِه إيَّاهم، دون

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((صحيح ابن خزيمة)) (٤/ ٢٨٦).

(٤) قال السكاكي: (فالفعلُ موضوعٌ لإفادةِ التجدُّدِ، ودخولُ الزمانِ الذي مِن شأنِه التغيرُ في مفهومِه مؤذنٌ بذلك). ((مفتاح العلوم)) (ص: ٢١٨).

تَوَسُّمٍ وتأمُّلٍ[١].

- قولُه: ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ قَرَنَ مفعولَ ﴿مُنكِرُونَ﴾ الَّذي هو ضَميرُ يوسُفَ عليه السَّلامُ بِلامِ التَّقويةِ في ﴿لَهُۥ﴾ ولم يَقُلْ: (وهم مُنْكِرونَه)؛ لزيادةِ تقْوِيةِ جهْلِهم بمَعْرفتِه[٢].

- وتقْديمُ المجْرورِ بِلامِ التَّقويةِ ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿مُنكِرُونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ، وللاهتِمامِ بتعلُّقِ نُكْرَتِهم إيَّاه؛ للتَّنْبيهِ على أنَّ ذلك مِن صُنْعِ اللَّهِ تعالى، وإلَّا فإنَّ شَمائلَ يوسُفَ عليه السَّلامُ ليستْ ممَّا شأنُه أنْ يُجْهَلَ ويُنْسَى[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ فيه مُناسَبَةٌ حَسَنَةٌ؛ حيثُ قالَه هنا بالواوِ، وقالَه بعدُ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾؛ لأنَّه ذكَرَ هنا أوَّلَ مجيئِهم إلى يُوسفَ، فناسبَتْه الواوُ الدَّالَّةُ على الاستئْنافِ، وذكَرَ بعدُ عند انصرافِهم عنه عطفًا على (لَمَّا دَخَلُوا)، فَناسبَتْه الفاءُ الدَّالَّةُ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ[٤].

- قولُه: ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ نكَّرَ الأخَ ولم يقُلْ: (بأخيكم) وإنْ كان قد عَرَفَه وعَرَفَهم؛ مُبالَغةً في كونِه لا يُريدُ أن يَتعرَّفَ لهم، ولا أنَّه يَدْري مَن

وقال بهاء الدين السبكي: (المرادُ في هذا المكانِ بقولِهم: الفعلُ المتجددُ أنَّه للإخبارِ بتجدُّدِ الشيءِ ووقوعِه بعدَ أن لم يكنْ... بخلافِ قولِنا: الفعلُ المضارعُ للتجدُّدِ، فمعناه: أنَّ الشيءَ يتجدَّدُ وقتًا بعدَ وقتٍ ويتكرَّرُ). ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) (١/ ٥٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٧٩).

هو، إظهارًا لعَدَمِ مَعْرفتِه بأخيهم إلَّا مِن ذِكْرِهم إيَّاه عنده، فعَدَلَ عنِ الإضافةِ المقتضِيَةِ المعرِفَةَ إلى التَّنكيرِ؛ تَنابُهًا في التَّظاهُرِ بجهْلِه به، كما في الفَرقِ بين قولِ القائلِ: مرَرْتُ بغُلامِك، ومرَرْتُ بغُلامٍ لك؛ ففي التَّعريفِ يكونُ المُتكلِّمُ عارفًا بالغُلامِ، وفي التَّنكيرِ يكونُ جاهِلًا به؛ فالتَّعريفُ يُفيد فرعَ عَهْدٍ في الغُلامِ بين المُتكلِّمِ وبين المُخاطَبِ، والتَّنكيرُ لا عَهْدَ فيه البتَّةَ[١].

- قولُه: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ هذه الجُملةُ كِنايةٌ عنِ الوعْدِ بأنْ يُوفِيَ لهم الكَيلَ، ويُكْرِمَ ضِيافتَهم إنْ أَتَوا بأخيهم[٢].

- وفيها تَخصيصُ الرُّؤيةِ بالإيفاءِ؛ لوُقوعِ الخِطابِ في أثنائِه، وأمَّا الإحسانُ في الإنزالِ فقد كان مُستمِرًّا فيما سبَق ولَحَقَ؛ ولذلك أخبَرَ عنه بالجُملةِ الاسميَّةِ[٣].

- قولُه: ﴿أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ فيه إيثارُ صِيغةِ الاستقبالِ -مع كونِ هذا الكلامِ بعد التَّجهيزِ- للدَّلالةِ على أنَّ ذلك عادةٌ له مُستمِرَّةٌ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ﴾ ولم يقُلْ: (فإنْ لم تفعَلوا)؛ وذلك لأنَّه لَمَّا كان مَقصودُ يوسُفَ عليه السَّلامُ بالأمرِ ومَرْمَى غَرَضِه بالتَّكليفِ منه استِحْضارَ أخيه، لم يَكْتَفِ في الشَّرطيَّةِ الدَّاعِيَةِ لهم إلى الجِدِّ في الامتثالِ، والسَّعْيِ في تَحْقيقِ المأمورِ به بالإشارةِ الإجْماليَّةِ إلى الفعْلِ الَّذي وَرَد به الأمرُ، بأنْ يقولَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٨).

(فإنْ لم تفعَلوا)، بل أعادَه بعينِه مُتعلِّقًا بمَفعولِه؛ تحقيقًا لِمَطلَبِه، وإعرابًا عن مَقصِدِه[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ فيه التَّأكيدُ -بعد الجُملةِ الفعليَّةِ المُصَدَّرةِ بالسِّينِ- بالجُملةِ الاسميَّةِ المؤكَّدَةِ بحرْفَيِ التَّأكيدِ: (إنَّ) واللَّامِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٦٧)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٤٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤).

الآيات (٦٢-٦٦)

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿مَتَٰعَهُمۡ﴾: أي: طعامَهم، أو أوعِيَتَهم، والمتاعُ: كُلُّ ما يُنتفَعُ به على وجهٍ ما، وأصْلُ (متع): يدلُّ على منفعَةٍ[١].

﴿مَا نَبۡغِي﴾: أيْ: أيَّ شيءٍ نطلُبُ وراءَ هذا، أو ماذا نريدُ؟ وأصْلُ (بغي): يدل على طلَبِ الشَّيءِ[٢].

﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾: أي: نَجلِبُ إليهم الطَّعامَ؛ مِن قَولِهم: مار أهلَه يَميرُهم: إذا حملَ إليهم أقواتَهم مِن غيرِ بَلدِه[٣].

﴿كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾: أي: حِمْلَ جَمَلٍ، يُكَالُ لَنَا، وقيل: حِمْلَ حمارٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٠)، ((المفردات))

﴿مَّوْثِقًا﴾: أي: عهدًا وميثاقًا، وأصْلُ (وثق): يدلُّ على عقْدٍ وإحكامٍ[١].

﴿يُحَاطَ بِكُمْ﴾: أي: تُمْنَعوا وتُغْلَبوا؛ مِن الإحاطة: وهو لفظٌ عامٌّ لجميعِ وُجوهِ الغَلَبة والقَسرِ، وأصْلُ (حوط): يدلُّ على الشَّيءِ يُطِيفُ بالشَّيءِ[٢].

﴿وَكِيلٌ﴾: أي: شَهيدٌ[٣] علينا، كفيلٌ بالوفاءِ، وأصلُ (وكل): يدلُّ على اعتمادِ غيرِك في أمرِك[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: فلَمَّا رجَعوا إلى أبيهم قصُّوا عليه ما كان مِن إكرامِ العزيزِ لهم، وقالوا: إنَّه لن يُعطيَنا مُستقبَلًا إلَّا إذا كان معنا أخونا الَّذي أخبَرناه به، فأرسِلْه معنا نُحضِرِ الطَّعامَ وافيًا، ونتعهَّدُ لك بحِفظِه. قال لهم أبوهم: كيف آمَنُكم عليه وقد أمِنتُكم على أخيه يوسُفَ مِن قَبلُ، والتَزمتُم بحِفظِه فلم تَفُوا بذلك؟! فلا أثِقُ بالتزامِكم وحِفظِكم، ولكِنِّي أثِقُ بحِفظِ الله؛ خيرِ الحافِظينَ، وأرحَمِ الرَّاحمينَ، أرجو أن يرحَمَني، فيحفَظَه ويَرُدَّه عليَّ.

ولَمَّا فَتَحوا أوعيَتَهم وجَدوا ثمنَ بضاعتِهم الَّذي دَفَعوه قد رُدَّ إليهم، قالوا: يا أبانا ماذا نطلُبُ أكثَرَ مِن هذا؟! هذا ثمَنُ بضاعتِنا رَدَّه العزيزُ إلينا، فكُنْ مُطمَئِنًّا

للراغب (ص: ٧٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦١).

(٣) والشَّهيد وكيلٌ بمعنى أنَّه موكولٌ إليه القيامُ بما أُشهِدَ عليه. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨، ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٧٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٥٥).

على أخينا، وأرسِلْه معنا؛ لنجلِبَ طَعامًا وفيرًا لأهلِنا، ونحفَظ أخانا، ونزداد حِمْلَ بعيرٍ له؛ فإنَّ العزيزَ يَكيلُ لكلِّ واحدٍ حِمْلَ بعيرٍ، وذلك كَيلٌ يسيرٌ عليه. قال لهم يعقوبُ: لن أترُكَه يذهَبُ معكم حتَّى تتعَهَّدوا وتحلِفوا لي باللَّهِ أن ترُدُّوه إليَّ، إلَّا أن تُغْلَبوا عليه فلا تستطيعوا تخليصَه، فلَمَّا أعطَوه عهدَ اللَّهِ على ما طلَبَ، قال يعقوبُ: اللَّهُ على ما نقولُ وكيلٌ، تكفينا شَهادتُه علينا، وحِفظُه لنا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ إخوةَ يوسُفَ عليه السَّلامُ لَمَّا رجعوا مِن مصرَ مُمْتارينَ، بادروا بما كان أهمَّ الأشياءِ عندهم مِن التَّوطئةِ لإرسالِ أخيهم معهم، وذلك قبل فتْحِ مَتاعِهم وعلْمِهم بإحسانِ العزيزِ إليهم مِن ردِّ بِضاعتِهم[١].

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ ﴾.

أي: فلَمَّا رجَعَ إخوةُ يوسُفَ إلى أبيهم يعقوبَ قالوا له: يا أبانا مُنِعَ منَّا الكيلُ في المستقبَلِ إنْ لم تُرسِلْ معنا أخانا الصَّغيرَ إلى مصرَ[٢].

﴿ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ ﴾.

أي: فأرْسِلْ معنا أخانا؛ حتَّى يُمْكِنَنا العودةُ إلى مصرَ وأخْذُ الطَّعامِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

أي: وإنَّا لأخينا لحافِظونَ مِن أنْ يَنالَه في سَفَرِه سوءٌ، فلا تخَفْ عليه[١].

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾.

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: قال يعقوبُ لأبنائِه: ماذا أفادَ ائتِمانُكم على أخيه يوسُفَ مِن قبلُ، حتَّى آمنَكم على أخيكم هذا الَّذي تسألونَني أنْ أُرسِلَه معكم؟ لقد فرَّطْتُم في يوسُفَ وحُلْتُم بيني وبينه، فكيف آمنُكم على أخيه؟! فلا أثِقُ بالتِزامِكم وحفْظِكم[٢].

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾.

أي: فاللَّهُ خيرٌ حافظًا لأخيكم منكم ومِن كلِّ أحدٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٢)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٩٥).

الأكثرونَ على أنَّ قولَه: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾ يدلُّ على أنَّه أَذِنَ في ذَهابِ ابنِه بنيامين في ذلك الوقتِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٨٠).

وقال الألوسي: (هذا- كما ترَى- ميلٌ منه عليه السَّلامُ إلى الإذْنِ والإرسالِ؛ لِما رأى فيه من المصلحةِ، وفيه أيضًا من التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى ما لا يخفى). ((تفسير الألوسي)) (٧/ ١٢).

وقال ابنُ عاشورٍ: (وهم قدِ اقتنعوا بجوابِه، وعَلِموا منه أنَّه مُرسِلٌ معهم أخاهم؛ ولذلك لم يراجعوه في شأْنِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦).

وقال آخرون: لا يدلُّ قولُه: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾ على أنَّه أَذِنَ في ذَهابِ ابنِه بنيامين في ذلك

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أي: واللَّهُ أرحمُ الرَّاحمينَ بخَلْقِه، وسيرحَمُ ضعْفي وكِبَري، ووَجْدي بفقْدِ وَلَدي، وأرجو منه أنْ يحفَظَه ويرُدَّه عليَّ[1].

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡ﴾.

أي: ولَمَّا فتَحَ إخوةُ يوسُفَ مَتاعَهم الَّذي حمَلوه مِن مصرَ، وجَدوا ثمَنَ الطَّعامِ الَّذي دفَعوه إلى يوسُفَ قد رجَعَ إليهم في رِحالِهم[2].

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ لأبيهم يعقوبَ حينذاك؛ ترغيبًا في إرسالِ أخيهم معهم، وتطييبًا لنفْسِه: يا أبانا ماذا نُريدُ بعدَ هذا الإكرامِ؟! هذا ثمَنُ الطَّعامِ رُدَّ إلينا بعدَ أنْ أُوفِيَ لنا كيلُنا[3]!

﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾.

الوقتِ، والآيةُ على هذا القولِ فيها وجهانِ: الأوَّلُ: التَّقديرُ أنَّه لو أَذِنَ في خُروجِه معهم لكان في حفْظِ اللهِ، لا في حفْظِهم. الثَّاني: أنَّه لَمَّا ذكَرَ يُوسفَ قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾ أي: ليوسفَ؛ لأنَّه كان يعلَمُ أنَّه حيٌّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

أي: ونشْتَري لأهلِنا طعامًا مِن مصرَ إذا أرسَلْتَ معنا أخانا، ونحفَظُه ممَّا تخافُ عليه[١].

﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾.

أي: ونزدادُ حِمْلَ بعيرٍ لأخينا[٢]، ذلك[٣] حِمْلٌ يسيرٌ[٤].

﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦﴾.

﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾.

أي: قال يعقوبُ: لن أُرْسِلَ معكم أخاكم إلى مصرَ حتَّى تُعْطوني يمينًا وعهدًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧).

(٢) والمعنى: أنَّه يُكالُ لهم حملُ جملٍ مِن أجلِ أخيهم؛ لأنَّه كان يُعطي باسمِ كلِّ رجلٍ حملَ بعيرٍ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٢).

(٣) المشارُ إليه في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو قَولُه: ﴿كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾.
والمعنى على ذلك: أنَّه كيلٌ يَسيرٌ على هذا الرجُلِ الذي نأتيه؛ لسَخائه، وحِرصِه على البذلِ، وممَّن قال بهذا المعنى: الزجَّاج، والواحدي، والخازن. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢١)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٤٠).
أو المعنى: كيلٌ يَسيرٌ: أي: سريعٌ لا حَبْسَ فيه، وقال به مقاتل، والمراد: أنَّه إذا جاء معنا عجَّلَ الملِكُ لنا الكيلَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٥٥).
وقيل: المشارُ إليه هو ما جاؤوا به، والمعنى: ذلك الذي جِئْناك به كيلٌ يسيرٌ لا يكفينا، ومِمَّن اختاره: البغوي، والبيضاوي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٩)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

مُؤكَّدًا أنْ تردُّوه إليَّ، إلَّا أنْ تُغْلَبوا جميعُكم بأمرٍ لا قِبَلَ لكم به، فلا تقْدِروا على تخليصِ أخيكم ورَدِّه معكم[١].

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾.

أي: فلَمَّا أعْطى أولادُ يعقوبَ أباهم عُهودَهم على أنْ يردُّوا إليه أخاهم، قال يعقوبُ: اللَّهُ شهيدٌ علينا بالوفاءِ بما نقولُ جميعًا، أنا وأنتم تَكْفِينا شَهادتُه وحفْظُه[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾ فيه التَّفويضُ إلى اللَّهِ تعالى، والاعتمادُ عليه في جميعِ الأمورِ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾ كلُّ ذلك زيادةٌ في التَّوثيقِ؛ لِمَا حصَلَ له مِن المُصيبةِ بيوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإنْ كان الاعتمادُ في حفْظِه إنَّما هو على اللَّهِ، وهذا مِن بابِ (اعْقِلْها وتوكَّلْ)[٤].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- العُقودُ تنعَقِدُ بما يدُلُّ عليها مِن قَولٍ وفِعلٍ، لا فَرقَ بين عُقودِ التبرُّعاتِ، وعُقودِ المُعاوضاتِ؛ لأنَّ يوسُفَ صلَّى الله عليه وسلَّم ملَّكَ إخوتَه بضاعتَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٥/ ٣٥٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٥٥).

التي اشتَرَوا بها مِيرتَهم مِن حيثُ لا يشعُرونَ، ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡ ...﴾ الآية، وذلك مِن دونِ إيجابٍ وقبولٍ قوليٍّ؛ لأنَّ الفِعلَ والرِّضا يدلُّ على ذلك(١).

٢- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾ لَمَّا كان المُفْرِحُ مُطلَقَ الرَّدِّ، بُنِيَ قولُه: ﴿رُدَّتۡ﴾ للمفعولِ(٢).

٣- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾ فيه أنَّ سوءَ الظَّنِّ- مع وُجودِ القرائنِ الدَّالَّةِ عليه- غيرُ ممنوعٍ ولا مُحرَّمٍ(٣).

٤- قيل: قد صدَّقَت هذه القِصَّةُ المَثَلَ السَّائرَ، وهو قولُهم: (البَلاءُ مُوكَّلٌ بالمَنطِقِ)؛ فإنَّ يعقوبَ عليه السَّلامُ قال: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾ أي: تُغْلَبوا عليه، فابْتُلِيَ بذلك، وأُحيطَ بهم، وغُلِبوا عليه(٤).

٥- قولُه: ﴿حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا﴾ لَمَّا كان يعقوبُ غيرَ مُخْتارٍ لإرسالِ ابنِه وألحُّوا عليه في ذلك، علَّقَ إرسالَه بأخذِ المَوْثِقِ عليهم، وهو الحلِفُ باللَّهِ؛ إذْ به تُؤَكَّدُ العُهودُ وتُشَدَّدُ(٥).

٦- قولُه: ﴿حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جعَلَ الحلِفَ باللَّهِ مَوْثِقًا منه؛ لأنَّ تأْكيدَ العُهودِ به مأْذونٌ فيه مِن جِهَتِه تعالى، فهو إذنٌ منه عزَّ وجلَّ(٦).

---

(١) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾

- قولُه: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ أي: حِيلَ بيننا وبين الكَيْلِ في المُستقبَلِ؛ لأنَّ رُجوعَهم بالطَّعامِ المُعَبَّرِ عنه بالجَهازِ قَرينةٌ أنَّ المنْعَ منَ الكَيلِ يقَعُ في المستقبَلِ، ولأنَّ ترْكيبَ ﴿مُنِعَ مِنَّا﴾ يُؤْذِنُ بذلك؛ إذ جَعَلوا الكَيلَ ممْنوعَ الابتداءِ منهم؛ لأنَّ (مِن) حرفُ ابتداءٍ، فهم يُريدونَ قولَ يوسُفَ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي﴾؛ لأنَّهم إذا أُنْذِروا بمَنْعِ الكَيْلِ فقد مُنِعَ الكَيلُ، ويكونُ ﴿مُنِعَ﴾ يُرادُ به في المُسْتَأْنَفِ، وإلَّا فقد كِيلَ لهم، وجاؤوا أباهم بالمِيرَةِ، لكنْ لَمَّا أُنْذِروا بمَنْعِ الكَيلِ قالوا: ﴿مُنِعَ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فيه تأكيدُ حِفْظِه بالجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ، وبحرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ الاستفهامُ ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ﴾ إنْكاريٌّ فيه معنى النَّفيِ؛ فهو يَستَفْهِم عن وجْهِ التَّأكيدِ في قولِهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[3].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٤)، (تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٨).

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِي﴾ استئنافٌ مَبْنِيٌّ على السُّؤالِ، كأنَّه قِيلَ: ماذا قالوا حينئذٍ؟ فقيل: قالوا لأبيهم:...[١]؛ فجُملةُ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ استِئْنافًا بَيانِيًّا؛ لتَرَقُّبِ السَّامعِ أنْ يعلَمَ ماذا صدَرَ منهم حين فَجَأَهُم وِجْدانُ بضاعتِهم في ضمْنِ متاعِهم؛ لأنَّه مُفاجأةٌ غَريبةٌ، ولهذه النُّكْتةِ لم يُعْطَفْ بالفاءِ[٢].

- قولُه: ﴿مَا نَبۡغِي﴾ يحتملُ أنْ يكونَ للاستفهامِ الإنْكاريِّ بتنْزيلِ المُخاطَبِ منزِلةَ مَن يَتَطَلَّبُ منهم تَحْصيلَ بُغْيَةٍ، فيُنْكِرونَ أنْ تكونَ لهم بُغْيَةٌ أُخرى، أي: ماذا نطلُبُ بعد هذا[٣]؟!

- قولُه: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ، مُوَضِّحةٌ لِما دلَّ عليه الإنكارُ مِن بُلوغِ اللُّطْفِ غايتَه، والجُملُ بَعدَها معطوفةٌ عليه؛ فهو استئنافٌ مُوَضِّحٌ لقولِه: ﴿مَا نَبۡغِي﴾. وقولُه: ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾ مَعطوفٌ على محذوفٍ، أي: رُدَّتْ إلينا، فنسْتَظْهِرُ بها، ونَمِيرُ أهلَنا بالرُّجوعِ إلى الملِكِ[٤].

- وكرَّروا حِفْظَ الأخِ بقولِهم: ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾؛ مُبالَغةً في الحضِّ على إرْسالِه[٥].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٌ يَسِيرٌ﴾ استئنافٌ وقَعَ تَعْليلًا لِمَا سَبَق، كأنَّه قيل: أيُّ حاجةٍ إلى الازْدِيادِ؟ فقيل ما قيل، أو ذلك الكَيلُ الزَّائدُ شيءٌ قليلٌ لا يُضَايِقُنا فيه الملِكُ، أو سَهْلٌ عليه لا يَتَعاظَمَه أو أيَّ مَطْلبٍ نطلُبُ مِن مُهِمَّاتِنا،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٦).

والجُملةُ الواقِعةُ بعدَه تَوضيحٌ وبَيانٌ لِمَا يُشْعِرُ به الإنْكارُ مِن كونِهم فائزينَ ببعضِ المَطالِبِ، أو مُتَمكِّنينَ مِن تَحْصيلِه[١].

- وجُملةُ ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ زيادةٌ في إظهارِ حِرْصِهم على سلامَةِ أخيهم؛ لأنَّ في سلامَتِه فائدةً لهم بازديادِ كَيلِ بَعيرٍ؛ لأنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ لا يُعْطي المُمْتارَ أكثرَ مِن حِمْلِ بَعيرٍ منَ الطَّعامِ؛ فإذا كان أخوهم معهم أعْطاه حِمْلَ بَعيرٍ في عِدادِ الإخوةِ، وبه تظْهَرُ المُناسَبةُ بين هذه الجُملةِ والَّتي قبْلَها، وهذه الجُمَلُ مُرَتَّبةٌ تَرْتيبًا بَديعًا؛ لأنَّ بعضَها مُتَوَلِّدٌ عن بعضٍ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ تذْكيرٌ لهم بأنَّ اللَّهَ تعالى رقيبٌ على ما وقَعَ بينهم، وهذا توكيدٌ للحَلِفِ[٣]. وإيثارُ صِيغةِ الاستِقبالِ ﴿نَقُولُ﴾؛ لاسْتِحضارِ صُورَتِه المُؤدِّي إلى تَثَبُّتِهم، ومُحافظتِهم على تَذَكُّرِه ومُراقبَتِه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٢).

الآيتان (٦٧-٦٨)

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: وقال لهم أبوهم لَمَّا أرادوا الذَّهابَ إلى مصرَ: يا أبنائي إذا دخَلتُم أرضَ مصرَ فلا تدخُلوا مِن بابٍ واحدٍ، ولكن ادخُلوها مِن أبوابٍ مُتفرِّقةٍ، وإنِّي إذ أُوصيكم بهذا لا أدفَعُ عنكم شيئًا قضاه اللَّهُ عليكم، فما الحُكمُ إلَّا للَّهِ وَحدَه، عليه اعتَمَدتُ ووَثِقتُ، وعليه وَحدَه يعتَمِدُ المؤمِنونَ، ولَمَّا دخَلوا من أبوابٍ مُتفرِّقةٍ كما أمَرَهم أبوهم، ما كان ذلك لِيَدفعَ قضاءَ اللَّهِ عنهم، ولكِنْ حاجة في نَفسِه قضاها، وهي دخولُهم متفرِّقينَ شفقةً عليهم، وإنَّ يعقوبَ لصاحِبُ عِلمٍ عظيمٍ بأمرِ دينِه علَّمَه اللَّهُ له، ولكنَّ أكثرَ النَّاسَ لا يعلمونَ ما يَعلَمُه يعقوبُ عليه السَّلامُ مِن أمرِ دينِه وعواقِبِ الأمورِ ودقائِقِ الأشياءِ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ ﴾.

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ ﴾.

أي: وقال يعقوبُ لأبنائِه لَمَّا أرادوا الخروجَ إلى مصرَ: يا بَنيَّ لا تدخُلوا مصرَ مِن بابٍ واحدٍ، وادخُلوا مِن أبوابٍ مُتعدِّدةٍ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور))

﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

أي: هذا الاحترازُ سببٌ لا يَرُدُّ قدَرَ اللَّهِ، فما أقْدِرُ أنْ أدفَعَ عنكم بِوَصيَّتي هذه مِن قضاءِ اللَّهِ مِن شيءٍ؛ لأنَّ اللَّهَ إذا قدَّرَ شيئًا فلا بُدَّ مِن وُقوعِه، ولا ينفَعُ الحذَرُ مع القدَرِ[(١)].

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

أي: ما الحُكمُ والقضاءُ إلَّا للَّهِ وحدَه؛ يحكُمُ في خلْقِه، ويقضي فيهم بما يشاءُ[(٢)].

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

(١٣/ ٢٠).

قال السمعاني: (أكثرُ المفسِّرين على أنَّه خافَ العينَ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٧). وذكَر الرازي أنَّ عليه إطباقَ المتقدِّمينَ مِن المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٨١).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ :ابنُ عبَّاس، ومحمَّد بنُ كعبٍ، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ، وقتادةُ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٠).

قال القُرطبيُّ: (خاف عليهم العَينَ؛ لكونِهم أحَدَ عشَرَ رجُلًا لرجُلٍ واحدٍ، وكانوا أهلَ جَمالٍ وكمالٍ وبَسطةٍ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٦).

وقال ابنُ عاشورٍ: (وإنَّما نهاهم أن يدخلوها من بابٍ واحدٍ؛ خشيةَ أن يسترعيَ عددُهم أبصارَ أهلِ المدينةِ وحُرَّاسِها، وأزياؤهم أزياءُ الغُرباءِ عن أهلِ المدينةِ، أن يُوجِسوا منهم خِيفةً من تجسسٍ أو سرقةٍ، فربَّما سجنوهم، أو رصَدوا الأعينَ إليهم، فيكون ذلك ضرًّا لهم، وحائلًا دون سُرعةِ وُصولِهم إلى يُوسفَ عليه السَّلامُ، ودون قضاءِ حاجتِهم. ولمَّا كان شأْنُ إقامةِ الحُرَّاسِ والأرصادِ أن تكون على أبوابِ المدينةِ، اقتصَرَ على تحذيرِهم منَ الدُّخولِ من بابٍ واحدٍ، دون أنْ يُحذِّرَهم منَ المشيِ في سكةٍ واحدةٍ من سِكَكِ المدينةِ، ووَثِقَ بأنَّهم عارِفونَ بسِكَكِ المدينةِ، فلم يخْشَ ضلالَهم فيها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠، ٢١)، وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

أي: على اللَّهِ وحدَه اعتمدتُ ووَثِقتُ، لا على ما وصَّيتُكم به مِن دُخولِ مصرَ مِن أبوابٍ مُتفرِّقَةٍ، وعليه فلْيُفوِّضْ المُفَوِّضونَ أمورَهم[١].

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾.

أي: ولَمَّا دخَلَ أولادُ يعقوبَ مصرَ مِن أبوابٍ مُتفرِّقَةٍ، كما أمَرَهم أبوهم، ما كان ينفَعُهم دُخولُهم بتلك الصِّفةِ شيئًا ممَّا قضاهُ اللَّهُ عليهم[٢].

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَا﴾.

أي: لكِنْ[٣] أمَرَهم يعقوبُ بدُخولِ مصرَ مِن أبوابٍ مُتفرِّقَةٍ؛ لِحاجةٍ في نفْسِه أنفَذَها حين أمَرَهم بذلك، فلم يدَّخِرْ تلك النَّصيحةَ عنهم؛ لِيطمئنَّ قلْبُه بأنَّه لم يترُكْ شيئًا يظُنُّه نافعًا لهم إلَّا أبلَغَه إليهم؛ شفَقَةً منه، وحِرصًا على تنْبيهِهم للأخطارِ الَّتي قد تعرِضُ لهم، وتعْليمِهم الأخذَ بالأسبابِ مع التَّوكُّلِ على اللَّهِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤).

(٣) الاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ مُنقطعٌ بمعنى (لكن)؛ فالحاجةُ الَّتي في نفْسِ يعقوبَ عليه السَّلامُ ليست بعضًا مِن الشَّيءِ المَنْفِيِّ إغناؤه عنهم منَ اللهِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٨)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤).

قال ابنُ حزمٍ: (يعقوبُ عليه السَّلامُ أمَرَهم أن يدخلوا مِن أبوابٍ مُتفرِّقةٍ؛ إشفاقًا عليهم؛ إمَّا من إصابةِ العينِ، وإمَّا من تعرُّضِ عدُوٍّ أو مُستريبٍ بإجماعِهم، أو ببعضِ ما يُخَوِّفُه عليهم، وهو

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾.

أي: وإنَّ يعقوبَ لصاحِبُ عِلْمٍ عظيمٍ؛ لِتعْليمِنا إيَّاه[١].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يعلمونَ ما يعلَمُه نَبِيُّنا يعقوبُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن أمْرِ الدِّينِ، وعواقِبِ الأُمورِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- أنَّ الإنسانَ مأْمورٌ بأنْ يُراعِيَ الأسبابَ المُعتبَرَةَ في هذا العالَمِ، ومأمورٌ أيضًا بأنْ يعتقِدَ ويجزِمَ بأنَّه لا يصِلُ إليه إلَّا ما قدَّرَه اللَّهُ تعالى، وأنَّ الحذَرَ لا

عليه السَّلامُ مُعترفٌ أنَّ فعْلَه ذلك، وأمْرَه إيَّاهم بما أمَرَهم به من ذلك لا يُغْني عنهم مِن اللهِ شيئًا يُريدُه عزَّ وجلَّ بهم، ولكن لمَّا كانت طبيعةُ البشَرِ جاريةً في يعقوبَ عليه السَّلامُ، وفي سائرِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ -كما قال تعالى حاكيًا عنِ الرُّسلِ أنَّهم قالوا: ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [إبراهيم: ١١]- حمَلَهم ذلك على بعضِ النَّظرِ المُخفِّفِ لحاجةِ النَّفْسِ ونِزاعِها، وتَوْقِها إلى سَلامةِ مَن يُحِبُّ، وإنْ كان ذلك لا يُغني شيئًا). ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) (٤/ ٤)، ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

قال ابنُ عاشور: (هو ثناءٌ على يعقوبَ عليه السَّلامُ بالعلْمِ والتَّدبيرِ، وأنَّ ما أسداه مِن النُّصحِ لهم هو مِن العلْمِ الَّذي آتاه اللهُ، وهو مِن علْمِ النُّبوةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

قال ابنُ عاشورٍ: (المعنى أنَّ اللهَ أمَرَ يعقوبَ عليه السَّلامُ بأخْذِ أسبابِ الاحتياطِ والنَّصيحةِ، مع علْمِه بأنَّ ذلك لا يُغني عنهم مِن اللهِ مِن شيءٍ قدَّرَه لهم؛ فإنَّ مُرادَ اللهِ تعالى خَفِيٌّ عن النَّاسِ، وقد أمَرَ بسُلوكِ الأسبابِ المُعتادةِ، وعلِمَ يعقوبُ عليه السَّلامُ ذلك، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يعلمون تطلُّبَ الأمرينِ، فيُهمِلون أحدَهما؛ فمنهم مَن يُهمِلُ معرفةَ أنَّ الأسبابَ الظَّاهريَّةَ لا تدفَعُ أمرًا قدَّرَه اللهُ وعلِمَ أنَّه واقعٌ، ومنهم مَن يُهمِلُ الأسبابَ، وهو لا يعلَمُ أنَّ اللهَ أراد في بعضِ الأحوالِ عدَمَ تأثيرِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥).

يُنْجِي مِن القدَرِ؛ فإنَّ الإنسانَ مأمورٌ بأنْ يحذَرَ من الأشياءِ المُهلِكةِ، والأغذيةِ الضَّارَّةِ، ويسعى في تحصيلِ المنافِعِ، ودفْعِ المَضارِّ بقدْرِ الإمكانِ. ثمَّ إنَّه مع ذلك ينْبغي أنْ يكونَ جازِمًا بأنَّه لا يصِلُ إليه إلَّا ما قدَّرَه اللَّهُ، ولا يحصُلُ في الوُجودِ إلَّا ما أرادَه اللَّهُ؛ فقولُه عليه السَّلامُ: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ إشارةٌ إلى رِعايةِ الأسبابِ المُعتبَرَةِ في هذا العالَمِ، وقولُه: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ إشارةٌ إلى عدَمِ الالتفاتِ إلى الأسبابِ، وإلى التَّوحيدِ المحْضِ، والبَراءةِ عن كلِّ شيءٍ سِوى اللَّهِ تعالى[1].

٢- قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ المُسلِمَ يجِبُ عليه أنْ يُحَذِّرَ أخاه ممَّا يخافُ عليه، ويُرْشِدَه إلى ما فيه طريقُ السَّلامَةِ والنَّجاةِ؛ فإنَّ الدِّينَ النَّصيحةُ، والمُسلِمُ أخو المُسلِمِ[2].

٣- قال اللَّهُ تعالى حِكايةً عن قولِ يعقوبَ لأولادِه: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: لا يكونُ ما أمرْتُكم به مُغنِيًا غَنَاءً مُبتدِئًا مِن عند اللَّهِ، بل هو الأدَبُ والوقوفُ عند ما أمَرَ اللَّهُ، فإنْ صادَفَ ما قدَّرَه فقد حصَلَ فائدتانِ، وإنْ خالَفَ ما قدَّرَه حصَلَت فائدةُ امتثالِ أوامِرِه، واقتِناعِ النَّفْسِ بعدَمِ التَّفريطِ[3].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١).

﴾ فيه إثباتُ أنَّ العينَ حقٌّ[١]، هذا على القولِ بأنَّه أمَرهم بذلك لخوفِه عليهم مِن العينِ.

٢- في قولِه تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ ﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَا ﴾ حجَّةٌ في الاحترازاتِ خشيةَ العينِ؛ لأنَّ يعقوبَ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ نبيٌّ وقد فَكَّرَ في هذا، وربُّه جلَّ وعلا -وإنْ كان قد بَيَّنَ أنَّ احترازَهم لم يُغْنِ عنهم شيئًا- فلم يُنْكِرْ وَصاةَ أبيهم بذلك، وقال نبيُّنا صَلَّى اللَّه عليه وسلَّم: ((العينُ حقٌّ، ولو كان شيءٌ سابقَ القَدَرِ، سبقَتْه العينُ))[٢]، هذا على القولِ بأنَّه خافَ عليهم مِن العينِ.

٣- قولُه تعالى عن يعقوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ الحُكْمُ هنا هو مِن الحُكم الكونيِّ، ويُقابلُه الحُكْمُ الدِّينيُّ، كقولِه تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾[٣] [المائدة: ١].

٤- في قولِه تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَا ﴾ حُجَّةٌ على مَن ينفي القَدَرَ؛ لأنَّ العينَ -وإنْ كانت حقًّا- فليست تصيبُ إلَّا بقَدَرٍ[٤]، هذا على القولِ بأنَّه أمَرهم بذلك لخوفِه عليهم مِن العينِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦٢١).
والحديث أخرجه مسلم (٢١٨٨) من حديث ابن عباس.

(٣) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦٢٢).

٥- لم يُوصِهِم يعقوبُ عليه السلامُ بالتَّفرُّقِ في الكَرَّةِ الأُولى؛ لأنَّهم كانوا مجْهولينَ مَغْمورينَ بين النَّاسِ[١]، مع شُغْلِ النَّاسِ بما هم فيه مِن القَحْطِ[٢]، أو لأَنَّ محبوبَه فيهم، وهو بنيامينُ الَّذي كان يتسَلَّى به عن شقيقِه يوسفَ، ولم يَكُنْ فيهم في الكَرَّةِ الأُولَى، فأهملَ أمرَهم، ولم يَحتفِلْ بهم لسوءِ صَنيعِهم فِي يُوسفَ[٣].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ وإعادةُ فِعْلِ (قال)؛ للإشارةِ إلى اختِلافِ زَمَنِ القَولينِ، وإنْ كانا معًا مُسَبَّبَينِ على إيتاءِ مَوْثِقِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾ بيانٌ للمُرادِ بالنَّهيِ في قولِه: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾؛ لأنَّ عدَمَ الدُّخولِ مِن بابٍ واحدٍ ليس مُستلزِمًا للدُّخولِ مِن أبْوابٍ مُتفرِّقةٍ، فلو دخَلُوا مِنْ بابينِ مثلًا كانوا قد امتثلوا النهيَ عَنِ الدُّخولِ مِن بابٍ واحدٍ، وفي دُخولِهم مِن بابَيْنِ أو ثلاثةٍ بَعضُ ما في الدُّخولِ مِن بابٍ واحدٍ؛ مِن نوعِ اجتماعٍ مُصَحِّحٍ لوُقوعِ المحْذورِ؛ فأوضَحَه وبيَّنَه بقولِه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾، ولم يَكتَفِ بهذا الأمْرِ، مع كَونِه مُسْتلزِمًا للنَّهيِ السابقِ؛ إظهارًا لكَمالِ العِنَايةِ، وإيذانًا بأنَّه المُرادُ بالأَمْرِ المذْكورِ، لا تَحقيقُ شَيْءٍ آخرَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٨٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ١٩).

- قولُه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾ (المُتَفرِّقةُ) أرادَ بها المُتَعدِّدةَ؛ لأنَّه جعَلَها في مُقابَلةِ الواحدِ، ووجْهُ العُدولِ عنِ المُتَعدِّدةِ إلى المُتفرِّقةِ: الإيماءُ إلى عِلَّةِ الأمْرِ؛ وهي إخفاءُ كونِهم جماعةً واحدةً[١].

- وفي قولِه: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ زِيدَتْ (مِن)؛ لتَوكيدِ عُمومِ (شيءٍ) في سِياقِ النَّفْيِ[٢].

- وجُملةُ ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ في مَوْضِعِ البَيانِ لجُملةِ ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾؛ ليُبَيِّنَ لهم أنَّ وصيَّتَه بأخْذِ الأسبابِ مع التَّنْبيهِ على الاعتمادِ على اللَّهِ هو مَعْنى التَّوكُّلِ الَّذي يَضِلُّ في فَهْمِه كثيرٌ منَ النَّاسِ اقتِصارًا وإنكارًا؛ ولذلك أتَى بجُملةِ ﴿وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ أمرًا لهم ولغيرِهم، على مَعْنى أنَّه واجِبُ الحاضِرينَ والغائِبينَ، وأنَّ مَقامَه لا يختصُّ بالصِّدِّيقينَ، بل هو واجِبُ كلِّ مؤمنٍ[٣].

- قوله: ﴿وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾، أي: عليه دُون غَيرِه؛ فأفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ قَصْرَ التوكُّلِ على اللهِ تعالى[٤].

- وجمَع بين الحَرفينِ (الواو والفاء) في عَطفِ الجُملةِ على الجُملةِ؛ كأنَّ الواوَ للعَطفِ، والفاءَ لإفادة التسبُّبِ؛ فإنَّ فِعلَ الأنبياءِ سببٌ لأنْ يُقتدَى بهم[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٦) و(٤/ ٢٩٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٢).

ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ أي: منَ الأبوابِ المُتفرِّقةِ منَ البلدِ، وإنَّما اكْتَفى بذِكْرِه؛ لاستلزامِه الانتهاءَ عمَّا نُهُوا عنه[١]. وقد أَغْنَت جُملةُ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ عن جُمَلٍ كثيرةٍ؛ وهي: أنَّهم ارْتَحَلوا ودخلوا من حيث أمَرَهم أبوهم، ولَمَّا دخلوا مِن حيث أمَرَهم سَلِموا ممَّا كان يخافُه عليهم، وما كان دُخولُهم مِن حيث أمَرَهم يُغْني عنهم مِنَ اللَّهِ مِن شيءٍ لو قدَّرَ اللَّهُ أنْ يُحاطَ بهم؛ فالكلامُ إيجازٌ[٢].

- قولُه: ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي﴾ فِيه الجمْعُ بين صِيغَتَي الماضي والمستقبَلِ؛ لتحقيقِ المُقارَنةِ الواجِبةِ بين جَوابِ (لَمَّا) ومَدْخولِه ﴿دَخَلُواْ﴾؛ فإنَّ عدَمَ الإغْناءِ بالفعْلِ إنَّما يتحقَّقُ عند نُزولِ المحذورِ لا وقتَ الدُّخولِ، وإنَّما المُتحقِّقُ حينئذٍ ما أفادَه الجمْعُ المذكورُ مِن عدَمِ كونِ الدُّخولِ المذكورِ مُغْنِيًا فيما سيأتي[٣].

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ في تأْكيدِ الجُملةِ بـ(إنَّ) واللَّام، وتنْكيرِ (العِلْم)، وتَعليلِه بالتَّعليمِ المُسْنَدِ إلى ذاتِه سبحانه: دَلالةٌ على جَلالةِ شأْنِ يعقوبَ عليه السَّلامُ وعُلوِّ مَرتبةِ عِلمِه وفَخَامتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٩-٧٧)

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ءَاوَىٰٓ﴾: أي: ضَمَّ، والمأْوى: المَكَانُ الَّذي يُرْجَعُ إليه ليلًا أو نهارًا، وأصْلُ (أوي): يدلُّ على تجمُّعٍ[(١)].

﴿تَبۡتَئِسۡ﴾: أي: تحزَنْ وتَغتمَّ؛ مِن البُؤسِ: وهو الضُّرُّ والشِّدَّةُ[(٢)].

﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾: أي: الصُّواعَ الذي كان يشربُ فيه الملِكُ، ويكيلُ به الطَّعامَ،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢).

وأصْلُ (سقي): يدلُّ على إشرابِ الشَّيءِ الماءَ، وما أشبَهَه[١].

﴿ٱلْعِيرُ﴾: أي: الإبِلُ التي عليها الأحمالُ؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّها تَعيرُ، أي: تذهبُ وتجيءُ، وأصْلُ (عير): يدلُّ على مجيءٍ وذَهابٍ[٢].

﴿صُوَاعَ﴾: الصُّواعُ: السِّقايَةُ، وكان يُسقَى بها المَلِكُ، ثم جُعِلَت صاعًا يُكالُ به[٣].

﴿زَعِيمٌ﴾: أي: كَفيلٌ وضَمينٌ، وأصْلُ (زعم): يدلُّ على تكفُّلٍ بالشَّيءِ[٤].

﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾: أي: برِحالِهم، وأصْلُ (وعي): يدلُّ على ضمِّ شيءٍ[٥].

﴿دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾: أي: حُكمِه وقَضائِه، أو: سلطانِه[٦]، وأصلُ (دين): يدلُّ على الانقيادِ والذُّلِّ[٧].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٤، ٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢١١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٨٢)، ((تفسير الزمخشري))، (١/ ١٢١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٣٥).

(٦) قال ابنُ جريرٍ: (وهذه الأقوالُ ... مُتقارِبَةُ المعاني، لأنَّ مَن أخَذه في سلطانِ الملكِ عامَلَه بعَمَلِه، فبرِضاه أخَذَه إذًا لا بغيرِه، وذلك منه حكمٌ عليه، وحكمُه عليه قضاؤُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٦٦).

(٧) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)،

﴿تَصِفُونَ﴾: أي: تكذِبونَ وتقولونَ، والوصْفُ: ذِكْرُ الشَّيءِ بحِلْيتِه ونعْتِه، وأصْلُ (وصف): تحْليةُ الشَّيءِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مُبتدأٌ، و﴿مَن﴾ اسمٌ موصولٌ مبنيٌّ في محلِّ رفعٍ، خبرٌ على نيَّةِ حَذفِ مُضافٍ، والتَّقديرُ: جزاؤُه استِرقاقُ مَن وُجِدَ في رَحْلِه، و﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مُبتدأٌ وخبَرٌ، مُستأنَفٌ مُؤكِّدٌ لمعنى الأوَّلِ ومُقَرِّرٌ لحُكمِه، أي: فاستِرقاقُه جزاؤُه؛ كقولِك: حقُّ الضَّيفِ أن يُكْرَمَ، فهو حَقُّه. ويجوزُ أن يكونَ ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مُبتدأً، والجملةُ الشَّرطيَّةُ ﴿وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ خبرًا له، على إقامةِ الظَّاهرِ ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مَقامَ المُضمَرِ (هو)، والأصلُ: جزاؤُه مَن وُجِدَ في رحْلِه فهو هو، أي: فهو الجزاءُ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: ولَمَّا دخلَ إخوةُ يوسُفَ عليه في مَنزلِ ضِيافتِه ومعهم شَقيقُه، ضمَّ يوسُفُ إليه شقيقَه، وقال له سِرًّا: إنِّي أنا أخوك فلا تحزَنْ، ولا تغتمَّ بما صنَعوه بي وبك فيما مضى، وأمَرَه بكتمانِ ذلك عنهم، فلَمَّا جهَّزهم يوسُفُ، وحمَّلَ إبِلَهم بالطَّعامِ، جعَلَ الإناءَ -الَّذي يشرَبُ فيه المَلِكُ ويكيلُ للنَّاسِ به-

---

((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٣٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٥٢٩، ٥٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٧).

في متاعِ أخيه الشَّقيقِ مِن حيثُ لا يشعُرُ أحَدٌ، ولَمَّا رَكِبوا ليَسيروا نادى مُنادٍ قائلًا: يا أصحابَ هذه العِيرِ المُحمَّلةِ بالطَّعامِ، إنَّكم لسارِقونَ، فقال أولادُ يعقوبَ مُقبِلينَ على المُنادي: ما الَّذي تَفقِدونَه؟ قال المُنادي ومَن بحَضرتِه: نَفقِدُ الإناءَ الَّذي يشرَبُ فيه المَلِكُ، ويكيلُ به الطَّعامَ، ومُكافأةُ مَن يُحضِرُه مِقدارُ حِمْلِ بعيرٍ مِن الطَّعامِ، وقال المنادي: وأنا بحِمْلِ البَعيرِ مِن الطَّعامِ ضامِنٌ وكَفيلٌ.

قال إخوةُ يوسُفَ: لقد تحقَّقتُم ممَّا شاهَدتُموه منَّا أنَّنا ما جِئنا أرضَ مصرَ مِن أجلِ الإفسادِ فيها، وليست السرقةُ مِن صِفاتِنا ، قال المُنادي ومَن معه لإخوةِ يوسُفَ: فما عُقوبةُ السَّارِقِ عِندَكم إن كُنتُم كاذبينَ في قَولِكم؟ قال إخوةُ يوسُفَ: جزاءُ السَّارِقِ أن يُسلَّمَ إلى مَن سرَقَ منه؛ حتَّى يكون عبدًا عندَه، مثلَ هذا الجزاءِ- وهو الاستِرقاقُ- نَجزي الظَّالِمينَ بالسَّرِقةِ، وهذا دينُنا وسُنَّتُنا في أهلِ السَّرِقةِ، ورَجَعوا بإخوةِ يوسُفَ إليه، فقام يوسُفُ بنَفسِه يُفتِّشُ أمتِعتَهم، فبدَأَ بأمتِعَتهم قبل مَتاعِ شَقيقِه؛ إحكامًا لِما دبَّرَه لاستبقاءِ أخيه معه، ثمَّ انتهى بوعاءِ أخيه، فاستخرجَ الإناءَ منه، كذلك يسَّرْنا لِيوسُفَ هذا التَّدبيرَ الَّذي توصَّلَ به لأخْذِ أخيه، وما كان له أن يأخُذَ أخاه في حُكمِ مَلِكِ مصرَ- لأنَّه ليس مِن دينِه أن يتمَلَّكَ السَّارِقَ- إلَّا بمَشيئةَ اللَّهِ، فقد كادَ لِيوسُفَ، حتَّى تمكَّنَ مِن أخْذِ شقيقِه مِن إخوتِه، بناءً على شريعتِهم، وإقرارِهم بأنفُسِهم.

نرفَعُ مَن نشاءُ مَنازِلَ في الدُّنيا على غيرِه، كما رفَعْنا منزلةَ يوسُفَ، وفوقَ كُلِّ ذي علمٍ مَن هو أعلَمُ منه، حتَّى ينتهيَ العِلمُ إلى اللَّهِ تعالى عالمِ الغَيبِ والشَّهادةِ.

ولَمَّا استُخرِجَ الصُّواعُ مِن رَحلِ أخيهم قال إخوةُ يوسُفَ: إنْ سرَقَ هذا فقد سرَقَ أخٌ شقيقٌ له مِن قَبلُ- يقصِدونَ يوسُفَ عليه السَّلامُ- فأخفَى يوسُفُ في نفسِه كلمةً حدَّثَ نفسَه بها قائلًا: أنتم أسوأُ مَنزلةً ممَّن ذكَرْتُم؛ حيثُ دبَّرتُم لي ما

كان منكم، واللَّهُ أعلَمُ بما تَصِفونَ مِن الكَذِبِ والافتراءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ ﴾.

أي: ولَمَّا دخَلَ أولادُ يعقوبَ على يوسُفَ، ضمَّ يوسُفُ إليه أخاه الشَّقيقَ[١].

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

أي: قال يوسُفُ لأخيه مُخبِرًا بحقيقتِه: إنِّي أنا أخوك، فلا تحزَنْ بما كان إخوتُك يفعَلون بي وبك مِن قبْلُ[٢].

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ﴾.

أي: فلَمَّا أوفى يوسُفُ إخوتَه الطَّعامَ، وحمَّلَ لكلِّ واحدٍ منهم بعيرَه؛ جعَلَ الإناءَ- الَّذي يشرَبُ فيه الملِكُ ويُكالُ به الطَّعامُ- في مَتاعِ أخيه الشَّقيقِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤٤، ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

قال ابنُ عطيَّةَ: (والسِّقايَةُ: الإناءُ الَّذي به يشرَبُ الملِكُ، وبه كان يكيلُ الطَّعامَ للنَّاسِ، هكذا

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾.

أي: ثمَّ نادى منادٍ: يا أصحابَ القافِلَةِ المُحمَّلةِ بالطَّعامِ، إنَّكم لسارِقونَ[(١)].

﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

أي: قال إخوةُ يوسفَ وقد أقبلوا على المُنادي ومَن معه: ما الَّذي ضاعَ منكم[(٢)]؟

﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾.

نصَّ جُمهورُ المُفسِّرينَ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ، ومُجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زيدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

قال ابنُ جريرٍ: (إنَّ قولَه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ إنَّما هو خبَرٌ مِن اللهِ عن مؤذِّنٍ أذَّنَ به، لا خبَرٌ عن يُوسفَ، وجائِزٌ أنْ يكونَ المُؤذِّنُ أذَّنَ بذلك: أنْ فُقِدَ الصُّواعُ، ولا يعلَمُ بصنيعِ يُوسفَ، وجائزٌ أنْ يكونَ كان أذَّنَ المؤذِّنُ بذلك عن أمْرِ يُوسفَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧١).

وقال ابنُ عاشورٍ: (العيرُ: اسمٌ للحُمولةِ مِن إبلٍ وحميرٍ وما عليها مِن أحمالٍ وما معها مِن رِكابِها، فهو اسمٌ لمجموعِ هذه الثَّلاثةِ، وأُسْنِدت السَّرقةُ إلى جميعِهم؛ جريًا على المُعتادِ مِن مؤاخذةِ الجماعةِ بجُرمِ الواحدِ منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

وممَّنِ اختار أنَّ مرجعَ ضميرِ ﴿وَأَقْبَلُوا۟﴾ عائدٌ على إخوةِ يُوسفَ: ابنُ جريرٍ، والسَّعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

وممَّن قال بأنَّ مرجعَ الضَّميرِ عائدٌ إلى فتيانِ يُوسفَ: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٨، ٢٩).

وقال الواحديُّ: (قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟﴾ هو يعني أصحابُ العيرِ، وهم إخوةُ يُوسفَ، ﴿وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾ قال ابن عباس: يُريدُ: أقبَلَ هذه الرُّفقةُ على غِلمانِ يُوسفَ. فعلى هذا المعنى قال إخوةُ يُوسفَ، وقد أقبَلوا على المُؤذِّنِ ومَن معه، والمُؤذِّنُ كان معه قومٌ يقولون بقولِه ويُصحِّحون دعواه. قاله أبو بكرٍ. قال: ويجوزُ أن يكونَ المعنى: قال إخوةُ يُوسفَ وقد أقبَلَ المُنادي ومَن معه بالدَّعوى والمُطالبةِ؛ لأنَّه قد تقدَّمَ ذِكْرُ الفريقينِ، وصلَحَ صَرْفُ الإقبالِ إلى كلِّ فريقٍ منهما). ((البسيط)) (١٢/ ١٨٢).

﴿ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ ﴾.

أي: قال المُنادي ومَن معه: نفقِدُ الإناءَ الَّذي يشرَبُ فيه الملِكُ، ويكيلُ به الطَّعامَ[١].

﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ ﴾.

أي: ولِمن جاء بصُواعِ الملِكِ حِمْلُ بعيرٍ مِن الطَّعامِ[٢].

﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴾.

أي: قال المُنادي لإخوةِ يوسُفَ: وأنا بأنْ أُوفيَ مَن قامَ بذلك حِمْلَ بعيرٍ مِن الطَّعامِ، ضامِنٌ وكفيلٌ[٣].

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣ ﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ: واللَّهِ لقد علِمْتم أنَّنا ما جئْنا لنعصِيَ اللَّهَ في أرضِكم، ولم نكُنْ سارِقينَ مِن قبْلُ قطُّ، فليستِ السَّرِقةُ مِن خِصالِنا[٤].

﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ ﴾.

أي: قال المُنادي ومَن معه: فما عُقوبةُ سارِقِ الصُّواعِ إنْ كنتم كاذِبينَ في تَبْرئةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).
قال القرطبي: (البعيرُ هنا الجملُ في قولِ أكثرِ المفسِّرين. وقيل: إنَّه الحمارُ، وهي لغةٌ لبعضِ العربِ، قاله مجاهدٌ واختارَه). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

أنفُسِكم، ووجَدْنا الصُّواعَ في رِحالِكم[١]؟

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾.

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ: عُقوبةُ مَن وُجِدَ الصُّواعُ في مَتاعِه أنْ يكونَ هو نفْسُه رقيقًا لِصاحِبِ الصُّواعِ[٢].

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: كذلك نُعاقِبُ الظَّالمينَ للنَّاسِ بسَرِقةِ أمْتعتِهم؛ أنْ يكونَ السَّارِقُ مِلْكًا لصاحِبِ المالِ المَسروقِ[٣].

﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾.

﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾.

أي: فبدَأَ يوسُفُ بتفتيشِ أمتِعةِ إخوتِه قبلَ تفتيشِ مَتاعِ أخيه الشَّقيقِ، ثمَّ استخرَجَ الصُّواعَ[٤] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

قال القُرطبيُّ: (وكان هذا مِن دِينِ يعقوبَ عليه السَّلامُ وحُكْمِه). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٣٤).

(٤) قال الواحديُّ: (قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ إنْ شئْتَ رَدَدْتَ الكِنايةَ إلى

مِن مَتاعِ شقيقِه؛ ليصِحَّ له بذلك إمساكُه عنده[١].

﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾.

أي: مِثْلَ ذلك الكيدِ العجيبِ دبَّرنا ليوسفَ؛ ليتوصلَ إلى مقصودِه بألطفِ حيلةٍ[٢]؛ بأن ألهمناه أن يجعلَ السقايةَ في رحلِ أخيه؛ ليتوصَّلَ به إلى حبسِه[٣].

﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: ما كان يوسُفُ ليقْدِرَ على أنْ يأخُذَ أخاه الشَّقيقَ وَفقًا لشريعةِ ملِكِ مصرَ- فليس في حُكْمِه أنَّ مَن سَرَقَ يُسْتَرَقُّ- إلَّا بمشيئةِ الله[٤]؛ فقد كادَ لِيوسُفَ، حتَّى

السِّقايةِ، وإنْ شئْتَ إلى الصُّواعِ، على لُغةِ مَن يُؤنِّثُ. وإنْ شئْتَ على السَّرقةِ؛ لأنَّ فيما تقدَّمَ دليلًا عليها، قاله الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ وابنُ الأنباريِّ). ((البسيط)) (١٢/ ١٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠١).

(٢) ينظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠٤).

وقال السمعاني: (كَمَا كَادُوا فِي أَمر يُوسُف أَخَذُوهُ من أَبِيه بحيلة وألقوه فِي الْجب: ﴿كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ فِي أَمرهم). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٥).

(٣) ينظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢٤).

قال ابن تيمية: (إنَّما كادَ لِيُوسُفَ كيدًا جَزاءً منه على صَبرِه، وإحسانِه وذَكَره في مَعْرِضِ المِنَّةِ عليه فلو لم يَكُنْ ليوسُفَ - عليه السَّلامُ - اختصاصٌ بذلك الكيدِ لم يكُنْ في مجرَّدِ عملِ الإنسانِ أمرٌ مُباحٌ له ولغيرِه مِنَّةٌ عليه في مثلِ هذا المقام فَعُلِم أنَّ المنَّةَ كانت عليه في أنْ أُلهِم العملَ بِما كان مُباحًا قبلَ ذلك فإنَّه قد يُلهمُ العبدَ ما لا يُلهَمُه غيرَه، ولهذا قالَ بعضُ المفسِّرينَ في قوله تعالَى: ﴿كِدۡنَا﴾: صنَعْنا، وبعضُهم قَال: ألهمْنا يُوسفَ). ((الفتاوى الكبرى)) (٦/ ١٣٣).

(٤) قال السمينُ الحلبي: (قولُه: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه وجهانِ:

أحدُهما: أنَّه استثناءٌ منقطعٌ تقديرُه: ولكن بمشيئة اللَّه أَخَذه في دينِ غيرِ الملكِ، وهو دينُ آلِ يعقوبَ: أنَّ الاسترقاقَ جزاءُ السارقِ.

الثاني: أنَّه مفرغٌ مِن الأحوالِ العامةِ، والتقديرُ: ما كان ليأخذَه في كلِّ حالٍ إلَّا في حالِ التباسِه بمشيئةِ اللَّه، أي: إذنِه في ذلك). ((الدر المصون)) (٦/ ٥٣٣)، وينظر: ((تفسير أبي حيان))

تمكَّنَ مِن أخْذِ شقيقِه مِن إخوتِه، بناءً على شريعتِهم، وإقرارِهم بأنفُسِهم، فجعَلَ الحُكمَ منهم؛ ليتِمَّ له ما أرادَ[1].

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ بالتَّنوينِ، بمعنى: نرفَعُ مَن نشاءُ درجاتٍ في العِلْمِ على غيرِه، كما رفَعْنا يوسُفَ، فيكونُ في الآيةِ تقْديمٌ وتأْخيرٌ، كأنَّه قال: نرفَعُ مَن نشاءُ درجاتٍ[2].

٢- قِراءةُ ﴿دَرَجَاتِ﴾ بالإضافةِ بلا تنوينٍ، بمعنى: نرفَعُ درجاتِ مَن نشاءُ

(٦/ ٣٠٦).

قال ابن عاشور: (والاستثناءُ مِن عمومِ أسبابِ أخذِ أخيه المنفيةِ، وفي الكلامِ حرفُ جرٍّ محذوفٌ قبلَ «أن» المصدريةِ، وهو باءُ السببيةِ التي يدلُّ عليها نفيُ الأخذِ، أي أسبابِه. فالتقديرُ: إلا بأن يشاءَ الله، أي يُلهمَ تصويرَ حالتِه، ويأذنَ ليوسفَ عليه السلامُ في عملِه باعتبارِ ما فيه مِن المصالحِ الجمةِ ليوسفَ وإخوتِه في الحالِ والاستقبالِ لهم ولذريتِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٢)، ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٢٢).

وقال ابنُ القيِّم: (قولُه: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناءٌ مُنقطعٌ، أي: لكن إنْ شاء اللهُ أخَذَه بطريقٍ آخَرَ، ويجوزُ أن يكون مُتَّصلًا، والمعنى: إلَّا أنْ يُهيِّئَ اللهُ سببًا آخَرَ يُؤخَذُ به في دِينِ الملِكِ غيرَ السَّرقةِ). ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٥٥)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

قال ابنُ تيمية: (وقدْ كانَ مِن دينِ ملكِ مصرَ -فيما ذَكَره المفسِّرونَ- أنَّ السَّارقَ يُضرَبُ ويغرمُ قيمةَ المسروقِ مرَّتينِ). ((الفتاوى الكبرى)) (٦/ ١٣١).

(٢) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٦٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٤٤).

في الدُّنيا بالعِلْمِ، كما رفَعْنا منزِلةَ يوسُفَ، فيكونُ الرَّفعُ للدَّرجاتِ[١].

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

أي: نرفَعُ مَن نشاءُ درجاتٍ بالعلْمِ النَّافِعِ، ومعرفةِ الطرقِ الموصلةِ إلى المقاصِدِ الحَسَنةِ، كما رفَعْنا يوسُفَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: وفوقَ كلِّ عالِمٍ مَن هو أعلَمُ منه، حتَّى ينتهِيَ العلْمُ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ عالِمِ الغيبِ والشَّهادةِ[٣].

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ بعدما استُخرِجَ الصُّواعُ مِن رَحْلِ أخيهم؛ تنصُّلًا مِن التَّشبُّهِ به، وتبْرئةً لأنفُسِهم مِن هذه التُّهمةِ التي تُحرِجُهم: إنْ يسرِقْ هذا فليس

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٦٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٥٨، ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٦٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٤٩، ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

بغريبٍ منه؛ فقد سرَقَ شقيقُه يوسُفُ مِن قبلُ(١).

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾.

أي: فأضمَرَ يوسُفُ في نفْسِه كَلِمةً، ولم يُظهرها لهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

واختُلف في السرقةِ التي رَمَوا بها يوسفَ عليه السلامُ على أقوالٍ ذكَرها المفسِّرون، حاصلُها أنَّه وقعَت بعضُ أمورٍ في صغرِه فُهِم منها أنَّه سرَق، بينما هو في حقيقةِ الأمرِ لم يسرقْ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩٣).

وقيل: بل كَذَبوا عليه فيما نَسَبوه إليه فليس ليُوسفَ عليه السَّلامُ سرقَةٌ مِن قبلُ. قال الشوكاني: (وهذا أولَى، فما هذه الكذبةُ بأوَّلِ كذباتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٣).

وممَّنِ اختار أنَّ المراد مِن الكلمةِ التي أسرَّها هي قولُه: ﴿أَنتُم شَرٌّ مَّكَانًا﴾: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والزَّجَّاجُ، والبغَويُّ، والزَّمخشريُّ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢١٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧٦).

وقيل المعنى: فأضمَرَ يُوسفُ في نفْسِه اتِّهامَهم له بالسَّرقةِ، وكظَمَ غَيْظَه، ولم يُظهِرْ لإخوانِه كَذِبَهم عليه.

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ: الواحديُّ، وأبو حيَّان، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢٤، ٦٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٦٠).

قال ابنُ الجوزيِّ: (قولُه تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ﴾ في (هاء) الكنايةِ ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: أنَّها ترجِعُ إلى الكلمةِ الَّتي ذُكِرَت بعد هذا، وهي قولُه تعالى: ﴿أَنتُم شَرٌّ مَّكَانًا﴾ روى هذا المعنى العوفيُّ عنِ ابنِ عبَّاسٍ. والثَّاني: أنَّها ترجِعُ إلى الكلمةِ الَّتي قالوها في حقِّه، وهي قولُهم: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ وهذا معنى قولِ أبي صالحٍ عنِ ابنِ عبَّاسٍ،

وهذه الكلمةُ التي أسرَّها في نفْسِه، بعد أنْ وصَفَه إخوتُه بالسَّرقةِ كَذِبًا عليه؛ هي قولُه:

﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾.

أي: قال: أنتم شرٌّ منزِلةً عند اللَّهِ ممَّن نسبْتُموه إلى السَّرقةِ؛ لِصنيعِكم الظَّالِمِ بي، وعُقوقِ أبيكم، ثمَّ بعد تلك المُدَّةِ الطَّويلةِ لم يَزُلِ الحِقْدُ عن قُلوبِكم، فرميتُموني بالسَّرقةِ[1].

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

أي: واللَّهُ أعلَمُ بما تذكرونَ من الكَذِبِ[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ تضمَّنتِ الآيةُ البَيانَ عمَّا يوجِبُه التَّلطُّفُ في بُلوغِ المُرادِ مِن إيقاعِ الأسبابِ الَّتي تُؤدِّي إليه، وتبعَثُ عليه بظاهِرٍ جميلٍ وباطِنٍ حقٍّ، ممَّا يخْفَى على كثيرٍ مِن النَّاسِ موقِعُه، ويُشْكِلُ عليه وجْهُه؛ لأنَّه أنفَذُ له، وأنجَحُ للمطلوبِ منه[3].

٢- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ

فعلى هذا يكونُ المعنى: أسرَّ جوابَ الكلمةِ فلم يُجِبْهم عليها. والثَّالثُ: أنَّها ترجِعُ إلى الحُجَّةِ، المعنى: فأسرَّ الاحتجاجَ عليهم في ادِّعائهم عليه السَّرقةَ، ذكَرَه ابن الأنباريُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٦٠). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٦٩).

مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ فيه أنَّه ينبَغي لمَن أرادَ أنْ يُوهِمَ غيرَه بأمْرٍ لا يُحِبُّ أنْ يطَّلِعَ عليه أنْ يستعمِلَ المعاريضَ القوليَّةَ والفِعليَّةَ المانِعةَ له مِن الكَذِبِ، كما فعَلَ يُوسفُ؛ حيث ألقى الصُّواعَ في رَحْلِ أخيه، ثمَّ استخْرَجها منه مُوهِمًا أنَّه سارقٌ، وليس فيه إلَّا القَرينةُ الموهِمَةُ لإخوتِه، وقال بعد ذلك: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ولم يقُلْ: (مَن سرَقَ مَتاعَنا)، وكذلك لم يقُلْ: (إنَّا وجَدْنا مَتاعَنا عنده)، بل أتى بكلامٍ عامٍّ يصلُحُ له ولغيرِه، وليس في ذلك محذورٌ، وإنَّما فيه إيهامٌ أنَّه سارقٌ؛ ليحصُلَ المقصودُ الحاضِرُ، وأنَّه يبقى عند أخيه، وقد زالَ عنِ الأخِ هذا الإيهامُ بعدما تبيَّنتِ الحالُ[1].

٣- العمَلُ بالشَّريعةِ فيه إصلاحُ الأرضِ والبلادِ، واستقامةُ الأمورِ، والعَملُ بالمعاصي- مِن سَرِقةٍ وغَيرِها- فيه فسادُ ذلك؛ لِقَولِهم: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾، وكم في القُرآنِ مِن التَّصريحِ أنَّ العملَ بالمعاصي ومُخالفةَ الرُّسُلِ، فسادٌ للأرضِ، ومُتابعة الرُّسُلِ هو الصَّلاحُ المُطلَقُ؛ صَلاحُ الدِّينِ والدُّنيا[2].

٤- قال اللَّهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ في قِصَّةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ تنْبيهٌ على: أنَّ مَن كادَ غيرَه كيدًا مُحرَّمًا فإنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى لا بُدَّ أنْ يَكيدَه، وأنَّه لا بُدَّ أنْ يَكيدَ للمظلومِ إذا صبَرَ على كيدِ كائدِه وتلطَّفَ به؛ فالمُؤمنُ المُتوكِّلُ على اللَّهِ إذا كادَه الخلْقُ فإنَّ اللَّهَ تعالى يَكيدُ له، وينتصِرُ له بغيرِ حولٍ منه ولا قوَّةٍ[3].

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).
(٢) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٤٧).
(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٣٢).

هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ العلْمَ أشرَفُ المَقاماتِ وأعلى الدَّرجاتِ؛ لأنَّه تعالى لَمَّا هدى يوسُفَ إلى هذه الحيلةِ والفِكرةِ، مدَحَه لأجْلِ ذلك، فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾[1].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- حُذِفَ المفعولُ في قولِه: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ ليصِحَّ أنْ يُضَمَّنَ سرِقتَهم لِيوسُفَ، فيتِمَّ التَّعريضُ، ويكونَ الكلامُ صِدقًا، وذُكِرَ المفعولُ في قولِه: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ وهو صادِقٌ في ذلك، فصدَقَ في الجُملتينِ معًا تعريضًا وتصريحًا[2]، هذا على القولِ بأنَّ يوسفَ عليه السلامُ هو الذي أمَرهم بالنِّداءِ.

٢- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ كيف رَضِيَ يوسُفُ أن ينسُبَ إليهم السَّرقةَ ولم يفعَلوها؟

والجوابُ عن ذلك من وجوهٍ:

أحدُها: أنَّهم طلَبوا السقايةَ، فلم يَجِدوها، وغلَب على ظنِّهم أنَّهم هم الذين أخَذوها، فقالوا ذلك بناءً على غلبةِ ظنِّهم، وليس في القرآنِ ما يدلُّ على أنَّهم قالوا ذلك بأمْرِ يوسُفَ عليه السَّلامُ.

الثَّاني: أنَّه مِن بابِ المعاريضِ، وأنَّ يُوسفَ نَوَى بذلك أنَّهم سرَقوه مِن أبيه، حيثُ غَيَّبوه عنه بالحيلةِ الَّتي احْتالوها عليه، وخانوه فيه، والخائِنُ يُسمَّى سارقًا.

الثَّالثُ: أنَّه أرادَ: أيَّتُها العيرُ حالُكم حالُ السُّرَّاقِ. فالمعنى: إنَّ شيئًا لغيرِكم صار عندكم مِن غيرِ رِضا الملِكِ ولا علْمِه.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٦٩).

الرابعُ: أنَّ هذا كان حِيلةً لاجتماعِ شَمْلِه بأخيه، وفصْلِه عنه إليه، وهو ضررٌ دفَعَه بأقلَّ منه، وقيل غيرُ ذلك(١).

٣- في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ حُجَّةٌ في جوازِ المعاريضِ، بل في إباحةِ الكذِبِ فيما دعا إلى الصَّلاحِ والخيرِ، ودفْعِ الحرَجِ فيه، وزَوالِ المأْثَمِ في تكْريرِه(٢).

٤- في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الوصولَ إلى الحُقوقِ وصَلاحِ ذاتِ البَيْنِ مُباحٌ بالحِيَلِ(٣)، وأنَّ التَّوصُّلَ إلى الأغراضِ بالحِيَلِ جائزٌ إذا لم تُخالِفْ شريعةً، ولا هدَمَت أصلًا(٤).

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أصلٌ لِمشروعيَّةِ الجعالةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٣٠)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٢٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٦٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٤٣)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٩).
والجعالة -بتثليث الجيم- لغةً: ما يُجعلُ للإنسانِ على شيءٍ يعملُه، وهو أعمُّ مِن الأجرِ والثوابِ. وشرعًا: التزامُ مالٍ معلومٍ في مقابلةِ عملٍ معلومٍ لا على وجهِ الإجارةِ. يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٠)، ((شمس العلوم)) للحميري (٢/ ١١٠٨)، ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمناوي (ص: ١٢٧).

٦- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أصلٌ في الضمانِ والكفالةِ[١]، ففيه جوازُ الكَفالةِ على الرَّجلِ؛ لأنَّ المُؤذِّنَ الضَّامِنَ هو غيرُ يوسُفَ عليه السَّلامُ[٢].

٧- قولُه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾ استَشْهَدوا بعِلْمِهم على بَراءةِ أنْفُسِهم؛ لِمَا عَرَفوا منهم في كَرَّتَيْ مَجيئِهم، ودُخولِهم أرضَهم، ممَّا يدلُّ على فَرْطِ أمانتِهم، كردِّ البضاعةِ التي جُعِلت في رحالِهم[٣]، وأيضًا حَكَموا بعِلْمِهم ذلك؛ لأنَّ العِلْمَ بأحوالِهم الشَّاهدةِ يستلزِمُ العِلْمَ بأحوالِهم الغائبةِ[٤].

٨- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ لَمَّا كانت العِبرةُ بنَفْسِ الوِجْدانِ بَنَوا للمفعولِ قولَهم: ﴿وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾[٥].

٩- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ لِتحقُّقِهم البَراءةَ علَّقوا الحُكمَ على مُجرَّدِ الوِجْدانِ لا السَّرقةِ[٦].

١٠- قال اللَّهُ تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ فيه أنَّ القرائنَ يُعْمَلُ بها عند الاشتباهِ؛ لأنَّه استدلَّ بوُجودِ الصُّواعِ في رَحْلِ أخيه على الحُكمِ عليه بالسَّرقةِ مِن غيرِ بيِّنةِ شَهادةٍ ولا إقرارٍ، فعلى هذا إذا وُجِدَ المسروقُ في يَدِ السَّارقِ -خصوصًا إذا كان معروفًا بالسَّرقةِ- فإنَّه يُحكَمُ عليه بالسَّرقةِ، وهذا أبلَغُ مِن الشَّهادةِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٥).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٧١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

١١- ﴿فَبَدَأَ﴾ المُفتِّشُ ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾؛ وذلك لِتَزولَ الرِّيبةُ الَّتي يُظَنُّ أنَّها فُعِلَت بالقصْدِ، فلَمَّا لم يجِدْ في أوعيتِهم شيئًا ﴿ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾[1].

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يُستدَلُّ به على جوازِ تسميةِ قوانينِ مِلَلِ الكُفرِ (دينًا) لها[2].

١٣- قال اللَّهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ مِن لَطيفِ الكيدِ في ذلك: أنَّه لَمَّا أرادَ أخْذَ أخيه توصَّلَ إلى أخْذِه بما يُقِرُّ إخوتُه أنَّه حقٌّ وعدْلٌ، ولو أخَذَه بحُكمِ قُدرتِه وسُلطانِه لنُسِبَ إلى الظُّلمِ والجَورِ، ولم يكُنْ له طريقٌ في دِينِ الملِكِ يأخُذُه بها، فتوصَّلَ إلى أخْذِه بطريقٍ يعترِفُ إخوتُه أنَّها ليست ظُلمًا، فوضَعَ الصُّواعَ في رَحْلِ أخيه بمُواطأةٍ منه له على ذلك، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩].

ومِن لَطيفِ الكيدِ: أنَّه لم يُفَتِّشْ رِحالَهم وهم عنده، بل أمْهَلَهم حتَّى جهَّزَهم بجَهازِهم وخرَجوا، ثمَّ أرسَلَ في آثارِهم لذلك، والسِّياقُ يقْتَضي ذلك؛ إذ لو كان هذا وهم بحضْرَتِه لم يحتَجْ إلى الأذانِ، وإنَّما يكونُ الأذانُ نِداءً لبعيدٍ يُطْلَبُ وُقوفُه وحبْسُه. فكان في هذا مِن لَطيفِ الكيدِ: أنَّه أبعدُ مِن التُّهمةِ للطَّالِبِ بالمُواطأةِ والمُوافقةِ، وأنَّه لا يشعُرُ بما فُقِدَ له، فكأنَّه لَمَّا خرَجَ القومُ وارتَحَلوا، احتاجَ الملِكُ إلى صُواعِه لبعضِ حاجَتِه إليه، فالتمَسَه فلم يجِدْه، فسأَلَ عنه الحاضرين فلم يجِدُوه، فأرسَلوا في أثَرِ القومِ، فهذا أحْسنُ وأبعدُ مِن التَّفطُّنِ للحِيلَةِ مِن التَّفتيشِ في الحالِ قبل انفصالِهم عنه، بل كلَّما ازدادوا بُعدًا عنه كان أبلَغَ في هذا المعنى.

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠٤).

ومِن لَطيفِ الكيدِ: أنَّه أذَّنَ فيهم بصوتٍ عالٍ رفيعٍ يسمَعُه جميعُهم، ولم يقُلْ لواحدٍ واحدٍ منهم؛ إعلامًا بأنَّ ذَهابَ الصُّواعِ أمْرٌ قد اشتَهَر، ولم يبْقَ فيه خَفاءٌ، وأنتم قد اشتُهِرْتُم بأخْذِه، ولم يُتَّهَمْ به سِواكم.

ومِن لَطيفِ الكيدِ: قولُ المُؤذِّنِ وأصحابِه لإخوةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ أي: ما عُقوبةُ مَن ظهَرَ عليه أنَّه سرَقَه منكم ووُجِد معه؟ أي: ما عُقوبتُه عندكم وفي دِينِكم؟ ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ فأخَذوهم بما حكَموا به على نُفوسِهم، لا بحُكمِ الملِكِ وقومِه.

ومِن لَطيفِ الكيدِ: أنَّ الطَّالِبَ لَمَّا همَّ بتفتيشِ رَواحِلِهم بدَأَ بأَوعيتِهم يفتِّشُها قبلَ وِعاءِ مَن هو معه؛ تطمينًا لهم، وبُعدًا عن تُهمةِ المَواطأَةِ؛ فإنَّه لو بدَأَ بوِعاءِ مَن هو فيه لقالوا: وما يُدْريه أنَّه في هذا الوِعاءِ دون غيرِه مِن أوعيتِنا؟ فأزالَ هذه التُّهمةَ بأنْ بدَأَ بأوعيتِهم أوَّلًا[1].

١٤- في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ تنبيهٌ على أنَّ العِلْمَ الدَّقيقَ بلطيفِ الحِيَلِ المُوصلةِ إلى المقصودِ الشَّرعيِّ الَّذي يُحِبُّه اللَّهُ تعالى ورسولُه- مِن نَصْرِ دينِه وكَسْرِ أعدائِه، ونَصْرِ المُحِقِّ وقَمْعِ المُبْطِلِ- صفةُ مَدْحٍ يرفَعُ اللَّهُ تعالى بها درجةَ العبدِ، كما أنَّ العِلْمَ الَّذي يُخْصَمُ به المُبْطِلُ وتُدْحَضُ حُجَّتُه، صفةُ مَدْحٍ يرفَعُ بها درجةَ عبدِه[2].كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقد ذكَرَ اللَّهُ أنَّه يرفَعُ دَرَجاتِ مَنْ يشاءُ في قِصَّةِ مُناظَرَةِ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٠٩، ١١٠، ١١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٩).

إبْراهيمَ وفي قِصَّةِ احتِيالِ يوسُفَ، ولهذا قال السَّلفُ: بالعِلْم؛ فإنَّ سِياقَ الآياتِ يدُلُّ عليه، فقِصَّةُ إبراهيمَ في العِلْم بالحُجَّةِ والمُنَاظَرَةِ؛ لدَفْعِ ضَرَرِ الخَصمِ عنِ الدِّينِ، وقِصَّةُ يوسُفَ في العِلْم بالسِّياسةِ والتَّدبيرِ؛ لتَحصُلَ مَنْفعةُ المَطلوبِ؛ فالأوَّلُ عِلْمٌ بما يدفَعُ المَضَارَّ في الدِّينِ، والثَّاني عِلْمٌ بما يَجْلِبُ المَنافِعَ. أو يقال: الأوَّلُ: هو العِلْمُ الَّذي يدفَعُ المَضَرَّةَ عنِ الدِّينِ، ويجلِبُ مَنْفعَتَه، والثَّاني: عِلْمٌ بما يدفَعُ المَضَرَّةَ عنِ الدُّنيا، ويجلِبُ مَنفعَتَها. أو يقال: قِصَّةُ إبراهيمَ في عِلْمِ الأقْوالِ النَّافِعَةِ عند الحاجَةِ إليها، وقِصَّةُ يوسُفَ في عِلْمِ الأفْعالِ النَّافِعَةِ عند الحاجَةِ إليها؛ فالحاجَةُ في جَلْبِ المَنْفعَةِ ودَفْعِ المَضَرَّةِ قد تكونُ إلى القولِ، وقد تكونُ إلى الفِعْلِ[(١)].

١٥- في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ أنَّ مِن الكيدِ ما هو مشروعٌ، إلَّا أنَّه لا يجوزُ أنْ يُرادَ به الكيدُ الَّذي تُستحَلُّ به المُحرَّماتُ، أو تُسقَطُ به الواجباتُ؛ فإنَّ هذا كيدٌ للَّهِ، واللَّهُ هو المَكيدُ في مِثْلِ هذا، فمُحالٌ أنْ يَشْرَعَ اللَّهُ أنْ يُكادَ دِينُه. وأيضًا فإنَّ هذا الكيدَ لا يتِمُّ إلَّا بفعْلٍ يُقْصَدُ به غيرُ مقصودِه الشَّرعيِّ، ومُحالٌ أنْ يَشْرَعَ اللَّهُ لعبْدٍ أنْ يقصِدَ بفعْلِه ما لم يَشْرَعِ اللَّهُ ذلك الفعْلَ له[(٢)].

١٦- في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الكيدَ إنْ كان جزاءً للمُعتدي بمِثْلِ فِعْلِه كان عدلًا حَسَنًا[(٣)].

١٧- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ فيه شاهِدٌ لتَفاوُتِ النَّاسِ في العِلْمِ المُؤْذِنِ بأنَّ علْمَ الَّذي خلَقَ لهم العلْمَ لا ينحصِرُ مداهُ، وأنَّه فوقَ كلِّ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٩٣).
(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٣٢).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٧١).

نهايةٍ مِن علْمِ النَّاسِ[١].

١٨- قال تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ قوله: ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ أي: الكلمةَ، فكَنَّى عَنِ الكلمةِ، ولم يَجْرِ لها ذكرٌ متقدِّمٌ، والعربُ تفعلُ ذلكَ كثيرًا، إذا كان مفهومًا المعنَى المرادُ عندَ سامِعي الكلامِ[٢].

١٩- إن قِيل: كيفَ صبَر يوسفُ عليه السلامُ عن أبيه بعدَ أنْ صارَ ملِكًا، مع أنَّ البرَّ به يَقْتَضي أن يبادرَ إليه ويَسْتدْعيه؟

فالجوابُ: أنَّ ذلك كان عن أمرِ الله تعالى وبوحيٍ منه؛ ليرفعَ درجةَ يعقوبَ عليه السلامُ بالصبرِ على البلاءِ، ويَكملَ أجرُه، وتتفسَّر الرُّؤْيا الأُولَى، وكان يوسفُ عليه السلامُ يُلاقي مِن الحزنِ لأجلِ حزنِ أبيه عظيمًا، ولا يقدرُ على دفعِ سببِه[٣].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ كلَّمَه بكلمةٍ مُخْتَصَرةٍ بليغَةٍ؛ إذْ أفادَه أنَّه هو أخوه الَّذي ظنَّه أكَلَه الذِّئبُ؛ فأكَّدَ الخبرَ بـ (إنَّ)، وبالجُملةِ الاسميَّةِ، وبالقَصْرِ الَّذي أفادَه ضميرُ الفَصْلِ ﴿أَنَا﴾ أي: أنا مَقْصورٌ على الكَوْنِ أخاك لا أجْنَبِيٌّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٨).

قال ابن تيمية: (ولم يكنْ قصدُ يوسفَ باحتباسِ أخيه الانتقامَ مِن إخوتِه، فإنَّه كان أكرمَ مِن هذا، وكان في ذلك مِن الإيذاءِ لأبيه أعظمُ ممَّا فيه مِن إيذاءِ إخوتِه، وإنما هو أمرٌ أمَره الله به؛ ليبلغَ الكتابُ أجلَه، ويتمَّ البلاءُ الذي استحقَّ به يعقوبُ ويوسفُ كمالَ الجزاءِ، وتبلغَ حكمةُ الله التي قَضاها لهم نهايتَها). ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (١/ ١٨٤).

عنك؛ فهو قصرُ قَلْبٍ؛ لاعتقادِه أنَّ الَّذي كلَّمَه لا قَرابةَ بينه وبينه[١].

- قولُه: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أفادَ فِعْلُ الكَوْنِ في المُضِيِّ أنَّ المُرادَ ما عَمِلوه فيما مضى، وأفادَ صَوْغُ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بصيغةِ المُضارعِ أنَّه أعمالٌ مُتَكرِّرةٌ مِنَ الأذى، وفي هذا تهيئةٌ لنَفْسِ أخيه لِتلقِّي حادِثِ الصُّواعِ باطْمِئنانٍ؛ حتَّى لا يَخْشى أنْ يكونَ بمحَلِّ الرِّيبةِ مِن يوسُفَ عليه السَّلامُ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَذَّنَ﴾؛ للتَّكثيرِ، فكأنَّه نادى مِرارًا[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ فيه إسنادُ السَّرقةِ إلى جميعِهم؛ جَرْيًا على المُعْتادِ مِن مُؤاخَذَةِ الجَماعةِ بجُرْمِ الواحِدِ منهم، وتأْنيثُ اسمِ الإشارةِ وهو (أيَّتُها)؛ لتأْويلِ العِيرِ بمعنى الجَماعةِ؛ لأنَّ الرُّكَّابَ همُ الأهمُّ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾ جُملةٌ حالِيَّةٌ مِن ضميرِ قولِه: ﴿قَالُوا۟﴾ جيءَ بها للدَّلالةِ على انزعاجِهم ممَّا سَمِعوه؛ لمُبايَنَتِه لحالِهم[٥].

- وصيغةُ المُستقبَلِ في قولِه: ﴿تَفْقِدُونَ﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُهم: ﴿مَاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ فيه العُدولُ عمَّا يقْتَضيه الظَّاهرُ مِن قولِهم: (ماذا سُرِقَ منكم)؛ لبَيانِ كَمالِ نزاهَتِهم بإظهارِ أنَّه لم يُسْرَقْ منهم شيءٌ، فَضْلًا أنْ يكونوا همُ السَّارقينَ له، وإنَّما المُمْكِنُ أنْ يضيعَ منهم شيءٌ، فيسْأَلونَهم أنَّه ماذا، وفيه إرشادٌ لهم إلى مُراعاةِ حُسْنِ الأدَبِ، والاحترازِ عنِ المُجازَفَةِ، ونِسْبَةِ البُرآءِ إلى ما لا خيرَ فيه، لا سيَّما بطريقِ التَّوكيدِ؛ فلذلك غيَّروا كلامَهم حيث قالوا في جوابِهم: ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ ولم يقولوا: (سَرَقْتُموه) أو (سُرِقَ)[1].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ فيه إضافةُ الصُّواعِ إلى الملِكِ؛ لتَشْريفِه، وتهويلِ سَرِقَتِه على وجهِ الحقيقةِ؛ لأنَّ شُؤونَ الدَّولةِ كلَّها للملِكِ. ويجوزُ أنْ يكونَ أُطْلِقَ الملِكُ على يوسُفَ عليه السَّلامُ؛ تَعْظيمًا له[2].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ قَسَمٌ فيه مَعْنى التَّعجُّبِ ممَّا أُضيفَ إليهم؛ حيث أقْسَموا بالتَّاءِ مِن حُروفِ القَسَمِ، كأنَّهم عَجِبوا مِن رَمْيِهم بهذا الأمْرِ؛ لأنَّها تكونُ فيها التَّعجُّبُ غالِبًا؛ وذلك لأنَّ المُقْسَمَ عليه بالتَّاءِ يكونُ نادِرَ الوُقوعِ؛ لأنَّ الشَّيءَ المُتَعَجَّبَ منه لا يكْثُرُ وُقوعُه، ومِن ثَمَّ قلَّ استعمالُ التَّاءِ إلَّا مع اسمِ الجَلالَةِ؛ لأنَّ القَسَمَ باسمِ الجَلالَةِ أقْوى القَسَمِ[3].

- وقولُهم: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٣، ٤٤).

أكَّدوا ذلك بالقَسَمِ، ونَفَوا عن أنفُسِهم الاتِّصافَ بالسَّرقةِ بأبْلَغَ ممَّا نَفَوا به الإفسادَ عنهم، وذلك بنَفْيِ الكَوْنِ سارقينَ دون أنْ يقولوا: (وما جِئْنا لِنسرِقَ)؛ لأنَّ السَّرقةَ وَصْفٌ يُتَعَيَّرُ به[١].

- قولُه: ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ونَفْيُ المَجيءِ للإفسادِ -وإنْ لم يكُنْ مُستلزِمًا لِمَا هو مُقْتَضى المَقامِ مِن نَفْيِ الإفسادِ مُطلقًا، لكنَّهم جَعَلوا المجيءَ الَّذي يترتَّبُ عليه ذلك، ولو بطَريقِ الاتِّفاقِ، مجيئًا لغَرَضِ الإفسادِ مفعولًا لأجْلِه ادِّعاءً- إظهارٌ لكَمالِ قُبْحِه عندهم، وتربيةٌ لاستحالةِ صُدورِه عنهم، فكأنَّهم قالوا: إنْ صدَرَ عنَّا إفسادٌ كان مَجيئُنا لذلك؛ مُريدينَ به تَقْبيحَ حالِه، وإظهارَ كمالِ نَزاهتِهم عنه[٢].

- قولُه: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾، إنَّما لم يكْتَفوا بنَفْيِ الأمْرَينِ المَذْكورينِ، بل استَشْهدوا بعِلْمِهم بذلك؛ إلزامًا للحُجَّةِ عليهم، وتحقيقًا للتَّعجُّبِ المفهومِ مِن تاءِ القَسَمِ[٣].

٦- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ﴾ علَّقوا الحُكْمَ على وِجْدانِ الصَّاعِ لا على سَرِقتِه؛ لاعتِقادِهمُ البَراءةَ، فكأنَّهم يقولون: لا يُمكِنُ أنْ نسرِقَ[٤].

فاختاروا عنوانَ الوِجْدانِ في الرحلِ دونَ السرقةِ، معَ أنَّه المرادُ؛ لأنَّ كونَ الأخذِ والاسترقاقِ سنةٌ عندَهم، ومِن شريعةِ أبيهم عليه السلامُ إنَّما هو بالنسبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠٤).

إلى السارقِ، دونَ مَن وُجد عندَه مالُ غيرِه كيفما كان، إشارةً إلى كمالِ نزاهتِهم، حتى كأنَّ أنفسَهم لا تطاوعُهم وألسنتُهم لا تساعدُهم على التلفُّظِ به مثبتًا لأحدِهم بأيِّ وجهٍ كان، وكأنَّهم تأكيدًا لتلك الإشارةِ عدَلوا عن: (مَن وُجِد عندَه) إلى ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ﴾[1].

- قولُه: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ تقريرٌ لذلك الحُكْم، أي: فأَخْذُ السَّارقِ نفْسِه هو جزاؤه لا غيرُ[2]؛ فجُملةُ ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ توكيدٌ لَفْظيٌّ لجُملةِ ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ﴾؛ لتقريرِ الحُكْمِ وعَدَمِ الانفلاتِ منه، وتكونُ الفاءُ للتَّفْريعِ؛ تفريعِ التَّأكيدِ على المُؤَكَّدِ[3].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تأْكيدٌ للحُكْمِ المَذْكورِ بعدَ تأْكيدٍ، وفيه بيانٌ لقُبْحِ السَّرقةِ[4].

٧- قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ذَكَّرَ ضميرَ الصُّواعِ مرَّاتٍ ثُمَّ أنَّثَه؛ على رُجوعٍ بالتَّأنيثِ على السِّقايةِ، أو أنَّثَ الصُّواعَ؛ لأنَّه يُذكَّرُ ويُؤَنَّثُ، ولعلَّ يوسُفَ كان يُسمِّيه سِقايةً، وعَبيدُه صُواعًا؛ فقد وقَعَ فيما يتَّصِلُ به مِن الكلامِ سِقايةً، وفيما يتَّصِلُ بهم منه صُواعًا[5]، وهذا التَّأنيثُ في تَمامِ الرَّشاقةِ؛ إذْ

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩١).

كانتِ الحقيقةُ أنَّها سِقايةٌ جُعِلَت صُواعًا؛ فهو كَرَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ[١].

- قولُه: ﴿وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ فيه إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ، حيث لم يقُلْ: (منه) على رَجْعِ الضَّميرِ إلى الوِعاءِ، أو (مِن وِعائِه) على رَجْعِه إلى أخيه؛ قَصْدًا إلى زيادةِ كَشْفٍ وبيانٍ[٢].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في إدْخالِ الكافِ على اسمِ الإشارةِ (ذلك) دلالةٌ على فَخامةِ المُشارِ إليه، وكذا ما في (ذلك) مِن مَعْنى البُعدِ، أي: مثلَ ذلك الكَيدِ العَجيبِ[٣].

- قولُه: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استئنافٌ وتعليلٌ لذلك الكَيدِ وصُنْعِه، لا تفسيرٌ وبيانٌ له- كما قيل- كأنَّه قيل: لماذا فعَلَ ذلك؟ فقيل: لأنَّه لم يكُنْ ليأْخُذَ أخاه بما فعَلَه في دِينِ الملِكِ في أمْرِ السَّارقِ، أي: في سُلطانِه، أو في حُكْمِه وقَضائِه[٤]. وقيل: هي تفسيرٌ للكَيدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣١).
ورَدُّ العَجُز على الصَّدر- ويُعرَف أيضًا بالتصدير- هو: أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعينِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، أو: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظينِ المُكرَّرينِ، أو المتجانسَينِ، أو المُلحقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّل: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصلةِ آخِرَ كَلمةٍ في الصَّدرِ، كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلُ كَلمةٍ منه، كقولِه: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثالث: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلماتِه، كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].
يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٩٦، ٢٩٧).

وبيانٌ له؛ لأنَّه كان في دِينِ ملِكِ مصرَ[١].

- قولُه: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ الجُملةُ مُسْتَأْنَفَةٌ، وإيثارُ صِيغةِ الاستقبالِ؛ للإشعارِ بأنَّ ذلك سُنَّةٌ مُستمِرَّةٌ، غيرُ مُخْتَصَّةٍ بهذه المادَّةِ[٢].

- وجُملةُ ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ تذييلٌ لقِصَّةِ أخْذِ يوسُفَ عليه السَّلامُ أخاه؛ لأنَّ فيها رَفْعَ درجةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ في الحالِ بالتَّدبيرِ الحَكيمِ، مِن وقتِ مُناجاتِه أخاه إلى وقتِ استخراجِ السِّقايةِ مِن رَحْلِه، ورَفْعَ درجةِ أخيه في الحالِ بإلحاقِه لِيوسُفَ عليه السَّلامُ في العَيْشِ الرَّفيهِ، والكَمالِ بتلقِّي الحكمةِ مِن فيه، ورَفْعَ درجاتِ إخوتِه وأبيه في الاستقبالِ؛ بسببِ رَفْعِ درجةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ، وحُنُوِّه عليهم[٣].

- قولُه تعالى: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ تذييلٌ لقولِه: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي: نرفَعُ درجاتٍ عاليةً مِن العِلْمِ مَن نشاءُ رَفْعَه، وفوقَ كلِّ أحدٍ منهم عليمٌ هو أعْلى درجةً[٤].

وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ تذييلٌ ثانٍ لجُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ وعبَّر عن جِنْسِ المُتَفَوِّقِ في العِلْمِ بوَصْفِ ﴿عَلِيمٞ﴾ باعتبارِ نِسبتِه إلى مَن هو فوقَه، إلى أنْ يبْلُغَ إلى العليمِ المُطْلَقِ سبحانه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٢، ٣٣)، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٣).

- وظاهرُ تَنْكيرِ ﴿عَلِيمٌ﴾ أنْ يُرادَ به الجِنْسُ، فيَعُمَّ كلَّ مَوصوفٍ بقوَّةِ العِلْمِ، إلى أنْ ينتهِيَ إلى عِلْمِ اللَّهِ تعالى، فعُمومُ هذا الحُكْمِ بالنِّسبةِ إلى المخلوقاتِ لا إشكالَ فيه، ويتعيَّنُ تخصيصُ هذا العُمومِ بالنِّسبةِ إلى اللَّهِ تعالى بدليلِ العَقْلِ؛ إذْ ليس فوق اللَّهِ عَليمٌ. وقد يُحْمَلُ التَّنكيرُ على الوَحدةِ، ويكونُ المُرادُ: عليمٌ واحدٌ؛ فيكونُ التَّنكيرُ للوَحدةِ والتَّعظيمِ، وهو اللَّهُ تعالى، فلا يحتاجُ إلى التَّخصيصِ[(١)].

- وفي صيغةِ المُبالَغةِ ﴿عَلِيمٌ﴾ مع التَّنكيرِ، والالتفاتِ إلى الغَيبةِ: دلالةٌ على فَخامةِ شأْنِه عزَّ وعلا، وجَلالةِ مِقدارِ عِلْمِه المُحيطِ[(٢)]. على أحدِ القولينِ.

٨- قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ فيه تَنْكيرُ ﴿أَخٞ﴾؛ لأنَّ الحاضرينَ لا عِلْمَ لهم به[(٣)].

- جُملةُ ﴿وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ﴾ قيل: هي توكيدٌ لجُملةِ ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾، وشأْنُ التَّوكيدِ ألَّا يُعْطَفَ، ووجْهُ عَطْفِها: ما فيها مِن المُغايرةِ للَّتي قبلها بزيادةِ قَيْدِ ﴿لَهُمۡ﴾ المُشْعِرِ بأنَّه أَبْدَى لأخيه أنَّهم كاذِبونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ: لم يُبْدِ لهم غَضَبًا ولا عِقابًا؛ مُبالغَةً في كَظْمِ غَيظِه، فيكونُ في الكلامِ تقديرُ مُضافٍ مُناسِبٍ، أي: لم يُبْدِ أثَرَها[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٥).

- قولُه: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ استئنافٌ مبْنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن الإخبارِ بالإسرارِ المَذكورِ، كأنَّه قيل: فماذا قال في نفْسِه في تَضاعيفِ ذلك الإسرارِ؟ فقيل: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾[1]؛ وضَميرُ الغَيبةِ في ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ عائدٌ إلى ما بعدَه، وهو قولُه: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: قال في نفْسِه، وهو يُشْبِهُ ضَميرَ الشَّأنِ والقصَّةِ، لكنَّ تأنيثَه بتأويلِ المَقولةِ أو الكلمةِ، وتكونُ جُملةُ ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ تفسيرًا للضَّميرِ في ﴿فَأَسَرَّهَا﴾[2].

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ صيغةُ التَّفضيلِ ﴿أَعْلَمُ﴾ لمُجرَّدِ المُبالَغةِ لا لِتَفْضيلِ عِلْمِه عزَّ وجلَّ على عِلْمِهم، كيف لا وليس لهم بذلك مِن عِلْمٍ[3]؟!

- وقولُه: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ تذييلٌ، وهو كلامٌ جامعٌ، أي: اللَّهُ أعْلَمُ بصِدْقِكم فيما وصَفْتم أو بكَذِبِكم، والمرادُ: أنَّه يعلمُ كَذِبَهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٩).
والقاعدةُ: أنَّ صيغةَ التفضيلِ قد تُطلقُ في القرآنِ واللُّغةِ مرادًا بها الاتصافُ، لا تَفضيلُ شَيءٍ على شَيءٍ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠)، ((قواعد التفسير)) للسبت (٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٦).

الآيات (٧٨-٨٠)

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: أي: أعوذُ وأستجيرُ باللَّهِ، وأصْلُ (عوذ): الْتِجاءٌ إلى الشَّيءِ[(١)].

﴿ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ﴾: أي: يَئِسوا؛ من اليأْسِ: وهو القُنوطُ، وأصلُ (يئس): يدلُّ على قطْعِ الرَّجاءِ[(٢)].

﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾: أي: اعتَزَلوا النَّاسَ، وانفرَدوا يتَناجَون ويتَشاورون ويَتَسارُّون، وأصْلُ (خلص): يدلُّ على تنقيةِ الشَّيءِ وتهذيبِه، وأصْلُ (نجو): يدلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ[(٣)].

﴿أَبۡرَحَ﴾: أي: أخرُجَ وأفارِقَ، وأصْلُ (برح): زوالٌ، وبُروزٌ، وانكشافٌ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٨) (٥/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٥، ٢١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٤).

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾

﴿نَجِيًّا﴾: حالٌ مِن واوِ الجَماعةِ في ﴿خَلَصُواْ﴾، وإنَّما أُفرِدَت الحالُ، وصاحِبُها (واو الجماعة) جمعٌ؛ لأنَّ النَّجيَّ (فعيلٌ) بمعنى (مُفاعِل)؛ كالعَشيرِ والخَليطِ، بمعنى: المُخالِط والمُعاشِر، وهذا في الاستعمالِ يُفرَدُ مُطلقًا؛ يقال: هم خَليطُك وعَشيرُك، أي: مُخالِطوك ومُعاشِروك. وقيل: لأنَّ ﴿نَجِيًّا﴾ مصدرٌ بمعنى التَّناجي.

﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ﴾: في (ما) وَجهانِ؛ أحدهما: أنَّها زائدةٌ، و﴿مِنْ قَبْلُ﴾ جارٌّ ومجرورٌ مُتعَلِّقٌ بالفِعلِ ﴿فَرَّطتُمْ﴾، أي: وفرَّطْتُم مِن قَبْلُ في يوسُفَ. والثاني: أنَّها مَصدريَّةٌ، ومحلُّ المصدرِ ﴿مَا فَرَّطتُمْ﴾ النَّصبُ عَطفًا على مفعولِ ﴿تَعْلَمُوٓاْ﴾، وهو ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ﴾، أي: ألم تعلَموا أَخْذَ أبيكم الميثاقَ، وتَفريطَكم في يوسُفَ، وفُصِلَ بين حرفِ العَطفِ والمَعطوفِ بـ﴿مِنْ قَبْلُ﴾[1]. وقيل غيرُ ذلك[2].

---

(١) وهو جائزٌ خِلافًا لأبي علي الفارسيِّ. قال ابنُ مالك: (منع أبو عليٍّ الفَصلَ بين العاطِفِ والمعطوفِ بظَرفٍ أو جارٍّ ومجرور... وليس الأمرُ كما زعم، بل الفَصلُ بين العاطِفِ والمعطوفِ بالظَّرفِ والجارِّ والمجرورِ جائزٌ في الاختيارِ، إنْ لم يكُن المعطوفُ فِعلًا ولا اسمًا مَجرورًا، وهو في القرآنِ كَثيرٌ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾، ففصل بـ «إذا» وما أُضيفَت إليه بين الواو، و﴿أَن تَحْكُمُواْ﴾، وهو مَعطوفٌ على ﴿أَن تُؤَدُّواْ﴾... وكقَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، ففَصَلَ بـ «مِنَ الأرضِ» بين الواو و﴿مِثْلَهُنَّ﴾). ((شرح الكافية الشافية)) (٣/ ١٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٩٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٥٣٨).

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن إخوةِ يوسفَ أنَّهم قالوا له مُستعطفينَ؛ لِيَفُوا بعَهدِ أبيهم: يا أيُّها العَزيزُ، إنَّ له والدًا كبيرًا في السِّنِّ يحِبُّه، ولا يُطيقُ بُعدَه، فخُذْ أحَدَنا بدلًا منه؛ إنَّا نراك مِن المُحسنينَ. قال يوسُفُ: نَستجيرُ باللَّهِ أن نأخُذَ أحدًا غيرَ الَّذي وجَدْنا الصُّواعَ عندَه؛ فإنَّنا نكونُ في عِدادِ الظَّالمينَ إن فعَلْنا ما تطلُبونَ، فلَمَّا يَئِسوا مِن إجابتِه إيَّاهم لِمَا طَلَبوه، انفَرَدوا عن النَّاسِ، وأخَذوا يتشاوَرونَ فيما بينهم؛ قال كبيرُهم: ألم تَعلَموا أنَّ أباكم قد أخذَ عليكم العهدَ المُؤكَّدَ؛ لَترُدُّنَّ أخاكم إلَّا أن تُغلَبوا، ومِن قبلِ هذا كان تقصيرُكم في يوسُفَ وتضييعُكم له؛ لذلك لن أُفارِقَ أرضَ مِصرَ حتَّى يأذنَ لي أبي في مُفارَقتِها، أو يقضيَ لي ربِّي بالخُروجِ منها، واللهُ خيرُ مَن حَكَمَ، وأعدَلُ مَن فَصَلَ بين النَّاسِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللَّهَ تعالى بيَّنَ أنَّ إخوةَ يوسُفَ عليه السَّلامُ بعد الَّذي ذكَروه مِن قولِهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] أحبُّوا موافقَتَه والعدولَ إلى طريقةِ الشَّفاعةِ، فقالوا للعزيزِ ما ذكَرَه اللَّهُ تعالى هنا[١].

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٩١).

أي: قال إخوةُ يوسُفَ لِيوسُفَ: يا أيُّها العزيزُ[١] إنَّ لأخينا الَّذي تُريدُ أخْذَه أبًا شيخًا كبيرًا[٢]، يحِبُّه حُبًّا شديدًا، ولا يصبرُ على فِراقِه[٣].

﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: فخُذْ واحدًا منَّا بدلًا مِن أخينا الَّذي تُريدُ أخْذَه؛ إنَّا نَراكَ مِنَ المحسِنينَ في أفعالِك، فأحْسِنْ إلينا وإلى أبينا بأخْذِ أحدِنا، وترْكِ أخينا يرجِعُ إلى أبيه[٤].

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

أي: قال يوسُفُ لإخوتِه: نعوذُ باللَّهِ أنْ نأخُذَ بريئًا بدلًا ممَّن وجَدْنا الصُّواعَ لديه؛ إنَّا إذًا أخَذْنا غيرَه لظالِمونَ بوضْعِنا العُقوبةَ على مَن لا يستحِقُّها[٥].

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ

---

(١) قال ابنُ عاشور: (نادَوا بوصْفِ العزيزِ؛ إمَّا لأنَّ كلَّ رئيسِ ولايةٍ مُهمَّةٍ يُدْعى بما يُرادِفُ العزيزَ، فيكونُ يُوسفُ عليه السَّلامُ عزيزًا...، وإمَّا لأنَّ يُوسفَ ضُمَّت إليه ولايةُ العزيزِ الَّذي اشتراه، فجمَعَ التَّصرُّفاتِ، وراجعوه في أخْذِ أخيهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٠).

(٢) قال ابنُ عاشور: (المُرادُ بالكبيرِ: إمَّا كبيرُ عَشيرَتِه، فإساءتُه تسوءُهم جميعًا، ومِن عادَةِ الوُلاةِ استجلابُ القبائلِ، وإمَّا أنْ يكونَ ﴿كَبِيرًا﴾ تأكيدًا لـ ﴿شَيْخًا﴾ أي: بلَغَ الغايةَ في الكِبَرِ مِن السِّنِّ، ولذلك فرَّعوا على ذلك ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾؛ إذ كان هو أصغرَ الإخوةِ، والأصغَرُ أقربُ إلى رِقَّةِ الأبِ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٦، ٣٧)، ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

قال الزَّجَّاجُ: (أي: ممَّن يُحسِنُ ولا يُعامِلُ بالتَّحديدِ في واجبٍ؛ لأنَّه كان أعطاهم الطَّعامَ وأعطاهم ثمَنَه في رَدِّه البِضاعةِ لهم، فطالبُوه بأنْ يُحْسِنَ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ﴾.

أي: فلَمَّا يئِسَ إخوةُ يوسُفَ مِن أنْ يُخَلِّيَ يوسُفُ سَراحَ أخيهم، ويأْخُذَ واحدًا منهم مكانَه، انفَرَدوا عنِ النَّاسِ، واجتمَعوا يتسارُّونَ فيما بينهم، ويتَشاوَرونَ في شأْنِ ما وقَعوا فيه[١].

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قال أكبَرُ أولادِ يعقوبَ سِنًّا لإخوتِه: ألمْ تعلَموا أنَّ أباكم يعقوبَ قد أخَذَ عليكم عُهودَ اللَّهِ المُؤكَّدةَ بأنْ ترُدُّوا إليه ولَدَه[٢]؟!

﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾.

أي: ألمْ تعلَموا أيضًا تَفريطَكم في يوسُفَ وإضاعتَه مِن قَبْلِ هذا؟! فاجتمَعَ عليكمُ الأمْرانِ؛ تفريطُكم في يوسُفَ، وعدَمُ إتيانِكم بأخيه[٣].

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾.

أي: فلنْ أُفارِقَ أرضَ مصرَ حتَّى يأْذَنَ لي أبي بالخُروجِ منها؛ فإنِّي أسْتَحيي منه، أو يقْضِيَ اللَّهُ لي بأمْرٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٥)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

أي: واللَّهُ أفضَلُ وأعدَلُ مَن حكَمَ بين النَّاسِ بالحقِّ[(١)].

الفوائدُ التربويةُ:

١- تأمَّلْ قولَ يوسُفَ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ولم يقُلْ: (إلَّا مَن سرَقَ)، وهو أخصَرُ لفظًا؛ تحرِّيًا للصِّدْقِ، فإنَّ الأخَ لم يكُنْ سارِقًا بوجْهٍ؛ فإنَّه لم يفعَلْ في الصُّواعِ فِعْلَ السَّارقِ، ولم يقَعْ منه قبلَ ذلك ما يصِحُّ إطلاقُ الوصفِ عليه، وكان المَتاعُ عنده حقًّا؛ فالكلامُ مِن أحسَنِ المَعاريضِ وأصْدَقِها[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ دَلالةٌ على الأصلِ الكبيرِ الذي أعادَه اللهُ وأبداه في كتابِه: أنَّ لكُلِّ نفسٍ ما كسَبَت من الخيرِ والثَّوابِ، وعليها ما اكتسَبَت من الشَّرِّ والعِقابِ، وأنَّه لا تزِرُ وازِرةٌ وِزرَ أُخرَى[(٣)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا

كثير)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

قيل: المُرادُ بقولِه تعالى: ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ أي: بالرُّجوعِ مع أخي إلى أبي. وقيل: بخُروجي وتركِ أخي، وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٤).

وقال ابنُ عطيةَ: (وقوله: ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ لفظٌ عامٌّ لجميعِ ما يمكنُ أن يردَه مِن القدرِ كالموتِ أو النصرةِ وبلوغِ الأملِ وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٦٩)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٤٨).

لَظَٰلِمُونَ ﴾ يؤخَذُ منه مسألةٌ دقيقةٌ: وهي أنَّ الإحسانَ إنَّما يكونُ إحسانًا إذا لم يتضمَّنْ فِعلَ مُحرَّمٍ أو تركَ واجِبٍ؛ فإنَّهم طلبوا من يوسُفَ أن يُحسِنَ إليهم بتَركِ هذا الأخِ أن يذهبَ إلى أبيه، ويأخُذَ أحدَهم بدَلَه، فامتنَعَ وقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴾، فالإحسانُ إذا تضمَّنَ ترْكَ العَدلِ كان ظُلمًا؛ ولهذا كان تخصيصُ بعضِ الأولادِ على بعضٍ، وبعضِ الزَّوجاتِ على بعضٍ- وإن كان إحسانًا إلى المُخَصَّص والمُفضَّل- غيرَ جائزٍ؛ لأنَّه تَركٌ للعدلِ، وكذلك ما أشبهَ ذلك[١].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ ﴾ خاطَبوه بما يليقُ بالأكابِرِ؛ ليَرِقَّ لهم[٢].

٢- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾ دلَّ بالفاءِ على قُرْبِ زمَنِ تلك المُراجعاتِ[٣].

٣- قولُه: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ جعَلَ حَلِفَهم باللَّهِ مَوْثِقًا منه؛ لأنَّه بإذنٍ منه وتأكيد مِن جِهَتِه[٤].

٤- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿ فَلَنۡ أَبۡرَحَ﴾ أي: أُفارِقَ هذه ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ وإيصالُه الفعْلَ بدون حرفٍ دليلٌ على أنَّه صار شديدَ الالتِصاقِ بها[٥].

٥- الحُكْمُ المذكورُ في قولِه تعالى عنِ ابنِ يعقوبَ: ﴿ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ

(١) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٨٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٣).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٩٢، ١٩٣).

يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ هو الحُكْمُ الكونيُّ، ويقابلُه: الحُكْمُ الدينيُّ، كما في قولِه تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[1] [المائدة: ١].

٦- قولُه: ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ غَيَّا ذلك بغايَتَينِ، إحدَاهُما: خاصَّةٌ؛ وهي قولُه: ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ يعني: في الانصرافِ إليه، والثَّانيةُ: عامَّةٌ؛ وهي قولُه: ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾؛ لأنَّ إذْنَ اللَّهِ له هو مِن حُكْمِ اللَّهِ له في مُفارقَةِ أرْضِ مصرَ، وكأنَّه لَمَّا علَّقَ الأمْرَ بالغايةِ الخاصَّةِ رجَعَ إلى نفْسِه فأَتى بغايةٍ عامَّةٍ؛ تَفْويضًا لحُكْمِ اللَّهِ تعالى، ورُجوعًا إلى مَن له الحُكْمُ حقيقةً[2].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

- في قولِهم: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ وصْفٌ لأبيهم بثلاثِ صِفاتٍ تقْتَضي التَّرقيقَ عليه؛ وهي: حَنانُ الأُبوَّةِ، وصِفْةُ الشَّيخوخةِ، واستِحقاقُه جَبْرَ خاطرِه؛ لأنَّه كبيرُ قومِه، أو لأنَّه انتهَى في الكِبَرِ إلى أقصاه، فالأوصافُ مَسوقَةٌ للحثِّ على سَراحِ الابنِ، لا لأصلِ الفائدةِ؛ لأنَّهم قد كانوا أخْبَروا يوسُفَ عليه السَّلامُ بخَبَرِ أبيهم[3].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تعليلٌ لإجابةِ المطلوبِ لا للطَّلَبِ، والتَّقديرُ: فلا تَرُدَّ سُؤالَنا؛ لأنَّا نراك مِن المُحسنينَ، فمِثْلُك لا يصدُرُ منه ما

(١) يُنظر: ((التحفة العراقية)) لابن تيمية (ص: ٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٦).

يسوءُ أبًا شيخًا كبيرًا[١].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾

- وضمائرُ ﴿نَّأۡخُذَ﴾ و﴿وَجَدۡنَا﴾ و﴿مَتَٰعَنَا﴾ و﴿إِنَّآ﴾ و﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ مُرادٌ بها المُتكلِّمُ وحدَه دون مُشارِكٍ، فيجوزُ أنْ يكونَ مِن استعمالِ ضَميرِ الجَمْعِ في التَّعظيمِ حِكايةً لِعبارتِه في اللُّغةِ الَّتي تكلَّمَ بها؛ فإنَّه كان عظيمَ المدينةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ استعمَلَ ضَميرَ المُتكلِّمِ المُشارِكِ تواضُعًا منه؛ تشبيهًا لنفْسِه بمَن له مُشارِكٌ في الفِعْلِ، وهو استِعمالٌ موجودٌ في الكلامِ[٢]، وقيل: للإشعارِ بأنَّ الأخْذَ والإعطاءَ ليس ممَّا يُستبدُّ به، بل هو مَنوطٌ بآراءِ أُولي الحَلِّ والعَقْدِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ تعليلٌ للامتناعِ مِن أخْذِ غيرِه بأنَّه لو فَعَلَه لكانَ ذلك ظُلمًا، ودليلُ التَّعليلِ شيئانِ: وُقوعُ (إنَّ) في صدْرِ الجُملةِ، والإتيانُ بحَرْفِ الجَزاءِ وهو (إذًا)[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ﴾ استيْأَسَ بمعنى: يَئِسَ، وزيادةُ السِّينِ والتَّاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٣٧، ٣٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٧).

للمُبالَغةِ[١].

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾ الاستفهامُ تقْريريٌّ مُستعمَلٌ في التَّذكيرِ بعَدَمِ اطمئنانِ أبيهم بحِفْظِهم لابنِه[٢].

- قولُه: ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ ترْديدٌ بين ما رسَمَه هو لنفْسِه، وبين ما عسى أنْ يكونَ اللَّهُ قد قدَّرَه له ممَّا لا قِبَلَ له بدَفْعِه، فحَذَفَ مُتعلِّقَ ﴿يَحْكُمَ﴾ المجرورَ بالباءِ؛ لتَنْزيلِ فِعْلِ ﴿يَحْكُمَ﴾ مَنزِلةَ ما لا يطْلُبُ مُتعلِّقًا[٣].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ تذييلٌ، وإنْ كان على إرادةِ (وهو خيرُ الحاكِمينَ لي)؛ فالخبرُ مُستعمَلٌ في الثَّناءِ؛ للتَّعريضِ بالسُّؤالِ أنْ يُقدِّرَ له ما فيه رأفةٌ في رَدِّ غُرْبَتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨١- ٨٧)

﴿ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَسَفَى﴾: الأسف: أشدُّ الحسرة، والحزنُ على ما فات، وأصل (أسف): يدلُّ على الفَوتِ والتلهُّفِ وما أشبَهَ ذلك[١].

﴿كَظِيمٌ﴾: أي: مُمسِكٌ على حُزنِه، لا يُظهِرُه ولا يَشكوه، وأصلُ (كظم): يدلُّ على إمساكِ الشَّيءِ، وجَمعِه[٢].

﴿تَفۡتَؤُاْ﴾: أي: لا تزالُ[٣].

﴿حَرَضًا﴾: أي: مريضًا مُشْفيًا على الهلاكِ، وأصلُ (حرض): يدلُّ على الذَّهابِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٥).

والتَّلفِ والهلاكِ[١].

﴿بَثِّي﴾: أي: همِّي، وقيل: البثُّ: الهمُّ الشديدُ، وقيل: أشدُّ الحزنِ، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ صاحبَه لا يصبرُ عليه حتَّى يَبُثَّه، أي: يَشكوَه ويَنشُرَه، وأصلُ (بثَّ): يدلُّ على تفريقِ الشَّيءِ وإظهارِه[٢].

﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾: التَّحسُّسُ: شِدَّةُ التطَلُّبِ والتَّعرُّفِ؛ مِن الحِسِّ: وهو الإدراكُ بالحاسَّةِ[٣].

﴿رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾: أي: فرَجِه ورحمتِه، وأصلُ (روح): يدلُّ على سَعَةٍ وفُسحةٍ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن قولِ أكبَرِ الإخوةِ لإخوَتِه: ارجِعُوا إلى أبيكم، وأخبِروه بما جرَى، وقُولوا له: إنَّ ابنَكَ قد سرَقَ، وما شَهِدْنا بذلك إلَّا بعدَ أنْ تَيَقَّنَّا؛ فقد رأيْنا المِكيالَ في رَحْلِه، وما كان عِندَنا عِلمُ الغَيبِ أنَّه سيَسرِقُ حين عاهَدْناكَ على رَدِّه، واسألْ- يا أبانا- أهلَ مِصرَ، ومَن كان معَنا في القافِلةِ الَّتي كنَّا فيها، وإنَّنا لصادِقونَ فيما أخبَرْناكَ به.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

ولَمَّا رجَعوا وأخبَروا أباهم، قال لهم: بل زَيَّنَتْ لكُم أنفُسُكم مَكيدةً دبَّرتُموها، كما فعَلتُم مِن قَبلُ مع يُوسُفَ، فصَبري صبرٌ جَميلٌ، لا جزَعَ فيه ولا شَكوَى معه؛ عسى اللَّهُ أنْ يرُدَّ إليَّ أبنائي جميعًا- وهُم: يوسُفُ، وشقيقُه، وأخوهمُ الكبيرُ الَّذي تخلَّفَ مِن أجْلِ أخيه- ؛ إنَّه هو العليمُ بحالي، الحَكيمُ في تدبيرِه. وأعرَضَ يَعقوبُ عنهم، وقد ضاق صَدرُه بما قالوه، وقال: يا حَسرَتي على يوسُفَ، وابيضَّتْ عيناه؛ مِن شِدَّةِ الحُزنِ، فهو مُمتلِئُ القَلبِ حُزنًا، ولكِنَّه شَديدُ الكِتمانِ له. قال بَنُوه: تاللَّهِ، ما تزالُ تتذكَّرُ يوسُفَ، ويَشتدُّ حُزنُك عليه، حتَّى تُشْرِفَ على الهَلاكِ أو تَهلِكَ فِعلًا، فخَفِّفْ عن نفْسِك. قال يعقوبُ مُجيبًا لهم: لا أُظهِرُ همِّي وحُزني إلَّا إلى اللَّهِ وَحْدَه؛ فهو كاشِفُ الضُّرِّ والبَلاءِ، وأعلَمُ مِن رَحمةِ اللَّهِ وفَرَجِه ما لا تَعلَمونَه. وقال لأبنائِه: عُودُوا إلى مِصرَ، فاستَقْصُوا أخبارَ يوسُفَ وأخيه، ولا تَقنَطوا مِن رَحمةِ اللَّهِ؛ إنَّه لا يَقنَطُ مِن رَحمةِ اللَّهِ إلَّا الجاحِدونَ لقُدرتِه، الكافِرونَ به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ ﴾.

﴿ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ ﴾.

أي: قال أكبرُ أولادِ يَعقوبَ لإخوتِه: ارجِعوا إلى أبيكم يَعقوبَ، فقولوا له: يا أبانا، إنَّ ابنَك الَّذي أرسلْتَه معنا سرَقَ صُواعَ المِلكِ، وأُخِذَ بجِنايتِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

قال ابنُ كثيرٍ: (أمَرَهم أن يُخبِروا أباهم بصُورةِ ما وقَعَ؛ حتَّى يكون عذرًا لهم عنده، ويَتنصَّلوا إليه، ويَبْرَؤوا ممَّا وقَعَ بقولِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٤).

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾.

أي: وما شَهِدْنا عِندَكَ -يا أبانا- بأنَّ ابنَك سرَقَ إلَّا بما رأيْنا؛ مِنِ استخراجِ الصُّواعِ مِن رَحْلِه[١].

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾.

أي: وما كنَّا لِمَا غاب عنَّا عالِمينَ؛ فلم نَدْرِ أنَّ ابنَك سيَسرِقُ الصُّواعَ، ويُسْتَرَقُّ عند الملِكِ[٢].

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾.

أي: وقولوا لأبيكم: وإنْ كنْتَ لا تُصَدِّقُنا فيما أخبرْناك به مِن سَرِقةِ ابنِك للصُّواعِ، فاسألْ أهلَ مِصْرَ الَّتي كنَّا فيها؛ ليَتبيَّنَ لك صِدْقُنا[٣].

﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾.

أي: واسألْ أصحابَ القافِلةِ الَّتي جِئْنا معها ورافَقْناها؛ فسيُصَدِّقونَنا فيما أخبرْناكَ[٤].

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠٨).

أي: وإنَّا لصادِقونَ فيما أخْبَرناكَ به مِن سَرِقةِ ابنِك صُواعَ الملِكِ، واسترقاقِه بسَببِ سرِقَتِه، ولم نَكذِبْ عليك[١].

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.

أي: قال يَعقوبُ لأبنائِه: ليس الأمرُ كما ادَّعيْتُم، بل زَيَّنَتْ لكم أنفُسُكم أمْرًا أردْتُموه بأخيكم غيرَ ما تقولون[٢].

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

أي: قال يَعقوبُ عليه السَّلامُ لهم: فصَبْري على فَقْدِ أبنائي صَبرٌ جميلٌ، لا جَزَعَ فيه، ولا شَكوَى إلى الخلْقِ؛ عسى اللَّهُ أنْ يَرُدَّ عليَّ أبنائي الغائبينَ جميعًا: يوسُفَ وأخويه[٣].

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللَّهَ هو العَليمُ بحالي، الحَكيمُ في أفعالِه وقَضائِه وتَدبيرِ خَلْقِه[٤].

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٥).

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

أي: وأعرَضَ يَعقوبُ عليه السَّلامُ عن أبنائِه بعدَ أنْ أخبَرَوه بما جدَّدَ حُزنَه القديمَ، وقال: يا شِدَّةَ حُزْني على وَلدِي يوسُفَ[1]!

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

أي: وابيضَّتْ عَيْنَا يَعقوبَ عليه السَّلامُ مِن شدَّةِ الحُزنِ الَّذي أوْجَبَ له كثرَةَ البُكاءِ؛ فقلبُه مملوءٌ مِن الحُزنِ، وهو كاتمٌ له لا يُظهِرُه[2].

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾.

أي: قال أبناءُ يَعقوبَ لأبيهم مُتعجِّبينَ مِن حالِه: واللَّهِ، لا تَزالُ تَذكُرُ يوسُفَ ولا تنساه[3]!

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٧، ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٩)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

قال ابنُ عطيَّةَ: (﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ أي: مِن مُلازمةِ البُكاءِ الَّذي هو ثمرَةُ الحُزنِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٢).

وقال الزَّمخشريُّ: (إذا كثُرَ الاستِعْبارُ مَحَقَتِ العَبرةُ سَوادَ العينِ وقَلَبَتْه إلى بياضٍ كَدِرٍ؛ قيل: قد عَمِيَ بصرُه، وقيل: كان يُدرِكُ إدراكًا ضعيفًا). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٧).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهرُ أنَّه كان عَمِيَ؛ لقولِه: ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦]). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

أي: لا تزالُ تَذكُرُ يوسُفَ دائمًا، حتَّى يَضْعُفَ جِسمُك وعقلُك، وتقارِبَ الهلاكَ مِن شدَّةِ الحُزنِ عليه[1]!

﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾.

أي: أو تكونَ ممَّن هلَكَ بالموتِ[2]!

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: قال يعقوبُ رادًّا على أَبنائِه: إنَّما أشْكو همِّي وحُزْني إلى اللَّهِ وحْدَه، لا إلى خَلْقِه[3].

﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).
قال الماورديُّ: (﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ يعني: ميِّتًا مِن الميِّتين، قاله الجميعُ). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٥).
وقال ابنُ عاشور: (والبثُّ: الهمُّ الشَّديدُ، وهو التَّفكيرُ في الشَّيءِ المُسيءِ. والحزنُ: الأَسَفُ على فائتٍ. فبينَ الهمِّ والحزنِ العمومُ والخصوصُ الوجهيُّ، وقد اجْتَمَعا ليعقوبَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه كان مهتمًّا بالتَّفكيرِ في مصيرِ يُوسفَ عليه السَّلامُ، وما يعترضُه مِن الكربِ في غُربتِه، وكان آسِفًا على فِراقِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٥).
وقال الشوكاني: (البثُّ...: أعظمُ الحزنِ وأصعبُه، وقيلَ: البثُّ: الهمُّ، وقيلَ: هو الحاجَةُ، وعلى هذا القولِ يكونُ عطفُ الحزنِ على البثِّ واضحُ المعنَى. وأمَّا على تفسيرِ البثِّ بالحزنِ العظيمِ، فكأنَّه قال: إنَّما أشْكو حزنِي العظيمَ وما دونَه مِنَ الحزنِ إلى اللَّهِ لا إلى غيرِه مِنَ النَّاسِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٩).

أي: وأعلَمُ مِن عِندِ اللَّهِ عِلْمًا عَلَّمَنِيهِ لا تَعلمونَه أنتم[١].

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أَخبرَ يَعقوبُ عليه السَّلامُ بَنِيه أنَّ عِلْمَه فوقَ عِلمِهم، أَتْبَعَه استِئنافًا ما يدُلُّ عليه، فقال لهم[٢]:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

أي: قال يَعقوبُ عليه السَّلامُ لأبنائِه: يا بَنِيَّ، اذْهَبوا إلى مِصْرَ، فاجتَهِدوا في الْتِماسِ يوسُفَ وأخيه، وتَعرَّفوا خبرَهما[٣].

﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا تَقنَطُوا مِن فرَجِ اللَّهِ ورَحمتِه؛ وأنَّه سيروِّحُ عنَّا ما نحن فيه مِن الكَرْبِ والشِّدَّةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٠٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٥).
قال ابنُ عطية: (يحتملُ أنَّه أشارَ إلى حُسنِ ظنِّه باللهِ، وجميلِ عادةِ الله عندَه، ويحتملُ أنَّه أشارَ إلى الرُّؤيا المنتظرةِ [أي: الرُّؤيا التي رآها يوسفُ عليه السلامُ]). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٤)، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).
قال القُرطبيُّ: (قيل: إنَّ يَعقوبَ تَنبَّهَ على يُوسفَ بِرَدِّ البِضاعةِ، واحتباسِ أخيه، وإظهارِ الكَرامةِ؛ فلذلك وجَّهَهم إلى جِهةِ مصرَ دون غيرِها). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٢٥)، ((تفسير

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

أي: إنَّه لا يَقنَطُ مِن فَرَجِ اللَّهِ، ويقطَعُ رَجاءَه من رَحمتِه إلَّا القومُ الَّذين يَجْحَدون قُدرتَه، ويَستبعِدُون رَحمتَه[1].

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- قولُه تعالى عن يعقوبَ في أوَّلِ ما صنَعَ أبناؤه بأخيهم يوسُفَ: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وقَولُه عندما اشتدَّ به الأمرُ حين احتُبِسَ الابنُ الآخَرُ: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ أصفياءَ الله إذا نزلت بهم الكوارِثُ والمُصيباتُ قابلوها في أوَّلِ الأمرِ بالصَّبرِ والاستعانةِ بالمَولى، وعندما ينتهي وتبلُغُ الشِّدَّةُ مُنتهاها، يُقابِلونَها بالصَّبرِ والرَّجاءِ، والطَّمَعِ في الفرَجِ، فيوفِّقُهم اللهُ للقيامِ بعُبوديَّتِه في الحالتينِ، ثم إذا كُشِفَ عنهم البَلاءُ قابلوا ذلك بالشُّكرِ والثَّناءِ على اللهِ، وزيادةِ المعرفةِ بلُطفِه لِقَولِ يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[2] [يوسف: ١٠٠].

٢- قال اللَّهُ تعالى حاكيًا قولَ يَعقوبَ عليه السَّلامُ: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾؛ فالواجِبُ على كلِّ مسلِمٍ إذا أُصيبَ بمَكروهٍ في نفْسِه أو ولدِه أو مالِه؛ أنْ يَتلقَّى ذلك بالصَّبرِ الجميلِ، والرِّضا والتَّسليمِ لِمُجْريه عليه، وهو العَليمُ الحَكيمُ، ويَقتدِيَ بنَبيِّ اللَّهِ يعقوبَ وسائرِ النَّبيِّينَ، صلواتُ اللَّهُ

القرطبي)) (٩/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٦).

عليهم أجمعين[١].

٣- إذا اشتكَى العبدُ إلى ربِّه ما نزَلَ به مِنَ الضُّرِّ، وسألَه إزالتَه؛ لم يَكُنْ مَذْمُومًا على ذلك باتِّفاقِ المُسلمين؛ فالشَّكْوَى إلى اللَّهِ لا تُنافي الصَّبْرَ، بلِ الشَّكْوَى إلى الخَلْقِ هي التي قد تُنافي الصَّبْرَ؛ فإنَّ يَعقوبَ عليه السَّلامُ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢]، فالصبرُ الجميلُ هو الذي لا شكوَى معه، ولا تنافيه الشَّكوى إلى الله سبحانَه وتعالى[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ شكا إلى اللهِ، ولم يشْكُ مِن اللهِ، ومَن شَكا إلى اللهِ وصَلَ، ومن شكا من اللهِ انفَصَل، ويُقال: لَمَّا شكا إلى الله وجَدَ الخَلَف من اللهِ[٤].

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إن المُؤمنينَ المَوصولةَ قُلوبُهم باللَّهِ، النَّدِيَّةَ أرواحُهم برَوْحِه، الشَّاعرينَ بنَفحاتِه المُحييةِ الرَّخِيَّةِ- لا ييئسُونَ مِن رَوْحِ اللَّهِ ولو أحاطَ بهمُ الكربُ، واشتدَّ بهمُ الضِّيقُ، وإنَّ المؤمنَ لَفِي رَوْحٍ مِن ظِلالِ إيمانِه، وفي أُنْسٍ مِن صِلَتِه بِرَبِّه، وفي طُمأْنِينَةٍ مِن ثِقتِه بمَولاهُ، وهو في مَضايِقِ الشِّدَّةِ ومَخانِقِ الكُروبِ[٥]، إنَّ اللَّهَ تعالى إذا شاءَ تَفْريجَ كُربةٍ هيَّأَ لها أسبابَها، ومَن كان يؤمِنُ بأنَّ اللَّهَ واسعُ القُدرةِ لا يُحيلُ مثلَ ذلك، فحَقُّهُ أنْ يأخُذَ في سَببِه ويَعتمِدَ على اللَّهِ في تَيسيرِه، وأمَّا القومُ الكافِرونَ باللَّهِ فهم يَقتصِرون على الأمورِ الغالِبةِ في

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٧).
(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ٧٣).
(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٢/ ٢٠٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

العادةِ، ويُنكِرون غيرَها[١].

٦- إذا اشْتَدَّ الكَرْبُ وعَظُمَ الخَطْبُ؛ كان الفَرَجُ حِينئذٍ قريبًا في الغالِبِ، ومِن لَطائِفِ أَسرارِ اقتِرانِ الفَرَجِ باشْتِدادِ الكَرْبِ: أنَّ الكَرْبَ إذا اشْتَدَّ وعَظُمَ وتَناهَى، وُجِدُ الإياسُ مِن كشْفِه مِن جِهةِ المخلوقِ، ووقَعَ التَّعَلُّقُ بالخالِقِ وحدَه، ومَنِ انقَطَعَ عنِ التَّعَلُّقِ بالخَلائقِ، وتَعَلَّقَ بالخالقِ؛ استجاب اللَّهُ له، وكَشَفَ عنه؛ فإنَّ التَّوَكُّلَ هو قَطْعُ الاستشرافِ باليأْسِ مِنَ المخلوقينَ، وقد أخبر الله تعالى عن يعقوبَ عليه السلامُ أنَّه لم ييأسْ مِن لقاءِ يوسفَ، وقال لإخوتِه: ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾[٢].

٧- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ يَدُلُّ على أنَّه بحسَبِ إيمانِ العبدِ يَكونُ رَجاؤُهُ لرَحمةِ اللَّهِ ورَوْحِه[٣].

٨- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فيه أنَّ اليأْسَ مِن رحمةِ اللَّهِ مِنَ الكبائرِ[٤].

٩- إيمانُ المُؤمنِ يَظهَرُ عندَ الابتِلاءِ؛ فهو يُبالِغُ في الدُّعاءِ، ولا يَرَى أثرًا للإجابةِ، ولا يَتغَيَّرُ أملُه ورَجاؤُه ولو قَوِيَتْ أسبابُ اليأْسِ؛ لِعِلْمِه أنَّ الحقَّ أعلمُ بالمصالِحِ، أو لأنَّ المرادَ مِنْه الصَّبرُ أوِ الإيمانُ؛ فإنَّه لم يَحْكُمْ عليه بذلك إلَّا وهو يُريدُ مِنَ القلْبِ التَّسليمَ؛ لِيَنْظُرَ كيف صبرُه، أو يُريدُ كثرةَ اللَّجَأِ والدُّعاءِ، فأمَّا مَن يُريدُ تَعْجيلَ الإجابةِ، ويَتَذمَّرُ إنْ لم تتعَجَّلْ فذاك ضعيفُ الإيمانِ، ويَرَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٦).
(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٦).

أنَّ له حقًّا في الإجابةِ، وكَأَنَّه يَتَقاضى أُجْرَةَ عَمَلِهِ، فيَعقوبُ عليه السَّلامُ بقِيَ سنينَ في البَلاءِ، ورجاؤُه لا يَتغَيَّرُ، فلَمَّا ضُمَّ إلى فَقْدِ يوسُفَ فَقْدُ بِنْيامينَ لم يتغيَّرْ أمَلُه، وقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]. وقد كَشَفَ هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ومعلومٌ أنَّ هذا لا يَصْدُرُ مِنَ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم والمؤمنينَ إلَّا بعد طُولِ البَلاءِ، وقُرْبِ اليأْسِ منَ الفرَجِ؛ فإيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تَسْتَطِيلَ زمانَ البَلاءِ، وتَضْجَرَ مِن كثْرةِ الدُّعاءِ؛ فإنَّك مَبْتلًى بالبَلاءِ، مُتَعَبَّدٌ بالصَّبرِ والدُّعاءِ، ولا تَيئَسْ مِن رَوْحِ اللَّهِ وإنْ طالَ البَلاءُ[(١)].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ فيه أنَّه لا يَجوزُ للإنسانِ أنْ يَشهَدَ إلَّا بما عَلِمَه وتَحَقَّقَه؛ إمَّا بمُشاهَدَةٍ، أو خَبَرِ مَن يَثِقُ به، وتَطمئِنُّ إليه النَّفْسُ[(٢)].

٢- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ تَضَمَّنَتْ هذه الآيةُ جَوازَ الشَّهادةِ بأيِّ وَجْهٍ حَصَلَ العِلْمُ بها؛ فإنَّ الشَّهادةَ مُرتبِطَةٌ بالعِلْمِ عقلًا وشرعًا؛ فلا تُسْمَعُ إلَّا ممَّنْ عَلِمَ، ولا تُقْبَلُ إلَّا منهم، وهذا هو الأصلُ في الشَّهاداتِ[(٣)].

٣- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ فيه رَدٌّ على مَن أجازَ الشَّهادةَ على الكِتابةِ بلا عِلْمٍ ولا تَذَكُّرٍ، وعلى مَن سمعَ كلامًا مِن وراءِ حِجابٍ؛ لِعَدَمِ

(١) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٥).

العِلْمِ فيه[١].

٤- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ استَدَلَّ به مَن أجازَ شَهادةَ الرُّفْقَةِ- وإنْ لم يكونوا عُدولًا- فيما يَختصُّ بمُعاملاتِ السَّفَرِ[٢].

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ في هذه الآيةِ مِنَ الفِقهِ: أنَّ على كلِّ مَن كان على حَقٍّ، وعَلِمَ أنَّه قد يُظَنُّ به أنَّه على خِلافِ ما هو عليه، أو يُتَوَهَّمُ- أنْ يَرفَعَ التُّهْمَةَ وكُلَّ رِيبةٍ عن نَفْسِه، ويُصَرِّحَ بالحَقِّ الَّذي هو عليه؛ حتَّى لا يبقَى لأحدٍ مُتَكَلَّمٌ[٣].

٦- قال اللَّهُ تعالى حاكيًا عن يَعقوبَ عليه السَّلامُ: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ ظَنَّ بهم سُوءًا، فصَدَقَ ظَنُّهُ في زَعمِهم في يوسُفَ عليه السَّلامُ، ولَمْ يتحَقَّقْ ما ظَنَّهُ في أمْرِ أخيه، أي: أخطَأَ في ظَنِّهِ بهم في قَضيةِ أخي يوسُفَ، ومُسْتَنَدُه في هذا الظَّنِّ عِلْمُه أنَّ ابنَه لا يَسرِقُ؛ فعَلِمَ أنَّ في دَعْوَى السَّرِقةِ مَكِيدةً، فظَنُّهُ صادِقٌ على الجُمْلةِ لا على التَّفْصيلِ، وأمَّا تُهْمَتُه أبناءَه بأنْ يَكونوا تَمالَؤُوا على أخيهم، فهو ظَنٌّ مُسْتَنِدٌ إلى القِياسِ على ما سبَقَ مِن أمرِهم في قَضيَّةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّه كان قال لهم: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف: ٦٤]، ويَجوزُ على النَّبيِّ الخطَأُ في الظَّنِّ في أُمورِ العاداتِ[٤].

٧- قال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤١).

ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أشرفُ أعضاءِ الإنسانِ هذه الأعضاءُ الثَّلاثةُ المشارِ إليها في هذِه الآيةِ، وهِي: اللِّسانُ والعينُ والقلبُ، وقد بَيَّن اللهُ تعالى أنَّها كانتْ غَريقةً في الغَمِّ: فاللِّسانُ كان مَشغولًا بقولِه: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ ﴾، والعَيْنُ بالبُكاءِ والبَياضِ، والقلْبُ بالغَمِّ الشَّديدِ الَّذي يُشْبِهُ الوِعاءَ المملوءَ الَّذي شُدَّ، ولا يُمكِنُ خُروجُ الماءِ منه، وفي هذا مُبالَغةٌ في وَصْفِ ذلك الغَمِّ[(١)].

٨- قال سَعِيدُ بنُ جُبَيْرٍ: (لم يَكُنْ عندَ يَعقوبَ ما في كِتابِنا مِنَ الاسْتِرْجاعِ، ولو كان عِندَه لَمَا قال: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾)[(٢)].

٩- في قولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾، إنْ قيل: هذا لَفْظُ الشَّكْوَى فأينَ الصَّبرُ؟ فالجوابُ مِن وجهيْنِ:

أحدُهما: أنَّه شَكَا إلى اللَّهِ لا مِنْه.

الثَّاني: أنَّه أرادَ به الدُّعاءَ؛ فالمعْنَى: يا رَبِّ ارْحَمْ أَسَفِي على يوسُفَ[(٣)].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ حُجَّةٌ في أنَّ المحبَّةَ والشَّوقَ يُبْلِيَانِ ويُهْلِكانِ[(٤)].

١١- قولُه: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ ﴿تَفْتَؤُاْ ﴾ أي: لا تفْتَأُ، فحَذَفَ (لا)؛ لأنَّ القَسَمَ إذا لم يكُنْ معه علاماتُ الإثباتِ كان على النَّفْيِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٦٣)، ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٢/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٤).

قال ابن جرير: (وَحُذِفَتْ (لَا) أو (ما) مِنْ قَوْلِهِ ﴿تَفْتَؤُاْ ﴾ وهيَ مُرادَةٌ في الكَلام؛ لأنَّ اليمينَ إذا كان ما بعدها خبرًا لم يَصحَبْها الجحدُ، ولم تسقطِ اللام التي يُجاب بها الأَيمان، وذلك كقول القائل: والله لآتينك، وإذا كان ما بعدها مجحودًا تلقيت بـ (ما) أو بـ (لا)، فلمَّا عُرِف

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ فيه احتِراسٌ مِن تَحقُّقِ كونِه سرَقَ؛ وهو إمَّا لقصْدِ التَّلطُّفِ مع أبيهم في نِسبةِ ابنِه إلى السَّرِقةِ، وإمَّا لأنَّهم عَلِموا مِن أمانةِ أخيهم ما خالجَهُم به الشَّكُّ في وُقوعِ السَّرِقةِ منه[١].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ﴾ استِئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ نَشَأَ ممَّا سبَقَ، فكأنَّه قيل: فماذا كان عندَ قَوْلِ المتَوَقِّفِ لإخوتِه ما قال؟ فقيل: قال يَعقوبُ عليه السَّلامُ عِندَما رجَعوا إليه، فقالوا له ما قالوا[٢]؛ فهو في صُورةِ الجَوابِ عنِ الكلامِ الَّذي لقَّنَه أخوهم على طَريقةِ الإيجازِ[٣]، والقائلُ هنا هو يعقوبُ عليه السَّلامُ؛ وإنَّما حُذِفَ للإيذانِ بأنَّ مُسارَعَتَهم إلى قَبولِه، ورُجوعَهم به إلى أبيهم أمْرٌ مُسَلَّمٌ غَنِيٌّ عنِ البَيانِ، وإنَّما المُحْتاجُ إليه جوابُ أبيهم[٤].

- و﴿بَلۡ﴾ للإضْرابِ؛ فيقْتَضي كلامًا مَحْذوفًا قبلَها حتَّى يَصِحَّ الإضرابُ فيها، وتقديرُه: (ليس الأمْرُ حَقيقةً كما أخْبَرتُم، بَلْ سَوَّلَتْ...)[٥].

موقعُها حُذفت من الكلامِ؛ لمعرفة السامِع بمعنى الكلام). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٣).

٣- قوله تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ إنَّما تأسَّفَ على يُوسُفَ وحْدَه دونَ أخَوَيه- بنيامينَ والقائِلِ: ﴿لَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾- والحادِثُ رُزْؤُهما؛ لأنَّ رُزْأَ يُوسُفَ كان قاعِدةَ المصيباتِ، وأصْلَ الرَّزايا عندَه؛ إذ تَرَتَّبَتْ عليه، وكان غَضًّا عندَه، وإنْ تقادَمَ عَهدُهُ، آخِذًا بمَجامِعِ قَلْبِه لا يَنْساهُ، وهو الَّذي لا يَعلَمُ أحيٌّ هو أم ميِّتٌ، بخِلافِ أخويهِ؛ فقد كان واثقًا بحياتِهما دونَ حياتِه، عالِمًا بمكانِهما، طامِعًا في إيابِهما، وأمَّا يوسُفُ فلم يكُنْ في شأْنِه ما يُحرِّكُ سِلْسِلةَ رَجائِه سِوى رَحمةِ اللَّهِ تعالى وفَضْلِه، ولأنَّ يوسُفَ كان أحَبَّ أولادِه إليه، وكان دائمًا يذْكُرُه ولا ينْساهُ[(١)]. وقيل: إنَّما ذكَرَ القُرآنُ تَحسُّرَه على يُوسُفَ عليه السَّلامُ ولم يَذْكُرْ تَحسُّرَه على ابنَيْهِ الآخَرَيْنِ؛ لأنَّ ذلك التَّحسُّرَ هو الَّذي يَتعلَّقُ بهذه القِصَّةِ؛ فلا يقْتَضي ذِكْرُه أنَّ يعقوبَ عليه السَّلامُ لم يَتحسَّرْ قطُّ إلَّا على يُوسُفَ[(٢)].

- وقولُه: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ فيه تَعْريضٌ بدُعاءِ اللَّهِ أنْ يُزيلَ أسَفَه بِرَدِّ يوسُفَ عليه السَّلامُ إليه[(٣)].

وفيه تَجانُسٌ بين لفظتَيِ (الأَسَفِ) و(يوسُفَ)، وهو مُسْتَمْلَحٌ وبَديعٌ؛ لأنَّه غيرُ مُسْتَعملٍ وغيرُ مُتَكلَّفٍ، ويُسمَّى هذا تَجْنيسَ التَّصريفِ؛ وهو أنْ تنْفرِدَ كُلُّ كلمةٍ مِن الكَلِمتَينِ عنِ الأُخرى بحَرْفٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٣، ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود))

- قولُه: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾ فيه تعليلُ الابْيِضاضِ بالحُزْنِ، وإنَّما هو مِن البُكاءِ المتَوالي، وهو ثمرةُ الحزنِ؛ فعلَّلَ بالأصلِ الَّذي نشَأَ منه البُكاءُ وهو الحزنُ[1]؛ فابْيِضاضِ العَيْنَيْنِ كِنايةٌ عن عَدَمِ الإبصارِ، والحُزْنُ هو السَّببُ لعَدَمِ الإبصارِ[2].

- قولُه: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، ﴿كَظِيمٌ﴾ على وزنِ (فَعيل) بمعنى (مَفْعول)، أي: مملوءٌ مِن الغَيظِ على أولادِه، مُمْسِكٌ له في قَلْبِه لا يُظْهِرُه، ولا يُظْهِرُ ما يَسوؤُهم؛ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨]، مِن: كَظَمَ السِّقاءَ؛ إذا سدَّه بعدَ مَلْئِه، أو هو مُبالغةٌ للكاظِمِ؛ (فَعيل) بمعنى (فاعل)، وهو الظَّاهرُ اللَّائقُ بحالِ يَعقوبَ، أي: شَديدُ الكَظْمِ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ولَمْ يَشْكُ يعقوبُ إلى أحدٍ، وإنَّما كان يَكْتُمُه في نفْسِه، ويُمْسِكُ همَّه في صدْرِه، فكانَ يكْظِمُه، أي: يرُدُّه إلى قلْبِه، ولا يرْسِلُه بالشَّكْوى والغضَبِ والضَّجَرِ[3].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ فيه فنٌّ مِن فُنونِ البَلاغةِ يُسمَّى بائتِلافِ اللَّفظِ مع المعْنَى، وهو تلاؤُمُ ألفاظِ المعْنَى الْمُرادِ بعضِها مع بعضٍ ليس فيها لفظةٌ نابِيةٌ أو قَلِقَةٌ عن

(٤/ ٣٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٣).

أخواتِها بحيثُ يُمْكِنُ استبدالُها، وفي هذا يُلاحظُ أشياءُ ثلاثةٌ؛ وهي: اختيارُ الألفاظِ الْمُفرَدةِ، ونظْمُ كلِّ كَلِمةٍ مع أخْتِها الْمُشاكِلَةِ لها، والغرَضُ المَقْصودُ مِن ذلك الكلامِ على اختلافِ أنواعِه؛ فالألفاظُ تنْقَسِمُ في الاستِعمالِ إلى جَزْلَةٍ ورَقيقةٍ، ولكلٍّ منها مواضِعُ يَحْسُنُ استِعْمالُها فيه؛ فالجَزْلُ يُسْتَعْمَلُ في مواقفِ الشِّدَّةِ وقَوارعِ التَّهديدِ والتَّخويفِ، والرَّقيقُ يُسْتَعْمَلُ في وَصْفِ تَباريحِ الأشواقِ، ولَوْعةِ الفِراقِ، وهذه الآيةُ مِن أرْوعِ الأمثلةِ على ذلك؛ فإنَّه سبحانه لَمَّا أَتَى بأغْربِ ألفاظِ القَسَمِ بالنِّسبةِ إلى أخواتِها وهي التَّاءُ؛ لأنَّ الواوَ والباءَ أكثرُ دَوَرانًا على الألْسِنةِ منها، أَتَى سبحانه بأغْربِ صِيَغِ الأفعالِ النَّاقصةِ الَّتي ترفَعُ الأسماءَ وتنصِبُ الأخبارَ بالنِّسبةِ إلى أخواتِها وهي (تفْتَأُ)، وحذَفَ منها حرْفَ النَّفْيِ؛ زِيادةً في الإغْرابِ، ولأنَّ الْمَقامَ لا يَلْتَبِسُ بالإثباتِ، وكذلك لفظةُ ﴿حَرَضًا﴾ أغْربُ مِن جميعِ أخواتِها مِن ألْفاظِ الهَلاكِ؛ فاقْتَضى حُسْنُ النَّظْمِ وحُسْنُ الوضْعِ فيه أنْ تُجاوَرَ كلُّ لَفظةٍ بلَفظةٍ مِن جِنْسِها في الغَرابةِ والاستعمالِ؛ تَوَخِّيًا لحُسْنِ الجِوارِ، ورَغبةً في ائتلافِ المعاني بالألفاظِ، ولتَتَعادلَ الألفاظُ في الوضْعِ، وتتناسَبَ في النَّظْمِ[1].

- وفي جَعْلِهم الغايةَ الحَرَضَ أوِ الهلاكَ بقولِهم: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ تَعْريضٌ بأنَّه يَذكُرُ أمْرًا لا طَمَعَ في تَدارُكِه[2].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مُفيدةٌ قَصْرَ شَكْواه على التَّعلُّقِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٧- ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٤).

باسمِ اللَّهِ، أي: يَشْكو إلى اللَّهِ لا إلى نفْسِه ليُجَدِّدَ الحُزْنَ[١].

- قولُه: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أعقَبَ به كلامَه؛ ليُنَبِّهَهم إلى قُصورِ عُقولِهم عن إدراكِ المقاصِدِ العالِيةِ؛ ليعْلَموا أنَّهم دُونَ مَرتبةِ أنْ يُعَلِّموه أو يَلُوموه، أي: أنا أعْلَمُ عِلْمًا مِن عند اللَّهِ علَّمَنيهِ لا تعْلَمونَه، وهو عِلْمُ النُّبوَّةِ، وفي هذا تَعْريضٌ برَدِّ تَعَرُّضِهم بأنَّه يَطمَعُ في الْمُحالِ بأنَّ ما يَحْسَبونَه مُحالًا سيقَعُ[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

- جُملةُ ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ استئنافًا بَيانِيًّا؛ لأنَّ في قولِه: ﴿أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما يُثيرُ في أنفُسِهم ترقُّبَ مُكاشَفَتِه على كَذِبِهم، وفي خِطابِهم بوَصْفِ البُنوَّةِ منه تَرْقيقٌ لهم وتلطُّفٌ؛ ليكونَ أبْعَثَ على الامتِثالِ[٣].

- قولُه: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ وإنَّما خصَّهما؛ لأنَّ الثَّالثَ الَّذي أقام وقال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ إنَّما أقام مُختارًا؛ فكانتْ غَيبتُه اختِياريَّةً لا يعسُرُ إزالتُها[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تعليلٌ للنَّهْيِ عنِ اليأْسِ بقولِه: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾؛ فموقِعُ (إنَّ) التَّعليلُ، والمَعْنَى: لا تَيئَسوا مِنَ الظَّفَرِ بيوسُفَ عليه السَّلامُ مُعْتَلِّينَ بطُولِ مُدَّةِ البُعدِ الَّتي يَبعُدُ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٤٥، ٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٢).

معها اللِّقاءُ عادةً[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٦).

الآيات (٨٨- ٩٢)

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَسَّنَا﴾: أي: أصابَنا، والمسُّ يقال في كلِّ ما يَنالُ الإنسانَ مِن أذًى، وأصلُ (مسس): يدلُّ على جَسِّ الشَّيْءِ باليَدِ[(١)].

﴿مُّزۡجَىٰةٖ﴾: أي: قليلةٍ رَديئةٍ، ومَردودةٍ مَدفوعةٍ غيرِ مقبولةٍ؛ مِن الإزجاءِ: وهو الطَّردُ والسَّوقُ والدَّفعُ، وأصلُ (زجي): يدلُّ على الرَّمي بالشَّيْءِ[(٢)].

﴿ءَاثَرَكَ﴾: أي: فَضَّلَكَ، وأَصْلُ (أثَرَ): تَقديمُ الشَّيْءِ[(٣)].

﴿تَثۡرِيبَ﴾: أي: تَعْييرَ وتَوْبيخَ وتَأنيبَ، وأصلُ التَّثْريب: يدلُّ على اللَّومِ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣).

والأخذِ على الذَّنبِ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يخبر الله تعالى أنَّ إخوةَ يوسُفَ لما رجَعوا إلى مِصْرَ، ودخَلوا على يوسُفَ، قالوا: يا أيُّها العزيزُ، أصابَنا وأهْلَنا القَحْطُ والجَدْبُ، وجِئْناكَ بثَمنٍ رَديءٍ قليلٍ، فأعْطِنا به ما كُنتَ تُعطِينا مِن قَبلُ بالثَّمَنِ الجَيِّدِ، وتصدَّقْ علينا بقَبضِ هذه الدَّراهمِ الْمُزجاةِ وتَجوَّزْ فيها؛ إنَّ اللَّهَ تعالى يُثيبُ المتفَضِّلينَ بأموالِهم على المحتاجينَ، فلَمَّا سمِعَ مَقالتَهم رَقَّ لهم، وعرَّفَهم بنَفْسِه، وقال: هلْ تذكُرونَ الَّذي فعَلْتُموه بيوسُفَ وأخيه مِنَ الأذَى في حالِ جَهْلِكم بعاقبةِ ما تَفعلونَ؟ قالوا: أإنَّكَ لَأنتَ يوسُفُ؟! قال: نَعَمْ، أنا يوسُفُ، وهذا شَقيقي، قد تفضَّل اللَّهُ علينا، فجَمَعَ بيْننا بعدَ الفُرقةِ؛ إنَّه مَن يتَّقِ اللَّهَ، ويَصبِرْ على المِحَنِ؛ فإنَّ اللَّهَ لا يُذهِبُ ثوابَ إحسانِه، وإنَّما يَجْزيه أحسَنَ الجَزاءِ. قالوا: واللَّهِ، لقد فَضَّلكَ اللَّهُ علينا، وأعزَّكَ بالعِلْمِ والحِلمِ، والفَضلِ والملكِ، وقد كنَّا خاطِئينَ فِيما فعَلْناه بكَ. قال لهم يوسُفُ: لا تَأنيبَ عليكمُ اليومَ، يَغفِرُ اللَّهُ لكم، وهو أرحَمُ الرَّاحمينَ لِمَن تاب مِن ذَنبِه، وأناب إلى طاعتِه، ولَمَّا سألَهم عن أبيه أخبَروه بذَهابِ بَصَرِه مِنَ البُكاءِ عليه، فقال لهم: عُودُوا إلى أبيكم ومعَكم قَميصي هذا، فاطْرَحوه على وجهِ أبي يَعُدْ إليه بَصَرُه، ثم أَحْضِروا إليَّ جميعَ أهلِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾.

أي: فرجَعَ إخوةُ يوسُفَ إلى مِصْرَ، فلَمَّا دخلوا على يوسُفَ قالوا له: يا أيُّها العزيزُ، أصابَنا وأهْلَنا الجوعُ والحاجةُ والشِّدَّةُ؛ بسببِ القحْطِ، وقِلَّةِ الطَّعامِ[١].

﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾.

أي: وأَتَيْنا بثَمنٍ رَديءٍ قليلٍ لِشِراءِ الطَّعامِ[٢].

﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾.

أي: فأَوْفِنا كَيْلَ الطَّعامِ ولا تَنْقُصْه[٣].

﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾.

أي: وتَفَضَّلْ علينا، وتَسامَحْ بما بيْنَ الثَّمَنِ الجَيِّدِ للطَّعامِ والثَّمنِ الرَّديءِ الَّذي قدَّمْناه لشِرائِه، ولا تَنْقُصْنا مِنَ الطَّعامِ بسَببِ ذلك[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٦، ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٦، ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٤).

قال القُرطبيُّ: (قولُه تعالى: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ يُريدون: كما تَبيعُ بالدَّراهمِ الجيادِ لا تنقُصْنا بمكانِ دَراهمِنا؛ هذا قولُ أكثَرِ المفسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٤).

قال الواحديُّ: (أكثرُ المفسِّرين على أنَّ هذا التَّصدُّقَ معناه: المُسامَحَةُ بما بين الثَّمنَيْنِ، وأنْ يُسعِّرَ لهم بالرَّديء كما يُسعِّرُ بالجيِّدِ، وعلى هذا سُمِّي ذلك تصدُّقًا؛ لأنَّ الَّذي سألوه كان مُشبهًا للتَّصدُّقِ، وليس هو تَصدُّقًا على ما يسبِقُ إليه الظَّنُّ). ((البسيط)) (١٢/ ٢٣٠).

أي: إنَّ اللَّهَ يُثيبُ في الدُّنيا والآخِرَةِ المُتفضِّلين بأموالِهم على المُحتاجِينَ[١].

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

أي: قال يوسُفُ لإِخْوتِه[٢]: هل تَذكُرونَ ما فعلْتُم بيوسُفَ وأخيه مِنَ الأذَى، حالَ جَهْلِكم بمِقدارِ ما ارتَكبتُموه، وعاقبةِ ما فعلْتُموه[٣]؟

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(٢) قال الواحديُّ: (قال صاحبُ النَّظم [أبو عليٍّ الجُرجانيُّ]: هذه الآيةُ تصديقُ قولِه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾). ((البسيط)) (١٢/ ٢٣٢).

وقال ابنُ كثيرٍ: (الظَّاهرُ- واللهُ أعلمُ- أنَّ يُوسفَ عليه السَّلامُ إنَّما تعرَّفَ إليهم بنفْسِه، بإذْنِ اللهِ له في ذلك، كما أنَّه إنَّما أخْفَى منهم نفْسَه في المرَّتينِ الأُوليينِ بأمْرِ اللهِ تعالى له في ذلك، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٨).

وقال السعديُّ: (فلمَّا انتهى الأمْرُ، وبلَغَ أشُدَّه، رقَّ لهم يُوسفُ رِقَّةً شديدةً، وعرَّفَهم بنفْسِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٧).

قال ابنُ عطيَّةَ: (يُريدُ: مِن التَّفريقِ بينهما في الصِّغَرِ والتَّمرُّسِ بهما، وإذايةِ بنيامين بعدَ مَغيبِ يُوسفَ؛ فإنَّهم كانوا يُذِلُّونه ويَشتُمونَه، ولم يُشِرْ إلى قِصَّةِ بنيامين الآخِرةِ؛ لأنَّهم لم يفعلوا هم فيها شيئًا، ونسَبَهم إمَّا إلى جهْلِ المعصيةِ، وإمَّا إلى جَهْلِ الشَّبابِ، وقلَّةِ الحُنْكَةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٦).

وقال السعديُّ: (﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ وهذا نوعُ اعتذارٍ لهم بجهْلِهم، أو تَوبيخٌ لهم؛ إذ فعلوا فعْلَ الجاهِلينَ، مع أنَّه لا ينبغي ولا يليقُ منهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿أَءِنَّكَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿إِنَّكَ﴾ على لفظِ الخَبَرِ، بمعنى: أنَّهم لَمَّا عرَفوا يوسُفَ وتيَقَّنوا أنَّه هو، أَتَوْا بـ (إنَّ)؛ لِتأكيدِ ذلك[١].

٢- قِراءةُ ﴿أَءِنَّكَ﴾ على لفظِ الاستفهامِ؛ قيل: بمعنى أنَّهم ظَنُّوا ذلك ظنًّا فاسْتَفْهَمُوه، أَهُوَ هُوَ؟ وقيل: هي بمعنَى القِراءةِ الأُولَى، أي: أثْبَتوا أنَّه يوسُفُ لا أنَّهم اسْتَخْبَروا عن أمْرٍ جَهِلوه، وإنَّما جاؤوا بلفظِ الاستفهامِ؛ لِتحقيقِ ما ثبَتَ لديْهِم[٢].

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ له: أإنَّك لَأَنْتَ أخونا يوسُفُ[٣]؟

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ﴾.

أي: قال يوسُفُ لإخوتِه: نَعَمْ أنا يوسُفُ، وهذا أخي الشَّقِيقُ، قد مَنَّ اللَّهُ علينا بالاجتِماعِ بعدَ الفُرْقَةِ، والعِزَّةِ بعدَ الذِّلَّة، والتَّمْكينِ في الدُّنيا[٤].

---

(١) قرأ بها ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٥٠)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩٥).

(٢) قرأ بها الباقونَ، لكنَّ ورشًا يجعلُ الهمزةَ الثَّانيةَ بين الهمزةِ والياءِ ولا يَمُدُّ، وقالون وأبو عمرٍو مثله، غيرَ أنَّهما يُدخلانِ بين الهمزتينِ ألفًا، فيَمُدَّانِ، والباقونَ يُحقِّقون الهَمزتينِ. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٥٠)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٨، ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: إنَّه مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ، فيَمتَثِلْ ما أَمَرَ به، ويَجْتَنِبْ ما نَهَى عنه، ويَصْبِرْ على الطَّاعاتِ وعنِ المعاصي وعلى المصائِبِ؛ فإنَّ اللَّهَ لا يُبْطِلُ ثوابَ إحسانِه، ولا ثَوابَ كُلِّ مَن أحسَنَ بذلك[١].

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ لَمَّا ذكَرَ لإخوتِه أنَّ اللَّهَ تعالى مَنَّ عليه، وأنَّ مَنْ يَتَّقِ المعاصي ويَصبِرْ على أذَى النَّاسِ، فإنَّه لا يُضَيِّعُه اللَّهُ؛ صَدَّقوه فيه، واعتَرَفوا له بالفضلِ والمَزِيَّةِ[٢].

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ مُقْسِمينَ له: تَاللَّهِ، لقد فضَّلَك اللَّهُ علينا بالعِلْمِ والحِلْمِ، وحُسْنِ الخِلْقَةِ والخُلُقِ، والمُلْكِ[٣].

﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.

أي: وما كُنَّا فيما فعَلْنا بكَ إلَّا مُذْنِبينَ مُخْطِئينَ في حقِّكَ[٤].

﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٨).

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾.

أي: قال يوسُفُ لإخوتِه: لا تَعْيِيرَ عليكم، ولا تَوْبيخَ بما صَنَعْتُم، ولا إفسادَ لِمَا بَيْنَنا مِنَ الأُخوَّةِ بعدَ اليومِ[1].

﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

أي: دعا يوسُفُ لإخوتِه فقال: يَسْتُرُ اللَّهُ لكم ذُنوبَكم، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذَتِكم بها، وهو أرحمُ الرَّاحِمين لِمَنْ تاب إليه، وأنابَ إلى طاعتِه[2].

﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾.

أي: قال يوسُفُ لإخوتِه: اذْهَبوا بقَميصي هذا فأَلْقُوهُ على وجْهِ أبي يعقوبَ، يَصِرْ مُبْصِرًا بَعدَ العَمَى[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٩).

قال البَغويُّ: (﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي: يعُدْ مُبْصِرًا، وقيل: يأتيني بصيرًا). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥١٣).

ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٥٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١٦).

وممَّن اختار أن المُرادَ: يصيرُ مُبْصِرًا بعد العَمَى: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣٢).

﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: وجِيئُوني بجَميعِ أهْلِكم بَنِي يعقوبَ[١].

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أرادَ يوسُفُ عليه السَّلامُ تَعليمَهم وسائلَ التَّعَرُّضِ إلى نِعَمِ اللَّهِ تعالى، وحَثَّهُم على التَّقْوَى والتَّخَلُّقِ بالصَّبْرِ، وهذا مِن أَفانِينِ الخطابةِ: أنْ يَغْتَنِمَ الواعِظُ الفُرْصةَ لإلْقاءِ الموعِظةِ، وهي فرصةُ تَأَثُّرِ السَّامِعِ وانفعالِه، وظُهورِ شَواهِدِ صِدْقِ الواعِظِ في مَوْعِظَتِه[٢].

٢- قال اللَّهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ في الآيةِ إرشادٌ إلى أدَبٍ جليلٍ، وهو تَقديمُ الوسائِلِ أمامَ المآرِبِ؛ فإنَّها أنجَحُ لها، وهكذا فعَلَ هؤلاءِ؛ قَدَّموا ما ذُكِرَ مِن رِقَّةِ الحالِ والتَّمَسْكُنِ، وتَصغيرِ العِوَضِ، ولم يَفْجَؤوه بحاجتِهم؛ لِيكونَ ذَريعةً إلى إسعافِ مَرامِهم؛ بِبَعْثِ الشَّفَقةِ، وهَزِّ العَطْفِ والرَّأفةِ، وتَحريكِ سِلسِلةِ الرَّحمةِ؛ ومِن ثَمَّ رَقَّ لهم، ومَلَكَتْهُ الرَّحمةُ عليهم، فلم يتَمالَكْ أنْ عرَّفَهم نفْسَه[٣].

٣- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن

وقيل: المُرادُ: ترجِعُ إليه قُوَّةُ بصَرِه بعد ضعْفِه، وممَّنِ اختار هذا المعنى: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١٢).

يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فيه فضيلةُ التَّقْوَى والصَّبْرِ، وأنَّ كلَّ خيرٍ في الدُّنيا والآخِرةِ فمِن آثارِ التَّقْوَى والصَّبْرِ، وأنَّ عاقبةَ أهْلِهِما أحسنُ العواقبِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ إخبارَ العبدِ مِن نَفسِه بحُصولِ التَّقوى والصَّبرِ- إذا كان صِدقًا، وفي ذلك مَصلحةٌ- مِن بابِ التحَدُّث بنِعمةِ اللهِ(٢).

٥- الصَّبرُ مِن أَجَلِّ مقاماتِ الإيمانِ، وأخصُّ النَّاسِ باللَّهِ وأَولاهم به أشدُّهُم قِيامًا وتَحَقُّقًا به، وأنَّ الخاصَّةَ أحْوَجُ إليه مِنَ العامَّةِ، ومما يدلُّ على ذلك قولُ يوسُفَ الصِّدِّيقِ، وقد قال له إخوتُه: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٣).

٦- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ حَثٌّ على الإحسانِ، وإشارةٌ إلى أنَّ المُحْسِنَ يُجْزَى أحسَنَ جَزاءٍ منه تعالى، وإنْ لم يَجْزِه المحسَنُ إليه(٤).

٧- الصَّبْرُ والتَّقوى دَواءُ كُلِّ داءٍ مِن أَدْواءِ الدِّينِ، ولا يَسْتَغْني أحدُهما عن صاحبِه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٥).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).
(٢) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٤٠).
(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١٣).
(٥) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٦٨).

﴾ فيه أنَّ العِبْرَةَ في حالِ العبدِ بكَمالِ النِّهايةِ، لا بنَقْصِ البِدايةِ؛ فإنَّ أولادَ يعقوبَ عليه السَّلامُ جَرَى منهم ما جرَى في أوَّلِ الأمرِ، مِمَّا هو أكبرُ أسبابِ النَّقصِ واللَّوْمِ، ثُمَّ انتهَى أمْرُهم إلى التَّوْبةِ النَّصُوحِ، والسَّماحِ التَّامِّ مِن يوسُفَ ومِن أبيهم، والدُّعاءِ لهم بالمَغفرةِ والرَّحمةِ، وإذا سمَحَ العَبدُ عن حقِّه؛ فاللَّهُ خيرُ الرَّاحِمين[١].

٩- قال الله تعالى حاكيًا عن يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ نتعلَّمُ من تجاوُزِ يوسُفَ عن ذنبِ إخوته، وإبقائِه عليهم، ومصافاتِه لهم: أن نغفِرَ لِمَن يسيءُ إلينا، ونحسِنَ إليه، ونصفِّيَ له الوُدَّ، وأن نُغضِيَ عن كلِّ إهانةٍ تلحَقُ بنا؛ فيُسبِغ الله تعالى إذ ذاك علينا نِعَمَه وخيراتِه في هذه الدنيا، كما أوسعَ على يوسُفَ، ويُورِثنا السَّعادةَ الأخرويَّة[٢].

١٠- قولُه تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فيه مِنَ العِبْرَةِ: أنَّ الظَّالِمَ الحاسِدَ قد يتوبُ اللَّهُ عليه ويَعْفُو عنه، وأنَّ المظلومَ يَنبغي له العَفْوُ عن ظالِمِه إذا قَدَرَ عليه[٣].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ فيه جوازُ إخبارِ الإنسانِ بما يَجِدُ، وما هو فيه مِن مرَضٍ أوْ فَقْرٍ ونحوِهما، إذا كان على غيرِ وَجْهِ التَّسَخُّطِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

٢- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ يُؤخَذُ منه جوازُ شَكْوَى الحاجَةِ لِمَنْ يُرْجَى منه إزالتُها[١].

٣- مَنْ تأمَّلَ ذُلَّ إخوةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ يومَ قالوا: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾، عَرَفَ شُؤْمَ الزَّلَلِ، ومَن تدبَّرَ أحوالَهم قاسَ ما بينهم وبين أخيهِم مِنَ الفُروقِ، وإنْ كانَتْ توبتُهم قُبِلَتْ؛ لأنَّه ليس مَن رَقَّعَ وخاطَ كمَن ثَوْبُه صَحيحٌ[٢].

٤- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ فيه سؤالٌ: إذا كان يعقوبُ أمَرَهُم أنْ يَتَحَسَّسُوا أَمْرَ يوسُفَ وأخيه؛ فلماذا عَدَلُوا إلى الشَّكْوَى، وطَلَبوا إيفاءَ الكَيْلِ؟ **والجوابُ**: لأنَّ الْمُتَحَسِّسينَ يَتوسَّلونَ إلى مَطْلوبِهم بجميعِ الطُّرُقِ، والاعترافُ بالعَجْزِ، وضِيقِ اليَدِ، ورِقَّةِ الحالِ، وقِلَّةِ المالِ، وشِدَّةِ الحاجَةِ؛ مِمَّا يُرَقِّقُ القلْبَ، فقالوا: نُجَرِّبُه في ذِكْرِ هذه الأُمورِ، فإنْ رَقَّ قلبُه لنا ذَكَرْنا له المقصودَ، وإلَّا سَكَتْنا؛ فلهذا السَّبَبِ قَدَّمُوا ذِكْرَ هذه الواقِعةِ[٣].

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ استدَلَّ بعضُهم بهذه الآيةِ على أنَّ أُجْرَةَ الكَيَّالِ على البائعِ؛ لأنَّه إذا كان عليه تَوْفِيَةُ الكَيْلِ، فعليه مَؤُونَتُه وما يَتِمُّ به[٤].

٦- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ قيل: إنَّ قولَ إخوةِ يوسفَ هذا مِنَ المَعاريضِ الَّتي هي مَنْدُوحَةٌ عنِ الكذبِ؛ وذلك أنَّهم

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٠٢، ٥٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١٢)، ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٤).

كانوا يَعتقِدونَ أنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ مَلِكٌ كافِرٌ على غيرِ دِينِهِم، ولو قالوا: (إنَّ اللَّهَ يَجْزيك بصَدَقَتِك في الآخرةِ) كَذَبوا، فقالوا له لفظًا يُوهِمُ أنَّهم أَرادُوه، وهُم يَصِحُّ لهم إخراجُه منه بالتَّأويلِ[١].

٧- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ صَرَّحَ بالِاسْمِ؛ تعظيمًا لِمَا نَزَلَ به مِن ظُلْمِ إخوتِه وما عَوَّضَهُ اللَّهُ مِنَ الظَّفَرِ والنَّصْرِ، فكأنَّه قال: أنا الَّذي ظَلَمْتُموني على أعظمِ الوُجوهِ، واللَّهُ تعالى أوْصَلَني إلى أعظمِ المناصِبِ، أنا ذلك العاجِزُ الَّذي قَصَدْتُم قَتْلَه، وإلقاءَه في البِئْرِ، ثُمَّ صِرْتُ كما تَرَوْنَ؛ ولهذا قال: ﴿وَهَٰذَآ أَخِي﴾ مع أنَّهم كانوا يَعْرِفونَه؛ لأنَّ مَقْصودَه أنْ يقولَ: وهذا أيضًا كان مَظلومًا كما كنْتُ، ثُمَّ إنَّه صارَ مُنْعَمًا عليه مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تعالى، كما تَرَوْنَ[٢].

٨- لَمَّا استَفْهَمُوه بقولِهم: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ أجابَهم فقال: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾ أجابَهم عن نفْسِه وعن أخيه؛ فكشَفَ لهم أمْرَه، وزادَهم في الجوابِ قولَه: ﴿وَهَٰذَآ أَخِي﴾ مع أنَّهم قد سأَلوه عن نفْسِه فقط؛ لأنَّه سَبَقَ قولُه: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾، وكان في ذِكْرِ أخيه بَيانٌ لِما سأَلوا عنه، وإنْ كان معلومًا عِندَهم، وتوطِئةٌ لِما ذَكَرَ بَعدُ مِن قولِه: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾[٣].

٩- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ احتَجَّ به مَن قال: إنَّ إخوةَ يوسُفَ عليه السَّلامُ ما كانوا أنبياءَ؛ لأنَّ جميعَ المَناصِبِ الَّتي تَكونُ مُغايرَةً لمنصبِ النُّبوَّةِ كالعَدَمِ بالنِّسْبةِ إليه، فلو شارَكوه في مَنصِبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢٠).

النُّبُوَّةِ لَمَا قالوا: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾[١].

١٠- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ * قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فيه بيانُ ما مَنَّ اللَّهُ به على يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ مِنَ العِلْمِ والحِلْمِ، ومكارِمِ الأخلاقِ، وعَفْوِه عن إخوتِه الخاطئِينَ عَفْوًا بادَرَهم به، وتَمَّمَ ذلك بألَّا يُثَرِّبَ عليهم، ولا يُعَيِّرَهم به[٢].

١١- كَمَّل يوسفُ صلواتُ اللهِ عليه مراتِبَ الصَّبرِ؛ الصَّبرُ الاضطراريُّ: وهو صَبرُه على أذيَّةِ إخوَتِه، وما ترتَّبَ عليها مِن بُعدِه عن أبوَيه، وصَبرُه في السِّجنِ بِضعَ سِنينَ. والصَّبرُ الاختياريُّ: صَبرُه على مراودةِ سَيِّدتِه امرأةِ العزيزِ. وكَمَّل مراتِبَ العَدلِ والإحسانِ للرعيَّةِ حين تولَّى خزائِنَ البلادِ المِصريَّة، وكَمَّل مراتِبَ العَفوِ والكرَمِ حين قال له إخوتُه: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ * قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فارتقى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى أعلَى مقاماتِ الفَضلِ والخيرِ، والصِّدقِ والكَمالِ، ونشَرَ اللهُ له الثَّناءَ بين العالَمينَ[٣].

١٢- قال الله تعالى: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ شِفاءُ الأمراضِ كما يكونُ بالأدويةِ الحسِّيَّةِ يكونُ بأسبابٍ ربَّانيَّةٍ، بل يحصُلُ بهذا النَّوعِ مِن أنواعِ الشِّفاءِ ما لا يحصُلُ بغيرِه؛ فيعقوبُ عليه السَّلامُ قد ابيضَّت عيناه من الحُزنِ وذهب بصَرُه، فجعل اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٢٦).

شفاءَه وإبصارَه بقميصِ يوسُفَ، حين ألقاه على وَجهِه فارتدَّ بصيرًا؛ لِمَا كان فيه من رائحةِ يوسُفَ الذي كان داءُ عينيه مِن حُزنِه عليه، فصار شِفاؤُه الوحيدُ- مع لُطفِ اللهِ- في قميصِ جَسَدِه، واللهُ قادِرٌ على أن يَشفيَه من دون سبَبٍ، ولكنَّه حكيمٌ؛ جعل الأمورَ تجري بأسبابٍ ونِظاماتٍ قد تهتدي العُقولُ إلى مَعرفتِها، وقد لا تهتدي؛ فهو تعالى يشفي العبادَ بأدويةٍ وأسبابٍ حِسِّيَّةٍ، وبأسبابٍ ربَّانيَّةٍ معنويَّةٍ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، كما أنَّه تعالى يُوجِدُ الأشياءَ بأسبابٍ حسِّيَّةٍ معلومةٍ، وبأسبابٍ ربَّانيَّةٍ لا تهتدي العقولُ إليها، كما في مُعجزاتِ الأنبياءِ وكراماتِ الأولياءِ، وآياتِه النفسيَّةِ والكونيَّةِ، وهو المحمودُ على هذا، وعلى هذا[١].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ في الكلامِ حذْفٌ، تقديرُه: (فذَهَبوا مِن الشَّامِ إلى مِصْرَ ودخَلوها، فلَمَّا دخَلوا عليه)، أو: (فلَمَّا دخَلوا على يُوسُفَ بعدَما رجَعوا إلى مصرَ بموجِبِ أمْرِ أبيهم)؛ فإنَّه يُحذَفُ ما يدلُّ ظاهِرُ القولِ عليه إيجازًا؛ وإنَّما لم يذكُرْ ذلك؛ إيذانًا بمُسارَعَتِهم إلى ما أُمِروا به، وإشعارًا بأنَّ ذلك أمْرٌ مُحقَّقٌ لا يفتَقِرُ إلى الذِّكْرِ والبَيانِ[٢]؛ فالفاءُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا﴾ عاطِفةٌ على كَلامٍ مُقدَّرٍ دَلَّ عليه المقامُ، أي: فارتَحَلوا إلى مِصرَ بقصْدِ استِطْلاقِ بِنيامينَ مِن عَزيزِ مِصرَ، ثُمَّ بالتَّعرُّضِ إلى التَّحسُّسِ مِن يوسُفَ عليه السَّلامُ،

(١) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٣).

فوَصَلوا مصرَ، فدَخلوا على يُوسفَ، فلَمَّا دخلوا عليه... إلخ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم ...﴾ استِفهامٌ معناهُ التَّقْريعُ والتَّوبيخُ، والمُرادُ بهذا الاستِفهامِ تَعْظيمُ الواقِعةِ، وتَعظيمُ القِصَّةِ، وتَلخيصُه: ما أعظمَ ما ارتكبتُم مِن يوسُفَ، وما أسمجَ ما أتيتُم مِن قَطيعةِ رَحِمِه، وتَضييعِ حَقِّه! كما تقولُ: هل تَدري مَن عصيتَ؟! هل تَعرِفُ مَن عاديتَ؟! وقيل: ﴿هَلۡ﴾ بمعنى (قَدْ)؛ لأنَّهم كانوا عالِمينَ؛ فالاستفهامُ مُستعْمَلٌ في التَّوبيخِ، و﴿هَلۡ﴾ مُفيدةٌ للتَّحقيقِ؛ لأنَّها بمعنى (قد) في الاستِفهامِ؛ فهو تَوبيخٌ على ما يعْلَمونَه مُحَقَّقًا مِن أفعالِهم مع يوسُفَ عليه السَّلامُ وأخيه، أي: أفعالهم الذَّميمة، بقَرينةِ التَّوبيخِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ كان الظَّاهِرُ أنْ يَتعرَّضَ لِما فعَلوا بأخيه فقط، وإنَّما تعرَّضَ لِما فعَلوا بيوسُفَ؛ لاشتراكِهما في وُقوعِ الفِعْلِ عليهما؛ فإنَّ المرادَ بذلك إفرادُهم له عن يوسُفَ وإذْلالُه بذلك، حتَّى كان لا يَستطيعُ أنْ يكلِّمَهم إلَّا بعَجْزٍ وذِلَّةٍ، أي: هل تُبْتُم عن ذلك بعد عِلْمِكم بقُبْحِه؟ فهو سُؤالٌ عنِ الْمَلزومِ والمرادُ لازِمُه[٣]، ولم يَذكُرْ لهم ماذا واجَهَ أباهم؛ تَعْظيمًا لقدْرِه، وتفْخيمًا لشأْنِه أنْ يَذكُرَه مع نفْسِه وأخيه[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٩).

مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ فيه تأْكيدُ الجُملةِ بـ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ، وضَميرِ الفصْلِ (أنت)؛ لشِدَّةِ تحقُّقِهم أنَّه يوسُفُ عليه السَّلامُ[1].

- الاستفهام في قولهم: ﴿أَءِنَّكَ﴾ تقْريريٌّ؛ ولذلك حُقِّقَ بـ (إنَّ) ودُخولِ اللَّامِ عليه، وأُدْخِلَ على الجُملةِ الْمُؤكَّدةِ؛ لأنَّهم تَطَلَّبوا تأْييدَه لعِلْمِهم به، وكانوا عَرَفوه بتلك العَلاماتِ الَّتي سَبَقَ ذِكرُها، وقيل: هو استفهامُ استِخْبارٍ[2].

- قولُه: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي ﴾، أي: وهذا أَخِي مِن أَبَوَيَّ؛ تَعْريفًا لنفْسِه به، ومُبالَغةً في تَعْريفِ نفْسِه، وتَفْخيمًا لشأْنِ أخيه، وإدْخالًا له في قولِه: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ ﴾ وتكمِلةً لِما أفادَه قولُه: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ حسْبَما يُفيدُه قولُه: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ ﴾؛ فكأنَّه قال: هل علِمْتُم ما فعَلْتُم بِنَا مِن التَّفريقِ والإذْلالِ، فأنا يوسُفُ وهذا أخي، قدْ مَنَّ اللَّهُ علينا بالخَلاصِ عمَّا ابْتُلينا به، والاجتماعِ بعد الفُرقةِ، والعزَّةِ بعد الذِّلَّةِ، والأُنسِ بعْد الوَحْشَةِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ فيه إشارةٌ إلى الجوابِ عن طلَبِهم لِرَدِّ أخيه بـ (إنَّه أخي لا أخوكم)؛ فلا وجهَ لطَلَبِكم[3].

- قولُه: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ ﴾ هذا الجَوابُ مُجرَّدٌ عنِ التَّأْكيدِ؛ لأنَّهم كانوا مُتَحقِّقينَ ذلك؛ فلم يَبْقَ إلَّا تأْييدُه لذلك، وقولُه: ﴿وَهَٰذَآ أَخِي ﴾ خبَرٌ مُسْتَعْمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن جَمْعِ اللَّهِ بينهما بعدَ طولِ الفُرقَةِ؛ فجُملةُ ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٤).

﴾ بَيانٌ للمَقْصودِ مِن جُملةِ ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾[١].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تَعليلٌ بطَريقِ الاستِئنافِ التَّعليليِّ لجُملةِ ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ﴾، وفيه تَعريضٌ بأنَّهم لم يتَّقوا اللَّهَ فيه وفي أخيه[٢].

- قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ذِكْرُ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وَضْعٌ للظَّاهِرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ؛ إذْ مُقتضَى الظَّاهِرِ أنْ يقالَ: (فإنَّ اللَّهَ لا يُضيعُ أجْرَهم)، فعَدَلَ عنه إلى ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ووُضِعَ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ لاشتمالِ المحسنينَ على المتَّقين والصَّابرين، فـ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ عامٌّ يندرِجُ فيه مَن تقدَّمَ. أو وُضِعَ المظْهَرُ موضِعَ المضْمَرِ؛ تنبيهًا على أنَّ المنْعوتينَ بالتَّقوى والصَّبرِ مَوصوفونَ بالإحسانِ، وعلى أنَّ المحسِنَ مَن جمَعَ بين التَّقوى والصَّبرِ، وللدِّلالةِ على أنَّ ذلك مِنَ الإحسانِ، وللتَّعميمِ في الحُكْمِ؛ ليكونَ كالتَّذييلِ، ويَدْخلَ في عُمومِه هو وأخوه[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ﴾ قيل: الظَّاهرُ أنَّ مُنْتهى الجُملةِ هو قولُه: ﴿عَلَيۡكُمُ﴾؛ لأنَّ مثلَ هذا القولِ ممَّا يجْري مَجْرى المثَلِ، فيُبْنَى على الاختصارِ، فيُكْتفى بـ ﴿لَا تَثۡرِيبَ﴾ مثلَ قولِهم: لا بأْسَ. وزيادةُ ﴿عَلَيۡكُمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٩).

﴾؛ للتَّأكيدِ[١].

- قولُه: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ في هذا الخِتامِ مُناسَبةٌ حَسَنَةٌ؛ وذلك أنَّه لَمَّا دعا لهم بالمغفِرةِ أخبَرَ عنِ اللَّهِ بالصِّفةِ الَّتي هي سَببُ الغُفرانِ؛ وهو أنَّه تعالى أرحَمُ الرُّحماءِ؛ فهو يرجو منه قَبولَ دُعائِه لهم بالمَغفِرةِ[٢].

- قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ فيه إدماجُ الأمْرِ بالإتيانِ بأبيه في ضِمْنِ تبْشيره بوُجوده إدماجًا بليغًا[٣]؛ إذ قال: ﴿يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾، ثمَّ قال: ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾؛ لِقَصْدِ صِلَةِ أرحامِ عَشيرتِه[٤].

- قولُه: ﴿فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ فيه إفرادُ أبيه يَعقوبَ عليه السَّلامُ بالذِّكْرِ؛ تَعظيمًا له، على أحدِ وجْهي التفسيرِ، بَينَما قال في الباقينَ: ﴿

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢٢).

(٣) الإدماجُ، لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أنْ يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ- وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥١).

وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[١].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٠٧).

الآيات (٩٤- ٩٨)

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَصَلَتِ﴾: أي: خرجَتْ وفارَقَتْ؛ مِن قَولِهم: فصل من البلدِ فُصولًا: إذا انفصل منه، وجاوزَ حِيطانَه، وأصلُ (فصل): يدلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه[1].

﴿تُفَنِّدُونِ﴾: أي: تُسَفِّهوني، وتَنسُبوني إلى الفَنَدِ: وهو الخَرَفُ، وضَعْفُ الرَّأْيِ والعَقلِ مِن كِبَرِ السِّنِّ، وأصلُ (فند): يدلُّ على ثِقَلٍ وشِدَّةٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ولَمَّا خرجَتْ قافلةُ بَني يَعقوبَ من مِصْرَ مُتَّجِهةً إلى الشَّامِ، قال يعقوبُ لِمَنْ حَضَرَ عندَه: إنِّي لَأَشَمُّ رائحةَ يوسُفَ، لولا أن تُكَذِّبوني وتَنسُبوني إلى الهَرَمِ والخَرَفِ، فقال له الحاضِرونَ: واللَّهِ، إنَّك لفي خَطئِك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢٢٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٦)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٥١).

الَّذي كنتَ عليه قديمًا، فلَمَّا أنْ جاء يعقوبَ ولدُه المبَشِّرُ برِسالةِ يوسُفَ، ألْقَى قَميصَ يوسُفَ على وجْهِ أبيه، فعاد مُبْصِرًا بعَينَيهِ كما كان. قال يعقوبُ لأولادِه: ألَمْ أَقُلْ لكم: إنِّي أعلمُ مِنَ اللَّهِ تعالى ما لا تَعلمونَه؟ قال أولادُ يعقوبَ لأبيهم: يا أبانا، اطلُبْ مِنَ اللَّهِ أنْ يَغفِرَ لنا ذُنوبنَا؛ إنَّا نَعترِفُ بأنَّنا كُنَّا خاطِئينَ، فقال لهم أبوهم: سوف أطلُبُ مِن ربِّي أنْ يَغفِرَ لكم؛ إنَّ ربِّي هو الغَفورُ الرَّحيمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾.

أي: ولَمَّا خرجَتْ قافلةُ بَنِي يعقوبَ مِن مصرَ إلى الشَّامِ، قال يعقوبُ عليه السَّلامُ لِمَنْ حضَرَ عِندَه: إنِّي لَأَشَمُّ رائحةَ ابْنِي يوسُفَ[1]!

﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾.

أي: لولا أنْ تَنْسُبوني إلى الهَرَمِ وضَعْفِ العَقلِ والخَرَفِ، لَتَحَقَّقْتُم ذلك وصَدَّقْتُمُوني[2].

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾.

أي: قال الحاضِرونَ[3] ليعقوبَ: واللَّهِ، إنَّك لفي خَطئِك الَّذي كنتَ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣٦، ٣٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٢).

(٣) قال ابنُ عاشورٍ: (والذين قالوا: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ هم الحاضرونَ مِن أهلِه، ولم يَسبقْ ذكرُهم؛ لظهورِ المرادِ منهم، وليسوا أبناءَه؛ لأنَّهم كانوا سائِرينَ في طريقِهم إليه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٢).

قديمًا، قد ذهبتَ عن العلمِ بحقيقةِ أمرِ يوسفَ، ومِن أجلِ ذلك تطمعُ في رجوعِه إليك[١].

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

أي: فلَمَّا أنْ جاءَ يَعقوبَ ولَدُه المبَشِّرُ برِسالةِ يوسُفَ، ألْقَى قَميصَ يوسُفَ على وجهِ يعقوبَ، فعاد مُبْصِرًا بعَينيهِ كما كان[٢]!

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: قال يعقوبُ لأولادِه: ألم أقُلْ لكم: إنِّي أعلَمُ مِنْ اللَّهِ أنَّه سيَرُدُّ عليَّ يوسُفَ، ويَجمَعُ بيني وبينَه[٣].

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ لأبيهم: يا أبانا، اسأَلِ اللَّهَ أنْ يَسْتُرَ علينا ذُنوبَنا الَّتي أذْنَبْناها في حقِّك وحقِّ يوسُفَ، ويَتجاوزَ عن مُؤاخَذَتِنا بها؛ إنَّا كُنَّا مُذْنِبينَ مُتَعَمِّدين للإثمِ بمَا فعَلْنا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤٣، ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾.

أي: قال يَعقوبُ لهم: سوفَ أسأَلُ ربِّي أنْ يَغفِرَ ذُنوبَكم؛ إنَّ ربِّي هو السَّاتِرُ لِذُنوبِ التَّائِبين المُتجاوِزُ عن المُؤاخَذةِ بها، الرَّحيمُ بهم؛ فلا يُعَذِّبُهم بعدَ تَوْبَتِهِم(١).

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ أوْصَل اللَّهُ تعالى إلى يَعقوبَ رِيحَ يوسُفَ عليه السَّلامُ عندَ انْقِضاءِ مُدَّةِ المِحنةِ، ومَجيءِ وقتِ الرَّوْحِ والفرَحِ مِنَ المكانِ البَعيدِ، ومَنَعَ مِن وُصولِ خَبَرِهِ إليه مع قُرْبِ إحدى البلدتَيْنِ مِنَ الأُخْرى طوالَ سنواتِ هذه المحنةِ، وذلك يدلُّ على أنَّ كلَّ سَهْلٍ فهو في زَمانِ المِحنَةِ صَعْبٌ، وكلَّ صعبٍ فهو في زمانِ الإقبالِ سَهْلٌ(٢).

٢- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ لَمَّا سأَلَ إخوةُ يوسُفَ أباهمُ الاستغفارَ لِذُنوبِهم، عَلَّلُوه بالاعترافِ بالذَّنْبِ؛ لأنَّ الاعترافَ شَرْطُ التَّوْبةِ(٣).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ ﴾ عَجَّلوا إليه بَشيرًا، فأسرَعَ بعدَ خُروجِ العِيرِ مِن مِصرَ إلى الشَّامِ؛ ولذلك عبَّرَ بالفاءِ في ﴿فَلَمَّآ ﴾(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤٦، ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢١٤).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيه دَلالةٌ على جوازِ التَّبشيرِ ببشائرِ الدُّنيا واستحبابِه، وجوازِ السُّرورِ بحُصولِ النِّعَم الحاصلةِ في الدُّنيا[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ إنَّما سألوه المغفرةَ؛ لأنَّهم أدخلوا عليه مِن ألمِ الحُزنِ ما لا يسقُط المأثمُ عنه إلَّا بإحلالِه، وهذا الحكمُ ثابتٌ فيمن آذى مُسلِمًا في نفسِه أو مالِه أو غيرِ ذلك ظالِمًا له، فإنَّه يجِبُ عليه أن يتحلَّلَ منه[٢].

٤- قال الله تعالى عن إخوةِ يُوسفَ بعدَ ندامتِهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ [يوسف: ٩٧] ولم يقولوا: كفرنَا، ولا رَدَّ اللهُ عليهم ولا أبوهم قولَهم، مع كلِّ ما ذكرَهم به مِن الغَدْرِ بأخيهم وإلقائِه في الجُبِّ، وكَذِبِهم بعد رجوعِهم إلى أبيهم، ففي ذلك رَدٌّ على الخوارجِ فيما يزعمونَ أنَّ الذنوبَ كُفْرٌ[٣].

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾، ثم عَلَّلَ ذلك بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فعَلَ كلَّ ذلك؛ تسكينًا لقلوبِهم، وتَصحيحًا لرَجائِهم؛ ليَقْوَى أملُهم؛ فيكونَ تعالى عند ظنِّهم بتحقيقِ الإجابةِ، وتنجيزًا لِطَلَبِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦٠٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢١٥، ٢١٦).

قال المراغي: (الفارقُ بين جَوابِ يعقوبَ، [أي: قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾] وجَوابِ يوسُفَ، [أي: قوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾] مِن وُجوهٍ كثيرةٍ اقتَضَتها الحِكمةُ:

الأوَّل: أنَّ حالَ أبيهم معهم حالُ المُربِّي المُرشِدِ للمُذنبِ، لا حالُ المُنتَقِم الذي يُخشَى أذاه، وليس مِن حُسنِ التَّربية ولا مِن طُرُقِ التَّهذيبِ أن يُرِيَهم أنَّ ذَنبَهم هيِّنٌ لديه، حتى يُعجِّلَ بإجابةِ مَطلَبِهم بالاستغفارِ لهم.

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾

- قولُه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ فيه تأْكيدُ هذا الخبَرِ بـ (إنَّ) واللَّامِ؛ لأنَّه مَظِنَّةُ الإنكارِ؛ ولذلك أعقَبَه بـ ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾[1].

٢- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ ﴿أَن﴾ مَزيدةٌ؛

الثاني: أنَّ ذَنبَهم لم يكُنْ مُوجَّهًا إليه مباشرةً، بل مُوجَّهٌ إلى يوسُفَ وأخيه، ثمَّ إليه بالتَّبَع واللُّزوم، إلَّا أنَّه ليس من العدلِ أن يستغفِرَ لهم إلَّا بعد أن يَعلمَ حالَهم مع يوسُفَ وأخيه، ولم يكُنْ يعقوبُ قد علِمَ بعفوِ يوسُفَ عنهم، واستغفارِه لهم.

الثالث: أنَّ هذا ذنبٌ كبيرٌ، وإثمٌ عظيمٌ طال عليه الأمَدُ، وحَدَثَت منه أضرارٌ نفسيَّةٌ وخُلُقيَّة، وأعمالٌ كان لها خَطَرُها، فلا يَمَّحِي إلَّا بتوبةٍ نَصوح، فلا يَحسُنُ بعدَئذٍ مِن المرُبِّي الحكيم أن يسارِعَ إلى الاستغفارِ لِمُقتَرِفِها عَقِبَ طَلَبِه، حتى كأنَّها مِن هَيِّناتِ الأمورِ التي تُغفَرُ ببادرةٍ مِن النَّدَم! ومِن ثمَّ تلبَّثَ في الاستغفارِ لهم إلى أجَلٍ، لِيُعلِمَهم عظيمَ جُرمِهم، ويُعلِمَهم بأنَّه سوف يتوجَّهُ إلى ربِّه، ويطلُبَ لهم الغُفرانَ منه بفَضلِه ورَحمتِه.

الرابع: أنَّ حالَ يوسُفَ معهم كان حالَ القادِرِ، بل المالِكِ القاهِرِ، مع مُسيءٍ ضَعيفٍ لديه، عظُمَ جُرمُه عليه، فلم يشَأْ أن يكونَ الغُفرانُ بشَفاعتِه ودُعائِه، فآمَنَهم مِن خَوفِ الانتقام؛ تعجيلًا للسُّرورِ بالنِّعمةِ الجديدةِ التي جعل اللهُ أمْرَها بين يَدَيه، ولِيَرَوا ويرى النَّاسُ فَضلَ العَفوِ عند القُدرةِ، ولِيَكونَ لهم في ذلك أحسَنُ الأُسوةِ، وفي هذا مِن ضُروبِ التَّربيةِ أكبَرُ العِظَةِ، ولو أخَّرَ المَغفِرةَ لكانوا في وجَلٍ ممَّا سيحُلُّ بهم، ولَخافوا شَرَّ الانتقام، فكانوا في قلقٍ دائم، وتبلبُلِ بالٍ، واضطِرابِ نفسٍ، فكانَ توجُّسُهم له عذابًا فوقَ العذابِ الذي هم فيه، ولكِنْ شاءَت رحمتُه بهم أن يجعَلَ السُّرورَ عامًّا، والحياةَ الجديدةَ حافِلةً بالاطمِئنانِ، وقُرَّةِ العينِ، وهكذا شاء اللهُ أن يكونَ ذلك، وهو العليمُ الحكيمُ). ((تفسير المراغي)) (١٣/ ٤٠) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٢).

للتَّأْكيدِ، وفائدةُ التَّأْكيدِ في هذه الآيةِ تَحقيقُ هذه الكَرامَةِ الحاصِلةِ ليعقوبَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّها خارِقُ عادةٍ؛ ولذلك لم يُؤْتَ بـ (أنْ) في نظائرِ هذه الآيةِ ممَّا لم يَكُنْ فيه داعٍ للتَّأكيدِ[١]؛ ففيه مُناسَبةٌ حَسَنَةٌ مِن هذا الوجْهِ.

وقيل: إنَّه قال هنا: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ وفي سورةِ (العنكبوتِ) آخِرًا قال: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ بذِكْرِ (أنْ)، وقال في (هودٍ): ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾، وفي (العنكبوتِ) أوَّلًا قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بحَذْفِ (أنْ)؛ للتَّنبيهِ على جوازِ الأمْرينِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ فيه الاقتِصارُ على استِدْعاءِ الاستغفارِ، وعدَمِ طَلَبِ صَفْحِ أبيهم عنهم، ومِنْ حقِّ مَنِ اعترَفَ بذَنْبِه أنْ يُصْفَحَ عنه، ويُسْتَغْفَرَ له؛ فكأنَّهم كانوا على ثِقَةٍ مِن عَفوِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ ولذلك اقتَصَروا على استدْعاءِ الاستغفارِ، وأدْرَجوا ذلك في الاستغفارِ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ فيه التَّعبيرُ عن عِدَتِه لهم بالاستغفارِ بـ (سَوْفَ)، وهي أبلَغُ في التَّنفيسِ مِن السِّينِ[٤]، وإنَّما وعَدَهم بالاستغفارِ في الْمُستقبَلِ؛ للدَّلالةِ على أنَّه يُلازِمُ الاستغفارَ لهم في أزمِنةِ المستقبَلِ، ويُعْلَمُ منه أنَّه استغفرَ لهم في الحالِ بدَلالةِ الفَحْوى، ولكنَّه أرادَ أنْ يُنَبِّهَهم إلى عِظَمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٧).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢٥).

الذَّنْبِ وعَظَمَةِ اللَّهِ تعالى، وأنَّه سيُكَرِّرُ الاستغفارَ لهم في أزمِنةٍ مُستقبَلةٍ[١].

وقيل: إنَّ يَعقوبَ أخَّرَ الدُّعاءَ والاستغفارَ لهم إلى وقْتِ السَّحَرِ؛ لأنَّه أشرَفُ الأوقاتِ، وهو الوقْتُ الَّذي يقولُ اللَّهُ فيه: هلْ مِن داعٍ، فأستجيبَ له[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في موضِعِ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾، وفيه التَّأكيدُ بضَميرِ الفصْلِ (هو)؛ لِتَقْويةِ الخبَرِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٥٥) ونسَبه إلى أكثرِ المفسِّرين. ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٤).

الآيات (٩٩- ١٠١)

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿ٱلْعَرْشِ﴾: أي: سريرِ الملِكِ، أو سريرِ المملَكةِ، وأصلُ (عرش): يدلُّ على ارتفاعٍ في شيءٍ مبْنِيٍّ، أو شيءٍ مُسقَّفٍ[١].

﴿وَخَرُّوا۟﴾: الخُرورُ والخَرُّ: السُّقوطُ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى الأرضِ، وخرَّ: سقَط على وَجهِه، وأصلُ (خَرَّ): هو اضْطِرابٌ، وسُقوطٌ معَ صوتٍ[٢].

﴿ٱلْبَدْوِ﴾: أي: الباديةِ، وهي كلُّ مكانٍ يبدو ما يَعِنُّ فيه، أي: يعرِضُ، أو خلافُ الحضَرِ، وأصلُ (بدو): هو ظُهورُ الشَّيءِ[٣].

﴿نَّزَغَ﴾: أي: أفسَدَ وأغْرى، وحمَلَ بعضَنا على بعضٍ، وأصلُ (نزغ): يدلُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١).

على إفسادٍ بين اثنينِ[(١)].

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: خالِقَهما ومُبدِعَهما ومُبتدئَهما، وأصلُ (فطر): الشَّقُّ طولًا، ويدلُّ على فتْحِ شيءٍ، وإبرازِه[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: فلَمَّا دخَلَ يعقوبُ وأهلُه على يوسُفَ ضمَّ إليه أبويْه، وقال لجميعِ أهلِه: ادخُلوا مصرَ آمنينَ إنْ شاءَ اللَّهُ، وأجلَسَ أباه وأمَّه على العَرشِ الَّذي يجلِسُ عليه، وخرَّ الجميعُ له سُجودًا؛ تحيةً وتعظيمًا ليوسُفَ، وقال لأبيه: يا أبتِ هذا السُّجودُ منكم لي هو تَفسيرُ رُؤْيايَ الَّتي رأيتُها في صِغَري، قد حقَّقَها ربِّي، وقد أحسَنَ بي جلَّ وعلا حين أخرَجني مِن السِّجنِ، وجاء بكم مِن الباديةِ مِن بَعدِ أنْ أفسَدَ الشَّيطانُ بَيني وبين إخوتي؛ إنَّ ربِّي لطيفٌ لِمَا يُريدُه، إنَّه هو العليمُ الحَكيمُ.

وقال يوسُفُ داعيًا ربَّه: ربِّي قد آتيتَني مِن مُلْكِ مصرَ، وعلَّمتَني مِن تَعبيرِ الرُّؤى، ومِن عُلومِ الكُتُبِ المُنزَّلةِ، وسُنَنِ الأنبياءِ، يا خالقَ السَّمواتِ والأرضِ، أنت ناصِري ومُتولِّي أُموري في الدُّنيا والآخِرَةِ، تَوفَّني وأنا على الإسلامِ، وألْحِقْني في الثَّوابِ والدَّرجاتِ بالصَّالِحين.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠).

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾.

أي: فرحَلَ يعقوبُ بأهلِه جميعًا إلى مصرَ، فلَمَّا دخَلوا على يوسُفَ ضمَّ يوسُفُ إليه أبويْه، واختصَّهما بقُربِه[1].

﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

أي: وقال يوسُفُ لجميعِ أهلِه: ادخُلوا مِصرَ آمنينَ- إنْ شاءَ اللَّهُ- مِن المَكارِه والمَخاوِفِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

قال ابنُ الجوزيِّ: (في قولِه تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ قولانِ: أحدُهما: أبوه وخالتُه؛ لأنَّ أمَّه كانت قد ماتتْ؛ قاله ابنُ عبَّاسٍ والجمهورُ. والثَّاني: أبوه وأمُّه؛ قاله الحسنُ وابنُ إسحاقَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٧٣).

قال ابنُ جريرٍ: (وأولى القَولينِ في ذلك بالصَّوابِ ما قاله ابنُ إسحاقَ؛ لأنَّ ذلك هو الأغلبُ في استِعمالِ النَّاسِ والمُتعارَفُ بينهم في «أبوين»، إلَّا أنْ يصِحَّ ما يُقال مِن أنَّ أمَّ يُوسفَ كانت قد ماتت قبل ذلك بحُجَّةٍ يجِبُ التَّسليمُ لها، فيُسَلَّمُ حينئذٍ لها). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٥٢).

قال ابنُ كثيرٍ بعد ذكرِه قولَ ابنِ جريرٍ: (وهذا الَّذي نصَرَه هو المنصورُ الَّذي يدلُّ عليه السِّياقُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١١، ٤١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

قال الشَّوكانيُّ: (ظاهِرُ النَّظمِ القُرآنيِّ: أنَّ يُوسفَ قال لهم هذه المَقالةَ -أي: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾- قبلَ دُخولِهم، وقد قيل في توجيهِ ذلك: إنَّه تلقَّاهم إلى خارجِ مصرَ، فوقَفَ مُنتظِرًا لهم في مكانٍ أو خيمةٍ، فدخلوا عليه فـ ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾، فلمَّا دخلوا مصرَ، ودخلوا عليه دخولًا آخَرَ في المكانِ الَّذي له بمصرَ ﴿رَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٦٧)، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤٩).

وقيل: المُرادُ بدُخولِ مصرَ: السَّكنُ والاستقرارُ فيها، وممَّن ذهَبَ إلى هذا المعنى: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١١).

وقيل: إنَّ في هذا التركيبِ ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ معنَى الدُّعاءِ، فكأنه قيل:

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾.

أي: وأجلَسَ يوسُفُ أباه وأمَّه على السَّريرِ الَّذي يجلِسُ عليه[1].

﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾.

أي: وخرَّ أبو يوسُفَ وأمُّه وإخوتُه الأَحدَ عشَرَ ساجِدينَ لِيوسُفَ؛ تَحيةً له وتعظيمًا[2].

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾.

اسْلَموا وأْمَنوا في دخولِكم إن شاء الله، والتقديرُ: ادخُلوا مصرَ آمِنينَ، إن شاء الله دخَلْتُم آمِنينَ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٤٩)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

قال القُرطبيُّ: (أجمَعَ المُفسِّرون أنَّ ذلك السُّجودَ على أيِّ وجهٍ كان، فإنَّما كان تحيَّةً لا عِبادةً). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقد كان هذا سائغًا في شَرائعِهم؛ إذا سلَّموا على الكبيرِ يَسجُدونَ له، ولم يزَلْ هذا جائزًا مِن لدُنْ آدمَ إلى شريعةِ عيسى عليه السَّلامُ، فحُرِّمَ هذا في هذه المِلَّةِ، وجُعِلَ السُّجودُ مُختصًّا بجَنابِ الرَّبِّ سبحانه وتعالى؛ هذا مضمونُ قولِ قتادةَ وغيرِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٢).

وقال ابنُ عاشورٍ: (كان السُّجودُ تَحيةَ المُلوكِ وأضرابِهم، ولم يكُنْ يومئذٍ ممنوعًا في الشَّرائعِ، وإنَّما منَعَه الإسلامُ لغيرِ اللَّهِ؛ تحقيقًا لمعنى مُساواةِ النَّاسِ في العُبوديَّةِ والمَخلوقيَّةِ؛ ولذلك فلا يُعَدُّ قَبولُه السُّجودَ مِن أبيه عُقوقًا؛ لأنَّه لا غَضاضةَ عليهما منه؛ إذ هو عادَتُهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٦)، ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٧٧).

أي: وقال يوسُفُ لأبيه يعقوبَ: يا أبتِ هذا السُّجودُ منكم هو ما آلَتْ إليه رُؤْيايَ الَّتي رأيْتُها في مَنامي مِن قبلُ- وذلك حينَ رأى أنَّ الشَّمسَ والقمَرَ وأحدَ عشَرَ كوكبًا له ساجِدينَ- قد حقَّقَ ربِّي وُقوعَها، وجعَلَها صادِقةً[١].

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾.

أي: وقد أحسَنَ ربِّي[٢] إليَّ حينَ أخرَجَني مِن السِّجنِ، وجاءَ بكم مِن بادِيةِ الشَّامِ[٣] إلى حاضِرةِ مصرَ[٤].

﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾.

أي: مِن بعدِ أنْ دخَلَ الشَّيطانُ بيني وبين إخوتي، فأفسَدَ ما بَيننا بالحسَدِ، وأغْرى بعضَنا ببعضٍ[٥].

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾.

أي: إنَّ ربِّي لطيفٌ لِما يُريدُه بعِبادِه مِن البِرِّ والرَّحمةِ؛ فيُيسِّرُ لهم الخيرَ بطُرُقٍ خفيَّةٍ دقيقةٍ، مِن حيثُ لا يَعلمونَ، ولا يَحتسِبونَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

(٢) قال ابنُ عاشورٍ: (معنى ﴿أَحْسَنَ بِيٓ﴾ أحسَنَ إليَّ؛ يقال: أحسَنَ به، وأحسَنَ إليه، مِن غيرِ تضمينِ معنى فعْلٍ آخَرَ. وقيل: هو بتَضمينِ «أحسَنَ» معنى «لطَفَ». و(باءُ) ﴿بِيٓ﴾ للمُلابسةِ، أي: جعَلَ إحسانَه مُلابِسًا لي). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٧).

(٣) قال ابنُ جريرٍ: (مَسكنُ يعقوبَ وولدِه- فيما ذُكِرَ- كان ببادِيةِ فلسطينَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٦٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦٧)، ((شفاء العليل))

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللَّهَ هو العَليمُ بمصالِحِ خَلْقِه وغيرِ ذلك، لا يَخْفَى عليه ظواهِرُ الأمورِ وبواطنُها، ولا مَبادئُها وعَواقبُها، الحكيمُ في أفعالِه وأقوالِه وتَدبيرِه؛ فيضَعُ كلَّ شيءٍ في موضِعِه اللَّائقِ به، ويَسوقُ الأمورَ إلى أوقاتِها المُقدَّرةِ لها[1].

﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا جمَعَ اللَّهُ شمْلَ يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، علِمَ أنَّ نعيمَ الدُّنيا لا يَدومُ، فسأَلَ اللَّهَ حُسْنَ العاقِبةِ[2].

وأيضًا أنَّه لَمَّا أتمَّ اللَّهُ لِيوسُفَ ما أتمَّ مِن التَّمكينِ في الأرضِ والمُلْكِ، وأقرَّ عينَه بأبويْه وإخوتِه، وبعدَ العِلْمِ العَظيمِ الَّذي أعطاه اللَّهُ إيَّاه؛ قال مُقرًّا بنِعمةِ اللَّهِ، شاكرًا لها، داعيًا بالثَّباتِ على الإسلامِ[3]، فقال:

﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾.

أي: قال يوسُفُ: يا ربِّ، قد آتيتَني مِن[4] مُلْكِ مصرَ بالتَّصرُّفِ في شُؤونِ

لابن القيم (ص: ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦).

(٤) ممَّن ذهَبَ إلى أنَّ ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾، وفي قولِه سبحانه: ﴿مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ للتَّبعيضِ: الزَّمخشريُّ، والرَّازيُّ، والقُرطبيُّ، والبيضاويُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠٧)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٧).

خَزائِنِها[(١)].

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

أي: وعلَّمتَني -يا ربِّ- مِن تَعبيرِ الرُّؤى، ومِن عُلومِ الكُتُبِ المُنزَّلةِ، وسُنَنِ الأنبياءِ[(٢)].

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

أي: يا خالِقَ السَّمواتِ والأرضِ، أنت ناصِري ومُتولِّي أُموري في الدُّنيا وفي الآخرةِ[(٣)].

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: اقبِضْني إليك -يا ربِّ- إذا جاء أَجَلي وأنا ثابِتٌ على الإسلامِ، وألْحِقْني

قال الخازِنُ: (﴿مِن﴾ هنا للتَّبعيضِ؛ لأنَّه لم يُؤْتَ مُلْكَ مصرَ كلَّه، بل كان فوقَه مِلِكٌ آخَرُ، والمُلْكُ عِبارةٌ عنِ الاتِّساعِ في المَقدورِ لِمَن له السِّياسةُ والتَّدبيرُ). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٥٨).

وقال أبو حيَّان: (و«من» في قَوْلِهِ ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾، وفي ﴿مِن تَأْوِيلِ﴾ للتَّبعيضِ؛ لأنَّه لم يُؤْتِه إلَّا بعضَ مُلْكِ الدُّنيا، ولا علَّمه إلَّا بعضَ التَّأويلِ. ويبعُدُ قولُ مَن جعَلَ «مِن» زائدةً، أو جعَلَها لِبَيانِ الجنسِ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢٩).

وقال الزَّجَّاجُ: (فيها قولانِ، أعني في دُخولِ «مِن»: جائزٌ أنْ يكون أراد: علَّمتَني بعضَ التَّأويلِ، وآتيتَني بعضَ المُلْكِ، وجائزٌ أنْ يكون دُخولُ «مِن»؛ لِتُبيِّنَ هذا الجِنسَ مِن سائرِ الأجناسِ، ويكونَ المعنى: ربِّ فد آتيتَني المُلْكَ، وعلَّمتَني تأويلَ الأحاديثِ، مثلُ قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، يدلُّ على أنَّ «مِن» هاهنا إنَّما هي لِتَبْيينِ الجنسِ، ومثلُه قولُه: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، ولم يُؤْمَروا باجتنابِ بعضِ الأوثانِ، ولكنِ المعنى: واجتَنِبوا الرِّجسَ الَّذي هو الأوثانُ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ١٢٩). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٧).

في الثَّوابِ والدَّرجاتِ بالصَّالِحين مِن آبائي؛ إبراهيمَ وإسحاقَ وغيرِهما مِن الأنبياءِ والمُرسَلينَ[١].

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- قال يوسُفُ عليه السلامُ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ لم يقُلْ: (أخرَجَني مِن الجُبِّ)؛ حفْظًا للأدبِ مع إخوتِه، وتَفَتِّيًا[٢] عليهم ألَّا يُخْجِلَهم بما جَرى في الجُبِّ، وقال: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ ولم يقُلْ: جاءَ بكم مِن الجوعِ والنَّصبِ، أو: رفَعَ عنكم جُهْدَ الجُوعِ والحاجةِ؛ أدبًا معهم، وأضافَ ما جَرى إلى السَّببِ ولم يُضِفْه إلى المُباشِرِ الَّذي هو أقرَبُ إليه منه، فقال: ﴿نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ ولم يقُلْ: (نزَغَ الشَّيطانُ إخوتي)، بل كأنَّ الذَّنْبَ والجهْلَ صدَرَ مِن الطَّرفينِ؛ فأعْطى الفُتُوَّةَ والكرَمَ والأدبَ حَقَّه؛ ولهذا لم يكُنْ كَمالُ هذا الخُلُقِ إلَّا للرُّسلِ والأنبياءِ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليهم[٣].

٢- قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ مِن لُطْفِ يوسُفَ وحُسْنِ خِطابِه عليه السَّلامُ؛ حيثُ قال: (إنَّ إتيانَكم مِن الباديةِ مِن إحسانِ اللَّهِ إليَّ)، فلم يقُلْ: (أحسَنَ بكم)، بل قال: ﴿أَحْسَنَ بِيٓ﴾؛ فجعَلَ الإحسانَ عائدًا إليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٠).

قال القُرطبيُّ: (قيل: إنَّ يُوسفَ لم يتمَنَّ الموتَ، وإنَّما تمَنَّى الوفاةَ على الإسلامِ، أي: إذا جاء أجلي تَوفَّني مُسلمًا، وهذا قولُ الجُمهورِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦٩).

(٢) الفتَى: السخيُّ الكريمُ، يُقال: هو فتًى بيِّنُ الفُتوَّةِ. وقد تَفَتَّى وتَفاتى، والفُتُوَّةُ: الكرمُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٤٥٢)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ١٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

٣- في قولِ يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي على العبدِ أن يتذكَّرَ في حالِ الرَّخاءِ والسُّرورِ حالةَ الحُزنِ والشِّدَّةِ؛ ليزدادَ شُكرُه وثناؤُه على اللهِ(١).

٤- قولُ يوسفَ عليه السلامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالَى يُوصِلُ بِرَّه وإحسانَه إلى العبدِ من حيث لا يَشعُرُ، ويُوصِلُه إلى المَنازلِ الرَّفيعةِ مِن أمورٍ يكرَهُها(٢).

٥- قولُ يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فيه أنَّه ينْبَغي للعبدِ أنْ يَتملَّقَ إلى اللَّهِ دائمًا في تَثبيتِ إيمانِه، ويَعمَلَ الأسبابَ الموجِبةَ لذلك، ويسأَلَ اللَّهَ حُسْنَ الخاتِمةِ، وتَمامَ النِّعمةِ(٣).

٦- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ مَن أرادَ الدُّعاءَ فلا بُدَّ أنْ يُقدِّمَ عليه ذِكْرَ الثَّناءِ على اللَّهِ؛ فهاهنا يوسُفُ عليه السَّلامُ لَمَّا أرادَ أنْ يذكُرَ الدُّعاءَ، قدَّمَ عليه الثَّناءَ، ثمَّ ذكَرَ عُقَيْبَه الدُّعاءَ(٤).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللَّهُ تعالى حِكايةً عن يوسُفَ: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ خَصَّ مِن إحسانِ اللَّهِ إليه إحْسانَينِ؛ هما: يومَ أخرَجَه مِن السِّجنِ، ومَجيءَ عَشيرتِه مِن الباديةِ؛ فإنَّ (إذْ) ظرْفُ زمانٍ لفعْلِ ﴿أَحۡسَنَ﴾؛

(١) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥١٥، ٥١٦).

فهي بإضافتِها إلى ذلك الفعْلِ اقتَضَت وُقوعَ إحسانٍ غيرِ معدودٍ؛ فإنَّ ذلك الوقتَ كان زمَنَ ثُبوتِ بَراءتِه مِن الإثمِ الَّذي رمَتْه به امرأةُ العزيزِ، وتلك مِنَّةٌ، وزمَنَ خَلاصِه مِن السِّجنِ؛ فإنَّ السِّجنَ عذابُ النَّفْسِ بالانفصالِ عنِ الأصدقاءِ والأحِبَّةِ، وبخِلْطَةِ مَن لا يُشاكِلونه، وبشُغْلِه عن خُلْوَةِ نفْسِه بتلقِّي الآدابِ الإلهيَّةِ، وكان أيضًا زمَنَ إقبالِ الملِكِ عليه. وأمَّا مجيءُ أهلِه فزوالُ ألَمٍ نفْسانيٍّ بوَحشتِه في الانفرادِ عن قَرابتِه، وشوقِه إلى لقائِهم؛ فأفصَحَ بذكْرِ خُروجِه مِن السِّجنِ ومجيءِ أهلِه مِن البدْوِ إلى حيثُ هو مَكينٌ قويٌّ[1].

٢- قَولُه: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ يُستدَلُّ به على أنَّ الانتقالَ من البدوِ نِعمةٌ، وذلك لِما يلحقُ أهلَ الباديةِ مِن الجَفاءِ، والبُعدِ عن مواردِ العُلومِ، وعن رَفاهةِ المدنيَّة، ولُطفِ المُعاشرة، والكمالاتِ الإنسانيَّة[2].

٣- قولُه: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ لم يَذكُرْ يوسُفُ عليه السَّلامُ إخراجَه مِن البئْرِ؛ لوُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّه قال لإخوتِه: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ ولو ذَكَرَ واقِعةَ البئْرِ لكان ذلك تَثريبًا لهم؛ فكان إهمالُه جاريًا مَجْرى الكرَمِ.

الثَّاني: أنَّه لَمَّا خرَجَ مِن البئْرِ لم يَصِرْ ملِكًا بل صيَّروه عبدًا، أمَّا لَمَّا خرَجَ مِن السِّجنِ صيَّروه ملِكًا؛ فكان هذا الإخراجُ أقرَبَ مِن أنْ يكونَ إنعامًا كاملًا.

الثَّالثُ: أنَّه لَمَّا أُخْرِجَ مِن البئْرِ وقَعَ في المضارِّ الحاصِلةِ بسبَبِ تُهمةِ المرأةِ، ولَمَّا أُخْرِجَ مِن السِّجنِ وصَلَ إلى أبيه وإخوتِه، وزالَتِ التُّهمةُ؛ فكان هذا أقرَبَ إلى المَنْفعةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥١٢).

الرابع: أنَّ مُصيبةَ السِّجنِ كانتْ عند يوسُفَ أعظَمَ؛ لطولِ مُدَّتِها، ولمُصاحَبَتِه الأوباشَ وأعداءَ الدِّينِ فيه، بخِلافِ مُصيبةِ الجُبِّ؛ لقِصَرِ مُدَّتِها[١].

الخامس: لأنَّ السِّجْنَ كان باخْتيارِه، فكانَ الخُروجُ منه أعْظمَ بخلافِ الجُبِّ[٢].

٤- قولُه: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ فِعْلَ العبدِ خلْقُ اللَّهِ تعالى؛ لأنَّه أضافَ إخراجَه مِن السِّجنِ إلى اللَّهِ تعالى، ومجيئَهم مِن البدْوِ إليه[٣].

٥- قال يوسُفُ الصِّدِّيقُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فأخبرَ أنَّه تعالى يلطُفُ لِما يُريدُه؛ فيأْتي به بطُرُقٍ خَفِيَّةٍ لا يعلَمُها النَّاسُ، واسمُه جلَّ وعلا (اللَّطيفُ) يتضمَّنُ عِلْمَه بالأشياءِ الدَّقيقةِ، وإيصالَه الرَّحمةَ بالطُّرقِ الخَفِيَّةِ؛ فكان ظاهِرُ ما امتحَنَ به يوسُفَ مِن مُفارقةِ أبيه وإلقائِه في السِّجنِ، وبيعِه رقيقًا، ثمَّ مُراودةِ الَّتي هو في بيتِها عن نَفْسِه، وكذِبِها عليه وسَجْنِه- مِحَنًا ومصائبَ، وباطِنُها نِعَمًا وفتْحًا، جعَلَها اللَّهُ سببًا لِسعادتِه في الدُّنيا والآخرةِ[٤].

٦- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال يوسُفُ عليه السَّلامُ ذلك، مع عِلْمِه بأنَّ كلَّ نبيٍّ لا يموتُ إلَّا مُسلمًا؟

الجوابُ: قاله إظهارًا للعُبوديَّةِ والافتقارِ، وشِدَّةِ الرَّغبةِ في طلَبِ سعادةِ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٣).
(٢) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٣٨).
(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٤).

الخاتِمةِ، وتَعليمًا للأُمَّةِ، وطلبًا للثَّوابِ[١]. وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه إنَّما قال يوسُفُ ذلك؛ لأنَّ كَمالَ حالِ المُسلمِ أنْ يَستسلِمَ لحُكمِ اللَّهِ تعالى على وجْهٍ يستقِرُّ قلْبُه على ذلك الإسلامِ، ويَرْضَى بقضاءِ اللَّهِ وقدَرِه، ويكونَ مُطمئِنَّ النَّفْسِ، مُنشرِحَ الصَّدرِ، مُنفسِحَ القلْبِ في هذا البابِ، وهذه الحالةُ زائدةٌ على الإسلامِ الَّذي هو ضِدُّ الكُفْرِ؛ فالمطلوبُ هاهنا هو الإسلامُ بهذا المعنى[٢].

٧- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ كان مِن أكابِرِ الأنبياءِ، والصَّلاحُ أوَّلُ دَرجاتِ المُؤمنينَ؛ فالواصِلُ إلى الغايةِ كيف يَليقُ به أنْ يطلُبَ البِدايةَ؟

والجوابُ: قال ابنُ عبَّاسٍ رضِيَ اللَّه عنهما وغيرُه مِن المُفسِّرين: يعني بآبائِه إبراهيمَ، وإسماعيلَ، وإسحاقَ، ويَعقوبَ، والمعنى: ألحِقْني بهم في ثَوابِهم ومَراتِبِهم ودَرجاتِهم[٣].

٨- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جمَعَت هذه الدَّعوةُ: الإقرارَ بالتَّوحيدِ، والاستسلامَ للرَّبِّ، وإظهارَ الافتِقارِ إليه، والبَراءةَ مِن مُوالاةِ غيرِه سبحانه، وكونَ الوَفاةِ على الإسلامِ أجلَّ غاياتِ العبدِ، وأنَّ ذلك بِيَدِ اللَّهِ لا بِيَدِ العبْدِ، والاعترافَ بالمعادِ، وطلبَ مُرافقةِ السُّعداءِ[٤].

٩- قال ابنُ الجَوْزيِّ: (قرأْتُ سُورةَ يوسُفَ عليه السَّلامُ، فتعَجَّبْتُ مِن مَدْحِه عليه السَّلامُ على صَبْرِه، وشَرْحِ قِصَّتِه للنَّاسِ، ورَفْعِ قدْرِه بتَرْكِ ما تَرَك، فتأمَّلْتُ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٣، ٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥١٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٢٠١).

خَبِيئَةَ الأمْرِ فإذا هي مُخالفةٌ للْهَوى المَكْروهِ، فقلْتُ: واعَجَبًا! لو وافَقَ هَواهُ مَن كان يكونُ؟! ولَمَّا خالَفَه لقدْ صارَ أمرًا عَظيمًا؛ تُضْرَبُ الأمْثالُ بصَبْرِه، ويُفْتَخَرُ على الخلْقِ باجْتهادِه، وكلُّ ذلك قد كان بِصَبْرِ ساعةٍ، فيا له عِزًّا وفَخْرًا أنْ تَمْلِكَ نفْسَك ساعةَ الصَّبرِ عنِ المحْبوبِ وهو قريبٌ!)[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ فيه إيجازٌ، حيثُ طَوى ذِكْرَ سفَرِهم مِن بِلادِهم إلى دُخولِهم على يوسُفَ عليه السَّلامُ؛ إذ ليس فيه مِن العِبَرِ شيءٌ[٢].

- وإعادةُ اسمِ يوسُفَ عليه السَّلامُ؛ لأجْلِ بُعدِ المَعادِ[٣].

- وقولُه: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ جُملةٌ دُعائيَّةٌ بقَرينةِ قولِه: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ لكونِهم قد دخلوا مصرَ حينئذٍ- وذلك على أحدِ الأوجُهِ في التفسيرِ- فالأمرُ في ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ للدُّعاءِ، وجُملةُ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مُعترِضةٌ بين جُملةِ ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ والحالِ مِن ضميرِها ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وفيها تأدُّبٌ مع اللَّهِ؛ كالاحتراسِ في الدُّعاءِ الواردِ بصِيغةِ الأمْرِ، وهو لمُجرَّدِ التَّيمُّنِ؛ فوُقوعُه في الوعْدِ والعزْمِ والدُّعاءِ بمَنزلةِ وُقوعِ التَّسميةِ في أوَّلِ الكلامِ، وليس هو مِن الاستثناءِ الواردِ النَّهْيُ عنه في الحديثِ: ((ألَّا يقولَ: اغفِرْ لي إنْ شئْتَ؛ فإنَّه لا مُكْرِهَ له))[٤]؛ لأنَّ ذلك في الدُّعاءِ المُخاطَبِ به اللَّهُ صَراحةً[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا

(١) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٥، ٥٦).

تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

- قولُه: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ فيه تقديمُ الرَّفعِ لفظًا على الخُرورِ مع أنَّ الرَّفعَ مُؤَخَّرٌ عن الخُرورِ- وإنْ قُدِّم لفظًا- ؛ للاهتمامِ بتَعْظيمِه لهما[(١)].

- قولُه: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ ذِكْرُ ﴿مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ فيه إظهارٌ لتَمامِ النِّعمةِ؛ لأنَّ انتقالَ أهلِ الباديةِ إلى المدينةِ ارْتقاءٌ في الحضارةِ[(٢)].

- قولُه: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ﴾ فيه إسنادُ النَّزْغِ إلى الشَّيطانِ؛ لأنَّه المُوَسْوِسُ، كما قال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾، وذكَرَ هذا القَدْرَ مِن أمْرِ إخوتِه؛ لأنَّ النِّعمةَ إذا جاءتْ إِثْرَ شِدَّةٍ وبلاءٍ كانتْ أحسنَ مَوقِعًا[(٣)]، وهذا مِن مُبالَغتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الإحسانِ؛ حيثُ أسنَدَ ذلك إلى الشَّيطانِ[(٤)]. وقد أشارَ إلى مَصائبِه السَّابقةِ مِن الإبقاءِ في الجُبِّ ومُشاهدةِ مَكْرِ إخوتِه به بقولِه: ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ﴾؛ فكلمةُ ﴿بَعْدِ ﴾ اقتَضَتْ أنَّ ذلك شيءٌ انقَضَى أثرُه، وقد أَلَمَّ به إجْمالًا؛ اقتصارًا على شُكْرِ النِّعمةِ، وإعراضًا عنِ التَّذكيرِ بتِلك الحوادثِ المُكَدِّرَةِ للصِّلةِ بينه وبين إخوتِه؛ فمرَّ بها مَرَّ الكِرامِ، وباعَدَها عنهم بقدْرِ الإمكانِ؛ إذ ناطَها بنَزْغِ الشَّيطانِ[(٥)].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ جُملةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا؛ لقصْدِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢٨، ٣٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٧).

الاهتمامِ بها، وتعليمِ مَضْمونِها[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ أيضًا، أو تعليلٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾، وحرْفُ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ، وتَوسيطُ ضَميرِ الفصْلِ (هو) للتَّقويةِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾

- قولُه: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ جعَلَ الَّذي أُوتِيَهُ بعضًا مِن المُلْكِ ومِن التَّأويلِ؛ لأنَّ ما أُوتِيَهُ بَعضٌ مِن جِنْسِ المُلْكِ، وبعضٌ مِن التَّأويلِ؛ إشعارًا بأنَّ ذلك في جانِبِ مُلْكِ اللَّهِ وفي جانِبِ عِلْمِه شيءٌ قليلٌ[٣]، وذلك بناءً على أنَّ (مِن) للتبعيضِ.

- قولُه: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نُصِبَ ﴿فَاطِرَ﴾ على أنَّه صِفَةٌ للمُنادى، أو مُنادًى آخرُ، وصَفَه تعالى به بعدَ وصْفِه بالرُّبوبيَّةِ؛ مُبالَغةً في تَرتيبِ مَبادِي ما يعقُبُه مِن قولِه: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾[٤].

- وجُملةُ ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ مِن قَبيلِ الخبَرِ في إنْشاءِ الدُّعاءِ، وإنْ أمْكَنَ حمْلُه على الإخبارِ بالنِّسبةِ لِولايةِ الدُّنيا، قيل: لإثباتِه ذلك الشَّيءَ لِولايةِ الآخِرةِ؛ فالمعنى: كُنْ وَلِيِّيَ في الدُّنيا والآخرةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٩).

الآيات (١٠٢- ١٠٧)

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غَٰشِيَةٞ﴾: أي: عُقوبةٌ تَغشاهم وتَشملُهم، وأصْلُ (غشي): يدلُّ على تغْطيةِ شيءٍ بشيءٍ[1].

﴿بَغۡتَةً﴾: أي: فجأَةً، وكلُّ ما جاءَ فجأةً فقد بَغَتَ، يقال: قد بَغَتَه الأمرُ يَبْغَتُه بغْتًا وبَغتةً، إذَا أتاه فجأةً، وأصْلُ (بغت): مُفاجأةُ الشَّيءِ مِن حيث لا يحتسِبُ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ذلك الَّذي قصَصْناه عليك- يا مُحمَّدُ- مِن أمْرِ يوسُفَ وغيرِه هو مِن أخبارِ الغَيبِ، نُوحيه إليك، وما كنتَ حاضرًا مع إخوةِ يوسُفَ إذِ اتَّفقوا على إلْقاءِ يوسُفَ في الجُبِّ، وهم يَمكرون.

وما أكثَرُ النَّاسِ ولو حرصْتَ على هِدايتِهم- يا مُحمَّدُ- بمُؤمنِينَ بما جئْتَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٩/ ١٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٢٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

به، وما تطلُبُ منهم مُقابِلَ دعوتِهم وتَبليغِ ما كُلِّفْتَ به أجرًا، إنَّ الَّذي أُرْسِلْتَ به مِن القُرآنِ ما هو إلَّا تذكِرَةٌ، وعِظَةٌ للعالَمين.

وكمْ مِن آيةٍ منتشِرَةٍ في السَّمواتِ والأرضِ دالَّةٍ على أنَّ اللَّهَ وحْدَه هو المُستحِقُّ للعِبادةِ، ومع ذلك يمُرُّ عليها النَّاسُ وهم مُعرِضون عنِ التَّفكُّرِ فيها، والاعتِبارِ بها، وما يُقِرُّ أكثرُهم بأنَّ اللَّهَ ربُّهم إلَّا وهم مُشرِكون به غيرَه في العِبادةِ. أفأمِنَ هؤلاءِ أنْ تأتِيَهم عُقوبةٌ مِن اللَّهِ تُحيطُ بهم؛ بسبَبِ شِرْكِهم، أو تأتِيَهم القيامةُ فجأَةً وهم لا يشْعُرون بمَجيئِها؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ ﴾.

أي: ذلك الَّذي قَصَصْنا في هذه السُّورةِ- مِن خبَرِ يوسُفَ وغيرِه ممَّا غاب عنك عِلْمُه- نُوحيه إليك- يا مُحمَّدُ- وَنُعْلِمُكَ به؛ لنُثبِّتَ به فؤادَك، ولتَصبِرَ على ما أصابَكَ[1].

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾.

أي: وما كنتَ حاضرًا- يا مُحمَّدُ- عند إخوةِ يوسُفَ حين اتَّفقَتْ آراؤُهم، وصحَّتْ عَزائمُهم على إلْقاءِ يوسُفَ في الجُبِّ، والحالُ أنَّهم يَمكُرون به في هذا الفعْلِ، ويبْغونَ له الغَوائلَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢١٨).

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ هذا انتِقالٌ مِن سَوْقِ هذه القِصَّةِ إلى العِبرةِ بتَصميمِ المُشركين على التَّكذيبِ بعدَ هذه الدَّلائلِ البيِّنةِ(١).

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ ﴾.

أي: وما أكثَرُ النَّاسِ(٢) - يا محمَّدُ- ولو حرصْتَ على هِدايتِهم بمُؤمنِينَ باللَّهِ، وبما جئْتَهم به مِن عِندِه سُبحانَه(٣).

كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ ﴾.

وقال ابنُ عاشورٍ: (ضمائرُ ﴿لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ عائدةٌ إلى كلِّ مَن صدَرَ منه ذلك في هذه القِصَّةِ، مِن الرِّجالِ والنِّساءِ على طريقةِ التَّغليبِ؛ يشمَلُ إخوةَ يُوسفَ عليه السَّلامُ، والسَّيارةَ، وامرأةَ العزيزِ، ونِسوتَها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٠).

وقال الشِّنقيطيُّ: (لم يُبيَّنْ هنا هذا الَّذي أجمعوا أمْرَهم عليه، ولم يُبيَّنْ هنا أيضًا المُرادُ بمكْرِهم، ولكنَّه بُيِّنَ في أوَّلِ هذه السُّورةِ الكريمةِ أنَّ الَّذي أجمَعوا أمْرَهم عليه هو جعْلُه في غَيابةِ الجُبِّ، وأنَّ مكْرَهم هو ما فعَلوه بأبيهم يعقوبَ وأخيهم يُوسفَ، وذلك في قولِه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥] إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢١٨). ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٢٤، ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦١).

(٢) قال الشَّوكانيُّ: (أي: وما أكثرُ النَّاسِ المُعاصرينَ لك -يا محمَّدُ- أو: ما أكثرُ النَّاسِ على العُموم، ولو حرَصْتَ على هِدايتِهم، وبالَغْتَ في ذلك، بمؤمنينَ باللَّهِ؛ لِتصميمِهم على الكُفْرِ الَّذي هو دِينُ آبائِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦).

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

أي: وما تطلُبُ منهم -يا محمَّدُ- على تَذكيرِهم بالقُرآنِ، ونُصْحِهم، ودَعوتِهم إلى الإيمانِ أُجْرةً[1].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ما القُرآنُ إلَّا عِظَةٌ وتذْكِرةٌ للعالَمينَ، يَتذكَّرون به، ويهتَدون[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

أي: وكمْ مِن علاماتٍ كثيرةٍ في السَّمواتِ والأرضِ دالَّةٍ على أنَّ اللَّه هو المستحِقُّ للعِبادةِ وحْدَه، يمُرُّ عليها النَّاسُ ويرَونَها، وهم عن التَّفكُّرِ فيها والاعتِبارِ بها مُعرِضون[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٣).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

أي: وما يُقِرُّ أكثَرُ النَّاسِ[(١)] بأنَّ اللَّهَ ربُّهم إلَّا وهم مُشرِكون به غيرَه في عِبادتِه[(٢)]!

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهما، قال: ((كان المُشرِكون يقولون: لبَّيكَ لا شَريكَ لك، قال: فيقولُ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: ويْلكُم، قدْ قدْ[(٣)]!!، فيقولونَ: إلَّا شَريكًا هو لك، تملِكُه وما ملَكَ؛ يقولونَ هذا وهم يَطوفونَ بالبيتِ))[(٤)]!

وعن مَعْقِلِ بنِ يَسارٍ، قال: ((انطلقْتُ مع أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضِيَ اللَّهُ عنه إلى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فقال: يا أبا بكرٍ، لَلشِّرْكُ فيكم أَخْفَى مِن دَبيبِ النَّمْلِ، فقال أبو بكرٍ: وهل الشِّرْكُ إلَّا مَن جعَلَ مع اللَّهِ إلهًا آخَرَ؟ فقال النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: والَّذي نفْسي بيَدِه، لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِن دَبيبِ النَّمْلِ! ألَا أدُلُّك على شيءٍ إذا قُلْتَه ذهَبَ عنك قليلُه وكثيرُه؟، قال: قل: اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ

---

(١) قال ابنُ جرير: (يقول تعالى ذكْرُه: وما يقِرُّ أكثرُ هؤلاءِ الَّذين وصَفَ عزَّ وجلَّ صِفَتَهم بقولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ باللَّهِ أنَّه خالِقُه ورازقُه وخالقُ كلِّ شيءٍ، إلَّا وهم به مشركونَ...). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧٢).
وقال الشِّنقيطيُّ: (قال ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ، ومُجاهدٌ، وعامرٌ الشَّعبيُّ، وأكثرُ المُفسِّرينَ: إنَّ معنى هذه الآيةِ: أنَّ أكثرَ النَّاسِ- وهم الكُفَّارُ- ما كانوا يُؤمنونَ باللَّهِ بتَوحيدِهم له في رُبوبيَّتِه إلَّا وهم مُشرِكون به غيرَه في عِبادتِه). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧٢)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢١٨).

(٣) قَدْ قَدْ: أي: كفاكم هذا الكلامُ، فاقتَصِروا عليه، ولا تَزيدُوا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٨/ ٩٠).

(٤) رواه مسلم (١١٨٥).

أنْ أُشْرِكَ بكَ وأنا أعلَمُ، وأستغفِرُكَ لِمَا لا أعلَمُ))[١].

وعن سَعد بنِ عُبَيدةَ، ((أنَّ ابنَ عمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما سمِعَ رجلًا يقولُ: لا والكَعبةِ، فقالَ ابنُ عمَرَ: لا يُحْلَفُ بغيرِ اللَّهِ؛ فإنِّي سمِعْتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: مَن حلِفَ بغيرِ اللَّهِ فقد كفَرَ، أو أشْرَكَ))[٢].

وعن مَحمودِ بنِ لبيدٍ رضِيَ اللَّهُ عنه، أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ أخوَفَ ما أخافُ عليكم الشِّرْكُ الأصغَرُ، قالوا: وما الشِّرْكُ الأصغَرُ يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: الرِّياءُ؛ يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لهم يومَ القيامةِ إذا جُزِيَ النَّاسُ بأَعمالِهم: اذْهَبوا إلى الَّذين كنتُم تُراؤونَ في الدُّنيا، فانْظُروا هل تجِدونَ عندهم جزاءً؟!))[٣].

﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧ ﴾.

﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في ((الأدب المفرد)) (٧١٦) واللفظ له، وأبو يعلى (٦٠)، وابن بطة في ((الإبانة الكبرى)) (٩٨٢).
قال ابنُ القيِّمِ في ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٤٢): مشهورٌ، وصحَّحَه الألبانيُّ في ((صحيح الأدب المفرد)) (٥٥١).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥) واللفظ له، وأحمد (٦٠٧٢).
حسَّنَه التِّرمذيُّ، وصحَّحَه على شرْطِ الشَّيخينِ الحاكمُ في ((المستدرك)) (٤/ ٣٣٠)، وصحَّحه ابنُ المُلقِّنِ في ((البدر المنير)) (٩/ ٤٥٨)، وابنُ بازٍ في ((مجموع الفتاوى)) (٣/ ١٤٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٥٣٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠) واللفظ له، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦٨٣١)، والبغوي في ((شرح السنة)) (٤١٣٥).
جوَّدَ إسنادَه المُنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٥٢)، ووثَّقَ رِجالَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٣/ ٣٦١)، وقال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (١/ ١٠٧): رِجالُه رِجالُ الصَّحيحِ.
وحسَّنَ إسنادَه ابنُ حجرٍ في ((بلوغ المرام)) (٤٤٠)، وصحَّحَ الحديثَ ابنُ بازٍ في ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٢٩)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (١٥٥٥).

أي: أفأمِنَ أولئك الَّذين لا يُؤمِنونَ باللَّهِ إلَّا وهم مُشرِكون أنْ تأتِيَهم عُقوبةٌ مِن اللَّهِ تغْشاهم وتُحيطُ بهم؛ بسبَبِ شِرْكِهم باللَّهِ[(١)]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧- ٩٩].

وقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥- ٤٧].

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: أوْ أَمِنَ الَّذين لا يُؤمِنونَ باللَّهِ إلَّا وهم مُشرِكون أنْ تأتِيَهم القِيامةُ فجأَةً وهم لا يَدْرونَ بمَجيئِها؟! فلْيَتوبوا إلى اللَّهِ إذًا[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦].

وقال سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أشارَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٤).

تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ إلى صِحَّةِ نُبوَّةِ نبيِّنا صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه أَنْزَلَ عليه هذا القُرآنَ، وفصَّلَ له هذه القِصَّةَ، مع أنَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ لم يكُنْ حاضرًا لدَى أولادِ يعقوبَ حين أجْمَعوا أمْرَهم على المَكْرِ به، وجَعْلِه في غَيابةِ الجُبِّ، إلى غيرِ ذلك؛ فلولا أنَّ اللَّهَ أوْحَى إليه ذلك ما عرَفَه مِن تِلقاءِ نفْسِه. والآياتُ المُشيرةُ لإثباتِ رِسالتِه- بدَليلِ إخبارِه بالقِصَصِ الماضيةِ، الَّتي لا يمكِنُه علْمُ حَقائقِها إلَّا عن طريقِ الوحيِ- كثيرةٌ، كقولِه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]، وقولِه: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥]، وقولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ الآيةَ [القصص: ٤٦]، وقولِه: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٦٩- ٧٠]، وقولِه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ؛ فهذه الآياتُ مِن أوضَحِ الأدلَّةِ على أنَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ رَسولٌ كريمٌ، وإنْ كانتِ المُعجزاتُ الباهِرةُ الدَّالَّةُ على ذلك أكثَرَ مِن الحصْرِ[(١)].

٢- إنْ قيل: إنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أفاد تقييدَ إيمانِهم بكونِهم مشركينَ، وهو مشكلٌ لما بينَ الإيمانِ والشركِ مِن المنافاةِ.

فالجوابُ: أنَّ هذا الإيمانَ المُقيَّدَ بحالِ الشِّرْكِ إنَّما هو إيمانٌ لُغويٌّ لا شَرعيٌّ؛ لأنَّ مَن يعبُدُ مع اللَّهِ غيرَه لا يَصدُقُ عليه اسمُ الإيمانِ البتَّةَ شرعًا. أمَّا الإيمانُ اللُّغويُّ فهو يَشملُ كلَّ تصديقٍ؛ فتَصديقُ الكافرِ بأنَّ اللَّهَ هو الخالقُ الرَّازقُ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢١٨).

يَصدُقُ عليه اسمُ الإيمانِ لُغةً مع كُفْرِه باللَّهِ، ولا يَصدُقُ عليه اسمُ الإيمانِ شرعًا، وإذا حقَّقْتَ ذلك علِمْتَ أنَّ الإيمانَ اللُّغويَّ يُجامِعُ الشِّركَ؛ فلا إشكالَ في تَقييدِه به[١]، وقيل: وما يؤمِنُ أكثَرُهم بأنَّ اللَّهَ خالِقُه ورازقُه وخالِقُ كلِّ شيءٍ قولًا، إلَّا وهو مُشرِكٌ بعِبادةِ الأصنامِ فِعلًا. وقيل: إنَّ المُرادَ به المنافِقونَ؛ يُؤمِنونَ بألسنَتِهم قولًا، ويُشرِكون بقُلوبِهم اعتقادًا[٢].

٣- قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ سمَّاه اللَّهُ تعالى إيمانًا مع التَّقييدِ، وإلَّا فالمُشرِكُ الَّذي جعَلَ مع اللَّهِ إلهًا آخَرَ لا يَدخُلُ في مُسمَّى الإيمانِ عند الإطلاقِ[٣].

بَلاغةُ الآياتِ:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ في هذه الآيةِ ما يُسَمَّى في عِلْمِ البَيانِ بـ (الاحتجاجِ النَّظريِّ)، وبعضُهم يُسَمِّيه (المَذهبَ الكَلاميَّ)؛ وهو في الأساسِ مُصطلَحٌ جدَليٌّ[٤]، وهو أنْ يُلْزِمَ الخَصْمَ ما هو لازمٌ لهذا الاحتِجاجِ، وفيه هنا تَهَكُّمٌ مَريرٌ بقُريشٍ وبمَن كذَّبَ محمَّدًا صلَّى اللَّه عليه وسلَّم؛ لأنَّه لا يَخْفى على أحدٍ أنَّه لم يكُنْ مِن حَمَلَةِ هذا الحَديثِ وأشباهِه، ولا لَقِيَ فيها أحدًا ولا سمِعَ منه، ولم يكُنْ مِن عِلْمِ قومِه؛ فإذا أخبَرَ به وقصَّه هذا القَصَصَ البديعَ الَّذي أعجَزَ حَمَلَتَه ورُواتِه، لم تقَعْ شُبهةٌ في أنَّه ليس منه، وإنَّما هو مِن جِهَةِ القُرونِ الخاليةِ، ونحوُه ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٧٣).

(٤) وقد أطْلَق عليه الزركشيُّ «إلجام الخَصْمِ بالحُجَّة» وعرَّفَه بأنَّه: الاحتِجاجُ على المعنى المقصودِ بحُجَّةٍ عقليَّةٍ تَقطَعُ المعاندَ له فيه، وهو مِن أساليبِ القُرآن، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦٨- ٤٧٠).

ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]؛ فقولُه: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ هنا تَهَكُّمٌ بهم؛ لأنَّه قد عَلِمَ كلُّ أحدٍ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ما كان معهم[١].

- واسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِن نبأِ يوسُفَ عليه السَّلامُ؛ لتَمْييزِ الأنباءِ أكْمَلَ تمييزٍ؛ لِتتمكَّنَ مِن عُقولِ السَّامعينَ لِما فيها مِن المواعِظِ[٢].

- قولُه: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ عبَّرَ بصيغةِ المُضارعِ ﴿نُوحِيهِ﴾؛ تصويرًا لحالِ الإيحاءِ الشَّريفِ، وإشارةً إلى أنَّه لا يزالُ معه يكشِفُ له ما يُريدُ[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ تَذْكيرُ ضميرِ ﴿نُوحِيهِ﴾؛ لأجلِ مُراعاةِ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾[٤].

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ هذه الجُملةُ استخلاصٌ لمَواضِعِ العِبْرةِ مِن القِصَّةِ، وفيها مِنَّةٌ على النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، وتَعريضٌ للمُشركينَ بتَنْبيهِهم لإعجازِ القُرآنِ مِن الجانبِ العِلْميِّ؛ فإنَّ صُدورَ ذلك مِن النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم الأُمِّيِّ آيةٌ كُبْرَى على أنَّه وحيٌ مِن اللَّهِ تعالى؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾. وجُملةُ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ في موضِعِ الحالِ؛ إذ هي تَمامُ التَّعجُّبِ[٥].

- وليس المُرادُ بقولِه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ مُجَرَّدَ نَفْيِ حُضورِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في مَشْهَدِ إجماعِهم ومَكْرِهم فقط، بلْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٦١).

في سائرِ المَشاهِدِ أيضًا، وإنَّما تَخصيصُه بالذِّكْرِ هنا؛ لكونِه مَطْلَعَ القِصَّةِ، وأَخْفَى أحوالِها، كما يُنْبِئُ عنه قولُه: ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[١].

- قولُه: ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ عن مَكْرِهم بصِيغةِ المُضارعِ ﴿يَمْكُرُونَ﴾؛ لاستِحضارِ الحالةِ العَجيبةِ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

- قوله: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ اعتراضٌ، وهذه الآيةِ مِن الاعتراضِ الَّذي لا يأْتي في الكلامِ إلَّا لفائدةٍ، وهو جارٍ مَجرَى التَّوكيدِ، وفائدةُ هذا الاعتراضِ هنا أمْرانِ؛ أوَّلُهما: تصويرُ حِرْصِه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم على إيمانِ قَومِه وهدايتِهم، وتهالُكِه على رَدْعِهم عن غَيِّهم، وحَرْفِهم عن مَظانِّ الخطأِ، ومواطِنِ الضَّلالِ، واستهدافِه للأذَى في سبيلِ هذا الحِرْصِ، مع عِلْمِه بعدَمِ جَدْوى ذلك، واستِحالةِ إقلاعِهم عمَّا هم فيه. والثَّاني: تَصويرُ لَجاجَتِهم، وجُحودِ عَقليَّتِهم، وإصرارِهم على الغَيِّ الَّذي هم فيه شارِعونَ، وبه آخِذون، وعِنادِهم ومُكابَرَتِهم فيما لا تُجْدي معه الحُجَجُ والبَراهينُ الثَّابِتَةُ المُنيرةُ[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه قَصْرٌ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: ما هو إلَّا ذِكْرٌ للعالَمينَ، لا لِتحْصيلِ أجْرِ تَبْليغه[٤].

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ المقصودُ مِن هذا تَشْنيعُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦١).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦٢- ٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٢).

حالِهم، وهذا مِن قَبيلِ تأْكيدِ الشَّيءِ بِما يُشْبِهُ ضِدَّهُ على وجْهِ التَّهَكُّمِ[١].

٧- قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ... ﴾ اعتِراضٌ بالتَّفريعِ على ما دلَّتْ عليه الجُملتانِ قبْلَه مِن تفْظيعِ حالِهم، وجُرْأَتِهم على خالِقِهم، والاستِمرارِ على ذلك دون إقْلاعٍ، والاستفهامُ بقولِه: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ ﴾ استفهامُ إنكارٍ؛ فيه تَوبيخٌ وتَهْديدٌ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٣، ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٤).

الآيات (١٠٨- ١١١)

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿بَصِيرَةٍ﴾: أي: يقينٍ، والبصيرةُ كذلك: الحُجَّةُ والبَيانُ، وأصْلُ (بصر): وُضُوحُ الشَّيءِ[(١)].

﴿بَأْسُنَا﴾: أي: عذابُنا، وأصْلُ (بأس): الشِّدَّةُ وما ضاهاها[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩).

قال الشنقيطي: (والبصيرةُ أشهرُ معانِيها في لغةِ العربِ أنَّها تُطلقُ إطلاقينِ، يرجعُ إليهما غالبُ استعمالِ البصيرةِ في القرآنِ:

أحدُهما: أنَّ البصيرةَ هي الحُجَّةُ والدليلُ القاطعُ، وإنما قيل للدليلِ القاطعِ والحجةِ والبرهانِ: «بصيرةٌ»؛ لأنه يُنَوِّرُ البصيرةَ التي هي نورُ العقلِ، يُنَوِّرُها حتَّى ترَى الحقَّ حقًّا، والباطلَ باطلًا، والنافعَ نافعًا، والضارَّ ضارًّا، والحَسَنَ حَسَنًا، والقبيحَ قَبيحًا، ومِن إطلاقِ البصيرةِ على الدليلِ القاطعِ: قولُه جل وعلا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، أي: على عِلْمٍ ودليلٍ واضحٍ وبرهانٍ قاطعٍ لا يَتْرُكُ فِي الحقِّ لَبْسًا.

المعنَى الثاني للبصيرةِ: وهو الاستبصارُ، والعلمُ بالقلبِ بحقائقِ الأشياءِ). ((العذب النمير)) (٢/ ٦١) بتصرف.

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((تذكرة

﴿عِبْرَةٌ﴾: أي: اعتِبارٌ وموعظةٌ، والاعْتبارُ والعِبرةُ: الحالةُ التي يتوصَّلُ بها مِن معرفةِ المشاهَدِ إلى ما ليسَ بمشاهَدٍ، وأصلُ (العَبْرِ): تجاوزٌ مِن حالٍ إلى حالٍ[١].

﴿يُفْتَرَىٰ﴾: أي: يُكْذَبُ ويُخْتَلَقُ، والافتِراءُ: الاختِلاقُ، أو العظيمُ مِن الكذِبِ، وأصْلُه مِن (الفَرْيِ): وهو قطْعُ الشيء[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالَى: قلْ -يا محمَّدُ-: هذه طريقَتي؛ أدْعو إلى تَوحيدِ اللَّهِ تعالى على عِلْمٍ ويقينٍ منِّي بصحَّةِ ذلك، أنا ومَن اتَّبعَني، وأُنَزِّه اللَّهَ تعالى عن كلِّ نقْصٍ، وما أنا مِن المُشرِكين.

ثمَّ يُبَيِّنُ اللَّهُ تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الرُّسلَ الَّذين أرسَلَهم مِن قبْلِه ما كانوا إلَّا رجالًا يُوحِي إليهم، وهم مِن أهلِ المُدُنِ، وليسوا مِن أهلِ البَوادي. أفلَمْ يَسِرْ هؤلاء المُشرِكون في الأرضِ، فيَرَوا كيف كان إهلاكُ اللَّهِ للأُمَمِ الَّذين كذَّبوا الرُّسلَ مِن قبْلِهم، فيعتَبِروا؟! ولَدارُ الآخِرةِ خيرٌ مِن دارِ الدُّنيا للَّذين اتَّقَوا.

حتَّى إذا يَئِس الرسلُ، وظنوا أنهم أُخلِفوا فيما وعَدَهم اللَّهُ به مِن النَّصرِ، جاءَهم نصرُ اللَّهِ فجأَةً، فنجَّاهم وأتْباعَهم المُؤمنينَ، ولا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يرُدَّ عذابَه عزَّ وجلَّ عنِ القومِ المُجرِمين.

لقد كان في قَصَصِ يوسُفَ مع إخوتِه وقَصَصِ المُرسَلينَ مع أُمَمِهم عِظَةٌ

الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

لأهلِ العُقولِ السَّليمةِ، ما كان القُرآنُ وما فيه مِن القَصصِ حديثًا يُكذَبُ ويُختلَقُ، ولكنْ يُصدِّقُ ما سبَقَه مِن الكتُبِ المُنزَّلَةِ على أنبياءِ اللَّهِ، وهو تفصيلٌ لكلِّ ما يَحتاجُ العِبادُ إلى بَيانِه، وهدًى ورحمةٌ لقومٍ يُؤمِنون.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا وصَفَ اللَّهُ سبحانه لرَسولِه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ أكثَرَ النَّاسِ بما وصَفَ، مِن سُوءِ الطَّريقةِ للتَّقليدِ الَّذي منْشؤُه الإعراضُ عنِ الأدلَّةِ الموجِبةِ للعِلْمِ؛ أمَرَ أنْ يَذكُرَ طريقَ الخُلَّصِ، فقال[1]:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ: هذه طريقَتي؛ أدْعو إلى تَوحيدِ اللَّهِ على بيِّنةٍ وعِلْمٍ، ويَقينٍ منِّي بصحَّةِ ذلك مِن غيرِ شكٍّ، أنا وكلُّ مَن اتَّبَعَني كذلك ندْعو إلى عِبادةِ اللَّهِ وحْدَه على بيِّنةٍ وعلْمٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٢٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦).

قال ابنُ القيِّم: (قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ وسواءٌ كان المعنى: أنا ومَن اتَّبعني يَدعو إلى اللَّهِ على بصيرةٍ، أو كان الوقفُ عند قولِه: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، ثمَّ يبتدئُ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾؛ فالقولانِ مُتلازمانِ؛ فإنَّه أمَرَه سبحانه أنْ يخبِرَ أنَّ سبيلَه الدَّعوةُ إلى اللَّهِ، فمَن دعا إلى اللَّهِ تعالى فهو على سَبيلِ رسولِه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، وهو على بَصيرةٍ، وهو مِن أتباعِه، ومَن دعا إلى غيرِ ذلك فليس على سبيلِه، ولا هو على بصيرةٍ، ولا هو مِن أتباعِه؛ فالدَّعوةُ إلى اللَّهِ تعالى هي وظيفةُ المُرسَلينَ وأتْباعِهم، وهم خُلفاءُ الرُّسلِ

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: وقلْ -يا محمَّدُ- تَعظيمًا للَّهِ: أُنَزِّه اللَّهَ عن جَميعِ النقائصِ؛ كأنْ يكونَ له شريكٌ في المُلْكِ أو العِبادةِ، أو يكونَ له مثيلٌ أو ولَدٌ أو صاحبةٌ أو مُعِينٌ، وأتبرَّأُ مِن الَّذين يَعبُدون غيرَه، ولا أعبُدُ إلَّا اللَّهَ وحْدَه[1].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾.

أي: وما أرسَلْنا الأنبياءَ مِن قبْلِك -يا مُحمَّدُ- إلَّا رجالًا -لا مَلائكةً ولا نِساءً- نُوحِي إليهم أنْ يأْمُروا النَّاسَ بتوحيدي، وإفرادِ العِبادةِ لي، ويَدْعُوهم إلى طاعتِي، وهم مِن أهلِ المُدُنِ لا مِن أهلِ البَوادي[2].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

في أُمَمِهم، والنَّاسُ تبَعٌ لهم). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٤١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٤)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٢، ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦).

قال ابنُ تيميةَ: (حَكَى الإجماعَ على أنَّه لم يكُنْ في النِّساءِ نبيَّةٌ غيرُ واحدٍ؛ كالقاضي أبي بكرِ بنِ الطيبِ، والقاضي أبي يَعلَى، وأبي المعالي الجُوينيِّ، وخِلافُ ابنِ حزمٍ شاذٌّ مَسبوقٌ بالإجماعِ؛ فإنَّ دعواه أنَّ أمَّ موسى كانتْ نبيَّةً هي ومريمُ قولٌ لا يُعْرَفُ عن أحدٍ مِن السَّلفِ والأئمةِ). ((الصفدية)) (١/ ١٩٨).

وقال ابنُ كثيرٍ: (يخبِرُ تعالى أنَّه إنَّما أرسَلَ رُسلَه مِن الرِّجالِ لا مِن النِّساءِ. وهذا قولُ جُمهورِ العلماءِ، كما دلَّ عليه سِياقُ هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّ اللَّهَ تعالى لم يُوحِ إلى امرأةٍ مِن بناتِ بني آدمَ وَحْيَ تشريعٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٢).

أي: أفلم يَسِرْ هؤلاء المُشرِكون المُكذِّبون لك -يا محمَّدُ- في الأرضِ، فينْظُروا كيف أهلَكَ اللَّهُ الأُمَمَ الَّذين كذَّبوا رسلَهم مِن قبلِهم، فيَعتَبِروا[1]؟!

﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾.

أي: وكما أنْجَينا المُتَّقين في الدُّنيا عندَ نزولِ العُقوبةِ بالمُشرِكين والعُصاةِ، كذلك كتَبْنا لهم النَّجاةَ في الدَّارِ الآخِرةِ أيضًا، والجنَّةُ خَيرٌ لهم مِن الدُّنيا وأحسَنُ[2].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: أفلا تعقِلون حَقيقةَ ما أخبَرْناكم به في القُرآنِ مِن سُوءِ عاقِبةِ الكُفْرِ، وخيريَّةِ الدَّارِ الآخرةِ، فتُؤمِنوا باللَّهِ، وتتَّقوا الإشراكَ به[3]؟!

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).
قال ابن جرير: وقولُه: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ يقولُ تعالَى ذِكرُه: هذا فِعْلُنا في الدُّنيا بأهلِ ولايَتِنا وطاعَتِنا، إنَّ عقوبَتَنا إذا نَزلَتْ بأهلِ معاصينا والشِّرْكِ بنا أنْجَيْناهم منها، وما في الدَّارِ الآخرةِ لهم خيرٌ، وترَك ذكرَ ما ذَكَرْنا اكتِفاءً بدلالةِ قولِه: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ عليه). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣١٠).

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿كُذِبُواْ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿كُذِبُواْ﴾ بتَخفيفِ الذَّالِ، على جعلِ الضمير في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ للرسلِ، فالمعنى: ظنَّ الرسلُ أنَّهم قد أُخْلِفوا، والمرادُ ما يَرِدُ على القلبِ، ويهْجِسُ فيه مِن حديثِ النفسِ، وعوارضِ الوساوس، الذي لا يسلمُ منه أحدٌ مِن البشرِ، وَقِيلَ: المعنَى: وظنَّ الرُّسلُ أَنَّها قَدْ كَذَبَتْهم أنفسُهم حينَ حَدَّثَتْهم بأنَّهم يُنْصَرُونَ عليهم، أو: كَذَبَهم رَجاؤُهم لِلنَّصْرِ.

وعلى جعلِ الضميرِ في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ للمرسَلِ إليهم، لما في ذكرِ الرسل مِن دلالةٍ عليهم، فالمعنى: وظنَّ المرسلُ إليهم أنَّ الرُّسلَ قد كُذِبوا فيما وُعِدوا به مِن النَّصرِ. وقيل: ظنَّ المرسلُ إليهم أنَّ الرُّسلَ قد كَذَبَوهم فيما أخبَرُوهم به مِن نُزولِ العذابِ بهم إنْ لم يؤْمِنوا؛ لِمَا شاهَدوا مِن إمهالِ اللَّهِ لهم[(١)].

٢- قِراءةُ ﴿كُذِّبُوا﴾ بتَشْديدِ الذَّالِ، بجَعْلِ الظَّنِّ للأنبياءِ بمعنى العِلْمِ، والمعنى: ولَمَّا أيقَنَ الأنبياءُ أنَّ قومَهم قد كَذَّبوهم فلن يُصدِّقوهم، جاء الرُّسلَ نصْرُنا. وقيل: ظنَّ الأنبياءُ أنَّ المُؤمنينَ بهم يُكذِّبونهم، وخافوا أنْ يدخُلَ قُلوبَ أتباعِهم شكٌّ[(٢)].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن

---

(١) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٦).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٥٢)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٤٤٢، ٤٤٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٦٦، ٣٦٧)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٥).

نَشَآءُ﴾.

أي: حتَّى[١] إذا يئِس رُسلُ اللَّهِ[٢]، وخطَر بقلوبِهم، وحدَّثتْهم أنفسُهم أنَّهم قد أُخلِفوا فيما وعَدَهم اللَّهُ به مِن النَّصرِ؛ لطولِ البلاءِ عليهم، وإبطاءِ النصرِ- أتاهم نصْرُنا فجأةً، فنَجَّيْناهم وأتْباعَهم[٣] المُؤمنينَ[٤].

---

(١) قال ابن حجر: (واختُلِفَ فيما تعَلَّقَت به الغايةُ مِن قَولِه: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ فاتَّفقوا على أنَّه محذوفٌ، فقيل التقدير: وما أرسَلْنا من قبلك إلَّا رِجالًا يُوحَى إليهم، فتراخى النَّصرُ عنهم حتى إذا... وقيل: التقديرُ: فلم تُعاقَبْ أمَمُهم حتى إذا... وقيل: فدَعَوا قَومَهم فكَذَّبوهم فطال ذلك حتى إذا...). ((فتح الباري)) (٨/ ٣٦٧).

(٢) قال ابن الجوزي: (﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾، وفيه قولانِ: أحدُهما: اسْتَيْأسوا مِن تصديقِ قومِهم، قاله ابنُ عباسٍ. والثاني: مِن أن نعذِّبَ قومَهم، قاله مجاهدٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٧٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٧٢).

قال ابنُ القيِّم: (قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ فلمَّا ذكَرَ أنَّ الرُّسُلَ هم الذين استيأسُوا، كان فيه دليلٌ على أنَّهم دخل قلوبَهم يأسٌ مِن غيرِ يَقينٍ استيقَنوه؛ لأنَّ اليقينَ في ذلك إنَّما يأتيهم مِن عندِ الله). ((زاد المعاد)) (٥/ ٥٨٦).

(٣) قال الرسعني: (والمرادُ بـ﴿مَن نَّشَآءُ﴾: المؤمنونَ؛ لأنَّهم أهلُ النجاةِ، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧)، ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ١٥٥).

قال الرسعني بعد أن ذكَرَ قَولَ ابنِ عبَّاسٍ: (كانوا بَشرًا، فضَعُفوا ويَئِسوا، وظَنُّوا أنَّهم أُخْلِفوا)، قال: (وهذا التأويلُ مَزلَّة الأقدام، ومَدحَضةُ الأفهام، وفيه سِرٌّ لا يفهَمُه إلا غوَّاصٌ على المعاني، بحَّاثٌ عنها؛ فإنه لا يجوزُ أن يُظَنَّ بابنِ عبَّاسٍ أنَّه أراد بتأويلِه تطريقَ الشَّكِّ الذي هو تغليبُ أحد الجانبَينِ على الآخرِ، أو تساويَهما على رُسُلِ اللهِ المعصومينَ عن مثلِ ذلك! بل أراد ما يَرِدُ على القَلبِ، ويهْجِسُ فيه من حديثِ النَّفسِ، وعوارِضِ الوَساوسِ، الذي لا يَسلَمُ منه أحَدٌ مِن البشَرِ، فتفَهَّمْ ذلك). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٢٩).

قال السَّعدي تحتَ قاعدةِ: (الأمورُ العارِضةُ التي لا قرارَ لها بسَبَبِ المُزعِجاتِ أو الشُّبُهاتِ، قد تَرِدُ على الحَقِّ وعلى الأمورِ اليقينيَّةِ، ولكِنْ سُرعانَ ما تضمَحِلُّ وتزولُ)- قال: (الرُّسُلُ- صَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم- أكمَلُ الخَلقِ إيمانًا ويَقينًا، وتصديقًا بوَعدِ اللهِ ووَعيدِه، وهذا أمرٌ يجِبُ على الأُمَمِ: أن يعتَقِدوا في الرُّسُلِ من أنَّهم قد بَلَغوا الذِّروةَ فيه، وأنَّهم معصومونَ

مِن ضِدِّه، ولكِنْ ذَكَر اللهُ في بعض الآياتِ أنَّه قد يَعرِضُ لهم بعضُ الأمورِ المُزعِجةِ المُنافيةِ حِسًّا لِما عُلِمَ يَقينًا، ما يوجِبُ لهؤلاء الكُمَّلِ أن يَستبطِئوا معه النَّصرَ، ويقولون: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقد يَخطُرُ في هذه الحالةِ على القُلوبِ شَيءٌ مِن عوارِضِ اليأسِ بحَسَبِ قُوَّةِ الوارداتِ، وتأثيرِها في القلوبِ، ثمَّ في أسرعِ وَقتٍ تنجلي هذه الحالُ، وتنفَرِجُ الأزمةُ، ويأتي النَّصرُ مِن قَريبٍ ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فعندئذٍ يصيرُ لِنَصرِ اللهِ وصِدقِ مَوعودِه مِن الوقعِ والبِشارةِ والآثارِ العَجيبةِ أمرٌ كبيرٌ، لا يَحصُلُ بدونِ هذه الحالةِ؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾؛ فلهذا الواردِ الذي لا قرارَ له، وعندما حقَّت الحقائِقُ اضمحَلَّ وتلاشى، لا يُنكَرُ ويُطلَب للآياتِ تأويلاتٌ مخالِفةٌ لظاهِرِها). ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) (ص: ١٥٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (لا يمتَنِعُ على الأنبياءِ أن يظُنُّوا شيئًا فيكون الأمرُ بخلافِ ما ظنُّوه؛ فقد يظنُّون فيما وُعِدوه تعيينًا وصفاتٍ، ولا يكونُ كما ظَنُّوه، فييأسون مِمَّا ظنوه في الوعدِ، لا مِن تعيينِ الوعدِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٨٦).

وقال الخطَّابي: (يحتَمِلُ أن يقال: إنَّهم عند تطاوُلِ مُدَّةِ البلاء عليهم وإبطاءِ نجزِ العِدَةِ عنهم وشِدَّةِ مُطالبةِ القَومِ إيَّاهم بما كانوا يَعِدونَهم من النُّصرة؛ دخَلَتْهم الرِّيبةُ حتى توهَّموا أن الذي جاءهم من الوحيِ لعلَّه كان حُسبانًا منهم ووَهمًا، فارتابوا بأنفُسِهم وظنُّوا عليها الغلَطَ في تلقِّي ما ورد عليهم من القَولِ، فيكون معنى الكَذِب في هذا متأوَّلًا على الغَلَطِ... ومَرجِعُ الأمر في هذا الباب: أن الذي عَرَض من الريبةِ إنَّما ينصرف إلى الوسائِطِ التي هي مُقَدِّمات الوحيِ، لا إلى نفسِ الوحي وأصلِه بعد حصولِ العلم به، والله أعلم). ((أعلام الحديث)) (٣/ ١٨١٣)، وينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٦٨، ٣٦٩).

وأما ما رواه البخاري (٤٥٢٥) بسنده عن ابنِ أبي مُلَيْكَةَ، قال: قال ابنُ عبَّاسٍ رضِيَ اللَّهُ عنهما: (﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ خفيفةً، ذهَبَ بها هناك، وتلا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فلقِيتُ عُروةَ ابنَ الزُّبيرِ فذكَرْتُ له ذلك، فقال: قالت عائشةُ: مَعاذَ اللَّهِ! واللَّهِ ما وعَدَ اللَّهُ رسولَه مِن شيءٍ قطُّ إلَّا علِمَ أنَّه كائنٌ قبلَ أنْ يموتَ، ولكنْ لم يَزَلِ البَلاءُ بالرُّسلِ، حتَّى خافوا أنْ يكونَ مَن معهم يُكذِّبونهم، فكانت تقرَؤُها: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ مُثقَّلةً).

وكذلك ما رواه البخاري أيضًا (٤٦٩٥) بسندِه عن عُروةَ بنِ الزُّبيرِ، عن عائشةَ رضِيَ اللَّهُ عنها، (قالتْ له وهو يسألُها عن قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ قال: قلْتُ: أ﴿كُذِبُواْ﴾ أم ﴿كُذِّبُوا﴾؟ قالت عائشةُ: ﴿كُذِّبُوا﴾. قلت: فقدِ استيقَنوا أنَّ قومَهم كذَّبوهم؛ فما هو بالظَّنِّ؟ قالت: أجلْ! لَعَمْري لقد استيْقَنوا بذلك. فقلتُ لها: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾

كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن

قالت: مَعاذَ اللَّهِ! لم تكُنِ الرُّسلُ تظُنُّ ذلك بربِّها. قلْتُ: فما هذه الآيةُ؟ قالت: هم أتْباعُ الرُّسلِ الَّذين آمَنوا بربِّهم وصدَّقوهم، فطالَ عليهم البلاءُ واستأْخَرَ عنهم النَّصرُ، حتَّى إذا استيئَسَ الرُّسلُ ممَّن كذَّبَهم مِن قَومِهم، وظنَّتِ الرُّسلُ أنَّ أتْباعَهم قد كذَّبوهم؛ جاءَهم نصْرُ اللَّهِ عند ذلك).

فقد قال ابنُ حجرٍ: (قال الخطَّابيُّ: لا شكَّ أنَّ ابنَ عبَّاسٍ لا يُجيزُ على الرُّسلِ أنَّها تُكذِّبُ بالوحيِ، ولا يشكُّ في صدْقِ المُخْبِرِ،... والمُرادُ بالكذِبِ الغَلطُ لا حقيقةُ الكذِبِ، كما يقول القائلُ: كذَبَتْك نفْسُك، قلتُ: ويؤيِّدُه قِراءةُ مُجاهدٍ: (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا) بفتحِ أوَّلِه مع التَّخفيفِ، أي: غَلِطوا، ويكونُ فاعلُ ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ الرُّسلَ، ويَحتمِلُ أنْ يكون أتباعَهم، ويُؤيِّدُه ما رواه الطَّبريُّ بأسانيدَ مُتنوِّعةٍ مِن طريقِ عمرانَ بنِ الحارثِ وسعيدِ بنِ جُبيرٍ وأبي الضُّحى وعليِّ بنِ أبي طلحةَ والعوفيِّ، كلُّهم عنِ ابنِ عبَّاسٍ في هذه الآيةِ، قال: أيِسَ الرُّسلُ مِن إيمانِ قَومِهم، وظنَّ قومُهم أنَّ الرُّسلَ كذَبوا، وقال الزَّمخشريُّ: إنْ صحَّ هذا عنِ ابنِ عبَّاسٍ فقد أراد بالظَّنِّ ما يَخطِرُ بالبالِ، ويهجِسُ في النَّفْسِ مِن الوسوسةِ وحديثِ النَّفْسِ على ما عليه البشريَّةُ، وأمَّا الظَّنُّ- وهو ترجيحُ أحدِ الطَّرفينِ- فلا يُظَنُّ بالمُسلمِ فضلًا عنِ الرَّسولِ. وقال أبو نصرٍ القُشَيريُّ: ولا يبعُدُ أنَّ المُرادَ: خطَرَ بقلْبِ الرُّسلِ، فصرَفوه عن أنفُسِهم، أو المعنى: قَرُبوا مِن الظَّنِّ، كما يُقال: بلغْتُ المنزِلَ؛ إذا قَرُبْتَ منه. وقال التِّرمذيُّ الحكيمُ: وجْهُه: أنَّ الرُّسلَ كانت تخافُ بعد أنْ وعَدَهم اللَّهُ النَّصرَ أنْ يتخلَّفَ النَّصرُ لا مِن تُهمةٍ بوعْدِ اللَّهِ، بل لتُهْمةِ النُّفوسِ أنْ تكونَ قد أحدثتْ حدَثًا ينقُضُ ذلك الشَّرطَ، فكان الأمْرُ إذا طال واشتدَّ البلاءُ عليهم، دخَلَهم الظَّنُّ مِن هذه الجهةِ، .. الضَّميرُ في ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ عائدٌ على المُرسَلِ إليهم، وفي ﴿كُذِبُواْ﴾ عائدٌ على الرُّسلِ، أي: وظنَّ المُرسَلُ إليهم أنَّ الرُّسلَ كذَبوا. أو الضَّمائرُ للرُّسلِ، والمعنى: يئِسَ الرُّسلُ مِن النَّصرِ، وتوهَّموا أنَّ أنفُسَهم كذَبَتْهم حين حدَّثَتْهم بقُربِ النَّصرِ، أو كذَبَهم رَجاؤهم. أو الضَّمائرُ كلُّها للمُرسَلِ إليهم، أي: يئِسَ الرُّسلُ مِن إيمانِ مَن أُرسلوا إليه، وظنَّ المُرسَلُ إليهم أنَّ الرُّسلَ كذَبوهم في جَميعِ ما ادَّعوه مِن النُّبوَّةِ، والوعْدِ بالنَّصرِ لمَن أطاعهم، والوعيدِ بالعذابِ لِمَن لم يُجِبْهم). ((فتح الباري)) (٨/ ٣٦٨، ٣٦٩).

وقال ابنُ تيميةَ: (فعائشةُ جعَلَت اسْتِيآسَ الرُّسُلِ مِن الكُفَّارِ المُكذِّبين، وظنَّهم التَّكذيبَ مِن المؤمنين بهم، ولكنِ القراءةُ الأخرى ثابتةٌ لا يُمكِنُ إنكارُها، وقد تأوَّلَها ابنُ عبَّاسٍ، وظاهِرُ الكلامِ معه، والآيةُ الَّتي تَليها إنَّما فيها استبطاءُ النَّصرِ، وهو قولُهم: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]؛ فإنَّ هذه كَلِمةُ تَبطِيءٍ لطَلبِ التَّعجيلِ. وقولُه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ قد يكونُ مثلَ قولِه: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الحج: ٥٢]، والظَّنُّ لا يُرادُ به في الكتابِ والسُّنَّةِ الاعتقادُ الرَّاجِحُ، كما هو في اصطلاحِ طائفةٍ من أهلِ

قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤].

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

أي: ولا يقدِرُ أحدٌ أنْ يرُدَّ عذابَنا عنِ القومِ المُشرِكينَ المُكذِّبينَ للرُّسلِ[١].

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

أي: لقد كان في قَصَصِ يوسُفَ وإخوتِه وقَصَصِ المُرسَلين مع أُمَمِهم، وكيف نجَّى اللَّهُ المؤمنِينَ وأهلَكَ الكافرين؛ عِظَةٌ لأهْلِ العُقولِ السَّليمةِ يعتَبِرون بها[٢].

الكلامِ في العِلْمِ، ويُسمُّون الاعتقادَ المرجوحَ وهمًا، بل قد قال النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: «إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحديثِ»، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ [النجم: ٢٨] ... وأيضًا فقولُه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ قد يكونون ظنُّوا في الموعودِ به ما ليس هو فيه بطريقِ الاجتهادِ منهم، فتبيَّنَ الأمْرُ بخِلافِه؛ فهذا جائزٌ عليهم، فإذا ظنَّ بالموعودِ به ما ليس هو فيه، ثمَّ تبيَّنَ الأمْرُ بخلافِه؛ ظنَّ أنَّ ذلك كذِبٌ، وكان كذِبًا مِن جهةِ ظنٍّ في الخبَرِ ما لا يجِبُ أنْ يكون فيه، فأمَّا الشَّكُّ فيما يَعلَمُ أنَّه أخبَرَ به؛ فهذا لا يكونُ. ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٧٦، ١٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٠).

قال ابنُ جريرٍ: (قال جلَّ ثناؤه للمُشرِكين مِن قُريشٍ مِن قومِ نبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: لقد كان لكم -أيُّها القومُ- في قَصصِهم عِبرةٌ لو اعتبَرْتم به؛ أنَّ الَّذي فعَلَ ذلك بيُوسفَ وإخوتِه لا يَتعذَّرُ عليه أنْ يفعَلَ مثلَه بمحمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فيُخرِجَه مِن بين أظهُرِكم، ثم يُظْهِرَه عليكم، ويُمَكِّنَ له في البِلادِ، ويُؤَيِّدَه بالجُنْدِ والرِّجالِ مِن الأتباعِ والأصحابِ، وإنْ مرَّتْ به شدائدُ،

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفۡتَرَىٰ﴾.

أي: ما كان القُرآنُ وما فيه مِن الأخبارِ والقَصصِ حديثًا يُكذَبُ ويُختلَقُ[(١)].

﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾.

أي: ولكنِ القُرآنُ يُصدِّقُ الكُتُبَ الَّتي أنزَلَها اللَّهُ مِن قَبْلُ على الأنبياءِ، ويَشهَدُ لِما فيها مِن الصَّحيحِ الَّذي لم يُحَرَّفْ أنَّه حَقٌّ مِن عند اللَّهِ[(٢)].

﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

أي: والقُرآنُ يُبيِّنُ كلَّ ما يَحتاجُ العِبادُ إلى بَيانِه مِن العَقائدِ، والشَّرائعِ والأحكامِ، والأخبارِ[(٣)].

﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: والقُرآنُ هدًى مِن كلِّ ضلالةٍ لِمَنِ اتَّبعَه، ورحمةٌ في الدُّنيا والآخِرةِ للمُصدِّقينَ به، العامِلينَ بما فيه[(٤)].

وأتَتْ دونَه الأيَّامُ واللَّيالي، والدُّهورُ والأزمانُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠١- ٤٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (الهُدى الَّذي في القَصصِ: العِبرُ الباعِثةُ على الإيمانِ والتَّقوى، بمُشاهدةِ ما جاء مِن الأدلَّةِ في أثناءِ القَصصِ على أنَّ المُتَصرِّفَ هو اللَّهُ تعالى، وعلى أنَّ التَّقوى هي

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه التنبيهُ على الإخلاصِ؛ لأنَّ كثيرًا لو دعا إلى الحقِّ فهو يَدْعو إلى نفسِه[١].

٢- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ أصحابَ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ والمُؤمنينَ الَّذين آمَنوا به مأْمورونَ بأنْ يَدْعوا إلى الإيمانِ بما يَستطيعونَ[٢]، وأنَّ الدعوةَ إلى الله طريقُ مَن اتَّبَع النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ دلَّتِ الآيةُ على أنَّ مَن لَمْ يكُنْ على بَصيرةٍ فليس مِن أتْبَاعِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ أتْباعَه هم أولو البَصائرِ[٤].

٤- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ يدلُّ على أنَّ الدُّعاءَ إلى اللَّهِ تعالى إنَّما يحسُنُ ويجوزُ مع هذا الشَّرطِ؛ وهو أنْ يكونَ على بصيرةٍ ممَّا يقولُ، وعلى هدًى ويقينٍ، فإنْ لم يكُنْ كذلك فهو محْضُ الغُرورِ[٥].

أساسُ الخيرِ في الدُّنيا والآخرةِ، وكذلك الرَّحمة؛ فإنَّ في قَصصِ أهلِ الفضلِ دَلالةً على رحمةِ اللَّهِ لهم وعنايتِه بهم، وذلك رحمةٌ للمؤمنينَ؛ لأنَّهم باعتبارِهم بها يأتونَ ويذَرونَ، فتصلُحُ أحوالُهم، ويكونونَ في اطْمئنانِ بالٍ، وذلك رحمةٌ مِن اللَّهِ بهم في حياتِهم، وسببٌ لرحمتِه إيَّاهم في الآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧٢، ٧٣).

(١) يُنظر: ((كتاب التوحيد)) لمحمد بن عبد الوهاب (ص: ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((كتاب التوحيد)) لمحمد بن عبد الوهاب (ص: ٢٣).

(٤) يُنظر: ((رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه)) (ص: ٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٢٠).

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ فيه حَضٌّ على العمَلِ لِدارِ الآخِرةِ والاستعدادِ لها، واتِّقاءِ المُهلِكاتِ[١].

٦- قال اللَّهُ تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مَن تأَمَّلَ قِصَّةَ يوسُفَ ظهَرَ أنَّ في غرائبِها، وامتحانِ اللَّهِ فيها لقومٍ في مواضِعَ، ولُطْفِه لقومٍ في مواضِعَ، وإحسانِه لقومٍ في مواضِعَ: مُعتَبَرًا لِمَن له لُبٌّ وأجادَ النَّظَرَ؛ حتَّى يعلَمَ أنَّ كلَّ أمْرٍ مِن عند اللَّهِ وإليه[٢].

٧- قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وقد قَصَّ اللَّهُ علينا في القرآنِ أخبارَ الأنبياءِ وما أصابَهم وما أصابَ أتباعَهم المؤمنينَ مِن الأذَى في اللَّه، ثُمَّ إنَّ تعالَى نَصَرهم، وجَعَل العاقبةَ لهم؛ لنعتبِرَ، ولِيتيقَّنَ المُرتابُ، ويتوبَ المُذْنِبُ، ويَقْوى إيمانُ المُؤمنينَ[٣].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ فيه أنَّ البصيرةَ مِن الفرائضِ، ووجهُ ذلك أنَّه لا بدَّ للداعيةِ مِن العلمِ بما يَدْعو إليه، والدعوةُ فريضةٌ؛ فيكونُ العلمُ بذلك فريضةً[٤].

٢- يُشتَرَطُ في الآمِرِ بالمعروفِ أنْ يكونَ له عِلْمٌ يَعلَمُ به أنَّ ما يأْمُرُ به معروفٌ، وأنَّ ما يُنْهى عنه مُنْكَرٌ؛ لأنَّه إذا كان جاهلًا بذلك فقد يأْمُرُ بمُنْكَرٍ ويَنْهى عن معروفٍ؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨٩).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٧٨)، (٣٥/ ٣٧٦).
(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (ص: ١٣٩).

وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[١].

٣- في قولِه تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ بيانُ أنَّ مقصودَ الدَّعوةِ النَّبويَّةِ، بل المقصودَ بخَلْقِ الخَلْقِ، وإنزالِ الكُتُبِ، وإرسالِ الرُّسلِ: أنْ يكونَ الدِّينُ كلُّه للَّهِ، وهو دعوةُ الخلائقِ إلى خالقِهم[٢].

٤- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ الآيةُ تدلُّ على أنَّ اللَّهَ ما بعَثَ رسولًا إلى الحقِّ مِن النِّسوانِ، وأيضًا لم يبعَثْ رسولًا مِن أهلِ الباديةِ[٣].

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ أي: الأماكنِ المَبْنِيَّةِ بالمَدَرِ والحجَرِ ونحوِه؛ لأنَّها مُتهيِّئةٌ للإقامةِ والاجتِماعِ، وانتيابِ أهلِ الفضائلِ، وذلك أجدَرُ بغَزارَةِ العقْلِ، وأصالةِ الرأْيِ، وحِدَّةِ الذِّهنِ، وتوليدِ المعارِفِ مِن البَوادي[٤]، فالله تعالى لم يبعَثْ نبيًّا مِن أهلِ الباديةِ؛ لغَلَبَةِ الجَفاءِ والقَسوةِ على أهلِ البَدْوِ، ولأنَّ أهلَ الأمصارِ أعقَلُ وأحلَمُ وأفضَلُ وأعلَمُ[٥].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فيه التَّذكيرُ باستواءِ أحوالِ الرُّسلِ عليهمُ السَّلامُ وما لَقَوه مِن أقوامِهم؛ فهو وعيدٌ باستواءِ العاقِبةِ للفريقينِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((الحسبة)) لابن تيمية (ص: ٩١).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٤٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٢١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٧).

٧- ذكَرَ اللَّهُ تعالى في أوَّلِ السُّورةِ ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾، ثمَّ ذكَرَ في آخِرِها: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّ حُسْنَ هذه القِصَّةِ إنَّما كان بسبَبِ أنَّه يحصُلُ منها العِبرةُ، ومعرِفةُ الحِكمةِ والقُدرةِ[١].

٨- ذكَرَ اللَّهُ سُبحانَه فِي غيرِ مَوضِعٍ مِن كِتابِه أنَّ الرَّحمةَ تَحصُلُ بالقُرآنِ، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِن الاعتبارِ بدَلالةِ نُزولِ هذه القِصَّةِ للنَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم الأُمِّيِّ على صِدْقِ نُبوَّتِه وصِدْقِه فيما جاءَ به مِن التَّوحيدِ، إلى الاعتبارِ بجَميعِ ما جاء به مِن هذِه الشَّريعةِ عنِ اللَّهِ تعالى، وهو المُعَبَّرُ عنه بالسَّبيلِ[٣].

- قولُه: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾ فيه الإشارةُ إلى الشَّريعةِ بتَنْزيلِ المعقولِ مَنْزلةَ المحسوسِ؛ لبُلوغِه مِن الوضوحِ للعُقولِ حدًّا لا يَخفَى فيه إلَّا عمَّن لا يُعَدُّ مُدْرِكًا[٤].

- قولُه: ﴿ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ الضَّميرُ الظَّاهِرُ ﴿أَنَا۠ ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٢٢).
(٢) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٣٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٤، ٦٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٦٥).

تأْكيدٌ للضَّميرِ المُستَتِرِ في ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾[١].

- وجُملةُ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بمنزِلةِ التَّذييلِ لِمَا قبلَها؛ لأنَّها تعُمُّ ما تضمَّنتْه[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ للتَّوبيخِ والتَّقْريعِ؛ فإنَّ مَجْموعَ المُتَحَدَّثِ عنهم سارُوا في الأرضِ فرَأَوْا عاقِبةَ المُكَذِّبينَ، كعادٍ وثمودَ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنَةٌ، حيث قال هنا في سُورةِ (يوسُفَ): ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ وكذلك في سُورةِ (الحجِّ)، وفي آخِرِ سُورةِ (غافرٍ)، وسُورةِ (مُحمَّد) بالفاءِ ﴿أَفَلَمۡ﴾، بَينَما قال في (الرُّومِ): ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الروم: ٩]، وكذلك في سُورةِ (فاطرٍ)، وأوَّلِ (غافرٍ) بالواوِ ﴿أَوَلَمۡ﴾؛ فتَكرَّرَ هذا في عِدَّةِ مواضِعَ؛ منها ما ورَدَ فيه بعدَ همزةِ التَّقريرِ وفاءِ التَّعقيبِ، ومنها ما ورَدَ بواوِ العطفِ؛ فأمَّا تقْديمُ الهمزةِ قَبلها فلأنَّ لها الصَّدارةَ في الكلامِ، ولَمَّا جَرَتْ في هذه الآياتِ مِن تَخْصيصِ بَعضِ هذه المواضعِ بالفاءِ المُقْتَضيةِ مع التَّشريكِ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ، وبعضِها بالواوِ المُقْتَضيةِ مُجَرَّدَ التَّشريكِ والجَمْعِ؛ فخُصِّصَ كلُّ واحدٍ مِن هذه المواضِعِ بما اخْتُصَّ به في

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٨).

عَطْفِه على ما قبله؛ فمِن الوارِدِ بالفاءِ آيةُ (يوسُفَ) المَذْكورةُ آنفًا، وفي سورةِ (الحجِّ): ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾[الحج: ٤٦]، وفي آخِرِ سورةِ (غافرٍ): ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ [غافر: ٨٢]، وفي سورةِ (محمَّدٍ): ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ [محمد: ١٠]؛ فهذه أربعُ آياتٍ ممَّا ورَدَ بالفاءِ. ومِن الوارِدِ بالواوِ قولُه في سورةِ (الرُّوم): ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: ٩]، وفي سورةِ (فاطرٍ): ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فاطر: ٤٤]، وفي سورةِ (غافرٍ): ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [غافر: ٢١]، فهذه ثلاثُ آياتٍ، ووجْهُ ذلك:

أنَّ ما في الثَّلاثةِ الأُوَلِ تقدَّمَه التَّعبيرُ في الإنكارِ بالفاءِ في قولِه هنا: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ ﴾ [يوسف: ١٠٧]، وفي الحجِّ: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [الحج: ٤٥]، وفي آخِرِ (غافرٍ): ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾[غافر: ٨١]. وأمَّا في الثَّلاثةِ الأخيرةِ؛ تَقدَّمَه التَّعبيرُ بالواوِ في قولِه في (الرُّوم): ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الروم: ٨]، وفي (فاطرٍ): ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [فاطر: ٣٧]، وفي أوَّلِ (غافرٍ): ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ ﴾ [غافر: ١٨]، ﴿وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]، ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾[(١)] [غافر: ٢٠]، وقيل غير ذلك[(٢)].

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٤، ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٠)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي

- وجُملةُ: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تعريضٌ بسلامَةِ عاقِبةِ المُتَّقينَ في الدَّنيا، وتعريضٌ أيضًا بأنَّ دارَ الآخرةِ أشدُّ أيضًا على الَّذين مِن قَبلِهم مِن العاقِبةِ الَّتي كانتْ في الدُّنيا؛ فحصَلَ إيجازٌ بحذْفِ جُملتينِ(١).

- وأيضًا في قولِه تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنَةٌ، حيثُ قال تعالى في سورةِ (الأعرافِ): ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فقال في سورةِ (الأعرافِ): ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ﴾ فوصَفَ الدَّارَ بالآخِرةِ، وفي الآيةِ الَّتي في سُورةِ (يوسُفَ) أضافَ الدَّارَ إلى الآخِرةِ؛ ووجه ذلك: أنْ قَبلَه في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فقولُه: ﴿هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ إنَّما يعني هذا المَنْزِلَ الأَدْنى، وهو والدَّارُ الدُّنيا بمعنًى واحدٍ؛ فلَمَّا جعَلَ الأَدْنى وصْفًا للمَنْزِلِ ذكَرَ الدَّارَ الآخِرةَ بعدَه، فجعَلَ الدَّارَ مَوصوفَةً والآخِرةَ صِفَةً لها، وكلٌّ يُؤَدِّي معنًى واحدًا، إلَّا أنَّه يَختصُّ ببَعضِ اللَّفظِ دون بعضٍ؛ لمُشاكَلَةِ ما قَبْلَه ومُوافَقَتِه له. وأمَّا قولُه: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ﴾ في (يوسُفَ) فإنَّ قبلَه: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [يوسف: ١٠٧]، والسَّاعةُ هي السَّاعةُ الآخِرةُ، وهي القيامةُ؛ فلَمَّا ذُكِرَت الدَّارُ أُضيفَتْ إليها، فكأنَّه قال: ولَدارُ السَّاعةِ الآخِرةِ خيرٌ؛ فتقدَّمَ كُلَّ آيةٍ ما كان المَذْكورُ بعدَه أَلْيقَ به(٢).

- وأيضًا من المُناسَبةِ الحَسَنةِ قولُه هنا في سُورةِ (يُوسُفَ): ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ

(٢/ ٢٦٩، ٢٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٨٠٨، ٨٠٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٠).

ٱتَّقَوۡاْ﴾ بَينما قال في (الأعرافِ): ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]؛ ووجهُ هذا الاختلافِ: أنَّه في سُورةِ (يوسف) دُعِيَ القومُ إلى الاعتبارِ بأحوالِ الأُمَمِ الَّذين أُهْلِكوا في أزْمِنةِ أنبيائِهم بالنَّظَرِ إلى مَنازِلِهم وهي خاويةٌ على عُروشِها؛ ليعْلَموا أنَّ الدَّارَ الآخِرةَ خيرٌ لِمَن اتَّقى منهم. وأمَّا قولُه في سورةِ (الأعرافِ) فهو تَرْهيبٌ لليهودِ الَّذين في عَصْرِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، وارتشائهم على كِتْمانِ أمْرِه، وتَرغيبٌ لهم فيما عِندَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ إذا صدَّقوا ما في كتابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، والتَّرغيبُ والتَّرهيبُ لا يَتعلَّقانِ إلَّا بالآنِفِ المُستقبَلِ؛ فلذلك قال: ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[1] [الأعراف: ١٦٩].

- ومِن المُناسَبةِ الحَسَنةِ كذلك: إدخالُ اللَّامِ على (دار الآخِرةِ) في سورةِ (يُوسفَ)، وإخلاؤها منها في سُورةِ (الأعرافِ) في قولِه: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ [الأعراف: ١٦٩]؛ ووجهُ ذلك: أنَّ قولَه: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩] جاء بعد قولِه: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ومعناه: فيَعْلَموا كيف كان حالُ مَن قَبلَهم، وأنَّ الدَّارَ الآخرةَ خيرٌ لهم؛ فاللَّامُ هي الَّتي تَدخُلُ على المُبتدَأِ فتُعَلِّقُ الفِعْلَ، والفِعْلُ هو: فيَعْلَموا الدَّارُ خيرٌ، كما تقول: علِمْتُ لَزَيدٌ أفضلُ مِن عمرٍو. وأمَّا قولُه: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ [الأعراف: ١٦٩] في سورةِ (الأعرافِ) فلم يَتقدَّمْه اللَّامُ، بل قولُه: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف: ١٦٩] مِن غيرِ أنْ يَتقدَّمَه ما يَجْري مَجْرى التَّوكيدِ والقَسَمِ الَّذي يُتَلَقَّى باللَّامِ[2].

٣- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨١٠، ٨١١).

نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ مُتَعَلِّقَةٌ بمَحذوفٍ دلَّ عليه الكلامُ؛ لأنَّ (حتَّى) غايةٌ لِما قبلَها، وليس في اللَّفظِ ما يكونُ له غايةٌ؛ فاحْتِيجَ إلى تَقْديرٍ؛ فكأنَّه قيل: (وما أرسَلْنا مِن قَبلِك إلَّا رجالًا، فتَراخى نصْرُهم، حتَّى استَيْئَسوا عنِ النَّصْرِ وظنُّوا أنَّهم قد كُذبوا)؛ فآذَنَ حرْفُ الغايةِ (حتَّى) بمعنًى مَحذوفٍ دلَّ عليه جُملةُ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ بما قُصِدَ بها مِن معنى قَصْدِ الأُسوةِ بسَلَفِه مِن الرُّسلِ عليهم السَّلامُ، أي: فدامَ تكْذيبُهم وإعراضُهم، وتأخَّرَ تَحقيقُ ما أنْذَروهم به مِن العذابِ، حتَّى اطمأنوا بالسَّلامةِ وسَخِروا بالرُّسلِ، وأَيِسَ الرُّسلُ عليهم السَّلامُ مِن إيمانِ قومِهم. والمعنى: أنَّ مُدَّةَ التَّكذيبِ والعَداوةِ مِن الكفَّارِ، وانتِظارِ النَّصرِ مِن اللَّهِ، وتأْميلِه قد تطاوَلَتْ عليهم وتمادَتْ، حتَّى استَشْعَروا القُنوطَ، وتَوهَّموا أنْ لا نَصْرَ لهم في الدُّنيا، فجاءَهم نصْرُنا فجأَةً مِن غيرِ احتِسابٍ[(١)].

- قولُه: ﴿ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ ﴿ٱسْتَيْـَٔسَ﴾ مُبالغةٌ في (يَئِسَ)، والتَّعريفُ في ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ عليهم السَّلامُ تَعريفُ العَهْدِ الذِّكْريِّ، وهو مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإعطاءِ الكَلامِ استقلالًا بالدَّلالةِ؛ اهتمامًا بالجُملةِ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ الجَمْعُ بين الماضي (نُجِّيَ) والمُضارِعِ (نَشَاءُ) احتِباكٌ، تقديرُه: فنُجِّيَ مَن شِئْنا ممَّن نَجا في القُرونِ السَّالفةِ، ونُنَجِّي مَن نَشاءُ في المُستقبَلِ[(٣)].

٤- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٧٠).

يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فيه مِن مَحاسِنِ البَلاغةِ: ردُّ العَجُزِ على الصَّدْرِ؛ فهذه الآيةُ مُرتبِطةٌ بجُملةِ ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وهي تتنزَّلُ منها مَنْزِلةَ البَيانِ لِما تَضمَّنَه معنى الإشارةِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ مِن التَّعجُّبِ، وما تَضمَّنَه معنى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ مِن الاستِدلالِ على أنَّه وَحيٌ مِن اللَّهِ مع دَلالةِ الأُمِّيَّةِ، وهي أيضًا تَتنزَّلُ مَنزِلةِ التَّذييلِ للجُمَلِ المُستَطْرَدِ بها؛ لقصْدِ الاعتِبارِ بالقِصَّةِ ابتداءً مِن قولِه: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]؛ فلها مواقعُ ثلاثةٌ عَجيبةٌ مِن النَّظْمِ المُعْجِزِ[١].

- وقولُه: ﴿لَقَدۡ كَانَ ...﴾ فيه تأكيدُ الجُملةِ بـ (قد) واللَّامِ؛ للتَّحقيقِ[٢].

- قولُه: ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ فيه تَخصيصُ أُولي الألبابِ بالذِّكْرِ؛ لأنَّهم هم الَّذين ينتَفِعون بالعِبَرِ، وكذلك في قولِه: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ خُصَّ المُؤمنون بذلك؛ لأنَّهم هم الَّذين ينتَفِعون بذلك[٣].

- وقولُه: ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ فيه ما يُعرَفُ باختِلافِ صيغةِ اللَّفظةِ؛ وهو نقلُها مِن هيئةٍ إلى هيئةٍ -كنقْلِها مِن وزْنٍ إلى وزْنٍ آخَرَ، أو نقْلِها مِن صِيغةِ الاسمِ إلى صيغةِ الفِعْلِ، أو بالعكس، أو كنقْلِها مِن الماضي إلى المُستقبَلِ، أو بالعكس، أو مِن الواحدِ إلى التَّثْنيةِ أو الجَمْعِ، إلى غير ذلك- وقولُه تعالى: ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مثالٌ للنَّقْلِ مِن الإفرادِ إلى التَّثْنيةِ والجَمْعِ؛ وذلك أنَّ لفظةَ (اللُّبِّ) الَّذي هو العَقْلُ لا لفظةُ (اللُّبِّ) الَّذي تَحتَ القِشْرِ؛ فإنَّها لا تَحْسُنُ في الاستِعمالِ إلَّا مجموعةً (الألْباب)، وكذلك ورَدَتْ هنا وفي أكثرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣٧، ٣٣٨).

مِن مَوضعٍ مِن القُرآنِ الكريمِ[١].

- وفي سُورةِ (يوسُفَ) نَفْحَةٌ مِنَ القَصصِ الرَّائعِ الَّذي استَوْفى شَرائطَ القِصَّةِ، وقدِ امتازَتْ هذه القِصَّةُ -على تَسَلْسُلِ حَوادِثِها، وكثرةِ فُنونِها، وتَنَوُّعِ فُصولِها- بالإيجازِ؛ الطَّويلِ منه والقَصيرِ، كما جاءتْ قَصَصُ القُرآنِ كلُّها، وأحسنُ ما جاء منها في هذا البابِ قِصَّةُ يوسُفَ عليه السَّلام؛ فإنَّها جاءتْ على الطَّريقَتَينِ في سُورةٍ واحدةٍ مِن قولِه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ إلى قوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾، وجاءتْ على الطَّريقَةِ المُخْتصرَةِ في قولِه على لِسانِ يوسُفَ: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ ﴾؛ فذكَرَ تعالى القِصَّةَ أوَّلًا على طَريقِ البَسْطِ مُفصَّلةً لِمَن لم يُشارِكْ في طَريقِ عِلْمِها، وذكَرَها تعالى أخيرًا مُخْتصَرةً؛ لِيعْلَمَها مُفَصَّلَةً مَن لَم يكُنْ يَعْلَمُها، حتَّى إذا جاءتْ مُجْمَلَةً عَلِمَ الإشاراتِ فيها، وابتدَأَها بقولِه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾، ثم أنْهاها بقولِه: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾؛ ووجْهُ الاعتبارِ بقَصَصِهم هو: أنَّ هذه القَصَصَ إنَّما سُجِّلَتْ لِحُصولِ العِبْرةِ منها، ومَعْرفةِ الحِكْمةِ والمَغْزى[٢].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الحادي عشرَ

ويَليهِ المجلدُ الثَّاني عشرَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الرَّعْدِ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٧٠، ٧١).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سُورةُ يُوسُفَ ٧
أَسماءُ السُّورَةِ: ٧
فضائلُ السورةِ وخَصائِصُها: ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ: ٨
مَقاصِد السُّورَة: ٩
مَوْضوعات السُّورَة: ٩
الآيات (١-٣) ١١
غريبُ الكلماتِ: ١١
المعنى الإجماليُّ: ١١
تَفسيرُ الآياتِ: ١١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٥
بلاغةُ الآياتِ: ١٧
الآيات (٤-٦) ٢١
المعنى الإجماليُّ: ٢١
تَفسيرُ الآياتِ: ٢١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٥
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٧
بلاغةُ الآياتِ: ٢٨
الآيات (٧-١٠) ٣٣

غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٤
المعنى الإجماليُّ: ٣٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٩
بلاغةُ الآياتِ: ٤٠
الآيات (١١-١٤) ٤٤
غريبُ الكَلِماتِ: ٤٤
المعنى الإجماليُّ: ٤٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ: ٤٨
بلاغةُ الآياتِ: ٤٩
الآيات (١٥-١٨) ٥٢
غريبُ الكَلِماتِ: ٥٢
المعنى الإجماليُّ: ٥٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٨
بلاغةُ الآياتِ: ٦٢
الآيات (١٩-٢١) ٦٤

غريبُ الكَلِماتِ: ٦٤
المعنى الإجماليُّ: ٦٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٣
بلاغةُ الآياتِ: ٧٤
الآيات (٢٢-٢٩) ٧٧
غريبُ الكَلِماتِ: ٧٧
المعنى الإجمالي: ٧٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٠
الفَوائِد التربويَّة: ٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٩٦
بلاغةُ الآياتِ: ١٠٤
الآيات (٣٠-٣٥) ١١٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ١١٢
المعنى الإجماليُّ: ١١٣
تَفسيرُ الآياتِ: ١١٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٢٦
بلاغةُ الآياتِ: ١٢٩
الآيات (٣٦-٤٢) ١٣٧
غريبُ الكلماتِ: ١٣٧

المعنى الإجماليُّ: ١٣٨
تَفسيرُ الآياتِ: ١٣٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٤٩
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٥٢
بلاغةُ الآياتِ: ١٥٦
الآيات (٤٣-٤٩) ١٦٣
غريبُ الكَلِماتِ: ١٦٣
المعنى الإجماليُّ: ١٦٥
تَفسيرُ الآياتِ: ١٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٧٢
بلاغةُ الآياتِ: ١٧٥
الآيات (٥٠-٥٣) ١٨١
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٨١
المعنَى الإجماليُّ: ١٨١
تَفسيرُ الآياتِ: ١٨٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٩٠
بلاغةُ الآياتِ: ١٩٣
الآيات (٥٤-٥٧) ١٩٧
غريبُ الكلماتِ: ١٩٧
المعنى الإجْماليُّ: ١٩٧

تَفسيرُ الآياتِ: ١٩٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٠١
الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٢٠٤
بَلاغَةُ الآياتِ: ٢٠٧
الآيات (٥٨-٦٢) ٢١٠
غريبُ الكَلِماتِ: ٢١٠
المعنى الإجماليُّ: ٢١١
تَفسيرُ الآياتِ: ٢١٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢١٥
الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٢١٦
بلاغةُ الآياتِ: ٢١٧
الآيات (٦٣-٦٦) ٢٢١
غريبُ الكلماتِ: ٢٢١
المعنى الإجماليُّ: ٢٢٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٢٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٢٧
الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٢٢٧
بلاغةُ الآياتِ: ٢٢٩
الآيتان (٦٧-٦٨) ٢٣٢
المعنى الإجماليُّ: ٢٣٢
تَفسيرُ الآيتينِ: ٢٣٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٣٥

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٢٣٦
بلاغةُ الآيتينِ: ٢٣٨
الآيات (٦٩-٧٧) ٢٤١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٤١
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٤٣
المعنى الإجماليُّ: ٢٤٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٤٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٥٣
الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٢٥٥
بَلاغَةُ الآياتِ: ٢٦١
الآيات (٧٨-٨٠) ٢٧٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٧٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٧١
المعنى الإجماليُّ: ٢٧٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٧٢
الفوائدُ التربويةُ: ٢٧٥
الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ: ٢٧٦
بَلاغَةُ الآياتِ: ٢٧٧
الآيات (٨١- ٨٧) ٢٨٠
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٨٠
المعنى الإجماليُّ: ٢٨١
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٨٢

الفَوائِدُ التربويَّة: ٢٨٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٩١
بَلاغَةُ الآياتِ: ٢٩٤
الآيات (٨٨- ٩٣) ٣٠٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٠٠
المعنى الإجماليُّ: ٣٠١
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٠١
الفَوائِدُ التربويَّة: ٣٠٧
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٠٩
بَلاغَةُ الآياتِ: ٣١٣
الآيات (٩٤- ٩٨) ٣١٩
غريبُ الكَلِماتِ: ٣١٩
المعنى الإجماليُّ: ٣١٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٢٠
الفَوائِدُ التربويَّة: ٣٢٢
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٢٢
بَلاغَةُ الآياتِ: ٣٢٤
الآيات (٩٩- ١٠١) ٣٢٧
غريبُ الكلماتِ: ٣٢٧
المعنى الإجماليُّ: ٣٢٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٢٨
الفَوائِدُ التربويَّة: ٣٣٤

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٣٥
بلاغةُ الآياتِ: ٣٣٩
الآيات (١٠٢- ١٠٧)..... ٣٤٢
غَريبُ الكَلِماتِ:..... ٣٤٢
المعنى الإجماليُّ: ٣٤٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٤٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٤٨
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٥٠
الآيات (١٠٨- ١١١)..... ٣٥٤
غريبُ الكلماتِ:..... ٣٥٤
المعنى الإجماليُّ: ٣٥٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٥٦
الفَوائِدُ التربويَّة: ٣٦٥
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:..... ٣٦٦
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٦٨
الفهرس ٣٧٩

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٣٥ درس

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الرعد وسورة إبراهيم

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الإمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثاني عشر

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الرعد وسورة إبراهيم)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد الثاني عشر – سورة الرعد وإبراهيم/

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – ط١ – الظهران، ١٤٣٨هـ

٤٤٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩-٥١-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٣٩/٨٦٢

رقم الإيداع: ٩-٥١-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

ردمك: ١٤٣٩/٨٦٢

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣ / فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الرعد وسورة إبراهيم)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثاني عشر

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الرَّعدِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الرَّعدِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الرَّعد)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمدَنيِّ:

سورةُ الرَّعدِ مِن السُّوَرِ المُختَلَفِ فيها؛ فقيل: إنَّها مدنيَّةٌ[٢]، وحُكِي الإجماعُ على ذلك[٣]. وقيل: إنَّها مكِّيَّةٌ[٤].

---

(١) وردت عدةُ آثارٍ عن السلفِ بتسميةِ هذه السورةِ سورةَ الرعدِ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٥٩٩).

وقال ابنُ عاشور: (سورةُ الرعدِ، هكذا سُمِّيتْ مِن عهدِ السلفِ، وذلك يدلُّ على أنَّها مسماةٌ بذلك مِن عهدِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ إذ لم يختلفوا في اسمِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧٥).

ووجهُ تسميتِها بسورةِ الرعدِ: ذكرُ لَفظِ الرَّعدِ فيها في قَولِه تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧٥).

(٢) رواه عطاءٌ الخراسانيُّ عن ابنِ عباسٍ، وبه قال جابرُ بنُ زيدٍ. ورُوي عن ابنِ عباسٍ أنَّها مدنيَّةٌ، إلَّا آيتين نزلتا بمكَّةَ، وهما قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ إلى آخرِها.

وقيل: مدنيةٌ إلَّا قولَه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ فمكِّيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠٥)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣).

وقال بعضهم: المدنيُّ منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٧٩).

قال ابنُ عطيةَ: (والظاهرُ- عندي- أنَّ المدنيَّ فيها كثيرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٠).

(٣) قال الرازي: (قال الأصمُّ: هي مدنيَّةٌ بالإجماعِ سوى قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾). ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٢٤).

(٤) رواه عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ، وبه قال الحسنُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وعطاءٌ، وقتادةُ. وروَى أبو صالح عن ابنِ عباسٍ أنَّها مكِّيَّةٌ، إلَّا آيتين منها؛ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ إلى آخرِ الآيةِ، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗا﴾.

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

عرضُ قضايا التوحيدِ والوحيِ والبعثِ مِن خلالِ إطارٍ عامٍّ، وهو الكونُ وآياتُه ومشاهِدُه وعجائبُه في النفسِ وفي الآفاقِ.

موضوعاتُ السُّورةِ:

من أهمِّ الموضوعاتِ التي تناولَتْها هذه السُّورةُ:

١- الإشارةُ إلى القُرآنِ الكريمِ وكَونِه حَقًّا مِن عندِ الله تعالى.

٢- سوقُ عددٍ مِن الأدلةِ التي تدُلُّ على قُدرةِ اللهِ تعالى الباهرةِ ووحدانيتِه.

٣- حكايةُ جانبٍ مِن أقوالِ المشركينَ المتعلقةِ بالبعثِ معَ الردِّ عليهم.

٤- بيانُ كمالِ عِلمِ الله سبحانه وإحاطتِه بكلِّ شَيءٍ، وعظيمِ سلطانِه، وحكمتِه فيما يَقْضيه ويقدِّرُه.

٥- ضَربُ مثلينِ للحَقِّ والباطلِ، وعقدُ مقارنةٍ بينَ مصيرِ أتباعِ الحقِّ، ومصيرِ أتباعِ الباطلِ، مع بيانِ أوصافِهما.

٦- حكايةُ بعضِ مقترحاتِ الكفَّارِ ومطالبِهم المتعنتةِ معَ الردِّ عليهم.

٧- بيانُ حسنِ عاقبةِ المتَّقينَ، وسوءِ عاقبةِ المكذِّبينَ.

٨- تسليةُ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابَه.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٦٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٤٣).

الآيات (١-٤)

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَوَٰسِيَ﴾: أي: جبالًا ثوابتَ، وأصلُ (رسو): يدلُّ على ثباتٍ[1].

﴿زَوۡجَيۡنِ﴾: أي: صِنفَينِ ونَوعَينِ، وأصلُ (زوج): يدل على مُقارنةِ شَيءٍ لشَيءٍ[2].

﴿صِنۡوَانٞ﴾: أي: مُجتمِعٌ، والصِّنوانُ مِن النَّخلِ: النَّخلتانِ والنَّخلاتُ يجمَعُهنَّ أصلٌ واحِدٌ، وتتشَعَّبُ منه رؤوسٌ فتصيرُ نخيلًا، وأصلُ (صنو): يدلُّ على تقارُبٍ بين شَيئَينِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٢).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾: جارٌّ ومجرورٌ، في موضِع نصبٍ على الحالِ مِن ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، تقديرُه: خاليةً عن عمَدٍ. ﴿تَرَوْنَهَا﴾: في موضِع نصبٍ حالٌ ثانيةٌ مِن ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي: رفَعَها مرئيَّةً لكم بغيرِ عمَدٍ. أو مُستأنفةٌ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ؛ جيءَ به للاستشهادِ على كونِ السَّمواتِ مَرفوعةً كذلك، وعلى ذلك فالضَّميرُ المنصوبُ في ﴿تَرَوْنَهَا﴾ للسَّمَواتِ. وقيل: ضَميرُ النَّصبِ في ﴿تَرَوْنَهَا﴾ عائِدٌ على ﴿عَمَدٍ﴾ أي: بِغَيرِ عَمَدٍ مَرْئيَّةٍ، وعليه فجملةُ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ في محَلِّ جَرٍّ صِفةٌ لـ ﴿عَمَدٍ﴾، وهذا التخريجُ يَحتَمِلُ وَجهَينِ: أحدُهما: انتفاءُ العَمَدِ والرؤيةِ جَميعًا، أي: لا عَمَدَ فلا رؤيةَ، يعني: لا عَمَدَ لها فلا تُرى. وإليه ذهب الجُمهورُ. والثاني: أنَّ لها عمَدًا ولكِنْ غيرُ مَرئيَّةٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتُتِحَت هذه السُّورةُ الكريمةُ ببَعضِ الحروفِ المقطَّعةِ، وقد سبق الكلامُ عنها في أوَّلِ سورةِ البَقَرةِ، ثُمَّ أخبَرَ الله تعالى أنَّ هذه الآياتِ العظيمةَ هي آياتُ القُرآنِ المُعجِزِ، العظيمِ الشَّأنِ، الذي أُنزِلَ عليك- أيُّها النَّبيُّ- بالحَقِّ الذي لا يلتَبِسُ بالباطلِ، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ بأنَّ القرآن هو الحَقُّ، مع وضوحِه وجلائِه؛ عِنادًا وتكبُّرًا، وأنَّ اللهَ تعالى الذي أنزلَ هذا الكِتابَ هو الذي رفعَ السَّمواتِ السَّبعَ بقُدرتِه مِن غيرِ عمَدٍ، كما تَرَونَها، ثمَّ علا على العرشِ عُلُوًّا يليقُ بجلالِه وعَظَمتِه، وذلَّل الشَّمسَ والقمرَ لمنافعِ العبادِ، كلٌّ منهما يدورُ في فَلَكِه إلى يومِ

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٩٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩١)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٧/ ٨-١٠).

القيامةِ، يُدبِّرُ سُبحانَه أمورَ الدُّنيا والآخرةِ، ويُوضِّحُ لكم الآياتِ الدَّالةَ على قُدرتِه؛ لتُوقِنوا بالمعادِ إليه، وبوعدِه ووعيدِه. وهو الذي جعل الأرضَ متَّسِعةً ممتدَّةً، وهيَّأها لِمعاشِكم، وجعل فيها جِبالًا تُثبِّتُها، وأنهارًا لشُربِكم ومَنافِعِكم، وجعل فيها مِن كلِّ الثَّمَراتِ صِنفينِ اثنينِ، فكان منها الأبيضُ والأسودُ، والحُلوُ والحامِضُ، وجعل اللَّيلَ يُغطِّي النَّهارَ بظُلمتِه، إنَّ في ذلك لَعِظاتٍ لقومٍ يتفكَّرونَ فيها فيتَّعِظونَ.

وإنَّ الأرضَ ذاتَها فيها عجائِبُ؛ فيها قِطَعٌ مِن الأرضِ يُجاوِرُ بعضُها بعضًا، منها ما هو طيِّبٌ يُنبتُ ما ينفَعُ النَّاسَ، ومنها سَبِخةٌ مالِحةٌ لا تُنبِتُ شيئًا، وفي الأرضِ الطَّيِّبةِ بساتينُ مِن أعنابٍ، وزروعٌ مُختلِفةٌ، ونخيلٌ مُجتمِعٌ في منبتٍ واحدٍ، وغيرُ مجتمِعٍ فيه، كلُّ ذلك في تربةٍ واحدةٍ، ويشرَبُ مِن ماءٍ واحدٍ، ولكنَّه يختلِفُ في الثِّمارِ والحَجمِ والطَّعمِ وغيرِ ذلك؛ فهذا حُلوٌ، وهذا حامِضٌ، وبعضُها أفضَلُ مِن بعضٍ في الأكُلِ، إنَّ في ذلك لَعلاماتٍ لِمَن كان له قلبٌ يعقِلُ عن اللهِ تعالى أمْرَه ونهيَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾.

﴿الٓمٓر﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ البَقَرةِ[1].

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

(١) يُنظر ما تقدم في تفسير سورة البقرة (١/ ٦٤) من ((التفسير المحرَّر)).

أي: هذه آياتُ القُرآنِ، الرَّفيعةُ الشَّأنِ العاليةُ المراتِبِ[١].

﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: وهذا القرآنُ الذي أُنزِل إليك -يا مُحمَّدُ- مِن رَبِّك لا مِن غَيرِه، هو الحَقُّ؛ فاعتَصِمْ به واعمَلْ بما فيه، ووجَب لثُبوتِ حَقِّيَّتِه أن يؤمِنَ به جميعُ النَّاسِ[٢].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ بأنَّ القُرآنَ هو الحَقُّ الذي جاء مِن عندِ اللهِ، مع وضوحِ ذلك وثُبوتِه؛ جهلًا منهم وإعراضًا، أو عِنادًا وظُلمًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِى لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

قال الخازن: (﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الإشارةُ بـ﴿تِلۡكَ﴾ إلى آياتِ السورةِ ...، والمرادُ بـ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ السورةُ أي: آياتُ السورةِ الكاملةِ العجيبةِ في بابِها، ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ يعني مِن القرآنِ كلِّه هو الحقُّ الذي لا مزيدَ عليه. وقيل: المرادُ بالإشارةِ في قولِه: ﴿تِلۡكَ﴾ الأخبارُ والقصصُ أي: الأخبارُ والقصصُ التي قصصتُها عليك يا محمدُ هي آياتُ التوراةِ والإنجيلِ والكتبِ الإلهيةِ القديمةِ المنزلةِ، ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ يعني: وهذا القرآنُ الذي أُنزل إليك يا محمدُ مِن ربِّك ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ أي: هو الحقُّ فاعتصِمْ به. وقال ابنُ عباسٍ وقتادةُ: أراد بآياتِ الكتابِ القرآنُ، والمعنى: هذه آياتُ الكتابِ الذي هو القرآنُ، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾، يعني: وهذا القرآنُ الذي أُنزل إليك مِن ربِّك هو الحقُّ لا شكَّ فيه ولا تناقضَ). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكر الله تعالى أنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ؛ ذكرَ عَقيبَه ما يدُلُّ على صِحَّةِ التوحيدِ والمعادِ[١]، فقال:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

أي: اللهُ هو الذي رفعَ بقُدرتِه العظيمةِ السَّمواتِ السَّبعَ بلا أعمدةٍ، كما ترَونَها[٢].

كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [لقمان: ١٠].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

أي: ثمَّ علا اللهُ على عَرشِه العظيم عُلوًّا يليقُ بجلالِه وكَمالِه[٣].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: وذلَّلَ الشَّمسَ والقمَرَ لمصالحِ خَلْقِه، كلٌّ منهما يجري في السَّماءِ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠٨، ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٨، ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٢١).
والقول بأنَّ السمواتِ مرفوعةٌ بلا أعمدةٍ هو قولُ أكثرِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٧٥).
قال الرسعني: (وهذا قولُ ابنِ عباسٍ في روايةِ أبي صالحٍ، وبه قال الحسنُ وقتادةُ وجمهورُ العلماءِ، وهو الصحيحُ؛ لأنَّها لو احتاجتْ إلى عمدٍ لافتقرَ العمدُ إلى دعامةٍ أيضًا، وتسلسلَ إلى ما لا نهايةَ له). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٣٥).
وقال ابنُ كثيرٍ: (وهذا هو اللَّائقُ بالسِّياقِ، والظَّاهرُ مِنْ قولِه تعالَى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، فعلى هذا يكونُ قولُه: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيدًا لنفيِ ذلك، أي: هي مرفوعةٌ بغيرِ عمدٍ كما تَرَوْنها، هذا هو الأكملُ في القدرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٩).
وقيل: لها عَمَدٌ ولكن لا تُرَى، وهو مرويٌّ عن ابنِ عَبَّاسٍ أيضًا، ومجاهدٍ، والحسنِ، وقتادةَ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

وقتٍ معلومٍ، وهو انتهاءُ الدُّنيا ووقوعُ يومِ القيامةِ[١].

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾.

أي: يُصرِّفُ أمورَ مَخلوقاتِه كما يريدُ[٢].

﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

أي: يبيِّنُ ويوضِّحُ لكم آياتِه[٣] الدالةَ على وحدانيتِه وقُدرتِه على البعثِ وغيرِه؛ كي تُوقِنوا بالبعثِ بعد الموتِ، وتُوقِنوا بوَعدِه ووعيدِه[٤].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكرَ تعالى العالَمَ العُلويَّ؛ شرعَ في ذِكرِ قُدرتِه وحِكمتِه وإحكامِه للعالَمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

(٣) قال ابنُ جريرٍ: (يفصلُ لكم ربُّكم آياتِ كتابِه، فيبيِّنُها لكم احتجاجًا بها عليكم أيُّها الناسُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٣).
وقال الشوكاني: (﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: يُبيِّنُها، وهي الآياتُ الدَّالَّةُ على كمالِ قُدْرَتِه ورُبوبيَّتِه، ومنها ما تَقَدَّمَ مِنْ رفعِ السَّماءِ بغيرِ عمدٍ وتسخيرِ الشَّمسِ والقمرِ وجريِهما لأجلٍ مُسمًّى). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٧٧).
وقال السعدي: (وينزلُ الكتبَ الإلهيةَ على رسلِه ويبينُ ما يحتاجُ إليه العبادُ مِن الشرائعِ والأوامرِ والنواهي، ويفصِّلُها غايةَ التفصيلِ ببيانِها وإيضاحِها وتمييزِها، ﴿لَعَلَّكُم﴾ بسببِ ما أخرجَ لكم مِن الآياتِ الأفقيةِ والآياتِ القرآنيةِ ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

السُّفليِّ، فقال[١]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾.

أي: واللهُ هو الذي بسطَ لكم الأرضَ طولًا وعَرضًا، فخلَقَها متَّسِعةَ الأرجاءِ؛ لتَنتَفِعوا بها[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾.

أي: وجعل فيها جِبالًا ثابتةً، وأنهارًا جاريةً[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الأنهارَ؛ ذكَرَ ما ينشأُ عن المياهِ، فقال[٤]:

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

أي: ومِن جميعِ الثَّمَراتِ جعل اللهُ في الأرضِ صِنفَينِ اثنينِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٣، ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥)، ((تفسير السعدي))

كما قال الله سبحانَه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [ق: ٧].

﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾.

أي: يغطِّي اللهُ باللَّيلِ النَّهارَ، ويغَطِّي بالنَّهارِ اللَّيلَ، فيجعلُ كلًّا منهما ساتِرًا للآخَرِ[(١)].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: إنَّ فيما ذكرتُه لكم من عجائبِ مَخلوقاتي لدَلالاتٍ وعَلاماتٍ لِقَومٍ يتفكَّرونَ فيها، فيستدِلُّونَ بها على وحدانيَّةِ الله تعالى وكمالِ صِفاتِه، ومن ذلك

(ص: ٤١٢).

قال الرازي: (المرادُ بـ﴿زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾: صِنفينِ اثنينِ، والاختلافُ إمَّا مِن حيثُ الطَّعمُ، كالحُلوِ والحامضِ، أو الطَّبيعةُ، كالحارِّ والباردِ، أو اللونُ، كالأبيضِ والأسودِ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٧). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

قال الشنقيطي: (﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾... معناه: يجعلُ الليلَ مُغْشِيًا للنهارِ، أي: مُغَطِّيًا ضوءَ النهارِ بظلامِه، يذهبُ بضوءِ النهارِ ويغطي ضوءَه بظلامِ الليلِ، وهذا من غرائبِ صنعِه وعجائبِ آياتِه، وفي الآيةِ محذوفٌ دَلَّ المقامُ عليه، أي: وَيُغْشِي النهارَ الليلَ أيضًا، فيأتِي ضوءُ النهارِ، ويغْشَى ظلامَ الليلِ فيُذْهِبُه، ويحلُّ محلَّه). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٨١). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٤٢).

حِكمتُه وقُدرتُه على وقوعِ البعثِ، وأنَّ العبادةَ لا تصلحُ لِغَيرِه سُبحانَه[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣ - ٦].

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾.

أي: ومِن الآياتِ على كمالِ قُدرتِه العجيبةِ وبديعِ صُنعِه وأنَّه سُبحانَه الفاعِلُ المُختارُ وَحدَه: أنْ جعَلَ في الأرضِ بقاعًا مُختلفةً في ألوانِها وأحجامِها، وأنواعِها وطبائِعِ مَنابتِها؛ فهذه- مثلًا- طَيِّبةٌ عَذبةٌ تُنبتُ ما ينفَعُ النَّاسَ، وهذه سَبِخةٌ مالِحةٌ لا تُنبِتُ شيئًا، مع كونِ تلك البقاعِ مُتجاوِرةً مُتقارِبةً[٢]!

﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ﴾.

أي: وفي الأرضِ بَساتينُ مِن أعنابٍ مُتنوِّعة، وفيها زروعٌ مُختَلِفةٌ[٣].

﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣١).

أي: وفي الأرضِ نَخيلٌ مُختلِفةٌ؛ فهناك نَخَلاتٌ يجمَعُهنَّ أصلٌ واحِدٌ في مَنبتٍ واحدٍ، وهناك نَخَلاتٌ مُتفرِّقاتٌ، كلُّ نخلةٍ منها نابتةٌ مِن أصلٍ مُستقِلٍّ(١).

﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ﴾.

أي: جميعُ ما ذكَرْناه من الجنَّاتِ والنَّخيلِ والزُّروعِ، يُسقى بماءٍ واحدٍ عذبٍ غيرِ مالحٍ(٢).

﴿وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾.

أي: ونفضِّلُ بعضَ الأعنابِ والزُّروعِ والنَّخيلِ على بعضٍ في الثَّمرِ؛ طَعمًا وشَكلًا، ولونًا ورائحةً، وأوراقًا وأزهارًا ونفعًا، مع كَونِها تُسقَى بماءٍ واحدٍ(٣)!!

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

أي: إنَّ في اختلافِ قطعِ الأرضِ المتجاوراتِ، واختلافِ ثمارِ الجنَّاتِ لعلاماتٍ واضحاتٍ ودلالاتٍ لمن كان له قلبٌ يفهمُ عن اللهِ ما أخبَر به، فمِن ذلك دلالاتُها على أنَّ الله الذي بعلمِه وقدرتِه فاوَت بينَ الأشياءِ وخلَقها على ما يشاءُ، وكما أنَّه قادرٌ على ما يريدُ مِن ابتداءِ الخلقِ ثم تنويعِه بعد إبداعِه، فهو قادرٌ أيضًا على إعادتِه بطريقِ الأوْلَى، وأيضًا فالذي خالَف بينَ تلك الأشياءِ، هو الذي خالَف بينَ خلقِه فيما قسَم لهم مِن هدايةٍ وضلالٍ وتوفيقٍ وخذلانٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٩، ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٢٩، ٤٣٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ فيه أنَّ كثرةَ الأدلَّةِ وبَيانَها ووضوحَها، مِن أسبابِ حُصولِ اليَقينِ في جميعِ الأمورِ الإلهيَّةِ، خُصوصًا في العقائدِ الكِبارِ، كالبَعثِ والنُّشورِ، والإخراجِ مِن القُبورِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ فالدَّلائِلُ المذكورةُ كما تدُلُّ على الخالقِ الحكيمِ الذي يستحقُّ العبادةَ وحدَه، فهي أيضًا تدُلُّ على صِحَّةِ القَولِ بالحَشرِ والنَّشرِ؛ لأنَّ مَن قدَرَ على خَلقِ هذه الأشياءِ وتَدبيرِها على عَظَمتِها وكَثرتِها، فلَأنْ يقدِرَ على الحَشرِ والنَّشرِ كان أوْلَى[٢].

٢- قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، فيه دليلٌ على رؤيةِ اللهِ تعالى؛ فقد أجمَع أهلُ اللسانِ على أنَّ اللقاءَ متى نُسِب إلى الحيِّ السليمِ مِن العمَى والمانعِ اقتضَى المعاينةَ والرؤيةَ[٣].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ ذِكرُ اللَّيلِ والنَّهارِ مع آياتِ العالَمِ السُّفليِّ في غايةِ الدِّقَّةِ العِلميَّةِ؛ لأنَّهما مِن أعراضِ الكُرةِ الأرضيَّةِ بحسَبِ اتِّجاهِها إلى الشَّمسِ، وليسا مِن أحوالِ السَّمواتِ؛ إذ الشَّمسُ والكواكبُ لا يتغيَّرُ حالُها بضياءٍ وظُلمةٍ[٤]، وقيل: عدَّ هذا في تَضاعيفِ الآياتِ السُّفليَّةِ وإنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (١/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٤).

كانَ تعلُّقُه بالآياتِ العُلْويَّةِ ظاهرًا، باعتبارِ أنَّ ظُهورَه في الأرضِ؛ فإنَّ اللَّيلَ إنَّما هو ظِلُّها، وفيما فوقَ مَوقِعِ ظِلِّها لا ليلٌ أصلًا، ولأنَّ اللَّيلَ والنَّهارَ لهما تعلُّقٌ بالثَّمراتِ مِن حيثُ العَقْدُ والإنضاجُ، على أنَّهما أيضًا زوجانِ مُتقابِلانِ مثلَها[١].

٤- في قول الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، هذه الآيةُ تقتضي أنَّ كلَّ ثمرةٍ موجودٌ منها نوعانِ، فإن اتَّفق أن يوجدَ في ثمرةٍ أكثرُ مِن نوعينِ فغيرُ ضارٍّ في معنى الآيةِ[٢]، فإنْ قِيل: فلم خصَّ ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ بالذكرِ، وإنْ كان مِن أجناسِ الثِّمارِ ما يزيدُ على ذلك؟ فالجواب: لأنَّه الأقلُّ، إذ لا نوعَ تنقصُ أصنافُه عن اثنينِ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ قيَّدَ مِن الأرضِ في هذا المثالِ ما جاورَ وقَرُبَ بعضُه مِن بعضٍ؛ لأنَّ اختلافَ ذلك في الأكلِ أغرَبُ[٤].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ فيه دليلٌ على بُطلانِ قَولِ الطَّبائعيِّينَ[٥]؛ لأنَّه لو كان حدوثُ الثَّمَرِ مِن طَبعِ الأرضِ، والهواءِ والماءِ، وجبَ أن يتَّفِقَ ما يحدُثُ؛ لاتِّفاقِ ما أوجبَ الحُدوثَ، فلمَّا وقع الاختلافُ، دلَّ على مدبِّرٍ قادرٍ[٦]، فاعِلٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٣).
(٥) الطَّبائعيُّونَ: نسبة إلى الطَّبائعِ، وهم القائلون بتأثيرِ الطبيعةِ في الإيجادِ والتَّدبيرِ، ومن ذلك قولُهم: إنَّ النارَ بطَبعِها مُحرِقة، وإنَّ الماءَ بطَبعِه مُغرِق. يُنظر: ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) للشهرستاني (٥/ ١١٥)، ((شرح الشفا)) للقاري (٢/ ٥١٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨٢).

مُختارٍ، يفعلُ ما يشاءُ، كيفَ يشاءُ، سبحانَه، جَلَّ وعَلَا عَنِ الشُّركاءِ والأندادِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ دَلالةٌ على تَفضيلِه سُبحانَه بعضَ المَخلوقاتِ على بعضٍ، مع استوائِها فيما تساوَت فيه مِن الأسبابِ[٢].

٨- قال الحسنُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ ...﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: (هذا مَثَلٌ ضرَبَه اللَّهُ تعالى لقُلوبِ بني آدمَ؛ كانتِ الأرضُ طينَةً واحدةً فسَطَحَها، فصارت قِطَعًا مُتجاوراتٍ، فنزَلَ عليها ماءٌ واحدٌ مِن السَّماءِ، فتُخرِجُ هذه زَهرةً وثمَرةً، وتُخرِجُ هذه سَبَخَةً ومِلحًا وخَبَثًا. وكذلك النَّاسُ خُلِقوا مِن آدمَ، فنزَلَتْ عليهم مِن السَّماءِ تذْكِرَةٌ، فرَقَّتْ قُلوبٌ، وخشَعَت قُلوبٌ، وقَسَت قُلوبٌ، ولَهَتْ قُلوبٌ)[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ في إسنادِ الإنزالِ إليه بصِيغَةِ المَبْنيِّ للمفعولِ والتَّعرُّضِ لوصْفِ الرُّبوبيَّةِ مُضافًا إلى ضميرِه عليه السَّلامُ: دلالةٌ على فَخامةِ المُنْزَلِ التَّابعةِ لجَلالةِ شأْنِ المُنْزِلِ وتشْريفِ المُنْزَلِ إليه، وإيماءٌ إلى وجْهِ بِناءِ الخبَرِ[٤]. وقيل: الإتيانُ بـ﴿رَّبِّكَ﴾ دون اسمِ الجَلالةِ؛

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٢).
(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٣٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢).

للتَّلطُّفِ[١].

- وأخبَرَ عنِ الَّذي أُنْزِلَ بأنَّه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ بصيغةِ القَصْرِ، أي: هو الحقُّ لا غيرُه مِن الكُتُبِ، فالقَصْرُ إضافيٌّ[٢] بالنِّسبةِ إلى كُتُبٍ معلومةٍ عندَهم، أو القصْرُ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ[٣]؛ مُبالغَةً لعَدَمِ الاعتدادِ بغيرِه مِن الكُتُبِ السَّابقةِ، أي: هو الحقُّ الكاملُ؛ لأنَّ غيرَه مِن الكُتُبِ لم يستكمِلْ مُنتهَى مُرادِ اللَّهِ مِن النَّاسِ؛ إذ كانتْ درجاتٍ مُوصِلةً إلى الدَّرجةِ العُليا[٤].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ هذه الجُملةُ كالحُجَّةِ على الجُملةِ الأُولى، وتعريفُ الخبَرِ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وإنْ دلَّ على اختصاصِ المُنْزَلِ بكونِه حقًّا، فهو أعمُّ مِن المُنْزَلِ صريحًا أو ضِمنًا، كالمُثْبَتِ بالقياسِ وغيرِه ممَّا نطَقَ المُنْزِلُ بحُسْنِ اتِّباعِه[٥].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استدراكٌ، وهو راجعٌ إلى ما أفادَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧٩).

(٢) القصرُ- في اصطلاحِ البلاغيينَ-: هو تخصيصُ شيءٍ بشيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأوَّلُ: مقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، وما ضربتُ إلَّا زيدًا.
والقصرُ الإضافيُّ: أن يكون المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدمِ صحةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنما هو قصر بالإضافة إلى موضوعٍ خاصٍّ يدورُ حولَ احتمالينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويستدلُّ عليها بالقرائنِ. مثل: قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) القصر الادِّعائي: هو ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالغةِ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدمِ، وقصرُ الشيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧٨- ٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٠).

القَصْرُ مِن إبطالِ مُساواةِ غيرِه له في الحَقِّيَّةِ إبطالًا يقتضي ارتفاعَ النِّزاعِ في أحقِّيَّتِه، وابتداءُ السُّورةُ بهذا تنويهٌ بِما في القُرآنِ- الَّذي هذه السُّورةِ جزءٌ منه- مقصودٌ به تهيئَةُ السَّامِعِ للتَّأمُّلِ ممَّا سَيَرِدُ عليه مِن الكلامِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ هو ابتداءُ المقْصودِ مِن السُّورةِ، وما قبلَه بمنزِلَةِ الدِّيباجَةِ مِن الخُطبةِ؛ ولذا طالَ الكلامُ واطَّرَدَ في هذا الغَرَضِ[٢].

- وفيه الافتِتاحُ باسمِ الجَلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ دون الضَّميرِ الَّذي يعودُ إلى ﴿رَّبِّكَ﴾؛ لأنَّه مُعَيَّنٌ به لا يشتَبِه غيرَه مِن آلهتِهم؛ ليكونَ الخبَرُ المقصودُ جاريًا على مُعَيَّنٍ لا يحتمِلُ غيرَه؛ إبلاغًا في قطْعِ شائبةِ الإشراكِ. و﴿ٱلَّذِى رَفَعَ﴾ هو الخبَرُ، وجُعِلَ اسمَ موصولٍ؛ لكونِ الصِّلةِ معلومةَ الدَّلالةِ على أنَّ مَن تثبُتُ له هو المُتَوحِّدُ بالرُّبوبيَّةِ؛ إذ لا يستطيعُ مثلَ تلك الصِّلةِ غيرُ المُتَوحِّدِ، ولأنَّه مُسَلَّمٌ له ذلك[٣]. وعلى القولِ بأنَّ جُمْلتي ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ خَبَرانِ عن قولِه: ﴿ٱللَّهُ﴾ خبرًا بعد خبَرٍ؛ فالموصولُ ﴿ٱلَّذِى﴾ صفةٌ للمُبتدأِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ جيءَ به للدَّلالةِ على تحقيقِ الخبَرِ، وتعظيمِ شأْنِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣).

- وقولُه: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ استئنافٌ استُشْهِدَ به على ما ذُكِرَ مِن رفْعِ السَّمواتِ بغيرِ عَمَدٍ[١].

- وعلى القولِ بالاستئنافِ فيكونُ في قولِه تعالى: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ فنٌّ رفيعٌ مِن فُنونِ البَلاغةِ، وهو نَفْيُ الشَّيءِ بايجابِه، أي: رفَعَ السَّمواتِ خاليةً مِن العَمَدِ، فالوجْهُ انتِفاءُ العَمَدِ والرُّؤيةِ جميعًا؛ فلا رُؤيةَ ولا عَمَدَ[٢].

- قولُه: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فيه التَّعبيرُ بالجَرَيانِ عنِ السَّيرِ الَّذي فيه سُرْعةٌ[٣].

- وفيه مُناسَبَةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا في سُورةِ (الرَّعدِ): ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وفي سُورةِ (لُقمانَ) قال: ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ [لقمان: ٢٩]، فعبَّرَ بـ (إلى) ولا ثانِيَ له؛ وذلك لأنَّه يُقالُ في الزَّمانِ: جَرَى ليومِ كذا، وإلى يومِ كذا، والأكثرُ اللَّامُ، كما في هذه السُّورةِ وسُورةِ (فاطرٍ): ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وكذلك في (يس): ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨]؛ لأنَّه بمنزِلةِ التَّاريخِ، وأمَّا في سُورةِ (لُقمانَ) فوافَقَ ما قبلَها، وهو قولُه: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٢]، والقِياسُ (للَّهِ) كما في قولِه: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، لكنَّه حُمِلَ على المعنى، أي: يقصِدُ بطاعتِه إلى اللَّهِ، وكذلك ﴿يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]، أي: يجْري إلى وقتِه المُسمَّى له[٤].

- قولُه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ الَّذي تقْتَضيه الفَصاحةُ أنَّ هاتينِ الجُمْلتينِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٤٥).
(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥١).

استِئنافُ إخبارٍ عنِ اللَّهِ تعالى[١]، وجُملةُ ﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ تُرِكَ عطْفُها على الَّتي قبلَها؛ لتكونَ على أسلوبِ التَّعْدادِ والتَّوقيفِ؛ وذلك اهتمامٌ باستقْلالِها[٢].

- وفيه مُناسَبة حَسَنةٌ، حيث صِيغَ ﴿يُدَبِّرُ﴾ و﴿يُفَصِّلُ﴾ بالمُضارعِ، على عكْسِ قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّ التَّدبيرَ والتَّفصيلَ مُتَجدِّدٌ مُتكرِّرٌ بتجدُّدِ تعلُّقِ القُدرةِ بالمقْدوراتِ، وأمَّا رفْعُ السَّمواتِ وتسخيرُ الشَّمسِ والقمرِ فقد تمَّ واستقرَّ دُفعةً واحدةً[٣].

- قولُه: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ مِن إدماجِ غرَضٍ في أثناءِ غرَضٍ آخرَ؛ لأنَّ الكلامَ جارٍ على إثباتِ الوحدانيَّةِ، وفي أدلَّةِ الوحدانيةِ دَلالةٌ على البعْثِ أيضًا[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ فبيْنَ الجُملتينِ شِبْهُ التَّضادِّ؛ حيث اشتملتِ الأُولى على ذِكْرِ العَوالِمِ العُلويَّةِ وأحوالِها، واشتملتِ الثَّانيةُ على ذِكْرِ العَوالِمِ السُّفليَّةِ، والمعنى: أنَّه خالقُ جميعِ العَوالِمِ وأعراضِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٢).

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جِبالًا ثوابتَ في أحْيازِها؛ مِن الرَّسْوِ، وهو ثباتُ الأجسامِ الثَّقيلةِ، ولم يذْكُرِ الموصوفَ (الجبالَ)؛ لظُهورِه، ولإغْناءِ غلَبَةِ الوصفِ بها عن ذلك، والتَّعبيرُ عنِ الجبالِ بهذا العُنوانِ؛ لبيانِ تفرُّعِ قَرارِ الأرضِ على ثباتِها[١].

- قولُه: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ فيه تنْكيرُ ﴿زَوْجَيْنِ﴾؛ للتَّنويعِ، أي: جعَلَ زوجَينِ مِن كلِّ نوعٍ، ومعنى التَّثْنيةِ في ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أنَّ كلَّ فرْدٍ مِن الزَّوجِ يُطْلَقُ عليه زوجٌ، والوصفُ بقولِه: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾؛ للتَّأكيدِ؛ تحقيقًا للامْتِنانِ[٢]؛ فأكَّدَ به الزَّوجينِ لئلَّا يُفْهَمَ أنَّ المُرادَ بذلك الشَّفْعانِ؛ إذ يُطْلَقُ الزَّوجُ على المجْموعِ، ولكنِ اثْنَيْنِيَّةُ ذلك اثْنَيْنِيَّةٌ اعتِباريَّةٌ، أي: جعَلَ مِن كلِّ نوعٍ مِن أنواعِ الثَّمراتِ الموجودةِ في الدُّنيا ضَرْبَينِ صِنْفَينِ[٣].

- وجيءَ بالفِعْلِ ﴿يُغْشِي﴾ بصِيغَةِ المُضارعِ؛ لِما يدُلُّ عليه مِن التَّجدُّدِ؛ لأنَّ جَعْلَ الأشياءِ المُتقدِّمِ ذِكْرُها جَعْلٌ ثابتٌ مُستمِرٌّ، وأمَّا إغْشاءُ اللَّيلِ والنَّهارِ فهو أمْرٌ مُتجدِّدٌ كلَّ يومٍ وليلةٍ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في الإشارةِ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ تنْبيهٌ على عِظَمِ شأْنِ المُشارِ إليه في بابِه[٥].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ جعَلَ الأشياءَ المَذْكوراتِ ظُروفًا لـ (آيَاتٍ)؛ لأنَّ كلَّ واحدةٍ مِن الأمورِ المَذْكورةِ تتضمَّنُ آياتٍ عظيمةً،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤).

وأجْرى صِفَةَ التَّفكيرِ على لفظِ (قَوْم)؛ إشارةً إلى أنَّ التَّفكيرَ المُتكرِّرَ المُتجدِّدَ هو صِفَةٌ راسِخةٌ فيهم، بحيث جُعِلَتْ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم، أي: جِبِلَّتِهم، وجيءَ في التَّفكيرِ بالصِّيغةِ الدَّالَّةِ على التَّكلُّفِ (تَفَعَّل) وبصيغةِ المُضارعِ؛ للإشارةِ إلى تفْكيرٍ شديدٍ ومُكرَّرٍ[١].

- وخَصَّ المتفكِّرينَ؛ لأنَّ ما احتوَت عليه هذه الآياتُ مِن الصَّنيعِ العَجيبِ، لا يُدرَكُ إلَّا بالتفكُّرِ[٢].

- وفي خِتامِ هذه الآيةِ بقولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ مُناسَبَةٌ حَسَنةٌ، وقد ختَمَ الآيةَ الَّتي بعدَها بقولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ في قولِه: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ فقال في الأُولى: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾، وفي الآيةِ الَّتي بعدَها: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ وذلك أنَّ التَّفكُّرَ هو المُؤدِّي إلى مَعرفةِ الشَّيءِ، والعِلْمِ بالآياتِ الَّتي تدُلُّ على وَحدانيَّةِ اللَّهِ تعالى، فهو قَبْلُ؛ فإذا استُعْمِلَ على وجْهِه عقَل ما جُعِلَت هذه الأشياءُ أَمَارَةً له، ودَلالةً عليه؛ فبُدِئَ في الأوَّلِ بما يُحْتاجُ إليه أوَّلًا مِن التَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ المُفْضِيَيْنِ بصاحِبِهما إلى إدراكِ المطلوبِ، وخُصَّ الآخَرُ بما يستقِرُّ عليه آخِرُ التَّفكُّرِ مِن سُكونِ النَّفْسِ إلى عِرفانِ ما دلَّتِ الآياتُ عليه، فكان في تقْديمِ ما قُدِّمَ وتأْخيرِ ما أُخِّرَ إشارةٌ إليه[٣]؛ فختَمَ الآيةَ هنا بـ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾، وختَمَها بعدُ بـ﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٨١٢-٨١٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٦).

التَّفكُّرَ في الشَّيءِ سببٌ لِتعقُّلِه، والسَّببُ مُقدَّمٌ على المُسبَّبِ، فناسَبَ تقدُّمُ التَّفكُّرِ على التَّعقُّلِ[١]. وأيضًا لمَّا كان الاستدلالُ في الآيةِ الثَّانيةِ بأشياءَ في غايَةِ الوضوحِ مِن مُشاهدَةِ تجاوُرِ القِطَعِ، والجنَّاتِ وسَقْيِها وتفْضيلِها، جاء ختْمُها بقولِه: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، بخلافِ هذه الآيةِ الَّتي قبلها؛ فإنَّ الاستدلالَ بها يَحتاجُ إلى تأمُّلٍ ومَزيدِ نظَرٍ؛ فجاءَ ختْمُها بقولِه: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

وقيل: إنَّ مُعْتَبَراتِ الآيةِ الأُولى مِن مَدِّ الأرضِ وما ذُكِرَ بعدَ ذلك أوضحُ للاعتِبارِ، ومُعْتَبَراتِ الثَّانيةِ أغمضُ، فتجاوُرُ قِطَعِ الأرضِ وتقارُبُها في الصِّفاتِ والهيْئاتِ مِن سَهْلٍ وحَزْنٍ، ثمَّ تُخْرِجُ أنواعَ الجنَّاتِ مِن النَّخلِ والأعنابِ وضُروبِ الأشجارِ والنَّباتِ والزَّرعِ، واختلافُ الطُّعومِ في ثَمَراتِها والألوانِ والرَّوائحِ، وتفاوتُ الطِّيبِ والمنافعِ الحاصِلةِ عن ذلك؛ مِن غِذاءٍ ودواءٍ نافعٍ وضارٍّ، مع تقارُبِ الأرضِ وتجاوُرِها وتشاكُلِها وسَقْيِها بماءٍ واحدٍ، كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]، وهذا ممَّا تنقطِعُ الأفكارُ وتقصُرُ العُقولُ عن عَجيبِ الصُّنعِ الرَّبانيِّ فيه، وأمَّا مُعْتَبَراتُ الأُولى فيُتَوصَّلُ بالفِكرِ إلى الحُصولِ على الاعتِبارِ بها وتعقُّلِها وعجيبِ الحِكمةِ فيها، وغُموضُ ما في الثَّانية بادٍ، ولا يُتَوصَّلُ إلى بعضِ ذلك إلَّا بعدَ طُولِ الاعتِبارِ والتَّأْييدِ منه سبحانه والتَّوفيقِ؛ فلمَّا كان العَقلُ أشرفَ وأعلى ناسَبَه أنْ يُتْبَعَ به ما هو أغمَضُ وأخْفى، وناسَبَ الفِكرَ ما هو أظهَرُ وأجْلى؛ فقيل في عَقِبِ الآيةِ الأُولى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وفي عَقِبِ الآيةِ الثَّانيةِ: ﴿لِّقَوْمٍ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٠).

يَعۡقِلُونَ ﴾، ولو ورَدَ العكْسُ لم يكُنْ ليُناسِبَ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ ﴾ فيه إعادةُ اسمِ الأرضِ الظَّاهرِ دون ضَميرِها الَّذي هو المُقْتَضى؛ لِيستقِلَّ الكلامُ، ويتجدَّدَ الأُسلوبُ، وأصلُ انتظامِ الكلامِ أنْ يُقال: (جعَلَ فيها زوجينِ اثنينِ، وفيها قِطَعٌ مُتجاوراتٌ)؛ فعدَلَ إلى هذا تَوضيحًا وإيجازًا، والاقتِصارُ على ذِكْرِ الأرضِ وقِطَعِها يشيرُ إلى اختلافٍ حاصِلٍ فيها عن غيرِ صُنْعِ النَّاسِ؛ وذلك اختلافُ المَراعي والكلأ[٢].

- قولُه: ﴿ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ ﴾ ليس وَصْفُ القِطَعِ بـ ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٞ ﴾ مقْصودًا بالذَّاتِ في هذا المَقامِ؛ إذ ليس هو مَحَلَّ العِبرَةِ بالآياتِ، بلِ المقْصودُ وَصْفُ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ، تقديرُه: مُختلِفاتُ الألوانِ والمَنابتِ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِ ﴾، وإنَّما وُصِفَت بـ ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٞ ﴾؛ لأنَّ اختلافَ الألوانِ والمَنابتِ مع التَّجاوُرِ أشدُّ دَلالةً على القُدرةِ العظيمةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ ﴾، ﴿وَزَرۡعٞ ﴾، أي: مِن كلِّ نوعٍ مِن أنواعِ الحُبوبِ، وإفرادُه لمُراعاةِ أصْلِه (لأنَّه مصْدرٌ في أصْلِه)، ولعلَّ تقْديمَ ذِكْرِ الجنَّاتِ عليه مع كونِه عَمودَ المَعاشِ؛ لظُهورِ حالِها في اختلافِها ومُباينَتِها لِسائرِها، ورُسوخِ ذلك فيها. وتأْخيرُ ﴿وَنَخِيلٞ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴾؛ لئلا يقَعَ بينها وبين صِفَتِها ﴿صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾ فاصِلَةٌ[١]. وخُصَّ النَّخلُ بذِكْرِ صِفَةِ ﴿صِنۡوَانٞ﴾؛ لأنَّ العِبرَةَ بها أقْوى، ووجْهُ زيادةِ ﴿وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾ تجْديدُ العِبرَةِ باختلافِ الأحوالِ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾ النَّصُّ على الصِّنْوانِ؛ لأنَّها بمِثالِ التَّجاوُرِ في القِطَعِ، فظهَرَ فيها غَرابَةُ اختلافِ الأُكُلِ[٣].

- قولُه: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِ﴾ خُصَّ التَّفضيلُ في الأكُلِ وإن كانت متفاضِلةً في غيرِه؛ لأنَّه غالِبُ وُجوهِ الانتفاعِ مِن الثَّمَراتِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ وهذه الأحوالُ وإنْ كانت هي الآياتِ أنْفُسَها لا أنَّها فيها، إلَّا أنَّه قد جُرِّدَت عنها أمثالُها؛ مُبالَغةً في كونِها آيةً، فـ (في) تجْريديَّةٌ مثْلها في قولِه تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾، وحيث كانت دلالةُ هذه الأحوالِ على مَدْلولاتِها أظْهَرَ ممَّا سَبَقَ، عُلِّقَ كونُها آياتٍ بمَحْضِ التَّعقُّلِ؛ ولذلك لم يُتَعَرَّضْ لغيرِ تفضيلِ بعضِها على بعضٍ في الأُكُلِ الظَّاهرِ لكلِّ عاقلٍ، مع تحقُّقِ ذلك في الخَواصِّ والكيفيَّاتِ ممَّا يتوقَّفُ العُثورُ عليه على نوعِ تأمُّلٍ وتفكُّرٍ؛ كأنَّه لا حاجةَ في ذلك إلى التَّفكُّرِ أيضًا. وفيه تعريضٌ بأنَّ المُشركينَ غيرُ عاقِلينَ[٥]؛ فجاءت هذه الجُملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ مَجيءَ التَّذييلِ، ووصَفَت الآياتِ بأنَّها مِن اختِصاصِ الَّذين يعقِلونَ؛ تعْريضًا بأنَّ مَن لم تُقْنِعْهم تلك الآياتُ مُنَزَّلونَ مَنزلَةَ مَن لا يعقِلُ، وَزِيدَ في الدَّلالةِ على أنَّ العقْلَ سَجِيَّةٌ للَّذين انتفعوا بتلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٧)، ويُنظر كذلك: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٤٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥).

الآياتِ بإجْراءِ وَصْفِ العقْلِ على كلمةِ ﴿لِّقَوْمٍ﴾؛ إيماءً إلى أنَّ العقْلَ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٨).

الآيات (٥-٧)

﴿ ۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٖ ٧ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾: جمعُ غُلٍّ، والغُلُّ: مختصٌّ بما يُقيَّدُ به فيجعلُ الأعضاءَ وسطَه، أو: هو طوقٌ تشدُّ به اليدُ إلى العنقِ، أو حَلْقَةٌ مِنْ حديدٍ أو غيرِه تُحيطُ بالعنقِ تُناطُ بها سلسلةٌ مِنْ حديدٍ، وأصلُ (غلل): تدرُّعُ الشيءِ وتوسُّطُه[1].

﴿خَلَتۡ﴾: أي: مَضَت وذَهبَت، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تعرِّي الشَّيءِ مِن الشَّيءِ[2].

﴿ٱلۡمَثُلَٰتُ﴾: أي: العُقوباتُ النازلةُ على أمثالِهم من المكَذِّبينَ، وأصلُ (مثل): يدلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وإن تعجَبْ -يا مُحمَّدُ- مِن عدَمِ إيمانِ قَومِك بعدَ هذه

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

الأدلَّةِ، فالعجَبُ الأشدُّ قَولُهم: أئذا مِتْنا وكُنَّا تُرابًا نُبعَثُ مِن جديدٍ؟! أولئك هم الكافرون برَبِّهم الذي أوجَدَهم من العَدَمِ، وأولئك تكونُ أطواقُ الحديدِ في أعناقِهم يومَ القيامةِ، وأولئك أصحابُ النَّارِ لا يَخرُجونَ منها أبدًا. ويَستعجِلُك الكُفَّارُ بالعذابِ، بدلَ العافيةِ والرَّحمةِ والإمهالِ؛ استهزاءً، وإنكارًا منهم وقوعَ ما تُنذِرُهم به، وقد مضَت عُقوباتُ المكَذِّبينَ مِن قَبلِهم، فكيف لا يَعتَبِرونَ بهم؟ وإنَّ رَبَّك- يا مُحمَّدُ- لَذو مغفرةٍ لذُنوبِ مَن تاب مِن النَّاسِ على ظُلمِهم، وإنَّ ربَّك لَشديدُ العِقابِ على مَن أصرَّ على الكُفرِ والضَّلالِ ومَعصيةِ الله. ويقولُ كُفَّارُ مكَّةَ: هلَّا جاءتْه مُعجزةٌ مِن رَبِّه، وليس ذلك بيَدِك؛ فما أنت إلَّا منذرٌ لقَومِك؛ تحذِّرُهم مِن عِقابِ اللهِ، ولكُلِّ أمَّةٍ رَسولٌ يُرشِدُهم ويدعوهم إلى اللهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ الدَّلائِلَ القاهِرةَ على ما يُحتاجُ إليه في مَعرفةِ المَبدأِ؛ ذكَر بعدَه مَسألةَ المعادِ[1].

وأيضًا لما قضَى حقَّ الاستدلالِ على الوحدانيةِ؛ نقَل الكلامَ إلى الردِّ على مُنكري البعثِ، وهو غرضٌ مستقلٌّ مقصودٌ مِن هذه السورةِ، وقد أُدْمِج ابتداءً خلالَ الاستدلالِ على الوحدانيةِ، بقولِه: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ تمهيدًا لما هنا، ثم نقَل الكلامَ إليه باستقلالِه، بمناسبةِ التدليلِ على عظيمِ القدرةِ، مستخرجًا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٨).

مِن الأدلةِ السابقةِ عليه أيضًا[١].

وأيضًا لَمَّا ثبَتَ قَطعًا بما أقام سُبحانَه وتعالى من الدَّليلِ على عظيمِ قُدرتِه، وبما أودَعَه مِن الغرائبِ في مَلَكوتِه التي لا يَقدِرُ عليها سِواه- أنَّ هذا إنَّما هو فِعلُ واحدٍ قَهَّارٍ مُختارٍ يُوجِدُ المَعدومَ، ويُفاوِتُ بين ما تقتَضي الطَّبائعُ اتِّحادَه؛ كان إنكارُ شَيءٍ مِن قُدرتِه عَجبًا، فقال عطفًا على قَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾-مشيرًا إلى أنَّهم يقولونَ: إنَّ الوعدَ بالبَعثِ سِحرٌ لا حقيقةَ له[٢]-:

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾.

أي: وإنْ تَعجَبْ- يا مُحمَّدُ- مِن عبادةِ المُشرِكينَ آلهةً لا تضُرُّ ولا تنفَعُ، بعدَما رأَوا مِن آثارِ قُدرةِ اللهِ العظيمةِ ما رأَوْا؛ مِن خَلْقِه الأشياءَ التي تقدَّمَ ذِكرُها؛ فالعجَبُ مِن إنكارِهم البعثَ بقَولِهم: أئِذا صِرْنا تُرابًا بعد مَوتِنا، أئِنَّا لمبعوثونَ خَلقًا جديدًا كما كنَّا في الدُّنيا[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨٢).

وهذا المعنى المذكورُ للتعجبِ الأولِ هو في الجملةِ اختيارُ ابنِ جريرٍ، والواحديِّ، وابنِ الجوزي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: وإن تَعجَبْ مِن قَولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ فعَجَبٌ قَولُهم! كيف يُنكِرونَ هذا وقد اعتَرَفوا وشاهَدوا ما هو أعجبُ مِمَّا كَذَّبوا به، وقد عَلِمَ كُلُّ عالمٍ وعاقلٍ أنَّ خَلقَ السَّمواتِ والأرضِ أكبَرُ مِن خَلقِ النَّاسِ، وأنَّ مَن بدأ الخلقَ فالإعادةُ سَهلةٌ عليه؟! وممَّن اختار هذا القَولَ: الزجَّاج، والزمخشري، وابن كثير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٢).

وقيل: المعنى: وإن تَعجَبْ- يا مُحمَّدُ- مِن تَكذيبِهم لك بعد ما كنتَ عِندَهم الصَّادِقَ الأمينَ، فأعجَبُ منه تكذيبُهم بالبَعثِ. وممَّن اختار هذا المعنى: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨١).

قال السَّعدي: (يَحتمِلُ أنَّ معنى قَولِه: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ﴾ مِن عَظَمةِ اللهِ تعالى، وكثرةِ أدِلَّةِ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا حكَى اللَّهُ سبحانَه عنهم قَوْلَهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾؛ حَكَم عليهم بأمورٍ ثلاثةٍ[1]، فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾.

أي: أولئك- البَعيدونَ عن كُلِّ خيرٍ ممَّن يُنكِرونَ البَعثَ بعد الموتِ- قد وقَعوا بذلك في الكُفرِ باللهِ تعالى، حيثُ أنكَروا قُدرةَ الرَّبِّ الذي خلَقَهم ويَملِكُهم، ويدَبِّرُ أمورَهم، وكذَّبوا رسلَه[2].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لمَّا حكَمَ عليهم بالكُفرِ في الدُّنيا ذكَرَ ما يَؤُولونَ إليه في الآخِرةِ على سبيلِ

توحيدِه؛ فإنَّ العَجَبَ- مع هذا- إنكارُ المكَذِّبينَ، وتكذيبُهم بالبَعثِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣). ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (الفِعلُ الواقِعُ في سِياقِ الشَّرطِ لا يُقصَدُ تَعلُّقُه بمعمولٍ معيَّنٍ، فلا يُقدَّرُ: إن تعجَبْ مِن قَولٍ أو إنْ تعجَبْ مِن إنكارٍ، بل يُنزَّلُ الفِعلُ مَنزلةَ اللازمِ، ولا يُقدَّرُ له مفعولٌ، والتقديرُ: إن يكُنْ مِنك تعجُّبٌ فاعجَبْ مِن قَولِهم... إلخ، على أنَّ وقوعَ الفِعلِ في سياقِ الشَّرطِ يُشبِهُ وقوعَه في سياقِ النَّفيِ، فيكونُ لعُمومِ المفاعيلِ في المقامِ الخِطابيِّ، أي: إن تعجَبْ مِن شَيءٍ فعجَبٌ قَولُهم. ويجوزُ أن تكونَ جملةُ: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ ...﴾ عطفًا على جملةِ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]، فالتَّقديرُ: إن تعجَبْ من عدمِ إيمانِهم بأنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ من اللهِ، فعجَبٌ إنكارُهم البعثَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٩، ٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣).

الوعيدِ[١].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ﴾.

أي: وهم الذين في أعناقِهم أطواقٌ مِن حديدٍ، يومَ القيامةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ * إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ * فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾[غافر: ٧٠ - ٧٢].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: وأولئك سُكَّانُ النَّارِ، هم ماكِثونَ فيها، لا يَخرُجونَ منها أبدًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٢- ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٥٩).

وتفسيرُ الأغلالِ بأنَّها أغلالُ يومِ القيامةِ، نسَبه ابنُ الجوزي للأكثرين. ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨٢).

وقيل: المرادُ بالأغلالِ هنا: الأعمالُ. وممَّن ذهَب إلى ذلك: الزجاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٣/ ١٣٩).

وقيل: المرادُ بالأغلالِ: الأعمالُ، والتي هي أيضًا مؤديةٌ إلى كونِ الأغلالِ في أعناقِهم يومَ القيامة؛ لأنَّ قولَك للرجلِ: هذا غلٌّ في عنقِك؛ للعملِ السيئِ، معناه أنَّه لازمٌ لك، وأنَّكَ مُجازًى عليه بالعذابِ يومَ القيامةِ. ((المصدر السابق)).

وقيل: المرادُ بالأغلالِ هنا: أنهم مقيَّدون بالضلالِ، ممنوعونَ مِن الإيمانِ، فلا يُرجَى خلاصُهم؛ عقوبةً لهم؛ لكونِهم لم يُؤمنوا بالحقِّ أوَّلَ مرةٍ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: البيضاويُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣).

قال القاسمي: (﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ﴾...؛ لأنهم غلُّوا أفكارَهم عن النظرِ في هذه الأمورِ، كما جعَلوا خالقَهم مغلولَ القدرةِ على ذلك). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣).

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يهَدِّدُ المشركين تارةً بعذابِ القِيامةِ، وتارةً بعذابِ الدُّنيا، والقومُ كلَّما هدَّدَهم بعذابِ القيامةِ أنكَروا القيامةَ والبعثَ، والحَشرَ والنَّشرَ، وكُلَّما هدَّدَهم بعذابِ الدُّنيا، طلَبوا منه إظهارَه وإنزالَه؛ على سبيلِ الطَّعنِ فيه، وإظهارِ أنَّ الذي يقولُه كلامٌ لا أصلَ له؛ فلهذا السَّبَبِ حكى اللهُ عنهم أنَّهم يستعجِلونَ الرَّسولَ بالسَّيِّئةِ قبلَ الحَسَنةِ[1].

وأيضًا لَمَّا تضَمَّنَت الآيةُ السابقةُ إثباتَ القُدرةِ التَّامَّةِ، مع ما سبقَ مِن أدِلَّتِها المحسوسةِ المُشاهَدةِ؛ كان أيضًا من العجَبِ العَجيبِ والنَّبأِ الغريبِ استهزاؤُهم بها، فقال مُعَجِّبًا منهم[2]:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

أي: ويطلُبُ منك كفَّارُ قَومِك -يا محمَّدُ- استخفافًا واستهزاءً؛ أن تُعَجِّلَ لهم العذابَ قبلَ أن يَطلُبوا العافيةَ والإمهالَ، وذلك لشدَّةِ كُفرِهم وتكذيبِهم وعِنادِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٤، ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣).

قال ابن عاشور: (والسَّيِّئة: الحالةُ السَّيِّئة. وهي هنا المصيبةُ التي تسوءُ مَن تحُلُّ به. والحسَنةُ ضِدُّها، أي: إنَّهم سألوا مِن الآياتِ ما فيه عذابٌ بسُوءٍ، كقولهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] دونَ أن يسألوا آيةً مِن الحَسَناتِ؛ فهذه الآيةُ نزلت حكايةً لبعضِ أحوالِ سُؤَّالِهم الظَّانِّينَ أنَّه تعجيزٌ، والدالِّينَ به على التهكُّمِ

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر: ٦-٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٤].

وقال جلَّ ثناؤُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٧، ٨].

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾.

أي: يَستعجِلونَك بالعذابِ والحالُ أنَّهم يعلمونَ ما حلَّ بالأُمَم المكذِّبةِ مِن قَبْلِهم مِن العُقوباتِ، ولم يتَّعِظوا[1]!

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾.

بالعذابِ، وقبْليَّةُ السيئةِ قبْليَّةٌ اعتباريَّة، أي: مُختارينَ السَّيِّئَةَ دونَ الحَسَنةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٢).

وَقِيلَ: ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾: أي: قبلَ الإيمانِ الَّذي يُرْجَى به الأمانُ والحسناتُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٤).

قال الشنقيطي: (﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: قبلَ العافيةِ، وقبلَ الإيمانِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٢، ٢٢٣).

أي: وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- ذُو عَفْوٍ وتجاوزٍ وسَترٍ للنَّاسِ معَ أنَّهم يَظْلِمونَ ويُخْطِئونَ باللَّيلِ والنَّهارِ، وذلك إذا تابوا ورجَعوا إلى الله[1].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- لَشديدُ العِقابِ لمن أصرَّ على ظُلمِه، فيُعاقِبُه على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨١).

وممن اختار أنَّ هذه المغفرةَ لهم إذا تابوا: ابنُ جريرٍ، وابنُ أبي زمنين، والقرطبي، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٥)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨١).

وقيل: المرادُ بالناسِ هنا المشركونَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٩٨).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالمغفرةِ هنا إنَّما هو سترُه في الدنيا وإمهالُه: ابنُ عطيةَ، وابنُ جزي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٣).

قال ابنُ عاشور: (المَغفِرةُ هنا مُستَعملةٌ في المَغفرةِ المُوقَّتةِ، وهي التجاوُزُ عن ضراوةِ تَكذيبِهم وتأخيرُ العَذابِ إلى أجَلٍ، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٨] وقرينةُ ذلك أنَّ الكلامَ جارٍ على عذابِ الدُّنيا وهو الذي يقبَلُ التأخيرَ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]، أي: عذابِ الدُّنيا... وسياقُ الآيةِ يدُلُّ على أنَّ المرادَ بالمغفرةِ هنا التَّجاوُزُ عن المُشرِكينَ في الدُّنيا بتأخيرِ العِقابِ لهم إلى أجَلٍ أراده اللهُ، أو إلى يومِ الحِسابِ... فمَحمَلُ الظُّلمِ على ما هو المشهورُ في اصطِلاحِ القُرآنِ مِن إطلاقِه على الشِّركِ، ويجوزُ أن يُحمَلَ الظُّلمُ على ارتِكابِ الذُّنوبِ بقرينةِ السِّياقِ، كإطلاقِه في قَولِه تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]؛ فلا تعارُضَ أصلًا بين هذا المَحمَلِ وبينَ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] كما هو ظاهِرٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٣).

قال ابن جزي: (﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ يريدُ: سترَه وإمهالَه في الدُّنيا للكفارِ والعصاةِ، وقيل: يريدُ مغفرتَه لمن تاب، والأوَّلُ أظهرُ هنا). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٠٠).

ذلك في الدُّنيا أو في الآخرةِ، أو في كِلا الدَّارَينِ[١].

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى حكى عن الكُفَّارِ أنَّهم طَعَنوا في نبُوَّةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ بسبَبِ طَعنِهم في الحَشرِ والنَّشرِ أوَّلًا، ثمَّ طعَنوا في نبُوَّتِه بسبَبِ طَعنِهم في صِحَّةِ ما يُنذِرُهم به مِن نُزولِ عذابِ الاستئصالِ ثانيًا، ثمَّ طعَنوا في نبوَّتِه بأن طلَبوا منه المُعجِزةَ والبيِّنةَ ثالثًا، وهو المذكورُ في هذه الآيةِ[٢].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ الله سُبحانَه أنَّ المُشرِكينَ غَطَّوا آياتِ رَبِّهم المتفَضِّلِ عليهم بتلك الآياتِ وغَيرِها؛ عَجِبَ منهم عجبًا آخَرَ في طلَبِهم إنزالَ الآياتِ، مع كونِها مُتساويةَ الأقدامِ في الدَّلالةِ على الصَّانِعِ وما له من صِفاتِ الكَمالِ، فلمَّا كَفَروا بما أتاهم كانوا جديرينَ بالكُفرِ بما يأتيهم، فقال[٣]:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾.

أي: ويقولُ الكافِرونَ مِن قَومِك -يا مُحمَّدُ- عنادًا وكفرًا، واعتذارًا عن الإيمانِ بك: هلَّا أُنزِلَ على محمَّدٍ مُعجِزةٌ مِن رَبِّه تَدُلُّ على نبُوَّتِه[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣).

قال ابنُ جريرٍ: (وهذا الكلامُ... وعيدٌ مِن الله وتهديدٌ للمشركينَ مِن قومِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، إن هم لم ينيبوا ويتوبوا مِن كفرِهم قبلَ حلولِ نِقمةِ الله بهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

وقال سُبحانه: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ [الفرقان: ٧-٨].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾.

أي: إنَّما عليك -يا محمَّدُ- أن تُحذِّرَ قَومَك مِن عِقابِ اللهِ إن أصَرُّوا على كُفرِهم، وليس عليك هدايتُهم، ولا إنزالُ الآياتِ التي يقتَرِحونَها[(١)].

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

أي: ولكُلِّ أمَّةٍ رَسولٌ يدعوهم إلى توحيدِ اللهِ، ويُعَلِّمُهم الخيرَ، فيَهتَدونَ به[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ [يونس: ٤٧].

وقال سُبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٨١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٩٩، ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٣).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ بيَّن جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّه ذو مَغفرةٍ للنَّاسِ على ظُلمِهم، وأنَّه شديدُ العِقابِ، فجمعَ بين الوعدِ والوعيدِ؛ ليَعظُمَ رجاءُ النَّاسِ في فَضلِه، ويشتَدَّ خَوفُهم مِن عِقابِه وعَذابِه الشَّديدِ؛ لأنَّ مَطامعَ العُقلاءِ مَحصورةٌ في جَلبِ النَّفعِ ودَفعِ الضُّرِّ، فاجتماعُ الخَوفِ والطَّمَعِ أدعى للطَّاعةِ، وقد بُيِّنَ هذا المعنى في آياتٍ كثيرةٍ، كقولِه تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقولِه جلَّ وعلا: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠]، وقولِه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ[(١)].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٞ قَوْلُهُمْ﴾ رَدٌّ على الجَهميَّةِ؛ إذْ قد عَجِبَ -جلَّ وعلا- مِن كُفْرِ المشركينَ بالبَعثِ، والعَجَبُ عندهم مَنفيٌّ عنه؛ مِن أجلِ أنَّه مِن صِفاتِ المخلوقينَ، وقد حكاه عن نَفسِه -جلَّ وعلا- كما ترى، وليس شَيءٌ مِن صِفاتِه مَخلوقًا- وإنْ شاركَه المخلوقُ فيه بالاسمِ؛ إذ هو مِن المخلوقِ مَخلوقٌ؛ ومنه- جلَّ وعلا- غيرُ مخلوقٍ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٞ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٖ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٣).
(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدّالّة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦٢٩).

جَدِيدٍۭ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مَن أنكرَ المعادَ؛ فإنَّه كافرٌ بربِّ العالَمينَ، وإن زعَمَ أنَّه مُقِرٌّ به[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ احتُجَّ به على أنَّ العذابَ المخَلَّدَ ليس إلَّا للكُفَّارِ؛ فقولُه: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يفيدُ أنَّهم هم الموصوفونَ بالخُلودِ لا غيرُهم، وذلك يدُلُّ على أنَّ أهلَ الكبائرِ لا يُخَلَّدونَ في النَّارِ[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ﴾ والأغلالُ وإن لم تكُن مُشاهَدةً الآن، فهي- لِقُدرةِ المهَدِّدِ بها على الفِعلِ- كأنَّها موجودةٌ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ -الذي فيه إثباتُ الهدايةِ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلم- مع قولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦] -الذي فيه نفيُ هدايتِه مَن أحَبَّ- يُبيِّنُ أنَّ الهُدى الذي أثبتَه سُبحانَه هو البيانُ والدُّعاءُ، والأمرُ والنَّهيُ، والتعليمُ وما يَتبَعُ ذلك، وليس هو الهُدى الذي نفاه، والذي لا يَقدِرُ عليه إلَّا اللهُ، وهو جَعلُ الهُدى في القلوبِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۭۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٨٣).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٧٢).

ﭐلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ ﴾، وصِيغَ بصيغةِ التَّعجُّبِ مِن إنكارِ مُنْكري البعْثِ؛ لأنَّ الأدلَّةَ السَّالِفةَ لم تُبْقِ عُذرًا لهم في ذلك. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ ...﴾ عطفًا على جُملةِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]؛ فالتقديرُ: إنْ تعْجَبْ مِن عدَمِ إيمانِهم بأنَّ القُرآنَ مُنَزَّلٌ مِن اللَّهِ فعَجَبٌ إنكارُهم البعْثَ، وفائدةُ هذا هو التَّشويقُ لمَعْرفةِ المُتعجَّبِ منه؛ تَهويلًا له أو نحوه، ولذلك فالتَّنكيرُ في قولِه: ﴿فَعَجَبٌ﴾ للتَّنويعِ؛ لأنَّ المقصودَ أنَّ قولَهم ذلك صالحٌ للتَّعجُّبِ منه، ثم هو يفيدُ معنى التَّعظيمِ في بابِه، تَبَعًا لِما أفادَه التَّعليقُ بالشَّرطِ مِن التَّشويقِ(١).

- قولُه: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ الاستفهامُ في ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ إنكاريٌّ، وهو مُفيدٌ لكَمالِ الاستبعادِ والاستنكارِ؛ لأنَّهم مُوقِنونَ بأنَّهم لا يكونون في خَلْقٍ جديدٍ بعدَ أنْ يكونوا تُرابًا، والقولُ المَحْكِيُّ عنهم في مَعْنى الاستفهامِ عن مَجْموعِ أمْرَين، وهما: كونُهم تُرابًا، وتجْديدُ خَلْقِهم ثانِيةً، والمقصودُ مِن ذلك العَجَبُ والإحالةُ(٢).

- وتكْريرُ الهمزةِ في قولِهم: ﴿أَءِنَّا﴾؛ لتأْكيدِ الإنكارِ(٣).

- والإشارةُ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أَحْرِيَاءُ بما سَيَرِدُ بعد اسمِ الإشارةِ مِن الخبَرِ؛ لأجْلِ ما سَبَقَ اسمَ الإشارةِ مِن قولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ بعد أنْ رأَوا دلائلَ الخَلْقِ الأوَّلِ، فحَقَّ عليهم بقولِهم ذلك حُكمانِ؛ أحدُهما: أنَّهم كفَروا بربِّهم؛ لأنَّ قولَهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ لا يقولُه إلَّا كافرٌ باللَّهِ، وثانيهما: استحقاقُهمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٩- ٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦).

العَذابَ[١].

- وعُطِفَ على هذه الجُملةِ جُملةُ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ﴾ مُفْتتحَةً باسمِ الإشارةِ لِمثْلِ الغرَضِ الَّذي افتُتِحَت به الجُملةُ قبلها؛ فإنَّ مضْمونَ الجُملتينِ اللَّتينِ قبلَها يُحَقِّقُ أنَّهم أَحْرِيَاءُ بوَضْعِ الأغْلالِ في أعناقِهم، وذلك جزاءُ الإهانةِ. وكذلك عَطْفُ جُملةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٢].

- وفي قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إعادةُ اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ؛ للتَّهويلِ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾

- قولُه: ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُ﴾ هذه الجُملةُ في مَوضِعِ الحالِ؛ لبَيانِ رَكاكةِ رأيِهم في الاستعجالِ بطريقِ الاستهزاءِ، أي: يستعْجِلونك بها مُستهزِئين بإنْذارِك، مُنْكرين لوُقوعِ ما أنذرْتَهم إيَّاه، والحالُ: أنَّه قد مَضَتِ العُقوباتُ النَّازِلةُ على أمثالِهم مِن المُكَذِّبين والمُستهزِئين، وهو مَحَلُّ زيادةِ التَّعجُّبِ؛ لأنَّ ذلك قد يُعْذَرون فيه لو كانوا لم يرَوا آثارَ الأُمَمِ المُعذَّبةِ مثلَ عادٍ وثمودَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٢).

- قولُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، جُملةُ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ احتِراسٌ؛ لئلا يحْسَبوا أنَّ المَغفِرةَ المَذْكورةَ مَغفِرةٌ دائمةٌ؛ تعريضًا بأنَّ العِقابَ حالٌّ بهم مِن بعدُ[١]، وذلك على أحدِ القولينِ في التفسيرِ.

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه العُدولُ عنِ الإضْمارِ إلى الموصولِ -حيث لم يقُلْ: (ويقولون)- فإنَّ الَّذين كفروا هم المُستعجِلون؛ لزيادةِ تسْجيلِ الكُفْرِ عليهم، ولِما يُومِئُ إليه الموصولُ مِن تعْليلِ صُدورِ قولِهم ذلك، وصِيغَةُ المُضارعِ ﴿وَيَقُولُ﴾ تدلُّ على تجدُّدِ ذلك وتكرُّرِه[٢].

- ولكونِ اقتراحِهم آيةً يشِفُّ عن إحالتِهم حُصولَها -لِجهْلِهم بعظيمِ قُدرةِ اللَّهِ تعالى- سِيقَ هذا في عِدادِ نتائجِ عظيمِ القُدرةِ؛ فبذلك انتَظَمَ تفرُّعُ الجُمَلِ بعضِها على بعضٍ، وتفرُّعِ جميعِها على الغرَضِ الأصليِّ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ فيه قصْرُ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ على صِفَةِ الإنذارِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ، أي: أنت مُنذِرٌ لا مُوجِدٌ خَوارِقَ عادةٍ، وبهذا يظهَرُ وجْهُ قصْرِه على الإنذارِ دون البِشارَةِ؛ لأنَّه قصْرٌ إضافيٌّ بالنِّسبةِ لأحوالِه نحوَ المُشركين؛ وقد ردَّ اللَّهُ اقتراحَهم مِن أصلِه بهذا القولِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٤- ٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٥).

- قولُه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ جُملةُ ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ تَذْييلٌ بالأعمِّ، أي: إنَّما أنت مُنذِرٌ لهؤلاءِ؛ لِهدايتِهم، وبهذا العُمومِ الحاصِلِ بالتَّذييلِ والشَّاملِ للرَّسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّمَ صارَ المعنى: إنَّما أنت مُنذِرٌ لقومِك، هادٍ إيَّاهم إلى الحقِّ؛ فإنَّ الإنذارَ والهُدى مُتلازِمانِ؛ فما مِن إنذارٍ إلَّا وهو هدايةٌ، وما مِن هدايةٍ إلَّا وفيها إنذارٌ، والهِدايةُ أعمُّ مِن الإنذارِ؛ ففي هذا احتباكٌ بديعٌ[1].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
والاحْتِبَاك: هو الحذفُ من الأوائلِ؛ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ؛ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَعَ الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

الآيات (٨-١١)

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَغِيضُ﴾: أي: تَنقُصُ، يُقالُ: غاض الماءُ، فهو يَغيضُ؛ إذا نقَص، وأصلُ (غيض): يدُلُّ على نُقصانٍ في شَيءٍ[(١)].

﴿وَسَارِبٌ﴾: أي: بارِزٌ ظاهِرٌ في سَرْبِه، أي: طريقِه، وأصلُ (سرب): يدُلُّ على الاتِّساعِ والذَّهابِ في الأرضِ[(٢)].

﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾: أي: مَلائِكةٌ يَخْلُفُ بعضُها بعضًا في اللَّيلِ والنَّهارِ، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعدَ غَيرِه[(٣)].

﴿وَالٍ﴾: أي ملجأٍ وناصرٍ، وأصْلُ (ولي): يدلُّ على القُرْبِ، سواء مِن حيثُ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧- ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[١].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن تمامِ عِلمِه الذي لا يخفى عليه شيءٌ؛ فهو سُبحانَه يعلَمُ ما تحمِلُ كلُّ أنثى في بَطنِها، أذكَرٌ هو أم أُنثى؟ وشقيٌّ هو أم سعيدٌ؟ إلى غيرِ ذلك من الأحوالِ، وهو تعالى عالمٌ بما تَنقُصُه الأرحامُ وما تزيدُه في بدنِ الجنينِ، ومدةِ الحملِ، وغيرِ ذلك، وكلُّ شَيءٍ مُقدَّرٌ عند اللهِ بمقدارٍ لا يتَجاوزُه، وهو- سبحانَه- عالِمٌ بما خَفيَ عن الأبصارِ، وبما هو مُشاهَدٌ، الكبيرُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه، المُتَعالِ على جميعِ خَلقِه بذاتِه وقَدْرِه وقَهرِه. ويَستوي في عِلمِه تعالى مَن أخفَى القَولَ ومَن جهَرَ به، ويستوي عنده مَن استتَرَ بأعمالِه في ظُلمةِ اللَّيلِ، ومن جهرَ بها في وضَحِ النَّهارِ. وللعبدِ ملائِكةٌ يتعاقبونَ عليه مِن بينِ يديه ومِن خَلْفِه، يحفظونَه بأمرِ اللهِ. إنَّ اللهَ- سبحانه وتعالى- لا يغيِّرُ نِعمةً أنعَمَها على قومٍ إلَّا إذا غيَّروا ما أمَرَهم به فعَصَوه، وإذا أراد اللهُ بقَومٍ بلاءً فلا مفَرَّ منه، وليس لهم مِن دونِ اللهِ مِن والٍ يتولَّى أمورَهم، فيجلِبُ لهم المحبوبَ، ويدفَعُ عنهم المكروهَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لمَّا تقدَّم إنكارُهم البَعثَ؛ لتفرُّقِ الأجزاءِ، واختِلاطِ بَعضِها ببعضٍ، بحيثُ لا يتهيَّأُ الامتيازُ بينها؛ نَبَّه على إحاطةِ عِلمِه، وأنَّ مَن كان عالِمًا بجَميعِ المعلوماتِ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

هو قادِرٌ على إعادةِ ما أنشأَ[١].

وأيضًا لمَّا قامت البَراهينُ العديدةُ بالآياتِ السَّابقةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى بالخَلقِ والتَّدبيرِ، وعلى عظيمِ قُدرتِه التي أودَعَ بها في المَخلوقاتِ دَقائِقَ الخِلقةِ؛ انتقَلَ الكلامُ إلى إثباتِ العِلمِ له تعالى عِلمًا عامًّا بدقائِقِ الأشياءِ وعظائِمِها، وجُعِلَت هذه الجُملةُ في هذا المَوقِعِ؛ لأنَّ لها مُناسَبةً بقَولِهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فإنَّ ما ذُكِرَ فيها مِن عِلمِ اللهِ وعَظيمِ صُنعِه صالِحٌ لِأنْ يكونَ دَليلًا على أنَّه لا يُعجِزُه الإتيانُ بما اقتَرَحوا مِنَ الآياتِ، ولكِنَّ بَعثةَ الرَّسولِ ليس المَقصِدُ منها المُنازَعاتِ، بل هي دَعوةٌ للنَّظَرِ في الأدلَّةِ[٢].

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾.

أي: اللهُ يعلَمُ ما تحمِلُه كلُّ أنثى مِن بني آدمَ وغيرِهم، يعلمُ ما تحملُه على أيِّ حالٍ هو؛ مِن ذُكورةٍ وأنُوثةٍ، وحُسْنٍ وقُبحٍ، وطُولٍ وقِصَرٍ، وسَعادةٍ وشَقاوةٍ، إلى غيرِ ذلك من الأحوالِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۞ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٥- ٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حدَّثَنا رسولُ الله صلَّى الله عليه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٦)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٣).

وسلَّم، وهو الصَّادقُ المصدوقُ: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ في بَطنِ أمِّه أربعينَ يومًا، ثمَّ يكونُ علَقةً مثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مثلَ ذلك، ثمَّ يَبعَثُ اللهُ إليه مَلَكًا بأربعِ كَلِماتٍ، فيكتُبُ عَمَلَه، وأجَلَه، ورِزْقَه، وشَقيٌّ أو سعيدٌ، ثم يُنفَخُ فيه الرُّوحُ))[1].

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾.

أي: وهو تعالى عالمٌ بما تَنقُصُه الأرحامُ وما تزيدُه؛ سواءٌ في بدنِ الجنينِ، أو مدةِ الحملِ، وغيرِ ذلك مما يعرِضُ أثناءَ الحملِ مِن الزيادةِ والنقصانِ[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) يُنظر: ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٦).

وممن ذهَب من المفسِّرين إلى عموم الزيادةِ والنقصانِ في الحملِ: ابنُ القيمِ، والشنقيطي.

قال ابنُ القيِّم: (التَّحقيقُ في معنى الآيةِ أنَّه يَعلَمُ مُدَّةَ الحَملِ، وما يَعرِضُ فيها مِنَ الزِّيادةِ والنُّقصانِ، فهو العالمُ بذلك دونكم... فهو سُبحانَه المُنفَرِدُ بعِلمِ ما في الرَّحِمِ، وعِلمِ وَقتِ إقامتِه فيه، وما يزيدُ مِن بَدَنِه وما يَنقُصُ، وما عدا هذا القَولَ فهو مِن توابعِه ولوازِمِه، كالسِّقطِ والتَّامِّ، ورؤيةِ الدَّمِ وانقطاعِه، والمقصودُ ذِكرُ مُدَّةِ إقامةِ الحَملِ في البَطنِ وما يتَّصِلُ بها مِن زيادةٍ ونُقصانٍ). ((تحفة المودود بأحكام المولود)) (ص: ٢٦٨).

وقال الشِّنقيطيُّ بعد أن ذكَر الأقوالَ في الآيةِ: (مَرجِعُ هذه الأقوالِ كُلِّها إلى شَيءٍ واحدٍ، وهو أنَّه تعالى عالمٌ بما تَنقُصُه الأرحامُ وما تزيدُه؛ لأنَّ معنى تَغيضُ: تَنقُصُ، وتزدادُ، أي: تأخُذُه زائِدًا، فيَشمَلُ النَّقصُ المذكورُ: نَقصَ العَدَدِ، ونَقصَ العُضوِ من الجنينِ، ونَقصَ جِسمِه إذا حاضت عليه فتَقلَّص، ونَقصَ مُدَّةِ الحَملِ بأن تُسقِطَه قبلَ أمَدِ حَملِه المعتادِ، كما أنَّ الازديادَ يَشمَلُ: زيادةَ العُضوِ، وزيادةَ العَدَدِ، وزيادةَ جِسمِ الجنينِ إن لم تَحِضْ وهي حامِلٌ، وزيادةَ أمَدِ الحَملِ عن القَدرِ المُعتادِ، واللهُ جَلَّ وعلا يعلَمُ ذلك كُلَّه، والآيةُ تَشمَلُه كُلَّه). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٢٦).

وقيل المعنى: ويعلَمُ ما تنقُصُ الأرحامُ مِن حَملِها في الأشهرِ التِّسعةِ بظُهورِ دَمِ الحَيضِ، وما تزدادُ في حَملِها على الأشهُرِ التِّسعةِ. وممن اختار ذلك: ابنُ جرير، ونسَبه ابنُ عطيةَ إلى جمهورِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٨).

وممن قال به من السلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبير، وعكرمةُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤٤٤-٤٥١).

وقال الواحدي: (قال أكثرُ المفسِّرين: يعلمُ الوقتَ الذي تنقصُه الأرحامُ مِن المدةِ التي هي تسعةُ أشهرٍ، وما تزدادُ على ذلك. قال الضحاكُ: الغيضُ: النقصانُ مِن الأجلِ، والزيادةُ: ما

عن ابنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مفاتِحُ الغَيبِ خَمسٌ لا يعلَمُها إلَّا اللهُ: لا يعلَمُ ما في غدٍ إلَّا اللهُ، ولا يعلَمُ ما تغيضُ الأرحامُ إلَّا اللهُ، ولا يعلَمُ متى يأتي المطَرُ أحدٌ إلَّا اللهُ، ولا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ، ولا يعلَمُ متى تقومُ السَّاعةُ إلَّا اللهُ))[1].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾.

أي: وكلُّ شَيءٍ عندَ الله بقَدْرٍ وحَدٍّ، لا يتجاوَزُه ولا يَقصُرُ عنه، كما لا يزدادُ حَملُ أنثى على ما قُدِّرَ له، ولا ينقُصُ عما حُدَّ له[2].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ أنَّه عالِمٌ بأشياءَ خَفيَّةٍ لا يعلَمُها إلَّا هو، وكانت أشياءَ جُزئيَّةً مِن خفايا عِلمِه؛ ذكَرَ أنَّ عِلمَه مُحيطٌ بجميعِ الأشياءِ[3].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

يزدادُ على الأجلِ، وذلك أنَّ النساءَ لا يلدْنَ لأجلٍ واحدٍ). ((الوسيط)) (٣/ ٧).

(١) رواه البخاري (٤٦٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٧-٣٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨٢-٨٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٦٣).

قال القُرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ يعني: مِنَ النُّقصانِ والزيادةِ. ويقالُ: «بمقدارٍ» قَدْرَ خروجِ الوَلَدِ مِن بطنِ أمِّه، وقَدْرَ مُكثِه في بَطنِها إلى خُروجِه. وقال قتادةُ: في الرِّزقِ والأجَلِ. والمِقدارُ: القَدْرُ، وعمومُ الآيةِ يتناوَلُ كُلَّ ذلك، واللهُ سُبحانَه أعلَمُ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٩).

وقال ابن عطية: (قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ لفظٌ عامٌّ في كُلِّ ما يدخُلُه التَّقديرُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٨).

أي: اللهُ عالِمٌ بكُلِّ ما غاب عنكم، وكُلِّ ما تُشاهِدونَه بأبصارِكم، لا يخفَى عليه شيءٌ مِن ذلك كُلِّه[١].

﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾.

أي: هو الكبيرُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه، وهو أكبَرُ مِن أيِّ شيءٍ، وكُلُّ شَيءٍ دُونَه، وهو المُستَعلي على جميعِ خَلْقِه، بذاتِه وقَدْرِه وقَهرِه[٢].

﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا تأكيدُ بَيانِ كَونِه عالِمًا بكُلِّ المَعلوماتِ[٣].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى أنَّه ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ على العُمومِ؛ ذكَرَ تعالى تعلُّقَ عِلمِه بشَيءٍ خاصٍّ مِن أحوالِ المُكَلَّفينَ[٤].

وأيضًا لَمَّا كانت العادةُ قاضيةً بتفاوُتِ العِلمِ بالنِّسبةِ إلى السِّرِّ والجَهرِ، والقُدرةِ بالنِّسبةِ إلى المتحَفِّظِ بالحَرَسِ وغَيرِه؛ أتبَعَ ذلك سبحانَه بما نفى هذا الاحتمالَ عنه، على وَجهِ الشَّرحِ والبَيانِ؛ لاستواءِ الغَيبِ والشَّهادةِ بالنِّسبةِ إلى عِلمِه[٥]، فقال:

﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٩٠).

أي: يستوي في عِلمِ اللهِ- تعالى- وسَمعِه مَن أسرَّ مِنكم بقَولٍ، ومن جهَرَ به؛ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، فالسِّرُّ والجهرُ عنده سواءٌ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣- ١٤].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦].

وعن عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها، قالت: ((الحمدُ للهِ الذي وَسِعَ سَمعُه الأصواتَ؛ لقد جاءت المجادِلَةُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأنا في ناحيةِ البَيتِ، تَشكو زَوجَها، وما أسمَعُ ما تقولُ، فأنزلَ اللهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]))[(٢)].

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفِۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾.

أي: ويستوي في عِلمِ اللهِ وبَصَرِه مَن هو مُختَفٍ في ظُلمةِ اللَّيلِ، ومَن هو ظاهِرٌ يمشي في ضَوءِ النَّهارِ؛ فكِلا الحالَينِ عنده سَواءٌ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٣٦).

(٢) أورده البخاريُّ معلقًا بصيغةِ الجزم قبلَ حديثِ (٧٣٨٦)، وأخرجه موصولًا النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨) واللفظ له، وأحمد (٢٤١٩٥).
صحَّحه ابنُ عساكر في ((معجم الشيوخ)) (١/ ١٦٣)، وقال ابنُ تيمية في ((تلبيس الجهمية)) (١/ ٢٨٠): (إسنادُه ثابتٌ)، وصحَّحه ابنُ الملقن في ((البدر المنير)) (٨/ ١٤٥)، وابنُ حجر في ((تغليق التعليق)) (٥/ ٣٣٩)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٦٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٣٦).

كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا تقدَّمَ أنَّ مَن أسَرَّ القَولَ ومَن جهرَ به، ومَن استخفَى باللَّيلِ وسَرَب بالنَّهارِ؛ مُستوٍ في عِلمِ اللهِ تعالى، لا يخفَى عليه مِن أحوالِهم شَيءٌ- ذكَرَ أيضًا أنَّ لذلك المذكورِ مُعَقِّباتٍ: جماعاتٍ مِن الملائكةِ تَعقُبُ في حِفظِه وكِلاءتِه[1].

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾.

أي: للعَبدِ[2] ملائِكةٌ يتعاقَبونَ عليه، فيأتيه بعضُهم عَقِبَ بَعضٍ، مِن بينِ يَدَيه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦٠).

(٢) ممَّن ذهب إلى أنَّ الهاءَ في ﴿لَهُۥ﴾ مُرادٌ بها (الإنسان): الزجَّاج، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).
وقال ابن جرير: (أولى التَّأويلين في ذلك بالصَّوابِ قَولُ من قال: الهاءُ في قَولِه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾ مِن ذِكرِ ﴿مَنۡ﴾ التي في قَولِه: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٦١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٠).
وقيل: (الهاء) في ﴿لَهُۥ﴾ عائدةٌ على اللهِ عزَّ وجَلَّ. وممَّن اختار هذا القولَ: القُرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩١).

ومِن خَلْفِه[١] فيَحفظُونَه ويَحرُسونَه[٢] بأمرِ الله وإذنِه، فإذا جاء القدرُ خلَّوا بينَه

(١) قيل: المرادُ بقَولِه: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾: مِن أمامِه. والمرادُ بقَولِه: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾: مِن وراء ظَهرِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٥٦).
وقيل: المرادُ أنَّ الحفَظةَ مِن الملائكةِ تُحيطُ به من جميعِ جوانِبه. وممَّن اختار ذلك: الشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠١).
وقال ابن كثير: (قولُه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: للعبدِ ملائكةٌ يتعاقبونَ عليه؛ حرسٌ باللَّيلِ، وحَرَسٌ بالنَّهارِ، يَحفظونَه مِن الأسواءِ والحادثاتِ، كما يتعاقَبُ ملائِكةٌ آخرونَ لحِفظِ الأعمالِ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ؛ ملائكةٌ باللَّيلِ وملائكةٌ بالنَّهارِ؛ فاثنانِ عن اليمينِ وعن الشِّمالِ يَكتبانِ الأعمالَ؛ صاحِبُ اليمينِ يكتبُ الحسَناتِ، وصاحِبُ الشِّمالِ يكتُبُ السَّيِّئاتِ، وملَكانِ آخرانِ يَحفظانِه ويَحرُسانِه؛ واحدًا من ورائِه، وآخَرَ مِن قُدَّامِه، فهو بين أربعةِ أملاكٍ بالنهارِ، وأربعةٍ آخرينَ بالليلِ بدلًا؛ حافِظانِ وكاتبان). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٧-٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٠، ١٠١).
قال الواحديُّ عن معنى ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾: (وهم الملائكةُ الحَفَظةُ في قَولِ عامَّةِ المفَسِّرينَ). ((الوسيط)) (٣/ ٧).
وقال ابن الجوزي: (قال أكثر المفسِّرين: هم الحَفَظَة؛ اثنانِ بالنَّهارِ واثنان بالليل، إذا مضى فريقٌ خلَفَ بعده فريقٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨٥).
وفي معنى ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ خِلافٌ:
قال ابنُ عطية: (قوله: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ يحتَمِلُ معنيين:
أحدهما: أن يكونَ بمعنى يحرُسونَه، ويذبُّون عنه؛ فالضميرُ محمولٌ لِيَحفظ.
والمعنى الثاني: أن يكون بمعنى حِفظِ الأقوالِ وتَحصيلِها، ففي اللفظةِ حينئذٍ حَذفُ مضافٍ، تقديره: يحفظون أعمالَه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٠٢).
وقال الرازي: (في المرادِ بالمعَقِّباتِ قولان: الأول: وهو المشهور الذي عليه الجمهورُ: أن المرادَ منه الملائكةُ الحفَظةُ، وإنَّما صحَّ وصفُهم بالمعقِّباتِ، إمَّا لأجل أنَّ ملائكةَ الليلِ تَعقُبُ ملائكةَ النَّهار وبالعكس، وإمَّا لأجلِ أنَّهم يتعَقَّبون أعمالَ العباد ويَتبَعونَها بالحفظِ والكَتْبِ، وكلُّ مَن عمِلَ عملًا ثم عاد إليه فقد عَقَّب، فعلى هذا: المرادُ من المعقِّباتِ: ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النَّهار). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧).
وممَّن ذهب إلى أنَّ ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ بمعنى يحرسُونه: الزَّجاج، والزمخشري. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٤٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥١٧).
وممن ذهب إلى كلا المعنيين: يحفظونَه مِن كُلِّ مَن يريدُه بسُوءٍ، ويحفظونَ عليه أعمالَه خَيرَها وشَرَّها: ابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).

وبينَه[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾

أي: إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بقَوم مِن نِعمةٍ فيُزيلُها عنهم، حتى يغَيِّروا ما كانوا عليه مِن طاعةِ اللهِ بمَعصيتِه، وشُكرِه بكُفرِه، وأسبابِ رِضاه بأسبابِ سَخَطِه، فإذا غيَّروا غيَّرَ عليهم؛ جزاءً وِفاقًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا

---

(١) وممن اختار هذا المعنى: ابنُ أبي زمنين، والواحدي، والبغوي، والرسعني، والعليمي.
يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٨١)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٤٨٢).
قال الرسعني: (﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمْر الله، وكذلك هي في قراءةِ عليٍّ وابنِ عباسٍ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٥٠).
وقيل: المرادُ: حِفظُهم إيَّاه مِن أمرِ الله، أي: ممَّا أمَرَهم الله تعالى به، لا أنَّهم يَقدِرون أن يدفَعوا أمرَ الله. وممن ذهَب إلى هذا المعنى: الزجاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٣/ ١٤٢).
وقيل: إنه على التقديمِ والتأخيرِ، وتقديرُه: له معقباتٌ مِن أمرِ الله يحفظونَه، وعلى هذا لا تعلُّقَ لـ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ بـ﴿مِنۡ﴾. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٠٩).
قال ابن عاشور: (وقولُه: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ صفةُ ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾، أي: جماعاتٌ مِن جندِ الله وأمرِه، كقولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]... ويجوزُ أن يكونَ الحفظُ على الوجهِ الثاني مرادًا به الوقايةُ والصيانةُ، أي: يحفظونَ مَن هو مُستخفٍ بالليلِ وساربٌ بالنهارِ، أي: يقونَه أضرارَ الليلِ مِن اللصوصِ وذواتِ السُّمومِ، وأضرارَ النهارِ نحوَ الزحامِ والقتالِ، فيكونُ ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ جارًا ومجرورًا متعلقًا بـ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾، أي: يقونَه مِن مخلوقاتِ الله). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠١). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧١)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٣٦).
قال الرازي: (كلامُ جميعِ المفَسِّرين يدُلُّ على أنَّ المرادَ: لا يغيِّرُ ما هم فيه من النِّعَمِ بإنزالِ الانتقامِ، إلَّا بأن يكونَ منهم المعاصي والفَسادُ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٢٠).
وقال السعدي: (كذلك إذا غيَّرَ العبادُ ما بأنفُسِهم من المعصيةِ، فانتقلوا إلى طاعةِ اللهِ؛ غيَّرَ الله عليهم ما كانوا فيه من الشَّقاءِ إلى الخيرِ والسُّرورِ، والغِبطة والرَّحمة). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).

بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٣- ٥٤].

وقال سُبحانه: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾[الشورى: ٣٠].

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾

أي: وإذا شاء اللهُ أن يُصيبَ قَومًا بهلاكٍ وعَذابٍ وشِدَّةٍ، فإرادتُه لا بُدَّ أن تنفُذَ فيهم؛ فإنَّه لا رادَّ لِمَا قضاه اللهُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[الأنعام: ١٤٧].

وقال سُبحانه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[البروج: ١٦].

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾

أي: وما للقومِ الذين أرادَهم الله بسوءٍ مِن أحدٍ سِواه يتولَّى أمرَهم، ولا ناصِرٍ مِن دُونِه يمنَعُهم مِن عذابِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾[يونس: ١٠٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ * سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ فيه أنَّه تعالى

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).

مُحيطٌ عِلمُه بأقوالِ المكَلَّفينَ وأفعالِهم، لا يَعزُبُ عنه شيءٌ مِن ذلك[١].

٢- الذُّنوبُ تُزيلُ النِّعَمَ ولا بُدَّ، فما أذنبَ عبدٌ ذنبًا إلَّا زالت عنه نِعمةٌ مِن الله بحسَبِ ذلك الذَّنبِ، فإن تاب وراجَعَ رجَعَت إليه أو مِثلُها، وإن أصَرَّ لم ترجِعْ إليه، ولا تزالُ الذُّنوبُ تُزيلُ عنه نِعمةً، حتى تُسلَبَ النِّعَمُ كُلُّها؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[٢].

٣- متى رأيتَ تكديرًا في حالٍ، فاذكُرْ نِعمةً ما شُكِرتْ، أو زَلَّةً قد فُعِلتْ، واحذَرْ مِن نِفارِ النِّعَم، ومُفاجأةِ النِّقَم، ولا تغتَرِرْ بسَعةِ بِساطِ الحِلْم؛ فرُبَّما عُجِّلَ انقباضُه، وقد قال اللهُ عَزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[٣]، ومَن تأمَّلَ ما قَصَّ اللهُ تعالى في كتابِه مِن أحوالِ الأُمَمِ الذين أزال نِعَمَه عنهم، وجدَ سبَبَ ذلك جميعِه إنَّما هو مُخالَفةُ أمرِه وعِصيانُ رُسُلِه، وكذلك من نظَرَ في أحوالِ أهلِ عَصرِه وما أزال اللهُ عنهم مِن نِعَمِه، وجد ذلك كُلَّه مِن سُوءِ عواقِبِ الذُّنوبِ، فما حُفِظَت نعمةُ اللهِ بشَيءٍ قَطُّ بمثلِ طاعتِه، ولا حَصَلت فيها الزِّيادةُ بمِثلِ شُكرِه، ولا زالت عن العبدِ بمِثلِ مَعصيتِه لرَبِّه؛ فإنَّها نارُ النِّعَم التي تعمَلُ فيها كما تعمَلُ النَّارُ في الحطَبِ اليابِسِ، ومن سافَرَ بفِكرِه في أحوالِ العالَمِ، استغنى عن تعريفِ غَيرِه له[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ يتولَّى أمورَهم، فيجلِبُ لهم المحبوبَ، ويدفَعُ عنهم المكروهَ؛ فلْيَحذَروا من الإقامةِ على ما يكرهُ اللهُ؛ خشيةَ أن يحُلَّ بهم من العقابِ ما لا يُرَدُّ عن القومِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٨).
(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٧١).
(٣) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٣٢).
(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٠٥- ٢٠٦).

المُجرمينَ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ﴾ استَدلَّ به من قال: إنَّ الحامِلَ تحيضُ[٢]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

٢- قولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ﴾ استدَلَّ به من قال: إنَّ مُدَّةَ الحَملِ تكونُ أقَلَّ مِن تِسعةِ أشهُرٍ وأكثَرَ منها[٣].

٣- أهلُ السنةِ يثبتونَ للهِ العلوَّ والعظمةَ بكلِّ اعتبارٍ، ومثلُ هذا وصفُه سبحانَه بأنَّه (الكبيرُ المتعالي)، فالكبيرُ يُوصفُ به الذاتُ وصفاتُها القائمةُ، فهم يُثبتونَ للهِ سبحانَه العظمةَ الذاتيةَ والمعنويةَ، والعلوَّ الذاتيَّ والمعنويَّ، والجمالَ والجلالَ الذاتيَّ والمعنويَّ[٤].

٤- الإرادةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ إرادةٌ كونيَّةٌ، والإرادةُ الكونيَّةُ هي مشيئتُه سُبحانه وتعالى لِمَا خلَقَه، وجميعُ المخلوقاتِ داخِلةٌ في مشيئتِه وإرادتِه الكونيَّةِ، وتُقابِلُها الإرادةُ الدِّينيَّةُ الشَّرعيَّةُ، وهي المتضَمِّنةُ لمحبَّتِه ورِضاه؛ المُتناوِلةُ لِمَا أَمَرَ به وجَعلَه شَرعًا ودِينًا، وهذه مُختصَّةٌ بالإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾[٥] [البقرة: ١٨٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤١٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٧).

يُنظر الخلافُ في المسألةِ في ((مختصر فقه الطهارة)) إعداد القسم العلمي بالدُّرر السَّنية (ص: ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٧).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٧٥، ١٣٧٨).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ ... ﴾ استئنافٌ؛ لبيانِ بُطلانِ قولِهم ذلك ونظائرِه مِن استعْجالِ العذابِ وإنكارِ البعْثِ[١].

- قولُه: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ ﴾ صِيغَ الخبَرُ ﴿يَعۡلَمُ﴾ بصيغَةِ المُضارِعِ المُفيدِ للتَّجدُّدِ والتَّكريرِ؛ لإفادةِ أنَّ ذلك العِلْمَ مُتكرِّرٌ، مُتجدِّدُ التَّعلُّقِ بمُقْتضى أحوالِ المعلوماتِ المُتنوِّعةِ والمُتكاثِرةِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾

- جُملةُ ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ تذْييلٌ وفَذْلَكَةٌ[٣]؛ لتعْميمِ العِلْمِ بالخَفِيَّاتِ والظَّواهرِ، وهما قِسْما الموجوداتِ[٤].

- وقَولُه: ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ أخرَجَه مَخرجَ (التَّفاعُل)؛ ليكونَ أدَلَّ على المعنى وأبلغَ فيه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٧).

(٣) الفَذْلكةُ: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملةِ والحوقلةِ- مِن قولِهم: (فذلك كذا)-، أي: ذكرُ مُجمَلِ ما فُصِّل أولًا وخلاصتِه. وقد يُرادُ بالفذلكةِ النتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فذلكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨ - ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٨٩).

٣- قوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾

- قولُه: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ... ﴾ هذه الجُملةُ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ مضمونَها بمنزِلةِ النَّتيجةِ لعُمومِ عِلْمِ اللَّهِ تعالى بالخَفِيَّاتِ والظَّواهرِ[١]، وهذا مِن بابِ ذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ[٢].

- وقولُه: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم... ﴾ فيه العُدولُ عنِ الغَيبةِ المُتَّبَعَةِ في الضَّمائرِ فيما تقدَّمَ إلى الخطابِ هنا في قولِه: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم ﴾؛ لأنَّه تعليمٌ يصلُحُ للمؤمنين والكافرين، وفيه تعريضٌ بالتَّهديدِ للمُشركين المُتآمرين على النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ[٣].

- وتقْديمُ الإسْرارِ والاستِخفاءِ على الجَهرِ والعَلانيةِ؛ لإظهارِ كَمالِ عِلْمِه تعالى؛ فكأنَّه في التَّعلُّقِ بالخَفِيَّاتِ أقْدَرُ منه بالظَّواهِرِ، وإلَّا فنِسْبتُه إلى الكلِّ سَواءٌ[٤].

- والاستخفاءُ هنا: الخَفاءُ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالغَةِ في الفِعلِ مثلَ: استجابَ[٥].

- ذُكِرَ الاستخفاءُ مع اللَّيلِ؛ لكَونِه أشَدَّ خَفاءً، وذُكِرَ السُّروبُ مع النَّهارِ؛ لِكونِه أشَدَّ ظُهورًا[٦].

٤- قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾

- قولُه: ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ فيه مُبالغَةٌ؛ صِيغَةُ التَّفعيلِ فيه للمُبالغَةِ في العقب، وعَقَّبَه: إذا جاء على عَقِبِه؛ كأنَّ بعضَهم يَعْقُبُ بعضًا، أو لأنَّهم يعْقُبون أقوالَه وأفعالَه فيكتُبونها[١]، وجُمِعَت (المُعَقِّباتُ) باعتبارِ كثرةِ الجماعاتِ[٢].

- قولُه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ مُستعملٌ في معنى الإحاطةِ مِن الجِهاتِ كلِّها- على أحدِ القولينِ في التفسيرِ-. وأُفْرِدَ الضَّميرانِ في ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾؛ لأنَّ كلًّا منهما عائدٌ إلى أحدِ أصحابِ تلك الصِّلاتِ، حيث إنَّ ذِكْرَهم ذِكْرُ أقسامٍ مِن الَّذين جُعِلوا سواءً في عِلْمِ اللَّهِ تعالى[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ مُعترِضَةٌ بين الجُمَلِ المُتقدِّمةِ المَسُوقَةِ للاستدلالِ على عظيمِ قُدرةِ اللَّهِ تعالى، وعِلْمِه بمَصْنوعاتِه، وبين التَّذكيرِ بقوَّةِ قُدرتِه، وبين جُملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [الرعد: ١٢]، والمقصودُ تحذيرُهم مِن الإصرارِ على الشِّرْكِ بتحذيرِهم مِن حُلولِ العِقابِ في الدُّنيا في مُقابَلَةِ استعجالِهم بالسَّيِّئةِ قبلَ الحَسَنةِ.

- وجُملةُ ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ تصريحٌ بمفهومِ الغايةِ المُستفادِ مِن ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾؛ تأكيدًا للتَّحذيرِ؛ لأنَّ المَقامَ لكونِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٠).

مَقامَ خوفٍ ووَجَلٍ يقْتَضي التَّصريحَ دون التَّعريضِ ولا ما يقْرُبُ منه.

- وجُملةُ ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ زيادةٌ في التَّحذيرِ مِن الغُرورِ؛ لئلا يَحسَبوا أنَّ أصنامَهم شُفعاؤهم عند اللَّهِ[1].

- قولُه: ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ في (ما) إبهامٌ، لا يتَّضِحُ المُرادُ منها إلَّا بسِياقِ الكلامِ، واعتقادِ مَحذوفٍ يتبيَّنُ به المَعْنى، والتقديرُ: لا يُغَيِّرُ ما بقومٍ مِن نعمةٍ وخَيرٍ إلى ضدِّ ذلك حتَّى يغيِّروا ما بأنْفُسِهم مِن طاعتِه إلى توالي مَعصيَتِه[2].

- قولُه: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ فيه الاقتصارُ على قولِه: ﴿سُوٓءًا﴾؛ لأنَّ سِياقَ الكلامِ في الانتقامِ مِن العُصاةِ، وإلَّا فالسُّوءُ والخيرُ إذا أرادَ اللَّهُ تعالى شيئًا منهما فلا مَردَّ له؛ فذِكْرُ السُّوءِ مُبالغَةٌ في التَّخويفِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠١- ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٢-١٤)

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلصَّوَٰعِقَ﴾: جمعُ صاعِقةٍ: وهي النَّارُ التي تنزِلُ مِن السَّماءِ عندَ اشتدادِ الرَّعد، وأصلُ (صعق): يدلُّ على شِدَّةِ صَوتٍ[1].

﴿ٱلْمِحَالِ﴾: أي: القُوَّةِ والأخذِ، والمكْرِ والإهلاكِ، يُقالُ: ماحَلْتُه مِحالًا: إذا قاوَيتَه حتى يَبينَ لك أيُّكما أشَدُّ، والمَحْلُ: الشِّدَّةُ والمَكْرُ والكَيدُ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ لنا الله تعالى مَظهرًا مِن مَظاهِرِ قُدرتِه، فيقولُ سبحانَه: هو الذي يُريكم مِن آياتِه البَرقَ، فتَخافونَ أن تنزِلَ عليكم منه الصَّواعِقُ المُحرِقةُ، وتَطمعونَ أن يَنزِلَ معه المطَرُ، وبِقُدرتِه سُبحانه يُوجِدُ السَّحابَ المُحمَّلَ بالماءِ الكثيرِ لِمَنافِعِكم، ويُسبِّحُ الرَّعدُ بحَمدِ اللهِ تَسبيحًا يدُلُّ على خُضوعِه لرَبِّه، وتُنزِّهُ الملائِكةُ رَبَّها؛

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤- ٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

خوفًا منه سُبحانَه، ويُرسِلُ اللهُ الصَّواعِقَ المُهلِكةَ فيُهلِكُ بها مَن يشاءُ مِن خَلْقِه، والكُفَّارُ يُجادِلونَ في وحدانيَّةِ الله وقُدرتِه على البَعثِ، وهو شديدُ القُوَّةِ والبَطشِ بمن عصاه، وله -سُبحانه- دَعوةُ التَّوحيدِ -لا إلهَ إلَّا اللهُ- فلا يُعبَدُ ولا يُدعَى إلَّا هو، والآلِهةُ التي يَعبُدونَها مِن دونِ الله لا تُجيبُ دُعاءَ مَن دعاها، وحالُهم معها كحالِ عَطشانَ يمُدُّ يَدَه إلى الماءِ ويُشيرُ إليه بالإقبالِ إلى فيه، فلا يصِلُ إليه، وما دُعاءُ الكافرينَ لتلكَ الآلهةِ إلَّا غايةٌ في البُعدِ عن الصَّوابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا خَوَّفَ العبادَ بقَولِه: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد: ١١]، أتبَعَه بما يشتَمِلُ على أمورٍ دالَّةٍ على قُدرةِ الله تعالى وحِكمَتِه، تُشبِهُ النِّعَمَ مِن وَجهٍ، والنِّقَمَ من وجهٍ[1]، فقال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

أي: اللهُ هو الذي يُريكم البَرقَ -وهو النُّورُ اللَّامعُ الذي يسطَعُ في السَّماءِ مِن بينِ السَّحابِ- خوفًا مِن الصَّواعِقِ، وطَمعًا في الانتفاعِ بالمطَرِ[2].

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧٤، ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).

وقيل في معنى الخوفِ والطمعِ: المرادُ: الخوفُ للمسافرِ؛ فإنَّ عادةَ المسافرِ أَن يتَأَذَّى بالمطرِ، والطمعُ للمقيمِ؛ لأنَّ المقيمَ يرجُو الخصبَ بالمطرِ. وقيل: الخوفُ مِن المطرِ في غيرِ إبَّانِه، وفي غيرِ مكانِه، والطمعُ إذا كان في إبَّانِه ومكانِه مِن البلدانِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٨٢).

أي: ويخلق اللهُ السَّحابَ[١] الثِّقالَ بما يَحمِلُه مِن مياهٍ كثيرةٍ[٢].

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾.

أي: ويُنزِّهُ الرَّعدُ[٣] اللهَ عن النَّقائصِ تنزيهًا مُتلبِّسًا بحَمدِه تعالى، بوَصفِه

---

(١) قال ابنُ جرير: (قولُه: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾: ويُثيرُ السَّحابَ الثِّقالَ بالمطَرِ، ويُبدِئُه، يقالُ منه: أنشأ اللهُ السَّحابَ: إذا أبدأَه، ونشأ السَّحابُ -إذا بدَأَ- ينشأُ نَشأً، والسَّحابُ في هذا الموضِعِ وإن كان في لفظِ واحدٍ، فإنَّها جمعٌ، واحِدتُها سَحابةٌ؛ ولذلك قال: ﴿ٱلثِّقَالَ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٠).

قال ابن عاشور: (السَّحابُ يكونُ ثَقيلًا بمِقدارِ ما في خِلالِه من البُخارِ، وعلامةُ ثِقَلِه قُربُه من الأرضِ وبُطءُ تنَقُّلِه بالرِّياحِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٤).

(٣) قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ فيه قولان: أحدُهما: أنَّه اسمُ الملَك الذي يزجُرُ السَّحاب، وصوتُه: تسبيحُه، قاله مقاتل. والثاني: أنَّه الصوتُ المسموع). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨٧).

وقال السمعاني: (وقولُه: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أكثرُ المفسِّرينَ أنَّ الرَّعدَ ملكٌ، والمسموعُ مِن الصَّوتِ تسبيحُه، وهذا مرويٌّ عن النَّبيِّ حينَ سألَه اليهودُ عن الرَّعدِ، وذكَر فيه أنَّ الصَّوتَ هو زجرُه للسحابِ. وقد حُكِي هذا عن ابنِ عبَّاسٍ، وعليٍّ، ومجاهدٍ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، والحسنِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٨٣).

وقال الحربي: (قولُه: «الرَّعدُ مَلَكٌ» هو عندَ الصَّحابةِ: عليٌّ، وابنِ عبَّاسٍ، وعبدِ الله بنِ عمرٍو، وأبي هريرة. وكذا قال التَّابعونَ: مجاهدٌ، وعكرمةُ، وأبو صالحٍ، والضَّحَّاكُ، وشَهْرٌ، وعَطِيَّةُ، والحسنُ، ومحمدُ بنُ قيسٍ، والسُّدِّيُّ). ((غريب الحديث)) (٢/ ٦٨٨).

وقال ابنُ عبد البر: (جمهورُ أهلِ العلمِ مِن أهلِ الفقهِ والحديثِ يقولون: الرعدُ ملَكٌ يزجرُ السحابَ، وقد يجوزُ أن يكونَ زجرُه لها تسبيحًا؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾). ((الاستذكار)) (١٠/ ٣٦).

وقال الألوسي: (استُشْكِل بأنَّه لو كان علمًا للمَلَكِ لما ساغ تنكيرُه، وقد نُكِّر في البقرةِ، وأُجيب بأنَّ له إطلاقينِ: ثانيهما إطلاقُه على نفسِ الصوتِ، والتنكيرُ على هذا الإطلاقِ). ((تفسير

بصِفاتِ الكَمالِ؛ مَحبَّةً له وتعظيمًا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((أقبلَتْ يهودُ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقالوا: يا أبا القاسِمِ، إنَّا نسألُك عن خمَسةِ أشياءَ، فإنْ أنبأتَنا بهنَّ، عرَفْنا أنَّك نبيٌّ واتَّبَعناك، فأخَذ عليهم ما أخَذ إسرائيلُ على بَنيه؛ إذ قالوا: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، قال: هاتوا،... قالوا: أخبِرْنا ما هذا الرَّعدُ؟ قال: ملَكٌ مِن ملائكةِ اللهِ عزَّ وجلَّ مُوكَّلٌ بالسَّحابِ، بيَدِه أو في يَدِه مِخراقٌ مِن نارٍ، يزجُرُ به السَّحابَ، يسوقُه حيثُ أمَرَ الله. قالوا: فما هذا الصوتُ الذي يُسمَعُ؟ قال:

الألوسي)) (٧/ ١١٣).

وقال الشوكاني: (﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: يُسَبِّحُ الرَّعْدُ نفسُه بحمدِ الله،... وليس هذا بمُستبعَدٍ، ولا مانعَ مِن أنْ يُنطقَه اللَّهُ بذلك ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾، وأمَّا على تفسيرِ الرَّعدِ بمَلَكٍ مِن الملائكةِ فلا استبعادَ في ذلك، ويكونُ ذكرُه على الإفرادِ معَ ذكرِ الملائكةِ بعدَه لمزيدِ خصوصِيَّةٍ له، وعنايةٍ به). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨٧).

وقال ابنُ تيميَّة: (أمَّا الرَّعدُ والبَرقُ، ففي الحَديث المَرفوعِ في التِّرمذي وغيره «أنَّه سُئِلَ عن الرَّعدِ، قال: مَلَكٌ مِن المَلائكةِ مُوكَّلٌ بالسَّحابِ، معه مَخاريقُ مِن نارٍ يَسوقُ بها السَّحابَ حيثُ شاء اللهُ» . و... عن عليٍّ أنَّه سُئِلَ عن الرَّعد فقال: «مَلَكٌ ... ». ورُوِيَ في ذلك آثارٌ كذلك، وقد رُوِيَ عن بَعضِ السَّلَفِ أقوالٌ لا تُخالِفُ ذلك، كقَولِ من يقولُ: إنَّه اصطِكاكُ أجرامِ السَّحابِ بسَبَبِ انضغاطِ الهواءِ فيه، فإنَّ هذا لا يُناقِضُ ذلك؛ فإنَّ الرَّعْدَ مَصدَرُ: رَعَد يَرعُدُ رَعْدًا، وكذلك الرَّاعِدُ يُسَمَّى رَعْدًا، كمَّا يُسَمَّى العادِلُ عَدْلًا. والحَرَكةُ تُوجِبُ الصَّوتَ، والملائِكةُ هي التي تحَرِّكُ السحابَ وتَنقُلُه مِن مكانٍ إلى مكانٍ، وكلُّ حَركةٍ في العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ فهي عن الملائِكةِ، وصَوتُ الإنسانِ هو عن اصطِكاكِ أجرامِه الذي هو شَفَتاه ولسانُه وأسنانُه، ولَهاتُه وحَلقُه، وهو مع ذلك يكونُ مُسَبِّحًا للربِّ، وآمرًا بمعروفٍ، وناهيًا عن مُنكَرٍ، فالرَّعدُ إذَن صَوتٌ يَزجُرُ السَّحابَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٤/ ٢٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).

صوتُه، قالوا: صدقْتَ...))[١].

وعن رجُلٍ مِن بني غِفارٍ صَحِبَ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: سَمِعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُنشئُ السَّحابَ، فيَنطِقُ أحسَنَ المَنطِقِ، ويضحَكُ أحسَنَ الضَّحِكِ))[٢].

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾.

أي: وتنزِّهُ الملائكةُ اللهَ؛ خوفًا منه سُبحانه[٣].

﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾.

أي: ويُرسِلُ اللهُ الصَّواعِقَ مِن السَّماءِ، فيُهلِكُ بها مَن يشاءُ مِن خلقِه، وهؤلاء الكفارُ المكذبونَ للرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، معَ هذه الآياتِ التي أراهم اللهُ، يجادلونَ في قدرةِ الله على البعثِ، وإعادةِ الخلقِ، وفي وحدانيته[٤].

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣١١٧) (جزءًا منه)، وأحمد (١/ ٢٧٤) (٢٤٨٣) واللفظ له.
قال الترمذي: حسنٌ غريب. وذكر ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ١٦) أن له طرُقًا يقوِّي بعضها بعضًا. وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٦١)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١١٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٦٨٦)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٥٢٢٠)، والبيهقي في ((الأسماء والصفات)) (٢/ ٤١٢).
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢١٩): رجاله رجال الصحيح. وصحح إسناده ابن حجر في ((تحفة النبلاء)) (٧٨)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٩٢٠).
قال ابنُ كثير: (والمرادُ- واللهُ أعلمُ- أنَّ نطقَها الرعدُ، وضحكَها البرقُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٧٠).
وممن اختار هذا القولَ في الجملةِ: الزمخشري، وأبو حيان، والشوكاني، والقاسمي. تُنظر: المصادر السابقة.

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

أي: واللهُ قويٌّ، شديدُ الأخذِ، عظيمُ الكيدِ والمَكرِ بمن طغَى وتمادَى في الكُفرِ به[1].

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها استئنافٌ ابتدائيٌّ بمَنزلةِ النَّتيجةِ ونُهوضِ المُدَلَّلِ عليه بالآياتِ السَّالفةِ التي هي براهينُ الانفرادِ بالخَلقِ الأوَّلِ، ثمَّ الخَلقِ الثَّاني، وبالقُدرةِ التامَّةِ التي لا تُدانيها قدرةُ قديرٍ، وبالعِلمِ العامِّ، فلا جرَمَ أن يكونَ صاحِبُ تلك الصِّفاتِ هو

وقيل: المعنى: فيصيبُ بها من يشاء في حالِ جِدالِه في الله. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جرير، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٦٧).

قال الزَّجَّاج: (جائزٌ أن تكونَ الواوُ واوَ حالٍ، فيكون المعنى: فيصيبُ بها من يشاء في حالِ جِدالِه في الله... ويجوزُ أن يكونَ لَمَّا تمَّم اللهُ أوصافَ ما يدُلُّ على توحيدِه وقُدرتِه على البعثِ، قال بعد ذلك ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ١٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٣٢).

قال ابنُ عاشور: (وقد فُهِمَ أنَّ مَفعولَ ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾: هو النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُسلِمونَ، فالتقديرُ: يُجادِلونَك أو يُجادِلونكم، كقَولِه: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ في سورة الأنفال). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٥).

وقال أيضًا: (تعليقُ اسمِ الجلالةِ المجرورِ بفِعلِ ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ يتعيَّنُ أن يكونَ على تقديرِ مضافٍ تدُلُّ عليه القرينةُ، أي: في توحيدِ اللهِ، أو في قُدرتِه على البَعثِ، ومِن جَدَلهم ما حكاه قَولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٧، ٧٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).

المعبودَ بالحَقِّ، وأنَّ عِبادةَ غَيرِه ضَلالٌ[١].

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي: لِلَّه وحدَه الدَّعوةُ الحَقُّ والصِّدقُ -وهي كلمةُ التَّوحيدِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ- فهو المُستحِقُّ وَحدَه للعبادةِ والدُّعاءِ دونَ ما سواه[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾.

أي: والذين يَعبُدُهم المُشرِكونَ ويَدعونَهم مِن دونِ اللهِ لا يُجيبونَ دُعاءَهم بأيِّ شَيءٍ ممَّا يُريدونَه -قليلًا كان أو كثيرًا- ولا ينفعونهم إلَّا كما ينتَفِعُ من يبسطُ كفَّيه إلى الماءِ، ويدعوه ليرتفِعَ إلى فَمِه، وهذا غيرُ ممكنٍ؛ فالماءُ جمادٌ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).

قال ابنُ القيم: (إنَّه تعالى صاحبُ دعوةِ الحقِّ لذاتِه وصِفاتِه، وإن لم يُوجِبْ لداعيه بها ثوابًا، فإنَّه يستحِقُّها لِذاته، فهو أهلٌ أن يُعبدَ وحدَه، ويُدعى وحدَه، ويُقصَد ويُشكَر ويُحمَد، ويُحَبَّ ويُرجى ويُخافَ، ويُتوكَّلَ عليه، ويُستعانَ به، ويُستجارَ به، ويُلجَأ إليه، ويُصمَدَ إليه، فتكون الدعوةُ الإلهيَّةُ الحَقُّ له وحده، ومن قام بقلبه هذا معرفةً وذوقًا وحالًا، صح له مقامُ التبتُّل، والتجريدِ المحضِ. وقد فسر السَّلفُ دعوةَ الحَقِّ بالتَّوحيدِ والإخلاصِ فيه والصِّدقِ، ومرادهم هذا المعنى). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٣١).

قال الواحدي: (قال أبو إسحاقَ [الزجاج]: وجائزٌ أن يكونَ ﴿دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾، أنَّه مَن دعا الله موحِّدًا استُجيبَ له دعاؤُه.

قال أبو بكر [ابن الأنباري]: الدعوةُ على هذا التَّفسيرِ يريدُ بها الدَّعواتِ، فاكتُفِيَ من الجَمعِ بالواحِدِ، كقَولِه: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، ومعنى الدَّعَواتِ: دعواتُ الدَّاعِينَ إيَّاه، يلتَمِسونَ الإجابةَ وهم مُحِقُّونَ في ذلك؛ لأنَّهم سألوا مَن لا يَخيبُ سائِلُه، ويَقدِرُ على الإجابةِ، وإنالةِ المطلوبِ، وهذا هو الوَجهُ، وهو الأليقُ بما بعدَه مِن سياقِ الآيةِ؛ لأنَّه ذكَرَ أنَّ الأصنامَ لا يَستَجيبونَ للدَّاعينَ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِنۡ دُونِهِۦ﴾ يعني: الأصنامَ، يَدعونَها المُشرِكونَ مِن دونِ الله، في قَولِ جَميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٢/ ٣٢٢).

يشعُرُ ببَسطِ كَفَّيه ولا بعطَشِه، ولا يقدِرُ أن يُجيبَ دُعاءَه ويبلُغَ فَمَه، وكذلك ما يدعونَه؛ جمادٌ لا يُحِسُّ بدُعائِهم، ولا يستطيعُ إجابَتَهم، ولا يقدِرُ على نَفْعِهم[(١)].

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

أي: وما دُعاءُ الكافرينَ لآلهتِهم إلَّا في ضياعٍ وخَسارٍ؛ لأنَّهم لا ينتَفِعونَ بدُعائِهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٨٦- ٨٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ [فصلت: ٤٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ فاللهُ تعالى هو الذي ينبغي أن يُصرَفَ له الدُّعاءُ، والخَوفُ والرَّجاءُ، والحُبُّ، والرَّغبةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٨٦، ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).
قال ابنُ كثيرٍ: (يَبْسُطُ يَدَه إلى الماءِ، إمَّا قَابِضًا وإمَّا مُتَناوِلًا له مِن بُعدٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٥).
وقيل: شُبِّهوا في قِلَّةِ جَدوى دُعائِهم لآلهتِهم بمن أراد أن يغرِفَ الماءَ بيَديه ليشرَبَه، فبسَطَهما ناشِرًا أصابِعَه، فلم تُبقِ كفَّاه منه شيئًا، ولم يبلغْ طَلِبَته مِن شُربِه. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).

والرَّهبةُ، والإنابةُ؛ لأنَّ ألوهيَّتَه هي الحَقُّ، وألوهيَّةُ غَيرِه باطِلةٌ[١].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ جاء هنا بطريقِ الخِطابِ على أسلوبِ قَولِه: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ [الرعد: ١٠]؛ لأنَّ الخَوفَ والطَّمَعَ يَصدُرانِ مِن المُؤمنينَ، ويُهَدَّدُ بهما الكَفَرةُ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ على أُسلوبِ تَعدادِ الحُجَجِ، الواحدةُ تِلْوَ الأُخرى؛ فلأجْلِ أُسلوبِ التَّعْدادِ- إذ كان كالتَّكريرِ- لم يُعْطَفْ على جُملةِ ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾، وقد أَعْرَبَ هذا عن مَظْهرٍ مِن مَظاهِرِ قُدرةِ اللَّهِ، وعَجيبِ صُنْعِه، وفيه مِن المُناسبَةِ للإنذارِ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ...﴾ [الرعد: ١١] أنَّه مِثالٌ لتصرُّفِ اللَّهِ بالإنعامِ والانتقامِ في تصرُّفٍ واحدٍ، مع تذْكيرِهم بالنِّعمةِ الَّتي هم فيها، وكلُّ ذلك مُناسِبٌ لِمَقاصدِ الآياتِ الماضيةِ؛ فكانت هذه الجُملةُ جَديرةً بالاستقلالِ، وأنْ يُجاءَ بها مُستأْنَفةً؛ لتكونَ مُستقِلَّةً في عِدادِ الجُمَلِ المُستقِلَّةِ الواردةِ في غرَضِ السُّورةِ[٣].

- وافتُتِحَت الجُملةُ بضميرِ الجَلالةِ ﴿هُوَ﴾ دون اسمِ الجَلالةِ المُفْتَتَحِ به في الجُمَلِ السَّابقةِ، فجاءت على أُسلوبٍ مُختلفٍ؛ مُراعاةً لكونِ هاتِه الجُملةِ مُفرَّعَةً عن أغْراضِ الجُمَلِ السَّابقةِ؛ فإنَّ جُمَلَ فواتِحِ الأغراضِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

افتُتِحَت بالاسمِ العَلَمِ؛ كقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [الرعد: ٢]، وقولِه: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الرعد: ٨]، وجُمَلَ التَّفاريعِ افتُتِحَت بالضَّمائرِ؛ كقولِه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [الرعد: ٢]، وقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾[١] [الرعد: ٣].

- وفي قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فنٌّ رائعٌ مِن فُنونِ البلاغةِ، وهو صِحَّةُ الأقسامِ؛ وهو عِبارةٌ عنِ استيفاءِ المعنى مِن جميعِ أقسامِه ووُجوهِه، بحيث لا يُغادِرُ المُتكلِّمُ منها شيئًا؛ ففي هذه الآيةِ استَوْفى قِسْمَيْ رؤيةِ البَرْقِ؛ إذ ليس فيها إلَّا الخوفُ مِن الصَّواعقِ والطَّمعُ في الأمطارِ، ولا ثالثَ لهذينِ القِسمينِ[٢].

- قولُه: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فيه تقديمُ الخوفِ على الطَّمَعِ؛ ووجْهُ ذلك ظاهرٌ؛ لأنَّ المَخوفَ عليه النَّفْسُ أو الرِّزقُ العَتيدُ، والمَطْموعَ فيه الرِّزقُ المُترقَّبُ[٣]. وقيل: قُدِّمَ الخوفُ على الطَّمَعِ؛ إذ كانت الصَّواعقُ يجوزُ وقوعُها مِن أوَّلِ برْقَةٍ، ولا يحصُلُ المطرُ إلَّا بعدَ تواتُرِ الإبراقِ؛ لأنَّ تواترَه لا يكادُ يُخْلَفُ، وليكونَ الطَّمعُ ناسِخًا للخوفِ، كمجيءِ الرَّخاءِ بعد الشِّدَّةِ، والفَرَجِ بعد الكُرْبَةِ؛ فيكونَ ذلك أحلى مَوقِعًا في القُلوبِ، ويشهَدُ لهذا قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨]؛ فجاءَ معنى الآيةِ على ما جاء؛ رحمةً مِن اللَّهِ سبحانه بخلْقِه وبُشْرى لعبادِه[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٩٩- ١٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٩٩- ١٠٢).

فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾

- قولُه: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ فيه عطْفُ الرَّعْدِ على ذِكْرِ البرْقِ والسَّحابِ؛ لأنَّه مُقارِنُهما في كثيرٍ مِن الأحوالِ[١].

- قولُه: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ فيه الْتِفاتٌ عن درجةِ الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ إيذانًا بإسقاطِ هؤلاءِ المُجادِلين، وهم الكَفَرةُ المُخاطَبون في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ﴾، وإعراضًا عنهم، وتعديدًا لجناياتِهم لدى كلِّ مَن يستحقُّ الخِطابَ[٢]. وقيل: أُعيدَ الأُسلوبُ هنا إلى ضَمائرِ الغَيبةِ؛ لانقضاءِ الكلامِ على ما يصلُحُ لمَوعِظةِ المؤمنين والكافرين، فتمحَّضَ تخويفُ الكافرين[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾

- قولُه: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المُبتدأ؛ لإفادةِ التَّخصيصِ، أي: دعوةُ الحقِّ مِلْكُه لا مِلْكُ غيرِه، وهو قصْرٌ إضافيٌّ. وقد صرَّحَ بمفهومِ جُملةِ القصْرِ بجُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ﴾ [الرعد: ١٤]؛ فكانت بَيانًا لها، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ تُفْصَلَ ولا تُعْطَفَ، وإنَّما عُطِفَت؛ لِما فيها مِن التَّفصيلِ والتَّمثيلِ، فكانت زائدةً على مِقدارِ البَيانِ، والمقصودُ بَيانُ عدَمِ استحقاقِ الأصنامِ أن يدعُوَها الدَّاعون[٤].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ ﴾ فيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٠٨).

تشبيهٌ تمثيليٌّ رائعٌ، أي: إلَّا استجابةً كاستجابةِ الماءِ مَن بَسَطَ كفَّيه إليه يطلُبُ منه أنْ يبلُغَ فاهُ، وما هو ببالِغِه؛ فالماءُ جَمادٌ لا يشعُرُ ببَسْطِ كفَّيه ولا بعَطَشِه وحاجتِه إليه، ولا يقدِرُ أنْ يُجيبَ دُعاءَه ويبلُغَ فاهُ، وكذلك ما يدْعونَه، جَمادٌ لا يُحِسُّ بدُعائِهم، ولا يستطيعُ إجابتَهم، ولا يقدِرُ على نفْعِهم. وقيل: شبَّهَ الكفَّارَ في دُعائِهم لأصنامِهم عند ضرورتِهم برجُلٍ عطشانَ لا يقدِرُ على الماءِ، وفي قِلَّةِ جَدْوى دُعائِهم لآلهتِهم بمَن جلَسَ على شَفيرِ بئْرٍ وأرادَ أنْ يغرِفَ الماءَ بيدَيه ليشرَبَه، فبسَطَهما ناشِرًا أصابَعه، فلم تَلْقَ كفَّاهُ منه شيئًا ولم يبلُغْ طَلِبَتَه مِن شُرْبِه؛ فلا هو يبلُغُ قعْرَ البئْرِ إلى الماءِ، ولا الماءُ يرتفِعُ إليه؛ كذلك ما يدعو الكفَّارُ مِن الأوثانِ، جمادٌ لا يُحِسُّ بدُعائهم، ولا يستطيعُ إجابتَهم، ولا يقدِرُ على نَفْعِهم[1]. وهذا التَّشبيهُ مِن غيرِ مُلاحظةِ التَّشبيهِ في جميعِ مُفرداتِ الأطرافِ؛ فإنَّ الماءَ في نفْسِه شيءٌ نافِعٌ بخلافِ آلهتِهم، والمرادُ: نَفْيُ الاستجابةِ رأْسًا، إلَّا أنَّه قد أُخْرِجَ الكلامُ مَخْرَجَ التَّهكُّمِ بهم، فقيل: لا يستجيبون لهم شيئًا مِن الاستجابةِ إلَّا استجابةً كائنةً في هذه الصُّورةِ الَّتي ليست فيها شائبَةُ الاستجابةِ قطْعًا، فهو في الحقيقةِ مِن بابِ التَّعليقِ بالمُحالِ[2].

- وتنْكيرُ (شيءٍ) في قولِه: ﴿بِشَيۡءٍ﴾؛ للتَّحقيرِ، والمُرادُ أقلُّ ما يُجابُ به مِن الكلامِ[3].

- وجُملةُ ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٠٢- ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٩).

دُونِهِۦ﴾؛ لاستيعابِ حالِ المَدْعُوِّ وحالِ الدَّاعي؛ فبيَّنَتِ الجُملةُ السَّابقةُ حالَ عجْزِ المَدْعُوِّ عنِ الإجابةِ، وأُعقِبَت بالتَّمثيلِ المُشتمِلِ على كِنايةٍ، واشتَمَلَ ذلك أيضًا بالكِنايةِ على خَيبةِ الدَّاعي[١].

- قَولُه: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ فيه إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ، حيث قال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقُلْ: (وما دُعاؤُهم)؛ وذلك لأنَّ دُعاءَ الكافرينَ لَمَّا كان مُنحَصِرًا في الباطِلِ، أظهر تعميمًا، وتعليقًا للحُكمِ بالوَصفِ[٢].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٠١).

الآيات (١٥-١٨)

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾
قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا
ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ
خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ
ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ
وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟
لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ
لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾: جمع غَداةٍ: وهي أولُ النَّهارِ، وأصلُ (غدو): يدُلُّ على زَمانٍ[١].

﴿وَٱلْءَاصَالِ﴾: جمع أُصُلٍ، والأُصُلُ: جَمْعُ أَصِيلٍ: وهو آخِرُ النَّهارِ، وأصلُ (أصل): يدلُّ على ما كان مِن النَّهارِ بعدَ العَشيِّ[٢].

﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾: أي: الغالبُ، والقاهرُ لكلِّ شيءٍ وحدَه، والقهرُ: الغلبةُ والتذليلُ معًا، وأصلُ (قهر): غلبةٌ وعلوٌّ[٣].

﴿أَوْدِيَةٌۢ﴾: جمعُ الوادي، وسُمِّي واديًا لخروجِه وسيلانِه، وأصلُ الوادي:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦).

الموضعُ الذي يسيلُ فيه الماءُ، ومنه سُمِّي المفْرَجُ بينَ الجبلينِ واديًا[١].

﴿زَبَدًا رَّابِيًا﴾: أي: غُثاءً طافيًا عاليًا فوقَ الماءِ، وأصلُ (زبد): يدلُّ على تولُّدِ شَيءٍ عن شَيءٍ، وأصلُ (ربو): يدلُّ على الزِّيادةِ والنَّماءِ والعُلُوِّ[٢].

﴿حِلْيَةٍ﴾: أي: ما يُتحَلَّى ويُتَزيَّنُ به، وهو المَصوغُ من الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وأصلُ (حلي): يدُلُّ على تحسينِ الشَّيءِ[٣].

﴿جُفَآءً﴾: مُطَّرَحًا مَرميًّا؛ مِن قَولِهم: جفأ الوادي غُثاءَه: إذا رماه، وأصلُ (جفأ): يدلُّ على نبُوِّ الشَّيءِ عن الشَّيءِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: ولِلَّه وَحدَه يَسجُدُ خاضِعًا مُنقادًا كُلُّ مَن في السَّمواتِ والأرضِ، فيَسجُدُ ويخضَعُ له المؤمِنونَ طَوعًا واختيارًا، ويخضَعُ له الكافِرونَ رَغمًا عنهم؛ لأنَّهم يَستكبِرونَ عن عبادتِه، وحالُهم وفِطرتُهم تُكَذِّبُهم في ذلك، وتسجُدُ لله ظِلالُ المَخلوقاتِ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، قلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ ومُدَبِّرُهما؟ قُل: اللهُ هو الخالِقُ المدَبِّرُ لهما، ثمَّ قُلْ لهم مُلزِمًا بالحُجَّةِ: أتَّخَذتُم غَيرَه معَبودينَ لكم، وهم لا يَقدِرونَ على نَفعِ أنفُسِهم أو ضَرِّها، فَضلًا عن نَفعِكم أو ضَرِّكم، وترَكتُم عبادةَ مالِكِها؟! قلْ لهم: هل يستوي الكافِرُ

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، (٣/ ٤٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٤)، ((معاني القرآن)) للزجَّاج (٣/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٥)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢١).

الذي هو أعمَى البَصيرةِ، والمؤمِنُ الذي هو البصيرُ المُهتدي؟ أم هل يستوي الكُفرُ الذي هو ظُلماتٌ، والإيمانُ الذي هو نورٌ؟ أم جَعَلوا لله سُبحانَه شُرَكاءَ معه في الخَلقِ خَلَقوا مِثلَ خَلقِ اللهِ، فاختلطَ عندهم خلقُ اللهِ بخَلقِ شُرَكائِهم؟! قُل لهم: اللهُ وَحدَه هو خالِقُ كُلِّ شَيءٍ لا شريكَ له في الخَلقِ، وهو الواحِدُ القهَّارُ الذي يستحِقُّ الألوهيَّةَ والعبادةَ، لا الأصنامُ والأوثانُ التي لا تضرُّ ولا تنفَعُ.

ثمَّ ضربَ اللهُ سُبحانَه مثَلًا للحَقِّ والباطلِ بماءٍ أنزَلَه من السَّماءِ، فجَرَت به أودِيةُ الأرضِ بقَدْرِ صِغَرِها وكِبَرِها، فحمَلَ السَّيلُ غُثاءً طافيًا فوقَه لا نفْعَ فيه، وضربَ مثلًا آخرَ: هو المعادِنُ يُوقِدونَ عليها النَّارَ لِصَهرِها؛ طلَبًا للزِّينةِ- كما في الذَّهَبِ والفِضَّةِ- أو طلَبًا لمنافِعَ ينتفِعونَ بها- كما في النُّحاسِ- فيخرجُ مِنها خَبَثُها ممَّا لا فائدةَ فيه، كالذي كان مع الماءِ، بمِثلِ هذا يضرِبُ اللهُ المَثَلَ للحَقِّ والباطِلِ؛ فالباطِلُ -كغُثاءِ الماءِ والمعادِنِ- يتلاشَى أو يُرْمَى؛ إذ لا فائدةَ منه، والحقُّ- كالماءِ الصافي والمعادِنِ النَّقيَّةِ- يبقَى في الأرضِ للانتفاعِ به، كما بيَّنَ لكم هذه الأمثَالَ، كذلك يضرِبُها للنَّاسِ؛ ليتَّضِحَ الحَقُّ مِن الباطِلِ، والهُدَى من الضَّلالِ.

ثمَّ بيَّن الله سبحانه بعدَ ذلك عاقبةَ أهلِ الحقِّ، وعاقبةَ أهلِ الباطلِ، فقال: للمُؤمنينَ الذين أطاعوا اللهَ ورَسولَه الجنَّةُ، والذين لم يُطيعوه وكَفَروا به لو كانوا يَملِكونَ كُلَّ ما في الأرضِ وضِعْفَه معه لبَذَلوه؛ فداءً لأنفُسِهم مِن عذابِ اللهِ يومَ القيامةِ، ولن يُتَقبَّلَ منهم، أولئك يُحاسَبونَ على كُلِّ ما أسلَفوه مِن عمَلٍ سيِّئٍ، ومَسكَنُهم ومَقامُهم جهنَّمُ تكونُ لهم فِراشًا، وبِئسَ الفِراشُ الذي مَهَدوه لأنفُسِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

أي: ولله يَسجُدُ مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ طائعينَ[١] ومكرهينَ؛ سجودَ ذلٍّ وقهرٍ وخضوعٍ، فكلُّ أحدٍ خاضعٌ لقدرِ اللهِ، مقهورٌ تحتَ سلطانِه، لا يقدرُ أن يمتنعَ عليه[٢].

---

(١) قال ابنُ القيم: (قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يدخلُ فيه سجودُ المصلِّين قطعًا، وكيف لا وهو أجلُّ السجودِ وأفرضُه؟). ((إعلام الموقعين)) (٢/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٧٢)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤٤٢).

وممن اختار هذا القولَ في معنَى السجودِ: ابنُ القيم، والقاسمي، وابنُ عثيمين. تُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ عثيمين: (قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ والسجودُ هنا السجودُ القدريُّ، فكلُّ أحدٍ خاضعٌ لقدرِ الله، ما أحدٌ يستطيعُ أن يغالبَ الله عزَّ وجلَّ، أين المفرُّ... فالسجودُ الشرعيُّ كثيرٌ مِن الناسِ حقَّ عليهم العذابُ، فلم يسجدوا، على أنَّ الشمسَ والقمرَ والنجومَ والجبالَ والشجرَ والدوابَّ كلَّها يسجدُ لله عزَّ وجلَّ، لكنَّ الكفرةَ مِن بني آدمَ ومِن الجنِّ لا يسجدونَ للهِ تعالى إلا السجودَ الكونيَّ القدريَّ). ((شرح رياض الصالحين)) (٥/ ٤٤٢).

وقال ابنُ تيميةَ في تفسيرِ الكرهِ في الآيةِ: (والصحيحُ أنَّه انقيادُهم لحكمِه القدريِّ بغيرِ اختيارِهم، كاستسلامِهم عندَ المصائبِ وانقيادِهم لما يكرهونَ مِن أحكامِه الشرعيةِ، فكلُّ أحدٍ لا بدَّ له مِن انقيادِه لحكمِه القدريِّ والشرعيِّ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٤٩).

وقال النحاسُ: (ومِن أحسنِ ما قيل: أنَّ السجودَ هاهنا الخضوعُ لتدبيرِ الله جلَّ وعزَّ وتصريفِه مِن صحَّةٍ وسقمٍ وغيرِهما.

﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: ينقادونَ على ما أحبُّوا أو كرِهوا لا حيلةَ لهم في ذلك). ((إعراب القرآن)) (٢/ ٢٢٢).

وقال السعدي: (جميعُ ما احتوتْ عليه السمواتُ والأرضُ كلُّها خاضعةٌ لربِّها، تسجدُ له ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فالطوعُ لمن يأتي بالسجودِ والخضوعِ اختيارًا كالمؤمنينَ، والكرهُ لمن يستكبرُ عن عبادةِ ربِّه، وحالُه وفطرتُه تكذِّبُه في ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).

وقيل: سجودُ مَن في السموات والأرض من العامِّ المخصوص؛ فالمؤمنون والملائكة يسجدونَ لله سجودًا حقيقيًّا، وهو وضعُ الجبهة على الأرض، يفعلون ذلك طوعًا، والكُفَّار يسجدون كَرهًا، ومنهم المنافقون. وممن اختار هذا القول: ابن جرير، والواحدي، ونسبه للمفسرين يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٦٨).

وقيل: المرادُ بسجودِ الكفارِ كَرهًا: سجودُ ظِلالِهم كَرهًا. وممن ذهب إلى ذلك: مقاتل. يُنظر:

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾.

أي: ولِلَّهِ تَسجُدُ ظِلالُ المَخلوقاتِ في أوَّلِ النَّهارِ، وفي آخِرِه[1].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٤٩].

((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٧٣).

وقيل: الآيةُ في المؤمنينَ، فبعضُهم يسجدُ طَوعًا؛ لخِفَّةِ امتثالِ أوامرِ الشَّرع عليه، وبعضُهم يسجدُ كَرهًا؛ لثِقَل مشقَّةِ التكليفِ عليه. وجوزَّه الزجاجُ. ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ١٤٤) ونسَبه ابنُ عطيةَ أيضا للنحاسِ، لكن تعقَّبه قائلًا: (وإن كان اللفظُ يقتضي هذا فهو قلقٌ مِن جهةِ المعنَى المقصودِ بالآيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٠٦).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٣٧ - ٢٣٩).

وقال ابنُ جُزي: (﴿مِن﴾ لا تقعُ إلا علَى مَن يعقلُ، فهي هنا يُراد بها الملائكةُ والإنسُ والجنُّ، فإذا جعَلْنا السجودَ بمعنَى الانقيادِ لأمرِ الله وقضائِه؛ فهو عامٌّ في الجميعِ: مَن شاء منهم ومَن أبَى، ويكونُ طوعًا لمَن أسلَم، وكرهًا لمن كرِه وسخِط، وإن جعَلْنا السجودَ هو المعروفُ بالجسدِ، فيكونُ لسجودِ الملائكةِ والمؤمنينَ مِن الإنسِ والجنِّ طوعًا، وأما الكرهُ فهو سجودُ المنافقِ وسجودُ ظلِّ الكافرِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).

قال الشنقيطي: (قيل: سجودُها حقيقي، والله تعالى قادِرٌ على أن يخلُقَ لها إدراكًا تُدرِكُ به وتسجُدُ لله سجودًا حقيقيًّا، وقيل: سجودُها: مَيلُها بقدرةِ اللهِ أوَّلَ النهار إلى جهةِ المغرب، وآخِرَه إلى جهة المَشرق، وادَّعى من قال هذا أنَّ الظِّلَّ لا حقيقةَ له؛ لأنَّه خيالٌ فلا يمكِنُ منه الإدراكُ. ونحن نقول: إنَّ اللهَ -جلَّ وعلا- قادِرٌ على كلِّ شيءٍ؛ فهو قادر على أن يخلُقَ للظِّلِّ إدراكًا يسجدُ به لله تعالى سجودًا حقيقيًّا). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٣٨).

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما ذكَر الله تعالى أنَّ المخلوقاتِ كلَّها تسجدُ له طوعًا وكرهًا؛ لذا كان هو الإلهَ حقًّا، المعبودَ المحمودَ حقًّا، وكانت إلهيةُ غيرِه باطلةً، ولهذا ذكَر بطلانَها، وبرْهَن عليه[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا نهَضَت الأدِلَّةُ الصَّريحةُ بمظاهِرِ الموجوداتِ المتنوِّعةِ على انفرادِه بالإلهيَّةِ، مِن قَولِه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد: ٢]، وقَولِه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ ﴾ [الرعد: ٣]، وقولِه: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾ [الرعد: ٨]، وقولِه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ﴾ [الرعد: ١٢] الآيات، وبما فيها مِن دَلالةٍ رَمزيَّةٍ دَقيقةٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ [الرعد: ١٤]، وقَولِه: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [الرعد: ١٥]، إلى آخِرِها- لا جرَمَ تهيَّأَ المَقامُ لتَقريرِ المُشرِكينَ تقريرًا لا يجِدونَ معه عن الإقرارِ مَندوحةً، ثمَّ لتَقريعِهم على الإشراكِ تَقريعًا لا يسَعُهم إلَّا تجَرُّعُ مَرارتِه؛ لذلك استؤنِفَ الكلامُ وافتُتِحَ بالأمرِ بالقَولِ؛ تنويهًا بوضوحِ الحُجَّة[2]، فقال تعالى:

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾.

أي: قُل -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: مَن خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ ومالِكُهما ومُدَبِّرُهما؟ قُل: ربُّها الذي خلَقَها وأوجَدَها هو اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحدَه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٢).

دونَ غَيرِه[١].

﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

أي: قُل -يا محمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: أفاتَّخَذتُم مِن دونِ اللهِ آلهةً لا تملِكُ أن تجلِبَ لأنفُسِها نفعًا، ولا أن تدفَعَ عن أنفُسِها ضَرًّا، فضلًا عن غَيرِها، فتَعبُدونَها وتترُكونَ عِبادةَ اللهِ الذي بِيَدِه وحدَه النَّفعُ والضَّرُّ[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: هل يَستوي الأعمى الذي لا يُبصِرُ شَيئًا، والبَصيرُ الذي يُبصِرُ؟ لا شَكَّ أنَّهما لا يستويانِ، فكذلك لا يستوي الموَحِّدُ لله، والمُشرِكُ به[٣].

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾.

أي: وهل تستوي الظُّلُماتُ التي لا يُرى فيها شيءٌ، والنُّورُ الذي تُرى فيه الأشياءُ بوُضوحٍ؟ لا شَكَّ أنَّهما لا يستويانِ؛ فكذلك لا يستوي الشِّركُ والإيمانُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٢٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٢)، ((تفسير البغوي))

﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: أجَعَلوا لله شُرَكاءَ يَعبُدونَهم مع اللهِ؛ خَلَقوا مثلَ خَلقِ اللهِ -تعالى وتقَدَّسَ-، فتَشابهَ خَلقُ الشُّركاءِ بخَلقِ اللهِ عِندَهم، فجَعَلوها شُرَكاءَ لله بسبَبِ ذلك؟! أي: ليس الأمرُ كذلك، فلا عُذرَ للمُشرِكينَ في عبادتِها، وهم مُعتَرِفونَ بأنَّها لا تخلُقُ شيئًا[1].

كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١].

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

أي: قُل- يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ: اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ، وقد خلَقَكم وخلَقَ آلهَتَكم، فكيف تعبُدونَها مع اللهِ، وهو المستحِقُّ للعبادةِ وَحدَه[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

وقال سُبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١].

(٣/ ١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٥).

قال ابن تيمية: (هذا استفهامُ إنكارٍ بمعنى النفي، أي: ما جعلوا لله شُرَكاءَ خَلَقوا كخَلقِه؛ فإنَّهم مقِرُّونَ أنَّ آلهتَهم لم يخلُقوا كخَلقِه، وإنَّما كانوا يجعلونَهم شُفَعاءَ ووسائِطَ). ((مجموع الفتاوى)) (١/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٣٩).

وقال عزَّ وجلَّ حاكيًا قولَ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- لِقَومِه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۞ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥- ٩٦].

﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾.

أي: واللهُ هو الواحِدُ الذي لا ثانيَ له، الغالِبُ لجميعِ خَلقِه، المستحِقُّ للعبادةِ وَحدَه دون ما سواه[1].

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾.

أي: أنزلَ اللهُ مِن السَّحابِ مطَرًا فاحتمَلَتْه الأوديةُ بقَدْرِ كِبَرِها وصِغَرِها، فأخذ كلُّ وادٍ بحسَبِ سَعَتِه[2].

وهذا مَثَلٌ ضرَبَه اللهُ، فشَبَّه تعالى ما أنزَلَه من العِلمِ والإيمانِ إلى القُلوبِ بالماءِ الذي أنزَلَه من السَّماءِ إلى الأرضِ، وشبَّه القلوبَ الحاملةَ للعِلمِ والإيمانِ بالأوديةِ الحاملةِ للسَّيلِ؛ فقَلبٌ كبيرٌ يسَعُ عِلمًا عَظيمًا، كوادٍ كبيرٍ يسَعُ ماءً كثيرًا، وقلبٌ صغيرٌ يسَعُ عِلمًا قَليلًا، كوادٍ صغيرٍ يسَعُ ماءً قليلًا، فحَمَلت القلوبُ مِن هذا العِلمِ بقَدَرِها، كما سالت الأوديةُ مِن الماءِ بقَدَرِها، فهذا تقسيمٌ للقُلوبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٧).

قال الرسعني: (المعنى: سالَتْ أوديةٌ بقَدرِها على حسبِ مجاريها، إن صغر الوادي قلَّ الماءُ، وإن اتَّسَع كَثُرَ الماءُ. هذا قولُ أكثرِ المفسرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٦٦).

بحَسَب ما تحمِلُه مِن العِلمِ والإيمانِ إلى مُتَّسِعٍ وضَيِّقٍ[١].

﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾.

أي: فاحتمَلَ الماءُ الذي يسيلُ في الأوديةِ بعد نزولِ المطَرِ زبَدًا[٢] مُرتفِعًا فوقَ الماءِ طافيًا على سَطحِه[٣].

وهذا بيانٌ للحَقِّ في ثَباتِه والباطِلِ في اضمِحلالِه؛ فالحَقُّ هو الماءُ الباقي الذي أنزَلَه اللهُ مِن السَّماءِ، والباطِلُ هو الزَّبَدُ الذي لا يُنتفَعُ به، فإنَّه يضمَحِلُّ ويَعْلَقُ بجَنَباتِ الأوديةِ، وتدفَعُه الرِّياحُ، فكذلك يذهَبُ الكُفرُ ويتلاشَى[٤].

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾.

أي: ومِن الذي يُوقِدُ عليه الناسُ في النَّارِ؛ ليذوبَ، مِن معادِنِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ؛ طلبًا لحِليةٍ يتزيَّنونَ بها، ويتجمَّلون، أو من معادِنِ الحديدِ، والنحاسِ، والرصاصِ وغيرِها؛ طلَبًا لِمَتاعٍ يتمَتَّعونَ به، وينتفِعونَ، كالأواني والآلاتِ المصنوعةِ- خبثٌ يعلو فوقَ ما أُذِيبَ مِن تلك المعادنِ، كما يعلُو الزَّبَدُ على الماءِ، فلا يُنتفعُ به،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٧)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٢) قال الشوكاني: (الزَّبَدُ: هو الأبيضُ المُرتفعُ المنتفِخُ على وجهِ السَّيلِ، ويقال له: الغُثاءُ والرَّغوةُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٦، ٤٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٦، ٤٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٤).
قال الواحدي: (يريد: أنَّ الباطِلَ -وإنْ ظهَرَ على الحقِّ في بعضِ الأحوالِ- فإنَّ الله سيمحَقُه ويُبطِلُه، ويجعلُ العاقبةَ للحقِّ وأهلِه). ((الوجيز)) (ص: ٥٦٩).

ويذهبُ باطلًا[١].

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾.

أي: كما مثَّل اللهُ بقاءَ الإيمانِ وبُطلانَ الكُفرِ إذا اجتمعا، بما يبقى مِن ماءِ السَّيلِ وخالِصِ المَعادِنِ التي يُوقَدُ عليها في النَّارِ- كذلك يُبيِّنُ اللهُ مثَلَ الحَقِّ والباطِلِ[٢].

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا نبَّهَ اللهُ تعالى بهذا الفَصلِ -وهو قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾- على عُلُوِّ رُتبةِ هذا المثَلِ؛ شرَعَ في شَرحِه، فبدأ بما هو الأهَمُّ في هذا المَقامِ، وهو إبطالُ الباطِلِ الذي أضَلَّهم[٣].

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ﴾.

أي: فأمَّا الزَّبَدُ -الذي كان يعلو السَّيلَ، ويعلو المعادِنَ عند الإيقادِ عليها- فيذهَبُ ضائِعًا مُضمحِلًّا مَرمِيًّا لا يُنتفَعُ به[٤].

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٨-١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٧، ٤٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٧).

أي: وأمَّا ما ينفَعُ النَّاسَ -مِن الماءِ الصَّافي والمعادِنِ الخالِصةِ- فيبقى في الأرضِ ويَستقِرُّ، فينتفِعُ به النَّاسُ[(١)].

عن أبي موسى الأشعريِّ رضيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ مثَلَ ما بعَثَني الله به -عزَّ وجلَّ- من الهُدى والعِلمِ، كمَثَلِ غيثٍ أصاب

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٨)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٧).

قال ابنُ تيميةَ: (والذي ينفَعُ النَّاسَ يمكُثُ في الأرضِ ويستَقِرُّ، وكذلك القلوبُ تُخالِطُها الشَّهَواتُ والشُّبُهاتُ، فإذا ترابى فيها الحَقُّ ثارت فيها تلك الشَّهَواتُ والشُّبُهاتُ، ثم تذهبُ جُفاءً، ويستقِرُّ فيها الإيمان والقرآنُ الذي ينفَعُ صاحِبَه والنَّاسَ، وقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ فهذا المثَلُ الآخَرُ، وهو الناريُّ؛ فالأول للحياةِ، والثاني للضياء). ((مجموع الفتاوى)) (١٩/ ٩٥).

وقال ابنُ القيِّم: (شَبَّه الوحيَ -الذي أنزله لحياةِ القلوبِ والأسماعِ والأبصارِ- بالماءِ الذي أنزله لحياةِ الأرض بالنَّبات، وشبَّه القلوب بالأودية، فقلبٌ كبيرٌ يسعُ عِلمًا عظيمًا كوادٍ كبير يسعُ ماء كثيرًا، وقلبٌ صغير إنما يسعُ بحَسَبه كالوادي الصغير، فسالت أوديةٌ بقَدَرها، واحتمَلَت قلوبٌ من الهدى والعلم بقَدَرِها؛ وكما أن السيلَ إذا خالط الأرضَ ومرَّ عليها احتمل غُثاءً وزَبَدًا، فكذلك الهُدى والعلم إذا خالطَ القلوبَ أثار ما فيها من الشَّهواتِ والشُّبُهاتِ؛ ليقلَعَها ويُذهِبَها كما يثيرُ الدواءُ وقتَ شُربِه من البَدَن أخلاطَه، فيتكدَّرُ بها شاربُه، وهي من تمام نفْعِ الدواء؛ فإنَّه أثارها ليَذهبَ بها، فإنه لا يجامِعُها ولا يشارِكُها؛ وهكذا يضرِبُ اللهُ الحقَّ والباطل، ثم ذكر المثلَ الناريَّ، فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾، وهو الخبَثُ الذي يخرجُ عند سبْكِ الذهب والفضَّة والنُّحاس والحديد، فتُخرِجُه النار وتميِّزُه وتَفصِلُه عن الجوهر الذي يُنتفَعُ به، فيُرمى ويُطرَحُ ويَذهَبُ جُفاءً؛ فكذلك الشهواتُ والشبُهاتُ يرميها قلبُ المؤمِنُ ويَطرَحُها ويجفوها، كما يطرحُ السيلُ والنار ذلك الزبَدَ والغُثاءَ والخَبَث، ويستقِرُّ في قرار الوادي الماءُ الصافي الذي يستقي منه النَّاسُ ويزرعون ويسقونَ أنعامهم، كذلك يستقِرُّ في قرار القلبِ وجِذرِه الإيمانُ الخالِصُ الصافي الذي ينفَعُ صاحِبَه، وينتَفِعُ به غيرُه؛ ومن لم يَفقَهْ هذين المثَلَين ولم يتدبَّرْهما ويعرِفْ ما يُراد منهما، فليس من أهلِهما، والله الموفِّق). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١١٧- ١١٨).

ويُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٥٨، ٥٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٧).

أرضًا، فكانت منها طائفةٌ طَيِّبةٌ قَبِلَت الماءَ، فأنبَتَت الكَلأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكان منها أجادِبُ أمسَكَت الماءَ، فنفعَ اللهُ بها النَّاسَ، فشَرِبوا منها وسَقَوا ورَعَوا، وأصاب طائفةً منها أخرى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كَلأً؛ فذلك مَثَلُ مَن فَقُهَ في دينِ اللهِ، ونفَعَه بما بعَثَني اللهُ به، فعَلِم وعلَّم، ومَثَلُ مَن لم يرفَعْ بذلك رأسًا، ولم يقبَلْ هُدى اللهِ الذي أُرسِلتُ به))[1].

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾.

أي: كما مثَّل اللهُ لكم هذا المثَلَ لبقاءِ الحَقِّ وذَهابِ الباطِلِ، كذلك يضرِبُ اللهُ لكم الأمثالَ؛ ليتَّضِحَ لكم الحَقُّ مِن الباطِلِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَواْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

(١) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

لَمَّا بيَّنَ تعالى الحَقَّ مِن الباطِلِ، ذكَرَ أنَّ النَّاسَ على قِسمَينِ: مُستجيبٍ لرَبِّه، فذكَرَ ثوابَه، وغيرِ مُستجيبٍ، فذكَرَ عقابَه، فقال[١]:

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

أي: للذينَ أجابوا ربَّهم فآمَنوا به وأطاعوه ورَسولَه؛ الجزاءُ الحسَنُ في الدُّنيا، والجنَّةُ في الآخرةِ[٢].

كما قال سُبحانَه مُخبرًا عن ذي القَرنينِ أنَّه قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧- ٨٨].

وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال سُبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ﴾.

أي: والذين لم يُؤمِنوا برَبِّهم ولم يطيعوه ورَسولَه؛ لو أنَّهم يَملِكونَ كُلَّ شَيءٍ في الأرضِ، ويَملِكونَ مِثلَه معه، لقدَّموه فداءً؛ لتخليصِ أنفُسِهم من عذابِ النَّارِ يومَ القيامةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٩١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ ﴾.

أي: أولئك الكُفَّارُ -الذين لم يستجيبوا لربِّهم- يُؤخَذون يومَ الحسابِ بجميعِ ذُنوبِهم صَغيرَها وكبيرَها، ولا يَغفِرُ اللهُ شيئًا منها، فلا يقبَلُ لهم حَسَنةً، ولا يتجاوَزُ لهم عن سيِّئةٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانه: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ [المدثر: ٨-١٠].

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من حُوسِبَ يومَ القيامةِ عُذِّبَ. فقلتُ: أليس قد قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾[الانشقاق: ٨]؟! فقال: ليس ذاك الحِسابَ، إنَّما ذاك العَرضُ، مَن نوقِشَ الحِسابَ يومَ القيامةِ عُذِّبَ))(٢).

﴿ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٢) رواه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦)، واللفظ له.

أي: ومسكَنُ الكُفَّارِ ومَقامُهم يومَ القيامةِ نارُ جهنَّمَ، وبئسَ الفِراشُ جهنَّمُ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قولُ الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يُستفادُ منه أنَّ الباطِلَ وإن علا في وقتٍ، فإنَّه يضمَحِلُّ، ويبقى الحَقُّ ظاهِرًا لا يشوبُه شَيءٌ مِن الشُّبُهاتِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى في سورةِ آلِ عِمرانَ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وعامَّةُ السَّلَفِ على أنَّ المرادَ بالاستسلامِ استِسلامُهم له بالخُضوعِ والذُّلِّ، لا مجرَّدُ تَصريفِ الرَّبِّ لهم، كما في قَولِه تعالى هنا: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ وهذا الخضوعُ والذُّلُّ هو أيضًا لازِمٌ لكُلِّ عبدٍ، لا بدَّ له مِن ذلك، وإن كان قد يَعرِضُ له أحيانًا الإعراضُ عن رَبِّه والاستكبارُ، فلا بُدَّ له عند التَّحقيقِ مِن الخُضوعِ والذُّلِّ له، لكِنَّ المؤمِنَ يُسلِمُ له طَوعًا فيُحِبُّه ويُطيعُ أمْرَه، والكافِرِ إنَّما يخضَعُ له عند رَغبةٍ ورَهبةٍ، فإذا زال عنه ذلك أعرَضَ عن رَبِّه[٣].

٢- جُملةُ ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ صِفَةٌ لـ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، والمقصودُ منها تنبيهُ السَّامعينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٢٩٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٠).

للنَّظَرِ في تلك الصِّفَةِ؛ فإنَّهم إنْ تدبَّروا عَلِموها، وعَلِموا أنَّ مَن كانت تلك صِفَتَه فليس بأهلٍ لأنْ يُعْبَدَ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ احتَجَّ سُبحانه على تَفَرُّدِه بالإلهيَّةِ بتفرُّدِه بالخَلْقِ؛ وعلى بُطلانِ إلهيَّةِ ما سواه بعَجزِهم عن الخَلْقِ، وعلى أنَّه واحدٌ بأنَّه قَهَّارٌ- والقَهرُ التامُّ يستلزِمُ الوَحدةَ- فإنَّ الشَّرِكةَ تُنافي تمامَ القَهرِ(٢)، فلا توجدُ الوحدةُ والقهرُ إلَّا للهِ وحدَه، فالمخلوقاتُ وكلُّ مخلوقٍ فوقَه مخلوقٌ يقهرُه، ثم فوقَ ذلك القاهرِ قاهرٌ أعلَى منه، حتَّى ينتهيَ القهرُ للواحدِ القهَّار، فالقهرُ والتوحيدُ متلازمانِ متعينانِ لله وحدَه، فتبيَّن بالدليلِ العقليِّ القاهرِ، أنَّ ما يُدعَى مِن دونِ الله ليس له شيءٌ مِن خلقِ المخلوقاتِ، وبذلك كانت عبادتُه باطلةً(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ ساق ذلك في أُسلوبِ الغَيبةِ؛ إعلامًا بأنَّهم أهلٌ للإعراضِ عنهم؛ لكَونِهم في عِدادِ البَهائِم؛ لقَولِهم ما لا يُعقَلُ بوجهٍ مِن الوُجوهِ(٤).

٥- قال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فنفَى أن يكونَ خالقٌ غيره، ونفَى أن يكونَ شيءٌ سواه غير مخلوقٍ، فلو كانت الأفعالُ غيرَ مخلوقةٍ له، لكان خالقَ بعضِ الأشياءِ لا خالقَ كلِّ شيءٍ، وهو بخلافِ الآيةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٣).
(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣١٣).
(٥) يُنظر: ((الاعتقاد)) للبيهقي (ص: ١٤٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ السَّماءَ تَرِدُ- في اللُّغةِ والقُرآنِ- بمعنى العُلُوِّ؛ لأنَّ الماءَ يَنزِلُ مِن السَّحابِ لا مِن السَّماءِ التي هي السَّقفُ المحفوظُ[١]!

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ أصلٌ في الصَّوغِ والأواني المُنطَبِعةِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾

- ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا﴾ فيه قصْرٌ، أي: يسجُدُ للَّهِ وحدَه لا لشيءٍ غيرِه استقلالًا ولا اشتراكًا؛ فالقصْرُ ينتظِمُ القلْبَ والإفرادَ[٣]. وعدَلَ عن ضميرِ الجَلالةِ إلى اسمِه تعالى العَلَمِ؛ تبَعًا للأُسلوبِ السَّابقِ[٤] في افتتاحِ الأغراضِ الأصليَّةِ[٥].

- ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه تخصيصُ انقيادِ العُقلاءِ بالذِّكْرِ مع كونِ

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١).

وقَصرُ الإفرادِ: إذا اعتقَد المخاطَبُ الشركةَ، نحو: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النساء: ١٧١] ردًّا على مَن اعتقد أنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ.

وأمَّا قصرُ القَلبِ: فهو إذا اعتقَد المخاطَبُ عكسَ الحُكمِ الذي يُثبتُه المُتكلِّمُ، نحو: (ما سافَر إلَّا عليٌّ) ردًّا على مَن اعتقدَ أن المسافِرَ خليلٌ لا عليٌّ. فقد قلَب المتكلِّمُ على المخاطَبِ اعتقادَه، وعكَسه عليه. يُنظر: ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٧٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٨- ٥٢٩).

(٤) يعني قولَه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا ...﴾ [الرعد: ٢]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ ...﴾ [الرعد: ٨].

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٠).

غيرِهم أيضًا كذلك؛ لأنَّهم العُمدَةُ، وانقيادَهم دليلُ انقيادِ غيرِهم، والعُمومُ المُستفادُ مِن (مَن) الموصولةِ عُمومٌ عُرفيٌّ يُرادُ به الكَثْرةُ الكاثِرَةُ[١].

- قولُه: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ فيه تخصيصُ هذينِ الوقتينِ مع أنَّ انقيادَها مُتَحَقِّقٌ في جميعِ أوقاتِ وُجودِها؛ لأنَّ الظِّلالَ إنَّما تعظُمُ وتكثُرُ فيهما[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي سورةِ (النَّحلِ) قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾، وقال في سورةِ (الحجِّ): ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ...﴾، فخصَّصَ آيةَ (الرَّعدِ) بـ (مَن) ولم تَتكرَّر؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ ما في هذه السُّورةِ تقدَّمَ آيةَ السَّجدَةِ ذِكْرُ العُلْويَّاتِ مِن البرْقِ والسَّحابِ والصَّواعِقِ، ثمَّ ذِكرُ الملائكةِ بتسبيحِهم، ثمَّ الأصنامِ والكفَّارِ، فبدَأَ في آيةِ السَّجدَةِ بذِكْرِ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ ليُقَدِّمَ ذِكْرَهم، وأتْبَعَهم مَن في الأرضِ فذَكرَهم تَبعًا. ولم يُكرِّر (مَن) فيها كما كرَّرها في سورة (الحَجِّ)؛ استخفافًا بالأصنامِ والكفَّارِ، وأمَّا في سورةِ (الحجِّ) فتقدَّمَ ذِكْرُ المؤمنين وسائرِ الأديانِ؛ فَقُدِّم ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لشرَفِهم وتعظيمًا لهم ولها، ثمَّ ذَكَر ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ ليُقَدِّمَ ذِكْرَ المؤمنين؛ لأنَّهم هم الَّذين تقدَّمَ ذِكْرُهم، وأمَّا في سُورةِ (النَّحلِ) فقد تقدَّمَ ذِكْرُ ما خلَقَ اللَّهُ على العُموم، ولم يكن فيه ذِكرُ الملائكةِ والرَّعدِ ولا الإنسِ بالتَّصريحِ؛ فاقتَضَتِ الآيةُ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ فقال في كلِّ آيةٍ ما يناسِبُها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٦- ٢٨٧).

وقيل: إنَّ وُرودَ (مَن) في سُورةِ (الرَّعدِ) لا سُؤالَ فيه، فإنَّ قَبولَ الأوامِرِ وامتثالَ الطَّاعاتِ بالقصْدِ والاختيارِ بمَشيئةِ اللَّهِ سبحانه- إنَّما يكونُ مِن أصحابِ العُقولِ، وهم الملائكةُ والإنسُ والجِنُّ، وهم المَقْصودونَ في الآيةِ، فورَدَتْ بـ(مَن) الواقِعةِ على العُقلاءِ؛ لهذا قيل: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]؛ لأنَّ ذلك إنَّما يكونُ ويُسْتَوْضَحُ مِن العاقِلِ، فالآيةُ وارِدَةٌ على ما ينْبَغي. وأمَّا آيةُ (النَّحلِ) فمُراعًى فيها لفْظُ (دابَّة) الوارِدُ فيها؛ إذ هو عامٌّ للعاقِلِ وغيرِه، فورَدَتِ الآيةُ بـ(ما) الواقِعَةِ على الأنواعِ والأجناسِ مُناسِبَةً لِما تقدَّمَ مِن الإطلاقِ والعُمومِ[(١)].

- ومِن المُناسَبَةِ الحَسَنةِ أيضًا أنَّ في سُورةِ (النَّحلِ) زيادة: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٤٩]، ولم يرِدْ ذلك هنا في سُورةِ (الرَّعدِ)؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ قولَه تعالى في آيةِ (النَّحلِ): ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تخصيصٌ لهم؛ لجَليلِ حالِهم، فعُيِّنوا بالذِّكْرِ مع دُخولِهم في العُمومِ المُتقدِّمِ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، مع دُخولِهما تحتَ لفْظِ الملائكةِ. ثمَّ أكَّدَ الوارِدُ في آيةِ (النَّحلِ) ما ورَدَ فيها مِن لفْظِ (دابَّة). ولم يُخَصَّصوا بالذِّكْرِ في آيةِ (الرَّعدِ)؛ لأنَّه لم يقَعْ هناك لفْظُ (دابَّة)، الَّذي هو الموجِبُ لِتَعْيينِ الملائكةِ وتخصيصِهم بالذِّكْرِ، فكلٌّ على ما يجِبُ ويُناسِبُ[(٢)].

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾

- قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ حكايةٌ لاعترافِهم وتأْكيدٌ له عليهم؛ لأنَّه إذا قال لهم: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لم يكُنْ لهم بُدٌّ مِن أنْ يقولوا: اللَّهُ، كقولِه: ﴿قُلْ مَن

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٧٨-٢٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧٩).

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]، وهذا كما يقولُ المُناظِرُ لصاحبِه: أهذا قولُك؟ فإذا قال: هذا قولي، قال: هذا قولُك، فيَحْكي إقرارَه؛ تقريرًا له عليه واستيثاقًا منه، ثم يقولُ له: فيلْزَمُك على هذا القولِ كَيْتَ وكَيْتَ. ويجوزُ أنْ يكونَ تلْقينًا، أي: إنْ كَفُّوا عنِ الجوابِ فلقِّنْهم، فإنَّهم يتلقَّنونَه، ولا يقدِرون أنْ يُنكِروه؛ فلأنَّه لَمَّا كان السُّؤالُ عن أمرٍ واضحٍ لا يمكِنُ أنْ يدفَعَ منه أحدٌ، كان جوابُه مِن السَّائلِ، فكانَ السَّبْقُ إليه أفصحَ في الاحتجاجِ إليهم وأسرعَ في قطْعِهم في انتظارِ الجوابِ منهم؛ إذ لا جوابَ إلَّا هذا الَّذي وقعَتِ المُبادرةُ إليه[(١)].

وقيل: لكونِ الاستفهامِ غيرَ حقيقيٍّ جاءَ جوابُه مِن قِبَلِ المُستفهِمِ، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ، وهو مِن بَديعِ أساليبِه[(٢)].

- قولُه: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ استفهامٌ على سبيلِ التَّوبيخِ والإنكارِ[(٣)]. وفيه إعادةُ فِعْلِ الأمرِ بالقولِ ﴿قُلۡ﴾ الَّذي هو تفريعٌ على الإقرارِ بأنَّ اللَّهَ ربُّ السَّمواتِ والأرضِ؛ لقصْدِ الاهتمامِ بذلك التَّفريعِ؛ لِما فيه من الحُجَّةِ الواضِحةِ، فالاستفهامُ تقريرٌ وتوبيخٌ وتسفيهٌ لرأْيِهم بناءً على الإقرارِ المُسَلَّمِ[(٤)].

- قولُه: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ فيه وصْفُ الأولياءِ هاهنا بعدَمِ المالِكيَّةِ للنَّفعِ والضَّرِّ في ترشيحِ الإنكارِ وتأْكيدِه، كتقْييدِ الاتِّخاذِ بالجُملةِ الحاليَّةِ ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٣).

وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ [الكهف: ٥٠]؛ فإنَّ كلًّا منهما ممَّا يَنْفي الاتِّخاذَ المَذْكورَ ويُؤكِّدُ إنكارَه(١).

- قولُه: ﴿نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ فيه عطْفُ الضَّرِّ على النَّفعِ؛ استقصاءً في عجْزِهم؛ لأنَّ شأْنَ الضَّرِّ أنَّه أقربُ للاستطاعةِ وأسهلُ(٢).

- ونكَّرَ ﴿نَفۡعٗا﴾ ليعُمَّ، وقدَّمَه؛ لأنَّ السِّياقَ لطَلَبِهم منهم، والإنسانُ إنَّما يَطلُبُ ما ينفَعُه(٣).

- وفيه مُناسَبَةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ [الرعد: ١٦]، وقال في سُورة (الفُرقانِ): ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ [الفرقان: ٣]؛ فقُدِّمَ (النَّفعُ) على (الضَّرِّ) في سُورةِ الرَّعْدِ، وعُكِسَ ذلك في سُورةِ الفُرقانِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ آيةَ (الفُرقانِ) قد عُطِفَ عليها بالواوِ المُشْرِكَةِ في الإعْرابِ والمعنى قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٣]، وقُدِّمَ قبلَها ما عُطِفَت عليه بالواوِ أيضًا، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]؛ فقد اتَّفقَت هذه الجُمَلُ المَعْطوفاتُ في انطِواءِ كلِّ جُملةٍ منها على مُتَقابِلَيْنِ كالضِّدَّيْنِ، ففي الأُولى عدَمُ الخلْقِ في قولِه: ﴿لَّا يَخۡلُقُونَ﴾ مُقابِلًا للخلْقِ والحياةِ، وبُنِيَ مَجْموعُها على تأْخيرِ أشرَفِ المُتَقابِلَيْنِ، ففي الأُولى الإشارةُ إلى الخلْقِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾، وكذا في الثَّانيةِ الضَّرُّ والنَّفعُ، والنَّفعُ أشرَفُ، وفي الثَّالثةِ الموتُ والحياةُ، والحياةُ أشرَفُ، فرُوعِيَ تَناسُبُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٣).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣١٢).

الآيِ على ما أوضَحْنا، فقُدِّمَ الضَّرُّ على النَّفعِ في آيةِ (الفُرقانِ). أمَّا آيةُ (الرَّعدِ) فلم يعرِضْ فيها ما يحمِلُ على ما ذُكِرَ مِن التَّناسُبِ، فجاءت مِن حيث أُفْرِدَت على ما يجِبُ مِن تقْديمِ النَّفعِ الَّذي هو مَطْلَبُ العاقِلِ، وكأنْ قد قيل فيها: إذا لم ينْفَعوا أنفُسَهم فكيف ينْفَعونَكم؟! ثمَّ أُتْبِعَ بما يكْمُلُ به التَّعريفُ بحالِ مَن اتَّخَذوهم أولياءَ مِن أنَّها لا تضُرُّ ولا تنفَعُ، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ؛ فإنَّه لمَّا تقدَّمَ قبلَ الجُمَلِ المذْكورةِ في سُورةِ (الفُرقانِ) قولُه سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ناسَبَ هذا مِن ذِكْرِ آلهَتِهم وَصْفُها بأنَّها لا تخلُقُ، فقيل: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]؛ ليحصُلَ مِن وَصْفِه سبحانه بأنَّه خالِقُ كلِّ شيءٍ، وأنَّ آلهَتَهم لا تخلُقُ شيئًا ما أفْصَحَ به مِن توبيخِهم وتقْريعِهم في قولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وتناسَبَ هذا أوضَحَ تناسُبٍ وأبْيَنَه، ولا يمكِنُ خلافُه، ثمَّ بُنِيَ عليه ما بعدَه لتَناسُبِ ذلك كلِّه، وحصَلَ منه أنَّ الوارِدَ في كلٍّ مِن السُّورتَيْنِ لا يمكِنُ فيه العَكْسُ بوجْهٍ[1].

- قولُه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ فيه إعادةُ الأمرِ بالقولِ؛ للاهتمامِ الخاصِّ بهذا الكلامِ؛ لأنَّ ما قبله إبطالٌ لاستحقاقِ آلهتِهم العبادةَ، وهذا إظهارٌ لِمَزيَّةِ المؤمنين باللَّهِ على أهلِ الشِّركِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ تضمَّنَ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ دعا إلى إفرادِ اللَّهِ بالرُّبوبيَّةِ، وأنَّ المُخاطَبين أثْبتوا الرُّبوبيَّةَ للأصنامِ؛ فكانَ حالُهم وحالُه كحالِ الأعمى والبصيرِ وحالِ الظُّلماتِ والنُّورِ، ونفْيُ التَّسويةِ بين الحالينِ يتضمَّنُ تشبيهًا بالحالينِ، وهذا مِن صِيَغِ التَّشبيهِ البليغِ. و﴿أَمْ﴾

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٧٩-٢٨٠).

للإضرابِ الانتقاليِّ في التَّشبيهِ[١].

- وفي قولِه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ اخْتِيرَ التَّشبيهُ في المُتَقابِلاتِ- العمى والبصَرِ، والظُّلمةِ والنُّورِ-؛ لتَمامِ المُناسبَةِ؛ لأنَّ حالَ المُشركين أصحابِ العَمَى كحالِ الظُّلمةِ في انعدامِ إدراكِ المُبْصَراتِ، وحالَ المؤمنين كحالِ البصَرِ في العِلْمِ، وكحالِ النُّورِ في الإرشادِ[٢].

- قولُه: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى﴾ فيه إظهارُ حرْفِ (هل) بعد (أم)؛ لأنَّ فيه إفادةَ تحقيقِ الاستفهامِ، وذلك ليس ممَّا تُغْني فيه دلالةُ (أم) على أصلِ الاستفهامِ[٣].

- قولُه: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي: بل أجَعَلوا، ومعنى الهمزةِ الإنكارُ، وقولُه: ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ صِفَةٌ لـ ﴿شُرَكَآءَ﴾ داخِلةٌ في حُكْمِ الإنكارِ؛ فالكلامُ بعدَ (أم) استفهامٌ حُذِفَت أداتُه؛ لدَلالةِ (أم) عليها[٤]، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ والتَّغليطِ، فتضمَّنَ هذا الاستفهامُ التَّهكُّمَ بهم؛ لأنَّه معلومٌ بالضَّرورةِ أنَّ هذه الأصنامَ وما اتَّخَذوها مِن دونِ اللَّهِ أولياءَ، وجعَلوهم شُركاءَ- لا تقدِرُ على خلْقِ ذَرَّةٍ، ولا إيجادِ شيءٍ البتَّةَ[٥].

- قولُه: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ فيه الانتقالُ مِن خطابِهم إلى الإخبارِ عنهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١١٤- ١١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٥).

غائبًا؛ إعراضًا عنهم، وتنبيهًا على تَوبيخِهم في جَعْلِ شُركاءَ للَّهِ، وتعجيبًا منهم، وإنكارًا عليهم، فالْتفَتَ عنِ الخطابِ إلى الغَيبةِ؛ إعراضًا عنهم؛ لِما مضى مِن ذِكرِ ضَلالِهم[١].

- قولُه: ﴿شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ فيه تعريضٌ بِرَكاكَةِ رأْيِهم، وتَهَكُّمٌ بهم[٢]، والفرقُ بين التَّهكُّمِ والهَزْلِ الَّذي يُرادُ به الجِدُّ: أنَّ التَّهكُّمَ ظاهرُه جِدٌّ وباطِنُه هَزْلٌ؛ لِمَجيئِه على سبيلِ الاستهزاءِ والسُّخريَةِ، هذا على ما تعارَفْناه بيننا، والهَزْلُ الَّذي يُرادُ به الجِدُّ ظاهِرُه هَزْلٌ وباطِنُه جِدٌّ، وفي قولِه تعالى: ﴿خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ﴾ في سِياقِ الإنكارِ تَهَكُّمٌ بهم؛ لأنَّ غيرَ اللَّهِ لا يخلُقُ خلْقًا البتَّةَ؛ لا بطريقِ المُشابَهَةِ والمُساواةِ، ولا بطريقِ الانحطاطِ والقُصورِ، فقد كان يكْفي في الإنكارِ عليهم أنَّ الشُّركاءَ الَّتي اتَّخذوها لا تخلُقُ مُطلقًا، ولكنْ جاءَ قولُه تعالى: ﴿كَخَلْقِهِۦ﴾؛ تهكُّمًا يَزيدُ الإنكارَ تأْكيدًا[٣].

- قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فَذْلَكَةٌ لِما تقدَّمَ ونتيجةٌ له؛ فإنَّه لمَّا جاءَ الاستفهامُ التَّوبيخيُّ في ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾، وفي ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ﴾ كان بحيث يَنتجُ أنَّ أولئك الَّذين اتَّخذوهم شُركاءَ للَّهِ، والَّذين تبيَّنَ قُصورُهم عن أنْ يمْلِكوا لأنفُسِهم نفعًا أو ضرًّا، وأنَّهم لا يخلُقونَ كخَلْقِ اللَّهِ؛ إنْ هم إلَّا مخلوقاتٌ للَّهِ تعالى، وأنَّ اللَّهَ خالقُ كلِّ شيءٍ، وما أولئك الأصنامُ إلَّا أشياءُ داخِلةٌ في عُمومِ كلِّ شيءٍ، وأنَّ اللَّهَ هو المُتَوَحِّدُ بالخلْقِ، القهَّارُ لكلِّ شيءٍ دونَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١١٠- ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٥).

- قولُه: ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فيه حذْفُ مُتعلِّقِ هذينِ الاسمينِ؛ لِتَعَيُّنِ موضوعِ الوَحدةِ ومُتعلِّقِ القَهْرِ[١].

٣- قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

- هذا مَثَلٌ ضرَبَه اللَّهُ تعالى للحقِّ وأهلِه والباطِلِ وحزْبِه؛ فمثَّلَ الحقَّ وأهلَه بالماءِ الَّذي يُنزِلُه مِن السَّماءِ، فتَسيلُ به أوديةُ النَّاسِ، فيَحْيَونَ به وينفَعُهم أنواعَ المَنافِعِ، وبالفِلِزِّ[٢] الَّذي ينتفِعونَ به في صَوْغِ الحُلِيِّ منه واتِّخاذِ الأواني والآلاتِ المُختلِفةِ، ولو لم يكُنْ إلَّا الحديدُ الَّذي فيه البأْسُ الشَّديدُ لَكَفى به، وأنَّ ذلك ماكِثٌ في الأرضِ، باقٍ بقاءً ظاهِرًا، يثبُتُ الماءُ في مَنافِعِه، وتَبْقى آثارُه في العُيونِ والبئارِ والجبوبِ، والثِّمارِ الَّتي تنبُتُ به ممَّا يُدَّخَرُ ويُكْنَزُ، وكذلك الجواهِرُ تَبْقى أزمِنةً مُتطاوِلةً، وشبَّهَ الباطِلَ في سُرعةِ اضْمِحلالِه ووَشَكِ زَوالِه وانسِلاخِه عنِ المَنفعَةِ بزَبدِ السَّيلِ الَّذي يُرْمَى به، وبزَبَدِ الفِلِزِّ الَّذي يطْفو فوقَه إذا أُذِيبَ[٣].

- وفي قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ جِيءَ في هذا التسجيلِ بطريقةِ ضرْبِ المَثلِ بحالَيْ فَريقينِ في تلقِّي شيءٍ واحدٍ انتَفَع فريقٌ بما فيه مِن منافِعَ، وتعلَّق فريقٌ بما فيه من مَضارَّ. وجِيء

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١١٦).

(٢) الفِلِزُّ: اسمٌ جامعٌ لجواهرِ الأرضِ، مِنَ الذَّهَبِ، والفِضَّة، والصُّفْرِ، والنُّحاسِ وغيرِها. يُنظر: ((أساس البلاغة)) للزمخشري (٢/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٢).

في ذلك التمثيلِ بحالةٍ فيها دَلالةٌ على بديعِ تَصرُّفِ الله تعالى؛ ليَحصُلَ التخلص مِن ذِكر دلائل القُدرةِ إلى ذِكر عِبَر الموعظةِ. وهذا تَشبيهٌ تمثيليٌّ (مُركَّب)، حيث شبَّهَ إنْزالَ القُرآنِ الَّذي به الهُدى مِن السَّماءِ بإنْزالِ الماءِ الَّذي به النَّفعُ والحياةُ مِن السَّماءِ، وشبَّهَ وُرودَ القُرآنِ على أسماعِ النَّاسِ بالسَّيلِ يمُرُّ على مُختلِفِ الجِهاتِ؛ فهو يمُرُّ على التِّلالِ والجبالِ فلا يستقِرُّ فيها، ولكنَّه يمْضي إلى الأوديةِ والوِهادِ فيأخُذُ منه كلٌّ بقدْرِ سَعَتِه، وتلك السُّيُولُ في حالِ نُزولِها تحمِلُ في أَعالِيها زَبَدًا، وهو رَغْوَةُ الماءِ الَّتي تَرْبو وتَطْفو على سطْحِ الماءِ، فيذهَبُ الزَّبَدُ غيرَ مُنْتَفَعٍ به، ويبْقى الماءُ الخالِصُ الصَّافي ينتفِعُ به النَّاسُ للشَّرابِ والسَّقْيِ. ثمَّ شُبِّهَت هيئةُ نُزولِ الآياتِ وما تحْتَوي عليه مِن إيقاظِ النَّظَرِ فيها، فينتفِعُ به مَن دخَلَ الإيمانُ قُلوبَهم على مقاديرِ قُوَّةِ إيمانِهم وعمَلِهم، ويمُرُّ على قُلوبِ قومٍ لا يشعُرونَ به؛ وهم المُنكِرون المُعرِضون، ويُخالِطُ قُلوبَ قومٍ فيتأمَّلونَه، فيأْخُذونَ منه ما يُثِيرُ لهم شُبُهَاتٍ وإلحادًا. شبَّهَ ذلك كلَّه بهيئةِ نُزولِ الماءِ؛ فانحِدارُه على الجبالِ والتِّلالِ وسَيَلانُه في الأوديةِ على اختلافِ مقاديرِها، ثمَّ ما يدفَعُ مِن نفْسِه زَبَدًا لا يُنْتَفَعُ به، ثمَّ لم يلْبَثِ الزَّبَدُ أنْ ذهَبَ وفَنِيَ، والماءُ بَقِيَ في الأرضِ للنَّفعِ. ولمَّا كان المقصودُ التَّشبيهَ بالهيئةِ كلِّها جيءَ في حِكايةِ ما تَرَتَّبَ على إنْزالِ الماءِ بالعطْفِ بفاءِ التَّفريعِ في قولِه: ﴿فَسَالَتْ﴾ وقولِه: ﴿فَٱحْتَمَلَ﴾؛ فهذا تمْثيلٌ صالِحٌ لتَجْزِئةِ التَّشبيهاتِ الَّتي تَرَكَّبَ منها، وهو أبلَغُ التَّمثيلِ[1].

- ومِن مَحاسنِ البلاغةِ أيضًا في هذه الآيةِ: أنَّه شبَّهَ الحقَّ بِما يخلُصُ مِن جِرْمِ هذه المَعادِنِ مِن الأقْذارِ والخبَثِ ودَوامِ الانتفاعِ بها، وشبَّهَ الباطِلَ بالزَّبَدِ والمُجتمِعِ مِن الخبَثِ والأقْذارِ، ولا بقاءٌ له ولا قيمةٌ، وفصَّلَ ما سَبَقَ ذِكْرُه ممَّا يُنْتَفَعُ به ومِن الزَّبَدِ، فبدَأَ بالزَّبَدِ؛ إذ هو المُتأخِّرُ في قولِه: ﴿زَبَدًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٦- ١١٧).

رَّابِيًا﴾، وفي قولِه: ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾. ولكونِ الباطِلِ كِنايةً عنه وُصِفَ مُتَأَخِّرًا، وكأنَّه- واللَّهُ أعلمُ- يَبدَأُ في التَّفصيلِ بما هو أهمُّ في الذِّكْرِ. وأُفْرِدَ ﴿ٱلزَّبَدُ﴾ بالذِّكْرِ ولم يُثَنَّ وإنْ تقدَّمَ زَبَدانِ؛ لاشتراكِهما في مُطلَقِ الزَّبَدِيَّةِ، فهما واحدٌ باعتبارِ القَدْرِ المُشْتَرَكِ[١].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ فيه حذْفُ المضافِ، والتقديرُ: مَثَلَ الحقِّ ومَثَلَ الباطِلِ؛ والحذْفُ للإنباءِ عن كَمالِ التَّماثُلِ بين المُمَثَّلِ والمُمَثَّلِ به؛ كأنَّ المَثَلَ المَضروبَ عينُ الحقِّ والباطِلِ، وبعدَ تحقيقِ التَّمثيلِ، مع الإيماءِ في تَضاعيفِ ذلك إلى وُجوهِ المُماثلَةِ على أبدَعِ وُجوهٍ وآنَقِها، وبيَّنَ عاقِبةَ كلٍّ مِن المُمَثَّلَيْنِ على وجْهِ التَّمثيلِ، مع التَّصريحِ ببعضِ ما به المُماثلَةُ مِن الذَّهابِ والبقاءِ؛ تَتِمَّةً للغرَضِ مِن التَّمثيلِ؛ مِن الحثِّ على اتِّباعِ الحقِّ الثَّابتِ، والرَّدعِ عنِ الباطلِ الزَّائدِ، فقيل: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ ...﴾[٢].

- وتنْكيرُ ﴿أَوْدِيَةٌۢ﴾؛ لأنَّ المطرَ يأْتي على تَناوُبٍ بين البِقاعِ، فيَسيلُ بعضُ أوديةِ الأرضِ دونَ بعضٍ[٣].

- ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ وإيثارُ التَّمثيلِ بها على الأنهارِ المُستمِرَّةِ الجَرَيانِ؛ لوُضوحِ المُماثَلَةِ بين شأْنِها وشأْنِ ما مُثِّلَ بها[٤].

- قولُه: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ سبَبُ ذِكْرِه أنَّه مِن مواضِعِ العِبرَةِ؛ وهو أنْ كانت أَخاديدُ الأوديةِ على قدْرِ ما تحتمِلُه مِن السِّيولِ بحيث لا تَفيضُ عليها، وهو غالِبُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤).

أحوالِ الأوديةِ، وهذا الحالُ مقصودٌ في التَّمثيلِ؛ لأنَّه حالُ انصرافِ الماءِ لنَفْعٍ لا ضُرَّ معه؛ لأنَّ مِن السِّيولِ جَواحِفُ تجرُفُ الزَّرعَ والبيوتَ والأنعامَ، وأيضًا هو دالٌّ على تَفاوُتِ الأوديةِ في مَقاديرِ المياهِ، ولذلك حظٌّ مِن التَّشبيهِ؛ وهو اختِلافُ النَّاسِ في قابِلِيَّةِ الانتفاعِ بما نزَلَ مِن عند اللَّهِ، كاختلافِ الأوديةِ في قَبولِ الماءِ على حسَبِ ما يسيلُ إليها مِن مَصابِّ السِّيولِ، وقد تمَّ التَّمثيلُ هنا[١]، وقوله أيضًا: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ هو من بابِ الاحتراسِ، أي: بمقدارِها الَّذي عرَف اللَّهُ أنَّه نافعٌ للممطورِ عليهم غيرُ ضارٍّ، وإلا فلو طمَا واستحالَ سيلًا لاجتاحَ الأخضرَ واليابسَ ولأهلَك الحَرْثَ والنَّسلَ[٢].

- قولُه: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗا﴾ فيه تعريفُ ﴿ٱلسَّيۡلُ﴾؛ لأنَّه قد فُهِم مِن الفعل قَبْلَه، وهو قوله تعالى: ﴿فَسَالَتۡ﴾، وهو لو ذكر لكان نكرةً، فلمَّا أُعيدَ أُعيدَ معرفةً نحو: رأيتُ رجلًا فأكرمتُ الرَّجُلَ، وهكذا تطرد القاعدةُ في النَّكِرةِ إذا أُعيدتْ[٣].

- وإنَّما وُصِفَ الزَّبَدُ بقولِه تعالى: ﴿رَّابِيٗا﴾، أي: عاليًا مُنتفِخًا فوقه؛ بيانًا لِما أُريدَ بالاحتمالِ المُحْتَمَلِ؛ لكونِ الحَميلِ غيرَ طافٍ كالأشجارِ الثَّقيلةِ، وإنَّما لم يُدْفَعْ ذلك الاحتمالُ بأنَّ يقالَ: (فاحْتَمَلَ السَّيْلُ فوقه)؛ للإيذانِ بأنَّ تلك الفوقيَّةَ مُقْتَضى شأْنِ الزَّبَدِ لا مِن جِهَةِ المُحْتَمِلِ؛ تحقيقًا للمُماثَلَةِ بينه وبين ما مُثِّلَ به مِن الباطِلِ الَّذي شأْنُه الظُّهورُ في بادي الرَّأْيِ مِن غيرِ مُداخلَةٍ في الحقِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٨)، ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١١٢ - ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤).

- قولُه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾ عِبارةٌ جامِعَةٌ لأنواعِ الفِلِزِّ، مع إظهارِ الكِبْرياءِ في ذِكْرِه على وجْهِ التَّهاوُنِ به كما هو شأنُ الملوكِ، وذلك أنَّ فيه عدولًا مِن الاسمِ إلى تصويرِ حالةٍ هي أحطُّ حالاتِ هذه الجواهرِ، أي: هذه التي تعدُّونها أنفسَ الجواهرِ، وتتَّخِذون منها الحليَّ، وتَتزيَّنون بها، هي هذه التي تُوقِدونَ عليها[١].

- والضَّميرُ في ﴿يُوقِدُونَ﴾ للنَّاسِ؛ أُضْمِرَ مع عدَمِ سَبْقِ الذِّكْرِ؛ لظُهورِه[٢].

- وفي زيادةِ ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ إشعارٌ بالمُبالَغَةِ في الاعتمالِ للإذابةِ، وحُصولِ الزَّبَدِ كما أُشيرَ إليه، وعدَمُ التَّعرُّضِ لإخراجِه مِن الأرضِ؛ لعدَمِ دَخْلِ ذلك العنوانِ في التَّمثيلِ، كما أنَّ لعنوانِ إنزالِ الماءِ مِن السَّماءِ دَخْلًا فيه حسبما فُصِّلَ فيما سلف، بل له إخلالٌ بذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾، وهذا تمثيلٌ آخَرُ ورَدَ استطرادًا عَقِبَ ذِكْرِ نظيرِه، يُفيدُ تقريبَ التَّمثيلِ لقومٍ لم يُشاهِدوا سِيولَ الأوديةِ؛ فقرَّبَ إليهم تمثيلَ عدَمِ انتفاعِهم بما انتفَعَ به غيرُهم بمِثْلِ ما يُصْهَرُ مِن الذَّهبِ والفضَّةِ في البَواتِقِ[٤]؛ فإنَّه يقذِفُ زَبَدًا ينتَفي عنه وهو الخبَثُ، وهو غيرُ صالِحٍ لشيءٍ، في حين صَلاحِ مَعدنِه لاتِّخاذِه حِلْيَةً أو مَتاعًا، فالكلامُ من قَبيلِ تعدُّدِ التَّشبيهِ القريبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٨/ ٤٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٤-١٥).

(٤) البَواتق: جمْعُ بَوتقَة، وهي الْوِعَاء الَّذِي يُذابُ فيه الْمَعْدنُ؛ يُذيبُ فِيهِ الصَّائغُ ونَحْوُه من الصُّنَّاعِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١٩/ ١٧٢)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٨- ١١٩).

- قولُه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ فيه تقْديمُ المُسنَدِ -وهو ﴿مِمَّا يُوقِدُونَ﴾- على المُسنَدِ إليه -وهو ﴿زَبَدٌ﴾- في هذه الجُملةِ؛ للاهتمامِ بالمُسنَدِ؛ لأنَّه موضِعُ اعتبارٍ أيضًا ببديعِ صُنْعِ اللَّهِ تعالى؛ إذ جعَلَ الزَّبَدَ يطْفو على أرَقِّ الأجسامِ -وهو الماءُ- وعلى أغلظها -وهو المعدنُ- فهو ناموسٌ مِن نَواميسِ الخِلْقَةِ، فبالتَّقديمِ يقَعُ تَشْويقُ السَّامِعِ إلى ترقُّبِ المُسنَدِ إليه[1].

- وعدَلَ عن تسمِيَةِ الذَّهبِ والفضَّةِ إلى الموصوليَّةِ بقولِه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّها أخصَرُ وأجمَعُ، ولأنَّ الغرَضَ في ذِكْرِ الجُملةِ المَجْعولةِ صِلَةً، فلو ذُكِرَت بكيفيَّةٍ غيرِ صِلَةٍ -كالوصفيَّةِ مَثَلًا- لكانت بمنزِلَةِ الفَضْلَةِ في الكلامِ، ولَطالَ الكلامُ بذِكْرِ اسم المعدنَيْنِ مع ذِكْرِ الصِّلَةِ؛ إذ لا مَحيدَ عن ذِكْرِ الوَقودِ؛ لأنَّه سبَبُ الزَّبَدِ، فكان الإتيانُ بالموصولِ قضاءً لحقِّ ذِكْرِ الجُملةِ مع الاختصارِ البديعِ، ولأنَّ في العُدولِ عن ذِكْرِ اسمِ الذَّهبِ والفضَّةِ إعراضًا يُؤْذِنُ بقِلَّةِ الاكتراثِ بهما؛ ترفُّعًا عن وَلَعِ النَّاسِ بهما؛ فإنَّ اسمَيْهما قد اقتَرَنا بالتَّعظيمِ في عُرْفِ النَّاسِ[2].

- وفائدةُ قولِه: ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾ كالفائدةِ في قولِه: ﴿بِقَدَرِهَا﴾؛ لأنَّه جمَعَ الماءَ والفِلِزَّ في النَّفعِ في قولِه: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ لأنَّ المعنى: وأمَّا ما ينفَعُهم مِن الماءِ والفِلِزِّ؛ فذُكِرَ وجْه الانتفاعِ ممَّا يُوقَدُ عليه منه ويُذابُ، وهو الحِلْيَةُ والمَتاعُ[3]، وذُكِرَ لإيضاحِ المُرادِ مِن الصِّلَةِ، ولإدماجِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١١٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٣).

ما فيه مِن مِنَّةِ تسخيرِ ذلك للنَّاسِ؛ لشِدَّةِ رغبتِهم فيهما[١]، وفي ذِكْرِ مُتعلِّقِ ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ تنبيهٌ على مَنفعَةِ ما يوقِدونَ عليه[٢].

- وجُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾ مُعترِضَةٌ، وهي فَذْلَكَةُ التَّمثيلِ ببَيانِ الغرَضِ منه، أي: مِثْلُ هذه الحالةِ يكونُ ضَرْبُ مَثَلٍ للحقِّ والباطِلِ، وقد عُلِمَ أنَّ الزَّبَدَ مَثَلٌ للباطِلِ، وأنَّ الماءَ مَثَلٌ للحقِّ، فارْتَقَى عندَ ذلك إلى ما في المَثَلَيْنِ مِن صِفَتَيِ البقاءِ والزَّوالِ؛ ليتَوَصَّلَ بذلك إلى البِشارةِ والنِّذارةِ لأهلِ الحقِّ وأهلِ الباطِلِ، فصارُ التَّشبيهُ تعريضًا وكِنايةً عنِ البِشارةِ والنِّذارةِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تغْييرُ تَرْتيبِ اللَّفِّ الواقعِ في الفذْلَكَةِ المُوافِقِ للتَّرتيبِ الواقعِ في التَّمثيلِ؛ لمُراعاةِ المُلاءمَةِ بين حالتَيِ الذَّهابِ والبقاءِ وبين ذِكْرَيْهما؛ فإنَّ المُعتبَرَ إنَّما هو بقاءُ الباقي بعد ذَهابِ الذَّاهِبِ لا قبْلَه[٤]؛ فجُملةُ ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗا﴾ مُفرَّعَةً على التَّمثيلِ، وافتُتِحَت بـ ﴿فَأَمَّا﴾؛ للتَّوكيدِ، وصَرْفِ ذِهْنِ السَّامِعِ إلى الكلامِ لِما فيه مِن خَفِيِّ البِشارةِ والنِّذارةِ، ولأنَّه تَمامُ التَّمثيلِ[٥].

- وعبَّرَ عنِ الماءِ بـ ﴿مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ للإيماءِ إلى وجْهِ بناءِ الخبَرِ، وهو البَقاءُ في الأرضِ؛ تعريضًا للمُشركين بأنَّ يعرِضوا أحوالَهم على مَضمونِ هذه الصِّلَةِ، واكْتُفِيَ بذِكْرِ وجْهِ شَبَهِ النَّافِعِ بالماءِ وغيرِ النَّافِعِ بالزَّبَدِ عن ذِكْرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٠- ١٢١).

وجْهِ شَبَهِ النَّافِعِ بالذَّهبِ أو الفضَّةِ وغيرِ النَّافِعِ بزَبَدِهما؛ استغناءً عنه[١].

- وجُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ تَذْييليَّةٌ؛ لِما في لفْظِ ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ مِن العُموم، فهو أعمُّ مِن جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾؛ لدلالتِها على صِنْفٍ مِن المَثَلِ دون جميعِ أصنافِه، فلمَّا أعقَبَ بمَثَلٍ آخَرَ -وهو ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءً﴾- جيءَ بالتَّنبيهِ إلى الفائدةِ العامَّةِ مِن ضرْبِ الأمثالِ، وحصَلَ أيضًا توكيدُ جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾؛ لأنَّ العامَّ يندرِجُ فيه الخاصُّ. فالإشارةُ بـ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إلى التَّمثيلِ السَّابقِ في جُملةِ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، أي: مِثْلَ ذلك الضَّربِ البَديعِ يضرِبُ اللَّهُ الأمثالَ، وهو المقصودُ بهذا التَّذييلِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ فيه تفخيمٌ لشأْنِ هذا التَّمثيلِ، وتأكيدٌ لقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾[٣]؛ فالإشارةُ بـ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتَّنويهِ بذلك المَثَلِ، وتنْبيهِ الأفهامِ إلى حِكْمتِه وحِكْمةِ التَّمثيلِ، وما فيه مِن المَواعظِ والعِبَرِ، وما جمَعَه مِن التَّمثيلِ والكِنايةِ التَّعريضيَّةِ، وإلى بَلاغةِ القُرآنِ وإعجازِه، وذلك تبهيجٌ للمؤمنِينَ وتَحدٍّ للمُشركِينَ، ولِيُعلمَ أن جُملةَ ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءً﴾ لم يُؤْتَ بها لمُجَرَّدِ تشْخيصِ دَقائقِ القُدرةِ الإلهيَّةِ والصُّنْعِ البديعِ، بل ولضَرْبِ المَثَلِ؛ فيُعْلَمُ المُمَثَّلُ له بطريقِ التَّعريضِ بالمُشركين والمؤمنِينَ؛ فيكونُ الكلامُ قد تمَّ عندَ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾، كما في شأْنِ التَّذييلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٢١- ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢١- ١٢٢).

- وفي هذه الآيةِ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بمُراعاةِ النظيرِ، وذلك في ألفاظِ (الماء) و(السيل)، و(الزبد) و(الرَّبو)، وفي ألفاظ (النَّار) و(الإيقاد)، و(الحِلية) و(المتاع)[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾

- قولُه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ...﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ لجُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾؛ ففي ذِكْرِ هذه الجُملةِ زيادةُ تنبيهٍ للتَّمثيلِ وللغرَضِ منه مع ما في ذلك مِن جَزاءِ الفريقينِ، وفي العُدولِ إلى الموصولينَ وصِلَتَيْهما في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الصِّلَتَيْنِ -الاستجابةَ، وعدَمَ الاستجابةِ- سببانِ لِما حصَلَ للفريقينِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ تقْديمُ المُسنَدِ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾؛ لأنَّه الأهمُّ؛ لأنَّ الغرَضَ التَّنويهُ بشأْنِ الَّذين استجابوا مع جَعْلِ الحُسْنى في مَرتبةِ المُسنَدِ إليه، وفي ذلك تنويهٌ بها أيضًا[٣]؛ فـ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ مُبتدأٌ، وخبَرُه في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ﴾، و﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾ مُبتدأٌ، خبَرُه ما بعدَه، وغايَرَ بين جُمْلتَي الابتداءِ؛ لِما يدلُّ عليه تقْديمُ الجارِّ والمَجْرورِ في الاعتِناءِ والاهتمامِ، أو مِن الاختصاصِ، على رأيٍّ آخَرَ[٤]. وقيل: أُجْرِيَ الخبَرُ عن وعيدِ الَّذين لم يستجيبوا على أصْلِ نظْمِ الكلامِ في التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ لقِلَّةِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١١٢ - ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٥).

الاكتِراثِ بهم[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ﴾ فيه مِن تَهويلِ ما يلْقاهم ما لا يُحيطُ به البَيانُ؛ فالموصولُ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مُبتدأٌ، والشَّرطيَّةُ كما هي ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ خبَرُه، لكنْ لا على أنَّها وُضِعَت موضِعَ السُّوءَى، فوقَعَت في مُقابلةِ الحُسنى الواقِعَةِ في القَرينةِ الأُولى؛ لمُراعاةِ حُسْنِ المُقابلَةِ؛ فصارَ كأنَّه قيل: والَّذين لم يستجيبوا له السُّوءَى كما يُوهِمُ؛ فـ (إنْ) الشَّرطيَّةُ وإنْ دلَّت على كَمالِ سوءِ حالِهم، لكنَّها بمعزِلٍ مِن القيامِ مَقامَ لفْظِ (السُّوءَى) مَصحوبًا باللَّامِ الدَّاخِلةِ على الموصولِ أو ضميرِه، وعليه يدورُ حُصولُ المَرامِ، وإنَّما الواقِعُ في تلك المُقابَلةِ ﴿سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾، وحيث كان اسمُ الإشارةِ الواقِعُ مُبتدأً في هذه الجُملةِ عِبارةً عنِ الموصولِ الواقِعِ مُبتدأً في الجُملةِ السَّابقةِ، كان خبرُها -الجُملةُ الظَّرفيَّةُ- خبرًا عنِ الموصولِ في الحقيقةِ، ومُبيِّنًا لإبهامِ مضمونِ الشَّرطيَّةِ الواقِعَةِ خبرًا عنه أوَّلًا؛ ولذلك تُرِكَ العَطْفُ، فصارَ كأنَّه قيل: والَّذين لم يستجيبوا له لهم سوءُ الحِسابِ، وذلك في قوَّةِ أنْ يقالَ: وللَّذين لم يستجيبوا له سوءُ الحسابِ مع زيادةِ تأْكيدٍ؛ فتمَّ حُسْنُ المُقابَلةِ على أبلَغِ وجْهٍ وآكدِه[٢].

- وفيه مُناسَبَةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ﴾، وفي سُورةِ المائدةِ قال: ﴿لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣٦]؛ وذلك لأنَّ (لو) وجوابَها يتَّصِلانِ بالماضي، فقال في هذه السُّورةِ ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥-١٦).

بِـهِۦ﴾، وجوابُه في المائدةِ ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡ﴾ وهو بلفْظِ الماضي، وقولُه: ﴿لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ عِلَّةٌ وليس بجوابٍ؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[١].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أَحْرِيَاءُ بِما بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن الخبَرِ بسَبَبِ ما قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن الصِّلةِ[٢].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٢-١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٢).

الآيات (١٩-٢٤)

﴿ ۞ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤ ﴾

غريبُ الكلماتِ:

﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: العقولِ الزكيَّة، مفردُها لُبٌّ، وأصْل اللُّبِّ: الخُلُوصُ والجَوْدةُ، والشَّيء المُنتقَى[1].

﴿ٱلۡمِيثَٰقَ﴾: الميثاق: عقدٌ مؤكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ، أو العهدُ المُحكَمُ، وأصله: العقدُ والإحكامُ[2].

﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾: أي: يَدفَعونَ، وأصلُ (درأ): يدُلُّ على دفعِ الشَّيءِ[3].

﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾: أي: تصيرُ الجنَّةُ آخِرَ أمْرِهم، والعُقبَى: العاقِبةُ، وهي الشَّيءُ الذي يقَعُ عَقِبَ شَيءٍ آخَرَ، وقد اشتُهِرَ استِعمالُها في آخِرةِ الخيرِ، وأصلُ (عقب):

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٠).

يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعدَ غَيرِه[١].

﴿عَدْنٍ﴾: أي: إقَامَةٍ، واستقرارٍ، وثباتٍ، يُقَال: عدن بالمكانِ إذا أقامَ به، واستقرَّ، وأصلُ (عدن): يدلُّ على الإقامةِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- مُبَيِّنًا أنَّ المُهتدينَ والضَّالِّينَ لا يستوونَ، فيقولُ له: هل الذي يعلَمُ أنَّ ما جاءك- يا محمَّدُ- مِن عندِ اللهِ هو الحَقُّ فيؤمِنُ به، كالأعمى عن الحَقِّ الذي لم يؤمِنْ؟ إنَّما يتَّعِظُ وينتفعُ بما أنزلَه الله إليك مِن القرآنِ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ، الذين يوفونَ بالعهدِ الذي بينَهم وبينَ الله تعالى مِن الأوامرِ والنَّواهي، والعهدِ الذي بينَهم وبينَ النَّاسِ، ويستمرُّون على الوفاءِ به، فلا يقعُ منه نقضٌ له، وهم الذين يَصِلونَ كلَّ ما أمَرَهم اللهُ بوَصلِه، مِن الإيمانِ باللهِ والأرحامِ وغيرِ ذلك، ويخافونَ رَبَّهم أن يُحاسِبَهم على كلِّ ذُنوبِهم، ولا يغفِرُ لهم منها شيئًا، وهم الذين صَبَروا؛ طلبًا لرِضا ربِّهم، وأدَّوا الصَّلاةَ على أتمِّ وُجوهِها، وأدَّوا مِن أموالِهم زكاتَهم المفروضةَ، والنَّفَقاتِ الواجِبةَ، في الخَفاءِ والعَلَن، ويَدفعونَ بالعَمَلِ الصَّالحِ السَّيئَ من الأعمالِ، أولئك الموصوفونَ بهذه الصِّفاتِ لهم العاقِبةُ المحمودةُ في الآخرةِ.

تلك العاقِبةُ هي جنَّاتُ عَدنٍ يُقيمونَ فيها لا يزولونَ عنها، ومعهم الصَّالِحونَ مِن الآباءِ والزَّوجاتِ والذُّرِّيَّاتِ؛ من الذُّكورِ والإناث، وتدخُلُ الملائِكةُ عليهم مِن كلِّ بابٍ؛ لتهنِئَتِهم بدُخولِ الجنَّةِ، تقولُ الملائِكةُ لهم: سَلِمْتُم مِن كُلِّ سُوءٍ؛

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

بسبَبِ صَبرِكم في الدُّنيا، فنِعْمَ عاقبةُ الدَّارِ الجنَّةُ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا افترَقَ حالُ من أجاب ومَن أعرَضَ في الجزاءِ، وكان ما مضى مُستوفيًا طُرُقَ البَيانِ بإيضاحِ الأمرِ بالجُزئيَّاتِ والأمثلةِ مع التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، فكان جديرًا بترتيبِ الأثَرِ عليه- تسبَّبَ عنه الإنكارُ على مَن سَوَّى بين العالمِ العامِلِ وغَيرِه؛ التفاتًا إلى قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وسَوَّى بين الحَقِّ والباطِلِ؛ التفاتًا إلى قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الرعد: ١٧] فحَسُنَ قَولُه[1]:

﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾.

أي: أهذا الذي يعلَمُ أنَّ القُرآنَ الذي أنزَلَه اللهُ عليك -يا محمَّدُ- حَقٌّ لا شَكَّ فيه، فيؤمِنُ به ويتَّبِعُه- كالذي هو أعمَى القَلبِ، لا يعلَمُ ما أنزَلَ اللهُ في كِتابِه، ولا يفهَمُه ولا يتَّبِعُه؟! أفهذا كهذا؟! لا يستويانِ[2].

كما قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

أي: إنَّما يتَّعِظُ بآياتِ اللهِ ويَعتَبِرُ بها أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ الصَّحيحةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾.

أي: الَّذين يُوفُونَ بالعهدِ[٢] الذي بينَهم وبينَ الله تعالى مِن الأوامرِ والنَّواهي، والعهدِ الذي بينَهم وبينَ النَّاسِ، كالوفاءِ بالعقودِ في المعاملاتِ، وأداءِ الأماناتِ إلى غير ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٢) قال الرازي: (اعلمْ أَنَّ هذه الآيةَ هل هي مُتعلِّقةٌ بما قبلَها أم لا؟ فيه قولان:
القولُ الأوَّلُ: أَنَّها متعلِّقةٌ بما قبلَها وعلى هذا التَّقديرِ ففيه وجهانِ: الأوَّلُ: أنَّه يجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ صفةً لأُولي الألبابِ. والثَّاني: أنْ يكونَ ذلك صِفَةً لقولِه: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد: ١٩].
والقولُ الثَّاني: أنْ يكونَ قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ مُبتدأً: و﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ خَبرَه). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٢٤)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٣٣)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤).
وممن اختار العمومَ في معنَى العهدِ: السمرقندي، والرازي، وابنُ القيمِ، والشوكاني. يُنظر المصادر السابقة.
قال الرازي: (ويدخلُ فيه [أي: عهدِ الله] الإتيانُ بجميعِ المأموراتِ والانتهاءُ عن كلِّ المنهياتِ، ويدخلُ فيه الوفاءُ بالعقودِ في المعاملاتِ، ويدخلُ فيه أداءُ الأماناتِ، وهذا القولُ هو المختارُ الصحيحُ في تأويلِ الآيةِ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٣٣).
وقال محمد رشيد رضا: (وعهدُ اللهِ هنا يشملُ جَميعَ ما عَهدَه إلى البشرِ مِنَ التَّكاليفِ سواءٌ كانَتْ بلفظِ العهدِ كقولِه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠]

﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾.

أي: ولا يقعُ منهم نقضٌ لهذا العهدِ المؤكَّد، فهم مستمرُّون على الوفاءِ به[1].

الآيتينِ أوْ بلفظٍ آخَرَ -ومِنه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٧] وأمثالِه مِنَ النِّداءِ في هذه السُّورةِ - ومِنَ الوصايا في السُّورةِ الَّتي قبلَها «الأنعام» كما يشملُ ما عاهَدوا اللهَ عليه بلفظِ العهدِ أوْ بدونِه، وما يُعاهِدُ بعضُهم بعضًا عليه بشروطِه، ومنها ألَّا يكونَ على شيءٍ محرَّم. ويدخلُ في العهدِ العامِّ ما أوجَبه مِنْ مُوالاةِ المؤمنينَ وحقوقِهم). ((تفسير المنار)) (١٠/ ١٠٤).

وقال ابنُ عاشور: (عهدُ الله مصدرٌ مضافٌ لمفعولِه، أي: ما عاهدوا الله على فعلِه، أو مِن إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِه، أي: ما عهِد الله به إليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٥-١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٩)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٩).

قال أبو حيان: (والظاهرُ أنَّ قولَه: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾، جملةٌ توكيديةٌ لقولِه: ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ العهدَ هو الميثاقُ، ويلزمُ مِن إيفاءِ العهدِ انتفاءُ نقيضِه). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٩).

قال الرَّازي: (قولُه: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ وفيه أقوالٌ:

القولُ الأوَّلُ: وهو قَولُ الأكثرينَ: أنَّ هذا الكلامَ قريبٌ مِنَ الوَفاءِ بالعَهدِ، فإنَّ الوفاءَ بالعهدِ قَريبٌ مِن عَدَمِ نَقضِ الميثاقِ والعَهدِ، وهذا مِثلُ أن يقولَ: إنَّه لمَّا وجب وجودُه لزِمَ أن يمتَنِعَ عَدَمُه؛ فهذانِ المَفهومانِ مُتغايرانِ إلَّا أنَّهما متلازمانِ، فكذلك الوفاءُ بالعَهدِ يَلزَمُه ألَّا يُنقَضَ الميثاقُ...

والقَولُ الثَّاني: أنَّ الميثاقَ ما وثَّقَه المُكَلَّفُ على نفسِه؛ فالحاصِلُ أنَّ قولَه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى ما كَلَّف اللهُ العبدَ به ابتداءً، وقَولَه: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ إشارةٌ إلى ما التَزَمه العبدُ من أنواعِ الطَّاعاتِ بحسَبِ اختيارِه نفسِه، كالنَّذرِ بالطَّاعاتِ والخَيراتِ.

والقَولُ الثَّالثُ: أنَّ المرادَ بالوَفاءِ بالعَهدِ: عهدُ الرُّبوبيَّةِ والعبوديَّة، والمرادَ بالميثاقِ: المَواثيقُ المذكورةُ في التَّوراةِ والإنجيلِ وسائرِ الكُتُبِ الإلهيَّةِ على وجوبِ الإيمانِ بنُبُوَّةِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم عند ظهورِه). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٣٣).

وقال القرطبي: (قوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ يحتملُ أن يريدَ به جنسَ المواثيقِ، أي إذا عقَدوا في طاعةِ الله عهدًا لم ينقضوه. قال قتادةُ: تقدَّم الله إلى عبادِه في نقضِ الميثاقِ، ونهَى عنه في بضعٍ وعشرينَ آيةً، ويحتملُ أن يشيرَ إلى ميثاقٍ بعينِه، هو الذي أخَذه الله على عبادِه حين أخرَجهم مِن صُلبِ أبيهم آدمَ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٧-٣٠٨).

وقيل: هذا تعميمٌ بعد التَّخصيصِ؛ لأنَّه يدخُلُ تحتَ المِيثاقِ كُلُّ ما أوجَبَه العَبدُ على نَفسِه

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾.

أي: ومِن صفاتِ أُولي الألبابِ أنَّهم يَصِلونَ كُلَّ ما أمَرَ اللهُ بوَصلِه؛ مِن الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، وعبادتِه وَحدَه لا شريكَ له، وصلةِ الأرحامِ، وغيرِ ذلك[1].

كالنُّذورِ ونَحوِها، ويحتملُ أن يكونَ الأمرُ بالعَكسِ، فيَكونَ مِنَ التَّخصيصِ بعد التَّعميمِ، على أن يُرادَ بالعَهدِ جَميعُ عُهودِ الله، وهي أوامِرُه ونواهيه التي وصَّى بها عَبيدَه، ويَدخُلُ في ذلك الالتِزاماتُ التي يُلزِمُ بها العَبدُ نَفسَه، ويرادُ بالميثاقِ ما أخَذَه اللهُ على عبادِه حينَ أخرَجَهم مِن صُلبِ آدَمَ في عالَمِ الذَّرِّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤).

وممن ذهب إلى أنَّه تعميمٌ بعدَ تخصيصٍ: الزمخشريُّ، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بـ ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾: صِلةُ الأرحامِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير، ونسَبه القرطبيُّ إلى أكثرِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٠).

وممن اختار العموم في الآية: القرطبيُّ، وابنُ القيم، والشوكاني، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠)، ((عدة الصابرين)) (ص: ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦) ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٧).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ظاهِرٌ في صلةِ الأرحام، وهو قولُ قتادةَ وأكثرِ المفسِّرين، وهو معَ ذلك يتناولُ جميعَ الطاعاتِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٠٩).

وقال ابنُ القيم: (وصفَهم بأنَّهم يصِلون ما أمَر الله به أن يُوصلَ، ويدخلُ في هذا ظاهرُ الدينِ وباطنُه، وحقُّ الله، وحقُّ خلقه). ((عدة الصابرين)) (ص: ٢٩).

وقال السعدي: (وهذا عامٌّ في كلِّ ما أمر الله بوَصلِه، من الإيمان به وبرسولِه، ومحبَّتِه ومحبةِ رسوله، والانقيادِ لعبادتِه وحدَه لا شريكَ له، ولطاعةِ رَسولِه، ويَصِلون آباءَهم وأُمَّهاتِهم...، ويَصِلون الأقاربَ والأرحامَ...، ويَصِلون ما بينَهم وبينَ الأزواجِ والأصحابِ والمماليك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

وقال ابنُ عاشور: (﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ عامٌّ في جميعِ الأواصِرِ والعلائِقِ التي أمَرَ الله بالمودَّةِ والإحسانِ لأصحابِها؛ فمنها آصِرةُ الإيمانِ، ومنها آصِرةُ القرابةِ، وهي صِلةُ الرَّحِمِ،

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.

أي: ويخشونَ رَبَّهم، إن خالفوا أوامِرَه فقَطَعوا ما أمَرَهم بوَصلِه[١].

﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي: ويخافونَ مُناقشةَ اللهِ لهم عن جميعِ أعمالِهم وعدمِ مَغفرةِ ذُنوبِهم[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: والذين صبَروا على طاعةِ اللهِ وعن مَعاصيه، وعلى أقدارِه المؤلِمةِ، طَلبًا لرِضوانِه وثَوابِه[٣].

وقد اتَّفَق المفَسِّرونَ على أنَّها مُرادُ اللهِ هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٧).

وقال الرسعني: (ويدخُلُ في عُموم قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وصْلُ قَرابةِ رَسولِ اللهِ- صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وقَرابةِ المؤمِنينَ الثَّابتةِ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. والمرادُ بصِلَتِهم: العَطفُ عليهم، والإحسانُ إليهم، والذبُّ عنهم بالحَقِّ، وإفشاءُ السَّلامِ عليهم، وزيارتُهم، والنَّصيحةُ لهم). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٧٢).

وقال الشنقيطي: (قولُه تعالَى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ لم يُبيِّنْ هنا هذا الَّذي أمَر به أنْ يُوصلَ، وقد أشارَ إلى أنَّ منه الأرحامَ بقولِه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]. وأشارَ في موضعٍ آخرَ إلى أنَّ منه الإيمانَ بجميعِ الرُّسلِ، فلا يجوزُ قطعُ بعضِهم عن بعضٍ في ذلك بأنْ يُؤمنَ ببعضِهم دونَ بعضِهم الآخرِ. وذلك في قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]). ((أضواء البيان)) (١/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٠، ٤٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير السعدي))

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وأدَّوُا الصَّلواتِ بأركانِها وشُروطِها، وواجِباتِها، في مَواقيتِها، خاشعينَ فيها[١].

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

أي: وأخرجوا الزَّكَواتِ المفروضةَ، والنَّفَقاتِ الواجِبةَ مِن الأموالِ التي رزَقناهم، فأعطَوها لمُستحِقِّيها في الخفاءِ وفي العَلَنِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

أي: ويدفعونَ بالعملِ الصالحِ السيِّئَ مِن الأعمالِ[٣].

(ص: ٤١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

قال الشوكاني: (والمرادُ بها الصلواتُ المفروضةُ، وقيل: أعمُّ مِن ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥١).

والمعنى المذكور- وهو أنَّ المرادَ بالإنفاقِ هنا: الإنفاقُ الواجبُ- هو اختيارُ ابنِ جريرٍ، وابنِ كثيرٍ.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٩).

وقيل: المرادُ ما هو أعمُّ مِن ذلك، وممن ذهَب إلى ذلك الرسعني والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

وقال ابنُ عطيةَ: (﴿وَأَنفَقُواْ﴾ يريدُ به مواساةَ المحتاجِ، و«السر» هو فيما أُنفِق تطوعًا، و«العلانية» فيما أُنفِق مِن الزكاةِ المفروضةِ؛ لأنَّ التطوعَ كلَّه الأفضلُ فيه التكتمُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠-٣١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.

وممن ذهَب إلى العموم- وأن المعنى: يدفعونَ بالعملِ الصالحِ السيئَ مِن الأعمالِ فيدفعون الذنب بالتوبة وسيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه، إلى غير ذلك-: القرطبيُّ، والشوكاني. يُنظر: ((المصدران السابقان)).

قال القرطبيُّ: (﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعونَ بالعملِ الصالحِ السيئَ مِن الأعمالِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ). ثم ذكَر ثمانيةَ أقوالٍ أُخرَى، وقال: (فهذه تسعةُ أقوالٍ، معناها كلِّها متقاربٌ، والأوَّل يتناولُها بالعموم، ونظيرُه: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠-٣١١).

وقال الشوكاني: (﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفَعونَ سَيِّئَةَ مَن أساء إليهم بالإحسانِ إليه، كما في قَولِه تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، أو يَدفَعونَ بالعَمَلِ الصَّالحِ العَمَلَ السَّيِّئَ، أو يَدفَعونَ الشَّرَّ بالخيرِ، أو المُنكَرَ بالمعروفِ، أو الظُّلمَ بالعَفوِ، أو الذَّنبَ بالتَّوبةِ، ولا مانِعَ مِن حَملِ الآيةِ على جميعِ هذه الأمورِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤).

وقال ابنُ القيم: (ثمَّ ذكَرَ حالَهم إذا جُهِلَ عليهم وأُوذوا أنَّهم لا يُقابِلونَ ذلك بمِثلِه، بل يَدرَؤونَ بالحَسَنةِ السَّيِّئةَ، فيُحسِنونَ إلى مَن يُسيءُ إليهم، فقال: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وقد فُسِّرَ هذا الدَّرءُ بأنَّهم يَدفَعونَ بالذَّنبِ الحَسَنةَ بَعدَه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «أتبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنةَ تَمْحُها»، والتَّحقيقُ أنَّ الآيةَ تَعُمُّ النَّوعينِ). ((عدة الصابرين)) (ص: ٣١).

وقيل: ويَدفَعونَ إساءةَ مَن أساء إليهم -بقَولِه أو فِعلِه- بالإحسانِ إليه، وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٦٣٧).

أي: أولئك -المؤمِنونَ الذين ذكَرْنا أوصافَهم- لهم في الآخِرةِ الجنَّةُ[(١)].

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾.

أي: لهم جَنَّاتُ مُكثٍ وإقامةٍ دائِمةٍ، يدخُلونَها هم والصَّالِحونَ مِن آبائِهم وأمَّهاتِهم وأزواجِهم وأولادِهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١].

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

وقيل: المرادُ بقولِه تعالى: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾: لهم عاقبةُ الآخرةِ، وهي الجنةُ بدلَ النارِ. وممن ذهَب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ. ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٠).

وقيل: المراد: لهم عاقبةُ الدنيا وهي الجنةُ. وممن ذهب إلى هذا المعنى: الرسعني، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٨٠).

قال ابنُ عطية: (قوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ يحتملُ أن يكونَ عُقْبَى دارِ الدنيا، ثم فسَّرَ العُقبى بقولِه: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾؛ إذ العُقبى تعمُّ حالةَ الخيرِ وحالةَ الشرِّ، ويحتملُ أن يريدَ عُقْبَى دارِ الآخرةِ لدارِ الدنيا، أي: العقبى الحسنةُ في الدارِ الآخرةِ هي لهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٠).

وقال ابنُ كثيرٍ: (﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ وهي العاقبةُ والنُّصرةُ في الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٠، ٥١١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١١، ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٢).

أي: والملائِكةُ يَدخُلونَ على المؤمنينَ مِن كُلِّ بابٍ؛ للسَّلامِ عليهم، وتهنِئَتِهم بدُخولِ الجنَّةِ[١].

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾.

أي: تقولُ الملائكةُ لأهلِ الجنَّةِ: سَلَّمَكم اللهُ- أيُّها المؤمِنونَ- من العذابِ والأهوالِ والشُّرورِ في الآخرةِ[٢]؛ بسبَبِ صَبرِكم في الدُّنيا، فنِعمَ عُقبى الدَّارِ الجنَّةُ[٣].

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((هل تدرونَ أوَّلَ مَن يدخُلُ الجنَّةَ مِن خَلقِ اللهِ؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: أوَّلُ من يدخُلُ الجنَّةَ مِن خَلقِ اللهِ الفُقَراءُ المهاجِرونَ، الذين تُسَدُّ بهم الثُّغورُ، ويُتَّقى بهم المَكارِهُ، ويموتُ أحَدُهم وحاجتُه في صَدرِه لا يستطيعُ لها قَضاءً، فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ لِمَن يشاءُ مِن ملائكتِه: ائتُوهم فحَيُّوهم، فتقولُ الملائكةُ: نحن سُكَّانُ سمائِك، وخِيرتُك مِن خَلقِك، أفتأمُرُنا أن نأتيَ هؤلاءِ فنُسَلِّمَ عليهم؟! قال: إنَّهم كانوا عبادًا يعبُدوني لا يُشرِكونَ بي شيئًا، وتُسَدُّ بهم الثُّغورُ، ويُتَّقى بهم المكارِهُ، يموتُ أحَدُهم وحاجتُه في صَدرِه، لا يستطيعُ لها قضاءً، قال: فتأتيهم الملائكةُ عند ذلك، فيدخُلونَ عليهم مِن كُلِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٢) قال القرطبي: (﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ أي: يقولون: سلامٌ عليكم، فأُضمِرَ القول، أي: قد سلمتُم من الآفات والمحن. وقيل: هو دعاءٌ لهم بدوام السلامة، وإن كانوا سالمين، أي: سلَّمكم الله، فهو خبرٌ معناه الدعاء، ويتضمَّن الاعترافَ بالعبودية. ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ أي: بصبرِكم). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨).

بابٍ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾))[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ حقيقٌ بالعبدِ أن يتذكَّرَ ويتفكَّرَ أيُّ الفريقينِ أحسَنُ حالًا وخيرٌ مآلًا، فيُؤثِرُ طريقَه، ويَسلُكُ خَلفَه، ولكِنْ ما كلُّ أحدٍ يتذكَّرُ ما ينفَعُه ويضُرُّه[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فيَصِلونَ ما بينهم وبينَ رَبِّهم بعبوديَّتِه وَحدَه لا شَريكَ له، والقيامِ بطاعتِه، والإنابةِ إليه والتوكُّلِ عليه، وحُبِّه وخَوفِه ورَجائِه، والتَّوبةِ إليه، والاستكانةِ له، والخُضوعِ والذِّلَّةِ له، والاعترافِ له بنِعمَتِه وشُكرِه عليها، والإقرارِ بالخَطيئةِ والاستغفارِ منها؛ فأمَرَ الله بهذه الأسبابِ التي بينه وبينَ عَبدِه أن تُوصَلَ، وأمَرَ أن نَصِلَ ما بيننا وبينَ رَسولِه بالإيمانِ به وتَصديقِه، وتَحكيمِه في كُلِّ شَيءٍ، والرِّضا لحُكمِه والتَّسليمِ له، وتقديمِ محبَّتِه على محبَّةِ النَّفسِ والولَدِ والوالِدِ والنَّاسِ أجمعينَ- صلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه- وأمَرَ أن نَصِلَ ما بيننا وبين الوالِدَينِ والأقرَبينَ بالبِرِّ والصِّلةِ، وما بيننا وبينَ الزَّوجاتِ بالقيامِ بحُقوقِهنَّ، ومُعاشَرتِهنَّ بالمعروفِ، وأن نَصِلَ ما بيننا وبين الجارِ القَريبِ والبعيدِ بمُراعاةِ حَقِّه، وحِفظِه في نَفسِه ومالِه وأهلِه بما نحفَظُ به نفوسَنا وأهلينا وأموالَنا، وأن نَصِلَ ما بيننا وبين الرَّفيقِ في السَّفَرِ والحَضَرِ، وأن نَصِلَ ما بيننا وبين عُمومِ النَّاسِ بأن نأتيَ إليهم بما نحِبُّ أن يأتوه

---

(١) أخرجه أحمد في ((المسند)) (٦٥٧٠)، وعبد بن حميد في ((المنتخب)) (٣٥٢)، والبزار في ((المسند)) (٢٤٥٧)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٧٤٢١).
قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ١٣٦): رواتُه ثقاتٌ. وصحَّح إسنادَه الدمياطي في ((المتجر الرابح)) (٣٢٨)، وأحمد شاكر في ((المسند)) (١٠/ ٧٧)، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

إلينا؛ فهذا كلُّه مما أمَرَ اللهُ به أن يُوصَلَ[١].

٣- السببُ الذي يجعَلُ العبدَ واصِلًا ما أمَرَ اللهُ به أن يُوصَلَ: خَشيةُ اللهِ وخَوفُ يومِ الحسابِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾، أي: يخافونَه فيمنَعُهم خوفُهم منه، ومن القدومِ عليه يومَ الحسابِ، أن يتجَرَّؤوا على معاصي اللهِ، أو يُقَصِّروا في شيءٍ ممَّا أمرَ اللهُ به؛ خوفًا مِن العقابِ ورجاءً للثَّوابِ[٢]، ولا يمكِنُ لأحدٍ قَطُّ أن يَصِلَ ما أمَرَ اللهُ بوَصلِه إلَّا بخَشيتِه، ومتى ترَّحَلَت الخشيةُ مِن القَلبِ، انقطَعَت هذه الوُصَلُ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، فلم يكتَفِ منهم بمجَرَّدِ الصَّبرِ، حتى يكونَ خالصًا لوجهِه سبحانَه[٤].

٥- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ ثمَّ ذكَرَ لهم ما يُعينُهم على الصَّبرِ، وهي الصَّلاةُ، فقال: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهذان هما العَونانِ على مصالحِ الدُّنيا والآخرةِ، وهما الصَّبرُ والصَّلاةُ؛ قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[٥] [البقرة: ١٥٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ في التَّقييدِ بالصَّلاحِ قَطعٌ للأطماعِ الفارغةِ لِمَن يتمَسَّكُ بمُجَرَّدِ حَبلِ الأنسابِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).
(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٣٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨).

٧- قولُ الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الصَّبرَ عِمادُ الدِّينِ كُلِّه[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الفوزَ بالمطلوبِ المحبوبِ، والنَّجاةَ مِن المكروهِ المرهوبِ، ودخولَ الجَنَّةِ؛ إنَّما نالوه بالصَّبرِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ * وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ جمَع مقاماتِ الإسلامِ والإيمانِ كلَّها؛ حيث اشتَمَل على فِعلِ المأمورِ، وتركِ المحظورِ، والصَّبرِ على المَقدورِ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ فيه إثباتُ الوجهِ لله عزَّ وجلَّ[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الدَّرَجةَ تعلو بالشَّفاعةِ، وأنَّ الموصوفينَ بتلك الصِّفاتِ يقتَرِنُ بعضُهم ببعضٍ -لِما بينهم مِن القَرابةِ والوُصلةِ- في دُخولِ الجنَّةِ؛ زيادةً في أُنسِهم[٥].

٤- الإكثارُ مِن تَردادِ رسلِ الملكِ أعظمُ في الفخرِ، وأكثرُ في السرورِ والعزِّ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٣٢).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٥٣).
(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٣١).
(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٩٤٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٥٧).

قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾، ولمَّا كان إتيانُهم مِن الأماكنِ المعتادةِ- مع القدرةِ على غيرِها- أدلَّ على الأدبِ والكرمِ؛ قال تعالى: ﴿مِّن كُلِّ بَابٖ﴾[١].

٥- يجزئُ السَّلامُ مع حذفِ اللَّامِ، فلو قال القائلُ: «سلامٌ عليكم» أجزأَ؛ قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾، لكن باللامِ أولَى؛ لأنَّها للتفخيمِ والتكثيرِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مِن الملائكةِ ملائِكةً مُوَكَّلينَ بتحيَّةِ أهلِ الجنَّةِ[٣].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ لَمَّا كان الصبرُ هو الذي نشأ عنه تلك الطَّاعاتُ السَّابقةُ؛ ذكَرَت الملائكةُ أنَّ النَّعيمَ السَّرمديَّ إنَّما هو حاصِلٌ بسبَبِ الصَّبرِ، ولم يأتِ التَّركيبُ بالإيفاءِ بالعَهدِ، ولا بغيرِ ذلك[٤].

٨- لَمَّا كانت الجنَّةُ دارَ السَّلامةِ مِن كُلِّ عَيبٍ وشَرٍّ وآفةٍ، بل قد سَلِمَت مِن كُلِّ ما ينغِّصُ العَيشَ والحياةَ- كانت تحيَّةُ أهلِها فيها سَلامًا، والرَّبُّ يُحيِّيهم فيها بالسَّلامِ ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[٥] [الرعد: ٢٣- ٢٤].

٩- السَّلامُ شُرِعَ على الأحياءِ والأمواتِ بتقديمِ اسمِه على المُسلَّمِ عليهم؛ لأنَّه دُعاءٌ بخيرٍ، والأحسَنُ في دُعاءِ الخيرِ أن يتقَدَّمَ المدعوُّ به على المدعوِّ له،

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٤).
(٣) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨٣).
(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤٥).

قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [هود: ٧٣]، وقولُه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠]، وأمَّا الدُّعاءُ بالشَّرِّ فيُقدَّمُ فيه المدعوُّ عليه على المدعُوِّ به غالبًا، كقولِه تعالى لإبليسَ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ [ص: ٧٨]، وقولِه: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ [الحجر: ٣٥]، وقولِه: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ [التوبة: ٩٨]، وقولِه: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ [الشورى: ١٦]، وسِرُّ ذلك -والله أعلَمُ- أنَّ في الدُّعاءِ بالخيرِ قَدَّموا اسمَ الدُّعاءِ المحبوبِ الذي تشتهيه النُّفوسُ وتَطلُبُه، ويَلَذُّ للسَّمعِ لَفظُه، فيَبدأُ السَّمعُ بذِكرِ الاسمِ المحبوبِ المَطلوبِ، ويبدأُ القَلبُ بتصَوُّرِه، فيُفتَحُ له القَلبُ والسَّمعُ، فيبقى السَّامِعُ كالمُنتَظِرِ لِمَن يحصُلُ هذا، وعلى من يحُلُّ، فيأتي باسمِه فيقولُ: عليك أو لك، فيحصُلُ له من السُّرورِ والفَرَحِ ما يبعَثُ على التَّحابِّ والتَّوادِّ والتَّراحُمِ، الذي هو المقصودُ بالسَّلامِ، وأمَّا في الدُّعاءِ عليه ففي تقديمِ المدعوِّ عليه إيذانٌ باختصاصِه بذلك الدُّعاءِ، وأنَّه عليه وَحدَه، كأنَّه قيل له: هذا عليك وَحدَك لا يَشرَكُك فيه السَّامِعونَ، بخلافِ الدُّعاءِ بالخيرِ؛ فإنَّ المطلوبَ عُمومُه، وكلَّما عَمَّ به الدَّاعي كان أفضَلَ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

- قولُه: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ تفريعٌ على جُملةِ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ...﴾ الآيةَ؛ فالكلامُ لنَفْيِ استواءِ المؤمنِ والكافرِ في

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٧٤).

صورةِ الاستفهامِ؛ تنبيهًا على غَفلةِ الضَّالينَ[١].

- ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ فيه قصْرٌ بـ (إنَّما)، وهو قصْرٌ إضافيٌّ، أي: لا غيرُ أُولي الألبابِ؛ فهو تعريضٌ بالمُشركين بأنَّهم لا عقولَ لهم؛ إذ انتَفَت عنهم فائدةُ عُقولِهم[٢].

- قولُه: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ﴾ فيه دُخولُ همزةِ الإنكارِ على الفاءِ ﴿أَفَمَن﴾؛ لإنكارِ أنْ تقَعَ شُبهَةٌ في تشابُهِهما بعدما ضُرِبَ مِن المَثَلِ، في أنَّ حالَ مَن عَلِمَ أنَّما أُنْزِلَ إليك مِن ربِّك الحقُّ فاستجابَ، بمعزِلٍ مِن حالِ الجاهلِ الَّذي لم يستبْصِرْ فيستجيبَ، كبُعْدِ ما بين الزَّبَدِ والماءِ، والخَبَثِ والإبريزِ[٣]؛ فإيرادُ الفاءِ بعد الهمزةِ لتَوجيهِ الإنكارِ إلى ترتُّبِ توهُّمِ المُماثلَةِ على ظُهورِ حالِ كلٍّ منهما بما ضُرِبَ مِن الأمثالِ وبين المصيرِ والمآلِ، كأنَّه قيل: أبعدما بُيِّنَ حالُ كلٍّ مِن الفريقينِ ومآلُهما يُتَوَهَّمُ المُماثلَةُ بينهما[٤]؟!

- قولُه: ﴿كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾، أي: كمَن لا يعلَمُ ذلك، إلَّا أنَّه أُريدَ زيادةُ تقْبيحِ حالِه فعُبِّرَ عنه بالأعْمى[٥]، وقيل: شَبَّه الكافِرَ والجاهِلَ بالأعمَى؛ لأنَّ الأعمَى لا يهتدي لرُشدٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٨).

الخَبَثُ: ما تنفيه النَّارُ مِن رديءِ الفِضَّةِ والحَديدِ وغيرهما. يُنظر: ((غريب الحديث)) للقاسم ابن سلام (٢/ ١٩٢).

والإبريزُ: الذَّهَبُ الخالِصُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٥٥).

٢- قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ﴾ فيه إعادةُ اسمِ الموصولِ وما عُطِفَ عليه مِن الأسماءِ الموصولةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ صِلاتِها خِصالٌ عظيمةٌ تقْتَضي الاهتمامَ بذِكْرِ مَن اتَّصَفَ بها، ولدفْعِ تَوَهُّمِ أنَّ عُقْبى الدَّارِ لا تتحقَّقُ لهم إلَّا إذا جمَعوا كلَّ هذه الصِّفاتِ[١].

- وجُملةُ ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ جُملةٌ توكيديَّةٌ لقولِه: ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ العهدَ هو الميثاقُ، ويلزَمُ مِن إيفاءِ العهدِ انتفاءُ نَقيضِه[٢]. وقيل: قولُه: ﴿ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴾ تعميمٌ بعد تخصيصٍ، وفيه تأْكيدٌ للاستمرارِ المفهومِ مِن صِيغَةِ المُستقبَلِ[٣]؛ فالميثاقُ يستغرِقُ جميعَ المَواثيقِ، وبذلك يكونُ أعمَّ مِن (عهدِ اللَّهِ)، فيشمَلُ المواثيقَ الحاصِلةَ بين النَّاسِ مِن عُهودٍ وأَيْمانٍ، وباعتبارِ هذا العُمومِ حصَلَت مُغايرةٌ ما بينه وبين عَهْدِ اللَّهِ، وتلك هي مُسَوِّغَةُ عطْفِ ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ على ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ مع حُصولِ التَّأْكيدِ لمعنى الأُولى بنَفْيِ ضِدِّها، وتعريضًا بالمُشركين؛ لاتِّصافِهم بضِدِّ ذلك الكَمالِ؛ فعطْفُ التَّأكيدِ باعتبارِ المُغايرةِ بالعُمومِ والخُصوصِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴾

- قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ... ﴾ فيه إطنابٌ في التَّعبيرِ عنِ الرَّحِمِ- على أحدِ القولينِ في التفسيرِ- بطريقةِ اسمِ الموصولِ ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٦).

بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾؛ لِما في الصِّلةِ مِن التَّعريضِ بأنَّ واصِلَها آتٍ بما يُرْضي اللَّهَ؛ لينتَقِلَ مِن ذلك إلى التَّعريضِ بالمُشركين الَّذين قطَعوا أواصِرَ القَرابةِ بينهم وبين رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَن معه مِن المؤمنين، وأساؤوا إليهم في كلِّ حالٍ، وكتَبوا صحيفةَ القَطيعَةِ مع بَني هاشمٍ[١].

- قولُه: ﴿أَن يُوصَلَ﴾ جيءَ بهذا النَّظْمِ؛ لزيادةِ تقْريرِ المقصودِ- وهو الأرحامُ- بعد تقريرِه بالموصوليَّةِ[٢]، وذلك على أحدِ وجهي التفسيرِ. وقيل: قال: ﴿بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ دونَ (بوَصلِه)؛ ليكونَ مأمورًا بوَصلِه مرَّتينِ، ويُفيدَ تجديدَ الوَصلِ -كُلَّما قطَعَه قاطِعٌ- على الاستمرارِ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ لمَّا كان الصَّبرُ على الوجْهِ المذْكورِ مِلاكَ الأمرِ في كلِّ ما ذُكِرَ مِن الصِّلاتِ السَّابقةِ واللَّاحِقةِ: أُورِدَ على صِيغَةِ الماضي؛ اعتناءً بشأْنِه، ودلالةً على وُجوبِ تحقُّقِه؛ فإنَّ ذلك ممَّا لا بُدَّ منه؛ إمَّا في نفْسِ الصِّلاتِ، كما فيما عَدَا الأُولى والرَّابعةِ والخامسةِ، أو في إظهارِ أحكامِها، كما في الصِّلاتِ الثَّلاثِ المَذْكوراتِ؛ فإنَّها وإنِ استغْنَت عنِ الصَّبرِ في أنفُسِها حيث لا مَشَقَّةَ على النَّفْسِ في الاعترافِ بالرُّبوبيَّةِ والخشيَةِ والخوفِ، لكنْ إظهارُ أحكامِها والجرْيُ على مُوجبِها غيرُ خالٍ عنِ الاحتياجِ إليه[٤]، ففيه مجيءُ الصِّلَةِ هنا بلفْظِ الماضي، وفي المُوصِلين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧).

قبْلَ ذلك بلفْظِ المُضارِعِ في قولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ ﴾، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ ﴾، وما عُطِفَ عليهما؛ على سبيلِ التَّفنُّنِ في الفَصاحةِ؛ لأنَّ المُبتدأَ هنا في معنى اسمِ الشَّرطِ بالماضي كالمُضارِعِ في اسمِ الشَّرطِ، فكذلك فيما أشبَهَه، وأيضًا اختصاصُ هذه الصِّلةِ بالماضي وتَيْنِكَ بالمُضارِعِ؛ لأنَّ تَيْنِكَ الصِّلَتَيْنِ قُصِدَ بهما الاستصحابُ والالتباسُ دائمًا، وهذه الصِّلَةُ قُصِدَ بها تقدُّمُها على تَيْنِكَ الصِّلَتَيْنِ وما عُطِفَ عليهما؛ لأنَّ حُصولَ تلك الصِّلاتِ إنَّما هي مُترتِّبَةٌ على حُصولِ الصَّبرِ وتقدُّمِه عليها؛ ولذلك لم تأتِ صلتُه في القُرآنِ إلَّا بصِيغَةِ الماضي؛ إذ هو شَرطٌ في حُصولِ التَّكاليفِ وإيقاعِها. واللَّهُ أعلمُ[1]. وقيل: جاءتِ الصِّلاتُ ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ ﴾ وما عُطِفَ عليهما بصيغةِ المُضارِعِ في تلك الأفعالِ الخمسةِ؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ كِنايةً عنِ الاستمرارِ، وجاءت صِلَةُ ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ وما عُطِفَ عليها- وهو ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ ﴾- بصيغةِ المُضِيِّ؛ لإفادةِ تحقُّقِ هذه الأفعالِ الثَّلاثةِ لهم وتمكُّنِها من أنفُسِهم؛ تنويهًا بها؛ لأنَّها أُصولٌ لفضائلِ الأعمالِ[2].

- قولُه: ﴿ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ فيه احتِراسٌ، حيث انْتَفَى بقولِه: ﴿ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ أنْ يكونَ صبْرُهم ناشِئًا عن حُبِّ الجاهِ والشُّهرةِ، أو ليقالَ: ما أصبَرَه، وأحمَلَه للنَّوازِلِ، وأوْقَرَه عند الزَّلازِلِ! لئلا يشمَتَ به الأعداءُ[3]!

- في قولِه: ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أفرَدَ الصَّلاةَ والزَّكاةَ بالذِّكرِ، وإن كانتا داخِلَتينِ في الجُملةِ الأولى؛ تنبيهًا على كونِهما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١١٧).

أشرَفَ مِن سائِرِ العباداتِ[١]. وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّه نبَّهَ على هاتينِ الخَصْلَتَيْنِ: العِبادةِ البَدَنيَّةِ، والعِبادةِ الماليَّةِ؛ إذ هما عَمودُ الدِّينِ، والصَّبرُ عليهما أعظَمُ صبْرٍ؛ لِتكرُّرِ الصَّلواتِ، ولِتعلُّقِ النُّفوسِ بحُبِّ تحصيلِ المالِ[٢].

- قولُه: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ فيه تقْديمُ المجرورِ ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ على المنْصوبِ ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾؛ لإظهارِ كَمالِ العِنايةِ بالحَسَنةِ[٣].

- وفيه إعادةُ أُسلوبِ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ في المعطوفِ على الصِّلَةِ وهو قولُه: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾؛ لاقتضاءِ المَقامِ إفادةَ التَّجدُّدِ؛ إيماءً إلى أنَّ تجدُّدَ هذا الدَّرْءِ ممَّا يُحْرَصُ عليه؛ لأنَّ النَّاسَ عُرْضَةٌ للسَّيِّئاتِ على تفاوُتٍ، فوصَفَ لهم دواءَ ذلك بأنْ يدْرَؤوا السَّيِّئاتِ بالحَسَناتِ[٤].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ دلَّ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ على أنَّ المُشارَ إليهم جَديرونَ بالحُكْمِ الوارِدِ بعد اسمِ الإشارةِ؛ لأجْلِ ما وُصِفَ به المُشارُ إليهم مِن الأوصافِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ قُدِّمَ المجرورُ على المُبتدأِ؛ للدَّلالةِ على القصْرِ، أي: لهم عُقْبى الدَّارِ لا للمُتَّصِفينَ بأَضْدادِ صِفاتِهم، فهو قصْرٌ إضافيٌّ[٦].

٥- قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨٠- ٣٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٢٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٣٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ؛ وهي حالٌ مِن ﴿جَنَّٰتُ﴾، أو مِن ضميرِ ﴿لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، والمقصودُ مِن ذِكْرِها استحضارُ الحالةِ البَهيجَةِ[١].

- قولُه: ﴿يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ وذِكْرُ ﴿مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ كِنايةٌ عن كثْرَةِ غِشْيانِ الملائكةِ إيَّاهم، بحيث لا يخْلو بابٌ مِن أبوابِ بيوتِهم لا تدخُلُ منه ملائكةٌ[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾

- قولُه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ فيها بِشارةٌ بِدَوامِ السَّلامةِ[٣]؛ حيث عُبِّرَ بالجُملةِ الاسميَّةِ.

- قولُه: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ تفريعُ ثناءٍ على حُسنِ عاقِبتِهم، والمخصوصُ بالمدْحِ محذوفٌ؛ لدلالةِ مَقامِ الخِطابِ عليه، والتَّقديرُ: فنِعْمَ عُقْبى الدَّارِ دارُ عُقْباكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٢).

الآيات (٢٥-٢٧)

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿يَبۡسُطُ﴾: أي: يُوسِّعُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ[١].

﴿وَيَقۡدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، يقال: قَدَرْتُ عليه الشيءَ: إذا ضيَّقتَه، كأنَّما جعلتَه بقَدْرٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه[٢].

﴿مَتَٰعٞ﴾: أي: متعةٌ، وانتفاعٌ، وأصل (متع): المنفعةُ وامتدادُ مدَّةٍ في خيرٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

بعد أنْ ذكَرَ اللهُ تعالى صِفاتِ أولئك الأوفياءِ، وما أعدَّ لهم مِن ثوابٍ جَزيلٍ؛ أتبَعَ ذلك بوَصفِ الأشقياءِ، وبيَّنَ أنَّهم الذين لا يُوفونَ بعَهدِ اللهِ مِن بعدِ ما أكَّدوا التزامَهم به، وقَبولَهم له، وهم الذين يَقطَعونَ ما أمَرَهم اللهُ بوَصلِه، ويُفسِدونَ في الأرضِ، أولئك الموصوفونَ بهذه الصِّفاتِ السيئةِ لهم اللعنةُ، ولهم ما

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

يَسوءُهم في الدَّارِ الآخرةِ مِن العذابِ.

اللهُ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يشاءُ مِن عِبادِه، ويُضيِّقُه على مَن يشاءُ منهم، وفَرِحَ الكُفَّارُ بنعيمِ الحياةِ الدُّنيا فَرَحَ بَطَرٍ وطُغيانٍ، وما نعيمُ هذه الحياةِ الدُّنيا بالنِّسبةِ للآخرةِ إلَّا شَيءٌ قليلٌ يُتمتَّعُ به، سُرعانَ ما يزولُ. ويقولُ الكُفَّارُ: هلَّا أُنزِلَ على محمَّدٍ مُعجِزةٌ مِن رَبِّه؛ لنؤمِنَ برِسالتِه. قلْ لهم: إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يشاءُ مِن عبادِه، ويَهدي إليه مَن رجَعَ وتاب، وليس ضلالُ مَن يضِلُّ لعدمِ نزولِ آيةٍ، ولا هدايةُ مَن يهتدي بسببِ إنزالِها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى صِفاتِ السُّعَداءِ، وذكَرَ ما ترتَّبَ عليها مِن الأحوالِ الشَّريفةِ العاليةِ؛ أتبَعَها بذِكرِ حالِ الأشقياءِ، وذِكرِ ما يترتَّبُ عليها من الأحوالِ المُخْزيةِ المكروهةِ، وأتبعَ الوَعدَ بالوعيدِ، والثَّوابَ بالعقابِ؛ ليكونَ البيانُ كامِلًا[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾.

أي: والذين لا يُوفونَ بعهدِ الله، مِن بعدِ تأكيدِه عليهم، وتغليظِه، وتوثيقِه، إنما يقابلونَه بالإعراضِ والنقضِ[2].

﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٣). ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ الآيةِ رقم (٢٠).
قال السمعاني: (وهذا وارِدٌ في الكفَّارِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٩١).

أي: ويَقطعونَ ما أمَرَ اللهُ بوَصلِه؛ من الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ، والأرحامِ[١].

﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ويُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي والصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

أي: أولئك لهم الطَّردُ والإبعادُ مِن رَحمةِ اللهِ، ولهم ما يَسوءُهم في جهنَّمَ[٣].

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكَمَ اللهُ تعالى على من نقَضَ عَهدَه في قَبولِ التَّوحيدِ والنبُوَّةِ بأنَّهم ملعونونَ في الدُّنيا، ومُعَذَّبونَ في الآخرةِ، فكأنَّه قيل: لو كانوا أعداءَ اللهِ، لَمَا فتَحَ اللهُ عليهم أبوابَ النِّعَمِ واللَّذَّاتِ في الدُّنيا! فأجاب اللهُ تعالى عنه بهذه الآيةِ، وهو أنَّه يبسطُ الرزقَ على البعضِ، ويضيِّقُه على البعضِ، ولا تعلُّقَ له بالكفرِ والإيمانِ، فقد يوجدُ الكافرُ موسَّعًا عليه دونَ المؤمنِ، ويوجدُ المؤمنُ مضيَّقًا عليه دونَ الكافرِ، فالدُّنيا دارُ امتحانٍ[٤]، فقال:

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧).

(٢) يُنظر: المصادر السابقة.

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٣٨).

أي: اللهُ وَحدَه هو الذي يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يشاءُ، ويُضَيِّقُ الرِّزقَ على من يَشاءُ، بحسَبِ ما تَقتضيه حِكمتُه[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: وفَرِحَ الكُفَّارُ- الذين وسَّعَ اللهُ أرزاقَهم- بنعيمِ الحياةِ الدُّنيا فَرَحَ بَطَرٍ وطُغيانٍ، وغَفَلوا عن الآخرةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يونس: ٧- ٨].

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾.

أي: وما نعيمُ الحياةِ الدُّنيا في جَنبِ نَعيمِ الآخرةِ إلَّا شَيءٌ حَقيرٌ، وتمتعٌ ضئيلٌ لا قيمةَ له، سرعانَ ما ينقضي ويزولُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وقال سُبحانه: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٤، ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٥).

٣٨].

وعن المُستَورِد رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((والله ما الدُّنيا في الآخرةِ إلاَّ مِثلُ ما يجعَلُ أحَدُكم إصبَعَه هذه في اليَمِّ[١]، فلْينظُرْ بم ترجِعُ؟))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الدُّنيا مَتاعٌ، وخَيرُ مَتاعِ الدُّنيا المرأةُ الصَّالحةُ))[٣].

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى طَعْنَهم في نبُوَّةِ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِقَولِه بالحَشرِ والمعادِ، ثمَّ طعْنَهم فيه؛ لأنَّه أنذَرَهم بحلولِ عَذابِ الاستِئصالِ؛ ذكَرَ أنَّهم طَعَنوا فيه؛ لأنَّه لم يأتِ لهم بمُعجزةٍ مُبَيِّنةٍ، كما فعل الرُّسُلُ مِن قَبلِه، فقال تعالى[٤]:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾.

أي: ويقولُ الكُفَّارُ من قَومِك- يا محمَّدُ-: هلَّا أُنزِلَ على مُحمَّدٍ مُعجِزةٌ مِن رَبِّه؛ حتى نؤمِنَ بأنَّه رَسولُ اللهِ[٥].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۞ أَوۡ

---

(١) اليَمُّ: البَحرُ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٤٤).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٣) رواه مسلم (١٤٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٣/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧).

تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لِقَومِك الذين يقترِحونَ عليك إنزالَ آيةٍ: إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يشاءُ مِن عِبادِه فيَخذُلُه عن الإيمانِ بي، ويهدي إليه[١] من رجَعَ وتاب فيُوَفِّقُه لاتِّباعي، وليس ضلالُ مَن يضِلُّ منكم لأنَّه لم تنزلْ عليَّ آيةٌ مِن ربِّي وفقَ ما تقترحونَ، ولا هدايةُ مَن يهتدي منكم بسببِ إنزالها عليَّ، وإنما ذلك بيدِ اللهِ وحدَه[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[الشورى: ١٣].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ التَّحذيرُ مِن قطيعةِ الرَّحِمِ؛ فإنَّها سببٌ لِلَعنةِ اللهِ وعقابِه[٣].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الفرحَ بالدُّنيا حرامٌ منهيٌّ عنه[٤]، وهو مَذمومٌ مُطلقًا؛ لأنَّه نَتيجةُ

(١) قال القرطبي: (الهاءُ في {إِلَيْهِ} للحقِّ، أوْ للإسلامِ، أوْ لله عزَّ وجلَّ، على تقديرِ: ويَهْدي إلى دينِه وطاعتِه). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((الضياء اللامع من الخطب الجوامع)) لابن عثيمين (٧/ ٥٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٩١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن عادل))

حُبِّها، والرِّضا بها، والذُّهولِ عن ذَهابِها[١]، أمَّا الفَرَحُ بها لِكَونِها وَسيلةً إلى أمرٍ مِن أمورِ الآخرةِ فغَيرُ مذموم[٢]، فالمذمومُ هو الفَرَحُ بالدُّنيا المحضةِ، والأَشَرُ والبَطَرُ، وهذا هو الذي ذَمَّ اللَّهُ به الإنسانَ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[٣] [هود: ١٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الآياتِ التي يَقتَرِحُها الكُفَّارُ ليُؤمِنوا؛ لا تُوجِبُ هِدايةً، وإنَّما اللهُ هو الذي يهدي ويُضِلُّ[٤].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾، وفيه سؤالٌ: كيفَ طابَق هذا الجوابُ قولَهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾؟

الجوابُ: أنَّ المعنى: قلْ لهم: إنَّ الله أنزَل عليَّ آياتٍ ظاهرةً، ومعجزاتٍ قاهرةً، لكنِ الإضلالُ والهدايةُ مِن الله، فأضلَّكم عن تلك الآياتِ، وهدَى إليها آخرينَ، فلا فائدةَ في تكثيرِ الآياتِ والمعجزاتِ.

وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّه كلامٌ جرَى مجرَى التعجبِ مِن قولِهم؛ لأنَّ الآياتِ الباهرةَ المتكاثرةَ، التي ظهَرت على يدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كانت أكثرَ مِن أن تشتبِهَ على العاقلِ، فلمَّا طلبوا بعدَها آياتٍ أُخَرَ، كان محل التعجبِ والإنكارِ، فكأنَّه قيل لهم: ما أعظمَ عنادَكم!! إنَّ اللهَ يضلُّ مَن يشاءُ، كمَن كان

(١١/ ٢٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوى)) (٤/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣٨).

على صنيعِكم، مِن التصميمِ على الكفرِ، فلا سبيلَ إلى هدايتِكم، وإن أُنزلتْ كلُّ آيةٍ! ويهدي مَن كان على خلافِ صنيعِكم[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ زيادةُ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ للزِّيادةِ في تَشنيعِ النَّقضِ، أي: مِن بعدِ توثيقِ العهدِ وتأْكيدِه[٢]، و﴿مِنۢ﴾ مُتعلِّقةٌ بقولِه: ﴿يَنقُضُونَ﴾، وهي لابتداءِ الغايةِ، ويدلُّ على أنَّ النَّقضَ حصَلَ عَقِيبَ توثُّقِ العهدِ مِن غيرِ فَصْلٍ بينهما، وفي ذلك دليلٌ على عدَمِ اكْتِراثِهم بالعَهدِ؛ فإثْرَ ما استوثَقَ اللهُ منهم نقَضُوه[٣].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ فيه تكريرُ (لهم)؛ للتَّأْكيدِ، والإيذانِ باختلافِهما واستقلالِ كلٍّ منهما في الثُّبوتِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾، وقال في سُورةِ القَصَص: ﴿وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ﴾ [القصص: ٨٢]، وفي سُورةِ العَنكَبوت قال: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٢]، وفي سُورةِ سبَأٍ: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]، وفي سُورةِ الرُّومِ قال:

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٩-٢٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الروم: ٣٧]، وقال في الشُّورى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢]؛ ووجهُ ذلك: أنَّه زادَ في العنكبوتِ ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ و﴿لَهُ﴾؛ مُوافَقةً لِبسْطِ الكلام على الرِّزقِ المذكورِ فيها صريحًا، وزاد في القَصَصِ ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ مُوافَقةً لذلك، وإنْ كان لفْظُ (الرِّزقِ) فيه تضمُّنًا، وزَادَ ﴿لَهُ﴾ في ثاني مَوضعَيْ سبَأٍ وهو قوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [سبأ: ٣٩]؛ لأنَّه نزَلَ في المُؤمنينَ، وما قبلَه في الكافرينَ[(١)].

- ومِن المناسبةِ كذلك في قولِه: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ اختِصاصُ ما هنا وما في سُورةِ القَصَصِ والعَنكبوتِ والرُّوم بلفْظِ (اللَّه)، وفي الإسراءِ وفي سَبَأٍ -في موضعينِ- بلفْظِ (الرَّبِّ)، وفي الشُّورى بإضمارِ لفْظِ (اللَّه)؛ مُوافَقةً لِتقدُّمِ تكرُّرِ لفْظِ (الله) في السُّورِ الأربعِ، ولِتقدُّمِ تكرُّرِ لفْظِ (الرَّبِّ) في المواضِعِ الثَّلاثةِ، ولِتقدُّمِ تكرُّرِ الإضمارِ في الشُّورى[(٢)].

- قولُه: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ جُملةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا، جوابًا عمَّا يَهجِسُ في نُفوسِ السَّامعينَ مِن المُؤمنينَ والكافرينَ مِن سماعِ قولِه: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، وأفاد تَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعْليِّ في قولِه: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ﴾ تَقويةَ الحُكمِ وتأكيدَه؛ لأنَّ المقصودَ أنْ يعلَمَه النَّاسُ، ولفْتُ العُقولِ إليه، وليس المَقامُ مَقامَ إفادةِ الحصْرِ[(٣)]؛ إذْ ليس ثمَّةَ مَن يزعُمُ الشَّركةَ للهِ في ذلك، أو مَن يزعُمُ أنَّ اللهَ لا يفعَلُ ذلك؛ فيُقْصَدُ الرَّدُّ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٨-٢٨٩).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٧).
(٣) هذا الرأيُ الذي ردَّه هنا ابنُ عاشورٍ هو رأيُ الزمخشريِّ، حيثُ قال: (أي: اللهُ وحْدَه هو يَبسُطُ الرزق ويَقدِره دون غيرِه). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٧).

عليه بطريقِ القصْرِ[١].

- قولُه: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ جِيءَ في جانِبِ الكافرينَ بضَميرِ الغَيبةِ؛ إشارةً إلى أنَّهم أقلُّ مِن أنْ يفْهَموا هذه الدَّقائقَ؛ لِعُنْجُهيَّةِ نُفوسِهم؛ فإنَّهم فَرِحوا بما لهم في الحياةِ الدُّنيا، وغَفَلوا عنِ الآخِرةِ؛ فالفرَحُ المذكورُ فرَحُ بطَرٍ وطُغيانٍ[٢].

- وتنْكيرُ ﴿مَتَٰعٞ﴾؛ للتَّقليلِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هذه الجُملةُ تكريرٌ لِنظيرتِها السَّابقةِ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞ﴾ [الرعد: ٧]؛ فأُعِيدَت تلك الجُملةُ إعادةَ الخَطيبِ كلمةً مِن خُطبتِه؛ ليأتِيَ بما بقِيَ عليه في ذلك الغرَضِ بعد أنْ يَفْصِلَ بما اقْتَضى المَقامُ الفصْلَ به، ثمَّ يتفرَّغَ إلى ما ترَكَه مِن قبلُ؛ فإنَّه بعد أنْ بيَّنَتِ الآياتُ السَّابقةُ أنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُعَجِّلَ لهمُ العذابَ، ولكنَّ حِكمتَه اقتَضَت إنظارَهم؛ ليتحَدَّى عبيدَه؛ فتبيَّنَ ذلك كلُّه كَمالَ التَّبيينِ[٤].

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيه إيثارُ الإظهارِ على الإضمارِ -حيثُ لم يقُلْ: (ويقولون)- مع ظُهورِ إرادتِهم عَقِيبَ ذكْرِ فرَحِهم بالحياةِ الدُّنيا؛ لِذمِّهم، والتَّسجيلِ عليهم بالكُفرِ فيما حُكِيَ عنهم مِن قولِهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٣٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٥).

عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[١].

- قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ فيه إيثارُ صِيغَةِ الماضي ﴿أَنَابَ﴾؛ للإيماءِ إلى استدْعاءِ الهِدايةِ لسابقةِ الإنابةِ، كما أنَّ إيثارَ صِيغَةِ المُضارِعِ في الصِّلةِ الأُولى؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ المشيئةِ حسَبَ استمرارِ مُكابرتِهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٠).

الآيات (٢٨-٣٠)

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾: أي: طيبُ العيشِ لهم، أو: الخيرُ وأقصَى الأُمنيةِ، أو: طوبى: شجرةٌ في الجنةِ، وقيل: بل هي إشارةٌ إلى كلِّ مستطابٍ في الجنةِ، وأصلُ (طيب): خلافُ الخبيثِ[١].

﴿مَـَٔابٖ﴾: أي: مرجعٍ، ومنقلَبٍ، وأصلُ (أوب): الرجوعُ[٢].

﴿مَتَابِ﴾: أي: تَوبتي ومَرْجعي وأَوْبتي، وأصلُ (توب): يدلُّ على الرجوعِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ الذين يستحِقُّونَ الهِدايةَ هم الذين آمنوا، وسَكَنَت قُلوبُهم إلى ذِكرِ اللهِ، ألا بِذِكرِ اللهِ تسكُنُ القُلوبُ، ويزولُ اضطرابُها. إنَّ هؤلاء المؤمنينَ الذين امتلأتْ قلوبُهم بالإيمانِ الصَّحيحِ، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ، لهم حالٌ طَيِّبةٌ، ومَرجِعٌ حسَنٌ إلى رِضوانِ اللهِ وجنَّتِه، ومِثلَ ذلك الإرسالِ للأنبياءِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥١).

السَّابقينَ أرسَلْناك -أيُّها الرَّسولُ- بكتابٍ تبلِّغُه للنَّاسِ وتَقرَؤُه عليهم، كما أرسَلْنا رسُلًا إلى أمَمٍ مِن قَبلِك، وحالُ قَومِك الجُحودُ بوَحدانيَّةِ الرَّحمنِ، قلْ لهم- يا محمدُ: إن الَّذي كفَرْتُم به أنا مُؤمِنٌ به، وهو ربِّي وَحدَه، لا معبودَ بحَقٍّ سواه، عليه توكلتُ، وإليه مَرجِعي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

ذكَرَ سُبحانَه وتعالى في هذه الآية الحَضَّ على ذِكرِ اللهِ، وأنَّه به تحصُلُ الطُّمأنينةُ؛ ترغيبًا في الإيمانِ، فبِذكرِه تعالى تطمئِنُّ القُلوبُ لا بالآياتِ المُقتَرَحةِ، بل ربَّما كُفِرَ بَعدَها فنزلَ العذابُ، كما سلَفَ في بعضِ الأمَمِ[1].

وأيضًا لَمَّا قال اللهُ تعالى في الآيةِ التي سَبَقَت: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴾ يعني: أنَّ الآيةَ التي يَقتَرِحونَها لا تُوجِبُ هِدايةً، بل اللهُ هو الذي يهدي ويُضِلُّ- نَبَّهَهم هنا على أعظَمِ آيةٍ وأجَلِّها، وهي: طُمأنينةُ قُلوبِ المؤمِنينَ بذِكرِه الذي أنزَلَه؛ إذ يستحيلُ في العادةِ أن تطمئنَّ القلوبُ وتسكنَ إلى الكذبِ والافتراءِ والباطلِ[2]، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ويهدي الله الذين آمنوا[3] وتسكُنُ قُلوبُهم، ويزولُ قَلقُها واضطِرابُها

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣٨).

(٣) قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ هذا بدلٌ مِن قولِه: ﴿ أَنَابَ ﴾، والمعنى: يَهْدي الذين آمنوا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٥).

بذِكرِ اللهِ تعالى، ومِن ذِكرِه: القُرآنُ[١].

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

أي: ألا بذِكرِ اللهِ تَسكُنُ قُلوبُ المؤمنينَ، ويزولُ عنها قلَقُها واضطِرابُها، وحَريٌّ بها ألَّا تَطمئِنَّ لشَيءٍ سِوى ذِكرِه سُبحانَه[٢].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: الذين آمَنوا بكُلِّ ما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا- تصديقًا لهذا الإيمانِ- الأعمالَ الصَّالِحةَ- أولئك لهم حالٌ طَيِّبةٌ، وحُسنُ مَرجِعٍ؛ وذلك بما ينالونَ مِن رِضوانِ اللهِ وكَرامتِه في الدُّنيا والآخرةِ، فلهم كَمالُ الخيرِ والطُّمَأنينةِ، والفَرَحِ والسُّرورِ، ولهم النَّعيمُ الدَّائمُ، ومِن جملةِ ذلك شَجرةُ طُوبَى التي في الجنَّةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٥)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥٧٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٧).

قال ابن القيم: (مِن أفضَلِ ذِكرِه: ذِكرُه بكَلامِه... ومِن ذِكرِه سُبحانه: دُعاؤُه واستغفارُه والتضَرُّع إليه). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٨).

قال الواحدي: (أكثرُ المفسِّرين على أنَّ «طوبى» اسمُ شجرةٍ في الجنةِ، وهو قولُ أبي هريرة، ومُغيثِ بنِ سُمَيٍّ، وشَهرِ بنِ حَوْشَبٍ، ومجاهد، ومقاتل، وابنِ عبَّاس في روايةِ الكلبيِّ وعطاءٍ. ورُوي ذلك عن رسُولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((الوسيط)) (٣/ ١٥).

قال النحَّاس: (قال ابنُ عبَّاسٍ وأبو أُمامة: طُوبى: شَجَرةٌ في الجنَّةِ، وكذلك قال عُبَيدُ بنُ عُمَير. وقال مجاهِدٌ: هي الجنَّةُ. وقال عِكرمةُ: أي: نِعْمَ ما لهم!. وقال إبراهيمُ: طُوبى: أي: خيرٌ وكَرامةٌ. وهذه الأقوالُ مُتَقارِبةٌ؛ لأنَّ طُوبى: فُعْلَى مِنَ الطِّيبِ، أي: مِنَ العَيشِ الطَّيِّبِ لهم، وهذه الأشياءُ تَرجِعُ إلى الشَّيءِ الطَّيِّبِ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٤٩٣).

كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وعن أبي سَعيد الخُدريِّ، عن رَسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أنَّ رَجُلًا قال له: يا رسولَ اللهِ، طوبى لِمَن رآك، وآمَنَ بك، قال: طوبى لِمَن رآني وآمَنَ بي، ثمَّ طوبى، ثمَّ طوبى، ثمَّ طوبى لِمَن آمنَ بي ولم يَرَني، قال له رجُلٌ: وما طُوبى؟ قال: شجَرةٌ في الجَنَّةِ مَسيرةَ مئةِ عامٍ، ثِيابُ أهلِ الجَنَّةِ تخرُجُ مِن أكمامِها[1]))[2].

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما حكَى الله عن الكافرينَ قولَهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ جاءَهم الجوابُ في هذه الآيةِ؛ لأنَّ الجوابَ السَّابِقَ بقَولِه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ جوابٌ بالإعراضِ عن جَهالتِهم، والتعَجُّبِ مِن ضَلالِهم، وما هنا هو الجوابُ الرَّادُّ لِقَولِهم[3].

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾.

أي: كما أرسَلْنا الأنبياءَ مِن قَبلِك بوَحيِنا، وأعطَيناهم كُتُبَنا -يا محمَّدُ- أرسَلْناك بهذا القُرآنِ إلى قومٍ قد مَضَت مِن قَبلِهم جماعاتٌ أرسَلْنا لهم رسُلًا،

وقال الرسعني: (قال ابنُ الأنباري: تأويلُها: الحالُ المستطابةُ. قلتُ: إلى هذا المعنى ترجِعُ أقوالُ المفسِّرين). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٨٢).

(١) الأكمامُ: جمع الكِمِّ: وهو وِعاءُ الطَّلعِ وغِطاءُ النَّوْرِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (١١٦٧٣)، وأبو يعلى في ((المسند)) (١٣٧٤)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٧٤١٣)، وابن أبي داود في ((البعث)) (٦٨)، وأصله في ((صحيح مسلم)) (٢٨٢٨).
حسَّنه ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (٤٧)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٣٩١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٩).

فلستَ ببِدْعٍ مِن الرُّسُلِ حتى يَستَنكِرَ قومُك رسالتَك، ويَطلُبوا منك آياتٍ مُقترَحةً لإثباتِها، ولك بهم أُسوةٌ حَسَنةٌ حين كَذَّبَتْهم أقوامُهم واستهزَأتْ بهم في عدَمِ الإجابةِ إلى آياتِهم المُقتَرَحةِ، فصبروا على ذلك، وكما أوقَعْنا بأسَنا بأولئك، فلْيحذَرْ قَومُك مِن حُلولِ العذابِ بهم[1].

كما قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ * أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [التوبة: ٦٩- ٧٠].

﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾.

أي: أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- إلى قَومِك لِتقرَأَ عليهم أعظَمَ الآياتِ والمُعجزاتِ، وهو القُرآنُ الذي لستَ تقولُه مِن تِلقاءِ نَفسِك، بل هو وحيٌ أوحاه اللهُ إليك ليَهتَدوا به، ولم نُرسِلْك لإجابةِ ما يقتَرِحونَ مِن الآياتِ؛ ليَحصُلَ لهم الاهتداءُ للحَقِّ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٩-٤٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٣٧-٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٠)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٣٨-٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٠).

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

أي: والحالُ أنَّ قومَك -يا محمَّدُ- يَجحَدونَ ويُكَذِّبونَ بوَحدانيَّةِ اللهِ، ويُنكِرونَ اسمَ اللهِ (الرَّحمن) فلم يُقابِلوا رَحمَتَه -التي أعظَمُها أنْ أرسَلْناك إليهم رَسولًا، وأنزَلْنا عليك القُرآنَ ليَهتَدوا به- بالقَبولِ والشُّكرِ والانقيادِ للحَقِّ، بل قابلوها بالإنكارِ والرَّدِّ، والاستمرارِ على الكُفرِ والشِّركِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠].

﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا تضَمَّنَ كُفرُهم بالرَّحمنِ كُفرَهم بالقُرآنِ ومَن أُنزِلَ عليه، وكان الكُفرُ بالمُنعِم في غايةِ القَباحةِ، كان كأنَّه قيل: فماذا أفعَلُ حينئذٍ أنا ومَنِ اتَّبَعني؟ فكان أنْ بدأَ جوابَهم عن الكفرِ بالموحِي؛ لأنَّه أهمُّ[2]، فقال:

﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: إنْ كفَرَ هؤلاء الذين أرسلتُك إليهم -يا مُحمَّدُ- بالرَّحمنِ، فقل لهم: الذي كفَرْتُم به أنا مُؤمِنٌ به، ومُقِرٌّ ومُعتَرِفٌ له بالربوبيَّةِ والألوهيَّةِ؛ فهو ربِّي الذي أوجَدَني وربَّاني بنِعَمِه، لا أكفُرُ إحسانَه كما كفَرْتُموه أنتم، وهو اللهُ الذي لا معبودَ بحَقٍّ سِواه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨).

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾.

أي: على اللهِ وَحدَه اعتمَدْتُ في جميعِ أموري، وإليه وحدَه مرجِعي وأَوْبَتي، فلا أرجعُ في جميعِ شُؤوني- مِن عباداتٍ وحاجاتٍ- إلَّا إليه[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ فالقُلوبُ حَقيقٌ بها وحَرِيٌّ ألَّا تطمَئِنَّ لشَيءٍ سِوى ذِكرِه؛ فإنَّه لا شيءَ أَلَذُّ للقُلوبِ ولا أشهَى ولا أحلَى مِن محبَّةِ خالِقِها، والأُنسِ به ومَعرفتِه، وعلى قَدرِ مَعرفتِها باللهِ ومَحبَّتِها له، يكونُ ذِكرُها له[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ ومِن ذِكرِ اللهِ: القُرآنُ؛ فالقُلوبُ حين تعرِفُ معانيَ القُرآنِ وأحكامَه تطمَئِنُّ لها؛ فإنَّها تدُلُّ على الحَقِّ المُبين المُؤَيَّدِ بالأدلَّةِ والبَراهين، وبذلك تطمئِنُّ القلوبُ، فإنَّها لا تطمئِنُّ القلوبُ إلَّا باليقينِ والعِلمِ، وذلك في كتابِ اللهِ مضمونٌ على أَتَمِّ الوُجوهِ وأكمَلِها، وأمَّا ما سواه من الكتُبِ التي لا تَرجِعُ إليه، فلا تطمئِنُّ بها، بل لا تزالُ قَلِقةً مِن تعارُضِ الأدلَّةِ، وتضادِّ الأحكامِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨).

ومِن المفسِّرين مَن حمَل (المتابَ) على العموم، أي: في الدُّنيا بالرجوعِ إليه والتوبةِ، وفي الآخرةِ بالمعادِ. وهو اختيارُ القرطبيِّ والبقاعي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلْقُلُوبُ ﴾، فيه سُؤالٌ: أليس أنَّه تعالى قال في سورةِ الأنفالِ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢]، والوَجَلُ ضِدُّ الاطمئنانِ، فكيف وصَفَهم هاهنا بالاطمِئنانِ؟

الجوابُ: أنَّ الطُّمَأنينةَ إنَّما تَعتري قُلوبَهم إذا سَمِعوا ذِكرَ اللهِ؛ لِمَا انشرَحَت له صدورُهم مِن مِعرفةِ الحَقِّ وتيقُّنِه، فقُلوبهُم مُطمَئِنَّةٌ غايةَ الطُّمَأنينةِ إلى مَعرفةِ الحَقِّ، عالِمونَ أنَّه حَقٌّ لا يُخالِجُهم شَكٌّ، ومع هذا يخافونَ مِنَ اللهِ ألَّا يتقَبَّلَ منهم أعمالَهم ونحوَ ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، ويَخافونَ الزَّيغَ والذَّهابَ عن الهُدى، كما قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[(١)] [آل عمران: ٨].

وأيضًا فالله تعالى إذا ذُكِرَ وَجِلَت القلوبُ، فحصَل لها اضطرابٌ ووجلٌ لما تخافُه مِن دونِه، وتخشاه مِن فواتِ نصيبِها منه، فالوجلُ إذا ذُكِر حاصلٌ بسببٍ مِن الإنسانِ، وإلَّا فنفسُ ذكرِ الله يُوجِبُ الطمأنينةَ؛ لأنَّه هو المعبودُ لذاتِه، والخيرُ كلُّه منه[(٢)].

٢- أخبَرَ الله تعالى أنَّ القُلوبَ تَطمَئِنُّ بالقرآنِ- أي: تَسكُنُ إليه مِن قَلَقِ الجَهلِ والرَّيبِ والشَّكِّ- كما يطمَئِنُّ القَلبُ إلى الصِّدقِ، ويَرتابُ بالكَذِبِ، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾، وجعلَ هذا من أعظَمِ الآياتِ على صِدقِه، وأنَّه حَقٌّ مِن عِندِه، ولهذا ذكَرَه جَوابًا لِقَولِ الكُفَّارِ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي: بكِتابِه

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٩)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٣٩-٤٠).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٧٨).

الذي أنزَلَه، وهو ذِكرُه وكلامُه، ولو كان في العَقلِ الصَّريحِ ما يُخالِفُه لم تطمَئِنَّ به قلوبُ العُقَلاءِ[١].

٣- الأصلُ في إزالةِ قَسوةِ القُلوبِ بالذِّكرِ قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ القُرآنَ هو مُعجِزتُه؛ لأنَّه ذَكَرَه في مُقابلةِ إرسالِ الرُّسُلِ الأوَّلينَ، ومُقابلةِ قَولِه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وقد جاء ذلك صريحًا في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما من الأنبياءِ نَبيٌّ إلَّا أُوتيَ مِن الآياتِ ما مِثلُه آمَنَ عليه البشَرُ، وإنَّما كان الذي أُوتيتُ وحيًا أوحاه اللهُ إليَّ))[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ اختيارُ اسمِ (الرَّحمن) مِن بينِ أسمائِه تعالى؛ لأنَّ كُفرَهم بهذا الاسمِ أشَدُّ؛ لأنَّهم أنكروا أن يكونَ اللهُ رَحمنَ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، فأشارتِ الآيةُ إلى كُفرَينِ مِن كُفرِهم: جَحدِ الوَحدانيَّةِ، وجَحدِ اسمِ الرَّحمن، ولأنَّ لهذه الصِّفةِ مَزيدَ اختصاصٍ بتكذيبِهم الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتأييدِه بالقرآنِ؛ لأنَّ القُرآنَ هُدًى ورحمةٌ للنَّاسِ، وقد أرادوا تعويضَه بالخوارِقِ التي لا تُكسِبُ

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١١٢٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٠).

والحديث أخرجه البخاري (٤٩٨١) واللفظ له، ومسلم (١٥٢).

هَديًا بذاتِها، ولكنَّها دالَّةٌ على صِدقِ مَن جاء بها[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مَن أنكرَ اسمًا مِن أسماءِ اللهِ الثَّابتةِ في الكتابِ أو السُّنَّةِ؛ فهو كافِرٌ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ...﴾ استئنافٌ اعتِراضيٌّ؛ مُناسبَتُه المُضادَّةُ لحالِ الَّذين أضَلَّهم اللهُ، والبيانُ لحالِ الَّذين هَداهُم، مع التَّنبيهِ على أنَّ مِثالَ الَّذين ضلُّوا هو عدَمُ اطمئنانِ قُلوبِهم لذِكْرِ اللهِ، وهو القُرآنُ؛ لأنَّ قولَهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يتضمَّنُ أنَّهم لم يعُدُّوا القُرآنَ آيةً مِن اللهِ، ثمَّ التَّصريحُ بجِنْسِ عاقبةِ هؤلاءِ، والتَّعريضُ بضدِّ ذلك لأولئك؛ فذِكْرُها عَقِبَ الجُملةِ السَّابقةِ يُفيدُ الغَرضَينِ، ويُشيرُ إلى السَّببينِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ العُدولُ إلى صِيغَةِ المُضارِعِ ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾؛ لإفادةِ دوامِ الاطمئنانِ وتجدُّدِه حسَبَ تجدُّدِ الآياتِ وتعدُّدِها[٤]، وهو فنٌّ رَفيعٌ مِن فُنونِ البَلاغةِ، حيثُ عدَلَ عن عطْفِ الماضي على الماضي؛ فلم يقُلْ: (واطمأنَّت قُلوبُهم)؛ لِسرٍّ دقيقٍ مِن أسرارِ هذه اللُّغةِ الشَّريفةِ؛ ذلك أنَّ مِن خَصائصِ الفعلِ المُضارِعِ: أنَّه قد لا يُلاحَظُ فيه زمانٌ مُعيَّنٌ مِن حالٍ أو استقبالٍ، وهما الزَّمانانِ اللَّذانِ يَحتمِلُهما المُضارِعُ؛ فلا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤١).
(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠).

يدلُّ إلَّا على مُجرَّدِ الاستمرارِ، والمُرادُ بهذه الآيةِ: أنَّ المُؤمنينَ تطمَئِنُّ قُلوبُهم بصُورةٍ مُطَّرِدةٍ مهما تتالَتِ المِحَنُ، وتعاقَبَتِ الأَرْزاءُ؛ فكأنَّما أعَدُّوا لكلِّ مِحْنةٍ صبرًا، ولكلِّ رُزْءٍ اطْمئنانًا جديدًا؛ فهذا سِرُّ عطْفِ المُضارِعِ ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ على الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾[1].

- قولُه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ افْتُتِحَتِ الجُملةُ بحرْفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾؛ اهتمامًا بمضْمونِها، وإغراءً بوعْدِه، وهي بمنزلةِ التَّذييلِ لِمَا في تَعريفِ (القُلوب) مِن التَّعميمِ، وفيه إثارةُ الباقينَ على الكُفرِ على أنْ يتَّسِموا بسِمةِ المُؤمنينَ مِن التَّدبرِ في القُرآنِ؛ لِتطمئنَّ قُلوبُهم[2].

- وتقديمُ المفعولِ يدلُّ على أنَّها لا تطمئِنُّ إلَّا بذكرِه[3].

٢- قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ جوابٌ رادٌّ لقولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ فيجوزُ جعْلُ هذه الجُملةِ مِن مقولِ القولِ في ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ...﴾، ويجوزُ جعْلُها مَقطوعةً عنها، وأيًّا ما كان فهي بمَنزلةِ البيانِ لجُملةِ القولِ كلِّها، أو البيانِ لجُملةِ المقولِ، وهو التَّعجُّبُ[4].

- في الافتِتاحِ باسمِ الإشارةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تأْكيدٌ للمُشارِ إليه، وهو التَّعجُّبُ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٨).
(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٧٨) .
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٩).

مِن ضلالتِهم؛ إذ عَمُوا عن صِفَةِ الرِّسالةِ، والمُشارُ إليه: الإرسالُ المأْخوذُ مِن فعْلِ ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، أي: مثْلَ الإرسالِ البيِّنِ أرسَلْناك، فالمُشبَّهُ به عينُ المُشبَّهِ، إشارةً إلى أنَّه لِوُضوحِه لا يُبيِّنُ ما وضَحَ مِن نفْسِه[١].

- قولُه: ﴿فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ فيه التَّعريضُ بالوعيدِ بمثْلِ مَصيرِ الأُمَمِ الخاليةِ الَّتي كذَّبَت رُسُلَها، وتضمَّنتْ لامُ التَّعليلِ في قولِه: ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ﴾ أنَّ الإرسالَ لأجلِ الإرشادِ والهدايةِ إلى ما أمَرَ اللهُ، لا لأجلِ الانتِصابِ لِخوارِقِ العاداتِ[٢].

- قولُه: ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ فيه تَقديمُ المجْرورِ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على المنْصوبِ ﴿ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ ...﴾، وهو مِن قَبيلِ: الإبهام ثمَّ البَيان، وفيه ما لا يَخْفَى مِن ترقُّبِ النَّفْسِ إلى ما سَيَرِدُ، وحُسْنِ قَبولِها له عند وُرودِه عليها[٣].

- قولُه: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فيه العُدولُ عنِ المُضْمَرِ (به) إلى المُظْهَرِ المُتعرِّضِ لِوصْفِ الرَّحمةِ ﴿بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإرسالَ ناشئٌ منها، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[٤] [الأنبياء: ١٠٧].

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ ﴿يَكۡفُرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ ذلك واستمرارِه[٥].

- وجُملةُ ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ نَتيجةٌ لِكونِه ربًّا واحدًا، أو كالنتيجةِ؛ لذلك فُصِلَتْ عنِ الَّتي قبلَها -أي: لم تُعْطَفْ عليها-؛ لِمَا بينهما مِن الاتِّصالِ، وتقديمُ المجْرورَيْنِ- وهما: ﴿عَلَيۡهِ﴾ و﴿إِلَيۡهِ﴾-؛ لإفادةِ اختِصاصِ التَّوكُّلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٠).

والمَتابِ بالكونِ عليه، أي: لا على غيرِه؛ لأنَّه لمَّا توحَّدَ بالرُّبوبيَّةِ كان التَّوكُّلُ عليه، ولمَّا اتَّصَفَ بالرَّحمانيَّةِ كان المَتابُ إليه؛ لأنَّ رَحمانيَّتَه مَظِنَّةٌ لِقَبولِه توبةَ عبْدِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٠).

الآيتان (٣١-٣٢)

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿يَايْـَٔسِ﴾: أي: يَعلَمْ ويتبيَّنْ، على إحدَى لغاتِ العربِ، وقِيل: هو مِن اليأسِ المعروفِ، أي: انتفاءِ الطمعِ، وقطعِ الرَّجاءِ[1].

﴿قَارِعَةٌ﴾: أي: داهيةٌ تَفجَؤُهم، وسُمِّيَت بذلك لأنَّها تَقرَعُ النَّاسَ، أي: تَضرِبُهم بشِدَّتِها، وأصلُ (قرع): يدلُّ على ضَربِ شَيءٍ[2].

﴿فَأَمْلَيْتُ﴾: أي: أمهلْتُ وأطلْتُ المُدَّةَ، والإملاءُ: الإمهالُ على جِهةِ الاستدراجِ، وهو مِن المُلاوةِ مِن الزَّمَنِ، وأصلُ (ملو): يدلُّ على امتدادٍ في شَيءٍ؛ زَمانٍ أو غيرِه[3].

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٣٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٥٣)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٤).

المعنى الإجماليُّ:

يردُّ اللهُ- تعالى- على الكافرينَ الذين طَلَبوا إنزالَ الآياتِ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيقولُ لهم: ولو أنَّ ثَمَّةَ كتابًا يُقرأُ، فتزولُ به الجِبالُ عن أماكِنِها، أو تتشَقَّقُ به الأرضُ أنهارًا، أو يحيا به الموتى ويُكَلَّمونَ- كما طَلَبوا منك- لكان هذا القُرآنُ المُوحَى إلى هذا النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هو المتَّصِفَ بذلك دونَ غَيرِه، بل لله وَحدَه الأمرُ كُلُّه، أفلَمْ يَعلَمِ المُؤمِنونَ أنَّ اللهَ لو يشاءُ لهدى النَّاسَ كُلَّهم إلى الإيمانِ به؟ ولا يزالُ الكُفَّارُ تنزِلُ بهم داهيةٌ تَفجَؤُهم وبلاءٌ وعذابٌ، أو يقَعُ ذلك قريبًا مِن ديارِهم، حتى يأتيَ وَعدُ اللهِ وهو موتُهم، أوْ قيامُ السَّاعةِ عليهم، إنَّ اللهَ لا يُخلِفُ الميعادَ.

ولقد استهزأَ الكُفَّارُ برُسُلِي الذين أرسَلْتُهم مِن قَبلِك؛ فأمهلْتُ الذين كَفَروا، مُدَّةً، ثمَّ أحللْتُ عليهم عذابي، فلسْتَ أوَّلَ رَسولٍ كُذِّبَ وعُوديَ، فاصبِرْ على أذاهم.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لمَّا ذكَرَ تعالى عِلَّةَ إرسالِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وهي تلاوةُ ما أوحاه إليه؛ ذكَرَ تعظيمَ هذا المُوحَى، وأنَّه لو كان قُرآنًا تُسَيَّرُ به الجبالُ عن مقارِّها، أو تُقَطَّعُ به الأرضُ حتَّى تتزايَلَ قِطَعًا قِطَعًا، أو تُكُلِّمَ به الموتى فتسمَعُ وتُجيبُ، لكان هذا

القُرآنُ؛ لِكونِه غايةً في التَّذكيرِ، ونهايةً في الإنذارِ والتَّخويفِ[١].

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أي: ولو أنَّ كِتابًا مِن الكُتُبِ السَّابِقةِ -التي أنزَلَها اللهُ على رُسُلِه[٢]- اشتمَلَ على ما هو أكثَرُ مِن الهدايةِ، فكان مصدرًا لإيجادِ العَجائِبِ المَحسوسةِ، بحيث يُقرأُ على الجِبالِ فتَتَزحزَحُ عن أماكِنِها، أو على الأرضِ فتتصَدَّعُ وتنشَقُّ[٣]، أو على الموتَى في قُبورِهم فيَسمعونَ الكلامَ ويُجيبونَه- لكان هذا القُرآنُ المُوحَى إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو المتَّصفَ بذلك دونَ غَيرِه مِن الكتُبِ، أو هو أَولى منها بذلك، فكيفَ تَقتَرِحونَ آيةً غَيرَه؟ ثمَّ إنَّه لم يكُنْ ثمَّ كتابٌ إلهيٌّ كذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨٨).

(٢) قال ابن كثير: (قد يُطلق اسمُ القرآنِ على كلٍّ مِن الكتبِ المتقدمةِ؛ لأنَّه مشتقٌّ مِن الجمعِ... قال رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: «خفِّفت على داودَ القراءةُ، فكان يأمرُ بدابتِه أن تسرجَ، فكان يقرأ القرآنَ مِن قبلَ أن تسرجَ دابتُه، وكان لا يأكلُ إلا مِن عملِ يديه». انفَرد بإخراجِه البخاريُّ. والمرادُ بالقرآنِ هنا الزبورُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦١).

(٣) وممن اختار هذا المعنى المذكور لقولِه تعالى: ﴿قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾: الزمخشري، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٣).

وقيل: المرادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾: أي شُقِّقَت إلى أنهارٍ وعُيونٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عبدُ الله بنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٢).

وقيل: المرادُ قَطعُها بالسَّيرِ ومُجاوزتُها، فتُصبِحُ المسافةُ البعيدةُ قريبةً. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٩)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٣).

وممن قال به مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، والضحاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٤٠)،

كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٨٩ - ٩٣].

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.

أي: ليس ذلك من شأنِ الكُتُبِ الإلهيَّةِ؛ فذلك كُلُّه إلى اللهِ، وبِيَدِه وَحدَه، فمَرجِعُ الأمورِ كلِّها إليه، ما شاء كان، وما لم يشأْ لم يكُنْ، يهدي من يشاءُ، ويُضِلُّ من يشاءُ، ويأتي بالآياتِ التي تَقتَضيها حِكمتُه؛ فهو الذي أنزل الكِتابَ، وهو الذي يخلقُ العجائِبَ إن شاء، وليس ذلك إلى غيرِه[1].

((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٣).

قال الرسعني: (واختُلف في جوابِ «لو» فقال الأكثرونَ: هو مضمرٌ، تقديرُه: لكان هذا القرآنَ؛ لعظمتِه وكرامتِه... وقيل: التقديرُ: لو أنَّ قرآنًا كان بهذه المثابةِ لما آمنوا به؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ [الأنعام: ١١١]). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٨٦).

وممن اختار القول الثاني: الزجاج، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي ((ص: ٥٧٢).

قال الشنقيطي: (وقال بعضُهم: تقديرُه: لكفرتُم بالرحمنِ، ويدلُّ لهذا الأخيرِ قولُه قبلَه: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [١٣/ ٣٠]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٤).

﴿أَفَلَمْ يَايْئَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

أي: أفلَم يعلَمِ المؤمنونَ أنْ لو يشاءُ اللهُ لهدَى النَّاسَ كُلَّهم إلى الإيمانِ به مِن غيرِ إيجادِ آيةٍ؟ فاللهُ تعالى قادرٌ على هدايتِهم جميعًا، ولكنَّه لا يشاءُ ذلك، فالهدايةُ والإضلالُ بِيَدِه وَحدَه؛ يهدي مَن يشاءُ بغيرِ إنزالِ آيةٍ، ويُضِلُّ مَن يشاءُ معَ إنزالِها[1].

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَايْئَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ وعلِمَ المؤمنون أنَّ بَعضَ هؤلاء الكفار لا يؤمِنُ، ضاقت صدورُهم لذلك؛ لِما يُعاينونَه مِن أذى هؤلاء الكُفَّار، فأتبَعَه ما يُسَلِّيهم، فقال تعالى[2]:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٧ - ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣٠/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨).
قال ابنُ جرير: (والصوابُ مِن القولِ في ذلك ما قاله أهلُ التأويلِ: إنَّ تأويلَ ذلك: أفلمْ يتبيَّنْ ويعلَمْ؛ لإجماعِ أهلِ التأويلِ على ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٨).
قال الرازي: (﴿يَايْئَسِ﴾ يَعلَمْ، في لغةِ النَّخَعِ، وهذا قولُ أكثرِ المفَسِّرين، مثلَ مجاهدٍ، والحسنِ وقتادةَ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٢).
وقال البقاعي: (والعلمُ بالشَّيءِ يوجِبُ اليأسَ مِن خلافه... فقد وضح أنَّ ﴿يَايْئَسِ﴾ على بابِها). ((نظم الدرر)) (١٠/ ٣٤٣-٣٤٤).
قال ابن عطية: (ويحتملُ أن يكونَ اليَأسُ في هذه الآيةِ على بابِه؛ وذلك أنَّه لَمَّا أبعَدَ إيمانَهم في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا ...﴾ الآية -على التأويلَينِ في المحذوفِ المقَدَّرِ- قال في هذه الآيةِ: أفلم يَيئَسِ المؤمِنونَ مِن إيمانِ هؤلاء الكَفَرةِ، علمًا منهم أنْ لو يشاءُ اللهُ لهدى النَّاسَ جميعًا). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٤٤-٣٤٥).

أي: ولا يزالُ الكفارُ تصيبُهم بسبَبِ ما صنعوا مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ؛ داهيةٌ تَفجَؤُهم، ونازلةٌ شديدةٌ تنزِلُ بهم، وبلاءٌ وعذابٌ(١).

﴿أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾.

أي: أو تقَعُ هذه القارعةُ قريبًا مِن ديارِهم؛ فيَفْزَعونَ منها، ويُصيبُهم الخوفُ مِن تَجاوُزِها إليهم، وهم مُصِرُّون على كفرِهم(٢).

﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٩)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٢).

وقيل: ﴿قَارِعَةٞ﴾ أي: سَرايا رسولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٥٨).

وممن اختار هذا المعنى: ابنُ أبي زمنين، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٦).

وممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾ أي: القارعةُ: أبو حيان، وابنُ كثيرٍ، والبقاعي، والشوكانيُّ، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشورٍ، لكنه جوَّز القول الثاني، وستأتي الإشارةُ إليه. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٦-١٤٧).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٧).

وقيل: المعنى: أو تحلُّ أنت -يا محمَّدُ- مع جُندِك قريبًا مِن بلادِهم، وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٧٢)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٤٩٥).

وممن قال بهذا القول من السلف: ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وعبد الله بن أبي نجيح، وسعيد ابن جبير، وقتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٧).

أي: حتى يأتيَ وعدُ اللهِ وهو موتُهم، أوْ قيامُ السَّاعةِ عليهم، فإذا جاءَ وعدُ اللَّهِ المحتومُ حَلَّ بهم مِنْ عذابِه ما هو الغايةُ في الشِّدَّةِ(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يَنقُضُ وعدَه، وكلُّ ما وعَدَ اللهُ به فهو كائِنٌ لا محالةَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير القنوجي)) (٧/ ٦٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بـ ﴿وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ هو موتُهم أو يوم القيامةِ: الزمخشري، وأبو حيَّان، والشوكاني، والقنوجي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير القنوجي)) (٧/ ٦٠).

وقيل: المرادُ به: يومُ القيامةِ. وممن قال بذلك: الواحديُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٧٢).

وممن قال به مِن السلفِ: الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٤).

وقيل: إنَّ المرادَ بـ ﴿وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ هنا: فتحُ مكة. وممن اختاره: ابنُ جرير، وابنُ أبي زمنين، والرسعني، والقرطبي، والعليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٥٦)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢١)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٨٥).

وممن قال به مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٠)، فما بعدها.

قال ابنُ عاشور: (و ﴿وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ مِن إطلاقِ المصدَرِ على المفعولِ، أي: موعودُ اللهِ، وهو ما توعَّدَهم به منَ العذابِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢]، فأشارت الآيةُ إلى استِئصالِهم؛ لأنَّها ذَكَرَت الغَلَبَ ودُخولَ جَهنَّمَ، فكان المعنى أنَّه غَلَبُ القَتلِ بسُيوفِ المُسلِمينَ، وهو البَطشةُ الكبرى. ومِن ذلك يومُ بَدرٍ، ويَومُ حُنَينٍ، ويَومُ الفتحِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٧).

قال البقاعي: (﴿حَتَّىٰٓ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ أي الملكُ الأعظمُ بفتحِ مكةَ، أو بالنصرِ على جميعِ الكفرةِ في زمنِ عيسَى عليه السلامُ، فينقطعُ ذلك؛ لأنَّه لا يُبقي على الأرضِ كافرًا، وفي غيرِ ذلك مِن الأزمانِ كزمنِ فتحِ مكةَ المشرفةِ، فيكونُ المعنى خاصًّا بالبعضِ). ((نظم الدرر)) (١٠/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠١).

[الروم: ٦].

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

لَمَّا طلَبَ المُشرِكونَ سائرَ المُعجِزاتِ مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على سبيلِ الاستِهزاءِ والسُّخريةِ، وكان ذلك يشُقُّ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكان يتأذَّى مِن تلك الكَلِماتِ؛ فاللهُ تعالى أنزل هذه الآيةَ تَسليةً له وتَصبيرًا له على سفاهةِ قَومِه، فقال له[1]:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾.

أي: إنْ يَستهزِئْ بك هؤلاءِ المُشرِكونَ مِن قَومِك -يا مُحمَّدُ-، فاصبِرْ على أذاهم، فلسْتَ أوَّلَ رَسولٍ كُذِّبَ وعُوديَ؛ فقد استهزأَ الكُفَّارُ برُسُلِي الذين أرسَلْتُهم مِن قَبلِك، فأمهلتُ أولئك الكُفَّارَ مُدَّةً، ثمَّ أحللْتُ عليهم عذابي حين أصَرُّوا على كُفرِهم وتَكذيبِهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨).

قال ابنُ عاشور: (قد استهزأ قومُ نوحٍ به عليه السَّلامُ: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨]، واستهزأت عادٌ بهودٍ عليه السلام: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، واستهزأت ثمودُ بصالحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، واستهزؤوا بشُعَيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، واستهزأ فرعونُ بموسى عليه السَّلامُ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٨).

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

أي: فانظُرْ -يا مُحمَّدُ- كيف كان عقابي الشَّديدُ لأولئك الكافرينَ، ألمْ أُذِقْهم أليمَ العَذابِ، وأَجعَلْهم عِبرةً وعِظةً؟ فلْيعتَبِرْ كُفَّارُ قَومِك بذلك، ولْيَحذَروا مِن نِقمَتي وعذابي، ولا يغتَرُّوا بإمهالي لهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

وقال سُبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَٰرًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢١-٢٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- حُذِفت التاءُ في قولِ الله تعالى: ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وثبتَتْ في الفعلينِ قبلَه؛ لأنَّه مِن بابِ التغليبِ؛ لأنَّ الموتَى تشملُ المذكَّر والمؤنَّث[(٢)].

٢- في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ سُبحانه إذا أضلَّ عبدًا، لم يكُنْ لأحدٍ سبيلٌ إلى هدايتِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٨١).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ...﴾ جوابُ (لو) محذوفٌ، وتقديرُه: لكان هذا القرآنَ. وقيل: تقديرُه: لكفرتُم بالرحمنِ، وحُذِف لدَلالةِ المَقام عليه، والمُرادُ منه تعظيمُ شأْنِ القُرآنِ، أو المُبالَغَةُ في عِنادِ الكفَرَةِ وتَصميمِهم، كما يقولُ الرَّجلُ لِغُلامِه: لو أنِّي قُمْتُ إليك! ويترُكُ الجوابَ، ويُفيدُ ذلك أيضًا معنًى تعْريضيًّا بالنِّداءِ عليهم بنِهايةِ ضلالتِهم؛ إذ لم يهتَدوا بهَدْيِ القُرآنِ ودَلائلِه[١]، فحُذِفَ جَوابُ (لو)؛ ليكونَ أبلَغَ في العبارةِ، وأعَمَّ في الفائدةِ[٢]. وحذْفُ جوابِ (لو) شائِعٌ في كلامِ العرَبِ، وهو هنا في هذه الآيةِ إيجازٌ عجيبٌ، حيثُ اشتَمَل هذا اللَّفظُ القليلُ على المعاني الكثيرةِ[٣].

- قولُه: ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فيه تقديمُ المجْرورِ ﴿بِهِ﴾ في المواضِعِ الثَّلاثةِ على المرفوعِ (الْجِبالُ- الْأَرْضُ- الْمَوْتَى)؛ لِقصْدِ الإبهامِ ثمَّ التَّفسيرِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ؛ لأنَّ بتقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ تبْقَى النَّفْسُ مُستشرِفَةً ومُترقِّبَةً إلى المُؤَخَّرِ أنَّه ماذا؛ فيتمكَّنُ عند وُرودِه عليها فَضلَ تمكُّنٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (٣/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ٧٥٠).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٢٤- ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢).

- قولُه: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا﴾ إضرابٌ عمَّا تَضمَّنَتْه (لَوْ) مِن معنى النَّفيِ؛ فجُملةُ ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا﴾ عطْفٌ على ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانًا﴾ بحرْفِ الإضرابِ، أي: ليس ذلك مِن شأْنِ الكُتُبِ، بل للهِ الأمْرُ جميعًا؛ فهو الَّذي أنزَلَ الكِتابَ، وهو الَّذي يخلُقُ العَجائبَ إنْ شاء، وليس ذلك إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا عند سُؤالِكم، فأمَرَ اللهُ نَبيَّه بأنْ يقولَ هذا الكلامَ إجراءً لكلامِهم على خِلافِ مُرادِهم على طريقةِ الأسلوبِ الحَكيمِ؛ لأنَّهم ما أرادوا بما قالوه إلَّا التَّهكُّمَ، فحُمِلَ كلامُهم على خِلافِ مُرادِهم؛ تنبيهًا على أنَّ الأَولى بهم أنْ ينْظروا: هل كان في الكُتُبِ السَّابقةِ قُرآنٌ يتأَتَّى به مثْلُ ما سأَلوه، وقد أفادَتِ الجُملتانِ- المعطوفةُ والمعطوفةُ عليها- معنى القصْرِ؛ لأنَّ العطْفَ بـ (بَلْ) مِن طُرُقِ القصْرِ؛ فاللَّامُ في قولِه: ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ للاستغراقِ، و﴿جَمِيعًا﴾ تأْكيدٌ له، وتقديمُ المجْرورِ على المبتدأِ؛ لِمُجرَّدِ الاهتمامِ؛ لأنَّ القصْرَ أُفِيدَ بـ (بَلْ) العاطفةِ[1].

- قولُه: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ؛ إنكارًا لانتِفاءِ يأْسِ الَّذين آمنوا، أي: فهم حَقيقونَ بزَوالِ يأْسِهم، وأنْ يعلَموا أنْ لو يشاء اللهُ لَهَدى النَّاسَ جميعًا- وذلك على أحدِ القولينِ في التفسيرِ-، وفي هذا الكلامِ زِيادةُ تَقريرٍ لِمضمونِ جُملةِ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾[2].

- قولُه: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ﴾، أي: أفلم يُوقِنْ ويعلَمْ؛ قيل: إنَّما اسْتُعْمِلَ اليأْسُ بمعنى العِلْمِ؛ لِتضمُّنِه معناه؛ لأنَّ اليائسَ عنِ الشَّيءِ عالِمٌ بأنَّه لا يكونُ، كما

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٤).

اسْتُعْمِلَ الرَّجاءُ في معنى الخوفِ، والنِّسيانُ في معنى التَّرْكِ؛ لِتضمُّنِ ذلك[١].

- قولُه: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾، أي: بسبَبِ ما صَنَعوه مِن الكُفرِ والتَّمادي فيه، وأبْهَمَ ما صنَعوا ولم يُبيِّنْه؛ للقصْدِ إلى تَهْويلِه أو استهجانِه، وهو تَصريحٌ بما أشعَرَ به بِناءُ الحُكمِ على الموصولِ مِن عِلِّيَّةِ الصِّلةِ له، مع ما في صِيغَةِ الصُّنْعِ مِن الإيذانِ برُسوخِهم في ذلك[٢].

- قولُه: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمۡ﴾ شُبِّهَتِ القارعةُ بالعَدُوِّ المُتوجِّهِ إليهم، فأُسْنِدَ إليها الإصابةُ تارةً، والحُلولُ أُخْرى[٣].

- قولُه: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ ﴿بِمَا صَنَعُواْ﴾ على الفاعلِ ﴿قَارِعَةٌ﴾، وهو مِن إرادةِ التَّفسيرِ إثرَ الإبهامِ؛ لِزيادةِ التَّقريرِ والإحكامِ، مع ما فيه مِن بيانِ أنَّ مَدارَ الإصابةِ مِن جِهَتِهم آثِرَ ذي أَثيرٍ[٤].

- وجُملةُ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانًا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾، وهي تَهديدٌ بالوَعيدِ على تعنُّتِهم، وإصرارِهم على عدَمِ الاعترافِ بِمُعجزةِ القُرآنِ، وتهكُّمِهم باستِعجالِ العذابِ الَّذي تُوُعِّدُوا به؛ فهُدِّدُوا بما سيحُلُّ بهم مِن الخوفِ بحُلولِ الكتائبِ والسَّرايا بهم تنالُ الَّذين حلَّتْ فيهم، وتَخويفِ مَن حولَهم، حتَّى يأتِيَ وعْدُ اللهِ بيومِ بَدرٍ أو فتْحِ مكَّةَ[٥]، وذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
آثِرَ ذي أثيرٍ: أي: أوَّلَ كُلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٥٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٥).

على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

- واستعمالُ ﴿وَلَا يَزَالُ﴾ في أصلِها تدلُّ على الإخبارِ باستِمرارِ شيءٍ واقِعٍ؛ فإذا كانت هذه الآيةُ مكِّيَّةً، تَعيَّنَ أنْ تكونَ نزَلَت عند وُقوعِ بعضِ الحَوادِثِ المُؤلِمةِ بقُريشٍ مِن جُوعٍ أو مرَضٍ؛ فتكونُ هذه الآيةُ تَنبيهًا لهم بأنَّ ذلك عِقابٌ مِن اللهِ تعالى، ووعيدٌ بأنَّ ذلك دائمٌ فيهم حتَّى يأتِيَ وعْدُ اللهِ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾؛ إيذانًا بأنَّ إتيانَ الوعْدِ المُغَيَّا به مُحَقَّقٌ، وأنَّ الغايةَ به غايةٌ بأَمْرٍ قَريبِ الوُقوعِ، والتَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ مُراعاةً لإنكارِ المُشركينَ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فيه وعيدٌ لهم، وجوابٌ عنِ اقتِراحِهم الآياتِ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على سبيلِ الاستهزاءِ، وتَسليةً له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

- والاستهزاءُ: مُبالَغَةٌ في الهزْءِ، مثلَ الاستسخارِ في السُّخريةِ[٤].

- قولُه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ استفهامٌ معناه التَّعجُّبُ بما حلَّ، وفي ضمْنِه وعيدُ مُعاصِري الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الكُفَّارِ؛ فالكلامُ تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُؤمنينَ، ووعيدٌ للمُشركينَ[٥]. وفي التَّعبيرِ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٨).

عنِ العِقابِ بقولِه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ دَلالةٌ ظاهرةٌ على تناهي كيفيَّةِ هذا العِقابِ في الشِّدَّةِ والفَظاعةِ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، وفي سُورةِ الحجِّ: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤]؛ فعقَّبَ الأُولى بقولِه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، والثَّانيةَ بقولِه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، مع تَساوي الآيتَينِ في مَقصودِ الوعيدِ لِمُكذِّبي الرُّسلِ عليهم السَّلامُ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ العِقابَ أشدُّ موقِعًا مِن النَّكيرِ؛ لأنَّ الإنكارَ يقَعُ على ما لا عِقابَ فيه بالفعْلِ، وعلى ما فيه العِقابُ بالفعْلِ، وأمَّا مُسمَّى العِقابِ فإنَّما يُرادُ به في الغالِبِ أخْذٌ بعَذابٍ مُناسِبٍ لِحالِ المُجْرِم، إثْرَ مَعصيَتِه، وعَقِيبَ جريمتِه، وقد تقدَّمَ في آيةِ الرَّعدِ قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الرعد: ٣٢]، والاستهزاءُ أمْرٌ مُرْتكبٌ زائدٌ على التَّكذيبِ مِن التَّهاوُنِ، والاستِخفافُ بِجريمةٍ مُرْتكبةٍ أشنَعُ جريمةً، فناسَبَها الإفصاحُ بالعِقابِ. أمَّا آيةُ الحجِّ فإنَّ الوعيدَ بها للمَذْكورينَ بالتَّكذيبِ ولم يذْكُرْ منهم استهزاءً، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ [الحج: ٤٢-٤٤]؛ فلم يُخبِرْ عن هؤلاءِ بغيرِ التَّكذيبِ، وليس كالاستهزاءِ؛ فقد يُؤْمِنُ المُكذِّبُ ويَصلُحُ حالُه، أمَّا المُستهزِئُ فلا يَصلُحُ، وقد كفَى اللهُ نَبيَّه إيَّاهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]؛ فناسَبَ النَّظمَ تَعْقيبُ كلِّ آيةٍ بما يُناسِبُ مُرْتكِبَ مَن قُدِّمَ، ولم يكُنْ عكْسُ الوارِدِ لِيُناسِبَ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٨١-٢٨٢).

الآيتان (٢٢-٢٤)

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

تُبيِّنُ لنا الآياتُ الكريمةُ لونًا مِن الحِجَاجِ مع المُشركينَ، يتضَمَّنُ توبيخًا لهم، وتعجيبًا مِن عُقولِهم، فيقولُ سُبحانه: أفمَن هو قائِمٌ على شُؤونِ جَميعِ العِبادِ- مِن أرزاقٍ وغيرِها- رقيبٌ على ما يَكسِبونَه مِن أعمالٍ، حافِظٌ لها، ومُجازٍ عليها، كمَن ليس كذلك مِن هذه الأصنامِ؟!

وجَعَلوا لله شُرَكاءَ مِن خَلْقِه يَعبُدونَهم، قلْ لهم- يا محمدُ: سمُّوهم بالأسماءِ التي يستحقُّونَها ما دُمتُم جعَلْتموهم شركاءَ لله، ولن يَجِدوا ما يَجعَلُهم أهلًا للعبادةِ، أم تُخبِرونَ اللهَ بشُرَكاءَ في أرضِه لا يعلَمُهم، أم تُسَمُّونَهم شُرَكاءَ بظاهرٍ مِن اللَّفظِ مِن غيرِ أن يكونَ لهم حقيقةٌ! بل حُسِّنَ للكُفَّارِ قَولُهم الباطِلُ، وصُرِفوا عن سبيلِ الله. ومَن يُضِلَّه الله فلا أحدَ يهديه، ويأخذُ بيدِه إلى الحَقِّ والرَّشادِ، ولهؤلاء الكُفَّارِ عذابٌ في الحياةِ الدُّنيا بالقتلِ والأسرِ والخِزي والمصائبِ والآفاتِ، ولَعذابُهم في الآخرةِ أغلظُ وأشَدُّ، وليس لهم من أحدٍ يَمنَعُهم مِن عذابِ اللهِ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ

ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها تفريعٌ على مجموعِ قَولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الرعد: ٣٠]، أي: أنَّ كُفرَهم بالرَّحمنِ وإيمانَك بأنَّه ربُّك المقصورةُ عليه الرُّبوبيَّةُ، يتفرَّعُ على مجموعِ ذلك استفهامُهم استفهامَ إنكارٍ عليهم تسويتَهم مَن هو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بمن ليس مِثلَه مَن جعلوهم له شرُكاءَ[١].

وأيضًا: لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الوعيدَ للكافرينَ، والجوابَ عن اقتراحِهم الآياتِ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ أورد تعالى على المُشرِكينَ ما يجري مَجرى الحِجاجِ، وما يكونُ توبيخًا لهم وتَعجيبًا مِن عُقولِهم[٢]، فقال:

﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾.

أي: أفاللهُ القائِمُ على شُؤونِ جَميعِ عِبادِه -ومِن ذلك أرزاقُهم- العالِمُ بهم وبأحوالِهم، الرَّقيبُ على ما يَكسِبونَه مِن أعمالٍ، الحافِظُ لها، والمُجازي عليها خيرًا وشَرًّا، كمَن ليس بهذه الصِّفةِ مِن الأصنامِ التي لا تسمَعُ ولا تُبصِرُ، ولا تنفَعُ ولا تضُرُّ؟! كلَّا، ليس الأمرُ كذلك[٣].

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۗ﴾.

أي: اللهُ هو القائِمُ بأرزاقِ هؤلاء المُشرِكينَ، والمدبِّرُ لأمورِهم، والرَّقيبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٩٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٠).
قال السمعاني: (أكثرُ المفسِّرين أنَّ قولَه: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ هُوَ الله). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٩٦).

الحافِظُ عليهم أعمالَهم، ومع ذلك جعلوا لله شُرَكاءَ مِن خَلقِه يَعبدونَهم معه! قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك الكُفَّارِ: سَمُّوا هؤلاء الذين أشَركتُموهم في عبادةِ اللهِ بالأسماءِ التي يستحِقُّونَها: هل هي خالقةٌ رازقةٌ، محييةٌ مميتةٌ، أم هي مخلوقةٌ، لا تملكُ ضرًّا ولا نفعًا؟ فإذا سمَّوْها فوصَفوها بما تستحِقُّه مِن الصفاتِ، تبيَّنَ ضلالُهم، فما يسمُّونَهم إلا بما يعلمون أنَّ تلك الأسماءَ لهم حقيقةٌ، كحجرٍ وخشبٍ وكوكبٍ وأمثالِها[1].

قال تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٥٤) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥١، ١٥٢).

قال ابنُ تيمية: (إذا جعلتُم أولئك شركاءَ فسمُّوهم إذًا بالأسماءِ التي يسمَّى بها القائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ، فإنَّه سبحانَه يسمَّى بالحيِّ القيومِ، المحيي المميتِ، السميعِ البصيرِ، الغنيِّ عما سواه، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، ووجودُ كلِّ شيءٍ به، فهل تستحِقُّ آلهتُكم اسمًا مِن تلك الأسماءِ؟ فإن كانت آلهةً حقًّا فسمُّوها باسمٍ مِن هذه الأسماءِ؛ وذلك بهتٌ بيِّنٌ؛ فإذا انتفَى عنها ذلك عُلِم بطلانُها، كما عُلِم بطلانُ مسمَّاها. وأمَّا إن سمَّوها بأسمائِها الصادقةِ عليها كالحجارةِ وغيرِها مِن مسمَّى الجماداتِ وأسماءِ الحيوانِ التي عبدوها مِن دونِ الله كالبقرِ وغيرِها، وبأسماءِ الشياطينِ الذين أشركوهم مع الله جلَّ وعلا، وبأسماءِ الكواكبِ المسخراتِ تحتَ أوامرِ الربِّ، والأسماءُ الشاملةُ لجميعِها أسماءُ المخلوقاتِ المحتاجاتِ المدبراتِ المقهوراتِ. وكذلك بنو آدمَ عبادةُ بعضِهم بعضًا، فهذه أسماؤُها الحقُّ، وهي تبطلُ إلهيتَها؛ لأنَّ الأسماءَ التي مِن لوازمِ الإلهيةِ مستحيلةٌ عليها؛ فظهَر أن تسميتَها آلهةً مِن أكبرِ الأدلةِ على بطلانِ إلهيتِها، وامتناعِ كونِها شركاءَ لله عزَّ وجلَّ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٩٧).

وقال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ ليس يريدُ بهذا أن يَذكُروا أسماءَهم التي جعَلوها لهم كاللَّاتِ والعُزَّى؛ لأنَّه لا يكونُ في هذا احتِجاجٌ عليهم، ولكِنَّ المعنى: سَمُّوهم بما يَستَحِقُّونَ مِن الأسماءِ التي هي صِفاتٌ، ثمَّ انظُروا هل تدُلُّ صِفاتُهم على أنَّه يجوزُ أن يُعبَدوا أم لا؟ وهذا تنبيهٌ على أنَّهم مُبطِلونَ؛ لأنَّ المعنى يَؤُولُ إلى أنَّ الصَّنَمَ لو كان إلهًا لتُصُوِّرَ منه أن يَخلُقَ ويَرزُقَ ويُحيِيَ ويُميتَ، ولحَسُنَ حينئذٍ أن يُسمَّى بالخالِقِ والرَّازِقِ، فكأنَّ الله تعالى قال: قُلْ سَمُّوهم بإضافةِ أفعالِهم إليهم إن كانوا شُرَكاءَ لله تعالى، كما يضافُ إلى الله تعالى أفعالُه بالأسماءِ الحُسنى). ((البسيط)) (١٢/ ٣٥٩).

أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال سُبحانه: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: أم الأمرُ -أيُّها المُشرِكونَ- أنَّكم تُخبِرونَ اللهَ بأنَّ معه شُركاءَ في الأرضِ، وهو لا يعلَمُ بذلك؟! وما لا يعلَمُ عالِمُ الغَيبِ والشهادةِ أنَّه موجودٌ، فباطِلٌ، ولو كان موجودًا لعَلِمَه[1].

﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾.

أي: أم الأمرُ أنَّكم ادَّعيتُم لله شُرَكاءَ بمُجَرَّد ظواهِرِ أقوالِكم التي لا حقيقةَ لها، وإنَّما هي ظَنٌّ وكَذِبٌ، وباطِلٌ[2].

﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ ﴾.

أي: ليس لله شَريكٌ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، ولكِنْ زُيِّنَ[3] للمُشرِكينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

(٣) قال الشوكاني: (وقرأ ابنُ عباس «زَيَّنَ» على البناء للفاعل، على أنَّ الذي زيَّنَ لهم ذلك هو مكرُهم. وقرأ مَن عداه بالبناءِ للمفعولِ، والمُزَيِّنُ هو اللهُ سبحانه، أو الشَّيطانُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٢).

وممَّن نصَّ على أنَّ المزَيِّنَ هو اللهُ عزَّ وجلَّ: ابنُ عطية، والرازي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٤)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٣).

وممن قال بأن المزينَ هنا هو الشيطانُ: الواحدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٧٣).

وممن قال مِن السلفِ بذلك: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٧).

كُفرُهم وشِركُهم وكَذِبُهم على اللهِ[١].

﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿وَصُدُّواْ﴾ بضمِّ الصادِ على ما لم يسَمَّ فاعِلُه، أي: أُضِلُّوا عن الإيمانِ، قيل: صَدَّهم اللهُ عن اتِّباعِ سَبيلِه؛ لكُفرِهم به، وقيل: صَدَّهم الشَّيطانُ بتَزيينِه[٢].

٢- قراءةُ ﴿وَصَدُّوا﴾ بفتح الصادِ، بإسنادِ الفعل إلى الفاعلِ، أي: صَدُّوا بأنفُسِهم وأعرَضوا عن الإيمانِ، وقيل: صَدُّوا غيرَهم عن الإيمانِ فأضلُّوهم، وقيل: إنَّهم لمَّا زُيِّنَ لهم ما هم فيه وأنَّه حقٌّ، دَعَوا إليه وصَدُّوا النَّاسَ عن اتِّباعِ طريقِ الرُّسلِ[٣].

﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وصُرِفوا -لكُفرِهم بالله- عن طريقِ الإيمانِ المُستقيمِ المُوصِل إليه وإلى دارِ كرامتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).
قال ابن عطية: (﴿مَكْرُهُمْ﴾: لفظٌ يعُمُّ أقوالَهم وأفعالَهم التي كانت بسبيلِ مُناقضةِ الشَّرعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٤).

(٢) قرأ بها عاصمٌ وحمزةُ والكسائي ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٥٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٢).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٥٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٤).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۞ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٩، ١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

أي: ومَن يُضِلَّه اللهُ عن طريقِ الحَقِّ، ويَخذُلْه عن اتِّباعِه، فلا أحدَ يُوفِّقُه إلى الخيرِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

وقال سُبحانه: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن الكافرينَ بتلك الأمورِ المذكورةِ؛ بيَّنَ أنَّه جمعَ لهم بين عذابِ الدُّنيا، وبين عذابِ الآخرةِ الذي هو أشَقُّ، وأنَّه لا دافِعَ لهم عنه لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[(٢)].

وأيضًا فإنَّها استئنافٌ بيانيٌّ نشأ عن قَولِه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٦).

هذا التَّهديدَ يُومئُ إلى وعيدٍ يسألُ عنه السَّامِعُ، وفيه تكمِلةٌ للوعيدِ المتقَدِّمِ في قولِه: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ مع زيادةِ الوعيدِ بما بعدَ ذلك في الدَّارِ الآخرةِ[١].

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: لهؤلاءِ الكُفَّارِ عَذابٌ في الحياةِ الدُّنيا بالقتلِ والأسرِ والخِزي، والمصائبِ والأمراضِ والآفاتِ[٢].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾.

أي: ولَعذابُهم في الآخرةِ أشَدُّ وأغلَظُ مِن عذابِهم في الدُّنيا[٣].

﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

أي: وما لهؤلاءِ الكافرينَ مِن أحدٍ يَقيهم ويمنَعُهم مِن عذابِ اللهِ[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- كلُّ نَقصٍ وبَلاءٍ وشَرٍّ في الدُّنيا والآخرةِ، فسَبَبُه الذنوبُ، ومُخالفةُ أوامِرِ الرَّبِّ؛ فليس في العالَمِ شَرٌّ قَطُّ إلَّا الذُّنوبُ ومُوجِباتُها. وآثارُ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ في القلوبِ والأبدانِ والأموالِ أمرٌ مشهودٌ في العالَمِ، لا يُنكِرُه ذو عَقلٍ سَليمٍ، بل يَعرِفُه المُؤمِنُ والكافِرُ، والبَرُّ والفاجِرُ. وشهودُ العَبدِ هذا في نَفسِه وفي غيرِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

وتأمُّلُه ومُطالعتُه: مِمَّا يُقَوِّي إيمانَه بما جاءت به الرُّسُلُ، وبالثَّوابِ والعقابِ؛ فإنَّ هذا عَدلٌ مَشهودٌ مَحسوسٌ في هذا العالمِ، ومَثوباتٌ وعُقوباتٌ عاجِلةٌ دالَّةٌ على ما هو أعظَمُ منها لِمَن كانت له بَصيرةٌ، ومتى انفتَحَ هذا البابُ للعبدِ انتفَعَ بمُطالعةِ تاريخِ العالَمِ، وأحوالِ الأُمَمِ، ومُجرَياتِ الخَلقِ، بل انتفَعَ بمُجرَياتِ أهلِ زَمانِه وما يُشاهِدُه من أحوالِ النَّاسِ، وفَهِمَ حينئذ معنى قَولِه تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾، وقولِه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨] فكُلُّ ما تراه في الوجودِ مِن شَرٍّ وألمٍ وعقوبةٍ وجَدبٍ، ونَقصٍ في نَفسِك وفي غَيرِك؛ فهو من قيامِ الرَّبِّ تعالى بالقِسطِ، وهو عَدلُ اللهِ وقِسطُه وإن أجراه على يَدِ ظالمٍ؛ فالمُسلَّطُ له أعدَلُ العادلينَ[(١)].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ هو تعالى المحيطُ بأحوالِ النُّفوسِ جَلِيِّها وخَفِيِّها، ونبَّهَ على بعضِ حالاتِها وهو (الكسب)؛ ليتفكَّرَ الإنسانُ فيما يَكسِبُ مِن خيرٍ وشَرٍّ، وما يترتَّبُ على الكَسبِ في الجزاءِ[(٢)].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ فاللهُ سُبحانَه وتعالى يقومُ عليها بكَسبِها لا بكَسبِ غيرِها، وهذا مِن قيامِه بالقِسطِ[(٣)].

٢- قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ معلومٌ أنَّ القائِمَ على كُلِّ نفسٍ بما كسَبَت هو اللهُ عزَّ وجَلَّ، فصار الوجودُ كُلُّه قائمًا باللهِ تعالى؛

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٢٤-٤٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٢).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ١٨٢).

إيجادًا، وإمدادًا، وإعدادًا[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ فيه جوازُ وصفِ الله بالقيامِ على التَّقْيِيدِ، وهو أنَّه قَائِمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسَبتْ، ولا يجوزُ أَن يُسمَّى قَائِمًا على الإِطلاقِ؛ لأنَّ الشَّرْعَ لم يرِدْ به[٢].

٤- قد تضمَّنَ هذا الاحتجاجُ في هذه الآيةِ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ...﴾ أساليبَ وخصوصياتٍ:

أحدُها: توبيخُهم على قياسِهم أصنامَهم على اللهِ في إثباتِ الإلهيَّةِ لها قياسًا فاسدًا؛ لانتفاءِ الجهةِ الجامعةِ، فكيف يُسَوَّى مَن هو قائمٌ على كلِّ نفْسٍ بمَن ليسوا في شيءٍ من ذلك؟!

ثانيها: تَجهيلُهم في جَعْلِهم أسماءً لا مُسمَّياتِ لها آلهةً.

ثالثُها: إبطالُ كونِ أصنامِهم آلهةً بأنَّ اللهَ لا يعلَمُها آلهةً، وهو كِنايةٌ عنِ انتفاءِ إلهيَّتِها.

رابعُها: أنَّ ادِّعاءَهم آلهةً مُجَرَّدُ كلامٍ، لا انطباقَ له مع الواقعِ، وهو قولُه: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

خامسُها: أنَّ ذلك تمويهٌ باطِلٌ روَّجَه فيهم دُعاةُ الكُفْرِ، وهو معنى تَسْميتِه مَكرًا في قولِه: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾.

سادسُها: أنَّهم يَصُدُّونَ النَّاسَ عن سَبيلِ الهُدى[٣].

٥- إنَّما قال الله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾؛ لأنَّه أزيَدُ؛ إن شئتَ بسببِ

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٣).

القوَّةِ والشِّدَّةِ، وإن شئتَ بسبَبِ كثرةِ الأنواعِ، وإن شئتَ بسبَبِ أنَّه لا يختَلِطُ بها شيءٌ مِن مُوجِباتِ الرَّاحةِ، وإنْ شِئتَ بسبَبِ الدَّوامِ، وعدمِ الانقطاعِ[١].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾

- قولُه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ...﴾ احتِجاجٌ عليهم في إشراكِهم باللهِ، يعني: أفاللهُ الَّذي هو قائمٌ رقيبٌ على كُلِّ نَفْسٍ صالحةٍ أو طالحةٍ بِما كَسَبَتْ، يعلَمُ خيرَه وشرَّه، ويُعِدُّ لكلٍّ جَزاءَه؛ كمَن ليس كذلك[٢]؟!

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ إنكاريٌّ، وحُذِفَ خبَرُه تَصريحًا في التَّوبيخِ والزِّرايةِ عليهم على القياسِ الفاسِدِ؛ لِفقْدِ الجِهةِ الجامعةِ لهما، وهذا يُسَمَّى في البلاغةِ: (الإضمار على شَريطةِ التَّفسيرِ)، وهو: أنْ يُحْذَفَ مِن صدْرِ الكلامِ ما يُؤْتَى به في آخِرِه، فيَكونَ الآخِرُ دليلًا على الأوَّلِ[٣].

- قولُه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ استِئنافُ إخبارٍ عن سُوءِ صنيعِهم، وكونِهم أشْرَكوا مع اللهِ ما لا يصلُحُ للأُلوهيَّةِ؛ نَعَى عليهم هذا الفِعلَ القبيحَ، فهي جُملةٌ مُستقِلَّةٌ، جِيءَ بها للدَّلالةِ على الخبَرِ. أو حاليةٌ، أي: أَفَمَنْ هذه صِفاتُه كمَن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٢٧- ١٢٩).

ليس كذلك، وقد جعَلوا له شُركاءَ لا شريكًا واحدًا؟! وعلى القولِ بأنَّ هذه الجُملةَ معطوفةٌ على الخبَرِ، إنْ قُدِّرَ ما يصلُحُ لذلك، أي: أَفَمَنْ هذا شأنُه لم يُوَحِّدوه، وجَعَلوا له شُركاءَ؟! ووضَعَ المُظْهَرَ موضِعَ المُضْمَرِ -حيث لم يقُلْ: (وجعَلوا له)-؛ تَقديرًا لِأُلوهيَّتِه، وتَصريحًا بها، وللتَّنصيصِ على وَحدانيَّتِه ذاتًا واسمًا، وللتَّنبيهِ على أنَّهم جعَلوا شُركاءَ لِمَن هو فَردٌ واحدٌ لا يُشارِكُه أحدٌ في اسمِه، وللتَّنبيهِ على اختِصاصِه باستِحقاقِ العبادةِ، مع ما فيه مِن البَيانِ بعد الإبهامِ بإيرادِه مَوصولًا؛ للدَّلالةِ على التَّفخيمِ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾[1]. وقيل: فائدةُ هذا الإظهارِ: التَّعبيرُ عنِ المُسَمَّى باسمِه العَلَمِ الَّذي هو الأصلُ؛ إذ كان قد وقَعَ الإيفاءُ بحَقِّ العُدولِ عنه إلى الموصولِ في الجُملةِ السَّابقةِ، فتَهيَّأَ المَقامُ للاسمِ العَلَمِ، وليكونَ تصريحًا بأنَّه المُرادُ مِن الموصولِ السَّابقِ؛ زِيادةً في التَّصريحِ بالحُجَّةِ[2].

- قولُه: ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ هؤلاءِ الشُّركاءَ لا يستحِقُّونَ العِبادةَ، وتبْكيتٌ لهم إثرَ تبْكيتٍ، والمعنى: أي: سمُّوهم مَن هُمْ؟ وماذا أسماؤُهم؟ أو صِفُوهم، فانْظروا هل لهم ما يَستحِقُّونَ به العِبادةَ، ويستأْهِلونَ الشَّرِكةَ[3]؟! وقيل: هذا تهديدٌ، كما تقولُ لِمَن تُهَدِّدُه على شُرْبِ الخَمْرِ: سَمِّ الخمْرَ بعد هذا[4]، وفيه تعجيزٌ لهم، أي: عيِّنوا أسماءَهم، فقولوا: فُلانٌ وفلانٌ؛ فهو إنكارٌ لِوُجودِها على وجْهٍ بُرهانيٍّ، كما يقولُ المرْءُ لِخَصمِه: إنْ كان الَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٢٧- ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٣).

تدَّعيه موجودًا فسَمِّه؛ لأنَّ المُرادَ بالاسمِ العِلمُ[١]. أو الأمْرُ مُستعمَلٌ في معنى الإباحةِ؛ كِنايةً عن قِلَّةِ المُبالاةِ بادِّعائِهم أنَّهم شُركاءُ، أي: سمُّوهم شُركاءَ، فليس لهم حَظٌّ إلَّا التَّسميةُ، أي: دونَ مُسَمَّى الشَّريكِ[٢].

- قولُه: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فيه نَفْيُ الشَّيءِ بإيجابِه، أو عكسُ الظَّاهِرِ، وهو مِن مُستَطرَفاتِ عِلْمِ البَيانِ، وحقيقةُ هذا النَّفيِ: أنَّهم ليسوا بشُركاءَ، وأنَّ اللهَ لا يعلَمُهم كذلك؛ لأنَّهم- في الواقعِ- ليسوا كذلك، وإنْ كانت لهم ذواتٌ ثابتةٌ يعلَمُها اللهُ، إلَّا أنَّها مَرْبوبةٌ حادِثةٌ لا آلهةٌ معبودةٌ، ولكنْ مَجيءُ النَّفيِ بهذه الطَّريقةِ المَتلوَّةِ بَديعٌ لا تَكادُ تُكْتَنَه بَلاغتُه وعِبارتُه[٣].

- قولُه: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ توبيخيٌّ[٤]، وهذا احتِجاجٌ بليغٌ على أُسلوبٍ عجيبٍ يُنادي على نفْسِه بالإعجازِ، ويَدُلُّ على أنَّه ليس مِن كَلامِ البَشرِ لِمَن عرَفَ وأنصَفَ مِن نفْسِه[٥].

- وخَصَّ الأرضَ بنَفيِ الشَّريكِ عنها، وإن لم يكُنْ شَريكٌ البتَّةَ، فقال: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّهم ادَّعَوا أنَّ له شُرَكاءَ في الأرضِ لا في غَيرِها[٦]. وقيل: قيَّد ذلك بـ (الأرض) لزيادةِ تجهيلِهم؛ لأنَّه لو كان يخفَى عن علمِه شيءٌ، لخفِي عنه ما لا يُرى، ولما خفِيت عنه موجوداتٌ عظيمةٌ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٢٧- ١٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥١).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٢٧- ١٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٥٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٥).

بزعمِكم[١].

- و﴿أَمْ﴾ الثَّانيةُ في قولِه: ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ مُتَّصِلةٌ، وهي مُعادِلَةٌ همْزةَ الاستفهامِ المُقدَّرةَ في ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾، وإعادةُ الباءِ؛ للتَّأْكيدِ بعدَ ﴿أَمْ﴾ العاطفةِ[٢].

- ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ فيه محذوفٌ، تقديرُه: أفمَنْ هو رقيبٌ على كلِّ نفْسٍ صالحةٍ وطالحةٍ، يَعلمُ ما كسبتْ مِن خيرٍ وشرٍّ، كمَن ليس كذلك مِن شُركائِهم الَّتي لا تضُرُّ ولا تنفَعُ؟! ويَدُلُّ عليه قولُه عَقِبَه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡ﴾، ونحوُه قولُه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢]، والتَّقديرُ: كمنْ قَسَا قَلبُه؛ يدلُّ له قولُه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[٣] [الزمر: ٢٢].

- وفي قولِه: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾ العُدولُ عنِ اسمِ الجلالةِ إلى الموصولِ (مَنْ)؛ لأنَّ في الصِّلةِ دَليلًا على انتِفاءِ المُساواةِ، وتَخطئةً لأهْلِ الشِّركِ في تَشريكِ آلهتِهم للهِ تعالى في الإلهيَّةِ، ونِداءً على غَباوتِهم؛ إذْ هم مُعترِفونَ بأنَّ اللهَ هو الخالِقُ، ولِمَا في هذه الصِّلةِ مِن التَّعريضِ[٤].

- قولُه: ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾ فيه وضْعُ الموصولِ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ موضِعَ المُضْمَرِ (لهم)؛ ذمًّا لهم، وتَسجيلًا عليهم بالكُفْرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٥١).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤).

- وجُملةُ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ تَذييلٌ؛ لِمَا فيه مِن العُمومِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٌ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾

- قولُه: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٌ﴾ فيه تَنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾؛ للتَّعظيمِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ ﴿مِن﴾ الأُولى صِلةٌ للوقايةِ، و﴿مِن﴾ الثَّانيةُ الدَّاخلةُ على ﴿وَاقٍ﴾ لتأْكيدِ النَّفيِ؛ للتَّنصيصِ على العُمومِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٥).

الآيات (٢٥-٢٧)

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: صِفَتُها أو شَبَهُها، وأصلُ (مثل): يدلُّ على مُناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[٤].

﴿أُكُلُهَا﴾: أي: ثمرُها، وأصْلُ (أكل): يدُلُّ على تَنَقُّصٍ[٥].

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾

﴿مَّثَلُ﴾ مبتدأٌ، والخبَرُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: فيما يُتلى عليكم مَثَلُ الجنَّةِ، وجملةُ ﴿تَجْرِى﴾ مُفَسِّرةٌ لذلك المَثَل، فلا محلَّ لها من الإعرابِ، ويجوزُ أن تكونَ حالًا مِن العائدِ المحذوفِ في ﴿وُعِدَ﴾ أي: وُعِدَها المتَّقونَ مُقَدَّرًا جَرَيانُ أنهارِها. وقيلَ: جملةُ ﴿تَجْرِى﴾ خبَرٌ عن ﴿مَّثَلُ﴾ باعتبارِ أنَّها مِن أحوالِ المضافِ إليه، وهو الجنَّةُ. وقيل غيرُ ذلك[٦].

---

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠).

(٦) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٩٨-٣٩٩)، ((التبيان في إعراب القرآن))

المعنى الإجماليُّ:

يذكُرُ اللهُ تعالى ما أعدَّه للمُؤمنينَ في الآخرةِ، فيقولُ: صِفةُ الجنَّةِ التي وعَدَ اللهُ بها المتَّقينَ أنَّ الأنهارَ تجري من تحتِ أشجارِها وقُصورِها، وأنَّ ثَمَرَها دائِمٌ لأهلِها لا ينقَطِعُ، وظِلَّها دائِمٌ لا يزولُ ولا يَنقُصُ، تلك الجنَّةُ هي عاقِبةُ المتقين، وعاقبةُ الكافرينَ باللهِ هي النَّارُ. ثمَّ بيَّنَ أنَّ أهلَ الكتابِ انقَسَموا فِئَتَين: فئةً فَرِحَت بنُزولِ القُرآنِ، وفِئةً أنكَرَته وكَفَرَت ببعضِه، فقال: والذين آتيناهم الكتابَ مِن اليهودِ والنَّصارى ممَن آمَنَ منهم بك يَفرحونَ بالقُرآنِ الذي أنزَلَه الله إليك؛ لِمُوافقتِه ما عندهم، ومن أهلِ المِلَلِ والأديانِ المتحَزِّبينَ عليك- يا محمَّدُ- مَن يكَذِّبُ ببعضِ ما في القُرآنِ الكريمِ، قُلْ لهم- يا محمَّدُ: إنَّما أمَرَني اللهُ بعبادتِه وَحدَه، وألَّا أشرِكَ به شَيئًا، إلى الله وحدَه أدعو النَّاسَ مُخلِصينَ له العبادةَ، وإليه مَرجِعي في جميع أموري.

ثمَّ بيَّنَ- سُبحانَه- أنَّه أرسَلَ رَسولَه بلُغةِ قَومِه كما أرسلَ مِن قَبلِه رُسُلًا بلُغاتِ أقوامِهم، فقال: كما أنزَلْنا الكتُبَ على الأنبياءِ السابقين بلُغاتِهم، أنزَلْنا عليك القُرآنَ محكمًا بلُغةِ العَرَبِ؛ لتحكُمَ به بينَ الناسِ، ولَئِن اتَّبَعتَ أهواءَ المُشرِكينَ -بعد الحَقِّ الذي جاءك مِن الله- ما لك مِن ناصرٍ ينصُرُك ويتولَّى أمورَك، ولا واقٍ يقيك عذابَ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

للعكبري (٢/ ٧٥٩-٧٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٥٨-٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ عذابَ الكُفَّارِ في الدُّنيا والآخرةِ، أتبَعَه بذكرِ ثوابِ المتَّقينَ[(١)].

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: صِفةُ الجنَّةِ -التي وعدَ اللهُ بها المتَّقينَ في الآخرةِ- أنَّ الأنهارَ تجري من تحتِ قُصورِها وأشجارِها[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾.

أي: ما يُؤكَلُ في الجنَّةِ مِن ثمارِها دائِمٌ لأهلِها، لا ينفَدُ ولا ينقَطِعُ عنهم، وظِلُّها أيضًا دائِمٌ لا يزولُ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٠ - ٣٣].

﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

أي: تلك الجنَّةُ العاليةُ الأوصافِ هي عاقِبةُ المُتَّقينَ الذين امتَثَلوا ما أمَرَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).
قال ابنُ الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: صفتُها أنَّ الأنهارَ تجري مِن تحتِها، هذا قولُ الجمهورِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

اللهُ به، واجتَنَبوا ما نهاهم عنه، وعاقِبةُ الكافرينَ بالله هي النَّارُ[١].

كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

وقال سُبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما ذكَر أحوالَ المشركين مِن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ ...﴾ [الرعد: ٣٠]؛ ذكَر فضلَ بعضِ أهلِ الكتابِ في حسنِ تلقِّيهم للقرآنِ، فالذين أُرسل إليهم النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالقرآنِ انقسَموا في التصديقِ بالقرآنِ فرقًا، ففريقٌ آمنوا بالله وهم المؤمنون، وفريقٌ كفَروا به، وهذا فريقٌ آخرُ أيضًا- أهلُ الكتابِ- وهو منقسمٌ أيضًا[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

أي: والذين آتيناهم التَّوراةَ والإنجيلَ ممَّن آمنَ بك -يا محمَّدُ- مِن اليَهودِ والنَّصارى، يَفرحونَ بالقُرآنِ الذي أنزَلَه الله إليك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٥، ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

وهذا المعنى المذكورُ لقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو اختيارُ الزمخشري، والقرطبي، وأبي حيان، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره محمد رشيد رضا، والسعدي،

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾.

أي: ومن أهلِ المِلَلِ والأديانِ المتحَزِّبينَ عليك- يا محمَّدُ- مَن يكَذِّبُ ببعضِ ما في القُرآنِ الكريمِ(١).

والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٥-٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير المنار)) لرضا (١١/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩)، ((أضواء البيان)) (١/ ٢٠٦-٢٠٧).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٦٥٨).

قال الزمخشري: (يريدُ من أسلمَ من اليهودِ- كعبدِ اللهِ بنِ سَلام، وكعب وأصحابهما، ومن أسلمَ منَ النَّصارى- وهم ثمانون رجلًا: أربعون بنجران، واثنان وثلاثون بأرض الحبشة، وثمانية من أهل اليمن- هؤلاء ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

قال الزمخشري: (﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يعني: ومن أحزابهم، وهم كفَرَتُهم الذين تحزَّبوا على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعداوةِ، نحو كعب بن الأشرف وأصحابه، والسيِّد والعاقبِ أُسقُفَي نجران، وأشياعهما، ﴿مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾ لأنَّهم كانوا لا يُنكرونَ الأقاصيصَ وبعضَ الأحكام والمعاني [مما] هو ثابتٌ في كتُبِهم غيرُ مُحرَّف، وكانوا ينكِرونَ ما هو نعتُ الإسلامِ ونعتُ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وغير ذلك مما حرَّفوه وبدَّلوه مِن الشرائعِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٣).

وقال ابنُ عاشور: (فالأظهَرُ أنَّ المرادَ بالأحزابِ أحزابُ الذين أوتُوا الكِتابَ، كما جاء في قَولِه تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ﴾ [مريم: ٣٧]، أي: ومِن أحزابِهم مَن يُنكِرُ بَعضَ القُرآنِ، فاللامُ عِوَضٌ عن المضافِ إليه، ولعَلَّ هؤلاء هم خُبَثاؤُهم ودُهاتُهم الذين توسَّموا أنَّ القُرآنَ يُبطِلُ شَرائِعَهم فأنكَروا بَعضَه، وهو ما فيه مِنَ الإيماءِ إلى ذلك مِن إبطالِ أُصولِ عقائِدِهم، مِثلُ عُبوديَّةِ عيسى عليه السَّلامُ بالنِّسبةِ للنَّصارى، ونبوَّتِه بالنِّسبةِ لليَهودِ. وفي التَّعبيرِ عنهم بالأحزابِ إيماءٌ إلى أنَّ هؤلاء هم المتحَزِّبونَ المتصَلِّبونَ لِقَومِهم ولِمَا كانوا عليه. وهكذا كانت حالةُ اضطرابِ أهلِ الكتابِ عندما دمغَتْهم بَعثةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأخذَ أمرُ

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾.

أي: قل -يا مُحمَّدُ-: إنَّما أمَرَني اللهُ بعِبادتِه وَحدَه، وألَّا أُشرِكَ به شيئًا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾.

أي: إلى اللهِ وَحدَه أدعو النَّاسَ إلى طاعتِه مُخلِصينَ له العبادةَ، وإلى اللهِ مَرجِعي في جميعِ أموري، وإليه مَصيري[(٢)].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾.

أي: وكما أنزَلْنا الكتُبَ على الرُّسُلِ السَّابِقينَ بلُغاتِهم، كذلك أنزَلْنا عليك- يا مُحمَّدُ- القُرآنَ مُحكَمًا مُتقَنًا؛ لِتَحكُمَ به بين النَّاسِ، بلسانِ العَرَبِ[(٣)].

الإسلام يفشو). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي))

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال سُبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ﴾.

أي: ولَئن اتَّبَعتَ- يا محمَّدُ- أهواءَ تلك الأحزابِ الكافرةِ بعد ما جاءك مِن العِلمِ الذي علَّمَك اللهُ إياه[(١)]، ما لك مِن اللهِ مِن ناصرٍ ينصُرُك ويتولَّى أمورَك، ولا واقٍ يقيك عذابَ اللهِ؛ فاحذَرْ مِن اتِّباعِ أهوائِهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

(ص: ٤١٩).

(١) قال ابنُ عاشور: (ومعنى ﴿مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ ما بلَغَك وعَلِمتَه، فيَحتَمِلُ أن يرادَ بالموصولِ القرآنُ؛ تنويهًا به، أي: لَئِن شايعْتَهم فسألْتَنا آيةً غيرَ القرآنِ بعد أن نَزَل عليك القُرآنُ، أو بعد أن أعلَمْناك أنَّا غيرُ مُتنازِلينَ لإجابةِ مُقتَرَحاتِهم. ويَحتَمِلُ اتِّباع دينِهم؛ فإنَّ دينَهم أهواءٌ، ويكونُ المرادُ بـ﴿مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ هو دينُ الإسلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٧، ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٧)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

قال ابن تيمية: (ومُتابعتُهم فيما يختصُّون به من دينِهم وتوابعِ دينِهم؛ اتِّباعٌ لأهوائهم، بل يحصلُ اتِّباعُ أهوائهم بما هو دون ذلك). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٩٩).

وقال ابنُ عاشور: (واتِّباع أهوائهم يحتمِلُ السعيَ لإجابة طَلِبَتِهم إنزالَ آيةٍ غير القرآن؛ تحذيرًا من أن يسأل اللهَ إجابتَهم لِما طلبوه، كما قال لنوح عليه السَّلامُ: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٠).

وقال سُبحانه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الفرَحُ بالعِلمِ والإيمانِ والسنَّة دليلٌ على تعظيمِه عند صاحِبه، ومحبَّتِه له، وإيثارِه له على غيرِه؛ فإنَّ فرَحَ العبدِ بالشَّيءِ عندَ حصولِه له، على قَدرِ محبَّتِه له ورغبتِه فيه؛ فمَن ليس له رغبةٌ في الشَّيءِ لا يُفرِحُه حُصولُه له، ولا يَحزُنُه فَواتُه، فالفرَحُ تابعٌ للمحبَّةِ والرَّغبةِ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، فالفرَحُ باللهِ وبرسولِه، وبالإيمانِ وبالسنَّةِ، وبالعِلمِ وبالقرآنِ: مِن أعلَى مقاماتِ العارفينَ[١].

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ هذه الآيةُ تتضمَّنُ النَّهيَ عن اتِّباعِ أهواءِ أَحَدٍ في خلافِ شريعتِه وسُنَّتِه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ومن ذلك أهلُ الأهواءِ مِن هذه الأمَّةِ[٢]، وفيها وعيدٌ لأهلِ العِلمِ أن يتَّبِعوا سبُلَ أهلِ الضَّلالةِ بعدما صاروا إليه مِن سُلوكِ السُّنَّة النبويَّة والمَحجَّة المُحمَّديَّة- على من جاء بها أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ- كما أنَّه بَعْثٌ للأمَّةِ، وتهييجٌ على الثَّباتِ في الدِّينِ والتصَلُّبِ فيه[٣]، وتحذيرٌ مِن الركونِ إلى تمويهاتِ المشركين[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ فيه دَلالةٌ على بقاءِ نعيمِ الجنَّةِ، إلَّا

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦١).

أنَّ الدَّائمَ الذي لا يَنفَدُ ولا يَنقَضي إنَّما هو النَّوعُ، وإلَّا فكلُّ فَردٍ مِن أفرادِه نافِدٌ مُنقَضٍ ليس بدائمٍ[١].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ يدُلُّ على أنَّ حَرَكاتِ أهلِ الجنَّةِ لا تنتهي إلى سُكونٍ دائمٍ، كما يقولُه أبو الهُذَيل[٢] وأتباعُه[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الرسلَ- صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم- لم يخبِروا بما تُحيلُه العقولُ، وتقطعُ باستحالتِه؛ لأنَّ النفوسَ لا تفرحُ بالمحالِ[٤].

٤- جمعَ اللهُ تعالى كُلَّ ما يَحتاجُ المرءُ إليه في مَعرفةِ المبدأِ والمعادِ في ألفاظٍ قَليلةٍ منه، فقال: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ وهذا الكلامُ جامعٌ لكُلِّ ما ورد التَّكليفُ به، وفيه فوائِدُ:

أوَّلُها: أنَّ كَلِمةَ (إنَّما) للحَصرِ، ومعناه: إنِّي ما أُمِرتُ إلَّا بعبادةِ الله تعالى، وذلك يدُلُّ على أنَّه لا تَكليفَ ولا أمْرَ ولا نَهيَ إلَّا بذلك.

وثانيها: أنَّ العبادةَ غايةُ التَّعظيمِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ المرءَ مُكَلَّفٌ بذلك.

وثالثُها: أنَّ عِبادةَ اللهِ واجِبةٌ، وهو يُبطِلُ قَولَ نُفاةِ التَّكليفِ، ويُبطِلُ القَولَ بالجَبرِ المَحضِ.

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (١/ ٣١٠، ٤٢٦).

(٢) هو أبو الهُذيلِ محمَّدُ بنُ الهُذيلِ البَصريُّ، العَلَّافُ، شَيخُ المُعتَزِلةِ، وُلِدَ في البَصرةِ، واشتُهِرَ بعِلمِ الكلامِ، له مقالاتٌ في الاعتزالِ، ومَجالِسُ ومُناظَراتٌ، زعم أنَّ نعيمَ الجنَّةِ وعذابَ النَّارِ ينتهيان، بحيث إنَّ حَرَكاتِ أهلِ الجنَّةِ تَسكُنُ، حتى لا يَنطِقونَ بكَلِمةٍ، وأنكَرَ الصِّفاتِ المُقَدَّسةَ حتى العِلمَ والقُدرةَ! يُنظر: ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٠/ ٥٤٢)، ((الأعلام)) للزِّركلي (٧/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٦٢).

ورابعُها: قَولُه: ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓ﴾ وهذا يدُلُّ على نفيِ الشُّرَكاءِ والأندادِ والأضدادِ بالكليَّةِ، ويدخُلُ فيه إبطالُ قَولِ كُلِّ من أثبَتَ مَعبودًا سِوى اللهِ تعالى.

وخامسُها: قَولُه: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾ والمرادُ منه أنَّه كما وجَبَ عليه الإتيانُ بهذه العباداتِ، فكذلك يجِبُ عليه الدعوةُ إلى عبوديَّةِ اللهِ تعالى، وهو إشارةٌ إلى نبُوَّتِه.

وسادسُها: قَولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ وهو إشارةٌ إلى الحَشرِ والنَّشرِ والبَعثِ والقيامةِ، فإذا تأمَّلَ الإنسانُ في هذه الألفاظِ القليلةِ ووقَفَ عليها، عرَفَ أنَّها محتويةٌ على جَميعِ المطالِبِ المُعتَبَرةِ في الدِّينِ[(١)].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ﴾ توعَّدَ رَسولَه -مع أنَّه معصومٌ-؛ ليمتَنَّ عليه بعِصمتِه، ولتَكونَ أُمَّتُه أُسوتَه في الأحكامِ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾

- قولُه: ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ جُملةٌ مُستأنَفَةٌ؛ للمُناسَبةِ بالمُضادَّةِ، وهي كالبيانِ لجُملةِ ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[(٣)]، والمعنى: عُقْبَى الكافرينَ لا غيرُ، وفيه ما لا يخْفَى مِن إطماعِ المُتَّقينَ، وإقناطِ الكافرينَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقَلَ به إلى فَضْلٍ لبعْضِ أهلِ الكِتابِ في حُسْنِ تلقِّيهم للقُرآنِ، بعد الفراغِ مِن ذكْرِ أحوالِ المُشركينَ مِن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ ...﴾ إلخ؛ ولذلك جاءتْ على أُسلوبِها في التَّعقيبِ بجُملةِ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾[(١)].

- قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾ اتَّصَلَ هذا بقولِه قبلَه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾، أي: لم يُعطَفْ عليه؛ لأنَّه جوابٌ للمُنكرينَ، معناه: قُلْ: إنَّما أُمِرْتُ فيما أُنْزِلَ إليَّ بأنْ أعبُدَ اللهَ ولا أشرِكَ به، فإنكارُكم لِبعضِه إنكارٌ لِعبادةِ اللهِ وتوحيدِه[(٢)].

- وأفادت ﴿إِنَّمَآ﴾ أنَّه لم يُؤْمَرْ إلَّا بأنْ يعبُدَ اللهَ ولا يُشرِكَ به، أي: لا بغيرِ ذلك ممَّا عليه المُشركونَ؛ فهو قصْرٌ إضافيٌّ دلَّت عليه القرينةُ[(٣)].

- قولُه: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ؛ للتَّخصيصِ، فالمعنى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾ خُصوصًا، لا أَدْعو إلى غيرِه، ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ لا إلى غَيرِه مَرْجِعي[(٤)].

٣- قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ﴾

- قولُه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ﴾ هذا مِن بابِ الإلْهابِ والتَّهييجِ، والبَعثِ للسَّامعينَ على الثَّباتِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢ / ٥٣٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢ / ٥٣٣).

الدِّينِ، والتَّصلُّبِ فيه، وألَّا يَزِلَّ زالٌّ عند الشُّبهةِ بعدَ استمساكِه بالحُجَّةِ، وإلَّا فقد كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن شِدَّةِ الشَّكيمةِ بمكانٍ[١].

- قولُه: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فيه الْتفاتٌ مِن التَّكلُّمِ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ إلى الغَيبةِ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾- فلم يَقُلْ: (مِنَّا)- وإيرادُ الاسمِ الجليلِ؛ لِتربيةِ المَهابةِ[٢].

- وأُدْخِلَ على المعطوفِ ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ حرْفُ النَّفيِ (لا)؛ للتَّأكيدِ[٣]، و(مِن) الدَّاخِلةُ على اسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ تتعلَّقُ بـ﴿وَلِيٍّ﴾ و﴿وَاقٍ﴾، و(مِن) الدَّاخِلةُ على ﴿وَلِيٍّ﴾؛ لِتأْكيدِ النَّفيِ؛ تنصيصًا على العُمومِ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، وفي سُورةِ طَهَ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣]؛ فاختلَفَتِ العِبارةُ في السُّورتينِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ سُورةَ الرَّعدِ لم يَتقدَّمْ فيها شيءٌ مِن القصصِ الإخباريَّةِ، وإنَّما المُتقدِّمُ فيها تَفاصيلُ أحكامٍ مرْجِعُها بجُملتِها إلى اختِلافِ أحوالِ المُكلَّفينَ، وتفْصيلُ أحوالِهم بحَسَبِ ما قَدَّرَه سُبحانَه في أَزَلِه، وما حَكَمَ به عليهم، ثمَّ بيَّنَ تعالى حُكْمَ كلٍّ مِن الفَريقينِ بعدَ وصْفِهم، ثمَّ أعقَبَ بِمآلِ الفَريقينِ؛ فقال فيمَن هداه فعلِمَ: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢٣] إلى قولِه: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]، وأتْبَعَ بحالِ الآخَرينَ المَوصوفينَ بنَقْضِ عهْدِه سُبحانَه، وأخبَرَ بأنَّ لهمُ اللَّعنةَ ولهم سُوءَ الدَّارِ، وبيَّنَ تعالى حُكْمَه في بَسْطِ الرِّزقِ لِمَن يشاءُ وقبْضِه عمَّن يَشاءُ، وأعلَمَ اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦١).

تعالى أنَّه يُضِلُّ مَن يَشاءُ ويَهْدي إليه مَن أناب، ثمَّ وصَفَهم بإيمانِهم واطْمئنانِ قُلوبِهم بِذكْرِه، ودارتِ الآياتُ بعدُ على أنَّ كلَّ جارٍ في خلْقِه فبِتَقْديرِه، وتَناسَب ذلك إلى الآيةِ، وكلُّ ما تَقدَّمَ فهو حُكمُه السَّابِقُ في خَلْقِه، فأعقَبَ هذا بقولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧]. ولَمَّا تقدَّمَ آيةَ سُورةِ طه قَصَصُ مُوسى عليه السَّلامُ، وما جرَى مِن فِتْنةِ قَومِه بعدَه بفعْلِ السَّامريِّ، وما كان مِن قولِ هارونَ عليه السَّلامُ وتذْكيرِه إيَّاهم، وقولِ بَني إسرائيلَ: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١] إلى قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]، ثمَّ أتبَعَ هذا بما يُلائِمُه إلى قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣]، أي: قَصَصًا مَقْروءًا بلِسانِ العرَبِ، مُذَكِّرًا مَن وُفِّقَ لاعتبارِه والاتِّعاظِ به: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]؛ فناسَبَ كلٌّ مِن العِبارتينِ مَوضِعَه أتَمَّ مُناسَبةٍ، ولم يكُنِ العكْسُ لِيُناسِبَ[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٨٢-٢٨٣).

الآيات (٣٨-٤٠)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يرُدُّ اللهُ تعالى على من كان يُنكِرُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تزَوُّجَه بالنِّساءِ قائلًا: لقد بَعَثْنا قبلَ هذا الرَّسولِ رُسُلًا مِن البَشَرِ، وجَعَلْنا لهم أزواجًا وذُرِّيَّةً، فما بالُكم تُنكِرونَ عليه ما كانوا عليه؟! ثمَّ ردَّ على الكُفَّارِ ما اقتَرَحوه على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الآياتِ بأنَّه ليس في قدرةِ رَسولٍ أن يأتيَ بمُعجزةٍ تدلُّ على صدقِه إلَّا بإذنِ اللهِ؛ لكُلِّ أمرٍ قضاه اللهُ ولكل أجَلٍ قدَّره كتابٌ أُثبِتَ فيه، يمحو اللهُ ما يشاءُ مِن الأقدارِ المكتوبةِ؛ مِن شَقاوةٍ أو سعادةٍ، أو رِزقٍ أو عُمُرٍ، وغيرِ ذلك، ويُبقي منها ما يشاءُ، وذلك فيما يكونُ في أيدي الملائكةِ مِن صحفٍ، وعِندَه أمُّ الكتابِ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ.

ثم يقولُ الله تعالى لنبيِّه: وإنْ أريناك- يا محمَّدُ- بعضَ العذابِ الذي توعَّدْنا به المشركين لكفرهم، أو توَفَّيناك قبلَ رؤية ذلك؛ فليس عليك إلَّا تبليغُ الرسالةِ، وعلينا لا عليك الحِسابُ والجَزاءُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا عَودٌ إلى الرَّدِّ على المُشرِكينَ في إنكارِهم آيةَ القُرآنِ، وتصميمِهم على المُطالبةِ بآيةٍ مِن مُقتَرَحاتِهم تُماثِلُ ما يُؤثَرُ مِن آياتِ موسى وآياتِ عيسى -عليهما السَّلامُ- ببيانِ أنَّ الرَّسولَ لا يأتي بآياتٍ إلَّا بإذنِ اللهِ، وأنَّ ذلك لا يكونُ على مُقتَرَحاتِ الأقوامِ[١].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾.

أي: ولَقد بَعَثْنا -يا محمَّدُ- إلى الأمَمِ الماضيةِ رُسُلًا مِن قَبلِك، فكانوا بشَرًا مِثلَهم، وجَعَلْنا لهم أزواجًا يَنكِحونَهنَّ، ورَزَقْناهم أولادًا؛ فلستَ أوَّلَ رَسولٍ بشَريٍّ أُرسِلَ إلى النَّاسِ، حتى يستغرِبَ قَومُك إرسالَك إليهم[٢].

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ولا يَقدِرُ أيُّ رَسولٍ أرسَلَه اللهُ تعالى إلى قومٍ أن يأتيَ قَومَه بمُعجِزةٍ تدُلُّ على صِدقِه، إلَّا بأمرِ اللهِ؛ فهو الذي يأتي بالمُعجِزةِ، ويؤيِّدُ بها رسولَه متى شاء[٣].

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾.

أي: لكلِّ أجلٍ قدَّره الله، ولكلِّ أمرٍ قضاه، كتابٌ أُثبِت فيه، ووقت معلومٌ يقعُ فيه، لا يتقدَّمُ عليه ولا يتأخَّرُ، فلا تكونُ آيةٌ إلاَّ بأجلٍ قد قضاه الله تعالى في كتابٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦١-١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾.

أي: يمحو اللهُ ما يشاءُ مِن الأقدارِ المكتوبةِ، فيمحو ما يشاءُ مَحوَه مِن شَقاوةٍ أو سعادةٍ، أو رِزقٍ أو عُمُرٍ، أو خيرٍ أو شَرٍّ، وغيرِ ذلك، ويُبقي منها ما يشاءُ[1]،

قال الواحدي: (المعنى: لأجلِ كُلِّ أمرٍ ووَقتِه كِتابةٌ مُثبتةٌ، لا يتقدَّمُ ذلك الأمرُ على وقتِه الذي كُتِبَ له ولا يتأخَّرُ عنه، هذا معنى قولِ أكثَرِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٢/ ٣٧٦).

قال أبو حيان: (وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، لفظٌ عامٌّ في الأشياءِ التي لها آجالٌ؛ لأنَّه ليس منها شيءٌ إلَّا وله أجلٌ في بدئِه وفي خاتمتِه، وذلك الأجلُ مكتوبٌ محصورٌ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٧).

(١) وممَّن اختار هذا المعنى ورأى أنَّ ظاهِرَ الآيةِ يقتضي العمومَ: القرطبي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٥-١٠٦).

وممن قال بهذا القول من السلف: عمرُ بنُ الخطاب، وابنُ عبَّاس، وابنُ مسعود، وكعبٌ، والضحَّاك، وشقيقُ بن سلمة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٩).

وقيل غير ذلك، يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٩، ٥٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٨ - ٤٧٠).

قال الواحدي: (﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اللَّوحُ المحفوظُ، يمحو منه ما يشاءُ ويُثبِتُ ما يشاءُ، وظاهر هذه الآيةِ على العموم، وقال قومٌ: إلَّا السَّعادةَ والشَّقاوةَ، والموتَ والرِّزقَ، والخَلقَ والخُلُق). ((الوجيز)) (ص: ٥٧٥).

وقال ابنُ عطية: (وتخبَّط النَّاسُ في معنى هذه الألفاظِ، والذي يتخَلَّصُ به مُشكِلُها: أن نعتَقِدَ أنَّ الأشياءَ التي قدَّرَها اللهُ تعالى في الأزَلِ وعَلِمَها بحالٍ ما: لا يَصِحُّ فيها محوٌ ولا تبديلٌ، وهي التي ثبَتَت في أُمِّ الكِتابِ وسبَقَ بها القَضاءُ، وهذا مرويٌّ عن ابنِ عَبَّاسٍ وغَيرِه مِن أهلِ العِلمِ، وأمَّا الأشياءُ التي قد أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه يُبَدِّلُ فيها ويَنقُل، كعَفوِ الذُّنوبِ بعد تقريرِها، وكنَسخِ آيةٍ بعدَ تِلاوتِها واستِقرارِ حُكمِها- ففيها يقَعُ المحوُ والتَّثبيتُ فيما يُقَيِّدُه الحَفَظةُ ونحو ذلك، وأمَّا إذا رُدَّ الأمرُ للقضاءِ والقَدَرِ فقد محا اللهُ ما محا وثَبَّت ما ثَبَت، وجاءت العبارةُ مُستَقِلَّةً بمَجيءِ الحوادثِ وهذه الأمورِ فيما يُستأنَفُ مِنَ الزَّمانِ، فيَنتَظِرُ البَشَرُ ما يمحو أو ما يُثبِتُ، وبحَسَبِ ذلك خَوفُهم ورجاؤُهم ودعاؤُهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٧).

وذلك فيما يكونُ في أيدي الملائكةِ مِن صحفٍ[(١)].

وقال ابنُ جرير: (وأَولى الأقوالِ التي ذُكِرَت في ذلك بتأويلِ الآيةِ، وأشبَهُها بالصَّوابِ: القَولُ الذي ذكَرْناه عن الحسَنِ ومُجاهدٍ، وذلك أنَّ الله تعالى ذِكرُه توَعَّدَ المُشرِكينَ الذين سألوا رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم الآياتِ- بالعُقوبةِ، وتهدَّدَهم بها، وقال لهم: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] يُعلِمُهم بذلك أنَّ لقَضائِه فيهم أجلًا مُثبَتًا في كتابٍ هم مؤخَّرونَ إلى وقتِ مجيءِ ذلك الأجَلِ، ثمَّ قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجَلُ يجيءُ اللهُ بما شاء ممَّن قد دنا أجَلُه، وانقطَعَ رِزقُه، أو حان هلاكُه، أو اتِّضاعُه مِن رِفعةٍ، أو هلاكُ مال، فيَقضي ذلك في خَلقِه، فذلك مَحوُه، ويُثبِتُ ما شاء ممَّن بَقِيَ أجَلُه ورِزقُه وأكلُه، فيَتركُه على ما هو عليه فلا يَمحوه). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٦٩-٥٧٠).

وقال القاسمي :(قولُه تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فكم ترى مَن يَستَدِلُّ بها على العِلمِ المعَلَّقِ، ومحوِ ما في اللَّوحِ الذي يُسمُّونَه «لوحَ المحوِ والإثباتِ!» ويُورِدونَ من الإشكالاتِ والأجوبةِ ما لا يجِدُ الواقِفُ عليه مَقنَعًا ولا مُطْمأنًّا. مع أنَّ هذه الآيةَ لو تمعَّنَ فيها القارئُ لعَلِمَ أنَّها في معنى غيرِ ما يتوهَّمونَ؛ وذلك أنَّهم كانوا يقتَرِحونَ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أوائِلِ البَعثةِ أن يأتيَ بآيةٍ كآيةِ موسى وعيسى؛ توهُّمًا أنَّ ذلك هو أقصى ما يدُلُّ على نبوَّةِ النبيِّ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ، فأعلَمَهم اللهُ تعالى أنَّ دَورَ تلك الآياتِ الحِسِّيَّةِ انقضى دورُها وذهبَ عَصرُها، وقد استعَدَّ البَشَرُ للتنبُّهِ إلى الآيةِ العَقليَّةِ، وهي آيةُ الاعتِبارِ والتبَصُّرِ، وأنَّ تلك الآياتِ مُحِيَت كما مُحِيَ عَصرُها، وقد أثبت تعالى غيرَها ممَّا هو أجلى وأوضَحُ وأدَلُّ على الدَّعوةِ، وهو قَولُه تعالى قَبلَها: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۞ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٨-٣٩]). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٩١).

(١) قال ابن تيمية: (... قال العلماءُ: إنَّ المَحْوَ والإثباتَ في صُحُفِ الملائكةِ، وأمَّا عِلمُ الله سبحانَه فلا يختلِفُ ولا يبدو له ما لم يكُن عالِمًا به، فلا محوَ فيه ولا إثباتَ، وأمَّا اللوحُ المحفوظُ، فهل فيه محوٌ وإثباتٌ، على قولين. واللهُ سبحانه وتعالى أعلَمُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٤٩٢).

وقال ابنُ عثيمين: (يقولُ رَبُّ العالَمينَ عزَّ وجلَّ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اللوحُ المحفوظُ ليس فيه محوٌ ولا كِتابٌ، فما كُتِبَ في اللَّوحِ المَحفوظِ فهو كائِنٌ ولا تَغييرَ فيه، لكِنْ ما كُتِبَ في الصُّحُفِ التي في أيدي الملائكةِ، فهذا: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾). ((شرح الأربعين النووية)) (ص: ٦٦).

وقال ابن حجر: (والحقُّ أنَّ ... الذي سبَقَ في عِلمِ الله لا يتغيَّرُ ولا يتبدَّلُ، وأنَّ الذي يجوزُ عليه التَّغييرُ والتَّبديلُ ما يبدو للنَّاسِ مِن عَمَلِ العامِلِ، ولا يَبعُدُ أن يتعلَّقَ ذلك بما في عِلمِ الحَفَظةِ والمُوكَّلين بالآدميِّ، فيقَعُ فيه المحوُ والإثباتُ، كالزِّيادةِ في العُمُرِ والنَّقصِ، وأمَّا ما في عِلمِ اللهِ

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

أي: وعندَ اللهِ أصلُ الكتابِ، وهو اللَّوحُ المَحفوظُ[(١)].

فلا محوَ فيه ولا إثباتَ، والعلمُ عندَ الله). ((فتح الباري)) (١١/ ٤٨٨).

وقال السعدي: (فالتَّغييرُ والتَّبديلُ يقَعُ في الفُروعِ والشُّعَبِ، كأعمالِ اليَومِ والليلةِ التي تَكتُبُها الملائِكةُ، ويجعَلُ اللهُ لثُبوتِها أسبابًا ولِمَحوِها أسبابًا، لا تتعَدَّى تلك الأسبابُ ما رُسِمَ في اللَّوحِ المحفوظِ، كما جعَلَ اللهُ البرَّ والصِّلةَ والإحسانَ مِن أسبابِ طُولِ العُمُرِ وسَعةِ الرِّزقِ، وكما جعَلَ المعاصيَ سَببًا لِمَحقِ بَرَكةِ الرِّزقِ والعُمُرِ، وكما جعَلَ أسبابَ النَّجاةِ مِن المهالِكِ والمعاطِبِ سَببًا للسَّلامةِ، وجعل التعَرُّضَ لذلك سببًا للعَطَبِ؛ فهو الذي يدَبِّرُ الأمورَ بحَسَبِ قُدرتِه وإرادتِه، وما يُدَبِّرُه منها لا يخالِفُ ما قد عَلِمَه وكتَبَه في اللَّوحِ المحفوظِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

ومن ذلك العمرُ، فالذي في علمِ الله لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ ويُقالُ له: القضاءُ المبرَمُ، والذي في علمِ المَلَكِ هو الذي يُمكنُ فيه الزيادةُ والنقصُ، ويُقالُ له القضاءُ المعلَّقُ، كأن يُقالَ للمَلَكِ مثلًا: إنَّ عمرَ فلانٍ مائةٌ مثلًا إن وصَل رحِمَه، وستُّون إن قطَعها، وقد سبَق في علمِ الله أنَّه يصِلُ أو يَقْطعُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤١٦).

وكذلك الرزقُ، فما في علمِ الله لا يتغيَّرُ، أمَّا ما كتَبه وأعلَم به الملائكةَ فهذا يزيدُ وينقصُ بحسبِ الأسبابِ، فإنَّ العبدَ يأمرُ الله الملائكةَ أن تكتبَ له رزقًا، وإن وصَل رحِمَه زاده الله، والأسبابُ التي يحصلُ بها الرزقُ هي مِن جملةِ ما قدَّره الله وكتَبه، ومِن الأدلةِ على ذلك ما ثبَت عن النبيِّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم أنَّه قال: ((مَن سرَّه أن يُبسطَ له في رزقِه، ويُنسأَ له في أثرِه فليَصلْ رحمَه)). [البخاري (٥٩٨٦) ومسلم (٢٥٥٧)]. وكذلك عمرُ داودَ زاد ستِّينَ سنةً فجعَله الله مائةً بعدَ أن كان أربعينَ. [الترمذي (٣٠٧٦) وقال: حسن صحيح]. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٥٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠٠، ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩)، ((شرح الأربعين النووية)) للعثيمين (ص: ٦٦).

قال الشوكاني: (قيل: إنَّ أمَّ الكتابِ هو عِلمُ الله تعالى بما خَلَق وما هو خالِقٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٦).

وقيل: المرادُ بـ﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: كتابُ الأمورِ المجزومة التي قد سبق القضاءُ فيها بما هو كائِنٌ وسبَقَ ألَّا تُبدَّلَ، ويبقى المحوُ والتثبيتُ في الأمورِ التي سبق في القضاءِ أن تُبَدَّلَ وتُمحى أو تُثبَت. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابن عطية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ باعتبارِ ما تُفيدُه مِن إبهامِ مُرادِ اللهِ في آجالِ الوعيدِ، ومواقيتِ إنزالِ الآياتِ، فبَيَّنَت هذه الجملةُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس مأمورًا بالاشتغالِ بذلك ولا بترَقُّبِه، وإنَّما هو مبَلِّغٌ عن اللهِ لعبادِه، واللهُ يعلَمُ ما يحاسِبُ به عبادَه، سواءٌ شهِدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذلك أم لم يَشهَدْه[1].

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾.

أي: وإنْ أريناك -يا محمَّدُ- في حياتِك بعضَ العذابِ الذي نعِدُ به المُشرِكينَ

قال ابنُ عاشور: (والذي يلوحُ في معنى الآيةِ أنَّ ما في أمِّ الكِتابِ لا يقبَلُ محوًا، فهو ثابتٌ، وهو قَسيمٌ لِما يشاءُ اللهُ مَحْوَه، ويجوزُ أن يكونَ ما في أمِّ الكتابِ هو عينَ ما يشاءُ اللهُ مَحْوَه أو إثباتَه، سواءٌ كان تعيينًا بالأشخاصِ أو بالذَّواتِ أو بالأنواعِ، وسواءٌ كانت الأنواعُ مِن الذَّواتِ أو مِنَ الأفعالِ، وأنَّ جُملةَ ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أفادت أنَّ ذلك لا يطَّلِعُ عليه أحَدٌ. ويجوزُ أن يكونَ قَولُه: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مرادًا به الكتابُ الذي كُتِبَت به الآجالُ، وهو قولُه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، وأنَّ المحوَ في غيرِ الآجالِ، ويجوزُ أن يكونَ «أمُّ الكتابِ» مرادًا به عِلمُ الله تعالى، أي: يمحو ويُثبِتُ، وهو عالمٌ بأنَّ الشَّيءَ سيُمحى أو يُثبَت... فإذا حُمِلَ المحوُ على ما يَجمَعُ معانيَ الإزالة، وحُمِلَ الإثباتُ على ما يجمَعُ معانيَ الإبقاءِ، وإذا حُمِلَ معنى «أم الكتابِ» على معنى ما لا يقبَلُ إزالةَ ما قُرِّرَ أنَّه حاصِلٌ أو أنَّه موعودٌ به، ولا يَقبَلُ إثباتَ ما قُرِّرَ انتِفاؤُه، سواءٌ في ذلك الأخبارُ والأحكامُ- كان ما في أمِّ الكتابِ قَسيمًا لِمَا يُمحَى ويُثبَتُ، وإذا حُمِلَ على أنَّ ما يَقبَلُ المحوَ والإثباتَ مَعلومٌ لا يتغيَّرُ عِلمُ اللهِ به، كان ما في أمِّ الكتابِ تنبيهًا على أنَّ التغييراتِ التي تطرأُ على الأحكامِ أو على الأخبارِ ما هي إلَّا تغييراتٌ مقرَّرةٌ مِن قَبلُ، وإنَّما كان الإخبارُ عن إيجادِها أو عن إعدامِها مُظهِرًا لِما اقتضَتْه الحِكمةُ الإلهيَّةُ في وقتٍ ما). (تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٦-١٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٩).

لكُفرِهم، أو توفَّيناك قبلَ أن نُرِيَك عذابَهم؛ فليس عليك سوى تبليغِهم رسالةَ اللهِ في كِلا الحالَينِ[١].

﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

أي: وعلينا نحنُ -لا عليك- محاسَبةُ العبادِ، ومُجازاتُهم على أعمالِهم؛ ثوابًا أو عِقابًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢١-٢٦].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ فيه أنَّ النِّكاحَ مِن سُنَّةِ المُرسَلينَ[٣]، وفي ذلك ترغيبٌ في النكاحِ وحضٌّ عليه، ونهيٌ عن التبتلِ، وهو تركُ النكاحِ[٤].

٢- استُدِلَّ على تفضيلِ النِّكاحِ على التَّخلي لنوافِلِ العبادةِ بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ اختار النِّكاحَ لأنبيائِه ورُسُلِه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).
قال ابن عاشور: (قد أرى اللهُ نبيَّه بعضَ ما توعَّدَ به المُشركينَ مِن الهلاكِ بالسَّيفِ يومَ بدرٍ، ويومَ الفتحِ، ويومَ حُنَين وغيرها من أيَّام الإسلامِ في حياةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولم يُرِه بعضَه، مثلَ عذابِ أهلِ الرِّدَّة؛ فإنَّ مُعظمَهم كانَ من المكذِّبينَ المُبطِنين الكُفرَ مثل: مسيلِمة الكذاب). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٧)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٧).

أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾، وقال في حقِّ آدمَ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، واقتطَعَ مِن زمَنِ كَليمِه عَشرَ سِنينَ في رعايةِ الغنَمِ مَهرًا للزَّوجةِ، ومعلومٌ مِقدارُ هذه السِّنينَ العَشرِ في نوافِلِ العباداتِ، واختار لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أفضَلَ الأشياءِ، فلم يُحِبَّ له تَركَ النِّكاحِ، بل زَوَّجَه بتِسعٍ فما فوقَهنَّ، ولا هَدْيَ فوقَ هَديِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ هذه الآيةُ صَريحةٌ في أنَّ كُلَّ شَيءٍ بقَضاءِ الله وبقَدَرِه، وأنَّ الأمورَ مَرهونةٌ بأوقاتِها[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ أنَّ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يهديَ النَّاسَ هِدايةَ الدَّلالةِ والإرشادِ؛ أمَّا هدايةُ التَّوفيقِ فليسَت على الرَّسولِ، ولا إلى الرَّسولِ؛ فالرَّسولُ لا يجبُ عليه أنْ يهديَهم؛ وليس بقُدرتِه ولا استطاعتِه أنْ يهديَهم، ولو كان بقُدرتِه أن يهديَهم لَهَدى عَمَّه أبا طالبٍ، ولكنَّه لا يستطيعُ ذلك؛ لأنَّ هذا إلى الله سُبحانه وتعالى وَحدَه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ترْكيبُ (ما كان) يدلُّ على المُبالَغةِ في النَّفيِ[٤].

- قولُه: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فيه الْتفاتٌ، حيثُ لم يقُلْ: (إلَّا بإذْنِنا) على نَسَقِ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (٣/ ٣٦٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٣).

﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿جَعَلْنَا﴾؛ لِتربيةِ المَهابةِ، ولِتَحقيقِ مَضمونِ الجُملةِ بالإيماءِ إلى العِلَّةِ[١].

- قولُه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ...﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّه أفادَ عُمومَ الآجالِ؛ فشَمِلَ أجَلَ الإتيانِ بآيةٍ مِن قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وذلك إبطالٌ لِتوهُّمِ المُشركينَ أنَّ تأخُّرَ الوعيدِ يَدُلُّ على عدَمِ صِدْقِه، وفي هذا الرَّدِّ تعريضٌ بالوعيدِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال في سُورةِ الرُّومِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الروم: ٤٧]؛ فقُدِّمَ الرُّسلُ على المجرورِ في سُورةِ الرَّعدِ، وورَدَ في سُورةِ الرُّومِ بتَقْديمِ المَجرورِ على الرسلِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ المُتقرِّرَ في الكتابِ العزيزِ أنَّه إذا ورَدَ اسمُ نَبيِّنا مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع غَيرِه مِن الرُّسلِ عليهم السَّلامُ مُفْصحًا بأسمائِهم في آيةٍ واحدةٍ؛ فإنَّه يتقدَّمُ اسْمُه ظاهرًا كان أو مُضْمرًا، ثمَّ يُذْكَرُ بعدَه مَن تَضمَّنَته الآيةُ منهم عليهم السَّلامُ، وجَمْعُ المذكَّرِ السَّالمُ مِن ألفاظِ العُمومِ عندَ الأُصوليينَ؛ فقولُه: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ يعُمُّ نَبيَّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وغيرَه مِن النَّبيِّينَ عليهم السَّلامُ. ثمَّ لمَّا أفصَحَ بمَن ذُكِرَ في الآيةِ مِن أُولي العزْمِ؛ إشعارًا بتَفضيلِهم على مَن سِواهم، بُدِئَ به عليه السَّلامُ، وقُدِّمَ المجرورُ في قولِه: ﴿مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ في سُورةِ الرُّومِ؛ لِمكانِ ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أمَّا آيةُ الرَّعدِ فمُوازِنٌ لها ومُناسِبٌ ما تَقدَّمَها مِن قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٤).

قَبْلِكَ ﴾ [الرعد: ٣٢]؛ فتأخَّرَ الضَّميرُ في الآيتَينِ للمُوازَنةِ والتَّقابُلِ، والثَّانيةُ منهما مَحمولةٌ على الأُولى في رَعْيِ ما ذُكِرَ، وإنَّما تأخَّرَ ضَميرُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الآيةِ الأُولى عن ذِكْرِ الرُّسلِ؛ لأنَّ ذِكْرَهم هنا عليهم السَّلامُ لم يَرِدْ مُعَرِّفًا بأحوالِهم وما مُنِحُوا مِن الاصطفاءِ والتَّكريمِ، وإنَّما ذُكِرَ هنا إساءةُ مُكذِّبي أُمَمِهم إليهم، ونَيْلُهم منهم ضُروبَ المَضرَّاتِ، وليس ذلك ممَّا يُعْرَفُ بِمَناصِبِهم في التَّفضيلِ، وإنَّما ذُكِرَ ذلك؛ لِيَتأسَّى بهم نَبِيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الصَّبرِ والتَّحمُّلِ، ولِيَقْتَدِيَ بِهُداهم، ثمَّ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم السِّيادةُ المَعروفةُ والمكانةُ المُتقرِّرةُ؛ فَتَقَدُّمُ ذِكْرِهم في قولِه: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [الرعد: ٣٢]، وتأخيرُ ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِمَا ذُكِرَ، ثمَّ ورَدَتِ الآيةُ بعدُ؛ فجَرَى الإخبارُ فيها على ذلك؛ إحرازًا للمُناسَبةِ والمُوازنةِ أيضًا؛ فليس ذِكْرُهم مُجْملًا غيرَ مُفصَّلٍ كذِكْرِهم على التَّعيينِ بأَسمائِهم(١).

٢- قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ جُملةَ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ تقْتَضي أنَّ الوعيدَ كائنٌ، وليس تأْخيرُه مُزيلًا له(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾

- قولُه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ أصْلُه (إنْ نُرِكَ)، و(ما) مَزيدةٌ؛

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٨٣-٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٤).

لِتأكيدِ معنى الشَّرطِ، ومِن ثمَّةَ أُلْحِقَتِ النُّونُ بالفعْلِ[١].

- والعُدولُ إلى صِيغَةِ الاستقبالِ ﴿نَعِدُهُمْ﴾؛ لاستحضارِ الصورةِ، أو للدلالةِ على التجدُّدِ والاستمرارِ؛ أي: نَعِدُهم وعدًا مُتجدِّدًا حسَبَما تقْتَضيه الحِكمةُ مِن إنذارٍ غِبَّ إنذارٍ[٢].

- وفي الإتيانِ بكلمةِ (بَعْضَ) رَمْزٌ إلى إرادةِ بعضِ الموعودِ، وإيماءٌ إلى أنَّه يرى البعْضَ، وفي هذا إنذارٌ لهم بأنَّ الوعيدَ نازلٌ بهم ولو تأخَّرَ[٣].

- قولُه: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ جُعِلُ التَّوفِّي كِنايةً عن عدَمِ رُؤيةِ حُلولِ الوعيدِ، بقَرينةِ مُقابَلتِه بقولِه: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾[٤].

- قولُه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ (إنَّما) للحصْرِ، والمحصورُ فيه هو البلاغُ؛ لأنَّه المُتأخِّرُ في الذِّكْرِ مِن الجُملةِ المدخولةِ لِحرْفِ الحَصْرِ، والتَّقديرُ: عليك البَلاغُ لا غيرُه؛ مِن إنزالِ الآياتِ، أو مِن تَعجيلِ العَذابِ؛ ولهذا قُدِّمَ الخبَرُ على المُبتدأِ؛ لِتَعيينِ المحصورِ فيه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٧٠).

الآيات (٤١-٤٢)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿أَطْرَافِهَا﴾: أي: جَوانِبِها ونَواحيها، وأصلُ (طرف): يدُلُّ على حَدِّ الشَّيءِ وحَرْفِه[1].

﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾: أي: لا رادَّ لحكمِه، ولا يتعَقَّبُه أحَدٌ بتغييرٍ ولا نَقضٍ، والمُعَقِّبُ: الذي يَتْبَعُ الشَّيءَ فيَستَدرِكُه، وأصلُ (عقب): يدلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعد غَيرِه[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: أوَلم يَرَ هؤلاءِ الكُفَّارُ أن الله ينصُرُ المُسلِمينَ، ويفتَحُ لهم ديارَ المُشرِكينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، واللهُ سُبحانَه يحكُمُ ويقضي في خَلقِه بما يشاءُ لا نقضَ لحُكمِه ولا تغييرَ، وهو سبحانه سريعُ الحِسابِ.

وقد مكرَ الذين مِن قَبلِ مُشرِكي العرَبِ برُسُلِهم، وكفروا بهم، وأرادوا إخراجَهم مِن بلادِهم، فمكَرَ اللهُ بهم، وانتَقم منهم، فلِلَّه المكرُ كلُّه، فأسبابُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٦)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ٢١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥).

بِيَدِه، يعلَمُ ما تعملُ كُلُّ نفسٍ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وسيُجازيها على ما عمِلت، وسيعلَمُ الكُفَّارُ- يوم القيامة لِمَن تكونُ عاقِبةُ الدار الآخرة.

ويقولُ الذين كفروا لك -يا محمَّدُ-: لستَ رَسولًا مِن عندِ اللهِ، قُلْ لهم: يكفيني اللهُ شاهدًا بصِدقي وكَذِبكم، ومَن عِندَه عِلمُ التَّوراةِ والإنجيلِ مِن اليهودِ والنَّصارى، فإنَّهم يشهدونَ لي أنِّي رسولٌ مِن عندِ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وعَدَ اللهُ تعالى رسولَه بأنْ يُريَه بعضَ ما وُعِدوه أو يتوفَّاه قبلَ ذلك؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ آثارَ حُصولِ تلك المواعيدِ وعلاماتِها قد ظهَرَت وقَوِيَت، فقال تعالى[1]:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾.

أي: أوَلم يَنظُرِ الكُفَّارُ أنَّا ننصُرُ المُسلِمينَ، ونفتَحُ لهم ديارَ المُشرِكينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، فنَنقُصُ دارَ الكُفَّارِ، ونَزيدُ في دارِ الإسلامِ؟ أفلا يعتَبِرونَ بذلك فيخافونَ ظُهورَهم على أرضِهم، وقَهرِهم إيَّاهم[2]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٥١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٧، ٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٨).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، والزجَّاج، والزمخشري، وابنُ كثير، ونسبه البغويُّ إلى أكثرِ المفسِّرين. يُنظر: المصادر السابقة.

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، والضحَّاكُ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠١).

قال ابنُ عطية: (وهذا... القَولُ لا يتأتَّى إلَّا بأن نقدِّرَ نزولَ هذه الآيةِ بالمدينةِ، ومن قال: إنَّ الأرضَ اسمُ جِنسٍ جعَلَ الانتقاصَ مِن الأطرافِ بتخريبِ العُمرانِ الذي يُحِلُّه اللهُ بالكفرة- هذا قولُ ابنِ عباسٍ أيضًا ومجاهدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٩).

وقال ابن عاشور: (الرؤيةُ يجوزُ أن تكونَ بصريةً. والمرادُ: رؤيةُ آثارِ ذلك النقصِ، ويجوزُ أن تكونَ علميةً، أي: ألم يعملوا ما حلَّ بأرضي الأممِ السابقةِ مِن نقصٍ. وتعريفُ الأرضِ تعريفُ الجنسِ، أي: نأتي أيةَ أرضٍ مِن أرضي الأممِ... وذهَب كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ إلى أنَّ المرادَ بالأرضِ أرضُ الكافرين مِن قُريشٍ، فيكونُ التَّعريفُ للعهد، وتكونُ الرؤية بصريةً، ويكونُ ذلك إيقاظًا لهم لِما غَلَب عليه المسلمون مِن أرضِ العدُوِّ فخَرَجت مِن سلطانِه، فتَنقُص الأرضُ التي كانت في تصرُّفِهم، وتزيدُ الأرضُ الخاضعةُ لأهلِ الإسلامِ. وبنوا على ذلك أنَّ هذه الآيةَ نزلت بالمدينةِ، وهو الذي حمَل فريقًا على القولِ بأنَّ سورة الرعد مدنيَّة، فإذا اعتُبِرَت مدنيَّةً صحَّ أنْ تفَسَّرَ الأطرافُ بطرفينِ، وهما مكةُ والمدينةُ؛ فإنَّهما طرفا بلادِ العربِ، فمكَّةُ طَرَفُها مِن جهةِ اليمنِ، والمدينةُ طرَفُ البلادِ مِن جهةِ الشامِ، ولم يزَلْ عددُ الكفَّار في البلدينِ في انتقاصٍ بإسلامِ كُفَّارِها، إلى أن تمحَّضَت المدينةُ للإسلامِ، ثم تمحَّضت مكَّةُ له بعدَ يومِ الفتحِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧١-١٧٢).

وقال ابن كثير: (﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الأنبياء: ٤٤] اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ... وَأَحْسَنُ مَا فُسِّرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الْأَحْقَافِ:٢٧]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٥).

قال الشِّنقيطيُّ في تفسيرِ نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الأنبياءِ، وهي قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]: (ما ذكره ابنُ كثيرٍ صَوابٌ، واستقراءُ القُرآنِ العَظيمِ يدُلُّ عليه، وعليه فالمعنى: أفلا يرى كُفَّارُ مكَّةَ ومَن سار سَيرَهم في تكذيبِك -يا نبيَّ اللهِ- والكُفرِ بما جئتَ به: أنَّا نأتي الأرضَ نَنقُصُها من أطرافِها، أي: بإهلاكِ الذين كذَّبوا الرُّسُلَ، كما أهلَكْنا قَومَ صالحٍ وقَومَ لوطٍ، وهم يمُرُّونَ بديارِهم، وكما أهلَكْنا قومَ هودٍ، وجعَلْنا سبأً أحاديثَ ومَزَّقْناهم كُلَّ مُمَزَّقٍ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٥٧-١٥٨).

أي: واللهُ هو الذي يقضي في خَلقِه بما يشاءُ، ويُعاقِبُ مَن يشاءُ، ولا يُبطِلُ أحدٌ حُكمَه بردٍّ أو نقضٍ أو تغييرٍ، فما حكَمَ اللهُ به مِن العِقابِ لا يُبطِلُه أحدٌ، وهو واقِعٌ ولو تأخَّرَ(١).

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي: والله سريعٌ مجيءُ حسابِه، ومجازاتِه لعبادِه، وهو واقعٌ لا محالةَ، لا يدفعُه دافعٌ، فلا يَسْتعجلوا بالعذابِ؛ فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ(٢).

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٢).

قال السَّعدي: (ويدخُلُ في هذا حُكمُه الشَّرعيُّ والقَدَريُّ والجزائيُّ، فهذه الأحكامُ التي يحكُمُ الله فيها، توجَدُ في غايةِ الحِكمةِ والإتقانِ، لا خلَلَ فيها ولا نقْصَ، بل هي مبنيَّةٌ على القِسطِ والعَدلِ والحَمد، فلا يتعقَّبُها أحد، ولا سبيلَ إلى القَدحِ فيها، بخلافِ حُكمِ غَيرِه؛ فإنَّه قد يوافِقُ الصَّوابَ، وقد لا يوافِقُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٣).

وقد تقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الجملةِ في سورة آل عمران، الآية (١٩) مِن ((التفسير المحرر)) (٢/ ١٠١).

قال ابنُ كثيرٍ في نظيرِ هذه الآيةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١] قال: (يحتملُ أنْ يكونَ كقولِه تعالَى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ويحتملُ أنَّه في حالِ محاسبتِه لعبدِه سريعُ النَّجازِ؛ لأنَّه يعلمُ كلَّ شيءٍ، ولا يخفَى عليه خافيةٌ، وإنَّ جميعَ الخلقِ بالنِّسبةِ إلى قدرتِه كالواحدِ مِنهم، كقولِه تعالَى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنَى قولِ مجاهِدٍ: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إحصاءً. ويحتملُ أنْ يكونَ المعنيانِ مرادينِ، واللَّهُ أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٣) ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٢٣٥).

أي: وقد مكرَ الذين مِن قَبلِ مُشرِكي العرَبِ برُسُلِهم، وكفروا بهم وكادُوا لهم، وأرادوا إخراجَهم مِن بلادِهم، فمكَرَ اللهُ بهم، وانتَقم منهم، وجعَل العاقبةَ لعِبادِه المتَّقينَ(١).

كما قال سبُحانه: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ * فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ * فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥٠ - ٥٢].

وقال تعالى: ﴿ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وقال سُبحانه: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾ [نوح: ٢٢].

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗا﴾.

أي: فلِلَّه المكرُ كُلُّه؛ لأنَّ أسبابَ المَكرِ بيَدِه، ومكْرُ الكفَّارِ مخلوقٌ لا يضُرُّ إلَّا بعد إذنِه، فكذلك هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُريشٍ يمكُرونَ بك يا محمَّدُ، واللهُ مُنَجِّيك مِن مَكرِهم، ومُلحِقٌ ضَرَّ مَكرِهم بهم دونَك(٢).

﴿ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖ ﴾.

أي: يعلَمُ اللهُ ما تعمَلُ كُلُّ نَفسٍ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وسيُجازيها على جميعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

أعمالِها؛ الظَّاهرةِ والباطنةِ، ومِن ذلك عِلمُه بما يعمَلُ هؤلاء المُشرِكونَ مِن قَومِك -يا محمَّدُ- وما يَسْعَون فيه مِن المَكرِ بك[(١)].

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

أي: وسيَعلمُ الكُفَّارُ يومَ القيامةِ لِمن تكونُ عاقبةُ الدارِ الآخرةِ حينَ يَدْخلون النارَ، ويدخلُ المؤمنونَ الجنةَ[(٢)]؟

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقدَّمَ قَولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ [الرعد: ٢٧]، عطَفَ عليه -بعدَ شَرحِ ما استَتبَعَه- قَولَه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾؛ لِكَونِك لا تأتي بمُقتَرَحاتِهم، مع أنَّه لم يَقُلْ يَومًا: إنَّه قادِرٌ عليها، فكأنَّه قيل: فما أقولُ لهم؟ فقال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا﴾[(٣)].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾.

أي: ويقولُ لك الكُفَّارُ -يا مُحمَّدُ- تكذيبًا بنُبوَّتِك: لستَ رَسولًا مِن عندِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٩).

قال ابن كثير: (﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: لمنْ تكونُ الدائرةُ والعاقبةُ، لهم أو لأتباعِ الرسلِ؟ كلَّا بل هي لأتباعِ الرسلِ في الدُّنيا والآخرةِ، ولله الحمدُ والمنةُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٣).

وقال الشوكاني: (لِمَن العاقبةُ المحمودةُ مِنَ الفريقينِ في دارِ الدُّنيا، أوْ في الدَّارِ الآخرةِ، أوْ فيهما). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٨). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٦٧).

اللهِ[(١)]!

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

أي: قلْ لهم -يا محمَّدُ-: يكفيني اللهُ شاهِدًا عليَّ وعليكم بصِدقي وكَذِبِكم[(٢)].

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

أي: وأهلُ الكتابِ الذين عِندَهم عِلمُ التَّوراةِ والإنجيلِ؛ فإنَّهم يشهدونَ لي أنِّي رسولٌ مِن عندِ اللهِ، فيَشهدونَ أنَّ الأنبياءَ السَّابقينَ أتَوا بمِثلِ ما أتيتُ به؛ كالأمرِ بعبادةِ اللهِ وَحدَه، والنَّهيِ عن الشِّركِ، والإخبارِ بيومِ القيامةِ والشَّرائعِ الكُلِّية، ويشهدونَ أيضًا بما وردَ في كتُبِهم مِن ذِكرِ صِفاتِي وبِشاراتِ الأنبياءِ بي[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٣).

قال السعدي: (وشهادتُه: بقَولِه وفِعلِه وإقرارِه؛ أمَّا قولُه: فبما أوحاه اللهُ إلى أصدقِ خَلقِه ممَّا يُثبِتُ به رسالتَه. وأما فِعلُه: فلأنَّ الله تعالى أيَّد رسولَه ونصَرَه نصرًا خارجًا عن قدرتِه وقُدرةِ أصحابِه وأتباعِه، وهذا شهادةٌ منه له بالفعلِ والتأييد. وأمَّا إقراره: فإنه أخبَرَ الرسولُ عنه أنَّه رسولُه، وأنَّه أمر الناسَ باتِّباعه، فمَن اتَّبَعه فله رضوانُ الله وكرامتُه، ومن لم يتَّبِعْه فله النَّارُ والسَّخَط، وحلَّ له مالُه ودَمُه، والله يُقِرُّه على ذلك، فلو تقوَّلَ عليه بعضَ الأقاويلِ لعاجَلَه بالعقوبةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٩٢)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٠).

قال الرسعني: (قال جمهورُ المفسِّرين: الذي عندَه علمُ الكتابِ؛ عبدُ الله بنُ سلَامٍ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٠١).

وممن قال به من السلفِ: الحسنُ، ومجاهدٌ، وعِكرمةُ، وابنُ زيدٍ، وابنُ السائبِ، ومُقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠٢).

لكن قال ابنُ كثيرٍ: (وهذا القولُ غريبٌ؛ لأنَّ هذه الآيةَ مكِّيَّةٌ، وعبدَ اللَّهِ بنَ سلَامٍ إنَّما أسلَم في

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

وقال سُبحانه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿... وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٦- ١٥٧].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ لكَمالِ حِكمتِه وعِلمِه وعِزَّتِه- سُبحانَه- لا مُعَقِّبَ لحُكمِه، ولا يُعتَرَضُ عليه بالسُّؤالِ؛ لأنَّه لا يَفعَلُ شَيئًا سُدًى، ولا خلَقَ شَيئًا عَبَثًا، وإنَّما يُسألُ عن فِعلِه مَن خرجَ عن الصَّوابِ،

أوَّلِ مقدَمِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم المدينةَ. والأظهرُ في هذا ما قاله العوفيُّ، عن ابنِ عبَّاسٍ قال: هم مِنَ اليهودِ والنَّصارى... وكان سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ ينكرُ أنْ يكونَ المرادُ بها عبدُ اللَّهِ ابنُ سلَامٍ، ويقولُ: هي مكِّيَّةٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٣).

وقال ابنُ عاشور: (ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بـ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ معيَّنًا، فهو ورقةُ ابنُ نوفل إذ علِم أهلُ مكةَ أنَّه شهِد بأنَّ ما أُوحي به إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم هو الناموسُ الذي أُنزِل على موسَى عليه السلامُ، كما في حديثِ بدءِ الوحيِ في الصحيحِ. وكان ورقةُ منفردًا بمعرفةِ التوراةِ والإنجيلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٦).

وقيل: المرادُ بـ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الله عزَّ وجلَّ. وهو قولُ الحَسَنِ، وسعيدِ بنِ جُبير، والزجَّاج، والبقاعي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٥١)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٦٨).

وقِيل: المعنَى مَن عندَه علمُ القرآنِ، وهم الراسخونَ في العلم، المدركونَ بلاغةَ القرآنِ وفصاحتَه وافتنانَ أساليبِ خطابِه. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٦)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٠٢).

ولم يَكُنْ فيه مَنفعةٌ ولا فائِدةٌ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ فيه سؤالٌ: كيف أثبَتَ لهم مكرًا، ثمَّ نفاه عنهم بقَولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾؟

الجوابُ: معناه أنَّ مكرَ الماكرينَ مخلوقٌ له، ولا يضُرُّ إلَّا بإرادتِه؛ فإثباتُه لهم باعتبارِ الكَسبِ، ونفيُه عنهم باعتبارِ الخَلقِ[٢]، وقيل: وصَفهم بالمكْرِ، ثمَّ جعَل مكْرَهم كَلَا مَكْرٍ بالإضافةِ إلى مَكْرِه؛ فقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، ثمَّ فسَّرَ ذلك بقولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾؛ لأنَّ مَن علِمَ ما تكسِبُ كلُّ نفْسٍ، وأعَدَّ لها جزاءها، فهو المكْرُ كلُّه؛ لأنَّه يأتيهم مِن حيث لا يعلَمونَ، وهم في غفلةٍ ممَّا يُرادُ بهم[٣]، وقيل: سمَّاها (مكرًا) على عُرفِ تسميةِ المعاقبةِ باسمِ الذنبِ[٤].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إنَّما أمَرَ اللهُ باستشهادِ أهلِ الكتابِ؛ لأنَّهم أهلُ هذا الشَّأنِ، وكلُّ أمرٍ إنَّما يُستشهَدُ فيه أهلُه، ومَن هم أعلَمُ به مِن غَيرِهم، بخلافِ مَن هو أجنبيٌّ عنه، كالأمِّيِّين مِن مشركي العرَبِ وغيرِهم، فلا فائدةَ في استشهادِهم؛ لعدمِ خِبرتِهم ومعرفتِهم، واللهُ أعلمُ[٥].

٤- قال الله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فمَن عنده عِلْمُ الكتابِ فإنه يَشهدُ بما في الكِتابِ الأوَّلِ، وهذا يُوجِبُ تصديقَ الرَّسولِ؛ لأنَّه يَشهدُ بالمِثْلِ، ويَشهدُ أيضًا بالعَينِ، وكُلٌّ مِن الشَّهادتينِ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٧٤).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢٠).

كافيةٌ، فمتى ثَبَتَ الجنسُ عُلِمَ قطعًا أنَّ المُعَيَّنَ منه[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ دَلالةٌ على أنَّه ما كان مِن العِلْمِ المَوروثِ عن نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلنا أنْ نستشهِدَ عليه بما عند أهلِ الكِتابِ[٢].

٦- من الحجج المفيدة عند المناظرة أن تحتج على الطائفة بقول بعض علمائِها؛ قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، والواوُ للعطْفِ على مُقَدَّرٍ يَقتَضيهِ المَقامُ، أي: أَأَنْكَروا نُزولَ ما وعَدْناهم، أو أَشَكُّوا، أو أَلَمْ ينْظُروا في ذلك ولم يَرَوا، والضَّميرُ عائدٌ إلى المُكذِّبينَ العائدِ إليهم ضميرُ ﴿نَعِدُهُمْ﴾، والكلامُ تهديدٌ لهم بإيقاظِهم إلى ما دَبَّ إليهم مِن أشباحِ الاضمحلالِ بإنقاصِ الأرضِ، أي: سُكَّانِها[٤]، وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

- قولُه: ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ في لفْظِ (الإتيانِ) المُؤْذِنِ

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٤٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير سورة العنكبوت)) لابن عثيمين (ص: ٢٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧١).

بالاستِواءِ المحتوم، والاستيلاءِ العظيم: مِن الفَخامةِ ما لا يَخْفى، كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[1] [الفرقان: ٢٣].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ جُملةٌ اعتراضيَّةٌ جِيءَ بها لِتأْكيدِ فَحْوى ما تَقدَّمَها، وفيه الْتفاتٌ بَليغٌ مِن التَّكلُّم إلى الغَيبةِ، حيثُ أظهَرَ اسمَ الجَلالةِ بعدَ الإضمارِ الذي في قولِه: ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾، فرجَعَ عن خِطابِ النَّفْسِ إلى الغَيبةِ، وبناءُ الحُكمِ على الاسمِ الجليلِ يَنْطَوي على أعظَمِ الأسرارِ وأبهَرِها؛ ففيه دَلالةٌ على الفَخامةِ، وتربيةِ المَهابةِ، وتَحقيق مَضْمونِ الخبَرِ بالإشارةِ إلى العِلَّةِ، وكذلك فيه تَذكيرٌ بما يَحتوي عليه الاسمُ العظيمُ مِن معنى الإلهيَّةِ والوَحدانيةِ المقتضيةِ عَدمَ المنازِعِ، وأيضًا لتكونَ الجملةُ مُستقِلَّةً بنَفْسِها؛ لأنَّها بمَنزلةِ الحِكمَةِ والمَثَلِ[2].

- وقولُه: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ اعتراضٌ في اعتراضٍ؛ لِبيانِ عُلُوِّ شأْنِ حُكمِه جلَّ جلالُه[3].

- قولُه: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ كِنايةٌ عنِ الجَزاءِ[4].

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ هذا تَسليةٌ لِرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه لا عِبْرَةَ بمَكْرِهِم ولا تأثيرَ، بل لا وجودَ له في الحقيقةِ، ولم يُصرِّحْ بذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٢- ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٣).

اكتفاءً بدَلالةِ القصْرِ المُستفادِ مِن تعليلِه، أي: قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾[١].

- وتقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ للاختِصاصِ، أي: لهُ لا لغيرِه؛ فالقصْرُ في قولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾ ادِّعائيٌّ، والعُمومُ في قولِه: ﴿جَمِيعًا﴾ تنزيليٌّ؛ بتنزيلِ مكرِ غيرِ الله منزِلةَ العدَمِ[٢].

- قولُه: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ كالتَّفسيرِ لِمكْرِ اللهِ تعالى بهم، واللَّامُ تدلُّ على أنَّ المُرادَ بالعُقْبى العاقبةُ المحمودةُ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه إيثارُ صِيغَةِ الاستقبالِ (يقول)؛ لاستحضارِ صورةِ كلمَتِهم الشَّنعاءِ؛ تعجُّبًا منها، أو للدَّلالةِ على تجدُّدِ ذلك، واستمرارِه منهم[٤].

- قولُه: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا﴾ الباءُ الدَّاخِلةُ على اسمِ الجلالةِ، الَّذي هو فاعلُ (كفى) في المعنى؛ للتَّأكيدِ، وأصْلُ التَّركيبِ: كفى اللهُ[٥].

- والموصولُ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يَجوزُ أنْ يُرادَ به جنْسُ مَن يتَّصِفُ بالصِّلةِ، وإفرادُ الضَّميرِ المُضافِ إليه -لـ (عند)-؛ لِمُراعاةِ لفْظِ (مَن)[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٧٦).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسِيرُ

سُورَةِ إبراهيمَ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ إبراهيمَ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسورةِ (إبراهيم)[١].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ إبراهيمَ مكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِي الإجماعُ على كونِها مكيةً إلا آيةً منها، وقِيل: إلا آيتينِ[٣].

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مقاصدِ هذه السورةِ:

التذكيرُ بنِعَمِ الله على الناسِ، وتحريضُهم على شُكرِها، وتحذيرُهم مِن

---

(١) سُمِّيَتِ السُّورةُ بذلك؛ لِتَضمُّنِها قِصَّةَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وما كان مِن إسكانِه ولَدَهُ إسماعيلَ بوادٍ غيرِ ذي زرْعٍ، وشُكْرِه للهِ تعالى على ما أنعَمَ عليه مِنَ الولدَينِ: إسماعيلَ وإسحاقَ. يُنظر: ((بصائر ذوي التَّمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٦٨).

قال ابنُ عاشور: (ووَجْهُ تَسْميَتِها بهذا -وإنْ كان ذِكْرُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ جَرى في كَثيرٍ مِنَ السُّورِ- أنَّها مِنَ السُّورِ ذَواتِ «الر»، وقد مُيِّزَ بَعضُها عن بَعضٍ بالإضافةِ إلى أسماءِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ الَّتي جاءت قِصَصُهم فيها، أو إلى مَكانِ بَعثةِ بَعضِهم، وهي سُورةِ «الحِجْرِ»؛ ولذلك لم تُضَفْ سُورةُ الرَّعدِ إلى مِثْلِ ذلك؛ لأنَّها مُتميِّزةٌ بفاتِحتِها بزيادةِ حَرْفِ ميمٍ على ألْفٍ ولامٍ وراءٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٧).

وقد جاءتْ بَعضُ الآثارِ عنِ السَّلفِ فيها تَسميةُ هذه السُّورةِ بسُورةِ إبراهيمَ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٨)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٢).

(٣) قال ابنُ الجوزي: (سورة إبراهيم وهي مكيَّةٌ مِن غيرِ خلافٍ عَلِمناه بينهم، إلَّا ما رُوي عن ابن عباس، وقتادة أنَّهما قالا: سوى آيتينِ منها، وهما قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] والتي بعدها). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠٣).

وقال الفيروزابادي: (السورةُ مكيةٌ إجماعًا، غيرَ آيةٍ واحدة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]). ((بصائر ذوي التمييز)) (١/ ٢٦٨).

جُحودِها وكفرِها[١].

موضوعاتُ السُّورةِ:

من أهمِّ الموضوعاتِ التي تناولَتْها هذه السُّورةُ:

١- ذِكرُ القُرآنِ الكريمِ، وأنَّه كِتابُ هدايةٍ وبَيانٍ، وذِكرُ مُلْكِ الله سُبحانه للسَّمواتِ والأرضِ، وأنَّه أرسَلَ الرُّسُلَ بلِسانِ قَومِهم؛ لِيُبَيِّنوا لهم مُرادَ الله سُبحانَه.

٢- ذِكرُ قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ، ونِعمةِ اللهِ على قَومِه إذ أنجاهم مِن آلِ فِرعونَ، وذكرُ أخبارِ بعضِ الأنبياءِ مع أقوامِهم، ونماذجَ مِن المحاوراتِ التي دارتْ بينَ الرسلِ وبينَ مَن أُرسِلوا إليهم، وجزاءِ اللهِ تعالى للظَّالمينَ المكَذِّبين.

٣- المحاجَّةُ بين أهلِ النَّارِ الضُّعَفاءِ والذين استكبَروا، ومجادلةُ الشَّيطانِ لهم في النَّارِ، ثمَّ ذِكرُ حالِ أهلِ الجنَّةِ وما لهم من النَّعيمِ المُقيم، ثم ذِكرُ مثَلٍ لكلمتَيِ الإيمانِ والكفرِ، ثمَّ ذِكْرُ حالِ الكُفَّارِ؛ فقد بدَّلوا نِعمةَ اللهِ كُفرًا، وأحَلُّوا قَومَهم دارَ البَوارِ، وذِكرُ المؤمنينَ الذين لم يُبَدِّلوا نعمةَ اللهِ كُفرًا، وأقاموا الصَّلاةَ، وأنفَقوا ممَّا رزقهم الله سرًّا وعلانيَةً.

٤- ذِكرُ بعض نِعَمِ الله تعالى على خَلقِه.

٥- خبرُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وعبادتِه لله سبحانِه وتَركِه لعبادةِ الأصنام، ودَعوتِه لذُرِّيَّته بسَعةِ الرِّزقِ، وتَضَرُّعه إلى اللهِ سبحانه، ثمَّ بيَّنَ مُهِمَّةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهي النِّذارةُ بيومِ القيامةِ.

٦- وخُتِمت السورةُ بآياتٍ فيها مِن التحذيرِ والوعيدِ، وذِكرِ أنواعٍ مِن العذابِ مما أعدَّه للظالمين، وذَكَر سُبحانَه أنَّه في يومِ القِيامةِ يكونُ الجزاءُ، فتُجزَى فيه

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٧/ ٥٠٧).

كلُّ نفسٍ بما كسَبَت، فهو سريعُ الحِسابِ.

الآيات (١-٢)

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾.

المعنى الإجماليُّ:

افتُتِحَت هذه السورةُ العظيمة بالحروف المقطَّعة؛ لبيان إعجاز القرآن؛ إذ تُبرِزُ عجزَ الخَلْق عن معارضته بالإتيان بشيءٍ من مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّة التي يتحدَّثون بها!

ثُمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ هذا القُرآنَ كتابٌ أنزله إلى رَسولِه الكريم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليُخرِجَ به البشَرَ مِن الكُفرِ والجَهلِ والمعاصي إلى نورِ الإيمانِ والعِلمِ والطَّاعةِ -بإذنِ رَبِّهم وتوفيقِه لهم- إلى طريقِ الحَقِّ الواضحِ المُستقيمِ الذي نصَبَه اللهُ لعبادِه، وجَعَله مُوصِلًا إلى العزيزِ الحميدِ؛ اللهِ الذي له ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ؛ وويلٌ للذين كفروا مِن عذابٍ شَديدٍ ينالُهم يومَ القيامةِ. وهؤلاءِ الكافِرونَ هم الذين يختارونَ الحياةَ الدُّنيا الفانيةَ، ويَترُكونَ الآخِرةَ الباقيةَ، ويَصْرِفونَ النَّاسَ عن اتِّباعِ دِينِ اللهِ، ويُريدونَه طَريقًا مُعوَجًّا؛ ليُوافِقَ أهواءَهم، أولئك في ضلالٍ بعيدٍ عن الحقِّ.

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ * ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

لفظُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾: بدلٌ مُطابِقٌ[1] مِن ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ مجرورٌ، وقُرِئَ بالرفعِ

(١) ولا يصِحُّ أن يُعربَ صِفةً لِما قبلَه؛ لأنَّه علَمٌ، والعلَمُ لا يوصَفُ به. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ١٧٣).

على أنَّه خبرٌ لِمُبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو الله، و ﴿ٱلَّذِى﴾ صِفةٌ لاسمِ الجلَالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ أو على أنه مبتدأٌ وخبرُه الموصولُ وصلتُه. وقيلَ غيرُ ذلك[١].

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾.

﴿الٓرۚ﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ البَقَرةِ[٢].

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾.

أي: هذا القُرآنُ كتابٌ عظيمٌ أنزَلْناه إليك- يا مُحمَّدُ- لتُخرِجَ به النَّاسَ- عرَبَهم وعَجَمَهم- مِن ظُلماتِ الكُفرِ والجَهلِ والمعاصي إلى نورِ الإيمانِ والعِلمِ والطَّاعةِ، وذلك بإرادةِ اللهِ تعالى وتوفيقِه لهم؛ فهو الهادي لِمَن قدَّرَ له الهدايةَ على يَدَي رسولِه المبعوثِ عن أمرِه سُبحانَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سُبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

وأيضًا فإنَّ جميعَ الأسماءِ تأتي تابعةً لهذا الاسمِ العظيمِ، ولايأتي تابعًا لها إلَّا في هذه الآيةِ، لكنَّه هنا بدلٌ، وليس صفةً. يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٢٤).

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٦٦-٦٧).

(٢) يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ البقرةِ (١/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤١).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠].

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

أي: لتُخرِجَ النَّاسَ مِن الظُّلماتِ إلى النُّورِ الذي هو طريقُ الحَقِّ الواضحِ المُستقيمِ الذي نصَبَه اللهُ لعبادِه، وجَعَله مُوصِلًا إلى العزيزِ الذي لا يُمانَعُ ولا يُغالَبُ، المُستحِقِّ وَحدَه لكمالِ الحَمدِ في جميعِ أقوالِه وأفعالِه، وشَرعِه وقَدَرِه[1].

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢﴾.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: أنزَلْنا إليك القُرآنَ؛ لتدعوَ النَّاسَ إلى سُلوكِ صِراطِ العزيزِ الحميدِ؛ اللهِ المُستحِقِّ للعبادةِ وَحدَه، الذي مِن صِفتِه أنَّه يَملِكُ جميعَ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، والخَلقُ كُلُّهم مِلكُه وعَبيدُه[2].

﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لمَّا أفاد قولُه: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ * ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تعريضًا بالمُشركينَ، عُطِفَ الكلامُ إلى تَهديدِهم وإنذارِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١١، ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١).

بقولِه[١]:

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

أي: وَهَلاكٌ وشِدَّةٌ[٢] لِمَن كَفَروا باللهِ وبِرَسولِه، مِن عذابٍ شديدٍ ينالُهم في الآخرةِ[٣].

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: وويلٌ للكافرينَ الذين يحِبُّونَ الحياةَ الدُّنيا، ويَختارونَها ويُؤْثِرونَها على الآخرةِ، فَرَضُوا واطمأنُّوا بها، وغَفَلوا عن الأعمالِ الصالحةِ التي تنفَعُهم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٣).

(٢) قال ابن عطية: (وقوله: ﴿وَوَيْلٌ﴾ معناه: وشِدَّةٌ وبَلاءٌ ونحوُه. أي: يلقَونَه من عذابٍ شديدٍ ينالُهم اللهُ به يوم القيامة، ويحتملُ أن يريدَ في الدنيا، هذا معنى قوله: ﴿وَوَيْلٌ﴾. وقال بعضهم: «وَيْلٌ» اسمُ وادٍ في جهنَّمَ يسيلُ مِن صَديدِ أهلِ النَّارِ. قال القاضي أبو محمد: وهذا خبرٌ يَحتاجُ إلى سنَدٍ يقطَعُ العُذرَ، ثمَّ لو كان هذا لَقَلِقَ تأويلُ هذه الآيةِ؛ لقوله: ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾، وإنما يحسُنُ تأوُّلُه في قولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] وما أشبَهَه، وأمَّا هنا فإنَّما يحسُنُ في ﴿وَيْلٌ﴾ أن يكونَ مصدرًا، ورَفْعُه على نحوِ رَفعِهم: سَلامٌ عليك، وشِبهِه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٢٢).

وقال الشنقيطي: (كلمةُ ﴿وَوَيْلٌ﴾، قال فيها بعضُ أهلِ العلم: إنَّها مصدرٌ لا فعلَ له مِن لَفظِه، ومعناه الهلاكُ الشَّديدُ، وقيل: هو وادٍ في جهنَّمَ تستعيذُ مِن حَرِّه، والذي سوَّغَ الابتداءَ بهذه النَّكرةِ أنَّ فيها معنى الدُّعاءِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٥٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٧٢-٣٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٣).

وفسَّره ابنُ جريرٍ بأنَّه الوادي الذي يسيلُ مِن صديدِ أهلِ جهنمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٠-٥٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٠، ٥٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٦، ٤٧٧).

الدارِ الآخرةِ[١].

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾.

أي: ويَصْرِفونَ النَّاسَ عن دينِ اللهِ، ويُريدونَ أن يكونَ مائِلًا عن الحَقِّ المُستقيمِ، بتَحريفِه وتبديلِه وغيرِ ذلك؛ لموافقةِ أهوائِهم وقَضاءِ أغراضِهم، ومنها تنفيرُ النَّاسِ عن طريقِ الحَقِّ[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾.

أي: أولئك الكُفَّارُ- الموصوفونَ بهذه الصِّفاتِ- في ذَهابٍ بعيدٍ عن الحَقِّ[٣].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ هذه الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ طُرُقَ الكُفرِ والبدعةِ كَثيرةٌ، وأنَّ طَريقَ الخيرِ ليس إلَّا الواحِد؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فعبَّرَ عن الجهلِ والكُفرِ بالظُّلماتِ، وهي صيغةُ جَمعٍ، وعبَّرَ عن الإيمانِ والهدايةِ بالنُّورِ، وهو لفظٌ مُفردٌ، وذلك يدُلُّ على أنَّ طُرُقَ الجَهلِ كثيرةٌ، وأمَّا طريقُ العِلمِ والإيمانِ فليس إلَّا الواحِد[٤].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: لا يحصُلُ منهم المرادُ المحبوبُ لله إلَّا بإرادةٍ مِن اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٥٨).

ومَعُونةٍ؛ ففيه حثٌّ للعبادِ على الاستعانةِ برَبِّهم[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ في ذِكرِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ بعد ذِكرِ الصِّراطِ المُوصِلِ إليه، إشارةٌ إلى أنَّ مَن سَلَكه فهو عزيزٌ بعِزِّ اللهِ، قَوِيٌّ ولو لم يكُنْ له أنصارٌ إلَّا اللهُ، محمودٌ في أمورِه، حسَنُ العاقبةِ[٢]، ففي ذِكرِه تَنبيهٌ على أنَّه لا يذلُّ سالِكُه ولا يخيبُ سابِلُه، وترغيبٌ في سُلوكِه ببيانِ ما فيه مِن الأمْنِ والعاقبةِ الحميدةِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أضاف الله -تعالى ذِكرُه- إخراجَ النَّاسِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذنِ ربِّهم لهم بذلك؛ إلى نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو سبحانَه الهادي خَلْقَه، والموَفِّقُ مَن أحَبَّ منهم للإيمانِ؛ إذ كان منه -صلَّى الله عليه وسلَّم- دعاؤُهم إليه، وتعريفُهم ما لهم فيه وعليهم؛ فبَيِّنٌ بذلك صِحَّةُ قَولِ أهلِ الإثباتِ الذين أضافوا أفعالَ العبادِ إليهم كسْبًا، وإلى الله جلَّ ثناؤه إنشاءً وتدبيرًا، وفسادُ قَولِ أهلِ القَدَرِ الذين أنكَروا أن يكونَ لله في ذلك صُنعٌ[٤].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أسنَدَ الإخراجَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سياقِ تعليلِ إنزالِ الكتابِ إليه، فأعلَمَ أنَّ إخراجَه إيَّاهم مِن الظُّلُماتِ بسبَبِ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٨-٥٨٩).

الكتابِ المُنْزَلِ، أي: بما يشتَمِلُ عليه مِن معاني الهدايةِ[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، تعليلُ الإنزالِ بالإخراجِ مِن الظُّلُماتِ دَلَّ على أنَّ الهدايةَ هي مرادُ اللهِ تعالى من النَّاسِ، وأنَّه لم يترُكْهم في ضلالِهم، فمَن اهتدى فبإرشادِ الله، ومن ضَلَّ فبإيثارِ الضَّالِّ هوى نفسِه على دلائِلِ الإرشادِ، وأمرُ اللهِ لا يكونُ إلَّا لحِكَمٍ ومصالحَ بعضُها أكبَرُ مِن بعضٍ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ صحةُ إضافةِ الشَّيءِ إلى سَبَبِه المعلوم؛ لِقَولِه: ﴿لِتُخْرِجَ﴾ يعني: أنت -مع أنَّ المُخْرِجَ حقيقةً هو اللهُ- ولهذا قَيَّدَه بقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ حتى لا يُظَنَّ أنَّ السببَ مُسْتَقِلٌّ، فإضافةُ الشَّيءِ إلى سَبَبِه المعلومِ أمرٌ جائزٌ، ولا أحَدَ يُنكِرُه؛ فقد جاءت به السُّنَّةُ، وجاء به القرآنُ، إذا كان السَّببُ مَعلومًا، إمَّا بالشَّرعِ وإمَّا بالحِسِّ والواقِعِ، ولكنْ يجِبُ العلمُ بأنَّ هذا السبَّبَ ليس مؤثِّرًا بنَفسِه، بل بإذنِ اللهِ الذي جعَلَه سَببًا؛ ولهذا قال هنا: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ قولُه: ﴿ٱلنَّاسَ﴾ عامٌّ؛ إذ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مبعوثٌ إلى الخَلقِ كُلِّهم[٤].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إنَّما شَبَّهَ الكُفرَ بالظُّلماتِ؛ لأنَّه نهايةُ ما يتحيَّرُ الرَّجلُ فيه عن طريقِ الهدايةِ، وشَبَّه الإيمانَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((شرح مقدمة التفسير)) لابن عثيمين (ص: ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠٦).

بالنُّورِ؛ لأنَّه نهايةُ ما ينجلي به طريقُ هدايتِه[١].

٧- قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ حجَّةٌ على المعتزلةِ والقدريَّةِ بيِّنةٌ، لحُكمِه بالإخراجِ عليه، واشتراطِه إذنَه. والإذنُ: الإطلاقُ، لا مجرَّد العلمِ كما يزعمونَ[٢].

٨- قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ كما أنَّ له مُلكَ السَّمواتِ والأرضِ؛ خَلقًا ورزقًا وتدبيرًا، فله الحُكمُ على عبادِه بأحكامِه الدِّينيَّةِ؛ لأنَّهم مِلكُه، ولا يليقُ به أن يترُكَهم سُدًى[٣].

٩- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ كُلُّ مَن آثرَ الدُّنيا وزهرَتَها، واستحَبَّ البقاءَ في نعيمِها على النَّعيمِ في الآخرةِ، وصَدَّ عن سبيلِ اللهِ -أي: صرَفَ النَّاسَ عنه، وهو دينُ اللهِ، الذي جاءت به الرُّسُل- فهو داخِلٌ في هذه الآيةِ، وقد قال صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّما أخافُ على أُمَّتي الأئمةَ المضلِّينَ))[٤]....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢١) و(٤/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٢٩)، وأحمد (٢٢٣٩٣) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٦٧١٤)، وقال أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ٣٢٨): (ثابت من حديث أيوب عن أبي قلابةَ، وفيه ألفاظٌ تفرَّد بها عن النبيِّ ثوبانُ)، وقال ابنُ تيميةَ في ((تلبيس الجهمية)) (٤/ ١٨٩): (محفوظٌ وأصلُه في الصحيحِ)، ووثَّق رجالَه الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٤٢)، وصحَّحه السخاوي في ((البلدانيات)) (١٠٥)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٢٥٢).

وما أكثَرَهم في هذه الأزمانِ، واللهُ المستعانُ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾

- قولُه: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ في إسنادِ الإنزالِ إلى نُونِ العَظَمةِ ومُخاطبتِه بقولِه: ﴿إِلَيۡكَ﴾، وإسنادِ الإخراجِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: تَنويهٌ عَظيمٌ، وتشريفٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِن حيثُ المُشاركةُ في تحصيلِ الهدايةِ بإنزالِه تعالى، وبإخراجِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ إذ هو الدَّاعي والمُنذِرُ، وإنْ كان الهادي في الحَقيقةِ هو اللهَ سبحانه وتعالى[٢].

- قولُه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ فيه مُناسَبَةٌ حَسَنةٌ، حيث ذُكِرَ هنا الفاعلُ بينما حُذِفَ الفاعلُ في آيةِ سُورةِ الأعرافِ في قولِه: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ٢]، وهو مُقْتضى الظَّاهِرِ والإيجازِ، ولكنَّه ذُكِرَ هنا؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ الامتنانِ على النَّاسِ، وهو مُستَفادٌ مِن التَّعليلِ بقولِه: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، ومِن ذِكْرِ صِفةِ الرُّبوبيَّةِ بقولِه: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾، بخِلافِ آيةِ سُورةِ الأعرافِ؛ فإنَّها في مَقامِ الطَّمأنَةِ والتَّصبيرِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فكان التَّعرُّضُ لِذكْرِ المُنْزَلِ إليه، والاقتصارُ عليه أهمَّ في ذلك المَقامِ، مع ما فيه مِن قَضاءِ حقِّ الإيجازِ؛ أمَّا التَّعرُّضُ للمُنْزَلِ إليه هنا فللتَّنويهِ بشأْنِه، ولِيُجْعَلَ له حَظٌّ في هذه المِنَّةِ وهو حظُّ الوَساطةِ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، ولِمَا فيه مِن غَمِّ المُعاندينَ والمُبْغضينَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولأجْلِ هذا المَقصِدِ وقَعَ إظهارُ صِفاتِ فاعِلِ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٩-٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠٥).

الإنزالِ ثلاثَ مرَّاتٍ في قولِه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، بعدَ أنْ كان المَقامُ للإضمارِ تَبَعًا لِقولِه: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾[١].

- قولُه: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ استِئنافٌ مَبْنيٌّ على سؤالٍ، كأنَّه قيل: إلى أيِّ نورٍ؟ فقيل: إلى صِراطِ العزيزِ الحميدِ. أو بدلٌ مِن قولِه: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بإعادةِ العامِلِ (إلى). وإضافةُ الصِّراطِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه مَقصِدُه، أو المُظْهِرُ والمُبَيِّنُ له[٢].

- اختِيرَ وصْفُ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ مِن بَينِ الصِّفاتِ العُلَا لمزيدِ مُناسبتِها للمقامِ؛ لأنَّ (العزيز) الذي لا يُغلَب، وإنزالَ الكتابِ بُرهانٌ على أحقيَّةِ ما أرادَه اللهُ مِن الناس؛ فهو به غالبٌ للمُخالِفين، مُقيمٌ الحُجَّةَ عليهم. و(الحَميد): بمعنى المحمود؛ لأنَّ في إنزالِ هذا الكتابِ نِعمةً عَظيمةً تُرشِدُ إلى حَمْدِه عليه، وبذلك استَوعَبَ الوصفانِ الإشارةَ إلى الفَريقينِ مِن كُلِّ مُنساقٍ إلى الاهتداءِ مِن أوَّلِ وهلةٍ، ومِن مُجادِلٍ صائرٍ إلى الاهتداءِ بعدَ قِيامِ الحُجَّةِ، ونفادِ الحِيلةِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ تَقدَّمَت صِفةُ العزيزِ؛ لِتقدُّمِ ما دلَّ عليها، وتَلِيها صِفةُ الحميدِ؛ لِتُلُوِّ ما دلَّ عليها[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨١)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠٦).

- قولُه: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ فيه وعيدٌ لِمَن كفَرَ بالكتابِ ولم يخرُجْ به مِن الظُّلماتِ إلى النُّورِ بالويلِ، وهو نقيضُ (الوَأْلِ) وهو النَّجاةُ، و(ويل) كَلِمةُ وعيدٍ وتَهديدٍ، ورُفِعتْ؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ، كـ (سلامٌ عليك)[١].

٣- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾

- قولُه: ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ بمعنى يُحِبُّونَ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للتَّأكيدِ، مثْلَ: استقدَمَ واستأخَرَ[٢].

- قولُه: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه الاقتصارُ على إضافةِ ﴿سَبِيلِ﴾ إلى الاسمِ الجليلِ المُنْطوي على كلِّ وصْفٍ جميلٍ؛ لِرَوْمِ الاختصارِ[٣].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بما وُصِفُوا به مِن الضَّلالِ بسبَبِ صَدِّهم عن سَبيلِ الحقِّ، وابتغائِهم سَبيلَ الباطِلِ، ووصْفُ الضَّلالِ بالبعيدِ: يجوزُ أنْ يُرادَ وصْفُه بالبُعْدِ على تَشبيهِهِ بالطَّريقِ الشَّاسعةِ الَّتي يَتعذَّرُ رُجوعُ سالكِها، أي: ضلالٌ قَويٌّ يَعسُرُ إقلاعُ صاحِبِه عنه؛ ففيه استبعادٌ لاهتداءِ أمثالِهم[٤].

- قولُه: ﴿فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ دلَّ حرْفُ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ على أنَّ الضَّلالَ مُحيطٌ بهم، وجَلْبَبَهم بِسَوادِه؛ فهم مُتمكِّنونَ منه، ومُنغمِسونَ فيه إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٤-١٨٥).

الأذقانِ، يتخبَّطونَ في مَتاهاتِه، ويتعسَّفونَ في ظُلماتِه[١]، ففي جعْلِ الضَّلالِ مُحيطًا بهم إحاطةَ الظَّرفِ بما فيه ما لا يخفى مِن المُبالَغةِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣١).

الآيات (٤-٨)

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿ بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾: أي: نَعمائِه وبَلائِه، وقيل: بوقائعِه في الأُممِ[(١)].

﴿ يَسُومُونَكُمۡ ﴾: أي: يُولونَكم ويَبغونَكم؛ مِن قَولِهم: سامَه: إذا كلَّفَه العمَلَ الشَّاقَّ، وأصلُ (سوم): يدلُّ على الذَّهابِ في ابتغاءِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿ وَيَسۡتَحۡيُونَ ﴾: أي: يَستبقُونهنَّ أحياءً، وأصلُ (حيي): يدُلُّ على خِلافِ الموتِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ٦٤٩)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

﴿تَأَذَّنَ﴾: أي: أعلَمَ. وهو من آذنتُك بالأمرِ: أي أعلمْتُك، وأصلُ (أذن): يدُلُّ على العِلمِ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وما أرسَلْنا مِن رسولٍ قَبلَك -أيُّها النبيُّ- إلا بلُغةِ قَومِه؛ ليوضِّحَ لهم أمرَ دينهم، فيُضِلُّ اللهُ من يشاءُ عن الهُدى، ويَهدي من يشاءُ إلى الحَقِّ، وهو العزيزُ الحكيمُ.

ولقد أرسَلْنا موسى إلى بني إسرائيلَ، وأيَّدناه بالآياتِ العظيمةِ الدَّالَّةِ على صِدقِه، وأمَرْناه أن يَدعُوَهم إلى طريقِ الحَقِّ؛ ليُخرِجَهم من الضَّلالِ إلى الهُدى، ويُذَكِّرَهم بأيامِ نعمِ اللهِ، وبأيَّامِ نِقَمِه، إنَّ في هذا التذكيرِ لَدَلالاتٍ لكلِّ صبَّارٍ شكورٍ.

واذكُرْ -أيُّها الرَّسولُ- لقَومِك قصَّةَ موسى حين قال لبني إسرائيلَ: اذكُروا نِعمةَ اللهِ عليكم حين أنجاكم مِن فِرعونَ وأتباعِه، يُذيقُونَكم أشَدَّ العذابِ، ويُذبِّحونَ أبناءَكم الذُّكورَ، ويَستَبْقونَ نساءَكم للخِدمةِ والامتهانِ، وفي ذلكم اختبارٌ لكم مِن رَبِّكم عظيمٌ. وقال لهم موسى: اذكُروا حين أعلَمَ رَبُّكم إعلامًا مُؤكَّدًا: لئِنْ شَكَرتُموه على نِعَمِه لَيزيدَنَّكم مِن النِّعَمِ، ولئن كَفَرتُم نِعمةَ اللهِ فإنَّ عِقابَه لِمَن كفَرَ به شديدٌ. وقال لهم: إنْ تَكفُروا بنِعَمِ اللهِ أنتم وجميعُ أهلِ الأرضِ، فإنَّ الله لَغنيٌّ حميدٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٥)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ في أوَّلِ السورةِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] كان هذا إنعامًا على الرَّسولِ، مِن حيثُ إنَّه فَوَّضَ إليه هذا المنصِبَ العظيمَ، وإنعامًا أيضًا على الخَلقِ، مِن حيثُ إنَّه أرسل إليهم مَن خَلَّصَهم مِن ظُلماتِ الكُفرِ وأرشَدَهم إلى نورِ الإيمان، فذكَرَ في هذه الآيةِ ما يجري مجرى تكميلِ النِّعمةِ والإحسانِ في الوَجهينِ؛ أمَّا بالنِّسبةِ إلى الرَّسولِ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فلِأنَّه تعالى بيَّنَ أنَّ سائِرَ الأنبياءِ كانوا مَبعوثينَ إلى قَومِهم خاصَّةً، وأمَّا أنت- يا محمَّدُ- فمَبعوثٌ إلى عامَّةِ الخَلقِ، فكان هذا الإنعامُ في حَقِّك أفضَلَ وأكمَلَ. وأمَّا بالنِّسبةِ إلى عامَّةِ الخَلقِ، فهو أنَّه- تعالى- ذكَرَ أنَّه ما بعثَ رَسولًا إلى قومٍ إلَّا بلسانِ أولئك القومِ، فإنَّه متى كان الأمرُ كذلك، كان فَهمُهم لأسرارِ تلك الشَّريعةِ ووقوفُهم على حقائِقِها أسهَلَ، وعن الغَلَطِ والخطأِ أبعَدَ[1].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾.

أي: وما أرسَلْنا رسُولًا إلى أمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا بلُغةِ قَومِه الَّذين أرسَلْناه إليهم؛ ليُفهِمَهم ويُوضِّحَ لهم أمرَ دينِهم[2].

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

أي: فبعدَ البَيانِ وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم يضِلُّ اللهُ من يشاءُ إضلالَه، فيخذُلُه عن اتِّباعِ الحَقِّ، ويُوَفِّقُ مَن يشاءُ هدايتَه إلى الحَقِّ، فالتَّوفيقُ والخِذلانُ بيَدِ اللهِ عزَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٠)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١).

وجلَّ[١].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: وهو العزيزُ الذي لا يُغْلَبُ على مشيئتِه، فما شاءَ كان، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ، ومِن ذلك مشيئتُه بالإضلالِ أو الهدايةِ، وانفرادُه بهما، وهو الحكيمُ الذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائقِ به، ومِن حِكمتِه أنَّه لا يضَعُ هِدايتَه ولا إضلالَه إلَّا بالمحَلِّ اللائقِ به، فيُضِلُّ من يستحِقُّ الإضلالَ، ويهدي مَن هو أهلٌ لذلك[٢].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّه إنَّما أرسلَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى النَّاسِ؛ ليُخرِجَهم مِن الظُّلماتِ إلى النُّورِ، وذكَرَ كَمالَ إنعامِه عليه وعلى قومِه في ذلك الإرسالِ، وفي تلك البَعثةِ- أتبَعَ ذلك بشَرحِ بَعثةِ سائرِ الأنبياءِ إلى أقوامِهم وكيفيَّةِ مُعاملةِ أقوامِهم معهم؛ تصبيرًا للرَّسولِ -عليه السَّلامُ- على أذَى قومِه، وإرشادًا له إلى كيفيَّةِ مُكالمتِهم ومُعاملتِهم، فذكَرَ تعالى -على العادةِ المألوفةِ- قصَصَ بعضِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، فبدأ بذكرِ قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ[٣].

وأيضًا لَمَّا كانت الآياتُ السَّابقةُ مَسوقةً للرَّدِّ على من أنكَروا أنَّ القُرآنَ مُنَزَّلٌ مِن الله؛ أعقَبَ الرَّدَّ بالتمثيلِ بالنَّظيرِ: وهو إرسالُ موسى عليه السَّلامُ إلى قومِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٦٤).

بمِثلِ ما أُرسِلَ به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبمِثلِ الغايةِ التي أُرسِلَ لها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليُخرِجَ قَومَه مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ(١).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا موسى بآياتِنا العظيمةِ الدَّالَّةِ على صِدقِه، وصِحَّةِ ما جاء به(٢).

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.

أي: أمَرْنا موسى قائلينَ له: ادْعُ قومَك بني إسرائيلَ إلى طريقِ الحَقِّ؛ لِيَخرُجوا مِن ظُلماتِ الكُفرِ والجَهلِ والمعاصي إلى نورِ الإيمانِ والعِلمِ والطَّاعةِ(٣).

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: وذَكِّرْ -يا موسى- قومَك بني إسرائيلَ بأيامِ نعمِ اللهِ وإحسانِه، وبأيَّامِ نِقَمِه وبَطشِه وانتقامِه(٤)؛ .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١).

قال أبو حيان: (الجمهورُ على تفسيرِ قَولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أنَّها تسعُ الآياتِ التي أجراها اللهُ على يدِ موسى عليه السَّلام. وقيل: يجوزُ أن يُرادَ بها آياتُ التوراةِ، والتقديرُ: كما أرسَلْناك -يا محمَّدُ- بالقرآنِ بلِسانٍ عربيٍّ، وهو آياتُنا، كذلك أرسَلْنا موسى بالتوراةِ بلِسانِ قَومِه). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١).

(٤) قال ابنُ جريرٍ: (أيَّامٌ كانت مَعلومةً عندهم، أنعَمَ اللهُ عليهم فيها نِعمًا جَليلةً، أنقَذَهم فيها مِن آلِ فِرعونَ بَعدَما كانوا فيما كانوا مِنَ العذابِ المُهينِ، وغرَّقَ عَدُوَّهم فِرعونَ وقَومَه، وأورَثَهم أرْضَهم ودِيارَهم وأموالَهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٤).

وقال ابنُ جزي: (﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾، أي: عُقوباتِه للأُمَمِ المُتقدِّمةِ، وقِيلَ: إنْعامِه على بني إسرائيلَ، واللَّفظُ يعُمُّ النِّعمَ والنِّقَمَ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٠٨).

وقال السِّعدي: (بنِعَمِه عليهم وإحسانِه إليهم، وبأيَّامِه في الأُمَمِ المُكذِّبينَ، ووَقائعِه بالكافرينَ).

وذلك ليشكُروا اللهَ، ويَحذَرُوا عذابَه[١].

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّه بينما موسى عليه السَّلامُ في قَومِه يُذَكِّرُهم بأيَّامِ اللهِ -وأيَّامُ اللهِ: نَعماؤُه وبَلاؤُه- إذ قال...)) الحديث[٢].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

أي: إنَّ في التَّذكيرِ بنِعَمِ اللهِ وأيَّامِه لَدَلالاتٍ وعِبَرًا ومَواعِظَ لكُلِّ مَن كان عظيمَ الصَّبرِ على الطَّاعةِ، وعن المعصيةِ، وعلى البلاءِ والضَّرَّاءِ، عظيمَ الشُّكرِ لله على السَّرَّاءِ والنَّعماءِ[٣].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٩، ١٩٠).

(٢) رواه مسلم (٢٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٨١-٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

قال ابن عاشور: (واسمُ الإشارةِ في قَولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ عائِدٌ إلى ما ذُكِرَ من الإخراجِ والتَّذكيرِ؛ فالإخراجُ من الظُّلُماتِ بعدَ توغُّلِهم فيها، وانقضاءِ الأزمنةِ الطويلةِ عليها: آيةٌ مِن آياتِ قُدرةِ الله تعالى. والتذكيرُ بأيَّامِ الله يشتمِلُ على آياتِ قُدرةِ الله وعِزَّتِه، وتأييدِ من أطاعَه، وكلُّ ذلك آياتٌ كائنةٌ في الإخراجِ والتذكيرِ على اختلافِ أحوالِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٠).

أنَّه لَمَّا تقَدَّمَ أمرُ الله تعالى لموسى -عليه السَّلامُ- بالتَّذكيرِ بأيَّامِ الله؛ امتثَلَ أمرَ رَبِّه، فذكَّرَهم بما أنعَمَ تعالى عليهم مِن نَجاتِهم مِن آلِ فِرعونَ، وفي ضِمنِها تَعدادُ شَيءٍ ممَّا جرى عليهم مِن نِقماتِ اللهِ[1].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- قولَ موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ: اذكُروا بقُلوبِكم وألسِنتِكم إنعامَ اللهِ عليكم، حين أنجاكم مِن فِرعونَ وقَومِه[2].

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

أي: يُذيقُكم آلُ فِرعونَ عذابًا سيِّئًا شَديدًا[3].

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

أي: ويُذَبِّحونَ أبناءَكم الذُّكورَ المَولودين[4].

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

أي: ويَترُكونَ إناثَكم[5] .....

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٨، ٥٩٩)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩١).
قال البقاعي: (﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: فِرعونَ نَفسِه وأتباعِه، استعمالًا للمُشتَرَكِ في معنيَيه؛ فإنَّ الآلَ [يُطلَقُ] على الشَّخصِ نَفسِه وعلى أهلِ الرجُلِ وأتباعِه وأوليائِه). ((نظم الدرر)) (١٠/ ٣٨٣-٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٤).

(٥) قال الماورديُّ: (وأمَّا اسمُ النِّساءِ؛ فقد قِيلَ: إنَّه يَنطلِقُ على الصِّغارِ والكِبارِ، وقِيلَ: بلْ يَنطلِقُ

دونَ قَتلٍ؛ مِن أجلِ جعلِهم خدمًا وأرقَّاء[١].

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

أي: وفي عذابِ آلِ فِرعونَ لكم اختبارٌ مِن اللهِ لكم عظيمٌ، وفي إنجائِنا لكم مِنهم نِعمةٌ مِن اللهِ عَظيمةٌ[٢].

على الكِبارِ، وإنَّما سُمِّيَ الصِّغارُ نِساءً على معنَى: أنَّهنَّ يَبْقَينَ حتَّى يَصِرنَ نِساءً). ((تفسير الماوردي)) (١/ ١١٨).

وقال أبو حيان: (المعنى: يَتْرُكون بَناتِكم أحياءً للخِدمةِ، أو يُفتِّشونَ أرحامَ نِسائِكم... وقد قِيلَ: إنَّ الاستحياءَ هنا مِنَ «الحياءِ» الَّذي هو ضِدُّ القَحَةِ، ومعناهُ: أنَّهم يأتونَ النِّساءَ مِنَ الأعمالِ بما يَلْحَقُهم منه الحياءُ... واستحياءُ النِّساءِ على القولِ الأوَّلِ ليس بعذابٍ، لكنَّه يقَعُ العذابُ بسبَبِه؛ مِن جِهَةِ إبْقائِهنَّ خَدمًا، وإذاقَتِهنَّ حَسرةَ ذَبْحِ الأبناءِ، إنْ أُريدَ بالنِّساءِ الكِبارُ، أو ذَبْحِ الإخوةِ، إنْ أُريدَ الأطفالُ، وتَعلُّقِ العارِ بهنَّ؛ إذ يَبْقَيْنَ نِساءً بلا رجالٍ، فيَصِرنْ مُفترَشاتٍ لِأعدائِهنَّ). ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣١٤).

وقال الشِّنقيطيُّ: (أمَّا استحياءُ البناتِ، وهو قولُه: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾؛ فأين وَجْهُ كَونِ هذا مِن سُوءِ العذابِ، مع أنَّ بقاءَ البَعضِ قد يَظهَرُ للنَّاظرِ أنَّه أحسَنُ مِن تَذبيحِ الكلِّ؟ الجَوابُ عن هذا: أنَّ استحياءَهم للنِّساءِ استحياءٌ هو مِن جُملةِ العذابِ؛ لأنَّهم يَسْتَحْيونَهم لِيُعَمِّلُوهم في الأعمالِ الشَّاقَّةِ، ولِيَفْعَلوا بهم ما لا يَليقُ مِنَ العارِ والشَّنارِ، وبَقاءُ البِنْتِ- وهي عَورةٌ- تحتَ يَدِ عدُوٍّ لا يُشفِقُ عليها، يَفعَلُ بها ما لا يَليقُ، ويُكلِّفُها ما لا تُطيقُ؛ هذا مِن سُوءِ العذابِ بلا شَكٍّ، وقد قال جَلَّ وعلَا: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]، والعرَبُ كانوا ربَّما قَتَلوا بَناتِهم؛ شَفقةً وخَوفًا عليهم ممَّا يُلاقُونَه ممَّا لا يَليقُ بَعدَ مَوتِ الآباءِ، وهو كَثيرٌ في شِعْرِهم). ((العذب النمير)) (١/ ٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٩)، ((تفسير الماوردي)) (١/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

قال ابنُ كثيرٍ: (﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، أي: نِعمةٌ عَظيمةٌ منه عليكم في ذلك، أنتم عاجِزونَ عنِ القيامِ بشُكْرِها. وقِيلَ: وفيما كان يَصنَعُه بكم قَومُ فِرعونَ مِن تلك الأفاعيلِ، ﴿بَلَآءٌ﴾، أي: اختبارٌ عَظيمٌ. ويَحْتمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ هذا وهذا- واللهُ أعلمُ- كما

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَّرَهم بنعمةِ الأمنِ، رغَّبَهم فيما يزيدُها، ورهَّبَهم ممَّا يُزيلُها، فقال[1]:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾.

أي: واذكُروا حين أعلَمَكم ربُّكم: لَئِن شَكَرتُم اللهَ على نِعَمِه بطاعتِه في أمرِه ونَهيِه، ليزيدَنَّكم من النِّعَمِ[2].

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾.

أي: ولئنْ كَفَرتُم نعمةَ اللهِ عليكم فلم تشكُروه عليها بطاعتِه في أمرِه ونهيِه؛ فإنَّ عِقابَه لِمَن كفَرَ به شديدٌ، فيُصيبُكم منه ما يسلُبُ تلك النِّعَمَ، ويُحِلُّ بكم النِّقَمَ[3].

قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨]). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٠، ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٩).

قال القرطبي: (قيل: هو مِن قولِ موسى لقومِه. وقيل: هو من قولِ الله، أي: واذكُرْ- يا محمَّدُ- إذ قال ربُّك كذا). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٣).

قال ابنُ كثير: (ويحتملُ أن يكونَ المعنى: وإذ أقسمَ رَبُّكم وآلى بعزَّتِه وجلالِه وكبريائِه، كما قال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [الأعراف: ١٦٧]). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٤).

قال الثعالبي: (والكُفْرُ هنا: يحتملُ أن يكون على بابِه، ويحتملُ أنْ يكون كفرَ النِّعَمِ). ((تفسير

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ موسى عليه السَّلامُ لَمَّا بيَّنَ أنَّ الاشتغالَ بالشُّكرِ يُوجِبُ تزايُدَ الخَيراتِ في الدُّنيا وفي الآخرةِ، والاشتغالَ بكُفرانِ النِّعَمِ يُوجِبُ العذابَ الشديدَ، وحصولَ الآفاتِ في الدُّنيا والآخرةِ[١]- بيَّنَ بعدَه أنَّ منافِعَ الشُّكرِ ومضارَّ الكُفرانِ لا تعودُ إلَّا إلى صاحِبِ الشُّكرِ وصاحِبِ الكُفرانِ، أمَّا المعبودُ والمشكورُ فإنَّه مُتعالٍ عن أن ينتفِعَ بالشُّكرِ أو يَستضِرَّ بالكُفرانِ[٢].

وأيضًا لَمَّا كان مَن حَثَّ على شيءٍ وأثابَ عليه، أو نهى عنه وعاقبَ على فعلِه، يكونُ لغَرضٍ له؛ بيَّنَ أنَّ اللهَ سبحانَه مُتعالٍ عن أن يَلحَقَه ضَرٌّ أو نفعٌ، وأنَّ ضَرَّ ذلك ونَفْعَه خاصٌّ بالعبدِ، فقال تعالى حاكِيًا عنه[٣]:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾.

أي: وقال موسى لقَومِه: إن تكفُروا بنِعَمِ اللهِ أنتم وجميعُ مَن في الأرضِ، فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن جميعِ خَلقِه، وعن شُكرِهم له، محمودٌ قد اسْتَوْجَب الحمدَ لِذاتِه لكثرةِ إنعامِه، وإنْ لم تَشْكُروه[٤] وهو حميدٌ في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه[٥].

كما قال تعالى: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن

الثعالبي)) (٣/ ٣٧٥).

(١) وذلك على القولِ بأنَّ قائلَ هذه الجملةِ هو موسَى عليه السلامُ.

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي: (١٠/ ٣٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقال سُبحانه: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنَّه قال: ((يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلَّا مَن هَدَيتُه، فاستهدُوني أهْدِكم، يا عبادي كُلُّكم جائِعٌ إلَّا مَن أطعَمتُه، فاستطعِموني أُطعِمْكم، يا عبادي كلُّكم عارٍ إلَّا مَن كسَوتُه، فاسْتَكْسُوني أكْسُكم، يا عبادي إنَّكم تُخطِئونَ باللَّيلِ والنَّهارِ، وأنا أغفِرُ الذُّنوبَ جميعًا، فاستغفِروني أغفِرْ لكم، يا عبادي إنَّكم لن تَبلُغوا ضُرِّي فتضُرُّوني، ولن تبلُغوا نفعي فتَنفَعوني، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أتقى قلبِ رَجُلٍ واحدٍ منكم؛ ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أفجَرِ قَلبِ رجلٍ واحدٍ؛ ما نقص ذلك مِن مُلكي شيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسألتَه، ما نقَصَ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يَنقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ))[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾ في هذا دليلٌ على مشروعيةِ الوَعظِ المُرَقِّقِ للقُلوبِ، المُقَوِّي لليقينِ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾ مَعرِفةُ هذه الأيَّامِ تُوجِبُ للعبدِ استبصارَ العِبَرِ، وبحَسَبِ مَعرفتِه بها تكونُ عِبرَتُه وعِظَتُه؛ قال الله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[3] [يوسف: ١١١].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٧).

٣- قال الله تعالى لموسَى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾ وهي تتناولُ أيَّامَ نِعَمِه وأيَّامَ نِقَمِه؛ ليشكُروا ويَعتَبِروا؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فإنَّ ذِكرَ النِّعَم يدعو إلى الشُّكرِ، وذِكْرَ النِّقَم يقتضي الصَّبرَ على فِعلِ المأمورِ- وإن كَرِهَتْه النَّفسُ- وعن المحظورِ، وإن أَحَبَّتْه النَّفسُ؛ لئلَّا يُصيبَه ما أصاب غيرَه مِن النِّقمةِ[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إذا اعتبَرَ العبدُ الدِّينَ كُلَّه، رآه يرجِعُ بجُملتِه إلى الصَّبرِ والشُّكرِ[٢].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ المؤمِنَ يجِبُ ألَّا يخلوَ زَمانه عن أحدِ هذينِ الأمرينِ، فإن جرى الوقتُ على ما يلائِمُ طَبعَه ويوافِقُ إرادتَه، كان مشغولًا بالشُّكرِ، وإن جرى بما لا يلائِمُ طَبعَه، كان مشغولًا بالصَّبرِ[٣].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ في صيغةِ المُبالغةِ إشارةٌ إلى أنَّ عادتَه تعالى جَرَت بأنَّه إنما ينصُرُ أولياءَه بعد طولِ الامتحانِ بعظيمِ البلاءِ؛ ليتبيَّنَ الصَّادِقُ مِن الكاذبِ ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ [يوسف: ١١٠]، ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]؛ وذلك أنَّه لا شيءَ أشَقُّ على النُّفوسِ مِن مُفارقةِ المألوفِ، لا سيَّما إن كان دِينًا، ولا سيَّما إن كان قد درجَ عليه الأسلافُ، فلا يقومُ بالدُّعاءِ إلى الدِّينِ إلَّا من بلغَ الذِّروةَ في الصَّبرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٨٢).

٧- قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ الآيةُ نَصٌّ في أنَّ الشُّكرَ سببُ المزيدِ[١]، فالشكرُ معه المزيدُ أبدًا، فمتَى لم تَرَ حالَك في مزيدٍ، فاسْتقْبِلِ الشُّكرَ[٢].

٨- لا شَكَّ أنَّ النِّعَمَ تستوجِبُ مِنَّا الشُّكرَ؛ لأنَّنا إذا شَكَرْنا اللهَ عزَّ وجَلَّ فقد قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] فبيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّه بالشُّكرِ يزيدُ النِّعَم، أمَّا إذا قُوبِلَت بالكُفرِ فإنَّ اللهَ تعالى سيعذِّبُ هؤلاء الذين أنعَمَ الله عليهم، فبَدَّلوا نِعمةَ اللهِ كُفرًا[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مَن بَلَغَه القرآنُ بلغةٍ لا يفهَمْ منها شيئًا؛ فإنه لا تقومُ عليه الحُجَّةُ؛ لقولِه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾، وقولِه تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٤] [الزخرف: ٣].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ إن قيلَ: هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنَّما بُعِثَ للعَرَبِ خاصَّةً، فكيف الجمعُ بين هذه الآيةِ وبين الأدلَّةِ الدَّالَّةِ على عمومِ رِسالتِه؟

والجوابُ عن ذلك:

أنَّ الله تعالى قال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ولم يقُلْ: (وما أرسَلْنا مِن رسولٍ إلَّا إلى قومِه)[٥]، فلا تعارضَ بينهما.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٣).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٣٦).
(٣) يُنظر: ((اللقاء الشَّهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠٢).
(٥) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٥٤-٥٥).

وأيضًا فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُرسِلَ إلى النَّاسِ كافَّةً بلسانِ قَومِه، وهم العرَبُ، ونزولُه بلِسانِهم مع التَّرجمةِ لباقي الألسُنِ كافٍ لحُصولِ الغَرَض بذلك، ولأنَّه أبعَدُ عن التَّحريفِ والتَّبديلِ، وأسلَمُ مِن التَّنازُعِ والاختلافِ[(١)].

فالله عزَّ وجلَّ لم يرسِلْه إلَّا بلسانِ قَومِه الذين خاطَبهم أوَّلًا، ليبيِّنَ لقَومِه، فإذا بيَّنَ لقَومِه ما أراده حصل بذلك المقصودُ لهم ولغيرِهم؛ فإنَّ قومَه الذين بلَّغَ إليهم أوَّلًا يمكِنُهم أن يبلِّغوا عنه اللَّفظَ، ويُمكِنُهم أن ينقُلوا عنه المعنى لِمَن لا يعرِفُ اللُّغةَ، ويُمكِنُ لغَيرِهم أن يتعَلَّمَ منهم لسانَه، فيعرف مرادَه، فالحُجَّةُ تقومُ على الخَلقِ ويحصُلُ لهم الهُدى بمن ينقُل عن الرَّسولِ: تارةً المعنى، وتارةً اللَّفظ؛ ولهذا يجوزُ نقلُ حديثِه بالمعنى، والقرآنُ يجوزُ تَرجمةُ معانيه لِمَن لا يعرِفُ العربيَّةَ، باتِّفاقِ العُلَماءِ[(٢)].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ يُستدَلُّ به على أنَّ عُلومَ العربيَّةِ المُوصِلةَ إلى تبيينِ كلامِه تعالى وكلامِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ أمورٌ مَطلوبةٌ مَحبوبةٌ لله؛ لأنَّه لا يتِمُّ مَعرِفةُ ما أُنزِلَ على رسولِه إلَّا بها، إلَّا إذا كان النَّاسُ بحالةٍ لا يحتاجونَ إليها، وذلك إذا تمَرَّنوا على العربيَّة، ونشأ عليها صغيرُهم وصارت طبيعةً لهم، فحينئذٍ قد كُفُوا المُؤنةَ، وصَلَحوا لأن يتلَقَّوا عن اللهِ وعن رَسولِه ابتداءً، كما تلقَّى عنهم الصَّحابةُ رَضِيَ الله عنهم[(٣)].

٤- قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ لا حُجَّةَ للعَجَمِ وغيرِهم في هذه الآيةِ؛ لأنَّ كُلَّ مَن تُرجِمَ له ما جاء به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ترجمةً يفهَمُها؛ لَزِمَته الحُجَّةُ، وقد قال الله تعالى: ﴿

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٩٢).
(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٥٤-٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢١).

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((والذي نفسي بيَدِه، لا يسمَعُ بي أحدٌ مِن هذه الأمَّةِ؛ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثمَّ لم يؤمِنْ بالذي أُرسِلْتُ به- إلَّا كان مِن أصحابِ النَّارِ))(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ أنَّه لا بدَّ أن يكونَ الرسولُ مبيِّنًا لقومِه ما أُرسِل به، ويتفرع على هذه الفائدة أهميَّةُ التَّرجمةِ، وأنَّ على المُسلِمينَ أن يُترجِموا الشَّريعةَ إلى لغةِ مَن يُخاطِبونَهم بها حتى تتِمَّ الحُجَّةُ؛ فمَن أراد أن يذهَبَ إلى قومٍ يدعوهم إلى اللهِ، لا بُدَّ أن يتعَلَّمَ لُغتَهم حتى يتمكَّنَ مِن دَعوتِهم، أو يصطَحِبَ شَخصًا يُترجِمُ له يكونُ عالِمًا باللُّغَتَينِ: الأصليَّةِ والفرعيَّةِ، ويكونُ له إلمامٌ بموضوعِ ما يُترجِمُه، فإذا كان يريدُ أن يُترجِمَ كلامًا في التوحيدِ لا بد أن يكونَ عنده إلمامٌ بذلك؛ لئلَّا يُفهِمَ الأمرَ على خلافِه(٢)!

٦- قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ وحَّدَ اللِّسانَ، وإن أضافه إلى القَومِ؛ لأنَّ المرادَ اللُّغةُ، فهي اسمُ جِنسٍ يقَعُ على القليلِ والكثيرِ(٣)، واللسانُ يُطلقُ على «القَولِ» كثيرًا في اللُّغةِ العربيَّةِ، فقولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ أي: بلُغتِهم(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ أنَّ الرُّسُلَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ يُبَيِّنونَ للنَّاسِ بَيانًا تامًّا لا يُحتاجُ معه إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٠).
والحديثُ أخرجه مسلم (١٥٣) مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٠).
(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢٧٤).

إيضاحٍ[١]، فالرُّسُلُ هي التي تُبَيِّنُ، والله هو الذي يُضِلُّ مَن يشاءُ، ويهدي مَن يشاءُ بعِزَّتِه وحِكمتِه، قال تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[٢].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾، استُدِلَّ به على أنَّه لا يُشتَرَطُ أن تكونَ خطبةُ الجمعةِ بالعربيَّةِ، بل تكونُ بلُغةِ القَومِ الذين يخطبُ فيهم؛ فالخُطبتانِ ليستا ممَّا يُتعَبَّدُ بألفاظِهما[٣].

٩- تعلُّمُ غيرِ العربيَّةِ من اللغات ليس حرامًا، بل قد يكونُ واجبًا إذا توقَّفت دعوةُ غيرِ العربيِّ على تعلُّمِ لُغتِه، فيصير تعلُّمُ لغتِه فرضَ كفايةٍ؛ لأنَّه لا بدَّ من تبليغِهم دينَ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الهُدى والضَّلالَ إنَّما يكونُ بعدَ البَيانِ[٥].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾، وقال ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ٤٤]، فكلُّ ما بَيَّنَه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فعَن ربِّه سُبحانَه بَيَّنَه بأمرِه وإذنِه[٦].

١٢- اللهُ سُبحانَه يُرسِلُ الرُّسُلَ مِن جِنسِ المُرسَلِ إليهم؛ لأنَّه أتمُّ لحُصولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٥/ ٥٩)، وهو مذهبُ الحنفيةِ، أما الجمهورُ فعلى خلافِ ذلك، ويُنظر: ((مختصر فقه الصلاة)) إعداد القسم العلمي بالدُّرر السَّنية (ص: ٦٥٧).

(٤) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٣).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٧٩).

(٦) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٨٦).

المقصودِ بالرِّسالةِ؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾[1].

١٣- الاستدلالُ بالقُرآنِ إنَّما يكونُ بحَملِه على لُغةِ العَربِ التي أُنزِلَ بها، بل قد نزل بلُغةِ قُرَيشٍ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾، وقال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾ [الشعراء: ١٩٥] فليس لأحدٍ أن يَحمِلَ ألفاظَ القُرآنِ على غيرِ ذلك، مِن عُرفٍ عامٍّ، واصطلاحٍ خاصٍّ، بل لا يحمِله إلَّا على تلك اللُّغةِ[2].

١٤- قولُ الله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ فيه رَدٌّ على القَدَريَّةِ[3].

١٥- أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه إنَّما يَنتفِعُ بآياتِهِ ويَتَّعِظُ بها الصَّبَّارُ الشَّكورُ، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾، وقال تعالى في (لُقمانَ): ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [لقمان: ٣١]، وقال في قِصَّةِ (سبأٍ): ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [سبأ: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ * إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣]؛ فهذه أربَعةُ مَواضِعَ في القُرآنِ تدُلُّ على أنَّ آياتِ الرَّبِّ إنَّما يَنتفِعُ بها

(١) يُنظر: ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٢٣٤).
(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ١٩٢).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٨).

أهْلُ الصَّبرِ والشُّكرِ[١].

١٦- الإيمانُ نِصفانِ: نِصفٌ صَبرٌ، ونِصفٌ شُكرٌ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((عَجَبًا لأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمْرَه كُلَّه خَيرٌ، وليس ذاك لأحَدٍ إلَّا للمُؤمِنِ؛ إن أصابَتْه سرَّاءُ شكَرَ فكان خَيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبَرَ فكان خَيرًا له))[٢]، فمنازِلُ الإيمانِ كُلُّها بين الصبرِ والشُّكرِ[٣].

١٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ لَمَّا كان المرادُ بالتَّذكيرِ بالأيَّامِ زيادةَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ أشار إلى أنَّ مَقامَ الترهيبِ هنا أهَمُّ- للحَثِّ على تَركِهم الضَّلالَ- بتَركِ عادتِه في الترفُّقِ، بمثلِ ما في البقرةِ والمائدةِ مِن الاستعطافِ بعاطفةِ الرَّحِم بقَولِه: ﴿يَا قَوْمِ﴾، فأسقَطَها هنا؛ إشارةً إلى أنَّ المقامَ يقتضي الإبلاغَ في الإيجازِ في التَّذكيرِ؛ للخَوفِ مِن مُعاجَلتِهم بالعذابِ[٤].

١٨- حيثُ ذُكِرَ في الكتابِ والسُّنَّةِ «آلُ فُلانٍ»، كان «فلانٌ» داخِلًا فيهم، كقَولِه تعالى: ﴿إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، فالرجلُ حيثُ أُضيف إلى آلِه دخَل فيه هو[٥].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ عبَّرَ بالنِّعمةِ عن الإنعامِ؛ حَثًّا

---

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ٧٤).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٨٣).

(٥) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢١٣)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٤).

على الاستدلالِ بالأثَرِ على المؤَثِّر[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ فيه قَصْرٌ بـ(ما... إلَّا)، وإذا كانت صِيغَةُ القصْرِ مُستعملَةً في ظاهرِها، ومُسلَّطَةً على مُتعلِّقَي الفعْلِ المقصورِ، كان قصرًا إضافيًّا لِقلْبِ اعتقادِ المُخاطَبينَ؛ فيتعيَّنُ أنْ يكونَ ردًّا على فريقٍ مِن المُشركينَ قالوا: هلَّا أُنْزِلَ القُرآنُ بِلُغةِ العَجَمِ؟ وإذا كانت صِيغَةُ القصْرِ جاريةً على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ، ولم يكُنْ ردًّا لمقالةِ بعضِ المُشركينَ، يكُون تَنزيلًا للمُشركينَ مَنزلةَ مَن ليسوا بعربٍ؛ لعدَمِ تأثُّرِهم بآياتِ القُرآنِ، وقولُه: ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ إدماجٌ في الاستثناءِ المُتسلِّطِ عليه القصْرُ، أو يكونُ مُتعلِّقًا بفعْلِ ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ مُقدَّمًا عليه[٢].

- والعُدولُ إلى صِيغَةِ الاستقبالِ ﴿فَيُضِلُّ﴾ ﴿وَيَهۡدِي﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ، أو للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ حسَبَ تَجدُّدِ البَيانِ مِن الرُّسلِ المُتعاقبةِ عليهم السَّلامُ[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ الْتفاتٌ بإسنادِ الفِعلينِ إلى الاسمِ الجَليلِ المُنْطوي على الصِّفاتِ؛ لِتفخيمِ شأنِهما، وتَرشيحِ مناطِ كلٍّ منهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٣٥).

- وتقديمُ الإضلالِ على الهدايةِ؛ لأنَّه متقَدِّمٌ عليها، إذ هو إبقاءٌ على الأصلِ، والهدايةُ إنشاءُ ما لم يكُنْ[١]، أو للمُبالَغةِ في بيانِ أنْ لا تأثيرَ للتَّبْيينِ والتَّذكيرِ مِن قِبَلِ الرُّسلِ، وأنَّ مَدارَ الأمْرِ إنَّما هو مشيئتُه تعالى بإيهامِ أنْ ترتُّبَ الضَّلالةِ على ذلك أسرَعُ مِن ترتُّبِ الاهتِداءِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ بإضافةِ الأيَّامِ إلى الاسمِ الجليلِ؛ للإيذانِ بِفَخامةِ شأْنِها، والإشعارِ بعدَمِ اختِصاصِ ما فيها مِن المُعاملَةِ بالمخاطَبِ وقومِه- كما تُوهِمُه الإضافةُ إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ- أي: عِظْهُم بالتَّرغيبِ التَّرهيبِ، والوعْدِ والوعيدِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ﴾ تأكيدُ الإخبارِ عن إرسالِ موسى عليه السَّلامُ بِلامِ القَسَمِ، وحرْفِ التَّحقيقِ (لَقَدْ)؛ لِتنزيلِ المُنْكرينَ رِسالةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَنزلةَ مَن يُنْكِرُ رسالةَ موسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّ حالَهم في التَّكذيبِ برسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقْتَضي ذلك التَّنزيلَ؛ لأنَّ ما جاز على المِثلِ يجوزُ على المُماثِلِ، على أنَّ منهم مَن قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، والباءُ في ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١٣)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٣٣).

للمُصاحَبةِ، أي: إرسالًا مُصاحِبًا للآياتِ الدَّالةِ على صِدْقِه في رِسالتِه، كما أُرْسِلَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُصاحِبًا لآيةِ القُرآنِ الدَّالِّ على أنَّه مِن عندِ اللهِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صِفَتَا مُبالَغةٍ، وهما مُشعِرَتانِ بأنَّ أيَّامَ اللهِ المُرادُ بهما: بَلاؤُه ونَعْماؤه، أي: صبَّارٍ على بلائِه، شَكورٍ لِنَعمائِه؛ فإذا سمِعَ بما أنزَلَ اللهُ مِن البلاءِ على الأُمَمِ، أو بما أفاض عليهم مِن النِّعَمِ، تَنبَّهَ على ما يجِبُ عليه مِن الصَّبرِ إذا أصابه بلاءٌ، ومِن الشُّكرِ إذا أصابَتْه نَعماءُ[٢].

- وخُصَّ الصَّبَّارُ والشَّكورُ؛ لأنَّهما هما اللَّذانِ يَنتفِعانِ بالتَّذكيرِ والتَّنبيهِ ويتَّعظانِ به، فصارت كأنَّها ليست آياتٍ إلَّا لهما، كما في قَولِه تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقيل: لا يَبعُدُ أن يُقالَ: الانتفاعُ بهذا النَّوعِ مِن التذكيرِ لا يُمكِنُ حُصولُه إلَّا لِمَن كان صابرًا أو شاكِرًا، أمَّا الذي لا يكونُ كذلك، فلم ينتفِعْ بهذه الآياتِ، وقيل: أراد لكلِّ مُؤمنٍ ناظِرٍ لنفْسِه؛ لأنَّ الصَّبرَ والشُّكرَ مِن سجايا أهلِ الإيمانِ، وعبَّرَ عنه بذلك؛ تَنبيهًا على أنَّ الصَّبرَ والشُّكرَ عنوانُ المُؤمنِ[٣]، وقيل: لَمَّا كانت الآياتُ مُختلفةً؛ بعضُها آياتُ مَوعِظةٍ وزَجرٍ، وبَعضُها آياتُ مِنَّةٍ وترغيبٍ- جُعِلَت متعلِّقةً بـ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ إذ الصبرُ مناسِبٌ للزَّجرِ؛ لأنَّ التخويفَ يبعَثُ النَّفسَ على تحمُّلِ مُعاكَسةِ هواها؛ خيفةَ الوقوعِ في سُوءِ العاقبةِ، والإنعامَ يبعَثُ النَّفسَ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٠).

الشُّكرِ، فكان ذِكرُ الصِّفَتينِ تَوزيعًا لِما أجمَلَه ذِكرُ أيَّامِ اللهِ، مِن أيامِ بُؤسٍ وأيَّامِ نَعيمٍ[١].

- وقُدِّمَ الصَّبَّارُ على الشَّكُورِ؛ لكونِ الشُّكرِ عاقبةَ الصَّبرِ[٢].

- واسمُ الإشارةِ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ عائدٌ إلى ما ذُكِرَ مِن الإخراجِ والتَّذكيرِ، وهي آياتٌ كائنةٌ في الإخراجِ والتَّذكيرِ على اختِلافِ أحوالِه، وقد أحاط بمعنى هذا الشُّمولِ حرْفُ الظَّرفيَّةِ مِن قولِه: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّ الظَّرفيَّةَ تجمَعُ أشياءَ مُختلفةً يحتَويها الظَّرفُ؛ ولذلك كان لِحرْفِ الظَّرفيَّةِ هنا موقِعٌ بليغٌ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ فيه التَّعبيرُ بصِيغةِ الإفعالِ ﴿أَنجَاكُم﴾ دُونَ صِيغةِ التَّفعيلِ ﴿نَجَّيْنَاكُمْ﴾ الذي اقتَضاه سِياقُ سورةِ البَقرةِ؛ لأنَّهم لَمَّا كانوا قد طالَ صَبرُهم جدًّا بما طالَ مِن بَلائِهم مِن فِرعونَ على وَجهٍ لا يُمكِنُ في العادةِ خَلاصُهم منه، وإنْ أمكنَ على بُعدٍ لم يَكُنْ إلَّا في أزمنةٍ طِوالٍ جدًّا بتَعبٍ شَديدٍ؛ أشارَ بصِيغةِ الإفعالِ ﴿أَنجَاكُم﴾ إلى إسراعِه بخَلاصِهم بالنِّسبةِ إليه لو جرَى على مُقتضَى العادةِ جزاءً لهم على طُولِ صَبرِهم[٤]. إضافةً إلى تَذكيرِهم بنِعمةِ اللهِ في نَجاتِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٠-١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٨٣).

والتَّذكيرُ بِنعمةِ اللهِ في (أنْجَى) أبلَغُ مِن (نَجَّى)؛ لِمَا فيه مِن الإسراعِ في النَّجاةِ، وإنْ كان كلٌّ منهما مِن جَليلِ النِّعمِ. وقِيلَ: استعمَلَ ﴿أَنجَىٰكُم﴾؛ لِمَا زادَ على ما في البقرةِ مِنَ العَذابِ؛ فإنَّه فَسَّرَ سُوءَ العَذابِ بقولِه: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، في حينِ عَطَفَ تَذبيحَ الأبناءِ على سُوءِ العذابِ في آيةِ إبراهيمَ، فجعَلَ تَذْبيحَ الأبناءِ أمْرًا آخَرَ غيرَ سُوءِ العذابِ؛ فلمَّا زاد في العذابِ اقْتَضى ذلك الإسراعَ في الإنجاءِ[(١)].

- قولُه: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾، وفي سُورةِ (البقرةِ) قال: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [البقرة: ٤٩]، وفي (الأعرافِ) قال: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤١]؛ فهاهنا ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ مع الواوِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ التَّذبيحَ حيثُ طُرِحَ الواوُ جُعِلَ تَفسيرًا للعَذابِ وبَيانًا له، وحيث أُثْبِتَ جُعِلَ التَّذبيحُ- لأنَّه أَوْفى على جنْسِ العَذابِ، وزادَ عليه زِيادةً ظاهرةً- كأنَّه جِنْسٌ آخَرُ؛ فحُذِفتِ الواوُ في سُورةِ البَقرةِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ تَفسيرٌ لقولِه: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، وفي التَفسيرِ لا يَحسُنُ ذِكرُ الواوِ، كما تقولُ: جاءني القومُ زيدٌ وعمرٌو، إذا أردتَ تَفسيرَ القومِ، وأمَّا دخولُ الواوِ هنا في هذِه السُّورةِ؛ فلأنَّ آلَ فِرعونَ كانوا يُعذِّبونهم بأنواعٍ مِن العذابِ غيرِ التذبيحِ وبالتذبيحِ أيضًا؛ فقوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ نوعٌ آخَرُ مِن العذابِ[(٢)].

٤- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ

(١) يُنظر: ((بلاغة الكلمة في التعبير القرآني)) للسامرائي (ص: ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩).

إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾، أي: آذَنَ إيذانًا بليغًا لا تَبقَى معه شائبةٌ؛ فـ﴿تَأَذَّنَ ﴾ بمعنى آذَنَ، كـ (توعَّدَ وأوعَدَ)، غيرَ أنَّه أبلَغُ؛ لأنَّ في صِيغَةِ (تفعَّل) زيادةَ معنًى على صِيغَةِ (أفْعَل)، ولِمَا في التَّفعُّلِ مِن معنى المُبالَغةِ، والتَّكلُّفِ المُحمولِ في حقِّه سبحانه على غايَتِه الَّتي هي الكمالُ[1].

- قولُه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، وكأنَّه راعَى ظاهِرَ المُقابَلةِ في قولِه: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾، وجاء التَّركيبُ على ما عُهِدَ في القُرآنِ؛ مِن أنَّه إذا ذُكِرَ الخيرُ أُسْنِدَ إليه تعالى، وإذا ذُكِرَ العَذابُ بعدَه عُدِلَ عن نسبَتِه إليه، فقال: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾؛ فنسَبَ الزِّيادةَ إليه، وقال: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾، ولم يأتِ التَّركيبُ: (لَأُعذِّبَنَّكم)، وخرَجَ في ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ بالمفعولِ، وهنا لم يُذْكَرْ، وإنْ كان المعنى عليه، أي: إنَّ عذابي لكم لَشديدٌ؛ فمِن عادَةِ الكِرامِ التَّصريحُ بالوعْدِ، والتَّعريضُ بالوعيدِ، فما الظَّنُّ بأكرَمِ الأكرمينَ؟ ويجوزُ أنْ يكونَ المذكورُ تعليلًا للجوابِ المحذوفِ، أي: لَأُعذِّبَنَّكم، فاستغنَى بـ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ عن (لأُعذِّبنَّكم عذابًا شديدًا)؛ لكونِه أعمَّ وأوجزَ، ولكونِ إفادةِ الوعيدِ بضربٍ مِن التعريضِ أوْقَعَ في النَّفْسِ[2].

٥- قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير أبي حيان))٦/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٤).

حَمِيدٌ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ ... ﴾ فيه إعادةُ فعْلِ القَولِ في عطْفِ بعضِ كلامِ موسى عليه السَّلامُ على بعضٍ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ هذا ممَّا تأذَّنَ به الرَّبُّ، وإنَّما هو تنبيهٌ على كلامِ اللهِ، وفي إعادةِ فعْلِ القولِ اهتمامٌ بهذه الجُملةِ وتَنويهٌ بها؛ حتَّى تبرُزَ مُستقلَّةً، وحتَّى يُصْغِيَ إليها السَّامعونَ للقُرآنِ[1].

- وحُذِفَ جوابُ ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ﴾؛ لدَلالةِ المعنى عليه، والتَّقديرُ: فإنَّما ضرَرُ كُفْرِكم لاحقٌ بكم، واللهُ تعالى مُتَّصفٌ بالغِنى المُطلَقِ والحمدِ، سواءٌ كفَروا أم شَكَروا، وفي خِطابِه لهم تَحقيرٌ لشأْنِهم، وتعظيمٌ للهِ تعالى، وكذلك في ذِكْرِ هاتينِ الصِّفتَينِ[2].

- وقولُه: ﴿جَمِيعًا﴾ تأْكيدٌ لـ﴿مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ للتَّنصيصِ على العُمومِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان))٦/ ٤١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٥).

الآيات (٩-١٢)

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿مُرِيبٍ﴾: أي: مُوقِعٍ للتُّهمةِ، والرِّيبةُ: التهمةُ، وهي ظنُّ السوءِ، فهي قسمٌ مِن الشكِّ، والريبةُ: قَلَقُ النَّفسِ، وانتفاءُ الطُّمأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[1].

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: خالِقِهما ومُبدِعِهما ومُبتدِئِهما، وأصلُ (فطر): الشَّقُّ طولًا، ويدلُّ على فتْحِ شيءٍ، وإبرازِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ألم يأتِكم خبَرُ الأمَمِ التي سبقَتْكم؛ قومِ نُوحٍ، وقَومِ هُودٍ وثمودَ، وأممٌ كثيرةٌ مِن بعدِهم، لا يعلمُ عدَدَهم وأخبارَهم إلَّا اللهُ وحدَه، جاءَتْهم رسُلُهم بالبراهينِ الواضِحاتِ، فرَدُّوا أيديَهم إلى أفواهِهم؛ ليَعَضُّوها غيظًا ممَّا جاءت به الرسُلُ، وقالوا لرُسُلِهم: إنَّا كفَرْنا بما جِئتُمونا به، وإنَّا لفي شَكٍّ يوجِبُ لنا التُّهمةَ والرِّيبةَ مِن حقيقةِ ما جِئتُمونا به.

قالت لهم رسُلُهم: أفي اللهِ وعبادتِه -وَحْدَه- شكٌّ، وهو خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ ومُنشِئُهما من العدَمِ على غيرِ مثالٍ سابِقٍ، وهو يَدعوكم إلى عبادتِه وَحدَه وطاعتِه؛ ليغفِرَ لكم بعضَ ذُنوبِكم، ويؤخِّرَ بَقاءَكم في الدُّنيا إلى نهاية آجالِكم، دونَ أن يُعاجلَكم في الدُّنيا بالعذابِ.

فقالوا لرُسُلِهم: ما نراكم إلَّا بشَرًا صِفاتُكم كصِفاتِنا، لا فضْلَ لكم علينا يؤهِّلُكم أن تكونوا رسُلًا، تُريدونَ أن تمنَعونا مِن عبادةِ ما كان يعبُدُه آباؤنا مِن الأصنامِ والأوثانِ، فأْتُونا بحُجَّةٍ دامغةٍ، ومُعجزةٍ ظاهرةٍ تشهَدُ على صِحَّةِ ما تدعونَنا إليه.

قالت لهم رسلهم: حقًّا ما نحنُ إلا بشَرٌ مِثلُكم، ولكِنَّ اللهَ يتفضَّلُ على مَن يشاءُ مِن عبادِه بالنُّبُوَّةِ والرِّسالةِ، ويُفَضِّلُهم على كثيرٍ مِن خَلْقِه، ولا يمكِنُ لنا أن نأتيَكم بما اقترحتُم مِن حجةٍ أو آيةٍ إلَّا بإذنِ اللهِ، وعلى اللهِ وَحدَه يعتَمِدُ المؤمِنونَ في كلِّ أمورِهم، وكيف لا نعتَمِدُ على اللهِ، وهو الذي أرشَدَنا إلى سُلوكِ الطَّريقِ المُوصِلِ إلى رَحمتِه، المُنَجِّي مِن سَخَطِه ونِقمَتِه؟ ولنصبِرَنَّ على إيذائِكم لنا، وعلى اللهِ وَحدَه فليعتَمِدِ المتوَكِّلونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا حَذَّرَهم انتقامَ اللهِ إن كَفَروا، ذكَّرَهم أيامَه في الأمَمِ الماضيةِ[١].

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾.

أي: ألم يأتِكم خَبَرُ الأُمَمِ الذين مَضَوا مِن قَبلِكم؛ قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ[٢]؟

﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾.

أي: وأمَمٌ كثيرةٌ مِن بعدِ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، لا يعلَمُ عدَدَهم وأخبارَهم إلَّا اللهُ وَحدَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٠، ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

قيل: هذا من تمامِ قولِ موسى لقومِه، وممن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٣).

وقيل: هو خبرٌ مُستأنَفٌ مِن الله تعالى لهذه الأمَّة، وممن قال بذلك: ابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٠-٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٥).

وقال الشوكاني: (يحتمِلُ أن يكون هذا خطابًا مِن موسَى لقومِه، فيكون داخلًا تحتَ التذكيرِ بأيامِ الله، ويحتملُ أن يكونَ مِن كلامِ الله سبحانَه ابتداءً خطابًا لقومِ موسى، وتذكيرًا لهم بالقرونِ الأُولَى وأخبارِهم ومجيءِ رسُلِ الله إليهم، ويحتمِلُ أنَّه ابتداءُ خِطابٍ مِن الله سبحانه لقومِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلم؛ تحذيرًا لهم عن مخالفتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٦).

كما قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال سُبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٥ - ٣٨].

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾.

أي: جاء كُلَّ أمَّةٍ مِن الأمَمِ السَّابقةِ رَسولُهم الذي أرسَلَه اللهُ إليهم، بالحُجَجِ الواضِحةِ الدَّامغةِ، والمُعنجِزاتِ الظَّاهِرةِ الدَّالَّةِ على صِدقِ الرُّسُلِ، وصِحَّةِ دعوتِهم النَّاسَ إلى توحيدِ الله وطاعتِه[1].

﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾.

أي: فرَدَّ المكَذِّبونَ مِن الأُمَمِ السَّابقةِ أيديَهم إلى أفواهِهم؛ ليَعَضُّوها غيظًا ممَّا جاءت به الرسُلُ مِن توحيدِ اللهِ، الذي فيه تسفيهُ أحلامِهم، وإبطالُ آلهتِهم[2].

قال الزمخشري: (﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ جملةٌ مِن مبتدإٍ وخبرٍ، وقعتْ اعتراضًا: أو عطَف «الذين مِن بعدِهم» على ﴿قَوْمِ نُوحٍ ﴾. و﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ اعتراضٌ. والمعنى: أنَّهم مِن الكثرةِ بحيثُ لا يعلمُ عددَهم إلَّا الله). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٩)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٥١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٥).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ: ابنُ قتيبةَ، وابنُ جريرٍ، والنَّحَّاس، والقرطبي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠٥).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾.

أي: وقالوا لرُسُلِهم: إنَّا كَفَرْنا بالذي تزعُمونَ أنَّكم أُرسِلتُم به، مِن الدُّعاءِ إلى توحيدِ اللهِ، وتَركِ الإشراكِ به[1].

وقال الشوكاني: (﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: جعلوا أيديَ أنفُسِهم في أفواهِهم؛ ليعَضُّوها غيظًا ممَّا جاءت به الرسل، كما في قوله تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾؛ لأنَّ الرُّسُل جاءتهم بتسفيهِ أحلامِهم وشَتمِ أصنامِهم... وقال أبو عبيدةَ- ونِعمَ ما قال-: هو ضَربُ مَثَلٍ، أي: لم يؤمِنوا ولم يُجيبوا، والعَربُ تقول للرجلِ إذا أمسك عن الجوابِ وسكت: قد ردَّ يدَه في فيه، وهكذا قال الأخفش، واعتَرَض ذلك القتبيُّ، فقال: لم يُسمَعْ أحدٌ من العرب يقولُ: ردَّ يدَه في فيه: إذ ترك ما أُمِرَ به، وإنما المعنى: عَضُّوا على الأيدي حنَقًا وغيظًا... وهذا هو القولُ الذي قدَّمناه على جميع هذه الأقوال... وهو أقربُ التفاسيرِ للآية إن لم يصِحَّ عن العربِ ما ذكره أبو عبيدةَ والأخفش، فإن صَحَّ ما ذَكَراه فتفسيرُ الآية به أقربُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١٦). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٣٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٠).

وعن ابن عباس ﴿رَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: (هَذَا مَثَلٌ، كَفُّوا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ). علَّقه البخاريُّ في ((صحيحه)) (٦/ ٩٩).

وممن اختار قولَ أبي عبيدةَ: البقاعي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٠/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

واختار ابنُ عاشور أنَّ المراد: أنَّهم وضعوا أيديَهم على أفواهِهم؛ إخفاءً لشِدَّةِ الضَّحِك من كلامِ الرُّسُل؛ كراهيةَ أن تظهَرَ دواخِلُ أفواهِهم. وذلك تمثيلٌ لحالة الاستهزاءِ بالرسُلِ- عليهم السلام. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٦).

وفي الآيةِ الكريمةِ أقوالٌ؛ مِنها: أنَّهم لَمَّا سَمِعوا كِتابَ اللهِ، عَجِبوا ورَجَعوا بأيدِيهم إلى أفواهِهم مِنَ العجَبِ. ويُرْوَى عنِ ابنِ عبَّاسٍ. ومِنها: أنَّهم كانوا إذا قال لهم نَبِيُّهم: أنا رسولُ اللهِ إليكم، أشاروا بأصابِعِهم إلى أفواهِهم أنِ اسْكُتْ؛ تَكذيبًا له، وردًّا لقولِه. ويُرْوَى هذا عن أبي صالحٍ. ومِنها: أنَّهم وَضَعوا أيدِيَهم على أفواهِ الرُّسلِ؛ ردًّا لِقَولِهم، قالَهُ الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٦).

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

أي: وإنَّا لفي شَكٍّ يوجِبُ لنا التُّهمةَ والرِّيبةَ مِن حقيقةِ ما جِئتُمونا به؛ فلَسْنا نصَدِّقُكم فيه[1].

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾.

أي: قالت الرُّسُلُ لأُمَمِهم: أفي وجودِ اللهِ وإفرادِه بالعبادةِ دُونَ غَيرِه شَكٌّ[2]؟!

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: خالقِ السَّمواتِ والأرضِ، ومُوجِدِهما مِن العدَمِ على غيرِ مِثالٍ سابقٍ[3].

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٢).

قال القرطبي: (أي: نظُنُّ أنَّكم تطلبونَ المُلك والدنيا). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٣٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

قال ابن كثير: (هذا يحتمِلُ شيئين: أحدُهما: أفي وجودِه شَكٌّ؟! فإنَّ الفِطَرَ شاهدةٌ بوجوده، ومجبولةٌ على الإقرار به، فإنَّ الاعتراف به ضروريٌّ في الفِطَر السليمة، .. والمعنى الثاني في قولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: أفي إلهيَّتِه، وتفرُّدِه بوجوب العبادة له شكٌّ؟! وهو الخالِقُ لجميع الموجوداتِ، ولا يستحِقُّ العبادةَ إلَّا هو وَحدَه لا شريك له؛ فإنَّ غالبَ الأمَم كانت مقِرَّةً بالصانع، ولكن تعبُدُ معه غيرَه من الوسائط التي يظنُّونها تنفَعُهم أو تقَرِّبُهم مِن الله زلفى). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٦).

أي: يَدعوكم اللهُ على ألسنةِ رُسُلِه وفي كُتُبِه إلى عبادتِه وَحدَه وطاعتِه؛ لِيستُرَ عليكم بعضَ[(١)] ذُنوبِكم، ويتجاوزَ عن مؤاخَذتِكم بها، فلا يعاقِبَكم عليها[(٢)].

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

---

(١) قال القرطبيُّ: (قال أبو عُبيدٍ: «مِن» زائدةٌ. وقال سِيبويْهِ: هي للتَّبعيضِ، ويَجوزُ أنْ يُذكَرَ البَعضُ والمُرادُ منه الجميعُ. وقِيلَ: «مِن» للبدَلِ، وليستْ بزائدةٍ ولا مُبعِّضَةٍ، أي: لِتَكونَ المَغفِرةُ بدلًا مِنَ الذُّنوبِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٦-٣٤٧).

وممَّن ذهب إلى كونِ «مِن» بمعنى التبعيضِ: ابنُ جريرٍ، والزمخشري، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٢٨).

قال ابنُ عطية: (وهو معنى صحيحٌ؛ وذلك أنَّ الوعدَ وقَع بغُفران الشركِ وما معه مِن المعاصي، وبقِيَ ما يستأنفُه أحدُهم بعدَ إيمانِه مِن المعاصي مسكوتًا عنه؛ ليبقَى معه في مشيئةِ الله تعالى، فالغفرانُ إنما نفَذ به الوعدُ في البعضِ، فصَحَّ معنى ﴿مِن﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٢٨).

وقال زينُ الدِّين الرازيُّ: (فإنْ قِيلَ: ما معنَى التَّبعيضِ في قولِه تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾؟

قُلْنا: ما جاء هكذا إلَّا في خِطابِ الكافرينَ؛ كقولِه تعالى في سُورةِ نُوحٍ: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤]، وقولِه تعالى في سُورةِ الأحقافِ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وقال تعالى في خِطابِ المُؤمنينَ في سُورةِ الصَّفِّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ إلى قولِه: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٠-١٢]، وقال في آخرِ سُورةِ الأحزابِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، وكذا باقي الآياتِ في خِطابِ الفريقينِ إذا تَتبَّعْتَها، وما ذلك إلَّا للتَّفرقةِ بيْن الخِطابينِ؛ لئلَّا يُسَوَّى بيْن الفريقينِ في الوعْدِ، مع اختلافِ رُتْبَتِهما، لا لأنَّه يَغفِرُ للكُفَّارِ مع بَقائِهم على الكُفْرِ بَعضَ ذُنوبِهم. والَّذي يُؤيِّدُ ما ذَكَرناهُ مِنَ العِلَّةِ: أنَّه في سُورةِ نُوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي سُورةِ الأحقافِ وعَدَهُم مَغفرةَ بَعضِ الذُّنوبِ بشَرطِ الإيمانِ، لا مُطْلقًا. وقِيلَ: معنَى التَّبعيضِ: أنَّه يَغفِرُ لهم ما بيْنهم وبيْنه، لا ما بيْنهم وبيْن العِبادِ مِنَ المَظالِمِ ونَحوِها). ((أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل)) (ص: ٢٣٣-٢٣٤).

ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٢).

أي: ويؤخِّرَكم في الدُّنيا إلى مُنتهَى أعمارِكم، فلا يُعاجِلكم بالعذابِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

أي: قال الكُفَّارُ لرُسُلِهم: ما أنتم إلَّا بشَرٌ مِثلُنا في الصُّورةِ والهيئةِ؛ تأكلونَ ممَّا نأكُلُ، وتشربونَ ممَّا نشرَبُ، ولستُم ملائكةً، فكيف نُطيعُكم؟ وكيف تَفضُلُونَنا بالنبوَّةِ والرِّسالةِ؟! إنَّما تريدونَ بدَعوتِكم هذه أن تَصرِفونا عن عبادةِ ما كان يعبُدُ آباؤُنا مِن الأوثانِ والأصنامِ[(٢)].

﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: فأْتُونا بمُعجزةٍ ظاهرةٍ، وحُجَّةٍ دامغةٍ تُبَيِّنُ لنا صِحَّةَ ما تدعونَنا إليه، فنعلَمَ أنَّكم على الحَقِّ[(٣)].

﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾.

﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٢).

قال السعدي: (ومرادُهم: بيِّنةٌ يقترِحونها هم، وإلَّا فقد تقدَّمَ أنَّ رسُلَهم جاءتهم بالبيِّناتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

أي: قالت الرُّسُلُ لأولئك الكفَّارِ مِن أقوامِهم: صدَقْتُم، ما نحنُ إلَّا بشَرٌ مِن بني آدَمَ، مِثْلُكم في البشَريَّة[١].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ يتفَضَّلُ على من يشاءُ مِن عبادِه بالرِّسالةِ والنُّبُوَّة، ويُفَضِّلُهم على كثيرٍ مِن خَلْقِه[٢].

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا نقدِرُ أن نأتيَكم بحُجَّةٍ وآيةٍ كما تقترِحونَ، إلَّا بمشيئةِ اللهِ وأمرِه[٣].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ وَحدَه فلْيعتمِدِ المؤمنونَ في جَلبِ مَصالِحِهم، ودفْعِ مَضارِّهم، ولْيَثِقوا به في تيسيرِ جميعِ أمورِهم[٤].

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾.

أي: قالت الرُّسُلُ لأُمَمِهم: وأيُّ عذرٍ لنا في ألَّا نعتَمِدَ على اللهِ ونَثِقَ به،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٠، ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

والحالُ أنَّه قد فعل بنا ما يوجِبُ توكُّلَنا عليه؛ فقد أرشَدَنا ووفَّقَنا لسُلوكِ الطَّريقِ المُوصِل إلى رَحمتِه، المُنَجِّي مِن سَخَطِه ونِقمَتِه[١]؟

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾.

أي: واللهِ، لنَصبِرَنَّ على ما نَلقَى منكم مِن الأذَى بسبَبِ استمرارِنا في الدَّعوةِ إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه لا شريكَ له[٢].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ وَحدَه فلْيَعتمِدِ المتوَكِّلونَ الواثِقونَ باللهِ، ولْيَثْبُتوا على توكُّلِهم على اللهِ عزَّ وجلَّ[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وجوبُ التوكُّلِ على اللهِ وحدَه، وإفرادُه بالتوكُّلِ يُؤخَذُ مِن تقديمِ المعمولِ على عامِلِه؛ لأنَّ تقديمَ ما حقُّه التأخيرُ يُفيدُ الحصرَ، وهذه قاعِدةٌ[٤]، فلا يجوزُ التوكُّلُ إلَّا على اللهِ، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٣).

قال ابنُ عاشور: (جملةُ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يحتملُ أن تكونَ مِن بقيَّة كلامِ الرسُل .. ويحتملُ أن تكونَ من كلامِ الله تعالى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٢).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٦٤).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أنَّ التوكُّلَ مِن مقتَضياتِ الإيمانِ؛ لأنَّه عَلَّقَ الحُكمَ على وصفٍ- وهو الإيمانُ- فدلَّ ذلك على أنَّه كلَّما قَوِيَ الإيمانُ قَوِيَ التوكُّلُ على اللهِ، وكلَّما ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَ التوكُّلُ على اللهِ[1]، فالتوكلُ مِن العباداتِ الكِبارِ التي يحِبُّها اللهُ ويرضاها؛ لِتوقُّفِ سائرِ العباداتِ عليه[2].

٣- قالت الرُّسُلُ لِقَومِهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ فعَجِبوا مِن تَركِهم التوكُّلَ على اللهِ، وهو هَداهم، وأقرُّوا أنَّ ذلك لا يكونُ أبدًا، وهذا دليلٌ على أنَّ الهِدايةَ والتوكُّلَ مُتلازِمانِ؛ فصاحِبُ الحَقِّ -لِعلمِه بالحَقِّ، ولِيَقينِه بأنَّ اللهَ وليُّ الحَقِّ وناصِرُه- مُضطَرٌّ إلى توكُّلِه على اللهِ، لا يجِدُ بُدًّا مِن توكُّلِه؛ فإنَّ التوكُّلَ يجمَعُ أصلينِ: علمَ القَلبِ وعَمَلَه؛ أمَّا عِلمُه: فيقينُه بكفايةِ وَكيلِه، وكمالِ قيامِه بما وكَلَه إليه، وأنَّ غيرَه لا يقومُ مَقامَه في ذلك. وأمَّا عمَلُه: فسُكونُه إلى وَكيلِه، وطمأنينتُه إليه، وتفويضُه وتسليمُه أمْرَه إليه، وأنَّ غيرَه لا يقومُ مقامَه في ذلك، ورضاه بتصَرُّفِه له فوقَ رضاه بتصَرُّفِه هو لنفسِه، فبهذين الأصلينِ يتحقَّقُ التوكُّلُ، وهما جِماعُه[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ عيَّنَ منهم الثَّلاثةَ الأولى؛ لأنَّهم كانوا أشَدَّهم أبدانًا، وأكثَرَهم أعوانًا، وأقواهم آثارًا، وأطوَلَهم أعمارًا؛ لأنَّ البَطشَ إذا برزَ إلى الوجودِ كان أهوَلَ، لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢٢).
(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٧).

النَّفسَ للمحسوسِ أقبَلُ[١].

٢- في قولِه تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ أنَّ مَن ادَّعَى عِلْمَ شيءٍ ممَّن سَبَقَ، فهو كاذبٌ، إلَّا ببُرهانٍ[٢].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ كيف ذكَرَوا فيه أنَّهم كافِرونَ برِسالتِهم، وذكَروا بعد ذلك كونَهم شاكِّينَ مُرتابينَ في صِحَّةِ قَولِهم: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾؟

والجوابُ مِن وجوهٍ:

الوجه الأول: كأنَّهم قالوا إمَّا أن نكونَ كافرينَ برِسالتِكم، أو أن ندَعَ هذا الجَزمَ واليقينَ، فلا أقلَّ مِن أن نكونَ شاكِّينَ مُرتابينَ في صِحَّةِ نبُوَّتِكم، وعلى التقديرينِ فلا سبيلَ إلى الاعترافِ بنبوَّتِكم[٣].

الوجه الثاني: أنَّهم بادروا أوَّلًا إلى الكُفرِ، وهو التكذيبُ المحضُ، ثمَّ أخبَروا بأنَّهم في شَكٍّ، وهو التردُّدُ، كأنَّهم نظروا بعضَ نَظرٍ اقتَضى أن انتَقَلوا من التكذيبِ المحضِ إلى التردُّدِ.

الوجه الثالث: هما قولانِ مِن طائفتَينِ: طائفةٍ بادَرَت بالتَّكذيبِ والكُفرِ، وطائفةٍ شَكَّت، والشَّكُّ في مِثلِ ما جاءت به الرُّسُلُ كُفرٌ[٤].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ لَمَّا كان ردُّ الرِّسالةِ جامِعًا للكفرِ، وكانوا غيرَ مُسلِّمينَ أنَّ المُرسِلَ لهم هو الله؛ بَنَوا للمفعولِ قَولَهم:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٣-٤١٤).

﴿أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾[١].

٥- قَولُه تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ والمعنى: ما في الله شَكٌّ، وأنتم تعلمونَ أنَّه ليس في اللهِ شَكٌّ، ولكِنْ تجحدونَ انتفاءَ الشَّكِّ جُحودًا تستَحِقُّونَ أن يُنكَرَ عليكم هذا الجَحدُ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّه ليس في اللهِ شَكٌّ عند الخَلْقِ المُخاطَبينَ، وهذا يُبَيِّنُ أنَّهم مفطورونَ على الإقرارِ به سُبحانَه[٢].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يعْنُونَ أنَّ ذلك عطيَّةٌ مِن اللهِ تعالى، يُعْطِيها مَن يَشاءُ مِن عِبادِه بمحْضِ الفَضلِ والامتنانِ، مِن غيرِ داعيةٍ توجِبُه[٣]، ولم يصَرِّحوا بما تميَّزوا به مِن وَصفِ النبُوَّةِ، ولم يخُصُّوا أنفُسَهم بمَنِّ اللهِ، بل أدرَجوها في عُمومِ مَن شاء الله؛ كلُّ ذلك تواضُعًا منهم واعترافًا بالعبوديَّةِ[٤].

٧- قولُ الرُّسلِ: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ جوابٌ بِطَريقِ القَولِ بالموجِبِ في عِلْمِ آدابِ البحْثِ، وهو تَسليمُ الدَّليلِ مع بَقاءِ النِّزاعِ ببيانِ محَلِّ الاستدلالِ غيرَ تامِّ الإنتاجِ، وفيه إطماعٌ في المُوافقةِ، ثمَّ كَرَّ على استِدلالِهم المقصودِ بالإبطالِ بِتَبْيينِ خطَئِهم، وهذا النَّوعُ مِن القوادِحِ في علْمِ الجدَلِ، شديدُ الوقْعِ على المُناظِرِ؛ فليس قولُ الرُّسلِ: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تقريرًا للدَّليلِ، ولكنَّه تمهيدٌ لِبيانِ غلَطِ المُستدِلِّ في الاستنتاجِ مِن دَليلِه، ومحَلُّ البيانِ هو الاستدراكُ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، والمعنى: أنَّ المُماثلَةَ في البشريَّةِ لا تقْتَضي المُماثلَةَ في زائدٍ عليها؛ فالبشَرُ كلُّهم عِبادُ اللهِ،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٩٠).
(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٩٤).

واللهُ يمُنُّ على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه بنِعَم لم يُعْطِها غيرَهم؛ فالاستدراكُ رفعٌ لِمَا توهَّموه مِن كونِ المُماثلَةِ في البشريَّةِ مُقْتضى الاستواءِ في كلِّ خَصلةٍ(١).

٨- قال الله تعالى حكايةً عن الرسُلِ في حديثِهم مع قَومِهم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، ثمَّ أعادوا قولَهم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ فما الفائِدةُ في تَكرارِ الأمرِ؟

والجوابُ عن ذلك من أوجُهٍ:

الوجه الأول: الفائِدةُ فيه أنَّهم أمَروا أنفُسَهم بالتوكُّلِ على اللهِ، في قولِه: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثمَّ لَمَّا فَرَغوا من أنفُسِهم، أَمَروا أتباعَهم بذلك، وقالوا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ وذلك يدلُّ على أنَّ الآمِرَ بالخيرِ لا يُؤَثِّرُ قَولُه إلَّا إذا أتى بذلك الخَيرِ أوَّلًا.

الوجه الثاني: أنَّ قولَه: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ المرادُ منه أنَّ الذين يطلُبونَ سائِرَ المُعجِزاتِ وجب عليهم أن يتوكَّلوا في حُصولِها على اللهِ تعالى لا عليها، فإن شاء أظهَرَها، وإن شاء لم يُظهِرْها، وأمَّا قَولُه في آخِرِ الآيةِ: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ المرادُ منه: الأمرُ بالتوكُّلِ على اللهِ في دَفعِ شَرِّ النَّاسِ الكُفَّارِ وسَفاهتِهم، وعلى هذا التقديرِ فالتَّكرارُ غيرُ حاصلٍ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ واردٌ في موضعينِ مُختلفَينِ بحسَبِ مَقصودينِ مُتَغايرينِ.

الوجه الثالث: أنَّ الأوَّلَ ذُكِرَ لاستحداثِ التوكُّلِ، والثانيَ للسَّعيِ في إبقائِه وإدامتِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٧٥-٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٠٩-٤١٠)، ((تفسير

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ هذا الكلامُ استئنافٌ ابتدائيٌّ رجَعَ به الخطابُ إلى المُشركينَ مِن العرَبِ على طريقةِ الالتِفاتِ في قولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ...﴾؛ لأنَّ المُوجَّهَ إليه الخِطابُ هنا هم الكافِرونَ المَعْنيونَ بقولِه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[١].

- والاستفهامُ بقولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ إنكاريٌّ؛ لأنَّهم قد بلغَتْهم أخبارُهم[٢]، وقيل: للتَّقريرِ والتَّوبيخِ[٣].

- قولُه: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ على القولِ بأنَّها جُملةٌ اعتراضيَّةٌ[٤]؛ فإنَّها تُفيدُ أنَّهم مِن الكثْرةِ بحيثُ لا يعلَمُ عدَدَهم إلَّا اللهُ[٥].

- قولُه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ في تَصديرِ العِبارةِ بالحرْفِ المُؤكِّدِ (إنَّ)، ومُواجهةِ الرُّسلِ بضَمائرِ الخطابِ، وإعادةِ ذلك: مُبالغَةٌ في التَّأكيدِ، دلَّ على قُنوطِهم بالمرَّةِ[٦].

أبي حيان)) (٦/ ٤١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٢).

(٤) فقد قيل: ليستْ هذه جُملةَ اعْتراضٍ؛ لأنَّ جُملةَ الاعتِراضِ تكونُ بين جُزءينِ يطلُبُ أحدُهما الآخَرَ.

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- الحاشية)) (٢/ ٥٤٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٦٥).

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أُدْخِلَت همزةُ الإنكارِ على الظَّرفِ ﴿أَفِي﴾؛ لأنَّ الكلامَ ليس في الشَّكِّ، إنَّما هو في المَشكوكِ فيه، أي: إنَّما ندْعوكم إلى اللهِ، وهو لا يَحتمِلُ الشَّكَّ؛ لكثرةِ الأدلَّةِ وظهورِ دَلالتِها عليه، وأشاروا إلى ذلك بقولِهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، وهو استِفهامٌ إنكاريٌّ، ومَوْرِدُ الإنكارِ هو وُقوعُ الشَّكِّ في وُجودِ اللهِ؛ فقُدِّمَ مُتعلِّقُ الشَّكِّ ﴿أَفِي ٱللَّهِ﴾؛ للاهتمامِ به، ولو قال: (أشكٌّ في اللهِ)، لم يكُنْ له هذا الوقْعُ، فكان أبلَغَ، وعُلِّقَ اسمُ الجلالةِ بالشَّكِّ، والاسمُ العَلَمُ يدلُّ على الذَّاتِ، والمُرادُ إنكارُ وُقوعِ الشَّكِّ في أهمِّ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ، وهي صِفَةُ التَّفرُّدِ بالإلهيَّةِ، أي: صفةُ الوحدانيَّةِ. وأُتْبِعَ اسمُ الجلالةِ بالوصفِ الدَّالِّ على وُجودِه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وهو وُجودُ السَّمواتِ والأرضِ الدَّالُّ على أنَّ لهما خالقًا حَكيمًا؛ لاستحالةِ صُدورِ تلك المخلوقاتِ العجيبةِ المُنظَّمَةِ عن غيرِ فاعلٍ مُختارٍ، وذلك معلومٌ بأدْنَى تأمُّلٍ، وذلك تأييدٌ لإنكارِ وُقوعِ الشَّكِّ في انفرادِه بالإلهيَّةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالخَلقِ يَقْتَضي انفرادَه باستحقاقِه عِبادةَ مخلوقاتِه[2].

- وجُملةُ ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ قَيدٌ لِمَا دلَّ عليه الحصْرُ في جُملةِ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، مِن جحْدِ كونِهم رُسلًا مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٨- ١٩٩).

اللهِ بالدِّينِ الَّذي جاؤوهم به مُخالفًا لِدينِهم القديم؛ فبذلك الاعتِبارِ كان موقِعُ التَّفريعِ لجُملةِ ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ لأنَّ مُجرَّدَ كونِهم بشَرًا لا يقْتَضي مُطالبتَهم بالإتيانِ بسُلطانٍ مُبينٍ، وإنَّما اقتضاه أنَّهم جاؤوهم بإبطالِ دِينِ قَومِهم، وهو مضمونُ ما أُرْسِلُوا به[١].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ جاء التَّعبيرُ هنا بـ﴿لَهُمْ﴾؛ لاختِصاصِ الكلامِ بهم، حيث أُرِيدَ إلْزامُهم، بخلافِ ما سلَفَ مِن إنكارِ وُقوعِ الشَّكِّ في اللهِ سبحانه؛ فإنَّ ذلك عامٌّ، وإنِ اختَصَّ بهم ما يعقُبُه ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[٢]. وأيضًا زيادةُ ﴿لَهُمْ﴾ تُؤْذِنُ بالدَّلالةِ على توجُّهِ الرُّسُلِ إلى قومِهم بالجوابِ؛ لِمَا في الجوابِ عن كلامِهم مِن الدِّقَّةِ المُحتاجةِ إلى الاهتمامِ بالجوابِ بالإقبالِ عليهم؛ إذ اللَّامُ الدَّاخِلةُ بعد فعْلِ القولِ في نحوِ: أقولُ لك، لامُ تعليلٍ، أي: أقولُ قولي لأجْلِك[٣].

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠] خِطابٌ لِمَن عانَدَ فيه، وهو كالمُعانِدِ في الأمْرِ الضَّروريِّ؛ فلذلك أُسْقِطَ المجرورُ؛ لأنَّ المُجيبَ عن ذلك يُجيبُ به مِن حيثُ الجُملةُ، ولا يُقْبِلُ بالجوابِ على المُخاطَبِ؛ لِغَباوتِه عندَه ومُعانَدَتِه، فيُجيبُ وهو مُعرِضٌ عنه، بخِلافِ قولِهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]؛ لأنَّه يُقرِّرُ لِمَقالَتِهم ويُثْبِتُ لها، والمُقِرُّ لِمَقالةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٢).

خَصْمِه يُقْبِلُ عليه بالجوابِ؛ لأنَّه لم يُبْطِلْ كلامَه بالإطلاقِ، بل يُقرِّرُه، ويَزيدُ فيه زياداتٍ تُبْطِلُ قولَ خَصْمِه. وقيل: إنَّ قولَه: ﴿قَالَتْ لَهُمْ﴾ مَقالةٌ خاصَّةٌ، أو هي جوابٌ عن قولٍ صدَرَ منهم. والمَقالةُ الأُولى لهم ولغيرِهم[١].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ معناه: نفْيُ ذلك الأمْرِ جُملةً؛ لأنَّ مثْلَ هذه العِبارةِ إذا قالها الإنسانُ عن نفْسِه، أو قِيلَت له فيما يقَعُ تحت مَقدورِه، فمعناها النَّهيُ والحَظْرُ، وإنْ كان ذلك فيما لا قُدرةَ له عليه، فمعناها نفْيُ ذلك الأمْرِ جُملةً، وكذا هي آيتُنا. وقيل: لَفظُها لفْظُ الحظْرِ، ومعناها النَّفيُ[٢].

- قولُه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا أمْرٌ مِن الرُّسلِ للمُؤمنينَ كافَّةً بالتَّوكُّلِ، وقَصَدوا به أنفُسَهم قصْدًا أوَّليًّا وأمَرُوهم به؛ كأنَّهم قالوا: ومِن حقِّنا أنْ نتوكَّلَ على اللهِ في الصَّبرِ على مُعاندتِكم ومُعاداتِكم وما يجْري علينا منكم[٣].

- وفيه تقديمُ المجرورِ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾، وهو مُؤْذِنٌ بالحصْرِ، وأنَّهم لا يَرْجونَ نصرًا مِن غيرِ اللهِ تعالى؛ لِضعْفِهم وقلَّةِ ناصرِهم، وفيه إيماءٌ إلى أنَّهم واثقونَ بنصْرِ اللهِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال ذلك هنا، وقال بَعدَه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ سابِقٌ على التَّوكُّلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٢/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٤)،

٤- قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ ﴾ ﴿مَآ﴾ استفهاميَّةٌ، والاستفهامُ هنا معناه النَّفيُ، أي: لا مانِعَ لنا ولا عُذْرَ نَتشبَّثُ بأهدابِه[1]؛ فهو استفهامٌ إنكاريٌّ لانتِفاءِ توكُّلِهم على اللهِ، أَتَوا به في صُورةِ الإنكارِ بناءً على ما هو معروفٌ مِن استِحْماقِ الكُفَّارِ إيَّاهم في توكُّلِهم على اللهِ، فجاؤوا بإنكارِ نفْيِ التَّوكُّلِ على اللهِ، ومعنى ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ ﴾: ما ثبَتَ لنا مِن عدَمِ التَّوكُّلِ؛ فاللَّامُ للاستِحقاقِ، وزادوا قومَهم تأْييسًا مِن التَّأثُّرِ بالأذى، فأقْسَموا على أنَّ صبْرَهم على أذى قومِهم سيستمِرُّ؛ فصِيغَةُ الاستقبالِ المُستفادَةُ مِن المُضارِعِ المُؤكَّدِ بنُونِ التَّوكيدِ ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ دلَّت على أذًى مُستقبلٍ، ودلَّت صِيغَةُ المُضِيِّ المُنتزَعُ منها المصدرُ: ﴿مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ على أذًى مَضَى؛ فحصَلَ مِن ذلك معنى: نصبِرُ على أذًى مُتوقَّعٍ كما صبَرْنا على أذًى مَضَى، وهذا إيجازٌ بديعٌ[2].

- قولُه: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ جوابُ قسَمٍ محذوفٍ، أكَّدوا به توكُّلَهم على اللهِ، وعدَمَ مُبالاتِهم بما يَجْري مِن الكُفَّارِ عليهم[3].

- وجُملةُ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يَحتمِلُ أنْ تكونَ مِن بقيَّةِ كلامِ الرُّسلِ؛ فتكونَ تذييلًا وتأْكيدًا لجُملةِ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ فكانتْ تذييلًا لِمَا فيها مِن العُمومِ الزَّائدِ في قولِه: ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ على

((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٤).

عُموم ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وكانتْ تأكيدًا؛ لأنَّ المُؤمنينَ مِن جُملةِ المُتوكِّلينَ. ويَحتمِلُ أنْ تكونَ مِن كلامِ اللهِ تعالى؛ فهي تَذْييلٌ للقصَّةِ، وتنويهٌ بشأْنِ المُتوكِّلينَ على اللهِ، أي: لا ينْبَغي التَّوكُّلُ إلَّا عليه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٤).

الآيات (١٢-١٨)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿مِلَّتِنَا﴾: أي: دينِنا، وطريقتِنا، وإنَّما سُمِّيَ الدِّينُ مِلَّةً؛ لأنَّه يُمَلُّ، أي: يُملَى على المَدعُوِّ إليه، فالملةُ تُبنَى على مَسموعٍ ومتلوٍّ[(١)].

﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ ﴾: أي: استَنصَروا وسألوا الفتحَ من اللهِ- وهو القَضاءُ، وأصلُ (فتح): يدلُّ على خلافِ الإغلاقِ[(٢)].

﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ ﴾: أي: مِن أمامِه، والوَراءُ: مِنَ الأضدادِ، يكونُ بمعنى خَلْف وقُدَّام[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣- ٧٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٤)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٩٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٣٠).

﴿صَدِيدٍ﴾: قيحٍ ودَمٍ، واشتِقاقُه مِن الصَّدِّ؛ لأنَّه يصُدُّ النَّاظِرينَ عن رُؤيتِه[١].

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾: أي: يتحَسَّاه مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ، لا مَرَّةً واحدةً؛ لِمَرارتِه وحرارتِه، وأصلُ (جرع): يدُلُّ على قِلَّةِ الشَّيءِ المَشروبِ[٢].

﴿يُسِيغُهُۥ﴾: أي: يُجيزُه ويَبتَلِعُه، وأصلُ (سوغ): يدُلُّ على سُهولةِ الشَّيءِ، واستمرارِه[٣].

﴿عَاصِفٍ﴾: أي: شديدِ هُبوبِ الرِّيحِ، وأصلُ (عصف): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يخبر الله تعالى عن ضيقِ صدورِ الكُفَّار ممَّا قالته الرسُلُ، وأنهم قالوا لهم: لنطرُدَنَّكم مِن بلادِنا إلَّا أن تعودُوا إلى دينِنا، فأوحى اللهُ إلى رسُلِه أنَّه سيُهلِكُ الظالمينَ، وسيجعَلُ العاقبةَ الحسَنةَ للرُّسُلِ وأتباعِهم، بإسكانِهم أرضَ الكافرينَ بعدَ إهلاكِهم، ذلك النَّصرُ في الدُّنيا على الكُفَّارِ، والتَّمكينُ في الأرضِ محقَّقٌ لِمَن خافَ مقامَه بينَ يدَيِ الله يومَ القيامةِ، وخَشِيَ وعيدَه وعَذابَه.

ولجأ الرسُلُ إلى ربِّهم، وسألوه النَّصرَ على أعدائِهم وإهلاكَهم، وهَلَك كلُّ متكبِّرٍ لا يقبَلُ الحَقَّ ولا يُذعِنُ له، ومِن أمامِ هذا الكافِرِ جهنَّمُ تنتظِرُه؛ ليَلْقى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٢)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٥).

عذابَها في الآخرةِ، ويُسقَى فيها مِنَ القَيحِ والدَّمِ الذي يَخرجُ مِن أجسامِ أهلِ النَّارِ. يشربُه قهرًا- وذلك لشدةِ عطشِه- على جرعاتٍ، ولا يَكادُ يَبتَلِعُه؛ لقذارتِه وحرارتِه ومرارتِه، ويأتيه الموت وشِدَّتُه وآلامُه مِن كُلِّ عضوٍ ومَوضِعٍ مِن جَسَدِه، ومِن كُلِّ الجِهاتِ، وما هو بميِّتٍ فيستريحَ، وله مِن بعد هذا العذابِ عذابٌ آخَرُ قَويٌّ شديدٌ مُؤلِمٌ.

ثم يضربُ الله المثلَ لأعمالِ الكفَّارِ، فيقولُ: مثَلُ أعمالِ البرِّ التي يعملها الكُفَّارِ في الدُّنيا كرَمادٍ فرَّقَتْه وطيَّرَتْه الرِّيحُ القَويَّةُ في يومٍ اشتدَّ فيه هُبوبُها، فلم يبقَ منه شيءٌ، فكذلك أعمالُهم يُبطِلُها الكُفرُ- فلا يجِدونَ منها ما ينفَعُهم عندَ الله- ويُذهِبُ ثَوابَها، كما تُذهِبُ تلك الريحُ الشَّديدةُ الرَّمادَ. ذلك السعيُ والعمَلُ الذي لم يكن على استقامةٍ وهُدىً، هو الضَّلالُ البعيدُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ دَعوَةَ الرُّسُلِ لِقَومِهم، ودوامَهم على ذلك، وعدَمَ مَلَلِهم؛ ذكَرَ مُنتهَى ما وصَلَت بهم الحالُ مع قَومِهم[1].

وأيضًا لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن الأنبياءِ عليهم السَّلامُ أنَّهم اكتَفَوا في دفعِ شُرورِ أعدائِهم بالتوكُّلِ عليه، والاعتمادِ على حِفظِه وحياطتِه؛ حكى عن الكُفَّارِ أنَّهم بالَغوا في السَّفاهةِ[2]، فقال:

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٧٦).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

أي: وقال الذين كَفَروا باللهِ لرسلِ الله الذين يَدْعونهم للتوحيدِ: واللهِ، لنطرُدَنَّكم من بلادِنا إلا أن تعودوا إلى دينِنا[1].

كما قال تعالى حاكيًا قولَ قَومِ شُعَيبٍ له ولِمَن آمن به: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

وقال سُبحانه حاكيًا قَولَ قَومِ لُوطٍ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

وقال عزَّ وجَلَّ مُخبرًا عن مُشركي قُريشٍ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فأوحَى اللهُ إلى رسُلِه قائلًا لهم: لنُهلِكَنَّ المُشرِكينَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٣).

قال ابن العربي: (قال الطبري: «معناه: لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا إِلَّا أَنْ تَعُودُوا فِي مِلَّتِنَا». وهو غيرُ مفتقرٍ إلى هذا التقدير، فإن ﴿أَوْ﴾ على بابِها من التخيير، خيَّر الكفارُ الرسُلَ بين أن يعودوا في مِلَّتِهم أو يُخرِجوهم من أرضِهم). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٨٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٦).

بوَضعِهم العبادةَ في غَيرِ مَوضِعِها، وصَرفِها لِمَن لا يستحِقُّها[١].

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾.

أي: ولننصُرَنَّكم وأتباعَكم المؤمنينَ على الكفَّارِ، ونجعَلُكم تسكُنونَ أرضَهم مِن بعدِ إهلاكِنا لهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨- ١٢٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾.

أي: ذلك النَّصرُ في الدُّنيا على الكُفَّارِ، والتَّمكينُ في الأرضِ، يتحَقَّقُ لِمَن خاف مَقامَه بينَ يدَيَّ يومَ القيامةِ، وخاف مِن وعيدي وعذابي، فاتَّقاني بطاعتي، وتجنُّبِ مَعصِيتي[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير))

﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ ﴾.

﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ ﴾.

أي: طلبَت الرسُلُ مِن اللهِ النَّصرَ على أقوامِهم وإهلاكَهم[1].

(٤/ ٤٨٤).

قال السمعاني في قولِه تعالى: ﴿خَافَ مَقَامِي﴾: (أجمَع أهلُ التَّفسيرِ أنَّ معناه: ذلك لمن خَافَ مقامَه بينَ يَديَّ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٠٨).

وقال الشوكاني: (وقيل: إنَّ المقامَ هنا مصدرٌ بمعنَى القيام، أي: لمَنْ خافَ قيامي عليه، ومُراقبتي له، كقولِه تعالى: ﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ ﴾ [الرعد: ٣٣] وقال الأخفشُ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي﴾، أي: عذابي). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١٩)، وقيل غيرُ ذلك، يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الذين استفتحوا هم الرسُلُ عليهم السلام: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، وأبو السعودِ، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وابنُ جريجٍ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠٧).

وقيل: إنَّ الذين استفتحوا هم الكفارُ، وممَّن ذهب إلى ذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٧).

قال ابنُ كثير: (قوله: ﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ ﴾ أي: استنصَرَت الرسُلُ ربَّها على قومِها. قاله ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ. وقال عبدُالرحمن بنُ زيدِ بنِ أسلمَ: استفتَحَت الأمَمُ على أنفُسِها، كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢]. ويحتملُ أن يكونَ هذا مرادًا وهذا مرادًا، كما أنَّهم استفتحوا على أنفُسِهم يومَ بدر، واستفتحَ رسولُ الله واستنَصر، وقال اللهُ تعالى للمشركين: ﴿ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ الآية [الأنفال: ١٩]، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٤). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٩).

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

أي: وخَسِرَ وهلَك كُلُّ متكبِّرٍ على الحَقِّ، مُعاندٍ له[١].

كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٤ - ٢٦].

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾.

أي: مِن أمامِ كُلِّ جبَّارٍ عَنيدٍ نارُ جَهنَّمَ تنتَظِرُه، فهو صائِرٌ إليها في الآخرةِ[٢].

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾.

أي: ويُسقَى في جهنَّمَ مِن القَيحِ والدَّمِ الذي يسيلُ مِن أبدانِ أهلِ النَّارِ[٣].

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾.

أي: يتحسَّى ذلك الجبَّارُ العنيدُ الصَّديدَ، ويشرَبُه قَهرًا- مِن شِدَّةِ عَطَشِه-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٥).

قال ابن كثير: (﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: في النَّارِ، ليس له شرابٌ إلَّا من حميم أو غسَّاقٍ، فهذا في غايةِ الحرارة، وهذا في غايةِ البَردِ والنَّتن، كما قال: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٧- ٥٨]). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٥).

على جَرعاتٍ، ولا يَكادُ يَبتَلِعُه؛ مِن شِدَّةِ خُبثِه وكراهتِه[١].

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

أي: ويأتيه الموتُ وآلامُه وشِدَّتُه مِن كُلِّ مَوضِعٍ في جسَدِه، ومِن كُلِّ الجِهاتِ، وهو مع ذلك لا يموتُ فيستريحَ مِن العذابِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِي يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١ - ١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

أي: ومِن أمامِه عذابٌ آخَرُ قَويٌّ شديدٌ ينتظرُه غيرُ ما هو فيه مِن العَذابِ[٣].

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٥)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنواعَ عذابِ الكُفَّارِ في الآيةِ المتقَدِّمة؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ أعمالَهم بأسْرِها تصيرُ ضائعةً باطِلةً لا ينتَفِعونَ بشَيءٍ منها، وعند هذا يظهَرُ كَمالُ خُسرانِهم؛ لأنَّهم لا يجِدونَ في القيامةِ إلَّا العِقابَ الشَّديدَ، وكُلُّ ما عَمِلوه في الدُّنيا وجَدوه ضائِعًا باطِلًا، وذلك هو الخُسرانُ الشَّديدُ[١].

وأيضًا لَمَّا فرَغَ من محاوراتِهم وما تَبِعَها ممَّا بَيَّنَ فيه أنَّه لا يُغنيهم مِن بَطشِه شَيءٌ؛ ضرَبَ لهم في ذلك مَثلًا[٢]، فقال تعالى:

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ ﴾.

أي: مثَلُ أعمالِ الذين كفَروا برَبِّهم كرمادٍ طيَّرَتْه وفرَّقَتْه الرِّيحُ القَويَّةُ في يومٍ يشتَدُّ فيه هُبوبُها، فلم يبقَ مِن الرَّمادِ شَيءٌ، فكذلك أعمالُ البِرِّ والخيرِ التي يعمَلُها الكافِرونَ؛ يُبطِلُها الكُفرُ، ويُذهِبُ ثَوابَها، كما تُذهِبُ تلك الريحُ الشَّديدةُ الرَّمادَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٨٠-٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٢-٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٣)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣١، ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٦، ٤٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٥).

والقولُ بأنَّ المرادَ بأعمالِ الكفَّارِ هنا: أعمالُ الخيرِ والبِرِّ ،كالصدقاتِ وغيرِها، هو ظاهرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، والقرطبيِّ، وابنِ القيمِ، وابنِ كثيرٍ، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الرازي: (اختلفوا في المرادِ بهذه الأعمالِ على وجوهٍ:

الوجه الأول: أن المراد منها ما عَمِلوه من أعمال البِرِّ، كالصَّدَقة وصِلة الرَّحم وبِرِّ الوالدين وإطعام الجائع؛ وذلك لأنها تصير مُحبَطةً باطلة بسبَبِ كفرهم، ولولا كفرُهم لانتفعوا بها.

والوجه الثاني: أن المرادَ مِن تلك الأعمال عبادتُهم للأصنام وما تكلَّفوه مِن كفرهم الذي ظنوه

كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

أي: لا يجِدُ الكُفَّارُ في الآخرةِ أيَّ ثوابٍ لأعمالِ البِرِّ التي عَمِلوها في الدُّنيا، ولا يَرَونَ لها أيَّ منفعةٍ، مثلما لا يُقدَرُ على جَمعِ الرَّمادِ في اليومِ العاصِفِ[(١)].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

أي: أعمالُهم التي بطَلَت وفَقَدوا ثوابَها لم تكُنْ على هُدًى واستقامةٍ، فكانوا في خطأٍ وانحرافٍ بعيدٍ عن طريقِ الصَّوابِ، لا يُمكِنُ معه تدارُكُ تلك الخَسارةِ الكبيرةِ[(٢)].

إيمانًا وطريقًا إلى الخلاص، والوجهُ في خسرانهم أنَّهم أتعبوا أبدانَهم فيها الدهرَ الطويلَ؛ لكي ينتفعوا بها، فصارت وَبالًا عليهم.

والوجه الثالث: أنَّ المرادَ مِن هذه الأعمالِ كلا القسمينِ؛ لأنَّهم إذا رأوا الأعمالَ التي كانت في أنفُسِها خيراتٍ قد بطَلَت، والأعمالَ التي ظنُّوها خيراتٍ وأفنَوا فيها أعمارَهم قد بطلت أيضًا، وصارت مِن أعظمِ المُوجِباتِ لعذابِهم؛ فلا شَكَّ أنَّه تَعظُم حسرتُهم وندامتُهم؛ فلذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾. ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٨١).

وقال السعدي: (إمَّا أن المراد بها الأعمالُ التي عَمِلوها لله، بأنَّها في ذَهابها وبُطلانِها واضمحلالِها كاضمحلالِ الرَّمادِ -الذي هو أدَقُّ الأشياءِ وأخَفُّها- إذا اشتدَّت به الريحُ في يوم عاصف شديدِ الهبوب، فإنَّه لا يُبقي منه شيئًا، ولا يُقدَرُ منه على شيءٍ، يذهب ويضمَحِلُّ، فكذلك أعمالُ الكفار... وإمَّا أنَّ المرادَ بذلك أعمالُ الكفَّار التي عَمِلوها ليَكيدوا بها الحَقَّ، فإنَّهم يَسعَونَ ويكدحون في ذلك ومَكرُهم عائِدٌ عليهم، ولن يضرُّوا اللهَ ورُسُلَه وجُندَه وما معهم من الحَقِّ شيئًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٤)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٧).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ مَن توكَّلَ على ربِّه في دَفعِ عَدُوِّه، كفاه اللهُ أمرَ عَدُوِّه[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾، وقولُه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] فوعَدَ اللهُ بنصرِ الدُّنيا وبثوابِ الآخرةِ لأهلِ الخَوفِ، وذلك إنَّما يكونُ لأنَّهم أدَّوا الواجِبَ؛ فدلَّ على أنَّ الخوفَ يستلزِمُ فِعْلَ الواجِبِ، ولهذا يُقال للفاجِرِ: لا يخافُ اللهَ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مَن عَمِلَ لغيرِ اللهِ رجاءَ أن يَنتفعَ بما عَمِلَ له؛ كانت صفقتُه خاسرةً[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ فيه سؤالٌ: هذا يُوهِمُ أنَّهم كانوا على مِلَّتِهم في أوَّلِ الأمرِ حتى يعودوا فيها.

والجوابُ من وجوهٍ:

الوجه الأول: أنَّ أولئك الأنبياءَ عليهم السَّلامُ إنَّما نشؤوا في تلك البلادِ، وكانوا مِن تلك القبائلِ، وفي أوَّلِ الأمرِ ما أظهَروا المخالفةَ مع أولئك الكُفَّارِ، بل

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٧٧).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٦٥).

كانوا في ظاهِرِ الأمرِ معهم مِن غيرِ إظهارِ مُخالفةٍ؛ فالقومُ ظَنُّوا لهذا السَّبَبِ أنَّهم كانوا في أوَّلِ الأمرِ على دينِهم؛ فلهذا السَّبَبِ قالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

الوجه الثاني: أنَّ هذا حِكايةُ كلامِ الكُفَّارِ، ولا يجِبُ في كلِّ ما قالوه أن يكونوا صادِقينَ فيه، فلعلَّهم توهَّموا ذلك، مع أنَّه ما كان الأمرُ كما توهَّموه.

الوجه الثالث: لعلَّ الخِطابَ وإن كان في الظاهِرِ مع الرُّسُلِ إلَّا أنَّ المقصودَ بهذا الخطابِ أتباعُهم وأصحابُهم، ولا بأسَ أن يقال: إنَّهم كانوا قبل ذلك الوَقتِ على دينِ أولئكَ الكُفَّارِ[(١)].

الوجه الرابع: أنَّ (العَوْدَ) هنا بمعنى الصيرورةِ، وهو كثيرٌ في كلامِ العَرَبِ[(٢)].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خَصَّصَ تعالى الظالمينَ مِن الذين كفروا؛ إذ جائزٌ أن يؤمِنَ مِن الكَفَرةِ الذين قالوا المقالةَ ناسٌ، فإنَّما توعَّدَ بالإهلاكِ مَن خلُصَ للظُّلمِ[(٣)].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ نسَبوها إلى أنفُسِهم وزعَموا أنَّ الرُّسُلَ لا حَقَّ لهم فيها، وهذا من أعظَمِ الظُّلمِ؛ فإنَّ الله أخرجَ عِبادَه إلى الأرضِ، وأمَرَهم بعبادتِه، وسَخَّرَ لهم الأرضَ وما عليها؛ يستعينونَ بها على عبادتِه[(٤)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ الخوفَ مِن الله تعالى غيرُ الخَوفِ مِن وَعيدِه؛ لأنَّ العَطفَ يقتضي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٧٦-٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٤).

ويُنظر ما تقدَّم في ((التفسير المحرر)) (٥/ ٣٥٨) في تفسيرِ الآيةِ (٨٨) من سورةِ الأعرافِ.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٣).

المُغايرةَ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖ ﴾ هذه الآيةُ دليلٌ على أنَّ الكافرَ لا يَنتَفِعُ في الآخرةِ بشَيءٍ مِن الحَسَناتِ بحالٍ[٢].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖ ﴾ قَدَّمَ ﴿مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ على ما بَعدَه؛ لأنَّ الكَسبَ هو المقصودُ بالذِّكرِ، بقرينةِ ما قَبلَه، وإن كان القياسُ عكسَ ذلك، كما في البقرةِ؛ حيث قال تعالى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]؛ لأنَّ ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ ﴾ صِلةٌ لـ ﴿يَقۡدِرُونَ ﴾ و﴿مِّمَّا كَسَبُواْ ﴾ صفةٌ لشَيءٍ[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ لَمَّا كان هذا خُسرانًا لا يُمكِنُ تَدارُكُه، سَمَّاه بعيدًا[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

- قولُه: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فيه إضْمارُ القولِ، أو إجراءُ الإيحاءِ مَجْراهُ؛ لأنَّه نوعٌ من القولِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٣٥٦).
(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٢٨٣).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٢١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٥).

وَخَافَ وَعِيدِ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ... ﴾، فيه مَجِيءُ ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ﴾ بضَميرِ الخِطابِ؛ تشريفًا لهم بالخِطابِ، ولم يأْتِ بضَميرِ الغَيبةِ كما في قولِه: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾[1].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ إشارةٌ إلى المُوحَى به؛ وهو إهلاكُ الظَّالمينَ وإسكانُ المُؤمنينَ دِيارَهم، وهذا مأخوذٌ مِن: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ﴾، ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ﴾، أي: ذلك الأمْرُ مُحَقَّقٌ ثابِتٌ، وعاد إليهما اسمُ الإشارةِ بالإفرادِ بتأْويلِ (المذكور)[2].

- قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿خَافَ مَقَامِي ﴾ أي: المقامَ بينَ يديَّ، وأضافَ ذلك إليه؛ لاختصاصِه به[3]. وقيل: لفْظُ (مَقام) مُقْحَمٌ؛ للمُبالَغةِ في تعلُّقِ الفعْلِ بمفعولِه، لأنَّ المقامَ أصلُه مكانُ القِيامِ، وأُريدَ فيه بالقيامِ مُطلَقُ الوجودِ؛ لأنَّ الأشياءَ تُعتبَرُ قائمةً، فإذا قيل: ﴿خَافَ مَقَامِي ﴾ كان فيه مِن المبالغةِ ما ليس في (خافَني). بحيثُ إنَّ الخوفَ يَتعلَّقُ بمكانِ المَخُوفِ منه[4].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

- قولُه: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ في إسنادِ الخَيبةِ إلى كلٍّ منهم ما لا يخْفَى مِن المُبالَغةِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٩).

٤- قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾

- قولُه: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ فيه عطْفُ ﴿وَيُسۡقَىٰ﴾ على مَحذوفٍ، تقديرُه: مِن ورائِه جهنَّمُ، يَلْقَى فيها ما يَلْقَى، ويُسْقَى مِن ماءٍ صديدٍ[١]، أو معطوفٌ على مُقَدَّرٍ جوابًا عن سُؤالِ سائلٍ؛ كأنَّه قيل: فماذا يكون إذنْ؟ فقيل: يَلْقَى فيها، ويُسْقَى...[٢].

- وبيَّنَ الماءَ بالصَّديدِ، فقال: ﴿صَدِيدٖ﴾؛ تهويلًا لأمْرِه[٣].

- وخَصَّ هذه الحالةَ بالذِّكرِ مع أنَّ عذابَ أهلِ النَّارِ مِن وُجوهٍ كثيرةٍ. لأنه يُشبِهُ أن تكونَ هذه الحالةُ أشَدَّ أنواعِ العذابِ، فخُصِّصَت بالذِّكرِ مع قوله: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾

- قولُه: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ استئنافٌ مبْنِيٌّ على السُّؤالِ؛ كأنَّه قيل: فماذا يفعَلُ به؟ فقيل: يتجرَّعُه، أي: يتكلَّفُ جَرْعَه مرَّةً بعدَ أُخرى؛ لِغلَبَةِ العطَشِ، واستيلاءِ الحرارةِ عليه[٥].

- وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ (تجرَّع) تَفعَّل، ويَحتمِلُ هنا وُجوهًا: أنْ يكونَ للمُطاوعَةِ، أي: جرَّعَه فتجرَّعَ، وأنْ يكونَ للتَّكلُّفِ، نحوَ: تحلَّمَ، وأنْ يكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٦)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٩).

لِمُواصلَةِ العَمَلِ في مُهْلَةٍ، نحوَ: تفهَّمَ، أي: يأخُذُه شيئًا فشيئًا، وأنْ يكونَ مُوافقًا للمُجرَّدِ، أي: جرعَه[1]، وفي جميعِ هذه الأحوالِ استَقْصى غايةَ ما يمكِنُ أنْ يتناوَلَه شارِبُ الماءِ؛ ففيه ما يُعرَف بالاستِقصاءِ، وهو أنْ يتناوَلَ المُتكلِّمُ معنًى، فيستقصِيَه، أي: يأتِيَ بجميعِ عوارِضِه ولوازِمِه بعد أنْ يَستقصِيَ جميعَ أوصافِه الذَّاتيَّةِ، بحيثُ لا يترُكُ لِمَن يتناولُه بعدَه فيه مقالًا يقولُه، فقدِ استَقْصى المعنى الَّذي أرادَهُ في الآيةِ؛ وهو كراهيةُ الصَّديدِ الَّذي يشرَبُه بأنَّه يتجرَّعُه، وفيه أيضًا تَتميمُ المُبالَغةِ؛ فقد قال: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾، ولو قال: (جرَعَه) لَمَا أفاد المعنى الَّذي أرادَه؛ لأنَّ (جرَعَ الماءَ) لا يُشيرُ إلى معنى الكراهيةِ، ولكنَّه عندما أُتِيَ بالتَّاءِ على صِيغَةِ التَّفعُّلِ، أفهَمَ أنَّه يتكلَّفُ شُرْبَه تكلُّفًا، وأنَّه يُعاني مِن جرَّاءِ شُرْبِه ما لا يأْتي الوصفُ عليه؛ مِن تَقزُّزٍ وكراهيةٍ، ثمَّ احتاط للأمْرِ؛ لأنَّه قد يُوهِمُ بأنَّه تكلَّفَ شُرْبَه ثمَّ هان عليه الأمْرُ بعدَ ذلك؛ فأُتِيَ بالكَيْدُودَةِ، أي: أنَّه تكلَّفَ شُرْبَه وهو لا يكادُ يشرَبُه، ولو اكْتَفى بالكَيْدُودَةِ لَصَحَّ المعنى دونَ مُبالَغةٍ، ولكنْ عندما جاءتْ ﴿يُسِيغُهُۥ﴾، أفهَمَ أنَّه لا يُسيغُه بل يغَصُّ به، فيشرَبُه بعدَ اللَّتَيَّا والَّتي جُرْعَةً غِبَّ جُرْعَةٍ؛ فيَطولُ عَذابُه؛ تارةً بالحرارةِ، وتارةً بالعطَشِ[2].

- قولُه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ دخَلَ الفعْلُ (كاد)؛ للمُبالَغةِ، يعني: ولا يُقارِبُ أنْ يُسيغَه؛ فكيف تكونُ الإساغةُ[3]؟!

- قولُه: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ كأنَّ أسبابَ الموتِ وأصنافَه كلَّها قد تألَّبَتْ عليه، وأحاطَتْ به مِن جميعِ الجِهاتِ؛ تفظيعًا لِمَا يُصيبُه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٨).

الآلامِ[١].

- ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ في وصْفِ العذابِ بالغِلظةِ: كِنايةٌ عن قوَّتِه واتِّصالِه؛ لأنَّ الغِلظةَ تستوجِبُ القوَّةَ، وتستَدْعي أنْ يكونَ مُتَّصلًا تتصِلُ به الأزمنةُ كلُّها، فلا انفصالَ بينها[٢].

- وفي ألفاظِ الآياتِ الوَاردةِ مَوْرِدَ التَّهديدِ والوعيدِ «مُراعاةُ النَّظيرِ»؛ فجميعُ ألفاظِها مُتضافِرةٌ على التَّعبيرِ عنِ المُخيفِ القارِعِ للقُلوبِ[٣].

٦- قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾

- قولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ...﴾ فيه تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ فالمُشبَّهُ مُرَكَّبٌ، وهو الَّذين كَفَروا وأعمالُهم الصَّالحةُ الَّتي يقومونَ بها في حَياتهم؛ كصِلةِ يَرفِدونَ[٤] بها المُحتاجَ، وصَدقةٍ يَجبُرونَ بها المكسورَ، وعِلْمٍ يعُمُّ نفْعُه العِبادَ، والمُشبَّهُ به: الرَّمادُ -وهو ما سحَقَتْه النَّارُ مِن الأجرامِ- واشتِدادُ الرِّيحِ، واليومُ العاصفُ، ووجْهُ الشَّبهِ: أنَّ الرِّيحَ العاصِفَ تُطَيِّرُ الرَّمادَ، وتُفرِّقُ أجْزاءَه بحيثُ لا يَبْقَى له أثرٌ، فكذلك كُفْرُهم أبطَلَ أعمالَهم وأحبَطَها بحيث لا يبْقَى لها أثرٌ؛ فالمعنى: حالُ أعمالِهم، بقَرينةِ الجُملةِ المُخبَرِ عنها؛ لأنَّه مهما أُطْلِقَ (مثَلُ كذا) إلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٥١).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٧٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٧١).
(٤) يَرفِدونَ: يُعطونَ ويُعينونَ ويَصِلون، والرِّفْدُ بالكسرِ: العطاءُ والصِّلة. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٤٧٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٧٥٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٤١).

والمُرادُ حالٌ خاصَّةٌ مِن أحوالِه يُفسِّرُها الكلامُ، فهو مِن الإيجازِ المُلتَزَمِ في الكلامِ. فقولُه: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ مبتدأٌ ثانٍ، و﴿كَرَمَادٍ﴾ خبرٌ عنه، والجُملةُ خبرٌ عن المبتدأِ الأوَّلِ. ولمَّا جُعِلَ الخبرُ عن مثَلِ الَّذين كَفَروا ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾، آلَ الكلامُ إلى أنَّ مثَلَ أعمالِ الَّذين كَفَروا كرَمادٍ؛ شُبِّهَت أعمالُهم المُتجمِّعةُ العديدةُ برمادٍ مُكدَّسٍ، فإذا اشتدَّتِ الرِّياحُ بالرَّمادِ انتثَرَ وتفرَّقَ تفرُّقًا لا يُرْجى معه اجتماعُه، ووجْهُ الشَّبهِ هو الهيئةُ الحاصِلةُ مِن اضمحلالِ شيءٍ كثيرٍ بعدَ تجمُّعِه، والهيئةُ المُشبَّهةُ معقولةٌ. ومِن لَطائفِ هذا التَّمثيلِ أنِ اخْتِيرَ له التَّشبيهُ بهيئةِ الرَّمادِ المُتجمِّعِ؛ لأنَّ الرَّمادَ أثَرٌ لأفْضَلِ أعمالِ الَّذين كَفَروا وأشْيَعِها بينهم وهو قِرَى الضَّيفِ، حتَّى صارتْ كثرةُ الرَّمادِ كِنايةً في لِسانِهم عنِ الكرَمِ[1]، وأيضًا ففي تَشبيهِ أعمالِهم بالرَّمادِ سِرٌّ بديعٌ؛ وذلك للتشابُهِ الذي بين أعمالِهم وبين الرَّمادِ في إحراقِ النَّارِ وإذهابِها لأصلِ هذا وهذا، فكانت الأعمالُ التي لغير الله وعلى غيرِ مُرادِه طُعمةً للنَّارِ، وبها تُسعَّرُ النَّارُ على أصحابِها[2].

- قولُه: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ جُملةٌ مُستأنَفَةٌ لِبيانِ مثَلِهم، على تقديرِ سُؤالٍ؛ كأنَّه قيل: كيف مثَلُهم؟ أو: ما بالُ أعمالِهم الَّتي عمِلوها في وُجوهِ البِرِّ؛ مِن صلةِ الأرحامِ، وإعتاقِ الرِّقابِ، وفِداءِ الأسارى، وإغاثةِ المَلْهوفينَ، وقِرَى الأضيافِ، وغيرِ ذلك ممَّا هو مِن بابِ المَكارمِ، حتَّى آلَ أمْرُهم إلى هذا المآلِ؟ فأُجيبَ بأنَّ: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ...﴾، وكأنَّه قيل: المُتحصِّلُ مثالًا في النَّفْسِ للَّذين كَفَروا هذه الجُملةُ المذكورةُ؛ وهي: أعمالُهم في فسادِها وقْتَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٢-٢١٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٧٣-١٧٥).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣١-١٣٢).

الحاجةِ وتلاشيها كالرَّمادِ الَّذي تذْرُوه الرِّيحُ، وتفرِّقُه بشدَّتِها حتَّى لا يبْقَى له أثرٌ، ولا يجتمِعُ منه شيءٌ[١].

- قولُه: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ العصْفُ: اشتِدادُ الرِّيحِ؛ وُصِفَ به زَمانُه للمُبالَغةِ، فجُعِلَ العصْفُ لليومِ، وهو لِمَا فيه، وهو الرِّيحُ أو الرِّياحُ؛ فشَبَّهَ هذه الأعمالَ- في حُبوطِها، وذَهابِها هباءً مَنثورًا؛ لِبنائِها على غيرِ أساسٍ مِن معرفةِ اللهِ والإيمانِ به، وكونِها لِوجْهِه- برمادٍ طيَّرَتْه الرِّيحُ العاصِفُ[٢].

- وقولُه: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ فَذْلَكةُ التَّمثيلِ، وبيانٌ لِجُملةِ التَّشبيهِ، أي: ذهَبَتْ أعمالُهم سُدًى، فلا يَقدِرونَ أنْ ينتَفِعوا بشيءٍ منها[٣]، والاكتفاءُ ببيانِ عدَمِ رُؤيةِ الأثَرِ لأعمالِهم للأصنامِ، مع أنَّ لها عُقوباتٍ هائلةً؛ للتَّصريحِ ببُطلانِ اعتقادِهم، وزَعمِهم أنَّها شُفعاءُ لهم عندَ اللهِ تعالى، وفيه تهكُّمٌ بهم[٤]، وذلك على أحدِ أوجهِ التفسيرِ.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦ / ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٦))، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٠).

الآيات (١٩-٢١)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿وَبَرَزُوا۟﴾: أي: ظَهَروا وخَرَجوا مِن قُبورِهم، وأصلُ (برز): يدلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبُدُوِّه[1].

﴿أَجَزِعْنَآ﴾: الجزعُ: حزنٌ يصرِفُ الإنسانَ عمَّا هو بصددِه، ويقطعُه عنه، وأصلُ الجزعِ: قطعُ الحبلِ مِن نصفِه[2].

﴿مَّحِيصٍ﴾: أي: مَعدِلٍ ومَهرَبٍ، وأصلُ (حيص): يدلُّ على المَيلِ في جَورٍ[3].

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ألم تَرَ أنَّ اللهَ خلقَ السَّمواتِ والأرضَ لأمرٍ عظيمٍ؛ وذلكَ ليعبدَه الخلقُ، ولا يُشرِكوا به شَيئًا، وليعرِفوا ما له مِن صفاتِ الكمالِ، وأنَّه القادِرُ على إعادةِ الخَلقِ يومَ القيامةِ، فهو سبحانَه لم يخلُقِ السَّمواتِ والأرضَ عَبَثًا؟ إنْ شاءَ أن يُذهِبكم -أيُّها البشرُ- إن عَصَيتُموه، أذهَبكم، ويأتِ بِقَومٍ غَيرِكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٤، ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧، ٨٨٢).

أطوعَ لله منكم، وما إذهابُكم والإتيانُ بغَيرِكم بمتعذِّرٍ ولا مُمتنِعٍ على اللهِ، بل هو سَهلٌ يَسيرٌ عليه.

ثمَّ يحْكي الله تعالَى جانبًا مِن الحوارِ الذي يجري يومَ القيامةِ بينَ الأتباعِ والمتبوعينَ، فيقولُ تعالى: وظهَروا جميعًا مِن قُبورِهم يومَ القيامةِ لله الواحِدِ القَهَّار؛ مجتمعينَ في أرضٍ مُستَوِيةٍ، لا يخفَى فيها أحدٌ منهم، فيقولُ الأتباعُ لقادتِهم الذين كانوا يستكبِرونَ في الدُّنيا عن اتِّباعِ الحَقِّ: إنَّا كنَّا لكم في الدُّنيا أتباعًا، نأتمِرُ بأمركِم، فأضلَلْتُمونا، فهل أنتم اليومَ دافِعونَ عنَّا مِن عذابِ اللهِ شَيئًا، ولو قليلًا؟ فيقولُ الرُّؤساءُ: لو هدانا اللهُ إلى الإيمانِ لأرشَدْناكم إليه، ولكِنَّه لم يوَفِّقْنا، فضَلَلْنا وأضلَلْناكم، سواءٌ علينا الجَزَعُ مِن العذابِ والصَّبرُ عليه، فليس لنا في كلا الحالَينِ مَهربٌ من العذابِ ولا مَنجًى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ أعمالَ الكافرينَ تَصيرُ باطِلةً ضائِعةً، بيَّنَ أنَّ ذلك البُطلانَ والإحباطَ إنَّما جاء بسبَبِ صدرَ منهم، وهو كُفرُهم باللهِ وإعراضُهم عن العبوديَّة؛ فإنَّ اللهَ تعالى لا يُبطِلُ أعمالَ المُخلِصينَ ابتداءً، وكيف يليقُ بحِكمتِه أن يفعَلَ ذلك، وإنَّه تعالى ما خلقَ كُلَّ هذا العالَمِ إلَّا لداعيةِ الحِكمةِ والصَّوابِ[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٨١-٨٢).

أي: ألم تَرَ[(١)] أنَّ الله خلقَ السَّمواتِ والأرضَ وَحدَه بغَيرِ ظَهيرٍ ولا مُعينٍ، لأمرٍ عظيمٍ؛ ليعبدَه الخلقُ، ويعرِفوا ما له من صِفاتِ الكَمالِ، وأنَّه القادِرُ على إعادةِ الخَلقِ يومَ القيامةِ، فهو سبحانَه لم يخلُقْهنَّ عَبَثًا[(٢)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

وقال سُبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

---

(١) قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الرُّؤيةُ هنا هي القلبيَّةُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٢٣).

والخطابُ فيه: قيل: هو خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمُرادُ به أُمَّتُه. وقيل: خِطابٌ لكلِّ واحدٍ مِن الكَفَرةِ. وقيل: خطابٌ لكلِّ مَن يصلحُ للخطابِ غيرَ معيَّنٍ، وكلِّ مَن يُظَنُّ به التساؤلُ عن إمكانِ إهلاكِ المشركينَ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٤).

قال ابنُ جَرير: (يقولُ عَزَّ ذِكْرُه لِنَبيِّه محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ألمْ تَرَ- يا محمَّدُ- بعَينِ قَلْبِك، فتَعلَمَ أنَّ اللهَ أنشَأَ السَّمواتِ والأرضَ بالحقِّ مُنفرِدًا بإنشائِها بغَيرِ ظَهيرٍ ولا مُعينٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٤).

قال أبو حيان: (ومعنى ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ قال الزَّمخشريُّ: بالحِكمةِ، والغرَضِ الصَّحيحِ، والأمْرِ العظيمِ، ولم يَخلُقْها عبثًا ولا شَهوةً. وقال ابنُ عطيَّةَ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بما يَحِقُّ مِن جِهَةِ مَصالحِ عِبادِه، وإنفاذِ سابِقِ قَضائِه، ولِيَدُلَّ عليه وعلى قُدرَتِه. وقِيلَ: بقولِه وكَلامِه. وقِيلَ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حالٌ، أي: مُحِقًّا). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٢٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٢).

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾.

أي: إنَّ القادِرَ الذي تفرَّدَ بخَلقِ السَّمواتِ والأرضِ إن شاء أن يُفنِيَكم- أيُّها النَّاسُ- إن عَصَيتُموه، أفناكم، ويأتِ بقَومٍ غَيرِكم أفضَلَ وأطوَعَ لله منكم[1].

كما قال الله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨].

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠﴾.

أي: وما إذهابُكم -أيُّها النَّاسُ- والإتيانُ بخَلقٍ آخَرَ مَكانَكم، بمُمتَنِعٍ على اللهِ ولا مُتعَذِّرٍ، بل هو سَهلٌ يَسيرٌ عليه سُبحانَه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٥).
قال السعديُّ: (يَحتمِلُ أنَّ المعنَى: إنْ يشَأْ يُذْهِبْكم ويأْتِ بقَومٍ غَيرِكم يَكونونَ أطوَعَ للهِ منكم، ويَحتمِلُ أنَّ المُرادَ أنَّه: إنْ يشَأْ يُفْنِيكم، ثمَّ يُعيدُهم بالبَعثِ خَلْقًا جديدًا، ويدُلُّ على هذا الاحتمالِ ما ذكَرَهُ بَعدَه مِن أحوالِ القيامةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أصنافَ عذابِ هؤلاءِ الكُفَّارِ، ثمَّ ذكَرَ عَقيبَه أنَّ أعمالَهم تصيرُ مُحبَطةً باطِلةً؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ كيفيَّةَ خَجالتِهم عندَ تمسُّكِ أتباعِهم، وكيفيَّةَ افتضاحِهم عندَهم. وهذا إشارةٌ إلى العذابِ الرُّوحانيِّ الحاصِلِ بسبَبِ الفَضيحةِ والخَجالةِ[(١)].

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾.

أي: وظهَروا[(٢)] جميعًا مِن قُبورِهم لله وَحدَه يومَ القيامةِ، مجتمعينَ في أرضٍ مُستَوِيةٍ لا يخفَى فيها أحدٌ منهم[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦].

وقال سُبحانه: ﴿ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴾ [الحاقة: ١٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٨٢).

(٢) قيل: المرادُ بهم: الذين كفروا. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، والعليمي. ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٥)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥١٥).
وقيل: المرادُ: جميعُ النَّاسِ بَرُّهم وفاجِرُهم. وممَّن اختار هذا القولَ: أبو حيان، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾.

أي: فقال الأتباعُ لقادتِهم وسادتِهم الذين كانوا يستكبِرونَ في الدُّنيا عن اتِّباعِ الحَقِّ: إنَّا كنَّا لكم في الدُّنيا أتباعًا نُطيعُكم ونقلِّدُكم، فأضلَلْتُمونا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ۞ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨].

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾.

أي: فهل أنتم دافِعونَ عنَّا اليومَ شَيئًا- ولو قليلًا- مِن عذابِ اللهِ[(٢)]؟

﴿قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡ﴾.

أي: قال القادةُ المَتبوعونَ لأتباعِهم: لو هَدانا اللهُ إلى الحَقِّ، لهدَيناكم إليه، فلمَّا أضلَّنا أضلَلْناكم، فحقَّ علينا وعليكم عذابُ اللهِ[(٣)].

كما قال تعالى حاكيًا قولَ القادةِ لأتباعِهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۞ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ [الصافات: ٣١-٣٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ۞

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٨).

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾.

أي: سواءٌ علينا أجَزِعْنا مِن العذابِ أم صَبَرْنا عليه، ما لنا في كِلا الحالَينِ مِن مَهرَبٍ ولا ملجأٍ نَفِرُّ إليه مِن عذابِ اللهِ[1].

كما قال سُبحانه: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ جيءَ في هذه الآيةِ بوَصفِ حالِ الفِرَقِ يومَ القيامةِ، ومُجادلةِ أهلِ الضَّلالةِ مع قادتِهم، مع كونِ المؤمنينَ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).

قال القاسميُّ: (استظهَرَ ابنُ كثيرٍ هذه المُراجعةَ في النَّارِ بَعدَ دُخولِهم إليها؛ لِآيةِ: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٧]. ولا يَخفى أنَّ الآيةَ في هذه السُّورةِ تَصدُقُ بالتَّخاصُمِ في الموقفِ وفي النَّارِ؛ لِإفادَتِها أنَّ ذلك أثَرُ بُروزِهم، وهو صادِقٌ بما ذكَرْنا، فلا قَرينةَ فيها لكَونِ ذلك في النَّارِ فقطْ، كما ادَّعاهُ. وربَّما كان قولُه: ﴿وَبَرَزُواْ﴾ يدُلُّ للمَوقِفِ بمعناه المُتقدِّمِ. ثمَّ إنَّ هذا التَّخاصُمَ يَجوزُ أنْ يكونَ مُتعدِّدَ المواطِنِ؛ لظاهِرِ قولِه: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، وقولِه: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾، ويَجوزُ أنْ يكونَ مرَّةً واحدةً). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣١١). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٨).

شُغُلٍ عن ذلك بنُزُلِ الكرامةِ، والغرَضُ من ذلك تنبيهُ النَّاسِ إلى تدارُكِ شَأنِهم قبل الفَواتِ، فالمقصودُ: التحذيرُ ممَّا يُفضي إلى سُوءِ المَصيرِ[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الرُّؤيةُ: مُستعملةٌ في العِلمِ النَّاشئِ عن النَّظرِ والتأمُّلِ؛ لأنَّ السَّمواتِ والأرضَ مُشاهَدةٌ لكُلِّ ناظرٍ، وأمَّا كونُها مخلوقةً لله فمُحتاجٌ إلى أقَلِّ تأمُّلٍ؛ لسُهولةِ الانتقالِ مِن المُشاهدةِ إلى العِلمِ، وأمَّا كونُ ذلك مُلتَبِسًا بالحَقِّ فمُحتاجٌ إلى تأمُّلٍ عَميقٍ، فلمَّا كان أصلُ ذلك كُلِّه رؤيةَ المخلوقاتِ المذكورةِ، عُلِّقَ الاستدلالُ على الرُّؤيةِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ فيه بَيانٌ لإبعادِهم في الضَّلالِ، وعَظيمِ خَطْبِهم في الكُفْرِ باللهِ؛ لِوضوحِ آياتِه الشَّاهدةِ له، الدَّالَّةِ على قُدرتِه الباهِرةِ، وحِكمتِه البالِغةِ، وأنَّه هو الحقيقُ بأنْ يُعْبَدَ، ويُخافَ عِقابُه، ويُرْجَى ثوابُه في دارِ الجزاءِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ فيه إعلامٌ منه سبحانه باقْتِدارِه على إعدامِ الموجودِ، وإيجادِ المعدومِ، وأنَّه يَقدِرُ على الشَّيءِ، وجنْسِ ضدِّه[٤].

٤- قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فرتَّبَ قُدرتَه تعالى على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٧).

قال الطِّيبيُّ: (قوله: «وجنسِ ضِدِّه»، مُبالَغةٌ في الاقتدارِ، يعني: أنَّه ليس بقادرٍ على الضِّدِّ فقطْ، بلْ هو قادِرٌ على الضِّدِّ وأمثالِه؛ كالتَّبايُنِ والتَّماثُلِ والتَّقابُلِ، والنَّظيرِ والنِّدِّ، وغَيرِها). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٨/ ٥٧٦).

ذلك على قُدرتِه تعالى على خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ على هذا النَّمطِ البَديعِ؛ إرشادًا إلى طَريقِ الاستِدلالِ؛ فإنَّ مَن قدَرَ على خَلْقِ مِثْلِ هاتيك الأجرامِ العَظيمةِ، كان على تبْديلِ خلْقٍ آخرَ بهم أقدَرَ(١).

٥- إنْ قيل: كيفَ قال اللهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ معَ كونِه سبحانَه عالِمًا بهم، لا تخفَى عليه خافيةٌ مِنْ أحوالِهم؛ بَرَزوا أوْ لم يَبْرُزوا؟

والجواب: لأنَّهم كانُوا يَسْتَتِرونَ عن العُيونِ عندَ فعلِهم للمعاصي، ويظُنُّونَ أَنَّ ذلك يخفَى على اللَّهِ تعالَى، فالكلامُ خارجٌ على ما يَعتقدونَه(٢)، فإذا ظهَرتْ فضائحُهم، وشهِدتْ عليهم جوارحُهم يومَ القيامةِ علِموا حينئذٍ، وتيقَّنوا أنَّهم بَرزوا لله جميعًا، وأنَّه لا يخفَى شيءٌ مِن أعمالِهم وأحوالِهم. وقيل: إذا خَرجوا مِن قبورِهم بَرزوا لموقفِ الحسابِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

- قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ، ناشِئٌ عن جُملةِ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣]؛ فإنَّ هَلاكَ فِئةٍ كاملةٍ شَديدةِ القُوَّةِ والمِرَّةِ أمْرٌ عَجيبٌ، يُثيرُ في النُّفوسِ السُّؤالَ: كيف تُهْلَكُ فِئةٌ مِثْلُ هؤلاء؟! فيُجابُ بأنَّ اللهَ الَّذي قدَرَ على خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ في عظَمَتِها قادِرٌ على إهلاكِ ما هو دُونَها؛ فمَبْدَأُ الاستئنافِ هو قولُه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٢٥).

بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٩]، ومَوقِعُ جُملةِ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [إبراهيم: ١٩] مَوقِعُ التَّعليلِ لجُملةِ الاستئنافِ؛ قُدِّمَ عليها كما تُجعَلُ النَّتيجةُ مُقدَّمةً في الخَطابةِ والجِدالِ على دَليلِها، ومُناسَبةُ مَوقعِ هذا الاستئنافِ ما سبَقَهُ مِن تفرُّقِ الرَّمادِ في يَومٍ عاصفٍ[١].

- قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ المقصودُ منه: التَّعريضُ بالمُشركينَ خاصَّةً؛ تأكيدًا لِوعيدِهم الذي اقتَضاه قولُه: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤]، أي: إن شاء أعدمَ الناسَ كلَّهم، وخَلَق ناسًا آخرينَ، وقد جِيءَ في الاستدلالِ على عَظيمِ القُدرةِ بالحُكمِ الأعمِّ؛ إدماجًا للتعليمِ بالوعيدِ، وإظهارًا لعظيمِ القُدرةِ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّه يُذهِبُ الجبابرةَ المعانِدين، ويأتي في مَكانِهم في سِيادةِ الأرضِ بالمؤمنينَ؛ ليُمكِّنَهم من الأرضِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ فيه مَجيءُ الفعْلِ ﴿ وَبَرَزُوا۟ ﴾ الَّذي يكونُ في المستقبَلِ بلفْظِ الماضي؛ وإنَّما ذُكِرَ بلفْظِ الماضي لِتحقُّقِ وُقوعِه؛ لِصدْقِ المُخبِرِ به؛ لأنَّ ما أخبَرَ به عزَّ وعلا -لِصدْقِه- كأنَّه قد كان ووُجِدَ ووقَعَ، وكان مُقتضَى الظاهرِ أن يقولَ: (ويَبرُزون لله)؛ فعدَلَ عن المضارعِ إلى الماضي؛ للتَّنبيهِ على تَحقيقِ وُقوعِه حتى كأنَّه قد وقَع[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٣-٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير أبي

- و﴿جَمِيعًا﴾ تأكيدٌ؛ لِيشمَلَ جميعَهم[١].

- قولُه: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ السِّينُ والتَّاءُ في ﴿ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾؛ للمُبالَغةِ في الكِبْرِ[٢]. و﴿تَبَعًا﴾ جمْعُ تابِعٍ، كـ (غائبٌ وغَيَبٌ)، أو مصدرٌ نُعِتَ به للمُبالَغةِ، أو على إضمارِ مُضافٍ، أي: ذوي تَبَعٍ[٣].

- قولُه: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ الاستفهامُ مِن بابِ التَّبكيتِ والتَّوبيخِ والعِتابِ والتَّقريعِ؛ لأنَّهم قد علِموا أنَّهم لا يَقدِرونَ على الإغناءِ عنهم، أي: فأظْهِروا مكانتَكم عندَ اللهِ الَّتي كنْتُم تدَّعونَها وتُغْرونَنا بها في الدُّنيا. والفاءُ في قولِه: ﴿فَهَلۡ﴾؛ للدَّلالةِ على سببيَّةِ الاتِّباعِ للإغناءِ؛ فهي لِتفريعِ الاستِكبارِ على التَّبعيَّةِ؛ لأنَّها سَببٌ يقْتَضي الشَّفاعةَ لهم[٤].

- قولُه: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾ فيه تقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿أَنتُم﴾ على المُسنَدِ ﴿مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾؛ لأنَّ المُستفهَمَ عنه كونُ المُستكبرينَ يُغْنونَ عنهم، لا أصلُ الغَناءِ عنهم؛ لأنَّهم آيسونَ منه لَمَّا رأَوا آثارَ الغضبِ الإلهيِّ عليهم وعلى سادَتِهم، كما تدلُّ عليه حِكايةُ قولِ المُستكبرينَ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾؛ فعلِموا أنَّهم قد غرُّوهم في الدُّنيا[٥].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ قيل: إنها للتَّبْيينِ، و(من) في قوله:

حيان)) (٦/ ٤٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٨- ٥٤٩))، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٦).

﴿مِن شَيْءٍ﴾ قيل: إنها للتَّبعيضِ؛ كأنَّه قيل: هل أنتم مُغْنونَ عنَّا بعضَ الشَّيءِ الَّذي هو عَذابُ اللهِ؟ ويجوزُ أنْ تكونَا للتَّبعيضِ معًا، بمعنى: هل أنتم مُغْنونَ عنَّا بعضَ شيءٍ هو بعضُ عذابِ اللهِ؟ أي: بعضَ بعضِ عذابِ اللهِ[١]، وقيل: (مِن) في ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لاستِغراقِ الجنْسِ، زائدةٌ للتَّوكيدِ؛ لِوقوعِ مَدْخولِها في سياقِ الاستفهامِ بحرف (هل)، والمعنى: هل تمْنَعونَ عنَّا شيئًا[٢]؟

- قولُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ الهَمزةُ و(أَمْ) لِتأكيدِ التَّسويةِ، وإنَّما أسنَدُوهما، ونسَبوا استِواءَهما إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ المُنتظِمِ للمُخاطَبينَ أيضًا؛ مُبالَغةً في النَّهيِ عنِ التَّوبيخِ، بإعلامِ أنَّهم شُركاءُ لهم فيما ابْتُلوا به، وتسليةً لهم[٣].

- وجُملةُ ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ واقعةٌ موقِعَ التَّعليلِ لمعنى الاستواءِ، أي: حيثُ لا مَحيصَ ولا نجاةَ فسواءٌ الجزَعُ والصَّبرُ[٤].

- قولُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ اتَّصَلَ بما قبلَه -أي: لم يُعطَفْ عليه- مِن حيثُ إنَّ عِتابَهم لهم كان جزَعًا ممَّا هم فيه مِن العذابِ، فقالوا: سواءٌ علينا جميعًا نحن وأنتم، أجزِعْنا أم صبَرْنا؛ فلا فائِدةَ مِن هذا الجزَعِ والتَّوبيخِ، كما لا فائدةَ في الصَّبرِ، وأتْبَعوا الإقناطَ مِن النَّجاةِ، فقالوا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٩).

الآيتان (٢٢-٢٣)

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ٢٣﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾: أي: بمُغيثِكم ومُنقِذِكم، وأصلُ (صرخ): يدلُّ على صَوتٍ رَفيعٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالَى عن الشَّيطانِ -بعد أن يقضيَ اللهُ الأمرَ، ويُدخِلَ أهلَ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلَ النَّارِ النارَ- أنَّه يقولُ: إنَّ اللهَ وعَدَكم على ألسِنةِ رُسُلِه وعدًا حقًّا بالبَعثِ والجزاءِ، وأنَّ فِي اتِّبَاعِ هؤلاء الرسلِ النَّجاةَ وَالسَّلامَةَ، فوفَى بوَعدِه، ووعدتُكم وعدًا باطِلًا؛ أنَّه لا بَعْثَ ولا جزاءَ، ووعدتُكم النُّصرةَ، فأخلَفتُكم وعدي، وما أظهرتُ لكم أيَّ حجَّةٍ تدُلُّ على صِدقي فيما وعدتُكم به، ولكِنْ دَعَوتُكم إلى الكُفرِ باللهِ والإشراكِ به ومَعصيتِه فاتَّبَعتُموني بلا بُرهانٍ، فلا تلوموني ولُوموا أنفُسَكم، ما أنا بمُغيثِكم ومُنقِذِكم من النَّارِ، ولا أنتم بمُغيثيَّ ومنقِذيَّ منها، إني تبرَّأتُ مِن جَعْلِكم لي شريكًا مع اللهِ في طاعتِه وعبادتِه في الدُّنيا، إنَّ الظَّالمينَ -الذين وضعوا العِبادةَ والطَّاعةَ في غيرِ مَوضِعِها- لهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

عذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ. وأُدخِلَ الذين آمنوا بالله ورَسولِه وعَمِلوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجري مِن تحتِ أشجارِها وقُصورِها وتحت كل ما علا منها الأنهارُ، لا يخرُجونَ منها أبدًا بإذنِ رَبِّهم، تحيةُ بعضِهم لبعضٍ، وتحيةُ اللهِ لهم، وتحيةُ الملائكةِ إيَّاهم: سلامٌ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ مُحاورةَ الأتباعِ لرُؤسائِهم الكَفَرةِ؛ ذكَرَ مُحاورةَ الشَّيطانِ وأتباعِه مِن الإنسِ؛ وذلك لاشتراكِ الرُّؤساءِ والشَّياطينِ في التلبُّسِ بالإضلالِ[1].

وأيضًا فقد أفْضَتْ مجادلةُ الضعفاءِ وسادتِهم في تغريرِهم بالضلالةِ إلى نطقِ مصدرِ الضلالةِ، وهو الشَّيطانُ[2].

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ ﴾.

أي: وقال إبليسُ -وهو أوَّلُ المُستَكبرينَ المتبوعينَ في الضَّلالِ- لأتباعِه لَمَّا أدخَلَ اللهُ أهلَ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلَ النَّارِ النَّارَ: إنَّ الله وعَدَكم على ألسِنةِ رُسُلِه وعدًا صادِقًا متحَقِّقًا لا يُخلَفُ بوقوعِ البَعثِ، وإثابةِ المُطيعِ بالجنَّةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٨).

والعاصي بالنَّارِ، ووعَدكم أنَّ فِي اتِّبَاعِ هؤلاء الرسلِ النَّجاةَ وَالسَّلامَةَ، فوفَى بوَعدِه، ووَعَدتُكم أنْ لا بعثَ، ولا جَنَّةَ ولا نارَ، ولَا ثَوابَ ولَا عِقابَ، ووعدتُكم النُّصرةَ، فأخلفْتُ وعدي لكم، وكذَبْتُ عليكم(١).

كما قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

أي: قال إبليسُ لأهلِ النَّارِ: وما أظهرتُ لكم أيَّ حجَّةٍ تدُلُّ على صِدقي فيما وعدتُكم به، ولكِنْ دعوتُكم إلى الكُفرِ باللهِ والإشراكِ به ومَعصيتِه، فأطعتُموني واتَّبعتُموني بلا بُرهانٍ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٩).

قال ابن عاشور: (وشَمِلَ وعدُ الحَقِّ جميعَ ما وعَدهم اللهُ بالقرآنِ على لسانِ رسولِه عليه الصلاةُ والسلامُ، وشَمِلَ الخُلْفُ جميعَ ما كان يعِدُهم الشيطانُ على لسانِ أوليائِه، وما يعِدُهم إلَّا غُرورًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).

وممن اختار أنَّ السلطانَ هنا بمعنَى الحجةِ والبرهانِ: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، وابنُ القيمِ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقِيلَ: المرادُ بالسُّلطانِ هنا: التسلطُ والقهرُ. وممن اختاره: الزمخشري، والبيضاوي، والبقاعي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٧)، ((نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)) للبقاعي (١٠/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٩).

قال ابنُ عطيةَ: (يحتمِلُ أن يريدَ بـ «السلطان» في هذه الآيةِ الغلبةَ والقدرةَ والملكَ، أي: ما اضْطررتُكم، ولا خوَّفْتُكم بقوةٍ منِّي، بل عرضْتُ عليكم شيئًا، فأتَى رأيُكم عليه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٤).

وجمَع الثعلبيُّ بينَ المعنيين، فقال: (﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ ولايةٍ ومملكةٍ، وحجةٍ وبصيرةٍ). ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ٣١٣).

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾.

أي: فلا تَلوموني اليومَ على طاعتِكم واتِّباعِكم لي بلا حُجَّةٍ، ولوموا أنفُسَكم على ذلك؛ فأنتم السَّبَبُ في دخُولِكم النَّارَ؛ لأنَّكم مُؤاخَذونَ بكَسبِكم، ولكم قُدرةٌ واختيارٌ، فاختَرتُم الشَّرَّ على الخيرِ(١).

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾.

أي: ما أنا بمُغيثِكم ومُنقِذِكم من النَّارِ، وما أنتم بُمغيثينَ ومُنقذينَ لي من النَّارِ؛ فكلٌّ مِنَّا له قِسْطُه من العذابِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ * قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ * فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ * فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ * فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الصافات: ٢٧ - ٣٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ * وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ * وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٩].

﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: إنِّي جَحَدْتُ وتبرَّأتُ مِن جَعْلِكم لي شَريكًا لله في العبادةِ والطَّاعةِ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٨، ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٩، ٤٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).

قَبلُ في الدُّنيا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥- ٦].

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الكافرينَ -الذين ظلَموا أنفُسَهم بوَضعِهم العِبادةَ والطَّاعةَ في غيرِ مَوضِعِها- لهم عَذابٌ مُوجِعٌ[٢].

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).

قال أبو حيان: (الظاهِرُ أنَّه من تمامِ كلامِ إبليسَ، حكى اللهُ عنه ما سيقولُه في ذلك الوقت؛ ليكونَ تنبيهًا للسَّامعين على النَّظرِ في عاقبَتِهم، والاستعدادِ لِما لا بُدَّ منه... وقيل: هو من كلامِ الخزَنةِ يوم ذاك. وقيل: مِن كلام الله تعالى). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا جمَعَ اللهُ تعالى الفَريقينِ في قَولِه: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ وذَكَرَ شَيئًا مِن أحوالِ الكُفَّارِ؛ ذكَرَ ما آل إليه أمرُ المؤمنينَ مِن إدخالِهم الجنَّةَ[١]، فقال:

﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾.

أي: وأُدخِلَ الذين آمنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ، فأطاعوا اللهَ تعالى واجتَنَبوا مَعصِيتَه؛ بساتينَ تجري الأنهارُ سارِحةً مِن تحتِ ما علا منها، كالغُرَفِ والمباني والأشجارِ وغيرِها[٢].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: ماكثينَ في الجنَّةِ بأمرِ رَبِّهم[٣].

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾.

أي: تحيةُ بعضِهم لبعضٍ، وتحيةُ اللهِ لهم، وتحيةُ الملائكةِ إيَّاهم[٤]: .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٨٩)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ١٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٣).

ممن اختار أنَّ الله يحيِّيهم بهذه الكلمةِ، والملائكةَ يحيُّونَهم بها، وبعضَهم يحيِّي بعضًا بها: الرازي، والرسعني، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: المصادر السابقة.

قال محمَّد رشيد رضا في قولِه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ [يونس: ١٠]: (وهذه التَّحيَّةُ تكونُ مِنْه عَزَّ وَجَلَّ لهمْ؛ كما قال في سُورةِ الأحْزابِ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وفي سُورةِ (يس): ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨]، وتكونُ مِنَ الملائكةِ لهم عندَ دُخولِ الجنَّةِ؛ كما قال في سُورةِ الزُّمَرِ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾

سلامٌ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ

[الزمر: ٧٣] ومِثْلُهُ في سُورةِ النَّحلِ: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]، وفي كلِّ وقْتٍ يَدْخُلون فيه عليهمْ؛ كما قال في سُورةِ الرَّعْدِ: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وتكونُ منهمْ بَعضِهمْ لِبَعضٍ، وهو المُتَبادَرُ مِن قولِه تَعالى في سُورةِ مريمَ: ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا ﴾ [مريم: ٦٢]، وفي سُورَةِ الواقعةِ: ﴿ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا * إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]؛ فإنَّ اللَّغْوَ والتَّأثيمَ مِن شَأْنِ كَلامِ البشَرِ، فلمَّا نَفَى وُقُوعَهُما منهُمْ في الجنَّةِ، واسْتَدْرَكَ على نَفْيِه باستِثْناءِ كَلمةِ سَلامٍ مُنْقَطِعًا؛ تَرجَّحَ أنْ يكونَ المُرادُ به سَلامَ بَعضِهمْ على بَعضٍ، أو عامًّا يَشمَلُه. والجُملةُ في آيَتِنا: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ تَشمَلُ الأنواعَ كُلَّها). ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٥٣).

وقال الواحدي: (قولُه: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ ﴾ مَصدرٌ مُضافٌ؛ فإنْ جَعلْتَه مُضافًا إلى الفاعِلِ، فهو تَحيَّةُ بَعضِهم بعضًا، وإنْ جَعلْتَه مُضافًا إلى المفعولِ، فهو تَحيَّةُ اللهِ إيَّاهم والملائكةِ، وقد ذكَرَ ابنُ عبَّاسٍ الوَجْهينِ). ((البسيط)) (١٢/ ٤٦٢).

وقيلَ: المراد: تُحَيِّيهم الملائكةُ. وهذا ظاهر اختيار ابن جرير، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣١٣).

وممَّنْ قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جريجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣٤).

وقيل: المراد: يحَيِّي أهلُ الجنَّة بعضُهم بعضًا بالسلامِ. وممن اختار ذلك: السعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٤).

وقيل: المرادُ: تحيَّتُهم فيما بينهم وتحيَّة الملائكةِ لهم. وممن اختار هذا القول: ابن أبي زمنين، والبغوي، والبقاعي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٢٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤١٠)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥١٨). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥١، ٢٤٧).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّ السَّلامَ مشتَقٌّ من السلامة، والأظهرُ أنَّ المرادَ أنهم سَلِموا من آفاتِ الدنيا وحَسراتِها أو فنون آلامِها وأسقامِها، وأنواعِ غمومها وهمومها). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٨٩).

وقال البقاعي: (﴿فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ أي: عافيةٌ وسلامةٌ وبقاءٌ، وقولُ كُلٍّ منهم للآخر: أدامَ اللهُ سلامتَك، ونحو هذا من الإخبارِ بدوامِ العافيةِ). ((نظم الدرر)) (١٠/ ٤١٠).

تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٩-١٠].

وقال سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ... ﴾ حِكايةُ هذه المُحاورةِ لِتَنبيهِ السَّامعينَ على النَّظَرِ في العواقِبِ، والاستعدادِ لذلك اليومِ قبل ألَّا يكونَ إلَّا النَّدمُ وقَرعُ السِّنِّ وعَضُّ اليَدِ[1]. ولإثارةِ بُغضِ الشَّيطانِ في نُفوسِ أهلِ الكُفرِ؛ ليأخُذوا حِذرَهم بدِفاعِ وِسْواسِه؛ لأنَّ هذا الخِطابَ الذي يُخاطِبُهم به الشَّيطانُ مَليءٌ بإضمارِ الشَّرِّ لهم فيما وعَدَهم في الدُّنيا ممَّا شَأنُه أن يستفِزَّ غَضَبَهم مِن كَيدِه لهم وسُخريتِه بهم، فيُورِثَهم ذلك كراهيةً له وسُوءَ ظَنِّهم بما يتوقَّعونَ إتيانَه إليهم مِن قِبَلِه، وذلك أصلٌ عَظيمٌ في المَوعِظةِ والتَّربيةِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ ساقَه على صُورةِ الاستثناءِ -وإن لم يكُنْ دُعاؤُه من السُّلطانِ في شَيءٍ، فهو استثناءٌ منقطعٌ- لأنَّ السُّلطانَ أخَصُّ مِن البُرهانِ؛ إذ معناه: برهانٌ يتسَلَّطُ به على إبطالِ مَذهَبِ الخَصمِ، إشارةً إلى أنَّهم تَبِعوه ولا قُدرةَ له على غيرِ هذا الدُّعاءِ الذي لا سُلطانَ فيه، وترَكوا دُعاءَ مَن أنزل إليهم مِن كُلِّ سُلطانٍ مُبينٍ، مع تهديدِهم بما هو قادِرٌ عليه، وضَربِهم ببَعضِه، وفاعِلُ مثلِ ذلك لا لومَ له على

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٨).

غيرِ نَفسِه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي ﴾ ذكَرَ الله تعالى في هذه الآيةِ أنَّه ليس للشَّيطانِ عليهم سُلطانٌ، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾ [النحل: ١٠٠]، فأثبتَ له سُلطانًا، ولكِنَّ السُّلطانَ الذي أثبَتَه له عليهم غيرُ السُّلطانِ الذي نفاه، وذلك مِن وَجهينِ:

الأول: أنَّ السُّلطانَ الذي نفاه عنه هو سُلطانُ الحُجَّةِ والدَّليل، فليس له حُجَّةٌ أصلًا على ما يدعو إليه، وإنَّما نهايةُ ذلك أن يُقيمَ لهم مِن الشُّبَهِ والتَّزييناتِ ما به يتجَرَّؤون على المعاصي، وإطلاقُ السُّلطانِ على البرهانِ كثيرٌ في القرآنِ، وأمَّا السُّلطانُ الذي أثبَتَه فهو التسَلُّط بالإغراءِ على المعاصي لأوليائِه يَؤُزُّهم إلى المعاصي أزًّا.

الثاني: أنَّ الله لم يجعَلْ له عليهم سُلطانًا ابتداءً البتَّةَ، ولكِنَّهم هم الذين سَلَّطوه على أنفُسِهم بطاعتِه ودُخولِهم في حِزبِه، فلم يتسَلَّطْ عليهم بقُوَّةٍ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦]، وإنَّما تسَلَّط عليهم بإرادتِهم واختيارِهم، فهم الذين سَلَّطوه على أنفُسِهم بموالاتِه والالتحاقِ بحِزبِه، ولهذا ليس له سُلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلونَ[٢].

٣- قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٦)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣٤-١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).

فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ فالشَّيطانُ قام لهم في هذا اليومِ مقامًا يقصِمُ ظُهورَهم ويُقَطِّعُ قُلوبَهم؛ فقد أوضَحَ لهم أوَّلًا: أنَّ مواعيدَه الَّتي كان يعِدُهم بها في الدُّنيا باطلةٌ، ومعارِضةٌ لِوعْدِ الحقِّ مِن اللهِ سبحانه. ثانيًا: أنَّه أخلَفَهم ما وعَدَهم مِن تلك المواعيدِ، ولم يَفِ لهم بشيءٍ منها. ثالثًا: أوضَحَ لهم أنَّهم قَبِلوا قولَه بما لا يوجِبُ القَبولَ، ولا ينفَقُ على عقْلِ عاقلٍ؛ لعدَمِ الحُجَّةِ الَّتي لا بدَّ للعاقلِ منها في قَبولِ غيرِه. رابعًا: أوضَحَ لهم أنَّه لم يكُنْ منه إلَّا مُجرَّدُ الدَّعوةِ العاطِلةِ عنِ البُرهانِ، الخاليةِ مِن أيسَرِ شيءٍ ممَّا يتمسَّكُ به العُقلاءُ. خامسًا: ثمَّ نعَى عليهم ما وقَعوا فيه، ودفَعَ لومَهم له، وأمَرَهم بأنْ يلوموا أنفُسَهم؛ لأنَّهم هم الَّذين قَبِلوا الباطلَ البحْتَ، الَّذي لا يلتَبِسُ بُطلانُه على مَن له أدنى مُسْكَةٍ مِن عقْلٍ. سادسًا: أوضَحَ لهم أنَّه لا نصْرَ عندَه ولا إغاثةَ، ولا يستطيعُ لهم نفعًا، ولا يدفَعُ عنهم ضرًّا، بل هو مِثْلُهم في الوُقوعِ في البليَّةِ والعجْزِ عنِ الخُلوصِ مِن هذه المِحنةِ. سابعًا: ثمَّ صرَّحَ لهم بأنَّه قد كفَرَ بما اعتَقَدوه وأثبَتوه له، فتضاعَفَت عليهمُ الحَسراتُ، وتوالَتْ عليهمُ المَصائبُ. وإذا كانت جُملةُ ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ مِن تتمَّةِ كلامِه- كما ذهَبَ إليه بعضُ المُفسِّرينَ- فهو نوعٌ ثامِنٌ مِن كلامِه الَّذي خاطَبَهم به[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ ﴾ رَدٌّ على المُعتَزلةِ والقَدَريَّةِ فيما يزعُمونَ أنَّ «الإِذْنَ مِن اللهِ بمعنى العِلمِ» لا أنَّه إطلاقٌ؛ فِرارًا مما يَلزَمُهُم في قَولِه: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٠٠]، فلو كان كما يقولونَ،

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٨٢- ١٨٣).

لكان المُدْخِلُ إيَّاهم الجنَّةَ في هذه الآيةِ غيرَه، وهذا كُفْرٌ[١].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

- قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ ...﴾ لَمَّا كان الشَّيطانُ أعظَمَ المُستكبرينَ، ورأسَ المضلِّين؛ خُصَّ بالإفرادِ بالجوابِ، حيثُ ذُكِرَ جوابُه دونَ سائرِ أجوبةِ بقيَّةِ المستكبِرين المتْبوعِينَ في الضَّلالِ الذين أضلُّوا أقوامَهم[٢].

- ومجموعُ الجُملتينِ ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ يُفيدُ معنى القصْرِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ تعرَّضَ لذلك، مع أنَّه لم يكُنْ في حيِّزِ الاحتمالِ؛ مُبالَغةً في بيانِ عدَمِ إصراخِه إيَّاهم، وإيذانًا بأنَّه أيضًا مُبْتَلًى بمثْلِ ما ابْتُلوا به، ومحتاجٌ إلى الإصراخِ، فكيف مِن إصراخِ الغيرِ؟! ولذلك آثَرَ الجُملةَ الاسميَّةَ؛ فكأنَّ ما مضَى كان جوابًا منه عن تَوبيخِهم وتقريعِهم، وهذا جوابٌ عنِ استغاثَتِهم واستعانَتِهم به في استِدْفاعِ ما دهَمَهم منَ العذابِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾

- قولُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ فيه إشارةٌ إلى العِنايةِ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٢).

والاهتِمامِ؛ فهو إذْنٌ أخصُّ مِن أمْرِ القضاءِ العامِّ[١]. وفي التَّعرُّضِ لِوصفِ الرُّبوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضميرِهم في قولِه: ﴿رَبِّهِمْ﴾: إظهارُ مزيدٍ مِن اللُّطفِ بهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٣).

الآيات (٢٤-٢٧)

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿ٱجْتُثَّتْ﴾: أي: استُؤصِلَت وقُطِعَت، وأصلُ (جثث): يدلُّ على تجَمُّعِ الشَّيءِ؛ لأنَّه لا يكونُ الشيءُ مجثوثًا إلَّا وقد قُلِعَ بجَميعِ أصولِه وعُروقِه حتى لا يُترَكَ منه شيءٌ[(١)].

﴿قَرَارٍ﴾: أي: أصلٍ وثَباتٍ، وأصلُ (قرر): يدلُّ على تمَكُّنٍ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ألم تعلَمْ -يا محمَّدُ- كيف ضرَبَ اللهُ مَثلًا، وشبَّه شَبَهًا كلمةً طَيِّبةً، وهي كَلِمةُ التَّوحيدِ -لا إلهَ إلَّا اللهُ- بشَجرةٍ طيبةِ الثمرةِ، جذورُها ثابتةٌ في الأرضِ، وأغصانُها مرتفِعةٌ نحوَ السَّماءِ؟ تُعطي ثمرَها كامِلًا كثيرًا طَيِّبًا كُلَّ وقتٍ بمَشيئةِ رَبِّها وأمْرِه، وكذلك كلمةُ التَّوحيدِ؛ لا تزالُ تُثمِرُ الأعمالَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩٤).

الصَّالحةَ للمُؤمِنِ في كُلِّ وَقتٍ، ولا يزالُ يُرفَعُ له عمَلٌ صالِحٌ آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ، في كلِّ حينٍ، ويضرِبُ اللهُ الأمثالَ للنَّاس؛ ليتذَكَّروا حُجَّةَ الله عليهم، ويتَّعِظوا، ويفعَلوا ما أمَرَهم به، ويجتَنِبوا ما نهاهم عنه.

ومثَلُ كَلِمةٍ خَبيثةٍ -وهي كَلِمةُ الكُفرِ- كشَجرةٍ كريهةِ الطَّعمِ، لا أصلَ لها ثابِتٌ في الأرضِ، ولا ارتفاعَ لفُروعِها في السَّماءِ، وليس لها ثمرةٌ ولا مَنفعةٌ، وكذلك كُفرُ الكافِرِ؛ لا ثباتَ له ولا خيرَ فيه، ولا يصعدُ له عمَلٌ صالِحٌ إلى اللهِ، ولا يُتقبَّلُ منه. يثبِّتُ اللهُ المؤمنينَ بالقَولِ الصَّادقِ الحَقِّ الثابتِ في قُلوبِهم، وهو شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ الله، يُثَبِّتُهم اللهُ به في الحياةِ الدُّنيا على إيمانِهم، وعند مَماتِهم بالخاتمةِ الحسَنةِ، وفي القبرِ عندَ سُؤالِ المَلَكينِ، ويَخذُلُ اللهُ الكافرينَ والمُنافِقينَ- بسبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم، ويفعَلُ اللهُ ما يشاءُ مِن هدايةِ المؤمنينَ وتَثبيتِهم، وإضلالِ الظَّالمينَ وخِذلانِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا شرَحَ اللهُ تعالى أحوالَ الأشقياءِ وأحوالَ السُّعداءِ، ذكر مثالًا يبيِّنُ الحالَ في حُكمِ هذين القِسمَينِ، وهو هذا المَثَلُ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى مثَلَ أعمالِ الكُفَّارِ، وأنَّها كرَمادٍ اشتَدَّت به الرِّيحُ في يومٍ عاصفٍ؛ ذكَرَ مَثَلَ أقوالِ المؤمنينَ وغَيرِها[2]، فقال:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٩).

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾.

أي: ألم تعلَمْ- يا محمَّدُ[1]- كيف مثَّلَ اللهُ مَثَلًا، وشبَّه شَبَهًا كلمةً طَيِّبةً- وهي كلمةُ التَّوحيدِ، وشهادة أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ- كشَجَرةٍ طَيِّبةِ الثَّمرةِ، كالنَّخلةِ[2]؟

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: جُذورُ هذه الشَّجرةِ الطَّيِّبةِ ثابتةٌ في الأرضِ، وأغصانُها مرتفعةٌ نحوَ السَّماءِ، فكذلك كلمةُ التَّوحيدِ؛ أصلُها ثابتٌ وراسِخٌ في قلبِ المؤمِنِ، وفرُوعُها مِن الأعمالِ الصَّالحةِ صاعِدةٌ إلى السَّماءِ، مَرفوعةٌ إلى الرَّبِّ سُبحانَه[3].

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) وقيل: الخطابُ لكلِّ مَن يصلحُ للخطابِ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٧٤)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٧٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٢، ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٤).
والقولُ بأنَّ المُرادَ بالشَّجرةِ الطَّيِّبةِ النَّخلةُ، هو قَولُ أكثرِ أهْلِ التَّأويلِ، يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٦٣).
قال ابنُ القيِّم: (ومِنَ السَّلفِ مَن قال: إنَّ الشَّجرةَ الطَّيِّبةَ هي النَّخلةُ، ويدُلُّ عليه حديثُ ابنِ عمَرَ الصَّحيحُ، ومنهم مَن قال: هي المُؤمِنُ نفْسُه... ولا اختلافَ بيْن القولينِ؛ والمقصودُ بالمَثَلِ المُؤمِنُ، والنَّخلةُ مُشبَّهةٌ به، وهو مُشبَّهٌ بها، وإذا كانتِ النَّخلةُ شَجرةً طَيِّبةً، فالمُؤمِنُ المُشبَّهُ بها أَولى أنْ يكونَ كذلك، ومَن قال مِنَ السَّلفِ: إنَّها شَجرةٌ في الجنَّةِ، فالنَّخلةُ مِن أشرَفِ أشجارِ الجنَّةِ). ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) (١/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٥٨، ١٥٩)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٤).

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

أي: تُخرِجُ هذه الشَّجرةُ الطَّيِّبةُ ثَمَرَها كامِلًا كثيرًا طَيِّبًا في كلِّ وقتٍ وساعةٍ مِن ليلٍ ونهارٍ، وصيفٍ وشِتاءٍ، بمَشيئةِ خالِقِها وأمْرِه وتيسيرِه، وكذلك كَلِمةُ التَّوحيدِ؛ لا تزالُ تُثمِرُ الأعمالَ الصَّالحةَ للمُؤمِنِ في كُلِّ وَقتٍ، ولا يزالُ يُرفَعُ له عمَلٌ صالِحٌ آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ، في كلِّ حينٍ[1].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كنَّا عندَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: أخبروني بشَجَرةٍ تُشبِهُ أو كالرجُلِ المُسلِمِ لا يتحاتُّ[2] وَرَقُها، ولا ولا ولا. تُؤتي أُكُلَها كُلَّ حينٍ؟ قال ابنُ عُمَرَ: فوقعَ في نفسي أنَّها النَّخلةُ، ورأيتُ أبا بكرٍ وعُمَرَ لا يتكَلَّمانِ، فكَرِهتُ أن أتكَلَّمَ، فلمَّا لم يقولوا شيئًا، قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هي النَّخلةُ. فلمَّا قُمْنا قلتُ لِعُمَرَ: يا أبَتاه، واللهِ لقد كان وقَعَ في نفسي أنَّها النَّخلةُ، فقال: ما منَعَك أن تكَلَّمَ؟ قال: لم أرَكم تَكَلَّمونَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣٥، ٦٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٤١، ٢٤٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).

قال ابنُ كثير: (قال الضحَّاكُ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، وعكرمةُ، وقتادةُ، وغيرُ واحدٍ: إنَّ ذلك عبارةٌ عن المؤمنِ، وقَولِه الطيِّبِ، وعمَلِه الصالحِ، وإنَّ المؤمِنَ كالشَّجرةِ من النَّخلِ؛ لا يزال يُرفَعُ له عمَلٌ صالحٌ في كلِّ حينٍ ووَقتٍ، وصباحٍ ومَساءٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩١).

وقال ابنُ القيِّمِ: (شَبَّه شجرةَ التوحيدِ في القلبِ بالشجرةِ الطيِّبةِ الثابتةِ الأصلِ، الباسقةِ الفَرعِ في السماء عُلُوًّا، التي لا تزالُ تؤتي ثمَرتَها كلَّ حينٍ، وإذا تأمَّلتَ هذا التشبيهَ رأيتَه مُطابِقًا لشجرةِ التوحيدِ الثابتةِ الرَّاسخةِ في القلبِ، التي فروعُها مِن الأعمالِ الصالحةِ صاعدةٌ إلى السماءِ، ولا تزالُ هذه الشَّجرةُ تُثمِرُ الأعمالَ الصالحةَ كلَّ وقتٍ؛ بحسَبِ ثباتِها في القلبِ، ومحبَّةِ القلبِ لها، وإخلاصِه فيها، ومعرفتِه بحقيقتِها، وقيامِه بحقوقِها، ومراعاتِها حَقَّ رعايتِها). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٣٢).

(٢) لا يتحاتُّ: أي: لا يتناثَرُ ويتساقَطُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٥٥).

فكَرِهتُ أن أتكَلَّمَ أو أقولَ شَيئًا، قال عمَرُ: لَأنْ تكونَ قُلتَها أحَبُّ إليَّ مِن كذا وكذا))[١].

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: ويمثِّلُ اللهُ الأمثالَ[٢] للنَّاسِ، ويُشبِّهُ لهم الأشْباهَ، ويُبيِّنُها لهم؛ ليتذَكَّروا حُجَّةَ الله عليهم، ويَفهَموا ما أراد اللهُ منهم، فيتَّعِظوا، ويفعَلوا ما أمَرَهم به، ويجتَنِبوا ما نهاهم عنه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾.

أي: ومَثَلُ كَلِمةٍ خَبيثةٍ -وهي كَلِمةُ الكُفرِ واعتقادُ الشِّركِ- كشَجَرةٍ كريهةِ الطَّعمِ، مِثْلِ الحَنظلِ، فلا أصلَ لها ثابتٌ في الأرضِ، ولا ارتفاعَ لفُروعِها في السَّماءِ، وليس لها ثمرةٌ ولا مَنفعةٌ، وكذلك كُفرُ الكافِرِ؛ فلا يعمَلُ مع كُفْرِه خيرًا ولا يَقولُه، ولا يجعَلُ اللهُ فيه بركةً ولا مَنفعةً، ولا يصعَدُ عَمَلُه ولا قَولُه إلى

(١) رواه البخاري (٤٦٩٨) واللفظ له، ومسلم (٦٤).

(٢) قال ابنُ القيِّمِ: (الأمثالُ:... تَشبيهُ شَيءٍ بشَيءٍ في حُكْمِه، وتَقريبُ المعقولِ مِنَ المحسوسِ، أو أحدِ المَحسوسينِ مِنَ الآخَرِ، واعتبارُ أحدِها بالآخرِ). ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) (١/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).

السَّماءِ[١].

﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾.

أي: استُؤصِلَت هذه الشَّجرةُ الخبيثةُ، واقتُلِعَت مِن أصلِها؛ فليس لها عُروقٌ وجُذورٌ ثابِتةٌ في الأرضِ تُمسِكُها، وكذلك الكُفرُ؛ لا أصلَ له ولا فَرعَ، ولا يَثبُتُ ثُبوتًا نافِعًا في قَلبِ صاحِبِه، ولا يصعَدُ للكافِرِ عمَلٌ، ولا يُتقبَّلُ منه شَيءٌ[٢].

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لمَّا كان المثلُ مضروبًا للحقِّ والباطلِ في الثباتِ وعدمِه، والقصدُ أهلُهما؛ صرَّح بهما، فقال[٣]:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

أي: يثبِّتُ اللهُ المُؤمِنينَ بالقَولِ الصَّادقِ الحَقِّ، الذي ثبَتَ في قُلوبِهم، وتمكَّنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٥٢، ٦٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦١)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٧٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).
قال ابنُ جريرٍ: (اختلَفَ أهْلُ التَّأويلِ فيها: أيُّ شَجرةٍ هي؟ فقال أكثَرُهم: هي الحَنْظَلُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٥٢).
وقال ابنُ عطيَّةَ: (والشَّجرةُ الخَبيثةُ، قال أكثَرُ المُفسِّرينَ: هي شَجرةُ الحَنْظلِ. قالَهُ أنسُ بنُ مالكٍ، ورواهُ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ، وهذا عِندي على جِهَةِ المِثالِ... والظَّاهرُ عِندي: أنَّ التَّشبيهَ وقَعَ بشَجرةٍ غَيرِ مُعيَّنةٍ إذا وُجِدَت فيها هذه الأوصافُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٢)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣١٤).

فيها، واطمأنَّتْ إليه نفوسُهم- وهو شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ- فيُثَبِّتُهم اللهُ في حياتِهم الدُّنيا على إيمانِهم باللهِ تعالى وبرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُسلِّمُهم من الشَّهَواتِ والشُّبُهاتِ، ويُثَبِّتُهم أيضًا في قُبورِهم[1] عندَ سؤالِ الملكينِ[2].

عن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المُسلِمُ إذا سُئِلَ في القبرِ يشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ. فذلك قولُه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾))[3].

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضيَ الله عنه، قال: ((شَهِدتُ مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جِنازةً، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّها النَّاسُ، إنَّ هذه الأمَّةَ تُبتَلَى في قُبورِها، فإذا الإنسانُ دُفِنَ فتفرَّقَ عنه أصحابُه، جاءه ملَكٌ في يَدِه مِطراقٌ فأقعَدَه، قال: ما تقولُ في هذا الرَّجُلِ؟ فإن كان مؤمِنًا قال: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا عبدُه ورسولُه، فيقولُ: صَدَقتَ، ثمَّ يُفتَحُ له بابٌ إلى النَّارِ، فيقولُ: هذا كان مَنزِلَك لو كفَرْتَ برَبِّك، فأمَّا إذ آمنتَ فهذا مَنزِلُك، فيُفتَحُ له بابٌ إلى الجنَّةِ، فيريدُ أن ينهَضَ إليه، فيقولُ له: اسكُنْ، ويُفسَحُ له في قَبرِه.

---

(١) قال الواحدي: (ومعنى ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: قال ابنُ عبَّاس: يريدُ في القبرِ. وهذا قولُ عامَّةِ المفسِّرينَ؛ قالوا: إنَّ هذه الآيةَ وردَتْ في فتنةِ القبرِ، وسُؤالِ المَلَكين، وتلقينِ اللهِ المؤمِنَ كَلِمةَ الحَقِّ في القبرِ عندَ السؤالِ، وتثبيتِه إيَّاه بها على الحَقِّ). ((البسيط)) (١٢/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٥٧، ٦٦٧)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٣، ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٥).
وقولُه تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ وإنْ كان وَرَدَ أنَّه في عذابِ القَبرِ، فلا يَبعُدُ أن يَتناولَ يومَ الموقِفِ أيضًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٤٢٨).

(٣) رواه البخاري (٤٦٩٩) واللفظ له، ومسلم (٢٨٧١).

وإن كان كافِرًا أو مُنافِقًا يقولُ له: ما تقولُ في هذا الرَّجُلِ؟ فيقولُ: لا أدري، سَمِعتُ النَّاسَ يقولونَ شَيئًا! فيقولُ: لا دَرَيتَ، ولا تَلَيتَ[١]، ولا اهتَدَيتَ، ثمَّ يُفتَحُ له بابٌ إلى الجنَّةِ فيقولُ: هذا مَنزِلُك لو آمنْتَ برَبِّك، فأمَّا إذ كفَرْتَ به فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أبدَلَك به هذا، ويُفتَحُ له بابٌ إلى النَّارِ، ثمَّ يَقمَعُه قَمعةً بالمِطراقِ يَسمَعُها خَلقُ اللهِ كُلُّهم غيرَ الثَّقَلينِ. فقال بعضُ القَومِ: يا رسولَ اللهِ، ما أحدٌ يقومُ عليه ملَكٌ في يَدِه مطراقٌ إلاَّ هِيلَ[٢] عند ذلك! فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾))[٣].

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: ويَخذُلُ اللهُ الكافرينَ والمُنافِقينَ -بسبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم- فيَجعَلُهم في حَيرةٍ وعَمايةٍ، فلا يُوَفِّقُهم إلى الحَقِّ في الحياةِ الدُّنيا، ولا يوَفِّقُهم في قُبورِهم إلى القَولِ الصَّائِبِ حين يُسألُونَ عن الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ وبرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤].

﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾.

---

(١) تَلَيتَ: أصلُه: تَلَوتَ؛ من تلا يَتلو: إذا قرأ، فقُلِبَت الواوُ ياءً إتباعًا لـ (دريت)؛ يعني: لا تقدِرُ أن تقرأَ وتقولَ ما هو الحَقُّ والصوابُ في القبرِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (١/ ٢٢١)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٧/ ٩١).

(٢) هِيلَ: أي: فَزِعَ وَخافَ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣١/ ١٦٦).

(٣) أخرجه أحمد (١١٠٠٠)، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (٨٦٥)، والبزار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (٣/ ٥٠).
صحَّحه ابنُ القيِّم في ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٦٤)، وقال ابنُ كثيرٍ في ((تفسير القرآن)) (٤/ ٤١٧): إسنادُه لا بأسَ به، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٣/ ٥٠): رجالُه رجالُ الصحيحِ، وصحَّح إسنادَه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٦).

مناسبتُها لما قبلَها:

لمَّا ذكَر تعالى ما فعَل بكلٍّ واحدٍ مِن القسمينِ؛ ذكَر أنَّه لا يمكِنُ اعتراضٌ فيما خصَّ به كلَّ واحدٍ منهما؛ إذ ذاك راجعٌ إلى مشيئتِه تعالى، إنَّ الله يفعلُ ما يشاءُ، لا يُسئلُ عما يفعلُ[١].

﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: ويفعَلُ اللهُ ما يشاءُ مِن هدايةِ المؤمنينَ وتَثبيتِهم، وإضلالِ الظَّالمينَ وخِذلانِهم[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وكذلك شَجرةُ الإيمانِ؛ أصلُها ثابِتٌ في قَلبِ المُؤمِنِ؛ عِلمًا واعتقادًا، وفَرعُها- مِن الكَلِمِ الطَّيِّبِ، والعمَلِ الصَّالحِ، والأخلاقِ المَرضِيَّةِ، والآدابِ الحَسَنةِ- في السَّماءِ، دائِمًا يصعَدُ إلى الله منه مِن الأعمالِ والأقوالِ التي تُخرِجُها شَجَرةُ الإيمانِ ما ينتَفِعُ به المؤمِنُ، ويَنفَعُ غَيرَه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ دليلٌ على أنَّ كَلِمةَ الإخلاصِ جامِعةٌ للخيرِ، نامِيَةٌ للحَسَناتِ، جالِبةٌ على قائلِها -كُلَّمَا لفَظَ بها- ثوابًا مُجَرَّدًا، مُثمِرةٌ له كلَّ ما يُقِرُّ اللهُ به عينَه في مَعَادِه إذا وَردَ عليه؛ وأنَّ كَلِمةَ الكفرِ غَيرُ مُثمِرةٍ لقائِلِها خَيرًا، بل

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢٥).

حَاطَّةٌ عنه خَيرًا -إنْ كان له- تاركةٌ قائلَها مُفلِسًا، لا تَنْمي له شَيئًا يُقِرُّ اللهُ به عينَه إذا وَرَدَ عليه[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ كذلك كَلِمةُ الكُفرِ والمعاصي؛ ليس لها ثُبوتٌ نافِعٌ في القَلبِ، ولا تُثمِرُ إلَّا كُلَّ قَولٍ خَبيثٍ، وعَمَلٍ خَبيثٍ يَستضِرُّ به صاحِبُه، ولا ينتفِعُ، فلا يصعَدُ إلى اللهِ منه عمَلٌ صالِحٌ، ولا ينفَعُ نفسَه، ولا ينتَفِعُ به غيرُه[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ فيه إرشادٌ إلى الإقبالِ عليه تعالى، وإلقاءِ أزِمَّةِ الافتقارِ إليه[٣].

٥- تحتَ قَولِه تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ كَنزٌ عَظيمٌ مَن وُفِّقَ لِمَظِنَّتِه، وأحسَنَ استخراجَه واقتناءَه، وأنفَقَ منه؛ فقد غَنِمَ، ومَن حُرِمَه فقد حُرِم؛ وذلك أنَّ العبدَ لا يستغني عن تثبيتِ اللهِ له طَرفةَ عَينٍ، فإنْ لم يثَبِّتْه وإلَّا زالت سَماءُ إيمانِه وأرضُه عن مكانِهما، وقد قال تعالى لأكرَمِ خَلقِه عليه؛ عبدِه ورَسولِه: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال تعالى لأكرَمِ خَلقِه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال تعالى لرَسولِه: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠]، فالخَلقُ كُلُّهم قِسمانِ: مُوفَّقٌ بالتَّثبيتِ، ومَخذولٌ بتَركِ التَّثبيتِ، ومادةُ التَّثبيتِ أصلُه ومَنشؤُه من القَولِ الثَّابتِ، وفِعلِ ما أُمِرَ به العبدُ، فبِهما يُثَبِّتُ اللهُ عَبدَه،

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤١٥).

فكُلُّ من كان أثبَتَ قَولًا وأحسَنَ فِعلًا، كان أعظمَ تَثبيتًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]، فأثبَتُ النَّاسِ قلبًا أثبَتُهم قولًا، والقولُ الثَّابِتُ هو القولُ الحَقُّ والصِّدقُ، وهو ضِدُّ القَولِ الباطلِ الكَذِبِ؛ فالقولُ نوعان: ثابتٌ له حقيقةٌ، وباطِلٌ لا حقيقةَ له، وأثبَتُ القَولِ كَلِمةُ التوحيدِ ولوازِمُها؛ فهي أعظَمُ ما يثَبِّتُ اللهُ بها عبدَه في الدُّنيا والآخرةِ؛ ولهذا ترى الصَّادِقَ من أثبَتِ النَّاسِ، وأشجَعِهم قَلبًا، والكاذِبَ مِن أمهَنِ النَّاسِ وأجبَنِهم، وأكثَرِهم تلوُّنًا، وأقلِّهم ثباتًا[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ في هذا المثَلِ مِن الأسرارِ والعُلومِ والمعارفِ ما يليقُ به ويقتضيه عِلمُ الذي تكَلَّمَ به وحِكمَتُه:

فمِن ذلك أنَّ الشَّجَرةَ لا بُدَّ لها مِن عُروقٍ وساقٍ وفُروعٍ ووَرَقٍ وثَمَرٍ، فكذلك شَجَرةُ الإيمانِ والإسلامِ؛ ليُطابِقَ المُشَبَّهُ المشَبَّهَ به، فعُروقُها العِلمُ والمَعرِفةُ واليقينُ، وساقُها الإخلاصُ، وفروعُها الأعمالُ، وثَمرتُها ما تُوجِبُه الأعمالُ الصالحةُ مِن الآثارِ الحَميدةِ، والصِّفاتِ الممدوحةِ، والأخلاقِ الزَّكيَّةِ، والسَّمتِ الصَّالحِ، والهَدْيِ والدَّلِّ المَرْضِيِّ، فيُستدَلُّ على غَرسِ هذه الشَّجَرةِ في القَلبِ وثُبوتِها فيه بهذه الأمورِ، فإذا كان العِلمُ صَحيحًا مُطابِقًا لِمَعلومِه الذي أنزَلَ اللهُ كِتابَه به، والاعتقادُ مُطابِقًا لِمَا أخبَرَ به عن نفسِه، وأخبَرَت به عنه رسُلُه، والإخلاصُ قائمًا في القَلبِ، والأعمالُ مُوافِقةً للأمرِ، والهَديُ والدَّلُّ والسَّمتُ مُشابِهًا لهذه الأصولِ مُناسِبًا لها- عُلِمَ أنَّ شَجَرةَ الإيمانِ في القَلبِ أصلُها ثابِتٌ وفَرعُها في السَّماءِ، وإذا كان الأمرُ بالعَكسِ عُلِمَ أنَّ القائِمَ بالقلبِ

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٦).

إنَّما هو الشَّجَرةُ الخبيثةُ التي اجتُثَّت من فوقِ الأرضِ ما لها مِن قَرارٍ.

ومنها: أنَّ الشَّجَرةَ لا تبقَى حَيَّةً إلَّا بمادَّةٍ تَسقيها وتُنَمِّيها، فإذا قُطِعَ عنها السَّقيُ أوشك أن تيبَس، فهكذا شجرةُ الإسلامِ في القَلبِ؛ إن لم يتعاهَدْها صاحِبُها بسَقْيها كُلَّ وقتٍ بالعِلمِ النَّافِعِ والعمَلِ الصَّالحِ والعَودِ بالتذَكُّرِ على التفكُّر، والتفَكُّرِ على التذَكُّر، وإلَّا أوشكَ أن تيبَسَ، وفي الحديثِ قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ الإيمانَ ليَخلُقُ[1] في جوفِ أحدِكم، كما يَخلُقُ الثَّوبُ الخَلَقُ، فسَلوا الله أن يجدِّدَ الإيمانَ في قلوبِكم))[2]. وبالجملةِ: فالغَرسُ إن لم يَتعاهَدْه صاحِبُه أوشَكَ أن يَهلِكَ، ومن هنا تعلَمُ شِدَّةَ حاجةِ العبادِ إلى ما أمَرَ اللهُ به مِن العباداتِ على تَعاقُبِ الأوقاتِ، وعَظيمِ رَحمتِه، وتمامِ نِعمتِه وإحسانِه إلى عبادِه بأنْ وظَّفَها عليها، وجعَلَها مادَّةً لِسَقيِ غِراسِ التَّوحيدِ الذي غرَسَه في قلوبِهم.

ومنها: أنَّ الغَرسَ والزَّرعَ النافِعَ قد أجرى اللهُ سُبحانَه العادةَ أنَّه لا بُدَّ أن يخالِطَه دَغَلٌ[3] ونَبتٌ غَريبٌ ليس مِن جِنسِه، فإنْ تعاهَدَه رَبُّه ونقَّاه وقَلَعَه، كَمَلَ الغَرسُ والزَّرعُ واستوى، وتمَّ نباتُه، وكان أوفَرَ لثَمرتِه، وأطيبَ وأزكى،

---

(١) ليَخلُقُ: يُقالُ: خَلُقَ الثَّوبُ: إذا بَلِيَ ودَنِسَ، وأصبَح قديمًا مُمزَّقًا، والمراد: أنَّ الإيمان لا يَستمرُّ على هيئتِه، ويُدَنَّسُ بسُوءِ أفعال العَبدِ؛ فإذا عادَ وتاب فقد جدَّد ما أخْلَق وطَهَّر ما دَنَّس. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٩٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٧١)، ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمناوي (١/ ٢٨٠).

(٢) أخرجه الطبراني (١٤/ ٧٠) (١٤٦٦٨) واللفظ له، والحاكم (٥) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.
قال الحاكمُ: رواتُه مصريونَ ثقاتٌ. وحسَّن إسنادَه الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١/ ٥٧)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٥٩٠).

(٣) الدَّغَل: الفَسادُ، ويقال: أَدغَلْتُ في هذا الأمْرِ: إذا أَدْخَلْتَ فيه ما يُخالفُه ويفسِده، وأصلُ الدَّغَلِ: الشَّجرُ الكثيرُ الملتفُّ الذي يَكْمُنُ أهلُ الفَسادِ فيه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٦٩٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٦٤٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٢٣).

وإن تركَه أوشكَ أن يغلِبَ على الغَرسِ والزَّرعِ، ويكونَ الحُكمُ له، أو يُضعِفَ الأصلَ ويجعَلَ الثَّمرةَ ذَميمةً ناقِصةً بحسَبِ كَثرتِه وقِلَّتِه، ومَن لم يكُنْ له فِقهُ نَفسٍ في هذا ومَعرِفةٌ به، فإنَّه يفوتُه رِبحٌ كبيرٌ وهو لا يشعُرُ؛ فالمؤمِنُ دائِمًا سَعيُه في شيئينِ: سَقيِ هذه الشَّجَرةِ، وتنقيةِ ما حَولَها، فبِسَقيِها تبقَى وتدومُ، وبتنقيةِ ما حَولَها تكمُلُ وتَتِمُّ، واللهُ المُستَعانُ وعليه التُّكْلانُ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ شَبَّهَ سُبحانه وتعالى الكَلِمةَ الطيبةَ بالشَّجَرةِ الطَّيِّبةِ؛ لأنَّ الكَلِمةَ الطيبةَ تُثمِرُ العمَلَ الصالحَ؛ والشجرةَ الطيبةَ تُثمِرُ الثَّمَرَ النَّافعَ[٢].

٣- ضرَب الله المَثَل لِكَلِمَةِ الإيمانِ بالشَّجَرَةِ، فقال الله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فالشَّجرةُ كُلَّما قَوِيَ أصلُها وعرَّقَ ورَوِيَ، قَوِيَت فروعُها، وفروعُها أيضًا إذا اغتَذَت بالمطَرِ والرِّيحِ أثَّرَ ذلك في أصلِها، وكذلك الإيمانُ في القلبِ، والإسلامُ علانيةً[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، ففي ضَربِ الأمثالِ زِيادةُ إفهامٍ، وتذكيرٌ، وتصويرٌ للمعاني[٤]، وتقريبٌ للمعاني المَعقولةِ مِن الأمثالِ المَحسوسةِ، ويتبيَّنُ المعنى الذي أراده اللهُ غايةَ البيانِ،

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٣-١٣٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٣٢).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٣٨١).

ويتَّضِحُ غايةَ الوضوحِ، وهذا مِن رَحمتِه وحُسنِ تَعليمِه، فللَّه أتمُّ الحمدِ وأكمَلُه وأعَمُّه[١].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ في هذه الآيةِ دَلالةٌ على فِتنةِ القَبرِ وعَذابِه، ونَعيمِه، كما تواتَرَت بذلك النصوصُ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الفِتنةِ، وصِفتِها، ونعيمِ القَبرِ وعَذابِه[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ دليلٌ على أنَّ القَبرَ مِن منازلِ الآخرةِ[٣].

٧- العبدُ يَحتاجُ إلى الثَّبَاتِ في طُولِ حياتِه، وأحوَجُ ما يَحتاجُ إليه عندَ مماتِه، ويَحتاجُ إلى الثَّباتِ أيضًا بعد الموتِ؛ قال الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[٤].

٨- قَولُه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ فأخبَرَ سُبحانَه أنَّ تَثبيتَ المُؤمِنينَ وإضلالَ الظَّالِمينَ فِعلُه؛ فإنَّه يفعَلُ ما يشاءُ، وأمَّا الثَّباتُ والضَّلالُ فمَحضُ أفعالِهم[٥]، ففيه حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّة[٦].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ أنَّ أفعالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢٥)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ١٠٨).
(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٨).
(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٤١).
(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٩).
(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٨).

اللهِ- سبحانه وتعالى- اختياريَّةٌ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ...﴾ إيقاظٌ للذِّهْنِ؛ لِيَترقَّبَ ما يَرِدُ بعدَ هذا الكلامِ، ولم يكُنْ هذا المثَلُ ممَّا سبَقَ ضرْبُه قبلَ نُزولِ الآيةِ، بل الآيةُ هي الَّتي جاءتْ به؛ فالكلامُ تشويقٌ إلى عِلْمِ هذا المثَلِ، وصَوغُ التَّشويقِ إليه في صِيغَةِ الزَّمنِ الماضي الدَّالِّ عليها حرْفُ (لَمْ) الَّتي هي لِنفْيِ الفعْلِ في الزَّمنِ الماضي، والدَّالِّ عليها فعْلُ ﴿ضَرَبَ﴾ بصِيغَةِ الماضي؛ لِقصْدِ الزِّيادةِ في التَّشويقِ لِمعرفةِ هذا المثَلِ وما مُثِّلَ به[٢].

- والاستفهامُ في ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ...﴾ إنكاريٌّ، نُزِّلَ فيه المُخاطَبُ مَنزِلةَ مَن لم يَعلَمْ، فأنكَرَ عليه عدَمَ العِلْمِ، أو هو مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن عدَمِ العِلْمِ بذلك، مع أنَّه ممَّا تتوفَّرُ الدَّواعي على علْمِه، أو هو للتَّقريرِ، وهو كِنايةٌ عنِ التَّحريضِ على العِلْمِ بذلك، وإيثارُ ﴿كَيْفَ﴾ هنا للدَّلالةِ على أنَّ حالةَ ضرْبِ هذا المثَلِ ذاتُ كيفيَّةٍ عجيبةٍ مِن بلاغَتِه وانْطباقِه[٣].

- قولُه: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه حُسْنُ التَّقسيمِ؛ إذ جاء ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، يُريدُ بالفرعِ: أعلاها ورأْسَها،

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٣٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وإنْ كان المُشبَّهُ به ذا فُروعٍ، فيكونُ مِن بابِ الاكتِفاءِ بلفْظِ الجِنْسِ[١]؛ فيجوزُ أنَّ المرادَ: وفُروعُها، أي: أفناؤُها، على الاكتفاءِ بلفْظِ الجِنْسِ؛ لاكتسابِه الاستغراقَ مِن الإضافةِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ المُشبَّهُ هو: الهيئةُ الحاصِلةُ مِن البَهجةِ في الحسِّ، والفرَحِ في النَّفسِ، وازديادِ أُصولِ النَّفعِ باكتسابِ المَنافعِ المُتتاليةِ بهيئةِ رُسوخِ الأصْلِ، وجمالِ المَنظَرِ، ونَماءِ أغصانِ الأشجارِ، ووفْرةِ الثِّمارِ، ومُتعةِ أكْلِها[٣].

- وفي الآيتينِ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ تَشبيهٌ تمثيليٌّ في تشبيهِ الكلمةِ الطَّيِّبةِ الموصوفةِ بثلاثِ صِفاتٍ، وهي إيتاءُ الأُكُلِ كلَّ حينٍ، أي: مِن وقْتِ أنْ تُؤْكَلَ إلى حينِ انصرامِها، ووجْهُ الشَّبهِ في تَمثيلِ الإيمانِ بالشَّجرةِ: أنَّ الشَّجرةَ لا تكونُ شجرةً إلَّا بثلاثةِ أشياءَ: عِرْقٍ راسِخٍ، وأصلٍ قائمٍ، وفرْعٍ عالٍ، كذلك الإيمانُ لا يَتِمُّ إلَّا بثلاثةِ أشياءَ: تصديقٍ بالقلْبِ، وقولٍ باللِّسانِ، وعمَلٍ بالأبدانِ؛ فوُجودُ الصِّفاتِ الثَّلاثِ في جانِبِ المُشبَّهِ به حِسِّيَّةٌ، بينما هي في جانِبِ المُشبَّهِ معنويَّةٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٨٧، ١٨٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٢).

٣- قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ فيه تَشبيهٌ تمثيليٌّ أيضًا في تَشبيهِ الكلمةِ الخبيثةِ بالشَّجرةِ الخبيثةِ غيرِ الثَّابتةِ؛ كأنَّها اجْتُثَّتْ، أو كأنَّها مُلقاةٌ على وجْهِ الأرضِ، فلا تغوصُ إلى الأرضِ، بل عُروقُها في وجْهِ الأرضِ، ولا غُصونَ لها تمتَدُّ صُعُدًا إلى السَّماءِ، وهذا معنى قولِه: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[(١)].

- قولُه: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ في مُقابَلةِ قولِه في صِفَةِ الشَّجرةِ الطَّيِّبةِ: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[(٢)]، و﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ تصويرٌ لـ ﴿ٱجْتُثَّتْ ﴾، وجُملةُ ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ تأْكيدٌ لِمعنى الاجْتِثاثِ؛ لأنَّ الاجْتِثاثَ مِن انْعدامِ القرارِ[(٣)].

٤- قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ جُملةٌ مُستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا، ناشئًا عمَّا أثاره تمثيلُ الكلمةِ الطَّيِّبةِ بالشَّجرةِ الثَّابتةِ الأصلِ، بأنْ يُسْأَلَ عنِ الثَّباتِ المُشبَّهِ به: ما أثَرُه في الحالةِ المُشبَّهةِ؟ فيُجابُ بأنَّ ذلك الثَّباتَ ظهَرَ في قُلوبِ أصحابِ الحالةِ المُشبَّهةِ، وهم الَّذين آمنوا إذا ثبَتوا على الدِّينِ ولم يتَزَعْزَعوا فيه؛ لأنَّهم استَثْمَروا مِن شجرةٍ أصلُها ثابتٌ[(٤)].

- وفيه حُسْنُ تَرتيبٍ؛ فإنَّه لمَّا تقدَّمَ تَشبيهُ الكلمةِ الطَّيِّبةِ على تشبيهِ الكلمةِ الخبيثةِ، تقدَّمَ في هذا الكلامِ مَن نُسِبَت إليه الكلمةُ الطَّيِّبةُ، وتلاه مَن نُسِبَت إليه الكلمةُ الخبيثةُ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٤).

- قولُه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ فيه إظهارُ اسم الجَلالةِ في الموضعَيْنِ ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾؛ لِقصْدِ أنْ تكونَ كلُّ جُملةٍ مِن الجُمَلِ الثَّلاثِ مُستقلَّةً بدَلالتِها؛ حتَّى تَسِيرَ مَسِيرَ المثَلِ[1]، وفيه مِن الفَخامةِ وتربيةِ المَهابةِ ما لا يَخفَى، مع ما فيه مِن الإيذانِ بالتَّفاوُتِ في مبدَأِ التَّثبيتِ والإضلالِ؛ فإنَّ مبْدَأَ صُدورِ كلٍّ منهما عنه سبحانَه وتعالى مِن صفاتِه العلا غيرُ ما هو مبْدَأُ صُدورِ الآخرِ[2].

- وجُملةُ ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ كالتَّذييلِ لِمَا قبلَها، وتحتَ إبهامِ ﴿مَا يَشَآءُ ﴾ وعُمومِه مَطَاوٍ كثيرةٌ؛ مِن ارتباطِ ذلك بمَراتِبِ النُّفوسِ، وصَفاءِ النِّيَّاتِ في تطلُّبِ الإرشادِ، وتربيةِ ذلك في النُّفوسِ بنمائِه في الخيرِ والشَّرِّ، حتَّى تبلُغَ بذُورُ تَيْنِك الشَّجرتَينِ مُنْتَهى أَمَدِهما؛ مِن ارتفاعٍ في السَّماءِ، واجتثاثٍ مِن فوقِ الأرضِ، المُعبَّرِ عنهما بالتَّثبيتِ والإضلالِ، وفي كلٍّ تلك الأحوالِ مَراتبُ ودرجاتٌ لا تبلُغُ عُقولُ البشَرِ تَفصيلَها[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٧).

الآيات (٢٨-٢١)

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿ٱلْبَوَارِ﴾: أي: الهَلاكِ، وأصلُ (بور): يدلُّ على هلاكِ الشَّيءِ[١].

﴿خِلَٰلٌ﴾: أي: مُخالَّةٌ ومُصادَقةٌ، مصدرُ: خاللتُه خِلالًا ومُخالَّةً، وأصلُ (خلل): يدُلُّ على فُرجةٍ، ومنه سُمِّيَ الخَليلُ؛ لأنَّه تخلَّلَ أحوالَ الآخَرِ، وعرَفَ سرائِرَه، أو لتخَلُّلِ كلِّ واحدٍ مِنهما قلبَ الآخَرِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

﴿يُقِيمُوا۟﴾ فِعلٌ مُضارِعٌ مَجزومٌ؛ وفي سبَبِ جَزمِه أوجهٌ؛ أحدها: أنَّه مجزومٌ بلامِ أمرٍ محذوفةٍ، تقديرُه: ليُقيموا، فحُذِفَتْ وبَقِيَ عملُها، فهو أمرٌ مُستأنَفٌ. والثاني: أنَّه واقِعٌ في جَوابِ الأمرِ ﴿قُل﴾. الثالثُ: أنَّه واقِعٌ في جوابِ شَرطٍ مُقدَّرٍ بعدَ ﴿قُل﴾، أي: إن تقُلْ لهم أقيمُوا يُقيموا. وقيلَ غيرُ ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((تفسير الراغب)) (١/ ٥٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن لمكي)) (١/ ٤٠٥-٤٠٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٦٩-٧٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٠٤-١٠٦).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ألمْ تَنظُرْ -يا محمَّدُ- إلى المكَذِّبينَ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ، الذين غَيَّروا نِعمةَ اللهِ عليهم بإرسالِك إليهم مِن اللهِ، فكَفَروا باللهِ، ولم يُؤمِنوا برِسالتِك، ويَشكُروا اللهَ عليها؟ وأنزَلوا أتباعَهم من قريشٍ دارَ الهَلاكِ، وهي جهنَّمُ، يدخُلونَها، ويُقاسُونَ حَرَّها، وبئس المستقَرُّ جهنمُ. وجعَلَ أولئكَ الكُفَّارُ لله شُرَكاءَ عَبَدوهم معه؛ ليُضلُّوا النَّاسَ عَن دِينِه. قلْ لهم- يا محمدُ: استَمتِعوا في حياتِكم الدُّنيا؛ فإنَّها فانيةٌ، وإنَّ مَرجِعَكم إلى عذابِ النارِ، وقلْ - يا مُحمَّدُ- لعبادي المؤمنين يُقيموا الصَّلواتِ الخمسَ المفروضةَ بحُدودِها في أوقاتِها، وينفقوا مما أعطيناهم مِن فضلِنا في الحقوقِ الواجِبةِ، مُسرِّين ذلك ومُعلِنينَ، من قبلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الذي لا سبيلَ فيه إلى استدراكِ ما فات، لا بمُعاوَضةِ بَيعٍ وشراءٍ، ولا بهِبَةِ خَليلٍ وصَديقٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعدَ أنْ ذكَر الله تعالى فيما مضَى بعضَ أوصافِ الكفارِ وأحوالِهم؛ عادَ إلى وَصفِ أحوالِهم في هذه الآيةِ[1].

وأيضًا فإنَّه تعالى أعقَبَ تمثيلَ الدِّينَينِ ببيانِ آثارِهما في أصحابِهما، وابتُدِئَ بذِكرِ أحوالِ المُشرِكينَ؛ لأنَّها أعجَبُ، والعبرةَ بها أَولى، والحذَرَ منها مقَدَّمٌ على التحلِّي بضِدِّها[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٧).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى حالَ المُؤمِنينَ وهُداهم، وحالَ الكافرينَ وإضلالَهم؛ ذكَرَ السَّبَبَ في إضلالِهم[١]، فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾.

أي: ألم تنظُرْ -يا محمَّدُ- إلى كفَّارِ قُرَيشٍ، الذين غَيَّروا نِعمةَ اللهِ عليهم ببَعثتِك رسولًا إليهم مِن اللهِ، فكَفَروا باللهِ وكَذَّبوك، فلم يُؤمِنوا برِسالتِك، ويَشكُروا اللهَ عليها[٢]؟!

﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾.

أي: وأنزَلوا قَومَهم- الذين اتَّبَعوهم مِن قُرَيشٍ- دارَ الهَلاكِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢-١١٣].

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: ودارُ الهَلاكِ هي جهنَّمُ يَدخُلونَها، ويُحيطُ بهم حَرُّها مِن جميعِ جَوانبِهم، وبِئسَ المُستقَرُّ جهنَّمُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦٨، ٦٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٥).

ممَّن قال مِن المفسِّرين بأنَّ جهنَّمَ تفسيرٌ لدارِ البوارِ: ابنُ جرير، والواحدي، والزمخشري،

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن الكافرينَ أنَّهم بدَّلوا نِعمةَ اللهِ كُفرًا؛ ذكَرَ أنَّهم بعد أن كَفَروا باللهِ جَعَلوا له أندادًا[1].

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾.

وابنُ الجوزي، والرازي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦٩)، (الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥١٣)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣٠-١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٧٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٤٣).

وقيل: المراد بـ ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾: الهلاكُ في الدنيا بالقَتلِ والخِزيِ، كما وقع يومَ بدر لمُشركي قريش.

قال ابنُ عطيةَ: (يحتملُ أن يُريدَ بـ ﴿ٱلْبَوَارِ﴾: الهلاكَ في الآخرة، ففسَّرَه حينئذٍ بقولِه: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يحترِقون في حَرِّها ويحتملونَه، ويحتمِلُ أن يريدَ بـ ﴿ٱلْبَوَارِ﴾: الهلاكَ في الدنيا بالقتلِ والخزيِ، فتكون «الدار» قليبَ بدرٍ ونحوه. وقال عطاءٌ: نزلَتْ هذه الآيةُ في قتلَى بدرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٨).

وممن جمَع بينَ القولين: السعدي، وابنُ عاشور.

قال السِّعديُّ: (﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ وهي النَّارُ؛ حيث تَسبَّبوا لإضلالِهم، فصاروا وَبالًا على قَومِهم، مِن حيثُ يُظَنُّ نفْعُهم، ومِن ذلك: أنَّهم زَيَّنوا لهم الخُروجَ يومَ بدْرٍ؛ لِيُحارِبوا اللهَ ورسولَهُ، فجَرَى عليهم ما جَرى، وقُتِلَ كثيرٌ مِن كُبرائِهم وصَناديدِهم في تلك الوَقْعةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

وقال ابنُ عاشورٍ: (البَوارُ: الهَلاكُ والخُسرانُ. ودارُهُ: مَحَلُّه الَّذي وقَعَ فيه. والإحلالُ بها: الإنزالُ فيها، والمُرادُ بالإحلالِ: التَّسبُّبُ فيه، أي: كانوا سببًا لِحُلولِ قَومِهم بدارِ البوارِ، وهي جهنَّمُ في الآخرةِ، ومَواقِعُ القَتْلِ والخِزْيِ في الدُّنيا؛ مِثْلُ مَوقِعِ بدْرٍ، فيجوزُ أنْ يكونَ ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ جهنَّمَ، وبه فَسَّرَ عليٌّ وابنُ عبَّاسٍ وكثيرٌ مِنَ العُلماءِ، ويَجوزُ أنْ تكونَ أرضَ بدْرٍ، وهو رِوايةٌ عن عليٍّ، وعن ابنِ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٤).

أي: وجعَل أولئك الكُفَّارُ لله نُظراءَ وشُرَكاءَ، يعبُدونَهم معه؛ كي يُضِلُّوا الناسَ عن دينِ اللهِ الحَقِّ، وإخلاصِ العِبادةِ له وَحدَه(١).

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ: استمتِعوا(٢) في حياتِكم الدُّنيا الفانيةِ؛ فإنَّ مَرجِعَكم في الآخرةِ إلى النَّارِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩- ٧٠].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٠٩).

قال الشوكاني: (قَرَأ ابنُ كثيرٍ، وأبو عمرٍو: ﴿لِّيُضِلُّوا۟﴾ بفتحِ الياءِ، أي: لِيَضِلُّوا أنفسَهم عن سبيلِ اللَّهِ، وتكونُ اللَّامُ لِلعاقبةِ أي: لِيَتَعَقَّبَ جعلَهم لِلَّهِ أندادًا ضلالُهم؛ لأنَّ العاقلَ لا يريدُ ضلالَ نَفْسِه، وحَسُنَ استعمالُ لامِ العاقبةِ هنا لأنَّها تُشْبِهُ الغرضَ والغايةَ مِن جهةِ حصولِها في آخرِ المراتِبِ... وقَرَأ الباقونَ بضمِّ الياءِ، ليُوقِعوا قومَهم في الضَّلالِ عن سبيلِ اللَّهِ، فهذا هو الغرضُ مِنْ جَعْلِهم للَّهِ أندادًا). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣١).

(٢) قال الشوكاني: (﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ بما أنتم فيه مِنَ الشَّهواتِ، وما زَيَّنَتْه لكم أنفسُكم مِنْ كفرانِ النِّعَمِ وإضلالِ النَّاسِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى حالَ الكُفَّارِ، وكُفرَهم نِعمَتَه، وجعْلَهم له أندادًا، وتهدَّدَهم؛ أمرَ المؤمنينَ بلُزومِ الطاعةِ، والتيقُّظِ لأنفُسِهم، وإلزامِ عَمودَيِ الإسلامِ: الصَّلاةِ والزَّكاةِ، قبل مجيءِ يَومِ القيامةِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى كُفرَ الكافرينَ وضَلالَهم عن السَّبيلِ، وما أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم بأن يقولَ لهم، وكان ذلك محرِّكًا لنفسِ السَّامِعِ إلى الوقوفِ على ما يُقالُ لِمَن خلَع الأندادَ، وكان أوثَقُ عُرى السَّبيلِ بعدَ الإيمانِ وأعمُّها الصَّلاةَ النَّاهيةَ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، والنَّفَقةَ الشَّامِلةَ لوُجوهِ البِرِّ- أمَرَه تعالى أن يندُبَ أولياءَه إلى الإقبالِ إلى ما أعرَضَ عنه أعداؤُه، والإعراضِ عمَّا أقبلوا بالتمَتُّعِ عليه مِن ذلك[٢]، فقال:

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لعبادي المُؤمِنينَ يُقيموا الصَّلَواتِ الخَمسَ المَفروضةَ عليهم، بحُدودِها في أوقاتِها[٣].

﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾.

أي: ويُنفِقوا ممَّا رَزَقناهم مِن فَضلِنا، فيُؤدُّوا ما أوجبْتُ عليهم مِن الحقوقِ سرًّا وإعلانًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٧٩).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالنَّفَقةِ: النفقةُ الواجبةُ: ابنُ جرير، وابنُ أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٧٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٧٠).

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

أي: مِن قَبلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الذي لا يَقدِرونَ فيه على ذلك، ولا سبيلَ إلى استدراكِ ما فات، لا بمُعاوَضةِ بَيعٍ وشراءٍ، ولا بهِبَةِ خَليلٍ وصَديقٍ؛ فكُلُّ امرئٍ له شأنٌ يُغنِيه(١).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ تحذيرٌ مِن كُفْرانِ النِّعمةِ، وصَرفِها فيما لا يُرضي اللهَ(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ

وممن قال مِن السلفِ أنَّ المرادَ بها: الزكاةُ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٠). وقيل: الآيةُ تشمَلُ النَّفَقاتِ الواجبةَ والمُستحبَّة. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (والسِّرُّ: صَدقةُ التَّنفُّلِ، والعَلانِيةُ: المفروضةُ، وهذا هو مُقْتضى الأحاديثِ. وفسَّرَ ابنُ عبَّاسٍ هذه الآيةَ بزَكاةِ الأموالِ مُجْمَلًا، وكذلك فسَّرَ الصَّلاةَ بأنَّها الخَمْسُ، وهذا منْه عِندي تَقريبٌ للمُخاطَبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٩)، ويُنظر: ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٢٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٧٩، ٦٨٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للأصفهاني (ص: ٢٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٠)، ((حاشية الخفاجي)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

قال الشَّوكانيُّ: (فالجُملةُ- أعني: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]- لِتأكيدِ مَضمونِ الأمْرِ بالإنفاقِ ممَّا رزَقَهم اللهُ، ويُمكِنُ أنْ يكونَ فيها أيضًا تأْكيدٌ لمَضمونِ الأمْرِ بإقامةِ الصَّلاةِ؛ وذلك لأنَّ تَرْكَها كثيرًا ما يكونُ بسبَبِ الاشتغالِ بالبَيعِ ورِعايةِ حُقوقِ الأخِلَّاءِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١١/ ١٩٣).

سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ الإنسانُ بعد الفراغِ مِن الإيمانِ، لا قُدرةَ له على التصَرُّفِ في شَيءٍ إلَّا في نفسِه أو في مالِه؛ أمَّا النَّفسُ فيجِبُ شَغلُها بخِدمةِ المعبودِ في الصَّلاةِ، وأمَّا المالُ فيجِبُ صَرفُه إلى البَذلِ في طاعةِ اللهِ تعالى، فهذه الثَّلاثةُ هي الطَّاعاتُ المُعتبَرةُ، وهي الإيمانُ والصَّلاةُ والزَّكاةُ[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾، أي: لا ينفَعُ فيه شَيءٌ، ولا سبيلَ إلى استدراكِ ما فات، فلْيُقَدِّمِ العبدُ لنَفسِه، ولْيَنظُرْ ما قدَّمَه لغَدٍ، ولْيتفقَّدْ أعمالَه، ويُحاسِبْ نَفسَه قبلَ الحِسابِ الأكبرِ[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ لعلَّه سِيقَ سِياقَ الشَّرطِ؛ تنبيهًا لهم على أنَّ مُجرَّدَ قولِه صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّم أقوى الأسبابِ، فيَجبُ عليهم ألَّا يتخلَّفوا عنه أصلًا[٣].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ زيادةُ ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ للتَّذكيرِ بالنِّعمةِ تَحريضًا على الإنفاقِ؛ ليكونَ شُكرًا للنِّعمةِ[٤].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ فيه سؤالٌ: كيف

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢٦).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٢).

نفى المُخالَّةَ هنا، مع أنَّه تعالى أثبَتَها في قَولِه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]؟

الجوابُ: أنَّ الآيةَ الدَّالَّةَ على نفي المُخالَّةِ مَحمولةٌ على نفيِ المُخالَّة بسبَبِ مَيلِ الطَّبيعةِ، ورَغبةِ النَّفسِ، والآيةُ الدالَّةُ على ثبوتِ المُخالَّةِ مَحمولةٌ على حُصولِ المُخالَّةِ الحاصلةِ بسببِ عُبوديَّةِ الله تعالى، ومحبَّةِ الله تعالى[(١)].

٤- عن قتادةَ رحمه الله في قَولِه: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ قال: (إنَّ اللهَ تعالى قد عَلِمَ أنَّ في الدنيا بيوعًا وخِلالًا يتخالُّونَ بها في الدُّنيا، فلينظُرْ رجُلٌ مَن يُخالِلُ، وعلامَ يُصاحِبُ؟ فإنْ كان لله فلْيُداوِمْ، وإن كان لغيرِ اللهِ فلْيَعلمْ أنَّ كُلَّ خُلَّةٍ ستصيرُ على أهلِها عداوةً يومَ القيامةِ إلَّا خُلَّةَ المتَّقينَ)[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ...﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّشويقِ إلى رُؤيةِ ذلك[(٣)]، وفيه تَعجُّبٌ ممَّا صنَعَ الكَفَرةُ مِن الأباطيلِ الَّتي لا تَكادُ تصدُرُ عمَّن له أدْنى إدراكٍ، ومِن أعمالِهم الَّتي لا تمُتُّ إلى الحِلْمِ بِصِلَةٍ؛ فقد بدَّلوا نفْسَ النِّعمةِ كُفرًا، وجَنَوْا على أنفُسِهم وعلى قومِهم[(٤)].

- وفي قولِه: ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ مُحَسِّنٌ بَديعيٌّ هو الاحتِباكُ، وتقديرُ الكلام: بدَّلوا نِعمةَ اللهِ وشُكرَها كفْرًا بها، ونِقمةً منه، كما دلَّ عليه قولُه:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٦).
(٢) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٩٥).

﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ...﴾[١].

- قولُه: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ فيه عدمُ التَّعرُّضِ لِحُلولِهم هم؛ لدَلالةِ الإحلالِ عليه؛ إذ هو فرْعُ الحُلولِ، كقولِه تعالى عن فرعونَ: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾[٢] [هود: ٩٨].

- واستعمالُ صِيغَةِ المُضِيِّ في ﴿أَحَلُّوا﴾؛ لِقصدِ التَّحقيقِ؛ لأنَّ الإحلالَ مُتأخِّرٌ زمنُه؛ فإنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ هذا مِن البيانِ بَعدَ الإبهامِ، وفيه ما لا يَخْفَى مِن التَّهويلِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ فيه تَغييرُ التَّرتيبِ؛ إذ مُقْتَضى ظاهِرِ النَّظمِ أنْ يُذْكَرَ كُفرانُهم نِعمةَ اللهِ تعالى، ثمَّ كُفرُهم بذاتِه تعالى باتِّخاذِ الأندادِ، ثمَّ إضلالُهم لِقومِهم المُؤدِّي إلى إحلالِهم دارَ البَوارِ؛ ولعلَّ ذلك لِتثنيةِ التَّعجُّبِ وتَكريرِه، والإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدٍ، مِن وضْعِ الكُفرِ موضِعَ الشُّكرِ، وإحلالِ القومِ دارَ البوارِ، واتِّخاذِ الأندادِ للإضلالِ؛ أمْرٌ يَقْضِي منه العجبُ، ولو سِيقَ النَّظمُ على نَسَقِ الوجودِ لَرُبَّما فُهِمَ التَّعجُّبُ مِن مجموعِ الهَنَاتِ[٥] الثَّلاثِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٥).
(٥) الهَنَات: خِصالُ سُوءٍ وشَرٍّ مَكْرُوهَةٍ، ولا تُقالُ في الخيرِ. يُنظر: ((المفردات)) للراغب (٢/ ٤٨٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٢٧٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٥).

- وقولُه: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ فيه دُخولُ اللَّام على ﴿لِّيُضِلُّوا۟ ﴾ مع أنَّ الضَّلالَ والإضلالَ لم يكُنْ غرضَهم في اتِّخاذِ الأندادِ؛ لأنَّه لمَّا كان الضَّلالُ والإضلالُ نتيجةَ اتِّخاذِ الأندادِ، دخَلَتِ اللَّامُ على طريقِ التَّشبيهِ والتَّقريبِ؛ فليس ذلك غرضًا حقيقيًّا لهم مِن اتِّخاذِ الأندادِ، لكنْ لمَّا كان ذلك نَتيجةً له شُبِّهَ بالغرضِ؛ فاللَّامُ لامُ الصَّيرورةِ والمآلِ؛ لمَّا كانتْ نَتيجةُ جَعْلِ الأندادِ آلهةً الضَّلالَ أو الإضلالَ، جرَى مجْرى لامِ العِلَّةِ في قولِك: جئْتُك لِتُكرمَني، على طريقةِ التَّشبيهِ[1]. أو جُعِلَ الإضلالُ عِلَّةً لِجعْلِهم للهِ أندادًا، وإنْ كانوا لم يَقصِدوا تضليلَ النَّاسِ، وإنَّما قصَدوا مقاصِدَ هي مُساويةٌ للتَّضليلِ؛ لأنَّها أوقَعَتِ النَّاسَ في الضَّلالِ، فعُبِّرَ على مَساوي التَّضليلِ بالتَّضليلِ؛ لأنَّه آيلٌ إليه وإنْ لم يَقصِدوه؛ فكأنَّه قيل: للضَّلالِ عن سَبيلِه؛ تَشنيعًا عليهم بغايةِ فعْلِهم، وهم ما أضَلُّوا إلَّا وقد ضَلُّوا، فعُلِمَ أنَّهم ضلُّوا وأضَلُّوا، وذلك إيجازٌ[2].

- وجُملةُ ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ مُستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ المُخاطَبَ بـ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ إذا عَلِمَ هذه الأحوالَ يتساءلُ عنِ الجزاءِ المُناسبِ لِجُرمِهم، وكيف ترَكَهم اللهُ يرْفُلونَ في النَّعيمِ؟ فأُجيبَ بأنَّهم يَصيرونَ إلى النَّارِ، أي: يموتونَ فيصيرونَ إلى العَذابِ[3].

- والأمْرُ بالتَّمتُّعِ ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ ﴾ أمْرُ تهديدٍ ووعيدٍ، على حدِّ قولِه: ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت: ٤٠]، وفي التَّهديدِ بصِيغَةِ الأمْرِ إيذانٌ بأنَّ المُهدَّدَ عليه كالمطلوبِ؛ لإفضائِه إلى المُهدَّدِ به، وأنَّ الأمرينِ كائنانِ لا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢٣١).

مَحالةَ؛ ولذلك علَّله بقولِه: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وأنَّ المُخاطَبَ لانْهماكِه فيه كالمأمورِ به مِن آمِرٍ مُطاعٍ؛ ففيه إيذانٌ بأنَّهم لانْغِماسِهم في التَّمتُّعِ بالحاضرِ، وأنَّهم لا يعرِفونَ غيرَه ولا يريدونَه: مأْمورونَ به؛ قد أمَرَهم آمِرٌ مُطاعٌ لا يسَعُهم أنْ يُخالِفوه، ولا يملِكونَ لأنفُسِهم أمرًا دونَه، وهو أمْرُ الشَّهوةِ؛ والمعنى: إنْ دُمْتُم على ما أنتُم عليه مِن الامتثالِ لأمْرِ الشَّهوةِ ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ استِئنافٌ نشَأَ عن ذكْرِ حالِ الفريقِ الَّذي حَقَّت عليه الكلمةُ الخبيثةُ بذكْرِ حالِ مُقابِلِه، وهو الفريقُ الَّذي حَقَّتْ عليه الكلمةُ الطَّيِّبةُ[2].

- وفي قولِه: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خصَّهم بالإضافةِ إليه؛ تنويهًا لهم، وتَنبيهًا على أنَّهم المُقيمونَ لِوظائفِ العُبوديَّةِ، المُوفونَ بحُقوقِها، وتُرِكَ العاطِفُ بين الأمرينِ؛ للإيذانِ بتبايُنِ حالِهما باعتبارِ المقولِ تَهديدًا وتَشريفًا[3].

- قولُه: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ لمَّا كان المُؤمنونَ يُقيمونَ الصَّلاةَ مِن قبْلُ، ويُنفِقونَ مِن قبْلُ؛ تعيَّنَ أنَّ المُرادَ الاستزادةُ مِن ذلك؛ ولذلك اخْتيرَ المُضارِعُ مع تَقديرِ لامِ الأمْرِ دونَ صِيغَةِ فعْلِ الأمْرِ؛ لأنَّ المُضارِعَ دالٌّ على التَّجدُّدِ، فهو مع لامِ الأمْرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٦).

يُلاقي حالَ المُتلبِّسِ بالفعْلِ الَّذي يُؤْمَرُ به بخِلافِ صِيغَةِ (افْعَلْ)؛ فإنَّ أصلَها طلَبُ إيجادِ الفعْلِ المأمورِ به ممَّن لم يكُنْ مُلْتبِسًا به، فأصْلُ ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: لِيُقيموا؛ فحُذِفَت لامُ الأمْرِ تخفيفًا[١].

- واقتصرَ على هاتينِ الخَلَّتينِ ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ لأنَّه لم يكُنْ فُرِضَ في مكَّةَ غيرُهما، مع ما فيهما من الفَضلِ العَظيمِ[٢].

- وتقديمُ السِّرِّ على العلانيةِ في قوله: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ تنبيهٌ على أنَّه أَولى الحالَينِ؛ لبُعدِه عن خواطِرِ الرِّياءِ، ولأنَّ فيه استبقاءً لبَعضِ حياءِ المتصَدَّقِ عليه[٣].

- قولُه: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ فيه إدخالُ حرْفِ الجرِّ على اسمِ الزَّمانِ (قَبْل)؛ لِتأكيدِ القَبْلِيَّةِ؛ لِيُفْهَمَ معنى المُبادَرةِ[٤].

- قولُه: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ فيه تَخصيصُ البيعِ بالذِّكْرِ للإيجازِ، مع المُبالَغةِ في نفْيِ العَقدِ؛ إذ انتفاءُ البيعِ يَستَلزِمُ انتِفاءَ الشِّراءِ على أبلَغِ وجْهٍ، وانْتِفاؤه رُبَّما يُتَصَوَّرُ مع تحقُّقِ الإيجابِ مِن قِبَلِ البائعِ[٥]. وقيل: خصَّ البيعَ؛ لما في المبايعةِ مِن المعاوضةِ، فيظنُّ أنَّ ذلك كالفداءِ في النجاةِ عما أُوعدوا به، فصار في المعنى كقوله: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾[٦] [الأنعام: ٧٠].

- وفي قولِه: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢٣٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٠٩).
(٦) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ٧٦٦).

وَلَا خِلَٰلٌ﴾ طابَقَ الأمْرُ بالإنفاقِ وصْفَ اليومِ بأنَّه لا بَيْعٌ فيه ولا خِلالٌ؛ لأنَّ النَّاسَ يُخرِجونَ أَموالَهم في عُقودِ المُعاوضاتِ، فيُعْطُونَ بدلًا لِيأْخُذوا مثْلَه، وفي المُكارماتِ ومُهاداةِ الأصدقاءِ؛ لِيستَجِرُّوا بهداياهم أَمثالَها أو خيرًا منها، وأمَّا الإنفاقُ لِوجْهِ اللهِ خالصًا، كقولِه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٩، ٢٠]، فلا يفعَلُه إلَّا المُؤمنونَ الخُلَّصُ، فَبُعِثُوا عليه؛ لِيأْخُذوا بدَلَه في يومٍ لا بيعٌ فيه ولا خِلالٌ، أي: لا انتفاعَ فيه بمُبايعةٍ ولا بمُخالَّةٍ، ولا بما يُنفِقونَ به أَموالَهم مِن المُعاوضاتِ والمُكارماتِ، وإنَّما يُنْتَفَعُ فيه بالإنفاقِ لِوجْهِ اللهِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٦).

الآيات (٣٢-٣٤)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿دَآئِبَيْنِ﴾: دائِمَينِ، لا يَفتُرانِ، والدُّؤُوبُ: مُرورُ الشَّيءِ في العمَلِ على عادةٍ جاريةٍ فيه، وأصلُ (دأب): يدلُّ على مُلازمةٍ ودَوامٍ[1].

﴿تُحْصُوهَآ﴾: أي: تحصرُوها، وتضبِطوا عدَّها، وتُطيقوا إحصاءَ عددِها، وأصلُ الإحصاءِ: العدُّ والإطاقةُ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ اللهُ تعالى أنَّه هو الذي أنشأ السَّمَواتِ والأرضَ من العدَمِ، وأنزل المطَرَ مِن السَّحابِ فأخرجَ به مِن الثَّمَراتِ المُتَنوِّعةِ رِزقًا لكم، وذلَّلَ لكم السُّفُنَ؛ لتسيرَ في البحرِ بإذنِه، وذلَّل لكم الأنهارَ؛ لتشربُوا مِن مياهِها، وتَسقُوا بها زُروعَكم وأنعامَكم، إلى غيرِ ذلك من المنافعِ، وذلَّل لكم الشَّمسَ والقمَرَ لا يَفْتُرانِ عن حرَكتِهما، فيتعاقَبانِ عليكم بلا انقطاعٍ؛ لتتحقَّقَ مصالحُكم بهما، وذلَّل لكم اللَّيلَ؛ لتسكُنوا فيه؛ راحةً لأبدانِكم، والنَّهارَ لتبتَغوا فيه مِن فَضلِه،

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

وأعطاكم -أيُّها النَّاسُ- مِن كُلِّ ما طلبتُموه، وإن تعدُّوا نِعَمَ اللهِ عليكم لا تُطيقُوا عَدَّها، ولا القيامَ بحَصرِها فضلًا عن شُكرِها؛ لِكثرتِها وتنوُّعِها، إنَّ الإنسانَ لَعظيمُ الظُّلمِ لنَفسِه، شديدُ الجُحودِ لنِعَمِ الله عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أطال اللهُ تعالى الكلامَ في وصفِ أحوالِ السُّعَداءِ، وأحوالِ الأشقياءِ، وكانت العُمدةَ العُظمى والمنزلةَ الكُبرى في حُصولِ السَّعاداتِ مَعرِفةُ اللهِ تعالى بذاتِه وبصفاتِه، وفي حُصولِ الشَّقاوةِ فِقدانُ هذه المَعرفةِ- لا جرَمَ ختَمَ تعالى وصْفَ أحوالِ السُّعَداءِ والأشقياءِ بالدَّلائِلِ الدَّالَّةِ على وجودِ الصَّانعِ، وكمالِ عِلمِه وقُدرتِه[1]، فقال:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾.

أي: اللهُ المُستحِقُّ للعبادةِ وَحدَه هو الذي أنشأ السَّمواتِ والأرضَ مِن العدَمِ، وأبدعَهما على غيرِ مثالٍ سابقٍ[2].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾.

أي: وأنزَل مِن السَّحابِ مَطَرًا، فأخرجَ به مِن الثَّمَراتِ المُتَنوِّعةِ رِزقًا لكم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

تعيشونَ به[١].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾.

أي: وذلَّلَ لكم السُّفُنَ لتجريَ بكم في البحرِ بإذنِه، فهو الذي يسَّرَ لكم صُنعَها، وأقدَرَكم عليها، وجعَلَها طافيةً على البَحرِ بتَيسيرِه، وحَفِظَها على تيَّارِ الماءِ لتحمِلَكم، مع كَفِّ العواصِفِ عنها وإعانتِها بالرِّيحِ الطَّيِّبةِ، فتركبونَها لتنتَقِلوا عَبْرَها من مكانٍ إلى آخرَ، وتَحمِلوا فيها أمتِعتَكم مِن بلدٍ إلى بلدٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿... وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال سُبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢ - ٣٣].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾.

أي: وذلَّلَ لكم الأنهارَ[٣] لتشربُوا مِن مياهِها، وتَسقُوا بها زُروعَكم وأنعامَكم، وذلَّلَها لكم بالرُّكوبِ عليها، والإجراءِ لها إلى حيثُ تُريدونَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٥).

(٣) قال ابن عاشور: (وتسخيرُ الأنهار: خَلْقُها على كيفيةٍ تقتضي انتقالَ الماء من مكانٍ إلى مكان، وقرارَه في بعضِ المُنخَفَضات، فيستقي منه مَن تمُرُّ عليه وينزِلُ على ضِفافه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي))

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾.

أي: وذلَّلَ لكم الشَّمسَ والقمَرَ يَدأَبانِ في سَيرِهما، فيتعاقَبانِ عليكم بلا انقطاعٍ؛ لتَحقيقِ مَصالِحِكم، كحِسابِ أزمِنَتِكم، وضَبطِ أوقاتِكم، ونفعِ أبدانِكم، وحيواناتِكم، وزُروعِكم، وثمارِكم، وغيرِ ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ [النحل: ١٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۞ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٨ - ٤٠].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾.

أي: وذلَّل اللهُ لكم اللَّيلَ والنَّهارَ يتعاقبانِ عليكم؛ فجعل الليلَ لِتَسكُنوا فيه؛ راحةً لأبدانِكم، وجعل النَّهارَ لِتَبتَغوا فيه مِن فَضلِه[2].

(٩/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨١)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي))

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧].

وقال سُبحانه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ * قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ * وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا * وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ [النبأ: ١٠-١١].

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى تلك النِّعمةَ العظيمةَ؛ بَيَّنَ بعد ذلك أنَّه لم يقتصِرْ عليها، بل أعطَى عبادَه مِن المنافِعِ والمُراداتِ ما لا يأتي على بَعضِها التَّعديدُ والإحصاءُ، فقال:(١)

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾.

أي: وأعطاكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ- مِن كُلِّ ما رَغِبتُم إليه أن يَرزُقَكم إيَّاه، وهيَّأَ لكم كلَّ ما تحتاجونَ إليه، ممَّا تَسْألونَه إيَّاه، سواءً بلسانِ حالِكم أو مقالِكم(٢).

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾.

(٩/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٨-٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٢، ٦٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٦).

أي: وإن تعُدُّوا -أيُّها النَّاسُ- نِعَمَ اللهِ عليكم، لا تُطيقوا إحصاءَ عَدَدِها، والقيامَ بحَصرِها؛ لكَثرتِها، فضلًا عن القيامِ بشُكرِها، فلِمَ تُبَدِّلونَ نِعمةَ اللهِ كُفرًا؟! وهلَّا استعَنتُم بها على طاعتِه[1]؟

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ[2] لعَظيمُ الظُّلمِ لنَفسِه، بوضعِه العبادةَ في غيرِ مَوضِعِها، وشُكرِه غيرَ مَن أنعَمَ عليه، وتجَرُّئِه على عصيانِ ربِّه، شديدُ الجُحودِ لنِعَمِ اللهِ عليه، فلا يشكُرُه عليها، ولا يقومُ بحقِّه سُبحانَه[3].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ في هذه الآياتِ مِن أصنافِ نِعَمِ اللهِ على العبادِ شَيءٌ عَظيمٌ- مُجمَلٌ ومُفصَّلٌ- يدعو اللهُ به العبادَ إلى القيامِ بشُكرِه وذِكرِه، ويَحُثُّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١١).

(٢) قيل: المرادُ به: الكافرُ على وجه الخصوصِ، فذلك شأنه وديدنُه. وممن قال بذلك في الجملة: الزجاج، وابن جرير، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٣/ ١٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٧).

وقيل: المرادُ به جنسُ الإنسان من حيث هو؛ فتلك طبيعته. وممَّن اختار ذلك: الرازي، واستظهره الشوكاني، واختاره السعدي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

على ذلك، ويرَغِّبُهم في سؤالِه ودُعائِه آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ، كما أنَّ نِعَمَه تتكَرَّرُ عليهم في جميعِ الأوقاتِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أنَّه ينبغي لِمن أرادَ أنْ يُضيفَ الشَّيءَ إلى سببِه؛ أنْ يُضيفَه إلى اللهِ مقرونًا بالسَّببِ(٢).

٣- لا أحدَ أعظَمُ إحسانًا مِن اللهِ سُبحانه؛ فإنَّ إحسانَه على عبدِه في كلِّ نفَسٍ ولَحظةٍ، وهو يتقَلَّبُ في إحسانِه في جميعِ أحوالِه، ولا سبيلَ له إلى ضبطِ أجناسِ هذا الإحسانِ فَضلًا عن أنواعِه أو عن أفرادِه، ويكفي أنَّ مِن بَعضِ أنواعِه نِعمةَ النَّفَسِ التي لا تكادُ تخطُرُ ببالِ العبدِ، فإنَّه يتنفَّسُ في اليومِ والليلةِ أربعةً وعِشرينَ ألفَ نَفَسٍ، وكلُّ نفَسٍ نِعمةٌ منه سُبحانه، فإذا كان أدنى نعمةٍ عليه في كلِّ يومٍ أربعةً وعشرينَ ألفَ نِعمةٍ، فما الظنُّ بما فوقَ ذلك وأعظَمُ منه ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، هذا إلى ما يُصرَفُ عنه من المضَرَّات، وأنواعِ الأذى التي تَقصِدُه، ولعلَّها تُوازِنُ النِّعَمَ في الكثرةِ، والعبدُ لا شُعورَ له بأكثَرِها أصلًا، واللهُ سُبحانَه يَكلَؤُه منها باللَّيلِ والنَّهارِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾(٣) [الأنبياء: ٤٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ الانتفاعُ بما يَنبُتُ مِن الأرضِ إنَّما يَكمُلُ بوُجودِ الفُلكِ الجاري في البَحرِ؛ وذلك لأنَّه تعالى خَصَّ كُلَّ طَرَفٍ مِن أطرافِ الأرضِ بنَوعٍ آخَرَ مِن أنْعُمِه، حتى

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (١/ ٧٨).
(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣١٥).

إنَّ نِعمةَ هذا الطَّرَفِ إذا نُقِلَت إلى الجانبِ الآخَرِ مِن الأرضِ وبالعكسِ، كَثُرَ الرِّبحُ في التِّجاراتِ، ثمَّ إنَّ هذا النَّقلَ لا يُمكِنُ إلَّا بسُفُنِ البَرِّ، وهي الجِمالُ، أو بسُفُنِ البَحرِ، وهي الفُلْكُ المذكورةُ في هذه الآيةِ(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ، وأنَّها لا تكونُ مؤثِّرةً إلَّا بإرادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فيه أنَّ اللهَ- عزَّ وجلَّ- مُنعِمٌ على الإنسانِ، كافرًا كان أو مُؤمِنًا(٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ فأضافَ ذلك التَّسخيرَ إلى أمْرِه؛ لأنَّ المَلِكَ العظيمَ قَلَّما يُوصَفُ بأنَّه فعَلَ، وإنَّما يقالُ فيه: إنَّه أمَرَ بكذا؛ تعظيمًا لِشأنِه، ومنهم مَن حمَلَه على ظاهِرِ قَولِه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٤) [النحل: ٤٠].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ تكذيبٌ لِمَا يُقال مِن أنَّ «الشَّمسَ ثابتةٌ لا تدورُ»(٥).

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦- ٧]، وقولُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٧-٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (١/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٨).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٦/ ١٩٦).

٧٢] هذه كلُّها وصفٌ لِشَأْنِ الإنسانِ مِن حيثُ ذاتُه ونفْسُه، وأمَّا خروجُه عن هذه الصِّفاتِ فهو بفَضلِ رَبِّه وتوفيقِه له ومِنَّتِه عليه، لا مِن ذاتِه، فليس له مِن ذاتِه إلَّا هذه الصِّفَاتُ، وما به مِن نِعمةٍ فمِنَ اللهِ وَحدَه، فهو الذي حبَّبَ إلى عبدِه الإيمانَ، وزَيَّنَه في قَلبِه، وكَرَّهَ إليه الكُفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ، وهو الذي كتب في قَلبِه الإيمانَ، وهو الذي يثَبِّتُ أنبياءَه ورُسُلَه وأولياءَه على دينِه، وهو الذي يَصرِفُ عنهم السُّوءَ والفَحشاءَ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٦]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]؛ فهو رَبُّ جميعِ العالَمِ رُبوبيَّةً شامِلةً لجَميعِ ما في العالَمِ مِن ذَواتٍ وأفعالٍ وأحوالٍ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ استِئنافٌ واقِعٌ موقِعَ الاستِدلالِ على ما تَضمَّنَتْه جُملةُ ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ...﴾ الآيةَ، وقد فُصِلَ بينَه وبينَ المُستدَلِّ عليه بجُملةِ: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾ الآيةَ، وأُدْمِجَ في الاستدلالِ تَعدادُهم لنِعَمٍ تستحِقُّ الشُّكرَ عليها؛ لِيظهَرَ حالُ الَّذين كفَرُوها، وبالضِّدِّ حالُ الَّذين شكَرُوا عليها، ولِيزدادَ الشَّاكِرونَ شُكْرًا؛ فالمقصودُ الأوَّلُ هو الاستِدلالُ على أهلِ الجاهليَّةِ(٢).

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ فيه افتتاحُ الكلامِ باسمِ

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٤).

الخالِقِ المُوجِدِ؛ لأنَّ تعيينَه هو الغرَضُ الأهمُّ، وأُخْبِرَ عنه بالموصولِ؛ لأنَّ الصِّلةَ معلومةُ الانتسابِ إليه والثُّبوتِ له[١]. وأيضًا في جَعْلِ المُبتدأِ الاسمَ الجليلَ ﴿ٱللَّهُ﴾، والخبَرِ الاسمَ الموصولَ بتِلك الأفاعيلِ العَظيمةِ؛ مِن خلْقِ هذه الأجرامِ العِظامِ، وإنزالِ الأمطارِ، وإخراجِ الثَّمراتِ، وما يتْلوها مِن الآثارِ العجيبةِ- ما لا يَخْفى مِن تربيةِ المَهابةِ، والدَّلالةِ على قوَّةِ السُّلطانِ[٢].

- وبدأ بذِكرِ السَّمواتِ والأرضِ هاهنا؛ لأنَّهما هما الأصلانِ اللَّذانِ يتفرَّعُ عليهما سائِرُ الأدِلَّةِ المذكورةِ بعدَ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فيه تقديمُ المجرورِ على المنصوبِ؛ إمَّا باعتِبارِ كونِه مَبدأً لِنُزولِه، أو لتَشريفِه- كما يُقال: أعطاه السُّلطانُ مِن خِزانتِه مالًا- أو للتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ بدونِ (لكم)، وقاله في سُورةِ النَّملِ بذكْرِ (لكم) في قولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النمل: ٦٠]، فجاء لفْظُ (لكم) مُؤخَّرًا في سُورةِ إبراهيمَ عن لفْظِ (أَنْزَلَ)، ومُقدَّمًا في آيةِ النَّملِ؛ وذلك لِمُناسبةٍ حَسَنةٍ، وهي أنَّ آيةَ سُورةِ إبراهيمَ قد تقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقد علِمَ المُؤمنونَ أنَّ اللهَ غنِيٌّ عنِ العالمينَ، وأنَّ المُنزَّلَ مِن ماءِ السَّماءِ إنَّما هو رَحمةٌ للعِبادِ، وإحياءٌ للأرضِ بعدَ موتِها؛ لِيخرُجَ ما بَثَّ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٧).

فيها سُبحانَه مِن أنواعِ الحُبوبِ والثَّمراتِ وغيرِ ذلك، ممَّا به صَلاحُ أحوالِ العِبادِ، وتتْميمُ معائشِهم، ولم يغِبْ عنِ المُؤمنينَ المَذكورينَ قبلُ أنَّ ربَّهم غنِيٌّ عن ذلك كلِّه، ومُنفرِدٌ بخلْقِه والإنعامِ به؛ فلم يُحْتَجْ هنا إلى تَنبيهِهم بأنَّ ذلك لهم؛ إذ حالُهم التَّذكُّرُ، ومُوَالاةُ الاعتبارِ لا الغفلةُ، وأُخِّرَ ذِكْرُ ذلك إلى ذِكْرِ الرِّزقِ؛ لِيجرِيَ مع قولِه في الزِّينةِ والطَّيِّبِ مِن الرِّزقِ: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. أمَّا آيةُ (النَّملِ) فقد تقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]؛ فلمَّا تضمَّنَت تعنيفًا للمُشركينَ على سُوءِ مُرْتَكَبِهم، وعَمَاهم عنِ التَّفكُّرِ والاعتبارِ، قُصِدَ تحريكُهم وإيقاظُهم مِن رَقْدةِ الغَفلةِ، فقيل: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ [النمل: ٦٠]؛ فحصَلَ تنْبيهُهم وإعلامُهم أنَّ إنزالَ الماءِ مِن السَّماءِ إنَّما هو لهم، وأنَّه لا حاجةَ به سُبحانَه إليه، فاستجَرَّ الكلامُ تعنيفَهم، ويشهَدُ لهذا قولُه تعالى عَقِبَ الآيةِ: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]، أي: يعدِلونَ بِربِّهم غيرَه، ويعدِلونَ بِعبادتِه إلى عِبادةِ غيرِه، وكلُّ هذا شِركٌ لا فلاحَ معه، فلمَّا قُصِدَ في الآيةِ الثَّانيةِ ما ذكَرْنا قُدِّمَ المَجرورُ، وشأْنُه أبدًا إذا قُدِّمَ إحرازُ معنى التَّنبيهِ، حيثُ يُقْصَدُ التَّحريكُ والإيقاظُ لِذِي غفلةٍ، أمَّا إذا تأخَّرَ فلا يُحْرِزُ هذا المعنى على الصِّفةِ الَّتي يُحْرِزُه مُتقدِّمًا[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أبرَزَ كلَّ واحدةٍ منها في جُملةٍ مُستقلَّةٍ؛ تَنويهًا لِشأْنِها، وتَنبيهًا على رِفعةِ مكانِها، وتَنصيصًا على كونِ كلٍّ منها نِعمةً جَليلةً مُستوجِبةً للشُّكرِ. وفي التَّعبيرِ عنِ التَّصريفِ المُتعلِّقِ بما ذُكِرَ مِن الفُلكِ والأنهارِ -في الآيةِ السَّابقةِ- والشَّمسِ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٨٦-٢٨٧).

والقمَرِ، واللَّيلِ والنَّهارِ- في هذه الآيةِ- بالتَّسخيرِ؛ مِن الإشعارِ بما فيها مِن صُعوبةِ المَأخَذِ، وعِزَّةِ المَنالِ، والدَّلالةِ على عِظَمِ السُّلطانِ، وشِدَّةِ المِحالِ- ما لا يَخفَى. وتأْخيرُ تسخيرِ الشَّمسِ والقمَرِ عن تَسخيرِ ما تقدَّمَه مِن الأُمورِ المعدودةِ، مع ما بينه وبينَ خلْقِ السَّمواتِ مِن المُناسبةِ الظَّاهِرةِ؛ لاسْتِتباعِ ذكْرِها لِذكْرِ الأرضِ، المُستَدْعي لِذكْرِ إنزالِ الماءِ منها إليها، المُوجِبِ لِذكْرِ إخراجِ الرِّزْقِ الَّذي مِن جُملَتِه ما يحصُلُ بواسطةِ الفُلكِ والأنهارِ، أو للتَّفادي عن توهُّمِ كونِ الكلِّ -أي: خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، وتَسخيرِ الشَّمسِ والقمرِ- نِعمةً واحدةً[(١)].

٣- قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾

- قولُه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ كلمةُ ﴿كُلِّ﴾ للتَّكثيرِ، ومنه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]. وقيل: الأصلُ (وآتاكم مِن كلِّ ما سأَلْتُموه وما لم تسْأَلوه)؛ فحُذِفَ الثَّاني لدَلالةِ ما أُبْقِيَ على ما أُلْقِيَ[(٢)].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ صِيغَتَا المُبالَغةِ في ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ اقتَضاهما كثْرةُ النِّعمِ المُفادُ مِن قولِه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾؛ إذ بمقدارِ كثرَةِ النِّعمِ يكثُرُ كُفْرُ الكافرينَ بها؛ إذ أعْرَضوا عن عِبادةِ المُنعِمِ، وعبَدوا ما لا يُغْني عنهم شَيئًا، فأمَّا المُؤمنونَ فلا يَجحَدونَ نِعَمَ اللهِ، ولا يعبُدونَ غيرَه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٧).

- وفيه التَّأكيدُ الَّذي جعَلَ الخبرَ إنكاريًّا بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾؛ فقد اشتمَلَتْ هذه الآيةُ على أربعةِ تأْكيداتٍ، وهي: (إنَّ)، واللَّامُ المُزَحْلَقَةُ أو لامُ التَّأكيدِ، وصِيغَةُ (ظَلوم)، وصِيغَةُ (كَفَّارٍ)[1].

- وفي قولِه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال في سُورةِ النَّحلِ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]؛ فأعقَبَ في الأُولى قولَه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ بغَيرِ ما أعقَبَ في الثَّانيةِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ آيةَ (إبراهيمَ) تَقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، ثمَّ قولُه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، ثمَّ ذكَرَ إنعامَه على عِبادِه في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٣٢] إلى قولِه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]؛ فناسَبَ وصْفُ الإنسانِ بأنَّه ظَلومٌ كَفَّارٌ ما ذكَرَه تعالى مِن توالي إنعامِه ودُرورِ إحسانِه، ومُقابلةِ ذلك مِن العَبيدِ بالتَّبديلِ، وجَعْلِ الأندادِ. أمَّا آيةُ النَّحلِ فلم يتقدَّمْها غيرُ ما نبَّهَ سُبحانَه عبادَه المُؤمنينَ مِن توالي آلائِه وإحسانِه، وما ابْتدَأَهم به مِن نعمةٍ، مِن لَدُنْ قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤]، ثمَّ توالَتْ آياتُ الامتنانِ والإحسانِ، فقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ [النحل: ٥]، فذكَرَ تعالى بِضعًا وعشرينَ مِن أُمَّهاتِ النِّعمِ إلى قولِه- مُنبِّهًا ومُوقِظًا مِن الغَفلةِ والنِّسيانِ-: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، ثمَّ أُتْبِعَ بقولِه سُبحانَه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]؛

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٩٦).

فناسَبَ خِتامُ هذا بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[١].

وقيل في سببِ اخْتِلافِ الفاصلتينِ مع أنَّ المُحَدَّثَ عنه واحِدٌ: كأنَّه يقولُ: إذا حَصَلتِ النِّعَمُ الكثيرةُ فأنت آخِذُها وأنا مُعْطيها، فحصلَ لك عندَ أخْذِها وصفانِ: كونُكَ ظلومًا، وكوْنُكَ كفَّارًا، يَعْني لعدمِ وفائِكَ بشُكْرِها، ولي عندَ إعطائِها وصفانِ، وهما: أنِّي غفورٌ رَحيمٌ، أقابِلُ ظلمَكَ بغُفراني، وكفرَكَ برحْمَتي، فلا أُقابِلُ تَقْصيرَكَ إلَّا بالتَّوقيرِ، ولا أُجازي جفاكَ إلَّا بالوفاءِ. وقيل: إنَّما خَصَّ سورةَ إبراهيمَ بوصفِ المنعَمِ عليه، وسورةَ النَّحلِ بوصفِ المنعِمِ؛ لأنَّه في سورةِ إبراهيمَ في مَساقِ وَصفِ الإنسانِ، وفي سورةِ النَّحلِ في مساقِ صفاتِ اللَّهِ، وإثباتِ أُلوهيَّتِه[٢].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٥٠).

الآيات (٣٥-٤١)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿تَهْوِىٓ﴾: أي: تَنزِعُ، وتَميلُ، وأصلُ (هوي): يدُلُّ على مَيلِ النَّفسِ، وانحرافِها نحوَ الشَّيءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين دعا إبراهيمُ ربَّه قائلًا: ربِّ اجعَلْ مكَّةَ حَرَمًا آمِنًا يأمَنُ كلُّ مَن فيها، وأبعِدْني وأبنائي عن عبادةِ الأصنامِ، ربِّ إنَّ الأصنامَ قد حرفت كَثيرًا مِن النَّاسِ عن طريقِ الحَقِّ، فمن تبِعني على التوحيدِ، فإنَّه مِن أهلِ ديني يَستَنُّ بسُنَّتي، ومَن خالفَني فكفَر، فإنَّك غفورٌ رحيمٌ؛ بتوبتِكَ عليهم حتَّى يُؤْمنوا، وهدايتِهم إلى التوحيدِ. ربَّنا إنِّي أسكَنتُ مِن ذُرِّيتي في وادٍ ليس فيه زَرعٌ ولا ماءٌ عند بَيتِك المُحرَّمِ، ربَّنا إنَّني فعلتُ ذلك وأسكنتُهم في هذا الوادي؛ لكي يُقيمُوا الصَّلاةَ، ويَعْمُروه بذِكرِك وعبادتِك، فاجعَلْ قُلوبَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٩٠)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٤).

بَعضِ الناسِ تُسرِعُ إليهم شوقًا إلى حجِّ بَيتِك الحَرامِ، وارزُقْهم مِن أنواعِ الثِّمارِ؛ ليَشكُروك على ما رزَقْتَهم، ويكونَ عَونًا لهم على طاعتِك. فاستجابَ اللهُ دُعاءَه.

ربَّنا، إنَّك تعلَمُ ما نُخفِيه وما نجهرُ به ونُظهِرُه، وما يخفى عن عِلمِ اللهِ شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ. ثمَّ أثنَى إبراهيمُ عليه السلامُ على اللهِ تعالى، فقال: الحمدُ لله الذي رَزَقني رغمَ كِبَرِ سِنِّي إسماعيلَ وإسحاقَ؛ فإنَّ رَبِّي يسمعُ الدُّعاءَ ممَّن دعاه، ويجيبُه، وقد دَعوتُه ولم يخيِّبْ رَجائي. ربِّ، اجعَلْني مقيمًا للصَّلاةِ على أتَمِّ وُجوهِها، واجعَلْ مِن ذُرِّيَّتي مَن يقيمُها كذلك، ربَّنا واستجِبْ لي دُعائي، ربَّنا اغفِرْ لي ولوالِدَيَّ، ولجميعِ المُؤمنينَ يومَ تُحاسِبُ عِبادَك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى بالدَّلائلِ أنَّه لا مَعبودَ إلَّا هو سُبحانَه، وأنَّه لا يجوزُ عِبادةُ غيرِه تعالى البتَّةَ؛ حكى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ مُبالغَتَه في إنكارِ عِبادةِ الأوثانِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى التَّعجيبَ مِن الذينَ بَدَّلوا نِعمةَ اللهِ كُفرًا، وجعلوا لله أندادًا- وهم قُريشٌ، ومَن تابَعَهم من العربِ، الذين اتَّخذوا آلهةً مِن دونِ الله- وكان مِن نِعَمِ اللهِ عليهم إسكانُه إيَّاهم حَرَمَه؛ أردَفَ ذلك بذِكرِ أصلِهم إبراهيمَ، وأنَّه- صَلواتُ اللهِ عليه- دعا اللهَ تعالى أن يجعَلَ مكَّةَ آمِنةً، ودعا بأن يَجنُبَ بنيه عبادةَ الأصنامِ، وأنَّه أسكَنَه وذُرِّيَّتَه في بيتِه؛ ليَعبُدوه وَحدَه بالعبادةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٠).

التي هي أشرَفُ العبادةِ، وهي الصَّلاةُ؛ لينظُروا في دينِ أبيهم، وأنَّه مُخالِفٌ لِما ارتكَبوه من عبادةِ الأصنامِ، فيَزدَجِروا ويَرجِعوا عنها[١].

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾.

أي: واذكُرْ- يا محمَّدُ- إذ قال إبراهيمُ: رَبِّ، اجعَلْ مكَّةَ حَرَمًا آمِنًا لأهلِه وسُكَّانِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا دعا بالأمنِ مِن فَسادِ الأموالِ والأبدانِ؛ أتبَعَه بالدُّعاءِ بالأمنِ مِن فَسادِ الأديانِ، فقال[٣]:

﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾.

أي: وأبْعِدْني وأبنائي عن عبادةِ الأصنامِ، واجْعَلْنا في جانبٍ، والأصنامَ في جانبٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

قال السمعاني: (قولُه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ أجمعُوا أنَّ البلدَ هو مَكَّةُ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١١٩).

(٣) ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦)، ((القول المفيد)) لابن عثيمين (١/ ١١٥).

قال ابن عثيمين: قوله: (﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ قيل: المرادُ ببنيه: بنوه لصلبِه، ولا نعلمُ له مِن صلبِه سوَى إسماعيلَ وإسحاقَ. وقيل: المرادُ ذريتُّه وما توالدَ مِن صلبِه، وهو الأرجحُ؛ وذلك للآياتِ التي دلَّت على دعوتِه للناسِ مِن ذريتِه... وأيضًا يمنعُ مِن الأوَّلِ: أنَّ

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما دعا الله أن يُجَنِّبَ هو وبَنوه عبادةَ الأصنامِ؛ ذكَرَ سَببَ طَلَبِه[١]، والمُوجبَ لخَوفِه عليه وعلى بَنيه بكثرةِ مَن افتُتِنَ وابتُلِيَ بعبادتِها، فقال[٢]:

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

أي: قال إبراهيم: ربِّ، إنَّ الأصنامَ قد حَرَفَت كثيرًا مِن النَّاسِ عن طريقِ الحَقِّ؛ بسبَبِ افتِتانِهم بها، وعِبادتِها[٣].

﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾.

أي: فمَن تَبِعَني على الإيمانِ بك وتوحيدِك وفِراقِ عبادةِ الأصنامِ؛ فإنَّه مِن أهلِ دِيني، يَستَنُّ بسُنَّتي، ويعمَلُ بمِثلِ عَمَلي[٤].

﴿ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ومَن عصاني فكفَر[٥]، وخالَفَ أمْري، فإنَّك غفورٌ رحيمٌ؛ بتوبتِكَ عليهم حتَّى

الآيةَ بصيغةِ الجمعِ، وليس لإبراهيمَ مِن الأبناءِ سوَى إسحاقَ وإسماعيلَ). ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (١/ ١١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

(٥) قال ابنُ عطيةَ: (وقولُه: ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ ظاهرُه بالكفرِ، بمعادلةِ قولِه: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤١).

يُؤْمنوا، وهدايتِهم إلى التوحيدِ، وتوفيقِهم للرُّجوعِ مِن المعصيةِ إلى الطاعةِ[١].

عن عبد الله بنِ عَمرو بنِ العاصِ رضي الله عنهما: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تلا قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ في إبراهيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآيةَ، وقال عيسى عليه السَّلامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفعَ يديهِ، وقال: اللهمَّ، أُمَّتي أُمَّتي، وبكى. فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: يا جبريلُ، اذهب إلى محمدٍ -وربُّكَ أعلمُ- فسَلهُ: ما يُبكيكَ؟ فأتاهُ جبريلُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فسَألهُ، فأخبرهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بما قالَ -وهو أعلمُ-، فقال اللهُ: يا جبريلُ، اذهبْ إلى محمدٍ، فقلْ: إنَّا سنُرضيكَ في أُمَّتكَ ولا نَسُوؤُك))[٢].

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٢٦).

وممن اختار هذا المعنى المذكورَ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ عطيةَ، وابنُ القيمِ، والعليمي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال مقاتلُ بنُ سليمانَ: (نظيرُها- في الأحزابِ ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤]). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٠٨).

وقيل: المرادُ: ومَن عصاني فيما دونَ الشركِ. وممن اختاره: مقاتلُ بنُ حيان، والواحدي، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

وقيل: هذا تفويضٌ للأمرِ إلى الله عزَّ وجلَّ، وردٌّ إلى مشيئتِه، لا طَلَبٌ ودعاءٌ بالمغفرةِ لهم. وممن اختار هذا المعنَى: ابنُ كثيرٍ، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير المنار)) (١٠/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٠).

قال ابنُ عاشورٍ: (المعنى: ومَن عصاني أُفَوِّضُ أمْرَه إلى رَحمَتِك وغُفرانِك. وليس المَقصودُ الدُّعاءَ بالمَغفرةِ لمَن عصى. وهذا مِن غَلبةِ الحِلْمِ على إبراهيمَ عليه السَّلامُ، [وخَشيتِه] مِن استئصالِ عُصاةِ ذُرِّيَّتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢).

يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا دَعا بدَرءِ المفاسِدِ النَّاشِئةِ مِن نوعَيِ الإنسانِ والشَّيطانِ، بأمنِ البلَدِ وإيمانِه؛ ذكَرَ السبَبَ الحامِلَ له على تخصيصِه بذلك، مُستجلِبًا للمَصالِحِ، فقال[1]:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾.

أي: ربَّنا، إنِّي أسكَنتُ بعضَ ولَدِي- وهو إسماعيلُ عليه السَّلامُ- في وادٍ لا زَرْعَ فيه ولا ماءَ، عند بَيتِك الذي يَحرُمُ استِحلالُ حُرُماتِه والتَّهاوُنُ به، والاستخفافُ بحَقِّه، والتعرُّضُ له أو لأهلِه بسُوءٍ[2].

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

أي: رَبَّنا، إنِّي أسكنتُ بعضَ ذُرِّيَّتي في هذا الوادي المقْفِرِ؛ كي يُقيمُوا الصَّلاةَ عند بيتِك المحَرَّمِ، ويَعْمُروه بذِكرِك وعبادتِك وَحدَك، فاجعَلْ قُلوبَ بعضِ النَّاسِ[3] تُسرِعُ إليهم شوقًا إلى حجِّ بَيتِك الحَرامِ[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٩، ٦٩٦، ٦٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤١).
قال ابن كثير: (هذا دعاءٌ ثانٍ بعد الدُّعاءِ الأوَّلِ الذي دعا به عندما ولَّى عن هاجرَ وولَدِها، وذلك قبل بناء البيتِ، وهذا كان بعد بنائه؛ تأكيدًا ورغبةً إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤١).

(٣) قال ابن كثير: (قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: لو قال: «أفئدة النَّاسِ» لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناسُ كلُّهم، ولكنْ قال: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فاختَصَّ به المُسلِمون). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير

﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.

أي: وارزُقْهم مِن ثِمارِ النَّباتِ والأشجارِ بأنواعِها المُختَلِفة، بجَلْبِها إليهم؛ ليَشكُروك على ما رزَقْتَهم، ويكونَ عَونًا لهم على طاعتِك[1].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا طلَبَ إبراهيمُ -عليه السَّلامُ- مِن اللهِ تيسيرَ المنافِعِ لأولادِه، وتَسهيلَها عليهم؛ ذكَرَ أنَّه لا يعلَمُ عواقِبَ الأحوالِ، ونِهاياتِ الأمورِ في المُستقبَل، وأنَّه

السعدي)) (ص: ٤٢٧).

قال ابنُ جزي: (﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: اللَّامُ يحتملُ أنْ تكونَ لامَ الأمْرِ بمعنَى الدُّعاءِ، أو لامَ كيْ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٢).

وممن قال: إنَّها لامُ (كي): ابنُ جريرٍ، والزمخشري، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤١).

قال القاسمي: (﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: لكي يَأْتوا بعبادتِك...، وهو متعلِّقٌ بـ﴿أَسۡكَنتُ﴾ أي: ما أسكنتُهم هذا الوادي إلَّا ليُقيموا الصلاةَ عندَ بيتِك المحرَّمِ، ويَعْمُروه بذكرِك وعبادتِك وحدَك). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣١٩).

وممن قال: هي بمعنى الدُّعاء: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

وقال الرَّسعنيُّ: (قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: أسكنْتُهم لِيُقِيموا الصَّلاةَ. ويَجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ مُتعلِّقةً بقولِه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، أي: اجْنُبْهم لِيُقِيموا الصَّلاةَ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٠، ٧٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤).

تعالى هو العالِمُ بها، المحيطُ بأسرارِها[١]، فقال:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ﴾.

أي: ربَّنا، إنَّك تعلَمُ ما نُخفي في قُلوبِنا عند مسألتِنا ودُعائِك، وفي غيرِ ذلك من أحوالِنا، وتعلَمُ ما نجهَرُ به مِن دُعائِنا، وغيرِ ذلك مِن أقوالِنا وأعمالِنا[٢].

﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: ولا يخفى على اللهِ أيُّ شَيءٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ[٣].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤).

قال ابن جرير: (هذا خبرٌ مِن الله تعالى ذِكرُه عن استشهادِ خَليلِه إبراهيم إيَّاه على ما نوى وقصد، بدُعائِه وقِيلِه: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] الآية، وأنَّه إنما قصدَ بذلك رضا الله عنه في محبَّتِه أن يكون ولَدُه من أهل الطاعةِ لله، وإخلاصِ العبادةِ له على مِثلِ الذي هو له). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠١).

وقال القرطبي: (وقال ابن عباس ومقاتل: تعلَمُ جميعَ ما أُخفيه وما أعلنُه، من الوجدِ بإسماعيلَ وأمِّه؛ حيث أُسكِنَا بوادٍ غير ذي زَرعٍ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٥).

وقال السعدي: (أي: أنت أعلَمُ بنا منَّا، فنسألُك من تدبيرِك وتربيتِك لنا أن تُيسِّرَ لنا من الأمورِ التي نعلَمُها، والتي لا نعلَمُها ما هو مقتضى عِلمِك ورحمتِك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٣).

ذهب جمهورُ المفسِّرينَ إلى أنَّ هذا مِن قولِ الله عزَّ وجلَّ تصديقًا لما قاله إبراهيمُ مِن أنَّه سبحانه يعلمُ بما يخفيه العبادُ وما يعلنونه. وممن عزا هذا المعنى إلى الجمهورِ: البغوي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣٥).

وقيل: هذا مِن كلامِ إبراهيمَ عليه السلام تتمةً لدعائِه. وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تمَّ إبراهيمُ ما دعا به من النَّزاهةِ عن رَجاسةِ الشِّركِ، وتبيَّنَ بتَقديمِه أنَّ أهَمَّ المُهِمَّاتِ البراءةُ منه؛ أتبَعَه الحمدَ على ما رُزِقَ مِن النِّعَم، وما تَبِعَ ذلك من الإشارةِ إلى وجوبِ الشُّكرِ[١].

وأيضًا لَمَّا دعا إبراهيمُ -عليه السَّلامُ- اللهَ تعالى لأهَمِّ ما يُهِمُّه، وهو إقامةُ التوحيدِ، وكان يرجو إجابةَ دَعوتِه، وأنَّ ذلك ليس بعجَبٍ في أمرِ اللهِ- خطَرَ ببالِه نِعمةُ الله عليه بما كان يسألُه، وهو أن وهَبَ له ولَدَينِ في إبَّانِ الكِبَرِ، وحينَ اليأسِ مِن الولادةِ، فناجى اللهَ فحَمِدَه على ذلك، وأثنى عليه بأنَّه سميعُ الدُّعاءِ- أي: مُجيبٌ، أي: متَّصِفٌ بالإجابةِ وَصفًا ذاتيًّا- تمهيدًا لإجابة دعوتِه هذه، كما أجاب دعوتَه سلَفًا، فهذا مناسَبةُ مَوقِعِ هذه الجُملةِ بعد ما قَبلَها بقرينةِ قَولِه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[٢].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

أي: الحَمدُ لله الذي رزَقَني -رَغْمَ كِبَرِ سِنِّي- إسماعيلَ وإسحاقَ[٣].

﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

أي: وهَبَ لي ربِّي الولَدَينِ؛ لأنَّه يسمَعُ دُعاءَ مَن يدعوه، ويُجيبُ طلَبَ مَن يسألُه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٧) و(١٥/ ١١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٣).

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أتمَّ إبراهيمُ عليه السلامُ الحمدَ على النِّعمةِ بعد الدُّعاءِ بالتخَلِّي مِن كلِّ ما ينافي السَّعادةَ، وختَمَه بالحمدِ على إجابةِ الدُّعاءِ- انتهَزَ الفُرصةَ في إتباعِه الدُّعاءَ بالتحَلِّي بحِليةِ العبادةِ التي أخبَرَ أنَّها قَصدُه بإسكانِه مِن ذُرِّيتِه[1]، فقال:

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾.

أي: ربِّ، وفِّقْني لإقامةِ الصَّلَواتِ، بالمحافظةِ على أدائِها بحُدودِها، واجعَلْ مِن ذُرِّيتي مَن يقيمُها كذلك[2].

قال ابن تيمية: (أَمَّا قولُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ فالمرادُ بالسَّمعِ هاهنا السَّمعُ الخاصُّ، وهو سمعُ الإجابةِ والقبولِ، لا السَّمعُ العامُّ؛ لأنَّه سميعٌ لكلِّ مسموعٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٤).

قال ابنُ عطيةَ: (قولُه: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، دعا إبراهيمُ عليه السلامُ في أمرٍ كان مثابرًا عليه، متمسِّكًا به، ومتى دعا الإنسانُ في مثلِ هذا فإنَّما القصدُ إدامةُ ذلك الأمرِ، واستمرارُه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٣).

و(من) في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ للتبعيضِ، وممن اختاره: الرازي، والبيضاوي، والخازنُ، وأبو حيان، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٠)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٢٩).

قال الرَّازيُّ: (﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، أي: واجعَلْ بَعضَ ذُرِّيَّتي كذلك؛ لأنَّ كلمةَ «مِن» في قولِه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ للتَّبعيضِ، وإنَّما ذكَرَ هذا التَّبعيضَ؛ لأنَّه علِمَ بإعلامِ اللهِ تعالى أنَّه يكونُ في ذُرِّيَّتِه جمْعٌ مِنَ الكُفَّارِ، وذلك قولُه: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٧).

وقيل: إنَّ (من) ابتدائيةٌ، وممن اختاره: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٤).

قال ابن عاشور: (و«مِنْ» ابْتِدائِيَّةٌ، وليست للتَّبعيضِ؛ لأنَّ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- لا يسألُ اللَّهَ إلَّا أكملَ ما يُحِبُّه لنفسِه ولذرِّيَّتِه. ويجوزُ أنْ تكونَ مِن للتَّبعيضِ بناءً على أنَّ اللَّه أعْلَمَه بأنْ

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾.

أي: رَبَّنا، واستجِبْ لي دُعائي فيما سألتُك فيه[١].

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

أي: ربَّنا اغفِرْ لي ولوالِدَيَّ[٢] ولجميعِ المؤمنينَ يومَ تُحاسِبُ عِبادَك يومَ القيامةِ[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى على لسانِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، وقال أيضًا: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ...﴾، وقال أيضًا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة:

يكونَ مِنْ ذُرِّيَّتِه فريقٌ يُقيمونَ الصَّلاةَ، وفريقٌ لا يُقيمونَها، أي لا يؤمنونَ. وهذا وجهٌ ضعيفٌ؛ لأنَّه يقتضي أنْ يكونَ الدُّعاءُ تحصيلًا لحاصِلٍ، وهو بعيدٌ، وكيفَ وقد قالَ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ولم يقُلْ: «ومِن بَنِيَّ». ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤).

(٢) قال ابنُ جرير: (هذا دعاءٌ مِن إبراهيم صلواتُ اللهِ عليه لوالديه بالمغفرة، واستغفارٌ منه لهما، وقد أخبر الله عزَّ ذِكرُه أنَّه لم يكن ﴿ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٣). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤).

قيل: معنَى ﴿يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾: يَثْبُتُ. وممَّن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والشوكاني، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٥).

وقيل المعنى: يقومُ النَّاسُ للحِسابِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٥).

قال ابنُ جَرير: (قولُه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾، يعني: يقومُ النَّاسُ للحسابِ، فاكْتَفى بذِكْرِ الحِسابِ مِن ذِكْرِ النَّاسِ؛ إذ كان مَفهومًا معناهُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٣).

١٢٨] فينبغي للإنسانِ أنْ يَشملَ ذريَّتَه في الدُّعاءِ؛ لأنَّ الذُّرِّيَّةَ الصالحةَ مِن آثارِ الإنسانِ الصَّالحةِ، فالذُّرِّيَّةُ صلاحُها له شأنٌ كبيرٌ بالنِّسبةِ للإنسانِ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ هذا الدُّعاءُ مِن الخليلِ عليه السلامُ يقتضي إفراطَ خَوفِه على نفسِه، ومَن حصَلَ في رُتبتِه، فكيف يخافُ أن يَعبُدَ صَنمًا؟! لكنْ هذه الآيةُ ينبغي أن يُقتَدى بها في الخوفِ وطلَبِ الخاتمةِ[٢]، فإذا كان إبراهيمُ عليه السَّلامُ يَخافُ الشِّركَ على نفسِه- وهو خليلُ الرَّحمنِ، وإمامُ الحنفاءِ- فما بالُك بنا نحنُ إذن؟! فلا ينبغي أن نأمَنَ الشِّركَ، ولا أن نأمَنَ النِّفاقَ؛ إذْ لا يأمَنُ النِّفاقَ إلَّا مُنافِقٌ، ولا يَخافُ النِّفاقَ إلَّا مُؤمِنٌ[٣]. عن إبراهيمَ التَّيميِّ قال: (مَن يَأْمَنُ البلاءَ بعدَ قولِ إبراهيمَ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾؟!)[٤].

٣- قولُه: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ليس مُرادُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّ اللهَ يَغفِرُ لكافرٍ، لكنَّه حمَلَهُ على هذه العِبارةِ ما كان يأخُذُ نفْسَه به مِن القَولِ الجميلِ، والنُّطقِ الحسنِ، وجَميلِ الأدَبِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. قال قَتادةُ: اسْمَعوا قولَ الخليلِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واللهِ ما كانوا طعَّانِينَ ولا لَعَّانينَ، وكذلك قال نَبيُّ اللهِ عِيسى: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٥] [المائدة: ١١٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (٢/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤١)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٨).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ جملةُ: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ تعليلٌ للدَّعوةِ بإجنابه عِبادتَها بأنَّها ضلالٌ راجَ بين كثيرٍ مِن النَّاسِ، فحُقَّ للمؤمِنِ الضَّنينِ بإيمانِه أن يخشَى أن تجترِفَه فتنتُها[١].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ المقصودَ للعاقلِ مِن منافعِ الدُّنيا أن يتفرَّغَ لأداءِ العباداتِ، وإقامةِ الطَّاعاتِ؛ فإنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ بيَّنَ أنَّه إنما طلَبَ تيسيرَ المنافعِ على أولادِه؛ لأجلِ أن يتفرَّغوا لإقامةِ الصَّلَواتِ، وأداءِ الواجباتِ[٢].

٦- إقامةُ الصَّلاةِ مِن أخَصِّ وأفضَلِ العباداتِ الدِّينيةِ، فمَن أقامَها كان مقيمًا لدينِه؛ لذا قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[٣]، ولأهميةِ إقامةِ الصلاةِ لن تكادَ تجدُ ذكرَ الصلاةِ في موضعٍ مِن التنزيلِ إلا مقرونًا بإقامتِها، فالمصلُّون في الناسِ قليلٌ، ومقيمُ الصلاةِ منهم أقلُّ القليلِ[٤].

٧- في قَولِه تعالى- عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دليلٌ على أهميَّةِ الصَّلاةِ، ولا سيَّما في مكَّةَ عندَ بيتِ اللهِ الحرامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((الصلاة)) لابن القيم (ص: ١٤٠).

(٥) يُنظر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن عثيمين (٥/ ٢٩٢).

٨- أنَّ هِمَّةَ الصَّالحينَ في إقامةِ الدِّينِ، فقد علَّق إبراهيم عليه السلامُ ﴿لِيُقِيمُواْ﴾ بـ ﴿أَسۡكَنتُ﴾، أي: علةُ الإسكانِ بذلك الوادي عندَ ذلك البيتِ أن لا يشغلَهم عن إقامةِ الصلاةِ في ذلك البيتِ شاغلٌ، فيكون البيتُ معمورًا أبدًا، وتهيَّأَ بذلك أنْ يُفرِّعَ عليه الدُّعاءَ لهم بأنْ يجعَلَ أفئدةً مِن النَّاس تَهْوي إليهم، فقال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[1].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه تعليمٌ مِن إبراهيمَ عليه السَّلامُ لأهلِه وأتباعِه بعُمومِ عِلمِ اللهِ تعالى؛ حتى يُراقِبوه في جميعِ الأحوالِ، ويُخلِصوا النيَّةَ إليه[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ دعا ربَّه أنْ يَجعَلَ مَكَّةَ آمِنةً، إلَّا أنَّه قد وقَعَ فيها ما أخَلَّ بالأمنِ، وأخافَ أهْلَها؟

والجوابُ عن هذا السُّؤالِ مِن وَجْهينِ:

الأوَّل: أنَّ المُرادَ جَعْلُ تلك البلدةِ آمِنةً مِنَ الخَرابِ[3]، وهذا مَوجودٌ بحمْدِ اللهِ، ولم يقْدِرْ أحدٌ على خَرابِ مكَّةَ.

الثَّاني: أنْ يكونَ المُرادُ: اجعَلْ أهْلَ هذا البلَدِ آمنينَ، كقولِه تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. وهذا الوَجْهُ عليه أكثَرُ العُلماءِ مِنَ المُفسِّرينَ وغيرِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢٤٣).

(٣) قال الخازن: (وأُورِدَ على هذا ما ورَدَ في الصَّحيحِ عن أبي هُريرةَ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «يُخرِّبُ الكعبةَ ذو السُّويقتَينِ مِن الحبشةِ». أخرجاهُ في الصَّحيحينِ. وأُجيبَ عنه بأنَّ قولَه: ﴿ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾، يعني: إلى قُربِ القيامةِ وخَرابِ الدُّنيا. وقيل: هو عامٌّ مَخصوصٌ بقِصَّةِ «ذو السُّويقتَينِ»؛ فلا تعارُضَ بين النَّصَّينِ). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩).

وعلى هذا فقدِ اختُصَّ أهْلُ مكَّةَ بزيادةِ الأمْنِ في بلَدِهم، كما أخبَرَ اللهُ سُبحانَه وتَعالى بقولِه: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وأهْلُ مكَّةَ آمِنونَ مِن ذلك، حتَّى إنَّ مَن الْتجأَ إلى مكَّةَ أَمِنَ على نفْسِه ومالِه مِن ذلك، وحتَّى إنَّ الوُحوشَ إذا كانت خارِجةً مِنَ الحرَمِ استوحَشَتْ، فإذا دخَلَتِ الحرَمَ أمِنَتْ واستأْنَسَتْ؛ لِعِلْمِها أنَّها لا يُهيِّجُها أحدٌ في الحرَمِ، وهذا القدْرُ مِنَ الأمْنِ حاصِلٌ بحمْدِ اللهِ بمكَّةَ وحرَمِها[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ الأنبياءَ عليهم السَّلامُ لا يَعْبُدون الوثَنَ الْبَتَّةَ، وإذا كان كذلك؛ فما الفائدةُ في قولِه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؟

والجوابُ مِن وَجْهينِ:

الأوَّل: أنَّ معناهُ: ثَبِّتْني على اجتنابِ عِبادتِها، كما قال: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، أي: ثَبِّتْنا على الإسلامِ.

الثَّاني: أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وإنْ كان يَعلَمُ أنَّه تعالى يَعصِمُه مِن عِبادةِ الأصنامِ، إلَّا أنَّه ذكَرَ ذلك؛ هَضْمًا للنَّفسِ، وإظهارًا للحاجةِ والفاقةِ إلى فَضْلِ اللهِ في كلِّ المَطالِبِ[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- طلبَ مِن الله تعالى ألَّا يجعَلَ أبناءَه مِن عبَدةِ الأصنامِ، وكُفَّارُ قُرَيشٍ كانوا من أولادِه، وكانوا يعبُدونَ الأصنامَ؟

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠١).

والجوابُ من وجوه:

الوجه الأول: قال بعضُهم: أراد مِن أولادِه وأولادِ أولادِه كلَّ مَن كانوا موجودينَ حالَ الدُّعاءِ، ولا شُبهةَ أنَّ دَعوتَه مُجابةٌ فيهم.

الوجه الثاني: أنَّ هذا الدُّعاءَ مختَصٌّ بالمؤمنينَ مِن أولاده، والدَّليلُ عليه أنَّه قال في آخر الآية: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾، وذلك يفيدُ أنَّ مَن لم يتَّبِعْه على دينِه، فإنَّه ليس منه، ونظيرُه قولُه تعالى لنوح: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

الوجه الثالث: لعلَّه وإن كان عمَّمَ في الدُّعاءِ إلَّا أنَّ الله تعالى أجاب دعاءَه في حَقِّ البَعضِ دونَ البَعضِ[(١)]، وذلك لا يُوجِبُ تحقيرَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، ونظيرُه قولُه تعالى في حقِّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٢)] [البقرة: ١٢٤].

٤- قولُه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ قَدَّمَ طلَبَ الأمنِ على سائرِ المطالِبِ المذكورةِ بَعدَه، وذلك يدُلُّ على أنَّه أعظَمُ أنواعِ النِّعَمِ والخيراتِ، وأنَّه لا يَتِمُّ شَيءٌ مِن مصالحِ الدِّينِ والدُّنيا إلَّا به؛ فإنَّه إذا انتفَى الأمنُ لم يَفرُغِ الإنسانُ لشيءٍ آخَرَ مِن أمورِ الدِّينِ والدُّنيا[(٣)].

---

(١) قال الشنقيطي: (قولُه تعالَى: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ الآيةَ. لم يُبيِّنْ هنا هل أجابَ دعاءَ نبيِّه إبراهيمَ هذا، ولكنَّه بيَّن في مواضعَ أُخَرَ أنَّه أجابَه في بعضِ ذُرِّيَّتِه دُونَ بعض، كقولِه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]، وقولِه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ الآيةَ [الزخرف: ٢٨]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٤٨).
وقال ابنُ عثيمينَ: (كان مِن حكمةِ الله أن لا تجابَ دعوتُه في بعضِهم، كما أنَّ الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم دعا الله أن لا يجعلَ بأسَ أمتِه بينَهم فلم يُجِبِ اللهُ دعاءَه). ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (١/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠١-١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٣-١٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣٤).

٥- قولُه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ عِصمةَ الأنبياءِ بتَوفيقِ الله تعالى وحِفظِه إيَّاهم[١].

٦- قولُه: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، فيه سُؤالٌ: كيف جعَلَ الأصنامَ مُضِلَّةً، والمُضِلُّ ضارٌّ، وقد نَفَى عنهم الضَّررَ بقولِه: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ [يونس: ١٨]؟

الجَوابُ: أنَّ نِسبةَ الإضلالِ إليها مِن بابِ نِسبةِ الشَّيءِ إلى سبَبِه، كما يُقالُ: فَتَنَتْهم الدُّنيا، فهي سبَبٌ للإضلالِ، وفاعِلُه حقيقةً هو اللهُ تعالى[٢]. وأيضًا فنفْيُ ضَررِها باعتبارِ أنَّها لا تُوصِلُ إليهم مَكروهًا كما كان يَعتقِدُ عابِدُوها.

٧- قولُ الخليلِ عليه السَّلامُ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ولم يقُلْ: (فإنَّك عزيزٌ حَكيمٌ)؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ استرحامٍ، وتَعريضٍ بالدُّعاءِ[٣].

٨- في قَولِه تعالى على لسانِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ دلالةٌ ظاهرةٌ على أنَّ أسماءَ الرَّبِّ تعالى مشتقَّةٌ مِن أوصافٍ ومعانٍ قامت به، وأنَّ كلَّ اسمٍ يُناسِبُ ما ذُكِرَ معه، واقترنَ به مِن فِعلِه وأمْرِه[٤].

٩- قال الله تعالى على لسانِ إبراهيمَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ في هذا القولِ منه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- دليلٌ على أنَّه لم يكُنْ هنالك يومَئذٍ ماءٌ؛ لأنَّه لو كان هنالك ماءٌ، لم يَصِفْه بأنَّه غيرُ ذي زرعٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٨٤).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٩٤).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٩-٦٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٠).

عند بيتِك الذي حرَّمْتَه على جميعِ خَلْقِك أن يستحِلُّوه[١].

١٠- قال اللهُ تعالى على لِسانِ إبراهيمَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾. هذه الآيةُ تَقْتَضي أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قد كان علِمَ مِنَ اللهِ تعالى أنَّه لا يُضيِّعُ هاجَرَ وابْنَها في ذلك الوادي، وأنَّه يَرزُقُهما الماءَ، وإنَّما نظَرَ النَّظرَ البعيدَ للعاقبةِ، فقال: ﴿غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾، ولو لم يَعلَمْ ذلك مِنَ اللهِ لَقال: (غيرِ ذي ماءٍ)، على ما كانتْ عليه حالُ الوادي عندَ ذلك[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ لا يجوزُ لأحدٍ أن يتعلَّقَ به في طَرحِ عيالِه ووَلدِه بأرضٍ مَضْيَعةٍ؛ اتِّكالًا على العزيزِ الرَّحيمِ، واقتداءً بفِعلِ إبراهيمَ، كما تقولُ الغُلاةُ مِن الصوفيَّةِ في حقيقةِ التوكُّلِ؛ فإنَّ إبراهيمَ فعَلَ ذلك بأمرِ اللهِ[٣].

١٢- افتَرضَ الله حجَّ هذا البيتِ الذي أسكَنَ به ذُرِّيَّةَ إبراهيمَ، وجعَلَ فيه سِرًّا عجيبًا جاذِبًا للقُلوبِ، فهي تحُجُّه، ولا تقضي منه وطَرًا على الدَّوامِ، بل كلَّما أكثَرَ العبدُ التردُّدَ إليه، ازداد شَوقُه، وعَظُمَ ولَعُه وتَوْقُه، وهذا سِرُّ إضافتِه تعالى إلى نفسِه المقدَّسةِ؛ قال الله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[٤].

١٣- في قَولِه تعالى- عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ لم يقُل: «أفئدةَ النَّاسِ»؛ لأنَّ الحجَّ لا يجِبُ على كلِّ أحدٍ، إنما يجبُ على مَن كان قادِرًا. قال بعضُ العُلَماءِ: لو قال: «أفئدةَ النَّاسِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٩٦)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤١).
(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٩٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

تهوي إليهم» وأجابَه اللهُ، لوجبَ على جميعِ النَّاسِ أنْ يَحُجُّوا، وفي هذا مِن المشَقَّةِ ما هو ظاهرٌ، لكنَّ اللهَ أَلْهَمَ إبراهيمَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنْ يقولَ: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[1].

١٤- عن السُّدِّيِّ رحمه الله، في قولِه تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ يقولُ: (خُذ بقُلوبِ النَّاسِ إليهم؛ فإنَّه حيث يَهوى القلبُ يذهَبُ الجسَدُ؛ فلذلك ليس مِن مؤمنٍ إلَّا وقَلبُه معَلَّقٌ بحُبِّ الكعبةِ)[2].

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ الآيةُ لتذكيرِ قُرَيشٍ بهذه النِّعَمِ الجليلةِ عليهم ببرَكةِ أبيهم الأعظَمِ الذي نهَى عن عبادةِ الأوثانِ[3].

١٦- مكَّةُ نَفسُها لا يُدفَعُ البلاءُ عن أهلِها، ويُجلَبُ لهم الرِّزقُ إلَّا بطاعتِهم لله ورَسولِه، كما قال الخليلُ عليه السَّلامُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[4] [إبراهيم: ٣٧].

١٧- قال تعالى على لسانِ إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ فذكَرَ حالَ الكِبَرِ؛ لأنَّ المِنَّةَ فيها بهِبةِ الولَدِ أعظمُ؛ مِن حيثُ إنَّ الكِبَرَ مَظِنَّةُ اليأسِ مِن الولدِ؛ فإنَّ مجيءَ الشَّيءِ بعد الإياسِ أحلَى في النَّفسِ وأبهَجُ[5].

١٨- قولُه: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ احتُجَّ به على أنَّ أفعالَ

(١) يُنظر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن عثيمين (٥/ ٢٩٢).
(٢) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٤٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٢٨).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٣٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٩).

العبدِ مَخلوقةٌ لله تعالى؛ فإنَّ قَولَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ يدُلُّ على أنَّ فِعلَ المأموراتِ لا يحصُلُ إلَّا مِن الله[١].

١٩- قولُه: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ فيه سؤالٌ: كيفَ جاز أن يستغفِرَ لأبويهِ وكانا كافِرَينِ؟

والجوابُ عنه مِن وُجُوهٍ:

الوجهُ الأوَّل: أنَّه دَعا لأبيه قبلَ أن يتبيَّن له أنَّه عدوٌّ لله[٢].

الوجه الثاني: أنَّ المنعَ منه لا يُعلَمُ إلَّا بالتَّوقيفِ، فلعلَّه لم يجِدْ منه مَنعًا، فظَنَّ كونَه جائِزًا[٣].

الوجهُ الثالثُ: أنَّهما كانا في الأحياءِ، فرجَا إيمانَهما[٤]. وقيل غيرُ ذلك[٥].

٢٠- قولُه: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ فيه بِشارةٌ عَظيمةٌ للمؤمنينَ بالمَغفِرةِ[٦].

٢١- في قَولِه تعالى عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ دَلالةٌ على انتفاعِ الميِّتِ بدُعاءِ الخَلْقِ له[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ٧٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٨٨).

(٧) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٣٠٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ... ﴾ أي: واذْكُرْ إذ قال إبراهيمُ؛ زِيادةً في التَّعجُّبِ مِن شأْنِ المُشركينَ الَّذي مَرَّ في قولِه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾؛ فموقِعُ العِبْرةِ مِن الحالينِ واحدٌ[1]، والمقصودُ مِن تذْكيرِه: تذْكيرُ ما وقَعَ فيه مِن مَقالاتِه عليه السَّلامُ على نهْجِ التَّفصيلِ، والمُرادُ به: تأْكيدُ ما سلَفَ مِن تعْجيبِه عليه السَّلامُ بِبَيانِ فنٍّ آخَرَ مِن جِناياتِهم، حيثُ كفَروا بالنِّعمِ الخاصَّةِ بهم بعدَما كفَروا بالنِّعمِ العامَّةِ، وعَصَوا أباهم إبراهيمَ عليه السَّلامُ، حيث أسكَنَهم مكَّةَ- شرَّفَها اللهُ تعالى- لإقامةِ الصَّلاةِ، والاجتنابِ عن عِبادةِ الأصنامِ، والشُّكرِ لِنِعَمِ اللهِ تعالى، وسأَلَه تعالى أنْ يجعَلَه بلدًا آمِنًا، ويَرزُقَهم مِن الثَّمراتِ، وتَهْوِيَ قُلوبُ النَّاسِ إليهم مِن كلِّ أَوْبٍ سحيقٍ، فاستجابَ اللهُ تعالى دُعاءَه، وجعَلَه حرَمًا آمِنًا يَجِيءُ إليه ثَمراتُ كلِّ شيءٍ، فكفَروا بتلك النِّعَمِ العِظامِ، واستبْدَلوا بالبلدِ الحرامِ دارَ البَوارِ، وجعَلوا للهِ أندادًا، وفعَلوا ما فعَلوا[2].

- والفرْقُ بين قولِه هنا: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾، وبين قولِه في سُورةِ البَقرةِ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ [البقرة: ١٢٦]: أنَّه قد سأَلَ في الأوَّلِ في سُورةِ البقرةِ أنْ يجعَلَه مِن جُملةِ البلادِ الَّتي يأمَنُ أهْلُها ولا يَخافونَ، وفي الثَّاني أنْ يُخْرِجَه مِن صِفَةٍ كان عليها مِن الخوفِ إلى ضِدِّها مِن الأمْنِ؛ كأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٠).

قال: هو بلَدٌ مخوفٌ، فاجعَلْه آمِنًا[١]. وقيل: الفرْقُ بينه وبين قولِه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]: أنَّ المسؤولَ هناك البَلَدِيَّةُ والأمْنُ معًا، وهاهنا الأمْنُ فقط؛ حيث جُعِلَ هو المفعولَ الثَّانيَ للجَعْلِ، وجُعِلَ البلدُ صِفَةً للمفعولِ الأوَّلِ؛ فإنْ حُمِلَ على تعدُّدِ السُّؤالِ، فلعلَّه عليه السَّلامُ سأَلَ أوَّلًا كِلَا الأمرينِ، فاسْتُجِيبَ له في أحدِهما، وتأخَّرَ الآخَرُ إلى وقْتِه المُقدَّرِ؛ لِمَا يقْتَضيه مِن الحكمةِ الدَّاعيةِ إليه، ثمَّ كرَّرَ السُّؤالَ كما هو المُعتادُ في الدُّعاءِ والابتهالِ[٢]، أو كان المسؤولُ أوَّلًا مُجرَّدَ الأمْنِ المُصَحِّحِ للسَّكنِ كما في سائرِ البلادِ، وقد أُجِيبَ إليه، وثانيًا الأمْنَ المعهودَ، أو كان هو المسؤولَ فيهما، وقد أُجِيبَ إليه أيضًا، لكنَّ السُّؤالَ الثَّانيَ للاستدامةِ، والاقتصارِ على ذلك؛ لأنَّه المقصودُ الأصلِيُّ، أو لأنَّ المُعتادَ في البَلَدِيَّةِ الاستمرارُ بعدَ التَّحقُّقِ، بخلافِ الأمْنِ. وإنْ حُمِلَ على وَحدةِ السُّؤالِ وتكرُّرِ الحكايةِ كما هو المُتبادَرُ؛ فالظاهِرُ أنَّ المسؤولَ كِلَا الأمرينِ، وقد حُكِيَ أوَّلًا، واقْتُصِرَ هاهنا على حِكايةِ سُؤالِ الأمْنِ، لا لِمُجرَّدِ أنَّ نِعمةَ الأمْنِ أَدْخَلُ في استيجابِ الشُّكرِ؛ فذِكْرُه أنسَبُ بمقامِ تقريعِ الكَفَرةِ على إغفالِه كما قيل، بل لأنَّ سُؤالَ البَلَدِيَّةِ قد حُكِيَ بقولِه تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ إذ المسؤولُ هُوِيَّتُها إليهم للمُساكَنةِ معهم لا للحجِّ فقط، وهو عينُ سُؤالٍ قد حُكِيَ بعبارةٍ أُخرى، وكان ذلك أوَّلَ ما قدِمَ عليه السَّلامُ مكَّةَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٤).

(٢) قال ابنُ كثير: (قال في هذه القصَّةِ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ فعَرَّفَه كأنَّه دَعا به بعدَ بنائِها؛ ولهذا قالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلومٌ أنَّ إسماعيلَ أكبرُ مِنْ إسحاقَ بثلاثَ عشرةَ سنةً، فأمَّا حين ذَهَب بإسماعيلَ وأُمِّه وهو رضيعٌ إلى مكانِ مكَّةَ، فإنَّه دَعا أيضًا فقالَ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٢٦]). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٠).

- في قولِه تعالى عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾ لم يَقُلْ: «وامنَعْني»؛ لأنَّ معنى ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾ أي: اجعَلْني في جانبٍ وعبادةَ الأصنامِ في جانبٍ، وهذا أبلغُ مِن «امنَعْني»؛ لأنَّه إذا كان في جانبٍ وهي في جانبٍ، كان أَبْعَدَ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ هو تَعليلٌ لِدُعائِه بإجْنابِه عِبادتَها؛ فافتتاحُ الجُملةِ بحرْفِ التَّوكيدِ لِمَا يُفيدُه حرْفُ (إنَّ) في هذا المقامِ مِن معنى التَّعليلِ، وإنَّما صدَّرَه بالنِّداءِ ﴿رَبِّ﴾؛ إظهارًا لاعتنائِه به، ورَغبةً في استجابتِه، أو أعاد النِّداءَ؛ لإنشاءِ التَّحسُّرِ على ذلك[2].

- قولُه: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾، أي: بعْضي؛ قاله عليه السَّلامُ مُبالَغةً في بيانِ اختصاصِه به، أو مُتَّصلٌ بي، لا ينفَكُّ عنِّي في أمْرِ الدِّينِ، و﴿وَمَنۡ عَصَانِي﴾ فيه طِباقٌ مَعنويٌّ؛ لأنَّ التَّبعيَّةَ طاعةٌ[3].

٣- قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ مُستأنَفةٌ لابتداءِ دُعاءٍ آخَرَ، وافْتُتِحَتْ بالنِّداءِ؛ لِزيادةِ التَّضرُّعِ، وفي كونِ النِّداءِ تأكيدًا لِنِداءٍ سابِقٍ: ضرْبٌ مِن الرَّبْطِ

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٧/ ١١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥١).

بين الجُمَلِ المُفْتَتَحَةِ بالنِّداءِ؛ رَبْطُ المِثْلِ بمِثْلِه[١].

- قولُه: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيه تكرارُ النِّداءِ؛ رَغبةً في الإجابةِ، وإظهارًا للتَّذلُّلِ والالتجاءِ إلى اللهِ تعالى. وأيضًا تكريرُ النِّداءِ وتوسيطُه؛ لإظهارِ كَمالِ العِنايةِ بإقامةِ الصَّلاةِ، وللاهتِمامِ بمُقدِّمةِ الدُّعاءِ؛ زِيادةً في الضَّراعةِ، والاهتمامِ بعرْضِ أنَّ الغرَضَ من إسكانِهم بذلك الوادي البَلْقَعِ[٢] ذلك المقصِدُ الأقصى، والمطلَبُ الأَسْنى؛ للإشعارِ بأنَّها المقصودةُ بالذَّاتِ مِن إسكانِهم ثمَّةَ، والمقصودُ مِن الدُّعاءِ توفيقُهم لها، وكلُّ ذلك لِتمهيدِ مَبادي إجابةِ دُعائِه، وإعطاءِ مسؤولِه الَّذي لا يتسنَّى ذلك المَرامُ إلَّا به؛ ولذلك أُدْخِلَ عليه الفاءُ فقال: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: أفئدةً مِن أفئدتِهم[٣].

- وفي قولِه: ﴿رَّبَّنَآ﴾ إيثارُ ضَميرِ الجَماعةِ خِلافًا لسابقيه، حيثُ قال فيهما: ﴿رَبِّ﴾؛ لأنَّه تقدَّمَ ذِكْرُه وذِكْرُ بَنِيهِ في قولِه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ﴾[٤]، أو أُضِيفَ الرَّبُّ هنا إلى ضَميرِ الجمْعِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ الَّذي افْتُتِحَ به فيه حَظٌّ للدَّاعي ولأبنائِه، ولعلَّ إسماعيلَ عليه السَّلامُ حاضِرٌ معه حينَ الدُّعاءِ، كما تدلُّ له الآيةُ الأُخرى[٥]. وقيل: ليس إيثارُ الجمْعِ لِتقدُّمِ ذِكْرِه وذِكْرِ بَنِيهِ، وإلَّا لَراعاهُ في قولِه: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ ...﴾ إلخ، بل لأنَّ الدُّعاءَ المُصدَّرَ به وما أورَدَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٠).

(٢) البَلْقَع: الأرضُ القَفرُ الخاليةُ التي لا شَيءَ بها. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١١٨٨)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٨/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٠).

بِصدَدِ تَمهيدِ مَبادي إجابتِه مِن قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ ...﴾ مُتعلِّقٌ بذريتِه؛ فالتعرُّضُ لوصفِ رُبوبيَّتِه تعالى لهم أَدْخلُ في القَبولِ، وإجابةِ المسؤولِ[١].

- وخَصَّ الصلاةَ دونَ سائرِ العباداتِ في قولِه: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لأنَّها أفضَلُها، أو لأنَّها سببٌ لكُلِّ خَيرٍ[٢].

- وذِكْر (الأفئدةِ)؛ لإرادةِ أنْ يكونَ مَسِيرُ النَّاسِ إليهم عن شوقٍ ومحبَّةٍ، حتَّى كأنَّ المُسرِعَ هو الفؤادُ لا الجسَدُ[٣]. وقيل: (مِن) للتَّبعيضِ؛ ولذلك قيل: لو قال: (أفئدةَ النَّاسِ) لَازْدَحَمَت عليهم فارسُ والرُّومُ[٤].

- قولُه: ﴿تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ تَهوِي مُضارِعُ (هَوَى)؛ أُطْلِقَ هنا على الإسراعِ في المشْيِ، والإسراعُ: جُعِلَ كِنايةً عنِ المحبَّةِ والشَّوقِ إلى زيارتِهم[٥].

- قولُه: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم﴾ لم يخُصَّ الدُّعاءَ بالرِّزقِ بالمُؤمنينَ منهم، كما في قولِه: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]؛ اكتفاءً بذِكْرِ إقامةِ الصَّلاةِ[٦].

٤- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾

- قولُه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ﴾ فيه تَكْريرُ النِّداءِ ﴿رَبَّنَآ﴾؛ للمُبالَغَةِ في الضَّراعةِ والابتهالِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٢).
(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي السعود))

- وقولُه: ﴿مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ فيه تَقديمُ ﴿مَا نُخْفِي﴾ على ﴿مَا نُعْلِنُ﴾؛ لِتحقيقِ المُساواةِ بينهما في تعلُّقِ العِلْمِ بهما على أبلَغِ وجْهٍ؛ فكأنَّ تعلُّقَه بما يُخْفَى أقدَمُ منه بما يُعْلَنُ، أو لأنَّ مَرتبةَ السِّرِّ والخَفاءِ مُتقدِّمةٌ على مَرتبةِ العَلَنِ؛ إذ ما مِن شَيءٍ يُعْلَنُ إلَّا وهو قَبلَ ذلك خفِيٌّ؛ فتعلُّقُ علْمِه سبحانه بحالتِه الأُولى أقدَمُ مِن تعلُّقِه بحالتِه الثَّانيةِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ تذييلٌ لِجُملةِ ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾، أي: تَعلَمُ أحوالَنا وتَعلَمُ كلَّ شيءٍ، ولكونِها تذييلًا أُظْهِرَ فيها اسمُ الجلالةِ؛ لِيكونَ التَّذييلُ مُستقِلًّا بنفْسِه بمنزِلةِ المثَلِ والكلامِ الجامِعِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الالْتفاتُ مِن الخِطابِ إلى اسمِ الذَّاتِ المُستجمِعةِ للصِّفاتِ؛ لِتربيةِ المَهابَةِ، والإشعارِ بعِلَّةِ الحكمِ -على نهْجِ قولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]- والإيذانِ بعُمومِه؛ لأنَّه ليس بشأْنٍ يختَصُّ به أو بِمَن يتعلَّقُ به، بل شاملٌ لِجميعِ الأشياءِ؛ فالمُناسِبُ ذِكْرُه تعالى بعُنوانٍ مُصَحِّحٍ لِمبدأِ الكلِّ. وقيل: هو مِن كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ واردٌ بطريقِ الاعتراضِ؛ لِتصديقِه عليه السَّلامُ، كقولِه سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[٣] [النمل: ٣٤].

- وقولُه: ﴿مِن شَيْءٍ﴾؛ للاستغراقِ، كأنَّه قيل: وما يَخْفى عليه شيءٌ ما[٤].

- قولُه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه تَقديمُ الأرضِ على السَّماءِ، مع

(٥/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠١).

تَوسيطِ حرْفِ النَّفي (لا) بينهما؛ باعتِبارِ القُربِ والبُعدِ مِنَّا المُسْتَدْعِيَيْنِ للتَّفاوتِ بالنِّسبةِ إلى عُلُومِنا[١].

٥- قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾

- و(على) في قولِه: ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ للاستعلاءِ بمعنى (مع)، أي: وَهَبَ ذلك تَعَلِّيًا على الحالةِ الَّتي شأنُها ألَّا تسمَحَ بذلك، أي: مع الكِبَرِ الَّذي لا تحصُلُ معه الوِلادةُ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ تَعليلٌ على طريقةِ التَّذييلِ للهِبَةِ المذكورةِ، وفيه إيذانٌ بتضاعيفِ النِّعمةِ فيها، حيثُ وقَعَتْ بعد الدُّعاءِ بقولِه: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، فاقترَنَتِ الهِبةُ بقَبولِ الدَّعوةِ. وتَوحيدُ ضَميرِ المُتكلِّمِ وإنْ كان عَقِيبَ ذكْرِ هِبَتِهما؛ لِمَا أنَّ نِعمةَ الهبةِ فائضةٌ عليه خاصَّةً، وهما مِن النِّعمِ لا مِن المُنعَمِ عليهم، أي: وَهَبَ ذلك؛ لأنَّه سميعُ الدُّعاءِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ كنَّى بـ (سميع الدُّعاءِ) عنِ الإجابةِ والتَّقبُّلِ -معَ إثباتِ صفةِ السمعِ لله على ما يَليقُ بكَمالِه- وكان إبراهيمُ عليه السلامُ قد دعا اللهَ أنْ يهَبَه ولدًا، وصِيغَ بمِثالِ المُبالَغةِ أو الصِّفةِ المُشبَّهَةِ؛ لِيدُلَّ على كَثرةِ ذلك، وأنَّ ذلك شأْنُه، وفيه إشعارٌ بأنَّه دعا ربَّه وسأَلَ منه الولدَ، فأجابه ووهَبَ له سُؤْلَه حينما وقَعَ اليأْسُ منه؛ لِيكونَ مِن أجَلِّ النِّعمِ وأجْلَاها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٣).

٦- قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾

- قولُه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: وبعْضَ ذُرِّيَّتي - على اعتبارِ أنَّ (مِن) تبعيضيةٌ- عطفًا على المنصوبِ في ﴿ٱجۡعَلۡنِي﴾، وإنَّما بَعَّضَ؛ لأنَّه علِمَ بإعلامِ اللهِ له، أو استِقراءِ عادتِه في الأُمَمِ الماضيةِ، أنَّه يكونُ في ذُرِّيَّتِه كُفَّارٌ[1].

٧- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾

- قولُه: ﴿يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾، أي: يثبُتُ؛ عُبِّرَ به عنِ الثُّبوتِ تبَعًا لِتشبيهِ الحسابِ بإنسانٍ قائمٍ؛ لأنَّ حالةَ القِيامِ أقْوى أحوالِ الإنسانِ؛ إذ هو انتِصابٌ للعَملِ، مِن قِيامِ القائمِ على الرِّجْلِ، والدليلُ عليه قولُهم: قامَتِ الحربُ على ساقِها، ونحوُه. وقيل: أُسنِد إلى الحسابِ قيامُ أهلِه، أو حُذِف المضافُ، مثلَ ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾[2] [يوسف: ٨٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٠٠).

الآيات (٤٢-٤٦)

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿تَشْخَصُ﴾: أي: تُرفَعُ وتُفتَحُ فلا تَطرِفُ، وأصلُ (شخص): يدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ[(١)].

﴿مُهْطِعِينَ﴾: أي: مُسرِعينَ، مُديمِي النَّظَرِ، وأصلُ (هطع): يدُلُّ على إقبالٍ على الشَّيءِ، وانقيادٍ[(٢)].

﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾: أي: رافِعِيها مع الإقبالِ بأبصارِهم إلى ما بينَ أيديهم، مِن غيرِ التفاتٍ إلى شَيءٍ، وأصلُ (قنع): ارتفاعُ الشَّيءِ ليس فيه تَصَوُّبٌ، وأيضًا يدُلُّ على الإقبالِ على الشَّيءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٧)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٧/ ٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((مقاييس

﴿طَرْفُهُمْ﴾: أي: نَظَرُهم وأبصارُهم، ولا يُثنَّى (الطَّرْفُ) ولا يُجمَعُ؛ لأنَّه في الأصلِ مَصدرٌ، وأصلُ الطَّرفِ: تحريكُ الجَفنِ، وعُبِّرَ به عن النَّظرِ؛ إذ كان تحريكُ الجَفنِ لازِمُه النَّظرُ[(١)].

﴿هَوَآءٌ﴾: أي: خالِيةٌ خاوِيةٌ فارِغةٌ، وأصلُ (هوي): يدلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾

﴿وَتَبَيَّنَ﴾ فاعلُه مُضمَرٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه، أي: تَبَيَّنَ لكم حالُهم، وخبَرُهم، وهلاكُهم.

و﴿كَيْفَ﴾ اسمُ استفهامٍ في محَلِّ نَصبٍ مَفعولٌ مُطلَقٌ، وجملةُ ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا﴾ مُفسِّرةٌ للفاعِلِ المقدَّرِ، فلا محلَّ لها من الإعرابِ[(٣)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾

﴿لِتَزُولَ﴾ اللامُ في ﴿لِتَزُولَ﴾ للجُحودِ، و﴿إِنْ﴾ نافيةٌ، و(تَزولَ) مُضارعٌ منصوبٌ بأنْ مُضمَرة بعدَ اللَّامِ، والمصدرُ المؤَوَّلُ (أَنْ تَزُولَ) مجرورٌ باللَّامِ متعَلِّقٌ بخَبَرِ كان المحذوف، أي: ما كان مكرُهم أهلًا أو مُعَدًّا لإزالةِ الجبالِ،

اللغة)) (٥/ ٣٢)، ((الكليات)) للكفوي(ص: ٨٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٣١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٧)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٥٩)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن لمكي)) (١/ ٤٠٥-٤٠٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٢٤-١٢٥)، ((إعراب القرآن)) للدعاس (٢/ ١٣٦)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٢/ ٥٥٠).

وهو استخفافٌ بهم، أي: ليس مكرُهم بمتجاوزٍ مكْرَ أمثالِهم، وما هو بالذي تزولُ منه الجبالُ. ويجوز أن تكونَ اللامُ في ﴿لِتَزُولَ﴾ لامَ التَّعليلِ، و﴿إِنْ﴾ شرطيَّةٌ، وجوابُها محذوفٌ، والتَّقديرُ: وإنْ كان مكرُهم لشِدَّتِه مُعَدًّا لإزالةِ أشباهِ الجبالِ الرَّواسي- وهي المُعجِزاتُ والآيات- فاللهُ مُجازيهم بمكرٍ هو أعظمُ منه.

وقُرِئَ ﴿لِتَزُولَ﴾ بفَتحِ اللام الأولى، ورفعِ اللامِ الثانيةِ، فـ ﴿إِنْ﴾ مُخفَّفةٌ مِن الثَّقيلة، واللامُ فارِقةٌ بينها وبين النَّافيةِ، فيكونُ الكلامُ إثباتًا لزوالِ الجبالِ مِن مَكرِهم، أي: هو مكرٌ عظيمٌ لَتَزولُ منه الجِبالُ لو كان لها أن تزولَ؛ فهو مستعمَلٌ في معنى الجدارةِ والتأهُّلِ للزَّوالِ، لو كانت الجِبالُ زائلةً[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: ولا تظُنَّ- يا مُحمَّدُ- أنَّ اللهَ ساهٍ عن أعمالِ هَؤلاءِ الظَّالِمينَ، كالمشركينَ مِن قومِك، بل هو عالِمٌ بأعمالِهم، وسيُعاقِبُهم على ظُلمِهم، إنَّما يمهلُهم ويؤخِّرُ عِقابَهم إلى يومٍ شَديدٍ ترتفِعُ فيه أبصارُ الخلقِ دونَ أن تطرِفَ جفونُهم؛ مِن هولِ ما تراه، وشدةِ ما يصيبُهم مِن الفزعِ. يمشُونَ مُسرِعينَ عندَ الخُروجِ مِن قُبورِهم، والمَجيءِ لمحشَرِهم، رافعي رُؤوسِهم: لا تعودُ إليهم أبصارُهم، فلا يتمكَّنونَ من توجيهِ أنظارِهم حيث شاؤوا، أو الطَّرْفِ بأعيُنِهم كما أرادوا، وقلوبُهم خاليةٌ ليس فيها شَيءٌ؛ ولا تعقِلُ شيئًا من شدَّةِ الخَوفِ.

وخَوِّفِ النَّاسَ -يا محمدُ- ما ينزلُ بهم مِن عذابِ اللهِ يومَ القيامةِ، فيقولُ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والتكذيبِ والمعاصي: ربَّنا أَمْهِلْنا وأرجِعْنا إلى

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن لمكي)) (١/ ٤٠٧-٤٠٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٧٣-٧٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٢٦-١٢٧)، ((الجنى الداني في حروف المعاني)) للمرادي (ص: ١٨)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٠-٢٧١).

الدُّنيا زمنًا قليلًا نُؤمِنْ بك ونُصَدِّقْ رُسُلَك. فيقولُ الله لهم: ألم تَحْلِفوا في حياتِكم أنَّه لا انتقالَ لكم مِن الحياةِ الدُّنيا إلى الآخرةِ، ولا بعثَ بعدَ الموتِ؟ وحلَلْتُم في مساكِنِ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم باللهِ، وعَلِمتُم -بما رأيتُم مِن آثارِهم، وسمعتُم مِن أخبارِهم- ما أنزَلْناه بهم من الهلاكِ، ومثَّلْنا لكم الأمثالَ في القُرآنِ؛ لتعتَبِروا بها، فلم تعتَبِروا؟ وقد مكروا مَكرَهم العظيمَ، وعندَ اللهِ جزاءُ مَكرِهم، وما كان مَكرُ الكُفَّارِ بالذي تزولُ منه الجبالُ لضعفِه ووهنِه، ولو كان مكرُهم تزولُ منه الجبالُ فلن يستطيعوا أيضًا إبطالَ دينِ الإسلامِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى دلائِلَ التَّوحيدِ، ثمَّ حكى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه طلَبَ مِن اللهِ أن يَصونَه عن الشِّركِ، وطلَبَ منه أن يوفِّقَه للأعمالِ الصَّالحةِ، وأن يخُصَّه بالرَّحمةِ والمغفرةِ في يومِ القيامةِ- ذكرَ بعد ذلك ما يدُلُّ على وجودِ يومِ القيامةِ، وما يدُلُّ على صفةِ يومِ القيامةِ[1].

وأيضًا لَمَّا ختَمَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ دُعاءَه بيومِ الحِسابِ، المُوجِبِ ذِكرُه لكلِّ سَعادةٍ، ونِسيانُه لكُلِّ شَقاوةٍ- ذكرَ بعضَ ما يتَّفِقُ فيه؛ رجوعًا إلى ما مضى من أحوالِ يومِ القيامةِ[2].

وأيضًا فإنَّها عَطفٌ على الجُمَلِ السَّابقةِ، ولها اتِّصالٌ بجُملةِ ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٣٢).

مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٣٠] الذي هو وعيدٌ للمُشرِكينَ، وإنذارٌ لهم بألَّا يغتَرُّوا بسلامتِهم وأمْنِهم؛ تنبيهًا لهم على أنَّ ذلك متاعٌ قليلٌ زائِلٌ، فأكَّدَ ذلك الوعيدَ بهذه الآيةِ[١]، فقال:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

أي: ولا تظُنَّ- يا محمدُ- اللهَ الذي مِن سُنَّتِه إمهالُ الظَّالِمينَ، وإنظارُهم مُدَّةً قبل أن يُحِلَّ بهم عِقابَه؛ ساهيًا عن أعمالِ هَؤلاءِ الظَّالِمينَ لأنفُسِهم، كمُشرِكي قَومِك وغَيرِهم، بل هو عالِمٌ بأعمالِهم، وسيُعاقِبُهم على ظُلمِهم؛ فإنَّه سُبحانه يُمهِلُ ولا يُهمِلُ[٢].

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي[٣] للظَّالِم، حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢]))[٤].

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾.

أي: إنَّما يُمهِلُ اللهُ الظَّالِمينَ ويُؤخِّرُ عِقابَهم إلى يومِ القيامةِ الذي ترتفِعُ فيه أبصارُ الخَلقِ، وهم يُحَدِّقونَ بها مَبهُوتينَ خائفينَ، دون أن تَطرِفَ أجفانُهم، أو تَغتَمِضَ أعيُنُهم؛ لشدَّةِ ما أصابَهم من الفزَعِ، وما يَرَونه من عظيمِ الأهوالِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٦).

(٣) لَيُملي للظَّالِم: أي: يُمهِلُه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٥٥).

(٤) رواه البخاري (٤٦٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للأصفهاني (ص: ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٦).

كما قال تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

﴿مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾.

﴿مُهۡطِعِينَ﴾.

أي: يمشُونَ مُسرِعينَ عند خُروجِهم مِن قُبورِهم، ومَجيئِهم لمحشَرِهم، وحضورِ حِسابِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [القمر: ٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾.

أي: رافِعي رُؤوسِهم ينظُرونَ إلى ما بينَ أيديهم، دونَ أن يلتَفِتوا يمينًا أو شِمالًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

قال القرطبي: (إقناعُ الرأسِ: رفْعُه. قاله ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ... وقيل: ناكسي رؤوسِهم، والآيةُ محتملةٌ الوجهينِ، وقاله المُبَرِّدُ. والقولُ الأولُ أعرفُ في اللغةِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٦، ٣٧٧). ويُنظر: ((الكامل)) للمبرد (٣/ ٩١)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٤٠)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٦).

وممَّن ذهب من المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بـ ﴿مُقۡنِعِي﴾: رافعو رؤوسِهم: ابنُ قتيبةَ، وابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((غريب القرآن)) (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾.

أي: لا تعودُ إليهم أبصارُهم على ما اعتادُوه، بحيثُ يتمكَّنونَ من توجيهِ أنظارِهم حيث شاؤوا، أو الطَّرْفِ بأعيُنِهم كما أرادوا؛ وذلك لإدامةِ نَظَرِهم إلى ما يُشاهِدونَه مِن أهوالٍ، فأجفانُهم إليها شاخِصةٌ، وأعيُنُهم نحوَها مُصَوَّبةٌ لا تَطرِفُ لَحظةً(١).

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾.

أي: وقلوبُهم خاليةٌ، ليس فيها شيءٌ، ولا تعقِلُ شيئًا من شدَّةِ الخَوفِ(٢).

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، والضحاكُ، والحسنُ، وابنُ زيدٍ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ، وأبو عبيدةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥١٧).

وقيل: المرادُ بإقناعِ الرأس: طأطأتُه مِن الذلِّ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٦).

قال أبو العباس المُبَرِّد: (المُقْنِع: الرافِعُ رأسَه، في هذا الموضع، ويقال في غيره: الذي يحُطُّ رأسَه استخذاءً وندمًا؛ قال الله جل وعزَّ: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾. ومن قال هو الرافِعُ رأسَه: فتأويلُه عندنا أن يتطاولَ فينظُرَ ثم يطأطئَ رأسَه، فهو بعدُ يرجِعُ إلى الإغضاءِ والانكسارِ). ((الكامل في اللغة والأدب)) (٣/ ٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٥).

قال ابنُ كثير: (ولهذا قال: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: وقلوبُهم خاويةٌ خاليةٌ، ليس فيها شيءٌ؛ لكثرة الفزَعِ والوجَل والخوفِ؛ ولهذا قال قتادةُ وجماعةٌ: إنَّ أمكِنةَ أفئدتِهم خاليةٌ؛ لأنَّ القلوبَ لدى الحناجِرِ، قد خرَجتْ مِن أماكِنِها مِن شِدَّةِ الخوفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٥).

مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها عَطفٌ على جُملةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: تسَلَّ عنهم، ولا تملَلْ مِن دَعوتِهم، وأنذِرْهم[1].

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

أي: وخَوِّفِ النَّاسَ -يا محمَّدُ- ما هو نازِلٌ بهم يومَ يأتيهم العذابُ يومَ القيامةِ، فيَحذَروا مِن الأعمالِ المُوجِبةِ لذلك العذابِ[2].

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾.

أي: فيقولُ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والتَّكذيبِ، وأنواعِ المعاصي، في ذلك اليَومِ: ربَّنا أمهِلْنا، وأرجِعْنا إلى الدُّنيا زمنًا قليلًا، نُؤمِنْ بك ونوَحِّدْك، ونتَّبِعْ رُسُلَك[3].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٨).

كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[فاطر: ٣٧].

﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾.

أي: فيقولُ الله للظَّالِمينَ الذين سألوه الرَّجعةَ إلى الدُّنيا، مُوبِّخًا لهم: أولمْ تكونوا تحلِفونَ في الدُّنيا أنَّه لا انتقالَ لكم مِن الدُّنيا إلى الآخرةِ، ولا بعْثَ بعدَ الموتِ[1]؟

كما قال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۙ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾[النحل: ٣٨].

﴿ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ٤٥ ﴾.

﴿ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾.

أي: وحلَلْتُم في الدُّنيا في مساكنِ الأُمَمِ السَّابقةِ، الذين ظَلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم باللهِ تعالى[2].

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ ﴾.

أي: وعَلِمتُم بالنَّظَرِ في آثارِهم، والسَّماعِ لأخبارِهم كيف أهلَكْناهم، حينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٩).

قال ابن عاشور: (كان العربُ يَمُرُّونَ على ديارِ ثمودَ في رحلتِهم إلى الشامِ، ويحطُّون الرِّحالَ هنالك، ويمرُّونَ على ديارِ عادٍ في رحلتِهم إلى اليمنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٩).

أصَرُّوا على كُفرِهم وطُغيانِهم[١].

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

أي: ومَثَّلْنا لكم في القُرآنِ الأمثالَ الواضِحةَ، وبيَّنَّا الأشباهَ؛ لتعتَبِروا بها، لكِنَّكم لم تفعَلوا، فالآن تَسألونَ التَّأخيرَ للتَّوبةِ يومَ أتاكم العذابُ؟! إنَّ هذا غيرُ كائنٍ أبدًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٨٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

قال الرازي: (المرادُ ما أورده الله في القرآنِ مما يُعلَمُ به أنَّه قادرٌ على الإعادةِ، كما قدَر على الابتداءِ، وقادرٌ على التعذيبِ المؤجَّلِ، كما يفعلُ الهلاكَ المعجَّلَ، وذلك في كتابِ الله كثيرٌ، والله أعلم). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٠).

وقال الشوكاني: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فِي كُتُبِ اللَّهِ وعلى أَلْسُنِ رسلِه إيضاحًا لَكم وتقريرًا وتكميلًا للحجَّةِ عليكم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٠).

وقال الزمخشري: (﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: صفاتِ ما فعلوا وما فُعِلَ بهم، وهي في الغرابةِ كالأمثال المضروبة لكُلِّ ظالم). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٥).

﴿مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ٤٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ صِفةَ عِقابِ الكافرينَ؛ أتبَعَها بذِكرِ كيفيَّةِ مَكرِهم[1].

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾.

أي: وقد مَكَروا[2] مَكرَهم[3] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٠).

(٢) اختلف المفسِّرون في المرادِ بالذين مكَروا على أقوالٍ؛ منها: أنَّهم الذين ظلموا أنفُسَهم، فيكون المعنى: فعَلْنا بهم ما فعَلْنا، والحالُ أنهم قد مكروا مكرَهم. وهذا في الجملةِ: ظاهرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٠).
وقيل: الضميرُ في ﴿مَكَرُواْ﴾ عائدٌ على المُخاطَبينَ في قوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: الذين سكنوا في مساكنِ الذين ظلموا أنفسَهم. وممن اختار هذا المعنى: الرازي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٣- ٤٥٤).
وفي الآية أقوالٌ أخرى. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥١٩)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٨٩).

(٣) قيل: كان مكرُهم شركَهم باللهِ وافتراءَهم عليه. وممن اختار هذا المعني: ابنُ جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٢١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٠).
وقال السمعاني: (قولُه تعالَى: (﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ أَي: كادُوا كيدَهم). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٢٤).
وقال ابنُ عاشور: (والمكرُ: تَبْييتُ فعلِ السُّوءِ بالغيرِ وإضمارُه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٠).
وهذا القول أيضًا هو ظاهرُ اختيارِ البيضاوي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).
قال الواحدي: (﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ يعني: مكرَهم بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وما همُّوا به مِن قتلِه أو نفيه). ((الوجيز)) (ص: ٥٨٦).
وقال الرازي: (وذلك المكرُ هو الذي ذكَره الله تعالى في قولِه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٠). وهذا على اعتبارِ أنَّ الضميرَ في ﴿مَكَرُواْ﴾ عائدٌ على قومِ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٤).

العظيمَ[١].

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾.

أي: وعندَ اللهِ عِلمُ مَكرِهم، وجَزاءُ مَكرِهم، فسيُعاقِبُهم بما يستَحِقُّونَ[٢].

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿لَتَزُولُ﴾ بفتحِ اللامِ الأولى ورفعِ الثَّانية؛ فاللامُ الأولى لامُ التَّوكيدِ، والمعنى: قد كاد مَكرُهم العظيمُ يَبلُغُ مِن شِدَّتِه إلى إزالةِ الجِبالِ. وقيل: المعنى: ولو كان مَكرُهم يبلُغُ في الكيدِ إلى إزالةِ الجِبالِ، فلن يُزيلُوا دينَ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ ناصِرٌ دِينَه[٣].

٢- قراءةُ ﴿لِتَزُولَ﴾ بكَسرِ اللامِ الأولى، ونصبِ الثانية، فاللامُ الأولى لامُ الجحود، أي: ما كان مكرُهم لتزولَ منه الجبالُ، والمعنى: ما كان مَكرُهم لِيَزولَ به أمرُ النبيِّ وأمرُ دينِ الإسلامِ؛ لأنَّ ثُبوتَه كثبوتِ الجِبالِ الرَّاسياتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٨، ٧٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٣- ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).
قال ابنُ عاشورٍ: (وانتَصبَ مكرُهم الأولُ على أنَّه مفعولٌ مطلقٌ لفعلِ «مكروا» لبيانِ النوعِ، أي: المكر الذي اشتهروا به، فإضافةُ مكرٍ إلى ضميرِ «هم» مِن إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٢٦)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

(٣) قرأ بها الكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٦٧)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٥٤٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٦٤، ٦٥)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣١، ٣٢).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٠).

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾.

أي: وما كان مَكرُ الكُفَّارِ بالذي تزولُ منه الجبالُ لضعفِه ووهنِه[(١)]، ولو كان مكرُهم تزولُ منه الجبالُ فلن يستطيعوا أيضًا إبطالَ دينِ الإسلامِ؛ فإنَّ الله ينصُرُ دينَه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وقال سُبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٠٣، ٢٠٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٦٤، ٦٥)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣١، ٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٦٧)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٥٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٤١).
قال ابنُ كثيرٍ: (والقولُ الثَّاني في تفسيرِها [أي: على قراءةِ فتحِ اللام الأُولَى وضمِّ اللام الثانيةِ]: ما رواه عليُّ بنُ أبي طلحةَ، عن ابنِ عبَّاس: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ يقولُ: شِرْكُهم، كقولِه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠ -٩١]، وهكذا قال الضحَّاكُ وقتادةُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٧).
ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٢٥)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (١/ ٢٧٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ هذه الآيةُ بجُملتِها فيها وعيدٌ للظَّالِمينَ، وتسليةٌ للمَظلومينَ[١].

٢- يجِبُ على كلِّ مَن شاهدَ أحوالَ الماضِينَ مِن الأُمَمِ الخاليةِ، والقُرونِ الماضيةِ، وعَلِمَ ما جرى لهم، وكيف أُهلِكوا- أن يعتَبِرَ بهم، ويعمَلَ في خَلاصِ نَفسِه من العقابِ والهَلاكِ؛ قال الله تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يليقُ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يحسَبَ اللهَ مَوصوفًا بالغَفلةِ؟

والجوابُ مِن وجوهٍ:

الوجه الأوَّلُ: أنَّ المُرادَ به التَّثبيتُ على ما كان عليه مِن أنَّه لا يحسَبُ اللهَ غافِلًا، كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤]، و﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨].

الوجه الثاني: أنَّ المقصودَ منه بيانُ أنَّه لو لم ينتقِمْ لكان عدمُ الانتقامِ لأجلِ غَفلتِه عن ذلك الظُّلمِ، ولَمَّا كان امتناعُ هذه الغَفلةِ معلومًا لكُلِّ أحدٍ، لا جرَمَ كان عدَمُ الانتقامِ مُحالًا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٤).

الوجه الثالثُ: أنَّ المُرادَ: ولا تحسَبَنَّه يُعامِلُهم مُعاملةَ الغافِلِ عمَّا يعملونَ، ولكِنْ مُعاملةَ الرَّقيبِ عليهم، المُحاسِبِ على النَّقيرِ والقِطميرِ.

الوجه الرابعُ: أن يكونَ هذا الكلامُ وإن كان خطابًا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الظَّاهِرِ، إلَّا أنَّه يكونُ في الحقيقةِ خِطابًا مع الأمَّةِ[١].

الوجه الخامسُ: أنَّ نهيَه عنه تحذيرٌ مِن التلبسِ به، بقطعِ النظرِ عن تقديرِ تلبُّسِ المخاطَبِ بذلك الحسبانِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ سُمِّيَ جزاءُ المَكرِ مَكرًا؛ تنبيهًا على أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العمَلِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المُرادُ بالنَّهيِ عن حُسبانِه غافلًا: الإيذانُ بأنَّه عالِمٌ بما يفعَلُ الظَّالمونَ، لا يخْفى عليه مِنْهُ شيءٌ، وأنَّه مُعاقِبُهم على قليلِه وكثيرِه، على سبيلِ الوعيدِ والتَّهديدِ[٤]، وصِيغَةُ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ ظاهِرُها نهْيٌ عن حُسبانِ ذلك، وهذا النَّهيُ كِنايةٌ عن إثباتِ وتَحقيقِ ضدِّ المَنْهيِّ عنه في المقامِ الَّذي مِن شأنِه أنْ يُثيرَ للنَّاسِ ظنَّ وُقوعِ المَنْهيِّ عنه؛ لِقوَّةِ الأسبابِ المثيرةِ لذلك؛ وذلك أنَّ إمهالَهم، وتأْخيرَ عُقوبتِهم يُشبِهُ حالةَ الغافلِ عن أعمالِهم، أي: تحقَّقْ أنَّ اللهَ ليس بغافلٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٧-١٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٩٥).

وهو كِنايةٌ ثانيةٌ عن لازِمِ عدَمِ الغفلةِ، وهو المُؤاخذةُ، فهو كِنايةٌ بمرتبتَينِ؛ ذلك لأنَّ النَّهيَ عن الشَّيءِ يُؤذِنُ بأنَّ المَنْهيَّ عنه بحيثُ يَتلبَّسُ به المُخاطَبُ، فنهْيُه عنه تحذيرٌ مِن التَّلبُّسِ به بقطْعِ النَّظرِ عن تقديرِ تلبُّسِ المُخاطَبِ بذلك الحُسبانِ. وعلى هذا الاستِعمالِ جاءتِ الآيةُ، سواءٌ جعَلْنا الخِطابَ لكلِّ مَن يصِحُّ أنْ يُخاطَبَ؛ فيدخُلُ فيه النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أمْ جعَلْناه للنَّبيِّ ابتداءً، ويدخُلُ فيه أُمَّتُه. ونفْيُ الغفلةِ عنِ اللهِ ليس جاريًا على صَريحِ معناه؛ لأنَّ ذلك لا يظُنُّه مُؤمنٌ، بل هو كِنايةٌ عنِ النَّهيِ عنِ استعجالِ العَذابِ للظَّالمينَ، ومنه جاء معنى التَّسليةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ففي قولِه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تسليةٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووعْدٌ له أكيدٌ، ووعيدٌ شَديدٌ للكَفَرةِ وسائرِ الظَّالمينَ، أو لكلِّ أحدٍ ممَّن يَستعجِلُ عذابَهم أو يتوهَّمُ إهمالَهم؛ للجهْلِ بصِفاتِه تعالى والاغترارِ بإمهالِه[1].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ استِئنافٌ وقَعَ تعليلًا للنَّهيِ السَّابقِ[2]، وإيقاعُ التَّأخيرِ عليهم مع أنَّ المؤخَّرَ إنَّما هو عذابُهم؛ لِتهويلِ الخطْبِ، وتفظيعِ الحالِ، ببيانِ أنَّهم مُتوجِّهونَ إلى العذابِ، مُرْصَدونَ لأمْرٍ ما، لا أنَّهم باقونَ باختِيارِهم، وللدَّلالةِ على أنَّ حقَّهم مِن العذابِ هو الاستئصالُ بالمرَّةِ، وألَّا يَبْقَى منهم في الوُجودِ عَينٌ ولا أثَرٌ، ولو قيل: (إنَّما يُؤَخِّرُ عذابَهم ...) لَمَا فُهِمَ ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾

- قولُه: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ كِنايةٌ عن هوْلِ ما شاهَدُوه، بحيثُ يَبقُونَ ناظرينَ إليه، لا تطْرِفُ أعينُهم، والمعنى: لا يَرجِعُ إليهم، أي: لا يعودُ إلى مُعتادِه، أي: لا يستطيعونَ تحويلَه[1].

- وقولُه: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ تَشبيهٌ محْضٌ؛ لأنَّ أفئدتَهم ليستْ بهواءٍ حقيقةً، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ التَّشبيهُ في فراغِها مِن الرَّجاءِ والطَّمَعِ في الرَّحمةِ؛ فهي مُنخَرِقةٌ مُشْبِهةٌ الهواءَ في تفرُّغِه مِن الأشياءِ وانخراقِه، وأنْ يكونَ في اضْطرابِ أفئدتِهم، وجَيَشانِها في الصُّدورِ، وأنَّها تَجِيءُ وتذهَبُ وتبلُغُ- على ما رُوِيَ- حناجِرَهم، فهي في ذلك كالهواءِ الَّذي هو أبدًا في اضْطرابٍ[2].

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾

- قولُه: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ على القولِ بأنَّ المرادَ بالناسِ: الكفارُ المعبَّرُ عنهم بالظالمينَ ففيه العُدولُ مِن الإضمارِ- حيثُ لم يقُلْ: (وأنذِرْهم)- إلى ذكْرِ النَّاسِ بقولِه: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ المُرادَ بالإنذارِ هو الزَّجرُ عمَّا هم عليه مِن الظُّلمِ؛ شفقةً عليهم، لا التَّخويفُ للإزعاجِ والإيذاءِ؛ فالمُناسِبُ عدَمُ ذكْرِهم بعنوانِ الظُّلمِ. وعلى القول بأنَّ المرادَ: النَّاسُ جميعًا: فإنَّ الإنذارَ عامٌّ للفريقَينِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١]، والإتيانُ يعُمُّهما مِن حيثُ كونُهما في الموقِفِ، وإنْ كان لُحوقُه بالكُفَّارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٥).

خاصَّةً، أي: أنذِرْهم وخوِّفْهم[١].

- وإنَّما خَصَّهم بيومِ العذابِ فقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ - وإن كان يومَ الثَّوابِ- لأنَّ الكلامَ خرجَ مَخرجَ التَّهديدِ للعاصي[٢].

- قولُه: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ﴾، أي: فيقولونَ؛ ففيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، والعُدولُ عن المُضمَرِ إلى ما عليه النَّظمُ الكريمُ؛ للتَّسجيلِ عليهم بالظُّلمِ، وللإشعارِ بأنَّ ما لَقُوه مِن الشِّدَّةِ إنَّما هو لِظُلمِهم، وإيثارُه على صِيغَةِ الفاعِلِ (الظَّالِمونَ) حسْبَما ذُكِرَ أوَّلًا؛ للإيذانِ بأنَّ الظُّلمَ في الجُملةِ كافٍ في الإفضاءِ إلى ما ذُكِرَ مِن الأهوالِ مِن غيرِ حاجةٍ إلى الاستمرارِ عليه، كما يُنْبِئُ عنه صِيغَةُ الفاعِلِ. وعلى تقديرِ كونِ المُرادِ بالنَّاسِ مَن يعُمُّ المُسلمينَ أيضًا؛ فالمعنى: الَّذين ظلَموا منهم، وهم الكُفَّارُ، أو يقولُ كلُّ مَن ظلَمَ بالشِّركِ والتَّكذيبِ مِن المُنذَرينَ وغيرِهم مِن الأُمَمِ الخاليةِ؛ فإنَّ إتيانَ العذابِ يعُمُّهم، كما يُشْعِرُ بذلك وعْدُهم باتِّباعِ الرُّسلِ[٣].

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟﴾ استِفهامٌ معناه التَّوبيخُ والتَّقريعُ[٤].

- وصِيغَةُ الخِطابِ في جوابِ القسَمِ ﴿مَا لَكُم﴾؛ لِمُراعاةِ حالِ الخطابِ في ﴿أَقْسَمْتُم﴾، كما يُقال: حلَفَ باللهِ لَيَخْرُجَنَّ، وهو أَدْخَلُ في التَّوبيخِ مِن أنْ يُقالَ: ما لنا؛ مُراعاةً لِحالِ المُقسِمِ؛ فجاء على إرادةِ القولِ، و﴿مَا لَكُم﴾ جوابُ القسَمِ، جاءَ بلفْظِ الخِطابِ على المُطابَقةِ دونَ الحكايةِ، والمعنى: أقسَمْتُم أنَّكم باقونَ في الدُّنيا لا تُزَالُونَ بالموتِ، ولعلَّهم أقْسَموا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٢).

بطَرًا وغُرورًا، أو دلَّ عليه حالُهم، حيث بَنَوْا شديدًا، وأمَّلوا بعيدًا[١].

- وافْتُتِحَت جُملةُ الجوابِ ﴿أَوَلَمْ﴾ بواوِ العَطفِ؛ تَنبيهًا على مَعطوفٍ عليه مُقدَّرٍ هو رفْضُ ما سألوه؛ حُذِفَ إيجازًا؛ لأنَّ شأْنَ مُستحِقِّ التَّوبيخِ ألَّا يُعْطَى سُؤْلَه، والتَّقديرُ: كلَّا وأَلَمْ تكونوا أقسَمْتُم... إلخ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ هذا مِن الاستِطرادِ، وهو التَّعريضُ بِعَيبِ إنسانٍ بذِكْرِ عَيبِ غيرِه[٣].

- قولُه: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ فيه مِن المُبالَغةِ ما ليس في أنْ يُقالَ: (ما فعَلْنا بهم)[٤]، والتَّعبيرُ بـ﴿فَعَلْنَا﴾ مَحمولٌ على الوَعيدِ الشَّديدِ[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾

- قولُه: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ فيه تَعريضٌ بالوعيدِ والتَّهديدِ بالمُؤاخذةِ بِسُوءِ فعْلِهم، أو هو وَعيدٌ بالجزاءِ على مكْرِهم[٦].

- قولُه: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ هذا مِن بابِ الغُلُوِّ والإيغالِ والمُبالَغةِ في ذمِّ مكْرِهم[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((البرهان)) (٤/ ١٢١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٥).

- قولُه: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ على قِراءةِ الجمهورِ ﴿لِتَزُولَ﴾ -بكسرِ اللامِ وبنَصبِ الفِعلِ المضارِعِ بعدَها- فتكونُ (إنْ) نافيةً، ولامُ ﴿لِتَزُولَ﴾ لامَ الجُحودِ، أي: وما كان مكْرُهم زائلةً منه الجبالُ، وهو استخفافٌ بهم، أي: ليس مكْرُهم بمُتجاوِزٍ مكْرَ أمثالِهم، وما هو بالَّذي تزولُ منه الجبالُ. وفي هذا تعريضٌ بأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُسلمينَ الَّذين يريدُ المُشركونَ المكْرَ بهم لا يُزَعْزِعُهم مكْرُهم؛ لأنَّهم كالجبالِ الرَّواسي[1]، وجُعِلَتْ (إنْ) نافيةً، واللَّامُ مُؤكِّدةً لها، والمعنى: ومُحالٌ أنْ تزولَ الجبالُ بمكْرِهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٥، ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٣).

الآيات (٤٧-٥٢)

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: أي: مَشدُودينَ، قد قُرِنَ بعضُهم إلى بعضٍ، أو قُرِنَت أيديهم وأرجلُهم إلى رِقابِهم، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿ٱلْأَصْفَادِ﴾: أي: الأغلالِ والقُيودِ، وأصلُ (صفد): يدلُّ على شَدٍّ بشَيءٍ[٢].

﴿سَرَابِيلُهُم﴾: أي: قُمُصُهم، واحِدُها: سِربالٌ، وهو القَميصُ مِن أيِّ جِنسٍ كان[٣].

﴿قَطِرَانٍ﴾: القَطِرانُ: مادَّةٌ حارَّةٌ، سَوداءُ اللَّونِ، نَتِنةُ الرَّائِحةِ، شديدةُ الاشتعالِ، تُطلَى بها جُلودُ الإبِلِ الجَربَى؛ لِيَزولَ الجَرَبُ منها[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤).

﴿وَتَغْشَىٰ﴾: أي: تَلفَحُ وتَعلو وتغطِّي، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[(١)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالَى: فلا تظُنَّ -يا محمَّدُ- أنَّ اللهَ مخلفُ رُسُلِه ما وعَدَهم به من النَّصرِ على أعدائِهم؛ إنَّ اللهَ قَويٌّ قاهِرٌ لا يُغالَبُ، ولا يمتَنِعُ عليه شيءٌ أراده، مُنتَقِمٌ مِن أعدائِه أشَدَّ انتقامٍ، يومَ تُبَدَّلُ صفاتُ هذه الأرضِ إلى صفاتٍ أخرَى، وكذلك تُبَدَّلُ السَّمواتُ، ويخرُجُ الناسُ مِن قُبورِهم أحياءً ظاهرينَ لِلقاءِ اللهِ المتفَرِّدِ بالمُلْك والخَلقِ والتَّدبيرِ، والعَظَمةِ والكمالِ، الذي قهَرَ كُلَّ خَلْقِه، فهم تحتَ تصَرُّفِه وتَدبيرِه وحُكمِه، وترى- يا محمدُ- الكافرينَ يومَ القيامةِ مُقَيَّدينَ بالقيودِ، ثِيابُهم مِن القَطِرانِ الشَّديدِ الاشتعالِ، وتلفَحُ وُجوهَهم النَّارُ فتَحرِقُها، يفعَلُ اللهُ ذلك بهم؛ ليكونَ في ذلك جزاءٌ للمُسيءِ على إساءتِه، واللهُ يجازي كلَّ إنسانٍ بما عَمِلَ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، إنَّ اللهَ سَريعُ الحسابِ.

هذا القرآنُ الذي أنزَلْناه إليك -أيُّها الرَّسولُ- بلاغٌ وإعلامٌ للنَّاسِ؛ وكفايةٌ لهم به يتبلَّغونَ؛ للوُصولِ إلى أعلى المَقاماتِ والدَّرَجاتِ، أنزلناه ليُخَوَّفوا به عِقابَ اللهِ، ويُحَذَّروا من نقمتِه، وليعلموا أنَّ اللهَ المعبودَ بحقٍّ إلهٌ واحِدٌ، لا يستحِقُّ غيرُه العبادةَ، وليتَّعِظَ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ﴾.

أي: فلا تظُنَّ اللهَ -يا مُحمَّدُ- مُخلِفَ رُسُلِه ما وعَدَهم من النُّصرةِ لهم ولأتباعِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٣٧).

وإهلاكِ أعدائِهم، وخِذلانِهم في الدُّنيا والآخرةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال سُبحانه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾.

أي: إنَّ اللهَ قَويٌّ قاهِرٌ لا يُغالَبُ، ولا يمتَنِعُ عليه شيءٌ أراده، مُنتقِمٌ مِن أعدائِه الكافرينَ[٢].

﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾، بيَّنَ وقتَ انتقامِه[٣].

وأيضًا لَمَّا تقرَّرَت عظَمةُ ذلك اليومِ الذي تشخَصُ فيه الأبصارُ، وكان أعظَمَ يومٍ يظهَرُ فيه الانتقامُ؛ بيَّنَه بقَولِه تعالى[٤]:

﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٣٨).

أي: إنَّه تعالى ذو انتقامٍ مِن الكافرينَ[١] حينَ تتبدَّلُ صِفاتُ هذه الأرضِ إلى صفاتٍ أُخرَى، ومِن ذلك نَسْفُ جِبالِها، وتفجيرُ بحارِها، وذَهابُ أوديتِها وأشجارِها، وجميعِ ما عليها مِن عِمارةٍ وغَيرِها، فلا يبقَى على وَجهِها شيءٌ، وتُبسَطُ وتُمدُّ مَدًّا، وتتبدَّلُ صِفاتُ هذه السَّمواتِ كذلك إلى صفاتٍ أُخرَى، ومن ذلك انتِثارُ كواكِبِها، وكسوفُ شَمسِها، وخُسوفُ قَمَرِها، وانشقاقُها وغيرُ ذلك[٢].

---

(١) ممَّن اختار أنَّ ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرفٌ للانتقامِ المذكورِ قَبلَه: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

وقيل: المعنى: اذكُرْ يومَ تبَدَّلُ الأرض. وممَّن اختار هذا: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٢-٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٢٩، ٧٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: الزجَّاج، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ تيميةَ، وابنِ كثيرٍ، وابنِ جزي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٣/ ١٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٠).

وقيل: المرادُ تبديلُ ذواتِها إلى ذاتٍ أخرى مختلفةٍ. وممن اختار ذلك: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٣-٣٨٤).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وأنسُ بنُ مالكٍ، وعمرُو بنُ ميمونٍ، وكعبٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٢٩).

وقال ابنُ جَريرٍ: (أَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ: قولُ مَن قال: معناهُ: يَومَ تُبدَّلُ الأرضُ الَّتي نحنُ عليها اليومَ يَومَ القيامةِ غيرَها، وكذلك السَّمواتُ اليومَ تُبدَّلُ غيرَها، كما قال جَلَّ ثناؤُه، وجائزٌ أنْ تكونَ المُبدَّلةُ أرضًا أُخرى مِن فِضَّةٍ، وجائزٌ أنْ تكونَ نارًا، وجائزٌ أنْ تكونَ خُبْزًا، وجائزٌ أنْ تكونَ غيرَ ذلك، ولا خبَرَ في ذلك عِندنا مِن الوجْهِ الَّذي يجِبُ التَّسليمُ له أيَّ ذلك يكونُ، فلا قولَ في ذلك يَصِحُّ إلَّا ما دَلَّ عليه ظاهِرُ التَّنزيلِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٣٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (خرَّجَ مُسلمٌ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، قالت: سألْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن قولِه تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩-١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨- ٩].

وقال سُبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ٨-١٠].

﴾؛ فأين يكونُ النَّاسُ يَومئذٍ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «على الصِّراطِ». فالأرْضُ تُبدَّلُ كما ثبَتَ في الصَّحيحين: «أنَّ النَّاسَ يُحْشَرونَ على أرضٍ بَيضاءَ عَفْراءَ كقُرصةِ النَّقِيِّ، ليس فيها عَلَمٌ لأحد». قال ابنُ مَسعود رضيَ اللهُ عنه: «هي أرضٌ بَيضاءُ كهَيئةِ الفِضَّةِ، لم يُعْمَلْ عليها خَطيئةٌ، ولا سُفِكَ فيها دَمٌ حَرامٌ، ويُجمَعُ النَّاسُ في صَعيدٍ واحدٍ يَنفُذُهم البَصرُ، ويُسمِعُهم الدَّاعي، حُفاةً عُراةً، غُرْلًا، كما خُلِقوا، فيأخُذُ النَّاسَ مِن كرْبِ ذلك اليومِ وشِدَّتِه حتَّى يُلجِمَهم العرَقُ». وبَعضُهم يَرفَعُه إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكذا عن مُجاهدٍ وغَيرِه مِنَ السَّلفِ... فهذا الحديثُ وسائرُ الآثارِ تُبيِّنُ أنَّ النَّاسَ يُحشَرونُ على الأرضِ المُبدَّلةِ، والقُرآنُ يُوافِقُ على ذلك؛ كقولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وحَشْرُهم وحِسابُهم يكونُ قبْلَ الصِّراطِ؛ فإنَّ الصِّراطَ عليه يَنْجُون إلى الجنَّة، ويَسقُطُ أهْلُ النَّارِ فيها، كما ثبَتَ في الأحاديثِ. وحديثُ عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها المُتقدِّمُ يدُلُّ على أنَّ التَّبديلَ وَهُمْ على الصِّراطِ، لكنَّ البُخاريَّ لم يُورِدْه، فلعلَّه ترَكَهُ لهذه العِلَّةِ وغيرِها؛ فإنَّ سنَدَهُ جيِّدٌ. أو يُقالُ: تُبدَّلُ الأرضُ قبْلَ الصِّراطِ، وعلى الصِّراطِ تُبدَّلُ السَّمواتُ). ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (١/ ١٠٣).

وقيل في الجمعِ بينَ هذه الأخبارِ بأنَّ تبديلَ السمواتِ والأرضِ يقعُ مرَّتينِ: إحدُاهما تُبدَّلُ صفاتُهما فقط، وذلك عندَ النفخةِ الأُولَى، فتُنثَرُ الكواكبُ، وتخسفُ الشمسُ والقمرُ، وتصيرُ السماءُ كالمُهلِ، وتكشطُ عن الرؤوسِ، وتسيرُ الجبالُ، وتموجُ الأرضُ، وتنشقُّ إلى أن تصيرَ الهيئةُ غيرَ الهيئةِ، ثمَّ بينَ النفختينِ تُطوَى السماءُ والأرضُ، وتُبدلُ السماءُ والأرضُ. يُنظر: ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٥٠٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٧٦).

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ١-٣].

وقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۞ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۞ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۞ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ١-٤].

وعن سَهلِ بنِ سعدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القيامةِ على أرضٍ بَيضاءَ عَفراءَ[١]، كقُرصةِ النَّقيِّ[٢]، ليس فيها عَلَمٌ[٣] لأحدٍ))[٤].

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

أي: وخرجَ النَّاسُ مِن قُبورِهم أحياءً ظاهِرينَ -لا يُواريهم شَيءٌ مِن بِناءٍ أو غيرِه- لِلَّهِ المتفرِّدِ بالمُلْك والخَلقِ والتَّدبيرِ، والعَظَمةِ والكمالِ، الذي قهَرَ كُلَّ خَلْقِه، فهم تحتَ تصَرُّفِه وتَدبيرِه وحُكمِه[٥].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩﴾.

---

(١) عفراءَ: أي: لا يَخلُصُ بَياضُها، بل يَضرِبُ إلى الحُمرةِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٣٤)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٥١٠).

(٢) قُرصَة النَّقِيِّ: أي: رغيف الدَّقيقِ المَنخُولِ النَّظيفِ الأبيضِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٥٤٨)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٥١٠).

(٣) ليس فيها علَمٌ: أي: ليس فيها علامَةُ سُكنى، ولا بناءٌ ولا أثَرٌ، ولا شيءٌ مِن العلاماتِ التي يُهتدى بها في الطُّرُقاتِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٧٥).

(٤) رواه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠)، واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢١، ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

أي: وترى -يا محمَّدُ- الكافرينَ يومَ القيامةِ مُقَيَّدينَ بالأغلالِ والقُيودِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ [الفرقان: ١٣].

وقال سُبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ * إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ * فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٠ - ٧٢].

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠﴾.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ﴾.

أي: ثيابُهم التي يَلبَسونَها مِن القَطِرانِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٠).

قيل: مُقَرَّنة أيديهم وأرجُلُهم إلى رِقابِهم بالأصفادِ. وممن قال بهذا: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠). وممن قال بهذا القولِ مِن السلف: ابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٢).

وقيل: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: بعضُهم إلى بعضٍ، قد جُمِعَ بين النُّظَراء أو الأشكالِ منهم، كلُّ صِنفٍ إلى صِنفٍ. وممَّن قال بهذا: ابنُ كثيرٍ، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

وجمَع البقاعي بينَ المعنيينِ، فقال: (﴿فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ أي: القُيودِ، والمراد هنا: الأغلالُ، أي: السلاسِلُ التي تُجمَعُ الأيدي فيها إلى الأعناقِ، ويُقرَنونَ فيها مع أشكالِهم). ((نظم الدرر)) (١٠/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

قال الزمخشري: (تُطلى به جلودُ أهلِ النَّارِ، حتى يعود طلاؤُه لهم كالسَّرابيل وهي القُمُص، لتجتمِعَ عليهم الأربَعُ: لذعُ القَطِرانِ وحُرقتُه، وإسراعُ النَّارِ في جلودهم، واللَّونُ الوَحش، ونَتْنُ الرِّيحِ. على أنَّ التفاوتَ بين القطرانينِ كالتَّفاوتِ بين النَّارينِ). ((تفسير الزمخشري))

عن أبي مالكٍ الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((النَّائحةُ إذا لم تتُبْ قبل مَوتِها تُقامُ يومَ القيامةِ وعليها سِربالٌ مِن قَطِرانٍ، ودِرعٌ مِن جَرَبٍ[١]))[٢].

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: وتلفَحُ وُجوهَ المُجرِمينَ النَّارُ، فتُحيطُ بها مِن كُلِّ جانبٍ، وتَحرِقُها[٣].

كما قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩-٤٠].

وقال سُبحانه: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

(٢/ ٥٦٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (وجُعِلَتْ سَرابيلُهم مِن قَطِرانٍ؛ لأنَّه شَديدُ الحرارةِ، فيُؤلِمُ الجِلْدَ الواقِعَ هو عليه، فهو لِباسُهم قبْلَ دُخولِ النَّارِ ابتداءً بالعذابِ حتَّى يَقَعوا في النَّارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٣).

(١) دِرعٌ مِن جَرَبٍ: الدِّرعُ من المرأةِ قَميصُها، والجربُ داءٌ يُصيبُ الجلدَ بالحَكَّةِ. والمراد: أنَّه يُسلَّط على أعضاءِ النائحةِ الجربُ والحَكَّةُ، بحيثُ يُغطِّي جِلدَها تغطيةَ الدِّرعِ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٤/ ١٥٧)، ((شرح المشكاة للطيبي)) (٤/ ١٤١٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٠/ ٥٣٨).

(٢) رواه مسلم (٩٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٠).

قال السعدي: (﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ﴾ التي هي أشرَفُ ما في أبدانِهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي: تحيطُ بها وتَصْلاها من كلِّ جانبٍ، وغيرُ الوجوهِ مِن بابِ أولَى وأحرَى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

أي: يفعَلُ اللهُ بالمُجرِمينَ ما يفعَلُ؛ ليكونَ في ذلك جزاءٌ للمُسيءِ على إساءتِه، لا ظُلمًا منه سُبحانه، وكما يعاقِبُ من أساء يُثيبُ من أحسَنَ وأطاع[1].

كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

وقال سُبحانه: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سَريعُ المُحاسَبةِ لعبادِه يومَ القيامةِ، لا يخفَى عليه شيءٌ مِن أعمالِهم[2].

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا اشتَمَلت هذه السُّورةُ على ما قَرَعَ السَّمعَ مِن هذه المواعِظِ والأمثالِ والحِكَمِ التي أبكَمَت البُلَغاءَ، وأخرَسَت الفُصَحاءَ، وبَهَرت العُقولَ؛ تَرجَمَها سُبحانَه بما يصلُحُ عُنوانًا لجميعِ القُرآنِ، فقال تعالى[3]:

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

وقد تقدم تفسير نظير هذه الجملة في تفسير سورة آل عمران- الآية ١٩ من ((التفسير المحرر)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٤١).

أي: هذا القُرآنُ تَبليغٌ مِن اللهِ تعالى إلى جميعِ النَّاسِ؛ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، والإعذارِ إليهم[١]، وهو كفايةٌ لهم في الموعظةِ والتذكيرِ[٢]، وبه يتبلَّغونَ، ويتزوَّدونَ للوُصولِ إلى أعلى المَقاماتِ والدَّرَجاتِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٠).

وممن اختار أنَّ قولَه: ﴿بَلَٰغٌ﴾ بمعنى التبليغِ: الواحدي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابنُ عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٢٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٤).

وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ جرير، وابنِ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٣).

قال ابنُ جريرٍ: (يقولُ تعالى ذكرُه: هذا القرآنُ بلاغٌ للناسِ، أبلَغ الله به إليهم في الحجةِ عليهم، وأعذرَ إليهم بما أنزَل فيه مِن مواعظِه وعبرِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٤).

وممن اختار أنَّ قولَه: ﴿بَلَٰغٌ﴾ بمعنَى الكفايةِ: الزمخشري، والرسعني، وابنُ الجوزي، والرازي، والبيضاوي، وأبو حيان، والعليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٨)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢١)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٩)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٢٦).

وممن جمَع في تفسيرِ قولِه: ﴿بَلَٰغٌ﴾ بينَ معنى الكفايةِ ومعنَى التبليغِ: الشوكاني، فقال: (﴿بَلَٰغٌ﴾، أي: تبليغٌ وكفايةٌ في الموعظةِ والتَّذكيرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

قال السعدي: (﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: يتبلَّغونَ به ويتزوَّدونَ إلى الوصولِ إلى أعلَى المقاماتِ، وأفضلِ الكراماتِ، لما اشتمل عليه مِن الأصولِ والفروعِ، وجميعِ العلومِ التي يحتاجُها العبادُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

وقال الشنقيطي: (والبلاغُ: الكفايةُ، وما تُبلَغُ به البُغيةُ. وما ذَكَره هنا مِن أنَّ هذا القرآنَ فيه الكفايةُ للعابدِينَ، وما يبلغونَ به بُغيتَهم، أي: مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ ذَكَره في غيرِ هذا الموضعِ، كقولِه: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٥٠).

وقال ابنُ أبي زمنين: (يُبَلِّغُهم إلى الجنَّةِ). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٧٨).

كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال سُبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لما كان متعلقُ البلاغِ يتضمَّنُ البشارةَ؛ عُطِف عليه النذارةُ[(١)]، فقال تعالى:

﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾.

أي: وأنزَلْنا القُرآنَ ليُخوَّفَ النَّاسُ به عِقابَ اللهِ، ويُحَذَّروا من نقمتِه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال سُبحانه: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

أي: وليعلمَ النَّاسُ بحُجَجِ القرآنِ وبَراهينِه أنَّ اللهَ المعبودَ بحَقٍّ إلهٌ واحِدٌ، لا يستحِقُّ غيرُه العبادةَ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ١-٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥).

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦].

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

أي: وليتذَكَّرَ ويتَّعِظَ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ بهذا القرآنِ، فيَهتَدوا إلى العمَلِ بما ينفَعُهم، وتَرْكِ ما يضُرُّهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ -أي: العُقولِ الكاملةِ- ما ينفَعُهم فيفعَلوه، وما يضُرُّهم فيتركوه، وبذلك صاروا أولي الألبابِ والبَصائِرِ؛ إذ بالقُرآنِ ازدادت معارِفُهم وآراؤُهم، وتنوَّرَت أفكارُهم لَمَّا أخَذُوه غَضًّا طَرِيًّا، فإنَّه لا يدعو إلَّا إلى أعلى الأخلاقِ والأعمالِ وأفضَلِها، ولا يستدلُّ على ذلك إلَّا بأقوى الأدلَّةِ وأبيَنِها، وهذه القاعدةُ إذا تدَرَّبَ بها العبدُ الذَّكيُّ، لم يزَلْ في صعودٍ ورُقِيٍّ على الدَّوامِ في كلِّ خَصلةٍ حَميدةٍ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٧)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أنَّ اللهَ تعالى قال في الآيةِ الأُولَى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقال في هذه الآيةِ: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ والمقصودُ منه التنبيهُ على أنَّه تعالى لو لم يُقِمِ القيامةَ، ولم ينتقِمْ للمظلومينَ مِن الظَّالِمينَ، لزِمَ إمَّا كونُه غافِلًا، وإمَّا كَونُه مُخلِفًا في الوعدِ، ولَمَّا تقرَّرَ في العقولِ السَّليمةِ أنَّ كُلَّ ذلك مُحالٌ، كان القولُ بأنَّه لا يقيمُ القيامةَ، باطِلًا[١].

٢- إنَّما قال اللهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ مع كونِه سُبحانَه عالِمًا بهم، لا تخفَى عليه خافيةٌ مِن أحوالِهم، برَزوا أو لم يَبرُزوا؛ لأنَّهم كانوا يستَتِرونَ عن العُيونِ عند فِعلِهم للمعاصي، ويظنُّونَ أنَّ ذلك يخفَى على اللهِ تعالى، فالكلامُ خارِجٌ على ما يعتَقِدونَه[٢].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ لَمَّا عَظُمَ الأمرُ بإسنادِ الجَزاءِ إلى الاسمِ الأعظَمِ الجامِعِ لجميعِ صِفاتِ الكَمالِ، اقتضَى ذلك أن يكونَ نَفسُ الكسبِ هو الجزاءَ؛ لأنَّ ذلك أبدَعُ وأدَقُّ في الصُّنعِ، وأبرَعُ بأن يُصَوَّرَ بما يَحِقُّ من الصُّوَرِ المَليحةِ عند إرادةِ الثوابِ، والقبيحةِ عند إرادة العِقابِ[٣].

٤- اللهُ سُبحانَه حَكيمٌ لا يفعَلُ شَيئًا عَبَثًا، ولا لغَيرِ معنًى ومَصلحةٍ، وحِكَمُه هي الغايةُ المقصودةُ بالفِعلِ، بل أفعالُه سُبحانَه صادِرةٌ عن حِكمةٍ بالغةٍ لأجْلِها فعَلَ، كما هي ناشِئةٌ عن أسبابٍ بها فَعَل، وقد دلَّ كَلامُه وكلامُ رَسولِه على هذا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٤٠).

ومن ذلك قَولُه تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[1].

٥- في قول الله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ ذكَرَ الله لِهذا البلاغِ ثلاثَ فوائدَ هي الغايةُ والحكمةُ في إنزالِ الكتُبِ: تكميلَ الرُّسلِ للنَّاسِ، واستكمالَ القوَّةِ النَّظريَّةِ الَّتي مُنْتهى كَمالِها التَّوحيدُ، واستصلاحَ القوَّةِ العَمليَّةِ الَّذي هو التَّدرُّعُ بِلِباسِ التَّقوى، جعَلَنا اللهُ تعالى مِن الفائزينَ بهما، فقوله: ﴿ بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ ﴾ أي: كفايةٌ لهم في الموعظةِ. ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ عطفٌ على محذوفٍ، أي: لينصحوا ولينذروا بهذا البلاغِ ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ بالنظرِ والتأملِ فيما فيه مِن الآياتِ الدالةِ عليه، أو المنبِّهةِ على ما يدلُّ عليه ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ فيرتَدِعوا عما يُرْديهم، ويتدرَّعوا بما يُحْظيهم[2].

٦- بيَّنَ الله تعالى بقوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ أنَّه إنما أنزَلَ هذه الكُتُبَ، وإنما بعَثَ الرُّسُلَ؛ لتذكيرِ أولي الألبابِ، فلولا الشَّرفُ العَظيمُ والمرتبةُ العاليةُ لأولي الألبابِ، لَما كان الأمرُ كذلك[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴾

- قولُه: ﴿ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ ﴾ أصْلُه: مُخلِفَ رُسلِه وعدَه،

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٤- ٢٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٥).

وإنَّما قال ذلك، وقدَّمَ المفعولَ الثَّانيَ على الأوَّلِ؛ فقدَّمَ الوعْدَ؛ لِيُعْلَمَ أنَّه لا يُخلِفُ الوعْدَ أصلًا، كقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، ثمَّ قال: ﴿رُسُلَهُۥ﴾؛ لِيُؤذِنَ أنَّه إذا لم يُخْلِفْ وعدَه أحدًا، وليس مِن شأنِه إخلافُ المواعيدِ؛ فكيف يُخْلِفُه رُسلَه الَّذين هم خِيرتُه وصفوتُه[١]؟!

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ المذكورِ، وتذييلٌ له، وحيثُ كان الوعْدُ عبارةً عن تَعذيبِهم خاصَّةً، لم يُذَيَّلْ بأنْ يُقالَ: (إنَّ اللهَ لا يخلِفُ الميعادَ)، بل تَعرَّضَ لِوصْفِ العزَّةِ والانتقامِ المُشعرَيْنِ بذلك[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ استِئنافٌ لِزيادةِ الإنذارِ بيومِ الحسابِ؛ لأنَّ في هذا تَبْيينَ بَعضِ ما في ذلك اليومِ مِن الأهوالِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ مَحذوفٌ، أي: غيرَ السَّمواتِ؛ حُذِفَ لدَلالةِ ما قبلَه عليه[٤].

- قولُه: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ التَّعرُّضُ للوصفَيْنِ ﴿ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الأمْرَ في غايةِ الصُّعوبةِ، ولِتهويلِ الخطْبِ، وتَربيةِ المَهابةِ، وإظهارِ بُطلانِ الشِّركِ، وتَحقيقِ الانتقامِ في ذلك اليومِ، على تقديرِ كونِه ظرفًا له، وتَحقيقِ إتيانِ العذابِ الموعودِ، على تَقديرِ كونِه بدلًا مِن ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾؛ فإنَّ الأمْرَ إذا كان لواحدٍ غلَّابٍ لا يُعَازُّ، وقادرٍ لا يُضارُّ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٧).

كان في غايةِ ما يكونُ مِن الشِّدَّةِ والصُّعوبةِ[١].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾

- قولُه: ﴿ وَتَرَى ﴾ فيه العُدولُ إلى صِيغَةِ المُضارِعِ؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ، أو للدَّلالةِ على الاستِمرارِ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾

- قولُه: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ خَصَّ الوُجوهَ هنا؛ لأنَّ الوجْهَ أعزُّ مَوضِعٍ في ظاهِرِ البدَنِ وأشرَفُه، كالقلْبِ في باطنِه[٣]؛ فلهذا السَّببِ خصَّ اللهُ تعالى هذين العُضوينِ بظُهورِ آثارِ العِقابِ فيهما، فقال في القلبِ: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ [الهمزة: ٦- ٧]، وقال في الوجهِ: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾[٤] [إبراهيم: ٥٠] ؛ فالوجهُ لَمَّا كان أشرَفَ ما في الإنسانِ- فإهانتُه إهانةٌ عظيمةٌ لصاحِبِه- ذكَرَه وقَدَّمَه؛ تعجيلًا لإفهامِ الإهانةِ[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

- قولُه: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ فيه مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: كلَّ نفْسٍ مُجْرِمةٍ، أو كلَّ نفْسٍ مِن مُجْرِمةٍ ومُطيعَةٍ؛ لأنَّه إذا عاقَبَ المُجرمينَ لِإجرامِهم، عُلِمَ أنَّه يُثيبُ المُطيعينَ لِطاعتِهم، واكتُفِيَ بذكْرِ عِقابِ العُصاةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٣- ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٤٠).

تعويلًا على شهادةِ الحالِ، لا سيَّما مع مُلاحظةِ سبْقِ الرَّحمةِ الواسعةِ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ مُستأنَفَةٌ؛ إمَّا لِتحقيقِ أنَّ ذلك واقعٌ، وإمَّا استئنافٌ ابتدائيٌّ، وأُخِّرَتْ إلى آخِرِ الكلامِ؛ لِتقديمِ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ إذا قُدِّرَ معمولًا لها[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

- قولُه: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: وليعْلَموا ممَّا ذُكِرَ فيه مِن الأدلَّةِ: ما اللهُ إلَّا إلهٌ واحدٌ، أي: مَقصورٌ على الإلهيَّةِ المُوحَّدةِ، وهذا قصْرُ موصوفٍ على صِفَةٍ[٣].

- وقد رُتِّبَت صِفاتُ الآياتِ المُشارِ إليها باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ على تَرتيبٍ عقليٍّ بحسَبِ حُصولِ بعضِها عَقِبَ بعضٍ؛ فابْتُدِئَ بالصِّفةِ العامَّةِ، وهي حُصولُ التَّبليغِ، ثمَّ ما يَعقُبُ حُصولَ التَّبليغِ مِن الإنذارِ، ثمَّ ما ينشَأُ عنه مِن العِلْمِ بالوحدانيَّةِ؛ لِمَا في خِلالِ هذه السُّورةِ مِن الدَّلائلِ، ثمَّ بالتَّذكيرِ في ما جاء به ذلك البلاغُ، وهو تفاصيلُ العِلْمِ والعمَلِ، وهذه المَراتبُ هي جامِعُ حِكمةِ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُوَزَّعة على مَن بلَّغَ إليهم، ويختَصُّ المُسلمونَ بمضمونِ قولِه: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٢، ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥).

تمَّ بحمدِ اللهِ المجلدُ الثاني عشرَ
ويليه المجلدُ الثالثَ عشرَ
وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الحِجرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ الرَّعدِ ٧
أسماءُ السُّورةِ: ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمدَنِيِّ: ٧
مقاصِدُ السُّورةِ: ٨
موضوعاتُ السُّورةِ: ٨
الآيات (١-٤) ٩
غريبُ الكَلِماتِ: ٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٠
المعنى الإجماليُّ: ١٠
تَفسيرُ الآياتِ: ١١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٩
بلاغةُ الآياتِ: ٢١
الآيات (٥-٧) ٣٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٢
المعنى الإجماليُّ: ٣٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٢
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٢
بلاغةُ الآياتِ: ٤٣
الآيات (٨-١١) ٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٨
المعنى الإجماليُّ: ٤٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٠
بلاغةُ الآياتِ: ٦١
الآيات (١٢-١٤) ٦٥
غريبُ الكَلِماتِ: ٦٥
المعنى الإجماليُّ: ٦٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٧٢
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٣
بلاغةُ الآياتِ: ٧٣
الآيات (١٥-١٨) ٧٨
غريبُ الكَلِماتِ: ٧٨
المعنى الإجماليُّ: ٧٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٩٣

بلاغةُ الآياتِ: ٩٥
الآيات (١٩-٢٤) ١١٤
غريبُ الكلماتِ: ١١٤
المعنى الإجماليُّ: ١١٥
تَفسيرُ الآياتِ: ١١٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٢٧
بلاغةُ الآياتِ: ١٢٩
الآيات (٢٥-٢٧) ١٣٦
غريبُ الكلماتِ: ١٣٦
المعنى الإجماليُّ: ١٣٦
تَفسيرُ الآياتِ: ١٣٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٤٢
بلاغةُ الآياتِ: ١٤٣
الآيات (٢٨-٣٠) ١٤٧
غريبُ الكلماتِ: ١٤٧
المعنى الإجماليُّ: ١٤٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٤٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٥٣
بلاغةُ الآياتِ: ١٥٦
الآيتان (٣١-٣٢) ١٦٠
غريبُ الكلماتِ: ١٦٠
المعنى الإجماليُّ: ١٦١
تَفسيرُ الآيتين: ١٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٦٨
بلاغةُ الآيتينِ: ١٦٩
الآيتان (٣٣-٣٤) ١٧٤
المعنى الإجماليُّ: ١٧٤
تَفسيرُ الآيتين: ١٧٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٨٠
الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٨١
بلاغةُ الآيتينِ: ١٨٣
الآيات (٣٥-٣٧) ١٨٨
غريبُ الكلماتِ: ١٨٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٨٨
المعنى الإجماليُّ: ١٨٩
تَفسيرُ الآياتِ: ١٨٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٩٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٩٥
بلاغةُ الآياتِ: ١٩٧
الآيات (٣٨-٤٠) ٢٠١
المعنى الإجماليُّ: ٢٠١

تَفسيرُ الآياتِ: ٢٠١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٠٧
بلاغةُ الآياتِ: ٢٠٨
الآيات (٤١-٤٣) ٢١٢
غريبُ الكلماتِ: ٢١٢
المعنى الإجماليُّ: ٢١٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٢١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢١٩
بلاغةُ الآياتِ: ٢٢١
سورةُ إبراهيمَ ٢٢٧
أسماءُ السُّورةِ: ٢٢٧
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٢٢٧
مقاصِدُ السُّورةِ: ٢٢٧
موضوعاتُ السُّورةِ: ٢٢٨
الآيات (١-٣) ٢٣٠
المعنى الإجماليُّ: ٢٣٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٣٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٣١
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٢٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٣٥
بلاغةُ الآياتِ: ٢٣٨
الآيات (٤-٨) ٢٤٢
غريبُ الكلماتِ: ٢٤٢
المعنى الإجماليُّ: ٢٤٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٤٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٥٤
بلاغةُ الآياتِ: ٢٦٠
الآيات (٩-١٢) ٢٦٧
غريبُ الكلماتِ: ٢٦٧
المعنى الإجماليُّ: ٢٦٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٦٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٧٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٧٧
بلاغةُ الآياتِ: ٢٨١
الآيات (١٣-١٨) ٢٨٧
غريبُ الكلماتِ: ٢٨٧
المعنى الإجماليُّ: ٢٨٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٨٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٩٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٩٧
بلاغةُ الآياتِ: ٢٩٩
الآيات (١٩-٢١) ٣٠٦
غريبُ الكلماتِ: ٣٠٦

المعنَى الإجماليُّ: ٣٠٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٠٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣١٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣١٣
بلاغةُ الآياتِ: ٣١٤
الآيتان (٢٢-٢٣) ٣١٨
غريبُ الكلماتِ: ٣١٨
المعنى الإجماليُّ: ٣١٨
تَفسيرُ الآيتين: ٣١٩
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٣٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٢٥
بلاغةُ الآيتينِ: ٣٢٨
الآيات (٢٤-٢٧) ٣٣٠
غريبُ الكلماتِ: ٣٣٠
المعنى الإجماليُّ: ٣٣٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٣١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٤٠
بلاغةُ الآياتِ: ٣٤٤
الآيات (٢٨-٣١) ٣٤٨
غريبُ الكلماتِ: ٣٤٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٤٨
المَعنى الإجماليُّ: ٣٤٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٤٩
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٣٥٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٥٥
بلاغةُ الآياتِ: ٣٥٦
الآيات (٣٢-٣٤) ٣٦٢
غريبُ الكلماتِ: ٣٦٢
المَعنى الإجماليُّ: ٣٦٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٦٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٦٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٦٨
بلاغةُ الآياتِ: ٣٧٠
الآيات (٣٥-٤١) ٣٧٦
غريبُ الكلماتِ: ٣٧٦
المَعنى الإجماليُّ: ٣٧٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٧٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٨٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٨٩
بلاغةُ الآياتِ: ٣٩٦
الآيات (٤٢-٤٦) ٤٠٤
غريبُ الكلماتِ: ٤٠٤
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٠٥

المَعنى الإجماليُّ: ٤٠٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٠٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤١٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤١٧
بلاغةُ الآياتِ: ٤١٨
الآيات (٤٧-٥٢) ٤٢٤
غريبُ الكلماتِ: ٤٢٤
المَعنى الإجماليُّ: ٤٢٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٢٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٣٦
بلاغةُ الآياتِ: ٤٣٧
الفهرس ٤٤٥

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٣٥ درس

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الحجر وسورة النحل

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة القصيم

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بغزة

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثالث عشر

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الحجر وسورة النحل)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد الثالث عشر – سورة الحجر والنحل/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – ط١ – الظهران، ١٤٣٩هـ

٧٣٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٣-٥٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٣٩/٢٠٩٩

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٣٠٩٩

ردمك: ٣-٥٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣ / فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الحجر وسورة النحل)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثالث عشر

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الحِجْرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الحِجْرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحِجْرِ)[١].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الحِجْرِ مكِّيَّةٌ[٢]، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن أهلِ العِلمِ[٣].

مقاصِدُ السُّورةِ:

من أهمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

تثبيتُ المؤمنينَ[٤].

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحِجْرِ)؛ لاشتمالِها على قِصَّتِهم، في قوله: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الحجر: ٨٠]، ولأنَّ لفظَ (الحِجْرِ) لم يُذكَرْ في غيرها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥).

وقد وردَتْ بعضُ الآثارِ في تسميتِها بذلك، منها ما أخرجه النَّحاسُ في ((ناسخه)) (ص: ٥٣٩) وابنُ مردويه- كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٦١)- عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، وكذلك ما أخرجه ابنُ مردويه- كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٦١)- عن ابنِ الزبيرِ رضي الله عنهما.

(٢) وقيل: مكِّيَّةٌ إلَّا آيةً واحدة مدنيَّة، وهي قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٩).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الماوردي، وابنُ الجوزي، والخازنُ، والفيروزابادي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٧٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٨/ ٨).

موضوعاتُ السُّورةِ:

من أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلتْ عليها السُّورةُ:

١- التَّنويهُ بفَضلِ القُرآنِ ومكانتِه، وتكفُّلِ الله بحفظِه، وبيانُ سوءِ عاقبةِ الكافرينَ الذين أعرضوا عن دعوةِ الحقِّ عن عنادٍ وجحودٍ.

٢- ذِكرُ بعضِ الأدلَّةِ على وحدانيَّةِ الله وقُدرتِه، وما أسبَغه مِن نِعَمٍ على جميعِ خَلْقِه.

٣- حكايةُ قِصَّةِ خلقِ آدمَ عليه السلامُ، وتكليفِ الملائكةِ أن يَسْجدوا له، وامتثالِهم، وتكبُّرِ إبليسَ وحدَه عن ذلك، وطردِه مِن الجنَّةِ.

٤- ذِكرُ بعضِ جوانبَ مِن قَصصِ أنبياءِ الله: إبراهيمَ، ولوطٍ، وشعيبٍ، وصالحٍ، عليهم الصلاةُ والسلامُ.

٥- تسليةُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتثبيتُه أمامَ ما يَلْقاه مِن قومِه.

الآيات (١-٥)

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ذَرۡهُمۡ﴾: أي: اترُكْهم، ودَعْهم، يُقالُ: فلانٌ يَذَرُ الشيءَ، أي: يقذِفُه؛ لقلَّةِ اعتدادِه به[1].

المَعنى الإجماليُّ:

افتتَح الله تعالى هذه السورةَ بهذه الحُروفِ المُقَطَّعةِ- وقد سبَقَ الكلامُ عنها في أوَّلِ سورةِ البَقرةِ- ثمَّ أخبَرَ سُبحانَه أنَّ آياتِ القُرآنِ الكريمِ هي آياتُ الكتابِ الجامِعِ لأنواعِ الكَمالِ، وآياتُ القرآن المُعجزِ المُظهِرِ للحقائقِ بأحسَنِ بَيانٍ، وسيندَمُ الكُفَّارُ يومَ القيامةِ على تَركِ الإيمانِ، ويتمَنَّونَ لو كانوا مُسلِمينَ في الدُّنيا. فاترُكْ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الكُفَّارَ يأكُلوا ويَستَمتِعوا بشهواتِهم، ويَشغَلْهم الأمَلُ عن الإيمانِ بالله وطاعتِه؛ فسوفَ يعلمونَ عاقِبةَ أمْرِهم وأنَّهم خاسرونَ. وما أهلَكْنا أهلَ قَريةٍ إلَّا ولإهلاكِهم أجَلٌ مُقدَّرٌ، لا نُهلِكُهم حتى يَبلُغوه، فلا تتجاوَزُ أمَّةٌ أجَلَها حتى تستوفيَه دونَما نُقصانٍ ولا زيادةٍ.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾

﴿إِلَّا﴾ للحَصرِ، وجملةُ ﴿وَلَهَا كِتَابٞ﴾ اسميَّةٌ في محلِّ نَصبٍ حالٌ مِن

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩١)، و(٤/ ٩٧).

﴿قَرۡيَةٍ﴾، وسوَّغ مجيءَ الحالِ مِن النَّكرةِ وُقوعُ النَّكرةِ بعد نَفْيٍ، واقترانُ واوِ الحالِ بالجُملةِ. وقيل: إنَّ الجُملةَ واقِعةٌ صِفةً للنَّكرةِ قَبلَها ﴿قَرۡيَةٍ﴾، ودخَلَت الواوُ عليها تأكيدًا للُصوقِ الصِّفةِ بالموصوفِ(١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾.

﴿الٓرۚ﴾.

تقدَّم الكلامُ عن الحُروفِ المقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ البَقَرةِ(٢).

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: هذه الآياتُ العاليةُ المَقامِ، الرَّفيعةُ الشَّأنِ، آياتُ الكِتابِ الجامِعِ لأنواعِ الكَمالِ، وآياتُ قرآنٍ عظيمٍ واضحٍ إعجازُه للخَلقِ، مُظهِرٍ للحقائِقِ بأحسَنِ بَيانٍ، وأوضَحِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف: ١].

وقال سُبحانه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢﴾.

أي: سيندمُ الذين كَفَروا باللَّهِ علَى ما كانوا فيه مِنَ الكفرِ، ويتمَنَّونَ لو كانوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢٩١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٤١).

(٢) يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ البقرةِ (١/ ٦٤) من ((التفسير المحرر)).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٨٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠).

مُسلِمينَ في الدُّنيا، مُوَحِّدينَ، مُنقادِينَ لأمرِ اللهِ تعالى، وخاضعينَ لأحكامِه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وقال سُبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩).

قال الشوكاني: (وكانت هذه الوَدادةُ منهم عندَ موتهم أو يومَ القيامة. والمرادُ: أنَّه لَمَّا انكشَف لهم الأمرُ، واتَّضَح بُطلانُ ما كانوا عليه مِن الكفرِ، وأنَّ الدينَ عندَ الله سبحانَه هو الإسلامُ، لا دينَ غيرُه، حصَلَت منهم هذه الوَدادة التي لا تُسمِنُ، ولا تُغني مِن جوعٍ، بل هي لمجرَّدِ التحسُّرِ والتندمِ، ولومِ النفسِ على ما فَرَّطَت في جنبِ الله. وقيل: كانت هذه الوَدادةُ منهم عندَ معاينةِ حالِهم وحالِ المسلمينَ. وقيل: عندَ خروج عُصاةِ الموحِّدينَ مِن النارِ. والظَّاهِرُ أنَّ هذه الوَدادةَ كائنةٌ منهم في كلِّ وقتٍ، مُستمرَّةٌ في كلِّ لحظةٍ بعدَ انكشافِ الأمرِ لهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٦).

وقال الشنقيطي: (أقوالُ العلماءِ في هذه الآيةِ راجعةٌ إلى شيءٍ واحدٍ؛ لأنَّ مَن يقولُ: إنَّ الكافِرَ إذا احتُضِرَ وعايَن الحقيقةَ تمنَّى أنَّه كان مسلمًا، ومَن يقولُ: إنَّه إذا عايَن النَّارَ ووقَف عليها تمنَّى أنَّه كان مسلمًا، ومَن يقولُ: إنَّهم إذا عاينوا إخراجَ الموحِّدين مِن النارِ تمنَّوا أنهم كانوا مسلمينَ، كلُّ ذلك راجِعٌ إلى أنَّ الكُفَّارَ إذا عاينوا الحقيقةَ نَدِموا على الكفرِ، وتمنَّوْا أنَّهم كانوا مسلمينَ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٥٢).

ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۞ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۞ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الزمر: ٥٤ - ٥٨].

وعن صالحِ بن أبي طَريفٍ، قال: قلتُ لأبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه: أسَمِعتَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ في هذه الآيةِ: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾؟ فقال: نعم، سمعتُه يقولُ: ((يُخرِجُ اللهُ أناسًا من النَّارِ [أي: مِن المسلمينَ] بعدما يأخُذُ نِقمَتَه منهم، قال: لَمَّا أدخَلَهم اللهُ النَّارَ مع المُشرِكينَ قال المُشرِكونَ: أليس كُنتُم تَزعُمونَ في الدُّنيا أنَّكم أولياءُ؟ فما لكم معنا في النَّارِ؟! فإذا سَمِعَ اللهُ ذلك منهم أذِنَ في الشَّفاعةِ، فيتشَفَّعُ لهم الملائِكةُ والنبيُّونَ حتى يخرُجوا بإذنِ الله، فلمَّا أُخرِجوا قالوا [أي: المشركونَ]: يا ليتنا كُنَّا مِثلَهم فتُدرِكَنا الشَّفاعةُ فنخرُجَ مِن النَّارِ، فذلك قولُ الله جلَّ وعلا: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ ...))[(١)].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (ما يزالُ اللهُ يشفَعُ ويُدخِلُ الجنَّةَ، ويَرحَمُ ويَشفَعُ، حتى يقولَ: من كان من المُسلمينَ فَليدخُلِ الجنَّةَ، فذاك حين يقولُ: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾)[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧٤٣٢) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٨١١٠).
صححه شعيب الأرناؤوط في تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (١٦/ ٤٥٨).

(٢) أخرجه الحاكم (٣٣٤٥)، والبيهقي في ((البعث والنشور)) (٧٥).
صحح إسناده الحاكم، وذكر البيهقي أن له متابعة، وصححه الذهبي في ((التلخيص)) (٢/ ٣٨٤).
قال الترمذي: (رُوي عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ وإبراهيمَ النخعيِّ وغيرِ واحدٍ مِن التابعينَ في تفسيرِ هذه الآيةِ: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ قالوا: إذا أُخرج أهلُ التوحيدِ مِن النارِ، وأُدخِلوا الجنةَ، ودَّ الذين كفَروا لو كانوا مسلمينَ). ((سنن الترمذي)) (٥/ ٢٤).

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾.

أي: اترُكِ الكُفَّارَ- يا محمَّدُ- يأكلُوا في هذه الدُّنيا ما هم آكِلوه، ويتمَتَّعوا بشَهَواتِها ولذَّاتِها، ويَشغَلْهم الأملُ[١] عن الإيمانِ باللهِ تعالى وطاعتِه، والاستعدادِ للآخرةِ[٢].

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

أي: فسوفَ يعلَمُ الكُفَّارُ أنَّهم خاسِرونَ، وأنَّ عاقِبةَ كُفرِهم عذابٌ أليمٌ مُهينٌ[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢].

وقال سُبحانه: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦].

---

(١) قال الألوسي: (﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ ويشغلْهم التوقعُ لطولِ الأعمارِ، وبلوغِ الأوطارِ، واستقامةِ الأحوالِ، وأن لا يَلْقَوا إلَّا خيرًا في العاقبةِ والمآلِ). ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٥٧).
وقال القرطبي: (وحقيقةُ الأملِ: الحرصُ على الدُّنيا، والانكبابُ عليها، والحبُّ لها، والإعراضُ عن الآخرةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٣).
قال الشنقيطي: (وقد تقرَّر في فنِّ المعاني وفي مبحثِ الأمرِ عندَ الأصوليِّينَ أنَّ مِن المعاني الَّتي تأتي لها صيغةُ افْعَل: التَّهديدَ، كما في الآيةِ المذكورةِ،... وقال بعضُ العلماءِ: هذه الآيةُ منسوخةٌ بآياتِ السَّيفِ، والعلمُ عندَ اللَّه تعالَى). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٣).

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا توعَّدَ اللهُ تعالى مِن قَبلُ مَن كذَّبَ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم بقولِه: ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾، أتبَعَه بما يؤكِّدُ الزَّجرَ، وهو قولُه تعالى[1]:

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ ﴾.

أي: وما أهلَكْنا أهلَ قريةٍ يستَحِقُّونَ العذابَ إلَّا وكان لهلاكِهم زمنٌ محدَّدٌ مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، فلا نُهلِكُهم حتى يَبلُغوه[2].

﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥ ﴾.

أي: لا يتقدَّمُ هلاكُ أمَّةٍ قبلَ الوَقتِ الذي قدَّرَهُ اللهُ لهلاكِها، ولا يستأخِرُ فيتجاوَزُ الوقتَ المحدَّدَ له[3].

كما قال سُبحانه: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٦).

قال ابن كثير: (وهذا تنبيهٌ لأهل مكَّة، وإرشادٌ لهم إلى الإقلاعِ عمَّا هم فيه من الشِّركِ والعنادِ والإلحاد، الذي يستحِقُّونَ به الهلاكَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٦-٥٢٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ التلذُّذَ والتنعُّمَ، وعدمَ الاستعدادِ للمَوتِ والتأهُّبِ له؛ ليس من أخلاقِ مَن يطلُبَ النَّجاةَ مِن عذابِ اللهِ في الآخرةِ[١]، وفيه تعزيةٌ لما منَعه الله تعالى أولياءَه مِن التمتعِ بالدُّنيا، وكثرةِ الأكلِ فيها، وتأديبٌ لمن بسَط له فيها ألَّا يطغَى فيها، ولا يُعطي نفسَه شهواتِها[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ طولُ الأمَلِ داءٌ عُضالٌ ومَرَضٌ مُزمِنٌ، ومتى تمكَّنَ مِن القلبِ فسَدَ مِزاجُه، واشتَدَّ عِلاجُه، ولم يفارِقْه داءٌ، ولا نَجَعَ فيه دواءٌ، بل أعيا الأطبَّاءَ، ويَئِسَ من بُرئِه الحُكَماءُ والعُلَماء. وحقيقةُ الأمَلِ: الحِرصُ على الدُّنيا، والانكبابُ عليها، والحُبُّ لها، والإعراضُ عن الآخرة، قال الحسَنُ: (ما أطال عبدٌ الأمَلَ إلَّا أساءَ العمَلَ). فالأمَلُ يُكسِلُ عن العمَلِ، ويُورِثُ التَّراخيَ والتَّوانيَ، ويُعقِبُ التَّشاغُلَ والتَّقاعُسَ، ويُخْلِدُ إلى الأرضِ، ويُميلُ إلى الهَوى، وهذا أمرٌ قد شُوهِدَ بالعِيانِ، فلا يَحتاجُ إلى بَيان، ولا يُطلَبُ صاحِبُه ببُرهانٍ، كما أنَّ قِصَرَ الأمَل يبعَثُ على العَمَل، ويُحيلُ على المُبادرة، ويَحُثُّ على المُسابَقة[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾ سمِّي القرآنُ كتابًا؛ لأنَّهم مأمورون بكتابةِ ما ينزلُ منه؛ لحفظِه ومراجعتِه، فقد سمِّي القرآنُ كتابًا قبلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢-٣).

أن يُكتبَ ويُجمعَ؛ لأنَّه بحيثُ يكونُ كتابًا[١]، وفي هذه التسميةِ معجزةٌ للرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ ما أُوحِي إليه سيُكتَبُ في المصاحفِ، ولذلك اتَّخَذ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن أصحابِه كُتَّابًا يكتبُون ما أُنزِل إليه، ومِن أوَّلِ ما ابتُدِئ نزولُه. وقد وُجِد جميعُ ما حفِظه المسلمونَ في قلوبِهم على قَدْرِ ما وجَدوه مكتوبًا يومَ أمَر أبو بكرٍ بكتابةِ المصحفِ[٢].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ يَستدِلُّ به مَن قال: إنَّ (رُبَّ) للتَّكثيرِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ في الوعيدِ، إذْ لو كانت ذنوبُ المُسلِمينَ تُخَلِّدُهم مع الكفَّارِ في النَّارِ، ما وَدُّوا إسلامَهم، ولا تَحَسَّروا على ما رأوا مِن انتقالِ حالِهم، ولو كان لا يَسعَدُ بالجنَّةِ إلَّا صالِحو المُسلِمينَ والأنقياءُ مِن الذُّنوبِ، لكان- واللهُ أعلمُ-: «ربَما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٠).

قال القرطبي: (أصلُها أن تُستعمَلَ في القليلِ، وقد تُستعملُ في الكثيرِ، أي: يودُّ الكفَّارُ في أوقاتٍ كثيرةٍ لو كانوا مسلمينَ، قاله الكوفيُّونَ... وقال بعضُهم: هي للتقليلِ في هذا الموضعِ؛ لأنَّهم قالوا ذلك في بعضِ المواضعِ لا في كلِّها، لشغلِهم بالعذابِ، واللَّهُ أعلمُ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١).

قال ابنُ عطية: (و«رُبَّما» للتقليلِ، وقد تجيءُ شاذةً للتكثيرِ، وقال قومٌ: إنَّ هذه مِن ذلك. وأنكَر الزجَّاجُ أن تجيءَ «رُبَّ» للتكثيرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٩)، ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٧٣).

ومنهم مَن جمَع بينَ المعنيينِ بأنَّ مَن قال: إنَّها للتكثيرِ نظَر إلى المرَّاتِ مِن التمنِّي، ومَن قال: إنَّها للتقليلِ نظَر إلى أزمانِ إفاقتِهم مِن العذابِ، فلا تنافيَ بينَ القولينِ؛ لأنَّ التمنِّي يقعُ كثيرًا منهم في زمنِ إفاقتِهم القليلِ. يُنظر: ((حاشية الجمل على تفسير الجلالين)) (٢/ ٥٦٣).

يَوَدُّ الذين كفَروا لو كانوا صالحينَ»[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ قال بعضُ أهل العِلمِ: (﴿ ذَرْهُمْ ﴾ تهديدٌ، وقولُه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ تهديدٌ آخَرُ، فمتى يهنأُ العَيشُ بين تهديدَينِ)[٢].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ دلَّت الآيةُ على أنَّ كُلَّ من مات أو قُتِلَ، فإنَّما مات بأجَلِه، فقولُه: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا ﴾ إنْ دخَل تحتَه الموتُ فالاستدلالُ ظاهِرٌ لازِمٌ، وإنْ لم يدخُلْ فيُقالُ: إنَّ ما لأجلِه وَجَب في عذابِ الاستئصالِ أنْ لا يتقَدَّمَ ولا يتأخَّرَ عن وقتِه المعيَّنِ قائِمٌ في الموتِ، فوجَب أنْ يكونَ الحكمُ هاهنا كذلك[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾

- قولُه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ وهذه الإشارةُ (تلك)؛ لتنزيلِ آياتِ القُرآنِ مَنْزِلةَ الحاضِرِ المُشاهَدِ، ووقَعَت هذه الآيةُ في مُفتتَحِ تهديدِ المُكذِّبينَ بالقُرآنِ؛ لقصدِ الإعذارِ إليهم باستدعائِهم للنَّظرِ في دلائلِ صدْقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وحَقِّيَّةِ دِينِه. و(الكتابُ) عَلَمٌ بالغلبَةِ على القُرآنِ، ولمَّا كان أصلُ التَّعريفِ باللَّامِ في الاسمِ المجعولِ عَلَمًا بالغلبَةِ جائيًا مِن التَّوسُّلِ بحرفِ التَّعريفِ إلى الدَّلالةِ على معنى كَمالِ الجنسِ في المُعرَّفِ به: لم ينقطِعْ عنِ العلَمِ بالغلبَةِ أنَّه فائقٌ في جِنْسِه بمعونةِ المقامِ؛

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢١).

فاقتضى أنَّ تلك الآياتِ هي آياتُ كتابٍ بالِغٍ مُنْتهى كَمالِ جِنْسِه، أي: مِن كُتُبِ الشَّرائعِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ تَنْكيرُ القُرآنِ؛ للتَّفخيمِ، أي: تلك آياتُ الكتابِ الكامِلِ الجامِعِ في كونِه كتابًا كاملًا، وقُرآنًا يُبَيِّنُ الرُّشدَ مِن الغَيِّ بيانًا غريبًا، كأنَّه قيل: الكتابُ الجامِعُ للكمالِ والغَرابةِ في البَيانِ[٢].

- وعُطِفَ ﴿وَقُرْءَانٍ﴾ على الكتابِ؛ لأنَّ اسمَ القُرآنِ جُعِلَ عَلَمًا على ما أُنْزِلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للإعجازِ والتَّشريعِ؛ فهو الاسمُ العَلَمُ لكتابِ الإسلامِ، مثلُ اسمِ التَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبُورِ للكُتُبِ المُشتهِرَةِ بتلك الأسماءِ، وللإشارةِ إلى ما في كلٍّ مِن العَلَمَينِ مِن معنًى ليس في العَلَمِ الآخرِ؛ حَسُنَ الجمعُ بينهما بطريقِ العطْفِ[٣]، فكُلُّ واحدٍ منهما يُفيدُ معنًى لا يُفيدُه الآخَرُ؛ فإنَّ الكِتابَ هو ما يُكتَبُ، والقرآنَ هو ما يُجمَعُ بَعضُه إلى بعضٍ[٤].

وقيل: جمَع بينَ وصفيِ الكتابيَّةِ والقرآنيَّةِ؛ لما فيه مِن تفخيمِ شأنِ القرآنِ، حيثُ أُشير بالأوَّلِ -أي: الكتابِ- إلى اشتمالِه على صفاتِ كمالِ جنسِ الكتبِ الإلهيَّةِ، فكأنَّه كلُّها، وبالثاني -أي: القرآنِ- إلى كونِه ممتازًا عن غيرِه، بديعًا في بابِه، خارجًا عن دائرةِ البيانِ، قرآنًا غيرَ ذي عوجٍ[٥]. وقيل: كأنَّ الأوَّلَ إشارةٌ إلى حفظِه في الطروسِ بالكتابةِ، والثاني إلى حفظِه في الصدورِ بالدراسةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٥٠).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣-٤).

- قولُه: ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ (المُبين) اسمُ فاعلٍ مِن (أبانَ) القاصِرِ الَّذي هو بمعنى (بان)؛ مُبالغةً في ظُهورِه، أي: ظُهورِ قُرآنيَّتِه العظيمةِ، أي: ظُهورِ إعجازِه الَّذي تَحَقَّقَه المُعانِدونَ وغيرُهم، ولم نَقُلْ: إنَّ المُبينَ بمعنى (أبان) المُتعدِّي؛ لأنَّ كونَه بَيِّنًا في نفْسِه أشدُّ في توبيخِ مُنْكِريه مِن وصْفِه بأنَّه مُظْهِرٌ لِمَا اشتمَلَ عليه[1].

- وفي قولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث ابْتُدِئَ بالمُعرَّفِ باللَّامِ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لِمَا في التَّعريفِ مِن إيذانٍ بالشُّهرةِ والوُضوحِ، وما فيه مِن الدَّلالةِ على معنى الكَمالِ، ولأنَّ المُعرَّفَ هو أصْلُ الإخبارِ والأوصافِ. ثمَّ جِيءَ بالمُنكَّرِ ﴿وَقُرْءَانٍ﴾؛ لأنَّه أُرِيدَ وصْفُه بالمُبينِ، والمُنَكَّرُ أنسَبُ بإجراءِ الأوصافِ عليه، ولأنَّ التَّنكيرَ يدلُّ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ؛ فوُزِّعَت الدَّلالتانِ على نُكْتَةِ التَّعريفِ ونُكْتَةِ التَّنكيرِ. وأمَّا تقديمُ الكتابِ على القُرآنِ في الذِّكْرِ؛ فلأنَّ سِياقَ الكلامِ توبيخُ الكافرينَ وتهديدُهم بأنَّهم سيجيءُ وقْتٌ يتمَنَّونَ فيه أنْ لو كانوا مُؤمنينَ؛ فلمَّا كان الكلامُ مُوجَّهًا إلى المُنكِرينَ ناسَبَ أنْ يستحضِرَ المُنزَّلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعُنوانِه الأعمِّ، وهو كونُه كِتابًا؛ لأنَّهم حين جادَلوا ما جادلوا إلَّا في كتابٍ، فقالوا: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧]؛ ولأنَّهم يعرِفونَ ما عندَ الأُمَمِ الآخرينَ بعُنوانِ (كِتابٍ)، ويعرِفونَهم بعُنوانِ (أهْلِ الكتابِ)، وأمَّا عُنوانُ (القُرآنِ) فهو مُناسِبٌ لكونِ الكتابِ مَقروءًا مَدْروسًا، وإنَّما يقرَؤُه ويدرُسُه المُؤمِنونَ به؛ ولذلك قُدِّمَ عُنوانُ (القُرآنِ) في سُورةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠).

النَّملِ في قولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[١] [النمل: ١].

وقيل: لما كان الغالبُ في هذه السورةِ القطعَ الذي هو مِن لوازمِ الكتابِ قدَّمه، وذلك أنَّه قطَع بأمرِ الأجلِ والملائكةِ، وحفظِ الكتابِ والرميِ بالشُّهب، وكفايةِ المستهزئين، فكان كما قال سبحانَه، وكان الجمعُ بينَ الوصفينِ- أي: وصفِه بكونِه كتابًا وقرآنًا- الدال كلٌّ منهما على الجمعِ؛ إشارةً إلى الردِّ عليهم في جعلِهم القرآنَ عضين، وأنَّ قولَهم شديدُ المباعدةِ لمعناه. مع أنَّ المفهومينِ- مع تصادُقِهما على شيءٍ واحدٍ- متغايرانِ، فالكتابُ: ما يُدوَّنُ في الطُّروسِ، والقرآنُ: ما يُقرأُ باللسانِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ اسْتِئنافٌ ابْتِدائيٌّ، وهو مُفتتَحُ الغرَضِ وما قبْلَه كالتَّنبيهِ والإنذارِ، والكلامُ خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ والتَّهويلِ في عدَمِ اتِّباعِهم دينَ الإسلامِ، والتَّقليلُ هنا مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ والتَّخويفِ، أي: احْذَروا وَدادَتَكم أنْ تكونوا مُسلمينَ؛ فلعلَّها أنْ تقَعَ نادِرًا. و(لو) في ﴿لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ مُستعمَلَةٌ في التَّمنِّي؛ لأنَّ أصلَها الشَّرطيَّةُ؛ إذ هي حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ؛ فهي مُناسِبةٌ لمعنى التَّمنِّي الَّذي هو طلَبُ الأمْرِ المُمْتنعِ الحُصولِ؛ فإذا وقَعَت بعدَ ما يدلُّ على التَّمنِّي استُعْمِلَت في ذلك، كأنَّها على تقديرِ قولٍ محذوفٍ يقولُه المُتَمنِّي، ولمَّا حُذِفَ فِعْلُ القولِ عُدِلَ في حِكايةِ المقولِ إلى حكايتِه بالمعنى، فأصْلُ ﴿لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾: (لو كنَّا مُسلمينَ)، والْتُزِمَ حذْفُ جوابِ (لو)؛ اكتفاءً بدَلالةِ المَقامِ عليه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨- ٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣-٤).

ثمَّ شاع حذْفُ القولِ، فأفادت (لو) معنى المصدريَّةِ؛ فصار المعنى: (يودُّ الَّذين كفَروا كونَهم مُسلمينَ)؛ ولذلك عَدُّوها مِن حُروفِ المصدريَّةِ، وإنَّما المصدرُ معنًى عارضٌ في الكلامِ وليس مَدْلولَها بالوضْعِ[١].

- قولُه: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ﴾ (رُبَّ) حرفُ جَرٍّ لا يدخُلُ إلَّا على الاسمِ، و(ما) كافَّةٌ مُصحِّحةٌ لدُخولِه على الفعْلِ، وحقُّه الدُّخولُ على الماضي، ودُخولُه على المُضارعِ هنا في قولِه تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّه لمَّا كان المُتَرَقَّبُ في أخبارِ اللهِ تعالى كالماضي المقطوعِ به في تحقُّقِه، أُجْرِيَ مَجْراه، فكأنَّه قيلَ: (رُبَّما وَدَّ). ومعنى التَّقليلِ فيه: الإيذانُ بأنَّهم لو كانوا يودُّونَ الإسلامَ مَرَّةً، فبالحَرِيِّ أنْ يُسارِعوا إليه؛ فكيف وهم يَوَدُّونَه كلَّ ساعةٍ؟! وهذا التَّقليلُ واردٌ على مذهَبِ العربِ في قولِهم: لعلَّك ستندَمُ على فعْلِك، ورُبَّما ندِمَ الإنسانُ على ما فعَلَ، ولا يشُكُّونَ في تَنَدُّمِه، ولا يقصِدونَ تقليلَه، ولكنَّهم أرادوا: لو كان النَّدمُ مشكوكًا فيه أو كان قليلًا، لحَقَّ عليك ألَّا تفعَلَ هذا الفعْلَ؛ لأنَّ العُقلاءَ يتحرَّزونَ مِن التَّعرُّضِ للغَمِّ المَظنونِ كما يتحرَّزونَ مِن المُتيقَّنِ، ومِن القليلِ منه كما مِن الكثيرِ[٢]. وقيل في سبَبِ التَّقليلِ الَّذي تفيدُه (رُبَّ): إنَّ العرَبَ تُعَبِّرُ عنِ المعنى بما يُؤَدِّي عكْسَ مقصودِه، وكِلَا هذينِ الوجهَينِ يحمِلُ الكلامَ على المُبالغةِ بنوعٍ مِن الإيقاظِ إليها، والعُمدةُ في ذلك على سِياقِ الكلامِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١ - ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢١٦)، ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ الغرَضُ منه إقناطُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن ارْعِوائِهم، وإيذانُه بأنَّهم مِن أهلِ الخِذْلانِ، وأنَّ نُصْحَهم يُعَدُّ اشتغالًا بما لا طائلَ تحتَه، وفيه إلزامٌ للحُجَّةِ ومُبالغةٌ في الإنذارِ وإعذارٌ فيه، وتحذيرٌ عن إيثارِ التَّنعُّمِ وما يُؤَدِّي إليه طولُ الأملِ[(١)]. ولمَّا دَلَّت (رُبَّ) على التَّقليلِ اقتَضَت أنَّ استمرارَهم على غُلْوَائِهم هو أكثرُ حالِهم، وهو الإعراضُ عمَّا يَدْعوهم إليه الإسلامُ مِن الكَمالِ النَّفسيِّ؛ فبإعراضِهم عنه رَضُوا لأنفُسِهم بحياةِ الأنعامِ، وهي الاقتصارُ على اللَّذاتِ الجَسديَّةِ؛ فخُوطِبَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما يُعَرِّضُ لهم بذلك مِن أنَّ حياتَهم حياةُ أكْلٍ وشُرْبٍ، وذلك ممَّا يَتَعيَّرونَ به في مَجاري أقوالِهم، والأمْرُ بتركِهم مُستعمَلٌ في لازمِه، وهو قِلَّةُ جَدْوى الحرْصِ على إصلاحِهم، وليس مستعْمَلًا في الإذنِ بمُتاركتِهم؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مأمورٌ بالدَّوامِ على دُعائِهم. وقد حُذِفَ مُتعلِّقُ التَّركِ؛ لأنَّ الفعْلَ نُزِّلَ مَنْزِلةَ ما لا يحتاجُ إلى مُتعلِّقٍ؛ إذ المَعْنِيُّ به ترْكُ الاشتغالِ بهم، والبُعْدُ عنهم؛ فلذلك عُدِّيَ فعْلُ التَّرْكِ إلى ذواتِهم؛ ليدُلَّ على اليأْسِ منهم[(٢)].

- وقولُه: ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ ﴾ وعيدٌ وتهديدٌ، ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ وعيدٌ ثانٍ[(٣)].

- وفي تَقْديمِ الأكْلِ إيذانٌ بأنَّ تمتُّعَهم إنَّما هو مِن قَبيلِ تَمتُّعِ البَهائمِ بالمآكِلِ والمَشارِبِ، والمُرادُ: دوامُهم على ذلك لا إحداثُه؛ فإنَّهم كانوا كذلك. أو

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥٠).

تمتُّعُهم بلا استماعِ ما يُنَغِّصُ عَيْشَهم مِن القوارعِ والزَّواجِرِ؛ فإنَّ التَّمتُّعَ على ذلك الوجْهِ أمْرٌ حادثٌ يصلُحُ أنْ يكونَ مُترتِّبًا على تَخْلِيَتِهم وشأْنَهم[١].

- قولُه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا وعيدٌ أيَّما وعيدٍ، وتهديدٌ بعدَ تهديدٍ، ومع ذلك فهو تعليلٌ للأمْرِ بالتَّركِ؛ فإنَّ عِلْمَهم ذلك عِلَّةٌ لترْكِ النَّهيِ والنَّصيحةِ لهم، وفيه إلزامٌ للحُجَّةِ، ومُبالغةٌ في الإنذارِ؛ إذ لا يتحقَّقُ الأمْرُ بالضِّدِّ إلَّا بعدَ تكرُّرِ الإنذارِ، وتقرُّرِ الجُحودِ والإنكارِ، وكذلك ما ترتَّبَ عليه مِن الأكْلِ والتَّمتُّعِ والإلهاءِ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾

- ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ صِلَةٌ؛ تفيدُ استغراقَ الجِنْسِ[٣]، وهي أيضًا للتَّأكيدِ[٤].

- قولُه: ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ اعتراضٌ تَذْييليٌّ؛ لأنَّ في هذه الجُملةِ حُكْمًا يشمَلُهم، وهو حكمُ إمْهالِ الأُمَمِ الَّتي حَقَّ عليها الهلاكُ، أي: ما أهلَكْنا أُمَّةً إلَّا وقد متَّعْناها زَمَنًا، وكان لهلاكِها أجَلٌ ووقْتٌ محدودٌ؛ فهي مُمَتَّعةٌ قبْلَ حُلولِه، وهي مأخوذةٌ عندَ إبَّانِه[٥].

- قولُه: ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ جُملةٌ واقعةٌ صِفَةً لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، والقياسُ ألَّا يتوسَّطَ الواوُ بينهما، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١).

﴾[الشعراء: ٢٠٨]، ولكنْ لمَّا شابَهَت صُورتُها الحالَ، أُدْخِلَت وتوسَّطَت؛ لتأكيدِ لُصوقِ الصِّفةِ بالموصوفِ، كما يُقال في الحالِ: (جاءني زيدٌ عليه ثوبٌ، وجاءني وعليه ثوبٌ)، وللإيذانِ بكَمالِ الالْتِصاقِ بينَهما مِن حيثُ إنَّ الواوَ شأْنُها الجمْعُ والرَّبطُ؛ فإنَّ ما نحن فيه مِن الصِّفةِ أقْوى لُصوقًا بالموصوفِ منها به[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ هذا تعريضٌ لتهديدٍ ووعيدٍ مُؤَيَّدٍ بتَنْظيرِهم بالمُكذِّبينَ السَّالِفينَ[٢].

- قولُه: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ جُملةُ ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾؛ لبيانِ فائدةِ التَّحديدِ: أنَّه عَدمُ المُجاوزةِ بَدْءًا ونِهايةً. وأُنِّثَ مُفْردًا ضميرُ الأُمَّةِ مَرَّةً؛ مُراعاةً للَّفْظِ في قولِه: ﴿مَّا تَسْبِقُ﴾، وجُمِعَ مُذكَّرًا في قولِه: ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾؛ مُراعاةً للمعنى، وحُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ وهو (عنه)؛ للعلْمِ به، أي: وما يستأْخِرونَ عنه[٣]. وكذلك جاء إيرادُ الفعْلِ على صِيغَةِ جمْعِ المُذكَّرِ ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾؛ للحمْلِ على المعنى مع التَّغليبِ، ولِرعايةِ الفواصِلِ؛ ولذلك حُذِفَ الجارُّ والمجرورُ[٤].

- قولُه: ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ معنى ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾: يتأَخَّرونَ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٦).

للتَّأكيدِ[١]، وعُبِّرَ فيه بصِيغةِ الاستفعالِ؛ للإشعارِ بعجْزِهم عن ذلك مع طلَبِهم له، وإيثارُ صِيغَةِ المُضارعِ في الفعلَينِ (تَسْبِقُ- يَسْتَأْخِرُونَ) بعدَما ذُكِرَ نفْيُ الإهلاكِ بصِيغَةِ الماضي ﴿أَهْلَكْنَا﴾؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ دوامِهما واسْتِمرارِهما فيما بينَ الأُمَمِ الماضيةِ والباقيةِ، وإسنادُهما إلى الأُمَّةِ بعدَ إسنادِ الإهلاكِ إلى القريةِ؛ لأنَّ السَّبْقَ والاستئخارَ حالُ الأُمَّةِ دونَ القريةِ، مع ما في (الأُمَّةِ) مِن العُمومِ لأهْلِ تلك القُرى وغيرِهم ممَّن أُخِّرَت عُقوباتُهم إلى الآخرةِ، وتأخيرُ ذِكْرِ عدَمِ تأخُّرِهم عن ذِكْرِ عدَمِ سبْقِهم مع كونِ المَقامِ مَقامَ المُبالغةِ في بيانِ تحقُّقِ عذابِهم؛ إمَّا باعتبارِ تقدُّمِ السَّبْقِ في الوجودِ، وإمَّا باعتبارِ أنَّ المُرادَ بيانُ سِرِّ تأخيرِ عذابِهم مع استحقاقِهم لذلك[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٦).

الآيات (٦-٩)

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّنظَرِينَ﴾: أي: مُؤخَّرينَ، والإنظارُ: التَّأخيرُ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى أنَّ المشركينَ قالوا للنبيِّ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم استهزاءً: يا من يزعُمُ نُزولَ القُرآنِ عليه، إنَّك لَمجنونٌ فيما تدعونا إليه مِن اتِّباعِك، وتَركِ ما وجَدنا عليه آباءَنا، هلَّا تأتينا بالملائِكةِ؛ لتشهَدَ على قولِك، إن كنتَ صادِقًا. فردَّ الله عليهم مقولتَهم بقولِه: لا نُنَزِّلُ الملائِكةَ إلَّا بالحَقِّ- كالوحي أو العذابِ- لا بحسَبِ اقتراحاتِهم، وما كان اللهُ لِيُمهِلَهم حين تَنزِلُ عليهم الملائِكةُ -كما اقترحوا- ويرونهم ولا يؤمنون، بل سيعذِّبُهم حينئذٍ.

أوَلم يكفِهم مِن الآياتِ هذا القرآنُ الذي نزَّله الله تعالى على نبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، والذي تولَّى حِفظَه جلَّ وعلا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بالغَ اللهُ تعالى في تهديدِ الكُفَّارِ؛ ذكَرَ بعده شُبَهَهم في إنكارِ نبُوَّةِ النبيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

وأيضًا فإنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ [الحِجر: ٣]، والمناسبةُ أنَّ المعطوفَ عليها تضمَّنَت انهِماكَهم في الملذَّاتِ والآمالِ، وهذه تضَمَّنَت توغُّلَهم في الكُفرِ، وتكذيبَهم الرِّسالةَ المُحمَّديَّة[٢].

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾.

أي: وقال مُشرِكو قُريشٍ لمحمَّدٍ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- تهكُّمًا به: يا مَن يزعُمُ أنَّ اللهَ نزَّل عليه القرآنَ، إنَّك لَمجنونٌ في دَعوتِك لنا إلى اتِّباعِك، وتَرْكِ عبادةِ الأصنامِ التي وجَدْنا عليها آباءَنا[٣].

﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

أي: وقالوا له: هلَّا تُحضِرُ إلينا الملائِكةَ؛ ليَشهَدوا لك على ما تَقولُ، إن كنتَ من الصَّادِقينَ في أنَّك رَسولٌ مِن عندِ اللهِ حقًّا، فإنْ لم تأتِنا بالملائكةِ، فلسْتَ بصادقٍ في دَعواك[٤].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٤).

لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقال تعالى حاكيًا قولَ فِرعونَ عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣].

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ٨﴾.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: ما نُنَزِّلُ الملائِكةَ إلَّا بما يحِقُّ ويجِبُ- كالوحيِ أو العذابِ، وغيرِ ذلك- تَنزيلًا مُلتَبِسًا بالحِكمةِ والمصلحةِ، لا على حسَبِ اقتراحِ الكُفَّارِ[1].

﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾.

أي: ولو نزَّلنا الملائِكةَ على الكُفَّارِ- كما اقتَرَحوا- فرَأَوا الملائِكةَ عِيانًا ولم يُؤمِنوا؛ فلن يُمهِلَهم اللهُ، وسيُعَذِّبُهم في الحالِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٥).

قال أبو حيان: (الحَقُّ هنا: العذابُ، قاله الحسنُ، أو الرِّسالةُ، قاله مجاهدٌ، أو قبضُ الأرواحِ عندَ الموتِ، قاله ابنُ السائبِ، أو القرآنُ، ذكَره الماوردي. وقال الزمخشري: إلَّا تنزُّلًا مُلتَبِسًا بالحكمةِ والمصلحةِ، ولا حكمةَ في أن تأتيَكم عِيانًا تشاهِدونَهم، ويشهدونَ لكم بصدقِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم؛ لأنَّكم حينئذٍ مصَدِّقونَ عن اضطرارٍ. وقال ابنُ عطيةَ: والظاهرُ أنَّ معناها: كما يجِبُ ويحِقُّ مِن الوحيِ والمنافعِ التي أرادَها الله تعالى لعبادِه، لا على اقتراحِ كافرٍ، ولا باختيارِ مُعتَرِضٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٤).

قال السمعاني: (الحقُّ الَّذي تنزِلُ به الملائكةُ هو الوحيُ، وقبضُ أرواحِ العبادِ، وإهلاكُ الكفَّارِ، وكتابة الأعمالِ، وما أشبهَ ذلك). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٥، ٤١٦)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه استِئنافٌ لإبطالِ جُزءٍ مِن كَلامِ الكافرينَ المُستَهزِئينَ به، إذ قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾، بعدَ أن عجَّلَ كَشْفَ شُبهَتِهم في قَولِهم: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1].

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾.

أي: إنَّا نحنُ نزَّلْنا القرآنَ الذي فيه الذِّكرَى والموعِظةُ والشَّرَفُ[2].

الخازن)) (٣/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩).

وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، وابنُ جُزي، والخازنُ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٥٨).

وقيل: المعنى: ولو نزَّلنا الملائكةَ على الكفَّارِ بالعذابِ، فلن يُؤخِّرَ الله عنهم العذابَ حينَ نزولِه، ولن تُقبَلَ لهم توبةٌ. وممن اختار هذا المعنى: القرطبي، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤-٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٥).

قال ابنُ الجوزي: (الذِّكرُ: القرآنُ، في قولِ جميعِ المفسِّرين). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٥).

وقال الرازي: (في تسميةِ القرآنِ بالذِّكْرِ وجوهٌ: أحدُها: أنَّه كتابٌ فيه ذِكْرُ ما يحتاجُ إليه النَّاسُ مِنْ أمرِ دينِهم ودُنْياهم. وثانيها: أنَّه يذكُرُ أنواعَ آلاءِ اللَّه تعالَى ونعمائِه، ففيه التَّذكيرُ والمواعِظُ.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

وإنَّا له لحافِظونَ في حالِ إنزالِه مِن استِراقِ كلِّ شَيطانٍ رَجيمٍ، وبعدَ إنزالِه بحِفظِ ألفاظِه ومعانيه من الزِّيادةِ والنَّقصِ والتَّحريفِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

وقال سُبحانه: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ * فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١-٢٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ قد أرادوا الاستهزاءَ بوصْفِه، فأنطَقَهم اللهُ بالحقِّ فيه صرْفًا لألسنتِهم عنِ الشَّتْمِ، وهذا كما كانوا إذا شَتَموا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو هَجَوه يَدْعونَه مُذَمَّمًا(٢).

٢- قولُ المكذبينَ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ * لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ مِن أعظمِ الظلمِ والجهلِ، أمَّا الظلمُ فظاهرٌ؛ فإنَّ هذا تجرؤٌ على الله، وتعنُّتٌ بتعيينِ الآياتِ التي

وثالثُها: فيه الذِّكرُ والشَّرفُ لك ولقومِكَ على ما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦).

عن أبي هريرةَ، رضِي اللَّه عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلَّم: ((ألا تعجبونَ كيفَ يصرِفُ اللَّهُ عنِّي شتمَ قُريشٍ ولعنَهم؟! يشتمونَ مُذَمَّمًا، ويلعنونَ مُذَمَّمًا، وأنا محمَّدٌ)). أخرجه البخاري (٣٥٣٣).

لم يختَرْها، وحصَل المقصودُ والبرهانُ بدونِها مِن الآياتِ الكثيرةِ الدالةِ على صحةِ ما جاء به، وأمَّا الجهلُ: فإنَّهم جهِلوا مصلحتَهم مِن مضرتِهم، فليس في إنزالِ الملائكةِ خيرٌ لهم، بل لا ينزلُ الله الملائكةَ إلَّا بالحقِّ الذي لا إمهالَ على من لم يَتبعْه، ويَنْقَدْ له[١].

٣- قوله تعالى: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ يُفهَم منه أنَّ الله مُنظِرُهم؛ لأنَّه لم يُرِدِ استئصالَهم؛ لأنَّه أراد أن يكونَ نشرُ الدينِ بواسطتِهم، فأمهَلهم حتَّى اهتدوا، ولكنَّه أهلَك كبراءَهم ومُدبِّريهم[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ من عادةِ المُلوكِ إذا فعلوا شيئًا، قال أحَدُهم: نحن فعَلْنا، يريدُ نفسَه وأتباعَه، ثمَّ صار هذا عادةً للمَلِكِ في خِطابِه، وإن انفرَدَ بفِعلِ الشَّيءِ، فخُوطِبَت العرَبُ بما تعقِلُ مِن كَلامِها[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ العِلْمَ الذي بَعَثَ اللهُ به نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، مَضبوطٌ ومحروسٌ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ سُبحانَه تكفَّلَ بحِفظِ كتابِه؛ فلم يتمكَّنْ أحدٌ مِن الزيادةِ في ألفاظِه، ولا مِن النَّقصِ منها[٥]، فقد تكفَّلَ تعالى بحفْظِه في كلِّ وقْتٍ، فلا يَعْتَريه زيادةٌ ولا نُقصانٌ، ولا تحريفٌ ولا تَبْديلٌ، بخلافِ غيرِه مِن الكُتُبِ المُتقدِّمةِ؛ فإنَّه تعالى لم يتكَفَّلْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٥١٧).

(٥) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٦٢٠).

حِفْظَها، بل أخبَرَ تعالى أنَّ الرَّبانيِّينَ والأحبارَ اسْتُحْفِظُوها؛ ولذلك وقَعَ فيها الاختلافُ[١].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فيه أنَّ القرآنَ آيةٌ مستَمِرَّةٌ إلى يومِ القيامةِ بخلافِ الآياتِ السَّابقةِ؛ الآياتُ السَّابِقةُ مَشهودةٌ ينتَفِعُ بها المُشاهِدونَ لها، أمَّا مَن بَعدَهم فإنَّما تَصِلُ إليهم عن طريقِ الأخبارِ، ومن المعلومِ أنَّه ليس الخبَرُ كالعِيانِ، وأمَّا القُرآنُ فإنَّه بيننا نشاهِدُه ونَسمَعُه ونتلوه، فليس هو مِن طريقِ الخبَرِ عن شيءٍ مضَى، فيكونُ أعظَمَ مِن الآياتِ التي انقَضَتْ وزالَتْ، وهذا هو السِّرُّ في أنَّ القُرآنَ كان آيةً لكُلِّ النَّاسِ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم مبعوثٌ إلى جميعِ البَشَرِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ دَلالةٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى؛ مِن جهةِ ذِكْرِ نزولِ الأشياءِ مِن عِندِه[٣].

٩- مَن زَعَم أنَّ القرآنَ قد حُذِفَ منه شَيءٌ، فإنَّه كافرٌ؛ لأنه مُكَذِّبٌ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٤].

١٠- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ومِن حِفظِه أنَّ اللهَ يحفَظُ أهْلَه مِن أعدائِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((شرح منظومة القواعد والأصول)) لابن عثيمين (ص: ١١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (٤٢٩).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ ﴾ نادَوا به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على التَّهكُّمِ، وللتَّشهيرِ بالوصفِ المُنادى به؛ ويدلُّ على ما نادَوه له وهو قولُهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾، وهذا الوصفُ بأنَّه ﴿ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ ﴾ قالوه على جِهَةِ الاستهزاءِ والاستخفافِ، لا تسليمًا لذلك واعتقادًا له، وإشعارًا بعِلَّةِ حُكمِهم الباطلِ في قولِهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾؛ لأنَّهم لا يُقِرُّون بتنزيلِ الذِّكْرِ عليه، وينسِبونَه إلى الجُنونِ؛ كما قال فِرعونُ: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴾ [الشعراء: ٢٧]، وكيف يُقِرُّونَ بنُزولِ الذِّكْرِ عليه وينسِبونَه إلى الجُنونِ؟![(١)]. أو يكونُ في الكلامِ حذْفٌ، أي: يا أيُّها الَّذي تَدَّعي أنَّك نزَلَ عليك الذِّكرُ...إلخ[(٢)].

- وفي قولِهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾ تأكيدُ الجُملةِ بـ (إنَّ) واللَّامِ؛ لقصْدِهم تحقيقَ ذلك له؛ لعلَّه يرتدِعُ عن الاستمرارِ فيه، أو لقصْدِهم تحقيقَه للسَّامعينَ حاضِري مَجالِسِهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦)، ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٥٣-٢٥٤) للشنقيطي.

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٩٦).

وهذا جريًا على قاعدةِ: أنَّ الخطابَ بالشيءِ قد يرِدُ في القرآنِ على اعتقادِ المخاطَبِ، دونَ ما في نفسِ الأمرِ، فقولُه ﴿ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ ﴾ صحيحٌ وحقٌّ، وإن كان قائلُه منكِرًا لذلك، لكنَّه أطلَقه على حسبِ اعتقادِ مَن خاطَبه أولئك الكفَّارُ، وهو الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيكونُ محملُه هنا: أي: بحسبِ زعمِك. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦).

- وفي قولِه: ﴿نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على القائمِ مَقامَ الفاعلِ ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾؛ لأنَّ إنكارَهم مُتوجِّهٌ إلى كونِ النَّازلِ ذِكْرًا مِن اللهِ تعالى، لا إلى كونِ المُنزَّلِ عليه رسولَ اللهِ بعدَ تسليمِ كونِ النَّازِلِ منه تعالى، كما في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ فإنَّ الإنكارَ هناك مُتَوجِّهٌ إلى كونِ المُنَزَّلِ عليه رسولَ اللهِ تعالى، وإيرادُ الفعْلِ على صِيغَةِ المجهولِ ﴿نُزِّلَ﴾؛ لإيهامِ أنَّ ذلك ليس بفعْلٍ له فاعلٌ، أو لتوجيهِ الإنكارِ إلى كونِ التَّنزيلِ عليه لا إلى استنادِه إلى الفاعِلِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا﴾ رُكِّبَ قولُه: ﴿لَّوۡ﴾ مع قولِه: ﴿مَا﴾- كما رُكِّبَت (لو) مع (لا)- لمعنيينِ: معنى امتناعِ الشَّيءِ لوُجودِ غيرِه، ومعنى التَّحضيضِ، والمعنى: هلَّا تأتينا بالملائكةِ يَشْهدونَ بصِدْقِك، ويُعضِّدونَك على إنذارِك، كقولِه تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، أو: هلَّا تأتينا بالملائكةِ للعقابِ على تكذيبِنا لك إنْ كنْتَ صادقًا، كما كانت تأتي الأُمَمَ المُكذِّبةَ برُسُلِها[٢].

- وجُملةُ ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ استدلالٌ على ما اقتضَتْه الجُملةُ قبْلَها، باعتبارِ أنَّ المقصودَ منها تكذيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ ما يصدُرُ مِن المجْنونِ مِن الكلامِ لا يكونُ جاريًا على مُطابقةِ الواقعِ؛ فأكثَرُه كذِبٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧).

- قولُه: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: مِن النَّاسِ الَّذين صِفَتُهم الصِّدقُ، وهو أقوى وأبلَغُ في التَّخلُّقِ بالصِّدقِ مِن: (إنْ كنْتَ صادقًا)[١].

٣- قولُه: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ فيه ابتداءُ الجَوابِ بإزالةِ شُبْهتِهم -إذ قالوا قبْلُ: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾- أُرِيدَ منه إزالةُ جَهالتِهم؛ إذ سألوا نُزولَ الملائكةِ علامةً على التَّصديقِ؛ لأنَّهم وإنْ طَلَبوا ذلك بقصْدِ التَّهكُّمِ، فهم مع ذلك مُعتقِدونَ أنَّ نُزولَ الملائكةِ هو آيةُ صدْقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكان جوابُهم مَشُوبًا بطرَفٍ مِن الأسلوبِ الحكيمِ، وهو صرْفُهم إلى تَعليمِهم المَيْزَ بينَ آياتِ الرُّسلِ وبينَ آياتِ العذابِ؛ فأراد اللهُ ألَّا يَدَّخِرَهُم هدْيًا، وإلَّا فهم أحْرِياءُ بألَّا يُجابوا[٢].

- و﴿إِذًا﴾ حرْفُ جَوابٍ وجَزاءٍ، وقد وُسِّطَت هنا بينَ جُزْأَيْ جوابِها؛ رعيًا لمُناسبةِ عطْفِ جَوابِها على قولِ: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، وكان شأْنُ ﴿إِذًا﴾ أنْ تكونَ في صدْرِ جوابِها، وجُملتُها هي الجوابُ المقصودُ لقولِهم: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، وجُملةُ ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ مُقدَّمةٌ مِن تأْخيرٍ؛ لأنَّها تعليلٌ للجَوابِ؛ فقُدِّمَ لأنَّه أوقَعُ في الرَّدِّ، ولأنَّه أسعَدُ بإيجازِ الجوابِ، وتقديرُ الكلامِ: لَوْما تَأْتينا بالملائكةِ إنْ كنْتَ مِن الصَّادقينَ، إذنْ ما كنْتُم مُنْظَرِينَ بالحياةِ، ولعُجِّلَ لكم الاستئصالُ؛ إذ ما تُنَزَّلُ الملائكةُ إلَّا مَصْحوبينَ بالعذابِ الحاقِّ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ في سَبْكِ هاتينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٩).

الجُملتينِ مِن الدَّلالةِ على كَمالِ الكِبرياءِ والجَلالةِ وعلى فَخامةِ شأْنِ التَّنزيلِ ما لا يَخْفَى، وفي إيرادِ الثَّانيةِ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾: دَلالةٌ على دَوامِ الحفْظِ[١].

- وقولُه أيضًا: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لإبطالِ جزءٍ مِن كلامِهم المستهزئينَ به، إذ قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾، بعدَ أن عجَّل كشفَ شبهتِهم في قولِهم: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ جاء نشْرُ الجَوابَينِ على عكْسِ لَفِّ المَقالَينِ[٢]؛ اهتمامًا بالابتداءِ برَدِّ المَقالِ الثَّاني بما فيه مِن الشُّبْهةِ بالتَّعجيزِ والإفحامِ، ثمَّ انْتُقِل إلى رَدِّ تعريضِهم بالاستهزاءِ، وسُؤالِ رُؤْيةِ الملائكةِ، وكان هذا الجوابُ مِن نوعِ القولِ بالمُوجَبِ[٣] بتقريرِ إنزالِ الذِّكْرِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٩).

(٢) اللَّف والنَّشْر: هو ذكرُ شيئين أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا - بالنصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا - بأن يُؤتَى بلفظٍ يشتملُ على متعدِّدٍ - ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا. والنشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنةَ إلا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجمالي، واللَّفُّ المُفصَّل يأتي النشرُ اللَّاحقُ له على وجهين:
الوجهُ الأوَّل: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وفْقِ ترتيبِ اللَّف، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنشر المرتَّبَ».
الوجه الثاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ«اللَّف والنَّشر المُشَوَّش»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(٣) القولُ بالموجَبِ في اصطلاحِ الأصوليين: هو تسليمُ ما جعَله المستدلُّ موجِبًا لعِلَّته مع استبقاءِ

الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مُجاراةً لظاهِرِ كلامِهم، والمقصودُ: الرَّدُّ عليهم في استهزائِهم، فأُكِّدَ الخبَرُ بـ(إنَّا) وضميرِ الفصْلِ (نحن) مع مُوافقَتِه لِمَا في الواقعِ، وفي هذا -مع التَّنويهِ بشأْنِ القُرآنِ- إغاظةٌ للمُشركينَ بأنَّ أمْرَ هذا الدِّينِ سَيتِمُّ، ويَنْتشِرُ القُرآنُ، ويبقَى على مَمَرِّ الأزمانِ، وهذا مِن التَّحدِّي؛ ليكونَ هذا الكلامُ كالدَّليلِ على أنَّ القُرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ آيةً على صِدْقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لو كان مِن قولِ البشَرِ أو لم يكُنْ آيةً، لَتطرَّقَتْ إليه الزِّيادةُ والنُّقصانُ، ولاشتمَلَ على الاختلافِ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ فيه توكيدُ أنَّه هو المُنَزِّلُ على القطْعِ والبَتاتِ، وهو رَدٌّ لإنكارِهم واستهزائِهم؛ ولذلك أكَّدَه مِن وُجوهٍ وقرَّرَه بقولِه: ﴿وَإِنَّا

الخِلافِ، ومعنى ذلك: أن يسلمَ الخصمُ الدليلَ الذى استدلَّ به المستدلُّ، إلَّا أنَّه يقولُ: هذا الدليلُ ليس فى محلِّ النزاعِ، إنَّما هو في غيرِه؛ فيبقَى الخلافُ بينهما. ومنه قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ فقد قال رأسُ النفاقِ ابنُ سلولَ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ من غزوة بني المصطلق ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ﴾ -يقصد نفسه- ﴿مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ يعني: محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابَه؛ فأجابه الله تبارك وتعالى بمُوجَب قولِه مع عدمِ تسليمِه له، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فإنه لَمَّا ذكر صِفةً، وهي العزةُ، وأثبَت لها حُكمًا، وهو الإخراجُ مِن المدينةِ؛ ردَّ عليه ربُّ العِزة تبارك وتعالى بأنَّ هذه الصفةَ ثابتةٌ لكن لا لِمَن أراد ثُبوتَها له؛ فإنَّها ثابتةٌ لغيرِه، باقيةٌ على اقتضائِها للحُكمِ، وهو الإخراجُ؛ فالعزةُ موجودةٌ لكن لا له، بل للهِ ولرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم وللمؤمنينَ. يُنظر: ((الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة)) لابن الجوزي (ص٣٣٥)، ((تشنيف المسامع بجمع الجوامع)) للزركشي (٤/ ٣٦١)، ((البحر المحيط)) للزركشي (٥/ ٢٩٧)، ((شرح المحلِّي على جمع الجوامع)) (٢/ ٣١٦)، ((غايه الوصول شرح لب الأصول)) لزكريا الأنصاري (ص: ١٣١)، ((المنهاج)) للباجي (ص: ١٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠ - ٢٢).

لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[١]، فلمَّا قالوا على سبيلِ الاستهزاءِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾، رَدَّ عليهم بأنَّه هو المُنَزِّلُ عليه، فليس مِن قِبَلِه ولا قِبَلِ أحدٍ، بل هو اللهُ تعالى الَّذي بعَثَ به جبريلَ عليه السَّلامُ إلى رسولِه، وأكَّدَ ذلك بقولِه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ بدُخولِ (إنَّ) وبلفظِ (نحن)، وهو تأكيدٌ لاسمِ (إنَّ)، ثمَّ قال: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، أي: مِن كلِّ ما لا يليقُ به؛ فيدخُلُ فيه تكذيبُهم له واسْتِهزاؤهم به دُخولًا أوَّليًّا؛ فيكونُ وعيدًا للمُستهزِئينَ[٣].

- واتَّصَلَ قولُه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ بقولِه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾؛ لأنَّه قد جعَلَ ذلك دليلًا على أنَّه مُنَزَّلٌ مِن عندِه آيةً؛ لأنَّه لو كان مِن قولِ البشَرِ أو غيرَ آيةٍ، لَتطرَّقَ عليه الزِّيادةُ والنُّقصانُ كما يتطَرَّقُ على كلِّ كلامٍ سِواه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٧).

الآيات (١٠-١٥)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شِيَعِ﴾: أي: أُمَم وفِرَق، وأصلُ (شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ ومُساعَفةٍ[١].

﴿نَسْلُكُهُ﴾: أي: نُدخِلُه، والسَّلْكُ: إدخالُ الشَّيءِ في الشَّيءِ، وأصلُ (سلك): يدلُّ على نفاذِ شَيءٍ في شَيءٍ[٢].

﴿يَعْرُجُونَ﴾: أي: يَصعَدونَ، وأصلُ (عرج): يدلُّ على سُمُوٍّ وارتِقاءٍ[٣].

﴿سُكِّرَتْ﴾: أي: سُدَّتْ، ومُنِعَت النَّظَرَ، وأصلُه مِنَ السَّكْرِ الذي هو سدُّ الشَّقِّ؛ لئلَّا ينفجرَ الماءُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١، ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٥- ٢٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١)، ((المخصص)) لابن سِيده (١/ ١٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٨).

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قد أرسل رُسُلًا في الأُمَمِ الماضيةِ، فما كان منهم حينَ أتَتْهم رسلُهم إلَّا الاستهزاءُ بهم والتَّكذيبُ لهم، كذلك نُدخِلُ القرآنَ قلوبَ المجرمينَ، فهم يسمعونَه ويفهمونَه ويعلمونَ أنَّه حقٌّ ومع ذلك يُكذِّبونَ به، فلا يؤمنونَ بالقرآنِ الذي أُنزِلَ إليك، وقد مَضَت عادةُ اللهِ بإهلاكِ الكُفَّارِ.

ولو فتَحْنا على كفَّارِ مكَّةَ بابًا من السَّماءِ فاستَمَرُّوا صاعدينَ فيه حتى يشاهِدوا ما في السَّماءِ مِن عجائبِ مَلَكوتِ اللهِ؛ لَمَا صدَّقوا، ولقالوا: سُدَّتْ أبصارُنا فلم نرَ شيئًا، وما نحنُ إلَّا مَسحورونَ مِن محمَّدٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى استهزاءَ الكُفَّارِ بالنبيِّ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ونِسبَتَه إلى الجُنونِ، واقتراحَ نزولِ الملائكةِ؛ سلَّاه تعالى بأنَّ المرسلينَ مِن قَبلِه كان ديدَنُ مَن أُرسِلوا إليهم مِثلَ دَيدَنِ هؤلاء معَه[1]، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا مِن قَبلِك -يا مُحمَّدُ- رسُلًا في الأُمَمِ الماضيةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ [الروم: ٤٧].

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾﴾.

أي: وما أتَى تلك الأُمَمَ الماضيةَ مِن رَسولٍ أرسَله اللهُ إليهم؛ لدَعوتِهم إلى الحَقِّ، إلَّا سخِروا به وكَذَّبوه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وقال سُبحانه: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾.

كذلك[٢] نُدخِلُ القرآنَ قلوبَ المجرمينَ، فهم يسمعونَه ويفهمونَه ويعلمونَ أنَّه حقٌّ، وأنَّه يفوقُ كلَّ كلامٍ، وأنَّهم عاجزونَ عن معارضتِه، مع أنَّه بلسانِهم، ومع ذلك يُكذِّبونَ به[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩).

(٢) قال الشوكاني: (مِثْلُ ذلك الَّذي سَلَكْناه في قلوبِ أولئك المستهزئينَ برسلِهم ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ أي: الذِّكرُ في قلوبِ المجرمينَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٣).

وقال الرازي: (﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي: هكذا نَسْلُكُ القرآنَ في قلوبِ المجرمينَ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٥)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٢٩٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ أنَّ الضميرَ في قولِه تعالى: ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ عائدٌ على القرآنِ:

الزمخشري، والرازي، والغرناطي، وابنُ القيم، والشوكاني، والبقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٥)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٢٩٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٨)، ((نظم الدرر)) (١١/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤).

قال ابن عاشور: (أي: هكذا نولجُ القرآنَ في عُقولِ المُشرِكينَ؛ فإنَّهم يَسمَعونه ويفهمونَه؛ إذ هو من كلامِهم، ويُدرِكونَ خصائِصَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤).

وممَّن اختار أن الضمير في قولِه تعالى: ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ عائدٌ على الاستهزاءِ والتكذيبِ: ابنُ جريرٍ، والبغوي، وابنُ الجوزي، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١)، (تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩).

قال النحاسُ: (هذا القَولُ [أي: نسلكُ التكذيبَ] هو الذي عليه أهلُ التَّفسيرِ وأهلُ اللُّغةِ، إلَّا مَن شَذَّ منهم). ((معاني القرآن)) (٤/ ١٢).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وأنسٌ، وابنُ جريجٍ، وقتادةُ، والحسنُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر : ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٥).

قال ابنُ القيِّمِ بعدَ أن ذكَر أقوالَ السلفِ في معنى الآيةِ: (وهذه الأقوالُ ترجِعُ إلى شيءٍ واحدٍ، والتكذيبُ والاستهزاءُ والشِّركُ كُلُّ ذلك فِعلُهم حقيقةً، وقد أخبر أنَّه سبحانه هو الذي سلَكَه في قلوبِهم، وعندي في هذه الأقوال شيءٌ؛ فإنَّ الظاهر أنَّ الضميرَ في قولِه ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ هو الضمير في قوله ﴿سَلَكۡنَٰهُ﴾ فلا يصِحُّ أن يكون المعنى: لا يؤمنون بالشِّركِ والتكذيبِ والاستهزاءِ، فلا تصِحُّ تلك الأقوالُ إلا باختلافِ مفسِّرِ الضميرين، والظاهِرُ اتحادُه؛ فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكَه في قلوبِهم، وهو القرآنُ، فإن قيل: فما معنى سَلْكِه إياه في قلوبِهم وهم ينكرونَه؟ قيل: سَلْكُه في قلوبهم بهذه الحال، أي: سلكناه غيرَ مؤمِنين به، فدخل في قلوبهم مُكذَّبًا به، كما دخَل في قلوبِ المؤمنينَ مُصَدَّقًا به، وهذا مرادُ مَن قال: إنَّ الذي سلَكه في قلوبِهم هو التكذيبُ والضَّلالُ، ولكن فسَّر الآيةَ بالمعنى؛ فإنَّه إذا دخَل في قلوبهم مكذِّبينَ به، فقد دخَل التكذيبُ والضلالُ في قلوبِهم، فإن قيل: فما معنى إدخالِه في قلوبِهم وهم لا يؤمنون به؟ قيل: لتقومَ عليهم بذلك حجَّةُ الله، فدخَل في قلوبِهم، وعلِموا أنَّه حقٌّ، وكذَّبوا به فلم يدخُلْ في قلوبِهم دخولَ مُصَدَّقٍ به مؤمَنٍ به مَرضِيٍّ به، وتكذيبُهم به بعد دخولِه في قلوبهم

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾.

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾.

أي: لا يُؤمِنونَ بالقُرآنِ الذي أنزَلْناه على محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ * فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ * كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ١٩٨ - ٢٠١].

﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

أي: وقد مضتْ عادةُ اللهِ بإهلاكِ الكفَّارِ مِن الأُممِ الماضيةِ ممن كَذَّبَ الرُّسلَ[(٢)].

أعظمُ كُفرًا من تكذيبهم به قبلَ أن يدخُلَ في قلوبهم؛ فإنَّ المكذِّبَ بالحَقِّ بعدَ معرفتِه له، شرٌّ مِن المكذِّبِ به ولم يعرِفْه، فتأمَّلْه؛ فإنَّه من فِقهِ التفسيرِ، والله الموفِّقُ للصواب). ((شفاء العليل)) (ص: ٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٨).

قال أبو حيان: (و﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إن كان إخبارًا مُستأنفًا فهو من العامِّ المرادِ به الخصوصُ فيمن ختم عليه؛ إذ قد آمَن عالَمٌ ممن كذَّب الرَّسولَ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٩).

وقال الرازي: (الضَّميرُ في قولِه: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ عائِدٌ إلى القرآنِ بالإجماعِ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٥).

وقال العكبري: (والهاءُ في ﴿بِهِۦ﴾ للرَّسولِ، أو للقرآنِ، وقيلَ: للاستهزاءِ أيضًا، والمعنَى: لا يُؤمِنونَ بسببِ الاستهزاءِ، فحُذِف المضافُ). ((التبيان في إعراب القرآن)) (٢/ ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧)، ((تفسير ابن كثير))

كما قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ القومَ لَمَّا طَلَبوا نُزولَ ملائكةٍ يُصَرِّحونَ بتَصديقِ الرَّسولِ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- في كونِه رسولًا مِن عندِ اللهِ تعالى؛ بيَّنَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ أنَّه بتقديرِ أن يحصُلَ هذا المعنى، لقال الذين كَفَروا: هذا مِن بابِ السِّحرِ[(١)]، فهو كلامٌ جامعٌ لإبطالِ جميعِ معاذيرِهم، فهم لا يطلُبونَ الدَّلالةَ على صدقِه، ولكنَّهم يَنْتَحِلونَ المعاذيرَ المختلِفَةَ[(٢)].

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾.

(٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩).

وممن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: البغوي، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر المصادر السابقة.

وممن قال بنحو هذا القول من السلف: قتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢).

وقيل: المعنى: وقد مَضَت سنَّةُ الأوَّلينَ بتكذيبِ رُسُلِ الله، وهؤلاء المُشرِكونَ يقتَفونَ آثارَهم. وممن اختار هذا المعنى: الزجاج، والنحاس، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٧٤)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ١٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٨٩).

قال ابنُ جريرٍ: (وقولُه: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول تعالى ذِكرُه: لا يؤمِنُ بهذا القرآن قومُك الذين سلكتُ في قلوبِهم التكذيبَ ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أخذًا منهم سنَّةَ أسلافِهم من المشركين قبلَهم مِن قومِ عادٍ وثمودَ وضُرَبائهم من الأمم التي كذَّبت رسُلَها، فلم تؤمِنْ بما جاءها من عند اللهِ حتى حلَّ بها سخَطُ الله فهلَكَت). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((نفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥).

أي: ولو فَتَحْنا على هؤلاءِ الكُفَّارِ بابًا مِن السَّماءِ، فجعلوا يصعَدُونَ في وضَحِ النَّهارِ في ذلك البابِ، ويُشاهِدونَ ما في السَّماءِ بأعيُنِهم مِن مَلَكوتِ اللهِ تعالى وقُدرتِه وسُلطانِه ومَلائكَتِه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٧-١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

وممن ذهَب إلى هذا المعنَى المذكورِ: الزمخشري، والقرطبي، وابنُ جزي، وأبو حيان، وابن كثير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦).

قال ابنُ جزي في قولِه: ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ * لَقَالُوٓاْ...﴾: (الضمائرُ لكفَّارِ قريشٍ المعاندينَ المحتومِ عليهم بالكفرِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٦).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٥٥)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٨).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾ عائدٌ على الملائكة: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والفرَّاءُ، والواحدي، والثعلبي، والبغوي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٢٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١)، ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٤٤).

قال السمعاني: (الأكثرونَ على أنَّهم الملائكةُ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٣٢). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١).

وقال ابنُ الجوزي: (في المشارِ إليهم بهذا الصعودِ قولانِ: أحدهما: أنَّهم الملائكةُ، قاله ابنُ عبَّاس والضحَّاكُ، فالمعنى: لو كُشِف عن أبصارِ هؤلاء فرَأَوا بابًا مفتوحًا في السماءِ، والملائكةُ تصعَدُ فيه؛ لَمَا آمنوا به. والثاني: أنَّهم المشركونَ، قاله الحسنُ وقتادةُ، فيكون المعنى: لو وصَّلْناهم إلى صعودِ السَّماءِ لم يستشعِروا إلَّا الكفرَ؛ لعنادِهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣، ٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥٣).

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥﴾.

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾.

أي: لجَحَدوا أن يكونوا رأَوا شَيئًا، فقالوا: إنَّما سُدَّتْ أبصارُنا بالسِّحرِ، ومُنِعَت من النَّظَرِ[١]!

﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾.

أي: بل[٢] نحن قومٌ سَحَرَنا محمَّدٌ، فما عُدْنا نعقِلُ الأشياءَ ونراها كما يجِبُ[٣]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الأنعام: ٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۞ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ [القمر: ٢- ٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ هذا تعزيةٌ وتَسليةٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ودَلالةٌ على أنَّ كُلَّ واحدٍ مِن الرُّسُلِ كان مُبتلًى بقَومِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦).

(٢) قال الشوكاني: (أضْرَبوا عن قولِهم: ﴿سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾، ثمَّ ادَّعَوْا أنَّهم مسحورونَ، أي: سَحَرهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٣١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فيه رَدٌّ على القَدَريَّة والمُعتَزِلة، وهي أبيَنُ آيةٍ في ثُبُوتِ القَدَرِ؛ لِمَن أذعَنَ للحَقِّ ولم يُعانِدْ[١]، وهذا على اعتبارِ أنَّ ما يُسلَكُ في قلوبِهم هو الكفرُ والتكذيبُ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ إبطالٌ لاستهزائِهم على طريقةِ التَّمثيلِ بنُظرائِهم مِن الأُمَمِ السَّالفةِ. وفي هذا التَّنظيرِ تحقيقٌ لكُفْرِهم؛ لأنَّ كُفْرَ أولئك السَّالفينَ مُقَرَّرٌ عندَ الأُمَمِ، ومُتحدَّثٌ به بينَهم. وفيه أيضًا تعريضٌ بوعيدِ أمثالِهم، وإدماجٌ بالكِنايةِ عن تسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ﴾ والتَّأكيدُ بلامِ القسَمِ و(قد)؛ لتحقيقِ سَبْقِ الإرسالِ مِن اللهِ، مِثْل الإرسالِ الَّذي جَحَدوه واسْتَعْجبوه[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ هو تسليةٌ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، و(ما) للحالِ، لا يدخُلُ إلَّا مُضارِعًا بمعنى الحالِ، أو ماضيًا قريبًا منه، وهذا على حِكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ فصِيغَةُ الاستقبالِ ﴿يَأۡتِيهِم﴾ لاستحضارِه الصُّورةَ على طريقةِ حِكايةِ الحالِ الماضيةِ[٤]، وأكَّد

---

(١) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٩).

النفيَ فقال: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ أي: على أيِّ وجهٍ كان[١].

- قولُه: ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يدلُّ على تكرُّرِ ذلك منهم وأنَّه سُنَّتُهم؛ فـ(كان) دلَّت على أنَّه سَجِيَّةٌ لهم، والمُضارعُ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ دلَّ على تكرُّرِه منهم، وتقديمُ المجرورِ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يفيدُ القصْرَ للمُبالغةِ؛ لأنَّهم لمَّا كانوا يُكْثِرونَ الاستهزاءَ برَسولِهم، وصار ذلك سَجِيَّةً لهم، نُزِّلُوا مَنزِلةَ مَن ليس له عمَلٌ إلَّا الاستهزاءُ بالرَّسولِ[٢]، ولعلَّه عبَّر عنه بالسينِ المفهمةِ للطلبِ إشارةً إلى أنَّ رغبتَهم في الاستهزاءِ لا تنقضي، كما هو شأنُ الطالبِ للشيءِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن سُؤالٍ يخطُرُ ببالِ السَّامعِ لقولِه: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، فيتَساءلُ: كيف توارَدَت هذه الأُمَمُ على طريقٍ واحدٍ مِن الضَّلالِ، فلم تُفِدْهم دعوةُ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ؟ أو الجملة مُستأنَفَةٌ استئنافًا بَيانِيًّا ناشِئًا عن جُملةِ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾؛ إذ قد يخطُرُ بالبالِ أنَّ حِفْظَ الذِّكْرِ يقتضي ألَّا يكفُرَ به مَن كفَرَ؛ فأُجِيبَ بأنَّ ذلك عِقابٌ مِن اللهِ لهم؛ لإجرامِهم وتلقِّيهم الحقَّ بالسُّخريةِ وعدَمِ التَّدبُّرِ، ولأجْلِ هذا اخْتِيرَ لهم وصْفُ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ دونَ (الكافرينَ)؛ لأنَّ وصْفَ الكُفْرِ صار لهم كاللَّقَبِ لا يُشْعِرُ بمعنى التَّعليلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣).

- وعُبِّرَ بصِيغَةِ المُضارعِ ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾؛ لكونِ المُشبَّهِ به مُقدَّرًا في الوُجودِ، وهو السَّلْكُ الواقعُ في الأُمَمِ السَّالفةِ، أو للدَّلالةِ على استحضارِ الصُّورةِ[1].

- وفي قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ * وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ * لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ تَشبيهٌ تمثيليٌّ للعِنادِ المُستحوِذِ عليهم واللَّدَدِ الرَّاسخِ في صُدورِهم، وتفصيلُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى سلَكَ القُرآنَ في قُلوبِهم وأدخَله في سُوَيداءَاتِها كما سلَكَ ذلك في قُلوبِ المُؤمنينَ المُصدِّقينَ -على أحدِ أوجهِ التأويلِ-؛ فكذَّبَ به هؤلاء وصدَّقَ به هؤلاء، كلٌّ على علْمٍ وبيِّنةٍ؛ ليَهْلِكَ مَن هلَكَ عن بيِّنَةٍ، ويحيا مَن حيَّ عن بيِّنَةٍ، ولئلا يكونَ للكُفَّارِ على اللهِ حُجَّةٌ بأنَّهم ما فَهِموا وُجوهَ الإعجازِ كما فَهِمَها مَن آمَنَ، فأعلَمَهم اللهُ تعالى مِن الآنَ- وهم في مُهْلَةٍ وإمكانٍ- أنَّهم ما كَفَروا إلَّا على علْمٍ مُعاندينَ باغِينَ؛ ليكونَ أدحَضَ لأيَّةِ حُجَّةٍ يختلِقونَها، وأنفَى لكلِّ ادِّعاءٍ يخرُصونَ به؛ ولذلك عقَّبَه اللهُ تعالى بقولِه: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ * لَقَالُوٓاْ...﴾، أي: إنَّ هؤلاء فهِمُوا القُرآنَ حقَّ الفَهْمِ، واكْتَنَهوا أسرارَه، وسَبَروا أغْوارَ مُعجزاتِه، وعَلِموا وُجوهَ إعجازِه، وولَجَ ذلك إلى قَراراتِ نُفوسِهم، ووَقَرَ في أسماعِهم، ولكنَّهم قومٌ دَيْدَنُهم العِنادُ، وشِيمَتُهم اللَّجاجُ والمُكابرةُ، حتَّى لو سلَكَ بهم أوضَحَ السُّبلِ وأدْعاها إلى الإيمانِ بضُرورةِ العِيانِ والمُشاهدةِ؛ وذلك بأنْ يفتَحَ لهم بابًا في السَّماءِ، ويُعْرَجُ بهم حتَّى يَدْخلوا منه نهارًا، وقد أشار إلى ذلك بقولِه: ﴿ظَلُّوا﴾؛ لأنَّ الظُّلولَ إنَّما يكونُ نهارًا، لقالوا بعدَ ذلك الإيضاحِ العظيمِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٩).

المكشوفِ: إنَّما سُكِّرَت أبصارُنا، وسحَرَنا محمَّدٌ، وما هذه إلَّا خيالاتٌ مُمَوَّهَةٌ لا حقائقَ تحتَها؛ فأسجَلَ عليهم بذلك أنَّهم لا عُذْرَ لهم في التَّكذيبِ مِن عدَمِ سماعٍ ووَعْيٍ، ووُصولٍ إلى القُلوبِ، وفَهْمٍ كما فَهِمَ غيرُهم مِن المُصدِّقينَ؛ لأنَّ شأْنَهم الاستمرارُ في اللَّددِ والعِنادِ والمُكابرةِ واللَّجاجِ؛ وعلى وجْهِ التَّفصيلِ: في هذا التَّشبيهِ التَّمثيليِّ[1]: التَّتميمُ[2]، وذلك بعرْضِ مُختلفِ مَجالَي المُشاهَدةِ والاعتبارِ. وفيها الاحتراسُ[3] بكلمةِ ﴿ظَلُّوا﴾؛ خشيةَ أنْ يكونَ عُروجُهم في الظَّلامِ، فيتعَلَّلوا به على عدَمِ الاهتداءِ. وفي

(١) التشبيه: هو إلحاقُ شيءٍ بذي وصفٍ في وصفِه. وقيل: أن تُثبتَ للمشبَّهِ حُكمًا مِن أحكامِ المشبَّهِ به. وقد اتَّفقَ الأدباءُ على شرفِه في أنواعِ البلاغةِ، وأنَّه إذا جاء في أعقابِ المعاني أفادَها كمالًا، وكساها حُلَّةً وجمالًا، وهو جارٍ في كلامِ العربِ، بل هو أكثرُ كلامِهم.
وينقسمُ التشبيهُ عدةَ تقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّةٍ:
فمنه: التشبيهُ المفرَدُ.
ومنه: التشبيهُ المركَّبُ (التَّمثيلي): هو الذي يكونُ وجهُ الشبهِ فيه منتزعًا مِن متعدِّدٍ، أو مِن أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتشبيهُ مركَّبٌ مِن أحوالِ الحمارِ. وخصَّ البيانيون لفظَ «التمثيلِ» بالتشبيهِ المركَّبِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤١٤)، ٤٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(٢) التتميم: هو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حسنةٍ، بحيثُ إذا طُرح مِن الكلامِ نقَص معناه في ذاتِه، أو في صفاتِه. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٤٤).

(٣) الاحتراس: هو التحرُّز مِن الشيءِ، والتحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو: الإتيانُ في كلامٍ يُوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدْفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ التَّكميلَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

استعمالِ أداتَي الحصْرِ والإضرابِ (إنَّما - بل) دَلالةٌ على البَتِّ بأنَّ ما يرَوْنَه لا حقيقةَ له، بل هو باطلٌ خُيِّلَ إليهم بنوعٍ مِن السِّحرِ حسَبَ ادِّعائِهم؛ وإيضاحُ ذلك أنَّهم قالوا: ﴿إِنَّمَا﴾، وهي تفيدُ الحصرَ في المذكورِ آخِرًا؛ فيكونُ الحصْرُ في الأبصارِ لا في التَّسكيرِ، فكأنَّهم قالوا: سُكِّرَت أبصارُنا لا عُقولُنا، ونحن وإنْ كنَّا نتخيَّلُ بأبصارِنا هذه الأشياءَ لكنَّنا نعلَمُ بعُقولِنا أنَّ الحالَ بخلافِه، أي: لا حقيقةَ له، ثمَّ قالوا: ﴿بَلْ﴾ كأنَّهم أضْرَبوا عنِ الحصْرِ في الأبصارِ، وقالوا: بل جاوَزَ ذلك إلى عُقولِنا بسحْرٍ صنَعَه لنا، وهذه الآياتُ مِن الرَّوائعِ الَّتي يقِفُ البَيانُ أمامَها مُذْعِنًا[١].

٤- قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بيانٌ للسَّلكِ المُشبَّهِ به، أو حالٌ مِن المُجرمينَ، وهذا عامٌّ مُرادٌ به مَن ماتوا على الكُفْرِ منهم، والمُرادُ: أنَّهم لا يؤمِنونَ وقتًا ما[٢].

- قولُه: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مُعترِضةٌ بينَ جُملةِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ وجُملةِ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، والكلامُ تعريضٌ بالتَّهديدِ بأنْ يحُلَّ بهم ما حَلَّ بالأُمَمِ الماضيةِ مُعاملةً للنَّظيرِ بنَظيرِه؛ لأنَّ كونَ سُنَّةِ الأوَّلينَ مَضَت أمْرٌ معلومٌ غيرُ مُفيدٍ ذِكْرُه، فكان الخبَرُ مُستعمَلًا في لازمِه بقرينةِ تعذُّرِ الحمْلِ على أصْلِ الخبريَّةِ[٣]. وقيل: هو استئنافٌ؛ جِيءَ به تكمِلةً للتَّسليةِ، وتصريحًا بالوعيدِ والتَّهديدِ لأهْلِ مكَّةَ على تكذيبِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٢٧ - ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤- ٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٠).

- قولُه: ﴿سُنَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ السُّنَّةُ: العادةُ المألوفةُ، وإضافتُها إلى الأوَّلينَ باعتبارِ تعلُّقِها بهم، وإنَّما هي سُنَّةُ اللهِ فيهم؛ لأنَّها المقصودُ هنا، والإضافةُ لأَدْنى مُلابَسَةٍ(١).

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾ فيه ذِكْرُ الظُّلولِ؛ ليجعَلَ عُروجَهم بالنَّهارِ؛ ليكونوا مُسْتوضِحينَ لِمَا يَرَوْنَ؛ فإنَّ (ظَلَّ) تدلُّ على الكونِ في النَّهارِ، أي: وكان ذلك في وضَحِ النَّهارِ، وتبيُّنِ الأشباحِ، وعدَمِ التَّردُّدِ في المَرْئِيِّ(٢).

٦- قوله تعالى: ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ أَتوا بصِيغَةِ الحصرِ (إنَّما)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم قد بَتُّوا القولَ في ذلك (بأنَّه مِن التَّخيُّلِ ولا حقيقة له)، وأنَّه ليس إلَّا تَسْكيرًا للأبصارِ(٣). ورَدُّ بعضِهم على بعضٍ ظَنٌّ أنْ يكونوا رَأَوا أبوابَ السَّماءِ وعَرَجوا فيها، وزَعَموا أنَّهم ما كانوا يُبْصِرونَ، ثمَّ أضْرَبوا عن ذلك إضرابَ المُتردِّدِ المُتحيِّرِ ينتقِلُ مِن فرْضٍ إلى فرْضٍ، فقالوا: ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾؛ فعادوا إلى إلقاءِ تَبِعَةِ ذلك على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه سحَرَهم حين سأَلَ لهم اللهَ أنْ يفتَحَ بابًا مِن السَّماءِ، ففتَحَه لهم(٤).

- قولُه: ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ في التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّةِ دَلالةٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦).

دَوامِ مَضْمونِها، وإيرادُها بعدَ تَسكيرِ الأبصارِ؛ لبيانِ إنكارِهم لغيرِ ما يرَوْنَه؛ فإنَّ عُروجَ كلٍّ منهم إلى السَّماءِ وإنْ كان مَرئيًّا لغيرِه، فهو معلومٌ بطريقِ الوُجدانِ، مع قطْعِ النَّظرِ عن الأبصارِ؛ فهم يدَّعونَ أنَّ ذلك نوعٌ آخَرُ مِن السِّحرِ غيرُ تَسكيرِ الأبصارِ[١].

- وقالوا كما حكَى الله عنهم هنا: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ دونَ أنْ يقولوا: (بل نحن مَسحورونَ)؛ لأنَّ ذِكْرَ كلمةِ (قوم) يقتضي أنَّ السِّحرَ قد تمكَّنَ منهم، واستوى فيه جميعُهم حتَّى صار مِن خصائصِ قَوميَّتِهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٨).

الآيات (١٦-٢٥)

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بُرُوجًا﴾: أي: مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَر؛ مِن قَولِهم: بَرَجَ الشَّيءُ: إذا ظهَرَ وارتفَعَ، وسُمِّيت بذلك؛ لظُهورِها ووُضوحِها[١].

﴿رَّجِيمٍ﴾: أي: مَطرودٍ عن الخَيراتِ، والرَّجمُ: اللَّعنُ والطَّردُ والإبعادُ، وأصلُ الرَّجمِ: الرَّميُ بالحِجارةِ[٢].

﴿ٱسْتَرَقَ﴾: أي: تسَمَّعَ مُستخفيًا، وأصلُ (سرق): يدُلُّ على أخذِ شَيءٍ في خَفاءٍ وسِترٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

﴿شِهَابٌ﴾: أي: كَوكَبٌ مضيءٌ، أو: شُعلةٌ ساطِعةٌ مِن النَّارِ، والشِّهابُ كلُّ ذي نورٍ، وأصلُ (شهب): يدلُّ على بياضٍ مُختَلِطٍ بسَوادٍ[١].

﴿رَوَٰسِيَ﴾: أي: جبالًا ثوابتَ، وكلُّ شيءٍ ثَبَت فقد رسَا، وأصلُه: يدلُّ على ثباتٍ[٢].

﴿مَّوۡزُونٖ﴾: أي: مُقَدَّرٍ مَعلومٍ مِقدارُه، لا يُجاوِزُ ما قدَّره اللهُ عليه، والوَزْنُ: مَعرِفةُ قَدرِ الشَّيءِ، وأصل (وزن): يدُلُّ على تَعديلٍ واستِقامةٍ[٣].

﴿لَوَٰقِحَ﴾: أي: تُلَقِّحُ السَّحابَ بالماءِ، وأصلُ (لقح): يدلُّ على إحبالِ ذَكَرٍ لأُنثَى[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾

﴿وَمَن﴾: في محلِّ نَصبٍ، عطفًا على ﴿مَعَٰيِشَ﴾، أي: وجعَلْنا لكم فيها

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٧)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٩٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٨).

مَنْ لستُم له برازقينَ من العَبيدِ والدوابِّ المنتَفَعِ بها. ويجوزُ أن تكونَ في محل جرٍّ عطفًا على (كم) في ﴿لَكُمْ﴾، مِن غيرِ إعادةِ الجارِّ على رأيِ الكوفيِّينَ والأخفشِ، أي: جعَلْنا لكم... ولِمَن لستُم. وقيل غيرُ ذلك[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُعَدِّدُ الله تعالى في هذه الآياتِ أدلَّةَ قُدرتِه سُبحانه، وأنَّه قد جعَلَ في السَّماءِ الدُّنيا مَنازِلَ للشمس والقمرِ، وزَيَّنَ هذه السَّماءَ بالنُّجومِ لِمَن ينظُرونَ إليها، ويتأمَّلونَ فيَعتَبِرونَ، وحَفِظَ السَّماءَ مِن كُلِّ شَيطانٍ مَطرودٍ مِن رَحمةِ الله أن يستمعَ إلى الملأِ الأعلى، إلَّا مَن اختلَسَ السَّمعَ فاختطف شَيئًا مِن كلامِ الملائكة مما سوَى الوحيِ، فلَحِقَه شِهابٌ مُضيءٌ ظاهرٌ يُحرِقُه أو يقتلُه، وبسَط الله تعالى هذه الأرضَ ووَسَّعَها، وجعل فيها جِبالًا تُثَبِّتُها، وأوْجَدْنا فِي الأرضِ مِنْ كُلِّ شيءٍ مُقَدَّرٍ بقَدْرٍ مَعْلومٍ، وجعَلَ للنَّاسِ في الأرضِ ما يَعيشونَ به؛ من المَطاعمِ والمَشارِبِ، ومِن أنواعِ المكاسِبِ، وجعَلَ لهم من الأولادِ والخدَمِ والدَّوابِّ ما يَنتَفِعونَ به، وليسوا لهم بِرازقين، وما مِن شَيءٍ إلَّا عندَ الله خزائِنُه ومفاتيحُه، وما يُنَزِّلُه اللهُ سُبحانَه إلَّا بمِقدارٍ محَدَّدٍ كما يشاءُ.

وأرسَلَ سُبحانَه الرِّياحَ لتُلَقِّحَ السَّحابَ، فأنزلَ مِن ذلك السَّحابِ المطَرَ لِشَرابِ النَّاسِ ومَواشيهم، وسقيِ أرضِهم، وليست خزائِنُه عندهم، وهو سُبحانَه يُحيي ويميتُ، وهو الوارِثُ للأرضِ ومَن عليها، وقد عَلِمَ تعالى مَن تقدَّم مِن الناسِ ومَن تأخَّر، وبأحوالِهم وأعمالِهم جميعًا، وهو وَحدَه سُبحانَه يَحشُرُ النَّاسَ للحِسابِ والجَزاءِ؛ إنَّه حكيمٌ في تَدبيرِه، عليمٌ لا يخفى عليه شَيءٌ.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٤١١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٥٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أجاب عن شُبهةِ مُنكِري النبُوَّةِ، وكان قد ثبَتَ أنَّ القَولَ بالنُبوَّةِ مُفرَّعٌ على القَولِ بالتَّوحيدِ؛ أتبَعَه تعالى بدلائِلِ التَّوحيدِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّ الكافرينَ لو رأَوا الآيةَ المَذكورةَ في السَّماءِ، لعانَدوا فيها؛ عَقَّبَ ذلك بهذه الآيةِ، فكأنَّه قال: وإنَّ في السَّماءِ لَعِبَرًا منصوبةً غيرَ هذه المذكورةِ، وكُفرُهم بها وإعراضُهم عنها إصرارٌ منهم وعُتُوٌّ[٢].

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾.

أي: ولقد خَلَقْنا في السَّماءِ الدُّنيا نُجومًا بمثابةِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص:٥٩٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٦).

قال الخازن: (هي بروجُ الفَلَك الاثنا عشر بُرجًا، وهي: الحمَل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدْي، والدلو، والحوت. وهذه البروجُ مَقسومةٌ على ثمانيةٍ وعشرين منزِلًا، لكلِّ برجٍ منزلان وثلثُ منزل... وهذه البروج مقسومةٌ على ثلاثمئة وستين درجة، لكلِّ برج منها ثلاثونَ درجةً تقطَعُها الشَّمسُ في كلِّ سَنةٍ مرَّةً، وبها تتِمُّ دورةُ الفَلَك، ويقطَعُها القمرُ في ثمانيةٍ وعشرينَ يومًا). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٠). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩).

وقال ابن عاشور: (أُطلِق البرجُ على بقعةٍ معينةٍ مِن سمْتِ طائفةٍ مِن النجومِ غيرِ السيارةِ، وتسمَّى

كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وقال سُبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١].

﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

أي: وزيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بالنُّجومِ لِمَن يُبصِرُها، ولِمَن ينظُرُ إليها فيتأمَّلُها ويعتبِرُ، ويستدِلُّ بها على قُدرةِ خالِقِها ووحدانيَّتِه سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

وقال سُبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥].

النجومَ الثوابتَ متجمع بعضُها بقربِ بعضٍ على أبعادٍ بينَها، لا تتغيرُ فيما يشاهدُ مِن الجوِّ، فتلك الطائفةُ تكونُ بشكلٍ واحدٍ يشابهُ نُقطًا لو خُطِّطتْ بينَها خطوطٌ لخرجَ منها شبهُ صورةِ حيوانٍ أو آلةٍ، سمُّوا باسمِها تلك النجومَ المشابهةَ لهيئتِها، وهي واقعةٌ في خطِّ سيرِ الشمسِ... تخيَّلوا أنَّها منازلُ للشمسِ؛ لأنَّهم وقَّتوا بجهتِها سمْتَ موقعِ الشمسِ مِن قبةِ الجوِّ نهارًا فيما يخيَّلُ للناظرِ أن الشمسَ تسيرُ في شبهِ قوسِ الدائرةِ، وجعلوها اثني عشرَ مكانًا بعددِ شهورِ السنةِ الشمسيةِ... فبما كان لها مِن النظامِ تسنَّى أن تُجعلَ علاماتٍ لمواقيتِ حلولِ الفصولِ الأربعةِ، وحلولِ الأشهرِ الاثني عشرَ، فهم ضبطوا لتلك العلاماتِ حدودًا وهميةً عيَّنوا مكانَها في الليلِ مِن جهةِ موقعِ الشمسِ في النهارِ... وللتمييزِ بينَ تلك الطوائفِ مِن النجومِ جعلوا لها أسماءَ الأشياءِ التي شبَّهوها بها وأضافوا البرجَ إليها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨، ٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٦).

﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾.

أي: وحَرَسْنا[١] السَّماءَ الدُّنيا مِن كُلِّ شَيطانٍ ذَميمٍ محقَّرٍ مَطرودٍ مِن رَحمةِ الله، لئلَّا يَسْتَمعوا إلى الملأِ الأعلَى[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠].

وقال سُبحانه: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨- ٩].

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

أي: لكن[٣] قد يتقدَّم بعضُ مردتِهم فيختطفُ بخُفْيةٍ خطفةً يسيرةً ممَّا يسمعُه مِن الملائكةِ مِن الأخبارِ والحوادثِ مما سوَى الوحيِ، فيلحقُه شهابٌ مِن النَّارِ

---

(١) قال ابنُ عاشور: (المقصودُ مِن مَنْعِ الشَّياطينِ مِن ذلك منعُهم الاطِّلاعَ على ما أراد اللهُ عدَمَ اطِّلاعِهم عليه مِن أمرِ التَّكوينِ ونَحوِه ممَّا لو ألقَتْه الشَّياطينُ في عِلمِ أوليائِهم، لكان ذلك فَسادًا في الأرضِ، ورُبَّما استدرجَ اللهُ الشَّياطينَ وأولياءَهم فلم يمنَعِ الشَّياطينَ مِن استراقِ شَيءٍ قَليلٍ يُلقُونه إلى الكهَّانِ، فلمَّا أراد اللهُ عِصمةَ الوَحيِ منَعَهم من ذلك بتاتًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٨).

(٣) ممَّن ذهبَ إلى أنَّ الاستثناءَ هنا مُنقَطِعٌ بمعنى لكنْ: ابن جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠).

قال القرطبي: (وقيل: هو متَّصِلٌ، أي: إلَّا ممَّن استَرَق السمعَ، أي: حَفِظْنا السماءَ من الشياطينِ أن تسمعَ شيئًا من الوحيِ وغَيرِه، إلَّا من استرق السَّمعَ؛ فإنَّا لم نحفَظْها منه أن تسمعَ الخبَرَ من أخبار السَّماءِ سوى الوحي). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠).

مضيءٌ ظاهرٌ، فيقتلُه أو يُخبلُه أو يُحرِقُه[١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه -يَبلُغُ به النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠، ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

قال ابنُ الجوزي: (﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ قال ابنُ قُتيبةَ: كوكبٌ مُضيءٌ. وقيل: ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى: ظاهِر يراه أهلُ الأرض. وإنما يَسترِقُ الشيطانُ ما يكونُ مِن أخبارِ الأرض، فأمَّا وحيُ الله عزَّ وجلَّ فقد صانه عنهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٧).

ممن اختار أنَّ ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى: ظاهر: الواحدي، والزمخشري، والبيضاوي، وأبو حيان، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١).

وممن اختار أن ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى مضيء: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ أبي زمنين، والرسعني، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٩٢)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٤٥).

وذهَب ابنُ جرير إلى أنَّ معنى ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: يبينُ أثرُه فيه إمَّا بإخبالِه وإفسادِه، وإما بإحراقِهِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١).

وقال السعدي: (﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّنٌ منيرٌ يقتلُه أو يخبلُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

قال الخازن: (قالوا: إنَّه ليس المرادُ أنَّهم يُرْمَون بأجرامِ الكواكبِ، بل يجوزُ أن تنفصِلَ مِن الكواكبِ شعلةٌ، وتُرمَى الشياطينُ بتلك الشعلةِ، وهي الشُّهبُ، ومثلُها كمثلِ قبسٍ يُؤخذُ مِن النارِ، وهي على حالِها). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣١٩).

وقال القرطبي: (واخْتُلِف في الشِّهابِ هل يقتلُ أم لا. فقالَ ابنُ عبَّاسٍ: الشِّهابُ يجرحُ ويحرقُ ويُخْبِلُ ولا يقتلُ. وقالَ الحسنُ وطائفةٌ: يقتلُ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١).

قال الرسعني: (وعندي: أنَّه لا تنافيَ بينَ القولينِ؛ فإنَّه عذابٌ يُرمَون به؛ فمِنهم مَن يستأصلُه ويُهلكُه، ومنهم مَن يُعذِّبُه ولا يُهلكُه بالكليَّةِ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٩٢).

((إذا قضَى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ، ضَرَبَت الملائكةُ بأجنِحَتِها خُضعانًا لِقَولِه، كالسِّلسلةِ على صفوانٍ[١]، فإذا فُزِّعَ[٢] عن قُلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا للذي قال: الحَقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقو السَّمعِ، ومُستَرِقو السَّمعِ هكذا؛ واحِدٌ فَوقَ آخَرَ -ووصَفَ سُفيانُ بِيَدِه، وفرَّجَ بين أصابعِ يدِه اليُمنى، نَصَبَها بعضَها فوقَ بَعضٍ- فرُبَّما أدرَكَ الشِّهابُ المُستَمِعَ قبلَ أن يرمِيَ بها إلى صاحِبِه، فيُحرِقُه، وربَّما لم يُدرِكْه حتى يرميَ بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفَلُ منه، حتى يُلقُوها إلى الأرضِ، فتُلقَى على فَمِ السَّاحِرِ، فيَكذِبُ معها مائةَ كَذْبةٍ، فيُصدَّقُ، فيقولونَ: ألَمْ يُخبِرْنا يومَ كذا وكذا يكونُ كذا وكذا، فوَجَدْناه حقًّا؟! للكَلِمةِ التي سُمِعَت من السَّماءِ))[٣].

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا شرَحَ اللهُ تعالى الدَّلائِلَ السَّماويَّةَ في تقريرِ التَّوحيدِ؛ أتبَعَها بذِكرِ الدَّلائِلِ الأرضيَّةِ، فقال تعالى[٤]:

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾.

أي: والأرضَ بَسَطناها، ووسَّعْناها سَعةً تتمَكَّنُ المخلوقاتُ فيها على

(١) كالسِّلسلة على صَفوانٍ: أي: القَولُ المَسموعُ يُشبِهُ صَوتَ وَقْعِ السِّلسلةِ على (صفوانٍ): وهو الحجَرُ الأملَسُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ١٩٢).

(٢) فُزِّعَ: أي: أُزيلَ الخَوفُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ١٩٢).

(٣) رواه البخاري (٤٧٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٣٠).

الامتدادِ بأرجائِها، والتناوُلِ مِن أرزاقِها، والسُّكونِ في نواحيها[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦].

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾.

أي: وجعَلْنا في الأرضِ جِبالًا ثابتةً تُمسِكُ الأرضَ؛ لِئَلَّا تَضطَرِبَ بأهلها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾.

وأوْجَدْنا[٣] فِي الأرضِ[٤] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٠٣١، ٧٠٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٢).

قال القرطبي: (والمقصودُ مِن الإنباتِ: الإنشاءُ والإيجادُ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٣).

(٤) الأكثرونَ على أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرضِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٨).

وقيل: المرادُ به الجبالُ، وممن قال به الفرَّاءُ، والسمرقندي، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٠).

وممن جمع بين المعنيين السابقين البقاعي والشربيني.

قال البقاعي: (﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: الأرضِ، ولا سيَّما الجبال). ((نظم الدرر)) (١١/ ٣٤).

وقال الشربيني: (قولُه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ واختُلِف في عودِ ضميرِ فيها، فقيل: يعودُ إلى

مِنْ كُلِّ شيءٍ مُقَدَّرٍ بقَدْرٍ مَعْلومٍ، بقصدٍ وإرادةٍ[١].

الأرضِ؛ لأنَّ أنواعَ النباتِ المنتفَعِ به يكونُ في الأرضِ، وقيل: إلى الجبالِ؛ لأنَّها أقربُ مذكورٍ، ولقولِه تعالى: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ وإنَّما يُوزَنُ ما يتولَّدُ مِن الجبالِ، والأَولَى عودُه لهما). ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥١).

وممن اختار هذا المعنَى المذكورَ: ابنُ جريرٍ، والسمعاني، وابنُ عطيةَ- ونسَبه للجمهورِ-، وابنُ جزي، والشوكاني. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال مِن السلفِ بنحوِ القولِ المذكورِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعكرمةُ- في روايةٍ عنه-، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، والحكمُ بنُ عُتيبةَ، ومجاهدٌ، وأبو صالحٍ، وقتادةُ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٨).

قال الزجاجُ: (ومعنى ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي: مِن كلِّ شيءٍ مقدورٍ جرَى على وزنٍ مِنْ قَدَرِ اللَّه عزَّ وجلَّ، لا يُجاوِزُ ما قَدَّره الله عليه، لا يستطيع خلقَ زيادةٍ فيه ولا نقصانًا). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ١٧٦).

وقال الواحدي: (اختلفوا في معنى ﴿مَّوْزُونٍ﴾ هاهنا، فذهب الأكثرون إلى أنَّ معناه: المحصَّلُ المعلومُ المقدورُ، ذلك أنَّ الوزنَ إنما يُستعمَلُ لبيانِ المقدارِ والإشرافِ على حقيقتِه، فوُصِفَ المعلومُ بالموزونِ وإن لم يكن هناك وزنٌ؛ لأنَّ أوكدَ ما يتحصَّلُ به معرفةُ المقادير الوزنُ... وهذا معنى قولِ ابنِ عباسٍ وعكرمةَ وسعيدِ بنِ جبيرٍ، والحكمِ ومجاهدٍ... وهذا القولُ اختيارُ أبي عبيدةَ والزجَّاجِ وأبي بكر [ابنِ الأنباري]... ويشهدُ لهذا التأويل قولُه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] وهذا عامٌّ في كلِّ ما خلَقه اللهُ تعالى على وجهِ الأرضِ- ما ليس مِن جنسِ الأرضِ- مما يكونُ في المعادن، وذلك للَفظِ الإنبات؛ لأنَّه إنما يُستعمَلُ فيما ينبُتُ من الأرض، ويُستعمَلُ في الحيوانات أيضًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ويُقال: الرجلُ يَنبُتُ الجاريةَ، أي: يغذوها، ويُحسِنُ القيامَ عليها. حكاه الليثُ، فأمَّا الجواهرُ فقد دخَلت تحتَ قولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ ولا تدخلُ في الإنباتِ. وذهَب آخرون في قوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ إلى حقيقةِ الوزنِ، وقال عطاءٌ: يريدُ الثِّمارَ ممَّا يُكالُ أو يُوزنُ. وقال الكلبي: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ في الجبالِ، ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ مِن الذهَبِ والفِضَّةِ والنُّحاسِ والحديدِ، والرصاصِ والكحلِ والزرنيخِ، وكلِّ شيء يُوزن وزنًا،... قال أبو بكر [ابن الأنباري]: والقولُ الأولُ أثبتُ؛ لأنَّه يَحمِلُ

كما قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال سُبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾

الآيةَ فيه على العمومِ، والقول الثاني يوجِبُ اختصاصًا لم يأتِ به برهانٌ، على أنَّه على بُعدِه غيرُ خارجٍ عن الصوابِ. والله أعلم). ((البسيط)) (١٢/ ٥٦٨ - ٥٧١). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٩٥).

وممن قال: إنَّ المرادَ ما أنبتَ في الأرضِ مِن أنواعِ النباتِ والزُّروعِ والثمارِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والخازنُ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وعطاءٌ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢).

وقيل: المرادُ: الشيءُ الذي يُوزَنُ كالذهبِ، والفضةِ، والرصاصِ، والحديدِ، ونحوِ ذلك. وممن قال به الفراءُ، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٨٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٠).

وممن قال به مِن السلفِ: الحسنُ، وعكرمةُ- في روايةٍ-، وابنُ زيدٍ، وابنُ السائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٨).

قال الرسعني عن هذا القولِ: (وهو يجيءُ على ردِّه الضميرَ إلى الجبالِ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٩٥).

وممن جمع بين المعنيين السابقين البقاعي والشربيني.

قال البقاعي: (﴿مَّوْزُونٍ﴾ أي: مقدَّرٍ على مقتضَى الحكمةِ؛ مِن المعادنِ والنباتِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٣٥).

وقال الشربيني: (والأولَى: أنَّه جميعُ ما ينبتُ في الأرضِ والجبالِ؛ لأنَّ ذلك نوعانِ: أحدُهما يُستخرَجُ مِن المعادنِ، وجميعُ ذلك موزونٌ. والثاني: النباتُ فبعضُه موزونٌ، وبعضُه بالكيلِ، وهو يرجعُ إلى الوزنِ؛ لأنَّ الصاعَ والمدَّ مقدرانِ بالوزنِ). ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٥٦).

[ق: ٧].

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾.

أي: وهيَّأْنا لكم في الأرضِ -أيُّها النَّاسُ- ما تعيشونَ به مِن المطاعِمِ والمَشارِبِ، ويسَّرْنا لكم الحِرَفَ، وأنواعَ المكاسِبِ[(١)].

﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾.

أي: وجَعَلْنا لكم الأولادَ والعَبيدَ والدوابَّ والأنعامَ التي نَرزُقُها نحن لا أنتم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٦٧) و (١٠/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: وجعَلْنا في الأرضِ معايشَ لكم ولِمَن لستُم له بمُطعِمينَ من الدوابِّ والوحوشِ والطيورِ. وممن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ قتيبة، والسمرقندي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٢٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٥).

قال النحاسُ: (قال تعالى: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ قال مجاهدٌ: يعني الدوابَّ والأنعامَ. وقال غيرُه: يعني المماليكَ والدوابَّ. قال أبو جعفر [النحاس]: وهذا أولَى؛ لأنَّ «مَن» لا تكونُ لما لا يعقلُ إلَّا أنْ يختلِطَ معه مَن يعقِلُ، والمعنَى: وجعَلْنا لكم المماليكَ والدوابَّ والأنعامَ، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: أعَشْناكم، وأعَشْنا مَن لستُم له برازقينَ). ((معاني القرآن)) (٤/ ١٨).

وقال سُبحانه: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥ - ٨].

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنه أنبَتَ في الأرضِ كُلَّ شَيءٍ مَوزونٍ، وجعلَ فيها معايِشَ؛ أتبَعَه بذِكرِ ما هو كالسَّبَبِ لذلك[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ظهَرَ كالشَّمسِ كَمالُ قُدرةِ الله تعالى، وأنَّه واحِدٌ لا شريكَ له؛ بيَّنَ أنَّه كما كانت هذه الأشياءُ عنده بحِسابٍ قَدَّرَه على حِكمةٍ دَبَّرَها، كان غيرُها كذلك، فذلك هو المانِعُ مِن مُعاجَلتِهم بما يَهزَؤونَ به مِن العذابِ[2]، فقال تعالى:

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾.

أي: وما مِن شَيءٍ -مِن جميعِ الأرزاقِ، وأصنافِ الأقدارِ، مِن الأمطارِ وغيرِها- إلَّا عندَ الله وَحدَه خَزائِنُه، ومفاتيحُه بيَدِه؛ فهو مالِكُ كُلِّ شَيءٍ، وهو القادِرُ على إيجادِه وتكوينِه متى يشاء[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾.

أي: وما نُنَزِّلُ الأمطارَ والأرزاقَ وكُلَّ شَيءٍ إلَّا بمِقدارٍ مُحَدَّدٍ، لا يزيدُ ولا يَنقُصُ، بحسَبِ مَشيئةِ الله، وما تَقتَضيه حِكمتُه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾ [المؤمنون: ١٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [الشورى: ٢٧].

﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا تَمَّ ما أراد اللهُ تعالى من آيتَيِ السَّماءِ والأرضِ، وختَمَه بشُمولِ قُدرتِه لكُلِّ شَيءٍ؛ أتبَعَه ما ينشأُ عنهما ممَّا هو بينَهما مُودَعًا في خزائِنِ قُدرتِه[2].

﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾.

أي: وأرسَلْنا رياحَ الرَّحمةِ لِتُلقِّحَ السَّحابَ، فينشأَ عن ذلك الماءُ الذي يحمِلُه

قال ابنُ جزي: (﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ قيل: يعني: المطَرَ، واللفظُ أعَمُّ من ذلك، والخزائِنُ: المواضِعُ الخازنةُ، وظاهِرُ هذا أنَّ الأشياءَ مَوجودةٌ قد خُلِقَت. وقيل: ذلك تمثيلٌ، والمعنى: وإن مِن شيءٍ إلا نحن قادرونَ على إيجادِه وتكوينِه). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٦).

السَّحابُ[١].

عن سَلَمةَ بنِ الأكوعِ رَضِيَ الله عنه -يرفَعُه إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم- قال: ((كان إذا اشتَدَّت الرِّيحُ يقولُ: اللَّهُمَّ لَقَحًا لا عَقيمًا[٢]))[٣].

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾.

أي: فأنزَلْنا من السَّحابِ مَطَرًا، فمكنَّاكم من هذا الماءِ العذْبِ؛ لِشُربِكم، وشُربِ أنعامِكم، وسَقْيِ أراضيكم[٤].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠-١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥، ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٦٦).
قال ابن عاشور: (معنى الإلقاح: أنَّ الرِّياحَ تُلَقِّحُ السحابَ بالماء، بتوجيهِ عمَلِ الحرارةِ والبرودة متعاقِبَينِ، فينشأُ عن ذلك البُخارُ الذي يصيرُ ماءً في الجوِّ، ثمَّ يَنزِلُ مطرًا على الأرض). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٨).

(٢) لَقَحًا (بفتحِ اللَّامِ والقاف): أي: اجعَلْها حامِلةً للماءِ كاللَّقحةِ مِن الإبِلِ، لا عَقيمًا: أي: لا خاليةً عنه. يُنظر: ((فيض القدير)) للمناوي (٥/ ١٠١).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٠٠٨)، والطبراني (٧/ ٣٣) (٦٢٩٦)، والحاكم (٧٧٧٠).
صحَّح إسنادَه الحاكِمُ وقال: (على شرطِ الشيخينِ ولم يُخرجاه)، والنووي في ((المجموع)) (٥/ ٩٨)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ١٣٨): (رجاله رجال الصحيح غيرَ المغيرة بن عبد الرحمن، وهو ثقة)، وصحَّحه ابنُ حجر، كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٤/ ٢٧٥)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٦٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٢، ٢٧٣).

وقال سُبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا * لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾.

أي: ليست خزائِنُ المطَرِ عِندَكم، بل نحن الخازِنونَ له، نُنَزِّلُه متى نشاءُ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٨)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٣).

وممن اختار المعنى المذكورَ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والنيسابوري، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: معنى ﴿بِخَٰزِنِينَ﴾: أي بحافظين. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ أبي زمنين، والسمرقندي، والواحدي، والرازي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٠)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٩).

قال الشِّنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ فيه للعُلماءِ وجهانِ مِن التفسيرِ، كلاهما يشهَدُ له قرآنٌ:

الأول: أنَّ معنى ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي: ليست خزائِنُه عندكم، بل نحن الخازنون له، ننزلُه متى شئنا، وهذا الوجهُ تدلُّ عليه آياتٌ، كقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧] الآية، ونحو ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أنَّ معنى ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ بعد أن أنزَلْناه عليكم، أي: لا تَقدِرونَ على حفظِه في الآبارِ والعُيونِ والغُدرانِ، بل نحن الحافظون له فيها، ليكون ذخيرةً لكم عند الحاجة، ويدلُّ لهذا الوجه قولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠]...

قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

قال سُبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: ٢١].

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ٢٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا جرى ذِكرُ إنزالِ المطَرِ، وكان ممَّا يَسبِقُ إلى الأذهانِ عندَ ذِكرِ المطَرِ إحياءُ الأرضِ به؛ ناسَبَ أن يذكُرَ بعده جِنسَ الإحياءِ كُلَّه؛ لِمَا فيه من غرضِ الاستدلالِ على الغافلينَ عن الوحدانيَّةِ، ولأنَّ فيه دليلًا على إمكانِ البَعثِ، والمقصودُ ذِكرُ الإحياءِ؛ ولذلك قُدِّمَ، وذكَرَ الإماتةَ للتَّكميلِ[(١)].

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾.

أي: وإنَّا لَنحنُ نُحيي الخَلقَ مِن العدَمِ، ونُحييهم بعدَ مَوتِهم يومَ البَعثِ، ونُميتُ الأحياءَ متى شِئْنا[(٢)].

﴿وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾.

إلى غير ذلك من الآيات). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٧٣).

وقيل المراد: وما أنتم له بمانعينَ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: سفيانُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٩).

أي: ونحن الوارِثونَ للأرضِ ومَن عليها مِن الخَلقِ بعد مَوتِهم، فلا يبقَى إلَّا اللهُ وَحدَه سُبحانه[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

وقال سُبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾؛ أتبَعَه بقَولِه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾؛ تنبيهًا على أنَّه لا يخفَى على اللهِ شَيءٌ مِن أحوالِهم، فيدخُلُ فيه عِلمُه تعالى بتقَدُّمِهم وتأخُّرِهم في الحُدوثِ والوجودِ، وبتقَدُّمِهم وتأخُّرِهم في أنواعِ الطاعاتِ والخَيراتِ[٢].

وأيضًا لمَّا بيَّن الله تعالى الحُجَجَ على كمالِ قدرتِه تعالى؛ بيَّن كمالَ علمِه جلَّ وعلا؛ فإنَّ ما يدلُّ عليها دليلٌ عليه ضرورةَ أنَّ القادرَ على كلِّ شيءٍ لا بدَّ مِن علمِه بما يصنعُه[٣].

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ولقدْ أحاطَ علمُنا بمَن تقدَّم منكم - أيُّها الناسُ - وبمَن تأخَّر، وبأحوالِكم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٨، ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٧٨).

وأعمالِكم جميعًا، فلا يخفَى علينا شيءٌ[(١)].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ جُملةَ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ نتيجةٌ لهذه الأدلَّةِ مِن قَولِه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾؛ فإنَّ الذي يُحيي الحياةَ الأُولى قادِرٌ على الحياةِ الثَّانية بالأَولى، والذي قدَّرَ الموتَ ما قَدَّرَه عَبَثًا بعد أن أوجَدَ الموجوداتِ، لكن قدَّره لتَسْتقبلوا حياةً أبديةً، ولولا ذلك لقَدَّرَ الدَّوامَ على الحياةِ الأُولَى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١).

قال القرطبي: (فيه ثمانيةُ تأويلاتٍ: الأول: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ في الخَلقِ إلى اليومِ، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ الذين لم يُخلَقوا بعدُ، قاله قتادةُ وعكرمةُ وغيرُهما. الثاني: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ الأمواتُ، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ الأحياءُ، قاله ابنُ عباسٍ والضحَّاكُ. الثالث: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ مَن تقدَّمَ أمَّةَ محمدٍ، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، قاله مجاهدٌ. الرابع: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ في الطاعةِ والخيرِ، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ في المعصيةِ والشَّرِّ، قاله الحسنُ وقتادةُ أيضًا. الخامس: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ في صفوفِ الحَربِ، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ فيها، قاله سعيدُ بنُ المسيِّب. السادس: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ مَن قُتِل في الجِهاد، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ من لم يُقتَل، قاله القرظي. السابع: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ أوَّلُ الخَلقِ، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ آخِرُ الخلقِ، قاله الشعبي. الثامن: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ في صفوف الصلاة، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ فيها بسببِ النِّساء. وكلُّ هذا معلومٌ لله تعالى؛ فإنَّه عالمٌ بكُلِّ موجودٍ ومَعدومٍ، وعالمٌ بمن خَلَقَ، وما هو خالِقُه إلى يومِ القيامةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٥٦).

وقال أبو حيان: (والأَولى حملُ هذه الأقوالِ على التَّمثيلِ لا على الحصرِ، والمعنى: أنَّه تعالى محيطٌ عِلمُه بمن تقَدَّمَ وبمن تأخَّرَ وبأحوالِهم). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٥).

وممن اختار عمومَ الآيةِ: الرازي، وأبو حيان، والخازن، والنيسابوري، والبقاعي. ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١).

ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[١] [الملك: ٢].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾.

أي: وإنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- هو وَحدَه الذي يجمَعُ الأوَّلينَ والآخِرينَ يومَ القيامةِ للحِسابِ والجزاءِ، لا شَكَّ في قُدرتِه على ذلك، وصِدقِ وَعدِه[٢].

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّه -سُبحانه- حَكيمٌ يضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها اللَّائقةِ بها، ومن ذلك حِكمتُه في تدبيرِ خَلقِه ومُجازاتِهم على أعمالِهم، وهو عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بأعدادِ خَلقِه وأحوالِهم وأعمالِهم، فيُجازيهم عليها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أصلٌ في عِلمِ المَواقيتِ[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ سمِّيَت بذلك؛ لأنَّها للكواكِبِ السَّيَّارةِ كالمنازِلِ لسُكَّانِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٩).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ فيه التَّنويهُ بعِصمةِ الوَحيِ مِن أن يتطَرَّقَه الزِّيادةُ والنَّقصُ[1]، فطريقُ الوحيِ إلى الرسولِ محفوظةٌ مِن الشياطينِ.

٤- إن قيلَ: قَولُه: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ وغيرُه من الآياتِ التي استُدلَّ بها على حِفظِ السَّماءِ مِن الشَّياطينِ واردةٌ في حِفظِها مِن استِراقِ السَّمعِ، وذلك إنَّما يكونُ مِن شَياطينِ الجِنِّ، فدَلَّ ذلك على اختصاصِ الآياتِ المذكورةِ بشَياطينِ الجِنِّ؟

فالجوابُ: أنَّ الآيةَ المذكورةَ وغيرَها تَشمَلُ بدَلالتِها اللُّغَويَّةِ شَياطينَ الإنسِ مِن الكُفَّارِ، ولا شَكَّ أنَّ مِن أشَدِّ الكُفَّارِ تمَرُّدًا وعتُوًّا الذين يحاوِلونَ بُلوغَ السَّماءِ؛ فدُخولُهم في اسمِ الشَّيطانِ لُغةً لا شَكَّ فيه، وإذا كان لفظُ الشَّيطانِ يعُمُّ كُلَّ متمَرِّدٍ عاتٍ، فقَولُه تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ صريحٌ في حِفظِ السَّماءِ مِن كلِّ متمَرِّدٍ عاتٍ، كائنًا مَن كان، وحمْلُ نصوصِ الوَحيِ على مَدلولاتِها اللُّغَويةِ واجِبٌ، إلَّا لدَليلٍ يدُلُّ على تخصيصِها أو صَرفِها عن ظاهِرِها المُتبادِرِ منها، وحِفظُ السَّماءِ مِن الشَّياطينِ معناه حِراستُها منهم، وهذا معروفٌ في كلامِ العرَبِ، فيكونُ مَدلولُ هذه الآيةِ بدَلالةِ المُطابقةِ ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي: وحَرَسناها -أي: السَّماءَ- مِن كُلِّ عاتٍ متمَرِّدٍ. ولا مفهومَ مُخالفةٍ لِقَولِه: ﴿رَّجِيمٍ﴾ ولا لقوله: ﴿مَّارِدٍ﴾ في قَولِه: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٧]؛ لأنَّ مِثلَ ذلك من الصِّفاتِ الكاشِفةِ؛ فكُلُّ شَيطانٍ يُوصَفُ بأنَّه رَجيمٌ وبأنَّه مارِدٌ، وإن كان بعضُهم أقوى تمرُّدًا مِن بَعضٍ، وما حرَسَه اللهُ جلَّ وعلا مِن كُلِّ عاتٍ متمَرِّدٍ لا شَكَّ أنَّه لا يصِلُ إليه عاتٍ متمَرِّدٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٩-٣٠).

كائنًا مَن كان[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ هذه من الآياتِ التي تدُلُّ على أنَّ الأرضَ هي محَلُّ عِيشةِ الإنسانِ، فظاهرُ القرآنِ- بلا شَكٍّ- يدلُّ على أنْ لا حياةَ للإنسانِ إلَّا في هذه الأرضِ التي منها خُلِقَ، وإليها يُعَادُ، ومنها يُخرَجُ؛ قال الله تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، فحصَرَ الحياةَ في الأرضِ والموتَ فيها والإخراجَ منها، وطريقُ الحَصرِ فيها تقديمُ ما حَقُّه التأخيرُ، ونحوُ هذه الآيةِ قَولُه تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، حيث حَصَرَ ابتداءَ الخَلقِ مِن الأرضِ، وأنَّها هي التي نُعادُ فيها بعد الموتِ، ونُخرَجُ منها يومَ القيامةِ[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ متضَمِّنٌ لكَنزٍ مِن الكنوزِ، وهو أنَّ كلَّ شَيءٍ لا يُطلَبُ إلَّا ممَّن عنده خَزائِنُه، ومفاتيحُ تلك الخزائِنِ بيَديه، وأنَّ طَلَبَه مِن غَيرِه طَلَبٌ ممَّن ليس عِندَه، ولا يَقدِرُ عليه[٣].

٧- مذهَبُ السَّلَفِ قاطِبةً أنَّ الأمورَ كُلَّها بتقديرِ اللهِ تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٤].

٨- الإرسالُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ هو إرسالٌ كونيٌّ، وهو ما وافقَ مشيئةَ اللهِ تعالى الكونيَّةَ، ويقابلُه: الإرسالُ الدينيُّ، وهو ما وافَقَ محبَّةَ اللهِ ورضاه وأمْرَه الشَّرعيَّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٤٧٨).

قَوۡمِهِۦٓ﴾[1] [نوح: ١].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال ذلك، والوارِثُ من يتجَدَّدُ له المُلكُ بعد فناءِ المورِّثِ، واللهُ تعالى لم يتجَدَّد له مُلكٌ؛ لأنَّه لم يزَلْ مالكًا للعالَمِ؟

والجواب: أنَّ الخلائِقَ لَمَّا كانوا يعتَقِدونَ أنَّهم مالِكونَ، ويُسَمَّونَ بذلك أيضًا مجازًا، ثمَّ ماتوا؛ خَلَصَت الأملاكُ كُلُّها لله تعالى عن ذلك التعَلُّقِ، فبهذا الاعتبارِ سُمِّيَ وارِثًا، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، والمُلكُ له أزليٌّ وأبدِيٌّ. وقيل: (الوارِث) لغةً هو الباقي بعد فناءِ غَيرِه، وإن لم يتجَدَّدْ له مُلكٌ، فمعنى الآية: ونحن الباقونَ بعد فناء الخلائِقِ[2].

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أسنَدَ الحَشرَ إلى اللهِ بعُنوانِ كَونِه رَبَّ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تنويهًا بشأنِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّهم كَذَّبوه في الخَبَرِ عن البَعثِ، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ * أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ [سبأ: ٧-٨]، أي: فكيف ظنُّك بجَزائِه مُكَذِّبيك إذا حشَرَهم[3]؟

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ في الانتقالِ إلى ذِكْرِ فتْحِ أبوابِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٩٦-٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤١).

السَّماءِ في تصويرِ غُلَوائِهم بعِنادِهم بعدَ ذِكْرِ دَلائلِ إمكانِ البعثِ في قولِه تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾- تَخلُّصٌ بديعٌ، وفيه ضَرْبٌ مِن الاستدلالِ على مُكابرتِهم؛ فإنَّهم لو أرادوا الحقَّ لكان لهم في دَلالةِ ما هو منهم غُنْيَةٌ عن تطلُّبِ خَوارقِ العاداتِ، والخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّذكيرِ والاستدلالِ؛ لأنَّ مَدلولَ هذه الأخبارِ معلومٌ لديهم. وافتُتِحَ الكلامُ بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قد)؛ تنزيلًا للمُخاطَبينَ الذَّاهلينَ عنِ الاستدلالِ بذلك مَنزِلةَ المُتردِّدِ؛ فأكَّدَ لهم الكلامَ بمُؤكِّدَينِ، ومرجِعُ التَّأكيدِ إلى تحقيقِ الاستدلالِ وإلى الإلجاءِ إلى الإقرارِ بذلك[١].

٢- قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ استِراقُ السَّمعِ: سرِقَتُه؛ صِيغَ وزْنُ الافتعالِ للتَّكلُّفِ، وعُبِّرَ عن الكلامِ المُستَرَقِ بالسَّمعِ؛ لأنَّه يَؤُولُ إلى الخبرِ؛ فالَّذي يحصُلُ لمُسترِقِ السَّمعِ شُعورٌ ما تتوجَّهُ الملائكةُ لتَسخيرِه، والَّذي يحصُلُ للكاهِنِ كذلك، والمَآلُ أنَّ الكاهِنَ يُخْبِرُ به، فيَؤُولُ إلى مَسموعٍ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ ﴾ (إنْ) للنَّفيِ، و(مِن) صِلَةٌ؛ للتَّأكيدِ[٣].

- التعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِه: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣١، ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٢).

- قولُه: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ ﴾ فيه تكريرُ الضَّميرِ ﴿نَحْنُ﴾؛ للدَّلالةِ على الحصْرِ[١].

٥- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ فيه تخلُّصٌ مِن الاستدلالِ بالإحياءِ والإماتةِ على عِظَمِ القُدرةِ إلى الاستدلالِ بلازِمِ ذلك على عِظَمِ علْمِ اللهِ، وهو علْمُه بالأُمَمِ البائِدةِ وعلْمُ الأُمَمِ الحاضرةِ؛ وذلك لأنَّه ذكَرَ الإحياءَ والإماتةَ قبْلُ في قولِه: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾، والإحياءُ- بكسْرِ الهمزةِ- يُذَكِّرُ بالأحياءِ- بفتحِها-، والإماتةُ تُذَكِّرُ بالأمواتِ الماضينَ[٢].

- والسِّينُ والتَّاءُ في الوصفَينِ (الْمُسْتَقْدِمِينَ - الْمُسْتَأْخِرِينَ)؛ للتَّأكيدِ، مثلُ (استجابَ)، ولكنَّ قولَهم: (استقدَمَ بمعنى تقدَّمَ) على خلافِ القياسِ؛ لأنَّ فعْلَه رُباعِيٌّ[٣].

- وفي تكريرِ قولِه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ ما لا يَخْفى مِن الدَّلالةِ على كَمالِ التَّأكيدِ[٤].

٦- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ فيه تَصديرُ الجُملةِ بقولِه: ﴿إِنَّ﴾؛ لتحقيقِ الوعْدِ والتَّنبيهِ على أنَّ ما سبَقَ مِن الدَّلالةِ على كَمالِ قُدرتِه وعلْمِه بتفاصيلِ الأشياءِ؛ يدلُّ على صِحَّةِ الحُكمِ، كما صرَّحَ به بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٩).

وأُكِّدَت جُملةُ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ بحرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ) وبضميرِ الفصْلِ (هو)؛ لرَدِّ إنكارِهم الشَّديدِ للحشْرِ[١].

- قولُه أيضًا: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ فيه توسيطُ الضَّميرِ (هو)؛ للدَّلالةِ على أنَّه القادِرُ والمُتولِّي لحشرِهم لا غيرُ، أي: هو وحدَه القادرُ على حشْرِهم، والعالِمُ بحصرِهم مع إفراطِ كثْرَتِهم وتباعُدِ أطرافِ عدَدِهم؛ لأنَّهم كانوا يستبعِدونَ ذلك ويستنكِرونَه، ويقولون: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[٢] [يس: ٧٨].

- وفي الالتفاتِ والتَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ بقولِه: ﴿رَبَّكَ﴾؛ إشعارٌ بعِلَّةِ الحُكمِ[٣].

- وقد أُسْنِدَ الحشرُ إلى اللهِ بعُنوانِ كونِه ربَّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقولِه: ﴿رَبَّكَ﴾؛ تنويهًا بشأْنِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّهم كذَّبوه في الخبرِ عنِ البعْثِ[٤]، وفيه دَلالةٌ على اللُّطْفِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٥].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾؛ تعليلٌ لجُملةِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾؛ لأنَّ شأْنَ (إنَّ) إذا جاءت في غيرِ معنى الرَّدِّ على المُنكِرِ أنْ تُفيدَ معنى التَّعليلِ والرَّبطِ بما قبْلَها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤١).

الآيات (٢٦-٤٤)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَلْصَٰلٍ﴾: طينٍ يابسٍ له صَوتٌ، وأصلُ الصَّلصالِ: تردُّدُ الصَّوتِ مِن الشَّيءِ اليابسِ[(١)].

﴿حَمَإٍ﴾: طينٍ أسوَدَ متغيِّرٍ مُنتِنٍ[(٢)].

﴿مَّسْنُونٍ﴾: أي: مَصبوبٍ، مِن سَنَّ الماءَ: إذا صَبَّه، أي: أنَّه مفرَّغٌ على هيئةِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١١).

الإنسانِ، أو مُنتِنٍ مُتغَيِّرِ الرَّائحةِ، مِن قَولِهم: سَنَنتُ الحجرَ على الحجَرِ: إذا حكَكْتَه به، فالذي يسيلُ بينهما يقال له: سَنِينٌ، ويكونُ ذلك مُنتِنًا[١].

﴿ٱلسَّمُومِ﴾: أي: الرِّيحِ الحارَّةِ التي تدخُلُ مَسامَّ الإنسانِ، وأصل (سمم): يدلُّ على مدخَلٍ في الشَّيءِ[٢].

﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾: أي: فأخِّرني، وأجلني، والنظرُ: الانتظارُ، ونظرتُه: أي: انتظرتُه، كأنَّه ينظرُ إلى الوقتِ الذي يأتي فيه، وأصلُ (نظر): تأملُ شيءٍ ومعاينتُه[٣].

﴿ٱلۡغَاوِينَ﴾: أي: الضالِّينَ، والهالكينَ، والغَيُّ: جهلٌ مِن اعتقادٍ فاسدٍ، وأصلُ (غوي): يدلُّ على خلافِ الرشدِ[٤].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّه خَلقَ آدمَ مِن طينٍ يابسٍ، كائنٍ مِن طينٍ أسودَ مُتغيِّرٍ، وخَلقَ أبا الجِنِّ- وهو إبليسُ- مِن قَبلِ خَلْقِ آدمَ من نارٍ شديدةِ الحرارةِ.

ثم حكَى الله تعالى ما أمَر به الملائكةَ عندَما أراد خلقَ آدمَ، فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧، ٢٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٤، ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١).

اذكُرْ- يا محمَّدُ- حين قال ربُّك للملائكةِ: إنِّي خالِقٌ إنسانًا من طينٍ يابسٍ أسودَ مُتَغيِّرٍ، فإذا أكمَلْتُ صُورتَه ونفَخْتُ فيه الرُّوحَ، فخِرُّوا له ساجِدينَ سُجودَ تحيَّةٍ وتكريمٍ، فسجَدَ الملائِكةُ كُلُّهم أجمعونَ- كما أمَرَهم ربُّهم- إلَّا إبليسَ، امتنَعَ أن يسجُدَ لآدمَ مع الملائكةِ السَّاجِدينَ. قال اللهُ تعالى لإبليس: ما لك ألَّا تَسجُدَ مع الملائكةِ؟ قال إبليسُ تكَبُّرًا وحَسدًا: لا ينبغي لي أن أسجُدَ لإنسانٍ مخلوقٍ مِن طينٍ يابسٍ مُتغيِّرٍ!

قال اللهُ تعالى له: فاخرُجْ منها؛ فإنَّك مطرودٌ، وإنَّ عليك اللَّعنةَ إلى يومِ القيامةِ. قال إبليسُ: ربِّ أخِّرْني فلا تُهلِكْني إلى اليومِ الذي تَبعَثُ فيه الخلائِقَ، قال اللهُ له: فإنَّك من المؤخَّرين إلى اليومِ الذي يموتُ فيه الخَلقُ عندَ النَّفخةِ الأولى. قال إبليسُ: ربِّ بسبَبِ ما أغويتَني وأضلَلْتَني لأُحسِّنَنَّ لهم مَعصيتَك في الأرضِ، ولأُضِلَّنَّهم عن طريقِ الهُدى، إلَّا عبادَك المُخلَصين الذين اختَرْتَهم لِهدايتِك. قال الله: هذا طريقٌ مُستقيمٌ مُعتَدِلٌ مُوصِلٌ إليَّ وإلى جنَّتي.

إنَّ عبادي الذين أخلَصوا لي، لا سُلطانَ لك على قُلوبِهم، لكِنْ سُلطانُك على مَنِ اتَّبَعَك مِنَ المُشرِكينَ الضالِّينَ الذين رَضُوا بولايتِك وطاعتِك، وإنَّ جهنَّم لَموعِدُ إبليسَ وأتباعِه أجمعينَ، لها سبعةُ أبوابٍ، لكلِّ بابٍ من أتباعِ إبليسَ نصيبٌ مَعلومٌ يَدخُلونَ منه جهنَّمَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نبَّه تعالى على مُنتهى الخَلقِ -وهو الحَشرُ يومَ القيامةِ إلى ما يستقِرُّونَ فيه- نبَّهَهم على مبدَأ أصلِهم آدمَ، وما جرى لعدُوِّه إبليسَ مِن المحاورةِ مع اللهِ

تعالى[١]، فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾.

أي: ولقد خَلَقْنا آدمَ مِن طينٍ قد اشتَدَّ يُبْسُه بعدما خُمِّرَ، حتى صار له صوتُ صَلصلةٍ إذا نُقِرَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧-٨].

﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

أي: وهذا الصَّلصالُ مِن طينٍ أسودَ متغَيِّرٍ؛ مِن طُولِ مُكثِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧، ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٤).

قال الخازن: (﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني: آدمَ عليه السلام، في قولِ جميعِ المفسِّرين). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٢).

قال ابن الجوزي: (قال ابنُ الأنباري: لا خلافَ أنَّ الحمأَ: الطينُ الأسودُ المتغيِّرُ الريحِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٣٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ ﴿مَّسْنُونٍ﴾ بمعنى متغيرٍ: ابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المسنون بمعنى الأملسِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٣).

ولذا قال: (مقصودُ الآيةِ: التنبيهُ على شرفِ آدمَ عليه السلامُ، وطيبِ عنصرِه، وطهارةِ محتدِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٤).

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانه خَلْقَ الإنسانِ؛ أتبَعَه ذِكْرَ ما خلَقَه قَبلَه مِن الجانِّ[١]؛ تمهيدًا إلى بيانِ نشأةِ العداوةِ بينَ بني آدمَ وجندِ إبليسَ[٢].

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: وإبليسَ- أبا الجِنِّ، المتواريَ عن الأعيُنِ- خَلَقْناه من قبلِ آدمَ مِن النارِ الشَّديدةِ الحرارةِ[٣].

وقال ابن عاشور: (والمَسْنونُ: الذي طالت مُدَّةُ مُكثِه، وهو اسمُ مفعولٍ مِن فعلِ (سَنَّهُ): إذا تركه مدةً طويلة تُشبِه السَّنة. وأحسَبُ أنَّ فعل (سَنَّ) بمعنى تركَ شيئًا مدة طويلةً- غيرُ مسموعٍ. ولعل (تسَنَّهَ) بمعنى تغيَّرَ من طولِ المدة أصلُه مطاوعُ سَنَّه، ثم تنوسي منه معنى المطاوعة. وقد تقدم قولُه تعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ في سورةِ البقرةِ (آية: ٢٥٩). والمقصود مِن ذِكر هذه الأشياء التنبيهُ على عجيب صُنعِ الله تعالى؛ إذ أخرج من هذه الحالة المَهينةِ نوعًا هو سيدُ أنواع عالَمِ المادة ذاتِ الحياة). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٢).

وقال القاسمي: (﴿مَّسْنُونٍ﴾ أي: مُصوَّرٍ، من (سُنَّةِ الوجه) وهي صورتُه، أو مصبوبٍ، من (سَنِّ الماءِ) صبِّه. أي: مُفرَغ على هيئة الإنسان. كأنَّه سبحانه أفرغَ الحمَأَ فصوَّرَ منها تمثالَ إنسان أجوف، فيَبِس حتى إذا نُقِرَ صلصل، ثم صيَّرَه جسدًا ولحمًا ونفخَ فيه من رُوحِه). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٣٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٣).

قال الشنقيطي: (وسُمِّيت نارَ السمومِ؛ لأنَّها تنفُذُ في مسامِّ البدَنِ؛ لشِدَّةِ حَرِّها). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٠).

وقال ابنُ عطية: (والسَّمُوم- في كلام العرب- إفراطُ الحَرِّ حتى يَقتُلَ، مِن نارٍ أو شمسٍ أو

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- إذ قال ربُّك للملائكةِ: إنِّي خالِقٌ إنسانًا مِن طينٍ يابسٍ أسوَدَ متغيِّرٍ[١].

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

أي: فإذا أكمَلتُ خَلْقَ آدمَ، وصَوَّرْتُه، وصار جسدًا تامًّا في غايةِ الإتقانِ، ونفخْتُ فيه الرُّوحَ التي هي مِن خَلْقي، فصار بشرًا حَيًّا؛ فخِرُّوا له ساجِدينَ تحيَّةً له وتكريمًا[٢].

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

أي: فلمَّا خلَقَ اللهُ آدمَ، ونفَخَ فيه الرُّوحَ، سجدَ له كلُّ الملائكةِ فَورًا، كما أمَرَهم اللهُ[٣].

ريحٍ... وأمَّا إضافةُ نارٍ إلى السَّمُومِ في هذه الآية فيَحتملُ أن تكونَ النارُ أنواعًا، ويكونَ السَّمُومُ أمرًا يختصُّ بنوعٍ منها، فتصحُّ الإضافةُ حينئذٍ، وإن لم يكنْ هذا فيُخرَّجُ هذا على قولِهم: مسجِدُ الجامعِ، ودارُ الآخرةِ، على حذفِ مُضافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥٩).

وقال الواحدي: (اختلفوا في معنَى (السَّموم)، فقال ابنُ عباسٍ في روايةِ الكلبيِّ: هي نارٌ لا دُخَانَ لها، والصواعِقُ تكونُ منها... ونحوَ هذا القولِ سواءً رَوَى الفرَّاء عن الحسنِ. وقال آخرون: مِن نارِ الريحِ الحارَّةِ، وهو قولُ ابنِ مسعودٍ). ((البسيط)) (١٢/ ٥٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٥، ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

قال النيسابوري: (لا خلافَ في أنَّ الإضافةَ في قَولِه: ﴿رُّوحِي﴾ للتشريفِ والتكريمِ، مثل: ناقةِ الله، وبيتِ الله). ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢٢٠). ويُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٤ - ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي

﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١ ﴾.

أي: إلَّا إبليسَ امتنَعَ أن يكونَ مع الملائكةِ السَّاجِدينَ لآدمَ؛ تكبُّرًا منه وحسَدًا لآدمَ[1].

كما قال سُبحانه: ﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ * إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [ص: ٧٣-٧٤].

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢ ﴾.

أي: قال الله: يا إبليسُ، ما السَّبَبُ الذي حمَلَك على ألَّا تكونَ مع الملائكةِ السَّاجِدينَ لآدمَ، وقد أمرتُك بالسُّجودِ معهم[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ [ص: ٧٥].

﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣ ﴾.

أي: قال إبليسُ تكبُّرًا وحسَدًا لآدمَ -عليه السَّلامُ: لا ينبغي لي أنا- المخلوقَ

(١١/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

قال الواحدي: (قال الكلبي: فخَرُّوا له ساجدينَ سجدةَ تحيَّة، ولم تكن سجدةَ طاعةٍ. ونحو هذا قال جميعُ المفسِّرين). ((البسيط)) (١٢/ ٦٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٧)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٧).

قال الرازي: (أجمَعوا على أنَّ المرادَ مِن قولِه: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾ أي: قال اللهُ تعالى له: يا إبليسُ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤٠).

مِن نارٍ- أن أسجُدَ لهذا الجسَدِ الذي خلقْتَه من طينٍ يابسٍ لا مَنعةَ فيه، إذا نُقِرَ أجاب بالتَّصويتِ، أسودَ متغَيِّرٍ، فأنا خيرٌ منه؛ لأنَّك خلقتَني من نارٍ نافعةٍ بالإشراقِ، مُمتَنِعةٍ ممَّن يريدُها بالإحراقِ، فسُجودي له منافٍ لحالي[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١-٦٢].

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: قال الله لإبليسَ: فاخرُجْ منها[(٢)] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٦/ ٣٨٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

(٢) قيل: الضَّميرُ يعودُ على السَّموات. وممن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٦-٤٧).

قال ابنُ عاشور: (وضميرُ ﴿مِنْهَا﴾ عائدٌ إلى السمواتِ، وإن لم تُذْكرْ؛ لدلالةِ ذكرِ الملائكةِ عليها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٧).

وقيل: يعودُ على الجنةِ. وممن قال بهذا: مكي، والبغوي، وابنُ عطيةَ، والخازن، والعليمي، والشِّنقيطي. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١٣/ ٣٦١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٦).

وقال أبو السعود: (﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: مِن زمرةِ الملائكةِ المعزَّزينَ، لا مِن السماء؛ فإنَّ

فإنَّك مَشتومٌ مُحقَّرٌ مذمومٌ[١].

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾.

أي: وإنَّ طَرْدَك التَّامَّ مِن رَحمتي سيبقَى في الدُّنيا مُتَّصِلًا بك، لاحِقًا لَك، إلى يومِ القيامةِ الذي تُلاقي فيه جزاءَ ما عَمِلتَ[٢].

كما قال سُبحانه: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [ص: ٧٧-٧٨].

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

أي: قال إبليسُ: ربِّ فإذ أخرَجْتَني ولعَنْتَني، فأمهِلْني وأخِّرْني، ولا تُهلِكْني إلى أن تبعَثَ خلْقَك يومَ القيامةِ[٣].

وسوستَه لآدمَ عليه الصلاة والسلام في الجنةِ إنَّما كانتْ بعدَ هذا الطَّردِ). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٦).

وقيل: يعود على المنزلةِ التي كان فيها مِن الملأ الأعلَى. وممن قال بهذا: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٨).

قال أبو السعود: (وأرادَ بذلك أنْ يجدَ فُسحةً لإغوائِهم، ويأخذَ منهم ثأرَه، وينجوَ مِن الموتِ؛ لاستحالتِه بعدَ يومِ البعثِ). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٧).

قال الشوكاني: (وكأنَّه طلَبَ ألَّا يموتَ أبدًا؛ لأنَّه إذا أُخِّرَ موتُه إلى ذلك اليومِ، فهو يومٌ لا موتَ فيه. وقيل: إنَّه لم يَطلُب ألَّا يموتَ، بل طلب أن يؤخَّرَ عذابُه إلى يوم القيامة ولا يعذَّبَ في الدنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٨).

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: فإنَّك من المؤخَّرينَ المُمهَلينَ[(١)].

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

أي: إلى الوقتِ الذي يموتُ فيه الخلائقُ، وهو وقتُ النفخةِ الأُولَى[(٢)].

كما قال سُبحانَه: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۞ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٣٤).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٦٤).

قال ابنُ الجوزي: (فأرادَ أن يذيقَه ألمَ الموتِ قبلَ أن يذيقَه العذابَ الدائمِ في جهنمَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٣٤).

وقال ابن عطية: (قال أكثرُ النَّاسِ: الوقتُ المعلومُ هو النفخةُ الأولى في الصُّورِ، التي يَصعَقُ لها مَن في السموات ومَن في الأرض من المخلوقين)، ثم قال عن هذا القول: إنَّه (أصَحُّ وأشهَرُ في الشرع). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٧٩، ٣٨٠).

وقال الشنقيطي: (طلَب الشيطانُ الإنظارَ إلى يومِ البعثِ، وقد أعطاه الله الإنظارَ إلى يومِ الوقتِ المعلومِ. وأكثرُ العلماءِ يقولون: المرادُ به وقتُ النفخةِ الأُولَى، والعلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٢/ ١١).

وقال الرازي: (وإنَّما سُمِّيَ هذا الوقتُ (أي: وقتُ النفخةِ الأُولَى) بالوقتِ المعلومِ؛ لأنَّ مِنَ المعلومِ أنْ يموتَ كلُّ الخلائقِ فيه. وقيلَ: إنَّما سمَّاه اللَّهُ تعالَى بهذا الاسمِ، لأنَّ العالِمَ بذلك الوقتِ هو اللَّهُ تعالَى لا غير، كما قال تعالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان: ٣٤]). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤١).

وقيل: إنَّ المرادَ بيومِ الوقتِ المعلومِ: يومُ القيامةِ. وممن ذهَب إلى ذلك: ابنُ كثيرٍ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٨).

جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٢-٦٣].

- وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤-١٥].

- وقال سُبحانَه: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: قال إبليسُ: ربِّ بسبَبِ إغوائِك لي لأُحَسِّنَنَّ للنَّاسِ مَعصيتَك، ولأُرغِّبنَّهم فيها، ولأَشغَلنَّهم بزينةِ الدُّنيا عن طاعتِك[(١)].

﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

أي: ولأُضِلَّنَّ جميعَ النَّاسِ عن طريقِ الحَقِّ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٩).

قال ابن تيمية: (لَفظُ «الغَيِّ» إذا أطلِقَ تناولَ كلَّ معصيةٍ لله، كما في قَولِه تعالى عن الشَّيطانِ: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٠).

قال ابنُ عاشور: (كلامُ الشيطانِ هذا طفحٌ بما في جبلَّتِه، وليس هو تشفيًا أو إغاظةً؛ لأنَّ العظمةَ الإلهيةَ تصدُّه عن ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٠).

خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١١٨-١٢٠].

وقال سُبحانه: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا * وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٢-٦٤].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضِيَ الله عنه، قال: سمعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ إبليسَ قال لرَبِّه: بعِزَّتِك وجَلالِك لا أبرَحُ أُغوي بني آدمَ ما دامتِ الأرواحُ فيهم، فقال له الله: فبعِزَّتي وجلالي لا أبرَحُ أغفِرُ لهم ما استغفَروني))[(١)].

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ بفتح اللَّامِ، اسم مفعولٍ من أُخلِصَ، بمعنى: أنَّ

(١) أخرجه أحمد (١١٢٤٤)، وأبو يعلى (١٢٧٣)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٨٧٨٨). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٢١٠): أحد إسناديه رجاله رجال الصحيح. وحسَّنه ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٣٧)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (١٦٥٠)، وشعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٧/ ٣٤٤).

الله أخلَصَهم فصاروا مخلَصِينَ، أي: اختارهم اللهُ وهداهم[١].

٢- قراءةُ ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكسرِ اللامِ، اسم فاعلٍ مِن أخلَصَ، بمعنى: أنَّهم أخلَصوا لله دينَهم وأعمالَهم من الشِّركِ والرِّياءِ[٢].

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: إلَّا عبادَك الذين اختَرتَهم لهدايتِك، وطَهَّرتَهم من الشِّركِ والرِّياءِ فصاروا مُخلَصينَ، فلا أستطيعُ إغواءَهم[٣].

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿عَلِيٌّ﴾ بكسرِ اللامِ ورَفعِ الياءِ وتنوينِها، أي: هذا طريقٌ رفيعٌ شريفٌ في الدِّينِ[٤].

---

(١) قرأ بها نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٩).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).
قال السعدي: (﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلصتَهم، واجتبيتَهم؛ لإخلاصِهم وإيمانِهم وتوكُّلِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

(٤) قرأ بها يعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٦٩)، ((المحتسب)) لابن جني (٢/ ٣).

٢- قِراءةُ ﴿عَلَيَّ﴾ بفتحِ اللَّامِ والياءِ من غير تنوينٍ، أي: هذا طريقٌ يدُلُّ عليَّ وعلى عبادتي وطاعتي، لا على معصيتي وطاعةِ الشَّيطانِ(١).

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

أي: قال الله: طريقُ الحَقِّ والهُدى والإخلاصِ طريقٌ مُعتَدِلٌ، لا اعوِجاجَ فيه، يدُلُّ عليَّ، ويُوصِلُ إليَّ، وإلى جنَّتي(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦١].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٦٩)، ((المحتسب)) لابن جني (٢/ ٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٠٦، ٦٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٩٨ - ٢١٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦٩، ٧٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٨، ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

وممن اختار هذا المعنى المذكورَ في الجملةِ: الواحدي، وابنُ تيمية، وابنُ القيم، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: هذا طريقٌ مَرجِعُه إليَّ فأجازيكم بأعمالِكم، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٥).

وممن قال مِن السلفِ: إنَّ معنى ﴿عَلَيَّ﴾: إليَّ: مجاهدٌ، وزيادُ ابنُ أبي مريمَ، وعبدُ الله بنُ كثيرٍ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٧٠).

وقيل: المعنى: هذا طريقٌ حقٌّ عَلَيَّ أن أراعيَه، وهو أن لا يكونَ لك سلطانٌ على عبادي، إلَّا مَن اختارَ اتِّباعَك منهم لِغَوايتِه. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٩).

وقال جلَّ جلالُه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢].

وعن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((خَطَّ لنا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم خطًّا، ثم قال: هذا سبيلُ اللهِ؛ ثم خَطَّ خُطوطًا عن يمينِه وعن شِمالِه؛ ثم قال: هذه سُبُلٌ - قال يَزيدُ: مُتَفَرِّقةٌ- على كُلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]))[١].

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: إنَّ عبادي المؤمنينَ الموحِّدينَ الذين هديتُهم، ليس لك عليهم حُجَّةٌ وتسَلُّطٌ على قلوبِهم، لكنْ مَن اتَّبَعَك من النَّاسِ فرَضِيَ بولايتِك وطاعتِك، ومالَ إلى ما تدعو إليه من الضَّلالاتِ؛ فلك عليه تسَلُّطٌ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩-

---

(١) أخرجه أحمد (٤١٤٢) واللفظ له، والدارمي (٢٠٢)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٧٤)، وابن حبان (٧).

ذكر ابنُ القيِّم في ((طريق الهجرتين)) (١٥٢) أنَّه ثابتٌ، وصحَّح إسناده أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٦/ ٨٩)، وصحَّحه ابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (٤/ ٢٨١)، والألباني في تحقيق ((شرح الطحاوية)) (٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨، ٢٩)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٢١٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٢).

وممَّن اختار أنَّ الاستثناءَ هنا منقطِعٌ بمعنى (لكنْ): ابنُ عطية، وابنُ تيمية، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦٢)، ((جامع المسائل)) (١/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٥).

١٠٠].

وقال سُبحانه: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٤-٦٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٨].

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

أي: وإنَّ جهنَّم لَموعِدُ إبليسَ وكُلِّ مَن اتَّبعه من الإنسِ والجِنِّ أجمعينَ، فيَصيرونَ إليها في الآخرةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال سُبحانه: ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

وكما قال تعالى عن القرآن: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ [هود: ١٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾.

أي: لجهنَّمَ سَبعةُ أبوابٍ، يدخُلُ أهلُ النَّارِ منها[١].

﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾.

أي: لكلِّ بابٍ من أتباعِ إبليسَ نصيبٌ مَعلومٌ، يَدخُلونَ منه إلى النَّارِ، كلٌّ يدخُلُ مِن بابٍ بحسَبِ عمَلِه، ويستقِرُّ في دَرْكٍ بقَدْرِ فِعْلِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤-٩٥].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ هذا الإنظارُ فيه إشارةٌ إلى أنَّ ناموسَ الشرِّ لا ينقضي مِن عالَمِ الحياةِ الدُّنيا، وأنَّ نِظامَها قائِمٌ على التصارُعِ بين الخيرِ والشَّرِّ، والأخيارِ والأشرارِ؛ قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ [الرعد: ١٧]؛ فلذلك لم يستغنِ نظامُ العالَمِ عن إقامةِ قوانينِ العَدلِ والصلاحِ، وإيداعِها إلى الكُفاةِ لتَنفيذِها، والذَّودِ عنها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

قال البيضاوي: (لها سبعةُ أبواب يدخلونَ منها؛ لكثرتهم، أو طبقات ينزِلونها بحسَبِ مراتبهم في المتابعةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٩).

٢- اعتلَّ إبليسُ بالقَدَرِ؛ حيث قال: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وأما آدمُ فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. فمن أراد اللهُ سعادتَه، ألهمه أن يقولَ كما قال آدمُ- عليه السَّلامُ- أو نحوِه، ومن أراد شقاوتَه اعتَلَّ بعلَّةِ إبليسَ أو نحوِها، فيكونُ كالمستجيرِ مِن الرَّمضاءِ بالنَّارِ، ومَثَلُه مَثَلُ رجُلٍ طار إلى دارِه شرارةُ نارٍ، فقال له العقلاءُ: أطفِئْها لئلَّا تُحرقَ المنزلَ، فأخذ يقولُ: من أين كانت؟ هذه ريحٌ ألقَتْها وأنا لا ذنبَ لي في هذه النَّارِ، فما زال يتعلَّلُ بهذه العِلَلِ حتى استعَرَت وانتشرت وأحرقت الدارَ وما فيها! هذه حالُ مَن شَرَع يُحيل الذنوبَ على المقاديرِ ولا يرُدُّها بالاستغفارِ والمعاذيرِ[(١)]، فمن تاب أشبَهَ أباه آدمَ، ومن أصَرَّ واحتَجَّ بالقَدَرِ أشبَهَ إبليسَ[(٢)].

٣- قَولُ الله تعالى حاكيًا عن إبليسَ قولَه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فيه دَليلٌ على جلالةِ هذا الوَصفِ، وأنَّه أفضَلُ ما اتَّصفَ به الطَّائِعُ[(٣)].

٤- وضَعَ اللهُ تعالى سُنَّةً في نُفوسِ البشَرِ أنَّ الشَّيطانَ لا يتسَلَّطُ إلَّا على من كان غاويًا، مائِلًا للغَوايةِ، مُكتَسِبًا لها، دونَ من كبَحَ نفسَه عن الشَّرِّ؛ فإنَّ العاقِلَ إذا تعلَّقَ به وِسواسُ الشَّيطانِ عَلِمَ ما فيه من إضلالٍ، وعَلِمَ أنَّ الهُدى في خلافِه، فإذا وُفِّقَ وحمَلَ نفسَه على اختيارِ الهُدى، وصرَفَ إليه عَزمَه، قَوِيَ على الشَّيطانِ فلم يكنْ له عليه سُلطانٌ، وإذا مال إلى الضَّلالِ واستحسَنَه، واختار إرضاءَ شَهوتِه، صار متهيئًا إلى الغَوايةِ، فأغواه الشَّيطانُ فغَوى، قال الله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٩٩-٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٠٧-١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٨).

مِنَ ٱلۡغَـٰوِينَ ﴾[١].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن صَلۡصَـٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر: ٢٦] ظاهِرُ هذه الآيةِ أنَّ آدمَ خُلِقَ مِن صَلصالٍ، أي: طينٍ يابسٍ. وقد جاء في آياتٍ أُخَرَ ما يَدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ [الصافات: ١١]، وكقَولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والجوابُ: أنَّه ذكَرَ أطوارَ ذلك التُّرابِ، فذكَرَ طَورَه الأوَّلَ بقَولِه: ﴿مِن تُرَابٖ﴾، ثُمَّ بُلَّ فصار طينًا لازِبًا، ثم خُمِّرَ فصار حمَأً مسنونًا، ثمَّ يَبِسَ فصار صَلصالًا كالفخَّارِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ علَّقَ السُّجودَ بأن يَنفُخَ فيه من رُوحِه، فالمُوجِبُ لتَفضيلِ آدمَ على إبليسَ هذا المعنى الشَّريفُ الذي ليس لإبليسَ مِثلُه[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ * قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَـٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾، ظاهرُه يقتضي أنَّ الله تعالى تكلَّم مع إبليسَ بغيرِ واسطةٍ، وأنَّ إبليس تكلَّم مع الله تعالى بغيرِ واسطةٍ فيه، وكيف يعقلُ هذا مع أنَّ مكالمةَ الله تعالى بغيرِ واسطةٍ مِن أعظمِ المناصبِ، وأشرفِ المراتب، فكيف يُعقَلُ حصولُه لرأسِ الكفرةِ ورئيسِهم ؟

لعل **الجوابَ** عنه: أنَّ مكالمة الله تعالى إنما تكونُ منصبًا عاليًا إذا كان على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٦).

سبيلِ الإكرامِ والإعظامِ، فأما إذا كان على سبيلِ الإهانةِ والإذلالِ فلا، وهذا الخطابُ له ليس للتشريفِ والتكريمِ، بل للتقريعِ والتوبيخِ[(١)].

٤- قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قولُه: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾ اختار هذا الاسمَ هنا؛ لأنَّ الإبلاسَ معناه اليأسُ مِن كُلِّ خَيرٍ، والسُّكونُ والانكسارُ، والحُزنُ والتحيُّر، وانقطاعُ الحُجَّةِ، والنَّدمُ[(٢)].

٥- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ جرى فيه الاستخبارُ على ما تعرفُه العَرَبُ مِن كلامِها، وتستعمِلُه في مُحاوراتِها؛ فتسألُ عن الشَّيءِ تَعرِفُه، أو لِتؤكِّدَ الحُجَّةَ على المسؤولِ، ومِثلُ هذا كثيرٌ في القُرآنِ، قال اللهُ تبارك وتعالى لموسى صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] وهو يَعلَمُها ويَراها[(٣)].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۞ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ إبليسَ سيستمِرُّ على كُفرِه، وبُعدِه من الخيرِ[(٤)].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إنْ قيل: كَلِمةُ (إلى) تفيدُ انتهاءَ الغايةِ، فهذا يُشعِرُ بأنَّ اللَّعنَ لا يحصُلُ إلَّا إلى يومِ القيامة، وعند قيامِ القيامةِ يزولُ اللَّعنُ؟ **والجوابُ** عنه مِن وجهينِ:

الوجه الأول: أنَّ المرادَ منه التأبيدُ، وذِكرُ القيامةِ أبعَدُ غايةٍ يذكُرُها النَّاسُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٣١).

كلامِهم، كقَولِهم: (ما دامت السَّمواتُ والأرضُ) في التأبيدِ، فجعَل يومَ الدينِ- وهو يومُ الجزاء- غايةً للَّعنِ، استعمالًا في معنى الدوامِ، كأنَّه قيل: أبدًا.

الوجه الثاني: أنَّك مذمومٌ مدعُوٌّ عليك باللَّعنةِ في السَّمواتِ والأرضِ إلى يومِ الدِّينِ مِن غيرِ أن يُعَذَّبَ، فإذا جاء ذلك اليومُ عُذِّبَ عذابًا ينسَى اللَّعنَ معه، فيصيرُ اللَّعنُ حينئذٍ كالزَّائلِ؛ بسبَبِ أنَّ شِدَّةَ العذابِ تُذهِلُ عنه، فاللعنةُ عليه في الدنيا إلى أن يلاقيَ جزاءَ عملِه، فذلك يومئذٍ أشدُّ مِن اللعنةِ[١].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾ إنْ قيلَ: كيف أجاب اللهُ تعالى إبليسَ إلى ذلك الإمهالِ؟

فالجوابُ: أنَّه إنما أجابَه إلى ذلك زيادةً في بلائِه وشَقائِه وعذابِه، لا لإكرامِه ورَفعِ مَرتبتِه[٢]، فهو امتحانٌ وابتلاءٌ مِن الله له وللعبادِ؛ ليتبيَّنَ الصادقُ الذي يطيعُ مولاه دونَ عدوِّه، ممن ليسَ كذلك، ولذلك حذَّرَنا منه غايةَ التحذيرِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾ أجاب اللهُ دُعاءَه في الحالِ، ولكنْ كان ذلك مَكرًا به؛ لأنَّه مكَّنَه من مُخالفةِ أمْرِه إلى يومِ القيامةِ، فلم يَزِدْه بذلك التَّمكينِ إلَّا شِقوةً؛ لِيَعلمَ الكافَّةُ أنَّه ليس كلُّ إجابةٍ للدُّعاءِ نِعمةً ولُطفًا، بل قد تكونُ بلاءً ومَكرًا[٤].

١٠- في قَولِه تعالى عن إبليسَ: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ وقَولِه: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (١/ ٥٢٢).

إقرارَ العبدِ بالحقيقةِ الكونيَّةِ -وهي أنَّ اللهَ ربُّه وخالِقُه وخالِقُ غيرِه- دونَ القيامِ بما أُمِرَ به مِن الحقيقةِ الدينيَّةِ، التي هي عبادتُه المتعَلِّقةُ بإلهيَّتِه، وطاعةُ أمرِه وأمرِ رسولِه- أنَّه يكونُ مِن جِنسِ إبليسَ، وأهلِ النَّارِ. وإنْ ظَنَّ مع ذلك أنَّه مِن خواصِّ أولياءِ اللهِ، وأهلِ المعرفةِ والتَّحقيقِ، الذين يسقُطُ عنهم الأمرُ والنَّهيُ الشَّرعيَّانِ؛ كان من أشَرِّ أهلِ الكُفرِ والإلحادِ[1]!

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ فيه أنَّ العِلمَ لا يستلزِمُ الهدايةَ، وكثيرًا ما يكونُ الضَّلالُ عن عَمدٍ وعِلمٍ لا يشُكُّ صاحِبُه فيه، بل يُؤثِرُ الضَّلالَ والكُفرَ وهو عالِمٌ بقُبحِه ومَفسَدتِه؛ فهذا شَيخُ الضُّلَّالِ وداعي الكُفرِ وإمامُ الفَجَرةِ: إبليسُ عَدُوُّ اللهِ، قد عَلِمَ أمرَ اللهِ له بالسُّجودِ لآدمَ، ولم يشُكَّ فيه، فخالَفَه وعاند الأمرَ، وباء بلَعنةِ الله وعذابِه الدَّائمِ، مع عِلمِه بذلك ومَعرفتِه به، وأقسَمَ له بعِزَّتِه أنَّه يُغوي خَلْقَه أجمعينَ إلَّا عبادَه منهم المُخلَصينَ، فكان غيرَ شاكٍّ في الله وفي وحدانيَّتِه، وفي البعثِ الآخِرِ وفي الجنَّةِ والنَّارِ، ومع ذلك اختار الخُلودَ في النَّارِ، واحتمالَ لعنةِ اللهِ وغَضَبِه وطَرْدِه من سمائِه وجَنَّتِه عن عِلمٍ بذلك ومَعرفةٍ لم تحصُل لكثيرٍ مِن النَّاسِ؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾، وهذا اعترافٌ منه بالبعثِ وإقرارٌ به، وقد عَلِمَ قسَمَ رَبِّه؛ لَيَملأنَّ جهنَّمَ منه ومِن أتباعِه، فكان كُفرُه كُفرَ عنادٍ مَحضٍ، لا كُفرَ جَهلٍ[2].

١٢- القَدَرُ يُؤمَنُ به، ولا يُحتَجُّ به، فمن لم يؤمِنْ بالقَدَرِ ضارَعَ المجوسَ، ومن احتَجَّ به ضارع المُشرِكينَ، ومن أقَرَّ بالأمرِ والقَدَرِ، وطعَنَ في عَدْلِ الله

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٠).

وحِكمتِه، كان شبيهًا بإبليسَ؛ فإنَّ اللهَ ذكَرَ عنه أنَّه طعَنَ في حِكمتِه وعارَضَه برأيِه وهواه، وأنَّه قال: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[١].

١٣- في قَولِه تعالى عن إبليسَ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بيَّنَ الله تعالى أنَّ عِبادَه هم الذين يَنجُونَ مِن السَّيِّئاتِ[٢].

١٤- في قَولِه تعالى عن إبليسَ: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۞ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ۞ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ بيانُ العبوديَّةِ الخاصَّةِ -وهي عبوديةُ الطاعةِ والمحبَّةِ، واتِّباعِ الأوامرِ- ويُقابِلُها العبوديَّةُ العامَّةُ -وهي عبوديَّةُ أهلِ السَّموات والأرض كلِّهم لله؛ برِّهم وفاجرِهم، مؤمنِهم وكافرِهم- فهذه عبوديةُ القهرِ والمُلْكِ؛ قال تعالى ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾ [مريم: ٩٣] فهذا يدخُلُ فيه مؤمِنُهم وكافِرُهم[٣].

١٥- في قَولِه تعالى عن إبليسَ: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ وقَولِه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ كلَّ مَن لم يعبدِ اللهَ وحدَه، فلا بُدَّ أن يكونَ عابدًا لغَيرِه، فيكون مُشرِكًا، وليس في بني آدمَ قِسمٌ ثالثٌ، بل إمَّا مُوَحِّدٌ، وإمَّا مُشرِكٌ، أو مَن خَلطَ هذا بهذا، كالمُبَدِّلينَ مِن أهلِ المِلَلِ: النصارى، ومَن أشبَهَهم مِن الضُّلَّالِ المنتسبينَ إلى الإسلامِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٨٢).

١٦- قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ هذا السُّؤالُ من إبليسَ لم يكُنْ مِن ثِقةٍ منه بمنزلتِه عندَ اللهِ تعالى، وأنَّه أهلٌ أن يُجابَ له دعاءٌ، ولكِنْ سأل تأخيرَ عذابِه زيادةً في بلائِه، كفعلِ الآيسِ من السلامةِ، وأراد بسُؤالِه الإنظارَ إلى يومِ يُبعثونَ ألَّا يموتَ؛ لأنَّ يومَ البعثِ لا موتَ فيه ولا بَعدَه[١].

١٧- اللهُ لا يَغفِرُ أن يُشرَكَ به، سواءٌ كان المُشرِكُ مُقِرًّا بالقَدَرِ، وناظِرًا إليه، أو مُكَذِّبًا به، أو غافلًا عنه؛ فقد قال إبليسُ: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ فأصَرَّ واحتَجَّ بالقدَرِ، فكان ذلك زيادةً في كُفرِه، وسببًا لِمَزيدِ عَذابِه[٢].

١٨- قَولُ الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾، قيل: إنَّ الإضافةَ للتَّشريفِ، فلا تشمَلُ إلَّا الخُلَّصَ، فحينئذٍ يكونُ الاستثناءُ مُنقَطِعًا، وفائدةُ سَوقِه بصورةِ الاستثناءِ على تقديرِ الانقطاعِ: التَّرغيبُ في رُتبةِ التَّشريفِ بالإضافةِ إليه، والرُّجوعِ عن اتِّباعِ العَدُوِّ إلى الإقبالِ عليه؛ لأنَّ ذَوي الأنفُسِ الأبيَّةِ والهِمَمِ العَلِيَّةِ يُنافِسونَ في ذلك المَقامِ، ويَرَونَه- كما هو الحَقُّ- أعلى مَرامٍ[٣].

١٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ زيادةُ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ لأنَّها أوَّلُ ما يخطرُ ببالِه عند خطورِ الغَوايةِ؛ لاقترانِ الغَواية بالنزولِ إلى الأرضِ الذي دَلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا ﴾ [الحجر: ٣٤]، أي: اخرجْ من الجنَّةِ إلى الأرضِ، كما جاء في الآيةِ الأُخرَى، قال: ﴿وَقُلۡنَا

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٠٣).

ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾ [البقرة: ٢]، ولأنَّ جعْلَ التزيينِ في الأرضِ يفيدُ انتشارَه في جميعِ ما على الأرضِ مِن الذواتِ وأحوالِها[١].

٢٠- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ جعَلَ المُغوَينَ هم الأصلَ، واستثنى منهم عبادَ اللهِ المُخلَصين؛ لأنَّ عزيمةَ إبليسَ مُنصرفةٌ إلى الإغواءِ، فهو الملحوظُ ابتداءً عنده، على أنَّ المُغوَينَ هم الأكثَرُ، وعكسُه قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ [الحجر: ٤٢]، والاستثناءُ لا يُشعِرُ بقِلَّةِ المستثنى بالنِّسبةِ للمستثنى منه، ولا العكسِ[٢].

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ القِراءةُ بفَتحِ اللَّامِ في ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ تدلُّ على أنَّ الإخلاصَ والإيمانَ ليس إلَّا مِن الله تعالى؛ حيثُ إنَّ معنى الآيةِ على هذه القراءةِ: الذين أخلَصَهم اللهُ بالهدايةِ والإيمانِ، والتَّوفيقِ[٣].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ سِرٌّ لطيفٌ في استخدامِ أداة «على»، وهو الإشعارُ بكَونِ السَّالكِ على هذا الصِّراطِ على هُدًى- وهو حَقٌّ- كما قال في حَقِّ المؤمنينَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ٥]، وقال لرَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، واللهُ عزَّ وجلَّ هو الحقُّ، وصِراطُه حقٌّ، ودينُه حقٌّ، فمَنِ استقامَ على صراطِه فهو على الحقِّ والهُدى، فكان في أداةِ «على» على هذا المعنى ما ليس

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤٤).

في أداةِ «إلى»، فتأمَّلْه؛ فإنَّه سِرٌّ بديعٌ[١].

٢٣- الشَّيطانُ يَنزِلُ على كلِّ إنسانٍ ويُوحي إليه بحسَبِ مُوافقَتِه له، ويُطرَدُ بحسَبِ إخلاصِه لله وطاعتِه له؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ وعبادُه هم الَّذين عبَدوه بما أمَرَتْ به رسلُه مِنْ أداءِ الواجباتِ والمستحبَّاتِ[٢].

٢٤- مَن لم يحقِّقْ عُبوديَّةَ الرَّحمنِ وطاعتَه، فإنَّه يَعبُدُ الشَّيطانَ بطاعتِه له، ولم يَخلُصْ مِن عبادةِ الشَّيطانِ إلَّا من أخلصَ عُبوديَّةَ الرَّحمنِ، وهم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[٣] [الحجر: ٤٢].

٢٥- الشَّيطانُ عَبدٌ لله يَملِكُه، فإذا استزلَّ عبدًا فبإطلاقِه، وبما سبَقَ في قضائِه، لا باقتدارِ نَفسِه؛ ألا تراه يقولُ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فليس يتَّبِعُه إلَّا من قُضِيَ عليه، والمعصومُ لا وصولَ له إليه[٤].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أنَّ الاستثناءَ إنْ كان مِن صفةٍ فيصِحُّ أن يُخرَجَ الكُلُّ أو الأكثرُ؛ فأتباعُ إبليسَ مِن بني آدمَ أكثَرُ مِن النِّصفِ[٥]! وذلك على اعتبارِ أنَّه استثناءٌ متصلٌ.

٢٧- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٢٣٢).

(٥) يُنظر: ((الأصول من علم الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٤٠)، ويُنظر أيضًا: ((الفروق)) للقرافي (٣/ ١٦٦).

ٱلْغَاوِينَ ﴾ لعلَّ قائلًا يقول: قد أخبَرَ الله عن صفةِ آدمَ وحوَّاءَ عليهما السَّلامُ بقَولِه: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾، وعن جملةٍ مِن أصحابِ نبيِّه بقَولِه: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ فكيف الجمعُ؟ **والجوابُ** هو: أنَّه ليس له سُلطانٌ على قُلوبِهم، ولا موضِعِ إيمانِهم، ولا يُلقيهم في ذَنبٍ يَؤولُ إلى عدمِ القَبولِ، بل تُزيلُه التَّوبةُ وتَمحُوه الأوبةُ، ثمَّ إنَّ قَولَه سُبحانَه: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ يحتمِلُ أن يكون خاصًّا فيمن حَفِظَه الله، ويحتمِلُ أن يكونَ في أكثَرِ الأوقاتِ والأحوالِ[1].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾، وقولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١٠٠] التَّصريحُ بأنَّ الشَّيطانَ له سُلطانٌ على أوليائِه، وقد جاء في بعضِ الآياتِ ما يدُلُّ على نفيِ سُلطانِه عليهم، كقَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ: ٢٠- ٢١]. وقولِه تعالى حاكيًا عنه مقرِّرًا له: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

والجوابُ: هو أنَّ السُّلطانَ الذي أثبتَه له عليهم غيرُ السُّلطانِ الذي نفاه، وذلك من وجهينِ:

الأول: أنَّ السُّلطانَ المُثبَتَ له هو سُلطانُ إضلالِه لهم بتزيينِه، والسُّلطانَ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩).

المنفيَّ هو سُلطانُ الحُجَّةِ، فلم يكنْ لإبليسَ عليهم مِن حُجَّةٍ يتسَلَّطُ بها غيرَ أنَّه دعاهم فأجابوه بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ، وإطلاقُ السُّلطانِ على البُرهانِ كثيرٌ في القرآنِ.

الثاني: أنَّ اللهَ لم يجعَلْ له عليهم سُلطانًا ابتداءً البتَّةَ، ولكنَّهم هم الذين سَلَّطوه على أنفُسِهم بطاعتِه، ودُخولِهم في حِزبِه، فلم يتسَلَّطْ عليهم بقُوَّةٍ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وإنَّما تسَلَّطَ عليهم بإرادتِهم واختيارِهم[١].

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾

- قولُه: ﴿مَّسْنُونٍ﴾ إنَّما أُخِّرَ عن ﴿حَمَإٍ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ ابتداءَ مَسنونيَّتِه ليس في حالِ كونِه صَلصالًا، بل في حالِ كونه حمأً، كأنَّه سبحانه أفْرَغ الحمأَ، فصَوَّر مِن ذلك تِمثالَ إنسانٍ أجوفَ، فيَبِس حتَّى إذا نُقِرَ صَوَّتَ، ثُم غيَّرَه إلى جوهرٍ آخَر؛ فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالِقينَ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ هذا تكمِلةٌ لإقامةِ الدَّليلِ على انفرادِه تعالى بخلْقِ أجناسِ العوالِمِ وما فيها، ومنه يتخلَّصُ إلى التَّذكيرِ بعَداوةِ الشَّيطانِ للبشَرِ؛ ليأخُذوا حِذْرَهم منه، وجاء بمُناسبةِ ذِكْرِ الإحياءِ والإماتةِ؛ فإنَّ أهَمَّ الإحياءِ هو إيجادُ النَّوعِ الإنسانيِّ؛ ففي هذا الخبرِ استدلالٌ على عظيمِ القُدرةِ والحِكمةِ وعلى إمكانِ البعثِ، والمقصودُ مِن

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣٤-١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٣- ٧٤).

ذِكْرِ هذه الأشياءِ التَّنبيهُ على عَجِيبِ صُنْعِ اللهِ تعالى. وتوكيدُ الجُملةِ بلامِ القسَمِ وبحرْفِ (قد)؛ لزيادةِ التَّحقيقِ؛ تنبيهًا على أهميَّةِ هذا الخَلْقِ، وأنَّه بهذه الصِّفةِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ في التَّعرُّضِ لوصْفِ الرُّبوبيَّةِ المُنْبِئَةِ عن تبليغِ الشَّيءِ إلى كَمالِه اللَّائقِ به شيئًا فشيئًا، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: إشعارٌ بعِلَّةِ الحُكْمِ، وتشريفٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

- قولُه: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ ﴾ أبلَغُ مِن (أخلُقُ)؛ إذ فيه ما ليس في صِيغَةِ المُضارعِ مِن الدَّلالةِ على أنَّه تعالى فاعِلٌ له الْبتَّةَ مِن غيرِ صارفٍ يُثْنيه، ولا عاطفٍ يَلْويه[٣].

- وفي قولِه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا ﴾، مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال في سُورةِ (ص): ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا ﴾ [ص:٧١]، وقال في البقرةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ ففي الأُولَيَينِ: ﴿خَٰلِقٌۢ ﴾، وفي البقرةِ: ﴿جَاعِلٌ ﴾؛ ووجْهُ ذلك الاختلافِ: أنَّ (جعَلَ) إذا كان بمعنى (خلَقَ) يُسْتَعْمَلُ في الشَّيءِ الَّذي يَتجدَّدُ ويَتكرَّرُ، كقولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]؛ لأنَّ الظُّلماتِ والنُّورَ يَتجدَّدانِ زَمانًا بعدَ زمانٍ، وكذلك (الخليفةُ) يدُلُّ لَفظُه على أنَّ بعضَهم يَخلُفُ بعضًا إلى يومِ القيامةِ، وخُصَّت هذه السُّورةُ بقولِه: ﴿

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا﴾؛ إذ ليس في لَفظِ (البشَرِ) ما يدُلُّ على التَّجدُّدِ والتَّكرارِ؛ فجاء في كلِّ واحدةٍ مِن السُّورتَينِ ما اقتضاهُ ما بعدَه مِن الألفاظِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ إسنادُ النفخِ، وإضافةُ الرُّوحِ إلى ضميرِ اسمِ الجلالةِ تنويهٌ بهذا المخلوقِ[٢]، والروحُ المضافةُ إلى الربِّ هي روحٌ مخلوقةٌ أضافَها إلى نفسِه إضافةَ تخصيصٍ وتشريفٍ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّآ إِبْلِيسَ...﴾ فيه تأكيدٌ بتأكيدَينِ (كُلُّهُمْ - أَجْمَعُونَ)؛ للمُبالغةِ في التَّعميمِ ومنْعِ التَّخصيصِ؛ فهو تَأكيدٌ على تَأكيدٍ، أي: لم يتخلَّفْ عنِ السُّجودِ أحدٌ منهم؛ وذلك تعظيمًا لأمرِ اللهِ، وإكرامًا لآدم[٤]. وقولُه: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ استثناءٌ صِناعيٌّ، وهو المُتعلِّقُ بعلْمِ البيانِ، وهذا الاستثناءُ لو لم يتقدَّمْ لَفْظَه هذا الاحتراسُ مِن قولِه: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ لاحتمَلَ أنْ يكونَ في الملائكةِ مَن لم يسجُدْ، فيَتأسَّى به إبليسُ، ولا يكون مُنفردًا بهذه الكبيرةِ؛ لاحتمالِ أنْ تكونَ آلةُ التَّعريفِ للعَهدِ لا للجِنْسِ؛ فلمَّا كان هذا الإشكالُ يتوجَّهُ على الكلامِ إذا اقتُصِرَ فيه على ما دونِ التَّوكيدِ وجَبَ الإتيانُ بالتَّوكيدِ؛ ليُعْلَمَ أنَّ آلةَ التَّعريفِ للجِنْسِ، فيرتفِعَ هذا الإشكالُ بهذا الاحتراسِ؛ فحينئذٍ تعظُمُ كَبيرةُ إبليسَ؛ لكونِه فارَقَ جميعَ

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٤-١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٤-٤٥).

(٣) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٥-١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٥).

الملأِ الأعلى، وخرَقَ إجماعَ الملائكةِ، فيستحِقُّ أنْ يُفْرَدَ بهذا اللَّعنِ إلى آخرِ الأبدِ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

- قولُه: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لكيفيَّةِ عدَمِ السُّجودِ المفهومِ مِن الاستثناءِ[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على سؤالِ مَن قال: فماذا قال اللهُ تعالى عند ذلك؟ فقيل: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ ... ﴾[٣].

- قولُه: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ استفهامُ توبيخٍ، ومعناه: أيُّ شيءٍ ثبَتَ لك، أي: مُتَمَكِّنًا منك؛ لأنَّ اللَّامَ تفيدُ المُلْكَ، و﴿أَلَّا تَكُونَ ﴾ معمولٌ لحرْفِ جرٍّ محذوفٍ تقديرُه: (في)، وحَذْفُ حرْفِ الجرِّ مُطَّرِدٌ مع (أنْ)، وحرْفُ (أنْ) يفيدُ المصدريَّةَ؛ فالتَّقديرُ: ما لك في انتفاءِ كونِك مِن السَّاجدينَ[٤]؟!

٧- قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾

- قولُه: ﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على السُّؤالِ الَّذي يَنساقُ إليه الكلامُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٤٢ - ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٦).

- واللَّامُ في ﴿لِّأَسْجُدَ﴾ لتأكيدِ النَّفيِ، أي: لا يصِحُّ مِنِّي، ويُنافي حالي أنْ أسجُدَ، وهي لامُ الجُحودِ، وهذا أشدُّ في النَّفيِ مِن: (لا أسجُدُ)[١].

- واقتصَرَ هاهنا على الإشارةِ الإجماليَّةِ إلى ادِّعاءِ الخَيريَّةِ، وشرَفِ المادَّةِ؛ اكتفاءً بما صرَّحَ به حين قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]، ولم يكتَفِ اللَّعينُ بمُجرَّدِ ذِكْرِ كونِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن التُّرابِ الَّذي هو أخَسُّ العناصِرِ وأسفَلُها، بل تعرَّضَ لكونِه مَخلوقًا منه في أخسِّ أحوالِه مِن كونِه طِينًا مُتغيِّرًا، وقد اكْتَفى في سُورةِ الأعرافِ وسُورةِ (ص) بما حكى عنه هاهنا، فاقتصَرَ على حكايةِ تعرُّضِه لخَلْقِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن طينٍ، وكذا في سُورةِ بني إسرائيل حيث قيل: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ [الإسراء: ٦١]، وفي جوابِه دليلٌ على أنَّ قولَه تعالى: ﴿مَا لَكَ﴾ ليس استفسارًا عن الغرَضِ بل هو استفسارٌ عنِ السَّببِ، وفي عُدولِه عن تَطبيقِ جوابِه على السُّؤالِ رَوْمٌ للتَّفصِّي عن المُناقشةِ، وأنَّى له ذلك؟! كأنَّه قال: لم أمتنِعْ عن امتثالِ الأمْرِ ولا عن الانتظامِ في سِلْكِ الملائكةِ، بل عمَّا لا يليقُ بشأْني مِن الخُضوعِ للمفضولِ، ولقد جرى -خذَلَه اللهُ تعالى- على سَنَنِ قياسٍ عقيمٍ، وزلَّ عنه أنَّ ما يدور عليه فَلَكُ الفضْلِ والكمالِ هو التَّحلِّي بالمَعارفِ الرَّبانيَّةِ، والتَّخلِّي عن المَلَكاتِ الرَّديَّةِ الَّتي أقبَحُها الكِبْرُ، والاستِعصاءُ على أمْرِ رَبِّ العالمينَ جلَّ جلالُه[٢].

٨- قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٠-٢١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٦))، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٦).

- قولُه: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ وعيدٌ يتضمَّنُ الجَوابَ عن شُبْهتِه؛ فإنَّ مَن عارَضَ النَّصَّ بالقياسِ فهو رَجيمٌ مَلعونٌ(١).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ دالَّةٌ على سبَبِ إخراجِه، و(إنَّ) مُؤْذِنَةٌ بالتَّعليلِ؛ وذلك إيماءٌ إلى سبَبِ إخراجِه مِن عَوالِمِ القُدُسِ، والرَّجيمُ: المطرودُ، وهو كِنايةٌ عنِ الحَقارةِ(٢).

٩- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

- (على) مُستعمَلَةٌ في الاستعلاءِ؛ لتَمكُّنِ اللَّعنةِ والشَّتمِ منه حتَّى كأنَّه يقَعُ فوقَه(٣).

١٠- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ الإنظارُ: الإمهالُ والتَّأخيرُ، والمُرادُ: تأخيرُ إماتَتِه؛ لأنَّ الإنظارَ لا يكونُ للذَّاتِ؛ فتعيَّنَ أنَّه لبعضِ أحوالِها- وهو الموتُ- بقرينةِ السِّياقِ. وخاطَبَ اللهَ بصِفَةِ الرُّبوبيَّةِ؛ تخضُّعًا وحثًّا على الإجابةِ، والفاءُ في ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ فاءُ التَّفريعِ، ووسَّطَ النِّداءَ بينَ ذلك(٤).

١١- قوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾

- قولُه: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ فيه مُناسَبَةٌ حَسَنةٌ، حيث خُولِفَ بين

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٨).

العِباراتِ سُلوكًا بالكلامِ طريقةَ البَلاغةِ؛ فإنَّ ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ و﴿يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ و﴿يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ في معنًى واحدٍ[١]، وذلك على أحدِ الأقوالِ؛ فعُبِّرَ هنا عن يومِ البَعثِ بـ﴿يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ﴾ تَفَنُّنًا؛ تَفاديًا مِن إعادةِ اللَّفظِ؛ قضاءً لحقِّ حُسْنِ النَّظمِ، ولِمَا فيه مِن التَّعليمِ بأنَّ اللهَ يعلَمُ ذلك الأجَلَ؛ فالمُرادُ: المَعلومُ لدينا، ويجوزُ أنْ يُرادَ: المعلومُ للنَّاسِ أيضًا علْمًا إجماليًّا. وفيه تعريضٌ بأنَّ مَن لم يؤمِنوا بذلك اليومِ مِن النَّاسِ لا يُعْبَأُ بهم، فهم كالعَدَمِ[٢]، وقيل بناءً على هذا القولِ أيضًا: الاختلافُ في العباراتِ لاختلافِ الاعتباراتِ، فالتعبيرُ بيومِ البعثِ؛ لأنَّ غرضَ اللعينِ به يتحقَّقُ، وبيومِ الدِّينِ؛ لما ذُكِر مِن الجزاءِ، وبيومِ الوقتِ المعلومِ؛ لاستئثارِه تعالى بعلمِه[٣].

١٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ فالإشارةُ إلى ما يُؤْخَذُ مِن الجُملةِ الواقعةِ بعدَ اسمِ الإشارةِ المُبيِّنَةِ للإخبارِ عنِ اسمِ الإشارةِ، وهي جُملةُ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾؛ فتكونُ الإشارةُ إلى غيرِ مُشاهَدٍ؛ تنزيلًا له مَنزلةَ المُشاهَدِ، وتنزيلًا للمسموعِ مَنزِلةَ المَرْئيِّ، ثمَّ إنَّ هذا المُنزَّلَ مَنزِلةَ المُشاهَدِ هو مع ذلك غيرُ مَذكورٍ؛ لقصْدِ التَّشويقِ إلى سَماعِه عندَ ذِكْرِه. ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى الاستثناءِ الَّذي سبَقَ في حكايةِ كلامِ إبليسَ مِن قولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾؛ لتَضمُّنِه أنَّه لا يستطيعُ غَوايةَ العِبادِ الَّذين أخلَصَهم اللهُ للخيرِ؛ فتكونُ جُملةُ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٧).

﴿ مُستأنَفَةً[١].

- وقد اشتملتْ هذه الآيةُ على أغراضٍ كثيرةٍ، مع أنَّ كلماتِها قليلةٌ؛ ففيها إيجازٌ، ولعلَّه من أبلغِ الإيجازاتِ؛ إذ يدلُّ لفظُه على مُحتمَلاتٍ عِدَّةٍ ومُشتمَلاتٍ كثيرةٍ، ولا يمكن التعبيرُ عنه بمِثل ألفاظِه وفي عِدَّتِها؛ فقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ تدلُّ على القُربِ، فكأنَّه يُشيرُ إلى ما هو على مرأًى مِن عُيونِهم، ومَسْمَعٍ مِن آذانِهم، وبينَ مُتناوَلِ أيديهم، و﴿صِرَٰطٌ﴾ تدلُّ على الطريقِ المسلوكةِ الَّتي تُفضي بسالكِها إلى حيثُ يَختارُ لنَفْسِه مِن مذاهبَ، ولكنَّ الطريقَ قد تكونُ مُعوجَّةً مُلتويةً كثيرةَ المُنعطَفاتِ؛ فيَتِيه السالكُ في متاهاتها، وتلتبِسُ عليه أوجهُ الاستهداءِ في سُلوكِها؛ فجاء بكلمةِ ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾، والمستقيمُ هو أقصرُ بُعدٍ بَين نُقطتَينِ، وأقلُّ انحرافٍ يُخرِجُه عن سَننِ الاستقامةِ وحُدودِها، وكلمة ﴿عَلَيَّ﴾ تعني الإلزامَ والإيجابَ، ثمَّ إنَّ الإشارةَ تَضمَّنتْ كلَّ ما يَحتويه الاستثناءُ فيما بعدُ، وهو قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾؛ فكأنَّه أخَذ على نفْسه وأوجبَ على ذاتِه حقًّا لا انفكاكَ له عنه، وهو تخليصُ المخلِصينَ من إغوائِه، وقد تضمَّن تعريفُ المخلصين أيضًا ما يُؤكِّد هذا المعنى، ويَجعلُه مُستقرًّا في الذِّهن؛ لأنَّ التَّعريفَ فيه مع تحقيقِ الصِّفةِ للموصوفِ- وهي الإخلاصُ- تفخيمٌ لشأنِهم، وبيانٌ لمنزلتِهم، ولانقطاعِ مخالبِ الإغواءِ عنهم، وفَلِّ مَعاولِ النَّقدِ أن تتوجَّه إليهم[٢].

١٣- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فيه تأكيدُ الضَّميرِ (هُمْ) بقولِه: ﴿

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٤٠-٢٤١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٩).

أَجْمَعِينَ ﴾[١]، والضَّميرُ عائدٌ إلى ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾، والمَوعِدُ: مكانُ الوعْدِ، وفي ذلك تهكمٌ بهم؛ لأنَّهم يُنكِرونَ البعثَ والجَزاءَ، فجُعِلوا بمَنزِلةِ مَن عيَّنَ ذلك المكانَ للإتيانِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٣).

الآيات (٤٥-٥٠)

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿غِلٍّ﴾: أي: عداوةٍ وشحناءَ، وأصلُ (غلل) يدلُّ على تَخَلُّلِ شيءٍ، وثباتِ شيءٍ، كالشَّيءِ يُغْرَزُ[1].

﴿نَصَبٌ﴾: أي: إعياءٌ وتعَبٌ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: إنَّ المتقينَ في بساتينَ وعُيونٍ مِثْل عُيونِ الماءِ والخَمرِ وغير ذلك، يُقالُ لهم: ادخُلوا هذه الجنَّاتِ مُسَلَّمًا عليكم، سالِمينَ مِن كُلِّ سُوءٍ، آمنينَ مِن الموتِ والعذابِ، ونزَعْنا ما في قُلوبِهم مِن عَداوةٍ وحِقدٍ مما كان في الدنيا، إخوانًا في الجنَّةِ مُتحابِّينَ، يجلِسونَ على الأسِرَّة بعضُهم في مقابِلِ بَعضٍ، لا يُصيبُهم فيها تعَبٌ ولا مَشقَّةٌ، وهم فيها خالدون أبدًا، لا يخرجونَ منها.

ثم يأمر الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يخبرَ العبادَ أنَّه سبحانه هو الغفورُ للتَّائبينَ، الرَّحيمُ بهم، وأنَّ عذابَه هو العذابُ المُوجِعُ المُؤلِمُ للمُصِرِّينَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٧).

على الكفرِ والمعاصي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ ما أعَدَّ لأهلِ النَّارِ؛ ذكَرَ ما أعدَّ لأهلِ الجنَّةِ؛ لِيَظهرَ تبايُنُ ما بينَ الفَريقينِ[(١)].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ الكافرينَ، وما جرَّهم إلى الضَّلالِ، وجرَّأهم على قبائِحِ الأعمالِ؛ ذكَرَ المُخلَصينَ[(٢)]، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾.

أي: إنَّ الذين اتَّقَوا اللهَ تعالى بامتثالِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نهَى، في بساتينَ- قد احتوَت على جميعِ الأشجارِ، وأينَعَت فيها جميعُ الثِّمارِ- وعُيونٍ مِثْل عُيونِ الماءِ والخَمرِ، والسَّلسبيلِ والتَّسنيمِ، وغير ذلك[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٨).

قال الشوكاني: (قولُه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي: المتَّقينَ للشِّركِ بالله، كما قاله جمهورُ الصَّحابةِ والتابعينَ، وقيل: هم الذين اتَّقَوا جميعَ المعاصي، ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ وهي: البساتينُ، ﴿وَعُيُونٍ﴾ وهي الأنهارُ. والتركيبُ يحتملُ أن يكونَ: لجميعِ المتقينَ جناتٌ وعيونٌ، أو: لكلِّ واحدٍ منهم جناتٌ وعيونٌ، أو: لكلِّ واحدٍ منهم جنةٌ وعينٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٠).

٥١-٥٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٥-١٦].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤١-٤٤].

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان المَنزِلُ لا يَحسُنُ إلَّا بالسَّلامةِ والأُنسِ والأمنِ؛ قال تعالى[(١)]:

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: يُقالُ[(٢)] للمُتَّقينَ يومَ القيامةِ: ادخُلوا الجنَّةَ مُسَلَّمًا عليكم، سالِمينَ من كلِّ داءٍ وآفةٍ، آمِنينَ مِنَ الموتِ والعذابِ، والهُمومِ والغُمومِ والأمراضِ، وانقطاعِ النَّعيمِ أو نُقصانِه، ومِن سائِرِ المُكَدِّراتِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٦٣).

(٢) قال الخازنُ: (القائلُ هو اللهُ تعالى، أو بعضُ ملائكتِه). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢).

قال ابنُ عطيةَ: (و«السلامُ» هاهنا يحتملُ أن يكونَ السلامةَ، ويحتملُ أن يكونَ التحيةَ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦٣).

وقال الشوكاني: (معنى ﴿بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ بسلامةٍ من الآفات، وأمْنٍ من المخافاتِ، أو مُسلِّمينَ

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان الأُنسُ لا يَكمُلُ إلَّا بمَن هو مِن جنسِهم مع كمالِ المودَّةِ، وصَفاءِ القُلوبِ عن الكَدَرِ؛ قال[1]:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

أي: واقتَلَعْنا وأخرَجْنا ما في صُدورِ هؤلاء المتَّقينَ مِن الحِقدِ والبُغضِ والحَسَدِ، الذي كان بينَهم في الدُّنيا[2].

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((يَخلُصُ المُؤمِنونَ مِن النَّارِ، فيُحبَسونَ على قَنطرةٍ[3] بين الجنَّةِ والنَّارِ،

على بعضِهم بعضًا، أو مُسلِّمًا عليهم من الملائكةِ، أو مِن الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦١).

وقال ابنُ عاشور: (قولُه: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾... السلامُ ظاهرٌ في التحيَّة؛ لتقييدِه بـ﴿ءَامِنِينَ﴾، ولو كان السلامُ مُرادًا به السلامةُ، لكان التقييدُ بـ﴿ءَامِنِينَ﴾ تَوكيدًا، وهو خلافُ الأصلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٩)، ويُنظر: (١٤/ ٥٥).

وقال الرازي: (وقولُه: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ المرادُ: ادخُلوا الجنَّةَ معَ السَّلامةِ مِنْ كلِّ الآفاتِ في الحالِ، ومعَ القطعِ ببقاءِ هذه السَّلامةِ، والأمنِ مِنْ زوالِها). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤٨).

وممن جمَع بينَ المعنيينِ: أي: سالمينَ، مسلَّمًا عليكم: ابنُ كثيرٍ، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٦٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٥).

(٣) القَنطرةُ: الجسرُ، وهي عبارةٌ عن الصراطِ الممدودِ بينَ الجنةِ والنارِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح

فيُقَصُّ[١] لِبَعضِهم من بعضٍ مَظالِمُ كانت بينهم في الدُّنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دُخولِ الجنَّة، فوالذي نَفسُ مُحمَّدٍ بِيَدِه، لَأَحَدُهم أهدى بمَنزِلِه في الجنَّةِ منه بمَنزِلِه كان في الدُّنيا))[٢].

﴿إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

أي: حالَ كونِهم إخوانًا[٣]، يكونونَ على الأسِرَّةِ بعضُهم في مقابِلِ بَعضٍ، ينظُرونَ إلى وُجوهِ جُلَسائِهم، ولا يَنظُرُ بعضُهم إلى قَفا بعضٍ[٤].

﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨﴾.

﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ﴾.

أي: لا ينالُ المتَّقينَ في الجنَّةِ أيُّ تَعَبٍ أو مَشَقَّةٍ[٥].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ۞ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥].

المصابيح)) (٥/ ٥٢٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٦٢).

(١) فيُقَصُّ: أي: يمكَّنُ صاحِبُ الحَقِّ مِن أخذِ القِصاصِ، وهو أن يفعلَ به مثلَ فِعلِه، من قتلٍ، أو قَطعٍ، أو ضربٍ أو جرحٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٧٢).

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٥).

(٣) قال القرطبي: (و﴿إِخۡوَٰنًا﴾ نُصِب على الحالِ مِن ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، أو مِن المضمَرِ في ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾، أو مِن المضمَرِ في ﴿ءَامِنِينَ﴾، أو يكونُ حالًا مُقَدَّرَةً مِنَ الهاءِ والميمِ في ﴿صُدُورِهِم﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥، ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٩).

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

أي: وليس المتَّقونَ مِن الجنَّةِ بمُخرَجينَ، بل هم فيها دائِمونَ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف: ١٠٧ - ١٠٨].

﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا تقدَّمَ ذِكرُ ما في النَّارِ، وذِكرُ ما في الجنَّةِ؛ أكَّدَ تعالى تنبيهَ النَّاسِ، وتقريرَ ذلك، وتمكينَه في النَّفسِ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذُكِرَ ما يُوجِبُ الرَّغبةَ والرَّهبةَ مِن مَفعولاتِ اللهِ مِن الجنَّةِ والنَّارِ؛ ذُكِرَ ما يُوجِبُ ذلك مِن أوصافِه[٣].

﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩﴾.

أي: أخبِرْ -يا مُحمَّدُ- عبادي خبَرًا جازِمًا مُؤكَّدًا أنِّي أنا كثيرُ المَغفِرةِ لذُنوبِهم إذا تابُوا، فأستُرُ ذُنوبَهم وأتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم، كثيرُ الرَّحمةِ بهم إذا استقاموا،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨١)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٣٩٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٣١).

ومِن رحمتي أنِّي لا أعذِّبهم على الذنوب بعد تَوبتِهم منها[١].

﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ -سُبحانَه وتعالى- رَسولَه بأنْ يُخبِرَ عِبادَه بتلك البِشارةِ العظيمةِ في الآيةِ السَّابقةِ؛ أمَرَه بأن يَذكُرَ لهم شيئًا ممَّا يتضَمَّنُ التَّخويفَ والتَّحذيرَ؛ حتى يجتَمِعَ الرَّجاءُ والخَوفُ، ويتقابلَ التَّبشيرُ والتَّحذيرُ، ليَكونوا راجينَ خائِفينَ، فقال[٢]:

﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾.

أي: وأخبِرْ عبادي أيضًا أنَّ عذابي لِمَن أصرَّ على الكُفرِ والمعاصي، فلم يتُبْ منها، هو العذابُ المُوجِعُ الكثيرُ الإيلامِ؛ فلْيَحذَروا أسبابَ عَذابي، ولْيُقبِلوا على التَّوبةِ والإنابةِ إليَّ[٣].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ الله صَلَّى الله عليه وسَلَّم قال: ((لو يعلَمُ المؤمِنُ ما عند اللهِ مِن العُقوبةِ، ما طَمِعَ بجَنَّتِه أحَدٌ، ولو يعلَمُ الكافِرُ ما عندَ اللهِ مِن الرَّحمةِ، ما قَنَطَ مِن جَنَّتِه أحَدٌ))[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢).

(٤) رواه البخاري (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٥)، واللفظ له.

ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ فيه أنَّ العبدَ ينبغي أن يكونَ قَلبُه دائِمًا بينَ الخَوفِ والرَّجاءِ، والرَّغبةِ والرَّهبةِ، فإذا نظَرَ إلى رحمةِ رَبِّه ومَغفِرتِه وجُودِه وإحسانِه؛ أحدَثَ له ذلك الرَّجاءَ والرَّغبةَ، وإذا نظَرَ إلى ذُنوبِه وتَقصيرِه في حقوقِ رَبِّه؛ أحدَثَ له الخَوفَ والرَّهبةَ والإقلاعَ عنها[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ قال ابنُ عَطاءٍ: (هذه الآيةُ إرشادٌ له صلَّى الله عليه وسلَّم إلى كيفيَّةِ الإرشادِ، كأنَّه قيل: أقِمْ عبادي بينَ الخَوفِ والرَّجاءِ؛ ليصِحَّ لهم سبيلُ الاستقامةِ في الطَّاعةِ، فإنَّ مَن غلَبَ عليه رَجاؤه عطَّلَه، ومن غلَبَ عليه خَوفُه أقنَطَه)[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّه تعالى حكَمَ قبلَ هذه الآيةِ بأنَّهم في جنَّاتٍ وعُيونٍ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، وإذا كانوا فيها فكيف يُمكِنُ أن يُقالَ لهم: ادخُلوها؟

والجوابُ فيه من أوجهٍ:

الوجه الأول: لعلَّ المرادَ به: قيلَ لهم قبل دُخولِهم فيها: ادخُلوها بسَلامٍ.

الوجه الثاني: لعلَّ المرادَ: لَمَّا مَلَكوا جنَّاتٍ كثيرةً، فكُلَّما أرادوا أن ينتَقِلوا من جنَّةٍ إلى أخرى، قيل لهم: ادخُلوها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤٧-١٤٨).

الوجه الثالث: أنَّه جعَلَ ما يستقِرُّونَ فيه في الآخرةِ كأنَّهم مستقِرُّونَ فيه في الدُّنيا، ولذلك جاء: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا ﴾ على الأمرِ؛ لأنَّ مَن استقرَّ في الشَّيءِ لا يُقالُ له: ادخُلْ فيه[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ أوَّلُ مَن يدخُلُ في هذا العُمومِ أصحابُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما شجَرَ بينهم من الحوادِثِ الدَّافعِ إليها اختلافُ الاجتهادِ في إقامةِ مَصالحِ المُسلِمينَ، والشِّدَّةُ في إقامةِ الحَقِّ على حسَبِ اجتهادِهم[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ دلَّ ذلك على تزاوُرِ أهلِ الجنَّةِ، واجتماعِهم، وحُسنِ أدَبِهم فيما بينهم؛ في كَونِ كُلٍّ منهم مُقابِلًا للآخَرِ، لا مُستدبِرًا له، متَّكِئينَ على تلك السُّرُرِ المُزَيَّنةِ بالفُرُشِ واللُّؤلؤِ وأنواعِ الجواهِرِ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ فأخبَرَ عن تلاقي قُلوبِهم، وتلاقي وُجوهِهم[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴾ هذه الآيةُ أنَصُّ آيةٍ في القُرآنِ على الخُلودِ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴾ أنَّ الجنَّةَ مَن دخلَها لا يَخرُجُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٥-٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٣١).

(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٤٦٥).

منها[١].

٧- قيل: للثوابِ أربعُ شرائطَ:

- أن يكون منافعَ، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

- مقرونةً بالتعظيمِ، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾.

- خالصةً عن مظانِّ الشوائبِ الرُّوحانيةِ، كالحقدِ، والحسدِ، والغلِّ، والجسمانيةِ، كالإعياءِ، والنَّصَبِ، وإليه الإشارةُ بقولِه: ﴿وَنَزَعۡنَا ...﴾ إلى ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ﴾.

- دائمةً، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾[٢].

٨- قال الله تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ قارِنْ بين هذه الآيةِ وبينَ قَولِه تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٩٨]، تَجِدْ بينَهما فرقًا؛ لأنَّ قَولَه في هذه الآيةِ: ﴿نَبِّئۡ﴾ أمرٌ مِن اللهِ إلى الرَّسولِ بأن يُنَبِّئَ الخلقَ، وقُدِّمَ الوَصفُ بالمغفرةِ والرَّحمةِ على العذابِ الأليمِ؛ لأنَّ المقصودَ الإخبارُ عن صِفةِ الله عزَّ وجَلَّ، فقَدَّمَ الجانِبَ الذي فيه اللُّطفُ والإحسانُ، وآيةُ المائدةِ ذُكِرَت عَقيبَ أحكامٍ عَظيمةٍ، قد يُخِلُّ بها المرءُ، فقَدَّمَ فيها جانِبَ التَّهديدِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المغفرةَ والرَّحمةَ هي مِن صِفاتِه المذكورةِ بأسمائِه، فهي مِن مُوجِبِ نفسِه المقدَّسَةِ ومُقتضاها ولوازِمها، وأمَّا العذابُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٦).

فمِن مَخلوقاتِه، الذي خَلَقَه بحكمةٍ[١].

بلاغة الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ... ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقالٌ مِن وعيدِ المُجرمينَ إلى بِشارةِ المُتَّقينَ على عادةِ القُرآنِ في التَّفنُّنِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ المَسُّ كِنايةٌ عنِ الإصابةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ فيه تأكيدُ انتفاءِ الإخراجِ بدُخولِ الباءِ في ﴿بِمُخْرَجِينَ ﴾[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ فَذْلَكةُ[٥] ما سبَقَ مِن الوعدِ والوعيدِ، وتقريرٌ له[٦].

- وهذا أيضًا تَصديرٌ لذِكْرِ القِصصِ الَّتي أُرِيدَ مِن التَّذكيرِ بها المَوعظةُ بما

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٣).

(٥) الفَذْلكةُ: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملةِ والحوقلةِ مِن قولِهم: (فذلك كذا)، أي: ذكرُ مُجمَلِ ما فُصِّل أولًا وخلاصتِه. وقد يُرادُ بالفذلكةِ النتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فذلكةُ الحساب، أي: مُجمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ بعدَ قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨ - ٦٣٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٣).

حَلَّ بأهلِها، وابتداءُ الكلامِ بفعْلِ الإنباءِ؛ لتشويقِ السَّامعينَ إلى ما بعدَه، والمقصودُ هو قولُه تعالى الآتي: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، وإنَّما قُدِّمَ الأمْرُ بإعلامِ النَّاسِ بمغفرةِ اللهِ وعَذابِه؛ ابتداءً بالموعظةِ الأصليَّةِ قبْلَ الموعظةِ بجُزئيَّاتِ حوادِثِ الانتقامِ مِن المُعاندينَ، وإنجاءِ مَن بينهم مِن المُؤمنينَ؛ لأنَّ ذلك دائرٌ بينَ أثَرِ الغُفرانِ وبين أثَرِ العذابِ، وقُدِّمَت المَغفرةُ على العَذابِ؛ لسَبْقِ رحمتِه غضَبَه[١].

- وفي قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ترجيحُ جهةِ الخيرِ مِن جهةِ أمرِه تعالَى رسولَه بهذا التَّبليغِ، فكأنَّه إشهادٌ على نفسِه بالتزامِ المغفرةِ والرَّحمةِ، وكونُه أضافَ العبادَ إليه فهو تشريفٌ لهم، وتأكيدُ اسمِ (أنَّ) بقولِه: (أنا)، وإدخالُ (ال) على هاتينِ الصِّفتينِ، وكونُهما جاءَتا بصيغةِ المبالغةِ، والبداءةِ بالصِّفةِ السَّارَّةِ أوَّلًا وهي الغُفرانُ، وإتْباعُها بالصِّفةِ الَّتي نَشَأ عنها الغفرانُ وهي الرَّحمةُ[٢]، ولَمَّا ذكَرَ العذابَ لم يَقُلْ: (أنِّي أنا المعَذِّب)، وما وصَفَ نفسَه بذلك، بل قال: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾[٣]، وفي توصيفِ ذاتِه بالغُفرانِ والرَّحمةِ دونَ التَّعذيبِ تَرجيحُ الوَعدِ وتأكيدُه[٤].

- وضَميرُ (هو) في قولِه: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ ضَميرُ فصْلٍ يُفيدُ تأكيدَ الخبرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٧).

الآيات (٥١-٦٠)

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَجِلُونَ﴾: أي: خائِفونَ، وأصلُ الوجَلِ: يدلُّ على استشعارِ الخَوفِ[١].

﴿ٱلْقَٰنِطِينَ﴾: أَي: اليائِسينَ، والقُنُوطُ: اليأسُ مِن الخيرِ، وأصلُ (قنط) يدُلُّ عَلَى اليأْسِ مِنَ الشَّيءِ[٢].

﴿خَطْبُكُمْ﴾: أي: شَأْنُكم وأمْرُكم الذي جِئتُم له، والخَطْبُ: الأمرُ العَظيمُ الذي يَكثُرُ فيه التَّخاطُبُ، ولا يَكادُ يُقالُ (الخَطبُ) إلَّا في الأمرِ الشَّديدِ، وأصل: (خطب): يدُلُّ على الكَلامِ بين اثنَينِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٥٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٦).

﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: الباقينَ في العذابِ، والغابرُ مِن الأضدادِ[١]، يُراد به الباقي والماضي، وأصلُ (غبر): يدلُّ على البقاءِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾

﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾: (مَنْ) اسمُ استفهامٍ بمعنى الإنكارِ، فهو نفيٌ في المعنى؛ ولذلك جاءت بعدَه (إلَّا) التي للإيجابِ، ومحلُّه الرَّفعُ على الابتداءِ، و (يَقْنَطُ) فعلٌ وفاعلُه ضميرٌ يعودُ على (مَنْ) والجملةُ خبَرٌ. ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ بدلٌ من الضَّميرِ في (يَقنَطُ) وهو المُختارُ؛ لأنَّ الكلامَ غيرُ مُوجَبٍ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: وأخبِرْ -يا محمَّدُ- عبادي عن ضيوفِ إبراهيمَ- عليه السلام- مِن الملائكةِ، حين دخَلوا عليه فقالوا: سَلامًا، فرَدَّ عليهم السَّلامَ، ثمَّ قدَّمَ لهم الطَّعامَ فلم يأكُلوا، فقال: إنَّا مِنكم خائِفون. قالت الملائِكةُ له: لا تخَفْ؛ إنَّا نبَشِّرُك بولَدٍ كثيرِ العِلمِ بالدِّينِ، قال إبراهيمُ متعجِّبًا: أبشَّرتُموني بالولَدِ وأنا كبيرٌ، فبأيِّ شَيءٍ عَجيبٍ تُبشِّرونَني؟! قالوا: بشَّرْناك بالحَقِّ الذي أعلَمَنا اللهُ به،

---

(١) قال ابن عطية: (والغابرُ الباقي في الدهرِ وغيرِه، وقالت فرقةٌ- منهم النحاسُ-: هو مِن الأضدادِ، يُقالُ في الماضي وفي الباقي، وأمَّا في هذه الآيةِ فهي للبقاءِ، أي: مِن الغابرينَ في العذابِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣) ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٦٦)، وانظر أيضًا (٣/ ٣٩٦-٣٩٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٤/ ٢٥٣).

فلا تكُنْ مِن اليائسينَ. قال: لا يَيئَسُ مِن رَحمةِ رَبِّه إلَّا الضَّالُّونَ. قال: فما الأمرُ الخطيرُ الذي جِئتُم من أجْلِه أيُّها المُرسَلونَ؟ قالوا: إنَّ اللهَ أرسَلَنا لإهلاكِ قَومِ لُوطٍ المُشركينَ إلَّا لُوطًا وأهلَه المؤمنينَ به، فلن نُهلِكَهم، وسنُنَجِّيهم أجمعينَ إلَّا امرأتَه الكافِرةَ، قَضَينا أنَّها مِن المهلكينَ الباقينَ في العذابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بالغَ في تقريرِ أمْرِ النبُوَّةِ، ثمَّ أردَفَه بذِكرِ دلائِلِ التَّوحيدِ، ثمَّ ذكَرَ عَقيبَه أحوالَ القيامةِ، وصِفةَ الأشقياءِ والسُّعَداءِ- أتبَعَه بذِكرِ قَصَصِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ؛ ليكونَ سَماعُها مُرَغِّبًا في الطاعةِ الموجِبةِ للفَوزِ بدَرَجاتِ الأنبياءِ، ومُحَذِّرًا عن المعصيةِ لاستحقاقِ دَرَكاتِ الأشقياءِ، فبدأ أوَّلًا بقِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[1].

وأيضا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما أعَدَّ للعاصِينَ مِن النَّارِ، وللطَّائِعينَ مِن الجنَّة- ذكَّرَ العرَبَ بأحوالِ مَن يَعرِفونَه ممَّن عصى وكذَّبَ الرُّسُلَ، فحَلَّ به عذابُ الدُّنيا قبلَ عذابِ الآخرةِ؛ ليزدَجِروا عن كُفرِهم، وليَعتَبِروا بما حَلَّ بغَيرِهم، فبدأ بذِكرِ جَدِّهم الأعلى إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وما جرى لقَومِ ابنِ أخيه لوطٍ عليه السَّلامُ[2].

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ ﴾.

أي: وأخبِرْ عبادي -يا مُحمَّدُ- عن قِصَّةِ الملائكةِ؛ ضُيوفِ إبراهيمَ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٤).

الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّ في قَصِّك عليهم ذلك ما يُوجِبُ لهم العِبرةَ[١].

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾.

أي: حينَ دخَلَ الملائِكةُ على إبراهيمَ، فقالوا له عَقِبَ دُخولِهم: نسلِّمُ عليك سَلامًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩].

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾.

أي: قال لهم إبراهيمُ بعدَ أن ردَّ عليهم السَّلامَ: إنَّا منكم خائِفونَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٠).

وقال الشِّنقيطيُّ: (لم يُبيِّنْ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ هل ردَّ إبراهيمُ السَّلامَ على الملائكةِ أو لا؛ لأنَّه لم يذكُرْ هنا رَدَّه السَّلامَ عليهم، وإنَّما قال عنه إنَّه قال لهم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾، وبيَّنَ في هودٍ والذَّارياتِ أنَّه ردَّ عليهم السَّلامَ، بقَولِه في هودٍ: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، وقَولِه في الذَّاريات: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٥- ٢٦]. وبيَّنَ أنَّ الوجَلَ المذكورَ هنا هو الخَوفُ؛ لِقَولِه في القِصَّةِ بعَينِها في هودٍ: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ [هود: ٧٠]، وقَولِه في الذاريات: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ [الذاريات: ٢٨]... وبيَّنَ أنَّ سببَ خَوفِه هو عدَمُ أكلِهم، بقَولِه: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٨٠).

كما قال تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الذاريات: ٢٥ - ٢٨].

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾.

أي: قالت الملائكةُ لإبراهيمَ: لا تخَفْ منَّا[١].

كما قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۖ قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ [الذاريات: ٢٨].

ثمَّ عَلَّلوا ذلك بقَولِهم مؤكِّدينَ لِقَلعِ ما في نفسِه من الوجَلِ المُنافي للبُشرى[٢]:

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾.

أي: إنَّا نبشِّرُك بمولودٍ لك غَزيرِ العِلمِ بالشَّريعةِ الإلهيَّةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٨-٣٠].

وقال سبحانه: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٠).

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ للملائكةِ مُتعَجِّبًا: أبشَّرتُموني بولدٍ مع كِبَرِ سِنِّي[(١)]؟!

﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾.

أي: فبأيِّ شَيءٍ عَجيبٍ تُبشِّرونَني؟! فإنَّ البِشارةَ بما لا يُتصوَّرُ وقوعُه عادةً لا تصِحُّ[(٢)].

﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: قالت الملائكةُ لإبراهيمَ: بشَّرْناك بولَدٍ قد قضى اللهُ أنَّه كائِنٌ بلا شَكٍّ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٤)، (تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٩).

قال الشنقيطي: (الظاهِرُ أنَّ استفهامَ نبيِّ الله إبراهيم- عليه وعلى نبينا الصلاةُ والسلامُ- للملائكةِ بقولِه: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ استفهامُ تعجُّبٍ مِن كمالِ قدرةِ الله تعالى، ويدلُّ لذلك أنَّه تعالى ذكرَ أنَّ ما وقَع له وقَع نظيرُه لامرأتِه؛ حيث قالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢]، وقد بيَّنَ تعالى أنَّ ذلك الاستفهامَ لعجَبِها مِن ذلك الأمرِ الخارقِ للعادةِ في قولِه: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية [هود: ٧٣]، ويدلُّ له أيضًا وقوعُ مثلِه من نبي الله زكريا- عليه وعلى نبينا الصلاةُ والسلامُ- لأنَّه لَمَّا قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقوله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩]؛ عَجِبَ من كمال قدرة الله تعالى، فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ الآية [آل

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾.

أي: فلا تكُنْ -يا إبراهيمُ- من اليائسينَ مِن فَضلِ اللهِ، الذين يستبعِدونَ وُجودَ الخيرِ، ولكِنْ أبشِرْ بالولَدِ مع الكِبَر، واقبَلِ البُشرى بذلك[١].

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: قال إبراهيمُ: ومَن ييئَسُ مِن رَحمةِ اللهِ إلَّا الذَّاهِبونَ عن طريقِ الصَّوابِ، الجاهِلونَ بكَمالِ قُدرةِ ورَحمةِ اللهِ الوهَّابِ[٢].

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لـمَّا تحقَّقَ إبراهيمُ عليه السلامُ البُشرَى، ورأَى إتيانَهم مُجتَمِعينَ على غيرِ الصِّفةِ التي يأتي عليها المَلَكُ للوحيِ، وكان يعلمُ بأنَّه ما تَنزِلُ الملائِكةُ إلَّا بالحَقِّ- كان ذلك سببًا لِأن يسألَهم عن أمرِهم؛ لِيَزولَ وَجَلُه كُلُّه[٣].

عمران: ٤٠]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٨١-٢٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥، ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢).

قال الخازن: (إبراهيمُ عليه السَّلام لم يكنْ مِن القانطينَ، ولكنَّه استبعَد حصولَ الولدِ على الكِبَر، فظَنَّت الملائكةُ أنَّ به قنوطًا، فنفى ذلك عن نفسِه، وأخبَرَ أنَّ القانطَ مِن رحمة الله تعالى من الضالِّينَ؛ لأنَّ القُنوطَ مِن رحمة الله كبيرةٌ، كالأمنِ مِن مكرِ الله، ولا يحصُلُ إلَّا عند من يجهَلُ كونَ الله تعالى قادرًا على ما يريد، ومن يجهَلُ كونَه سبحانه وتعالى عالِمًا بجميعِ المعلومات، فكلُّ هذه الأمور سببٌ للضَّلالة). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٩). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٦٧).

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ للملائكةِ: فما شأنُكم الخطيرُ الذي أرسَلَكم اللهُ به سِوى البِشارةِ[١]؟!

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

أي: قالت الملائكةُ لإبراهيمَ: إنَّا أرسَلَنا اللهُ إلى قومٍ كافرينَ كَثُرَ فسادُهم، وعظُمَ خَبَثُهم؛ لنُهلِكَهم[٢].

﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

أي: لكنَّ[٣] لوطًا وأهلَه، لن نُهلِكَهم، وسنُخَلِّصُهم جميعًا من العذابِ[٤].

كما قال تعالى حاكيًا محاورةَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع الملائكةِ عليهم السَّلامُ: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦١).

(٣) الاستثناءُ هنا منقطعٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦١). قال أبو حيَّان: (يحتمِلُ أن يكونَ استثناءً مِن الضميرِ المستكِنِّ في ﴿مُّجْرِمِينَ﴾، والتقديرُ: أجرموا كُلُّهم إلا آلَ لوطٍ، فيكونُ استثناءً متَّصلًا، والمعنى: إلَّا آلَ لوطٍ فإنَّهم لم يُجرِموا. ويكونُ قولُه: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ استئنافَ إخبارٍ عن نجاتِهم؛ وذلك لكونِهم لم يُجرِموا، ويكونُ حُكمُ الإرسالِ منسحبًا على ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ وعلى ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾؛ لإهلاكِ هؤلاء، وإنجاءِ هؤلاء، والظاهِرُ أنَّه استثناءٌ منقطعٌ؛ لأنَّ ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ لم يندرِجْ في قولِه: ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٦). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦١).

طِينٍ ۞ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۞ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣١-٣٦].

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: إلَّا[١] امرأةَ لُوطٍ، قَضَينا أنَّها مِن المُهلَكينَ الباقينَ في العذابِ؛ لكُفرِها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۞ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣١- ٣٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

مَن أنعمَ الله عليه بالهدايةِ والعِلمِ العظيمِ، فلا سبيلَ للقُنوطِ إليه؛ لأنَّه يعرِفُ مِن كثرةِ الأسبابِ والوسائلِ والطُّرُقِ لرحمةِ الله شيئًا كثيرًا، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ الذين لا عِلمَ لهم برَبِّهم، وكمالِ اقتدارِه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۞ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ هذه القِصَّةُ فيها إثباتُ الملائكةِ، وأنَّهم أحياءٌ، ناطِقونَ، مُنفَصِلونَ عن الآدميِّينَ، وقد تواتَرَ في الكتُبِ الإلهيَّةِ والأحاديثِ النبويَّةِ أنَّ

(١) الاستثناءُ هنا متصلٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦-٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٣٢).

الملائِكةَ تتصَوَّرُ بصورةِ البشَرِ، ويُرَونَ في تلك الصورةِ، فيُخاطبُهم ويراهم في هذه الصُوَرِة الأنبياءُ وغيرُ الأنبياءِ، كما أخبَرَ الله عن ضيفِ إبراهيمَ، ورؤيةِ سارَةَ امرأةِ الخليلِ عليه السَّلامُ لهم، وكما كان الصَّحابةُ يَرَون جبريلَ إذا جاء، ومن ذلك رؤيتُهم له لما جاء في صورةِ أعرابيٍّ[١]، وفي صورةِ دِحْيةَ[٢] الكلبيِّ[٣].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فيه سؤالٌ: كيف سمَّاهم ضيفًا مع امتناعِهم عن الأكلِ؟

الجوابُ من وجهينِ:

الوجه الأول: لَمَّا ظَنَّ إبراهيمُ أنَّهم إنَّما دخلوا عليه لطلَبِ الضيافةِ، جاز تسميتُهم بذلك.

الوجه الثاني: أنَّ مَن يدخُل دارَ الإنسانِ ويلتجِئ إليه، يُسمَّى ضيفًا وإن لم يأكُلْ[٤].

٣- يُستحَبُّ بِشارةُ مَن وُلِدَ له ولَدٌ؛ قال الله تعالى عن الملائكةِ: ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾[٥].

٤- القُنوطُ مِن رحمةِ الله لا يجوزُ؛ لأنَّه سوءُ ظَنٍّ باللهِ عزَّ وجَلَّ، وذلك مِن وَجهينِ:

الأولُ: أنَّه طَعنٌ في قُدرتِه سُبحانَه؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ الله على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٩) مِن حديثِ أبي هريرةَ.
وما أخرجه مسلم (٨) مِن حديثِ عمرَ بنِ الخطَّابِ.

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٦٣٣)، ومسلم (٢٤٥١) من حديث أم سلمة.

(٣) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٩٦)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٧).

لم يَستبعِدْ شيئًا على قدرةِ اللهِ.

الثاني: أنَّه طَعنٌ في رحمتِه سُبحانَه؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ اللهَ رَحيمٌ لا يَستبعِدُ أن يرحَمَه اللهُ سُبحانَه؛ ولهذا كان القانِطُ مِن رحمةِ اللهِ ضالًّا؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[1].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ القُنوطَ مِن الكبائرِ[2].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ هِبةَ الولدِ على الكِبَرِ مِن رَحمةِ الله؛ إذ يشدُّ عضُدَ والدِه به، ويؤازِرُه حالةَ كَونِه لا يستقِلُّ، ويَرِثُ منه عِلمَه ودينَه[3].

٧- في قَولِه تعالى عن الملائكةِ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ لفظَ آلِ فلانٍ في الكتابِ والسُّنَّةِ يدخلُ فيه ذلك الشَّخصُ[4].

٨- في قولِه تعالى عن الملائكةِ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ امرأةَ الرجلِ مِن آلِه[5].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٦٨٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٨١).

(٥) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٢٠٥).

﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الاستثناءَ إذا تكرَّر، فكُلٌّ لِما يليه[١].

١٠- عن النَّخعيِّ قال: (بيني وبين القَدَريَّةِ هذه الآيةُ: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾)[٢].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ أسنَدَ الملائكةُ فِعلَ التَّقديرِ إلى أنفُسِهم مع أنَّه لله تعالى، ولِمَ لمْ يقولوا: قدَّرَ الله تعالى؟

الجوابُ: إنَّما ذكَروا هذه العبارةَ؛ لِما لهم من القُربِ والاختصاصِ بالله تعالى، كما يقولُ خاصَّةُ المَلِك: (دبَّرْنا كذا وأمَرْنا بكذا)، والمدبِّرُ والآمِرُ هو المَلِك لا هم، وإنَّما يريدونَ بذِكرِ هذا الكلامِ إظهارَ ما لهم من الاختصاصِ بذلك المَلِك، فكذا هاهنا، واللهُ أعلم[٣]. وقيل: أسند التَّقديرَ إلى ضَميرِ الملائكةِ؛ لأنَّهم مُزْمِعونَ على سبَبِه، وهو ما وُكِّلوا به مِن تَحذيرِ لُوطٍ عليه السَّلامُ وآلِه مِن الالتفاتِ إلى العَذابِ، وتَرْكِهم تَحذيرَ امرأتِه، حتَّى الْتفتَتْ، فحَلَّ بها ما حَلَّ بقَومِ لُوطٍ[٤].

١٢- في هذه القِصَّةِ مِن العِبَر: عنايتُه تعالى بخليلِه إبراهيمَ؛ فإنَّ لوطًا عليه السَّلامُ من أتباعِه، وممَّن آمنَ به، فكأنَّه تلميذٌ له؛ فحين أراد اللهُ إهلاكَ قَومِ لُوطٍ حين استحَقُّوا ذلك، أمَرَ رُسُلَه أن يمُرُّوا على إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ كي يُبشِّروه بالولَدِ ويُخبِروه بما بُعِثوا له، حتى إنَّه جادَلَهم عليه السَّلامُ في إهلاكِهم

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٠).

(٢) أخرجه ابنُ أبي حاتمٍ، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٨٨). ويُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٢).

حتى أقنَعوه، فطابت نَفسُه، قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ...﴾[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث حذَفَ منه ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ اختصارًا، بينما ذكَرَه في سُورةِ هودٍ، حيث قال: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]؛ لأنَّ هذِه السُّورةَ مُتأخِّرةٌ، فاكْتَفَى بها عمَّا في هودٍ؛ لأنَّ التَّقديرَ: (فقالوا: سلامًا، قال: سَلامٌ، فما لَبِثَ أنْ جاء بعِجْلٍ حَنِيذٍ، فلمَّا رأى أيدِيَهم لا تصِلُ إليه نَكِرَهم، وأوجَسَ منهم خِيفةً، قال: إنَّا منكم وَجِلونَ)؛ فحُذِفَ للدَّلالةِ عليه[(٢)].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿لَا تَوْجَلْ﴾، أي: لا تخَفْ، وبه عُبِّرَ في سُورةِ هودٍ، حيث قال: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ [هود: ٧٠]؛ توسعةً في التَّعبيرِ عنِ الشَّيءِ الواحدِ بمُتساويَيْنِ، وخُصَّ ما هنا بالأوَّلِ؛ لمُوافقتِه قولَه: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾، وما في هودٍ بالثَّاني؛ لمُوافقتِه قولَه: ﴿خِيفَةً﴾[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٩٨).

- قولُه: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ استئنافٌ في معنى التَّعليلِ للنَّهيِ عن الوَجَلِ؛ فإنَّ المُبشِّرَ لا يُخَافُ منه؛ أرادوا: إنَّك بمَثابةِ الآمِنِ المُبَشَّرِ، فلا تَوْجَلْ[(١)].

- قولُه: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، وكذا قال في سُورةِ الذَّارياتِ: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث ورَدَ في سُورةِ الصَّافاتِ: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] خِلاف الوَصفِ بالعلْمِ في السُّورتَينِ، ووَجْهُ ذلك: أنَّ ما في هذه السورةِ، وما في سورةِ الذارياتِ المرادُ به إسحاقُ عليه السلامُ؛ لأنَّ تبشيرَ إبراهيمَ بعلمِه ونبوتِه فيه دلالةٌ على بقائِه إلى كبرِه، وأمَّا ما في سورةِ الصافاتِ فالمرادُ به إسماعيلُ عليه السلامُ، ووُصِف بالحلمِ؛ لما ذكرَ عنه مِن الانقيادِ إلى رُؤيا أبيه، مع ما فيه مِن أمرِّ الأشياءِ على النفسِ، وأكرهِها عندَها، ووعدِها بالصبرِ[(٢)]، فوصفُه بالحليمِ مناسبٌ لمقامِه وصبرِه، فلا أحلمَ ممن أسلَم نفسَه للذبحِ طاعةً لربِّه[(٣)].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ الاستفهامُ في ﴿أَبَشَّرۡتُمُونِي﴾ للتَّعجُّبِ، أي: تعجَّبَ مِن بِشارتِه بولدٍ مع أنَّ الكِبَرَ مَسَّه، أو إنكارٌ لأنْ يُبشَّرَ به في مثْلِ هذه الحالةِ، وأكَّدَ هذا التَّعجُّبَ بالاستفهامِ الثَّاني بقولِه: ﴿فَبِمَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨٠، ٥٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((كشف المعاني)) للحموي (ص: ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٧٣)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ١٨٦).

تُبَشِّرُونَ ﴾؛ فهو أيضًا استفهامُ تعجُّبٍ؛ نزَّلَ الأمْرَ العجيبَ المعلومَ مَنزلةَ الأمْرِ غيرِ المعلومِ؛ لأنَّه يكادُ يكونُ غيرَ معلومٍ، وقد علِمَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ مِن البِشارةِ أنَّهم ملائكةٌ صادِقونَ؛ فتعيَّنَ أنَّ الاستفهامَ للتَّعجُّبِ؛ ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ مِن أنَّ ما بَشَّروه به أمْرٌ يكادُ أنْ يكونَ مُنْتفيًا وباطلًا؛ فكلامُهم رَدٌّ لكلامِه، وليس جوابًا على استفهامِه؛ لأنَّه استفهامٌ غيرُ حَقيقيٍّ[١]. وقيل: قولُه: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ تأكيدُ استبعادٍ وتَعجُّبٍ، وكأنَّه لم يعلَمْ أنَّهم ملائكةٌ؛ رُسُلُ اللهِ إليه؛ فلذلك استفهَمَ، واستنكَرَ أنْ يُولَدَ له، ولو علِمَ أنَّهم رُسُلُ اللهِ ما تعجَّبَ ولا استنكَرَ، ولا سيَّما وقد رأى مِن آياتِ اللهِ عِيانًا كيف أحيا الموتَى[٢]، وقيل غيرُ ذلك[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ هو استفهامُ إنكارٍ في معنى النَّفيِ، أو في ضِمْنِه النَّفيُ؛ ولذلك دخَلَت (إلَّا) واستثنى منه في قولِه: ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾، يعني: أنَّه لم يذهَبْ عنه اجْتنابُ القُنوطِ مِن رحمةِ اللهِ، ولكنَّه امْتَلَكَه المُعتادُ فتعجَّبَ؛ فصار ذلك كالذُّهولِ عنِ المَعلومِ، فلمَّا نبَّهَه الملائكةُ أدنى تَنبيهٍ تذكَّرَ[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ القائلُ هو إبراهيمُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٠).

الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتوسيطُ الفعْلِ ﴿ قَالَ ﴾ بينَ قولِه السَّابقِ وبينَ قولِه: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ صَريحٌ في أنَّ بينهما مَقالةً مَطْويَّةً لهم أُشيرَ به إلى مَكانِها، كما في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ... ﴾ [الإسراء: ٦١، ٦٢]؛ فإنَّ قولَه الأخيرَ ليس مَوصولًا بقولِه الأوَّلِ، بل هو مَبْنِيٌّ على قولِه تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [الحجر: ٣٤]؛ فإنَّ تَوسيطَ ﴿ قَالَ ﴾ بينَ قَولَيْه؛ للإيذانِ بعدَمِ اتِّصالِ الثَّاني بالأوَّلِ، وعدَمِ ابْتِنائِه عليه، بل غيرِه، ثمَّ خِطابُه لهم -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- بعُنوانِ الرِّسالةِ بعدَما كان خِطابُه السَّابِقُ مُجرَّدًا عن ذلك، مع تَصديرِه بالفاءِ: دَليلٌ على أنَّ مَقالتَهم المَطْوِيَّةَ كانت مُتضمِّنَةً لبَيانِ أنَّ مَجيئَهم ليس لمُجرَّدِ البِشارةِ، بل لهم شأْنٌ آخرُ لأجْلِه أُرْسِلوا، فكأنَّه قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: إنْ لم يكُنْ شأْنُكم مُجرَّدَ البِشارةِ؛ فماذا هو؟ فلا حاجةَ إلى الالتجاءِ إلى أنَّ علْمَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّ كلَّ المقصودِ ليس البِشارةَ بسبَبِ أنَّهم كانوا ذَوِي عدَدٍ، ولعلَّه علِمَ أنَّ كَمالَ المقصودِ ليس البِشارةَ؛ لأنَّهم كانوا عَددًا والبِشارةُ لا تحتاجُ إلى العدَدِ؛ ولذلك اكْتُفِيَ بالواحدِ في زَكريَّا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ومريمَ، وهذا على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ، أو لأنَّهم بَشَّروه في تَضاعيفِ الحالِ؛ لإزالةِ الوجَلِ، ولو كانت تَمامَ المقصودِ لَابْتَدؤوا بها[(١)].

٦- قولُه تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾

- قولُه: ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ فيه تَنكيرُ ﴿قَوْمٍ﴾، وتَنكيرُ صِفَتِهم ﴿مُّجْرِمِينَ ﴾؛ تَقليلًا لهم واستِهانَةً بهم[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٢).

٧- قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ استئنافٌ للإخبارِ بنَجاتِهم؛ لعدَمِ إجْرامِهم، أو لبَيانِ ما فُهِمَ مِن الاستثناءِ مِن مُطلَقِ عدَمِ شُمولِ العَذابِ لهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٣).

الآيات (٦١-٧٧)

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ
جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ
بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ
إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ
عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ
﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن
سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَمْتَرُونَ﴾: أي: يَشكُّونَ، وماراه مماراةً ومِراءً. وامترَى فيه وتمارَى: شكَّ، والمِريةُ: هي التردُّدُ في الأمرِ، وهي أخصُّ من الشَّكِّ[(١)].

﴿فَأَسْرِ﴾: أي: سِرْ ليلًا؛ من السُّرَى: وهو سَيرُ اللَّيلِ[(٢)].

﴿بِقِطْعٍ﴾: أي: ببقيَّةٍ تبقَى مِن آخِرِه، وأصلُ (قطع): يدلُّ على صَرمٍ وإبانةِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤)، ((مقاييس اللغة)) (٣/ ١٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠١)،

﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٌ﴾: أي: يُسْتَأْصلونَ عن آخِرِهم حتَّى لا يبقَى منهم أحدٌ، وقطْعُ دابرِ الإنسان: هو إفناءُ نوعِه، ودابِرُ القومِ: آخرُهم، وأصلُ (قطع): يدلُّ على إبانةِ شيءٍ مِن شيءٍ، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه[١].

﴿لَعَمۡرُكَ﴾: أي: وحَياتِك، وأصلُ (عمر): يدلُّ على بقاءٍ، وامتدادِ زَمانٍ[٢].

﴿سَكۡرَتِهِمۡ﴾: أي: غَوايتِهم وضَلالتِهم، وأصلُ (سكر): يدُلُّ على حَيرةٍ[٣].

﴿يَعۡمَهُونَ﴾: أي: يتَحيَّرون ويترَدَّدونَ، وأصلُ (عمه): يدلُّ على حَيرةٍ وقِلَّةِ اهتداءٍ[٤].

﴿مُشۡرِقِينَ﴾: أي: داخِلينَ في الإشراقِ، وهو سُطوعُ ضَوءِ الشَّمسِ وظُهورُه، وأصلُ (شرق): يدُلُّ على إضاءةٍ[٥].

((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤) و(٥/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧ - ٦٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٧).

﴿سِجِّيلٍ﴾: أي: طينٍ مُتحَجِّرٍ، وقيل: أصلُها فارسيٌّ (سَنكِ وكِل)[١] أي: الحَجَر والطِّين[٢].

﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: أي: المتفرِّسين المُعتَبِرينَ، الناظرينَ في السِّمةِ الدَّالةِ؛ يُقال: توسَّمتُ فيه الخيرَ: إذا رأيتَ مِيسَمَه فيه، أي: علامَتَه التي تدُلُّ عليه، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على أثَرٍ ومَعلَمٍ[٣].

﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾: أي: لَبِطَريقٍ واضحٍ ثابتٍ، وأصلُ (سبل): يدلُّ على امتدادِ شَيءٍ، وأصلُ (قوم): يدلُّ عَلَى انْتِصابٍ أو عَزْمٍ[٤].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فلمَّا جاءتِ الملائِكةُ إلى لوطٍ وأهلِه، قال لهم: إنَّكم قومٌ غيرُ مَعروفينَ لي. قالوا: قد جِئْنا بعذابِ قومِك الذي كان يَشُكُّون فيه، وجِئناك بالحَقِّ مِن عندِ الله، وإنَّا لصادِقونَ فيما أخْبَرناك به، فاخرُجْ ومعك أهلُك بعد مرورِ وقتٍ مِن اللَّيلِ، وسِرْ أنت وراءَهم ولا يلتَفِتْ منكم أحدٌ، وأسرِعوا إلى حيثُ أمَرَكم اللهُ.

---

(١) قال الواحدي: (الذي عليه أعظمُ أهلِ التفسيرِ أنَّه معربٌ عن (سنك كل)، وهو قولُ ابنِ عباسٍ، وقتادةَ، وسعيدِ بنِ جبيرٍ). ((البسيط)) (١١/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٠)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٩/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩) (٥/ ٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٤).

وأوحَينا إلى لوطٍ أنَّ قومَك مُهلَكون عن آخِرِهم عند مَطلَعِ الصُّبحِ، وجاء أهلُ مدينةِ لُوطٍ إلى لوطٍ عليه السلامُ، وهم فَرِحونَ، يَستبشِرونَ بضُيوفِه؛ ليَفعَلوا بهم الفاحِشةَ. قال لهم لوطٌ: إنَّ هؤلاء ضُيوفي، فلا تَفضَحوني، وخافوا عِقابَ الله، ولا تتعَرَّضوا لهم فتُذلُّوني بإيذائِكم لهم. قال قَومُه: أولَم نَنْهَك أن تُضيِّفَ أحدًا مِن العالَمينَ؟ قال لوطٌ لهم: هؤلاء نساؤُكم فتزوَّجوهنَّ إن كُنتُم فاعلينَ.

ثمَّ أقسَم الله تعالى بحياةِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم قائلًا: وحياتِك -يا محمَّدُ- إنَّ قَومَ لوطٍ لَفي غفلةٍ وضلالةٍ يتحَيَّرونَ، فنزلت بهم صيحةٌ هائلةٌ وقتَ شُروقِ الشَّمسِ، فقَلَبْنا مدينتَهم فجَعَلْنا عاليَها سافِلَها، وأمطَرْنا عليهم حجارةً مِن طينٍ متصَلِّبٍ. إنَّ فيما أصاب قومَ لوطٍ لَعِظاتٍ للمتفكِّرينَ المتفرِّسينَ، وإنَّ مدينةَ قَومِ لوطٍ لَفي طريقٍ ثابتٍ يراها المارُّونَ بها، وإنَّ في إهلاكِنا لهم لَدَلالةً واضِحةً للمُؤمِنينَ على انتقامِ اللهِ مِن الكافرينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تمَّ ما أُريدَ الإخبارُ عنه مِن تَحاوُرِ الملائكةِ مع إبراهيمَ عليه السَّلامُ، أخبَرَ عن أمْرِهم مع لوطٍ عليه السَّلامُ، فقال[1]:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

أي: فلمَّا أتَتِ الملائكةُ لوطًا وأهلَه[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١).

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

أي: قال لُوطٍ للملائكةِ: إنَّكم قومٌ غيرُ مَعروفينَ لدَيَّ، فلا أدري مَن أنتم[1]!

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: قالت الملائِكةُ لِلُوطٍ: بل نحنُ مَلائِكةُ الله، جِئناك بعذابِ قَومِك، الذي كانوا يشُكُّونَ في وُقوعِه بهم[2].

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: وأتَيناك باليَقينِ مِن عندِ اللهِ- وهو عذابُ قَومِك- وإنَّا لَصادِقونَ فيما أخبَرْناك به مِن هلاكِهم[3].

كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨].

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

قال الخازنُ: (إنَّما قال هذه المقالةَ لوطٌ؛ لأنَّهم دخلوا عليه وهم في زِيِّ شُبَّانٍ مُردان حِسانِ الوجوهِ، فخاف أن يهجُمَ عليهم قومُه؛ فلهذا السببِ قال هذه المقالةَ. وقيل: إنَّ النَّكِرة ضِدُّ المعرفة، فقوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ يعني: لا أعرِفُكم، ولا أعرفُ مِن أيِّ الأقوامِ أنتم، ولا لأيِّ غرَضٍ دخَلتُم). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

أي: فاخرُجْ أنت وأهلُك مِن أرضِ قَومِك بعد مُضيِّ وقتٍ مِن اللَّيلِ؛ حيثُ تكونُ العُيونُ قد نامَت، ولا يعلَمُ أحدٌ بمَسراك[١].

﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾.

أي: وكنْ -يا لوطُ- مِن وراءِ أهلِك، وامشِ خَلْفَهم حينَ تَسري بهم[٢].

﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾.

أي: ولا ينظُرْ أحدٌ منكم وراءَه، ولْتَجِدُّوا في السَّيرِ فتتباعَدوا عن القريةِ، وتنجوا مِن العذابِ النازلِ بأهلِها[٣].

﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾.

أي: واذهَبوا إلى المكانِ الذي تُؤمَرونَ بالمضيِّ إليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

قيل: نُهوا عن الالتفاتِ؛ لِيَجِدُّوا في السَّيرِ، ويتباعَدوا عن القريةِ قبلَ أن يفاجِئَهم الصُّبحُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨).

وقيل: نُهوا عن ذلك حتَّى لا يَرْتاعوا مِن العذابِ إذا نزَل بقومِهم. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٤٥).

وقيل: نُهوا عن ذلك؛ لئلَّا يَرَوا ما ينزِلُ بقومِهم مِن العذابِ فيرقُّوا لهم، وليوطِّنوا نفوسَهم على المهاجَرةِ، ويُطيِّبوها عن مساكنِهم. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٥).

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ٦٦﴾.

أي: وأوحَينا إلى لوطٍ ما قدَّرْناه من الأمرِ العظيمِ؛ أنَّ جميعَ قَومِه مُهلَكونَ عن آخِرِهم هَلاكَ استِئصالٍ مَطْلَعَ صَباحِ لَيلتِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣].

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ٦٧﴾.

أي: وجاء أهلُ مدينةِ قَومِ لُوطٍ إلى بيتِ لُوطٍ فَرِحينَ مَسرورينَ، يُبَشِّرُ بَعضُهم بعضًا بقُدومِ أضيافِ لُوطٍ؛ طَمعًا في فِعلِ الفاحشةِ بهم(٢)!

كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٤)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٦).

قال الشنقيطي: (سببُ استبشارِ قَومِ لُوطٍ أنَّهم ظَنُّوا الملائكةَ شَبابًا من بني آدم، فحَدَّثَتهم أنفُسُهم بأن يَفعَلوا بهم فاحِشةَ اللُّواط). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٨٦).

قال الخازن: (وذلك أنَّ الملائكةَ لَمَّا نَزَلوا على لوطٍ، ظَهَرَ أمرُهم في المدينة، وقيل: إنَّ امرأته أخبَرَتهم بذلك، وكانوا شبانًا مُردًا في غاية الحُسن، ونهايةِ الجمالِ، فجاء قومُ لوطٍ إلى دارِه؛ طمعًا منهم في ركوبِ الفاحشةِ). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٩).

٣٧].

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨ ﴾.

أي: قال لُوطٌ لِقَومِه: إنَّ هؤلاء الذين تُريدونَ فِعلَ الفاحِشةِ بهم ضُيوفي، وحَقٌّ على الرجُلِ إكرامُ ضُيوفِه، فلا تَفضَحوني في ضُيوفي بتعاطي ذلك الفِعلِ القَبيحِ، فيَلحَقَني العارُ(١).

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩ ﴾.

أي: وخافُوا اللهَ أن يُحِلَّ بكم عَذابَه، ولا تُذِلُّوني وتُهينوني بالتعَرُّضِ لضيوفي بمَكروهٍ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨-٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

قال أبو حيان: (والظاهِرُ أنَّ هذا المجيءَ ومحاورتَه مع قومِه في حَقِّ أضيافه، وعَرْضَه بناتِه عليهم؛ كان ذلك كلُّه قبل إعلامِه بهلاكِ قومِه، وعِلمِه بأنَّهم رسُلُ الله؛ ولذلك سمَّاهم ضِيفانًا خَوفَ الفضيحةِ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٩). وقال ابنُ كثيرٍ: (هذا إنَّما قاله لهم قبلَ أن يعلمَ بأنَّهم رسُلُ الله، كما قال في سياقِ سورةِ هودٍ، وأمَّا هاهنا فتقدَّمَ ذِكرُ أنهم رسُلُ الله، وعطفَ بذكرِ مجيءِ قومِه ومحاجَّته لهم. ولكنَّ الواوَ لا تقتضي الترتيبَ، ولا سيما إذا دلَّ دليلٌ على خلافِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٨).

وممن ذهب إلى أنَّ الخِزيَ هنا بمعنى الذُّلِّ والإهانة: ابنُ جرير، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن ذهب إلى أنَّه بمعنى الخجل: البغوي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٢).

وقال القرطبي: (يجوز أن يكونَ مِن الخِزيِ: وهو الذلُّ والهوان، ويجوزُ أن يكون مِن الخزاية: وهو الحياءُ والخجَل). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٩).

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠﴾.

أي: قال قَومُ لُوطٍ له: أولَم نَنهَك -يا لُوطُ- عن ضيافةِ أحدٍ من النَّاسِ؟ فنحن قد أنذَرْناك، ومَن أنذَرَ فقد أعذَرَ[١].

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾.

أي: قال لُوطٌ لِقَومِه: تزوَّجوا مِن نسائِكم[٢]، ولا تَفعَلوا ما حرَّمَ اللهُ عليكم من إتيانِ الذُّكورِ، إن كنتُم فاعلينَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).

ذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بـ﴿بَنَاتِيٓ﴾: نساءُ أمَّتي؛ لكونِ النبيِّ بمنزلةِ الأبِ لِقَومِه.

وممَّن ذهَب إلى ذلك في الجملةِ: ابنُ جريرٍ، والزجَّاجُ، والزمخشري، وابنُ العربي، وابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٢).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٦٩).

وقيل: المراد بهنَّ: بناتُ لوطٍ عليه السلام، فعرَضَ على قومه التزوُّجَ بهنَّ إن أسلَموا. وممن ذهَب إلى هذا القولِ: البغوي، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٥).

وفي معنى ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ أقوال:

قيل: المراد: إن كنتم فاعلينَ ما آمرُكم به. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابن جرير، والبغوي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٢).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ * قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٨-٧٩].

﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾.

أي: أُقسِمُ بحَياتِك -يا محمَّدُ- إنَّ قومَ لوطٍ لَفي ضَلالتِهم وجَهلِهم وغَفلتِهم يتحيَّرونَ، ولا يهتدونَ؛ بسبَبِ سَكرةِ الهَوى والعِشقِ(١).

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾.

وقيل: المرادُ: إن كنتُم مريدينَ لهذا الشَّأنِ- يعني: اللذَّةَ وقَضاءَ الوطَرِ- فعليكم بالتَّزويجِ ببناتي. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزجَّاج، والواحدي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٨٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٥).

وقيل: هذا شَكٌّ في قَبولِهم لقولِه، كأنَّه قال: إن فعلتُم ما أقولُ لكم، وما أظنُّكم تفعلونَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشري، وأبو حيان، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٩، ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

وممن اختار هذا المعنى المذكورَ: ابنُ عطيةَ، وابنُ القيِّم، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة. ونسَبه الواحدي لعامةِ المفسِّرين، وابنُ الجوزي لأكثرِهم. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٣٤-٦٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٣٨).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿إِنَّهُمۡ﴾ المشركونَ في زمنِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والسمرقندي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٣٤، ٦٣٥).

قال القاضي عياض: (اتَّفق أهلُ التفسير في هذا أنَّه قسَمٌ من الله جلَّ جلالُه بمُدَّة حياةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم). ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى)) (١/ ٣١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٩).

أي: فأخَذَتْهم صيحةٌ عَظيمةٌ هائِلةٌ مُهلِكةٌ، وقتَ شُروقِ الشَّمسِ[١].

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾.

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

أي: قَلَبْنا عَليهم مدينَتَهم، فجَعَلْنا أعلاها أسفَلَها[٢].

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

أي: وأنزَلْنا عليهم حِجارةً مِن طينٍ مُتحَجِّرٍ[٣].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾.

أي: إنَّ في قصَّةِ قَومِ لوطٍ وما فَعَلْناه بهم من العذابِ، وبقاءِ آثارِ هَلاكِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: صاح بهم جبريلُ صَيحةً أهلكَتهم، وقال أهل المعاني: ويجوزُ أن يكون جاءهم صوتٌ عظيمٌ مِن فِعلِ الله عز وجل). ((البسيط)) (١٢/ ٦٣٦).

قال الرازي: (قال أهلُ المعاني: ليس في الآيةِ دلالةٌ على أنَّ تلك الصَّيحةَ صيحةُ جبريلَ عليه السَّلامُ، فإنْ ثبت ذلك بدليلٍ قويٍّ قيل به، وإلا فليس في الآية دَلالةٌ إلَّا على أنه جاءتهم صيحةٌ عظيمةٌ مهلكة). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٦).

قال الواحدي: (يقال: إنَّ أوَّلَ العذابِ كان مع طلوعِ الصُّبحِ، ثمَّ امتدَّ إلى شروقِ الشَّمسِ؛ لذلك قال: ﴿مُّصْبِحِينَ﴾، ثم قال: ﴿مُشْرِقِينَ﴾). ((الوسيط)) (٣/ ٤٩).

وقال ابنُ عطية: (أُهلِكوا بعد الفجرِ مُصبِحينَ، واستوفاهم الهلاكُ مُشرِقينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٦).

لَعلاماتٍ للمُتفرِّسينَ المتأمِّلينَ المتفكِّرينَ، الذين لهم فِكرٌ وفِراسةٌ يفهمونَ بها ما أُريدَ بذلك، فيَعتَبِرونَ[١].

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ٧٦﴾.

أي: وإنَّ مدينةَ قَومِ لُوطٍ لَفي طريقٍ باقٍ واضحٍ ثابتٍ يَسلُكُه النَّاسُ، فيَرى كُلُّ مَن يمُرُّ بها آثارَ تَدميرِها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

وقال سُبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١١٨)، ((الطرق الحكمية)) لابن القيم (ص: ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).
قال ابنُ القيم: (قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال مجاهد رحمه الله: المتفرِّسين. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: للنَّاظرينَ. وقال قتادةُ: للمعتبرينَ. وقال مقاتلٌ: للمتفكِّرين. ولا تنافيَ بين هذه الأقوال؛ فإنَّ الناظرَ متى نظر في آثارِ ديار المكذِّبين ومنازلِهم، وما آلَ إليه أمرُهم؛ أورَثَه فِراسةً وعِبرةً وفِكرةً. وقال تعالى في حقِّ المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، فالأوَّلُ: فِراسةُ النَّظَر والعينِ، والثاني: فِراسةُ الأذنِ والسَّمع). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٤٥٢). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٦، ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٩٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٨).
قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا﴾ يعني: قُرى قومِ لوطٍ. ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: على طريقِ قَومِك -يا محمَّدُ- إلى الشَّامِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٨).

عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ [محمد: ١٠].

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

أي: إنَّ في إهلاكِنا قَومَ لُوطٍ، وإنجائِنا لوطًا وأهلَه المؤمنينَ، لعلامةً ودَلالةً واضِحةً للمُؤمِنينَ على انتقامِ اللهِ مِن الكافرينَ، وإنجائِهم مِن بيْنِ أيديهم سالِمينَ آمِنينَ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يبيِّنُ أنَّ كُلَّ مَن آمن باللهِ، وصَدَّق الأنبياءَ والرسُلَ، عرَفَ أنَّ ما وقع بقومِ لوطٍ إنَّما كان لأجلِ أنَّ اللهَ تعالى انتقَمَ لأنبيائِه مِن أولئك الجُهَّالِ، أمَّا الذين لا يُؤمِنونَ باللهِ، فإنَّهم يَحمِلونَه على حوادِثِ العالَمِ ووقائِعِه(٢).

٢- في هذه القِصَّةِ مِن العِبَر: أنَّ الله تعالى إذا أراد أن يُهلِكَ قريةً ازداد شَرُّهم وطُغيانُهم، فإذا انتهَى أوقَعَ بهم مِن العقوباتِ ما يستحِقُّونَه، قال تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۞ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ فأمَر لوطًا عليه السلام أن يكونَ مِن ورائِهم، وتلمَّس العلماءُ أوجهَ الحكمةِ في ذلك، ومنها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

أولًا: أنه أُمِر أن يكونَ مِن ورائِهم لِئلَّا يتخَلَّفَ منهم أحدٌ فينالَه العذابُ[١]، فهذا أحفَظُ لهم[٢].

ثانيًا: ليكونَ أقرَبَهم إلى الملائكةِ وإلى محَلِّ العذابِ؛ لأنَّه أثبتُهم قَلبًا، وأعرَفُهم بالله، وقد جَرَت عادةُ الكُبَراءِ أن يكونوا أدنى جماعتِهم إلى الأمرِ المَخوفِ؛ سَماحًا بأنفُسِهم، وتَثبيتًا لِغَيرِهم.

ثالثًا: لئلَّا يشتَغِلَ قلبُه بمن خلفَه[٣].

رابعًا: ليكونَ كالحائلِ بينَهم وبينَ العذابِ الذي يحُلُّ بقَومِه بعَقِبِ خُروجِه؛ تنويهًا ببركةِ الرَّسولِ عليه السَّلامُ.

خامسًا: لأنَّهم أمَروه ألَّا يلتفِتَ أحدٌ مِن أهلِه إلى ديارِ قَومِهم؛ لأنَّ العذابَ يكونُ قد نزل بديارِهم، فبِكونِه وراءَ أهلِه يخافونَ الالتفاتَ؛ لأنَّه يُراقِبُهم[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ تعبيرُه بالمضارعِ في قَولِه: ﴿تُؤۡمَرُونَ﴾ يُشعِرُ بأنَّه يكونُ معهم بعضُ الملائكةِ عليهم السَّلامُ[٥].

٣- ذكَّرَ لوطٌ قَومَه بالوازعِ الدِّينيِّ- وإن كانوا كفَّارًا- استقصاءً للدَّعوةِ التي جاء بها، وبالوازعِ العُرفيِّ؛ فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾[٦].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ قسَمٌ مِن اللهِ بحياةِ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٤).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٧٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٦).

رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا من أعظَمِ فَضائِلِه؛ أن يُقسِمَ الرَّبُّ -عَزَّ وجَلَّ- بحياتِه، وهذه مَزِيَّةٌ لا تُعرَفُ لِغَيرِه[١]. فما أقسَمَ الله بحياةِ أحَدٍ؛ وذلك يدُلُّ على أنَّه أكرَمُ الخَلقِ على اللهِ تعالى[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ كَرِه كثيرٌ مِن العُلَماءِ أن يقولَ الإنسانُ: لَعَمْرِي؛ لأنَّ معناه: وحَيَاتي، وإن كان اللهُ سُبحانَه أقسَمَ به في هذه القِصَّةِ؛ فذلك بَيانٌ لِشَرَفِ المنزلةِ والرِّفعةِ لِمَكانِه، فلا يُحمَلُ عليه سِواه، ولا يُستعمَلُ في غَيرِه[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فعمرُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هو عُمُرٌ شَريفٌ عَظيمٌ أهلٌ أن يُقسمَ اللهُ به؛ لِمَزيَّتِه على كُلِّ عُمُرٍ مِن أعمارِ بني آدمَ، ولا ريبَ أنَّ عُمُرَه وحياتَه مِن أعظَمِ النِّعَمِ والآياتِ، والقَسَمُ به أَولى من القسَمِ بغَيرِه من المَخلوقاتِ[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ إنَّما وصَفَ اللهُ- سُبحانَه- اللُّوطيَّةَ بالسَّكرةِ؛ لأنَّ سَكرةَ العِشقِ مِثلُ سَكرةِ الخَمرةِ[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وصَفَهم الله تعالى بالسَّكرةِ التي هي فَسادُ العَقلِ، والعَمَهِ الذي هو فسادُ البَصيرةِ، فالتعلُّقُ بالصُّوَرِ يُوجِبُ فَسادَ العَقلِ، وعَمَهَ البصيرةِ، وسُكْرَ القَلبِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٩).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أصلٌ في الفِراسةِ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ بيَّنَ تعالى أنَّه تارِكٌ آثارَ القَومِ المعذَّبينَ للمُشاهَدةِ، ولِيُستدَلَّ بذلك على عُقوبةِ اللهِ لهم[٢]، فالنَّاظِرُ متى نَظرَ في آثارِ ديارِ المكذِّبينَ ومنازِلِهم؛ وما آلَ إليه أمرُهم؛ أورثَه فِراسةً وعِبرةً وفِكرةً[٣].

١١- في هذه القِصَّةِ مِن العِبَرِ أنَّ لُوطًا- عليه السَّلامُ- لَمَّا كانوا أهلَ وَطَنِه، فرُبَّما أخَذَتْه الرِّقَّةُ عليهم والرَّأفةُ بهم، قَدَّرَ الله من الأسبابِ ما به يشتَدُّ غَيظُه وحَنَقُه عليهم، حتى استبطأَ إهلاكَهم لَمَّا قيل له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ولم يقولوا: (بعذابِهم) مع حصولِ الغرضِ؛ ليتضمَّنَ الكلامُ الاستئناسَ مِن وجهينِ: تحقُّق عذابِهم، وتحقُّق صدقِه عليه السلامُ، ففيه تذكيرٌ لما كان يُكابِدُ منهم مِن التكذيبِ. وقيل: وقد كنَّى عليه السلامُ عن خوفِه ونفارِه بأنَّهم (منكرونَ) فقابَلوه عليه

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٠).
والفِراسَة هي الاستدلالُ بالأمورِ الظَّاهرةِ على الأمورِ الخفيَّةِ. يُنظر: ((كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم)) للتهانوي (٢/ ١٢٦٥)، ((موسوعة الأخلاق)) إعداد القسم العلمي بالدُّرر السَّنية (٢/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

السلامُ بكنايةٍ أحسنَ وأحسنَ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ المُرادُ بالحقِّ: الإخبارُ بمَجِيءِ العَذابِ المَذكورِ، وقولُه: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ تأكيدٌ له، أي: أتيناك فيما قُلْنا بالخبَرِ الحقِّ، أي: المُطابقِ للواقِعِ، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ في ذلك الخبَرِ، أو في كلِّ كلامٍ؛ فيكونُ كالدَّليلِ على صِدْقِهم فيه، وعلى الأوَّلِ تأكيدٌ إثْرَ تأكيدٍ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿وَٱتَّبِعْ ﴾ فيه إيثارُ (الاتِّباعِ) على السَّوقِ، مع أنَّه المقصودُ بالأمْرِ، ولعلَّ ذلك للمُبالغةِ في ذلك؛ إذ السَّوقُ رُبَّما يكونُ بالتَّقدُّمِ على بعضٍ مع التَّأخُّرِ عن بعضٍ، ويلزَمُه عادةً الغَفلةُ عن حالِ المُتأخِّرِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ النَّهيُ عن الالتفاتِ كِنايةً عن مُواصلةِ السَّيرِ، وتَرْكِ التَّواني والتَّوقُّفِ؛ لأنَّ مَن يلتفِتُ لا بُدَّ له في ذلك مِن أدنى وَقفةٍ[٤].

- قولُه: ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ فيه حَذفٌ، والتَّقديرُ: إلى حيث أمَرَكم اللهُ تعالى بالمُضِيِّ إليه وهو الشَّامُ أو مِصرُ، وإيثارُ المُضِيِّ إلى ما ذُكِرَ على الوصولِ إليه واللُّحوقِ به؛ للإيذانِ بأهميَّةِ النَّجاةِ، ولمُراعاةِ المُناسَبَةِ بينه

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨٤).

وبين ما سلَفَ مِن الغابرينَ[١].

٤- قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾، في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ إبهامٌ؛ للتَّهويلِ، والإشارةُ للتَّعظيمِ، أي: الأمْرُ العظيمُ، و﴿مَقْطُوعٌ﴾، أي: مُزالٌ، وهو كِنايةٌ عنِ استئصالِهم كلِّهم[٢]، وأشار بصيغةِ المفعولِ ﴿مَقْطُوعٌ﴾ إلى عظمتِه سبحانَه، وسهولةِ الأمرِ عندَه[٣]، وفيه إيثارُ اسمِ الإشارةِ على الضَّميرِ؛ للدَّلالةِ على اتِّصافِهم بصِفاتِهم القَبيحةِ الَّتي هي مَدارُ ثُبوتِ الحُكمِ، أي: دابِرُ هؤلاء المُجرمينَ[٤].

- في قَولِه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ تَبيينٌ بعدَ إجمالٍ، وهو أوقَعُ في النَّفسِ؛ فقولُه تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ عندَ الوقوفِ على قولِه: ﴿ٱلْأَمْرَ﴾؛ يُستفهَمُ: ما هذا الأمرُ؟ فيأتي التبيينُ بقولِه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ وهو كِنايةٌ عن الاستِئصالِ، ثمَّ إنَّه فسَّرَ بعدَ ذلك القضاءَ المَبتوتَ بقولِه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾، وفي إبهامِه أوَّلًا وتَفسيرِه ثانيًا: تَفخيمٌ للأمْرِ، وتَعظيمٌ له[٥].

- وعُدِّيَ ﴿قَضَيْنَا﴾ بـ (إلى)؛ لأنَّه ضُمِّنَ مَعنى: (أوحينا)، كأنَّه قيل: وأوحينا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨٤)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠٦).

إليه مَقْضِيًّا مَبْتوتًا[١].

- وأيضًا فيه إيرادُ صِيغَةِ المفعولِ ﴿مَقْطُوعٌ﴾ بدَلَ صِيغَةِ المُضارعِ (يُقْطَعُ)؛ لكونِها أدخَلَ في الدَّلالةِ على الوُقوعِ. وفي لفظِ القضاءِ ﴿وَقَضَيْنَآ﴾، والتَّعبيرِ عن العذابِ بالأمْرِ، والإشارةِ إليه بذلك، وتأخيرِه عن الجارِّ والمجرورِ، وإبهامِه أوَّلًا، ثمَّ تفسيرِه ثانيًا: دَلالةٌ على فَخامةِ الأمْرِ وفَظاعتِه[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بصِيغَةِ المُضارعِ؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ مُبالغةً في الفرَحِ[٣].

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فيه التَّأكيدُ بـ﴿إِنَّ﴾ وهو ليس لإنكارِهم ذلك، بل لتَحقيقِ اتِّصافِهم به، وإظهارِ اعتنائِه بشأْنِهم، وتَشمُّرِه لمُراعاةِ حُقوقِهم وحِمايتِهم مِن السُّوءِ؛ ولذلك قال: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾[٤].

٧- قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ، والمعطوفُ هو الإنكارُ؛ فالهمزةُ للاستفهامِ والإنكارِ، والواوُ للعطفِ على مَحذوفٍ مُقدَّرٍ، أي: ألَمْ نتقدَّمْ إليك ولَمْ ننْهَكَ عن التعرضِ لهم بمنعِهم عنا وضيافتِهم؟ وقيل: الواوُ في

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٥).

﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ عطفٌ على كلامِ لوطٍ -عليه السلامُ- جارٍ على طريقةِ العطفِ على كلامِ الغيرِ. وتعديةُ النهيِ إلى ذاتِ العالمينَ على تقديرِ مضافٍ دلَّ عليه المقامُ، أي: ألم ننهك عن حمايةِ الناسِ أو عن إجارتِهم[١]؟

٨- قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ جملةٌ مُعترِضةٌ بين أجزاءِ القِصَّةِ؛ للعبرةِ في عدمِ جَدوى المَوعِظةِ فيمَن يكونُ في سَكرةِ هواه[٢].

- قولُه: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ هذه صِيغَةُ قسَمٍ، واللَّامُ الدَّاخِلةُ على لفظِ (عَمْر) لامُ القسَمِ، والعَمْرُ -بفتحِ العَينِ وسُكونِ اللَّامِ- أصلُه لُغَةٌ في (العُمُرِ) بضَمِّ العينِ؛ فخُصَّ المفتوحُ بصِيغَةِ القسَمِ لخِفَّتِه بالفتحِ؛ لأنَّ القسَمَ كثيرُ الدَّورانِ في الكلامِ؛ فهو قسَمٌ بحياةِ المُخاطَبِ به وهو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والقسَمُ باسمِ أحدٍ تَعظيمٌ له؛ فاسْتُعْمِلَ لفْظُ القسَمِ كِنايةً عنِ التَّعظيمِ[٣].

- قولُه: ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ السَّكرةُ: ذَهابُ العقْلِ، وأُطْلِقَت هنا على الضَّلالِ؛ تَشبيهًا لغَلَبةِ دَواعي الهَوى على دَواعي الرَّشادِ بذَهابِ العقْلِ وغَشْيتِه؛ فكَنَّى عنِ الضَّلالةِ والغَفلةِ بالسَّكرةِ[٤].

٩- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ تَذييلٌ، والمتوسِّمون: أصحابُ التوسُّم، وهو التأمُّلُ في السِّمةِ، أي: العَلامةِ الدالَّةِ على المَعْلَم، والمراد: للمُتأمِّلين في الأسبابِ وعواقبِها، وأولئك هم المؤمِنون، وفيه تَعريضٌ بالَّذين لم تَرْدَعْهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٨).

العِبرُ بأنَّهم دونَ مَرتبةِ النَّظرِ؛ تَعريضًا بالمُشركينَ الَّذين لم يتَّعِظوا بأنْ يحُلَّ بهم ما حَلَّ بالأُمَمِ مِن قبْلِهم الَّتي عَرَفوا أخبارَها، ورَأَوا آثارَها؛ ولذلك أعقَبَ الجُملةَ بجُملةِ ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، أي: المدينةَ المذكورةَ آنفًا هي بطريقٍ باقٍ، يُشاهِدُ كثيرٌ منكم آثارَها في بِلادِ فلسطينَ في طَريقِ تِجارتِكم إلى الشَّامِ وما حولَها، وهذا كقولِه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨].

١٠- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تَذييلٌ، وعُبِّرَ في التَّذييلِ بالمُؤمنينَ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُتوسِّمينَ هم المُؤمنونَ[2].

- وفي قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث جمَعَ الآيةَ أوَّلًا فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، ووحَّدَها ثانيًا هنا في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، والقِصَّةُ واحدةٌ؛ فاختُصَّت التي في هذا الموضعِ بالآيةِ على التَّوحيدِ، والسابقةُ بالآياتِ على الجَمْعِ؛ وهذا لأنَّ (ذلك) في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ إشارةٌ إلى ما قَصَّ مِن حديثِ لُوطٍ وضَيفِ إبراهيمَ، وتعرُّضِ قومِ لُوطٍ لهم طَمعًا فيهم، وما كان مِن أمْرِهم آخرًا؛ مِن إهلاكِ الكفَّارِ، وقلْبِ المدينةِ على مَن فيها،...إلخ، وهذه أشياءُ كثيرةٌ، في كلِّ واحدةٍ منها آيةٌ، وفي جميعِها آياتٌ لمَن يتوسَّمُ؛ فكان ذِكْرُ الآياتِ هاهنا أَولى وأشبَهَ بالمعنى، وأمَّا قولُه: ﴿لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فلأنَّ قبْلَها: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، أي: تلك المدينةُ المقلوبةُ ثابتةُ الآثارِ، مُقيمةٌ للنُّظارِ، فكأنَّها بمَرأى العُيونِ؛ لبَقاءِ آثارِها، وهذه واحدةٌ مِن تلك الآياتِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٩- ٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٧٠).

فلذلك جاء عَقِيبَها: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ فجمَعَ أوَّلًا باعتبارِ تَعدُّدِ ما قَصَّ مِن حديثِ لُوطٍ، وضَيفِ إبراهيمَ، ووحَّدَ ثانيًا باعتبارِ وَحدَةِ قَريةِ قَومِ لُوطٍ، المُشارِ إليها بقولِه: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾[1].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٨١٨-٨٢٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٦-١٥٧)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٩١-٢٩٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٩٩-٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٩- ٧٠).

الآيات (٧٨-٨٤)

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ ﴾: أي: قَومُ شُعَيبٍ، والأيكةُ: الشَّجَرُ المُلتَفُّ المُجتَمِعُ، وأصلُ (أيك): اجتماعُ شَجَرٍ[(١)].

﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾: أي: لَبِطَريقٍ واضِحٍ بيِّنٍ، وقيل للطَّريقِ إمامٌ؛ لأنَّ المُسافِرَ يأتَمُّ به، حتى يصيرَ إلى الموضِعِ الذي يُريدُه، ويُطلَقُ الإمامُ على كُلِّ ما ائتَمَمْتَ به واهتَدَيتَ به، وأصلُ (أم): يدُلُّ على القَصْدِ[(٢)].

﴿ ٱلْحِجْرِ ﴾: هو اسمُ وادٍ بينَ المدينةِ والشَّامِ كان يسكُنُه ثَمودُ؛ قَوْمُ صَالِحٍ عليه السَّلامُ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: وقد كان أصحابُ الأيكةِ (وهو الشجرُ الملتفُّ) -قومُ شُعَيبٍ-

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ١٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٨٩).

ظالِمينَ، فانتقَمْنا منهم وأهلَكْناهم، وإنَّ مَساكِنَ قَومِ لُوطٍ وقومِ شُعَيبٍ لَفي طريقٍ واضحٍ يمرُّ بهما النَّاسُ في سَفَرِهم، ويُشاهِدونَ آثارَ هلاكِهم فيَعتَبِرونَ. ولقد كذَّبَ سُكَّانُ الحِجْرِ -منازِلِ ثمودَ- صالحًا عليه السَّلامُ، فكانوا بذلك مكَذِّبينَ لكُلِّ المُرسَلينَ؛ وآتينا ثمودَ آياتِنا الدَّالَّةَ على صِدقِ صالحٍ -ومن جُملتِها النَّاقةُ- فلم يَعتَبِروا بها، وكانوا ينحِتونَ من الجِبالَ بُيوتًا، وهم آمِنونَ فيها، فأخَذَتْهم صيحةُ العذابِ وقتَ الصَّباحِ، فما دفع عنهم عذابَ اللهِ ما كانوا يَعمَلونَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى قِصَّةَ قَومِ لُوطٍ، ضَمَّ إليها ما هو على طريقِها ممَّا عُذِّبَ قَومُه بنَوعٍ آخَرَ مِن العذابِ يُشابِهُ عَذابَ قَومِ لُوطٍ، في كَونِه نارًا مِن السَّماءِ، فقال مؤكِّدًا؛ لأجْلِ إنكارِ الكُفَّارِ أن يكونَ عذابُهم لأجلِ التَّكذيبِ، أو عَدًّا لهم -لأجلِ تمادِيهم في الغَوايةِ مع العِلمِ بِه- عِدادَ المُنكِرينَ[1]:

﴿ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨ ﴾.

أي: وقد كان أصحابُ الغَيضةِ[2] -وهي جماعةُ الشَّجرِ الملتَفِّ المُجتَمِع-

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٧٩).

(٢) قال ابن عاشور: (أصحابُ الأيكةِ: هم قومُ شُعَيبٍ عليه السلام، وهم مدينُ. وقيل: أصحابُ الأيكة فريقٌ من قومِ شُعَيبٍ غيرُ أهل مدينَ. فأهلُ مَدْينَ هم سكَّان الحاضرة، وأصحابُ الأيكةِ هم باديتُهم، وكان شعيبٌ رَسولًا إليهم جميعًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧١).
وقال الشنقيطي: (والعلماءُ مختلفونَ: هل أصحابُ الأيكةِ هم مَدْيَنُ أنفسُهم، فيكون شعيبٌ أُرْسِلَ إلى أُمَّةٍ واحدةٍ، أو مدينُ أمةٌ، وأصحابُ الأيكةِ أمةٌ أخرى، فيكون شعيبٌ قد أُرْسِلَ إلى أُمَّتَيْنِ؟ هذا خلافٌ معروفٌ بَيْنَ العلماءِ، وأكثرُ أهلِ العلمِ على أنهم أمةٌ واحدةٌ، كانوا يعبدونَ

ظالِمينَ بِشِركِهم باللهِ، وتكذيبِهم برَسولِه شُعَيبٍ عليه السَّلامُ، وقَطْعِهم الطريقَ، وتَطفيفِهم في الكَيلِ، وبَخسِهم الناسَ أشياءَهم(١).

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٨٣].

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

أيكةً، أي: شجرًا مُلْتَفًّا، وأن اللَّهَ سماهم مرةً بنسبهم «مدين»، ومرةً أضافهم إلى الأيكةِ التي يعبدونَها. وجزمَ بصحةِ هذا ابنُ كثيرٍ في تاريخِه وتفسيرِه، ومِمَّنِ اشتهر عنه أنهم أُمَّتَانِ: قتادةُ وجماعةٌ، وهو خلافٌ معروفٌ. والذين قالوا: إنهما أُمَّتانِ قالوا: في «مدين» قال: إنَّه أخوهم حيث قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]، أما أصحابُ الأيكةِ فلم يَقُلْ: إنَّه أخوهم، بل قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧] ولم يقلْ: أخوهم شعيبٌ. وأُجِيب عن هذا بأنَّه لَمَّا ذَكَر مَدينَ ذَكَر الجدَّ الذي يشملُ القبيلةَ، ومِنْ جُملتِها شعيبٌ، ذكَر أنَّه أخوهم مِن النسبِ. أما قولُه: ﴿أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ فمعناه: أنَّهم يعبدونها، ولَمَّا ذَكَرهم في مقامِ الشركِ وعبادةِ غيرِ اللَّهِ لم يُدْخِلْ معهم شعيبًا في ذلك وهم أمةٌ واحدةٌ. هكذا قاله بعضُهم، واللَّهُ أعلمُ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٨).

و(إنْ) هي المخففةُ مِن الثقيلةِ، واسمُها ضميرُ الشأنِ المحذوفِ، أي: وإنَّ الشأنَ كان أصحاب الأيكةِ، واللامُ الداخلةُ على (الظالمين) اللامُ الفارقةُ بينَ (إن) التي أصلُها مشددةٌ، وبين (إن) النافيةِ. وقيل: (إنْ) بمعنى (ما)، واللام في قوله: ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ بمعنى إلَّا. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧١).

أي: فانتقَمْنا مِن أصحابِ الأيكَةِ الظَّالِمينَ، فأهلَكْناهم[١].

كما قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾.

أي: وإنَّ كُلًّا مِن دِيارِ قَومِ لُوطٍ ودِيارِ أصحابِ الأيكةِ[٢] لعلى طريقٍ واضِحٍ[٣] تُشاهَدُ فيه آثارُ هَلاكِهم، فيَعتَبِرُ بها من يمرُّ عليها[٤].

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

جُمِعَت قَصَصُ هؤلاء الأُمَمِ الثَّلاثِ: قومِ لُوطٍ، وأصحابِ الأيكةِ، وأصحابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٦).

(٢) قال ابنُ الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ في المُكنَى عنهما قولان: أحدُهما: أنَّهما الأيكةُ ومدينةُ قَومِ لوطٍ، قاله الأكثرونَ. والثاني: لوطٌ وشُعَيبٌ، ذكره ابنُ الأنباريِّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤٠).

وقال أبو حيان: (الظاهرُ قولُ الجمهورِ مِن أنَّ الضميرَ في ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ عائِدٌ على قريتَي قَومِ لوطٍ وقومِ شُعيبٍ. أي: على أنَّهما ممَرُّ السَّابلةِ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩١).

(٣) قال ابنُ كثيرٍ: (وقد كانوا قريبًا مِن قَومِ لوطٍ، بعدَهم في الزمانِ، ومُسامِتينَ لهم في المكانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٤).

وقال ابن عاشور: (كلتا القريتينِ بطريقِ القوافلِ بأهلِ مكَّة). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٥)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٣٩١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧١، ٧٢).

قال الواحدي: (﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ لَبِطريقٍ واضحٍ؛ في قول عامَّة المفَسِّرين). ((البسيط)) (١٢/ ٦٤١).

الحِجرِ، في نَسَقٍ؛ لتَماثُلِ حالِ العذابِ الذي سُلِّطَ عليها، وهو: عذابُ الصَّيحةِ، والرَّجْفة، والصَّاعِقة[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان ربَّما قيل: إنَّه لو كان لأصحابِ الأيكةِ بُيوتٌ مُتقَنةٌ لَمَنعَتْهم من العذابِ، عطَفَ عليهم مَن هم على طَريقٍ أُخرَى مِن مَتاجِرِهم إلى الشَّامِ، وكانوا قد طال اغترارُهم بالأملِ حتى اتَّخَذوا الجبالَ بُيوتًا، وكانت آيتُهم في غايةِ الوُضوحِ فكَذَّبوا بها؛ تحقيقًا لأنَّ المتعَنِّتينَ لو رأَوا كلَّ آيةٍ لقالُوا: إنَّما سُكِّرَت أبصارُنا، فقال[٢]:

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

أي: ولقد كذَّبَ سُكَّانُ الحِجْرِ[٣]- وهم ثَمودُ- رَسولَهم صالحًا عليه السَّلامُ، فكذَّبوا بذلك جميعَ المرسَلينَ؛ لأنَّ دَعوتَهم واحِدةٌ[٤].

كما قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٤٢].

وقال سُبحانه: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ * فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ * أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [القمر: ٢٣-٢٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا مَرَّ بالحِجرِ قال: لا تَدخُلوا مَساكِنَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم إلَّا أن تكونوا باكِينَ؛ أن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٨٠).

(٣) قال الشنقيطي: (الحِجْرُ: منازلُ ثمودَ، بين الحجاز والشامِ عند وادي القُرى). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٤).

يُصيبَكم ما أصابَهم))[(١)].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾.

أي: وآتينا ثمودَ حُجَجَنا وبراهينَنا الدَّالَّةَ على صِدقِ رَسولِنا صالحٍ- ومنها الناقةُ- فكانوا لا يتَّعِظونَ بها ولا يعتَبِرونَ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٨٠) واللفظ له، ومسلم (٢٩٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٤).

قال البيضاوي: (يعني: آياتِ الكتابِ المنزَّلِ على نبيِّهم، أو معجزاتِه- كالنَّاقةِ وسَقيِها وشِربِها ودَرِّها- أو ما نُصِبَ لهم من الأدلَّةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٦).

وقال الشنقيطي: (لم يبيِّنْ جلَّ وعلا هنا شيئًا مِن تلك الآياتِ التي آتاهم، ولا كيفيةَ إعراضِهم عنها، ولكنَّه بيَّن ذلك في مواضعَ أُخرَ. فبيَّن أنَّ مِن أعظمِ الآياتِ التي آتاهم: تلك الناقة التي أخرجها الله لهم. بل قال بعضُ العلماءِ: إنَّ في الناقةِ المذكورةِ آياتٍ جمةً...كما قال تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣١١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣).

وذهب البقاعي إلى أنَّ المرادَ بتكذيبِهم بالآياتِ: تكذيبُهم بآيةٍ واحدةٍ هي آيةُ الناقةِ، ولكن لأنَّ الممكناتِ كلَّها بالنسبةِ إلى قدرتِه سبحانَه على حدٍّ سواءٍ، فمَن كذَّب بواحدةٍ منها فقد كذَّب بالجميعِ، مثلما أنَّهم لما كذَّبوا بصالحٍ نسَب الله إليهم التكذيبَ بجميعِ المرسلينَ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١١/ ٨١).

وقال سُبحانه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ * مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾.

أي: وكان قَومُ صالحٍ يَنحِتونَ مِن الجبالِ مَساكِنَ آمِنينَ فيها مِن المخاوِفِ[(١)].

كما قال الله حاكيًا قولَ صالحٍ لِقَومِه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال سُبحانه حاكيًا أيضًا قَولَ صالحٍ لِقَومِه: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ * فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ * وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ * وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٤).

قيل: آمنينَ مِن عذابِ الله. قاله ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٤).

وقيل: آمنين من أن تسقُطَ عليهم أو تَخرَبَ. قاله القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣).

وقيل: آمنينَ من الموت. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣).

وذكَر ابنُ كثيرٍ أنَّ المعنى: أنَّهم ينحِتونَ مِن الجبالِ بيوتًا آمنينَ، أي: من غيرِ خَوفٍ ولا احتياجٍ إليها، بل أشَرًا وبطَرًا وعبَثًا. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥).

قال البيضاوي: (آمِنِينَ مِن الانهدامِ، ونقبِ اللصوصِ، وتخريبِ الأعداءِ؛ لوثاقتِها، أو مِن العذابِ؛ لفرطِ غفلتِهم، أو حسبانِهم أنَّ الجبالَ تحميهم منه). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٦).

[الشعراء: ١٤٦-١٤٩].

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

أي: فأخَذت قومَ صالحٍ صَيحةُ الهلاكِ في الصَّباحِ[(١)].

﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

أي: فما دفَعَ العذابَ عنهم، ولا أجزأَ عنهم ما كانوا يَعمَلونَه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَٰرًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر: ٨٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾ هؤلاء هم قَومُ شُعَيبٍ، نعَتَهم اللهُ وأضافَهم إلى الأيكةِ؛ لِيَذكُرَ نِعمَتَه عليهم، وأنَّهم ما قاموا بها، بل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٤).

قيل: المرادُ بـ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾: ما كانوا يجتَرِحونَ مِن الأعمال الخبيثةِ قبل ذلك. قاله ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٤).

وقيل: ما كانوا يستغلُّونَه من زروعِهم وثمارِهم التي ضَنُّوا بمائها عن النَّاقةِ، حتى عَقَروها لئلا تُضَيِّقَ عليهم في المياه، فما دفَعَت عنهم تلك الأموالُ، ولا نفعَتْهم لَمَّا جاء أمرُ ربِّك. قاله ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥).

وقيل: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أي: يَصنَعونَ، أي: البُيوتُ التي عُنُوا بتحصينِها وتحسينِها. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٤).

وقال البقاعي: (﴿يَكْسِبُونَ ﴾ مِن البيوتِ والأعمالِ والعُدَد والآلاتِ الخبيثةِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٨٢).

جاءَهم نبيُّهم شُعَيبٌ، فدعاهم إلى التَّوحيدِ، وتَرْكِ ظُلمِ النَّاسِ في المَكاييلِ والموازينِ، وعالجَهم على ذلك أشَدَّ المُعالجةِ، فاستَمَرُّوا على ظُلمِهم في حَقِّ الخالقِ، وفي حَقِّ الخَلقِ؛ ولهذا وصَفَهم هنا بالظُّلمِ(١).

٢- العجائبُ والآياتُ التي للأنبياءِ تارةً تُشاهدُ آثارُها الدالَّةُ على ما حدَث بالعِيانِ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]، وتارةً تُعلَمُ بمجرَّدِ الأخبارِ المتواترةِ، وإن لم نُشاهِدْ شيئًا مِن آثارِها، وهذه الأخبارُ كانت منتَشِرةً مُتواترةً في العالَمِ، وقد عَلِمَ الناسُ أنَّها آياتٌ للأنبياءِ، وعُقوبةٌ لِمُكَذِّبيهم؛ ولهذا كانوا يَذكُرونَها عند نَظائرِها للاعتبارِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠-٣١]، وقال شُعَيب: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾(٢) [هود: ٨٩].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ والإمامُ المبين هو الطريقُ المستبينُ الواضحُ، بيَّن سبحانه أنَّ هذه وهذه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٥١٥).

-أي: دِيارَ قَومِ لُوطٍ ودِيارَ أصحابِ الأيكةِ- كلاهما بسبيلٍ للناسِ، يرونَها بأبصارِهم، فيعلمونَ بذلك ما فعَل الله بمن كذَّب رسلَه وعصاهم. ودلالةُ نصرِ الله المؤمنينَ، وانتقامِه مِن الكافرين على صدقِ الأنبياءِ مِن جنسِ دلالةِ الآياتِ والمعجزاتِ على صدقِهم، فكونُ هذا فُعِل لأجلِ هذا، وكونُ ذاك سببَ هذا هو مما يُعلم بالاضطرارِ عندَ تصورِ الأمرِ على ما هو عليه، كانقلابِ العصا حيةً عقبَ سؤالِ فرعونَ الآيةَ، وانشقاقِ القمرِ عندَ سؤالِ مشركي مكةَ آيةً، وأمثالِ ذلك[١].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهم إنَّما كَذَّبوا صالِحًا وَحدَه؛ لأنَّ من كذَّبَ نبيًّا فقد كذَّبَ الأنبياءَ- صلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم- لأنَّهم على دينٍ واحدٍ، ولا يجوزُ التَّفريقُ بينهم[٢]. وقيل: إنَّ تَعريفَ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ للجِنْسِ؛ فيَصدُقُ بالواحدِ؛ إذ المُرادُ أنَّهم كَذَّبوا صالحًا عليه السَّلامُ؛ فهو كقولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٣] [الشعراء: ١٠٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أضاف الآياتِ إليهم -وإن كانت لنَبيِّهم صالحٍ عليه السَّلامُ- لأنَّه مُرسَلٌ مِن رَبِّهم إليهم بهذه الآياتِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ...﴾ الآياتِ، عَطْفُ قِصَّةٍ

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٤٨٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢١٠).

على قِصَّةٍ؛ لِمَا في كِلْتَيهما مِن الموعظةِ، وذِكْرُ هاتينِ القِصَّتينِ المَعطوفتينِ: تكميلٌ وإدماجٌ؛ إذ لا علاقةَ بينهما وبين ما قبْلَهما مِن قِصَّةِ إبراهيمَ والملائكةِ. وخُصَّ بالذِّكْرِ أصحابُ الأيكةِ وأصحابُ الحِجْرِ؛ لأنَّهم مثْلُ قَومِ لُوطٍ؛ لأنَّ أهْلَ مكَّةَ يُشاهِدونَ دِيارَ هذه الأُمَمِ الثَّلاثِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾ فيه تَهكُّمٌ بهم؛ والفاءُ لتَرتيبِ عدَمِ الإغناءِ الخاصِّ بوقْتِ نُزولِ العذابِ حَسْبما كانوا يَرْجونَه لا عدَمِ الإغناءِ المُطلَقِ؛ فإنَّه أمْرٌ مُستمِرٌّ[٢]. وتَحْتَمِلُ (ما) الاستفهامَ المُرادَ منه التَّعجُّبُ[٣].

- وقولُه: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بصِيغَةِ المُضارعِ: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾؛ لدِلالتِها على التَّكرُّرِ والتَّجدُّدِ المُكَنَّى به عن إتْقانِ الصَّنعةِ، وبذلك كان مَوقِعُ الموصولِ والصِّلةِ أبلَغَ مِن مَوقِعِ لفْظِ (بُيوتِهم) مثلًا؛ ليدُلَّ على أنَّ الَّذي لم يُغْنِ عنهم شَيءٌ مُتَّخَذٌ للإغناءِ ومِن شأْنِه ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٠-٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٣).

وهذا الوجهُ بناءً على القولِ بأنَّ المرادَ بقوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: ما كانوا يَصْنعون، أي: البُيوتُ التي عُنُوا بتَحصينِها وتَحسينِها.

الآيات (٨٥-٩٩)

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَٱصْفَحِ﴾: أي: فأَعْرِضْ، والصَّفحُ: ترْكُ التَّثريبِ واللَّومِ، والإِعراضُ عن الذَّنبِ؛ لأنَّه إذا أعرض عنه فكأنَّه قد ولَّاه صَفْحتَه، أي: عُرْضَه وجانِبَه، وأصلُ الصَّفحِ: عرضُ الشَّيءِ وجانبُه[(١)].

﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾: هي سُورةُ الفاتحةِ، وهي سَبعُ آياتٍ، وسُمِّيَت مَثانيَ؛ لأنَّها تُثنَّى -أي: تُكرَّرُ- في كلِّ صلاةٍ، وقيل غير ذلك[(٢)]، وأصلُ (ثني) تكريرُ الشَّيءِ مرَّتينِ، أو جعلُه شيئينِ مُتواليينِ أو متباينينِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/ ٥٣٩).

(٢) سيأتي الخلافُ في معنى (مثاني)، وأسبابِ التسميةِ بذلك مفصَّلًا.

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٣)،

﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾: أي: أصنافًا منهم وأمْثالًا وأشبَاهًا؛ مِن المُزاوَجةِ بين الأشياءِ، وهي المُشاكَلةُ، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[١].

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾: أي: ألِنْ جانِبَك، واسْكُنْ لهم، وارفُقْ بهم، وجَناحُ الإنسانِ: جانِبُه، وأصلُ (جنح): يدُلُّ على المَيلِ؛ وسُمِّيَ الجناحانِ جَناحَينِ؛ لِمَيلهما في الشِّقَّينِ[٢].

﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾: أي: الذين تقَسَّمَت أقوالُهم في القُرآنِ، فقال بعضُهم: سِحرٌ، وقال بعضُهم: كِهانةٌ، وقال بعضُهم: أساطيرُ الأوَّلينَ، وأصلُ (قسم): يدلُّ على تجزئةِ شَيءٍ[٣].

﴿عِضِينَ﴾: أي: مُفَرَّقًا؛ لأنَّ المُشرِكينَ فرَّقوا أقاويلَهم فيه، فجعلوه كَذِبًا وسِحرًا وكِهانةً وشِعرًا؛ من عَضَّيتُ الشَّيءَ تعضيةً: أي: فَرَّقتَه، وأصلُ (عضو): يدلُّ على تجزئةِ الشَّيءِ[٤].

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ٣٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٥)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٣/ ٤٤)، ((الصحاح))

﴿فَٱصۡدَعۡ﴾: أي: فاجهَرْ وأظهِرْ، وأصلُ (صدع): يدلُّ على انفراجٍ في الشَّيءِ[(١)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بينهما إلَّا بالحَقِّ، وإنَّ يومَ القِيامةِ لآتٍ لا محالةَ؛ لتُجزَى كلُّ نَفسٍ ما عَمِلَت، فاصفَحْ- يا محمَّدُ- عن المُشرِكينَ، وتجاوَزْ عمَّا يَفعَلونَه. إنَّ ربَّك هو الخلَّاقُ لكُلِّ شَيءٍ، العَليمُ به.

ولقد أعطيناك -يا محمَّدُ- فاتحةَ القُرآنِ، وهي سَبعُ آياتٍ مِن المثاني، وهي القرآنُ العَظيمُ القَدْرِ. لا تنظُرْ بعَينَيك وتتمَنَّ ما مَتَّعْنا به أصنافًا مِن الكُفَّارِ، ولا تَحزَنْ على كُفرِهم، وتواضَعْ للمُؤمِنينَ وارفُقْ بهم. وقلْ للمُشرِكينَ: إنِّي أنا المُنذِرُ البَيِّنُ النِّذارةِ؛ أن يُصيبَكم عَذابٌ مِثلُ العذابِ الذي أنزَلَه اللهُ على الذين قسَّموا القُرآنَ، فجَعَلوه أقسامًا وأجزاءً؛ فمنهم من يقولُ: سِحرٌ، ومنهم من يقول: كِهَانةٌ، ومنهم من يقولُ غيرَ ذلك.

فورَبِّك -يا محمدُ- لنسألنَّهم يومَ القيامةِ أجمعينَ، عما كانوا يَعمَلونَه في الدنيا. فاجهَرْ بدَعوةِ الحَقِّ التي أمَرَك اللهُ بها، ولا تهتمَّ بالمُشرِكينَ؛ واكفُفْ عن قِتالِهم، إنَّا كَفَيناك المُستَهزِئينَ الذين اتَّخَذوا شَريكًا مع اللهِ في عبادتِه، فسوف يَعلَمونَ ما يَلقَونَ مِن العذابِ يومَ القيامةِ. ولقد نعلَمُ ضِيقَ صَدرِك؛ بسبَبِ تكذيبِ قَومِك واستهزائِهم، فنَزِّهْ ربَّك عن كلِّ ما لا يليقُ به متلبِّسًا بحَمدِه، وكُنْ

للجوهري (٦/ ٢٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣١).

مِن المصَلِّينَ لله العابدينَ له، واستمِرَّ في عبادةِ رَبِّك حتى يأتيَك الموتُ وأنت على ذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّه أنزل العذابَ على الأُمَم السَّالفةِ، فعندَ هذا قال لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾، وإنَّ اللهَ لَينتَقِمُ لك فيها مِن أعدائِك، ويُجازيك وإيَّاهم على حَسناتِك وسَيِّئاتِهم؛ فإنَّه ما خلقَ السَّمواتِ والأرضَ وما بينهما إلَّا بالحَقِّ والعَدلِ والإنصافِ، فكيف يَليقُ بحِكمتِه إهمالُ أمْرِك[1]؟!

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: وما خَلَقْنا السَّمواتِ والأرضَ وما فيهما وما بينَهما إلَّا لحِكَمٍ ومَصالِحَ عَظيمةٍ، لا عبثًا وباطِلًا، وخلَقهما سبحانَه بالعدلِ لا بالظلمِ والجورِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٢).

بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ * وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وقال سُبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا صبَّرَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أذَى قَومِه، رغَّبَه بعدَ ذلك في الصَّفحِ عن سيِّئاتِهم بقَولِه تعالى[1]:

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾.

أي: وإنَّ يومَ القيامةِ لآتٍ وواقِعٌ لا ريبَ فيه؛ وفيه يُجازَونَ بأعمالِهم، ومِنهم مُشرِكو قَومِك الذين كذَّبوك وآذَوك؛ فأعرِضْ -يا محمَّدُ- عن مؤاخَذتِهم في

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢١٠).

الدُّنيا، واعفُ عنهم عَفوًا حَسَنًا مِن غَيرِ عِتابٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ * فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٨-٨٩].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- قادِرٌ على إقامةِ السَّاعةِ؛ لأنَّه هو الذي خلقَ كُلَّ شَيءٍ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ، وسيُعيدُ خَلقَ عِبادِه يومَ البَعثِ، وهو العالِمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما تفَرَّق من أجسادِ العبادِ، وعِلمُه بجميعِ أعمالِهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨١-٨٢].

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا صبَّرَ اللهُ تعالى نبيَّه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- على أذى قَومِه، وأمَرَه بأن يصفَحَ الصَّفحَ الجميلَ؛ أتبعَ ذلك بذِكرِ النِّعَمِ العظيمةِ التي خَصَّه اللهُ تعالى بها؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٣). قال ابنُ كثير: (قال مجاهدٌ وقتادةُ وغيرهما: كان هذا قبلَ القِتالِ. وهو كما قالا؛ فإنَّ هذه مكيَّةٌ، والقتالُ إنَّما شُرِع بعدَ الهجرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥، ٥٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٤).

لأنَّ الإنسانَ إذا تذكَّرَ كَثرةَ نِعَمِ الله عليه، سَهُلَ عليه الصَّفحُ والتَّجاوُزُ(١).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ صِفةَ العِلمِ بصيغةِ المُبالغة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، أتبعَها ما آتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذه الدَّارِ من مادةِ العِلمِ بصيغةِ العَظَمةِ، فقال(٢):

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: ولقد أعطَيناك -يا محمَّدُ- سبعَ آياتٍ؛ هي سُورةُ الفاتحةِ التي تتَّصِفُ بأنَّها مَثانٍ(٣)، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٨٥).

(٣) وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾: الفاتحة: الواحدي، والقرطبي، والبقاعي، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٥).

ونسَب الواحديُّ والشوكاني هذا القولَ إلى أكثرِ المفسرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٠).

قال الشوكاني: (ومما يُقوِّي كونَ السَّبعِ المثاني هي الفاتحةَ: أنَّ هذه السورةَ مكيَّةٌ، وأكثَرُ السَّبعِ الطِّوال مدنيةٌ، وكذلك أكثرُ القرآن وأكثرُ أقسامِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٠).

وقال القرطبي: (وقد قدَّمنا في الفاتحةِ أنَّه ليس في تسميتِها بالمثاني ما يمنعُ مِن تسميةِ غيرِها بذلك، إلَّا أنَّه إذا ورَد عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وثبَت عنه نصٌّ في شيءٍ لا يَحتمِلُ التأويلَ؛ كان الوقوفُ عندَه). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٥).

وهذا النصُّ هو قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أُمُّ القرآنِ هي السَّبعُ المثاني والقرآنُ الْعَظِيمُ)).

قال ابنُ كثير: (فهذا نصٌّ في أنَّ الفاتحةَ السَّبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ، ولكن لا يُنافي وصفَ غَيرِها من السَّبعِ الطُّوَلِ بذلك؛ لِما فيها من هذه الصِّفة، كما لا ينافي وصفَ القرآنِ بكماله بذلك أيضًا، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] فهو مَثانٍ مِن وجهٍ، ومتشابهٌ من وجه، وهو القرآنُ العظيم أيضًا، كما أنَّه - عليه السَّلامُ- لَمَّا سُئِل عن المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى، فأشار إلى مسجِدِه، والآيةُ نزلتْ في مسجدِ قُباء، فلا

تَنافيَ؛ فإنَّ ذِكرَ الشَّيءِ لا ينفي ذِكرَ ما عداه إذا اشتركَا في تلك الصفةِ، والله أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٧-٥٤٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عليٌّ، وابنُ مسعود، وابنُ عباس، وأبيُّ بنُ كعبٍ، والحسنُ، وأبو العالية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١١٣: ١١٦).

وفي سببِ اتصافِ الفاتحةِ بكونِها مثانيَ أقوالٌ:

منها: أنَّها تُثنَّى في كلِّ صلاةٍ، أي: تُقرَأُ في كلِّ ركعةٍ. وممن قال بذلك: الواحديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، والحسنُ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤٢).

ومنها: اشتمالُها على الثناءِ على الله تعالى.

ومنها: أنها قسمان: ثناءٌ ودعاءٌ، وأيضًا النصفُ الأوَّلُ منها حقُّ الربوبيةِ وهو الثناءُ، والنصفُ الثاني حقُّ العبوديةِ، وهو الدعاءُ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٨٥-٨٦).

وقيل: المرادُ بالسبعِ المثاني: السَّبعُ الطِّوالُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ في روايةٍ، وابنُ جبيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٧٢).

قال محمد رشيد رضا: (والقولُ بأنَّها السبعُ الطُّوَلُ، رواه النَّسائي والطَّبَريُّ والحاكِمُ عن ابن عباسٍ بإسنادٍ قويٍّ، كما قال الحافظ. ولا حاجةَ إلى التفصيلِ فيه؛ فإنه مردودٌ؛ لِمخالفتِه للحديثِ الصحيحِ المرفوعِ، ولا قولَ لأحدٍ [مع] قولِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير المنار)) (١/ ٨٠).

قال ابنُ الجوزي: (في تسميتِها [أي: السبعِ الطوالِ] بالمثاني قولانِ:

أحدهما: لأنَّ الحدودَ والفرائضَ والأمثالَ ثُنيت فيها، قاله ابنُ عباسٍ.

والثاني: لأنَّها تُجاوزُ المائةَ الأولَى إلى المائةِ الثانيةِ، ذكره الماورديُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤٢).

وقيل: المرادُ بالسبعِ: الفاتحةُ؛ لأنَّها سبعُ آياتٍ، والمرادُ بالمثاني: كلُّ القرآنِ، ويكونُ التقديرُ: ولقد آتيناك سبعَ آياتٍ هي الفاتحةُ، وهي مِن جملةِ المثاني الذي هو القرآنُ. قال الرازي: (وهذا

وهي القرآنُ العَظيمُ القَدْرِ(١).

القولُ عينُ الأوَّلِ [أي: تفسيرِ السبعِ المثاني بأنَّها الفاتحةُ]، والتفاوتُ ليس إلَّا بقليلٍ والله أعلم). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢١، ١٢٤).

وقيل: المرادُ بـ﴿سَبْعًا﴾: السبعُ الطوالُ، والمرادُ بالمثاني: القرآنُ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٣).

وفي سببِ تسميةِ القرآنِ بالمثاني أقوالٌ:

منها: أنَّ بعضَ الآياتِ يتلو بعضًا، فتُثنى الآخرةُ على الأولَى، ولها مقاطعُ تفصِلُ الآيةَ بعدَ الآيةِ حتى تنقضيَ السورةُ.

ومنها: أنَّه سُمِّي بالمثاني لما يتردَّدُ فيه مِن الثناءِ على الله عزَّ وجلَّ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٤).

وكلمةُ (من) في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ لبيانِ الجنسِ، وقيل: للتبعيضِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٣).

(١) وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالقرآنِ العظيمِ هنا: الفاتحةُ أيضًا: القرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٥).

قال الشنقيطي: (قيل لها: «القرآنُ العظيمُ»؛ لأنَّها هي أعظمُ سورةٍ؛ كما ثبَت عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديثِ الصحيحِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣١٥).

وقال القرطبي: (لاشتمالِها على ما يتعلَّقُ بأصولِ الإسلامِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٥).

وقال الخطَّابي في شرحِ حديثِ ((هي السَّبعُ المثاني والقرآنُ العظيم)): (وفيه بيانُ: أنَّها القرآنُ العظيمُ، وأنَّ الواوَ في هذه الآيةِ ليست بواوِ العطفِ الموجِبةِ الفصلَ بينَ الشيئينِ، وإنَّما هي الواوُ التي تجيءُ بمعنى التخصيصِ والتفضيلِ، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، وكقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] ونحو ذلك). ((أعلام الحديث)) (٣/ ١٧٩٨).

وقيل: القرآنُ العظيم مرادٌ به جميعُ القرآنِ. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨١).

قال الزمخشري: (فإن قلتَ: كيف صحَّ عطفُ القرآنِ العظيم على السَّبعِ؟ وهل هو إلَّا عطفُ الشيءِ على نفسِه؟! قلتُ: إذا عُنِيَ بالسَّبع الفاتحةُ أو الطوالُ فمَا وراءهنَّ ينطلِقُ عليه اسمُ

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أمُّ القُرآنِ هي السَّبعُ المَثاني، والقُرآنُ العَظيمُ))(١).

وعن أبي سَعيدِ بنِ المُعلَّى رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنتُ أصلِّي في المسجِدِ، فدعاني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلم أُجِبْه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنِّي كنتُ أصَلِّي، فقال: ألم يَقُل اللهُ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟! ثم قالَ لي: لأعَلِّمَنَّك سورةً هي أعظَمُ السُّوَرِ في القُرآنِ قبل أن تخرُجَ مِن المسجِدِ، ثمَّ أخذَ بيدي، فلمَّا أراد أن يخرُجَ قُلتُ له: ألم تقُلْ: لأعَلِّمَنَّك سورةً هي أعظَمُ سورةٍ في القُرآنِ؟ قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هي السَّبعُ المثاني، والقُرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه))(٢).

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا عرَّف رسولَه عِظَمَ نِعَمِه عليه فيما يتعَلَّقُ بالدِّينِ -وهو أنَّه آتاه سبعًا مِن المَثاني والقُرآنَ العظيمَ- نهاه عن الرَّغبةِ في الدُّنيا، فحظَرَ عليه أن يمُدَّ عَينَيه إليها رغبةً فيها(٣).

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

القرآن؛ لأنَّه اسمٌ يقعُ على البعضِ كما يقعُ على الكلِّ، ألا ترَى إلى قولِه: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ يعني سورةَ يوسفَ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٩). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٦).

(١) رواه البخاري (٤٧٠٤).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦١).

أي: لا تَنظُرَنَّ -يا محمَّدُ- وتتطلَّعَنَّ إلى نعيمِ الدُّنيا الَّذي متَّعْنا به أصنافًا مِن الأغنياءِ مِن قَومِك، الذين لا يُؤمِنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ، ولا تتمَنَّاه، واستغنِ بما آتاك اللهُ مِن القرآنِ عمَّا هم فيه مِن المَتاعِ الفاني؛ فقد أُوتيتَ تلك النِّعمةَ العُظمَى، التي كلُّ نِعمةٍ أُخرَى وإن عَظُمَت، فهي حقيرةٌ في جانِبِها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ولا تَحزَنْ على الكُفَّارِ أنَّهم لم يُؤمِنوا، فقَدْ بَلَّغْتَ رسالةَ ربِّك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٣٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٦، ٥٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٤٤).

قال الواحدي: (المرادُ بنَهيِه- صلَّى الله عليه وسلَّم- من مدِّ العَينِ: نهيُه عن التطلُّعِ إليه رغبةً فيه، وإنما يكون مادًّا عينيه إلى الشيءِ: إذا أدام النظرَ نحوَه، وإدامةُ النظرِ إلى الشيء تدلُّ على استحسانِه وتمنِّيه... وقولُه تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ قال الزجاج: أي: أمثالًا في النِّعَم، يعني: أن الأغنياءَ بعضُهم أمثالُ بعضٍ في الغِنى والنِّعمةِ، فهم أزواجٌ. وقال ابنُ قتيبة: أي: أصنافًا منهم، والزوجُ في اللغةِ: الصِّنفُ، يعني أصنافَ الكُفَّارِ مِن المشركينَ واليهودِ وغيرِهم. وقال المفضَّلُ: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: رجالًا ونساءً أغنيناهم، فلا تمدَّنَّ عينيك إلى ما أعطيناهم). ((البسيط)) (١٢/ ٦٥٦- ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨٩)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٦).

وممن قال بأنَّ المعنى: لا تحزَنْ عليهم لعدمِ إيمانِهم: الزمخشري، والرازي، وابنُ كثير، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الشنقيطي: (الصحيحُ في معنَى هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّ اللَّهَ نهَى نبيَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم عن الحزنِ على الكفَّارِ إذا امْتَنَعوا مِن قبولِ الإسلامِ. ويدُلُّ لذلك كثرةُ وُرودِ هذا المعنَى في القرآنِ

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣-٢٤].

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وألِنْ جانِبَك للمُؤمنينَ، وارفُقْ بهم، وتواضَعْ لهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وقال سُبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ

العظيم، كقولِه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقولِه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقولِه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقولِه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقولِه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ. ((أضواء البيان)) (٢/ ٣١٦).

وقال البقاعي: (﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لكونِهم لم يُؤمنوا؛ فيخلِّصوا أنفسَهم مِن النارِ، ويقوَى بهم جانبُ الإسلامِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٨٨).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المعنى: ولا تحزَنْ على ما مُتِّعُوا به فعُجِّلَ لهم؛ فإنَّ لك في الآخرةِ ما هو خيرٌ منه، معَ الذي قد عجَّلْنا لك في الدنيا مِن الكرامةِ، بإعطائِنا السبعَ المثانيَ والقرآنَ العظيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٦-١٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٦).

حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ٨٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بألَّا يَحزَنَ على مَن لم يُؤمِنْ، وأمَرَه بخَفضِ جَناحِه للمُؤمِنينَ؛ أمَرَه أن يُعلِمَ المؤمنينَ وغَيرَهم أنَّه هو النَّذيرُ المُبينُ؛ لئلَّا يظُنَّ المؤمِنونَ أنَّهم لَمَّا أُمِرَ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بخَفضِ جَناحِه لهم، خَرَجوا مِن عُهدةِ النِّذارةِ، فأمَرَه تعالى بأن يقولَ لهم[1]:

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ٨٩﴾.

أي: وقُلْ- يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنِّي أنا النَّذيرُ الذي قد أبان إنذارَه، وأظهَرَ الحَقَّ لكم، أُنذِرُكم عذابَ اللهِ إن لم تُؤمِنوا به[2].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥- ٤٦].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلي ومثَلُ ما بعَثَني اللهُ، كمَثَلِ رجُلٍ أتَى قومًا، فقال: رأيتُ الجيشَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٥٢)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦٤).

قال الرازي: (أَمرَه بأنْ يَقولَ لِلقومِ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ فيدخلُ تحتَ كونِه نذيرًا، كونُه مُبَلِّغًا لجميعِ التَّكاليفِ؛ لأنَّ كلَّ ما كان واجبًا ترتَّبَ على تركِه عقابٌ، وكلَّ ما كانَ حرامًا ترتَّبَ على فعلِه عقابٌ، فكانَ الإخبارُ بحصولِ هذا العقابِ داخِلًا تحتَ لفظِ النَّذيرِ، ويدخلُ تحتَه أيضًا كونُه شارِحًا لمراتبِ الثَّوابِ والعقابِ والجنَّةِ والنَّارِ، ثمَّ أردفَه بكونِه مُبينًا، ومعناه كونُه آتيًا في كلِّ ذلك بالبياناتِ الشَّافيةِ والبيِّناتِ الوافيةِ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦٢).

بِعَيْنَيَّ، وإنِّي أنا النَّذيرُ العُريانُ[١]، فالنَّجاءَ النَّجاءَ[٢]، فأطاعَته طائِفةٌ فأَدلَجوا[٣] على مَهَلِهم[٤] فنَجَوا، وكذَّبَته طائفةٌ فصَبَّحَهم الجيشُ[٥] فاجتاحَهم[٦]))[٧].

﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠﴾.

أي: وأنذِرْ قومَك عذابًا مثلَ العذابِ[٨] الذي نزلَ على الذين اقْتَسَموا

---

(١) النذيرُ العُريان: مثلٌ مَشهورٌ سائِرٌ بين العرَبِ، يُضرَبُ لشِدَّةِ الأمرِ، ودنُوِّ المحذورِ، وبراءةِ المُحَذِّرِ عن التُّهمةِ، وأصلُه: أنَّ الرجُلَ إذا رأى العدُوَّ قد هجَم على قَومِه، وأراد أن يفاجِئَهم وكان يخشى لُحوقَهم قبل لُحوقِه، تجَرَّدَ عن ثوبِه وجعلَه على رأسِ خَشَبةٍ وصاح؛ ليأخُذوا حِذرَهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣١).

(٢) فالنَّجاءَ النَّجاءَ: أَيِ: اطلُبوا النَّجاةَ بأن تُسرِعوا الهَرَب. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣١٧).

(٣) فأدلجوا: أي: سارُوا أوَّلَ الليَّلِ، أو ساروا اللَّيلَ كُلَّه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣١).

(٤) على مَهَلِهم: المَهَلُ: الهِينةُ والسُّكونُ والتأنِّي. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣١).

(٥) فصَبَّحهم الجَيشُ: أي: أتاهم جيشُ العَدُوِّ صَباحًا للإغارةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣١).

(٦) فاجتاحهم: أي: استأصَلَهم وأهلَكَهم بالكُلِّيَّةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣١).

(٧) رواه البخاري (٦٤٨٢) واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٣).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المشبَّهَ به هو العذابُ: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ عطية، والقرطبي، وابنُ كثير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

قال الرسعني: (اختلفوا في متعلَّقِ الكافِ في قولِه: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾، فقال قومٌ:

القرآنَ[١].

هي متعلِّقةٌ بقَولِه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ ﴾ فإنْ أريدَ بالمُقتسمينَ اليهودُ والنصارى، فالمعنى: ولقد أنزَلْنا عليك سبعًا مِن المثاني مثلَ ما أنزَلْنا على المقتَسِمين أهلِ الكتابِ. وهذا معنى قولِ مقاتلٍ. وإن أريدَ به كُفَّارُ قُريشٍ، فالمعنى: ولقد شرَّفْناك وكرَّمْناك وأنعَمْنا عليك بالسَّبعِ المثاني والقرآنِ العظيمِ مِثلَ ما شرَّفناك وأنعَمْنا عليك بما أنزَلْنا على أعدائِك المُقتَسِمين من العذابِ، حيثُ انتقَمْنا لك منهم. وإن أريدَ بهم قومُ صالحٍ، كان المعنى: ولقد كرَّمْناك وأيَّدْناك بإنزالِ السَّبعِ والقرآنِ عليك كما كرَّمْنا صالِحًا بإنزالِ العذابِ على المُقتَسِمين عليه.

وقال قومٌ: هي متعلِّقةٌ بقولِه: ﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾ فإن أريدَ بالمقتسمين أهلُ الكتابِ أو قومُ صالحٍ، فالمعنى: قُلْ لكُفَّارِ قريش: إني أنا النذيرُ، أنذِرُكم عذابًا مِثلَ ما أُنزِل على المُقتَسمين. وقال بعضُهم: هو ما جرى على قُرَيظةَ والنَّضيرِ، فجَعَل المتوقَّعَ بمنزلة الواقعِ، وهو من الإعجازِ؛ لأنَّه إخبارٌ بما سيكون، وقد كان، وعذابُ قُريشٍ هو ما أصاب المُستهزِئين... وما أصابهم يومَ بدرٍ وغيرَه، وعذابُ قومِ صالحٍ مذكورٌ في سورة النملِ.

وقال الواحدي: يجوزُ أن يكونَ المعنى: أنِّي أنذِرُكم ما أنزَلْنا، فتكونُ الكافُ زائدةً). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٦٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٨).

ممن اختار أنَّ كلمةَ ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ مأخوذةٌ مِن القِسمةِ: ابنُ جريرٍ الطبريُّ، والواحدي، وابنُ حجرٍ، والشنقيطي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٥).

قال ابنُ حجرٍ: (والمعروفُ أنَّه مِن القِسْمَةِ، وبه جَزَم الطَّبريُّ وغيرُه، وسِياقُ الكلامِ يدُلُّ عليه). ((فتح الباري)) (٨/ ٣٨٣).

واختلَف المفسِّرونَ في مَن أُريدَ بـ ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ -بناءً على هذا المعنى المذكورِ- على أقوالٍ:

منها: أنَّهم جماعةٌ من كفَّارِ مكَّةَ اقتسموا القرآنَ بأقوالِهم الكاذبةِ، فقال بعضُهم: هو شِعرٌ، وقال بعضُهم: هو سِحرٌ، وقال بعضُهم: كهانةٌ، وقال بعضُهم: أساطيرُ الأوَّلينَ، وقال بعضُهم: اختلَقه محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلم. ومال إلى هذا القولِ واستظهره الشنقيطي. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٢/ ٣١٧).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥١).

وقيل: هم الذين اقتسَموا طرقَ مكَّةَ يصدُّون الناسَ عن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والإيمانِ به. وهو قولُ السمعاني، والواحدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٨).

قال السمعاني: (ومعنَى الاقتسامِ: أنَّهم اقْتَسموا طرقَ مَكَّةَ، وهذا قولٌ معروفٌ، ذكَره مجاهدٌ وقتادةُ وغيرُهما). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٥٣).

وممن اختار أنَّ ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ مأخوذٌ مِن القَسَمِ: ابنُ قتيبةَ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

واختلف المفسِّرون في المرادِ بهم بناءً على هذا القولِ، فقيل: إنَّهم قومُ صالحٍ الذين ﴿تَقَاسَمُوا بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩]، فكفاه الله شرَّهم، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٥).

ورجَّح ابنُ جريرٍ العمومَ فقال: (الصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: إنَّ اللهَ تعالى أمَرَ نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يُعلِمَ قومَه الذين عَضَوُا القرآنَ ففرَّقوه أنَّه نذيرٌ لهم من سَخَطِ الله تعالى وعقوبتِه؛ أن يحُلَّ بهم على كُفرِهم ربَّهم وتكذيبِهم نبيَّهم ما حَلَّ بالمقتسمينَ مِن قبلِهم ومنهم، وجائزٌ أن يكون عُنِي بالمقتسمين: أهلُ الكتابين: التوراةِ والإنجيل؛ لأنَّهم اقتسموا كتابَ الله، فأقَرَّت اليهودُ ببعضِ التوراةِ، وكذَّبت ببعضها، وكذَّبت بالإنجيلِ والفرقانِ، وأقرَّت النصارى ببعضِ الإنجيلِ وكذَّبت ببعضِه وبالفرقانِ، وجائزٌ أن يكون عُني بذلك: المشركون مِن قريش؛ لأنَّهم اقتسموا القرآنَ، فسمَّاه بعضُهم شِعرًا، وبعضٌ كهانةً، وبعضٌ أساطيرَ الأولينَ، وجائزٌ أن يكون عُنِي به الفريقان، وممكنٌ أن يكونَ عُني به المقتسِمون على صالحٍ مِن قومِه، فإذ لم يكن في التنزيلِ دَلالةٌ على أنَّه عُني به أحدُ الفِرَق الثلاثة دونَ الآخَرينَ، ولا في خبَرٍ عن الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلم، ولا في فطرةِ عقلٍ، وكان ظاهِرُ الآيةِ مُحتَمِلًا ما وصفتُ- وجب أن يكون مقتضيًا بأنَّ كُلَّ من اقتسم كتابًا لله بتكذيبِ بَعضٍ وتصديقِ بعضٍ، واقتسم على معصية الله ممَّن حلَّ به عاجلُ نقمةِ الله في الدار الدنيا قبل نزول هذه الآية- فداخِلٌ في ذلك؛ لأنَّهم لأشكالِهم من أهلِ الكفرِ بالله كانوا عبرةً، وللمتَّعظين بهم منهم عِظةً). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٣-١٣٤).

.[١٣

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾.

الذين[(١)] فرَّقوا القرآنَ[(٢)] أجزاءً، وافتروا عليه الباطلَ؛ فقال بعضُهم: هو شعرٌ،

---

(١) ممن اختار أنَّ هذه صفةُ المقتسمينَ: القرطبي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٥).

وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ جملةٌ منفصلةٌ عمَّا قبلَها. على معنى إنذارِ الذين جعَلوا القرآنَ عضينَ بعذابٍ مثل الذي نزَل بالمقتسمينَ. وممن قال بهذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٨).

وقيل: هو مبتدأٌ، خبرُه ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: مِن التقسيمِ فنجازيهم عليه. وممن قال بهذا: القاسمي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٤٥).

(٢) قال ابنُ الجوزي: (قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ في المرادِ بالقرآنِ قولانِ: أحدهما: أنَّه كتابُنا، وهو الأظهرُ، وعليه الجمهورُ. والثاني: أنَّ المرادَ به: كتبُ المتقدمينَ قبلَنا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤٤).

وقال ابنُ عاشور: (والقرآنُ هنا يجوزُ أن يكونَ المرادُ به الاسمَ المجعولَ علمًا لكتابِ الإسلامِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ به الكتابَ المقروءَ، فيصدقُ بالتوراةِ والإنجيلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٥).

وقال أيضًا: (والمقتَسِمون يجوزُ أن يُرادَ بهم جمعٌ مِن المشركينَ مِن قريش...، فيكون المرادُ بالقرآنِ مسمَّى هذا الاسمِ العَلَمِ، وهو كتابُ الإسلامِ، ويجوزُ أن يرادَ بهم طوائِفُ أهل الكتابِ قَسَّموا كتابَهم أقسامًا، منها ما أظهروه، ومنها ما أُنسوه، فيكونُ القرآنُ مصدرًا أُطلِق بمعناه اللغويِّ، أي: المقروءِ من كُتُبِهم، أو قسَّموا كتابَ الإسلام، منه ما صدَّقوا به، وهو ما وافق دينَهم، ومنه ما كذَّبوا به، وهو ما خالف ما هم عليه... وعلى الوجهينِ المتقدِّمين في المرادِ مِن القرآنِ في هذه الآيةِ، فالمقتسمون الذين جعلوا القرآنَ عِضينَ: هم أهلُ الكتابِ؛ اليهود والنصارى، فهم جحدوا بعضَ ما أُنزل إليهم من القرآن، أُطلق على كتابِهم القرآنُ؛ لأنَّه كتابٌ مقروءٌ، فأظهروا بعضًا وكتموا بعضًا؛ قال الله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١] فكانوا فيما كتَموه شبيهينَ بالمُشركين فيما رفَضوه مِن القرآن المنَزَّل على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهم أيضًا جعلوا القرآنَ المنَزَّلَ على محمد صلَّى الله عليه وسلَّم عِضينَ،

وقال بعضُهم: هو سحرٌ، وقال بعضُهم: هو كهانةٌ، وقال بعضُهم: هو أساطيرُ الأولينَ[(١)].

فصَدَّقوا بعضَه، وهو ما وافق أحوالَهم، وكذَّبوا بعضَه المخالفَ لأهوائِهم، مِثلُ نَسخِ شريعتِهم، وإبطالِ بُنُوَّةِ عيسَى لله تعالى، فكانوا إذا سألهم المشركون: هل القرآنُ صِدقٌ؟ قالوا: بعضُه صِدقٌ، وبعضُه كَذِبٌ، فأشبه اختلافُهم اختلافَ المشركينَ في وصفِ القرآنِ بأوصافٍ مختلفةٍ، كقولِهم: أساطيرُ الأولينَ، و: قولُ كاهنٍ، و: قولُ شاعرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٥-٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٨، ١٣٩)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ٤٦٣)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٣٨١)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

وممن قال بهذا المعنى: ابنُ جريرٍ، وابنُ تيميةَ، وابنُ القيمِ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٥).

ولابنِ تيميةَ تفسيرٌ آخرُ، فقال: (قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١] أي: قسَّموه فآمنوا ببعضِه وكفروا ببعضِه). ((بيان تلبيس الجهمية)) (١/ ٢٥٩)، واختاره ابنُ كثير في ((تفسيره)) (٤/ ٥٤٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٩).

وقال البقاعي: (لَمَّا ذَكَر ما التحم بقصَّةِ أصحابِ الحِجرِ المقتسمينَ على قَتلِ رسولِهم، وختَمَه بالإنذارِ الذي هم أهلُه؛ عاد إلى تتميمِ أمرِهم، فشَبَّههم بمن كذَّب مِن هذه الأمةِ، فقال: ﴿كَمَآ﴾ أي: كذَّب أولئك وآتيناهم آياتِنا، فأعرضوا عنها، ففعَلْنا بهم مِن العذابِ ما هم أهلُه مثلَ ما ﴿أَنزَلْنَا﴾ أي بعظمتِنا مِن الآياتِ ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ أي: مثلِهم مِن قريشٍ؛ حيث اقتَسَموا شِعابَ مكةَ، ينفِّرون الناسَ عنك، ويفرِّقون القولَ في القرآنِ، فلا تأسَ عليهم لتكذيبِهم وعنادهم مع رؤيتِهم الآياتِ البيِّناتِ؛ فإنَّ سُنَّتَنا جرت بذلك فيمَن أردنا شِقوتَه، كقومِ صالحٍ، ثمَّ قال: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أي: مع أنهم تقاسموا على قتلِك، واقتسموا طرقَ مكَّةَ للتنفيرِ عنك ﴿جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ﴾ بأقوالهم ﴿عِضِينَ﴾ أي: قسَّموا القولَ فيه... فقالوا: سِحر، وقالوا: شِعر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطيرُ الأولين، وغيرَ ذلك، أنزلنا عليهم آياتِنا البيناتِ، وأدلَّتَنا الواضحاتِ، فأعرضوا عنها واشتغلوا بما لا ينفعُهم من التعنُّتِ وغيرِه، دأبَ أولئك؛ فليرتقبوا مِثلَ ما حَلَّ بهم، ومِثلُهم كلُّ من تكلَّمَ في القرآنِ بمِثلِ ذلك ممَّا لا ينبغي، مِن العربِ وغيرِهم). ((نظم الدرر)) (١١/ ٨٩-٩٠).

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما قال: (هم أهلُ الكتابِ؛ جَزَّؤوه أجزاءً، فآمَنوا ببَعضِه، وكَفَروا ببعضِه)، يعني: قولَ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾[1].

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

أي: فأُقسِمُ برَبِّك -يا مُحمَّدُ- لنسألَنَّهم يومَ القيامةِ أجمعين[2].

وقال أيضًا: (ويؤيِّدُ أنَّ قولَه: ﴿كَمَآ﴾ راجعٌ إلى قصة صالح ومتعلِّقٌ بها- وإن لم أرَ من سبقني إليه- ذِكرُ الوصفِ الذي به تناسبت الآيتانِ، وهو الاقتسامُ، ثمَّ وصَف المقتسمين بالذين جعلوا القرآنَ عضين؛ لئلَّا يُظَنَّ أنهم الذين تقاسموا في بَياتِ صالحٍ، أي: آتينا أولئك الآياتِ المقتضيةَ للإيمانِ، فما كان منهم إلا التكذيبُ والتقاسمُ، كما أنزلنا على هؤلاء الآياتِ، فما كان منهم إلَّا ذلك، وإنما عبَّرَ في أولئك بـ ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾؛ لأنَّ آياتِهم الناقةُ وولدُها والبئرُ، وهي معطاةٌ محسوسة، لا مُنَزَّلةٌ معقولة، وقال في هؤلاء: ﴿أَنزَلْنَا﴾ إشارةً إلى القرآن الذي هو أعظَمُ الآيات، أو إلى الجميعِ، وغَلَّب عليها القرآنَ؛ لأنَّه أعظمُها، وإلى أنَّهم مُبطِلون في جَحدِهم، وأنَّه لا ينبغي لهم أن يتداخلَهم نوعُ شَكٍّ في أنَّه مُنزَّلٌ؛ لأنَّه أعظَمُ من تلك الآياتِ مع كونِها محسوساتٍ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٩١).

(١) رواه البخاري (٣٩٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٩٤).

قال الرازي: (قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يحتملُ أن يكونَ راجعًا إلى المقتسمينَ الذين جعلوا القرآنَ عضينَ؛ لأنَّ عودَ الضميرِ إلى الأقربِ أولَى، ويكون التقديرُ أنَّه تعالى أقسَم بنفسِه أن يسألَ هؤلاء المقتسمينَ عمَّا كانوا يقولونَه مِن اقتسامِ القرآنِ وعن سائرِ المعاصي، ويحتمِلُ أن يكونَ راجعًا إلى جميعِ المكلفينَ؛ لأنَّ ذكرَهم قد تقدَّم في قولِه: ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩] أي: لجميعِ الخلقِ، وقد تقدَّم ذكرُ المؤمنينَ، وذكرُ الكافرينَ، فيعودُ قولُه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على الكلِّ، ولا معنَى لقولِ مَن يقولُ: إنَّ السؤالَ إنَّما يكونُ عن الكفرِ أو عن الإيمانِ، بل السؤالُ واقعٌ عنهما وعن جميعِ الأعمالِ؛ لأنَّ اللفظَ عامٌّ فيتناولُ الكلَّ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٤٩٤)،

﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

أي: عمَّا كانوا يَعمَلونَه في الدُّنيا [١].

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾.

أي: فاجهَرْ بدينِ اللهِ -الذي أمَرْناك بتبليغِه- وأظْهِرْه علانيةً، وفرِّقْ بين الحَقِّ

((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢١٣).

وممن اختار أنَّ الضميرَ في قوله تعالى: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾ يعودُ إلى المقتسمينَ الذين جعلوا القرآنَ عضينَ: ابنُ جريرٍ، ومكيُّ بنُ أبي طالب، وأبو حيان، والنسفي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٩)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٦/ ٣٩٣٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

وممن اختار أنَّ الضميرَ عامٌّ، يشملُ جميعَ الخلائقِ: ابنُ عطية، والقرطبي، وابنُ كثيرٍ، والنيسابوري، والثعالبي، ومحمد رشيد رضا، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٠)، (٧/ ٤٩٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير الثعالبي)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٧).

وقيل: الضميرُ المقصودُ به: جميعُ أصنافِ الكفرةِ مِن المقتسمينَ وغيرِهم. وممن اختار ذلك: أبو السعود، والألوسي، والقنوجي. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٢٦)، ((تفسير القنوجي)) (٧/ ١٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

قال الشوكاني: (﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدُّنيا مِن الأعمالِ الَّتي يُحاسبونَ عليها ويسألونَ عنها، وقيلَ: إنَّ المرادَ سؤالُهم عن كلمةِ التَّوحيدِ، والعمومُ في ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، يُفيدُ ما هو أوسعُ من ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٢).

والباطلِ حتى تقومَ على النَّاسِ الحُجَّةُ[١].

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

أي: بلِّغْ ما أُنزِلَ إليك من ربِّك، ولا تلتَفِتْ إلى المُشرِكينَ الذين يَصدُّونَك عن تبليغِ دينِ اللهِ، ولا تُبالِ باستِهزائِهم، واكفُفْ عن قِتالِهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٤٢، ١٤٤)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٧٠، ٦٧١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٠)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٨).

وهذه الآيةُ قيل: إنَّها منسوخةٌ بآيةِ السيفِ، وهي قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والشنقيطي، ونسبه ابنُ الجوزي إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٥)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٩٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٤٥).

وقيل: إنها مُحكَمةٌ. وممن قال بذلك: السخاوي، والقنوجي. يُنظر: ((جمال القراء)) للسخاوي (٢/ ٧٤٠)، ((تفسير القنوجي)) (٧/ ٢٠٠).

قال ابن جُزي: (إن كان معناه: أعرِضْ عمَّا يدعونَك إليه أو عن مجادلتِهم، فهو مُحكَم، وإن كان عن قتالِهم وعقابِهم فهو منسوخٌ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٧٢). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٧٣)، ((معترك الأقران)) للسيوطي (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١).

ومن أهلِ العلمِ مَن ذهب إلى أنَّ هذه الآيةَ وغيرَها مِن الآياتِ التي فيها الصَّفحُ والكَفُّ عمَّن لم

كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمل: ١٠].

﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان الصَّدعُ في غايةِ الشِّدَّةِ عليه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لكثرةِ ما يَلقَى مِن الأذَى؛ خَفَّف عنه سُبحانَه بقَولِه مُعَلِّلًا له[1]:

﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾.

أي: إنَّا كَفَيناك الذين يَستهزِئونَ بك وبما جئتَ به، وسنَحفَظُك منهم ونعاقِبُهم؛ فبلِّغْ ما أمَرَك اللهُ ولا تَخشَهم[2].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ

يقاتِلْ من المشركين، ليست منسوخةً بآيةِ السيفِ، وأنَّ آيةَ السيفِ إنَّما يُعملُ بها في حالِ العزَّةِ والقوةِ والمنعةِ للمسلمينَ، وأمَّا آياتُ الموادعةِ والصفحِ والكفِّ فيُعملُ بها في حالِ الضعفِ والعجزِ، وأنَّ الأمرَ موكولٌ إلى وليِّ الأمرِ؛ إن شاء قاتَلَ، وإن شاء كفَّ، وإن شاء قاتلَ قومًا دون قومٍ، على حسبِ القوَّةِ والقدرةِ والمصلحةِ للمسلمينَ. قال ابن باز: (وهذا القولُ أظهرُ وأبينُ في الدليلِ؛ لأنَّ القاعدةَ الأصوليَّةَ أنَّه لا يُصارُ إلى النسخِ إلَّا عند تعذُّرِ الجمعِ بين الأدلَّة، والجمعُ هنا غيرُ متعَذِّر). ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣/ ١٩٤). ويُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

أي: نكفيك هؤلاء المُستَهزِئينَ الذين يتَّخِذونَ مع الله- المستحِقِّ للعبادةِ وَحدَه- شريكًا في عبادتِه يَعبُدونَه معه [(١)].

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: فسوف يعلمونَ -يومَ القيامةِ- ما يَلقَونَ مِن العذابِ[(٢)].

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان الوعيدُ مُؤذِنًا بإمهالِهم قليلًا، كما دلَّ عليه حرفُ التَّنفيسِ في قولِه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾؛ طَمْأنَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه مُطَّلِعٌ على تحرُّجِه مِن أذاهم، وبُهتانِهم من أقوالِ الشِّركِ وأقوالِ الاستهزاءِ، فأمَرَه بالثَّباتِ والتَّفويضِ إلى ربِّه؛ لأنَّ الحِكمةَ في إمهالِهم؛ ولذلك افتُتِحَت الجملةُ بلام القَسَم وحرفِ التَّحقيقِ، فقال تعالى[(٣)]:

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٠-٩١).

أي: وإنَّا لنعلَمُ -يا محمَّدُ- أنَّك يضيقُ صَدرُك؛ بسبَبِ ما تسمَعُه مِن مُشرِكي قَومِك، مِن تكذيبٍ واستهزاءٍ، وطعنٍ في دينِ الله سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال سُبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢].

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

أي: فافزَعْ- فيما نابك مِن أمرٍ تَكرهُه منهم- إلى تنزيهِ رَبِّك عن كُلِّ ما لا يليقُ به تنزيهًا مُتَلَبِّسًا بحَمدِه سُبحانَه، وافزَعْ إلى الصَّلاةِ لِرَبِّك[2].

كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال سُبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢١، ٣٢٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعبادةٍ خاصَّةٍ، تَبِعَه بالعامَّةِ، فقال تعالى[١]:

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩ ﴾.

أي: وتقَرَّبْ إلى رَبِّك على وجهِ الذُّلِّ والخضوعِ والمحبَّةِ له، وداوِمْ على عبادتِه، حتى يأتيَك الموتُ وأنت على ذلك[٢].

كما قال تعالى: ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٤٥-٤٧].

وعن أمِّ العَلاءِ الأنصاريَّةِ رضِيَ اللهُ عنها، ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لَمَّا توفِّيَ عُثمانُ بنُ مَظعونٍ: أمَّا عُثمانُ فقد جاءه -واللهِ- اليَقينُ))[٣].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((مِن خيرِ مَعاشِ النَّاسِ لهم رجلٌ مُمسِكٌ عِنانَ[٤] فَرَسِه في سَبيلِ الله، يطيرُ على مَتنِه[٥]، .....

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٤)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٣، ٣٢٤).

قال ابن القيم: (اليقينُ هاهنا هو الموتُ؛ بإجماعِ أهل التفسير). ((مدارج السالكين)) (١/ ١٢٤).

ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٤١٨).

(٣) رواه البخاري (٢٦٨٧).

(٤) العِنانُ: اللِّجامُ الذي تُمسَكُ به الدَّابَّةُ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٥/ ٤١٤).

(٥) يطيرُ على مَتْنِه: أي: يُسرِعُ راكِبًا على ظَهرِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٦/ ٢٤٥٩).

كلَّما سمِعَ هَيعةً[١] أو فَزعةً طار عليه؛ يبتغي القَتلَ والموتَ مَظانَّه، أو رجلٌ في غُنيمةٍ في رأسِ شَعَفةٍ[٢] مِن هذه الشَّعَفِ، أو بطنِ وادٍ مِن هذه الأوديةِ، يُقيمُ الصَّلاةَ، ويُؤتي الزَّكاةَ، ويَعبُدُ رَبَّه حتى يأتيَه اليقينُ، ليس مِن النَّاسِ إلَّا في خيرٍ))[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ هذا وإن كان خِطابًا للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فالمعنى: نهيُ أمَّتِه عن ذلك؛ لأنَّ مَن أوتيَ القُرآنَ شغلَه النَّظَرُ فيه وامتثالُ تكاليفِه وفَهمُ معانيه عن الاشتغالِ بزهرةِ الدُّنيا[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ الإنسانَ مأمورٌ بالتواضُعِ لإخوانِه، فإنَّه وإن كان رفيعَ المنزلةِ فَليَخفِضْ جناحَه، ولْيتذَلَّلْ ولْيتواضَعْ لإخوانِه، ولْيعلَمْ أنَّ مَن تواضعَ لله رفَعَه الله عزَّ وجلَّ[٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يُفهَمُ مِن دليل خِطابِ الآيةِ الكريمةِ- أعني مفهومَ مُخالفتِها- أنَّ غيرَ المؤمنينَ لا يُخفَضُ لهم الجناحُ، بل يُعامَلونَ بالشِّدَّةِ والغِلظةِ[٦]. فالكافرُ يُترفَّعُ عليه ويُتعالى عليه، ولْيجعَل المسلِمُ نفسَه في موضعٍ أعلى منه؛ لأنَّه مُستمسِكٌ بكَلمةِ اللهِ -وكلمةُ اللهِ هي العُليا-

(١) هَيْعةً: أي: صَيحةً. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٦/ ٢٤٥٩).

(٢) في رأس شَعَفةٍ: أي: رأسِ جَبَلٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٦/ ٢٤٦٠).

(٣) رواه مسلم (١٨٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٦).

(٥) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٥٤٣).

(٦) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٧).

ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ في وصفِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابِه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، يعني: أنَّهم على الكُفَّارِ أقوياءُ ذَوو غِلظةٍ، أمَّا فيما بينهم فهم رُحَماءُ(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ في ترتيبِه -جلَّ وعلا- الأمرَ بالتَّسبيحِ والسُّجودِ على ضِيقِ صَدرِه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بسبَبِ ما يقولونَ له مِن السُّوءِ؛ دليلٌ على أنَّ الصَّلاةَ والتَّسبيحَ سبَبٌ لزوالِ ذلك المكروهِ؛ ولذا كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا حَزَبَه أمرٌ بادرَ إلى الصلاةِ، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، فينبغي للمُسلمِ إذا أصابه مَكروهٌ أن يفزَعَ إلى اللهِ تعالى بأنواعِ الطَّاعاتِ مِن صلاةٍ وغَيرِها(٢).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ حِكمةُ التَّغْيِيَةِ باليقينِ -وهو الموتُ- أنَّه يقتضي ديمومةَ العبادةِ ما دام حيًّا، بخلافِ الاقتصارِ على الأمرِ بالعبادةِ غيرَ مُغَيًّا؛ لأنَّه يكونُ مُطلقًا فيكونُ مُطيعًا بالمرَّة الواحدةِ، والمقصودُ ألَّا يُفارِقَ العبادةَ حتى يموتَ(٣).

٦- عمَلُ المؤمِنِ لا ينقضي حتى يأتيَه أجَلُه؛ قال الحسَنُ: (إنَّ اللهَ لم يجعَلْ لعمَلِ المؤمِنِ أجَلًا دونَ الموتِ، ثم قرأ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾)(٤).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ هذه

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٩).

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٢٣).

الآيةُ تدُلُّ على أنَّه سُبحانَه هو الخالِقُ لجَميعِ أعمالِ العِبادِ؛ لأنَّها تدُلُّ على أنَّه سُبحانَه هو الخالِقُ للسَّمواتِ والأرضِ ولكُلِّ ما بينَهما، ولا شَكَّ أنَّ أفعالَ العبادِ بينهما، فوجَب أن يكونَ خالِقُها هو اللهَ سُبحانَه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ دلَّ على أنَّ فاتحةَ الكِتابِ نَزَلتْ بمكَّةَ بلا رَيبٍ، وقد ثبَت في الصَّحيحِ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال عن الفاتحةِ: ((هي السَّبعُ المَثاني والقُرآنُ العظيمُ الذي أُوتيتُه))[٢]، وسورةُ الحِجرِ مكِّيَّةٌ بلا رَيبٍ، وفيها كلامُ مُشركي مكَّةَ وحالُه معهم[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، يدُلُّ على أنَّ اللهَ يسألُ جَميعَ النَّاسِ يومَ القيامةِ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ٦]، وقولُه: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤]، وقولُه: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥]، وقد جاءَتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خلافِ ذلك؛ كقوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وكقوله: ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٨].

والجوابُ عن هذا من ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّل -وهو أوجَهُها؛ لدَلالةِ القُرآنِ عليه- هو: أنَّ السُّؤالَ قِسمانِ: سؤالُ تَوبيخٍ وتقريعٍ، وأداتُه غالبًا: (لِمَ)، وسؤالُ استخبارٍ واستعلامٍ، وأداتُه غالبًا: (هَل)، فالـمُثبَتُ هو سؤالُ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والمنفيُّ هو سُؤالُ الاستخبارِ والاستعلامِ، وجهُ دلالةِ القرآنِ على هذا: أنَّ سؤالَه لهم المنصوصَ في كُلِّه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٨).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١٩٠).

توبيخٌ وتقريعٌ، كقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٤-٢٥]، وقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]، وكقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ.

الثاني: أنَّ في القيامةِ مواقِفَ مُتعدِّدةً؛ ففي بعضِها يُسألونَ، وفي بعضها لا يُسألونَ.

الثالث: أنَّ إثباتَ السُّؤالِ مَحمولٌ على السُّؤالِ عَنِ التَّوحيدِ، وتَصديقِ الرُّسلِ، وعدمَ السُّؤالِ مَحمولٌ على ما يستلزِمُه الإقرارُ بالنُّبوَّاتِ مِن شرائِعِ الدِّينِ وفُروعِه[(١)]، وقيل غير ذلك[(٢)].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ التعبيرُ عنهم بوصفِ المُستَهزِئينَ إيماءٌ إلى أنَّه كفاه استهزاءَهم، وهو أقَلُّ أنواعِ الأذَى، فكفايتُه ما هو أشَدُّ مِن الاستهزاءِ مِن الأذَى، مَفهومٌ بطريقِ الأحْرَى[(٣)].

٥- في كفايةِ اللهِ لِرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أعداءَه، وعِصمتِه له من النَّاسِ، آيةٌ لنبُوَّتِه؛ وذلك لأنَّه تصديقٌ لِقَولِه تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٦] فهذا إخبارٌ مِن الله بأنَّه يكفيه المُشرِكينَ المُستَهزِئينَ، وأخبَرَ أنَّه يكفيه أهلَ الكِتابِ بقَولِه تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٠-٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٩).

وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ * فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦- ١٣٧] فأخبَرَه اللهُ أنَّه يكفيه هؤلاءِ المُشَاقِّينَ له مِن أهلِ الكتابِ، وأخبَرَه أنَّه يَعصِمُه مِن جميعِ النَّاسِ بقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فهذا خبَرٌ عامٌّ بأنَّ اللهَ يَعصِمُه من جميعِ النَّاسِ، فكُلٌّ مِن هذه الأخبارِ الثلاثةِ العامَّةِ قد وقَع كما أخبَرَ[١].

٦- مِن سُنَّةِ الله أنَّ مَن لم يُمكِنِ المؤمِنونَ أن يُعَذِّبوه مِن الذين يُؤذُونَ اللهَ ورَسولَه؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه ينتَقِمُ منه لرَسولِه ويكفيه إيَّاه؛ كما قال سُبحانه: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أخَذ بعضُهم منه أنَّ هذا الموضِعَ محَلُّ سَجدةٍ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أَمَر اللهُ تعالى بتسبيحِه بحَمدِه بعدَ أن قال: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لأنَّ المقامَ هنا مقامٌ يَحتاجُ إلى تنزيهِ الربِّ -عزَّ وجلَّ- وحَمْدِه، مِن هذه الضَّائقةِ التي تُصيبُ النَّبيَّ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مِن قُرَيشٍ، يعني: نَزِّهْه عن كلِّ ما لا

---

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦١).

قال الشنقيطي: (ولأجلِ كونِ المرادِ بالسجودِ الصلاةَ لم يكنْ هذا الموضعُ محلَّ سجدةٍ عندَ جمهورِ العلماءِ، خلافًا لمن زعَم أنَّه موضعُ سجودٍ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٢٢).

يليقُ به، واعلمْ أنَّ الذي أجراه اللهُ- جلَّ وعلا- فهو في غايةِ الحكمةِ وفي غايةِ الرَّحمةِ، مما يُحمَدُ عليه عزَّ وجلَّ[١].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ فيه سؤالٌ: أيُّ فائدةٍ لهذا التوقيتِ، مع أنَّ كُلَّ أحدٍ يعلَمُ أنَّه إذا مات سقَطَت عنه العباداتُ؟

الجوابُ: المرادُ منه: واعبُدْ رَبَّك في زمانِ حَياتِك، ولا تُخْلِ لحظةً مِن لحظاتِ الحياةِ عن هذه العبادةِ[٢].

١٠- ظنَّ طائفةٌ مِن ضُلَّالِ المتصَوِّفةِ أنَّ غايةَ العباداتِ هو حصولُ المعرفةِ، فإذا حصلَت سقطَت العباداتُ! وقد يحتَجُّ بعضُهم بقولِه تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ ويزعمون أنَّ اليقينَ هو المعرفةُ، وهذا خطأٌ بإجماعِ المسلمين: أهلِ التَّفسيرِ وغيرِهم؛ فإنَّ المسلمين متَّفِقون على أنَّ وجوبَ العباداتِ- كالصَّلواتِ الخَمسِ ونحوِها -وتحريمَ المحَرَّماتِ- كالفواحِشِ والمظالمِ- لا يزالُ واجبًا على كلِّ أحدٍ ما دام عقلُه حاضرًا، ولو بلَغ ما بلَغ؛ وأنَّ الصَّلواتِ لا تسقُطُ عن أحدٍ قَطُّ إلَّا عن الحائِضِ والنُّفَساءِ أو مَن زال عقلُه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ مَوقِعُ الواوِ في صَدْرِ هذه الجُملةِ بَديعٌ؛ فهذه الجُملةُ صالِحةٌ لأنْ تكونَ تَذييلًا لِقَصَصِ

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٣/ ٢٧٠).

الأُمَمِ المُعذَّبةِ ببَيانِ أنَّ ما أصابهم قد استحَقُّوه؛ فهو مِن عدْلِ اللهِ بالجَزاءِ على الأعمالِ بما يُناسِبُها، ولأنْ تكونَ تَصديرًا للجُملةِ الَّتي بعدَها، وهي جُملةُ: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ﴾[1].

- وتَفريعُ قولِه: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ على قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ باعتبارِ المعنى الكِنائيِّ له، وهو أنَّ الجَزاءَ على أعمالِهم مَوكولٌ إلى اللهِ تعالى؛ فلذلك أمَرَ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عن أذاهم، وسُوءِ تَلقِّيهم للدَّعوةِ[2].

- وفي هذه الآيةِ ضَرْبٌ مِن رَدِّ العجُزِ على الصَّدرِ[3]؛ إذ كان قد وقَعَ الاستدلالُ على المُكذِّبينَ بالبعثِ بخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ عندَ قولِه: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۞ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ۞ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا ...﴾ الآياتِ [الحجر: ١٤-١٦]، وخُتِمَت بآيةِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣] إلى قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ [الحجر: ٢٥]، وانتقَلَ هُنالك إلى التَّذكيرِ بخَلْقِ آدمَ عليه السَّلامُ وما فيه مِن العِبَرِ، ثمَّ إلى سَوْقِ قِصَصِ الأُمَمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٧).

(٣) رَدُّ العَجُز على الصَّدر: هو جَعْلُ أحدِ اللَّفظين المُكرَّرين- المتَّفقَينِ في اللَّفظِ والمعنَى، أو المُتجانسَينِ المُتفقَينِ في اللَّفظِ دون المعنى، أو المُلحقَينِ بهما، بأنْ جمَعَهما اشتقاقٌ أو شبهُه- في أوَّلِ الكلام، ثم إعادةُ ذلك في آخِرِ الكلامِ، كقوله تعالى: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ [نوح: ١٠]، وهو مِن جِهاتِ الحُسنِ في الكَلامِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٣٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((علوم البلاغة)) للميداني (ص: ٣٥٨).

الَّتي عَقِبَت عُصورَ الخِلقةِ الأُولى؛ فآنَ الأوانُ للعودِ إلى حيث افترَقَ طَريقُ النَّظمِ، حيث ذكَرَ خَلْقَ السَّمواتِ ودِلالتَه على البَعثِ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الآياتِ؛ فجاءت على وِزانِ قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ...﴾ الآياتِ [الحجر: ١٦]؛ فإنَّ ذلك خَلْقٌ بَديعٌ، وزِيدَ هنا أنَّ ذلك خُلِقَ بالحقِّ، وكان قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ فذلكةً لقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ إلى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: ٢٥]؛ فعاد سِياقُ الكلامِ إلى حيثُ فارَقَ مَهْيَعَه[١]؛ ولذلك تخلَّصَ إلى ذِكْرِ القُرآنِ بقولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر: ٨٧]، النَّاظِرِ إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٢] [الحجر: ٩].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في مَوقِعِ التَّعليلِ للأمْرِ بالصَّفحِ عنهم، أي: لأنَّ في الصَّفحِ عنهم مَصلحةً لك ولهم يعلَمُها ربُّك؛ فمصلحةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الصَّفحِ هي كَمالُ أخلاقِه، ومَصلحتُهم في الصَّفحِ رَجاءُ إيمانِهم[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث عدَلَ إلى ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ دونَ (إنَّ اللهَ)؛ للإشارةِ إلى أنَّ الَّذي هو ربُّه ومُدبِّرُ أمْرِه لا يأمُرُه إلَّا بما فيه صَلاحُه، ولا

(١) المَهْيَعُ: الطَّريقُ الواسِعُ الواضِحُ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٧٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٧٨).

يُقدِّرُ إلَّا ما فيه خيرُه[١].

- وأتَى بصِفَةِ المُبالغةِ ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾؛ لكثرةِ ما خلَقَ، أو الخَلَّاقُ مَن شاء لِما شاء مِن سَعادةٍ أو شَقاوةٍ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ اعتراضٌ بينَ جُملةِ ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ وجُملةِ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾؛ أتبعَ التَّسليةَ والوعدَ بالمِنَّةِ؛ ليُذَكِّرَ اللهُ نَبِيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنِّعمةِ العظيمةِ، فيطمَئِنَّ بأنَّه كما أحسَنَ إليه بالنِّعمِ الحاصِلةِ، فهو مُنْجِزُه الوُعودَ الصَّادقةَ، وفي هذا الامتنانِ تَعريضٌ بالرَّدِّ على المُكذِّبينَ، وهو ناظِرٌ إلى قولِه: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] إلى قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وهذا افتتاحُ غرَضٍ مِن التَّنويهِ بالقُرآنِ، والتَّحقيرِ لعَيشِ المُشركينَ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ أُوثِرَ هنا فِعْلُ ﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾ دونَ (أوحَيْنا) أو (أنزَلْنا)؛ لأنَّ الإعطاءَ أظهَرُ في الإكرامِ والمِنَّةِ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ لِمَا يُثيرُه المقصودُ مِن قولِه تعالى: ﴿

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، ومِن تَساؤلٍ يَجيشُ في النَّفسِ عن الإملاءِ للمُكذِّبينَ في النِّعمةِ والتَّرفِ، مع ما رُمِقوا به مِن الغَضبِ والوعيدِ؛ فكانت جُملةُ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ...﴾ بَيانًا لِمَا يَختلِجُ في نفْسِ السَّامعِ مِن ذلك؛ ولكونِها بهذه المَثابةِ فُصِلَت عن الَّتي قبْلَها- أي: لم تُعْطَفْ عليها- فَصْلَ البَيانِ عن المُبيَّنِ؛ فإنَّ الجُملةَ الَّتي وقَعَت قبْلَها بمنزِلةِ التَّمهيدِ لها، والإجمالِ لمَضمونِها؛ ولذلك لم تُعْطَفْ هذه الجُملةُ؛ لأنَّها تكونُ حينئذٍ مُجرَّدَ نهيٍ لا اتِّصالَ له بما قبْلَه، كما عُطِفَت نَظيرتُها في قولِه تعالى في سُورةِ طه: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۞ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه: ١٢٩- ١٣١]؛ فلمَّا فُصِلَت الجُملةُ هنا، فُهِمَ أنَّ الجُملةَ الَّتي قبْلَها مَقصودةُ التَّمهيدِ بهذه الجُملةِ، ولو عُطِفَت هذه لَمَا فُهِمَ هذا المعنى البَديعُ مِن النَّظمِ(١).

- قولُه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ...﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ في هذا النَّهيِ كِنايةٌ عن قِلَّةِ الاكتراثِ بهم، وعن تَوعُّدِهم بأنْ سيحُلَّ بهم ما يُثيرُ الحُزْنَ لهم، وكِنايةٌ عن رَحمةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنَّاسِ، ولمَّا كان هذا النَّهيُ يَتضمَّنُ شِدَّةَ قلْبٍ وغِلظةً؛ لا جرَمَ اعترَضَه بالأمرِ بالرِّفقِ للمُؤمنينَ بقولِه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو اعتراضٌ مُرادٌ منه الاحتراسُ(٢).

- وعلى القولِ بتَعليقِ قولِه: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ بقولِه: ﴿وَلَقَدْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٥٨٨- ٥٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٢- ٨٣).

ءَايَٰتِنَا﴾، فوجْهُ تَوسُّطِ قولِه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ...﴾ إلى آخرِه بينهما: أنَّه لمَّا كان ذلك تَسليةً لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن تكذيبِهم وعَداوتِهم، اعْتُرِضَ بما هو مَدَدٌ لمَعنى التَّسليةِ؛ مِن النَّهيِ عن الالتفاتِ إلى دُنياهم، والتَّأسُّفِ على كُفرِهم، ومِن الأمرِ بأنْ يُقْبِلَ بمَجامِعِه على المُؤمنينَ[١].

- وقولُه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾ أبلغُ مِن (لَا تَنْظُرَنَّ)؛ لأنَّ الَّذي يَمُدُّ بصرَه، إنَّما يَحمِلُه على ذلك حِرْصٌ مُقترِنٌ، والَّذي ينظُرُ قد لا يكونُ ذلك معَه[٢].

- قولُه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال في سُورةِ الشُّعراءِ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]؛ فزِيدَ قولُه: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ ومَقصودُ الآيتَينِ واحدٌ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّه لمَّا لم يتقدَّمْ آيةَ الحِجْرِ تَخصيصٌ بمَدْعُوٍّ بل تقدَّمُها خِطابُه عليه السَّلامُ بالتَّأنيسِ والتَّسليةِ عمَّن أعرَضَ، والرِّفقِ بمَن آمَنَ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يَحتَجْ هنا إلى زِيادةٍ. وأمَّا آيةُ الشُّعراءِ، فلمَّا تقدَّمَ قولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، والإنذارُ يَستصحِبُ التَّخويفَ والاستعلاءَ على مَن يُخاطَبُ به؛ أتبعَ ذلك تَعالى- تَلطُّفًا وإنعامًا على مَن آمَنَ مِن عَشيرتِه عليه السَّلامُ وغيرِه- بقولِه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]؛ فقيل هنا: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾؛ ليكونَ أَنصَّ في تَعميمِ المُؤمنينَ مُطلقًا مِن العشيرةِ وغيرِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٩٢-٢٩٣).

- قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾ القَصرُ المُستفادُ مِن ضَميرِ الفَصلِ ﴿أَنَا﴾، ومِن تَعريفِ الجُزأينِ (النَّذيرُ- المُبينُ): قَصْرُ قَلْبٍ[1]، أي: لستُ كما تحسِبونَ أنَّكم تَغيظونَني بعدَمِ إيمانِكم؛ فإنِّي نَذيرٌ مُبينٌ غيرُ مُتقايضٍ معكم لتَحصيلِ إيمانِكم[2].

٥- قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾

- حَرفُ ﴿عَلَى﴾ في قولِه: ﴿عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ بمعنى لامِ التَّعليلِ، ولفظُ ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ افتعالٌ مِن (قسَّمَ)؛ إذا جعَلَ شيئًا أقسامًا، وصِيغَةُ الافتعالِ هنا تَقْتضي تكلُّفَ الفعْلِ[3].

- ومعنى ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾-على أحدِ أوجهِ التفسير-: المُقتسِمونَ القُرآنَ، وهذا هو معنى ﴿جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾؛ فكان ثاني الوصْفَينِ بَيانًا لأوَّلِهما، وإنَّما اختلَفَتِ العِبارتانِ للتَّفنُّنِ[4].

---

(١) القصر: في اصطِلاح البلاغيِّين هو تخصيصُ شيءٍ بشيء وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمر الأول: مَقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيد قائم، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسم إلى قصرٍ حقيقي، وقصرٍ إضافي، وادِّعائي، وقَصْرِ قَلْب؛ وقصْرُ القَلب: أن يَقلِب المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لمن يَعتقدُ أنَّ شاعرًا في قبيلة معيَّنة أو طرَف معيَّن، لكنَّه يقول: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقصرِ طُرُقٌ كثيرة؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناء، والقصر بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديم ما حَقُّه التأخير، وغيرُ ذلك.
يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧- ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٨٤ -٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٦- قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فيه مِن التَّشديدِ وتأكيدِ الوعيدِ ما لا يَخْفى، والفاءُ لتَرتيبِ الوَعيدِ على أعمالِهم الَّتي ذُكِرَ بعضُها[١]، فالفاءُ للتَّفريعِ، وهذا تَفريعٌ على ما سبَقَ مِن قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾، والواوُ للقسَمِ، والمَقصودُ بالقسَمِ تَأكيدُ الخبرِ، وليس الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم ممَّن يشُكُّ في صِدْقِ هذا الوعيدِ، ولكنَّ التَّأكيدَ مُتسلِّطٌ على ما في الخبرِ مِن تَهديدِ مُعادِ ضَميرِ النَّصبِ في ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ ﴾[٢].

- وفي التَّعرُّضِ لوَصْفِ الرُّبوبيَّةِ مُضافًا إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قولِه: ﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾: إظهارُ اللُّطْفِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ في السُّؤالِ المُقْسَمِ عليه حَظًّا مِن التَّنويهِ به، وهو سُؤالُ اللهِ المُكذِّبينَ عن تَكذيبِهم إيَّاه سُؤالَ رَبٍّ يغضَبُ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤]، ويجوزُ أنْ يكونَ السُّؤالُ كِنايةً عنِ الجَزاءِ، و﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عامٌّ في جَميعِ الأعمالِ[٥].

٧- قولُه تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَٱصْدَعْ ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ بصَريحِه وكِنايتِه عنِ التَّسليةِ على ما يُلاقيه مِن تَكذيبِ قَومِه، وقَصدُ شُمولِ الأمْرِ كلَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٧).

ما أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَبليغِه هو نُكتةُ حَذفِ مُتعلِّقِ قولِه: ﴿تُؤۡمَرُ﴾؛ فلم يُصَرِّحْ بنحوِ (بتَبليغِه) أو (بالأمْرِ به) أو (بالدَّعوةِ إليه)، وهو إيجازٌ بَديعٌ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بالإعلانِ بما أُمِرَ به؛ فإنَّ اختفاءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بدارِ الأرقَمِ كان بأمْرٍ مِن اللهِ تعالى؛ لحِكمةٍ علِمَها اللهُ، أهمُّها تَعدُّدُ الدَّاخلينَ في الإسلامِ في تلك المُدَّةِ، بحيث يَغتاظُ المُشركونَ مِن وَفرةِ الدَّاخلينَ في الدِّينِ مع أنَّ دَعوتَه مَخفيَّةٌ، ثمَّ إنَّ اللهَ أمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإعلانِ دَعوتِه لحكمةٍ أعلى تهيَّأَ اعتبارُها في علْمِه تعالى[٢].

- وتَأكيدُ الخبرِ بـ (إنَّ) لتَحقيقِه؛ اهتمامًا بشَأنِه، لا للشَّكِّ في تَحقُّقِه[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿الْمسْتَهْزِئِينَ﴾ للجِنْسِ، فيفيدُ العُمومَ[٤].

٩- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وصَفَهم بالَّذين يجْعَلونَ مع اللهِ إلهًا آخَرَ؛ للتَّشويهِ بحالِهم، ولتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَهوينًا للخَطْبِ عليه بإعلامِه أنَّهم ما اقْتَصروا على الافتراءِ عليه؛ فقدِ افتَرَوا على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهِ، ولم يقتَصِروا على الاستهزاءِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل اجْتَرؤوا على العظيمةِ الَّتي هي الإشراكُ باللهِ سُبحانَه[١].

- وأتَتْ صِيغَةُ المُضارعِ ﴿يَجْعَلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم مُستمرُّونَ على ذلك مُجدِّدونَ له[٢].

- وفُرِّعَ على الأمرينِ الوعيدُ بقولِه تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ لدَلالةِ المَقامِ عليه، أي: فسوفَ يَعْلمونَ جَزاءَ بُهتانِهم[٣].

١٠- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ فيه تَحليةُ الجُملةِ بالتَّأكيدِ؛ لإفادةِ تَحقيقِ ما تتضمَّنُه مِن التَّسليةِ، وليس المُخاطَبُ ممَّن يُداخِلُه الشَّكُّ في خَبرِ اللهِ تعالى، ولكنَّ التَّحقيقَ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ﴾ كِنايةٌ عنِ الاهتمامِ بالمُخْبَرِ، وأنَّه بمَحَلِّ العِنايةِ مِن اللهِ[٤].

- وصِيغَةُ الاستقبالِ ﴿نَعْلَمُ﴾؛ لإفادةِ استمرارِ العلْمِ حسَبَ استمرارِ مُتعلَّقِه باستمرارِ ما يُوجِبُه مِن أقوالِ الكَفرةِ[٥].

١١- قولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ فُرِّعَ على جُملةِ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ أمْرُه بتَسبيحِ اللهِ تعالى وتَنزيهِه، على أنَّ التَّسبيحَ قد يُستعمَلُ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٣).

مَعناه الكِنائيِّ مع معناه الأصلِيِّ؛ فيُفيدُ الإنكارَ على المُشركينَ فيما يقولونَ، أي: فاقتصِرْ في دَفعِهم على إنكارِ كَلامِهم، والباءُ في ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ للمُصاحَبَةِ، والتَّقديرُ: فسبِّحْ ربَّك بحَمدِه؛ فحُذِفَ مِن الأوَّلِ لدَلالةِ الثَّاني[١].

- وقولُه: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أبلَغُ في الاتِّصافِ بالسُّجودِ مِن: (وَكُنْ ساجدًا)[٢].

١٢- قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾

- قولُه: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ فيه إيثارُ الإظهارِ بالعُنوانِ السَّالِفِ آنفًا ﴿رَبَّكَ﴾ -حيث لم يقُلْ: (واعبُدْه)-؛ لتَأكيدِ ما سبَقَ مِن إظهارِ اللُّطفِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والإشعارِ بعِلَّةِ الأمْرِ بالعِبادةِ[٣].

- قولُه: ﴿يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ فيه إسنادُ الإتيانِ إلى اليقينِ الَّذي هو الموتُ؛ للإيذانِ بأنَّه مُتوجِّهٌ إلى الحيِّ، طالبٌ للوُصولِ إليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ النَّحلِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ النَّحلِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (النَّحلِ)[١].

فعن أُبيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّه قال: ((سَمِعتُ رَجُلًا يقرأُ في سورةِ النَّحلِ قِراءةً تُخالِفُ قراءتي، ثم سمِعتُ آخَرَ يَقرؤُها قراءةً تُخالِفُ ذلك، فانطلقتُ بهما إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقلتُ: إنِّي سَمِعتُ هذين يقرأانِ في سورة النَّحلِ، فسألتُهما: مَن أقرَأهما؟ فقالا: رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم...))[٢].

بيانُ المكِّيِّ والمَدنيِّ:

سورةُ النَّحلِ سورةٌ مكِّيَّةٌ[٣].

---

(١) سُمِّيَت هذه السورةُ سورةَ النَّحلِ؛ لِمَا فيها من عجائِبِ النَّحلِ في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ... ﴾[النحل: ٦٨]، ولأنَّ لفظَ النَّحلِ لم يُذكَرْ في سورةٍ أخرى.
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٣)، ((تفسير أبي زهرة)) (٨/ ٤١٢٠).
وتُسمَّى أيضًا عندَ بعضِ السلفِ بسورةِ (النِّعَم)؛ وذلك بسبَبِ ما عدَّدَ اللهُ فيها مِن نِعَمِه على عبادِه. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٣).

(٢) أخرجه ابن جرير في ((التفسير)) (٣٨).
وذكَر ابنُ جريرٍ أنَّه ثابتٌ، وصحَّح إسنادَه ابنُ كثيرٍ في ((فضائل القرآن)) (١٠٠).
والحديث أصله في ((صحيح مسلم)) (٨٢٠).

(٣) وقيل: مكِّيَّةٌ إلا ثلاثَ آياتٍ منها نزلتْ بالمدينةِ، وهي قولُه تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا ﴾[النحل: ٩٥] إلى قولِه تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[النحل: ٩٧] نزَلتْ بعدَ قتلِ حمزةَ بأُحُدٍ. وقيل: مكيَّةٌ غيرَ ثلاثِ آياتٍ في آخِرِها. يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٤/ ١٥٨)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٢).

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

١- إقامةُ الأدلةِ على وحدانيةِ الله تعالى، وعلى اليومِ الآخرِ، وإثباتُ صِدق الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، وما جاء به[١].

٢- الردُّ على شُبَهِ المشركينَ، وزجرُهم عمَّا هم عليه، وإنذارُهم[٢].

٣- بيانُ آلاءِ الله تعالى ونِعمِه على خلقِه[٣].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي اشْتَمَلت عليها هذه السُّورةُ:

١- التأكيدُ على أنَّ يومَ القيامةِ حقٌّ، وأنَّه آتٍ لا ريبَ فيه.

٢- إثباتُ وَحدانيَّةِ اللهِ، وبيانُ قُدرتِه في خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، وخَلقِ الإنسانِ والحيوانِ، وإنزالِ الماءِ مِن السماءِ، وتسخيرِ الشمسِ والقمرِ، والليلِ والنهارِ إلى غيرِ ذلك.

٣- ذِكرُ النِّعَمِ المتنَوِّعةِ على الإنسانِ، ومنها ما فى الأنعامِ مِن المنافعِ، وما فى المراكبِ من الزِّينةِ، إلى غيرِ ذلك من النِّعَمِ التي لا تُحصى.

٤- التَّحذيرُ ممَّا حلَّ بالأممِ التي أشركَت باللهِ وكذَّبَت رسُلَه- عليهم السلامُ- من عذابِ الدنيا، وما ينتظرُهم من عذابِ الآخرة؛ ومقابلةُ ذلك بضِدِّه من نعيمِ

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٨/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣ / ٧٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٨/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٨/ ٩٦).

المتَّقين المصَدِّقين، والصَّابرين على أذى المشركين، والذين هاجروا في سبيلِ الله تعالى.

٥- ذكرُ عادةِ أهلِ الجاهليَّةِ في كراهيةِ البَناتِ، ووأدِهم أحياءً.

٦- ضربُ الأمثالِ للمؤمنِ والكافرِ، والشاكرِ والجاحدِ، والإلهِ الحقِّ والآلهةِ الباطلةِ.

٧- ذكرُ حالِ المُشرِكينَ مع الأوثانِ يومَ القيامةِ.

٨- ذِكرُ بَعضِ مكارِمِ الأخلاقِ؛ مِن العَدلِ والإحسانِ والبَذلِ، والنَّهيِ عن الفَحشاءِ والمُنكَر والبَغيِ، والدَّعوةِ إلى الوفاءِ بالعَهدِ، والنَّهيِ عن نَكثِ العُهودِ والأيمانِ.

٩- ذِكرُ بعضِ الشُّبُهاتِ التي أثارها المشركون حولَ القرآنِ، مع الردِّ عليها بما يَدحَضُها.

١٠- بيانُ بعضِ آدابِ المُؤمِنِ عندَ قراءةِ القُرآنِ.

١١- ذِكْرُ جانبٍ مِن قصةِ إبراهيمَ عليه السلامُ، كمثالٍ للشَّاكرينَ.

١٢- بيانُ أنَّ التَّحليلَ والتَّحريمَ مِن اللهِ وَحدَه.

١٣- ذِكرُ حُكمِ من يكفُرُ بعد إيمانِه، ومَن يُكرَهُ على الكُفرِ وقَلبُه مُطمئِنٌّ بالإيمانِ، ومن فُتِنوا عن دينِهم ثمَّ هاجَروا وجاهَدوا وصَبروا.

١٤- ذكرُ أهمِّ الأساليبِ في الدعوةِ إلى الله تعالى، وفي معاملةِ الناس، مِن الدعوةِ بالحكمةِ، والموعظةِ الحسنةِ، والجدالِ بالتي هي أحسنُ، وفضيلةِ الصبرِ إلى غير ذلك.

الآيات (١-٤)

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلرُّوحِ﴾: أي: بِالوَحْيِ، وسُمِّيَ رُوحًا؛ لأنَّه حَياةٌ مِن مَوتِ الكُفرِ، فصار يحيا به النَّاسُ كالرُّوحِ الذي يحيا به الجَسدُ، أو: لأنَّ الوحيَ به حياةُ الأرواحِ[١].

﴿نُّطۡفَةٖ﴾: النُّطفةُ: المنيُّ[٢]، وقيل: الماءُ الصَّافي قلَّ أو كَثُر، وقيل: الماءُ القليلُ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[٣].

﴿خَصِيمٞ﴾: أي: مُخاصِمٌ، جَدِلٌ بِالباطِلِ، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على المُنازَعةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٨).

(٢) قال الشنقيطي: (النُّطْفة مختلِطةٌ مِنْ ماءِ الرَّجلِ وماءِ المرأةِ، خلافًا لمنْ زَعَم أنَّها مِنْ ماءِ الرَّجلِ وحدَه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٦). وذكَر الدليلَ على ذلك، فقال: (بدليلِ قولِه تعالَى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: أخلاطٍ مِنْ ماءِ الرَّجلِ وماءِ المرأةِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ٤٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((أساس البلاغة)) للزمخشري (٢/ ٢٨١)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: قَرُبَ قيامُ السَّاعةِ، وقَضاءُ اللهِ بعَذابِكم -أيُّها الكُفَّارُ- فلا تَستَعجِلوا العذابَ استهزاءً بوعيدِ الرَّسولِ لكم، تنزَّهُ اللهُ عن أن يكونَ له شريكٌ، وعمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ، ينزِّلُ -سُبحانَه- الملائكةَ بالوَحيِ مِن أمْرِه على مَن يشاءُ مِن عبادِه المُصطَفَين للرِّسالةِ: بأنْ أنذِروا -أيُّها الرُّسُلُ- النَّاسَ مِن عاقبةِ الشِّركِ؛ فإنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا أنا، فاتَّقونِ. خلقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ بالعدلِ، لا للعبثِ؛ ليُعبدَ وحدَه، تعاظَمَ -سُبحانَه- عن شِركِ المشركين، خَلَق الإنسانَ مِن منيِّ الرجلِ ومنيِّ المرأةِ، فإذا به يصيرُ شَديدَ الخُصومةِ والجدالِ لرَبِّه الذي خلَقَه وسوَّاه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾.

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾.

أي: قَرُبَ مجيءُ يومِ القيامةِ بأهوالِه، وقَضاءُ اللهِ بعَذابِكم- أيُّها الكُفَّارُ- فلا تَستعجِلوا ذلك؛ فإنَّه آتٍ لا مَحالةَ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٦).

قال ابن جرير: (هو تهديدٌ مِن الله أهلَ الكفرِ به وبرسولِه، وإعلامٌ منه لهم قُربَ العذابِ منهم، والهلاكِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٥).

وقال ابنُ عاشور: (الخطابُ للمشركين ابتداءً؛ لأنَّ استعجالَ العذابِ مِن خصالهم؛ قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧]، ويجوز أن يكونَ شاملًا للمؤمنين؛ لأنَّ عذابَ الله وإن كان الكافِرونَ يستعجِلونَ به تهكُّمًا؛ لظَنِّهم أنَّه غيرُ آتٍ، فإنَّ المؤمنينَ يُضمِرونَ في نفوسِهم استبطاءَه، ويُحبُّونَ تعجيلَه للكافرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٧).

كما قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وقال سُبحانه: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ * يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الجَزمُ بالأمورِ المُستقبَلةِ لا يليقُ إلَّا عند نفوذِ الأمرِ، ولا نفوذَ إلَّا لِمن لا كفُؤَ له، وكانت العجَلةُ -وهي الإتيانُ بالشَّيءِ قبلَ حينِه الأَولى به- نقصًا ظاهرًا، وكان التأخيرُ لا يكونُ إلَّا عن مُنازِعٍ مُشارِكٍ- نزَّه نفسَه سُبحانَه تنزيهًا مُطلَقًا جامِعًا، بقَولِه تعالى[1]:

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: تنزَّهَ اللهُ عن أن يكونَ له شريكٌ، وعمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ ممَّا لا يليقُ به تعالى، ومِن ذلك وصفُهم له بعدمِ القدرةِ على بَعثِ الأمواتِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي(١١/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير))

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا تقرَّرَ -بما سبَقَ- تنَزُّهُه تعالى عن كلِّ نَقصٍ؛ شِركٍ وغَيرِه- شرَعَ يصِفُ نفسَه سُبحانَه بصفاتِ الكَمالِ مِن الأمرِ والخَلقِ[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان استِعجالُ المُشرِكينَ بالعذابِ استهزاءً بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتكذيبًا له، وكان ناشِئًا عن عقيدةِ الإشراكِ التي مِن أصولِها استحالةُ إرسالِ الرُّسُلِ مِن البشَرِ، وأُتبِعَ تحقيقُ مَجيءِ العذابِ بتَنزيهِ اللهِ عن الشَّريكِ؛ قفِّيَ ذلك بتبرئةِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- من الكَذِبِ فيما يبَلِّغُه عن رَبِّه، ووصَفَ لهم الإرسالَ وصفًا مُوجَزًا، وهذا اعتراضٌ في أثناءِ الاستدلالِ على التوحيدِ[٢].

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾.

أي: يُنزِّلُ اللهُ جبريلَ[٣] بالوَحيِ -الذي هو كَلامُه- مِنْ أمْرِه[٤]، على من يَشاءُ

(٤/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٨).

(٣) قولُه: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ المرادُ به هنا: جبريلُ وحدَه، وهذا قولُ الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٣).

وتسميةُ الواحدِ باسمِ الجمعِ- إذا كان ذلك الواحدُ رئيسًا مقدَّمًا- جائزٌ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٩)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٤).

(٤) قيل: ﴿مِن﴾ هنا: للتبعيضِ، أو لبيان الجنس. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٨).

مِن عِبادِه الذين اختارهم للنبُوَّةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال سُبحانه: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

أي: بأن أنذِروا -أيُّها الرُّسُلُ- الناسَ عذابي إن أشرَكوا بي؛ فإنَّه لا يستحِقُّ العبادةَ غَيري، فاحذَروني -أيُّها النَّاسُ- بإخلاصِ العبادةِ لي، وامتثالِ أوامِري، واجتنابِ نواهِيَّ؛ لتَنْجوا مِن عذابي[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقيل: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ أي: بأمْرِه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦١، ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٦).

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وحَّد اللهُ تعالى نفسَه، دلَّ على وحدانيَّتِه، وأنَّه لا إلهَ إلَّا هو، بما ذكَرَ مِمَّا لا يَقدِرُ عليه غيرُه، مِن خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، وإيجادِه أصولَ العالَمِ وفروعَه على وجهِ الحِكمةِ[1] فقال:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: خَلقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ بالعَدلِ، ولم يخلُقْهنَّ عَبثًا؛ وذلك ليُعبَدَ وَحدَه، ولِيَعلمَ النَّاسُ عَظَمةَ خالِقِها، ويَعلَموا قُدرتَه على إعادةِ خَلقِه يومَ القيامةِ الذي يُجازي فيه كلَّ عاملٍ بحسَبِ عَمَلِه[2].

﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه المُستقِلُّ بالخَلقِ وَحدَه لا شريكَ له، وكان لذلك يستحِقُّ أن يُعبَدَ وَحدَه لا شريكَ له، ولا يصِحُّ أن يُعبَدَ معه مَن لا يَقدِرُ على شَيءٍ؛ لهذا أتبَعَ قولَه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بقولِه[3]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٩، ٣٣٠).
قال الشنقيطي: (ومعنَى كونِ خَلْقِه للسَّمواتِ والأرضِ مُتَلَبِّسًا بالحقِّ أنَّه خَلَقهما لحكَمٍ باهرةٍ، ولم يخلُقْهما باطِلًا، ولا عبثًا، ولا لَعِبًا، فمِنَ الحقِّ الَّذي كان خَلْقُهما مُتَلَبِّسًا به- إقامةُ البرهانِ على أنَّه هو الواحدُ المعبودُ وحدَه -جلَّ وعلا- كما أوضَح ذلك في آياتٍ كثيرةٍ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٩).

﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: تعاظَمَ اللهُ عن شِركِ المُشرِكينَ، وترفَّعَ أن يكونَ له شَريكٌ؛ فهو المُنفَرِدُ بالخَلقِ، المُستحِقُّ وَحدَه لعبادةِ خَلقِه؛ فلا يكونُ إلهًا إلَّا مَن يخلُقُ بقُدرتِه مثلَ السَّمواتِ والأرضِ، فيُحدِثُها مِن غيرِ شَيءٍ، على غيرِ مثالٍ سابقٍ، وليس ذلك في قُدرةِ أحدٍ سوى اللهِ الواحِدِ[١].

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما دلَّ على وحدانيَّتِه مِن خَلقِ العالَمِ العُلويِّ والأرضِ -وهو استدلالٌ بالخارجِ- ذكَرَ الاستدلالَ مِن نَفسِ الإنسانِ، فذكَرَ إنشاءَه مِن نُطفةٍ، فإذا هو خَصيمٌ مُبينٌ، وكان حَقُّه والواجِبُ عليه أن يُطيعَ وينقادَ لأمرِ اللهِ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الدَّليلَ على توحيدِه؛ ذكَرَ بعده الإنسانَ ومُناكَدتَه وتَعدِّيَ طَورِه[٣].

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾.

أي: خلقَ اللهُ الإنسانَ[٤] مِن منيِّ الرَّجُلِ ومَنيِّ المرأةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٨).

(٤) أي: جنسَ الإنسانِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٠).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥-٤٦].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾ [الإنسان: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ۝ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ۝ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧- ١٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧].

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾.

أي: فإذا بهذا الإنسانِ -الذي خلَقَه اللهُ مِن نُطفةٍ- يُصبِحُ مُخاصِمًا ظاهِرَ الخُصومةِ، يُبِينُ عن خُصومتِه بمَنطِقِه، فيُخاصِمُ خُصومةً شديدةً في قُدرةِ اللهِ على البعثِ وغَيرِه، ويُكَذِّبُ بالحقِّ، ولا يشكُرُ رَبَّه على نِعَمِه[1]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٦، ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣١).

وقال السَّعدي: (﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ يحتمِلُ أنَّ المرادَ: فإذا هو خَصيمٌ لرَبِّه، يَكفُرُ به، ويجادِلُ رسُلَه، ويكَذِّبُ بآياتِه، ونَسِيَ خَلْقَه الأوَّلَ وما أنعمَ اللهُ عليه به من النِّعَمِ، فاستعان بها على معاصيه، ويحتَمِلُ أنَّ المعنى: أنَّ الله أنشأ الآدميَّ من نُطفةٍ، ثمَّ لم يزَلْ ينقُلُه من طَورٍ إلى طورٍ حتى صار عاقِلًا متكَلِّمًا ذا ذِهنٍ ورأيٍ، يخاصِمُ ويجادِلُ؛ فلْيشكُرِ العبدُ رَبَّه الذي أوصلَه إلى هذه الحالِ التي ليس في إمكانِه القدرةُ على شيءٍ منها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦).

وقال الشنقيطي: (قولُه -جَلَّ وعلا-: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ أظهَرُ القولينِ فيه: أنَّه ذَمٌّ

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٧- ٧٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٦-٦٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا * وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤-٥٥].

وعن بُسرِ بنِ جِحاشٍ القُرَشيِّ رَضِيَ الله عنه، ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بزَقَ يومًا في كَفِّه، فوضع عليها أُصبُعَه، ثمَّ قال: قال الله: ابنَ آدمَ، أنَّى تُعجِزُني، وقد خلقتُك مِن مِثلِ هذه؟! حتى إذا سَوَّيتُك وعَدَّلتُك، مَشَيتَ بين بُردَينِ[(١)] وللأرضِ مِنك وَئيدٌ[(٢)]، فجَمَعْتَ ومَنَعْتَ، حتى إذا بلَغَتِ التَّراقيَ، قلتَ: أتصَدَّقُ! وأنَّى أوانُ الصَّدَقةِ؟!))[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ سمَّى ذلك رُوحًا؛ لِما يحصُلُ به من الحياةِ النَّافِعةِ،

للإنسانِ المذكورِ. والمعنى: خَلَقْناه ليعبُدَنا ويخضَعَ لنا ويُطيعَ، ففاجأ بالخُصومةِ والتكذيبِ، كما تدلُّ عليه: «إذا» الفُجائيَّة. ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣١).

(١) البُرْدُ: نوعٌ من الثيابِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١١٦).

(٢) الوئيدُ: صوتُ شِدَّةِ الوطءِ على الأرضِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٤٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٧٠٧)، وأحمد (١٧٨٤٤)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢/ ٣٢) (١١٩٣)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٨٥٥).

صحَّح إسنادَه الحاكم، والبوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٣/ ١٤٣)، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح الجامع)) (٨١٤٤).

فإنَّ الحياةَ بدُونِه لا تنفَعُ صاحِبَها البتَّةَ، بل حياةُ الحيوانِ البَهيمِ خَيرٌ منها، وأسلَمُ عاقِبةً[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ قد أحاطت جملةُ: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ بالشَّريعةِ كُلِّها؛ لأنَّ جُملةَ: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ تنبيهٌ على ما يَرجِعُ مِن الشَّريعةِ إلى إصلاحِ الاعتقادِ، وهو الأمرُ بكمالِ القُوَّةِ العقليَّةِ، وجملةُ: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ تنبيهٌ على الاجتنابِ والامتثالِ اللَّذينِ هما مُنتهى كمالِ القُوَّةِ العَمَليَّةِ[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ حثٌّ على استشعارِ التذللِ والتواضعِ، إذ مَن كان خَلْقُه مِن نطفةٍ ضعيفةٍ؛ فإعدادُه نفسَه في عِدَادِ الخُصَماءِ جَهْلٌ به، وإغفالٌ لمراعاة ما خُلِقَ منه[٣].

٤- في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ دليلٌ على أنَّ التكبرَ مُتولِّدٌ في الإنسان مِن قِلَّةِ معرفتِه بنفسِه، وفِكْرِهِ فيما خُلِقَ منه[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لفظُ (الأمر) يرادُ به المصدَرُ والمفعولُ؛ فالمفعولُ مخلوقٌ، كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فهنا المرادُ به: المأمورُ به، ليس المرادُ به أمْرَه الذي هو كلامُه، وأمَّا في قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ٥] فأمْرُه كلامُه؛ إذ لم يُنزِلْ إلينا الأفعالَ التي

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أمَرَنا بها، وإنما أنزَلَ القرآنَ، وهذا كقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] فهذا الأمرُ هو كلامُه(١).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ يدلُّ على أنَّ نُزولَ الوَحيِ بواسطةِ الملائكةِ، وأنَّ النبُوَّةَ عَطاؤُه تعالى(٢)، فالنبوَّةُ عطائيَّةٌ لا كَسْبيَّةٌ(٣).

٣- قال الله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ هذه الآيةُ وأمثالُها رَدٌّ على الكُفَّارِ في قَولِهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾(٤) [الزخرف: ٣١].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ هذه الآيةُ أوَّلُ ما عَدَّدَ اللهُ على عبادِه مِن النِّعَمِ في سورةِ النِّعَمِ، التي تسمَّى سورةَ النَّحلِ(٥).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ حَسُنَت النِّذارةُ هنا- وإن لم يكُنْ في اللَّفظِ ما فيه خَوفٌ- مِن حيثُ كان المُنذَرونَ كافِرينَ بألوهيَّتِه؛ ففي ضِمنِ أمْرِهم مكانُ خَوفٍ، وفي ضِمنِ الإخبارِ بالوحدانيَّةِ نَهيٌ عمَّا كانوا عليه، ووعيدٌ وتحذيرٌ مِن عبادةِ الأوثانِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٨).

(٥) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٧٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٥).

٦- قال الله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ سبَّبَ عن وحدانيَّتِه -التي هي مُنتهَى كمالِ القُوَّةِ العِلميَّةِ- قَولَه آمِرًا بما هو أقصَى كمالِ القُوَّةِ العَمَليَّةِ: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾[1].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الاستدلالُ بخَلقِ السَّمواتِ والأرضِ أكبَرُ مِن سائرِ الأدلَّةِ وأجمَعُ؛ لأنَّها مُحتَويةٌ لهما، ولأنَّهما من أعظَمِ الموجوداتِ؛ فلذلك ابتُدئ بهما[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ لمَّا كان مُعظَمُ أغراضِ هذه السُّورةِ زَجرَ المُشركينَ عن الإشراكِ وتوابِعِه، وإنذارَهم بسُوءِ عاقبةِ ذلك؛ صُدِّرَت السُّورةُ بالوعيدِ المَصوغِ في صُورةِ الخبَرِ بأنْ قد حَلَّ ذلك المُتوعَّدُ به؛ فجِيءَ بالماضي ﴿أَتَىٰٓ﴾ المُرادِ به المُستقبَلُ المُحقَّقُ الوُقوعُ، بقَرينةِ تَفريعِ ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ لأنَّ النَّهيَ عنِ استعجالِ حُلولِ ذلك اليومِ يَقْتضي أنَّه لَمَّا يحِلَّ بعدُ، وإتيانُه عبارةٌ عن دُنُوِّه واقترابِه، على طريقةِ نَظمِ المُتوقَّعِ في سِلكِ الواقعِ، أو عن إتيانِ مَباديه القريبةِ، على نَهجِ إسنادِ حالِ الأسبابِ إلى المُسبِّباتِ، وفيه تَنبيهٌ على كَمالِ قُربِه مِن الوُقوعِ واتِّصالِه، وتَكميلٌ لحُسنِ مَوقعِ التَّفريعِ في قولِه عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ فإنَّ النَّهيَ عن استعجالِ الشَّيءِ وإنْ صَحَّ تَفريعُه على قُربِ وُقوعِه، أو على وُقوعِ أسبابِه القريبةِ، لكنَّه ليس بمَثابةِ تَفريعِه على وُقوعِه؛ إذ بالوُقوعِ يَستحيلُ الاستعجالُ رأسًا، لا بما

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠١).

ذُكِرَ مِن قُربِ وُقوعِه، ووُقوعِ مَباديه[١].

- قولُه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ وعُبِّرَ عن ذلك بأمْرِ اللهِ؛ للتَّفخيمِ والتَّهويلِ؛ ففي التَّعبيرِ عنه بأمْرِ اللهِ إبهامٌ يُفيدُ تَهويلَه وعَظَمتَه؛ لإضافتِه لمَن لا يعظُمُ عليه شَيءٌ، وللإيذانِ بأنَّ تَحقُّقَه في نفْسِه وإتيانَه مَنوطٌ بحُكمِه النَّافذِ وقَضائِه الغالبِ[٢].

- وجُملةُ: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ تَفريعٌ على ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، وهي مِن المقصودِ بالإنذارِ، والمُرادُ مِن النَّهيِ هنا معنى دقيقٌ لم يَذكُروه في مَواردِ صِيَغِ النَّهيِ، ويجدُرُ أنْ يكونَ للتَّسويةِ، كما تَرِدُ صِيغةُ الأمْرِ للتَّسويةِ، أي: لا جَدْوى في استعجالِه؛ لأنَّه لا يُعَجَّلُ قبلَ وَقتِه المُؤجَّلِ له[٣].

- وجُملةُ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لأنَّها المقصودُ مِن الوعيدِ؛ إذ الوعيدُ والزَّجرُ إنَّما كانا لأجلِ إبطالِ الإشراكِ، فكانت جُملةُ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ كالمُقدِّمةِ، وجُملةُ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ كالمَقصدِ[٤].

- وعُبِّرَ بالاستقبالِ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ إشراكِهم واستمرارِه[٥].

- وقولُه أيضًا: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ -على قِراءةِ الجُمهورِ بالتَّحتيَّةِ- على طريقةِ الالْتفاتِ، فعدَلَ عن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ للإيذانِ باقتضاءِ ذِكرِ قبائِحِهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٥).

للإعراضِ عنهم، وطَرحِهم عن رُتبةِ الخطابِ، وحكايةِ شنائِعِهم لغيرِهم، وعلى تَقديرِ تَخصيصِ الخطابِ بالمُؤمنينَ تَفوتُ هذه النُّكتةُ[١].

- واتَّصلَ قولُه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ باستعجالِهم؛ لأنَّ استعجالَهم استهزاءٌ وتكذيبٌ، وذلك مِن الشِّركِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾

- قولُه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ فيه إيثارُ صِيغَةِ الاستقبالِ ﴿يُنَزِّلُ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ ذلك عادةٌ مُستمرَّةٌ له سُبحانَه[٣].

- قولُه: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ وَجهُ إضافةِ الأمرِ إلى اللهِ تَعالى: أنَّ مَعنى ﴿مِنۡ أَمۡرِهِ﴾ الجنسُ، أي: مِن أُمورِه، وهي شُؤونُه ومُقدَّراتُه الَّتي استأثَرَ بها؛ لِمَا تفيدُه الإضافةُ مِن التَّخصيصِ[٤].

- قولُه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ لمَّا كان الوحيُ به هَدْيُ العُقولِ إلى الحقِّ؛ فشُبِّهَ الوحيُ بالرُّوحِ كما يُشَبَّهُ العِلمُ الحقُّ بالحياةِ، وكما يُشَبَّهُ الجهلُ بالموتِ، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾[٥] [الأنعام: ١٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٢- ٥٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٨).

- قولُه: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ لمَّا كان هذا الخبَرُ مَسوقًا للَّذين اتَّخذوا مع اللهِ آلهةً أُخرى، وكان ذلك ضلالًا يَستحِقُّون عليه العِقابَ؛ جعَلَ إخبارَهم بضِدِّ اعتقادِهم، وتحذيرَهم ممَّا هم فيه إنذارًا، وفرَّعَ عليه ﴿فَٱتَّقُونِ﴾[1].

- قولُه: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ الضَّميرُ في ﴿أَنَّهُۥ﴾ للشَّأنِ، ومدارُ وَضعِه مَوضعَه ادِّعاءُ شُهرتِه المُغْنيةِ عن التَّصريحِ به، وفائدةُ تَصديرِ الجُملةِ به: الإيذانُ مِن أوَّلِ الأمرِ بفَخامةِ مَضمونِها، معَ ما فيه مِن زيادةِ تَقريرٍ له في الذِّهنِ؛ فإنَّ الضَّميرَ لا يُفْهَمُ منه ابتداءً إلَّا شأنٌ مُبْهَمٌ، له خطرٌ، فيَبْقَى الذِّهنُ مُترقِّبًا لِمَا يعقُبُه؛ فيتمكَّنُ لديه عندَ وُرودِه فضْلَ تمكُّنٍ[2].

- وقولُه أيضًا: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ خِطابٌ للمُستعجلينَ على طريقةِ الالْتفاتِ[3].

٣- قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عن قولِه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا ذلك تَرقَّبوا دليلَ تَنزيهِ اللهِ عن أنْ يكونَ له شُركاءُ، فابتدِئَ بالدَّلالةِ على اختصاصِه بالخلْقِ والتَّقديرِ، وأعقَبَ قولَه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ بقولِه: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ تحقيقًا لنتيجةِ الدَّليلِ، كما يُذْكَرُ المطلوبُ قبلَ ذِكْرِ القياسِ -في صِناعةِ المَنطقِ- ثمَّ يُذْكَرُ ذلك المطلوبُ عَقِبَ القياسِ في صُورةِ النَّتيجةِ؛ تحقيقًا للوَحدانيَّةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٠).

٤- قولُه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ أيضًا، وهو استدلالٌ آخرُ على انفرادِه تَعالى بالإلهيَّةِ ووَحدانيَّتِه فيها، وتَعريفُ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ، وهو تعريفُ الجنسِ، أي: خلَقَ الجنسَ المعلومَ الَّذي تَدْعونه بالإنسانِ[١].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ الفاءُ تدُلُّ على التَّعقيبِ، وكونُه خَصيمًا مُبينًا لا يكونُ عَقِبَ خلْقِه مِن نُطفةٍ، ولكنَّه إشارةٌ إلى ما تَؤولُ إليه حالُه[٢].

- والتعبير بحرفِ المُفاجأةِ (إذَا) جعَلَ الكلامَ مُفهِمًا أمرينِ، هما: التَّعجُّبُ مِن تطوُّرِ الإنسانِ مِن أمْهنِ حالةٍ إلى أبدَعِ حالةٍ، وهي حالةُ الخُصومةِ والإبانةِ النَّاشئتَينِ عن التَّفكيرِ والتَّعقُّلِ، والدَّلالةُ على كُفرانِه النِّعمةَ وصَرفِه ما أنعَمَ به عليه في عِصيانِ المُنعِمِ عليه؛ فالجُملةُ في حَدِّ ذاتِها تَنويهٌ، وبضَمِيمةِ حَرفِ المُفاجأةِ أدْمَجَت مع التَّنويهِ التَّعجيبَ، ولو قيل: (فهو خصيمٌ) أو (فكان خصيمًا)، لمْ يحصُلْ هذا المعنى البليغُ[٣].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٣).

الآيات (٥-٩)

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُرِيحُونَ﴾: أي: تَرُدُّونَها بالعَشِيِّ مِن مراعيها إلى مَبارِكِها التي تأوي إليها؛ ومنه الرَّواحُ؛ رَواحُ العَشِيِّ: وهو مِن الزَّوالِ إلى اللَّيلِ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ وفُسحةٍ واطِّرادٍ[١].

﴿تَسْرَحُونَ﴾: أي: تُخرِجُونَها بالغداةِ إلى مَراعِيها، وأصلُ (سرح): يدُلُّ على انطِلاقٍ[٢].

﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾: أي: بمشقَّتِها، والشِّقُّ: المشقَّةُ، والانكسارُ الذي يلحقُ النَّفسَ، والبدنَ، وأصلُ (شقق) يدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٨).

﴿لَرَءُوفٌ﴾: أي: شديدُ الرَّحمةِ، والرؤوفُ: ذو الرأفةِ، والرأفةُ أعلَى معاني الرحمةِ وأرقُّها، وأصلُ (رأف): يدُلُّ على رِقَّةٍ ورحمةٍ[١].

﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: الطَّريقُ القاصِدُ المُستقيمُ الذي لا اعوِجاجَ فيه؛ يقال: طَريقٌ قَصدٌ وقاصِدٌ: إذا أدَّاك إلى مَطلوبِك، وقصَدَ بك ما تريدُ، وأصلُ (قصد): يدُلُّ على إتيانِ شَيءٍ وأَمِّه[٢].

﴿جَآئِرٌ﴾: أي: عادِلٌ عن القَصدِ مائِلٌ، وأصلُ (جور): يدلُّ على مَيلٍ عن الطَّريقِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾

﴿وَٱلْخَيْلَ﴾: معطوفٌ مَنصوبٌ على (الأنعام) في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾، أي: وخلقَ الخيلَ. ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾: منصوبٌ بأن مُضمَرة، والمصدرُ المؤوَّلُ مجرورٌ باللامِ متعلِّقٌ بالفعلِ (خلق) المقدَّر، ﴿وَزِينَةً﴾: مفعولٌ لأجلِه مَنصوبٌ، وهو مَعطوفٌ على محلِّ المصدَرِ المؤوَّلِ، أي: للرُّكوبِ وللزِّينةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٤) (٣/ ٥٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥، ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٢).

(٤) إنَّما وُصِلَ الفِعلُ إلى الأوَّلِ باللامِ في قَولِه: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ وإلى ﴿وَزِينَةً﴾ بنفسِه؛ لاختلالِ شَرطٍ في الأوَّلِ وهو عدمُ اتِّحاد الفاعلِ؛ فإنَّ الخالقَ اللهُ، والراكِبَ المُخاطَبون، بخلافِ الثاني؛

وقيل: ﴿وَزِينَةً﴾ منصوبٌ على إضمارِ فِعلٍ، والتَّقديرُ: وجعَلَها زينةً. وقيل غيرُ ذلك[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: والإبِلَ والبَقَرَ والغَنَمَ خلَقَها اللهُ لكم -أيُّها النَّاسُ- وجعَلَ لكم فيها دِفئًا مِن البَردِ؛ من الثيابِ المأخوذةِ من أصوافِها وأوبارِها وأشعارِها، ومنافِعَ أُخَرَ من نسلِها وألبانِها ورُكوبِها وبَيعِها وغيرِ ذلك، ومِن لحومِها تأكلونَ، ولكم فيها زينةٌ تجلِبُ السُّرورَ لكم عندما تَرجِعونَها إلى مَنازِلِها في المَساءِ، وعندما تُخرِجونَها في الصَّباحِ إلى المراعي، وتحمِلُكم هذه الأنعامُ وأمتِعتَكم في سَفَرِكم إلى بلادٍ بعيدةٍ، لم تكونوا مُستَطيعينَ الوُصولَ إليها إلَّا بجَهدٍ شَديدٍ ومشَقَّةٍ بالغةٍ؛ إنَّ رَبَّكم لَرؤوفٌ رَحيمٌ بكم؛ حيث سخَّر لكم هذه الأنعامَ، وخلق اللهُ لكم أيضًا الخَيلَ والبِغالَ والحَميرَ؛ لكي تَركَبوها، وجعَلَها اللهُ لكم زينةً، ويخلُقُ لكم ما لا عِلْمَ لكم به، وإلى اللهِ ينتهي الطَّريقُ المُستَقيمُ فيُوصِلُ إليه- سُبحانَه- وإلى مَرضاتِه، ومِن الطُّرُقِ ما هو مائِلٌ مُعْوَجٌّ لا يُوصِلُ إلى اللهِ، ولو شاء اللهُ هدايتَكم لهداكم جميعًا للإيمانِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥﴾.

لأنَّ فاعِلَ الخَلقِ والتَّزيينِ هو اللهُ تعالى. يُنظر: ((شرح قطر الندى)) لابن هشام (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٦).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٤١٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٩٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٩٥)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٤/ ٢٨٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى خلْقَ الإنسانِ؛ ذكرَ ما امتَنَّ به عليه في قِوامِ مَعيشتِه، فذكرَ أوَّلًا أكثَرَها منافِعَ، وألزَمَ لِمَن أُنزِلَ القرآنُ بلُغتِهم، وذلك: الأنعامُ[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا صار التَّوحيدُ بذلك كالشَّمسِ، وكان كلُّ ما في الكونِ- مع أنَّه دالٌّ على الوحدانيَّةِ- نِعمةً على الإنسانِ يجِبُ عليه شُكرُها؛ شرعَ يعَدِّدُ ذلك تنبيهًا له على وُجوبِ الشُّكرِ بالتبَرُّؤِ من الكُفرِ، فقال مُقَدِّمًا الحيواناتِ؛ لأنَّها أشرَفُ مِن غَيرِها، وقدَّمَ منها ما ينفَعُ الإنسانَ؛ لأنَّه أجلُّ مِن غَيرِه، مُبتَدِئًا بما هو أَولاها بالذِّكرِ؛ لأنَّه أجَلُّها منفعةً في ضروراتِ المَعيشةِ، وألزَمُها لِمَن أُنزِلَ الذِّكرُ بلِسانِهم[2].

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَا﴾.

أي: وخلَقَ اللهُ الإبِلَ والبقَرَ والغنَمَ، فسخَّرها لِمصالِحكم أيُّها النَّاسُ[3].

﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٠٧-١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦).

قال الواحدي: (﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَا﴾؛ يعني: الإبلَ والبقَرَ والغنَمَ، ثم ابتدأ فقال: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾، ويجوزُ أن يكون تمامُ الكلامِ عند قوله: ﴿لَكُمۡ﴾ ثمَّ يبتدِئُ فيقول: ﴿فِيهَا دِفۡءٞ﴾). ((الوسيط)) (٣/ ٥٦).

وقال الرازي: (قال صاحبُ النظمِ [أبو علي الجرجاني]: أحسَنُ الوَجهينِ أن يكونَ الوَقفُ عند قَولِه: ﴿خَلَقَهَا﴾ والدَّليلُ عليه أنَّه عطَف عليه قولَه: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ﴾ والتقديرُ: لكم فيها دفءٌ، ولكم فيها جَمالٌ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٥).

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان أوَّلَ ما يُمكِنُ أن يَلقَى الإنسانُ عادةً مِن نِعَمِها اللِّباسُ؛ بدأ به، فقال تعالى[(١)]:

﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾.

أي: لكم- أيُّها النَّاسُ- في أصوافِ الأنعامِ وأوبارِها وأشعارِها مَلابِسُ وفُرُشٌ، وأغطيةٌ وأبنيةٌ تُدَفِّئُكم من البَردِ، ولكم فيها فوائِدُ كثيرةٌ مِن نَسلِها وألبانِها ودُهونِها، وبالحَرثِ بها، والسَّقيِ عليها، ورُكوبِها وبَيعِها، وغيرِ ذلك مِن مَنافِعِها[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١-٢٢].

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

أي: ومِن لُحومِ الأنعامِ تأكُلونَ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٩)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٧٢).

۞ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۞ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

أي: ولكم- أيُّها النَّاسُ- في الأنعامِ حُسْنٌ وجَمالٌ[1] يَجلِبُ لكم السُّرورَ والسَّعادةَ، وذلك حين تَرجِعونَها مَساءً مِن المَرعَى إلى مَنازِلِها، وحين تَذهَبونَ بها صَباحًا إلى مَراعيها[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧٠، ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٧).

قال الواحدي: (كما قال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، والمالُ ليس يخُصُّ الوَرِقَ والعَينَ، وأكثَرُ مالِ العرَبِ الإبلُ، كما أنَّ أكثَرَ أموالِ أهلِ البصرةِ النَّخلُ). ((البسيط)) (١٣/ ١٦).

وقال الرازي: (اعلَمْ أنَّ وجهَ التجمُّلِ بها: أنَّ الراعيَ إذا روَّحَها بالعَشيِّ وسَرَّحها بالغداةِ تزيَّنَت عند تلك الإراحةِ والتَّسريحِ الأفنيةُ، وتجاوَبَ فيها الثُّغاءُ والرُّغاءُ، وفَرِحَت أربابُها، وعظُمَ وقعُهم عندَ الناسِ؛ بسببِ كونِهم مالكينَ لها). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٦).

وقال القرطبي: (جمالُ الأنعامِ والدوابِّ مِن جمالِ الخِلقةِ، وهو مرئيٌّ بالأبصارِ موافِقٌ للبصائِرِ. ومِن جمالِها كَثرتُها وقَولُ النَّاسِ إذا رأَوها: هذه نَعَمُ فلانٍ، قاله السُّدِّي، ولأنَّها إذا راحت توفَّرَ حسنُها وعَظُم شأنُها وتعلَّقت القلوبُ بها؛ لأنَّها إذ ذاك أعظَمُ ما تكون أسنِمةً وضروعًا، قاله قتادة). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧١).

أي: وتَحمِلُ الأنعامُ[١] أبدانَكم وأمتِعتَكم في أسفارِكم مِن بلدٍ إلى آخَرَ لم تكونوا واصِلينَ إليه- مِن دُونِ الأنعامِ- إلَّا بجَهدٍ شَديدٍ مِن أنفُسِكم، ومَشقَّةٍ كبيرةٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[غافر: ٧٩-٨٠].

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ ربَّكم- الذي خلقَ الأنعامَ، وسخَّرها لِمَصالِحكم- لَذو رأفةٍ ورَحمةٍ بكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۞ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ

---

(١) قال القرطبي: (منَّ الله -سُبحانه- بالأنعامِ عُمومًا، وخصَّ الإبلَ هنا بالذِّكرِ في حَملِ الأثقالِ على سائرِ الأنعامِ؛ فإنَّ الغنَمَ للسَّرْحِ والذَّبحِ، والبقَرَ للحَرثِ، والإبِلَ للحَملِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧٢).

وقال ابنُ عاشور: (الضميرُ عائدٌ إلى أشهَرِ الأنعام عندهم وهي الإبلُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٥).

وقيل: المرادُ: الإبلُ والبقرُ؛ فالبقرُ تُطيقُ كما تُطيقُ الإبلُ، وفي بعضِ الأقطارِ يحملونَ الأحمالَ الثقيلةَ على ذكورِ البقرِ إلى بلادٍ بعيدةٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٩٦)، ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٣٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٥، ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦).

تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢-١٣].

﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى منافِعَ الحَيواناتِ التي ينتَفِعُ الإنسانُ بها في المنافِعِ الضَّروريَّةِ والحاجاتِ الأصليَّةِ؛ ذكَرَ بعدَه منافِعَ الحيواناتِ التي ينتَفِعُ بها الإنسانُ في المنافِعِ التي ليست بضروريَّةٍ[١].

﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ﴾.

أي: وخلَقَ اللهُ لكم- أيُّها النَّاسُ- الخَيلَ والبِغالَ والحَميرَ؛ لِتَركبوا على ظُهورِها، وجعَلَها اللهُ زينةً لكم[٢].

﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ويَخلقُ ما لا يُحيطُ عِلمُكم به مِن المخلوقاتِ، غيرَ ما أخبَرَكم به، وعدَّدَه لكم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٦٩)، (تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٠، ١١١).

للمفسِّرين في معنى هذه الآيةِ أقوالٌ شتَّى؛ قال الشوكاني: (﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: يخلُقُ ما لا يحيطُ عِلمُكم به مِن المخلوقاتِ غيرَ ما قد عدَّده هاهنا. وقيل: المرادُ من أنواعِ الحشَراتِ

كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى من الحيواناتِ ما يُسارُ عليه في السُّبُلِ الحِسِّيَّة، نبَّه على الطُّرُقِ

والهوامِّ في أسافِلِ الأرض وفي البحرِ، مِمَّا لم يَرَه البشَرُ ولم يَسمَعوا به. وقيل: هو ما أعَدَّ الله لعباده في الجنَّةِ وفي النارِ مِمَّا لم تَرَه عينٌ، ولم تسمَعْ به أُذُنٌ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ... ولا وَجْهَ للاقتصارِ في تفسيرِ هذه الآية على نوعٍ مِن هذه الأنواع، بل المرادُ أنَّه سبحانه يخلُقُ ما لا يَعلَمُ به العبادُ، فيشمَلُ كُلَّ شيءٍ لا يحيطُ عِلمُهم به). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٩).

واختار ابنُ جريرٍ أنَّ المرادَ ما أعدَّه الله تعالى في الجنةِ لأهلِها، وفي النارِ لأهلِها، مما لم تره عينٌ، ولا سمِعته أذنٌ، ولا خطَر على قلبِ بشرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧٦-١٧٧).

وقال ابنُ عطيةَ: (وكلُّ مَن خصَّص في تفسيرِ هذه الآيةِ شيئًا، كقولِ مَن قال: سوسُ الثيابِ وغيرِ ذلك، فإنَّما هو على جهةِ المثالِ، لا أنَّ ما ذكَره هو المقصودُ في نفسِه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٠).

وبعضُ المفسِّرينَ المعاصرين ألحقَ وسائِلَ المواصلاتِ المعاصرةِ في معنى الآيةِ. ومنهم: ابنُ عاشورٍ، والسَّعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦). ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٥).

قال السعدي: (﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ممَّا يكونُ بعدَ نزول القرآنِ مِن الأشياءِ التي يركبُها الخلقُ في البَرِّ والبحر والجوِّ، ويستعملونَها في منافعِهم ومصالحهم؛ فإنَّه لم يذكُرْها بأعيانِها؛ لأنَّ الله تعالى لا يذكُرُ في كتابِه إلَّا ما يَعرفُه العِبادُ، أو يعرفونَ نظيرَه، وأمَّا ما ليس له نظيرٌ في زمانِهم فإنَّه لو ذُكرَ لم يعرفوه، ولم يفهَموا المرادَ منه، فيذكُر أصلًا جامعًا يدخلُ فيه ما يعلمون وما لا يعلمونَ، كما ذكر نعيمَ الجنَّة، وسَمَّى منه ما نعلمُ ونشاهِدُ نظيرَه، كالنخلِ والأعنابِ والرمَّانِ، وأجملَ ما لا نعرِفُ له نظيرًا في قولِه: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] فكذلك هنا؛ ذكَر ما نعرفُه من المراكبِ كالخيل والبغال والحميرِ، والإبل والسفُن، وأجملَ الباقيَ في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦).

المعنويَّةِ الدِّينيَّةِ، وكثيرًا ما يقَعُ في القرآنِ العُبورُ مِن الأمورِ الحسِّيَّةِ إلى الأمورِ المعنويَّةِ النَّافعةِ الدِّينيَّةِ، فلَمَّا ذكَر في هذه السُّورةِ الحيواناتِ مِن الأنعامِ وغَيرِها، التي يركبونَها، ويَبلُغونَ عليها حاجةً في صُدورِهم، وتحمِلُ أثقالَهم إلى البلادِ، والأماكنِ البَعيدةِ، والأسفارِ الشَّاقَّةِ؛ شرعَ في ذِكرِ الطُّرُقِ التي يَسلُكُها النَّاسُ إليه[1].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وإلى اللهِ ينتهي طريقُ الحَقِّ المُستَقيمُ، فيُوصِلُ مَن سلَكه إلى اللهِ، ونَيلِ رِضاه وجَنَّتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢].

وعن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((خَطَّ لنا رسولُ الله صلَّى الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٠).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧، ٥٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٣٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٥، ٣٣٦).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ: الواحدي، وابنُ تيمية، وابنُ القيم، وابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: وعلى الله بيانُ طريقِ الحَقِّ المستقيمِ. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والقرطبي، ونسَبه الواحدي إلى أكثرِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٢-٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٨١). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٥، ٣٣٦).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧٧).

عليه وسلَّم خطًّا ثم قال: هذا سبيلُ اللهِ؛ ثم خَطَّ خُطوطًا عن يمينِه وعن شِمالِه؛ ثم قال: هذه سُبُلٌ- قال يَزيدُ [هو ابنُ هارونَ أحدُ رواةِ الحديثِ]: مُتَفَرِّقةٌ- على كُلِّ سبيلٍ منها شَيطانٌ يدعو إليه، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]))[١].

﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾.

أي: ومِن الطُّرُقِ المَسلوكةِ طُرُقٌ مُعوَجَّةٌ، غيرُ مُستقيمةٍ، لا تُوصِلُ سالِكَها إلى اللهِ، ونَيلِ رِضاه وجَنَّتِه[٢].

﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان أكثَرُ الخَلقِ ضَالًّا، كان ربَّما توهَّمَ مُتوَهِّمٌ أنَّه خارِجٌ عن الإرادةِ، فنفَى هذا التوهُّمَ بقَولِه- عَطفًا على ما تقديرُه: فمَن شاء هَداه قَصْدَ السَّبيلِ، ومن شاء أسلَكَه الجائِرَ، وهو قادِرٌ على ما يُريدُ مِن الهدايةِ والإضلالِ[٣].

﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

أي: ولو شاء اللهُ لَهَداكم جميعًا- أيُّها النَّاسُ- إلى سُلوكِ الطَّريقِ المُستَقيمةِ،

---

(١) أخرجه أحمد (٤١٤٢) واللفظ له، والدارمي (٢٠٢)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٧٤)، وابن حبان (٧).
ذكر ابنُ القيِّم في ((طريق الهجرتين)) (١٥٢) أنَّه ثابتٌ، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٦/ ٨٩)، وصحَّحه ابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (٤/ ٢٨١)، والألباني في ((شرح الطحاوية)) (٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١١٥-١١٦).

ولكِن اقتَضَت حِكمتُه أن يهديَ مَن يشاءُ بفَضلِه، ويُضِلَّ مَن يشاءُ بعَدلِه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٩٩-١٠٠].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ عبَّرَ عن نَسلِها ودَرِّها بلَفظِ المَنفعةِ، وهو اللَّفظُ الدَّالُّ على الوَصفِ الأعَمِّ؛ لأنَّ النَّسلَ والدَّرَّ قد يُنتفَعُ به في الأكلِ، وقد يُنتفَعُ به في البَيعِ بالنُّقودِ، وقد يُنتفَعُ به بأن يُبدَّلَ بالثِّيابِ وسائرِ الضَّروريَّاتِ، فعبَّرَ عن جُملةِ هذه الأقسامِ بلَفظِ المَنافِعِ؛ ليتناولَ الكُلَّ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ناسبَ الامتنانَ بهذه النِّعمةِ- مِن حَملِها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٥).

الأثقالَ- الخَتمُ بصِفةِ الرَّأفةِ والرَّحمةِ؛ لأنَّ مِن رأفتِه تَيسيرَ هذه المصالحِ، وتَسخيرَ الأنعامِ لكم[١].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾ فيه دليلٌ على جوازِ السَّفرِ بالدَّوابِّ وحملِ الأثقالِ عليها، ولكنْ على قدرِ ما تحتملُه مِن غيرِ إسرافٍ في الحملِ معَ الرِّفقِ في السَّيرِ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾ فيه دليلٌ على جوازِ الحَملِ على البَقَرِ ورُكوبِها[٣]، على اعتبارِ أنَّ الضميرَ يعودُ على الإبلِ والبقرِ.

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ أفعالَ اللهِ تعالى مُعلَّلةٌ بالمَصالحِ والحِكَمِ؛ فظاهِرُ هذه الآيةِ يقتضي أنَّ هذه الحَيواناتِ مَخلوقةٌ لأجلِ المَنفعةِ المَذكورةِ[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قرنَ الخيلَ بالبِغالِ والحَميرِ، وأخذ المالكيَّةُ من الاقترانِ المذكورِ ردًّا على الحنفيَّةِ في قَولِهم بوُجوبِ الزَّكاةِ فيها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٢).

ويُنظر: ((المقدمات الممهدات)) لابن رشد الجد (١/ ٣٢٣)، ((فتح القدير)) للكمال ابن الهمام (٢/ ١٨٣).

٧- في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ ﴾ دليلٌ على جوازِ طَلَبِ العبدِ للجمالِ والزينةِ -إذا جُرِّدَ صاحبُها مِن الفخر والخيلاء؛ وأراد بهما إظهارَ نعمةِ اللهِ عليه- وأنَّه ليس بمؤَثِّرٍ في نُسكِ الناسكِ؛ وليس مِن الدنيا المذمومةِ؛ فقد جعلَه سبحانه في عِدَادِ النعمةِ على خَلْقِه[١].

٨- في قولِه تعالى: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾، وقولِه سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾ [البقرة: ٢٩] دليلٌ على أنَّه يجوزُ لنا أنْ ننتفِعَ بالبهائمِ بجميعِ وجوهِ الانتفاعِ[٢].

٩- قال الله تعالى عن الأنعام: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ ﴾، فلم يَذكُرِ الأكلَ؛ لأنَّ البِغالَ والحُمُرَ مُحَرَّمٌ أكلُها، والخيلَ لا تُستعمَلُ -في الغالبِ- للأكلِ، فلم يذكُرْ مِن منافعِ الخيلِ الأكلَ معَ أنَّه جائزٌ أكلُه، فقد ثبَت في الصَّحيحَينِ[٣]: ((أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أذِنَ في لُحومِ الخَيلِ))، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّه لا ينبغي أنْ تُجْعَلَ الخيلُ للأكلِ، وإنما تُجْعَلُ للركوبِ، وللزينةِ، وللجهادِ في سبيلِ اللهِ، أمّا الأكلُ فهناك ما يكفي عنها -وهي الأنعامُ-، فالإبلُ أكبرُ منها أجسامًا، وأكثرُ منها لحومًا، والبقرُ، والغنمُ، ولأنها لو اتُّخِذَتْ للأكلِ لَفَنِيَتْ، وبَطَلَ الانتفاعُ بها في الجهادِ في سبيلِ اللهِ، فهذه هي الحكمةُ -واللهُ أعلمُ- في أنها قُرِنَتْ بالبغالِ والحَميرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٥٢٩).

(٣) البخاري (٥٥٢٠)، ومسلم (١٩٤١) -واللفظ له- من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٥/ ٣٠).

١٠- قولُه تعالى: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ يُوحي بأنَّ هناك أشياءَ ستحدُثُ -لا نعْلَمُها- تُرْكَبُ، وهذا هو الواقعُ[١]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَا ﴾ يجوزُ أنْ يُعْطَفَ ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ ﴾ عطْفَ المُفرَدِ على المُفرَدِ عطفًا على ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ فيحصُلُ اعتبارٌ بهذا التَّكوينِ العجيبِ لِشَبَهِه بتكوينِ الإنسانِ، وتكونُ جُملةُ ﴿خَلَقَهَا﴾ بمُتعلِّقاتِها مُستأنَفةً؛ فيحصُلُ بذلك الامتنانُ. ويجوزُ أنْ يكونَ عطْفَ الجُملةِ على الجُملةِ، فيكونُ الكلامُ مُفيدًا للتَّأكيدِ؛ لقَصدِ تَقويةِ الحكمِ؛ اهتمامًا بما في الأنعامِ من الفوائدِ؛ فيكونُ امتنانًا على المُخاطَبينَ، وتعريضًا بهم[٢].

- قولُه: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ الخِطابُ صالحٌ لشُمولِ المُشركينَ، وهم المقصودُ ابتداءً مِن الاستدلالِ، وأنْ يشمَلَ جميعَ النَّاسِ، ولا سيَّما فيما تضمَّنَه الكلامُ من الامتنانِ، وفيه الْتفاتٌ من طَريقِ الغَيبةِ الَّذي في قولِه تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ٣] باعتبارِ بعضِ المُخاطَبينَ[٣].

- وفي قولِه: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ التَّعبيرُ بـ (مَنَافِعُ)

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١١/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عن دَرِّ الأنعامِ ورُكوبِها وحَملِها والحراثةِ بها وغيرِ ذلك؛ ليتناوَلَ الكلَّ مع أنَّه الأنسبُ بمَقامِ الامتنانِ بالنِّعمِ. وتَقديمُ الدِّفْءِ على المنافعِ؛ لرعايةِ أُسلوبِ التَّرقِّي إلى الأعلى(١).

- وقدَّم الملبوسَ على المطعومِ؛ لأنَّ الملبوسَ أكثَرُ بقاءً مِن المطعومِ؛ فلهذا قَدَّمَه عليه في الذِّكرِ(٢).

- وخصَّ الدِّفْء بالذِّكرِ مِن بينِ عُمومِ المنافعِ؛ للعِنايةِ به(٣)، وأفرَد منفعةَ الأكلِ بالذكرِ؛ لأنَّها معظمُ المنافعِ(٤)، فمَنفعةُ الأكلِ ومنفعةُ الدِّفءِ مِن أعظَمِ المَنافِعِ(٥).

- قولُه: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فيه: تقديمُ الظَّرفِ، وهو مُؤذِنٌ بالاختصاصِ، وقد يُؤْكَلُ مِن غيرِها؛ إلَّا أنَّ الأكلَ منها هو الأصلُ الَّذي يعتمِدُه النَّاسُ في معايشِهم، وأمَّا الأكلُ مِن غيرِها، فكغيرِ المُعتدِّ به، وكالجاري مَجْرى التَّفكُّهِ. ويحتملُ أنَّ طُعمتَكم منها؛ لأنَّكم تَحرُثون بالبقرِ، فالحبُّ والثِّمارُ الَّتي تَأكُلونها منها، وتكتسِبونَ بإكراءِ الإبلِ، وتَبيعونَ نِتاجَها وألبانَها وجُلودَها(٦). وقيل: تَقديمُ المجرورِ في قولِه تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٧).

ومن أهلِ العلمِ مَن رد القولَ بأنَّ التَّقديمَ يُفيدُ الاختصاصَ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٦).

للاهتمامِ؛ لأنَّهم شَديدو الرَّغبةِ في أكلِ اللُّحومِ، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[١].

- والإتيانُ بالمُضارعِ ﴿تَأْكُلُونَ﴾؛ لأنَّ ذلك مِن الأعمالِ المُتكرِّرةِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾

- قوله: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ خَصَّ هذَينِ الوَقتينِ؛ لأنَّ وجهَ التجمُّلِ بها: أنَّ الرَّاعيَ إذا روَّحَها بالعَشيِّ، وسَرَّحها بالغَداةِ تزيَّنَت عند تِلكَ الإراحةِ والتَّسريحِ الأفنيةُ، وتجاوَبَ فيها الثُّغاءُ والرُّغاءُ[٣]، وفَرِحَت أَربابُها، وعظُمَ وقعُهم عند الناسِ؛ بسَبب كونِهم مالكينَ لها، ولأنَّ هذَينِ الوَقتينِ هما وقتُ نَظَرِ النَّاظِرينَ إليها؛ لأنَّها عند استقرارِها في الحظائِرِ لا يَراها أحَدٌ، وعند كَونِها في مَراعيها هي متفَرِّقةٌ غيرُ مُجتَمِعةٍ؛ كُلُّ واحدٍ منها يَرعَى في جانبٍ[٤].

- وقُدِّمَت الإراحةُ على التَّسريحِ لوجوهٍ:

منها: أنَّ الجَمالَ في الإراحةِ أكثَرُ؛ لأنَّها تُقبِلُ وقد نالت حاجتَها من الأكلِ والشُّربِ، مَلأى البُطونِ، حافلةَ الضُّروعِ، أعظمُ ما تكونُ أسنمةً، مَرِحةً بمسَرَّةِ الشِّبَعِ، ومَحبَّةِ الرُّجوعِ إلى منازِلِها مِن معاطِنَ ومَرابِضَ، ثم اجتَمَعت في الحظائِرِ حاضِرةً لأهلِها، قد توفَّر حسنُها، وعظُم شأنُها، وتعلَّقت القلوبُ بها؛ بخلافِ التَّسريحِ؛ فإنَّها عند خُروجِها إلى المرعى تخرُجُ جائِعةً عادِمةَ اللَّبنِ، ثم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الثُّغاء: صوتُ الشاءِ والماعزِ وما شاكَلهما. والرُّغاء: صوتُ ذواتِ الخُفِّ، كالإبل. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٢٩٣) و(٦/ ٢٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٨).

تأخُذُ في التفرُّقِ والانتشارِ، فظهَر أنَّ الجَمالَ في الإراحةِ أكثَرُ منه في التَّسريحِ؛ لتكاملِ درِّها، وسرورِ النفسِ بها إذ ذاك[١].

ومنها: أنَّ المنافِعَ منها إنَّما تُؤخَذُ بعد الرَّواحِ[٢].

- والإتيانُ بالمُضارعِ في ﴿تُرِيحُونَ﴾ و﴿تَسْرَحُونَ﴾؛ لأنَّ ذلك مِن الأحوالِ المُتكرِّرةِ، وفي تكرُّرِها تكررُ النِّعمةِ بمَناظرِها[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ لعلَّ تغييرَ النَّظمِ الكريمِ السَّابقِ الدَّالِّ على كونِ الأنعامِ مَدارًا للنِّعمِ السَّابقةِ إلى الجُملةِ الفعليَّةِ المُفيدةِ لمُجرَّدِ الحُدوثِ؛ للإشعارِ بأنَّ هذه النِّعمةَ ليست في العُمومِ -بحسَبِ المنشَأِ وبحسَبِ المُتعلَّقِ، وفي الشُّمولِ للأوقاتِ والاطِّرادِ في الأحيانِ المعهودةِ- بمَثابةِ النِّعمِ السَّالفةِ؛ فإنَّها بحسَبِ المنشَأِ خاصَّةٌ بالإبلِ، وبحسَبِ المُتعلَّقِ: بالضَّاربينَ في الأرضِ، المُتقلِّبينَ فيها للتِّجارةِ وغيرِها في أحايينَ غيرِ مُطَّرِدةٍ، وأمَّا سائرُ النِّعمِ المَعدودةِ فمَوجودةٌ في جميعِ أصنافِ الأنعامِ، وعامَّةٌ لكافَّةِ المُخاطَبينَ دائمًا، أو في عامَّةِ الأوقاتِ[٤].

- وأفاد قولُه: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ معنى: تحمِلُكم وتُبَلِّغُكم، بطَريقةِ الكِنايةِ القريبةِ من التَّصريحِ؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه تعالى: ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٤)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧٠-٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٦).

- وطابَقَ قولُه: ﴿لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾ قولَه: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾، ولم يقُلْ: (لمْ تكونوا حامِليها إليه)؛ لأنَّ طِباقَه مِن حيثُ إنَّ معناه: وتحمِلُ أثقالَكم إلى بلدٍ بعيدٍ قد علِمْتُم أنَّكم لا تبلُغونَه بأنفُسِكم إلَّا بجَهدٍ ومشقَّةٍ، فضلًا أنْ تَحمِلوا على ظُهورِكم أثقالَكم. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: لمْ تكونوا بالِغيه بها إلَّا بشِقِّ الأنفُسِ. وقيل: ﴿أَثْقَالَكُمْ﴾: أجرامَكم[١].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾، أي: خلَقَها لهذه المنافِعِ؛ لأنَّه رَؤوفٌ رَحيمٌ بكم[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

- اقتصَرَ على الرُّكوبِ؛ لأنَّه أعظَمُ منافِعِها[٣].

- قولُه: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ لم يَرِدِ المعطوفُ ﴿زِينَةً﴾ والمعطوفُ عليه مَحَلُّ ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ على سَننٍ واحدٍ، حيث لم يقُلْ: (ولتَتزيَّنوا بها)؛ لأنَّ الرُّكوبَ فِعْلُ المُخاطَبين، وأمَّا الزِّينةُ ففِعْلُ الزَّائنِ[٤]، وهو الخالِقُ سُبحانَه وتَعالى[٥]. وقيل: التَّحقيقُ فيه أنَّ الرُّكوبَ هو المعتبرُ في المقصودِ، بخلافِ الزينةِ، فكأنَّه سبحانَه قال: خلقتُها لتركَبوها؛ فتَدْفَعوا عن أنفسِكم بواسطتِها ضررَ الإعياءِ والمشقَّةِ، وأمَّا التَّزيُّنُ بها فهو حاصلٌ في نفسِ الأمرِ، ولكنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٨).

(٤) ليس هذا مِن بابِ التسميةِ للهِ تعالَى؛ فأسماءُ الله توقيفيةٌ، إنَّما هو إخبارٌ عنه سبحانَه، وهو أوسعُ مِن بابِ الأسماءِ والصفاتِ.

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٥).

غيرُ مقصودٍ بالذَّاتِ[١].

- وفيه تأخيرُ الزِّينةِ عن الرُّكوبِ؛ لكونِ الرُّكوبِ أهمَّ منه[٢].

- قولُه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيه العُدولُ إلى صِيغَةِ الاستقبالِ؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ، أو لاستحضارِ الصُّورةِ، أو يخلُقُ لكم في الجنَّةِ غيرَ ما ذُكِرَ مِن النِّعمِ الدُّنيويَّةِ[٣]. وقيل: إنَّ ﴿يَخْلُقُ﴾ مُضارعٌ مُرادٌ به زمنُ الحالِ لا الاستقبالِ، أي: هو الآن يخلُقُ ما لا تعلمونَ أيُّها النَّاسُ ممَّا هو مَخلوقٌ لنَفعِهم وهم لا يَشعُرون به، فكما خلَقَ لهم الأنعامَ والكُراعَ، خلَقَ لهم ويخلُقُ لهم خلائقَ أُخرى لا يَعلمونها[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ؛ اقتضَتِ اعتراضَها مُناسبةُ الامتنانِ بنِعمةِ تَيسيرِ الأسفارِ بالرَّواحلِ والخيلِ والبغالِ والحميرِ، وإضافةُ ﴿قَصْدُ﴾ إلى ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى المَوصوفِ، وهي صِفةٌ مُخصِّصةٌ؛ لأنَّ التَّعريفَ في ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ للجنسِ[٥].

- قولُه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ فيه إيثارُ حَرفِ الاستعلاءِ على أداةِ الانتهاءِ (إلى)؛ لتأكيدِ الاستقامةِ على وَجهٍ تَمثيليٍّ مِن غيرِ أنْ يكونَ هناك استعلاءٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١١١- ١١٢).

لشَيءٍ عليه سُبحانَه وتَعالى عنه عُلوًّا كبيرًا، كما في قولِه تَعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾[1] [الحجر: ٤١].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٠).

الآيات (١٠-١٨)

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٌ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُسِيمُونَ﴾: أي: تَرعَونَ أنعامَكم، وأصلُ (سوم): يدُلُّ على طلَبِ الشَّيءِ[(١)].

﴿وَسَخَّرَ﴾: أي: ذلَّل، والتَّسْخِيرُ: سياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قَهرًا، وأصل (سخر): يدلُّ على استذلالٍ[(٢)].

﴿ذَرَأَ﴾: أَي: خلَق؛ يُقالُ: ذرأ اللهُ الخَلقَ: أي: أظهَرَهم بالإيجادِ بعد العدَمِ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢).

وأصلُ (ذرأ): يدُلُّ على الإظهارِ[١].

﴿مَوَاخِرَ﴾: أي جواريَ تَشُقُّ الماءَ مع صَوتٍ، وأصلُ (مخر): يدُلُّ على شَقٍّ وفَتحٍ[٢].

﴿رَوَاسِيَ﴾: أي: جبالًا ثوابِتَ، وأصلُ (رسو): يدلُّ على ثباتٍ[٣].

﴿تَمِيدَ﴾: أي: تَضطَرِب، وتتحَرَّك يَمنةً ويَسرةً، وأصلُ (ميد): يدُلُّ على حَركةٍ في شَيءٍ[٤].

﴿وَسُبُلًا﴾: أي: طُرُقًا، وسُمِّي الطَّريقُ بذلك؛ لامتِدادِه، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على امتِدادِ شيءٍ[٥].

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾: أي: مَعالمَ للطُّرُقِ نَهارًا، وأصلُ (علم): يدلُّ على أثَرٍ بالشَّيءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٩)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٢٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٣)، ((أساس البلاغة)) للزمخشري (٢/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٨)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٦١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٥).

يتميَّزُ به عن غَيرِه[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: اللهُ الذي أنزلَ لكم مِن السَّحابِ مطَرًا، فجعلَ لكم منه ماءً تَشرَبونَه، وأخرجَ لكم به شجَرًا تَرعَونَ فيه أنعامَكم، يُخرِجُ لكم بهذا الماءِ الزُّروعَ والزَّيتونَ والنَّخيلَ والأعنابَ، ومِن كلِّ أنواعِ الثِّمارِ والفَواكِه. إنَّ في ذلك الإنباتِ لدَلالةً واضِحةً لِقَومٍ يتأمَّلونَ فيَعتَبِرونَ. وسخَّر لكم اللَّيْلَ لراحتِكم، والنَّهارَ لِمَعاشِكم، وسخَّرَ لكم الشَّمسَ والقمَرَ؛ لِمَعرفةِ السِّنينَ والحِسابِ، وغيرِ ذلك من المنافِعِ، والنُّجومُ في السَّماءِ مُذَلَّلاتٌ لكم بأمْرِ اللهِ؛ لتَهتَدوا بها في ظُلُماتِ البرِّ والبحرِ. إنَّ في ذلك التَّسخيرِ لَدلائلَ واضِحةً لقومٍ يَعقِلونَ. وسخَّر ما بثَّه لكم في الأرضِ مِن الدوابِّ والثِّمارِ وغيرِ ذلك ممَّا تختلِفُ ألوانُه ومَنافِعُه، إنَّ في ذلك لَعِبرةً لقَومٍ يتَّعِظونَ.

وهو الذي سخَّر لكم البَحرَ لتأكُلوا منه سَمكًا طَريًّا، وتَستخرِجوا منه زينةً -من اللآلِئِ وغيرِها- تَلبَسونَها. وترى السُّفُنَ تشُقُّ الماءَ حالَ جَرَيانِها، فيُسمَعُ لذلك صوتٌ، ولتَطلُبوا رِزقَ اللهِ، ولعلَّكم تَشكُرونَ اللهَ تعالى على نِعَمِه العظيمةِ، فلا تعبُدونَ غيرَه. وجعَلَ في الأرضِ جِبالًا تُثَبِّتُها حتى لا تَضْطَربَ بكم، وجعلَ فيها أنهارًا لتشربُوا منها، وتسقيَ أنعامَكم وحرثَكم، وجعل فيها طُرُقًا لتهتَدوا بها في الوُصولِ إلى الأماكنِ التي تُرِيدونها، وجعل في الأرضِ معالِمَ تَستدِلُّونَ بها على الطُّرُقِ نَهارًا، كما جعل النُّجومَ للاهتداءِ بها ليلًا. أفمن يخلُقُ مِثلَ تلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤).

المخلوقاتِ، كمَن لا يخلُقُ شيئًا؟! أفلا تتذكَّرونَ نِعمةَ اللهِ عليكم، فتُفرِدوه بالعبادةِ؟! وإن تعدُّوا نِعَمَ اللهِ عليكم، لا تَستطيعوا حَصرَها؛ لكَثرتِها وتنَوُّعِها، إنَّ اللهَ لَغفورٌ لكم رَحيمٌ بكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٌ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لمَّا قَرَّر اللهُ تعالى الاستدلالَ على وجودِ الصَّانعِ الحكيمِ بعجائبِ أحوالِ الحيواناتِ؛ أتبَعَه في هذه الآيةِ بذِكرِ الاستدلالِ على وجودِ الصَّانعِ الحكيمِ بعجائبِ أحوالِ النَّباتِ[1].

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا امتَنَّ بإيجادِهم بعدَ العدَمِ، وإيجادِ ما ينتَفِعونَ به من الأنعامِ وغَيرِها مِن الرُّكوبِ؛ ذكَرَ ما امتَنَّ به عليهم مِن إنزالِ الماءِ الذي هو قِوامُ حياتِهم، وحياةِ الحيوان، وما يتولَّدُ عنه من أقواتِهم وأقواتِها من الزَّرعِ[2].

وأيضًا لَمَّا كان ما مضَى كفيلًا ببيانِ أنَّه -تعالى- الواحِدُ المُختارُ؛ شرَعَ يوضِّحُ ذلك بتفصيلِ الآياتِ إيضاحًا يدَعُه في أتمِّ انكشافٍ في سياق مُعَدِّدٍ للنِّعَم، مُذَكِّرٍ بها، داعٍ إلى شُكرِها، فقال بعدما دَلَّ به من الإنسانِ، وما يليه في الشَّرفِ مِن الحيوانِ، مُبتدِئًا بما يليهما في الشَّرَف من النباتِ[3]:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١١٦).

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾.

أي: اللهُ الذي أنعَمَ بكُلِّ تلك النِّعَمِ، هو الذي أنزلَ مِن السَّحابِ مطَرًا[١].

﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾.

أي: لكم مِن المطَرِ ماءٌ عَذْبٌ تَشرَبونَه، وأخرج اللهُ لكم به شجرًا تَرعَونَ فيه أنعامَكم[٢].

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكر - تعالى - الحيواناتِ تفصيلًا وإجمالًا، ذكرَ الثِّمارَ تفصيلًا وإجمالًا[٣].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان الشَّجَرُ عامًّا، شرع سبحانَه يفَصِّلُه تنويعًا للنِّعَم، وتذكيرًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١).

قال الشنقيطي: (﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾، أَيْ: ترعَوْنَ مواشِيَكم السَّائمةَ في ذلك الشَّجرِ الَّذي هو المرعَى. والعربُ تُطلِقُ اسمَ الشَّجرِ على كلِّ ما تُنبِتُه الأرضُ مِنَ المرعَى). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٤٠).

وقال الرسعني: (﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ على حذفِ المضافِ، أي: ومنه شربُ شجرٍ، أو يكونُ المعنى: ومنه ينشأُ الشجرُ ويتكوَّنُ. فعلى المعنى الأوَّلِ: «من» للتبعيضِ، وعلى الثاني: لابتداءِ الغايةِ. والمرادُ به: الشجرُ الذي ترعاه المواشي، لقولِه: ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾، أي: ترعَوْن). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٢٠).

بالتَّفاوُت؛ إشارةً إلى أنَّ الفعلَ بالاختيارِ، فقال مُبتَدِئًا بالأنفَعِ في القُوتيَّةِ والائتدامِ والتَّفَكُّهِ[١]:

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ ﴾.

أي: يُخرِجُ اللهُ لكم بماءِ المطَرِ أنواعَ الزُّروعِ، والزَّيتونَ، والنَّخيلَ، والأعنابَ[٢].

﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾.

أي: ويخرِجُ لكم به مِن كُلِّ أنواعِ الفَواكِهِ أنواعًا أخرى غيرَ ذلك[٣].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

أي: إنَّ في إنباتِ اللهِ أنواعَ الزُّروعِ والثِّمارِ بالمطَرِ لدَلالةً واضِحةً لِمَن شأنُهم وعادتُهم أن يتفكَّروا في مَخلوقاتِ الله، وما أقامه من الحُجَجِ، فيَستَدِلُّوا بها على وحدانيَّتِه، وكَمالِ قُدرتِه على البَعثِ وغَيرِه، وعلى رَحمتِه، وأنَّه المُبدِعُ الحَكيمُ الذي أنبت أصنافًا مختلفةً مِن ماءٍ واحدٍ[٤].

كما قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٢).

قال ابن كثير: (يُخرِجُها من الأرضِ بهذا الماء الواحدِ، على اختلافِ صنوفِها، وطُعومِها، وألوانِها، وروائحِها، وأشكالِها). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١١٨-١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٥).

بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا احتَجَّ على إثباتِ وحدانيتِه في المَرتبةِ الأولى بأجرامِ السَّمواتِ، وفي المرتبةِ الثَّانيةِ ببَدَنِ الإنسانِ ونَفسِه، وفي المرتبةِ الثَّالثةِ بعجائِبِ خِلقةِ الحيواناتِ، وفي المرتبةِ الرابعةِ بعجائبِ أحوالِ النَّبات؛ ذكَرَ في المرتبة الخامسةِ الاستدلالَ بعجائبِ أحوالِ العناصرِ، فبدأ منها بالاستدلالِ بعُنصرِ الماءِ[1].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾.

أي: وذلَّل اللهُ لكم- أيُّها النَّاسُ- اللَّيلَ والنَّهارَ يتعاقبانِ عليكم؛ فالليلُ لسُكونِكم وراحتِكم، والنهارُ لانتِشارِكم في مَعايشِكم ومنافعِكم، وذلَّلَ لكم الشَّمسَ والقمَرَ يَجريانِ باستمرارٍ؛ لتحقيقِ مَنافِعِكم ومصالِحكم؛ كمعرفةِ الأوقاتِ، ونُضجِ الثِّمارِ، وغيرِ ذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [فاطر: ١٣].

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

أي: والنُّجومُ مُذَلَّلاتٌ لكم في السَّماءِ، تجري في فَلَكِها بإذنِ اللهِ؛ لتَهتَدوا بها في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحرِ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي: إنَّ في تَسخيرِ اللهِ الليلَ والنهارَ، والشمسَ والقمرَ والنجومَ، لدَلالاتٍ واضحاتٍ لِمَن شأنُهم وعادتُهم أن يفهَموا عن اللهِ ما أخبَرَ به من الحُجَجِ والدَّلالاتِ على قُدرتِه العظيمةِ وغَيرِها(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۞ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٦].

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما نبَّه سبحانَه على معالمِ السمواتِ؛ نبَّه على ما خَلَق في الأرضِ مِن الأمورِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٧٣، ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١).

العجيبةِ والأشياءِ المختلفةِ، مِن الحيواناتِ والمعادنِ والنَّباتاتِ والجماداتِ[١] فقال:

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ﴾.

أي: وسخَّر اللهُ لكم ما بثَّ ونشَرَ في الأرضِ، كالدَّوابِّ والثِّمارِ والنَّباتِ، والمعادنِ والجماداتِ، مُختلِفًا ألوانُها، مُتعَدِّدًا أصنافُها وأشكالُها ومَنافِعُها[٢].

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

أي: إنَّ فيما ذرأ اللهُ في الأرضِ مُختَلِفًا ألوانُه لَدَلالةً وعِبرةً لِمَن شأنُهم وعادتُهم أن يتَّعِظوا فيستدلُّوا بذلك على وحدانيَّةِ اللهِ، وكمالِ قُدرتِه، وسَعةِ رَحمتِه، ويَشكُروه على نِعَمِه[٣].

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٢١].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٨٤، ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١، ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

أنَّه لَمَّا ذكر اللهُ تعالى الاستدلالَ بما ذرأ في الأرضِ، ذكر ما امتَنَّ به من تسخيرِ البَحرِ[١]، فقال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾.

أي: والذي أنعمَ عليكم بتلك النِّعَمِ، هو اللهُ -وَحدَه- الذي ذلَّلَ لكم البَحرَ -مِلْحًا كان أو عَذبًا- كي تأكُلوا منه سَمكًا طَرِيًّا[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [فاطر: ١٢].

﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾.

أي: ولِتَستخرِجوا منه اللآلئَ وغيرَها، فتتزَيَّنوا بلُبسِها[٣].

كما قال تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٢٢].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾.

أي: وترَى[٤] السُّفُنَ جاريةً في البحرِ، وهي تشقُّ المياهَ والرِّياحَ بصَدرِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

قال ابن عطية: (تسخيرُ البحر هو تمكينُ البشَرِ مِن التصرُّفِ فيه، وتذليلُه للرُّكوبِ والإرفاقِ وغَيرِه، والبحرُ: الماءُ الكثيرُ، مِلحًا كان أو عذبًا، كلُّه يسمَّى بحرًا، والبحرُ هنا: اسمُ جِنس). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

(٤) خطابُ المفردِ هنا ﴿وَتَرَى ﴾ المرادُ به كلُّ مَن يصلحُ للخطابِ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٥٦).

فيُسمَعُ لِجَريِها صوتٌ، فتَستَدِلُّونَ بعدَمِ رُسوبِها وغَرَقِها في الماءِ -مع ثِقَلِها ومُيوعةِ الماءِ ورِقَّتِه وشِدَّةِ لطافتِه- على وحدانيَّةِ الإلهِ وقُدرتِه سُبحانَه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٤].

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: وسخَّر اللهُ لكم البحرَ لحملِ السُّفنِ؛ لتركبوها في طلبِ معايشِكم، وتنقلوا عليها البضائعَ مِن بلدٍ إلى بلدٍ؛ طلبًا للرزقِ مِن فضلِ الله[٢].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: وسخَّر الله لكم هذه المَخلوقاتِ؛ لعلَّكم تَشكُرونَ نِعَم اللهِ بالثَّناءِ عليه، وطاعتِه، وتوحيدِه[٣].

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

أي: ومِن نِعَمِ اللهِ عليكم -أيُّها النَّاسُ- أنْ جعلَ في الأرضِ جِبالًا تُثَبِّتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

الأرضَ؛ لئلَّا تضطَرِبَ بكم، وتتحَرَّكَ يمينًا وشِمالًا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾.

أي: وجعل اللهُ في الأرضِ أنهارًا تجري بالماءِ مِن مَوضعٍ إلى آخَرَ؛ لِسَقيِ النَّاسِ، والأنعامِ، والحَرثِ[(٢)].

﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أي: وطُرُقًا مُيسَّرةً وممتَدَّةً، تَسلُكونَها بيُسرٍ وسُهولةٍ في قضاءِ حوائِجِكم، وطلَبِ مَعايشِكم وغيرِها؛ رحمةً بكم؛ لِتهتَدوا بهذه الطُّرُقِ إلى كلِّ موضعٍ تُريدونَ الوصولَ إليه، فلا تَضِلُّوا، ولا تتحَيَّروا[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَر أنَّه أظهَر في الأرضِ سُبُلًا مُعَيَّنةً؛ ذكَر أنَّه أظهَر فيها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

قال السعدي: (ومِن رحمتِه تعالى أنْ جعَلَ فيها أنهارًا على وجهِ الأرضِ، وأنهارًا في بطنِها يستخرجونَها بحَفرِها، حتى يصِلوا إليها فيَستخرجوها بما سخَّر اللهُ لهم من الدَّوالي والآلاتِ ونحوِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

علاماتٍ مخصوصةً؛ حيث يتمَكَّنُ المكَلَّفُ مِن الاستدلالِ بها، فيَصِلُ بواسطتِها إلى مَقصودِه، فقال[١]:

﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾.

أي: وجعلَ لكم -أيُّها النَّاسُ- معالِمَ، كالجِبالِ وغَيرِها، تَستدِلُّونَ بها نهارًا، ونجومًا تستدِلُّونَ بها ليلًا على طُرُقِكم في أسفارِكم[٢].

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ الدلائِلَ الدالَّةَ على وجودِ القادِرِ الحكيمِ على التَّرتيبِ الأحسَنِ، والنَّظمِ الأكمَلِ، وكانت تلك الدلائِلُ كما أنَّها كانت دلائِلَ، فكذلك أيضًا كانت شَرحًا وتفصيلًا لأنواعِ نِعَمِ الله تعالى، وأقسامِ إحسانِه؛ أتبَعَه بذِكرِ إبطالِ عِبادةِ غَيرِ الله تعالى، والمقصودُ أنَّه لَمَّا دلَّت هذه الدَّلائلُ الباهرةُ، والبيِّناتُ الزَّاهِرةُ القاهرةُ على وجودِ إلهٍ قادرٍ حكيمٍ، وثبَت أنَّه هو المُولي لجميعِ هذه النِّعَم، والمُعطي لكُلِّ هذه الخَيراتِ، فكيف يَحسُنُ في العُقولِ الاشتغالُ بعبادةِ موجودٍ سواه؟! لا سيَّما إذا كان ذلك الموجودُ جَمادًا لا يَفهمُ ولا يَقدِرُ؛ فلهذا الوجهِ قال بعدَ تلك الآياتِ[٣]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩١)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧٣٩، ٧٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤).

قال ابن جرير: (كلُّ علامةٍ استدلَّ بها الناسُ على طرُقِهم وفِجاجِ سُبُلِهم فداخِلٌ في قولِه: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٢).

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾.

أي: أفمن يخلُقُ مِثلَ تلك المخلوقاتِ العَجيبةِ التي أنعَمَ عليكم بها- وهو الله- كمَن لا يَخلقُ شَيئًا لا قليلًا ولا كثيرًا، ولا يُنعِمُ عليكم بشيءٍ، فتُشرِكونَ معه في العبادةِ غيرَه[1]؟!

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

أفلا تتذكَّرونَ- أيُّها المُشرِكونَ- نِعَمَ اللهِ عليكم، وعظيمَ سُلطانِه وقُدرتِه، وعجْزَ مَعبوداتِكم، وأنَّها لا تجلِبُ نفعًا، ولا تَدفَعُ ضُرًّا، فتَعرِفوا بذلك خطأَ ما أنتم عليه مِن الشِّركِ باللهِ، وتَعرِفوا أنَّ المُنفَرِدَ بالخَلقِ أحَقُّ بالعبادةِ كُلِّها، فتُخلِصوا العبادةَ له[2]؟!

﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن بالآيةِ المتقَدِّمةِ أنَّ الاشتغالَ بعِبادةِ غيرِ الله باطِلٌ وخَطأٌ؛ بيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّ العبدَ لا يُمكِنُه الإتيانُ بعبادةِ الله تعالى، وشُكرِ نِعَمِه، والقيامِ بحُقوقِ كَرَمِه، على سبيلِ الكَمالِ والتَّمامِ، بل العبدُ وإن أتعَبَ نفسَه في القيامِ بالطَّاعاتِ والعباداتِ، وبالغ في شُكرِ نِعمةِ الله تعالى؛ فإنَّه يكونُ مُقَصِّرًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٤).

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾.

أي: وإن تعُدُّوا- أيُّها النَّاسُ- نِعَمَ اللهِ عليكم، لا تُطيقوا إحصاءَ عَدَدِها، فضلًا عن شُكرِها[١].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كانوا مُستحِقِّينَ لسَلبِ النِّعَمِ بالإعراضِ عن التَّذكيرِ، والعمَى عن التبَصُّر؛ أشار إلى سبَبِ إدرارِها، فقال تعالى[٢]:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يتجاوزُ عن عبادِه تقصيرَهم في شُكرِ نِعَمِه، رحيمٌ بهم، لا يقطَعُ عنهم إحسانَه، ولا يُعذِّبُهم بسبَبِ تَقصيرِهم، يرضى من عبادِه الشُّكرَ القَليلَ، ويُجازيهم عليه الثَّوابَ الكثيرَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

قال ابن كثير: (ولو طالبَكم بشُكرِ جميعِ نِعَمِه لعَجَزتُم عن القيام بذلك، ولو أمرَكم به لضَعُفتُم وتركتُم، ولو عذَّبكم لعذَّبكم وهو غيرُ ظالمٍ لكم، ولكنَّه غفورٌ رحيمٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: لا تَضبِطوا عدَدَها، ولا تبلُغُه طاقتُكم، فضلًا أنْ تُطِيقوا القِيامَ بحَقِّها من أداءِ الشُّكرِ، وقد أتبَعَ بذلك ما عدَّدَ مِن نِعَمِه؛ تنبيهًا على أنَّ وراءها ما لا ينحصِرُ ولا يَنعَدُّ[(١)]. وفيه إيماءٌ إلى الاستكثارِ مِن الشُّكرِ على مُجمَلِ النِّعَمِ، وتعريضٌ بفظاعةِ كُفرِ مَن كَفَروا بهذا المُنعِم، وتغليظُ التَّهديدِ لهم[(٢)].

٢- تأمَّلْ خلْقَ الأرضِ على ما هي عليه حينَ خَلَقها واقِفةً ساكِنةً؛ لتكونَ مِهادًا ومُستقَرًّا للحيوانِ والنباتِ والأمتعةِ، ويتمكَّنَ الحيوانُ والنَّاسُ من السَّعيِ عليها في مآرِبِهم، والجلوسِ لراحاتِهم، والنَّومِ لِهدوئِهم، والتمكُّنِ مِن أعمالِهم، ولو كانت رجراجةً مُتكفِّئةً لم يستطيعوا على ظهرِها قرارًا، ولا ثَبَت لهم عليها بناءٌ، ولا أمكَنَهم عليها صناعةٌ ولا تجارةٌ ولا حِراثةٌ ولا مصلحةٌ، وكيف كانوا يتهنَّون بالعيشِ، والأرضُ ترتَجُّ من تحتِهم؟! واعتَبِرْ ذلك بما يصيبُهم من الزلازلِ على قِلَّةِ مُكثِها، كيف تصَيِّرهم إلى تَركِ منازِلِهم، والهَرَبِ عنها؟! وقد نبَّه اللهُ تعالى على ذلك بقَولِه: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾[(٣)] [غافر: ٦٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أتَى بلَفظِ (مِن) التي للتَّبعيضِ؛ لأنَّ كُلَّ الثَّمَراتِ لا تكونُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢١٧).

إلَّا في الجنَّةِ، وإنَّما أُنبِتَ في الأرضِ بعضٌ مِن كُلِّها للتَّذكِرةِ[١]. وفيه وجهٌ آخر: أنَّه قُصِدَ منها تنويعُ الامتنانِ على كلِّ قَومٍ بما نالَهم مِن نِعَمِ الثَّمَراتِ، وإنما لم تدخُلْ على الزَّرعِ، وما عُطِفَ عليه؛ لأنَّها من الثَّمَراتِ التي تَنبُتُ في كُلِّ مَكانٍ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أفرد (الآيَة)؛ لِوَحدةِ المحَدَّثِ عنه، وهو الماءُ[٣]، فتوحيدُ (الآيةِ) لأنَّ موضِعَ الدَّلالةِ واحِدٌ، وهو الماءُ الذي أنزله من السَّماءِ، فأخرج به كُلَّ ما ذكَرَه من الأرضِ، وهو على اختِلافِ أنواعِه لِقاحُه واحِدٌ، وأمُّه واحدةٌ، فهذا نوعٌ واحدٌ مِن آياتِه[٤]!

٣- في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ دليلٌ على أنَّ الكَلَأَ مُبَاحٌ كماءِ السماء، لأنَّ الشجرَ- على أحدِ الأقوالِ- هو الكلأ؛ وقَرَنَه في الآيةِ بالماء؛ وأَخبرَ أنَّا نُسِيمُ فيه، أي: نَرعى[٥].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ فيه سؤالٌ: التَّسخيرُ عِبارةٌ عن القَهرِ والقَسرِ، ولا يليقُ ذلك إلَّا بمن هو قادِرٌ يجوزُ أن يُقهَرَ، فكيف يصِحُّ ذلك في اللَّيلِ والنَّهارِ، وفي الجماداتِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١١٩).
(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢١٣).
(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٧).

والشَّمسِ والقَمَرِ؟

الجوابُ: أنَّ الله تعالى لَمَّا دبَّر هذه الأشياءَ على طريقةٍ واحدةٍ مُطابِقةٍ لمصالحِ العبادِ، صارت شبيهةً بالعبدِ المنقادِ المِطواعِ؛ فلهذا المعنى أُطلِقَ على هذا النَّوعِ مِن التدبيرِ لَفظُ التسخيرِ. وقيل: إنَّ اللهَ تعالى يحَرِّكُ هذه الكواكِبَ، وهذه الحركةُ قَسريةٌ؛ فلهذا السَّبَبِ ورد فيها لَفظُ التَّسخيرِ[(١)].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ في ذِكرِ الطَّريِّ مَزيدُ فائدةٍ؛ وذلك لأنَّه لو كان السَّمَكُ كُلُّه مالِحًا، لَما عُرِفَ به مِن قُدرةِ الله تعالى ما يُعرَفُ بالطَّريِّ؛ فإنَّه لَمَّا خرَج من البَحرِ المِلحِ الزُّعاقِ الحَيوانُ الذي لَحمُه في غايةِ العُذوبةِ- عُلِمَ أنَّه إنَّما حدث لا بحسَبِ الطَّبيعةِ، بل بقُدرةِ اللهِ وحِكمتِه؛ حيث أظهَرَ الضِّدَّ مِن الضِّدِّ[(٢)].

٦- يجوز أكلُ القديدِ ممَّا في البحرِ بإجماعِ العلماءِ، وقَولُه تعالى: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ ليس له مفهومُ مخالفةٍ؛ لأنَّه ذكَر اللحمَ الطريَّ في معرضِ الامتنانِ، فلا مفهومَ مخالفةٍ له، فلا يُقال: يُفهَمُ مِن التقييد بكونه طريًّا أنَّ اليابس- كالقديدِ- ممَّا في البحرِ لا يجوزُ أكلُه[(٣)].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ التعبيرُ عنه باللَّحمِ مع كونِه حَيوانًا؛ للإشارةِ إلى قِلَّةِ عِظامِه، وضَعفِها في أغلَبِ ما يُصطادُ للأكلِ بالنِّسبةِ إلى الأنعامِ المُمتَنِّ بالأكلِ منها فيما سبق. وقيل: للتَّلويحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٥٥)، (٢/ ٣٤٤).

بانحصارِ الانتفاعِ به في الأكلِ[١].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ رُكُوبَ البحرِ للتجارة مُباحٌ، إذْ مُحالٌ أنْ يجعلَه في جُمْلَةِ النِّعَمِ؛ ويَضمَّ ذِكْرَه في المباحاتِ؛ ويَذْكُرَ ابتغاءَ فضْلِه جملةً فيه؛ ثم يَحْظُرَ رُكُوبَه في حالٍ دونَ حالٍ[٢]!

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فيه دليلٌ على إباحةِ لبسِ النساءِ والرجالِ حليةَ البحرِ مِن الجواهرِ ونحوِها[٣]؛ لأنَّ الله تعالى امتنَّ على الرجالِ والنِّساءِ امتنانًا عامًّا بما يخرجُ مِن البحرِ، فلا يَحرمُ عليهم شيءٌ منه، وإنما حرَّم الله تعالى على الرِّجال الذهبَ والحريرَ[٤].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ دلالةٌ على أنَّ الغوصَ في استخراجِ حِلْيَةِ البحرِ مُباحٌ، ولا يكون تعرُّضًا للهلكة ومخاطرةً بالرُّوح!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٢).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٨٧). ويُنظر أيضًا: ((فقه اللباس والزينة)) إعداد الفريق العلمي بمؤسسة الدرر السنية (ص: ١٨٤).
قال الشوكاني: (ولا حاجةَ لما تَكَلَّفَه جماعَةٌ مِنَ المفسِّرينَ في تأويلِ قولِه: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ بقولِه: تلبسُه نساؤُهم، لأنَّهنَّ من جملتِهم، أو لكونِهنَّ يلبَسْنَها لأجلِهم، وليس في الشَّريعةِ المطهَّرةِ ما يقتضي منعَ الرِّجالِ مِن التَّحلِّي باللُّؤلُؤِ والمَرجانِ، ما لم يستعمِلْه على صفةٍ لا يستعمِلُه عليها إلَّا النِّساءُ خاصَّةً، فإنَّ ذلك ممنوعٌ مِنْ جهةِ كونِه تشبُّهًا بهنَّ، وقد وَرَد الشَّرعُ بمنعِه لا مِنْ جهةِ كونِه حليةَ لؤلُؤٍ أو مَرجانٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٤).

ولكنَّ ذلك لِمَن يُحْسِنُ العَوْمَ[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ استدلَّ به من قال: يحنَثُ الحالِفُ لا يلبَسُ حُلِيًّا بلُبسِ اللُّؤلؤِ؛ لأنَّه تعالى سمَّاه حُلِيًّا[٢].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ ﴿أَلْقَى﴾ أخَصُّ مِن (خلقَ) و(جعَلَ)؛ وذلك أنَّ ﴿أَلْقَى﴾ تقتضي أنَّ الله أحدثَ الجِبالَ ليس من الأرضِ، لكِنْ مِن قُدرتِه واختِراعِه[٣]. وقيل: لمَّا كانت هذه المخلوقاتُ مَجعولةً كالتَّكملةِ للأرضِ، وموضوعةً على ظاهرِ سَطحِها، عبَّرَ عن خلقِها ووضْعِها بالإلقاءِ الَّذي هو رَمْيُ شَيءٍ على الأرضِ، ولعلَّ خَلْقَها كان مُتأخِّرًا عن خَلقِ الأرضِ، وأمَّا السُّبُلُ والعلاماتُ فتأخُّرُ وُجودِها ظاهرٌ، فصار خَلْقُ هذه الأربعةِ شبيهًا بإلقاءِ شَيءٍ في شَيءٍ بعدَ تمامِه[٤].

١٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا﴾ لما كان أكثَرُ الأنهارِ إنَّما تتفجَّرُ مَنابِعُها في الجبالِ؛ فلهذا السَّبَبِ لَمَّا ذكَرَ الله تعالى الجِبالَ أتبَعَ ذِكرَها بتَفجيرِ العُيونِ والأنهارِ[٥].

١٤- جُملةُ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ مُعترِضةٌ، وهو كلامٌ مُوجَّهٌ يصلُحُ للاهتداءِ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٢).

وهذا قولُ جمهورِ العلماءِ وقولُ أبي يوسفَ ومحمدِ بنِ الحسنِ مِن الحنفيةِ، خلافًا لأبي حنيفةَ، فيرَى أنَّ الأيمانَ على العُرفِ لا على استعمالِ القرآنِ. يُنظر ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٥)، ((التجريد)) للقدوري (١٢/ ٦٤٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩١).

إلى المقاصِدِ في الأسفارِ؛ مِن رَسمِ الطُّرقِ، وإقامةِ المَراسي على الأنهارِ، واعتبارِ المسافاتِ، وكلُّ ذلك مِن جَعْلِ اللهِ تعالَى؛ لأنَّ ذلك حاصلٌ بإلهامِه، ويصلُحُ للاهتداءِ إلى الدِّينِ الحقِّ، وهو دِينُ التَّوحيدِ؛ لأنَّ في تلك الأشياءِ دَلالةً على الخالقِ المُنْفردِ بالخَلقِ(١).

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أصلٌ لِمُراعاةِ النُّجومِ لِمَعرفةِ الأوقاتِ والقِبلةِ والطُّرُقِ(٢).

١٦- في قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ دلالةٌ على اعتبارِ النجومِ دليلًا على القبلةِ في السفرِ؛ فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أطلقَ الاهتداءَ بالنجمِ، فالنجمُ يُهتدَى به على الجهاتِ لكلِّ غرضٍ(٣)، وكذلك مِن الفُقَهاءِ مَن يجعَلُ هذه الآية دليلًا على الاستدلالِ بالعَلاماتِ التي في الأرضِ، وهي الجِبالُ والرِّياحُ؛ لأنَّه كما يمكِنُ الاهتداءُ بهذه العلاماتِ في معرفةِ الطُّرُقِ والمَسالِكِ، فكذلك يُمكِنُ الاستدلالُ بها في مَعرفةِ طلَبِ القِبلةِ(٤).

١٧- الامتِنانُ بما في الأعيانِ مِن المَنافِعِ، وما يتعلَّقُ بها مِن الأفعالِ، هو أحدُ الأمورِ التي يُستفادُ منها الإباحةُ، وذلك نحو قَولِه تعالى: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا﴾ [النحل: ٨٠]، ونحو: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾(٥).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ دَلالةٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٢).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٢).
(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٢/ ٢٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩١).
(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٦).

أنَّ المُشرِكينَ كانوا يُقِرُّونَ بنوعٍ مِن التوحيدِ الذي هو نفيُ خالِقِينَ سوى اللهِ تعالى، ولم يكونوا يُنازِعونَ في ذلك[١].

١٩- بيَّنَ اللهُ سُبحانَه أنَّه أحقُّ بالكمالِ مِن غَيرِه، وأنَّ غَيرَه لا يُساويه في الكَمالِ في مِثلِ قَولِه تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ وقد بيَّنَ أنَّ الخَلقَ صِفةُ كَمالٍ، وأنَّ الذي يخلُقُ أفضَلُ مِن الذي لا يخلُقُ، وأنَّ مَن عدَلَ هذا بهذا فقد ظلَمَ[٢].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ دَلالةٌ على أنَّه سُبحانَه هو المُستحِقُّ للعبادةِ دونَ ما يُعبَدُ مِن دونِه، وأنَّه لا مِثلَ له[٣]، فالتمثيل الذي هو اعتقادُ المُثْبِتِ أنَّ ما أَثْبَتَه مِن صفاتِ اللهِ تعالى مماثلٌ لصفاتِ المخلوقين! هو اعتقاد باطل بدلالة السمع؛ قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، وقال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[٤] [الشورى: ١١].

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ هذا كلامٌ جامِعٌ للتَّنبيهِ على وَفرةِ نِعَمِ اللهِ تعالى على النَّاسِ، بحيثُ لا يمكِنُ إحصاؤُها، وإذا كانت كذلك فقد حصَلَ التَّنبيهُ إلى كَثرتِها بمعرفةِ أصولِها وما يَحويها مِن العَوالِمِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٌ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ استئنافٌ لذِكْرِ دليلٍ آخرَ مِن مظاهرِ بَديعِ خَلقِ اللهِ تَعالى، أُدْمِجَ فيه امتنانٌ بما يأتي به ذلك الماءُ العجيبُ مِن المنافعِ[١].

- وصِيغَةُ تَعريفِ المسنَدِ إليه والمسنَدِ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ﴾ أفادتِ الحصرَ، أي: هو لا غيرُه، وهذا قَصرٌ على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ لا يُنكِرون ذلك، ولا يَدَّعون له شريكًا في ذلك، ولكنَّهم لمَّا عَبَدوا أصنامًا لم تُنْعِمْ عليهم بذلك، كان حالُهم كحالِ مَن يدَّعي أنَّ الأصنامَ أنعَمَت عليهم بهذه النِّعمِ، فنُزِّلوا مَنزلةَ مَن يدَّعي الشَّركةَ للهِ في الخَلقِ؛ فكان القصرُ قَصرَ إفرادٍ؛ تَخريجًا للكلامِ على خِلافِ مُقْتضَى الظَّاهرِ[٢].

- قولُه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ فيه تأخُّرُ المفعولِ ﴿مَآءً﴾ عن المجرورِ؛ لأنَّ المقصودَ هو الإخبارُ بأنَّه أنزَلَ مِن السَّماءِ شيئًا هو الماءُ، لا أنَّه أنزَلَه مِن السَّماءِ، والسِّرُّ فيه: أنَّه عندَ تأخيرِ ما حَقُّه التَّقديمُ يَبْقَى الذِّهنُ مُترقِّبًا له، مُشتاقًا إليه؛ فيتمكَّنُ لديه عندَ وُرودِه عليه فضْلَ تمكُّنٍ[٣].

- وقولُه: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ فيه تقديمُ (مِنْ) التَّبعيضيَّةِ، الَّذي يُوهِمُ حصرَ المشروبِ فيه، ولا بأْسَ به؛ لأنَّ مِياهَ العُيونِ والآبارِ منه؛ لقولِه: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ ﴾ [الزمر: ٢١]، وقولِه: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [المؤمنون: ١٨][٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢١).

وقيل: ﴿لَّكُم﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿شَرَابٌ﴾؛ قُدِّمَ عليه للاهتمامِ[١].

- قولُه: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ فيه إعادةُ حَرفِ الجرِّ (مِن) بعد واوِ العطفِ؛ لأنَّ حرفَ (مِن) هنا للابتداءِ، أو للسَّببيَّةِ؛ فلا يحسُنُ عطفُ ﴿شَجَرٌ﴾ على ﴿شَرَابٌ﴾[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ تَقديمُ ما يُسامُ فيه على ما يُؤكَلُ منه، وهو ما ذكَرَه في قولِه بعدُ: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾؛ لأنَّ ما يُسامُ فيه سيصيرُ غِذاءً حَيوانيًّا، هو أشرَفُ الأغذيةِ[٣].

- ومِن الدَّقائقِ البلاغيَّةِ في قولِه: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾: الإتيانُ بحرفِ (في) الظَّرفيَّةِ؛ فالإسامةُ في الشجرِ تكونُ بالأكلِ منه، والأكلِ ممَّا تحتَه مِن العُشبِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ ...﴾ فيه إيثارُ صِيغَةِ الاستقبالِ ﴿يُنۢبِتُ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، وأنَّها سُنَّتُه الجاريةُ على مَرِّ الدُّهورِ، أو لاستحضارِ صُورةِ الإنباتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠١).

- وقوله: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ ... ﴾ لم يُعطَفْ على جُملةِ ﴿ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ ﴾؛ لأنَّه ليس ممَّا يَحصُلُ بنزولِ الماءِ وَحدَه، بل لا بُدَّ معه مِن زَرعٍ وغَرسٍ، وهذا الإنباتُ مِن دلائلِ عظيمِ القدرةِ الربانيَّةِ، فالغرضُ منه الاستدلالُ ممزوجًا بالتذكيرِ بالنعمةِ(١).

- وقولُه: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ فيه تَقديمُ الظَّرفَينِ ﴿لَكُم بِهِ ﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿ٱلزَّرۡعَ ﴾؛ لأنَّه عند تأخيرِ ما حقُّه التَّقديمُ يَبقى الذِّهنُ مُترقِّبًا له، مُشتاقًا إليه؛ فيتمكَّنُ لديه عند وُرودِه عليه فضْلَ تمكُّنٍ، مع ما في تَقديمِ أوَّلِهما من الاهتمامِ به؛ لإدخالِ المَسرَّةِ ابتداءً. وتقديمُ ﴿ٱلزَّرۡعَ ﴾ على ما عداه؛ لأنَّه أصلُ الأغذيةِ وعَمودُ المعاشِ، وهو قُوتُ أكثَرِ العالَمِ. وتقديمُ ﴿الزَّيْتُونَ﴾؛ لِمَا فيه من الشَّرفِ، من حيث إنَّه إدامٌ من وَجهٍ، وفاكهةٌ من وَجهٍ، بالإضافة إلى الاطِّلاءِ بدُهنِه إلى غيرِ ذلك من فوائدِه. وتقديمُ ﴿النَّخِيلَ﴾ على الأعنابِ؛ لظُهورِ أصالتِها وبَقائِها، ولأنَّ ثَمرتَه مِن أطيَبِ الفواكِهِ وقُوتٌ في بعضِ البلادِ. وجمْعُ ﴿الْأَعْنَابَ﴾؛ للإشارةِ إلى ما فيها مِن الاشتمالِ على الأصنافِ المُختلفةِ. وتَخصيصُ الأنواعِ المعدودةِ بالذِّكرِ مع اندراجِها تحت قولِه تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾؛ للإشعارِ بفَضلِها، لأنَّها أشرَفُ ما يَنبُتُ، وأجمَعُه للمنافِعِ. وتقديمُ الشَّجرِ عليها مع كونِه غِذاءً للأنعامِ؛ لحُصولِه بغيرِ صُنعٍ من البشَرِ، أو للإرشادِ إلى مكارمِ الأخلاقِ؛ فإنَّ مُقتضاها أنْ يكونَ اهتمامُ الإنسانِ بأمْرِ ما تحتَ يَدِه أكمَلَ مِن اهتمامِه بأمْرِ نفسِه، أو لأنَّ أكثرَ المُخاطَبينَ مِن أصحابِ المواشي ليس لهم زَرعٌ ولا ثمَرٌ. وقيل: المُرادُ تَقديمُ ما يُسامُ لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٤).

تَقديمُ غِذائِه؛ فإنَّه غِذاءٌ حَيوانيٌّ للإنسانِ وهو أشرفُ الأغذيةِ[١].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تَذييلٌ، ونِيطَتْ دَلالةُ هذه بوَصفِ التَّفكيرِ؛ لأنَّها دَلالةٌ خَفيَّةٌ؛ لحُصولِها بالتَّدريجِ، وهو تعريضٌ بالمُشركينَ الَّذين لم يهتَدُوا بما في ذلك مِن دَلالةٍ على تفرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ، بأنَّهم قومٌ لا يتفكَّرونَ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ هذا انتقالٌ للاستدلالِ بإتقانِ الصُّنعِ على وَحدانيَّةِ الصَّانعِ وعلْمِه، وإدماجٌ بين الاستِدلالِ والامتنانِ. ونِيطَتْ هذه الدَّلالاتُ بوَصْفِ العقلِ؛ لأنَّ أصلَ العَقلِ كافٍ في الاستِدلالِ بها على الوَحدانيَّةِ والقُدرةِ؛ إذ هي دَلائلُ بيِّنةٌ واضحةٌ حاصلةٌ بالمُشاهَدةِ كلَّ يومٍ وليلةٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ فيه إيثارُ صِيغَةِ الماضي ﴿سَخَّرَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك أمرٌ واحدٌ مُستمِرٌّ، وإنْ تجدَّدت آثارُه[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠١).

- قوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ وصَفَ اختلافَ ألوانِه؛ زيادةً للتَّعجِيبِ. ولكونِ محَلِّ الاستدلالِ هو اختلافَ الألوانِ، مع اتِّحادِ أصلِ الذَّرءِ؛ أُفْرِدَت الآيةُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾. ونِيطَ الاستدلالُ باختِلافِ الألوانِ بوَصفِ التَّذكُّرِ؛ لأنَّه استدلالٌ يحصُلُ بمُجرَّدِ تذكُّرِ الألوانِ المُختلفةِ؛ إذ هي مَشهورةٌ[1].

- وفي قولِه: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١-١٣] مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ وحَّدَ (الآيةَ) أوَّلًا وآخرًا، وجمَعَها في المُتوسِّطِ، وفي كلِّ ذلك آياتٌ كثيرةٌ؛ ووجهُ ذلك:

أنَّه وحَّد الآيةَ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأنَّ موضعَ الدَّلالةِ واحدٌ، وهو الماءُ الَّذِي أنزَله مِن السَّماءِ فأخرَج به كلَّ ما ذكَره مِن الأرضِ، وهو على اختلافِ أنواعِه لقاحُه واحدٌ وأُمُّه واحدةٌ، فهذا نوعٌ واحدٌ مِن آياتِه.

وجمعَ الآياتِ في قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّها تضَمَّنَت اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقمَرَ والنُّجومَ، وهي آياتٌ متعَدِّدةٌ مُختلِفةٌ في أنفُسِها وخَلقِها وكيفيَّاتِها؛ فإنَّ إظلامَ الجَوِّ لغُروبِ الشَّمسِ ومَجيءِ اللَّيلِ الذي يلبِسُ العالَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٨).

كالثَّوبِ، ويَسكُنونَ تحتَه؛ آيةٌ باهرةٌ، ثمَّ ورود جَيشِ الضِّياءِ يَقدُمُه بَشَيرُ الصَّباحِ، فيَنهَزِمُ عسكرُ الظَّلامِ وينتَشِرُ الحيوانُ وينكَشِطُ ذلك اللِّباسُ بجُملتِه؛ آيةٌ أخرى، ثمَّ في الشَّمسِ -التي هي آيةُ النَّهارِ- آيةٌ أخرى، وفي القمَرِ -الذي هو آيةُ اللَّيلِ- آيةٌ أخرى، وفي النُّجومِ آياتٌ أُخَرُ، هذا مع ما يَتبَعُها من الآياتِ المُقارِنةِ لها من الرِّياحِ واختلافِها، وسائِرِ ما يُحدِثُه اللهُ بسَبَبِها، آياتٌ أُخَرُ، فالموضِعُ مَوضِعُ جَمعٍ.

ووحَّد الآيةَ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ لأنَّ ما ذَرَأ في الأرضِ على اختلافِه مِن الجواهرِ والنباتِ والمعادنِ والحيوانِ كلِّه في محلٍّ واحدٍ، فهو نوعٌ مِن أنواعِ آياتِه، وإنْ تعدَّدتْ أصنافُه وأنواعُه[1]. وقيل غير ذلك[2].

- ومِن المناسَبةِ الحَسَنة أيضًا: أنَّه تَعالى قال في الأُولى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١]، وقال في الثَّانيةِ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، وفي الثَّالثةِ: ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٣]؛ ووجه ذلك: أنَّ التَّفكُّرَ إعمالُ النَّظرِ لتطلُّبِ فائدةٍ، وهذه المخلوقاتُ الَّتي تنجُمُ من الأرضِ إذا فكَّرَ فيها علِمَ أنَّ مُعظمَها ليس إلَّا للأكلِ، وأنَّ الأكْلَ به قِوامُ ذي رُوحٍ، وأنَّ المُنعَمَ عليه يحتاجُ أنْ يعرِفَ المُنعِمَ به؛ ليقصِدَ شُكرَ إحسانِه، فهذا مَوضِعُ تفكُّرٍ، بُعِث النَّاسُ عليه؛ ليُفْضِيَ بهم إلى المطلوبِ منهم. ولأنَّ إنباتَ الزَّرعِ والزَّيتونِ والنَّخيلِ والأعنابِ ومُختلَفِ الثَّمراتِ بالماءِ المُنزَّلِ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٢١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٦).

من السَّماءِ، مع كونِه واحدًا والمُنْبَتُ مُختلفَ الأنواعِ والطُّعومِ والمنافعِ: أمْرٌ يُوصَلُ إلى تعرُّفِه وارتباطِه باستِعمالِ الفِكْرِ في ذلك وإنْ لم يطُلْ، بشَرطِ السَّلامةِ من الغَفلةِ؛ فيحصُلُ بمُجرَّدِ الفِكْرِ على عظيمِ المُعتبَرِ؛ فختَمَ الآيةَ بالتَّفكيرِ.

وأمَّا تَعقيبُ ذِكْرِ اللَّيلِ والنَّهارِ وما سخَّرَ في الهواءِ مِن الأنوارِ بقولِه: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ فلأنَّ مُتدبِّرَ ذلك أعلى رُتبةً مِن مُتدبِّرِ ما تَقدَّمَ؛ إذ كانتِ المنافعُ المَجعولةُ فيها أخفى وأغمَضَ؛ فمَن استدرَكَ الآياتِ فيها استحَقَّ الوصفَ بما هو أعْلَى مِن رُتبةِ المُتفكِّرِ المُتدبِّرِ؛ لأنَّه المَنزلةُ الثَّانيةُ الَّتي تُؤَدِّي إليها الفِكرةُ، وهو أنْ يعقِلَ مَطلوبَه منها، ويُدْرِكَ فائدتَه منها؛ ففي تَسخيرِ الليلِ والنَّهارِ إلى ما ذُكِرَ معهما لا يُكتفَى في معرفة ذلك، والحصولِ على الاعتبارِ به بمُجرَّدِ الفِكر؛ فإنَّ العِلمَ بتسخيرِ هذه ممَّا يَغمُض ويَخفَى إلَّا على ذَوي البصائرِ والفِطنِ السَّليمةِ والعقولِ الراجحةِ، فوُصِفَ المعتبِرُ بها بما هو فَوقَ الفِكرِ؛ فقيل: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وأمَّا الثَّالثةُ، وهي قولُه: ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ فلأنَّه لَمَّا نبَّهَ في الأُولَيَينِ على إثباتِ الصَّانعِ، نبَّهَ في الثَّالثةِ على أنَّه لا شِبْهَ له ممَّا صنَعَ؛ لأنَّ مَن رأى المخلوقاتِ أصنافًا مُزْدَوجةً مُؤتلِفةً أو مُختلِفةً نَفى عنه صِفاتِها، وعلِمَ أنَّ خالقَها يُخالِفُها، لا يُشبِهُها ولا تُشبِهُه؛ فيَعْلَمَ بعدَ العِلمِ بما تقدَّمَ أنَّه لا صاحِبةَ له ولا ولَدَ، ولا مُشْبِهَ له فيما أنشَأَ وبرَأَ، إذا تذكَّرَ حالَه فيها اتَّفقَ منه واختلَفَ؛ فقَصدُ التذكير هنا كافٍ في حُصولِ الاعتبارِ بذلك؛ فورَدَ كلُّ خِتامِ آيةٍ على أَجَلِّ مُناسَبةٍ، وكلُّ آيةٍ مِن هذِه الثَّلاثِ لا يُناسِبُها إلَّا ما أُعقِبَ به[1].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٢٥-٨٢٧)، ((أسرار التكرار في القرآن))

- وقيل: وَجهُ اختلافِ الأوصافِ في قولِه: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وقولِه: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، وقولِه: ﴿لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾: أنَّ ذلك لمُراعاةِ اختلافِ شِدَّةِ الحاجةِ إلى قُوَّةِ التَّأمُّلِ، فدَلالةُ المخلوقاتِ النَّاجمةِ عن الأرضِ يحتاج إلى التَّفكُّرِ؛ وهو إعمالُ النَّظرِ المُؤَدِّي إلى العلمِ. ودلالةُ ما ذرَأَه في الأرضِ مِن الحيوانِ مُحتاجةٌ إلى مَزيدِ تأمُّلٍ في التَّفكيرِ للاستِدلالِ على اختلافِ أحوالِها وتناسُلِها وفوائدِها، فكانت بحاجةٍ إلى التَّذكُّرِ؛ وهو التَّفكُّرُ مع تذكُّرِ أجناسِها واختلافِ خَصائصِها. وأمَّا دَلالةُ تَسخيرِ اللَّيلِ والنَّهارِ والعوالِمِ العُلويَّةِ؛ فلأنَّها أدَقُّ وأحوجُ إلى التَّعمُّقِ. وعُبِّرَ عنِ المُستدِلِّين عليها بأنَّهم يَعْقِلون، والتَّعقُّلُ هو أعلى أحوالِ الاستدلالِ[1]. وقيل: ذُكِرَ العقلُ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنَّ الآثارَ العُلويَّةَ أظهَرُ دَلالةً على القُدرةِ الباهرةِ، وأبيَنُ شَهادةً للكِبرياءِ والعظَمةِ[2]؛ فخصَّصَ الاعتبارَ بأهلِ العَقلِ؛ لأنَّ هذه الآياتِ أعظَمُ ممَّا قبلَها وأدَلُّ وأكبَرُ، والأُولى هي كالبابِ لهذه، فمَنِ استدَلَّ بهذه الآياتِ وأعطاها حقَّها مِن الدَّلالةِ، استحقَّ مِن الوَصفِ ما يستَحِقُّه صاحِبُ الفِكرِ -وهو العَقلُ- وأيضًا لأنَّ مَنزلةَ العَقلِ بعد مَنزلةِ الفِكْرِ؛ فلمَّا دَلَّهم بالآيةِ الأولى على الفِكرِ، نَقَلَهم بالآيةِ الثَّانيةِ -التي هي أعظَمُ منها- إلى العَقلِ الذي هو فوقَ الفِكرِ[3].

وقد يقال: ذُكِرَ التفكُّرُ أولًا؛ لأنَّ إعمالَ الفِكرِ في ذلك يَقودُه إلى ما بَعدَه،

للكرماني (ص: ١٥٧-١٥٨)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٨)، ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل)) للإسكافي (١/ ٨٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٧).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢١٣).

وهو أنْ يَعقِلَ ما دَلَّتْ عليه تِلكَ الآياتُ مِن وَحدانيَّةِ اللهِ، وبُطلانِ عِبادَةِ مَن سواه، وهذا العقلُ يُوصلُه إلى التَّذكُّرِ؛ فلا يكونُ غافلًا، وذلك يَرفَعُهُ إلى مَرتبةِ الشُّكرِ ومَنزلتِه لِمَن أَوْلَى هذِه النِّعمَ وأسْدَاها.

٥- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ بدأ أوَّلًا مِن منافِعِه بما هو الأهَمُّ، وهو الأكلُ[١].

- وجُملةُ: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ مُعترِضةٌ بين الجُملِ المُتعاطفةِ مع إمكانِ العطفِ؛ لقَصدِ مُخالفةِ الأسلوبِ، للتَّعجُّبِ مِن تَسخيرِ السَّيرِ في البحرِ باستحضارِ الحالةِ العجيبةِ بواسطةِ فعْلِ الرُّؤيةِ؛ فهذا النَّظمُ للكلامِ لإفادةِ هذا المعنى، ولولاها لكان الكلامُ هكذا: (وتَسْتخرِجوا منه حِليةً تلبَسُونها وتَبْتغوا مِن فضلِه في فُلكٍ مُواخِرَ)[٢].

- قولُه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فيه تَخصيصُه بتَعقيبِ الشُّكرِ؛ ولعلَّ ذلك لأنَّه أقوى في بابِ الإنعامِ، مِن حيث إنَّه جعَلَ المهالِكَ سببًا للانتفاعِ وتَحصيلِ المعاشِ[٣]؛ فإن فيها قطعًا لمسافةٍ طويلةٍ معَ أحمالٍ ثقيلةٍ، في مدَّةٍ قليلةٍ مِن غيرِ مزاولةِ أسبابِ السفرِ، بل مِن غيرِ حركةٍ أصلًا، معَ أنَّها في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٢).

تضاعيفِ المهالِكِ[١].

- وعُطِفَ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على بقيَّةِ العِلَلِ؛ لأنَّه مِن الحِكَمِ الَّتي سخَّرَ اللهُ بها البحرَ للنَّاسِ؛ حملًا لهم على الاعترافِ للهِ بالعُبوديَّةِ، ونَبذِهم إشراكَ غيرِ ربِّه فيها، وهو تعريضٌ بالَّذين أشْرَكوا[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

- وقولُه: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ تَعليلٌ لإلقاءِ الرَّواسي في الأرضِ، ولمَّا كان المقامُ مقامَ امتنانٍ، عُلِمَ أنَّ المُعلَّلَ به هو انتفاءُ المَيْدِ، لا وقوعُه؛ فالكلامُ جارٍ على حَذفٍ تَقْتضيه القرينةُ[٣].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فيه الْتفاتٌ، حيث أُخْرِجَ الكلامُ عن سَننِ الخطابِ؛ فقدِ الْتفَتَ مِن الخطابِ إلى الغَيبةِ، والفائدةُ منه: أنَّه لمَّا كانتِ الدَّلالةُ مِن النَّجمِ أنفَعَ الدَّلالاتِ وأوضَحَها في البَرِّ والبحرِ، نبَّهَ على عِظَمِها بالالتفاتِ إلى مقامِ الغَيبةِ؛ لإفهامِ العُمومِ، ولئلا يُظَنَّ أنَّ المُخاطَبَ مَخصوصٌ بذلك[٤]. وقيل: إنه عدَل عن الخطابِ إلى الغَيبةِ الْتفاتًا يُومِئُ إلى فريقٍ خاصٍّ، وهم السَّيَّارةُ والملَّاحونَ؛ فإنَّ هِدايتَهم بهذه النُّجومِ لا غيرُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٢)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لمحمود صافي (١٤/ ٢٩٤-٢٩٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٢).

وقيل: إن قريشًا كانت تُكثِرُ أسفارَها لطلبِ المال، ومَن كثُرتْ أسفارُه كان علمُه بالمنافعِ الحاصلةِ مِن الاهتداءِ بالنجومِ أكثرَ وأتمَّ، فقولُه: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ إشارةٌ إلى قريشٍ لهذا السببِ[١].

- وتَقديمُ الجارِّ والضَّميرِ ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ﴾؛ للتَّخصيصِ، كأنَّه قيل: وبالنَّجمِ خُصوصًا هؤلاء خُصوصًا يَهْتدونَ؛ فالاعتِبارُ بذلك والشُّكرُ عليه بالتَّوحيدِ ألْزَمُ لهم، وأوجَبُ عليهم[٢]. أو قُدِّمَ المُتعلِّقُ في قولِه: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ﴾ تقديمًا يُفيدُ الاهتمامَ، وكذلك بالمُسنَدِ الفِعليِّ في قولِه تعالى: ﴿هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾، وتقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبرِ الفِعليِّ في قولِه تعالى: ﴿هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ لمُجرَّدِ تَقَوِّي الحُكمِ؛ إذ لا يَسمَحُ المقامُ بقَصدِ القصرِ[٣].

٨- قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُ﴾ إنكارٌ بعدَ إقامةِ الدَّلائلِ المُتكاثرةِ على كَمالِ قُدرتِه، وتَناهي حِكمتِه، والتَّفرُّدِ بخَلقِ ما عدَّدَ مِن مُبدعاتِه: لِأَنْ يُساويَه ويستحِقَّ مُشاركتَه ما لا يقدِرُ على خَلقِ شَيءٍ من ذلك، بل على إيجادِ شَيءٍ ما، وهذا مِن عكسِ التَّشبيهِ؛ إذ مُقْتضى الظَّاهرِ العكسُ، فكان حَقُّ الكلامِ: (أفمَن لا يَخلُقُ كمَن يَخلُقُ؟!)؛ لأنَّ الخِطابَ لعُبَّادِ الأوثانِ حيث سَمَّوها آلهةً؛ تشبيهًا به تعالى، فجعَلوا غيرَ الخالقِ كالخالقِ؛ فخُولِفَ في خِطابِهم؛ لأنَّهم بالَغوا في عِبادتِها، حتَّى صارت عندهم أصلًا في العِبادةِ، والخالقُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٢)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لمحمود صافي (١٤/ ٢٩٤-٢٩٥)، ((إعراب القرآن وبيانه))لدرويش (٥/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٢- ١٢٣).

فرعًا، وعكَسَ تنبيهًا على أنَّهم بالإشراكِ باللهِ سُبحانَه وتعالى جَعَلوه من جِنسِ المخلوقاتِ العَجَزةِ شبيهًا بها؛ فجاء الإنكارُ على وَفقِ ذلك؛ ليَفْهموا المُرادَ على مُعتقدِهم(١)، وأيضًا فالمرادُ منه أنَّ مَن يخلُقُ هذه الأشياءَ العظيمةَ، ويُعطي هذه المنافِعَ الجليلةَ: كيف يُسَوَّى بينَه وبينَ هذه الجماداتِ الخسيسةِ في التَّسميةِ باسمِ الإلهِ، وفي الاشتِغالِ بعبادتِها والإقدامِ على غايةِ تَعظيمِها؟! فوقعَ التعبيرُ عن هذا المعنى بقولِه: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾(٢).

- قولُه: ﴿ أَفَمَن ﴾ فيه تَعقيبُ الهمزةِ بالفاءِ؛ لتَوجيهِ الإنكارِ إلى تَوهُّمِ المُشابهةِ المذكورةِ على ما فُصِّلَ من الأُمورِ العظيمةِ الظَّاهرةِ الاختصاصُ به تَعالى، المعلومةِ كذلك فيما بينَهم(٣).

- وعبَّر عن الأصنامِ بقولِه: ﴿ كَمَن ﴾، والأصنامُ جماداتٌ، ولفظةُ (مَن) تكونُ لمن يُوصَفُ بالعلمِ؛ وذلك لأنَّ الكُفَّارَ لَمَّا سَمَّوها آلهةً وعَبَدُوها، لا جرَمَ أُجرِيَت مجرَى مَن يُوصَفُ بالعلمِ، أو أنَّ السَّببَ فيه المُشاكَلةُ(٤) بينَه وبينَ (مَن يَخلُقُ)(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٤).

(٤) المشاكلة: لغةً: هي المماثلةُ، واصطلاحًا: هي ذكرُ الشيءِ بغيرِ لفظِه؛ لوقوعِه في صحبتِه، كقولِه تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]، فالجزاءُ عن السيئةِ في الحقيقةِ غيرُ سيئةٍ، والأصلُ: وجزاءُ سيئةٍ عقوبةٌ مثلُها. يُنظر: ((خزانة الأدب)) للحموي (٢/ ٢٥٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٢-١٩٣).

- وفُرِّعَ على إنكارِ التَّسويةِ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ استفهامٌ عن عدَمِ التَّذكُّرِ في انتفائِها؛ فالاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ على انتفاءِ التَّذكُّرِ، وذلك يختلِفُ باختلافِ المُخاطَبينَ؛ فهو إنكارٌ على إعراضِ المُشركينَ عن التَّذكُّرِ في ذلك(١).

٩- قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

- جُملةُ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ وهي كالتَّكمِلةِ لها؛ لأنَّها نتيجةٌ لِمَا تضَمَّنَته تلك الأدِلَّةُ مِن الامتنانِ كما تقَدَّم، وهي بمنزلةِ التَّذييلِ للامتنانِ؛ لأنَّ فيها عمومًا يشمَلُ النِّعَمَ المذكورةَ وغيرَها(٢).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استئنافٌ عقَّبَ به تَغليظَ الكُفرِ والتَّهديدَ عليه؛ تنبيهًا على تَمكُّنِهم من تَدارُكِ أمرِهم بأنْ يُقْلِعوا عن الشِّركِ، ويتأهَّبوا للشُّكرِ بما يُطيقونَ، على عادةِ القُرآنِ من تَعقيبِ الزَّواجرِ بالرَّغائبِ؛ كَيْلَا يقنَطَ المُسرِفون(٣).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَقديمُ وَصفِ المغفرةِ على نَعتِ الرَّحمةِ؛ لتقدُّمِ التَّخليةِ على التَّحليةِ(٤).

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث خُولِفَ بين خِتامِ هذه الآيةِ وخِتامِ آيةِ سُورةِ إبراهيمَ؛ إذ وقَعَ هنالك: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٥).

نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤]؛ لأنَّ تلك جاءت في سِياقِ وعيدٍ وتَهديدٍ عَقِبَ قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ [إبراهيم: ٢٨]، فكان المُناسِبُ لها تَسجيلَ ظُلمِهم وكُفرِهم بنِعمةِ اللهِ، وأمَّا هذه الآيةُ فقد جاءت خِطابًا للفريقَينِ كما كانت النِّعمُ المعدودةُ عليهم مُنتفِعًا بها كِلاهما، ثمَّ كان من اللَّطائفِ: أنْ قُوبِلَ الوصفانِ اللَّذانِ في آيةِ سُورةِ إبراهيمَ: ﴿لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ بوَصفينِ هنا: ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ تلك النِّعمَ كانت سببًا لظُلمِ الإنسانِ وكُفرِه، وهي سبَبٌ لغُفرانِ اللهِ ورحمتِه، والأمرُ في ذلك مَنوطٌ بعمَلِ الإنسانِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٤).

الآيات (١٩-٢٥)

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۙ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَيَّانَ﴾: أي: متى، أو: أيُّ حينٍ أو وقتٍ، وهو سُؤالٌ عن زمَانٍ، وقيل: أصلُه: أيُّ أوانٍ، أي: أيُّ وقتٍ، فحُذِف الألفُ ثم جُعل الواوُ ياءً فأُدغِم فصار أيَّان[١].

﴿لَا جَرَمَ﴾: أي: حقًّا، وأصلُ (جرم): يدُلُّ على قَطعٍ[٢].

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: أي: أباطيلُ وتُرَّهات؛ جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكَذِبِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

﴿يَزِرُونَ﴾: أي: يَحمِلونَ، والوِزرُ: الثِّقلُ المُثقِلُ للظَّهرِ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقلِ في الشَّيءِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾

﴿لَا جَرَمَ﴾: كلمةُ جزمٍ ويقينٍ جَرَت مجرى المَثَل. وفي هذا التَّركيبِ أقوالٌ: أحدها: أنَّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ بمعنى (لا بُدَّ ولا محالةَ)، فـ(لا) نافيةٌ للجِنسِ، و(جَرَم) اسمُها مبنيٌّ على الفَتحِ في محلِّ نَصبٍ، والمصدرُ المؤوَّلُ من أنَّ ومعمولَيها في محلِّ جَرٍّ بحَرفِ جَرٍّ محذوفٍ، فيصيرُ المعنى: لا بدَّ مِن علمِ اللهِ سِرَّهم وعَلانيَتَهم، ولا محالةَ فيه. الثاني: أنَّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمةٌ واحِدةٌ مرَكَّبةٌ تركيبَ خَمسةَ عشَرَ، وبعدَ التَّركيبِ صار معناها معنى فعلٍ، وهو (حَقَّ)، والمصدرُ المؤوَّلُ من أنَّ ومعمولَيها فاعِلٌ لمَجموعِ ﴿لَا جَرَمَ﴾ لتأويلِه بالفعلِ (حقَّ)، وقيل: مُؤَوَّلٌ بمصدرٍ قائمٍ مقامَه، وهو (حَقًّا)، فيصيرُ المعنى: حَقَّ عِلمُ اللهِ سِرَّهم وعلانيَتَهم. الثالث: أنَّ (لا) نافيةٌ لكلامٍ سابقٍ مُقَدَّرٍ، والوقفُ على (لا) تامٌّ، ثم قال: (جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ...)، أي: حَقَّ وثبَتَ عِلمُه، وعليه فالمصدرُ المؤَوَّلُ مِن أنَّ ومَعمولَيها في محلِّ رَفعٍ فاعِلٌ لـ﴿جَرَمَ﴾. وقيل غيرُ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٩٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٥٧-٣٥٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٩٣)، ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٣٤٧)، ((الجنى الداني في حروف المعاني)) للمرادي (ص: ٤١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٠٣)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٣١٤).

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: واللهُ -سُبحانَه- يعلَمُ ما تُخفُونَه في أنفُسِكم -أيُّها النَّاسُ- وما تُظهِرونَه، وسيُجازيكم عليه يومَ القيامةِ، والأصنامُ التي يعبُدُها المُشرِكونَ لا تَخلُقُ شَيئًا بل هي مَخلوقةٌ، فكيف يَعبُدونَها مِن دونِ الله؟ هي جميعًا جماداتٌ لا حياةَ فيها، ولا تدري متى يبعَثُها اللهُ. إلهُكم المُستحِقُّ للعبادةِ إلهٌ واحِدٌ، فالكافِرون الذين لا يُؤمِنون بالآخِرةِ وما فيها مِن ثوابٍ وعِقابٍ، قلوبُهم جاحِدةٌ لنِعَمِ اللهِ ولوحدانيَّتِه سُبحانَه وقدرتِه، وهم مُتكَبِّرونَ عن قَبولِ الحَقِّ. حقًّا أنَّ اللهَ يعلَمُ ما يُخفيه المُشرِكون مِن إنكارِ الحَقِّ وما يُظهِرونه مِن الكُفرِ والعِصيانِ، وسيُجازيهم على ذلك، إنَّه عزَّ وجَلَّ لا يُحِبُّ المُستكبِرينَ. وإذا قيل لهؤلاء المُشرِكينَ: ما الذي أنزل الله على النبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قالوا كَذِبًا وزُورًا: ما نزل عليه شَيءٌ، وإنَّما هذا القُرآنُ قَصَصُ السَّابقينَ وأباطيلُهم؛ ليَحمِلوا آثامَهم كامِلةً يومَ القيامةِ ويَحمِلوا بعضَ آثامِ الذين أضَلُّوهم بغيرِ عِلمٍ. ألا بئسَ ما يَحمِلونَه مِن ذُنوبٍ ثِقالٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الكُفَّارَ كانوا -مع اشتِغالِهم بعبادةِ غَيرِ اللهِ تعالى- يُسِرُّونَ ضُروبًا مِن الكُفرِ في مكايِدِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فجُعِلَ هذا زَجرًا لهم عنها[1].

وأيضًا فإنَّه تعالى زيَّفَ في الآيةِ الأولى عِبادةَ الأصنامِ؛ بسبَبِ أنَّه لا قُدرةَ لها

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٥).

على الخَلقِ والإنعامِ، وزَيَّفَ في هذه الآيةِ أيضًا عبادتَها؛ بسبَبِ أنَّ الإلهَ يجِبُ أن يكونَ عالِمًا بالسِّرِّ والعَلانِيةِ، وهذه الأصنامُ جَماداتٌ لا مَعرِفةَ لها بشيءٍ أصلًا، فكيف تَحسُنُ عبادتُها[1]؟!

وأيضًا فإنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧]؛ فبعدَ أن أثبتَ أنَّ الله منفَرِدٌ بصِفةِ الخَلقِ دُونَ غَيرِه بالأدلَّةِ العديدةِ، ثمَّ باستنتاجِ ذلك بقَولِه: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾، انتقل هنا إلى إثباتِ أنَّه مُنفَرِدٌ بعُمومِ العِلمِ[2].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا جرت العادةُ بأنَّ المكفورَ إحسانُه يُبادِرُ إلى قَطعِه عند عِلمِه بالكُفرِ، فكان ربَّما توهَّمَ مُتوَهِّمٌ أنَّ سبَبَ مُواترةِ الإحسانِ عدمُ العِلمِ بالكُفرانِ، أو عدَمُ العِلمِ بكُفرانٍ لا يدخُلُ تحت المَغفرةِ- قال مهدِّدًا مُبرِزًا للضَّميرِ بالاسمِ الأعظَمِ الذي بُنِيَت عليه السُّورةُ؛ للفَصلِ بالفَرقِ بين الخالقِ وغَيرِه، ولئلَّا يُتوهَّمَ تقيُّدُ التهديدِ بحيثيَّةِ المغفرةِ؛ إيماءً إلى أنَّ ذلك نتيجةُ ما مضَى[3]:

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ ﴾.

أي: واللهُ يعلَمُ -أيُّها النَّاسُ- الذي تُخفُونَه في أنفُسِكم، ويعلَمُ الذي تُظهِرونَه أمامَ الآخرينَ مِن الأقوالِ والأفعالِ، فيُحصِيها عليكم ويُجازيكم بها يومَ القيامةِ؛ إنْ خَيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٣٠-١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤).

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أثبت اللهُ تعالى لنَفسِه كمالَ القُدرةِ، وتمامَ العِلمِ، وأنَّه المُنفَرِدُ بالخَلقِ؛ شرعَ يُقيمُ الأدلَّةَ على بُعدِ ما يُشرِكونَه به مِن الآلهةِ، بسَلبِ تلك الصِّفاتِ[١].

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ ﴾.

أي: والأصنامُ التي يعبُدُها المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ لا تستطيعُ أن تخلُقَ شَيئًا، بل هي مخلوقةٌ، فكيف يكون إلهًا ما كان مخلوقًا لا يَملِكُ نَفعًا ولا ضَرًّا[٢]؟!

﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان مِن المخلوقاتِ الميِّتُ والحَيُّ، وكان الميِّتُ أبعَدَ شَيءٍ عن صِفةِ الإلهِ؛ نفَى عن الأصنامِ الحياةَ -بعدَ أن نفَى القُدرةَ والعِلمَ- المُستلزِمِ لأن يكونَ عَبَدتُها أشرَفَ منها، المُستلزِمِ لأنَّهم بخُضوعِهم لها في غايةِ السَّفَهِ[٣].

﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ ﴾.

أي: الأصنامُ التي يعبُدُها المُشرِكونَ جَماداتٌ لا أرواحَ فيها، فلا تسمَعُ ولا تُبصِرُ ولا تَعقِلُ شيئًا، فكيف تُتَّخَذُ هذه آلِهةً[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤).

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

أي: وما تدري هذه الأصنامُ متى يَبعَثُها اللهُ، فكيف يُرتجَى عندَ هذه نفعٌ أو ثوابٌ وجزاءٌ(١)؟

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا زيَّفَ -فيما تقَدَّمَ- طريقةَ عبَدةِ الأوثانِ والأصنامِ، وبيَّنَ فسادَ مَذهَبِهم بالدَّلائِلِ القاهرةِ؛ قال: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، ثمَّ ذكَر تعالى ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤).

قال الرازي: (الضَّميرُ في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ عائدٌ إلى الأصنامِ، وفي الضميرِ في قوله: ﴿يُبْعَثُونَ﴾ قولان: أحدُهما: أنَّه عائدٌ إلى العابدينَ للأصنامِ، يعني: أنَّ الأصنامَ لا يشعرون متى تُبعَثُ عبَدتُهم، وفيه تهكُّمٌ بالمشركينَ وأنَّ آلهتَهم لا يعلمونَ وقتَ بَعثِهم، فكيف يكونُ لهم وقتُ جزاءٍ منهم على عبادتِهم؟! والثاني: أنَّه عائدٌ إلى الأصنامِ، يعني: أنَّ هذه الأصنامَ لا تعرِفُ متى يبعَثُها اللهُ تعالى). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٦). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٧).

وممن قال بالقولِ الأولِ: الزمخشري، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٧).

وممن قال بالقولِ الثاني: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٦١).

وقيل: المعنى: وما يدري الكفارُ متى يُبعثونَ. وممن قال بذلك: القرطبي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٦).

لأجلِه أصرَّ الكفارُ على القولِ بالشركِ، وإنكارِ التوحيدِ[١].

وأيضًا فإنَّ اللهُ تعالى لَمَّا ذكر ما اتَّصَفَت به آلِهةُ المُشرِكينَ بما يُنافي الألوهيَّةَ؛ أخبَرَ تعالى أنَّ إلهَ العالَمِ هو واحِدٌ، وأنَّ الذين لا يُؤمِنونَ بالجَزاءِ بعد وُضوحِ بُطلانِ أن تكونَ الإلهيَّةُ لِغَيرِه، بل له وَحدَه؛ هم مُستَمِرُّونَ على شِركِهم، مُنكِرونَ وحدانيَّتَه، مُستَكبِرونَ عن الإقرارِ بها؛ لاعتقادِهم الإلهيَّةَ لأصنامِهم[٢].

وأيضًا فهو استئنافُ نتيجةٍ لحاصلِ المُحاجَّةِ الماضيةِ، أي: قد ثبت بما تقَدَّمَ إبطالُ إلهيَّةِ غيرِ الله، فثبَت أنَّ لكم إلهًا واحدًا لا شريكَ له[٣].

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾.

أي: مَعبودُكم- أيُّها النَّاسُ- الذي يستحِقُّ عبادتَكم دونَ سائِرِ الأشياءِ، مَعبودٌ واحِدٌ؛ فلا تُشرِكوا به شيئًا[٤].

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾.

أي: فالذين لا يُؤمِنونَ بيومِ القيامةِ والجنَّةِ والنَّارِ، قُلوبُهم تُنكِرُ ما أخبَرَ به مِن قُدرتِه وعَظَمتِه ونِعَمِه، وتُنكِرُ إفرادَ اللهِ بالعبادةِ، وأنَّ الألوهيَّةَ لا تَصلُحُ لِغَيرِه، وهم مُمتَنِعونَ كِبرًا عن قَبولِ الحَقِّ، والانقيادِ إليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

كما قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: ٤-٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ۝٢٣﴾.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾.

أي: حقًّا أنَّ اللهَ يَعلَمُ ما يُسِرُّه المُشرِكونَ في قُلوبِهم مِن إنكارِهم للحَقِّ، واعتقادِهم بالباطِلِ، ويعلَمُ حَقًّا ما يُعلِنونَه مِن الكُفرِ والمعاصي، وسيُجازيهم على أعمالِهم الظَّاهِرةِ والباطنةِ[1].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان في قَولِه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ معنى التَّهديدِ؛ لأنَّ المرادَ: فلَيُجازيَنَّهم على دِقِّ ذلك وَجِلِّه مِن غَيرِ أن يَغفِرَ منه شَيئًا، كما يأتي التَّصريحُ به في قَولِه: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ﴾ [النحل:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

٢٥]- علَّلَ هذا المعنى بقَولِه[١]:

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُستكبِرينَ عن تَوحيدِه، وإفرادِه بالعبادةِ، فهو يُبغِضُهم وسيُعاقِبُهم[٢].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بالغَ في تقريرِ دلائِلِ التَّوحيدِ، وأوردَ الدَّلائِلَ القاهِرةَ في إبطالِ مذاهِبِ عَبدةِ الأصنامِ؛ ذكَرَ بعد ذلك شُبُهاتِ مُنكِري النبُوَّةِ مع الجوابِ عنها[٣].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾.

أي: وإذا قيلَ لهَؤلاء المُشرِكينَ: ما الذي أنزَلَه ربُّكم مِن الوحيِ على نبيِّه مُحمَّدٍ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٤]؟

﴿قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: قال المُشرِكونَ: لم يَنزِلْ عليه شيءٌ، وهذا القُرآنُ الذي يزعُمُ محمَّدٌ أنَّ الله أنزَلَه عليه، هو ما سَطَره الأقدَمونَ في كُتُبِهم من الأكاذيبِ والأباطيلِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

والقِصَص التي يتناقَلُها النَّاسُ جِيلًا بعد جِيلٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقال سُبحانه: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥].

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

أي: لِيحمِلوا ذُنوبَهم كامِلةً يومَ القيامةِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٩، ١٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٨).

قال ابنُ عطية: (واللامُ في قولِه: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ ﴾ يحتملُ أن تكونَ لامَ العاقبةِ؛ لأنَّهم لم يقصِدوا بقولِهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ليحْمِلوا الأوزارَ. ويحتملُ أن تكونَ صريحَ لامِ «كي»، على معنَى: قدَّر هذا. ويحتملُ أن تكونَ لامَ الأمرِ، على معنى الحتمِ عليهم بذلك، والصغارِ الموجبِ لهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٧).

وقال الشنقيطي: (واللامُ في قَولِه ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ ﴾ تتعلقُ بمحذوفٍ دلَّ المقامُ عليه، أي: قدَّرْنا عليهم أن يقولوا في القرآن: أساطيرُ الأوَّلين؛ ليَحمِلوا أوزارَهم). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٦٣).

ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٥).

وقال الشوكاني: (﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً ﴾ أي: قالوا هذه المقالةَ لكي يَحْمِلوا أوزارَهم كاملةً، لم يُكَفَّرْ منها شيءٌ؛ لعدمِ إسلامِهم الَّذي هو سببٌ لتكفيرِ الذُّنوبِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٨).

وقيل: اللامُ في قَولِه تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ ﴾: لامُ العاقبةِ، أي: قالوا ذلك القولَ، فكانت عاقبتُه

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

أي: وليحملَ المُشرِكونَ المَتبوعونَ أيضًا بعضَ[1] ذُنوبِ أتباعِهم الذين

أنَّهم يحمِلونَ أوزارَهم. وممَّن نصَّ على أنَّ اللامَ هنا للعاقبةِ: الواحدي، وابنُ الجوزي، والرازي، والرسعني، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٧)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٢).

(١) ممَّن ذهب إلى أنَّ (من) هنا للتبعيضِ: ابنُ عطية، وابنُ تيمية، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٢٦-٧٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٣).

قال ابن تيميَّة: (فقولُه: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ هي الأوزارُ الحاصلةُ لضَلالِ الأتباعِ، وهي حاصلةٌ مِن جهةِ الآمِرِ، ومن جهة المأمورِ الممتَثِلِ، فالقُدرتان مُشتركتانِ في حصولِ ذلك الضَّلالِ؛ فلهذا كان على هذا بعضُه، وعلى هذا بعضُه، إلَّا أنَّ كلَّ بعضٍ مِن هذينِ البعضينِ هو مِثلُ وِزرِ عاملٍ كاملٍ، كما دلت عليه سائرُ النُّصوصِ، مثل قولِه صَلَّى الله عليه وسلَّم: «من دعا إلى الضَّلالةِ، كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها إلى يومِ القيامةِ»). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٧٢٦-٧٢٧).

قال الألوسي: (فـ«مِن» تبعيضيَّةٌ؛ لأنَّ مُقابلتَه لقولِه تعالى: ﴿كَامِلَةً﴾ يعَيِّنُ ذلك، والمرادُ بهذا البَعضِ حِصَّةُ التسَبُّبِ؛ فالمضَلُّ والضالُّ شريكانِ: هذا يُضِلُّه، وهذا يُطاوِعُه، فيتحاملانِ الوِزرَ، وللضالِّ أوزارٌ غيرُ ذلك، وليست تلك محمولةً). ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٦٥).

وقيلَ: «مِن» هنا لبيانِ الجنسِ. وممن اختار هذا القولَ: الواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٦).

قال الواحدي: (و«مِنْ» في قوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ ليست للتبعيضِ؛ لأنَّها لو كانت للتبعيضِ لخفَّ عن الأتباعِ بعضُ أوزارِهم بحَملِ الرُّؤساءِ ذلك، ولكنَّها للجِنسِ، أي: ليحملوا مِن جنسِ أوزارِ الأتباع، وإنما ذلك لأنَّ النبيَّ صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: «مِن غيرِ أن يَنقُصَ من أوزارِهم شيءٌ»، ولو جعلنا المحمولَ من أوزارِ الأتباع نقَصَت أوزارُهم؛ فليس يأتي التابعُ بجنسٍ مِن الذنبِ في ضلالتِه إلَّا وعلى المتبوعِ مثلُ ذلك، كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «فإنَّ عليه مثلَ أوزارِ مَن اتَّبعه»). ((البسيط)) (١٣/ ٤٤).

يُضِلُّونَهم فيقلدونهم بغيرِ عِلمٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۞ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن دعا إلى هُدًى، كان له مِن الأجرِ مِثلُ أجُورِ مَن تَبِعَه، لا يَنقُصُ ذلك مِن أجورِهم شَيئًا، ومَن دعا إلى ضَلالةٍ، كان عليه مِن الإثمِ مِثلُ آثامِ مَن تَبِعَه، لا يَنقُصُ ذلك مِن آثامِهم شَيئًا))[(٢)].

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

قال أبو السعود: (﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ حالٌ من الفاعلِ، أي: يضلُّونَهم غيرَ عالمينَ بأنَّ ما يَدْعونَ إليه طريقُ الضَّلالِ... أو حالٌ من المفعول، أي: يُضِلُّونَ مَن لا يعلمُ أنَّهم ضُلَّالٌ. وفائدة التقييدِ بها: الإشعارُ بأنَّ مَكرَهم لا يَروجُ عند ذي لُبٍّ، وإنَّما يتَّبِعُهم الأغبياءُ والجَهَلةُ، والتنبيهُ على أنَّ جَهلَهم ذلك لا يكونُ عُذرًا؛ إذ كان يجِبُ عليهم أن يبحَثوا ويُميِّزوا بين المُحِقِّ الحقيقِ بالاتِّباعِ وبين المُبطِلِ). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٧).

وممن قال بالمعنى الأول: الواحدي، وابنُ الجوزي، والرازي، والقرطبي، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٨).

وممن قال بالمعنى الثاني: الزمخشري، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٣).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٤).

أي: ألا بِئسَ ما يحمِلُه المُشرِكونَ على ظُهورِهم مِن الذُّنوبِ الثَّقيلةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ المعنى: أنَّ الذين يُؤمِنونَ بالآخرةِ، ويَرغَبونَ في الفَوزِ بالثَّوابِ الدَّائمِ، ويخافونَ الوُقوعَ في العِقابِ الدَّائمِ؛ إذا سَمِعوا الدَّلائِلَ والتَّرغيبَ والتَّرهيبَ، خافوا العِقابَ فتأمَّلوا وتفكَّروا فيما يَسمَعونَه؛ فلا جرَمَ ينتَفِعونَ بسَماعِ الدَّلائِلِ، ويَرجِعونَ مِن الباطِلِ إلى الحَقِّ، أمَّا الذين لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ ويُنكِرونَها، فإنَّهم لا يَرغَبونَ في حُصولِ الثَّوابِ، ولا يَرهَبونَ مِن الوقوعِ في العِقابِ، فيَبقَونَ مُنكِرينَ لكُلِّ كلامٍ يُخالِفُ قَولَهم، ويَستَكبِرونَ عن الرُّجوعِ إلى قَولِ غَيرِهم، فلا جرَمَ يَبقَونَ مُصِرِّينَ على ما كانوا عليه مِن الجَهلِ والضَّلالِ[٢].

٢- كثيرًا ما يكونُ الكِبْرُ مانِعًا مِن قَبولِ الحَقِّ؛ قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ قال العُلماءُ: (كُلُّ ذَنبٍ يُمكِنُ التستُّرُ منه وإخفاؤُه إلَّا الكِبْرَ؛ فإنَّه فِسقٌ يَلزَمُه الإعلانُ، وهو أصلُ العِصيانِ كُلِّه)[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٥).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ عامٌّ في الكافرينَ والمُؤمِنينَ، يأخُذُ كُلُّ واحِدٍ منهم بقِسطِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: أليس أنَّ قَولَه تعالى في أوَّلِ الآيةِ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ يدُلُّ على أنَّ هذه الأصنامَ لا تخلُقُ شَيئًا، وقولَه هاهنا: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ يدُلُّ على نفسِ هذا المعنى، فكان هذا مَحضَ التَّكريرِ؟

الجوابُ: أنَّ المذكورَ في أوَّلِ الآيةِ أنَّهم لا يَخلُقونَ شَيئًا، والمذكورَ هاهنا أنَّهم لا يخلُقونَ شَيئًا، وأنَّهم مَخلوقونَ لِغَيرِهم، فكان هذا زيادةً في المعنى، وكأنَّه تعالى بدأ بشَرحِ نَقصِهم في ذَواتِهم وصِفاتِهم؛ فبيَّنَ أوَّلًا أنَّها لا تخلُقُ شَيئًا، ثمَّ ثانيًا أنَّها كما لا تَخلُقُ غَيرَها فهي مخلوقةٌ لِغَيرِها[٢]، وأيضًا فقولُه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ لبيانِ المستحقِّ للعبادةِ، وأمَّا قولُه: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ فلبيانِ عجزِ هذه الأصنامِ وضعفِها.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أنَّ الجَمادَ يُسَمَّى مَيِّتًا، وإن كان غيرَ قابِلٍ للحياةِ؛ فإنَّ اللهَ في هذه الآيةِ سَمَّى الأصنامَ أمواتًا، وهي حِجارةٌ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ قيل: فيه دليلٌ على أنَّ الأصنام تُجعَلُ فيها الحياةُ، وتُبعَثُ يومَ القيامةِ حتَّى تتبرَّأَ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٢).

عابديها، وذلك على اعتبارِ أنَّ قولَه: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني به هذه الأصنامَ[١].
وقيل: إنَّما عبَّر عنها كما عبَّر عن الآدميينَ؛ لأنَّهم زعموا أنَّها تعقلُ عنهم، وتعلمُ وتشفعُ لهم عندَ الله تعالى، فجرَى خطابُهم على ذلك[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ نفَى عنهم مُطلَقَ الشُّعورِ الذي هو أعمُّ مِن العِلمِ، فيَنتفي كلُّ ما هو أخَصُّ منه[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ وصَفَهم بأنَّهم لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ؛ مُبالغةً في نِسبةِ الكُفرِ إليهم؛ إذ عَدَمُ التَّصديقِ بالجَزاءِ في الآخِرةِ يتضَمَّنُ التَّكذيبَ باللهِ تعالى وبالبَعثِ؛ إذ مَن آمَنَ بالبَعثِ يَستحيلُ أن يُكَذِّبَ بالله عَزَّ وجَلَّ[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: أنَّه تعالى لا يُخفِّفُ مِن عقابِهم شَيئًا، بل يُوصِلُ ذلك العِقابَ بكُلِّيَّتِه إليهم. وهذا يدُلُّ على أنَّه تعالى قد يُسقِطُ بعضَ العِقابِ عن المُؤمِنينَ؛ إذ لو كان هذا المعنى حاصِلًا في حَقِّ الكُلِّ، لم يكُنْ لتَخصيصِ هؤلاء الكُفَّارِ بهذا التَّكميلِ معنًى[٥].

٧- في قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن أَفْتَى بغير علمٍ فَعُمِلَ بفتواه؛ كان إِثْمُ العاملِ عليه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٧).
(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٥٣).

٨- قال الله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ فلم يُكفَّرْ عنهم شَيءٌ مِن ذُنوبِهم بما يُصيبُهم في الدُّنيا مِن نَكبةٍ وبَليَّةٍ، كما يُكَفَّرُ عن المُؤمِنينَ(١).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾ لا يُعارِضُه قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[الأنعام: ١٦٤]؛ فمعناه: وِزْرًا لا مَدخَلَ لها فيه، ولا تعَلُّقَ له بها بتسبُّبٍ ولا غَيرِه، ونظيرُ هاتينِ الآيتينِ سُؤالًا وجَوابًا، قَولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾(٢) [العنكبوت: ١٢- ١٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ تحذيرٌ للذي يُحدِثُ البِدعةَ؛ أنَّه قد يَتهاوَنُ بها لِخفَّةِ أمرِها في أوَّلِ الأمرِ، ولا يَشعرُ بما يترتَّبُ عليها مِن المفسَدةِ، وهو أن

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٣٠٤).

قال الشنقيطي: (فإن قيل: ما وجهُ تحمُّلِهم بعضَ أوزارِ غَيرِهم المنصوصِ عليه بقَولِه: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الآية، وقولِه: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ الآية، مع أنَّ اللهَ يقولُ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾، ويقولُ جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾، ويقولُ: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ؟

فالجوابُ -والله تعالى أعلمُ- أنَّ رؤساءَ الضَّلالِ وقادتَه تحمَّلوا وِزرَينِ: أحدُهما: وِزرُ ضلالِهم في أنفُسِهم. والثاني: وِزرُ إضلالِهم غيرَهم؛ لأنَّ مَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئةً فعليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِل بها، لا يَنقُصُ ذلك من أوزارِهم شَيئًا، وإنما أُخِذَ بعَمَلِ غيرِه؛ لأنَّه هو الذي سَنَّه وتسَبَّب فيه، فعوقِبَ عليه من هذه الجهةِ؛ لأنَّه مِن فِعلِه، فصار غيرَ مُنافٍ لِقَولِه: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾ الآية). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٦٣-٣٦٤).

يَلحقَه إثمُ مَن عَمِلَ بها مِن بَعدِه، ولو لم يكُنْ هو عَمِلَ بها، بل لِكَونِه كان الأصلَ في إحداثِها[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ ما تَوَلَّدَ عن فِعلِ العبدِ يَحصُلُ له منه ثوابٌ وعِقابٌ وإنْ لم يَقصِدْه[٢]؛ فاللهُ سُبحانَه يُعاقِبُ على الأسبابِ المحَرَّمة وعلى ما تولَّدَ منها، كما يُثيبُ على الأسبابِ المأمورِ بها وعلى ما يتولَّدُ منها؛ ولذا كان من دعا إلى بِدعةٍ وضلالةٍ فعليه مِن الوِزرِ مِثلُ أوزارِ مَن اتَّبَعه؛ لأنَّ اتِّباعَهم له تولَّدَ عن فِعلِه؛ ولذلك كان على ابنِ آدَمَ القاتِلِ لأخيه كِفلٌ مِن ذنبِ كُلِّ قاتلٍ إلى يومِ القيامةِ، وقد قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[٣] [العنكبوت: ١٣].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يدُلُّ على أنَّ الكافِرَ غَيرُ مَعذورٍ بعد إبلاغِ الرُّسُلِ المؤَيَّدِ بالمُعجِزاتِ، الذي لا لبْسَ معه في الحَقِّ، ولو كان يَظُنُّ أنَّ كُفرَه هُدًى؛ لأنَّه ما منَعَه من معرفةِ الحَقِّ مع ظُهورِه إلَّا شِدَّةُ التعَصُّبِ للكُفرِ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقَوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٤]، وقَوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾[٤] [الزمر: ٤٧].

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية)) (٤/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٤-٣٦٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ فيه تَقديمُ السِّرِّ على العلَنِ؛ لتَحقيقِ المُساواةِ بين عِلمَيه المُتعلِّقَينِ بهما على أبلَغِ وَجهٍ، كأنَّ عِلمَه تَعالى بالسِّرِّ أقدَمُ منه بالعلَنِ، أو لأنَّ كلَّ شَيءٍ يُعْلَنُ فهو قبلَ ذلك مُضمَرٌ في القلبِ، فتعلُّقُ علمِه تَعالى بحالتِه الأُولى أقدَمُ مِن تعلُّقِه بحالتِه الثَّانيةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ تَعريضٌ بالتَّهديدِ والوعيدِ بأنَّ اللهَ مُحاسِبُهم على كُفرِهم، وفيه إعلامٌ بأنَّ أصنامَهم بخلافِ ذلك، كما دَلَّ عليه تَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ فإنَّه يفيدُ القصرَ لرَدِّ دعوى الشَّركةِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾

- شُروعٌ في تَحقيقِ كونِ الأصنامِ بمَعزِلٍ مِن استحقاقِ العِبادةِ، وتَوضيحِه بحيث لا يَبْقَى فيه شائبةُ رَيبٍ بتعديدِ أوصافِها وأحوالِها المُنافيةِ لذلك مُنافاةً ظاهرةً، وتلك الأحوالُ وإنْ كانت غَنيَّةً عن البَيانِ لكنَّها شُرِحَت للتَّنبيهِ على كَمالِ حَماقةِ عَبَدَتِها، وأنَّهم لا يعرِفونَ ذلك إلَّا بالتَّصريحِ، أي: والآلهةُ الَّذين يعبُدُهم الكُفَّارُ[٣].

- والمقصودُ من هذه الجُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ...﴾ التَّصريحُ بما اسْتُفِيدَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٥).

ضِمنًا ممَّا قبلَها، وهو نَفيُ الخالِقيَّةِ، ونفيُ العلمِ عن الأصنامِ؛ فالخبرُ الأوَّلُ -وهو جُملةُ ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾- اسْتُفِيدَ من جُملةِ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾، وعُطِفَ ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ارتقاءً في الاستدلالِ على انتفاءِ إلهيَّتِها، والخبرُ الثَّاني -وهو جُملةُ ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾- تَصريحٌ بما اسْتُفِيدَ من جُملةِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بطَريقةِ نَفيِ الشَّيءِ بنَفيِ مَلزومِه، وهي طريقةُ الكِنايةِ الَّتي هي كذِكْرِ الشَّيءِ بدَليلِه[(١)].

- وبِناءُ الفعلِ ﴿يُخْلَقُونَ﴾ للمفعولِ؛ لتَحقيقِ التَّضادِّ والمُقابَلةِ بينَ ما أُثبِتَ لهم، وبينَ ما نُفِيَ عنهم مِن وَصفَيِ المخلوقيَّةِ والخالقيَّةِ، وللإيذانِ بعدَمِ الافتقارِ إلى بَيانِ الفاعلِ؛ لظُهورِ اختصاصِ الفعلِ بفاعلِه جَلَّ جلالُه. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ الخلقُ الثَّاني عبارةً عن النَّحتِ والتَّصويرِ؛ رِعايةً للمُشاكَلَةِ بينه وبين الأوَّلِ، ومُبالغةً في كونِها مَصنوعةً لعَبَدَتِها وأعجَزَ عنهم، وإيذانًا بكَمالِ رَكاكةِ عُقولِهم حيث أشْرَكوا بخالِقِهم مَخلوقَهم.

- ولأنَّ إثباتَ المخلوقيَّةِ لهم غيرُ مُستَدْعٍ لنَفيِ الحياةِ عنهم لِمَا أنَّ بعضَ المخلوقينَ أحياءٌ، فقد صُرِّحَ بذلك، فقيل: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾[(٢)].

٣- قوله تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، جُملةُ ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ تأكيدٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿أَمْوَاتٌ﴾؛ للدَّلالةِ على عَراقةِ وَصفِ الموتِ فيهم بأنَّه ليس فيهم شَائبةُ حياةٍ؛ لأنَّهم حِجارةٌ[(٣)]، وفيه احتراسٌ[(٤)]؛ إذ قد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٥- ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٦).

(٤) الاحتراس: هو التحرُّزُ مِن الشيءِ، والتحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن

وصَفَ الأصنامَ بـ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ بعدَ قولِه: ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾؛ لأنَّ الأصنامَ أمواتٌ لا يَعْقُبُ موتَها حياةٌ؛ احترازًا عن أمواتٍ يعقُبُ موتَها حياةٌ؛ كالنُّطَفِ، والبَيضِ، والأجسادِ الميتةِ، وذلك أبلغُ في موتِها، كأنَّه قال: أمواتٌ في الحالِ، غيرُ أحياءٍ في المآلِ[1].

- وجُملةُ ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ إدماجٌ[2]؛ لإثباتِ البعثِ عَقِبَ الكلامِ على إثباتِ الوَحدانيَّةِ للهِ تَعالى؛ لأنَّ هذينِ هما أصلُ إبطالِ عَقيدةِ المُشركينَ، وتَمهيدٌ لوَجهِ التَّلازُمِ بين إنكارِ البعثِ وبين إنكارِ التَّوحيدِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾[3].

- وقولُه أيضًا: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ فيه تَهكُّمٌ بالمُشركينَ، وأنَّ آلهتَهم لا يَعْلمون وقتَ بَعثِهم؛ فكيف يكونُ لهم وقتُ جزاءٍ منهم على

يكونَ الكلامُ محتملًا لشيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو: الإتيانُ في كلامٍ يُوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدْفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ التَّكميلَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٧). ويُنظر أيضًا: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٠٣).

(٢) الإدماجُ لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى- مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ- وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٦).

عِبادتِهم[١]؟! وهو أيضًا على طَريقةِ التَّهكُّمِ بهم؛ لأنَّ شُعورَ الجمادِ بالأُمورِ الظَّاهرةِ بَديهيُّ الاستحالةِ عند كلِّ أحدٍ؛ فكيف بما لا يعلَمُه إلَّا العليمُ الخبيرُ[٢]؟! وهذا على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

٤- قوله تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ فَذلَكةٌ لِمَا سبَق، وإعادةٌ لأمْرِ الأُلوهيَّةِ مُجمَلًا بعدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليها مُفصَّلًا؛ والمعنى: قد ثبَتَ بالدَّلائلِ الدالَّةِ على أنَّ الإلهيَّةَ مُختصَّةٌ باللهِ تعالى، وأنَّه واحدٌ متفرِّدٌ بالألوهيَّة، وهو المعبودُ الحقُّ، وإذا كان كذلك؛ فمِن حَقِّه أنْ يَختَصَّ بالعبادةِ، وأنْ لا تُنكَرَ إلهيتُه، وهؤلاء عكَسوا واستمرُّوا على شِركِهم، وقلوبُهم منكرةٌ للوحدانيَّة[٣].

- وفي قولِه: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث عَرِيَت الجُملةُ عن المُؤكِّدِ؛ لكون ما مَضى قبلَ هذا الموضعِ كافيًا في إبطالِ إنكارِ المُشركينَ الوَحدانيَّةَ؛ تَنزيلًا لحالِ المُشركينَ بعدما سَمِعوا من الأدلَّةِ مَنزلةَ مَن لا يُظَنُّ به أنَّه يتردَّدُ في ذلك، بخلافِ قولِه تعالى في سُورةِ الصَّافاتِ: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾ [الصافات: ٤]؛ لأنَّ ذلك ابتداءُ كلامٍ لم يتقدَّمْه دليلٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٩/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٧).

- قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ بيانٌ لِمَا اقْتَضى إصرارَهم بعدَ وُضوحِ الحقِّ، وذلك عدَمُ إيمانِهم بالآخرةِ -فإنَّ المُؤمنَ بها يكونُ طالبًا للدَّلائلِ، مُتأمِّلًا فيما يسمَعُ، فينتفِعُ به، والكافرُ بها يكونُ حالُه بالعكسِ- وإنكارُ قُلوبِهم ما لا يُعْرَفُ إلَّا بالبُرهانِ اتِّباعًا للأسلافِ، ورُكونًا إلى المألوفِ؛ فإنَّه يُنافي النَّظرَ- والاستكبارُ عن اتِّباعِ الرَّسولِ وتَصديقِه، والالتفاتِ إلى قولِه، والأوَّلُ- يعني: الذين لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ- هو العُمدةُ في البابِ؛ ولذلك رُتِّبَ عليه ثُبوتُ الآخرينِ- يعني: إنكارَ قُلوبِهم واستكبارَهم[1].

- والتَّعبيرُ عن المُشركينَ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لأنَّهم قد عُرِفُوا بمَضمونِ الصِّلةِ، واشْتُهِرُوا بها اشتهارَ لَمْزٍ وتَنقيصٍ عندَ المُؤمنينَ، وللإيماءِ إلى أنَّ لهذه الصِّلةِ ارتباطًا باستمرارِهم على العِنادِ؛ لأنَّ انتفاءَ إيمانِهم بالبعثِ والحسابِ قد جرَّأَهم على نَبذِ دَعوةِ الإسلامِ ظِهْريًّا، فلم يتوقَّعوا مُؤاخذةً على نَبذِها- على تَقديرِ أنَّها حقٌّ- فيَنْظروا في دَلائلِ أحقِّيَّتِها، مع أنَّهم يُؤمِنون باللهِ، ولكنَّهم لا يُؤمِنون بأنَّه أعَدَّ للنَّاسِ يومَ جزاءٍ على أعمالِهم[2].

- قولُه: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾، أي: جاحدةٌ بما هو واقعٌ، اسْتُعْمِلَ الإنكارُ في جَحدِ الأمرِ الواقعِ؛ لأنَّه ضِدُّ الإقرارِ، فحُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿مُّنكِرَةٞ﴾؛ لدَلالةِ المقامِ عليه، أي: مُنكِرةٌ للوَحدانيَّةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٣-٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وعُبِّرَ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإنكارَ ثابتٌ لهم دائمٌ لاستمرارِهم على الإنكارِ بعد ما تبيَّنَ من الأدلَّةِ، وذلك يفيدُ أنَّ الإنكارَ صار لهم سَجِيَّةً، وتمكَّنَ مِن نُفوسِهم؛ لأنَّهم ضَرُوا به- أي: اعتادُوه واجترَؤوا عليه- من حيث إنَّهم لا يُؤمِنون بالآخرةِ، فاعتادوا عدَمَ التَّبصُّرِ في العواقبِ. وكذلك جُملةُ ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ بُنِيَت على الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ الاستكبارِ منهم[١].

- وفي قولِه: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث بُنِيَت على الاسميَّةِ؛ لما سبَق، وقد خُولِفَ ذلك في آيةِ سُورةِ الفُرقانِ، حيث قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الفرقان: ٢١]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ تلك الآيةَ لم تتقدَّمْها دَلائلُ على الوَحدانيَّةِ مِثلُ الدَّلائلِ المذكورةِ في هذه الآيةِ في سُورةِ النَّحلِ[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾

- جُملةُ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ خبرٌ مُستعمَلٌ كنايةً عن الوعيدِ بالمُؤاخذةِ بما يُخْفونَ وما يُظهِرون من الإنكارِ والاستكبارِ وغيرِهما، مُؤاخذةَ عِقابٍ وانتقامٍ؛ فلذلك عقَّبَ بجُملةِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ الواقعةِ موقعَ التَّعليلِ والتَّذييلِ لها؛ لأنَّ الَّذي لا يُحِبُّ فِعلًا وهو قادرٌ يُجازي فاعلَه بالسُّوءِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ تَعليلٌ لِمَا تضمَّنَه الكلامُ من الوعيدِ،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٩).

أي: لا يُحِبُّ المُستكبِرين عن التَّوحيدِ، أو عن الآياتِ الدَّالَّةِ عليه، أو لا يحِبُّ جِنسَ المُستكبرينَ؛ فكيف بمَن استكبَرَ عمَّا ذُكِرَ(١)؟!

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ للاستغراقِ؛ لأنَّ شأنَ التَّذييلِ العمومُ، ويشمَلُ هؤلاء المُتحدَّثَ عنهم؛ فيكونُ إثباتُ العِقابِ لهم كإثباتِ الشَّيءِ بدَليلِه(٢).

٦- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ ذِكْرُ فعْلِ القولِ ﴿قِيلَ﴾ يَقْتضي صُدورَه عن قائلٍ يسألُهم عن أمرٍ حدَثَ بينهم، وليس على سبيلِ الفرضِ، وأنَّهم يُجيبونَ بما ذُكِرَ؛ مَكرًا بالدِّينِ، وتظاهُرًا بمظهَرِ النَّاصحينَ للمُسترشِدين المُستنصِحين، بقرينةِ قولِه تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، و﴿إِذَا﴾ ظرْفٌ مُضمَّنٌ معنى الشَّرطِ، وهذا الشَّرطُ يُؤذِنَ بتكرُّرِ هذينِ القولَينِ(٣).

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال بعدَه: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا﴾؛ فرفَعَ الأوَّلَ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾؛ لأنَّهم أنْكَروا إنزالَ القُرآنِ، فعَدَلوا عن الجوابِ، فقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. ونصَبَ الثَّانيَ ﴿خَيْرًا﴾ من كلامِ المُتَّقينَ، وهم مُقِرُّون بالوحيِ والإنزالِ، فقالوا: ﴿خَيْرًا﴾، أي: أنزَلَ خيرًا؛ فيكونُ الجوابُ مُطابِقًا(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٨-١٥٩).

٧- قوله تعالى: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۙ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾

- عُبِّرَ بصِيغَةِ الاستقبالِ ﴿يُضِلُّونَهُم ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ الإضلالِ، أو باعتبارِ حالِ قولِهم لا حالِ الحمْلِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٧).

الآيات (٢٦-٢٩)

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾: أي: تُخالِفونَ، وتُعادونَ، وتُخاصمونَ، والمشاقةُ عبارةٌ عن كونِ كلٍّ واحدٍ مِن الخَصمينِ في شقٍّ غيرِ شقِّ صاحبِه، وأصلُ (شقق): يدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ[1].

﴿ٱلسَّلَمَ﴾: أي: الاستِسلامَ والانقيادَ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: قد مكرَ الكُفَّارُ مِن قَبْلِ مُشرِكي قريشٍ مكرًا شديدًا برُسُلِهم، فأتى اللهُ بُنيانَهم مِن أساسِه وقاعِدتِه، فسقطَ عليهم السَّقفُ مِن فَوقِهم، فأهلكَهم اللهُ من حيثُ لا يحتَسِبونَ ولا يتوقَّعونَ. ثمَّ يومَ القيامةِ يَفضَحُهم اللهُ ويُذِلُّهم، ويَقولُ: أين ما كنتُم تعبُدون مِن دُوني، وتُعادُونَ اللهَ وحِزبَه بسَبَبِهم؛ فلْيَدفَعوا

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١، ٢٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١، ٤٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦).

عنكم العذابَ.

ثمَّ حكى سُبحانَه ما يَقولُه أولو العِلمِ في هذا الموقِفِ الهائلِ الشَّديدِ، حيث قالُوا: إنَّ الذُّلَّ في هذا اليَومِ والعذابَ على الكافرينَ، الذين تَقبِضُ الملائِكةُ أرواحَهم في حالِ ظُلمِهم لأنفُسِهم بالكُفرِ والمعاصي، فاستسلَموا لأمرِ اللهِ حين عايَنوا الموتَ، وقالوا: ما كُنَّا نَكفُرُ باللهِ، ولا نَعمَلُ شَيئًا مِن المعاصي، فيُقالُ لهم: كَذَبتُم، قد كُنتم تَعمَلون السُّوءَ، إنَّ اللهَ عليمٌ بأعمالِكم كُلِّها، وسيُجازيكم عليها، فادخُلوا أبوابَ جَهنَّم ماكثينَ فيها أبدًا، فلَبِئسَ منزلُ الذينَ تكبَّروا عن الإيمانِ باللهِ وتوحيده: نارُ جهنَّمَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى عاقِبةَ إضلالِ المُشرِكينَ، وصَدِّهم السَّائلينَ عن القُرآنِ والإسلامِ في الآخِرةِ؛ أتبَعَه بالتَّهديدِ بأنْ يقَعَ لهم ما وقَعَ فيه أمثالُهم في الدُّنيا مِن الخِزيِ والعذابِ، مع التَّأييسِ مِن أن يَبلُغوا بصُنعِهم ذلك مبلَغَ مُرادِهم، وأنَّهم خائِبونَ في صُنعِهم، كما خابَ مِن قَبلِهم الذين مَكَروا برُسُلِهم[1].

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾.

أي: قد مكرَ الكُفَّارُ- الذين كانوا مِن قَبلِ مُشرِكي قُرَيشٍ- بالرُّسُلِ وأتباعِهم، وصَدُّوا النَّاسَ عن دِينِ اللهِ، فأتاهم عذابُ اللهِ الذي اجتَثَّ بُنيانَهم مِن أصلِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٣).

وأساسِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٥، ٣٦٦).

وعامةُ المفسِّرين على أنَّه بُنيانٌ سَقَط، واختلفوا في هؤلاء الذين خَرَّ عليهم السَّقفُ، فذهب أكثَرُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ به نمرودُ بنُ كنعان؛ حيث بنى بناءً عظيمًا ببابل، ورام الصعودَ إلى السماءِ ليُقاتِلَ أهلَها، فأهبَّ اللهُ الريحَ، فخرَّ ذلك البناءُ عليه وعلى قومِه فهلكوا. وقيل: إنَّه بُختنصَّر وأصحابه. وقيل: هم المقتَسِمون الذين تقَدَّم ذِكرُهم في سورة الحِجرِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٩).

قال ابن جرير: (وأولى القولينِ بتأويل الآية قَولُ من قال: معنى ذلك: تساقطت عليهم سقوفُ بيوتِهم؛ إذ أتى أصولَها وقواعِدَها أمرُ الله، فائتفَكَت بهم منازِلُهم؛ لأنَّ ذلك هو الكلامُ المعروفُ مِن قواعدِ البُنيان وخَرِّ السَّقفِ، وتوجيهُ معاني كلامِ الله إلى الأشهَرِ الأعرَفِ منها أولى من توجيهِها إلى غيرِ ذلك ما وُجِدَ إليه سبيلٌ. ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦] يقولُ تعالى ذكره: وأتى هؤلاءِ الذين مكَروا من قَبلِ مُشركي قُريشٍ عذابُ اللهِ مِن حيثُ لا يَدرون أنَّه أتاهم منه). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٦).

قال الشوكاني: (والأولى أنَّ الآية عامَّةٌ في جميعِ المُبطِلين من المتقَدِّمين الذين يحاولون إلحاقَ الضُّرِّ بالمحقِّين، ومعنى المكر هنا: الكيدُ والتدبيرُ الذي لا يطابِقُ الحَقَّ، وفي هذا وعيدٌ للكُفَّار المعاصِرين له صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ مَكرَهم سيعودُ عليهم كما عاد مكرُ مَن قبلَهم على أنفُسِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٩).

وقيل: هذا من بابِ المثَل؛ لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفَروا بالله وأشركوا في عبادتِه غيرَه، والمعنى: أهلكهم فكانوا بمنزلةِ من سقط بنيانُه عليه. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٥).

قال السعدي: (وهذا من أحسَنِ الأمثالِ في إبطالِ اللهِ مَكرَ أعدائه؛ فإنهم فكَّروا وقدَّروا فيما جاءت به الرسُلُ لَمَّا كذَّبوهم، وجعلوا لهم أصولًا وقواعدَ مِن الباطِلِ يَرجِعون إليها، ويرُدُّون بها ما جاءت به الرسُلُ، واحتالوا أيضًا على إيقاعِ المكروه والضَّرَرِ بالرسُلِ ومَن تَبِعَهم، فصار مكرُهم وبالًا عليهم، فصار تدبيرُهم فيه تدميرَهم؛ وذلك لأنَّ مَكرَهم سَيِّئٌ، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

وقال سُبحانه: ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾.

أي: فسقَطَ السَّقفُ على أولئك الكُفَّارِ مِن فَوقِ رُؤوسِهم، فأهلَكَهم اللهُ[١].

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

أي: وأتاهم عذابُ اللهِ بَغتةً مِن حيثُ لا يَحتَسِبونَ ولا يتوقَّعونَ؛ إذ ظَنُّوا أنَّهم في أمانٍ منه[٢].

﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ سُبحانَه وتعالى حالَ المكَرَةِ المتمَرِّدينَ عليه في الدُّنيا، أخَذ يذكُرُ حالَهم في الآخرةِ؛ تقريرًا للآخرةِ، وبيانًا لأنَّ عَذابَهم غيرُ مَقصورٍ على الدُّنيويِّ[٣].

وأيضًا فإنَّها عطفٌ على ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [النحل: ٢٥]؛ لأنَّ ذلك وعيدٌ لهم، وهذا تكملةٌ له[٤].

﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٥).

أي: ثُمَّ يومَ القيامةِ يُذِلُّ اللهُ الكافرينَ ويُهينُهم بالعذابِ، ويُظهِرُ فَضائِحَهم، فما كانت تُخفِيه ضمائِرُهم يَجعَلُه علانِيَةً(١).

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾.

أي: ويَقولُ اللهُ يومَ القيامةِ للمُشرِكينَ: أين الذين كُنتُم تَعبُدونَهم في الدُّنيا، وتَزعُمونَ أنَّهم شُركائي، وتتَّخِذونَهم أولياءَ مِن دوني، وتُعادُونَ اللهَ وحِزبَه بسَبَبِهم؟! فلْيَدفَعوا عنكم هذا العَذابَ(٢).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: قال الذينَ آتاهم اللهُ العِلمَ: إنَّ الذِّلَّةَ والهَوانَ يومَ القيامةِ والعذابَ كائِنٌ على الكافِرينَ(٣).

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٧).

قال ابنُ عطيةَ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾: (الصَّوابُ: أن يَعُمَّ جميعَ مَن آتاه اللهُ عِلمَ ذلك مِن جَميعِ مَن حضَرَ الموقِفَ، مِن ملَكٍ أو إنسيٍّ، وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٩).

وقال ابن عاشور: (والذينَ أوتُوا العِلمَ: هم الذين آتاهم اللهُ عِلمَ الحقائِقِ مِن الرُّسُلِ والأنبياءِ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- والمُؤمِنونَ، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعدَ أن ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ حُلولِ العَذابِ بمَن حَلَّ بهم الاستِئصالُ، وما يحُلُّ بهم يومَ القِيامةِ؛ ذكَرَ حالةَ وَفاتِهم التي هي بين حالَيِ الدُّنيا والآخِرةِ، وهي حالٌ تَعرِضُ لجَميعِهم، سَواءٌ منهم مَن أدرَكَه الاستِئصالُ ومَن هلك قبلَ ذلك[١].

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾.

أي: إنَّ الخِزيَ والسُّوءَ على الكافِرينَ الذين تَقبِضُ الملائِكةُ أرواحَهم، والحالُ أنَّهم ظالِمونَ لأنفُسِهم بالكُفرِ والشِّركِ والمعاصي، فأورَدوها بذلك موارِدَ الهَلاكِ[٢].

﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾.

أي: فاستسلَمَ أولئك الظَّالِمونَ عندَ المَوتِ لله، وانقادُوا لطاعةِ رَبِّهم حين عايَنوا المَوتَ، وقالوا للمَلائِكةِ الذين يَقبِضونَ أرواحَهم، مُنكِرينَ كُفرَهم ومَعاصِيَهم: ما كُنَّا نَكفُرُ باللهِ، ولا نُشرِكُ به ولا نَعصِيه[٣]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((أيسر التفاسير)) للجزائري (٣/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٨).

أي: فيُقالُ لهم: ليس الأمرُ كما تَزعُمونَ، بل كُنتُم تَعمَلونَ السُّوءَ، إنَّ اللهَ عَليمٌ بالذي كُنتُم تَعمَلونَه مِن الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي، فلا ينفَعُكم إنكارُكم، وسيُجازيكم على أعمالِكم[١].

﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها تَفريعٌ على إبطالِ نَفيِ المُشرِكينَ عمَلَ السُّوءِ؛ لأنَّ إثباتَ كَونِهم كانوا يَعمَلونَ السُّوءَ يقتضي استِحقاقَهم العذابَ، وذلك عندما كشفَ لهم عن مَقَرِّهم الأخيرِ[٢].

﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾.

أي: يُقالُ لهم: ادخُلوا أبوابَ جَهنَّمَ، فكُلٌّ منكم يُعذَّبُ في طبقةٍ مِن طَبقاتِها بحسَبِ عمَلِه، ماكثينَ في جهنَّمَ أبدًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٨).

قال الرازي: (لا يبعُدُ أن يكون قائِلُ هذا القولِ هو اللهُ تعالى، أو بعضُ الملائكةِ؛ ردًّا عليهم وتكذيبًا لهم). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٠).

وقال البيضاوي: (أي: فتُجيبهم الملائكة... واحتمل أن يكونَ الرَّادُّ عليهم هو اللهُ تعالى أو أولو العِلمِ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٥).

واختار ابن جرير، وابن كثير أنَّ الرادَّ عليهم هو اللهُ سُبحانه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٧).

واختار ابن الجوزي، والقرطبي أنَّ الرادَّ عليهم هم الملائكةُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي))

كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

أي: فلَبِئسَ مَنزِلُ المتكبِّرينَ عن الإيمانِ باللهِ وتَوحيدِه، نارُ جهنَّمَ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فيه فَضيلةُ أهلِ العِلمِ، وأنَّهم النَّاطِقونَ بالحَقِّ في هذه الدُّنيا، ويومَ يَقومُ الأشهادُ، وأنَّ لِقَولِهم اعتِبارًا عندَ اللهِ، وعند خَلقِه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الإتيانُ والمَجيءُ مِن اللهِ تعالى نوعانِ: مُطلَقٌ ومُقَيَّدٌ.

النوعُ الأولُ: المَجيءُ والإتيانُ المقيَّدُ، كأن يُقيَّدَ المجيءُ بمجيءِ رَحمتِه أو عذابِه وغيرِ ذلك، ومِن المقيَّدِ قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقولُه تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٧١].

النوعُ الثاني: المجيءُ والإتيانُ المُطلَقُ، كقَولِه تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقَولِه تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ

(ص: ٤٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وهذا لا يكونُ إلَّا مَجيئَه سُبحانَه، هذا إذا كان مُطلَقًا، فكيف إذا قُيِّدَ بما يجعَلُه صريحًا في مجيئِه نَفسِه، كقَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فعَطَفَ مَجيئَه على مجيءِ الملائِكةِ، ثمَّ عطَفَ مَجيءَ آياتِه على مَجيئِه.

ومِنَ المجيءِ المُقيَّدِ قولُه تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ ﴾، فلمَّا قَيَّده بالمفعولِ -وهو البُنيانُ- وبالمجرورِ -وهو القَواعِدُ- دلَّ ذلك على مجيءِ ما بيَّنَه؛ إذ مِن المعلومِ أنَّ اللهَ -سُبحانَه وتعالى- إذا جاء بنَفسِه، لا يَجيءُ مِن أساسِ الحِيطانِ وأسفَلِها، وهذا يُشبِهُ قَولَه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ ﴾ [الحشر: ٢] فهذا مجيءٌ مُقيَّدٌ لِقَومٍ مَخصوصينَ، قد أوقَعَ بهم بأسَه، وعَلِمَ السَّامِعونَ أنَّ جُنودَه مِن المَلائِكةِ والمُسلِمينَ أَتَوهم، فكان في هذا السِّياقِ ما يدُلُّ على المرادِ، على أنَّه لا يمتَنِعُ في الآيتَينِ أن يكونَ الإتيانُ على حَقيقتِه، ويكونَ ذلك دُنُوًّا ممَّن يُريدُ إهلاكَهم بغَضَبِه وانتِقامِه، كما يَدنو عَشِيَّةَ عَرَفةَ مِن الحُجَّاجِ برَحمتِه[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ عدلَ عن أن يقولَ: (أعداؤُهم) أو (المُؤمِنونَ) ونحوُه؛ إجلالًا لهم بوَصفِهم بالعِلمِ الذي هو أشرَفُ الصِّفاتِ؛ لِكَونِه مَنشأَ كُلِّ فَضيلةٍ، وتَعريضًا بأنَّ الحامِلَ للكُفَّارِ على الاستِكبارِ الجَهلُ الذي هو سبَبُ كُلِّ رَذيلةٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((مختصر الصواعق المرسلة)) لابن القيم (ص: ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٤٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إن قيلَ: هذه الآياتُ تدُلُّ على أنَّ الكُفَّارَ يكتُمونَ يومَ القيامةِ ما كانوا عليه مِن الكُفرِ والمعاصي، كقَولِه تعالى عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقَولِه تعالى عنهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾، ونحوِ ذلك، مع أنَّ اللهَ صَرَّحَ بأنَّهم لا يَكتُمونَ حَديثًا في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

فالجوابُ: هو أنَّهم يقولونَ بألسِنَتِهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فيَختِمُ اللهُ على أفواهِهم، وتتكَلَّمُ أيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يَكسِبونَ، فالكَتمُ باعتِبارِ النُّطقِ بالجُحودِ وبالألسِنةِ، وعدمُ الكَتمِ باعتبارِ شَهادةِ أعضائِهم عليهم، وهذا الجمعُ يُشيرُ إليه قولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]. وأجاب بعضُ العلماءِ بتعدُّدِ الأماكنِ، فيكتمونَ في وقتٍ، ولا يكتمونَ في وقتٍ آخرَ، والعلم عند الله تعالى(١).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ يدُلُّ على تَفاوُتِ مَنازِلِهم في العِقابِ، فيكونُ عِقابُ بَعضِهم أعظَمَ مِن عِقابِ بَعضٍ(٢).

٥- قال الله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ إنَّما صرَّحَ تعالى بذِكرِ الخُلودِ؛ ليَكونَ الغَمُّ والحُزنُ أعظَمَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٩)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ وَصفُ التكَبُّرِ دَليلٌ على استِحقاقِ صاحِبِه النَّارَ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ ﴾ فيه تَشبيهٌ، حيث شُبِّهَت حالُ أولئك الماكِرينَ في تَسويتِهم المكايدَ؛ للإيقاعِ بالرُّسلِ عليهم السَّلامُ، وفي إبطالِه تعالى تلك الحيلَ، وجَعْلِه إيَّاها أسبابًا لهلاكِهم، بحالِ قومٍ بَنَوا بُنيانًا وعَمَدوه بالأساطينِ، فأُتِيَ ذلك مِن قِبَلِ أساطينِه بأنْ ضُعْضِعَت، فسقَطَ عليهم السَّقفُ فهَلَكوا؛ ووَجْهُ الشَّبهِ: أنَّ ما عَدُّوه سبَبَ بقائِهم، عاد سبَبَ استئصالِهم وفَنائِهم، كقولِهم: مَن حفَرَ لأخيه جُبًّا، وقَعَ فيه مُنكبًّا(٢)، وهذا الوجهُ على اعتبارِ أنَّ المذكورَ مِن بابِ المثلِ.

- وقولُه: ﴿ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ ﴾ فيه احتراسٌ، حيث أتَى بذِكْرِ ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ ﴾ مع أنَّ السَّقفَ لا يكونُ إلَّا مِن فوق؛ للاحتراسِ من احتمالِ أنَّ السَّقفَ قد يكونُ أرضًا بالنِّسبةِ لغيرِهم؛ فإنَّ كثيرًا من السُّقوفِ يكونُ أرضًا لقومٍ وسَقفًا لقومٍ آخرينَ؛ فرفَعَ اللهُ تعالى هذا الاحتمالَ بجُملتَينِ، وهما قولُه: ﴿عَلَيۡهِمُ ﴾، وقولُه: ﴿فَخَرَّ ﴾؛ لأنَّها لا تُستَعْمَلُ إلَّا فيما يهبِطُ أو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٦٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٨٩-٢٩٠).

يسقُطُ مِن العُلوِّ إلى السُّفلِ[١]. وقولُه: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ تأكيدٌ لجُملةِ ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ﴾[٢]. وقيل: إنَّ السَّقفَ رُبَّما يخِرُّ ولا يكونُ تحتَه أحَدٌ، فلمَّا قال: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾، عُلِم أنَّهم كانوا تَحتَه، فخرَّ عليهم فأُهلِكوا جميعًا[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡ﴾ فيه الجَمعُ بينَ الإهانةِ بالفعلِ، والإهانةِ بالقولِ بالتَّقريعِ والتَّوبيخِ، وأضاف تَعالى الشُّركاءَ إليه، والإضافةُ تكونُ بأدْنَى مُلابَسةٍ، والمعنى: شُركائي في زَعمِكم؛ فالإضافةُ إلى نفْسِه حكايةٌ لإضافتِهم؛ ليُوبِّخَهم بها على طريقِ الاستهزاءِ بهم[٤]، وهو أقطَعُ في تَوبيخِهم، وأدَلُّ على تناهي الغَضَبِ[٥].

- ﴿وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡ﴾ الاستفهامُ عن المكانِ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ تَهكُّمٍ؛ ليظهَرَ لهم كالطَّماعيَةِ للبحثِ عن آلهتِهم، وهم عَلِموا أنْ لا وُجودَ لهم، ولا مكانَ لحُلولِهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لمحمود صافي (١٤/ ٣٠٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٩٢-٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٤٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٦).

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ للإيماءِ إلى ما بينَ الجَزاءَينِ مِن التَّفاوُتِ، مع ما يدُلُّ عليه من التَّراخي الزَّمانيِّ. وتَغييرُ السَّبكِ بتقديمِ الظَّرفِ ﴿يَوْمَ﴾ ليس لقَصرِ الخِزْيِ على يومِ القيامةِ- كما هو المُتبادِرُ مِن تَقديمِ الظَّرفِ على الفعلِ- بل لأنَّ الإخبارَ بجزائِهم في الدُّنيا مُؤْذِنٌ بأنَّ لهم جزاءً أُخروِيًّا، فتبْقَى النَّفسُ مُترقِّبةً إلى وُرودِه، سائلةً عنه بأنَّه ماذا؟ مع تَيقُّنِها بأنَّه في الآخرةِ؛ فسيقَ الكلامُ على وَجْهٍ يُؤْذِنُ بأنَّ المقصودَ بالذِّكرِ إخزاؤُهم، لا كونُه يومَ القيامةِ[1].

- قولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذا القولُ قاله الَّذين أُوتوا العلمَ؛ توبيخًا لهم، وإظهارًا للشَّماتةِ بهم، وتَقريرًا لِمَا كانوا يَعِظونهم، وتحقيقًا لِمَا أَوعَدوهم به. وإيثارُ صِيغَةِ الماضي ﴿قَالَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقُّقِه وتَحتُّمِ وُقوعِه، حسْبَما هو المُعتادُ في إخبارِه سُبحانَه[2].

- وإيرادُ الظَّرفِ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّهم كانوا قبلَ ذلك في عِزَّةٍ وشِقاقٍ[3].

- وَجِيءَ بجُملةِ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ غيرَ معطوفةٍ؛ لأنَّها واقعةٌ مَوقِعَ الجوابِ لقولِه: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الَّذين أُوتوا العلمَ ابْتَدروا الجوابَ لَمَّا وجَمَ المُشركونَ، فلم يُحِيروا جوابًا، فأجاب الَّذين أُوتوا العلمَ جوابًا جامعًا؛ لنَفيِ أنْ يكونَ الشُّركاءُ المَزْعومون مُغْنِينَ عن الَّذين أشركوا شيئًا، وأنَّ الخِزيَ والسُّوءَ أحاطَا بالكافِرين[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٦).

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يدُلُّ على حَصرِ الخزيِ والضَّرِّ يومَ القيامةِ في الكونِ على الكافرينَ، وهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ لبُلوغِ المُعرَّفِ بلامِ الجنسِ ﴿ٱلْخِزْىَ﴾ حَدَّ النِّهايةِ في جنسِه، حتَّى كأنَّ غيرَه من جنسِه ليس من ذلك الجنسِ. وتأكيدُ الجُملةِ بحَرفِ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾، وبصِيغَةِ القصرِ، والإتيانُ بحَرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَى﴾ الدَّالِّ على تمكُّنِ الخزيِ والسُّوءِ منهم: يفيدُ معنى التَّعجُّبِ مِن هَولِ ما أُعِدَّ لهم[(١)].

٣- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ ...﴾ فيه التَّعبيرُ بصِيغَةِ المُضارِعِ ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾؛ لاستحضارِ صُورةِ تَوفِّيهم إيَّاهم لِمَا فيها مِن الهَولِ. والعُدولُ إلى صِيغَةِ الماضي ﴿فَأَلْقَوُا۟﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الوُقوعِ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ هو عطفٌ على قولِه: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ...﴾ وما بينهما -يعني قولَه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾- جُملةٌ اعتراضيَّةٌ جِيءَ بها؛ تحقيقًا لِمَا حاق بهم من الخِزيِ على رُؤوسِ الأشهادِ[(٣)].

٤- قوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- جُملةُ ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ تَذييلٌ، ولم يُعبِّرْ عن جهنَّمَ بالدَّارِ كما عبَّرَ عن الجنَّةِ فيما يأتي بقولِه تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ تَحقيرًا لهم، وأنَّهم ليسوا في جَهنَّمَ بمنزلةِ أهلِ الدَّارِ، بل هم مُتراصُّونَ في النَّارِ وهم في مَثْوًى، أي: محَلِّ ثَواءٍ[1]. وذِكْرُهم بعُنوانِ التَّكبُّرِ للإشعارِ بعِلِّيتِه لثَوائِهم فيها[2].

- قولُه: ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال في سُورةِ الزُّمرِ: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢]، وقال في سُورةِ غافرٍ: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦]؛ فخُصَّتِ الآيةُ في سُورةِ النَّحلِ وحدَها بدُخولِ اللَّامِ على (بِئْسَ) فيها، وخَلَتِ الآيتانِ مِن السُّورتينِ منها؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ الآيةَ من هذه السُّورةِ في ذِكْرِ قومٍ قد ضَلُّوا في أنفُسِهم وأضَلُّوا غيرَهم، وهم الَّذين أخبَرَ اللهُ تعالى عن أتباعِهم أنَّهم سألُوهم عن القُرآنِ، فقالوا: ليس من عند اللهِ، وإنَّما هو أساطيرُ الأوَّلينَ، وهؤلاء أكثرُ النَّاسِ وأشَدُّهم آثامًا، وأشدُّهم عِقابًا، ومَن هذه صِفَتُه احْتِيجَ عند تَغليظِ العِقابِ له إلى المُبالغةِ في تأكيدِ لفظِه، فاختِيرَت اللَّامُ هنا لذلك، ولأنَّ بعدها في ذِكْرِ أهلِ الجنَّةِ قولَه: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]؛ فاللَّامُ في ﴿وَلَنِعْمَ﴾ بإزاءِ اللَّامِ في ﴿لَبِئْسَ﴾، وليس كذلك الآيتانُ في سُورتي الزُّمَرِ وغافرٍ؛ لأنَّهما في ذِكْرِ جُملةِ الكُفَّارِ؛ فلمَّا كان المَذكورونَ في سُورةِ النَّحلِ ممَّن لزِمَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٩).

وِزْرانِ؛ عن ذُنوبِهم الَّتي أَتَوها، وعن ذُنوبِ غيرِهم الَّتي حملوا عليها، ولم يذكُرْ مَن سِواهم في الآيتينِ الأُخرييِن بحمْلِ أثقالِهم: حسُنَ التَّوكيدُ هناك فضلَ حُسنٍ؛ فلذلك خُصَّ باللَّامِ[١]. وقيل غير ذلك[٢].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٣٧-٨٣٩).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٩٧).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: وقيلَ للمُتَّقين: ما الذي أنزلَ اللهُ على النبيِّ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قالوا: أنزلَ اللهُ عليه القُرآنَ، وهو الخيرُ والهُدى. للَّذينَ آمنُوا باللهِ ورَسولِه وأحسَنوا في هذه الدُّنيا ثوابٌ حَسَنٌ؛ مِن النَّصرِ وسَعةِ الرِّزقِ، وغيرِ ذلك مِن خيرِ الدُّنيا، ولَدارُ الآخرةِ لهم خَيرٌ وأعظَمُ ممَّا أُوتوه في الدُّنيا، ولَنِعمَ دارُ المتَّقين في الآخرةِ جنَّاتُ إقامةٍ لهم، يستَقِرُّون فيها تجري مِن تحتِ أشجارِها وقُصورِها الأنهارُ، لهم فيها كُلُّ ما تَشتَهيه أنفُسُهم. مِثلَ هذا الجزاءِ الطَّيِّبِ يَجزي اللهُ المتَّقين الذين تَقبِضُ الملائِكةُ أرواحَهم طاهرينَ مِن الكُفرِ والمعاصي، تقولُ الملائِكةُ لهم: سَلامٌ عليكم، ادخُلوا الجنَّةَ بما كُنتُم تَعمَلونَ مِن الإيمانِ باللهِ والأعمالِ الصَّالحةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى قِيلَ المُكَذِّبينَ بما أنزَلَ اللهُ؛ ذكَرَ ما قالَه المتَّقونَ، وأنَّهم

اعترَفوا وأقَرُّوا بأنَّ ما أنزَلَه اللهُ نِعمةٌ عَظيمةٌ، وخَيرٌ عَظيمٌ امتَنَّ اللهُ به على العِبادِ، فقَبِلوا تلك النِّعمةَ، وتلَقَّوها بالقَبولِ والانقيادِ، وشَكَروا اللهَ عليها، فعَلِموها وعَمِلوا لها[١]، فلمَّا افْتُتِحَت صِفَةُ سيِّئاتِ الكافرينَ وعواقِبِها بأنَّهم إذا قيل لهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾ قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، جاءت هنا مُقابَلَةُ حالِهم بحالِ حَسناتِ المُؤمنينَ، وحُسْنِ عواقِبِها؛ فافْتُتِحَ ذلك بمُقابلِ ما افْتُتِحَت به قِصَّةُ الكافرينَ، فجاء التَّنظيرُ بين القِصَّتينِ في أبدعِ نَظمٍ[٢].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ الكُفَّارِ في الدُّنيا والآخرةِ، ذكَرَ حالَ المؤمِنينَ في الدارَينِ، فقال تعالى[٣]:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗا﴾.

أي: وقيلَ للمُتَّقينَ: ماذا أنزَلَ ربُّكم مِن الوَحيِ على نَبيِّه مُحمَّدٍ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟ قالوا: أنزَلَ اللهُ خَيرًا عَظيمًا في الدُّنيا والآخِرةِ- وهو القُرآنُ- رَحمةً وهُدًى وبَرَكةً لِمَن آمنَ به واتَّبَعَه[٤].

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٩).

قال ابنُ عاشور في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾: (المرادُ بهم المُؤمِنونَ المعهودونَ في مكَّة، فالموصولُ للعَهدِ. والمعنى: أنَّ المؤمنينَ سُئِلوا عن القرآن ومَن جاء به، فأرشدوا السائلينَ، ولم يتردَّدوا في الكَشفِ عن حقيقةِ القرآنِ بأوجَزِ بيانٍ وأجمَعِه، وهو كلمةُ ﴿خَيۡرٗا﴾ المنصوبةُ؛ فإنَّ لَفظَها شامِلٌ لكُلِّ خيرٍ في الدنيا وكلِّ خيرٍ في الآخرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤١).

أي: للمُؤمِنينَ الذين أحسَنوا[١] في عِبادةِ اللهِ، وأحسَنوا إلى عِبادِ اللهِ، ثوابٌ حَسَنٌ عاجِلٌ في الدُّنيا، بالحياةِ الطَّيِّبةِ والرِّزقِ الحسَنِ، وحُصولِ السُّرورِ، وتحَقُّقِ السَّعادةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۘ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤١].

وقال سُبحانه: ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ ﴾ [هود: ٣].

وقال تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ

---

(١) قال ابنُ عطيةَ: (واختلف المتأوِّلون في قولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ...﴾ إلى آخر الآية، فقالت فِرقةٌ: هو ابتداءُ كلامٍ مِن اللهِ مَقطوعٌ مِمَّا قبله، لكنَّه بالمعنى وعدٌ متَّصِلٌ بذِكرِ إحسانِ المتَّقين في مقالتِهم، وقالت فرقةٌ: هو من كلامِ الذين قالوا خيرًا، وهو تفسيرٌ للخيرِ الذي أنزل اللهُ في الوحي على نبيِّنا، خبرًا أنَّ مَن أحسَنَ في الدنيا بطاعةٍ فله حسنةٌ في الدنيا ونعيمٌ في الآخرةِ بدُخول الجنَّةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٩٠).

وممن اختار الأوَّل، وهو أنَّه ابتداءُ كلامٍ مِن الله: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والواحدي، والخازن، والعليمي، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٢).

وممن اختار أنَّه مِن كلامِ الذين اتَّقَوا: الزمخشري، والرسعني، والرازي، وابنُ جزي، وأبو حيان، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٣)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٠)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٢).

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كانت دارُ الدُّنيا سريعةَ الزَّوالِ، أخبَرَ عن حالِهم في الآخرةِ، فقال:

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾.

أي: ولَجزاءُ المُؤمِنينَ في الدَّارِ الآخرةِ في الجنَّةِ خَيرٌ لهم مِن الجزاءِ المُعَجَّلِ لهم في دارِ الدُّنيا[1].

كما قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص: ٨٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

أي: ولَنِعْمَ دارُ المُتَّقينَ -الذين يَمتَثِلونَ أوامِرَ اللهِ، ويَجتَنِبونَ نواهيَه- الجنةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٠).

في الآخرةِ[١].

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان المَدحُ في قَولِه: ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مُشَوِّقًا لتفصيلِ ذلك، قيلَ هنا[٢]:

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾.

أي: بَساتينُ إقامةٍ يَدخُلُها المُتَّقونَ، ولا يَرحَلونَ عنها، تَجري مِن تَحتِ أشجارِها وقُصورِها الأنهارُ[٣].

﴿ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾.

أي: للمتَّقينَ في جناتِ عدنٍ كُلُّ ما تَشتَهيه أنفُسُهم وما يُريدونَه[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجَزاءِ الحسَنِ يَجزي اللهُ كُلَّ مَن آمنَ به واتَّقاه، وأحسَنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١١، ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).

عَمَلَه[١].

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۖ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى عاد إلى وَصفِ المتَّقينَ، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ في مُقابلةِ قَولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾[٢] [النحل: ٢٨].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكر ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ في الآيةِ السَّابقةِ، حَثَّ هنا على مُلازَمةِ التَّقوى بالتَّنبيهِ على أنَّ العِبرةَ بحالِ المَوتِ، فقال تعالى[٣]:

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾.

أي: يَجزي اللهُ بذلك المتَّقينَ الذين تَقبِضُ ملائِكةُ المَوتِ أرواحَهم، والحالُ أنَّهم طَيِّبونَ بطَهارتِهم من الشِّركِ والمعاصي، ومِن كُلِّ ما يُخِلُّ بإيمانِهم[٤].

﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾.

أي: تقولُ ملائِكةُ الموتِ للمُتَّقينَ عند قَبضِ أرواحِهم: سَلامٌ عليكم، تحيَّةٌ كامِلةٌ لكم، وسَلامةٌ لكم مِن كُلِّ مَكروهٍ وآفةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٨، ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٤).

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ويقولون أيضًا: ادخُلوا الجنَّةَ بسبَبِ ما كُنتُم تَعمَلونَه في حياتِكم الدُّنيا مِن الأعمالِ الصَّالحةِ؛ طلبًا لِمَرضاةِ اللهِ تعالى(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ * نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ * وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣- ٧٤].*

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ من الإيمانِ باللهِ والانقيادِ لأمرِه؛ فإنَّ العمَلَ هو السَّببُ والمادَّةُ والأصلُ في دخولِ الجنَّةِ، والنَّجاةِ مِن النَّارِ، وذلك العمَلُ حصل لهم برحمةِ الله ومِنَّتِه عليهم، لا بحَولِهم وقوَّتِهم(٢).

قال السعدي: (﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ أي: التحيةُ الكاملةُ حاصلةٌ لكم، والسلامةُ مِن كلِّ آفةٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).

قال القرطبي: (قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ يحتَمِل وجهينِ: أحدهما: أن يكونَ معناه: أبشِروا بدخُولِ الجنَّة. الثاني: أن يقولوا ذلك لهم في الآخرةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩). ويُنظر أيضًا: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١١٥).

٢- دلَّ القُرآنُ في غيرِ مَوضِعٍ على أنَّ لكلِّ مَن عَمِلَ خيرًا أجرينِ: عَمَلُه في الدُّنيا، ويُكَمَّلُ له أجرُه في الآخرةِ، كقَولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، وفي الآيةِ الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١]، وقال في هذه السُّورةِ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال فيها عن خليلِه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢] فقد تكرَّر هذا المعنى في هذه السُّورةِ دونَ غَيرِها في أربعةِ مَواضِعَ لسِرٍّ بديعٍ؛ فإنَّها سورةُ النِّعَمِ التي عَدَّد اللَّهُ سبحانَه فيها أصُولَ النِّعَمِ وفُروعَها، فعرَّفَ عبادَه أنَّ لهم عنده في الآخرةِ مِن النِّعَمِ أضعافَ هذه بما لا يُدرَكُ تَفاوُتُه، وأنَّ هذه مِن بَعضِ نِعَمِه العاجِلةِ عليهم، وأنَّهم إن أطاعوه زادَهم إلى هذه النِّعَمِ نِعَمًا أخرى، ثمَّ في الآخرةِ يُوَفِّيهم أجورَ أعمالِهم تمامَ التَّوفيةِ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ بيانُ أنَّه سُبحانَه يُسعِدُ المُحسِنَ بإحسانِه في الدُّنيا وفي الآخِرةِ- كما أخبَرَ أنَّه يُشقي المُسيءَ بإساءَتِه في الدُّنيا والآخرةِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾(٢) [طه: ١٢٤].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾، فهذه الحالةُ لا تَحصُلُ إلَّا في الجنَّةِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ يفيدُ الحصرَ، وذلك يدُلُّ على أنَّ الإنسانَ لا يجِدُ كُلَّ ما يُريدُه في الدُّنيا(١).

٢- أسندَ هنا -جلَّ وعلا- التَّوفِّيَ للمَلائكةِ في قَولِه تعالى: ﴿ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾، وأسنده في (السجدة) لملَكِ الموتِ في قَولِه تعالى: ﴿ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ [السجدة: ١١]، وأسنَدَه في (الزُّمَر) إلى نفسِه- جلَّ وعلا- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]، ولا مُعارَضةَ بين الآياتِ المذكورةِ؛ فإسنادُه تعالى التَّوفِّيَ لنَفسِه؛ لأنَّه لا يموتُ أحدٌ إلَّا بمَشيئتِه تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗا ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وأسنده لمَلَك الموتِ؛ لأنَّه هو المأمورُ بقَبضِ الأرواحِ، وأسنَدَه إلى الملائِكةِ؛ لأنَّ لِمَلَك الموتِ أعوانًا مِن الملائكةِ، يَنزِعونَ الرُّوحَ مِن الجسَدِ إلى الحُلقومِ فيأخُذُها ملَكُ الموتِ، كما قاله بعضُ العُلَماءِ. والعِلمُ عندَ الله تعالى(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ﴾ هذا النَّصُّ وأمثالُه صَريحٌ بإثباتِ المَلائِكةِ، وأفعالِها، وكَلامِها، وتأثيرِها في العالَمِ بالقَولِ والفِعلِ، وهذا يُبطِلُ قولَ مَن قال: (إنَّ المُؤَثِّرَ في العالَم هو القُوى النَّفسانيَّةُ أو القُوى الطبيعيَّةُ)؛ فإنَّ الملائِكةَ خارِجةٌ عن هذا وهذا، وحينئذٍ فما

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٣-٣٧٤).

يَحصُلُ مِن خوارِقِ العاداتِ بأفعالِ الملائِكةِ أعظَمُ ممَّا يَحصُلُ بمُجَرَّدِ القُوى النَّفسانيَّةِ[١].

٤- قد حرَّمَ اللهُ الجنَّةَ على كلِّ خَبيثٍ، بل جعَلَها مأوى الطَّيِّبينَ، ولا يَدخُلُها إلَّا طَيِّبٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۖ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] استحَقُّوا سلامَ المَلائِكةِ ودُخولَ الجنَّةِ بِسبَبِ طِيبِهم[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۖ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الملائكةَ تُسَلِّمُ على المُؤمِنِ عند قَبضِ رُوحِه، وتُبَشِّرُه بما له عند ربِّه مِن الثَّوابِ[٣].

٦- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۖ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ دليلٌ على نعيمِ القبرِ؛ لأنَّه قال: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ الآنَ، مِن موتكِم[٤].

بلاغةُ الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ كلامًا مُبتدَأً

(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٨).

عِدَةً للقائلينَ، ويُجْعَلَ قولُهم من جُملةِ إحسانِهم، ويُحْمَدوا عليه[١].

- قولُه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾ الَّذين أحْسَنوا هم المُتَّقونَ؛ فهو مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ توصُّلًا بالإتيانِ بالموصولِ إلى الإيماءِ إلى وَجهِ بِناءِ الخبرِ، أي: جزاؤُهم حَسنةٌ؛ لأنَّهم أحْسَنوا[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ فيه تَقديمُ ﴿فِيهَا﴾؛ للاحترازِ عن تَوهُّمِ تعلُّقِه بالمشيئةِ، أو لأنَّ تأخيرَ ما حَقُّه التَّقديمُ يُوجِبُ تَرقُّبَ النَّفسِ إليه، فيتمكَّنُ عند وُرودِه عليها فضْلَ تمكُّنٍ[٣].

- ومَضمونُ جُملةِ ﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ مُكمِّلٌ لِمَا في جُملةِ ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ مِن استحضارِ الحالةِ البديعةِ[٤].

- وجُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مُستأنَفةٌ، والإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ لتَمييزِ الجزاءِ والتَّنويهِ به، وجَعلِ الجزاءِ لتَمييزِه وكمالِه بحيث يُشَبَّهُ به جَزاءُ المُتَّقينَ. والتَّقديرُ: يَجْزي اللهُ المُتَّقينَ جَزاءً كذلك الجزاءِ الَّذي عَلِمْتموه، وهو تَذييلٌ؛ لأنَّ التَّعريفَ في ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ للعُمومِ[٥].

٣- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مُقابِلُ قولِه في أضدادِهم: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[1].

- وجُملةُ ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ هو سَلامُ تأنيسٍ وإكرامٍ حين مَجيئِهم ليتوفَّوْهم. وقولُهم: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مُقابِلُ قولِهم لأضدادِهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٢٢-٢٤)

﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَحَاقَ﴾: أي: أحاطَ، ونزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: ما ينتظِرُ المُشرِكونَ إلَّا أن تأتيَهم الملائِكةُ؛ لِتَقبِضَ أرواحَهم وهم على الكُفرِ، أو يأتيَ أمرُ اللهِ بحَشرِهم يومَ القيامةِ، كذلك أصَرَّ الكافِرونَ مِن قَبلِهم على الكُفرِ، فأتاهم أمرُ اللهِ فهَلَكوا، وما ظَلَمَهم اللهُ، ولكِنَّهم كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم، فاستحَقُّوا عذابَ اللهِ، فأصابَتْهم عُقوبةُ ذُنوبِهم التي عَمِلوها، وأحاط بهم العَذابُ الذي كانوا يَسخَرونَ منه، ومن الرسلِ إذا توعَّدوهم به.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا طعَن القَومُ في القُرآنِ بأن قالوا: إنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ، وذكَرَ اللهُ تعالى أنواعَ التَّهديدِ والوعيدِ لهم، ثمَّ أتبَعَه بذِكرِ الوَعدِ لِمَن وصفَ القُرآنَ بكَونِه خَيرًا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

وصِدقًا وصَوابًا- عاد إلى بيانِ أنَّ أولئك الكُفَّارَ لا يَنزَجِرونَ عن الكُفرِ بسَبَبِ البياناتِ التي ذَكَرناها، بل كانوا لا يَنزَجِرونَ عن تلك الأقوالِ الباطِلةِ إلَّا إذا جاءَتهم الملائِكةُ بالتَّهديدِ، وأتاهم أمرُ رَبِّك، وهو عذابُ الاستِئصالِ[١].

وأيضًا فلَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن أحوالِ الكُفَّارِ السَّائلينَ في نُزولِ الملائكةِ بعدَ أن وهَّى شُبَهَهم، وأخبَرَ عن تَوفِّي الملائِكةِ لهم ولأضدادِهم المُؤمِنينَ، مُشيرًا بذلك إلى أنَّ سُنَّتَه جَرَت بأنَّهم لا يَنزِلونَ إلَّا لإنزالِ الرُّوحِ مِن أمْرِه على مَن يختَصُّه لذلك، أو لأمرٍ فَيصلٍ لا مُهلةَ فيه- قال مُنكِرًا عليهم[٢]:

﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾.

أي: هل يَنتَظِرُ هؤلاء المُشرِكونَ -المُتقاعِسونَ عن الإيمانِ بالرُّسُلِ فيما أنزلَ إليهم ربُّهم- إلَّا أن تأتيَهم الملائِكةُ لِقَبضِ أرواحِهم وهم ظالِمونَ لأنفُسِهم[٣]؟

﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ ﴾.

أي: أو يأتي أمرُ اللهِ بحَشرِهم يومَ القيامةِ[٤].

﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٩).

وممن قال بهذا المعنى: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثير. يُنظر: المصدران السابقان.

وقيل: المعنى: أو يأتيَ أمرُ الله بعذابهم في الدُّنيا. وممن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، والواحدي، والرازي، والقرطبي، وأبو السعود، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٦٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٥).

أي: كما يفعَلُ هؤلاءِ المُشرِكونَ فعَل أسلافُهم الكفرةُ ذلك أيضًا، فأصرُّوا على كفرِهم، وتَمادَوا في شركِهم إلى أن هلكوا[١].

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

أي: وما ظلَمَ اللهُ الكافرينَ بعدَ أن أقامَ عليهم الحُجَّةَ بإرسالِ الرُّسُلِ، وإنزالِ الكتُبِ، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بالكُفرِ والمعاصي، ومُخالَفةِ الرُّسُلِ، فاستحَقُّوا عذابَ اللهِ[٢].

﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤﴾.

﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾.

أي: فأصاب أولئك الكافرينَ مِن الأُمَمِ الماضيةِ- الذين فَعَلوا فِعلَ مُشرِكي قُرَيشٍ- عُقوباتُ كُفرِهم، وأعمالِهم السَّيِّئةِ التي اكتَسَبوها[٣].

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

أي: ونزَل وأحاطَ بالكافرينَ عذابُ اللهِ الذي كانوا يَسخَرونَ منه، ومِن الرُّسُلِ إذا توعَّدوهم به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).
وقال ابن جرير: (يقولُ جلَّ ثناؤُه: كما يفعلُ هؤلاء مِن انتظارِهم ملائكةَ اللَّهِ لقبضِ أرواحِهم، أو إتيانِ أمرِ اللَّهِ فَعَلَ أسلافُهم مِنَ الكفرَةِ باللَّهِ؛ لأنَّ ذلك في كُلِّ مشرِكٍ باللَّهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير))

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قال الله تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ القَومُ لم ينتَظِروا هذه الأشياءَ؛ لأنَّهم ما آمَنوا بها، ولكِنَّ امتِناعَهم عن الإيمانِ أوجبَ عليهم العذابَ، فأُضيفَ ذلك إليهم، أي: عاقِبَتُهم العذابُ[1].

بلاغة الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن جُملةِ ﴿ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، والاستفهامُ إنكاريٌّ في معنى النَّفيِ؛ ولذلك جاء بعدَه الاستثناءُ. و﴿يَنظُرُونَ﴾ هنا بمعنى الانتظارِ، وهو النَّظِرَةُ، والكلامُ مُوَجَّهٌ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تذكيرًا بتَحقيقِ الوعيدِ، وعدَمِ استبطائِه، وتعريضًا بالمُشركينَ بالتَّحذيرِ من اغترارِهم بتأخُّرِ الوعيدِ، وحَثًّا لهم على المُبادرةِ بالإيمانِ، وهذا قَريبٌ من تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشْبِهُ ضِدَّه، وما هو بذلك[2].

- وإسنادُ الانتظارِ المذكورِ إليهم جارٍ على خِلافِ مُقْتضَى الظَّاهِرِ بتَنزيلِهم منزلةَ مَن ينتظِرُ أحدَ الأمرينِ؛ لأنَّ حالَهم من الإعراضِ عن الوعيدِ، وعدَمِ التَّفكُّرِ في دَلائلِ صِدْقِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مع ظُهورِ تلك

(٤/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٥).

الدَّلائلِ، وإفادتِها التَّحقُّقَ- كحالِ مَن أيقَنَ حُلولَ أحدِ الأمرينِ به، فهو يترقَّبُ أحدَهما[١].

- وجُملةُ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ مُعترِضةٌ بينَ جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ وجُملةِ ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾؛ ووَجْهُ هذا الاعتراضِ: أنَّ التَّعرُّضَ إلى ما فعَلَه الَّذين مِن قبلِهم يُشيرُ إلى ما كان مِن عاقبتِهم، وهو استئصالُهم، فعُقِّبَ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: فيما أصابَهم، ولمَّا كان هذا الاعتراضُ مُشتمِلًا على أنَّهم ظَلموا أنفُسَهم، صار تَفريعُ ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ عليه أو على ما قبلَه، وهو أسلوبٌ مِن نَظْمِ الكلامِ عزيزٌ. وتَقديرُ أصلِه: كذلك فعَلَ الَّذين من قبلِهم وظَلموا أنفُسَهم، فأصابَهم سَيِّئاتُ ما عَمِلوا، وما ظَلَمهم اللهُ؛ ففي تَغييرِ الأُسلوبِ المُتعارفِ تَشويقٌ إلى الخبرِ، وتَهويلٌ له بأنَّه ظُلْمُ أنفُسِهم، وأنَّ اللهَ لم يظلِمْهم، فيترَقَّبُ السَّامعُ خبرًا مُفظِعًا، وهو: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ كان الظَّاهرُ أنْ يُقال: ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كما في سُورةِ الزُّخرفِ (آية: ٧٦)، لكنَّه أُوثِرَ هنا ما عليه النَّظمُ الكريمُ؛ لإفادةِ أنَّ غائلةَ ظُلْمِهم آيلةٌ إليهم، وعاقِبَتَه مَقصورةٌ عليهم، مع استلزامِ اقتصارِ ظُلْمِ كلِّ أحدٍ على نفسِه مِن حيثُ الوقوعُ اقتصارَه عليه من حيث الصُّدورُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١١).

٢- قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال هنا وفي الجاثيةِ: ﴿مَا عَمِلُوا﴾ [الجاثية: ٣٣]، أمَّا في سُورةِ الزُّمرِ فقال: ﴿مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٥١]؛ مُوافقةً لِمَا قبلَ كلٍّ منها، أو بعدَ، أو قبلَه وبعدَه؛ إذْما هنا قبلَه: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨] و﴿تَعْمَلُونَ﴾ مرَّتينِ، وقبلَ ما في الجاثيةِ: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨] و﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٣٠]، وبعدَه ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [الجاثية: ٣٣]، وقبلَ ما في الزُّمرِ ﴿وَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤] وبعدَه: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[(١)] [الزمر: ٥٠].

- ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ وإصابةُ السَّيِّئاتِ إمَّا بتَقديرِ مُضافٍ، أي: أصابهم جزاؤُها، أو جُعِلَت أعمالُهم السَّيِّئةُ كأنَّها هي الَّتي أصابَتْهم؛ لأنَّها سبَبُ ما أصابَهم[(٢)].

- قولُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: أحاط بهم، مِن: الحَيْقِ الَّذي هو إحاطةُ الشَّرِّ، وهو أبلغُ مِن الإصابةِ، وأفظَعُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٤-٣٠٥). ويُنظر كذلك: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٩)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١١).

الآيات (٢٥-٢٧)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾: الطَّاغُوتُ هو كُلُّ ذِي طُغْيَانٍ عَلَى الله، فكلُّ مَعْبُودٍ مِن دُونِ الله إذا لم يَكُنْ كارِهًا لذلك: طاغوتٌ؛ إنسانًا كان ذلك المعبودُ، أو شَيْطانًا، أو وَثَنًا، أو صَنَمًا، كَائِنًا ما كان من شيءٍ، والمُطاعُ في معصيةِ اللَّهِ طاغوتٌ، وكذلك السَّاحِرُ والكاهِنُ، واشتقاقُه من الطُّغْيان: وهو الظُّلْم والبغْيُ، يقال: طَغَا فُلانٌ يَطْغَى: إذا عَدا قَدْرَه فتجاوَز حَدَّه، وأصلُ (طغو): يدلُّ على مُجاوَزةِ الحَدِّ في العِصيانِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: وقال المُشرِكونَ: لو شاء اللهُ أن نَعبُدَه وَحدَه ما عَبدْنا أحدًا غَيرَه نحنُ ولا آباؤُنا مِن قَبلِنا، ولا حَرَّمْنا شَيئًا لم يُحَرِّمْه. مِثلَ هذا الإشراكِ، وتحريمِ ما أحلَّ الله، والاحتِجاجِ الباطِلِ، فعَل الكُفَّارُ السَّابِقونَ، فليس على الرُّسُلِ إلَّا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

التَّبليغُ الواضِحُ، وقد وضَّحوا لكم طريقَ الحَقِّ بما لا يَبقَى معه حُجَّةٌ لأحدٍ.

ولقد بعَثْنا في كلِّ أمَّةٍ سبقَت رَسولًا يأمُرُهم بعِبادةِ اللهِ وَحدَه وتَرْكِ عبادةِ غَيرِه، فكان منهم مَن هداه اللهُ فاتَّبَع الرُّسُلَ، ومنهم من وجَبَت عليه الضَّلالةُ فهَلَك. فامشُوا في الأرضِ، وانظروا كيف كان مآلُ هؤلاء المكَذِّبينَ؛ لتَعتَبِروا.

ثم أخبَر الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ حرصَه على هدايةِ المشركينَ المصرِّينَ على ضلالِهم، لن يغيِّرَ مِن واقعِ أمرِهم شيئًا؛ لأنَّ اللهَ لا يَهدي إليه مَن قدَّر بحِكمتِه وعَدلِه دوامَ ضَلالِه، وما للضَّالِّينَ مِن ناصِرينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا تَمَّ ما هو عجَبٌ مِن مَقالِ المُشرِكينَ ومآلِهم، في سوءِ أحوالِهم، وخَتَم بتَهديدِهم؛ عطَفَ على قَولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ مُوجِبًا آخَرَ للتهديدِ، مُعَجِّبًا مِن حالهم فيه، فقال[1]:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾.

أي: وقال المُشرِكونَ مُحتَجِّينَ -كَذِبًا- بالقَدَرِ على شِركِهم، وتَحريمِهم ما لم يُحَرِّمْه اللهُ: لو شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا شَيئًا مِن دُونِه، ولا حَرَّمْنا شيئًا مِن الأنعامِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٥٣).

التي ابتَدَعْنا تحريمَها، ففِعْلُنا إذَن لذلك دليلٌ على رِضاه عن أعمالِنا، وإلَّا لقدَّرَ غيرَ ذلك[١]!

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

أي: مثلَ هذا الإشراكِ وتحريمِ ما أحَلَّ اللهُ والاحتجاجِ الباطِلِ الصَّادِرِ مِن المُشرِكينَ على مَشروعيَّةِ ذلك تكذيبًا للرُّسُلِ، فعَلَ مَن قَبلَهم مِن المُشرِكينَ، فأهلَكَهم اللهُ، فهلَّا استَدَلُّوا بهلاكِ أولئك على أنَّ اللهَ غيرُ راضٍ عن فِعلِهم، وعلى عدَمِ صِحَّةِ حُجَّتِهم[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ۞ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩].

فقال اللهُ أيضًا ردًّا على شُبهتِهم:

﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما تقولونَ مِن أنَّ اللهَ رَضِيَ أفعالَكم هذه، بل أنكَرَها عليكم، ونهاكم عنها على ألسِنَةِ رُسُلِه، فإنَّما وظيفتُهم تبليغُ الرِّسالةِ تبليغًا واضِحًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٨).

مُوضِّحًا لطريقِ الحَقِّ بما لا يَبقَى معه حُجَّةٌ لأحدٍ، فقد بلَّغُوكم، وأوضَحُوا لكم، فصار وَبالُ كُفْرِكم وعِصيانِكم عليكم[١].

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾.

أي: ولقد بعَثْنا في كلِّ طائفةٍ مِن النَّاسِ رَسولًا يأمُرُهم بعبادةِ اللهِ وَحدَه، وتَرْكِ عبادةِ كُلِّ مَن دونَه، كالشَّياطينِ والأصنامِ، فحُجَّتُه سُبحانَه قد قامَتْ على جميعِ الأُمَمِ[٢].

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ ﴾.

أي: فمِنَ الأُمَمِ مَن هداهم اللهُ، فأرشَدَهم إلى دينِه، ووفَّقَهم للإيمانِ به، واتِّباعِ رُسُلِه وطاعتِه[٣].

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٥٥-١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٦، ٢١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠).
قال ابنُ القيِّمِ: (الطاغوتُ اسمٌ لكُلِّ ما عَبَدوه مِن دونِ الله، فكلُّ مُشركٍ إلهُه طاغوتُه). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٥).

أي: ومِن الأُمَمِ مَن وجَبَت عليهم الضَّلالةُ، ولَزِمَهم الكُفرُ، فأهلَكَهم اللهُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وقال سُبحانه: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨-٣٠].

﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

أي: فسِيروا في الأرضِ للاعتبارِ، فانظُروا إلى آثارِ عَذابِ اللهِ للأُمَمِ السَّابقةِ مِن الذين كَذَّبوا الرُّسُلَ، فصار آخِرَ أمرِهم الهَلاكُ[(٢)].

كما قال سُبحانه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه لِمُشركي قُريشٍ: إنْ كنتُم- أيُّها النَّاسُ- غيرَ مصدِّقي رَسولِنا فيما يُخبِرُكم به عن هؤلاء الأمَمِ الذين حَلَّ بهم ما حلَّ من بأسِنا؛ بكُفرِهم بالله، وتكذيبِهم رسولَه- فسيروا في الأرضِ التي كانوا يَسكُنونها والبلادِ التي كانوا يَعمُرونها، فانظُروا إلى آثارِ اللهِ فيهم، وآثارِ سَخَطِه النَّازلِ بهم، كيف أعقبَهم تكذيبَهم رسُلَ اللهِ ما أعقَبَهم؛ فإنَّكم تَرَون حقيقةَ ذلك، وتعلمونَ به صِحَّةَ الخبرِ الذي يُخبِرُكم به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٧).

عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٥-٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨].

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

قولُه تعالى: ﴿يَهْدِى﴾ فيه قِراءتانِ:

١- قراءةُ ﴿يَهْدِى﴾ بفتحِ الياءِ، وكسرِ الدالِ، والمعنى: إنَّ الله لا يَهْدِي مَن قدَّر دوامَ ضلالِه. وقيل: المعنى: إنَّ الله مَن يُضلُّ لا يَهْدي، أي: لا يَهْتَدي[(١)].

٢- قراءةُ ﴿يُهْدَى﴾ بضمِّ الياءِ، وفتحِ الدالِ، أي: من أضلَّهُ الله لَا يهديه أحدٌ، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾[(٢)] [الأعراف: ١٨٦].

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾.

---

(١) قرأ بها حمزةُ وعاصِمٌ والكسائِيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢١١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٧٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢١٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٧٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٨٩).

أي: إنْ تَحرِصْ -يا مُحمَّدُ- على هدايةِ المُشرِكينَ لاتِّباعِ الحَقِّ، فإنَّ اللهَ لا يَهدي إليه مَن قدَّر بحِكمتِه وعَدلِه دوامَ ضَلالِه، فلن يهتَديَ أبدًا ولو حَرَصْتَ على هدايتِه، فلا تُجهِدْ نَفسَك في أمْرِه، وبلِّغْه ما أُرسِلْتَ به؛ لِتقومَ عليه الحُجَّةُ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ [المائدة: ٤١].

وقال سُبحانه: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

أي: وما للضَّالِّينَ مِن ناصِرينَ يَمنَعونَ عنهم عُقوبةَ اللهِ، ويُنقِذونَهم مِن عَذابِه[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ فهم استدلُّوا على محبَّتِه سُبحانه لشِركِهم ورضاه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٤)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٣).

عنه، بمَشيئتِه لذلك، وعارضوا بهذا الدَّليلِ أمرَه ونهيَه، وقد أنكَر اللهُ سُبحانه وتعالى عليهم؛ فالمَشيئةُ والمحبَّةُ ليسا واحِدًا؛ ولا هما مُتلازِمَينِ، بل قد يشاءُ سُبحانَه ما لا يُحبُّه؛ ويُحِبُّ ما لا يَشاءُ كَونَه[١]، ولم يكُنْ قَصدُهم بقولِهم هذا إلَّا ردَّ الحَقِّ الذي جاءت به الرسُلُ، وإلَّا فعندهم عِلمٌ أنَّه لا حُجَّةَ لهم على الله؛ فإنَّ الله أمَرَهم ونهاهم، ومكَّنَهم من القيامِ بما كلَّفَهم، وجعلَ لهم قُوَّةً ومَشيئةً تصدُرُ عنها أفعالُهم، فاحتِجاجُهم بالقضاءِ والقَدرِ مِن أبطلِ الباطِلِ، هذا وكلُّ أحدٍ يعلَمُ بالحِسِّ قُدرةَ الإنسانِ على كُلِّ فعلٍ يُريدُه، من غيرِ أن ينازِعَه مُنازِعٌ، فجمعوا بين تكذيبِ اللهِ وتكذيبِ رسُلِه، وتكذيبِ الأمورِ العَقليَّةِ والحسِّيَّةِ[٢]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ يدُلُّ على أنَّه تعالى كان أبدًا في جميعِ المِلَلِ والأُمَمِ آمِرًا بالإيمانِ، وناهيًا عن الكُفرِ[٣].

٣- البعثُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ هو البعثُ الدِّينيُّ، ويُقابِلُه: البعثُ الكونيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾[٤] [الإسراء: ٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ فيه دلالةٌ على إجماعِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ على الدَّعوةِ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٩).

إلى التَّوحيدِ؛ وأنَّهم أُرسِلُوا به[١]، وأنَّه أعظمُ ما دعَوْا إليه مِن أوَّلِهم؛ نوحٍ عليه الصلاةُ والسَّلامُ، إلى آخرِهم؛ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ لا بُدَّ لتَحقيقِ شهادةِ (أنْ لَا إله إلَّا اللهُ) مِن اجتنابِ الطَّاغوتِ، وهو كلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ اللهِ عزَّ وجلَّ، أو تحاكَمَ النَّاسُ إليه مِن دونِ اللهِ[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ فيه أبيَنُ دَليلٍ على أنَّ الهاديَ والمُضِلَّ هو اللهُ تعالى؛ لأنَّه المتصَرِّفُ في عبادِه؛ يهدي من يَشاءُ، ويُضِلُّ مَن يَشاءُ، لا اعتِراضَ عليه فيما حكَمَ به لسابِقِ عِلمِه[٤].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ فيه ردٌّ على القَدَريَّةِ[٥].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ فيه التَّعريضُ بالثَّناءِ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حِرصِه على خَيرِهم، مع ما لقِيَه منهم من الأذى الذي شأنُه أن يُثيرَ الحَنَقَ في نَفسِ مَن يَلحَقُه الأذى، ولكِنَّ نفسَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُطَهَّرةٌ مِن كُلِّ نَقصٍ ينشأُ عن الأخلاقِ الحيوانيَّةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٦/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ بيانُ أنَّ مُجرَّدَ دُعاءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتبليغِه وحِرصِه على هدايةِ الخَلقِ؛ أنَّه ليس بمُوجِبٍ لذلك، وإنَّما يحصُلُ ذلك إذا شاء اللهُ هُداهم، فشَرَح صُدورَهم للإسلامِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ فيه العُدولُ عن الإضمارِ إلى الموصولِ- حيثُ لم يقُلْ: (وقالوا)-؛ لتَقريعِهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ، وذَمِّهم بذلك من أوَّلِ الأمرِ[٢].

- وضَميرُ (نحن) في قولِهم: ﴿مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ تأكيدٌ للضَّميرِ المُتَّصلِ في ﴿عَبَدۡنَا﴾، وإعادةُ حَرفِ النَّفيِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ لتأكيدِ (ما) النَّافيةِ[٣].

- قولُه: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ الاستفهامُ بـ(هل) إنكاريٌّ بمعنى النَّفيِ؛ ولذلك جاء الاستثناءُ عَقِبَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والقصرُ المُستفادُ من النَّفيِ والاستثناءِ (فهل... إلَّا) قَصرٌ إضافيٌّ؛ لقلْبِ اعتقادِ المُشركينَ مِن مُعاملتِهم الرَّسولَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ للرَّسولِ غرضًا شخصيًّا فيما يَدْعو إليه[١].

- وفي قولِه: ﴿عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾ أثْبتَ الحُكمَ لعُمومِ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ، وإنْ كان المَردودُ عليهم لم يخطُرْ ببالِهم أمْرُ الرُّسلِ الأوَّلينَ؛ لتكونَ الجُملةُ تذييلًا للمُحاجَّةِ، فتفيدَ ما هو أعمُّ من المَردودِ، والكلامُ مُوجَّهٌ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تعليمًا وتَسليةً، ويتضمَّنُ تعريضًا بإبلاغِ المُشركينَ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ عُطِفَ على جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وهو تكملةٌ لإبطالِ شُبهةِ المُشركينَ؛ إبطالًا بطريقةِ التَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ؛ لزيادةِ تَقريرِ الحُجَّةِ؛ فقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ بيانٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، وجُملةُ ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ إلى آخرِها بيانٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[٣].

- قولُه: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ فيه إسنادُ هِدايةِ بعضِهم إلى اللهِ تعالى، مع أنَّه أمَرَ جميعَهم بالهُدى؛ تَنبيهًا للمُشركينَ على إزالةِ شُبهتِهم في قولِهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بأنَّ اللهَ بيَّنَ لهم الهُدى؛ فاهتداءُ المُهتدينَ بسبَبِ بيانِه، فهو الهادي لهم[١].

- والتَّعبيرُ في جانبِ الضَّلالةِ بلفظِ ﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِمُ﴾ دونَ إسنادِ الإضلالِ إلى اللهِ: إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ لمَّا نهاهم عن الضَّلالةِ، فقد كان تَصميمُهم عليها إبقاءً لضَلالتِهم السَّابقةِ؛ فحقَّتْ عليهم الضَّلالةُ، أي: ثبَتَتْ ولم ترتفِعْ، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ بَقاءَ الضَّلالةِ مِن كَسبِ أنفُسِهم[٢].

- قولُه: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فيه تَرتيبُ الأمرِ بالسَّيرِ على مُجرَّدِ الإخبارِ بثُبوتِ الضَّلالةِ عليهم مِن غيرِ إخبارٍ بحُلولِ العذابِ؛ للإيذانِ بأنَّه غَنِيٌّ عن البَيانِ، وأنْ ليس الخبرُ كالعِيانِ، وتَرتيبُ النَّظرِ على السَّيرِ؛ لأنَّه بعدَه، وأنَّ مِلاكَ الأمرِ في تلك العاقبةِ هو التَّكذيبُ، والتَّعللُ بأنَّه لو شاء اللهُ ما عبَدْنا من دونِه مِن شَيءٍ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ تَقسيمَ كلِّ أمَّةٍ ضالَّةٍ إلى مُهتدٍ منها، وباقٍ على الضَّلالِ يُثيرُ سُؤالًا في نفْسِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن حالِ هذه الأمَّةِ: أهو جارٍ على حالِ الأُمَمِ الَّتي قبلَها، أو أنَّ اللهَ يَهديهم جميعًا؟ وذلك مِن حرصِه على خيرِهم، ورأفَتِه بهم؛ فأعلَمَه اللهُ أنَّه مع حِرْصِه على هُداهم، فإنَّهم سيَبْقَى منهم فَريقٌ على ضَلالةٍ[٤].

- والشَّرطُ -﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾- هنا ليس لتَعليقِ حُصولِ مَضمونِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الجوابِ على حُصولِ مَضمونِ الشَّرطِ؛ لأنَّ مَضمونَ الشَّرطِ معلومُ الحُصولِ؛ لأنَّ علاماتِه ظاهرةٌ بحيثُ يعلَمُه النَّاسُ، كما قال تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: ١٢٨]، وإنَّما هو لتَعليقِ العلمِ بمَضمونِ الجوابِ على دَوامِ حُصولِ مَضمونِ الشَّرطِ؛ فالمعنى: إنْ كنتَ حريصًا على هُداهم حِرصًا مُستمِرًّا، فاعلَمْ أنَّ مَن أضلَّه اللهُ لا تستطيعُ هَدْيَه، ولا تجِدُ لهَدْيه وسيلةً، ولا يَهْديه أحدٌ؛ فالمُضارعُ ﴿تَحْرِصْ﴾ مُستعمَلٌ في معنى التَّجدُّدِ لا غيرُ[١].

- قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ فيه جَعلُ المُسنَدِ إليه في جُملةِ الإخبارِ عن استمرارِ ضَلالِهم اسمَ الجلالةِ؛ للتَّهويلِ المُشوِّقِ إلى استطلاعِ الخبرِ، والخبرُ هو أنَّ هُداهم لا يحصُلُ إلَّا إذا أراده اللهُ، ولا يستطيعُ أحدٌ تَحصيلَه لا أنتَ ولا غيرُك، فمَن قدَّرَ اللهُ دَوامَ ضَلالِه فلا هادِيَ له، ولولا هذه النُّكتةُ لكان مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يكونَ المُسنَدُ إليه ضَميرَ المُتحدَّثِ عنهم بأنْ يُقال: (فإنَّهم لا يَهْديهم غيرُ اللهِ)[٢]، وإنَّما وُضِعَ الموصولُ (مَنْ) موضِعَ الضَّميرِ في قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾؛ للتَّنصيصِ على أنَّهم ممَّن حَقَّت عليه الضَّلالةُ، وللإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ، ويجوزُ أنْ يكونَ المذكورُ عِلَّةً للجزاءِ المحذوفِ، أي: إنْ تحرِصْ على هُداهم فلسْتَ بقادرٍ على ذلك؛ لأنَّ اللهَ لا يَهْدي مَن يُضِلُّه، وهؤلاء مِن جُملتِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥١ - ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٣).

الآيات (٣٨-٤٠)

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: أي: أقوَى الأيمانِ وأغلَظَها مُجتَهِدينَ في تَوكيدِها. وحقيقةُ الجَهدِ: التَّعَبُ والمشَقَّةُ، ومُنتهى الطَّاقةِ، ثمَّ أطلِقَ على أشَدِّ الفِعلِ ونِهايةِ قُوَّتِه؛ لِما بينَ الشِّدَّةِ والمَشقَّةِ مِن المُلازَمةِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: حلفَ هؤلاء المُشرِكونَ باللهِ أيمانًا مُغلَّظةً أنَّ اللهَ لا يَبعَثُ مَن يموتُ بعدما بَلِيَ وتفرَّق، بلى سيبعَثُهم اللهُ حَتمًا، وعدًا عليه حَقًّا، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ. يبعَثُ اللهُ جميعَ العِبادِ؛ لِيُبيِّنَ لهم الحقَّ الذي كانوا يَختَلِفونَ فيه في الدُّنيا، ومِن ذلك أمرُ البعثِ، وليحكُمَ بينهم ويُجازيَ كلًّا بعملِه، ولِيعلَمَ الكُفَّارُ المُنكِرونَ للبعثِ أنَّهم على باطلٍ، وأنَّهم كاذِبونَ حين حَلَفوا أنْ لا بَعْثَ. إنَّ أمْرَ البَعثِ يَسيرٌ على الله؛ فإنَّه سبحانَه إذا أرادَ شيئًا فإنَّما يقولُ له: كُنْ، فإذا هو كائِنٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦) (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٣).

أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۙ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾.

أي: وحلفَ مُشرِكو قُرَيشٍ باللهِ، وغَلَّظوا الأيمانَ وأكَّدُوها، على أنَّ اللهَ لا يَبعَثُ الموتَى بعدَ أنْ صاروا تُرابًا[١]!

﴿بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾.

أي: بلى سيبعَثُ اللهُ الموتى، وعَدَ سبحانَه بذلك وعدًا، ولا يُخلِفُ اللهُ وَعدَه[٢].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ أنَّ اللهَ باعِثُهم يومَ القيامةِ بعد مَوتِهم، فيُخالِفونَ الرُّسُلَ؛ لجَهلِهم، ويَقَعونَ في الكُفرِ[٣].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((قال اللهُ: كَذَّبَني ابنُ آدمَ ولم يكُنْ له ذلك، وشَتَمَني ولم يكُنْ له ذلك؛ فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فقَولُه: لن يُعيدَني كما بَدَأني، وليس أوَّلُ الخَلقِ بأهْوَنَ عليَّ مِن إعادتِه، وأمَّا شَتمُه إيَّايَ فقَولُه: اتَّخذَ اللهُ ولدًا، وأنا الأحَدُ الصَّمَدُ، لم أَلِدْ ولم أُولَدْ، ولم يكُنْ لي كُفْئًا أحَدٌ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠).

(٤) رواه البخاري (٤٩٧٤).

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾.

أي: سيَبعَثُ اللهُ الموتى؛ لِيُظهرَ لهم في الآخرةِ الحقَّ الذي كانوا يَختَلِفونَ فيه في الدُّنيا- ومِن ذلك اختِلافُهم في ثُبوتِ البَعثِ- ويَحكُمَ بينهم، ويَجزيَ كلًّا بما عَمِلَه[1].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ﴾.

أي: ولِيَعلَمَ الذين كَفَروا باللهِ تعالى، وأنكَروا البَعثَ أنَّهم كانوا في الدُّنيا كاذِبينَ في حَلِفِهم على أنَّ اللهَ لا يَبعَثُ مَن يَموتُ[2].

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى تحتُّمَ البَعثِ، وحِكمَتَه؛ بيَّنَ إمكانَه ويُسْرَه عليه تعالى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٧).

قال ابنُ عاشور: (الله تعالى حكيمٌ لا تجري أفعالُه على خلافِ الحِكمةِ التامَّةِ، أي: جعلَ البعثَ؛ ليُبيِّن للنَّاسِ الشيءَ الذي يختلِفون فيه من الحَقِّ والباطل، فيظهر حَقُّ المحِقِّ، ويظهَر باطِلُ المُبطِلِ في العقائِدِ ونحوها من أصولِ الدينِ وما ألحِقَ بها. وشَمِل قولُه: ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ كُلَّ معاني المحاسَبةِ على الحقوقِ؛ لأنَّ تمييزَ الحقوقِ مِن المظالمِ كُلُّه محلُّ اختلافِ النَّاسِ وتنازُعِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٩٥).

وخِفَّتَه لَديه[١].

وأيضًا فإنَّ هذه الجُملةَ مُتَّصِلةٌ بجُملةِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لبَيانِ أنَّ جَهلَ المُشرِكينَ بمَدى قُدرةِ اللهِ تعالى هو الذي جرَّأهم على إنكارِ البَعثِ واستحالتِه عِندَهم؛ فهي بيانٌ للجُملةِ التي قبلَها؛ ولذلك فُصِلَت، ووقَعَت جُملةُ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ...﴾ إلى آخِرِها اعتِراضًا بينَ البيانِ والمُبيَّنِ[٢].

﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾.

أي: إنَّما قَولُنا لشَيءٍ نُريدُ إيجادَه أن نقولَ له مَرَّةً واحِدةً: كُنْ، فيكونُ كما أرَدْنا بلا تأخيرٍ، ولا تعَبٍ، ولا مشَقَّةٍ علينا، ومن ذلك إحياءُ الموتى[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ * قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٧٨-٨٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٥-١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٦)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٢/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٧).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ ذكَرَ اللهُ حِكمتَينِ بالغتَينِ في بَعثةِ اللهِ سُبحانَه للأمواتِ بَعدَما أماتهم:

إحداهما: أن يُبَيِّنَ للنَّاسِ الذي اختَلَفوا فيه، وهذا بيانٌ عِيانِيٌّ تَشتَرِكُ فيه الخلائِقُ كلُّهم، والذي حصلَ في الدنيا بيانٌ إيمانيٌّ اختصَّ به بعضُهم.

والحكمةُ الثانيةُ: عِلْمُ المُبطِلِ بأنَّه كان كاذِبًا، وأنَّه كان على باطلٍ، وأنَّ نسبةَ أهلِ الحقِّ إلى الباطلِ هي مِن افترائِه وكَذِبِه وبُهتانِه، فيُخزيه ذلك أعظمَ خِزيٍ[(١)].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، قال البُويطيُّ: (خلقَ اللهُ الخَلقَ كُلَّه بقَولِه كُنْ، فلو كان «كُنْ» مخلوقًا لكان قد خَلَق الخلقَ بمخلوقٍ، وليس كذلك)[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ القسَمُ على نَفيِ البعثِ، أرادوا به الدَّلالةَ على يَقينِهم بانتفائِه، وإنَّما أيقنوا بذلك، وأقْسَموا عليه؛ لأنَّهم تَوهَّموا أنَّ سلامةَ الأجسامِ، وعدَمَ انخرامِها شَرطٌ لقَبولِها الحياةَ، وقد رَأَوْا أجسادَ الموتَى مُعرَّضةً للاضمحلالِ، فكيف تُعادُ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٤٤٣).

كما كانت[١]؟!

- قولُه: ﴿لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ فيه إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَن يَمُوتُۚ﴾ على التَّعبيرِ بـ (الموتى)؛ لقَصدِ إيذانِ الصِّلةِ بتَعليلِ نَفيِ البعثِ؛ فإنَّ الصِّلةَ أقوَى دَلالةً على التَّعليلِ مِن دَلالةِ المُشتقِّ على عِلِّيةِ الاشتقاقِ؛ فهم جَعَلوا الاضمحلالَ مُنافيًا لإعادةِ الحياةِ، كما حُكِيَ عنهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾[٢] [النمل: ٦٧].

٢- قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ تَعليلٌ لقولِه تعالى: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا﴾؛ لقَصدِ بَيانِ حِكمةِ جَعْلِه وعدًا لازمًا لا يتخلَّفُ؛ لأنَّه مَنوطٌ بحِكمةٍ، واللهُ تعالى حكيمٌ لا تَجْري أفعالُه على خِلافِ الحكمةِ التَّامَّةِ، أي: جعَلَ البعثَ ليُبيِّنَ للنَّاسِ الشَّيءَ الَّذي يختلِفون فيه مِن الحقِّ والباطِلِ، فيظهَرُ حَقُّ المُحِقِّ، ويظهَرُ باطلُ المُبطِلِ في العقائدِ ونحوِها مِن أصولِ الدِّينِ وما أُلْحِقَ بها[٣].

- قولُه: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ فيه التَّعبيرُ عن الحقِّ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾؛ للدَّلالةِ على فَخامتِه، وللإشعارِ بعِلِّيةِ ما ذُكِرَ في حيِّزِ الصِّلةِ للتَّبيينِ وما عُطِفَ عليه، وجعَلَهما غايةً للبعثِ المُشارِ إليه باعتبارِ وُرودِه في معرِضِ الرَّدِّ على المُخالِفينَ، وإبطالِ مَقالةِ المُعاندين المُستدْعي للتَّعرُّضِ لِمَا يردَعُهم عن المُخالفةِ، ويُلْجِئُهم إلى الإذعانِ للحقِّ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥١ – ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ استئنافٌ لبَيانِ كيفيَّةِ التَّكوينِ على الإطلاقِ إبداءً وإعادةً، بعد التَّنبيهِ على آنيَّةِ البعثِ، ومنه يظهَرُ كيفيَّتُه[١].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أفادت ﴿إِنَّمَا﴾ قَصرًا هو قَصرُ وُقوعِ التَّكوينِ على صُدورِ الأمرِ به، وهو قَصرُ قلبٍ؛ لإبطالِ اعتقادِ المُشركينَ تعذُّرَ إحياءِ الموتى؛ ظنًّا منهم أنَّه لا يحصُلُ إلَّا إذا سلِمَت الأجسادُ من الفسادِ، فإذا كان سبَبُ التَّكوينِ ليس زائدًا على قولِ: ﴿كُن﴾، فقد بطَلَ تعذُّرُ إحياءِ الموتى؛ ولذلك كان هذا قَصرَ قلبٍ لإبطالِ اعتقادِ المُشركينَ[٢].

- قولُه: ﴿لِشَيْءٍ﴾ أُطْلِقَ (الشَّيءُ) هنا على المعدومِ باعتبارِ إرادةِ وُجودِه، فهو من إطلاقِ اسمِ ما يَؤُول إليه، أو المُرادُ بالشَّيءِ مُطلَقُ الحقيقةِ المعلومةِ وإنْ كانت مَعدومةً، وإطلاقُ الشَّيءِ على المعدومِ مُستعمَلٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابنُ تيمية: (والذي عليه أهلُ السنةِ والجماعةِ وعامةُ عقلاءِ بني آدمَ مِن جميعِ الأصنافِ: أنَّ المعدومَ ليس في نفسِه شيئًا، وأنَّ ثُبوتَه ووجودَه وحصولَه شيءٌ واحدٌ، وقد دلَّ على ذلك الكتابُ والسُّنةُ والإجماعُ القديم). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ١٥٥).

وقال أيضًا: (تنازَعوا في المعدومِ الممكِنِ: فذهَب فريقٌ مِن أهلِ الكلامِ مِنَ المعتزلةِ والرَّافضةِ وبعضِ مَن وافَقَهم مِن ضُلَّالِ الصُّوفِيَّةِ: إلى أنَّه شيءٌ في الخارجِ لتعلُّقِ الإرادةِ والقدرةِ به! وهذا غلطٌ، وإنَّما هو معلومٌ للَّهِ ومرادٌ له إنْ كان مِمَّا يوجدُ، وليس له في نفسِه لا موتٌ ولا وجودٌ ولا حقيقةٌ أصلًا، بل وجودُه وثبوتُه وحصولُه شيءٌ واحدٌ، وماهيَّتُه وحقيقتُه في الخارجِ هي نفسُ وجودِه وحصولِه وثبوتِه ليس في الخارجِ شيئانِ وإنْ كان العقلُ يميِّزُ الماهِيَّةَ المطلقةَ عن الوجودِ المطلَقِ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٣٨٣).

الآيتان (٤١-٤٢)

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ﴾: أي: لَنُسكِنَنَّهم ولَنُنزِلَنَّهم؛ مِن التبَوُّءِ: وهو الحُلولُ بالمكانِ، والنُّزولُ به، وأصلُ (بوأ): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: والذين تَرَكوا ديارَهم ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ، بَعدَما وقَعَ عليهم الظُّلمُ، لَنُسكِنَنَّهم في الدُّنيا بلدًا حَسنًا، ولَنَرزُقَنَّهم رِزقًا واسعًا، ولأجرُ الآخرةِ أكبَرُ؛ لأنَّ ثوابَهم فيها الجنَّةُ، لو كان المتخَلِّفونَ عن الهِجرةِ يَعلَمونَ أجرَ اللهِ وثوابَه للمُهاجِرينَ في سَبيلِه، ما تخلَّفَ منهم أحدٌ عن الهجرة. هؤلاء المُهاجِرونَ في سبيلِ اللهِ هم الذين صَبَروا على أوامِرِ الله وعن نواهِيه وعلى أقدارِه المُؤلِمةِ؛ وعلى رَبِّهم وَحدَه يَعتَمِدونَ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن الكُفَّارِ أنَّهم أقسَموا باللهِ جَهدَ أيمانِهم على إنكارِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢).

البَعثِ والقيامةِ؛ دلَّ ذلك على أنَّهم تمادَوا في الغَيِّ والجَهلِ والضَّلالِ، وفي مِثلِ هذه الحالةِ لا يَبعُدُ إقدامُهم على إيذاءِ المُسلِمينَ وضَرِّهم، وإنزالِ العُقوباتِ بهم، وحينئذٍ يلزَمُ على المُؤمِنينَ أن يُهاجِروا عن تلك الدِّيارِ والمَساكِنِ، فذكر تعالى في هذه الآيةِ حُكمَ تلك الهجرةِ، وبيَّنَ ما لهؤلاءِ المهاجرينَ مِن الحَسَناتِ في الدُّنيا، والأجرِ في الآخرةِ؛ مِن حيثُ هاجروا وصَبَروا وتوكَّلوا على اللهِ، وذلك ترغيبٌ لغَيرِهم في طاعةِ الله تعالى[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَر الله تعالى حِكمةَ البَعثِ بأنَّها تبيينُ الذي اختلَفَ فيه النَّاسُ مِن هُدًى وضَلالةٍ، وتبيينُ أنَّ الذين كَفَروا كانوا كاذِبينَ؛ وعُلم من ذلك أنَّه يتبيَّنُ بالبَعثِ أنَّ الذين آمنوا كانوا صادِقينَ بدَلالةِ المُضادَّةِ، وأنَّهم مُثابُونَ ومُكرَمونَ، فلمَّا عُلِمَ ذلك من السِّياقِ، وقَع التصريحُ به في هذه الآيةِ[٢].

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ ﴾.

أي: والذين تَرَكوا أوطانَهم وقَومَهم؛ ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ مِن بعدِ ما ظَلَمَهم الكُفَّارُ وعَذَّبوهم لِيَردُّوهم عن دينِهم- لَنُسكِنَنَّهم في الدُّنيا بلدًا يَرضَونَها، ولَنَرزُقَنَّهم رِزقًا واسعًا، وعيشًا هنيئًا، ولنجازينَّهم جزاءً حَسَنًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٧، ١٥٨).

قال الرسعني: (﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ أي: بلدةً أو دارًا حسنةً، وهي المدينةُ، في قولِ ابنِ عباسٍ، والحسنِ، ومجاهدٍ، وقتادةَ، والأكثرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣١).

قال ابنُ كثيرٍ: (﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ، والشَّعبيُّ، وقتادةُ: المدينةُ. وقيل: الرِّزقُ الطَّيِّبُ، قاله مجاهِدٌ. ولا مُنافاةَ بينَ القولين). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٢).

قال الشوكاني في قولِه تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾: (اختُلِف في معنى هذا على أقوالٍ،

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

وقال سُبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولَثوابُ اللهِ للمُهاجِرينَ في الجنَّةِ أعظَمُ مِن ثوابِه لهم في الدُّنيا. لو كان المتخَلِّفونَ عن الهِجرةِ يَعلَمونَ ثوابَ اللهِ للمُهاجرينَ في الدُّنيا والآخرةِ، لَمَا تخلَّفَ أحدٌ منهم عن الهِجرةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

فقيل: المرادُ: نزولُهم المدينةَ، قاله ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ، والشعبيُّ، وقتادةُ. وقيل: المرادُ: الرِّزقُ الحسَنُ، قاله مجاهدٌ. وقيل: النصرُ على عدوِّهم، قاله الضحَّاكُ. وقيل: ما استولَوا عليه مِن فتوحِ البلادِ، وصار لهم فيها مِن الولاياتِ. وقيل: ما بقيَ لهم فيها مِن الثناءِ وصار لأولادِهم من الشَّرفِ. ولا مانعَ من حملِ الآيةِ على جميعِ هذه الأمورِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٩٦).

قال ابن تيمية: (سببُ نزولها المهاجرونَ إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلم، وهي عامَّةٌ في كلِّ من اتَّصفَ بهذه الصِّفةِ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٣٢٦).

وقال ابن كثير: (يحتملُ أن يكونَ سببُ نزول هذه الآية الكريمة في مُهاجِرةِ الحبشةِ الذين اشتَدَّ أذى قومِهم لهم بمكَّةَ، حتى خرجوا من بين أظهُرِهم إلى بلادِ الحبشةِ؛ ليتمكَّنوا مِن عبادةِ ربِّهم، ومِن أشرافِهم: عثمانُ بنُ عفانَ، ومعه زوجتُه رُقيَّة بنتُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وجعفرُ ابنُ أبي طالبٍ، ابنُ عمِّ الرسولِ، وأبو سلمةَ بنُ عبدِ الأسدِ، في جماعةٍ، قريب مِن ثمانينَ، ما بينَ رجلٍ وامرأةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٢). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١).

وقال الشوكاني: (وقيل: إنَّ الضمير في ﴿يَعْلَمُونَ﴾ راجعٌ إلى المؤمنين، أي: لو رأوا ثوابَ الآخرةِ، وعاينوه، لعلموا أنَّه أكبرُ من حسنةِ الدُّنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٩٧).

أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[التوبة: ٢٠-٢٢].

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾.

أي: المُهاجِرونَ الذين وصَفَهم اللهُ هم الذين صَبَروا في اللهِ على امتثالِ أوامِرِه، وتجنُّبِ نواهيه، وصَبَروا على أقدارِه المُؤلِمةِ، وأذَى النَّاسِ[١].

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

أي: وعلى ربِّهم يَعتَمِدونَ، وبه وَحدَه يَثِقونَ، ويُفوِّضونَ إليه أمورَهم[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ ﴾ فيه دليلٌ على إخلاصِ العمَلِ لله[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الصَّبرُ والتوكُّلُ مِلاكُ الأمورِ كُلِّها، فما فات أحدًا شَيءٌ مِن الخيرِ إلَّا لعَدمِ صَبرِه وبَذْلِ جُهدِه فيما أُريدَ منه، أو لعَدَمِ توَكُّلِه واعتمادِه على الله[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٤٠).

٣- قال تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ فإنَّهم ترَكوا مساكِنَهم وأموالَهم، فعوَّضَهم اللهُ خيرًا منها في الدُّنيا، فإنَّ من ترك شيئًا لله عوَّضه الله بما هو خيرٌ له منه، وكذلك وقَعَ؛ فإنَّهم مكَّن اللهُ لهم في البلادِ، وحكَّمَهم على رقابِ العِبادِ، فصاروا أمراءَ حُكَّامًا، وكلٌّ منهم للمُتَّقين إمامًا[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ أي: وقَع ظلمُهم مِن الكفَّارِ، بناه للمفعولِ؛ لأنَّ المحذورَ وقوعُ الظلمِ، لا كونُه مِن معيَّنٍ[2].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ مُعترِضةٌ، وهي استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن جُملةِ الوعدِ كلِّها؛ لأنَّ ذلك الوعدَ العظيمَ بخيرِ الدُّنيا والآخرةِ يُثيرُ في نُفوسِ السَّامعينَ أنْ يسألوا: كيف لم يقتَدِ بهم مَن بَقُوا على الكُفرِ؟ فتقَعُ جُملةُ ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ بَيانًا لِمَا استَبْهَم على السَّائلِ، والتَّقديرُ: لو كانوا يعلمونَ ذلك لاقتدَوا بهم ولكنَّهم لا يعلمونَ[3].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيه تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ؛ للدَّلالةِ على قَصرِ التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى، أي: لا يتوكَّلونَ إلَّا على رَبِّهم دونَ التَّوكُّلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٧).

على سَادةِ المُشركين ووَلائِهم[١].

- والتَّعبيرُ في جانبِ الصَّبرِ بالمُضيِّ، وفي جانبِ التوكُّلِ بالمُضارعِ إيماءٌ إلى أنَّ صَبرَهم قد آذنَ بالانقضاءِ؛ لانقضاءِ أسبابِه، وأنَّ اللهَ قد جعلَ لهم فَرَجًا بالهِجرةِ الواقعةِ والهِجرةِ المُترَقَّبةِ؛ فهذا بشارةٌ لهم، وأنَّ التوكُّلَ دَيدَنُهم؛ لأنَّهم يَستَقبِلونَ أعمالًا جليلةً تتِمُّ لهم بالتوكُّلِ على اللهِ في أمورِهم، فهم يُكَرِّرونَه؛ وفي هذا بِشارةٌ بضَمانِ النَّجاحِ[٢]، ففي صِيغَةِ الاستقبالِ ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ دَلالةٌ على دَوامِ التَّوكُّلِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٦).

الآيات (٤٢-٤٧)

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ٤٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: أي: بالحُجَجِ والأدِلَّةِ الواضِحةِ؛ يُقالُ: بان الشَّيءُ وأبانَ: إذا اتَّضحَ وانكَشفَ[(١)].

﴿وَٱلزُّبُرِ﴾: أي: الكُتُبِ، جمْعُ زَبورٍ، وأصلُ (زبر): يدُلُّ على الفَخامةِ والغِلَظ؛ يقال: زبَرْتُ الكِتابَ: إذا كَتبْتَه كِتابةً غليظةً، وكلُّ كتابٍ غليظِ الكِتابةِ يُقالُ له: زَبُورٌ[(٢)].

﴿تَقَلُّبِهِمۡ﴾: أي: تَصَرُّفِهم في البِلادِ، وتَردُّدِهم في أسفارِهم، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٦).

﴿تَخَوُّفٍ﴾: أي: تَنَقُّصٍ؛ إمَّا بقَتلٍ أو بمَوتٍ، يَنقُصُ مِن أطرافِهم ونَواحيهم الشَّيءَ بعد الشَّيءِ حتى يُهْلِكَ جميعَهم. أو: حالَ تخَوُّفٍ وتوَقُّعٍ للبَلايا. وعلى المعنى الثَّاني فأصلُ (خوف): يدلُّ على ذُعرٍ وفَزَعٍ[(١)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۞ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾

قولُه: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فيما يتعَلَّقُ به أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّه مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، على أنَّه صِفةٌ لـ ﴿رِجَالٗا﴾ أي: رِجالًا مُتَلبِّسينَ بالبَيِّناتِ. الثاني: أنَّه مُتعَلِّقٌ بمحذوفٍ جوابًا لسُؤالٍ مُقَدَّرٍ، كأنَّه قيل: بمَ أُرسِلوا؟ فقيل: أرسَلْناهم بالبَيِّناتِ والزُّبُرِ. الثالث: أنَّه مُتعَلِّقٌ بـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ داخِلٌ تحتَ حُكمِ الاستثناءِ مع ﴿رِجَالٗا﴾، أي: وما أرسَلْنا إلَّا رِجالًا بالبَيِّناتِ[(٢)]. وقيلَ غيرُ ذلك[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٠)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ١٩٨).

(٢) وهذا مبني على مذهب الكسائي والأخفش، وبه قال الحوفي والزمخشري. ولا يجيزه البصريون؛ إذ لا يُجيزون أن يقع بعد «إلا» إلَّا مُستثنًى، أو مُستثنًى منه، أو تابعٌ لذلك، وما ظُنَّ بخلافِه قُدِّرَ له عاملٌ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٣٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٢٣)، ((حاشية الصبان)) (٢/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٣٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٨٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٤/ ٣٢٥).

المَعنى الإجماليُّ:

يقول عزَّ وجلَّ: وما أرسَلْنا في السَّابقينَ قَبلَك -يا مُحمَّدُ- إلَّا رُسُلًا مِن الرِّجالِ لا مِن الملائكةِ، نُوحي إليهم، فاسألوا -أيُّها المُشرِكونَ- أهلَ الكُتُبِ السَّابقةِ يُخبِروكم أنَّ الأنبياءَ كانوا بشرًا، إنْ كُنتُم لا تعلمونَ، أرسَلْنا الأنبياءَ السَّابِقينَ بالحُجَجِ الواضِحةِ وبالكُتُبِ السَّماويَّةِ، وأنزَلْنا إليك -يا مُحمَّدُ- القُرآنَ؛ لتُوضِّحَ للنَّاسِ ما نزَّلَ اللهُ إليهم فيه، ولكي يتدَبَّروه ويهتَدوا به.

أفأمِنَ الكُفَّارُ المُدبِّرونَ للمكايدِ أن يخسِفَ اللهُ بهم الأرضَ، أو يأتيَهم عذابُ اللهِ مِن حيثُ لا يَشعُرونَ، أو يأخُذَهم اللهُ بالعذابِ وهم يتقَلَّبونَ في سَفَرِهم ومَعايشِهم؟ فما هم بمُمتَنِعينَ على اللهِ، ولا ناجينَ مِن عذابِه، أو يأخُذَهم اللهُ بنَقصٍ من نَواحيهم شيئًا بعد شَيءٍ حتى يُهلِكَ جميعَهم؛ فإنَّ رَبَّكم لرؤوفٌ بعباده رَحيمٌ بهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه بعثَ الرُّسُلَ، وكان عاقِبةَ مَن كَذَّبَهم الهَلاكُ، بدَلالةِ آثارِهم، وكانوا قد قَدَحوا في الرِّسالةِ بكَونِ الرَّسولِ بشَرًا، ثمَّ بكَونِه ليس معه ملَكٌ يُؤيِّدُه- ردَّ ذلك بقَولِه مُخاطِبًا لأشرَفِ خَلقِه صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّم؛ لكَونِه أفهَمَهم عنه، مع أنَّه أجَلُّ مَن توكَّلَ وصبَرَ، عائدًا إلى مَظهَرِ الجَلالِ بيانًا لأنَّه يُظهِرُ من يشاءُ على مَن يشاءُ[1]:

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٦٦).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

أي: وما أرسَلْنا الأنبياءَ مِن قَبلِك -يا مُحمَّدُ- إلَّا رِجالًا بَشَرًا مِن بني آدمَ لا ملائِكةً، نُوحي إليهم الشَّرائِعَ والأحكامَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: فاسألوا -أيُّها المُشرِكونَ- أهلَ الكِتابِ الذين قَرَؤوا الكُتُبَ مِن قَبلِكم كالتَّوراةِ والإنجيلِ، إنْ كُنتُم لا تَعلَمونَ أنَّ رُسُلَ اللهِ كانوا رِجالًا من البشَرِ لا مَلائِكةً، فاسألُوهم: هل كان الأنبياءُ والرُّسُلُ بشرًا أو ملائِكةً(٢)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٣، ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٨).

قال الشنقيطي: (حَصْرُ الرسُلِ في الرِّجالِ في الآيات المذكورة لا يُنافي أنَّ مِن الملائكة رسُلًا، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]؛ لأنَّ الملائكةَ يُرسَلونَ إلى الرسُل، والرسُلَ تُرسَلُ إلى النَّاسِ. والذي أنكَرَه الكفَّارُ هو إرسالُ الرسلِ إلى الناس، وهو الذي حصر اللهُ فيه الرسُلَ في الرجالِ مِن الناسِ، فلا ينافي إرسالَ الملائكةِ للرسلِ بالوحيِ، ولقَبضِ الأرواح، وتسخيرِ الرياح والسحابِ، وكتْبِ أعمالِ بني آدمَ، وغيرِ ذلك). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٦، ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٩).

قال الخازن: (إنما أمَرَهم الله بسؤال أهل الكتاب؛ لأنَّ كُفَّارَ مكَّةَ كانوا يعتَقِدونَ أن أهلَ الكتاب أهلُ علمٍ، وقد أرسَلَ الله إليهم رسُلًا منهم، مثل موسى وعيسى وغيرِهم مِن الرسلِ، وكانوا

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾.

أي: أرسَلْنا الأنبياءَ السَّابِقينَ بالحُجَجِ والكُتُبِ[١].

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾.

أي: وأنزَلْنا إليك -يا مُحمَّدُ[٢]- القُرآنَ؛ لتوضِّحَ للنَّاسِ ما نزَّلَ اللهُ إليهم فيه- لفظًا بتلاوتِه، ومَعنًى بتفسيرِه، وبيانِ ما أشكَلَ عليهم منه- وتُفصِّلَ لهم بسُنَّتِك القَوليَّةِ والفِعليَّةِ ما أُجمِلَ مِن أحكامِه[٣].

كما قال سُبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥].

بشرًا مِثلَهم، فإذا سألوهم فلا بدَّ أن يُخبِروهم بأنَّ الرسُلَ الذين أُرسِلوا إليهم كانوا بشرًا، فإذا أخبروهم بذلك زالت الشبهةُ عن قلوبِهم. ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ الخطابُ لأهل مكَّة). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٩-٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٤).

(٢) قال ابنُ كثير: (﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ من رَبِّهم، أي: لِعلمِك بمعنى ما أُنزِلَ عليك، وحِرصِك عليه، واتِّباعِك له، ولِعِلْمِنا بأنَّك أفضَلُ الخلائِقِ، وسَيِّدُ ولَدِ آدَمَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١).

قال ابنُ الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ وهو القرآنُ، بإجماع المفسِّرين). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٢).

وقال سُبحانه: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤].

﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: وأنزَلْنا إليك القُرآنَ؛ كي يتفكَّرَ النَّاسُ في آياتِه، ويَعتَبِروا بها ويتَّعِظوا، فيَهتَدوا بالعمَلِ بها[1].

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعدَ أن ذُكِرَت مَساوئُ المُشرِكينَ ومكايدُهم، وبعدَ تهديدِهم بعذابِ يومِ البَعثِ تَصريحًا وبعذابِ الدُّنيا تعريضًا، فرَّع على ذلك تهديدَهم الصَّريحَ بعذابِ الدُّنيا[2].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا نَبَّه اللهُ سُبحانَه على التفكُّرِ، وكان داعيًا للعاقِلِ إلى تجويزِ المُمكِنِ، والبُعدِ مِن الخطَرِ، سبَّبَ عنه إنكارَ الأمنِ مِن ذلك، فقال تعالى[3]:

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٦٩).

أي: أفأمِنَ الذين كَفَروا باللهِ وعَصَوه -ومِن ذلك سَعيُهم في إبطالِ الإسلامِ، وكَيدُهم بالمُسلِمينَ لإيذائِهم- أن تبتَلِعَهم الأرضُ فيَغيبوا في بَطنِها[1]؟

كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦].

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

أي: أو يأتيَهم عذابُ اللهِ غِرَّةً مِن حيثُ لا يَشعُرونَ بمَجيئِه إليهم، ولا يَدرونَ مِن أين يأتيهم[2].

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦﴾.

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾.

أي: أو يُهلِكَ اللهُ الكافرينَ بالعذابِ في حالِ سَفَرِهم وتصَرُّفِهم في مَعايشِهم وأشغالِهم[3].

كما قال تعالى: ﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨- ٩٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٠).
قال ابنُ جُزيٍّ: (﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يعني: كُفَّارَ قُرَيشٍ عند جمهورِ المُفَسِّرين). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٥).

﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كانت هذه الأحوالُ الثَّلاثةُ مَفروضةً في حالِ أمنِهم من العذابِ، وكان الأمنُ مِن العدُوِّ يكونُ عن ظَنِّ عدَمِ قُدرتِه عليه؛ علَّلَ ذلك بقَولِه تعالى[1]:

﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾.

أي: فلَيسوا بفائِتينَ اللهَ، ولا مُمتَنِعينَ عليه؛ فهُم في قَبضتِه، يُهلِكُهم متى شاء، ولا مَهرَبَ لهم[2].

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ٤٧﴾.

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾.

أي: أو يُهلِكَهم بنَقصٍ مِن أطرافِهم ونَواحيهم شيئًا بعد شَيءٍ، حتى يُهلِكَ جميعَهم[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٧٠).

وممَّن اختار هذا المعنى للتخوُّف: ابنُ جرير، والواحدي، والبقاعي، ونسبه الواحدي إلى عامَّة المفسِّرين. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بنحو هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٨٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٢).

وقيل: المعنى: يأخُذُهم حالَ تخوُّفٍ وتوقُّعٍ للبلايا؛ بأن يكونوا متوقِّعينَ للعذابِ حَذِرينَ منه غيرَ غافلين عنه. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ كثير، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: فإنَّ ربَّكم لا يُعاجِلُ الكافرينَ والعاصينَ بالعُقوبةِ؛ لأنَّه رؤوفٌ رَحيمٌ بعبادِه، يَرزُقُهم ويُعافيهم، ويُمهِلُهم ليتُوبوا[(١)].

عن أبي موسى رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما أحدٌ أصبَرَ على أذًى يَسمَعُه مِن الله تعالى؛ إنَّهم يجعَلونَ له نِدًّا، ويَجعَلونَ له ولدًا، وهو مع ذلك يَرزُقُهم ويُعافيهم ويُعطيهم!))[(٢)].

وعن أبي موسى رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالم حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه. قال: ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ عمومُ هذه الآيةِ فيه مَدحُ أهلِ العِلمِ، وأنَّ أعلى أنواعِه العِلمُ بكتابِ اللهِ المُنَزَّلِ؛ فإنَّ اللهَ أمَرَ مَن لا يعلَمُ بالرُّجوعِ إليهم في جميعِ الحوادِثِ، وفي ضِمنِه تعديلٌ لأهلِ العِلمِ وتَزكيةٌ لهم؛ حيث أمَرَ بسُؤالِهم، وأنَّه بذلك يخرُجُ الجاهِلُ مِن التَّبِعةِ، فدَلَّ على أنَّ الله ائتَمَنهم على وحْيِه وتَنزيلِه، وأنَّهم مأمورونَ بتَزكيةِ أنفُسِهم، والاتِّصافِ بصِفاتِ الكَمالِ[(٤)].

كثير)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١).

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤).

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٤١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ * أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ * أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ هذا تخويفٌ مِن الله تعالى لأهلِ الكُفرِ والتَّكذيبِ وأنواعِ المعاصي مِن أن يأخُذَهم بالعذابِ على غِرَّةٍ، وهم لا يشعُرونَ؛ إمَّا أن يأخُذَهم العذابُ مِن فَوقِهم، أو مِن أسفَلَ منهم بالخَسفِ وغَيرِه، وإمَّا في حالِ تقَلُّبِهم وشُغلِهم، وعدمِ خُطورِ العذابِ ببالهم، وإمَّا في حالِ تَخَوُّفِهم مِن العَذابِ -على وجهٍ في التفسيرِ- فليسُوا بمُعجِزينَ لله في حالةٍ مِن هذه الأحوالِ، بل هم تحتَ قَبضتِه، ونواصيهم بيَدِه، ولكِنَّه رؤوفٌ رَحيمٌ لا يُعاجِلُ العاصينَ بالعُقوبةِ، بل يُمهِلُهم ويُعافيهم ويَرزُقُهم، وهم يُؤذونَه، ويُؤذونَ أولياءَه، ومع هذا يفتَحُ لهم أبوابَ التَّوبةِ، ويدعوهم إلى الإقلاعِ عن السَّيِّئاتِ التي تضُرُّهم، ويَعِدُهم بذلك أفضَلَ الكَراماتِ، ومغفرةَ ما صدَرَ منهم من الذُّنوبِ؛ فلْيَستَحِ المُجرِمُ مِن رَبِّه أن تكونَ نِعَمُ اللهِ عليه نازِلةً في جميعِ اللَّحظاتِ، ومعاصيه صاعِدةً إلى رَبِّه في كلِّ الأوقاتِ، ولْيَعلَمْ أنَّ اللهَ يُمهِلُ ولا يُهمِلُ، وأنَّه إذا أخذ العاصِيَ أخَذَه أخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ؛ فلْيَتُبْ إليه، ولْيَرجِعْ في جميعِ أمورِه إليه؛ فإنَّه رَؤوفٌ رحيمٌ، فالبِدارَ البِدارَ إلى رحمتِه الواسعةِ، وبِرِّه العَميمِ، وسُلوكِ الطُّرُقِ المُوصِلةِ إلى فَضلِ الرَّبِّ الرحيم، ألا وهي تَقواه، والعمَلُ بما يُحبُّه ويَرضاه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا ﴾ يدُلُّ على أنَّه تعالى ما

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٤١).

أرسلَ أحدًا مِن النِّساءِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ * بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ دَلالةٌ على أنَّه سُبحانَه لم يَبعَثْ نبيًّا إلَّا بآيةٍ تُبَيِّنُ صِدْقَه، وتقومُ بها الحُجَّةُ؛ إذ تصديقُه بما لا يدُلُّ على صِدقِه غيرُ جائزٍ[٢]، وذلك لِكَمالِ عَدلِه -سُبحانَه- ورَحمتِه، وإحسانِه، وحِكمتِه، ومحبَّتِه للعُذْرِ، وإقامتِه للحُجَّةِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ حُجَّةٌ في تثبيتِ خَبَرِ الواحِدِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِن المسؤولينَ مُخبِرٌ عن ذلك على الانفرادِ، والحُجَّةَ لازِمةٌ على المُخْبَرِ بقَولِه[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أنَّه يجوزُ التَّقليدُ في العَقائدِ، مِمَّا لا يُتَمَكَّنُ مَعرِفتُه بالدَّليلِ، فسؤالُنا أهلَ الذِّكْرِ عن هؤلاءِ الرُّسُلِ معناه أن نُقَلِّدَ المَسؤولَ، ونأخذَ بقَولِه، فالتَّقليدُ في المَسائلِ العَقَدِيَّةِ كالتَّقليدِ في المَسائلِ العَمَليَّةِ تمامًا ولا فَرقَ، فالذي لا يستطيعُ الوصولَ إلى الحقِّ بنفسِه ففَرضُه التَّقليدُ ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[٥]، فالتَّقليدُ جائِزٌ لِمَن لا يَصِلُ إلى العِلمِ بنَفسِه[٦].

٥- ليس في كلامِ اللهِ ورَسولِه شيءٌ لا يَعرِفُ معناه جميعُ الأُمَّةِ، بل لا بُدَّ أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (رقم اللقاء: ٩٤).

(٦) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٩٥).

يكونَ مَعروفًا لجميعِ الأُمَّةِ أو بَعضِها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، ولأنَّه لو كان فيه ما لا يَعلَمُ معناه أحدٌ لكان بعضُ الشَّريعةِ مجهولًا للأمَّةِ، ولكِنَّ المَعرِفةَ والخفاءَ أمرانِ نِسبيَّانِ؛ فقد يكونُ معروفًا لشَخصٍ ما كان خَفيًّا على غَيرِه، إمَّا لنَقصٍ في عِلمِه، أو قُصورٍ في فَهمِه، أو تَقصيرٍ في طَلَبِه، أو سوءٍ في قَصدِه(١).

٦- لله تعالى حِكَمٌ في إبقاءِ أهلِ الكِتابينِ بينَ أظهُرِنا؛ فإنَّهم مع كُفرِهم شاهِدونَ بأصلِ النبُوَّاتِ والتَّوحيدِ، واليومِ الآخِرِ والجنَّةِ والنَّارِ، وفي كُتُبِهم من البِشاراتِ بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وذِكرِ نُعوتِه وصِفاتِه، وصفاتِ أُمَّتِه، ما هو مِن آياتِ نُبوَّتِه وبراهينِ رسالتِه، وما يَشهَدُ بصِدقِ الأوَّلِ والآخِرِ، وهذه الحِكمةُ تختَصُّ بأهلِ الكتابِ دونَ عَبَدةِ الأوثانِ، فبَقاؤُهم مِن أقوى الحُجَجِ على مُنكِرِ النبُوَّاتِ والمعادِ والتوحِيدِ، وقد قال تعالى لمُنكري ذلك: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ذكَرَ هذا عَقِبَ قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: سَلُوا أهلَ الكِتابِ: هل أرسلنا قبلَ محمَّدٍ رِجالًا يُوحَى إليهم، أم كان محمَّدٌ بِدْعًا مِن الرُّسُلِ لم يتقَدَّمْه رَسولٌ، حتى يكونَ إرسالُه أمرًا مُنكَرًا لم يَطرُقِ العالَمَ رَسولٌ قبله(٢)؟!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى وَكَلَ بيانَ ما أَشكَلَ مِن التَّنزيلِ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٣).

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٩٥).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ في الاقتِصارِ على إنزالِ الذِّكرِ عَقِبَ قَولِه تعالى: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الكِتابَ المُنَزَّلَ على مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو بَيِّنةٌ وزَبورٌ مَعًا، أي: هو مُعجِزةٌ وكِتابُ شَرعٍ، وذلك مِن مزايا القُرآنِ التي لم يُشارِكْه فيها كِتابٌ آخَرُ، ولا مُعجِزةٌ أخرى[(١)].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ إنَّما سَمَّاه ذِكرًا؛ لأنَّ فيه مواعِظَ، وتَنبيهًا للغافِلينَ[(٢)].

١٠- قال الإمامُ أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ إدريسَ الشَّافِعيُّ: (كلُّ ما حكَمَ به رسولُ الله صلَّى الله عليه وسَلَّم فهو ممَّا فَهِمَه من القُرآنِ؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤])[(٣)].

١١- الدِّينُ الذي اجتَمع عليه المُسلِمونَ اجتِماعًا ظاهِرًا مَعلومًا، هو مَنقولٌ عن نبيِّهم نَقلًا متواتِرًا، نقلوا القرآنَ، ونَقلوا سُنَّتَه؛ وسُنَّتُه مُفَسِّرةٌ للقرآنِ، مُبَيِّنةٌ له، كما قال تعالى له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾؛ فبَيَّنَ ما أنزَلَ اللهُ لَفْظَه ومَعناه، فصارت معاني القُرآنِ التي اتَّفقَ عليها المُسلِمونَ اتِّفاقًا ظاهِرًا ممَّا توارثَتْه الأمَّةُ عن نبيِّها، كما توارَثَت عنه ألفاظَ القرآنِ، فلم يكُنْ -ولله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٦٣).

الحمدُ- فيما اتَّفَقَت عليه الأمَّةُ شَيءٌ مُحَرَّفٌ مُبدَّلٌ مِن المعاني، فكيف بألفاظِ تلك المعاني؟! فإنَّ نَقْلَها والاتِّفاقَ عليها أظهَرُ منه في الألفاظِ، فكان الدِّينُ الظَّاهِرُ للمُسلِمينَ -الذي اتَّفَقوا عليه ممَّا نقلوه عن نبيِّهم- لفظه ومعناه، فلم يكُنْ فيه تحريفٌ ولا تبديلٌ، لا لِلَّفظِ ولا للمَعنى، بخلافِ التَّوراةِ والإنجيلِ؛ فإنَّ مِن ألفاظِها ما بَدَّلَ معانيَه وأحكامَه اليهودُ والنَّصارى- أو مَجموعَهما- تبديلًا ظاهِرًا مَشهورًا في عامَّتِهم[1].

١٢- قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] قد ذكرَ جلَّ وعلا في هذه الآيةِ حِكمَتَينِ مِن حِكَمِ إنزالِ القُرآنِ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

إحداهما: أنْ يُبَيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهم في هذا الكِتابِ مِن الأوامِرِ والنَّواهي، والوعدِ والوعيدِ، ونحوِ ذلك.

الحكمةُ الثانيةُ: هي التفَكُّرُ في آياتِه والاتِّعاظُ بها[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ فيه تَغييرُ أُسلوبِ نَظْمِ الكلامِ هنا بتَوجيهِ الخِطابِ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بعدَ أنْ كان جاريًا على أُسلوبِ الغَيبةِ ابتداءً مِن قولِه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ...﴾؛ تأنيسًا للنَّبيِّ

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٠).

صَلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ فيما مَضى من الكلامِ آنفًا حكايةَ تكذيبِهم إيَّاه تصريحًا وتعريضًا، فأقبَلَ اللهُ على الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالخِطابِ؛ لِمَا في هذا الكلامِ مِن تَنويهِ مَنزلتِه بأنَّه في مَنزلةِ الرُّسلِ الأوَّلين عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي هذا الخطابِ تَعريضٌ بالمُشركينَ؛ ولذلك الْتفَتَ إلى خِطابِهم بقولِه تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾[1].

- قولُه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيه الإقبالُ عليهم بالخطابِ؛ تَوبيخًا لهم؛ لأنَّ التَّوبيخَ يُناسِبُه الخطابُ لكونِه أوقَعَ في نفْسِ المُوبَّخِ، فاحتجَّ عليهم بقولِه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. ولمَّا كان المقصودُ مِن الخطابِ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَنبيهَ الكُفَّارِ على مَضمونِه، صُرِفَ الخطابُ إليهم فقيل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾[2].

- وصِيغَةُ القَصرِ (ما... إلَّا) لقلْبِ اعتقادِ المُشركينَ؛ حيثُ قُصِرَ الإرسالُ على التعَلُّقِ برِجالٍ موصوفينَ بأنَّهم يُوحَى إليهم[3].

- وفي قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّهم يَعْلمونَ ذلك، ولكنَّهم قَصَدوا المُكابرةَ والتَّمويهَ لتَضليلِ الدَّهماءِ؛ فلذلك جِيءَ في الشَّرطِ بحَرفِ (إنْ) الَّتي ترِدُ في الشَّرطِ المَظنونِ عدَمُ وُجودِه[4].

٢- قوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٠ - ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٦٠ - ١٦١).

- لعلَّ عطفَ (الزُّبُرِ) على (الْبَيِّنَاتِ) عطفُ تَقسيمٍ بقَصدِ التَّوزيعِ، أي: بعضُهم مَصحوبٌ بالبيِّناتِ، وبعضُهم بالأمرينِ؛ لأنَّه قد تَجِيءُ رسُلٌ بدُونِ كُتُبٍ، وقد تُجْعَلُ الزُّبُرُ خاصَّةً بالكُتبِ الوجيزةِ الَّتي ليست فيها شَريعةٌ واسعةٌ، مثلُ صُحُفِ إبراهيمَ وزَبورِ داودَ عليهما السَّلامُ، والإنجيلِ[١].

- قولُه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ التَّعريفُ في ﴿النَّاسِ﴾ للعُمومِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ ...﴾ الاستفهامُ للتَّعجيبِ مِن استرسالِهم في المُعانَدةِ غيرَ مُقدِّرينَ أنْ يقَعَ ما يُهدِّدُهم به اللهُ على لِسانِ رسولِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلا يُقْلِعونَ عن تَدبيرِ المكرِ بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فكانت حالُهم في استرسالِهم كحالِ مَن هم آمِنونَ بأْسَ اللهِ، فالاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ المَشوبِ بالتَّوبيخِ[٣].

- قولُه: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من مكانٍ لا يترقَّبونَ أنْ يأتيَهم منه ضَرٌّ؛ فمعناه: أنَّه يأتيهم بَغتةً، لا يَستطيعونَ دفْعَه؛ لأنَّهم لبأْسِهم ومنعَتِهم لا يَبْغَتُهم ما يَحذرونه؛ إذ قد أعَدُّوا له عُدَّتَه، فكان عذابًا غيرَ مَعهودٍ؛ فوقَعَ قولُه: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كِنايةً عن عذابٍ لا يُطيقون دفْعَه بحسَبِ اللُّزومِ العُرفيِّ، وإلَّا فقد جاء العذابُ عادًا من مكانٍ يَشعُرون به؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، وحَلَّ بقومِ نُوحٍ عذابُ الطُّوفانِ وهم ينظُرونَ، وكذلك عذابُ الغَرقِ لِفرعونَ وقومِه[١].

٤- قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾

- تَفريعُ قولِه: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ اعتراضٌ، أي: لا يمنَعُهم مِن أخْذِه إيَّاهم في تقلُّبِهم شَيءٌ؛ إذ لا يُعجِزُه اجتماعُهم وتعاونُهم[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

- تفرَّعَ قولُه: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ على الجُملِ الماضيةِ تَفريعَ العِلَّةِ على المُعلَّلِ، وحَرفُ (إنَّ) هنا مُفيدٌ للتَّعليلِ ومُغنٍ عن فاءِ التَّفريعِ؛ فهِيَ مُؤكِّدةٌ لِمَا أفادتْه الفاءُ. والتَّعليلُ هنا لِمَا فُهِمَ من مَجموعِ المذكوراتِ في الآيةِ مِن أنَّه تعالى قادرٌ على تَعجيلِ هلاكِهم، وأنَّه أمهَلَهم حتَّى نَسُوا بأسَ اللهِ، فصاروا كالآمنينَ منه بحيث يُستفهَم عنهم: أهم آمِنون من ذلك أمْ لا[٣]؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٦٧).

الآيات (٤٨-٥٥)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ يَتَفَيَّؤُا۟ ﴾: أي: يَرجِعُ ويَمِيلُ؛ مِن الفَيءِ، يقال: فاء الظِّلُّ يَفيءُ فَيئًا: إذا رجعَ وعادَ، وأصلُه يدلُّ على الرُّجوعِ[(١)].

﴿ دَٰخِرُونَ ﴾: أي: أذِلَّاءُ صاغِرونَ، وأصلُ (دخر): يدلُّ على الذُّلِّ[(٢)].

﴿ وَاصِبًا ﴾: أي: دائِمًا ثابِتًا واجِبًا، وأصلُ (وصب): يدلُّ على دوامِ شَيءٍ[(٣)].

﴿ تَجْـَٔرُونَ ﴾: تَرفَعونَ أصواتَكم بالدُّعاءِ وتَستَغيثونَ، وأصلُه: مِن جُؤارِ الثَّورِ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٧/ ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

إذا رفع صوتًا شديدًا مِن جُوعٍ أو غيرِه[١].

المَعنى الإجْماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ألَمْ يَنظُرْ هؤلاء الكُفَّارُ الذين مَكَروا السَّيِّئاتِ إلى ما خلَقَ اللهُ مِن شَيءٍ له ظِلٌّ -كالجِبالِ والأشجارِ وغيرهما- تَميلُ ظِلالُها تارةً يمينًا وتارةً شِمالًا، فتَسجُدُ لله وتخضَعُ لِعَظمتِه، وهي تحتَ تسخيرِه وتَدبيرِه وقَهرِه سُبحانَه؟

ولله وَحْدَه يَسجُدُ كُلُّ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ مِن دابَّةٍ، والملائِكةُ يَسجُدونَ لله، سجودَ ذلٍّ وخضوعٍ، وهم لا يَستَكبِرونَ عن عبادتِه، يخافُ الملائِكةُ رَبَّهم الذي هو فَوقَهم بذاتِه وقَهرِه وكَمالِ صفاتِه، ويَفعَلونَ ما يُؤمَرونَ به.

وقال اللهُ لعِبادِه: لا تَعبُدوا إلهَينِ اثنَينِ؛ إنَّما المعبودُ المُستحِقُّ للعبادةِ إلهٌ واحِدٌ، فخافوني وَحدي. ولله ملكُ كلِّ ما في السَّمَواتِ والأرضِ، وله وَحْدَه العِبادةُ والطَّاعةُ والإخلاصُ دائِمًا، أغيرَ اللهِ تخافونَ وتَعبُدونَ؟! وما بكم مِن نِعمةٍ -ظاهِرةً كانت أو باطِنةً- فمِنَ اللهِ وَحدَه، ثمَّ إذا نزل بكم السَّقَمُ والبَلاءُ والفَقرُ، فإلى اللهِ وَحْدَه تَضِجُّون بالدُّعاءِ، ثمَّ إذا كشَفَ عنكم ما أصابكم، إذا جماعةٌ منكم برَبِّهم يُشرِكونَ؛ لِيَجحَدوا نِعَمَنا عليهم -ومنها كَشفُ البَلاءِ عنهم- فاستَمتِعوا بدُنياكم قليلًا، فسوفَ تَعلَمونَ عاقبةَ كُفرِكم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا خَوَّف اللهُ تعالى المُشرِكينَ بأنواعٍ مِن العذابِ أربعةٍ، أردَفَه بذِكرِ ما يدُلُّ على كَمالِ قُدرتِه في تَدبيرِ أحوالِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ، وتدبيرِ أحوالِ الأرواحِ والأجسامِ؛ ليُظهِرَ لهم أنَّه مع كمالِ هذه القُدرةِ القاهرةِ، والقُوَّةِ غَيرِ المُتناهيةِ، لا يَعجِزُ عن إيصالِ العَذابِ إليهم على أحدِ تلك الأقسامِ الأربعةِ[١].

وأيضًا فإنَّه بعدَ أن نهَضَت براهينُ انفرادِه تعالى بالخَلقِ بما ذُكِرَ مِن تَعدادِ مَخلوقاتِه العظيمةِ، جاء الانتقالُ إلى دَلالةٍ مِن حالِ الأجسامِ التي على الأرضِ، كلُّها مُشعِرةٌ بخُضوعِها لله تعالى خُضوعًا مُقارِنًا لوُجودِها وتقَلُّبِها آنًا فآنًا، عَلِمَ بذلك مَن عَلِمَه، وجَهِلَه مَن جَهِلَه. وأنبأ عنه لسانُ الحالِ بالنِّسبةِ لِما لا عِلمَ له، وهو ما خلَقَ اللهُ عليه النِّظامَ الأرضيَّ خَلقًا ينطِقُ لِسانُ حالِه بالعبوديَّةِ لله تعالى، وذلك في أشَدِّ الأعراضِ مُلازَمةً للذَّواتِ، ومُطابَقةً لأشكالِها، وهو الظِّلُّ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى قُدرتَه على تعذيبِ الماكرينَ وإهلاكِهم بأنواعٍ مِن الأخْذِ؛ ذكَرَ تعالى طواعيَةَ ما خلَقَ مِن غَيرِهم وخُضوعَه، ضِدَّ حالِ الماكرينَ؛ ليُنَبِّهَهم على أنَّه ينبغي- بل يجِبُ- عليهم أن يكونوا طائعينَ مُنقادينَ لأمْرِه[٣].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

أي: أولَمْ يَنظُرْ هؤلاء -الذين مَكَروا السَّيِّئاتِ- إلى مخلوقاتِ اللهِ القائِمةِ التي لها ظِلٌّ، كالأشجارِ والجِبالِ وغَيرِها، تَرجِعُ ظِلالُها مِن مَوضِعٍ إلى آخَرَ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣٥).

فتَميلُ ذاتَ اليَمينِ أوَّلَ النَّهارِ، وذاتَ الشِّمالِ في آخِرِه[١]، منقادةً لأمْرِه خاضِعةً لعَظَمتِه بمَيَلانِها ودَوَرانِها مِن جانبٍ إلى جانبٍ آخَرَ، وهم صاغِرونَ تحتَ تَسخيرِه وتَدبيرِه وقَهْرِه سُبْحانَه[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا

---

(١) قال ابنُ عاشور: (قولُه: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾، أي: عن جِهاتِ اليَمينِ وجِهاتِ الشَّمائِلِ، مقصودٌ به إيضاحُ الحالةِ العجيبةِ للظِّلِّ؛ إذ يكونُ عن يمينِ الشَّخصِ مَرَّةً، وعن شِمالِه أُخرَى، أي: إذا استقبَلَ جهةً ما ثُمَّ استدبَرَها. وليس المرادُ خُصوصَ اليَمينِ والشِّمالِ، بل كذلك الأمامُ والخَلفُ، فاختُصِرَ الكلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٩، ٤٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٥، ٥٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٠).

قال ابنُ جزي: (واختُلِف في معنى هذا السجودِ؛ فقيل: عبَّر به عن الخضوعِ والانقيادِ. وقيل: هو سجودٌ حقيقةً). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢٨).

وقال السمعاني: (أكثَرُ السَّلَفِ أنَّ السُّجودَ هاهنا: هو الطَّاعةُ لله، وأنَّ كُلَّ الأشياءِ ساجِدةٌ لله مُطيعةٌ؛ مِن حيوانٍ وجَمادٍ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٧٦).

قال أبو حيان: (فغاير الزمخشري بينَ الحالين، جعَل ﴿سُجَّدًا﴾ حالًا مِن الظِّلال، و﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ حالًا مِن الضميرِ في ﴿سُجَّدًا﴾، وأن يكونَ حالًا ثانيةً مِن الظلالِ، كما تقولُ: جاء زيدٌ راكبًا، وهو ضاحكٌ، فيجوزُ أن يكونَ وهو ضاحكٌ حالًا مِن الضميرِ في «راكبًا»، ويجوزُ أن يكونَ حالًا مِن زيدٍ، وهذا الثاني عندي أظهرُ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٩).

وقال ابن عاشور: (وجملة ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ في موضعِ الحالِ مِن الضميرِ في ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾؛ لأنَّه في معنى الجمعِ؛ لرجوعِه إلى ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٧).

ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ [الفرقان: ٤٥].

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابِقةِ السُّجودَ القَسْريَّ، ذكَرَ بعدَه هنا سُجودًا آخَرَ بَعضُه اختيارٌ، وفي بَعضِه شِبهُ اختيارٍ(١).

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ﴾.

أي: ولله وحدَه يسجُدُ جميعُ ما في السَّمواتِ، وجميعُ ما في الأرضِ مِن كلِّ ما يَدِبُّ ويتحَرَّكُ سجودَ ذلٍّ وخضوعٍ، فكلُّ أحدٍ خاضعٌ لربوبيتِه، ذليلٌ لعزَّتِه، مقهورٌ تحتَ سلطانِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٠).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالسجودِ هنا الاستسلامُ والانقيادُ والخضوعُ: ابنُ جريرٍ، والسمرقندي، والواحدي، وابنُ القيم، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٠٧)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٠).

قال الرسعني: (أمَّا مَنْ يعقِلُ فسجودُه: عبادتُه وخضوعُه لله تعالى، وأمَّا ما لا يعقِلُ فسجودُه انقيادُه لتسخيرِ الله تعالى ونفاذ أمرِه فيه، وظهورُ أثَرِ صنعتِه عليه. هذا قولُ جمهور المفسِّرين). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٧). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

وقال أيضًا: (والصحيحُ عندي والذي يدلُّ عليه العِلمُ: أنَّه سجودٌ على الحقيقةِ، كما قلنا في تسبيحِ ما لا يعقِلُ، ويكون منشأُ ذلك معنًى يخلُقُه الله فيه، كما أفهم السَّمواتِ والأرضَ والجبالَ خطابَه، حيث عَرَضَ عليها الأمانةَ فأبَتْ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٧).

وقال الخازن: (لفظةُ الدَّابَّة مُشتَقَّةٌ مِن الدَّبيبِ، وهو: عِبارةٌ عن الحَرَكةِ الجُسمانيَّة، فالدابَّةُ: اسمٌ

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: والملائِكةُ يَسجُدونَ لله، وهم لا يَستَكبِرونَ عن عِبادتِه، والتَّذَلُّلِ له بطاعتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا مدَحَ اللهُ تعالى الملائِكةَ بكَثرةِ الطَّاعةِ والخُضوعِ لله، مدَحَهم بالخَوفِ مِن اللهِ الذي هو فوقَهم بالذَّاتِ والقَهرِ، وكَمالِ الأوصافِ، فهم أذِلَّاءُ تحتَ

يقعُ على كل حَيوانٍ جُسمانيٍّ يتحَرَّكُ ويَدِبُّ، فيدخُلُ فيه الإنسانُ؛ لأنَّه مِمَّا يَدِبُّ على الأرضِ). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

قَهْرِه سُبْحانَه[١].

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾.

أي: يخافُ الملائِكةُ مِن اللهِ الذي هو فَوقَهم بذاتِه وقَهرِه وكَمالِ صِفاتِه[٢].

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

أي: ويَفعَلُ الملائِكةُ ما يأمُرُهم اللهُ بفِعلِه، ولا يَعصُونَه[٣].

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا بيَّنَ في الآيةِ الأولى أنَّ كُلَّ ما سِوى اللهِ- سواءٌ كان مِن عالَمِ الأرواحِ أو مِن عالَمِ الأجسامِ- فهو مُنقادٌ خاضِعٌ لجَلالِ اللهِ تعالى وكِبريائِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

قال ابن الجوزي: (في قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ قولان: أحدُهما: أنَّه مِن صِفةِ الملائكةِ خاصَّةً، قاله ابنُ السائب ومقاتل. والثاني: أنَّه عامٌّ في جميعِ المذكوراتِ، قاله أبو سُلَيمانَ الدِّمَشقيُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٤).

وممَّن اختار القولَ الأول: الواحِديُّ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، واختاره أيضًا السعديُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ٥٤).

وممن اختار القول الثاني: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

أتبَعَه في هذه الآيةِ بالنَّهيِ عن الشِّركِ، وبالأمرِ بأنَّ كُلَّ ما سِواه فهو مِلكُه، وأنَّه غَنيٌّ عن الكُلِّ[١].

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾.

أي: وقال اللهُ لعِبادِه: لا تَعبُدوا مَعبُودَينِ اثنَينِ، فتَجعَلوا لي شَريكًا في العبادةِ[٢].

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

أي: إنَّما المعبودُ المُستحِقُّ للعبادةِ واحِدٌ، وهو اللهُ وَحدَه؛ فلا تَعبُدوا غَيرَه[٣].

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾.

أي: فخافُوني وَحْدِي، وامتَثِلوا أمْري، واجتَنِبوا نَهْيِي، ولا تُشرِكوا بي شَيئًا[٤].

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ثَبَت بالدَّليلِ الصَّحيحِ، والبُرهانِ الواضِحِ أنَّ اللهَ تعالى هو إلهُ العالَمِ لا شَريكَ له في الإلهيَّةِ؛ وجَبَ أن يكونَ جميعُ المخلوقاتِ عَبيدَه، وفي مِلكِه وتَصَرُّفِه، وتحتَ قَهرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٣٦).

﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ولله وَحْدَه مُلْكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ مِن خَلقِه، وكُلُّهم عبيدُه[١].

﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾.

أي: ولله وَحْدَه الطَّاعةُ والإخلاصُ والخُضوعُ والذُّلُّ دائِمًا في جميعِ الأوقاتِ؛ فطاعتُه واجِبةٌ وثابتةٌ على عبادِه أبدًا، لا تنقَطِعُ ولا تزولُ، بخلافِ طاعةِ غَيرِه سُبحانَه[٢].

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾.

أي: أفغَيرَ اللهِ -أيُّها النَّاسُ- تخافونَ وتُطيعونَ، وهو المَعبودُ الحَقُّ، المتفَرِّدُ بالخَلقِ والمُلْكِ والتدبيرِ[٣]؟!

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ بالآيةِ الأُولَى أنَّ الواجِبَ على العاقِلِ ألَّا يتَّقِيَ غيرَ اللهِ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّه يجِبُ عليه ألَّا يَشكُرَ أحدًا إلَّا اللهَ تعالى؛ لأنَّ الشُّكرَ إنَّما يلزَمُ على النِّعمةِ، وكلُّ نِعمةٍ حَصَلت للإنسانِ فهي مِن اللهِ تعالى؛ لِقَولِه تعالى: ﴿ وَمَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٤)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ فثبت بهذا أنَّ العاقِلَ يجِبُ عليه ألَّا يخافَ وألَّا يتَّقِيَ أحدًا إلَّا اللهَ، وألَّا يَشكُرَ أحدًا إلَّا اللهَ تعالى(١).

وأيضًا فإنَّها انتِقالٌ مِن الاستدلالِ بمَصنوعاتِ اللهِ الكائنةِ في ذاتِ الإنسانِ، وفيما يُحيطُ به مِن الموجوداتِ، إلى الاستدلالِ بما ساق اللهُ مِن النِّعَمِ؛ فمِنَ النَّاسِ مُعرِضونَ عن التدَبُّرِ فيها، وعن شُكرِها، وهم الكافِرونَ، فكان في الأدلَّةِ الماضيةِ القَصدُ إلى الاستدلالِ ابتِداءً مَتبوعًا بالامتِنانِ(٢).

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: كلُّ ما لديكم- أيُّها النَّاسُ- من نِعَمٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ، فهو مِن الله وَحْدَه، لا مِن غَيرِه(٣).

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾.

أي: ثمَّ إذا أصابَكم مَرَضٌ أو فَقرٌ أو شِدَّةٌ وبلاءٌ، فإلى اللهِ تَصرُخونَ بالدُّعاءِ، وبه تَستَغيثونَ؛ ليَكشِفَ عنكم ما أصابَكم مِن شِدَّةٍ؛ لعِلْمِكم أنَّه وَحْدَه القادِرُ على إغاثَتِكم(٤).

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾.

أي: ثمَّ إذا أزال اللهُ عنكم الشِّدَّةَ، ورفَع البلاءَ، إذا جماعةٌ منكم- أيُّها النَّاسُ-

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

يَجعَلونَ لربِّهم شَريكًا في عبادتِه[١]!

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۞ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢- ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥﴾.

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾.

أي: لِيَكْفُرَ[٢] المُشرِكونَ بما آتيناهم مِن نِعمةِ كَشْفِ الضُّرِّ .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٣).

(٢) قال ابن عطية: (قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ يجوزُ أن تكونَ اللامُ لامَ الصَّيرورةِ، أي: فصار أمرُهم ليَكفُروا، وهم لم يقصِدوا بأفعالِهم تلك أن يكفُروا. ويجوز أن تكونَ لامَ أمرٍ على معنى التهديدِ والوعيدِ، كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠]. والكفرُ هنا يحتمِلُ أن يكون كُفرَ الجَحدِ بالله والشِّرك، ويؤيدُه قَولُه: ﴿بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾، ويحتَمِلُ أن يكون كُفرَ النِّعمةِ، وهو الأظهرُ؛ لِقَولِه: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: بما أنعَمْنا عليهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٥).

وممَّن قال: إنَّ اللام للعاقبة والصيرورة، أي: آل أمرُهم إلى الكفر: الألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٧٩).

وقال الشوكاني: (اللامُ في ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ لام كي، أي: لكي يكفُروا بما آتيناهم مِن نِعمةِ كَشفِ الضُّرِّ، وحتى كأنَّ هذا الكُفرَ منهم الواقِعَ في موضعِ الشُّكرِ الواجِبِ عليهم، غَرَضٌ لهم ومَقصِدٌ مِن مقاصِدِهم، وهذا غايةٌ في العتُوِّ والعنادِ ليس وراءَها غايةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٣).

عنهم[١].

﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: فتَمَتَّعوا في حياتِكم الدُّنيا قليلًا -أيُّها المُشرِكونَ- فسوف تَعلَمونَ عاقِبةَ كُفرِكم[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن سجَدَ للهِ فقد بَرِئَ مِن الكِبرِ، ووطَّنَ نَفسَه على الذُّلِّ، ولم يُنازِعْ رَبَّه في كِبريائِه وعظَمتِه، ويُؤيِّدُه ما قال قَبلَ هذه الآيةِ: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾، فكيف يجِدُ التكَبُّرُ مَساغًا فيمَن صَغَّرَه السُّجودُ، وذَلَّه لِرَبِّه جَلَّ وتعالى[٣]؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ كلَّ ما نحصُلُ عليه -مِن عِلْمٍ أو قُدرةٍ أو إرادةٍ- فمِنَ اللهِ، فالواجِبُ علينا أن نُضيفَ هذه النِّعَمَ إلى اللهِ سُبحانَه، حتى ولو حصَلَتْ هذه النِّعمَةُ للإنسانِ بعِلْمِه أو مَهارتِه؛ فالذي أعطاه هذا العِلمَ أو المهارةَ هو اللهُ عزَّ وجلَّ، ثمَّ إنَّ المهارةَ أو العِلمَ قد لا يكونُ

وممَّن جعل اللامَ هنا لامَ كي: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩)، ((الوسيط)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٥٧).

سببًا لحُصولِ الرِّزْقِ، فكم مِن إنسانٍ عالِمٍ أو ماهرٍ حاذِقٍ؛ ومع ذلك لا يُوَفَّقُ، بل يكونُ عاطلًا[١]، فجميعُ النِّعَمِ المُكتَسَبةِ منَّا إنَّما هي مِن إيجادِه واختراعِه سُبحانَه، ففي الآيةِ إشارةٌ إلى وجوبِ الشُّكرِ على ما أسدَى مِن النِّعَمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ فيه سُؤالٌ: ما السَّبَبُ في ذِكْرِ (اليمين) بلَفظِ الواحِدِ، و(الشَّمائل) بصيغةِ الجَمعِ؟

أُجيب عن ذلك من عدةِ وجوهٍ:

منها: أنَّه لما كانت اليمينُ جهةَ الخيرِ والفلاحِ، وأهلُها هم الناجون أُفرِدت، ولما كانت الشمالُ جهةَ أهلِ الباطلِ، وهم أصحابُ الشمالِ جُمعت، فاليمينُ مأخوذٌ مِن اليُمنِ، وذلك راجعٌ إلى طريقِ الحقِّ، والشمالُ راجعٌ إلى طريقِ الباطلِ، بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١]، وطريقُ الحقِّ واحدةٌ، وطرقُ الباطلِ متعددةٌ[٣].

ومنها: أنَّ الشمالَ إنَّما جُمِعت في الظلالِ، وأُفرِد اليمينُ؛ لأنَّ الظلَّ حين ينشأُ أوَّلَ النهارِ يكونُ في غايةِ الطولِ، يبدو كذلك ظلًّا واحدًا مِن جهةِ اليمينِ، ثم

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ١٢)، ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٩١).

يأخذُ في النقصانِ، وأمَّا إذا أخَذ في جهةِ الشمالِ فإنَّه يتزايدُ شيئًا فشيئًا، والثاني منه غيرُ الأوَّل، فلمَّا زاد منه شيئًا فهو غيرُ ما كان قبلَه، فصار كلُّ جزءٍ منه كأنَّه ظلٌّ، فحسُنَ جمعُ الشمائلِ في مقابلةِ تعدُّدِ الظلالِ(١).

ومنها: أنَّ اليمينَ مقصودٌ به الجمعُ أيضًا؛ فإنَّ الألفَ واللَّامَ فيه لِلجنسِ، فقامَ العمومُ مقامَ الجمعِ(٢). وقيل غيرُ ذلك(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ ﴾ لَمَّا كان حَقُّ المُشرِكينَ المُبادرةَ بالتَّوبةِ، فلم يَفعَلوا؛ أعرَضَ تعالى عنهم، فقال: ﴿ يَرَوْا ﴾(٤).

٣- قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ ﴾ سُجودُ المَخلوقاتِ لله تعالى قِسمانِ: سُجودُ اضطِرارٍ ودَلالةٍ على ما له مِن صِفاتِ الكَمالِ، وهذا عامٌّ لكُلِّ مَخلوقٍ؛ مِن مُؤمِنٍ وكافِرٍ، وبَرٍّ وفاجِرٍ، وحيوانٍ ناطِقٍ وغَيرِه، وسُجودُ اختيارٍ يَختَصُّ بأوليائِه وعِبادِه المُؤمِنينَ مِن الملائِكةِ وغَيرِهم مِنَ المَخلوقاتِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٠)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ١٢)، ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٩١).
وقال ابنُ القيمِ عن هذا الوجهِ: (وهذا معنًى حسنٌ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٢١).

(٢) ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٩٨)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣٨-٥٣٩)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ١٢)، ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٩٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ المقصودُ مِن هذه الآيةِ شَرحُ صِفاتِ الملائكةِ، وهي دَلالةٌ قاهِرةٌ قاطِعةٌ على عِصمةِ الملائِكةِ عن جميعِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّهم مُنقادونَ لصانِعِهم وخالِقِهم، وأنَّهم ما خالَفوه في أمرٍ مِن الأمورِ، وقَوله: ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أيضًا يدُلُّ على أنَّهم فعلوا كلَّ ما كانوا مأمورينَ به، وذلك يدُلُّ على عِصمتِهم عن كُلِّ الذُّنوبِ[(١)].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾، وقال لإبليس: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، وقال أيضًا له: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، فثبت أنَّ الملائكةَ لا يستكبِرون، وثبت أنَّ إبليسَ تكبَّرَ واستكبَرَ، فوجب أن لا يكونَ مِن الملائكةِ[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ دَلالةٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى فوقَ خَلْقِه[(٣)]، وأنَّ اللهَ جلَّ جلالُه بذاتِه في السَّماءِ على العَرشِ، وليس في الأرضِ إلَّا عِلْمُه المحيطُ بكُلِّ شَيءٍ[(٤)].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ فيه سُؤالٌ: إنَّ الإلهَينِ لا بُدَّ أنْ يكونَا اثنَينِ، فما الفائِدةُ في قَولِه: ﴿إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٦٨).

الجوابُ مِن وجوهٍ:

منها: أنَّ الاثنينيَّةَ مُنافِيةٌ للإلهيَّةِ؛ فقولُه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ المقصودُ منه التَّنبيهُ على حُصولِ المُنافاةِ، والمُضادَّةِ بين الإلهيَّةِ وبَينَ الاثنينيَّةِ[١].

ومنها: أن ذِكرَ الاثنينِ لِدَفعِ احتمالِ إرادةِ الجِنسِ، وإذ نُهُوا عن اتِّخاذِ إلهَينِ فقد دَلَّ بدَلالةِ الاقتضاءِ على إبطالِ اتِّخاذِ آلهةٍ كثيرةٍ. وقيل غيرُ ذلك[٢].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ احتُجَّ به على أنَّ الإيمانَ حصَلَ بخَلقِ اللهِ تعالى؛ فالإيمانُ نِعمةٌ، وكلُّ نِعمةٍ فهي مِنَ الله تعالى[٣].

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ يَدخُلُ فيه نِعَمُ الدِّينِ والدُّنيا[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢١٩-٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٢-١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٢٢).

قال ابنُ عثيمين: (الصوابُ أن نقولَ: إيمانُنا كلُّه مخلوقٌ... فمَن قال: إيماني مخلوقٌ فقد صدَق، أمَّا ما آمَن به ففيه التفصيل؛ منه ما هو مخلوقٌ، ومنه ما هو غيرُ مخلوقٍ، رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم مخلوقٌ، وأنا مؤمنٌ به، والقرآنُ غيرُ مخلوقٍ وأنا مؤمنٌ به، وكذلك الإيمانُ بالله وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخرِ؛ فالملائكةُ مخلوقونَ، والكتبُ غيرُ مخلوقةٍ، والإيمانُ بالرسلِ إيمانٌ بمخلوقٍ، واليومُ الآخرُ مخلوقٌ.

فصار المؤْمَنُ به منه مخلوقٌ، ومنه غيرُ مخلوقٍ، أمَّا مجردُ إيمانِ العبدِ فإنَّه مخلوقٌ؛ لأنَّه حادثٌ، فالعبدُ لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم كان وأحدَث الإيمانَ). ((شرح العقيدة السفارينية)) (١/ ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٦٠).

- قوله: ﴿وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ جُمِع بالواو؛ لأنَّ الدخورَ من أوصافِ العُقلاءِ، أو لأنَّ في جملةِ ذلك مَن يَعقِلُ فغُلِّب[١].

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ الاستفهامُ هنا معناه التَّوبيخُ. وقيل: ويجوزُ أنْ يكونَ معناه التَّعجُّبَ[٢].

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ على قِراءةِ حَمزةَ والكسائيِّ وخَلفٍ[٣]: (أولَمْ تَرَوا) بالتَّاءِ المُثنَّاةِ الفوقيَّةِ على الخِطابِ؛ فهو على طَريقةِ الالْتفاتِ[٤].

- قَولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ قولُه: ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ بيانٌ للإبهامِ الَّذي في (ما) الموصولةِ[٥]. فإنْ قيل: كيف بيَّنَ الموصولَ (ما) -وهو مُبهَمٌ- بشَيءٍ هو مُبهَمٌ، بل أبهَمُ ممَّا قَبلَه؟

فالجوابُ: أنَّ ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ قد اتَّضَح وظَهَر بوَصفِه بالجُملةِ بعدَه ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾. وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّ الجُملةَ بيانٌ لـ (ما)[٦].

- وخَصَّ الظِّلَّ بالذِّكرِ؛ لأنَّه سَريعُ التَّغيُّرِ، والتغَيُّرُ يقتضي مُغَيِّراً غيَّرَه، ومُدَبِّرًا له[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٩٠)، ((شرح طيبة النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٣٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٠).

- ولَمَّا كان سجودُ الظلالِ في غايةِ الظهورِ بُدئ به، ثم انتقَل إلى سجودِ ما في السمواتِ والأرضِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ ﴾ تَقديمُ المجرورِ ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ على فِعْلِه ﴿يَسْجُدُ﴾ مُؤْذِنٌ بالحصرِ، أي: سجَدَ للهِ لا لغيرِه ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، وهو تَعريضٌ بالمُشركين؛ إذ يَسجُدونَ للأصنامِ[٢].

- قولُه: ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث لم يُعَبِّرْ بـ (مَن) تغلِيبًا للعُقلاءِ مِن الدَّوابِّ على غيرِهم، وإنَّما جاء بـ ﴿مَا﴾؛ لأنَّه لو جِيءَ بـ (مَن) لم يكُنْ فيه دَليلٌ على التَّغليبِ؛ فكان مُتناوِلًا للعُقلاءِ خاصَّةً، فجِيءَ بما هو صالحٌ للعُقلاءِ وغيرِهم؛ إرادةً للعُمومِ[٣]، فجاء بـ (ما) الموصوليَّةِ للتَّغليبِ؛ لأنَّ ما لا يعقِلُ أكثرُ ممَّن يعقِلُ في العدَدِ، والحُكمُ للأغلبِ. و(ما) الموصولةُ في أصلِ وضْعِها لِمَا لا يعقِلُ، كما أنَّ (مَن) موضوعةٌ في الأصلِ لمَن يعقِلُ، وقد تَتخالفانِ[٤]، وإنَّما قال: ﴿مَا﴾ ولم يُغلِّبِ العُقلاءَ مِن الدَّوابِّ على غيرِهم، كما في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥]؛ لأنَّه أراد هنا عُمومَ كلِّ دابَّةٍ ولم يقترِنْ بتغليبٍ؛ فجاء بـ ﴿مَا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٠).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣١٤- ٣١٥).

﴾الَّتي تعُمُّ النَّوعينِ، وفي آيةِ النُّورِ- وإنْ أراد العُمومَ- لكنَّه اقترَنَ بتغليبٍ، وهو ذِكْرُ ضَميرِ العُقلاءِ ﴿مَّن﴾ في قولِه: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى﴾؛ فجاء بـ﴿مَّن﴾ تَغليبًا للعُقلاءِ[1]. فإنْ قلْتَ: سُجودُ المُكلَّفينَ ممَّا انتظَمَه هذا الكلامُ خِلافَ سُجودِ غيرِهم، فكيف عُبِّرَ عن النَّوعينِ بلفظٍ واحدٍ؟ قلْتُ: المُرادُ بسُجودِ المُكلَّفينَ: طاعتُهم وعِبادتُهم، وبسُجودِ غيرِهم: انقيادُه لإرادةِ اللهِ، وأنَّها غيرُ مُمتنِعةٍ عليها، وكِلَا السُّجودينِ يجمَعُهما معنى الانقيادِ فلم يختلِفَا؛ فلذلك جاز أنْ يُعَبَّرَ عنهما بلفظٍ واحدٍ[2].

- قولُه: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ بيانًا لِمَا في السَّمواتِ وما في الأرضِ جميعًا، على أنَّ في السَّمواتِ خلقًا للهِ يَدُبُّون فيها كما يدُبُّ الأناسيُّ في الأرضِ، وأنْ يكونَ بيانًا لِمَا في الأرضِ وحدَه، ويُرادُ بـ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: الملائكةُ، وكرَّرَ ذِكْرَهم على معنى: والملائكةُ خُصوصًا مِن بين السَّاجدينَ؛ لأنَّهم أطوَعُ الخلقِ وأعبَدُهم. ويجوزُ أنْ يُرادَ بـ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: ملائكتُهنَّ[3]. وقيل: عَطَفَ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهم مُندَرِجونَ في عُمومِهما؛ تَشريفًا لهم وتكريمًا. ويجوزُ أن يُرادَ بهم الحَفَظةُ التي في الأرضِ، وبـ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مَلائِكتُهنَّ، فلم يدخُلوا في العُمومِ[4].

٣- قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - مع الحاشية) (٢/ ٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٩ - ٦١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٠).

- جُملةُ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ حالًا مِن الضَّميرِ في ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: لا يستكبِرونَ خائفينَ، ويجوزُ أنْ يكونَ بيانًا لنَفيِ الاستكبارِ، وتأكيدًا له وتَقريرًا؛ لأنَّ مَن يخافُ اللهَ سُبحانَه لا يستكبِرُ عن عِبادتِه[1].

- وفي قولِه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ تَربيةٌ للمَهابةِ، وإشعارٌ بعِلَّةِ الحُكمِ[2].

٤- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ فيه إظهارُ الفاعِلِ، وتخصيصُ لفظةِ الجلالةِ بالذِّكرِ؛ للإيذانِ بأنَّه متعيِّنُ الأُلوهيَّةِ، وإنَّما المنهيُّ عنه هو الإشراكُ به، لا أنَّ المنهيَّ عنه مُطلَقُ اتِّخاذِ إلَهينِ بحيث يتَحقَّقُ الانتهاءُ عنه برَفْضِ أيِّهما كان[3].

- وجملةُ ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ يَجوزُ أن تَكونَ بَيانًا لِجُملةِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾؛ فالجملةُ مَقولَةٌ لِفعلِ ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ عطْفَ البيَانِ تابِعٌ للمبيَّنِ؛ فلِذلك فُصِلَت، أي: لم تُعطَفْ على الجملةِ التي قبْلَها، وبذلك أُفيدَ بالمنطوقِ ما أُفيدَ قبْلُ بدَلالةِ الاقتضاءِ. ويَجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ مُعترِضةً، واقعةً تَعليلًا لجملةِ ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾، أي: نَهى اللهُ عن اتِّخاذِ إلهَيْنِ؛ لأنَّ اللهَ واحدٌ، أي: واللهُ هو مُسمَّى إلهٍ؛ فاتِّخاذُ إلَهينِ اثنَينِ قَلْبٌ لِحَقيقةِ الإلهيَّةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٠)، ((تفسير أبي السعود)) ٥/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٣).

- والقَصْرُ في قولِه: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قَصْرُ موصوفٍ على صِفةٍ، أي: اللهُ مُختصٌّ بصِفَةِ توحُّدِ الإلهيَّةِ، وهو قَصْرُ قَلْبٍ؛ لإبطالِ دَعْوى تَثنيَةِ الإلهِ[1].

- قولُه: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ فيه نقلٌ للكلامِ عن الغَيْبةِ إلى التَّكلُّمِ، وجاز لأنَّ الغالِبَ هو المتكلِّمُ، وهو مِن طريقةِ الالْتِفاتِ، وهو أبلَغُ في التَّرهيبِ مِن (وإيَّاه فارهَبوه)، ومِن أن يَجيءَ ما قَبْلَه على لَفْظِ المتكلِّمِ[2]؛ فهذا الالتِفاتُ من الغَيبةِ إلى التَّكلمِ؛ لِتَربيَةِ المهابةِ وإلقاءِ الرَّهبةِ في القُلوبِ؛ ولِذَلك قَدَّم وكرَّر الفِعْلَ، أي: إنْ كُنتُم راهِبين شَيئًا فإيَّايَ ارْهَبوا لا غَيرُ؛ فإنِّي ذلك الواحِدُ الَّذي يَسجُدُ لَه ما في السَّمواتِ والأرضِ[3].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ تفريعٌ، يَجوزُ أن يكونَ تَفريعًا على جُملةِ ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾؛ فيَكونَ ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ مِن مَقولِ القولِ، ويَكونَ في ضَميرِ المتكلِّمِ مِن قولِه: ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ. ويَجوزُ أن يَكونَ تَفريعًا على فِعْلِ ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾؛ فلا يَكونَ مِن مَقولِ القولِ، وليس في الكلامِ الْتِفاتٌ على هذا الوجهِ[4].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ تفريعٌ بصِيغةِ القصرِ، وهو قَصرُ قلبٍ إضافيٌّ، أي: قَصْرُ الرَّهبةِ التَّامَّةِ مِنه عليه؛ فلا اعْتِدادَ بقُدرةِ غيرِه على ضُرِّ أحدٍ.

واقترانُ فِعْلِ ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ بالفاءِ؛ لِيَكونَ تَفريعًا على تفريعٍ؛ فيُفيدُ مَفادَ التَّأكيدِ؛ لأنَّ تَعلُّقَ فِعلِ (ارْهَبُونِ) بالمفعولِ لَفْظًا يَجعَلُ الضَّميرَ المنفصِلَ المذكورَ قبْلَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٤).

في تقديرِ مَعمولٍ لِفعلٍ آخَرَ؛ فيَكونُ التَّقديرُ: فإيَّايَ ارْهَبوا فارْهَبونِ، أي: أمَرتُكم بأن تَقْصُروا رَهبتَكم علَيَّ، فارهَبونِ امتِثالًا للأمرِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾: لَمَّا نَهى عن اتِّخاذِ الإلهَينِ، واستَلزَم النَّهيَ عن اتِّخاذِ آلهةٍ؛ أخبَر تعالى أنَّه إلهٌ واحدٌ كما قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، بأَداةِ الحَصْرِ، وبالتَّأكيدِ بالوَحْدةِ، ثمَّ أمَرَهم بأن يَرهَبوه، والْتَفَت مِن الغَيبةِ إلى الحُضورِ؛ لأنَّه أبلَغُ في الرَّهبةِ[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ تقريرٌ لعِلَّةِ انْقِيادِ ما فيها له سُبحانَه خاصَّةً، وتحقيقٌ لتخصيصِ الرَّهبةِ به تعالى[٣].

- قولُه: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ فيه تقديمُ الظَّرفِ (لَهُ) لِتَقْويةِ ما في اللَّامِ مِن مَعنى الاخْتِصاصِ، وكذا في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾[٤]، وهو يُفيدُ الحصْرَ؛ فدخَل جميعُ ما في السَّماءِ والأرضِ في مَفادِ لامِ المِلكِ؛ فأفادَ أنْ ليس لِغَيرِه شيءٌ مِن المخلوقاتِ خيرِها وشَرِّها؛ فانتَفى أن يكونَ معَه إلهٌ آخَرُ؛ لأنَّه لو كان معَه إلهٌ آخَرُ لكان له بعضُ المخلوقاتِ؛ إذْ لا يُعقَلُ إلهٌ بدونِ مخلوقاتٍ. وأمَّا قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ فالدِّينُ يَحتمِلُ أن يَكونَ المرادُ به الطَّاعةَ؛ مِن قولِهم: دانَتِ القَبيلةُ للمَلِكِ، أي: أطاعَتْه؛ فهو مِن مُتمِّماتِ جُملةِ: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّه لَمَّا قَصَر الموجوداتِ على الكونِ في مُلكِه، كان حَقيقًا بِقَصْرِ الطَّاعةِ عليه؛ ولذلك قدَّم المجرورَ (له)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في هذه الجملةِ على فِعْلِه، كما وقَع في الَّتي قبْلَها[١].

- قولُه: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ استفهامٌ تَضمَّنَ التَّوبيخَ والتَّعجُّبَ، أي: بَعدَما عرَفْتُم وَحْدانيَّتَه، وأنَّ ما سِواه له، ومُحتاجٌ إليه؛ كيف تتَّقونَ وتَخافونَ غَيرَه، ولا نَفْعَ ولا ضُرَّ يَقدِرُ علَيه[٢]؟!

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ في إيرادِ النِّعمةِ بالجملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الدَّوامِ، والتَّعبيرِ عن مُلابَستِها للمُخاطَبين بِباءِ المُصاحَبةِ، وإيرادِ (ما) المُعرِبةِ عن العمومِ، وإيرادِ ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ بالجملةِ الفعليَّةِ المعْرِبةِ عن الحُدوثِ مع (ثمَّ) الدَّالَّةِ على وُقوعِه بعدَ بُرهةٍ مِن الدَّهرِ، وتَحْليَةِ الضُّرِّ بلامِ الجنسِ المفيدةِ لِمِساسِ أدْنَى ما يَنطلِقُ عليه اسمُ الجنسِ: ما لا يَخْفى مِن الجزالةِ والفَخامةِ. ولعلَّ إيرادَ ﴿إِذَا﴾ دونَ (إِنْ)؛ للتَّوسُّلِ به إلى تَحقُّقِ وُقوعِ الجوابِ[٣]؛ لأنَّ (إذا) للَّذي يقَعُ، و(إنْ) للَّذي قد يقَعُ أو لا يقَعُ.

- قولُه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ الباءُ ﴿بِكُم﴾ للمُلابَسةِ، أي: ما لابَسَكم واستَقرَّ عِندَكم، و﴿مِّن نِّعْمَةٍ﴾ لِبَيانِ إبهامِ ﴿مَا﴾ الموصولةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٧).

- و(مِن) في قولِه: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: واصِلةٌ إليكم مِن اللهِ، أي: مِن عطاءِ اللهِ. ولَمَّا كان قولُه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ﴾ مُفيدًا للعُمومِ، كان الإخبارُ عنه بأنَّه مِن عِندِ اللهِ مُغنِيًا عن الإتيانِ بصيغةِ قَصْرٍ[(١)].

- و(ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ للتَّراخي الرُّتْبيِّ، كما هو شأنُها الغالب في عَطْفِها الجُمَل؛ لأنَّ اللَّجَأَ إلى اللهِ عِندَ حُصولِ الضُّرِّ أعجَبُ إخبارًا مِن الإخبارِ بأنَّ النِّعَمَ كلَّها مِن اللهِ، ومضمونُ الجملةِ المعطوفةِ أبعَدُ في النَّظرِ مِن مضمونِ المعطوفِ عليها. والمقصودُ: تقريرُ أنَّ اللهَ تعالى هو مُدبِّرُ أسبابِ ما بهِم مِن خيرٍ وشرٍّ، وأنَّه لا إلهَ يَخلُقُ إلَّا هو، وأنَّهم لا يَلتجِئون إلَّا إليه إذا أصابَهم ضُرٌّ، وهو ضدُّ النِّعمةِ[(٢)].

٧- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾

- ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتْبيِّ كما هو شأنُها في عَطفِ الجُمَلِ؛ فليستْ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للدَّلالةِ على تَمادي زَمانِ مِساسِ الضُّرِّ ووُقوعِ الكَشفِ بعدَ بُرهَةٍ مَديدةٍ، بل للدَّلالةِ على تَراخي رُتبةِ ما يتَرتَّبُ عليه مِن مُفاجَأةِ الإشراكِ المدلولِ عليها بقولِه سُبحانَه: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾؛ فإنَّ ترَتُّبَها على ذلك في أبعَدِ غايةٍ مِن الضَّلالِ. وجيءَ بحرفِ (ثُمَّ)؛ لأنَّ مَضمونَ الجملةِ المعطوفةِ أبعَدُ في النَّظرِ مِن مَضمونِ المعطوفِ عليها؛ فإنَّ الإعراضَ عن المنعِمِ بكَشْفِ الضُّرِّ وإشراكَ غيرِه به في العِبادةِ أعجَبُ حالًا، وأبعَدُ حُصولًا مِن اللَّجَأِ إليه عندَ الشِّدَّةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٨).

- قولُه: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ فيه التَّعرُّضُ لوَصفِ الرُّبوبيَّةِ؛ للإيذانِ بكَمالِ قُبحِ ما ارتكَبوه مِن الإشراكِ والكُفرِ[(١)].

- قولُه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يجوزُ أن يَكونَ الخِطابُ في قولِه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ عامًّا، ويُريدَ بالفَريقِ: فريقَ الكفَرةِ وأن يَكونَ الخِطابُ للمُشرِكين و﴿مِّنكُم﴾ للبَيانِ لا للتَّبعيضِ، كأنَّه قال: فإذا فريقٌ كافِرٌ، وهم أنتُم. ويجوزُ أن يكونَ فيهم مَن اعتبَر، كقولِه: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان: ٣٢]؛ فمِن تبعيضيَّةٌ أيضًا[(٢)].

٨- قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ لامُ التَّعليلِ في ﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾ -على أحدِ القولينِ- مُتعلِّقةٌ بفِعلِ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ الَّذي هو مِن جوابِ قولِه: ﴿إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾، والكُفرُ هنا كفرُ النِّعمةِ؛ ولِذلك عَلَّق به قولَه: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾، أي: مِن النِّعَمِ، وكُفرُ النِّعمةِ ليس هو الباعِثَ على الإشراكِ؛ فإنَّ إشراكَهم سابِقٌ على ذلك، وقد استَصْحَبوه عَقِبَ كشْفِ الضُّرِّ عنهم، ولكن شُبِّهَت مُقارَنةُ عَوْدِهم إلى الشِّركِ بعدَ كشْفِ الضُّرِّ عنهم بمُقارَنةِ العِلَّةِ الباعِثةِ على عمَلٍ لذلك العمَلِ، ووجهُ الشَّبَهِ: مُبادَرتُهم لكُفرِ النِّعمةِ دونَ تَريُّثٍ[(٣)].

- قولُه: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أمرُ تهديدٍ، والالتفاتُ إلى الخطابِ؛ للإيذانِ بتَناهي السُّخطِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٨- ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٦)، ((تفسير أبي السعود))

- قولُه: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ فيه وعيدٌ أكيدٌ، مُنْبِئٌ عن أخْذٍ شديدٍ، حيث لم يَذكُرِ المفعولَ؛ إشعارًا بأنَّه ممَّا لا يُوصَفُ[1].

(٥/ ١٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٠).

الآيات (٥٦-٦٠)

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ كَظِيمٌ ﴾: أي: مُمسِكٌ على حُزنِه، لا يُظهِرُه، ولا يَشكوه، وأصلُ (كظم): يدلُّ على إمساكِ الشَّيءِ، وجَمعِه[١].

﴿ يَتَوَٰرَىٰ ﴾: أي: يختفي ويتغَيَّبُ، وأصلُه مِن الوَراءِ، وهو جِهةُ الخَلفِ[٢].

﴿ هُونٍ ﴾: أي: هَوانٍ، وأصلُ (هون): يدلُّ على ذُلٍّ[٣].

﴿ يَدُسُّهُۥ ﴾: أي: يُخفِيه ويَئِدُه، وأصلُ (دسس): يدُلُّ على دُخولِ الشَّيءِ تحت خَفاءٍ وسِرٍّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٥).
قال البقاعي: (﴿ يَتَوَٰرَىٰ ﴾ أي: يَسْتخفي بما يجعلُه في موضعٍ كأنَّه الوراءُ، لا اطلاعَ لأحدٍ عليه). ((نظم الدرر)) (١١/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٢)،

﴿ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾: أي: الصفةُ العُلْيا، التي هي أعلَى مِن كلِّ صفةٍ، مِن تنزُّهِه عن الولدِ، وسائرِ ما لا يليقُ بجلالِه، وأصلُ (مثل): يَدُلُّ على مناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[1].

المَعنى الإجْماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ المشركينَ يجعَلُون للأصنامِ التي اتَّخَذوها آلِهةً -وهي لا تعلَمُ شيئًا ولا تنفَعُ ولا تضُرُّ- حظًّا من أموالِهم التي رزَقَهم اللهُ إيَّاها -كالحَرْثِ والأنعامِ-؛ تقَرُّبًا إليها! ثم يتوعَّدُهم الله مقسمًا بذاتِه قائلًا: واللهِ لتُسألُنَّ -أيُّها المُشرِكون- يومَ القيامةِ عمَّا كنتُم تختَلِقونَه مِن الكَذِبِ عليه سُبحانَه. ويجعَلُونَ لله سُبحانَه البَناتِ، فيقولونَ: الملائِكةُ بناتُ الله -تنزَّه اللهُ عن قَولِهم- ولأنفُسِهم ما يحبُّونَ مِن البَنينَ! وإذا أُخبِرَ أحدُهم بولادةِ بِنتٍ له، اسودَّ وَجْهُه؛ كراهِيةً لِما سَمِعَ، وامتلأ غمًّا وحُزنًا، يَستَخفي مِن قَومِه كراهةَ أنْ يَلقاهم مُتلَبِّسًا بما ساءَه مِن الحُزنِ والعارِ؛ بسبَبِ البِنتِ التي وُلِدَت له، يتحَيَّرُ في أمرِ هذه المولودةِ: أيُبقِيها حَيَّةً على ذُلٍّ وهَوانٍ، أم يَدفِنُها حَيَّةً في التُّرابِ؟ ألا بِئسَ الحُكمُ الذي حَكَموه مِن جَعْلِ البناتِ -اللَّاتي لا يَرضَونَهنَّ لأنفُسِهم- لله، والذُّكورِ لهم!

للَّذينَ لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ المثَلُ القَبيحُ مِن العَجزِ والحاجة، والعَيبُ والنَّقصُ؛ ولِلَّه الصِّفاتُ العُليا مِن الكَمالِ، والاستغناءِ عن خَلقِه، والتنزُّهِ عن الولدِ، وهو العزيزُ في مُلكِه، الحَكيمُ في تَدبيرِه.

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ٥٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ بالدَّلائِلِ القاهِرةِ فَسادَ أقوالِ أهلِ الشِّركِ والتَّشبيهِ؛ شرح في هذه الآيةِ تفاصيلَ أقوالِهم، وبيَّن فَسادَها وسَخافتَها[1]، فقال تعالى:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

أي: ويجعَلُ المُشرِكونَ للأصنامِ -التي لا يَعلَمونَ لها حَقًّا، ولا ضَرًّا ولا نَفعًا، ولا حُجَّةَ لهم في عِبادتِها- حظًّا مِمَّا رزَقْناهم من الأموالِ، كالحَرْثِ والأنعامِ؛ يتقرَّبونَ بها إليها[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٧).

قال ابنُ الجوزي: (في الذينَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ قولان: أحدهما: أنَّهم الجاعِلونَ، وهم المُشرِكونَ، والمعنى: لِمَا لا يَعلَمونَ لها ضَرًّا ولا نَفعًا، فمفعولُ العلمِ مَحذوفٌ، وتقديرُه: ما قُلْنا، هذا قولُ مجاهدٍ وقتادةَ. والثاني: أنَّها الأصنامُ التي لا تعلَمُ شَيئًا، وليس لها حِسٌّ ولا معرفةٌ، وإنَّما قال: ﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّهم لَمَّا نَحَلوها الفَهمَ، أجراها مجرى مَن يَعقِلُ على زَعْمِهم، قاله جماعةٌ مِن أهل المعاني). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٥).

وممن اختار القولَ الأولَ: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والقرطبي، وأبو حيان، وابنُ عاشورٍ. ونسَبه الواحديُّ إلى عامةِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨١).

وممن اختار القول الثاني: الواحدي، والسعدي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٨٩-٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

أي: واللهِ- أيُّها المُشرِكونَ- ليَسألنَّكم اللهُ يومَ القيامةِ عَمَّا كُنتُم تَختَلِقونَه في الدُّنيا مِن الكَذِب عليه، بادِّعائِكم أنَّه أمَرَكم بعبادةِ غَيرِه، وسيُعاقِبُكم على ذلك[1].

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ويَنسُبُ المُشرِكونَ لله البناتِ- إذ زَعَموا أنَّ الملائِكةَ بَناتُه تعالى- تنزَّه الله عن أن يكونَ له ذلك، ولهم ما يُحِبُّونَ، وهم الذُّكورُ[2]!

كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٧، ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٢).

بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف: ١٦ - ١٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾.

أي: وإذا أُخبِرَ أحدُ المُشرِكينَ -الذين يَجعَلونَ لله البَناتِ- بِولادةِ بنتٍ له، يظَلُّ وَجهُه متغَيِّرًا؛ من كآبتِه وكراهِيَتِه الشَّديدةِ لذلك، قد امتلأ غمًّا وغَضَبًا وغَيظًا[1]!

﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾.

أي: يَختَفي عن أنظارِ قَومِه؛ مِن كَراهِيَتِه للبِنتِ، ومِمَّا يَلحَقُه مِن الحُزنِ والعارِ والحَياءِ[2]!

﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٧).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: كان الرَّجُلُ في الجاهليَّةِ إذا ضرَبَ امرأتَه المخاضُ توارى إلى أن يَعلَمَ ما يُولَدُ له، فإن كان ذكَرًا سُرَّ به وابتهَجَ، وإن كانت أنثى اكتأبَ لها وحَزِنَ، ولم يَظهَرْ للنَّاسِ أيَّامًا؛ يُدَبِّرُ كيف يَصنَعُ في أمرِها). ((البسيط)) (١٣/ ٩٣).

أي: يتحَيَّرُ ويترَدَّدُ بين أمرينِ: هل يُمسِكُها على هَوانٍ وذِلَّةٍ[١]، أم يُخفِيها في التُّرابِ بدَفنِها حَيَّةً[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩].

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

أي: ألا بِئسَ الحُكمُ ما يَحكُمُ به هؤلاء المُشرِكونَ، في نِسبتِهم البناتِ -اللاتي لا يَرضَونَهنَّ لأنفُسِهم ويَكرَهونَهنَّ- إلى اللهِ، ونِسبتِهم البَنينَ الذين يُحِبُّونَهم إلى أنفُسِهم[٣]!

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

---

(١) قال الرازي: (وفي أنَّ هذا الهُونَ صِفةُ مَن؟ قولان: الأول: أنَّه صِفةُ المولودةِ، ومعناه: أنَّه يُمسِكُها عن هُونٍ منه لها. والثاني: قال عطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ: إنَّه صِفةٌ للأبِ، ومعناه: أنَّه يُمسِكُها مع الرِّضا بهوانِ نَفسِه، وعلى رَغمِ أنْفِه). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٢٥). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٤٦).

وممَّن اختار أنَّ الهوانَ هنا صِفةٌ للمولودةِ، أي: يُهينُها والِدُها ويُذِلُّها، كألَّا يُورِّثَها، ولا يَعتنيَ بها، ويُفَضِّلَ أولادَه الذُّكورَ عليها: الواحدي، وابنُ كثير، والقاسمي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٨٠).

وممَّن اختار أنَّه صِفةٌ لوالِدِها، أي: يَستَبقيها على هَوانٍ يتحمَّلُه، وهَمٍّ يتجَلَّدُ له: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٧)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٨)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٨).

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ تكَلَّموا بالباطِلِ في جانِبِه تعالى وجانِبِهم؛ بيَّنَ ما هو الحَقُّ في هذا المَقامِ، فقال تعالى -على تقديرِ الجوابِ لمن كأنَّه قال: فما يُقالُ في ذلك[١]-:

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾.

أي: لهؤلاءِ المُشرِكينَ -الذين لا يُصَدِّقونَ بالبَعثِ والثَّوابِ والعِقابِ- المَثَلُ القَبيحُ، والعَيبُ والنَّقصُ[٢].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

أي: ولله الوَصفُ الأفضَلُ والأطيَبُ والأحسَنُ، مِن تَوحيدِه، وتَنَزُّهِه عن الولَدِ، وأنَّ له جميعَ صِفاتِ الكَمالِ المُطلَقِ مِن جَميعِ الوُجوهِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ ذو العِزَّةِ، القاهِرُ لكُلِّ شَيءٍ[٤]، الحَكيمُ الذي يضَعُ الأشياءَ في مَواضِعِها اللَّائقةِ بها، بلا خَللٍ ولا خَطأٍ في تدبيرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٨)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١٠٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٨٣)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١٠٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

(٤) قال ابنُ جريرٍ: (والله ذو العزةِ التي لا يمتنعُ عليه معها عقوبةُ هؤلاء المشركينَ -الذين وصَف صفتَهم في هذه الآياتِ- ولا عقوبةُ مَن أراد عقوبتَه على معصيتِه إيَّاه، ولا يتعذَّر عليه شيءٌ أراده وشاءه؛ لأنَّ الخلقَ خلقُه، والأمرَ أمرُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ عِظَةٌ لِمَن يتسخَّطُ قِسْمةَ اللهِ له في الإناثِ، ولا يُسَلِّمُ لِحُكمِه عليه، ولا تَطيبُ نَفْسُه به[١]، فالتَّسَخُّطُ بالإناثِ مِن أخلاقِ الجاهِليَّةِ الذين ذَمَّهم اللهُ تعالى[٢].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهو كُلُّ صِفةِ كَمالٍ، وكُلُّ كَمالٍ في الوُجودِ فاللهُ أحَقُّ به مِن غَيرِ أن يَستلزِمَ ذلك نقصًا بوَجهٍ، وله المَثَلُ الأعلى في قُلوبِ أوليائِه، وهو: التَّعظيمُ والإجلالُ، والمَحبَّةُ والإنابةُ والمَعرِفةُ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ حُجَّةٌ على الجَهميَّةِ والمُعتَزِلةِ في اعتبارِهم الجَعلَ بمعنى الخَلقِ في كلِّ مَوضِعٍ، واستدلالِهم بذلك على خلقِ القرآنِ، فيُقالُ لهم: أخَلَقوا البَناتِ، ولهم البَنونَ في هذه الآيةِ؟ فإن قالوا: نعم، كفَروا برَبِّهم؛ حيث جعَلُوا معه خالِقًا سِواه، وإن قالوا: ليس الجَعلُ بمعنى الخَلقِ، رَجَعوا عن قَولِهم في الجَعلِ، وبطَلَت في الاحتجاجِ به على خَلقِ القُرآنِ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ إلى قَولِه: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ بيانُ أنَّ الربَّ الخالقَ أَولى

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٤٢).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٧٤).

بأنْ يُنَزَّهَ عن الأمورِ النَّاقِصةِ مِن النَّاسِ، فكيف يَجعَلونَ له ما يَكرَهونَ أن يكونَ لهم، ويَستَخْفونَ مِن إضافتِه إليهم، مع أنَّه واقِعٌ لا مَحالةَ، ولا يُنَزِّهونَه عن ذلك، ويَنفُونَه عنه، وهو أحَقُّ بنَفيِ المكروهاتِ المُنَقِّصاتِ منهم[١]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ إلى قَولِه: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُستعمَلُ في حقِّه قِياسُ الأَولى، كما جاء بذلك القُرآنُ، وهو الطَّريقُ التي يَسلُكُها السَّلَفُ والأئِمَّةُ كأحمدَ وغيرِه مِن الأئمَّة، فكلُّ كمالٍ ثبتَ للمَخلوقِ، فالخالقُ أَولى به -إذا كان مُجَرَّدًا عن النَّقصِ- وكلُّ نقصٍ يُنَزَّهُ عنه المَخلوقُ، فالخالقُ أَولى أنْ يُنَزَّهَ عنه[٢]، فاللهُ تعالى له المثَلُ الأعلى، فلا يُضرَبُ له المثَلُ المُساوِي؛ إذا لا كُفْوَ ولا نِدَّ له، فضلًا عن أن يُضرَبَ له المثَلُ النَّاقِصُ، ولا يُكتَفى في حَقِّه بالمَثَلِ العالي، بل له المثَلُ الأعلى؛ إذ هو الأعلى سُبحانَه[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ لعَلَّه اختيرَ لَفظُ (ظَلَّ) الذي معناه العَمَلُ نَهارًا -وإن كان المرادُ العُمومَ في النَّهارِ وغَيرِه- دَلالةً على شُهرةِ هذا الوَصفِ شُهرةَ ما يُشاهَدُ نَهارًا[٤].

٥- لَمَّا كان المُشرِكونَ يُغَيِّبونَ المَوءُودةَ في الأرضِ على غيرِ هيْئةِ الدَّفنِ، عبَّرَ عنه تعالى بالدَّسِّ، فقال: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٨٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٨٥).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ فيه سؤالٌ: كيف أضاف المَثَلَ هنا إلى نَفسِه تعالى، وقد قال: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]؟

الجواب: أنَّ المَثَلَ الذي يَذكُرُه اللهُ حَقٌّ وصِدقٌ، والذي يَذكُرُه غَيرُه فهو الباطِلُ[١]. وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾، أي: الأمثالَ التي تُوجِبُ الأشباهَ والنَّقائِصَ، أي: لا تَضرِبوا لله مَثَلًا يَقتَضي نَقصًا، وتَشَبُّهًا بالخَلقِ. والمثَلُ الأعلى: أي: الصفةُ العُليا، ووَصفُه بما لا شَبيهَ له ولا نَظيرَ، جَلَّ وتعالى عمَّا يقولُ الظَّالِمونَ والجاحِدونَ عُلُوًّا كَبيرًا[٢].

٧- صِفاتُ اللهِ تعالى كُلُّها صِفاتُ كَمالٍ لا نَقْصَ فيها بوَجهٍ مِن الوُجوهِ، كالحياةِ، والعِلمِ، والقُدرةِ، والسَّمعِ، والبَصَرِ، والرَّحمةِ، والعِزَّةِ، والحِكمةِ، والعُلوِّ، والعَظَمةِ، وغيرِ ذلك. وممَّا دَلَّ على ذلك قَولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ والمثَلُ الأعلى: هو الوَصفُ الأعلى[٣].

٨- اللهُ تعالى أثبَتَ لنَفسِه الصِّفاتِ إجمالًا وتَفصيلًا مع نَفيِ المُماثَلةِ، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وهذا يدُلُّ على أنَّ إثباتَ الصِّفاتِ لا يَستلزِمُ التَّمثيلَ، ولو كان يَستلزِمُ التَّمثيلَ لكان كلامُ اللهِ مُتناقِضًا[٤].

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ فيه أنَّ كُلَّ صفةِ عَيبٍ -كالعَمى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ١٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٢٨).

والصَّمَمِ، والخَرَسِ، والنَّومِ، والموتِ، ونحوِ ذلك- مَنفيَّةٌ عن اللهِ تعالى؛ فإنَّ ثُبوتَ المَثَلِ الأعلى له -وهو الوَصفُ الأعلى- يَستَلزِمُ انتفاءَ كلِّ صفةِ عَيبٍ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ دَلالةٌ على القاعدةِ: «لا يُوجَدُ في صِفاتِ اللهِ نفيٌ مُجَرَّدٌ»، والنَّفيُ المُجَرَّدُ ليس مَثلًا أعلى، المَثَلُ الأعلى، أي: الوصفُ الأعلى والأكمَلُ، والنفيُ المُجَرَّدُ عَدَمٌ، والعَدَمُ ليس بشَيءٍ، فضلًا عن أن يكونَ وصْفًا أعلى[٢]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾ وَصَفَ النَّصيبَ بأنَّه ممَّا رزَقْناهم؛ لِتَشنيعِ ظُلمِهم؛ إذْ ترَكوا المنعِمَ فلَم يتَقرَّبوا إليه بما يُرْضيه في أموالِهم ممَّا أمَرَهم بالإنفاقِ فيه، كإعطاءِ المحتاجِ، وأنفَقوا ذلك في التَّقرُّبِ إلى أشياءَ موهومةٍ لم تَرزُقْهم شيئًا. ثمَّ وُجِّه الخِطابُ إليهم على طريقةِ الالْتِفاتِ؛ لِقَصدِ التَّهديدِ، ولا مانِعَ مِن الالْتفاتِ هنا؛ لِعَدمِ وُجودِ فاءِ التَّفريعِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾[٣].

- قولُه: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾ في تَصْديرِ الجملةِ بالقَسَمِ، وصَرْفِ الكلامِ مِن الغَيبةِ إلى الخطابِ المنبِئِ عن كمالِ الغضَبِ- مِن شِدَّةِ الوعيدِ ما لا يَخْفَى[٤]. وتصديرُ جملةِ التَّهديدِ والوَعيدِ بالقَسَمِ أيضًا؛

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢١).

لتَحْقيقِه؛ إذِ السُّؤالُ الموعودُ به يَكونُ يومَ البَعْثِ، وهُم يُنكِرونه؛ فناسَب أن يُؤكَّدَ[١]. والقسَمُ بالتَّاءِ يَختصُّ بما يَكونُ المقسَمُ عليه أمرًا عَجيبًا ومُستغرَبًا؛ فالإتيانُ في القسَمِ هنا بحرفِ التَّاءِ مُؤْذِنٌ بأنَّهم يُسأَلون سُؤالًا عجيبًا بمِقْدارِ غَرابةِ الجُرْمِ المسؤولِ عنه[٢].

- وقال هنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، وفي سورةِ الأنعامِ قال: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]؛ فاقتَصَر هنا على ذِكْرِ ما جعَلوه لِشُركائِهم دونَ ما جعَلوه للهِ؛ وذلك لِمُناسَبةٍ حسَنةٍ؛ لأنَّ المقامَ هنا لِتَفصيلِ كُفْرانِهِمُ النِّعمةَ، بخِلافِ ما في سورةِ الأنعامِ؛ فهو مَقامُ تَعْدادِ أحوالِ جاهليَّتِهم، وإن كان كلُّ ذلك مُنكَرًا عليهم، إلَّا أنَّ بعضَ الكُفرِ أشَدُّ مِن بعضٍ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ اعتراضُ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ لِغَرَضِ التَّنزيهِ والتَّعظيمِ، وفيه الشَّناعةُ على مَن جعَل البَناتِ للهِ[٤]. وقَدَّم قولَه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ على قولِه: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ لِيَكونَ نَصًّا في أنَّ التَّنزيهَ عن هذا الجَعْلِ لِذاتِه، وهو نِسبةُ البُنوَّةِ للهِ، لا عَن جَعلِهم له خُصوصَ البَناتِ دونَ الذُّكورِ الَّذي هو أشَدُّ فَظاعةً، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَلَهُم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي(٣/ ٥٧).

مَا يَشْتَهُونَ ﴾؛ لأنَّ ذلك زيادةٌ في التَّفْظيعِ، فقولُه: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ جُملةٌ في موضعِ الحالِ، وتقديمُ الخبَرِ في الجملةِ؛ للاهتِمامِ بهِم في ذلك؛ على طَريقةِ التَّهكُّمِ[١]. وهذا على أحدِ الأوجهِ الإعرابيةِ.

- واقتَصَر هنا على لفظِ ﴿ٱلْبَنَٰتِ ﴾ الدَّالِّ على الذَّوَاتِ، واقتَصَر على أنَّهم يَشتَهون الأبناءَ، ولم يتَعرَّضْ إلى كَراهتِهِمُ البَناتِ، وإن كان ذلك مأخوذًا بالمفهومِ؛ لأنَّ ذلك درَجةٌ أخرى مِن كُفرِهم ستُخَصُّ بالذِّكرِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ الواوُ في قولِه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ يجوزُ أن تكونَ واوَ الحالِ، ويَجوزُ أن تكونَ الجملةُ مُعترِضةً والواوُ اعتِراضيَّةً؛ اقْتَضى الإطالةَ بها أنَّها مِن تَفاريعِ شِرْكِهم؛ فهي لذلك جَديرةٌ بأن تكونَ مقصودةً بالذِّكْرِ كأخَواتِها، وهذا أَوْلى مِن أن تُجعَلَ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ الَّتي هي في مَوضعِ الحالِ؛ لأنَّ ذلك يُفِيتُ قَصْدَها بالعَدِّ، وهذا القَصدُ مِن مُقتضَياتِ المقامِ وإن كان مآلُ الاعتِبارَينِ واحِدًا في حاصلِ المعنى[٣].

- قولُه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ ﴾ المشهورُ أنَّ البِشارةَ أوَّلُ خَبرٍ يَسُرُّ، وهنا قد يُرادُ به مُطلَقُ الإخبارِ، أو تَغيُّرُ البَشرةِ، وهو القَدْرُ المشترَكُ بينَ الخبَرِ السَّارِّ أو المحزنِ، وفي هذا تقبيحٌ لِنِسبَتِهم إلى اللهِ- المنزَّهِ عن الولَدِ- البَناتِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٢- ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٣- ١٨٤).

وأحدُهم أكرهُ الناسِ فيهنَّ، وأنفرُهم طبعًا عنهنَّ[١]. وقيل: لعَلَّه عبَّرَ عنه بهذا اللَّفظِ؛ تنبيهًا على تَعكيسِهم للأُمورِ، في جَعلِهم وسُرورِهم وحُزنِهم وغيرِ ذلك مِن أمْرِهم[٢].

- قوله: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿ظَلَّ﴾ بمعنى صارَ، ويجوز أن يكونَ واردًا ومستعملًا في الآيةِ بمعناه الأصليِّ، وهو اتِّصافُ الشَّيءِ بصِفةٍ نهارًا فقط؛ لأنَّ أكثرَ الوضعِ يتَّفقُ باللَّيلِ، فيَظلُّ نَهارَه مُغتمًّا عابسَ الوجهِ مِن الكآبةِ والحياءِ مِن الناسِ؛ فيُرادَ به الظلولُ نَهارًا؛ لقصدِ المبالغةِ في وصْفِهم[٣].

- قولُه: ﴿مُسْوَدًّا﴾ اسْوِدادُ الوجهِ كِنايةٌ عن الاغْتِمامِ والتَّخْجيلِ[٤].

- وقوله: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ ﴿كَظِيمٌ﴾ للمُبالَغةِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ بمعنى مَفعول (مَكظُوم)[٥].

٤- قوله: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

- كانوا يَئِدونَ بَناتِهم، وذلك مِن أفظَعِ أعمالِ الجاهليَّةِ[٦]، وكانوا يَحسَبونَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٥٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٨).

(٦) يُنظر في تفصيلِ الكلامِ عن هذه العادةِ الجاهليةِ: ((المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام)) لجواد علي (٩/ ٨٨).

حَقًّا للأبِ، فلا يُنكِرُها الجَماعةُ على الفاعِلِ؛ ولذلك سَمَّاه اللهُ (حُكمًا) بقَولِه تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾، وأعلَنَ ذَمَّه بحَرفِ ﴿أَلَا﴾؛ لأنَّه جَورٌ عَظيمٌ قد تمالَؤوا عليه، وخَوَّلوه للنَّاسِ ظُلمًا للمَخلوقاتِ، فأُسنِدَ الحُكمُ إلى ضَميرِ الجَماعةِ مع أنَّ الكَلامَ كان جاريًا على فِعلِ واحدٍ غَيرِ مُعَيَّنٍ؛ قضاءً لحقِّ هذه النُّكتةِ[١].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ للابتِداءِ المفيدِ مَعْنى التَّعليلِ، أي: يتَوارى مِن أجْلِ تلك البِشارةِ[٢].

- والتَّعبيرُ عن الإعلامِ بازْدِيادِ الأُنْثى بفِعْلِ ﴿بُشِّرَ﴾ في مَوضِعَين؛ لأنَّه كذلك في نفْسِ الأمرِ؛ إذِ ازْدِيادُ المولودِ نِعمةٌ على الوالِدِ؛ لِمَا يترقَّبُه مِن التَّأنُّسِ به ومِزاحِه والانتفاعِ بخِدْمتِه، وإعانتِه عندَ الاحتياجِ إليه، ولِمَا فيه مِن تكثيرِ نَسْلِ القَبيلةِ الموجِبِ عِزَّتَها، وآصِرَةِ الصِّهرِ، ثمَّ إنَّ هذا مع كونِه بِشارةً في نَفْسِ الأمرِ فالتَّعبيرُ به يُفيدُ تَعريضًا بالتَّهكُّمِ بهم؛ إذْ يَعُدُّون البِشارةَ مُصيبةً، وذلك مِن تَحريفِهِمُ الحقائقَ، والتَّعريضُ مِن أقسامِ الكِنايةِ، والكِنايةُ تُجامِعُ الحقيقةَ[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِ﴾ فيه إضافةُ المَثَلِ إلى السُّوءِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٨٣- ١٨٤).

للبَيانِ[١].

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠] فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال في سورةِ (الرُّومِ): ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]؛ فزِيدَ في آيةِ (الرُّومِ) قولُه: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ووجهُ ذلك أنَّ ذلك إنَّما جَرى بحسَبِ مُقتَضى المقصودِ في كلٍّ مِن الآيتَينِ؛ أمَّا آيةُ (النَّحلِ) فقد تَقدَّمها قولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ [النحل: ٦٠]، فقُوبِلَ بحسَبِ التَّفصيلِ، ومُقتَضى التَّقابُلِ بقَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ فتَطابَقَ الكلامُ وتَناسَب؛ مُوازَنةَ لفظٍ، وجَليلَ تَقابُلٍ، ولم يقَعْ قَبْلَها ذِكْرُ السَّمواتِ والأرضِ، فلم يَكُنْ لِيُناسِبَ ذلك ذِكرُهما بعدَه. وأمَّا آيةُ (الرُّومِ) فتَقدَّمَها قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، ثمَّ قال بَعدُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، ووُضوحُ التَّناسُبِ في هذا غيرُ مُحتاجٍ إلى زيادةِ بَيانٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٠٠).

الآيات (٦١-٦٤)

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّفْرَطُونَ﴾: أي: مُخَلَّفونَ، مَتروكونَ في النَّارِ، مَنسيُّونَ فيها. وقيل: مُعَجَّلونَ إلى النَّارِ مُقَدَّمونَ إليها؛ مِن الفَرَطِ: وهو السَّابِقُ إلى الوِرْدِ[1].

المَعنى الإجْماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّه لو يُؤاخِذُ النَّاسَ بكُفرِهم وافترائِهم، لأهلكَهم جميعًا وما ترَكَ على الأرضِ مَن يتحرَّكُ، ولكِنْ يُمهلُهم إلى وقتٍ مُحَدَّدٍ وَقَّتَه لهم، فإذا جاء الوَقتُ المُقَدَّرُ لهَلاكِ الظَّالِمينَ، لا يُؤَخَّرونَ عن الهَلاكِ ساعةً فيُمهَلونَ، ولا يتقدَّمون عنه فيُهلَكونَ قَبلَه.

ويخبرُ الله سبحانَه عن إحدَى رذائلِ المشركينَ، وهي أنهم يَجعَلونَ لله ما يكرهونَه لأنفُسِهم مِن البَناتِ، وتقولُ ألسِنَتُهم كَذِبًا: إنَّ لهم حُسنَ الجزاءِ في الدُّنيا والآخِرةِ. ويكذِّبُهم الله تعالى على زعمِهم هذا، متوعدًا لهم بقولِه: حقًّا أنَّ لهم النَّارَ، وأنَّهم مُعجَّلون إليها مَتروكونَ مَنسيُّونَ فيها.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠).

ثمَّ قال الله تعالى لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم مسلِّيًا له ومثبِّتًا: تاللهِ -يا مُحمَّدُ- لقد أرسَلْنا رسُلًا إلى أمَمٍ مِن قَبلِك، فحسَّن لهم الشَّيطانُ ما عَمِلوه مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ، فهو وليُّهم يومَ القيامةِ، ولا قدرةَ له على نصرِهم ولا نفعِهم، ولهم عذابٌ مُوجِعٌ.

وقال له أيضًا: وما أنزَلْنا عليك القُرآنَ -يا مُحمَّدُ- إلَّا لتُوَضِّحَ للنَّاسِ ما اختَلَفوا فيه مِن الدِّينِ والأحكامِ، وأنزَلْنا القُرآنَ هِدايةً ورحمةً للمُؤمِنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن القَومِ عَظيمَ كُفرِهم وقَبيحَ قَولِهم؛ ذكَرَ كَمالَ حِلمِه وصَبرِه، وأنَّه يُمهِلُهم، ولا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ[1].

وأيضًا لمَّا وصَف جَعْلَهم للهِ البناتِ اللَّاتي يَأنَفون مِنها لأنفُسِهم، ووَصَف ذلك بأنَّه حُكمُ سَوءٍ، ووَصَف حالَهم بأنَّها مَثَلُ سَوءٍ، وعرَّفهم بأخَصِّ عَقائدِهم أنَّهم لا يُؤمِنون بالآخِرةِ؛ أتبَعَ ذلك بالوعيدِ على أقوالِهم وأفعالِهم[2]، فقال تعالى:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾.

أي: ولو يُعاجِلُ اللهُ النَّاسَ بالعُقوبةِ؛ بسَبَبِ شِرْكِهم وكُفرِهم، وافترائِهم على اللهِ، وعِصيانِهم له- لأهلَكَ بسببِ شؤمِ ذلك جميعَ النَّاسِ وغيرهم مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٦).

الدَّوابِّ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: ولكِنْ يُمهِلُ اللهُ بحِلْمِه الظَّالِمينَ، فلا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ إلى وقتٍ وَقَّتَه لهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩١).

قال الشنقيطي: (اعلمْ أنَّ قولَه تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ فيه وجهان للعلماءِ:

أحدهما: أنَّه خاصٌّ بالكفارِ؛ لأنَّ الذنبَ ذنبُهم، والله يقولُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ومَن قال هذا القولَ قال: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: كافرةٍ، ويُروى عن ابنِ عباسٍ. وقيل: المعنى: أنَّه لو أهلَك الآباءَ بكفرِهم لم تكنِ الأبناءُ.

وجمهورُ العلماءِ، منهم ابنُ مسعودٍ، وأبو الأحوصِ، وأبو هريرةَ وغيرُهم- كما نَقَله عنهم ابنُ كثيرٍ وغيرُه- على أنَّ الآيةَ عامَّةٌ؛ حتَّى إنَّ ذنوبَ بني آدمَ لَتُهْلِكُ الجُعْلَ في جُحْرِه، والحُبارى في وَكْرِها، ونحوَ ذلك؛ لولا أنَّ اللَّه حليمٌ لا يُعَجِّلُ بالعقوبةِ، ولا يؤاخِذُهم بِظُلْمِهم... وهذا القولُ هو الصَّحيحُ؛ لما تقرَّر في الأُصولِ مِنْ: أنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ إذا زيدَتْ قبلَها لفظةُ ﴿مِن﴾ تكونُ نصًّا صريحًا في العمومِ. وعليه فقولُه: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ يشملُ كلَّ ما يُطلَقُ عليه اسمُ الدَّابَّةِ نصًّا). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٩١).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالدابةِ هنا: الكافرُ على وجهِ الخصوصِ: الواحدي، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير))

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُمْلي للظَّالِمِ حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))[(١)].

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

أي: فإذا جاء الوَقتُ المُقَدَّرُ لهَلاكِ الظَّالِمينَ، لا يُؤخَّرونَ عن الهَلاكِ ساعةً فيُمهَلونَ، ولا يتقدَّمون عنه فيُهلَكونَ قَبلَه، فلْيَحْذروا ما داموا في وَقتِ الإمهالِ قبل أن يَحِينَ الوَقتُ الذي لا يُمهَلونَ فيه[(٢)].

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾.

(٤/ ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩٠).

قال الرازي: (في تفسيرِ هذا الأجَلِ قولان:

القول الأول:... أنَّه يريدُ أجَلَ القيامةِ.

والقول الثاني: أنَّ المرادَ مُنتهى العُمرِ). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٢٩).

وممن اختار القولَ الأوَّل: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

وممن اختار القولَ الثاني: الواحدي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٨٣).

(١) رواه البخاري (٤٦٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩٠).

أي: وينسبُ المُشرِكونَ لله البَناتِ اللَّاتي يَكرَهونَهنَّ لأنفُسِهم، ويَعُدُّونَ نِسبَتَهنَّ إلى أحَدِهم نقصًا وعيبًا، ويَجعَلونَ له شُرَكاءَ مِن عَبيدِه في عبادتِه، وهم يَكرهونَ أن يكونَ عبيدُهم شُرَكاءَ لهم في أموالِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٧ - ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٥- ١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٥).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ يعني: البَناتِ، في قَولِ جميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٣/ ١٠٠).

وقال ابنُ تيمية: (هو قولُ مَن قال من العربِ: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٤٤٠).

وقال ابنُ كثير: (أي: من البناتِ ومِن الشُّركاءِ الذين هم مِن عَبيدِه، وهم يأنَفونَ أن يكونَ عند أحَدِهم شريكٌ له في مالِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٩).

وممَّن قال بأنَّ المقصودَ البناتُ والشُّركاءُ: السعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩٠).

نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨].

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: ويَكذِبُ المُشرِكونَ بألسِنَتِهم، فيَزعُمونَ أنَّ لهم الجَزاءَ الحسَنَ في الدُّنيا وفي الآخِرةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩٤).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الشنقيطي: (والحقُّ الذي لا شَكَّ فيه: أنَّ المرادَ بالحُسنى: هو زَعمُهم أنَّه إن كانت الآخرةُ حَقًّا فسيكونُ لهم فيها أحسَنُ نصيبٍ، كما كان لهم في الدُّنيا. ويدُلُّ على صِحَّةِ هذا القولِ الأخيرِ دليلانِ:

أحدهما: كثرةُ الآياتِ القُرآنيَّةِ المُبيِّنةِ لهذا المعنى، كقَولِه تعالى عن الكافِرِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]... والدليل الثاني: أنَّ اللهَ أتبَعَ قَولَه: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بقَولِه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ الآية، فدلَّ ذلك دَلالةً واضِحةً على ما ذَكَرْنا. والعِلمُ عند الله). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٩٤).

وقيل: الحُسنى التي جعلوها لأنفُسِهم: الذُّكورُ مِن الأولاد. وممن اختار هذا القول: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦١).

وممن قال بهذا القول من السلفِ: مجاهدٌ، وقتادةُ، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٧).

وقيل: هي الجنَّةُ. وممن اختار هذا القول: الواحدي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٠٢).

وممن قال بهذا القول من السلفِ: أبو سليمان الدمشقي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٧).

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٧-٧٨].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾.

أي: حَقًّا لا بُدَّ مِنه أنَّ لهم النَّارَ يومَ القيامةِ[١].

﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿مُفْرِطُونَ﴾ بكَسرِ الرَّاءِ وتَخفيفِها، اسِمُ فاعلٍ مِن أفْرَطَ في الأمرِ: إذا أسرَفَ فيه وجاوزَ الحَدَّ. بمعنى: أنَّهم مُفْرِطونَ في الذُّنوبِ والمعاصي، أي: مُسرِفونَ على أنفُسِهم بالإكثارِ منها[٢].

٢- قِراءةُ ﴿مُفَرِّطُونَ﴾ بكَسرِ الرَّاءِ وتَشديدِها، اسمُ فاعلٍ مِن فَرَّط في الأمرِ: إذا ضَيَّعَه وقَصَّر فيه. بمعنى: أنَّهم مُقَصِّرونَ في أداءِ الواجِباتِ، وفَرَّطوا في الدُّنيا فلم يَعمَلوا فيها للآخرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩٥).

(٢) قرأ بها نافع. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٨٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩٥).

(٣) قرأ بها أبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي))

٣- قِراءةُ ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ بفَتحِ الرَّاء مُخفَّفةً، اسمُ مَفعولٍ من أُفْرِطَ: إذا نُسِي وتُرِكَ غيرَ مُلتَفَتٍ إليه. والمعنى: أنَّهم مَتروكونَ في النَّارِ مَنْسِيُّونَ فيها. وقيل: هو مِن أفرَطْتُ فُلانًا في طَلَبِ الماءِ: إذا قَدَّمْتَه. والمعنى: أنَّهم مُعَجَّلونَ ومقدَّمونَ إلى النَّارِ(١).

﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾.

أي: وحَقًّا أنَّهم مُعجَّلونَ ومُقَدَّمونَ إلى النَّارِ، مَنْسِيُّونَ ومَتروكونَ فيها أبدًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤].

(٢/ ٥٦٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٤٩).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٨٠، ٨١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩٥).

قال ابنُ كثيرٍ: (قال مجاهدٌ، وسعيدُ بن جُبير، وقتادةُ وغيرُهم: مَنْسِيُّونَ فيها مُضَيَّعونَ. وعن قتادة أيضًا: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ أي: مُعَجَّلونَ إلى النَّارِ، من الفَرَط: وهو السَّابِقُ إلى الوِردِ، ولا مُنافاةَ؛ لأنَّهم يُعَجَّلُ بهم يومَ القيامةِ إلى النَّارِ، ويُنسَونَ فيها، أي: يُخَلَّدونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠).

وذكر السَّعدي نحو ذلك، فجمَع بينَ كلا المعنيَينِ. قال: (﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ مُقَدَّمونَ إليها، ماكِثونَ فيها، غيرُ خارجينَ منها أبدًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ أنَّ مِثلَ هذا الصُّنعِ الذي يَصدُرُ مِن مُشرِكي قُرَيشٍ، قد صدَرَ مِن سائِرِ الأُمَمِ السَّابقينَ في حَقِّ الأنبياءِ المتقَدِّمينَ عليهم السَّلامُ[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى مآلَ الكافرينَ، وكانوا يقولونَ: إنَّ لهم مَن يَشفَعُ فيهم؛ بيَّنَ لهم ما يكونُ مِن حالِهم، بالقياسِ على أشْكالِهم؛ تهديدًا، وتَسلِيةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّم[٢].

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ ﴾.

أي: واللهِ -يا مُحمَّدُ- لقد أرسَلْنا رُسُلًا إلى أُمَمٍ ماضيةٍ مِن قَبلِك بمِثْلِ ما أرسَلْناك به؛ مِن الدُّعاءِ إلى توحيدِ اللهِ، وإخلاصِ العبادةِ له، وطاعتِه[٣].

﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾.

أي: فحسَّنَ الشَّيطانُ لهم ما كانوا يَعمَلونَه؛ مِن كُفرٍ وشِركٍ باللهِ، وتَكذيبٍ للرُّسُلِ[٤].

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

أي: فالشَّيطانُ يومَ القيامةِ هو وليُّ المشركينَ الذين كذَّبوا الرُّسلَ، وزيَّن لهم سوءَ أعمالِهم، وهو ناصرُهم، ليس لهم ناصرٌ غيرُه، ولا قدرةَ له على نصرِهم، ولا يملكُ خلاصَهم ولا نفعَهم(١).

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٦).

وممن اختار أنَّ المرادَ باليوم: يومُ القيامةِ- أي: أن الشَّيطانَ وليُّهم يومَ القيامةِ-: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحدي، والسمين الحلبي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، واختيارُ البقاعي، والعليمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ السائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٧).

قال السمين الحلبي: (يجوزُ أن تكونَ هذه الجملةُ حكايةَ حالٍ ماضيةٍ- أي: فهو ناصرُهم- أو آتيةٍ، ويراد باليومِ: يومُ القيامة، هذا إذا عاد الضميرُ على ﴿أُمَمٍ﴾ وهو الظاهرُ). ((الدر المصون)) (٧/ ٢٤٩).

وقال الشوكاني: (يحتملُ أنْ يكونَ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ عبارةً عن يومِ القيامةِ وما بعدَه، فيكونَ للحالِ الآتيةِ، ويكونَ الوليُّ بمعنَى الناصرِ، والمرادُ: نفيُ الناصرِ عنهم على أبلغِ الوجوهِ؛ لأنَّ الشيطانَ لا يُتصوَّرُ منه النصرةُ أصلًا في الدارِ الآخرةِ، وإذا كان الناصرُ منحصرًا فيه لزِم أن لا نصرةَ مِن غيرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٧).

وقيل: المرادُ باليومِ هنا: الدُّنيا. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جرير، والقرطبي، والرسعني، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٤-١٩٥).

وولايةُ الشيطانِ في الدُّنيا قيل: هي نصرُه لهم. وممن اختار ذلك: ابنُ جرير، والقرطبي، والرسعني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٠).

وقيل: هي بتزيينِه أعمالَهم، وكونِه قرينًا لهم يُغويهم، فيطيعونَه ويتبعونه. وممن اختار هذا المعنى: القاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٨٢)، ((تفسير

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: وللمُشرِكينَ عَذابٌ مُؤلِمٌ في الآخرةِ، فلا تَنفَعُهم وَلايةُ الشَّيطانِ[1].

السعدي)) (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٤-١٩٥).

قال السعدي: (لمَّا زيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم، صار وليَّهم في الدُّنيا، فأطاعوه واتَّبعوه وتولَّوْه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: الشيطانُ وليُّ كفارِ مكةَ اليومَ؛ يتولَّى إغواءَهم وصرفَهم عنك، كما فعَل بكفارِ الأممِ قبلَك، فهو متولِّي أمرِهم، كما كان وليَّ الأممِ مِن قبلِهم، إذْ زيَّن لهم أعمالَهم، فيكونُ على هذا التقديرِ رجَع عن أخبارِ الأممِ الماضيةِ إلى الإخبارِ عن كفارِ مكةَ. وممن اختار هذا القولَ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٠).

وممن قال مِن السلفِ: إنَّ المرادَ باليومِ هنا الدُّنيا: أبو سليمان الدمشقي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٧).

قال الماتُريدي: (قال بعضُهم: هو وليُّهم اليومَ في الدُّنيا؛ لأنَّ الدُّنيا هي دارُ الوَلايةِ بينهم، كقَولِه: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الجاثية: ١٩]، وقوله: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وأمَّا في الآخرة فيَصيرونَ أعداءً، كقوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥] الآية، وقَولِه: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ [ق: ٢٧]، ونحوه). ((تفسير الماتريدي)) (٦/ ٥٢٤).

قال الشوكاني: (يحتملُ أن يكونَ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ عبارةً عن زمانِ الدنيا، فيكونَ المعنَى: فهو قرينُهم في الدنيا... ويحتملُ أن يُرادَ بـ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ بعضُ زمانِ الدنيا، وهو على وجهينِ:

الأول: أنْ يُرادَ البعضُ الذي قد مضَى، وهو الذي وقَع فيه التزيينُ مِن الشيطانِ للأممِ الماضيةِ، فيكون على طريقِ الحكايةِ للحالِ الماضيةِ.

الثاني: أنْ يُرادَ البعضُ الحاضرُ، وهو وقتُ نزولِ الآيةِ، والمرادُ: تزيينُ الشيطانِ لكفَّارِ قريشٍ، فيكونُ الضميرُ في ﴿وَلِيُّهُمْ﴾ لكفارِ قريشٍ، أي: فهو وليُّ هؤلاءِ اليومَ، أو: على حذفِ مضافٍ، أي: فهو وليُّ أمثالِ أولئك الأممِ اليومَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۙ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

ذكَرَ تعالى أنَّه مع هذا الوَعيدِ الشَّديدِ المتَقَدِّم قد أقام الحُجَّةَ، وأزاح العِلَّةَ[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان حاصِلُ ما مضَى الخِلافَ والضَّلالَ والنِّقمةَ، كان كأنَّه قيل: فبَيِّنْ لهم وخَوِّفْهم ليَرجِعوا؛ فإنَّا ما أرسَلْناك إلَّا لذلك[2].

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾.

أي: وما أنزَلْنا عليك القُرآنَ -يا مُحمَّدُ- إلَّا من أجلِ أن تُبَيِّنَ للنَّاسِ بواسطةِ بياناتِ هذا القُرآنِ ما اختَلَفوا فيه من الدِّينِ، فتُرشِدَهم إلى الحَقِّ والصَّوابِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: وأنزَلْنا القُرآنَ هاديًا للقُلوبِ مِن كُلِّ ضَلالةٍ، ورَحمةً في الدُّنيا والآخِرةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٢).

قال الشوكاني: (﴿ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ مِنَ التَّوحيدِ، وأحوالِ البعثِ، وسائرِ الأحكامِ الشرعيَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٨).

لِقَومٍ يُصَدِّقونَ بما فيه، ويُقِرُّونَ بما تضَمَّنَه، ويَعمَلونَ به[١].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فيه تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ مَن تقَدَّمَه مِن الأنبياءِ قد كَفَرَ بهم قَومُهم[٢].

٢- القُرآنُ فاصِلٌ بين النَّاسِ في كُلِّ ما يَتنازَعونَ فيه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ دليلٌ على أنَّ اسمَ الدَّابَّةِ واقِعٌ على النَّاسِ؛ لِدَبيبِهم على الأرضِ[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ في هذا التَّأخيرِ حِكمةٌ بالِغةٌ:

منها: الإعذارُ إليهم، وإرخاءُ العِنانِ معهم.

ومنها: حُصولُ مَن سبَقَ في عِلمِه مِن أولادِهم.

ومنها: أن يَستَغفِرَ منهم من يَستَغفِرُ، فيُغفَرَ له، ويُصِرَّ مَن يُصِرُّ، فيزدادَ عذابًا، فإذا جاء أجَلُهم الذي سَمَّاه لهم، حَقَّت عليهم كَلِمةُ اللهِ سُبحانَه في ذلك الوَقتِ، مِن دُونِ تقَدُّمٍ عليه ولا تأخُّرٍ عنه[(٢)].

٣- جانِبُ الرَّحمةِ أغلَبُ في هذه الدَّارِ الباطِلةِ الفانِيةِ الزَّائِلةِ عن قُرْبٍ، مِن جانبِ العُقوبةِ والغَضَبِ، ولولا ذلك لَمَا عَمَرَت[(٣)]، ولا قام لها وُجودٌ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[(٤)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ إن قيل: كيف يَعُمُّ بالهَلاكِ مع أنَّ فيهم مؤمِنًا ليس بظالمٍ؟

قيل: يجعلُ هلاكَ الظالمِ انتقامًا وجزاءً، وهلاكَ المؤمنِ معوضًا بثوابِ الآخرةِ،

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٥)، كما يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٨١).

(٣) عَمَرَت: أي: سُكِنَت وأقيمَ فيها. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٨٥).

وفي ((صحيح مسلم))[١] عن عبدِ الله بنِ عمرَ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إذا أراد الله بقومٍ عذابًا أصاب العذابُ مَن كان فيهم ثمَّ بُعثوا على أعمالِهم))[٢]. وقيل: ظاهرُ الآيةِ العمومُ؛ والإنسانُ لا يخلو مِن تقصيرٍ وإساءةٍ، فهو لا يؤدِّي شكرَ نعمِ الله عليه، على وجهٍ يكافئُها.

٥- إنْ قيل: لماذا أبهَمَ سُبحانَه فاعِلَ التَّزيينِ، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وقال هنا: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، فمَن هو مُزَيِّنُ الأعمالِ للكُفَّارِ في الحَقيقةِ؟

الجوابُ: المُزَيِّنُ في الحقيقةِ هو اللهُ تعالى، وإنَّما جَعَل الشَّيطانَ آلةً بإلقاءِ الوَسْوسةِ في قُلوبِهم، وليس له قُدرةٌ أن يُضِلَّ أحدًا، أو يَهديَ أحدًا، وإنَّما له الوَسْوسةُ فقط، فمن أراد شَقاوَتَه سَلَّطَه عليه حتى يَقبَلَ وَسْوسَتَه؛ فالتَّزيينُ مِن الشَّيطانِ بالإغواءِ، والإضلالِ، والوَسْوَسةِ، وإيرادِ الشُّبَهِ، ومِنَ الله تعالى بخَلقِ جَميعِ ذلك؛ فصَحَّت الإضافتانِ[٣].

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فالقرآنُ أهَمُّ مَقاصِدِه هذه الفوائدُ الجامعةُ لأصولِ الخيرِ، وهي كَشفُ الجَهالاتِ، والهُدى إلى المَعارفِ الحقِّ، وحُصولُ أثَرِ ذَيْنِك الأمرَينِ، وهو الرَّحمةُ النَّاشئةُ عن مُجانَبةِ الضَّلالِ واتِّباعِ الهُدى[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((أنموذج جليل)) لزين الدين الرازي (ص: ١٣٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٦).

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ اعتراضٌ في أثناءِ التَّوبيخِ على كفرِهم الَّذي مِن شرائِعِه وَأْدُ البناتِ(١).

- قولُه: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾: المؤاخَذةُ: الأخذُ، والمقصودُ منه الجزاءُ، فهو أخذٌ شديدٌ؛ ولذلك صِيغَت له صيغةُ المفاعَلةِ: ﴿يُؤَاخِذُ﴾ الدَّالَّةُ على الكثرةِ، فدَلَّ على أنَّ المؤاخَذةَ المنتفِيَةَ بـ(لو) هي الأخذُ العاجِلُ المناسِبُ للمُجازاةِ؛ لأنَّ شأنَ الجزاءِ في العُرفِ أن لا يتأخَّرَ عن وقتِ حُصولِ الذَّنبِ(٢).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلنَّاسَ﴾ يُحمَلُ على تعريفِ الجنسِ؛ لِيَشمَلَ جميعَ النَّاسِ؛ لأنَّ ذلك أنسَبُ بمَقامِ الزَّجْرِ، فليس قولُه: ﴿ٱلنَّاسَ﴾ مُرادًا به خُصوصُ المشرِكين مِن أهلِ مكَّةَ الَّذين عادَتْ عليهِم الضَّمائرُ المتقدِّمةُ في قولِه: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [النحل: ٥٥] وما بعدَه مِن الضَّمائرِ، وبذلك لا يَكونُ لفظُ النَّاسِ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ(٣).

- قولُه: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، أي: على الأرضِ، وإنَّما أضمرَها مِن غيرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٩٠).

وقال الشنقيطي: (وقولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿يُؤَاخِذُ ...﴾ الآيةَ، الظاهرُ أنَّ المفاعلةَ فيه بمعنى الفعلِ المجردِ؛ فمعنى آخَذ الناسَ يؤاخذُهم: أخذَهم بذنوبِهم؛ لأنَّ المفاعلةَ تقتضي الطرفين، ومجيئُها بمعنى المجردِ مسموعٌ نحو: سافَر وعافَى). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٨).

ذِكرٍ؛ لِدَلالةِ النَّاسِ والدَّابَّةِ عليها[١].

- قولُه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بصيغةِ الاستِفْعالِ: ﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾؛ للإشعارِ بعَجْزِهم عنه، مع طلَبِهم له[٢].

- وتَعرَّض لذِكْرِ ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ مع أنَّه لا يُتَصوَّرُ الاستِقْدامُ عندَ مَجيءِ الأجَلِ؛ مُبالَغةً في بَيانِ عدَمِ الاستِئْخارِ بنَظْمِه في سِلْكِ ما يَمتنِعُ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]؛ فإنَّ مَن مات كافِرًا مع أنَّه لا توبةَ له رأسًا قد ذُكِر معَ مَن لم تُقبَلْ توبتُه؛ للإيذانِ بأنَّهما سِيَّانِ في ذلك[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾، وقال في سورةِ (فاطِرٍ): ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [فاطر: ٤٥]؛ فقال في الأُولى: ﴿بِظُلۡمِهِم﴾ و﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا﴾، وقال في الثَّانيةِ: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ و﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾؛ فقيل: إنَّ وجهَ ذلك أنَّ آيةَ (النَّحلِ) تَقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾، فلَمَّا أشار في الآيةِ إلى وَأْدِهِمُ البَناتِ -وهو ظلمٌ عظيمٌ شنيعٌ؛ إذْ لم يتَقدَّمْ للمَوْءودةِ جَريمةٌ ولا شُبهةٌ يتَعلَّقُ بها

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قاتِلُها- ناسَب هذا ذِكْرُ الظُّلمِ؛ فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾؛ فناسَب ما أُشيرَ إليه مِن عَظيمِ ظُلمِهم التَّوبيخُ بذِكْرِ الظُّلمِ. ولَمَّا لم يتقدَّمْ في آيةِ سورةِ (فاطرٍ) إفصاحٌ بذِكْرِ الظُّلمِ، بل تَقدَّمَها قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[فاطر: ٤٢- ٤٣] فأشيرَ إلى اجْتِراماتِهم وسَيِّئِ اكتِسابِهم بنُفورِهم ومَكْرِهم السَّيِّئِ؛ فناسَبَ ذلك قولُه: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾؛ فورَدَ كلٌّ على ما يُناسِبُه[1]. وقيل: لأنَّ ﴿مَا كَسَبُوا﴾ [فاطر: ٤٥] يعمُّ الظلمَ وغيرَه[2].

وقيل: آيةُ (النحلِ) جاءتْ بعدَ أوصافِ الكفارِ بأنواعِ كفرِهم في اتخاذِهم إلهينِ اثنينِ، وكفرِهم وشركِهم في عبادةِ الله سبحانَه، وجعلِهم للأصنامِ نصيبًا مِن مالِهم، ووأدِ البناتِ، وغيرِ ذلك، وكلٌّ ظلمٌ منهم، فناسَب قولُه تعالى: ﴿بِظُلْمِهِم﴾، ولم يتقدَّمْ مثلُ ذلك في (فاطرٍ)[3]. وقال هنا: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ وقال في (فاطر): ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ وهو تفنُّنٌ[4].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ تكريرٌ لما سبَق؛ تثنيةً للتَّقريعِ وتَوطِئةً لقولِه تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((كشف المعاني)) لابن جماعة (ص: ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٣).

- وخَصَّ في هذه الآيةِ ذِكْرَ الكَراهيةِ تَصريحًا؛ ولذلك كان الإتيانُ بالموصولِ والصِّلةِ: ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ هو مُقتَضى المقامِ الَّذي هو تَفظيعُ قولِهم، وتَشنيعُ استِئْثارِهم. وقد يَكونُ الموصولُ للعُمومِ؛ فيُشيرُ إلى أنَّهم جعَلوا للهِ أشياءَ يَكْرَهونها لأنفُسِهم مِثلَ الشَّريكِ في التَّصرُّفِ، وأشياءَ لا يَرْضَونها لآلهتِهم ونَسَبوها للهِ، كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1] [الأنعام: ١٣٦].

٣- قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ استئنافٌ ابتِدائيٌّ داخِلٌ في الكلامِ الاعتِراضيِّ؛ قُصِد منه تَنظيرُ حالِ المشرِكين المتحدَّثِ عنهم، وكُفْرِهم في سوءِ أعمالِهم وأحكامِهم بحالِ الأُممِ الضَّالَّةِ مِن قَبلِهم الَّذين استَهْواهم الشَّيطانُ مِن الأُممِ البائدةِ، مِثلِ عادٍ وثمودَ، والحاضرةِ كاليَهودِ والنَّصارى[2].

- قولُه: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ حكايةُ الحالِ الماضِيَةِ الَّتي كان يُزيِّنُ لهم الشَّيطانُ أعمالَهم فيها. أو فهُو وليُّهم في الدُّنيا، فجَعَل اليومَ عِبارةً عن زَمانِ الدُّنيا. أو يُجعَلُ ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ حِكايةً للحالِ الآتيَةِ، وهي حالُ كونِهم معذَّبين في النَّارِ، أي: فهُو ناصِرُهم اليومَ لا ناصِرَ لهم غيرُه؛ نفيًا للنَّاصرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٩٣).

لهم على أبلَغِ الوُجوهِ[١]. وقيل: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ مُستعمَلٌ في زمانٍ معهودٍ بعهدِ الحضورِ، أي: فهو وَلِيُّهم الآنَ، وهو كنايةٌ عن استمرارِ ولايتِه لهم إلى زمَنِ المتكلِّمِ مُطلَقًا بدونِ قصدٍ[٢].

- قولُه: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾: فيه تأكيدُ إرسالِ الرُّسلِ إلى الأُممِ السَّابقةِ بالقَسَمِ ﴿تَٱللَّهِ﴾، وبـ (قَد) الَّتي تقتَضي تحقيقَ الأمرِ؛ على سَبيلِ التَّسْليَةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِمَا كان يَنالُه بسبَبِ جَهالاتِ قومِه، ونِسْبتِهم إلى اللهِ ما لا يَجوزُ[٣].

- قولُه: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ تَزْيينُ الشَّيطانِ أعمالَهم كِنايةٌ عن المَعاصي؛ فمِن ذلك عدَمُ الإيمانِ بالرُّسلِ، وهو كَمالُ التَّنظيرِ بحالِ المشرِكين المكذِّبين بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حيث سلَكوا مَسلَكَ مَن قبلَهم مِن الأممِ الَّتي زيَّن لهم الشَّيطانُ أعمالَهم[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۙ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ هذه الآيةُ بمنزِلَةِ التَّذييلِ للعِبَرِ والحُجَجِ النَّاشئةِ عن وصفِ أحوالِ المخلوقاتِ، ونِعَمِ الخالقِ على النَّاسِ، المبتدِئَةِ مِن قولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾[٥] [النحل: ١٧].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾: فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٩٧).

الإتيانُ بصِيغةِ القَصْرِ (ما... إلَّا)؛ لِقَصدِ الإحاطةِ بالأَهمِّ مِن غايةِ القرآنِ وفائدتِه الَّتي أُنزِل لأجلِها؛ فهو قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ لِيَرغَبَ السَّامِعون في تَلَقِّيه وتَدبُّرِه مِن مؤمنٍ وكافرٍ كلٌّ بما يَليقُ بحالِه، حتَّى يَستَوُوا في الاهتِداءِ. ثمَّ إنَّ هذا القصرَ يُعرِّضُ بتَفْنيدِ أقوالِ مَن حَسِبوا مِن المشرِكين أنَّ القرآنَ أُنزِلَ لِذِكْرِ القَصصِ؛ لِتَعليلِ الأنفُسِ في الأسمارِ ونَحوِها، حتَّى قال مُضِلُّهم: أنا آتيكُم بأحسَنَ مِمَّا جاء به محمَّدٌ[1]!

- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وَصْفُ القُرآنِ بكَونِه هُدًى ورَحمةً لِقَومٍ يُؤمِنونَ، لا ينفي كَونَه كذلك في حَقِّ الكُلِّ، كما أنَّ قَولَه تعالى في أوَّلِ سُورةِ (البَقَرة): ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] لا ينفي كَونَه هُدًى لكُلِّ النَّاسِ، كما ذكَرَه في قَولِه: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وإنَّما خَصَّ المُؤمِنينَ بالذِّكرِ؛ مِن حيثُ إنَّهم قَبِلوه فانتَفَعوا به، كما في قَولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]؛ لأنَّه إنما انتفَعَ بإنذارِه هذا القَومُ فقط[2].

- وعبَّر بقولِه: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دونَ (للمُؤمِنين)، أو (للَّذين آمَنوا)؛ إشارةً إلى أنَّ إيمانَ هؤلاءِ كالسَّجيَّةِ والعادةِ الرَّاسِخةِ الَّتي تتَقوَّمُ بها قَوميَّتُهم؛ لأنَّ إجراءَ الوَصفِ على لَفْظِ (قوم) يُشيرُ إلى أنَّ ذلك الوَصفَ سجيَّةٌ فيهم، ومِن مُكمِّلاتِ قوميَّتِهم؛ فإنَّ للقَبائِلِ والأُممِ خَصائِصَ تُميِّزُها وتَشتهرُ بها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٨٩)، و(١٤/ ١٩٧).

الآيات (٦٥-٦٩)

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَعِبۡرَةٗ﴾: أي: اعتِبارًا وموعظةً، ودلالةً على قدرةِ الله، والاعْتبارُ والعِبرةُ: الحالةُ التي يتوصَّلُ بها مِن معرفةِ المشاهَدِ إلى ما ليسَ بمشاهَدٍ، وأصلُ (العَبْرِ): تجاوزٌ مِن حالٍ إلى حالٍ[(١)].

﴿فَرۡثٖ﴾: أي: ما في الكَرِشِ مِن فَضَلاتٍ، وأصلُ (فرث): يدُلُّ على شَيءٍ مُتفَتِّتٍ[(٢)].

﴿سَآئِغٗا﴾: أي: سَهلًا هَنيئًا لا يَغَصُّ به شارِبُه، وأصلُ (سوغ): يدُلُّ على سُهولةِ الشَّيءِ واستِمرارِه في الحَلقِ خاصَّةً[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٦)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٢٠٩).

﴿سَكَرًا﴾: أي خَمْرًا، وأصلُ (سكر): يدُلُّ على حَيرةٍ[١].

﴿يَعْرِشُونَ﴾: أي: يَبْنونَ ويَسقُفونَ، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ فيما يكونُ مِن إتقانِ الأغصانِ والخَشَبِ وتَرتيبِ ظِلالِها، وأصلُ (عرش): يدلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ مَبنيٍّ[٢].

﴿ذُلُلًا﴾: أي: مُسَهَّلةً مُستَقيمةً مُذَلَّلةً، وأصلُ (ذلل): يدلُّ على اللِّينِ[٣].

المَعنى الإجْماليُّ:

يذكرُ اللهُ تعالى ألوانًا مِن نعمِه على خلقِه، فهو سبحانه أنزلَ مِن السَّماءِ مَطرًا، فأخرجَ به النَّباتَ مِن الأرضِ بعد أن كانت يابِسةً. إنَّ في ذلك لَدليلًا على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه على البَعثِ لِقَومٍ يَسمَعونَ ويَتدَبَّرونَ.

ثم يُرشدُ إلى مظهرٍ آخرَ مِن مظاهرِ وحدانيتِه، وعظيمِ قدرتِه، فيقولُ تعالى: وإنَّ لكم -أيُّها النَّاسُ- في الأنعامِ لَعِظةً تَستَدِلُّونَ بها على استحقاقِ الله للعبادةِ؛ يخرِجُ لكم مِمَّا في بُطونِها مِن بينِ فَرْثٍ ودمٍ لَبنًا خالِصًا مِن كُلِّ الشَّوائبِ، لَذيذًا لا يَغَصُّ به مَن شَرِبَه، وتأخُذونَ مِن ثَمَراتِ النَّخيلِ والأعنابِ ما تَجعَلونَه خَمرًا مُسْكِرًا -وهذا قبلَ تَحريمِها- ورزقًا حسنًا كالتمرِ والعنبِ والعصيرِ، إنَّ في هذا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٣-٢٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٦)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان الأندلسي (ص: ١٢٩).

الإنعامِ لَدليلًا على قُدرةِ الله، لِقَومٍ يَعقِلونَ آياتِ اللهِ فيَعتَبِرون بها.

ثمَّ يقولُ تعالى مبينًا دليلًا آخرَ مِن دلائلِ وحدانيتِه وقدرتِه: وألْهَمَ ربُّك- يا مُحمَّدُ- النَّحلَ بأن اجعَلِي لكِ بُيوتًا مِن الجِبالِ، ومِن الشَّجَرِ، ومِمَّا يبني النَّاسُ، ثُمَّ كُلي مِن كُلِّ الثِّمارِ، فاسلُكي طُرُقَ رَبِّك مُذَلَّلةً لكِ؛ لطَلَبِ الرِّزقِ. يَخرُجُ مِن بُطونِ النَّحلِ عَسَلٌ مُختَلِفُ الألوانِ مِن بياضٍ وصُفرةٍ وحُمرةٍ وغيرِ ذلك، فيه شِفاءٌ للنَّاسِ مِن الأمراضِ. إنَّ في ذلك لَدلالةً قَويَّةً على عظمةِ اللهِ وقُدرتِه، لِقَومٍ يتفَكَّرونَ فيَعتَبِرون.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان المقصودُ الأعظَمُ مِن هذا القُرآنِ العَظيمِ تَقريرَ أصُولٍ أربعةٍ: الإلهيَّاتِ، والنُّبُوَّاتِ، والمَعادِ، وإثباتِ القَضاءِ والقَدَرِ، والمقصودُ الأعظَمُ مِن هذه الأُصولِ الأربعةِ تقريرَ الإلهيَّاتِ؛ فلِهذا السَّبَبِ كُلَّما امتَدَّ الكَلامُ في فَصلٍ مِن الفُصولِ في وعيدِ الكُفَّارِ، عاد إلى تقريرِ الإلهيَّاتِ[1]، فشرَع في أدلةِ الوحدانيةِ والقدرةِ والفعلِ بالاختيارِ المستلزمِ للقدرةِ على البعثِ على وجهٍ غيرِ المتقدِّمِ، وقال قولًا جامعًا في الدليلِ بينَ العالمِ العلويِّ والعالمِ السفليِّ[2]، مع ما أُدمِجَ فيه مِن التَّذكيرِ بالنِّعَمِ؛ فهذه مِنَّةٌ مِن المِنَنِ، وعِبرةٌ مِن العِبَرِ، وحُجَّةٌ مِن الحُجَجِ المُتفَرِّعةِ عن التَّذكيرِ بنِعَمِ الله والاعتبارِ بعَجيبِ صُنعِه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٧).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه بتَبيينِ ما اختُلِفَ فيه؛ نَصَّ على العِبَرِ المؤدِّيةِ إلى تَبيينِ أمرِ الرُّبوبيَّةِ، فبدأ بنِعمةِ المطَرِ التي هي أبيَنُ العِبَرِ، وهي مِلاكُ الحياةِ، وهي في غايةِ الظُّهورِ لا يُخالِفُ فيها عاقِلٌ[١].

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه أنزَلَ مِن السَّحابِ مَطرًا، فأخرَجَ به نَباتَ الأرضِ بعد أن كانت يابِسةً لا زَرْعَ فيها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۞ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۞ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ [ق: ٩-١١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾.

أي: إنَّ في إحياءِ اللهِ الأرضَ المَيْتةَ بالمطَرِ لدَلالةً واضِحةً على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وقُدرتِه على البَعثِ، لِقَومٍ يَسمَعونَ هذه الحُجَّةَ، فيتدَبَّرونَها ويَفهمونَها[٣].

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى إحياءَ الأرضِ بعد مَوتِها، ذكَرَ ما يَنشأُ عَمَّا ينشأُ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٨).

المطَرِ، وهو: حياةُ الأنعامِ التي هي مألوفُ العَرَبِ، بما يتناوَلُه مِن النَّباتِ النَّاشِئِ عن المطَرِ، ونَبَّه على العِبرةِ العَظيمةِ، وهو: خروجُ اللَّبَنِ مِن بينِ فَرْثٍ ودَمٍ، فقال تعالى(١):

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾.

أي: وإنَّ لكم -أيُّها النَّاسُ- في الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ لَدَلالةً تَستَدِلُّونَ بها على قُدرةِ اللهِ ورَحمتِه، وحِكمَتِه ولُطفِه وعَظَمتِه، وأنَّه وَحْدَه المُستَحِقُّ للعِبادةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ * وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٧١-٧٣].

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾.

أي: نُسْقِيكم لبنًا نُخرِجُه لكم -أيُّها النَّاسُ- مِمَّا في بُطونِ الأنعامِ مِن بينِ فَرْثِها(٣) ودَمِها صافِيًا، غيرَ مُختَلِطٍ برائِحةِ الفَرْثِ، ولا لَونِ الدَّمِ، سَهْلَ المُرورِ في الحَلقِ، لذيذًا هنيئًا لا يَغَصُّ به شارِبُه(٤).

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩٦).

(٣) قال البيضاوي: (الفَرْثُ: هو الأشياءُ المأكولةُ المُنهَضِمةُ بعضَ الانهِضامِ في الكَرِش). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤).

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى بعضَ مَنافِعِ الحَيواناتِ في الآيةِ المتَقَدِّمةِ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ بَعضَ مَنافِعِ النَّباتِ(١).

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ مَنسوخةٌ بقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(٢) [المائدة: ٩٠- ٩١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٥٤٢)، ((الناسخ والمنسوخ)) لهبة الله بن سلامة (ص: ١١٣)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٥، ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٦).

وممن قال بأنَّها منسوخةٌ، بناءً على أنَّ المرادَ بالسَّكَرِ: الخمرُ: البغوي، وابنُ العربي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٦)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ١٣٣-١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٤-٤٠٧).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وسعيد بنُ جبير، وأبو رزين، والشعبي في رواية عنه، والحسنُ، والضحَّاك، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، وعبدُ الرحمن بنُ أبي ليلى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٧٥).

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾.

أي: ولكم أيضًا -أيُّها النَّاسُ- عِبرةٌ فيما نُسقِيكم ونَرزُقُكم مِن[1] ثَمَراتِ النَّخيلِ ومِنَ الأعنابِ[2]، فتَتَّخِذونَ منه[3] شَرابًا مُسْكِرًا -وهو الخَمرُ- ورِزْقًا حَسَنًا[4] لا ينشَأُ عنه ضَرَرٌ في بَدَنٍ ولا عَقلٍ، كالتَّمرِ والرُّطَبِ، والعِنَبِ والزَّبيبِ،

وممَّن ذهب إلى أنَّها مُحكَمةٌ غيرُ مَنسوخةٍ: ابنُ جرير. وذلك بناءً على أنَّ المرادَ بالسَّكَرِ: كُلُّ ما كان حَلالًا شُربُه، كالنَّبيذِ الحَلالِ، والخَلِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٣، ٢٨٥). ويُنظر أيضًا: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٤٩٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الشعبي في روايةٍ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٣).

قال القرطبي: (فعَلى أنَّ السَّكَر: الَخلُّ أو العصيرُ الحُلوُ، لا نَسْخَ، وتكونُ الآيةُ مُحكَمةً، وهو حسَنٌ. قال ابنُ عبَّاس: الحَبَشةُ يُسَمُّونَ الخَلَّ السَّكَرَ. إلَّا أنَّ الجُمهورَ على أنَّ السَّكَرَ: الخَمرُ، منهم ابن مسعود، وابن عمر، وأبو رَزين، والحسن، ومجاهد، وابن أبي ليلى، والكلبي، وغيرهم مِمَّن تقَدَّم ذِكرُهم، كلُّهم قالوا: السَّكَرُ: ما حَرَّمَه اللهُ مِن ثَمَرتَيهما). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٨).

(١) قال ابن عاشور: (و﴿مِن﴾ في الموضعينِ ابتدائيَّةٌ، فالأولى متعَلِّقةٌ بفِعلِ «نُسقِيكم» المُقَدَّر، والثانية متعلِّقةٌ بفِعلِ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾. وليست الثانيةُ تبعيضيَّةً؛ لأنَّ السَّكَر ليس بعضَ الثَّمراتِ، فمعنى الابتداءِ يَنتَظِمُ كِلا الحرفينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠٣).

(٢) قال الواحدي: (الأعنابُ عَطفٌ على الثَّمَراتِ لا على النَّخيلِ؛ لأنَّه يصيرُ التَّقديرُ: ومِن ثَمَراتِ الأعنابِ، والأعنابُ ثِمارٌ، ولكِنَّه: ومِن الأعنابِ). ((البسيط)) (١٣/ ١١٦).

(٣) قال القرطبي: (قيل: معنى ﴿مِنۡهُ﴾ أي: مِن المذكورِ، فلا يكونُ في الكلامِ حَذفٌ، وهو أَولى). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٨).

وقال الشوكاني: (وإنَّما ذُكِّر الضميرُ في ﴿مِنۡهُ﴾؛ لأنَّه يعودُ إلى المذكور، أو إلى المضافِ المحذوفِ، وهو العصيرُ، كأنَّه قيل: ومِن عصيرِ ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ تتَّخذونَ منه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٩).

(٤) قال الواحديُّ: (﴿وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾ يريدُ الخَلَّ، والزَّبيبَ، والتَّمرَ، وكُلَّ ما يُتَّخَذُ مِن النَّخيلِ والأعنابِ، وهذا قَولُ عامَّةِ المفَسِّرينَ؛ قالوا: السَّكَرُ: هي الخَمرُ بعَينِها، والسَّكَرُ حَرامٌ، والرِّزقُ

والعَصيرِ والخَلِّ[(١)].

الحسَنُ حَلالٌ، وقالوا: نزَلَت هذه قبلَ تحريمِ الخَمرِ، ونزل تحريمُها في سورةِ المائدة). ((البسيط)) (١٣/ ١١٧-١١٨).

وقال ابنُ عطية: (نزلت هذه الآيةُ قبلَ تحريمِ الخَمرِ، وأراد بالسَّكَرِ الخَمْرَ، وبالرِّزقِ الحَسَنِ جميعَ ما يُشرَبُ ويُؤكَلُ حَلالًا مِن هاتَينِ الشَّجَرتينِ، وقال بهذا القَولِ: ابنُ جُبير، وإبراهيم، والشعبي، وأبو زيد). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٥).

وقال ابن جرير: (وقال آخرون: (السَّكَرُ): هو كلُّ ما كان حلالًا شُربُه، كالنبيذ الحلالِ، والخَلِّ، والرُّبِّ. (والرزق الحَسَن): التَّمرُ والزبيبُ... وهذا التأويل عندي هو أولى الأقوال بتأويل هذه الآية... فإذا كان ... ما يُسكرُ من الشراب حرامًا... وكان غيرَ جائزٍ لنا أن نقولَ: هو منسوخٌ؛ إذ كان المنسوخُ هو ما نفى حُكمَه النَّاسِخُ، وما لا يجوزُ اجتماعُ الحُكمِ به وناسِخِه، ولم يكُنْ في حكمِ الله تعالى ذِكرُه بتحريمِ الخَمرِ دليلٌ على أنَّ السَّكَر الذي هو غيرُ الخَمرِ، وغيرُ ما يُسكِرُ مِن الشَّراب- حرامٌ؛ إذ كان السَّكَرُ أحَدُ معانيه عند العرب ومن نزَلَ بلسانِه القرآنُ: هو كُلُّ ما طُعِمَ، ولم يكُنْ مع ذلك، إذ لم يكُنْ في نفس التنزيلِ دليلٌ على أنَّه منسوخٌ، أو ورد بأنَّه منسوخٌ خبَرٌ من الرسولِ، ولا أجمعت عليه الأمَّةُ؛ فوجب القولُ بما قُلْنا من أنَّ معنى السَّكَر في هذا الموضعِ: هو كلُّ ما حَلَّ شُربُه مِمَّا يُتَّخذُ مِن ثَمَر النَّخلِ والكَرْم، وفسد أن يكونَ معناه الخمرَ أو ما يُسكِرُ مِن الشَّرابِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٧).

قال الشوكاني: (قال ابنُ جرير: التقديرُ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ ما ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، فحُذِف، ودَلَّ على حذفِه قولُه: ﴿مِنْهُ﴾. وقيل: هو معطوفٌ على ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، والتقديرُ: وإنَّ لكم مِن ثمراتِ النَّخيلِ والأعنابِ لَعبرةً. ويجوز أن يكونَ معطوفًا على ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾، أي: نُسقيكم ممَّا في بطونِه ومِن ثمراتِ النَّخيلِ. ويجوزُ أن يتعلَّق بمحذوفٍ دَلَّ عليه ما قبله، تقديرُه: ونُسقيكم مِن ثمراتِ النَّخيلِ، ويكونُ على هذا ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ بيانًا للإسقاءِ، وكَشفًا عن حقيقتِه، ويجوزُ أن يتعلَّقَ بـ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، تقديرُه: ومن ثمراتِ النَّخيلِ والأعنابِ ثمَرٌ تتَّخِذونَ منه سَكَرًا، ويكونَ تكريرُ الظَّرفِ، وهو قَولُه: ﴿مِنْهُ﴾ للتأكيدِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٨).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي: إنَّ في إنعامِنا على النَّاسِ بلَبنِ الأنعامِ وثَمَراتِ النَّخيلِ والأعنابِ لَدَلالةً واضِحةً لِقَومٍ يَفهَمونَ حُجَجَ اللهِ ومَواعِظَه، فيتَدَبَّرونَها ويتَّعِظونَ بها، ويُقِرُّونَ بوَحدانيَّتِه وكَمالِ قُدرتِه سُبحانَه[1].

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّ إخراجَ الألبانِ مِن النَّعَمِ، وإخراجَ السَّكَرِ والرِّزقِ الحَسَنِ مِن ثَمَراتِ النَّخيلِ والأعنابِ؛ دلائِلُ قاهِرةٌ، وبيِّناتٌ باهِرةٌ على أنَّ لهذا العالَمِ إلهًا قادِرًا مُختارًا حَكيمًا- فكذلك إخراجُ العَسَلِ مِن النَّحلِ دَليلٌ قاطِعٌ وبُرهانٌ ساطِعٌ على إثباتِ هذا المَقصودِ[2].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان أمرُ النَّحلِ في الدَّلالةِ على تَمامِ القُدرةِ وكَمالِ الحِكمةِ أعجَبَ مِمَّا تقَدَّمَ وأنْفَسَ، ثلَّثَ به وأخَّرَه؛ لأنَّه أقَلُّ الثَّلاثةِ عِندَهم، وغيَّرَ الأُسلوبَ وجعَلَه مِن وَحْيِه؛ إيماءً إلى ما فيه من غَريبِ الأمرِ، وبَديعِ الشَّأنِ[3].

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: وألْهَم[4] ربُّك -يا مُحمَّدُ- النَّحلَ أن اتَّخِذي مِن الجِبالِ بُيوتًا تَأوينَ إليها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٩٦).

(٤) قال القرطبي: (لا خِلافَ بين المتأوِّلينَ أنَّ الوَحيَ هنا بمعنى الإلهامِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٣٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٦).

ومِن الأشجارِ، ومِمَّا يبني النَّاسُ[(١)].

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان أهَمَّ شَيءٍ للحَيوانِ بعدَ الرَّاحةِ مِن همِّ المَقيلِ الأكلُ، ثَنَّى به[(٢)]، فقال تعالى:

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾.

قال الشَّوكاني: (﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ الوَحي يكونُ بمعنى الإلهامِ، وهو ما يخلُقُه في القَلبِ ابتداءً مِن غَيرِ سَبَبٍ ظاهرٍ، ومنه قولُه سُبحانَه: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧-٨]، ومِن ذلك إلهامُ البهائمِ لفعلِ ما ينفعُها، وتركِ ما يضُرُّها). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٠) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٨٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٩).
قال ابنُ عطية: (و«عَرَشَ» معناه هيَّأ، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ فيما يكونُ من إتقانِ الأغصانِ والخشبِ وترتيبِ ظلالِها ...). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٣٤).
وقال الواحدي: (وقوله: ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ ... معناه: يبنون ويسقُفون، يعني: ما يبني النَّاسُ لها من خلاياها التي تعمَلُ فيها النَّحلُ). ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٣/ ٧١).
وقال الزمخشري: (و﴿يَعْرِشُونَ﴾: بكَسرِ الرَّاءِ وضَمِّها: يَرفَعونَ مِن سُقوفِ البُيوتِ. وقيل: ما يَبنونَ للنَّحلِ في الجِبالِ والشَّجَرِ والبُيوتِ، مِن الأماكِنِ التي تتعَسَّلُ فيها. والضميرُ في ﴿يَعْرِشُونَ﴾ للنَّاسِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٨).
و(من) التي تكرَّرت في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ للتبعيضِ؛ لأنَّ النحلَ إنَّما تتخذُ بيوتًا في بعضِ الجبالِ، وبعضِ الشجرِ، وبعضِ الأماكنِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٩٨).

أي: ثمَّ ألْهَمَ اللهُ النَّحلَ أنْ كُلِي مِن كُلِّ أنواعِ الثِّمارِ[١].

﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أذِنَ اللهُ تعالى لها في ذلك كُلِّه، وكان مِن المعلومِ عادةً أنَّ تَعاطِيَه لا يكونُ إلَّا بمشَقَّةٍ عظيمةٍ في مُعاناةِ السَّيرِ إليه؛ نَبَّه على خَرْقِه للعادةِ في تَيسيرِه لها، فقال تعالى[٢]:

﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾.

أي: فادخُلي -أيَّتُها النَّحلُ- طُرُقَ رَبِّكِ مُذَلَّلةً لكِ[٣]؛ لتَطلُبي الرِّزقَ حيثما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٦).

قال ابن جُزي: (﴿مِن﴾ للتَّبعيضِ، وذلك أنَّها إنما تأكُلُ النُّوَّارَ مِن الأشجارِ. وقيل: المعنى: مِن كُلِّ الثَّمَراتِ التي تَشتَهيها). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٩٨).

(٣) قال ابنُ عطيةَ: (قولُه: ﴿ذُلُلٗاۚ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ حالًا مِن النَّحلِ، أي: مُطيعةً مُنقادةً لِما يُسِّرْتِ له، قاله قتادةُ... ويحتَمِلُ أن يكونَ حالًا مِن «السُّبُل» أي: مُسَهَّلةً مُستقيمةً، قال مجاهدٌ: لا يتوعَّرُ عليها سَبيلٌ تَسلُكُه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٦).

وممَّن اختار القول الأولَ: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٣٥).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ زيدٍ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٠).

وممَّن اختار القولَ الثاني: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٢).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٠).

وقال ابن جرير: (وكلا القولينِ غيرُ بعيدٍ مِن الصوابِ في الصحةِ، وجهانِ مخرَّجان). ((تفسير

توجَّهْتِ[١].

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾.

أي: يَخرُجُ مِن بُطونِ النَّحلِ عَسَلٌ مُختَلِفُ الألوانِ؛ ما بينَ أحمَرَ وأصفَرَ وأبيضَ وغَيرِ ذلك مِن الألوانِ الحَسَنةِ، على اختلافِ مَراعيها ومَأكَلِها منها[٢].

﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

أي: في العسَلِ شِفاءٌ للنَّاسِ مِن الأمراضِ[٣].

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَجلًا أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: أخي يَشتكي بَطْنَه، فقال: اسْقِه عَسَلًا، ثمَّ أتى الثَّانيةَ فقال: اسْقِه عَسَلًا، ثمَّ أتاه الثَّالِثةَ فقال: اسْقِه عَسَلًا، ثمَّ أتاه فقال: قد فَعَلْتُ، فقال: صدَقَ

ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٢).

قال ابنُ القيِّم: (اختلف النَّاسُ في قولِه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ هل الضَّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ راجِعٌ إلى الشَّراب، أو راجِعٌ إلى القرآن؟ على قولين: الصحيحُ: رجوعُه إلى الشَّرابِ، وهو قَولُ ابنِ مسعود، وابنِ عباس، والحسَن، وقتادة، والأكثرين؛ فإنَّه هو المذكورُ، والكلامُ سِيقَ لأجلِه، ولا ذِكرَ للقرآنِ في الآيةِ، وهذا الحديثُ الصَّحيحُ، وهو قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «صدق الله» كالصَّريحِ فيه، والله تعالى أعلم). ((زاد المعاد)) (٤/ ٣٤).

اللهُ، وكَذَب بَطنُ أخيك، اسْقِه عَسَلًا، فسَقاه فبَرَأ))[١].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، قال: سَمِعْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنْ كان في شيءٍ مِن أدوِيَتِكم- أو: يكونُ في شَيءٍ مِن أدوِيَتِكم- خيرٌ، ففي شَرطةِ مِحْجَمٍ، أو شَربةِ عَسَلٍ، أو لَذعةٍ بنارٍ تُوافِقُ الدَّاءَ، وما أُحِبُّ أن أكتَوِيَ))[٢].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الشِّفاءُ في ثلاثةٍ: في شَرطَةِ مِحجَمٍ، أو شَربةِ عَسَلٍ، أو كيَّةٍ بنارٍ، وأنا أنهى أمَّتي عنِ الكيِّ))[٣].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: إنَّ في إلهامِ الله للنحلِ باتخاذِ البيوتِ مِن الجبالِ والشَّجر والعُروشِ، والسلوكِ في المراعي للاجتناءِ مِن سائرِ الثِّمار؛ ليَخرجَ مِن بطونِها هذا العسلُ ذو الألوانِ المتعددةِ، الذي جعَل الله فيه شفاءً للناسِ مِن الأمراضِ؛ إنَّ في ذلك لدلالةً وحجةً واضحةً لقومٍ يتفكَّرون في عظمةِ خالقِها ومسخِّرِها، فيَستدِلُّون بذلك على أنَّه القادرُ، الحكيمُ، العليمُ، الكريمُ، الرحيمُ، اللطيفُ الذي يستحقُّ

---

(١) رواه البخاري (٥٦٨٤) واللفظ له، ومسلم (٢٢١٧).

قال ابنُ كثير: (قال بعضُ العلماءِ بالطِّبِّ: كان هذا الرجلُ عنده فضلاتٌ، فلمَّا سقاه عسلًا- وهو حارٌّ- تحلَّلت، فأسرعت في الاندفاعِ، فزاد إسهالُه، فاعتقد الأعرابيُّ أنَّ هذا يضرُّه، وهو مصلحةٌ لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليلُ والدَّفعُ، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلاتُ الفاسدةُ المضِرَّةُ بالبدنِ استمسك بطنُه، وصلَحَ مِزاجُه، واندفعت الأسقام والآلام ببركةِ إشارته عليه مِن رَبِّه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٣).

(٢) رواه البخاري (٥٦٨٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٠٥).

(٣) رواه البخاري (٥٦٨١).

العبادةَ وَحْدَه[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في خَلقِ هذه النَّحْلةِ الصَّغيرةِ التي هداها اللهُ هذه الهِدايةَ العَجيبةَ، ويَسَّرَ لها المراعيَ، ثمَّ الرُّجوعَ إلى بُيوتِها التي أصلَحَتْها بتَعليمِ اللهِ لها، وهِدايتِه لها، ثمَّ يَخرُجُ مِن بُطونِها هذا العسَلُ اللَّذيذُ مختَلِفَ الألوانِ بحَسَبِ اختلافِ أرْضِها ومَراعيها، فيه شِفاءٌ للنَّاسِ مِن أمراضٍ عديدةٍ- في ذلك دَليلٌ على كَمالِ عِنايةِ الله تعالى، وتمامِ لُطفِه بعِبادِه، وأنَّه الذي لا ينبغي أن يُحَبَّ غَيرُه، ويُدعَى سِواه[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ تأمَّلِ العِبرةَ التي ذكَرَها اللهُ عزَّ وجَلَّ في الأنعامِ، وما سَقانا مِن بُطونِها مِنَ اللَّبَنِ الخالِصِ السَّائِغِ، الهَنيءِ المَريءِ، الخارجِ مِن بينِ الفَرثِ والدَّمِ؛ فاللهُ تعالى إنَّما خلَقَ اللَّبَنَ مِن فَضلةِ الدَّمِ، وإنَّما خَلَقَ الدَّمَ مِن الغِذاءِ الذي يَتناوَلُه الحَيوانُ، فالشَّاةُ لَمَّا تناوَلَت العُشبَ والماءَ، فاللهُ تعالى خلَقَ الدَّمَ مِن لَطيفِ تلك الأجزاءِ، ثمَّ خلَقَ اللَّبَنَ مِن بَعضِ أجزاءِ ذلك الدَّمِ، وسَلِ المُعَطِّلَ الجاحِدَ: مَنِ الذي دبَّرَ هذا التَّدبيرَ، وقَدَّرَ هذا التَّقديرَ، وأتقَنَ هذا الصُّنعَ، ولَطَفَ هذا اللُّطفَ سوى اللَّطيفِ الخَبيرِ؟! فهذه الأحوالُ إنَّما تَحدُثُ بتَدبيرِ فاعِلٍ حَكيمٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٤، ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤).

رَحيمٍ، يُدَبِّرُ أحوالَ هذا العالَمِ على وَفقِ مَصالِحِ العِبادِ، فسُبحانَ مَن تَشهَدُ جَميعُ ذَرَّاتِ العالَمِ الأعلى والأسفَلِ بكَمالِ قُدرتِه، ونِهايةِ حِكمَتِه ورَحمتِه، له الخَلقُ والأمرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ[١]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾، ثمَّ خَتَمَها بقَولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾، وهذا يدُلُّ على ظُهورِ هذا المُعتبَرِ فيه وبَيانِه؛ لأنَّه لا يَحتاجُ إلى تفكُّرٍ، ولا نظَرِ قَلبٍ، وإنَّما يَحتاجُ المُنبَّهُ إلى أن يَسمَعَ القَولَ فقط[٢]. وقيل: بل المرادُ سماعُ تدبرٍ وإنصافٍ ونظر؛ لأنَّ سماعَ القلوب هو النافعُ لا سماع الآذانِ، فمن سمِع آياتِ القرآنِ بقلبِه وتدبرها، وتفكَّر فيها انتفَع، ومَن لم يسمَعْ بقلبِه فكأنَّه أصمُّ لم يسمعْ، فلم ينتفعْ بالآياتِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ استُدِلَّ به على طَهارةِ لَبَنِ المأكولِ، وإباحةِ شُربِه[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ۞ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾، لَمَّا كان اللَّبَنُ لا يَحتاجُ إلى مُعالجةٍ مِن النَّاسِ، أخبَرَ عن نَفسِه تعالى بقَولِه: ﴿نُّسۡقِيكُم﴾، ولَمَّا كان السَّكَرُ والرِّزقُ الحسَنُ يَحتاجُ إلى مُعالَجةٍ قال: ﴿تَتَّخِذُونَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٤)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥٨).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مُلاقاةَ المائِعِ للنَّجِسِ في الباطِنِ لا حُكْمَ لها[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ فيه سؤالٌ: الخَمرُ مُحَرَّمةٌ، فلماذا ذكَرَها اللهُ تعالى في مَعرِضِ الإنعامِ؟

والجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجه الأوَّل: أنَّ هذه السُّورةَ مَكِّيَّةٌ، وتحريمُ الخَمرِ نَزَل في سُورةِ (المائدةِ)، فكان نُزولُ هذه الآيةِ في الوَقتِ الذي كانت الخَمرُ فيه غَيرَ مُحَرَّمةٍ.

الوجه الثَّاني: أنَّه تعالى ذكَرَ ما في هذه الأشياءِ مِنَ المنافِعِ، وخاطَبَ المُشرِكينَ بها، والخَمرُ مِن أشرِبَتِهم، فهي مَنفعةٌ في حَقِّهم، ثمَّ إنَّه تعالى نَبَّه في هذه الآيةِ أيضًا على تَحريمِها؛ وذلك لأنَّه مَيَّزَ بينها وبينَ الرِّزقِ الحَسَنِ في الذِّكرِ، فوجَبَ ألَّا يكونَ السَّكَرُ رِزقًا حَسَنًا[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ دَلَّ على التَّسويةِ بين السَّكَرِ المُتَّخَذِ مِن العِنَبِ، والمُتَّخَذِ مِن النَّخلِ، كما هو مذهَبُ مالكٍ والشَّافعيِّ وأحمدَ وجُمهورِ العُلَماءِ، وكذا حُكمُ سائِرِ الأشربةِ المتَّخَذةِ مِن الحِنطةِ والشَّعيرِ والذُّرَةِ والعَسَلِ، كما جاءت السُّنَّةُ بتَفصيلِ ذلك[٣].

٧- قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ناسَبَ ذِكْرُ العَقلِ هاهنا؛ فإنَّه أشرَفُ ما في

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨١).

الإنسانِ؛ ولهذا حَرَّمَ اللهُ على هذه الأمَّةِ الأشربةَ المُسكِرةَ؛ صِيانةً لِعُقولِها[١].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الخَمرَ لا يَحِلُّ ثمنُها؛ ولا تُعَدُّ في عِدَادِ الأملاكِ؛ لإفرادِ ذِكْرِها بالسَّكَرِ؛ وسائرِها بالرِّزقِ الحَسَنِ، فما لم يكُنْ رِزْقًا لم يَجُزْ أنْ يكونَ مِلْكًا، ولو كان أيضًا رِزقًا لكان خَبيثًا؛ لِتَسميتِه سائِرَها بالحَسَنِ، والخبيثُ لا ثَمَنَ له[٢].

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، في تركِ تعليمِه خلقَه كيفيةَ اتِّخاذِ الرِّزقِ الحسنِ، وإخبارِه عن اتِّخاذِهم معدودًا في ذكرِ النعمِ- دليلٌ على أنَّ اتخاذَه كيفَ أحبُّوه مباحٌ لهم[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ بيانُ أنَّ النَّحلَ خَلْقٌ يَسوقُه اللهُ حيث يشَاءُ، فإذا اتَّخَذتْ بيتًا في مِلْكِ بَشَرٍ كان ما يَخرُجُ مِن بطونِها رِزقًا لصاحِبِ المِلْكِ؛ لحُدوثِه في مِلْكِه، فإذا تَحوَّلَ النَّحلُ إلى غيرِ مِلْكِه لم يكُنْ له المُطالبةُ به، فإنِ اتُّخِذَ في أرضٍ مَوَاتٍ- لا مالكَ لها- كان عَسَلُه لِمَن بادرَ إلى أخْذِه، وتحصيله بالحِيازةِ والنُّقْلةِ[٤].

١١- ليس كلُّ مَن أُوحيَ إليه الوحيَ العامَّ يكونُ نبيًّا؛ فاللهُ تعالى قد أوحى إلى غيرِ النَّاسِ، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٨٧).

وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾[١].

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ فأُشيرَ إلى أنَّ بُيوتَها تُتَّخَذُ في أحسَنِ البِقاعِ مِن الجِبالِ أو الشَّجَرِ أو العَرشِ دونَ بُيوتِ الحَشَراتِ الأخرى؛ وذلك لشرَفِها بما تَحتويه مِن المنافِعِ، وبما تَشتَمِلُ عليه مِن دقائِقِ الصَّنعةِ، ألا ترى إلى قَولِه تعالى في ضِدِّها: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾[٢] [العنكبوت: ٤١].

١٣- مِن الحِكَمِ في أنَّ الله تعالى قال: ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾، ولم يَقُلْ: (مِن الثمرات كلِّها)- أنه تقدَّمَها في النَّظْم قولُه تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ ﴾ فلو قال بعدها: (كُلِي مِن الثمراتِ كُلِّها) لذهبَ الوهمُ إلى أنه يريدُ الثمراتِ المذكورةَ قَبْلُ - ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ -، لأنَّ اللامَ إنما تنصرفُ إلى المعهود، فكان الابتداءُ بـ﴿ كُلِّ ﴾ أَحْصَنَ للمعنى، وأجمعَ للجنس، وأرفعَ للَّبْسِ، وأبدعَ في النَّظْمِ[٣].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ عَبَّرَ عن العَسَلِ باسمِ الشَّرابِ دُونَ العَسَلِ؛ لِما يُومِئُ إليه اسمُ الجِنسِ مِن مَعنَى الانتفاعِ به، وهو محَلُّ المِنَّةِ، ولِيُرَتِّبَ عليه جُملةَ ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾، وسُمِّيَ شَرابًا؛ لأنَّه مائعٌ يُشرَبُ شُربًا، ولا يُمضَغُ[٤].

١٥- قَولُه تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أصلٌ في الطِّبِّ[٥]، وفيه دليلٌ على

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٣).

إباحةِ التَّداوي[(١)].

١٦- قال الله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، وقال ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤] لم يَصِفِ اللهُ في كتابِه بالشِّفاءِ إلَّا القُرآنَ والعَسَلَ، فهما الشِّفاءانِ؛ هذا شِفاءُ القُلوبِ مِن أمراضِ غَيِّها وضَلالِها، وأدواءِ شُبُهاتِها وشَهَواتِها، وهذا شِفاءٌ للأبدانِ مِن كثيرٍ مِن أسقامِها وأخلاطِها وآفاتِها، وتأمَّلْ إخبارَه سُبحانَه وتعالى عن القُرآنِ بأنَّه نَفسَه شِفاءٌ، وقال عن العَسَل: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ وما كان نَفسُه شِفاءً أبلَغُ ممَّا جُعِلَ فيه شِفاءٌ[(٢)]!

١٧- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تأمَّلْ أحوالَ النَّحلِ وما فيها مِنَ العِبَرِ والآياتِ، فانظُرْ إليها وإلى اجتِهادِها في صَنعةِ العَسَلِ، وبِنائِها البُيوتَ المُسَدَّسةَ التي هي مِن أتَمِّ الأشكالِ وأحسَنِها استِدارةً، وأحكَمِها صُنعًا، فإذا انضَمَّ بَعضُها إلى بعضٍ لم يكُنْ بينَها فُرجةٌ ولا خَلَلٌ، كُلُّ هذا بغيرِ مِقياسٍ ولا آلةٍ، وتلك مِن أثَرِ صُنعِ اللهِ، وإلهامِه إيَّاها، وإيحائِه إليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فسَلِ المُعَطِّلَ مَن الذي أوحى إليها أمْرَها، وجعَلَ ما جعَلَ في طِباعِها؟ ومَن الذي سَهَّلَ لها سُبُلَه ذُلُلًا مُنقادةً، لا تَستَعصي عليها، ولا تَستَوعِرُها، ولا تَضِلُّ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٥٠).

عنها على بُعدِها، ومَن الذي هداها لِشَأنِها[١]؟!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: فيه بِناءُ الجُملَةِ على المسنَدِ الفِعْليِّ؛ لإفادةِ التَّخصيصِ، أي: اللهُ لا غَيرُه أنزَل مِن السَّماءِ ماءً[٢]، وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ﴾ تكريرٌ لِمَا سبَق؛ تأكيدًا لمضمونِه، وتَوطِئةً لِمَا يَعقُبُه مِن أدلَّةِ التَّوحيدِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تقديمُ المجرورِ على المنصوبِ؛ للتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾

- جملةُ ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾، أي: كما كان القومُ يَسمَعون عِبرةً في إنزالِ الماءِ من السَّماءِ، لكم في الأنعامِ عِبرةٌ أيضًا؛ إذْ قد كان المخاطَبون -وهم المؤمِنون- القومَ الَّذين يَسمَعون. وضَميرُ الخطابِ ﴿لَكُمۡ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ، وتوكيدُها بـ

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٤٨ - ٢٤٩)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(إنَّ) ولامِ الابتِداءِ كتَأكيدِ الجُملةِ قَبلَها[١].

- قولُه: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ استِئْنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: كيف العِبرةُ؟ فقيل: نُسْقيكُم مِن بَينِ فَرثٍ ودَمٍ، أي: يَخلُقُ اللهُ اللَّبنَ وسَطًا بينَ الفَرْثِ والدَّمِ يَكتَنِفانِه، وبينَه وبينَهما برزَخٌ مِن قُدرةِ اللهِ لا يَبْغي أحَدُهما عليه بلَونٍ ولا طعمٍ ولا رائحةٍ، بل هو خالِصٌ مِن ذلك كلِّه[٢].

- وفي قولِه: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ أفرَد ضَميرَ الأنعامِ؛ مُراعاةً لِكَونِ اللَّفظِ مُفرَدًا؛ لأنَّ اسْمَ الجمعِ لفظٌ مُفرَدٌ؛ إذْ ليس مِن صِيَغِ الجُموعِ، فقد يُراعَى اللَّفظُ فيَأتي ضَميرُه مُفرَدًا، وقد يُراعى مَعناه فيُعامَلُ مُعامَلةَ الجُموعِ، كما في سورةِ (المؤمِنون) في قولِه: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١] بِجَمعِه مؤنَّثًا[٣]. وفي هذا مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث أعاد في أحَدِ الموضِعَينِ ذِكْرَ المذكَّرِ، وفي الآخَرِ ذِكْرَ المؤنَّثِ، واللَّفظانِ سَواءٌ؛ ووَجهُ ذلك: أنَّ (الأنعامَ) في سورةِ (النَّحلِ) وإنْ أُطلِقَ لفظُ جَمعِها، فإنَّ المرادَ به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠١)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٣٣٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٨).

وقال ابنُ كثير: (﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ أفردَ هاهنا الضَّميرَ عودًا على معنى النَّعَمِ، أو الضَّميرُ عائِدٌ على الحيوانِ؛ فإنَّ الأنعامَ حَيواناتٌ، أي: نُسقيكم مِمَّا في بَطنِ هذا الحيوانِ. وفي الآية الأخرى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]، ويجوزُ هذا وهذا، كما في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٤- ٥٥]، وفي قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ [النمل: ٣٥-٣٦] أي: المالُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠-٥٨١).

بَعضُها؛ لأنَّ الدَّرَّ لا يَكونُ لِجَميعِها، وأنَّ اللَّبَنَ لِبَعضِ إناثِها، فكأنَّه قال: وإنَّ لكم في بعضِ الأنعامِ لَعِبرَةً نُسْقيكم ممَّا في بُطونِه؛ ولهذا ذهَب مَن ذهَب إلى أنَّه رُدَّ على النَّعَمِ؛ لأنَّه يُؤدِّي ما يؤدِّيه الأنعامُ مِن المعنى. وليس كذلك ذِكْرُها في سورةِ (المؤمنون)؛ لأنَّه قال: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢]، فأخبَر عَن النِّعَمِ التي في أصنافِ النَّعَمِ إناثِها وذُكورِها؛ فلَم يَحتمِلْ أن يُرادَ بها البعضُ كما كان في الأوَّلِ ذلك[١].

- قولُه: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا﴾ (مِن) ابتدائيَّةٌ، لابتداءِ الغايةِ؛ لأنَّ بينَ الفَرْثِ والدَّمِ مَكانَ الإسقاءِ الَّذي مِنه يُبتَدَأُ؛ فهو صِلَةٌ لـ ﴿نُّسْقِيكُم﴾ ومُتعلِّقةٌ به، كقولِك: سَقيتُه مِن الحوضِ. وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ؛ لأنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ يَبعَثُ للنَّفسِ شوقًا إلى المؤخَّرِ، موجِبًا لِفَضلِ تَمْكينِه عندَ وُرودِه عليها، لا سيَّما إذا كان المقدَّمُ مُتضمِّنًا لوصفٍ مُنافٍ لوصفِ المؤخَّرِ، كالَّذي نحنُ فيه؛ فإنَّ بينَ وَصْفَيِ المقدَّمِ والمؤخَّرِ تَنافِيًا وتَنائِيًا بحيث لا يتَراءى ناراهُما؛ فإنَّ ذلك ممَّا يَزيدُ الشَّوقَ والاستِشْرافَ إلى المؤخَّرِ[٢]. أو مَوْقِعُ ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ مَوقِعُ الصِّفةِ لـ ﴿لَّبَنًا﴾، قُدِّمَت عليه للاهتمامِ بها؛ لأنَّها مَوضِعُ العِبرةِ، فكان لها مَزيدُ اهتِمامٍ، وقد صارَتْ بالتَّقديمِ حالًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٥٢-٨٥٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٢-١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٦-٦١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠١)، ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٦- ٦١٧).

- ولَمَّا كانت المَشروباتُ مِن اللَّبَنِ وغَيرِه هي الغالِبةَ في النَّاسِ أكثَرَ مِنَ العَسَلِ، قَدَّمَ اللَّبَنَ وغَيرَه عليه، وقَدَّمَ اللَّبَنَ على ما بَعدَه؛ لأنَّه المُحتاجُ إليه كثيرًا[١].

٣- قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تَعلَّق قولُه: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ بمحذوفٍ تقديرُه: ونُسْقيكم مِن ثَمراتِ النَّخيلِ والأعنابِ، أي: مِن عَصيرِها، وحُذِفَ لِدَلالةِ نُسْقيكم قَبلَه عليه. أو يتَعلَّقُ بـ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، ويَجوزُ أن يَكونَ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ صِفةَ مَوصوفٍ محذوفٍ، تقديرُه: ومِن ثَمراتِ النَّخيلِ والأعنابِ ثَمرٌ تتَّخِذون مِنه سَكَرًا ورِزقًا حسَنًا؛ لأنَّهم يَأكُلون بعضَها ويتَّخِذون مِن بَعضِها السَّكَرَ. و﴿مِنْهُ﴾ مِن تكريرِ الظَّرفِ للتَّوكيدِ، وعلى هذا يَرجِعُ الضَّميرُ في ﴿مِنْهُ﴾ إلى المضافِ المحذوفِ الَّذي هو العصيرُ كما رجَع في قولِه تعالى: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] إلى الأهلِ المحذوفِ[٢].

- وجملةُ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تكريرٌ لِتَعدادِ الآيةِ؛ لأنَّها آيةٌ مُستقِلَّةٌ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٦- ٦١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠٣).

يَعۡرِشُونَ ﴾

- افتُتِحَتِ الجُمْلةُ بفِعْلِ ﴿أَوۡحَى﴾ دونَ أن تُفتتَحَ باسْمِ الجَلالةِ مِثلَ جُملةِ ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ﴾؛ لِمَا في ﴿أَوۡحَى﴾ مِن الإيماءِ إلى إلهامِ تلك الحشَرةِ الضَّعيفةِ تَدبيرًا عَجيبًا، وعَملًا مُتقَنًا، وهَندَسةً في الجِبِلَّةِ. وأُطلِقَ الوحيُ هنا على التَّكوينِ الخَفيِّ الَّذي أودعَه اللهُ في طبيعةِ النَّحلِ، بحيث تَنْساقُ إلى عمَلٍ مُنظَّمٍ مُرتَّبٍ بَعضُه على بعضٍ، لا يَختلِفُ فيه آحادُها؛ تَشبيهًا للإلهامِ بكلامٍ خفيٍّ يتَضمَّنُ ذلك التَّرتيبَ الشَّبيهَ بعمَلِ المتعلِّمِ بتَعليمِ المعلِّمِ، أو المؤتَمِرِ بإرشادِ الآمِرِ، الذي تَلقَّاه سِرًّا[1].

- وفي قولِه: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ تَنْكيتٌ[2]، وهو هُنا في قولِه: ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾؛ إذْ مَعْنى (مِنْ) هُنا للتَّبعيضِ، وهي مُتعلِّقةٌ باتِّخاذِ البُيوتِ، ولم يَقُلْ: في الجِبالِ؛ لأنَّها لا تَبْني بُيوتَها في كلِّ جبلٍ وفي كلِّ شجرٍ وكلِّ ما يُعْرَشُ، فلم يَترُكْ لها الحُرِّيَّةَ في بِناءِ البُيوتِ، كأنَّه تعالى وَكَلَ الأكلَ إلى شَهوَتِها واختيارِها، فلم يَحجُرْ عليها فيه، وإنْ حجَر عليها في البيوتِ، وأُمِرَت باتِّخاذِها في بعضِ المواضِعِ دونَ بعضٍ؛ فلم يَكِلِ الأمرَ إلى شَهواتِها كما وَكَلَه إليها في قولِه: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، وإنَّما خولِف ذلك وحَجَر عليها في المسكَنِ، ولم يَحجُرْ عليها في المأكَلِ؛ لأنَّ مَصلَحةَ الأكلِ على

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٢) التَّنكيتُ: هو أن يَقصِدَ المتكلِّمُ إلى شيءٍ بالذِّكرِ دونَ غيرِه ممَّا يَسُدُّ مَسَدَّه؛ لأجْلِ نُكتةٍ في المذكورِ تُرجِّحُ اختصاصَه بالذِّكر دون ما يَسُدُّ مَسدَّه. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٩٩)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥١-١٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٢/ ٥٥)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٣٩٩).

الإطلاقِ باستِمْراءِ مُشْتَهاها مِنه، وأمَّا البُيوتُ فلا تَحصُلُ مَصلَحتُها في كلِّ مَوضِعٍ؛ ولهذا المعنى دخَلَتْ ﴿ ثُمَّ ﴾ لِتَفاوُتِ الأمرِ بينَ الحَجْرِ عليها في اتِّخاذِ البيوتِ والإطلاقِ لها في تَناوُلِ الثَّمراتِ؛ فتوسُّط ﴿ ثُمَّ ﴾ لِتَفاوُتِ الحَجْرِ والإطلاقِ[1].

- وقَدَّمَ البُيوتَ مِن الجبالِ؛ لأنَّ أكثَرَ بُيوتِها في الجِبالِ، ثُمَّ في الأشجارِ وهي مِن أكثَرِ بُيوتِها، ثمَّ مِمَّا يَعرِشُ النَّاسُ وهي أقَلُّ بُيوتِها بينهم حيثُ يَعرِشونَ، وأمَّا في الجِبالِ والشَّجَرِ فبُيوتٌ عَظيمةٌ يُؤخَذُ منها مِن العَسَلِ الكثيرُ جِدًّا[2].

٥- قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتْبيِّ؛ لأنَّ إلهامَ النَّحلِ للأكلِ مِن الثَّمراتِ يترتَّبُ عليه تكوُّنُ العَسلِ في بُطونِها، وذلك أعلى رُتبةً مِن اتِّخاذِها البُيوتَ؛ لاخْتِصاصِها بالعَسلِ دونَ غيرِها مِن الحشَراتِ التي تَبْني البُيوتَ، ولأنَّه أعظَمُ فائدةً للإنسانِ، ولأنَّ مِنه قُوتَها الَّذي به بَقاؤُها. وسُمِّي امْتِصاصُها أكْلًا؛ لأنَّها تَقْتاتُه، فلَيس هو بِشُربٍ[3].

- قولُه: ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗا ﴾ فيه إضافةُ السُّبلِ إلى ربِّك؛ للإشارةِ إلى أنَّ النَّحلَ مُسخَّرةٌ لسُلوكِ تلك السُّبلِ لا يَعدِلُها عنها شيءٌ؛ لأنَّها لو لم تَسلُكْها لَاختَلَّ نِظامُ إفرازِ العسَلِ منها. وجُملةُ ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- الحاشية)) (١/ ١٣٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠٧).

مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ ما تَقدَّم مِن الخبَرِ عن إلهامِ النَّحلِ تلك الأعمالَ يُثيرُ في نفْسِ السَّامِعِ أن يَسأَلَ عن الغايةِ مِن هذا التَّكوينِ العَجيبِ، فيَكونُ مضمونُ جملةِ ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ بيانًا لِما سأَل عنه. وهو أيضًا موضِعُ المِنَّةِ كما كان تَمامَ العِبْرةِ[١].

- قولُه: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ استئنافٌ عُدِل به عن خِطابِ النَّحلِ؛ لِبَيانِ ما يَظهَرُ مِنها مِن تَعاجيبِ صُنعِ اللهِ تعالى الَّتي هي مَوضِعُ العبرةِ بعدَما أُمِرَت بما أُمِرَت[٢].

- في قولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ الْتِفاتٌ مِن الخطابِ إلى الغَيبةِ، ولو جاء الكلامُ على النَّسقِ الأوَّلِ لقيلَ: مِن بُطونِكِ، وإنَّما صرَف الكلامَ هاهنا مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ لِفائدةٍ، وهي أنَّه ذَكَر للبَشرِ العَسلَ وأوصافَه وألوانَه المختلِفةَ، وأخبَرهم أنَّ فيه فَوائدَ شَتَّى لهم؛ لِيَلفِتَ انتِباهَهم إليه، ولو قال: (مِن بُطونِكِ) لَذَهَبَت تلك الفائدةُ التي أنتَجَها خِطابُ الغَيبةِ، وليس ذلك بخافٍ عن نقَدةِ الكَلامِ[٣]. وقيل: لأنَّه محَلُّ الإنعامِ عليهم، والمقصودُ مِن خَلقِ النَّحلِ وإلهامه لأجْلِهم[٤].

- وقال: ﴿مِنۢ بُطُونِهَا﴾ لأنَّ استحالةَ الأطعمةِ لا تكونُ إلَّا في البُطونِ، فيخرجُ بَعضُها من الفَمِ، كالرِّيقِ الدائِمِ الذي يخرُجُ مِن فَمِ ابنِ آدمَ، فالنَّحلُ تُخرِجُ العسَلَ مِن بُطونِها إلى أفواهِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢١٠، ٢١١).

- في قولِه: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ﴾: تنكيرُ ﴿شِفَآءٌ﴾؛ إمَّا لِتَعظيمِ الشِّفاءِ الَّذي فيه، فيَكونُ المعنى: فيه شِفاءٌ أيُّ شِفاءٍ، وإمَّا لِدَلالَتِه على مُطلَقِ الشِّفاءِ، أي: فيه بعضُ الشِّفاءِ، وكِلاهُما مُحتمِلٌ؛ لأنَّه مِن جُملةِ الأشفِيَةِ والأدويَةِ المشهورةِ النَّافعةِ، وليس الغرَضُ أنَّه شفاءٌ لكلِّ مَريضٍ، كما أنَّ كلَّ دَواءٍ كذلك؛ فنَكَّر قولَه: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ﴾ ولم يَقُلْ: (فيه الشِّفاءُ لكلِّ النَّاسِ)؛ فاندَفَع الاعتِراضُ بأنَّ كَثيرينَ يَأكُلون العَسَلَ ولا يُشفَوْن ممَّا ألَمَّ بهِم، فيُلاحَظُ أنَّ النَّكِرةَ في سياقِ الإثباتِ لا تُفيدُ العُمومَ[1].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ...﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيث قال: ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ في الأُولى، و﴿يَعۡقِلُونَ﴾ في الثَّانيةِ، و﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ في الثَّالثةِ؛ ووجهُ ذلك: أنَّه إنَّما ذكَر ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ في الأُولى توبيخًا لِمَن أنكَر البَعثَ، واستَبْعَدَ الحياةَ الثَّانيَةَ، فكأنَّه قيل له: إنَّ ذلك قبلَ التَّدبُّرِ مُقرَّرٌ في أوَّلِ العَقلِ حتَّى إنَّ مَن يَسمَعُه يَعترِفُ به، وهو أنَّ الأرضَ المَيْتةَ يُحْييها اللهُ تعالى بماءِ السَّماءِ، فتَعودُ حَيَّةً بنَباتِها، فكذلك لا يُستنكَرُ أن يُحيِيَ الخَليقةَ بعدَ موتِها. وأمَّا اختِصاصُ الثَّانيةِ بقَولِه: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ فلأنَّه قال: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، والفَرْثُ والدَّمُ لا يَنعصِرُ مِنه ما يَسوغُ للشَّارِبِ، والدَّمُ أحمَرُ، فيُحوَّلُ بقُدرةِ اللهِ تعالى لبَنًا أبيَضَ طيِّبًا بَعدَ بُعدِه ممَّا استَحالَ عنه في اللَّونِ والطِّيبِ؛ ففيه عِبرةٌ لِمَن اعتَبَر، ولَمَّا قُرِن إليه ثَمراتُ النَّخيلِ والأعنابِ وما يتَحوَّلُ مِن عَصيرِهما إلى ما يُستَلذُّ، ويَجلِبُ ما يَسُرُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٣٢- ٣٣٣).

سِوى طِيبِ رَطْبِها ويابِسِها؛ احْتاج ذلك إلى تَدبُّرٍ يُعقَلُ به صُنعُ صانِعٍ لا يَقدِرُ غيرُه عليه؛ فلذلك قال في الثَّانيةِ: ﴿يَعْقِلُونَ﴾[1]. ولأنَّه لَمَّا كان مُفتَتَحُ الكَلامِ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾، ناسَبَ الختْمُ بِقَولِه: ﴿يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّه لا يَعتبِرُ إلَّا ذَوُو العُقولِ[2]. وأمَّا اختِصاصُ الثَّالثةِ بقَولِه: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فلأنَّ التَّفكُّرَ استِعْمالُ الفِكرِ حالًا بعدَ حالٍ، وفي النَّحلِ عَجائِبُ مِن صُنعِ اللهِ تعالى وهي أشياءُ تَقتَضي فِكرًا بعدَ فكرٍ، ونظرًا بعدَ نظَرٍ؛ فلِذلك عُقِّبَت بقولِه: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]، فاختِيرَ وَصفُ (التفكُّر) هنا؛ لأنَّ الاعتبارَ بتَفصيلِ ما أجمَلَتْه الآيةُ في نظامِ النَّحلِ مُحتاجٌ إلى إعمالِ فِكرٍ دَقيقٍ، ونظَرٍ عميقٍ[4].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٥٠-٨٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٠).

الآيات (٧٠-٧٢)

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾: أي: أردَئِه وأوضَعِه. والرَّذْلُ: المَرغوبُ عنه لِرَداءتِه، والدُّونُ مِن كُلِّ شَيءٍ(١).

﴿بِرَآدِّي﴾: أي: بمُعْطِي، وأصلُ (رد): يدلُّ على رَجعِ الشَّيءِ(٢).

﴿وَحَفَدَةٗ﴾: أي: ولَدَ ولَدِ الرَّجُلِ، الذين يُعينونَه ويَخدُمونَه. وقيل: هم الأنصارُ والأعوانُ والخَدَمُ، وأصلُ (حفد): يدُلُّ على الخِفَّةِ في الخِدمةِ والعَمَلِ، والتجمُّعِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨٦)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٦٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٣٧).

المعنى الإجماليُّ:

يخاطبُ الله تعالى عبادَه قائلًا: واللهُ وحدَه خلَقَكم- أيُّها النَّاسُ- من العَدَمِ، ثمَّ يُميتُكم، ومِنكم مَن يصيرُ إلى أردأِ العُمُرِ، وهو الهَرَمُ، فيَضعُفُ، وتَنقُصُ قُوَّتُه وعَقلُه، ليصيرَ لا يعلَمُ شيئًا ممَّا كان يَعلَمُه. ثم ختم الله الآيةَ بما يدلُّ على كمالِ علمِه، وتمامِ قدرتِه فقال: إنَّ اللهَ عَليمٌ قَديرٌ.

ثمَّ ذكَر الله تعالى التفاوُتَ بينَ الناسِ في أرزاقِهم، فقال: واللهُ فَضَّل بَعضَكم على بَعضٍ فيما أعطاكم مِن الرِّزقِ في الدُّنيا؛ فمنكم غنيٌّ ومنكم فقيرٌ، ومِنكم مالِكٌ ومنكم مَملوكٌ، فلا يُعطي المالِكونَ مَملوكِيهم ممَّا أعطاهم اللهُ ما يَصيرونَ به شُرَكاءَ لهم، مُتَساوينَ معهم في المالِ، فإذا لم يَرْضَوا أن يُشرِكوا معهم بعضَ خَلقِ اللهِ فيما رزقَهم سبحانَه، فلماذا رَضُوا أن يُشرِكوا مع ربِّهم في العبادةِ بَعضَ خَلقِه، وهو أعظم؟! إنَّ هذا لَمِن أعظَمِ الظُّلمِ والجُحودِ لحَقِّ اللهِ ونِعَمِه.

ثمَّ ذكَر الله تعالى نعمةً أُخرَى مِن نِعمِه على الناسِ، فقال: واللهُ سُبحانَه خلقَ لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن جِنسِكم أزواجًا؛ لِتَسكنوا إليهنَّ، وجعل لكم مِنهنَّ الأبناءَ، ومِن نَسلِهنَّ الأحفادَ المُسرِعين في عَونِكم وخِدمتِكم، ورَزَقَكم مِن الأموالِ الحلالِ، والأطعمةِ الطَّيِّبةِ، أفبالباطِلِ مِن ألوهيَّةِ شُرَكائِهم يُؤمِنونَ، وبنِعَمِ اللهِ التي لا تُحصَى يَجحَدونَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الآياتِ التي في الأنعامِ والثَّمَراتِ والنَّحْلِ؛ ذكَرَ ما نبَّهَنا به على قُدرتِه التَّامَّةِ في إنشائِنا مِن العَدَمِ وإماتَتِنا، وتنَقُّلِنا في حالِ الحياةِ مِن حالةِ الجَهلِ إلى حالةِ العِلمِ، وذلك كُلُّه دليلٌ على القُدرةِ التَّامَّةِ، والعِلمِ الواسِعِ[(١)].

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡ ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه أوجَدَكم -أيُّها النَّاسُ- من العَدَمِ، ثمَّ يُميتُكم عندَ انتهاءِ آجالِكم[(٢)].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ ﴾.

أي: ومِنكم مَن يُؤخِّرُ اللهُ مَوتَه، ويُترَكُ إلى أخَسِّ العُمُرِ وأردَئِه، وهو الذي يَهرَمُ فيه، فيَضعُفُ وتَنقُصُ قُوَّتُه وعَقلُه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤).

قال ابن عاشور: (لَمَّا قُوبِلَ ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾ بقَولِه تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ عُلِمَ أنَّ المعنى: ثمَّ يتوفَّاكم في إبَّانِ الوَفاةِ، وهو السِّنُّ المعتادةُ الغالِبةُ؛ لأنَّ الوصولَ إلى أرذَلِ العُمُرِ نادِرٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٩).

قال ابن عاشور: (الهَرَمُ لا ينضَبِطُ حُصولُه بعدَدٍ مِن السِّنينَ؛ لأنَّه يختَلِفُ باختلافِ الأبدانِ والبُلدانِ والصِّحَّةِ والاعتدالِ، على تفاوُتِ الأمزِجةِ المعتدلة، وهذه الرَّذالةُ رَذالةٌ في الصِّحَّةِ لا تعلُّقَ لها بحالةِ النَّفسِ، فهي ممَّا يَعرِضُ للمُسلِمِ والكافِرِ، فتُسمَّى أرذَلَ العُمُرِ فيهما، وقد استعاذ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أن يُرَدَّ إلى أرذَلِ العُمُرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٢).

كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَدعو: ((أعوذُ بك مِن البُخلِ والكَسَلِ، وأرذَلِ العُمُرِ، وعذابِ القَبرِ، وفِتنةِ الدَّجَّالِ، وفِتنةِ المَحْيا والمَماتِ[(١)])))[(٢)].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((تعوَّذُوا بكَلِماتٍ كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتعَوَّذُ بهنَّ: اللهُمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن الجُبنِ، وأعوذُ بك مِن البُخلِ، وأعوذُ بك من أن أُرَدَّ إلى أرذَلِ العُمُرِ، وأعوذُ بك مِن فِتنةِ الدُّنيا، وعذابِ القَبرِ))[(٣)].

﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾.

وقال الشنقيطي: (عن عليٍّ رَضِيَ الله تعالى عنه: أنَّ أرذَلَ العُمُرِ خَمسٌ وسَبعون سنة. وعن قتادة: تسعونَ سنة. والظَّاهِرُ أنَّه لا تحديدَ له بالسِّنينَ، وإنَّما هو باعتبار تفاوتِ حالِ الأشخاصِ؛ فقد يكونُ ابنُ خمس وسبعين أضعَفَ بدنًا وعقلًا، وأشدَّ خَرَفًا مِن آخَرَ ابنِ تسعينَ سنةً). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤١٠).

(١) فِتنةُ المحيا: ما يَعرِضُ للإنسانِ مُدَّةَ حياتِه من الافتتانِ بالدُّنيا والشَّهواتِ والجهالاتِ، وفتنةُ المماتِ: الفِتنةُ عند الموتِ، ويجوزُ أن يرادَ بها فِتنةُ القبرِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٣١٩).

(٢) رواه البخاري (٤٧٠٧) واللفظ له، ومسلم (٢٧٠٦).

(٣) رواه البخاري (٦٣٧٤).

أي: نَرُدُّ مَن نشاءُ إلى أرذَلِ العُمُرِ؛ لِيَصيرَ[(١)] جاهِلًا لا يعلَمُ بعد عِلمِه بالأمورِ شَيئًا، فيَنسى ما كان يَعلَمُه مِن قبلُ، فالذي ردَّه إلى هذه الحالِ قادرٌ- سُبحانَه- على أن يُميتَه ثُمَّ يُحيِيَه ويَبعَثَه للحِسابِ والجزاءِ يومَ القيامةِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَر ما يَعرِضُ في الهَرَمِ من ضعفِ القُوى والقُدرةِ، وانتفاءِ العِلمِ؛ ذكَرَ عِلمَه وقدرتَه اللَّذَينِ لا يتبدَّلانِ ولا يتغيَّرانِ، ولا يدخُلُهما الحوادثُ، ووليَت

---

(١) قال ابنُ جزي: (﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ اللامُ لامُ الصيرورةِ، أي: يصيرُ إذا هرِم لا يعلمُ شيئًا، بعدَ أن كان يعلمُ قبلَ الهرمِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٨٨-٣٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٠).

قال ابن جزي: (وليس المرادُ نفيَ العلمِ بالكليةِ، بل ذلك عبارةٌ عن قلةِ العلمِ؛ لغلبةِ النسيانِ. وقيل: المعنَى: لئلَّا يعلمَ زيادةً على علمِه شيئًا). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣١).

وقال أبو حيان: (الظاهرُ أنَّ ﴿مَن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ عامٌّ، فيمَن يلحقُه الخرفُ والهرمُ. وقيل: هذا في الكافرِ؛ لأنَّ المسلمَ لا يزدادُ بطولِ عمرِه إلا كرامةً على الله؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: لم يُردُّوا إلى أسفلِ سافلينَ. وقال قتادةُ: «مَن قرأ القرآنَ لم يُردَّ إلى أرذلِ العمرِ»). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٢).

صفةُ العلمِ ما جاورَها مِن انتفاءِ العلمِ[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بكُلِّ ما كان ويكونُ، فلا يَنسى ولا يتغيَّرُ عِلمُه، ولا يَجهَلُ شَيئًا، قديرٌ على كلِّ شيءٍ سُبحانَه[٢].

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا مِن الاستدلالِ على أنَّ التصَرُّفَ القاهِرَ لله تعالى؛ وذلك أنَّه أعقَبَ الاستِدلالَ بالإحياءِ والإماتةِ وما بينهما مِن هَرَمٍ، بالاستدلالِ بالرِّزقِ، ولَمَّا كان الرِّزقُ حاصِلًا لكُلِّ مَوجودٍ، بُنِيَ الاستدلالُ على التَّفاوُتِ فيه بخِلافِ الاستدلالِ بقَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾[٣] [النحل: ٧٠].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى خَلْقَنا ثمَّ إماتَتَنا وتفاوُتَنا في السِّنِّ، ذكَرَ تفاوُتَنا في الرِّزق، وأنَّ رِزقَنا أفضَلُ مِن رِزقِ المماليكِ، وهم بشَرٌ مِثلُنا[٤].

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ﴾.

أي: واللهُ فضَّل بَعضَكم -أيُّها النَّاسُ- على بَعضٍ فيما رزَقَكم مِن الأموالِ، فجعَلَ بَعضَكم غنيًّا، وبَعضَكم فَقيرًا، وبَعضَكم حُرًّا له مالٌ، وبَعضَكم مملوكًا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٣).

لا مالَ له[١].

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ﴾.

أي: فليس الذين فضَّلهم الله على غَيرِهم بالرِّزقِ بجاعِلي رِزْقِهم لعَبيدِهم، فيَكونوا هم وعبيدُهم شُرَكاءَ فيه بالسَّوِيَّة؛ فإذا لم يكُنْ عَبيدُكم معكم سواءً في أموالِكم، ولا تَرضَونَ هذه الحالَ لأنفُسِكم، فكيف تجعَلونَ مع اللهِ شُرَكاءَ له في العبادةِ وهم عبيدٌ له، ليس لهم من المُلْك مِثقالُ ذَرَّةٍ[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾.

أي: أفبِنعمَةِ اللهِ التي أنعَمَ بها مِن الرِّزقِ يَجحَدُ هؤلاء الكافِرونَ، بإشراكِهم غَيرَه في عبادتِه، واستعمالِ نِعَمِه في مَعصِيَتِه[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤١).

قال الشوكاني: (فوسَّعَ على بعضِ عبادِه حتى جعَل له مِن الرِّزقِ ما يكفي ألوفًا مُؤَلَّفةً مِن بني آدمَ، وضَيَّقَه على بعضِ عِبادِه حتى صار لا يجِدُ القُوتَ إلَّا بسُؤالِ النَّاسِ، والتكَفُّفِ لهم؛ وذلك لحِكمةٍ بالغةٍ تقصُرُ عُقولُ العبادِ عن تعقُّلِها، والاطِّلاعِ على حقيقةِ أسبابِها. وكما جعَلَ التَّفاوُتَ بين عبادِه في المالِ، جعَلَه بينهم في العَقلِ والعِلمِ والفَهمِ، وقُوَّةِ البدَنِ وضَعفِه، والحُسنِ والقُبحِ، والصِّحَّة والسَّقَم، وغيرِ ذلك من الأحوالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٢، ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٣١، ١٣٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٠، ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٦)، ((أضواء البيان))

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن أحوالِ النَّاسِ، ذكَرَه اللهُ تعالى ليُستَدَلَّ به على وجودِ الإلهِ المُختارِ الحَكيمِ، وليكونَ ذلك تنبيهًا على إنعامِ اللهِ تعالى على عَبيدِه بمِثلِ هذه النِّعَمِ[(١)].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى امتِنانَه بالإيجادِ ثُمَّ بالرِّزقِ المُفَضَّلِ فيه؛ ذكَرَ امتِنانَه بما يقومُ بمصالحِ الإنسانِ ممَّا يأنَسُ به ويَستنصِرُ به ويَخدُمُه[(٢)].

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾.

أي: واللهُ خلَقَ لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن جِنسِكم البَشَريِّ وعلى هَيئتِكم[(٣)]

للشنقيطي (٢/ ٤١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٤).

(٣) ممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٢).

وممن قال بهذا القول من السلف: ابن زيد. ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧١).

وقيل: المعنى: خلَقَ حوَّاءَ مِن آدَمَ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جريرٍ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٢). ونسَبه الرسعني إلى أكثرِ المفسرينَ. ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٣).

وممن قال بهذا القول من السلف: قتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٥).

قال السمعاني: (قولُه تعالَى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾ فيه قولانِ:

أَحدهما: أنَّ هذا في آدمَ -عليه السَّلامُ- فإنَّ الله تعالى خلَق حَوَّاءَ مِن بعضِ أضلاعِه.

والقولُ الثَّاني: خلَق مِن أنفسِكم أزواجًا، أَي: مِن جنسِكم أزواجًا). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٨٨).

أزواجًا، فتَسكنونَ إليها، ويحصُلُ الائتلافُ والمودَّةُ بينكم[١].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

أي: وخلَقَ لكم مِن نسائِكم أبناءً، وأبناءً لأبنائِكم، يُسرِعونَ في خِدمتِكم، ويَقضُونَ حَوائِجَكم، وتَنتَفِعونَ بهم[٢].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى إنعامَه على عَبيدِه بالمَنكوحِ، وما فيه مِن المنافِعِ والمَصالحِ؛ ذكَرَ إنعامَه عليهم بالمَطعوماتِ الطَّيِّبةِ، فقال[٣]:

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٦، ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٣).

قال ابنُ عطيةَ: (ولا خِلافَ أنَّ معنى الحَفْدِ: الخِدمةُ والبِرُّ، والمشيُ مُسرِعًا في الطاعةِ، ومنه في القُنوتِ: «وإليك نَسعى ونَحفِدُ»). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٥).

أي: ورزَقَكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ- مِن حلالِ الأموالِ والأطعِمةِ والأشرِبةِ اللَّذيذةِ الصَّالحةِ[١].

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

أي: أفَبِالباطِلِ[٢] يُؤمنُ هؤلاء المُشرِكونَ، وبِنِعَمِ اللهِ التي أنعَمَ بها عليهم يَكفُرونَ، فلا يَشكُرونَ اللهَ عليها، ولا يُوَحِّدونَه، ويَنسُبونَ نِعَمَه إلى غيرِه، ويَستَعمِلونَها في مَعصِيَتِه، والكُفرِ به[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٩، ٢٢٠).

وقال البقاعي: (﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بجَعْلِه مُلائمًا للطِّباعِ، شَهِيًّا للأرواحِ، نافعًا للإشباعِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٢١٢).

(٢) قيل: المرادُ به: الأصنامُ. وممن قال بذلك: الواحدي، والبغوي، وابنُ كثير. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٧٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٨)، (تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٧-٥٨٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٢).

قال السعدي: (﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أيؤمِنونَ بالباطِلِ الذي لم يكن شيئًا مذكورًا ثمَّ أوجده اللهُ، وليس له من وجودِه سوى العدَمِ، فلا تخلقُ ولا ترزُقُ ولا تدبِّرُ مِن الأمر شيئًا، وهذا عامٌّ لكُلِّ ما عُبِدَ مِن دون الله؛ فإنها باطلةٌ، فكيف يتَّخِذُها المشركونَ مِن دون الله؟!!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤).

وقيل: المرادُ: يصدِّقون بتحريمِ ما أحلَّ الله مِن البحائرِ والسوائبِ والوصائلِ مِن الأنعامِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٧٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤).

قال ابن جرير: (﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يقول: وبما أحَلَّ اللهُ لهم من ذلك، وأنعم عليهم بإحلالِه ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يقولُ: يُنكِرونَ تحليلَه، ويجحدون أن يكونَ الله أحَلَّه). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ انتقالٌ مِن الاستدلالِ بدَقائقِ صُنعِ اللهِ على وَحْدانيَّتِه إلى الاستدلالِ بتَصرُّفِه في الخَلْقِ التَّصرُّفَ الغالِبَ لهم الَّذي لا يَستطيعونَ دَفْعَه، على انفِرادِه برُبوبيَّتِهم، وعلى عَظيمِ قُدرتِه، كما دلَّ عليه تَذييلُها بجُملةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾؛ فهو خَلَقَهم بدونِ اختِيارٍ مِنهم، ثمَّ يتَوفَّاهم كُرْهًا علَيهم، أو يَرُدُّهم إلى حالةٍ يَكرَهونها، فلا يَستَطيعون ردًّا لذلك، ولا خَلاصًا منه، وبذلك يتَحقَّقُ معنى العبوديَّةِ بأوضَحِ مَظهَرٍ[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ نَصٌّ صَريحٌ في إبطالِ مَذهَبِ الاشتراكِيَّةِ القائِلِ: بأنَّه لا يكونُ أحَدٌ أفضَلَ مِن أحدٍ في الرِّزقِ، ولله في تفضيلِ بَعضِهم على بعضٍ في الرِّزقِ حِكمةٌ؛ قال تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ[(٢)].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ ممتنًّا على بني آدمَ بأنَّ أزواجَهم مِن نوعِهم وجنسِهم، يُفهمُ منه عدمُ جوازِ مناكحةِ الإنسِ الجنَّ؛ لأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١١).

ما جعَل لهم أزواجًا تُباينُهم[١].

٤- الجَعْلُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا ﴾ هو جَعْلٌ كونيٌّ، ويُقابِلُه: الجَعلُ الدِّينيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٍ ﴾[المائدة: ١٠٣] أي: ما شَرَعَ ذلك ولا أمَرَ به، وإلَّا فهو مَخلوقٌ له، واقِعٌ بقدَرِه ومَشيئَتِه[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا ﴾ الوَصفُ بالزَّوجِ يُؤذِنُ بمُلازمتِه لآخَرَ؛ فلذا سُمِّيَ بالزَّوجِ قَرينُ المرأةِ وقَرينةُ الرَّجُلِ، وهذه نِعمةٌ اختَصَّ بها الإنسانُ؛ إذ ألهَمَه اللهُ جَعْلَ قَرينٍ له، وجَبَله على نظامِ مَحبَّةٍ وغَيرَةٍ، لا يَسمَحانِ له بإهمالِ زَوجِه، كما تُهمِلُ العَجْماواتُ إناثَها، وتَنصَرِفُ إناثُها عن ذكورِها[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ ﴾ فيه استدلالٌ ببديعِ الصُّنعِ فِي خلقِ النَّسْلِ؛ إذ جُعِل مُقارِنًا للتَّأنُّسِ بينَ الزَّوجينِ؛ إذْ جُعِل النَّسلُ مِنهُما، ولم يجعَلْه مُفارِقًا لأحدِ الأبوَينِ أو كِلَيهما[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ ﴾ أُطلِقَ الحَفيدُ على ابنِ الابنِ؛ لأنَّه يَكثُرُ أن يَخدُمَ جَدَّه؛ لِضَعفِ الجَدِّ بسَبَبِ الكِبَرِ، فأنعم اللهُ على الإنسانِ بحِفظِ سِلسلةِ نَسَبِه بسَبَبِ ضَبطِ الحَلقةِ الأولى منها، وهي كَونُ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٥).
(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢١٧).

أبنائِه مِن زَوجِه، ثمَّ كَونِ أبناءِ أبنائِه مِن أزواجِهم، فانضبَطَت سِلسلةُ الأنسابِ بهذا النِّظامِ المُحكَمِ البَديعِ. وغيرُ الإنسانِ مِن الحَيوانِ لا يَشعُرُ بحَفَدتِه أصلًا، لا يَشعُرُ بالبُنُوَّةِ إلَّا أُنثَى الحيوانِ مُدَّةً قليلةً، قَريبةً مِن الإرضاعِ[(١)]!

٨- كَلِمةُ (مِنْ) في قَولِ الله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ للتَّبعيضِ؛ لأنَّ كُلَّ الطَّيِّباتِ في الجنَّةِ، وما طَيِّباتُ الدُّنيا إلَّا أُنموذَجٌ منها[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡ...﴾: فيه ابتِداءُ الجُملةِ باسْمِ الجَلالةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ [النحل: ٦٥]؛ لأنَّ دلالةَ الاسْمِ العلَمِ أوضَحُ وأصرَحُ؛ فهو مُقتَضَى مَقامِ تحقيقِ الانفِرادِ بالخَلْقِ والتَّوفِّي دونَ غيرِه مِن شُرَكائِهم؛ لأنَّ المشرِكين يُقِرُّون بأنَّ اللهَ هو فاعِلُ هذه الأشياءِ. وأمَّا إعادةُ اسْمِ الجَلالَةِ هنا دونَ الإضمارِ؛ فلأنَّ مَقامَ الاستدلالِ يَقْتضي تَكريرَ اسمِ المستدَلِّ على إثباتِ صفاتِه تَصريحًا واضِحًا، ولِقَصدِ التَّنويهِ بالخبَرِ إذ افتُتِح بهذا الاسمِ. وجيء بالمسنَدِ فِعليًّا ﴿خَلَقَكُمۡ﴾؛ لإفادةِ تَخصيصِ المسنَدِ إليه بالمسنَدِ الفِعليِّ في الإثباتِ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ فيه خُصَّ آخِرُ العُمُرِ بالرَّذيلةِ، وإن كانت حالُ الطُّفُوليَّةِ كذلك؛ مِن حيثُ كانت هذه لا رجاءَ بعدها لإصلاحِ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٨-٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١١).

فسدَ، والطُّفُوليَّةُ حالةٌ يُنتَقَلُ منها إلى القُوَّةِ، وإدراكِ الأشياءِ[١].

- قولُه: ﴿بَعۡدَ عِلۡمٖ﴾ تَنكيرُ (عِلْمٍ) هنا تنكيرُ الجنسِ، أي: لِكَيلا يَعلَمَ شَيئًا بعدَ أن كان له عِلمٌ، أي: لِيَزولَ منه قَبولُ العِلمِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ تذييلٌ؛ تنبيهًا على أنَّ المقصودَ مِن الجملةِ الدَّلالةُ على عِظَمِ قُدرةِ اللهِ وعِظَمِ عِلمِه، وقدَّم وصْفَ (العَليمِ)؛ لأنَّ القُدرَةَ تتعلَّقُ على وَفْقِ العِلمِ، وبمِقْدارِ سَعةِ العلمِ يَكونُ عِظمُ القُدرةِ؛ فضَعيفُ القُدرةِ يَنالُه تعَبٌ مِن قوَّةِ عِلمِه؛ لأنَّ هِمَّتَه تَدْعوه إلى ما لَيس بالنَّائلِ[٣].

- وقال هنا في سورةِ (النَّحلِ): ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡۖ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔا﴾، وقال في سورةِ (الحجِّ): ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـًٔا﴾ [الحج: ٥]، فاختَصَّتِ الآيةُ الَّتي في سورةِ (الحجِّ) بـ (من)، وخَلَتْ منها الآيةُ في سورةِ (النَّحلِ)، وفي ذلك مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ ووَجهُها: أنَّه حذف (من) فى قوله: ﴿بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔا﴾؛ لأنه أَجملَ الكلامَ فى هذه السورةِ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡۖ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾، وفصَّله فى (الحجِّ) فقال: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ فاقتضى الإجمالُ الحذفَ، والتفصيلُ الإثباتَ، فجاءَ فى كلِّ سورةٍ ما اقتضاه الحالُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٨٥)، ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة

٢- قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾

- أسنَد التَّفضيلَ في الرِّزقِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّ أسبابَه خارِجةٌ عن إحاطةِ عُقولِ البشَرِ. وتُفيدُ وَراءَ الاستِدْلالِ مَعْنى الامْتِنانِ؛ لاقتِضائِها حُصولَ الرِّزقِ للجَميعِ؛ فجُملةُ ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ ﴾ مُقدِّمةٌ للدَّليلِ، ومِنَّةٌ مِن المنِنِ، وقد تمَّ الاستدلالُ عندَ قولِه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ ﴾ بطَريقةِ الإيجازِ، وفُرِّع على هذه الجملةِ بالفاءِ على وجهِ الإدماجِ قولُه تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾، وهو إدماجٌ جاء على وجهِ التَّمثيلِ؛ لِتِبيانِ ضَلالِ أهلِ الشِّركِ حينَ سَوَّوْا بعضَ المخلوقاتِ بالخالقِ، فأشرَكوها في الإلهيَّةِ فَسادًا في تَفكيرِهم، فمَثَّل بُطلانَ عَقيدةِ الإشراكِ باللهِ بعضَ مَخلوقاتِه بحالةِ أهلِ النِّعمةِ المرزوقينَ؛ لأنَّهم لا يَرضَون أن يُشرِكوا عَبيدَهم معَهم في فَضلِ رِزقِهم، فكيف يُسوُّون باللهِ عَبيدَه في صِفَتِه العُظْمى، وهي الإلهيَّةُ؟! ورَشاقةُ هذا الاستِدْلالِ أنَّ الحالَتَينِ المشبَّهَتينِ والمشبَّهَ بهِما حالَتا مَولًى وعَبدٍ. والغرَضُ مِن التَّمثيلِ تَشنيعُ مَقالتِهم واستِحالةُ صِدقِها بحسَبِ العُرفِ، ثمَّ زيادةُ التَّشنيعِ بأنَّهم رضُوا للهِ ما لا يَرضَونه لأنفُسِهم. وقَرينةُ التَّمثيلِ والمقصِدُ منه دَلالةُ المقامِ[1].

التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٥٤-٨٥٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦١-١٦٢)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٠٢-٣٠٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٤- ٢١٥).

- قولُه: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ في إيثارِ الجملةِ الاسميَّةِ: دَلالةٌ على استِمْرارِهم على عدَمِ الرَّدِّ[١].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ﴾؛ للدَّلالةِ على تَرتيبِ التَّساوي على الرَّدِّ، أي: لا يَرُدُّونه عليهم ردًّا مُستتبِعًا للتَّساوي، وإنَّما يَرُدُّون عليهم مِنه شيئًا يسيرًا[٢].

- وفُرِّعَت جملةُ ﴿فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ على جُملةِ ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ﴾، أي: لا يُشاطِرون عَبيدَهم رِزقَهم فيَستَوُوا فيه، أي: لا يقَعُ ذلك فيقَعَ هذا؛ فمَوقِعُ هذه الجملةِ الاسميَّةِ شَبيهٌ بمَوقِعِ الفعلِ بعدَ فاءِ السَّببيَّةِ في جوابِ النَّفيِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ عُدِّي فِعلُ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ بالباءِ؛ لِتَضَمُّنِه مَعنى (يَكْفُرون)، وتَكونُ الباءُ لِتَوكيدِ تَعلُّقِ الفعلِ بالمفعولِ، كقولِه تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]. وتقديمُ (بنِعْمةِ اللهِ) على مُتعلَّقِه وهو ﴿يَجۡحَدُونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ فيه وضعُ الظَّاهرِ ﴿

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٥- ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٤).

مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ﴾ موضِعَ المضمَرِ (مِنهنَّ)؛ للإيذانِ بأنَّ المرادَ: جَعَلَ لكلٍّ منكم مِن زوجِه لا مِن زوجِ غيرِه[١].

- قولُه: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ فيه تأخيرُ المنصوبِ في الموضِعَينِ (أزواجًا - بَنينَ) عن المجرورِ (مِنْ أَنْفُسِكُمْ - مِنْ أَزْواجِكُمْ)؛ للتَّشويقِ وللاهتمامِ. وتَقديمُ المجرورِ باللَّامِ على المجرورِ بـ (مِن)؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بعَودِ مَنفَعةِ الجَعْلِ إليهِم، إمدادًا للتَّشويقِ، وتَقْويةً له[٢].

- قولُه: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ استِفهامُ تَوبيخٍ على إيمانِهم بالباطِلِ[٣].

- وفيه تقديمُ الصِّلةِ ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ ﴾ على الفعلِ ﴿يُؤْمِنُونَ ﴾؛ للاهتِمامِ، أو لإيهامِ الاختِصاصِ؛ مُبالَغةً، أو لِرِعايةِ الفَواصِلِ[٤].

- وقولُه: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ فيه الْتِفاتٌ عن الخطابِ السَّابقِ إلى الغَيبةِ؛ للإيذانِ بأنَّ حالَهم استَوْجَبت الإعراضَ عنهم، وصَرَفَ الخِطابَ إلى غيرِهم مِن السَّامِعينَ؛ تَعجُّبًا لهم ممَّا فعَلوه؛ فإنَّه لَمَّا كان المقصودُ مِن الاستدلالِ المشرِكين، فكانوا مَوضِعَ التَّوبيخِ: ناسَب أن يُعرِضَ عن خِطابِهم، ويَنالَهم المقصودُ مِن التَّوبيخِ بالتَّعريضِ[٥]. وعلى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير ابن

قراءةِ ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بالتَّاءِ؛ فهو خِطابُ إنكارٍ وتقريعٍ لهم، والجملةُ بعدَ ذلك مُجرَّدُ إخبارٍ عنهم[١].

- وقولُه تعالى: ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ التَّوبيخِ، وهو توبيخٌ مُتوجِّهٌ على ما تَضمَّنَه قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ إلى قولِه: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مِن الامْتِنانِ بذَلك الخَلْقِ والرِّزقِ بعدَ كونِهما دَليلًا على انفرادِ اللهِ بالإلهيَّةِ[٢].

- وضميرُ الغَيبةِ ﴿هُمْ﴾ في قولِه: ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ ضميرُ فَصلٍ؛ لتأكيدِ الحُكمِ بكُفرانِهم النِّعمةَ؛ لأنَّ كُفْرانَ النِّعمةِ أخْفَى مِن الإيمانِ بالباطلِ؛ لأنَّ الكُفْرانَ يتَعلَّقُ بحالاتِ القلبِ، فاجتَمَع في هذه الجملةِ تَأكيدانِ: التَّأكيدُ الَّذي أفادَه التَّقديمُ، والتَّأكيدُ الَّذي أفادَه ضميرُ الفصلِ[٣].

- والإتيانُ بالمضارِعِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿يَكْفُرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والتَّكريرِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال في سورةِ (العنكبوتِ): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]؛ فزِيدَ في الآيةِ مِن سورةِ (النَّحلِ) ﴿هُمْ﴾، وخَلَتْ مِنها الآيةُ مِن سورةِ

عاشور)) (١٤/ ٢١٦، ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٢١).

(العنكَبوتِ)؛ ووجهُ ذلك: أَنَّ فى هذه السورةِ اتَّصل الخطابُ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ ثم عاد إلى الغَيبةِ فقال: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴾ فلا بدَّ مِن تقييده بهم؛ لئلا يلتبسَ الغَيْبَةُ بالخطابِ والتاءُ بالياءِ، وما فى العنكبوت اتَّصل بآياتٍ استمرَّت على الغَيبةِ، فلم يحتجْ إلى تقييدِه بالضميرِ[1].

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٨٦). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٥٧-٨٥٨)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٦٢)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٠٣-٣٠٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٩).

الآيات (٧٢-٧٧)

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَبْكَمُ﴾: هو الذي يُولَدُ أخرَسَ، فالخرسُ ملازمٌ له منذُ ولادتِه، وكلُّ أبكمَ أخرسُ، وليس كلُّ أخرسَ أبكمَ، والبَكَمُ: آفَةٌ في اللِّسانِ مانِعةٌ من الكلامِ[(١)].

﴿كَلٌّ﴾: أي: ثقيلٌ، عالةٌ على غَيرِه، وأصلُه مِن الغِلَظِ الذي هو نَقيضُ الحِدَّةِ، يقالُ: كَلَّ السِّكينُ كُلولًا: إذا غَلُظَت شَفْرتُه فلم يَقطَعْ[(٢)].

﴿كَلَمْحِ﴾: اللمحُ: النظرُ بسرعةٍ، واللَّمْحُ أيضًا: لمعانُ البرقِ، وأصلُ (لمح):

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢١٩).

يدلُّ على لمعِ شيءٍ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾

﴿شَيْـًٔا﴾: في نَصْبِه ثلاثةُ أوجُهٍ، أحدُها: أنَّه نائبٌ عن المَصدَرِ منصوبٌ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ، أي: ما لا يَملِكُ لهم شَيئًا مِن المِلكِ، لا قليلًا ولا كثيرًا. والثاني: أنَّه منصوبٌ على المفعوليَّةِ بـ ﴿رِزْقًا﴾ أي: ما لا يملِكُ لهم أن يَرزُقَهم شيئًا. الثالث: أنَّه مَنصوبٌ على البَدَليَّةِ مِن ﴿رِزْقًا﴾، أي: ما لا يَملِكُ لهم شيئًا مِن الرِّزقِ[٢].

المَعنى الإجْماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ المُشرِكينَ يَعبُدُون أصنامًا لا تَملِكُ أن تُعطيَهم شيئًا مِن الرِّزقِ؛ لا مِن السَّماءِ كالمطَرِ، ولا مِن الأرضِ كالزَّرعِ، ولا يَقدِرونَ على شَيءٍ، فهذه صفةُ آلهتِهم، فكيف يعبدونَها مع اللهِ؛ لذا قال سبحانه: فلا تجعَلوا -أيُّها النَّاسُ- لله أندادًا وأمثالًا مِن خَلْقِه، تُشرِكونَهم معه في العبادةِ، إنَّ اللهَ يَعلَمُ، وأنتم لا تَعلَمونَ.

ثمَّ ساق الله تعالى مثلينِ يدُلَّانِ على وحدانيتِه وقدرتِه، وعلى بُطلانِ الشِّركِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٦).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٨٠٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٦٦)، ((شرح ألفية ابن مالك)) للشاطبي (٤/ ٢١٦)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٣٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٤/ ٣٥٥).

فقال تعالى مبيِّنًا المثلَ الأوَّلَ: ضرَبَ اللهُ مثَلًا عبدًا مَملوكًا لا يَملِكُ شيئًا، ورجلًا آخَرَ حُرًّا، له مالٌ حَلالٌ رزَقَه اللهُ إيَّاه، يَملِكُ التصَرُّفَ فيه، ويُعطي منه في السِّرِّ والعَلَنِ، فهل يستوي هذان الرَّجُلانِ؟ فكذلك اللهُ الخالِقُ المالِكُ المتصَرِّفُ؛ لا يَستوي مع خَلقِه وعَبيدِه، فكيف تُسَوُّونَ بينهما؟! الحمدُ للهِ وَحدَه؛ فهو المُستَحِقُّ للحَمدِ والثَّناءِ، بل أكثَرُ المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ أنَّ الله وَحْدَه هو المُستحِقُّ للعبادةِ والحَمدِ.

ثم قال تعالى مبيِّنًا المثلَ الثاني: وضرَبَ اللهُ مثَلًا آخَرَ: رَجُلينِ: أحدُهما أخرَسُ أصَمُّ لا يَعقِلُ ولا يَقدِرُ على مَنفعةِ نَفسِه أو غيرِه، وهو عِبءٌ ثقيلٌ على مَن يَلي أمْرَه ويَعولُه، إذا أرسَلَه مولاه لقضاءِ أمرٍ، لا ينجَحُ، ولا يعودُ عليه بخَيرٍ؛ ورجُلٌ آخَرُ سَليمُ الحَواسِّ، يَنفَعُ نَفسَه وغَيرَه، يأمُرُ بالإنصافِ، وهو على طريقٍ واضحٍ لا عِوَجَ فيه، فهل يستوي هذان الرَّجُلانِ؟! فكيف تُسَوُّون بين الصَّنَمِ الأبكَمِ الأصمِّ وبين اللهِ القادِرِ القائِمِ بالقِسطِ، المُنعِمِ بكُلِّ خَيرٍ؟!

ولله سُبحانَه وتعالى عِلْمُ ما غاب في السَّمَواتِ والأرضِ، وما أمرُ القيامةِ في سُرعةِ مَجيئِها إلَّا كنَظرةٍ سَريعةٍ بالبَصَرِ، بل هو أسرَعُ من ذلك، إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها تَبيينٌ لِقَولِه تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل:٧٢]، نعى عليهم فَسادَ نَظَرِهم في عبادةِ ما لا يُمكِنُ أن يقَعَ منه ما يَسعَى عابِدُه في تَحصيلِه منه، وهو

الرِّزقُ، ولا هو في استطاعتِه[١].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا شَرَح الدَّلائِلَ الدَّالَّةَ على صِحَّةِ التَّوحيدِ، وأتبَعَها بذِكرِ أقسامِ النِّعَمِ العَظيمةِ؛ أتبَعَها بالرَّدِّ على عَبَدةِ الأصنامِ[٢].

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾.

أي: ويَعبُدُ المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ أصنامًا ومَعبوداتٍ لا تَملِكُ أن تَرزُقَهم شَيئًا؛ لا مَطَرًا مِن السَّماءِ ولا نباتًا مِنَ الأرضِ[٣].

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

أي: ولا تَقدِرُ الأصنامُ والمَعبوداتُ مِن دُونِ اللهِ أن تَرزُقَ عابِديها شَيئًا؛ فليس لهم أيُّ نَوعٍ مِن أنواعِ الاستطاعةِ أصلًا[٤].

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعدَ أن بيَّنَ اللهُ تعالى ضَعفَ هذه المعبوداتِ الباطلةِ وعَجزَها؛ رتَّب على ذلك ما هو كالنتيجةِ له، فقال[٥]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ١٢٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢١٣).

قال السعدي: (غيرُ المالِكِ للشَّيءِ ربَّما كان له قُوَّةٌ واقتدارٌ على ما ينفَعُ مَن يتَّصِلُ به، وهؤلاء لا يَملِكونَ ولا يَقدِرونَ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٤/ ١١٤).

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

أي: فلا تَجعَلوا لله أندادًا وأمثالًا مِن مَخلوقاتِه؛ فإنَّه سُبحانَه لا مِثْلَ له، ولا نَظيرَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فلا تَضرِبوا لله الأمثالَ؛ لأنَّ اللهَ يَعلَمُ حقائِقَ الأشياءِ، وأنَّه لا شريكَ له، ولا مثيلَ له، ولا يخفَى عليه شيءٌ مِن أعمالِكم، وأنتم -أيُّها المُشرِكونَ- لا تَعلَمونَ ذلك، فتَقَعونَ بجَهلِكم في الشِّركِ به سُبحانَه[(٢)].

ثم أكَّدَ اللهُ تعالى إبطالَ مَذهَبِ عَبَدةِ الأصنامِ بهذا المثالِ، فقال تعالى[(٣)]:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٩٠).

قال ابن الجوزي: (في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أربعةُ أقوال: أحدها: يعلمُ ضربَ المثَلِ، وأنتم لا تعلمون ذلك، قاله ابن السَّائبِ. والثاني: يعلمُ أنَّه ليس له شريكٌ، وأنتم لا تعلمون أنَّه ليس له شريكٌ، قاله مقاتل. والثالث: يعلم خطأَ ما تضرِبون من الأمثال، وأنتم لا تعلمون صوابَ ذلك من خطَئِه. والرابع: يعلمُ ما كان ويكون، وأنتم لا تعلمونَ قَدْرَ عظَمَتِه حين أشركتُم به ونسبتُموه إلى العجزِ عن بعثِ خَلقِه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ أي: بالمعلوماتِ التي مِن جُملَتِها كيف يَضرِبُ الأمثالَ، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ عَلَّمَهم سُبحانَه كيف تُضرَبُ الأمثالُ[1]، فقال:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًا﴾.

أي: بيَّن اللهُ مثلًا لنَفسِه -تعالى- وللأصنامِ؛ كعَبدٍ مَملوكٍ عاجزٍ، لا يَملِكُ شَيئًا، فلا يَقدِرُ على شيءٍ مِنَ المالِ، ولا مِن أمْرِ نَفْسِه ورجُلٍ حُرٍّ غَنيٍّ آتاه اللهُ رِزقًا واسِعًا طيِّبًا، يَملِكُ التصرُّفَ فيه، فيُنفِقُ منه دائمًا في السرِّ والعَلانِيَةِ؛ إحسانًا منه إلى الآخَرينَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨٠) و (١٠/ ١١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣٢)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥).

وممن اختار هذا المعنَى المذكورَ: ابنُ عطيةَ، والقرطبي، والبيضاوي، وابنُ تيميةَ، وابنُ جزي، وابنُ القيِّمِ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بنحوِ ذلك مِن السلفِ: مجاهدٌ، والسدي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٣).

وقيل: المعنى: ضرَب الله مثلًا للكافرِ والمؤمنِ، فالكافرُ لا يعملُ بطاعةِ الله، ولا ينفقُ مِن مالِه شيئًا في سبيلِ الله، فلا خيرَ عندَه؛ لخِذلانِ الله له، كعبدٍ مملوكٍ ذليلٍ عاجزٍ، لا يقدرُ على شيءٍ فينفقه، والمؤمنُ العاملُ بطاعةِ الله، المنفقُ مالَه في سبيلِه كحرٍّ رزَقه الله رزقًا حسنًا فهو ينفقُ مِن مالِه سرًّا وعلانيةً. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٩).

﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾.

أي: هل يستوي العَبدُ والحُرُّ الموصوفان بما تقَدَّمَ مِن الصِّفاتِ؟ فكذلك اللهُ الذي له المُلْكُ وبِيَدِه الرِّزقُ، المتصَرِّفُ في مُلكِه كما يشاءُ؛ لا يستوي مع المَعبوداتِ العاجزةِ التي لا تَملِكُ شيئًا، ولا قُدرةَ لها على شَيءٍ، وأنتم تتَّخِذونَها شُرَكاءَ لله تعالى في عبادتِه، فكيف تُسَوُّونَ بينهما[1]؟!

وممن قال بنحوِ ذلك مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٣).

قال ابن القيم: (فالمثَلُ الأوَّلُ ما ضربه الله سُبحانَه لنفسه وللأوثانِ؛ فالله سُبحانَه هو المالكُ لكُلِّ شيءٍ، ينفِقُ كيف يشاءُ على عبيده سرًّا وجهرًا وليلًا ونهارًا، يمينُه ملأى لا يغيضُها نفقةٌ، سحَّاءُ اللَّيلَ والنهارَ، والأوثانُ مملوكةٌ عاجِزةٌ لا تقدِرُ على شيءٍ، فكيف يجعلونَها شُرَكاءَ لي ويعبدونَها من دوني مع هذا التفاوُتِ العظيمِ والفَرقِ المُبين؟! هذا قول مجاهد وغيره. وقال ابن عباس: هو مثَلٌ ضربه الله للمؤمِنِ والكافر، ومَثَلُ المؤمن في الخير الذي عنده، ثمَّ رزَقَه منه رزقًا حسنًا، فهو ينفِقُ منه على نفسِه وعلى غيره سرًّا وجهرًا، والكافِرُ بمنزلة عبدٍ مملوكٍ عاجزٍ، لا يقدِرُ على شيءٍ؛ لأنه لا خير عنده، فهل يستوي الرجلان عند أحدٍ مِن العقلاء؟! والقولُ الأولُ أشبه بالمراد؛ فإنَّه أظهَرُ في بطلان الشرك، وأوضَحُ عند المخاطب، وأعظَمُ في إقامة الحُجَّة، وأقربُ نسبًا بقوله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ۞ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، ثم قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾، ومن لوازم هذا المثَلِ وأحكامِه: أن يكون المؤمنُ الموحِّدُ كمن رزقه منه رزقًا حسنًا، والكافرُ المشرِكُ كالعبد المملوك الذي لا يقدِرُ على شيءٍ، فهذا مما نبَّه عليه المثَلُ وأرشد إليه، فذكره ابن عباسٍ منبِّهًا على إرادته، لا أنَّ الآية اختصَّت به، فتأمَّلْه؛ فإنك تجده كثيرًا في كلام ابن عباس وغيرِه من السَّلفِ في فهم القرآن، فيُظنُّ أنَّ ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيرُه، فيحكيه قوله). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٢٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٩١، ٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٣).

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٣٢).

وعلى المعنى الآخرِ للآيةِ يكونُ معنى قولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾: فكذلك لا يستوي

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: الحَمدُ الكامِلُ الخالِصُ لله المُنعِمِ المُستَحِقِّ لعبادةِ خَلقِه وشُكرِهم، دونَ ما يُعبَدُ مِن دُونِه؛ إذ لا نِعمةَ لتلك المَعبوداتِ على أحدٍ حتى تُحمَدَ عليها، ولكنَّ أكثَرَ[1] المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ أنَّ الله وَحْدَه هو المُستحِقُّ للعبادةِ والشُّكرِ؛ فهم يَعبُدونَ ويَحمَدونَ غَيرَه لجَهلِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

أي: وضرَبَ اللهُ لكم مثلًا لنَفسِه -تعالى- وللأصنامِ التي تُعبَدُ مِن دونِه؛

الكافرُ العاملُ بمعاصي الله، المخالفُ أمرَه، والمؤمنُ العاملُ بطاعتِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٧).

(١) قال القرطبي: (ذكَرَ الأكثَرَ وهو يريدُ الجميع، فهو خاصٌّ أريدَ به التَّعميمُ. وقيل: أي: بل أكثَرُ الخَلقِ لا يَعلَمونَ؛ وذلك أنَّ أكثَرَهم المُشرِكون). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٨). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (١٤/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٨).

كرَجُلَينِ أحَدُهما لا يَنطِقُ، ولا يَسمَعُ، ولا يَعقِلُ، عاجِزٌ لا يَقدِرُ على فِعلِ شَيءٍ مِن جَلبِ نَفعٍ، أو دَفْعِ ضُرٍّ، فكذلك الأصنامُ لا تَسمَعُ، ولا تَنطِقُ، ولا تَعقِلُ شَيئًا؛ فهي مصنوعةٌ مِن خَشَبٍ ونُحاسٍ وغَيرِ ذلك(١).

﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾.

أي: وهو مع عدَمِ نُطقِه وعَجزِه ثَقيلٌ على مَن يلي أمْرَه ويَعولُه، فكذلك الصَّنَمُ ذو كُلفةٍ ومَشَقَّةٍ على من يَعبُدُه؛ حيثُ يَقومُ بحَملِه، ووَضْعِه، وخِدْمتِه(٢).

﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾.

أي: أينما يُرسِلْه مَولاه في عمَلٍ لِيَعمَلَه لا ينجَحْ فيه، فهو لا يأتي بخَيرٍ، ولا يَقضي حاجةً؛ لعَجزِه وعدَمِ فَهمِه لِما يُقالُ له، وعَدَمِ قُدرتِه على التَّعبيرِ عمَّا يُريدُ؛ فكذلك الصَّنَمُ لا يَعقِلُ ما يُقالُ له، ولا يَنطِقُ بشَيءٍ، فلا يأتي بخيرٍ، أو يقضي حاجةً(٣).

﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: هل يستوي هذا الأبكَمُ الكَلُّ على مَولاه الذي لا يأتي بخيرٍ حيثما توجَّهَ، ومَن هو ناطقٌ متكلِّمٌ قادِرٌ يأمُرُ بالحقِّ والقِسطِ، ويدعو إليه، وهو في نفسِه- مع ما ذُكِرَ مِن نَفعِه العامِّ- على طريقِ الحقِّ لا يَنحَرِفُ عنه، عامِلٌ بما يأمُرُ به،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٨، ٥٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٩).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٨).

ويدعو إليه، ولا يتوجَّهُ إلى مطلَبٍ إلَّا ويبلُغُه بأقرَبِ سَعيٍ وأسهَلِه، فهو عادِلٌ في أقوالِه، مُستقيمٌ في أفعالِه؟! فإذا امتنَعَ التَّساوي بين هذين الصِّنفَينِ المَذكورَينِ، فكذلك يمتنِعُ التَّساوي بينَ الله سُبحانَه العادِلِ الذي يأمُرُ بالعَدلِ، وهو قائِمٌ بالقِسطِ على صراطٍ مُستقيمٍ، وبينَ ما يَجعَلونَه شُرَكاءَ له[1].

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ في الآيةِ الأولى مَثَلَ الكُفَّارِ بالأبكَمِ العاجِزِ، ومَثَلَ نَفسِه تعالى بالذي يأمُرُ بالعَدلِ، وهو على صِراطٍ مُستقيمٍ، ومعلومٌ أنَّه يَمتَنِعُ أن يكونَ آمِرًا بالعَدلِ، وأن يكونَ على صراطٍ مُستقيمٍ إلَّا إذا كان كامِلًا في العِلمِ والقُدرةِ- ذكَرَ في هذه الآيةِ بَيانَ كَونِه كامِلًا في العِلمِ والقُدرةِ[2].

وأيضًا لَمَّا تمَّ هذانِ المَثَلانِ الدَّالَّانِ على تَمامِ عِلمِه وشُمولِ قُدرتِه؛ عطَفَ على قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ التصريحَ بتمامِ عِلمِه، وشُمولِ قُدرتِه[3]، فقال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولله وَحْدَه مُلْكُ ما غاب عن عِبادِه في السَّمَواتِ والأرضِ، وهو العالِمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨٠)، (١٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٢٠).

بكُلِّ شَيءٍ مِن الغُيوبِ سُبحانَه، دونَ الآلهةِ التي تُعبَدُ مِن دُونِه، ودونَ كُلِّ مَن سواه، لا يَملِكُ ذلك أحَدٌ غَيرُه، ولا اطِّلاعَ لأحدٍ على شَيءٍ مِن الغَيبِ إلَّا أن يُطلِعَه اللهُ عليه(١).

﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾.

أي: وما أمرُ قيامِ السَّاعةِ في سُرعةِ وُجودِها، وبَعثِ الخَلقِ وسُهولتِه إلَّا كنَظرةٍ سَريعةٍ مِن البَصَرِ(٢) أو(٣) .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٩).

(٢) قال ابن كثير: (أي: فيكونُ ما يريدُ كطَرفِ العَينِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٩).

(٣) قال الواحدي: (معنى «أَوْ» في قَولِه تعالى: ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ أنَّ أمْرَها يكونُ على إحدى مَنزِلَتينِ: إمَّا لَمحِ البَصرِ، وإمَّا أقرَبَ، فأدخَلَ «أَوْ» لشَكِّ المُخاطَبِ؛ أي: كونُوا في تقديرِ سُرعةِ كَونِها على هذا الشَّكِّ، وهذا معنى قولِ قُطرُب: أراد أن يطوِيَه عنَّا، وقيل: إنَّ «أَوْ» هاهنا بمنزلةِ «بل»). ((البسيط)) (١٣/ ١٥١).

وقال الألوسي: (قال ابنُ عطيةَ: هي للشكِّ على بابِها، على معنى أنَّه لو اتفقَ أن يقفَ على أمرِها شخصٌ مِن البشرِ لكانت مِن السرعةِ بحيثُ يشكُّ هل هو كلمحِ البصرِ أو أقربُ. وتعقَّبه في «البحر» أيضًا بأنَّ الشكَّ بعيدٌ؛ لأنَّ هذا إخبارٌ مِن الله تعالى عن أمرِ الساعةِ، والشكُّ مستحيلٌ عليه سُبحانَه، أي: فلا بدَّ أن يكونَ ذلك بالنسبةِ إلى غيرِ المتكلِّم، وفي ارتكابِه بعدٌ، ويدلُّ على أنَّ هذا مرادُه تعليلُه البعدَ بالاستحالةِ، فليس اعتراضُه مما يقضي منه العجبُ كما توهَّم. وقال الزجَّاج: هي للإبهامِ. وتُعُقِّب بأنَّه لا فائدةَ في إبهامِ أمرِها في السرعةِ، وإنَّما الفائدةُ في إبهامِ وقتِ مجيئِها. وأُجِيب بأنَّ المرادَ أنَّه يستبهمُ على مَن يشاهدُ سرعتَها هل هي كلمحِ البصرِ أو أقل، فتدبر. والمأثورُ عن ابنِ جريجٍ أنَّها بمعنى «بل»، وعليه كثيرون). ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٣٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٣).

ومما يُقوِّي القولَ بأنَّها على بابِها للشكِّ أنَّ العربَ تُخرجُ الكلامَ المتيقَّنَ في صورةِ المشكوكِ لأغراضٍ متعددةٍ، منها: أن يكونَ ذلك بناءً على تصوُّرِ المخاطَبِ وظنِّه. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٨٦).

هي أسرَعُ مِن ذلك[١].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ قادِرٌ على كلِّ شَيءٍ، ولا يُعجِزُه شَيءٌ، ومن ذلك قدرتُه على إقامةِ السَّاعةِ، والمجيءِ بها في أسرعِ ما يكونُ؛ فهو سبحانَه يقولُ للشَّيءِ: كُنْ. فيَكونُ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ الفائِدةُ في لَفظةِ ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أنَّ مَن لا يَملِكُ شَيئًا قد يكونُ مَوصوفًا باستطاعةِ أن يتَمَلَّكَه بطريقٍ مِن الطُّرُقِ، فبَيَّنَ تعالى أنَّ هذه الأصنامَ لا تَملِكُ، وليس لها أيضًا استطاعةُ تَحصيلِ المُلْك وذلك على أحدِ أوجُهِ التَّفسيرِ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ فلا يَحِلُّ لأحدٍ أن يعتَقِدَ أنَّ اللهَ تبارك وتعالى مُماثِلٌ لأحدٍ مِن المَخلوقينَ؛ ولا أنَّ أحدًا مُماثِلٌ للهِ تعالى[٤].

٣- التَّعبيرُ بنَفيِ التَّمثيلِ -في الأسماءِ والصِّفاتِ- أَولى مِن التَّعبيرِ بنَفيِ التَّشبيهِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٥- ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((شرح كتاب الحج من صحيح البخاري)) لابن عثيمين (٢/ ٤٢).

وذلك لأمورٍ:

أولًا: أنَّه المُوافِقُ لِلَفظِ القُرآنِ في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، و﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾، ولم يَقُلْ: «ليس كشِبْهِه شَيءٌ»، ولا قال: «فلا تَضرِبوا للهِ الأشباهَ».

ثانيًا: أنَّ التَّشبيهَ صار وصْفًا يختَلِفُ النَّاسُ في فَهمِه؛ فعند بَعضِ النَّاسِ إثباتُ الصِّفاتِ يُسمَّى تَشبيهًا، ويُسَمُّونَ مَن أثبَتَ صِفةً لله مُشَبِّهًا!

ثالثًا: أنَّ نَفيَ التَّشبيهِ على الإطلاقِ بين صِفاتِ الخالِقِ وصِفاتِ المَخلوقِ لا يَصِحُّ؛ لأنَّه ما مِن صِفَتينِ ثابِتَتينِ إلَّا وبينهما اشتِراكٌ في أصلِ المعنى، وهذا الاشتِراكُ نَوعٌ مِن المُشابَهةِ؛ فالعِلمُ مثلًا: للإنسانِ عِلمٌ، وللرَّبِّ سُبحانَه عِلمٌ، فاشتَرَكا في أصلِ المعنى، لكِنْ لا يَستَويانِ، أمَّا التَّمثيلُ فيَصِحُّ أن تنفِيَه نَفيًا مُطلقًا[(١)]!

٤- قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قَولُه: ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ إنَّما جُمِعَ الضَّميرُ وإن تقَدَّمَه اثنانِ؛ لأنَّ المُرادَ: جِنسُ العَبيدِ والأحرارِ المدلولِ عليهما بـ ﴿عَبْدًا﴾ وبـ (مَنْ رَزَقْنَاهُ). وقيل: على الأغنياءِ والفُقَراءِ المدلولِ عليهما بهما أيضًا. وقيل: اعتبارًا بمعنى ﴿مَنْ﴾ فإنَّ معناها جمعٌ، فراعَى معناها بعدَ أنْ راعى لَفظَها[(٢)]. وقيل: جَمَعَه نظرًا إلى أنَّ أقَلَّ الجَمعِ اثنانِ[(٣)].

٥- قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٨٠)، ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٤٨٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١١).

مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًا هَلۡ يَسۡتَوُۥنَ ﴾ لَمَّا كان الجوابُ قَطعًا: لا، وعُلِمَ أنَّ الفاضِلَ ما كان مِثالًا له سُبحانَه؛ عُلِمَ أنَّ مَن سَوَّى بينهما أو فعَلَ ما يَؤُولُ إلى التَّسويةِ أجهَلُ الجَهَلةِ، فثَبَت مَضمونُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ وأنَّ غَيرَه تعالى لا يُساوي شيئًا، فثَبَت بلا رَيبٍ أنَّه المختَصُّ بالمَثَلِ الأعلى، فعبَّرَ عن ذلك بقَولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍۖ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ جُعِلَ نفيُ صفةِ الكَلامِ مُوجِبًا لبُطلانِ الإلهيَّةِ، وهذا أمرٌ معلومٌ بالفِطَرِ والعُقولِ السَّليمةِ والكُتُبِ: أنَّ فاقِدَ صِفاتِ الكَمالِ لا يكونُ إلهًا، ولا مُدَبِّرًا، ولا ربًّا، بل هو مَذمومٌ مَعيبٌ ناقِصٌ، ليس له الحَمدُ لا في الأُولى، ولا في الآخرةِ، وإنَّما الحَمدُ في الأُولى والآخِرةِ لِمَن له صِفاتُ الكَمالِ، ونُعوتُ الجَلالِ، التي لأجْلِها استحَقَّ الحَمدَ[2].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ بيَّنَ أنَّ التَّفضيلَ إنَّما يكونُ بالكَلامِ المتضَمِّنِ للعَدلِ، وبالعَمَلِ المُستقيمِ، وإلَّا فإنَّ مجرَّدَ الكلامِ والعَمَلِ قد يكونُ مَحمودًا، وقد يكونُ مَذمومًا؛ فالمحمودُ هو الذي يَستَحِقُّ صاحِبُه الحمدَ، فلا يستوي هذا والعاجزَ عن الكَلامِ والفِعلِ[3].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ ﴾ السَّاعةُ هي الوَقتُ الذي تقومُ فيه القيامةُ، سُمِّيَت ساعةً؛ لأنَّها تَفجَأُ الإنسانَ في ساعةٍ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨٠).

فيَموتُ الخَلقُ بصَيحةٍ واحدةٍ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ عَطفٌ على جُملتَي التَّوبيخِ، وهو مَزيدٌ مِن التَّوبيخِ؛ فإنَّ الجُملتَينِ المعطوفَ عليهما أفادَتَا توبيخًا على إيمانِهم بالآلهةِ الباطلةِ، وكُفرِهم بنِعْمةِ المعبودِ الحقِّ، وهذه الجُملةُ المعطوفةُ أفادَتِ التَّوبيخَ على شُكرِ ما لا يَستحِقُّ الشُّكرَ؛ فإنَّ العبادةَ شُكرٌ، فهُم عبَدوا ما لا يَستحِقُّ العبادةَ، ولا بِيَدِه نِعمةٌ، وهو الأصنامُ؛ لأنَّها لا تَملِكُ ما يَأتيهم مِن الرِّزقِ لاحْتِياجِها، ولا تَستطيعُ رِزقَهم لِعَجزِها؛ فمُفادُ هذه الجملةِ مُؤكِّدٌ لِمُفادِ ما قَبلَها مع اختِلافِ الاعتبارِ بمُوجِبِ التَّوبيخِ في كِلْتَيهِما[٢].

- قولُه: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ عن الأصنامِ بصيغةِ ﴿مَا﴾ وهي لغيرِ أُولي العِلمِ، ثمَّ قال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ والجمعُ بالواوِ والنُّونِ مُختصٌّ بأُولي العلمِ؛ وذلك لأنَّه عبَّر عنها بلفظِ ﴿مَا﴾؛ اعتِبارًا لِمَا هو الحقيقةُ في نفسِ الأمرِ، وذكَر الجمعَ بالواوِ والنُّونِ اعتِبارًا لِمَا يَعتقِدون فيها أنَّها آلهةٌ؛ فأُجرِيَتْ عليها صيغةُ جمعِ العُقَلاءِ؛ مُجاراةً لاعتِقادِهم أنَّها تَعقِلُ وتَشفَعُ وتَستجيبُ[٣].

- وأفرَد ﴿يَمْلِكُ﴾ نَظرًا إلى لفظِ ﴿مَا﴾، وجَمَع ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ نَظرًا إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٢).

مَعناها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾[1] [الزخرف: ١٢-١٣].

- وقولُه: ﴿شَيْـًٔا﴾ مُبالَغةٌ في المنفيِّ، أي: ولا يَملِكون جُزءًا قَليلًا مِن الرِّزقِ[2].

- قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يجوزُ أن يكونَ عطفًا على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾، وأن يكونَ مُستأنفًا للإخبارِ عن حالِ الآلهةِ، ومفعولُ ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ محذوفٌ، هو ضميرُ المِلْكِ، أي: لا يستطيعون أن يملِكوا ذلك ولا يُمكِنُهم، فالكلامُ تتميمٌ لسابِقِه، وفيه من الترقِّي ما فيه، فلا يكونُ نفيُ استطاعةِ المِلكِ بعد نفيِ مِلكِ الرِّزقِ غيرَ مُحتاجٍ إليه.

وإن جُعِلَ المفعولُ ضَميرَ الرِّزقِ يكونُ هذا النفيُ تأكيدًا لِما قبلَه.

وقيل: حُذِف مفعولُ ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ لقَصدِ التَّعْميمِ، أي: لا يستطيعونَ شَيئًا.

ويجوزُ أن يكونَ الفِعلُ مُنزَّلًا منزلةَ اللازمِ، فيكونَ المرادُ نفيَ الاستطاعةِ عنهم مطلقًا، فالمعنى أنَّهم أمواتٌ لا قُدرةَ لهم أصلًا، فيكونَ تذييلًا للكلامِ السَّابقِ[3].

٢- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ تفريعٌ على جميعِ ما سبَق مِن الآياتِ والعِبَرِ والمِنَنِ؛ إذْ قد استَقامَ مِن جَميعِها انفرادُ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ، ونَفيُ الشَّريكِ له فيما خلَق وأنعَم، وبالأولَى نفيُ أن يكونَ له ولَدٌ؛ فلا جَرَمَ استَتَبَّ للمَقامِ أن يُفرَّعَ على ذلك زجرُ المشرِكين عن تَمثيلِهم غيرَ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص٣١٠)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٢).

اللهِ باللهِ في شيءٍ مِن ذلك، وأن يُمثِّلوه بالموجوداتِ[١].

- وفي قولِه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ...﴾ الْتِفاتٌ إلى الخِطابِ؛ للإيذانِ بالاهتمامِ بشأنِ النَّهيِ، أي: لا تُشرِكوا به شيئًا. والتَّعبيرُ عن ذلك بضَربِ المثَلِ؛ للقَصدِ إلى النَّهيِ عن الإشراكِ به تعالى في شأنٍ مِن الشُّؤونِ؛ فإنَّ ضرْبَ المثَلِ مَبْناه تشبيهُ حالةٍ بحالةٍ، وقِصَّةٍ بقِصَّةٍ، أي: لا تُشبِّهوا بشأنِه تعالى شأنًا مِن الشُّؤونِ[٢].

- قولُه: ﴿فَلَا﴾ الفاءُ للدَّلالةِ على تَرتُّبِ النَّهيِ على ما عَدَّد مِن النِّعَمِ الفائضةِ عليهم مِن جِهَتِه سُبحانَه[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ تعليلٌ للنَّهيِ المذكورِ، وهو النَّهيُ عن الشِّركِ، ووعيدٌ على المنهيِّ عنه، وتنبيه على أنَّ جهلَهم هو الذي أوقَعهم في تلك السخافاتِ مِن العقائدِ، وأنَّ الله إذ نهاهم وزجَرهم عن أن يشبِّهوه بما شبَّهوه إنَّما نهاهم لعلمِه ببطلانِ اعتقادِهم[٤]. ويجوزُ أن يُرادَ: فلا تَضرِبوا للهِ الأمثالَ؛ إنَّ اللهَ يَعلَمُ كيف يَضرِبُ الأمثالَ، وأنتُم لا تَعلَمون[٥]. وقيل غيرُ ذلك.

٣- قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ۖ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أعقَب زَجْرَهم عن أن يُشبِّهوا اللهَ بخَلقِه، أو أن يُشبِّهوا الخلقَ بربِّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٩).

بتمثيلِ حالِهم في ذلك بحالِ مَن مَثَّل عبدًا بسيِّدِه في الإنفاقِ، فجُملةُ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا...﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشِئًا عن قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣]، فشبَّه حالَ أصنامِهم في العجزِ عن رزقِهم بحالِ مملوكٍ لا يَقدِرُ على تَصرُّفٍ في نفسِه، ولا يَملِكُ مالًا، وشبَّه شأنَ اللهِ تعالى في رزقِه إيَّاهم بحالِ الغَنيِّ المالِكِ أمْرَ نفسِه بما شاء مِن إنفاقٍ وغيرِه، ومعرفةُ الحالَين المشبَّهتَين يَدُلُّ عليها المَقامُ، والمقصودُ نفيُ المماثَلةِ بينَ الحالَتَينِ، فكيف يَزعُمون مُماثَلةَ أصنامِهم للهِ تعالى في الإلهيَّةِ؟! ولذلك أُعقِب بجُملةِ: ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾، وذيَّل هذا التَّمثيلَ بقولِه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

- قولُه: ﴿عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ فائدةُ ذِكْرِه ﴿مَّمۡلُوكًا﴾ بعدَ قولِه: ﴿عَبۡدًا﴾ الاحترازُ عن الحُرِّ؛ فإنَّه عبدٌ للهِ تعالى، وليس مَملوكًا لغيرِه، وفائدةُ ﴿لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ بعدَ قولِه: ﴿مَّمۡلُوكًا﴾ الاحترازُ عن المأذونِ له، والمكاتَبِ؛ لقُدرتِهما على التَّصرُّفِ استِقلالًا[2]؛ فوصَف ﴿عَبۡدًا﴾ هنا بقولِه: ﴿مَّمۡلُوكًا﴾ تأكيدًا للمَعْنى المقصودِ، وإشعارًا لِمَا في لفظِ (عبدٍ) مِن معنى المملوكيَّةِ المقتضِيَةِ أنَّه لا يتَصرَّفُ في عمَلِه تَصرُّفَ الحُرِّيَّةِ[3].

- قولُه: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ﴾ فيه الْتِفاتٌ إلى التَّكلُّمِ؛ للإشعارِ باختلافِ حالَيْ ضَرْبِ المثَلِ والرِّزقِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٣- ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٩).

- في قولِه: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ الفاءُ لِتَرتيبِ الإنفاقِ على الرِّزقِ، كأنَّه قيل: ومَن رزَقْناه مِنَّا رِزقًا حسَنًا فأنفَق. وإيثارُ ما عليه النَّظْمُ الكريمُ مِن الجملةِ الاسميَّةِ الفعليَّةِ الخَبرِ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ الإنفاقِ، واستِمْرارِه التَّجدُّديِّ[١]. وفُرِّعَت جملةُ ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ على الَّتي قَبلَها دونَ أن تُجعَلَ صِفةً للرِّزقِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ مَضمونَ كِلْتا الجُملَتَينِ مَقصودٌ لِذاتِه كَمالٌ في مَوصوفِه؛ فكَونُه صاحِبَ رِزقٍ حسَنٍ كَمالٌ، وكونُه يتَصرَّفُ في رزقِه بالإعطاءِ كمالٌ آخَرُ، وكِلاهُما بضِدِّ نَقائِصِ المملوكِ الَّذي لا يَقدِرُ على شيءٍ من الإنفاقِ، ولا ما يُنفَقُ مِنه. وجعَل المسنَدَ فِعلًا ﴿يُنفِقُ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّقوِّي، أي: يُنفِقُ إنفاقًا ثابتًا. وجعَل الفِعلَ مُضارِعًا؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والتَّكرُّرِ، أي: يُنفِقُ ويَزيدُ[٢].

- قولُه: ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ حالانِ مِن ضميرِ ﴿يُنفِقُ﴾، وهما مَصْدَرانِ مُؤوَّلانِ بالصِّفةِ، أي: مُسِرًّا وجاهِرًا بإنفاقِه، والمقصودُ مِن ذِكرِهما: تعميمُ الإنفاقِ، كنايةً عن استِقْلالِ التَّصرُّفِ، وعدَمِ الوِقايةِ مِن مانعٍ إيَّاه عن الإنفاقِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ تقديمُ السِّرِّ على الجهرِ؛ للإيذانِ بفَضلِه عليه. والعُدولُ عن تَطبيقِ القَرينَتَينِ بأن يُقالَ: (وحُرًّا مالِكًا للأموالِ) -مع كونِه أدَلَّ على تَبايُنِ الحالِ بينَه وبينَ قَسيمِه- لِتَوخِّي تحقيقِ الحقِّ بأنَّ الأحرارَ أيضًا تحتَ رِبْقةِ عُبوديَّتِه سُبحانَه وتَعالى، وأنَّ مالِكيَّتَهم لِمَا يَملِكونه ليسَت إلَّا بأن يَرزُقَهم اللهُ تعالى إيَّاه مِن غيرِ أن يكونَ لهم مَدخَلٌ في ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٤- ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٩).

- وجملةُ: ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾، فبيَّن غرَضَ التَّشبيهِ بأنَّ المثَلَ مُرادٌ منه عدَمُ تَساوي الحالَتَينِ؛ لِيَستدِلَّ به على عدَمِ مُساواةِ أصحابِ الحالةِ الأُولى لِصاحِبِ الصِّفةِ المشبَّهةِ بالحالةِ الثَّانيةِ. والاستِفْهامُ مُستعمَلٌ في الإنكارِ[1].

- وجملةُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ مُعترِضةٌ بينَ الاستِفْهامِ المفيدِ للنَّفيِ في ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ وبينَ الإضرابِ بـ (بل) الانتقاليَّةِ في ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، والمقصودُ مِن هذه الجملةِ: أنَّه تبيَّن مِن المثَلِ اختِصاصُ اللهِ بالإنعامِ، فوجَب أن يَختَصَّ بالشُّكرِ، وأنَّ أصنامَهم لا تَستحِقُّ أن تُشكَرَ، وجيءَ بهذه الجملةِ البَليغةِ الدَّلالةِ، المفيدةِ انحِصارَ الحَمدِ في مُلكِ اللهِ تعالى، وهو إمَّا حَصرٌ ادِّعائيٌّ؛ لأنَّ الحمدَ إنَّما يَكونُ على نِعمةٍ، وغيرُ اللهِ إذا أنعَم فإنَّما إنعامُه مَظهَرٌ لِنِعمةِ اللهِ تعالى الَّتي جَرَتْ على يدَيْه، وإمَّا قصرٌ إضافيٌّ، قصرَ إفرادٍ للرَّدِّ على المشرِكين؛ إذ قسَّموا حَمْدَهم بيْنَ اللهِ وبينَ آلِهَتِهم[2].

- قولُه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فيه إسنادُ نَفْيِ العلمِ إلى أكثَرِهم؛ لأنَّ مِنهم مَن يَعلَمُ الحقَّ ويُكابِرُ؛ استِبْقاءً للسِّيادةِ، واستِجْلابًا لِطاعةِ دَهْمائِهم؛ فهذا ذَمٌّ لأكثَرِهم بالصَّراحةِ، وهو ذمٌّ لأقَلِّهم بوَصْمةِ المكابَرةِ والعِنادِ بطَريقِ التَّعريضِ[3].

٤- قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍۖ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٢٦).

وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ تَمثيلٌ ثانٍ للحالَتَينِ بحالَتَينِ باختلافِ وجْهِ الشَّبَهِ، وقد قرَنَ في التَّمثيلِ هنا حالَ الرَّجُلَينِ ابتِداءً، ثمَّ فَصَّل في آخِرِ الكلامِ مع ذِكْرِ عدَمِ التَّسويةِ بينَهما بأسلوبٍ مِن نَظْمِ الكلامِ بَديعِ الإيجازِ؛ إذ حُذِف مِن صدْرِ التَّمثيلِ ذِكْرُ الرَّجلِ الثَّاني؛ للاقتصارِ على ذِكْرِه في استِنْتاجِ عدَمِ التَّسويةِ؛ تَفنُّنًا في المخالَفةِ بينَ أسلوبِ هذا التَّمثيلِ، وأسلوبِ سابِقِه الَّذي في قولِه تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا...﴾، ومِثلُ هذا التَّفنُّنِ مِن مَقاصِدِ البُلَغاءِ؛ كَراهيةً للتَّكريرِ؛ لأنَّ تَكريرَ الأسلوبِ بمَنزِلةِ تَكريرِ الألفاظِ[1]. وقيل: ومُقابِلُه رجلٌ موصوفٌ بما يُقابِلُ تلك الصِّفاتِ مِن النُّطقِ والقدرةِ والكفايةِ، ولكنَّه حذَفَ المقابِلَ؛ لِدَلالةِ مُقابِلِه عليه[2].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ اللَّامُ فيه لامُ المِلْكِ، والإخبارُ بأنَّ الأشياءَ الخَفيَّةَ والعوالِمَ الَّتي لا تَصِلُ إلى مُشاهَدتِها حواسُّ المخلوقاتِ الأرضيَّةِ مِلكٌ للهِ؛ يَقتَضي بطَريقِ الكِنايةِ أيضًا أنَّه عالِمٌ بها. وتقديمُ المجرورِ ﴿وَلِلَّهِ﴾ أفاد الحَصْرَ، أي: له لا لغيرِه، ولامُ المِلْكِ أفادَتِ الحصرَ؛ فيكونُ التَّقديمُ مُفيدًا تأكيدَ الحَصْرِ، أو هو للاهتِمامِ[3].

- ووجهُ الشَّبَهِ هو كونُ لَمْحِ البصَرِ مَقدورًا بدونِ كُلفةٍ؛ لأنَّ لَمْحَ البصَرِ هو أمكَنُ وأسرَعُ حرَكاتِ الجَوارِحِ؛ فهو أيسَرُ وأسرَعُ مِن نقلِ الأرجُلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢).

في المشيِ، ومِن الإشارةِ باليَدِ. ويجوزُ أن يكونَ وجْهُ الشَّبهِ السُّرعةَ، أي: سُرعةَ الحُصولِ عندَ إرادةِ اللهِ، أي: ذلك يَحصُلُ فجأةً بدونِ أَماراتٍ، كقولِه: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، والمقصودُ: إنذارُهم وتحذيرُهم مِن أن تَبْغَتَهم السَّاعةُ؛ لِيُقلِعوا عمَّا هم فيه مِن وقتِ الإنذارِ[١].

- قولُه: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ (أو) للإضرابِ الانتقاليِّ -على قولٍ-؛ إضرابًا عن التَّشبيهِ الأوَّلِ بأنَّ المشبَّهَ أقوى في وجهِ الشَّبهِ من المشبَّهِ به؛ فالمتكلِّمُ يُخيِّلُ للسَّامِعِ أنَّه يُريدُ تَقْريبَ المعنى إليه بطَريقِ التَّشبيهِ، ثمَّ يُعرِضُ عن التَّشبيهِ، بأنَّ المشبَّهَ أقْوى في وجهِ الشَّبهِ وأنَّه لا يَجِدُ له شَبيهًا، فيُصرِّحُ بذلك، فيَحصُلُ التَّقريبُ ابتِداءً ثمَّ الإعرابُ عن الحقيقةِ ثانيًا. ثمَّ المرادُ بالقُربِ في قولِه تعالى: ﴿أَقْرَبُ﴾ على الوجهِ الأوَّلِ في تفسيرِ لَمْحِ البصَرِ: هو القُربُ المكانيُّ؛ كنايةً عن كَونِه في المقدوريَّةِ بمنزِلةِ الشَّيءِ القريبِ التَّناوُلِ، كقولِه تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وعلى الوجهِ الثَّاني في تفسيرِه يَكونُ القُربُ قُربَ الزَّمانِ، أي: أقرَبُ مِن لَمْحِ البصَرِ حِصَّةً، أي: أسرَعُ حُصولًا[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٢٩).

الآيات (٧٨-٨٢)

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾: أي: مُذَلَّلاتٍ، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ[١].

﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾: أي: يَخِفُّ عليكم حَمْلُها، وأصلُ (خفف): يُخالِفُ الثِّقَلَ والرَّزانةَ[٢].

﴿ظَعْنِكُمْ﴾: أي: سَفَرِكم وتَرْحالِكم، وأصلُ (ظعن): يدُلُّ على الشُّخوصِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي.

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٦).

﴿وَأَوۡبَارِهَا﴾: جمعُ وبرٍ، وهو للإبلِ كالصوفِ للغنمِ، وهو خاصٌّ بالإبلِ[١].

﴿أَثَٰثًا﴾: أي: مَتاعَ البَيتِ، وأصلُه: مِن الكَثرةِ والاجتِماعِ؛ اجتِماعِ بَعضِ المَتاعِ إلى بَعضٍ حتى يَكثُرَ، كالشَّعرِ الأثيثِ، وهو الكثيرُ المُلتَفُّ[٢].

﴿أَكۡنَٰنًا﴾: أي: مَواضِعَ تَستَكِنُّونَ بها، كالكُهوفِ والأسرابِ وغَيرِها، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[٣].

﴿سَرَٰبِيلَ﴾: أي: جميعَ ما يُلبَسُ على البَدَنِ، كالقُمُصِ والدُّروعِ وغيرِها[٤].

﴿بَأۡسَكُمۡ﴾: أي: شِدَّةَ الطَّعنِ والضَّربِ والرَّميِ في الحَربِ، وأصلُ (بأس): يدلُّ على الشِّدَّةِ[٥].

المَعنى الإجْماليُّ:

يخاطبُ اللهُ تعالى عبادَه معدِّدًا أنواعًا مِن نعمِه عليهم، فيقولُ: واللهُ أخرَجَكم -أيُّها النَّاسُ- مِن بُطونِ أمَّهاتِكم لا عِلمَ لكم بشَيءٍ، وجعَلَ لكم

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٢)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:٢٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩).

السَّمعَ والأبصارَ والقُلوبَ؛ لعَلَّكم تَشكُرونَ اللهَ، وتُفرِدونَه عزَّ وجَلَّ بالعبادةِ.

ثم ساق الله تعالى دَليلًا آخَرَ على وحدانيتِه، وكَمالِ قُدرتِه، فقال تعالى: ألم يَنظُروا إلى الطَّيرِ مُذَلَّلاتٍ للطَّيَرانِ في الهَواءِ بين السَّماءِ والأرضِ بأمرِ اللهِ تعالى؟ ما يُمسِكُهنَّ في الجوِّ، ويمنعُهنَّ مِن الوُقوعِ غيرُه سُبحانَه، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، لِقَومٍ يُؤمِنونَ.

ثمَّ ساق الله تعالى ألوانًا مِن النِّعمِ، منها ما يتعلَّقُ بنعمةِ المسكنِ، فقال: واللهُ سُبحانَه جعَلَ لكم مِن بُيوتِكم راحةً واستقرارًا، تأوُونَ إليها، وتَستَتِرونَ بها، وجعَلَ لكم مِن جُلودِ الأنعامِ خيامًا يَخِفُّ عليكم حَمْلُها وَقتَ تَرْحالِكم وحِلِّكم، وجعَلَ لكم مِن أصوافِ الغَنَمِ، وأوبارِ الإبِلِ، وأشعارِ المَعْزِ، أثاثًا لبُيوتِكم، ومتاعًا تتمَتَّعونَ به إلى أجلٍ مُسمًّى.

ثمَّ ذكَر الله تعالى نعمةَ الظِّلالِ والجبالِ واللباسِ فقال: والله جعَلَ لكم ما تَستَظِلُّون به مِن الأشجارِ وغَيرِها، وجعَلَ لكم مِن الجبالِ مغاراتٍ وكُهوفًا تَلجَؤونَ إليها عندَ الحاجةِ، فهي تحميكم مِن الحَرِّ والبَردِ، والأمطارِ والأعداءِ، وجعَلَ لكم ثيابًا تَقيكم الحَرَّ، وجعَلَ لكم مِن الحديدِ دروعًا وغيرَها تقيكم الطَّعنَ في حُروبِكم وتدفَعُ عنكم ضَرَرَ السِّلاحِ، كما أنعَمَ اللهُ عليكم بهذه النِّعَمِ يُتِمُّ نِعمَتَه عليكم؛ لتَخضعوا لأمرِ اللهِ وَحْدَه، ولا تُشرِكوا به شَيئًا في عبادتِه.

ثم قال تعالى مسليًا نبيَّه: فإنْ أعرَضوا عنك- يا مُحمَّدُ- بعدَ ما رأَوا مِن الآياتِ، فما عليك إلَّا البلاغُ الواضِحُ لِما أُرسِلتَ به، ولا لومٌ عليك ولا عتابٌ.

ثمَّ بيَّن الله تعالى موقفَ المشركينَ مِن نعمِ الله، فقال: يَعرِفُ هؤلاءِ المُشرِكونَ نِعمةَ الله عليهم ثمَّ يَجحَدونَها، وأكثَرُهم كافِرون.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أمْرَ السَّاعةِ، وأنَّها كائِنةٌ لا محالةَ، فكان في ذلك دَلالةٌ على النَّشأةِ الآخرةِ، وتقَدَّمَ وَصفُ الكافرينَ بانتفاءِ العِلمِ؛ ذكَرَ تعالى النَّشأةَ الأُولَى، وهي إخراجُهم مِن بُطونِ أمَّهاتِهم غيرَ عالِمينَ شَيئًا، تنبيهًا على وقوعِ النَّشأةِ الآخِرةِ، ثمَّ ذكَرَ تعالى امتِنانَه عليهم بجَعلِ الحواسِّ التي هي سبَبٌ لإدراكِ الأشياءِ والعِلمِ[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا انقضى توبيخُ المُشرِكينَ على إيمانِهم بالباطِلِ، وكُفرانِهم بالحَقِّ وما استتبَعَه، وختَمَ بأمرِ السَّاعةِ؛ عطَفَ على قَولِه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾ ما هو مِن أدلَّةِ السَّاعةِ، وكمالِ القُدرةِ والفِعلِ بالاختيارِ مِن النَّشأةِ الأولى[2].

وأيضًا فإنَّها عَودٌ إلى إكثارِ الدَّلائِلِ على انفرادِ اللهِ بالتصَرُّفِ، وإلى تَعدادِ النِّعَمِ على البشَرِ، عطفًا على جملةِ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾ بعدما فصَلَ بينَ تَعدادِ النِّعَمِ بما اقتضاه الحالُ مِن التذكيرِ والإنذارِ[3].

﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣١).

أي: واللهُ أخرَجَكم -أيُّها النَّاسُ- بقُدرتِه وعِلمِه مِن بُطونِ أمَّهاتِكم أطفالًا جاهِلينَ، لا عِلمَ لكم بشَيءٍ من أمورِ الدُّنيا والآخرةِ[١].

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

أي: وخلَقَ لكم السمعَ الذي به تَسمَعونَ، والأبصارَ التي بها تُبصِرونَ، والأفئِدةَ[٢] التي بها تَعقِلونَ؛ كي تَشكُروا اللهَ على ما رزَقَكم، وتَستَعمِلوها في طاعتِه، فتَعبُدوه وَحْدَه ولا تَعصُوه[٣].

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا دَليلٌ آخَرُ على كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى وحِكمتِه؛ فإنَّه لولا أنَّه تعالى خلَقَ الطَّيرَ خِلقةً معها يُمكِنُه الطَّيرانُ، وخلَقَ الجَوَّ خِلقةً معها يُمكِنُ الطَّيرانُ فيه- لَمَا أمكَنَ ذلك؛ فإنَّه تعالى أعطى الطيرَ جناحًا يَبسُطُه مَرَّةً، ويَكسِرُه أخرى، مِثلَ ما يَعمَلُه السَّابِحُ في الماءِ، وخلَقَ الهواءَ خِلقةً لطيفةً رقيقةً، يَسهُلُ بِسَبَبِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٥٢)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٨).

(٢) قال ابن عاشور: (الأفئدةُ: جمعُ الفُؤادِ، وأصلُه القَلبُ، ويُطلَقُ كثيرًا على العَقلِ، وهو المرادُ هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٢).

قال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرون: ومقصودُ الآيةِ: أنَّ الله تعالى أبان نِعَمَه عليهم؛ حيث أخرجَهم جُهَّالًا بالأشياءِ، وخلَقَ لهم الآلاتِ التي يتوصَّلونَ بها إلى العِلمِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٥).

خَرقُه والنَّفاذُ فيه، ولولا ذلك لَمَا كان الطَّيرانُ مُمكِنًا[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى مدارِكَ العِلمِ الثَّلاثةَ: السَّمعَ، والنَّظَر، والعَقلَ، والأوَّلانِ مُدرَكُ المَحسوسِ، والثَّالِثُ مُدرَكُ المَعقولِ؛ اكتفَى مِن ذِكرِ مُدرَكِ المحسوسِ بذِكرِ النَّظَرِ، فإنَّه أغرَبُ لِمَا يُشاهَدُ به مِن عَظيمِ المخلوقاتِ على بُعدِها المُتَفاوِتِ، كمُشاهَدتِه النَّيِّراتِ التي في الأفلاكِ. وجعَلَ هنا مَوضِعَ الاعتبارِ والتعَجُّبِ الحَيوانَ الطَّائِرَ، فإنَّ طَيرانَه في الهواءِ مع ثِقَلِ جِسمِه مِمَّا يُعجَبُ منه ويُعتبَرُ به. وتضَمَّنَت الآيةُ أيضًا ذِكرَ مُدرَكِ العَقلِ في كَونِه لا يَسقُطُ؛ إذ ليس تحتَه ما يَدعَمُه، ولا فَوقَه ما يتعَلَّقُ به، فيُعلَمُ بالعَقلِ أنَّه له مُمسِكٌ قادِرٌ على إمساكِه، وهو الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]، فانتظَمَ في الآيةِ ذِكرُ مُدرَكِ الحِسِّ ومُدرَكِ العَقلِ[٢].

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾.

أي: ألم يَنظُرُوا[٣] إلى الطُّيورِ التي ذلَّلَ اللهُ لها الطَّيرانَ بأجنِحَتِها في الهواءِ بينَ السَّماءِ والأرضِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٥).

(٣) ممَّن ذهب إلى أنَّ الآيةَ تنبيهٌ للنَّاسِ: ابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٤).

وخصَّهم ابنُ جرير، ومكي بالمشركينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٦)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٦/ ٤٠٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٠).

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

أي: ما يُمسِكُ الطُّيورَ في الجوِّ إلَّا اللهُ بقُدرتِه[١].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ في تَسخيرِ اللهِ الطُّيورَ للطَّيرانِ في جوِّ السَّماءِ -حيث خلَقَها اللهُ تعالى خِلقةً تَصلُحُ معها للطَّيرانِ، وخلَقَ هذا الهواءَ اللَّطيفَ بحيث يُمكِنُ الطيرانُ فيه، مع إمساكِها في الهواءِ على خلافِ طَبْعِها- لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ قُدرتِه، وحِكمتِه وعِلْمِه، لِقَومٍ يُؤمِنونَ باللهِ ورُسُلِه[٢].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما مَنَّ به عليهم مِن خَلْقِهم، وما خلَقَ لهم مِن مدارِكِ العِلمِ؛ ذكَرَ ما امتَنَّ به عليهم ممَّا يَنتَفِعونَ به في حياتِهم من الأمورِ الخارجةِ عن ذَواتِهم مِنَ البُيوتِ التي يَسكُنونَها، مِن الحَجَرِ والمَدَرِ والأخشابِ وغَيرِها[٣]، فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٦).

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾.

أي: واللهُ جعَل لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن بُيوتِكم -كالتي مِن الحَجَرِ والمَدَرِ والخَشَبِ- مساكِنَ لكم تَستَقِرُّونَ فيها، وتأوُونَ إليها، وتَستَتِرونَ بها، وتقيكم الحَرَّ والبَردَ، وغوائِلَ السِّباعِ والهَوامِّ، وتنتَفِعونَ بها في غيرِ ذلك[1].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾

أي: وجعَلَ لكم -أيُّها النَّاسُ- خِيامًا مِن جُلودِ الأنعامِ، أو مِمَّا يَنبُتُ عليها مِن صُوفٍ وشَعرٍ ووَبَرٍ[2].

﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾.

أي: تَجِدونَ الخِيامَ خَفيفةَ الحَملِ والنَّقلِ في تَرْحالِكم، وفي حِلِّكم[3].

﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾.

أي: واللهُ جعَلَ لكم مِن أصوافِ الغَنَمِ وأوبارِ الإبِلِ وأشعارِ الماعِزِ أثاثًا[4]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٨-٢٣٩).

قال ابن عاشور: (أي: خَفيفةُ المَحمَلِ حينَ تَرحَلونَ؛ إذ يَسهُلُ نَقضُها مِن مواضِعِها، وطَيُّها وحَمْلُها على الرَّواحِلِ، وحين تُنيخونَ إناخةَ الإقامةِ في الموضِعِ المُنتَقَلِ إليه، فيَسهُلُ ضَربُها وتَوثيقُها في الأرضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٨).

(٤) قال ابنُ كثير: (﴿أَثَٰثٗا﴾ أي: تتَّخِذون منه أثاثًا، وهو المال. وقيل: المتاعُ. وقيل: الثيابُ، والصحيحُ أعَمُّ من هذا كلِّه؛ فإنَّه يُتَّخَذُ من الأثاث البُسُطُ والثيابُ وغير ذلك، ويُتَّخَذُ مالًا وتجارةً). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١).

تتَّخِذونَه لبُيوتِكم، وبَلاغًا تتبلَّغونَ وتَستَمتِعونَ به إلى أجَلٍ[(١)].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما مَنَّ به عليهم ممَّا سبَقَ ذِكرُه، وكانت بِلادُهم غالِبًا عليها

وقال السعدي: (وهذا شامِلٌ لكُلِّ ما يُتَّخَذُ منها؛ مِن الآنيةِ والأوعيةِ والفُرُشِ والألبِسةِ والأجِلَّةِ، وغيرِ ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥).

وقال ابن عاشور: (والأَثاثُ -بفتح الهمزة- اسمُ جمعٍ للأشياء التي تُفرَشُ في البيوت من وسائِدَ وبُسُطٍ وزرابيَّ، وكلُّها تُنسَجُ أو تُحشى بالأصواف والأشعار والأوبار، والمتاع أعمُّ مِن الأثاثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٨، ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٨).

قيل: معنى ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: أي: إلى انقضاءِ آجالِهم بالموتِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٦).

وقيل: المرادُ: إلى وقتٍ غيرِ معينٍ، بحسبِ كلِّ إنسانٍ في فقدِ ذلك. وممن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطيةَ، والقرطبي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥٩)، ((نظم الدرر)) (١١/ ٢٢٦).

قال ابن عطية: (قَولُه: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يريدُ به وقتًا غيرَ مُعيَّنٍ، وهو بحسَبِ كُلِّ إنسانٍ، إمَّا بموتِه، وإمَّا بفقد تلك الأشياءِ التي هي أثاثٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٢).

وقال ابن كثير: (قولُه: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى أجَلٍ مُسمًّى ووقتٍ معلومٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١).

قال الزمخشري: (﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أن تقضُوا منه أوطارَكم، أو إلى أن يَبلَى ويفنَى، أو إلى أن تموتوا). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٦).

الحَرُّ؛ ذكَرَ امتِنانَه عليهم بما يَقيهم الحَرَّ مِن خَلقِ الأجرامِ التي لها ظِلٌّ، كالشَّجرِ وغَيرِه مِمَّا يَمنَعُ مِن أذَى الشَّمسِ[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما يخُصُّ النَّاسَ؛ أتبَعَه ما يُشارِكونَ فيه سائِرَ الحيواناتِ، فقال تعالى[٢]:

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا ﴾.

أي: واللهُ جعَلَ لكم ممَّا خلَقَ مِن الأشجارِ والسَّحابِ والجِبالِ والبُيوتِ وغَيرِها[٣] ظِلالًا تستظلُّون بها من حرارة الشَّمس[٤].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾.

أي: وجعل لكم مِن الجِبالِ مَغاراتٍ وحُصونًا تَحمِيكم مِن الحَرِّ والبَردِ، والأمطارِ والأعداءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٢٦).

(٣) قال ابن عطية: (قولُه: ﴿مِّمَّا خَلَقَ ﴾ يعُمُّ جميعَ الأشخاصِ المُظِلَّةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٢).

وقال ابن تيمية: (فالظِّلالُ يعُمُّ جَميعَ ما يُظِلُّ مِن العُرُشِ والفساطيطِ والسُّقوفِ، مِمَّا يَصطَنِعُه الآدميُّونَ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦).

قال ابنُ عطية: (نِعَمٌ عَدَّدَها اللهُ عليهم بحسَبِ أحوالِهم وبلادِهم، وأنَّها الأشياءُ المُباشِرةُ لهم؛ لأنَّ بلادَهم مِن الحرارةِ وقَهرِ الشَّمسِ بحيثُ للظِّلِّ غَناءٌ عَظيمٌ، ونَفعٌ ظاهِرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦).

قال ابن تيمية: (فَرقٌ بين الظِّلالِ والأكنانِ؛ فإنَّ الظِّلالَ يكونُ بالشَّجرِ ونحوِه مِمَّا يُظِلُّ ولا يَكُنُّ،

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾.

أي: وجعَلَ لكم ثِيابًا تَدفَعُ عنكم ضَرَرَ الحَرِّ[(١)].

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

أي: وجعَلَ لكم ثِيابًا -كالدُّروعِ وغَيرِها- تدفَعُ عنكم وقتَ الحَربِ ضَرَرَ السِّلاحِ[(٢)].

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

أي: كما أعطاكم اللهُ هذه النِّعَمَ، فكذلك يُتِمُّ نِعمَتَه عليكم بما تحتاجونَ إليه في دينِكم ودُنياكم؛ لتُخلِصوا له العِبادةَ، وتَخضَعوا له، وتَنقادوا لأمْرِه؛ لِما تَرَونَ مِن كَثرةِ إحسانِه بما لا يَقدِرُ عليه غيرُه، ولِتَكونَ تلك النِّعَمُ عَونًا لكم على طاعتِه سُبحانَه[(٣)].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾.

بخلافِ ما في الجِبالِ مِن الغِيرانِ؛ فإنَّه يُظِلُّ ويَكُنُّ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١٦٠-١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٠).

قال ابنُ عاشور: (وإضافتُه [أي: البأس] إلى الضَّميرِ على معنى التَّوزيعِ، أي: تقي بعضَكم بأسَ بَعضٍ، كما فُسِّرَ به قولُه تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦).

أي: فإنْ أعرَضَ المُشرِكونَ -يا مُحمَّدُ- عن دَعوتِك بعدَ هذا البَيانِ والامتنانِ، والتَّذكيرِ بالنِّعَم والإحسانِ، فلم يُؤمِنوا بك ويَستَجيبوا لك؛ فما عليك مِن لَومٍ ولا عِتابٍ؛ إذ ليس عليك إلَّا تَبليغُهم ما أرسَلَك اللهُ به تبليغًا واضِحًا، وقد أدَّيتَه إليهم، وليس عليك هدايتُهم ولا حِسابُهم[1].

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

أي: يَعرِفُ المُشرِكونَ نِعَمَ اللهِ عليهم، ثم يَجحَدونَها، فلا يَشكُرونَ اللهَ عليها، ويَنسُبونَها إلى غَيرِه، ويُشرِكونَ به في عبادتِه[2]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٠).

وممَّن اختار هذا القول: ابن قتيبة، وابن كثير، والشوكاني، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بنحو هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ السائب، ومجاهد في رواية عنه، وعبد الله بن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٧).

وقيل: المعنى: يعرف المشركون نعمةَ الله عليهم بإرسالِ محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام، ثمَّ يجحدون نبوَّتَه، وأكثرُهم الجاحدون نبوَّتَه مع عِلمِهم بصدقِه. وممن اختار هذا المعنى: ابن جرير، والزجاج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٦، ٣٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢١٦).

وممن قال بهذا القول من السلف: مجاهد، والسدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٧).

قال ابن القيم: (وقالت طائفةٌ: النعمةُ هاهنا محمدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنكارُها: جحدُهم

وأكثرُهم الكافرون[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ هذا الصُّنعُ باعِثٌ على شُكرِ اللهِ بتَوحيدِه، ونَبذِ الإشراكِ؛ فإنَّ الإنعامَ يَبعَثُ العاقِلَ على الشُّكرِ؛ لهذا قال تعالى عَقِبَه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ خَصَّ هذه الأعضاءَ الثَّلاثةَ؛ لِشَرَفِها وفَضلِها، ولأنَّها مِفتاحٌ لكُلِّ عِلمٍ، فلا وَصَلَ للعبدِ عِلمٌ إلَّا مِن أحَدِ هذه الأبوابِ الثَّلاثةِ، وإلَّا فسائِرُ الأعضاءِ والقُوى الظَّاهِرةِ والباطنةِ هو الذي أعطاهم إيَّاها، وجعَلَ يُنَمِّيها فيهم شيئًا فشيئًا إلى أن يَصِلَ كُلُّ أحدٍ إلى الحالةِ اللَّائقةِ به؛ وذلك لأجلِ أن يَشكُروا اللهَ، باستعمالِ ما أعطاهم مِن هذه الجوارِحِ في طاعةِ اللهِ، فمَنِ استعمَلَها في غيرِ ذلك كانت حُجَّةً عليه، وقابَلَ النِّعمةَ بأقبَحِ المُقابَلةِ[٣].

نبوَّتَه. وهذا يُروى عن مجاهد والسدِّي، وهذا أقرب إلى حقيقة الإنكارِ؛ فإنَّه إنكارٌ لِما هو أجلُّ النِّعَمِ أن تكونَ نِعمةً). ((شفاء العليل)) (ص: ٣٦).

(١) قال الشوكاني: (﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: الجاحدون لنِعَمِ الله، أو الكافرون بالله، وعبَّرَ هنا بالأكثر عن الكلِّ، أو أراد بالأكثر العقلاءَ دون الأطفالِ ونحوِهم، أو أراد كُفرَ الجحودِ، ولم يكن كفرُ كُلِّهم كذلك، بل كان كفرُ بعضِهم كفرَ جهلٍ، وكفرُ بعضِهم بسببِ تكذيبِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع اعترافهم بالله وعدَمِ الجَحدِ لربوبيَّتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥).

٣- أخبَرَ سُبحانَه أنَّ الشُّكرَ هو الغايةُ مِن خَلقِه وأمْرِه، بل هو الغايةُ التى خلَقَ عَبيدَه لأجْلِها ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فهذه غايةُ الخَلقِ، وغايةُ الأمرِ[١].

٤- المقصودُ مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ الوَعظُ بأنَّهم صائِرونَ إلى زَوالٍ يَحولُ دونَ الانتفاعِ بها؛ لِيَكونَ النَّاسُ على أُهْبةٍ واستعدادٍ للآخِرةِ، فيَتَّبِعوا ما يُرضي اللهَ تعالى، كما قال تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[٢] [الأحقاف: ٢٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الأصلُ في الإنسانِ الجَهلُ، وهو ما يدُلُّ على نَقصِه؛ حيث كان ذلك هو الأصلَ فيه؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾، ثمَّ قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، فبَيَّنَ طُرُقَ العِلمِ: ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وبهما الإدراكُ، و﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ وبها الوعيُ والحِفظُ[٣]. وبما أنَّ الأصلَ في النَّاسِ الجَهلُ- استدلالًا بهذه الآيةِ- فلا يجوزُ استِفتاءُ رَجُلٍ غيرِ مَشهورٍ بالعِلمِ، حتى يُبحَثَ عن عِلمِه، ومَن ادَّعى جَهلَ شَيءٍ كان القَولُ قَولَه؛ لِمُوافقَتِه للأصلِ[٤].

٢- في ضِمنِ قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ إثباتُ النُّطقِ؛ لأنَّ مَن لم

---

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٣).

يسمَعْ لم يتكَلَّمْ، وإذا وُجِدَت حاسَّةُ السَّمعِ وُجِدَ النُّطقُ[١].

٣- السَّمعُ والبَصَرُ، هاتان الحاسَّتانِ هما الأصلُ في العِلْمِ بالمعلوماتِ التي يمتازُ بها الإنسانُ عن البَهائمِ؛ ولِهذا يَقرُنُ اللهُ تعالى بينهما وبينَ الفُؤادِ في مواضِعَ مِن كِتابِه؛ مِن ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾[٢]، فهما أعظَمُ آلاتِ الإدراكِ؛ إذ بهما إدراكُ أهَمِّ الجُزئيَّاتِ، وهما أقوى الوَسائِلِ لإدراكِ العُلومِ الضَّروريَّةِ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ فيه جوازُ الانتفاعِ بجلودِ الأنعامِ[٤]، والانتفاعِ بصوفِ الغنمِ، ووبرِ الإبلِ، وشعرِ المعزِ والبقرِ[٥].

٥- مِن الدَّليلِ على خَلقِ أعمالِ العِبادِ قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾ فأخبَرَ أنَّه هو الذي جعَلَ السَّرابيلَ، وهي الدُّروعُ والثِّيابُ المصنوعةُ، ومادَّتُها لا تُسَمَّى سرابيلَ إلَّا بعدَ أن تُحيلَها صَنعةُ الآدميِّينَ وعَمَلُهم، فإذا كانت مَجعولةً لله فهي مخلوقةٌ له تعالى، بجُملَتِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٢).

(٤) عامةُ أهلِ العلمِ على تقييدِ قولِه: ﴿جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ بجلودِ الأنعامِ المذكَّاةِ، أو بما بعدَ الدِّباغِ. يُنظر: ((تيسير البيان لأحكام القرآن)) لابن نور الدين (٣/ ٣٩١).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ١٤٩)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٢٤٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٣).

وصُورتِها، ومادَّتِها وهيئاتِها[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فيه سؤالٌ: ما معنى قَولِه تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مع أنَّه كان كُلُّهم كافرينَ؟

الجوابُ مِن وجهينِ:

الأوَّلُ: أنَّ ظاهِرَ كَلِمةِ (أكثَر) وكَلِمة (الكافِرون) أنَّ الذين وُصِفوا بأنَّهم الكافِرونَ هم غالِبُ المُشرِكينَ لا جَميعُهم، فيُحمَلُ المُرادُ بالغالبِ على دَهماءِ المُشرِكينَ؛ فإنَّ مُعظَمَهم بُسَطاءُ العُقولِ، بُعَداءُ عن النَّظَرِ، فهم لا يشعُرونَ بنِعمةِ الله، فإنَّ نِعمةَ اللهِ تقتضي إفرادَه بالعبادةِ. فكان إشراكُهم راسِخًا، بخلافِ عُقَلائِهم وأهلِ النَّظَرِ؛ فإنَّ لهم تردُّدًا في نُفوسِهم، ولكِنْ يَحمِلُهم على الكُفرِ حُبُّ السِّيادةِ في قَومِهم، وقد تقدَّمَ قَولُه تعالى فيهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، وهم الذين قال الله تعالى فيهم في الآيةِ الأخرى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[٢] [الأنعام: ٣٣]. أو: لأنَّه كان فيهم مَن لم تقُمْ عليه الحُجَّةُ مِمَّن لم يَبلُغْ حَدَّ التَّكليفِ، أو كان ناقِصَ العَقلِ مَعتوهًا، فأراد بالأكثَرِ البالِغينَ الأصِحَّاءَ. أو: يكون المرادُ بالكافِرِ: الجاحدَ المعانِدَ، وحينَئذٍ يكونُ قد قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾؛ لأنَّه كان فيهم مَن لم يكُنْ مُعانِدًا، بل كان جاهِلًا بصِدقِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما ظهَرَ له كونُه نبيًّا مِن عندِ الله.

الثاني: أنَّه ذكَرَ الأكثَرَ، والمرادُ الجميعُ؛ لأنَّ أكثرَ الشَّيءِ يقومُ مَقامَ الكُلِّ،

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٤- ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٣).

فذِكرُ الأكثَرِ كذِكْرِ الجَميعِ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١] [لقمان: ٢٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ اجتماعُ الضِّدَّيْنِ في القلبِ؛ فجَمَعَ بين المعرفةِ والإنكارِ، وهذا كما يجتَمِعُ في الشَّخصِ الواحدِ خَصلةُ إيمانٍ وخَصلةُ كُفْرٍ، وخَصلةُ فُسوقٍ وخَصلةُ عَدالةٍ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ ﴿لَكُمُ﴾ على المَنْصوباتِ؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بكَوْنِ المجعولِ نافِعًا لهم، ولِتَشويقِ النَّفسِ إلى المؤخَّرِ؛ لِيَتمكَّنَ عِندَ وُرودِه عليها فَضْلَ تَمكُّنٍ[٣].

- واقتَصَر على السَّمعِ والأبصارِ مِن بينِ الحواسِّ؛ لأنَّهما أهَمُّ، ولأنَّ بهما إدراكَ دَلائلِ الاعتقادِ الحقِّ[٤]. وتقديمُ السَّمعِ على البصَرِ؛ لِمَا أنَّه طريقُ تَلقِّي الوحيِ، أو لأنَّ إدراكَه أقدَمُ من إدراكِ البصَرِ، وإفرادُه باعتبارِ كونِه مصدرًا في الأصلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٢).

- وجمَع (الأبصار والأفئدة) ولم يَجمعِ (السَّمعَ)، والحِكمةُ في ذلك هي: أنَّ السَّمع قوَّةٌ واحدةٌ، ولها فِعلٌ واحدٌ؛ فالإنسانُ لا يضبطُ في زمانٍ واحدٍ كلامين، والأذنُ مَحلُّ السَّمعِ ولا اختيارَ لها فيه؛ فإنَّ الصوتَ مِن أيِّ جانبٍ كان يَصِلُ إليه، ولا قُدرةَ لها على تَخصيصِ القُوَّةِ بإدراكِ البعضِ دونَ البَعضِ. وأما الإبصارُ فمَحلُّه العينُ ولها فيه شِبهُ اختيارٍ؛ فإنها تتحرَّكُ إلى جانبٍ مرئيٍّ دون آخَرَ، وكذلك الفؤادُ محلُّ الإدراكِ وله نوعُ اختيارٍ يلتفتُ إلى ما يُريدُ دون غَيرِه[1]. وقيل: جَمَعَ (الأبصارَ والأفئِدةَ) دونَ السَّمعِ؛ لأنَّ التَّفاوُتَ فيهما أكثَرُ مِن التَّفاوُتِ فيه، بما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى[2]. وقيل: جمَع الأبصارَ والأفئدةَ باعتبارِ تعدُّدِ أصحابِها، وأمَّا إفرادُ السَّمعِ فجَرَى على الأصلِ في إفرادِ المصدرِ؛ لأنَّ أصْلَ السَّمعِ أنَّه مَصدرٌ. وقيل: الجمعُ باعتبارِ المُتعلَّقاتِ؛ فلمَّا كان البصرُ يَتعلَّقُ بأنواعٍ كثيرةٍ مِن الموجوداتِ وكانتِ العقولُ تُدرك أجناسًا وأنواعًا، جُمِعَا بهذا الاعتبارِ، وأُفرِدَ السمعُ؛ لأنَّه لا يَتعلَّقُ إلَّا بنوعٍ واحدٍ، وهو الأصواتُ[3].

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ موقِعُ هذه الجملةِ مَوقِعُ التَّعليلِ والتَّدليلِ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وبَديعِ صُنعِه وعلى لُطفِه بالمخلوقاتِ، فإنَّه لَمَّا ذَكَر مَوهِبةَ العقلِ والحواسِّ الَّتي بها تَحصيلُ المنافِعِ، ودَفعُ الأضرارِ- نبَّه النَّاسَ إلى لُطفٍ يُشاهِدونه أَجْلى مُشاهَدةٍ لأضعَفِ الحيَوانِ، بأنَّ تَسخيرَ الجوِّ للطَّيرِ وخَلْقَها صالِحةً لأنْ تُرفرِفَ فيه بدُونِ تَعليمٍ هو لُطفٌ بها، اقْتَضاه ضَعفُ بُنيانِها؛ إذ كانَت

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٤).

عادِمةَ وَسائلِ الدِّفاعِ عن حَياتِها، فجعَل اللهُ لها سُرعةَ الانتقالِ معَ الابتعادِ عن تَناوُلِ ما يَعْدو عليها مِن البشَرِ والدَّوابِّ. فلأَجْلِ هذا الموقِعِ لم تُعطَفِ الجملةُ على الَّتي قَبْلَها؛ لأنَّها ليس في مَضمونِها نِعمةٌ على البشَرِ، ولكنَّها آيةٌ على قُدرةِ اللهِ تعالى وعِلْمِه، بخِلافِ نَظيرتِها في سورةِ (المُلكِ): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ [الملك: ١٩]، فإنَّها عُطِفَت على آياتٍ دالَّةٍ على قُدرةِ اللهِ تعالى؛ ولذلك المعنى عُقِّبَت هذه الآيةُ وَحْدَها بجُملةِ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(١)].

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا ...﴾ الاستِفْهامُ إنكاريٌّ، معناه: إنكارُ انْتِفاءِ رؤيتِهم الطَّيرَ مُسخَّراتٍ في الجوِّ بتَنْزيلِ رُؤيتِهم إيَّاها مَنزِلةَ عدَمِ الرُّؤيةِ؛ لانْعِدامِ فائدةِ الرُّؤيةِ مِن إدراكِ ما يَدُلُّ عليه المَرْئيُّ مِن انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ[(٢)].

- قولُه: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال في سورةِ (المُلكِ): ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الملك: ١٩]؛ فورَد في الأولى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ وفي الثَّانيةِ: ﴿إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾، قيل في وجهِ ذلك: إنَّ آيةَ سورةِ (المُلكِ) لَمَّا انطَوَتْ على ذِكْرِ حالَينِ للطَّائرِ مِن صَفِّ جَناحَيه وقَبْضِهما، وهما حالَتان يَستريحُ إليهِما الطَّائرُ، فتارةً يَصُفُّ جَناحَيه كأنَّه لا حرَكةَ به، وتارَةً يَقبِضُهما إلى جنبَيْه حتَّى يُلزِقَهما بهِما، ثمَّ يَبسُطُهما ويَقبِضُهما مُوالاةً بسُرعةٍ كما يَفعَلُ السَّابِحُ، فناسَب هذا الإنعامَ منه تعالى وُرودُ اسْمِه الرَّحمنِ. أمَّا آيةُ (النَّحلِ) فلَم يَرِدْ فيها ذِكرُ هذه الاستراحةِ، فقيل هنا: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٣٥).

ٱللَّهُ﴾، وتَناسَب ذلك، ولم يُناسِبْ عَكسُ الوارِدِ[١].

- وجملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ الإنكارَ على المشرِكين عدَمَ الانتفاعِ بما يرَوْنه مِن الدَّلائلِ يُثيرُ سُؤالًا في نَفْسِ السَّامعِ: أكان عدَمُ الانتفاعِ بدَلالةِ رُؤيةِ الطَّيرِ عامًّا في البشَرِ؟ فيُجابُ بأنَّ المؤمِنين يَستدِلُّون مِن ذلك بدَلالاتٍ كثيرةٍ. والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) مُناسِبٌ لاستفهامِ الإنكارِ على الَّذين لم يَرَوْا تلك الآياتِ؛ فأُكِّدَت الجملةُ الدَّالَّةُ على انتِفاعِ المؤمِنين بتلك الدَّلالةِ؛ لأنَّ الكلامَ مُوجَّهٌ للَّذينَ لم يَهْتَدوا بتِلك الدَّلالةِ؛ فهُم بمَنْزلةِ مَن يُنكِرُ أنَّ في ذلك دَلالةً للمُؤمِنين؛ لأنَّ المشرِكين يَنظُرون بمِرْآةِ أنفُسِهم[٢].

- قولُه: ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ فيه جمْعُ الآياتِ؛ لأنَّ في الطَّيرِ دَلائِلَ مُختلِفةً: مِن خِلْقةِ الهواءِ، وخِلْقةِ أجسادِ الطَّيرِ مُناسِبةً للطَّيَرانِ في الهواءِ، وخَلْقِ الإلهامِ للطَّيرِ بأن يَسبَحَ في الجوِّ، وبأن لا يَسقُطَ إلى الأرضِ إلَّا بإرادتِه[٣]؛ ولِمَا في ذلك مِن الآياتِ: خِفَّةِ الطَّائرِ الَّتي جعَلها اللهُ فيه لأنْ يَرتفِعَ بها، وثِقَلِه الَّذي جعَله فيه لأنْ يَنزِلَ، والفَضاءِ الَّذي بينَ السَّماءِ والأرضِ، والإمساكِ الَّذي للهِ تعالى، أو جَمَع باعتبارِ ما في هذه الآيةِ والَّتي قَبْلَها[٤].

- قولُه: ﴿لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ خُصُّوا بالذِّكرِ؛ لأنَّهم هم الَّذين ينتَفِعون بالاعتبارِ، ويتفَكرونَ فيما جُعِلَت آيةً عليه، وأمَّا غَيرُهم فإنَّ نظَرَهم نظَرُ لَهوٍ وغَفلةٍ،

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٠٥-٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٥- ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٦).

وأيضًا لِتَضمُّنِ الآيةِ أنَّ المسخِّرَ والممسِكَ لها هو اللهُ، فهو إخبارٌ منه تعالى ما يُصدِّقُ به إلَّا المؤمِنُ[١]، وكذلك خُصَّتِ الآياتُ بالمؤمنينِ؛ لأنَّهم بِخُلقِ الإيمانِ قد أَلِفوا إعمالَ تَفْكيرِهم في الاستدلالِ على حقائقِ الأشياءِ، بخِلافِ أهلِ الكُفرِ، فإنَّ خُلقَ الكُفرِ مَطْبوعٌ على النُّفْرةِ مِن الاقتداءِ بالنَّاصِحينَ وعلى مُكابَرةِ الحقِّ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا...﴾ فيه تقديمُ ﴿لَكُم﴾ على ما سيأتي مِن المجرورِ والمنصوبِ؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّه لِمَصلَحتِهم ومنفَعتِهم، ولِتَشويقِ النَّفسِ إلى وُرودِه[٣].

- وفي هذه الآيَةِ ترتيبٌ بديعٌ، حيث ذكَر أوَّلًا ما غالِبُ البيوتِ عليه؛ مِن كونِها لا تُنقَلُ، بل يَنتقِلُ النَّاسُ إليها. ثمَّ ذكَر ثانيًا ما منَّ به علَينا مِن المتَّخَذِ مِن جُلودِ الأنعامِ، وهو ما يَنتقِلُ مِن القِبابِ والخِيامِ والفَساطيطِ الَّتي مِن الأَدَمِ، أو ذكَرَ أوَّلًا البيوتَ على طَريقِ العُمومِ، ثمَّ ذكَر بُيوتَ الجُلودِ خُصوصًا تَنْبيهًا على حالِ أكثَرِ العربِ؛ فإنَّهم لانْتِجاعِهم إنَّما بُيوتُهم مِن الجُلودِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٦).

- قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، اقتَصر على هذه الثَّلاثةِ؛ لأنَّ بلادَهم لم تكُنْ بِلادَ قُطنٍ وكَتَّانٍ وحريرٍ، واندرَجت في قَولِه بعدَ ذلك: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾[1]، وإنَّما عدَّد عليهم ما أنعَم به عليهم، وخُوطبوا فيما عرَفوا بما فهِموا، وما قام مَقامَ هذه، وناب منابَها فيدخلُ في الاستعمالِ والنعمةِ مدخلَها[2].

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ فذكَر الجبالَ، ولم يذكُرِ السَّهلَ؛ لأنَّهم كانوا أصحابَ جِبالٍ، ولم يكونوا أصحابَ سَهلٍ، فذكَرَ لهم نِعَمَه التي تختَصُّ بهم، وأيضًا: فذِكْرُ أحدِهما يدُلُّ على الآخَرِ[3].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، أي: والبَرْدَ، وإنَّما حَذَفه؛ لِدَلالةِ ضِدِّه عليه، وخَصَّ الحرَّ بالذِّكرِ؛ لأنَّ الخِطابَ بالقرآنِ أوَّلَ ما وقَع بالحِجازِ، والوِقايةُ مِن الحَرِّ أهَمُّ عندَ أهلِه[4].

وقيل: حُذِفَ الآخَرُ للعِلمِ به. ويُقالُ: هذا مِن بابِ التَّنبيهِ؛ فإنَّه إذا امتَنَّ عليهم بما يقي الحَرَّ فالامتِنانُ بما يقي البَرْدَ أعظَمُ؛ لأنَّ الحَرَّ أذًى؛ والبَردَ بُؤسٌ، والبَردُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٢).

الشَّديدُ يَقتُلُ، والحَرُّ قَلَّ أن يقَعَ فيه هكذا، فإنَّ بابَ التَّنبيهِ والقياسِ كما يكونُ في خِطابِ الأحكامِ يكونُ في خِطابِ الآلاءِ، وخِطابِ الوَعدِ والوَعيدِ.

وقيل: إنَّه قد تقَدَّمَ ذِكرُ وقايةِ البَردِ في أوَّلِ السُّورةِ بقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] فيُقالُ: لمَ فَرَّقَ هذا؟ فيُقالُ- واللهُ أعلَمُ: المذكورُ في أوَّلِ السُّورةِ النِّعَمُ الضَّروريَّةُ التي لا يقومونَ بدُونِها: مِن الأكلِ وشُربِ الماءِ القَراحِ (الصافي الخالص)، ودَفعِ البَردِ، والرُّكُوبِ الذي لا بُدَّ منه في النُّقلةِ، وفي آخِرِها ذكَرَ كمالَ النِّعَمِ: من الأشْرِبةِ الطَّيِّبةِ، والسُّكونِ في البُيوتِ، وبيوتِ الأَدمِ، والاستِظلالِ بالظِّلالِ، ودَفعِ الحَرِّ والبَأسِ بالسَّرابيلِ، ففي الأوَّلِ الأُصولُ، وفي الآخِرِ الكَمالُ؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[1].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ تَذييلٌ لِمَا ذكَر مِن النِّعمِ[2].

٥- قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ تفريعٌ على جملةِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، وقَع اعتِراضًا بينَ جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، وجُملةِ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾، وقد حوَّل الخِطابَ عنهم إلى خِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو نوعٌ مِن الالْتِفاتِ، فيه الْتفاتٌ مِن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ، والْتِفاتٌ عمَّن كان الكلامُ مُوجَّهًا إليه بتَوجيهِ الكلامِ إلى شَخصٍ آخَرَ، والمعنى: كذَلك يُتِمُّ نِعمَتَه علَيكم لِتُسلِموا، فإن لم يُسْلِموا فإنَّما عليك البَلاغُ،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢١٨-٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٧).

والمقصودُ: تَسْليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على عدَمِ استِجابَتِهم[١].

- قولُه: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ يَحتمِلُ أن يَكونَ ماضِيًا، أي: فإن أعرَضوا عن الإسلامِ، ويَحتمِلُ أن يَكونَ مُضارِعًا، أي: فإن تتَولَّوْا، وحُذِفَت التَّاءُ، ويكونَ جارِيًا على الخِطابِ السَّابقِ، والماضي على الالتفاتِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ ذكَر سبَبَ العُذرِ وهو البَلاغُ؛ لِيَدُلَّ على المسبَّبِ؛ فالتَّقديرُ: فإن تَولَّوْا فلم يَقبَلوا مِنك فقد تَمهَّد عُذرُك بعدَما أدَّيتَ ما وجَب عليك مِن التَّبليغِ[٣]، والقصرُ إضافيٌّ، أي: ما علَيك إلَّا البلاغُ لا تَقْليبُ قُلوبِهم إلى الإسلامِ، أوْ: لا تَولِّي جَزائِهم على الإعراضِ، بل علَينا جَزاؤُهم، وجُعِل هذا جَوابًا لجُملةِ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ مِن إقامةِ السَّببِ والعِلَّةِ مَقامَ المسبَّبِ والمعلولِ، وتقديرُ الكلامِ: فإنْ تَولَّوْا فلا تَقْصيرَ ولا مُؤاخَذةَ عليك؛ لأنَّك ما عليك إلَّا البَلاغُ[٤].

٦- قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ إخبارٌ عنهم على سَبيلِ التَّقْريعِ والتَّوبيخِ[٥]، وهو استئنافٌ لبيانِ أنَّ تَولِّيَهم وإعراضَهم عن الإسلامِ ليس لِعَدمِ مَعرفتِهم بما عدَّد مِن نِعَمِ اللهِ تعالى أصلًا؛ فإنَّهم يَعرِفونها ويَعترِفون أنَّها مِن اللهِ تعالى[٦]، ولأنَّ تَولِّيَهم عن الإسلامِ مع وَفْرةِ أسبابِ اتِّباعِه يُثيرُ سُؤالًا في نَفْسِ السَّامعِ: كيف خَفِيَت عليهم دَلائلُ الإسلامِ؟ فيُجابُ بأنَّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٧- ٢٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٤).

عرَفوا نِعمةَ اللهِ، ولكنَّهم أعرَضوا عنها إنكارًا ومُكابَرةً[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ معنى (ثُمَّ) هنا: للدَّلالةِ على أنَّ إنكارَهم مُستبعَدٌ بعدَ حُصولِ المعرفةِ؛ لأنَّ حقَّ مَن عرَف النِّعمةَ أن يَعترِفَ لا أن يُنكِرَ[٢]؛ فـ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتْبيِّ، كما هو شأنُها في عَطْفِ الجُمَلِ؛ فهو عطفٌ على جملةِ ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾، وكأنَّه قيل: ويُنكِرونها؛ لأنَّ (ثمَّ) لَمَّا كانت للعطفِ اقتَضَتِ التَّشريكَ في الحكمِ، ولَمَّا كانت للتَّراخي الرُّتبيِّ زال عنها مَعْنى المُهْلةِ الزَّمانيَّةِ الموضوعةِ هي له؛ فبَقِي لها معنى التَّشريكِ، وصارت المهلةُ مُهلةً رُتبيَّةً؛ لأنَّ إنكارَ نعمةِ اللهِ أمرٌ غريبٌ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٢).

الآيات (٨٤-٨٩)

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي: يُطلَبُ منهم أن يُزيلُوا غَضَبَ رَبِّهم بالتَّوبةِ وصالحِ العَمَلِ؛ مِن الاستِعتابِ: وهو الرُّجُوعُ عَن الإساءَةِ، والتَّعَرُّضُ لِطَلَبِ الرِّضا، وأصلُ الكَلِمةِ مِن (العَتْبِ): وهو الغَضَب والمَلامةُ، يُقالُ: عتَبَ عليه يَعتِبُ: إذا غَضِبَ عليه ولامَه، وأعتَبَه: إذا أزالَ عنه عَتْبَه، واستَعْتَبَه: إذا طلَبَ منه الإعتابَ، أي: الرِّضا[1].

﴿السَّلَمَ﴾: أي: الاستِسلامَ والانقيادَ لأمرِ اللهِ وحُكمِه، يُقالُ: سَلَّم واستسلَمَ وأسلَمَ: إذا انقادَ وخضَع، ومنه الإسلامُ: وهو الطَّاعةُ والانْقيادُ لِله عَزَّ وجلَّ، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على الصِّحَّةِ والعافيةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣/ ٣٠٩)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٥٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)،

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ويومَ نَبعَثُ مِن كُلِّ أمَّةٍ رَسولَها الذي أُرسِلَ إليها، يَشهَدُ عليهم، ثمَّ لا يُؤذَنُ للذينَ كَفَروا بالاعتِذارِ عن كُفرِهم، ولا يُطلَبُ منهم إرضاءُ رَبِّهم. وإذا رأى المشركونَ عذابَ اللهِ في الآخرةِ، فلا يُخفَّفُ عنهم منه شَيءٌ، ولا يُمهَلونَ، وإذا رأى المُشرِكونَ يومَ القيامةِ آلهَتَهم التي عَبَدوها مع اللهِ، قالوا: رَبَّنا هؤلاءِ الذين كُنَّا نَعبُدُهم مِن دُونِك، فقالت آلهتُهم المزعومةُ: إنَّكم- أيُّها المُشرِكونَ- لَكاذِبونَ في اتِّخاذِنا شُرَكاءَ لله! وانقاد المُشرِكون لأمرِ اللهِ واستسلَموا وخضَعوا، وغاب عنهم ما كانوا يختَلِقونَه مِن أنَّ آلهتَهم ستَشفَعُ لهم.

ثم قال الله متوعدًا مَن كفَر، وصدَّ عن سبيلِه: الذين كفَروا ومَنَعوا غَيرَهم مِن الإيمانِ باللهِ ورسولِه زِدْناهم عذابًا فوقَ عذابِهم؛ بسَبَبِ إفسادِهم وصَدِّهم النَّاسَ عن الهدى.

واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- يومَ نبعَثُ في كُلِّ أمَّةٍ رَسولَهم شَهيدًا عليهم، وجِئْنا بك شَهيدًا على أمَّتِك يومَ القيامةِ. ونَزَّلْنا عليك القُرآنَ موضِّحًا لكُلِّ شيءٍ، وهاديًا مِن الضَّلالةِ، ورَحمةً لِمَن صدَّقَ وعَمِلَ به، ومُبَشِّرًا للمُؤمِنينَ بحُسنِ عاقِبَتِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا بَيَّنَ مِن حالِ القَومِ أنَّهم عَرَفوا نِعمةَ اللهِ ثمَّ أنكَروها، وذكَرَ

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٩٢٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٢٨)، ((تاج العروس)) (٣٢/ ٣٧٢).

أيضًا مِن حالِهم أنَّ أكثَرَهم الكافِرونَ؛ أتبَعَه بالوعيدِ، فذكَرَ حالَهم يومَ القيامةِ، فقال[١]:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾.

أي: ويومَ[٢] نَبعَثُ مِن كُلِّ أمَّةٍ شاهِدًا عليهم -وهو رَسولُهم الذي أُرسِلَ إليهم- لِيَشهَدَ بما أجابَتْه به أُمَّتُه فيما بلَّغَها عن اللهِ تعالى[٣].

﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾.

أي: ثمَّ لا يُعطَى الذين كَفَروا الإذْنَ للاعتذارِ إلى اللهِ مِن كُفرِهم[٤].

كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٥).

(٢) قيل: هو متعلقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: واذكُرْ. على اعتبارِ أنَّ التذكيرَ بذلك اليومِ مِن البلاغِ المبينِ الذي أُمِر به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما في الآيةِ قبلَ السابقةِ. وممَّن ذهَب إلى هذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٣).

وقال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذكرُه: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ اليومَ، ويَستنكِرونَ ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٣).

قال ابنُ عاشور: (وَصفُ شَهيدٍ يَقتَضي أنَّه شاهِدٌ على المؤمنينَ به، وعلى الكافرينَ، أي: شَهيدٌ؛ لأنَّه بلَّغَهم رسالةَ الله. وبَعْثُ شَهيدٍ مِن كُلِّ أمَّةٍ يُفيدُ أنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شهيدٌ على هؤلاء الكافرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢١).

أي: ولا يُطلَبُ مِن الكافرينَ أن يُرضُوا اللهَ، ولا هم يُرَدُّون إلى الدُّنيا ليَتوبوا، ويَعمَلوا بما أمَرَ اللهُ تعالى به[١].

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾.

أي: وإذا رأى المُشرِكونَ النَّارَ، فلا يُخفَّفُ عنهم عَذابُها بأيِّ نَوعٍ مِن أنواعِ التَّخفيفِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾.

أي: ولا هم يُمهَلونَ عن العَذابِ، ولا يُؤخَّرونَ عن دُخولِ النَّارِ حين يَرَونَها ولو لَحظةً[٣].

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٢، ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٣٠).

قال ابن عاشور: (ثمَّ يُساقُونَ إلى العذابِ، فإذا رأوه لا يُخَفَّفُ عنهم، أي: يَسألونَ تَخفيفَه، أو تأخيرَ الإقحامِ فيه، فلا يُستجابُ لهم شيءٌ مِن ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦).

وقال السعدي: (من غير إنظارٍ ولا إمهالٍ من حين يرونَه؛ لأنهم لا حسابَ عليهم؛ لأنَّهم لا حسناتٍ لهم، وإنَّما تعَدُّ أعمالُهم وتحصى، ويُوقَفون عليها ويُقِرُّون بها ويفتَضحون). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦).

كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَ﴾.

أي: وإذا رأى المُشرِكونَ يومَ القيامةِ مَعبوداتِهم التي جَعَلوها شُرَكاءَ لله في العبادةِ، قالوا: ربَّنا هؤلاءِ الذين كنَّا نَعبُدُهم مِن دُونِك، ونَجعَلُهم شُرَكاءَ لك[1].

﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

أي: فقال للمُشرِكينَ شُرَكاؤُهم الذين كانوا يَعبُدونَهم: إنَّكم لكاذِبونَ في ادِّعائِكم أنَّنا آلِهةٌ، وما أمَرْناكم بعِبادتِنا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا * كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدّٗا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦).

يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾.

أي: واستسْلَم المُشرِكونَ يومَ القيامةِ لله، وذلُّوا وانقادُوا خاضِعينَ لحُكمِه فيهم، وعَلِموا أنَّهم مُستَحِقُّونَ للعذابِ[1].

كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥-٢٦].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

أي: وغاب عن المُشرِكينَ ما كانوا يَعبُدونَه في الدُّنيا، واضْمَحلَّ ما كانوا يَفتَرونَه مِن أنَّ آلهتَهم ستشفَعُ لهم، وتُقَرِّبُهم إلى اللهِ زُلْفى، فليس لهم ناصرٌ ولا معينٌ[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٥).

وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٤-٧٥].

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى وعيدَ الذين كَفَروا؛ أتبَعَه بوَعيدِ مَن ضَمَّ إلى كُفرِه صَدَّ الغَيرِ عن سَبيلِ الله، فقال تعالى[(١)]:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: الذين كَفَروا وكَذَّبوا بالحَقِّ لَمَّا جاءَهم، وصَدُّوا النَّاسَ عن اتِّباعِ الإسلامِ؛ زِدْناهم في النَّارِ عذابًا على ما بهم مِن العذابِ؛ لأنَّهم كانوا يُفسِدونَ في الأرضِ بصَدِّهم النَّاسَ عن اتِّباعِ الحَقِّ[(٢)].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه في قَولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: (عَقارِب أنيابُها كالنَّخلِ الطِّوالِ)[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٠، ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٦).

قال ابنُ القيم: (فالعذابُ الأوَّلُ بكُفرِهم، والعَذابُ الذي زادهم إيَّاه بصَدِّهم النَّاسَ عن سَبيلِه). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٣٤١٣٨)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٩/ ٢٢٦) (٩١٠٣)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٣٥٧)، والبيهقي في ((البعث والنشور)) (٥٦٠).

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) ﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾.

أي: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- يومَ نَبعَثُ في كُلِّ أمَّةٍ نَبيًّا شاهِدًا عليهم، وهو منهم، ويتحدَّثُ بلسانِهم[(١)].

﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾.

أي: وجِئْنا بك يومَ القيامةِ شاهِدًا على أمَّتِك[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

صحَّحه الحاكم، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٣٩٢): (رجاله رجال الصحيح)، وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٨/ ٢١٦): (موقوفٌ بسند صحيحٍ، وله شاهدٌ)، وصححه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣٦٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٧).

قيل: يشهدُ عليهم بما أجابوه وردُّوا عليه. وممن قال ذلك: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٣).

وقيل: المعنى: يشهدُ عليهم بأنَّهم بلَّغوا الرسالةَ، ودعَوْهم إلى الإيمانِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٤).

قال السعدي: (وهذا مِن كَمالِ عَدلِ الله تعالى: أنَّ كُلَّ رَسولٍ يَشهَدُ على أمَّتِه؛ لأنَّه أعظَمُ اطِّلاعًا مِن غيرِه على أعمالِ أمَّتِه، وأعدَلُ وأشفَقُ مِن أن يشهَدَ عليهم إلَّا بما يَستَحِقُّونَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٧).

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ ما شَرَّفَه اللهُ به من الشَّهادةِ على أمَّتِه، ذكَرَ ما أنزَلَ عليه مِمَّا فيه بيانُ كُلِّ شَيءٍ مِن أمورِ الدِّينِ؛ ليُزيحَ بذلك عِلَّتَهم فيما كُلِّفوا، فلا حُجَّةَ لهم ولا مَعذِرةَ[1].

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

أي: ونزَّلْنا عليك القُرآنَ مُبَيِّنًا لكُلِّ شَيءٍ يَحتاجُ النَّاسُ إلى بيانِه، مِن أمورِ دينِهم ودُنياهم وآخِرتِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يوسف: ١١١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤].

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

أي: ونَزَّلْنا عليك القُرآنَ هاديًا مِن الضَّلالةِ، ورَحمةً في الدُّنيا والآخرةِ، ومُبَشِّرًا بالخَيرِ في العاجِلِ والآجِلِ للمُسلمينَ المُنقادينَ لحُكمِه، الخاضِعينَ له

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٧٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٤، ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٣).

بتَوحيدِه وطاعتِه سُبحانَه[١].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ أي: هذه الزِّيادةُ مِن العذابِ إنَّما حَصَلَت مُعَلَّلةً بذلك الصَّدِّ، وهذا يدُلُّ على أنَّ مَن دعا غَيرَه إلى الكُفرِ والضَّلالِ، فقد عَظُمَ عَذابُه، فكذلك إذا دعا إلى الدِّينِ واليَقينِ، فقد عَظُمَ جزاؤُه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ أضافوهم إلى أنفُسِهم؛ لأنَّه لا حقيقةَ لِشَرِكتِهم سوى تَسميتِهم لها المُوجِبةِ لضَرِّهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٣٠).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فيه سؤالٌ: لم قالت الأصنامُ للمُشرِكينَ ذلك، مع أنَّهم كانوا صادقينَ فيه؟

الجوابُ من وجوهٍ:

الأول: أنهم قالوه لهم لتظهَرَ فَضيحتُهم؛ حيث عَبَدوا مَن لا يَعلَمُ بعِبادتِهم[(١)].

الثاني: أنَّ تكذيبَهم لهم منصبٌّ على زعمِهم أنَّهم آلهةٌ، وأنَّ عبادتَهم حقٌّ، وأنَّها تقرِّبُهم إلى الله زلفى. ولا شكَّ أنَّ كلَّ ذلك مِن أعظمِ الكذبِ وأشنعِ الافتراءِ[(٢)].

الثالث: أنَّهم لَمَّا كانوا غيرَ راضِينَ بعِبادتِهم، فكأنَّ عِبادتَهم لم تَكُنْ عِبادةً، والدَّليلُ عليه قولُ الملائكةِ: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[سبأ: ٤١]، يَعْنون أنَّ الجِنَّ كانوا راضِينَ بعِبادتِهم، لا نَحن؛ فهُم المعبودونَ دونَنا[(٣)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف أثبَتَ للأصنامِ نُطقًا هنا، ونفاه عنها في قَولِه تعالى في الكهفِ: ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾؟

الجواب: المُثبَتُ لهم هنا النُّطقُ بتَكذيبِ المُشرِكينَ في دعوى عبادتِهم

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢٧).

لها، والمنفيُّ عنهم في الكَهفِ النُّطقُ بالإجابةِ إلى الشَّفاعةِ لهم، ودَفْعِ العذابِ عنهم، فلا تنافيَ[١].

٤- قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ وفائدةُ قولِهم ذلك مع أنَّه تعالى عالِمٌ بهِم: أنَّهم لَمَّا أنكَروا الشِّرْكَ بقولِهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] عاقَبَهم اللهُ بإصماتِ ألسِنَتِهم، وأنطَقَ جوارِحَهم، فقالوا عِندَ مُعايَنَةِ آلهتِهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ فأقرُّوا بعدَ إنكارِهم؛ طلَبًا للرَّحمةِ، وفِرارًا مِن الغضبِ، فكان هذا القولُ على وَجْهِ الاعترافِ مِنهم بالذَّنبِ، لا على وجهِ إعلامِ مَن لا يَعلَمُ، أو أنَّهم لَمَّا عايَنوا عَظيمَ غضَبِ اللهِ، قالوا ذلك رجاءَ أن يُلزِمَ اللهُ الأصنامَ ذُنوبَهم فيَخِفَّ عنهم العذابُ[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ هذا دليلٌ على تفاوُتِ الكُفَّارِ في عذابِهم، كما يتفاوَتُ المُؤمِنونَ في مَنازِلِهم في الجَنَّة ودَرَجاتِهم، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾[٣] [الأعراف: ٣٨]. وتفاوتُ أهل النارِ في العذابِ، هو بحسبِ تفاوتِ أعمالِهم التي دخلوا بها النارَ، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، فليس عقابُ مَن تغلَّظ كفرُه، وأفسَد في الأرضِ، ودعا إلى الكفرِ، كمَن ليس كذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٤- ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٤).

(٤) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٨١).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ فيه سؤالٌ: إذا كان كذلك، فكيف اختَلَفَت الأئمَّةُ في كثيرٍ مِن الأحكامِ؟

الجوابُ: لأنَّ أكثَرَ الأحكامِ ليس مَنصوصًا عليه فيه، وبعضُها مُستنبَطٌ منه، وطُرُقُ الاستنباطِ مُختَلِفةٌ؛ فبَعضُها بالإحالةِ إمَّا على السُّنَّة، بقَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]، أو على القياسِ بقَولِه تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]، والاعتبارُ: النظَرُ والاستدلالُ اللَّذانِ يَحصُلُ بهما القياسُ[(١)].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا﴾ لَمَّا كان التِّبيانُ قد يكون للضَّلالِ، قال تعالى: ﴿وَهُدًى﴾ أي: مُوصِلًا إلى المقصودِ، ولَمَّا كان ذلك قد لا يكونُ على سبيلِ الإكرامِ، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَةً﴾، ولَمَّا كان الإكرامُ قد لا يكونُ بما هو في أعلَى طبقاتِ السُّرورِ، قال سُبحانَه: ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ أي: بشارةً عظيمةً جدًّا ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾[(٢)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ بيانُ أنَّ هذا الدِّينَ شامِلٌ كامِلٌ لا يَحتاجُ إلى زيادةٍ، كما أنَّه لا يجوزُ فيه النَّقصُ؛ فما مِن شَيءٍ يَحتاجُ النَّاسُ إليه في مَعادِهم ومَعاشِهم إلَّا بَيَّنَه اللهُ تعالى في كِتابِه؛ إمَّا نصًّا، أو إيماءً، وإمَّا منطوقًا، وإمَّا مَفهومًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٢٤٤).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أنَّه لا يُمكِنُ أنْ يُوجَدَ في القرآنِ آياتٌ مُتشابِهةٌ على جَميعِ النَّاسِ لا يَعرِفونَ معناها! فلا يُوجدُ فيه شَيءٌ غيرُ واضِحٍ، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، فلا يُمكِنُ إطلاقًا أن يُوجَدَ فيه آيةٌ أو كَلِمةٌ لا يُفْهَمُ معناها، لكنَّ الذي يَخفى هو حقيقةُ مَدلولاتِ الآياتِ، مِثْلَ ما أَخْبَرَ اللهُ به عن نفْسِه واليومِ الآخرِ؛ فإنَّنا لا نَعرِفُ حقيقتَه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ بَقِي الظَّرفُ (يَوْمَ) بدونِ مُتعلَّقٍ فلم يَكُنْ للسَّامعِ بُدٌّ مِن تقديرِه بما تَذهَبُ إليه نفْسُه، وذلك يُفيدُ التَّهويلَ والتَّفظيعَ، وهو مِن بديعِ الإيجازِ[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ابتلاءَهم بالمنعِ عن الاعتذارِ المنبئِ عن الإقناطِ الكليِّ- وهو عندَما يُقالُ لهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]- أشدُّ مِن ابتلائِهم بشهادةِ الأنبياءِ- عليهم السلامُ- عليهم[٣].

- ويجوزُ أن يَكونَ نَفْيُ الإذنِ ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ﴾ كِنايةً عن الطَّرْدِ، كما كان

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٤٣).

الإذنُ كِنايةً عن الإكرامِ، وعليه فيُقالُ: استَعتَب فلم يُستَعتَبْ، ويُقالُ على الأصلِ: استَعتَب فُلانٌ فلم يُعتَبْ، وهذا استِعمالٌ نشَأ عن الحذفِ، وأصلُه: استُعتِبَ له، أي: طُلِب منه أن يَستعتِبَ؛ فكَثُر في الاستعمالِ حتَّى قَلَّ استِعْمالُ استُعتِبَ مَبنيًّا للمجهولِ في غيرِ هذا المعنى[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ الَّذين ظلَموا هم الَّذين كفَروا؛ فالتَّعبيرُ به مِن الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ؛ لِقَصدِ إجراءِ الصِّفاتِ المتلبِّسينَ بها علَيهم[2].

- وجاء المسنَدُ إليه في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ مُخبَرًا عنه بالجملةِ الفعليَّةِ؛ لأنَّ الإخبارَ بالجملةِ الفعليَّةِ عن الاسمِ يُفيدُ تَقوِّيَ الحكمِ، فأُريدَ تَقوِّي حُكمِ النَّفيِ، أي: إنَّ عدَمَ تَخفيفِ العذابِ عَنهم مُحقَّقُ الوقوعِ، لا طَماعيَةَ في إخلافِه؛ فحصَل تأكيدُ هذه الجملةِ، كما حصَل تأكيدُ الجملةِ الَّتي قبْلَها بالفاءِ، أي: فهُم يُلْقَون بسُرعةٍ في العذابِ[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ الَّذين أشرَكوا هم الَّذين ظلَموا، الَّذين يَرَوْن العذابَ، وهم الَّذين كفَروا، الَّذين لا يُؤذَنُ لهم، وإجراءُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذه الصِّلاتِ الثَّلاثِ علَيهم؛ لزيادةِ التَّسجيلِ عليهم بأنواعِ إجرامِهم الرَّاجعةِ إلى تَكذيبِ ما دَعاهم اللهُ إليه، وهو نُكتةُ الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ هنا[١].

- قولُه: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ الفاءُ في ﴿فَأَلْقَوْا﴾ للتَّعقيبِ؛ للدَّلالةِ على المبادَرةِ بتكذيبِ ما تَضمَّنَه مَقالُهم، أنطَق اللهُ تلك الأصنامَ فكَذَّبَت ما تَضمَّنَه مَقالُهم مِن كونِ الأصنامِ شُركاءَ للهِ، أو مِن كونِ عِبادتِهم بإغراءٍ منها؛ تَفْضيحًا لهم وحَسْرةً عليهم. والجمعُ في اسمِ الإشارةِ واسمِ الموصولِ: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾ جمعُ العُقَلاءِ؛ جَريًا على اعتِقادِهم إلهيَّةَ الأصنامِ. ولَمَّا كان نُطقُ الأصنامِ غيرَ جارٍ على المتعارَفِ عَبَّر عنه بالإلقاءِ المؤْذِنِ بكَونِ القولِ أجْراه اللهُ على أفواهِ الأصنامِ مِن دونِ أن يَكونوا ناطِقين، فكأنَّه سقَط منها. وأجرَى عليهم ضَميرَ جَمعِ العُقلاءِ في فِعْلِ ﴿أَلْقَوْا﴾ مُشاكَلةً لاسْمِ الإشارةِ واسمِ الموصولِ للعُقلاءِ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أعيدَ فِعلُ ﴿أَلْقَوْا﴾؛ لاختلافِ فاعلِ الإلقاءِ؛ فضَميرُ القَولِ الثَّاني عائِدٌ إلى الَّذين أشرَكوا[٣].

٥- قَولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ تعريفُ ﴿الْعَذَابِ﴾ تعريفُ الجنسِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٤٨).

المعهودِ؛ حيث تَقدَّم ذِكرُه في قولِه تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾؛ لأنَّ عَذابَ كُفرِهم لَمَّا كان مَعلومًا بكَثرةِ الحديثِ عنه صارَ كالمعهودِ، وأمَّا عذابُ صَدِّهِمُ النَّاسَ فلا يَخطُرُ بالبالِ؛ فكان مَجهولًا؛ فناسَبه التَّنكيرُ[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ تكريرٌ لجُملةِ ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾؛ لِيُبنَى عليه عَطفُ جُملةِ ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ على جُملةِ: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم ﴾ ولَمَّا كان تَكْريرًا أُعيدَ نَظيرُ الجملةِ على صورةِ الجملةِ المؤكَّدةِ مُقترِنةً بالواوِ، ولأنَّ في هذه الجملةِ زِيادةَ وصْفِ ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فحَصَلَت مُغايَرةٌ معَ الجملةِ السَّابقةِ، والمغايَرةُ مُقتضِيَةٌ للعطفِ أيضًا، ومِن دَواعي تَكْريرِ مَضمونِ الجملةِ السَّابقةِ أنَّه لِبُعدِ ما بينَ الجُملتَينِ بما اعتَرض بينَهما مِن قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ إلى قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ مع أنَّ الإعادةَ هنا أجْدَرُ؛ لأنَّ الفَصْلَ أطوَلُ، وقد حصَل مِن هذه الإعادةِ تأكيدُ التَّهديدِ والتَّسجيلِ. وعُدِّي فِعلُ ﴿نَبْعَثُ ﴾ هنا بحَرفِ (في)، وعُدِّي نَظيرُه في الجملةِ السَّابقةِ بحَرفِ (مِنْ)؛ لِيَحصُلَ التَّفنُّنُ بينَ المكرَّرين؛ تجديدًا لِنَشاط السَّامِعين[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٤٩- ٢٥٠).

- ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ ﴾ عبَّر بالمضارِعِ عن بَعْثِ الشُّهداءِ للأُممِ الماضيَةِ؛ لأنَّه مُرادٌ به بَعثُهم يومَ القيامةِ[١].

- قولُه: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ فيه إيثارُ لفظِ (المَجيءِ) على (البَعْثِ)؛ لكَمالِ العنايةِ بشأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وصيغةُ الماضي ﴿وَجِئْنَا ﴾ للدَّلالةِ على تَحقُّقِ الوقوعِ[٢].

- ولم يُوصَفْ هنا نبيُّنا محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه مِن أنفُسِهم كما وُصِفَ كلُّ شَهيدِ أُمَّةٍ بقوله: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾؛ وذلك لأنَّ مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم مَبعوثٌ إلى جَميعِ الأممِ، وشَهيدٌ عليهم جميعًا، وأمَّا وصفُه بذلك في قولِه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾[التوبة: ١٢٨]، فذلك وَصْفٌ كاشِفٌ اقْتَضاهُ مَقامُ التَّذكيرِ للمُخاطَبين مِن المنافِقين- في سورةِ (التوبةِ)- فهم الَّذين ضَمُّوا إلى الكُفرِ باللهِ كُفرانَ نِعمةِ بَعثِ رسولٍ إليهم مِن قومِهم، وليس في قولِه: ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ما يَقْتضي تَخْصيصَ شَهادتِه بكَونِها شَهادَةً على المتحدَّثِ عنهم مِن أهلِ الشِّركِ، ولكِنِ اقْتصَرَ عليهِم؛ لأنَّ الكلامَ جارٍ في تَهْديدِهم وتَحذيرِهم، و﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ إشارةٌ إلى حاضِرٍ في الذِّهنِ وهُم المشرِكون الَّذين أكثَرُ الحديثِ علَيهم[٣].

- ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ...﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا ﴾ وهذا تَخلُّصٌ للشُّروعِ في تَعْدادِ النِّعمِ على المؤمِنين مِن نِعَمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٢).

الإرشادِ، ونِعَمِ الجزاءِ على الامتثالِ، وبَيانِ برَكاتِ هذا الكتابِ المنزَّلِ لهم[١].

- قولُه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ التِّبيانُ مَصدرٌ دالٌّ على المبالَغةِ في المصدريَّةِ، ثمَّ أُريدَ به اسمُ الفاعِلِ، فحَصَلَت مُبالَغتانِ. و(كُلِّ شَيْءٍ) يُفيدُ العُمومَ، إلَّا أنَّه عمومٌ عُرْفيٌّ في دائرةِ ما لِمِثلِه تَجيءُ الأديانُ والشَّرائعُ؛ مِن إصلاحِ النُّفوسِ، وإكمالِ الأخلاقِ، وتقويمِ المجتمَعِ، وتبيينِ الحقوقِ وغيرِ ذلك، وفي خِلالِ ذلك كلِّه أسرارٌ ونُكتٌ مِن أصولِ العلومِ والمعارفِ، صالِحةٌ لأَنْ تكونَ بَيانًا لكلِّ شيءٍ على وجهِ العُمومِ الحقيقيِّ إنْ سُلِك في بَيانِها طَريقُ التَّفصيلِ، واستُنيرَ فيها بما شَرَح الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما قَفَّاه به أصحابُه وعُلماءُ أُمَّتِه؛ ففي كلِّ ذلك بَيانٌ لكلِّ شيءٍ يُقصَدُ بَيانُه للتَّبصُّرِ في هذا الغرَضِ الجليلِ؛ فيَؤولُ ذلك العُمومُ العُرفيُّ بصَريحِه إلى عُمومٍ حقيقيٍّ بضِمْنِه ولَوازِمِه، وهذا مِن أبدَعِ الإعجازِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٥٣).

الآيات (٩٠-٩٢)

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٩٢ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٣ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾: أي: كلِّ شَيءٍ مُستقبَحٍ ومُستَشنَعٍ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ، وشَناعةٍ[1].

﴿وَٱلۡبَغۡيِ﴾: أي: الظُّلْمِ، والاستطالةِ على الناسِ، وقيل: الكِبْر، وأصلُ (بغي): يدلُّ على مجاوزةِ الحَدِّ[2].

﴿كَفِيلًا﴾: أي: مُتكَفِّلًا بوفائِكم، والكفيلُ: الشَّاهِدُ، والضَّامِنُ، والرَّقيبُ على الشَّيءِ، المُراعي لتحقيقِ الغَرَضِ منه، وأصلُ (كفل): يدُلُّ على تضمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٢).

﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾: أي: حَلَّتْه وأفسَدَتْه بعدَ إبرامِه وإحكامِه، والغَزْلُ: هنا مَصدرٌ بمعنى المفعولِ، أي: المغزولُ، والغَزْلُ: فَتْلُ نُتَفٍ مِن الصوفِ أو الشَّعرِ؛ لِتُجعَلَ خيوطًا مُحكَمةً، وأصلُ (نقض): يدُلُّ على نَكثِ شَيءٍ[١].

﴿أَنكَٰثًا﴾: أي: أنقاضًا، جمعُ نِكثٍ: وهو ما نُقِضَ مِن غَزلِ الشَّعرِ وغَيرِه، وأصلُ (نكث): يدلُّ على نَقضِ شَيءٍ[٢].

﴿دَخَلًا﴾: أي: دَغَلًا ومَكرًا وخيانةً، وكُلُّ ما دخَلَه عَيبٌ، قيل: هو مَدخُولٌ، وفيه دَخَلٌ، وأصلُ (دخل): يدلُّ على وُلوجٍ[٣].

﴿أَرْبَىٰ﴾: أي: أكثَرَ وأزْيَدَ؛ من رَبا الشَّيءُ يَربُو: إذا كَثُرَ وزادَ، وأصلُ (ربو): يدلُّ على زيادةٍ ونماءٍ وعُلُوٍّ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى موجِّهًا عبادَه إلى أمهاتِ الفضائلِ، ومكارمِ الأخلاقِ، ومحذِّرًا مِن الرذائلِ: إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يأمُرُ عبادَه بالعَدلِ والإنصافِ في حَقِّه تعالى

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٣).

وفي حَقِّ عبادِه، ويأمُرُ بالإحسانِ في عبادتِه وإلى خَلقِه، وإعطاءِ ذَوِي القَرابةِ حُقوقَهم، وينهى عن كُلِّ ما قَبُحَ قَولًا أو عَملًا، وعَمَّا يُنكِرُه الشَّرعُ ولا يَرضاه، وعن ظُلمِ النَّاسِ والتعَدِّي عليهم، يَعِظُكم اللهُ؛ لكي تتذَكَّروا أوامِرَه وتَنتَفِعوا بها.

ويأمرُ الله تعالى بالوفاءِ بالعهدِ فيقولُ: والتَزِموا الوفاءَ بكُلِّ عَهدٍ فيما بينكم وبينَ الله، وما بينَكم وبينَ الناسِ مما لا يُخالِفُ كِتابَ اللهِ وسُنَّةَ نَبيِّه، ولا تُخالِفوا العُهودَ التي أكَّدْتُموها بالحَلِفِ بالله، وقد جعَلْتُم اللهَ عليكم حفيظًا وضامِنًا حينَ عاهَدتُم؛ إنَّ اللهَ يَعلَمُ ما تَفعَلونَ.

ثمَّ ضرَب الله مثلًا فيه تقبيحٌ لنقضِ العهدِ، فقال: ولا يكنْ مَثَلُكم في نَقضِ العُهودِ مَثَلَ امرأةٍ غَزَلَت غَزْلًا وأحكَمَتْه، ثم نقَضَتْه بعد تَقويتِه وإحكامِه، تَجعلونَ أيمانكم التي حَلَفْتُموها عند التَّعاهُدِ خَديعةً لِمَن عاهَدتُموه، وتَنقُضونَ عَهدَكم إذا وجَدْتُم قومًا آخرينَ أكثَرَ مالًا ومنفعةً مِن الذين عاهَدتُموهم، إنَّما يَختبِرُكم اللهُ بما أمرَكم به مِن الوفاءِ بالعُهودِ، ولَيُبيِّنَنَّ لكم يومَ القيامةِ ما كُنتُم فيه تَختلِفونَ في الدُّنيا.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ قدرتَه لا يُعجِزُها شيءٌ فقال: ولو شاء اللهُ لجَعَلكم على مِلَّةٍ واحدةٍ، وهي الإسلامُ، ولكِنَّه سُبحانَه يُضِلُّ بحِكمتِه مَن يشاءُ؛ عدلًا منه، ويَهدي مَن يشاء؛ فَضلًا منه، ولَيَسألَنَّكم اللهُ جميعًا يومَ القيامةِ عَمَّا كُنتُم تَعمَلونَ في الدُّنيا، وسيُجازيكم عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا استقصَى في شَرحِ الوَعدِ والوَعيدِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ أتبَعَه بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ فجمَعَ في هذه الآيةِ ما يتَّصِلُ بالتَّكليفِ فَرضًا ونَفلًا، وما يتَّصِلُ بالأخلاقِ والآدابِ عُمومًا وخُصوصًا[1].

وأيضًا: لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى فَضْلَ هذا القُرآنِ بما يقطَعُ حُجَّةَ الكافرينَ، وكان قد قدَّمَ فَضْلَ مَن يأمُرُ بالعَدلِ وهو على صِراطٍ مُستقيمٍ؛ أخذَ يُبَيِّنُ اتِّصافَ القُرآنِ ببيانِ كُلِّ شَيءٍ، وتضَمُّنِه لذلك الطَّريقِ الأقومِ، فقال اللهُ تعالى[2]:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يأمُرُ عِبادَه بالإنصافِ، وأداءِ حُقوقِ الله تعالى، وحُقوقِ عبادِه، ويأمُرُ بالإحسانِ في عبادتِه، والإحسانِ إلى خَلْقِه، ويأمُرُ بإعطاءِ الأرحامِ حُقوقَهم، وإسداءِ الخَيرِ إليهم؛ صِلةً لهم[3].

كما قال تعالى: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٤، ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٤-٢٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٧).

قال ابنُ عطية: (العدلُ: هو فِعلُ كلِّ مفروضٍ مِن عقائِدَ وشرائعَ وسَيرٍ مع الناسِ؛ في أداء الأمانات، وتركِ الظُّلم، والإنصافِ وإعطاء الحقِّ. والإحسانُ: هو فِعلُ كُلِّ مندوب إليه، فمِن الأشياءِ ما هو كلُّه مندوبٌ إليه، ومنها ما هو فرضٌ إلَّا أنَّ حَدَّ الإجزاء منه داخِلٌ في العدلِ، والتكميلُ الزائدُ على حد الإجزاءِ داخِلٌ في الإحسانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٦).

ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال سُبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

وقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال جلَّ جَلالُه: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٥].

وقال سُبحانه: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾.

أي: وينهَى اللهُ عن كُلِّ مَعصيةٍ مُتناهيةٍ في القُبحِ، كالزِّنا، وينهَى عمَّا تَستنكِرُه النُّفوسُ المُعتَدِلةُ، وتأباه الشَّريعةُ مِن فِعلٍ أو قولٍ، وينهَى عن ظُلمِ النَّاسِ، والتَّعدي عليهم في دمائِهم وأموالِهم وأعراضِهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٨).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وعن أبي بَكْرةَ نُفَيعِ بنِ الحارِثِ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن ذَنبٍ أجدَرُ أن يُعَجِّلَ اللهُ لِصاحِبِه العُقوبةَ في الدُّنيا، مع ما يَدَّخِرُ له في الآخرةِ؛ مِن البَغيِ وقَطيعةِ الرَّحِمِ))[1].

﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: يُذكِّرُكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ- بما يأمُرُكم به، وما يَنهاكم عنه؛ لأجلِ أن

قال ابنُ كثير: (فالفَواحِشُ: المُحَرَّمات. والمُنكَرات: ما ظهَرَ منها مِن فاعِلِها؛ ولهذا قيل في الموضِعِ الآخَرِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٥).

وقال البقاعي: (﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهي ما اشتَدَّ تَقصيرُه عن العَدلِ، فكان ضِدَّ الإحسانِ. ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ وهو ما قصُرَ عن العَدلِ في الجُملةِ. ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ وهو الاستعلاءُ على الغيرِ ظُلمًا). ((نظم الدرر)) (١١/ ٢٣٨).

وقال ابن عاشور: (فدخلَ في الفَحشاءِ كُلُّ ما يُوجِبُ اختلالَ المُناسِبَ الضَّروريَّ، وقد سَمَّاها اللهُ الفواحِشَ... وشَمِلَ المُنكَرُ كُلَّ ما يُفضي إلى الإخلالِ بالمُناسِبِ الحاجِيِّ، وكذلك ما يُعطِّلُ المُناسِبَ التَّحسينيَّ بدونِ ما يُفضي منه إلى ضُرٍّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٧).

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١) واللفظ له، وأحمد (٢٠٤١٤).

قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٢٣١)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢١١).

تتَذَكَّروه فتَتُوبوا إليه، وتَمتَثِلوا أوامِرَه، وتَجتَنِبوا نواهِيَه(١).

﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا جمَعَ كُلَّ المأموراتِ والمَنهِيَّاتِ في الآيةِ السَّابقةِ على سَبيلِ الإجمالِ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ بَعضَ تلك الأقسامِ، فبدأ تعالى بالأمْرِ بالوَفاءِ بالعَهدِ(٢).

﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ ﴾.

أي: وأوفُوا -أيُّها النَّاسُ- بجَميعِ العُهودِ، فيما بَينَكم وبين رَبِّكم، وفيما بَينَكم وبَينَ النَّاسِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٨).

قال الشوكاني: (وخَصَّ هذا العهدَ المذكورَ في هذه الآيةِ بَعضُ المُفَسِّرينَ بالعَهدِ الكائِنِ في بيعةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الإسلامِ، وهو خِلافُ ما يُفيدُه العَهدُ المضافُ إلى اسمِ اللهِ سُبحانَه مِن العُمومِ الشَّامِلِ لجَميعِ عُهودِ الله، ولو فُرِضَ أنَّ السَّبَبَ خاصٌّ بعَهدٍ مِن العهودِ، لم يكن ذلك مُوجِبًا لقَصْرِه على السَّبَبِ؛ فالاعتبارُ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبَبِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢٧).

وقال السعدي: (وهذا يشمَلُ جَميعَ ما عاهدَ العبدُ عليه ربَّه مِن العباداتِ والنُّذورِ والأيمانِ التي عقَدَها، إذا كان الوفاءُ بها برًّا، ويشمَلُ أيضًا ما تعاقَدَ عليه هو وغيرُه، كالعُهودِ بين المُتعاقِدين، وكالوَعدِ الذي يَعِدُه العَبدُ لغَيرِه، ويؤكِّدُه على نفسِه، فعليه في جميعِ ذلك الوفاءُ، وتتميمُها مع

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال سُبحانه: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾.

أي: ولا تُخالِفوا العُهودَ التي أكَّدْتُموها وغلَّظْتُموها بالحَلِفِ بالله[1].

﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾.

أي: لا تَنقُضوا عُهودَكم المُؤَكَّدةَ باليمينِ، فتَحْنَثوا فيها، وقد جعَلْتُم اللهَ عليكم حَفيظًا وشَهيدًا ومتكَفِّلًا بوفائِكم بالعُهودِ، فيَكونَ ذلك منكم تَرْكًا لتعظيمِ اللهِ واستهانةً به[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

القدرةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

قال ابن تيمية: (أمَرَهم أن يُوفوا بالعقودِ التي كانوا يتعاقدون بها، وكانوا يسمُّونَها تحالُفًا، ويسمُّونَ الرجُلَ حليفًا، وقال: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾ ولم يكن بصيغة القسَمِ التي ذكرها النُّحاةُ؛ ولهذا لم يقلْ: وقد أقسَمْتُم بالله، بل قال: ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾ كما عاهد موسى عليه السَّلامُ صاحِبَ مدينَ على النكاحِ بخدمته المدَّةَ المشروطةَ، وقال موسى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨] ولم يتقاسَما بالله، وكذلك الذي دفع ألفَ دينارٍ قَرضًا، وقال: «هلُمَّ شاهدًا، قال: كفى بالله شهيدًا، قال: هلُمَّ كفيلًا، قال: كفى بالله وكيلًا»، فلما جاء الأجلُ نقَرَ خشبةً وألقى الذهبَ فيها؛ لكفالة الله تعالى إيَّاه). ((العقود)) (ص: ٦٥).

لما كان مِن شأنِ الرَّقيبِ حفظُ أحوالِ مَن يراقبُه، قال تعالى مُرَغِّبًا مُرهِّبًا[١]:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ كُلَّ ما تَفعَلونَه، ومِن ذلك وفاؤُكم بالعُقودِ ونَقضُها، وسيُجازي كلَّ عامِلٍ بعَمَلِه[٢].

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٩٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ بالوَفاءِ، ونهى عن النَّقضِ؛ شرَعَ في تأكيدِ وُجوبِ الوَفاءِ، وتَحريمِ النَّقضِ وتَقبيحِه؛ تنفيرًا منه، فقال تعالى[٣]:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾.

أي: ولا تكونوا -أيُّها النَّاسُ- في نَقضِ العُهودِ التي أكَّدْتُموها كالمرأةِ التي تَنقُضُ غَزْلَها ونَسْجَها بعد تَقويتِه وإحكامِه، فتَحُلُّ ما نسَجَت وتجعَلُه أنقاضًا[٤]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤١، ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).
قال ابن كثير: (قوله: ﴿أَنكَٰثٗا﴾ يحتَمِلُ أن يكون اسمَ مصدر: نقَضَت غَزْلَها أنكاثًا، أي: أنقاضًا. ويحتَمِلُ أن يكون بدلًا عن خبَرِ كان، أي: لا تكونوا أنكاثًا، جمعُ نِكْثٍ، مِن ناكث).

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾.

أي: تَجعَلونَ أيمانكم وسيلةً للغَدرِ والمَكرِ بمَن عاهَدْتُموهم، فتحلفونَ لهم؛ ليَطمئنُّوا إليكم، وتَعقِدونَ معهم العُهودَ، وأنتم مُضمِرونَ نَقْضَها إن وجَدْتُم قومًا آخرينَ أكثرَ منهم عددًا أو قُوَّةً أو غِنًى؛ طلبًا للدُّنيا، فإذا أمكنَكم الغدرُ بهم غَدَرتُم[(١)].

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾.

أي: إنَّما يَختَبِرُكم اللهُ بما يأمُرُكم به من الوَفاءِ بالعُهودِ، ولو كان قَومٌ أحسَنَ مِن قَومٍ؛ ليتبَيَّنَ المُطيعُ منكم، والمُخالِفُ لأمرِه[(٢)].

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٥-٢٦٦).

قال السعدي: (لا تنبغي هذه الحالةُ منكم؛ تَعقِدونَ الأيمانَ المُؤكَّدةَ وتَنتَظِرونَ فيها الفُرَصَ، فإذا كان العاقِدُ لها ضعيفًا غيرَ قادرٍ على الآخَرِ أتمَّها، لا لتعظيمِ العَقدِ واليَمينِ، بل لِعَجزِه، وإن كان قويًّا يرى مَصلحتَه الدُّنيويَّةَ في نَقْضِها، نَقَضَها غيرَ مُبالٍ بعَهدِ اللهِ ويَمينِه. كُلُّ ذلك دَوَرانًا مع أهواءِ النُّفوسِ، وتقديمًا لها على مُرادِ اللهِ منكم، وعلى المُروءةِ الإنسانيَّةِ، والأخلاقِ المَرْضيَّةِ؛ لأجلِ أن تكونَ أمَّةٌ أكثَرَ عددًا وقُوَّةً مِن الأخرى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

وقال ابنُ جزي: (وقيل: الإشارةُ بالأربى هنا إلى كفَّارِ قريشٍ إذ كانوا حينئذٍ أكثرَ مِن المسلمين). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣٤).

وقال ابنُ عاشور في معنى الآيةِ: (أي: لا يحملُكم على نقضِ الحلِفِ أنْ يكونَ المشركونَ أكثرَ عددًا وأموالًا مِنَ المسلمينَ، فيبعثُكم ذلك على الانفصالِ عن جماعةِ المسلمينَ، وعلى الرُّجوعِ إلى الكفَّارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

أي: ولَيُبيِّنَنَّ اللهُ لكم -أيُّها النَّاسُ- يومَ القيامةِ ما كُنتُم فيه تَختَلِفونَ في الدُّنيا، كالاختِلافِ في تَوحيدِه، وتَصديقِ رُسُلِه، وثُبوتِ البَعثِ، والعُهودِ التي عَقَدْتُموها، فيَحكُمُ بينكم، ويُجازي كُلَّ عاملٍ بعَمَلِه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۞ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٨-٦٩].

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى ونهى، وخَوَّفَ مِن العذابِ في القيامةِ، وكان ربَّما ظَنَّ مَن لا عِلمَ له -وهم الأكثَرُ- مِن كثرةِ التَّصريحِ بالحَوالةِ على القيامةِ؛ نَقْصَ القُدرةِ في هذه الدَّارِ- صَرَّحَ بنَفيِ ذلك[٢].

وأيضًا لَمَّا كَلَّفَ اللهُ تعالى القَومَ بالوفاءِ بالعَهدِ، وتحريمِ نَقضِه؛ أتبَعَه ببيانِ أنَّه تعالى قادِرٌ على أن يجمَعَهم على هذا الوفاءِ، وعلى سائِرِ أبوابِ الإيمانِ، ولكِنَّه سُبحانَه بحُكمِ الإلهيَّةِ يُضِلُّ مَن يشاءُ، ويهدي مَن يَشاءُ[٣]، فأحال الأمرَ هنا على المشيئةِ إجمالًا، لتعذُّرِ نشرِ مطاوي الحكمةِ مِن ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٧).

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

أي: ولو شاء اللهُ لجعَلَكم جميعًا -أيُّها النَّاسُ- على مِلَّةٍ واحدةٍ؛ مِلَّةِ الإسلامِ، دونَ حُدوثِ اختلافٍ أو تفرُّقٍ بينكم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩].

﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

أي: ولكِنَّ اللهَ بحِكمَتِه خالَفَ بينَكم، فجعَلَكم أهلَ مِلَلٍ شَتَّى مُختَلِفةٍ، يخذُلُ مَن يشاءُ عن اتِّباعِ الحَقِّ، فيَحرِمُ توفيقَه مَن لا يستَحِقُّ؛ عدلًا منه سُبحانه، ويوفِّقُ مَن يشاءُ، فيهدي للحَقِّ مَن يستَحِقُّ؛ فضلًا منه سُبحانه(٢).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨].

وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وليَسألَنَّكم اللهُ جميعًا -أيُّها النَّاسُ- يومَ القيامةِ عَمَّا كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ، فيُجازيكم على أعمالِكم: خَيرِها وشَرِّها[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ فالإِحسانُ فَوقَ العَدلِ، وذلك أنَّ العَدلَ هو أن يُعطِي ما عليه، ويأخُذَ ما له، والإِحسانَ أن يُعطيَ أكثَرَ ممَّا عليه، ويأخُذَ أقلَّ ممَّا له، فالإِحسانُ زائِدٌ عليه، فتَحرِّي العَدلِ واجِبٌ، وتحَرِّي الإِحسانِ نَدْبٌ وتَطَوُّعٌ؛ ولذلك عَظَّمَ اللهُ ثوابَ أهلِ الإحسانِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (إيتاءُ ذي القُربى) لَفظٌ يَقتَضي صِلَةَ الرَّحِمِ ويعُمُّ جَميعَ إسداءِ الخَيرِ إلى القَرابةِ، وتَرْكُه مُبهمًا أبلَغُ؛ لأنَّ كُلَّ مَن وصَلَ في ذلك إلى غايةٍ وإن عَلَت، يرى أنَّه مُقَصِّرٌ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ خصَّ اللهُ تعالى بالذِّكرِ مِن جِنسِ أنواعِ العَدلِ والإحسانِ نَوعًا مُهِمًّا يَكثُرُ أن يَغفُلَ النَّاسُ عنه ويتهاونوا بحَقِّه أو بفَضلِه، وهو إيتاءُ ذي القُربى؛ فقد تقَرَّرَ في نُفوسِ النَّاسِ الاعتناءُ باجتلابِ الأبعَدِ واتِّقاءِ شَرِّه، كما تقَرَّرَ في نُفوسِهم الغَفلةُ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٦).

القريبِ، والاطمِئنانُ مِن جانِبِه، وتعَوُّدُ التَّساهُلِ في حُقوقِه، ولأجْلِ ذلك صَرَفوا مُعظَمَ إحسانِهم إلى الأبعَدينَ؛ لاجتلابِ المَحمَدةِ، وحُسنِ الذِّكرِ بينَ النَّاسِ، ولم يَزَلْ هذا الخُلُقُ مُتفَشِّيًا في النَّاسِ حتى في الإسلامِ إلى الآنَ، ولا يَكتَرِثونَ بالأقرَبينَ، فخَصَّ اللهُ تعالى بالذِّكرِ مِن بينِ جِنسِ العَدلِ وجِنسِ الإحسانِ إيتاءَ المالِ إلى ذي القُربى؛ تنبيهًا للمُؤمِنينَ يومَئذٍ بأنَّ القَريبَ أحَقُّ بالإنصافِ مِن غَيرِه، وأحَقُّ بالإحسانِ مِن غَيرِه؛ لأنَّه محَلُّ الغفلةِ، ولأنَّ مَصلحَتَه أجدى مِن مصلحةِ أنواعٍ كثيرةٍ[١].

٤- قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وضابِطُ الوَعظِ: هو الكَلامُ الذي تَلينُ له القُلوبُ، وأعظَمُ ما تَلينُ له قُلوبُ العُقَلاءِ أوامِرُ رَبِّهم ونواهيه؛ فإنَّهم إذا سَمِعوا الأمْرَ خافُوا مِن سَخَطِ اللهِ في عدَمِ امتِثالِه، وطَمِعوا فيما عندَ اللهِ مِن الثَّوابِ في امتِثالِه، وإذا سَمِعوا النَّهيَ خافُوا مِن سخَطِ اللهِ في عدَمِ اجتِنابِه، وطَمِعوا فيما عِندَه من الثَّوابِ في اجتنابِه، فحَداهم حادي الخَوفِ والطَّمَعِ إلى الامتِثالِ، فلانَت قُلوبُهم للطَّاعةِ خَوفًا وطَمعًا[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ فيه الحَثُّ على الوفاءِ بالعُهودِ، والبِرِّ في الأيمانِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ خَتَمَ اللهُ الآيةَ بالعلمِ؛ تهديدًا عن نَقْضِ العهدِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ بأنَّ اللهَ يَعلَمُ كلَّ ما يَفعَلُ، فإنَّه لا يَنقُضُ العهدَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٤٧٦).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ الإنسانَ ينبغي أن يُحافِظَ على ما اعتادَه مِن الخَيرِ، يعني: لا تكونوا كالمرأةِ الغازِلةِ التي تَغزِلُ الصُّوفَ، ثمَّ إذا غزَلَتْه وأتقَنَتْه نَقَضَتْه أنكاثًا ومَزَّقَتْه!! بل دُوموا على ما أنتُم عليه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ هذه الآيةُ جَمَعت أحكامًا كثيرةً، وتضَمَّنَت جميعَ أوامِرِ الشَّرعِ ونواهيه[٢]، وهي أجمعُ آيةٍ في القُرآنِ للحَثِّ على المَصالحِ كُلِّها، والزَّجرِ عن المَفاسِد بأَسْرِها[٣]، وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه قال: (إنَّ أجمَعَ آيةٍ في القُرآنِ، في سُورةِ النَّحلِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾)[٤]، وعن الحَسَنِ البصريِّ: (أنَّه قرأ هذه الآيةَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إلى آخِرِها، ثمَّ قال: إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ جمَعَ لكم الخَيرَ كُلَّه والشَّرَّ كُلَّه في آيةٍ واحدةٍ، فواللهِ ما تَركَ العَدلُ والإحسانُ مِن طاعةِ اللهِ شَيئًا إلَّا جَمَعَه، ولا ترَكَ الفَحشاءُ والمُنكَرُ والبَغيُ مِن معصيةِ الله شَيئًا إلَّا جَمَعَه)[٥].

٢- الدِّينُ الإسلاميُّ ليس دينَ مُساواةٍ، الدينُ الإسلاميُّ دينُ عَدْلٍ، وهو إعطاءُ كلِّ

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٤).

(٣) يُنظر: ((قواعد الأحكام في مصالح الأنام)) للعز بن عبد السلام (٢/ ١٨٩).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في ((المصنف)) (٣/ ٣٧٠) (٦٠٠٢)، وابنُ جرير ((تفسيره)) (١٤/ ٣٣٧).

(٥) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (١٣٨).

شَخصٍ ما يَستَحِقُّ، فإذا استوى شَخصانِ في الأحقِّيَّةِ؛ فحينئذٍ يتساويانِ فيما يَترَتَّبُ على هذه الأحقِّيَّةِ، أمَّا مع الاختلافِ فلا، ولا يُمكِنُ أن يُطلَقَ أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ دينُ مساواةٍ أبدًا، بل إنَّه دينُ العَدلِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾ وجهُ جَعْلِ اللهِ له كَفيلًا: أنَّ الإنسانَ إذا عَاهَدَ غيرَه قال: أعاهِدُك باللهِ، أي: أجْعَلُ اللهَ كفيلًا[2].

٤- يُستَفادُ عمومُ قدرةِ اللهِ جلَّ وعلا؛ وأنَّ بِيَدِه الأمورَ الشَّرعيَّةَ والكونيَّةَ، مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني: على مِلَّةٍ واحدةٍ، ولكِنَّه سُبحانه وتعالى له الحِكمةُ البالِغةُ فيما قَدَّرَ وشَرَعَ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ شَديدةٌ؛ لجَمْعِه بين المَشيئةِ والإضلالِ، والهُدى والسُّؤالِ عن العَمَلِ في آيةٍ واحدةٍ، وهو قَولُنا الذي نَقولُه: إنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُه لو شاء لجعَلَ النَّاسَ كُلَّهم مُؤمِنينَ، ولكِنَّه لم يفعَلْ، فأضَلَّ قومًا فكَفَروا، وهدى قومًا فآمَنوا، فعذَّبَ الكافِرَ بجِنايتِه، وقد قضاها عليه بعَدلِه سُبحانَه، وأثاب المؤمِنَ على إحسانِه، وقد هداه إليه بفَضلِه سُبحانَه. وكُلُّ هذا حُكمٌ مُنتَظِمٌ، وعَدلٌ شامِلٌ، وفَضلٌ بَيِّنٌ، عقَلَتْه الخَليقةُ بعُقولِها أم لم تَعقِلْه، ولو لم يكُنْ في القُرآنِ مِنَ الرَّدِّ عليهم إلَّا هذه الآيةُ وَحدَها لكَفَتْهم، فكيف وهو مملوءٌ بأمثالِها بحَمدِ اللهِ ونِعمتِه[4]؟!

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ١٠٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٨٩).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ...﴾ فيه افتِتاحُ الجُملةِ بحَرفِ التَّوكيدِ؛ للاهتِمامِ بشأنِ ما حَوَتْه، وتَصديرُهما باسْمِ الجَلالةِ للتَّشريفِ، وذكَر ﴿يَأۡمُرُ﴾ ﴿وَيَنۡهَىٰ﴾ دونَ أن يُقالَ: اعدِلوا واجتَنِبوا الفَحشاءَ؛ للتَّشويقِ[١].

- فيه إيثارُ صيغةِ الاستِقْبالِ ﴿يَأۡمُرُ﴾ ﴿وَيَنۡهَىٰ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ والاستِمْرارِ[٢].

- وقولُه: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ تخصيصٌ بعدَ تعميمٍ؛ للمُبالَغةِ[٣].

- قولُه تعالى: ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ﴾ خَصَّ اللهُ تعالى بالذِّكْرِ نوعًا مِن الفَحشاءِ والمنكَرِ، وهو البَغيُ؛ اهتِمامًا بالنَّهيِ عنه، وسدًّا لِذَريعةِ وُقوعِه؛ لأنَّ النُّفوسَ تَنْساقُ إليه بدافِعِ الغضَبِ، وتَغفُلُ عمَّا يَشمَلُه مِن النَّهيِ مِن عُمومِ الفحشاءِ؛ بسبَبِ فُشوِّه بينَ النَّاسِ[٤].

- وهذه الآيةُ قيل: هي أجمَعُ آيةٍ في القرآنِ للخيرِ والشَّرِّ، وقد اشتَمَلَت على أفانينَ مِن البلاغةِ؛ منها الإيجازُ: حيث أمَر في أوَّلِ الآيةِ بكلِّ معروفٍ، ونَهى بعدَ ذلك عن كلِّ مُنكَرٍ، وختَم الآيةَ بأبلَغِ العِظاتِ، وصاغ ذلك في أوجَزِ العباراتِ. ومنها: صِحَّةُ التَّقسيمِ؛ فقد استَوْفى فيها جميعَ أقسامِ المعنى؛ فلم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٨).

يَبْقَ معروفٌ إلَّا وهو داخِلٌ في نِطاقِ الأمرِ، ولم يَبقَ مُنكَرٌ إلَّا وهو داخِلٌ في حيِّزِ النَّهيِ، وقدَّم ذِكرَ العدلِ؛ لأنَّه واجبٌ، وتَلاه بالإحسانِ؛ لأنَّه مندوبٌ؛ لِيَقَعَ نَظمُ الكلامِ على أحسَنِ تَرتيبٍ، وقرَنَهما في الأمرِ؛ لأنَّ الفَرضَ لا يَخْلو مِن خلَلٍ وتفريطٍ يَجبُرُه النَّدْبُ والنَّوافلُ، وخَصَّ ذا القُرْبى بالذِّكْرِ بعدَ دُخولِه في عُمومِ مَن أمَر بمُعامَلتِه بالعَدلِ والإحسانِ؛ لِبيانِ فَضلِ ذي القُربى، وفَضلِ الثَّوابِ عليه. ومِنها: حُسنُ النَّسَقِ في ترتيبِ الجُمَلِ وعَطْفِها بَعضِها على بعضٍ كما ينبَغي، حيث قدَّم العدْلَ وعطَف عليه الإحسانَ؛ لِكَونِ الإحسانِ اسمًا عامًّا، وإيتاءُ ذي القُرْبى خاصٌّ؛ فكأنَّه نوعٌ مِن ذلك الجنسِ، ثمَّ أتى بجُملَةِ الأمرِ مُقدَّمةً، وعطَف عليها جُملةَ النَّهيِ. ومِنها: تمكينُ الفاصِلةِ؛ لأنَّ مَقطَعَ الآيةِ مُستقِرٌّ في حيِّزِه، ثابتٌ في مَقرِّه، وقَرارُه مَعناه متعلِّقٌ بما قَبلَه إلى أوَّلِ الكلامِ، ولأنَّه لا تَحسُنُ الموعظةُ إلَّا بعدَ التَّكليفِ ببَيانِ الأمرِ والنَّهيِ، ولأنَّ أيَّ لفظةٍ حذَفْتَها مِن ألفاظِ الآيَةِ يَختَلُّ المعنى بحَذْفِها اختِلالًا ظاهِرًا، ويَنقُصُ نَقصًا بيِّنًا[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ (إذا) لمجرَّدِ الظَّرفيَّةِ؛ لأنَّ المخاطَبين قد عاهَدوا اللهَ على الإيمانِ والطَّاعةِ؛ فالإتيانُ باسْمِ الزَّمانِ لِتَأكيدِ الوَفاءِ.

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ خَصَّ اليمينَ بالذِّكرِ؛ تنبيهًا على أنَّه أَولى أنواعِ العَهدِ بوُجوبِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦).

الرِّعايةِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ فيه التَّوكيدُ بـ (إنَّ) للاهْتِمامِ بالخبَرِ، وكذلك التَّأكيدُ ببِناءِ الجملةِ بالمسنَدِ الفِعليِّ: ﴿يَعۡلَمُ﴾ دونَ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ عليمٌ، ولا: قد يَعلَمُ اللهُ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ تشنيعٌ لحالِ الَّذين يَنقُضون العَهدَ، وعطفٌ على جملةِ: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ واعتمَد العَطفُ على المغايَرةِ في المعنى بينَ الجُملتَينِ؛ لِمَا في هذه الثَّانيةِ مِن التَّمثيلِ وإن كانت مِن جهةِ الموقِعِ كالتَّوكيدِ لِجُملةِ: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ نُهوا عن أن يَكونوا مَضرِبَ مَثَلٍ معروفٍ في العرَبِ بالاستهزاءِ، وهو المرأةُ الَّتي تَنقُضُ غَزْلَها بعدَ شَدِّ فَتْلِه، وعبَّر عَنها بطريقِ الموصوليَّةِ؛ لاشتِهارِها بمَضْمونِ الصِّلَةِ، ولأنَّ مَضمونَ الصِّلةِ هو الحالةُ المشبَّهُ بها في هذا التَّمثيلِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا للتَّعليلِ بما يَقْتَضي الحِكْمةَ، وهو أنَّ ذلك يَبتَلي اللهُ به صِدْقَ الإيمانِ، والقَصْرُ المستفادُ مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ قصرُ موصوفٍ على صِفةٍ. ثمَّ عطَف عليه تأكيدَ أنَّه سيُبيِّنُ لهم يومَ القيامةِ ما يَختلِفون فيه مِن الأحوالِ، فتَظهَرُ الحقائقُ كما هي غيرَ مُغَشَّاةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٦٤).

بزَخارِفِ الشَّهواتِ، ولا بمَكارِهِ مُخالَفةِ الطِّباعِ؛ لأنَّ الآخِرةَ دارُ الحقائقِ لا لَبْسَ فيها. وأكَّد هذا الوعدَ بمُؤكِّدَينِ: القسَمِ الَّذي دلَّت عليه اللَّامُ، ونونِ التَّوكيدِ[1].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ مؤكَّدٌ بتَأكيدَينِ، وهُما القَسَمُ الَّذي دلَّتْ عليه اللَّامُ، ونونُ التَّوكيدِ، والسُّؤالُ: كنايةٌ عن المُحاسَبةِ؛ لأنَّه سؤالٌ حَكيمٌ تَترتَّبُ عليه آثارُه، وليس سؤالَ استِطْلاعٍ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٦- ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٦٨).

الآيات (٩٤-٩٧)

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتَزِلَّ﴾: أي: فتَسقُطَ وتَزْلَقَ؛ مِن الزَّلَلِ: وهو عُثورُ القَدَمِ، وزَلَلُ القَدَمِ تَقولُه العَرَبُ لكُلِّ ساقِطٍ في وَرطةٍ بعدَ سَلامةٍ[1].

﴿يَنفَدُ﴾: أي: يفنى، والنَّفَادُ: الفَناءُ، وأَصْل (نفد): يدلُّ على انقطاعِ شيءٍ وفنائِه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: ولا تَجعَلوا الأيمانَ التي تَحلِفونَها خديعةً لِمَن حَلَفتُم لهم، فتَزِلَّ أقدامُكم بعد أن كانت ثابِتةً على الدِّينِ، وتَذوقوا ما يَسوؤُكم من العذابِ في الدُّنيا؛ بسببِ إعراضِكم ومَنْعِ غَيرِكم عن هذا الدِّينِ؛ لِما رأَوْه منكم مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٩/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧).

الغَدرِ، ولكم عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ. ولا تَنقُضوا عهدَ اللهِ؛ لتُحَصِّلوا عَرَضًا قليلًا مِن متاعِ الدُّنيا، إنَّ ما عندَ اللهِ مِن الثَّوابِ على الوفاءِ أفضَلُ لكم من هذا الثَّمَنِ القليلِ، إن كُنتُم تعلَمون.

ثمَّ رغَّبهم الله تعالى في العملِ بما يُرضيه بعدَ الترغيبِ السابقِ، فقال: ما عِندَكم مِن حُطامِ الدُّنيا يذهَبُ، وما عندَ اللهِ لكم مِن الرِّزقِ والثَّوابِ في الجنَّةِ باقٍ لا يَزولُ، ولنُثيبَنَّ الذين صَبَروا ثوابَهم على أحسَنِ أعمالِهم الصالحةِ، ونتَجاوَزُ عن سَيِّئاتِهم.

ثمَّ بيَّن تعالى حسنَ عاقبةِ المؤمنينَ الذين يحرصونَ على عملِ الصالحاتِ، فقال تعالى: مَن عَمِلَ عمَلًا صالِحًا ذكرًا أم أنثى، وهو مؤمِنٌ بالله ورَسولِه؛ فلَنُحيِيَنَّه في الدُّنيا حياةً سَعيدةً، ولنَجزيَنَّهم في الآخرةِ ثوابَهم على أحسَنِ ما عَمِلوا في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا حَذَّرَهم اللهُ تعالى مِن نَقضِ الأيمانِ الذي يَؤولُ إلى اتِّخاذِ أيمانِهم دَخَلًا فيهم، وأشار بالإجمالِ إلى ما في ذلك من الفَسادِ فيهم؛ أعاد الكَرَّةَ إلى بيانِ عاقبةِ ذلك الصَّنيعِ إعادةً تُفيدُ التَّصريحَ بالنَّهيِ عن ذلك، وتأكيدَ التَّحذيرِ، وتَفصيلَ الفَسادِ في الدُّنيا، وسوءَ العاقبةِ في الآخرةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٨).

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ أنَّ الكَذِبَ وما جرَّ إليه أقبَحُ القَبائِحِ، وأبعَدُ الأشياءِ عن المكارِمِ، وكان مِن أعظَمِ أسبابِ الخِلافِ، فكان أمرُه جَديرًا بالتَّأكيدِ، أعاد الزَّجرَ عنه بأبلَغَ مِمَّا مضى بصَريحِ النَّهيِ مُرَهِّبًا مِمَّا يترَتَّبُ على ذلك[١].

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾.

أي: ولا تَجعَلوا أيمانكم خَديعةً لِمَن تَحلِفونَ لهم؛ لِيُصدِّقوكم، وأنتم تَنوُونَ الغَدرَ والمَكرَ بهم إن سَنَحَت لكم فُرصةٌ، فتَنْحَرِفَ أقدامُكم بعد أن كانت ثابتةً على الدِّينِ وصِراطِ اللهِ المُستقيمِ، فتَهلِكوا[٢].

﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ويَحُلَّ بكم العَذابُ في الدُّنيا؛ بسبَبِ إعراضِكم، وصَدِّكم النَّاسَ عن الدُّخولِ في الإسلامِ، حين تَخدَعونَهم بالحَلِفِ الكاذِبِ، وتَغدِرونَ عَهْدَكم معهم، فلا يبقَى لهم وُثوقٌ في دينِ اللهِ سُبحانَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٦).

ممن قال: إنَّ المرادَ هنا أنَّهم صدُّوا غيرَهم: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقندي، ومكي، والخازن، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٩٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي ابن أبي طالب (٦/ ٤٠٨١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٠).

وقال ابنُ عاشور: (و﴿صَدَدتُّمۡ﴾ هنا قاصرٌ، أي بكونِكم معرضينَ عن سبيلِ الله). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٩).

وجمَع البقاعي والسعدي بينَ المعنيين السابقين.

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: ولكم عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ[١].

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما كانت الرغبةُ في الدنيا، والمنافسةُ في الاستكثارِ منها، والطلبُ لِلَذَّاتِها، مِن أعظمِ الأسبابِ الباعثةِ للإنسانِ على نقضِ الأيْمانِ؛ زجَرهم الله تعالى عنها، ونبَّهَهم على ما هو خيرٌ لهم منها[٢].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان ما سبَقَ خاصًّا بالأيمانِ؛ أتبَعَه النَّهيَ عن الخيانةِ في عُمومِ العَهدِ؛ تأكيدًا بعد تأكيدٍ؛ للدَّلالةِ على عظيمِ النَّقضِ، فقال تعالى[٣]:

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أي: ولا تَنقُضوا عُهودَكم التي أكَّدْتُموها بالأيمانِ؛ لنَيلِ مَتاعٍ قليلٍ مِن الدُّنيا[٤].

قال البقاعي: (﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ أي: أنفسَكم، ومنعتُم غيرَكم بأيمانِكم التي أردتُم بها الإفسادَ؛ لإخفاءِ الحقِّ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٢٤٦).

وقال السعدي: (﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حيثُ ضللتُم وأضللتُم غيرَكم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

وقال السمعاني: (سهَّلْتُم طريقَ نقضِ العهدِ على النَّاسِ بنقضِكم العهدَ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٩٩). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٨٦، ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ ثَوابَ اللهِ لكم في الجَنَّة -إذا آثَرْتُم رِضا اللهِ فأطَعْتُموه بالوَفاءِ بعُهودِكم- أفضَلُ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا القَليلِ، إنْ كُنتُم تَعلَمونَ حَقيقةَ الفَرقِ بينَ الدُّنيا الفانيةِ، والآخرةِ الباقيةِ[1].

﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾.

﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾.

أي: ما عِندَكم مِن مَتاعِ الدُّنيا ينتهي ويَفنى، وإن كان كثيرًا، وما عِندَ اللهِ مِن الثَّوابِ في الجَنَّةِ مُستَمِرٌّ لا يَنقَطِعُ ولا يفنَى؛ فاحرِصوا عليه، واعمَلوا للظَّفَرِ به[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٖ﴾ [ص: ٥٤].

وقال سُبحانه: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ولَنُثيبَنَّ يومَ القيامةِ الصَّابرينَ على أحسَنِ الذي كانوا يَعمَلونَه في الدُّنيا من الأعمالِ الصَّالحةِ، ونتَجاوَزُ عن سَيِّئِ أعمالِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠١).

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وعَدَ اللهُ تعالى بعدَ أن توعَّدَ؛ أتبَعَه ما يُبيِّنُ أنَّ ذلك لا يخُصُّ شَريفًا ولا وَضيعًا، وإنَّما هو دائِرٌ مع وصفِ الإيمانِ، فقال تعالى، مرغِّبًا في عمومِ شرائعِ

وممَّن ذهب إلى أنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: الطاعات: ابن جرير، والواحدي، والرازي، والقرطبي، وابن كثير. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن عاشور: (والباءُ للسَّببيَّة. و«أحسن» صيغةُ تفضيلٍ مُستعمَلةٌ للمبالغةِ في الحسَن... أي: بسبَبِ عَمَلِهم البالغِ في الحُسنِ، وهو عمَلُ الدَّوامِ على الإسلامِ، مع تجرُّعِ ألم الفِتنةِ من المُشرِكينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٢).

وقيل: المعنى: ولنجزينَّهم بجزاءٍ أشرفَ وأوفرَ مِن عملِهم. وممن قال بهذا المعنى: القاسمي، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢٩-٢٣٠).

قال الشنقيطي: (أقسَم -جلَّ وعَلا- في هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّه سيَجْزي الَّذينَ صَبَروا ﴿أَجْرَهُم﴾ أي: جزاءَ عملِهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. وبيَّن في مواضعَ أُخرَ: أنَّه جزاءٌ بلا حِسابٍ؛ كما في قولِه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤٣٩).

وقال الماوردي: (﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يحتَمِل وجهين: أحدُهما: أن يُجازى على أحسَنِ الأعمالِ، وهي الطاعة، دونَ المباحِ منها. الثاني: مضاعفةُ الجزاء، وهو الأحسَنُ، كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢١٢).

قال الألوسي: (وجُوِّز أن يكون المعنى (لنجزينَّهم) بحسَبِ أحسَنِ أفراد أعمالِهم، أي: لنُعطينَّهم بمقابلة الفردِ الأدنى مِن أعمالِهم ما نُعطيه بمقابلة الفرد الأعلى منها، من الأجر الجزيلِ، لا أنَّا نعطي الأجرَ بحسَبِ أفرادها المتفاوِتةِ في مراتِبِ الحَسنِ، بأن نجزي الحَسَن منها بالحَسَنِ، والأحسَنَ بالأحسَنِ). ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٦١). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٨).

الإسلامِ، جوابًا لمن كأنَّه قال: هذا خاصٌّ بأحدٍ دونَ أحدٍ[١]:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾.

أي: مَن عَمِلَ عمَلًا صالِحًا خالِصًا لله، مُوافِقًا للقُرآنِ والسُّنَّةِ- ومن ذلك الوَفاءُ بالعُهودِ- مِن ذكَرٍ أو أُنثَى، وهو مؤمِنٌ باللهِ ورَسولِه، مُصَدِّقٌ بوَعدِ اللهِ ووَعيدِه؛ فلنُحيِيَنَّه في الدُّنيا حياةً سَعيدةً، وذلك بما يجده من حلاوةِ الإيمان، والأنسِ بالله تعالى، والتلذذِ بعبادتِه، وطُمأنينةِ قَلبِه، وسُكونِ نَفسِه، وبما يَرزُقُه اللهُ مِن الرزقِ الحلالِ الطيبِ مِن حيثُ لا يحتَسِبُ، معَ القناعةِ به[٢].

كما قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٠، ٣٥٤، ٣٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٥، ٣٦)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢٠، ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٠).

قال ابن كثير: (والحياةُ الطيِّبةُ تشمَلُ وجوهَ الراحةِ مِن أي جهةٍ كانت، وقد رُوي عن ابن عباس وجماعةٍ أنَّهم فسَّروها بالرِّزقِ الحلال الطيِّبِ. وعن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّه فسَّرها بالقناعة، وكذا قال ابن عباس، وعِكرمة، ووهب بن منبِّه. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: إنَّها السعادة. وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة: لا يطيبُ لأحدٍ حياةٌ إلَّا في الجنة. وقال الضحَّاك: هي الرِّزقُ الحلالُ والعبادةُ في الدنيا، وقال الضحَّاك أيضًا: هي العمَلُ بالطاعة والانشراحُ بها. والصَّحيحُ أنَّ الحياةَ الطيِّبةَ تشمَلُ هذا كُلَّه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠١).

وقال ابن عاشور: (وهذا مقامٌ دَقيقٌ تتفاوَتُ فيه الأحوالُ على تفاوُتِ سرائِرِ النُّفوسِ، ويعطي اللهُ فيه عبادَه المُؤمِنينَ على مراتِبِ هِمَمِهم وآمالِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٣).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قد أفلَحَ مَن أسلَمَ، ورُزِقَ كَفافًا[١]، وقنَّعَه اللهُ بما آتاه))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ خُبَيبٍ، عَن عَمِّه رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا بأسَ بالغِنى لِمَن اتَّقى، والصِّحةُ لِمَن اتَّقى خَيرٌ مِن الغِنى، وطِيبُ النَّفسِ مِن النَّعيمِ))[٣].

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: ولنجزينَّ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ- في الآخرةِ- ثوابَ إيمانِهم وأعمالِهم على أحسَنِ الذي كانوا يَعمَلونَه في الدُّنيا من الطَّاعاتِ، ونَتَجاوزُ عن سَيِّئاتِهم[٤].

كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

وقال سُبحانه: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ

---

(١) الكَفافُ: الكِفايةُ بلا زيادةٍ ولا نقصٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ١٤٥).

(٢) رواه مسلم (١٠٥٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١٤١) واللفظ له، وأحمد (٢٣١٥٨).

صحح إسناده الحاكم في ((المستدرك)) (٢/ ٣)، والبوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٢/ ٥) وقال: (رجالُه ثقاتٌ)، والحديث صححه الذهبي في ((التلخيص)) (٢/ ٣)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٦/ ٤٠٨٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٦٧).

ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فيه حَثٌّ على التأمُّلِ والعِلمِ[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ فيه الحَثُّ والتَّرغيبُ على الزُّهدِ في الدُّنيا، خُصوصًا الزُّهدَ المتعَيِّنَ، وهو الزُّهدُ فيما يكونُ ضَررًا على العَبدِ، ويُوجِبُ له الاشتِغالَ عمَّا أوجَبَ اللهُ عليه، وتقديمَه على حَقِّ اللهِ؛ فإنَّ هذا الزُّهدَ واجِبٌ. ومِن الدَّواعي للزُّهدِ أن يُقابِلَ العَبدُ لذَّاتِ الدُّنيا وشَهَواتِها بخَيراتِ الآخرةِ؛ فإنَّه يَجِدُ مِن الفَرقِ والتَّفاوُتِ ما يَدعوه إلى إيثارِ أعلى الأمرَينِ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ دَلالةٌ على أنَّ سَعادةَ الدُّنيا ليسَت بكَثرةِ المالِ والوَلَدِ والمَتاعِ، وإنَّما بالعَمَلِ الصَّالحِ، فلا حياةَ طَيِّبَةً إلَّا لِمَن عَمِلَ صالِحًا وهو مُؤمِنٌ، سواءٌ كان ذكَرًا أو أنثى[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ عَبَّرَ بالافتعالِ في ﴿تَتَّخِذُوٓا۟ ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ ذلك لا يُفعَلُ إلَّا بعلاجٍ شَديدٍ مِن النَّفسِ؛ لأنَّ الفِطرةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٢٣٦).

السَّليمةَ يَشتَدُّ نِفارُها منه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ إنَّما كان قليلًا وإن كَثُرَ؛ لأنَّه مِمَّا يزولُ، فهو على التَّحقيقِ قَليلٌ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ يدُلُّ على أنَّ نَعيمَ الجَنَّةِ لا ينقَطِعُ، وفي ذلك حُجَّةٌ على جَهمِ بنِ صَفوانَ[٣]؛ إذ زعَمَ أنَّ نَعيمَ الجَنَّةِ مُنقَطِعٌ[٤]!

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ قَولُه تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ في هذا البيانِ دَلالةٌ على أنَّ أحكامَ الإسلامِ يَستوي فيها الذُّكورُ والنِّساءُ، عدا ما خَصَّصَه الدِّينُ بأحَدِ الصِّنفَينِ[٥].

٥- الإيمانُ شَرطٌ في صِحَّةِ الأعمالِ الصَّالحةِ وقَبولِها، بل لا تُسمَّى أعمالًا صالِحةً إلَّا بالإيمانِ، والإيمانُ مُقتَضٍ لها؛ فإنَّه التَّصديقُ الجازِمُ المُثمِرُ لأعمالِ الجَوارِحِ مِن الواجِباتِ والمُستحَبَّاتِ، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[٦].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٥-٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٣).

(٣) جَهمُ بنُ صَفوانَ: هو أُسُّ الضَّلالةِ، ورأسُ الجَهْميَّةِ،كان يُنكِرُ الصِّفاتِ، وينزِّهُ الباريَ عنها بزعمِه، ويقولُ بخَلقِ القرآنِ، ويقولُ: إنَّ اللهَ في الأمكنةِ كُلِّها، وكان يقول: الإيمانُ عَقدٌ بالقلبِ وإن تلفَّظ بالكُفرِ. يُنظر: ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٦/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ضَمِنَ اللهُ لأهلِ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ الجَزاءَ في الدُّنيا بالحياةِ الطَّيِّبةِ، والحُسنى يومَ القيامةِ، فلهم أطيَبُ الحَياتَينِ، فهم أحياءٌ في الدَّارَينِ[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ استَدَلَّ به مَن قال: إنَّ المُباحَ داخِلٌ في قِسمِ الحَسَنِ؛ ووَجهُه: أنَّ (أحسَنَ) أفعَلُ تَفضيلٍ يقتَضي المُشارَكةَ، والواجِبُ أحسَنُ مِن المَندوبِ قَطعًا، والمندوبُ أحسَنُ مِن المُباحِ؛ إذ لا ثَوابَ فيه، فبَقِيَ المُباحُ حسَنًا[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ استئنافُ إنشاءٍ عن اتِّخاذِ الأَيْمانِ دخَلًا على العُمومِ، فيَشمَلُ جميعَ الصُّورِ مِن الحَلِفِ في المبايَعةِ، وقَطعِ الحقوقِ الماليَّةِ، وغيرِ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ كَرَّر النَّهيَ عن اتِّخاذِ الأَيمانِ دخَلًا بينَهم؛ تأكيدًا عليهم، وإظهارًا لعِظَمِ ما يُرتكَبُ منه[٤]، وهو تصريحٌ بالنَّهيِ عنه بعدَ التَّضمينِ؛ تأكيدًا، ومبالَغةً في قُبحِ المنهيِّ[٥]، وكان تفريعُ قولِه تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٨).

تفصيلًا لِما أُجمِل في معنى الدَّخَلِ[١].

- قولُه: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ زلَلُ القَدمِ تمثيلٌ لاختلالِ الحالِ، والتَّعرُّضِ للضُّرِّ؛ لأنَّه يترتَّبُ عليه السُّقوطُ أو الكسرُ، كما أنَّ ثُبوتَ القدَمِ تَمكُّنُ الرِّجلِ مِن الأرضِ، وهو تمثيلٌ لاستقامةِ الحالِ، ودَوامِ السَّيرِ، ولَمَّا كان المقصودُ تمثيلَ ما يَجُرُّه نقضُ الأيمانِ مِن الدَّخَلِ شُبِّهَت حالُهم بحالِ الماشي في طريقٍ، بينَما كانت قدَمُه ثابتةً إذا هي قد زلَّت به فصُرِع؛ فالمشبَّهُ بها حالُ رَجُلٍ واحدٍ؛ ولذلك نُكِّرَت ﴿قَدَمُۢ﴾ وأُفرِدَت؛ إذ ليس المقصودُ قدَمًا مُعيَّنةً ولا عددًا من الأقدامِ، كما يُقالُ لجماعةٍ يتَردَّدون في أمرٍ: إنَّكم تُقدِّمون رِجلًا، وتُؤخِّرون أُخرى؛ تَمثيلًا لحالِهم بحالِ الشَّخصِ المتردِّدِ في المشيِ إلى الشَّيءِ[٢].

- وقيل: السِّرُّ في إفرادِ القدَمِ وتنكيرِها: استعظامُ أن تَزِلَّ قدَمٌ واحدةٌ عن طريقِ الحقِّ بعدَ أن تَوطَّأَ لها مِهادُه، وثَبَتَت عليه؛ فكيف بأقدامٍ كثيرةٍ[٣]؟!

- وزيادةُ ﴿بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ مع أنَّ الزَّلَلَ لا يُتَصوَّرُ إلَّا بعدَ الثُّبوتِ؛ لِتَصويرِ اختلافِ الحالَينِ، وأنَّه انحِطاطٌ مِن حالِ سعادةٍ إلى حالِ شقاءٍ، ومِن حالِ سلامةٍ إلى حالِ مِحنةٍ[٤].

- وقولُه: ﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيدٌ بعِقابِ الآخرةِ، وهو معطوفٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٨٢-٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٩).

التَّفريعِ، وبهذا التَّصديرِ، وهذا التَّفريعِ النَّاشئِ عن جملةِ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ فارقَتْ هذه الآيةُ نَظيرتَها السَّابقةَ بالتَّفصيلِ والزِّيادةِ؛ فحُقَّ أن تُعطَفَ عليها لهذه المغايَرةِ، وإن كان شأنُ الجملةِ المؤكِّدةِ ألَّا تُعطَفَ[(١)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ هذا نهيٌ عن نَقْضِ عهدِ الإسلامِ؛ لأجْلِ ما فاتَهم بدُخولِهم في الإسلامِ مِن مَنافِعَ عندَ قومِ الشِّركِ، وبهذا الاعتبارِ عُطِفَت هذه الجملةُ على جُملةِ ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ وعلى جملةِ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾؛ لأنَّ كلَّ جملةٍ منها تَلتَفِتُ إلى غرَضٍ خاصٍّ ممَّا قد يَبعَثُ على النَّقضِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾: ﴿قَلِيلًا﴾ صفةٌ كاشِفةٌ وليسَت مُقيِّدةً، أي: إنَّ كلَّ عِوَضٍ يُؤخَذُ عن نقضِ عهدِ اللهِ هو عِوَضٌ قليلٌ، ولو كان أعظَمَ المكتسَباتِ[(٣)].

- وجملةُ ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ تعليلٌ للنَّهيِ باعتبارِ وصْفِ عِوَضِ الاشْتِراءِ المنهيِّ عنه بالقِلَّةِ؛ فإنَّ ما عِندَ اللهِ هو خيرٌ مِن كلِّ ثمَنٍ وإن عَظُم قدرُه[(٤)]، وقولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ تعليلٌ للنَّهيِ على طريقةِ التَّحقيقِ[(٥)].

٣- قولُه تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٨).

أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ تعليلٌ للخَيْريَّةِ بطَريقِ الاستِئْنافِ، أي: ما تتمتَّعون به مِن نَعيمِ الدُّنيا وإنْ جَلَّ، بل الدُّنْيا وما فيها جَميعًا يَنْفَدُ، وإنْ كَثُر عددُه، ويَنقَضي وإن طالَ أمَدُه[1]، وهو تذييلٌ وتعليلٌ لمضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ بأنَّ ما عِندَ اللهِ لهم خيرٌ مُتجدِّدٌ لا نَفادَ له، وأنَّ ما يُعْطيهم المشرِكون مَحدودٌ نافِدٌ؛ لأنَّ خَزائنَ النَّاسِ صائِرةٌ إلى النَّفادِ بالإعطاءِ، وخَزائِنَ اللهِ باقيةٌ، أي: ما عِندَ اللهِ لا يَفْنى؛ فالأجدَرُ الاعتِمادُ على عَطاءِ اللهِ الموعودِ على الإسلامِ، دونَ الاعتمادِ على عطاءِ النَّاسِ، الَّذين يَنفَدُ رِزقُهم ولو كَثُر. وهذا الكلامُ جَرى مَجْرى التَّذييلِ لِمَا قَبْلَه، وأطلَق إرسالَ المثَلِ فيُحمَلُ على الأعَمِّ؛ ولذلك كان ضميرُ ﴿عِندَكُمْ ﴾ عائِدًا إلى جَميعِ النَّاسِ بقَرينةِ التَّذييلِ والمثَلِ، وبقَرينةِ المقابَلةِ بما عِندَ اللهِ، أي ما عِندَكم- أيُّها النَّاسُ- ما عِندَ الموعودِ وما عِندَ الواعِدِ؛ لأنَّ المنهيِّينَ عن نَقْضِ العهدِ ليس بيَدِهم شيءٌ[2].

- وفي إيثارِ الاسمِ ﴿بَاقٍ ﴾ على صيغةِ المضارِعِ (يَبْقى) مِن الدَّلالةِ على الدَّوامِ ما لا يَخْفى[3].

- قولُه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ تكريرُ الموعِدِ المستفادِ مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ على نهجِ التَّوكيدِ القسَميِّ؛ مُبالَغةً في الحَمْلِ على الثَّباتِ في الدِّينِ. والالْتِفاتُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٨).

عمَّا يَقتَضيه ظاهِرُ الحالِ مِن أن يُقالَ: (ولنَجزِينَّكم أجرَكم بأحسَنِ ما كُنتم تَعمَلون)؛ للتَّوسُّلِ إلى التَّعرُّضِ لأعمالِهم، والإشعارِ بعِلِّيَّتِها للجزاءِ، أي: واللهِ لنَجزِيَنَّ[1].

- قولُه: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أُضيفَ إليه الأحسَنُ؛ للإشعارِ بكَمالِ حُسنِه كما في قولِه سبحانه: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، لا لإفادةِ قَصْرِ الجزاءِ على الأحسَنِ منه دونَ الحسَنِ؛ فإنَّ ذلك مِمَّا لا يَخطُرُ ببالِ أحَدٍ لا سِيَّما بعدَ قولِه تعالى: ﴿أَجْرَهُم﴾، أو ﴿لَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ بحسَبِ أحسَنِ أفرادِ أعمالِهم المذكورِ على مَعْنى: لَنُعطينَّهم بمُقابَلةِ الفردِ الأدنى مِن أعمالِهم المذكورةِ ما نُعطيه بمُقابلةِ الفردِ الأعلى منها مِن الأجرِ الجزيلِ، لا أنَّا نُعْطي الأجرَ بحَسَبِ أفرادِها المتفاوِتةِ في مَراتبِ الحُسْنِ بأن نَجزِيَ الحسَنَ مِنها بالأجرِ الحسَنِ والأحسَنَ بالأحسَنِ[2]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في تفسيرِ الآيةِ.

- قولُه: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قالَه هنا بلَفظِ ﴿مَا﴾ وفي سورةِ (الزُّمرِ) قال: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥]، فعَبَّر بلفظِ ﴿ٱلَّذِى﴾ مُوافَقةً في كلٍّ مِنهما لِمَا قَبلَه؛ إذْ قَبْلَ ما هنا: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وقولُه: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ وقبلَ ما هناك: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الزمر: ٣٥]، وقولُه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بِٱلصِّدۡقِ ﴾[1] [الزمر: ٣٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ... ﴾ : ﴿ مَنۡ ﴾ اسمٌ موصولٌ مُتناوِلٌ في نفسِه للذَّكَرِ والأنثى؛ وإنَّما نبَّه بهِما؛ لأنَّ (مَن) مُبهَمٌ صالِحٌ على الإطلاقِ للنَّوعينِ، إلَّا أنَّه إذا ذُكِر كان الظَّاهرُ تَناوُلَه للذُّكورِ، فقيل: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ﴾ على التَّبْيينِ؛ لِتَبيينِ العُمومِ الَّذي دَلَّت عليه (مَن) الموصولةُ؛ لِيَعُمَّ الموعِدُ النَّوعَينِ جميعًا؛ فبيَّنه بالنَّوعينِ دفعًا للتَّخصيصِ؛ فإنَّه لو لم يَذكر الأُنثَى لكانتْ داخِلةً في الحُكمِ بطَريقِ التَّغليبِ، كما في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ حيثُ دخلتِ النساءُ في الخِطابِ بطريق التغليبِ؛ فلَمَّا كان المرادُ هنا مِن ﴿ مَنۡ ﴾ العمومَ والاستيعابَ لحُصولِ التَّسويةِ بينهما في الحُكمِ، لا بطَريقِ التغليبِ بيَّن بقولِه: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ﴾. وقيل: إنَّه تعالَى لَمَّا رغَّب المؤمنين في الصَّبرِ على ما الْتزَمُوه من فِعلِ الواجباتِ والمندوباتِ دونَ المباحاتِ بقوله: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ ﴾، ثُمَّ رغَّبهم في الإيمانِ بكُلِّ ما كان مِن شرائعِ الإسلامِ بقولِه: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾؛ أتْبَع ذلك بقولِه: ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ﴾ تقريرًا للوعدِ، وإزالةً لوهمِ التَّخصيصِ كَرمًا وفَضلًا[2].

وهذا مِن التَّتميمِ، وتَكرَّر في هذه الآيةِ مرَّتَين؛ الأُولى في قولِه: ﴿مِّن ذَكَرٍ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٩/ ١٩٠- ١٩١).

أَوۡ أُنثَىٰ ﴾؛ لأنَّ (مَن) الشَّرطيَّةَ أو الموصوليَّةَ تُفيدُ العُمومَ؛ فكان لا بُدَّ مِن تَتميمِها بذلك؛ للتَّأكيدِ، وإزالةً لِوَهمِ التَّخصيصِ جَرْيًا على مُعتقَداتِ العرَبِ القديمةِ في تَفضيلِ الذَّكرِ على الأُنثَى، وإيثارِه بكلِّ ما هو خيرٌ، والثَّانيةَ في قولِه: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾[1].

- وفي قولِه: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾ أيضًا إيثارُ إيرادِه بالجملةِ الاسميَّةِ الحاليَّةِ على نَظْمِه في سِلْكِ الصِّلةِ، أي: لم يَقُلْ: (وآمَنَ)، عَطفًا على (مَن عَمِل صالِحًا)؛ لإفادةِ وُجوبِ دَوامِه، ومُقارَنتِه للعمَلِ الصَّالحِ[2].

- قولُه: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ ابتُدِئ الوعدُ بإسنادِ الإحياءِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ تَشريفًا له، كأنَّه قيل: (فلَه حياةٌ طيِّبةٌ منَّا)، ولَمَّا كانت حياةُ الذَّاتِ لها مُدَّةٌ معيَّنةٌ كَثُر إطلاقُ الحياةِ على مُدَّتِها، فوَصَفها بالطِّيبِ بهذا الاعتبارِ، أي: طِيبِ ما يَحصُلُ فيها[3].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٦٣)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٣).

الآيات (٩٨-١٠٠)

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: فإذا أردتَ -يا مُحمَّدُ- أن تقرأَ شَيئًا مِن القُرآنِ، فاستَجِرْ باللهِ مِن شَرِّ الشَّيطانِ المَطرودِ مِن رَحمةِ اللهِ، قائِلًا: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ؛ إنَّ الشَّيطانَ ليس له تسلُّطٌ على المُؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه، المُعتَمِدين على ربِّهم وحدَه، إنَّما تَسَلُّطُه على الذينَ اتخذوه وليًّا فأطاعُوه فيما يأمرُهم به، والذين هم مُشرِكونَ باللهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما منَّ اللهُ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإنزالِ كتابٍ جامعٍ لصفاتِ الكمالِ، وأنَّه تبيانٌ لكلِّ شيءٍ، فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، وذكَرَ أشياءَ مِمَّا بُيِّنَ في الكِتابِ؛ قال بعد ذلك: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: إذا شرَعْتَ في قراءةِ هذا الكتابِ الشريفِ الجامعِ الذي نبَّهتُ على بعضِ ما اشتَمل عليه، ونازَعك فيه الشيطانُ بهمزِه ونفثِه فاستعِذْ بالله منه[1].

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ العمَلَ الصَّالِحَ، ووَعَدَ عليه، وصَلَ به قَولَه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٤-٢٧٥).

تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾؛ إيذانًا بأنَّ الاستِعاذةَ مِن جُملةِ الأعمالِ الصَّالحةِ التي يُجزِلُ اللهُ عليها الثَّوابَ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه العمَلَ الصَّالِحَ والجَزاءَ عليه؛ أتبَعَه بذِكرِ الاستعاذةِ التي تَخلُصُ بها الأعمالُ الصَّالحةُ عن الوَساوِسِ الشَّيطانيَّةِ، فقال تعالى[٢]:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾.

أي: فإذا أردْتَ قِراءةَ القُرآنِ- يا مُحمَّدُ- فالْتَجِئْ إلى المَعبودِ الحقِّ سُبحانَه، واستَجِرْ به[٣] مِنْ كُلِّ جانٍّ مُتمَرِّدٍ، مَطرودٍ عن كلِّ خَيرٍ؛ حتى لا يَصرِفَك بوَساوِسِه عن تدبُّرِ القُرآنِ، والانتفاعِ به[٤].

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالاستعاذةِ مِن الشَّيطانِ، وكان ذلك يُوهِمُ أنَّ للشَّيطانِ قُدرةً على التصَرُّفِ في أبدانِ النَّاسِ، فأزال اللهُ تعالى هذا الوَهمَ، وبيَّنَ أنَّه لا قُدرةَ له البتَّةَ إلَّا على الوَسْوسةِ، فقال تعالى[٥]:

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٦٩).

أي: إنَّ الشَّيطانَ ليس له طَريقٌ يتسَلَّطُ بها على المُؤمِنينَ المُعتَمِدينَ على رَبِّهم وَحْدَه، الذينَ استعاذُوا برَبِّهم مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، فلا قُدرةَ له عليهم، ولا حُجَّةَ له فيما يَدعوهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥].

﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

أي: إنَّما تَسَلُّطُ الشَّيطانِ واقِعٌ على الذينَ يتَّخِذونَه وَلِيًّا لهم مِن دُونِ الله تعالى، فيَتَّبِعونَه ويُطيعونَه فيما يأمُرُهم به[(٢)]، وعلى الذين يُشرِكونَ باللهِ تعالى[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٣).

وممن اختار أنَّ مرجعَ الضميرِ في: ﴿بِهِۦ﴾ [النحل: ١٠٠] يعودُ إلى الله تعالى: ابنُ جرير، والقرطبي، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن اختار ذلك أيضًا: ابنُ أبي زمنين، والرسعني، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٤١٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٩١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٢).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٨٣).

قال الرسعني: (وهو مِن بابِ ما جاء في التنزيلِ مِن الضميرينِ المختلفينِ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٩١).

وقيل: الضميرُ يعودُ إلى الشيطانِ، أي: بسببِه ومن أجلِه صاروا مشركين بالله. وممن فسَّره بذلك: ابنُ عطيةَ، وابنُ جزي، والسمين الحلبي، وابنُ عاشورٍ، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ فإذا أراد العبدُ القراءةَ لكتابِ الله الذي هو أشرفُ الكتبِ وأجلُّها، وفيه صلاحُ القلوبِ، والعلومُ الكثيرةُ، فإنَّ الشَّيطانَ أحرَصُ ما يكونُ على العَبدِ عندَ شُروعِه في الأمورِ الفاضِلةِ، فيَسعَى في صَرْفِه عن مَقاصِدِها ومَعانيها، فالطَّريقُ إلى السَّلامةِ مِن شَرِّه: الالتجاءُ إلى اللهِ، والاستعاذةُ به مِن شَرِّه، فيقولُ القارئُ: (أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ) مُتدَبِّرًا لمعناها، مُعتَمِدًا بقَلبِه على اللهِ في صَرفِه عنه، مُجتَهِدًا في دَفْعِ وَساوِسِه، وأفكارِه الرَّديئةِ[1]؛ ليكونَ الشيطانُ بعيدًا عن قلبِ المرءِ وهو يتلو كتابَ الله حتى يحصلَ له بذلك تدبرُ القرآنِ، وتفهمُ معانيه، والانتفاعُ به؛ فلهذا شُرِع تقديمُ الاستعاذةِ على القراءةِ في الصلاةِ،

ابن عطية)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٤).

وقال الشنقيطي: (معنَى كونِهم مشركينَ به هو طاعَتُهم له في الكفرِ والمعاصي). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤٤٤).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الربيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦١).

قال السمين الحلبي: (قوله تعالى: ﴿بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ يجوزُ أن يعودَ الضميرُ على الشيطان، وهو الظَّاهِرُ؛ لتتَّحِدَ الضمائِرُ). ((الدر المصون)) (٧/ ٢٨٦)، ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٤).

والقاعدةُ: أنَّه إذا تعاقَبت الضمائرُ فالأصلُ أن يتَّحِدَ مرجعُها. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٤١٤).

قال ابن تيمية: (قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ صفتان لموصوفٍ واحد، فكُلُّ من تولَّاه فهو به مُشرِكٌ، وكلُّ من أشرك به فقد تولَّاه). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩).

وخارج الصلاةِ[١].

٢- نفيُ سُلطانِ الشَّيطانِ مَشروطٌ بأمرَينِ: الإيمانِ، والتوَكُّلِ؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فالإيمانُ مَبدأٌ أصيلٌ لِتَوهينِ سُلطانِ الشَّيطانِ في نَفسِ المُؤمِنِ، فإذا انضَمَّ إليه التوكُّلُ على اللهِ، اندفَعَ سُلطانُ الشَّيطانِ عن المُؤمِنِ المتوكِّلِ[٢].

٣- الإخلاصُ يَمنَعُ مِن تسَلُّطِ الشَّيطانِ؛ قال تعالى فيما قَصَّه مِن قِصَّةِ آدمَ وإبليسَ أنَّه قال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢- ٨٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾ فبيَّنَ أنَّ سُلطانَ الشَّيطانِ وإغواءَه إنَّما هو لِغَيرِ المُخلَصينَ[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ فيه الأمرُ بالاستعاذةِ عندَ القِراءةِ[٤]، وذلك شامِلٌ للصَّلاةِ وغَيرِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٣/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٢٢)، (١٠/ ٥٠).

(٤) قال ابنُ كثيرٍ: (وجمهورُ العلماءِ على أنَّ الاستعاذةَ مستحَبَّةٌ ليست بمتحَتِّمةٍ يأثمُ تارِكُها). ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٣).

وقال ابنُ عاشورٍ: (ومحملُ الأمرِ في هذه الآيةِ عندَ الجمهورِ على الندبِ؛ لانتفاءِ أماراتِ الإيجابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٤).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ إنَّما لم تُشرَعْ لذلك كَلِمةُ (باسْمِ الله)؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تَخَلٍّ عن النَّقائِصِ، لا مَقامُ استِجلابِ التيَمُّنِ والبَرَكةِ؛ لأنَّ القُرآنَ نَفسَه يُمنٌ وبَرَكةٌ وكَمالٌ تامٌّ، فالتيَمُّنُ حاصِلٌ، وإنما يُخشَى الشَّيطانُ أن يغشَى بركاتِه فيُدخِلَ فيها ما يَنقُصُها، فإنَّ قِراءةَ القُرآنِ عِبارةٌ مُشتَمِلةٌ على النُّطقِ بألفاظِه والتفهُّمِ لِمَعانيه، وكلاهما مُعَرَّضٌ لوَسْوسةِ الشَّيطانِ: وَسْوَسةً تتعلَّقُ بألفاظِه مثل الإنْساءِ؛ لأنَّ الإنساءَ يُضَيِّعُ على القارئِ ما يحتوي عليه المِقدارُ المَنسِيُّ من إرشادٍ، ووَسوسةً تتعَلَّقُ بمعانيه، مثل أن يُخطِئَ فهمًا، أو يقلبَ عليه مُرادًا؛ وذلك أشَدُّ مِن وَسوَسةِ الإنساءِ[(١)].

٣- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ فإذا كان الشَّيطانُ ليس له سُلطانٌ إلَّا على من أشرَكَ به، فكُلُّ من أطاع الشَّيطانَ في معصيةِ اللهِ، فقد تسَلَّطَ الشَّيطانُ عليه، وصار فيه مِن الشِّركِ بالشَّيطانِ بقَدرِ ذلك[(٢)]، وذلك على أحدِ وجهي تفسيرِ ﴿بِهِۦ﴾.

٤- قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ هذه الآيةُ الكَريمةُ فيها التَّصريحُ بأنَّ الشَّيطانَ له سُلطانٌ على أوليائِه، ونَظيرُها الاستثناءُ في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقد جاء في بعضِ الآياتِ ما يدُلُّ على نَفيِ سُلطانِه عليهم، كقَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ: ٢٠- ٢١]، وقَولِه تعالى حاكيًا عنه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٢٩١).

مُقَرِّرًا له: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢]؟

والجوابُ: أنَّ السُّلطانَ الذي أثبَتَه له عليهم غيرُ السُّلطانِ الذي نفاه، وذلك مِن وَجهينِ:

الأول: أنَّ السُّلطانَ الثَّابتَ هو سُلطانُ التمكُّنِ منهم، وتلاعُبِه بهم، وسَوقِه إيَّاهم كيفَ أراد، بتمكينِهم إيَّاه مِن ذلك بطاعتِه ومُوالاتِه، والسُّلطانَ الذى نفاه سُلطانُ الحُجَّةِ، فلم يكُنْ لإبليسَ عليهم مِن حُجَّةٍ يتسَلَّطُ بها، غيرَ أنَّه دعاهم فأجابوه بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ، وإطلاقُ السُّلطانِ على البُرهانِ كثيرٌ في القُرآنِ.

الثاني: أنَّ الله لم يجعَلْ له عليهم سُلطانًا ابتداءً البتَّةَ، ولكِنْ هم سَلَّطوه على أنفُسِهم بطاعتِه ودُخولِهم في جُملةِ جُندِه وحِزبِه، فلم يتسَلَّطْ عليهم بقُوَّتِه؛ فإنَّ كَيدَه ضَعيفٌ، وإنَّما تسَلَّطَ عليهم بإرادتِهم واختيارِهم، والمقصودُ أنَّ مَن قصَدَ أعظَمَ أولياءِه وأحبابِه ونُصَحائِه فأخذَه، وأخَذَ أولادَه وحاشِيتَه، وسَلَّمَهم إلى عَدُوِّه؛ كان مِن عُقوبتِه أن يُسَلَّطَ عليه ذلك العَدُوُّ نَفسُه[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ جملةٌ مُعترِضةٌ، والمقصودُ بالتَّفريعِ الشُّروعُ في التَّنويهِ بالقُرآنِ، وإظهارُ اسْمِ القُرآنِ دونَ أن يُضمَرَ للكِتابِ المَذكورِ في قولِه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٦)، ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ١٠٠)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣٤-١٣٥).

شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]؛ لأجْلِ بُعدِ الكَلامِ المُعادِ؛ فإنَّه قَبْلَه بتِسعِ آياتٍ[١].

- قولُه: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ فيه التَّعبيرُ بالقراءةِ عن إرادتِها، على طريقةِ إطْلاقِ اسْمِ المسبَّبِ على السَّببِ؛ إيذانًا بأنَّ المرادَ هي الإرادةُ المتَّصِلةُ بالقراءةِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالاستِعاذةِ مِن الشَّيطانِ عندَ إرادةِ قِراءةِ القرآنِ، أو لِجَوابِه المنْوِيِّ، أي: يُعِذْك، أو نَحوُه؛ وهذا التَّعليلُ لزِيادةِ الحَثِّ على الامْتِثالِ للأمرِ بأنَّ الاستعاذةَ تَمنَعُ تَسلُّطَ الشَّيطانِ على المستعيذِ؛ لأنَّ اللهَ منَعَه مِن التَّسلُّطِ على الَّذين آمَنوا المتوكِّلينَ، والاستعاذةُ مِنه شُعبةٌ مِن شُعَبِ التَّوكُّلِ على اللهِ؛ لأنَّ اللَّجَأَ إليه تَوكُّلٌ عليه، ففي الإعلامِ بالعِلَّةِ تنشيطٌ للمأمورِ بالفعلِ على الامتثالِ؛ إذْ يَصيرُ عالِمًا بالحِكْمةِ[٣]. وقيل: هي أيضًا بيانٌ لصِفةِ الاستعاذةِ؛ لِمَا تضَمَّنَته مِن ذِكْرِ التَّوكُّلِ على اللهِ؛ لِيُبيِّنَ أنَّ الاستعاذةَ إعرابٌ عن التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى لِدَفعِ سُلطانِ الشَّيطانِ؛ لِيَعقِدَ المستعيذُ نيَّتَه على ذلك، وليسَت الاستعاذةُ مُجرَّدَ قولٍ بدونِ استحضارِ نيَّةِ العَوْذِ باللهِ[٤].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فيه إيثارُ صيغةِ الماضي في الصِّلَةِ الأُولى ﴿ءَامَنُوا۟ ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ، وفي التَّعرُّضِ لوصفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٨).

الرُّبوبيَّةِ عِدَةٌ كريمةٌ بإعاذةِ المتوكِّلينَ[١].

- جملةُ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ صفةٌ ثانيةٌ للموصولِ، وقدَّم المجرورَ على الفعلِ للقَصْرِ، أي: لا يتوكَّلون إلَّا على ربِّهم، وجعَل فِعلَها مُضارِعًا؛ لإفادةِ تَجدُّدِ التَّوكُّلِ واستِمْرارِه[٢].

- وإنَّما عطَف ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ دونَ إعادةِ اسمِ الموصولِ كما سيأتي في الآيةِ الَّتي بعدَها؛ للإشارةِ إلى أنَّ الوصفَيْنِ كصِلَةٍ واحدةٍ لِمَوصولٍ واحدٍ؛ لأنَّ المقصودَ اجتماعُ الصِّلتَينِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ مَضمونَ الجملةِ قَبْلَها يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ يَقولُ: فسُلْطانُه على مَن؟ والقَصْرُ المستفادُ مِن ﴿إِنَّمَا﴾ قَصرٌ إضافيٌّ بقرينةِ المقابَلةِ، أي: دونَ الَّذين آمَنوا، وعلى ربِّهم يتوكَّلون؛ فحصَل به تأكيدُ جُملةِ ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لِزيادةِ الاهتمامِ بتَقْريرِ مَضمونِها، فلا يُفهَمُ مِن القصرِ أنَّه لا سُلطانَ له على غيرِ هذَينِ الفَريقينِ، وهم المؤمِنون الَّذين أهمَلوا التَّوكُّلَ، والَّذين انخَدَعوا لبعضِ وَسوَسةِ الشَّيطانِ[٤].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ إيثارُ الجملةِ الفعليَّةِ الاستقباليَّةِ في الصِّلةِ الأُولى: ﴿يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾؛ لإفادةِ الاستمرارِ التَّجدُّديِّ، كما أنَّ اختيارَ الجُملةِ الاسميَّةِ في الثَّانيةِ: ﴿هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٧٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الثَّباتِ[١]؛ فعبَّر بالمضارِعِ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ التَّولِّي، أي: الَّذين يُجدِّدون تَولِّيَه؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم كلَّما تَولَّوْه بالميلِ إلى طاعتِه تَمكَّنَ مِنهم سُلطانُه، وأنَّه إذا انقطَع التَّولِّي بالإقلاعِ أو بالتَّوبةِ انسلَخَ سُلطانُه عليهِم، وجُعِلَت الصِّلةُ جُملةً اسميَّةً؛ لِدَلالتِها على الدَّوامِ والثَّباتِ؛ لأنَّ الإشراكَ صِفةٌ مُستمِرَّةٌ؛ لأنَّ قَرارَها القَلبُ، بخِلافِ المعاصي؛ لأنَّ مَظاهِرَها الجَوارِحُ، للإشارةِ إلى أنَّ سُلطانَ الشَّيطانِ على المشرِكين أشدُّ وأدوَمُ؛ لأنَّ سببَه ثابتٌ ودائمٌ[٢].

- وتقديمُ المجرورِ في ﴿بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ، أي: ما أشرَكوا إلَّا بسَببِه، ردًّا عليهم إذْ يَقولون: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقولُهم: ﴿وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨][٣]، وذلك على أحدِ وجهي تأويلِ ﴿بِهِۦ﴾.

- وتكريرُ الموصولِ (الَّذين - والَّذين)؛ للاحترازِ عن تَوهُّمِ كَونِ الصِّلةِ الثَّانيةِ حالِيَّةً مُفيدةً لعدَمِ دُخولِ غيرِ المشرِكين مِن أولياءِ الشَّيطانِ تحتَ سُلطانِه[٤]، وتقديمُ الأُولى على الثَّانيةِ الَّتي هي بمُقابَلةِ الصِّلةِ الأُولى فيما سلَف؛ لِرعايةِ المقارَنةِ بينَها وبينَ ما يُقابِلُها مِن التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى، ولو رُوعي التَّرتيبُ السَّابقُ لانفصَل كلٌّ مِن القَرينتَينِ عمَّا يُقابِلُها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٩- ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٠١-١٠٢)

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾: أي: جبريلُ عليه السلام، سمِّي بذلك؛ لأنَّه يأتي بما فيه حياةُ القلوبِ، وأصل القُدس الطَّهارةُ، حيثُ إنَّه ينزِلُ بالقُدسِ، أي: بما يُطهِّرُ به نفوسَنا؛ مِن القرآنِ والحِكمةِ. أو المرادُ: الروحُ المقدَّسُ، أي: المطهَّرُ[(١)].

﴿يُلْحِدُونَ﴾: أي: يَمِيلونَ إليه، ويَزعُمونَ أنَّه يُعَلِّمُك، وأصلُ (لحد): يدُلُّ على مَيلٍ عن استقامةٍ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: وإذا نَسَخْنا آيةً مِن القُرآنِ بآيةٍ أُخرَى، قال المُشرِكونَ: إنَّما أنت -يا مُحمَّدُ- كاذِبٌ تختَلِقُ هذا القرآنَ مِن عندِ نفسِك، بل أكثَرُ هؤلاء المُشرِكين جُهلاءُ لا عِلْمَ لهم بأنَّ القرآنَ حقٌّ، وأنَّ ما فيه مِن نَسخٍ إنما هو لحِكَمٍ إلهيَّةٍ.

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٨).

ثمَّ أمَر الله نبيَّه أن يرُدَّ عليهم، فقال: قُلْ لهم- يا مُحمَّدُ: ليس القُرآنُ مُختَلَقًا مِن عندي، بل نَزَّلَه جِبريلُ مِن رَبِّي بالصِّدقِ والحَقِّ؛ لِيزيدَ المؤمنين ثباتًا في إيمانِهم، وليكونَ هدايةً وبِشارةً لكُلِّ من أسلمَ وجهَه لله.

ثمَّ حكَى الله تعالى مقولةً أُخرَى مِن مقولاتِ المشركينَ، وردَّ عليها، فقال: ونحن نعلَمُ أنَّ المُشرِكينَ يَقولونَ: إنَّك تتلَقَّى هذا القرآنَ مِن بَشَرٍ، كَذَبوا! فإنَّ لِسانَ الذي نَسَبوا إليه تَعليمَك القرآن -يا محمَّدُ- أعجميٌّ لا يُفصِحُ، والقُرآنُ عَربيٌّ غايةٌ في الوُضوحِ والبَيانِ!!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إنزالَ الكِتابِ تِبيانًا لكُلِّ شَيءٍ، وأمَرَ بالاستعاذةِ عندَ قراءتِه؛ ذكَرَ تعالى نَتيجةَ ولايةِ الشَّيطانِ لأوليائِه المُشرِكينَ، وما يُلقيه إليهم مِن الأباطيلِ[1].

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾.

أي: وإذا نَسَخْنا آيةً مِن القُرآنِ بآيةٍ أُخرَى سواها، خيرٍ منها أو مثلِها- واللهُ أعلَمُ بما يُنَزِّلُ في كتابِه، ويَنسَخُه بما يَصلُحُ لِعباده -قال المُشرِكونَ: إنَّما أنت-

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٤).

يا مُحمَّدُ- كاذِبٌ تختَلِقُ على اللهِ الباطِلَ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما قال هؤلاء المُشرِكونَ، ولكِنَّ حقيقةَ الأمرِ هي أنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمونَ حَقيقةَ القُرآنِ وصِحَّتَه، وأنَّه حَقٌّ مِن عندِ اللهِ: ناسِخُه ومَنسوخُه، وأنَّ ما فيه مِن نَسخٍ هو لحِكَمٍ إلهيَّةٍ بالغةٍ، كمُراعاةِ مَصلحةِ عِبادِه، وإذا كانوا جُهَّالًا لا يَعلَمونَ ذلك، فقدْحُهم وذَمُّهم لا عِبرةَ به[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٥).

واقتصر ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي على أنَّ معنى تبديلِ آيةٍ بآيةٍ: تغييرُ حكمِها بحكمٍ آخرَ ونسخُه.

وممن قال مِن السلفِ بأنَّ معنَى تبديلِ الآياتِ: النسخُ: مجاهدٌ، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ، والسدي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٣).

قال القاسمي: (والأكثرونَ على أنَّ المعنَى نسخُ آيةٍ مِن القرآنِ لفظًا أو حكمًا بآيةٍ أخرَى غيرِها). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٠٨).

وقال أبو حيان: (والظاهِرُ أنَّ هذا التبديلَ رفعُ آيةٍ لفظًا ومعنًى، ويجوزُ أن يكونَ التبديلُ لحُكمِ المعنى وإبقاءِ اللَّفظِ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٤).

لكن قال ابنُ عاشورٍ: (وأمَّا نسخُ التلاوةِ فلم يَرِدْ مِن الآثارِ ما يقتضي وقوعَه في مكةَ، فمَن فسَّر به الآيةَ، كما نُقِل عن مجاهدٍ، فهو مشكلٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٥٤).

ثُمَّ بَيَّن سبحانَه لهؤلاءِ المعترضينَ على حِكمةِ النَّسخِ، الزَّاعمينَ أنَّ ذلك لم يَكُنْ مِنْ عندِ اللَّه، وأنَّ رسولَه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم افْتَراه، فقالَ(١):

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

أي: قُل -يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُشرِكينَ: ليس هذا القُرآنُ مُفتَرًى مِن عندي، وإنَّما نزَّله عليَّ -ناسِخَه ومَنسوخَه- جبريلُ المُطهَّرُ مِن كُلِّ خيانةٍ وهَوًى، وعَيبٍ وآفةٍ(٢)، نزَّله مِن عندِ رَبِّي سُبحانَه مُشتَمِلًا على الحَقِّ؛ بالصِّدقِ في الأخبارِ، والعَدلِ في الأحكامِ، بلا خطأٍ فيه ولا تَحريفٍ؛ لِيُثبِّتَ المُؤمِنينَ على الحَقِّ، ويُقَوِّيَ إيمانَهم(٣).

وقال ابن عاشور: (ضميرُ ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ للذين قالوا: إنَّما أنت مفتَرٍ، أي: ليس كما قالوا، ولكِنَّ أكثَرَ القائلين ذلك لا يعلمون، أي: لا يفهمون وضْعَ الكلام مواضِعَه وحَمْلَه محامِلَه، وفُهِمَ من الحكم على أكثَرِهم بعدم العلمِ أنَّ قليلًا منهم يعلمون أنَّ ذلك ليس افتراءً، ولكنهم يقولون ذلك تلبيسًا وبهتانًا، ولا يعلمون أنَّ التنزيلَ مِن عند الله لا ينافي إبطالَ بعض الأحكامِ إذا اختلفت المصالحُ أو رُوعي الرِّفقُ. ويجوز حملُ لفظ «أكثر» على إرادة جميعِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٢).

(٢) قال ابن عطية: (إنَّما نَزَّلَه جبريلُ عليه السَّلامُ، وهو رُوحُ القُدُسِ، لا خلافَ في ذلك، والقُدُسُ: الموضِعُ المُطَهَّرُ، فكأنَّ جبريلَ أُضيفَ إلى الأمرِ المُطَهَّر بإطلاقٍ، وسُمِّي رُوحًا إمَّا لأنَّه ذو رُوحٍ مِن جُملةِ رُوحِ الله الذي بَثَّه في خَلقِه، وخُصَّ هو بهذا الاسمِ، وإمَّا لأنَّه يجري من الهِداياتِ والرِّسالاتِ ومِن الملائكةِ أيضًا مجرى الرُّوحِ مِن الأجسادِ؛ لِشَرفِه ومَكانتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢١).

وقال الشنقيطي: (وروحُ القدسِ: جبريلُ، ومعناه: الروحُ المقدَّسُ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير

﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

أي: وَهُدًى مِن الضَّلالةِ، وبُشرى بالخَيرِ للَّذينَ استَسْلَموا لأمرِ اللهِ تعالى، وخَضَعوا له وانقادوا إلى ما أنزَلَه، فأقَرُّوا بذلك وصدَّقوا به قَولًا وعَملًا[1].

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ

السعدي)) (ص: ٤٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٥٣).

قال ابن جرير: (ليزدادوا بتصديقِهم لناسخِه ومنسوخِه إيمانًا لإيمانِهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٤).

وقال السعدي: (﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عند نزولِ آياتِه وتوارُدِها عليهم وقتًا بعد وقت، فلا يزال الحقُّ يَصِلُ إلى قلوبِهم شيئًا فشيئًا، حتى يكونَ إيمانُهم أثبَتَ مِن الجبال الرواسي، وأيضًا فإنهم يعلمون أنَّه الحقُّ، وإذا شرَعَ حُكمًا [من الأحكامِ] ثمَّ نسخَه، علموا أنَّه أبدَلَه بما هو مثلُه أو خيرٌ منه لهم، وأنَّ نَسخَه هو المناسِبُ للحكمة الربانيَّةِ والمناسبةِ العقليةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩).

وقال البقاعي: (﴿لِيُثَبِّتَ﴾ أي: تثبيتًا عظيمًا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في دينِهم بما يَرَون من إعجاز البَدَلِ والمُبدَلِ مع تضادِّ الأحكامِ، وما فيه من الحِكَم والمصالح بحسَبِ تلك الأحوال- مع ما كان في المنسوخِ مِن مِثلِ ذلك بحسَبِ الأحوال السالفة- وليتمَرَّنوا على حُسنِ الانقياد، ويُعلَم بسرعةِ انقيادهم في ترك الإلفِ تمامُ استسلامِهم وخلوصِهم عن شوائِبِ الهوى). ((نظم الدرر)) (١١/ ٢٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩).

قال السعدي: (وأيضًا فإنَّه كلَّما نزل شيئًا فشيئًا، كان أعظَمَ هدايةً وبِشارةً لهم ممَّا لو أتاهم جملةً واحدةً وتفَرَّق الفِكرُ فيه، بل يُنزِل الله حكمًا وبشارةً أكثَرَ، فإذا فهموه وعقَلوه وعرفوا المرادَ منه وترَوَّوا منه، أنزل نظيرَه وهكذا؛ ولذلك بلغ الصحابةُ رضي الله عنهم به مبلغًا عظيمًا، وتغيَّرَت أخلاقُهم وطبائعُهم، وانتقلوا إلى أخلاقٍ وعوائِدَ وأعمالٍ فاقوا بها الأوَّلينَ والآخِرينَ، وكان أعلى وأولى لِمَن بعدهم أن يترَبَّوا بعلومِه ويتخَلَّقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنورِه في ظلماتِ الغَيِّ والجهالاتِ، ويجعلوه إمامَهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيمُ أمورُهم الدينيَّةُ والدنيويةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩).

أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا إبطالٌ لتَلبيسٍ آخَرَ مِمَّا يُلَبِّسُ به الكافِرونَ على عامَّتِهم[١].

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾.

أي: ونحنُ نَعلَمُ أنَّ مُشرِكي مكَّةَ يَقولونَ: إنَّما يُعَلِّمُ مُحمَّدًا هذا القُرآنَ إنسانٌ مِن بني آدَمَ، وليس هو مِن عندِ الله كما يقولُ[٢].

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾.

أي: يقولُ الله تعالى تكذيبًا لهم وردًّا على فِريَتِهم: لغةُ الرَّجُلِ الذي يُشيرُ إليه مُشرِكو قُرَيشٍ ويُضيفونَ إليه -ميلًا وانحِرافًا عن الحَقِّ- أنَّه يُعلِّمُ مُحمَّدًا القُرآنَ؛ لُغةٌ أعجميَّةٌ ليسَت بعربيَّةٍ، ولَيسَت بالتي تُبيِّنُ المعانيَ، وتُفصِحُ عن المرادِ بأوضَحِ بَيانٍ، وهذا القُرآنُ قد نزَلَ بلُغةٍ عَربيَّةٍ ذاتِ فَصاحةٍ وبَيانٍ واضحٍ عظيمٍ، فكيف يَزعُمونَ أنَّ مُحمَّدًا تلقَّى القرآنَ مِن أعجَميٍّ[٣]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

يُستَفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ...﴾ أنَّنا إذا عَلِمْنا أنَّ هذا القُرآنَ تكَلَّمَ به ربُّ العالَمينَ؛ أوجَبَ لنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

ذلك تعظيمَ هذا القُرآنِ واحترامَه، وامتثالَ ما جاء فيه مِن الأوامرِ، وتَرْكَ ما فيه مِن المنهيَّاتِ والمَحذوراتِ، وتصديقَ ما جاء فيه مِن الأخبارِ عن اللهِ تعالى وعن مَخلوقاتِه السَّابقةِ واللَّاحقةِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ هذه الآيةُ دَلَّت على وُقوعِ نَسخِ القُرآنِ بالقُرآنِ(٢)، ففيها رَدٌّ على مَن أنكَرَ النَّسْخَ(٣).

٢- تأمَّلْ حُسْنَ الاعتراضِ وجزالَتَه في قَولِ الربِّ تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ فقَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتِراضٌ بين الشَّرطِ وجَوابِه أفاد أمورًا:

منها: الجوابُ عن سؤالِ سائلٍ: ما حكمةُ هذا التَّبديلِ، وما فائِدتُه؟

ومنها: أنَّ الذي بُدِّلَ وأُتِيَ بغيرِه مُنَزَّلٌ، مُحكَمٌ نزولُه قبلَ الإخبارِ بقَولِهم.

ومنها: أنَّ مَصدَرَ الأمْرَينِ صادِرٌ عن عِلْمِه تبارك وتعالى، وأنَّ كُلًّا منهما مُنَزَّلٌ؛ فيَجِبُ التَّسليمُ والإيمانُ بالأوَّلِ والثَّاني(٤).

ومنها: أنَّ هذا التبديلَ ليس مِن عَمَلِ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ، بل هو

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٤).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢٤).

مِن اللهِ؛ أنزلَه بعِلمِه، وأبدلَ آيةً مكانَ آيةٍ بعِلمِه؛ وليس منك أيها الرسولُ[١].

٣- في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ أي: كذابٌ، بالأمسِ تقولُ لنا كذا، واليومَ تقولُ لنا كذا! لكن هذا القولُ الذي يقولونه إزاءَ إتيانِه بآيةٍ مكانَ آيةٍ هو قولُ سَفَهٍ، ولو أمْعَنوا النظرَ؛ لعَلِموا عِلْمَ اليقينِ أنَّ الذي يأتي بآيةٍ مكانَ آيةٍ هو اللهُ سبحانه، وذلك يدلُّ على صِدْقِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ الكذَّابَ يَحْذَرُ غايةَ الحذرِ أنْ يأتيَ بكلامٍ غيرِ كلامِه الأولِ؛ لأنه يخشَى أنْ يُطَّلَعَ على كذِبِه، فلو كان كاذبًا- كما يَدَّعُون أنَّ ذلك مِن علامةِ الكذبِ- ما أتى بشيءٍ يُخَالِفُ الأولَ؛ لأنَّه إذا أتَى بشيءٍ يُخَالِفُ الأولَ- على زعمِهم- تَبَيَّنَ كَذِبُه، بل إتيانُه بما يُخالِفُ الأولَ دليلٌ على صِدْقِه بلا شكٍّ؛ ولهذا قال هنا: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، وهذا إضرابٌ إبطاليٌّ؛ معناه: بل لستَ مفتريًا، ولكنَّ أكثرَهم لا يَعْلَمُون، ولو أنَّهم كانوا مِن ذوي العلمِ لَعَلِمُوا أنَّه إذا بُدِّلَتْ آيةٌ مكانَ آيةٍ؛ فإنما ذلك دليلٌ على صِدْقِ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ دَلَّ اختِصاصُ التَّعليلِ بالمُسلِمينَ على اتِّصافِ الكُفَّارِ بضِدِّه مِن لَحاقِ الاضطِرابِ لهم، وتزَلزُلِ عقائِدِهم، وضَلالِهم[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ دَلالةٌ على

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٤).

عُلُوِّ اللهِ تعالى؛ حيث أخبَرَ سُبحانَه عن نُزُولِ القُرآنِ منه تعالى[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لم يَقُلْ: (مِن ربِّ العالَمينَ)؛ إشارةً إلى الرُّبوبيَّةِ الخاصَّةِ؛ رُبوبيَّةِ اللهِ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهي رُبوبيَّةُ أخَصِّ الخاصَّةِ[٢].

٧- قال الله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قَولُه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: نُزولُه بالحَقِّ، وهو مُشتَمِلٌ على الحَقِّ في أخبارِه وأوامِرِه ونواهيه؛ فلا سبيلَ لأحَدٍ أن يَقدَحَ فيه قَدْحًا صَحيحًا؛ لأنَّه إذا عَلِمَ أنَّه الحَقُّ، عَلِمَ أنَّ ما عارَضَه وناقَضَه باطِلٌ[٣].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾، إنَّما لم يصرِّحْ باسمِ مَن زعموا أنَّه يعلِّمُه عليه الصلاة والسلام، مع أنَّه أدخلُ في ظهورِ كذِبِهم؛ للإيذانِ بأنَّ مدارَ خطئِهم ليس بنسبتِه صلَّى الله عليه وسلَّم إلى التعلُّمِ مِن شخصٍ معيَّنٍ، بل مِن البشرِ كائنًا مَن كان[٤].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ هذا يَدُلُّ على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَلَّغَ القرآنَ- لفْظَه ومعناه- لم يَنْزِلْ عليه مَعانيَ مُجَرَّدةً؛ إذ لو كان كذلك لأمكَنَ أن يُقالَ: تَلَقَّى مِن هذا الأعجميِّ معانيَ صاغَها بلِسانِه، فلمَّا ذكَرَ قَولَه: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٦٨).

مُّبِينٌ ﴾ بعدَ قولِه: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ دلَّ ذلك على أنَّ رُوحَ القُدُسِ نَزَلَ بهذا اللِّسانِ العربيِّ المُبِينِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ۙ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ في الالْتِفاتِ إلى الغَيْبةِ، مع إسنادِ الخبرِ إلى الاسمِ الجليلِ (اللَّهُ) المستجمِعِ للصِّفاتِ: ما لا يَخْفى مِن تربيَةِ المهابةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ جملةٌ اعتراضيةٌ؛ لِتَوبيخِ الكفَّارِ على قولِهم، والتَّنبيهِ على فَسادِ سنَدِهم[٣].

- قولُه: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ بالَغوا في نسبةِ الافتراءِ للرَّسولِ بلَفظِ ﴿إِنَّمَآ ﴾، وبمُواجَهةِ الخِطابِ، وباسْمِ الفاعلِ ﴿مُفْتَرٍ ﴾ الدَّالِّ على الثُّبوتِ[٤].

- قولُه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ عبَّر بـ (الأكثَرِ)؛ مُراعاةً لِما كان عندَ قليلٍ مِنهم مِن تَوقُّفٍ، وقِلَّةِ مُبالَغةٍ في التَّكذيبِ والظَّنِّ، أو لأنَّ بعضَهم يَعلَمُ ويَكفُرُ عِنادًا؛ فيَكونُ هذا اللَّفظُ قَرَّر على قليلٍ مِنهم أنَّهم يَعلَمون ويَكفُرون

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٤).

تَمرُّدًا وعِنادًا[١].

- ومفعولُ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ محذوفٌ؛ لِدَلالةِ المعنى عليه، أي: لا يَعلَمون أنَّ الشَّرائعَ حِكَمٌ ومَصالِحُ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾

- في صيغةِ التَّفعيلِ في الموضِعَينِ ﴿يُنَزِّلُ﴾ و﴿نَزَّلَهُۥ﴾ وما فيهما مِن التَّنزيلِ شيئًا فشيئًا على حسَبِ الحوادثِ والمصالحِ، إشعارٌ بأنَّ التَّدريجَ في الإنزالِ ممَّا تَقْتَضيه الحِكَمُ البالِغةُ، وأنَّ التَّبْديلَ مِن بابِ المصالحِ كالتَّنزيلِ، وأنَّ تَرْكَ النَّسْخِ بمَنزِلةِ إنزالِه دَفْعةً واحدةً في خُروجِه عن الحِكْمةِ[٣].

- قولُه: ﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ إضافةُ الرُّوحِ إلى القُدُسِ وهو الطُّهرُ؛ للمُبالَغةِ في ذلك الوصفِ كأنَّه طَبْعٌ مِنه، كإضافةِ حاتِمٍ إلى الجُودِ، حيث قيل: حاتِمُ الجُودِ[٤].

- قولُه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فيه الْتِفاتٌ، وهو جارٍ على خِلافِ مُقتَضى ظاهرِ حِكايةِ المَقولِ المأمورِ بأن يَقولَه؛ لأنَّ مُقتَضى الظَّاهرِ أن يَقولَ: (مِن ربِّي)؛ فوقَع الالْتِفاتُ إلى الخطابِ؛ تَأنيسًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بزيادةِ تَوغُّلِ الكلامِ معَه في طريقةِ الخطابِ، ونُكتتُه: أنَّه بعدَ أن أبطَلَ اللهُ دَعْواهم عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢٠- ٤٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤١).

أنَّه مُفتَرٍ بطريقةِ النَّقضِ، أمَر رسولَه أن يُبيِّنَ لهم ماهِيَّةَ القرآنِ[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ اخْتِيرَ اسْمُ الرَّبِّ؛ لِمَا فيه مِن مَعنى العِنايةِ والتَّدبيرِ[٢].

- قولُه: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ فيه تَعريضٌ بحُصولِ أضْدادِ ذلك لغَيرِهم[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ...﴾ فيه افتِتاحُ الجملةِ بالتَّأكيدِ بلامِ القسَمِ و(قَد)، وهذا يُشيرُ إلى أنَّ خاصَّةَ المشرِكينَ كانوا يَقولون ذلك لِعَامَّتِهم، ولا يَجهَرون به بينَ المسلِمين؛ لأنَّه باطِلٌ مكشوفٌ، وأنَّ اللهَ أطْلَع المسلِمين على ذلك، والجملةُ جوابٌ عن كلامِهم، فهي مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قولَهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ يتَضمَّنُ أنَّه ليس مُنزَّلًا مِن عندِ اللهِ، فيَسأَلُ سائلٌ: ماذا جوابُ قولِهم؟ فيُقالُ: لسانُ الَّذي... إلخ[٤]؛ ففيه تَحْليَةُ هذه الجملةِ بفُنونِ التَّأكيدِ؛ لِتَحقيقِ ما تتَضمَّنُه مِن الوعيدِ[٥].

- وصيغةُ الاستقبالِ في ﴿نَعْلَمُ﴾ لإفادةِ استمرارِ العِلمِ بحسَبِ الاستمرارِ التَّجدُّديِّ في مُتعلَّقِه ﴿يَقُولُونَ﴾؛ فإنَّهم مُستمِرُّون على تَفوُّهِ تلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤١).

العظيمةِ[١]، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ ولم يَقُلْ: «لقد عَلِمْنا»؛ لأنَّ قَولَهم هذا يتجَدَّدُ، فكان التَّعبيرُ بالمُضارعِ أَولى مِن التَّعبيرِ بالماضي؛ لأنَّه لو قال: «لقد عَلِمْنا» لتَبادرَ إلى ذِهنِ بَعضِ النَّاسِ أنَّ المعنى: عَلِمْنا أنَّهم قالوا ذلك سابِقًا، لا أنَّهم يستَمِرُّونَ عليه[٢].

- قولُه: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ الجملتانِ مُستأنَفَتان لإبطالِ طَعنِهم[٣]، ويجوزُ أن تكونَ جملةً حاليَّةً، وذلك أبلَغُ في الإنكارِ عليهم، أي: يَقولون ذلك والحالةُ هذه، أي: عِلمُهم بأعجميَّةِ هذا البَشَرِ وإبانةِ عرَبيَّةِ هذا القرآنِ كان يَمنَعُهم مِن تلك المقالةِ[٤].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٦).

الآيات (١٠٤-١١١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طَبَعَ﴾: أي: ختَم، والطَّبعُ: تصويرُ الشَّيءِ بصورةٍ ما، وهو مَثَلٌ على نهايةٍ ينتهي إليها الشَّيءُ، حتَّى يُختمَ عندَها[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾

﴿ مَن﴾ اسمُ شرطٍ جازِمٌ مبنيٌّ في محلِّ رفعٍ مُبتدأٌ، وجوابُه محذوفٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨).

تقديرُه: (فعليهم غضَبٌ)، ودلَّ عليه ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ الآتي بعد ﴿مَن﴾ الثَّانية في قولِه: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا...﴾، والشَّرطُ وجوابُه المحذوفُ في محلِّ رَفعٍ خَبَرُ ﴿مَن﴾، والجملةُ كلُّها: ﴿مَن كَفَرَ...﴾ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ، استئنافيَّةٌ لا تعَلُّقَ لها بما قَبلَها. ﴿إِلَّا﴾ أداةُ استِثناءٍ. ﴿مَن﴾ اسمٌ مَوصولٌ مبنيٌّ في محلِّ نصبٍ على الاستِثناءِ، وجملةُ ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ حاليَّةٌ مِن الضَّميرِ في ﴿أُكۡرِهَ﴾، وجُملةُ ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الواو عاطِفةٌ. (لَكِنْ) حرفُ استدراكٍ. ﴿مَن﴾ اسمٌ مَوصولٌ مَبنيٌّ في محلِّ رفعٍ مُبتدأٌ. ﴿صَدۡرٗا﴾ مَفعولٌ به، أو تمييزٌ على تَضمينِ ﴿شَرَحَ﴾ معنى (طاب)، وجملةُ ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ في محَلِّ رفعٍ خبَرُ المبتدأِ ﴿مَن﴾، والفاءُ فيها زائدةٌ تَشبيهًا للمَوصولِ بالشَّرطِ. والجُملةُ كُلُّها لا محَلَّ لها من الإعرابِ، مَعطوفةٌ على الجُملةِ الاستِئنافيَّةِ ﴿مَن كَفَرَ﴾. وقيل غَيرُ ذلك[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ الكُفَّارَ الذين لا يُؤمِنونَ بِآياتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّتِه سبحانَه، وعلى صِدقِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يبلِّغُه عنه؛ لا يُوَفِّقُهم اللهُ للإيمانِ واتباعِ الحَقِّ، ولهم في الآخرةِ عَذابٌ مُؤلِمٌ.

إنَّما يختلقُ الكَذِبَ مَن لا يُؤمِنُ بآياتِ اللهِ، وأولئك هم الكاذِبونَ.

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٠٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٨٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٨٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٤/ ٣٩٤)، ((المجتبى)) لأحمد الخراط (٢/ ٥٩٨).

ثمَّ بيَّن تعالى حُكمَ مَن أُكْرِه على النُّطقِ بكلمةِ الكفرِ، وحكمَ مَن استحبَّ الكفرَ على الإيمانِ، فقال: مَن نطَقَ بكَلِمةِ الكُفرِ وارتدَّ بعد إيمانِه، فعليهم غضَبٌ مِن اللهِ، إلَّا مَن أُكرِه على النُّطقِ بالكُفرِ، فنطَقَ به خَوفًا من الهلاكِ، وقَلبُه ثابِتٌ على الإيمانِ، لكِنْ مَن نطَقَ بالكُفرِ، وانشرَح صدرُه به، فعليهم غَضَبٌ شَديدٌ مِن اللهِ، ولهم عَذابٌ عَظيمٌ؛ وذلك بسبَبِ إيثارِهم الدُّنيا وزِينتَها على الآخرةِ، وأنَّ اللهَ لا يهدي الكافرينَ، أولئك هم الذينَ ختَمَ اللهُ على قُلوبِهم وسَمعِهم وأبصارِهم، وأولئك هم الغافِلونَ، حقًّا أنَّهم في الآخرةِ هم الخاسِرونَ.

ثمَّ ذكَر الله تعالى جانبًا مِن لطفِه وإحسانِه لقومٍ هاجروا في سبيلِه، فقال: ثمَّ إنَّ رَبَّك للمُستضعَفينَ الذين عذَّبَهم المُشرِكون وفَتَنوهم، حتى وافَقوهم على ما هم عليه ظاهِرًا، وقلوبُهم ثابِتةٌ على الإيمانِ، ثمَّ هاجروا وجاهَدوا في سَبيلِ اللهِ، وصَبَروا على البلاءِ والأذى طلبًا لرضا الله تعالى- إنَّ رَبَّك مِن بعدِها لَغَفورٌ لهم رحيمٌ بهم.

ثم قال تعالى: يومَ تأتي كُلُّ نَفسٍ تُخاصِمُ وتدافِعُ عن نفسِها، وتعتَذِرُ بكُلِّ المعاذيرِ، وفي هذا اليوم تُعطَى كلُّ نفسٍ جزاءَ عَمَلِها وافيًا غيرَ منقوصٍ، ولا يُظلَمونَ بزيادةٍ في سَيِّئاتِهم، ولا بنَقصِ شَيءٍ مِن حَسَناتِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى نِسبةَ الكافرينَ الافتراءَ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ ما أتَى به مِن عندِ اللهِ إنَّما يُعَلِّمُه إيَّاه بَشَرٌ؛ كان ذلك تَسجيلًا عليهم بانتِفاءِ الإيمانِ، فأخبَرَ تعالى عنهم أنَّهم لا يَهديهم اللهُ أبدًا؛ إذ كانوا جاحِدينَ

بآياتِ اللهِ، وهو ما أتَى به الرَّسولُ مِن المُعجِزاتِ وخُصوصًا القُرآنَ، فمَن بالَغَ في جَحدِ آياتِ اللهِ، سَدَّ اللهُ عليه بابَ الهِدايةِ، وذكَرَ تعالى وَعيدَه بالعذابِ الأليمِ لهم(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر سبحانَه جوابَهم وبَّخَهم وهدَّدَهم(٢) فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمۡ ٱللَّهُ ﴾.

أي: إنَّ الذينَ لا يُؤمِنونَ بحُجَجِ اللهِ وأدِلَّتِه، وما أنزَله على رسولِه، لا يُوَفِّقُهم اللهُ للإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ؛ عُقوبةً لهم على رَدِّهم الهُدى(٣).

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

أي: ولهم في الآخرةِ عَذابٌ مُوجِعٌ(٤).

﴿ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا زَيَّفَ اللهُ تعالى شُبَهَ الكافرينَ، أثبَتَ لهم ما قَذَفوا به النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو بَريءٌ منه، مقصورًا عليهم(٥).

﴿ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٥٧).

أي: إنَّما يَختَلِقُ الكَذِبَ على اللهِ الذينَ لا يُؤمِنونَ بِآيَاتِ اللَّهِ[١].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾.

أي: والذينَ لا يُؤمِنونَ بآياتِ اللهِ، هم المُعتادونَ للكَذِبِ، وهو مُنحَصِرٌ فيهم[٢].

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا عَظَّمَ تهديدَ الكافرينَ، ذكَرَ في هذه الآيةِ تَفصيلًا في بيانِ مَن يَكفُرُ بلِسانِه لا بقَلبِه، ومَن يَكفُرُ بلِسانِه وقَلبِه معًا[٣].

وأيضًا فإنه لَمَّا سبَقَ التَّحذيرُ مِن نَقضِ عَهدِ الله الذي عاهَدوه، وألَّا يَغُرَّهم ما لأمَّةِ المُشرِكينَ مِن السَّعةِ والرُّبُوِّ، والتَّحذيرُ مِن زَلَلِ القَدَمِ بعدَ ثُبوتِها، وبُشِّروا بالوَعدِ بحَياةٍ طَيِّبةٍ، وجزاءِ أعمالِهم الصَّالحةِ مِن الإشارةِ إلى التَّمَسُّكِ بالقُرآنِ، والاهتداءِ به، وألَّا تَغُرَّهم شُبَهُ المُشرِكينَ وفُتونُهم في تكذيبِ القُرآنِ- عَقَّبَ ذلك بالوَعيدِ على الكُفرِ بعدَ الإيمانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٩٢).

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ﴾.

أي: مَن[1] كفَرَ باللهِ بعد أنْ كان مُؤمِنًا مُهتَديًا، فعَلَيهم غَضَبٌ مِن اللهِ، إلَّا مَن أُكرِهَ على الكُفرِ، والحالُ أنَّ قَلْبَه مُوقِنٌ بحَقيقةِ الإيمانِ، لم يتغيَّرِ اعتقادُه الصَّحيحُ[2]، ولكِنْ مَن اتَّسَعَ صَدرُه لِقَبولِ الكُفرِ واعتَقَده، واختارَه على الإيمانِ، وطابَت به نَفسُه، واطمأنَّت إليه؛ فعَلَيهم غَضَبٌ شديدٌ مِن الله، ولهم عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ[3].

عن مُحمَّدِ بنِ عَمَّارِ بنِ ياسرٍ، عن أبيه رضي الله عنه، قال: ((أخذَ المُشرِكونَ عَمَّارَ بنَ ياسرٍ، فلم يَترُكوه حتى سَبَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذكَرَ آلهَتَهم بخَيرٍ، ثمَّ تَرَكوه، فلمَّا أتَى رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ما وراءَكَ؟ قال: شَرٌّ يا رسولَ اللهِ؛ ما تُرِكْتُ حتى نِلتُ منك، وذكَرْتُ آلهتَهم بخيرٍ، قال: كيف

---

(١) ممن ذهب إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾ ابتداءُ كلامٍ، وخبرُه في قولِه: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ : ابنُ جرير، والواحدي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٥).

قال ابنُ كثير: (أخبر تعالى عمَّن كفر به بعدَ الإيمانِ والتبصُّرِ، وشرَح صدرَه بالكُفرِ واطمأنَّ به: أنه قد غَضِبَ عليه؛ لعِلمِهم بالإيمانِ ثمَّ عدولِهم عنه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٥).

(٢) قال البَغَوي: (أجمع العُلَماءُ على أنَّ مَن أُكرِهَ على كَلِمةِ الكُفرِ يجوزُ له أن يقولَ بلِسانِه، وإذا قال بلسانِه غيرَ مُعتَقِدٍ، لا يكونُ كُفرًا، وإنْ أبى أن يقولَه حتى يُقتَلَ كان أفضَلَ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٠٧-٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

تَجِدُ قَلْبَك؟ قال: مُطمَئِنًّا بالإيمانِ، قال: إنْ عادوا فعُدْ))[١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: ذلك الغَضَبُ مِن اللهِ والعذابُ الأُخرويُّ العَظيمُ بسَبَبِ أنَّ الذين كَفَروا بعدَ إيمانِهم اختارُوا نعيمَ الحَياةِ الدُّنيا على نَعيمِ الآخرةِ، فارتَدُّوا على أدبارِهم؛ طَمَعًا في شَيءٍ مِن زَهرةِ الدُّنيا الفانيةِ[٢].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: ولأنَّ اللهَ لا يُوفِّقُ القَومَ الكافرينَ بآياتِه، المُصرِّينَ على كُفرِهم، للهدايةِ واتِّباعِ الحَقِّ[٣].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

---

(١) أخرجه الحاكم (٣٣٦٢)، وأبو نُعيم في ((حلية الأولياء)) (١/ ١٤٠)، والبيهقي (١٧٣٥٠). صحَّحه الحاكمُ على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي في ((التلخيص)) (٢/ ٣٨٩)، وصحَّح إسنادَه ابنُ كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ٢٩٥) وقال: (وزاد بعضُهم: وفي هذا أُنزِلَت: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ...﴾ الآيَةَ)، وقال ابنُ حجر في ((الدراية)) (٢/ ١٩٧): (إسنادُه صحيحٌ إن كان محمَّدُ بنُ عمَّارٍ سَمِعَه من أبيه).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

هذه جُملةٌ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بأنَّ حِرمانَهم الهِدايةَ بحِرمانِهم الانتفاعَ بوَسائِلِها: مِن النَّظَرِ الصَّادِقِ في دلائِلِ الوَحدانيَّةِ، ومِنَ الوَعيِ لدَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والقُرآنِ المُنَزَّلِ عليه، ومِن ثَباتِ القَلبِ على حِفظِ ما داخَلَه مِن الإيمانِ؛ حيث انسَلَخوا منه بعدَ أن تلَبَّسوا به[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾.

أي: أولئك الذين كَفَروا بعدَ إيمانِهم، هم الذينَ ختَمَ اللهُ على قُلوبِهم، فلا يَعقِلونَ بها الحَقَّ، وأصمَّ أسماعَهم، فلا يَسمَعونَ الهُدى، وأعمَى أبصارَهم، فلا يَنظُرونَ آياتِ اللهِ، ولا يَعتَبِرونَ بها[2].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾.

أي: وأولئك هم السَّاهونَ عمَّا خَلَقَهم اللهُ لأجْلِه، وعمَّا أعدَّ لهم في الآخرةِ مِن العَذابِ[3].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾.

أي: حقًّا أنَّ الذينَ كَفَروا بعدَ إيمانِهم هم الهالِكونَ المَغبونونَ الذين خَسِروا أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ، وفاتَهم نَعيمُ الجَنَّةِ، ولم يَسْلموا من عذابِ النَّارِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٢)، ((أيسر التفاسير)) للجزائري (٣/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى -فيما تقدَّمَ- حالَ مَن كفَرَ باللهِ مِن بعدِ إيمانِه، وحالَ مَن أُكرِهَ على الكُفرِ فذكَرَ بسبَبِ الخَوفِ كَلِمةَ الكُفرِ، وحالَ مَن لم يَذكُرْها- ذكَرَ بعده حالَ من هاجرَ مِن بعدِ ما فُتِنَ[1].

وأيضًا لَمَّا قَدَّمَ الفاتِنَ والمَفتونَ، أتبَعَ ذلك ذِكرَ حُكمِهما، فقال تعالى[2]:

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿فَتَنُوا﴾ بفَتحِ الفاءِ والتاءِ مَبنيًّا للفاعِلِ، أي: فَتَنُوا أنفُسَهم، قيل المعنى: أنَّهم هَجَروا أوطانَهم وقد عَرَفوا ما في ذلك مِن الشِّدَّة. وقيل: المعنى: أنَّهم فَتَنوا مَن آمَنَ باللهِ حين كانوا كُفَّارًا. وقيل غير ذلك[3].

٢- قِراءةُ ﴿فُتِنُواْ﴾ بضَمِّ الفاءِ وكَسرِ التاءِ مبنيًّا للمَفعولِ، أي: مِن بَعدِ ما فتَنَهم الكُفَّارُ بالإكراهِ على التَّلَفُّظِ بالكُفرِ، وقُلوبُهم مُطمَئِنَّةٌ بالإيمانِ. وقيل

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦١).

(٣) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢١٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦١).

المعنى: مِن بعدِ ما فتَنَهم اللهُ[١].

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾.

أي: ثمَّ إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- للَّذين هاجَروا مِن أصحابِك مِن ديارِ الكُفرِ إلى دِيارِ الإسلامِ، مِن بَعدِ ما فتَنَهم كُفَّارُ مكَّةَ عن دينِهم بإكراهِهم على الكُفرِ، فأظهَرُوه لهم مع إخْفاءِ اعتِقادِهم الصَّحيحِ، ثمَّ جاهَدوا الكُفَّارَ وقاوَموهم؛ كي لا يَرُدُّوهم إلى الكُفرِ، وصَبَروا على تحمُّلِ المَشاقِّ[٢].

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ ربَّك للذين هاجروا من بعد ما فتَنهم الكفارُ حتى أظْهَروا الكفرَ، وقلوبُهم مطمئنَّةٌ بالإيمانِ؛ لَغفورٌ لهم، يَستُرُ ذُنوبَهم، ويتَجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، رَحيمٌ بهم رَحمةً تَصلُحُ بها أمورُ دينِهم ودُنياهم[٣].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢١٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٠).
قال ابن تيمية: (نزَلَت هذه الآيةُ في طائفةٍ مِن الصَّحابةِ كان المُشرِكونَ فَتَنوهم عن دينِهم، ثمَّ تاب اللهُ عليهم فهاجروا إلى اللهِ ورَسولِه، وجاهدوا وصَبَروا). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).
قال السمعاني: (فإن قال قائلٌ: إذا كان ذلك رخصَةً، فلا يحتاجُ إلى المغفرةِ والرَّحمةِ؟
والجوابُ: أنَّه يحتملُ أنَّهم فعلوا ما فعلوا ذلك قبلَ نزولِ الرُّخصةِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٠٥).

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَما تقدَّم كثيرٌ مِن التحذيرِ والتبشيرِ، وتقدَّم أنَّه لا يُؤذنُ للذين كفروا ولا هم يُستعتبونَ، وختَم ذلك بانحصارِ الخسارِ في الكفارِ؛ بيَّن اليومَ الذي تظهرُ فيه تلك الآثارُ[١]، فقال تعالى:

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾.

أي: يومَ[٢] تأتي كُلُّ نَفسٍ[٣] تُخاصِمُ عن نَفسِها؛ فلا يُحاجِجُ عنها غَيرُها، ولا تُحاجِجُ هي عن غَيرِها، فتُدافِعُ بقَولِها عمَّا عَمِلَت في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[٤].

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦٢).

(٢) قال الزجاج: (﴿يَوْمَ﴾ منصوبٌ على أحدِ شيئين، على معنى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي﴾، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى: اذكُرْ؛ لأنَّ معنَى القرآنِ العظةُ والإنذارُ والتذكيرُ. أي: اذكُرْ يومَ تأتي كلُّ نفسٍ...). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٢١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٣).

وعلى القولِ الأوَّلِ لا يَضُرُّ تَقييدُ الرَّحمةِ بذلك اليَومِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ في غَيرِه تَثبُتُ بالطَّريقِ الأَولى. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٧٥).

(٣) قال ابن عطية: (ظاهِرُ الآية أنَّ كُلَّ نفسٍ تجادِلُ كانت مؤمنةً أو كافرة، فإذا جادل الكفَّارُ بكَذِبِهم وجَحْدِهم للكفرِ، شَهِدَت عليهم الجوارحُ والرسُلُ وغير ذلك بحسَبِ الطوائف، فحينئذ لا ينطِقون، ولا يؤذَنُ لهم فيعتَذِرونَ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٢).

أي: وتُوفَّى كُلُّ نَفسٍ جَزاءَ ما عَمِلَت في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وهم لا يُظلَمونَ بزيادةٍ في سَيِّئاتِهم، ولا بنَقصِ شَيءٍ مِن حَسَناتِهم[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في الآيةِ أبلَغُ زَجْرٍ عن الكَذِبِ؛ حيث أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه إنَّما يَفتَري الكَذِبَ مَن لا يُؤمِنُ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ جعَلَ اللهُ تعالى استِحبابَ الدُّنيا على الآخِرةِ هو الأصلَ المُوجِبَ للخُسرانِ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ مَن هاجر في سبيلِ الله وخلَّى ديارَه وأموالَه؛ طلبًا لِمَرضاة الله، وفُتِن على دينِه ليَرجِعَ إلى الكفر، فثَبَت على الإيمانِ، ثمَّ جاهَد أعداءَ الله ليُدخِلَهم في دين اللهِ بلِسانِه ويَدِه، وصبر على هذه العباداتِ الشَّاقَّةِ على أكثَرِ النَّاسِ- فهذه أكبَرُ الأسبابِ التي تُنالُ بها أعظَمُ العَطايا وأفضَلُ المَواهِبِ، وهي مَغفِرةُ اللهِ للذُّنوبِ؛ صِغارِها وكِبارِها، المتَضَمِّنةُ زَوالَ كُلِّ أمرٍ مَكروهٍ، ورَحمتُه العَظيمةُ التي بها صَلَحَت أحوالُهم، واستَقامَت أمورُ دينِهم ودُنياهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٣/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يَدخُلُ في معناها كُلُّ مَن فتَنَه الشَّيطانُ عن دِينِه، أو أوقَعَه في معصيةٍ، ثمَّ هجرَ السَّيِّئاتِ، وجاهدَ نَفسَه وغَيرَها مِن العَدُوِّ، وجاهَدَ المُنافِقينَ بالأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ وغيرِ ذلك، وصبرَ على ما أصابَه مِن قَولٍ أو فِعلٍ[١].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ ﴾ أنَّ مَن لم يُؤْمِنْ بآياتِ اللهِ لا يهديه اللهُ، ومَفهومُ المُخالفةِ فيها: أنَّ مَن آمَنَ بآياتِ اللهِ، هداه اللهُ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ مَن أُكرِهَ على الكُفرِ، وأُجبِرَ عليه، وقَلبُه مُطمَئِنٌّ بالإيمانِ راغِبٌ فيه؛ فإنَّه لا حرَجَ عليه ولا إثمَ، ويَجوزُ له النُّطقُ بكَلِمةِ الكُفرِ عندَ الإكراهِ عليها[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ دلالةٌ على أنَّ مَن أُكْرِهَ على قولٍ مُحَرَّمٍ إكراهًا مُعتبَرًا فإنَّ له أنْ يفتديَ نفسَه به، ولا إِثْمَ عليه[٤]؛ لأنَّه إذا كان قد سُومِحَ لكَلِمةِ الكُفرِ، أو فِعلِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٧٢).

ما يُؤدِّي إليه، فالمُسامَحةُ بغَيرِه مِن المعاصي أَولى[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ دلَّ على أنَّ كَلامَ المُكرَهِ على الطَّلاقِ أو العِتاقِ، أو البَيعِ أو الشِّراءِ أو سائِرِ العُقودِ؛ لا عِبرةَ به، ولا يترَتَّبُ عليه حُكمٌ شَرعيٌّ؛ لأنَّه إذا لم يُعاقَبْ على كَلِمةِ الكُفرِ إذا أُكرِهَ عليها، فغيرُها مِن بابِ أَولى وأحْرى[٢]. وأيضًا فكُلُّ مَن أُكرِهَ على فِعلٍ؛ فإنَّه لا حُكْمَ لفِعلِه، فلَمْ تُخَصِّصِ الآيةُ القولَ[٣]، خلافًا لمن قال: إنَّ هذه الرُّخصةَ المذكورةَ في هذه الآيةِ إنَّما جاءت في القَولِ، وأمَّا في الفِعلِ فلا رُخصةَ، مثل: أن يُكرَهَ على السُّجودِ لِغَيرِ اللهِ. ويَدفَعُه ظاهِرُ الآيةِ؛ فإنَّها عامَّةٌ فيمن أُكرِهَ، مِن غَيرِ فَرقٍ بين القَولِ والفِعلِ، ولا دليلَ لهؤلاء القاصرينَ للآيةِ على القَولِ، وخُصوصُ السَّبَبِ لا اعتبارَ به مع عُمومِ اللَّفظِ[٤].

٥- الغضبُ صفةٌ فعليَّةٌ خبريَّةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ[٥]، فاللهُ تعالى يَغضَبُ على مَن يَستَحِقُّ الغضَبَ مِن الكافرينَ وغَيرِهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[٦].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لَمَّا فَعَلوا فِعلَ مَن استَحَبَّ، أُلزِموا ذلك، وإن كانوا غَير مُصَدِّقينَ بالآخِرةِ، لكِنْ مِن حيثُ أعرَضوا عن النَّظَرِ فيه، كانوا كَمَن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٥).

(٥) يُنظر: ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ٢٦٢).

(٦) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٣٤).

استحَبَّ غَيرَه[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ فيه سُؤالٌ: النَّفسُ لا تكونُ لها نَفسٌ أُخرى، فما معنى قَولِه تعالى هذا؟

الجوابُ: النَّفسُ قد يُرادُ بها بَدَنُ الحَيِّ، وقد يُرادُ بها ذاتُ الشَّيءِ وحَقيقتُه؛ فالنَّفسُ الأُولى هي الجُثَّةُ والبَدَنُ، والثَّانيةُ: عَينُها وذاتُها، فكأنَّه قيل: يومَ يأتي كُلُّ إنسانٍ يُجادِلُ عن ذاتِه، ولا يُهِمُّه شَأنُ غَيرِه[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ عبَّرَ بالمُجادَلةِ؛ إفهامًا للدَّفعِ بأقصَى ما تَقدِرُ عليه[٣].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لما كان مطلقُ الجزاءِ مخوفًا مقلقًا، بُني للمفعولِ قولُه: ﴿وَتُوَفَّىٰ﴾[٤].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لما كان المرهوبُ مطلقَ الظلمِ، وكان البناءُ للمفعولِ أبلغَ جزاءٍ في نفيه قال: ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موقِعُ هذه الجملةِ مِن الَّتي قَبْلَها موقِعُ التَّعليلِ لِجَميعِ أقوالِهم المحكيَّةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والتَّذييل لخُلاصةِ أحوالِهم؛ ولذلك فُصِلَت بدونِ عَطفٍ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾: لَمَّا كان في كَلامِهم ﴿إِنَّمَا﴾، كقولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ وهو يَقتَضي الحصرَ، جاء الرَّدُّ عليهم بـ ﴿إِنَّمَا﴾ أيضًا، وجاء بلَفظِ ﴿يَفْتَرِي﴾ الَّذي يَقْتَضي التَّجدُّدَ، ثمَّ علَّق الحكمَ على الوصفِ المقتَضِي للافتراءِ، وهو: انتفاءُ الإيمانِ، وختَم بقولِه: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾؛ فاقتضَى التَّوكيدَ البالِغَ والحصْرَ بلفظِ الإشارةِ، والتَّأكيدَ بلَفظِ ﴿هُمُ﴾، وإدخالِ (أل) على ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، وبكَونِه اسْمَ فاعِلٍ يَقْتَضي الثُّبوتَ والدَّوامَ، فجاء ﴿يَفْتَرِي﴾ بلَفظِ المضارِعِ يَقتَضي التَّجدُّدَ، وجاء ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ يَقْتَضي الثُّبوتَ والدَّوامَ[٢]؛ فهذا ردٌّ لقولِهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ بقَلْبِ ما زعَموه عليهم، كما كان قولُه تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ [النحل: ١٠٣] جوابًا عن قولِهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾؛ فبعدَ أن نَزَّه القرآنَ عن أن يكونَ مُفترًى والمنزَّلَ عليه عن أن يكون مُفتريًا ثُنِيَ العِنَانُ لِبَيانِ مَن هو المفتَرِي، وهذا مِن طريقةِ القَلْبِ في الحالِ. ووجهُ مناسَبةِ ذِكْرِه هنا أنَّ قولَهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ يَستلزِمُ تكذيبَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم في أنَّ ما جاء به مُنزَّلٌ إليه مِن عندِ اللهِ، فصاروا بهذا الاعتبارِ يُؤكِّدون بمَضمونِه قولَهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾؛ يُؤكِّدُ أحدُ القولَينِ القولَ الآخَرَ، فلمَّا ردَّ قولَهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ بقولِه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠١- ١٠٢]، ورُدَّت مَقالَتُهم الأخرى في صَريحِها بقولِه: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٢).

يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ﴾ ورُدَّ مَضمونُها هنا بقولِه: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ...﴾ حاصِلًا به ردُّ نَظيرِها وهو قولُهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرٍ﴾ بكلامٍ أبلَغَ مِن كلامِهم[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ عبَّر عن المقصورِ عليهم باسْمِ الموصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دونَ أن يَذكُرَ ضميرَهم -فيُقالَ: إنَّما يفتري الكذبَ أنتُم- لِيُفيدَ اشتِهارَهم بمضمونِ الصِّلةِ، ولأنَّ للصِّلةِ أثَرًا في افترائِهم؛ لِما تُفيدُه الموصوليَّةُ مِن الإيماءِ إلى وجهِ بِناءِ الخبَرِ. واختِيرَ في الصِّلةِ صيغةُ: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ دونَ (لم يُؤمِنوا)؛ لِتَكونَ على وِزَانِ ما عُرِفوا به سابِقًا في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ولِما في المضارِعِ مِن الدَّلالةِ على أنَّهم مُستمِرُّون على انتفاءِ الإيمانِ لا يَثبُتُ لهم ضِدُّ ذلك، ثمَّ أُردِفَت جملةُ القَصرِ بجُملةِ قصرٍ أُخرَى بطريقِ ضميرِ الفصلِ، وطريقِ تعريفِ المسنَدِ، وهي جملةُ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾. وافتُتِحَت جُملةُ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ باسْمِ الإشارةِ، بعدَ إجراءِ وصْفِ انتفاءِ الإيمانِ بآياتِ اللهِ عنهم؛ لِيُنبِّهَ على أنَّ المشارَ إليهم جَديرون بما يَرِدُ مِن الخبرِ بعدَ اسْمِ الإشارةِ، وهو قَصْرُهم على الكذِبِ؛ لأنَّ مَن لا يُؤمِنُ بآياتِ اللهِ يتَّخِذُ الكذبَ دَيْدَنًا له مُتجدِّدًا. وجعَلَ المسنَدَ في هذه الجملةِ مُعرَّفًا باللَّامِ؛ لِيُفيدَ أنَّ جِنسَ الكاذِبين اتَّحَد بهِم، وصار مُنحصِرًا فيهم، أي: الَّذين تَعرِفُ أنَّهم طائفةُ الكاذِبين هم هؤلاء[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٩١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ استئنافٌ ابتِدائيٌّ، وهو وَعيدٌ على الكفرِ بعدَ الإيمانِ[١].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ استدراكٌ على الاستثناءِ ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ وهو احتراسٌ مِن أن يُفهَمَ مِن الاستثناءِ أنَّ المكرَهَ مرخَّصٌ له أن يَنسَلِخَ عن الإيمانِ مِن قلبِه[٢].

- واختِيرَ ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ دونَ نحوِ: (فقد غَضِب اللهُ عليهم)؛ لِما تَدُلُّ عليه الجملةُ الاسميَّةُ مِن الدَّوامِ والثَّباتِ، أي: غضَبٌ لا مَغفِرةَ معَه. وتقديمُ الخبَرِ المجرورِ (علَيهِم) على المبتدَأِ ﴿غَضَبٞ﴾؛ للاهتِمامِ بأمْرِهم، فقَدَّم ما يَدُلُّ عليهِم، ولِتَصحيحِ الإتيانِ بالمبتدَأِ نَكِرةً حينَ قَصَد بالتَّنكيرِ التَّعظيمَ، أي: غضَبٌ عظيمٌ؛ فاكتَفى بالتَّنكيرِ عن الصِّفةِ. وأمَّا تقديمُ (لهم) على ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾؛ فللاهتمامِ[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هذه الجملةُ واقِعةٌ موقِعَ التَّعليلِ؛ فلِذَلك فُصِلَت عن الَّتي قبلَها، أي: لم تُعطَفْ عليها[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٩٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣٦-٦٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٩٦).

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ تذييلٌ؛ لِما في صيغةِ ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مِن العمومِ الشَّامِلِ للمتحدَّثِ عنهم وغَيرِهم؛ فليس ذلك إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ، ولكنَّه عُمومٌ بعدَ خُصوصٍ. وذِكرُ لفظِ (قومٍ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ مَن كان هذا شأنَهم فقد عُرِفوا به، وتَمكَّن منهم، وصار سَجِيَّةً حتَّى كأنَّهم يَجمَعُهم هذا الوصفُ[١].

٥- قَولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ فيه افتِتاحُ الجملةِ باسْمِ الإشارةِ؛ لِتَمييزِهم أكمَلَ تمييزٍ؛ تَبْيينًا لِمَعنى الصِّلةِ المتقدِّمةِ، وهي اتِّصافُهم بالارْتِدادِ إلى الكفرِ بعد الإيمانِ بالقولِ والاعتقادِ، وأخبَر عن اسْمِ الإشارةِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لِما فيه مِن الإيماءِ إلى وجْهِ بِناءِ الحُكْمِ المبيَّنِ بهذه الجملةِ، وهو مَضمونُ جُملةِ ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ تكمِلةٌ للبَيانِ، أي: الغافِلونَ الأكمَلونَ في الغَفلةِ؛ لأنَّ الغافِلَ البالِغَ الغايةَ يُنافي حالَةَ الاهتداءِ، والقَصرُ قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ يُقصَدُ به المبالَغةُ؛ لعَدمِ الاعتدادِ بالغافِلين غيرِهم؛ لأنَّهم بَلَغوا الغايةَ في الغفلةِ حتَّى عُدَّ كلُّ غافِلٍ غيرِهم كمَن ليس بغافِلٍ، ومِن هنا جاء مَعْنى الكَمالِ في الغفلةِ، لا مِن (لامِ التَّعريفِ)[٣].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٩٧- ٢٩٨).

٦- قَولُه تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ جملةٌ واقِعةٌ موقِعَ النَّتيجةِ لِمَا قَبلَها؛ لأنَّ ما قبْلَها صار كالدَّليلِ على مَضمونِها؛ ولذلك افتُتِحَت بكلمةِ نَفْيِ الشَّكِّ: ﴿ لَا جَرَمَ ﴾[1].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتْبيِّ، كما هو شأنُها في عطفِها الجُملَ؛ وذلك أنَّ مَضمونَ هذه الجملةِ المعطوفةِ أعظَمُ رُتبةً مِن المعطوفِ عليها؛ إذ لا أعظَمَ مِن رِضَا اللهِ تعالى[2].

- قولُه: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ وقَعَ الإقبالُ بالخطابِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم؛ إيماءً إلى أنَّ تلك المغفِرةَ مِن برَكاتِ الدِّينِ الَّذي أُرسِلَ به[3]، وإضافةُ لفظِ (رَبٍّ) إلى ضميرِ النَّبيِّ يُومِئُ إلى أنَّ المغفِرةَ والرَّحمةَ لأصحابِه كانت لأنَّهم أُوذُوا لأجْلِ اللهِ ولأجْلِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم؛ فكان إسنادُ المغفِرةِ إلى اللهِ بعُنوانِ كَونِه ربَّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم حاصِلًا بأُسلوبٍ يَدُلُّ على الذَّاتِ العَليَّةِ وعلى الذَّاتِ المحمَّديَّةِ، وهذا مِن أدَقِّ لَطائفِ القرآنِ في قَرْنِ اسمِ النَّبيِّ باسْمِ اللهِ بمُناسَبةِ هذا الإسنادِ بخُصوصِه[4]، وكذلك في إضافةِ الرَّبِّ إلى ضَميرِه صلَّى الله عليه وسلَّم مع ظُهورِ الأثَرِ في الطَّائفةِ المذكورةِ: إظهارٌ لكَمالِ اللُّطفِ به عليه السَّلامُ،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣٠١).

وإشعارٌ بأنَّ إفاضةَ آثارِ الرُّبوبيَّةِ عليهم مِن المغفرةِ والرَّحمةِ بواسِطتِه عليه السَّلامُ، ولِكَونِهم أتباعًا له[١].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ مُتعلِّقٌ بـ (غَفُورٌ) مقدَّمٌ عليه؛ للاهتمامِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فيه تأكيدُ الخبَرِ بحرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) وبالتَّوكيدِ اللَّفْظيِّ؛ لِتَحقيقِ الوعدِ، والاهتمامُ يَدفَعُ النَّقيصةَ عنهم في الفضلِ[٣].

- وأُعيدَ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ وتكرَّر ثانِيًا؛ لِطولِ الفصلِ بينَ اسْمِ إنَّ وخبَرِها المقترِنِ بلامِ الابتداءِ، مع إفادةِ التَّأكيدِ اللَّفظيِّ[٤].

٨- قَولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ فيه إطلاقُ اسْمِ السَّببِ على المسبَّبِ؛ فالتَّقديرُ: (جَزاءَ ما عَمِلَت)؛ إشعارًا بكَمالِ الاتِّصالِ بينَ الأجزِيَةِ والأعمالِ[٥].

- وقولُه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾ فيه إيثارُ إظهارِ (نَفْس) على إضمارِها حيث لم يَقُل: (تُوَفَّى) فقط؛ لزيادةِ التَّقريرِ، وللإيذانِ باختلافِ وَقْتَيِ المجادَلةِ والتَّوفيَةِ، وإن كانَتا في يومٍ واحدٍ[٦]، وكذلك لِتَكونَ الجملةُ مُستقِلَّةً؛ فتَجْريَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَجْرى المثَلِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٢).

الآيات (١١٢-١١٩)

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَغَدًا﴾: واسعًا طَيِّبًا كثيرًا، وأصلُ (رغد): يدلُّ على أطيَبِ العَيشِ[(١)].

﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾: أي: ذُبِحَ لغَيرِ اللهِ، ورُفِعَ فيه الصَّوتُ عند ذبحِه بتَسميةِ غَيرِ اللهِ، وأصلُ الإهلالِ: يدلُّ على رَفعِ الصَّوتِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦، ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦).

قال الشنقيطي: (كانوا إذا ذَبَحوا لغيرِ الله رفَعوا أصواتَهم باسمِ الأصنامِ، فصار يُطلقُ على كلِّ ما

﴿ٱضۡطُرَّ﴾: أي: أُلْجِئَ، وأُحوِج، أو أُكرِه، والاضْطِرارُ: يُطلقُ على حمْلِ الإنسانِ على ما يَضُرُّه وما يكرهُه، وأصلُ الاضطرارِ: فِعلُ ما لا يَتهيَّأُ له الامتناعُ منه[١].

﴿بَاغٖ﴾: أي: طالِبٍ له، راغِبٍ فيه لِذاتِه، وأصلُ (بغي): يَدُلُّ على قَصْدِ الفَسادِ[٢].

﴿عَادٖ﴾: أي: مُتَجاوِزٍ قَدْرَ الضَّرورةِ، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على التَّجاوُزِ[٣].

﴿هَادُواْ﴾: أي: دخَلوا في دينِ اليَهوديَّةِ؛ مِن قَولِهم: ﴿هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وكان اسمَ مَدْحٍ، ثمَّ صار بعد نَسخِ شَريعتِهم لازِمًا لهم، وإن لم يكُنْ فيه معنى المَدحِ، وأصلُ (هود): يدُلُّ على الرُّجوعِ برِفقٍ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾

﴿ٱلۡكَذِبَ﴾: مَنصوبٌ، وفي نَصبِه أوجُهٌ؛ **أحدُها**: أنَّه مَفعولٌ به لـ ﴿تَصِفُ

ذُبِحَ لغيرِ الله: «أُهِلَّ لغيرِ الله به»). ((العذب النمير)) (٢/ ٣٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٧)، ((تفسير البغوي)) (١/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٢/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٠، ٤٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٦١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١).

﴾. و﴿لِمَا تَصِفُ﴾ عِلَّةٌ للنَّهيِ عن قَولِ ذلك. و(ما) في ﴿لِمَا﴾ مَصدريَّةٌ. و﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ جُملةٌ في محَلِّ نَصبٍ مَقولُ القَولِ، أي: ولا تقولوا: هذا حَلالٌ وهذا حرامٌ لأجْلِ وَصْفِ ألسِنَتِكم الكَذِبَ، والمعنى: لا تُحَلِّلوا ولا تُحَرِّموا لأجلِ قَولٍ تَنطِقُ به ألسِنَتُكم من غيرِ حُجَّةٍ. **الثاني**: أنَّه مَفعولٌ به لـ ﴿تَقُولُواْ﴾، ويكونُ قَولُه: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ ...﴾ بَدَلًا مِن ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ بدَلَ كُلٍّ مِن كُلٍّ؛ لأنَّه عَينُه، والتقديرُ: ولا تقولوا الكَذِبَ: هذا حَلالٌ وهذا حَرامٌ؛ لِوَصفِ ألسِنَتِكم. **الثالث**: أن يَنتَصِبَ على البَدلِ مِن العائِدِ المحذوفِ على ﴿مَا﴾ إذا قُلْنا: إنَّ (ما) مَوصولةٌ بمعنى الذي، والتَّقديرُ: لِما تَصِفُه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبينًا سوءَ عاقبةِ الذين يجحدونَ نعمَ الله، ويكذِّبونَ بآياتِه: وضرَبَ اللهُ مثَلًا قَريةً كانت في أمانٍ واطمِئْنانٍ يأتيها رِزقُها هنيئًا سَهلًا مِن كُلِّ جِهةٍ، فجحَدَ أهلُها نِعَمَ اللهِ عليهم، وأشرَكوا به، ولم يَشكُروا له، فعاقَبَهم اللهُ بالجُوعِ والخَوفِ؛ بسبَبِ كُفرِهم وصَنيعِهم. ولقد أرسلَ اللهُ إلى أهلِ تلك القَريةِ رَسولًا منهم، يَعرِفونَ نَسَبَه وأمانَتَه وصِدْقَه، فكذَّبوه، فأخَذَهم العذابُ مِن القتل والجُوعِ والخَوفِ، وهم مشركون باللهِ.

ثمَّ أمَر الله عبادَه بأن يأكلوا ممَّا أحلَّه لهم، وأن يشْكُروه على نعمِه، فقال: فكُلوا -أيُّها النَّاسُ- مِمَّا رزَقَكم اللهُ حالَ كَونِه حَلالًا مُستَطابًا، واشكُروا نِعمةَ اللهِ عليكم بالاعترافِ بها وصَرْفِها في طاعةِ اللهِ، إن كنتُم تَعبُدونَ اللهَ وَحدَه.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٨٠٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٩٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٠).

ثمَّ بيَّن ما حرَّمه على عبادِه، فقال: إنَّما حرَّم اللهُ عليكم المَيتةَ مِن الحَيوانِ، والدَّمَ المَسفوحَ -كالذي يخرجُ مِن الحيوانِ عندَ ذَبحِه- ولَحمَ الخِنزيرِ، وما ذُبِحَ لغَيرِ الله؛ فمَن ألجأَتْه ضَرورةٌ إلى أَكْلِ شَيءٍ مِن هذه المُحَرَّماتِ وهو غيرُ مريدٍ لأكلِها مِن غيرِ اضطرارٍ، ولا مُتَجاوزٍ حدَّ الضَّرورةِ؛ فإنَّ اللهَ غَفورٌ له رَحيمٌ به، لا يُعاقِبُه على ما فعَلَ.

ثمَّ نهَى الله تعالى عن القولِ عليه بغيرِ علمٍ، فقال: ولا تَقولوا- أيُّها المُشرِكونَ- لِما تَصِفُه ألسِنَتُكم كَذِبًا: هذا حَلالٌ، لِما حرَّمَه اللهُ، وهذا حَرامٌ، لِما أحَلَّه اللهُ؛ لتختَلِقوا على اللهِ الكَذِبَ؛ إنَّ الذينَ يَختَلِقونَ على اللهِ الكَذِبَ لا يَفوزونَ بخَيرٍ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ، مَتاعُهم في الدُّنيا مَتاعٌ قليلٌ، ولهم في الآخرةِ عَذابٌ مُوجِعٌ.

ثم ذكر تعالى أنَّ ما حرَّمه على اليهودِ مِن طيباتٍ، إنَّما كان بسببِ ظلمِهم، فقال: وعلى اليهودِ حَرَّمْنا ما أخبَرْناك به- يا مُحمَّدُ- مِن قبلُ في سُورةِ (الأنعامِ)، وما ظَلَمْناهم بتَحريمِ ذلك عليهم، ولكِنْ كانوا ظالِمينَ لأنفُسِهم بمخالفةِ أمرِ الله، فاستحَقُّوا ما عُوقبوا به.

ثمَّ بيَّن الله تعالى سَعةَ رحمتِه سبحانَه بعبادِه، ورأفتِه بهم، فقال: ثمَّ إنَّ رَبَّك للَّذينَ فَعَلوا المعاصيَ في حالِ سَفَهٍ وجهالةٍ منهم وغَفلةٍ عن عاقِبتِها، ثمَّ رَجَعوا إلى اللهِ عمَّا كانوا عليه من الذُّنوبِ، وأصلَحوا أعمالَهم- إنَّ رَبَّك مِن بعدها لَغفورٌ لهم، رحيمٌ بهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟

يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا هَدَّدَ اللهُ تعالى الكُفَّارَ بالوَعيدِ الشَّديدِ في الآخرةِ؛ هَدَّدَهم أيضًا بآفاتِ الدُّنيا، وهو الوقوعُ في الجُوعِ والخَوفِ[(١)].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ قَريةً يعيشُ أهلُها في أمنٍ واطمِئنانٍ واستقرارٍ[(٢)] مَثَلًا لكُلِّ مَن أنعَمَ اللهُ عليهم، فأبطَرَتْهم النِّعمةُ وكَفَروا وتوَلَّوا، فأحلَّ اللهُ بهم نِقَمَه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٧٨).

(٢) اختلَف المفسِّرونَ: هل المراد بهذه القريةِ قريةٌ معينةٌ، أو المرادُ قريةٌ غيرُ معينةٍ؟

فقيل: هي قريةٌ معينةٌ، وممن اختار أنَّ المرادَ بها مكَّةُ: ابنُ جريرٍ، وابن أبي زمنين، والواحدي، وابنُ الجوزي -ونَسَبه للجُمهورِ- والقرطبي، وابنُ كثير، والسَّعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٤٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

قال الشنقيطي: (وهذه الصِّفاتُ المذكورةُ الَّتي اتَّصَفتْ بها هذه القريةُ: تتَّفقُ معَ صفاتِ أهلِ مكَّةَ المذكورةِ في القرآنِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤٥٥).

وقال الرازي: (هذه القريةُ الَّتي ضَرَب اللَّهُ بها هذا المثلَ يحتملُ أنْ تكونَ شيئًا مفروضًا، ويحتملُ أنْ تكونَ قريةً مُعيَّنةً، وعلى هذا التَّقديرِ الثَّاني فتلك القريةُ يحتملُ أنْ تكونَ مكَّةَ أوْ غيرَها... والأقرَبُ أنَّها غَيرُ مَكَّةَ؛ لأنَّها ضُرِبَت مَثَلًا لِمَكَّةَ، ومَثَلُ مَكَّةَ يكونُ غَيرَ مَكَّة). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٧٨، ٢٧٩).

وقيل: المرادُ: قريةٌ غيرُ معينةٍ، وممن اختار ذلك: ابنُ عطيةَ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٤).

كما قال تعالى عن مكَّةَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ١ - ٤].

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾.

أي: يأتي أهلَ تلك القَريةِ أقواتُهم ومَعايشُهم بوَفرةٍ وهَناءٍ وسُهولةٍ، مِن كُلِّ ناحيةٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فجحَدَ أهلُ تلك القَريةِ بما أنعَمَ اللهُ عليهم، فلم يَشكُروا اللهَ عليها[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

قال الرازي: (قوله: ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ إشارة إلى الصحَّةِ؛ لأنَّ هواء ذلك البلدِ لَمَّا كان ملائمًا لأمزجتِهم، اطمأنُّوا إليه واستقرُّوا فيه). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٧٩).

وقال الشوكاني: (وصَفَ القريةَ بأنَّها كانت آمنةً غيرَ خائفةٍ، مُطمئِنَّةً غيرَ منزعجةٍ، أي: لا يخافُ أهلُها ولا ينزَعِجون). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٦).

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

أي: فأذاق اللهُ أهلَ تلك القَريةِ الجُوعَ والخَوفَ الذي بان أثَرُه عليهم مِن الهُزالِ وشُحوبةِ اللَّونِ وسُوءِ الحالِ مِمَّا ظهَرَ على أبدانِهم، وذلك بعد أن كانوا في رَغَدٍ مِن العَيشِ والأمْنِ؛ بسبَبِ ما كانوا يَصنَعونَ مِن الكُفرِ وجُحودِ النِّعَمِ، والتَّكذيبِ بالحَقِّ، وارتِكابِ المعاصي[١].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((إنَّ قُرَيشًا لَمَّا غَلَبوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم واستَعصَوا عليه قال: اللهُمَّ أعِنِّي عليهم بسَبْعٍ كسبعِ يوسُفَ، فأخذَتْهم سَنَةٌ[٢] أكَلوا فيها العِظامَ والميتةَ مِن الجَهْدِ، حتى جعَلَ أحَدُهم يرى ما بينَه وبينَ السَّماءِ كهَيئةِ الدُّخَانِ مِن الجُوعِ))[٣].

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن الكافِرينَ بأنَّهم أُذيقوا لِباسَ الجُوعِ والخَوفِ بما كانوا يَصنَعونَ، وكان إنَّما ذكَرَ مِن صُنعِهم أنَّهم كَفَروا بأنْعُمِ اللهِ؛ زِيدَ هنا أنَّ ما كانوا يَصنَعونَ عامٌّ لكُلِّ عَمَلٍ لا يُرضي اللهَ، غيرُ مَخصوصٍ بكُفرِهم نِعمةَ الله، وإنَّ مِن أشنَعِ ما كانوا يَصنَعونَ تكذيبَهم رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع أنَّه منهم، وذلك أظهَرُ في معنى الإنعامِ عليهم والرِّفقِ بهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٥، ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٨).

(٢) السَّنةُ: القَحْطُ والجَدْبُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٤١).

(٣) رواه البخاري (٤٨٢٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٨).

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾.

أي: ولقد جاءَ أهلَ تلك القَريةِ رَسولٌ مِن أنفُسِهم، يَعرِفونَه ويَعرِفونَ نَسَبَه؛ لِيَدعُوَهم إلى الحقِّ، فكذَّبوه فيما جاءَهم به مِن الوَحيِ[1].

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨- ١٢٩].

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

أي: فأخَذَهم عذابُ الدُّنيا بالجُوعِ والخَوفِ والقَتلِ، والحالُ أنَّهم مُشرِكونَ باللهِ[2].

﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا تقرَّرَ بما مضى من أدلَّةِ التَّوحيدِ، فثَبَت ثباتًا لا يتطَرَّقُ إليه شَكٌّ أنَّ اللهَ هو الإلهُ وَحدَه، كما أنَّه هو الرَّازِقُ وَحدَه، ونَبَّهَهم على دقائِقَ في تَقديرِه للأرزاقِ تدُلُّ على عَظَمتِه وشُمولِ عِلمِه وقُدرتِه واختيارِه، فثَبَت أنَّهم ظالِمونَ فيما جَعَلوا للأصنامِ مِن رِزقِه، وأنَّه ليس لأحدٍ أن يتحَرَّكَ إلَّا بأمْرِه سُبحانَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٦)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤١٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٨٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤٠).

وختَمَ ذلك بهذا المثَلِ المُحَذِّرِ مِن كُفرانِ النِّعَمِ- عَقَّبَه بقولِه تعالى صادًّا لهم عن أفعالِ الجاهليَّةِ[١]:

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾.

أي: فكُلوا -أيُّها النَّاسُ- مِمَّا رزَقَكم اللهُ مِن الحَيواناتِ والحُبوبِ والثِّمارِ وغَيرِها، في حالِ كَونِها حلالًا لم يُحَرِّمْها اللهُ، ومِن كَسْبٍ طَيِّبٍ لا إثمَ فيه، مُستلَذَّةً يَطيبُ للنَّاسِ طَعمُها[٢].

﴿ وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾.

أي: واشكُروا اللهَ -أيُّها النَّاسُ- على نِعَمِه، واصرِفوها في طاعتِه، إن كنتُم تَعبُدونَ اللهَ وَحدَه وتُطيعونَه فيما أمَرَكم به، ونهاكم عنه، ومِن ذلك استِحلالُ ما أحَلَّ اللهُ مِن الرِّزقِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان الإذنُ في قَولِه تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ إنَّما

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

هو في بَعضِ الرِّزقِ في الحالِ المَذكورِ، فاحتِيجَ إلى مَعرِفتِه، وكانت المُباحاتُ أكثَرَ مِن المَحظوراتِ؛ حَصَرَ القَليلَ لِيُعلَمَ منه الكثيرُ؛ لأنَّ كُلَّ ضِدَّينِ مَعروفينِ إجمالًا عُيِّنَ أحَدُهما، عُرِفَ مِن تَعيينِه الآخَرُ، فقال تعالى[1]:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

أي: إنَّما حرَّم اللهُ تعالى عليكم المَيْتةَ مِن الحيواناتِ التي ماتَت حَتْفَ أنفِها -دونَ ذَكاةٍ شرعيَّةٍ ولا اصطِيادٍ[2]- والدَّمَ المَسفوحَ[3]، ولَحمَ الخِنزيرِ[4]، وما ذُبِحَ على غَيرِ اسمِ الله عزَّ وجلَّ، كالذي يُذبَحُ للأصنامِ، ويُسمَّى عليه بغيرِ اسمِه سُبحانَه[5].

كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦٨).

(٢) ويُستثنى مِن ذلك مَيتةُ الجَرادِ والسَّمَكِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

(٣) الدَّم المَسفوح: هو المُنصَبُّ المُسالُ كالذي يَخرُجُ عند الذَّكاةِ، أو يَخرُجُ عند فَصْدِ العِرْقِ، وما أشبهَ ذلك. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٥٩-٣٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧).

(٤) وذلك شاملٌ للحمِه، وشحمِه، وجميعِ أجزائِه. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: فمَن ألجأَتْه الضَّرورةُ إلى الأكْلِ مِن تلك المُحرَّماتِ الأربعةِ، وهو غيرُ مُبتَغٍ لِتَناوُلِها مِن غَيرِ ضَرورةٍ، ولا مُريدٍ التلذُّذَ بأكْلِها، وغيرُ مُتَجاوزٍ قدْرَ الضَّرورةِ، فلا يتناوَلُ منها إلَّا بمِقدارِ ما يَدفَعُ عنه الهَلاكَ؛ فمَن كانت حالُه كذلك فلا حرَجَ عليه ولا إثمَ مِن تَناوُلِ تلك المحرَّمات؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَغفِرُ ذُنوبَ عِبادِه، فيَستُرُها، ويتَجاوَزُ عن المُؤاخَذةِ بها، ومِن ذلك تجاوزُه عمَّن أكَل ما حرَّمه الله مضطرًّا، وهو الرَّحيمُ بعِبادِه، ومِن رَحمتِه أنْ شرَع لهم ذلك؛ تَوسِعةً منه، فأباح أكْلَ ذلك عند الضَّرورةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٨)، ((أحكام القرآن)) للجصاص (١/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

قال الماوردي: (وفي قولِه: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدُها: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ على الإمامِ، ﴿وَلَا عَادٖ﴾ على الأُمةِ بإفسادِ شملِهم، فيدخلُ الباغي على الإمامِ وأُمتِه، والعادي: قاطعُ الطريقِ، وهو معنَى قولِ مجاهدٍ، وسعيدِ بنِ جبيرٍ.

والثاني: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ في أكلِه فوقَ حاجتِه، ﴿وَلَا عَادٖ﴾ يعني: متعديًا بأكلِها وهو يجدُ غيرَها، وهو قولُ قتادةَ، والحسنِ، وعكرمةَ، والربيعِ، وابنِ زيدٍ.

والثالثُ: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ في أكلِها شهوةً وتلذذًا، ﴿وَلَا عَادٖ﴾ باستيفاءِ الأكلِ إلى حدِّ الشِّبَعِ، وهو قولُ السُّديِّ). ((تفسير الماوردي)) (١/ ٢٢٢).

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حَصَر اللهُ تعالى المُحَرَّماتِ في تلك الأربَعِ؛ بالَغَ في تأكيدِ ذلك الحَصرِ، وزَيَّفَ طريقةَ الكُفَّارِ في الزِّيادةِ على هذه الأربَعِ، وفي النُّقصانِ عنها أُخرَى؛ فإنَّهم كانوا يُحَرِّمونَ البَحيرةَ، والسَّائِبةَ، والوَصيلةَ، والحاميَ، وكانوا يقولونَ: ما في بُطونِ هذه الأنعامِ خالِصةٌ لذُكُورِنا ومُحَرَّمٌ على أزواجِنا، فقد زادوا في المُحَرَّمات وزادوا أيضًا في المُحَلَّلاتِ؛ وذلك لأنَّهم حَلَّلوا المَيتةَ والدَّمَ ولحمَ الخِنزيرِ، وما أُهِلَّ به لغيرِ الله تعالى، فاللهُ تعالى بَيَّنَ أنَّ المُحَرَّماتِ هي هذه الأربعةُ، وبيَّنَ أنَّ الأشياءَ التي يقولونَ: إنَّ هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ، كَذِبٌ وافتراءٌ على اللهِ تعالى، ثمَّ ذكَرَ الوَعيدَ الشَّديدَ على هذا الكَذِبِ[1].

وأيضًا لَمَّا أمَرَهم بتَناوُلِ ما أحَلَّ لهم؛ عدَّد عليهم مُحرَّماتِه؛ لِيُعلَمَ أنَّ ما عَداها حِلٌّ لهم، ثمَّ أكَّد ذلك بالنَّهيِ عن التَّحريمِ والتَّحليلِ بأهوائِهم، فقال[2]:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾.

أي: لا تحرِّموا وتُحلِّلوا مِن تلقاءِ أنفسكم، كذبًا على اللهِ، مِن غَيرِ مُستنَدٍ صَحيحٍ، ولا حُجَّةٍ بَيِّنةٍ، فتَقولوا لِما أحَلَّ اللهُ: هو حَرامٌ، وتَقولوا لِما حَرَّمه: هو حَلالٌ؛ كي تختَلِقوا الكَذِبَ على اللهِ سُبحانَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير))

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۞ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٣٨- ١٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ۞ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يونس: ٥٩-٦٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾.

أي: إنَّ الذين يَتقوَّلونَ على اللهِ الكَذِبَ لا يَفوزونَ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ(١).

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾.

أي: للمُفتَرينَ على اللهِ الكَذِبَ مَتاعٌ قليلٌ في الدُّنيا، ولهم بعد ذلك عَذابٌ مُؤلِمٌ في الآخِرةِ(٢).

(٤/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦١-٤٦٢)، (٧/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٣).

قال ابن جرير: (لا يُخَلَّدونَ في الدُّنيا، ولا يَبقَونَ فيها). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٠).

وقال الشنقيطي: (أي: لا يَنالونَ الفَلاحَ، وهو يُطلَقُ على مَعنَيينِ: أحدهما: الفوزُ بالمطلوبِ الأكبر، والثاني: البقاءُ السَّرمديُّ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن عطية))

كما قال تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[لقمان: ٢٤].

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّه إنَّما حَرَّمَ علينا المَيتةَ والدَّمَ ولَحمَ الخِنزيرِ، وما أُهِلَّ لِغَيرِ الله به، وأنَّه أرخَصَ فيه عندَ الضَّرورةِ، وفي ذلك تَوسِعةٌ لهذه الأمَّةِ التي يُريدُ اللهُ بها اليُسرَ، ولا يُريدُ بها العُسرَ- ذكَرَ سُبحانَه وتعالى ما كان حَرَّمَه على اليَهودِ في شَريعتِهم قبل أن يَنسَخَها، وما كانوا فيه من الآصارِ والأغلالِ، والحَرَجِ والتَّضييقِ[(١)].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى لهم نِعمَتَه بتَوسِعتِه عليهم بما ضَيَّقوا به على أنفُسِهم؛ بيَّنَ لهم نِعمةً أخرى، بتَمييزِهم على بني إسرائيلَ[(٢)].

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾.

أي: وعلى اليَهودِ حَرَّمْنا ما أوحَيناه إليك -يا محمَّدُ- من قبلُ في سُورةِ (الأنعامِ)[(٣)].

كما في قَولِه تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ

(٣/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٩١، ٤٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

أي: وما ظَلَمْنا اليَهودَ بتَحريمِ ما حرَّمْنا عليهم مِن الطَّيِّباتِ، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بمَعصيةِ اللهِ سُبحانَه، فاستَحَقُّوا عُقوبةَ اللهِ بتَحريمِ الطيِّباتِ عليهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ المقصودَ بَيانُ أنَّ الافتراءَ على اللهِ ومُخالفةَ أمرِ اللهِ، لا يَمنَعُهم مِن التَّوبةِ، وحُصولِ المَغفِرةِ والرَّحمةِ[(٢)]، فلمَّا ذُكِرَت أحوالُ أهلِ الشِّركِ، وكان منها ما حَرَّموه على أنفُسِهم، وكان المُسلِمونَ قد شارَكوهم أيَّامَ الجاهليَّةِ في ذلك،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٣).

وورَدَت قوارِعُ الذَّمِّ لِمَا صَنَعوا؛ كان مِمَّا يُتوَهَّمُ عُلوقُه بأذهانِ المُسلِمينَ أن يَحسَبوا أنَّهم سينالُهم شَيءٌ مِن غَمصٍ[١] لِما اقتَرَفوه في الجاهليَّةِ، فطَمْأَنَ اللهُ نُفوسَهم بأنَّهم لَمَّا تابوا بالإقلاعِ عن ذلك بالإسلامِ، وأصلَحوا عمَلَهم بعدَ أن أفسَدوا؛ فإنَّ اللهَ قد غفَرَ لهم مَغفِرةً عَظيمةً، ورَحِمَهم رَحمةً واسِعةً[٢].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى هذه النِّعمةَ الدُّنيَويَّةَ، عطَفَ عليها نِعمةً هي أكبَرُ منها جِدًّا؛ استِجلابًا لكُلِّ ظالمٍ، فقال تعالى[٣]:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾.

أي: ثمَّ إنَّ رَبَّك -يا مُحَمَّدُ- للذين اقتَرَفوا ما لا ينبغي فِعلُه مِن الكُفرِ أو المعاصي، عن سَفَهٍ منهم، وإيثارٍ للدُّنيا، وعَمايةٍ عن عَواقِبِ ما اقتَرَفوا[٤].

---

(١) الغَمْصُ: الاحتِقارُ والاستِصغارُ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١٨/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

قال ابنُ عطيَّة: (قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾ هذه آيةُ تأنيسٍ لجَميعِ العالَمِ، أخبَرَ اللهُ تعالى فيها أنَّه يَغفِرُ للتَّائِبِ، والآيةُ إشارةٌ إلى الكُفَّارِ الذين افتَرَوا على اللهِ، وفَعَلوا الأفاعيلَ المذكورةَ، فهم إذا تابوا مِن كُفرِهم بالإيمانِ، وأصلَحوا مِن أعمالِ الإسلامِ؛ غَفَرَ الله لهم، وتناولَت هذه الآيةُ بعدَ ذلك كلَّ واقعٍ تحتَ لَفظِها مِن كافرٍ وعاصٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٠).

وقال أيضًا: («الجهالةُ» عندي في هذا الموضِعِ ليست ضِدَّ العلمِ، بل هي تعدِّي الطَّورِ وركوبُ الرأسِ، ومنه قول النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «أو أجهَلَ أو يُجهَلَ عليَّ»). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٠).

قال السمين الحلبي: (قوله: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ فيه وجهان، أحدُهما: أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من فاعلِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾، ومعناها المصاحبةُ، أي: يعملون السوءَ ملتَبِسينَ بجهالةٍ، أي: مصاحِبينَ

﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾.

أي: ثمَّ رَجَعوا إلى اللهِ، ونَدِموا، وأقلَعوا عن السُّوءِ مِن بعدِ ما عَمِلوه، وأصلَحوا أعمالَهم، فأقبلوا على فِعلِ الطَّاعاتِ(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: إنَّ ربَّك مِن بَعدِها(٢) لَغَفورٌ لذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، رحيمٌ بهم، فيَقبَلُ تَوبتَهم منها، ولا يُعاقِبُهم(٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ ...﴾ فيجِبُ على كُلِّ عاقلٍ أنْ يعتبِرَ بهذا المَثَلِ، وألَّا يُقابِلَ نِعَمَ اللَّهِ بالكفرِ والطُّغيانِ؛ لئلَّا يَحِلَّ به ما حلَّ بهذه القريةِ المذكورةِ، بل عليه أنْ يُقابلَها بالشُّكرِ، فيشكُرها

لها، ويجوز أن يكونَ حالًا من المفعولِ، أي: ملتبَسًا بجهالةٍ، وفيه بعدٌ وتجوُّزٌ. والثاني: أن يتعلقَ بـ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ على أنها باء السببيةِ). ((الدر المصون)) (٣/ ٦٢٣). وممَّن قال بالأولِ: ابنُ عاشور، وممَّن قال بالثاني: الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

(٢) قيل: الضَّميرُ يعودُ على التَّوبةِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جريرٍ، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٩٦).

وقيل: الضَّميرُ عائِدٌ على الفَعلةِ السَّيِّئةِ. وممَّن قال بذلك: ابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٠).

وجمَع بينهما البقاعيُّ، فقال: (﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ أي: التَّوبةِ وما تقَدَّمَها من أعمالِ السُّوءِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٠).

بالطَّاعةِ والعبادةِ لِلَّه، فقد بَيَّن تعالى أَنَّ الشُّكرَ يزيدُ النِّعمَ والكفرَ يُذْهِبُها، إلَّا ما كان استدراجًا، فقال في شُكرِ النِّعمةِ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1] [إبراهيم: ٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ أنَّ الجَدْبَ والقَحْطَ، وضِيقَ الرِّزقِ والفِتَنَ كُلَّها؛ سَبَبُها المعاصي[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ الآيةُ تحذِّرُ المسلمينَ مِن أن يتقوَّلوا على اللهِ ما لم يَقُلْه بنصٍّ صريحٍ، أو بإيجادِ معانٍ وأوصافٍ للأفعالِ قد جعَل لأمثالِها أحكامًا[3]، فلا يجوزُ للعَبدِ أن يقولَ: هذا حَلالٌ وهذا حَرامٌ إلَّا بما عَلِمَ أنَّ اللهَ سُبحانَه أحَلَّه وحَرَّمه. وقال بعضُ السَّلَفِ: لِيَتَّقِ أحَدُكم أن يقولَ: أحَلَّ اللهُ كذا، وحَرَّمَ كذا، فيقولَ اللهُ له: كَذَبْتَ! لم أُحِلَّ كذا، ولم أُحَرِّمْ كذا؛ فلا ينبغي أن يقولَ لِما لا يَعلَمُ وُرودَ الوَحيِ المُبينِ بتَحليلِه وتَحريمِه: أحَلَّه اللهُ، وحَرَّمَه اللهُ؛ لمُجَرَّدِ التَّقليدِ، أو بالتَّأويلِ[4]. وعن أبي نَضرةَ، قَالَ: (قرأت هذه الآية في سُورَة النحل: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ...﴾، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا)[5].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٥٩) و (٩/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٠٦).

بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ حَضٌّ منه تعالى لعبادِه على التَّوبةِ، ودَعوةٌ لهم إلى الإنابةِ، فأخبَرَ أنَّ مَن عَمِلَ سُوءًا بجَهالةٍ بعَاقبةِ ما تجني عليه، ولو كان مُتَعَمِّدًا للذَّنبِ- فإنَّه لا بُدَّ أن يَنقُصَ ما في قَلبِه مِن العِلمِ وَقتَ مُقارفَةِ الذَّنبِ- فإذا تاب وأصلَحَ بأن تَرَكَ الذَّنبَ ونَدِمَ عليه، وأصلَحَ أعمالَه؛ فإنَّ اللهَ يَغفِرُ له ويَرحَمُه، ويتقَبَّلُ تَوبتَه، ويُعيدُه إلى حالتِه الأولى أو أعلى منها[١].

٥- قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ فكُلُّ مَن عصى الله فهو جاهِلٌ، وكلُّ من أطاعه فهو عالمٌ، وبيانُه مِن وجهينِ:

أحدهما: أنَّ مَن كان عالِمًا بالله تعالى وعظَمتِه وكبريائِه وجلالِه، فإنه يهابُه ويخشاه، فلا يقَعُ منه مع استحضارِ ذلك عصيانُه، كما قال بعضُهم: (لو تفكَّر النَّاسُ في عظمةِ الله تعالى، ما عَصَوه)، وقال آخَرُ: (كفى بخشيةِ اللهِ عِلمًا، وكفى بالاغترارِ بالله جَهلًا).

والثاني: أنَّ مَن آثر المعصيةَ على الطاعةِ فإنَّما حمَلَه على ذلك جهلُه وظنُّه أنَّها تنفَعُه عاجِلًا باستِعجالِ لذَّتِها، وإن كان عنده إيمانٌ فهو يرجو التخلُّصَ مِن سوءِ عاقبتِها بالتَّوبةِ في آخِرِ عُمُرِه، وهذا جَهلٌ مَحضٌ؛ فإنَّه يتعجَّلُ الإثمَ والخِزيَ، ويفوتُه عِزُّ التقوى وثوابُها ولذَّةُ الطَّاعةِ، وقد يتمكَّنُ مِن التوبة بعد ذلك، وقد يعاجلُه الموتُ بغتةً، فهو كجائعٍ أكلَ طعامًا مسمومًا لدَفعِ جُوعِه الحاضرِ، ورجا أن يتخلَّصَ مِن ضَرَرِه بشُربِ الدِّرياقِ بعدَه، وهذا لا يفعَلُه إلَّا جاهِلٌ[٢]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣٣٤).

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ إنْ قيلَ: الأنعُمُ جَمعُ قِلَّةٍ، فكأنَّ تلك القَريةَ كَفَرَت بأنواعٍ قَليلةٍ مِن نِعَمِ اللهِ، فعَذَّبَها اللهُ تعالى، فلِمَ لم يَقُلْ تعالى: (كَفَروا بنِعَمٍ عَظيمةٍ فاستوجبوا العَذابَ)؟

أجيب: بأنَّ المَقصودَ التَّنبيهُ بالأدنى على الأعلى؛ فإنَّ كُفرانَ النِّعَمِ القَليلةِ لَمَّا أوجَبَ العَذابَ، فبِكُفرانِ النِّعَمِ الكثيرةِ أَولى[١].

وقيل: إنَّ الله سُبحانَه نبَّه على سعةِ فضلِه بجمعِ القِلَّةِ الدالِّ على أنَّ كثرةَ فضلِه عليهم تافهةٌ بالنسبةِ إلى ما عندَه سُبحانَه وتعالى[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تعليقُ ذلك بالشَّرطِ؛ للبَعثِ على الامتِثالِ، لإظهارِ صِدقِ إيمانِهم[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ تحريمُ لحمِ الخنزيرِ، ويُلْحَقُ بذلك شَحْمُه؛ لأنَّ اللَّحمَ عندَ الإطلاقِ يعمُّ جميعَ أجزائِه حتَّى الشَّحْم، وهذا هو المفهومُ مِن لغةِ العربِ، ومِن العرفِ المطَّردِ، أمَّا لو قيل: لحمٌ وشَحْمٌ؛ فإنه يُفَرَّقُ بينهما، فإذا قيل: لحمُ الإبلِ، أو لحمُ الضَّأنِ، أو لحمُ البقرِ، أو لحمُ الخِنزيرِ؛ صار شامِلًا للجَميعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ تعظيمُ أمرِ الشِّركِ، وبيانُ خطورته؛ فإنَّه يؤثِّرُ حتى على المأكولاتِ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ يدخُلُ في هذا كُلُّ مَن ابتدَعَ بِدعةً ليس له فيها مُستنَدٌ شَرعيٌّ، أو حلَّل شيئًا ممَّا حرَّم اللهُ، أو حرَّم شيئًا ممَّا أباح اللهُ بمجرَّدِ رأيِه وتَشهِّيه[٢].

٦- يجِبُ أن نَعرِفَ أنَّ مَنْعَ العِبادِ مِمَّا لم يَدُلَّ الشَّرعُ على مَنْعِه، كالتَّرخيصِ لهم فيما دَلَّ الشَّرعُ على مَنعِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى جعَلَهما سواءً، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾، بل قد يقولُ قائِلٌ: إنَّ تَحريمَ الحَلالِ أشَدُّ مِن تَحليلِ الحرامِ؛ لأنَّ الأصلَ الحِلُّ، واللهُ عزَّ وجَلَّ يُحبُّ التَّيسيرَ لعِبادِه[٣].

٧- أنَّ الأمرَ إلى اللهِ تعالى تحليلًا وتَحريمًا، وليس إلينا، ولا لأحدٍ مِن النَّاسِ، بل هو إلى اللهِ ورَسولِه؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾[٤].

٨- أنكَرَ تعالى على مَن نسَبَ إلى دِينِه تَحليلَ شَيءٍ أو تَحريمَه مِن عِندِه بِلا بُرهانٍ مِن اللهِ، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا

ونقَل غيرُ واحدٍ الإجماعَ على حرمةِ شحمِ الخنزيرِ. يُنظر: ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٢٣)، ((الإقناع)) لابن القطان (١/ ١٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٣).

حَرَامٌ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ فكيف بمن نسَبَ إلى أوصافِه سُبحانَه وتعالى ما لم يَصِفْ به نَفسَه؟! أو نفى عنه منها ما وصَفَ به نَفسَه[١]؟!

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ لَمَّا كان تَحليلُهم وتَحريمُهم قولًا فارِغًا ليس له حَقيقةٌ أصلًا؛ لأنَّه لا دليلَ عليه؛ عبَّرَ عنه بأنَّه وَصفٌ باللِّسانِ لا يَستَحِقُّ أن يَدخُلَ إلى القَلبِ[٢].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ لَمَّا كان المُفتَري يَفتَري لتَحصيلِ مَطلوبٍ، نفى اللهُ تعالى عنه الفَلاحَ؛ لأنَّه الفوزُ بالخيرِ والنَّجاحِ[٣].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ ليس المعنى أنَّه يَغفِرُ لِمَن يَعمَلُ السُّوءَ بجَهالةٍ، ولا يَغفِرُ لِمَن عَمِلَه بغيرِ جَهالةٍ، بل المرادُ أنَّ جَميعَ مَن تاب فهذا سَبيلُه، وإنَّما خُصَّ مَن يَعمَلُ السُّوءَ بجَهالةٍ؛ لأنَّ أكثَرَ مَن يأتي الذُّنوبَ يأتيها بقِلَّةِ فِكرٍ في عاقبةٍ، أو عندَ غَلَبةِ شَهوةٍ، أو في جَهالةِ شَبابٍ، فذُكِرَ الأكثَرُ على عادةِ العَرَب في مثلِ ذلك[٤].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ويدخلُ في هذا الحكمِ مَن

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٠٩).

عمِل حرامًا مِن المسلمينَ جاهلًا بأنَّه حرامٌ، وكان غيرَ مقصِّرٍ في جهلِه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ فيه التَّعبيرُ عن ضَربِ المثَلِ الواقعِ في حالِ نُزولِ الآيةِ بصِيغةِ الماضي ﴿ضَرَبَ﴾-، على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-؛ للتَّشويقِ إلى الإصْغاءِ إليه، وهو مِن استِعْمالِ الماضي في الحالِ لِتَحقيقِ وُقوعِه، مثلُ قولِه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، أو لِتَقريبِ زمَنِ الماضي مِن زمَنِ الحالِ، مثلُ: قد قامَتِ الصَّلاةُ. ويَجوزُ أن يَكونَ ﴿ضَرَبَ﴾ مُستعمَلًا في مَعنى الطَّلبِ والأمرِ، أي: اضْرِبْ يا محمَّدُ لقَومِك مثَلًا قريةً إلى آخِرِه، وإنَّما صِيغَ في صيغةِ الخبَرِ تَوسُّلًا إلى إسنادِه إلى اللهِ؛ تَشريفًا له، وتنويهًا به[٢].

- قولُه: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ جعَل المثَلَ قريةً موصوفةً بصِفاتٍ تُبيِّنُ حالَها المقصودَ مِن التَّمثيلِ، فاستَغْنى عن تَعيينِ القَريةِ، والنُّكتةُ في ذلك أن يَصلُحَ هذا المثَلُ للتَّعريضِ بالمشرِكينَ باحتِمالِ أن تَكونَ القريةُ قريَتَهم- مكَّةَ- بأنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٤).

جعَلَهم مثَلًا للنَّاسِ مِن بَعدِهم[١].

- وفي قولِه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرۡيَةً﴾ تأخيرُ قريةٍ مع كونِها مفعولًا أوَّلَ؛ لِئَلَّا يَحولَ المفعولُ الثَّاني بينَها وبينَ صِفَتِها وما يترتَّبُ عليها؛ إذِ التَّأخيرُ عن الكلِّ مُخِلٌّ بتَجاذُبِ أطرافِ النَّظْمِ وتَجاوُبِها، ولأنَّ تأخيرَ ما حقُّه التَّقديمُ ممَّا يورِثُ النَّفسَ تَرقُّبًا لِوُرودِه، وتَشوُّقًا إليه لا سيَّما إذا كان في المقدَّمِ ما يَدْعو إليه؛ فإنَّ المثَلَ ممَّا يَدْعو إلى المُحافَظةِ على تَفاصيلِ أحوالِ ما هو مثَلٌ، فيتَمكَّنُ المؤخَّرُ عندَ وُرودِه لدَيْها فَضْلَ تَمكُّنٍ[٢].

- وقَدَّمَ الأمْنَ على الطُّمَأنينةِ في قولِه: ﴿ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً﴾؛ إذ لا تَحصُلُ الطُّمَأنينةُ بدُونِه، كما أنَّ الخَوفَ يُسَبِّبُ الانزِعاجَ والقَلَقَ[٣].

- وفي قولِه: ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا﴾ غيَّر سَبْكَها عن الصِّفةِ الأُولى ﴿ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً﴾؛ لأنَّ إتيانَ رِزقِها متجدِّدٌ، وكونَها آمِنةً مطمئنَّةً ثابتٌ مستمرٌّ[٤].

- قولُه: ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾: فيه اقتِرانُ فِعلِ (كَفَرَتْ) بفاءِ التَّعقيبِ بعدَ أنْ كانَت آمِنةً مُطمئنَّةً باعتبارِ حصولِ الكفرِ عَقِبَ النِّعمِ الَّتي كانوا فيها حينَ طرَأ عليهم الكُفرُ؛ وذلك عِندَ بَعثةِ الرَّسولِ إليهم، وهذا على القولِ بأنَّ القريةَ هي مكةُ. وأمَّا قَرْنُ ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ﴾ بفاءِ التَّعقيبِ، فهو تَعقيبٌ عُرْفيٌّ في

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٥).

مِثلِ ذلك[١]. وقيل: لما كانت السعةُ تجرُّ إلى البطرِ غالبًا، نبَّه تعالى لهم ذلك بالفاءِ، فقال تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾[٢].

- في قَولِه: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ شَبَّهَ ما يُدرَكُ مِن أثَرِ الضَّرَرِ والألَمِ بما يُدرَكُ مِن طَعمِ المُرِّ، وأمَّا اللِّباسُ فقد شُبِّهَ به- لاشتمالِه على اللَّابِسِ- ما غَشِيَ الإنسانَ، والتبَسَ به مِن بَعضِ الحَوادِثِ، وأمَّا إيقاعُ الإذاقةِ على لِباسِ الجُوعِ والخَوفِ؛ فلأنَّه لَمَّا وقعَ عِبارةً عَمَّا يغشَى منهما ويُلابسُ، فكأنَّه قيل: فأذاقهم ما غَشِيَهم مِنَ الجُوعِ والخَوفِ[٣].

- وقولُه: ﴿ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ مُقابَلٌ بما تقدَّم مِن ذِكْرِ الأمنِ وإتيانِ الرِّزقِ، فقابَلَهما بالجوعِ النَّاشِئِ عن انْقِطاعِ الرِّزقِ وبالخَوفِ، وقدَّم الجوعَ؛ لِيَلِيَ المتأخِّرَ وهو إتيانُ الرِّزقِ[٤].

- قولُه: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ في صيغةِ (الصُّنعِ) إيذانٌ بأنَّ كُفْرانَ النِّعمةِ صار صَنْعةً راسِخةً لهم، وسُنَّةً مَسلوكةً[٥].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا...﴾ مفرَّعٌ على نَتيجةِ التَّمثيلِ، وصَدٌّ لهم عمَّا يؤدِّي إلى مِثلِ عاقِبتِه، أي: وإذْ قد استَبان لكُم حال مَن كفَر

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٥).

بأنعُمِ اللهِ، وكذَّب رسولَه، وما حلَّ بهم بسَببِ ذلك مِن اللُّتيَّا والَّتي أوَّلًا وآخِرًا؛ فانْتهُوا عمَّا أنتم عليه مِن كُفرانِ النِّعَمِ، وتَكْذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ كَيْ لا يَحُلَّ بكُم مِثلُ ما حَلَّ بهم، واعْرِفوا حقَّ نِعَمِ اللهِ تعالى، وأطيعوا رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أمرِه ونهيِه، وكُلوا مِن رزقِ اللهِ حالَ كونِه ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[1].

- قولُه: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ فيه إظهارُ اسمِ الجلالةِ، مع أنَّ مُقتَضى الظَّاهرِ الإضمارُ؛ لزيادةِ التَّذكيرِ، ولِتَكونَ جُملةُ هذا الأمرِ مُستقِلَّةً بدَلالتِها بحيث تَصِحُّ أن تَجرِيَ مَجْرى المثَلِ[2].

- وصرَّح هنا بالنِّعْمةِ؛ لِتَقدُّمِ ذِكْرِها مع مَن كفَر بها، ولم يَجِئْ ذلك في سورةِ (البقرةِ)، بل قال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢] لَمَّا لم يتَقدَّمْ ذلك[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ حصَرَ التَّحريمَ في هذه الأربعةِ؛ فإنَّها مُحرَّمةٌ في كلِّ مِلَّةٍ، لا تُباحُ بحالٍ، إلَّا عند الضَّرورةِ، وبدأ بالأخَفِّ تَحريمًا، ثمَّ بما هو أشَدُّ منه؛ فإنَّ تَحريمَ الميتةِ دونَ تَحريمِ الدَّمِ؛ فإنَّه أخبَثُ منها، ولحمُ الخِنزيرِ أخبَثُ منهما، وما أُهِلَّ به لغيرِ اللهِ أخبثُ الأربعةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٥٢٧).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: وَصْفُ ألسِنَتِهم الكَذِبَ هو مِن فَصيحِ الكلامِ وبَليغِه، وهو مُبالَغةٌ في وَصْفِ كلامِهم بالكذبِ، حيث جعَل قولَهم كأنَّه عَينُ الكَذِبِ ومَحْضُه، فإذا نطَقَت به ألسِنتُهم فقد حلَّت الكذبَ بحِلْيَتِه وصوَّرَتْه بصورتِه، وكأنَّ حقيقةَ الكذبِ كانت مَجهولةً، وألسِنَتَهم تَصِفُها وتُعرِّفُها بكَلامِهم هذا، كقولِهم: (ووَجهُها يَصِفُ الجَمالَ، وعينُها تَصِفُ السِّحرَ)[١].

- وفي قولِه: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ عاد الخِطابُ إلى المشرِكين بقَرينةِ قولِه: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾؛ فالجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ...﴾ الآية، وفيه تَعريضٌ بتَحذيرِ المسلِمين؛ لأنَّهم كانوا قَريبي عَهْدٍ بجاهليَّةٍ، فرُبَّما بَقِيَت في نُفوسِ بعضِهم كَراهيَّةُ أكْلِ ما كانوا يتَعفَّفون عن أكلِه في الجاهليَّةِ[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ في صورةِ جوابٍ عمَّا يَجيشُ بِخاطِرِ سائلٍ يَسأَلُ عن عدَمِ فَلاحِهم مع مُشاهَدةِ كثيرٍ مِنهم في حالةٍ مِن الفَلاحِ، فأُجيبَ بأنَّ ذلك مَتاعٌ، أي: نفعٌ مُوقَّتٌ زائلٌ، ولهم بعدَه عذابٌ أليمٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣١٢).

- قولُه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه تقديمُ ﴿لَهُمْ﴾؛ للاهتمامِ؛ زِيادةً في التَّحذيرِ، وجيءَ بلامِ الاستحقاقِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ العذابَ خصَّهم لأجْلِ افترائِهم[1].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا﴾ فيه تقديمُ المجرورِ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾؛ للاهتمامِ، وللإشارةِ إلى أنَّ ذلك حَرُم عليهم ابتِداءً، ولم يَكُنْ مُحرَّمًا مِن شريعةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، الَّتي كان عليها سلَفُهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ [آل عمران: ٩٣]، أي: علَيهم دونَ غَيرِهم؛ فلا تَحسَبوا أنَّ ذلك مِن الحَنيفيَّةِ[2].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

- في قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ وقَع الإقبالُ بالخطابِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إيماءً إلى أنَّ تلك المغفِرةَ مِن برَكاتِ الدِّينِ الذي أُرسِل به[3].

- و﴿ثُمَّ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتْبيِّ؛ لأنَّ الجملةَ المعطوفةَ بـ (ثُمَّ) تضمَّنَت حُكمَ التَّوبةِ وأنَّ المغفِرةَ والرَّحمةَ مِن آثارِها، وذلك أهَمُّ عِندَ المخاطَبينَ ممَّا سبَق

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٢- ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣١٢).

مِن وعيدٍ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن بعدِ ما عَمِلوا ما عَمِلوا، والتَّصريحُ به معَ دَلالةِ (ثُمَّ) عليه للتَّأكيدِ والمبالَغةِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فيه تَكْريرُ قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ لِتَأكيدِ الوَعدِ، وإظهارِ كَمالِ العِنايةِ بإنجازِه[٣]؛ وهو تأكيدٌ لفظيٌّ لقولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ لزيادةِ الاهْتِمامِ بالخبَرِ على الاهتِمامِ الحاصِلِ بحَرفِ التَّوكيدِ ولامِ الابْتِداءِ، وليتَّصِلَ خبَرُ إنَّ باسْمِها؛ لِبُعدِ ما بينَهما[٤].

- والتَّعرُّضُ لوَصفِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضَميرِ النبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ مع ظهورِ الأثرِ في التَّائِبين؛ للإيماءِ إلى أنَّ إفاضةَ آثارِ الرُّبوبيَّةِ مِن المغفرةِ والرَّحمةِ عليهم بسَببِ كونِه الواسطةَ في تبليغِ شَريعةِ الله تعالى، وكَونِهم مِن أتْباعِه صلَّى الله عليه وسلَّم[٥].

- قولُه: ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وقَع الخبرُ بوَصفِ اللهِ تعالى بصفةِ المبالَغةِ في المغفرةِ والرَّحمةِ، وهو كِنايَةٌ عن غُفرانِه لهم ورَحمتِه إيَّاهم في ضِمْنِ وصفِ اللهِ بهاتَينِ الصِّفتَينِ العَظيمتينِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٤).

الآيات (١٢٠-١٢٢)

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أُمَّةً﴾: أي: إمامَ هُدًى، مُعَلِّمًا للخَيرِ، يُقتَدَى به، وأصلُ (أمم): يدُلُّ على الأصلِ والمَرجِعِ[(١)].

﴿قَانِتًا﴾: أي: مُطيعًا خاضِعًا، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على الطَّاعةِ[(٢)].

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مقبلًا على اللهِ، معرضًا عما سِواه، أو: مائلًا عن الشركِ والدِّينِ الباطلِ إلى التوحيدِ، والدِّينِ الحقِّ المستقيمِ، أو: مسلمًا مستقيمًا، وأصلُ الحنفِ: الميلُ عن الشيءِ بالإقبالِ على آخرَ، فالحنفُ ميلٌ عن الضلالةِ إلى الاستقامةِ، وأصلُه ميلٌ في إبهامي القدمينِ، كل واحدةٍ على صاحبتِها[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٢٠١، ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (١/ ٢٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

وقيل: إنَّ الحنيفَ هو المستقيمُ مِن كلِّ شيءٍ، والحنفَ: الاستقامةُ، وجعلوا الرَّجلَ الَّذي تُقبلُ إحدَى قَدَميه على الأُخرى، إنَّما قِيل له: أحنفُ، على جهة التفاؤلِ، كما قِيل للمَهْلَكةِ مِن البلادِ:

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالَى أنَّ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- كان جامِعًا لخِصالِ الخَيرِ، إمامًا يُقتَدى به، وكان مُقبِلًا على اللهِ، مُستَقيمًا على الإسلامِ غيرَ مائلٍ عنه، ولم يكُنْ مِن المُشرِكين، وكان شاكِرًا لنِعَمِ اللهِ عليه، اختاره اللهُ لِرسالتِه وخُلَّتِه، وأرشَدَه ووَفَّقَه إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ -وهو الإسلامُ- وآتاه الله في الدُّنيا حَسَنةً، كإعطائِه الذريَّةَ الصَّالحةَ، والسِّيرةَ الحَسَنةَ؛ وإنَّه عند اللهِ في الآخرةِ لَمِنَ الصَّالِحينَ. ثمَّ أوحَينا إليك- يا مُحمَّدُ- أن اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيمَ، وما كان إبراهيمُ مِن المُشرِكينَ باللهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا زَيَّفَ في هذه السُّورةِ مَذاهِبَ المُشرِكينَ في أشياءَ؛ منها قَولُهم بإثباتِ الشُّرَكاءِ والأندادِ لله تعالى، ومنها طَعنُهم في نبُوَّةِ الأنبياءِ والرُّسُلِ عليهم السَّلامُ إلى غيرِ ذلك، فلمَّا بالغَ في إبطالِ مذاهِبِهم في هذه الأقوالِ، وكان إبراهيمُ عليه السَّلامُ هو الذي دعا النَّاسَ إلى التَّوحيدِ وإبطالِ الشِّركِ، وإلى الشَّرائِعِ، فهو إمامُ الموحِّدينَ، والمُشرِكونَ كانوا مُفتَخِرينَ به مُعترفينَ بحُسنِ طَريقتِه مُقِرِّينَ بوُجوبِ الاقتداءِ به؛ لا جرَمَ ذَكَرَه اللهُ تعالى في آخِرِ هذه السُّورةِ، وحكى عنه طريقَتَه في التَّوحيدِ؛ ليَصيرَ ذلك حامِلًا لهؤلاءِ المُشرِكينَ

المفازَةُ، بمعنَى الفوزِ بالنَّجاةِ منها والسَّلامةِ؛ وكما قِيل لِلَّديغِ: السَّليمُ؛ تفاؤلًا له بالسَّلامةِ مِن الهلاكِ، وما أشبهَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٦).

على الإقرارِ بالتَّوحيدِ، والرُّجوعِ عن الشِّركِ[١].

وأيضًا فإن هذا انتقالٌ إلى غرضِ التنويهِ بدينِ الإسلامِ بمناسبةِ قولِه: ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ المقصودُ به أنَّهم كانوا في الجاهِليَّةِ ثمَّ اتَّبَعوا الإسلامَ، فبَعدَ أنْ بَشَّرهم بأنَّه غفَر لهم ما عَمِلوه مِن قبلُ، زادَهم فضلًا ببَيانِ فضلِ الدِّينِ الَّذي اتَّبَعوه، وجعَل الثَّناءَ على إبراهيمَ- عليه السَّلامُ- مُقدِّمةً لذلك؛ لبيانِ أنَّ فضلَ الإسلامِ فضلٌ زائدٌ على جميعِ الأديانِ بأنَّ مبدَأَه برسولٍ ومُنتَهاه برسولٍ. وهذا فضلٌ لم يَحْظَ به دينٌ آخَرُ[٢].

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.

أي: إنَّ إبراهيمَ كان مُعَلِّمًا جامِعًا لخِصالِ الخَيرِ، يُقتدَى به[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا﴾ [البقرة: ١٢٤].

﴿قَانِتٗا لِّلَّهِ﴾.

أي: مُطيعًا لله، مُلازِمًا لعِبادتِه بإخلاصٍ وخُشوعٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٢)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٠، ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٤).

قال ابنُ تيميَّة: (قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا﴾ أي: كان مُؤمِنًا وَحدَه، وكان النَّاسُ كُفَّارًا جميعًا. وفي صحيحِ البخاري: «أنَّه قال لسارَةَ: ليس على الأرضِ اليومَ مُؤمِنٌ غيري وغَيرُك»). ((مجموع الفتاوى)) (١١/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٠)، ((جلاء الأفهام))

﴿حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: مُقبِلًا على اللهِ، مُعْرِضًا عمَّا سواه، مُستَقيمًا على الإسلامِ، مائلًا عن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، ولم يكُنْ مِمَّن يُشرِكونَ باللهِ شيئًا(١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨- ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾.

أي: قائِمًا بشُكرِ اللهِ وَحدَه على ما أنعَمَ عليه مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ(٢).

﴿ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: اختارَ اللهُ إبراهيمَ لخُلَّتِه، وجَعَلَه مِن صَفوةِ خَلْقِه، وأرْشَدَه ووَفَّقَه إلى طريقِ الحَقِّ المُستَقيمِ، وهو دينُ الإسلامِ، وعِبادةُ اللهِ وَحْدَه لا شَريكَ له(٣).

لابن القيم (ص: ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٥).

قال ابن جرير: (وهذا إعلامٌ مِن اللهِ تعالى أهلَ الشِّركِ به مِن قُرَيشٍ أنَّ إبراهيمَ منهم بَريءٌ، وأنَّهم منه بَراءٌ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير السعدي))

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٨].

وعن جُنْدَبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعْتُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((إنِّي أبرَأُ إلى اللهِ أن يكونَ لي منكم خَليلٌ؛ فإنَّ الله تعالى قد اتَّخَذني خليلًا كما اتَّخذَ إبراهيمَ خَليلًا))(١).

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾.

أي: وآتَينا إبراهيمَ في الدُّنيا كُلَّ ما فيه راحةُ العَيشِ، فجَمَعْنا له خيرَ الدُّنيا مِن جَميعِ ما يَحتاجُ إليه المُؤمِنُ في إكمالِ حياتِه الطَّيِّبةِ(٢).

(ص: ٤٥١).

(١) رواه مسلم (٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٧).

قال ابنُ عطية: (الحَسَنةُ لِسانُ الصِّدقِ، وإمامتُه لجميعِ الخَلقِ، هذا قولُ جميعِ المفَسِّرينَ).

كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا * وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٩-٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ١٠٨-١٠٩].

﴿ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كانت عظَمةُ الدُّنيا لا تُعتبَرُ إلَّا مَقرونةً بنِعمةِ الآخرةِ، قال تعالى[1]:

﴿ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

أي: وإنَّ إبراهيمَ في الدَّارِ الآخرةِ يومَ القيامةِ لَمِنَ الصَّالحينَ الذين أنعَمَ اللهُ عليهم، فصَلَحَت أمورُهم وأحوالُهم عند اللهِ، وعَلَت مَراتِبُهم، وحَسُنَت مَنزِلتُهم لديه سبحانَه[2].

((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣١).

وقال القرطبي: (﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ ﴾ قيل: الولَدُ الطَّيِّب. وقيل: الثَّناءُ الحسَن. وقيل: النُّبوَّة. وقيل: الصَّلاةُ مقرونةً بالصَّلاةِ على محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في التشَهُّد. وقيل: إنَّه ليس أهلُ دينٍ إلَّا وهم يتولَّونَه. وقيل: بقاءُ ضيافتِه وزيارةُ قبره. وكُلُّ ذلك أعطاه اللهُ وزاده صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصَفَ الله تعالى إبراهيمَ عليه السَّلامُ بتلك الأوصافِ الشَّريفةِ، وقرَّر مِن عظمتِه في الدُّنيا والآخرةِ ما هو داعٍ إلى اتِّباعِه؛ صرَّح بالأمرِ به، فأمَرَ نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يتَّبِعَ مِلَّتَه، وهذا الأمرُ مِن جُملةِ الحَسَنةِ التي آتاها اللهُ إبراهيمَ في الدُّنيا(١).

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

أي: ثمَّ أوحَيْنا إليك -يا مُحمَّدُ- وقُلْنا لك: اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيمَ مُسْتقيمًا على التَّوحيدِ، وما كان إبراهيمُ على دِينِ المُشرِكينَ باللهِ عزَّ وجَلَّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧- ٦٨].

قال القرطبي في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾: «مِنْ» بمعنَى «مع»، أي: مع الصَّالحينَ؛ لأنَّه كان في الدُّنيا أيضًا معَ الصَّالحينَ. ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٨).

قال الشنقيطي: (وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، لا يخفَى أنَّ الصَّلاحَ في الدُّنيا يظهرُ بالأعمالِ الحسنةِ، وسائرِ الطَّاعاتِ، وأنَّه في الآخرةِ يظهرُ بالجزاءِ الحسنِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ١٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٧٤-٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٩٦)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

وعن عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبْزَى رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((أصبَحْنا على فِطرةِ الإسلامِ، وعلى كَلِمةِ الإخلاصِ، وعلى دينِ نَبيِّنا مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعلى مِلَّةِ أبينا إبراهيمَ حَنيفًا مُسلِمًا، وما كان مِنَ المُشرِكينَ))[(١)].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((قيل لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ الأديانِ أحَبُّ إلى اللهِ؟ قال: الحَنيفيَّةُ السَّمْحةُ))[(٢)].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ قد عُلِمَ مِن هذا أنَّ دِينَ الإسلامِ مُنَزَّهٌ عن أن تتعَلَّقَ به شَوائِبُ

---

(١) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٩٨٣١)، وأحمد (١٥٣٦٠).
صحح إسناده النووي في ((الأذكار)) (١١٣)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٤٣٢)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ١١٩): (رجاله رجال الصحيح)، وحسنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٤٠١)، وقال الشوكاني في ((تحفة الذاكرين)) (١١٦): (رجال إسناده رجال الصحيح)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٨٤٧)، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢٦/ ٣٢)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٦٧٤).

(٢) أخرجه البخاري مُعلَّقًا قبل حديث (٣٩) مختصرًا، وأخرجه موصولًا في ((الأدب المفرد)) (٢٨٧)، وأحمد (٢١٠٧)، والطبراني (١١/ ٢٢٧) (١١٥٧٢).
قال ابن الملقن في ((شرح البخاري)) (٣/ ٨٠): (إسنادُه لا بأسَ به)، وحسَّن إسناده ابن حجر في ((فتح الباري)) (١/ ٩٤)، وصحَّحَ إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/ ٣٥٥)، والحديث حسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٦٠).

الإشراكِ؛ لأنَّه جاء كما جاء إبراهيمُ عليه السَّلامُ مُعلِنًا توحيدًا لله بالإلهيَّةِ، ومُجْتثًّا لوَشيجِ الشِّركِ[(١)].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ولَمَّا كان السِّياقُ لإثباتِ الكَمالِ لإبراهيمَ عليه السَّلامُ، وكانت الأوصافُ الثُّبوتيَّةُ قَريبةَ المأخَذِ، سَريعةَ الوُصولِ إلى الفَهمِ، وأتَى بعدَها وَصفٌ سلبيٌّ بجُملةٍ؛ حُذِفَ نُونُ (يَكُن) منها إيجازًا، وتَقريبًا للفَهمِ، تخفيفًا عليه، وحِفظًا له مِن أن يذهَبَ قبلَ تمامِها إلى غيرِ المُرادِ، وإعلامًا بأنَّ الفِعلَ مَنفيٌّ عنه عليه السَّلامُ على أبلَغِ وُجوهِ النَّفيِ، لا يُنسَبُ إليه شَيءٌ منه ولو قلَّ، فقيل: ﴿وَلَمۡ يَكُ﴾[(٢)].

٣- الحَنَفُ: هو مَيلٌ عن الضَّلالِ إلى الاستِقامةِ؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قَانِتَا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾، والجَنَفُ: مَيلٌ عن الاستِقامةِ إلى الضَّلالِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾[(٣)] [البقرة: ١٨٢].

٤- أثنى اللهُ سُبحانَه على إبراهيمَ خَليلِه بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنۡعُمِهِ﴾ فهذه أربعةُ أنواعٍ مِنَ الثَّناءِ:

الأول: أنَّه افتتَحَها بأنَّه أُمَّةٌ، والأُمَّةُ: هو القُدوةُ الذي يُؤتَمُّ به.

الثاني: قَولُه: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ والقُنوتُ يُفَسَّرُ بأشياءَ كُلُّها تَرجِعُ إلى دَوامِ الطَّاعةِ.

الثالث: قَولُه: ﴿حَنِيفًا﴾ والحَنيفُ: المُقبِلُ على اللهِ، ويلزَمُ هذا المعنى مَيْله عمَّا سِواه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٦٠).

الرابع: قَولُه: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ والشُّكرُ للنِّعَمِ مَبنيٌّ على ثلاثةِ أركان: الإقرارُ بالنِّعمةِ، وإضافتُها إلى المُنعِم بها، وصَرفُها في مَرضاتِه، والعَمَلُ فيها بما يَجِبُ، فلا يكونُ العَبدُ شاكِرًا إلَّا بهذه الأشياءِ الثَّلاثةِ، والمقصودُ أنَّه مَدَحَ خَليلَه بأربَعِ صِفاتٍ كُلُّها ترجِعُ إلى العِلمِ والعَمَلِ بمُوجِبِه، وتعليمِه ونَشْرِه، فعاد الكَمالُ كُلُّه إلى العِلمِ والعَمَلِ بمُوجِبِه، ودَعوةِ الخَلقِ إليه[1].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ولم يَقُلْ: (وإنَّه في الآخرة في أعلى مقاماتِ الصَّالحينَ)؟

والجوابُ: لأنَّه تعالى حكى عنه أنَّه قال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٣]، فقال هاهنا: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾؛ تنبيهًا على أنَّه تعالى أجاب دُعاءَه، ثمَّ إنَّ كَونَه مِن الصَّالِحينَ لا ينفي أن يكونَ في أعلَى مَقاماتِ الصَّالحينَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ ذلك في آيةٍ أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾[2] [الأنعام: ٨٣].

ووجهٌ آخَرُ: أنَّه إنَّما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، ولم يَقُل: في أعلى منازِلِ الصَّالحينَ، بحَسَبِ ما تقتَضيه حالُه من الفَضلِ؛ لِمَدحِ مَن هو منهم، والتَّرغيبِ في الصَّلاحِ؛ لِيَكونَ صاحِبُه في جنْبِه إبراهيم، وناهيك بهذا التَّرغيبِ في الصَّلاحِ، وبهذا المَدحِ لإبراهيمَ أن يُشَرِّفَ جُملةً هو فيها، حتى

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٥).

يَصيرَ الاستدعاءُ إليه بأنَّه فيها[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ فيه دَليلٌ على جَوازِ اتِّباعِ الأفضَلِ للمَفضولِ لمَّا تقَدَّمَ إلى الصَّوابِ والعَمَلِ به، ولا دَرَكَ على الفاضِلِ في ذلك؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أفضَلُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وقد أُمِرَ بالاقتداءِ بهم، فقال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقال هنا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٢] [النحل: ١٢٣].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ استُدلَّ بهذه الآيةِ على وُجوبِ الخِتانِ، وما كان مِن شَرْعِه، ولم يَرِدْ به ناسِخٌ[٣].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نفَى عنه الشِّركَ؛ لِقَصدِ الرَّدِّ على المُشرِكينَ مِن العَرَبِ الذين كانوا يَنتَمونَ إليه[٤].

٩- حصَلَ مِن قَولِه تعالى السَّابِقِ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] ومِن قَولِه هنا: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ثلاثُ فوائِدَ: نفيُ الإشراكِ عن إبراهيمَ في جميعِ أزمِنةِ الماضي، وتجَدُّدُ نَفيِ الإشراكِ تجَدُّدًا مُستَمِرًّا، وبراءتُه مِن الإشراكِ بَراءةً تامَّةً[٥].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٩).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ قيل: هو اعتِراضٌ لإبطالِ مَزاعِمِ المشرِكينَ أنَّ ما هم عليه هو دينُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وهو كالتَّأكيدِ لِوَصفِ الحَنيفِ بنَفْيِ ضدِّه، مِثلُ: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾[1] [طه: ٧٩]. وفيه إعلامٌ مِن الله تعالى أهلَ الشركِ به مِن قريشٍ أنَّ إبراهيمَ منهم بريءٌ، وأنَّهم منه براءٌ[2].

- ونَفيُ كونِه مِن المشرِكينَ بحَرفِ (لَم)؛ لأنَّ (لم) تَقلِبُ زمَنَ الفعلِ المضارِعِ إلى الماضي؛ فتُفيدُ انتِفاءَ مادَّةِ الفِعلِ في الزَّمنِ الماضي، وتُفيدُ تَجدُّدَ ذلك المنفيِّ الَّذي هو مِن خَصائصِ الفِعلِ المضارِعِ، فيَحصُلُ معنَيانِ: انْتِفاءُ مَدْلولِ الفِعلِ بمادَّتِه، وتَجدُّدُ الانتفاءِ بصيغتِه، فيُفيدُ أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لم يتَلبَّسْ بالإشراكِ قَطُّ؛ فإنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لم يُشرِكْ باللهِ منذُ صار مميِّزًا، وأنَّه لا يتَلبَّسُ بالإشراكِ أبدًا[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

- قولُه: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ فيه إيثارُ صيغةِ جَمعِ القِلَّةِ (أَنعُم)؛ للإيذانِ بأنَّه عليه السَّلامُ كان لا يُخِلُّ بشُكرِ النِّعمةِ القليلةِ؛ فكَيف بالكثيرةِ؟! وللتَّصريحِ بكَونِه عليه السَّلامُ على خِلافِ ما هم عليه مِن الكُفْرانِ بأنعُمِ اللهِ تعالى حسَبَما بيَّن ذلك بضَربِ المثَلِ[4].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٩).

- وجملةُ ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بيانيًّا؟ لأنَّ الثَّناءَ المتقدِّمَ يُثيرُ سؤالَ سائلٍ عن سبَبِ فَوزِ إبراهيمَ بهذه المَحامِدِ، فيُجابُ بأنَّ اللهَ اجْتَباه[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ؛ لإظهارِ كَمالِ الاعْتِناءِ بشَأنِه، وتَفْخيمِ مَكانِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2]، وللتَّفنُّنِ في الأسلوبِ؛ لِتَوالي ثلاثةِ ضمائرِ غَيبةٍ[3].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ...﴾ في ﴿ثُمَّ﴾ هذه مِن التَّراخي في الرُّتْبةِ ما فيها مِن تعظيمِ مَنزِلةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم، وإجلالِ محَلِّه، والإيذانِ بأنَّ أشرَفَ ما أوتي خليلُ اللهِ إبراهيمُ مِن الكَرامةِ، وأجَلَّ ما أُولِيَ مِن النِّعمةِ: اتِّباعُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم مِلَّتَه؛ لأنَّ (ثُمَّ) دلَّت على تَباعُدِ هذا النَّعتِ في المرتَبةِ مِن بينِ سائرِ النُّعوتِ الَّتي أثنَى اللهُ عليه بها؛ ففيها الإيذانُ بأنَّ هذه النِّعمةَ مِن أجَلِّ النِّعَمِ الفائضةِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[4]؛ فـ (ثُمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ المشيرِ إلى أنَّ مَضمونَ الجملةِ المعطوفةِ مُتباعِدٌ في رُتبةِ الرِّفْعةِ على مَضمونِ ما قبْلَها؛ تَنويهًا جَليلًا بشأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم وبشريعةِ الإسلامِ، وزيادةً في التَّنويهِ بإبراهيمَ عليه السَّلامُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٠).

أي: جعَلْناك مُتَّبِعًا ملَّةَ إبراهيمَ، وذلك أجَلُّ ما أَوْليْناكُما مِن الكرامةِ، وهذه الجملةُ هي المقصودُ، وجملةُ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ...﴾ تمهيدٌ لها[١].

- وزِيدَ ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ اتِّباعَ محمَّدٍ مِلَّةَ إبراهيمَ كان بِوَحيٍ مِن اللهِ، وإرشادٍ صادقٍ، تعريضًا بأنَّ الَّذين زعَموا اتِّباعَهم مِلَّةَ إبراهيمَ مِن العرَبِ مِن قبلُ قد أخطَؤُوها بشُبهةٍ أو بغيرِ شُبهةٍ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تكريرٌ لِما سبَق؛ لزيادةِ تأكيدٍ، وتقريرٌ لِنَزاهتِه عليه السَّلامُ عمَّا هم عليه مِن عَقدٍ وعمَلٍ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٠).

الآيات (١٢٤-١٢٨)

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّه إنَّما جعَلَ تَعظيمَ يومِ السَّبتِ -بالتفرُّغِ للعبادةِ فيه، وتركِ العملِ- عقوبةً على اليَهودِ حينَ اختَلَفوا في استِحلالِه وتَحريمِه، واعتبارِه أفضَلَ الأيَّامِ، وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لَيَحكُمُ بين المُختَلِفينَ يومَ القيامةِ فيما اختَلَفوا فيه، ويُجازي كُلًّا بما يَستَحِقُّه.

ثمَّ يأمرُ الله نبيَّه بالدعوة إلى دينِه، قائلًا له: ادعُ -يا مُحَمَّدُ- إلى دينِ رَبِّك بالحكمةِ، وبالموعظة الحسنة التي ترَقِّقُ القلوبَ، وتهَذِّبُ النُّفوسَ، وجادِلْهم بأحسَنِ طُرُقِ المُجادَلةِ مِن الرِّفقِ واللِّينِ؛ إنَّ اللهَ أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن سَبيلِه، وهو أعلَمُ بالمُهتَدينَ.

ثمَّ بيَّن تعالى ما ينبغي على المسلمِ أن يفعلَه في حالةِ الاعتداءِ عليه، ومحاربةِ دعوتِه، فقال: وإنْ أردتُم -أيُّها المُؤمِنونَ- مُعاقَبةَ من اعتَدى عليكم، فلا تَزيدوا عَمَّا فَعَلوه بكم، ولَئِنْ صَبَرتُم لَهو خَيرٌ لكم عند الله، واصبِرْ -يا مُحمَّدُ- على الدَّعوةِ وما يترتَّبُ عليها من أذًى في اللهِ، وما صَبرُك إلَّا باللهِ؛ فهو الذي يُعينُك عليه ويوفِّقُك، ولا تَحزَنْ على مَن كفَرَ ولم يَستَجِبْ لِدَعوتِك، ولا تغتَمَّ مِن

تكذيبِهم ومَكْرِهم؛ فإنَّ اللهَ ناصِرُك عليهم، إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى مع الذينَ اتَّقَوه ومع المُحسِنين بِعَونِه وتَوفيقِه ونصرِه وتأييدِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ مَوقِعَ هذه الآيةِ يُنادي على أنَّها تضَمَّنَت معنًى يَرتَبِطُ بمِلَّةِ إبراهيمَ وبمَجيءِ الإسلامِ على أساسِها؛ فلَمَّا نَفَت الآيةُ قبلَ هذه أن يكونَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ مِن المُشرِكينَ؛ ردًّا على مَزاعِمِ العَرَبِ المُشرِكينَ أنَّهم على مِلَّةِ إبراهيمَ؛ انتقَلَ بهذه المُناسَبةِ إلى إبطالِ ما يُشبِهُ تلك المزاعِمَ، وهي مَزاعِمُ اليَهودِ أنَّ مِلَّةَ اليَهوديَّةِ هي مِلَّةُ إبراهيمَ[1].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باتِّباعِ مِلَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وكان الرَّسولُ قد هداه الله إلى يومِ الجُمُعةِ، فدَلَّ ذلك على أنَّه كان في شَرعِ إبراهيمَ، بيَّنَ أنَّ يومَ السَّبتِ لم يكُنْ تَعظيمُه واتِّخاذُه للعبادةِ مِن شَرعِ إبراهيمَ ولا دينِه[2].

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾.

أي: إنَّما فُرِضَ تَعظيمُ يومِ السَّبتِ على اليَهودِ، وتَرْكُ العَمَلِ فيه، والتفَرُّغُ للعبادةِ؛ تَغليظًا عليهم، وعُقوبةً لهم حين اختَلَفوا في استِحلالِ يومِ السَّبتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦١١).

وتَحريمِه، واعتبارِه أفضَلَ الأيَّامِ، فَضلُّوا عن يومِ الجُمُعةِ، وبَدَّلوا به يومَ السَّبتِ، ولم يكُنْ في شَريعةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ تَعظيمُ ذلك اليَومِ[١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّه سَمِعَ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((نحنُ الآخِرونَ السَّابِقونَ يومَ القِيامةِ، بَيْدَ[٢] أنَّهم أُوتوا الكِتابَ مِن قَبْلِنا، ثمَّ هذا يَومُهم الذي فُرِضَ عليهم، فاختَلَفوا فيه، فهَدانا اللهُ؛ فالنَّاسُ لنا فيه تَبَعٌ: اليَهودُ غَدًا، والنَّصارى بعدَ غَدٍ))[٣].

وعن أبي هُريرةَ وحُذيفةَ رَضِيَ الله عنهما، قالا: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أضَلَّ اللهُ عن الجُمُعةِ مَن كان قَبْلَنا، فكان لليَهودِ يومُ السَّبتِ، وكان للنَّصارى يومُ الأحَدِ، فجاء اللهُ بنا، فهدانا اللهُ لِيَومِ الجُمُعةِ، فجعَلَ الجُمعةَ والسَّبتَ والأحدَ، وكذلك هم تبَعٌ لنا يومَ القيامةِ، نحنُ الآخِرونَ مِن أهلِ الدُّنيا، والأوَّلونَ يومَ القيامةِ، المَقضيُّ لهم قَبلَ الخلائِقِ))[٤].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾.

أي: وإنَّ رَبَّك- يا مُحمَّدُ- لَيَحكُمُ يومَ القيامةِ بينَ أولئك المُختَلِفينَ في الدُّنيا في شأنِ استِحلالِ يومِ السَّبتِ أو تَحريمِه، فيُبَيِّنُ لهم المُحِقَّ مِن المُبطِلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

(٢) بَيْدَ: أي: غيرَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٧١).

(٣) رواه البخاري (٨٧٦) واللفظ له، ومسلم (٨٥٥).

(٤) رواه مسلم (٨٥٦).

ويُجازي كلًّا منهم بما يستَحِقُّه مِن ثوابٍ أو عِقابٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣].

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باتِّباعِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ بَيَّنَ الشَّيءَ الذي أمَرَه بمُتابَعتِه فيه، فقال تعالى[٢]:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

أي: ادعُ -يا محمدُ- جميعَ الناسِ إلى دينِ ربِّك بما أوحاه الله إليك مِن الكتابِ والسنةِ، وانصحْهم بما في وحْي الله إليك مِن العبرِ الجميلةِ، وذكِّرْهم بنعمِ الله تعالى ونقمِه وثوابِه وعقابِه بما يستحسنُه السامعون فترقُّ قلوبُهم، ويلينونَ للحقِّ، فيقبلونَه، ويفعلونَ ما أمَرهم الله به، وينتهونَ عمَّا نهاهم عنه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٤٢).

قال السَّعدي: (أي: ليكُن دعاؤك للخلقِ؛ مُسلمِهم وكافِرِهم، ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ المستقيمِ المشتمِلِ على العلمِ النافعِ والعمَلِ الصالحِ ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: كلُّ أحدٍ على حسَبِ حالِه وفهمِه، وقولِه وانقيادِه، ومن الحكمةِ الدعوةُ بالعلمِ لا بالجهلِ، والبداءةُ بالأهمِّ فالأهمِّ، وبالأقربِ إلى الأذهانِ والفهمِ، وبما يكون قبولُه أتَمَّ، وبالرِّفقِ واللينِ، فإن انقاد بالحِكمة وإلَّا فينتَقِل معه

﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

أي: وجادِلْ المُعانِدينَ بالطَّريقةِ التي هي أحسَنُ طُرُقِ المُجادَلةِ؛ مِن الرِّفقِ واللِّينِ، وحُسنِ الخِطابِ، والعَفوِ والصَّفحِ، وغيرِ ذلك مِمَّا يكون أدعى للاستجابةِ والقَبولِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[العنكبوت: ٤٦].

بالدعوةِ بالموعظةِ الحسنةِ، وهو الأمرُ والنهيُ المقرونُ بالترغيبِ والترهيب؛ إمَّا بما تشتَمِلُ عليه الأوامِرُ من المصالحِ وتَعدادِها، والنَّواهي من المضارِّ وتعدادِها، وإمَّا بذِكرِ إكرامِ من قام بدينِ الله، وإهانةِ مَن لم يقُمْ به، وإمَّا بذكر ما أعدَّ الله للطائعين من الثَّوابِ العاجلِ والآجلِ، وما أعدَّ للعاصين من العقابِ العاجِلِ والآجلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

وقال البيضاوي: (فالأُولَى لدعوةِ خواصِّ الأمةِ الطالبينَ للحقائقِ، والثانيةُ لدعوةِ عوامِّهم. ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾: وجادِلْ معانديهم). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٥).

وقال ابنُ تيميةَ: (النوعُ الأكملُ مِن الناسِ مَن يعرِفُ الحقَّ، ويعملُ به، فيُدْعَوْن بالحكمةِ، والثاني: مَن يعرِفُ الحقَّ، لكن تخالفُه نفسُه، فهذا يُوعَظُ الموعظةَ الحسنةَ، فهاتان هما الطريقانِ: الحكمةُ والموعظةُ، وعامَّةُ الناس يحتاجون إلى هذا وهذا؛ فإنَّ النفسَ لها أهواءٌ تدعوها إلى خلافِ الحَقِّ وإن عرَفَتْه، فالنَّاسُ يحتاجون إلى الموعظةِ الحسنةِ وإلى الحِكمةِ، فلا بدَّ مِن الدَّعوةِ بهذا وهذا). ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٤٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

قال السَّعدي: (فإن كان المَدعوُّ يرى أنَّ ما هو عليه حَقٌّ، أو كان داعِيةً إلى الباطِلِ، فيُجادَلُ بالتي هي أحسَنُ، وهي الطُّرُقُ التي تكون أدعى لاستجابتِه عَقلًا ونَقلًا؛ ومن ذلك الاحتجاجُ عليه بالأدِلَّةِ التي كان يعتَقِدُها؛ فإنَّه أقرَبُ إلى حُصولِ المَقصودِ، وألَّا تؤدِّيَ المُجادَلةُ إلى خِصامٍ أو مُشاتَمةٍ تَذهَبُ بمَقصودِها، ولا تَحصُلُ الفائِدةُ منها، بل يكونُ القَصدُ منها هِدايةَ الخَلقِ إلى الحَقِّ، لا المُغالبةَ ونَحوَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- هو أعلَمُ بمَن زاغَ عن طَريقِ اللهِ، فلم يتَّبِعْ دِينَه، كالذين اختَلَفوا في السَّبتِ، وسيُجازِيه على عَمَلِه[1].

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

أي: وربُّك أعلَمُ بالمُهتَدينَ لِدِينِه، الذينَ اتَّبَعوا الحَقَّ، وسيُجازيهم على أعمالِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٣٠].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٥، ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٤٢).

قال البيضاوي: (أي: إنَّما عليك البلاغُ والدَّعوةُ، وأمَّا حُصولُ الهدايةِ والضَّلالِ، والمُجازاةُ عليهما، فلا إليك، بل اللهُ أعلَمُ بالضَّالِّينَ والمُهتَدينَ، وهو المُجازي لهم). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٥).

وقال ابن كثير: (قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: قد عَلِمَ الشَّقيَّ منهم والسعيدَ، وكتب ذلك عنده وفَرَغ منه؛ فادعُهم إلى الله، ولا تذهَبْ نفسُك على من ضَلَّ منهم حسراتٍ؛ فإنَّه ليس عليك هداهم، إنَّما أنت نذيرٌ عليك البلاغُ، وعلينا الحِسابُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٣).

وقال السعدي: (﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ عَلِمَ أنَّهم يَصلُحونَ للهدايةِ فهداهم، ثمَّ مَنَّ عليهم فاجتباهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

أمَرَ اللهُ تعالى مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يدعُوَ الخَلْقَ إلى الدِّينِ الحَقِّ بأحَدِ الطُّرُقِ الثَّلاثةِ، وهي: الحِكمةُ، والمَوعِظةُ الحَسَنةُ، والجِدالُ بالطَّريقِ الأحسَنِ، ثمَّ إنَّ تلك الدَّعوةَ تتضَمَّنُ أمْرَهم بالرُّجوعِ عن دينِ آبائِهم وأسلافِهم، وبالإعراضِ عنه، والحُكمَ عليه بالكُفرِ والضَّلالةِ، وذلك مِمَّا يُشَوِّشُ القُلوبَ، ويُوحِشُ الصُّدورَ، ويَحمِلُ أكثَرَ المُستَمِعينَ على قَصدِ ذلك الدَّاعي بالقَتلِ تارةً، وبالضَّربِ ثانيًا، وبالشَّتمِ ثالثًا، ثمَّ إنَّ ذلك المُحِقَّ إذا شاهَدَ تلك السَّفاهاتِ، وسَمِعَ تلك المُشاغَباتِ، لا بُدَّ أن يَحمِلَه طَبعُه على تأديبِ أولئك السُّفَهاءِ؛ تارةً بالقَتلِ، وتارةً بالضَّربِ، فعند هذا أمَرَ المُحِقِّينَ في هذا المقامِ برِعايةِ العَدلِ والإنصافِ وتَركِ الزِّيادةِ[1].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا كانَ يومُ أُحُدٍ، أُصيبَ منَ الأنصارِ أربعةٌ وسِتُّونَ رجُلًا، ومنَ المُهاجرينَ ستَّةٌ فيهم حَمزةُ، فمَثَّلوا بِهم، فقالتِ الأنصارُ: لَئِنْ أصَبْنا منْهم يومًا مثلَ هذا لَنُرْبِيَنَّ عليهم، قالَ: فلمَّا كانَ يومُ فتحِ مَكَّةَ، فأنزلَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ فقالَ رجلٌ: لا قُرَيشَ بعدَ اليومِ، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلم: كُفُّوا عنِ القَومِ إلَّا أربَعةً))[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٢٩)، وأحمد (٢١٢٦٧).

قال الترمذي: (حسنٌ غريبٌ مِن حديث أُبَيٍّ)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٢٩): (حسنٌ صحيحُ الإسنادِ)، وحسَّن إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٥/ ١٣٥).

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾.

أي: وإنْ عاقَبْتُم -أيُّها المُؤمِنونَ- مَن اعتَدى عليكم بقَولٍ أو بفِعلٍ؛ فعاقِبوه بمِثلِ ما ظلَمَكم به، مِن غَيرِ زِيادةٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أباح لهم دَرَجةَ العَدل؛ رقَّاهم إلى رُتبةِ الإحسانِ، بقَولِه تعالى[٢]:

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

أي: ولَئِنْ صَبَرْتُم -أيُّها المُؤمِنونَ- عن عُقوبةِ مَن اعتدى عليكم، فعَفَوتُم عنهم؛ فذلك الصَّبرُ خَيرٌ عندَ اللهِ للصَّابِرينَ مِن الانتِقامِ والانتِصارِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ

قال ابنُ عطية: (أطبق أهلُ التَّفسيرِ أنَّ هذه الآيَةَ مَدَنيَّةٌ نزَلَت في شأنِ التَّمثيلِ بحَمزةَ في يومِ أُحُدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠١، ٤٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٠-٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((وما زاد اللهُ عَبدًا بعَفوٍ إلَّا عِزًّا))(١).

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما خُيِّر المخاطبون في المعاقبةِ والصبرِ عنها؛ عزَم على الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الذي هو خيرٌ، وهو الصبرُ(٢).

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾.

أي: واصبِرْ- يا مُحَمَّدُ- على دَعوةِ قَومِك إلى اللهِ، وتحَمَّلْ ما يُصيبُك مِن أذاهم، وما يَحصُلُ صَبْرُك إلَّا بإعانةِ اللهِ وتَوفيقِه لك إلى ذلك(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل: ١٠].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٨).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان -بعدَ تَوطينِ النَّفسِ على الصَّبرِ، وتَفريغِ القَلبِ مِن الإحْنةِ[١]- يَرجِعُ إلى الأسفِ على إهلاكِهم أنفُسَهم بتَماديهم على العُتُوِّ على اللهِ تعالى، قال سُبحانَه[٢]:

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ولا تَحزَنْ على قَومِك إذا لم يُؤمِنوا بما جِئتَهم به، وأعْرَضوا عن دَعْوتِك[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

أي: ولا يَضِقْ صَدْرُك فتَغْتَمَّ بسَبَبِ مَكرِ قَومِك بك، وتَكذيبِهم وعَداوتِهم لك، واحْتيالِهم بالخُدَعِ للصَّدِّ عما جِئْتَهم به من الحَقِّ؛ فإنَّ اللهَ ناصِرُك عليهم، ومُظهِرٌ دِينَه[٤].

---

(١) الإحنَةُ: الحقدُ والغضبُ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٤/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٥).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ الله تعالى بالاقتصارِ على قَدرِ الجُرمِ في العُقوبةِ، ورَغَّبَ في الصَّبرِ على الأذى، والعَفوِ عن المُعتَدينَ، وخَصَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالأمرِ بالصَّبرِ، والاستعانةِ على تحصيلِه بمَعونةِ اللهِ تعالى، وصَرْف الكَدَرِ عن نفسِه مِن جَرَّاءِ أعمالِ الذين لم يُؤمِنوا به؛ عَلَّلَ ذلك كُلَّه بأنَّ اللهَ مع الذينَ يتَّقونَه فيَقِفونَ عند ما حَدَّ لهم، ومع المحسِنينَ[(١)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾.

أي: إنَّ اللهَ بنَصْرِه وتأييدِه ومَعونَتِه مع الذين اتَّقَوه، فاجتَنَبوا نواهِيَه[(٢)].

﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

أي: ومع المُحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، المُحسِنينَ إلى عِبادِ اللهِ، يُعينُهم ويُؤَيِّدُهم ويَنصُرُهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

قال الماوَرديُّ: (قولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾: ﴿ٱتَّقَوا۟﴾ يعني: فيما حَرَّمَ الله عليهم. ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ فيما فرَضَه اللهُ تعالى، فجَمَعَ في هذه الآيةِ اجتِنابَ المعاصي، وفِعلَ الطَّاعاتِ). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٢٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه في حديثِ جِبريلَ عليه السَّلامُ، قال: ((فأخبِرْني عن الإحسانِ، قال: أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكُنْ تراه، فإنَّه يراك))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن نفَّسَ عن مُؤمِنٍ كُرْبةً مِن كُرَبِ الدُّنيا، نفَّسَ اللهُ عنه كُرْبةً مِن كُرَبِ يومِ القِيامةِ، ومَن يسَّرَ على مُعسِرٍ يسَّرَ اللهُ عليه في الدُّنيا والآخرةِ، ومَن سترَ مُسلِمًا سترَه اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ، واللهُ في عَونِ العَبدِ ما كان العَبدُ في عَونِ أخيه))[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ حُجَّةٌ في تَركِ الغِلظةِ والخُرقِ[٣] عند الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، واستِعمالِ اللِّينِ واللُّطفِ فيهما؛ لأنَّه أجدَرُ أن يَلينَ له قَلبُ المأمورِ، وأحرى أن تَصِلَ المَوعِظةُ إليه[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ذكَرَ سُبحانَه مَراتِبَ الدَّعوةِ وجعَلَها ثلاثةَ أقسامٍ؛ فإنه: إمَّا أن يكونَ طالبًا للحَقِّ راغبًا فيه، مُحِبًّا له، مُؤثِرًا له على غَيرِه إذا عَرَفَه؛ فهذا يُدعى بالحِكمةِ ولا يَحتاجُ إلى مَوعِظةٍ ولا جِدالٍ، وإمَّا أن يكونَ مُعرِضًا مُشتغِلًا بضدِّ

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٣) الخُرقُ: الحُمْقُ وسُوءُ التصَرُّفِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٥/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ١٠٥).

الحَقِّ؛ ولكنْ لو عَرَفه آثَرَه واتَّبَعه؛ فهذا يحتاجُ مع الحِكمةِ إلى المَوعِظةِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، وإمَّا أن يكونَ مُعانِدًا مُعارِضًا؛ فهذا يُجادَلُ بالتي هي أحسنُ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ فيه الحثُّ على الإنصافِ في المُناظَرةِ، واتِّباعِ الحَقِّ(٢).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ يُفهَمُ مِن هذه الآيةِ أنَّ مَن لا يَستَطيعُ المُجادَلةَ بالتي هي أحسَنُ؛ فلا يُجادِلْ(٣)!

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾، هذا تَصريحٌ بأنَّ الأَولَى تَرْكُ ذلك الانتقامِ(٤)، فقد أباح لهم سُبحانَه وتعالى إذا عاقَبوا الظَّالِمَ أن يُعاقِبوه بمِثْلِ ما عاقَبَ به، ثمَّ قال سُبحانَه: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾، فعُلِمَ أنَّ الصَّبرَ عن عُقوبتِه بالمِثلِ خَيرٌ مِن عُقوبتِه(٥).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ لَمَّا كان الصَّبرُ في هذا المقامِ شاقًّا شديدًا؛ ذكَرَ بَعدَه ما يُفيدُ سُهولتَه، فقال: ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، أي: بتَوفيقِه ومَعونتِه، وهذا هو السَّبَبُ الكُلِّيُّ الأصليُّ المُفيدُ في حُصولِ الصَّبرِ، وفي حُصولِ جميعِ

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٢٧٦)، ويُنظر أيضًا: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٩).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٣٦٢).

أنواعِ الطَّاعاتِ[١].

٧- الحزنُ لم يأمُرِ الله به ولا رسولُه، بل قد نهَى عنه في مواضعَ، وإنْ تعلَّقَ أمرُ الدِّينِ به، كقولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، وقولِه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقولِه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، وأمثالُ ذلك كثيرةٌ، وذلك أنَّه لا يجلبُ منفعةً، ولا يدفعُ مضرَّةً، ولا فائدةَ فيه، وما لا فائدةَ فيه لا يأمرُ الله به. نَعمْ لا يأثمُ صَاحبُه إذا لم يقترِنْ بحزنِه محرَّمٌ، كما يحزنُ على المصائبِ، وقد يقترنُ بالحزنِ ما يُثابُ صاحبُه عليه، ويُحمدُ عليه، ويكونُ محمودًا مِن تلك الجهةِ لا مِن جهةِ الحزنِ، كالحزينِ على مُصيبةٍ في دينِه، وعلى مصائبِ المسلمينَ عُمُومًا، فهذا يُثابُ على ما في قلبِه مِن حبِّ الخيرِ، وبُغضِ الشَّرِّ، وتوابعِ ذلك[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ إشارةٌ إلى التَّعظيمِ لأمرِ اللهِ تعالى، وقَولُه: ﴿وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ إشارةٌ إلى الشَّفَقةِ على خَلقِ اللهِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ كَمالَ السَّعادةِ للإنسانِ في هَذينِ الأمرينِ: التَّعظيمِ لأمرِ اللهِ تعالى، والشَّفَقةِ على خَلقِ اللهِ[٣].

٩- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ فيه أنَّه ينبغي الحِرصُ على الإحسانِ والتَّقوى؛ فإنَّ كلَّ إنسانٍ يُحِبُّ أن يكونَ اللهُ معه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((التحفة العراقية)) لابن تيمية (ص: ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤١٥).

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ شَدَّدَ عليهم في أمْرِه؛ انتقامًا منهم بما تُفهِمُه التَّعديَةُ بـ (على)، فكان ذلك وَبالًا عليهم، وفي ذلك تذكيرٌ بنِعمةِ التَّيسيرِ علينا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ أضاف سُبحانَه السَّبيلَ إلى نفْسِه؛ لسَبَبينِ:

السَّببُ الأولُ: أنَّه هو الذي وَضَعَها للعِبَادِ؛ ودَلَّهم عليها.

السَّببُ الثاني: أنَّها مُوصِلةٌ إليه، فلا شيءَ يُوصِلُ إلى اللهِ إلَّا سَبيلُ اللهِ التي شَرَعَها لعبادِه على ألسِنةِ رُسُلِه صَلَواتُ اللهِ وسلامُه عليهم[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ قُيِّدت الموعِظةُ بالحَسَنةِ ولم تُقيَّدِ الحِكمةُ بمِثلِ ذلك؛ لأنَّ الموعظةَ لَمَّا كان المقصودُ منها- غالبًا- ردعَ نَفسِ الموعوظِ عن أعمالِه السيِّئةِ، أو عن توقُّعِ ذلك منه؛ كانت مَظِنَّةً لصدور غِلظةٍ مِن الواعِظِ ولحصولِ انكسارٍ في نفسِ الموعوظ- أرشد اللهُ رسولَه أن يتوخَّى في الموعظةِ أن تكونَ حَسنةً، أي: بإلانةِ القولِ، وترغيبِ الموعوظِ في الخيرِ؛ قال تعالى خطابًا لِموسى وهارون: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۞ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٣-٤٤]. وأمَّا الحِكمةُ فهي تعليمٌ لِمُتطلِّبي الكمالِ مِن معلِّمٍ يهتَمُّ بتعليمِ طُلَّابه، فلا تكونُ إلَّا في حالةٍ حَسَنةٍ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥٠).

فلا حاجةَ إلى التنبيهِ على أن تكونَ حَسَنةً[١]، فوَصفُ الحُسنِ لها ذاتيٌّ، وأمَّا المَوعِظةُ فقَيَّدَها بوَصفِ الإحسانِ؛ إذ ليس كُلُّ مَوعِظةٍ حَسَنةً، وكذلك الجدَلُ قد يكونُ بالتي هي أحسَنُ، وقد يكونُ بغيرِ ذلك، وهذا يحتَمِلُ أن يَرجِعَ إلى حالِ المُجادِلِ وغِلظَتِه، ولِينِه وحِدَّتِه ورِفقِه، فيكونُ مأمورًا بمُجادلتِهم بالحالِ التي هي أحسَنُ، ويحتَمِل أن يكونَ صِفةً لِما يُجادِلُ به مِن الحُجَجِ والبراهينِ، والكَلِماتِ التي هي أحسَنُ شَيءٍ وأبيَنُه، وأدَلُّه على المقصودِ، وأوصَلُه إلى المطلوبِ، والتَّحقيقُ: أنَّ الآيةَ تتناوَلُ النَّوعَينِ[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾، المُجادَلةُ لَمَّا كانت مُحاجَّةً في فِعلٍ أو رأيٍ لِقَصدِ الإقناعِ بوَجهِ الحَقِّ فيه، فهي لا تعدو أن تكونَ مِن الحِكمةِ أو مِنَ المَوعِظةِ، ولكِنَّها جُعِلَت قَسيمًا لهما هنا بالنَّظَرِ إلى الغَرَضِ الدَّاعي إليها[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾، الجدَلُ لا يُدْعَى به، بل هو من بابِ دفعِ الصائِلِ، فإذا عارض الحقَّ معُارِضٌ جودِلَ بالتي هي أحسَنُ، ولهذا قال: ﴿وَجَٰدِلۡهُم ﴾ فجعَله فعلًا مأمورًا به، مع قولِه: ادْعُهم؛ فأمَره بالدعوةِ بالحكمةِ، والموعظةِ الحسنةِ، وأمَره أن يجادلَ بالتي هي أحسنُ، وقال في الجدالِ: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾، ولم يقُلْ: بالحسنةِ، كما قال في الموعظةِ؛ لأنَّ الجدالَ فيه مدافعةٌ ومغاضبةٌ، فيحتاجُ أنْ يكونَ بالتي هي أحسنُ حتى يُصْلِحَ ما فيه مِن الممانعةِ والمدافعةِ، والموعظةُ لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٢٩).

تُدافَعُ كما يُدافَعُ المُجادِلُ! فما دام الرجلُ قابلًا للحكمةِ أو الموعظةِ الحسنة أو لهما جميعًا لم يُحْتَجْ إلى مجادلةٍ، فإذا مانَعَ فإنَّه يُجادَلُ بالتي هي أحسنُ(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ليس مِن الأحسنِ أن ندفَعَ الباطِلَ بالباطِلِ، أو أن نَرُدَّ ما عَلِمْناه بالفِطرةِ والضَّرورةِ لِظَنِّنا أنَّ المُبطِلَ يَدفَعُ به الحَقَّ(٢).

٧- الجِدالُ قد يكونُ واجِبًا أو مُستحَبًّا، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، وقد يكونُ الجِدالُ مُحَرَّمًا في الحجِّ وغيرِه، كالجِدالِ بغيرِ عِلمٍ، وكالجِدالِ في الحقِّ بعدَ ما تبيَّنَ(٣)، وقد دلَّت الآيةُ على أنَّ المناظرةَ والمجادلةَ في العلمِ جائزةٌ، إذا قُصِد بها إظهارُ الحقِّ(٤).

٨- قال الله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ لها أمثالٌ في القُرآنِ؛ فإنَّها مشتملةٌ على مشروعيَّةِ العدلِ، والنَّدبِ إلى الفضلِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ ثمَّ قال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ ثمَّ قال: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا

---

(١) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٦/ ١٠٧)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٩٧).

عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ ثمَّ قال: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[١].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على جَوازِ التَّماثُلِ في القِصاصِ؛ فمَن قَتَلَ بحَديدةٍ قُتِلَ بمِثْلِها، ومَن قَتَل بحَجَرٍ قُتِلَ بمِثْلِه، ولا يتعَدَّى قَدرَ الواجِبِ، وذلك خِلافًا لِمَن قال: لا قَوَدَ إلَّا بالسَّيفِ[٢]، فالآيةُ تدلُّ على مُراعاةِ المُماثَلةِ في القِصاصِ، وعلى وُجوبِ المِثْلِ في المِثْليَّاتِ[٣].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾، يُستَدَلُّ به لمسألةِ الظَّفَرِ[٤]، وقد سُئِلَ النَّخعيُّ عن الرَّجُلِ يخونُ الرَّجُلَ ثمَّ يقَعُ له في يَدِه الدَّراهِمُ، قال: إن شاء أخذَ مِن دراهِمِه بمِثلِ ما خانه، ثمَّ قرأ هذه الآيةَ[٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ أنَّه إذا ردَّ الإنسانُ على مَن ظَلَمه بمثلِ مظلِمتِه؛ فإنَّه لا يكونُ آثِمًا، بل هو عادِلٌ[٦].

١٢- قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ...﴾ هذه الآيةُ مُتَّصِلةٌ بما قَبلَها أتَمَّ اتِّصالٍ، وحَسبُك وجودُ العاطِفِ فيها. وهذا تدَرُّجٌ في رُتَبِ المُعاملةِ مِن مُعاملةِ الذين يُدعونَ ويُوعَظونَ إلى مُعاملةِ الذين يُجادَلونَ، ثمَّ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ١٨٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٥).

(٤) مسألةُ الظفرِ: هو أن يكونَ الرجلُ له حقٌّ عندَ غيرِه، ويستطيعَ أخذَه، فيأخُذه ويظفَر به. يُنظر في تفصيلِ المسألةِ: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٥).

(٦) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٤٤٥).

مُعاملةِ الذين يُجازَونَ على أفعالِهم، وبذلك حصَلَ حُسنُ التَّرتيبِ في أُسلوبِ الكَلامِ[١].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ دليلٌ على أنَّ الاستطاعةَ، وإنْ كانت مَنسوبةً إلى العَبدِ، فالمَعونةُ عليها مِن عندِ اللهِ سُبحانَه[٢].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ هذه مَعيَّةٌ خاصَّةٌ تختَصُّ بالرُّسُلِ وأتباعِهم، وهي تقتضي مع الإحاطةِ النصرَ والتَّأييدَ[٣].

١٥- قَرْنُ قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ وإخبارُهم بأنَّ اللهَ معهم؛ يُوجِبُ زوالَ الضِّيقِ مِن مَكرِ عَدُوِّهم[٤].

١٦- سورةُ (النَّحل): افتُتِحَت بالنَّهيِ عن الاستِعجالِ، فقال اللهُ تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وخُتِمَت بالأمرِ بالصَّبرِ، فقال سُبحانه وتعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (٢/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٦٤).

(٥) يُنظر: ((مراصد المطالع)) للسيوطي (ص: ٥٣).

- قولُه: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، نشأ عن قولِه: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾؛ إذْ يُثيرُ سُؤالًا مِن المخالِفينَ: كيف يكونُ الإسلامُ مِن مِلَّةِ إبراهيمَ؟ ولعَلَّ اليهودَ شغَّبوا على المسلِمين بِجَعْلِ يومِ الجُمعةِ اليومَ المقدَّسَ عِندَهم؛ فكان قولُه: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ بَيانًا لِجَوابِ هذا السُّؤالِ. وقد وقَعَتْ هذه الجملةُ مُعترِضةً بينَ جُملةِ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾، وجملةِ ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ... ﴾؛ ولذلك افتُتِحَت الجملةُ بأداةِ الحَصرِ ﴿ إِنَّمَا ﴾؛ إشعارًا بأنَّها لِقَلْبِ ما ظَنَّه السَّائِلون المشغِّبون[1].

- وفي قولِه: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ إيرادُ الفِعلِ ﴿ جُعِلَ ﴾ مبنيًّا للمفعولِ؛ جَريًا على سَنَنِ الكِبْرياءِ، وإيذانًا بعدَمِ الحاجةِ إلى التَّصريحِ بالفاعلِ؛ لاستحالةِ الإسنادِ إلى الغيرِ، وإنَّما عبَّر عن ذلك بالجَعْلِ مَوصولًا بكلمةِ ﴿عَلَى﴾، وعنهم بالاسْمِ الموصولِ باختلافِهم: ﴿ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾؛ للإيذانِ بتَضمُّنِه للتَّشديدِ والابتلاءِ المؤدِّي إلى العذابِ[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾: في مُخاطَبةِ اللهِ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذا الأمرِ في حينِ أنَّه داعٍ إلى الإسلامِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٠).

ومُوافِقٌ لأصولِ مِلَّةِ إبراهيمَ: دليلٌ على أنَّ صيغةَ الأمرِ مُستعمَلةٌ في طلَبِ الدَّوامِ على الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، معَ ما انْضَمَّ إلى ذلك مِن الهدايةِ إلى طَرائقِ الدَّعوةِ إلى الدِّينِ؛ فتضَمَّنَت هذه الآيةُ تَثبيتَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم على الدَّعوةِ، وألَّا يُؤيِسَه قولُ المُشرِكينَ له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرٍۚ﴾ [النحل: ١٠١]، وقولُهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾[١] [النحل: ١٠٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالاستمرارِ على الدَّعوةِ، بعدَ الإعلامِ بأنَّ الَّذين لا يُؤمِنون بآياتِ اللهِ لا يَهْديهِم اللهُ، وبعدَ وصْفِ أحوالِ تَكذيبِهم وعِنادِهم، ثمَّ أتبَعَ ذلك بالعِلمِ بالمهتَدِينَ على وجهِ التَّكميلِ، وفيه: إيماءٌ إلى أنَّه لا يَدْري أن يَكونَ بعضُ مَن أيِسَ مِن إيمانِه قد شرَح اللهُ صدْرَه للإسلامِ بعدَ اليأسِ مِنه[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ﴾ فيه تأكيدُ الخبَرِ بضميرِ الفَصلِ ﴿هُوَ﴾؛ للاهتِمامِ به، وأمَّا ﴿إِنَّ﴾ فهي في مَقامِ التَّعليلِ ليسَت إلَّا لِمُجرَّدِ الاهتمامِ، وهي قائمةٌ مَقامَ فاءِ التَّفريعِ؛ فإنَّ إفادتَها التَّأكيدَ هنا مُستَغنًى عنها بوُجودِ ضَميرِ الفصلِ في الجملةِ المفيدةِ لقَصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ؛ فإنَّ القصرَ تأكيدٌ على تأكيدٍ[٣].

- وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ فيه تقديمُ مَن ضلَّ على المهتَدينَ؛ لأنَّ مَساقَ الكلامِ لهم، وإيرادُ الضَّلالِ بصيغةِ الفِعلِ ﴿ضَلَّ﴾ الدَّالِّ على الحدوثِ؛ لأنَّه تغييرٌ لفطرةِ اللهِ الَّتي فطَر النَّاسَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣٣٢- ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٣).

عليها وإعراضٌ عن الدَّعوةِ، وذلك أمرٌ عارِضٌ، بخلافِ الاهْتِداءِ الَّذي هو عبارةٌ عن الثَّباتِ على الفِطْرةِ، والجرَيانِ على مُوجِبِ الدَّعوةِ؛ ولذلك جِيءَ به على صيغةِ الاسْمِ ﴿الْمُهْتَدِينَ﴾ المنبِئِ عن الثَّباتِ[١]. وقيل: قدَّمَ ذِكرَ عِلمِه بمَن ضَلَّ عن سَبيلِه على ذِكرِ عِلمِه بالمُهتَدينَ؛ لأنَّ المَقامَ تَعريضٌ بالوَعيدِ للضَّالِّينَ، ولأنَّ التَّخْليةَ مُقَدَّمةٌ على التَّحْليةِ، فالوعيدُ مُقَدَّمٌ على الوَعدِ[٢].

- وتَكْريرُ ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾؛ للتَّأكيدِ، والإشعارِ بتَبايُنِ حالِ المعلومِينَ ومآلِهما مِن العقابِ والثَّوابِ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾، أي: بمِثْلِ ما فُعِل بكم، وقد عبَّر عنه بالعقابِ على طريقةِ إطلاقِ اسمِ المُسبَّبِ على السَّببِ، أو على نَهْجِ المشاكَلةِ[٤]؛ فيكونُ قولُه: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم﴾ مُشاكَلة لـ ﴿عَاقَبْتُمْ﴾؛ استَعمَل عُوقِبتُم في مَعْنى عُومِلْتُم به؛ لِوُقوعِه بعدَ فِعلِ عاقَبْتم[٥].

- قولُه: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ فيه تأكيدُ كَونِ الصَّبرِ خيرًا بلامِ القسَمِ؛ زيادةً في الحثِّ عليه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣٣٦).

- وقولُه: ﴿لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ يجوزُ أن يَكونَ عامًّا، أي: الصَّبرُ خيرٌ لجِنْسِ الصَّابِرين، وأن يَكونَ مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ، أي: صَبْرُكم خيرٌ لكم، وعبَّر عنهم بـ (الصَّابِرين)؛ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ؛ لزِيادةِ التَّنْويهِ بصفةِ الصَّابِرين[1].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ خَصَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بالأمرِ بالصَّبرِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَقامَه أعْلَى، فهو بالْتِزامِ الصَّبرِ أوْلى[2].

- وجملةُ ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ معترِضةٌ بينَ المتعاطِفاتِ، أي: وما يَحصُلُ صَبرُك إلَّا بتوفيقِ اللهِ إيَّاك، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ صبرَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم عظيمٌ لَقِي مِن أذَى المشرِكينَ أشَدَّ ممَّا لَقِيَه عمومُ المسلِمين؛ فصَبرُه ليس كالمعتادِ؛ لذلك كان حُصولُه بإعانةٍ مِن اللهِ[3].

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَلَا تَكُ﴾ بحذفِ النُّونِ، وفي سورةِ (النَّملِ) قال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠] بإثباتِها؛ فورَد ما في النَّحلِ بحَذفِ النُّونِ؛ تَشبيهًا لها بحُروفِ العِلَّةِ، وخصَّ بحَذفِها مُوافَقةً لقولِه قَبلُ: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وإثباتُها في النَّملِ جاء

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣٣٧).

على القِياسِ[١].

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ يجوزُ أن يُرادَ أنَّ في الكلامِ تَشبيهًا؛ فقد شَبَّه الضَّيْقَ بالشَّيءِ الَّذي يُحيطُ بالإنسانِ، وهو مِن رَوائعِ التَّعبيرِ، وجَوامِعِ الكَلِمِ. وقيل غير ذلك[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ تعليلٌ لِمَا سبَق مِن الأمرِ والنَّهيِ[٣]؛ فهو تعليلٌ للأمرِ بالاقتصارِ على قَدْرِ الجُرْمِ في العُقوبةِ، وللتَّرغيبِ في الصَّبرِ على الأذَى، والعَفْوِ عن المعتَدينَ، ولِتَخصيصِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالأمرِ بالصَّبرِ، والاستعانةِ على تَحصيلِه بمَعونةِ اللهِ تعالى، ولِصَرفِ الكدَرِ عن نفسِه مِن جَرَّاءِ أعمالِ الَّذينَ لم يُؤمِنوا به[٤].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ تكريرُ الموصولِ (الَّذِينَ- وَالَّذِينَ)؛ للإيذانِ بكِفايةِ كلٍّ مِن الصِّلَتَينِ في وَلايتِه سُبحانَه مِن غيرِ أن تَكونَ إحداهما تَتِمَّةً للأُخرى[٥].

- وفيه إيرادُ الأُولى ﴿ٱتَّقَواْ﴾ فِعليَّةً؛ للدَّلالةِ على الحُدوثِ، كما أنَّ إيرادَ الثَّانيةِ ﴿هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ اسميَّةً؛ لإفادةِ كَونِ مَضمونِها شِيمةً راسِخةً لهم[٦]؛ فأتى في جانبِ التَّقْوى بصِلَةٍ فعليَّةٍ ماضيةٍ؛ للإشارةِ إلى لُزومِ حُصولِها،

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٣).

وتَقرُّرِها مِن قَبلُ؛ لأنَّها مِن لَوازِمِ الإيمانِ؛ لأنَّ التَّقوى آيلةٌ إلى أداءِ الواجبِ، وهو حقٌّ على المكلَّفِ؛ ولذلك أمَر فيها بالاقتصارِ على قَدْرِ الذَّنبِ، وأتى في جانبِ الإحسانِ بالجملةِ الاسميَّةِ؛ للإشارةِ إلى كَونِ الإحسانِ ثابتًا لهم دائمًا معَهم؛ لأنَّ الإحسانَ فَضيلةٌ، فبِصاحبِه حاجةٌ إلى رُسوخِه مِن نفسِه، وتَمكُّنِه[1].

- وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ فيه تقديمُ التَّقْوى على الإحسانِ؛ لأنَّ التَّخْليَةَ متقدِّمةٌ على التَّحْليةِ[2].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثالثَ عشرَ

ويليه المجلدُ الرابعَ عشرَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الإسراءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٣).

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ الحِجْرِ ٧
أسماءُ السُّورةِ: ٧
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٧
مقاصِدُ السُّورةِ: ٧
موضوعاتُ السُّورةِ: ٨
الآيات (١-٥) ٩
غريبُ الكَلِماتِ: ٩
المَعنى الإجماليُّ: ٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ٩
تَفسيرُ الآياتِ: ١٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٥
بلاغةُ الآياتِ: ١٧
الآيات (٦-٩) ٢٦
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٦
المَعنى الإجماليُّ: ٢٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٠
بلاغةُ الآياتِ: ٣٣
الآيات (١٠-١٥) ٣٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٩
المعنى الإجماليُّ: ٤٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٦
بلاغةُ الآياتِ: ٤٧
الآيات (١٦-٢٥) ٥٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٤
مُشكِلُ الإعرابِ: ٥٥
المَعنى الإجماليُّ: ٥٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٣
بلاغةُ الآياتِ: ٧٦
الآيات (٢٦-٤٤) ٨٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٨٠
المَعنى الإجماليُّ: ٨١
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٩٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٩٨
بلاغة الآيات: ١٠٧
الآيات (٤٥-٥٠) ١١٦

غريبُ الكَلِماتِ: ١١٦
المَعنى الإجماليُّ: ١١٦
تَفسيرُ الآياتِ: ١١٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٢٣
بلاغة الآيات: ١٢٦
الآيات (٥١-٦٠) ١٢٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٢٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٢٩
المَعنى الإجماليُّ: ١٢٩
تَفسيرُ الآياتِ: ١٣٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٣٦
بلاغةُ الآياتِ: ١٤٠
الآيات (٦١-٧٧) ١٤٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٤٥
المَعنى الإجماليُّ: ١٤٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٤٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٥٧
بلاغةُ الآياتِ: ١٦٠
الآيات (٧٨-٨٤) ١٦٧
غريبُ الكَلِماتِ: ١٦٧
المعنى الإجماليُّ: ١٦٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٧٤
بلاغةُ الآياتِ: ١٧٦
الآيات (٨٥-٩٩) ١٧٨
غريبُ الكَلِماتِ: ١٧٨
المَعنى الإجماليُّ: ١٨٠
تَفسيرُ الآياتِ: ١٨١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٠٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٠٤
بلاغةُ الآياتِ: ٢٠٨
سورةُ النَّحلِ ٢٢١
أسماءُ السُّورةِ: ٢٢١
بيانُ المكِّيِّ والمَدنيِّ: ٢٢١
مقاصِدُ السُّورةِ: ٢٢٢
موضوعاتُ السُّورةِ: ٢٢٢
الآيات (١-٤) ٢٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٢٤
المعنى الإجماليُّ: ٢٢٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٢٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٣٢

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٣٣
بلاغةُ الآياتِ: ٢٣٥
الآيات (٥-٩) ٢٤٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٤٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٤١
المعنى الإجماليُّ: ٢٤٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٥١
بلاغةُ الآياتِ: ٢٥٤
الآيات (١٠-١٨) ٢٦١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٦١
المَعنى الإجماليُّ: ٢٦٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٦٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٧٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٧٦
بلاغةُ الآياتِ: ٢٨٣
الآيات (١٩-٢٥) ٢٩٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٩٧
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٩٨
المعنى الإجماليُّ: ٢٩٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٩٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣١٠
بلاغةُ الآياتِ: ٣١٤
الآيات (٢٦-٢٩) ٣٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٢٢
المَعنى الإجماليُّ: ٣٢٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٢٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٢٩
بلاغةُ الآياتِ: ٣٣٢
الآيات (٣٠-٣٢) ٣٣٨
المَعنى الإجماليُّ: ٣٣٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٣٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٤٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٤٦
بلاغةُ الآيات: ٣٤٧
الآيتان (٣٣-٣٤) ٣٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٥٠
المعنى الإجماليُّ: ٣٥٠
تَفسيرُ الآيتينِ: ٣٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٥٣
بلاغة الآيتين: ٣٥٣
الآيات (٣٥-٣٧) ٣٥٦

غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٥٦
المعنى الإجماليُّ: ٣٥٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٦٢
بلاغةُ الآياتِ: ٣٦٥
الآيات (٣٨-٤٠) ٣٦٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٦٩
المعنى الإجماليُّ: ٣٦٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٦٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٧٣
بلاغةُ الآياتِ: ٣٧٣
الآيتان (٤١-٤٢) ٣٧٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٧٦
المَعنى الإجماليُّ: ٣٧٦
تَفسيرُ الآيتينِ: ٣٧٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٧٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٨٠
بلاغةُ الآيتينِ: ٣٨٠
الآيات (٤٣-٤٧) ٣٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٨٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٨٣
المَعنى الإجماليُّ: ٣٨٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٨٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٩٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٩١
بلاغةُ الآياتِ: ٣٩٥
الآيات (٤٨-٥٥) ٣٩٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٩٩
المَعنى الإجْماليُّ: ٤٠٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٠٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤١١
بلاغةُ الآياتِ: ٤١٤
الآيات (٥٦-٦٠) ٤٢٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٢٥
المَعنى الإجْماليُّ: ٤٢٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٢٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٣٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٣٢
بلاغةُ الآياتِ: ٤٣٥
الآيات (٦١-٦٤) ٤٤١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٤١
المَعنى الإجْماليُّ: ٤٤١
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٤٢

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٥٤
بلاغة الآيات: ٤٥٦
الآيات (٦٥-٦٩) ٤٦٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٦٢
المَعنى الإجْماليُّ: ٤٦٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٦٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٧٦
بلاغةُ الآياتِ: ٤٨١
الآيات (٧٠-٧٢) ٤٩٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٩٠
المعنى الإجماليُّ: ٤٩١
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥٠٠
بلاغةُ الآياتِ: ٥٠٢
الآيات (٧٣-٧٧) ٥٠٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٠٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ٥١٠
المَعنى الإجْماليُّ: ٥١٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٥١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥٢٠
بلاغةُ الآياتِ: ٥٢٣
الآيات (٧٨-٨٣) ٥٣١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٣١
المَعنى الإجْماليُّ: ٥٣٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٣٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٤٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥٤٤
بلاغةُ الآياتِ: ٥٤٧
الآيات (٨٤-٨٩) ٥٥٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٥٦
المعنَى الإجماليُّ: ٥٥٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٥٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٦٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥٦٥
بلاغةُ الآياتِ: ٥٦٩
الآيات (٩٠-٩٣) ٥٧٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٧٥
المعنى الإجماليُّ: ٥٧٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٧٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥٨٩
بلاغةُ الآياتِ: ٥٩١

الآيات (٩٤-٩٧) ٥٩٥
غريبُ الكَلِماتِ: ٥٩٥
المَعنى الإجماليُّ: ٥٩٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٩٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٠٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٦٠٣
بلاغةُ الآياتِ: ٦٠٥
الآيات (٩٨-١٠٠) ٦١٢
المعنى الإجماليُّ: ٦١٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٦١٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٦١٦
بلاغةُ الآياتِ: ٦١٨
الآيات (١٠١-١٠٣) ٦٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٢٢
المعنى الإجماليُّ: ٦٢٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٢٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٦٢٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٦٢٨
بلاغةُ الآياتِ: ٦٣١
الآيات (١٠٤-١١١) ٦٣٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٣٥
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦٣٥
المَعنى الإجماليُّ: ٦٣٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٣٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٤٦
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٦٤٧
بلاغةُ الآياتِ: ٦٤٩
الآيات (١١٢-١١٩) ٦٥٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٥٧
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦٥٨
المَعنى الإجماليُّ: ٦٥٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٦٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٧٣
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٦٧٦
بلاغةُ الآياتِ: ٦٧٩
الآيات (١٢٠-١٢٣) ٦٨٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٨٦
المعنى الإجماليُّ: ٦٨٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٨٧
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٦٩٣
بلاغةُ الآياتِ: ٦٩٧
الآيات (١٢٤-١٢٨) ٧٠٠
المَعنى الإجماليُّ: ٧٠٠

تَفسيرُ الآياتِ: ٧٠١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٧١١
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٧١٤
بلاغةُ الآياتِ: ٧١٨
الفهرس ٧٢٧

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٣٥ درس

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الإسراء

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بغزة

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الرابع عشر

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الإسراء)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر: المجلد الرابع عشر: سورة الإسراء/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٣٩هـ

٥٢٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٥-٦٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٧٢,٣ ١٤٣٩/٥٣٥٦

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٥٣٥٦

ردمك: ٥-٦٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الإسراء)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الرابع عشر

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الإسراءِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الإسراءِ

أسماءُ السُّورةِ:

تُسَمَّى هذه السُّورةُ سُورةَ (بني إسرائيلَ)[١]، ومما يدلُّ على ذلك:

١- عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَنامُ على فِراشِه، حتى يقرأَ كُلَّ لَيلةٍ بـ «بني إسرائيلَ» و«الزُّمَر»))[٢].

٢- عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه قال: (سُورةُ «بني إسرائيلَ» و«الكَهفِ» و«مَريمَ» و«طه» و«الأنبياءِ»: هُنَّ مِن العِتاقِ الأُوَلِ[٣]، وهُنَّ مِن تِلادي[٤])[٥].

وتُسَمَّى أيضًا سورةَ (الإسراء) كما في كثيرٍ مِن المصاحِفِ[٦].

---

(١) وجهُ تَسميتِها بذلك أنَّه ذُكِرَ فيها مِن أحوالِ بني إسرائيلَ ما لم يُذكَرْ في غَيرِها، ولِقَولِه فيها: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٢٠) واللفظ له، وأحمد (٢٤٤٣٣)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٤٤). قال الترمذي: (حسنٌ غريبٌ)، ووثَّق رجالَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٧٥)، وحسَّنه ابنُ حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٣/ ١٥٧)-، وجوَّد إسنادَه ووثَّقَ رجالَه ابنُ باز في ((النكت على التقريب)) (١٧٢)، وصَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٩٢٠).

(٣) العتاق الأُوَل: أي: السُّور التي أُنزِلَت أوَّلًا بمكَّةَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٧٩).

(٤) تِلادي: أي: مِن أوَّلِ ما أخَذْتُه وتعلَّمْتُه بمكَّةَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٩٤).

(٥) رواه البخاري (٤٧٣٩).

(٦) سُمِّيَت بذلك؛ لذِكْرِها الإسراءَ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أوَّلِها، واختُصَّت بذِكرِه. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥).

وتُسمَّى أيضًا سورةَ (سبحان)؛ لافتتاحِها به. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٨٨).

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرؤُها كُلَّ لَيلةٍ:

فقد كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَنامُ على فِراشِه، حتى يقرأَها كُلَّ لَيلةٍ، كما في حديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها المتقدِّمِ قريبًا.

٢- أنَّها مِن السُّوَرِ العَتيقةِ، ومِن قَديمِ ما حُفِظَ عند الصَّحابةِ:

كما في أثر عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه المتقدم قريبًا.

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الإسراءِ مَكِّيَّةٌ[١]، وحُكِي الإجماعُ على ذلك[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

١- تَرسيخُ أصولِ العَقيدةِ الإسلاميَّةِ، وتَنقيتُها مِن كُلِّ ما يَشوبُها[٣].

٢- الحديثُ عن الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبيانُ مَوقِفِ المُشرِكينَ منه[٤].

---

(١) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا الآياتِ (٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧)، ومِن آية (٧٣) إلى آية (٨٠) فمَدنيَّةٌ. وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ ...﴾ [الإسراء: ١٠٧]. وقيل غيرُ ذلك.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٧).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ: بشيرُ بن حامد أبو النعمان -نسبه إليه أبو حيان-، ومجد الدين الفيروزابادي، والبقاعي.
يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٨٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٨٦)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٨/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٨/ ٢٧٤).

٣- بيانُ بعضِ التَّكاليفِ الشَّرعيَّةِ المتضَمِّنةِ لقواعِدِ السُّلوكِ الفَرديِّ والجَماعيِّ[١].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- ذِكرُ الإسراءِ، وبَيانُ حِكمَتِه، والإشارةُ إلى المِعراجِ.

٢- ذكرُ الكتابِ الذي آتاه الله تعالى لموسَى عليه السلامُ؛ ليكونَ هدايةً لقومِه، وإخبارُ بني إسرائيلَ أنَّهم سيُفسدونَ في الأرضِ مَرَّتَينِ.

٣- بيانُ فضلِ القُرآن، وأنه يهدي لِلَّتي هي أقومُ، ويبشِّرُ المؤمنينَ بالأجرِ الكبيرِ.

٤- إثباتُ دلائِلِ تفَرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ، والاستِدلالُ بآيةِ اللَّيلِ والنَّهارِ وما فيهما مِنَ المِنَن على إثباتِ الوَحدانيَّةِ، وأنَّ كُلَّ إنسانٍ يكونُ معه كِتابُه قد سُجِّلَت فيه حَسَناتُه وسَيِّئاتُه.

٥- تقرير قاعِدة التَّبعةِ الفَرديَّةِ في الهُدى والضَّلالِ، وقاعِدةِ التَّبعةِ الجماعيَّةِ في التصَرُّفاتِ والسُّلوكِ.

٦- بيانُ سُنَّةِ الله سبحانَه في القُرونِ الماضيةِ الذين أهلَكَهم، وأنَّ عاقبةَ الترفِ والفسقِ الدمارُ والهلاكُ.

٧- بيانُ أنَّ سعادةَ الآخرةِ منوطةٌ بإرادتِها، وبأنْ يسعَى الإنسانُ لها وهو مؤمنٌ.

٨- الأمرُ بعِبادةِ الله سُبحانَه، وذِكرُ مُقَوِّماتِ الحَياةِ الاجتِماعيَّةِ مِن الإحسانِ للوالِدَينِ، وذَوي القُربى، والتوسُّطِ في إنفاقِ المالِ، والنَّهيُ عن قَتلِ الأولادِ، والنَّهيُ عن قَتلِ النَّفسِ وعن الزِّنا، والنَّهيُ عن التصَرُّفِ في مالِ اليَتيمِ إلَّا بالتي هي أحسَنُ حتى يَبلُغَ أشُدَّه، والأمرُ بالوَفاءِ بالعَهدِ، والوَفاءِ بالكَيلِ والميزانِ،

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٨/ ٢٧٩).

والنهيُ عن أن يَقفُوَ الإنسانُ ما لا عِلْمَ له به.

٩- النهيُ عن اتخاذِ آلهةٍ معَ الله، وبيانُ الدليلِ على بطلانِ ادعائِهم أنَّ مع الله آلِهةً أخرى، والتنديدُ بعاداتِ أهلِ الجاهليَّةِ في كراهِيَتِهم للبَناتِ.

١٠- بيانُ تَصريفِ الله سُبحانَه في القُرآنِ؛ ليتَذَكَّرَ النَّاسُ، إلَّا أنَّه لم يزِدْهم إلَّا نفورًا.

١١- ذِكرُ تَسبيحِ كُلِّ ما في الوجودِ لله سبحانَه.

١٢- ذكرُ جانبٍ مِن أقوالِ المشركينَ فيما يتعلَّق بالبعثِ، ودحضُها، وأمرُ المؤمنينَ بقولِ الكلمةِ التي هي أحسنُ.

١٣- ذكرُ قِصَّةِ الخَلقِ والتَّكوينِ، وتكريمِ آدَمَ بالأمرِ بالسُّجودِ له، ومَوقِفِ إبليسَ مِن ذلك، وإعلانِه مَوقِفَه مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ، وبيانُ أنَّ الشَّيطانَ ليس له سُلطانٌ على عِبادِ اللهِ المُؤمِنينَ.

١٤- بَيانُ أنواعٍ مِن نِعَمِ اللهِ في البَرِّ والبَحرِ، وأنه يَكشفُ الضُّر عَمَّن يَستَغيثونَ به، فإذا كشَفَ الضُّرَّ عنهم أعرَضوا.

١٥- ذكرُ تكريمِ الله لبني آدَمَ، وبعضِ مَشاهِدِ يَومِ القيامةِ.

١٦- بيانُ تثبيتِ الله لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وأمرُه بالمداومةِ على الصلاةِ، وعلى قراءةِ القرآنِ، وأن يَدعو اللهَ أن يُحسِنَ مُدْخَلَه ومُخْرَجَه، ويُعلِنَ مَجيءَ الحَقِّ وزُهوقَ الباطِلِ.

١٧- الثناءُ على القرآنِ وبيانُ إعجازِه، وذكرُ المطالبِ المتعنتةِ التي طالب بها المشركونَ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ورَدُّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على هذا بأنَّه خارِجٌ عن وظيفةِ الرَّسولِ وطَبيعةِ الرِّسالةِ.

١٨- حكايةُ جانبٍ مِن قصةِ موسَى -عليه السلامُ- معَ فرعونَ.

١٩- بيانُ أنَّ هذا القرآنَ أنزَله الله تعالى بالحقِّ، وبالحقِّ نزَل، وأنَّه فصَّله وبيَّنه وأحكَمه ليقرأَه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على الناسِ على تؤدةٍ وترتيلٍ، وأنَّه نزَّله مفرقًا، وأنَّ أهلَ الكِتابِ والعُلَماءَ الذين عَرَفوا الوَحيَ والنبُوَّةَ إذا يُتلَى القُرآنُ عليهم يَخِرُّونَ للأذقانِ سُجَّدًا خاشِعينَ لله.

٢٠- خَتمُ السُّورةِ بالأمرِ بحمدِ الله الذي لم يتَّخذْ ولدًا، ولم يكنْ له شريكٌ في الملكِ، ولم يكنْ له وليٌّ مِن الذلِّ، والأمرِ بتكبيرِه.

الآيات (١-٢)

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾: أي: جَعَلْنا حولَه البركةَ، والبركةُ هي: ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشيءِ، وأصلُ (برك): الزِّيادةُ والنماءُ، والكثرةُ والاتساعُ[١].

﴿وَكِيلًا﴾: أي: مانعًا وحافظًا وكفيلًا، ووكيلُ الرجلِ في مالِه هو الذي كفَله له، وقام به، وأصلُ (وكل): يدلُّ على اعتمادِ غيرِك في أمرِك[٢].

﴿ذُرِّيَّةَ﴾: الذُّرِّيَّةُ: الأولادُ، وأولادُ الأولادِ، فهي اسمٌ يَجمعُ نَسلَ الإنسانِ مِن ذَكَرٍ وأُنثَى. قيل: أصلُها مِن ذرَأ، أي: خلَق؛ لأنَّها خلقُ الله، وحُذِفت الهمزةُ منها. وقيل: أصلُها مِن الذَّرِّ، بمعنَى التَّفريقِ؛ لأنَّ اللَّه تعالى ذَرَّهم في الأرضِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨، ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥٧، ٣٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

قولُه: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾: (أنْ) مصدريَّةٌ ناصِبةٌ، و(لا) نافيةٌ. والمصدرُ المؤوَّلُ مَنصوبٌ على نزعِ الخافِضِ، أي: لئلَّا تتَّخذوا، أو بألَّا تتَّخذوا. وقيل: (أنْ) مفسِّرةٌ لِما تضمَّنَه الكتابُ في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ مِن الأمرِ والنَّهيِ، و(لا) ناهيةٌ جازمةٌ، وانصَرف الكلامُ من الغَيبةِ إلى الخِطابِ، وجملةُ (لا تتَّخِذوا) تفسيريةٌ لا محلَّ لها.

قَولُه: ﴿ذُرِّيَّةَ﴾: منصوبةٌ على النِّداءِ، أي: يا ذريَّةَ مَن حمَلْنا. أو منصوبةٌ على الاختصاصِ. وقيل: منصوبةٌ على المفعولِ الأوَّلِ المؤخَّرِ لـ (تتَّخذوا)، والثاني هو (وَكِيلًا) فقُدِّمَ، والمعنى: لا تتَّخذوا ذريَّةَ مَن حمَلْنا مع نوحٍ مِن دوني وكيلًا. وقيل غيرُ ذلك[1].

المَعنى الإجماليُّ:

افتتح اللهُ تعالى السورة بتنزيهِ نَفسِه عن كُلِّ ما لا يليقُ به سُبحانَه؛ فقال: سبحانَ الذي سيَّر عَبدَه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جزءًا من اللَّيلِ، مِن المَسجِدِ الحرامِ بـ «مكَّةَ» إلى المسجدِ الأقصى بـ «بيتِ المَقدِس» الذي بارك اللهُ حَولَه بالزُّروعِ والثِّمارِ والأنهارِ وغَيرِ ذلك، وجعَلَه موضعًا لكثيرٍ مِن الأنبياءِ؛ ثمَّ بيَّن الحكمةَ مِن الإسراءِ به، وهي أنَّه أسرَى به لِيُشاهِدَ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن عَجائِبِ قُدرةِ اللهِ، إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى هو السَّميعُ البَصيرُ.

وبعدَ أن بيَّن الله سبحانَه جانبًا مِن مظاهرِ تكريمِه لنبيِّه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ أتبَع ذلك بالحديثِ عما أكرَم به نبيَّه موسَى عليه السلام، فأخبر أنه أعطى موسى عليه السَّلامُ التَّوراةَ، وجعَلَها هاديًا لبني إسرائيلَ؛ لئلا يتَّخِذوا غَيرَ

(١) يُنظر: ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٨١١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٣٠٩)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٥).

اللهِ تعالى وليًّا أو مَعبودًا يفوِّضونَ إليه أمورَهم، ثم قال تعالى: يا سُلالةَ الذين أنجيناهم وحَمَلْناهم مع نوحٍ في السَّفينةِ، لا تُشرِكوا باللهِ في عبادتِه، وكونوا كأبيكم نوحٍ، واشكُروني على نِعَمي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

أي: تَنزيهًا لله[١] عن كُلِّ ما لا يَليقُ به، الذي سيَّرَ عَبدَه مُحَمَّدًا[٢] في جُزءٍ مِنَ اللَّيلِ[٣].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

---

(١) قال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ﴾: (هو مصدر سبَّح، يقال: سبَّح يسبِّح تسبيحًا وسُبحانًا... ومعناه: التنزيهُ والبراءةُ لله مِن كلِّ نقصٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٤٥).

(٢) قال ابنُ الجوزي: (لا خِلافَ أنَّ المرادَ بعَبدِه هاهنا: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨).

وقال الخازن: (أجمَعَ المفسِّرونَ والعُلَماءُ والمتكَلِّمونَ: أنَّ المرادَ به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لم يختلِفْ أحَدٌ من الأمَّةِ في ذلك). ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٧).

قال ابنُ تيميةَ: (التسبيحُ يقتضي التنزيهَ والتَّعظيم، والتعظيمُ يستلزمُ إثباتَ المحامدِ التي يُحمد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهَه وتحميدَه وتكبيرَه وتوحيدَه). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١٢٥).

وقال أيضًا: (﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾. والمرادُ بعبدِه عابدُه، المطيعُ لأمرِه؛ وإلَّا فجميعُ المخلوقين عبادٌ بمعنى أنَّهم معبَّدون مخلوقونَ مدبَّرون). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٥٠٣).

((أُتيتُ بالبُراقِ -وهو دابَّةٌ أبيضُ طويلٌ، فَوقَ الحِمارِ ودونَ البَغلِ، يَضَعُ حافِرَه عند مُنتهى طَرْفِه[١]- قال: فرَكِبْتُه حتى أتيتُ بيتَ المَقدِس، قال: فرَبَطْتُه بالحَلْقةِ التي يَربِطُ به الأنبياءُ، قال: ثمَّ دخلتُ المَسجِدَ، فصَلَّيتُ فيه ركعتَينِ، ثمَّ خَرَجتُ فجاءني جبريلُ عليه السَّلامُ بإناءٍ مِن خَمرٍ، وإناءٍ مِن لَبَنٍ، فاختَرْتُ اللَّبَنَ، فقال جبريلُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اختَرْتَ الفِطرةَ. ثمَّ عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ، فاستفتَحَ جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بآدَمَ، فرَحَّبَ بي، ودعا لي بخيرٍ، ثم عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ الثَّانيةِ، فاستفتَحَ جِبريلُ عليه السَّلامُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بابنَيِ الخالةِ: عيسى ابنِ مَريمَ، ويحيى بنِ زكريَّاءَ، صَلَواتُ اللهِ عليهما، فرحَّبا، ودَعَوَا لي بخير، ثمَّ عَرَجَ بي إلى السَّماءِ الثَّالثةِ، فاستفتحَ جبريلُ، فقيل: مَن أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بيوسُفَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إذا هو قد أُعطِيَ شَطْرَ الحُسنِ، فرَحَّبَ ودعا لي بخيرٍ، ثم عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ الرَّابعةِ، فاستفتَحَ جِبريلُ عليه السَّلامُ، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قال: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا فإذا أنا بإدريسَ، فرَحَّبَ ودعا لي بخيرٍ، قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ثم عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ الخامسةِ، فاستفتَحَ جِبريلُ، قيل: مَن هذا؟ فقال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا فإذا أنا بهارونَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فرَحَّب ودعا لي بخيرٍ،

(١) عندَ مُنتهَى طَرْفِه: أي: أنَّه يضعُ حافرَه عندَ منتهَى ما يراه بطرفِه. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٣٥٦).

ثم عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ السَّادسةِ، فاستفتحَ جِبريلُ عليه السَّلامُ، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بموسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فرحَّبَ ودعا لي بخيرٍ، ثمَّ عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فاستفتَحَ جِبريلُ، فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا فإذا أنا بإبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُسنِدًا ظَهْرَه إلى البيتِ المَعمورِ، وإذا هو يَدخُلُه كُلَّ يَومٍ سَبعونَ ألفَ مَلَكٍ لا يَعودونَ إليه، ثمَّ ذهَبَ بي إلى السِّدرةِ المُنتهى، وإذا ورَقُها كآذانِ الفِيَلةِ، وإذا ثَمَرُها كالقِلالِ، قال: فلمَّا غَشِيَها مِن أمرِ اللهِ ما غشِيَ تغَيَّرَت، فما أحدٌ مِن خَلقِ الله يستطيعُ أن يَنعَتَها مِن حُسنِها! فأوحى اللهُ إليَّ ما أوحى، ففَرَض عليَّ خمسينَ صلاةً في كُلِّ يومٍ وليلةٍ، فنزَلْتُ إلى موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ما فَرَضَ ربُّك على أمَّتِك؟ قلتُ: خَمسينَ صَلاةً، قال: ارجِعْ إلى ربِّك فاسألْه التَّخفيفَ؛ فإنَّ أُمَّتَك لا يُطيقونَ ذلك، فإنِّي قد بلَوتُ بني إسرائيلَ وخَبَرْتُهم، قال: فرَجَعْتُ إلى ربِّي، فقلتُ: يا رَبِّ، خَفِّفْ على أمَّتي، فحَطَّ عني خَمسًا، فرجَعْتُ إلى موسى، فقُلتُ: حَطَّ عني خمسًا، قال: إنَّ أمَّتَك لا يُطيقونَ ذلك، فارجِعْ إلى رَبِّك فاسألْه التَّخفيفَ. قال: فلَمْ أزَلْ أرجِعُ بين ربِّي تبارك وتعالى، وبينَ موسى عليه السَّلامُ، حتى قال: يا مُحَمَّدُ، إنهنَّ خَمسُ صَلواتٍ كُلَّ يَومٍ وليلةٍ، لكُلِّ صَلاةٍ عَشْرٌ، فذلك خمسونَ صَلاةً، ومَن همَّ بحَسَنةٍ فلم يعمَلْها كُتِبَت له حَسَنةً، فإنْ عَمِلَها كُتِبَت له عَشرًا، ومَن همَّ بسَيِّئةٍ فلم يَعمَلْها لم تُكتَبْ شَيئًا، فإنْ عَمِلَها كُتِبَت سَيِّئةً واحِدةً. قال: فنَزَلْتُ حتى انتهَيتُ إلى موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخبَرْتُه، فقال: ارجِعْ إلى رَبِّك فاسألْه التَّخفيفَ، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فقُلتُ:

قد رَجعْتُ إلى ربِّي حتى استَحْيَيتُ منه))[١].

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾.

أي: مِن مَسجِدِ مكَّةَ -وهو البَيتُ العَتيقُ-[٢] إلى المسجِدِ الأقصى -وهو

(١) رواه مسلم (١٦٢).

(٢) ممَّن اختار أنَّ الإسراءَ برَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان من المسجِدِ نفسِه: ابنُ كثير، والبقاعي، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٨٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٢٠).

قال الشوكاني: (﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال الحسنُ وقتادةُ: يعني: المسجدَ نفسَه. وهو ظاهِرُ القُرآنِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٤٦).

وقال ابنُ كثير: (إنَّ الثَّابتَ في «الصَّحيحينِ» مِنْ روايةِ شريكِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ أبي نَمِرٍ عن أنسٍ أنَّ الإسراءَ كانَ مِنَ المسجدِ مِنْ عندِ الحِجْرِ). ((البداية والنهاية)) (٤/ ٢٧٥).

وقيل: المرادُ بالمسجدِ الحرامِ: الحرمُ كلُّه، والحرمُ كلُّه مسجدٌ؛ وذلك لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أُسرِي به من بيتِ أمِّ هانئٍ، وذلك على قولِ أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨).

قال الشنقيطي: (الصحيحُ أن الإسراءَ وَقَع به مِن بيتِ أُمِّ هانِئٍ بنتِ أبي طالبٍ في مكةَ في الحرمِ لا في نفسِ المسجدِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٠٥). ويُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٣٨١).

وقال ابنُ عثيمين في الجمعِ بينَ حديثِ الإسراءِ مِن الحِجْرِ ومِن بيتِ أُمِّ هانئٍ، قال: (وعلى هذا فيكونُ الحديثُ الذي فيه أنَّه أُسرِي به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن بيتِ أُمِّ هانئٍ -إن صحَّت الروايةُ- يُرادُ ابتداءُ الإسراءِ، ونهايتُه مِن الحِجرِ، كأنَّه نُبِّه وهو في بيتِ أمِّ هانئٍ، ثمَّ قام فنام في الحِجرِ فأُسرِي به مِن الحجرِ). ((مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين)) (١٢/ ٣٩٥).

وقال ابنُ حجر في الجمع بين هذين القولينِ وغيرِهما مما ورد في الرِّوايات الأخرى: (والجمعُ بين هذه الأقوالِ: أنَّه نام في بيتِ أمِّ هانئٍ وبيتُها عند شِعبِ أبي طالب ففُرِجَ سَقفُ بيته ... فنزل منه الملَكُ فأخرجه من البيتِ إلى المسجدِ، فكان به مضطجعًا وبه أثَرُ النُّعاسِ، ثم أخرجه الملَكُ إلى بابِ المسجِدِ فأركبه البُراقَ). ((فتح الباري)) (٧/ ٢٠٤).

بيتُ المَقدِسِ-[١] الذي بارَكْنا حَولَه بالأنهارِ والأشجارِ والثِّمارِ، وجعَلْناه مَوضِعًا لكثيرٍ مِن الأنبياءِ والأصْفياءِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١].

---

(١) قال الرازي: (قَولُه: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ اتَّفَقوا على أنَّ المرادَ منه بيتُ المَقدِس). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٩٢).

وقال الواحدي: (وقيل له: ﴿ٱلْأَقْصَا﴾؛ لبُعدِ المسافةِ بينَه وبينَ المسجدِ الحرامِ). ((البسيط)) (١٣/ ٢٤٨). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢١٤).

وقال ابن جزي: (وسمِّي ﴿ٱلْأَقْصَا﴾؛ لأنَّه لم يكنْ وراءَه حينئذٍ مسجدٌ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٠).

قال ابنُ الجوزي: (معنى ﴿بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أنَّ الله أجرى حولَه الأنهارَ، وأنبَتَ الثِّمارَ. وقيل: لأنَّه مَقَرُّ الأنبياءِ، ومَهبِطُ الملائكةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨).

وقال السعدي: (قوله: ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي: بكثرةِ الأشجارِ والأنهارِ، والخِصبِ الدَّائمِ، ومِن بركَتِه تفضيلُه على غيرِه من المساجِدِ سوى المسجِدِ الحرامِ ومسجِدِ المدينة، وأنَّه يُطلَبُ شَدُّ الرِّحالِ إليه للعبادة والصَّلاةِ فيه، وأنَّ الله اختَصَّه محَلًّا لكثيرٍ مِن أنبيائِه وأصفيائِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

وقال الشنقيطي: (المرادُ بأنَّه بارَك فيها: أنَّه أكثَر فيها البركةَ والخيرَ بالخصبِ والأشجارِ والثمارِ والمياهِ، كما عليه جمهورُ العلماءِ. وقال بعضُ العلماءِ: المرادُ بأنَّه بارَك فيها أنَّه بعَث الأنبياءَ منها). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٠).

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً﴾ [سبأ: ١٨].

وعن جابرِ بنِ عبد اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لَمَّا كَذَّبَني قُرَيشٌ قُمتُ في الحِجرِ، فجلَّى اللهُ لي بيتَ المقدِسِ، فطَفِقْتُ أُخبِرُهم عن آياتِه، وأنا أنظُرُ إليه))[(١)].

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾.

أي: أَسْرَينا بعَبْدِنا مُحَمَّدٍ مِن المَسجِدِ الحرامِ إلى المَسجِدِ الأقصى؛ كي نُرِيَه[(٢)] .....

(١) رواه البخاري (٤٧١٠)، ومسلم (١٧٠).

(٢) قال ابن جرير: (الصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندنا أن يقالَ: إنَّ اللهَ أسرى بعَبدِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من المسجِدِ الحرامِ إلى المسجِدِ الأقصى، كما أخبَرَ الله عبادَه، وكما تظاهَرَت به الأخبارُ عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أنَّ الله حمَلَه على البُراقِ حين أتاه به، وصلَّى هنالك بمن صلَّى مِن الأنبياءِ والرُّسُل، فأراه ما أراه من الآياتِ. ولا معنى لِقولِ مَن قال: أَسرى برُوحِه دونَ جَسَدِه؛ لأنَّ ذلك لو كان كذلك لم يكُنْ في ذلك ما يُوجِبُ أن يكون ذلك دليلًا على نبُوَّتِه، ولا حُجَّةَ له على رسالتِه، ولا كان الذين أنكَروا حقيقةَ ذلك من أهلِ الشِّركِ، وكانوا يَدفَعونَ به عن صِدقِه فيه؛ إذ لم يكنْ مُنكَرًا عندهم ولا عند أحدٍ مِن ذوي الفِطرةِ الصَّحيحةِ مِن بني آدمَ أن يرى الرَّائي منهم في المنامِ ما على مسيرةِ سَنةٍ، فكيف ما هو على مَسيرةِ شَهرٍ أو أقَلَّ؟! وبعدُ؛ فإنَّ اللهَ إنَّما أخبَرَ في كتابِه أنَّه أسرى بعَبدِه، ولم يُخبِرْنا أنَّه أسرى برُوحِ عَبدِه، وليس جائزًا لأحدٍ أن يتعَدَّى ما قال اللهُ إلى غيرِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٤٦-٤٤٧).

وقال الشِّنقيطيُّ: (فاعلَمْ أنَّ هذا الإسراءَ به -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- المذكورَ في هذه الآيةِ الكريمةِ، زَعَم بعضُ أهلِ العِلمِ أنَّه برُوحِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دونَ جَسَدِه، زاعمًا أنَّه في المنامِ لا اليَقَظةِ؛ لأنَّ رؤيا الأنبياءِ وَحيٌ، وزعم بعضُهم: أنَّ الإسراءَ بالجسَدِ، والمعراجَ بالرُّوحِ دون الجسَدِ، ولكِنَّ ظاهِرَ القرآنِ يدُلُّ على أنَّه بروحِه وجَسَدِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَقظةً لا مَنامًا؛ لأنَّه قال ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ والعبدُ: عبارةٌ عن مجموعِ الرُّوحِ والجسَدِ، ولأنَّه قال: ﴿سُبْحَـٰنَ﴾ والتَّسبيحُ إنما يكونُ عند الأمورِ العِظامِ، فلو كان منامًا لم يكُنْ له كبيرُ شأنٍ حتى يُتعَجَّبَ

بعضًا مِن عجائِبِ قُدرتِنا الكُبرى، وأدِلَّتِنا العُظمَى[(١)].

كما قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۞ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۞ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۞ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۞ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۞ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١١ - ١٨].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لجَميعِ المَسموعاتِ، البَصيرُ بكُلِّ المَرئيَّاتِ، ومِن ذلك سَمْعُه لأقوالِ عبادِه؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهم، مُصَدِّقِهم ومُكَذِّبِهم، وهو البَصيرُ بهم، فيُجازي كُلًّا بما يستَحِقُّه في الدُّنيا والآخرةِ[(٢)].

منه، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]؛ لأنَّ البَصَرَ مِن آلاتِ الذَّاتِ لا الرُّوحِ، وقَولُه هنا: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣).

وقال القاضي عياض: (الحقُّ، والذى عليه أكثرُ الناسِ ومُعظَمُ السلفِ وعامةُ المتأخرينَ من الفُقَهاء والمحَدِّثين والمتكلِّمين: أنه أسرَى بالجَسَدِ، والآثار تدُلُّ عليه لِمن طالعَها وبحَثَ عنها، ولا يُعدَلُ عن ظاهِرِها إلَّا بدليل، ولا استحالةَ فى حَملِها عليه فيُحتاجَ إلى تأويلٍ). ((إكمال المعلم)) (١/ ٤٩٧).

وقال ابن كثير: (الأكثرونَ مِنَ العلماءِ على أنَّه أُسْري ببدنِه ورُوحِه يَقَظَةً لا منامًا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١١).

وقال الشِّنقيطي: (وذلك ما رآه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعَينِه ليلةَ الإسراءِ، مِن الغرائِبِ والعجائِبِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٤٦).

قال الرازي: (قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي: إنَّ الذي أسرى بعَبدِه هو السَّميعُ لأقوالِ محمَّدٍ، البَصيرُ بأفعاله... وقيل: المرادُ: سَميعٌ لِما يقولونَ للرَّسولِ في هذا الأمرِ، بصيرٌ بما

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى تشريفَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإسراءِ وإراءتِه الآياتِ؛ ذكَرَ تشريفَ موسَى بإيتائِه التَّوراةَ[١].

وأيضًا لَمَّا ثبت بهذه الخارقةِ ما أخبَرَ الله به عن نفسِه المقَدَّسة من عظيمِ القُدرةِ على كُلِّ ما يريدُ، وما حباه صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم به من الآياتِ البيِّناتِ في هذا الوقتِ اليسير؛ أتبَعَه ما مَنَحَ في المسيرِ مِن مصرَ إلى الأرضِ المقدَّسةِ مِن الآياتِ في مُددٍ طِوالٍ جدًّا موسى عليه السَّلامُ الذي كان أعظَمَ الأنبياءِ بركةً على هذه الأمَّةِ ليلةَ الإسراءِ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّه أسرى بعَبدِه مُحَمَّدٍ صلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه، عطَفَ بذِكرِ موسى عَبدِه وكَليمِه عليه السَّلامُ؛ فإنَّه تعالى كثيرًا ما يَقرِنُ بين ذِكرِ موسى ومُحَمَّدٍ عليهما السَّلامُ، وبين ذِكرِ التَّوراةِ والقُرآنِ[٣].

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

أي: وآتَينا موسى التَّوراةَ[٤].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ

يَعملونَ في هذه الواقعةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥- ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥، ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

أي: وجَعَلْنا كِتابَ موسى هاديًا لبني إسرائيلَ إلى الحَقِّ[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [السجدة: ٢٣].

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾.

أي: ألَّا[٢] تتَّخِذوا -يا بني إسرائيلَ- مِن دوني مَعبودًا تعتَمِدونَ عليه، وتَكِلونَ أمورَكم إليه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ٨١].

وقال سُبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٩].

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

(٢) قيل: «أن» في ﴿أَلَّا﴾ بمعنى: «أي»، والمعنى: جعلْناه هدًى لبني إسرائيلَ، أي: لا يتَّخِذوا.
وقيل: هو على إضمارِ القولِ، أي: قُلنا لهم: لا تتَّخذوا... فعلى هذا «أن» زائدةٌ.
ويجوزُ أن يكونَ التقديرُ: جعلناه هدًى بأن لا تتَّخِذوا. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٩٨).
وذكر الشنقيطي قراءةَ جمهورِ القرَّاءِ ﴿تَتَّخِذُوا۟﴾ على وجهِ الخطابِ، وقراءةَ ﴿يَتَّخِذُوا۟﴾ بالياءِ على الغيبةِ. وتوجيهَ ﴿أَلَّا﴾ على كلا القراءتينِ، ثمَّ قال: (فمرجعُ القراءتينِ إلى شيءٍ واحدٍ، وهو أنَّ التوكُّلَ إنما يكونُ على الله وحدَه لا على غيرِه). ((أضواء البيان)) (٣/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦)، ((نظم الدرر)) (١١/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

أي: يا سُلالةَ مَن حملْنا مع نوحٍ في السَّفينةِ، فنجَّيناهم مِن الغَرَقِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

أي: إنَّ نوحًا كان عبدًا للهِ شكورًا لنِعَمِه؛ فتشبَّهوا بأبيكم، واشكُروني على نِعَمي عليكم، ولا تُشرِكوا بي شيئًا[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ * وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى تشريفَ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإسراءِ، ثمَّ ذكَرَ عَقيبَه تَشريفَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بإنزالِ التَّوراةِ عليه، ثمَّ وصَفَ التوراةَ بكَونِها هُدًى، ثمَّ بيَّنَ أنَّ التوراةَ إنَّما كان هُدًى لاشتمالِه على النَّهيِ عن اتِّخاذِ غَيرِ الله وكيلًا -على أحدِ أوجهِ التأويلِ في ﴿أَلَّا﴾- وذلك هو التَّوحيدُ، فرجَعَ حاصِلُ الكلامِ بعد رعايةِ هذه المَراتِبِ إلى أنَّه لا مِعراجَ أعلى، ولا درَجَةَ أشْرَفُ، ولا مَنقَبَةَ أعظَمُ مِن التَّوحيدِ، وألَّا يُعَوِّلَ المرءُ في أمرٍ مِن الأمورِ إلَّا على اللهِ، فإنْ نطَقَ نطَقَ بذِكرِ الله، وإن تفكَّرَ تفكَّرَ في دلائِلِ تَنزيهِ اللهِ تعالى، وإن طلَبَ طلَبَ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٣).
قال القرطبي: (مقصودُ الآية: إنَّكم من ذريَّةِ نُوحٍ، وقد كان عبدًا شَكورًا؛ فأنتم أحَقُّ بالاقتداءِ به دون آبائِكم الجُهَّالِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٣).

اللهِ، فيكونُ كُلُّه لله وبالله[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فيه التَّنويهُ بالثَّناءِ على نوحٍ عليه السَّلامُ، بقيامِه بشُكرِ اللهِ، واتِّصافِه بذلك، والحَثُّ لذُرِّيَّتِه أن يَقتَدوا به في شُكرِه، ويُتابِعوه عليه، وأن يتذَكَّروا نِعمةَ اللهِ عليهم؛ إذ أبقاهم واستخلفَهم في الأرضِ، وأغرَقَ غَيرَهم[٢]، ففي تَخصيصِ نوحٍ وخِطابِ العبادِ بأنَّهم ذُرِّيَّتُه إشارةٌ إلى الاقتداءِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّه أبوهم الثَّاني، فإنَّ اللهَ تعالى لم يجعَلْ للخَلْقِ بعد الغَرَقِ نَسلًا إلَّا مِن ذُرِّيَّتِه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[٣] [الصافات: ٧٧].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تَنزيهُ اللهِ تعالى بقَولِه: (سُبْحَانَ الله)، يتضَمَّنُ مع نفيِ صِفاتِ النَّقصِ عنه إثباتَ ما يلزَمُ ذلك مِن عَظَمتِه، فكان التَّسبيحُ تعظيمًا له مع تَبرئَتِه تعالى مِن السُّوءِ؛ ولهذا جاء التَّسبيحُ عند العجائِبِ الدَّالَّةِ على عظَمَتِه؛ كقولِه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وأمثال ذلك[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ التَّعبيرُ بلَفظِ العَبدِ في هذا المقامِ العَظيمِ يدُلُّ دَلالةً واضِحةً على أنَّ مَقامَ العُبوديَّةِ هو أشرَفُ صِفاتِ المخلوقينَ وأعظَمُها وأجَلُّها؛ إذ لو كان هناك وَصفٌ أعظَمُ منه لعبَّرَ به في هذا المقامِ العظيمِ الذي اخترَق العبدُ فيه السَّبعَ الطِّباقَ، ورأى مِن آياتِ رَبِّه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١١٨).

(٤) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٦/ ١٧٧).

الكُبرى[١]، لكنه قال: ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾ ولم يقُلْ: برَسولِه، ولا نبيِّه؛ إشارةً إلى أنَّه قام هذا المقامَ الأعظَمَ بكَمالِ عُبوديَّتِه لرَبِّه، ولذا ذَكَر الله سُبحانَه نبيَّه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باسمِ عُبوديَّتِه في أشرَفِ مَقاماتِه؛ في مقامِ الإسراءِ كما هنا، وفي مَقامِ الدَّعوةِ، ومَقامِ التَّحدِّي، فقال في مقامِ الدَّعوةِ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: ١٩]، وقال في مقامِ التَّحدِّي: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾[٢] [البقرة: ٢٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ صَريحٌ في أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُسرِيَ بجَسَدِه يَقَظةً[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ ظاهِرُه أنَّ الإسراءَ كان في أوَّلِ اللَّيلِ، وأنَّه مِن نَفسِ المَسجِدِ الحرامِ، لكِنْ على روايةِ أنَّه أُسرِيَ به مِن بَيتِ أمِّ هانئٍ تكونُ الفَضيلةُ في المسجِدِ الحرامِ لِسائِرِ الحَرَمِ؛ فكُلُّه تُضاعَفُ فيه العبادةُ، كتَضاعُفِها في نَفسِ المَسجِدِ[٤].

٥- قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، وأصلُ الحرامِ: الأمرُ الممنوعُ، فوصْفُ الشَّيءِ بالحرامِ يكونُ بمَعنى أنَّه ممنوعٌ استعمالُه استعمالًا يُناسِبُه، نحوُ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، أي: أكْلُ الميتةِ، ويكونُ بمعنى الممنوعِ مِن أنْ يُعْمَلَ فيه عمَلٌ ما، ويُبيَّنُ بذكْرِ المُتعلِّقِ الَّذي يتعلَّقُ به، وقد لا يُذْكَرُ مُتعلِّقُه

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

إذا دَلَّ عليه العُرْفُ، ومنه قولُهم: ﴿ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أي: الحرامِ فيه القتالُ في عُرْفِهم. وقد يُحْذَفُ المُتعلَّقُ لقصْدِ التَّكثيرِ، فهو من الحذْفِ للتَّعميمِ، فيرجِعُ إلى العُمومِ العُرفيِّ، ففي نحوِ ﴿ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢] يُرادُ الممنوعُ مِنْ عدوانِ المعتدينَ، وغزوِ الملوكِ والفاتحينَ، وعملِ الظُّلمِ والسُّوءِ فِيهِ[١].

٦- دلَّ القُرآنُ العَظيمُ على بَرَكةِ الشَّامِ في خَمسِ آياتٍ: قَولُه تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] واللهُ تعالى إنَّما أورَثَ بني إسرائيلَ أرضَ الشَّامِ، وقولُه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٧١]، وقولُه تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾ [سبأ: ١٨] الآية. فهذه خمسُ آياتٍ نُصوصٌ، والبَرَكةُ تتناوَلُ البَرَكةَ في الدِّينِ، والبَرَكةَ في الدُّنيا، وكِلاهما معلومٌ لا ريبَ فيه[٢].

٧- إنَّما أُسرِيَ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ المَسجِدِ الحرامِ إلى المَسجِدِ الأقصى؛ ليُرِيَه اللهُ مِن آياتِه بالمِعراجِ؛ لهذا كان قَولُه تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ دَليلًا في المِعراجِ الذي كان بعدَ المَسْرَى إلى المسجِدِ الأقصى، فلم يكُنِ المقصودُ مُجَرَّدَ رؤيةِ الأقصى؛ فإنَّه قد رآه المُسلِمُ والكافِرُ، والبَرُّ والفاجِرُ، ولكِنَّه سُبحانَه أخبَرَ بذلك؛ ليكونَ هذا آيةً للرَّسولِ، فإنَّهم قد رأوا المسجِدَ الأقصى، فإذا أخبَرَهم أنَّه رآه ووصَفَه لهم -كما جاء في الحديثِ الصَّحيحِ[٣]- كان ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢- ١٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٤).

(٣) تقدَّم تخريجُه: (ص: ١٩).

حُجَّةً له على أنَّه رآه، ولم يُمكِنْهم تكذيبُه في ذلك، بخلافِ ما لو أخبَرَ بالعُروجِ إلى السَّماءِ ابتداءً، فإنَّهم كانوا إذا كَذَّبوا بذلك لم يكُنْ هناك ما رأَوه حتى يَصِفَه لهم. وهو سُبحانَه قد أخبَرَ بعُروجِه إلى السَّماءِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣- ١٨] وهو سُبحانَه ذكَر هذا بعدَ أن ذكَرَ رُؤيةَ جبريلَ النَّزلةَ الأخرى في الأرضِ؛ فإنَّه رآه على صُورتِه مَرَّتينِ، كما جاءت بذلك الأحاديثُ الصَّحيحةُ[(١)]، وقال في سورة (التكويرِ): ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾، فهذا جبريلُ، ثمَّ قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾[(٢)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ دَلالةٌ على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَرَ ربَّه ليلةَ أُسرِيَ به؛ إذ لو كان -سُبحانَه- قد أراه نفسَه بعَيْنِه، لكان ذِكْرُ ذلك أَولى[(٣)].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ وَجهُ الاقتصارِ على وَصفِ المَسجدِ الأقصى في هذه الآيةِ بذِكرِ هذا التَّبريكِ: أنَّ شُهرةَ المَسجِدِ الحَرامِ بالبَرَكةِ، وبِكَونِه مَقامَ إبراهيمَ، مَعلومةٌ للعَرَبِ، وأمَّا المَسجِدُ الأقصى

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥١٠).

قال ابن القيم: (هي مسألةُ خِلافٍ بين السَّلَفِ والخَلَفِ، وإن كان جمهورُ الصَّحابةِ بل كلُّهم مع عائشةَ [يعني: في عَدَمِ الرؤيةِ] كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعًا للصحابة). ((زاد المعاد)) (١/ ٧٩).

فقد تناسى النَّاسُ ذلك كُلَّه؛ فالعَرَبُ لا عِلمَ لهم به، والنَّصارى عَفَوا أثَرَه مِن كراهِيَتِهم لليَهودِ، واليهودُ قد ابتَعَدوا عنه وأَيِسوا مِن عَودِه إليهم، فاحْتِيجَ إلى الإعلامِ ببَرَكتِه[1].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ في هذا الوصْفِ ﴿ٱلْأَقْصَا﴾ بصِيغَةِ التَّفضيلِ -باعتبارِ أصْلِ وضْعِها- مُعجزةٌ خفيَّةٌ من مُعجزاتِ القُرآنِ؛ إيماءً إلى أنَّه سيكونُ بين المَسجدَينِ: مَسجدٌ عظيمٌ، هو مسجِدُ طَيْبَةَ، الَّذي هو قَصِيٌّ عن المسجِدِ الحرامِ، فيكونُ مسجِدُ بيتِ المقدسِ أقْصَى منه حينئذٍ؛ فتكونُ الآيةُ مُشيرةً إلى جميعِ المساجِدِ الثَّلاثةِ المُفضَّلةِ في الإسلامِ على جميعِ المساجِدِ الإسلاميَّةِ، والَّتي بيَّنَها قولُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لَا تُشَدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجِدَ: المسجِدِ الحرامِ، ومسجِدِ الرَّسُولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ومسجِدِ الأقصَى))[2].

١١- فائدةُ ذِكْرِ مبدأِ الإسراءِ ونِهايتِه بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ أمرانِ؛ أحدُهما: التَّنصيصُ على قطْعِ المسافةِ العظيمةِ في جُزءِ ليلةٍ؛ لأنَّ كلًّا من الظَّرفِ -وهو ﴿لَيْلًا﴾- ومن المَجْرورَينِ -﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾- قد تعلَّقَ بفعْلِ ﴿أَسْرَىٰ﴾، فهو تعلُّقٌ يَقْتضي المُقارنةَ؛ ليُعْلَمَ أنَّه من قَبيلِ المُعجزاتِ. وثانيهما: الإيماءُ إلى أنَّ اللهَ تَعالى يجعَلُ هذا الإسراءَ رمْزًا إلى أنَّ الإسلامَ جمَعَ ما جاءت به شرائعُ التَّوحيدِ والحنيفيَّةِ من عهْدِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، الصَّادر من المسجِدِ الحرامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٥).

والحديث أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إلى ما تفرَّعَ عنه من الشَّرائعِ الَّتي كان مَقرُّها بيتَ المقدسِ، ثمَّ إلى خاتمتِها الَّتي ظهَرَتْ من مكَّةَ أيضًا، فقد صدَرَتِ الحنيفيَّةُ من المسجِدِ الحرامِ، وتفرَّعَتْ في المسجِدِ الأقصى، ثمَّ عادت إلى المسجِدِ الحرامِ كما عاد الإسراءُ إلى مكَّةَ؛ لأنَّ كلَّ سُرًى يعقُبُه تَأويبٌ؛ وبذلك حصَلَ رَدُّ العجُزِ على الصَّدرِ. ومن هنا يظهَرُ مُناسبةُ نُزولِ التَّشريعِ الاجتماعيِّ في هذه السُّورةِ في الآياتِ المُفتتَحَةِ بقولِه تَعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ففيها: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]، ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]، ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥]؛ إيماءً إلى أنَّ هذا الدِّينَ سيكونُ دِينًا يحكُمُ في النَّاسِ وتُنَفَّذُ أحكامُه[١].

١٢- قال الله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ ذكَرَ السَّميعَ هاهنا؛ لينَبِّهَ على أنَّه المجيبُ لدُعائِه، وذَكَر البصيرَ؛ لينَبِّهَ على أنَّه كان الحافِظَ له في ظُلمةِ اللَّيلِ[٢].

١٣- قال الله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ * وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ ...﴾ كَثيرًا ما يَقرِنُ الباري بين نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونُبُوَّةِ مُوسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبَينَ كِتابَيهما وشَريعَتَيهما؛ لأنَّ كِتابَيهما أفضَلُ الكُتُبِ، وشَريعَتَيهما أكمَلُ الشَّرائِعِ، ونُبُوَّتَيهما أعلى النُّبُواتِ، وأتباعَهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥- ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢١٤).

أكثَرُ المُؤمنِينَ[١].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ فيه أنَّ ذرِّيَّةَ نُوحٍ كانوا شِقَّينِ: شِقٌّ بارٌّ مُطيعٌ، وهم الذين حمَلَهم معه في السَّفينةِ؛ وشِقٌّ متكَبِّرٌ كافِرٌ، وهو ولَدُه الذي غَرِق، فكان نوحٌ عليه السَّلامُ مثلًا لأبي فريقَينِ، وكان بنو إسرائيلَ مِن ذريَّةِ الفَريقِ البارِّ، فإن اقتَدَوا به نجَوا، وإن حادوا فقد نزَعوا إلى الفريقِ الآخَرِ، فيُوشِكُ أن يَهلِكوا. وهذا التماثُلُ هو نُكتةُ اختيارِ ذِكرِ نُوحٍ مِن بينِ أجدادِهم الآخَرينَ، مِثل: إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ -عليهم السلامُ- لفواتِ هذا المعنى في أولئك[٢].

١٥- لا خِلافَ بينَ أهلِ اللُّغَةِ أنَّ الذُّرِّيَّةَ تُقالُ على الأولادِ الصِّغارِ وعلى الكِبارِ أيضًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾[٣].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾، في قولِه: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ ما لا يَخْفَى من الدَّلالةِ على التَّنزيهِ البليغِ من حيثُ الاشتقاقُ من السَّبْحِ، الَّذي هو الذَّهابُ والإبعادُ في الأرضِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٤).

- والافتتاحُ بكلمةِ التَّسبيحِ من دونِ سبْقِ كلامٍ مُتضمِّنٍ ما يجِبُ تَنزيهُ اللهِ عنه؛ يُؤذِنُ بأنَّ خبرًا عجيبًا يستقبِلُه السَّامعونَ، دالًّا على عظيمِ القُدرةِ من المُتكلِّمِ، ورَفيعِ مَنزلةِ المُتحدَّثِ عنه[١].

- والتَّعبيرُ عن الذَّاتِ العَلِيَّةِ بطريقِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾ دونَ الاسمِ العَلَمِ (اللَّه)؛ للتَّنبيهِ على ما تُفيدُه صِلَةُ الموصولِ من الإيماءِ إلى وجْهِ هذا التَّعجُّبِ والتَّنويهِ وسبَبِه، ويُفيدُ أنَّ حديثَ الإسراءِ أمْرٌ فَشا بين القومِ؛ فقد آمَنَ به المُسلمونَ، وأكبَرَه المُشركونَ[٢].

- وفي التَّعبيرِ بقولِه: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ دونَ: (بعَثَ بعبْدِه) و(أرسَلَ به) ما يُفيدُ مُصاحبتَه له في مَسْراهُ؛ فإنَّ الباءَ هنا للمُصاحَبةِ، كالباءِ في قولِه: هاجَرَ بأهْلِه، وسافَرَ بغُلامِه، وليست للتَّعديةِ؛ فإنَّ (أسْرى) يتعدَّى بنفْسِه يُقال: أسْرى به وأسراهُ، وهذا لأنَّ ذلك السُّرى كان أعظَمَ أسفارِه، والسَّفرُ يعتمِدُ الصَّاحِبَ؛ ولهذا كان المُسافِرُ يقولُ: ((اللَّهُمَّ أنت الصَّاحِبُ في السَّفرِ))[٣].

وفائدةُ الجمعِ بين الهمزةِ والباءِ: أنَّ الثُّلاثيَّ المُتعدِّيَ بالباءِ يُفْهَمُ منه شيئانِ؛ أحدُهما: صُدورُ الفعلِ من فاعِلِه. الثَّاني: مُصاحبتُه لِمَا دخَلَت عليه الباءُ؛ فإذا قلْتَ: سريتُ بزيدٍ وسافرْتُ به، كان قد وُجِدَ منك السُّرى والسَّفرُ مُصاحبًا لزيدٍ فيه، وأمَّا المُتعدِّي بالهمزةِ، فيَقْتضي إيقاعَ الفعلِ بالمفعولِ فقطْ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ٥٧] ونظائرِه، فإذا قُرِنَ هذا المُتعدِّي بالهمزةِ أفاد إيقاعَ الفعلِ على المفعولِ مع المُصاحبةِ المفهومةِ من الباءِ، ولو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٠).

(٣) أخرجه مسلم (١٣٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أتى فيه بالثُّلاثيِّ فُهِمَ منه معنى المُشاركةِ في مَصْدرِه وهو مُمْتنِعٌ[١].

- وذُكِرَ هنا الإسراءُ فقطْ، ولم يُذْكَرِ العُروجُ بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى السَّماءِ وما كان فيه، ممَّا لا يُكْتَنَهُ كُنْهُه حسبَما نطَقَتْ به سُورةُ (النَّجمِ)؛ تَقريبًا للإسراءِ إلى قَبولِ السَّامعينَ[٢].

- قولُه: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ هذه إضافةُ تَشريفٍ واختصاصٍ[٣]، لا إضافةُ تعريفٍ؛ لأنَّ وَصفَ العُبوديَّةِ لله متحَقِّقٌ لسائِرِ المَخلوقاتِ، فلا تُفيدُ إضافتُه تَعريفًا[٤]، وقال: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ دونَ (نَبيِّه) أو (حبيبِه)؛ لئلَّا تضِلَّ به أُمَّتُه، كما ضَلَّت أُمَّةُ المسيحِ، حيث دعَتْه إلهًا، أو لأنَّ وصْفَه بالعُبوديَّةِ المُضافةِ إلى اللهِ تعالى أشرَفُ المقاماتِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ ذكَرَ اللَّيلَ مع أنَّ الإسراءَ لا يكونُ إلَّا باللَّيلِ؛ لأنَّه أراد بقولِه: ﴿لَيْلًا﴾ بلفظِ التَّنكيرِ تَقليلَ مُدَّةِ الإسراءِ وقِصَرِ زمَنِ الإسراءِ -مع أنَّ بين مكَّةَ وبيتِ المَقدسِ مَسيرةَ أربعينَ ليلةً-؛ وذلك أنَّ التَّنكيرَ فيه قد دَلَّ على معنى البعضيَّةِ؛ فذِكْرُ اللَّيلِ مع أنَّ السُّرى لا يكونُ إلَّا باللَّيلِ يحتمِلُ أمرينِ؛ أوَّلَهما: أنَّ الإسراءَ لمَّا دَلَّ على أمرينِ -أحدُهما: السَّيرُ، والآخَرُ: كونُه ليلًا-، أريدَ إفرادُ أحدِهما بالذِّكرِ؛ تَثبيتًا في نفْسِ المُخاطَبِ، وتَنبيهًا على أنَّه مقصودٌ بالذِّكرِ. وثانيهما: الإشارةُ بتَنكيرِ اللَّيلِ إلى تَقليلِ مُدَّتِه؛ لأنَّ التَّنكيرَ فيه قد دَلَّ على معنى البعضيَّةِ، وهذا

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢).
(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣١٨).

بخلافِ ما لو قيلَ: (أسْرى بعبْدِه اللَّيلَ)؛ فإنَّ التَّركيبَ مع التَّعريفِ يُفيدُ استغراقَ السَّيرِ لجميعِ أجزاءِ اللَّيلِ[١]؛ فلمَّا كان الإسراءُ هو السَّيرَ في اللَّيلِ، وكان الشَّيءُ قد يُطْلَقُ على جُزءِ معناه بدلالةِ التَّضمُّنِ؛ نَفى هذا بقولِه: ﴿لَيْلًا﴾، وليدُلَّ بتنوينِ التَّحقيرِ على أنَّ هذا الأمْرَ الجليلَ كان في جُزءٍ يَسيرٍ من اللَّيلِ، وعلى أنَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يحتَجْ في الإسراءِ والعُروجِ إلى سِدْرةِ المُنْتهى وسماعِ الكلامِ من العلِيِّ الأعلى إلى رياضةٍ؛ بصيامٍ ولا غيرِه، بلْ كان مُهيَّئًا لذلك مُتأهِّلًا له، فأقامه تعالى من الفرشِ إلى العرشِ[٢]. وقيل: إنَّه ذُكِرَ على سبيلِ التَّوكيدِ. وقيل: يعني في جوفِ اللَّيلِ؛ فلم يكُنْ إدْلاجًا ولا ادِّلاجًا[٣]. وقيل: تَنكيرُ ﴿لَيْلًا﴾ للتَّعظيمِ، بقرينةِ الاعتناءِ بذِكْرِه مع علْمِه من فِعْلِ ﴿أَسْرَىٰ﴾، وبقرينةِ عدَمِ تَعريفِه، أي: هو ليلٌ عظيمٌ باعتبارِ جعْلِه زمنًا لذلك السُّرى العظيمِ، فقام التَّنكيرُ هنا مقامَ ما يدُلُّ على التَّعظيمِ. ألَا تَرى كيف احتيجَ إلى الدِّلالةِ على التَّعظيمِ بصِيغَةٍ خاصَّةٍ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١، ٢]، إذ وقَعَتْ ليلةُ القدْرِ غيرَ مُنكَّرةٍ[٤]؟!

- قولُه: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾، أي: الأبعدِ، والمُرادُ: بُعْدُه عن مكَّةَ، بقرينةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣١٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٩).

الإدْلاج: السَّير من أوَّلِ اللَّيلِ. والادِّلاج -بتشديد الدال-: السَّيرُ مِن آخِرِ اللَّيلِ. وقيل: الإدْلاجُ: السير مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ. والادِّلاج: السَّير اللَّيْلَ كُلَّه. وقيل بعَكسِ ذلِك. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٢/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١-١٢).

جعْلِه نِهايةَ الإسراءِ من المسجِدِ الحرامِ، وهو وصْفٌ كاشفٌ اقتضاهُ هنا زِيادةُ التَّنبيهِ على مُعجزةِ هذا الإسراءِ، وكونه خارِقًا للعادةِ؛ لكونِه قطَعَ مسافةً طويلةً في بعضِ ليلةٍ[١].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ صِفةٌ للمسجِدِ الأقصى، وجِيءَ في الصِّفةِ بالموصوليَّةِ؛ لقصْدِ تَشهيرِ الموصوفِ بمَضمونِ الصِّلةِ، حتَّى كأنَّ الموصوفَ مُشتهَرٌ بالصِّلةِ عند السَّامعينَ، والمقصودُ: إفادةُ أنَّه مُبارَكٌ حولَه[٢].

- قولُه: ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ صِيغَةُ المُفاعلةِ هنا ﴿بَٰرَكۡنَا﴾؛ للمُبالغةِ في تَكثيرِ الفعلِ، وكونُ البركةِ حولَه كِنايةٌ عن حُصولِ البركةِ فيه بالأَولى؛ لأنَّها إذا حصلَت حولَه فقد تجاوَزَت ما فيه؛ ففيه لَطيفةُ التَّلازُمِ، ولَطيفةُ فَحْوى الخِطابِ[٣]، ولَطيفةُ المُبالغةِ بالتَّكثيرِ. ولكلمةِ ﴿حَوۡلَهُۥ﴾ في هذه الآيةِ من حُسْنِ الموقعِ ما ليس لكلمةِ (في)؛ لأنَّ (في) لا تُفيدُ انتشارَها وتجاوُزَها منه إلى ما حولَه[٤].

- قولُه: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ تَعليلُ الإسراءِ بإرادةِ إراءةِ الآياتِ الرَّبَّانيَّةِ، تَعليلٌ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠).

(٣) فحوى الخطاب: هو إثباتُ حكمِ المنطوقِ به للمسكوتِ عنه بطريقِ الأولَى، وهو نوعان:
تنبيهٌ بالأقلِّ على الأكثرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣] فإنَّه نبَّه بالنهي عن قولِ أفٍّ على النهيِ عن الشتمِ والضربِ وغيرِ ذلك.
وتنبيهٌ بالأكثرِ على الأقلِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥].
يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩-٢٠). ويُنظر أيضًا: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣١٩).

ببعضِ الحِكَمِ الَّتي لأجْلِها منَحَ اللهُ نَبيَّه مِنحةَ الإسراءِ، ولامُ التَّعليلِ في ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ لا تُفيدُ حصْرَ الغرضِ من مُتعلِّقِها في مَدخولِها، وإنَّما اقتُصِرَ في التَّعليلِ على إراءةِ الآياتِ؛ لأنَّ تلك العِلَّةَ أعلَقُ بتكريمِ المُسْرى به، والعنايةِ بشأنِه؛ لأنَّ إراءةَ الآياتِ تَزيدُ يقينَ الرَّائي بوُجودِها الحاصلِ من قبْلِ الرُّؤيةِ[١].

- والالتفاتُ من الغَيبةِ الَّتي في اسمِ الموصولِ وضميرَيْه في قولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ إلى التَّكلُّمِ في: ﴿بَٰرَكْنَا﴾ [الإسراء: ١]، و﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾؛ لتعظيمِ ما ذُكِر؛ لأنَّ فعلَ العظيمِ يكونُ عظيمًا، لا سيَّما إذا عبَّر عنه بصيغةِ التعظيمِ، والنكتةُ العامةُ تنشيطُ السامعينَ[٢]. وقيل غير ذلك[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فيه الْتِفاتٌ إلى الغَيبةِ؛ لتربيةِ المَهابةِ[٤]، وهو وعيدٌ من اللهِ للكُفَّارِ على تَكذيبِهم محمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أمْرِ الإسراءِ؛ فهي إشارةٌ لطيفةٌ بليغةٌ إلى ذلك، أي: هو السَّميعُ لِمَا تَقولون، البصيرُ بأفعالِكم[٥].

- ومَوقعُ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ التَّوكيدُ والتَّعليلُ، كما يُؤْذِنُ به فصْلُ الجُملةِ عمَّا قبلَها -أي: عدَمُ عطْفِها عليها-، وهذه الجُملةُ مُشتمِلةٌ على صِيغَةِ قَصْرٍ بتعريفِ المُسنَدِ باللَّامِ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾، وبضَميرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠-٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١-٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٩٥- ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١).

الفصْلِ ﴿هُوَ﴾ قصْرًا مُؤكدًا، وهو قصْرُ موصوفٍ على صِفَةٍ قصرًا إضافيًّا للقلْبِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فيه الإخبارُ عن التَّوراةِ بأنَّه هُدًى مُبالغةً؛ لأنَّ الهُدى بسبَبِ العملِ بما فيه، فجُعِلَ كأنَّه نفْسُ الهدى، كقولِه تعالى في القُرآنِ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٢] [البقرة: ٢].

- وخصَّ بني إسرائيلَ؛ لأنَّهم المخاطبونَ بشريعةِ التوراةِ دونَ غيرِهم[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾

- قولُه: ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ انتصَبَ على الاختصاصِ -على أحدِ الأقوالِ-؛ لزيادةِ بَيانِ بني إسرائيلَ بيانًا مقصودًا به التَّعريضُ بهم؛ إذ لم يَشْكروا النِّعمةَ. وفي اختيارِ وصْفِهم بأنَّهم ذُرِّيَّةُ مَن حُمِلَ مع نوحٍ عليه السَّلامُ معانٍ عظيمةٌ من التَّذكيرِ والتَّحريضِ والتَّعريضِ؛ لأنَّ بني إسرائيلَ من ذُرِّيَّةِ سامِ بنِ نوحٍ، وكان سامٌ ممَّن ركِبَ السَّفينةَ، وإنَّما لم يقُلْ: (ذُرِّيَّةَ نوحٍ) مع أنَّهم كذلك؛ قصدًا لإدماجِ التَّذكيرِ بنِعمةِ إنجاءِ أُصولِهم من الغرَقِ[٤].

- في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ أُكِّدَ كونُ نوحٍ كان عبدًا شكورًا بحرفِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١-٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥-٢٦).

(إنَّ) تَنزيلًا لهم منزلةَ مَن يجهَلُ ذلك؛ إمَّا لتوثيقِ حمْلِهم على الاقتداءِ به إنْ كانتِ الجُملةُ خِطابًا لبني إسرائيلَ مِن تمامِ الجُملةِ التَّفسيريَّةِ، وإمَّا لتَنزيلِهم منزلةَ مَن جهِلَ ذلك حتَّى تورَّطوا في الفسادِ، فاسْتَأْهلوا الاستئصالَ، وذَهابَ مُلكِهم؛ لينتقِلَ منه إلى التَّعريضِ بالمُشركينَ من العربِ بأنَّهم غيرُ مُقتدينَ بنوحٍ؛ لأنَّ مثَلَهم ومثَلَ بني إسرائيلَ في هذا السِّياقِ واحدٌ في جميعِ أحوالِهم، فيكونُ التَّأكيدُ منظورًا فيه إلى المعنى التَّعريضيِّ[(١)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ مُفيدةٌ تَعليلَ النَّهيِ عن أنْ يتَّخِذوا من دونِ اللهِ وكيلًا؛ لأنَّ أجدادَهم حُمِلُوا مع نوحٍ بنعمةٍ من اللهِ عليهم لنجاتِهم من الغرَقِ، وكان نوحٌ عبدًا شكورًا، والَّذين حُمِلُوا معه كانوا شاكرينَ مثْلَه، أي: فاقْتَدوا بهم ولا تَكْفروا نِعَمَ اللهِ[(٢)].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٦).

الآيات (٤-٨)

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَقَضَيْنَآ﴾: أي: أخبَرْنا وأعلَمْنا، فهذا قضاءٌ بالإعلامِ والفصلِ في الحكمِ، والقضاءُ: فَصْلُ الأمْرِ؛ قولًا كان ذلِك أو فِعلًا، وأصلُ (قضي): يَدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِه، وإنفاذِه لجِهتِه[1].

﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾: أي: طافُوا بينَ الدِّيارِ يَطلُبونَكم ويَقتُلونَكم ذاهِبينَ وجائِينَ، ومنه: الجَوسُ: وهو التَّردُّد خِلالَ الدُّورِ والبُيوتِ بالفَسادِ في الغارةِ ونحوِها، وأصلُ (جوس): يَدُلُّ على تَخَلُّلِ الشَّيءِ، وأصلُ الخلالِ: مِن الخَلَلِ: وهو الفُرجةُ بينَ الشيئينِ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٦٨) (١٣/ ٢٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٤)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٢٤٩).

﴿ٱلۡكَرَّةَ﴾: الرَّجْعةَ والدَّوْلةَ، وأصلُ (كرر): يدُلُّ على العَطفِ والرُّجوعِ[١].

﴿نَفِيرًا﴾: أي: عَددًا، وأصلُه مَن يَنفِرُ مع الرَّجُلِ مِنْ عَشيرتِه وأهلِ بَيتِه، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على الانزِعاجِ والفَزَعِ إلى الشَّيءِ[٢].

﴿لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾: أي: ليَجعَلوا آثارَ المَساءةِ مِن غَمٍّ وحُزنٍ باديةً على وجوهِكم، يقال: ساءه يَسوؤُه، أي: غَمَّه وأحزَنَه[٣].

﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾: أي: لِيُدَمِّروا ويُخَرِّبوا، وأصلُ (تبر): يدُلُّ على هَلاكٍ[٤].

﴿مَا عَلَوۡاْ﴾: أي: ما غَلَبوا عليه مِن الأقطارِ، ومَلَكوه مِن البِلادِ، وأصلُ العُلُوِّ هنا: يدُلُّ على الاستِيلاءِ والغَلَبِ[٥].

﴿حَصِيرًا﴾: أي: محبِسًا وسِجنًا[٦]، مِن حَصَرْتُه، أي: حبسْتُه. أو: بساطًا ومهادًا،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥١)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٩/ ٣٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، إلى ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧).

(٦) قال الواحدي: (﴿حَصِيرًا﴾، أي: محبِسًا ومحصِرًا، وهو قولُ جميعِ أهلِ اللغةِ). ((البسيط)) (١٣/ ٢٦٧).

مِن الحصيرِ، أي: البِساطِ الصَّغيرِ، وأصلُ (حصر): يدلُّ على حَبسٍ ومَنعٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وأعْلَمْنا بني إسرائيلَ في التَّوراةِ أنَّهم سيُفسِدون مَرَّتينِ في الأرضِ وسيستكبرونَ بغيرِ حقٍّ استكبارًا شديدًا. فإذا حان وَقتُ عُقوبتِكم على إفسادِكم الأوَّلِ سَلَّطْنا عليكم عِبادًا لنا ذَوي شَجاعةٍ وقُوَّةٍ شَديدةٍ، فطافوا بينَ دِيارِكم يقتُلونَكم ويُشَرِّدونَكم، وكان ذلك وَعدًا لا بدَّ مِن وُقوعِه، ثمَّ رَدَدْنا لكم -يا بني إسرائيلَ- الغَلَبَةَ والظُّهورَ على أعدائِكم الذينَ سُلِّطوا عليكم، وأعطيناكم الأموالَ والأولادَ بكثرةٍ، وقَوَّيناكم وجَعَلْناكم أكثَرَ جُندًا مِن عَدوِّكم. ثم قال تعالى: إنْ أحسَنْتُم -يا بني إسرائيلَ- فقد أحسَنتُم لأنفُسِكم؛ لأنَّ ثَوابَ ذلك عائِدٌ إليكم، وإن أسأْتُم فضرَرُ ذلك عائِدٌ عليكم.

فإذا حان مَوعِدُ العُقوبةِ على إفسادِكم الثَّاني، سَلَّطْنا عليكم أعداءَكم مَرَّةً أخرى؛ لِيُذِلُّوكم ويَقهَروكم، فتبدوَ آثارُ الكآبةِ والإهانةِ والمَذلَّةِ على وُجوهِكم، ولِيَدخُلوا مسجِدَ بيتِ المَقدِسِ، كما دخَلوه أوَّلَ مَرَّةٍ، ولِيُدَمِّروا كُلَّ ما ظهَروا عليه تَدميرًا كامِلًا.

ثم قال تعالى: عسَى رَبُّكم -يا بني إسرائيلَ- أن يَرحَمَكم بعدَ انتِقامِه إنْ تُبتُم وأصلَحْتُم، وإن عُدتُم إلى الإفسادِ والظُّلمِ عُدْنا إلى عِقابِكم ومَذَلَّتِكم. وجعَلْنا جَهنَّمَ للكافرينَ سِجنًا لا يخرجون منها أبدًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

هذه الآيةُ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: آتَينا موسى الكِتابَ هُدًى، وبيَّنَّا لبني إسرائيلَ في الكتابِ ما يحُلُّ بهم مِن جَرَّاءِ مُخالفةِ هَديِ التَّوراةِ؛ إعلامًا لهذه الأمَّةِ بأنَّ اللهَ لم يدَّخِرْ أولئك إرشادًا ونُصحًا؛ فالمناسَبةُ ظاهِرةٌ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إنعامَه على بني إسرائيلَ بإنزالِ التَّوراةِ عليهم، وبأنَّه جعَلَ التَّوراةَ هُدًى لهم؛ بيَّن أنَّهم ما اهتَدَوا بهُداه، بل وقَعُوا في الفَسادِ؛ فقال تعالى[٢]:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾.

أي: وأعلَمْنا بني إسرائيلَ في التَّوراةِ[٣] -بما سبَقَ في عِلْمِنا- أنَّهم سيُفسِدونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٩٩).

(٣) وممَّن ذهب إلى هذا المعنى لـ﴿قَضَيْنَا﴾ و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: ابنُ جريرٍ، والواحدي، وابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٤).

وممن قال بهذا القولِ في معنى ﴿قَضَيْنَا﴾ مِن السلفِ: ابنُ عباس في روايةٍ عنه، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٥٥).

قال ابن جزي: (وقيل: قَضَينا إليه من القضاءِ والقَدَر، والكتابُ على هذا: اللَّوحُ المحفوظُ

في الأرضِ مَرَّتَينِ؛ بالكُفرِ والمعاصي، ومُخالَفةِ أحكامِ التَّوراةِ[١].

الذي كُتِبَت فيه مقاديرُ الأشياءِ، وإلى بمعنى على ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ هذه الجملةُ بيانٌ للمَقضيِّ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤١). وممن اختار هذا القولَ: القاسمي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٤١- ٤٤٢).

وممن قال مِن السلفِ بنحوِ هذا القولِ في ﴿قَضَيْنَا﴾: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٥٥)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٠).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (تلخيصُ المعنى عندي أنَّ هذا الأمرَ هو مِمَّا قضاه اللهُ تعالى في أمِّ الكِتابِ على بني إسرائيلَ، وألزَمَهم إيَّاه، ثمَّ أخبَرَهم به في التَّوراةِ على لسانِ موسى، فلمَّا أراد هنا الإعلامَ لنا بالأمرينِ جميعًا في إيجازٍ، جعَلَ (قَضَيْنا) دالَّةً على النُّفوذِ في أمِّ الكتاب، وقرَنَ بها [إلى] دالَّةً على إنزالِ الخَبرِ بذلك إلى بني إسرائيلَ، والمعنى المقصودُ مَفهومٌ خِلالَ هذه الألفاظِ؛ ولهذا فسَّرَ ابنُ عبَّاسٍ مَرَّةً بأن قال: ﴿قَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ معناه: أعلَمْناهم، وقال مَرَّةً: معناه: قَضَينا عليهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨).

وقيل: المرادُ بالأرضِ هنا: أرضُ الشَّامِ، وبيتُ المقدِس. وممَّن ذهب إلى ذلك: القرطبي، والخازن، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٤٩).

وقيل: هي أرضُ مِصرَ. وممَّن قال بذلك: الواحدي، وابنُ الجوزي، والرازي، والرسعني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٢٥).

قال ابنُ تيميةَ: (كانت الأولى بعد سُلَيمانَ، وكانت الثَّانيةُ بعد زكريَّا ويحيى والمسيحِ، لَمَّا قتلوا يحيى بن زكريَّا الذي يسَمِّيه أهلُ الكِتابِ يوحنَّا المَعمداني. وكثيرٌ مِن المذكورين بالعِلمِ يظُنُّ أنَّ بُختنَصَّر هو الذي قَدِمَ الشَّامَ لَمَّا قتل يحيى بن زكريا، وهذا عند أهلِ العِلمِ مِن أهلِ الكتابِ وعندَ مَن له خبرةٌ مِن عُلَماءِ المُسلِمينَ: باطِلٌ. والمتواتِرُ أنَّ بختنَصَّر هو الذي قَدِمَ في المرَّةِ الأولى). ((الجواب الصحيح)) (٦/ ٣٣٨).

﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

أي: وأعلمناهم أيضًا أنَّهم سَيَستَكبِرونَ على اللهِ بمُخالفةِ أمرِه، والتَّجَبُّرِ على عبادِه، استكبارًا وطُغيانًا شَديدًا[1].

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

أي: فإذا حان وَقتُ عُقوبتِكم -يا بَني إسرائيلَ- على أُولى المَرَّتَينِ اللَّتَينِ تُفسِدونَ فيهما في الأرضِ؛ سَلَّطنا عليكم جُنْدًا مِن خَلْقِنا، أصحابَ بَطشٍ وقُوَّةٍ شَديدةٍ[2].

وممن قال مِن السلفِ أنَّ أولَ الفسادينِ كان قتلَ زكريَّا: ابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٥٦)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٢٩).

وقال الماوردي: (أمَّا المقتولُ مِن الأنبياءِ في الفَسادِ الثَّاني فيحيى بنُ زكريَّا في قَولِ الجميعِ). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٥٤، ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٨/ ٢٩١).

قال السعدي: (اختلف المُفَسِّرونَ في تَعيينِ هؤلاء المُسَلَّطينَ، إلَّا أنَّهم اتَّفَقوا على أنَّهم قَومٌ كُفَّارٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

وقال ابنُ تيمية: (بيتُ المَقدِس خُرِّبَ مَرَّتين؛ فالخرابُ الأوَّلُ: لَمَّا جاء بُختنَصَّر وسَباهم إلى بابل وبَقِيَ خرابًا سبعين سنة، والخرابُ الثاني: بعد المسيحِ بنَحوِ سَبعينَ سَنةً... فبعد الخَرابِ الثَّاني تَفَرَّقوا في الأرض ولم يَبقَ لهم مُلكٌ). ((الجواب الصحيح)) (٥/ ٩٤، ٩٥).

وقال ابن عاشور: (هذه الآيةُ تُشيرُ إلى حوادثَ عظيمةٍ بينَ بني إسرائيلَ وأعدائِهم مِن أمَّتين عظيمتينِ: حوادث بينَهم وبينَ البابليينَ، وحوادث بينَهم وبينَ الرُّومانيينَ... فالمرةُ الأُولَى هي

﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾.

أي: فطاف الجُنودُ الذين سَلَّطَهم اللهُ على بني إسرائيلَ بينَ دُورِهم يتَرَدَّدونَ بينها جَيْئةً وذَهابًا لِقَتلِهم(١).

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

مجموعُ حوادثَ متسلسلةٍ، تُسمَّى في التاريخِ بـ «الأسر البابلي»، وهي غزواتُ بُختنَصَّر -ملكِ بابلَ وآشورَ- بلادَ أورشليمَ. والغزوُ الأوَّلُ كان سنةَ «٦٠٦» قبلَ المسيحِ، أسَر جماعاتٍ كثيرةً مِن اليهودِ، ويُسمَّى «الأسر الأول». ثم غزاهم أيضًا غزوًا يُسمَّى «الأسر الثاني»، وهو أعظمُ مِن الأوَّلِ، كان سنة «٥٩٨» قبلَ المسيحِ، وأسَر ملكَ يهوذا وجمعًا غفيرًا مِن الإسرائيليينَ، وأخَذ الذهبَ الذي في هيكلِ سليمانَ وما فيه مِن الآنيةِ النفيسةِ. والأسرُ الثالثُ المبير سنة «٥٨٨» قبلَ المسيحِ، غزاهم بُختنَصَّر، وسبى كلَّ شعبِ يهوذا، وأحرَق هيكلَ سليمانَ، وبقِيت أورشليمُ خرابًا يبابًا... وأما المرة الثانيةُ فهي سلسلةُ غزواتِ الرومانيينَ بلادَ أورشليمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩، ٣٠).

وقال ابن كثير: (وقد اختلف المفسِّرون من السَّلَفِ والخلَفِ في هؤلاء المسلَّطين عليهم: مَن هم؟... وقد وردت في هذا آثارٌ كثيرة إسرائيلية... منها ما هو موضوع مِن وضعِ بعضِ زنادقتِهم، ومنها ما قد يحتمِلُ أن يكونَ صحيحًا، ونحن في غنيةٍ عنها، ولله الحمد. وفيما قصَّ الله تعالى علينا في كتابه غنيةٌ عما سواه من بقية الكتبِ قبله، ولم يحوِجْنا اللهُ ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله تعالى أنَّهم لَمَّا بَغَوا وطغَوا سلَّط الله عليهم عدوَّهم، فاستباح بيضتَهم، وسلك خلال بيوتِهم وأذلَّهم وقهرهم؛ جزاءً وِفاقًا، وما ربُّك بظلامٍ للعبيد؛ فإنَّهم كانوا قد تمرَّدوا وقتلوا خلقًا من الأنبياء والعلماء). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧).

وقال الرازي: (اعلَمْ أنَّه لا يتعَلَّقُ كَثيرُ غَرَضٍ في معرفةِ أولئك الأقوامِ بأعيانهم، بل المقصودُ هو أنَّهم لَمَّا أكثَروا من المعاصي، سَلَّط عليهم أقوامًا قَتَلوهم وأفنَوْهم... والله أعلَمُ بأحوالِهم، ولا يتعَلَّقُ غَرَضٌ مِن أغراضِ تَفسيرِ القُرآنِ بمَعرفةِ أعيانِ هؤلاء الأقوامِ). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٠، ٣٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٠، ٤٧١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٨).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ يعني: دِيارَ بَيتِ المَقدِسِ). ((البسيط)) (١٣/ ٢٥٧).

أي: وكان تَسليطُ اللهِ أولئك الجُنودَ على بني إسرائيلَ قَضاءً كائِنًا لا بُدَّ مِن وُقوعِه[١].

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ سُبحانَه أنَّه قادِرٌ على إذلالِ العَزيزِ بعد ضَخامةِ عِزِّه؛ بيَّنَ أنَّه مُقتَدِرٌ على إدالتِه على مَن قَهَرَه بعدَ طولِ ذُلِّه إذا نَقَّاه مِن دَرَنِه، وهَذَّبَه مِن ذُنوبِه، فقال الله تعالى[٢]:

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾.

أي: ثمَّ أرْجَعْنا لكم -يا بني إسرائيلَ- الغَلَبَةَ والنَّصرَ على أعدائِكم الذينَ غَلَبوكم وقَهَروكم، لَمَّا تُبتُم مِن الفسَادِ والطُّغيانِ والاستِكْبارِ، وأطعتُم[٣].

﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾.

أي: وأعْطَيناكم -يا بني إسرائيلَ- الأموالَ والبَنينَ بزِيادةٍ وكَثرةٍ[٤].

﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

أي: وصيَّرناكم أكثَرَ جُندًا مِن عَدُوِّكم[١].

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى حكَى عن بني إسرائيلَ أنَّهم لَمَّا عَصَوا سَلَّطَ عليهم أقوامًا قَصَدوهم بالقَتلِ والنَّهبِ والسَّبْيِ، ولَمَّا تابوا أزال عنهم تلك المِحنةَ، وأعاد عليهم الدَّولةَ، فعند ذلك ظهَرَ أنَّهم إن أطاعوا فقد أحسَنوا إلى أنفُسِهم، وإن أصَرُّوا على المعصيةِ فقد أساؤوا إلى أنفُسِهم[٢].

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾.

أي: إنْ أطَعْتُم اللهَ -يا بني إسرائيلَ- فإحسانُكم هذا عائِدٌ إليكم، وبه تَنفَعونَ أنفُسَكم، فيَزيدُكم اللهُ مِن الرِّزقِ والقُوَّةِ، ويُدافِعُ عنكم، ويُدخِلُكم الجَنَّةَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٥- ٦٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

وممن قال بالقولِ المذكورِ: ابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: أكثَر عَددًا مِمَّا كُنتُم عليه مِن قَبلُ. وممَّن قال بهذا: البيضاوي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٤).

وقال سُبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

أي: وإنْ عَصَيتُم اللهَ فعلى أنفُسِكم ضَرَرُ إساءتِكم، فيُسَلِّطُ اللهُ عليكم في الدُّنيا أعداءَكم، ويُعَذِّبُكم في الآخرةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾.

أي: فإذا حانَ وَقتُ عُقوبتِكم -يا بني إسرائيلَ- جرَّاءَ إفسادِكم في المَرَّةِ الثَّانيةِ، سَلَّطْنا عليكم عبادًا لنا؛ ليَجعَلُوا آثارَ الحُزنِ والكآبةِ بادِيةً في وُجوهِكم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٤).

وذلك بقَتلِكم وسَبْيِكم وقَهْرِكم وإذلالِكم[١].

﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: وَلِيَدخُلوا مَسجِدَ بَيتِ المَقدِسِ فيُخَرِّبوه قَهرًا وغَلَبةً وإذلالًا لكم، كما دخَلوه في المَرَّةِ الأولى حينَ عاقَبْناكم على إفسادِكم الأوَّلِ، فدَخَلوا المسجِدَ بالغَلَبةِ وخرَّبوه، وجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ يَقتُلونَكم[٢].

﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾.

أي: ولِيُدَمِّرُوا كُلَّ ما غَلَبوا وظَهَروا عليه مِن بِلادِكم تَدميرًا، فيُخَرِّبوا بَيتَ المَقدِسِ وبُيوتَكم ومَزارِعَكم[٣].

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾.

أي: لعلَّ اللهَ -يا بني إسرائيلَ- يَرحَمُكم بعدَ انتقامِه منكم، فيُنقِذُكم، ويُعِزُّكم بعدَ ذُلِّكم، ويَجعَلُ لكم قُوَّةً، ويردُّ الدولةَ إليكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨)، ((فتح البيان)) للقنوجي (٧/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ١١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

قال ابنُ جرير: (و«عسى» مِن الله: واجِبٌ. وفعَلَ اللهُ ذلك بهم، فكَثَّرَ عَدَدَهم بعدَ ذلك، ورفَعَ

﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾.

أي: وإن رجَعْتُم إلى الإفسادِ في الأرضِ بمَعصيتي بعد رَحمتي لكم، رجَعْتُ إلى انتِقامي منكم، فسلَّطتُ عليكم مرَّةً أخرَى مَن يقتُلُكم ويُذِلُّكم(١).

خَساسَتَهم، وجعل منهم المُلوكَ والأنبياءَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٠٥). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

وقال ابنُ عطية: (و«عسى» تَرَجٍّ في حَقِّهم، وهذه العِدَةُ ليست برُجوعِ دَولةٍ، وإنَّما هي بأنْ يَرحَمَ المُطيعَ منهم، وكان مِن الطاعةِ اتِّباعُهم لعيسى ومُحمَّدٍ، فلم يفعلوا وعادوا إلى الكُفرِ والمَعصيةِ، فعاد عِقابُ اللهِ، فضَرَبَ عليهم الذُّلَّ، وقتَلَهم وأذَلَّهم بيَدِ كُلِّ أمَّةٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٠).

قال القاسمي: (قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي: إذا أخلصتُم للإنابةِ، وأحسنتُم الأعمال، وأقمتُم الكتابَ وما نزَل إليكم؛ لأنَّكم علمتُم مِن سنتِه تعالى أنَّه لا يُنزلُ بلاءً إلا بذنبٍ، ولا يرفعُه إلا بتوبةٍ، ولذا قال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ أي: بعدَ هذه التوبةِ والإنابةِ إلى الاستكبارِ ﴿عُدْنَا﴾ أي: إلى تسليطِ الأعداءِ، وسلبِ الأموالِ والأولادِ في الدنيا). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٠٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

قال ابن جُزَيٍّ: (قد عادُوا فبعَثَ الله عليهم محمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأمَّتَه يَقتُلونَهم ويُذِلُّونَهم إلى يومِ القيامةِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٢).

وممَّن قال بأنَّهم قد عادوا للفسادِ فسلَّط الله تعالى عليهم محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم: البيضاوي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

قال الشنقيطي: (ولم يبيِّنْ هنا: هل عادوا للإفسادِ المرةَ الثالثة أو لا، ولكنَّه أشار في آياتٍ أخَرَ إلى أنَّهم عادوا للإفساد بتكذيب الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكتْمِ صفاتِه ونقضِ عهودِه، ومظاهرةِ عدوِّه عليه، إلى غير ذلك من أفعالهم القبيحة. فعاد اللهُ جل وعلا للانتقام منهم؛ تصديقًا لقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ فسلَّط عليهم نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمين، فجرى على بني قريظةَ والنضيرِ وبني قَينقاعَ وخيبر ما جرى من القَتلِ والسبيِ والإجلاء، وضَرْب الجزية على من بقي منهم، وضَرْب الذِّلَّة والمسكنة. فمن الآيات الدالة على أنهم عادوا للإفسادِ قَولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ

كما قال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِي الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم

كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ * بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠]، وقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ...﴾ [البقرة: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، ونحو ذلك من الآيات. ومن الآياتِ الدالَّةِ على أنه تعالى عاد للانتقامِ منهم قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ * وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢، ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧]، ونحو ذلك من الآيات). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٥-١٦).

قال: ((تُقاتِلُكم اليَهودُ، فتُسَلَّطونَ عليهم، حتى يقولَ الحَجَرُ: يا مُسلِمُ، هذا يَهوديٌّ ورائي فاقتُلْه))(١).

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾.

أي: وجَعَلْنا جَهنَّمَ للكافرينَ سِجنًا ومحبِسًا، لا يَستَطيعونَ الخُروجَ منها أبدًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾

---

(١) رواه البخاري (٣٥٩٣)، ومسلم (٢٩٢١) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٥٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٩).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ قال ابنُ عباسٍ والمفسرونَ كلُّهم: سِجنًا ومحبِسًا). ((البسيط)) (١٣/ ٢٦٧).

وقال الشنقيطي: (في قَولِه: ﴿حَصِيرًا﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ وجهانِ من التفسيرِ معروفان عند العلماء، كلٌّ منهما يشهد لمعناه قرآن...

الأولُ: أن الحصير: المحبِسُ والسِّجنُ، من الحَصرِ وهو الحبس... وهذا الوجه يدُلُّ له قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، ونحو ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أنَّ معنى حصيرًا: فراشٌ ومِهادٌ، من الحصيرِ الذي يُفرَشُ؛ لأنَّ العرب تسمِّي البساطَ الصغير حصيرًا. قال الثعلبي: وهو وجهٌ حسن. ويدُلُّ لهذا الوجه قولُه تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، ونحو ذلك من الآيات. والمهاد: الفراش). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٦). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٨٦).

وممن قال بالقولِ الثاني: الحسنُ البصري، واختاره ابنُ جرير، فقال: (والصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: معنى ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ فراشًا ومِهادًا لا يزايلُه، من الحصيرِ الذي بمعنى البِساطِ؛ لأنَّ ذلك إذا كان كذلك كان جامعًا معنى الحبسِ والامتهاد، مع أنَّ الحصير بمعنى البساطِ في كلامِ العربِ أشهَرُ منه بمعنى الحبسِ... فلذلك قلتُ: قول الحسن أولى بالصوابِ في ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٠).

[الفرقان: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤- ٦٥].

الفَوائِدُ التربويَّة:

قَولُ الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ فيه التَّحذيرُ لهذه الأمَّةِ مِن العَمَلِ بالمعاصي؛ لِئَلَّا يُصيبَهم ما أصابَ بني إسرائيلَ؛ فسُنَّةُ اللهِ واحِدةٌ لا تُبَدَّلُ ولا تُغَيَّرُ، ومَن نظَرَ إلى تَسليطِ الكَفَرةِ والظَّلَمةِ على المُسلِمينَ، عَرَف أنَّ ذلك مِن أجْلِ ذُنوبِهم عُقوبةً لهم، وأنَّهم إذا أقاموا كِتابَ اللهِ وسُنَّةَ رَسولِه، مكَّنَ لهم في الأرضِ ونصَرَهم على أعدائِهم[1]، فلَمَّا كان أهلُ المَشرِقِ قائِمينَ بالإسلامِ، كانوا مَنصورينَ على الكُفَّارِ المُشرِكينَ مِن التُّركِ والهِندِ والصِّينِ وغَيرِهم، فلمَّا ظهَرَ منهم ما ظهَرَ مِن البِدَعِ والإلحادِ والفُجورِ، سَلَّط عليهم الكُفَّارَ، فهذا هولاكو مَلِكُ التُّركِ التَّتار الذي قهَرَ الخَليفةَ بالعِراقِ، وقَتَل ببغدادَ مَقتلةً عَظيمةً جِدًّا، يقال: قتَلَ منهم ألفَ ألفٍ، وكذلك قتَلَ بحَلَب دارِ المُلْك حينئذٍ، كان بعضُ المشايخِ يَقولُ فيه: هو للمُسلِمينَ بمَنزلةِ بُختنَصَّر لبني إسرائيلَ، وكان مِن أسبابِ دُخولِ هؤلاء دِيارَ المُسلِمينَ ظُهورُ الإلحادِ والنِّفاقِ والبِدَعِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٧٩-١٨٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- البَعثُ في قَولِه تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ ﴾ هو بعثٌ كَونيٌّ، ويُقابِلُه البَعثُ الدِّينيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾[1] [الجمعة: ٢].

٢- كُلُّ ما تَراه في الوُجودِ مِن شَرٍّ وألَمٍ، وعُقوبةٍ وجَدْبٍ، ونَقصٍ في نَفسِك وفي غَيرِك؛ فهو مِن قِيامِ الرَّبِّ تبارَكَ تعالى بالقِسطِ، وهو عَدْلُ اللهِ وقِسطُه، وإنْ أجراه على يَدِ ظالِمٍ؛ فالمُسَلِّطُ له أعدَلُ العادلينَ، كما قال تعالى لِمَن أفسَدَ في الأرضِ: ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴾ دَلالةٌ على أنَّ قُبورَ الصَّالحينَ أو الأنبياءِ التي في المَدائِنِ والقُرى، لا تَدفعُ البلاءَ عن أهْلِها؛ لأنَّه مِن المَعلومِ أنَّ في بيتِ المَقدِسِ وما حولَه مِن قُبورِ الأنبياءِ ما هو أكثرُ مِن غَيرِه مِن هذه القُبورِ، ومع ذلك لَمَّا غَلَوا وأفسَدوا عاقبَهم اللهُ بذُنوبِهم، وسَلَّطَ عليهم العَدُوَّ الذي جَاسَ خِلالَ الدِّيارِ، ودخلَ المَسجِدَ وقَتلَ فيهم مَن لا يُحصي عَدَدَه إلَّا اللهُ، فلم يَمنَعْهم أحدٌ مِن قُبورِ الأنبياءِ التي كانت هناك! فاللهُ تعالى هو الذي يَرزُقُهم ويَنصُرُهم، لا رازِقَ غيرُه ولا ناصِرَ إلَّا هو[3].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا ﴾ هذه

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ١٨٩- ١٩٣).

الآيةُ تدُلُّ على أنَّ رَحمةَ الله تعالى غالبةٌ على غَضَبِه، بدليلِ أنَّه لَمَّا حكى عنهم الإحسانَ أعاده مرَّتينِ، فقال: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، ولَمَّا حكى عنهم الإساءةَ اقتصَرَ على ذِكرِها مرَّةً واحِدةً، فقال: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، ولولا أنَّ جانِبَ الرَّحمةِ غالِبٌ لَما كان كذلك[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بـ(الكِتاب) كِتابَ التَّوراةِ، والتَّعريفُ للعهدِ الذِّكري، حيثُ ذُكِرَ قَبْلَه في قولِه: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ فيكونُ فيه عُدولٌ عن الإضمارِ إلى إظهارِ لفظِ (الكتابِ) لمُجرَّدِ الاهتمامِ. ويجوزُ أنْ يكونَ (الكتابُ) بعضَ كُتبِهم الدِّينيَّةِ؛ فيكونُ تَعريفُ (الكتابِ) تَعريفَ الجِنسِ، وليس تَعريفَ العهدِ الذِّكريِّ؛ إذ ليس هو الكتابَ المذكورَ آنفًا في قولِه: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لأنَّه لمَّا أظهَرَ اسمَ الكتابِ أشعَرَ بأنَّه كتابٌ آخَرُ من كُتبِهم[2].

- وجُملةُ ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ إلى قولِه: ﴿حَصِيرًا﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨).

قال ابن عاشور: (ضمائرُ الخطابِ في هذه الجملةِ مانعةٌ مِن أنْ يكونَ المرادُ بالكتابِ في قولِه تعالَى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ اللَّوحَ المحفوظَ، أو: كتابَ اللَّهِ، أي: علمَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩).

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ ﴾[١].

- وقولُه: ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ جوابُ قسَمٍ محذوفٍ، إن كان ﴿قَضَيْنَا﴾ بمعنَى (أعْلَمْنا). ويجوزُ أنْ يُجْرى القضاءُ المحتومُ مَجْرى القسَمِ، فيكونُ ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ جوابًا له، كأنَّه قال: وأقْسَمنا لتُفسِدُنَّ، وذلك إذا كان ﴿قَضَيْنَا﴾ مِن القضاءِ والقدرِ[٢].

- وإسنادُ الإفسادِ إلى ضَميرِ بني إسرائيلَ مُفيدٌ أنَّه إفسادٌ من جُمهورِهم، بحيث تُعَدُّ الأُمَّةُ كلُّها مُفسدةً وإنْ كانت لا تَخْلو من صالحِينَ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾

- قولُه: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ ﴾ إضافةُ ﴿وَعْدُ﴾ إلى ﴿ أُولَىٰهُمَا ﴾ بَيانيَّةٌ، أي: الموعودُ الَّذي هو أُولى المرَّتَينِ من الإفسادِ والعُلُوِّ[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

- قولُه: ﴿رَدَدْنَا﴾ جعَلَ ﴿رَدَدْنَا﴾ مَوضِعَ (نرُدُّ)؛ إذ وقْتُ إخبارِهم لم يقَعِ الأمْرُ بعدُ، لكنَّه لمَّا كان وعْدُ اللهِ في غايةِ الثِّقةِ أنَّه يقَعُ، عُبِّرَ عن مُستقبلِه بالماضي[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤).

٤- قَولُه تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ فيه ذِكْرُ الإساءةِ باللَّامِ في قولِه: ﴿فَلَهَا﴾؛ ازْدواجًا، أي: قابَلَ قولَه: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ بقولِه: ﴿فَلَهَا﴾؛ فاللامُ على بابِها؛ لأنَّها للاختِصاصِ، والعامِلُ مُختَصٌّ بجَزاءِ عَملِه حَسَنِه وسيِّئِه. وقيل: اللَّامُ بمعنى (إلى)، أي: فإليها ترجِعُ الإساءةُ. وقيل: اللَّامُ بمعنى (على)، أي: فعَلَيها[1].

- قولُه: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ تفريعٌ على قولِه: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾؛ إذ تَقديرُ الكلامِ: فإذا أسأتُمْ، وجاء وعْدُ المرَّةِ الآخرةِ. وقد حصَلَ بهذا التَّفريعِ إيجازٌ بَديعٌ قضاءً لحقِّ التَّقسيمِ الأوَّلِ في قولِه: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾، ولحَقِّ إفادةِ تَرتُّبِ مَجيءِ وعْدِ الآخرةِ على الإساءةِ، ولو عُطِفَ بالواوِ -كما هو مُقْتضى ظاهرِ التَّقسيمِ إلى مَرَّتينِ- فاتت إفادةُ التَّرتُّبِ والتَّفرُّعِ[2].

- قولُه: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾، أي: بعَثْناهم ليَسُوؤا وُجوهَكم؛ فحُذِفَ (بعَثْناهم)؛ لدلالةِ ذكْرِه أوَّلًا عليه[3]. وخُصَّتِ المَساءةُ بالوُجوهِ -والمُرادُ: أصحابُ الوجوهِ-؛ لِما يَبْدو عليها من أثَرِ الحُزنِ والكآبةِ[4]، فآثارُ الأعراضِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٨١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١١).

النَّفسانيَّةِ الحاصِلة في القَلبِ إنَّما تَظهَرُ على الوَجهِ، فإنْ حَصَل الفَرَحُ في القَلبِ، ظَهَرَت النَّضْرةُ والإشراقُ والإسفارُ في الوَجهِ، وإن حصل الحُزنُ والخَوفُ في القَلبِ، ظهَرَ الكُلوحُ والغَبْرةُ والسَّوادُ في الوَجهِ؛ فلهذا السَّبَبِ عُزِيَت الإساءةُ إلى الوُجوهِ في هذه الآيةِ[١].

- وقَولُه تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قيل: هذا تعريضٌ بالتَّهديدِ لقُرَيشٍ بأنَّهم إن لم يَرجِعوا أبدَلَ أمْنَهم في الحَرمِ خَوفًا وعِزَّهم ذلًّا، فأدخَلَ عليهم جنودًا لا قِبَلَ لهم بها، وقد فعَلَ ذلك عامَ الفَتحِ، لكِنَّه فِعلُ إكرامٍ لا إهانةٍ، ببرَكةِ هذا النبيِّ الكريمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، حيث عُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (وجعَلْنا جهنَّمَ لكم)؛ تَسجيلًا على كُفْرِهم بالعَودِ، وذَمًّا لهم بذلك، وإشعارًا بعلَّةِ الحُكمِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٨).

الآيات (٩-١١)

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يُبينُ الله تعالى أنَّ هذا القُرآنَ يُرشِدُ إلى أحسَنِ الطُّرُقِ وأعدلِها، وهي مِلَّةُ الإسلامِ، ويُبَشِّرُ المُؤمِنينَ الذين يمتَثِلون الأمرَ ويَجتنِبون النَّهيَ، بأنَّ لهم ثوابًا عَظيمًا، وأنَّ الذينَ لا يُؤمنونَ بالدَّارِ الآخرةِ وما فيها مِنَ الجَزاءِ، أعدَدْنا لهم عَذابًا مُوجِعًا في النَّارِ.

ويدعو الإنسانُ عند غَضَبِه على نَفسِه أو ولَدِه أو مالِه بالشَّرِّ، مِثلَ ما يدعو بالخيرِ، وهذا مِن جَهلِ الإنسانِ وعَجَلتِه، وكان الإنسانُ بطَبعِه عَجولًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذه الآيةَ جاءت تنفيسًا على المؤمنين مِن أثَرِ القِصَصِ المهولةِ التي قُصَّت عن بني إسرائيلَ وما حَلَّ بهم مِن البلاءِ، مِمَّا يثيرُ في نفوسِ المُسلِمين الخَشيةَ مِن أن يُصيبَهم مِثلُ ما أصاب أولئك، فأُخبِروا بأنَّ في القرآنِ ما يَعصِمُهم عن الوقوعِ فيما وقعَ فيه بنو إسرائيل؛ إذ هو يهدي للطَّريقِ التي هي أقومُ؛ ولذلك ذكَرَ مع الهدايةِ بِشارةَ المؤمنينَ الذين يَعمَلون الصَّالحاتِ، ونِذارةَ الذين لا

يُؤمِنون بالآخرةِ[١].

وأيضًا لَمَّا شرَحَ اللهُ تعالى ما فعَلَه في حَقِّ عِبادِه المُخلَصينَ، وهو: الإسراءُ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإيتاءُ الكِتابِ لِموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما فعَلَه في حَقِّ العُصاةِ والمتمَرِّدينَ وهو: تَسليطُ أنواعِ البَلاءِ عليهم؛ كان ذلك تَنبيهًا على أنَّ طاعةَ اللهِ تُوجِبُ كُلَّ خَيرٍ وكَرامةٍ، ومَعصيَتَه تُوجِبُ كُلَّ بَليَّةٍ وغَرامةٍ، لا جرَمَ أثنى هنا على القُرآنِ، فقال تعالى[٢]:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾.

أي: إنَّ هذا القُرآنَ يُرشِدُ المتَّبِعينَ له إلى الطَّريقةِ التي هي أعدَلُ وأفضَلُ وأصوَبُ في كلِّ شأنٍ؛ من العقائِدِ والأعمالِ والأخلاقِ، وهي ملةُ الإسلامِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧).

قال ابن جرير (وذلك دينُ الله الذي بعَث به أنبياءَه، وهو الإسلامُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٠).

قال الشنقيطي: (هذه الآيةُ الكريمةُ أجمل الله جل وعلا فيها جميعَ ما في القرآنِ من الهدى إلى خيرِ الطُّرُقِ وأعدَلِها وأصوَبِها، فلو تتبَّعْنا تفصيلَها على وجهِ الكمال لأتينا على جميعِ القرآن العظيمِ؛ لشمولها لجميعِ ما فيه من الهدى إلى خيرَيِ الدنيا والآخرة). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٧).

قال الألوسي: (و﴿أَقْوَمُ﴾ أفعَلُ تفضيل على ما أشار إليه غيرُ واحد. وقال أبو حيان: الذي يظهَرُ من حيث المعنى أنَّه لا يراد به التفضيلُ؛ إذ لا مشاركة بين الطريقةِ التي يهدي لها القرآنُ وغيرِها من الطرُقِ في مبدأ الاشتقاقِ لتفضُلَ عليه، فالمعنى: للتي هي قيِّمةٌ، أي: مستقيمة، كما قال الله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٣]، ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] اهـ. وإلى ذلك ذهب الإمام الرازي). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٢٢). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٣)،

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

أي: ويُبَشِّرُ هذا القرآنُ المُؤمِنينَ -الذين يُصَدِّقونَ إيمانَهم بأنَّهم يَعمَلونَ الأعمالَ الصَّالحةَ- بأنَّ لهم ثوابًا عظيمًا في الآخِرةِ(١).

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

أي: ويُبَشِّرُ القُرآنُ المُؤمِنينَ أيضًا بأنَّ الله أعدَّ وهيَّأَ لأعدائِهم الكافِرينَ الذين لا يُؤمنونَ بالبَعثِ يومَ القيامةِ، عَذابًا مُوجِعًا في الآخِرةِ(٢).

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٢٣، ٥٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨١-٣٨٢).

قال الواحدي: (بُشِّروا بالنَّعيمِ الذي لهم، والعذابِ الذي لأعدائِهم، قال الفراء: فأُوقِعَت البِشارةُ على قَولِه: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا﴾ وعلى قَولِه: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ...﴾ الآية. على أن يكونَ المُؤمِنونَ بُشِّروا بهما جَميعًا، كما تقولُ: بَشَّرْتُ عبدَ اللهِ أنَّه سيُعطى وأنَّ عَدُوَّه سيُمنَع؛ وذلك أنَّ المُؤمِنينَ كانوا في أذًى مِن المُشرِكينَ، فجعل اللهُ لهم البُشرى في الدُّنيا بعِقابِ الكافرينَ). ((البسيط)) (١٣/ ٢٧٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١١٧).

وممن اختار هذا القولَ: الواحدي، والزمخشري، وابن عطية، وابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، والبقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤١).

وقيل: المعنى: ويبشرُ الَّذين لا يُؤمنونَ بالآخرةِ...، وممن اختار ذلك: السمعاني، وابنُ كثير، والنيسابوري. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٣٢٨).

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾.

أي: ويدعُو الإنسانُ في حالِ غَضَبِه على نَفسِه وأهْلِه ووَلَدِه بالموتِ أو بغَيرِه مِمَّا يَسوءُ، كما يدعو ربَّه بالخَيرِ، فلو استُجِيبَ له في دُعائِه بالشَّرِّ كما يُستَجابُ له في الخَيرِ، لهلَك[١].

عن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((سِرْنا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غزوةِ بطنِ بُواطٍ، وهو يَطلُبُ المَجْديَّ بنَ عَمرٍو الجُهنيَّ، وكان النَّاضِحُ[٢] يَعقُبُه[٣] مِنَّا الخَمسةُ والسِّتَّةُ والسَّبعةُ، فدارت عُقبةُ[٤] رجُلٍ مِن الأنصارِ على ناضِحٍ له، فأناخه فركِبَه، ثمَّ بعثَه فتَلَدَّنَ[٥] عليه بعضَ التلَدُّنِ، فقال له: شأْ[٦]، لعَنَك اللهُ. فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَن هذا اللَّاعِنُ بَعيرَه؟! قال: أنا يا رسولَ اللهِ، قال: انزِلْ عنه، فلا تصْحَبْنا بمَلعونٍ، لا تدْعُوا على أنفُسِكم، ولا تَدعُوا على أولادِكم، ولا تَدْعوا على أموالِكم، لا تُوافِقوا مِنَ اللهِ ساعةً يُسألُ فيها عَطاءً، فيَستجيبَ لكم))[٧].

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

أي: إنَّما يَفعَلُ الإنسانُ ذلك فيَدعو عندَ غَضَبِه بما يَكرَهُ أن يُستَجابَ له فيه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (ص: ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٤).

(٢) النَّاضِحُ: هو البَعيرُ الذي يُستقَى عليه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣٨).

(٣) يَعقُبُه: أي: يتَعاقَبونَه في الرُّكوبِ واحِدًا بعدَ واحِدٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣/ ٤٠١).

(٤) العُقْبةُ: رُكوبُ هذا نَوبةً، وهذا نَوبةً. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣٨).

(٥) فتَلَدَّنَ: أي: تلَكَّأَ وتوَقَّفَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣٨).

(٦) شَأْ: كَلِمةُ زَجرٍ للبَعيرِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣٨).

(٧) رواه مسلم (٣٠٠٩).

لأنَّ مِن طَبْعِه العَجَلةَ، فيتعَجَّلُ طَلَبَ كُلِّ ما يقَعُ في قَلبِه ويَخطُرُ ببالِه، مِن غيرِ أن يتأنَّى فيه ويتفَكَّرَ، ويتدبَّرَ عواقِبَه(١).

كما قال تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ في هذه الآيةِ يُخبِرُ تعالى عن شَرَفِ القُرآنِ وجَلالتِه، وأنَّه ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: أعدَلُ وأعلى، مِن العقائِدِ والأعْمالِ والأخلاقِ، فمَن اهتدى بما يدعو إليه القُرآنُ كان أكمَلَ النَّاسِ وأقوَمَهم وأهداهم في جميعِ أمورِه(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ في هذه الآيةِ أنَّ القُرآنَ مُشتَمِلٌ على البِشارةِ والنِّذارةِ، وفيها ذِكرُ الأسبابِ التي تُنالُ بها البِشارةُ، وهي الإيمانُ والعَمَلُ الصَّالحُ، والتي تُستَحَقُّ بها النِّذارةُ، وهي ضِدُّ ذلك(٣).

٣- ذَمَّ اللهُ تعالى الإنسانَ بالعَجَلةِ، بقَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾، وقال: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾(٤) [الأنبياء: ٣٧]، فالعجَلَةُ مِن مقتضياتِ الشهوةِ؛ فلذلك ذُمَّت في جميعِ القرآنِ حتَّى قِيل:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٦١).

(العجلةُ مِن الشيطانِ)[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾، فيه إيماءٌ إلى ضمانِ سلامةِ أُمةِ القرآنِ مِن الحيدةِ عن الطريقِ الأقومِ؛ لأنَّ القرآنَ جاء بأسلوبٍ مِن الإرشادِ قويمٍ، لا يحولُ دونَه ودونَ الولوجِ إلى العقولِ حائلٌ، ولا يغادرُ مسلكًا إلى ناحيةٍ من نواحي الأخلاقِ والطبائع إلا سلكه إليها تحريضًا أو تحذيرًا، بحيث لا يعدمُ المتدبرُ في معانيه اجتناءَ ثمارِ أفنانِه، وبتلك الأساليبِ التي لم تبلُغْها الكتبُ السابقةُ كانت الطريقةُ التي يهدي إلى سلوكِها أقومَ مِن الطرائقِ الأُخرَى، وإن كانت الغايةُ المقصودُ الوصول إليها واحدةً[٢]، فما يَهدِي إليه القُرآنُ أقومُ مِمَّا يهدي إليه الكِتابُ الذي قَبلَه، وإن كان ذلك يَهدِي إلى الصِّراطِ المُستقيمِ، لكِنَّ القُرآنَ يَهدي للتي هي أقوَمُ؛ ولهذا ذُكِرَ هذا بعدَ قَولِه تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، ثمَّ قال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۞ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَليقُ لَفظُ البِشارةِ بالعَذابِ؟

الجَوابُ: أنَّه مَذكورٌ على سَبيلِ التَّهَكُّمِ. أو يقال: إنه مِن بابِ إطلاقِ اسمِ الضِّدَّينِ على الآخرِ، كقوله: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[٤] [الشورى: ٤٠].

---

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية)) (٥/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٤).

٣- لا بُشرى لِذَوي الهِمَم أعلى ولا أسَرُّ مِن الانتِقام مِن مُخالِفيهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فمِمَّا بَشَّرَهم به أنَّه أعَدَّ لِمُخالِفيهم عذابًا أليمًا[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، عاد به الكلامُ إلى الغرَضِ الأهمِّ من هذه السُّورةِ، وهو تَأييدُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالآياتِ والمُعجزاتِ[٢].

- وتَأكيدُ الجُملةِ بـ(إنَّ) مُراعًى فيه حالُ بعضِ المُخاطبينَ، وهم الَّذين لم يُذْعِنوا إليه، وحالُ المُؤمنينَ من الاهتمامِ بهذا الخبرِ؛ فالتَّوكيدُ مُستعملٌ في مَعنيَيْه: دفْعِ الإنكارِ، والاهتمامِ، ولا تعارُضَ بين الاعتبارينِ[٣].

- قولُه: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ إشارةٌ إلى الحاضرِ في أذهانِ النَّاسِ من المِقدارِ المُنزَّلِ من القُرآنِ قبْلَ هذه الآيةِ، وبُيِّنَتِ الإشارةُ بالاسمِ الواقعِ بعدها؛ تَنويهًا بشأنِ القُرآنِ[٤].

- قولُه: ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ صِفةٌ لمحذوفٍ دَلَّ عليه ﴿يَهْدِى﴾، أي: للطَّريقِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الَّتي هي أقومُ؛ لأنَّ الهِدايةَ من مُلازماتِ السَّيرِ والطَّريقِ، أو للمِلَّةِ الأقومِ، وفي حذْفِ الموصوفِ -من الإيجازِ من جهةٍ، ومن التَّفخيمِ من جهةٍ أُخرى- ما رجَّحَ الحذفَ على الذِّكرِ[١]؛ ففي الحذفِ من ذَوقِ البلاغةِ ما لا يُوجَدُ مع الإثباتِ[٢]. وقيل: ﴿لِلَّتِي﴾ أي: (للطريقةِ التي)، وترْكُ ذِكْرِها ليس لقصدِ التَّعميمِ لها وللحالةِ وللخصلةِ ونحوِها ممَّا يُعَبَّرُ به عن المقصدِ المذكورِ، بلْ للإيذانِ بالغِنَى عن التَّصريحِ بها لغايةِ ظُهورِها، لا سيَّما بعدَ ذكْرِ الهدايةِ الَّتي هي من رَوادفِها[٣].

- قولُه: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الأقومُ: تَفضيلُ القويمِ -وذلك على أحدِ القولينِ-؛ ففيه إيماءٌ إلى ضمانِ سلامةِ أُمَّةِ القُرآنِ من الحَيدةِ عن الطَّريقِ الأقومِ[٤].

- قولُه: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث قال ذلك هنا بلفظِ ﴿كَبِيرًا﴾، وقاله في (الكهفِ) بلفظِ ﴿حَسَنًا﴾ في قولِه: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢]؛ مُوافقةً للفواصلِ قبلَهما وبعدهما؛ وهي: ﴿حَصِيرًا﴾، ﴿أَلِيمًا﴾، ﴿عَجُولًا﴾، وجُلُّها وقَعَ قبلَ آخرِها مَدَّةٌ، وكذلك في سُورةِ (الكهفِ) جاء على ما تَقْتضيه الآياتُ قبلَها وبعدَها؛ وهي: ﴿عِوَجًا﴾، ﴿أَبَدًا﴾، ﴿وَلَدًا﴾، وجُلُّها قبلَ آخرِها مُتحرِّكٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٠).

(٥) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٣-١٦٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٩)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٨٥).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

- جُملةُ ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ مَعطوفةٌ على قولِه: ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا كَبِيرًا ﴾، أي: بُشِّروا بفَوزِهم بالجنَّةِ، وبكَينونةِ العذابِ الأليمِ لأعدائِهم الكُفَّارِ؛ فالتَّبشيرُ هنا بمعناه، والمُرادُ تَبشيرُ المُؤمنينَ ببِشارتينِ: بأجرٍ كَبيرٍ، وبتعذيبِ أعدائهم؛ ففي عِلْمِ المُؤمنينَ بذلك وتَبْشيرِهم به مَسرَّةٌ لهم؛ فمُصيبةُ العدوِّ سُرورٌ يُبشَّرُ به. أو تكونُ جملةُ ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ...﴾ داخِلةً مع قولِه: ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا كَبِيرًا ﴾ تحتَ التَّبشيرِ المُرادِ به مُطلقُ الإخبارِ الشاملِ للإخبارِ بما فيه سرورٌ وللإخبارِ بما ليسَ كذلك؛ فيكونُ ذلك بَيانًا لهدايةِ القُرآنِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ. وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ...﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿يُبَشِّرُ﴾ أو ﴿يَهۡدِي﴾ بإضمارِ (يُخْبِرُ)؛ فيَكونُ مِن عَطْفِ الجُملَةِ على الجُملةِ[1].

- وفي ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ تَخصيصُ الآخرةِ بالذِّكرِ من بين سائرِ ما كَفَروا به؛ لكونِها مُعظمَ ما أُمِروا بالإيمانِ به، ولمُراعاةِ التَّناسُبِ بين أعمالِهم وجزائِها الَّذي أنبأَ عنه قولُه عَزَّ وجَلَّ: ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، وهو عذابُ جهنَّمَ، أي: أعتَدْنا لهم فيما كَفَروا به وأنْكَروا وُجودَه من الآخرةِ عذابًا أليمًا، وهو أبلغُ في الزَّجرِ؛ لأنَّ إتيانَ العذابِ مِن حيثُ لا يُحْتَسَبُ أفظَعُ وأفجَعُ[2].

- هذه الآيةُ جاءت عقِبَ ذكْرِ أحوالِ اليهودِ، وانْدَرجوا فيمَن لا يُؤمِنُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٣٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٨).

بالآخرةِ؛ لأنَّ أكثرَهم لا يقولُ بالثَّوابِ والعقابِ الجُسمانيِّ، وبعضُهم قال: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]؛ فلم يُؤمنوا بالآخرةِ حَقيقةَ الإيمانِ بها[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾

- قولُه: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِ﴾، أي: مثْلَ دُعائِه بالخيرِ المذكورِ فَرضًا لا تَحقيقًا؛ فإنَّه بمَعزلٍ من الدُّعاءِ به، وفيهِ رمْزٌ إلى أنَّه اللَّائقُ بحالِه[٢].

وقولُه: ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِ﴾ مَصدرٌ يفيدُ تَشبيهًا، أي: يستعجِلُ الشَّرَّ كاستعجالِه الخيرَ[٣].

- الباءُ في قولِه: ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ و﴿بِٱلۡخَيۡرِ﴾ لتأكيدِ لُصوقِ العامِلِ بمَعمولِه، كالَّتي في قولِه تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، أو لتَضمينِ مادَّةِ الدُّعاءِ معنى الاستعجالِ؛ فيكونُ كقولِه تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾[٤] [الشورى: ١٨].

- قولُه: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ تَذييلٌ؛ فالإنسانُ هنا مُرادٌ به الجنسُ؛ لأنَّه المُناسِبُ للتَّذييلِ، و (كان) تدُلُّ على أنَّ اسْمَها مُتَّصِفٌ بخبَرِها اتِّصافًا مُتمكِّنًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٢-١٥)

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾: أي: عَمَلَه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وما قُدِّرَ عليه، تقولُ العربُ: جرَى طائرُه بكذا مِن الخيرِ، وجرَى له الطائرُ بكذا مِن الشَّرِّ، فخُوطبوا بما يَستعمِلونَ، والطائرُ: الحظُّ[1].

﴿مَنشُورًا﴾: أي: مفتوحًا، والنشرُ: البسطُ، وأصلُ (نشر): يدلُّ على فتحِ شيءٍ وتَشَعُّبِه[2].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ﴾: أي: ولا تحمِلُ آثِمةٌ إِثْمَ أُخرى غيرِها، والوِزْرُ هو الإثمُ والذَّنْبُ، والثِّقْلُ والحِمْلُ أيضًا. وقيل: الوِزْرُ: هو الحِمْلُ الثَّقيلُ مِن الإثمِ، وهو الإثمُ العَظيمُ، وأصلُ (وزر): يدلُّ على مَا حمَلَه الإنسانُ، وعلى الثِّقل في الشَّيء؛ ومنه سُمِّي الإثمُ وزرًا؛ لأنَّه يُثقِلُ ظهرَ مَن يَحمِلُه[3].

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٧٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٨)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١١٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٧/ ٣٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٢)،

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وجعَلْنا اللَّيلَ والنَّهارَ علامَتَينِ دالَّتَينِ على وَحدانيَّتِنا وقُدرتِنا، فطَمَسْنا القَمرَ؛ لِيَكونَ اللَّيلُ مُظلِمًا، وجعَلْنا الشَّمسَ مُضيئةً لكم في النَّهارِ؛ لتطلُبوا -أيُّها النَّاسُ- فيه ما تحتاجونَه مِن أمورِ معاشِكم، ولتَعلَموا -مِن مَحوِ آيةِ اللَّيلِ- عدَدَ السِّنينَ وحِسابَ الأشهُرِ والأيَّامِ، وكُلَّ شَيءٍ بَيَّناه تَبيينًا كافيًا شافيًا.

وكُلَّ إنسانٍ ألزَمْناه عملَه الذي قدَّرناه عليه، وسبَق به قضاؤُنا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، فيُجازَى عليه وحدَه، فلا يُحاسَبُ بعَمَلِ غَيرِه، ولا يُحاسَبُ غَيرُه بعَمَلِه، ونُخرِجُ له يومَ القيامةِ كِتابًا يراه مَفتوحًا جامعًا لِما عمِلَه، يُقالُ له: اقرأْ كِتابَ أعمالِك، تَكفيك نَفسُك اليومَ شاهِدةً عليك.

ثمَّ ذكَر سبحانَه أنَّ كلَّ إنسانٍ يتحمَّلُ نتيجةَ عملِه، فقال: مَن اهتَدى فاتَّبَع طَريقَ الحَقِّ فإنَّما ثوابُ هدايتِه لنَفسِه، ومَن ضلَّ واتَّبَع طريقَ الباطِلِ فضرَرُ ضَلالِه على نفسِه، ولا تَحمِلُ نَفسٌ مُذنِبةٌ إثمَ نَفسٍ أُخرى، ولا نعذِّبُ أحدًا إلَّا بعد إقامةِ الحُجَّةِ عليه بإرسالِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ في الآيةِ المتقَدِّمةِ ما أوصَلَ إلى الخَلقِ مِن نِعَمِ الدِّينِ -وهو القُرآنُ- أتبَعَه ببَيانِ ما أوصَلَ إليهم مِن نِعَمِ الدُّنيا(١).

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ في الآيةِ المتقَدِّمةِ أنَّ هذا القُرآنَ يَهدي للَّتي هي أقوَمُ، وذلك الأقوَمُ ليس إلَّا ذِكرَ الدَّلائِلِ الدَّالَّةِ على التَّوحيدِ والنُبُوَّةِ؛ لا جَرَمَ أردَفَه بذِكرِ دلائِلِ التَّوحيدِ، وهو عجائِبُ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ(٢).

وأيضًا لما ذكَر عجلةَ الإنسانِ وانتقالَه مِن حالٍ إلى حالٍ؛ ذكَر أنَّ كلَّ هذا العالمِ كذلك في الانتقالِ لا يثبتُ على حالٍ، فنورٌ عقِبَ ظلمةٍ، وبالعكسِ، وازديادُ نورٍ وانتقاصٌ(٣).

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾.

أي: وجعَلْنا بعَظَمتِنا الباهرةِ اللَّيلَ والنَّهارَ علامَتَينِ دالَّتَينِ على وُجودِ اللهِ ووحدانيَّتِه، وكمالِ قُدرتِه ورَحمتِه بعبادِه، وأنَّه المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٥). قال القرطبي: (والآيةُ فيهما: إقبالُ كُلٍّ منهما مِن حَيثُ لا يُعلَمُ، وإدبارُه إلى حيثُ لا يُعلَمُ. ونُقصانُ أحدِهما بزيادةِ الآخَرِ وبالعكس آيةٌ أيضًا. وكذلك ضَوءُ النَّهارِ، وظُلمةُ اللَّيلِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٧). ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٤٧).

ٱلْقَدِيمِ ۞ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [فصلت: ٣٧].

﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾.

أي: فطَمَسْنا القَمَرَ؛ لِيَكونَ اللَّيلُ مُظلِمًا، وجعَلْنا الشَّمسَ مُضيئةً لكم في النَّهارِ[(١)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٦، ٥٧).

والمرادُ بآيةِ الليلِ: القمرُ، وبآيةِ النهارِ: الشمسُ. وهو قولُ مقاتلِ بنِ سليمانَ، وظاهرُ قولِ ابنِ جريرٍ، والزجاجِ، والرازي، والقرطبي، وابنِ تيميةَ، وابنِ القيمِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٧).

قال ابن كثير: (ثمَّ إنه تعالى جعل للَّيلِ آيةً، أي: علامةً يُعرَفُ بها، وهي الظلامُ وظهورُ القمَرِ فيه، وللنَّهار علامةً، وهي النورُ وظهورُ الشمس النيِّرة فيه، وفاوَتَ بين ضياء القمر وبرهانِ الشَّمسِ؛ ليُعرَفَ هذا من هذا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠).

واختُلِف في معنى محوِ القمر، فقيل: المراد به: الكَلَف الذي يظهَرُ في وجهه، على اعتبارِ أن الشمس والقمر كانا سواءً في النور ثم طُمِسَ الضوء عن القمر. وممن قال بذلك: علي بن أبي طالب، وابن عباس، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥-٥١٧).

وقيل: المراد: أنه جُعل مظلمًا في نفسِه، مطموسَ النورِ، أي: لم يُجعل في القمرِ -منذُ أولِ خلقِه- شعاعٌ كشعاعِ الشمسِ تُرى به الأشياء رؤيةً بينةً، فنقصُ نورِ القمرِ عن نورِ الشمسِ هو معنَى الطمسِ على هذا القولِ. وهذا ما استظهره ابنُ عطيةَ، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٧).

قال ابن عطية: (وقالت فرقة، وهو الظاهر: إنَّ قولَه: ﴿فَمَحَوْنَآ﴾ إنما يريدُ في أصل خلقتِه، وهذا كما تقولُ: بنيت داري فبدأت بالأُسِّ، ثم تابعتُ، فلا تريدُ بالفاء التعقيب). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٢).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

أي: جَعَلْنا آيةَ النَّهارِ مُبصِرةً؛ لتتوصَّلوا بضِياءِ النَّهارِ إلى طَلَبِ الرِّزقِ الذي يُيَسِّرُه لكم رَبُّكم مِنْ فَضلِه الواسِعِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.

وقيل: المرادُ منه: ما يظهرُ في القمرِ مِن الزيادةِ والنقصانِ في النورِ، فيبدو في أولِ الأمرِ في صورةِ الهلالِ، ثمَّ لا يزالُ يتزايدُ نورُه حتى يصيرَ بدرًا كاملًا، ثم يأخذُ في الانتقاصِ قليلًا قليلًا، وذلك هو المحوُ، إلى أن يعودَ إلى المحاقِ. ومال إليه الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٦).

والوجهُ الثاني في معنى آيةِ الليلِ وآيةِ النهارِ: أنَّ المرادَ بالآيتينِ نفسُ اللَّيلِ والنَّهارِ، لا الشَّمسُ والقمرُ، فتكون إضافة الآيةِ إلى اللَّيلِ والنَّهارِ مِنْ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفسِه معَ اختلافِ اللَّفظِ، أي: الآية التي هي الليلُ، والآية التي هي النهارُ، ومحوُ آيةِ الليلِ على هذا كونُه مظلمًا. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٣).

وممن قال مِن المفسرينَ: إنَّ قولَه تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عائدٌ إلى آيةِ النهارِ المبصرةِ، أي: لتبتغوا في النهارِ: ابنُ جريرٍ، والسمرقندي، والواحدي، والسمعاني، والقرطبي، وابن جزي، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٣).

قال الشوكاني: (ولم يذكُرْ هنا السُّكونَ في اللَّيلِ اكتفاءً بما قاله في موضعٍ آخرَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٣).

أي: ومَحَوْنا آيةَ اللَّيلِ؛ لِتَعلَموا عدَدَ السَّنَواتِ، وتَعلَموا حِسابَ اللَّيالي والشُّهورِ، فتَنتَفِعوا بذلك في أمورِ دِينِكم ودُنياكم(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٦، ٥٧).

وممَّن قال بأنَّ قوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ عائدٌ إلى محوِ آيةِ الليل لا آيةِ النهارِ: الواحدي، وابنُ الجوزي، وابنُ عطية. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٢).

قال ابن عطية: (وجعل الله تعالى النَّهارَ مُبصِرًا ليبتغيَ النَّاسُ الرزقَ وفضلَ اللهِ، وجعلَ القمَرَ مُخالِفًا للشَّمسِ لِيُعلمَ به العددُ مِن السنينَ والحسابِ للأشهرِ وللأيام، ومعرفةُ ذلك في الشَّرعِ إنَّما هي من جهةِ القمَرِ لا من جهةِ الشَّمسِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٢).

ومن المفسِّرين من جعَلَ قَولَه تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ عائدًا إلى اختلافِ الليلِ والنهارِ وتعاقُبِهما. ومنهم: ابنُ جرير، وابنُ أبي زمنين، وهو ظاهرُ قولِ الرسعني، وهو قولُ ابن جُزي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٤)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٦-٥٧).

قال الشوكاني: (﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ وهذا متعلِّقٌ بالفعلينِ جميعًا، أعني ﴿مَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ لا بأحدِهما فقطْ كالأوَّلِ؛ إذ لا يكونُ علمُ عددِ السِّنينَ والحسابِ، إلَّا باختلافِ الجديدينِ، ومعرفةِ الأيَّامِ والشُّهورِ والسِّنينَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٣).

قال البقاعي: (﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ أي: مِن غيرِ حاجةٍ إلى حسابٍ؛ لأنَّ النيِّرينِ يدلَّانِ على تحوُّلِ الحَولِ بمجَرَّدِ تنقُّلِهما.

ولَمَّا كانا أيضًا يدلَّانِ على حسابِ المطالع والمغارب، والزيادةِ والنقصان، وغير ذلك من الكوائنِ، لِمَن أمعن النظَرَ، وبالغَ في الفِكرِ- قال تعالى: ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾). ((نظم الدرر)) (١١/ ٣٨٥).

وقال ابن عاشور: (ثم ذُكِرَت حكمةٌ أخرى حاصلةٌ مِن كلتا الآيتين، وهي حكمةُ حِسابِ السنينَ، وهي في آيةِ اللَّيلِ أظهَرُ؛ لأنَّ جمهورَ البشَرِ يَضبِطُ الشهورَ والسنينَ بالليالي، أي: حسابِ القمَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٥).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾.

أي: وكلَّ شَيءٍ تَحتاجونَ -أيُّها النَّاسُ- إلى بيانِه مِن مَصالحِ دِينِكم ودُنياكم بيَّنَّاه لكم في القُرآنِ بَيانًا واضِحًا شافيًا لا لَبْسَ فيه ولا نَقْصَ بوجهٍ مِنَ الوُجوهِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢] كان معناه: أنَّ كلَّ ما يُحتاجُ إليه مِن شَرحِ دلائِلِ التوحيدِ والنبُوَّةِ والمعادِ، فقد صار مذكورًا، وكُلَّ ما يُحتاجُ إليه من شرحِ أحوالِ الوَعدِ والوعيدِ والتَّرغيبِ والترهيب، فقد صار مذكورًا، وإذا كان الأمرُ كذلك فقد أزيحت الأعذارُ، وأزيلت العِلَلُ؛ فلا جرم كُلُّ مَن ورد عَرصةَ القيامةِ فقد ألزَمْناه طائِرَه في عنُقِه، ونقولُ له: ﴿ٱقْرَأْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٣).

كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان سياقُ الكلامِ جاريًا في طريقِ التَّرغيبِ في العَمَلِ الصَّالحِ، والتَّحذيرِ مِن الكُفرِ والسَّيِّئاتِ، ابتداءً مِن قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [الإسراء: ٩- ١٠] وما عقَّبه ممَّا يتعلَّقُ بالبِشارةِ والنِّذارة، وما أُدمِجَ في خلالِ ذلك مِن التذكيرِ، ثمَّ بما دلَّ على أنَّ عِلمَ اللهِ مُحيطٌ بكُلِّ شَيءٍ تفصيلًا، وكان أهمُّ الأشياءِ في هذا المقامِ إحاطةَ عِلمِه بالأعمالِ كُلِّها- فأعقب ذِكرَ ما فصَّله اللهُ مِن الأشياء بالتَّنبيهِ على تفصيلِ أعمالِ النَّاسِ تَفصيلًا لا يقبَلُ الشَّكَّ ولا الإخفاءَ، وهو التَّفصيلُ المشابِهُ للتَّقييدِ بالكتابةِ، فعطفَ قَولَه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ على قَولِه: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٢] عَطْفَ خاصٍّ على عامٍّ؛ للاهتمامِ بهذا الخاصِّ[٢].

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾.

أي: وكلَّ إنسانٍ منكم ألزَمْناه عملَه الذي قدَّرْناه عليه؛ وسبَق به قضاؤُنا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، الصادرَ منه باختيارِه، فيُجازَى عليه وَحْدَه، فلا يُحاسَبُ بعَمَلِ غَيرِه، ولا يُحاسَبُ غَيرُه بعَمَلِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٨، ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠، ٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨٦)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٠).

وممن اختَار أنَّ المعنى: ألزَمْناه ما قدِّر له في الأزلِ مِن عملٍ وشقاوةٍ أو سعادةٍ: ابنُ جرير،

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

والسمعاني، وابنُ عطيةَ، والرسعني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٣٧).

وممن اختار أنَّ المعنى: ألزَمْناه عملَه يُجازَى به وحدَه لا غيرُه: الماتريدي، وابنُ جزي، وابنُ كثير، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥).

وممن جمَع بينَ المعنيين: البقاعي، والألوسي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨٦)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٠).

قال الشنقيطي: (في قولِه جل وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ وجهانِ معروفانِ مِن التفسيرِ:

الأول: أنَّ المرادَ بالطائرِ: العملُ، مِن قولِهم: «طار له سهمٌ»؛ إذا خرَج له، أي: ألزمناه ما طار له مِن عملِه.

الثاني: أنَّ المرادَ بالطائرِ: ما سبَق له في علمِ الله مِن شقاوةٍ أو سعادةٍ، والقولانِ متلازمانِ؛ لأنَّ ما يطيرُ له مِن العملِ هو سببُ ما يَئولُ إليه مِن الشقاوةِ أو السعادةِ... والوجهانِ المذكورانِ في تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ كلاهما يشهدُ له قرآنٌ.

أمَّا على القولِ الأولِ بأنَّ المرادَ بطائرِه عملُه، فالآياتُ الدالةُ على أنَّ عملَ الإنسانِ لازمٌ له كثيرةٌ جدًّا؛ كقولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ الآية [النساء: ١٢٣]، وقولِه: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. والآياتُ بمثلِ هذا كثيرةٌ جدًّا.

وأمَّا على القولِ بأنَّ المرادَ بطائرِه نصيبُه الذي طار له في الأزلِ مِن الشقاوةِ أو السعادةِ، فالآياتُ الدالةُ على ذلك أيضًا كثيرةٌ؛ كقولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٦٠).

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾.

أي: ونُظهِرُ لكُلِّ إنسانٍ يومَ القيامةِ كِتابَ أعمالِه، يَجِدُه مَفتوحًا، حاويًا لكلِّ ما عَمِلَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

أي: يُقالُ لكلِّ إنسانٍ يومَ القيامةِ: اقرأْ كِتابَ أعمالِك التي كَتَبَها الحَفَظةُ فيه، ويَكفي لإحصاءِ أعمالِك نَفسُك؛ فهي الشَّاهِدةُ بأنَّك لم تُظلَمْ، ولم يُكتَبْ عليك سِوى ما عَمِلْتَ(٢).

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال في الآيةِ الأولى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٢).

﴾ [الإسراء: ١٣] ومعناه: أنَّ كُلَّ أحَدٍ مُختَصٌّ بعَمَلِ نَفسِه، عبَّرَ عن هذا المعنى بعبارةٍ أخرى أقرَبَ إلى الأفهامِ، وأبعَدَ عن الغَلَطِ(١).

فهذه الجُملةُ بَيانٌ أو بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ﴾ مع توابِعِها، وفيه تَبيينُ اختِلافِ الطَّائِرِ بين نافعٍ وضارٍّ؛ فطائِرُ الهدايةِ نَفْعٌ لصاحبِه، وطائِرُ الضَّلالِ ضُرٌّ لصاحِبِه(٢).

﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ ﴾.

أي: مَن اهتَدى فاتَّبَعَ الحقَّ فإنَّما ينفَعُ نَفْسَه بالجزاءِ الحَسَنِ، والعاقبةِ الحَميدةِ في الدُّنيا والآخرةِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ * لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الروم: ٤٤، ٤٥].

﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا ﴾.

أي: ومَن ضلَّ عن الحَقِّ فإنَّما يجني على نَفسِه، فيَقَعُ ضَرَرُ ذلك عليه في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٣).

الدُّنيا والآخرةِ[١].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

أي: ولا تَحمِلُ نَفسٌ آثِمةٌ إثمَ نَفسٍ أُخرى، ولا يَحمِلُ أحدٌ ذَنْبَ غَيرِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

أي: وما كُنَّا مُعَذِّبينَ قَومًا إلَّا بعدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم بإرسالِ رَسولٍ إليهم، فإذا رَدُّوا الحَقَّ عذَّبْناهم بما يَستَحِقُّونَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥).

قال ابنُ جزي: (﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ قيل: إنَّ هذا في حُكمِ الدُّنيا، أي: أنَّ اللهَ لا يُهلِكُ أمَّةً إلَّا بعد الإعذارِ إليهم بإرسالِ رَسولٍ إليهم. وقيل: هو عامٌّ في الدُّنيا والآخرةِ، وأنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ قَومًا في الآخرة إلَّا وقد أرسَلَ إليهم رسولًا فكَفَروا به وعَصَوه، ويدُلُّ على هذا قَولُه تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الملك: ٨- ٩]). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٣).

وقال الشوكاني: (الظاهِرُ أنَّه لا يُعَذِّبُهم لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ إلَّا بعد الإعذارِ إليهم بإرسالِ

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١-٧٢].

وقال جلَّ جلاله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ والابتِغاءُ: هو طلَبُ الشَّيءِ بسَعيٍ إليه ومحبَّةٍ فيه، ويُسمِّي تعالى طلَبَ أسبابِ الحياةِ ابتغاءً؛ تَنبيهًا على هذا السَّعيِ وهذه المحبَّةِ، فهُما الشَّرطانِ اللَّازمانِ للفوزِ بالمطلوبِ، كما يسمِّي

الرُّسُلِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٤).

تعالى المطلوبَ بالابتغاءِ فَضلًا مِن الرَّبِّ، وفَضلُه من رحمتِه، ورحمتُه واسِعةٌ لا تَضبِطُها حدودٌ، ولا تَحصُرُها الأعدادُ؛ تنبيهًا على سَعةِ هذا الفَضلِ لِيَذهَبَ الخَلقُ في جميعِ نواحيه، ويأخذوا بجَميعِ أسبابِه ممَّا أذِنَ لهم فيه، وليكونوا إذا ضاق بهم مذهَبٌ آخذين بمذهبٍ آخَرَ مِن مَسالكِ هذا الفَضلِ الربَّاني الواسِعِ غيرِ المحصورِ، وتنبيهًا أيضًا على قوَّةِ الرجاءِ في الحُصولِ على البُغيةِ؛ لأنَّ طلَبَهم طلَبٌ لِفَضلِ رَبٍّ كريمٍ، ويقولُ تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ والربُّ: المالِكُ المدَبِّرُ لمملوكِه بالحِكمةِ، فيُعطيه في كلِّ حالٍ مِن أحوالِه ما يليقُ به؛ ليَكونَ الخَلقُ بعد قيامِهم بالعمَلِ راضين بما ييسِّرُه الله من أسبابٍ، وما يقسِمُه لهم مِن رزقٍ؛ ثِقةً بعَدلِه وحِكمتِه، فلا يبغي أحدٌ على أحدٍ بتعَدٍّ أو حسَدٍ، فجَمَعت هذه الآيةُ جَميعَ أصولِ السَّعادةِ في هذه الحَياةِ:

- بالعَمَلِ مع الجِدِّ فيه، والمحبَّةِ له والرَّجاءِ في ثَمَرتِه، الذي به قِوامُ العُمرانِ.
- وبالرِّضا والتَّسليم للمَولى، الذي به طُمأنينةُ القَلبِ وراحةُ الضَّميرِ.
- وبالكَفِّ للقَلبِ واليَدِ عن النَّاسِ، الذي به الأمنُ والسَّلامُ[1].

٢- قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ فكُلُّ ما يحتاجُ إليه العِبادُ لتَحصيلِ السَّعادتينِ من عقائِدِ الحَقِّ، وأخلاقِ الصِّدقِ، وأحكامِ العَدلِ، ووجوهِ الإحسانِ، كُلُّ هذا فُصِّل في القُرآنِ تَفصيلًا، وهذا دُعاءٌ وترغيبٌ للخَلقِ أن يَطلُبوا ذلك كُلَّه مِن القرآنِ الذي يهدي للتي هي أقومُ في العِلمِ والعَمَلِ، ويأخُذوا منه ويهتَدوا به؛ فهو الغايةُ التي ما وراءها غايةٌ في الهُدى والبيانِ[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٤٩).

كِتَٰبًا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا﴾ إذا عرف الإنسانُ هذا وعنده مُسكةٌ مِن عَقلٍ، يَجِبُ عليه في دارِ الدُّنيا -وقتَ إمكانِ الفُرصةِ- ألَّا يُخزيَ نَفسَه ويُخجِلَها على رؤوسِ الأشهادِ خِزيًا وخَجَلًا يجُرُّه إلى النَّارِ؛ فالرَّحيلُ قَريبٌ والمحاسَبةُ حَقٌّ، وكُلُّ ما فعله الإنسانُ مُسَجَّلٌ عليه، وسيُقرأُ على رؤوسِ الأشهادِ، وسيَجِدُه في كتابٍ مَنشورٍ؛ فعلينا ألَّا نفضَحَ أنفُسَنا يومَ القيامةِ، ففَضيحةُ الآخرةِ وخِزيُها ليست كفَضيحةِ الدُّنيا؛ وألَّا نُفوِّتَ الفُرصةَ وأن ننتَهِزَها قبل أن يَضيعَ الوَقتُ ويُجرَّ الإنسانُ إلى القبرِ ليس عنده حَسَناتٌ؛ وألَّا نُفرِّطَ لئلَّا نندَمَ حيث لا ينفَعُ النَّدمُ[1]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ أصلٌ في عِلمِ المَواقيتِ والهَيئةِ والتَّاريخِ[2].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ حجةٌ على المعتزلةِ والقَدَرِيَّةِ في إلزامِ الطائرِ، والطائرُ: ما قُضِي عليهم مِن الشقاوةِ والسعادةِ[3]، وذلك على أحدِ القولينِ في التفسيرِ.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ -على أحدِ القولينِ في تفسيرِ الآيةِ- مِن أدَلِّ الدَّلائِلِ على أنَّ كُلَّ ما قدَّرَه اللهُ تعالى للإنسانِ وحَكَمَ عليه به في سابِقِ عِلْمِه، فهو واجِبُ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٠٨).

الوُقوعِ، مُمتَنِعُ العَدَمِ، وتَقريرُه مِن وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ تقديرَ الآيةِ: وكُلَّ إنسانٍ ألزَمْناه عَمَلَه في عُنُقِه، فبيَّن تعالى أنَّ ذلك العَمَلَ لازِمٌ له، وما كانَ لازِمًا للشَّيءِ كانَ مُمتَنِعَ الزَّوالِ عنه، واجِبَ الحُصولِ له، وهو المقصودُ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّه تعالى أضاف ذلك الإلزامَ إلى نَفْسِه؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ﴾ تصريحٌ بأنَّ ذلك الإلزامَ إنَّما صدَرَ منه، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦] وهذه الآيةُ دالَّةٌ على أنَّه لا يَظهَرُ في الأبَدِ إلَّا ما حَكَمَ اللهُ به في الأزَلِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ لا ينافي قولَه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]؛ لأنَّ في يَومِ القيامةِ مَواقِفَ مُختَلِفةً؛ ففي موقِفٍ يَكِلُ اللهُ حِسابَهم إلى أنفُسِهم، وعِلمُه مُحيطٌ بهم، وفي مَوقِفٍ يُحاسِبُهم هو تعالى. وقيل: إنَّ اللهَ تعالى هو الذي يُحاسِبُهم لا غيرُ، وقَولُه: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي: يكفيك أنَّك شاهِدٌ على نَفسِك بذُنوبِها، فهو توبيخٌ وتَقريعٌ، لا تَفويضُ حِسابِ العَبدِ إلى نَفسِه. وقيل غيرُ ذلك[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ ثَوابَ العَمَلِ الصَّالحِ مُختَصٌّ بفاعِلِه، وعِقابَ الذَّنبِ مُختَصٌّ بفاعِلِه، لا يتعَدَّى منه إلى غَيرِه؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[٣] [النجم: ٣٩-٤٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ٢٢٨).

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يَحمِلُ أحَدٌ ذَنْبَ أحَدٍ، ولا يَجني جانٍ إلَّا على نَفسِه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ [فاطر: ١٨]. ولا مُنافاةَ بين هذا وبينَ قَولِه تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقَولِه تعالى ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[النحل: ٢٥]؛ فإنَّ الدُّعاةَ عليهم إثمُ ضَلالِهم في أنفُسِهم، وإثمٌ آخَرُ بسَبَبِ ما أضَلُّوا مَن أضَلُّوا مِن غَيرِ أن يَنقُصَ مِن أوزارِ أولئك، ولا يَحمِلوا عنهم شيئًا، وهذا مِن عَدلِ اللهِ ورَحمتِه بعِبادِه[1].

٧- قَولُه تعالى: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ حكَمَ سُبحانَه لعبادِه بأربعةِ أحكامٍ هي غايةُ العَدلِ والحِكمةِ:

أحدُها: أنَّ هُدى العبدِ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ لِنَفسِه لا لِغَيرِه.

الثاني: أنَّ ضَلالَه بفَواتِ ذلك وتخَلُّفِه عنه على نَفسِه لا على غَيرِه.

الثالث: أنَّ أحدًا لا يُؤاخَذُ بجَريرةِ غَيرِه.

الرابع: أنَّه لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بعدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليه برسُلِه. فتأمَّلْ ما في ضِمْنِ هذه الأحكامِ الأربعةِ مِن حِكمَتِه تعالى وعَدْلِه وفَضْلِه[2].

٨- العُقوبةُ قبلَ الحُجَّةِ ليسَت مَشروعةً؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾؛ ولهذا قال الفُقَهاءُ في البُغاةِ: إنَّ الإمامَ يُراسِلُهم، فإنْ ذَكَروا شُبهةً بيَّنَها، وإن ذَكَروا مَظلِمةً أزالَها، كما أرسَلَ عليٌّ ابنَ عَبَّاسٍ إلى الخوارِجِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٧).

فناظَرَهم حتى رجَعَ منهم أربعةُ آلافٍ، وكما طلَبَ عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيزِ دُعاةَ القَدَريَّةِ والخوارِجِ، فناظَرَهم حتى ظهَرَ لهم الحَقُّ وأقَرُّوا به[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ الحَدَّ لا يَجِبُ إلَّا على مَن بَلَغَه التَّحريمُ[٢].

١٠- قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فالله تعالى أعدَلُ العادلينَ لا يعَذِّبُ أحدًا حتى تقومَ عليه الحُجَّةُ بالرِّسالةِ ثمَّ يعانِدَ الحُجَّةَ، وأمَّا من انقاد للحُجَّةِ أو لم تبلُغْه حُجَّةُ الله تعالى، فإنَّ اللهَ تعالى لا يعَذِّبُه. واستُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّ أهلَ الفَتراتِ وأطفالَ المُشرِكين لا يعَذِّبُهم اللهُ حتى يبعَثَ إليهم رسولًا؛ لأنَّه مُنزَّهٌ عن الظُّلمِ[٣].

١١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ استدلَّ أهلُ السنةِ به على أنَّ التكليفَ لا يلزمُ العبادَ إلَّا مِن الشرعِ، لا مِن مجردِ العقلِ[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥).

قال ابن تيمية: (ومَن لم تَقُم عليه الحُجَّةُ في الدنيا بالرِّسالةِ، كالأطفالِ والمجانينِ وأهلِ الفتراتِ، فهؤلاء فيهم أقوالٌ أظهَرُها ما جاءت به الآثارُ: أنَّهم يُمتحَنون يومَ القيامة، فيُبعَثُ إليهم من يأمُرُهم بطاعتِه، فإن أطاعوه استحقُّوا الثوابَ، وإن عصَوه استحقُّوا العذابَ). ((الجواب الصحيح)) (١/ ٣١٢). ويُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٣).

مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ فيه فَنُّ الجمْعِ مع التَّفريقِ، وهو أنْ يجمَعَ المُتكلِّمُ بين شَيئينِ في حكْمٍ واحدٍ، ثمَّ يُفرِّقُ بينهما في ذلك الحُكْمِ[(١)].

- وفيه تَقديمُ اللَّيلِ؛ لمُراعاةِ التَّرتيبِ الوُجوديِّ؛ إذ منه ينسلِخُ النَّهارُ، وفيه تَظهَرُ غُرَرُ الشُّهورِ، ولتَرتيبِ غايةِ آيةِ النَّهارِ عليها بلا واسطةٍ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾، أي: جعَلْناها لا تُبْصَرُ المرئيَّاتُ فيها، كما لا يُبْصَرُ ما مُحِيَ من الكتابِ، وهذا من البلاغةِ الحَسنةِ جِدًّا[(٣)].

- قولُه: ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ نسَبَ الإبصارَ إلى آيةِ النَّهارِ، كما يُقالُ: ليلٌ قائمٌ ونائمٌ، أي: يُقام فيه ويُنامُ فيه؛ فهو من إسنادِ الفعلِ إلى زمانِه. وقيل: معنى ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ مُضيئةٌ؛ لأنَّ النَّهارَ لا يُبصِرُ[(٤)]. وقيل أيضًا: لما كانت في غايةِ الضياءِ يُبصِرُ بها كلُّ مَن له بصرٌ، أسندَ الإبصارَ إليها مبالغةً، فقال: ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾[(٥)].

- وفي قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ،

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٤٠١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨٥).

حيث ثَنَّى الآيةَ هنا، وأفرَدَها في سُورةِ (الأنبياءِ) في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً﴾ [الأنبياء: ٩١]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لتَبايُنِ اللَّيلِ والنَّهارِ من كلِّ وجْهٍ، ولتَكرُّرِهما؛ فناسَبَهما التَّثنيةُ، بخلافِ عيسى مع أُمِّه عليهما السَّلامُ، فإنَّه جُزءٌ منها، ولا تَكرُّرَ فيهما؛ فناسَبَهما الإفرادُ[١].

- قَولُه: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ جاء التَّعليلُ لحِكمةِ آيةِ النَّهارِ خاصَّةً دون ما يقابِلُها مِن حِكمةِ اللَّيلِ، فلم يذكُرِ السُّكونَ فيه؛ لأنَّ المنَّةَ بها أوضَحُ، ولأنَّ من التنبُّهِ إليها يحصُلُ التنبُّهُ إلى ضِدِّها، وهو حِكمةُ السُّكونِ في اللَّيلِ، فاكتفى بما ذُكِرَ في النَّهارِ[٢].

- قولُه: ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فيه تَقديمُ العددِ على الحسابِ، مع أنَّ التَّرتيبَ بين مُتعلِّقَيهما وُجودًا وعدمًا على العكسِ؛ للتَّنبيهِ من أوَّلِ الأمْرِ على أنَّ مُتعلِّقَ الحسابِ ما في تَضاعيفِ السِّنينَ من الأوقاتِ، أو لأنَّ العلْمَ المُتعلِّقَ بعدَدِ السِّنينَ علْمٌ إجماليٌّ بما تعلَّقَ به الحسابُ تَفصيلًا، أو لأنَّ العددَ من حيث إنَّه لم يُعْتَبَرْ فيه تَحصُّلُ شَيءٍ آخرَ منه حسْبما ذُكِرَ نازلٌ من الحسابِ المُعتبَرِ فيه ذلك منزلةَ البسيطِ من المُركَّبِ، أو لأنَّ العلْمَ المُتعلِّقَ بالأوَّلِ أقْصى المراتِبِ، فكان جَديرًا بالتَّقديمِ في مقامِ الامتنانِ[٣].

والحسابُ يشملُ حسابَ الأيامِ والشهورِ والفصولِ، فعطفُه على عددِ السنينَ مِن عطفِ العامِّ على الخاصِّ للتعميمِ بعدَ ذكرِ الخاصِّ؛ اهتمامًا به[٤].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٤-٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٥).

- قولُه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ ذُكِرَ المصدَرُ، وهو قَولُه: ﴿تَفْصِيلًا﴾؛ لأجلِ تأكيدِ الكلامِ وتقريرِه، كأنَّه قال: وفصَّلْناه حقًّا، وفصَّلْناه على الوَجهِ الذي لا مَزيدَ عليه[1].

٢- قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾

- قولُه: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ أخبَرَهم اللهُ تَعالى في أوجَزِ لَفظٍ وأبلَغِ إشارةٍ أنَّ جميعَ ما يَلْقى الإنسانُ من خيرٍ وشَرٍّ، فقد سبَقَ به القضاءُ، وأُلْزِمَ حظُّه وعمَلُه ومكسَبُه في عُنقِه -على أحدِ القولينِ في تفسيرِ الآيةِ-، فعُبِّرَ عن الحظِّ والعمَلِ -إذ هما مُتلازِمانِ- بالطَّائرِ. وهو تَعبيرٌ مَسوقٌ على عادةِ العربِ، حيث كانوا لا يُباشِرون عملًا من الأعمالِ الهامَّةِ إلَّا إذا اعْتَبروا أحوالَ الطَّيرِ؛ ليَتَبيَّنوا إذا كانت مَغبَّةُ العملِ خيرًا أمْ شَرًّا، فإذا طارتِ الطَّيرُ بنفْسِها أو بإزعاجٍ من أحدٍ مُتيامنةً، تَفاءلوا وأقْدَموا على عمَلِهم، وإذا طارت مُتياسرةً، تَشاءموا وأحْجَموا عن عمَلِهم، ولمَّا كثُرَ منهم ذلك سَمَّوا نفْسَ الخيرِ والشَّرِّ بالطَّائرِ؛ تَسميةً للشَّيءِ باسمِ لازِمِه[2].

- قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ العُنقُ هو موضعُ السِّماتِ، وموضعُ القلائِدِ والأطوقَةِ، وغير ذلك مِمَّا يزينُ أو يَشينُ؛ فجرَى كلامُ العربِ بنسبةِ الأشياءِ اللَّازمةِ بني آدَمَ وغَيْرَهم مِنْ ذلك إلى أعناقِهم، وكَثُرَ اسْتِعْمالُهم ذلك حَتَّى أضافُوا الأشياءَ اللَّازمةَ سائرَ الأبدانِ إلى الأعناقِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٤٠١- ٤٠٢).

كما أضافوا جناياتِ أعضاءِ الأبدانِ إلى اليدِ، فقالوا: ذلك بما كسَبتْ يَداه[١].

أو: خُصَّ العُنُقُ مِن بينِ سائرِ الأعضاءِ بهذا المعنى؛ لأنَّ الذي يكونُ عليه إمَّا أن يكونَ خَيرًا يَزينُه أو شَرًّا يَشينُه، وما يَزينُ يكونُ كالطَّوقِ والحَلْيِ، والذي يَشينُ فهو كالغُلِّ، فهاهنا عَمَلُه إن كان مِن الخيراتِ كان زينةً له، وإن كان مِنَ المعاصي كان كالغُلِّ على رَقَبتِه[٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾ كِنايةً عن المُلازمةِ والقُربِ، أي: عمَلُه لازمٌ له لُزومَ القِلادةِ[٣]، ومنه قولُ العرَبِ: تَقَلَّدَها طوقَ الحمامةِ؛ فلذلك خُصَّت بالعُنقِ؛ لأنَّ القِلادةَ تُوضَعُ في عُنقِ المرأةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾ تَمثيلًا بالبعيرِ الَّذي يُوسَمُ في عُنقِه بسِمةٍ؛ كيْلَا يختلِطَ بغيرِه، أو الَّذي يُوضَعُ في عُنقِه جُلْجُلٌ[٤]؛ لكيْلا يضِلَّ عن صاحبِه[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾

- جُملةُ ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ مقولُ قولٍ مَحذوفٍ دَلَّ عليه السِّياقُ، أي: يُقال له: اقْرَأْ...[٦].

- والأمْرُ في ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ مُستعملٌ في التَّسخيرِ، ومُكَنًّى به عن الإعذارِ لهم والاحتجاجِ عليهم، كما دَلَّ عليه قولُه: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦١).

(٤) الجُلْجُلُ: الجَرَسُ الصَّغيرُ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٨/ ٢٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥ / ٤٨).

ولذلك كان معرفةُ تلك الأعمالِ من ذلك الكتابِ حاصِلةً للقارِئِ[١].

- قولُه: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ حَسِيبٌ بمعنى حاسِبٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى الكافي؛ وُضِعَ موضِعَ الشَّهيدِ، فعُدِّيَ بـ (على)؛ لأنَّ الشَّاهدَ يَكْفي المُدَّعِيَ ما أهَمَّه، وذكَرَ ﴿حَسِيبًا﴾؛ لأنَّه بمنزلةِ الشَّهيدِ والقاضي والأميرِ؛ لأنَّ الغالِبَ أنَّ هذه الأمورَ يتولَّاها الرِّجالُ، فكأنَّه قيل: كَفى بنفْسِك رجُلًا حسيبًا، ويجوزُ أنْ يُتَأوَّلَ النَّفسُ بالشَّخصِ، كما يُقال: ثلاثةُ أنفُسٍ[٢].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِنَفۡسِكَ﴾ مَزيدةٌ للتَّأكيدِ، داخِلةٌ على فاعلِ (كفى)[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾

- قولُه: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ فَذلكةٌ[٤] لِما تقدَّمَ من بَيانِ كونِ القُرآنِ هاديًا لأقومِ الطَّرائقِ ولُزومِ الأعمالِ لأصحابِها، أي: مَن اهْتَدى بهدايتِه، وعمِلَ بما في تَضاعيفِه من الأحكامِ، وانْتَهى عمَّا نَهاه عنه؛ فإنَّما تَعودُ منفعةُ اهتدائِه إلى نفْسِه، لا تَتخطَّاه إلى غيرِه ممَّن لم يَهتدِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٩).

(٤) الفَذْلكة: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملةِ والحوقلةِ، من قولهم: (فذَلِك كذا)، ومعناها: ذكرُ مُجمَل ما فُصِّل أولًا وخلاصته. وقد يُراد بالفذلكة النتيجة لِمَا سبَق من الكلام، والتفريع عليه، ومنها فذلكة الحساب، أي: مُجمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ بعدَ قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨ - ٦٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦١- ١٦٢).

- قولُه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ واقعةٌ موقعَ التَّعليلِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾؛ لِما في هذه من عُمومِ الحكمِ؛ فإنَّ عمَلَ أحدٍ لا يلحَقُ نفْعُه ولا ضَرُّه بغيرِه[١]. وقيل: إنَّ قولَه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تأكيدٌ للجُملةِ الثَّانيةِ: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: لا تحمِلُ نفْسٌ حاملةٌ للوِزْرِ وِزْرَ نفْسٍ أُخرى حتَّى يمكِنَ تخلُّصُ النَّفسِ الثَّانيةِ عن وِزْرِها، ويختَلَّ ما بين العامِلِ وعمَلِه من التَّلازُمِ، بل إنَّما تحمِلُ كلٌّ منها وِزْرَها، وهذا تَحقيقٌ لمعنى قولِه عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ...﴾، وإنَّما خَصَّ التَّأكيدَ بالجُملةِ الثَّانيةِ؛ قطعًا للأطماعِ الفارغةِ، حيث كانوا يَزْعمون أنَّهم إنْ لم يَكونوا على الحقِّ، فالتَّبِعةُ على أسلافِهم الَّذين قَلَّدوهم[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الوِزْرُ: الإثمُ، شُبِّهَ بالحِمْلِ الثَّقيلِ؛ لِما يجُرُّه من التَّعبِ لصاحبِه في الآخرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥١).

الآيات (١٦-٢١)

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُتْرَفِيهَا﴾: أي: المُنَعَّمِينَ فيها، الذين قد أبطَرَتْهم النِّعمةُ وسَعَةُ العَيشِ، وأصلُ (ترف): يدُلُّ على التَّوسُّعِ في النِّعمةِ[١].

﴿ٱلْقُرُونِ﴾: جمعُ قَرْنٍ، والقرنُ: القومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المقترنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْر مُقَدَّرٍ بمدةٍ مُعَيَّنَةٍ، وقيل: مدَّة القرنِ مئةُ سنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقترانِ، وهو اجتماعُ شيئينِ، أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدلُّ على جمعِ شيءٍ إلى شيءٍ[٢].

﴿مَّدْحُورًا﴾: أي: مَطرودًا مُبْعَدًا، وأصلُ (دحر): يدلُّ على الطَّردِ والإبعادِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦، ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾

قَولُه: ﴿ كُلًّا ﴾ مَنصوبٌ على المَفعوليَّةِ المقدَّمةِ بـ ﴿نُّمِدُّ ﴾، والتَّنوينُ فيه تَنوينُ عِوَضٍ عن المُضافِ إليه، أي: كُلَّ الفَريقَينِ. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ ﴾ بدَلٌ مِن قَولِه: ﴿ كُلًّا ﴾ بدَلُ مُفَصَّلٍ مِن مُجمَلٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: وإذا قدَّرْنا إهلاكَ أهلِ قَريةٍ لِظُلمِهم، أمَرْنا المُتنَعِّمينَ فيها بطاعةِ اللهِ وتَوحيدِه، على لسانِ الرسولِ المرسَلِ إليهم، فعَصَوا أمرَ رَبِّهم، وكذَّبوا المُرسَلين، فوجب عليهم عذابُنا، فأهلَكْنا قريتَهم واستأصَلْنا شأفتَهم، وكثيرًا أهلَكْنا مِن الأُمَمِ المُكَذِّبةِ رُسُلَها مِن بعدِ نُوحٍ، وحَسبُك ربُّك -يا مُحمَّدُ- إحاطةً وعِلمًا واطِّلاعًا بما يعمَلُه العبادُ.

ثمَّ ذكَر تعالى مصيرَ الذين يُؤثِرونَ الدُّنيا على الآخرةِ، فقال: مَن كان همُّه الدُّنيا وسَعيُه لها وحْدَها، ولم يعمَلْ للآخرةِ؛ عجَّل اللهُ له فيها ما يَشاء تعجيلَه له مِن زينتِها ومُتَعِها؛ لِمن يريدُ اللهُ، ثمَّ يجعَلُ اللهُ له في الآخرةِ جَهنَّمَ يدخُلُها مَذمومًا مطرودًا مِن رَحمة اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ومَن قصَدَ بقَولِه وعَمَلِه ثَوابَ الدَّارِ الآخرةِ، وسعَى لها على ما يحِبُّ اللهُ ويرضى، وهو مُؤمِنٌ؛ فأولئك كان عَمَلُهم مَقبولًا، يُضاعِفُ الله لهم ثوابَه، ويُحسِنُ لهم جزاءَه.

ثم قال تعالى: كلًّا من الفَريقينِ المتقدِّمَينِ نَزيدُ مِن فَضلِنا ورِزقِنا، فنَرزُقُ

---

٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٨١٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٠).

المُؤمِنينَ والكافرينَ في الدُّنيا، وما كان عَطاءُ رَبِّك مَمنوعًا عن المؤمِنِ ولا عن الكافِرِ، انظُرْ -يا مُحمَّدُ- كيف فضَّل اللهُ بَعضَ النَّاسِ على بَعضٍ في الدُّنيا، ولَلآخِرةُ أكبَرُ تفاضُلًا وتفاوتًا في الدَّرَجاتِ والمنازلِ مِمَّا كانوا عليه في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرًا ١٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أشار اللهُ تعالى إلى عذابِ المُخالِفينَ؛ قَرَّرَ أسبابَه، وعرَّفَ أنَّها بقَدَرِه، فقال تعالى[1]:

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿آمَرۡنَا﴾ بمَدِّ الهمزةِ، قيل: المعنى: أكثَرْنا مُتْرَفِيها عددًا، أو أكثَرْنا حُروثَهم وأموالَهم، وقيل غير ذلك[2].

٢- قراءةُ ﴿أَمَرۡنَا﴾ مِن غَيرِ مَدٍّ، مِنَ الأمرِ الذي هو خِلافُ النَّهيِ، والمعنى: أمَرْناهم بالطَّاعةِ ففَسَقوا بمَعصيتِهم اللهَ، وقيل غيرُ ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩٠).

(٢) قرأ بها يعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٩٠)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٥).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٨، ٥٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٩٠)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٩١ - ٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦١).

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾.

أي: وإذا أرَدْنا أن نُهلِكَ أهلَ قَريةٍ بعَذابٍ في الدُّنيا، أمَرْنا مُتنعِّميها وجَبابِرَتَها بطاعتي، على لسانِ الرسولِ المبعوثِ إليهم، فخَرَجوا عن أوامِري وعَصَوني[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٧، ٥٣٢)، ((الفِصَل)) لابن حزم (٣/ ١٠٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٤٩)، ((العواصم والقواصم)) لابن الوزير (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٧٥).

وممَّن ذهَبَ إلى أنَّ المرادَ بالأمرِ هنا: الأمرُ الشَّرعيُّ، أي: أمَرهم بطاعتِه، فخالَفوا أمرَه وعَصَوه: ابنُ جرير، وابنُ حزم، والنَّسَفي، وابنُ الوزير، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، والشنقيطي، ونسَبَه إلى جمهورِ العُلَماء. يُنظر: المصادر السابقة. و((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، وجماعةٌ مِن التَّابِعينَ، منهم ابنُ جريجٍ وغيرُه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٢٧).

وقوله: ﴿أَمَرۡنَا﴾ يدلُّ على أنَّه أمَر بالطاعةِ، وإن لم يُذكَرْ؛ كما تقول: أمرتُك فعصيتَني، معناه: أمرتُك بطاعتي. فإن قيل: لِمَ خصَّ المترفين بالأمر بالطاعة، وأمرُه بالطاعة لا يكون مقصورًا على المُترفين، وقد أمر الله بطاعتِه جميعَ خلقِه من مترَفٍ وغيره؟! قيل: لأنَّهم الرؤساءُ الذين مَن عداهم تبَعٌ لهم، كما أن موسى بُعِثَ إلى فرعون ليأمُرَه بطاعة الله، وكان مَن عداه من القبط تبعًا له. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٨٥).

قال الشوكاني: (اختلف المفسِّرون في معنى ﴿أَمَرۡنَا﴾ على قولين: الأولُ: أن المرادَ به الأمرُ الذي هو نقيضُ النهي، وعلى هذا اختلفوا في المأمورِ به، فالأكثَرُ على أنَّه الطاعة والخير... القول الثاني: أنَّ معنى ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ أكثَرْنا فسَّاقَها). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٤).

وممن اختار القولَ الثاني؛ أنَّ (أمر) بمعنى (كثَّر): أبو علي الفارسي، والقصاب. يُنظر: ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٥/ ٩٣)، ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٢٢٧). ويُنظر أيضًا: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٩٤).

وقيل: الأمرُ هنا: أمرٌ كونيٌّ قَدَريٌّ، لا أمرٌ دينيٌّ شَرعيٌّ، أي: أمَرهم أمرًا قَدَريًّا بأن يفسُقوا. وممَّن اختار ذلك: ابنُ تيميةَ، وابنُ القَيِّم، والسعديُّ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (١/ ١٥١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٧٢).

﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾.

أي: فوَجَبَ على أهلِ القَريةِ العَذابُ الذي حُذِّروا منه، فخرَّبْنا القَريةَ تخريبًا، وأهلَكْنا أهلَها فاستأصَلْناهم[١].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى ضَرَب مِثالًا لإهلاكِ القُرى الذي وصَفَ سَبَبَه وكيفيَّتَه في الآيةِ السَّابقةِ، فعَقَّبَ ذلك بتَمثيلِه؛ لأنَّه أشَدُّ في الكَشفِ، وأدخَلُ في التَّحذيرِ المَقصودِ، وفي ذلك تحقيقٌ لِكَونِ حُلولِ العَذابِ بالقُرى مُقَدَّمًا بإرسالِ الرَّسولِ إلى أهلِ القَريةِ، ثمَّ بتَوجيهِ الأوامِرِ إلى المُتْرَفينَ، ثمَّ فِسقِهم عنها[٢].

وأيضًا لَمَّا قَرَّرَ أنَّ ما سبَقَ هو شأنُه إذا أراد أن يُهلِكَ؛ أخبَرَ أنَّه فعل ذلك بمَن لا يُحصِيهم العَدُّ مِن القُرونِ، ولا يُحيطُ بهم الحَدُّ مِن الأُمَمِ؛ لأنَّ الاعتبارَ بالمُشاهَدِ أوقَعُ في القَلبِ وأهوَلُ عند النَّفسِ[٣].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾.

أي: وكثيرٌ مِن أهلِ القُرونِ الماضيةِ عذَّبْناهم في الدُّنيا؛ لكُفرِهم وتَكذيبِهم رُسُلَهم، وذلك مِن بعدِ أوَّلِ الرُّسُلِ نُوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فأنتم -يا كُفَّارَ قُرَيشٍ- لَستُم أكرَمَ على اللهِ منهم، وقد كذَّبتُم أشرَفَ الرُّسُلِ؛ فعُقوبتُكم أَولى وأحْرَى إن لم تَنتَهوا عن كُفرِكم وتَكذيبِكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٢، ٥٣٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير السعدي))

كما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٣٩].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

أي: وحسبُك ربُّك -يا محمَّدُ- خَبيرًا بَصيرًا بذُنوبِ عِبادِه، يَعلَمُ بَواطِنَها وظَواهِرَها، لا يخفى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيهم عليها[1].

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا تَقَرَّرَ أنَّ اللهَ سُبحانَه خَبيرٌ بذُنوبِهم بعد تَزهيدِه في الدُّنيا بما ذَكَرَ مِن مَصارِعِ الأوَّلينَ؛ أتبَعَه الإخبارَ بأنَّه يُعامِلُهم على حَسَبِ عِلْمِه على وَجهٍ مُعَرِّفٍ بعِلمِه بجميعِ طَوِيَّاتِهم مِن خَيرٍ وشَرٍّ، مُرَغِّبٍ في الآخرةِ، مُرَهِّبٍ من الدُّنيا؛ لأنَّها المانِعةُ مِن اتِّباعِ الرُّسُلِ والتقَيُّد بطاعتِهم، خوفًا مِن نَقصِ الحَظِّ مِن الدُّنيا بزَوالِ ما هو فيه مِنَ الرِّئاسةِ والمالِ، والانهماكِ في اللَّذَّةِ، جهلًا بأنَّ ما قُدِّرَ لا يكونُ غَيرُه، سواءٌ كان صاحِبُه في طاعةٍ أو مَعصيةٍ[2].

وأيضًا فإنَّ هذا بيانٌ لجُملةِ ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٥]، وهو راجِعٌ أيضًا إلى جُملةِ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء:

(ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٦، ٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٣، ٥٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩٥).

١٣]؛ تدريجًا في التِّبيانِ للنَّاسِ بأنَّ أعمالَهم مِن كَسبِهم واختيارِهم، فابتُدِئُوا بأنَّ اللهَ قد ألزمَهم تَبِعةَ أعمالِهم، بقَولِه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ ﴾ ثمَّ وكَلَ أمرَهم إليهم؛ وأنَّ المسيءَ لا يضُرُّ بإساءتِه غَيرَه ولا يَحمِلُها عنه غيرُه، فقال: ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا ﴾ [الإسراء: ١٥]، ثمَّ أعذرَ إليهم بأنَّه لا يأخُذُهم على غِرَّةٍ، ولا يأخُذُهم إلَّا بسُوءِ أعمالِهم، بقَولِه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ﴾ إلى قَولِه: ﴿ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٥- ١٧]، ثمَّ كشفَ لهم مقاصِدَهم من أعمالِهم، وأنَّهم قِسمانِ، فقال[١]:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾.

أي: مَن كانت نيَّتُه الدَّارَ العاجِلةَ وهي الدُّنيا، ولها وحدَها يَعملُ، ولا يَعملُ لآخِرتِه؛ عَجَّلْنا له في الدُّنيا ما نَشاءُ مِن مَتاعِها وأرزاقِها، لِمَن نريدُ إعطاءَه مِن ذلك[٢].

﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومًا مَّدۡحُورًا ﴾.

أي: ثمَّ جعَلْنا له في الآخِرةِ عَذابَ جَهنَّمَ، فيَدخُلُها ويَحتَرِقُ بنارِها مذمومًا مِنَ اللهِ ومِن عِبادِه، على فَسادِ نيَّتِه، وسُوءِ صَنيعِه، مُبعَدًا مِن رَحمةِ رَبِّه، مُقْصًى ذَليلًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٥، ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٩).
قال ابن كثير: (يخبِرُ تعالى أنَّه ما كُلُّ من طلب الدنيا وما فيها من النَّعيمِ يحصُلُ له، بل إنَّما يحصُلُ لمن أراد الله ما يشاء، وهذه مقيِّدةٌ لإطلاقِ ما سواها من الآياتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٢، ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥).

كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥- ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

أي: ومَن نوى ثَوابَ الدَّارِ الآخرةِ، وعَمِلَ للجَنَّةِ الأعمالَ الصَّالِحةَ، بإخلاصٍ لله ومُتابَعةٍ لرَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهو مُؤمِنٌ باللهِ ومَلائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ، ومُصَدِّقٌ بالثَّوابِ والجَزاءِ[(١)].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

أي: فأولئك الذين فعَلوا ذلك كان عملُهم بطاعةِ اللَّه مَقبولًا غيرَ مردودٍ، يُضاعِفُ الله لهم ثوابَه، ويُحسِنُ لهم جزاءَه، معَ تجاوزِه عن سيئاتِهم[(٢)].

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أخبَرَ عن نَفسِه بما يشيرُ إلى التَّوسِعةِ على مَن يُريدُ مِن أهلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩٧).

الباطِلِ؛ أخبَرَ بأنَّه قضَى بذلك في الأزَلِ تفَضُّلًا[١].

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾.

أي: كلَّ واحدٍ مِن الفَريقينِ: الكافرينَ الذين يُريدُونَ الدُّنيا، والمُؤمِنينَ الذين يُريدونَ الآخرةَ، نَزيدُ -يا مُحمَّدُ- مِن فَضلِ رَبِّك ورزقِه[٢].

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾.

أي: وما كان فَضلُ رَبِّك -يا مُحمَّدُ- مَمنوعًا عن أحدٍ مِن خَلْقِه؛ فلكُلِّ أحدٍ نَصيبٌ منه[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٥٣).

قال ابن عطية: (قولُه: ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ يحتَمِلُ أن يريد: من الطاعاتِ لِمريدي الآخرةِ، والمعاصي لمريدي العاجلةِ، ورويَ هذا التأويلُ عن ابن عباس، ويحتَمِل أن يريد بـ «العطاء» رزقَ الدنيا، وهذا هو تأويلُ الحسن بن أبي الحسن وقتادة، أي: أنَّ الله تعالى يرزقُ في الدنيا مريدي الآخرة المؤمنين ومُريدي العاجلة من الكافرين، ويمُدُّهم بعطائِه منها، وإنما يقع التفاضُلُ والتباين في الآخرةِ، ويتناسَبُ هذا المعنى مع قَولِه: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾، أي: أنَّ رِزقَه في الدنيا لا يضيقُ عن مؤمنٍ ولا كافرٍ، وقلَّما تصلُحُ هذه العبارة لمن يمدُّ بالمعاصي التي توبِقُه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٢).

قال السمعاني: (وأجْمعَ أهل التَّفسيرِ أن معنى ﴿عَطَآءُ رَبِّكَ ﴾ في هذه السُّورة هو الدُّنيا، فإن الآخِرة للمُتقين، وليسَ للكفَّار فيها نصيبٌ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٢٩).

وقال ابن جرير: (ثمَّ تختَلِفُ بهما [أي: مريدي الدنيا ومريدي الأخرةِ] الأحوالُ بعد المماتِ، وتفترِقُ بهما بعدَ الورودِ المصادِرُ؛ ففَريقُ مُريدي العاجلةِ إلى جهنَّمَ مَصدَرُهم، وفريقُ مُريدي الآخرةِ إلى الجنَّةِ مآبُهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٧).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان العَطاءُ المبذولُ للفَريقَينِ هو عَطاءَ الدُّنيا، وكان النَّاسُ مُفَضَّلينَ فيه على وجهٍ يُدرِكونَ حِكمَتَه؛ لَفَت اللهُ لذلك نظَرَ نَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لَفْتَ اعتبارٍ وتدَبُّرٍ، ثمَّ ذَكَّرَه بأنَّ عطاءَ الآخرةِ أعظَمُ عَطاءٍ، وقد فَضَّلَ اللهُ به المُؤمِنينَ(١).

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

أي: انظُرْ -يا مُحمَّدُ- كيف فضَّلْنا بعضَ النَّاسِ على بَعضٍ في عطاءِ الدُّنيا، كالرِّزقِ، والعِلمِ، والعَقلِ، والجَمالِ، والصحةِ إلى غيرِ ذلك(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٣).

ممن ذهَب إلى أنَّ التفضيلَ المذكورَ في الدنيا بالغنَى والفقرِ، والحسنِ والقبحِ، والعلمِ والجهلِ، والعقلِ والسفهِ، والقوةِ والضعفِ، والصحةِ والمرضِ إلى غيرِ ذلك: ابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٣).

ومِن المفسِّرينَ مَن قصَر هذا التفضيلَ على الرزقِ، ومنهم: الواحدي، وهو ظاهرُ اختيارِ السمعاني، والرسعني. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٤٤).

ومِن المفسرينَ مَن جعَل التفضيلَ على الرزقِ والعملِ، ومنهم: الثعلبي، والبغوي، والقرطبي،

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

أي: ولَتفاوتُهم في الدارِ الآخرةِ أكبرُ مِن الدُّنيا، فتفاضلُ درجاتِ العاملين في الآخرةِ أكبرُ، وأهلُ الآخرةِ يتفاضلون فيها أكثرَ ممَّا يتفاضلُ الناسُ في الدُّنيا[1].

والعليمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٦)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٩٠).

وجعلَ ابنُ جرير مدارَ التَّفضيلِ هنا على الهُدى والرَّشادِ، والضَّلالِ والخِذلانِ، فقال: (يقولُ تعالى ذِكرُه لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم: انظُرْ -يا محمَّدُ- بعينِ قَلبِك إلى هذينِ الفريقين اللذين همُّ أحدِهما الدارُ العاجلةُ، وإيَّاها يطلُبُ ولها يعمَلُ، والآخَرُ الذي يريد الدَّارَ الآخرةَ ولها يسعى موقِنًا بثوابِ اللهِ على سَعيِه، كيف فضَّلْنا أحدَ الفريقينِ على الآخَرِ، بأنْ بصَّرْنا هذا رُشدَه، وهديناه للسَّبيلِ التي هي أقوَمُ، ويسَّرْناه للذي هو أهدى وأرشَدُ، وخذَلْنا هذا الآخَرَ فأضلَلْناه عن طريقِ الحَقِّ، وأغشينا بصَرَه عن سبيلِ الرُّشدِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٩-٥٤٠).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير الشوكاني (٣/ ٢٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٩٤).

قال الواحدي: (﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ يحتملُ معنيينِ:

أحدهما: أنَّ هذا خاصٌّ في المؤمنينَ الذين يدخلونَ الجنَّةَ، فتتفاوتُ درجاتُهم في الآخرةِ أكبرَ مما تتفاوتُ درجاتُ المرزوقينَ في الدنيا في الرِّزقِ، وهذا التفضيلُ بينَ المؤمنينَ خاصةً.

والثاني: أنَّ هذا التفصيلَ بينَ المؤمنينَ والكافرينَ، ويكونُ المعنى: أنَّ المؤمنين يدخلونَ الجنةَ، والكافرينَ يدخلونَ النارَ، فتَبينُ درجاتُهم، ويفضلُ أحدُ الفريقينِ على الآخرِ، وعلى هذا لا تدلُّ الآيةُ على تفاوتِ درجاتِ المؤمنين بينَهم، وإنما تدلُّ على تفضيلِهم على الكفارِ بدرجاتِ الجنةِ. والمفسرونَ على القولِ الأوَّلِ). ((البسيط)) (١٣/ ٢٩٤).

وقال ابن كثير: (﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي: ولَتفاوُتُهم في الدَّارِ الآخرةِ أكبرُ

كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ۞ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۞ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۞ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧ - ١١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ مِئَةَ دَرَجةٍ أعدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سَبيلِه، كلُّ درجتَينِ ما بينهما كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سألتُم اللهَ فسَلُوه الفِردَوسَ؛ فإنَّهُ أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجَنَّةِ، وفَوقَه عَرشُ الرَّحمنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجَنَّةِ))[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- نَبَّه اللهُ تعالى بقَولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ على أنَّ الذُّنوبَ هي أسبابُ الهَلَكةِ لا غَيرُ، وأنَّه عالِمٌ بها ومُعاقِبٌ عليها[(٢)]؛ وذلك لأنَّه لَمَّا عقَّبَ إهلاكَهم بعِلمِه بالذُّنوبِ عِلمًا أتمَّ، دلَّ على أنَّه جازاهم بها[(٣)].

مِنَ الدُّنيا؛ فإنَّ منهم مَنْ يكونُ في الدَّركاتِ في جهنَّمَ وسلاسِلِها وأغلالِها، ومنهم مَنْ يكونُ في الدَّرَجاتِ العُلَى ونَعيمِها وسُرورِها، ثُمَّ أهلُ الدَّركاتِ يتفاوَتونَ فيما هم فيه، كما أنَّ أهلَ الدَّرَجاتِ يتفاوَتونَ؛ فإنَّ الجنَّةَ مئةُ درجةٍ ما بينَ كلِّ درجتينِ كما بينَ السَّماءِ والأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٣).

(١) رواه البخاري (٧٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٥١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ فيه أعظَمُ زَجرٍ عن ارتِكابِ ما لا يُرضِي اللهَ تعالى[١].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ فَمِن الجُهَّالِ مَن إذا ساعَدَتْه الدُّنيا اغتَرَّ بها وظَنَّ أنَّ ذلك لأجْلِ كَرامتِه على اللهِ تعالى، وأنَّه تعالى بَيَّنَ أنَّ مُساعدةَ الدُّنيا لا ينبغي أن يُستَدَلَّ بها على رِضا اللهِ تعالى؛ لأنَّ الدُّنيا قد تَحصُلُ مع أنَّ عاقِبَتَها هي المصيرُ إلى عذابِ اللهِ وإهانتِه[٢].

٤- الذي ينبغي للإنسانِ العاقِلِ أنَّه كُلَّما رأى مِن نَفسِه طُموحًا إلى الدُّنيا، وانشِغالًا واغتِرارًا بها، تذَكَّرَ الموتَ، وتَذَكَّرَ حالَ الآخِرةِ؛ لأنَّ هذا هو المآلُ المُتيقَّنُ؛ وأنَّ ما يُؤَمِّلُه الإنسانُ في الدُّنيا قد يحصُلُ وقد لا يحصُلُ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ لا ما يَشاء هو، بل ما يشاءُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ ﴿لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[٣].

٥- الإنسانُ ينبغي له أن يجعلَ الدُّنيا وسيلةً إلى الآخرةِ؛ ولا يكون كلُّ هَمِّه وقَصْدِه الدُّنيا؛ فالإنسانُ إذا أراد الدُّنيا فقط، فإنَّه قد يُضَيِّعُ الدُّنيا والآخرةَ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٤/ ٢).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ فيه وجوبُ الإخلاصِ والنيَّةِ في العباداتِ[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي: سَعْيَها الذي هو لها، وهو ما كانت جَديرةً به مِن العَمَلِ بما يُرضي اللهَ بما شَرَعَه في كتابِه وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّم، لا أيَّ سَعيٍ كان بما لم يَشهَدْ له ظاهِرُ الكِتابِ والسُّنَّةِ[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ شَرَط فيه شُروطًا ثلاثةً:

الشرط الأول: أنْ يُريدَ بعَمَلِه الآخِرةَ، أي: ثوابَ الآخرةِ؛ فإنَّه إن لم تَحصُلْ هذه الإرادةُ، وهذه النِّيَّةُ، لم يَنتَفِعْ بذلك العَمَلِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩].

الشَّرطُ الثاني: قَولُه تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ بأن يكونَ العَمَلُ الذي يُتَوَصَّلُ به إلى الفَوزِ بثَوابِ الآخرةِ، مِن الأعمالِ التي بها يُنالُ ثَوابُ الآخرةِ، ولا يكونُ كذلك إلَّا إذا كان مِن بابِ القُرَبِ والطَّاعاتِ، فكثيرٌ مِن النَّاسِ يتَقَرَّبونَ إلى اللهِ تعالى بأعمالٍ باطلةٍ!

الشَّرطُ الثَّالِثُ: قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ وهذا الشَّرطُ مُعتبَرٌ؛ لأنَّ الشَّرطَ في كَونِ أعمالِ البِرِّ مُوجِبةً للثَّوابِ تَقَدُّمُ الإيمانِ، فإذا لم يُوجَدِ الشَّرطُ لم يَحصُلِ المَشروطُ. ثمَّ إنَّه تعالى أخبَرَ أنَّ عند حُصولِ هذه الشَّرائِطِ يَصيرُ السَّعيُ

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩٦).

مَشكورًا، والعَمَلُ مَبرورًا، فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾[١].

٩- قال تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ فإذا كانت الآخرةُ كذلك فإنَّه ينبغي التَّسابُقُ إلى دَرَجاتِها العاليةِ، وحَياتِها الباقيةِ؛ فذلك خَيرٌ وأحسَنُ تأويلًا[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ دَلالةٌ على أنَّ القُرى إنَّما تَهلِكُ بعد فِسْقِ مُترَفيها[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖ﴾ جُعِل زمنُ نوحٍ مَبدأً لقَصصِ الأُممِ؛ لأنَّه أوَّلُ رسولٍ، واعتُبِر القَصصُ مِن بَعدِه؛ لأنَّ زمنَ نوحٍ صار كالمُنقَطِعِ بسَبَبِ تجديدِ عُمرانِ الأرضِ بعدَ الطُّوفانِ، ولأنَّ العَذابَ الذي حَلَّ بقَومِه عذابٌ مَهولٌ، وهو الغَرَقُ الذي أحاط بالعالَمِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ البعثَ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ والأمْرَ في قولِه: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ وما يَتْلوهما من فسْقِهم ليس لتَحصيلِ العلْمِ بما صدَرَ عنْهم منَ الذُّنوبِ؛ فإنَّ ذلك حاصلٌ قبلَ ذلك، وإنَّما هو لقطعِ الأعذارِ، وإلزامِ الحُجَّةِ من كلِّ وجْهٍ[٥].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((الضياء اللامع من الخطب الجوامع)) لابن عثيمين (٢/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية)) (٥/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٣).

جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾، إن قيل: إنَّ قضيَّته أنَّ مَن لم يترُكِ الدُّنيا يكونُ مِن أهلِ النَّارِ، وليس كذلك؟

فالجواب: أنَّ المرادَ مَن لم يُرِدْ بإسلامِه وعبادتِه إلَّا الدنيا، وهذا لا يكونُ إلَّا كافرًا، أو منافِقًا[١].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لِمَن نُّرِيدُ ﴾ يدُلُّ على أنَّه لا يَحصُلُ الفَوزُ بالدُّنيا لكُلِّ أحَدٍ، بل كثيرٌ مِن الكُفَّارِ والضُّلَّالِ يُعرِضونَ عن الدِّينِ في طَلَبِ الدُّنيا، ثمَّ يَبقَونَ مَحرومينَ مِن الدُّنيا ومِن الدِّينِ، وهذا أيضًا فيه زَجرٌ عَظيمٌ لهؤلاءِ الكُفَّارِ الضُّلَّالِ الذين يَترُكونَ الدِّينَ لِطَلَبِ الدُّنيا؛ فإنَّه رُبَّما فاتَتْهم الدُّنيا، فهم الأخسَرونَ أعمالًا؛ الذين ضَلَّ سَعيُهم في الحَياةِ الدُّنيا وهم يَحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ والقَدَرِيَّةِ؛ لأنَّه سُبحانَه أخبَرَ عن العاجِلةِ -التي استحَقُّوا بها النَّارَ- أنَّه هو الذي عجَّلَها لهم، بل أخبَرَ مع التَّعجيلِ لهم بأنَّه أرادَه منهم بقَولِه: ﴿لِمَن نُّرِيدُ ﴾، بل وأكَّدَه بما بَعدَه؛ حيثُ قال سُبحانَه: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ فقد أَخْبَرَ سُبحانَه عن إمدادِه إيَّاهم بعَطائِه وعن تَفضيلِ بَعضِهم على بعضٍ، وسببُ التَّفضيلِ عَطاؤُه، لا انفرادُهم باكتِسابِ الخَيرِ والشَّرِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١١٤).

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ فمَن لم يُرِدِ الدَّارَ الآخرةَ قولًا وعَمَلًا، وإيثارًا ومَحبَّةً، ورَغبةً وإنابةً؛ فلا خَلاقَ له في الآخِرةِ، ولا فائِدةَ له في الدَّارِ الدُّنيا، بل هو كافِرٌ مَلعونٌ، مُشَتَّتٌ مُعَذَّبٌ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿مَذْمُومًا﴾ فيه إشارةٌ إلى الإهانةِ، وقوله: ﴿مَّدْحُورًا﴾ فيه إشارةٌ إلى البُعدِ والطَّردِ[٢].

٩- الكافِرُ يُجازى على عَمَلِه الحَسَنِ في الدُّنيا لا في الآخِرةِ، والمُؤمِنُ قد يُؤخَّرُ له الثَّوابُ في الآخرةِ، وقد يُجازَى به في الدُّنيا وفي الآخرةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ إذَنْ، فالتَّوفيةُ تكونُ في الدُّنيا دونَ الآخرةِ للكافِرِ، أمَّا المُؤمِنُ فتَكونُ في الدُّنيا والآخرةِ جَميعًا، أو في الآخرةِ فقط[٣].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ لم يَثْبُتِ المَدحُ إلَّا على إيمانٍ معه العَمَلُ، لا على إيمانٍ خالٍ عن عَمَلٍ[٤]. وفي الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ لا تَنفَعُ إلَّا مع

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩).
(٣) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٨١).

الإيمانِ باللهِ؛ لأنَّ الكُفرَ سَيِّئةٌ لا تنفَعُ معها حَسَنةٌ؛ لأنَّه شَرطٌ في ذلك[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ إن قيلَ: كيف قال ذلك مع أنَّا نُشاهِدُ الواحِدَ لا يملكُ شيئًا مِن المالِ، وآخَرَ معه الألوفُ؟

فالجوابُ: أنَّ المُرادَ بالعَطاءِ هنا الرِّزقُ، واللهُ سَوَّى في ضَمانِه بين المُطيعِ والعاصي مِنَ العِبادِ، فلا تَفاوُتَ بينهم في أصلِ الرِّزقِ، وإنَّما التَّفاوُتُ بينهم في مَقاديرِ الأملاكِ[٢].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ إنَّما لم يمنَعِ الكُفَّارَ الرِّزقَ، كما منَعَهم الهدايةَ؛ لأنَّ في مَنعِه له هلاكَهم وقيامَ الحُجَّةِ لهم بأن يقولوا: لو أمهَلْتَنا ورزَقْتَنا لبَقِينا أحياءً فآمَنَّا، ولأنَّهم لو منَعَهم الرِّزقَ لكان قد عاجلَهم بالعُقوبةِ، ولكان ذلك مِن صِفاتِ البُخلاءِ، واللهُ تعالى منَزَّهٌ عن ذلك؛ لأنَّه حليمٌ كريمٌ، ولأنَّ إعطاءَ الرِّزقِ لجَميعِ العبادِ عَدلٌ، وعَدلُ الله عامٌّ؛ وهِبةَ الهدايةِ فَضلٌ، والفَضلُ بيدِ اللهِ يؤتيه من يشاءُ[٣].

١٣- النَّاسُ في الجنَّةِ على دَرَجاتٍ مُتفاوِتةٍ؛ كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[٤].

١٤- قولُه تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ المرادُ التفضيلُ في عطاءِ الدنيا؛ لأنَّه الذي يدركُه التأملُ والنظرُ، وبقرينةِ مقابلتِه بقولِه: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ﴾. والمقصودُ مِن هذا التنظيرِ: التنبيهُ إلى أنَّ عطاءَ الدنيا غيرُ منوطٍ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٢-٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٠١).

بصلاحِ الأعمالِ؛ ألا ترَى إلى ما فيه مِن تفاضلٍ بينَ أهلِ العملِ المتَّحدِ، وقد يفضلُ المسلمُ فيه الكافرَ، ويفضلُ الكافرُ المسلمَ، ويفضلُ بعضُ المسلمينَ بعضًا، وبعضُ الكفرةِ بعضًا، وكفاك بذلك هاديًا إلى أنَّ مناطَ عطاءِ الدنيا أسبابٌ ليست مِن وادي العملِ الصالحِ، ولا ممَّا يُساقُ إلى النفوسِ الخيرةِ[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ تَفصيلٌ للحُكمِ المُتقدِّمِ، قُصِدَ به تَهديدُ قادةِ المُشركينَ، وتَحميلُهم تبِعَةَ ضَلالِ الَّذين أضَلُّوهم، وهو تَفريعٌ لتَبيينِ أسبابِ حُلولِ التَّعذيبِ بعدَ بَعثةِ الرَّسولِ، أُدْمِجَ فيه تَهديدُ المُضلِّينَ؛ فكان مُقْتَضى الظَّاهرِ أنْ يُعْطَفَ بالفاءِ على قولِه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ولكنَّه عُطِفَ بالواوِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه خبرٌ مَقصودٌ لذاتِه باعتبارِ ما يتضمَّنُه من التَّحذيرِ من الوُقوعِ في مثْلِ الحالةِ الموصوفةِ، ويظهَرُ معنى التَّفريعِ من طبيعةِ الكلامِ، فالعطفُ بالواوِ هنا تَخريجٌ على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ في الفصْلِ والوصْلِ[٢].

- قولُه: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ فيه تَخصيصُ المُتْرفينَ بالذِّكرِ مع تَوجُّهِ الأمْرِ إلى الكلِّ؛ لأنَّهم الأصولُ في الخطابِ، والباقي أتباعٌ لهم، ولأنَّ توجُّهَ الأمْرِ إليهم آكَدُ[٣]، فقُيِّدُ الأمْرُ بالمُتْرفينَ، وإنْ كان الأمرُ لا يختَصُّ بهم؛ لأنَّ صلاحَهم أو فسادَهم مُستلزِمٌ لصلاحِ غيرِهم أو فسادِه[٤]، ولأنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٢- ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٢١).

أحَقُّ النَّاسِ بالشُّكرِ، وأولَى بالانتِقامِ عندَ الكُفرِ[١]، وكذلك لأنَّهم أسرَعُ إلى الحَماقةِ، وأقدَرُ على الفُجورِ[٢].

- قولُه: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ قيل: لم يَقُلْ بماذا أمَرَهم؛ إيجازًا في القَولِ، واعتِمادًا على بَديهةِ السَّامعِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ يدُلُّ عليه[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

- قولُه: ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ في هذا التَّخصيصِ إيجازٌ، كأنَّه قيل: من قومِ نوحٍ فمَن بعدهم[٤].

- قولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ فيه تَقديمُ ﴿خَبِيرًۢا﴾؛ لتقدُّمِ مُتعلَّقِه من الاعتقاداتِ والنِّيَّاتِ الَّتي هي مَبادِئُ الأعمالِ الظَّاهرةِ، أو لعُمومِه؛ حيث يتعلَّقُ بغيرِ المُبصَراتِ أيضًا[٥].

٣- قَولُه تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾

- قولُه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٣).

فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴾ بَيانٌ لجُملةِ: ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي ﴾، وهو راجعٌ أيضًا إلى قولِه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ﴾؛ فمَعْنى ﴿كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴾ أنَّه لا يريدُ إلَّا العاجلةَ، أي: دونَ الدُّنيا، بقَرينةِ مُقابَلَتِه بقولِه: ﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾؛ لأنَّ هذه المُقابَلةَ تقومُ مقامَ الحصرِ الإضافيِّ؛ إذ ليس الحصرُ الإضافيُّ سِوى جُملتينِ: إثباتٍ لشَيءٍ، ونَفيٍ لخلافِه[١].

- قولُه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴾، أي: من غيرِ أنْ يريدَ معها الآخرةَ، كما يُنْبِئُ عنه الاستمرارُ المُستفادُ من زيادةِ (كان) هاهنا، مع الاقتصارِ على مُطلَقِ الإرادةِ في قَسيمِه[٢].

- قولُه: ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ فيه ذكْرُ شَريطةِ المشيئةِ مرَّتينِ، وإنَّما عدَلَ إلى هذا الأُسلوبِ الَّذي جاءت به الآيةُ؛ لإدماجِ التَّعريضِ بتَهديدِ أهْلِ مكَّةَ بأنَّهم مُعرَّضونَ لمثْلِ هذا ممَّا حَلَّ بأهْلِ القُرى الَّتي كذَّبَت رُسلَ اللهِ[٣]. وقيل: إنَّ تَقييدَ المُعجَّلِ والمُعجَّلِ له بما ذُكِرَ من المشيئةِ والإرادةِ؛ لأنَّ الحِكمةَ الَّتي عليها يدورُ فلَكُ التَّكوينِ لا تَقْتضي وُصولَ كلِّ طالبٍ إلى مَرامِه، ولا استيفاءَ كلِّ واصَلٍ لِما يطلُبُه بتَمامِه[٤].

- وقولُه: ﴿لِمَن نُّرِيدُ ﴾ بدَلٌ من قولِه: ﴿لَهُۥ﴾ بدلَ بعضٍ من كُلٍّ؛ بإعادةِ حرفِ الجرِّ العاملِ في المُبْدَلِ منه؛ لتأكيدِ معنى التَّبعيَّةِ، وللاستغناءِ عن الرَّبطِ بضَميرِ المُبْدلِ منهم بأنْ يُقالَ: مَن نُريدُ منهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٩).

- وعطْفُ جُملةِ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ بحرفِ (ثمَّ)؛ لإفادةِ التَّراخي الرُّتبيِّ، و﴿لَهُۥ﴾ ظرفٌ مُستقرٌّ هو المفعولُ الثَّاني لـ﴿جَعَلْنَا﴾، قُدِّمَ على المفعولِ الأوَّلِ للاهتمامِ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾

- في قولِه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ ...﴾ وقولِه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ...﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث خُولِفَ بين الجُملتَينِ بجَعْلِ الفعلِ مُضارعًا في الأُولى، وماضيًا في الثَّانيةِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ إرادةَ النَّاسِ العاجلةَ مُتكرِّرةٌ مُتجدِّدةٌ. وفيه تَنبيهٌ على أنَّ أُمورَ العاجلةِ مُتَقضِّيةٌ زائلةٌ. وجعْلُ فعْلِ إرادةِ الآخرةِ ماضيًا لدلالةِ المُضيِّ على الرُّسوخِ؛ تَنبيهًا على أنَّ خيرَ الآخرةِ أَولى بالإرادةِ؛ ولذلك جُرِّدَتِ الجُملةُ مِن (كان) ومن المُضارعِ، وما شرَطَ في ذلك إلَّا أنْ يَسْعى للآخرةِ سَعْيَها، وأنْ يكونَ مُؤمِنًا[٢].

- في قولِه: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا﴾ اللَّامُ تفيدُ اعتبارَ النِّيَّةِ والإخلاصِ[٣].

- وفيه إيرادُ الإيمانِ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالجُملةِ الحاليَّةِ؛ للدَّلالةِ على اشتراطِ مُقارنتِه لِما ذُكِرَ في حيِّزِ الصِّلةِ[٤]، وجِيءَ بها كذلك اسميَّةً؛ لدلالتِها على الثَّباتِ والدَّوامِ، أي: وقد كان راسِخَ الإيمانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦١).

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم جَديرونَ بما سيُخْبَرُ به عنهم؛ لأجْلِ ما وُصِفوا به قبلَ ذكْرِ اسمِ الإشارةِ[١].

- والتَّعبيرُ بـ(كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الوصفَ تَحقَّقَ فيه مِن قبلُ، أي: من الدُّنيا؛ لأنَّ الطَّاعةَ تَقْتضي ترتُّبَ الشُّكرِ عاجِلًا، والثَّوابِ آجِلًا[٢].

- وفي تَعليقِ المَشكوريَّةِ في قولِه: ﴿كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ بالسَّعْيِ دونَ قرينَيْهِ (إرادةِ الآخرةِ، والإيمانِ): إشعارٌ بأنَّه العُمدةُ فيها[٣].

٥- قَولُه تعالى: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾

- قولُه: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ تَذييلٌ لآيةِ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ ...﴾[٤].

- قولُه: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ فيه لَفٌّ ونشرٌ مُرتَّبٌ؛ فـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأُولى للفريقِ الأوَّلِ، أي: مُريدِ الدُّنيا، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الثَّانيةُ للفريقِ الثَّاني، أي: مُريدِ الآخرةِ[٥].

- وقولُه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدَلٌ من قولِه: ﴿كُلّٗا﴾ بدلَ مُفصَّلٍ من مُجمَلٍ، والمقصودُ من الإبدالِ التَّعجُّبُ من سَعَةِ رحمةِ اللهِ تَعالى[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٤١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٢).

- قولُه: ﴿وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ عُطِفَ عليه؛ ففيه تَذكيرٌ لِما به الإمدادُ، وتَعيينٌ للمُضافِ إليه المحذوفِ دَفعًا لتَوهُّمِ كونِه أفرادَ الفريقِ الأخيرِ؛ وتأكيدٌ للقصرِ المُستفادِ من تَقديمِ المفعولِ[١].

- قولُه: ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ فيه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في الموضعَينِ؛ للإشعارِ بمَبدئيَّتِها لِمَا ذُكِرَ من الإمدادِ، وعدَمِ الحظْرِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ اعتراضٌ أو تَذييلٌ[٣].

- واعتبارُ عدَمِ المَحظوريَّةِ بالنِّسبةِ إلى الفريقِ الأوَّلِ تَحقيقًا لشُمولِ الإمدادِ له: يَقْتضي كونَ القصرِ لدفْعِ توهُّمِ اختصاصِ الإمدادِ الدُّنيويِّ بالفريقِ الثَّاني، مع أنَّه لم يَسبِقْ في الكلامِ ما يُوهِمُ ثُبوتَه له، فَضلًا عن إيهامِ اختصاصِه[٤].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾

- قولُه: ﴿كَيْفَ﴾ اسمُ استفهامٍ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٣).

الآيات (٢٢-٢٥)

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿مَّخْذُولًا﴾: أي: غيرَ منصورٍ، والخِذلانُ: تركُ مَن كان يؤمِّلُ منه النَّصرَ نُصرتَه ومعونتَه، وأصلُ (خذل): يدلُّ على تركِ الشَّيءِ، والقعودِ عنه[١].

﴿وَقَضَىٰ﴾: أي: أَمَر، والقضاءُ: فصلُ الأمرِ قولًا كان ذلك أو فعلًا[٢].

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾: تَذلَّلْ لهما، وتواضَعْ، وألِنْ جانِبَك، والخفضُ هو التَّواضُع، والجناحُ: الجانبُ، ويُطلقُ على يدِ الإنسانِ وعضُدِه وإبْطِه، وجَناحُ الذلِّ: تركُ الاستعلاءِ، وأصلُ: (جنح): يدُلُّ على المَيلِ، وأصلُ: (ذل): يدُلُّ على الخُضوعِ، والاستكانةِ، واللِّينِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، (٢/ ٣٤٥)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٤/ ٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠١).

﴿أُفٍّ﴾: اسمُ فِعلٍ يُنبئُ عن التضَجُّرِ والاستِثقالِ، وما يكونُ فيه أدنَى تبَرُّمٍ، أو صوتٌ يُنبئُ عن ذلك، وأصلُ (أفف): يَدلُّ على تَكَرُّهِ الشَّيءِ[١].

﴿تَنْهَرْهُمَا﴾: أي: تَزجُرْهما، وأصلُ (نهر): يدلُّ على زَجرٍ بمُغالَظةٍ[٢].

﴿لِلْأَوَّابِينَ﴾: أي: للرَّجَّاعينَ التَّوَّابينَ، وأصلُ (أوب): يَدلُّ على رُجوعٍ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ بالخطابِ غَيرُه، قائِلًا: لا تَجعَلْ -يا مُحمَّدُ- مع اللهِ شَريكًا له في عبادتِه، فتقعُدَ جامِعًا على نفسِك الذَّمَّ والخِذلانَ، وأمَرَ ربُّك وأوجَبَ أن تعبُدوه وَحْدَه لا شريكَ له، وأن تُحسِنوا إلى الوالِدَينِ إحسانًا، وإن يبلُغْ عندك الكِبرَ أحدُ والِدَيك أو كِلاهما، فبَرَّهما، ولا تُسمِعْهما قَولًا سَيِّئًا، حتى ولو كان التَّأفُّفَ، ولا تَزجُرْهما، وقُلْ لهما قولًا كريمًا حَسَنًا، وكُنْ لهما ذليلًا مُتَواضِعًا؛ رحمةً بهما، وادْعُ اللهَ أن يَرحَمَهما أحياءً وأمواتًا، كما صَبَرَا على تَربيَتِك حالَ صِغَرِك وضَعفِك.

ربُّكم -أيُّها النَّاسُ- أعلَمُ بما في ضمائرِكم مِن خيرٍ أو شَرٍّ، ومِن إرادةِ البِرِّ بالوالِدَينِ أو عُقوقِهما، إن تكونوا قاصِدينَ الصَّلاحَ والبِرَّ بالوالِدَينِ، والرُّجوعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

عمَّا فرط منكم في حقِّهما؛ فاللهُ تعالى للرجَّاعين إليه بالتَّوبةِ غَفورٌ رَحيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا ٢٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ أنَّ النَّاسَ فَريقانِ؛ منهم مَن يريدُ بعَمَلِه الدُّنيا فقط، وهم أهلُ العِقابِ والعَذابِ، ومنهم مَن يريدُ به طاعةَ اللهِ، وهم أهلُ الثَّوابِ، ثمَّ شَرَط ذلك بشَرائِطَ ثلاثةٍ: أوَّلُها: إرادةُ الآخرةِ، وثانيها: أن يعمَلَ عَملًا ويَسعى سعيًا مُوافِقًا لطَلَبِ الآخرةِ، وثالثُها: أن يكونَ مُؤمِنًا- لا جَرَم فصَّلَ في هذه الآيةِ تلك المُجمَلاتِ، فبدأ أوَّلًا بشَرحِ حَقيقةِ الإيمانِ، وأشرَفُ أجزاءِ الإيمانِ هو التَّوحيدُ، ونَفيُ الشُّرَكاءِ والأضدادِ[١].

وأيضًا لَمَّا أجْمَلَ سُبْحانَه أعمالَ البِرِّ في قولِه: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ أخذَ في تَفْصيلِ ذلك مُبْتَدِئًا بأشرفِها الَّذي هو التَّوحيدُ[٢].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا تقرَّر بما مضى أنَّ لله سُبحانَه الأمرَ كُلَّه، وأنَّه مُتَّصِفٌ بجَميعِ الكَمالِ، مُنَزَّهٌ عن شَوائِبِ النَّقصِ- أنتَجَ أنَّه لا إلهَ غَيرُه، فقال تعالى[٣]:

﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا ٢٢ ﴾.

أي: لا تجعَلْ[٤] مع اللهِ مَعبودًا غيرَه، فتبقَى -إن أشرَكْتَ باللهِ- مَذمومًا لا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩٩).

(٤) الخِطابُ هنا للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمرادُ به أمَّتُه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير))

حامِدَ لك، مخذولًا لا ناصِرَ لك[١].

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ في الآيةِ الأولى ما هو الرُّكنُ الأعظَمُ في الإيمانِ، أتبَعَه بذِكرِ ما هو مِن شعائِرِ الإيمانِ وشَرائِطِه[٢].

وأيضًا لمَّا أجْمَل سبحانَه أعمالَ البرِّ في قولِه: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أَخَذ في تفصيلِ ذلك مُبْتَدِئًا بأشرفِها الَّذي هو التَّوحيدُ[٣].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى النَّهيَ المحَتِّمَ لِتَوحيدِه في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أتبَعَه الإخبارَ بالأمرِ بذلك؛ جَمعًا في ذلك بين صَريحَي الأمرِ والنَّهيِ، تصريحًا بعد التَّنزيهِ له عن الشَّريكِ بالإفرادِ له في العِبادةِ، في أُسلوبِ الخبَرِ، إعلامًا بعِظَمِ المقامِ، فقال تعالى[٤]:

(١٤/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨٣).

قال الشنقيطي: (الظاهِرُ أنَّ الخطابَ في هذه الآيةِ الكريمة متوجِّهٌ إلى النبي صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم؛ ليُشرَعَ لأمتِه على لسانِه إخلاصُ التوحيد في العبادة له جلَّ وعلا؛ لأنه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم معلومٌ أنَّه لا يجعَلُ مع الله إلهًا آخرَ، وأنَّه لا يقعُدُ مذمومًا مخذولًا... ومن أساليب اللغة العربية خطابُهم إنسانًا والمرادُ بالخطابِ غيرُه). ((أضواء البيان)) (٣/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٠).

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

أي: وأمَرَ ربُّك -يا مُحمَّدُ- ووصَّى، وأوجَبَ ألَّا تَعبُدوا -أنت وجميعُ الخَلقِ- إلَّا اللهَ وَحدَه[١].

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ بمَعرفةِ الحَقِّ للمُحسِنِ المُطلَقِ مُنبِّهًا على وجوبِ ذلك باسمِ الرَّبِّ؛ أتبَعَه الأمرَ بمَعرفةِ الحَقِّ لأوَّلِ المُرَبِّينَ مِن الخَلقِ، فقال تعالى[٢]:

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾.

أي: وأمَرَكم اللهُ بأن تُحسِنوا إلى الوالِدَينِ بجَميعِ أوجُهِ الإحسانِ مِن الأقوالِ والأفعالِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (معناه: أمَرَ ربُّك، باتِّفاقِ المُسلِمينَ). ((الرد على الشاذلي)) (ص: ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

قال ابنُ عاشور: (شَمِلَ الإحسانُ كُلَّ ما يَصدُقُ فيه هذا الجِنسُ مِن الأقوالِ والأفعالِ، والبَذلِ والمُواساةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٨).

وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وعن نُفَيعِ بنِ الحارِثِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كُنَّا عندَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، فقال: ألَا أنبِّئُكم بأكبَرِ الكبائرِ -ثلاثًا-: الإشراكُ باللَّهِ، وعُقوقُ الوالِدَينِ، وشَهادَةُ الزُّورِ -أو: قَولُ الزُّورِ-...)) الحديث[١].

وعَن المِقدامِ بنِ مَعدِيكَرِبَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ يُوصيكم بأمَّهاتِكم -ثلاثًا- إنَّ اللهَ يُوصيكم بآبائِكم، إنَّ اللهَ يُوصيكم بالأقرَبِ فالأقرَبِ))[٢].

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان سُبحانَه عليمًا بما في الطِّباعِ مِن مَلالِ الوَلَدِ لهما عند أخْذِهما في السِّنِّ، قال تعالى[٣]:

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾.

أي: إنْ عاشَ والِداك[٤] عِندَك، وقد كَبِرَت سِنُّهما وضَعُفَت قُواهما؛ أحدُهما

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧) واللفظ له.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٦٦١) واللفظ له، وأحمد (١٧١٨٧).

حَسَّن إسنادَه ابنُ حَجَر في ((التلخيص الحبير)) (٤/ ١٣٠٤)، والشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٧/ ١٣٦)، وصَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٦٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠١).

(٤) قال الشنقيطي: (فالله يخاطِبُ النبيَّ ومقصودُه إسماعُ أمَّتِه والتشريعُ لهم، والدَّليلُ القاطع على هذا: أن النبيَّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم مات أبواه وهو صغير؛ لأنَّ أباه مات وهو حَملٌ في بطن أمه، وأمُّه ماتت وهو صغير، ومعلومٌ أنهما وقتَ نزول سورة بني إسرائيل ماتا منذ سنين كثيرة، والله يقولُ للنبي مخاطبًا له ببِرِّ الوالدين: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾

أو كِلاهما، فلا تتأفَّفْ؛ إظهارًا لضَجَرِك مِمَّا يُؤذيك منهما، ولا تؤْذِهما بأيِّ نَوعٍ مِن الأذى[١].

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾.

أي: ولا تَزجُرْ والدَيك، وتُغلِظْ لهما القَولَ[٢].

ثم قال مخاطبًا للرسول: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ كلُّ هذا في الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبواه قد ماتا من زمانٍ؛ فدَلَّ على أنَّ قولَه: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ أي: يبلغْ عندك الكبَرَ أحدُ والديك فبَرَّهما وقُلْ لهما قولًا كريمًا، أي: المرادُ خطابُه ليشَرِّعَ لأمَّتِه، ومن زعم من النَّاسِ أنَّ هذا الخِطابَ -أي: قَولَه: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾- أنَّه يخاطَبُ به مُطلَقُ الإنسانِ المخاطَبِ وليس النبي، فهذا غلطٌ محضٌ؛ لأنَّ كلَّ هذه الخطاباتِ للنبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٨] والدليلُ عليه أنَّه قال: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩]؛ فدَلَّ أنَّ الخِطابَ للمُوحى إليه لا إلى مُطلَقِ الواحِدِ مِن النَّاسِ. وآيةُ الإسراءِ هذه نصٌّ صريحٌ في أنَّ النبيَّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم يخاطَبُ بالخِطابِ ليس هو المرادَ به، بل المرادُ التَّشريعُ لأمَّتِه؛ لأنَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم هو المشَرِّعُ لهم بأقوالِه وأفعالِه). ((العذب النمير)) (٢/ ٤٤٠-٤٤١).

وقال ابنُ عاشور: (الخِطابُ لغَيرِ مُعَيَّن فيَعُمُّ كُلَّ مُخاطَبٍ بقَرينةِ العَطفِ على ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وليس خِطابًا للنبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم؛ إذ لم يكن له أبوانِ يومَئذٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٠).

والنَّهيُ عن التَّأفُّفِ هنا: نهيٌ عن أدنى مَراتِبِ القَولِ السَّيِّئِ؛ تَنبيهًا على ما سواه مِمَّا هو أشَدُّ أذًى بطَريقِ الأولى، والمعنى: لا تُؤذِهما أدنى أذِيَّةٍ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٢٠٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٦٦، ١٦٧، ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير))

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا منعَ الله تعالى الإنسانَ بالآيةِ المتقدِّمَةِ عن ذكرِ القولِ المؤذِي الموحِشِ، والنَّهيُ عن القولِ المُؤْذِي لا يكونُ أمْرًا بالقولِ الطَّيِّبِ؛ لا جرمَ أرْدَفَه بأَنْ أمرَه بالقولِ الحسنِ والكلامِ الطَّيِّبِ[1].

وأيضًا لَمَّا نهاه عن عُقوقِهما تقديمًا لِما تُدرَأُ به المَفسَدةُ، أمَرَه ببِرِّهما جَلْبًا للمَصلحةِ، فقال تعالى[2]:

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾.

أي: وقُلْ لهما قَولًا حَسَنًا لَيِّنًا رَقيقًا جَميلًا يُفرِحُهما، فيه تأدُّبٌ معهما، وتلَطُّفٌ لهما[3].

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾.

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾.

أي: وكنْ لوالِدَيك ذليلًا مُتواضِعًا؛ رَحمةً منك بهما، ولا تُخالِفْهما فيما

(٥/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٢-٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).
قال السعدي: (﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾ بلَفظٍ يُحِبَّانِه وتأدُّبٍ وتلطُّفٍ بكلامٍ لَيِّنٍ حَسَنٍ يَلَذُّ على قُلوبِهما، وتطمَئِنُّ به نفوسُهما، وذلك يختَلِفُ باختلافِ الأحوالِ والعوائِدِ والأزمانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

يأمُرانِك به ويَنهيانِك عنه مِمَّا ليس فيه مَعصيةٌ لله تعالى[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ * وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[لقمان: ١٤- ١٥].

وعن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: أوصَاني رسولُ الله صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم: ((لا تُشرِكْ باللهِ شيئًا وإن قُطِّعْتَ أو حُرِّقْتَ... وأطِعْ والِدَيك، وإنْ أمراك أن تَخرُجَ مِن دُنياك فاخرُجْ لهما))[٢].

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾.

أي: وقُلْ: رَبِّ ارحَمْ والِديَّ في حَياتِهما وبعدَ مَوتِهما[٣]؛ جزاءً لهما على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٤) مختصرًا، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (١٨)، والطبراني كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (٤/ ٢١٩).
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٤/ ٢١٩): (فيه شَهرُ بنُ حَوشب، وحديثه حَسَنٌ، وبقيَّةُ رجالِه ثقات)، وحَسَّنَ إسنادَه البُوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (٢/ ٣٠٤)، وابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (٧٥) وقال: (قويٌّ بشَواهده)، وحسَّنَه الألبانيُّ في ((صحيح الأدب المفرد)) (١٤).

(٣) قال ابن جرير: (تحتمِلُ هذه الآيةُ أن تكونَ وإن كان ظاهِرُها عامًّا في كلِّ الآباءِ بغيرِ معنى النَّسخِ، بأن يكونَ تأويلُها على الخصوصِ، فيكونُ معنى الكلامِ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا ﴾ إذا كانا مؤمنَينِ، كما ربياني صغيرًا، فتكون مرادًا بها الخصوصُ على ما قلنا غيرَ منسوخٍ منها شيءٌ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٥٤).
وقال القرطبي: (هذا كلُّه في الأبوين المؤمنينِ، وقد نهى القرآنُ عن الاستغفار للمشركين الأمواتِ ولو كانوا أُولي قربى. وقيل: ليس هذا موضِعَ نَسخٍ، فهو دعاءٌ بالرَّحمةِ الدنيوية للأبوينِ المشركين ما دامَا حيَّينِ، كما تقدم. ... أو يكونُ عمومُ هذه الآية خُصَّ بتلك، لا رحمُ الآخرةِ...

تَربيتِهما لي في صِغَري، وحالِ ضَعفي وعَجزي وافتِقاري[١].

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا دَلَّت الآيةُ السَّابِقةُ على وُجوبِ تَعظيمِ الوالِدَينِ مِن كُلِّ الوُجوهِ، ثمَّ إنَّ الولَدَ قد يَظهَرُ منه نادِرةٌ مُخِلَّةٌ بتَعظيمِهما؛ بيَّن سُبحانَه أنَّه عالِمٌ بأحوالِ قُلوبِكم، فإن كانت تلك الهَفوةُ ليست لأجلِ العُقوقِ، بل ظهَرت بمقتضى الجِبلَّةِ البَشريَّةِ، كانت في محَلِّ الغُفرانِ[٢].

وأيضًا فإنَّه تعالى لَمَّا نهى عن عِبادةِ غَيرِه وأمَرَ بالإحسانِ إلى الوالِدَينِ، ولا سيَّما عند الكِبَرِ، وكان الإنسانُ ربَّما تظاهَرَ بعِبادةٍ وإحسانٍ إلى والِدَيه دونَ عَقدِ ضَميرٍ على ذلك، رياءً وسُمعةً؛ أخبَرَ تعالى أنَّه أعلَمُ بما انطَوَت عليه الضَّمائِرُ مِن دُونِ قَصدِ عِبادةِ اللهِ، والبِرِّ بالوالِدَينِ[٣].

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾.

وقيل: الآيةُ خاصَّةٌ في الدعاء للأبوينِ المسلمين. والصوابُ: أنَّ ذلك عمومٌ كما ذكَرْنا). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٤-٢٤٥).

وقال الشربيني: (هذا إذا كانا مسلمينِ، فإن كانا كافرينِ فإنَّ الدعاء لهما بالرَّحمةِ مَنسوخٌ بقَولِه تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ﴾ [التوبة: ١١٣] بل يدعو اللهَ تعالى لهما بالهدايةِ والإرشادِ، فإذا هداهما فقد رَحِمَهما). ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٥٣، ٥٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩).

أي: ربُّكم -أيُّها النَّاسُ- أعلَمُ بما في قُلوبِكم مِن تَعظيمِ حَقِّ الوالِدَينِ والرَّحمةِ بهما، أو الاستخفافِ به، ومِن إرادةِ البِرِّ بهما، أو الإساءةِ إليهما وعُقوقِهما، لا يخفى عليه شَيءٌ مِن ذلك، وهو مُجازيكم عليه، فاحذَروا أن تُضمِروا لهما سُوءًا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ الله صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكِنْ يَنظُرُ إلى قُلوبِكم وأعمالِكم))[(٢)].

﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

قال القرطبي: (﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡ﴾ أي: مِن اعتقادِ الرَّحمةِ بهما والحنُوِّ عليهما، أو مِن غَيرِ ذلك من العُقوقِ، أو مِن جَعْلِ ظاهِرِ برِّهما رياءً. وقال ابنُ جُبَيرٍ: يريدُ البادرةَ التي تَبدُر، كالفَلتةِ والزَّلَّة، تكونُ مِن الرجُلِ إلى أبَوَيه أو أحدِهما، لا يريدُ بذلك بأسًا). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٦).

وقال الشوكاني: (قَوْلُهُ: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡ﴾ أَيْ: بما في ضمائرِكم من الإخلاصِ وعدَمِه في كلِّ الطاعات، ومن التوبةِ مِن الذنبِ الذي فرَطَ منكم أو الإصرارِ عليه، ويندرج تحت هذا العمومِ ما في النَّفسِ مِن البرِّ والعقوق اندراجًا أوليًّا. وقيل: إنَّ الآية خاصةٌ بما يجب للأبوين من البِرِّ، ويحرُمُ على الأولاد من العقوقِ، والأوَّلُ أولى اعتبارًا بعموم اللفظ، فلا تخَصِّصُه دَلالةُ السياق ولا تقيِّدُه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).

أي: إنْ أنتم أصلَحْتُم نِيَّاتِكم -أيُّها النَّاسُ- فكُنتُم صادِقينَ في نيَّةِ البِرِّ بالوالِدَينِ، مُمتَثِلينَ أمْرَ اللهِ بالإحسانِ إليهما والبرِّ بهما والقيامِ بحُقوقِهما؛ فإنَّ اللهَ للتَّائبينَ إليه مِنَ الزَّلَّاتِ والهَفَواتِ في حَقِّ الوالِدَينِ، الرَّجَّاعِينَ إلى اللهِ وإلى مَرضاتِه مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ- غَفورٌ، يَغفِرُ إساءاتِهم فيَستُرُها عليهم، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[1].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ ابتُدِئَ التشريعُ بالنهيِ عن عبادةِ غيرِ الله؛ لأنَّ ذلك هو أصلُ الإصلاحِ[2].

٢- قال تعالى في الآيةِ المُتقدِّمةِ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، ثمَّ إنَّه تعالى أردَفَه بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ المُشتَمِلِ على الأعمالِ التي بواسِطتِها يحصُلُ الفَوزُ بسَعادةِ الآخرةِ، فذكَرَ مِن جُملتِها البِرَّ بالوالِدَينِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ هذه الطَّاعةَ مِن أُصولِ الطَّاعاتِ التي تُفيدُ سَعادةَ الآخِرةِ، وكذلك فقد بدأ بذِكرِ الأمرِ بالتَّوحيدِ، وثَنَّى بطاعةِ اللهِ تعالى، وثَلَّثَ بالبِرِّ بالوالِدَينِ، وهذه دَرَجةٌ عاليةٌ، ومُبالغةٌ عَظيمةٌ في تعظيمِ هذه الطَّاعةِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا كان إحسانُهما إليك قد بلَغَ الغايةَ العَظيمةَ، وجَبَ أن يكونَ إحسانُك إليهما كذلك عَظيمًا كاملًا، ثمَّ على جميعِ التَّقديراتِ فلا تحصُلُ المكافأةُ؛ لأنَّ إنعامَهما عليك كان على سبيلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٧، ٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٤-٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٧).

الابتداءِ، وفي الأمثالِ المَشهورةِ: أنَّ الباديَ بالبِرِّ لا يُكافأُ[١].

٣- قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾؛ لأنَّهما سببُ وجودِ العبدِ، ولهما مِن المحبةِ للولدِ والإحسانِ إليه والقربِ ما يقتضي تأكُّدَ الحقِّ، ووجوبَ البرِّ؛ لذا أمَر بالإحسانِ إليهما بجميعِ وجوهِ الإحسانِ القوليِّ والفعليِّ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهما إذا بلغَا الكِبَرَ صارا عِبْئًا على ولَدِهما؛ فلا يتضَجَّرْ مِنَ الحالِ، ولا يَنهَرْهما في المَقالِ إذا أساءَا في الفِعلِ أو القَولِ[٣]؛ فحالةُ الكِبَرِ يحتاجانِ فيها إلى بِرِّه؛ لتغَيُّرِ الحالِ عليهما بالضَّعفِ والكِبَر، فأُلزِمَ في هذه الحالةِ مِن مُراعاةِ أحوالِهما أكثَرَ مِمَّا أُلزِمَه مِن قَبلُ؛ لأنَّهما في هذه الحالةِ قد صارا كَلًّا عليه، فيَحتاجانِ أن يليَ منهما في الكِبَرِ ما كان يَحتاجُ في صِغَرِه أن يَلِيا منه؛ فلذلك خَصَّ هذه الحالةَ بالذِّكرِ، وأيضًا فطُولُ المُكثِ للمَرءِ يُوجِبُ الاستثقالَ للمَرءِ عادةً، ويَحصُلُ المَلَلُ ويَكثُرُ الضَّجَرُ، فيُظهِرُ غَضَبَه على أبوَيه، وتنتَفِخُ لهما أوداجُه، ويَستطيلُ عليهما بدالَّةِ البُنُوَّةِ وقِلَّةِ الدِّيانةِ، وأقلُّ المَكروهِ ما يُظهِرُه بتنَفُّسِه المُتردِّدِ مِن الضَّجَرِ، وقد أُمِرَ أن يُقابِلَهما بالقَولِ الموصوفِ بالكرامةِ، وهو السَّالمُ عن كلِّ عَيبٍ[٤].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ ينبغي بحُكمِ هذه الآيةِ أن يجعَلَ الإنسانُ نَفسَه مع أبويه في خيرِ ذِلَّةٍ، في أقوالِه وسَكَناتِه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤١).

ونظَرِه، وألَّا يُحِدَّ إليهما بَصَرَه؛ فإنَّ تلك هي نَظرةُ الغاضِبِ[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ يُفهَمُ منه أنَّه كُلَّما ازدادَت التَّربيةُ ازداد الحَقُّ، وكذلك مَن تولَّى تربيةَ الإنسانِ في دينِه ودُنياه تَربيةً صالِحةً غيرُ الأبوَينِ؛ فإنَّ له على مَن رَبَّاه حَقَّ التَّربيةِ[٢].

٧- قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ...﴾ بالَغ سُبحانَه في التَّوصيةِ بالوالِدَينِ مُبالغةً تَقشَعِرُّ لها جلودُ أهلِ العُقوقِ، وتَقِفُّ[٣] عندَها شُعورُهم؛ حيثُ افتَتَحَها بالأمرِ بتَوحيدِه وعبادتِه، ثمَّ شَفَعَه بالإحسانِ إليهما، ثمَّ ضَيَّقَ الأمرَ في مُراعاتِهما حتى لم يُرَخِّصْ في أدنى كَلِمةٍ تنفَلِتُ مِن التضَجُّرِ، مع مُوجِباتِ الضَّجَرِ، ومع أحوالٍ لا يكادُ يَصبِرُ الإنسانُ معها، وأن يَذِلَّ ويَخضَعَ لهما، ثمَّ خَتَمَها بالأمرِ بالدُّعاءِ لهما والترَحُّمِ عليهما، وهذه خَمسةُ أشياءَ كُلِّفَ الإنسانُ بها في حَقِّ الوالِدَين[٤].

٨- الأوَّابُ هو الذي مِن عادتِه ودَيدنِه الرُّجوعُ إلى أمرِ اللهِ تعالى، والالتِجاءُ إلى فَضلِه، ولا يَلتَجِئُ إلى شَفاعةِ شَفيعٍ، كما يَفعَلُه المُشرِكونَ الذين يَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ جَمادًا يَزعُمونَ أنَّه يَشفَعُ لهم، وسُنَّةُ اللهِ وحُكْمه في الأوَّابينَ أنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

(٣) تَقِفُّ، أي: تقومُ مِن الفَزَعِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((فتح البيان)) للقنوجي (٧/ ٣٧٨).

غَفورٌ لهم، يُكَفِّرُ عنهم سَيِّئاتِهم؛ قال الله تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾[١].

٩- قال الله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾ فوعَدَ بالغُفرانِ مع شَرطِ الصَّلاحِ والأوْبةِ[٢]، والصَّالِحُ عندما تقَعُ منه الذُّنوبُ مُطالَبٌ -كغيرِه- بالأوبةِ لتحصيلِ المَغفرةِ؛ لأنَّ فَرضَ الأوبةِ إلى الله مِن المعاصي عامٌّ على الجميعِ، وقد اشتمَلَت الآيةُ مِن فِعلِ الشَّرطِ، وهو ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾، وجوابِ الشَّرطِ، وهو ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾- على الحالتَينِ اللازمَتينِ للإنسانِ لتكميلِ نَفسِه، وهما الصَّلاحُ المستفادُ مِن الأوَّلِ، والإصلاحُ بالأوبةِ المستفادُ مِن الثَّاني، وما دام الإنسانُ مُجاهِدًا في تزكيةِ نَفسِه بهذينِ الأصلينِ، فإنَّه بالِغٌ أملًا ورجاءً -بإذن الله- درجةَ الكَمالِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾ أي: مذمومًا لا حامِدَ لك، مَخذولًا لا ناصِرَ لك؛ إذ قد يكونُ بَعضُ النَّاسِ مَقهورًا مَحمودًا، كالذي قُهِرَ بباطلٍ، وقد يكونُ مَذمومًا مَنصورًا، كالذي قَهَر وتسَلَّط بباطلٍ، وقد يكونُ مَحمودًا مَنصورًا، كالذي تمكَّن وملَكَ بحَقٍّ، والمُشرِكُ المتعَلِّقُ بغيرِ اللهِ قِسمُه أردأُ الأقسامِ الأربعةِ؛ لا مَحمودٌ ولا منصورٌ[٤].

٢- قال تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا﴾ لَمَّا كان الذمُّ قد

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٧٨).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٥٥-٤٥٦).

يحتَمِلُه بَعضُ النَّاسِ مع بلوغِ الأمَلِ، بيَّنَ أنَّه مع الخيبةِ، فقال تعالى: ﴿مَّخْذُولًا﴾ أي: غيرَ منصورٍ فيما أراده من غيرِ أن يُغنيَ عنه أحدٌ بشَفاعةٍ أو غيرِها[١].

٣- قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ فالمخلوقُ ليس بإلَهٍ في نفْسِه؛ لكنَّ عابدَه اتَّخَذَه إلهًا، وجَعَله إلهًا، وسمَّاه إلهًا، وذلك كلُّه باطلٌ لا ينفعُ صاحبَه؛ بل يَضُرُّه، كما أنَّ الجاهلَ إذا اتُّخِذَ إمامًا ومُفْتِيًا وقاضيًا؛ كان ذلك باطلًا، فإنه لا يَصلحُ أنْ يَؤُمَّ ولا يُفْتي ولا يقضي، وغيرُ اللهِ لا يَصْلُحُ أنْ يُتَّخَذَ إلهًا يُعْبَدُ ويُدعَى؛ فإنه لا يَخلُقُ ولا يَرزقُ إلَّا هو سُبحانَه، لا مانعَ لما أعطَى، ولا مُعطيَ لما منَع، ولا ينفعُ ذا الجدِّ منه الجدُّ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ رَدٌّ على أصحابِ وَحْدةِ الوُجودِ، الذين يجعَلونَ وُجودَ الخالقِ عينَ وُجودِ المخلوقاتِ؛ وذلك لأنَّ نهيَه سُبحانَه وتعالى أنْ يُجعَلَ معه أو يُدْعَى معه إلهٌ آخرُ، دليلٌ على أنَّ ذلك مُمكِنٌ، كما فعَلَه المُشرِكونَ الذين دَعَوا مع اللهِ آلِهةً أخرى، فلو كانت تلك الآلهةُ هي إيَّاه، ولا شيءَ معه أصْلًا؛ امتنعَ أنْ يُدعَى معه إلَهٌ آخَرُ، فهذا يدلُّ على أنَّ معه أشياءَ ليسَتْ بآلهةٍ؛ ولا يجوزُ أنْ تُجعَلَ آلهةً، ولا تُدْعَى آلهةً[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ فإنَّ المُشرِكَ يرجو بشِرْكِه النَّصرَ تارةً، والحمدَ والثَّناءَ تارةً، فأخبَرَ سُبحانَه أنَّ مَقصودَه ينعَكِسُ عليه، فيحصُلُ له الذَّمُّ والخِذلانُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٤، ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٤٠).

٦- القضاءُ في قَولِه تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ هو القَضاءُ الدِّينيُّ -بمعنى: أَمَرَ- ويُقابِلُه القَضاءُ الكَونيُّ -بمعنى: خَلَقَ- كما في قَولِه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾[1] [فصلت: ١٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ بعدَ قَولِه سُبحانَه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ دَليلٌ على أنَّ حقَّ الوالِدَينِ بعدَ حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ.

فإن قيل: فأينَ حَقُّ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم؟

أُجيبَ: بأنَّ حَقَّ اللهِ مُتضَمِّنٌ لحَقِّ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ اللهَ لا يُعبَدُ إلَّا بما شَرَعَ الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم[2].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ الخِطابُ في الآيةِ للنبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، لكِنْ قال: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ ولم يقُلْ: «ألَّا تَعبُد»، ونظيرُ ذلك في القُرآنِ قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] فالخِطابُ الأوَّلُ في ﴿رَبُّكَ﴾ للرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، والثَّاني عامٌّ، فما الفائِدةُ مِن تَغييرِ الأسلوبِ؟

أجيبَ: أنَّ الفائِدةَ مِن ذلك ما يأتي:

الأوَّلُ: التَّنبيهُ؛ إذ تَنبيهُ المُخاطَبِ أمرٌ مَطلوبٌ للمُتكَلِّم، وهذا حاصِلٌ هنا بتَغييرِ الأُسلوبِ.

الثَّاني: أنَّ النبيَّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم زَعيمُ أمَّتِه، والخِطابُ المُوجَّهُ إليه مُوجَّهٌ لجَميعِ الأُمَّة.

---

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ١٥٣)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٤).

الثَّالثُ: الإشارةُ إلى أنَّ ما خُوطِبَ به الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم فهو له ولأُمَّتِه، إلَّا ما دلَّ الدَّليلُ على أنَّه مُختَصٌّ به.

الرَّابعُ: الإشارةُ إلى أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم مَربوبٌ لا رَبٌّ، عابِدٌ لا معبودٌ؛ فهو داخِلٌ في قَولِه: ﴿تَعْبُدُوٓاْ﴾ وكفى به شَرفًا أن يكونَ عَبدًا للهِ عَزَّ وجَلَّ[(١)].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ مُناسَبةُ اقترانِ برِّ الوالِدَينِ بإفرادِ اللهِ بالعبادةِ؛ مِن حَيثُ إنَّه تعالى هو المُوجِدُ حَقيقةً، والوالِدانِ وَساطةٌ في إنشائِه، وهو تعالى المُنعِمُ بإيجادِه ورِزقِه، وهما ساعيانِ في مصالِحِه[(٢)].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ فائِدةُ ذِكرِ ﴿عِندَكَ﴾ أنَّهما يَكبَرانِ في بَيتِه وكَنَفِه، ويكونانِ كَلًّا عليه، لا كافِلَ لهما غيرُه، وربَّما نالَه منهما من المشاقِّ ما كان ينالُهما منه في حالِ الصِّغَرِ[(٣)].

١١- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾، ودُخولُ ما هو أعظمُ مِن التأفيفِ مِن أنواعِ الأذى في النهيِ بِطَريقِ الأَولى، ويُسمَّى ذلك مَفهومَ المُوافَقةِ[(٤)]؛ لأنَّه إذا كان قد نهَى أن يستقْبِلَهما بهذه اللَّفظةِ الدَّالَّةِ على الضَّجرِ والتَّبرُّمِ بهما، فالنَّهيُ عمَّا هو أشدُّ كالشَّتمِ والضَّربِ هو بجهةِ الأولَى، فالمسكوتُ

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٥٣، ٤٥٤).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٦٤).

عنه -الذي هو الضربُ والشتمُ- أولَى بالحكمِ -الذي هو التحريمُ- مِن هذا المنطوقِ به الذي هو التأفيفُ[١].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ استَدَلَّ به مَن لم يُجِزْ تَحليفَ الوالِدِ إذا خاصَمَه وَلَدُه، ولا حَبْسَه في دَينِه، ولا قَتلَه به، ولا حَدَّه بقَذفِه[٢].

١٣- قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ جَناحُ الإنسانِ: جانِبُه، كما أنَّ جَناحَ الطَّيرِ جانِبُه، والولَدُ مأمورٌ بأن يَخفِضَ جانِبَه لأبويه، ويكونَ ذلك على وَجهِ الذُّلِّ لهما لا على وَجهِ الخَفضِ الذي لا ذُلَّ معه، وقد قال للنبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولم يَقُل: جناحَ الذُّلِّ، فالرَّسولُ أُمرَ بخَفضِ جناحِه، وهو جانِبُه، والولَدُ أُمِرَ بخَفضِ جناحِه ذُلًّا، فلا بُدَّ مع خَفضِ جناحِه أن يَذِلَّ لأبويه، بخِلافِ الرَّسولِ؛ فإنَّه لم يُؤمَرْ بالذُّلِّ؛ فاقترانُ ألفاظِ القُرآنِ تدُلُّ على اقترانِ معانيه وإعطاءِ كُلِّ معنًى حَقَّه[٣].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا﴾

- قولُه: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تبَعٌ لخِطابِ قولِه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، والمقصودُ إسماعُ الخِطابِ غَيرَه؛ بقَرينةِ تحقُّقِ أنَّ النَّبيَّ قائمٌ بنبْذِ الشِّركِ، ومُنحٍ على الَّذين يَعْبدون مع اللهِ إلهًا آخَرَ[٤]؛ فالخِطابُ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥ / ٦٤).

عليه وسلَّمَ، والمُرادُ به أُمَّتُه، وهو من بابِ التَّهييجِ والإلهابِ. وخاطَبَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ الرَّأسَ؛ لأنَّ ذلك أوقعُ في أنفُسِ الأتْباعِ، وإشارةً إلى أنَّه لا يُوحِّدُه حَقَّ توحيدِه سِواهُ. ويجوزُ أنْ يَكونَ خِطابًا عامًّا لكلِّ مَن يَصِحُّ أنْ يُخاطَبَ به أو لكُلِّ أحدٍ ممَّن يَصلُحُ للخِطابِ[1]. وقيل: وُجِّه الخِطابُ إلى المُفرَدِ ليُحِسَّ كلُّ أحدٍ أنَّه أمرٌ خاصٌّ به، صادرٌ إلى شَخصِه؛ فالاعتقادُ مَسألةٌ شَخصيَّةٌ مسؤولٌ عنها كلُّ فَردٍ بذاتِه.

- قولُه: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ تَذييلٌ هو فذلكةٌ لاختلافِ أحوالِ المُسلمينَ والمُشركينَ؛ فإنَّ خُلاصةَ أسبابِ الفوزِ ترْكُ الشِّركِ؛ لأنَّ ذلك هو مبدَأُ الإقبالِ على العملِ الصَّالحِ، فهو أوَّلُ خُطواتِ السَّعيِ لمُريدِ الآخرةِ؛ لأنَّ الشِّركَ قاعدةُ اختلالِ التَّفكيرِ وتَضليلِ العُقولِ، قال اللهُ تَعالى في ذكْرِ آلهةِ المُشركينَ: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾[2] [هود: ١٠١].

- وقال هنا: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، ثمَّ قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾، ثمَّ قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ ولا تكرارَ فيها؛ لأنَّ الأُولى في الدُّنيا، والثَّالثةَ في الآخرةِ. والخِطابُ فيهما للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمُرادُ به غيرُه، كما في آيةِ ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾. وأمَّا الثَّانيةُ فخطابٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أيضًا،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥ / ٦٤).

وهو المُرادُ به[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ عطْفٌ على الكلامِ السَّابقِ عطْفَ غرَضٍ على غرَضٍ؛ تخلُّصًا إلى أعمدةٍ من شَريعةِ الإسلامِ، بمُناسبةِ الفذلكةِ المُتقدِّمةِ؛ تَنبيهًا على أنَّ إصلاحَ الأعمالِ مُتفرِّعٌ على نبْذِ الشِّركِ[٢].

- قولُه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ جِيءَ بخطابِ الجماعةِ؛ لأنَّ النَّهيَ يتعلَّقُ بجميعِ النَّاسِ، وهو تَعريضٌ بالمُشركينَ[٣].

- وقدَّم ذكرَهما، فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، ولم يقُلْ: (وإحسانًا بالوالِدَينِ) ليدُلَّ على شِدَّةِ الاهتمامِ، والاعتناءِ بهما، فقولُه: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿إِحْسَٰنًا﴾، لكنه قدَّمه على مُتعلِّقِه[٤].

- قولُه: ﴿إِحْسَٰنًا﴾ بلَفظِ التَّنكيرِ، والتَّنكيرُ يدُلُّ على التَّعظيمِ، أي: إحسانًا عَظيمًا كاملًا[٥].

- قولُه: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ عطْفُ الأمْرِ بالإحسانِ إلى الوالِدَينِ على ما هو في معنى الأمْرِ بعبادةِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ هو الخالِقُ، فاستحَقَّ العِبادةَ؛ لأنَّه

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٣-٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥ / ٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٢٣).

أوجَدَ النَّاسَ، ولمَّا جعَلَ اللهُ الأبوينِ مظهَرَ إيجادِ النَّاسِ أمَرَ بالإحسانِ إليهما؛ فالخالِقُ مُستحقٌّ العبادةِ لغِناهُ عن الإحسانِ، ولأنَّها أعظَمُ الشُّكرِ على أعظَمِ مِنَّةٍ، وسبَبُ الوُجودِ دونَ ذلك، فهو يستحِقُّ الإحسانَ لا العِبادةَ؛ لأنَّه محتاجٌ إلى الإحسانِ دون العِبادةِ، ولأنَّه ليس بمُوجِدٍ حَقيقيٍّ، ولأنَّ اللهَ جبَلَ الوالِدَينِ على الشَّفقةِ على ولَدِهما، فأمَرَ الولدَ بمُجازاةِ ذلك بالإحسانِ إلى أبويْه[1].

- وجُملةُ ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿إِحۡسَٰنًا﴾، والخِطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ؛ فيعُمُّ كلَّ مُخاطَبٍ، بقرينةِ العطفِ على ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وذلك على أحدِ القولَينِ في المخاطَبِ. وإيثارُ ضميرِ المُفردِ -﴿رَبُّكَ﴾- هنا دونَ ضميرِ الجمْعِ؛ لأنَّه خطابٌ يختَصُّ بمَن له أبوانِ من بين الجماعةِ المُخاطبينَ بقولِه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ فكان الإفرادُ أنسَبَ به، وإنْ كان الإفرادُ والجمْعُ سواءً في المقصودِ؛ لأنَّ خطابَ غيرِ المُعيَّنِ يُساوي خطابَ الجمْعِ، وخَصَّ هذه الحالةَ بالبيانِ؛ لأنَّها مَظِنَّةُ انتفاءِ الإحسانِ بما يَلْقى الولدُ من أبيه وأُمِّه من مَشقَّةِ القيامِ بشُؤونِهما، ومِن سُوءِ الخُلُقِ منهما[2].

- ووجْهُ تَعدُّدِ فاعلِ ﴿يَبۡلُغَنَّ﴾ مُظهَرًا دونَ جعْلِه بضميرِ التَّثنيةِ بأنْ يُقال: إمَّا يَبْلغانِّ عندك الكبرَ: الاهتمامُ بتخصيصِ كلِّ حالةٍ من أحوالِ الوالِدَينِ بالذِّكرِ، ولم يَستغْنِ بإحدى الحالتينِ عن الأُخرى؛ لأنَّ لكلِّ حالةٍ بواعثَ على التَّفريطِ في واجِبِ الإحسانِ إليهما، فقد تكونُ حالةُ اجتماعِهما عند الابنِ تَستوجِبُ الاحتمالَ منهما لأجْلِ مُراعاةِ أحدِهما الَّذي الابنُ أشَدُّ حُبًّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

له، دونَ ما لو كان أحدُهما مُنفرِدًا عندَه بدونِ الآخرِ الَّذي ميْلُه إليه أشدُّ؛ فالاحتياجُ إلى ذكْرِ أحدِهما في هذه الصُّورةِ؛ للتَّنبيهِ على وُجوبِ المُحافظةِ على الإحسانِ له. وقد تكون حالةُ انفرادِ أحدِ الأبوينِ عندَ الابنِ أخَفَّ كُلفةً عليه من حالةِ اجتماعِهما، فالاحتياجُ إلى ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ في هذه الصُّورةِ للتَّحذيرِ من اعتذارِ الابنِ لنفْسِه عن التَّقصيرِ بأنَّ حالةَ اجتماعِ الأبوينِ أحرَجُ عليه، فلأجْلِ ذلك ذُكِرَت الحالتانِ، وأُجْرِيَ الحكمُ عليهما على السَّواءِ، فكانت جُملةُ ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ بتَمامِها جوابًا لـ ﴿إِمَّا﴾[1].

- قولُه: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ ...﴾ أُكِّدَ فعْلُ الشَّرطِ بنونِ التَّوكيدِ؛ لتَحقيقِ الرَّبطِ بينَ مضمونِ الجوابِ، ومضمونِ الشَّرطِ في الوُجودِ[2].

- قولُه: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ليس المقصودُ مِن النَّهيِ عن أنْ يقولَ لهما: ﴿أُفٍّ﴾ خاصَّةً، وإنَّما المقصودُ النَّهيُ عن الأذَى الَّذي أقلُّه الأذَى باللِّسانِ بأوجزِ كلمةٍ، ثمَّ عطَفَ عليه النَّهيَ عن نَهْرِهما؛ لئلَّا يحسِبَ أنَّ ذلك تأديبٌ لصلاحِهما، وليس بالأذى. ثمَّ ارْتَقى في الوصايةِ بالوالِدَينِ إلى أمْرِ الولدِ بالتَّواضُعِ لهما تواضُعًا يبلُغُ حَدَّ الذُّلِّ لهما؛ لإزالةِ وَحشةِ نُفوسِهما إنْ صارا في حاجةٍ إلى مَعونةِ الولدِ؛ لأنَّ الأبوينِ يَبْغيانِ أنْ يكونا هما النَّافعينِ لولدِهما، والقصدُ مِن ذلك التَّخلُّقُ بشُكرِه على إنعامِهما السَّابقِ عليه[3].

- قولُه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ...﴾ فيه مُناسبةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٧٠).

حَسنةٌ؛ فهذه الآياتُ أوَّلُ تَفصيلٍ للشَّريعةِ للمُسلمينَ وقَعَ بمكَّةَ، وأنَّ ما ذُكِرَ في هذه الآياتِ مقصودٌ به تَعليمُ المُسلمينَ؛ ولذلك اختَلَفَ أسلوبُه عن أسلوبِ نَظيرِه في سُورةِ (الأنعامِ) -في قولِه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ...﴾ الآياتِ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]- الَّذي وُجِّهَ فيه الخطابُ إلى المُشركينَ لتوقيفِهم على قواعدِ ضَلالتِهم؛ فمِن الاختلافِ بين الأسلوبينِ: أنَّ هذه الآيةَ افتُتِحَتْ بفعْلِ القضاءِ المُقْتضي الإلزامَ، وهو مُناسِبٌ لخطابِ أُمَّةٍ تَمتثِلُ أمْرَ ربِّها، وافتُتِحَ خطابُ سُورةِ (الأنعامِ) بـ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾. ومنها: أنَّ هذه الآيةَ جعَلَتِ المَقْضيَّ هو تَوحيدُ اللهِ بالعِبادةِ؛ لأنَّه المُناسبُ لحالِ المُسلمينَ، فحذَّرَهم من عِبادةِ غيرِ اللهِ، وآيةُ (الأنعامِ) جعَلَتِ المُحرَّمَ فيها هو الإشراكَ باللهِ في الإلهيَّةِ المُناسِبَ لِما كانوا عليه من الشِّركِ؛ إذ لا عِبادةَ لهم[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

- قولُه: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ خفْضُ الجَناحِ كِنايةٌ عن حُسنِ التَّدبيرِ؛ لأنَّ الطَّائرَ إذا ضَمَّ فرْخَه إليه للتَّربيةِ خفَضَ له جَناحَه، وكأنَّه قيل للولدِ: اكفُلْ والديْكَ بأنْ تَضُمَّهما إلى نفْسِك، كما فعَلَا ذلك بك حالَ صِغَرِك. أو يكونُ خفْضُ الجَناحِ كِنايةً عن فعْلِ التَّواضُعِ؛ لأنَّ الطَّائرَ إذا أراد الطَّيرانَ والارتفاعَ نشَرَ جَناحَه، وإذا أراد ترْكَ الطَّيرانِ وترْكَ الارتفاعِ خفَضَ جَناحَه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٦).

- وبُولِغَ بذكْرِ الذُّلِّ هنا، ولم يُذكَرْ في قولِه: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]؛ وذلك بسبَبِ عِظَمِ حَقِّ الوالِدَينِ(١).

- قولُه: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ فيه إضافةُ الجَناحِ إلى الذُّلِّ -أو إلى الذِّلِّ- للبيانِ والمُبالغةِ، كما أُضيفَ حاتمٌ إلى الجودِ على معنى: واخفِضْ لهما جَناحَك الذَّليلَ، أو الذَّلولَ، وفيه مُبالغةٌ؛ لأنَّه وُصِفَ بالمصدرِ، فكأنَّه جعَلَ الجَناحَ عينَ الذُّلِّ. أو يجْعَلَ لذُلِّه -أو لذِلِّه- جَناحًا خفيضًا؛ مُبالغةً في التَّذلُّلِ والتَّواضُعِ لهما. وسِرُّ ذكْرِ الجَناحِ وخفْضِه، تَصويرُ الذُّلِّ كأنَّه مُشاهَدٌ مَحسوسٌ(٢).

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلرَّحۡمَةِ﴾ عوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: من رَحمتِك إيَّاهما، و(مِن) ابتدائيَّةٌ، أي: الذُّلِّ النَّاشئِ عن الرَّحمةِ لا عن الخوفِ أو عن المُداهنةِ، والمُقصودُ: اعتيادُ النَّفسِ على التَّخلُّقِ بالرَّحمةِ باستحضارِ وُجوبِ مُعاملتِه إيَّاهما بها حتَّى يصيرَ له خُلقًا، كما قيل:

إنَّ التَّخلُّقَ يأتي دونَه الخُلقُ(٣)

- قولُه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ الكافُ في قولِه: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ للتَّشبيهِ، وهو ما يُعبَّرُ عنه بمعنى التَّعليلِ في الكَافِ، والمقصودُ من التشبيهِ تَمثيلُ حالةٍ خاصَّةٍ فيها الإشارةُ إلى تَربيةٍ مُكيَّفةٍ برَحمةٍ كاملةٍ؛ فإنَّ الأُبُوَّةَ تَقْتضي رَحمةَ الولدِ، وصِغَرَ الولدِ يَقْتضي الرَّحمةَ به، ولو لم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧١).

يكُنْ ولدًا؛ فصار قولُه: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ قائمًا مقامَ قولِه: كما ربَّياني ورَحِماني بتربيتِهما؛ فالتربيةُ تَكمِلةٌ للوُجودِ، وهي وحْدَها تَقتضِي الشُّكرَ عليها. والرحمةُ حِفظٌ للوجودِ مِن اجتنابِ انتهاكِه، وهو مُقتضَى الشُّكرِ؛ فجَمَع الشُّكرَ على ذلك كلِّه بالدُّعاءِ لهما بالرَّحمةِ[١]. وقيل: «ما» في ﴿كَمَا﴾: مَصدريَّةٌ، والوَقتُ فيه مُقدَّرٌ، أي: ارحَمْهما في وَقتٍ أحوجَ ما يَكونانِ إلى الرَّحمةِ مِن جَميعِ الأوقاتِ، كَوقتِ رَحمتِهما عليَّ وأنا في حالةِ الصِّغرِ. وليسَ ذلك إلَّا في القِيامةِ، والرحمةُ هي الجَنَّةُ. وقيل: إنَّ الكافَ في ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾؛ لتأكيدِ الوُجودِ، أي: لتاكيدِ وُجودِ الرحمةِ، أي: أَوْجِدْ رَحمتَهما إيجادًا مُؤكَّدًا مُحقَّقًا، كما أَوجَدَ الوالدانِ التربيةَ إيجادًا مُحقَّقًا في الزَّمانِ الماضِي[٢].

- وخصَّ التربيةَ بالذكرِ؛ ليتذكرَ العبدُ شفقةَ الأبوينِ وتعبَهما في التربيةِ، فيزيدَه ذلك إشفاقًا لهما، وحنانًا عليهما[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ تَذييلٌ لآيةِ الأمْرِ بالإحسانِ بالوالِدَينِ وما فصلَ به، وما يَقْتضيه الأمْرُ من اختلافِ أحوالِ المأمورينَ بهذا الأمْرِ قبْلَ وُرودِه بينَ مُوافقٍ لمُقتضاهُ ومُفرِّطٍ فيه[٤].

- قولُه: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ كأنَّه تَهديدٌ على أنْ يُضْمِرَ لوالديْه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٩/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٤).

كراهةً واستثقالًا[١].

- قولُه: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ تَذييلٌ بوصفِ الأوَّابينَ المُفيدِ بعُمومِه معنى الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى وإلى ما يُرْضيه -لأنَّ الصَّلاحَ في قولِه: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ شمَلَ الصَّلاحَ الكاملَ والصَّلاحَ المشوبَ بالتَّقصيرِ-؛ ففُهِمَ من الكلامِ معنى احتباكٍ بطريقِ المُقابلةِ، والتَّقديرُ: إنْ تَكونوا صالحينَ أوَّابينَ إلى اللهِ، فإنَّه كان للصَّالحينَ مُحْسِنًا، وللأوَّابينَ غفورًا، وهذا يعُمُّ المُخاطبينَ وغيرَهم، وبهذا العُمومِ كان تَذييلًا[٢].

- وقيل: كان مقتضَى الظاهرِ في تركيبِ الآيةِ أن يُقالَ: (إنْ تكونوا صالحينَ فإنَّه كان لكم غفورًا)؛ لأنَّ المقامَ للإضمارِ، لكنَّه عدَل عن الضميرِ إلى الظاهرِ، فقيل: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ لينصَّ على شرطِ المغفرةِ، وهو الأوبةُ والرجوعُ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٧٨).

الآيات (٢٦-٣١)

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾: التَّبذيرُ: الإسرافُ في النفقةِ، وتفريقُها في غيرِ ما أحلَّ الله عزَّ وجلَّ، ويُقالُ لكلِّ مضيِّعٍ مالَه، والتَّبذيرُ: التَّفريقُ، يُقالُ: بَذرتُ الأرض، أي: فرَّقْت البذرَ فيها، أي: الحبَّ، وأصلُ (بذر): هو نَثْرُ الشَّيءِ وتفريقُه[1].

﴿مَغْلُولَةً﴾: أي: مُمْسَكةً مَقبوضةً، كأنَّها بالمنعِ مَشدودةٌ بالغُلِّ: وهو القَيدُ يُجعَلُ في العُنُقِ[2].

﴿مَّحْسُورًا﴾: أي: مُنقَطِعًا عن النَّفَقةِ والتصَرُّفِ، لِذَهابِ ما يَقوى به، وانحِسارِه عنه، ومنه البَعيرُ الحَسيرُ: الذي قد حَسَره السَّفَرُ، أي: ذهَبَ بلَحمِه وقُوَّتِه، فلا انبِعاثَ به، وأصلُ (حسر): يدُلُّ على كَشفِ الشَّيءِ وذَهابِه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((غريب

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه، كأنَّما جُعِلَ رِزقُه بقَدْرٍ يَسيرٍ(١).

﴿إِمْلَقٍ﴾: أي: فَقرٍ، وتجَرُّدٍ عن المالِ، وأصلُ (ملق): يدلُّ على تَجَرُّدٍ ومَلاسةٍ، كأنَّه بإنفاقِه لم يَبقَ له إلَّا المَلَقاتُ، وهي الحِجارةُ العِظامُ المُلْسُ التي لا يتعَلَّقُ بها شَيءٌ(٢).

﴿خِطْئًا﴾: أي: إثمًا وخَطيئةً، يُقالُ: خَطِئ يَخطَأُ خِطْئًا مِثلُ أثِمَ يأثَمُ إثمًا: إذا تعَمَّد الخَطأَ، وأخطأَ: إذا لم يتعَمَّدْ، فالخِطْءُ: ما تُعمِّدَ، والخَطَأ: ما لم يُتعَمَّدْ(٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وأحسِنْ إلى أقربائِك، وأعطِهم حُقوقَهم مِن البِرِّ والصِّلةِ والإحسانِ، وأعْطِ المِسكينَ حقَّه مِن الصدقةِ، والمُسافِرَ المُنقَطِعَ عن أهلِه ومالِه حقَّه مِن الضيافةِ، ولا تُفَرِّقْ أموالَك بإنفاقِها في غَيرِ حَقِّها؛ إنَّ المُنفِقينَ أموالَهم في غيرِ ما شرع اللهُ، هم إخوانُ الشَّياطينِ؛ لاتِّباعِهم إيَّاهم، وكان الشَّيطانُ شديدَ

القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١)، ((المخصص)) لابن سيده (٣/ ٤٥٣)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨٠)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٥/ ٢٣١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٢١)، ((تصحيح التصحيف)) للحريري (ص: ٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٢).

الجُحودِ لنِعَمِ رَبِّه.

ثم يقولُ تعالى: وإن أعرَضْتَ عن إعطاءِ هؤلاء الذين أُمِرْتَ بإعطائِهم؛ لِعَدَمِ وُجودِ ما تُعطيهم منه، راجيًا الرِّزقَ مِن عندِ رَبِّك- فقُلْ لهم قَولًا حَسَنًا جميلًا، كالوعْدِ الجَميلِ بإعطائِهم، والدُّعاءِ لهم بالغِنى وسَعةِ الرِّزقِ.

ثمَّ يرشدُ الله عبادَه إلى كيفيةِ إنفاقِ أموالِهم، والتصرفِ فيها، وأفضلِ الطرقِ في ذلك، فيقولُ: ولا تُمسِكْ يَدَك عن الإنفاقِ في سَبيلِ الخَيرِ بُخلًا، ولا تُسرِفْ في الإنفاقِ، فتُعطيَ فوقَ طاقتِك، فتَقعُدَ مَلومًا، مُنقَطِعًا عن النَّفَقةِ؛ بسَبَبِ ضَياعِ مالِك.

ثمَّ يبيِّنُ سبحانَه أنَّ مرجعَ الأمورِ كلِّها إليه، فهو المعطي، وهو المانعُ، فيقول: إنَّ رَبَّك يُوسِّعُ الرِّزقَ على من يشاءُ، ويُضَيِّقُه على من يشاءُ، وَفْقَ عِلمِه وحِكمَتِه سُبحانَه وتعالى؛ إنَّه خبيرٌ بعبادِه، بصيرٌ بهم.

ثمَّ يقولُ تعالى: ولا تَقتُلوا -أيُّها الآباءُ- أولادَكم خَوفًا مِن الفَقرِ؛ فإنَّه سُبحانَه يَرزُقُ الأبناءَ كما يَرزُقُ الآباءَ، إنَّ قَتْلَ الأولادِ خَطيئةٌ وذَنبٌ عَظيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا حَثَّ اللهُ تعالى على الإحسانِ إلى الوالِدَينِ بالخُصوصِ؛ عمَّ بالأمرِ به لكُلِّ ذي رَحِمٍ وغيرِه[1]؛ فإنَّ القَرابةَ كُلَّها لما كانت مُتَشَعِّبةً عن الأبُوَّةِ؛ فلا جَرَم انتَقَل مِنَ الكَلامِ على حُقوقِ الأبَوَينِ إلى الكَلامِ على حُقوقِ القَرابةِ[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٦).

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

أي: وأعْطِ القَريبَ -يا مُحمَّدُ[١]- حقَّه من الصِّلةِ والعَطفِ والمُواساةِ، والمِسكينَ حَقَّه مِن الصَّدَقةِ، والمُسافِرَ المُنقَطِعَ المُجتازَ بك حَقَّه مِنَ الضِّيافةِ، والإعانةِ على وُصولِه إلى مَقصِدِه[٢].

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا رغَّبَ في البَذلِ، وكانت النَّفسُ قَلَّما يكونُ فِعلُها قَوامًا بينَ الإفراطِ والتَّفريطِ؛ أتبَعَ ذلك قَولَه تعالى[٣]:

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾.

أي: ولا تُفَرِّقْ أموالَك بإنفاقِها في غَيرِ حَقِّها ومَواضِعِها التي تستَحِقُّ الإنفاقَ فيها، وذلك كالإنفاقِ في مَعصيةِ اللهِ تعالى[٤].

---

(١) قال ابنُ جرير: (خرج ذلك مَخرجَ الخِطابِ لنبيِّ اللهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، والمرادُ بحُكمِه جَميعُ مَن لَزِمَته فرائِضُ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٦٣-٥٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٦، ٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٦٥-٥٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٩).

قال ابنُ تيميَّةَ: (والتَّبذيرُ قد يكونُ في القَدْرِ: بأن يُعطيَ هؤلاء المُستحقِّينَ فوقَ ما يَصلُحُ، بحيث يَصرِفُ الزَّائِدَ على كفايتِهم إليهم، ويَعدِلُ به عمَّن هو أحوَجُ إليه وأحَقُّ به منهم. وقد يكونُ في الأصلِ: بأن يُعطى المالُ في المنافِعِ المُحَرَّمةِ، كمَهرِ البَغيِّ، وحُلوانِ الكُهَّانِ، فهذا مِن الذُّنوبِ، وذاك من الإسرافِ؛ ولهذا قال المؤمِنونَ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا ﴾ [آل عمران: ١٤٧]). ((العقود)) (ص: ١٨-١٩).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وعن المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حرَّمَ عليكم عُقوقَ الأمَّهاتِ، ووأْدَ البَناتِ، ومنعًا وهاتِ، وكَرِهَ لكم ثلاثًا: قيلَ وقال، وكثرةَ السُّؤال، وإضاعةَ المال))[1].

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

أي: إنَّ المُفرِّقينَ أموالَهم في غَيرِ حَقِّها ووجْهِها المَشروعِ كانوا إخوانَ الشَّياطينِ؛

وقال أبو السعود: (التبذيرُ تفريقٌ في غير موضِعِه، مأخوذٌ من تفريق حبَّاتِ وإلقائِها كيفما كان من غير تعهُّدٍ لمواقِعِه، لا عن الإكثارِ في صَرفِه إليهم، وإلَّا لناسبه الإسرافُ الذي هو تجاوُزُ الحَدِّ في صرفِه). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٨).

وقال ابن عاشور: (التبذيرُ: تفريقُ المالِ في غير وجهِه، وهو مرادِفُ الإسرافِ، فإنفاقُه في الفسادِ تبذيرٌ، ولو كان المقدارُ قليلًا، وإنفاقُه في المباحِ إذا بلغ حَدَّ السَّرَفِ تبذيرٌ، وإنفاقُه في وجوه البِرِّ والصَّلاحِ ليس بتبذير. وقد قال بعضُهم لمن رآه ينفِقُ في وجوه الخير: لا خيرَ في السَّرَفِ، فأجابه المنفِقُ: لا سَرَفَ في الخيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٩).

وقيل: التبذيرُ: الإنفاقُ في معصيةِ الله. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٢٨).

وقال القصاب: (كُلُّ ما حَرَّمَ اللهُ على العبادِ أكْلَه أو شُرْبَه أو فِعْلَه، فأنفَقَ فيه مُنْفِقٌ نفَقةً؛ سُمِّيَ مُبَذِّرًا، صائرًا بها مِن إخوانِ الشَّياطينِ، كَفورًا لِرَبِّه جلَّ وتعالى... والسرفُ وإن كان منهيًّا عنه فليس بتبذيرٍ. إنَّما التبذيرُ: ما يُستعانُ به على المعاصي وحدَها). ((النكت الدالة على البيان)) (٢/ ١٢٣).

(١) رواه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣) واللفظ له.

لاتِّباعِهم إيَّاهم في التَّبذيرِ والسَّفَهِ ومَعصيةِ اللهِ[١].

﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾.

أي: وكان الشَّيطانُ لرَبِّه جَحودًا لنِعَمِه لا يَشكُرُها، فيَترُكُ طاعةَ اللهِ، ويُقبِلُ على مَعصيتِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٩).

قال ابن عاشور: (المعنى: أنَّهم مِن أتباعِ الشَّياطينِ وحُلَفائِهم، كما يُتابِعُ الأخُ أخاه... ومعنى ذلك: أنَّ التبذيرَ يدعو إليه الشَّيطانُ؛ لأنَّه إمَّا إنفاقٌ في الفسادِ، وإمَّا إسرافٌ يَستنزِفُ المالَ في السفاسِفِ واللَّذَّاتِ، فيُعطِّلُ الإنفاقَ في الخيرِ، وكُلُّ ذلك يُرضي الشَّيطانَ، فلا جرَمَ أنْ كان المتَّصِفونَ بالتَّبذيرِ مِن جُندِ الشَّيطانِ وإخوانِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٠، ٨١).

وقال أبو حيان: (وأُخوَّةُ الشياطين كونُهم قرناءهم في الدنيا وفي النار في الآخرةِ، وتدُلُّ هذه الأُخوَّةُ على أنَّ التبذيرَ هو في معصيةِ الله، أو كونهم يطيعونَهم فيما يأمرونَهم به من الإسرافِ في الدنيا). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠).

وقال القرطبي: (﴿إِخۡوَٰنَ﴾ يعني أنَّهم في حُكمِهم؛ إذ المبَذِّرُ ساعٍ في إفسادٍ كالشياطين، أو أنهم يفعلون ما تسَوِّلُ لهم أنفُسُهم، أو أنهم يُقرَنون بهم غدًا في النار، ثلاثة أقوال). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٨).

قال الشنقيطي: (وإطلاقُ اسمِ الأخِ على النظير المشابِه معروفٌ في القرآنِ وفي كلامِ العربِ؛ فمنه في القرآنِ قَولُه تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]. ((أضواء البيان)) (٣/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٦٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالكفرِ هنا هو جحودُ نِعَمِ الله تعالى: ابن جرير، والواحدي، والبغوي، وابن كثير. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابن عاشور: (هذا تحذيرٌ شديدٌ مِن أن يفضيَ التبذيرُ بصاحبه إلى الكفرِ تدريجًا؛ بسبَبِ التخَلُّقِ بالطبائع الشيطانية، فيذهبُ يتدهورُ في مهاوي الضلالةِ حتى يبلُغَ به إلى الكفرِ، كما قال

﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨﴾.

أي: وإنْ تُعرِضْ -يا محمَّدُ- عن إعطاءِ الأقارِبِ والمَساكينِ وأبناءِ السَّبيلِ حُقوقَهم؛ لِقِلَّةِ مالِك، وأنتَ تنتَظِرُ رِزقًا مِن عندِ ربِّك؛ تَرْجو أن يُيسِّرَه لك، فلا تُؤيِّسْهم مِن عَطائِك، ولا تُغلِظْ لهم القَولَ، وإنَّما قلْ لهم قولًا ليِّنًا لَطيفًا طيِّبًا تقبَلُه نُفوسُهم، كالاعتِذارِ الحَسَنِ، والوعْدِ الجَميلِ بإعطائِهم، والدُّعاءِ لهم بالرِّزقِ[1].

كما قال تعالى: ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗى﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضحى: ١٠].

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ رَسولَه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم بالإنفاقِ في الآيةِ المتقَدِّمةِ، عَلَّمَه في هذه الآيةِ أدَبَ الإنفاقِ[2].

وأيضًا فإنَّ هذا عَودٌ إلى بَيانِ التَّبذيرِ والشُّحِّ، فالجُملةُ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَلَا

تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]. ويجوز حَملُ الكفر هنا على كُفرِ النعمة، فيكونُ أقربَ درَجاتٍ إلى حالِ التخَلُّقِ بالتبذير؛ لأنَّ التبذير صَرفُ المال في غيرِ ما أمرَ الله به، فهو كفرٌ لنِعمةِ الله بالمال، فالتخَلُّقُ به يُفضي إلى التخَلُّقِ والاعتيادِ لكُفران النِّعَمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٢٩).

تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾[١] [الإسراء: ٢٦].

وأيضا فإنَّ الله تعالى لَمَّا أمَرَ بالجُودِ الذي هو لازِمُ الكَرَمِ؛ نهى عن البُخلِ الذي هو لازِمُ اللؤمِ، في سياقٍ يُنَفِّرُ منه ومِنَ الإسرافِ، فقال تعالى[٢]:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾.

أي: ولا تُمسِكْ يَدَك بُخلًا عن النَّفَقةِ في الخَيرِ كُلَّ الإمساكِ وكأنَّها مُقَيَّدةٌ إلى عُنُقِك، فلا تستطيعُ أن تَمُدَّها لتُعطيَ أحدًا شيئًا من الخَيرِ[٣].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه سَمِعَ رَسولَ الله صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((مَثَلُ البَخيلِ والمُنفِقِ كمَثَلِ رَجُلَينِ عليهما جُبَّتانِ[٤] مِن حَديدٍ مِن ثُدِيِّهما إلى تَراقِيهما[٥]؛ فأمَّا المُنفِقُ فلا يُنفِقُ إلاَّ سَبَغَت[٦] أو وَفَرَت[٧] على جِلْدِه، حتى تُخفِيَ بَنانَه وتَعفوَ أثَرَه[٨]، وأمَّا البَخيلُ فلا يُريدُ أن يُنفِقَ شَيئًا إلَّا لَزِقَت كُلُّ حَلْقةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣١٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٠٠).

قال الواحدي: (قال صاحب النظم [أبو علي الجرجاني]:... قد يمنَعُ الإنسانُ في مواضِعِ المنع ولا يرجِعُ عليه بلوم، فلذلك قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أي: لا تكنْ ممسِكًا عن البَذلِ عادةً، ولم يُرد ألَّا يمسِكَ عند وقتِ الإمساك، يدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾). ((البسيط)) (١٣/ ٣١٧، ٣١٨).

(٤) جُبَّتانِ: واحِدُه جُبَّةٌ، وهو ثوبٌ سابِغٌ واسِعُ الكُمَّينِ، مَشقوقُ المُقَدَّم، يُلبَسُ فوقَ الثيابِ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ٢٧٣)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ١٠٤).

(٥) تَراقِيهما: جمعُ تَرقُوَة: وهما عَظْمانِ مُشرِفان في أعلى الصَّدرِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٣٧).

(٦) سَبَغَت: أي: امتَدَّت وغَطَّت. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٣٠٦).

(٧) وَفَرَت: أي: كَمَلَت. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٣٧).

(٨) وتعفوَ أثَرَه: أي: تَمحُوَه وتَطمِسَه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٣٧).

مَكانَها، فهو يُوَسِّعُها ولا تَتَّسِعُ))[١].

وعن أسماءَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((انفَحي أو انضِحي[٢] أو أنْفِقي، ولا تُحصي فيُحصِيَ اللهُ عليك، ولا تُوعِي[٣] فيُوعِيَ اللهُ عليك))[٤].

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾.

أي: ولا تَبسُطْ يدَك بالعَطاءِ والإنفاقِ كُلَّ البَسطِ، فتُنفِقَ فَوقَ طاقتِك، وتبقَى بلا مالٍ لَدَيك[٥].

﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

أي: فتَبقى ملومًا عندَ الله تعالى، وعندَ النَّاسِ، وعندَ نَفسِك، مُنقَطِعًا، لا شيءَ لديك لتُنفِقَه، عاجزًا عن إقامةِ شُؤونِك[٦].

---

(١) رواه البخاري (١٤٤٣) واللفظ له، ومسلم (١٠٢١).

(٢) النَّفحُ والنَّضحُ: العَطاءُ. ويُطلَقُ النَّضحُ أيضًا على الصبِّ، وهو أبلَغُ مِن النَّفحِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ١١٨).

(٣) لا تُوعِي: أي: لا تجمَعي في الوِعاءِ وتَبخلي. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٤/ ٣٤٧).

(٤) رواه البخاري (٢٥٩١)، ومسلم (١٠٢٩) واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٥).

قال القُرطبيُّ: (نهى اللهُ سُبحانَه وتعالى عن الإفراطِ في الإنفاقِ، وإخراجِ ما حَوَتْه يدُه من المالِ مَن خِيفَ عليه الحَسرةُ على ما خَرَج مِن يَدِه، فأمَّا من وَثِقَ بموعودِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ وجَزيلِ ثوابِه فيما أنفَقَه، فغيرُ مُرادٍ بالآيةِ، والله أعلَمُ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٠). ويُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٣/ ٧٠-٧٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان سَبَبُ البُخلِ خَوفَ الفَقرِ، وسَبَبُ البَسطِ مَحبَّةَ إغناءِ المُعطي؛ قال مُسَلِّيًا لرَسولِه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم عَمَّا كان يُرهِقُه من الإضاقةِ عن التَّوسعةِ على مَن يسألُه، بأنَّ ذلك إنَّما هو لِتَربيةِ العِبادِ بما يُصلِحُهم، لا لِهَوانٍ بالمُضَيَّقِ عليه، ولا لإكرامٍ للمُوَسَّعِ عليه[1].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- يُوسِّعُ رِزقَه على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على

وذهب ابنُ جرير، والواحدي، والزمخشري، والبيضاوي، وابنُ جزي إلى أنَّ الملومَ والمحسورَ كلاهما يرجعانِ إلى بسطِ اليدِ بالنفقةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٥).

قال الزمخشري: (﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا﴾ فتصير ملومًا عندَ الله؛ لأنَّ المسرفَ غيرُ مرضيٍّ عندَه وعندَ الناسِ، يقولُ المحتاجُ: أعطَى فلانًا وحرَمني. ويقولُ المستغني: ما يُحسِنُ تدبيرَ أمرِ المعيشةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الملوم يرجعُ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ وأنَّ المحسورَ يرجعُ إلى قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ فالملومُ يرجعُ إلى النهيِ عن الشحِّ، والمحسورُ يرجعُ إلى النهيِ عن التبذيرِ، ممن ذهب إلى ذلك: ابنُ كثير، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٧).

مَن يشاءُ منهم، بحَسَبِ حِكمَتِه سُبحانَه[١].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

أي: لأنَّه خَبيرٌ ببواطِنِ عِبادِه وأحوالِهم وأخبارِهم، بَصيرٌ بظَواهِرِهم وكيفيَّةِ تَدبيرِهم في أرزاقِهم وغَيرِها؛ فهو أعلَمُ بمصالِحِ عبادِه وما يَليقُ بكُلٍّ منهم، فيَعلَمُ مَن يَصلُحُ له الغِنى، ويَعلَمُ مَن يَصلُحُ له الفَقرُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أتَمَّ سُبحانَه ما أراد مِن الوَصيَّةِ بالأُصولِ وما تَبِعَ ذلك، وختَمَه بما قَرَّرَ مِن أنَّ قَبضَ الرِّزقِ وبَسْطَه، منه مِن غَيرِ أن يَنفَعَ في ذلك حِيلةٌ؛ أوصاهم بالفُروعِ؛ لِكَونِهم في غايةِ الضَّعفِ[٣].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ الأُولَى أنَّه هو المُتكَفِّلُ بأرزاقِ العِبادِ، حيثُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧١).

قال ابن عطية: (المعنى: كنْ أنت -يا محمَّدُ- على ما رُسِمَ لك من الاقتصادِ وإنفاقِ القَوامِ، ولا يهمَّنَّك فَقرُ من تراه كذلك؛ فإنَّه بمرأًى من اللهِ ومَسمعٍ وبمشيئةٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٦، ٥٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٨).

قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ﴾ [الإسراء: ٣٠]؛ أتبَعَه بِقَولِه[١]:

﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ ﴾.

أي: ولا تَقتُلوا -أيُّها الآباءُ- أولادَكم؛ خَوفًا مِن أن يُصيبَكم الفَقرُ بالإنفاقِ عليهم[٢].

﴿ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ ﴾.

أي: نحن نُعطي أولادَكم -أيُّها الآباءُ- رِزقَهم، ولَستُم الرَّازِقينَ لهم، ونُعطيكم رِزقَكم أيضًا؛ فلا تَخشَوُا الفَقرَ بسَبَبِهم[٣].

﴿ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـًٔا كَبِيرٗا ﴾.

أي: إنَّ قتلَ الآباءِ لأولادِهم ذَنبٌ عَظيمٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٢).

قال ابنُ جرير: (إنَّما قال جلَّ ثَناؤه ذلك للعَرَبِ؛ لأنَّهم كانوا يَقتُلونَ الإناثَ مِن أولادِهم؛ خَوفَ العَيلةِ على أنفُسِهم بالإنفاقِ عليهنَّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٧).

وقال ابن عاشور: (المراد بالأولاد خصوصُ البناتِ؛ لأنهنَّ اللاتي كانوا يقتلونَهنَّ وأدًا، ولكنْ عبَّرَ عنهن بلفظِ الأولاد في هذه الآية ونظائِرِها؛ لأنَّ البنتَ يُقال لها: ولدٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٩، ٥٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٢).

قال القاسمي: (﴿ كَانَ خِطۡـًٔا كَبِيرٗا ﴾ أي: لإفضائِه إلى تخريبِ العالمِ. وأيُّ خِطْءٍ أكبرُ مِن ذلك؟!). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٥٨).

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ الذَّنبِ أعظَمُ؟ قال: أن تَجعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وهو خَلَقَك، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أن تَقتُلَ ولَدَك؛ مِن أجْلِ أن يطعَمَ مَعَك، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أن تُزانيَ حَليلةَ[١] جارِك))[٢].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ فيه الأمرُ بصِلةِ الأرحامِ، وإكرامِ المَساكينِ، والغُرَباءِ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ مَنعُ ذي القُربى والمِسكينِ وابنِ السَّبيلِ حَقَّهم، انحرافٌ في جانِبِ الإمساكِ، والتَّبذيرُ انحرافٌ في جانِبِ البَذلِ، ورِضا اللهِ فيما بينهما، وقد اتَّفَق شَرْعُ الرَّبِّ تعالى وقَدَرُه على أنَّ خِيارَ الأُمورِ أوساطُها[٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾، والمرادُ بالأخوةِ المماثلةُ التامةُ، وتجنبُ مماثلةِ الشيطانِ ولو في خصلةٍ واحدةٍ مِن خصالِه واجبٌ، فكيف فيما هو أعمُّ مِن ذلك، كما يدلُّ عليه إطلاقُ المماثلةِ، والإسرافُ

وقال السعدي: (أخبر أنَّ قَتلَهم كان خِطأً كبيرًا أي: من أعظَمِ كبائرِ الذنوبِ لزوالِ الرحمةِ مِن القلبِ والعقوقِ العظيمِ والتجرُّؤِ على قتلِ الأطفالِ الذين لم يجرِ منهم ذنبٌ ولا معصيةٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

وقال الشنقيطي: (الخطايا والخطيئات: جمعُ خطيئة، وهي الذنبُ العظيمُ الذي يستحِقُّ صاحِبُه النكالَ، يقال لها: (خطيئة) و (خِطء)، ومنه قوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٦٤).

(١) حَليلةُ جارِك: أي: زَوجَتُه. سُمِّيَت بذلك لكَونِها تحِلُّ له. ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٨١).

(٢) رواه البخاري (٦٨١١) واللفظ له، ومسلم (٨٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ١٥٩).

في الإنفاقِ من عملِ الشيطانِ، فإذا فعَله أحدٌ مِن بني آدمَ فقد أطاع الشيطانَ، واقتدَى به[١]، فليحذرِ المرءُ مِن عملٍ هو مِن شأنِ إخوانِ الشياطينِ، وليحذرْ أن ينقلبَ مِن إخوانِ الشياطينِ[٢].

٤- أنَّ الإنسانَ ليس له أنْ يَصْرِفَ المالَ إلَّا فيما ينفَعُه في دينِه أو دُنياه، وما سِوى ذلك سَفَهٌ وتبذيرٌ نهى اللهُ عنه بقَولِه: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾، وقال بعضُ السلفِ: (لو أنفقتَ درهمًا في معصيةِ الله كنتَ مبذِّرًا، ولو أنفقتَ ملءَ الأرضِ في طاعةِ الله لم تكنْ مبذِّرًا)[٣].

٥- ينبغي على وليِّ الأمْرِ إذا سألَه النَّاسُ ما لا يَصلُحُ بَذْلُه مِن الوِلاياتِ والأموالِ، والمَنافعِ والأجورِ، والشَّفاعةِ في الحُدودِ وغيرِ ذلك، أنْ يُعَوِّضَهم مِن جهةٍ أخرى إنْ أمكَنَ، أو يَرُدَّهم بمَيسورٍ مِن القَولِ -ما لم يُحتَجْ إلى الإغلاظِ-؛ فإنَّ ردَّ السائلِ يُؤلِمُه؛ خُصوصًا مَن يحتاجُ إلى تأليفِه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠]، وقال أيضًا: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾، إلى قَولِه: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾[٤]، أي: لطيفًا، برفقٍ ووعدٍ بالجميلِ عندَ سنوحِ الفرصةِ، واعتذارٍ بعدمِ الإمكانِ في الوقتِ الحاضرِ؛ لينقلبوا مطمئنةً خواطرُهم، كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾[٥] [البقرة: ٢٦٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨١).
(٣) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ١٨).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٦٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

مَّيْسُورًا ﴾ هذا مِن لُطفِ اللهِ تعالى بالعِبادِ؛ أمَرَهم بانتِظارِ الرَّحمةِ والرِّزقِ منه؛ لأنَّ انتظارَ ذلك عِبادةٌ، وكذلك وَعْدُهم بالصَّدقةِ والمَعروفِ عند التيسُّرِ عِبادةٌ حاضِرةٌ؛ لأنَّ الهَمَّ بفِعلِ الحَسَنةِ حَسَنةٌ؛ ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يَفعَلَ ما يَقدِرُ عليه مِن الخَيرِ، ويَنويَ فِعلَ ما لم يَقدِرْ عليه؛ لِيُثابَ على ذلك، ولعَلَّ اللهَ يُيَسِّرُ له بسَبَبِ رَجائِه[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ فيه الأمرُ بالقَولِ اللَّيِّنِ عندَ عَدَمِ وُجودِ ما يُعطى منه[٢]، فالآيةُ تأديبٌ مِنَ اللَّهِ سبحانَه لعبادِه إذا سَأَلهم سائلٌ ما ليسَ عندَهم كيفَ يقولونَ، وبِمَ يَرُدُّونَ، ولقد أحسنَ مَنْ قال:

إنْ لَا يَكُنْ وَرِقٌ يَوْمًا أجودُ بها ... للسَّائِلينَ فإنِّي لَيِّنُ العُودِ
لا يَعْدَمُ السائلونَ الخيرَ مِن خُلُقي ... إمَّا نَوالي وإمَّا حسنُ مردودي[٣]

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ قد جمعَت هذه الآيةُ ثلاثَ وصايا مِمَّا أوصى اللهُ به، بقَولِه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ ... ﴾ الآيات:

فأمَّا إيتاءُ ذي القُربى فالمقصِدُ منه مُقارِبٌ للمَقصِدِ مِن الإحسانِ للوالدينِ؛ رَعيًا لاتِّحادِ المنبَتِ القَريبِ، وشَدًّا لآصرةِ العشيرةِ التي تتكوَّنُ منها القبيلةُ، وفي ذلك صلاحٌ عَظيمٌ لنِظامِ القبيلةِ وأمنِها وذبِّها عن حَوزتِها.

وأمَّا إيتاءُ المسكينِ فلِمَقصِدِ انتظامِ المجتمعِ بألَّا يكونَ مِن أفرادِه مَن هو في

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٤).

بؤسٍ وشَقاءٍ، على أنَّ ذلك المسكينَ لا يعدو أن يكونَ مِن القبيلةِ في الغالِبِ أقعَدَه العَجزُ عن العَمَلِ، والفَقرُ عن الكفايةِ.

وأمَّا إيتاءُ ابنِ السَّبيلِ فلإكمالِ نظامِ المجتَمَعِ؛ لأنَّ المارَّ به مِن غيرِ بنيه بحاجةٍ عَظيمةٍ إلى الإيواءِ ليلًا ليقيَه من عوادي الوحوشِ واللُّصوصِ، وإلى الطَّعامِ والدِّفءِ أو التظَلُّلِ؛ وقايةً مِن إضرارِ الجوعِ والقُرِّ أو الحَرِّ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ احتُجَّ بهذه الآيةِ على الحجرِ على المبذرِ، فيجبُ على الإمامِ منعُه منه بالحجرِ والحيلولةِ بينه وبينَ مالِه إلَّا بمقدارِ نفقةِ مثلِه[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ الرَّحمةُ هنا هي الرِّزقُ الذي يتأتَّى منه العَطاءُ بقَرينةِ السِّياقِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الرِّزقَ سَبَبٌ للرَّحمةِ؛ لأنَّه إذا أعطاه مُستَحِقَّه أثيبَ عليه[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فيه إخبارٌ بأنَّ رِزقَ الجَميعِ على اللهِ تعالى، واللهُ سيُسَبِّبُ لهم ما يُنفِقونَ على الأولادِ وعلى أنفُسِهم. وفيه بَيانُ أنَّ اللهَ تعالى سيرزُقُ كُلَّ حيوانٍ خَلَقَه ما دامَت حياتُه باقيةً، وأنَّه إنَّما يَقطَعُ رِزقَه بالمَوتِ، وبَيَّنَ اللهُ تعالى ذلك؛ لئلَّا يتعَدَّى بَعضُهم على بَعضٍ، ولا يَتناوَلَ مالَ غَيرِه؛ إذ كان اللهُ قد سبَّبَ له مِنَ الرِّزقِ ما يُغنيه عن مالِ غَيرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠).

والحجْرُ على المبذِّرِ والمسرفِ هو مذهبُ الجمهورِ، خلافًا لأبي حنيفةَ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٤/ ١٩٤)، (٣١/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٢٦٠).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ دالَّةٌ على أنَّ اللهَ تعالى أرحَمُ بعِبادِه مِنَ الوالِدِ بوَلَدِه؛ لأنَّه ينهى تعالى عن قَتلِ الأولادِ، كما أوصَى بالأولادِ في الميراثِ[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ فيه النَّهيُ عن قَتلِ الأولادِ مَخافةَ الفَقرِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ حُجَّةٌ في وجوبِ نَفَقةِ الآباءِ على الأبناءِ؛ إذ لو كانتِ النَّفَقةُ غيرَ واجِبةٍ لهم عليهم، لكان في النَّاسِ مَن تَسمَحُ نَفسُه بتَركِ الإنفاقِ، وكان مع عَدَمِ الإجبارِ عليه آمنًا مِن الإملاقِ، والآيةُ عامَّةُ المَخرَجِ على جَميعِ الآباءِ، فلا تَدُلُّ إلَّا على الوُجوبِ، بل على الإجبارِ مع المَنعِ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ عِظَةٌ للمُغتمِّينَ بكَثرةِ الأولادِ خَشيةَ العَجْزِ عن القِيامِ بنَفَقاتهم ومُؤْناتهم؛ ففي ضَمانِه -تبارك وتعالى- لنَفَقتِهم أمانٌ للمَضمونِ له ما يتَّقيه مِنَ العَجزِ، ويَحذَرُه مِن دُخولِ الفَقرِ عليه بسبَبِ أولادِه، وبِشارةٌ يَسكُنُ إليها المُؤمِنُ، ويَزولُ اضطرابُ قَلبِه بما لا يُخلِفُ ضامِنُه مِن وَعدِه، وإذا كان في حياتِه مَضمونًا له رِزقُ أولادِه وهو قَيِّمُهم، فبعدَ وفاتِه أحْرَى أن تَحسُنَ خِلافةُ ضامِنِه عليهم! وفي ذلك تطييبُ أنفُسِ مَن يتركُ بعده صِغارًا، وسكونُ قلوبِهم إلى من لا يُخلِفُ ميعادًا، ولا يُضَيِّعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧١-٧٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٢٨).

لهالكٍ أولادًا[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ تحديدَ النَّسْلِ خَوفًا مِن ضِيقِ الرِّزْقِ؛ سُوءُ ظَنٍّ باللهِ تعالى! فاللهُ سُبحانَه وتعالى إذا خَلَقَ خَلْقًا، فلا بُدَّ أنْ يرزُقَه[٢].

١٠- في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ ﴾ دلالةٌ على أنَّه كلما كَثُرَ الأولادُ انفتحتْ أبوابُ الرزقِ، إلَّا أنَّ كثرةَ الرزقِ بكثرة الأولادِ لها شرطٌ مهمٌّ؛ وهو تقوى اللهِ وصحةُ التوكلِ عليه؛ لقوله سُبحانَه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۞ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ ﴾[٣] [الطلاق: ٢، ٣].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾

- قَولُه: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ ابتدأ بحَقِّ القريبِ تأكيدًا لحَقِّه، ولأنَّه هو مقتضى طبيعةِ التَّرتيبِ، ولأنَّه إذا سَخَت النفوسُ بإيتاءِ حَقِّ القريبِ ومَرَنت عليه، اعتادت الإيتاءَ وصار مِن مَلَكاتِها، فسهُلَ عليها إيتاءُ كُلِّ حَقٍّ ولو كان لأبعدِ النَّاسِ، إلى غير ذلك[٤].

- قولُه: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾ فيه ذِكْرُ المفعولِ المُطلَقِ ﴿تَبۡذِيرًا ﴾ بعدَ قولِه: ﴿ وَلَا تُبَذِّرۡ ﴾؛ لتأكيدِ النَّهيِ، كأنَّه قيلَ: لا تُبذِّرْ، لا تُبذِّرْ، مع ما في المصدرِ من

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((الزواج)) لابن عثيمين (ص: ٣٤).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٩/ ٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٧٩).

استحضارِ جِنْسِ المَنْهيِّ عنه استحضارًا لِما تُتَصَوَّرُ عليه تلك الحقيقةُ بما فيها من المفاسِدِ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ تَعليلٌ؛ للمُبالغةِ في النَّهيِ عن التَّبذيرِ ببيانِ أنَّه يجعَلُ صاحِبَه مَلْزوزًا[٢] في قَرَنٍ[٣] الشَّياطينِ[٤]، وقد زِيدَ تأكيدُ ذلك بلفْظِ ﴿كَانُوٓاْ﴾ المُفيدِ أنَّ تلك الأُخوَّةَ صِفَةٌ راسخةٌ فيهم، وكَفى بحقيقةِ الشَّيطانِ كراهةً في النُّفوسِ واستقباحًا[٥].

- وفي الكلامِ إيجازُ حذْفٍ، تقديرُه: ولا تُبذِّرْ تَبذيرًا، فتصيرَ من المُبذِّرينَ؛ إنَّ المُبذِّرينَ كانوا إخوانَ الشَّياطينِ، ثمَّ أكَّدَ التَّحذيرَ بجُملةِ ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾[٦].

- قولُه: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ فيه التَّعرُّضُ لوصفِ الرُّبوبيَّةِ؛ للإشعارِ بكمالِ عُتُوِّه؛ فإنَّ كُفرانَ نعمةِ الرَّبِّ -مع كونِ الرُّبوبيَّةِ مِن أقوَى الدَّواعي إلى شُكْرِها- غايةُ الكُفْرانِ، ونِهايةُ الضَّلالِ والطُّغيانِ[٧].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٦).

(٢) ملزوزًا: أي: مقيَّدًا مَشدودًا. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٨٢).

(٣) القَرَنُ: الحبلُ. يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٨١).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٨).

- قولُه: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا﴾ علَّلَ الإعراضَ بطلَبِ الرَّحمةِ، وهي كِنايةٌ عن الرِّزقِ والتَّوسعةِ، وطلَبُ ذلك ناشِئٌ عن فُقدانِ ما يجودُ به ويُؤْتيه مَن سأَلَه، وسمَّى الرِّزقَ رحمةً، فرَدَّهم ردًّا جميلًا، فوضَعَ الابتغاءَ موضِعَ الفقدِ؛ لأنَّ فاقِدَ الرِّزقِ مُبتَغٍ له، فكان الفقدُ سبَبَ الابتغاءِ، والابتغاءُ مُسبَّبًا عنه؛ فوضَعَ المُسبَّبَ مَوضعَ السَّببِ، وكأنَّ المعنى: وإنْ تُعْرِضْ عنهم لإعسارِك، فوضَعَ المُسبَّبَ -وهو ابتغاءُ الرَّحمةِ- موضِعَ السَّببِ، وهو الإعسارُ[(١)].

- قولُه: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ الإعراضُ هنا كِنايةٌ عن عدَمِ الإيتاءِ؛ لأنَّ الإمساكَ يُلازِمُه الإعراضُ[(٢)].

- قولُه: ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ الرَّحمةُ هنا هي الرِّزقُ الَّذي يتأَتَّى منه العطاءُ بقرينةِ السِّياقِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الرِّزقَ سبَبٌ للرَّحمةِ؛ لأنَّه إذا أعطاهُ مُستحِقَّه أُثيبَ عليه، وهذا إدماجٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٨٣).

والإدماجُ، لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير

٤- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ أتَتْ هذه الآيةُ تَعليمًا بمعرفةِ حقيقةٍ من الحقائقِ الدَّقيقةِ؛ فكانت من الحكمةِ، وجاء نظْمُها على سبيلِ التَّمثيلِ، فصِيغَتِ الحِكمةُ في قالبِ البلاغةِ، وأمَّا البلاغةُ فبتَمْثيلِ الشُّحِّ والإمساكِ بغلِّ اليدِ إلى العُنقِ، وهو تَمثيلٌ لمنْعِ الشَّحيحِ وإعطاءِ المُسرِفِ، وهو مَبنيٌّ على تخيُّلِ اليدِ مصدرًا للبذْلِ والعطاءِ، وتخيُّلِ بسْطِها كذلك، وغلُّها شُحًّا، ومِن ثمَّ قالوا: له يدٌ على فُلانٍ، أي: نعمةٌ وفضْلٌ؛ فجاء التَّمثيلُ في الآيةِ مَبنيًّا على التَّصرُّفِ في ذلك المعنى بتَمثيلِ الَّذي يشُحُّ بالمالِ بالَّذي غُلَّتْ يدُه إلى عُنقِه، أي: شُدَّتْ بالغُلِّ، وهو القيدُ من السَّيرِ يُشَدُّ به يدُ الأسيرِ[(١)].

٥- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾

- مَوقعُ هذه الجُملةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ موقعُ اعتراضٍ بالتَّعليلِ لِمَا تقدَّمَ من الأمْرِ بإيتاءِ ذي القُربى والمساكينِ، والنَّهيِ عن التَّبذيرِ، وعن الإمساكِ المُفيدِ الأمْرَ بالقصدِ، بأنَّ هذا واجبُ النَّاسِ في أموالِهم وواجِبُهم نحوَ قَرابتِهم وضُعفاءِ عشائرِهم، فعليهم أنْ يَمْتثلوا ما أمَرَهم اللهُ من ذلك. وليس الشُّحُّ بمُبْقٍ مالَ الشَّحيحِ لنفْسِه، ولا التَّبذيرُ بمُغْنٍ مَن يُبذِّرُ فيهم المالَ؛ فإنَّ اللهَ قدَّرَ لكلِّ نفْسٍ رزْقَها[(٢)].

ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٤-٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥ / ٨٦).

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ تَعليلٌ لِما سبَقَ، وهو جُملةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾، أي: هو يفعَلُ ذلك؛ لأنَّه عليمٌ بأحوالِ عِبادِه وما يَليقُ بكلٍّ منهم بحسَبِ ما جُبِلَت عليه نُفوسُهم؛ فلأنَّه يعلَمُ سِرَّهم وعلَنَهم، يعلَمُ مِن مصالِحهم ما يَخْفَى عليهم(١).

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـًٔا كَبِيرٗا﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث قال في سورةِ (الأنعام): ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٥١]؛ فاختَلفَ ترتيبُ ذِكْرِ الآباءِ والأبناء في الآية هنا مع ترتيبها في سورةِ (الأنعام)، ووجهُ ذلك: أنَّ هذا التعبيرَ مبنيٌّ على اختلافِ الحالين، ففي آيةِ سورةِ (الأنعامِ) يقول اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ -أي: مِن فقرٍ- يعني: إذا كنتم فقراءَ؛ فلا تقتلوا أولادَكم، ثم قال: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾ فبَدأَ بالآباء لأنهم فقراءُ؛ وجَعَلَ رزقَهم قبلَ ذِكْرِ رِزْقِ الأولادِ المقتولين، أمَّا في آيةِ سورةِ (الإسراءِ): ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ﴾ فلِأنَّ الآباءَ القاتلين هنا ليسوا فقراءَ -بل هم أغنياءُ- لكنهم يخشون الفقرَ! فكان الأنسبُ أنْ يُبْدَأَ بذِكْرِ رِزْقِ الأولادِ قبلَ ذِكْرِ رِزْقِ الآباءِ؛ لأنَّ الآباءَ رزقُهم موجودٌ، فقال: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ﴾(٢)، وقيل: تَقديمُ ضميرِ الأولادِ على المُخاطبينَ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٧).

عكْسِ ما وقَعَ في سُورةِ (الأنعامِ)؛ للإشعارِ بأصالتِهم في إفاضةِ الرِّزقِ، أو لأنَّ الباعثَ على القتْلِ هناك الإملاقُ النَّاجِزُ؛ ولذلك قيل هناك: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١] وهاهنا الإملاقُ المُتوقَّعُ؛ ولذلك قيل هنا: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾؛ فكأنَّه قيل: نرزُقُهم -من غيرِ أنْ يَنتقِصَ من رزْقِكم شَيءٌ، فيَعْتريكم ما تَخْشونَه- وإيَّاكم أيضًا رِزقًا إلى رزقِكم[١].

- قولُه: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ المذكورِ بإبطالِ مُوجِبِه في زعْمِهم[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ تأكيدٌ للنَّهيِ، وتحذيرٌ من الوُقوعِ في المَنهيِّ. وفعْلُ ﴿كَانَ﴾ تأكيدٌ للجُملةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٨-٨٩).

الآيات (٢٢-٣٥)

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَٰحِشَةً﴾: أي: فِعلةً مُتناهِيةً في القُبحِ، وأصلُ (فحش): يدلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ[١].

﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾: أي: مَن يَلي أمرَه مِنْ وَرَثَتِه إنْ كانُوا مَوْجودينَ، أو مِمَّنْ له سلطانٌ إنْ لم يَكُونوا مَوجودينَ، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه، وأصْلُ (ولي): يدلُّ على القُرْب، سواء من حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ[٢].

﴿سُلْطَٰنًا﴾: أي: تَسَلُّطًا على القاتِل، أو حُجَّةً، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقَهرُ، مِنَ التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّيَ السُّلطانُ سُلطانًا[٣].

﴿يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾: أي: يتناهَى في الشَّبَاتِ إلى حدِّ الرِّجالِ، أو يبلُغ مُنْتَهى شَبابِه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٦).

وقُوَّتِه، والأَشُدُّ قيل: جمعٌ لا واحدَ له، وقيل: مفردُه شَدٌّ، وأَصْلُ (شدد): يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ[١].

﴿بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾: أي: المِيزانِ العَدلِ السَّوِيِّ، وأصلُ (قسط) هنا: يدلُّ على العَدلِ[٢].

﴿تَأْوِيلًا﴾: أي: عاقِبةً، والعاقِبةُ تُسَمَّى تأويلًا؛ لأنَّها مآلٌ، مِن آلَ يَؤولُ أَوْلًا: إذا رجَعَ، وأصلُ (أول): ابتداءُ الأمرِ وانتهاؤُه[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى بعضَ النواهي، فيقولُ: ولا تَقربوا -أيُّها النَّاسُ- الزِّنا، وابتَعِدوا عن مُقَدِّماتِه ودواعِيه؛ كي لا تَقَعوا فيه؛ إنَّه كان فِعلًا شديدَ القُبحِ، وبِئسَ الطَّريقُ طَريقُه، ولا تَقتُلوا النَّفسَ التي حَرَّم اللهُ قَتْلَها إلَّا بحَقِّها، كالقِصاصِ أو رَجمِ الزَّاني المُحصَنِ، أو قَتلِ المُرتَدِّ. ومن قُتِل ظُلمًا بغيرِ حَقٍّ، فقد جعَلْنا لوليِّه سلطةً في طلَبِ قَتْلِ قاتِلِه، أو الدِّيةِ، أو العَفوِ، وليسَ لوليِّ المَقتولِ أن يتجاوزَ حَدَّ اللهِ في القِصاصِ، كأن يقتُلَ بالواحِدِ اثنينِ أو أكثَرَ، أو يُمَثِّلَ بالقاتِلِ، أو يقتُلَ غيرَ القاتِلِ؛ إنَّ اللهَ مُعِينٌ وليَّ المَقتولِ على القاتِلِ حتى يأخُذَ منه حَقَّه.

ثمَّ يقولُ تعالى: ولا تقرَبوا أموالَ اليتامى إلَّا بالطَّريقةِ التي هي أحسَنُ لهم،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥، ٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٥).

بالمحافظةِ عليها وتثميرِها وتنميتِها، حتى يبلُغَ اليَتيمُ سِنَّ البُلوغِ والرشدِ، ويتمكَّنَ مِن التصَرُّفِ في المالِ، فيُدفَعَ إليه مالُه.

ثم يأمرُ الله تعالى بالوفاءِ بالعهدِ، فيقول: وأتِمُّوا الوفاءَ بالعُهودِ التي التَزَمتُم بها؛ لأنَّ العُهودَ مسؤولٌ عنها يومَ القيامةِ. وأتِمُّوا الكيلَ ولا تَنقُصوه إذا كِلْتم لِغَيرِكم، وزِنوا للنَّاسِ بالمِيزانِ السَّويِّ الذي لا غِشَّ فيه، إنَّ العَدلَ في الكَيلِ والميزانِ خَيرٌ لكم، وأحسَنُ عاقِبةً في الدُّنيا والآخِرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا نهى اللهُ تعالى عن قَتلِ الأولادِ، نهى عن التسَبُّبِ في إيجادِه مِن الطَّريقِ غَيرِ المَشروعةِ، فنهى عن قِربانِ الزِّنا، واستلزَمَ ذلك النَّهيَ عن الزِّنا[1].

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾.

أي: ولا تَدنُوا -أيُّها النَّاسُ- مِن فِعلِ الزِّنا، وابتَعِدوا عن مُقَدِّماتِه ودواعيه[2].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾.

أي: إنَّه كان ذنبًا عَظيمًا غايةً في القُبحِ؛ في الشَّرعِ، والعَقلِ، والفِطرةِ، وبِئسَ طريقًا طَريقُ الزِّنا؛ لأنَّه يُؤدِّي إلى أنواعٍ مِن المفاسدِ في الدُّنيا[3]، وإلى العذابِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

(٣) قال الخازن: (الزِّنا يشتَمِلُ على أنواعٍ من المفاسِدِ، منها المعصيةُ، وإيجابُ الحدِّ على نفسِه، ومنها اختِلاطُ الأنسابِ، فلا يعرِفُ الرجلُ وَلَدُ مَن هو؟ ولا يقومُ أحدٌ بتربيته، وذلك يوجِبُ

والخِزيِ في الآخرةِ، فما أسوأَه مِن طَريقٍ[١]!

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا نهى اللهُ تعالى عن قَتلِ الأولادِ، وعن إيجادِهم مِن الطَّريقِ غَيرِ المَشروعةِ، نهى عن قَتلِ النَّفسِ، فانتقَلَ مِن الخاصِّ إلى العامِّ[٢].

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: ولا تَقتُلوا النَّفسَ التي حرَّم اللهُ قتلَها إلَّا إذا استَحقَّتِ القَتلَ شَرعًا[٣].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللَّهُ

ضياع الأولاد، وانقطاعَ النَّسلِ، وذلك يوجِبُ خراب العالم). ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٢٩). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٨-٩)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٠).

قال ابنُ القيم: (أخبَر عن غايتِه [أي: الزنا] بأنَّه «سَاءَ سَبِيلًا» فإنَّه سبيلُ هلكةٍ وبوارٍ وافتقارٍ في الدُّنيا، وعذابٍ وخزيٍ ونكالٍ في الآخرةِ). ((الجواب الكافي)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

قال الواحديُّ: (قال المفسِّرونَ: حَقُّها الذي تُقتَلُ به: كُفرٌ بعدَ إسلامٍ، أو زِنًا بعد إحصانٍ، أو قَتلُ نَفسٍ بتعَمُّدٍ). ((البسيط)) (١٣/ ٣٢٣، ٣٢٤).

قال ابنُ جُزيٍّ: (وتتَّصِلُ بهذه الأشياءِ [أي الثلاثةِ السابقةِ] أشياءُ أُخَرُ؛ لأنَّها في معناها، كالحِرابةِ، وتَركِ الصَّلاةِ، ومَنعِ الزَّكاةِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٥).

عليه وسلَّم: ((لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مُسلمٍ يَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنِّي رَسولُ اللهِ، إلَّا بإحدى ثَلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّاني، والنَّفسُ بالنَّفسِ، والتَّارِكُ لدِينِه المُفارِقُ للجَماعةِ))[١].

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

أي: ومَن قُتِل ظُلمًا بغيرِ حَقٍّ، فقد جعَلْنا لوليِّ[٢] المَقتولِ سُلطةً وتسَلُّطًا على القاتِلِ؛ فهو بالخِيارِ: إن شاء قتَلَه قِصاصًا، وإن شاء أخَذَ الدِّيةَ، وإن شاء عَفا عنه[٣].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قال: ((ومَن قُتِلَ له قَتيلٌ، فهو بخَيرِ النَّظَرينِ؛ إما أن يُفدَى، وإمَّا أن يُقِيدَ[٤]))[٥].

﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾.

أي: فلا يَتَجاوَزْ وَلِيُّ المَقتولِ ما حُدَّ له، فيتعدَّى بقَتلِ غَيرِ القاتِلِ، أو يَقتُل

---

(١) رواه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) واللفظ له.

(٢) قال السَّعدي: (هو أقرَبُ عَصَباتِه ووَرَثتِه إليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

وقال الألوسي: (﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ لمن يلي أمرَه مِن الوارثِ أو السلطانِ عندَ عدمِ الوارثِ، واقتصارُ البعضِ على الأوَّل رعايةً للأغلبِ). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨٣، ٥٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨٨).

قال ابن عاشور: (والجعلُ مِنْ قولِه: ﴿جَعَلْنَا﴾ هو الجعلُ التَّشريعيُّ، أي: شَرَعْنا... كما في قولِه تعالَى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٣٣).

وقال السعدي: (﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: حُجَّةً ظاهِرةً على القِصاصِ مِن القاتِلِ، وجعَلْنا له أيضًا تسلُّطًا قدَريًّا على ذلك، وذلك حين تجتمِعُ الشروطُ الموجِبةُ للقِصاصِ، كالعَمدِ العدوانِ، والمكافأةِ [أي: في الدينِ، والحريةِ، والرقِّ]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

(٤) يُفْدَى: أي: يُعطَى الدِّيةَ. يُقِيدَ: أي: يَقتَصَّ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٤/ ٢٤٨).

(٥) رواه البخاري (٢٤٣٤) واللفظ له، ومسلم (١٣٥٥).

بالواحِدِ اثنَينِ أو أكثَرَ، أو يُمَثِّل بالقاتِلِ؛ إنَّ وَلِيَّ المَقتولِ[١] كان مُعانًا على القاتِلِ بتَسليطِه عليه بالقِصاصِ، أو بأخْذِ الدِّيةِ، أو بالعَفوِ[٢].

---

(١) ممَّن اختار أنَّ الضميرَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ عائدٌ إلى وليِّ المقتول: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٤).

وممن قال مِن السلفِ بهذا القولِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣).

قال ابن جرير: (وهي [أي: الهاءُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾] إلى ذِكرِه أقرَبُ مِن ذكرِ المقتولِ، وهو المنصورُ أيضًا؛ لأنَّ الله جلَّ ثناؤه قضى في كتابِه المنزَّل أنْ سلَّطه على قاتِلِ وليِّه وحَكَّمَه فيه بأنْ جعلَ إليه قتْلَه إن شاء، واستبقاءَه على الديةِ إن أحَبَّ، والعفوَ عنه إن رأى، وكفى بذلك نُصرةً له من الله جلَّ ثناؤه). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨٩).

وقال القُرطبيُّ: (فإن قيل: وكم مِن وليٍّ مَخذولٍ لا يَصِلُ إلى حَقِّه. قُلنا: المَعونةُ تكونُ بظُهورِ الحُجَّةِ تارةً، وباستيفائِها أُخرى، وبمَجموعِهما ثالثةً، فأيُّها كان فهو نَصرٌ مِن اللهِ سُبحانَه وتعالى). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٦).

وقيل: هو عائدٌ إلى المقتولِ ظلمًا بغيرِ حقٍّ. وممَّن قال بذلك: الزَّجَّاج، ورجَّحه ابنُ عطيَّة، واختاره البقاعي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٣)، ((نظم الدرر)) (١١/ ٤١٠).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣).

قال الزجاج: (فهو منصورٌ في الدنيا والآخرة، فأمَّا نُصرتُه في الدنيا فقَتلُ قاتِلِه، وأما في الآخرة فإجزالُ الثوابِ له، ويُخلَّدُ قاتِلُه في النارِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٢٣٨).

وقال البقاعي: (﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القتيلَ ﴿كَانَ مَنصُورًا﴾ في الدُّنيا بما جَبَل الله في الطباعِ مِن فُحشِ القتل، وكراهةِ كُلِّ أحدٍ له، وبُغضِ القاتِلِ والنُّفرةِ منه، والأخذِ على يَدِه، وفي الآخرة بأخذِ حَقِّه منه من غيرِ ظلمٍ ولا غفلةٍ، فمن وثِق بذلك ترك الإسرافَ، فإنَّه لخوفِ الفوتِ أو للتخويفِ مِن العودِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٤١٠-٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨٥، ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٣، ٧٤)،

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى النَّهيَ عن إتلافِ النُّفوسِ؛ أتبَعَه بالنَّهيِ عن إتلافِ الأموالِ؛ لأنَّ أعَزَّ الأشياءِ بعدَ النُّفوسِ الأموالُ، وأحَقُّ النَّاسِ بالنَّهيِ عن إتلافِ أموالِهم هو اليَتيمُ؛ لأنَّه لِصِغَرِه وضَعفِه وكَمالِ عَجزِه يَعظُمُ ضَررُه بإتلافِ مالِه؛ فلهذا السَّبَبِ خَصَّهم اللهُ تعالى بالنَّهيِ عن إتلافِ أموالِهم[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا نهى عن الإغارةِ على الأرواحِ، والأبضاعِ التي هي سَبَبُها؛ أتبَعَه النَّهيَ عن نَهبِ ما هو عَديلُها؛ لأنَّ به قِوامَها -وهو الأموالُ- وبدأ بأحَقِّ ذلك بالنَّهيِ؛ لشِدَّةِ الطَّمعِ فيه، لضَعفِ مالِكِه، فقال تعالى[2]:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾.

أي: ولا تَقْربوا مالَ اليتيمِ إلَّا بالطَّريقةِ التي هي أحسَنُ وأفضَلُ؛ وذلك بإصلاحِه والمُحافظةِ عليه، وتَثميرِه وتَنميتِه[3].

((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨٧، ٨٨).

قال ابن كثير: (قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ أي: أنَّ الوليَّ منصورٌ على القاتلِ شَرعًا، وغالبًا قَدَرًا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

قال ابنُ عاشور: (هذا مِن أهَمِّ الوَصايا التي أوصى اللهُ بها في هذه الآياتِ؛ لأنَّ العَرَبَ في الجاهليَّةِ كانوا يَستَحِلُّونَ أموالَ اليتامى؛ لضَعفِهم عن التفَطُّنِ لِمَن يأكُلُ أموالَهم، وقِلَّةِ نَصيرِهم لإيصالِ حُقوقِهم، فحَذَّرَ اللهُ المُسلِمينَ مِن ذلك؛ لإزالةِ ما عسى أن يبقى في نُفوسِهم من أثَرٍ

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسول الله صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قال: ((يا أبا ذرٍّ، إنِّي أراك ضعيفًا، وإنِّي أُحِبُّ لك ما أُحبُّ لنفسي، لا تَأَمَّرَنَّ على اثنينِ، ولا تَوَلَّيَنَّ مالَ يتيمٍ[(١)])))[(٢)].

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

أي: لا تَقرَبوا مالَ اليتيمِ إلا بالتي هي أحسنُ حتَّى يبلُغَ الحُلُمَ والرُّشدَ، بحيث يَكمُلُ عَقلُه ويتمَكَّنُ مِن تَدبيرِ مالِه، فإذا بلغَ ذلك زالتْ عنه الوِلايةُ، وصار وليَّ نَفسِه، ودُفِعَ إليه مالُه[(٣)].

مِن تلك الجاهليَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٦).

(١) قال ابن عثيمين: (نهاه الرَّسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ أن يتولَّى على مالِ اليتيمِ؛ لأنَّ مالَ اليتيمِ يحتاجُ إلى عنايةٍ، ويحتاجُ إلى رعايةٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وأبو ذر ضعيفٌ لا يستطيع أن يرعى هذا المالَ حَقَّ رعايتِه؛ فلهذا قال: «ولا تولَّيَنَّ مالَ يتيم» يعني: لا تكنْ وليًّا عليه، دَعْه لغيرك). ((شرح رياض الصالحين)) (١ / ٧٢٥).

(٢) رواه مسلم (١٨٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

كما قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النساء: ٦].

﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾.

أي: وأوفُوا[١] -أيُّها النَّاسُ- بالعُهودِ التي عاهَدْتُم اللهَ عليها، وبالعُقودِ التي بينكم[٢].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١].

﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾.

أي: أوفُوا بالعهودِ؛ لأنَّ اللهَ سيَسألُكم عنها يومَ القيامةِ، ويُجازيكم على الوَفاءِ بها وعَدَمِه؛ فلا تَنقُضوها[٣].

قال ابنُ جُزَي: (هو البلوغُ مع الرُّشدِ، وليس المقصودُ هنا السِّنَّ وَحدَه، وإنَّما المقصودُ مَعرفتُه بمصالِحِه). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٨١).

(١) قال أبو السعود: (الإيفاءُ بالعَهدِ والوَفاءُ به: هو القيامُ بمُقتضاه والمحافظةُ عليه، ولا يكادُ يُستعمَلُ إلَّا بالباءِ؛ فَرقًا بينه وبين الإيفاءِ الحِسِّي، كإيفاءِ الكَيلِ والوَزنِ). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧١).

وقال الشَّوكاني: (الوفاءُ بالعَهدِ: هو القيامُ بحِفظِه على الوَجهِ الشَّرعيِّ والقانونِ المَرضيِّ، إلَّا إذا دلَّ دَليلٌ خاصٌّ على جوازِ النَّقضِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٧).

قال ابن جُزَيٍّ: (﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ يَحتَمِلُ وجهينِ: أحدُهما: أن يكونَ بمعنى الطَّلَبِ: أي يُطلَبُ الوَفاءُ به، والثاني: أن يكونَ المعنى: يُسألُ عنه يومَ القيامةِ، هل وفَى به أم لا؟).

﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان التَّقديرُ بالكَيلِ أو الوَزنِ مِن جُملةِ الأماناتِ الخَفيَّةِ، كالتصَرُّفِ لليَتيمِ، وكان الائتِمانُ عليه كالمَعهودِ فيه؛ أتبَعَه بقَولِه[1]:

﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾.

أي: وأوفُوا النَّاسَ الكَيلَ إذا كِلْتُم لهم، وأوفُوهم حُقوقَهم -بالعَدلِ- تامَّةً مِن غَيرِ نَقصٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾.

أي: وزِنوا للنَّاسِ بالمِيزانِ السَّويِّ الذي لا انحِرافَ فيه ولا اعوِجاجَ، ولا غِشَّ ولا خديعةَ[3].

كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٩].

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾.

أي: ذلك الوَفاءُ في الكَيلِ والمِيزانِ خَيرٌ لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن التَّطفيفِ،

((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٤).

وأحسَنُ عاقِبةً لكم في دُنياكم: بالبَرَكة وانشِراحِ النَّفسِ وغيرِ ذلك، وفي أُخراكم: بالثَّوابِ مِنَ اللهِ تعالى[١].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۞ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [هود: ٨٥- ٨٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ في إسنادِ التَّحريمِ إلى اللهِ بَعثٌ للنُّفوسِ على الخَشيةِ مِن الإقدامِ على المُخالَفةِ، وتنبيهٌ لها على ما يَكُفُّها عن الإقدامِ، وهو استِشعارُ عَظَمةِ اللهِ تعالى[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴾ هذا أمرٌ بالعَدلِ، وإيفاءِ المكاييلِ والموازينِ بالقِسطِ مِن غَيرِ بَخسٍ ولا نَقصٍ. ويُؤخَذُ مِن عُمومِ المعنى النَّهيُ عن كُلِّ غِشٍّ في ثَمَنٍ أو مُثْمَنٍ أو مَعقودٍ عليه، والأمرُ بالنُّصحِ والصِّدقِ في المُعاملةِ[٣].

٣- ﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴾ فإيفاءُ الكَيلِ والوَزنِ ﴿خَيۡرٞ﴾ من التطفيفِ فيهما، تفضيلًا لخيرِ الآخرةِ الحاصِلِ مِن ثوابِ الامتِثالِ، على خيرِ الدُّنيا الحاصِلِ مِن الاستِفضالِ الذي يطفِّفُه المطَفِّفُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

وهو أيضًا أفضَلُ منه في الدُّنيا؛ لأنَّ انشراحَ النَّفسِ الحاصِلَ للمَرءِ مِن الإنصافِ في الحَقِّ أفضَلُ مِن الارتباحِ الحاصِلِ له باستِفضالِ شَيءٍ مِن المال، وهو ﴿أَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ فالتَّطفيفُ يعودُ على المطَفِّفِ باقتناءِ جزءٍ قليلٍ مِن المالِ، ويُكسِبُه الكراهيةَ والذَّمَّ عند النَّاسِ، وغَضَبَ اللهِ والسُّحتَ في مالِه، مع احتِقارِ نَفسِه في نفسِه؛ والإيفاءُ بعَكسِ ذلك يُكسِبُه مَيلَ النَّاسِ إليه ورِضا اللهِ عنه ورضاه عن نَفسِه والبركةَ في مالِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ إنَّما أتى تعالى بالقِربانِ تَعظيمًا له؛ لِما فيه مِن المفاسِدِ الجارَّةِ إلى الفِتَنِ؛ بالقَتلِ، وتَضييعِ النَّسَبِ، والتسَبُّبِ في إيجادِ نَفسٍ بالباطِلِ[٢]، وأيضًا فالنَّهيُ عن قِربانِه أبلَغُ مِن النَّهيِ عن مُجَرَّدِ فِعلِه؛ لأنَّ ذلك يَشمَلُ النَّهيَ عن جَميعِ مُقَدِّماتِه ودواعيه؛ فإنَّ مَن حامَ حولَ الحِمى يُوشِكُ أن يقَعَ فيه، خصوصًا هذا الأمرَ الذي في كثيرٍ من النُّفوسِ أقوى داعٍ إليه[٣]. فالنَّهيُ عن قِربانِ الزِّنا نَهيٌ عن جَميعِ الأسبابِ المُوصلةِ إليه، كاللَّمْسِ والنَّظَرِ، فلا يَحِلُّ للمُؤمِنِ أنْ يتمَتَّعَ تمتُّعًا نَفسيًّا أو جِنسيًّا، يعني: سواءٌ كان تَمَتُّعُه بالنَّظَرِ ونَحوِه مُجَرَّدَ راحةٍ نفسيَّةٍ، أو لأجلِ التمَتُّعِ الجنسيِّ والشَّهوةِ، فكلُّ ذلك حَرامٌ، ولا يجوزُ في غيرِ الزَّوجةِ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ التَّعبيرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((الضياء اللامع من الخطب الجوامع)) لابن عثيمين (٧/ ٥٢٥).

عن الزِّنا بالسَّبيلِ يدُلُّ على كَثرةِ مُتعاطيه بالدَّلالةِ على سَعةِ مَنهَجِه، فالسبيلُ هي الطريقُ الواسعةُ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ ردٌّ على الخوارجِ فيما يَزعُمونَ أنَّ الذُّنوبَ كُلَّها كفرٌ؛ فالله سُبحانَه وتعالى حين أمَرَ بالقَتلِ في انتهاكِ مَحارِمِه جعَلَه حَدًّا لا كُفرًا، فحَرَّمَ القَتلَ بقَولِه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ فجَعَلَ السُّلطانَ للوَليِّ لا لِنَفسِه -جلَّ جلالُه- ولو كان كَفَرَ بالقَتلِ؛ لأمَرَ بالقَتلِ، وإنْ لم يُرِدِ الوليُّ قَتْلَه(٢).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ يدُلُّ على أنَّه لا يَتجاوَزُ الحَدَّ المَشروعَ له: فلا يَقتُلْ غَيرَ قاتِلِه، ولا يُمَثِّل به حيثُ لمْ يُمَثِّلْ، ولا يَقتُلْه بأسوأَ مِمَّا قَتَل، حتى لو قَتَل بالتَّغريقِ في ماءٍ عَذبٍ لم يُغرِقْه في ماءٍ ملحٍ(٣).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ الحَقَّ في القَتلِ للوَليِّ، فلا يُقتَصُّ إلَّا بإذنِه، وإنْ عفا سقَطَ القِصاصُ(٤).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ وَلِيَّ المَقتولِ يُعينُه اللهُ على القاتِلِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١٠) و(٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

ومَن أعانَه، حتَّى يتمَكَّنَ مِن قَتلِه[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ مِن نُكَتِ القرآنِ وبلاغتِه وإعجازِه الخَفيِّ الإتيانُ بلَفظِ (سلطان) هنا، والظَّاهِرُ أنه في معنى المصدَرِ، أي: السُّلطةُ والحَقُّ والصَّالحُ لإرادةِ إقامةِ السُّلطانِ، وهو الإمامُ الذي يأخُذُ الحقوقَ مِن المُعتَدين إلى المعتدى عليهم حين تنتَظِمُ جامعةُ المسلمين بعد الهِجرةِ، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ الله سيجعَلُ للمُسلِمين دولةً دائِمةً، ولم يكن للمُسلِمين يومَ نُزولِ الآيةِ سُلطانٌ[٢].

٨- قَولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ إشارةٌ إلى إبطالِ تولِّي وليِّ المقتولِ قَتلَ القاتِلِ دونَ حُكمٍ مِن السلطانِ؛ لأنَّ ذلك مَظِنَّةٌ للخطأِ في تحقيقِ القاتِلِ، وذريعةٌ لحدوثِ قَتلٍ آخَرَ بالتدافُعِ بين أولياءِ المقتولِ وأهلِ القاتِلِ، ويجرُّ إلى الإسرافِ في القَتلِ الذي ما حدَثَ في زمانِ الجاهليَّةِ إلَّا بمِثلِ هذه الذَّريعةِ[٣].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ قَولُه: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾ أي: فَضْلًا عن أنْ تأكُلوا مالَ اليَتيمِ، فعَبَّرَ بالقِربانِ الذي هو قبلَ الأخذِ؛ تَعظيمًا للمقامِ[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ دَليلٌ على جوازِ تَصَرُّفِ الوليِّ في مالِ اليَتيمِ بما عادَ صلاحُه على اليَتيمِ[٥].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ هذا حِمايةٌ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٠٣).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٣٦).

لأموالِ اليتامى وألَّا تُقْرَبَ إلَّا بالخَصلةِ التي هي أحسَنُ؛ فلا تُقْرَبُ بأيِّ تَصَرُّفٍ إلَّا بما يُرى أنَّه أحسَنُ، فإذا لاحَ للوليِّ تصَرُّفانِ أحدُهما أكثَرُ رِبحًا، فالواجِبُ عليه أنْ يَأخُذَ بما هو أكثَرُ رِبحًا؛ لأنَّه أحسَنُ، والحُسنُ هنا يَشمَلُ: الحُسنَ الدُّنيويَّ، والحُسنَ الدِّينيَّ؛ فإذا لاح تصَرُّفانِ أحدُهما أكثَرُ رِبحًا وفيه رِبًا، والآخرُ أقَلُّ رِبحًا وهو أسلَمُ مِن الرِّبَا؛ فلا بُدَّ مِن تقديمِ الأخيرِ؛ لأنَّ الحُسْنَ الشَّرعيَّ مُقَدَّمٌ على الحُسْنِ الدُّنيويِّ المادِّيِّ[1].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ مُقتَضاه أنَّ كُلَّ عَقدٍ وعَهدٍ جرَى بينَ إنسانَينِ؛ فإنَّه يجِبُ عليهما الوَفاءُ بمقتضى ذلك العَقدِ والعَهدِ، إلَّا إذا دلَّ دَليلٌ مُنفَصِلٌ على أنَّه لا يجِبُ الوفاءُ به، فمُقتضاه الحُكمُ بصِحَّةِ كُلِّ بَيعٍ وقعَ التَّراضي به، وبصِحَّةِ كلِّ شَرِكةٍ وقع التَّراضي بها، إلَّا إذا دلَّ الدليلُ على خلافِ ذلك، ويُؤكِّدُ هذا النَّصُّ بسائِرِ الآياتِ الدالَّةِ على الوَفاءِ بالعُهودِ والعُقودِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، وقَولِه: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقَولِه: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، إلى غيرِ ذلك، وبهذا الطريقِ تصيرُ أبوابُ المعاملاتِ على طولِها وإطنابِها مضبوطةً معلومةً بهذه الآيةِ الواحدةِ[2].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٣٧).

- عُطفَ هذا النَّهيُ ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ على النَّهيِ عن وأدِ البناتِ؛ إيماءً إلى أنَّهم كانوا يَعُدُّونَ مِن أعذارِهم في وأدِ البناتِ الخَشيةَ مِن العارِ الذي قد يلحَقُ مِن جرَّاءِ إهمالِ البناتِ الناشئِ عن الفَقرِ الرَّامي بهنَّ في مَهاوي العُهرِ، ولأنَّ في الزِّنا إضاعةَ نَسَبِ النَّسلِ، بحيثُ لا يُعرَفُ للنَّسلِ مَرجِعٌ يأوي إليه، وهو يشبِهُ الوأدَ في الإضاعةِ[١].

- وقيل: تَوسيطُ النَّهيِ عن الزنا بينَ النَّهيِ عن قتْلِ الأولادِ، والنَّهيِ عن قتْلِ النَّفسِ المُحرَّمةِ على الإطلاقِ باعتبارِ أنَّه قتْلٌ للأولادِ؛ لِما أنَّه تَضييعٌ للأنسابِ؛ فإنَّ مَن لم يثبُتْ نسَبُه ميِّتٌ حُكمًا، وهذا من التَّرتيبِ الحسَنِ[٢].

- قولُه: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ القُربُ المَنهيُّ عنه كِنايةٌ عن شِدَّةِ النَّهيِ عن مُلابَسةِ الزِّنا، وقريبٌ من هذا المعنى قولُهم: ما كاد يفعَلُ[٣]، وإنَّما نهَى عن قِربانِه على خلافِ ما سبَقَ ولحِقَ من القتْلِ؛ للمُبالغةِ في النَّهيِ عن نفْسِه، ولأنَّ قِربانَه داعٍ إلى مُباشرتِه[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن مُلابَستِه تَعليلًا مُبالَغًا فيه من جِهاتٍ؛ بوَصْفِه بالفاحشةِ الدَّالِّ على فِعلةٍ بالغةِ الحدِّ الأقصَى في القُبحِ، وبتَأكيدِ ذلك بحرفِ التَّوكيدِ، وأُتْبعَ ذلك بفعْلِ الذَّمِّ، وهو ﴿سَآءَ سَبِيلٗا ﴾[٥].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٠).

جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾

- جُملةُ ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ عطْفَ قِصَّةٍ على قِصَّةٍ؛ اهتمامًا بهذا الحُكمِ بحيث جُعِلَ مُستقِلًّا؛ فعُطِفَ على حُكمٍ آخرَ، وإلَّا فمُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ تكونَ مفصولةً؛ إمَّا استئنافًا لبيانِ حُكمِ حالةٍ تكثُرُ، وإمَّا بدلَ بَعضٍ من جُملةِ ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[١].

- قولُه: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ هو في المعنى مُقدِّمةٌ للخبَرِ بتَعجيلِ ما يُطَمْئِنُ نفْسَ وَليِّ المقتولِ، والمقصودُ من الخبرِ التَّفريعُ بقولِه تَعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾؛ فكان تَقديمُ قولِه تَعالى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ تَمهيدًا لقَبولِ النَّهيِ عن السَّرَفِ في القتْلِ؛ لأنَّه إذا كان قد جُعِلَ له سُلطانٌ، فقد صار الحُكْمُ بيدِه، وكفَاهُ ذلك شِفاءً لغَليلِه[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ استئنافٌ، وقد أُكِّدَ ذلك بحرفِ التَّوكيدِ، وبإقحامِ (كان) الدَّالِّ على أنَّ الخبرَ مُستقِرُّ الثُّبوتِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ، ووجْهُ التَّعليلِ ظاهِرٌ[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ نَهيٌ عن قِربانِه؛ للمُبالَغةِ في النَّهيِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥ / ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥ / ١٧٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وخَصَّ اليتيمَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه إلى ذلك أحوَجُ، والطَّمعَ في مالِه أكثَرُ[١].

- قولُه: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ فيه إظهارُ العهدِ في مقامِ الإضمارِ؛ إظهارًا لكَمالِ العِنايةِ بشأْنِه، أو لأنَّ المُرادَ مُطلَقُ العهدِ المُنتظِمِ للعهدِ المعهودِ[٢]، وللاهتمامِ به، ولتكونَ هذه الجُملةُ مُستقلَّةً، فتَسْرى مَسْرى المثَلِ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ تَعليلٌ للأمرِ، أي: للإيجابِ الَّذي اقتضاهُ، وحُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿مَسْـُٔولًا﴾ لظُهورِه، أي: مَسؤولًا عنه، أي: يسأَلُكم اللهُ عنه يومَ القيامةِ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

- قولُه: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾، أي: وقتَ كيْلِكم على سبيلِ التَّأكيدِ[٥].

- قولُه: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث زِيدَ الظَّرفُ في هذه الآيةِ -وهو ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾- دونَ ذكْرِ نَظيرِه في آيةِ (الأنعامِ) في قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]؛ لِما في (إذا) مِن مَعنى الشَّرطيَّةِ، فتَقْتضي تجدُّدَ ما تضمَّنَه الأمْرُ في جميعِ أزمنةِ حُصولِ مَضمونِ شَرطِ (إذا) الظَّرفيَّةِ الشَّرطيَّةِ؛ للتَّنبيهِ على عدَمِ التَّسامُحِ في شَيءٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥ / ٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧).

من نقْصِ الكيلِ عند كلِّ مُباشَرةٍ له؛ ذلك أنَّ هذا خِطابٌ للمُسلمينَ بخلافِ آيةِ (الأنعام)؛ فإنَّ مَضمونَها تَعريضٌ بالمُشركينَ في سُوءِ شَرائعِهم، وكانت هنا أجدَرَ بالمُبالَغةِ في التَّشريعِ[١].

- قولُه: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ القِسطاسُ: المعتدلُ مِن الموازينِ، وهو بناءُ مُبالغةٍ مِن القِسْطِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّ القِسطاسَ اسمٌ للميزانِ -أي: آلةِ الوزنِ- واسمٌ للعدْلِ، ومعنى العدْلِ والميزانِ صالحانِ هنا، لكنَّ الَّتي في سُورةِ (الأنعام): ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، جاء فيها بالقِسْطِ؛ فهو العدْلُ؛ لأنَّها سِيقَتْ مساقَ التَّذكيرِ للمُشركينَ بما همْ عليه من المفاسِدِ؛ فناسَبَ أنْ يُذَكَّروا بالعدْلِ؛ ليَعْلموا أنَّ ما يَفْعلونه ظُلمٌ. والباءُ هنالِك للمُلابَسةِ، وهذه الآيةُ جاءت خِطابًا للمُسلمينَ؛ فكانت أجدَرَ باللَّفظِ الصَّالحِ لمعنى آلةِ الوزنِ؛ لأنَّ شأْنَ التَّشريعِ بيانُ تَحديدِ العمَلِ مع كونِه يُومئُ إلى معنى العدْلِ على استعمالِ المُشترَكِ في مَعنيَيه؛ فالباءُ هنا ظاهِرةٌ في معنى الاستعانةِ والآلةِ، ومُفيدةٌ للمُلابَسةِ أيضًا[٣].

- وقولُه أيضًا: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ لعلَّ الاكتفاءَ باستقامةِ القِسطاسِ عن الأمْرِ بإيفاءِ الوزنِ؛ لِما أنَّ عند استقامتِه لا يُتَصوَّرُ الجَوْرُ غالبًا، بخلافِ الكيلِ؛ فإنَّه كثيرًا ما يقَعُ التَّطفيفُ مع استقامةِ الآلةِ، كما أنَّ الاكتفاءَ بإيفاءِ الكيلِ عن الأمْرِ بتعديلِه؛ لِما أنَّ إيفاءَه لا يُتصوَّرُ بدونِ تَعديلِ المكيالِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥ / ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥ / ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥ / ١٧١).

الآيات (٢٦-٢٩)

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَقْفُ﴾: أي: تَتْبَعْ، وأصلُ (قفو): يدُلُّ على إتباعِ شَيءٍ لِشَيءٍ[١].

﴿مَرَحًا﴾: أي: مُختالًا مُستَكبِرًا، وأصلُ (مرح): يدلُّ على مَسَرَّةٍ لا يكادُ يستَقِرُّ معها المرءُ طَرَبًا[٢].

﴿تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾: أي: تَنقُبَها، وتثقبَها إلى الجانبِ الآخرِ. وقيل: تَقْطَعَها وتَبلُغَ أطرافَها، وأصلُ (خرق): يدُلُّ على مَزْقِ الشَّيءِ وقَطعِه[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولا تَتْبَعْ ما لا علمَ لك به بمجَرَّدِ الظَّنِّ، بل تأكَّدْ وتثبَّتْ؛ إنَّ السَّمْعَ والبصَرَ والفُؤادَ مسؤولٌ عنها الإنسانُ يومَ القيامةِ فيما استعمَلَها.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٢)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٥٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ١٠٨).

ثم ينهَى الله عن التفاخرِ والتكبرِ والإعجابِ بالنفسِ، فيقولُ: ولا تمشِ في الأرضِ مُختالًا مُتكبِّرًا؛ فإنَّك لن تُؤَثِّرَ في الأرضِ فتَخرِقَها بشِدَّةِ وطءِ قدَميك عليها، ولن تَبلُغَ الجِبالَ طُولًا باختيالِك وتكَبُّرِك.

ثمَّ ختَم الله تعالى تلك النَّواهي بقولِه: جميعُ ما تقدَّم ذِكْرُه مِن أوامِرَ ونواهٍ كان سيِّئُه مُبغَضًا عند الله، لا يَرضاه لعِبادِه، ذلك الذي تضمَّنَته الآياتُ السَّابِقةُ مِن الأحكامِ؛ مِمَّا أوحاه الله إليك -يا مُحَمَّدُ- مِنَ الحِكمةِ، ولا تجعَلْ مع اللهِ تعالى شَريكًا له في عبادتِه، فتُرمى في نارِ جهنَّمَ مَلُومًا مَطرودًا مُبعَدًا مِن كُلِّ خَيرٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

أي: ولا تَقُلْ أو تفعَلْ شيئًا بمُجَرَّدِ الظَّنِّ، فتَتْبَعْ ما لا عِلمَ لك به، ولا دليلَ على صِحَّته، ومِن ذلك: رَميُ النَّاسِ وقَذفُهم بالباطِلِ، والشَّهادةُ عليهم بغَيرِ الحَقِّ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٥، ٤٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٠، ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٤٥).

قال أبو السعود: (المرادُ بالعِلمِ هو الاعتِقادُ الرَّاجِحُ المُستفادُ مِن سَنَدٍ قطعيًّا كان أو ظَنِّيًّا). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧١).

وقال النحاس: (دخل في هذا النَّهيُ عن قَذفِ المُحصَناتِ، وعن القَولِ في النَّاسِ بما لا يعلَمُ، وعن الكَلامِ في الفِقهِ والدِّينِ بالظَّنِّ، وألَّا يقولَ أحَدٌ ما لا يَحُقُّه). ((إعراب القرآن)) (٢/ ٢٧٢).

قال الشنقيطي: (نهى جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمةِ عن اتِّباعِ الإنسانِ ما ليس له به علمٌ، ويشمَلُ ذلك قولَه: «رأيتُ» ولم يَرَ. و«سمعتُ» ولم يسمَعْ. و«علمتُ» ولم يعلَمْ. ويدخل فيه كلُّ قولٍ بلا علم، وأن يعمَلَ الإنسانُ بما لا يعلمُ). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٤٥).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

أي: إنَّ سَمْعَ الإنسانِ وبَصَرَه وقَلْبَه، كُلُّ هذه الأعضاءِ العَظيمةِ، العاليةِ المنافِعِ، البَديعةِ التَّكوينِ، سيَسألُ اللهُ الإنسانَ عنها يومَ القيامةِ فيما استعمَلَها، وتُسأَلُ هي عمَّا عَمِلَ فيها صاحِبُها، فتَشهَدُ عليه بما قال وفَعَل مِن خَيرٍ وشَرٍّ(١).

قال الرازي عن تأويل هذه الآية: (فيه وجوهٌ:

الوجه الأول: المرادُ: نهيُ المشركين عن المذاهبِ التي كانوا يعتقدونَها في الإلهيَّاتِ والنبوَّاتِ بسَبَبِ تقليدِ أسلافِهم.

والقول الثاني: أنَّ المرادَ منه: شهادةُ الزور.

والقول الثالث: المرادُ منه: النهيُ عن القذفِ ورميِ المحصَنين والمحصَنات بالأكاذيبِ.

والقول الرابع: المرادُ منه: النهيُ عن الكَذِب.

والقول الخامس: أنَّ القَفْوَ هو البَهتُ، وأصلُه من القَفا، كأنَّه قولٌ يقالُ خَلفَه، وهو في معنى الغِيبةِ، وهو ذِكرُ الرجُلِ في غيبتِه بما يَسوؤُه.

واعلم أنَّ اللفظَ عامٌّ يتناولُ الكُلَّ فلا معنى للتقييدِ، والله أعلم). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٣٩) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٥)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي

كما قال تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

وقال سُبحانَه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

وعن شكَلِ بن حُمَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، عَلِّمْني دُعاءً، قال: قل: اللهُمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن شَرِّ سَمعي، ومِن شَرِّ بَصَري، ومِن شَرِّ لِساني، ومِن شَرِّ قَلبي، ومِن شَرِّ مَنِيِّي))[1].

(١١/ ٤١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٦٠، ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

قيل: المرادُ بقولِه تعالى: ﴿كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾: أنَّ الله سائلٌ هذه الأعضاءَ عما فعَل بها صاحبُها.. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والزجاج، وابنُ العربي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٣٩)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٩-٢٦٠).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: عكرمةُ، وعمرُو بنُ قيسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٣١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٢٨٦).

وقيل: المرادُ بذلك: أنَّ الله يسألُ العبادَ فيم استعملوا هذه الحواسَّ. وممن قال بذلك: الواحدي، وابنُ تيمية، وابنُ القيم، والسعدي، والشنقيطي، ونسَبه للجمهورِ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٤)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٢١٨)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٥٥).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: قتادة. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٤).

قال الشنقيطي: (المعنى: انتَهِ عمَّا لا يحِلُّ لك؛ لأنَّ الله أنعم عليك بالسَّمعِ والبصَرِ والعَقلِ لتشكُرَه، وهو مختَبِرُك بذلك وسائِلُك عنه، فلا تستعمِلْ نِعَمَه في معصية). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٥٥).

وممَّن جمع بين المعنيين: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٥).

(١) أخرجه أبو داود (١٥٥١) واللفظ له، والترمذي (٣٤٩٢)، والنسائي (٥٤٤٤)، وأحمد (١٥٥٤١).

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

أي: ولا تَمْشِ في الأرضِ مُختالًا مُتبَختِرًا مُتمايلًا مُتكبِّرًا، كمِشيةِ الجبَّارينَ[(١)].

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾.

أي: إنَّك -أيُّها المُتكبِّرُ المُتعاظِمُ في مَشْيِه- لن تَثقُبَ الأرضَ بشِدَّة وطْءِ قَدَميك عند اختيالِك في مَشْيِك، ولن يَبلُغَ طُولُك -بتطاوُلِ بَدَنِك للأعلى في مِشيَتِك- طُولَ الجِبالِ؛ فما الذي يُغريك بهذه المِشيةِ، وقُدرتُك لا تَبلُغُ بك هذا المَبلغَ؟! فتواضَعْ ولا تتكبَّرْ، واعرِفْ قَدْرَ ضَعْفِك وعَجْزِك؛ فأنت مَحصورٌ بين جمادَينِ لا

قال الترمذيُّ: (حسَنٌ غريبٌ لا نعرِفُه إلَّا مِن هذا الوجهِ)، وحَسَّنه ابنُ حَجَرٍ في ((الإمتاع)) (١/ ١٨٧)، وصَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٥٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هذا نهيٌ عن الخيلاء وأمرٌ بالتواضُعِ. والمرَحُ: شدَّةُ الفرحِ. وقيل: التكبُّرُ في المشي. وقيل: تجاوزُ الإنسانِ قَدْرَه. وقال قتادة: هو الخُيلاءُ في المشيِ. وقيل: هو البطَرُ والأشَرُ. وقيل: هو النشاطُ. وهذه الأقوال متقاربةٌ، ولكنها منقسمةٌ قسمين: أحدُهما مذمومٌ، والآخر محمود، فالتكبُّرُ والبطَرُ والخيلاء وتجاوزُ الإنسانِ قَدْرَه مذمومٌ، والفرَحُ والنشاط محمود). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦٠).

وقال ابن عاشور: (تأويلُه [أي: لفظ ﴿مَرَحًا﴾] باسمِ الفاعل، أي: لا تمشِ مارِحًا، أي: مِشيةَ المارح، وهي المشيةُ الدالَّةُ على كبرياء الماشي بتمايُلٍ وتبختُرٍ. ويجوز أن يكون ﴿مَرَحًا﴾ مفعولًا مُطلقًا مبيِّنًا لفعل ﴿تَمْشِ﴾؛ لأنَّ للمشيِ أنواعًا، منها: ما يدلُّ على أنَّ صاحِبَه ذو مرح... والمشي مرحًا: أن يكون في المشيِ شِدَّةُ وطءٍ على الأرضِ وتطاولٌ في بدَنِ الماشي). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٣).

وقال الشنقيطي: (أصلُ المرحِ في اللغة: شِدَّةُ الفرَحِ والنشاط، وإطلاقُه على مشي الإنسان متبخترًا مشْيَ المتكبِّرين؛ لأنَّ ذلك من لوازمِ شِدَّةِ الفرح والنشاط عادةً). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٥٦).

تَقدِرُ على التَّأثيرِ فيهما؛ الأرضِ التي تحتَك، والجِبالِ الشَّامِخةِ مِن فَوقِك[١]!

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((بينما رجُلٌ يَتبختَرُ[٢]، يَمشي في بُرْدَيه[٣]، قد أعجَبَتْه نَفسُه، فخَسَفَ اللهُ بِهِ الأرضَ، فهو يتجلجَلُ[٤] فيها إلى يومِ القيامةِ))[٥].

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ على أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى جميعِ ما سَبَق ذِكرُه مِن المأموراتِ والمَنهيَّاتِ التي تقَدَّمَ ذِكرُها في الآياتِ السَّابقةِ، والسَّيِّئُ منه: هو المنهيَّاتُ فقط[٦].

٢- قِراءةُ ﴿سَيِّئَةً﴾ على أنَّ المرادَ جَميعُ ما نهى اللهُ عنه مِمَّا تقَدَّمَ ذِكرُه في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٣، ١٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٥٦، ١٥٧).

(٢) يَتبختَرُ: أي: يَمشي خُيَلاءَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٩٧٨).

(٣) بُرْدَيه: واحِدُه بُردٌ: وهو كِساءٌ مُخَطَّطٌ أو مُوشًّى يُلتحَفُ به. يُنظر: ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (١/ ١٨٥).

(٤) يتجلجَلُ: أي: يغوصُ ويَذهَبُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٩٧٨).

(٥) رواه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨) واللفظ له.

(٦) قرأ بها الكوفيون وابنُ عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٩٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٠٣)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٤٧).

الآياتِ السَّابِقةِ[١].

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

أي: جميعُ ما ذُكِرَ في الآياتِ السَّابقةِ مِن الأوامِرِ والنَّواهي، كان سَيِّئُه -وهو ما نهَى اللهُ عنه- قَبيحًا مُبغَضًا عندَ رَبِّك الذي أحسَنَ إليك إحسانًا لا ينبغي أن يُقابَل عليه إلَّا بالشُّكرِ -يا مُحَمَّدُ[٢].

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ في هذا التَّذييلِ تَنبيهًا على أنَّ ما اشتَمَلَت عليه الآياتُ السَّابِقةُ، هو مِن الحِكمةِ؛ تحريضًا على اتِّباعِ ما فيها، وأنَّه خَيرٌ كَثيرٌ[٣].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا تَمَّت هذه الأوامِرُ والزَّواجِرُ على هذا الوجهِ الأحكَمِ، والنِّظامِ الأقوَمِ؛ أشار إلى عَظيمِ شأنِه، ومُحكَمِ إتقانِه، بقَولِه تعالى[٤]:

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾.

أي: هذه الأحكامُ والأوامِرُ والنَّواهي التي تَضَمَّنَتْها الآياتُ السَّابقةُ، مِمَّا

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٩٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٠٣)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٩، ٦٠٠)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١٧).

أوحَى إليك ربُّك -يا مُحَمَّدُ- مِنَ الحِكمةِ[(١)]؛ لِتَعمَلَ بها، وتدعُوَ النَّاسَ إليها[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

---

(١) قال ابن عطية: (الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى هذه الآدابِ التي تضمَّنَتْها هذه الآياتُ المتقَدِّمةُ، أي: هذه من الأفعالِ المحكَمةِ التي تقتضيها حِكمةُ الله في عبادِه، وخَلْقِه لهم محاسِنَ الأخلاق. و﴿ٱلْحِكْمَةِ﴾ قوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٨).

وقال الزمخشري: (وسَمَّاه حِكمةً؛ لأنَّه كَلامٌ مُحكَمٌ لا مَدخَلَ فيه للفَسادِ بوَجهٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٨). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٢).

وقال ابنُ الجوزيِّ: (قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ يُشيرُ إلى ما تقَدَّمَ مِن الفرائِضِ والسُّنَنِ. ﴿مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾، أي: مِن الأُمورِ المُحْكَمةِ والأدَبِ الجامِعِ لِكُلِّ خَيرٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥).

وقال الرازي: (قولُه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى كلِّ ما تقدَّمَ ذِكرُه من التكاليفِ، وسمَّاها حِكمةً، وإنما سمَّاها بهذا الاسم لوجوهٍ: أحدُها: أنَّ حاصِلَها يرجِعُ إلى الأمر بالتوحيد وأنواعِ الطاعاتِ والخيراتِ، والإعراضِ عن الدنيا والإقبالِ على الآخرة، والعقولُ تدُلُّ على صحَّتِها، فالآتي بمثلِ هذه الشريعةِ لا يكونُ داعيًا إلى دينِ الشيطان، بل الفطرةُ الأصلية تشهَدُ بأنَّه يكون داعيًا إلى دين الرحمنِ ...

وثانيها: أنَّ الأحكامَ المذكورةَ في هذه الآياتِ شرائِعُ واجِبةُ الرعايةِ في جميع الأديانِ والمِلَلِ، ولا تقبَلُ النَّسخَ والإبطالَ، فكانت محكَمةً وحِكمةً من هذا الاعتبارِ.

وثالثها: أنَّ الحِكمةَ عِبارةٌ عن معرفةِ الحَقِّ لذاتِه، والخيرِ لأجلِ العمَلِ به، فالأمرُ بالتوحيدِ عِبارةٌ عن القِسمِ الأوَّلِ، وسائرُ التكاليف عبارةٌ عن تعليم الخيراتِ حتى يواظِبَ الإنسانُ عليها ولا ينحَرِفَ عنها؛ فثبت أنَّ هذه الأشياءَ المذكورة في هذه الآياتِ عينُ الحكمة). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٤٤).

وقال ابن عاشور: (والحِكمةُ: معرفةُ الحقائقِ على ما هي عليه دون غلطٍ ولا اشتباهٍ، وتطلَقُ على الكلامِ الدالِّ عليها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٥).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّما بُعِثتُ لأُتَمِّمَ صالِحَ الأخلاقِ))[١].

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

أي: ولا تجعَلْ مع اللهِ مَعبودًا غَيرَه، فتُرمَى في جهنَّمَ مَلومًا؛ تلومُك نَفسُك، ويَلومُك الخَلقُ، مُبعَدًا مَطرودًا مِن رَحمتِه سُبحانَه[٢].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ فيه أدَبٌ خُلُقيٌّ عَظيمٌ، وهو أيضًا إصلاحٌ عَقليٌّ جَليلٌ يُعَلِّمُ الأمَّةَ التَّفرِقةَ بين مراتِبِ الخواطِرِ العَقليَّةِ، بحيث لا يختَلِطُ عِندَها المَعلومُ والمَظنونُ والمَوهومُ، ثمَّ هو أيضًا إصلاحٌ اجتماعيٌّ جَليلٌ يُجَنِّبُ الأُمَّةَ مِن الوُقوعِ والإيقاعِ في الأضرارِ والمهالِكِ؛ مِن جَرَّاءِ الاستِنادِ إلى أدِلَّةٍ مَوهومةٍ[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٢٧٣)، والحاكم (٤٢٢١).
صحَّحه ابنُ عبد البَرِّ في ((التمهيد)) (٢٤/ ٣٣٣)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/ ١٩١): (رجالُه رِجالُ الصَّحيحِ)، وصحَّحه ابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٥٢)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٦).
قال ابنُ عطية: (الخطاب للنبي عليه السلام، والمرادُ كلُّ مَن سمِع الآيةَ مِن البشرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٨).
وقال ابنُ كثير: (والمرادُ مِن هذا الخِطابِ الأُمَّةُ بواسِطةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّه -صَلَواتُ اللهِ وسلامُه عليه- مَعصومٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ فيه زَجرٌ عن النَّظَرِ إلى ما لا يَحِلُّ، والاستِماعِ إلى ما يَحرُمُ، وإرادةِ ما لا يَجوزُ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ حُجَّةٌ في تَرْكِ قَبُولِ الطَّعْنِ في المُسلمينَ بِغَيرِ ثَبَتٍ، ولا ثَبَتَ إلَّا بيقينِ المُعايَنةِ، أو السَّمعِ مِن المَطعونِ عليه لا مِنَ الطَّاعِنِ، أو قيامِ بيِّنَةٍ عادِلةٍ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ نهيٌ عن التكَلُّمِ بلا عِلْمٍ، وهو عامٌّ في جميعِ أنواعِ الأخبارِ، وقد يتناوَلُ ما أخبَرَ به الإنسانُ، وما قد يعتَقِدُه بغَيرِ الأخبارِ مِن الدَّلائِلِ والآياتِ والعلاماتِ؛ فليس له أنْ يتكَلَّمَ بلا عِلْمٍ، فلا ينفي شيئًا إلَّا بعِلْمٍ، ولا يُثْبِتُه إلَّا بعِلْمٍ[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ المرادُ مِن الآيةِ النَّهيُ عن أن يمشيَ الإنسانُ مَشيًا يدُلُّ على الكِبرياءِ والعَظَمةِ[٤].

٦- بدأ اللهُ تعالى هذه التَّكاليفَ المذكورةَ في هذه الآياتِ بالأمرِ بالتَّوحيدِ، والنَّهيِ عن الشِّركِ، فقال: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢]، وختَمَها بعَينِ هذا المعنى؛ حيث قال: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ والمقصودُ مِن ذلك

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٤١).

التَّنبيهُ على أنَّ أوَّلَ كُلِّ عَمَلٍ وقَولٍ، وفِكرٍ وذِكرٍ، يجِبُ أن يكونَ ذِكْرَ التَّوحيدِ، وآخِرَه يجِبُ أن يكونَ ذِكْرَ التوحيدِ؛ تنبيهًا على أنَّ المقصودَ مِن جَميعِ التَّكاليفِ هو مَعرِفةُ التَّوحيدِ، والاستغراقُ فيه، فهذا التَّكريرُ حَسَنٌ مَوقِعُه؛ لهذه الفائِدةِ العَظيمةِ[١]. فالتوحيدُ هو رأسُ كلِّ حكمةٍ وملاكُها، ومَن عدِمه لم تنفَعْه حِكَمُه وعلومُه[٢].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ الحِكمةُ هي الأمرُ بمحاسِنِ الأعمالِ ومكارِمِ الأخلاقِ، والنَّهيُ عن أراذِلِ الأخلاقِ وأسْوَأِ الأعمالِ، وهذه الأعمالُ المذكورةُ في هذه الآياتِ مِن الحِكمةِ العاليةِ التي أوحاها ربُّ العالَمينَ لسَيِّدِ المرسَلينَ في أشرَفِ الكتُبِ؛ ليأمُرَ بها أفضَلَ الأُمَمِ، فهي من الحِكمةِ التي مَن أوتيَها فقد أوتِيَ خيرًا كثيرًا[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ حُجَّةٌ في تَحريمِ الحُكْمِ والفَتوى بغَيرِ عِلْمٍ[٤].

٢- اللهُ سُبحانَه قد ذَمَّ في كتابِه الكلامَ الباطِلَ، والكلامَ بغَيرِ عِلمٍ، والأوَّلُ كَثيرٌ، وأمَّا الثَّاني فقد قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٨).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٤٤).

تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦]، وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] وهذانِ النَّوعانِ مَذمومانِ في القَضاءِ والفُتيا والتَّفسيرِ(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ حُجَّةٌ في التَّحَفُّظِ في الشَّهادةِ على الحُقوقِ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تبارك وتعالى يَسألُ عن الإضماراتِ والطَّواياتِ المذمومةِ، وإنْ لم تساعِدْها الجوارِحُ بالحَركاتِ؛ لأنَّ الأفئدةَ محَلُّ الضَّمائرِ والنيَّاتِ، وبها تصِحُّ جَميعُ أعمالِ الجوارِحِ والحَركاتِ، وليس في قَولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم إخباراً عن ربِّه تبارك وتعالى: ((أنَّه يقولُ لملائكتِه: إذا هَمَّ عَبدِي بسيِّئةٍ فلا تكتُبوها حتى يعمَلَها))(٣) ما يدفَعُ ذلك؛ لأنَّ ذلك هو في الاهتمامِ بسَيِّئةٍ لا تُعمَلُ إلَّا بالجوارِحِ، مثلُ: القَتلِ والزِّنا وأشباهِه مِمَّا لا يُستطاعُ فِعلُها إلَّا بالجوارِحِ، فتجاوَزَ اللهُ رِفقًا بعبادِه ورَحمةً لهم عن الاهتِمامِ بها دونَ الفِعلِ؛ إذ الاهتِمامُ يُضاهي الخاطِرَ والشَّهوةَ، وهما غيرُ مملوكَينِ، فأمَّا ما كان سُلطانُه فيه للقَلبِ مِن الطويَّةِ على الكُفرِ، وحِفظِ المُنكَرِ وأباطيلِ السِّحرِ وأشباهِه، فالإضمارُ عليه والقَبولُ له عَمَلٌ يكتُبُه الحافِظُ، ويَسألُ عنه الربُّ جَلَّ وتعالى(٤).

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٦٠).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ استِدلالُ بَعضِ الظَّاهريَّةِ كابنِ حَزمٍ ومَن تَبِعَه بهذه الآيةِ وأمثالِها مِن الآياتِ على مَنعِ الاجتِهادِ في الشَّرعِ مُطلَقًا، وتَضليلِ القائِلِ به، ومَنْعِ التَّقليدِ مِن أصلِه- هو مِن وَضعِ القُرآنِ في غَيرِ مَوضِعِه، وتفسيرِه بغيرِ مَعناه، كما هو كثيرٌ في الظَّاهريَّةِ؛ لأنَّ مَشروعيَّةَ سُؤالِ الجاهِلِ للعالِمِ وعَمَلَه بفُتياه أمرٌ مَعلومٌ مِن الدِّينِ بالضَّرورةِ، ومعلومٌ أنَّه كان العامِّيُّ يَسألُ بَعضَ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيُفتِيه فيَعمَلُ بفُتياه، ولم يُنكِرْ ذلك أحَدٌ مِن المُسلِمينَ، كما أنَّه مِن المعلومِ أنَّ المسألةَ إنْ لم يُوجَدْ فيها نَصٌّ مِن كِتابِ اللهِ أو سُنَّةِ نَبيِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاجتِهادُ العالِمِ حِينئذٍ بقَدْرِ طاقَتِه في تَفَهُّمِ كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ نَبيِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيَعرِفَ حُكمَ المَسكوتِ عنه مِن المَنطوقِ به- لا وَجْهَ لِمَنعِه، وكان جاريًا بين أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولم يُنكِرْه أحَدٌ مِن المُسلِمينَ[(١)].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ العُلومَ مُستَفادةٌ مِن الحواسِّ ومِنَ العُقولِ، وجاء هذا على التَّرتيبِ القُرآنيِّ في البُداءةِ: بالسَّمعِ، ثمَّ يليه البَصَرُ، ثمَّ يليه الفُؤادُ[(٢)].

٧- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ لَمَّا كانت هذه الأعضاءُ الثَّلاثةُ هي أشرَفَ الأعضاءِ ومُلوكَها، والمُتصَرِّفةَ فيها، والحاكِمةَ عليها؛ خَصَّها سُبحانَه وتعالى بالذِّكرِ في السُّؤالِ عنها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾؛ فسَعادةُ الإنسانِ بصِحَّةِ هذه الأعضاءِ الثَّلاثةِ، وشَقاوتُه بفَسادِها. قال ابنُ عبَّاسٍ: (يَسألُ اللهُ العِبادَ فيما

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٤٦-١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨).

استَعمَلوا هذه الثَّلاثةَ: السَّمعَ، والبَصَرَ، والفُؤادَ)، واللهُ تعالى أعطَى العبدَ السَّمعَ لِيَسمَعَ به أوامِرَ رَبِّه ونواهيَه وعُهودَه، والقَلبَ لِيَعقِلَها ويَفقَهَها، والبَصَرَ لِيَرى آياتِه فيَستَدِلَّ بها على وحدانيَّتِه ورُبوبيَّتِه؛ فالمقصودُ بإعطائِه هذه الآلاتِ العِلمُ وثَمَرتُه ومُقتَضاه[١].

٨- قال الله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ في الآيةِ هنا إثباتُ أنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ يَكرَهُ[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾

- صِيغَتْ جُملةُ: ﴿كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ على هذا النَّظمِ بتَقديمِ ﴿كُلُّ﴾ الدَّالَّةِ على الإحاطةِ من أوَّلِ الأمْرِ، وأُتِيَ باسمِ الإشارةِ دونَ الضَّميرِ، بأنْ يُقالَ: كلُّها كان عنه مَسؤولًا؛ لِما في الإشارةِ من زيادةِ التَّمييزِ. وجاءَ بفعْلِ (كان)؛ لدَلالتِه على رُسوخِ الخبَرِ[٣].

- قولُه: ﴿كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ عُبِّرَ عن السَّمعِ والبصرِ والفُؤادِ بـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾؛ لأنَّها حواسٌّ لها إدراكٌ، وجعَلَها في هذه الآيةِ مَسؤولةً، فهي حالةُ مَن يعقِلُ، ولذلك عُبِّرَ عنها بـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾[٤]؛ فاسمُ الإشارةِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعودُ إلى السَّمعِ والبصرِ والفُؤادِ، وهو من استعمالِ اسمِ الإشارةِ الغالبِ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠٧).
(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨).

استعمالُه للعاقِلِ في غيرِ العاقِلِ، تَنزيلًا لتلك الحواسِّ مَنزلةَ العُقلاءِ؛ لأنَّها جَديرةٌ بذلك؛ إذ هي طريقُ العقلِ، والعقْلُ نفْسُه، على أنَّ استعمالَ (أولئك) لغيرِ العُقلاءِ استعمالٌ مَشهورٌ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ فيه التَّقييدُ بـ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لزيادةِ التَّقريرِ، والإشعارِ بأنَّ المشيَ عليها ممَّا لا يَليقُ بالمَرحِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾، أي: بتطاوُلِك، وهو تهكُّمٌ بالمُختالِ، وتَعليلٌ للنَّهيِ بأنَّ الاختيالَ حَماقةٌ مُجرَّدةٌ، لا تعودُ بجَدْوى[٣].

- قولُه: ﴿طُولًا﴾ فيه تَعريضٌ بما عليه المُختالُ من رفْعِ رأْسِه، ومشْيِه على صُدورِ قدمَيْه[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾

- قولُه: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿مَكْرُوهًا﴾، وتَقديمُ هذا الظَّرفِ على مُتعلَّقِه للاهتمامِ بالظَّرفِ؛ إذ هو مُضافٌ لاسمِ الجلالةِ، فزِيادةُ ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ لتَشنيعِ الحالةِ، أي: مَكروهًا فعْلُه من فاعِلِه. وفيه تَعريضٌ بأنَّ فاعِلَه مَكروهٌ عند اللهِ. وإضافةُ (سَيِّئ) إلى ضَميرِه إضافةً بَيانيَّةً تفيدُ قُوَّةَ صِفَةِ السَّيِّئِ، حتَّى كأنَّه شيئانِ يُضافُ أحدُهما إلى الآخرِ. وهذه نُكتةُ الإضافةِ البَيانيَّةِ كلَّما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٢- ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٢).

وقعَتْ[١].

- في قولِه: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾ تَتِمَّةٌ لتَعليلِ الأُمورِ المَنهيِّ عنها جميعًا، ووصْفُ ذلك بمُطلَقِ الكراهةِ مع أنَّ البعضَ من الكبائرِ؛ للإيذانِ بأنَّ مُجرَّدَ الكراهةِ عنده تَعالى كافيةٌ في وُجوبِ الانتهاءِ عن ذلك. وتَوجيهُ الإشارةِ إلى الكلِّ، ثمَّ تعيينُ البعضِ دونَ تَوجيهِها إليه ابتداءً؛ لِما أنَّ البعضَ المذكورَ ليس بمَذكورٍ جُملةً، بل على وجْهِ الاختلاطِ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ من قولِه: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى هذه الغايةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ عَطْفٌ على جُمَلِ النَّهيِ المُتقدِّمةِ، وهذا تأكيدٌ لمَضمونِ جُملةِ: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٤] [الإسراء: ٢٣].

- قولُه: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ كُرِّرَ للتَّنبيهِ على أنَّ التَّوحيدَ مبدَأُ الأمْرِ ومُنْتهاهُ، وقد رُتِّبَ عليه ما هو عائِدَةُ الإشراكِ أوَّلًا، حيث قيل: ﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولًا﴾، ورُتِّبَ عليه هاهنا نَتيجتُه في العُقبى، فقيل: ﴿فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٦).

- وكرَّرَ تَعالى النَّهيَ عن الشِّركِ؛ ففي النَّهيِ الأوَّلِ: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، وفي الثَّاني: ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾، والفرْقُ بين مَذمومٍ ومَلومٍ: أنَّ كونَه مَذمومًا: أنْ يذكُرَ أنَّ الفعلَ الَّذي أقدَمَ عليه قَبيحٌ مُنكَرٌ، وكونَه مَلومًا: أنْ يُقالَ له بعدَ الفعلِ وذَمِّه: لِمَ فعلْتَ كذا؟ وما حمَلَك عليه؟ وما استفدْتَ منه إلَّا إلحاقَ الضَّررِ بنفْسِك؛ فأوَّلُ الأمْرِ الذَّمُّ، وآخِرُه اللَّومُ. والفرقُ بين مَخذولٍ ومَدْحورٍ: أنَّ المَخذولَ هو المَتروكُ إعانتُه ونصْرُه، والمُفوَّضُ إلى نفْسِه، والمَدْحورَ: المَطرودُ المُبْعَدُ على سبيلِ الإهانةِ له والاستخفافِ به؛ فأوَّلُ الأمْرِ الخِذلانُ، وآخِرُه الطَّردُ مُهانًا. وكأنَّ وصْفَ الذَّمِّ والخِذلانِ يكونُ في الدُّنيا، ووصْفَ اللَّومِ والدُّحورِ يكونُ في الآخرةِ؛ ولذلك جاء ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ﴾[1].

- ومن المُناسبةِ الحَسنةِ: أنَّه لمَّا أمَرَ تَعالى بثلاثةِ أشياءَ: الإيفاءِ بالعَهدِ، والإيفاءِ بالكيلِ، والوزنِ بالقِسطاسِ المُستقيمِ، أتبَعَ ذلك بثلاثةِ نَواهٍ: ولا تقْفُ، ولا تمْشِ، ولا تجعَلْ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٤٧).

الآيات (٤٠-٤٤)

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ ﴾: أي: أَخْتَصَّكم، وأصلُ (صفو): يدُلُّ على خُلوصٍ، وتَناوُلِ صَفْوِ الشَّيءِ[(١)].

﴿صَرَّفْنَا ﴾: أَيْ: بَيَّنَّا، والصَّرْفُ: ردُّ الشيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيرِه[(٢)].

﴿تَفْقَهُونَ ﴾: أي: تَفْهمون، ويُقالُ: فَقِهْتُ الكلامَ؛ إذا فهمتَه حقَّ فهمِه، والفقهُ: هو التوصلُ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، وأصلُ (فقه): يدلُّ على إدراكِ الشيءِ، والعلمِ به[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

المَعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى بعضَ الأدلةِ على استحالةِ أن يكونَ له شريكٌ أو ولدٌ، فيقول: أفخَصَّكم ربُّكم -أيُّها المُشرِكونَ- بإعطائِكم البَنينَ، واتَّخَذ لنَفسِه الملائِكةَ بَناتٍ؟! إنَّكم لتقولونَ قولًا مُنكَرًا عظيمًا. ولقد وضَّحْنا ونوَّعْنا في هذا القُرآنِ الأحكامَ والمواعِظَ والأمثالَ ليتَّعِظوا ويتَذكَّروا، وما يزيدُهم هذا إلَّا نُفورًا عن الحَقِّ، وغَفْلةً عن النَّظَرِ والاعتِبارِ.

قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: لو أنَّ مع اللهِ آلهةً أُخرى إذَنْ لطَلبَتْ تلك الآلِهةُ المزعومةُ طَريقًا إلى اللهِ بعِبادتِه والتقَرُّبِ وابتغاءِ الوَسيلةِ إليه، تنزَّه اللهُ وتقدَّسَ عَمَّا يقولُه المُشرِكونَ وتعالى عُلُوًّا كَبيرًا. تُسَبِّحُ له -سُبحانَه- السَّمَواتُ السَّبعُ والأَرَضونَ ومَن فيهنَّ مِن جَميعِ المَخلوقاتِ، وكُلُّ شَيءٍ من المخلوقات يُسَبِّحُ اللهَ تعالى تسبيحًا مَقرونًا بالثَّناءِ والحَمدِ له سُبحانَه، ولكِنْ لا تعلَمونَ -أيُّها النَّاسُ- تَسبيحَهم؛ إنَّه سُبحانَه كان حَليمًا بعِبادِه، لا يُعاجِلُ مَن عصاه بالعُقوبةِ، غَفورًا لِمَن تابَ منهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ نِسبةَ البناتِ إلى اللهِ تعالى ادِّعاءُ آلهةٍ تَنتَسِبُ إلى الله بالبُنوَّةِ؛ إذ عَبَد فريقٌ مِن العَرَبِ الملائكةَ كما عبدوا الأصنامَ، واعتلُّوا لعبادتِهم بأنَّ الملائكةَ بناتُ الله تعالى، فلمَّا نُهوا عن أن يجعَلوا مع اللهِ إلهًا آخَرَ خَصَّصَ بالتحذيرِ عبادةَ

الملائكةِ؛ لئلَّا يتوهَّموا أنَّ عبادةَ الملائكةِ ليست كعبادةِ الأصنامِ؛ لأنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، ليتوهَّموا أنَّ الله يرضى بأن يعبُدوا أبناءَه، وقد جاء إبطالُ عبادةِ الملائكةِ بإبطالِ أصلِها في معتَقَدِهم، وهو أنَّهم بناتُ الله، فإذا تبيَّن بطلانُ ذلك عَلِموا أنَّ جَعْلَهم الملائكةَ آلهةً يُساوي جَعْلَهم الأصنامَ آلهةً[١].

وأيضًا لَمَّا نَبَّه اللهُ تعالى على فَسادِ طَريقةِ مَن أثبَتَ لله شَريكًا ونَظيرًا؛ نَبَّهَ على طريقةِ مَن أثبَتَ له الوَلَدَ -سُبحانَه-، وعلى كَمالِ جَهلِ هذه الفِرقةِ[٢].

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ﴾.

أي: أفخَصَّكم ربُّكم -أيُّها المُشرِكونَ- بالذُّكورِ مِن الأولادِ، فلم يجعَلْ لِنَفسِه نَصيبًا منهم، وجعَلَ الملائِكةَ بَناتٍ له كما تَزعُمونَ، والحالُ أنَّكم لا تَرضَونَ البناتِ لأنفُسِكم؟! فهذا خِلافُ المَعقولِ والمَعهودِ المُتعارَفِ عليه؛ فإنَّ السَّادةَ لا يُؤثِرونَ عَبيدَهم بأفضَلِ الأشياءِ، ويتَّخِذونَ لأنفُسِهم أدْوَنَها[٣]!

كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۞ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۞ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۞ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٤٤-٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١٩-٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٥٧).

قال ابنُ كثير: (فجَعلوا الملائكةَ الذين هم عِبادُ الرَّحمنِ إناثًا، ثمَّ ادَّعَوا أنَّهم بناتُ الله، ثمَّ عَبَدوهم، فأخطؤوا في كُلٍّ مِن المقاماتِ الثلاثِ خطأً عَظيمًا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٧).

لَكَٰذِبُونَ ۞ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ۞ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۞ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾ [الطور: ٣٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۞ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ﴾.

أي: إنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- لَتَقولونَ على اللهِ قَولًا عَظيمًا، بافتِرائِكم أنَّ المَلائِكةَ بَناتُه[1].

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ٤١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى فظاعةَ قَولِ الكافِرينَ بأنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ؛ أعقَبَ ذلك بأنَّ في القُرآنِ هَدْيًا كافيًا، ولكِنَّهم يَزدادونَ نُفورًا مِن تدَبُّرِه[2].

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ٤١ ﴾.

أي: ولقد بَيَّنَّا ونوَّعْنا وأكثَرْنا في هذا القُرآنِ العِبَرَ والمواعِظَ، والحِكَمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٨).

قال ابن كثير: (ثمَّ شدَّد الإنكارَ عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ﴾ أي: في زعمِكم لله ولدًا، ثمَّ جعْلِكم ولَدَه الإناثَ التي تأنَفون أن يكنَّ لكم، وربَّما قتلتُموهنَّ بالوأْدِ، فتلك إذًا قِسمةٌ ضِيزى). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٩).

والأمثالَ، والحُجَجَ والأدِلَّةَ؛ ليتَذَكَّروا ويتَّعِظوا، وما يزيدُ الظَّالِمينَ هذا التَّصريفُ والتَّذكيرُ بآياتِ القُرآنِ إلَّا ذَهابًا وهربًا من الحَقِّ، وتَباعُدًا عن الإيمانِ، وغفلةً عنِ النَّظَرِ والاعتبارِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه عَودٌ إلى إبطالِ تعدُّدِ الآلهةِ؛ زيادةً في استِئصالِ عَقائِدِ المُشرِكينَ مِن عُروقِها(٢).

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

أي: قل -يا مُحمَّدُ- لو كان مع اللهِ مَعبوداتٌ سِواه -كما يَزعُمُ المُشرِكونَ-،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١٠).

إذَنْ لَطَلبَتْ تلك المَعبوداتُ المَزعومةُ التقرُّبَ إلى اللهِ، ونَيْلَ رِضاه بعبادتِه؛ لاعترافِهم بفَضلِه، وعِلْمِهم بقُدرتِه وعَجزِهم، فكيف تَعبُدونَهم مِن دُونِه والحالةُ هذه[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٢٤)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٨).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، وابنُ تيمية، وابنُ كثير. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦).

قال ابن القيم: (قال شيخُنا رضي الله عنه [أي: ابنُ تيمية]: والصحيحُ أن المعنى: لابتغَوا إليه سبيلًا بالتقرُّبِ إليه وطاعتِه، فكيف تعبدونَهم مِن دونِه؟ وهم لو كانوا آلهةً كما يقولون لكانوا عبيدًا له، قال: ويدُلُّ على هذا وجوهٌ:

منها: قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧]، أي: هؤلاء الذين تعبدونَهم مِن دوني هم عبادي كما أنتم عبادي، ويرجون رحمتي ويخافون عذابي، فلماذا تعبدونَهم من دوني؟

الثاني: أنَّه سبحانه لم يقُلْ: لابتغوا عليه سبيلًا، بل قال: لابتغَوا إليه سبيلًا، وهذا اللفظُ إنما يستعمَلُ في التقرُّبِ، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]. وأمَّا في المغالبةِ فإنما يُستعمَلُ بعلى، كقوله: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

والثالث: أنهم لم يقولوا إن آلهتَهم تغالِبُه وتطلب العلوَّ عليه، وهو سبحانه قد قال: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ﴾ وهم إنما كانوا يقولون: إن آلهتَهم تبتغي التقرُّبَ إليه وتقرِّبُهم زُلفى إليه، فقالوا: لو كان الأمرُ كما تقولون لكانت تلك الآلهةُ عبيدًا له، فلماذا تعبُدون عبيدَه من دونِه؟). ((الجواب الكافي)) (ص: ٢٠٣-٢٠٤).

وقيل: المعنى: إذًا لطَلَبت تلك الآلهةُ مُغالبةَ اللهِ، وسَعَت إلى الانفرادِ بالمُلكِ دُونَه، كما هي عادةُ الملوكِ بَعضِهم مع بعضٍ. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحدي، والسمعاني، ورجَّحه البغوي، وأبو السعود، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن

كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقال سُبحانه: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ * قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨].

﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أقامَ اللهُ تعالى الدَّليلَ القاطِعَ على كَونِه مُنَزَّهًا عن الشُّرَكاءِ، وعلى أنَّ القَولَ بإثباتِ الآلِهةِ قولٌ باطِلٌ؛ أردَفَه بما يدُلُّ على تَنزيهِه عن هذا القَولِ الباطِلِ،

سليمان)) (٢/ ٥٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٥٨).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: الحسنُ، وسعيدُ بنُ جبير. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦).

قال السعدي: (أي: لاتخذوا سبيلًا إلى الله بعبادتِه والإنابةِ إليه والتقرُّبِ وابتغاءِ الوسيلة... فعلى هذا المعنى تكونُ هذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾ [الإسراء: ٥٧]. ويحتمِلُ أنَّ المعنى أي: لطلَبوا السبيلَ وسَعَوا في مغالبةِ الله تعالى... فيكونُ هذا كقولِه تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ [المؤمنون: ٩١]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١١).

وقال الشنقيطي: (في معنى هذه الآيةِ الكريمةِ وجهانِ مِن التفسيرِ، كلاهما حقٌّ، ويشهدُ له قرآنٌ). ثمَّ ذكَر القولينِ السابقينِ، ورجَّح الثاني. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٣/ ١٥٨).

فقال[١]:

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣﴾.

أي: تَنزيهًا للهِ عمَّا لا يَليقُ بعَظَمتِه، وتعالى عُلُوًّا كبيرًا عمَّا يقولُ المُشرِكونَ مِن الكَذِبِ عليه، كنِسبةِ الوَلَدِ والشَّريكِ إليه[٢].

كما قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.

أي: تُسَبِّحُ لله السَّمَواتُ السَّبعُ والأرضُ، ومَن فيهنَّ مِنَ المَلائِكةِ والإنسِ والجِنِّ وجميعِ المَخلوقاتِ، فتُنزِّهُه عمَّا لا يليقُ به[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٤).

قال الشنقيطي: (أسْنَد التَّسبيحَ أوَّلًا إلى السَّمواتِ السَّبعِ والأرضِ صراحةً بذواتِهِنَّ، وهنَّ مِنْ غيرِ العقلاءِ بما في كلٍّ منهنَّ مِنْ أفلاكٍ، وكواكِبَ، وبُروجٍ، أو جبالٍ، ووِهادٍ، وفِجاجٍ، ثُمَّ عَطَف على غيرِ العقلاءِ بصيغةِ ﴿مَنْ﴾ الخاصَّةِ بالعقلاءِ فقال: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾، وإنْ كانتْ ﴿مَنْ﴾ قد تُستعملُ لغيرِ العقلاءِ إذا نُزِّلْنَ منزلَةَ العقلاءِ... وبهذا شَمِلَ إسنادُ التَّسبيحِ لكلِّ شيءٍ في نطاقِ السَّمواتِ والأرضِ عاقلٍ، وغيرِ عاقلٍ، وقدْ أُكِّدَ هذا الشُّمولُ بصريحِ قولِه تعالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾، وكلمةُ ﴿شَيۡءٍ﴾ أعَمُّ العُموماتِ). ((أضواء البيان)) (٨/ ٤).

كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ۞ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٠ - ٩٥].

وقال سُبحانَه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: ٥].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾.

أي: وما مِن شَيءٍ من المَخلوقاتِ إلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِ الله تعالى، فيُنَزِّهُه تنزيهًا مَقرونًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ مع محَبَّتِه وتَعظيمِه عزَّ وجَلَّ(١).

وقال القرطبي: (أعاد على السمواتِ والأرضِ ضميرَ مَنْ يعقِلُ، لَمَّا أسندَ إليها فعلَ العاقلِ، وهو التسبيحُ. وقولُه: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ يريدُ الملائكةَ والإنسَ والجنَّ، ثُمَّ عَمَّ بعدَ ذلك الأشياءَ كُلَّها في قولِه: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣١٢، ٣١٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

قال الواحدي: (في هذه الآيةِ مذهبان: أحدهما: أنَّ المرادَ بالتسبيحِ هاهنا: حقيقةُ التسبيحِ، فعلى هذا السمواتُ السبعُ والأرضونَ تسبِّحُ لله تسبيحًا حقيقيًّا، ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾: مِن الملائكةِ والجنِّ والإنسِ، والمرادُ بهذا التخصيصِ؛ لأنَّ الشياطينَ وعبدةَ الأصنامِ لا يسبحونَ لله تسبيحًا

كما قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

حقيقيًّا... المذهبُ الثاني: أنَّ المرادَ بالتسبيحِ هاهنا: الدلالةُ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ خالقٌ حكيمٌ مبرَّأٌ مِن الأسواءِ، فالمخلوقون والمخلوقاتُ كلُّها تدلُّ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ خالقُها). ((البسيط)) (١٣/ ٣٤٤ - ٣٤٦).

قال الشوكاني: (أخبَر سبحانَه عن السمواتِ والأرضِ بأنَّها تُسَبِّحُه، وكذلك مَن فيها مِنْ مخلوقاتِه الَّذين لهم عقولٌ، وهم الملائكةُ والإنسُ والجنُّ وغيرُهم مِنَ الأشياءِ الَّتي لا تعقِلُ، ثُمَّ زادَ ذلك تعميمًا وتأكيدًا فقال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾؛ فشملَ كلَّ ما يُسمَّى شيئًا كائنًا ما كان، وقيل: إنَّه يُحملُ قولُه: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ على الملائكةِ والثَّقَلينِ، ويُحملُ ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ على ما عَدا ذلك مِنَ المخلوقاتِ.

وقد اختلَف أهلُ العلمِ فِي هذا العمومِ هل هو مخصوصٌ أم لا؟ فقالَتْ طائفةٌ: ليسَ بمخصوصٍ، وحمَلوا التَّسبيحَ على تسبيحِ الدَّلالةِ؛ لأنَّ كلَّ مخلوقٍ يشهدُ على نفسِه ويُدِلُّ غيرَه بأنَّ اللَّهَ خالِقٌ قادرٌ. وقالَتْ طائفةٌ: هذا التَّسبيحُ على حقيقتِه، والعمومُ على ظاهرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٤).

ممن اختار أنَّ الآيةَ ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ عامةٌ، وأنَّ التسبيحَ مِن جميعِ المخلوقاتِ تسبيحٌ حقيقيٌّ: ابنُ جريرٍ، والقصابُ، والسمعاني، والقرطبي، وابنُ تيميةَ، والخازنُ، وابنُ القيم، وابنُ كثير، والشوكاني، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٥-٦٠٧)، ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٣١-١٣٢)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٢، ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤١).

وممن اختار العمومَ، لكن حمَل التسبيحَ على تسبيحِ الدلالةِ، لا التسبيحِ الحقيقيِّ: ابنُ الأنباري، وابنُ حزمٍ، والزمخشري، والرازي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الأضداد)) لابن الأنباري (ص: ٢٩٥)، ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (١/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١٤).

وقال سُبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وممن جمَع بينَ القولينِ فقال: تسبِّحُ جميع المخلوقات بلسانِ الحالِ، ولسانِ المقالِ: ابنُ العربي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٨).

قال ابنُ عثيمين: (كلُّ ما في السمواتِ والأرضِ يسبحُ الله... بلسانِ الحالِ، وبلسانِ المقالِ، إلَّا الكافرَ، فإنَّه يسبحُ الله بلسانِ الحالِ لا بلسانِ المقالِ... وهل الحشراتُ والحيواناتُ تسبحُ الله بلسانِ المقالِ؟

الجوابُ: نعم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ...﴾ الحشراتُ كلُّها تسبحُ الله بلسانِ المقالِ، والحصَى يسبحُ الله كما كان ذلك بينَ يدي رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٨).

وقال أيضًا: (التسبيحُ نوعان: تسبيحٌ بلسانِ المقالِ، وتسبيحٌ بلسانِ الحالِ. أمَّا التسبيحُ بلسانِ الحالِ فهو عامٌّ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾. وأمَّا التسبيحُ بلسانِ المقالِ، فهو عامٌّ كذلك، لكن يخرجُ منه الكافرُ؛ فإنَّ الكافرَ لم يسبِّحِ الله بلسانِه، ولهذا يقولُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩] فهم لم يسبِّحوا الله تعالى؛ لأنَّهم أشركوا به، ووصفوه بما لا يليقُ به. فالتسبيحُ بلسانِ الحالِ يعني: أنَّ حالَ كلِّ شيءٍ في السمواتِ والأرضِ تدلُّ على تنزيهِ الله سبحانه وتعالى عن العبثِ وعن النقصِ، حتى الكافر إذا تأمَّلت حالَه، وجدتها تدلُّ على تنزهِ الله تعالى عن النقصِ والعيبِ. وأمَّا التسبيحُ بلسانِ المقالِ، فيعني: أن يقولَ: سبحان الله). ((شرح العقيدة الواسطية)) (١/ ٣٦٠).

وقيل: قولُه: ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ عُمُومٌ، ومعناه الخصوصُ في كلِّ حيٍّ ونامٍ، وليسَ ذلك في الجماداتِ. وممن ذهَب إلى هذا المعنى: عكرمةُ، والحسنُ البصري. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦٦).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((قَرَصَت نملةٌ نبيًّا مِنَ الأنبياءِ، فأمَرَ بقَريةِ النَّملِ فأُحرِقَتْ، فأوحى اللهُ إليه: أنْ قَرَصَتْك نَملةٌ أحرَقْتَ أمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسبِّحُ؟!))[(١)].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا مع رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَفَرٍ، فقَلَّ الماءُ، فقال: اطلُبوا فَضْلةً مِن ماءٍ، فجاؤوا بإناءٍ فيه ماءٌ قَليلٌ، فأدخَلَ يَدَه في الإناءِ، ثمَّ قال: حَيَّ على الطَّهورِ المُبارَكِ، والبَرَكةُ مِنَ اللهِ. فلقد رأيتُ الماءَ يَنبُعُ مِن بَينِ أصابعِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولقد كُنَّا نَسمَعُ تَسبيحَ الطَّعامِ وهو يُؤكَلُ!))[(٢)].

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

أي: ولكن لا تَعلَمونَ -أيُّها النَّاسُ- تَسبيحَ المَخلوقاتِ؛ لأنَّها على غيرِ لُغَتِكم[(٣)].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ كان حَليمًا، فلا يُعاجِلُ بالعُقوبةِ مَن يكفُرُ به ويَعصِيه، غفورًا لِمَن

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٩) واللفظ له، ومسلم (٢٢٤١).

(٢) رواه البخاري (٣٥٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

تابَ مِن عِبادِه، فيَستُرُ ذُنوبَهم، ويتَجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالمِ حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. فالَّذي ينبغي لنا أنْ نَسْتَفيدَه مِنْ ذلك أنْ نذكُرَ في قُلوبِنا عندَ رؤيةِ كُلِّ شيءٍ مِنْ صُنعِ اللهِ، وسماعِ كلِّ صوتٍ مِنْ مخلوقاتِ اللهِ، أنَّه يُسَبِّحُ بحمدِ اللهِ بدَلالتِه على تنزيهِه عمَّا لا يليقُ به، وعلى قدرتِه وحكمتِه ومشيئَتِه ورحمتِه، وأنَّ لها تسبيحًا آخرَ غيبيًّا لا نفقهُه بكَسْبِنا؛ لأنَّنا لا نُدرِكُ حياتَها[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أنَّ المَخلوقاتِ -وإنْ كانت جَمادًا- تُحِسُّ بعَظَمةِ الخالِقِ؛ قال الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

(٢) رواه البخاري (٤٦٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢١٣).

تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ دَليلٌ على أنَّ ذا الرُّوحِ وغيرَه ممَّا لا حياةَ فيه ولا حَرَكَةَ ظاهرةً، مِثْلَ الحَجَرِ والمَدَر والخَشَبِ- أنَّها تُسَبِّحُ، لا أنَّه مَخصوصٌ به الرُّوحانيُّونَ دُونَ غَيرِهم[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ دَلالةٌ على أنَّ تَرْكَ قَتْلِ الدَّوَابِّ والحَشَراتِ التي سَكَتَ الشَّرعُ عنها -كالصَّراصيرِ والجِعْلانِ، والخُنْفُساءِ وما أشبَهَها- أَولى؛ فإنَّه وإنْ كان قَتْلُها مُباحًا، فتَرْكُها تُسَبِّحُ اللهَ عزَّ وجلَّ أَولى مِن قَتْلِها[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ لَمَّا كان الغالِبُ على أحوالِ البَشَرِ أنَّ حَليمَهم إذا غَضِبَ لا يَغفِرُ، وإنْ عفا كان عَفوُه مُكَدَّرًا؛ قال تعالى: ﴿حَلِيمًا غَفُورًا﴾ مُشيرًا بصِيغةِ المُبالغةِ إلى أنَّه على غيرِ ذلك؛ ترغيبًا في التَّوبةِ[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا﴾

- قولُه: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ﴾ استفهامٌ معناه الإنكارُ والتَّوبيخُ[٥]. وقيل: الاستفهامُ

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (٢١٨/ ٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢).

إنكارٌ وتهكُّمٌ[١].

- قولُه: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم﴾ قصَدَ هاهنا بالتَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ تَشديدَ النَّكيرِ وتأكيدَه[٢].

- وجُملةُ ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ مُتفرِّعةٌ على جُملةِ ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ تَفريعًا على النَّهيِ باعتبارِ أنَّ المنهيَّ عنه مُشتمِلٌ عمومُه على هذا النَّوعِ الخاصِّ الجديرِ بتَخصيصِه بالإنكارِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ فيه تأكيدُ فعْلِ (تقولون) بمَصدرِه ﴿قَوْلًا﴾؛ تأكيدًا لمعنى الإنكارِ. وجعَلَه مُجرَّدَ قولٍ؛ لأنَّه لا يَعْدو أنْ يكونَ كلامًا صدَرَ عن غيرِ رَويَّةٍ؛ لأنَّه لو تأمَّلَه قائلُه أدنى تأمُّلٍ، لوجَدَه غيرَ داخلٍ تحت قضايا المقبولِ عقلًا. والعظيمُ: القويُّ، والمُرادُ هنا أنَّه عظيمٌ في الفسادِ والبُطلانِ؛ بقَرينةِ سياقِ الإنكارِ، ولا أبلَغَ في تَقبيحِ قولِهم مِن وصْفِه بالعظيمِ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ التَّصريفُ كِنايةٌ عن التَّبيينِ بمُختلِفِ البيانِ ومُتنوِّعِه. وضَميرُ ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ عائدٌ إلى معلومٍ من المقامِ دَلَّ عليه قولُه: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾، أي: ليذَّكَّرَ الَّذين خُوطِبوا بالتَّوبيخِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٠٨).

في قولِه: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم﴾؛ فهو التِفاتٌ من الخطابِ إلى الغَيبةِ، أو من خطابِ المُشركينَ إلى خطابِ المُؤمنينَ(١).

- وجُملةُ ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ في مَوضعِ الحالِ، وهو حالٌ مقصودٌ منه التَّعجُّبُ من حالِ ضَلالتِهم؛ إذ كانوا يَزْدادون نُفورًا من كلامٍ فُصِّلَ وبُيِّنَ لتَذكيرِهم، وشأْنُ التَّفصيلِ أنْ يُفيدَ الطُّمأنينةَ للمقصودِ(٢).

- وقال عَزَّ وجَلَّ هنا: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾، وقال بعدُ في هذه السُّورةِ أيضًا: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال في سُورةِ (الكهفِ): ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، وإنَّما لم يُذكرْ فى أَوَّل سورةِ (الإسراء) ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ لتقدُّمِ ذكرِهم فى السُّورةِ، وذكَرهم فى سورةِ (الكهفِ) إذ لم يَجْرِ ذكرُهم، وذكَر (النَّاس) فى آخرِ سورة (الإسراءِ)، وإنْ جرَى ذكرُهم؛ لأَنَّ ذكرَ الإِنْسِ والجنِّ جرَى معًا، فذكَر ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ كراهةَ الالتباسِ، وقدَّمه على ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ كما قدَّمه فى قوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ ثمَّ قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾، وأَمَّا فى سورةِ (الكهفِ) فقدِّم ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾؛ لأَنَّ ذكرَه أجلُّ الغرضِ؛ وذلك أَنَّ اليهودَ سألتْه عن قصَّةِ أَصحابِ الكهفِ، وقصَّةِ ذى القَرْنينِ، فأَوحَى الله إليه فى القرآنِ؛ وكان تقديمُه فى هذا الموضعِ أَجدرَ، والعنايةُ بذكرِه أَحرَى وأَخلقَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٩٢). ويُنظر أيضًا: ((ملاك التأويل)) لأبي

- وقُدِّمَ ﴿لِلنَّاسِ﴾ على ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ هنا في الآيةِ الثَّانيةِ؛ اهتمامًا بالتَّمييزِ المذكورِ، وبالنَّاسِ لأنَّهم الأصلُ في التَّكليفِ؛ ولهذا اقتصَرَ عليهم في غالبِ الآياتِ؛ كقولِه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وقولِه: ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وعكَسَ في (الكهفِ) لمُناسبةِ قولِه قبْلُ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾[1] [الكهف: ٤٩].

- ومن المناسبةِ الحَسنةِ كذلك: خِتامُ آيةِ (الإسراءِ) الأُولَى بقولِه: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾؛ لأنَّ الضميرَ للمَذكورينَ ممَّن خُصَّ بمقصودِ الخِطاب المُكْنَى عنهم بقولِه: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾، وختامُ الآيةِ الثانية بقولِه: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]؛ لتُعطِيَ إعادةَ الظاهرِ من التعنيفِ والتقريعِ ما لا يُعطيه المُضمَرُ، ولأنَّ أوَّلَ الخِطابِ وصَدْرَ الآيةِ لَمَّا قُدِّمَ فيه ذِكرُ النَّاس لشرفِ الجِنسِ الإنسانيِّ على الجِنِّ، ثمَّ لم يَكُن ممَّن لم يُؤمِنْ إلَّا العِنادُ، قيل: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾؛ ليُعطيَ بفحواه أنَّه كأنَّه قيل: فأبَى أكثرُ النَّاسِ على تَشريفِهم وتَفضيلِنا إيَّاهم إلَّا الكُفرَ؛ فأحرزَ الظاهرُ ما لم يكُنْ ليحرِزَه إضمارُهم. وختَم آية (الكهفِ) بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]؛ تَمهيدًا لِمَا سيأتي بعدَه من قوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦]، فلمَّا بُنِيَ هذا على الآيةِ، واتَّصلَ الكلامُ والْتَحَم، نُوسِب بينهما، وليس في الآيتَينِ في سُورةِ (الإسراءِ) قبلُ ولا فيما تقدَّم كلَّ واحدةٍ منهما وفيما بُني عليهما ما يَستدعي ذِكرَ الجدلِ

جعفر الغرناطي (٢/ ٣١١-٣١٢).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٥).

ولا الوصفَ به؛ فلذلك خُتِمتْ كلُّ واحدةٍ منهما بما تَقدَّم؛ فأُعقِبَتِ الأُولى بقولِه تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١]، وأُعقِبَتِ الثانيةُ بقولِه: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، وأُعقِبتْ آيةُ (الكهفِ) بما يُناسِبُ ما ورَد عليه بَعدَه، وجاء كلٌّ على ما يُناسبُ[١].

- قولُه: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ فيه الْتِفاتٌ إلى الغَيبةِ؛ للإيذانِ باقتضاءِ الحالِ أنْ يُعْرِضَ عنهم، ويَحْكي للسَّامعينَ هَنَاتِهم[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾

- جُملةُ ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ مُعترِضةٌ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ تعدُّدَ الآلهةِ لا تحقُّقَ له، وإنَّما هو مُجرَّدُ قولٍ عارٍ عن المُطابقةِ لِمَا في نفْسِ الأمرِ. و﴿إِذًا﴾ دالَّةٌ على الجوابِ والجزاءِ؛ فهي مُؤكِّدةٌ لمعنى الجوابِ الَّذي تدُلُّ عليه اللَّامُ المُقترِنةُ بجوابِ (لو) الامتناعيَّةِ الدَّالةِ على امتناعِ حُصولٍ[٣].

- قولُه: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ فيه استحضارُ الذَّاتِ العلِيَّةِ بوصْفِ ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ دونَ اسمِه العَلَمِ (الله)؛ لِمَا تتضمَّنَه الإضافةُ إلى العرشِ من الشَّأنِ الجليلِ[٤]، ولأنَّ في التصريحِ بالعرشِ تَصويرًا لعَظَمتِه سبحانَه[٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فيه وصْفُ العُلوِّ بالكِبَرِ؛ مُبالغةً في معنى البراءةِ والبُعدِ

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١٢).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٢٢).

ممَّا وَصَفوه به[١].

٥- قَولُه تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

- قولُه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ فيه ما يُعْرَفُ بالتَّنكيتِ، وهو قصْدُ المُتكلِّمِ إلى شَيءٍ بالذِّكرِ دونَ غيرِه ممَّا يسُدُّ مَسدَّه لنُكتةٍ في المذكورِ تُرجِّحُ مَجيئَه على سِواه؛ فقد خصَّ سُبحانَه هنا ﴿تَفۡقَهُونَ﴾ دونَ (تعلمون)؛ لِمَا في الفقهِ من الزِّيادةِ على العلْمِ؛ لأنَّه التَّصرُّفُ في المعلومِ بعدَ عِلْمِه، واستنباطِ الأحكامِ منه، والمُرادُ الَّذي يَقْتضيه معنى الكلامِ التَّفقُّهُ في معرفةِ التَّسبيحِ من الحيوانِ البهيمِ والنَّباتِ والجَمادِ، وكلِّ ما يَدخُلُ تحتَ لفظةِ (شَيءٍ) ممَّا لا يعقِلُ ولا ينطِقُ؛ إذ تَسبيحُ ذلك بمُجرَّدِ وُجودِه الدَّالِّ على قُدرةِ مُوجِدِه وحِكمتِه[٢]، وذلك على أحدِ القولينِ في المرادِ بالتسبيحِ.

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فيه الختْمُ بالحِلْمِ والمغفرةِ عقِبَ تَسابيحِ الأشياءِ، وهو غيرُ ظاهرٍ في بادي الرَّأيِ؛ ووجْهُ ذلك الخِتامِ وحِكمتُه: أنَّه لمَّا كانتِ الأشياءُ كلُّها تُسبِّحُ ولا عِصيانَ في حقِّها وأنتم تَعْصون، ختَمَ بالحلمِ والغُفرانِ؛ مُراعاةً للمُقدَّرِ في الآيةِ وهو العِصيانُ. وقيل: التَّقديرُ: حليمًا عن تَفريطِ المُسبِّحينَ، غفورًا لذُنوبِهم. وقيل: حليمًا عن المُخاطبينَ الَّذين لا يَفْقهون التَّسبيحَ بإهمالِهم النَّظرَ في الآياتِ والعِبَرِ؛ ليَعْرِفوا حقَّه بالتَّأمُّلِ فيما أودَعَ في مَخلوقاتِه ممَّا يُوجِبُ تَنزيهَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٣٨٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٥/ ١٨١٥- ١٨١٦). ويُنظر أيضًا: ((البرهان)) للزركشي (١/ ٩٢- ٩٣).

الآيات (٤٥-٤٨)

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حِجَابًا﴾: أي: سِتْرًا، أو طَبْعًا، وأصلُ (حجب): يدُلُّ على المَنعِ[١].

﴿أَكِنَّةً﴾: أي: أَغطِيةً، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[٢].

﴿وَقْرًا﴾: أي: ثِقَلًا وصَمَمًا، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقَلٍ في الشَّيءِ[٣].

﴿نَجْوَىٰٓ﴾: أي: مُتناجُونَ، يُسَارُّ بَعضُهم بَعضًا، وأصلُ (نجو): يدُلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للنَّحاس (٤/ ١٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢، ٧٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠، ٨٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٢).

﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾: أي: الأشباهَ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا بعضَ أحوالِ المشركينَ عندَ سماعِهم للقرآنِ: وإذا قَرَأتَ القُرآنَ -يا مُحمَّدُ- فسَمِعه هؤلاء المُشرِكونَ، الذينَ لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ، جَعَلْنا بينَك وبينَهم حِجابًا مَستورًا عن الأعينِ، يحجُبُهم عن فَهْمِ القُرآنِ والانتفاعِ به؛ عِقابًا لهم على كُفرِهم وإنكارِهم، وجعَلْنا على قُلوبِ المُشرِكينَ أغطِيةً لئلَّا يَفهَموا القُرآنَ، وجَعَلْنا في آذانِهم صَمَمًا لئلَّا يَسمَعوه سَماعَ قَبولٍ وانتِفاعٍ، وإذا ذَكَرْتَ ربَّك في القُرآنِ داعيًا لتَوحيدِه ناهيًا عن الشِّركِ به، أعرَضوا عنك نافرينَ مِن قَولِك؛ استِكبارًا واستِعظامًا.

ثمَّ ذكَر سبحانَه ما يدلُّ على كمالِ علمِه، وأنَّه سيُجازيهم بما يستحقُّونَ، فقال: نحن أعلَمُ -يا مُحمَّدُ- باستِهزاءِ المُشرِكينَ واستِخفافِهم بالقُرآن وَقتَ استِماعِهم إلى تلاوَتِك له؛ إذ يَستَمِعونَ إليك يُسَارُّ بَعضُهم بَعضًا قائلينَ: ما تَتَّبِعونَ إلَّا رجُلًا أصابَه السِّحرُ فاختَلَط عَقلُه!

ثمَّ قال تعالى مسليًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: تفكَّرْ -يا مُحمَّدُ- مُتعَجِّبًا مِن ضَربِهم الأمثالَ الباطِلةَ في حَقِّك حين قالوا: ساحِرٌ، شاعِرٌ، مَجنونٌ!! فجارُوا وانحرَفوا بضَربِ الأمثالِ الباطِلةِ، ولم يَهتَدوا إلى طريقِ الحَقِّ والصَّوابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾.

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٣٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تكَلَّم اللهُ تعالى في الآيةِ المتقَدِّمةِ في المسائِلِ الإلهيَّةِ؛ تكَلَّمَ في هذه الآيةِ فيما يتعَلَّقُ بتقريرِ النبُوَّةِ[١]، وذكرِ شيءٍ مِن أحوالِ الكفرةِ في إنكارِها، وإنكارِ المعادِ[٢].

وأيضًا لَمَّا نوَّه بالقُرآنِ في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، ثمَّ أعقَبَ بما اقتَضاه السِّياقُ مِن الإشارةِ إلى ما جاء به القُرآنُ مِن أُصولِ العَقيدةِ، وجوامِعِ الأعمالِ، وما تخَلَّلَ ذلك مِنَ المواعِظِ والعِبَرِ؛ عاد هنا إلى التَّنبيهِ على عدَمِ انتِفاعِ المُشرِكينَ بهَدْيِ القُرآنِ؛ لِمُناسبةِ الإخبارِ عن عدَمِ فِقْهِهم تسبيحَ الكائناتِ بحمدِ الله[٣].

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

أي: وإذا شَرَعْتَ -يا محمَّدُ- في قراءةِ القُرآنِ[٤]، فسَمِعَه مُشرِكو قَومِك، الذين لا يُصَدِّقونَ بالبَعثِ، ولا يُقِرُّون بالثَّوابِ والعِقابِ؛ جَعَلْنا بينك وبينَهم حجابًا مَستورًا عن الأعينِ، لا يُرَى، يَمنَعُهم مِن فَهمِ القُرآنِ وتدَبُّرِه والانتفاعِ به،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١٥).

(٤) قال أبو حيان: (والمعنى: وإذا شرعتَ في القراءةِ، وليس المعنى على الفراغِ مِن القراءةِ، بل المعنى على أنَّك إذا التبستَ بقراءةِ القرآنِ، ولا يُرادُ بالقرآنِ جميعُه، بل ما ينطلقُ عليه الاسمُ، فإنَّك تقولُ لمن يقرأُ شيئًا مِن القرآنِ: هذا يقرأُ القرآنَ، والظاهرُ أنَّ القرآنَ هنا هو ما قُرئ مِن القرآنِ أيِّ شيءٍ كان منه). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥).

ويحولُ بينَهم وبينَ الإيمانِ به[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

وممَّن قال بالمعنى المذكور في كلمة ﴿حِجَابًا﴾: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جريرٍ، والبغوي، والبيضاوي، وابنُ جزي، وابنُ القيم، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ القيم: (المعنى: جعلْنا بينَ القرآنِ إذا قرأتَه وبينهم حجابًا يحولُ بينَهم وبينَ فهمِه وتدبرِه والإيمانِ به، ويبينُه قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦] وهذه الثلاثةُ هي الثلاثةُ المذكورةُ في قولِه: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، فأخبر سبحانَه أنَّ ذلك جعلُه، فالحجابُ يمنعُ رؤيةَ الحقِّ، والأكنةُ تمنعُ مِن فهمِه، والوقرُ يمنعُ مِن سماعِه). ((شفاء العليل)) (ص: ٩٤).

وقيل: معنى الآيةِ: أن الله حجَب النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن أعينِهم عندَ قراءةِ القرآنِ، فكانوا يمرُّون به ولا يرونَه. وممَّن قال به: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابنُ تيمية، وأبو حيان. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦).

قال ابنُ عطية: (هذه الآيةُ تحتملُ معنيينِ: أحدهما: أنَّ الله تعالى أخبَر نبيَّه أنَّه يحميه مِن الكفرةِ أهلِ مكةَ، الذين كانوا يؤذونَه في وقتِ قراءتِه القرآنَ، وصلاتِه في المسجدِ، ويريدونَ مدَّ اليدِ إليه، وأحوالُهم في هذا المعنى مشهورةٌ مرويةٌ، والمعنى الآخرُ: أنَّه أعلَمه أنَّه يجعلُ بينَ الكفرةِ وبينَ فهمِ ما يقرأُه محمدٌ عليه السلامُ حجابًا، فالآيةُ على هذا التأويلِ في معنى التي بعدَها، وعلى التأويلِ الأوَّلِ هما آيتانِ لمعنيينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٠).

وممن قال بالمعنى المذكورِ في كلمةِ: ﴿مَّسْتُورًا﴾: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، وابنُ القيِّم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٨، ٦٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٤).

قال ابنُ القيم: (ووصَفه بكونِه ﴿مَّسْتُورًا﴾، فقيل: بمعنَى ساترٍ. وقيل: على النسبِ، أي: ذو سترٍ. والصحيحُ أنَّه على بابِه، أي: مستورًا عن الأبصارِ، فلا يُرَى). ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٤).

كما قال سُبحانَه: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥].

﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ٤٦﴾.

﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾.

أي: وجَعَلْنا على قُلوبِ هؤلاءِ الذينَ لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ أغشِيةً وأغطِيةً تَحجُبُها؛ كراهةَ أنْ يَفهَموا معانيَ القُرآنِ فَهمًا ينتَفِعونَ به[1].

وممن اختار أنَّ ﴿مَّسۡتُورٗا﴾ بمعنى ساتر: الأخفشُ -وتابعه على هذا كثيرٌ مِن أهلِ اللغةِ- والبغَويُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٢٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٢). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

قال ابن تيمية: (قولُه: ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ يتناولُ مَن لم يفهَمْ منه تفسيرَ اللفظِ كما يُفهَمُ بمجرَّدِ العربيةِ، ومن فَهِمَ ذلك لكن لم يعلَمْ نفسَ المرادِ في الخارجِ، وهو: «الأعيان» و«الأفعال» و«الصفات» المقصودةُ بالأمرِ والخبرِ؛ بحيثُ يراها ولا يعلمُ أنَّها مدلولُ الخطابِ، مثلُ مَن يعلمُ وصفًا مذمومًا ويكونُ هو متَّصفًا به أو بعضًا من جنسِه، ولا يعلم أنَّه داخلٌ فيه). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٩).

وقال السَّعدي: (﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطيةً وأغشِيةً لا يَفقَهونَ معها القُرآنَ، بل يَسمَعونَه سَماعًا تَقومُ به عليهم الحُجَّةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

وقال الشِّنقيطي: (بَيَّنَ في مواضِعَ أُخَرَ سَبَبَ الحَيلولةِ بينَ القُلوبِ وبينَ الانتفاعِ به، وأنَّه هو كُفرُهم، فجازاهم اللهُ على كُفرِهم بطَمسِ البصائرِ، وإزاغةِ القُلوبِ، والطَّبعِ والخَتمِ، والأكِنَّةِ

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

أي: وجَعَلْنا في آذانِ المُشرِكينَ صَمَمًا وثِقَلًا يَمنَعُهم مِن سَماعِ القُرآنِ سَماعَ قَبولٍ له، وانتِفاعٍ به[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾.

أي: وإذا وحَّدْتَ ربَّك -يا مُحمَّدُ- في تِلاوَتِك للقُرآنِ، فقُلتَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنت تَتلوه؛ أعرَضَ المُشرِكونَ عنك، نافرينَ مُستَكبرينَ عن توحيدِ اللهِ؛ مِن

المانعةِ مِن وُصولِ الخَيرِ إليها؛ كقَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقَولِه تعالى: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقَولِه تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقَولِه تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ. ((أضواء البيان)) (٣/ ١٦٠-١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٠).

قال ابن القيم: (هذه الأكِنَّةُ والوَقرُ هي شدَّةُ البُغضِ والنُّفرةِ والإعراض التي لا يستطيعون معها سمعًا ولا عقلًا، والتحقيقُ أنَّ هذا ناشئ عن الأكِنَّةِ والوقرِ، فهو موجِبُ ذلك ومقتضاه، فمن فسَّر الأكِنَّةَ والوَقرَ به فقد فسَّرَهما بموجِبِهما ومُقتضاهما، وبكلِّ حالٍ فتلك النُّفرةُ والإعراضُ والبُغضُ مِن أفعالهم وهي مجعولةٌ لله سبحانه). ((شفاء العليل)) (ص: ٥٦).

شِدَّةِ كَراهِيَتِهم لهذا الحَقِّ، ومَحَبَّتِهم لِما هم عليه مِنَ الباطِلِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات: ٣٥].

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كانوا رُبَّما ادَّعَوا السَّمعَ والفَهمَ، فشَكَّكوا بعضَ مَن لم يَرسَخْ إيمانُه؛ أتبَعَه اللهُ تعالى ما يؤكِّدُ ما مضَى، ويُثَبِّتُ السَّامِعينَ فيه، فقال تعالى[٢]:

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾.

أي: نحن أعلَمُ -يا مُحمَّدُ- باستِهزاءِ المُشرِكينَ واستِخفافِهم بالقُرآنِ، وتَكذيبِهم به وَقتَ استِماعِهم إليك وأنت تَتلُوه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦١، ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٦).

كما قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢-٣].

﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾.

أي: ونحنُ أعلَمُ -يا مُحمَّدُ- بما يتناجَى به مُشرِكو قَومِك في أمْرِك، ويُسَارُّ بَعضُهم بَعضًا بشأنِك[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٣ - ٥].

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

قال السعدي: (أي: إنَّما مَنَعناهم مِن الانتفاعِ عندَ سَماعِ القُرآنِ؛ لأنَّنا نعلَمُ أنَّ مَقاصِدَهم سَيِّئةٌ، يريدونَ أن يَعثُروا على أقلِّ شَيءٍ لِيَقدحوا به، وليس استِماعُهم لأجلِ الاسترشادِ وقَبولِ الحَقِّ، وإنَّما هم مُعتَمِدونَ على عَدَمِ اتِّباعِه، ومَن كان بهذه الحالةِ لم يُفِدْه الاستماعُ شَيئًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

والباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ في قَولِه تعالَى: ﴿يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ قيل: للملابسةِ، أي: نحنُ أعلمُ بالشَّيءِ الَّذي يلابِسُهم حينَ يستَمِعونَ إليك. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٠).

وقِيل: إنَّها زائدةٌ، أي: يَسْتَمِعونَه. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٢).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٠).

قال ابنُ عطية: (وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ اجتِماعُهم في دارِ النَّدْوةِ، ثمَّ انتَشَرَت عنهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦١). ويُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: ٤٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١١، ٦١٢).

أي: حينَ يقولُ المُشرِكونَ وهم يَتناجَونَ فيما بينَهم: ما تتَّبِعونَ -إنِ اتَّبَعتُم مُحَمَّدًا- إلَّا رَجُلًا مَغلوبًا على عَقلِه بالسِّحرِ، يَهذِي بكَلامٍ، ولا يَدري ما يَقولُ[1]!!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٤٨﴾.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾.

أي: انظُرْ -يا مُحَمَّدُ- مُتعَجِّبًا كيف مثَّلَ لك المُشرِكونَ الأمثالَ الباطِلةَ، وشبَّهوا لك الأشباهَ، فشَبَّهوك بالمسحورِ، وقالوا عنك: شاعِرٌ، مَجنونٌ، ساحِرٌ، كذَّابٌ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٣)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ١٥٦، ١٥٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

قال ابن عاشور: (أي: ضَرَبوا الأمثالَ لأجلِك، أي: لأجلِ تمثيلِك، أي: مَثَّلوك. يقال: ضرَبتُ لك مثلًا بكذا. وأصلُه: مثَّلتُك بكذا، أي: أجِدُ كذا مثلًا لك، قال تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، وقال: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [يس: ١٣] أي: اجعَلْهم مثلًا لحالهم. وجَمَع الأمثالَ هنا، وإن كان المحكيُّ عنهم أنَّهم مثَّلوه بالمسحورِ، وهو مَثَلٌ واحد؛ لأنَّ المقصودَ التعجيبُ مِن هذا المَثَل ومن غيرِه فيما يصدُرُ عنهم من قولِهم: هو شاعرٌ، هو كاهنٌ، هو مجنونٌ، هو ساحرٌ، هو مسحورٌ. وسمِّيَت أمثالًا باعتبار حالِهم؛ لأنَّهم تحيَّروا فيما يصفونه به للنَّاسِ؛ لئلَّا يعتقدوه نبيًّا، فجعلوا يتطلبون أشبهَ الأحوالِ بحالِه في خيالِهم فيُلحِقونَه به). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢١).

كما قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾ [الصافات: ٣٦].

وقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [الدخان: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤- ٥].

وقال جلَّ جَلالُه: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤].

﴿ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾.

أي: فَضَلَّ المُشرِكونَ عن طريقِ الحقِّ بضَربِ الأمثالِ الباطِلةِ المُتناقِضةِ لك -يا مُحَمَّدُ- وتَحيَّروا فلم يَقدِروا أن يَسلُكوا طَريقًا يُخرِجُهم مِن هذا الضَّلالِ، ويُوصِلُهم إلى الحَقِّ[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ فيه الحَثُّ على فِقهِ القُرآنِ، وأنَّه ينبغي للإنسانِ أن يقرأَ القُرآنَ ويتعَلَّمَ معناه[(٢)]؛ فقَولُه تعالى: ﴿أَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٣)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٤٠٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٤).

يَفْقَهُوهُ﴾ يعودُ إلى القُرآنِ كُلِّه، فعُلِمَ أنَّ اللهَ يحِبُّ أن يُفقَهَ؛ ولهذا قال الحسَنُ البصريُّ: (ما أنزل اللهُ آيةً إلَّا وهو يحِبُّ أن يُعلَمَ في ماذا أُنزِلَت وماذا عنى بها)، وما استثنى من ذلك لا مُتشابِهًا ولا غيرَه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ دَليلٌ على الإنصاتِ للمَوعِظةِ والإقبالِ على الواعِظِ، وأنَّ الكلامَ عندَ الموعظةِ، أو مُحادثةَ بَعضِهم بَعضًا في مَجْمَعٍ يَعِظُ فيه واعِظٌ؛ تَهاوُنٌ بالمَوعِظةِ، ولَهوٌ عنها، وفي ذلك زَوالُ مَنفَعتِها، وفَهْمِ ما أُودِعَ فيها[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِمَّا يَدخُلُ في غَيرةِ اللهِ قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾؛ قال السَّرِيُّ لأصحابِه: (أتَدْرُونَ ما هذا الحِجابُ؟ حِجابُ الغَيرةِ، ولا أحَدَ أغيَرُ مِن اللهِ؛ إنَّ الله تعالى لم يجعَلِ الكُفَّارَ أهلًا لفَهمِ كَلامِه، ولا أهلًا لمَعرِفتِه وتوحيدِه ومَحَبَّتِه، فجعَلَ بينهم وبين رَسولِه وكلامِه وتوحيدِه حجابًا مَستورًا عن العُيونِ؛ غيرةً عليه أن ينالَه مَن ليس أهلًا له)[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ في هذه

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٤).
وأثر الحسن أخرجه أبو عبيد في ((فضائل القرآن)) (ص: ٩٧).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٤).

الآيةِ الكريمةِ الرَّدُّ الواضِحُ على القَدَريَّةِ في قَولِهم: إنَّ الشَّرَّ لا يَقَعُ بمَشيئةِ الله، بل بمَشيئةِ العَبدِ- سُبحانَ اللهِ وتعالى عُلُوًّا كبيرًا عن أنْ يقَعَ في مُلكِه شَيءٌ ليس بمَشيئَتِه! ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ(١).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ أخبَرَ سُبحانَه أنَّه مَنَعَهم فِقهَ كَلامِه، وهو الإدراكُ الذي ينتَفِعُ به مَن فَقِهَه، ولم يَكُنْ ذلك مانِعًا لهم مِنَ الإدراكِ الذي تقومُ به الحُجَّةُ عليهم؛ فإنَّهم لو لم يَفهَموه جُملةً ما وَلَّوا على أدبارِهم نُفُورًا عند ذِكرِ تَوحيدِ اللهِ، فلمَّا وَلَّوا عند ذِكرِ التَّوحيدِ دَلَّ على أنَّهم كانوا يَفهَمونَ الخِطابَ(٢).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾

- في قولِه: ﴿وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أُوثِرَ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ على الضَّميرِ (بينهم)؛ ذَمًّا لهم بما في حَيِّزِ الصِّلةِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، وإنَّما خَصَّ بالذِّكرِ كُفْرَهم بالآخرةِ مِن بينِ سائرِ ما كَفَروا به مِن التَّوحيدِ ونحوِه؛ دَلالةً على أنَّها مُعظَمُ ما أُمِرُوا بالإيمانِ به في القُرآنِ، وتَمهيدًا لِما سيُنْقَلُ عنهم من إنكارِ البعثِ واستعجالِه، ونحوِ ذلك(٣). وقيل: لمَّا كان إنكارُهم

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠١-١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٥).

البعثَ هو الأصْلَ الَّذي استَبْعَدوا به دَعوةَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى زَعَموا أنَّه يقولُ مُحالًا؛ إذ يُخْبِرُ بإعادةِ الخلْقِ بعدَ الموتِ- استُحْضِروا في هذا الكلامِ بطريقِ الموصوليَّةِ؛ لِمَا في الصِّلةِ من الإيماءِ إلى عِلَّةِ جعْلِ ذلك الحِجابِ بينَه وبينَهم؛ فلذلك قال: ﴿وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾[1].

- قولُه: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ فيه وصْفُ الحِجابِ بالمستورِ؛ مُبالغةً في حقيقةِ جِنْسِه، أي: حِجابًا بالغًا الغايةَ في حجْبِ ما يحجُبُه هو حتَّى كأنَّه مَستورٌ بساترٍ آخرَ، فذلك في قُوَّةِ أنْ يُقالَ: جعَلْنا حِجابًا فوقَ حِجابٍ. وفي الجمْعِ بين ﴿حِجَابًا﴾ و﴿مَّسْتُورًا﴾ من البديعِ: الطِّباقُ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ فيه تَخصيصُ الذِّكرِ بالكونِ في القُرآنِ؛ لمُناسبتِه الكلامَ على أحوالِ المُشركينَ في استماعِ القُرآنِ، أو لأنَّ القُرآنَ مَقصودٌ منه التَّعليمُ والدَّعوةُ إلى الدِّينِ؛ فخُلوُّ آياتِه عن ذكْرِ آلهتِهم مع ذكْرِ اسمِ اللهِ يُفْهَمُ منه التَّعريضُ بأنَّها ليست بآلهةٍ، فمِن ثَمَّ يَغْضبون كلَّما ورَدَ ذكْرُ اللهِ، ولم تُذْكَرْ آلهتُهم؛ فكونُه في القُرآنِ هو القَرينةَ على أنَّه أراد إنكارَ آلهتِهم[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١٩).

ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾ هذه الآيةُ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الإخبارَ عنهم بأنَّهم جُعِلَت في قُلوبِهم أكِنَّةٌ أنْ يَفْقهوه، وفي آذانِهم وقْرٌ، وأنَّهم يُولُّون على أدبارِهم نُفورًا إذا ذُكِرَ اللهُ وحدَه: يُثِيرُ في نفْسِ السَّامعِ سُؤالًا عن سبَبِ تجمُّعِهم لاستماعِ قِراءةِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فكانت هذه الآيةُ جوابًا عن ذلك السُّؤالِ[١].

- قولُه: ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ ﴾ فيه افتتاحُ الجُملةِ بضميرِ الجَلالةِ ﴿ نَّحۡنُ ﴾؛ لإظهارِ العنايةِ بمَضمونِها[٢].

- قولُه: ﴿يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ ﴾ لم يقُلْ: يَسْتمِعونه ولا يَستمِعونك؛ لمَّا كان الغرَضُ ليس الإخبارَ عن الاستماعِ فقطْ، وكان مُضمَّنًا أنَّ الاستماعَ كان على طريقِ الهُزْءِ بأنْ يقولوا: مجنونٌ أو مَسحورٌ، جاء الاستماعُ بـ(الباءِ) و(إلى)؛ ليُعْلَمَ أنَّ الاستماعَ ليس المُرادُ به تفهُّمَ المسموعِ دونَ هذا المَقصدِ؛ لأنَّ المعنى: نحن أعلَمُ بالَّذي يَستمِعون به إليك وإلى قراءتِك وكلامِك، إنَّما يَستمِعون لسقَطِك وتتبُّعِ عيبِك، والتِماسِ ما يَطعُنون به عليك[٣].

- قولُه: ﴿وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ ﴾ فيه الإخبارُ عنهم بالمصدرِ ﴿نَجۡوَىٰٓ ﴾؛ للمُبالغةِ في كثرةِ تَناجيهم عند استماعِ القُرآنِ تَشاغُلًا عنه[٤].

- قولُه: ﴿ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، حيث لم يقُلْ: (إذ يقولون)؛ للدَّلالةِ على أنَّ باعِثَ قولِهم ذلك

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٠).

هو الظُّلمُ، أي: الشِّركُ؛ فإنَّ الشِّركَ ظُلمٌ[١].

- وتَخصيصُ هذا القولِ ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أشدُّ غَرابةً من بقيَّةِ آفاكِهم؛ للبونِ الواضحِ بين حالِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبين حالِ المسحورِ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾

- قولُه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ فيه الاستفهامُ بـ (كيف)؛ للتَّعجُّبِ من حالةِ تَمثيلِهم للنَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّمَ بالمسحورِ ونحوِه[٣].

- قولُه: ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ فرَّع ضلالَهم على ضَربِ أمثالِهم؛ لأنَّ ما ضرَبوه من الأمثالِ كُلُّه باطِلٌ وضَلالٌ وقوَّةٌ في الكُفرِ، فالمرادُ تفريعُ ضَلالِهم الخاصِّ ببُطلانِ تلك الأمثالِ، أي: فظهَرَ ضلالُهم في ذلك. ويجوزُ أن يرادَ بالضَّلالِ هنا أصلُ معناه، وهو الحَيرةُ في الطريقِ وعَدَمُ الاهتداءِ، أي: ضَرَبوا لك أشباهًا كَثيرةً؛ لأنَّهم تحيَّروا فيما يَعتَذِرون به عن شأنِك العَظيمِ. وتفريعُ ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ على ﴿فَضَلُّواْ﴾ تفريعٌ لتوغُّلِهم في الحَيرةِ على ضلالِهم في ضَربِ تلك الأمثالِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٢).

الآيات (٤٩-٥٢)

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَرُفَٰتًا﴾: أي: تُرابًا وفُتاتًا، وأصلُ (رفت): يدُلُّ على فَتٍّ[١].

﴿يَكۡبُرُ﴾: أي: يَعْظُمُ، يقال: كَبُر الأمرُ والشيءُ: إذا عظُم، وأصلُ (كبر): يدلُّ على خلافِ الصغرِ[٢].

﴿فَسَيُنۡغِضُونَ﴾: أي: يُحَرِّكونَ رُؤوسَهم تكذيبًا واستِهزاءً، والإنغاضُ: تحريكُ الرَّأسِ نحوَ الغيرِ كالمتعجِّبِ منه، وأصلُ (نغض): يدُلُّ على هَزٍّ وتَحريكٍ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى بعضَ أقوالَ المشركينَ المنكرينَ للبعثِ والحسابِ يومَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٤).

القيامةِ، ثم يردُّ عليها، ومِن ذلك قولُهم: أئِذا بَلِيَت أجسادُنا، وصِرْنا عِظامًا وتُرابًا نُبعَثُ مِن جديدٍ؟! قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ- على جِهةِ التَّعجيزِ: كونوا حِجارةً أو حديدًا، فإنَّ اللهَ يَبعثُكم أيضًا، أو كونوا خَلقًا يَعظُمُ ويُستَبعَدُ في عُقولِكم قَبولُه للبَعثِ، فاللهُ تعالى يبعَثُكم، فسيَقولونَ مُنكِرينَ: مَن يرُدُّنا إلى الحياةِ بعد الموتِ؟ قل لهم: يُعيدُكم ويَرجِعُكم اللهُ الذي خلقَكم من العَدَمِ أوَّلَ مَرَّةٍ. وعند سَماعِهم هذا الرَّدَّ فسيُحرِّكون رُؤوسَهم ساخِرينَ، ويَقولونَ مُستبعدينَ: متى يقَعُ هذا البَعثُ؟ قل: هو قَريبٌ، سيأتيكم -لا مَحالةَ- يومَ يُناديكم ربُّكم للخُروجِ مِن قُبورِكم للحِسابِ، فتَستَجيبونَ، وتَنقادونَ لِدَعوتِه بحَمدِه، وتظنُّونَ أنَّكم لم تمكثوا في الدنيا إلَّا زَمَنًا قليلًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ٤٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما استأصَل الله تعالى ضلالتَهم بادِّعاءِ آلهةٍ معَ الله بالحجةِ القاطعةِ بقولِه: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ ...﴾ الآية [الإسراء: ٤٢]؛ قصَد استئصالَ ضلالةٍ أُخرَى من ضلالاتِهم بالحجةِ الدامغةِ، وعلى ذلك تكونُ جملةُ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ...﴾ معطوفةً على جملةِ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ﴾ باعتبارِ ما تشتملُ عليه مِن قولِه: ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾، ويكونُ ما بينَ الآيتين بمنزلةِ الاعتراضِ. ويجوزُ أن تكونَ هذه الآيةُ عطفًا على جملةِ: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧]، فيكون هذا القولُ مما تناجَوا به بينَهم، ثم يجهرون بإعلانِه ويعُدُّونَه حجَّتَهم

على التكذيبِ[١]، فالقَومُ وَصَفوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بكَونِه مَسحورًا فاسِدَ العَقلِ، فذَكَروا مِن جُملةِ ما يستدلُّون به على ذلك أنَّه يدَّعي أنَّ الإنسانَ بعد ما يصيرُ عِظامًا ورُفاتًا، فإنَّه يعودُ حَيًّا كما كان[٢].

وأيضًا لَمَّا جَرَت عادةُ القُرآنِ بإثباتِ التَّوحيدِ والنبُوَّةِ والمعادِ، وقدَّمَ الدَّلالةَ على الأوَّلَينِ، وختَمَ بإثباتِ جَهلِهم في النبُوَّةِ مع ظُهورِها؛ أتبَعَ ذلك أمرًا جَليًّا في ضَلالِهم عن السَّبيلِ في أمرِ المَعادِ، وقَرَّرَه غايةَ التَّقريرِ، وحَرَّره أتمَّ تحريرٍ، فقال تعالى مُعَجِّبًا منهم[٣]:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ٤٩﴾.

أي: وقال هؤلاءِ المُشرِكونَ الذين لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ إنكارًا للبَعثِ يومَ القيامةِ: أئِذا صِرْنا عِظامًا وتُرابًا، وقد بَلِيَت أجسادُنا في قُبورِنا، فهل يَبعَثُنا اللهُ أحياءً مِن جديدٍ كما كنَّا قبل مَوتِنا؟! هذا أمرٌ مُحالٌ لا يُمكِنُ وُقوعُه[٤].

كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ * أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات: ١٠، ١١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ * قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨- ٧٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٥،٦١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٤،١٢٣).

﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾.

أي: قلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُنكِرينَ للبَعثِ بعد المَوتِ: إنْ كُنتُم تَعجَبونَ مِن قُدرةِ اللهِ على إحيائِكم، فكُونوا -إن استطعتُم- حِجارةً أو حديدًا؛ فسيَبعَثُكم أيضًا(١).

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾.

أي: أو كُونوا -أيُّها المُنكِرونَ للبَعثِ- خَلْقًا مِمَّا يَعظُمُ في نُفوسِكم -إنِ استَطعتُم- مِمَّا تَستبعِدونَ معه قُدرةَ اللهِ على إحيائِكم؛ فاعلَمُوا أنَّه لا بُدَّ مِن بَعثِكم على أيِّ خِلقةٍ كنتُم، مهما بلَغَت مِنَ القوَّةِ والشدَّةِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير الثعالبي)) (٣/ ٤٧٨).

وذهب بعضُ المُفسِّرينَ إلى أنَّ المعنى: استشْعِرُوا وتوهَّموا وقدِّروا في أنفُسِكم أنَّكم حِجارةٌ أو حديدٌ، فلا بدَّ مِن بَعثِكم كما خُلِقتُم أوَّلَ مرَّة. وممَّن ذهب إلى ذلك: الزَّجَّاج، واستحسنه النَّحاسُ، وقال به ابنُ عطية، وابنُ جُزَيٍّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٤٤)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٨).

قال ابنُ القَيِّم: (وبينَ المَعنَيينِ فرقٌ لطيفٌ؛ فإنَّ المعنى الأوَّلَ يقتَضي أنَّكم لو قَدرتُم على نَقلِ خِلقتِكم مِن حالةٍ إلى حالةٍ هي أشَدُّ منها وأقوى، لنَفَذَت مَشيئَتُنا وقُدرتُنا فيكم ولم تُعجِزونا، فكيف وأنتم عاجِزون عن ذلك؟! والمعنى الثاني يقتضي أنَّكم صوِّروا أنفُسَكم وأنزِلوها هذه المَنزِلةَ، ثمَّ انظُروا أتفوتُوننا وتُعجِزوننا، أم قُدرتُنا ومَشيئَتُنا مُحيطةٌ بكم، ولو كنتم كذلك؟). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٤)، ((إعلام الموقعين))

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا عَلِمَ القَومُ صِحَّةَ هذا البُرهانِ وأنَّه ضروريٌّ، انتَقَلوا إلى المُطالَبَةِ بمَن يُعيدُهم، فقالوا[1]:

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾.

أي: فسيَقولُ المُنكِرونَ للبَعثِ: مَن يَبعَثُنا بعدَ مَوتِنا إنْ كُنَّا حِجارةً أو حديدًا أو خَلقًا مِمَّا يَكبُرُ في صُدورِنا[2]؟!

﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا مُحمَّدُ: سيُعيدُكم اللهُ الذي ابتدأَ خَلقَكم أوَّلَ مرَّةٍ مِن العَدَمِ على غيرِ مِثالٍ سبَقَ؛ فالذي قدَرَ على البُداءةِ قادِرٌ على الإعادةِ[3].

لابن القيم (١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

قال ابنُ جرير: (جائِزٌ أن يكونَ عنى به الموتَ؛ لأنَّه عَظيمٌ في صدورِ بني آدمَ، وجائِزٌ أن يكونَ أراد به السَّماءَ والأرضَ، وجائِزٌ أن يكونَ أراد به غيرَ ذلك، ولا بيانَ في ذلك أبيَنُ ممَّا بيَّنَ جَلَّ ثناؤه، وهو كُلُّ ما كَبُرَ في صُدورِ بني آدَمَ مِن خَلْقِه؛ لأنَّه لم يَخْصُصْ منه شيئًا دونَ شَيءٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٩).

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٥).

قال ابنُ القَيِّم: (سواءٌ كان سؤالًا منهم عن تَعيينِ المُعيدِ، أو إنكارًا منهم له؛ فهو مِن أقبَحِ التعَنُّتِ وأبيَنِه). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾.

أي: فإذا أجبتَهم بذلك -يا مُحمَّدُ- فسيُحَرِّكونَ إليك رُؤوسَهم برَفعٍ وخَفضٍ؛ استهزاءً منهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٢، ٣].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا عَلِمَ القَومُ أنَّ هذا جوابٌ قاطِعٌ، انتَقَلوا إلى بابٍ آخَرَ مِن التعَنُّتِ[(٢)]:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾.

أي: ويقولُ هؤلاء المُنكِرونَ للبَعثِ تعنُّتًا واستِبعادًا منهم لوُقوعِه: متى يقَعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١١).

هذا البَعثُ الذي تَزعُمه[١]؟

كما قال سُبحانَه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۞ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۞ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٣ - ٢٦].

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

أي: قل لهم -يا مُحمَّدُ-: هو قريبٌ، سيأتيكم لا مَحالةَ؛ فاحذَروا ذلك[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ۞ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٧ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾.

أي: وذلك البَعثُ الذي تُنكِرونَه -أيُّها المُشرِكونَ- واقِعٌ يومَ يَدعوكم ربُّكم[٣] للحِسابِ والجَزاءِ يومَ القيامةِ، فتَستَجيبونَ كُلُّكم لله بالخُروجِ فَورًا مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٦).

(٣) قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ الدُّعاءُ: النِّداءُ إلى المَحشَرِ

قُبورِكم أحياءً، وتَنقادونَ لِدَعوتِه بحَمدِه[1].

بكلامٍ تَسمَعُه الخلائِقُ، يدعوهم اللهُ تعالى فيه بالخُروجِ. وقيل: بالصَّيحةِ التي يَسمَعونَها، فتَكونُ داعيةً لهم إلى الاجتِماعِ في أرضِ القيامةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٥).

وذكر غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرين أنَّ النَّاس يُدْعَون يوم القيامةِ بالنفخِ في الصُّورِ، ومنهم: ابنُ عطيةَ، وابنُ الجوزي، وأبو حيان، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢١، ٦٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

قال ابن الجوزي: (وفي معنى ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أربعةُ أقوالٍ: أحدُها: بأمْرِه، قاله ابنُ عباسٍ، وابنُ جريج، وابن زيد. والثاني: يَخرُجون مِن القُبورِ وهم يقولون: سُبحانَك وبحَمدِك، قاله سعيدُ بنُ جُبير. والثالث: أنَّ معنى ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾: بمَعرفتِه وطاعته، قاله قتادة. قال الزجَّاج: تستجيبون مُقرِّين أنَّه خالِقُكم. والرابع: تُجيبون بحَمدِ الله لا بحَمدِ أنفُسِكم، ذكره الماوَردي). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠).

ممن اختار أنَّ معنى ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: بأمرِه: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، وأبو القاسم النيسابوري، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣١٥)، ((إيجاز البيان)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٥٠٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ١٠٧).

وممن اختار أنَّ معنى ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: حامدين: السمعاني، والزمخشري، والرسعني، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ جزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٧٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٩).

قال الزمخشري: (وقوله: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ حال منهم، أى حامدين، وهي مبالغةٌ في انقيادِهم للبَعثِ، كقولك لِمن تأمرُه بركوب ما يشقُّ عليه فيتأبَّى ويتمنَّع: ستركبُه وأنت حامِدٌ شاكِرٌ!). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٧٢).

وقال الرسعني: (وهو تقريرٌ لمعنى انقيادِهم، كأنهم ألجأهم القَهرُ والقسرُ إلى الحمدِ والثَّناءِ على الله؛ إظهارًا للرغبة في إجابته حيث لا ينفَعُهم ذلك). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٨٤).

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ

وقال ابن عاشور: (والباءُ في ﴿بِحَمْدِهِ﴾ للملابَسة، فهي في معنى الحال، أي حامدين، فهم إذا بُعِثوا خُلق فيهم إدراكُ الحقائقِ، فعلموا أنَّ الحق لله!). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٠).

وقيل: معنى الآيةِ: تستجيبونَ مقرِّينَ بأنَّه خالِقُكم. واختاره الزجاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٢٤٥).

وقال ابن عطية: (وقوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾، حكى الطبري عن ابن عباس أنَّه قال: معناه: بأمرِه، وكذلك قال ابن جريج. وقال قتادة معناه: بطاعتِه ومعرفته. وهذا كلُّه تفسيرٌ لا يعطيه اللفظُ، ولا شكَّ أنَّ جميع ذلك بأمرِ الله تعالى، وإنما معنى ﴿بِحَمْدِهِ﴾: إمَّا أن جميع العالمين -كما قال ابن جبير- يقومون وهم يَحمَدون الله؛ ويحمدونه لِما يظهر لهم من قدرتِه. وإمَّا أن قولَه ﴿بِحَمْدِهِ﴾ هو كما تقولُ لرجل خصَمْتَه وحاوَرْتَه في علمٍ: قد أخطأتَ بحمد الله. فكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول لهم في هذه الآيات: عسى أنَّ الساعةَ قريبةٌ يوم تدعون فتقومون بخلافِ ما تعتقدون الآن، وذلك بحَمدِ الله على صِدقِ خبري؛ نحا هذا المنحى الطبري ولم يخلِّصْه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٣).

قال ابن جرير: (وأولى الأقوال في ذلك بالصوابِ أن يقال: معناه: فتستجيبون لله من قبوركم بقدرته، ودعائِه إياكم. ولله الحمدُ في كل حال، كما يقول القائل: فعلتُ ذلك الفِعلَ بحمد الله، يعني: لله الحمدُ عن كلِّ ما فعلْتُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٢-٦٢٣).

وقال ابن عاشور: (ويجوز أن يكونَ ﴿بِحَمْدِهِ﴾ متعلقًا بمحذوف على أنَّه من كلام النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. والتقدير: انطِقْ بحمدِه، كما يقال: باسم الله، أي: أبتدئُ، وكما يقال للمعرِّس: باليُمن والبركة. أي: احمَدِ الله على ظهور صدقِ ما أنبأتُكم به، ويكون اعتراضًا بين المتعاطفات. وقيل: إنَّ قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ استئنافُ كلامٍ خطابٌ للمؤمنين؛ فيكونُ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ متعلِّقًا بفعل محذوف، أي: اذكروا يوم يدعوكم. والحمدُ على هذا الوجهِ محمولٌ على حقيقتِه، أي: تستجيبون حامدينَ الله على ما منحكم من الإيمان، وعلى ما أعدَّ لكم مما تشاهدون حين انبعاثِكم من دلائل الكرامةِ والإقبال). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٠).

بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ۞ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ۞ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ [ق: ٤١ - ٤٤].

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

أي: وتَظُنُّونَ[١] -أيُّها النَّاسُ- حين تُبعَثونَ يومَ القيامةِ أنَّكم لم تَمكُثوا في الدنيا[٢] .....

---

(١) قال ابن عطية: (قَولُه تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ يحتمل معنيين: أحدُهما: أنه أخبر أنَّهم لما رجَعوا إلى حالة الحياة، وتصَرُّف الأجساد، وقع لهم ظنٌّ أنهم لم ينفصلوا عن حال الدنيا إلَّا قليلًا لمغيبِ علمِ مقدار الزمنِ عنهم؛ إذ مَن في الآخرةِ لا يقَدِّرُ زمن الدنيا؛ إذ هم لا محالة أشَدُّ مفارقةً لها من النائمين، وعلى هذا التأويلِ عَوَّل الطبري، واحتج بقولِه تعالى: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ۞ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣]. والآخر: أن يكون الظنُّ بمعنى اليقين، فكأنَّه قال لهم: يوم تُدعَون فتستجيبون بحمدِ الله، وتتيقَّنون أنَّكم إنَّما لَبِثتُم قليلًا، من حيث هو مُنقَضٍ منحَسِرٌ، وهذا كما يقال في الدنيا بأسرِها: متاعٌ قليل، فكأنَّه قِلَّة قَدرٍ، على أن الظنَّ بمعنى اليقين يقلق هاهنا؛ لأنَّه في شيء قد وقع، وإنما يجيءُ الظن بمعنى اليقين فيما لم يخرُجْ بعدُ إلى الكون والوجود). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠).

(٢) ممَّن قال بأنَّ المرادَ لُبثُهم في الدنيا: ابنُ أبي زمنين، والسمعاني، والزمخشري، والرسعني، وابنُ كثير، والعليمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٧٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٢).

قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ يقول: وتحسَبون عند موافاتِكم القيامةَ مِن هولِ ما تعاينون فيها ما لَبِثتُم في الأرض إلا قليلًا؛ كما قال جل ثناؤه: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ۞ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣]. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل... عن قتادة، ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: في الدنيا، تحاقَرَت الدنيا في أنفُسِهم وقَلَّت حين عاينوا يومَ القيامة). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٣).

إلَّا وَقتًا يَسيرًا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا * يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا * نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥- ٥٦].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

وقال ابن الجوزي: (أين يظنُّون أنَّهم لبثوا قليلًا؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدُها: بين النفختينِ، ومقداره أربعون سنة، ينقَطِعُ في ذلك العذابُ عنهم، فيرون لُبثَهم في زمان الراحةِ قليلًا، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: في الدُّنيا؛ لعِلمِهم بطول اللُّبثِ في الآخرة، قاله الحسن. والثالث: في القبورِ، قاله مقاتل). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠).

وممن اختار أنَّ المرادَ لبثُهم في القبورِ: مقاتل بن سليمان، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: مدةُ لبثِهم بينَ النفختينِ: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٠).

الفَوائِدُ العلميَّةُ واللطائِفُ:

١- في قولِه: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ جعَلَ سُؤالَهم هنا عن المُعيدِ لا عن أصْلِ الإعادةِ؛ لأنَّ البحثَ عن المُعيدِ أدخَلُ في الاستحالةِ من البحثِ عن أصْلِ الإعادةِ، فهو بمنزلةِ الجوابِ بالتَّسليمِ الجدليِّ بعدَ الجوابِ بالمنْعِ؛ فإنَّهم نَفَوا إمكانَ إحياءِ الموتى، ثمَّ انتَقلوا إلى التَّسليمِ الجدليِّ؛ لأنَّ التَّسليمَ الجدليَّ أقوى في مُعارضةِ الدَّعوى من المنْعِ[١].

٢- قول الله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾، فيه سؤالٌ: إن قالوا: كيف يكونُ قريبًا وقد انقرضَ زمنٌ طويلٌ، ولم يظهرْ؟

الجواب: إذا كان ما مضَى أكثرَ مما بقِي، كان الباقي قريبًا قليلًا[٢]، وأيضًا فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ فهو قريبٌ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ دَليلٌ على أنَّ الميِّتَ بعدَ المُساءَلةِ -وما يُصيبُه معها- لا يَشعُرُ بطولِ مُكْثِه في البَرزَخِ حتى يبعَثَه اللهُ يومَ القيامةِ، فلو كانوا يَشعُرونَ لعَلِموا أنَّهم أقاموا طويلًا، ليس قليلًا[٤]، وذلك على أحدِ أوجُهِ تأويلِ الآيةِ.

بَلاغةُ الآيات:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ١٨٤).

- قولُه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ استفهامُ تَعجُّبٍ وإنكارٍ مُفيدٌ لكَمالِ الاستبعادِ والاستنكارِ للبعثِ بعدما آلَ الحالُ إلى هذا المآلِ؛ لِمَا بين غَضاضةِ الحيِّ ويُبوسةِ الرَّميمِ من التَّنافي، كأنَّ استحالةَ الأمْرِ من الظُّهورِ بحيث لا يقدِرُ المُخاطَبُ على التَّكلُّمِ به[١].

- قولُه: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ فيه تَقديمُ الظَّرفِ ﴿أَءِذَا﴾ للاهتمامِ به؛ لأنَّ مضمونَه هو دليلُ الاستحالةِ في ظَنِّهم؛ فالإنكارُ مُتسلِّطٌ على جُملةِ ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾. وقُوَّةُ إنكارِ ذلك مُقيَّدٌ بحالةِ الكونِ عِظامًا ورُفاتًا، وتَقديرُ الجُملةِ: أإنا لمَبْعوثونَ إذا كنَّا عِظامًا ورُفاتًا؟! وليس المقصودُ من الظَّرفِ التَّقييدَ؛ لأنَّ الكونَ عِظامًا ورُفاتًا ثابتٌ لكلِّ من يَموت فيُبعَثُ[٢].

- قولُه: ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ كُرِّرتِ الهمزةُ في قولِهم: ﴿أَءِنَّا﴾؛ لتأكيدِ النَّكيرِ. وتَحليةُ الجُملةِ بـ (إنَّ) واللَّامِ؛ لتأكيدِ الإنكارِ لا لإنكارِ التَّأكيدِ[٣].

- قولُه: ﴿خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ حالٌ من ضَميرِ (مَبْعوثون)، وذُكِرَ الحالُ لتَصويرِ استحالةِ البعثِ بعدَ الفَناءِ؛ لأنَّ البعثَ هو الإحياءُ، فإحياءُ العِظامِ والرُّفاتِ مُحالٌ عندهم، وكونُهم خلقًا جديدًا أدخَلُ في الاستحالةِ[٤].

- قولُه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث أعاد هذه الجُملةَ بعينِها من غيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ آخرَ السُّورةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٤).

في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٨]، وليس هذا تَكرارًا؛ لأنَّ الأُولى من كلامِهم في الدُّنيا حين جادلوا الرَّسولَ، وأنْكَروا البعثَ، والثَّانيةَ من كلامِ اللهِ تَعالى حين جازاهم على كُفْرِهم وقولِهم وإنكارِهم البعثَ، فقال: ﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرًا﴾[(١)] [الإسراء: ٩٧].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ فيه حُسنُ تَرتيبٍ؛ حيث بدَأَ أوَّلًا بالصُّلبِ، ثمَّ ذكَرَ على سبيلِ التَّرقي الأصلَبَ منه، ثمَّ الأصلَبَ من الحديدِ[(٢)].

- قولُه: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا * أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ فيه ما يُعْرَفُ بالتَّخييرِ، وهو أنْ يُؤْتَى بقطعةٍ من الكلامِ جُملةً، وقد عُطِفَ بعضُها على بعضٍ بأداةِ التَّخييرِ، وأنْ يتضمَّنَ صِحَّةَ التَّقسيمِ؛ فيَستوعِبَ كلامُه أقسامَ المعنى الَّذي أخَذَ المُتكلِّمُ فيه؛ فاشتملَتْ هاتانِ الآيتانِ على التخييرِ، وصِحَّةِ التَّقسيمِ، وحُسْنِ التَّرتيبِ في الانتقالِ -على طريقِ البلاغةِ- من الأدنَى إلى الأعلَى، حتَّى بلَغَ سُبحانَه النِّهايةَ في أوجَزِ إشارةٍ، وأعذَبِ عِبارةٍ، حيث قال بعدَ الانتقالِ من الحجارةِ: ﴿أَوۡ حَدِيدًا﴾؛ فانتقَلَ من الحجارةِ إلى ما هو أصلَبُ منها وأقوى، ثمَّ قال بعدَ ذلك: ﴿أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ غيرَ حاصرٍ لهم في صِنْفٍ من الأصنافِ[(٣)]، فلم يُعيِّنْه؛ بل ترَكَ ذلك إلى

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٤٥٧).

أفكارِهم وجولانِها فيما هو أصلبُ مِن الحديدِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾

- قولُه: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ الاستفهامُ في ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ تَهكميٌّ. ولمَّا كان قولُهم: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ مُحقَّقَ الوُقوعِ في المُستقبلِ أمَرَ النَّبيَّ بأنْ يُجيبَهم عندما يقولونَه -جوابَ تَعيينٍ لمَن يُعيدُهم؛ إبطالًا للازمِ التَّهكُّمِ، وهو الاستحالةُ في نظَرِهم- بقولِه: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ إجراءً لظاهرِ استفهامِهم على أصْلِه، بحمْلِه على خِلافِ مُرادِهم؛ لأنَّ ذلك أجدَرُ على طريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ لزيادةِ المُحاجَّةِ[٢].

- قولُه: ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ جِيءَ بالمُسنَدِ إليه موصولًا ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾؛ لقصْدِ ما في الصِّلةِ من الإيماءِ إلى تَعليلِ الحُكْمِ بأنَّ الَّذي فطَرَهم أوَّلَ مرَّةٍ قادرٌ على إعادةِ خلْقِهم[٣].

- وارتباطُ رَدِّ مقالتِهم بقولِه: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ...﴾ غامِضٌ؛ لأنَّهم إنَّما استَبْعَدوا أو أحالوا إرجاعَ الحياةِ إلى أجسامٍ تفرَّقَت أجزاؤها، وانخرَمَ هيكَلُها، ولم يُعلِّلوا الإحالةَ بأنَّها صارت أجسامًا ضعيفةً، فيُرَدُّ عليهم بأنَّها لو كانت مِن أقوَى الأجسامِ لأُعِيدَت لها الحياةُ، وفي بيانِ وجْهِ هذا الارتباطِ في ذلك ثلاثةُ وُجوهٍ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٦٢-٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٨).

أحدُها: أنْ تكونَ صِيغَةُ الأمرِ في قولِه: ﴿كُونُواْ﴾ مُستعملةً في معنى التَّسويةِ، ويكون دليلًا على جوابٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: إنَّكم مَبْعوثون، سَواء كنتُم عِظامًا ورُفاتًا، أو كنتُم حِجارةً أو حديدًا؛ تَنبيهًا على أنَّ قُدرةَ اللهِ تعالى لا يَتعاصى عليها شَيءٌ. وذلك إدماجٌ يجعَلُ الجُملةَ في معنى التَّذييلِ.

الوجْهُ الثَّاني: أنْ تكونَ صِيغَةُ الأمْرِ في قولِه: ﴿كُونُواْ﴾ مُستعملةً في الفرضِ، أي: لو فُرِضَ أنْ يكونَ الأجسادُ من الأجسامِ الصُّلبةِ، وقيل لكم: إنَّكم مَبْعوثون بعدَ الموتِ لأحَلْتُم ذلك واستبْعَدْتم إعادةَ الحياةِ فيها. وعلى كِلا الوجهينِ يكونُ قولُه: ﴿مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ نِهايةَ الكلامِ، ويكونُ قولُه: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ مُفرَّعًا على جُملةِ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا ...﴾ تَفريعًا على الاستئنافِ.

الوجْهُ الثَّالثُ: أنْ يكونَ قولُه: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً﴾ كلامًا مُستأنفًا ليس جوابًا على قولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا ...﴾، وتكون صِيغَةُ الأمْرِ مُستعملةً في التَّسويةِ. وفي هذا الوجْهِ يكونُ قولُه: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ مُتَّصلًا بقولِه: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ...﴾، ومُفرَّعًا على كلامٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً﴾[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٥ - ١٢٦).

الآيات (٥٢-٥٧)

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَنزَغُ﴾: أي: يُفسِدُ ويُهيِّجُ، وأصلُ (نزغ): يدلُّ على إفسادٍ بينَ اثنينِ[(١)].

﴿الْوَسِيلَةَ﴾: أي: المَنزِلةَ والقُربةَ بالأعمالِ الصَّالحةِ، وأصلُ (وسل): يدُلُّ على التَّوصُّلِ إلى الشَّيءِ برَغبةٍ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾

قَولُه: ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ مُبتدأٌ في محَلِّ رَفعٍ، و﴿الَّذِينَ﴾ بدَلٌ منه، و﴿يَدْعُونَ ﴾ صلةُ المَوصولِ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ، و﴿يَبْتَغُونَ ﴾ خبَرُ المُبتدأِ في محَلِّ رَفعٍ. ﴿أَيُّهُمْ ﴾ فيها وجهانِ: أحدُهما: أنَّها اسمُ مَوصولٍ مَبنيٌّ على الضَّمِّ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٥٠).

محلِّ رَفعٍ بدَلُ بَعضٍ مِن كُلٍّ مِن الواوِ في ﴿يَبْتَغُونَ﴾، ﴿أَقْرَبُ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ تَقديرُه (هو)، وجملةُ: (هو أقرَبُ) لا محلَّ لها صِلةُ الموصولِ (أيُّ)، والمعنى: أولئك المَعبودونَ يبتغي مَن هو أقرَبُ منهم الوَسيلةَ إلى اللهِ تعالى بطاعتِه، فكيف بالأبعَدِ؟! والثاني: ﴿أَيُّهُمْ﴾ استِفهاميَّةٌ مرفوعةٌ على الابتداءِ، و﴿أَقْرَبُ﴾ خَبَرُها، والجملةُ الاسميَّةُ في محَلِّ نَصبٍ على إسقاطِ الخافِضِ بـ ﴿يَبْتَغُونَ﴾ المُضَمَّنِ معنى (يَحرِصونَ)، فكأنَّه قيل: يَحرِصونَ أيُّهم يكونُ أقرَبَ إلى اللهِ تعالى، وذلك بالطَّاعةِ وازديادِ الخَيرِ والصَّلاحِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وقُلْ -يا مُحمَّدُ- لعِبادي المُؤمِنينَ يقولُوا في تَحاوُرِهم وتَخاطُبِهم الكلامَ الأحسنَ؛ فإنَّ الشَّيطانَ يفسِدُ بينهم، ويُهيِّجُ العَداوةَ والخِصامَ بينهم؛ إنَّ الشَّيطانَ كان للإنسانِ عدُوًّا مُظهِرًا لشدَّةِ عَداوتِه. ربُّكم أعلَمُ بكم، إنْ يَشَأْ يَرحَمْكم بتوفيقِكم لأسبابِ الرَّحمةِ، أو إن يَشأْ يعذِّبْكم بخِذلانِكم عن أسبابِ الرَّحمةِ، وما أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- عليهم وكيلًا تُجازيهم على أفعالِهم، ورَبُّك أعلَمُ بمَن في السَّمَواتِ والأرضِ، ولقد فَضَّلْنا بعضَ النبيِّينَ على بَعضٍ، كتفضيلِهم بالمُعجِزاتِ، والكُتُبِ، وكَثرةِ الأتباعِ، وغَيرِ ذلك، وأعطَينا داودَ الزَّبورَ.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى نبيَّه أن يقولَ لِلمُشركين: ادعُوا الذين زعَمتُموهم آلِهةً مِن دُونِ اللهِ لكَشْفِ الضُّرِّ عنكم؛ فإنَّهم لا يستطيعون ذلك، ولا أن يُحوِّلوا الضرَّ عنكم إلى غَيرِكم، ولا أن يُغيِّروا صفتَه أو قدرَه؛ فالقادِرُ على ذلك اللهُ وَحدَه. أولئك الذين يَزعمونَ أنَّهم آلهةٌ مِن دونِ الله، مِن الأنبياءِ والملائكةِ والصَّالحينَ،

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٤٦)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٤٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٣٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٣٧٢).

يُسارِعون في القُربِ مِن رَبِّهم بما يستطيعونَه مِن طاعةِ اللهِ، ويرجونَ رَحمتَه ويخافونَ عَذابَه؛ إنَّ عذابَ ربِّك كان مَخُوفًا ينبغي الحذَرُ منه؛ فكيف يَعبُدُهم المُشرِكونَ، وتلك هي حالُهم؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعد أن أقام سُبحانَه الحُجَجَ على إبطالِ الشِّركِ، فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢] وذكَرَ الأدِلَّةَ على صِحَّةِ البَعثِ والجزاءِ، فقال: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١]؛ أمرَ رَسولَه أن يأمُرَ عِبادَه المؤمنين بأن يحاجُّوا مُخالِفيهم، ويجادِلوهم باللِّينِ، ولا يُغلِظوا لهم في القَولِ، ولا يَشتُموهم ولا يسبُّوهم؛ فإنَّ الكَلِمةَ الطيِّبةَ تجذِبُ النفوسَ، وتَميلُ بها إلى الاقتِناعِ[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا أعقَبَ ما أُمرَ النبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بتبليغِه إلى المُشرِكين من أقوالٍ تَعِظُهم وتزجُرُهم، مِن قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقَولِه: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً﴾ [الإسراء: ٥٠]، وقَولِه: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١]- ثَنَى العِنانَ إلى الأمرِ بإبلاغِ المؤمنين تأديبًا ينفَعُهم في هذا المقامِ، على عادةِ القُرآنِ في تلوينِ الأغراضِ، وتعقيبِ بَعضِها ببعضِ أضدادِها؛ استِقصاءً لأصنافِ الهُدى ومختَلِفِ أساليبِه، ونَفْعِ مُختَلفِ النَّاسِ، ولَمَّا كان ما سبَقَ مِن حكايةِ أقوالِ المُشرِكين ينبئُ عن

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٥/ ٥٨).

ضلالِ اعتقادٍ، نقلَ الكلامَ إلى أمرِ المُؤمِنين بأن يقولوا أقوالًا تُعرِبُ عن حُسنِ النيَّةِ، وعن نُفوسٍ زكيَّةٍ، وأوتوا في ذلك كَلِمةً جامِعةً، وهي: ﴿يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ سُبحانَه نَبيَّه بإبلاغِ الكافِرينَ هذا الكَلامَ ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ...﴾، وفيه من التهَكُّمِ بهم والتَّبكيتِ لهم والاستِخفافِ بعُقولِهم ما لا يعلَمُ مِقدارَه إلَّا مِثلُهم مِنَ البُلَغاءِ والعَرَبِ العَرْباءِ، وكان -لكَونِه كلامَ العَليمِ بالعواقِبِ، الخَبيرِ بما تَجُنُّ الضَّمائِرُ- رُبَّما استَنَّ به المُؤمِنونَ فخاطبوهم بنَحوِه مِن عندِ أنفُسِهم؛ نهاهم عن ذلك لئلَّا يقولوا ما يُهَيِّجُ شَرًّا أو يُثيرُ ضُرًّا، فقال تعالى[2]:

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾.

أي: وقُلْ -يا مُحمَّدُ- آمِرًا عبادي المُؤمِنينَ بأن يَقولَ بَعضُهم لِبَعضٍ في مُحاوراتِهم ومُخاطباتِهم الكَلامَ الأحسَنَ؛ مِن الكَلِماتِ الطَّيِّبةِ اللَّيِّنةِ اللَّطيفةِ، التي هي أحسَنُ مِمَّا سِواها[3].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۞ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٦، ٨٧).

((الكَلِمةُ الطَّيِّبةُ صَدَقةٌ))[١].

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾.

أي: قُلْ لهم يَقولوا التي هي أحسَنُ؛ لأنَّ الشَّيطانَ البَعيدَ مِن الرَّحمةِ وكُلِّ خَيرٍ يقومُ بالإفسادِ بينهم، وتَهييجِ العَداواتِ والشُّرورِ، مِن المُخاصَمةِ والمُقاتَلةِ وغَيرِ ذلك[٢].

عن جابِرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ الشَّيطانَ قد أَيِسَ أن يَعبُدَه المصَلُّونَ في جزيرةِ العَرَبِ، ولكِنْ في التَّحريشِ بينهم))[٣].

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ يَنزَغُ بينهم؛ لأنَّه كان لآدَمَ وذُرِّيَّتِه عَدُوًّا مُظهِرًا لشدَّةِ عَداوتِه، مِن حينِ امتِناعِه مِن السُّجودِ لآدَمَ وحَسَدِه له حتى أخرَجَه مِن الجنَّةِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠].

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩١)، ومسلم (١٠٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٤١-٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٢).

(٣) رواه مسلم (٢٨١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٧).

وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ إبليسَ يَضَعُ عَرشَه على الماءِ، ثمَّ يَبعَثُ سَراياه، فأدْناهم منه مَنزِلةً أعظَمُهم فِتنةً، يجيءُ أحَدُهم فيَقولُ: فعَلْتُ كذا وكذا، فيقولُ: ما صنعْتَ شَيئًا! قال: ثم يجيءُ أحَدُهم فيقولُ: ما تركْتُه حتى فَرَّقتُ بينه وبين امرأتِه، قال: فيُدنيه منه ويَقولُ: نِعْمَ أنتَ!!))[1].

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا الكَلامَ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٧-٤٨]؛ فإنَّ ذلك يَنطوي على ما هو شَأنُ نَجواهم من التَّصميمِ على العِنادِ، والإصرارِ على الكُفرِ، وذلك يَسُوءُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ويَحزُنُه أن لا يَهتَدوا، فوَجَّه هذا الكلامَ إليه تسليةً له، ويدُلُّ لذلك تَعقيبُه بقَولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾[2].

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾.

أي: ربُّكم[3] أعلَمُ بمَن يَستَحِقُّ منكم الرَّحمةَ والهِدايةَ، ومَن لا يَستَحِقُّها، إنْ يَشَأْ رَحْمَتَكم بأنْ يُوَفِّقَكم لأسبابِها، تَهْتَدوا، أو إنْ يَشَأْ تَعذيبَكم بأنْ يَخذُلَكم عن

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٣).

(٣) قيل: الخِطابُ لِمُشركي قُرَيشٍ الذين قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء: ٤٩]. وممَّن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٤).
وممن قال به مِن السلفِ: عبدُ الملك بنُ جريج، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١).
وقيل: الخِطابُ للنَّاسِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٧).

أسبابِ الرَّحمةِ، تَضِلُّوا[١].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾.

أي: وما أرسلناك -يا محمدُ- على مَن أرسلناك إليه؛ حافظًا وكفيلًا، فما وُكِل إليك إيمانُهم ولا مجازاتُهم، إنَّما أرْسَلناك إليهم؛ لتُبلِّغَهم رسالاتِنا، واللهُ تعالى إن شاء هداهم ورحِمهم، وإن شاء خَذَلهم وعذَّبهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾ [ق: ٤٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١- ٢٢].

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بأن يَنسُبوا الأعلميَّةَ بهم إليه سُبحانَه، أخبَرَ بما هو أعَمُّ مِن ذلك، فقال تعالى عاطِفًا على ﴿رَّبُّكُمۡ﴾ إعلامًا بأنَّ عِلمَه ليس مَقصورًا عليهم بل هو مُحيطٌ، قاصِرًا الخِطابَ على أعلَمِ الخَلقِ به سُبحانَه؛ إشارةً إلى أنَّه لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٦٦، ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٥).

يعلَمُ هذا حَقَّ عِلمِه غَيرُه[١]، فقال تعالى:

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: وربُّك -يا مُحَمَّدُ- أعلَمُ بمَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ مِن خَلْقِه، فيَعلَمُ نِيَّاتِهم، وأحوالَهم وأعمالَهم، وآجالَهم، وما يُصلِحُهم، ويَعلَمُ مَن يَستَحِقُّ الرَّحمةَ منهم فيَهديه، ومَن يَستَحِقُّ منهم العَذابَ فيُضِلُّه ويُشقِيه، وذلك بحسَبِ ما تَقتَضيه حِكمَتُه سُبحانَه[٢].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٧].

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾.

أي: ولقد فضَّلْنا بعضَ الأنبياءِ على بَعضٍ، كتَفضيلِهم بالعِلمِ والكُتُبِ، والشَّرائِعِ والمُعجِزاتِ والخَصائِصِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

قال الواحدي: (كلامُ المفسِّرين في هذا يدُلُّ على أنَّ المعنى فيه: أنَّ كلَّ واحدٍ منهم خُصَّ بفضيلة؛ فقال قتادة: نعم، فضَّل الله بعض النبيين على بعضٍ، فاتخذ إبراهيمَ خليلًا، وكلَّم موسى تكليمًا، وجعل عيسى كلمتَه ورُوحَه، وآتى سليمانَ مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وآتى داود زبورًا، وغفر لمحمدٍ ما تقدمَ من ذنبِه وما تأخَّر). ((البسيط)) (١٣/ ٣٦٧).

وقال ابن عطية: (تفضيلُ بعض الرسل هو إمَّا بهذا الإخبار المجمَلِ دون أن يسمَّى المفضول، وعلى هذا يتَّجِه لنا أن نقولَ: محمد أفضلُ البشر، وقد نهى عليه السلامُ عن تعيين أحدٍ منهم في قصَّةِ موسى ويونس، وإمَّا أن يكون التفضيلُ مقسَّمًا فيهم: أُعطيَ هذا التكليمَ، وأُعطي هذا

كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

أي: وأعطَيْنا نَبِيَّنا داوُدَ كِتابَ الزَّبورِ[(١)] وفضَّلْناه به؛ فليس للمُكَذِّبينَ بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُنكِروا تَفضِيلَنا له بالنُبُوَّةِ والقُرآنِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ

الخُلَّة، ومحمَّدٌ الخُمُسَ، وعيسى الإحياءَ، فكلُّهم مفضولٌ على وجه فاضِلٌ على الإطلاق). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٤-٤٦٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (معلومٌ أنَّ المُرسَلينَ يتفاضَلونَ، تارةً في الكتُبِ المُنَزَّلةِ عليهم، وتارةً في الآياتِ والمُعجِزاتِ الدَّالَّةِ على صِدقِهم، وتارةً في الشَّرائِعِ وما جاؤوا به مِن العِلمِ والعَمَلِ، وتارةً في أُمَمِهم). ((الجواب الصحيح)) (٥/ ١٣٣).

وقال ابنُ كثير: (هذا لا ينافي ما ثَبَت في الصَّحيحَينِ عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: «لا تُفَضِّلوا بينَ الأنبياءِ»؛ فإنَّ المرادَ مِن ذلك هو التَّفضيلُ بمُجَرَّدِ التشَهِّي والعَصَبيَّة، لا بمُقتَضى الدَّليلِ؛ فإنَّه إذا دَلَّ الدَّليلُ على شيءٍ وَجَب اتِّباعُه... ولا خِلافَ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أفضَلُهم، ثمَّ بَعدَه إبراهيمُ، ثمَّ موسى، على المَشهورِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٧-٨٨). ويُنظر أيضًا: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٣٧)، فقد ذكَر في الجوابِ عن هذا الحديثِ خمسةَ أوجهٍ أُخرَى.

(١) قال القرطبي: (الزَّبورُ: كِتابٌ ليس فيه حَلالٌ ولا حَرامٌ، ولا فرائِضُ ولا حُدودٌ، وإنَّما هو دُعاءٌ وتحميدٌ وتَمجيدٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٨).

وقال ابن عاشور: (الزبورُ:... وهو المعروفُ اليومَ بكتابِ المزاميرِ مِن كُتبِ العهدِ القديمِ [على ما دخَلها مِن تحريفٍ]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

قال القرطبيُّ: (أيْ: كما آتَيْنا داودَ الزَّبورَ فلا تُنْكِروا أنْ يُؤْتَى مُحَمَّدٌ القرآنَ. وهو في مُحاجَّةِ اليَهودِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٨).

ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۞ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۞ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةًۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۞ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ١٧-٢٠].

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا جَرى ذِكْرُ الأفضَلِينَ من الأنبياءِ في أثناءِ آيةِ الرَّدِّ على المُشركينَ مقالتَهم في اصطفاءِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للرِّسالةِ، واصطفاءِ أتباعِه لولايتِه ودِينِه، وهي آيةُ ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ إلى آخرِها [الإسراء: ٥٥]- جاءتِ المُناسَبةُ لرَدِّ مقالةٍ أُخرى من مقالاتِهم الباطلةِ، وهي اعتذارُهم عن عِبادةِ الأصنامِ بأنَّهم ما يَعْبدونَهم إلَّا ليُقرِّبوهم إلى اللهِ زُلْفى، فجَعلوهم عِبادًا مُقرَّبينَ ووسائِلَ لهم إلى اللهِ، فلمَّا جَرى ذِكرُ المُقرَّبينَ حقًّا؛ انتُهِزَت مُناسَبةُ ذِكرِهم؛ لِتَكونَ مَخلَصًا إلى إبطالِ ما ادَّعَوه من وسيلةِ أصنامِهم، فهذه الآيةُ متَّصِلةُ المعنى بآيةِ ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢] فبعد أن أبطلَ أن يكونَ مع اللهِ آلهةٌ ببُرهانِ العَقلِ، عاد إلى إبطالِ إلهيَّتِهم المزعومةِ ببُرهانِ الحِسِّ، وهو مُشاهَدةُ أنَّها لا تُغني عنهم كَشفَ الضُّرِّ؛ فأصلُ ارتباطِ الكلامِ هكذا: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ ... ﴾ [الإسراء: ٥٧] الآية. فبمُناسبةِ الثَّناءِ عليهم بابتهالِهم إلى ربِّهم ذكَرَ ضِدَّ ذلك مِن دُعاءِ المُشرِكين آلهتَهم، وقَدَّم ذلك على الكلامِ الذي أثارَ المُناسَبةَ؛ اهتمامًا بإبطالِ فِعلِهم؛

ليكونَ إبطالُه كالغَرَضِ المقصودِ، ويكونَ ذِكرُ مُقابِلِه كالاستدلالِ على ذلك الغَرَضِ[(١)].

﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- للمُشرِكينَ: ادعُوا الذينَ زَعَمتُم أنَّهم آلهةٌ مِن دُونِ اللهِ عندَ حُلولِ الشَّدائِدِ بكم، فانظُروا هل يَقدِرونَ على أن يُزيلُوا الضُّرَّ عنكم بالكُلِّيَّةِ، أو يُحَوِّلوه مِن حالٍ إلى حالٍ، فيُغيِّروا صفتَه أو قدرَه، أو يُحَوِّلوه إلى غَيرِكم[(٢)]؛ فإنَّهم لا يَقدِرونَ على ذلك، وإنَّما يَقدِرُ عليه اللهُ وَحدَه، فإذا كانوا بهذه الصِّفةِ فلأيِّ شَيءٍ تَدعونَهم مِن دُونِ اللهِ[(٣)]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٦-١٣٧).

(٢) وممَّن فسَّر قولَه تعالى: ﴿تَحۡوِيلًا﴾: بأنَّه تحويلُ الضرِّ مِن شخصٍ إلى آخرَ: ابنُ جرير، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٨).

وممَّن فسَّره بأنَّه تحويلُ حالِ الشخصِ إلى حالٍ أُخرَى، كتحويلِ المرضِ إلى الصحَّةِ، والفقرِ إلى الغنَى: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٩).

وممن جمَع بينَ المعنيينِ السابقينِ: ابنُ تيميةَ، والشنقيطي.

قال ابنُ تيميَّةَ: (بيَّنَ أنَّهم لا يَملِكونَ كَشْفَ الضُّرِّ عن الدَّاعِينَ ولا تَحويلَه؛ لا يَرفَعونَه بالكُلِّيَّةِ، ولا يُحَوِّلونَه مِن مَوضعٍ إلى موضعٍ، أو مِن حالٍ إلى حالٍ، كتَغييرِ صِفتِه أو قَدْرِه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ فذُكِرَ نَكِرةً تَعُمُّ أنواعَ التَّحويلِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٢٦).

وقال الشنقيطي: (﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾، أي: تحويلَه من إنسانٍ إلى آخرَ، أو تحويلَ المرضِ إلى الصحَّةِ، والفَقرِ إلى الغنى، والقحطِ إلى الجدبِ، ونحو ذلك). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٢).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾.

أي: أولئك الذين يَزعُمُ المُشرِكونَ أنَّهم آلِهةٌ مِن دُونِ اللهِ، مِن المَلائِكةِ والأنبياءِ، والصَّالحينَ مِن الإنسِ والجِنِّ، هم أنفُسُهم يَطلُبُونَ التقرُّبَ إلى اللهِ بطاعَتِه مِن الواجِباتِ والمُستَحَبَّاتِ، ويَدْعونَه ويَستَعيذونَ به وَحْدَه؛ فلماذا يَعبُدُهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ[1]؟!

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّه قال في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾ قال: (كان نَفَرٌ مِنَ الجنِّ أسلَمُوا، وكانوا يُعبَدونَ، فبَقِيَ الذين كانوا يَعْبُدونَ على عِبادتِهم، وقد أسلَمَ النَّفَرُ مِن الجِنِّ)[2].

﴿ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾.

أي: يَتنافَسونَ في عبادةِ اللهِ والاجتهادِ في طاعتِه مُنافَسةَ مَن يَطلُبُ أن يكونَ إليه أقرَبَ مِن الآخَرينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٢٨، ٥٢٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣١٢)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٨، ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

قال ابنُ عطيةَ: (والضَّميرُ في ﴿رَبِّهِمُ﴾ للمتَّبَعينَ أو للجَميعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٥-٤٦٦).

(٢) رواه البخاري (٤٧١٥)، ومسلم (٣٠٣٠) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٥٠)، ((تفسير

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾.

أي: ويَرجُونَ بعِبادتِهم اللهَ رَحمَتَه، فيَبذُلونَ ما يَقدِرونَ عليه مِن الأعمالِ الصَّالحةِ المُقَرِّبةِ إلى اللهِ تعالى وإلى رَحمتِه، ويخافونَ عَذابَه، فيَجتَنِبونَ كُلَّ ما يُوصِلُ إلى عذابِه، فكيف يَعبُدُهم المُشرِكونَ، وتلك هي حالُهم[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩ - ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ثم علَّل خوفَهم بأمرٍ عامٍّ، فقال تعالى[2]:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

أي: إنَّ عذابَ ربِّك -يا مُحمَّدُ- كان مُتَّقًى مَخُوفًا، لا أمانَ لأحدٍ منه؛ فمُلازَمةُ الحَذَرِ مِن الوُقوعِ في أسبابِه تنبغي لكُلِّ أحَدٍ مِن مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، ونَبيٍّ مُرسَلٍ، فضلًا عن غَيرِهم[3].

السعدي)) (ص: ٤٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

قال ابنُ تيميَّةَ: (و﴿رَحْمَتَهُۥ﴾ اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ خَيرٍ. ﴿وَعَذَابَهُۥٓ﴾ اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ شَرٍّ. ودارُ الرَّحمةِ الخالِصةِ هي الجنَّةُ، ودارُ العذابِ الخالِصِ هي النَّارُ، وأمَّا الدُّنيا فدارُ امتزاجٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ [المعارج: ٢٧-٢٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ فيه الأمرُ بحُسنِ العِشرةِ بين المُؤمِنينَ، وخَفضِ الجَناحِ ولِينِ الجانِبِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ هذا أمرٌ بكُلِّ كَلامٍ يُقَرِّبُ إلى اللهِ؛ مِن قراءةٍ وذِكرٍ وعِلمٍ، وأمرٍ بمَعروفٍ ونَهيٍ عن مُنكَرٍ، وكلامٍ حَسَنٍ لطيفٍ مع الخَلقِ على اختلافِ مراتِبِهم ومَنازِلِهم[٢].

٣- إذا دار الأمرُ بينَ أمرَينِ حَسَنينِ؛ فإنَّه يُؤمَرُ بإيثارِ أحسَنِهما إن لم يُمكِنِ الجَمعُ بينهما؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ هذا تأديبٌ عَظيمٌ في مُراقَبةِ اللِّسانِ وما يَصدُرُ منه[٤].

٥- قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾ فالشَّيطانُ يَنزَغُ بينهم إذا كَلَّمَ بَعضُهم بعضًا بغيرِ التي هي أحسَنُ، فرُبَّ حَربٍ وَقُودُها جُثَثٌ وهامٌ[٥]، أهاجَها القَبيحُ مِن الكلامِ[٦].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٧-١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) .

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣١).

(٥) هامٌ: جمعُ هامةٍ، وهي الرأسُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٣٠).

(٦) يُنظر: ((الطرق الحكمية)) لابن القيم (ص: ٤١).

ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ لَمَّا كان ضَميرُ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ عائِدًا إلى ﴿عِبَادِي﴾، كان المعنى فيه التَّحذيرَ مِن إلقاءِ الشَّيطانِ العَداوةَ بين المُؤمِنينَ؛ تحقيقًا لمَقصِدِ الشَّريعةِ مِن بَثِّ الأُخُوَّةِ الإسلاميَّةِ(١).

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ ذِكرُ الحُجَّةِ ينبغي ألَّا يكونَ مَخلوطًا بالشَّتمِ والسَّبِّ، ونظيرُ هذه الآيةِ قَولُه تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقَولُه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]؛ وذلك لأنَّ ذِكرَ الحُجَّةِ لو اختلَطَ به شَيءٌ مِن السَّبِّ والشَّتمِ، لحصَلَت المقابلةُ بمِثلِه، كما قال: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الأنعام: ١٠٨] ويزدادُ الغَضَبُ وتتكامَلُ النُّفرةُ ويمتَنِعُ حُصولُ المقصود، أمَّا إذا وقع الاقتصارُ على ذِكرِ الحُجَّةِ بالطَّريقِ الأحسَنِ الخالي عن الشَّتمِ والإيذاءِ، أثَّرَ في القلبِ تأثيرًا شديدًا(٢).

٨- قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ وعلامةُ المحبَّةِ ما ذكَرَه اللهُ: أن يجتَهِدَ العَبدُ في كُلِّ عَملٍ يقرِّبُه إلى الله، ويُنافِسَ في قُربِه بإخلاصِ الأعمالِ كُلِّها لله، والنُّصحِ فيها وإيقاعِها على أكمَلِ الوجوهِ المقدورِ عليها، فمَن زعَمَ أنَّه يحِبُّ اللهَ بغيرِ ذلك فهو كاذِبٌ(٣).

٩- الحُبُّ والخَوفُ والرَّجاءُ: هذه الثَّلاثةُ هي التي تَبعَثُ على عِمارةِ الوَقتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٢٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

بما هو الأَوْلى لصاحِبِه والأنفَعُ له، وهي أساسُ السُّلوكِ والسَّيرِ إلى اللهِ، وقد جَمَعَ اللهُ سُبحانَه الثَّلاثةَ في قَولِه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ فابتغاءُ الوَسيلةِ هو مَحَبَّتُه الدَّاعيةُ إلى التقَرُّبِ إليه، ثمَّ ذكَرَ بَعدَها الرَّجاءَ والخَوفَ، وهذه الثَّلاثةُ هي قُطبُ رَحَى العُبوديَّةِ، وعليها دارَتْ رَحَى الأعمالِ، وهي الأصلُ والمادةُ في كلِّ خيرٍ، فمَن تمَّت له تمَّت له أمورُه، وإذا خلا القلبُ منها ترحَّلت عنه الخيراتُ، وأحاطَتْ به الشرورُ، قال بَعضُ السَّلَفِ: (مَن عَبَدَ اللهَ تعالى بالحُبِّ وَحْدَه فهو زِنديقٌ، ومَن عَبَدَه بالخَوفِ وَحْدَه فهو حَرُوريٌّ، ومَن عبَدَه بالرَّجاءِ وَحْدَه فهو مُرْجئٌ، ومَن عبَدَه بالحُبِّ والخَوفِ والرَّجاءِ فهو مُؤمِنٌ)[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ لا تَتِمُّ العِبادةُ إلَّا بالخَوفِ والرَّجاءِ؛ فبالخَوفِ يَنكَفُّ عن المناهي، وبالرَّجاءِ يَنبَعِثُ على الطَّاعاتِ[٢].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، قال سَهلُ بنُ عبدِ اللهِ: (الرَّجاءُ والخَوفُ مِيزانانِ على الإنسانِ، فإذا استوَيَا استقامَت أحوالُه، وإن رجَحَ أحَدُهما بطَلَ الآخَرُ)[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡ ﴾ عَلَّقَ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٢٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٠).

سُبحانَه وتعالى الرَّحمةَ بالمَشيئةِ كما عَلَّقَ التَّعذيبَ، وما تعلَّقَ بالمشيئةِ مِمَّا يتَّصِفُ به الرَّبُّ فهو مِن «الصِّفاتِ الاختياريَّةِ»(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ فيه سؤالٌ: ما السَّبَبُ في تخصيصِ داودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في هذا المقامِ بالذِّكرِ؟

الجوابُ مِن وجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ الله تعالى ذكَرَ أنَّه فضَّلَ بعضَ النبيِّينَ على بعضٍ، ثمَّ قال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾، يعني: أنَّ داود كان مَلِكًا عَظيمًا، ثمَّ إنَّه تعالى لم يذكُرْ ما آتاه مِن المُلكِ وذكَرَ ما آتاه مِن الكِتابِ؛ تنبيهًا على أنَّ التَّفضيلَ الذي ذكَرَه قبل ذلك المرادُ منه التَّفضيلُ بالعِلمِ والدِّينِ لا بالمالِ.

الوجه الثاني: أنَّ السَّبَبَ في تخصيصِه بالذِّكرِ أنَّه تعالى كتَبَ في الزَّبورِ أنَّ مُحمَّدًا خاتَمُ النبيِّين، وأنَّ أمَّتَه خَيرُ الأمَمِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وهم مُحمَّد وأمَّتُه.

الوجه الثالث: أنَّ السَّببَ فيه أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ ما كانوا أهلَ نظَرٍ وجَدَلٍ، بل كانوا يرجِعون إلى اليهودِ في استِخراجِ الشُّبُهاتِ، واليهودُ كانوا يقولون: إنَّه لا نبيَّ بعد موسى ولا كِتابَ بعد التَّوراةِ، فنقَضَ اللهُ تعالى عليهم كلامَهم بإنزالِ الزَّبورِ على داودَ(٢).

الوجه الرابع: أنَّه اجتمَعَ له ما لم يجتَمِعْ لِغَيرِه من الأنبياءِ، وهو الرِّسالةُ والكتابةُ والخَطابةُ، والخِلافةُ والمُلك والقَضاءُ، في زمَنٍ واحدٍ؛ قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وقال: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٦).

خَلِيفَةَ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾[(١)] [ص: ٢٦].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ فيه سؤالٌ: لمَ نَكَّر الزَّبورَ هنا، وعَرَّفه في قَولِه: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]؟

الجوابُ مِن وجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ التنكيرَ هاهنا يدُلُّ على تعظيمِ حالِه؛ لأنَّ الزَّبورَ عِبارةٌ عن المزبورِ، فكان معناه الكِتابَ، فكان معنى التنكيرِ أنَّه كامِلٌ في كونِه كِتابًا[(٢)].

الوجه الثاني: أنَّه يجوزُ أن يكونَ الزَّبورُ مِن الأعلامِ التي يُستعمَلُ بـ «أل» وبدونِها، كـ (العبَّاس)، و(الفضل).

الوجه الثالث: يجوزُ أن يكونَ نكَّرَه في موضِعِ تنكيرِه، بمعنى: آتيناه بعضَ الزُّبُرِ وهي الكُتُبُ، أو أراد به ما فيه ذِكرُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من الزَّبورِ، فسمَّى بعضَ الزَّبورِ زَبورًا، كما سَمَّى بعضَ القُرآنِ قُرآنًا في قَولِه تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾[(٣)] [الإسراء: ١٠٦].

٤- وقال: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ في قولِه: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ مع أنَّ المُشركينَ ما زَعَموا غيرَ اللهِ إلهًا دونَ اللهِ، بلْ مع اللهِ على وجْهِ الشَّركةِ؛ لأنَّ في الكلامِ تَقديمًا وتأخيرًا، تَقديرُه: (قُلِ ادْعوا الَّذين من دونِ اللهِ زَعْمتم أنَّهم شُركاءُ)[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٧-٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٨).

٥- قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ فذِكْرُ المقاماتِ الثَّلاثةِ: الحُبُّ -وهو ابتِغاءُ القُربِ إليه، والتوسُّلُ إليه بالأعمالِ الصَّالحةِ-، والرَّجاءُ والخَوفُ؛ يدُلُّ على أنَّ ابتغاءَ الوَسيلةِ أمرٌ زائِدٌ على رجاءِ الرَّحمةِ وخَوفِ العَذابِ، ومِن المعلومِ قَطعًا أنَّك لا تتنافَسُ إلَّا في قُربِ من تحِبُّ قُربَه، وحُبُّ قُربِه تَبَعٌ لمحبَّةِ ذاتِه، بل محبَّةُ ذاتِه أوجبت محبَّةَ القُربِ منه. وعند الجهميَّةِ والمُعطِّلة: ما من ذلك كُلِّه شَيءٌ! فإنَّه عندهم لا تَقرُبُ ذاتُه مِن شَيءٍ، ولا يَقرُبُ مِن ذاتِه شيءٌ، ولا يُحَبُّ لِذاتِه، ولا يحِبُّ! فأنكروا حياةَ القلوبِ، ونعيمَ الأرواحِ، وبَهجةَ النُّفوسِ، وقُرَّةَ العيونِ، وأعلى نعيمِ الدُّنيا والآخرةِ؛ ولذلك ضُرِبَت قلوبُهم بالقَسوةِ، وضُرِبَت دونَهم ودونَ الله حُجُبٌ على معرفتِه ومحبَّتِه، فلا يَعرِفونَه ولا يحبُّونَه، ولا يذكرونَه إلَّا عند تعطيلِ أسمائِه وصفاتِه[1]!

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بقولِ الَّتي هي أحسَنُ، والمقصودُ من التَّعليلِ: ألَّا يَستَخِفُّوا بفاسدِ الأقوالِ؛ فإنَّها تُثيرُ مفاسدَ من عمَلِ الشَّيطانِ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿يَنزَغُ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٢).

بَيْنَهُمْ ﴾، وعِلَّةُ العلَّةِ علَّةٌ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

- قولُه: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أُتِيَ بالمُسنَدِ إليه بلفْظِ الرَّبِّ ﴿ رَّبُّكُمْ ﴾ مُضافًا إلى ضَميرِ المُؤمنينَ الشَّاملِ للرَّسولِ؛ تَذكيرًا بأنَّ الاصطفاءَ للخيرِ شأْنٌ مِن معنى الرُّبوبيَّةِ الَّتي هي تَدبيرُ شُؤونِ المرْبوبينَ بما يَليقُ بحالِهم؛ ليكونَ لإيقاعِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه بعدَ ذلك بقولِه: ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ وقْعٌ بَديعٌ؛ لأنَّ الَّذي هو الرَّبُّ هو الَّذي يكونُ أعلَمَ بدَخائلِ النُّفوسِ وقابليَّتِها للاصطفاءِ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ مُبيِّنةٌ للمقصودِ من جُملةِ ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾، والرَّحمةُ والتَّعذيبُ مُكنًّى بهما عن الاهتداءِ والضَّلالِ؛ بقرينةِ مُقارنتِه لقولِه: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ الَّذي هو كالمُقدِّمةِ، وسلَكَ سبيلَ الكِنايةِ بهما لإفادةِ فائدتينِ: صَريحِهما وكِنايتِهما، ولإظهارِ أنَّه لا يُسْأَلُ عمَّا يفعَلُ؛ لأنَّه أعلَمُ بما يَليقُ بأحوالِ مَخلوقاتِه[٣].

- وفائدةُ ذِكْرِ شرْطِ المشيئةِ هنا ﴿إِن يَشَأْ﴾: التَّعليمُ بأنَّه تَعالى لا مُكرِهَ له، فجمَعَتِ الآيةُ الإشارةَ إلى صِفَةِ العلمِ والحكمةِ، وإلى صِفَةِ الإرادةِ والاختيارِ. وإعادةُ شرْطِ المشيئةِ في الجُملةِ المعطوفةِ -﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾-؛ لتأكيدِ تَسلُّطِ المشيئةِ على الحالتينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٥).

- وفي قولِه: ﴿أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡ﴾ جِيءَ بالعطفِ بحرْفِ (أو) الدَّالَّةِ على أحَدِ الشَّيئينِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ والتَّعذيبَ لا يَجتمعانِ؛ فـ(أو) للتَّقسيمِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ زِيادةٌ لبيانِ أنَّ الهِدايةَ والضَّلالَ من جعْلِ اللهِ تَعالى، وأنَّ النَّبيَّ غيرُ مَسؤولٍ عن استمرارِ مَن استمَرَّ في الضَّلالةِ؛ إزالةً للحرَجِ عنه فيما يجِدُه من عدَمِ اهتداءِ مَن يَدْعوهم، أي: ما أرسَلْناك لتُجْبِرَهم على الإيمانِ، وإنَّما أرسلناك داعيًا، والمعنى: أرسَلْناك نَذيرًا وداعيًا لهم، وما أرسلناك عليهم وكيلًا، فيُفيدُ معنى القصْرِ؛ لأنَّ كونَه داعيًا ونذيرًا معلومٌ بالمُشاهَدةِ، فإذا نُفِيَ عنه أنْ يكونَ وكيلًا ومُلْجِئًا آلَ إلى معنى: ما أنت إلَّا نَذيرٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿وَكِيلٗا﴾، وقُدِّمَ على مُتعلَّقِه؛ للاهتمامِ، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ هذا انتقالٌ من الخُصوصِ إلى العُمومِ؛ بعدما ذكَرَ تعالى أنَّه أعلَمُ بمَن خاطَبَهم بقولِه: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡ﴾، فقال مُخاطِبًا لرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾؛ ليُبيِّنَ أنَّ علْمَه غيرُ مقصورٍ عليكم، بلْ علْمُه مُتعلِّقٌ بجميعِ مَن في السَّمواتِ والأرضِ؛ بأحوالِهم ومقاديرِهم، وما يستأهِلُ كلَّ واحدٍ منهم[٤]. وقولُه: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٦٨).

وَٱلْأَرْضِ ﴾ كالمُقدِّمةِ لقولِه: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ الآيةَ؛ أعاد تَذكيرَهم بأنَّ اللهَ أعلَمُ منهم بالمُستأهِلِ للرِّسالةِ بحسَبِ ما أعدَّه اللهُ فيه مِن الصِّفاتِ القابلةِ لذلك. وكان الحكمُ في هذه المُقدِّمةِ على عُمومِ الموجوداتِ؛ لتكونَ بمنزلةِ الكُليَّةِ الَّتي يُؤْخَذُ منها كلُّ حُكمٍ لجُزئيَّاتِها؛ لأنَّ المقصودَ بالإبطالِ مِن أقوالِ المُشركينَ جامعٌ لصُورٍ كثيرةٍ من أحوالِ الموجوداتِ مِن البشرِ والملائكةِ وأحوالِهم؛ لأنَّ بعضَ المُشركينَ أحالوا إرسالَ رسولٍ من البشَرِ، وبعضَهم أحالوا إرسالَ رسولٍ ليس من عُظمائِهم، وبعضَهم أحالوا إرسالَ مَن لا يأتي بمثْلِ ما جاء به مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذلك يثيرُ أحوالًا جمَّةً من العُصورِ والرِّجالِ والأُمَمِ أحياءً وأمواتًا؛ فلا جرَمَ كان للتَّعميمِ موقعٌ عظيمٌ في قولِه: ﴿ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وهو أيضًا كالمُقدِّمةِ لجُملةِ ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، مُشيرًا إلى أنَّ تفاضُلَ الأنبياءِ ناشئٌ على ما أودَعَه اللهُ فيهم من مُوجِباتِ التَّفاضُلِ، وهذا إيجازٌ تضمَّنَ إثباتَ النُّبوَّةِ وتَقرُّرَها فيما مَضى ممَّا لا قِبَلَ لهم بإنكارِه[1].

- وفي تَغييرِ أُسلوبِ الخطابِ أيضًا في قولِه: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ ﴾ بعدَ قولِه: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾: إيماءٌ إلى أنَّ الغرضَ من هذه الجُملةِ عائدٌ إلى شأْنٍ من شُؤونِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّتي لها مَزيدُ اختصاصٍ به، تَقفيةً على إبطالِ أقوالِ المُشركينَ في شُؤونِ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ، بإبطالِ أقوالِهم في أحوالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٦).

عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾

- قولُه: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث قال هنا: ﴿ مِّن دُونِهِۦ ﴾، وقال في سُورةِ (سبَأٍ): ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [سبأ: ٢٢]؛ فورَدَ اسمُ الجَلالةِ مُضمرًا في قولِه: ﴿ مِّن دُونِهِۦ ﴾ في سُورةِ (الإسراءِ)، ومُظهَرًا في قولِه: ﴿ مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ في السُّورةِ الأُخرى؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لمَّا قرُبَ مرجِعُه هنا في سُورةِ (الإسراءِ)، وهو الرَّبُّ في قولِه المُتقدِّمِ ذِكْرُه في الآيةِ الأُولى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ ﴾؛ عُبِّرَ عنه مُضمَرًا مُناسبةً، ولم يكُنْ ليُناسِبَ الظَّاهِرُ هنا، ولمَّا بَعُدَ مرجِعُ الضَّميرِ في سُورةِ (سبَأٍ) لو أُتِيَ به، أُتِيَ بالاسمِ الظَّاهرِ؛ فآيةُ سبَأٍ تقدَّمَ قبلَها قولُه تَعالى مُخبِرًا عن الكافرينَ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾ [سبأ: ٢٠]، ثمَّ قال بعدَ آيةٍ من تَمامِ الآيةِ الَّتي قبلَها: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [سبأ: ٢٢]؛ فجِيءَ بالاسمِ الظَّاهرِ؛ ليكونَ أبعَدَ على إيهامِ عودةِ الضَّميرِ ورُجوعِه إلى المُتَّبَعِ لهم في الآيةِ المُتقدِّمةِ، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[1].

- ومن المُناسبةِ الحَسنةِ أيضًا: وُرودُ قولِه: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ قبلَ قولِه: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾، بينما ورَدَ قبلَ آيةِ (سبأٍ) قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠]؛ فخُصَّت آيةُ (سبَأٍ) بعودةِ الاسمِ ظاهرًا دونَ آيةِ (الإسراءِ)؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه ورَدَ ذِكْرُه في (الإسراءِ) مُحذَّرًا منه موصوفًا بنَزغِه وعداوتِه، مع أنَّ الآيةَ خِطابٌ بأمْرِ المُؤمنين بقولِه: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء:

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣١٢-٣١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٨).

٥٣]، والإضافةُ في قولِه: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى ﴾ إضافةُ تَخصيصٍ، والأمْرُ أمْرٌ بما هو أوْلى، وليس يُواجَهُ ولا يُخاطَبُ بها إلَّا المُؤمنون، ثمَّ إنَّها أُتْبِعَت بما يُلائِمُ الآيةَ المُتكلَّمَ فيها أجَلَّ مُلاءمةٍ. وأمَّا وُرودُ ذكْرِ إبليسَ في سُورةِ (سبأٍ) فمُتَّصلٌ بالآيةِ، وإبليسُ فيها موصوفٌ بأنَّه اتُّبِعَ، وأنَّه صدَّقَ ظنَّه على المذكورينَ، والآيةُ إخبارٌ عن الكُفَّارِ، والكلامُ كلُّه إعلامٌ بحالِهم إلى قولِه: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ [سبأ: ٢٢]، فهذا الاعتراضُ غيرُ لازمٍ، ووُرودُ كلٍّ من الآيتينِ على أعلى تناسُبٍ وأجَلِّ مُلاءمةٍ، ولو قُدِّرَ عكْسُ الواردِ لَمَا صَحَّ على الجاري المُطَّردِ في نظْمِ الكتابِ العزيزِ[(١)].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾

- قولُه: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ ذُكِرَ خوفُ العذابِ بعدَ رجاءِ الرَّحمةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم في موقفِ الأدبِ مع ربِّهم، فلا يَزيدُهم القُربُ من رِضاهُ إلَّا إجلالًا له، وخوفًا من غضَبِه. وهو تَعريضٌ بالمُشركين الَّذين رَكِبوا رُؤوسَهم، وتوغَّلوا في الغُرورِ، فزَعموا أنَّ شُركاءَهم شُفعاؤُهم عند اللهِ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ تَذييلٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) (٢/ ٣١٢-٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٤١).

الآيات (٥٨-٦٠)

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَسْطُورًا﴾: أي: مَكتوبًا مَحفوظًا، وأصْلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ الشَّيءِ[١].

﴿فِتْنَةً﴾: أي: اختِبارًا وابتِلاءً، مِن الفَتنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه مِن رداءتِه[٢].

﴿طُغْيَـٰنًا﴾: أي: تماديًا وغَيًّا، والطُّغيانُ: مُجاوزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يتوعَّدُ اللهُ الكفَّارَ بأنَّه ما من قريةٍ كافرةٍ مُكَذِّبةٍ للرُّسُلِ إلَّا وسيُنزِلُ بها عقابَه بالهلاكِ في الدُّنيا قبلَ يومِ القيامةِ، أو بالعذابِ الشَّديدِ لأهلِها، كتابٌ كتَبَه اللهُ وقَضاءٌ أبرَمَه لا بُدَّ مِن وقوعِه، وهو مَسطورٌ في اللَّوحِ المحفوظِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢ - ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠).

ثم يُبيِّنُ الله تعالى بعضَ مظاهرِ فضلِه على هذه الأُمةِ، فيقولُ: وما منعَنا مِن إنزالِ المُعجِزاتِ التي سألها المُشرِكون إلَّا تكذيبُ مَن سبَقَهم من الأُمَم، فقد أجابهم اللهُ إلى ما طَلَبوا فكذَّبوا وهَلَكوا.

ثمَّ ذكَر الله تعالى مثالًا على ذلك؛ قومَ صالحٍ، فقال: وأعطَينا ثمودَ -وهم قَومُ صالحٍ- النَّاقةَ مُعجِزةً واضِحةً لهم، فكَفَروا بها فأهلَكْناهم. وما نرسِلُ بالآياتِ إلَّا تخويفًا للعبادِ؛ لِيَعتَبِروا ويتذَكَّروا.

ثمَّ ذكَر تعالى ما يزيدُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ثباتًا، ويقينًا، فقال: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حين قُلْنا لك: إنَّ رَبَّك أحاط بالنَّاسِ عِلمًا وقُدرةً، وما جعَلْنا الرُّؤيا التي أريناكها عِيانًا ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ إلَّا اختِبارًا وبلاءً للنَّاسِ؛ ليتمَيَّزَ كافِرُهم مِن مُؤمِنِهم، وما جعَلْنا شَجَرةَ الزقُّومِ الملعونةَ التي ذُكِرَت في القرآنِ إلَّا ابتلاءً للنَّاسِ، ونخوِّفُ المُشرِكين بأنواعِ العذابِ والآياتِ، ولا يزيدُهم التَّخويفُ إلَّا تماديًا في الكُفرِ والضَّلالِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، بيَّن أنَّ كُلَّ قريةٍ من قرى الكفارِ مع أهلِها فلا بدَّ أن يرجِعَ حالُها إلى أحَدِ أمرَينِ: إمَّا الإهلاكِ، وإمَّا التَّعذيبِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٨).

وأيضًا لما عَرَّض بالتَّهديدِ للمشركينَ في قولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، وتحدَّاهم بقولِه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٦] جاء بصريحِ التَّهديدِ على مَسْمَعٍ منهم[(١)]، فقال:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

أي: وما مِن قَريةٍ مِن القُرَى إلَّا سنُهلِكُ أهلَها بعذابِ الاستِئصالِ قبلَ وُقوعِ يومِ القيامةِ، أو نعَذِّبُهم عذابًا شَديدًا بتَسليطِ عَدُوٍّ عليهم، أو بإصابتِهم بالجُوعِ أو بالخَوفِ أو بالأمراضِ وغَيرِها؛ وذلك بسَببِ كُفرِهم أو عِصيانِهم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

ممن اختار أنَّ المرادَ بالقرَى هنا: القُرى الكافرةُ الظالمةُ: القصَّاب، والخازن، وابنُ كثير، والبقاعي، وأبو السعودِ، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٧٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

قال الشنقيطي: (قال بعضُ أهلِ العلمِ: في هذه الآيةِ الكريمةِ حذفُ الصِّفةِ، أي: وإنْ مِنْ قريةٍ ظالمةٍ إلَّا نحنُ مُهْلِكوها. وهذا النعتُ المحذوفُ دَلَّتْ عليه آياتٌ مِنْ كتابِ الله تعالَى؛ كقولِه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وقولِه: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]، أي: بل لا بُدَّ أنْ تُنذِرَهم الرُّسلُ فيكفُروا بهم وبربِّهم، وقولِه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، وقولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨، ٩] إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٦٣).

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ * قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا

وممن اختار أنَّ المرادَ عمومُ القرى: ابن جرير، والزجاج، والسمعاني، وابن عطية، والرازي، والرسعني، والبيضاوي، وأبو حيان، والثعالبي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٣٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧١)، ((تفسير الثعالبي)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٩٦).

قال مقاتلُ بنُ سليمان، والسمعاني، وابنُ الجوزي: القريةُ الصالحةُ هلاكُها بالموت، والعاصيةُ بالعذابِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٣).

وقال ابنُ عطية: (وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ ...﴾ الآية: أخبَر الله تعالى في هذه الآيةِ أنَّه ليس مدينةٌ مِن المدنِ إلا هي هالكةٌ قبلَ يومِ القيامةِ بالموتِ والفناءِ، هذا مع السلامةِ وأخذِها جزءًا جزءًا، أو هي معذبةٌ مأخوذةٌ مرةً واحدةً، فهذا عمومٌ في كلِّ مدينةٍ. و﴿مِّن﴾ لبيان الجنس). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٦).

وقال ابنُ جزي: (يحتمِلُ هذا الهلاكُ وجهينِ:

أحدهما: أن يكونَ بالموتِ والفناءِ الذي لا بدَّ منه، والآخرُ أن يكونَ بأمرٍ مِن الله، يأخذُ المدينةَ دفعةً فيهلكُها، وهذا أظهرُ؛ لأن الأولَ معلومٌ لا يفتقرُ إلى الإخبارِ به، والهلاكُ والتعذيبُ المذكورانِ في الآيةِ هما في الحقيقةِ لأهلِ القرى، أي: مهلكو أهلِها أو معذِّبوهم). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٩).

وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۞ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾.

أي: إنَّ هَلاكَ كُلِّ قَريةٍ أو تعذيبَها بعذابٍ شَديدٍ قبلَ يومِ القيامةِ أمرٌ مَكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، لا بُدَّ مِن وُقوعِه لا محالةَ(١).

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ الدَّليلَ على فسادِ قَولِ المُشرِكين، وأتبَعَه بالوَعيدِ؛ أتبَعَه بذِكرِ مَسألةِ النبُوَّةِ(٢).

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

سبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((سأل أهلُ مكَّةَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أن يَجعلَ لهم الصَّفا ذهبًا، وأن يُنَحِّيَ الجبالَ عنهم فيَزدَرِعوا، فقيل له: إنْ شِئتَ أن تَستأنِيَ بهم، وإن شِئتَ أن تُؤتيَهم الذي سألوا، فإن كفَروا أُهلِكوا كما أهلكْتُ مَن قبلَهم، قال: لا، بل أستأني بهم، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الآيةَ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾))(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٣٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٩).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٣٣)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٢٩٠).

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾.

أي: وما منَعَنا أن نأتيَ بالآياتِ التي يقترِحُها كُفَّارُ قَومِك -يا مُحمَّدُ- إلَّا تكذيبُ الأوَّلينَ بها بعدَ أن سألوها، فكَذَّبوا فعَجَّلْنا بهلاكِهم، فإذا كذَّبَ بها قَومُك -يا محمَّدُ- استحَقُّوا ما استحَقَّه أولئك مِن الهلاكِ والعذابِ؛ فليس لهم مَصلحةٌ في الإرسالِ بها، بل حِكمتُه سُبحانَه تأبى ذلك[1].

﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا أخبَرَ الله تعالى بأنَّ الأوَّلينَ كذَّبوا بالآياتِ المُقترَحةِ؛ عيَّنَ منها ناقةَ صالحٍ؛ لأنَّ آثارَ ديارِهم الهالكةِ باقيةٌ في بلادِ العربِ، قَريبةٌ من حُدودِهم، يُبْصِرُها صادِرُهم ووارِدُهم[2].

﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾.

أي: وآتَينا ثمودَ النَّاقةَ آيةً وحُجَّةً واضِحةً مُوجِبةً للتبصُّرِ واليقينِ، ودالَّةً على وحدانيَّةِ الله تعالى وقُدرتِه، وصِدقِ رَسولِه صالحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فكَفَروا باللهِ، ووقَعوا في الظُّلمِ بقَتلِها، فلمَّا لم يُؤمِنوا كان في إجابتِهم إلى ما سألوا من الآياتِ هلاكُهم واستِئصالُهم[3]!

صحَّحه الذهبي في ((تاريخ الإسلام)) (١/ ٢١٣)، وجوَّد إسنادَه ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (٣/ ٤٩)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ٩٦)، وقال الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٧/ ١١٥٩): (رجالُه ثقاتٌ رِجالُ الشيخين، فهو على شرطِهما).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨١)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٣، ١٤].

﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾.

أي: وما نُرسِلُ بالآياتِ الموجبةِ للعِبَرِ والعِظاتِ إلَّا تَخويفًا للعبادِ؛ ليُؤمِنوا، ويرتَدِعوا عمَّا هم عليه[1].

ابن كثير)) (٥/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٣، ١٤٤).

قال ابنُ جرير: (يقول تعالى ذِكرُه: وقد سأل الآياتِ -يا محمَّدُ- مِن قَبلِ قَومِك ثمودُ، فآتيناها ما سألَتْ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٣٧).

وقال السمعاني: (﴿مُبۡصِرَةً﴾ أي: آيةً نيِّرةً مُضيئةً، أو: آيَة يُبصَرُ بها الحقُّ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٩١)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٥/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

واختُلِف في المرادِ بالآياتِ هنا؛ فقيل: هي معجزاتُ الرسلِ. وقيل: هي آياتٌ معها إمهالٌ لا معاجلةٌ، فمِن ذلك الكسوفُ والرعدُ والزلزلةُ. وقيل: هي الموتُ الذريعُ. وقيل: هي تقلُّبُ أحوالِ الإنسانِ مِن الصغرِ إلى المشيبِ. وذلك على اعتبارِ أن هذه الآياتِ غيرُ الآياتِ المقترحةِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٧).

قال ابنُ القيم: (هذا يعمُّ آياتِه التي تكونُ مع الرسُلِ، والتي تقع بعدَهم في كلِّ زمان؛ فإنَّه سبحانه لا يزالُ يُحدِثُ لعبادِه من الآياتِ ما يخوِّفُهم بها ويذكِّرُهم بها، ومن ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]). ((شفاء العليل)) (ص: ١٩٧).

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((خَسَفَت الشَّمسُ فقام النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَزِعًا، يخشَى أن تكونَ السَّاعةُ! فأتَى المسجِدَ فصَلَّى بأطوَلِ قيامٍ ورُكوعٍ وسُجودٍ رأيتُه قطُّ يفعَلُه، وقال: هذه الآياتُ التي يُرسِلُ اللهُ لا تكونُ لِموتِ أحدٍ ولا لحياتِه، ولكِنْ يخَوِّفُ اللهُ به عِبادَه، فإذا رأيتُم شيئًا مِن ذلك فافزَعوا إلى ذِكرِه، ودُعائِه، واستِغفارِه))[1].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لمَّا طالبوا الرسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالآياتِ المقترحةِ، وأخبَر الله بالمصلحةِ في عدمِ المجيءِ بها طعَن الكفارُ فيه، وقالوا: لو كان رسولًا حقًّا لأتَى بالآياتِ المقترحةِ؛ فبيَّن الله أنَّه ينصرُه ويؤيِّدُه، وأنَّه أحاطَ بالناسِ[2]، فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾.

أي: وإذْ قُلْنا لك[3] - يا محمَّدُ: إنَّ رَبَّك مُحيطٌ بالنَّاسِ بقُدرتِه وعِلمِه؛ فهم في

وقيل: المرادُ بالآياتِ هنا: الآياتُ المقترحةُ، أي: لا نرسلُ الآياتِ المقترحةَ إلَّا تخويفًا مِن نزولِ العذابِ، فإن لم يخافوا وقَع عليهم.

وممَّن اختار هذا القولَ: الخازنُ، والشوكاني، والقاسمي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ عاشورٍ. ينظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٤)

وقيل: المرادُ: الآياتُ المقترحاتُ وغيرُها، وممن اختاره البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١١/ ٤٥٦).

(١) رواه البخاري (١٠٥٩) واللفظ له، ومسلم (٩١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٣).

(٣) قال الشوكاني: (الظَّرفُ مُتَعَلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: اذكُرْ إذ قُلْنا لك). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٨٣).

قَبضتِه، وتحتَ مَشيئتِه، واللهُ يعصِمُك منهم حتى تبَلِّغَ رِسالتَه؛ فلا تَخشَ منهم أحدًا، وامضِ لِما أمَرْناك به مِن تبليغِ رِسالتِنا(١).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾.

أي: وما جعَلْنا رُؤيا عَينيك -يا محمَّدُ- التي أريناكَ ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ مِن الغَرائبِ والعَجائِبِ إلَّا اختِبارًا وبلاءً للنَّاسِ؛ ليتبيَّنَ مَن يُصَدِّقُك ومَن يُكَذِّبُك(٢).

كما قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۞ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۞ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۞ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۞ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۞ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۞ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ١١ - ١٨].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ قال: (هي رُؤيا عينٍ، أُرِيَها رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليلةَ أُسرِيَ به إلى بيتِ المقدِسِ)(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٣٩، ٦٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩١، ٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٤٦، ٦٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٥).

قال البقاعي: (ليتبيَّنَ بذلك في عالَمِ الشهادة المتَّقي المحسِنُ، والجاهِلُ المسيءُ، كما هو عندنا في عالَمِ الغيبِ، فنقيمَ بها عليهم الحُجَّةَ، لا ليؤمِنَ أحدُ مَن حَقَّت عليهم الكَلِمةُ، ولا لنزدادَ نحن علمًا بسرائرِهم). ((نظم الدرر)) (١١/ ٤٥٧-٤٥٨).

(٣) رواه البخاري (٣٨٨٨).

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾.

أي: وما جعَلْنا الشَّجَرةَ الملعونةَ[١] في القُرآنِ -وهي شَجرةُ الزقُّومِ النابتةُ في الجَحيمِ- إلَّا فِتنةً للنَّاسِ أيضًا؛ ليتبيَّنَ مَن يُصَدِّقُ بها، ومَن يكَذِّبُ ويَستهزِئُ بها؛ إذ قال المُشرِكون: يخبِرُنا مُحمَّدٌ أنَّ في النَّارِ شَجرةً نابتةً، والنَّارُ تأكُلُ الشَّجَرَ، فكيف تَنبُتُ فيها[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا

---

(١) قال البقاعي: (﴿ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ بكونِها ضارَّةً، والعرَبُ تسَمِّي كُلَّ ضارٍّ مَلعونًا، وبكونِها في دارِ اللَّعنةِ، وكُلُّ مَن له عَقلٌ يريدُ بُعْدَها عنه). ((نظم الدرر)) (١١/ ٤٥٩).

وقال ابن عاشور: (والملعونة، أي: المذمومة في القرآنِ، في قَولِه: ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٤]، وقَولِه: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]، وقولِه: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٥- ٤٦]. وقيل: معنى الملعونة: أنَّها موضوعةٌ في مكانِ اللعنةِ، وهي الإبعادُ مِن الرحمة؛ لأنَّها مخلوقةٌ في موضِعِ العذابِ. وفي «الكشاف»: قيل: تقولُ العرَبُ لكُلِّ طعامٍ ضارٍّ: ملعونٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٧، ١٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٥).

قال البقاعي: (ولم يقولوا ما هم أعلَمُ النَّاسِ به من أنَّ الذي جعل لهم من الشَّجَرِ الأخضَرِ نارًا قادِرٌ على أن يجعَلَ في النَّارِ شجرًا!!). ((نظم الدرر)) (١١/ ٤٦٠).

ٱلْبُطُونَ ۞ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۞ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۞ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٦].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ قال: (هي شَجرةُ الزقُّومِ)[١].

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴾.

أي: ونُخوِّفُ المُشرِكين بما نتوعَّدُهم به مِن العَذابِ، فما يَزيدُهم تخويفُنا لهم إلَّا تماديًا في الكُفرِ والضَّلالِ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾[المائدة: ٦٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾، أي: ما مِن قَريةٍ مِن القُرى المكَذِّبةِ للرُّسُلِ إلَّا لا بُدَّ أن يُصيبَهم هلاكٌ قَبلَ يَومِ القيامةِ، أو عَذابٌ شَديدٌ، كِتابٌ كَتَبه اللهُ وقَضاءٌ أبرَمَه لا بدَّ مِن وُقوعِه؛ فلْيُبادِرِ المكَذِّبون بالإنابةِ إلى اللهِ، وتَصديقِ رُسُلِه قبل أن تَتِمَّ عليهم كَلِمةُ العَذابِ، ويحِقَّ عليهم القَولُ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(١) رواه البخاري (٣٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

دَليلٌ على تشريفِ هذه الأمَّةِ، وتفضيلِ رسولِها على سائرِ الرُّسُلِ -صلواتُ الله عليه وعليهم-؛ وذلك أنَّه جلَّ جلالُه كان مِن حُكْمِه في الأممِ السالفةِ أنْ نَزَّلَ العذابَ بكلِّ مَن كَفَر بآياتِه، فصرفَه عن هذه الأُمَّةِ بتركِ إرسالِ الآياتِ المُوجِبةِ للعذابِ على مَن كَفَر بها[1].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ إن قال قَائِلٌ: كَيفَ يجوزُ ألا يُرْسِلَ الله الآياتِ لأنَّ الأوَّلينَ كذَّبوا بها؟ وما وَجهُ الامتناعِ عن إرسالِ الآياتِ بتكذيبِ الأوَّلينَ؟

والجوابُ مِن وَجهينِ:

أحدهما: -وهو المعروفُ- وما منعَنا أن نرسلَ بالآياتِ التي اقترَحها الكفَّارُ.

والجوابُ الثَّاني: أنَّ «إلَّا» محذوفٌ، ومَعْناهُ: وما منعَنا من إرسالِ الآياتِ، وإن كذَّب بها الأولونَ، يعني: أنَّ تكذيبَ الأوَّلينَ لا يمنعُنا مِن إرسالِ الآياتِ[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ فيه سُؤالٌ: المقصودُ الأعظَمُ مِن إظهارِ الآياتِ أن يُستَدَلَّ بها على صِدقِ المدَّعي، فكيف حصَرَ المقصودَ مِن إظهارِها في التَّخويفِ؟

الجوابُ: المقصودُ أنَّ مُدَّعي النبُوَّةِ إذا أظهر الآيةَ فإذا سَمِع الخَلقُ أنَّه أظهَرَ آيةً فهم لا يَعلَمون أنَّ تلك الآيةَ مُعجِزةٌ أو مَخُوفةٌ، إلَّا أنَّهم يجوِّزون كَونَها معجزةً، وبتقديرِ أن تكونَ مُعجِزةً فلو لم يتفَكَّروا فيها، ولم يستَدِلُّوا بها على الصِّدقِ، لاستحَقُّوا العِقابَ الشَّديدَ، فهذا هو الخَوفُ الذي يحمِلُهم على التفَكُّرِ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٥٣).

والتأمُّلِ في تلك المُعجِزاتِ[١].

٤- قولُه: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ إنْ قيل: ليس في القُرآنِ لعْنُ شجرةٍ؟

قيل: فيه إضمارٌ تَقديرُه: والشَّجرةَ الملعونةَ المذكورةَ في القُرآنِ، أو معناه: المَلْعونُ آكِلُوها وهم الكفَرةُ. أو ﴿ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ بمعنى المذمومةِ، وهي مَذمومةٌ في القُرآنِ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤]، وبقولِه تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]. أو ﴿ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ بمعنى المُبْعَدةِ؛ لأنَّ اللَّعنَ لُغَةً: الطَّردُ والإبعادُ، وهذه الشَّجرةُ مُبعَدةٌ عن مكانِ رحمةِ اللهِ تَعالى وهو الجنَّةُ؛ لأنَّها في قَعْرِ جهنَّمَ، وهذا الإبعادُ مذكورٌ في القُرآنِ بقولِه تَعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾[٢] [الصافات: ٦٤].

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ والمعنى: إذا كان هذان الأمران قد صارا فتنةً للناسِ حتى استلجَّ الكفارُ بكفرِهم، وازداد شرُّهم، وبعضُ مَن كان إيمانُه ضعيفًا رجَع عنه بسببِ أنَّ ما أخبرهم به مِن الأمورِ التي كانت ليلةَ الإسراءِ ومِن الإسراءِ مِن المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصَى كان خارقًا للعادةِ، والإخبارُ بوجودِ شجرةٍ تنبتُ في أصلِ الجحيمِ أيضًا مِن الخوارقِ، فهذا الذي أوجَب لهم التكذيبَ، فكيفَ لو شاهدوا الآياتِ العظيمةَ، والخوارقَ الجسيمةَ، أليس ذلك أولَى أن يزدادَ بسببِه شرُّهم؟! فلذلك رحِمهم الله وصرَفها عنهم، ومِن هنا تعلمُ أنَّ عدمَ التصريحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٩-٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٠ - ٣٣١).

في الكتابِ والسنةِ بذكرِ الأمورِ العظيمةِ التي حدثَتْ في الأزمنةِ المتأخرةِ أولَى وأحسنُ؛ لأنَّ الأمورَ التي لم يشاهدِ الناسُ لها نظيرًا ربما لا تقبلُها عقولُهم، لو أُخبِروا بها قبلَ وقوعِها، فيكونُ ذلك ريبًا في قلوبِ بعضِ المؤمنينَ، ومانعًا يمنعُ مَن لم يدخُلِ الإسلامَ ومنفرًا عنه، بل ذكَر الله ألفاظًا عامةً تتناولُ جميعَ ما يكونُ[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾

- قولُه: ﴿مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فيه التَّقييدُ بكونِه قبلَ يومِ القيامةِ؛ زيادةً في الإنذارِ والوعيدِ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾

- قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ خُصَّت ثمودُ مِن ذلك الهُدى والبصيرةِ بمزيدٍ؛ ولهذا لَمَّا قرَنَهم بقومِ عادٍ قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، ثمَّ قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾؛ ولهذا أمكن عادًا المكابرةُ وأن يقولوا لنبيِّهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ ولم يمكِنْ ذلك ثمودَ، وقد رأوا البيِّنةَ عِيانًا، وصارت لهم بمنزلةِ رُؤيةِ الشَّمسِ والقَمَرِ، فردُّوا الهدى بعدَ تيقُّنِه والبصيرةِ التَّامَّةِ، فكان في

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤١).

تخصيصِهم بالذِّكرِ تحذيرٌ لكُلِّ من عرف الحَقَّ ولم يتَّبِعْه، وهذا داءُ أكثَرِ الهالكين، وهو أعَمُّ الأدواءِ وأغلَبُها على أهلِ الأرضِ، والله أعلمُ[١].

وأيضًا: خَصَّ آيةَ ثمودَ بالذِّكرِ؛ تحذيرًا بسبَبِ أنَّهم عربٌ اقترَحوا ما كان سَببًا لاستِئصالِهم، ولشُهرةِ أمرِهم بين العَرَبِ؛ لأنَّ لهم مِن عِلمِها وعِلمِ مَساكِنِهم بقُربها إليهم وكَونِها في بلادِهم ما ليس لهم مِن عِلمِ غَيرِها[٢].

- في قولِه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ فيه قصْرُ الإرسالِ بالآياتِ على علَّةِ التَّخويفِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ، أي: لا مُباراةً بين الرُّسلِ وأقوامِهم، أو لا طمعًا في إيمانِ الأقوامِ؛ فقد علِمْنا أنَّهم لا يُؤمِنون[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾

- في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ﴾ ﴿أَحَاطَ﴾ بمعنى يُحيطُ، عُبِّرَ عن المُستقبلِ بالماضي؛ لأنَّه واقعٌ لا مَحالةَ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ﴾ فيه مجِيءُ المُسنَدِ إليه بلفظِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضميرِ الرَّسولِ؛ إشارةً إلى أنَّ هذا القولَ مَسوقٌ مَساقَ التَّكرِمَةِ للنَّبيِّ وتَصبيرِه، وأنَّه بمَحَلِّ عِنايةِ اللهِ به؛ إذ هو ربُّه وهو ناصرُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٥).

- قولُه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ لعلَّه إنَّما سمَّاه رؤيا -وهي للمنامِ- على وجهِ التشبيهِ، لما فيه مِن الخوارقِ التي هي بالمنامِ أليقُ في مجاري العاداتِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أُوثِرَ صِيغَةُ المُضارعةِ؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ[٢]. وفي قولِه: ﴿يَزِيدُهُمْ﴾ أنَّه كلَّما تجدَّدَ التَّخويفُ تجدَّدَ طُغيانُهم وعظُمَ[٣].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٥٨-٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٩).

الآيات (٦١-٦٥)

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَرَءَيْتَكَ﴾: أي: أخبِرْني، وهي كَلِمةٌ تُقالُ عندَ الاستِخبارِ[(١)].

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾: أي: لَأستَولِيَنَّ عليهم بالإغواءِ، ولَأستأصِلَنَّهم؛ مَأْخوذٌ مِن قولِهم: احتَنَكَ الجرادُ الأرضَ: إذا أتى على نَبْتِها، وجرَد ما عليها أكلًا. وقيل: هو مِن قَولِهم: حَنَك الدَّابَّةَ يَحنُكُها: إذا ربطَ حَبلًا في حَنَكِها الأسفَلِ، يَقودُها به حيثُ يشاءُ، وأصلُ الحَنَكِ: حَنَكُ الإنسانِ، أقصَى فَمِه[(٢)].

﴿مَّوْفُورًا﴾: أي: متمَّمًا، أو تامًّا وافيًا، وأصلُ (وفر): يدُلُّ على كَثرةٍ وتمامٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٦٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ١٧١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((الغريبين)) للهروي (٦/ ٢٠١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣).

﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ ﴾: أي: أزعِجْ واستَخِفَّ، وأصلُ (فزز): يدُلُّ على خِفَّةٍ وما قارَبَها[١].

﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم ﴾: أي: اجْمَعْ عليهم ما قَدَرْتَ عليه، وأصلُ (جلب): يدُلُّ على سَوقِ الشَّيءِ[٢].

﴿بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾: أي: بأعوانِك مِن راكبٍ وماشٍ، والرَّجِلُ والراجِلُ: الماشي، مشتقَّةٌ مِن الرِّجْلِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصةِ آدمَ وإبليسَ، مسلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم فيقولُ: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حين قُلْنا للمَلائِكةِ: اسجُدوا لآدَمَ، فسَجَدوا جميعًا إلَّا إبليسَ، عصى وامتنَعَ عن السُّجودِ قائِلًا باستِكبارٍ: أأسجُدُ له وهو مخلوقٌ مِن طينٍ؟ وقال جُرأةً وكُفرًا: أخبِرْني عن هذا الذي كرَّمْتَ عليَّ، لِمَ كَرَّمْتَه عَليَّ، وقد خلقْتَني من نارٍ وخلَقْتَه من طينٍ؟! لئِنْ أخَّرْتني حَيًّا إلى يومِ القيامةِ لأستولِيَنَّ على ذُرِّيَّتِه بالإضلالِ والإغواءِ إلَّا المُخلَصِينَ منهم.

قال اللهُ تعالى لإبليسَ: اذهَبْ، فمَن أطاعك مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ، فإنَّ جهنَّمَ جزاؤُكم جميعًا جزاءً مُتمَّمًا لا نَقصَ فيه، واستَخْفِفْ مَن تَستطيعُ استِخفافَه منهم بدَعوتِه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٩)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ٣٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

إلى مَعصِيتي، واجمَعْ عليهم جُنودَك مِن كُلِّ راكبٍ وماشٍ، ولْيكُنْ لك نَصيبٌ معهم في كُلِّ مالٍ أو ولَدٍ تعَلَّقَت به مَعصيةُ اللهِ عزَّ وجلَّ، وعِدْهم بالوُعودِ الكاذِبةِ، وما تَعِدُهم إلَّا وعودًا باطِلةً.

إنَّ عِبادِيَ المُخلَصِينَ الصَّالحينَ ليس لك تسلُّطٌ عليهم ولا قُدرةٌ على إغوائِهم، وكفى برَبِّك -يا مُحمَّدُ- حافِظًا وعاصِمًا للمُؤمِنينَ مِن كيدِ الشَّيطانِ ومَكْرِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان في مِحنةٍ عَظيمةٍ مِن قَومِه وأهلِ زَمانِه؛ بيَّنَ أنَّ حالَ الأنبياءِ مع أهلِ زَمانِهم كذلك؛ وأوَّلُهم هو آدَمُ، ثمَّ إنَّه كان في مِحنةٍ شديدةٍ مِن إبليسَ[1].

وأيضًا فإنَّ القَومَ إنَّما نازَعوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعانَدوه، واقتَرَحوا عليه الاقتِراحاتِ الباطِلةَ لأمرَينِ: الكِبْرِ والحَسَدِ؛ أمَّا الكِبْرُ فلِأنَّ تكَبُّرَهم كان يَمنَعُهم مِن الانقيادِ، وأمَّا الحسَدُ فلِأنَّهم كانوا يَحسُدونَه على ما آتاه اللهُ مِن النبُوَّةِ والدَّرَجةِ العاليةِ، فبيَّنَ تعالى أنَّ هذا الكِبرَ والحَسَدَ هما اللَّذانِ حَمَلا إبليسَ على الخُروجِ مِن الإيمانِ، والدُّخولِ في الكُفرِ، فهذه بَلِيَّةٌ قَديمةٌ، ومِحنةٌ عَظيمةٌ للخَلقِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٦٥).

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا وصف الكافرينَ بقَولِه: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]؛ بيَّن ما هو السَّبَبُ لحُصولِ هذا الطُّغيانِ، وهو قَولُ إبليسَ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، فلأجلِ هذا المقصودِ ذكَرَ اللهُ تعالى قِصَّةَ إبليسَ وآدمَ(١).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حين قُلْنا للمَلائِكةِ: اسجُدوا لآدَمَ، فسجَدَ الملائِكةُ كُلُّهم له إلَّا إبليسَ، عصَى أمْرَ اللهِ فلم يَسجُدْ؛ حَسَدًا له وكِبْرًا، مع رُؤيتِه لآياتِ اللهِ وعَظَمتِه وقُدرتِه، فلم يَنفَعْه ما عَلِمَه ورآه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

أي: قال إبليسُ مُخاطِبًا ربَّه باستِنكارٍ: أتأمُرُني أن أسجُدَ لِمَن خَلقْتَه مِن طِينٍ(٣)؟!

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢).

أي: قال إبليسُ مُخاطِبًا ربَّه بكُلِّ جُرأةٍ: أخبِرْني أهذا هو الذي فضَّلْتَه عليَّ؟ فلِمَ تأمُرُني بالسُّجودِ له وأنا خَيرٌ منه[(١)]؟!

كما قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: قال إبليسُ: أُقسِمُ بك لَئِنْ أخَّرْتَ إهلاكي إلى يومِ القيامةِ لأَستولِينَّ على ذرِّيَّةِ آدَمَ، فأُضِلَّنَّهم عن طريقِ الحَقِّ، وأقودَنَّهم إلى حيثُ أشاءُ مِن طُرُقِ الباطلِ، إلَّا قليلًا منهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٨- ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٠-١٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٦، ١٦٧).

قال القُرطبيُّ: (وإنَّما قال إبليسُ ذلك ظَنًّا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠]، أو عَلِمَ مِن طَبعِ البَشَرِ تَرَكُّبَ الشَّهوةِ فيهم، أو بنى على قَولِ الملائكةِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]. وقال الحسَنُ: ظَنَّ ذلك؛ لأنَّه وَسْوَس إلى آدَمَ عليه السَّلامُ فلم يَجِدْ له عَزمًا). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٧).

شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤ - ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٦ - ٤٠].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [ص: ٧٩ - ٨٣].

﴿ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾ ﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: اذهَبْ[(١)] فقد أخَّرتُ إهلاكَك، فمن أطاعَك مِنْ ذُرِّيةِ آدَمَ فإنَّ جهنَّمَ جزاؤُكم على أعمالِكم جزاءً مُتمَّمًا، مُكمَّلًا، لا نَقْصَ فيه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ * لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

---

(١) قال ابن جزي: (﴿ٱذۡهَبۡ﴾ قال ابنُ عطيةَ: وما بعدَه مِن الأوامرِ: صيغةُ أمرٍ على وجهِ التهديدِ، وقال الزمخشري: ليس المرادُ الذهابَ الذي هو ضدُّ المجيءِ، وإنَّما معناه: امضِ لشأنِك الذي اخترتَه خذلانًا له وتخليةً، ويحتملُ عندي أن يكونَ معناه للطردِ والإبعادِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٠).

وقال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ﴾ أي قال اللهُ تعالى لإبليسَ: اذهبْ، وهذا اللَّفظُ يتضَمَّنُ معنى إنظارِه، وتأخيرِ أجَلِه). ((البسيط)) (١٣/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٨).

قال القرطبي: (﴿مَّوۡفُورٗا﴾ أي: وافِرًا، عن مُجاهِدٍ وغيرِه). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٨).

وقال الشنقيطي: (والَّذي يظهرُ لي: أنَّ قولَ مَن قالَ: إنَّ ﴿مَّوۡفُورٗا﴾ بمعنَى «وافِرٍ» لا داعِيَ له. بَلْ ﴿مَّوۡفُورٗا﴾ اسمُ مفعولٍ على بابِه، مِن قولِهم: وَفَر الشَّيءَ يَفِرُه، فالفاعلُ وافِرٌ، والمفعولُ موفورٌ). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٦٨).

[ص: ٨٤- ٨٥].

﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤ ﴾.

﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لإبليسَ آمِرًا له على سَبيلِ التَّهديدِ بعاقِبتِه الوَخيمةِ[(١)]: واستَخِفَّ وأزعِجْ -يا إبليسُ- مَن استطَعْتَ أن تَستخِفَّه مِن بني آدَمَ بدُعائِك لهم إلى مَعصيةِ اللهِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٤١، ٦٤٢) و (١٥/ ٣١٤)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٨).

قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بصَوتِه قولان: أحدُهما: أنَّه كُلُّ داعٍ دعا إلى معصيةِ الله، قاله ابن عباس. والثاني: أنَّه الغِناءُ والمزاميرُ، قاله مجاهد). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧).

وقال ابن تيمية: (استفزازُه إيَّاهم بصوتِه يكونُ بالغناء -كما قال من قال من السلف- وبغيرِه من الأصواتِ، كالنياحة وغيرِ ذلك؛ فإن هذه الأصواتَ كُلَّها توجِبُ انزعاجَ القلبِ والنَّفسِ الخبيثةِ إلى ذلك، وتوجِبُ حركَتَها السريعةَ واضطرابَها، حتى يبقى الشيطانُ يلعب بهؤلاء أعظَمَ مِن لَعبِ الصبيان بالكرةِ!). ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣١٤).

وقال ابنُ جرير: (وأولى الأقوالِ في ذلك بالصِّحَّةِ أن يُقالَ: إنَّ الله تبارك وتعالى قال لإبليسَ: واستفزِزْ مِن ذريَّةِ آدَمَ مَن استطَعْتَ أن تستَفِزَّه بصَوتِك، ولم يَخْصُصْ من ذلك صوتًا دونَ صَوتٍ؛ فكلُّ صوتٍ كان دعاءً إليه وإلى عملِه وطاعتِه، وخلافًا للدعاءِ إلى طاعةِ الله، فهو داخلٌ في معنَى صوتِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٨).

وقال ابن القيم: (وصوتُ الشيطانِ كُلُّ صوتٍ في غيرِ طاعةِ الله، نُسِبَ إلى الشيطانِ لأمرِه به ورضاه به، وإلَّا فليس هو الصوتَ نَفسَه). ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (١/ ٢٥٦).

﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾.

أي: واجمَعْ -يا إبليسُ- على بني آدَمَ جُنودَك -الركبانَ منهم والمشاةَ- الذين يَدعُونَهم إلى مَعصيةِ اللهِ، فيَحمِلوا عليهم بكُلِّ ما يَقدِرونَ عليه مِن وَسائِلِ الفِتنةِ والكَيدِ لإضلالِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ [مريم: ٨٣].

وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ إبليسَ يَضَعُ عَرشَه على الماءِ، ثمَّ يَبعَثُ سَراياه، فأدْناهم منه مَنزِلةً أعظَمُهم فِتنةً، يجيءُ أحَدُهم فيَقولُ: فعَلْتُ كذا وكذا، فيقولُ: ما صنعْتَ شَيئًا! قال: ثم يجيءُ أحَدُهم فيقولُ: ما تركْتُه حتى فَرَّقتُ بينَه وبينَ امرأتِه، قال: فيُدنيه منه، ويَقولُ:

وقال ابن تيمية: (وصوتُ الشيطان ما يُحِبُّه ويأمرُ به وإن كان قائمًا بإنسانٍ أو جمادٍ كأصواتِ الملاهي وغيرها). ((جامع المسائل)) (٨/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٣، ١٥٤).

قال القرطبي: (وقال أكثَرُ المفَسِّرينَ: يريدُ كُلَّ راكبٍ وماشٍ في معصيةِ الله تعالى. وقال ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ وقَتادةُ: «إنَّ له خيلًا ورَجِلًا مِن الجِنِّ والإنسِ، فما كان من راكبٍ وماشٍ يُقاتِلُ في معصيةِ اللهِ، فهو من خَيلِ إبليسَ ورَجَّالتِه». وروى سعيدُ بنُ جُبَير ومجاهِدٌ عن ابنِ عَبَّاس قال: «كلُّ خيلٍ سارت في معصيةِ الله، وكلُّ رِجْلٍ مَشَتْ في معصيةِ الله»). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٩).

وقال ابنُ القَيِّم: (كلُّ ساعٍ في معصيةِ الله على قَدَميه فهو مِن رَجِلِه، وكلُّ راكبٍ في معصيةِ اللهِ فهو مِن خَيَّالتِه، كذلك قال السَّلَفُ). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٢٥٦).

وقال ابنُ كثير: (معناه: تسلَّطْ عليهم بكُلِّ ما تقدِرُ عليه، وهذا أمرٌ قَدَريٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٤).

نِعْمَ أنتَ!!))[١].

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾.

أي: ولْيكُنْ لك نَصيبٌ معهم في كُلِّ مالٍ أو ولَدٍ تعَلَّقَت به مَعصيةُ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٣، ٦٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٤، ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٩، ١٧٠).

قال ابنُ جرير: (أولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ قَولُ مَن قال: عنى بذلك كلَّ مالٍ عُصِيَ اللهُ فيه؛ بإنفاقٍ في حرامٍ، أو اكتِسابٍ مِن حرامٍ، أو ذَبْحٍ للآلهةِ، أو تَسْيِيبٍ، أو بَحْرٍ للشَّيطانِ، وغيرِ ذلك ممَّا كان مَعصِيًّا به أو فيه؛ وذلك أنَّ اللهَ قال: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾؛ فكلُّ ما أُطيعَ الشَّيطانُ فيه مِن مالٍ وعُصِيَ اللهُ فيه، فقد شارك فاعِلُ ذلك فيه إبليسَ، فلا وجهَ لخُصوصِ بَعضٍ ذلك دُونَ بَعضٍ... وأولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يقال: كلُّ وَلَدٍ ولدَتْه أنثى عُصِيَ اللهُ بتَسمِيَتِه ما يَكرَهُه الله، أو بإدخالِه في غيرِ الدِّينِ الذي ارتضاه الله، أو بالزِّنا بأمِّه، أو قَتْلِه ووَأْدِه، أو غيرِ ذلك من الأمورِ التي يُعصى اللهُ بها أو فيها؛ فقد دخلَ في مُشاركةِ إبليسَ فيه مَن وُلِدَ ذلك المولودُ له أو منه؛ لأنَّ اللهَ لم يَخْصُصْ بقولِه: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ معنى الشَّرِكةِ فيه بمعنًى دونَ معنًى، فكلُّ ما عُصِيَ اللهُ فيه أو به، وأُطيعَ به الشَّيطانُ أو فيه؛ فهو مُشاركةُ مَن عُصِيَ اللهُ فيه أو به إبليسَ فيه). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٣-٦٦٦).

وقال ابنُ كثير: (وهذا الذي قاله مُتَّجِهٌ، وكلٌّ مِن السَّلَف -رَحِمَهم اللهُ- فسَّرَ بعضَ المُشاركةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٥).

وقال السعدي: (ذلك شامِلٌ لكُلِّ مَعصيةٍ تعَلَّقَت بأموالِهم وأولادِهم؛ مِن مَنْعِ الزَّكاةِ، والكفَّاراتِ، والحُقوقِ الواجبةِ، وعَدَمِ تأديبِ الأولادِ وتَربيتِهم على الخَيرِ، وتَرْكِ الشَّرِّ، وأخذِ الأموالِ بغَيرِ حَقِّها أو وَضْعِها بغَيرِ حَقِّها، أو استعمالِ المكاسِبِ الرَّدِيَّةِ، بل ذَكَر كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ أنَّه يدخُلُ في مُشاركةِ الشَّيطانِ في الأموالِ والأولادِ تَركُ التَّسميةِ عند الطَّعامِ والشَّرابِ والجِماعِ، وأنَّه إذا لم يُسَمِّ اللهَ في ذلك شارك فيه الشَّيطانُ كما ورد فيه الحَديثُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٦ - ١٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

وعن عِياضِ بنِ حِمارٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ألَا إنَّ رَبِّي أمَرَني أن أعَلِّمَكم ما جَهِلتُم مِمَّا عَلَّمَني يومي هذا: كُلُّ مالٍ نَحَلْتُه[٣] عبدًا حَلالٌ، وإنِّي خَلَقتُ عبادي حُنَفاءَ كُلَّهم، وإنَّهم أتَتْهم الشَّياطينُ فاجتالَتْهم[٤] عن دِينِهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم، وأمَرَتْهم أن

(٣) نَحَلْتُه: أي: أعطيتُه. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٠٦).

(٤) فاجتالَتْهم: أي: استخفُّوهم فذَهَبوا بهم وأزالوهم عمَّا كانوا عليه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٩٧).

يُشرِكوا بي ما لم أُنَزِّلْ به سُلطانًا))[١].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لو أنَّ أحَدَكم إذا أتى أهْلَه قال: جَنِّبْني الشَّيطانَ وجَنِّبِ الشَّيطانَ ما رزَقْتَني؛ فإنْ كان بينهما ولَدٌ لم يَضُرَّه الشَّيطانُ، ولم يُسلَّطْ عليه))[٢].

وعن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، أنَّه سَمِعَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إذا دخَلَ الرَّجُلُ بَيتَه فذكَرَ اللهَ عند دُخولِه وعندَ طعامِه، قال الشَّيطانُ: لا مَبيتَ لكم ولا عَشاءَ، وإذا دخَلَ فلم يَذكُرِ اللهَ عند دُخولِه، قال الشَّيطانُ: أدرَكْتُم المَبيتَ، وإذا لم يَذكُرِ اللهَ عند طَعامِه، قال: أدرَكْتُم المَبيتَ والعَشاءَ))[٣].

وعن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كنَّا إذا حَضَرْنا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طعامًا، لم نضَعْ أيدِيَنا حتى يبدأَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيَضَعَ يَدَه، وإنَّا حَضَرْنا معه مرَّةً طعامًا، فجاءَتْ جاريةٌ كأنَّها تُدفَعُ، فذهَبَت لِتَضَعَ يَدَها في الطَّعامِ، فأخَذ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيَدِها، ثمَّ جاء أعرابيٌّ كأنَّما يُدفَعُ، فأخَذَ بيَدِه، فقال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ الشَّيطانَ يَستَحِلُّ الطَّعامَ أنْ لا يُذكَرَ اسمُ اللهِ عليه، وإنَّه جاء بهذه الجاريةِ لِيَستَحِلَّ بها، فأخَذْتُ بيَدِها، فجاء بهذا الأعرابيِّ ليَستَحِلَّ به فأخذْتُ بيَدِه، والذي نفسي بيَدِه إنَّ يَدَه في يَدِي مع يَدِها))[٤].

﴿وَعِدۡهُمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢٨٣) واللفظ له، ومسلم (١٤٣٤).

(٣) رواه مسلم (٢٠١٨).

(٤) رواه مسلم (٢٠١٧).

أي: وعِدْهم[١] -يا إبليسُ- بالوُعودِ الكاذِبةِ، وما يَعِدُهم الشَّيطانُ البَعيدُ عن الرَّحمةِ وكُلِّ خيرٍ إلَّا أمانيَّ باطلةً في الحَقيقةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

---

(١) قال القُرطبيُّ: (وهذا الأمرُ للشَّيطانِ تهَدُّدٌ ووَعيدٌ له. وقيل: استِخفافٌ به وبمن اتَّبَعَه). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٤، ١٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧١).

قال ابن عاشور: (ومعنى ﴿عِدْهُمْ﴾ أعطِهم المواعيدَ بحصولِ ما يرغبونَه، كما يسَوِّل لهم بأنَّهم إن جعلوا أولادَهم للأصنامِ سَلِم الآباءُ مِن الثُّكلِ والأولادُ مِن الأمراض، ويسَوِّلُ لهم أنَّ الأصنام تشفعُ لهم عند الله في الدنيا، وتضمنُ لهم النصرَ على الأعداء، كما قال أبو سفيان يوم أحد: «اعلُ هُبَلُ». ومنه وعدُهم بأنَّهم لا يخشون عذابًا بعد الموت لإنكار البعث، ووعْد العصاة بحصول اللذَّاتِ المطلوبة من المعاصي، مثل الزنا والسرقة والخمر والمقامرة... والمعنى: أن ما سوَّله لهم الشيطانُ في حصول المرغوب إما باطلٌ لا يقع، مثل ما يسَوِّلُه للناس من العقائدِ الفاسدة؛ وكونُه غرورًا لأنَّه إظهار لِما لا يقع في صورة الواقعِ، فهو تلبيسٌ، وإما حاصِلٌ لكنَّه مكروه غيرُ محمود بالعاقبة، مثل ما يسَوِّلُه للناس من قضاء دواعي الغضَبِ والشهوة ومحبَّة العاجل دون تفكيرٍ في الآجل، وكلُّ ذلك لا يخلو عن مقارنةِ الأمر المكروهِ، أو كونه آيلًا إليه بالإضرارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٤-١٥٥).

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عَمَّا يريدُ الشَّيطانُ أن يَفعَلَ بالعبادِ، ذكَرَ ما يُعتَصَمُ به مِن فِتنَتِه، وهو عُبوديَّةُ اللهِ، والقيامُ بالإيمانِ، والتوكُّلُ[1]، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾.

أي: إنَّ عبادي الصَّالحينَ الذين يَعبُدونَني وَحدي مُخلِصينَ لي الدِّينَ، ليس لك عليهم -يا إبليسُ- تَسَلُّطٌ ولا حُجَّةٌ، ولا تَستطيعُ إغواءَهم أو إضلالَهم؛ فاللهُ يَحفَظُهم ويَحرُسُهم ويُؤَيِّدُهم[2].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾.

أي: وكفى برَبِّك -يا مُحمَّدُ- حافِظًا مِن كيدِ الشَّياطينِ ومَكْرِهم، وناصِرًا ومُؤَيِّدًا للمُتوَكِّلينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى للشَّيطانِ: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ ﴾ فالصَّوتُ الشَّيطانيُّ يَستفِزُّ بني آدَمَ، وصَوتُ الشَّيطانِ كُلُّ صَوتٍ في غيرِ طاعة الله؛ فصَوتُ الغناءِ، وصَوتُ النَّوحِ، وصَوتُ المعازِفِ: كُلُّها من أصواتِ الشَّيطانِ، التي يَستفِزُّ بها بني آدمَ فيَستخِفُّهم ويُزعِجُهم؛ ولهذا قال السَّلَفُ في هذه الآية: (إنَّه الغِناءُ). ولا ريبَ أنَّه مِن أعظَمِ أصواتِ الشَّيطانِ التي يَستفِزُّ بها النُّفوسَ ويُزعِجُها ويُقلِقُها، وهو ضدُّ القرآنِ الذي تطمَئِنُّ به القلوبُ وتَسكُنُ وتُخبِتُ إلى رَبِّها؛ فصَوتُ القرآنِ يُسكِّنُ النفوسَ ويُطَمئِنُها ويُوقرُها، وصوتُ الغناءِ يَستفِزُّها ويُزعِجُها ويُهيِّجُها، وكذلك صوتُه الذي يَستفِزُّ به النفوسَ عند المصيبةِ، وهو النَّوحُ، فيستفزُّها بهذا الصَّوتِ إلى الحُزنِ والأسَفِ والسَّخَطِ بما قضى الله، ويستفزُّها بذلك الصَّوتِ إلى الشَّهوةِ والإرادةِ والرَّغبةِ فيما يُبغِضُه الله، فينهاها بصَوتِ النَّوحِ عَمَّا أمرَها الله به، ويأمُرُها بصَوتِ الغِناءِ بما نهاها اللهُ عنه، وهذا الصَّوتُ هو أحدُ الأسبابِ الخَمسةِ التي أقسم الشَّيطانُ أن يَحتنِكَ بها ذريةَ آدمَ ويستأصِلَهم إلَّا قليلًا، وهي استِفزازُهم بصَوتِه[1]؛ فصوتُ الشيطانِ يَستفِزُّ الناسَ، أي: يُحرِّكهم ويُزعِجُهم ويُثيرُهم، وهذا أثرُ الصَّوتِ، وهو التَّحريكُ، كما أنَّه صادِرٌ عن الحَركةِ، فسبَبُه الحركةُ، وغايتُه الحَركةُ[2].

٢- قال تعالى: ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾ [الإسراء: ٦٤] فكُلُّ راكبٍ في مَعصيةِ اللهِ فهو خَيَّالةُ الشَّيطانِ، وكُلُّ ماشٍ في معصيةِ اللهِ فمِن رَجَّالتِه، وكلُّ مالٍ أُخِذ من غيرِ حِلِّه وأُخرِجَ في غيرِ حَقِّه، فهو

(١) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (١/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٨٣).

شَريكُ صاحِبِه فيه، وكُلُّ ولدٍ مِن نطفةِ زِنًا، فهو شريكُ أبيه فيه[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ هذه الآيةُ تَدُلُّ على أنَّ المعصومَ مَن عَصَمَه اللهُ تعالى، وأنَّ الإنسانَ لا يُمكِنُه أن يَحتَرِزَ بنَفسِه عن مواقِعِ الضَّلالةِ؛ لأنَّه لو كان الإقدامُ على الحَقِّ والإحجامُ عن الباطِلِ إنَّما يَحصُلُ للإنسانِ مِن نَفسِه، لوجَبَ أن يُقالَ: وكفى الإنسانَ نَفسُه في الاحترازِ عن الشَّيطانِ، فلمَّا لم يَقُلْ ذلك بل قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾، عَلِمْنا أنَّ الكُلَّ مِنَ الله؛ ولهذا قال المُحَقِّقونَ: لا حَولَ عن مَعصيةِ اللهِ إلَّا بعِصمةِ اللهِ، ولا قُوَّةَ على طاعةِ اللهِ إلَّا بتَوفيقِ اللهِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ، وبَراءةٌ لإبليسَ اللَّعينِ ممَّا يَنسُبونَه إليه مِن القُدرةِ على تَضليلِ الخَلقِ؛ ألَا تَراه كيف ألقى اللهُ الاستِثناءَ على لِسانِه حتى استَثنى القليلَ؟! عِلْمًا منه بأنَّ المعصومَ ومَن سبَقَ له الخَيرُ مِن رَبِّه لا سبيلَ له عليه، إنَّما سبيلُه على مَن حَقَّت عليه كَلِمةُ رَبِّه، فتَبِعَه وتوَلَّاه، وسبَقَ القَضاءُ عليه أن يكونَ معه في دارِ الهوانِ؛ قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ وهذا السُّلطانُ منه على مُتَولِّيه المُشرِكينَ برَبِّهم، سُلطانُ تَسليطٍ لا اقتدارٍ بقُوَّتِه، ألا ترى أنَّ مِن

(١) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (١/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٧٠).

الكُفَّارِ مَن قد سبَقَ له في عِلمِ اللهِ إيمانٌ، وانتِقالٌ مِن الكُفرِ إليه، فيَذهَبُ سُلطانُه حينَئذٍ عنه؟! فلو كان سُلطانًا بغَيرِ تَسليطٍ، لدام له عليه، أو كان على الجَميعِ، ولا يُستثنى القَليلُ، فهذا واضِحٌ لا بُعْدَ فيه، ومِمَّا يُؤَيِّدُ به أنَّه يُسَلَّطُ: قَولُه تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾، وليس يخلو قَولُه: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ مِن أنْ يكونَ واقِعًا على الجَميعِ مُؤمِنِهم وكافِرِهم، أو على المؤمِنِ دُونَ الكافِرِ؛ فإنْ كان واقِعًا على مُؤمِنِهم خاصَّةً فهم المُستَثنَونَ بالقَليلِ، وسُلطانُه زائِلٌ عنهم بكُلِّ حالٍ، وإن كان واقِعًا على جَميعِهم فقد صَحَّ أنَّ سُلطانَه على الكافِرِ سُلطانُ تَسليطٍ، وعِدَتَه عِدَةُ غُرورٍ[(١)].

٢- إنَّ المولودَ مِن حينِ يخرُجُ إلى الدُّنيا يبتَدِرُه الشَّيطانُ، ويضمُّه إليه ويحرِصُ على أن يَجعَلَه في قَبضتِه وتحت أسْرِه، ومن جُملةِ أوليائِه وحِزبِه؛ فهو أحرصُ شَيءٍ على هذا، وأكثَرُ المولودينَ مِن أقطاعِه وجُندِه، كما قال تعالى: ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾، وَقَالَ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٠] فكان المولودُ بصَدَدِ هذا الارتِهانِ، فشرعَ اللهُ سُبحانَه للوالدينِ أن يفكَّا رِهانَه بذِبْحٍ يكونُ فِداه، فإذا لم يُذبَحْ عنه بقِيَ مُرتَهَنًا به؛ فلهذا قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مع الغلامِ عَقيقةٌ، فأهريقُوا عنه دمًا، وأميطوا عنه الأذى))[(٢)]،

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٧٦).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم (٥٤٧٢)، وأخرجه موصولًا: أبو داود (٢٨٣٩)، والترمذي (١٥١٥)، وابن ماجه (٣١٦٤)، والنسائي (٤٢١٤)، وأحمد (١٦٢٣٨).

قال الترمذي: (حسنٌ صحيح)، وذكر ابن عبد البَرِّ في ((التمهيد)) (٤/ ٣٠٦)، وابن العربي في ((القبس)) (٢/ ٦٤٩) أنَّه حديث ثابت. وصحَّحه البغوي في ((شرح السنة)) (٦/ ٥٣)،

فأمرَ بإراقةِ الدَّمِ عنه، الذي يخلُصُ به مِن الارتهانِ[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾

- قولُه: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ استفهامُ إنكارٍ وتعجُّبٍ[٢]. وبينَ قولِه: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ وما قبلَه كلامٌ محذوفٌ، وكأنَّ تَقديرَه: قال: لِمَ لمْ تسجُدْ لآدمَ؟[٣]

- وجُملةُ ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ استثناءَ إبليسَ مِن حُكْمِ السُّجودِ لم يُفِدْ أكثَرَ من عدَمِ السُّجودِ، وهذا يُثيرُ في نفْسِ السَّامعِ أنْ يسأَلَ عن سبَبِ التَّخلُّفِ عن هذا الحُكمِ منه. وقولُه: ﴿طِينًا﴾ إنَّما جعَلَ جنْسَ الطِّينِ حالًا منه؛ للإشارةِ إلى غَلبةِ العُنصرِ التُّرابيِّ عليه؛ لأنَّ ذلك أشدُّ في تَحقيرِه في نظَرِ إبليسَ[٤].

- قولُه: ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ فيه التَّعبيرُ عن آدمَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالموصولِ (مَن)؛ لتَعليلِ إنكارِه بما في حيِّزِ الصِّلةِ[٥].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ

وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣١٦٤).

(١) يُنظر: ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٣).

ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أُعيدَ إنكارُ التَّفضيلِ بقولِه: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ المُفيدِ الإنكارَ، وعلَّلَ الإنكارَ بإضمارِ المكْرِ لذُرِّيَّتِه؛ ولذلك فُصِلَت جُملةُ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ﴾ عن جُملةِ ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ﴾[١].

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ في الكلامِ حذْفٌ، والمعنى: أخبِرني عن هذا الَّذي كرَّمْتَه عليَّ، لِمَ كرَّمْتَه عليَّ، وقد خلَقْتَني من نارٍ وخلقْتَه من طينٍ؟ وحُذِفَ هذا؛ لِمَا في الكلامِ من الدَّليلِ عليه[٢].

- اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ مُستعملٌ في التَّحقيرِ[٣].

- قولُه: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه الاقتصارُ على إغواءِ ذُرِّيَّةِ آدمَ، ولم يذكُرْ إغواءَ آدمَ وهو أوْلى بالذِّكرِ -إذ آدمُ هو أصْلُ عَداوةِ الشَّيطانِ النَّاشئةِ عن الحسَدِ من تَفضيلِه عليه-؛ لأنَّ هذا الكلامَ قاله بعدَ أنْ أغوى آدمَ، وأُخْرِجَ من الجنَّةِ، فقد شَفى غليلَه منه، وبقِيَت العداوةُ مُسْترسلةً في ذُرِّيَّةِ آدمَ[٤].

- قولُه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ...﴾ الكافُ في ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ لتأكيدِ الخِطابِ، ومُبالغةً في التَّنبيهِ[٥]، وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث قاله هنا بتكريرِ الخطابِ، كنظيرِه في ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ في (الأنعامِ)؛ لدَلالتِه على أنَّ المُخاطَبَ به أمْرٌ عظيمٌ، وهو هنا كذلك؛ لأنَّ إبليسَ -لعنَهُ اللهُ- ضمِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٧-٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٨).

بقولِه: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ إغواءَ أكثرِهم[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾

- قولُه: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾ من حَقِّ الضَّميرِ في الجزاءِ ﴿جَزَآؤُكُمۡ﴾ أنْ يكونَ على لفْظِ الغَيبةِ (جزاؤهم)؛ ليرجِعَ إلى ﴿مَنْ تَبِعَكَ﴾، ولكنَّ التَّقديرَ: فإنَّ جهنَّمَ جزاؤُهم وجزاؤُك، ثمَّ غُلِّبَ المُخاطَبُ على الغائبِ، فقيل: ﴿جَزَآؤُكُمۡ﴾، فجُعِلَ الغائِبُ تَبَعًا للمخاطبِ، كما كان تَبَعًا له في المَعصيةِ والعُقوبةِ؛ فحَسُنَ أنْ يُجعَلَ تَبَعًا له في اللَّفظِ، وهذا مِن حُسْنِ ارتباطِ اللَّفظِ بالمَعنى واتِّصالِه به. ويجوزُ أنْ يكونَ للتَّابعينَ على طريقِ الالتِفاتِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾ أُعيدَ ﴿جَزَآءٗ﴾ للتَّأكيدِ؛ اهتمامًا وفصاحةً، ولأنَّه أحسنُ في جريانِ وصْفِ الموفورِ على موصوفٍ مُتَّصلٍ به دونَ فصْلٍ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾

- قولُه: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ السِّينُ والتَّاءُ فيه للجَعلِ النَّاشئِ عن شِدَّةِ الطَّلبِ والحَثِّ[٤]. والأمْرُ في قولِه: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾، وقولِه: ﴿وَأَجۡلِبۡ﴾، وقولِه: ﴿

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣١-٣٣٢). ويُنظر أيضًا: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٥٣).

وَشَارِكْهُمْ﴾، وقولِه: ﴿وَعِدْهُمْ﴾؛ كلُّها بمعنى التَّهديدِ، كقولِه: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾[١] [فصلت: ٤٠].

- وفي قولِه: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ حُذِفَ المفعولُ؛ للتَّعميمِ في الموعودِ به، والمقامُ دالٌّ على أنَّ المقصودَ أنْ يعِدَهم بما يَرْغبون؛ لأنَّ العِدَةَ هي التزامُ إعطاءِ المرغوبِ. وسمَّاهُ وعْدًا؛ لأنَّه يُوهِمُهم حُصولَه فيما يُسْتقبَلُ، فلا يَزالون يَنْتظِرونَه، كشأْنِ الكذَّابِ أنْ يَحتزِرَ عن الإخبارِ بالعاجلِ لقُربِ افتضاحِه، فيجعَلَ مواعيدَه كلَّها للمُستقبَلِ؛ ولذلك اعترَضَ بجُملةِ ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ اعتراضٌ لبَيانِ شأْنِ مواعيدِه الباطلةِ[٣]، وفيه التِفاتٌ إلى الغَيبةِ؛ لتَقويةِ معنى الاعتراضِ، مع ما فيه من صرْفِ الكلامِ عن خطابِه، وبيانِ شأْنِه للنَّاسِ، ومن الإشعارِ بعِلِّيَّةِ شَيطنتِه للغُرورِ، وهو تَزيينُ الخطأِ بما يُوهِمُ أنَّه صوابٌ[٤]. وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (وما تَعِدُهم إلَّا غُرورًا)، ولكنَّه عُدِلَ عن ذلك؛ تَهوينًا لأمْرِه واستصغارًا لأمْرِ الغُرورِ الَّذي يعِدُهم به من جِهَةٍ، وليتولَّى الكلام على طريقِ الغَيبةِ، مُتحدِّثًا إلى النَّاسِ جميعًا؛ ليعلَمَ الجاهلُ، ويخلُدَ المُبْطِلُ إلى الصَّوابِ[٥].

- قولُه: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ فيه إظهارُ اسمِ الشَّيطانِ دونُ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٥/ ٤٨٠).

يُؤْتَى بضَميرِه المُستتِرِ؛ لأنَّ هذا الاعتراضَ جُملةٌ مُستقِلَّةٌ؛ فلو كان فيها ضَميرٌ عائدٌ إلى ما في جُملةٍ أُخرى، لكان في النَّثرِ شِبْهُ عيبِ التَّضمينِ في الشِّعرِ، ولأنَّ هذه الجُملةَ جاريةٌ مَجْرى المثَلِ، فلا يحسُنُ اشتمالُها على ضَميرٍ ليس من أجزائِها[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

- قولُه: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن قولِه: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾، وقولِه: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم ﴾؛ فإنَّ مفهومَ ﴿فَمَن تَبِعَكَ ﴾ و﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ ﴾ ذُرِّيَّةٌ، من قَبيلِ مفهومِ الصِّفةِ، فيُفيدُ أنَّ فريقًا من ذُرِّيَّةِ آدمَ لا يتبَعُ إبليسَ، فلا يَحْتنِكُه. وهذا المفهومُ يُفيدُ أنَّ اللهَ قد عصَمَ أو حفِظَ هذا الفريقَ من الشَّيطانِ، وذلك يثيرُ سُؤالًا في خاطرِ إبليسَ؛ ليعلَمَ الحائلَ بينَه وبينَ ذلك الفريقِ بعدَ أنْ علِمَ في نفْسِه عِلْمًا إجماليًّا أنَّ فريقًا لا يحتنِكُه؛ لقولِه: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، فوقعَتِ الإشارةُ إلى تَعيينِ هذا الفريقِ بالوصفِ وبالسَّببِ؛ فأمَّا الوصفُ ففي قولِه: ﴿عِبَادِى ﴾، وأمَّا السَّببُ ففي قولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[2].

- والإضافةُ إليه تَعالى في قولِه: ﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾ إضافةُ تَشريفٍ[3].

- وجُملةُ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ تَكمِلةً لتَوبيخِ الشَّيطانِ؛ فيكونُ كافُ الخطابِ ضَميرَ الشَّيطانِ تَسجيلًا عليه بأنَّه عبدُ اللهِ، ويجوزُ أنْ تكونَ مُعترِضةً في آخرِ الكلامِ؛ فتكونُ كافُ الخطابِ ضَميرَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٨١).

عليه وسلَّمَ تَقريبًا للنَّبيِّ بالإضافةِ إلى ضَميرِ اللهِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٧).

الآيات (٦٦-٦٩)

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُزْجِى﴾: أي: يَسوقُ ويُسَيِّرُ، وأصلُ (زجي): يدُلُّ على تَسييرِ الشَّيءِ مِن غَيرِ حَبسٍ[(١)].

﴿حَاصِبًا﴾: أي: حِجارةً، أو ريحًا عاصِفًا تَرمي بالحَصْباءِ، وهي الحَصَى الصِّغارُ، وأصلُ (حصب): يدُلُّ على الرَّميِ[(٢)].

﴿قَاصِفًا﴾: ريحًا شَديدةً، تَكسِرُ كُلَّ شَيءٍ، وتُحَطِّمُه، وأصلُ (قصف): يدُلُّ على كَسرٍ لِشَيءٍ[(٣)].

﴿تَبِيعًا﴾: تابعًا مُطالِبًا بالثَّأرِ لكم، وأصلُ (تبع): يدلُّ على التُّلُوِّ والقَفْوِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٨٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٧)،

المَعنى الإجماليُّ:

بعدَ أن بيَّن الله تعالى لبنى آدمَ عداوةَ إبليسَ لهم، أتبَع ذلك ببيانِ جانبٍ مِن نِعَمِه تعالى عليهم، فقال: رَبُّكم -أيُّها النَّاسُ- هو الذي يُسَيِّرُ لكم السُّفُنَ في البَحرِ؛ لِتَطلُبوا رِزقَ اللهِ بالتِّجارةِ؛ إنَّه رَحيمٌ بعِبادِه، وإذا أصابَتْكم شِدَّةٌ في البَحرِ فخَشيتُم الغَرقَ والهَلاكَ، غاب عن عُقولِكم ما تَعبُدونَه مِن الآلهةِ، سوى اللهِ -عزَّ وجَلَّ- ودعوتُموه وَحدَه ليكشِفَ عنكم ما نزلَ بكم من سوءٍ، فلمَّا نجَّاكم إلى البَرِّ أعرَضْتُم عن شُكرِه والإخلاصِ له والتَّوحيدِ، وكان الإنسانُ جَحودًا نِعَمَ ربِّه عزَّ وجَلَّ.

ثمَّ بيَّن سبحانَه أنَّ قدرتَه لا يُعجِزُها شيءٌ، لا في البحرِ ولا في البرِّ ولا في غيرِ ذلك، فقال: أفأَمِنتُم أن تَنهارَ بكم الأرضُ في جانبِ البرِّ، أو يُرسِلَ اللهُ عليكم حِجارةً مِن السَّماءِ فتُهلِكَكم، ثمَّ لا تَجِدوا ناصرًا يُنقِذُكم مِن عَذابِه؟ أم أمِنتُم أن يُعيدَكم في البَحرِ مَرَّةً أخرى، فيُرسِلَ عليكم ريحًا شَديدةً، فيُغرِقَكم بسبَبِ كُفرِكم، ثمَّ لا تَجِدوا لكم علينا مَن يَتبَعُنا بثأرِكم؛ بسبَبِ إهلاكِنا لكم؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى وَصْفَ المُشرِكينَ في اعتِقادِهم في آلهَتِهم، وأنَّها تضُرُّ وتنفَعُ، وأتبَعَ ذلك بقِصَّةِ إبليسَ مع آدَمَ، وتَمكينِه مِن وَسْوسةِ ذُرِّيَّتِه، وتَسويلِه؛ ذكَر سبحانَه ما يدُلُّ مِن أفعالِه على وحدانيَّتِه، وأنَّه هو النَّافِعُ الضَّارُّ المتصَرِّفُ

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ٢٤٧).

في خَلقِه بما يشاءُ، فذكَرَ إحسانَه إليهم بحرًا وبَرًّا، وأنَّه تعالى مُتمَكِّنٌ بقُدرتِه مِمَّا يُريدُه[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه الوكيلُ الذي لا كافيَ غَيرُه في حِفظِه؛ لاختِصاصِه بشُمولِ عِلمِه وتَمامِ قُدرتِه؛ أتبَعَه بعضَ أفعالِه الدَّالَّةِ على ذلك، فقال تعالى عَوْدًا إلى دلائِلِ التَّوحيدِ الذي هو المقصودُ الأعظَمُ بأحوالِ البَحرِ الذي يُخلِصونَ فيه، في أُسلوبِ الخِطابِ؛ استِعطافًا لهم إلى المتابِ[٢]:

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾.

أي: ربُّكم هو وَحْدَه الذي يَسوقُ لكم السُّفُنَ في البَحرِ؛ لِتَطلُبوا برُكوبِها الرِّزقَ مِن اللهِ بالتِّجارةِ، وطَلَبِ المَعاشِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾.

أي: سهَّل اللهُ لكم سَيرَ السُّفُنِ في البِحارِ لِنَفْعِكم؛ لأنَّه رَحيمٌ بكم[٤].

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٧١-٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعد أن ألزَمَ اللهُ الكافِرينَ الحُجَّةَ على حَقِّ إلهيَّةِ اللهِ تعالى بما هو مِن خَصائِصِ صُنعِه باعتِرافِهم؛ أعقَبَه بدَليلٍ آخَرَ مِن أحوالِهم المتضَمِّنةِ إقرارَهم بانفِرادِه بالتصَرُّفِ، ثمَّ بالتَّعجيبِ مِن مُناقَضةِ أنفُسِهم عند زَوالِ اضطِرارِهم[1].

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾.

أي: وإذا أصابَتْكم الشِّدَّةُ في البَحرِ -كما لو أمسَكَت السَّفينةُ عن الجَريِ، أو اشتَدَّت عليكم الرِّيحُ، وهاجَت بكم الأمواجُ واضطَرَبت، وخَشِيتُم الغَرَقَ- غاب عن قُلوبِكم كلُّ مَن تَدعونَهم مِن دُونِ اللهِ، ولم تَستغيثوا إلَّا باللهِ وَحدَه؛ لعِلْمِكم بأنَّه لا يُنَجِّيكم أحدٌ سِواه[2].

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾.

أي: فلمَّا نجَّاكم اللهُ مِن الغَرَقِ، وأوصَلَكم إلى البَرِّ؛ أعرَضْتُم عن شُكرِه وتَوحيدِه، والإخلاصِ له سُبحانَه[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧١، ١٧٢).

قال ابنُ كثيرٍ: (كما اتَّفَق لعِكرمةَ بنِ أبي جهلٍ لَمَّا ذَهبَ فارًّا مِن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين فَتَحَ مكَّةَ، فذهب هاربًا، فركب في البَحرِ لِيَدخُلَ الحَبشةَ، فجاءتْهم ريحٌ عاصِفٌ، فقال القومُ بعضُهم لبعضٍ: إنَّه لا يُغني عنكم إلَّا أن تدعو اللهَ وحده. فقال عِكرَمةُ في نفسِه: واللهِ لَئِن كان لا ينفَعُ في البحرِ غَيرُه، فإنَّه لا ينفَعُ في البَرِّ غيرُه، اللهُمَّ لك عليَّ عَهدٌ: لَئِنْ أخرَجْتَني منه لأذهَبَنَّ فأضَعَنَّ يدي في يدَيه، فلأَجِدَنَّه رَؤوفًا رَحيمًا، فخَرَجوا من البَحرِ، فرجع إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأسلَمَ وحَسُنَ إسلامُه- رَضِيَ اللهُ عنه وأرضاه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٢).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢- ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

أي: وكان الإنسانُ مَطبوعًا على الجُحودِ لنِعَمِ اللهِ عليه؛ فهذه سَجِيَّتُه إلَّا مَن عَصَمَه اللهُ تعالى[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩، ١٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦].

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾.

أي: أفأمِنْتُم أن يجعلَ اللهُ الأرضَ تَنهارُ بكم في جانِبِ البَرِّ[2] إنْ خَرَجتُم مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٨)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٦).

(٢) قيل: المرادُ بجانِبِ البَرِّ: ناحيةُ الأرضِ، وسَمَّاه جانبًا؛ لأنَّه يصيرُ بعد الخَسفِ جانِبًا. قاله القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٢).

البَحرِ سالِمينَ؟ فهو قادِرٌ على إهلاكِكم سواءٌ في البَحرِ أو في البَرِّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦].

﴿أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾.

أي: أوْ أمِنْتُم أن يُرسِلَ اللهُ عليكم حِجارةً مِن السَّماءِ فيُمطِرَكم بها، فيُهلِكَكم[(٢)]؟

وقيل: هو الشَّاطئُ الذي يَرسُونَ عليه؛ إشارةً إلى إمكانِ حُصولِ الخَوفِ لهم بمُجَرَّدِ حُلولِهم بالبَرِّ، بحيث يُخسَفُ بهم ذلك الشَّاطئُ. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٢).

قال البقاعي: (دَلَّ على شِدَّةِ إسراعِهم بالكُفرِ عند وُصولِهم إلى أوَّلِ السَّاحِلِ بقَولِه تعالى: ﴿جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾). ((نظم الدرر)) (١١/ ٤٧٣).

قال الماوَردي: (قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾ يحتمِلُ وجهين: أحدُهما: يريدُ بعضَ البَرِّ، وهو موضِعُ حلولهم منه، فسمَّاه جانبَه؛ لأنَّه يصير بعد الخسفِ جانبًا. الثاني: أنهم كانوا على ساحلِ البحر، وساحِلُه جانبُ البَرِّ، وكانوا فيه آمنين من أهوالِ البحرِ فحذَّرهم ما أمِنوه من البَرِّ، كما حذَّرهم ما خافوه من البحرِ). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٨-٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بقَولِه تعالى: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾: يُمطِركم بحجارةٍ مِن السَّماءِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٦).

وممن قال بهذا القول من السلف: ابنُ جريج، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨).

وقيل: المراد: مطَرٌ فيه بَردٌ يُشبِهُ الحِجارةَ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٢).

وقيل: المرادُ: ريحٌ فيها حاصِبٌ، وهو الحصى الصِّغارُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ قتيبةَ، والقرطبي.

كما قال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٧].

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾.

أي: ثمَّ لا تَجِدوا لكم ناصِرًا يَدفَعُ عنكم العَذابَ، ويُنقِذُكم منه[١].

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

أي: أم أمِنْتُم -يا مَن أعرَضْتُم عن توحيدِ اللهِ، وإخلاصِ الدِّينِ له، بَعدَما اعترَفْتُم بذلك في البَحرِ فأنقَذَكم- أن يَرجِعَكم اللهُ في البَحرِ مرَّةً أخرى[٢]؟

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾.

أي: فيُرسِلَ اللهُ عليكم في البَحرِ رِيحًا شَديدةً تَكسِرُ سُفُنَكم، فيُغرِقَكم بسبَبِ كُفرِكم باللهِ، وإعراضِكم عنه[٣]؟

يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٢).

قال الشِّنقيطيُّ: (هو المطَرُ أو الرِّيحُ اللذان فيهما الحِجارةُ). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٦).

قال ابن عاشور: (أي: لا تجِدوا لأنفُسِكم من يجادِلُنا عنكم، أو يطالِبُنا بما ألحَقْناه بكم من الخَسفِ أو الإهلاكِ بالحاصِبِ، أي: لا تجِدوا من قومِكم وأوليائِكم من يثأرُ لكم كشأنِ مَن يلحَقُه ضُرٌّ في قومِه أن يدافِعَ عنه ويطالِبَ بدَمِه أولياؤُه وعصباتُه. وهذا المعنى مناسِبٌ لِما يقع في البَرِّ مِن الحدثان). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٢).

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾.

أي: ثمَّ لا تَجِدوا لكم تابِعًا يثأرُ لكم، ويُطالِبُنا بما فعَلْنا بكم[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا * أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾ فيه إشارةٌ إلى إمكانِ حُصولِ الخَوفِ لهم بمُجَرَّدِ حُلولِهم بالبَرِّ، بحيثُ يُخسَفُ بهم ذلك الشَّاطِئُ، أي: أنَّ البَرَّ والبَحرَ في قُدرةِ الله تعالى سِيَّان؛ فعلى العاقِلِ أن يَستَوِيَ خَوفُه مِن اللهِ في البَرِّ والبَحرِ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ إلى قَولِه: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ دَليلٌ على أنَّ الفَزَعَ إلى اللهِ في الشِّدَّةِ -دونَ الرَّخاءِ- خُلُقٌ مِن أخلاقِ الكافِرينَ، وأنَّ المؤمِنَ مَندوبٌ إلى مُراعاةِ حقِّ اللهِ عليه، والتَّعَرُّفِ إليه في الرَّخاءِ؛ لِيُجابَ عندَ الشِّدَّةِ، فإذا أُجيبَ ازدادَ ذِكْرًا وخَشيةً واقتِرابًا وتَفويضًا؛ ليكونَ عَبدًا مُؤتمِرًا، لا وَجِلًا خائِفًا، مُتبَرِّئًا مِن الحَولِ والقُوَّةِ، مُستَمِدًّا المَعونةَ مِن ربِّه في كلا حالَيه مِن الرَّخاءِ والشِّدَّةِ[(٣)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لم يَقُلْ: (أمَسَّكم) بالإسنادِ إلى نَفسِه تعالى؛ تأديبًا لنا في مُخاطَبتِه بنِسبةِ الخَيرِ دُونَ الشَّرِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٧٨).

إليه، مع اعتِقادِ أنَّ الكُلَّ فِعْلُه، وتنبيهًا على أنَّ الشَّرَّ مِمَّا ينبغي التبَرُّؤُ منه، والبُعدُ عنه(١).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ السَّلامةَ في البَرِّ نِعمةٌ عَظيمةٌ تَنسَونَها، فلو حدَث لكم خَسفٌ لهَلَكتُم هَلاكًا لا نجاةَ لكم منه، بخِلافِ هَولِ البَحرِ، ولكِنْ لَمَّا كانت السَّلامةُ في البَرِّ غيرَ مُدرَكٍ قَدْرُها، قَلَّ أنْ تَشعُرَ النُّفوسُ بنِعمَتِها وتَشعُرَ بخَطَرِ هَولِ البَحرِ؛ فينبغي التدَرُّبُ على تَذكُّرِ نِعمةِ السَّلامةِ مِن الضُّرِّ، ثمَّ إنَّ محَلَّ السَّلامةِ مُعرَّضٌ إلى الأخطارِ(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ صَريحٌ في إباحةِ رُكوبِ البَحرِ للتِّجارةِ(٣).

٢- مَن دعا اللهَ سُبحانَه مُوقِنًا أنَّه يُجيبُ دَعوةَ الدَّاعي إذا دعاه، أجابَه، وقد يكونُ مُشرِكًا وفاسقًا؛ فإنَّه سُبحانَه هو القائِلُ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس: ١٢]، وهو القائِلُ سُبحانَه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾، وهو القائِلُ سُبحانَه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٠ - ٤١]، ولكِنَّ هؤلاء الذين يُستجابُ لهم لإقرارِهم برُبوبيَّتِه، وأنَّه يُجيبُ دُعاءَ المُضطَرِّ،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٨).

إذا لم يَكونوا مُخلِصينَ له الدِّينَ في عِبادتِه، ولا مُطيعينَ له ولِرَسولِه؛ كان ما يُعطيهم بدُعائهم مَتاعًا في الحياةِ الدُّنيا، وما لهم في الآخِرةِ مِن خَلاقٍ[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

- قولُه: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ ﴾ فيه افتتاحُ الجُملةِ بالمُسنَدِ إليه مُعرَّفًا بالإضافةِ ومُستحضرًا بصِفَةِ الرُّبوبيَّةِ ﴿ رَّبُّكُمُ ﴾؛ لاستدعاءِ إقبالِ السَّامعينَ على الخبرِ المُؤذِنِ بأهميَّتِه؛ حيث افتُتِحَ بما يُتَرَقَّبُ منه خبرٌ عظيمٌ؛ لكونِه من شُؤونِ الإلهِ الحقِّ، وخالقِ الخلْقِ، ومُدبِّرِ شُؤونِهم، تَدبيرَ اللَّطيفِ الرَّحيمِ، فيُوجِبُ إقبالَ السَّامعِ بشَراشِرِه[٢]؛ إنْ مُؤمنًا مُتذكِّرًا، أو مُشركًا ناظِرًا مُتدبِّرًا. وجِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ لدَلالتِها على الدَّوامِ والثَّباتِ. وبتَعريفِ طرفيْها ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى ﴾؛ للدَّلالةِ على الانحصارِ، أي: ربُّكم هو الَّذي يُزْجي لكم الفُلكَ لا غيرُه ممَّن تَعْبدونه باطلًا، وهو الَّذي لا يَزال يفعَلُ ذلك لكم. وجِيءَ بالصِّلةِ فعلًا مُضارعًا ﴿يُزْجِى ﴾؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ ذلك وتجدُّدِه[٣].

- وفي قولِه: ﴿يُزْجِى ﴾ شَبَّهَ تَسخيرَ الفُلْكِ للسَّيرِ في الماءِ بإزجاءِ الدَّابَّةِ المُثقلَةِ بالحِمْلِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ تَعليلٌ وتَنبيهٌ لموقعِ الامتنانِ؛ ليَرْفُضوا

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣١٤).
(٢) بشَراشِرِه: أي: بكُلِّيَّتِه وجميعِ نَفسِه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١٢/ ١٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عِبادةَ غيرِه ممَّا لا أثرَ له في هذه المِنَّةِ[١]، وهو تَذييلٌ فيه تعليلٌ لِما سبَقَ من الإزجاءِ لابتغاءِ الفضْلِ، وصِيغَةُ (الرَّحيمِ) للدَّلالةِ على أنَّ المُرادَ بالرَّحمةِ الرَّحمةُ الدُّنيويَّةُ، والنِّعمةُ العاجلةُ المُنقسِمةُ إلى الجليلةِ والحقيرةِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾

- جُملةُ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ خبرٌ مُستعمَلٌ في التَّقريرِ وإلزامِ الحُجَّةِ. وجُملةُ ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡ﴾ خبرٌ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ والتَّوبيخِ. والعُدولُ إلى الموصوليَّةِ -﴿مَن تَدۡعُونَ﴾- لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن عمَلِ اللِّسانِ؛ ليتأتَّى الإيجازُ، أي: مَن يتكرَّرُ دُعاؤكم إيَّاهم، كما يدُلُّ عليه المُضارعُ، فالمعنى: غاب وانصرَفَ ذِكْرُ الَّذين عادتُكم دُعاؤهم عن ألسنتِكم فلا تَدْعونهم، وذلك بقَرينةِ ذكْرِ الدُّعاءِ هنا الَّذي مُتعلِّقُه اللِّسانُ؛ فتعيَّنَ أنَّ ضلالَهم هو ضَلالُ ذكْرِ أسمائِهم، وهذا إيجازٌ بَديعٌ[٣].

- قولُه: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ تعليلٌ لِما سبَقَ من الإعراضِ[٤]، وجاءت صِفَةُ ﴿كَفُورًا﴾ دَلالةً على المُبالغةِ، ثمَّ لم يُخاطِبْهم بذلك، بل أسنَدَ ذلك إلى الإنسانِ؛ لُطفًا بهم، وإحالةً على الجنسِ؛ إذ كلُّ أحدٍ لا يكادُ يُؤدِّي شُكرَ نِعَمِ اللهِ[٥]، وأيضًا هذه الجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ اعتراضٌ وتَذييلٌ؛ لزيادةِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٨٢).

التَّعجُّبِ منهم ومن أمثالِهم. والتَّعريفُ في الإنسانِ تعريفُ الجنسِ، وهو مُفيدٌ للاستغراقِ؛ فهذا الاستغراقُ يجوزُ أنْ يكونَ استغراقًا عُرفيًّا بحمْلِه على غالبِ نوعِ الإنسانِ، وهم أهلُ الإشراكِ، وهم أكثرُ النَّاسِ يومئذٍ، فتكونُ صِيغَةُ المُبالَغةِ من قولِه: ﴿كَفُورًا﴾ راجعةً إلى قُوَّةِ صِفَةِ الكُفرانِ أو عدَمِ الشُّكرِ؛ فإنَّ أعلاه إشراكُ غيرِ المُنعِمِ مع المُنعِمِ في نِعمةٍ لا حظَّ له فيها. ويجوزُ أنْ يكونَ الاستغراقُ حقيقيًّا، أي: كان نوعُ الإنسانِ كَفورًا، أي: غيرَ خالٍ من الكُفرانِ، فتكونُ صِيغَةُ المُبالَغةِ راجعةً إلى كثرةِ أحوالِ الكُفرانِ مع تَفاوُتِها[١].

- وذِكْرُ فعْلِ (كان) إشارةٌ إلى أنَّ الكُفرانَ مُستقِرٌّ في جِبلَّةِ هذا الإنسانِ؛ لأنَّ الإنسانَ قلَّما يشعُرُ بما وراء عالمِ الحسِّ؛ فإنَّ الحواسَّ تَشغَلُه بمُدركاتِها عنِ التَّفكُّرِ فيما عدا ذلك من المعاني المُستقرَّةِ في الحافظةِ، والمُستنبَطةِ بالفكرِ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾

- قولُه: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ...﴾ الاستفهامُ ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ إنكاريٌّ وتَوبيخٌ[٣]، و﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾، وما بينهما اعتِراضٌ، وفُرِّعَ الاستفهامُ التَّوبيخيُّ على إعراضِهم عنِ الشُّكرِ، وعَوْدِهم إلى الكُفرِ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٠-١٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٠-١٦١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٦٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٦١).

ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡۖ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾

- قولُه: ﴿ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ ﴾ فيه إيثارُ كلمةِ (في) على كلمةِ (إلى) المُنبئةِ عن مُجرَّدِ الانتهاءِ؛ للدَّلالةِ على استقرارِهم فيه[١].

- قولُه: ﴿أَن يُعِيدَكُمۡ﴾ فيه إسنادُ الإعادةِ إليه تعالى، مع أنَّ العودَ إليه باختيارِهم باعتبارِ خلْقِ الدَّواعي المُلجئةِ لهم إلى ذلك، وفيه إيماءٌ إلى كَمالِ شِدَّةِ هولِ ما لاقَوه في التارةِ الأُولى، بحيث لولا الإعادةُ لَمَا عادوا[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ (ثمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ كشأنِها في عطْفِها الجُمَلَ، وهو ارتقاءٌ في التَّهديدِ بعدَمِ وُجودِ مُنقذٍ لهم، بعدَ تهديدِهم بالغرقِ؛ لأنَّ الغريقَ قد يجِدُ مُنقِذًا[٣].

- ووصْفُ (تَبِيع) يُناسِبُ حالَ الضُّرِّ الَّذي يلحَقُهم في البحرِ؛ لأنَّ البحرَ لا يصِلُ إليه رجالُ قَبيلةِ القومِ وأولياؤهم، فلو راموا الثَّأرَ لهم لرَكِبوا البحرَ ليُتابِعوا آثارَ مَن ألحَقَ بهم ضرًّا؛ فلذلك قيل هنا: ﴿تَبِيعًا ﴾، وقيل في الَّتي قبلَها: ﴿وَكِيلًا ﴾[٤].

- وعلى قِراءةِ ﴿نَخۡسِفَ﴾ و﴿نُرۡسِلَ﴾ و﴿نُعِيدَكُمۡ﴾ و﴿فَنُرۡسِلَ﴾ و﴿فَنُغۡرِقَكُمۡ﴾ خمْسَتُها بنونِ العظمةِ[٥]؛ فيكونُ فيها التِفاتٌ من ضميرِ الغَيبةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٦٤).

(٥) وهي قراءةُ ابنِ كثيرٍ وأبي عمرٍو. يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٩٦، ٩٧)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٨).

الَّذي في قولِه: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ إلى ضميرِ التَّكلُّمِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٣).

الآيات (٧٠-٧٢)

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتِيلًا﴾: الفَتيلُ: الخيطُ الذي في بَطنِ النَّواةِ، ويُضرَبُ مَثَلًا للشَّيءِ الحَقيرِ التَّافِهِ، وأصلُ (فتل): يدُلُّ على لَيِّ شَيءٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

ذكَر الله سبحانَه تكريمَه لبنى آدمَ، وتفضيلَهم على كثيرٍ مِن المخلوقاتِ، فقال: ولقد كَرَّمْنا بني آدَمَ بما أنعَمْنا عليهم مِنَ النِّعَمِ الظَّاهرةِ والباطِنةِ، وسَخَّرْنا لهم ما يحمِلُهم من الدوابِّ في البَرِّ، والسُّفُنِ في البَحرِ، ورَزَقْناهم مِن طَيِّباتِ المطاعِمِ والمَشارِبِ وسَائِرِ مَا يستلِذُّونَه وينتَفِعونَ به، وفضَّلْناهم على كَثيرٍ مِن المَخلوقاتِ تَفضيلًا عَظيمًا.

ثمَّ ذكَر شيئًا مِن أحوالِهم في الآخرةِ فقال: اذكُرْ -يا مُحمَّدُ- يومَ القيامةِ حينَ يَدعو اللهُ -عَزَّ وجَلَّ- كُلَّ جَماعةٍ مِن النَّاسِ مع إمامِهم الذي كانوا يأتمُّونَ به في الدُّنيا، فمَن أُعطِيَ كِتابَ أعمالِه بيَمينِه، فهؤلاء يَقرَؤونَ كِتابَهم فَرِحينَ مُستَبشِرينَ، ولا يُنْقَصونَ مِن ثَوابِ أعمالِهم الصَّالحةِ شَيئًا، وإن كان يسيرًا كالخَيطِ الذي يكونُ في شَقِّ النَّواةِ، ومَن كان في هذه الدُّنيا أعمى القَلبِ عن

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨٤).

طريقِ الحَقِّ، فهو في الآخرة أشدُّ عَمًى، وأضَلُّ طَريقًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى ما امتَنَّ به عليهم مِن إزجاءِ الفُلكِ في البَحرِ، ومِن تَنجِيَتِهم مِن الغَرَقِ؛ تَمَّمَ ذِكرَ المِنَّةِ بذِكرِ تَكرِمتِهم ورِزقِهم وتَفضيلِهم[١].

وأيضًا لَمَّا هَدَّدَهم اللهُ تعالى بما هَدَّدَ مِن الخَسفِ والغَرَقِ، وأنَّهم كافِرو نِعمَتِه؛ ذكَرَ ما أنعَمَ به عليهم ليتَذَكَّروا فيَشكُروا نِعَمَه، ويُقلِعوا عمَّا كانوا فيه مِن الكُفرِ، ويُطيعوه تعالى، وفي ذِكرِ النِّعَمِ وتَعدادِها هَزٌّ لِشُكرِها[٢].

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

أي: ولقد شَرَّفْنا بني آدَمَ قاطِبةً برَّهم وفاجِرَهم بأنواعِ الشَّرَفِ والمحاسِنِ الكَثيرةِ، بما أنعَمَ اللهُ تعالى عليهم مِن النِّعَمِ الظَّاهرةِ والباطِنةِ التي لا يُمكِنُ لهم حَصرُها؛ ومنها تَمييزُهم بالعَقلِ، وتَسخيرُ المخلوقاتِ لهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣).

قال الشوكاني: (هذه الكرامةُ يدخُلُ تحتَها خلْقُهم على هذه الهيئة الحَسَنةِ، وتخصيصُهم بما خصَّهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجهٍ لا يوجَدُ لسائر أنواع الحيوان مثلُه. وحكى ابنُ جرير عن جماعةٍ أنَّ هذا التكريمَ هو أنَّهم يأكُلون بأيديهم، وسائِرُ الحيوانات تأكُلُ

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

أي: وحَمَلْنا بني آدَمَ في البَرِّ على ظُهورِ الدوابِّ وغَيرِها مِن المَراكِبِ، وفي البَحرِ على ظُهورِ السُّفُنِ والقَوارِبِ(١).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ

بالفم، وكذا حكاه النحَّاس. وقيل: ميَّزَهم بالنُّطقِ والعقل والتمييز. وقيل: أكرمَ الرجالَ باللِّحى والنساءَ بالذوائبِ. وقال ابن جرير: أكرمهم بتسليطِهم على سائر الخَلقِ وتسخيرِ سائرِ الخلقِ لهم. وقيل: بالكلامِ والخطِّ والفهم. ولا مانِعَ من حملِ التكريم المذكورِ في الآية على جميعِ هذه الأشياء، وأعظَمُ خصال التكريمِ العَقلُ؛ فإنَّ به تسلطوا على سائر الحيوانات، ومَيَّزوا بين الحَسَن والقبيح، وتوسَّعوا في المطاعم والمشارب، وكَسَبوا الأموالَ التي تسبَّبوا بها إلى تحصيلِ أمور لا يقدِرُ عليها الحيوان، وبه قَدَروا على تحصيل الأبنية التي تمنَعُهم مما يخافون، وعلى تحصيل الأكسية التي تَقيهم الحرَّ والبردَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٩٠).

وقال الألوسي: (... وقيل وقيل، والكُلُّ في الحَقيقةِ على سَبيلِ التَّمثيلِ، ومَن ادَّعى الحَصرَ في واحدٍ، كابنِ عطيَّةَ، حيث قال: إنَّما التكريمُ بالعَقلِ لا غيرُ- فقد ادَّعى غَلطًا ورام شَطَطًا، وخالف صريحَ العَقلِ، وصَحيحَ النَّقلِ). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١١٢).

وقال ابن عاشور: (التكريمُ: جعْلُه كريمًا، أي نفيسًا غير مبذولٍ ولا ذليلٍ في صورتِه ولا في حركةِ مَشيِه وفي بشَرتِه؛ فإنَّ جميعَ الحيوان لا يعرِفُ النظافةَ ولا اللباسَ ولا ترفيهَ المضجَعِ والمأكَلِ، ولا حُسنَ كيفية تناوُلِ الطعام والشراب، ولا الاستعدادَ لِما ينفَعُه ودفْعَ ما يضرُّه، ولا شعورَه بما في ذاتِه وعقلِه مِن المحاسِنِ فيستزيدُ منها، والقبائحِ فيستُرُها ويدفَعُها). (تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٧٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٥).

وقال ابنُ عاشور: (معنى حَملِ اللهِ النَّاسَ في البَحرِ: إلهامُه إيَّاهم استعمالَ السُّفُنِ... فجعَلَ تيسيرَ ذلك كالحَملِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٥).

تُحۡمَلُونَ ﴾ [غافر: ٧٩-٨٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ * لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف: ١٢-١٤].

﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

أي: ورَزَقْنا بني آدَمَ مِن سَائِرِ مَا يستلِذُّونَه وينتَفِعونَ به، كأنواعِ المآكلِ والمشارِبِ[1].

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٥).

وممَّن قصَرَ مِن المفَسِّرينَ الطَّيِّباتِ على المطعوماتِ والمَشروباتِ: ابنُ جرير، والرسعني، والقرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٥).

قال القرطبي: (وجعَل رِزقَ غيرهم ما لا يخفى عليكم من التِّبنِ والعظامِ وغيرها). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٥).

وزاد ابنُ كثيرٍ على ما سبَق المَلابسَ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٧).

وممَّن قال بما هو أعمُّ ممَّا سبَق: الشوكانيُّ والسعدي، فقال الشوكاني: (﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أَيْ: لَذيذِ المطاعمِ والمشارِبِ وسائرِ ما يستلذُّونَه وينتفِعونَ به). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٩٠).

وقال السعدي: (﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ من المآكِلِ والمشارِبِ والملابِسِ والمناكِحِ، فما من طيِّبٍ تتعلَّقُ به حوائِجُهم إلَّا وقد أكرمهم اللهُ به ويسَّرَه لهم غايةَ التيسيرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣).

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٤١، ١٤٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ * وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٦-٦٩].

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

أي: وفضَّلْنا[(١)] بني آدَمَ على كثيرٍ مِن المخلوقاتِ تَفضيلًا عَظيمًا؛ وذلك بما منَحَهم اللهُ مِن النِّعَمِ والخَصائِصِ التي لم يُعطِها لِغَيرِهم مِن مَخلوقاتِه[(٢)].

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنواعَ كَراماتِ الإنسانِ في الدُّنيا؛ ذكَرَ أحوالَ دَرَجاتِه في

---

(١) قال ابنُ عاشور: (الفَرقُ بين التَّفضيلِ والتَّكريمِ بالعُمومِ والخُصوصِ؛ فالتَّكريمُ مَنظورٌ فيه إلى تكريمِه في ذاتِه، والتَّفضيلُ مَنظورٌ فيه إلى تَشريفِه فَوقَ غَيرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٦).

الآخِرةِ في هذه الآيةِ[١].

﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾.

أي: اذكُرْ يومَ القيامةِ حين نُنادي كُلَّ قَومٍ بإمامِهم في الدُّنيا[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٦، ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٥، ١٧٦).

وفي معنى الإمامِ هاهنا خلافٌ بين المفَسِّرينَ:

فقيل: المرادُ: يُنادَونَ بالإمامِ الذي يأتَمُّ النَّاسُ به ويَقتَدونَ، مِن هادٍ أو ضالٍّ. وممن قال بذلك: البقاعي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠).

وقيل: إمامُهم: هاديهم إلى الرُّشدِ، وهم الرُّسُلُ ونوَّابُهم، فتُعرَضُ كُلُّ أمَّةٍ، ويَحضُرُها رَسولُهم الذي دعاهم. وممَّن قال بذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣).

وممن قال مِن السلفِ: إنَّ المرادَ بقولِه: ﴿بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ أي: بنبيِّهم: أنسٌ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦).

وقيل: المرادُ: كِتابُ أعمالِهم. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٩).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، والحسنُ، وأبو العالية، والضحاكُ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠).

وقيل: المراد: كِتابُهم الذي أُنزِلَ عليهم، كالقُرآنِ والتَّوراةِ. وممَّن اختار هذا المعنى: الزجَّاج. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٢٥٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ زيدٍ، والضحاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠).

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

أي: فمَن أُعطِيَ كتابَ أعمالِه بيَدِه اليمنى، فأولئك يَقرؤونَ كِتابَهم هذا بفَرَحٍ وسُرورٍ؛ لِما يَرَونَ فيه مِن أعمالِهم الصَّالحةِ التي عَمِلوها في الدُّنيا، ولا يَنقُصُهم اللهُ مِن جَزاءِ أعمالِهم الصَّالحةِ شَيئًا، ولو كان يَسيرًا في غايةِ القِلَّةِ والحَقارةِ، كالخَيطِ الذي في شَقِّ نَواةِ التَّمرةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٦].

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾.

أي: ومَن كان في هذه الدُّنيا أعمى القَلبِ لا يُبصِرُ الحَقَّ(٢)؛ فهو في الدَّارِ

قال ابن عطية: (قولُه: ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ باسمِ إمامِهم، ويحتملُ أن يريدَ مع إمامِهم، فعلى التأويل الأول: يقالُ: يا أمَّةَ محمَّدٍ، ويا أتباعَ فِرعَون، ونحو هذا، وعلى التأويل الثاني: تجيءُ كُلُّ أمة معها إمامُها من هادٍ أو مضِلٍّ. واختلف المفسِّرون في «الإمام»، فقال مجاهد وقتادة: نبيُّهم، وقال ابن زيد: كتابُهم الذي نزل عليهم، وقال ابن عباس والحسن: كتابُهم الذي فيه أعمالُهم، وقالت فرقة: مُتَّبَعُهم من هادٍ أو مضِلٍّ. ولفظة «الإمام» تعمُّ هذا كُلَّه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣).

(٢) قال النَّيسابوري: (لا خِلافَ أنَّ المرادَ بهذا العَمى: عَمى القَلبِ). ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٣٧٠). والإشارةُ بقولِه: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ تعودُ إلى الدُّنيا، واختلف أصحابُ هذا القولِ فيما يعمَى عنه القلبُ: فقيل: أعمَى القلبِ عن حُجج الله وآياتِه وبيناتِه. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ عطية، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١-١٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٠٠).

الآخرةِ[(١)] .....

قال ابن جرير: (وأولى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ قولُ من قال: معنى ذلك: ومَن كان في هذه الدنيا أعمى عن حجَجِ الله على أنَّه المنفرِدُ بخَلقِها وتدبيرِها، وتصريفِ ما فيها... وإنما قلنا: ذلك أولى تأويلاتِه بالصوابِ؛ لأنَّ الله تعالى ذِكرُه لم يَخصُصْ في قوله: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ ﴾ الدُّنيا ﴿أَعۡمَىٰ﴾ عمى الكافِرِ به عن بعضِ حُجَجِه عليه فيها دونَ بعضٍ؛ فيوجَّهَ ذلك إلى عماه عن نِعَمِه بما أنعَمَ به عليه من تكريمِه بني آدم، وحَمْلِه إياهم في البَرِّ والبحر، وما عدَّد في الآيةِ التي ذكر فيها نِعَمَه عليهم، بل عَمَّ بالخبر عن عماه في الدنيا، فهم كما عمَّ تعالى ذِكرُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١-١٢).

وقال ابنُ كثير: (وقولُه: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ ﴾ أي: في الحياةِ الدُّنيا ﴿أَعۡمَىٰ﴾ عن حُجَجِ اللَّهِ وآياتِه وبيِّناتِه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٠٠).

وقيل: أعمَى القلبِ عن الهدَى، ضالٌّ عن الحقِّ، لا يبصرُ رشدَه. وممن قال بنحو ذلك: البيضاوي، وابن جزي، وابن القيم، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥١)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٠).

وقيل: الإشارةُ في قوله: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ تعودُ إلى النعمِ. وممن اختار ذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، والفراءُ، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٤٢)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٢٢).

قال مقاتل: (﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ ﴾ النعمِ ﴿أَعۡمَىٰ﴾ يعني: الكافرَ، عمِي عنها، وهو معاينُها، فلم يعرِفْ أنَّها مِن الله عزَّ وجلَّ فيشكر ربَّها، فيعرِفه فيُوحِّده تبارك وتعالى). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٤٢).

وممن قال مِن السلفِ: إنَّ الإشارةَ تعودُ إلى النعمِ: محمدُ بنُ أبي موسى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩).

(١) قال النيسابوري: (أما قوله: ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ فيحتملُ أنْ يُرادَ به عمَى البصرِ، كقولِه: ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا﴾ [طه: ١٢٤، ١٢٥]، وفي هذا زيادةُ العقوبةِ. ويحتملُ أن يُرادَ عمَى القلبِ). ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٣٧٠).

وعلى أنَّ المرادَ عمَى القلبِ، قيل في معنى قوله: ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾: أي: فهو في أمرِ

أعمى[(١)] وأضَلُّ طريقًا[(٢)].

الآخرةِ الَّتي لم يَرَها، وفيما هو كائِنٌ فيها -مِن البعثِ والحسابِ والجنةِ والنارِ- أعمَى. وممن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والواحدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٢).

قال مقاتل: (﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ يقول: فهو عمَّا غاب عنه مِن أمرِ الآخرةِ مِن البعثِ والحسابِ والجنةِ والنارِ أعمَى). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٤٢).

وقيل: المرادُ: أعمَى القلبِ يومَ القيامةِ، حيرانُ يائسٌ مِن الخيرِ؛ لأنَّه قد باشَر الخيبةَ، ورأى مخايلَ العذابِ. وممن اختار نحو هذا القولِ: ابنُ عطيةَ، وابنُ جزي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥١).

وقيل: المرادُ: عمى البصرِ في الآخرة. قال ابن القيم: (واختُلِف في هذا العمى في الآخرة، فقيل: هو عمى البصيرةِ؛ بدليل إخباره تعالى عن رؤية الكفَّارِ ما في القيامة ورؤيةِ الملائكةِ ورؤيةِ النار. وقيل: هو عمى البصر، ورجِّحَ هذا بأن الإطلاقَ ينصرِفُ إليه، وبقَولِه: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ وهذا عمى العينِ؛ فإن الكافِرَ لم يكن بصيرًا بحجَّتِه. وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفَّارِ في القيامة بأنَّ الله يخرِجُهم من قبورِهم إلى موقف القيامة بُصَراءَ ويُحشَرونَ مِن الموقِفِ إلى النار عُميًا، قاله الفرَّاء وغيره). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١١١-١١٢).

(١) قال الشنقيطي: (قال بعضُ أهل العلم: ليست الصيغةُ صيغةَ تفضيل، بل المعنى: فهو في الآخرةِ أعمى كذلك، لا يهتدي إلى نفعٍ؛ وبهذا جزم الزمخشري. قال مقيِّده عفا الله عنه: الذي يتبادَرُ إلى الذهن أنَّ لفظة ﴿أَعْمَىٰ﴾ الثانية صيغةُ تفضيل؛ أي هو أشدُّ عمًى في الآخرة. ويدُلُّ عليه قوله بعده: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾؛ فإنها صيغةُ تفضيل بلا نزاعٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٧٧).

وممن رجَّح أنها صيغةُ تفضيلٍ أيضًا: الواحدي، وابن عطية. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥١-٤٥٢)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٥، ١١١، ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣).

قال الرسعني: (﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ لأنَّه في الآخرةِ، وضلالُ الآخرةِ لا سبيلَ إلى المخلصِ منه). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢١٠).

وقال القرطبي: (﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يعني أنَّه لا يَجِدُ طريقًا إلى الهدايةِ). ((تفسير القرطبي))

قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا * ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٧، ٩٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ التَّأكيدُ بقَولِه: ﴿تَفْضِيلًا﴾ يدُلُّ على عِظَمِ هذا التَّفضيلِ، وأنَّه بمكانٍ مَكِينٍ؛ فعلى بني آدَمَ أن يتلَقَّوه بالشُّكرِ، ويَحذَروا مِن كُفرانِه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ استدَلَّ به الشَّافعيُّ على عدَمِ نجَاسةِ الآدميِّ بالمَوتِ[2].

٢- لا شكَّ أنَّ ذكرَ لفظِ ﴿كَثِيرٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ مُرادٌ منه التَّقييدُ والاحترازُ والتَّعليمُ الَّذي لا غُرورَ فيه،

(١٠/ ٢٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٨).

وهو مذهبُ الجمهورِ خلافًا للحنفيةِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٤٠/ ٧٨)، ((ملخص فقه العبادات)) إعداد: القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية (ص: ٥١).

فيُعلَمُ منه أنَّ ثَمَّ مَخلوقاتٍ غيرَ مُفضَّلٍ عليها بنو آدمَ تكونُ مُساويةً، أو أفضَلَ إجمالًا أو تفصيلًا[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾ قال بعضُ السَّلَف: (هذا أكبَرُ شَرَفٍ لأصحابِ الحَديثِ؛ لأنَّ إمامَهم النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم)[٢]. وهذا المعنى على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تُدعى إلى دِينِها وكِتابِها -وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-، هل عَمِلَت به أم لا؟ وأنَّهم لا يُؤاخَذونَ بشَرعِ نَبيٍّ لم يُؤمَروا باتِّباعِه، وأنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بعد قيامِ الحُجَّةِ عليه ومُخالفَتِه لها[٣].

٥- قولُه: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ فائدةُ نِدائِهم بمَتْبوعيهم -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ- التَّعجيلُ بالمَسرَّةِ لأتْباعِ الهُداةِ، وبالمَساءةِ لأتْباعِ الغُواةِ؛ لأنَّهم إذا دُعُوا بذلك رأَوا مَتبوعيهم في المقاماتِ المُناسبةِ لهم، فعَلِموا مصيرَهم[٤].

٦- قال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ وجْهُ كونِ ضَلالِه في الآخرةِ أشدَّ: أنَّ ضلالَه في الدُّنيا كان في مُكْنَتِه أنْ ينجُوَ منه بطلَبِ ما يُرشِدُه إلى السَّبيلِ المُوصِلِ من هَدْيِ الرَّسولِ والقُرآنِ، مع كونِه خليًّا عن لَحاقِ الألمِ به، وأمَّا ضَلالُه في الآخرةِ فهو ضلالٌ لا خَلاصَ منه، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٧-١٦٨).

مُقارِنٌ للعذابِ الدَّائمِ؛ فلا جرَمَ كان ضلالُه في الآخرةِ أدخَلَ في حقيقةِ الضَّلالِ وماهيَّتِه[١]. وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

٧- إنَّ المَعادَ يعودُ على العَبدِ فيه ما كان حاصِلًا له في الدُّنيا؛ ولهذا يُسمَّى يومَ الجَزاءِ، قال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ وذلك على أحدِ القولينِ في الآيةِ، وقال سُبحانَه: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى ﴾[٢] [مريم: ٧٦].

٨- الثَّوابُ والعِقابُ يَكونانِ مِن جِنسِ العَمَلِ في قَدَرِ اللهِ وفي شَرعِه؛ فإنَّ هذا مِن العَدلِ الذي تَقومُ به السَّماءُ والأرضُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾[٣]، وذلك على أحدِ القولينِ في الآيةِ.

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ... ﴾ اعتراضٌ جاء بمُناسبةِ العِبْرةِ والمِنَّةِ على المُشركين، فاعترَضَ بذكْرِ نِعَمِه على جميعِ النَّاسِ، فأشبَهَ التَّذييلَ؛ لأنَّه ذكَرَ به ما يشمَلُ ما تقدَّمَ[٤].

- والإتيانُ بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿تَفۡضِيلٗا ﴾؛ لإفادةِ ما في التَّنكيرِ من التَّعظيمِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٤).

أي: تَفضيلًا كبيرًا[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ هذا انتقالٌ من غرَضِ التَّهديدِ بعاجلِ العذابِ في الدُّنيا الَّذي في قولِه: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾، إلى ذكْرِ حالِ النَّاسِ في الآخرةِ تَبشيرًا وإنذارًا؛ فالكلامُ استئنافٌ ابتدائيٌّ[٢].

- قولُه: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ الفاءُ في قولِه: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ ﴾ للتَّفريعِ؛ لأنَّ فعْلَ (اذْكُر) المُقدَّر يَقْتضي أمرًا عظيمًا مُجملًا، فوقَعَ تفصيلُه بذكْرِ الفاءِ وما بعدها؛ فإنَّ التَّفصيلَ يتفرَّعُ على الإجمالِ[٣].

- قولُه: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ خَصَّ أصحابَ اليَمينِ بقِراءةِ كتابِهم، كأنَّ أصحابَ الشِّمالِ لا يَقرؤون كِتابَهم؛ يَحتمِلُ لأنَّ أصحابَ الشِّمالِ إذا اطَّلعوا على ما في كتابِهم، أخَذَهم ما يأخُذُ المُطالبَ بالنِّداءِ على جناياتِه، والاعترافِ بمَساويه أمامَ التَّنكيلِ به، والانتقامِ منه، من الحياءِ والخجَلِ والانخزالِ، وحبْسةِ اللِّسانِ، والتَّتعتُعِ، والعجْزِ عن إقامةِ حُروفِ الكلامِ، والذَّهابِ عن تَسويةِ القولِ؛ فغشِيَهم من الخجَلِ والحيرةِ ما يحبِسُ ألسنتَهم عن القراءةِ، فكأنَّ قِراءتَهم كَلَا قِراءةٍ. وأمَّا أصحابُ اليَمينِ فأمْرُهم على عكْسِ ذلك، لا جرَمَ أنَّهم يَقْرؤونَ كِتابَهم أحسَنَ قراءةٍ وأبينَها، ولا يَقْنعون

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٦٧-١٦٨).

بِقراءتِهم وحْدَهم حتَّى يقولَ القارئُ لأهلِ المحشرِ: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾[١] [الحاقة: ١٩].

- قولُه: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ عائدٌ إلى كلِّ النَّاسِ لا إلى أصحابِ اليمينِ خاصَّةً، وإنَّما خصَّهم بذلك؛ لأنَّهم يَعْلمون أنَّهم لا يُظْلمون، ويعتقِدون ذلك، بخلافِ أصحابِ الشِّمالِ؛ فإنَّهم يعتقِدون أو يظنُّون أنَّهم يُظْلمون[٢].

- قولُه: ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ (أولئك) بعدَ فاءِ جوابِ (أمَّا)؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم دون غيرِهم يَقْرؤون كِتابَهم؛ لأنَّ في اطِّلاعِهم على ما فيه من فعْلِ الخيرِ والجزاءِ عليه مَسرَّةً لهم ونَعيمًا، بتذكُّرِ ومعرفةِ ثَوابِه[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾

- قولُه: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ لمَّا كان وجْهُ الشَّبهِ في أحوالِ الكافرِ في الآخرةِ أقوى منه في حالِه في الدُّنيا، أُشيرَ إلى شِدَّةِ تلك الحالةِ بقولِه: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ القائمِ مقامَ صِيغَةِ التَّفضيلِ في العَمى، وذلك على أحدِ القولينِ في التفسيرِ. وعدَلَ عن لفظِ (أشَدَّ) ونحوِه؛ ليتأتَّى ذكْرُ السَّبيلِ؛ لِمَا في الضَّلالِ عن السَّبيلِ من تَمثيلِ حال العَمى وإيضاحِه؛ لأنَّ ضلالَ فاقدِ البصَرِ عن الطَّريقِ في حالِ السَّيرِ أشدُّ وقْعًا في الإضرارِ منه وهو قابعٌ بمكانِه، فعدَلَ عن اللَّفظِ الوجيزِ إلى التَّركيبِ المُطنِبِ؛ لِما في الإطنابِ من تمثيلِ الحالِ وإيضاحِه وإفظاعِه، وهو إطنابٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٩).

بديعٌ[(١)].

- قولُه: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ هذا بعينِه هو الَّذي أُوتِيَ كتابَه بشِمالِه؛ بدلالةِ حالِ ما سبَقَ من الفريقِ المُقابِلِ له، ولعلَّ العُدولَ عن ذكْرِه بذلك العُنوانِ، مع أنَّه الَّذي يَسْتدعيه حُسنُ المُقابلةِ حسْبما هو الواقعُ في سُورةِ (الحاقَّةِ) وسُورةِ (الانشقاقِ)؛ للإيذانِ بالعلَّةِ المُوجبةِ له، وللرَّمزِ إلى علَّةِ حالِ الفريقِ الأوَّلِ، وقد ذكَرَ في أحدِ الجانبينِ المُسبَّبَ وفي الآخرِ السَّببَ، ودَلَّ بالمذكورِ في كلٍّ منهما على المتروكِ في الآخرِ؛ تَعويلًا على شَهادةِ العقْلِ، كما في قولِه عَزَّ وعَلا: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾[(٢)] [يونس: ١٠٧].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٧).

الآيات (٧٢-٧٧)

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَرۡكَنُ﴾: أي: تطمئنُّ، وتسكنُ، وركْنُ الشيءِ: جانبُه الذي يسكنُ إليه، وأصلُ (ركن): يدلُّ على قوةٍ[١].

﴿لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾: أي: يَحمِلونَك على أن تَخرُجَ مِن مَكَّةَ، والاستِفزازُ: الحَملُ على التَّرَحُّلِ، وهو استِفعالٌ مِن فَزَّ، بمعنى: بارحَ المكانَ، وأصلُ (فزز): يدُلُّ على خِفَّةٍ وما قارَبَها[٢].

مشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾

قولُه: ﴿ سُنَّةَ ﴾: في نصبِه ثلاثةُ أوجهٍ، أحدُها: أن ينتصِبَ على المصدرِ المؤكِّدِ بفِعلٍ مَحذوفٍ، أي: سَنَّ اللهُ ذلك سُنَّةً، أو: سَنَنَّا ذلك سُنَّةً. الثاني: أن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٨).

ينتصبَ على المفعولِ به بفعلٍ محذوفٍ، أي: اتَّبِعْ سُنَّةَ. الثالثُ: أنَّه على إسقاطِ الخافِضِ، أي: يُعذَّبون كسُنَّةِ اللهِ فيمن قَبلَهم[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى جانبًا مِن مسالكِ المشركينَ لزحزحةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن طريقِ دعوتِه فيقول: ولقد قارَبَ المُشرِكونَ أن يَصرِفوك -يا مُحمَّدُ- عن القُرآنِ الذي أنزَلَه اللهُ إليك؛ لتَختَلِقَ علينا غيرَه، ولو فعَلْتَ ما أرادوه لاتَّخَذوك صَفِيًّا وليًّا، ولولا أنْ ثبَّتْناك على الحَقِّ، وعَصَمْناك عن مُوافَقتِهم، لَقارَبْتَ أن تَميلَ إليهم مَيلًا قَليلًا؛ حِرصًا على إسلامِهم، ولو رَكَنْتَ إلى هؤلاء المُشرِكينَ رُكونًا قليلًا فيما سألوك، إذَن لأذَقْناك عَذابًا مُضاعَفًا في الدُّنيا وفي الآخرةِ، ثمَّ لا تَجِدُ أحَدًا يَنصُرُك ويَمنَعُك مِن عذابِنا.

ولقد قاربَ الكُفَّارُ أن يَحمِلوك على الخروجِ مِن «مكَّةَ» بإزعاجِهم إيَّاك، وإيذائِهم لك، ولو أخرَجوك منها لم يَمكُثوا فيها بَعدَك إلَّا زمنًا قليلًا، ثمَّ يُهلِكُهم اللهُ. سَنَّ اللهُ ما قصَّه عليك سُنَّةً، وهي أنَّنا نُهلِكُ الأمَّةَ التي تُخرِجُ رَسولَها مِن أرضِه، كما هي عادتُنا في أسلافِهم، ولا تجِدُ -يا مُحمَّدُ- لِسُنَّتِنا تَغييرًا ولا تبديلًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٢٩)، ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٢٥)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٨٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٣٩٥).

لَمَّا عَدَّدَ اللهُ تعالى في الآياتِ المُتقَدِّمةِ أقسامَ نِعَمِه على خَلْقِه، وأتبَعَها بذِكرِ دَرَجاتِ الخَلقِ في الآخرةِ، وشرَحَ أحوالَ السُّعَداءِ؛ أردَفَه بما يَجري مَجرى تَحذيرِ السُّعَداءِ مِن الاغترارِ بوَساوِسِ أربابِ الضَّلالِ، والانخداعِ بكَلامِهم المُشتَمِلِ على المَكرِ والتَّلبيسِ، فقال[1]:

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ ﴾.

أي: وقد قارَبَ كُفَّارُ قَومِك -يا مُحمَّدُ- أن يُزيغُوك بحِيَلِهم عن القُرآنِ الذي أوحَيناه إليك؛ كي تختَلِقَ علينا غَيرَه، فتَجيءَ بما يُوافِقُ أهواءَهم، وتدَعَ القُرآنَ[2].

﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴾.

أي: ولو فعَلْتَ -يا مُحَمَّدُ- ما دعاك إليه قَومُك من مخالفةِ القُرآنِ، واتِّباعِ أهوائِهم؛ لجَعَلوك حَبيبًا ووَلِيًّا وصَفِيًّا لهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٨).
قال الشِّنقيطيُّ: (قال بعضُ أهلِ العِلمِ: قارَبوا ذلك في ظَنِّهم لا فيما في نَفسِ الأمرِ. وقيل: معنى ذلك أنَّه خطَرَ في قلبِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُوافِقَهم في بَعضِ ما أحَبُّوا؛ ليَجُرَّهم إلى الإسلامِ لشِدَّةِ حِرصِه على إسلامِهم. وبيَّنَ في موضعٍ آخَرَ أنَّهم طَلَبوا منه الإتيانَ بغيرِ ما أُوحيَ إليه، وأنَّه امتنَعَ أشَدَّ الامتناعِ، وقال لهم: إنَّه لا يُمكِنُه أن يأتيَ بشَيءٍ مِن تِلقاءِ نَفسِه، بل يَتَّبِعُ ما أوحى إليه رَبُّه، وذلك في قَولِه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [يونس: ١٥]). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٧٨). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ٧٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَّرَ اللهُ سُبحانَه نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما كان في ذلك مِن رُشدِه؛ أتبَعَه ببَيانِ أنَّه إنَّما كان بعِصمةِ اللهِ له؛ لِيَزدادَ شُكرًا، فقال تعالى[1]:

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ٧٤﴾.

أي: ولولا أن ثبَّتْناك -يا مُحَمَّدُ- على الحَقِّ، وعَصَمْناك مِنَ الانخداعِ بحِيَلِ قَومِك الكُفَّارِ؛ لقارَبْتَ أن تَميلَ إليهم شَيئًا قَليلًا، فتفعَلَ بعضَ الذي سألوك فِعْلَه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

قال البيضاوي: (المعنى: أنَّك كنتَ على صدَدِ الركونِ إليهم؛ لقوَّةِ خَدْعِهم وشِدَّة احتيالِهم، لكن أدركَتْك عِصمتُنا فمُنِعْتَ أن تقربَ مِن الركون فضلًا أن تركَنَ إليهم). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٣).

وقال ابنُ عاشور: (أي: لولا إفهامُنا إيَّاك وجهَ الحقِّ لخُشِي أن تقترِبَ مِن رُكونٍ ضعيفٍ قليلٍ، ولكنَّ ذلك لم يقَعْ. ودخلت (قَدْ) في حيِّزِ الامتناعِ فأصبَح تحقيقُها مَعدومًا، أي: لولا أنْ ثبَّتْناك لتحَقَّق قُربُ مَيلِك القليلِ، ولكنَّ ذلك لم يقَعْ؛ لأنَّا ثبَّتْناك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٥).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٩).

قال ابن جُزي: (﴿لَوْلَا﴾ تدلُّ على امتناعِ شَيءٍ لوجود غيره، فدلَّت هنا على امتناع مقاربةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الركونَ إليهم؛ لأجل تثبيت الله له وعصمتِه، و﴿كِدتَّ﴾ تقتضي نفيَ الركون؛ لأنَّ معنى كاد فلان يفعل كذا، أي: أنَّه لم يفعَلْه، فانتفى الركونُ إليهم ومقاربتُه، فليس في ذلك نقصٌ من جانبِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ التثبيتَ منعه من مقاربةِ الركون، ولو لم يثبِّتْه الله لكانت مقاربتُه للركون إليهم شيئًا قليلًا، وأمَّا مع التثبيتِ فلم يركَنْ قليلًا ولا كثيرًا، ولا قارَبَ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٢).

﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾.

أي: لو رَكَنْتَ قليلًا إلى المُشرِكينَ -يا مُحَمَّدُ- ففَعَلْتَ بعضَ ما سألوك، لأذقْناك عَذابًا مُضاعَفًا في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾.

أي: ثمَّ لا تَجِدُ لك -يا مُحَمَّدُ- ناصِرًا يَنصُرُك ويَمنَعُك مِن عذابِنا[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٨، ١٧٩).

وممن جعَل ﴿ إِذًا ﴾ متعلقةً بالركونِ إلى المشركينَ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابنُ القيِّم، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: متعلقةٌ بمقاربةِ الركونِ إليهم، أي: لو قارَبْتَ الركونَ الموصوفَ إليهم ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ﴾. قاله البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٨٧).

قال الشنقيطي: (﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾، أي: مِثْلَي عذابِ الحياةِ في الدُّنيا، ومِثلَي عَذابِ المَماتِ في الآخِرةِ، وبهذا جزم القُرطبيُّ في «تفسيره». وقال بعضُهم: المرادُ بضِعفِ عذابِ المَماتِ: العَذابُ المُضاعَفُ في القبرِ. والمرادُ بضِعفِ الحياةِ: العذابُ المُضاعَفُ في الآخرةِ بعدَ حياةِ البَعثِ، وبهذا جزمَ الزَّمخشريُّ وغَيرُه. والآيةُ تَشمَلُ الجَميعَ). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

قال ابنُ عاشور: (والنَّصيرُ: النَّاصِرُ المُخَلِّصُ مِن الغَلَبةِ، أو الذي يثأرُ للمَغلوبِ، أي: لا تجِدُ لنَفسِك مَن ينتَصِرُ لك فيَصُدُّنا عن إلحاقِ ذلك بك، أو يثأرُ لك مِنَّا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٧).

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ استمالوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالرِّفقِ، حتى كادوا -لولا العِصمةُ- أن يُميلُوه؛ دَلَّ على أنَّهم أخافوه بعدَ ذلك حتى كادوا أن يُخرِجوه مِن وَطَنِه قبلَ الإذْنِ الخاصِّ بالهِجرةِ[1].

وأيضًا فإنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣]؛ تَعدادًا لسَيِّئاتِ أعمالِهم[2].

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَا﴾.

أي: ولقد قارَبَ هؤلاء المُشرِكونَ أن يُزعِجوك ويَستَخِفُّوك مِن مَكَّةَ -يا مُحَمَّدُ- بكَثرةِ إيقاعِ الأذَى بك؛ لِيُخرِجوك منها[3].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

أي: ولو أخرَجَك قَومُك -يا مُحَمَّدُ- مِن مَكَّةَ، فلن يَبْقوا فيها بَعدَك إلَّا قَليلًا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٩٤).

حتى يُهلِكَهم اللهُ بعَذابٍ عاجِلٍ[١].

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾.

أي: لو أخرجَك الكُفَّارُ -يا مُحَمَّدُ- مِن مَكَّةَ، فلن يلبثُوا فيها إلَّا قليلًا حتَّى نُهلِكَهم بعذابِنا، كما هي عادَتُنا في إهلاكِ الأُمَمِ الكافرةِ التي أرسَلْنا إليهم رُسُلًا مِن قَبلِك، فآذَوْهم، وأخرَجوهم مِن بلادِهم[٢].

﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾.

أي: ولا تَجِدُ -يا مُحَمَّدُ- تغييرًا عمَّا جَرَت به عادتُنا، ولا يَقدِرُ أحَدٌ على تَغييرِها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

قال ابنُ عاشور: (وقد خرج رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعد ذلك مُهاجِرًا، وكانوا السَّبَبَ في خُروجِه، فكأنَّهم أخرَجوه... فلم يلبَث الذين تسَبَّبوا في إخراجِه وألَّبُوا عليه قَومَهم بعدَه إلَّا قليلًا، ثمَّ خَرَجوا إلى وَقعةِ بدرٍ فلَقُوا حَتْفَهم هنالك فلم يَرجِعوا، وحَقَّ عليهم الوَعيدُ، وأبقى اللهُ عامَّتَهم ودَهماءَهم؛ لِضَعفِ كَيدِهم، فأراد اللهُ أن يدخُلوا في الإسلامِ بعد ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٨٢).

قال البقاعي: (لكنَّهم خُصُّوا عن الأُمَمِ السَّالفةِ بأنَّهم لا يُعَذَّبونَ عذابَ الاستِئصالِ؛ تَشريفًا لهم بهذا النبيِّ الكريمِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٤٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٩٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (التَّحويلُ أن تُحَوَّلَ مِن مَحَلٍّ إلى محلٍّ، مثل استفزازِه مِن الأرضِ ليُخرِجوه؛

كما قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا * أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٢ - ٤٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ فيه أنَّه لا عِصْمةَ عنِ المعاصي إلَّا بتَوفيقِ اللهِ تعالى؛ فإنَّه تعالى بَيَّنَ أنَّه لولا تَثبيتُ اللهِ تعالى له لَمالَ إلى طريقةِ الكُفَّارِ، ولا شَكَّ أنَّ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان أقوَى مِن غَيرِه في قُوَّةِ الدِّينِ، وصَفاءِ اليَقينِ، فلمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ بقاءَه مَعصومًا عن الكُفرِ والضَّلالِ لم يَحصُلْ إلَّا بإعانةِ اللهِ تعالى وإغاثتِه؛ كان حُصولُ هذا المعنى في حَقِّ غَيرِه أَولى[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ تضمَّنَ تحذيرَ الأمَّةِ مِن الرُّكونِ إلى الكَفَرةِ؛ لِما نِيطَ به من الوعيدِ الشَّديدِ لِمن هو أقرَبُ إلى اللهِ وَسيلةً، على تقديرِ وُجودِ ذلك منه[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا

فإنَّهم لا يَلبَثونَ خَلْفَه إلَّا قليلًا، ولا تتحوَّلُ هذه السُّنَّةُ بأن يكونَ هو المُخرَجُ وهم اللَّابِثونَ، بل متى أخرجوه خَرَجوا خَلْفَه). ((جامع الرسائل)) (١/ ٥٥-٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢١١).

﴾ فيه دَليلٌ على شِدَّةِ افتِقارِ العَبدِ إلى تَثبيتِ اللهِ إيَّاه، وأنَّه ينبغي له ألَّا يَزالَ مُتمَلِّقًا لرَبِّه أن يُثَبِّتَه على الإيمانِ، ساعيًا في كلِّ سَبَبٍ مُوصِلٍ إلى ذلك؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو أكمَلُ الخَلقِ قال اللهُ له: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ فكيف بِغَيرِه[1]؟ فالعَبدُ لا يَستَغني عن تَثبيتِ اللهِ له طَرفةَ عينٍ، فإنْ لم يُثَبِّتْه وإلَّا زالَت سَماءُ إيمانِه وأرضُه عن مَكانِهما[2].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ فيه تَذكيرُ اللهِ لِرَسولِه مِنَّتَه عليه، وعِصمَتَه مِنَ الشَّرِّ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ اللهَ يُحِبُّ مِن عِبادِه أن يتفَطَّنوا لإنعامِه عليهم -عند وجودِ أسبابِ الشَّرِّ- بالعِصمةِ منه، والثَّباتِ على الإيمانِ[3].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ أدنَى مُداهَنةٍ للغُواةِ مُضادَّةٌ للهِ، وخُروجٌ عن وَلايتِه، وسَبَبٌ مُوجِبٌ لغَضَبِه ونَكالِه؛ فعلى المؤمنِ إذا تلا هذه الآيةَ أن يَجثُوَ عندها، ويتدَبَّرَها؛ فهي جديرةٌ بالتدَبُّرِ، وبأنْ يستشعِرَ النَّاظِرُ فيها الخَشيةَ، وازديادَ التصَلُّبِ في دينِ اللهِ[4].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ في هذه الآيةِ بَيانٌ لِكَونِ الجاهِلِ لا يزالُ يَنصُبُ للعالِمِ الحبائِلَ، ويَطلُبُ له الغَوائِلَ، فيَعودُ ذلك عليه بالوَبالِ، في الحالِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٨٥).

والمآلِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا * وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا * إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴾ في ذِكرِ الكَيدودةِ وتَقليلِها -مع إتْباعِها الوَعيدَ الشَّديدَ بالعذابِ المُضاعَفِ في الدَّارَينِ- دَليلٌ بَيِّنٌ على أنَّ القَبيحَ يَعظُمُ قُبحُه بمِقدارِ عِظَمِ شَأنِ فاعِلِه، وارتِفاعِ مَنزِلتِه[٢]، فبحَسَبِ عُلُوِّ مَرتبةِ العَبدِ، وتواتُرِ النِّعَمِ عليه مِنَ اللهِ، يَعظُمُ إثمُه، ويتَضاعَفُ جُرمُه إذا فَعَل ما يُلامُ عليه؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذكَّرَ رَسولَه لو فعل -وحاشاه مِن ذلك- بقَولِه: ﴿ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴾[٣]، فكلَّما كانت الدَّرَجةُ أعلى كان العذابُ عند المُخالفةِ أعظَمَ؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠][٤]. فالسيِّئاتُ قد تُضاعَفُ بشَرفِ فاعِلِها، وقوَّةِ مَعرفتِه باللهِ، وقُربِه منه؛ فإنَّ مَن عصى السُّلطانَ على بساطِه أعظَمُ جُرمًا مِمَّن عصاه على بُعدٍ؛ ولهذا توعَّدَ الله خاصَّةَ عبادِه على المعصيةِ بمضاعَفةِ الجزاءِ، وإن كان قد عصَمَهم منها؛ ليبيِّنَ لهم فَضلَه عليهم بعِصمتِهم من ذلك[٥].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴾

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣١٨).

هذه الآيةُ مِن الأدلَّةِ الواضِحةِ على ما خُصَّ به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم مِن الفضائِلِ في شَرفِ جَوهرِه، وزكاءِ عُنصرِه، ورُجحانِ عَقلِه، وطِيبِ أصلِه؛ لأنَّها دلَّت على أنَّه صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم لو وُكِلَ إلى نفسِه وما خلَقَ اللهُ في طَبعِه وجبِلَّتِه من الغرائِزِ الكاملةِ والأوصافِ الفاضلةِ، ولم يتدارَكْه بما منحَه من التثبيتِ زيادةً على ذلك حالَ النبوَّةِ؛ لم يركَنْ إليهم -وهم أشَدُّ النَّاسِ أفكارًا، وأصفاهم أفهامًا، وأعلَمُهم بالخِداعِ، مع كثرةِ عدَدِهم، وعِظَمِ صَبرِهم وجَلَدِهم- ركونًا ما أصلًا، وإنما كان قُصاراهم أن يقارِبَ الركونَ شَيئًا قليلًا[(١)].

٣- في قَولِ الله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ۞ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴾ إنْ قيل: النَّبيُّ كان معصومًا من الشِّركِ والكبائِرِ، فكيف يجوزُ أن يقرَبَ ممَّا طلَبوه منه، والذي طلبوه منه كُفرٌ؟

الجواب من وجهين:

أحدُهما: أنَّا نعتقِدُ أنَّ الرَّسولَ مَعصومٌ مِن الشِّركِ والكبائِرِ، ونحمِلُ على أنَّ ما وُجِدَ منه كان همًّا من غيرِ عزمٍ، وقد قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ اللَّهَ تَجاوَزَ لأُمَّتي عمَّا وسْوَسَتْ، أو حدَّثَتْ به أنفسَها ما لم تعمَلْ به، أو تَكلَّمْ))[(٢)]. وفي الجملةِ: اللهُ أعلمُ برَسولِه من غيره.

والجوابُ الثاني: وهو أنَّه قال: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ ﴾، وقد

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٢٨)، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثبَّته ولم يركَنْ، وهذا مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ إلى أن قال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقد تفضَّل اللهُ ورَحِمَ، ولم يتَّبِعوا الشَّيطانَ[١].

٤- إن قيلَ: قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣] يعني: مَكَّةَ، والمرادُ أهلُها، فذَكَرَ أنَّهم أخرجوه، وقال في هذه الآيةِ: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦] فكيف يُمكِنُ الجَمعُ بينهما؟

فالجوابُ: أنَّهم هَمُّوا وقصَدوا إخراجَه، كما قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ثمَّ قبلَ أن يُتِمُّوا ذلك أمرَ الله تعالى نبيَّه -عليه السَّلامُ- بالخروجِ، فخرج منها بأمرِ اللهِ خائِفًا منهم ومِن مَكرِهم، وكان خروجُه بأمرِ الله سببًا لسلامتِه مِمَّا كانوا يدبِّرونَه فيما بينهم، وجاز إضافةُ الإخراجِ إليهم في قَولِه: ﴿أَخْرَجَتْكَ﴾؛ لأنَّهم همُّوا بذلك، وأُمرَ بالخروجِ منها لقَصدِهم إخراجَه، فلما كانوا سببًا في خروجِه أُضيف ذلك إليهم[٢]؛ لأنَّهم في الحقيقةِ اضطرُّوه وألجؤُوه -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه- إلى الخُروجِ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ الرَّسولَ سيَخرُجُ مِن مكَّةَ وأنَّ مُخرِجيه -أي: المُتسَبِّبينَ في خُروجِه- لا يَلبَثونَ بَعدَه بمكَّةَ إلَّا قَليلًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٩).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ فيه أنَّ الله إذا أراد إهلاكَ أُمَّةٍ، تَضاعَفَ جُرمُها، وعَظُمَ، فيَحِقُّ عليها القَولُ مِنَ اللهِ، فيُوقِعُ بها العِقابَ، كما هي سُنَّتُه في الأُمَمِ إذا أخرَجوا رَسولَهم[1].

٧- قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾، وإنَّما سَنَّ اللهُ هذه السُّنَّةَ لرُسلِه؛ لأنَّ تآمُرَ الأقوامِ على إخراجِهم يَسْتدعي حكمةَ اللهِ تعالى لأنْ تتعلَّقَ إرادتُه بأمْرِه إيَّاهم بالهجرةِ؛ لئلَّا يَبْقوا مَرموقينَ بعَينِ الغضاضةِ بين قومِهم وأجوارِهم[2].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾

- جُملةُ ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾، وهو انتقالٌ من وصْفِ حالِهم، وإبطالِ مَقالِهم في تكذيبِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى ذكْرِ حالِ طمَعِهم في أنْ يستنْزِلوا النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأنْ يقولَ قولًا فيه حُسْنُ ذكْرٍ لآلهتِهم؛ ليَتنازلوا إلى مُصالحتِه ومُوافقَتِه إذا وافقَهم في بعضِ ما سألوه[3].

- وفي قولِه: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ غيَّرَ الأسلوبَ من خطابِهم في آياتِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٧١).

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ إلى الإقبالِ على خطابِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لتغيُّرِ المقامِ من مقامِ استدلالٍ إلى مقامِ امتنانٍ(١).

- والموصولُ في قولِه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ للعهدِ؛ لِمَا هو معلومٌ عند النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحسَبِ ما سأَله المُشركون من مُخالفتِه؛ فهذه الآيةُ مَسوقةٌ مَساقَ المَنِّ على النَّبيِّ بعصمةِ اللهِ إيَّاه من الخطَأِ في الاجتهادِ، ومَساقَ إظهارِ مَلَلِ المُشركينَ من أمْرِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ وتخوُّفِهم من عواقبِها، وفي ذلك تثبيتٌ للنَّبيِّ وللمُؤمنينَ، وتأييسٌ للمُشركين بأنَّ ذلك لن يكونَ(٢).

- وجُملةُ ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾، و(إِذًا) حرفُ جَزاءٍ؛ فتكونُ جزاءً لفعلِ ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ بما معه مِن المُتعلِّقاتِ مُقحمًا بين المُتعاطفينِ، لتصيرَ واوُ العطفِ مع (إِذًا) مُفيدةً معنى فاءِ التَّفريعِ، ووجْهُ عطْفِها بالواوِ دونَ الاقتصارِ على حرفِ الجزاءِ؛ لأنَّه باعتبارِ كونِه من أحوالِهم الَّتي حاوروا النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيها، وألحُّوا عليه؛ فناسبَ أنْ يُعطَفَ على جُملةِ أحوالِهم. والتَّقديرُ: فلو صَرَفوك عن بعضِ ما أوحينا إليك لاتَّخذوكَ خليلًا(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾

- ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ لم يقتصِرْ على ﴿قَلِيلًا﴾؛ لأنَّ تَنكيرَ ﴿شَيْـًٔا﴾ مُفيدٌ التَّقليلَ؛ فكان في ذكْرِه تهيئةٌ لتوكيدِ معنى التَّقليلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٧٣).

فإنَّ كلمةَ (شَيءٍ) لتوغُّلِها في إبهامِ جنسِ ما تُضافُ إليه أو جنسِ الموجودِ مُطلقًا، مُفيدةٌ للتَّقليلِ غالبًا[١].

- وفي هذه الآيةِ نَفى رُكونَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليهم، وبيَّنَ أنَّه غيرُ واقعٍ ولا مُقاربٌ الوقوعَ بأربعةِ أُمورٍ، وهي: (لولا) الامتناعيَّةُ، وفعْلُ المُقارَبةِ (كاد) المُقتضي أنَّه ما كان يقَعُ الرُّكونُ ولكنْ يقَعُ الاقترابُ منه، والتَّحقيرُ المُستفادُ من ﴿شَيْـًٔا﴾، والتَّقليلُ المُستفادُ من ﴿قَلِيلًا﴾[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾

- وجُملةُ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ﴾، وموقعُها تَحقيقُ عدَمِ الخلاصِ من تلك الإذاقةِ، و(ثمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لأنَّ عدَمَ الخلاصِ من العذابِ أهمُّ من إذاقتِه، فرُتْبَتُه في الأهميَّةِ أرقَى[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

- التَّعريفُ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ تعريفُ العهدِ، أي: من أرضِك، وهي مكَّةُ. وقولُه: ﴿لِيُخْرِجُوكَ﴾ تَعليلٌ للاستفزازِ، أي: استفزازًا لقصْدِ الإخراجِ، والمُرادُ بالإخراجِ: مُفارقةُ المكانِ دونَ رُجوعٍ، وبهذا الاعتبارِ جُعِلَ علَّةً للاستفزازِ؛ لأنَّ الاستفزازَ أعمُّ من الإخراجِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٧٨).

٥- قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾

- جُملةُ: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لبيانِ سبَبِ كونِ لُبْثِهم بعدَه قليلًا[١].

- قولُه: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ اعتراضٌ لتَكملةِ البيانِ، والتَّعبيرُ بـ ﴿لَا تَجِدُ﴾ مُبالغةٌ في الانتفاءِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧٨-٨١)

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِدُلُوكِ﴾: أي: غُرُوبِ وزَوالِ، وأصلُ (دلك): يدلُّ على مَيلٍ وزَوالٍ[١].

﴿غَسَقِ﴾: أي: ظَلامِ، وأصلُ (غسق): يدُلُّ على ظُلمةٍ[٢].

﴿فَتَهَجَّدْ﴾: أي: اسهَرْ، وألقِ الهُجودَ، وهو النَّومُ، فمادَّةُ التفَعُّلِ فيه للإزالةِ، مثل التحَرُّجِ والتأثُّمِ، وأصلُ (هجد): يدُلُّ على رُكودٍ، كأنَّه بصَلاتِه تَرَكَ الهُجودَ عنه[٣].

﴿نَافِلَةً﴾: أي: زيادةً؛ مِن النَّفلِ: وهو الزِّيادةُ على الواجِبِ، وأصلُ (نفل): يدُلُّ على عَطاءٍ وإعطاءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٠).

﴿مُدْخَلَ﴾: المدخَلُ: الإدخالُ، مِن أدخَل، والدُّخولُ: نقيضُ الخروجِ[١].

﴿مُخْرَجَ﴾: المخرَجُ: الإخراجُ، وخرَج خُروجًا: برَز مِن مقرِّه أو حالِه، وأصلُ (خرج): النَّفاذُ عَنِ الشَّيءِ[٢].

﴿وَزَهَقَ﴾: أي: بطَلَ وهلَكَ، وأصلُ (زهق): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ، وقِلَّةِ مُكثِه ولُبثِه[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: أقِمْ -يا مُحَمَّدُ- الصَّلاةَ تامَّةً مِن وَقتِ زَوالِ الشَّمسِ إلى وَقتِ ظُلمةِ اللَّيلِ -فيَدخُلُ في هذا صلاةُ الظُّهرِ والعَصرِ، والمَغرِبِ والعِشاءِ- وأقِمْ صَلاةَ الفَجرِ؛ إنَّ صلاةَ الفَجرِ تَحضُرُها مَلائِكةُ اللَّيلِ ومَلائِكةُ النَّهارِ. وقُمْ -يا مُحَمَّدُ- مِن نَومِك بعضَ اللَّيلِ، فصَلِّ بالقرآنِ زيادةً لك؛ عسى أن يبعَثَك اللهُ شافعًا للنَّاسِ يومَ القيامةِ، وتقومَ مَقامًا يَحمَدُك فيه الأوَّلونَ والآخِرونَ.

ثمَّ أمَر الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يدعوَه فقال: وقُلْ -يا مُحَمَّدُ- ربِّ أدخِلْني إدخالًا حسنًا مَرضِيًّا في كُلِّ ما أدخُلُ فيه، وأخرِجْني إخراجًا حسنًا مَرضِيًّا مِن كُلِّ ما أخرجُ منه، واجعَلْ لي مِن عندِك حُجَّةً بيِّنةً، وسُلطةً وغلبةً تنصُرُني بها على مَن خالفَني، وقُوَّةً تُعينُني بها على إقامةِ دينِك، وقُلْ -يا مُحَمَّدُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٨)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٩١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨).

جاء الحَقُّ مِن عندِ اللهِ وظهَرَ على كلِّ ما يخالِفُه من شِركٍ وكُفرٍ، وذهَبَ الباطِلُ واضمَحَلَّ وزالت دولتُه، إنَّ الباطِلَ لا بقاءَ له ولا ثَباتَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ كَيدَ الكافرينَ للرَّسولِ، وما كانوا يَرومونَ به؛ أمَرَه تعالى أن يُقبِلَ على شأنِه مِن عبادةِ رَبِّه، وألَّا يَشغَلَ قَلْبَه بهم، وكان قد تقَدَّمَ القَولُ في الإلهيَّاتِ والمعادِ والنبُوَّاتِ؛ فأردَفَ ذلك بالأمرِ بأشرَفِ العِباداتِ والطَّاعاتِ بعدَ الإيمانِ، وهي الصَّلاةُ[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ لَمَّا امتَنَّ على النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالعصمةِ وبالنَّصرِ؛ ذكَّرَه بشُكرِ النِّعمةِ بأنْ أمَرَه بأعظمِ عِبادةٍ يعبُدُه بها، وبالزِّيادةِ منها؛ طلبًا لازديادِ النِّعمةِ عليه، كما دَلَّ عليه قولُه في آخرِ الآيةِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[2] [الإسراء: ٧٩].

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾.

أي: أدِّ -يا مُحَمَّدُ- الصَّلَواتِ المَكتوباتِ على وَجهِ التَّمامِ بجَميعِ أركانِها وشُروطِها، في أوقاتِها؛ مِن مَيلِ الشَّمسِ للزَّوالِ -فيَدخُلُ في ذلك صَلاتا الظُّهرِ والعَصرِ- إلى إقبالِ الظَّلامِ واجتِماعِه، ويدخُلُ في ذلك صلاتا المَغرِبِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٩٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨١).

والعِشاءِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ [هود: ١١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ * وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٩).

قال ابنُ عطية: (هذه -بإجماعٍ مِن المُفَسِّرينَ- إشارةٌ إلى الصَّلَواتِ المَفروضةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٧).

وقال السمعاني: (اختلَفوا في الدُّلوك: قال ابن مسعود : هو الغروبُ، وقال ابن عباس: هو الزَّوالُ، وقد حكِيَ عنهما كلا القولين، وكذلك اختلف التابعون في هذا. وأصل الدُّلوكِ مِن الميل، والشَّمسُ تميلُ إذا زالت أو غرَبَت... وأولى القولين أن يحمَلَ على الزَّوالِ؛ لكثرة القائلين به، فإنَّ أكثر التابعين حملوه عليه، ولأنَّا إذا حمَلْناه عليه تناوَلَت الآيةُ جميعَ الصلواتِ الخمس؛ فإنَّ قوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ يتناول الظُّهرَ والعصرَ، وقولَه: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾ يتناولُ المغرِبَ والعِشاءَ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٦٧). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ٦٩).

وممن قال مِن السلفِ: إنَّ الدلوكَ المرادُ به: الزوالُ: ابنُ مسعود في روايةٍ عنه، وابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عمرَ، وأبو برزةَ، وأبو هريرةَ، والحسنُ، والشعبي، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وأبو العاليةِ، ومجاهدٌ، وعطاءٌ، وعبيدُ بنُ عُميرٍ، وقتادةُ، والضحَّاكُ، ومقاتلٌ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٥).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ الدُّلوكَ يَجمَعُ ثلاثةَ أوقاتٍ: وقتَ الظهرِ والعصرِ والمغربِ، باستعمالِ المشتركِ في معانيه، وأمَّا الغَسَقُ فهو وقتُ غيبوبةِ الشَّفَقِ، وهو وقتُ صلاةِ العشاءِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٢- ١٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٧).

قال ابنُ عاشور: (اللَّامُ في ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ لامُ التَّوقيتِ، وهي بمعنَى «عندَ»). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٢).

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾.

أي: وأقِمْ -يا مُحَمَّدُ- صَلاةَ الفَجرِ[١].

عن أبي بَرزةَ الأسلميِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرأُ في الفَجرِ ما بين السِّتينَ إلى المائةِ آيةٍ))[٢].

وعن جابِرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرأُ في الفَجرِ بـ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، وكان صلاتُه بعدُ تخفيفًا))[٣].

وعنه أيضًا: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرأُ في الظُّهرِ بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وفي الصُّبحِ بأطوَلَ مِن ذلك))[٤].

وعنه أيضًا، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرأُ في الفَجرِ «الواقِعةَ» ونَحوَها مِن السُّوَرِ))[٥].

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٩).

قال ابنُ عاشور: (ثمَّ عَطَفَ قُرآنَ الفَجرِ على الصَّلاةِ، والتقديرُ: وأقِمْ قرآنَ الفَجرِ، أي: الصَّلاةَ به. كذا قدَّرَ القُرَّاءُ وجُمهورُ المفَسِّرين؛ ليُعلَمَ أنَّ لكُلِّ صَلاةٍ مِن تلك الصَّلواتِ قُرآنًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٣).

(٢) رواه البخاري (٥٤١)، ومسلم (٤٦١) واللفظ له.

(٣) رواه مسلم (٤٥٨).

(٤) رواه مسلم (٤٥٩).

(٥) أخرجه أحمد (٢٠٩٩٥)، وابن خُزيمة (٥٣١)، وابن حبَّان (١٨٢٣) مطوَّلًا.

صحَّحه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٣٠)، والألباني في ((أصل صفة الصلاة)) (٢/ ٤٣٠) وقال: (على شرط مسلم).

أي: إنَّ صَلاةَ الفَجرِ مَحضورةٌ؛ تَشهَدُها مَلائِكةُ اللَّيلِ، ومَلائِكةُ النَّهارِ[١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((فَضلُ صَلاةِ الجَميعِ على صلاةِ الواحِدِ خَمسٌ وعِشرونَ دَرجةً، وتجتَمِعُ ملائِكةُ اللَّيلِ وملائِكةُ النَّهارِ في صلاةِ الصُّبحِ، يقولُ أبو هريرة: اقرَؤوا إن شِئتُم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾))[٢].

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالصَّلَواتِ الخَمسِ على سَبيلِ الرَّمزِ والإشارةِ؛ أردَفَه بالحَثِّ على صلاةِ اللَّيلِ[٣].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإقامةِ الصَّلاةِ للوَقتِ المَذكورِ، ولم يَدُلَّ أمرُه تعالى إيَّاه على اختِصاصِه بذلك دونَ أمَّتِه؛ ذكَرَ ما اختَصَّه به تعالى وأوجَبَه عليه مِن قِيامِ اللَّيلِ، وهو في أمَّتِه تطَوُّعٌ[٤].

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾.

أي: ومِن بَعضِ اللَّيلِ قُمْ -يا مُحَمَّدُ- مِن نَومِك فصَلِّ بالقُرآنِ؛ زيادةً لك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣، ٣٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).
قال الواحدي: (كلُّهم قالوا: صلاةُ الفَجرِ تَشهَدُها ملائِكةُ اللَّيلِ ومَلائِكةُ النَّهارِ). ((الوسيط)) (٣/ ١٢١).

(٢) رواه البخاري (٤٧١٧) واللفظ له، ومسلم (٦٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨، ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن

كما قال تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۞ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۞ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ٢ - ٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُئِلَ: أيُّ الصَّلاةِ أفضَلُ بعدَ المَكتوبةِ؟ فقال: أفضَلُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ المكتوبةِ الصَّلاةُ في جَوفِ اللَّيلِ))(١).

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ نبيَّ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقومُ مِن

كثير)) (٥/ ١٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٩٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥).

واختُلِف في وجهِ تخصيصِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّها نافلةٌ له على أقوالٍ:

فقيل: ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ أي: فريضةً زائدةً على سائرِ الفرائضِ التي فرَضها الله عليك، فإنها كانت فريضةً عليه، وهي لغيرِه تطوعٌ. وممن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والخازنُ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٥).

وممن قال بهذا القول من السلف: ابنُ عباس، وسعيدُ بنُ جُبير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٧).

وقيل: لأنَّها زِيادةٌ للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم وفضيلةٌ؛ لأنَّ ذنوبَه مغفورةٌ، وتكفيرٌ لذُنُوبِ غيرِه. وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٦٤).

وممن قال بنحوِ هذا القول من السلفِ: مجاهدٌ، وأبو أمامة، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٧).

وقيل: خُصَّ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بذلك؛ تخصيصًا له بالترغيبِ فيها، والسبقِ إلى حيازةِ فضلِها، وليقتديَ النَّاسُ به فيها. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٦٤).

(١) رواه مسلم (١١٦٣).

اللَّيلِ حتى تتفَطَّرَ قَدَماه))[١].

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾.

أي: افعَلْ هذا الذي أمَرْتُك به[٢] -يا مُحَمَّدُ- فيَبعَثَك ربُّك يومَ القيامةِ شَفيعًا في أهلِ المَوقِفِ، فيَحمَدَك الأوَّلونَ والآخِرونَ[٣].

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧).

(٢) قيل: المراد: أمْرُه بما سبقَ مِن إقامةِ الصَّلواتِ المفروضةِ في أوقاتِها والتهَجُّدِ مِن اللَّيلِ بالقُرآنِ؛ لعَلَّ اللهَ أن يَبعَثَه المقامَ المحمودَ. وممَّن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣).

وقيل: جاءت جملةُ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ﴾ تعليلًا لتَخصيصِه بإيجابِ التهَجُّدِ عليه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣، ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٠٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥).

قال الرازي: (اتَّفق المفسرونَ على أنَّ كلمةَ ﴿عَسَىٰٓ﴾ مِن الله واجبٌ، قال أهلُ المعاني: لأنَّ لفظةَ «عسى» تفيدُ الإطماعَ، ومَن أطمَع إنسانًا في شيءٍ ثمَّ حرَمه كان عارًا، والله تعالى أكرمُ مِن أن يُطمعَ أحدًا في شيءٍ ثمَّ لا يُعطيه ذلك). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢، ٤٣).

و﴿مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ قيل: نُصِب على الظرفِ بإضمارِ فعلِه، أي: عسَى أن يبعثَك فيقيمَك مقامًا محمودًا، أو ضمَّن ﴿يَبۡعَثَكَ﴾ معنَى: يقيمَك، ويجوزُ أن يكونَ حالًا بمعنَى: أن يبعثَك ذا مقامٍ محمودٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٨٧)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٤).

قال الواحدي: (إجماعُ المُفَسِّرينَ على أنَّ المقامَ المحمودَ هو مقامُ الشَّفاعةِ). ((الوسيط)) (٣/ ١٢٢).

وقال ابنُ جرير: (اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك المقامِ المحمودِ، فقال أكثرُ أهلِ العلمِ: ذلك هو المقامُ الذي هو يقومُه صلَّى الله عليه وسلَّم يومَ القيامةِ للشفاعةِ للناسِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣).

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ الشَّمسَ تدنو يومَ القيامةِ، حتى يبلُغَ العَرَقُ نِصفَ الأُذُنِ، فبينا هم كذلك استغاثوا بآدَمَ، ثمَّ بموسى، ثُمَّ بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيَشفَعُ ليُقضَى بين الخَلقِ، فيمشي حتى يأخُذَ بحَلقةِ البابِ، فيَومَئذٍ يَبعَثُه اللهُ مَقامًا مَحمودًا، يَحمَدُه أهلُ الجَمعِ كُلُّهم))[١].

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عنه، في حديثِ الشفاعةِ الطويلِ، وسؤالِ الناسِ يومَ القيامةِ الأنبياءَ الشفاعةَ: آدمَ ونوحًا وإبراهيمَ وموسَى وعيسَى عليهم السلامُ إلى أن يأتوا محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم ويأذنَ الله له بالشفاعةِ، ويقولَ له بعدَ أن يقعَ له ساجدًا: ((ارفعْ مُحَمَّدُ، وقلْ يُسمَعْ، واشفعْ تشفَّعْ، وسلْ تُعْطَ. قال: فأرفع رأسي، فأُثني على ربي بثناءٍ وتحميدٍ يعلِّمُنيه، ثم أشفعُ فيحدُّ لي حدًّا، فأخرجُ فأُخرجُهم مِن النارِ، وأُدخلُهم الجنة)) إلى أن يقولَ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((حتى ما يبقَى في النارِ إلَّا مَن حبَسه القرآنُ)) أي: وجَب عليه الخلودُ، قال: ثم تلا هذه الآيةَ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ قال: ((وهذا المقامُ المحمودُ الذي وُعِده نبيُّكم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[٢].

وعن جابرِ بنِ عَبدِ الله رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن قال حينَ يَسمَعُ النِّداءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هذه الدَّعوةِ التَّامَّةِ، والصَّلاةِ القائمةِ؛ آتِ مُحَمَّدًا الوَسيلةَ والفَضيلةَ، وابعَثْه مَقامًا محمودًا الذي وعَدْتَه؛ حَلَّت له شفاعتي يومَ القيامةِ))[٣].

---

(١) رواه البخاري (١٤٧٥).

(٢) رواه البخاري (٧٤٤٠).

(٣) رواه البخاري (٦١٤).

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((إنَّ النَّاسَ يَصيرونَ يومَ القيامةِ جُثًا[١]، كُلُّ أمَّةٍ تَتبَعُ نَبيَّها، يقولونَ: يا فُلانُ اشفَعْ، يا فُلانُ اشفَعْ، حتى تنتهيَ الشَّفاعةُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذلك يومَ يَبعَثُه اللهُ المقامَ المحمودَ))[٢].

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإقامةِ الصَّلاةِ والتهَجُّدِ، ووعَدَه بَعْثَه مقامًا محمودًا، وذلك في الآخرةِ؛ أمَرَه بأن يَدعُوَه بما يَشمَلُ أمورَه الدُّنيويَّةَ والأُخرَويَّةَ[٣].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالشُّكرِ الفِعليِّ، عطَفَ عليه الأمرَ بالشُّكرِ اللِّسانيِّ بأن يبتَهِلَ إلى اللهِ بسُؤالِ التَّوفيقِ في الخُروجِ مِن مَكانٍ والدُّخولِ إلى مكانٍ؛ كيلا يضُرَّه أن يَستَفِزَّه أعداؤه مِن الأرضِ لِيُخرِجوه منها، مع ما فيه مِن المناسبةِ لِقَولِه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾، فلمَّا وَعَدَه بأن يُقيمَه مقامًا مَحمودًا، ناسَبَ أن يَسألَ أن يكونَ ذلك حالَه في كُلِّ مَقامٍ يَقومُه[٤].

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ ﴾.

أي: وقُلْ -يا مُحَمَّدُ- رَبِّ اجعَلْ دُخولي المدينةَ وكُلَّ ما أدخُلُ فيه، مُدخَلًا

(١) جُثًا: أي: جماعاتٍ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢١٠).

(٢) رواه البخاري (٤٧١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٦).

حَسَنًا، وفِّقْني فيه لِمَرضاتِك، واجعَلْ خُروجي مِن مَكَّةَ وكُلِّ ما أخرُجُ منه، مُخرَجًا حَسَنًا مَرضِيًّا تُوَفِّقُني فيه لطاعَتِك[1].

﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾.

أي: واجعَلْ لي -يا رَبِّ- مِن عِندِك حُجَّةً بَيِّنةً، ومُلكًا وسُلطةً وغلبةً تُظهِرُ بها ديني، وتَنصُرُني بها على مَن عاداني[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤، ٥٧)، ((مدارج السالكين)) (٢/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥).

قيل: المرادُ بمُدخَل الصِّدق: دخولُه المدينةَ، ومُخرَج الصِّدق: خروجُه مِن مكَّةَ. وممَّن رجَّحَ هذا القولَ: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧- ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١١).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، والحسنُ، وقتادةُ، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٨).

قال ابن القيم: (فُسِّرَ مُدْخَلُ الصِّدْقِ وَمُخْرَجُه: بخروجِه صلَّى الله عليه وسلَّم مِنْ مَكَّةَ، ودخولِه المدينةَ، ولا ريبَ أنَّ هذا على سبيلِ التَّمثيلِ؛ فإنَّ هذا المُدْخَلَ والمُخْرَجَ مِنْ أجلِّ مداخِلِه ومخارِجِه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٢٦٠).

وقيل: المراد: جميعُ المداخِلِ والمخارِجِ على وَجهِ العُمومِ سواءٌ المتعَلِّقةُ بالأمكنةِ أو بغيرِها.

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عطية، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيمِ، واختيارُ ابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٩)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٦- ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٦/ ٤٢٧٣، ٤٢٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٧).

وفي معنى السلطان النصير أقوال:

فقيل: المرادُ به: الملكُ والرئاسةُ والقوةُ والعزةُ. وممن ذهب إلى نحوِ ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ جزي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٩-٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١١).

وممن ذهب إلى نحو هذا القولِ مِن السلفِ: الحسنُ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٨).

وقيل: المرادُ به: الحُجَّةُ البيِّنةُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلَفِ: مجاهِدٌ . يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٨).

وقال ابن تيمية: (﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ فإنَّ السُّلطانَ النَّصيرَ يجمَعُ الحُجَّةَ والمنزلةَ عند اللهِ، وهو كَلِماتُه الدِّينيةُ والقَدَريَّةُ والكونيَّةُ عند الله بكَلِماتِه الكونيَّاتِ. ومُعجِزاتُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ تجمَعُ الأمرَينِ؛ فإنَّها حجَّةٌ على النبُوَّةِ مِن اللهِ، وهي قَدَريَّةٌ. وأبلغُ ذلك القرآنُ الذي جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّه هو شَرعُ اللهِ وكَلِماتُه الدينياتُ، وهو حجَّةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على نبوَّتِه ومجيئِه مِن الخوارقِ للعاداتِ، فهو الدَّعوةُ، وهو الحُجَّةُ والمعجِزةُ). ((مجموع الفتاوى)) (١١/ ٣٢٤).

وقال ابنُ جرير بعد ترجيحِه السلطان بمعنى المُلك والرئاسة: (وإذا أُوتيَ ذلك، فقد أوتيَ -لا شكَّ- حُجَّةً بيِّنةً). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٠).

وممن جمَع بينَ المعنيينِ السابقين مِن المفسرينَ: الزجاجُ، ومكي، والواحدي، والبقاعي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٥٧)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤٢٧٣-٤٢٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٧).

قال مكي: (أي: حجةً تنصرُني بها على مَن ناوأني، وعزًّا أُقيمُ به دينَك، ومُلكًا تقوَى به أُمَّتي). ((الهداية)) (٦/ ٤٢٧٣-٤٢٧٤).

وقال ابن عاشور: (السلطانُ: اسمُ مصدر يُطلَق على السُّلطة، وعلى الحُجَّةِ، وعلى المُلك. وهو في هذا المقامِ كَلمةٌ جامعة على طريقةِ استعمال المشتَرَك في معانيه، أو هو من عمومِ المُشتَرك، تشمل أن يجعَلَ له الله تأييدًا وحُجَّةً وغَلَبةً ومُلكًا عظيمًا، وقد آتاه الله ذلك كلَّه، فنصره على أعدائِه، وسخَّر له من لم ينوِّهْ بنهوض الحجَّة وظهور دلائل الصدقِ، ونصَرَه بالرعب... والنصيرُ: مبالغةٌ في الناصر، أي سلطانًا ينصرني. وإذ قد كان العمَلُ القائم به النبيُّ هو الدعوةَ إلى الإسلام، كان نصره تأييدًا له فيما هو قائم به، فصار هذا الوصفُ تقييدًا للسلطان بأنه لم يسأل سلطانًا للاستعلاء على الناسِ، وإنما سأل سلطانًا لنَصرِه فيما يَطلُبُ النُّصرةَ، وهو

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لما سأل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الله النصرةَ؛ بيَّن الله له أنَّه أجاب دعاءَه، فقال[1]:

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾

أي: وقُلْ -يا مُحَمَّدُ: جاء الحَقُّ مِن عندِ اللهِ وثَبَت، وذهَبَ الباطِلُ المُخالِفُ لِشَرعِ اللهِ واضمَحَلَّ[2].

التبليغ وبثُّ الإسلام في الناس). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٧).

وقال أبو حيان: (السلطانُ هنا قال الحسن: التسليطُ على الكافرين بالسيفِ، وعلى المنافقينَ بإقامة الحدود. وقال قتادة: مُلكًا عزيزًا تنصرُني به على كلِّ من ناوأني. وقال مجاهد: حجَّةً بيِّنة. وقيل: كتابًا يحوي الحدودَ والأحكام. وقيل: فتحَ مكة. وقيل: في كل عصر سلطانًا ينصُرُ دينَك. و﴿نَّصِيرًا ﴾ مبالغةٌ في ناصر. وقيل: فعيلٌ بمعنى مفعول، أي منصورًا، وهذه الأقوال كلُّها محتَمِلة لقولِه: ﴿سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١١، ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٠).

قال ابن جرير: (لم يَخصُص اللهُ عَزَّ ذِكرُه بالخَبَرِ عن بعضِ طاعاتِه، ولا ذَهاب بعضِ معاصيه، بل عَمَّ الخبَر عن مجيءِ جَميعِ الحَقِّ، وذَهابِ جَميعِ الباطِلِ، وبذلك جاء القرآنُ والتنزيلُ، وعلى ذلك قاتَلَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أهلَ الشِّركِ بالله، أعني: على إقامةِ جَميعِ الحَقِّ، وإبطال جميعِ الباطِلِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣١٥).

وقال الشنقيطي: (وقد بيَّن جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أنَّ الإسلامَ جاء ثابتًا راسخًا، وأنَّ الشِّركَ بالله زَهَقَ، أي: ذهبَ واضمحَلَّ وزال... ثم بيَّن جل وعلا أن الباطِلَ كان زهوقًا، أي:

كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٨-٤٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((دخَلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مكَّةَ يومَ الفَتحِ، وحَولَ البَيتِ سِتُّونَ وثَلاثُمئةِ نُصُبٍ[1]، فجَعَلَ يَطعُنُها بعُودٍ في يَدِه، ويقولُ: جاء الحَقُّ وزهَقَ الباطِلُ، جاء الحَقُّ وما يُبدِئُ الباطِلُ وما يُعيدُ))[2].

﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾.

أي: إنَّ الباطِلَ ذاهبٌ، لا بقاءَ له عند مجيءِ الحَقِّ[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قِيامُ اللَّيلِ يُوجِبُ عُلُوَّ الدَّرَجاتِ في الجنَّةِ؛ قال اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾،

مضمَحِلًّا غيرَ ثابت في كلِّ وقتٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٨٠).

(١) نُصُب: أي: حَجَر كانوا ينصِبونَه في الجاهليَّةِ ويتَّخِذونَه صَنَمًا يَعبُدونَه، والجَمعُ أنصابٌ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٤/ ٢٧٨).

(٢) رواه البخاري (٤٢٨٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٨).

فجعَلَ جَزاءَه على التهَجُّدِ بالقُرآنِ باللَّيلِ أن يَبعَثَه المقامَ المحمودَ، وهو أعلى درَجاتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ هذا وَصفُ الباطِلِ، ولكِنَّه قد يكونُ له صَولةٌ ورَوجانٌ إذا لم يُقابِلْه الحَقُّ، فعندَ مَجيءِ الحَقِّ يَضمَحِلُّ الباطِلُ، فلا يبقى له حِراكٌ؛ ولهذا لا يَرُوجُ الباطِلُ إلَّا في الأزمانِ والأمكِنةِ الخاليةِ مِن العِلمِ بآياتِ اللهِ وبيِّناتِه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ يَشهَدُه مَلائِكةُ اللَّيلِ ومَلائِكةُ النَّهارِ، يَنزِلُ هؤلاء، ويَصعَدُ هؤلاء؛ فهو في آخِرِ دِيوانِ اللَّيلِ، وأوَّلِ دِيوانِ النَّهارِ. وفي هذه الآيةِ دَليلٌ واضِحٌ على تعَلُّقِ وُجوبِ الصَّلاةِ بأوَّلِ الوَقتِ، واستحبابِ التَّغليسِ[٣] بصَلاةِ الفَجرِ[٤]، ولأنَّ طولَ القراءةِ في هذه الصلاةِ مطلوبٌ، ولن يتمَّ هذا المطلوبُ إلَّا إذا شرَعَ في أدائِه في أوَّلِ الوقتِ[٥].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

(٣) التَّغليس: أي: الصلاةُ بغَلَسٍ، والغلسُ اختلاطُ ضياءِ الصبحِ بظلمةِ الليلِ. يُنظر: ((معالم السنن)) للخطابي (١/ ١٣٢)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٢٨)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ١٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٣٧٦).

إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ فيه أنَّ القِراءةَ في الصلاةِ رُكنٌ؛ لأنَّ العبادةَ إذا سُمِّيَت ببَعضِ أجزائِها، دَلَّ على فَرضيَّةِ ذلك(١).

٣- قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ فيه مشروعيةُ إطالةِ قراءةِ القرآنِ في صلاةِ الفجرِ؛ لأنَّه خصَّ الفجرَ بإضافةِ القراءةِ إليه، والتَّخصيصُ بالذِّكرِ يدُلُّ على كَونِه أكمَلَ مِن غَيرِه، وأيضًا لفضلِ القراءةِ فيها؛ حيثُ تشهدُها ملائكةُ الليلِ وملائكةُ والنهارِ؛ لذا بَيَّنَ الفُقَهاءُ أنَّ السُّنَّةَ أن تكونَ القِراءةُ في صلاةِ الفجرِ أطوَلَ مِن القِراءةِ في سائِرِ الصَّلَواتِ(٢).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ فيه: فَضيلةُ صَلاةِ الفَجرِ(٣).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ فيه أنَّ الصَّلواتِ المُوقَعةَ في هذه الأوقاتِ فرائِضُ؛ لِتَخصيصِها بالأمرِ(٤).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ فيه دلالةٌ على مواقيتِ الصلواتِ الخمسِ، ذكَر ذلك غيرُ واحدٍ مِن الأئمةِ؛ كمالكٍ والشافعيِّ، ورُوِي معناه عن طائفةٍ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السلفِ[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ فيه أنَّ الوَقتَ شَرطٌ لِصِحَّةِ الصلاةِ، وأنَّه سَبَبٌ لوُجوبِها؛ لأنَّ اللهَ أمَرَ بإقامَتِها لهذه الأوقاتِ[٢].

٨- قال الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ يأمُرُ تعالى نَبيَّه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإقامةِ الصَّلاةِ تامَّةً، ظاهِرًا وباطِنًا، في أوقاتِها. ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ أي: مَيلانِها إلى الأُفُقِ الغَربيِّ بعدَ الزَّوالِ، فيَدخُلُ في ذلك صَلاةُ الظُّهرِ وصَلاةُ العَصرِ. ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ أي: ظُلمَتِه، فدخَلَ في ذلك صَلاةُ المَغرِبِ وصَلاةُ العِشاءِ، ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ أي: صلاةَ الفَجرِ، ونستفيدُ مِن ذلك أنَّ الظُّهرَ والعَصرَ يُجمَعانِ، والمَغرِبَ والعِشاءَ كذلك؛ للعُذرِ، لأنَّ اللهَ جمَعَ وَقتَهما جميعًا[٣].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ اللامُ في ﴿لَّكَ ﴾ متعلِّقةٌ بـ ﴿نَافِلَةً ﴾ وهي لامُ العلَّةِ، أي: نافلةً لأجلِك، وفي هذا دَليلٌ على أنَّ الأمرَ بالتهَجُّدِ خاصٌّ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فالأمرُ للوجوبِ، وبذلك انتظَمَ في عدادِ الصَّلواتِ الواجبةِ؛ فبَعضُها واجِبٌ عليه وعلى الأمَّةِ، وبعضُها واجِبٌ عليه خاصَّةً، ويُعلَمُ منه أنَّه مرغَّبٌ فيه، كما صرَّحَت به آيةُ سورةِ (المزمِّل): ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابنُ رجبٍ: (وقد قيل: إنَّ الله تعالى ذكَر ثلاثةَ أوقاتٍ؛ لأنَّ أصلَ الأوقاتِ ثلاثةٌ، ولهذا تكونُ في حالةِ جوازِ الجمعِ بينَ الصلاتينِ ثلاثةً فقط). ((فتح الباري)) (٤/ ١٧٥).

وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل: ٢٠] إلى قَولِه: ﴿مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ ﴾، وفي هذا الإيجابِ عليه زيادةُ تَشريفٍ له؛ ولهذا أُعقِبَ بوَعدِ أن يبعَثَه اللهُ مَقامًا محمودًا(١).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ عَبَّرَ بـ (عسى) دونَ ما يُفيدُ القَطعَ؛ لأنَّ ذلك أقعَدُ في كَلامِ المُلوكِ؛ لأنَّه أدَلُّ على العَظَمةِ(٢).

١١- ما ذُكر مُضافًا إلى الصِّدقِ، كـ (مُدخَلِ الصِّدقِ)، و(مُخرَجِ الصِّدقِ) في قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ ﴾، وكـ (قدَم الصِّدقِ)، في سورة (يونسَ) [الآية: ٢]، و(لسانِ الصِّدقِ)، في سورة (الشُّعَراء) [الآية: ٨٤]، و(مَقعَدِ الصِّدقِ)، في سورة (القمر) [الآية: ٥٥]، فحقيقةُ الصِّدقِ في هذه الأشياءِ: هو الحقُّ الثَّابِتُ، المتَّصِلُ باللهِ، المُوصِلُ إلى اللهِ، وهو ما كان به وله، مِن الأقوالِ والأعمالِ، وجزاءُ ذلك في الدُّنيا والآخرةِ(٣).

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾ فيه استِحبابُ هذا القَولِ عندَ إزالةِ المُنكَرِ(٤)، وقد دَخَل النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مَكَّةَ وحولَ البيتِ سِتُّونَ وثلاثُمِئَةِ نُصُبٍ، فجَعَل يطعُنُها بعُودٍ في يدِه ويقولُ: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾، ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾(٥) [سبأ: ٤٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٨-١٦٩).

(٥) تقدَّم تخريجُه: (ص: ٣٧٨).

١٣- قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ لمَّا كانت دعوةُ الرَّسولِ هي لإقامةِ الحقِّ، وإبطالِ الباطلِ؛ كان الوعدُ بظُهورِ الحقِّ وعدًا بظُهورِ أمْرِ الرَّسولِ، وفوزِه على أعدائِه، واستحفَظَه اللهُ هذه الكلمةَ الجليلةَ إلى أنْ ألقاها يومَ فتْحِ مكَّةَ على مسامِعِ مَن كانوا أعداءَه[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ الجُملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ[٢].

- قولُه: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ فيه الاكتفاءُ ببَيانِ المبدَأِ والمُنْتهى في أوقاتِ الصَّلواتِ من غيرِ فصْلٍ بينها؛ ولعلَّ ذلك لِمَا أنَّ الإنسانَ فيما بين هذه الأوقاتِ على اليقظةِ؛ فبعضُها مُتَّصلٌ ببعضٍ، بخلافِ أوَّلِ وقْتِ العشاءِ والفجْرِ، فإنَّه باشتغالِه فيما بينهما بالنَّومِ ينقطِعُ أحدُهما عن الآخرِ؛ ولذلك فصَلَ وقْتَ الفجرِ عن سائرِ الأوقاتِ[٣].

- قولُه: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ جُملةُ ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لوجْهِ تَخصيصِ صلاةِ الصُّبحِ باسمِ القُرآنِ بأنَّ صلاةَ الفجرِ مشهودةٌ، أي: مَحضورةٌ، أي: تَحضرُها ملائكةُ اللَّيلِ ومَلائكةُ النَّهارِ، وذلك زِيادةٌ في فَضلِها وبَركتِها. وأيضًا فهي يَحضرُها أكثرُ المُصلِّينَ؛ لأنَّ وقتَها وقتُ النَّشاطِ وبَعدَها يَنتظرُ النَّاسُ طُلوعَ الشَّمسِ؛ ليَخرجوا إلى أعمالِهم فيَكثُرَ سَماعُ القرآنِ حِينئذٍ[٤]. وقيل: خَصَّ ذِكْرَ القُرآنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٣- ١٨٤).

بصَلاةِ الفجرِ دونَ غيرِها؛ لأنَّها يُجْهَرُ بالقُرآنِ في جَميعِ رَكَعاتِها، ولأنَّ سُنَّتَها أنْ يُقْرَأَ بسُورٍ من طوالِ المُفصَّلِ[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، حيث لم يقُلْ: (إنَّه)؛ إبانةً لمزيدِ الاهتمامِ والتَّنويهِ بقُرآنِ الفَجرِ وتَعظيمِه[٢]، وللاحترازِ لئلَّا يُفهمَ أو يُتوهَّمَ أنَّ الضَّميرَ يعودُ على ﴿ٱلْفَجْرِ﴾؛ فإنَّه لو قال: (إنه) لأَوهمَ عَوْدَ الضَّميرِ إلى ﴿ٱلْفَجْرِ﴾[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾

- قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ فيه تَقديمُ المجرورِ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ المُتعلِّقِ بـ ﴿تَهَجَّدْ﴾ على مُتعلَّقِه؛ اهتمامًا به وتَحريضًا عليه. وقولُه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ في معنى الإغراءِ؛ بناءً على أنَّ نصْبَ ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ على الإغراءِ؛ فيكونُ ﴿فَتَهَجَّدْ﴾ تَفريعًا على الإغراءِ تَفريعَ مُفصَّلٍ على مُجْمَلٍ[٤].

- قولُه: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾، أي: فَريضةً زائِدةً على الصَّلَواتِ الخَمسِ المفروضةِ، خاصَّةً بك دونَ الأُمَّةِ، ولعَلَّه هو الوَجهُ في تَأخيرِ ذِكرِها عن ذِكرِ صَلاةِ الفَجرِ مع تقدُّمِ وَقتِها على وَقتِها[٥].

- وجُملةُ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ﴾ تَعليلٌ لتَخصيصِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٤٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٩).

بإيجابِ التَّهجُّدِ عليه[١].

- والتنكيرُ في قولِه تعالى: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ يدلُّ على أنَّه يحصلُ للنبيِّ -عليه السلامُ- في ذلك المقامِ حمدٌ بالغٌ، عظيمٌ كاملٌ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾

- قولُه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ اخْتِيرَ هنا الاسمُ المُشتقُّ -﴿مُدْخَلَ﴾ ﴿مُخْرَجَ﴾- من الفعلِ المُتعدِّي؛ للإشارةِ إلى أنَّ المطلوبَ دُخولٌ وخُروجٌ مُيسَّرانِ من اللهِ تعالى وواقعانِ بإذْنِه، وذلك دُعاءٌ بكلِّ دُخولٍ وخُروجٍ مباركَينِ؛ لتتِمَّ المُناسبةُ بين المسؤولِ وبين الموعودِ به، وهو المقامُ المحمودُ[٣].

- وقولُه: ﴿نَّصِيرًا﴾ مُبالغةٌ في ناصرٍ[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾

- أعقَبَ تلقينَه الدُّعاءَ بسَدادِ أعمالِه، وتأييدِه فيها، بأنْ لقَّنَه هذا الإعلانَ المُنْبِئَ بحُصولِ إجابةِ الدَّعوةِ المُلْهَمةِ، بإبرازِ وعْدِه بظُهورِ أمْرِه في صُورةِ الخبَرِ عن شَيءٍ مضَى[٥].

- قولُه: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ تَذييلٌ للجُملةِ الَّتي قبله، خرَجَ مخرَجَ المثَلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٧).

السَّائرِ؛ لِمَا فيه من عُمومٍ يشمَلُ كلَّ باطلٍ في كلِّ زمانٍ، وإذا كان هذا شأنَ الباطلِ، كان الثَّباتُ والانتصارُ شأْنَ الحقِّ؛ لأنَّه ضِدُّ الباطلِ، فإذا انتفَى الباطِلُ ثبَتَ الحقُّ، ودَلَّ فعْلُ (كان) على أنَّ الزُّهوقَ شِنْشنةُ[1] الباطلِ، وشأْنُه في كلِّ زمانٍ أنَّه يظهَرُ ثمَّ يضْمحِلُّ[2].

- قوله: ﴿زَهُوقًا﴾ صِفَةُ مُبالغةٍ في اضمحلالِه وعدَمِ ثُبوتِه في وقتٍ ما[3].

(١) الشِّنْشِنةُ: الخُلُقُ والطَّبيعةُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٤٨٧-٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٣).

الآيات (٨٢-٨٤)

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَنَـَٔا﴾: أي: تباعَد، وأصلُ النأيِ: البعدُ، وهو ضدُّ القربِ[١].

﴿بِجَانِبِهِۦ﴾: أي: بنفسِه أو بناحيتِه وقربِه، وأصلُ (جنب): ناحيةٌ[٢].

﴿شَاكِلَتِهِۦ﴾: أي: ناحِيَتِه وطريقَتِه، وقيل: خَليقَتِه وطبيعتِه. والشَّاكِلةُ مِن الأُمورِ: ما وافَقَ فاعِلَه، وأصلُ (شكل): يدُلُّ على المُماثَلةِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ونُنَزِّلُ مِن آياتِ القُرآنِ العَظيمِ ما يَشفِي قُلوبَ المؤمنين مِن الشَّهَواتِ والشُّبُهاتِ، وما يَشفي الأبدانَ مِن الأمراضِ، ورَحمةً لهم في الدُّنيا والآخرةِ، ولا يزيدُ هذا القُرآنُ الكُفَّارَ عند سَماعِه إلَّا تكذيبًا وكُفرًا وضَلالًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٥٩)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ١٠٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٢).

ثمَّ بيَّن الله تعالى أحوالَ الإنسانِ في حالتي اليسرِ والعسرِ، والرخاءِ والشِّدَّةِ، فقال: وإذا أنعَمْنا على الإنسانِ بنِعمةٍ مِا، أعرَضَ عن شُكرِ ربِّه، وتولَّى عن طاعتِه، وإذا أصابَتْه شِدَّةٌ مِن فَقرٍ أو مَرَضٍ، كان قَنُوطًا يائِسًا مِن رَحمةِ رَبِّه. قُلْ -يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ: كُلُّ إنسانٍ منكم يعمَلُ على ما يَليقُ به ويُناسِبُ أخلاقَه ومَذهَبَه؛ فرَبُّكم أعلَمُ بمَن هو أهدى طريقًا إلى الحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى الإلهيَّاتِ والنبُوَّاتِ، والحَشرَ والنَّشرَ والبَعثَ، وإثباتَ القَضاءِ والقَدَر، ثمَّ أتبَعَه بالأمرِ بالصَّلاةِ، ونبَّه على ما فيها من الأسرارِ، وكان القُرآنُ هو الجامِعَ لجَميعِ ذلك- أتبَعَه ببيانِ كَونِه شِفاءً ورَحمةً[1].

وأيضًا فإنَّ الآيةَ عَطفٌ على جُملةِ ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الإسراء: ٨١] على ما في تلك الجُملةِ والجُمَلِ التي سبقَتْها من معنى التأييدِ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومن الإغاظةِ للمُشرِكين، ابتداءً مِن قَولِه: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء: ٧٣]. فإنَّه بعد أن امتنَّ عليه بأن أيَّده بالعِصمةِ مِن الركونِ إليهم وتبشيرِه بالنُّصرةِ عليهم وبالخَلاصِ مِن كيدِهم، وبعد أن هدَّدهم بأنَّهم صائرون قريبًا إلى هلاكٍ، وأنَّ دينَهم صائرٌ إلى الاضمِحلالِ- أعلن له ولهم في هذه الآيةِ: أنَّ ما منه غيظُهم وحنَقُهم، وهو القرآنُ الذي طَمِعوا أن يسألوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُبدِّلَه بقرآنٍ ليس فيه ذِكرُ أصنامِهم بسُوءٍ؛ أنَّه لا يزالُ متجَدِّدًا مستمِرًّا، فيه شفاءٌ للرَّسولِ وأتباعِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٣١).

وخَسارةٌ لأعدائِه الظالِمين، ولأنَّ القرآنَ مصدرُ الحَقِّ ومَدحَضُ الباطِلِ، أعقَبَ قَولَه: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ بقَولِه[1]:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: ونُنَزِّلُ مِن[2] القُرآنِ ما هو شِفاءٌ لِما في قُلوبِ المُؤمِنينَ مِن الشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ، وشِفاءٌ لِما في أبدانِهم مِن الأمراضِ، ورحمةٌ للمؤمنينَ العاملينَ بما فيه، يكونُ سببَ نجاتِهم مِن العذابِ، ودخولِهم الجنةَ، ونيلِ السعادةِ الأبديةِ[3].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۞ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣-٢٠٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٨-١٨٩).

(٢) ﴿مِن﴾ هنا للجِنسِ، وليست للتَّبعيضِ، فالقرآنُ كُلُّه شِفاءٌ ورَحمةٌ. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحدي، وابنُ القيِّم، وابنُ عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٥٢-٤٥٣)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢، ٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٠)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٢٢، ٣٢٣)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٤-٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٩، ١٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨١).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ ناسًا مِن أصحابِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كانوا في سَفَرٍ، فمرُّوا بحَيٍّ من أحياءِ العَرَبِ، فاستَضافوهم فلمْ يُضَيِّفوهم، فقالوا لهم: هل فيكم راقٍ؛ فإنَّ سَيِّدَ الحَيِّ لَديغٌ أو مُصابٌ؟ فقال رَجُلٌ منهم: نَعَم، فأتاه فَرَقاه بفاتحةِ الكِتابِ، فبَرَأ الرَّجُلُ، فأُعطِيَ قَطيعًا مِن غَنَمٍ، فأبى أن يَقبَلَها، وقال: حتَّى أذكُرَ ذلك للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذكَرَ ذلك له، فقال: يا رَسولَ اللهِ، واللهِ ما رَقَيْتُ إلَّا بفاتحةِ الكِتابِ، فتَبَسَّمَ وقال: وما أدراك أنَّها رُقْيةٌ؟! ثمَّ قال: خُذُوا منهم، واضرِبوا لي بسَهمٍ معكم))[1].

وعن عائشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا اشتَكى يقرأُ على نَفسِه بالمُعَوِّذاتِ، ويَنفُثُ، فلمَّا اشتَدَّ وَجعُه كنت أقرأُ عليه، وأمسَحُ عنه بيَدِه؛ رجاءَ بَرَكتِها))[2].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا مَرِضَ أحَدٌ مِن أهْلِه نَفَث عليه بالمُعَوِّذاتِ))[3].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

أي: ولا يَزيدُ القُرآنُ الظَّالِمينَ أنفُسَهم بالكُفرِ إلَّا هَلاكًا؛ فلا يَزيدُهم سَماعُ القُرآنِ إلَّا بُعدًا عن الحَقِّ، وتكذيبًا وكُفرًا؛ وذلك بسَبَبِ تَكذيبِهم بالقُرآنِ، وتَرْكِهم العَمَلَ به؛ فلا يَنتَفِعونَ به؛ لإعراضِهم عنه[4].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (٢٢٠١) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٤٤٣٩)، ومسلم (٢١٩٢) واللفظ له.

(٣) رواه مسلم (٢١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٦/ ٤٢٧٦)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى تَنويعَ ما أنزَلَ مِن القُرآنِ شِفاءً ورَحمةً للمُؤمنِ، وبزيادةِ خَسارٍ للظَّالِمِ؛ عرَّضَ بما أنعَمَ به وما حَواه مِن لَطائِفِ الشَّرائِعِ على الإنسانِ، ومع ذلك أعرَضَ عنه، وبَعُدَ بجانِبِه؛ اشمِئزازًا له وتكَبُّرًا عن قُربِ سَماعِه، وتبديلًا مكانَ شُكرِ الإنعامِ كُفْرَه[1].

وأيضًا لَمَّا كان القُرآنُ نِعمةً عَظيمةً للنَّاسِ، وكان إعراضُ المُشرِكينَ عنه حِرمانًا عَظيمًا لهم مِن خَيراتٍ كَثيرةٍ، ولم يكُنْ مِن شَأنِ أهلِ العُقولِ السَّليمةِ أن يَرضَوا بالحِرمانِ مِن الخَيرِ؛ كان الإخبارُ عن زِيادتِه الظَّالِمينَ خَسارًا- مُستَغربًا، مِن شَأنِه أن يُثيرَ في نُفوسِ السَّامِعينَ التَّساؤُلَ عن سَبَبِ ذلك؛ فأعقَبَ ذلك ببيانِ السَّبَبِ النَّفسانيِّ الذي يُوقِعُ العُقَلاءَ في مَهواةِ هذا الحِرمانِ، وذلك بعد

البغوي)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٥).

الاشتِغالِ بما هو فيه مِن نِعمةٍ هَوِيَها وأُولِعَ بها، وهي نِعمةٌ تتَقاصَرُ عن أوْجِ تلك النِّعَمِ التي حُرِمَ منها لولا الهَوى الذي عَلِقَ بها والغُرورُ الذي أراه إيَّاها قُصارى المَطلوبِ، وما هي إلَّا إلى زوالٍ قَريبٍ[1].

﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾.

أي: وإذا أنعَمْنا على الإنسانِ[2] بنِعمةٍ -كرِزقٍ أو نَصرٍ، أو صِحَّةٍ أو فَرَجٍ- أعرَضَ عن عبادةِ اللهِ وشُكرِه، وذِكرِه وتَدَبُّرِ آياتِه، وابتعَدَ عن طاعةِ رَبِّه، فلم يمتَثِلْ أمْرَه، ولم يجتَنِبْ نَهْيَه[3]!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا فَلَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩١).

(٢) ممَّن ذهَبَ إلى أنَّ الآيةَ تُخبِرُ عن جنسِ الإنسانِ، وسجيتِه، إلَّا مَن عَصَم الله تعالى: ابنُ جُزي، وابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥).

وقيل: المَعنيُّ بها الكافِرُ دونَ غَيرِه. وممَّن ذهب إلى هذا: السمرقندي، وابنُ أبي زمنين، وابنُ عطية، والرسعني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٠)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٢٢).

قال ابنُ عطية: (الإنسانُ في هذه الآية لا يرادُ به العمومُ، وإنما يُرادُ به بعضُه وهم الكَفَرةُ، وهذا كما تقولُ عند غضَبٍ: لا خيرَ في الأصدقاء ولا أمانةَ في النَّاسِ، فأنت تعمُّ مبالغةً، ومرادُك البعضُ، وهذا بحسَبِ ذِكرِ الظالمين، و «الخَسار» في الآيةِ قبلُ، فاتصل ذِكرُ الكَفَرة. ويحتمل أن يكونَ الإنسانُ في هذه الآية عامًّا للجنسِ، على معنى أنَّ هذا الخُلُق الذميم في سجيَّتِه، فالكافِرُ يبالِغُ في الإعراضِ، والعاصي يأخُذُ بحظِّه منه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٠).

قال البقاعي: (﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا ﴾ أي: بما لنا من العظمةِ ﴿عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ ﴾ أي: هذا النَّوعِ؛ هؤلاء وغيرهم بأيِّ نعمةٍ كانت، من إنزالِ القرآنِ وغيرِه). ((نظم الدرر)) (١١/ ٤٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٩٨-٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٢).

كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾.

أي: وإذا أصاب الإنسانَ الضُّرُّ -كفَقرٍ أو مرضٍ أو بُؤسٍ- كان قانِطًا مِن الفَرَجِ بعدَ الشِّدَّةِ، يائِسًا مِن رَحمةِ رَبِّه سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾ [هود: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٦].

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- مُخبِرًا للنَّاسِ: كُلُّ إنسانٍ يعمَلُ على وَفقِ نِيَّتِه، وبحَسَبِ طريقَتِه التي تَليقُ به، وتُناسِبُ أخلاقَه وطَبيعَتَه، ومَذهَبَه وعادَتَه التي ألِفَها؛ فالكافِرُ يعمَلُ بما يُشبِهُ طَريقَتَه مِن مُقابَلةِ النِّعَمِ بالمعاصي، والإعراضِ عن المُنعِمِ، والمؤمِنُ يعمَلُ بما يُشاكِلُه مِن شُكرِ النِّعَمِ، ومَحبَّةِ المُنعِمِ بها، والثَّناءِ عليه، والتوَدُّدِ إليه، والحياءِ منه، والمُراقبةِ له، وتَعظيمِه وإجلالِه عزَّ وجلَّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن

كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ۝ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١- ١٢٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [الزمر: ٣٩- ٤٠].

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

أي: فرَبُّكم -أيُّها النَّاسُ- أعلَمُ بالمُؤمِنِ والكافِرِ منكم، ومَن هو أهدى طريقًا

الجوزي)) (٣/ ٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٢)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٧٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩٤).

قال ابنُ القيم: (﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: على ما يشاكلُه ويناسبُه ويليقُ به، كما يقولُ الناسُ: «كلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ»). ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: ١٠٣).

وقال أيضًا: (فالفاجِرُ يعمَلُ على ما يليقُ به، وكذلك الكافِرُ والمنافِقُ، ومريدُ الدنيا وجيفتِها عامِلٌ على ما يناسِبُه ولا يليقُ به سواه، ومحِبُّ الصُّوَر عامِلٌ على ما يناسِبُه ويليقُ به؛ فكلُّ امرئٍ يهفو إلى ما يحِبُّه، وكلُّ امرئٍ يصبو إلى ما يناسِبُه، فالمريدُ الصادِقُ المحِبُّ لله يعمَلُ ما هو اللائِقُ به والمناسِبُ له، فهو يعمَلُ على شاكلةِ إرادتِه، وما هو الأليقُ به والأنسَبُ لها). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٣٥١).

وقال النحاس: (والمعنَى: وليس يَنبغي أن يكونَ كذلك، إنَّما يَنبغي أن يتَّبعَ الحقَّ حيثُ كان). ((معاني القرآن)) (٤/ ١٨٨).

وقال ابن كثير: (وهذه الآيةُ -واللهُ أعلَمُ- تهديدٌ للمُشرِكينَ ووَعيدٌ لهم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٣).

إلى الحَقِّ مِن غَيرِه، وسيُجازي كلَّ عامِلٍ بعَمَلِه[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ فيه أنَّ القُرآنَ مُشتَمِلٌ على الشِّفاءِ والرَّحمةِ، وليس ذلك لكُلِّ أحَدٍ، وإنَّما ذلك للمُؤمِنينَ به، المُصَدِّقينَ بآياتِه، العامِلينَ به، وأمَّا الظَّالِمونَ بعَدَمِ التَّصديقِ به، أو عَدَمِ العَمَلِ به، فلا تَزيدُهم آياتُه إلَّا خَسارًا؛ إذ به تقومُ عليهم الحُجَّةُ. فالشِّفاءُ الذي تضَمَّنَه القُرآنُ عامٌّ لِشِفاءِ القُلوبِ؛ مِنَ الشُّبَه، والجَهالة، والآراءِ الفاسدةِ، والانحرافِ السَّيِّئ، والقُصُودِ السَّيِّئةِ؛ فإنَّه مُشتَمِلٌ على العِلمِ اليَقينيِّ الذي تَزولُ به كُلُّ شُبهةٍ وجَهالةٍ، والوَعظِ والتَّذكيرِ الذي يزولُ به كُلُّ شَهوةٍ تُخالِفُ أمْرَ اللهِ، ولشِفاءِ الأبدانِ مِن آلامِها وأسقامِها. وأمَّا الرَّحمةُ، فإنَّ ما فيه من الأسبابِ والوَسائِلِ التي يُحَثُّ عليها، متى فعَلَها العبدُ فاز بالرَّحمةِ والسَّعادةِ الأبَديَّةِ، والثَّوابِ العاجِلِ والآجِلِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ يَعُمُّ الشِّفاءَ القَلبيَّ والبدنيَّ، أي: يَعُمُّ الشِّفاءَ مِن الأمراضِ القَلبيَّةِ -كالشَّكِّ والشِّركِ، والعَداوةِ للمُؤمِنينَ والبَغضاءِ لهم، وما أشبَهَ ذلك- وكذلك مِن الأمراضِ الجَسَديَّةِ -كالصُّداعِ والألمِ وما أشبَهَ ذلك،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥).

فالقُرآنُ كلُّه خَيرٌ، كلُّه شِفاءٌ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ هاهنا أمرٌ يَنبغي التفَطُّنُ له، وهو أنَّ الأذكارَ والآياتِ والأدعيةَ التي يُستَشفى بها ويُرقَى بها، هي في نَفسِها نافِعةٌ شافِيةٌ، ولكِنْ تَستَدعي قَبولَ المحَلِّ، وقُوَّةَ هِمَّةِ الفاعِلِ وتأثيرِه، فمتى تخَلَّفَ الشِّفاءُ كان لِضَعفِ تأثيرِ الفاعِلِ، أو لعَدَمِ قَبولِ المُنفَعِل، أو لِمانعٍ قَويٍّ فيه يمنَعُ أن يَنجَعَ فيه الدَّواءُ، كما يكونُ ذلك في الأدويةِ والأدواءِ الحِسِّيَّةِ؛ فإنَّ عَدَمَ تأثيرِها قد يكون لعَدَمِ قَبولِ الطَّبيعةِ لذلك الدَّواءِ، وقد يكونُ لمانعٍ قَويٍّ يمنَعُ مِن اقتِضائِه أثَرَه، فإنَّ الطبيعةَ إذا أخَذَت الدَّواءَ بقَبولٍ تامٍّ كان انتفاعُ البَدَنِ به بحَسَبِ ذلك القَبولِ، فكذلك القَلبُ إذا أخذَ الرُّقَى والتعاويذَ بقَبولٍ تامٍّ، وكان للرَّاقي نَفسٌ فعَّالةٌ، وهِمَّةٌ مُؤَثِّرةٌ في إزالةِ الدَّاءِ[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾

- قولُه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ فيه اختيارُ المُضارعِ المُشتقِّ من فعلِ المُضاعفِ (نُنزِّل) للإخبارِ عن التَّنزيلِ؛ للدَّلالةِ على التَّجديدِ والتَّكريرِ والتَّكثيرِ[٣].

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيه تقديمُ ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾؛ لتحصيلِ غرَضِ الاهتمامِ بذكْرِ القُرآنِ مع غرَضِ الثَّناءِ عليه بطريقِ الموصوليَّةِ بقولِه: ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ... ﴾؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ ذلك الوصفِ منه بحيثُ

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٩).

يُعْرَفُ به[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ تعريفُ الجنسِ، وهو يفيدُ الاستغراقَ، وهو استغراقٌ عُرفيٌّ، أي: أكثرِ أفرادِ الإنسانِ؛ لأنَّ أكثرَ النَّاسِ يومئذٍ كُفَّارٌ، وأكثرَ العربِ مُشرِكون[٢].

- قولُه: ﴿أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ فيه حذْفُ مُتعلَّقِ ﴿أَعۡرَضَ﴾ و﴿وَنَـَٔا﴾؛ لدَلالةِ المقامِ عليه من قولِه: ﴿أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾، أي: أعرَضَ عنَّا وأجفَلَ[٣] منَّا، أي: من عِبادتِنا وأمْرِنا ونَهيِنا[٤].

- قولُه: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ تأكيدٌ للإعراضِ؛ لأنَّ الإعراضَ عن الشَّيءِ أنْ يُولِّيَه عُرْضَ وجْهِه. والنَّأيُ بالجانبِ: أنْ يَلْويَ عنه عِطْفَه، ويُولِّيَه ظهْرَه، وأراد الاستكبارَ؛ لأنَّ ذلك من عادةِ المُستكبِرينَ[٥].

- وجُملةُ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾ احتراسٌ من أنْ يتوهَّمَ السَّامعُ من التَّقييدِ بقولِه: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا﴾، أنَّه إذا زالت عنه النِّعمةُ صلَحَ حالُه، فبيَّنَ أنَّ حالَه مُلازِمٌ لنُكرانِ الجميلِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، فإذا زالتِ النِّعمةُ عنه لم يُقْلِعْ عن الشِّركِ والكُفرِ، ويتُبْ إلى اللهِ، ولكنَّه ييئَسُ من الخيرِ، ويَبْقى حَنِقًا

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٩١).

(٣) أجفَلَ: أي: هرَبَ مُسرِعًا. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩١).

ضيِّقَ الصَّدرِ، لا يعرِفُ كيف يتدارَكُ أمْرَه. ودَلَّ قولُه: ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ على قُوَّةِ يأْسِه؛ إذ صِيغَ له مثالُ المُبالَغةِ، وذُكِر معه فعْلُ (كان) الدَّالُّ على رُسوخِ الفعْلِ؛ تَعجيبًا من حالِه في وقْتِ مَسِّ الضَّرِّ إيَّاه؛ لأنَّ حالةَ الضَّرِّ أدعى إلى الفكرةِ في وسائلِ دفْعِه، بخلافِ حالةِ الإعراضِ في وقْتِ النِّعمةِ، فإنَّها حالةٌ لا يُستغرَبُ فيها الازدهاءُ؛ لِمَا هو فيه من النِّعمةِ[1].

وأتَى هنا بـ﴿إِذَا﴾ المشعِرةِ بتحقيقِ الوقوعِ المستلزِمِ لليأسِ؛ فإنَّ اليأسَ إنَّما حصل عند تحقُّقِ مسِّ الشَّرِّ له، فكان الإتيانُ بـ﴿إِذَا﴾ هاهنا أدَلَّ على المعنى المقصودِ مِن (إنْ)، بخلاف قَولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ فإنَّه بقلَّةِ صَبرِه وضَعفِ احتِمالِه متى توقَّع الشَّرَّ أعرض وأطال في الدُّعاءِ، فإذا تحقَّق وقوعَه كان يؤوسًا[2].

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾

- جُملةُ ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ تذييلٌ؛ لِمَا في كلمةِ (كل) من العُمومِ، وهذا التَّذييلُ تَنهيةٌ للغرَضِ الَّذي ابتُدِئَ من قولِه: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ الرَّاجعِ إلى التَّذكيرِ بنِعَمِ اللهِ تعالى على النَّاسِ، وإلى التَّحذيرِ من عواقبِ كُفرانِ النِّعمِ، وهي تَجْري مَجْرى المثَلِ، وفرَّعَ عليها قولَه: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾، وهو كلامٌ جامعٌ لتعليمِ النَّاسِ بعُمومِ علْمِ اللهِ، والتَّرغيبِ للمُؤمنين، والإنذارِ للمُشركين مع تَشكيكِهم في حقِّيَّةِ دِينِهم لعلَّهم يَنظُرون، كقولِه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ الآيةَ[3] [سبأ: ٢٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٤٧-٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩٣ - ١٩٤).

الآيات (٨٥-٨٧)

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

ذكر الله تعالى بعضَ الأسئلةِ التي كانت تُوجَّهُ إلى الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: ويَسألُك الكُفَّارُ عن حقيقةِ الرُّوحِ، قلْ لهم: الرُّوحُ مِمَّا استأثَرَ اللهُ بعِلمِه، وما أُعطِيتُم مِن العِلمِ إلَّا شَيئًا قليلًا.

ثمَّ بيَّن سبحانه مظهرًا مِن مظاهرِ قدرتِه، فقال: ولَئِنْ شِئْنا مَحْوَ القُرآنِ مِن قَلبِك لمحَوناه، ثمَّ لا تَجِدُ لنَفسِك ناصِرًا يمنَعُنا مِن فِعْلِ ذلك، أو يَرُدُّ عليك القُرآنَ بعدَ ذَهابِه عنك. لكنْ أثبَتْناه في قَلبِك رحمةً مِنَّا وتفضُّلًا؛ إنَّ فَضْلَه كان عليك عَظيمًا في الدُّنيا والآخِرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لمَّا انجرَّ الكلامُ إلى ذِكرِ الإنسانِ وما جُبِل عليه، ذكَرَ سُبحانَه سؤالَ السَّائلين لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الرُّوحِ[1].

(١) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٣٠١).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((بينما أنا أمشي مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حَرثٍ[١]، وهو مُتَّكِئٌ على عَسيبٍ[٢]، إذ مَرَّ بنَفَرٍ مِن اليَهودِ، فقال بَعضُهم لبَعضٍ: سَلُوه عن الرُّوحِ، فقالوا: ما رابَكم[٣] إليه، لا يَستَقبِلُكم بشَيءٍ تَكرهونَه، فقالوا: سَلُوه، فقام إليه بَعضُهم فسألَه عن الرُّوحِ، قال: فأَسكَتَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يَرُدَّ عليه شيئًا، فعَلِمتُ أنَّه يُوحَى إليه، قال: فقُمتُ مكاني، فلمَّا نَزَل الوَحيُ قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾))[٤].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (قالت قُرَيشٌ لليَهودِ: أعطُونا شيئًا

---

(١) الحَرثُ: الزَّرعُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٦٩).

(٢) عَسيب: أي: عصًا مِن جريدِ النَّخلِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢١١).

(٣) ما رابَكم: أي: ما دعاكم إلى سُؤالِه، أو ما شكَّكَم فيه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٣٧).

(٤) رواه البخاري (٤٧٢١)، ومسلم (٢٧٩٤) واللفظ له.

قال ابنُ كثير: (هذا السِّياقُ يقتضي فيما يظهَرُ باديَ الرأي: أنَّ هذه الآيةَ مَدَنيةٌ، وأنَّها إنَّما نزلت حين سأله اليهودُ عن ذلك بالمدينةِ، مع أنَّ السورةَ كُلَّها مكيَّةٌ. وقد يجاب عن هذا: بأنَّه قد يكون نزلَت عليه بالمدينةِ مَرَّةً ثانيةً كما نزلت عليه بمكَّةَ قبل ذلك، أو أنَّه نزل عليه الوحيُ بأنَّه يجيبهم عمَّا سألوا بالآيةِ المتقَدِّمِ إنزالُها عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٤).

وقال ابن حجر: (هذا يدُلُّ على أنَّ نزولَ الآية وقعَ بالمدينة، لكنْ روى الترمذيُّ من طريق داود ابن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباسٍ قال: قالت قريشٌ لليهود: أعطونا شيئًا نسألُ هذا الرجُلَ، فقالوا: سلوه عن الرُّوحِ، فسألوه فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾، ورجالُه رجالُ مسلم، وهو عند ابنِ إسحاقَ مِن وجهٍ آخرَ عن ابنِ عباس نحوه، ويمكِنُ الجمعُ بأن يتعدَّدَ النزولُ بحَملِ سكوتِه في المرة الثانية على توقُّعِ مزيد بيانٍ في ذلك، وإن ساغ هذا، وإلَّا فما في الصَّحيحِ أصَحُّ). ((فتح الباري)) (٨/ ٤٠١).

نسألُ عنه هذا الرَّجُلَ، فقالوا: سَلُوه عن الرُّوحِ، فسألوه، فنَزَلت: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾)[1].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾.

أي: ويسألُك الكُفَّارُ -يا مُحمَّدُ- عن ماهِيَّةِ الرُّوحِ التي بها الحياةُ؛ ما حَقيقتُها[2]؟

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٤٠)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٣١٤)، وأحمد (٢٣٠٩) واللَّفظُ له.

قال الترمذي: (حَسَنٌ صحيحٌ غَريبٌ مِن هذا الوجه). وأخرجه ابنُ حِبَّان في ((صحيحه)) (٩٩)، وصَحَّحه ابنُ دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٠٤)، وصحَّحَ إسنادَه الذهبيُّ في ((تاريخ الإسلام)) (١/ ٢١٢)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٢٥٣): (رجالُه رجال مسلم). وصَحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٤٠).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩٦-١٩٧).

والقولُ بأنَّ المرادَ بالرُّوحِ هنا: الرُّوحُ التي تكونُ بها حياةُ الجَسَدِ: نسَبه الخطَّابي، والسمعاني، والشوكاني إلى أكثَرِ المُفَسِّرينَ، ونسَبه أبو حيان إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (٣/ ١٨٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠١).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠).

وقيل: المرادُ بها: مَلَكٌ عَظيمٌ.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: علي بنُ أبي طالب، وابنُ عباس في روايةٍ عنه، ومقاتلٌ، وقال قتادةُ، والحسنُ: هو جبريلُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٣٣١).

قال ابنُ القَيِّم: (في ذلك خِلافٌ بين السَّلَفِ والخَلَفِ، وأكثَرُ السَّلَفِ بل كُلُّهم على أنَّ الرُّوحَ

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهم: الرُّوحُ مِن شَأنِ رَبِّي، استأثَرَ بعِلمِها؛ فهو الذي خَلَقها، ولا يعلَمُ حَقيقَتَها أحدٌ غيرُ الله[1].

المَسؤولَ عنها في الآيةِ ليست أرواحَ بني آدمَ، بل هو الرُّوحُ الذي أخبَرَ الله عنه في كتابِه أنَّه يقومُ يومَ القيامةِ مع الملائكةِ، وهو ملَكٌ عظيمٌ). ((الروح)) (ص: ١٥١).

وقال ابنُ حجر: (جنح ابنُ القَيِّم في كتابِ الرُّوحِ إلى ترجيحِ أنَّ المرادَ بالرُّوحِ المَسؤول عنها في الآيةِ ما وقعَ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗا﴾ [النبأ: ٣٨]، قال: وأمَّا أرواحُ بني آدم فلم يقَعْ تَسميتُها في القرآنِ إلَّا نَفسًا. كذا قال، ولا دَلالةَ في ذلك لِمَا رجَّحه، بل الرَّاجِحُ الأوَّلُ). ((فتح الباري)) (٨/ ٤٠٣).

وقال ابنُ تيميَّة: (وأمَّا قَولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ فقد قيل: إنَّ الروحَ هنا ليس هو روحَ الآدميِّ، وإنَّما هو مَلَكٌ في قَولِه: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗا﴾ [النبأ: ٣٨]، وقولِه: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقَولِه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: ٤]. وقيل: بل: هو روحُ الآدميِّ. والقولانِ مَشهورانِ، وسواءٌ كانت الآيةُ تَعُمُّهما أو تتناولُ أحدَهما، فليس فيها ما يدُلُّ على أنَّ الرُّوحَ غَيرُ مخلوقةٍ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٢٦-٢٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٧، ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦).

قال ابنُ عاشور: (قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ ليس جوابًا ببيان ما سألوا عنه، ولكِنَّه صَرفٌ عن استعلامِه، وإعلامٌ لهم بأنَّ هذا مِنَ العِلمِ الذي لم يُؤتَوه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦).

قال أبو حيان: (ومعنى ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أي: فِعلِ رَبِّي، كونِها بأمرِه، وفي ذلك دَلالةٌ على حدوثِها، والأمرُ بمعنى الفِعلِ واردٌ؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ أي: فِعلُه. ويحتَمِلُ أن يكونَ (أمر) واحِدَ الأمورِ، وهو اسمُ جنس لها، أي: من جملةِ أمورِ الله التي استأثر بعِلمِها... وقيل: مِن عِلمِ ربِّي). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٧).

وقال ابن القيم: (وأمَّا قَولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ فمعلومٌ قطعًا أنَّه ليس المرادُ هاهنا بالأمرِ الطَّلَبَ الذي هو أحدُ أنواع الكلامِ، فيكونَ المرادُ أنَّ الرُّوحَ كَلامُه الذي يأمُرُ به،

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

أي: وما آتاكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ[١]- مِن العِلمِ إلَّا شَيئًا قَليلًا ممَّا يَعلَمُه سُبحانَه[٢].

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال في قِصَّةِ الخَضِرِ وموسى عليهما السَّلامُ: ((... فلمَّا رَكِبَا في السَّفينةِ جاء عُصفورٌ، فوقعَ على حَرفِ السَّفينةِ فنقرَ في البَحرِ نَقرةً أو نَقرتَينِ، قال لهُ الخَضِرُ: يا موسى، ما نَقَصَ عِلمي وعِلمُكَ مِن علمِ اللهِ إلَّا مِثلَ ما نقَصَ هذا العُصفورُ بمِنقارِه مِن البَحرِ))[٣].

﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ الأولى أنَّه ما آتاهم مِن العِلمِ إلَّا قَليلًا؛ بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّه لو شاء أن يأخُذَ منهم ذلك القَليلَ أيضًا لقَدَر عليه، وذلك بأنْ يَمحُوَ حِفظَه من القُلوبِ وكِتابَتَه مِن الكُتُبِ، وهذا وإن كان أمرًا مُخالِفًا للعادةِ إلَّا أنَّه تعالى قادِرٌ عليه[٤].

وإنما المرادُ بالأمرِ هاهنا المأمورُ، وهو عرفٌ مُستعمَلٌ في لغةِ العرَبِ، وفي القرآنِ منه كثيرٌ). ((الروح)) (ص: ١٥٠).

(١) قال ابنُ عاشور: (جملةُ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ يجوزُ أن تكونَ مِمَّا أمَرَ اللهُ رَسولَه أن يقولَه للسَّائلينَ، فيكونَ الخطابُ لقُريشٍ أو لليهودِ الذين لقَّنوهم، ويجوزُ أن يكون تذييلًا أو اعتراضًا، فيكونَ الخِطابُ لكُلِّ مَن يصلُحُ للخِطابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٧، ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦).

(٣) رواه البخاري (٣٤٠١) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٠٥).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما أنعَمَ به من تنزيلِ القُرآنِ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شِفاءً ورَحمةً وقُدرتَه على ذلك؛ ذكَرَ قُدرَتَه على أنَّه لو شاء لذَهَب بما أوحى، ولكِنَّه تعالى لم يشأْ ذلك، والمعنى أنَّا كما نحن قادِرونَ على إنزالِه، فنحن قادِرونَ على إذهابِه(١).

وأيضًا فالآيةُ مُتَّصلةٌ بقولِه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ... ﴾، أفضَتْ إليها المُناسبةُ؛ فإنَّه لمَّا تضمَّنَ قولُه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ تلقينَ كلمةِ علْمٍ جامعةٍ، وتضمَّنَ أنَّ الأُمَّةَ أُوتِيتَ علْمًا ومُنِعَت علْمًا، وأنَّ علْمَ النُّبوَّةِ من أعظَمِ ما أُوتِيَتْه، أعقَبَ ذلك بالتَّنبيهِ إلى الشُّكرِ على نِعْمةِ العلْمِ؛ دفعًا لغُرورِ النَّفسِ؛ لأنَّ العلمَ بالأشياءِ يُكسِبُها إعجابًا بتميُّزِها عمَّن دونها فيه، فأُوقِظَت إلى أنَّ الَّذي منَحَ العلمَ قادرٌ على سلْبِه(٢).

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾.

أي: وأُقسِمُ -يا مُحمَّدُ- لَئِنْ أرَدْنا لنُزيلَنَّ القُرآنَ الذي أوحَيناه إليك مِن قَلْبِك، فلا يبقَى منه شَيءٌ مَحفوظٌ في الصُّدورِ ولا مَكتوبٌ في السُّطورِ؛ فكما قَدَرْنا على إنزالِه نَقدِرُ على إذهابِه(٣).

عن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٠- ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠١).
قال القُرطبيُّ: (ويتَّصِلُ هذا بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي: ولو شِئتُ أن أَذهَبَ بذلك القليلِ لقدَرْتُ عليه). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٥).

وسلَّم: ((يَدرُسُ[١] الإسلامُ كما يَدرُسُ وَشْيُ الثَّوبِ[٢]، حتى لا يُدرَى ما صِيامٌ، ولا صَلاةٌ، ولا نُسُكٌ، ولا صَدَقةٌ، ولَيُسرَى[٣] على كتابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في ليلةٍ، فلا يبقى في الأرضِ منه آيةٌ، وتبقى طوائِفُ مِن النَّاسِ: الشَّيخُ الكَبيرُ والعَجوزُ، يقولون: أدرَكْنا آباءَنا على هذه الكَلِمةِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فنحن نَقولُها!))[٤].

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾.

أي: ثمَّ لا تَجِدُ لك -يا مُحمَّدُ- ناصِرًا يَنصُرُك فيَمنَعُنا مِن إزالةِ القُرآنِ مِن صَدرِك، أو يَقومُ برَدِّه إليك بعدَ ذَهابِه عنك[٥].

﴿إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ٨٧﴾.

﴿إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

أي: لكِنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لا يشاءُ أن يُذهِبَ القُرآنَ مِن صَدرِك رَحمةً منه بك وبِعبادِه[٦].

---

(١) يَدرُسُ: أي: يُمحى ويَخفى أثَرُه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٩٢).

(٢) وَشْيُ الثَّوبِ: أي: نَقشُه. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن ابن ماجه)) (٢/ ٤٩٨).

(٣) لَيُسرَى: أي: يُؤتَى عليه كُلِّه ليلًا. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٧٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩)، والحاكم (٨٦٣٦)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢٠٢٨).
صحَّح الحاكِمُ إسنادَه على شرطِ مُسلمٍ، ووافقه الذهبيُّ في ((التلخيص)) (٤/ ٥٨٧)، وصحَّح إسنادَه ووثَّق رجالَه البوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (٢/ ٣٠٧)، وقوَّى إسنادَه ابنُ حَجَر في ((فتح الباري)) (١٣/ ١٩)، وجوَّده ابنُ باز كما في ((الفوائد العلمية)) (٢/ ٥٦٩)، وصحَّح الحديث الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٠٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦).

﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾.

أي: لا يَذهَبُ اللهُ بالقُرآنِ -يا مُحمَّدُ- لأنَّ فَضلَ اللهِ عليك كان فَضلًا عَظيمًا في الدُّنيا والآخرةِ؛ بالرِّسالةِ، وإنزالِ القُرآنِ، والمَقامِ المَحمودِ يومَ القيامةِ، وغَيرِ ذلك مِن نِعَمِه عليك، فلا يَحرِمُك الفَضلَ الذي أوحاه إليك[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ مُتضَمِّنٌ لرَدعِ مَن يسألُ المسائِلَ التي لا يَقصِدُ بها إلَّا التعَنُّتَ والتَّعجيزَ، ويدَعُ السُّؤالَ عن المُهِمِّ، فيسألونَ عن الرُّوحِ التي هي مِن الأمورِ الخَفيَّةِ، التي لا يُتقِنُ وَصفَها وكيفيَّتَها كُلُّ أحدٍ، وهم قاصِرونَ في العِلمِ الذي يَحتاجُ إليه العِبادُ[2]!

قال الشوكاني: (الاستِثناءُ بقَولِه: ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ إن كان متَّصِلًا فمعناه: إلَّا أن يرحَمَك ربُّك فلا نذهَبَ به، وإن كان منقَطِعًا فمعناه: لكنْ لا يشاءُ ذلك رحمةً مِن ربِّك، أو لكِنْ رَحمةً مِن رَبِّك تركَتْه غيرَ مذهوبٍ به). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠٥).

وممن ذهب إلى أنَّ الاستثناءَ هنا منقطعٌ بمعنى (لكن): ابنُ جريرٍ، والواحدي، وابنُ الجوزي، والقرطبي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ في هذه الآيةِ ما يَزجُرُ الخائِضينَ في شأنِ الرُّوحِ، المُتكَلِّفينَ لبَيانِ ماهيتِه وإيضاحِ حقيقتِه- أبلَغَ زَجرٍ، ويَردَعُهم أعظَمَ رَدعٍ، وقد أطالوا المقالَ في هذا البَحثِ بما لا يَتِمُّ له المقامُ، وغالِبُه بل كُلُّه من الفُضولِ الذي لا يأتي بنَفعٍ في دينٍ ولا دنيا. وقد حكى بعضُ المُحقِّقينَ أنَّ أقوالَ المُختَلِفينَ في الرُّوحِ بَلَغَت إلى ثمانيةَ عَشرَ ومئةِ قَولٍ، فانظُرْ إلى هذا الفُضولِ الفارِغِ، والتعَبِ العاطِلِ عن النَّفعِ! بعد أن عَلِموا أنَّ اللهَ سُبحانَه قد استأثَرَ بعِلمِه، ولم يُطلِعْ عليه أنبياءَه، ولا أذِنَ لهم بالسُّؤالِ عنه، ولا البَحثِ عن حقيقتِه، فضلًا عن أُمَمِهم المُقتَدينَ بهم، فيا لَلَّهِ العَجَب؛ حيث تَبلُغُ أقوالُ أهلِ الفُضولِ إلى هذا الحَدِّ الذي لم تَبلُغْه ولا بَعضَه في غَيرِ هذه المسألةِ مِمَّا أذِنَ الله بالكلامِ فيه، ولم يستأثِرْ بعِلمِه[١]!!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الرُّوحَ لا يُمكِنُ الإحاطةُ بها، ولا يُمكِنُ تحديدُ ماهيَّتِها أبدًا[٢]. فالبَدَنُ مادَّتُه مَعلومةٌ: وهي التُّرابُ، أمَّا الرُّوحُ فمادَّتُها غيرُ مَعلومةٍ، وهذه -واللهُ أعلمُ- من الحِكمةِ في إضافتِها إليه: أنَّها أمرٌ لا يُمكِنُ أن يَصِلَ إليه عِلمُ البشَرِ، بل هي ممَّا استأثَرَ اللهُ بعِلمِه، كسائِرِ العُلومِ العَظيمةِ الكثيرةِ التي لم نُؤتَ منها إلَّا القَليلَ، ولا نُحيطُ بشَيءٍ مِن هذا القَليلِ إلَّا بما شاء

(١) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٤٢).

اللهُ تبارك وتعالى[١]. لذا تمسَّكَ بالآية مَن قال: إنَّ الرُّوحَ لا يُعلَمُ، وأمسَكَ عن الخَوضِ فيه[٢].

٣- إنَّ إبهامَ أمرِ الرُّوحِ في قَولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فيه حِكمةٌ مِن جِهةِ اختبارِ الخَلقِ؛ ليُعَرِّفَهم سُبحانَه بعَجزِهم عن عِلمِ ما لا يُدرِكونَه؛ حتى يَضطرَّهم إلى رَدِّ العِلمِ إليه[٣].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾

- قولُه: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، حيث قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ ولم يقُلْ: (قُلْ: إنَّها)؛ إظهارًا لكمالِ الاعتناءِ بشأْنِه[٤].

- وأضاف الروحَ إلى (الأمر) -وإن كانت مِن جملةِ خلقِه- تشريفًا لها، وإشارةً إلى أنَّه لا سببَ مِن غيرِه يتوسَّطُ بينها وبين أمرِه، بل هو يبدعُها مِن العدمِ[٥].

- وإضافةُ ضَميرِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الرَّبِّ جَلَّ وعَلا بقولِه: ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ فيها من تَشريفِ المُضافِ ما لا يَخْفى[٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((شرح البخاري)) لابن بطال (١/ ٢٠٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٠١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ خُوطِبَ بذلك النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ علْمَه أعظَمُ علْمٍ، فإذا كان وُجودُ علْمِه خاضعًا لمشيئةِ اللهِ، فما الظَّنُّ بعلْمِ غيرِه؟! تَعريضًا لبقيَّةِ العُلماءِ؛ فالكلامُ صَريحُه تحذيرٌ، وهو كِنايةٌ عن الامتنانِ، كما دَلَّ عليه قولُه بعده: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾، وتعريضٌ بتحذيرِ أهْلِ العلْمِ[١].

- وفي قولِه: ﴿بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ عُبِّرَ عن القُرآنِ بالموصولِ؛ تَفخيمًا لشأنِه، ووصْفًا له بما في حيِّزِ الصِّلةِ ابتداءً، وإعلامًا بحالِه مِن أوَّلِ الأمرِ، وبأنَّه ليس من قَبيلِ كلامِ المخلوقِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾

- قولُه: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ استدراكٌ على ما اقتضاهُ فعْلُ الشَّرطِ -﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ ﴾- مِن توقُّعِ ذلك، أي: لكن رحمةً من ربِّك نفَتْ مَشيئةَ الذَّهابِ بالَّذي أوحَيْنا إليك، فهو باقٍ غيرُ مَذهوبٍ به، وهذا إيماءٌ إلى بقاءِ القُرآنِ وحفْظِه[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ (ثمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لأنَّ نفيَ الطَّمعِ في استرجاعِ المسلوبِ أشدُّ على النَّفسِ من سَلْبِه؛ فذِكْرُه أدخَلُ في التَّنبيهِ على الشُّكرِ، والتَّحذيرِ من الغُرورِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٠- ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٠١).

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾ عُدِّيَ بـ (على)؛ لِمَا فيه من معنى الغَلبةِ، وعُدِّيَ إلى المردودِ بالباءِ؛ لِمَا فيه من معنى التَّعهُّدِ والمُطالَبةِ، أي: مُتعهِّدًا بالَّذي أوحَيْنا إليك. ومعنى التَّعهُّدِ به: التَّعهُّدُ باسترجاعِه؛ لأنَّه في مُقابَلةِ قولِه: ﴿لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، ولأنَّ التَّعهُّدَ لا يكونُ بذاتِ شَيءٍ، بل بحالٍ من أحوالِه؛ فجَرى الكلامُ على الإيجازِ[1].

- قولُه: ﴿وَكِيلًا﴾ ذكَرَ هنا ﴿وَكِيلًا﴾ وفي الآيةِ قبلَها ﴿نَصِيرًا﴾؛ لأنَّ معنى هذه على فرْضِ سَلْبِ نِعمةِ الاصطفاءِ، فالمُطالبةُ بإرجاعِ النِّعمةِ شفاعةٌ ووكالةٌ عنه، وأمَّا الآيةُ قبلَها فهي في فرْضِ إلحاقِ عُقوبةٍ به، فمُدافعةُ تلك العُقوبةِ أو الثَّأرُ بها نَصرٌ[2].

- ومَوقعُ ﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ موقعُ التَّعليلِ للاستثناءِ المُنقطِعِ، وزيادةُ فعْلِ (كان) فيه لتَوكيدِ الجُملةِ؛ زيادةً على تَوكيدِها بحرفِ التَّوكيدِ المُستعمَلِ في معنى التَّعليلِ والتَّفريعِ[3].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٠١).

الآيتان (٨٨-٨٩)

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ظَهِيرًا﴾: أي: عَونًا، وسُمِّي العَونُ ظَهيرًا؛ لاستنادِ ظَهرِه إلى ظَهرِ صاحِبِه، وأصلُ (ظهر): يدلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[1].

﴿صَرَّفْنَا﴾: أي: بَيَّنَّا، والصَّرْفُ: ردُّ الشيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

أمَر الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يتحدَّى المشركينَ بهذا القرآنِ، فقال: قُلْ -يا مُحمَّدُ: لو اتَّفَقَت الإنسُ والجِنُّ على الإتيانِ بمِثلِ هذا القُرآنِ المُعجِزِ، لَمَا استطاعوا ذلك ولو تعاوَنوا وتظاهَروا، ولقد بيَّنَّا ونَوَّعْنا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ليتَّعِظوا ويتذَكَّروا، فأبى أكثَرُ النَّاسِ إلَّا كُفرًا بالحَقِّ وجحودًا له.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ١١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١٠٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢).

﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إنعامَه على نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنُبُوَّةِ بإنزالِ وَحْيِه عليه وباهِرَ قُدرتِه بأنَّه تعالى لو شاء لذَهَب بالقُرآنِ؛ ذكَرَ ما منَحَه تعالى من الدَّليلِ على نبُوَّتِه الباقي بقاءَ الدَّهرِ، وهو القرآنُ الذي عجَزَ العالَمُ عن الإتيانِ بمِثلِه، وأنَّه مِن أكبَرِ النِّعَمِ والفَضلِ الذي أبقَى له ذِكرًا إلى آخرِ الدَّهرِ، ورَفَعَ له قَدرًا به في الدُّنيا والآخِرةِ[1].

وأيضًا بعدَ قَولِ اللهِ تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۞ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ لَمَّا كان بمَعرِضِ أن يقولوا: إنْ ذهَبَ عليك مِن شَيءٍ فائْتِ بمِثلِه مِن عندِ نَفسِك، ومِمَّا اكتسَبْتَه منه مِن الأساطيرِ؛ أمَرَه أن يُجيبَهم عن هذا بقَولِه؛ دلالةً على مَضمونِ ما قَبلَه[2]:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ: لو اتَّفَق جميعُ الإنسِ والجِنِّ[3] على أن يأتُوا بمِثلِ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٠٨).

(٣) قال ابن كثير: (فأخبرَ أنَّه لو اجتمعت الإنسُ والجِنُّ كُلُّهم، واتَّفَقوا على أن يأتوا بمِثلِ ما أنزَلَه على رسولِه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٧).

وقال ابن عاشور: (معنى الاجتماعِ: الاتفاقُ واتحادُ الرأي، أي: لو تواردت عقولُ الإنسِ والجِنِّ على أن يأتيَ كُلُّ واحدٍ منهم بمِثلِ هذا القرآنِ لَما أتَوا بمثله. فهو اجتماعُ الرأيِ لا اجتِماعُ التعاون، كما تدُلُّ عليه المبالغةُ في قولِه بَعدَه: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٣).

القُرآنِ في بلاغَتِه وحُسنِ نَظْمِه وكَمالِ مَعانيه؛ لَما أطاقوا ذلك وما استَطاعوه[١].

﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

أي: لا يَأتونَ بمِثلِه ولو تعاوَنَ الإنسُ والجِنُّ، وتناصَروا على ذلك، فكيف بهم إذا حاولوا ذلك مُتفَرِّقينَ[٢]؟!

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى عَجزَ الإنسِ والجِنِّ عن أن يأتُوا بمِثلِ هذا القُرآنِ؛ نَبَّه على فَضلِه تعالى بما ردَّدَ فيه، وضَرَبَ مِن الأمثالِ والعِبَرِ التي تدُلُّ على تَوحيدِه تعالى، ومع كَثرةِ ما رَدَّدَ مِن الأمثلةِ، وأسبَغَ مِن النِّعَمِ، لم يكونوا إلَّا كافرينَ به وبنِعَمِه[٣].

وأيضًا لَمَّا تحَدَّى اللهُ بُلَغاءَ المُشرِكينَ بالإعجازِ؛ تطاولَ عليهم بذِكرِ فضائلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٦)، ((مجموع الفتاوى)) (٣٣/ ٤٢-٤٣) لابن تيمية، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦٧- ٤٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٣).
قال ابن تيمية: (هو آيةٌ بيِّنةٌ مُعجِزةٌ مِن وُجوهٍ متعَدِّدةٍ: من جهةِ اللَّفظِ، ومن جهة النَّظمِ، ومن جهةِ البلاغةِ في دَلالةِ اللَّفظِ على المعنى، ومن جهةِ معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائِه وصفاتِه وملائكتِه، وغير ذلك، ومن جهةِ معانيه التي أخبرَ بها عن الغيبِ الماضي، وعن الغيبِ المستقبَلِ، ومِن جهةِ ما أخبَرَ به عن المعاد، ومن جهةِ ما بيَّنَ فيه من الدلائلِ اليقينيَّةِ والأقيسةِ العقليَّةِ التي هي الأمثالُ المضروبةُ). ((الجواب الصحيح)) (٥/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١١).

القُرآنِ على ما سِواه من الكلامِ، مُدمِجًا في ذلك النَّعيَ عليهم؛ إذ حَرَموا أنفُسَهم الانتِفاعَ بما في القُرآنِ مِن كلِّ مَثَلٍ. وذُكِرَتْ هنا ناحيةٌ مِن نواحي إعجازِه، وهي ما اشتمَلَ عليه مِن أنواعِ الأمثالِ[١].

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾.

أي: ولقد بيَّنَّا ونوَّعْنا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ الحُجَجَ والبَراهينَ، والمواعِظَ والأمثالَ، والقَصَص والعِبَرَ؛ ليتذَكَّروا ويَتَّقوا[٢].

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾.

أي: فلم يَرْضَ أكثَرُ النَّاسِ إلَّا الكُفرَ بالحَقِّ، والجُحودَ لهذه النِّعمةِ العُظمَى، فجحَدوا بما في القُرآنِ، ورَدُّوا الهُدى، واقترَحوا مِن الآياتِ ما ليس لهم[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾، وإخبارُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذه الآيةِ فيه آياتٌ لنُبُوَّتِه؛ منها إقدامُه على هذا الخبَرِ العَظيمِ عن جميعِ الإنسِ والجِنِّ إلى يومِ القيامةِ بأنَّهم لا يَفعلونَ هذا، بل يَعجِزونَ عنه، وهذا لا يُقدِمُ عليه مَن يَطلُبُ النَّاسَ أن يُصَدِّقوه إلَّا وهو واثِقٌ بأنَّ الأمرَ كذلك؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦).

إذ لو كان عنده شَكٌّ في ذلك لجازَ أن يَظهَرَ كَذِبُه في هذا الخبَرِ، فيُفسِدَ عليه ما قَصَده. ثمَّ جَعْلُه هذا في القُرآنِ المَتلوِّ المحفوظِ إلى يومِ القيامةِ، الذي يُقرَأُ به في الصَّلَواتِ، ويَسمَعُه العامُّ والخاصُّ، والوليُّ والعَدُوُّ؛ دليلٌ على كمالِ ثِقتِه بصِدقِ هذا الخبَرِ، وإلَّا لو كان شاكًّا في ذلك لخاف أن يَظهَرَ كَذِبُه؛ فمَن يَقصِدُ أن يُصَدِّقَه النَّاسُ لا يقولُ مِثْلَ هذا، ويُظهِرُه هذا الإظهارَ، ويُشيعُه هذه الإشاعةَ، إلَّا وهو جازِمٌ عند نَفسِه بصِدقِه، ولا يُتصَوَّرُ أنَّ بشَرًا يجزِمُ بهذا الخبَرِ إلَّا أن يعلَمَ أنَّ هذا مِمَّا يَعجِزُ عنه الخَلقُ؛ إذ عِلْمُ العالِمِ بعَجزِ جَميعِ الإنسِ والجِنِّ إلى يومِ القيامةِ، هو مِن أعظَمِ دلائِلِ كَونِه مُعجِزًا، وكونِه آيةً على نبُوَّتِه، فهذا مِن دلائِلِ نبُوَّتِه في أوَّلِ الأمرِ عند مَن سَمِعَ هذا الكلامَ، وعَلِمَ أنَّه مِن القُرآنِ الذي أُمِرَ ببلاغِه إلى جميعِ الخَلقِ، وهو وَحدَه كافٍ في العِلمِ بأنَّ القُرآنَ مُعجِزٌ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ دَلالةٌ على أنَّ الكُفَّارَ هم أكثَرُ أهلِ الأرضِ[2].

بَلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾

- قولُه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ...﴾ استئنافٌ للزِّيادةِ في الامتنانِ، وهو استئنافٌ بيانيٌّ لمضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٧]، وافتتاحُه بـ(قُل) للاهتمامِ به، وهذا تَنويهٌ بشَرفِ القُرآنِ؛ فكان هذا التَّنويهُ امتنانًا على الَّذين آمنوا به، وهم الَّذين كان لهم شِفاءً ورحمةً، وتحدِّيًا بالعجزِ

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٥/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (٢/ ٢٢٥).

على الإتيانِ بمثْلِه للَّذين أعْرَضوا عنه، وهم الَّذين لا يَزيدُهم إلَّا خَسارًا[١].

- وفي قولِه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ ﴾ ذكْرُ الجنِّ مع الإنسِ؛ لقصْدِ التَّعميمِ، كما يُقال: لو اجتمَعَ أهلُ السَّمواتِ والأرضِ، وأيضًا لأنَّ المُتحدَّينَ بإعجازِ القُرآنِ كانوا يَزْعمون أنَّ الجنَّ يقدِرونَ على الأعمالِ العظيمةِ[٢].

- وفائدةُ هذه الجُملةِ ﴿وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ التَّأكيدُ لمعنى الاجتماعِ المَدلولِ بقولِه: ﴿لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾ أنَّه اجتماعُ تظافُرٍ على عمَلٍ واحدٍ، ومقصَدٍ واحدٍ[٣].

- قولُه: ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ ﴾ فيه تَكرُّرُ لفْظِ (مِثْل) في قولِه: ﴿لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ ﴾ على سبيلِ التَّأكيدِ والتَّوضيحِ، وأنَّ المُرادَ منهم أنْ يأتوا بمثْلِه؛ إذ قد يُرادُ بمثْلِ الشَّيءِ في مَوضعِ الشَّيءُ نفْسُه؛ فبيَّنَ بتكرارِ ﴿بِمِثۡلِهِۦ ﴾، ولم يكُنِ التَّركيبُ: لا يأْتون به؛ رفعًا لهذا الاحتمالِ، وأنَّ المطلوبَ منهم أنْ يأتوا بالمثْلِ لا أنْ يأتوا بالقُرآنِ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴾

- جُملةُ ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ ﴾؛ زيادةً في الامتنانِ والتَّعجيزِ، وتأكيدُها بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قد)؛ لرَدِّ أفكارِ المُشركينَ أنَّه من عندِ اللهِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٣).

فمَوردُ التَّأكيدِ هو فعْلُ ﴿صَرَّفْنَا﴾ الدَّالُّ على أنَّه مِن عندِ اللهِ[١].

- وزِيدَ في هذه الآيةِ قيدُ ﴿لِلنَّاسِ﴾ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ دونَ الآيةِ السَّابقةِ في السُّورةِ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الإسراء: ٤١]؛ لأنَّ هذه الآيةَ واردةٌ في مقامِ التَّحدي والإعجازِ؛ فكان النَّاسُ مقصودينَ به قصْدًا أصليًّا مُؤمنُهم وكافِرُهم، بخلافِ الآيةِ المُتقدِّمةِ؛ فإنَّها في مقامِ توبيخِ المُشركينَ خاصَّةً، فكانوا مَعْلومين[٢].

- ووجْهُ تَقديمِ أحدِ المُتعلِّقَينِ -وهو ﴿لِلنَّاسِ﴾- بفعْلِ ﴿صَرَّفْنَا﴾ على الآخرِ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: أنَّ ذِكْرَ النَّاسِ أهمُّ في هذا المقامِ؛ لأجْلِ كونِ الكلامِ مَسوقًا لتحدِّيهم والحُجَّةِ عليهم، وإنْ كان ذكْرُ القُرآنِ أهمَّ بالأصالةِ، إلَّا أنَّ الاعتباراتِ الطَّارئةَ تُقَدَّمُ في الكلامِ البليغِ على الاعتباراتِ الأصليَّةِ؛ لأنَّ الاعتباراتِ الأصليَّةَ لتَقرُّرِها في النُّفوسِ تَصيرُ مُتعارَفةً، فتكونُ الاعتباراتُ الطَّارئةُ أعَزَّ مَنالًا. ومن هذا بابُ تَخريجِ الكلامِ على خلافِ مُقْتضَى الظَّاهرِ[٣].

- وذكَرَ في هذه الآيةِ مُتعلِّقَ التَّصريفِ بقولِه: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ بخلافِ الآيةِ السَّابقةِ في السُّورةِ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الإسراء: ٤١]؛ لأنَّ ذِكْرَ ذلك أدْخَلُ في الإعجازِ؛ فإنَّ كثرةَ أغراضِ الكلامِ أشدُّ تعجيزًا لمَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٠٤-٢٠٥).

يَرومُ مُعارضتَه عن أنْ يأتِيَ بمثْلِه؛ إذ قد يقدِرُ بليغٌ من البُلغاءِ على غرَضٍ من الأغراضِ، ولا يقدِرُ على غرَضٍ آخرَ، فعجْزُهم عن مُعارضةِ سُورةٍ من القُرآنِ مع كثرةِ أغراضِه عجْزٌ بيِّنٌ من جهتَينِ: لأنَّهم عَجَزوا عن الإتيانِ بمثْلِه، ولو في بعضِ الأغراضِ، كما أشار إليه قولُه تعالى في سُورةِ (البقرةِ): ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، فإنَّ (مِن) للتَّبعيضِ. وتَنوينُ ﴿مَثَلٍ﴾ للتَّعظيمِ والتَّشريفِ، أي: من كلِّ مَثَلٍ شَريفٍ، والمُرادُ: شرَفُه في المقصودِ من التَّمثيلِ. و﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ للتَّبعيضِ، و﴿كُلِّ﴾ تُفيدُ العُمومَ؛ فالقُرآنُ مُشتمِلٌ على أبعاضٍ مِن جميعِ أنواعِ المثَلِ[١].

- وحُذِفَ مفعولُ ﴿فَأَبَىٰٓ﴾ للقرينةِ، أي: أبَى العمَلَ به[٢].

- وفي قولِه: ﴿أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ أُوثِرَ الإظهارُ على الإضمارِ حيث لم يقُلْ: (أكثرُهم)؛ تأكيدًا وتوضيحًا[٣].

- قولُه: ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ فيه من المُبالغةِ ما ليس في (أبَوُا الإيمانَ)؛ لأنَّ فيه دلالةً على أنَّهم لم يَرْضَوا بخَصلةٍ سِوى الكُفورِ من الإيمانِ، والتَّوقُّفِ في الأمْرِ ونحوِ ذلك، وأنَّهم بالغوا في عدَمِ الرِّضا حتَّى بَلَغوا مرتبةَ الإباءِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ تأكيدُ الشَّيءِ بما يُشْبِهُ ضِدَّه، أي: تأكيدٌ في صُورةِ النَّقصِ؛ لِمَا فيه من الإطماعِ بأنَّ إبايتَهم غيرُ مُطَّردةٍ، ثمَّ يأتي المُسْتثنى مُؤكِّدًا لمعنى المُسْتثنى منه؛ إذ (الكُفورُ) أخَصُّ من المفعولِ الَّذي حُذِفَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للقرينةِ، وهو استثناءٌ مُفرَّغٌ؛ لِما في فعْلِ ﴿فَأَبَىٰٓ﴾ مِن معنَى النَّفيِ الَّذي هو شرْطُ الاستثناءِ المُفرَّغِ؛ لأنَّ المدارَ على معنى النَّفيِ، مِثْلُ الاستثناءِ مِن الاستفهامِ المُستعمَلِ في النَّفيِ، كقولِه: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1] [الإسراء: ٩٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٥).

الآيات (٩٠-٩٦)

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَنۢبُوعًا﴾: أي: عَينًا تَنبُعُ منها الماءُ؛ مِن نَبَعَ الماءُ: إذا ظَهَر[١].

﴿كِسَفًا﴾: أي: قِطَعًا، جَمعُ كِسْفةٍ: وهي القِطعةُ مِن الشَّيءِ، وأصلُ (كسف): يَدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[٢].

﴿قَبِيلًا﴾: أي: مُقابَلةً عِيانًا، وأصلُ (قبل): يدُلُّ على مُواجَهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[٣].

﴿زُخۡرُفٍ﴾: أي: ذَهَبٍ، وأصلُ الزُّخرُفِ والزَّخرفةِ: الزِّينةُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٧٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٦٠)،

المَعنى الإجماليُّ:

ذكر الله تعالى بعضَ ما طلَبه المشركونَ مِن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن مطالبَ مُتعنِّتةٍ، فقال: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ: لن نُصَدِّقَك -يا مُحمَّدُ- حتى تُفَجِّرَ لنا مِن أرضِ «مكَّةَ» عَينًا جاريةً غزيرةَ الماءِ، أو تكونَ لك حَديقةٌ مِنَ النَّخيلِ والأعنابِ، وتجعَلَ الأنهارَ تَجري في وسَطِها بغَزارةٍ، أو تُسقِطَ السَّماءَ علينا قِطَعًا كما زَعَمْتَ، أو تأتيَ لنا باللهِ ومَلائكَتِه فنُشاهِدَهم عِيانًا، أو يكونَ لك بَيتٌ مِن ذَهَبٍ، أو تصعَدَ في دَرَجٍ إلى السَّماءِ، ولن نُصَدِّقَك في صُعودِك حتى تنَزِّلَ علينا كِتابًا مِن اللهِ نَقرأُ فيه أنَّك رَسولٌ من عند اللهِ!

ثمَّ أمرَ الله نبيَّه أن يردَّ عليهم قائلًا له: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُشرِكينَ: سُبحانَ رَبِّي! هل أنا إلَّا بَشَرٌ مِثلُكم مُرسَلٌ مِن عندِ الله؟! فكيف أقدِرُ على فِعْلِ ما تَطلُبونَ؟

ثمَّ ذكَر الله تعالى شبهةً أُخرَى مِن شبهاتِهم، فقال: وما منَعَ الكُفَّارَ مِن الإيمانِ باللهِ حين جاءَهم الهُدى مِن عندِ اللهِ إلَّا قَولُهم جَهلًا: أبعَثَ اللهُ رَسولًا بشرًا مِثلَنا؟!

قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: لو كان في الأرضِ مَلائِكةٌ يَمشُونَ عليها مُستَقرِّين كالبشَرِ، لأرسَلْنا إليهم رَسولًا ملَكًا مِن جِنسِهم؛ ليتمَكَّنوا مِن مخالطتِه والتلقِّي عنه، قُلْ لهم: كفى باللهِ شَهيدًا بيني وبينكم يعلَمُ صِدْقي وحَقيقةَ نُبُوَّتي؛ إنَّه سُبحانَه خَبيرٌ بأحوالِ عِبادِه، بصيرٌ بأعمالِهم، وسيُجازيهم عليها.

((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تحَدَّى اللهُ تعالى الكافِرينَ بأن يأتُوا بمِثلِ هذا القُرآنِ، فتَبَيَّنَ عَجزُهم عن ذلك وإعجازُه، وانضَمَّت إليه مُعجِزاتٌ أُخَرُ، وبَيِّناتٌ واضِحةٌ، فلَزِمَتهم الحُجَّةُ وغُلِبوا- أخَذوا يتعَلَّلونَ باقتِراحِ آياتٍ، فِعلَ الحائِرِ المَبهوتِ المَحجوجِ، فقالوا ما حكاه اللهُ عنهم[1].

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾.

أي: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ: لن نُصَدِّقَك -يا مُحمَّدُ- فيما تقولُ حتى تَفجُرَ لنا مِن أرضِ مَكَّةَ المُجدِبةِ عَينًا تَنبُعُ بمِياهٍ جاريةٍ غَزيرةٍ[2].

﴿ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ ﴾.

أي: أو يكونَ لك في مَكَّةَ -يا مُحمَّدُ- بُستانٌ مِن أشجارِ النَّخيلِ والعِنَبِ[3].

﴿ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴾.

أي: فتُجري الأنهارَ وسْطَ ذلك البستانِ بقوةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير الشوكاني))

﴿ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا انتِقالٌ مِن تحَدِّي النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بخوارِقَ فيها منافِعُ لهم إلى تَحدِّيه بخوارِقَ فيها مَضَرَّتُهم، يريدون بذلك التَّوسيعَ عليه، أي: فلْيأتِهم بآيةٍ على ذلك ولو في مَضَرَّتِهم[1].

﴿ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا ﴾.

أي: أو تُسقِطَ السَّماءَ علينا قِطَعًا كما وعَدْتَنا، فعَجِّلْ لنا هذا العذابَ حتَّى نُصدِّقَك[2]!

قال تعالى حاكيًا قولَ قَومِ شُعَيبٍ له: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ

(٣/ ٣٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٤).

قال الألوسي: (والمرادُ إمَّا إجراءُ الأنهارِ خلالَها عندَ سقيِها، أو إدامةُ إجرائِها، كما يُنْبِئُ الفاءُ). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٤).

وقال ابن كثير: (وقولُه تعالى: ﴿ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ ﴾ أي: أنَّك وعَدْتَنا أنَّ يومَ القيامةِ تَنْشَقُّ فيه السَّماءُ وتَهِي، وتَدَلَّى أطرافُها، فعَجِّلْ ذلك في الدُّنيا، وأسقطْها كِسَفًا: أي: قِطَعًا، كقولِهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٠).

وقال الشنقيطي: (أو يسقط السماء عليهم ﴿ كِسَفًا ﴾: أي: قطعًا كما زعَم، أي في قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية [سبأ: ٩]). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٨٤).

أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٩].

﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾.

أي: أو تأتيَ -يا مُحمَّدُ- باللهِ والمَلائكةِ، فنُقابِلَهم ونَراهم عِيانًا[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾.

أي: أو يَكونَ لك بَيتٌ مِن ذهَبٍ، كاملُ الحُسنِ والزِّينةِ[2].

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾.

أي: أو تَصعَدَ في السَّماءِ درجةً درجةً، ونحن ننظرُ إليك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٣٦).
قال ابنُ عطية: (قال المفسِّرون: الزُّخرفُ: الذَّهَبُ في هذا الموضِعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥١٢).

﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾.

أي: ولن نُؤمِنَ -يا مُحمَّدُ- بأنَّك رَسولُ الله؛ بمجَرَّدِ صُعودِك في السَّماءِ حتى تُنَزِّلَ علينا كِتابًا مِن عندِ اللهِ نَقرأُ فيه أمْرَنا باتِّباعِك والإيمانِ بك[1]!

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿قَالَ﴾ بلَفظِ الماضي على الحِكايةِ عن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2].

٢- قراءةُ ﴿قُلْ﴾ بلَفظِ الأمرِ، أي: إنَّ اللهَ أمَرَ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ: سُبحانَ رَبِّي[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٤).

قال ابن جرير: (يقول: ولن نصَدِّقَك من أجلِ رُقيِّك إلى السَّماءِ ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا﴾ منشورًا ﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾ فيه أمْرُنا باتباعِك والإيمانِ بك). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٦).

وقيل: المرادُ: كتابٌ لكلِّ واحدٍ منَّا فيه الأمرُ باتباعِك، والإيمانِ بك، كقولِه تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢]. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: القرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤).

(٢) قرأ بها ابن كثير وابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٢١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٠١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤١٠).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٠١)، ((الحجة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ١٢٢).

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُشرِكينَ: أُنزِّهُ ربِّي عن كُلِّ ما لا يَليقُ به مِن النَّقصِ والعَجزِ، ومِن ذلك تَنزيهُه عن العَجزِ عن فِعلِ ما اقتَرَحتُم؛ فهو قادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ، وتَنزيهُه عن أن تكونَ آياتُه تابعةً لأهوائِكم، وأن يتقَدَّمَ أحَدٌ بين يديه في أمرٍ مِن أمورِ سُلطانِه ومَلَكوتِه، بل هو الفعَّالُ لِما يشاءُ، إن شاء أجابَكم إلى ما سألتُم، وإن شاءَ لم يُجبْكم، فما أنا إلَّا بَشَرٌ مِثلُكم، ليس في قُدرتِي الإتيانُ بتلك الآياتِ التي تَطلُبونَها، فلا يأتي بها إلَّا اللهُ وحْدَه، وما أنا إلَّا رَسولٌ منه إليكم، وقد بلَّغتُكم رسالتَه[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكَى اللهُ تعالى أشكالَ عنادِ الكافرينَ، ومظاهرَ تكذيبِهم، وشُبهتَهم في اقتراحِ المُعجِزاتِ الزَّائدةِ، حكَى عنهم شُبهةً أُخرَى، وهي العلةُ الأصليةُ التي تبعثُ على الجحودِ في جميعِ الأممِ، وهي أنَّ القَومَ استَبعَدوا أن يَبعَثَ اللهُ إلى الخَلقِ رَسولًا مِن البَشَرِ، بل اعتَقَدوا أنَّ اللهَ تعالى لو أرسل رَسولًا إلى الخَلقِ، لوجب أن يكونَ ذلك الرَّسولُ مِن الملائكةِ، فأجاب اللهُ تعالى عن هذه الشُّبهةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٦، ٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١١).

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾.

أي: وما مَنعَ الكُفَّارَ أن يُؤمِنوا بالحَقِّ حين جاءَهم الهُدى مِن عِندِ اللهِ إلَّا قَولُهم -جَهْلًا منهم على وجهِ التعَجُّبِ والاستِغرابِ-: أأَرسَلَ اللهُ إلينا بما له مِن العَظَمةِ والجَلالِ بَشَرًا مِثْلَنا؟! فهلَّا بعَث إلينا ملَكًا رَسولًا[1]!

كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [يونس: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ﴾ [التغابن: ٥، ٦].

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء الكافرينَ الذين امتَنَعوا عن الإيمانِ بك؛ استِنكارًا منهم لِأَنْ يَبعَثَ اللهُ بَشرًا رَسولًا: لو كان في الأرضِ مَلائِكةٌ يَمشُونَ عليها كالآدَميِّينَ، ويَسكُنونَها وادِعينَ فيها ومُستَقِرِّينَ؛ لأرسَلْنا إليهم مِنَ السَّماءِ مَلَكًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥١٤).

قال الشوكاني: (﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ ﴾ المرادُ: النَّاسُ على العُمومِ. وقيلَ: المرادُ أهلُ مَكَّةَ علَى الخصوصِ، أي: ما منَعهم الإيمانَ بالقرآنِ ونبوَّةِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسَلَّم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠٨).

قال القرطبي: (﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ أي: اللهُ أجَلُّ مِن أن يكونَ رَسولُه مِنَ البَشَرِ، فبَيَّنَ اللهُ تعالى فَرْطَ عِنادِهم؛ لأنَّهم قالوا: أنت مِثْلُنا فلا يلزَمُنا الانقيادُ، وغَفَلوا عن المُعجِزةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٢).

مِن جِنسِهم ليُمكِنَهم مُخالطتُه ورُؤيتُه، ويتيسَّرَ لهم مُعاشَرتُه والتلقِّي عنه، وفَهمُ حَديثِه، كما تَقتَضيه الحِكمةُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۞وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾[الأنعام: ٨-٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[الأنبياء: ٧].

﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٩٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا دعا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الكافرينَ إلى الإيمانِ، وتحَدَّى على صِدقِ نُبُوَّتِه بالمُعجِزِ المُوافِقِ لدَعْواه؛ أمَرَه تعالى أن يُعْلِمَهم بأنَّه تعالى هو الشَّهيدُ بينه وبينهم على تَبليغِه وما قام به مِن أعباءِ الرِّسالةِ، وعَدَمِ قَبولِهم، وكُفرِهم، وما اقتَرَحوا عليه مِن الآياتِ على سَبيلِ العِنادِ، وأردَفَ ذلك بما فيه تَهديدٌ، وهو قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾(٢).

وأيضًا فبعدَ أنْ خَصَّ اللهُ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتَلقينِ الحُجَّةِ القاطِعةِ للضَّلالةِ؛ أردَفَ ذلك بتَلقينِه أيضًا ما لقَّنَه الرُّسُلَ السَّابِقينَ مِن تفويضِ الأمرِ إلى الله تعالى، وتحكيمِه في أعدائِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩١، ٩٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥١٤-٥١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٣).

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا مُحمَّدُ: يكفيني اللهُ شاهِدًا عليَّ وعليكم، وهو يعلَمُ صِدقي ويُؤَيِّدُني بالمُعجِزاتِ، ويُنَزِّلُ عليَّ الآياتِ، ويَنصُرُني على مَن عاداني، ولو كُنتُ كاذِبًا عليه لانتَقَمَ مني[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

أي: ويكفي اللهُ شاهِدًا على ذلك؛ لأنَّه خَبيرٌ بأحوالِ عِبادِه وأعمالِهم ونيَّاتِهم، يَعلَمُ المُهتديَ منهم والضَّالَّ، ومَن يَستَحِقُّ منهم الهِدايةَ، ومَن يَستَحِقُّ الإضلالَ، بصيرٌ بهم، وبتَدبيرِهم كيف يشاءُ، وسيُجازيهم جميعًا على أعمالِهم خَيرِها وشَرِّها[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الرُّسُلُ صلواتُ الله وسلامُه عليهم لا يَملِكونَ أن يأتُوا بالآياتِ أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٤).
وقال مُقاتِلٌ: (﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ حين اختَصَّ مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بالرِّسالةِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٥١).

بالوحيِ؛ فهم يتلقَّونَ مِنَ اللهِ، حتى الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا طُلِبَ منه الآياتُ لا يستطيعُ أن يأتيَ بها؛ ولهذا لَمَّا اقترَح المُكَذِّبونَ عِدَّةَ آياتٍ، قال تعالى له: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، أي: فلا أملِكُ أن آتِيَ بالآياتِ(١).

٢- اقتضت حكمةُ الله ألَّا يُرسِلَ بالآياتِ التي اقترَحها الكفارُ، وإلَّا فلو جاءَتْهم ولم يُؤمِنوا أتاهم عذابُ الاستِئصالِ، وأيضًا فهي ممَّا لا يصلُحُ الإتيانُ بها؛ فإنَّ قولَهم: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ يقتضي تفجيرَ اليَنبوعِ بأرضِ مكَّةَ فيصيرُ واديًا ذا زرعٍ، واللهُ مِن حِكمتِه جَعلُ بيتِه بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ؛ لئلَّا يكونَ عنده ما ترغَبُ النفوسُ فيه من الدُّنيا فيكونَ حَجُّهم للدُّنيا لا لله، وإذا كان له جَنَّةٌ مِن نخيلٍ وأعنابٍ يُفجِّرُ الأنهارَ خلالَها تفجيرًا، كان في هذا من التوسُّعِ في الدُّنيا ما يقتضي نَقصَ دَرجتِه وانخفاضَ منزلتِه، وكذلك إذا كان له بيتٌ مِن زُخرفٍ. وأمَّا إسقاطُ السَّماءِ كِسَفًا فهذا لا يكونُ إلا يومَ القيامةِ، وهو لم يخبِرْهم أنَّ هذا لا يكونُ إلَّا يومَ القيامةِ، فقولُهم ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ كَذِبٌ عليه إلَّا أن يريدوا التَّمثيلَ فيكونَ القياسُ فاسِدًا(٢).

٣- التعَنُّتُ والعنادُ العظيمُ الذي ذكَرَه جلَّ وعلا عن الكُفَّارِ هنا بيَّنَه في مواضِعَ أُخرَ، وبيَّن أنَّهم لو فعل الله ما اقترَحوا ما آمَنوا؛ لأنَّ مَن سبق عليه الشَّقاءُ لا يؤمِنُ، كقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٣٦-٤٣٧).

وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، والآياتُ بمثلِ هذا كثيرةٌ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ الإقرارَ بالرَّبِّ وملائكتِه مَعروفٌ عند عامَّةِ الأُمَمِ[(٢)].

٥- ممَّا استشكلوه قولُه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ مع قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]؛ فإنَّه يدُلُّ على حَصرِ المانعِ مِن الإيمانِ في أحَدِ هذين الشَّيئينِ، فظاهرُهما التعارُضُ.

وأجيبَ عن ذلك: بأنَّ معنى آية سورة (الكهف): «وما منع النَّاسَ أن يؤمنوا إلَّا إرادةُ أن تأتيَهم سنَّةُ الأوَّلين مِن الخسفِ أو غيرِه، أو يأتيَهم العذابُ قُبلًا في الآخرةِ» فأخبر أنَّه أراد أن يصيبَهم أحدُ الأمرين، ولا شَكَّ أنَّ إرادة الله مانعةٌ مِن وقوع ما ينافي المرادَ، فهذا حصرٌ في السبَبِ الحقيقيِّ؛ لأنَّ الله هو المانِعُ في

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣١٩).

الحقيقةِ، ومعنى آيةِ سورة (الإسراء): «وما منع الناسَ أن يؤمنوا إلَّا استغرابُ بَعثِه بشَرًا رَسولًا»؛ لأنَّ قولَهم ليس مانِعًا مِن الإيمانِ؛ لأنَّه لا يصلُحُ لذلك، وهو يدُلُّ على الاستغرابِ بالالتزامِ، وهو المناسِبُ للمانعيَّةِ، واستغرابُهم ليس مانعًا حقيقيًّا، بل عاديٌّ؛ لجوازِ وجودِ الإيمانِ معه بخلافِ إرادة الله تعالى، فالحَصرُ في آية (الإسراء) حصرٌ في المانِعِ العادي، والحصرُ في آية (الكهف) في المانِعِ الحقيقيِّ، فلا تنافيَ[1]، فالمانِعُ المذكور هنا في سورة (الإسراءِ) عاديٌّ؛ لأنَّه جرت عادةُ جميعِ الأُمَمِ باستغرابِهم بَعْثَ الله رسُلًا من البشَرِ، كقَولِه: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ الآية [إبراهيم: ١٠]، وقولِه: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ الآية [المؤمنون: ٤٧]، وقَولِه: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤]، وقولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، وقَولِه: ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤] إلى غير ذلك مِن الآياتِ[2].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ فيه إعلامٌ مِنَ اللَّهِ سبحانَه بأنَّ الرُّسلَ ينبغي أن تكونَ مِنْ جنسِ المرسَلِ إليهم، فكأنَّه سبحانَه اعْتَبَر في تنزيلِ الرَّسولِ مِنْ جنسِ الملائكةِ أمرينِ:

الأوَّلُ: كونُ سُكَّانِ الأرضِ ملائكةً.

والثَّاني: كونُهم ماشينَ على الأقدامِ غيرَ قادرينَ على الطَّيرانِ بأجْنِحَتِهم إلى

(١) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٥-١٨٦)، ويُنظر أيضًا: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٤٢).

السَّماءِ، إذْ لو كانوا قادرينَ على ذلك لَطاروا إليها، وسَمِعوا من أهلِها ما يَجِبُ مَعْرِفَتُه وسماعُه، فلا يكونُ في بعثةِ الملائِكَةِ إليهم فائدَةٌ[١].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، أي: كَفَروا بالقُرآنِ، وطالَبوا بمُعجزاتٍ أُخرى. وضَميرُ الجمْعِ عائدٌ إلى أكثرِ النَّاسِ الَّذين أبَوا إلَّا كُفورًا، باعتبارِ صُدورِ هذا القولِ بينهم وهم راضونَ به، ومُتمالِئون عليه متى عَلِموه، فلا يلزَمُ أنْ يكونَ كلُّ واحدٍ منهم قال هذا القولَ كلَّه، بل يكونُ بعضُهم قائلًا جميعَه، أو بعضُهم قائلًا بعضَه. ولمَّا اشتمَلَ قولُهم على ضمائرِ الخطابِ تعيَّنَ أنَّ بعضَهم خاطَبَ به النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُباشرةً؛ إمَّا في مقامٍ واحدٍ، وإمَّا في مقاماتٍ[٢].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ تعريفُ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للعهدِ؛ إذ المُرادُ بها أرضُ مكَّةَ، ووجْهُ تَخصيصِها: أنَّ أرضَها قليلةُ المياهِ، بعيدةٌ عن الجنَّاتِ[٣].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث قال: ﴿تَفْجُرَ﴾ بالتَّخفيفِ، وقال في الآيةِ الَّتي بعدها: ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء: ٩١]، وكذلك قال في سُورةِ (الكهفِ): ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣] بالتَّشديدِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ التَّفجيرَ مصدَرُ (فجَّرَ) بالتَّشديدِ؛ مُبالغةً في الفَجْرِ، وهو الشَّقُّ باتِّساعٍ؛ فالتَّفجيرُ أشدُّ من مُطلَقِ

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٠٧).

الفَجْرِ، وهو تَشقيقٌ شديدٌ باعتبارِ اتِّساعِه؛ ولذلك ناسب اليَنبوعُ هنا، والنَّهرُ في قولِه تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣]، وقولِه: ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾

- قولُه: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ خَصُّوا هذه الجنَّةَ بأنْ تكونَ له؛ لأنَّ شأْنَ الجنَّةِ أنْ تكونَ خاصَّةً لملِكٍ واحدٍ مُعيَّنٍ، فأرَوه أنَّهم لا يَبْتغون من هذا الاقتراحِ نفْعَ أنفُسِهم، ولكنَّهم يَبْتغون حُصولَه ولو كان لفائدةِ المُقترَحِ عليه. والمُقترَحُ هو تَفجيرُ الماءِ في الأرضِ القاحلةِ، وإنَّما ذَكَروا وُجودَ الجنَّةِ؛ تَمهيدًا لتفجيرِ أنهارٍ خِلالَها، فكأنَّهم قالوا: حتَّى تفجُرَ لنا يَنبوعًا يَسْقي النَّاسَ كلَّهم، أو تُفجِّرَ أنهارًا تَسْقي جنَّةً واحدةً، تكونُ تلك الجنَّةُ وأنهارُها لك، فنحن مُقتنِعون بحُصولِ ذلك لا بُغيةَ الانتفاعِ منه[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ ذكَرَ المفعولَ المُطلَقَ بقولِه: ﴿تَفْجِيرًا﴾ للدَّلالةِ على التَّكثيرِ؛ لأنَّ ﴿تُفَجِّرَ﴾ قد كَفى في الدَّلالةِ على المُبالغةِ في الفَجْرِ، فتعيَّنَ أنْ يكونَ الإتيانُ بمفعولِه المُطلَقِ للمُبالغةِ في العدَدِ، كقولِه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وهو المُناسِبُ لقولِه: ﴿خِلَٰلَهَا﴾؛ لأنَّ الجنَّةَ تتخلَّلُها شُعَبُ النَّهرِ لسَقْيِ الأشجارِ، فجمَعَ ﴿ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ باعتبارِ تشعُّبِ ماءِ النَّهرِ إلى شُعَبٍ عديدةٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٩).

٣- قولُه تعالى: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ أي: فليأْتِهم بآيةٍ على ذلك ولو في مَضرَّتِهم. ولعلَّهم أرادوا به الإغراقَ في التَّعجيبِ من ذلك، فجَمَعوا بين جعْلِ الإسقاطِ لنفْسِ السَّماءِ، وعزَّزوا تَعجيبَهم بالجُملةِ المُعترِضةِ، وهي ﴿ كَمَا زَعَمْتَ ﴾؛ إنباءً بأنَّ ذلك لا يُصدِّقُ به أحدٌ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

- قولُه: ﴿ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ إنَّما عُدِّيَ الفعلُ بحرفِ (في) الظَّرفيَّةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الرُّقِيَّ تدرُّجٌ في السَّمواتِ كمَن يصعَدُ في المِرقاةِ والسُّلَّمِ[٢].

- قولُه: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ لمَّا كان اقتراحُهم اقتراحَ مُلاجَّةٍ[٣] وعِنادٍ، أمَرَه اللهُ بأنْ يُجيبَهم بما يدُلُّ على التَّعجُّبِ من كلامِهم بكلمةِ ﴿ سُبْحَانَ رَبِّى ﴾ الَّتي تُستعمَلُ في التَّعجُّبِ، ثمَّ بالاستفهامِ الإنكاريِّ، وصِيغَةِ الحصرِ (هل... إلَّا) المُقتضيةِ قصْرَ نفْسِه على البشريةِ والرِّسالةِ قصرًا إضافيًّا، أي: لستُ ربًّا مُتصرِّفًا أخلُقُ ما يُطلَبُ منِّي؛ فكيف آتي باللهِ والملائكةِ، وكيف أخلُقُ في الأرضِ ما لم يُخْلَقْ فيها[٤]؟!

٥- قولُه تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢١٠).

(٣) المُلاجَّة: التَّمادي في الخُصومةِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٠-٢١١).

- قولُه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا﴾ الهمزةُ في ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾ للإنكارِ[1]. ووُرودُ هذا الكلامِ بصِيغَةِ الحصْرِ (ما... إلَّا)، وأداةِ العُمومِ، جعَلَه تذييلًا لِما مَضى من حكايةِ تفنُّنِهم في أساليبِ التَّكذيبِ والتَّهكُّمِ؛ فالظَّاهرُ حمْلُ التَّعريفِ في ﴿ٱلنَّاسَ﴾ على الاستغراقِ، أي: ما منَعَ جميعَ النَّاسِ أنْ يؤمنوا إلَّا ذلك التَّوهُّمُ الباطِلُ[2]، وذلك على أحدِ القولينِ في التفسيرِ.

- وقد حصَرَ المانعَ من الإيمانِ فيما ذُكِرَ مع أنَّ لهم موانعَ شَتَّى؛ لأنَّه مُعظَمُها، أو لأنَّه هو المانعُ بحسَبِ الحالِ، أي: عند سماعِ الجوابِ بقولِه تعالى: ﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾؛ إذ هو الَّذي يتشبَّثونَ به حينئذٍ من غيرِ أنْ يخطُرَ ببالِهم شُبهةٌ أُخرى من شُبَهِهم الواهيةِ. وفيه إيذانٌ بكَمالِ عِنادِهم، حيث يشيرُ إلى أنَّ الجوابَ المذكورَ مع كونِه حاسمًا لموادِّ شُبَهِهم، مُلجِئًا إلى الإيمانِ، يعكِسونَ الأمْرَ، ويَجْعلونه مانِعًا منه[3].

- قولُه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا﴾، وقال في سُورةِ (الكهفِ): ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الكهف: ٥٥]؛ فورَدَ في الثَّانيةِ: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ ولم يَرِدْ في الأُولى؛ وفي ذلك مُناسبةٌ حَسنةٌ، وهي أنَّ المعنى هنا: ما منَعَهم عن الإيمانِ بمُحمَّدٍ إلَّا قولُهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ هلَّا بَعَثَ مَلَكًا! وجَهِلوا أنَّ التَّجانسَ يُورِثُ التَّوانسَ، والتَّغايُرَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٥).

يُورثُ التَّنافُرَ، والمعنى في (الكَهفِ): ما منَعَهم عن الإيمانِ والاستِغفارِ إلَّا إتيانُ سُنَّةِ الأوَّلينَ؛ فزاد فيها ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: ٥٥]؛ لاتِّصالِه بقولِه: ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهم قومُ نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، وشُعيبٍ، حيثُ أُمِروا بالاستغفارِ[١]، وقيل غيرُ ذلك[٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾

- الباءُ الدَّاخلةُ على اسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿بِٱللَّهِ﴾ لتأكيدِ لُصوقِ فعْلِ ﴿كَفَىٰ﴾ بفاعلِه، وأصْلُه: كفى اللهُ شهيدًا[٣].

- وقولُه: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، وإنَّما لم يقُلْ: (بيننا)؛ تحقيقًا للمُفارقةِ، وإبانةً للمُباينةِ[٤].

- قولُه: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا﴾ أُريدَ بالشَّهيدِ هنا الشَّهيدُ للمُحقِّ على المُبطِلِ؛ فهو كِنايةٌ عن النَّصيرِ والحاكمِ؛ لأنَّ الشَّهادةَ سبَبُ الحكمِ، والقرينةُ قولُه: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ لأنَّ ظرفَ (بين) يُناسِبُ معنى الحُكمِ. وهذا بمعنى قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]، وقولِه: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾[٥] [الممتحنة: ٣].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٤).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ تَعليلٌ للاكتفاءِ به تعالى[١]، وفيه تَسليةٌ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتهديدٌ للكُفَّارِ[٢].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث قال هنا: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بتقديمِ ﴿شَهِيدًۢا﴾ على ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، وقال في سُورةِ (العنكبوتِ): ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ [العنكبوت: ٥٢] بالعكسِ؛ لأنَّ ما هنا جاء على الأصْلِ من تَقديمِ المفعولِ، وما في العنكبوتِ جاء على خلافِ الأصْلِ؛ ليتَّصِلَ وصْفُ الشَّهيدِ به، وهو قولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٥٢]؛ لأنَّه لمَّا وصَفَه بقولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ طال، فلم يَجُزِ الفصْلُ به[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٤).

الآيات (٩٧-١٠٠)

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَبُكْمًا﴾: أي: لا يَنطِقونَ، جمعُ أبكَمَ، وهو الذي يُولَدُ أخرَسَ، فكُلُّ أبكَمَ أخرَسُ، وليس كلُّ أخرَسَ أبكَمَ، وأصلُ (بكم): يدُلُّ على الخَرَسِ[(١)].

﴿وَصُمًّا﴾: أي: لا يسمعونَ، والصُّمُّ جمْعُ أصَمَّ، والصَّمَم فُقدانُ حاسَّة السَّمْع، وأصْلُه: الصَّلابةُ، وقيل: السَّدُّ، أو: تَضامُّ الشَّيءِ، وزوالُ الخَرقِ والسَّمِّ (الثقب)[(٢)].

﴿خَبَتْ﴾: أي: سَكَنَ لَهَبُها، وصار عليها خِباءٌ مِن رَمادٍ، أي: غِشاءٌ[(٣)].

﴿وَرُفَٰتًا﴾: أي: فُتاتًا، وما تناثَر وبَلِي مِن كلِّ شيءٍ، وأصلُ (رفت): يدلُّ على

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٩).

فتٍّ ولَيٍّ[١].

﴿قَتُورًا﴾: أي: بخيلًا مُمسِكًا، والقَتْرُ: تقليلُ النَّفَقةِ، وهو بإزاءِ الإسرافِ، وأصلُ (قتر): يدُلُّ على تجميعٍ وتضييقٍ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومَن يَهْدِه اللهُ فهو المُهتَدي إلى الحَقِّ، ومَن يُضلِلْه فيَخذُلْه ويَكِلْه إلى نَفسِه فلن تجدَ لهم -يا محمدُ- ناصرينَ ينصرونَهم، ويهدونَهم إلى طريقِ الحقِّ مِن دُونِ اللهِ، ونَحشُرُ هؤلاء الضَّالين على وُجوهِهم عُمْيًا لا يَرَونَ، وبُكْمًا لا يَنطِقونَ، وَصُمًّا لا يَسمَعونَ، مَصيرُهم جهنَّمُ، كُلَّما سَكَن لَهيبُها في أجسادِهم زِدْناهم نارًا مُلتَهِبةً مُتأجِّجةً، ذلك العذابُ بسَبَبِ كُفرِهم بآياتِنا وحُجَجِنا، وقَولِهم إنكارًا للبَعثِ: أئِذا مِتْنا وصِرْنا عِظامًا باليةً نُبعَثُ بعد ذلك خَلْقًا جديدًا؟! أَولَم يَعلَمْ هؤلاء المُشرِكونَ أنَّ اللهَ الذي خلقَ السَّمَواتِ والأرضَ على غيرِ مِثالٍ سابقٍ، قادِرٌ على أن يُعيدَ خَلقَهم بعد فَنائِهم؟ وقد جعل اللهُ لهؤلاء المُشرِكينَ وَقتًا مُحَدَّدًا لِمَوتِهم وبَعثِهم لا شَكَّ في مَجيئِه، فأبى الكافِرونَ إلَّا جُحودًا وإنكارًا لبَعْثِهم!

قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: لو كُنتُم تَملِكونَ خزائِنَ الرِّزقِ، إذَن لبَخِلتُم بها، فلم تُعطُوا أحدًا شيئًا؛ خَوفًا مِن أن تنفَدَ فتُصبِحوا فُقَراءَ، وكان الإنسانُ مفطورًا على البُخلِ!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٦). ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أجاب اللهُ تعالى عن شُبُهاتِ القَومِ الكافرينَ في إنكارِ النبُوَّةِ، وأردَفَها بالوَعيدِ الإجماليِّ، وهو قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٦]؛ ذكَرَ بَعْدَه الوعيدَ الشَّديدَ على سبيلِ التَّفصيلِ[١].

وأيضًا لمَّا تقدَّمَ دعوةُ الرَّسولِ إلى الإيمانِ، وتحدَّى بالمُعجِزِ الَّذي آتاهُ اللهُ، ولجُّوا في كُفْرِهم وعِنادِهم، ولم يُجْدِ فيهم ما جاء به من الهُدى؛ أخبَرَ بأنَّ ذلك كلَّه راجعٌ إلى مَشيئتِه تعالى، وأنَّه هو الهادي وهو المُفضِّلُ، فسلَّاه الله بذلك، وأخبَرَ تعالى على سَبيلِ التَّهديدِ لهم، والوعيدِ الصِّدْقِ لحالِهم وقْتَ حشْرِهم يومَ القيامةِ[٢].

وأيضًا لَمَّا تقَدَّمَ أنَّ الله تعالى أعلَمُ بالمُهتَدي والضَّالِّ، وكان خَتمُ الآيةِ الماضيةِ مُرشِدًا إلى أنَّ المعنى: فمَن عَلِمَ منه بجوابِه قابليَّةً للخَيرِ، وفَّقَه للعَمَلِ على تلك المُشاكَلةِ، ومَن عَلِمَ منه قابليَّةً للشَّرِّ أضَلَّه- عطَفَ عليه قَولَه تعالى[٣]:

﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾.

أي: ومَن يَهْدِه اللهُ فيُوفِّقْه للإيمانِ به وبِرَسولِه وبما جاء به، فهو المُهتَدي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥١٥).

حَقًّا[١].

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾.

أي: ومَن يُضلِلْه اللهُ عن الحَقِّ، فيَخذُلْه عن الإيمانِ باللهِ ورَسولِه، فلن تَجِدَ لهم -يا مُحمَّدُ- ناصِرينَ مِن دونِ اللهِ يُنقِذونَهم مِن عذابِه، ويَهدونَهم إلى الحَقِّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۞ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٣، ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [الشورى: ٤٤].

وقال جلَّ جَلالُه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٦].

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾.

أي: ونجمَعُ الضَّالِّينَ يومَ القيامةِ وهم يَمشُونَ على وُجوهِهم عُمْيًا لا يُبصِرونَ، وبُكْمًا لا يتكَلَّمونَ، وصُمًّا لا يَسمَعونَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٢، ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٥، ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧).

كما قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٣].

وعن أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَجُلًا قال: يا رَسولَ اللهِ، كيف يُحشَرُ الكافِرُ على وَجْهِه يومَ القيامةِ؟! قال: أليسَ الذي أمشَاه على رِجْلَيه في الدُّنيا قادِرًا على أن يُمشِيَه على وَجْهِه يومَ القيامةِ؟!)) قال قتادةُ: بلى وعِزَّةِ رَبِّنا[(١)].

﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾.

أي: مَقَرُّ الضَّالِّينَ ومَنزِلُهم جَهنَّمُ[(٢)].

﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرًا﴾.

أي: كُلَّما سكَنَ لَهيبُ نارِ جَهنَّمَ في أجسامِ الكافرينَ، وتهَيَّأَت للانطِفاءِ، زِدْناهم نارًا تتلَهَّبُ وتتأجَّجُ في أجسامِهم[(٣)].

قال البقاعي: (﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ يَمشُونَ أو مسحوبينَ عليها؛ إهانةً لهم فيها، كما لم يُذلُّوها بالسجودِ لنا). ((نظم الدرر)) (١١/ ٥١٦).

قيل: هذا الحَشرُ بهذه الصِّفةِ يكونُ عند حَشْرِهم لدُخولِ النَّارِ. وممن قال بهذا: القرطبي، وابنُ القيم. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٥-٤٦).

وقال ابنُ جرير: (﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ يقولُ: ونَجمَعُهم بمَوقِفِ القِيامةِ مِن بَعدِ تَفَرُّقِهم في القُبورِ عندَ قيامِ السَّاعةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٢).

(١) رواه البخاري (٦٥٢٣)، ومسلم (٢٨٠٦) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٤، ٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧).

قال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرونَ: وذلك أنَّها تأكُلُهم، فإذا لم تُبقِ منهم شيئًا وصاروا فَحمًا ولم

كما قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٥-٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤- ٧٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما ذكَر اللهُ ما للكافرينَ مِن العذابِ؛ بَيَّنَ بهذه الآيةِ عِلَّةَ تَعذيبِهم؛ لِيَرجِعَ منهم مَن قضَى بسَعادتِه، فقال تعالى[1]:

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

أي: جزاءُ المُشرِكينَ بحَشرِهم على وُجوهِهم عُمْيًا وبُكمًا وصُمًّا، وإدخالِهم جهنَّمَ وزيادتِهم مِن عذابِها، هو بسَبَبِ كُفرِهم في الدُّنيا بحُجَجِنا وأدِلَّتِنا، ولم يَظلِمْهم اللهُ سُبحانَه، بل جازاهم بما يستَحِقُّونَ[2].

تجِدْ شَيئًا تأكُلُه، سكَنَت، فيُعادونَ خَلقًا جديدًا، فتعودُ لهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦).
قال القرطبي: (وسكونُ التهابِها مِنْ غيرِ نقصانٍ في آلامِهم، ولا تخفيفٍ عنهم مِنْ عَذابِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٦، ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي))

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾.

أي: وبسَبَبِ قَولِهم إنكارًا لوُقوعِ بَعْثِهم يومَ القيامةِ: أئِذا صِرْنا في قُبورِنا عِظامًا باليةً وتُرابًا، هل سيَبعَثُنا اللهُ بعدَ مَوتِنا خلقًا جديدًا[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧].

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ٩٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أجابَ اللهُ تعالى عن شُبُهاتِ مُنكِري النبُوَّةِ، عاد إلى حِكايةِ شُبهةِ مُنكِري الحَشرِ والنَّشرِ؛ ليُجيبَ عنها، وتلك الشُّبهةُ هي أنَّ الإنسانَ بعدَ أن يَصيرَ رُفاتًا ورَميمًا يَبعُدُ أن يَعودَ هو بعَينِه، وأجاب اللهُ عن ذلك[2]، فقال تعالى:

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾.

أي: أولَمْ يَنظُرْ هؤلاء المُنكِرونَ للبَعثِ فيَعلَموا أنَّ اللهَ الذي خلقَ السَّمَواتِ

(ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٢).

والأرضَ، وابتَدَعَها من العَدَمِ بقُدرتِه، على غيرِ مِثالٍ سابقٍ -وهي أعظَمُ منهم- قادِرٌ أيضًا على إعادةِ خَلقِهم بعدَ فَناءِ أجسادِهم؟! فالقادِرُ على خَلْقِ ما هو أكبَرُ وأعظَمُ منكم أقدَرُ على خَلْقِكم بلا شَكٍّ[١].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

وقال سُبحانَه: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ لِمَوتِ المُشرِكينَ وبَعْثِهم يومَ القيامةِ وَقتًا مُحَدَّدًا لا شَكَّ في مَجيئِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٠، ٢٢١).

قيل: المرادُ بالأجَلِ هنا: أجَلُ مَوتِهم في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى ذلك: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٤).

وقيل: المراد: أجَلُ وُقوعِ البَعثِ يومَ القيامةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣).

وممَّن جمع بين هذين المعنَيَينِ: الواحديُّ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٦٤٩).

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ۞ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾ [هود: ١٠٣، ١٠٤].

﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا﴾.

أي: فأبى المُشرِكونَ إلَّا جُحودًا وتَكذيبًا بوُقوعِ بَعثِهم يومَ القيامةِ، وجُحودًا لنِعمَتِه عليهم، وتَمادِيًا في عبادةِ غَيرِه؛ ظلمًا منهم، بعدَ قيامِ الحجَّةِ عليهم[(١)].

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الكُفَّارَ لَمَّا قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ طَلَبوا إجراءَ الأنهارِ والعُيونِ في بلدَتِهم؛ لِتَكثُرَ أموالُهم، وتَتَّسِعَ عليهم مَعيشَتُهم، فبَيَّنَ

قال ابن عطية: (الأجَلُ هنا يحتَمِلُ أن يريدَ به القيامةَ، ويحتَمِلُ أن يريدَ أجَلَ الموتِ... ومقصِدُ هذا الكلام: بيانُ قُدرةِ الله عزَّ وجَلَّ ومِلكِه لخَلقِه، وبتقريرِ ذلك يَقوى جوازُ بعثِه لهم حين يشاءُ لا إلهَ إلَّا هو). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٧).

قال ابن عاشور: (... ويجوزُ أن يكونَ الأجلُ أجَلَ الحياةِ، أي: وجعَلَ لحياتِهم أجلًا، فيكونُ استدلالًا ثانيًا على البعثِ، أي: ألم يرَوا أنَّه جعل لهم أجلًا لحياتِهم، فما أوجَدَهم وأحياهم وجعل لحياتِهم أجلًا إلَّا لأنَّه سيعيدُهم إلى حياةٍ أخرى وإلَّا لَما أفناهم بعد أن أحياهم؛ لأنَّ الحِكمةَ تقتضي أنَّ ما يوجِدُه الحكيمُ يحرِصُ على بقائِه وعدَمِ فَنائِه، فما كان هذا الفَناءُ الذي لا رَيبَ فيه إلَّا فَناءً عارضًا لاستقبال وجودٍ أعظَمَ مِن هذا الوجودِ وأبقى.

وعلى هذا الوجهِ فوَجهُ كَونِ هذا الجعلِ لهم ظاهِرٌ؛ لأنَّ الآجالَ آجالُهم. وكونُه لا ريبَ فيه أيضًا ظاهِرٌ؛ لأنَّهم لا يرتابون في أنَّ لحياتِهم آجالًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢١-٢٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٢).

اللهُ تعالى لهم أنَّهم لو مَلَكوا خزائِنَ رَحمةِ اللهِ لَبَقُوا على بُخلِهم وشُحِّهم، ولَمَا أقدَموا على إيصالِ النَّفعِ إلى أحَدٍ، وعلى هذا التَّقديرِ فلا فائدةَ في إسعافِهم بهذا المطلوبِ الذي التمَسوه(١).

وأيضًا فإنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد منحه اللهُ ما لم يمنَحْه لأحدٍ مِن النبُوَّةِ والرِّسالةِ إلى الإنسِ والجِنِّ، فهو أحرَصُ النَّاسِ على إيصالِ الخيرِ وإنقاذِهم مِن الضَّلالِ، وهؤلاء أقرباؤه لا يكادُ يُجيبُ منهم أحَدٌ إلَّا الواحِدُ بعد الواحِدِ، قد لجُّوا في عنادِه وبَغضائِه، فلا يَصِلُ منهم إليه إلَّا الأذى! فنبَّه تعالى بهذه الآيةِ على سماحتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وبَذلِه ما آتاه الله، وعلى امتِناعِ هؤلاء أن يصِلَ منهم شيءٌ مِن الخيرِ إليه، فقال: لو مَلَكوا التصَرُّفَ في خزائنِ رَحمةِ الله الَّتي هي وَسِعَت كلَّ شَيءٍ كانوا أبخَلَ مِن كلِّ أحدٍ بما أُوتوه من ذلك، بحيث لا يصِلُ منهم لأحدٍ شَيءٌ مِن النَّفعِ؛ إذ طبيعتُهم الإقتارُ، وهو الإمساكُ عن التوسُّعِ في النَّفَقةِ، هذا مع ما أُوتوه مِن الخزائِنِ، فهذه الآيةُ جاءت مُبيِّنةً تبيِّنُ ما بينهم وبينه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن حِرصِه على نَفعِهم، وعدَمِ إيصالِ شَيءٍ مِن الخيرِ منهم إليه(٢).

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: لو أنَّكم تَملِكونَ ما يَملِكُه اللهُ مِن خزائِنِ الرِّزقِ، إذَنْ لأمسَكْتُم عن أن تُعطُوا منها لأحَدٍ شَيئًا؛ خَشيةً مِن الإنفاقِ لشِدَّةِ بُخلِكم، وخَوفِكم مِن الفَقرِ لنَفادِ الخَزائِنِ، مع أنَّها لا تَنفَدُ أبدًا(٣)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن

كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣].

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾.

أي: وكان الإنسانُ بخيلًا مُمسِكًا مُضيِّقًا، قد طُبع على البخلِ والشُّحِّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۞ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

يجِبُ على الإنسانِ أن يعتَمِدَ على اللهِ سُبحانَه وتعالى في أدَبِ أولادِه وهِدايتِهم؛ فإنَّ اللهَ تعالى هو الهادي سُبحانَه وبِحَمدِه ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾، وعلى هذا فالذي يُنَظِّمُ نَسْلَه أو يُحَدِّدُه خَوفًا مِن عَدَمِ القُدرةِ على تأديبِهم، هو أيضًا مُسيءُ الظَّنِّ بِرَبِّه تبارك وتعالى، وإلَّا فاللهُ سُبحانَه وتعالى بيَدِه الأمورُ[(٢)].

كثير)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٧).

قال ابنُ عطيَّةَ: (يريدُ أنَّ في طَبعِه ومُنتهى نَظَرِه أنَّ الأشياءَ تَتناهى وتفنى، فهو لو مَلَك خزائِنَ رَحمةِ الله لأمسَكَ خَشيةَ الفَقرِ، وكذلك يظُنُّ أنَّ قُدرةَ اللهِ تعالى تَقِفُ دون البَعثِ، والأمرُ ليس كذلك، بل قُدرتُه تعالى لا تتناهى؛ فهو مُختَرِعٌ مِنَ الخَلقِ ما يشاء، ويختَرِعُ مِن الرَّحمةِ الأرزاقَ، فلا يخافُ نَفادَ خَزائِنِ رَحمتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٨).

وقال البقاعي: (فلا تراه إلا مضيقًا في النفقةِ على نفسِه، ومَن تلزمُه نفقتُه، شديدًا في ذلك، وإن اتسعَتْ أحوالُه، وزادتْ على الحدِّ أموالُه). ((نظم الدرر)) (١١/ ٥٢٠-٥٢١).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٦/ ١٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ فيه أنَّ المُنفَرِدَ بالهِدايةِ والإضلالِ هو اللهُ وَحْدَه؛ فمَن يَهْدِه فيُيَسِّرْه لليُسرى ويُجَنِّبْه العُسرى، فهو المُهتَدي على الحقيقةِ، ومن يُضلِلْه فيَخْذُلْه ويَكِلْه إلى نَفْسِه، فلا هادِيَ له مِن دُونِ اللهِ، وليس له وليٌّ يَنصُرُه مِن عذابِ اللهِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ هذه الآيَةُ الكريمةُ يَدُلُّ ظاهِرُها علَى أنَّ الكُفَّارَ يُبْعَثونَ يومَ القيامةِ عُمْيًا وبُكْمًا وصُمًّا.

وقدْ جاءتْ آياتٌ أُخَرُ تدلُّ علَى خلافِ ذلك، كقولِه تعالَى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وكقولِه: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، وكقولِه: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢].

والجوابُ عن هذا مِنْ أوجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: كونُ المرادِ مِمَّا ذُكِر حقيقتَه، ويكونُ ذلك في مبدَأِ الأمرِ، ثُمَّ يَرُدُّ اللَّهُ تعالَى إليهم أبصارَهم ونُطْقَهم وسَمْعَهم، فيرونَ النَّارَ، ويسمعونَ زَفيرَها، وينطِقُونَ بما حَكَى اللَّهُ تعالَى عنهم في غيرِ موضِعٍ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّهم لا يرونَ شيئًا يَسُرُّهم، ولا يسمعونَ كذلك، ولا يَنْطِقونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٨٣).

بِحُجَّةٍ، كما أَنَّهم كانوا في الدُّنْيا لا يَسْتَبْصِرونَ، ولا يَنْطِقونَ بالحقِّ، ولا يَسْمَعونَه، فنُزِّلَ ما يَقولونَه ويَسْمَعونَه ويُبْصِرونَه منزلَةَ العَدَمِ؛ لعَدَمِ الانتفاعِ به.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ اللَّهَ إذا قال لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وَقَع بهم ذاك العمَى والصُّمُّ والبَكَمُ مِنْ شِدَّةِ الكربِ واليأْسِ مِنَ الفرجِ، قال تعالَى: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥] وعلى هذا القولِ تكونُ الأحوالُ الثَّلاثةُ مُقَدَّرَةً(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ المقصودُ مِن ذلك الجَمعُ بينَ التَّشويهِ والتَّعذيبِ؛ لأنَّ الوَجهَ أرَقُّ تحمُّلًا لصَلابةِ الأرضِ مِن الرِّجلِ، وهذا جزاءٌ مُناسِبٌ للجُرمِ؛ لأنَّهم رَوَّجوا الضَّلالةَ في صُورةِ الحَقِّ، ووَسَموا الحَقَّ بسِماتِ الضَّلالِ، فكان جزاؤُهم أنْ حُوِّلَت وُجوهُهم أعضاءَ مَشيٍ عِوَضًا عن الأرجُلِ، ثمَّ كانوا عُميًا جزاءَ تَعاميهم عن رؤيةِ الحقِّ، وبُكمًا جزاءَ أقوالِهم الباطلةِ على الرَّسولِ وعلى القُرآنِ، وصُمًّا جزاءَ امتِناعِهم مِن سَماعِ الحَقِّ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ أخبَرَ تعالى أنَّ الضَّالِّينَ في الدُّنيا يُحشَرونَ يومَ القيامةِ عُميًا وبُكمًا وصُمًّا؛ فإنَّ الجزاءَ أبدًا مِن جِنسِ العَمَلِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٥-١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٧٥).

٦- إنْ قيلَ: كيف نجمَعُ بينَ قَولِ اللهِ تعالى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾، وقولِه: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [البقرة: ٨٦]؟

فالجوابُ من وجوهٍ:

الوجه الأول: أنَّ ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ يقتضي سكونَ لهَبِ النَّارِ، ولا يدُلُّ هذا على أنَّه يخِفُّ العذابُ في ذلك الوقتِ[(١)].

الوجه الثاني: أنَّ الكَفَرةَ وَقودٌ للنَّارِ، كما قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] فإذا أحرقَتْهم النَّارُ زال اللهَبُ الذي كان متصاعِدًا من أجسامِهم، فلا يلبَثون أن يُعادوا كما كانوا، فيعود الالتِهابُ لهم، فالخَبْوُ وازديادُ الاشتِعالِ بالنِّسبةِ إلى أجسادِهم لا في أصلِ نارِ جهنَّمَ[(٢)].

الوجه الثالث: أنَّ معنى الآيةِ جارٍ على طريقِ التهَكُّمِ وبادئِ الإطماعِ المُسفِرِ عن خيبةٍ؛ لأنَّه جعل ازديادَ السَّعيرِ مُقترِنًا بكلِّ زمانٍ مِن أزمنةِ الخَبْوِ، كما تفيدُه كَلِمةُ (كلَّما) التي هي بمعنى: كلَّ زمان، وهذا في ظاهرِه إطماعٌ بحُصولِ خَبوٍ لورودِ لَفظِ الخَبوِ في الظَّاهِرِ، ولكنَّه يؤولُ إلى يأسٍ منه؛ إذ يدُلُّ على دوامِ سعيرِها في كُلِّ الأزمانِ؛ لاقترانِ ازديادِ سَعيرِها بكلِّ أزمانِ خَبْوِها[(٣)].

الوجه الرابع: أنَّ المعنى: إذا أرادتْ أن تخبوَ، كقولِه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[(٤)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يدُلُّ على أنَّ العَمَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٧-٢١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٤).

عِلَّةُ الجَزاءِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾ دَليلٌ على أنَّ الشَّاهِدَ يُستدَلُّ به على الغائِبِ، ويكونُ حَقًّا[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾ حُجَّةٌ في الاستِشهادِ ببَعضِ الحَقِّ على بَعضٍ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾ دَليلٌ على أنَّ أحَدًا لا يَلزمُه حُجَّةٌ فيما يُخاطَبُ إلَّا مِن حيثُ يَعقِلُها ويَفهَمُها[٤].

١١- طريقةُ القُرآنِ في خِطابِ الإنسانِ مِن حَيثُ هو إنسانٌ تَتَناوَلُ الذَّمَّ له مِن حَيثُ هو إنسانٌ، كقَولِه: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦]، ونظائِرُه كثيرةٌ؛ فالإنسانُ مِن حَيثُ هو، عارٍ عن كُلِّ خَيرٍ مِن العِلمِ النَّافِعِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، وإنَّما اللهُ سُبحانَه هو الذي يُكَمِّلُه بذلك، ويُعطيه إيَّاه، وليس له ذلك مِن نَفْسِه، بل ليس له مِن نَفْسِه إلَّا الجَهلُ المُضادُّ للعِلمِ، والظُّلمُ المُضادُّ للعَدلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وكُلُّ عِلمٍ وعَدلٍ وخَيرٍ فيه، فمِنْ رَبِّه سُبحانَه لا مِن نَفْسِه[١]. فالله تعالى في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ يَصِفُ الإنسانَ مِن حيثُ هو، إلَّا مَن وَفَّقَه اللهُ وهداه؛ فإنَّ البُخلَ والجَزَع والهَلَع صِفةٌ له[٢].

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ يدُلُّ هذا على كَرَمِه وجُودِه وإحسانِه، وقد جاء في الصَّحيحَينِ[٣]: ((يدُ اللهِ مَلأى لا يَغيضُها[٤] نفقةٌ، سَحَّاءُ[٥] اللَّيلَ والنَّهارَ، أرأيتُم ما أنفقَ مُنذُ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ؛ فإنَّه لم يَغِضْ ما في يَمينِه))[٦].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ يجوزُ أن تكون الجُملةُ معطوفةً على جُملة ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ جمعًا بين المانعِ الظاهرِ المعتادِ مِن الهُدَى، وبينَ المانِعِ الحقيقيِّ، وهو حِرمانُ التوفيقِ مِن اللهِ تعالى؛ فمَن أصَرَّ على الكُفرِ مع وُضوحِ الدَّليل لذوي العقولِ؛ فذلك لأنَّ اللهَ تعالى لم يُوفِّقْه. ويجوزُ أن تكون الجُملةُ معطوفةً على جُملة ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾؛ ارتقاءً في التَّسليةِ، أي: لا يَحزُنك عدمُ اهتدائهم؛ فإنَّ اللهَ حرَمَهم الاهتداءَ لَمَّا أخَذوا

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٩٢)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤).
(٣) البخاري (٧٤١١) واللفظ له، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة.
(٤) يَغيضُها: أي: يَنقُصُها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٠١).
(٥) سَحَّاءُ: أي: دائِمةُ الصَّبِّ والعطاءِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٤٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤).

بالعِنادِ قبلَ التدبُّر في حقيقةِ الرِّسالةِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾ إخبارٌ من اللهِ تَعالى، وليس مُندرِجًا تحت ﴿قُلۡ﴾؛ لقولِه ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ﴾، ويحتمِلُ أنْ يكونَ مُندرِجًا؛ لمجِيءِ ﴿وَمَن﴾ بالواوِ، ويكونُ ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ﴾ إخبارًا من اللهِ تَعالى. وعلى القولِ الأوَّلِ يكونُ التِفاتًا؛ إذ خرَجَ من الغَيبةِ للتَّكلُّمِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلۡمُهۡتَدِ﴾ تعريفُ العهْدِ الذِّهنيِّ؛ فالمُعرَّفُ مُساوٍ للنَّكرةِ، فكأنَّه قيل: فهو مُهتدٍ، وفائدةُ الإخبارِ عنه بأنَّه مُهتدٍ: التَّوطئةُ إلى ذكْرِ مُقابِلِه، وهو ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، كما يُقال: مَن عرَفَني فقد عرَفَني، ومَن لم يعْرِفني فأنا فلانٌ. ويجوزُ أنْ تجعَلَ التَّعريفَ في قولِه: ﴿ٱلۡمُهۡتَدِ﴾ تعريفَ الجنْسِ؛ فيُفيدُ قصْرَ الهدايةِ على الَّذي هَداهُ اللهُ قصْرًا إضافيًّا، أي: دونَ مَن تريدُ أنت هداهُ، وأضَلَّه اللهُ. ولا يحتملُ أنْ يكونَ المعنى على القصْرِ الادِّعائيِّ الَّذي هو بمعنى الكَمالِ؛ لأنَّ الهُدى المُرادُ هنا هُدًى واحدٌ، وهو الهُدى إلى الإيمانِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾ حُمِلَ على لفظِ (مَن) فأُفْرِدَ؛ مُلاحظةً لسَبيلِ الهُدى وهي واحدةٌ، فناسبَ التَّوحيدُ التَّوحيدَ، وحُمِلَ على المعنى في قولِه: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ لا على اللَّفظِ فجُمِعَ؛ مُلاحظةً لسَبيلِ الضَّلالِ؛ فإنَّها مُتشعِّبةٌ مُتعدِّدةٌ، فناسبَ التَّشعيبُ والتَّعديدُ الجمْعَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٦).

- وقولُه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ التِفاتٌ من الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ؛ إيذانًا بكَمالِ الاعتناءِ بأمْرِ الحشرِ[(١)].

- وقَولُه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ لَمَّا كان المَقامُ للانتِقالِ مِن مَقامٍ إلى آخَرَ، قدَّمَ البصَرَ؛ لأنَّه العُمدةُ في ذلك، وثنَّى بالنُّطقِ؛ لأنَّه يُمكِّنُ الأعمى الاسترشادَ، وخَتَم بالسَّمعِ؛ لأنَّه يُمكِنُ معه وَحْدَه نَوعُ رَشادٍ. وعَطْفُها بالواوِ إن كان لِتَشريكِ الكُلِّ في كُلٍّ مِن الأوصافِ، فللتَّهويلِ؛ لأنَّ المُتكَلِّمَ إذا نطَقَ بالعاطفِ ظَنَّ السَّامِعُ الانتقالَ إلى شَيءٍ آخَرَ، فإذا أتى بالوَصفِ كان أروَعَ؛ للعِلمِ بأنَّ صاحِبَه عَريقٌ فيه، وإن كان للتَّنويعِ، فلتَصويرِهم بأقبَحِ صُورةٍ مِن حيثُ إنَّه لا ينتَفِعُ فَريقٌ منهم بالآخَرِ كبيرَ نَفعٍ[(٢)].

- قولُه: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ السَّعيرُ: لهَبُ النَّارِ، وهو مُشتقٌّ مِن سَعْرِ النَّارِ؛ إذا هُيِّجَ وَقودُها، وقد جَرى الوصفُ فيه على التَّذكيرِ تَبعًا لتذكيرِ اللَّهبِ، والمعنى: زِدْناهم لَهبًا فيها[(٣)]. والخبْوُ وازديادُ الاشتعالِ بالنِّسبةِ إلى أجسادِهم لا في أصْلِ نارِ جهنَّمَ، ولهذه النُّكتةِ سُلِّطَ فعْلُ ﴿زِدْنَـٰهُمْ﴾ على ضَميرِ المُشركينَ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ازديادَ السَّعيرِ كان فيهم، فكأنَّه قيل: كلَّما خبَتْ فيهم زِدْناهم سعيرًا، ولم يقُلْ: زِدْناها سعيرًا[(٤)].

٢- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ العقابَ الفظيعَ المَحكيَّ يُثيرُ في نُفوسِ السَّامعينَ السُّؤالَ عن سبَبِ تركُّبِ هذه الهيئةِ من تلك الصُّورةِ المُفظعةِ، فالجوابُ بأنَّ ذلك بسبَبِ الكُفرِ بالآياتِ، وإنكارِ المعادِ(١).

- والاستفهامُ في حكايةِ قولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ وقولِه: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ إنكاريٌّ(٢)، ونَصَّ على إنكارِ البعثِ؛ إذ هو طعنٌ في القُدرةِ الإلهيَّةِ، وهذا مع اعترافِهم بأنَّه تعالى مُنشِئُ العالمِ ومُخترعُه، ثمَّ إنَّهم يُنكرونَ الإعادةَ، فصار ذلك تَعجيزًا لقُدرتِه(٣).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث قال عَزَّ وجَلَّ هنا: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وقال في سُورةِ (الكهفِ): ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٦]؛ ففي هذه الآيةِ (جهنَّم)، ولم تَرِدْ في الأُولى مع وَحدةِ المعنى؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ قولَه في الأُولى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ إلى ما اتَّصلَ به من قولِه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، ثمَّ قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾، والإشارةُ إلى ضُروبِ عِقابِهم ومأْواهم، واسمُ الإشارةِ مُتَّصلٌ بما أُشيرَ بعدُ إليه، لم يُفْصَلْ بينهما إلَّا بوصفِ جهنَّمَ الَّتي هي مأواهم؛ فجاء على ما يُناسِبُ. أمَّا قولُه في الثَّانيةِ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾؛ فالإشارةُ إلى جهنَّمَ المُتقدِّمِ ذكْرُها في قولِه: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ﴾ [الكهف: ١٠٠]، وقولِه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ [الكهف: ١٠٢]، لَمَّا بعُدَ ما بين اسمِ الإشارةِ والمُشارِ إليه بما فُصِلَ به بينهما؛ فلبُعدِ اسمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٦).

الإشارةِ عمَّا أُشيرَ به إليه أُعيدَ مُظهَرًا فقيلَ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمُ جَهَنَّمُ﴾ [الكهف: ١٠٦][(١)]. وقيل: اكْتفى هنا في سُورةِ (الإسراءِ) بالإشارةِ، ولتقدُّمِ ذكْرِ جهنَّمَ، وهي -وإنْ تقدَّمَت في (الكهفِ)- لم يكتَفِ بالإشارةِ، بل جمَعَ بينها وبين العبارةِ؛ لاقترانِ الوعيدِ بالوعدِ بالجنَّاتِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]؛ ليكونَ الوعدُ والوعيدُ ظاهريْنِ للمُستمعينَ[(٢)].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلًا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ ...﴾ استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ لهم على ما كانوا يَسْتبعِدونه من الإعادةِ، واحتجاجٌ عليهم بأنَّهم قد رأَوْا قُدرةَ اللهِ على خلْقِ هذه الأجرامِ العظيمةِ الَّتي بعضُ ما تَحويه البشَرُ؛ فكيف يُقِرُّون بخلْقِ هذا المخلوقِ العظيمِ، ثمَّ يُنكِرون إعادةَ بعضٍ ممَّا خُلِقَ؟! وذلك ممَّا لا يُحيلُه العقْلُ، بلْ هو ممَّا يُجوِّزُه[(٣)]. وهذا الاستفهامُ إنكاريٌّ مَشوبٌ بتعجيبٍ من انتفاءِ علْمِهم؛ لأنَّهم لمَّا جَرَت عقائدُهم على استبعادِ البعثِ، كانوا بحالِ مَن لم تظهَرْ له دلائلُ قُدرةِ اللهِ تَعالى، فيَؤُولُ الكلامُ إلى إثباتِ أنَّهم عَلِموا ذلك في نفْسِ الأمرِ[(٤)].

- وجُملةُ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ﴾ [الإسراء: ٩٨]

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٠).

باعتبارِ ما تضمَّنَتْه الجُملةُ المعطوفُ عليها من الرَّدعِ عن قولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ [الإسراء: ٩٨]؛ فبعْدَ زَجْرِهم عن إنكارِهم البعثَ بأُسلوبِ التَّهديدِ، عُطِفَ عليه إبطالُ اعتقادِهم بطريقِ الاستدلالِ بقياسِ التَّمثيلِ في الإمكانِ، وهو كافٍ في إقناعِهم هنا؛ لأنَّهم إنَّما أنْكَروا البعثَ باعتقادِ استحالتِه، كما أفصَحَ عنه حكايةُ كلامِهم بالاستفهامِ الإنكاريِّ، وإحالتُهم ذلك مُستنِدةٌ إلى أنَّهم صاروا عِظامًا ورُفاتًا، أي: بتعذُّرِ إعادةِ خلْقِ أمثالِ تلك الأجزاءِ، ولم يَستدِلُّوا بدليلٍ آخرَ، فكان تَمثيلُ خلْقِ أجسامٍ من أجزاءٍ باليةٍ بخلْقِ أشياءَ أعظَمَ منها من عدَمٍ أوغَلَ في الفناءِ: دليلًا يقطَعُ دَعواهم[(١)].

- قولُه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وصْفُ اسمِ الجلالةِ بالموصولِ؛ للإيماءِ إلى وجْهِ بِناءِ الخبَرِ، وهو الإنكارُ عليهم؛ لأنَّ خَلْقَ السَّمواتِ والأرضِ أمرٌ مُشاهَدٌ معلومٌ، وكونُه مِن فِعْلِ اللهِ لا يُنازِعونَ فيه[(٢)].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ على قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾؛ لأنَّ المعنى: قد عَلِموا بدليلِ العقلِ أنَّ مَن قدَرَ على خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، فهو قادرٌ على خلْقِ أمثالِهم مِن الإنسِ؛ لأنَّهم ليسوا بأشدَّ خلْقًا منهنَّ، كما قال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧]، ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو الموتُ أو القيامةُ، فأبَوا مع وُضوحِ الدَّليلِ إلَّا جُحودًا[(٣)].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ وجْهُ كونِ هذا الجَعلِ لهم: أنَّهم داخِلونَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢١).

ذلك الأجَلِ؛ لأنَّهم من جُملةِ مَن يُبْعَثُ حينئذٍ؛ فتَخصيصُهم بالذِّكرِ لأنَّهم الَّذين أنْكَروا البعثَ[١]. وتضمَّنَ قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ تعريضًا بالمِنَّة بنِعْمةِ الإمهالِ، وتَعريضًا بالتَّذكيرِ بإفاضةِ الأرزاقِ عليهم في مُدَّةِ الأجلِ؛ لأنَّ في ذكْرِ خلْقِ السَّماءِ والأرضِ تذكيرًا بما تَحْتويه السَّمواتُ والأرضُ من الأرزاقِ وأسبابِها[٢].

- وجُملةُ ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ تَفريعٌ على الجُملتينِ باعتبارِ ما تضمَّنتاهُ من الإنكارِ والتَّعجيبِ، أي: عَلِموا أنَّ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ قادرٌ على إعادةِ الأجسامِ، ومع علْمِهم أبَوا إلَّا كُفورًا؛ فالتَّفريعُ من تَمامِ الإنكارِ عليهم، والتَّعجيبِ من حالِهم[٣].

- واستثناءُ الكُفورِ من الإبايةِ تأكيدٌ للشَّيءِ بما يُشْبِهُ ضِدَّه[٤].

- وفي قولِه: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وُضِعَ الظَّاهرُ موضعَ الضَّميرِ، حيث لم يقُلْ: فأبَوا؛ تَسجيلًا عليهم بالظُّلمِ، وتجاوُزِ الحدِّ بالمرَّةِ[٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾

- قولُه: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ﴾ ﴿أَنتُمْ﴾ مَرفوعٌ بفعلٍ يُفسِّرُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٧).

ما بعدَه؛ لأنَّ (لو) لا يَليها إلَّا الفعلُ ظاهرًا أو مُضمرًا، والأصلُ: لو تَملِكون، فحُذِفَ الفعلُ؛ لدلالةِ ما بعدَه عليه، فانفصَلَ الضَّميرُ، وهو الواوُ؛ إذ لا يُمكِنُ بقاؤُه مُتَّصِلًا بعدَ حَذْفِ رافِعِه، وفائدةُ هذا الحذفِ والتَّفسيرِ: المُبالغةُ مع الإيجازِ، والدَّلالةُ على الاختصاصِ[(١)].

- واختيرَ الفعلُ المُضارعُ ﴿تَمۡلِكُونَ﴾؛ لأنَّ المقصودَ فرْضُ أنْ يَمْلِكوا ذلك في المُستقبلِ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ اعتراضٌ ناشئٌ عن بعْضِ مُقترحاتِهم الَّتي تَوهَّموا عدَمَ حُصولِها دليلًا على انتفاءِ إرسالِ بَشيرٍ؛ فالكلامُ استئنافٌ لتَكملةِ رَدِّ شُبهاتِهم. وهذا رَدٌّ لِما تضمَّنَه قولُهم: ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ إلى قولِه: ﴿تَفۡجِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩١]، وقولِهم: ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣] مِن تعذُّرِ حُصولِ ذلك لعظيمِ قِيمَتِه، وأُدْمِجَ في هذا الرَّدِّ بيانُ ما فيهم من البُخلِ عن الإنفاقِ في سبيلِ الخيرِ، وأُدْمِجَ في ذلك أيضًا تذكيرُهم بأنَّ اللهَ أعطاهم من خَزائنِ رحمَتِه، فكَفروا نِعْمتَه، وشَكروا الأصنامَ الَّتي لا نِعمةَ لها[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٤١٦)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٢٢-٢٢٣).

الآيات (١٠١-١٠٤)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَصَآئِرَ﴾: أي: حُجَجًا، وبَراهِينَ واضِحةً تقودُ إلى العِلمِ والحَقِّ، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على وُضوحِ الشَّيءِ، وظهورِه، وبيانِه[١].

﴿مَثْبُورًا﴾: أي: مُهلَكًا، وأصلُ (ثبر): يدُلُّ على هَلاكٍ[٢].

﴿يَسْتَفِزَّهُم﴾: أي: يُزعجَهم، أو يستخفَّهم حتى يَخْرجوا، وأصلُ (فزز): يدلُّ على خِفَّةٍ وما قاربَها[٣].

﴿لَفِيفًا﴾: أي: جَميعًا، وأصلُ (لفف): يَدُلُّ على تَلَوِّي شَيءٍ على شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٩٦)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٣)، ((تذكرة

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى أنَّه قد أعطَى موسَى عليه السلامُ مِن المعجزاتِ ما يشهدُ بصدقِه، ولكنَّ فرعونَ وأتباعَه لم تزِدْهم تلك المعجزاتُ إلا كفرًا وعنادًا، فيقولُ تعالى: ولقد آتَينا موسى تِسعَ مُعجِزاتٍ واضِحاتٍ تُبيِّنُ صِدْقَ نُبُوَّتِه، فاسألْ -يا مُحَمَّدُ- اليَهودَ حين جاءهم مُوسى بمُعجِزاتِه الواضِحاتِ، فقال له فِرعونُ: إنِّي لأظُنُّك -يا موسى- قد سُحِرتَ وغُلِبتَ على عَقلِك، فأنت تهذي بكَلامٍ مختَلٍّ.

فقال له موسى: لقد تيقَّنتَ -يا فِرعونُ- أنَّه ما أنزَلَ تلك المُعجِزاتِ التِّسعَ إلَّا رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ؛ لِتكونَ حُجَجًا واضِحةً على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، وإنِّي لأظُنُّك -يا فِرعونُ- هالِكًا مَغلوبًا، فأراد فِرعونُ أن يُخرِجَ بني إسرائيلَ مِن الأرض، فأغرَقْناه وجنودَه أجمعينَ، وقُلْنا لبني إسرائيلَ مِن بَعدِ هلاكِ فِرعونَ وجُندِه: اسكُنوا الأرضَ، فإذا جاء يومُ القيامةِ جِئْنا بكم جَميعًا مِن قُبورِكم إلى مَوقِفِ القيامةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

وجهُ اتِّصالِ هذه الآيةِ بما قبلَها أنَّ المعجزاتِ المذكورةَ كأنَّها مساوِيَةٌ لتلك الأمورِ الَّتي اقْتَرَحها كفَّارُ قُريشٍ، بلْ أقوَى منها، فليسَ عدمُ الاستجابَةِ لما طَلَبوه

الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٩).

مِنَ الآياتِ إلَّا لعدمِ المصلحةِ في استئصالِهم إنْ لم يُؤْمِنوا بها[١].

وأيضًا لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن قُرَيشٍ ما حكى مِن تعَنُّتِهم في اقتراحِهم وعِنادِهم للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، سلَّاه تعالى بما جرى لِموسى مع فِرعَونَ ومع قَومِه، وسَكَّنَ قَلْبَه، ونبَّه على أنَّ عاقِبَتَهم الدَّمارُ والهلاكُ، كما جرى لفِرعونَ إذ أهلَكَه اللهُ ومَن معه[٢].

وأيضًا فإنَّه قد بَقِيَ قَولُ الكافرينَ: ﴿ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا ﴾ [الإسراء: ٩٢] غيرَ مَردودٍ عليهم؛ لأنَّ له مُخالفةً لبَقيَّةِ ما اقتَرَحوه بأنَّه اقتِراحُ آيةِ عَذابٍ ورُعبٍ، فهو مِن قَبيلِ آياتِ مُوسى -عليه السَّلامُ- التِّسعِ، فكان ذِكرُ ما آتاه اللهُ موسى مِن الآياتِ، وعَدَمِ إجداءِ ذلك في فِرعَونَ وقَومِه تَنظيرًا لِما سألَه المُشرِكونَ، ففي هذا مَثَلٌ للمُعانِدينَ وتسليةٌ للرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم[٣].

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ ﴾.

أي: ولقد آتَينا موسَى تِسعَ مُعجِزاتٍ واضِحاتٍ، ودلائِلَ قاطِعاتٍ، تُبَيِّنُ صِدْقَه، وصِحَّةَ نُبُوَّتِه؛ فلم يُؤمِنْ فرعونُ ولا قومُه برسالةِ موسى، معَ كثرةِ هذه المعجزاتِ التي أُوتِيَها، ووضُوحِها، فكذلك لو أجَبْنا هؤلاء الذين سألوك -يا مُحَمَّدُ- تلك الآياتِ المقترحةَ لما استجابوا ولا آمنوا إلَّا أن يشاءَ الله، فلَسْتَ

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٩).

قال الواحدي: (وجهُ اتصالِ معنى هذه الآيةِ بما قبلَها: أنَّه ذكَر في هذه الآيةِ إنكارَ فرعونَ آياتِ موسى مع وضوحِها، فيكونُ في ذلك تشبيهٌ لحالِ هؤلاء المشركينَ بحالِه، وتسليةٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((البسيط)) (١٣/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٤).

بأوَّلِ رَسولٍ كذَّبَه النَّاسُ، رغمَ تأييدِه بالمعجزاتِ[١]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤-١٢٥)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٤، ٢٢٥).

قال ابن عطية: (قَولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ اتَّفَق المتأوِّلونَ والرُّواةُ أنَّ الآياتِ الخَمسَ التي في سورةِ الأعرافِ هي مِن هذه التِّسعِ، وهي: الطُّوفانُ، والجَرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ، واختلفوا في الأربَعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٨).

قال الشوكاني: (قال أَكثرُ المفسرينَ: الآياتُ التِّسعُ: هي الطُّوفانُ، والجرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ، والعصا، واليدُ، والسِّنينَ، ونقصُ الثَّمَراتِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١١).

وقال ابنُ كثير: (يخبِرُ تعالى أنَّه بعَث موسى بتِسعِ آياتٍ بيِّناتٍ، وهي الدَّلائِلُ القاطِعةُ على صِحَّةِ نُبُوَّتِه وصِدقِه فيما أخبَرَ به عمَّن أرسَلَه إلى فِرعونَ، وهي: العصا، واليَدُ، والسِّنونَ، والبَحرُ، والطُّوفانُ، والجرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ؛ آياتٌ مُفَصَّلاتٌ. قاله ابنُ عباس. وقال محمدُ ابنُ كعبٍ: هي اليدُ، والعصا، والخمسُ في الأعرافِ، والطمسةُ والحجرُ. وقال ابنُ عباسٍ أيضًا، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والشعبيُّ، وقتادةُ: هي يدُه، وعصاه، والسِّنين، ونقصُ الثمراتِ، والطوفانُ، والجرادُ، والقمَّلُ، والضفادعُ، والدمُ. وهذا القولُ ظاهرٌ جليٌّ، حسنٌ قويٌّ. وجعَل الحسنُ البصريُّ «السنينَ ونقصَ الثمراتِ» واحدةً، وعندَه أنَّ التاسعةَ هي: تلقفُ العصا ما يَأْفِكون... فهذه الآياتُ التِّسعُ التي ذكَرَها هؤلاء الأئمَّةُ، هي المرادةُ هاهنا، وهي المَعنيَّةُ في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [النمل: ١٠ - ١٢] فذَكَرَ هاتينِ الآيتَينِ: العصا واليَدَ، وبيَّنَ الآياتِ الباقياتِ في «سورة الأعراف» وفصَّلَها. وقد أُوتيَ موسى عليه السَّلامُ آياتٍ أُخَرَ كثيرةً، منها: ضَرْبُه الحَجَرَ بالعصا، وخروجُ الأنهارِ منه، ومنها تظليلُهم بالغَمامِ، وإنزالُ المَنِّ والسَّلوى، وغيرُ ذلك ممَّا أُوتيه بنو إسرائيلَ بعد مُفارقتِهم بلادَ مِصرَ، ولكِنْ ذَكَر هاهنا التِّسعَ الآياتِ التي شاهَدَها فِرعَونُ وقَومُه مِن أهلِ مِصرَ، وكانت حُجَّةً عليهم، فخالفوها وعانَدوها كُفرًا وجُحودًا).

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٠ - ١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾.

أي: فاسألْ -يا مُحمَّدُ- اليَهودَ المُعاصِرينَ لك حينَ جاءهم مُوسَى بالهُدى والآياتِ البَيِّناتِ(١).

((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤-١٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٢).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالمسؤولينَ مِن اليهودِ المعاصرينَ لمحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلم: الذين أسلَموا منهم، كعبد اللهِ بنِ سَلامٍ رَضِيَ الله عنه: ابنُ الجوزي، وابنُ عطية، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٢).

وذكر ابن عطية قولًا آخرَ في بيانِ المعنَى: (﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ يريدُ آباءَهم، وأدخَلهم في الضميرِ؛ إذ هم منهم. ويَحتَمِلُ أن يريدَ: فاسألْ بني إسرائيلَ الأوَّلينَ الذين جاءَهم موسى، وتكونُ إحالتُه إيَّاه على سُؤالِهم بطَلَبِ أخبارِهم، والنَّظَرِ في أحوالِهم وما في كُتُبِهم، نحوُ قَولِه تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥]). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٨، ٤٨٩).

﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾.

أي: فقال فرعَونُ لِمُوسى عليه السَّلامُ عِنادًا ومُكابَرةً: إنِّي لأظُنُّك[(١)] -يا موسى- قد سُحِرتَ فتأثَّرَ عقلُك وفَسَدَ، وصِرْتَ تَهذِي، وتأتي بكَلامٍ مُختَلٍّ[(٢)].

وقال الرسعني: (المعنى: اسْأَلْهم عن الآياتِ؛ ليزدادوا طُمأنينةً ويقينًا، وليظهرَ لعامةِ اليهودِ بقولِ علمائِهم صدقُ ما أتيتَ به، فيكونَ حُجَّة عليهم.

وقوله: ﴿إِذۡ جَآءَهُمۡ﴾ متعلقٌ بـ﴿ءَاتَيۡنَا﴾، أو بإضمارِ «اذكُر»، على معنى: «إذ جاءهم».

وقيل: المعنى: ولقد آتينا موسى تسعَ آياتٍ بيِّناتٍ، فقُلْنا له: اسألْ بني إسرائيل، أي: سلْهم مِن فرعَون ليرسِلَهم معك، [واسْأَلْهم] عن إيمانِهم وحالِ دينِهم، وهل هم على ما كان عليه آباؤُهم الكرامُ مِن دين التوحيدِ، أو غيَّرهم الأمَّةُ الباغيةُ والدولةُ الطاغيةُ. أو يكون المعنى: سَلْ بني إسرائيل المعاضَدةَ والمناصَرةَ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٢٧).

(١) قال ابنُ عاشور: (وكأنَّ فِرعَونَ تعَلَّقَ ظَنُّه بحَقيقةِ ما أظهَرَ مِن الآياتِ، فرَجَحَ عنده أنَّها سِحرٌ، أو تعَلَّقَ ظَنُّه بحَقيقةِ حالِ موسى فرجَحَ عنده أنَّه أصابه سِحرٌ؛ لأنَّ الظَّنَّ دُونَ اليقينِ؛ قال تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]. وقد يُستعمَلُ الظَّنُّ بمعنى العِلمِ اليَقينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٠)، ((اللباب)) لابن عادل (١٢/ ٤٠١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٣٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٦).

وممَّن قال بأنَّ ﴿مَسۡحُورٗا﴾ على ظاهِرِها- أي: أنَّه مُتأثِّرٌ بالسِّحرِ، فاختلط عَقلُه وصار يَهذي: مقاتِلُ بن سليمان، والزمخشريُّ، وابنُ عطية، وابنُ جزي، وأبو حيان، وابنُ عادل الحنبلي، والسيوطي، وأبو السعود، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ السائب. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧).

وقيل: ﴿مَسۡحُورٗا﴾ هنا: اسمُ مَفعولٍ بمعنى فاعلٍ، أي: ساحِرٌ، مثلُ مَشؤوم ومَيمون. أي: فقال فِرعونُ لموسى: إنِّي لأظنُّك -يا موسى- ساحِرًا؛ ولذلك تأتي بالأفعالِ الغَريبةِ. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦]. وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ۞ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ

كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمْتَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿عَلِمْتُ﴾ بضَمِّ التاءِ: على معنى إخبارِ موسى عن نَفسِه بأنَّه عالِمٌ بذلك[١].

٢- قِراءةُ ﴿عَلِمْتَ﴾ بفَتحِ التَّاءِ: على معنى إخبارِ موسى عن فِرعَونَ بأنَّه عالِمٌ بذلك[٢].

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾.

أي: قال موسى لِفرعَونَ: لقد استيقنْتَ -يا فِرعَونُ- أنَّ هذه الآياتِ التِّسْعَ ما أنزَلَها إلَّا اللهُ ربُّ السَّمَواتِ والأرضِ، الذي لا يَقدِرُ على الإتيانِ بها أحَدٌ سِواه؛ أنزَلَها حُجَجًا واضِحةً تدلُّ النَّاسَ على قُدرةِ اللهِ ووحدانيَّتِه، وصِدْقِ رِسالتي[٣].

وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣- ٢٤]. وذهب إليه الواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٦).

(١) قرأ بها الكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٢١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٠١-١٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤١١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٢١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٠١-١٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٠٦- ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٦)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٢- ١٤].

﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾.

أي: وإنِّي لأظُنُّك -يا فِرعَونُ- هالِكًا[١].

﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: فأراد فِرعَونُ أن يُخرِجَ بني إسرائيلَ مِن الأرضِ[٢] بالقَتلِ، أو بالطَّردِ والإبعادِ منها[٣].

ابن كثير)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٦، ٢٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

(٢) قيل: المرادُ بها أرضُ مصرَ. وممن ذهب إلى ذلك: الواحدي، وابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٨).

قال ابنُ عطية: (متى ذُكِرَت الأرض عمومًا فإنما يُرَاد بها ما يُناسِب القصَّة المتكلَّم فيها، وقد يحسُن عمومُها في بعض القصص). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩٠).

وقيل: يعني بالأرضِ: مصرَ وفلسطينَ والأردنَّ. وممن قال بهذا: الماوردي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٧٨).

وقال القاسمي: (و﴿الْأَرْضِ﴾ أرض مصرَ. أو: الأرض التي أذِن لهم بالمسيرِ إليها، وسُكناها، وهي فلسطينُ). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥١٩-٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن

﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾.

أي: فأغرَقْنا فِرعَونَ في البَحرِ ومَن مَعَه مِن الجُنودِ أجمَعينَ[(١)].

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾.

أي: وقُلْنا -لبني إسرائيلَ- مِن بَعدِ هَلاكِ فِرعَونَ[(٢)]: اسكُنوا الأرضَ[(٣)].

عطية)) (٣/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٨).

(٢) ممن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٢٠).

وذهب بعضُ المعاصرين إلى أنَّ المرادَ: من بعد موسى عليه السلام. يُنظر: ((الأساس في التفسير)) لسعيد حوى (٦/ ٣٠٤٤)، ((تفسير الشعراوي)) (١٤/ ٨٣٦٦).

قال مقاتل: (﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ يعني: مِن بعدِ فِرعَونَ ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾... ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ وذلك من بعد موسى، ومن بعدِ يُوشَعَ بنِ نون). ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٥٥٣).

(٣) قيل: المرادُ بها: أرضُ مِصرَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الواحدي، والرازي، والشوكاني. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٠)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٢).

قال الألوسي: (﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ التي أراد أن يَستَفِزَّكم منها، وهي أرضُ مِصرَ، وهذا ظاهِرٌ إنْ ثَبَت أنَّهم دَخَلوها بعد أن خَرَجوا منها، واتَّبَعَهم فِرعونُ وجنودُه وأُغرِقوا، وإن لم يَثبُتْ فالمرادُ مِن بني إسرائيلَ ذريَّةُ أولئك الذين أراد فِرعَونُ استِفزازَهم). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٧٦).

وقيل: المرادُ بها: أرضُ الشَّامِ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ جزي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٨).

كما قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦، ١٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾.

أي: فإذا جاء وَقتُ قِيامِ السَّاعةِ، جِئْنا بكم -يا بني إسرائيلَ- وبِعَدُوِّكم[1] مِن

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨).

وقيل: المرادُ بها: أرضُ الشَّامِ ومِصر. وممن اختار ذلك: البغوي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٨).

قال الماتريدي: (وقال بعضُهم: ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ ليس في أرضٍ دونَ أرضٍ، ولكن اسكُنوا أيَّ أرضٍ شئتُم، مشارقَها ومغاربَها، آمنينَ لا خوفٌ عليكم... كقولِه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ ...﴾ الآيةَ [الأعراف: ١٣٧]، وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضِي اللَّهُ عنه). ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ١٢٣).

وذهب عَددٌ مِن المُعاصِرينَ إلى أنَّ المرادَ بالأرضِ في هذه الآيةِ مُختَلفُ بِقاعِ العالَمِ التي شتَّتَ اللهُ اليهودَ فيها. يُنظر: ((التفسير القرآني للقرآن)) لعبد الكريم الخطيب (٨/ ٤٥٦)، ((الأساس في التفسير)) لسعيد حوى (٦/ ٣٠٤٤)، ((القرآن ونقض مطاعن الرهبان)) لصلاح الخالدي (١/ ١٤٤)، ((مباحث في إعجاز القرآن)) لمصطفى مسلم (ص: ٢٨٤).

(١) ممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: بنو إسرائيل وعَدُوُّهم: ابنُ كثير، وهو ظاهرُ اختيارِ الألوسي، وابنِ

قُبورِكم إلى مَوقِفِ القيامةِ جَماعاتٍ مُختَلِطةً مِن جِهاتٍ وأصنافٍ شتَّى، فنُمَيِّزُ سُعَداءَكم مِن أشقيائِكم، ونُجازي كُلًّا بعَمَلِه[1].

عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٩).

قال الماتُريدي: (وأمَّا عامَّةُ أهل التأويلِ فإنَّهم قالوا: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: يومُ القيامةِ ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ أي: جميعًا أنتم وفِرعونُ وجنودُه حتى يَرَوا كراماتِكم التي أُكرِمْتُم بها ويَرَوا هوانَهم). ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ١٢٣).

وقيل: المراد: جميعُ الخلق؛ المُسلِمُ والكافِرُ، والبَرُّ والفاجرُ. وممن قال بذلك: الواحدي. يُنظر: ((البسيط)) (١٣/ ٥٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٩).

وهذا المعنى المذكورُ هو في الجملةِ قولُ عامةِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ١٢٣).

قال القرطبي: (﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: القيامة. ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ أي: من قبورِكم مختلطين مِن كُلِّ موضعٍ، قد اختلط المؤمِنُ بالكافِرِ لا يتعارَفون ولا ينحازُ أحَدٌ منكم إلى قبيلتِه وحَيِّه. وقال ابن عباس وقتادة: جِئنا بكم جميعًا من جهاتٍ شتَّى. والمعنى واحِدٌ... والمعنى: أنهم يخرُجون وقتَ الحشرِ مِن القبورِ كالجرادِ المنتَشِر، مختَلِطين لا يتعارَفون). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٨).

وقال الماتريدي: (قال بعضُهم: ﴿ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ ليس في أرضٍ دونَ أرضٍ، ولكِن اسكُنوا أيَّ أرضٍ شِئتُم... وعلى هذا قال في قَولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بعثُ عيسى ابنِ مريم ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ أي: جميعًا مجتَمِعين من مشارقِ الأرضِ ومغاربِها على ما تفرَّقوا. وقال بعضُهم: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يعني: حياةَ عيسى، ونزولَه من السَّماءِ ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ أي: جميعًا بانتزاعٍ مِن القرى هاهنا وهاهنا لُفُّوا جميعًا، وهو مِثلُ الأول). ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ١٢٣). وقال الماوَردي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿... فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويل: أحدُها: وعدُ القيامةِ، وهي الكرَّةُ الآخرةُ، قاله مقاتل. الثاني: وعدُ الكرَّةِ الآخرةِ في تحويلِهم

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ [الكهف: ٩٨، ٩٩].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ذَكَر الله في القرآنِ ستَّ عشْرةَ مُعجزةً لِموسى عليه السَّلامُ، وقال في هذه الآية: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾، وتخصيصُ التِّسعةِ بالذِّكرِ لا يقدَحُ فيه ثبوتُ الزائدِ عليه؛ لأنَّ تخصيصَ العدَدِ بالذِّكرِ لا يدُلُّ على نفيِ الزائدِ، كما هو ثابتٌ في أصولِ الفِقهِ، وهذه الآيةُ دَليلٌ على هذه المسألةِ[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ في الأمرِ بسُؤالِ اليَهودِ تَنبيهٌ على ضَلالِهم، ولعَلَّ منه اقتِباسَ الأئمَّةِ في المُناظَرةِ مُطالبةَ اليَهودِ والنَّصارى ونحوِهم بإثباتِ نُبُوَّةِ أنبيائِهم؛ فكُلُّ طريقٍ يَسلُكونَ يُسلَكُ مِثلُه في تقريرِ نُبُوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّم، وكُلُّ اعتِراضٍ يُورِدونَه يُورَدُ عليهم مِثلُه، وما كان جَوابًا لهم فهو جوابٌ لنا[(٢)].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ ...﴾ فيه بيانُ أنَّ فِرعَونَ عالِمٌ بأنَّ الآياتِ المذكورةَ ما أنزلَها إلَّا ربُّ السَّمواتِ والأرضِ ﴿بَصَآئِرَ﴾، أي: حُجَجًا واضِحةً، وذلك يدُلُّ على أنَّ قَولَ فِرعَونَ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]، وقَولَه: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:

إلى أرضِ الشامِ. الثالث: نزولُ عيسى عليه السَّلامُ من السَّماء، قاله قتادة). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٧٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٢٦-٥٢٧).

٢٣] كلُّ ذلك منه تجاهُلُ عارفٍ[١].

٤- كان أولًا موسى عليه السلام يتوقَّعُ مِن فرعونَ أذًى، كما قال: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥]؛ فأُمِر أن يقولَ له قولًا لينًا، فلما قال له الله: لا تخفْ؛ وثِقَ بحمايةِ الله، فصال على فرعونَ صولةَ المحميِّ، وقابَله مِن الكلامِ بما لم يكنْ ليقابلَه به قبلَ ذلك، فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ هذه الآيةُ وما بَعدَها تَسليةٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ قَصَّ عليه -في إِثْرِ ما ذَكَرَ مِن تكذيبِ قَومِه وهَمِّهم بإخراجِه- قِصَّةَ فِرعَونَ، وما هَمَّ به مِن استِفزازِ موسى وبني إسرائيلَ مِن أرضِ مِصرَ، حتى أهلَكَه اللهُ تعالى، وأورَثَهم أرْضَهم ودِيارَهم وأموالَهم؛ لذلك أظهَرَ نَبيَّه مُحمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم على المُشرِكينَ، ورَدَّه إلى مكَّةَ ظاهِرًا عليهم، فأنجَزَ وَعْدَه، ونصَرَ عَبْدَه[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ اقتَضَبَت هذه الآيةُ قَصَصَ موسى معَ فِرعَونَ، وإنَّما ذَكَرَت عُظْمَ الأمرِ وخَطيرَه، وذلك طَرَفاه: أراد فِرعَونُ غلَبَتَهم وقَتْلَهم، وهذا كان بَدءَ الأمرِ، فأغرَقَه اللهُ وأغرَقَ جُنودَه، وهذا كان نهايةَ الأمرِ[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا * وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ في هذا بِشارةٌ لمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩٠).

بفَتحِ مَكَّةَ، مع أنَّ السُّورةَ نَزَلَت قبل الهِجرةِ، وكذلك وقَعَ؛ فإنَّ أهلَ مَكَّةَ هَمُّوا بإخراجِ الرَّسولِ منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦- ٧٧]؛ ولهذا أورَثَ اللهُ رَسولَه مَكَّةَ، فدخَلَها عَنوةً على أشهَرِ القَولَينِ، وقَهَرَ أهْلَها، ثمَّ أطلَقَهم حِلمًا وكَرَمًا، كما أورَثَ اللهُ القَومَ الذين كانوا يُستَضعَفونَ مِن بني إسرائيلَ مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها، وأورَثَهم بِلادَ فِرعونَ وأموالَهم وزُروعَهم[(١)].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ هذا مثَلٌ للمُعاندينَ وتَسليةٌ للرَّسولِ، ثمَّ انتقَلَ من ذلك بطريقةِ التَّفريعِ إلى التَّسجيلِ ببني إسرائيلَ؛ استشهادًا بهم على المُشركين، وإدماجًا للتَّعريضِ بهم بأنَّهم ساوَوُا المُشركينَ في إنكارِ نُبوةِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُظاهرتِهم المُشركينَ بالدَّسِّ، وتلْقينِ الشُّبَهِ، تذكيرًا لهم بحالِ فرعونَ وقومِه مع موسى؛ إذ قال له فرعونُ: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾[(٢)].

- وخصَّ بالذكرِ هاهنا تِسْعَ آيَاتٍ معَ أنَّ مُوسَى عليه السَّلامُ قد أُوتيَ آياتٍ أخرَ كَثِيرَةً؛ لأنَّها الآياتُ التي شاهَدَها فِرعَونُ وقَومُه مِن أهلِ مِصرَ، وكانت حُجَّةً عليهم، فخالفوها وعانَدوها كُفرًا وجُحودًا[(٣)].

- قولُه: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ اعتراضٌ في الكلامِ، والتَّقديرُ: ولقد آتينا مُوسى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤-١٢٥).

تِسْعَ آياتٍ بيِّناتٍ، إذ جاء بني إسرائيلَ، فسَلْهم، وليس المطلوبُ من سُؤالِ بني إسرائيلَ أنْ يستفيدَ هذا العلْمَ منهم، بلِ المقصودُ أنْ يظهَرَ لعامَّةِ اليهودِ صِدْقُ ما ذكَرَه الرَّسولُ عليه السَّلامُ، فيكونُ هذا السُّؤالُ سُؤالَ استشهادٍ(١).

٢- قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾

- قولُه: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ... ﴾ فيه تأكيدُ كلامِ مُوسى عليه السَّلامُ بلامِ القَسمِ، وحرْفِ التَّحقيقِ (قد)؛ تَحقيقًا لحُصولِ علْمِ فِرعونَ أنَّ تلك الآياتِ لا تكونُ إلَّا بتَسخيرِ اللهِ؛ إذ لا يقدِرُ عليها غيرُ اللهِ(٢).

- قولُه: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث حَسُنَ جدًّا ما جاء به من إسنادِ إنزالِها إلى لفْظِ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ إذ هو لمَّا سأَلَه فرعونُ في أوَّلِ مُحاورتِه فقال له: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣- ٢٤]، يُنبِّهُه على نقْصِه، وأنَّه لا تصرُّفَ له في الوُجودِ؛ فدعواه الرُّبوبيَّةَ دَعوى استحالةٍ، فبكَّتَه وأعلَمَه أنَّه يعلَمُ آياتِ اللهِ ومَن أنزَلَها، ولكنَّه مُكابِرٌ مُعاندٌ؛ فخاطَبَه بذلك على سبيلِ التَّوبيخِ، أي: أنت بحالِ مَن يعلَمُ هذا، وهي من الوُضوحِ بحيث تعلَمُها، وليس خِطابُه على جِهَةِ إخبارِه عن علْمِه(٣). وأيضًا عبَّرَ عن اللهِ سُبحانَه بطريقِ إضافةِ وصْفِ الرَّبِّ للسَّمواتِ والأرضِ؛ تذكيرًا بأنَّ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ هو القادرُ على أنْ يخلُقَ مثْلَ هذه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢١).

الخوارِقِ[١].

- قولُه: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ في ذكْرِ هذا من قِصَّةِ مُوسى إتمامٌ لتَمثيلِ حالِ مُعاندي الرِّسالةِ المُحمَّديَّةِ بحالِ مَن عانَدَ رسالةَ مُوسى عليه السَّلامُ[٢].

- قولُه: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾، هذا نِذارةٌ وتَهديدٌ لفِرعونَ بقُرْبِ هلاكِه. وإنَّما جعَلَه مُوسى (ظنًّا)؛ تأدُّبًا مع اللهِ تعالى، أو لأنَّه علِمَ ذلك باستِقراءٍ تامٍّ أفاده هلاكُ المُعاندينَ للرُّسلِ، ولكنَّه لم يَدْرِ لعلَّ فرعونَ يُقْلِعُ عن ذلك، وكان عنده احتمالًا ضعيفًا؛ فلذلك جعَلَ توقُّعَ هلاكِ فرعونَ ظنًّا. ويجوزُ أنْ يكونَ الظَّنُّ هنا مُستعملًا بمعنى اليَقينِ والعلْمِ، وإنَّما عبَّرَ بالظَّنِّ فقال له: ﴿لَأَظُنُّكَ﴾ مع أنَّه يعلَمُ أنَّه مَثبورٌ؛ ليُقَابِلَ قولَ فِرعونَ له: ﴿ لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾، كأنَّه قال: إذا ظَنَنتني مَسحورًا، فأنا أظنُّك مَثبورًا؛ فجاء في جَوابِ مُوسى عليه السَّلامُ لفِرعونَ بمثْلِ ما شافَهَه فِرعونُ به؛ مُقارعةً له، وإظهارًا لكونِه لا يَخافُه، وأنَّه يُعامِلُه مُعاملةَ المِثْلِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾ أكمَلَ قِصَّةَ المثَلِ بما فيه تَعريضٌ بتَمثيلِ الحالينِ؛ إنذارًا للمُشركينَ بأنَّ عاقِبةَ مكْرِهم وكيدِهم ومُحاولاتِهم صائرةٌ إلى ما صار إليه مكْرُ فِرعونَ وكيدُه، ففرَّعَ على تَمثيلِ حالي الرِّسالتينِ وحالي المُرسَلِ إليهما ذكْرَ عاقِبةِ الحالةِ المُمثَّلِ بها؛ نِذارةً للمُمثَّلينَ بذلك المصيرِ، والاستفزازُ: الاستخفافُ، وهو كِنايةٌ عن الإبعادِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) (١/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٨).

الآيات (١٠٥-١١١)

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ١٠٩ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُكۡثٖ﴾: أي: تُؤَدَةٍ وتَرَسُّلٍ، وأصلُ (مكث): يدُلُّ على توَقُّفٍ وانتِظارٍ[١].

﴿يَخِرُّونَ﴾: أي: يَسقُطونَ بِسُرعةٍ، وخَرَّ: سقَط على وَجهِه سُقوطًا يُسمَعُ منه صوتٌ (ويسمَّى خَريرًا)، والخُرورُ والخَرُّ: السُّقوطُ مِنْ عُلوٍّ إِلَى الأرضِ، وأصلُ (خرر): يدُلُّ على اضطِرابٍ، وسُقوطٍ مع صَوتٍ[٢].

﴿لِلۡأَذۡقَانِ﴾: الأذقانُ جمعُ الذَّقَنِ، وهو مجمعُ اللَّحْيينِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٧)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٧٢).

﴿تُخَافِتْ﴾: أي: تُخْفِها وتُسِرَّها، وأصلُ (خفت): يَدُلُّ على إسرارٍ وكِتمانٍ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يُنوِّهُ الله تعالى بشأنِ القرآنِ فيقولُ تعالى: وبالحَقِّ أنزَلْنا هذا القُرآنَ، وبالصِّدقِ والعَدلِ، والحِفظِ مِن الزيادةِ والنُّقصانِ والتَّبديلِ والتَّغييرِ نَزَل، وما أرسَلْناك -يا مُحَمَّدُ- إلَّا مُبَشِّرًا الطَّائِعينَ بالجَنَّةِ، ومُخَوِّفًا العاصِينَ بالنَّارِ. وقُرآنًا بيَّناه وأحْكَمْناه وفَصَّلْناه فارِقًا بينَ الحقِّ والباطِلِ والهُدى والضَّلالِ؛ لِتَقرَأَه على النَّاسِ في تُؤَدَةٍ وتَمَهُّلٍ، ونَزَّلْناه مُفَرَّقًا شَيئًا بعد شَيءٍ.

ثمَّ أمر الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يخاطبَ المشركينَ بما يدلُّ على عدمِ المبالاةِ بهم، فقال: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- لهؤلاء المُكَذِّبينَ: آمِنوا بالقُرآنِ أو لا تُؤمِنوا؛ فإنَّ الذينَ أُوتُوا العِلمَ مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ؛ مِن مُؤمِني أهلِ الكِتابِ، إذا قُرِئَ عليهم القُرآنُ يسقُطونَ على أذقانِهم ويَسجُدونَ على وُجوهِهم لله سُبحانَه وتعالى، ويقولونَ: تَنزيهًا لرَبِّنا وتَبرِئةً له مِمَّا يَصِفُه المُشرِكونَ به، إنَّ وعْدَ ربِّنا بإرسالِ نبيِّه محمَّدٍ وإنزالِ القُرآنِ عليه: كائِنٌ وواقِعٌ، ويقَعُون على أذقانِهم يَبكُونَ تأثُّرًا بمَواعِظِ القُرآنِ، ويَزيدُهم القُرآنُ خُضوعًا لأمرِ اللهِ، ورِقَّةً ولِينًا.

قُل -يا مُحَمَّدُ: ادعُوا اللهَ، أو ادعُوا الرَّحمنَ؛ فكِلاهما اسمانِ لله الواحِدِ، فبأيِّ أسمائِه دَعَوتُموه، فإنَّكم تَدْعُونَ رَبًّا واحِدًا؛ فله أحسَنُ الأسماءِ المُتضَمِّنةِ

واللَّحْيانِ: واحدُها (اللَّحْيُ): وهو مَنبَتُ اللِّحْيةِ مِن الإنسانِ وغَيرِه. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٠).

أفضَلَ الأوصافِ، ولا تجهَرْ بالقَولِ في صَلاتِك ودُعائِك، ولا تُسِرَّ به، وكُنْ وَسَطًا بين الجَهرِ والمُخافَتةِ.

ثمَّ ختَم الله هذه السورةَ بأمرِه لنبيِّه أن يحمدَه منزهًا له عن النقائصِ، فقال: وقُلْ -يا مُحَمَّدُ: الحَمدُ لله الذي له الكَمالُ والثَّناءُ، المتنزِّهِ عن الوَلَدِ والشَّريكِ في مُلكِه وسُلطانِه، ولم يكُنْ له سُبحانَه وَلِيٌّ مِن خَلْقِه؛ مِن أجلِ ذُلٍّ فيه أو عَجزٍ -تعالى وتقَدَّسَ- وعَظِّمْه تَعظيمًا تامًّا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذا عَودٌ إلى التَّنويهِ بشأْنِ القُرآنِ، فهو مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾[الإسراء: ٨٩]؛ فلمَّا عُطِفَ عليه ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ...﴾ [الإسراء: ٩٠] الآياتِ إلى هنا، وسمَحَت مُناسبةُ ذكْرِ تَكذيبِ فرعونَ مُوسى عليه السَّلامُ؛ عاد الكلامُ إلى التَّنويهِ بالقُرآنِ لتلك المُناسَبةِ[1].

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾.

أي: أنزَلْنا القُرآنَ وَحْيًا مِن عِندِ اللهِ تعالى لِمَصلحةِ الخَلقِ، مُتَضَمِّنًا للحَقِّ، مُشتَمِلًا على الأخبارِ الصَّادِقةِ، والأحكامِ العادلةِ، ونَزَل به جِبريلُ القَويُّ الأمينُ إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بلسانٍ عَربيٍّ مُبينٍ، مَحروسًا مِنَ الشَّيطانِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٦).

مَحفوظًا مِن الزيادةِ والنُّقصانِ، لم يَقَعْ في طريقِ إنزالِه تَبديلٌ، ولم يَحدُثْ له تغييرٌ ولا تَحويلٌ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ * وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٤-١١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾.

أي: وما أرسَلْناك -يا مُحَمَّدُ- إلَّا لِتُبَشِّرَ الطَّائِعينَ بالخَيرِ والثَّوابِ في الدُّنيا، والجَنَّةِ في الآخرةِ، وتُنذِرَ العاصِينَ بالعِقابِ في الدُّنيا والآخِرةِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [البقرة: ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا * وَدَاعِيًا إِلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۞ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

﴿وَقُرۡءَانًا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾.

﴿وَقُرۡءَانًا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ ﴾.

أي: وقُرآنًا[1] فَصَّلْناه وبَيَّنَّاه وأحْكَمْناه، وفرَّقْنا فيه بينَ الحَقِّ والباطِلِ، والهُدى والضَّلالِ[2]؛ لِتَتلُوَه -يا مُحَمَّدُ- على النَّاسِ بتَمَهُّلٍ وتُؤَدةٍ وتَرتيلٍ، ولا تَعجَلْ في

---

(١) قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿وَقُرۡءَانًا﴾ منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ يفسِّرُه ما بعدَه). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٨٨). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٤٢٥).

(٢) وممَّن اختار هذا المعنى المذكور لـ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾: ابن جرير، والقرطبي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٨).

وممن قال من السلف بأن ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ بمعنى التفصيلِ والبيانِ: ابنُ عباس، وأبيُّ بنُ كعبٍ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٤).

وقيل: المراد بذلك: نزَّلناه مفرَّقًا على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مدةَ بعثتِه الشريفةِ. وممَّن اختار هذا المعنى: القاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣١).

قال القاسمي: (﴿وَقُرۡءَانًا فَرَقۡنَٰهُ﴾ أي نزَّلناه مفرَّقًا منجمًا. وقُرئ بالتشديدِ. والقراءتانِ بمعنًى). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٢٠).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿وَقُرۡءَانًا فَرَقۡنَٰهُ﴾ أمَّا قراءةُ مَن قرأ بالتخفيفِ، فمعناه: فصلناه مِن اللوحِ

تِلاوتِه؛ فإنَّ ذلك أيسَرُ للحِفظِ، وأعْوَنُ على الفَهمِ؛ ليَتَدَبَّرَه النَّاسُ ويتَفَكَّروا في معانيه، ويَستَخرِجوا مِن عُلومِه وأسرارِه ومَرامِيه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩١-٩٢].

﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

المحفوظِ إلى بيتِ العزةِ مِن السماءِ الدنيا، ثم نزَل مفرقًا منجَّمًا على الوقائعِ إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ثلاثٍ وعشرينَ سنةً. قاله عكرمةُ عن ابنِ عباسٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٧).

وقال السعدي: (أي: وأنزلنا هذا القرآنَ مفرَّقًا، فارقًا بينَ الهدى والضلالِ، والحقِّ والباطلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٩-٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٨).

قال الشوكاني: (﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: على تطاول في المدة شيئًا بعد شيء على القراءة الأولى، أو أنزلناه آية آية، وسورة سورة. ومعناه على القراءة الثانية [أي تشديد فرقناه] ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، أي: على ترسل وتمهل في التلاوة). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٣).

أي: ونزَّلْنا عليك القُرآنَ -يا مُحَمَّدُ- مُفَرَّقًا شيئًا بعد شَيءٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

﴿ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعد أن أوضح لهم الدَّلائِلَ على أنَّ مِثلَ ذلك القُرآنِ لا يكونُ إلَّا مُنزَّلًا من عندِ اللهِ، مِن قَولِه تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٨] فعجَزوا عن الإتيانِ بمِثلِه، ثمَّ ببيانِ فضائِلِ ما اشتمَلَ عليه بقَولِه: ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ ﴾ [الإسراء: ٨٩]، ثمَّ بالتعرُّضِ إلى ما اقتَرَحوه من الإتيانِ بمعجزاتٍ أُخرَ، ثمَّ بكشفِ شُبهتِهم التي يموِّهون بها امتناعَهم من الإيمانِ برِسالةِ بَشَرٍ، وبيَّن لهم غلَطَهم أو مُغالطتَهم، ثمَّ بالأمرِ بإقامةِ الله شَهيدًا بينه وبينهم، ثمَّ بتهديدِهم بعذابِ الآخرةِ، ثمَّ بتمثيلِ حالِهم مع رسولِهم بحالِ فِرعَونَ وقَومِه مع موسى وما عجَّل لهم مِن عذابِ الدُّنيا بالاستِئصالِ، ثمَّ بكَشفِ شُبهتِهم في تنجيمِ القُرآنِ- أعقب ذلك بتفويضِ النظَرِ في ترجيحِ الإيمانِ بصِدقِ القُرآنِ وعدَمِ الإيمانِ، بقَولِه تعالى: ﴿

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾ للتَّسويةِ بين إيمانِهم وعدَمِه عندَ الله تعالى[١].

﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- للمُكَذِّبينَ المُعرِضينَ عن القُرآنِ: آمِنوا بالقُرآنِ أو لا تُؤمِنوا به؛ فسَواءٌ آمَنتُم به أم كَفَرتُم، فهو حقٌّ في نَفسِه، ولن تَنفَعوا اللهَ إن آمَنْتُم، ولن تَضُرُّوه إن كَفَرْتُم، وإنَّما ضَرَرُ ذلك واقِعٌ عليكم[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا﴾.

أي: وإنْ تَكفُروا بالقُرآنِ، فإنَّ الذينَ أُوتُوا العِلمَ مِن قَبلِ نُزولِه، مِن مُؤمِني أهلِ الكِتابِ[٣] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

قال ابنُ عطيَّةَ: (قَولُه: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ﴾ الآيةُ تحقيرٌ للكُفَّارِ، وفي ضِمنِه ضَربٌ مِن التوَعُّدِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩١).

وقال القُرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾ يعني القُرآنَ، وهذا مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ على وَجهِ التَّبكيتِ لهم والتَّهديدِ، لا على وَجهِ التَّخييرِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٠).

(٣) قال ابن عاشور: (المرادُ بالذين أوتوا العلمَ، أمثالُ: ورقةَ بنِ نوفَل، فقد تسامعَ أهلُ مكَّةَ بشهادتِه للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَن آمنَ بعد نزولِ هذه السورة مِن مِثلِ: عبدِ الله بن سلام، ومعيقيب، وسلمان الفارسي. ففي هذه الآية إخبارٌ بمَغيبٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٣).

ومما يدلُّ على أنَّ هؤلاء كانوا مِن أهلِ الكتابِ ما حكاه الله عنهم بعدَ ذلك؛ مِن قولهم: ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ أي: ببعثِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ الوعدَ ببعثتِه سَبَق في كتابِهم، فهم كانوا ينتظرونَ إنجازَ ذلك الوعدِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٨).

إذا يُتلَى عليهم هذا القُرآنُ يَسقُطونَ سَريعًا على[١] أذقانِهم[٢] ساجِدينَ لله تعالى[٣].

---

(١) قال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: على الأذقانِ. كما قال تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي: على الجَبينِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ١٥٧). ويُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٣).

(٢) قال الواحدي: (المعنى أنهم يبادِرون إلى السُّجودِ فيَسقُطون على الأذقانِ أوَّلًا إذا وقَعوا بالأرضِ إلى أن نَصَبوا جباهَهم على الأرضِ للسُّجودِ؛ لأنَّ الذَّقَنَ ليس من أعضاءِ السجودِ، ويدُلُّ على هذا قَولُه: ﴿يَخِرُّونَ﴾ ولم يقُلْ: يَسجُدون؛ لأنَّه أراد مسارعتَهم إلى ذلك حتى إنَّهم لَيسقُطون). ((البسيط)) (١٣/ ٥٠٨).

وقال ابنُ تيمية: (قولُه: ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ يدُلُّ على تمامِ السُّجودِ وأنَّهم سجَدوا على الأنفِ مع الجبهةِ، حتى التصقت الأذقانُ بالأرضِ، ليسوا كمن سجدَ على الجبهةِ فقط، والسَّاجِدُ على الأنفِ قد لا يُلصِقُ الذَّقَنَ بالأرضِ إلَّا إذا زاد انخفاضُه). ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ١٥٧-١٥٨).

وقال البقاعي: (﴿يَخِرُّونَ﴾ أي: يَسقُطون بسُرعةٍ؛ وأكَّد السُّرعةَ وأفاد الاختِصاصَ بقَولِه تعالى: ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ باللامِ دون «إلى» أو «على»، دالًّا بالأذقانِ على أنَّهم من شدَّةِ ما يحصُلُ لهم من الخُشوع يسقُطون سقوطَ من ليس له اختيارٌ، وأوَّلُ ما يلاقي الأرضَ ممَّن يسقُطُ كذلك ذَقَنُه، وهو مجتَمَعُ اللَّحيَينِ مِن مَنبَتِ لحيتِه؛ فإنَّ الإنسانَ مجبولٌ بالطبعِ على صيانةِ وجهِه، فهو يرفَعُ رأسَه، فتصيرُ ذقَنُه وفَمُه أقرَبَ ما في وجهِه إلى الأرضِ حالَ السُّقوطِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٥٣٤).

وقال ابن عاشور: (ذُكِرَ الذَّقَنُ للدَّلالةِ على تمكينِهم الوجوهَ كُلَّها من الأرضِ مِن قوَّةِ الرَّغبةِ في السجودِ؛ لِما فيه من استحضارِ الخُضوع لله تعالى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٤).

(٣) قال ابن جرير: (يخرُّونَ تَعظيمًا له وتَكريمًا، وعِلمًا منهم بأنَّه مِن عندِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٩).

وقال ابن كثير: (﴿سُجَّدًا﴾ أي: لله عزَّ وجلَّ؛ شكرًا على ما أنعم به عليهم، مِن جعلِه إيَّاهم أهلًا أن أدركوا هذا الرَّسولَ الذي أُنزِل عليه هذا الكتابُ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨).

وقال ابن عطية في هذه الآية: (والمعنى أنَّكم لستُم بحُجَّةٍ، فسواءٌ علينا آمنتُم أم كفرتُم، وإنَّما

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ [مريم: ٥٨].

﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨﴾.

﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾.

أي: ويقولونَ: تَنزيهًا لربِّنا مِمَّا يُضيفُه إليه المُشرِكونَ، وعَمَّا يَقولُه الجاهِلونَ مِمَّا لا يَليقُ بجَلالِه، وتَعظيمًا وتوقيرًا له على قُدرَتِه التَّامَّةِ، وأنَّه لا يُخلِفُ ما وعَدَ وبَشَّرَ به في الكُتُبِ السَّابقةِ مِن بَعثةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنزالِ القُرآنِ عليه(١).

﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾.

أي: إنَّ وعْدَ ربِّنا بإرسالِ نبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإنزالِ القُرآنِ عليه(٢) .....

ضَرُّ ذلك على أنفُسِكم، وإنما الحجَّةُ أهلُ العِلمِ مِن قَبلِه، وهم بالصِّفةِ المذكورة). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

(٢) ممَّن اختار المعنى المذكورَ للوعدِ: الواحدي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرازي، والرسعني، وأبو حيان، وابن القيم، وابن كثير، والقاسمي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٩)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٢١).

كائِنٌ وواقِعٌ[(١)].

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾.

قال ابن القيم: (﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ ؛ لأنَّ الله سبحانَه وتعالى وعَد بإرسالِ نبيٍّ في آخرِ الزمانِ يملأُ الأرضَ نورًا وهدًى، فلما سمِعوا القرآنَ علِموا أنَّ الله أنجَز ذلك الوعدَ الذي وعَد به). ((مدارج السالكين)) (٣/ ١٢٣).

وقال الواحدي: (وهذا يدلُّ على أنَّ هؤلاء كانوا مِن أهلِ الكتابِ؛ لأنَّ الوعدَ ببعثِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم سبَق في كتابِهم، فهم كانوا ينتظرونَ ذلك الوعدَ). ((البسيط)) (١٣/ ٥٠٨).

وقيل: المرادُ به: البَعثُ والجَزاءُ على الأعمالِ ثَوابًا أو عِقابًا. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملة: ابن جرير، ومكي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٠)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

وممَّن جَمَعَ بين المَعنَيينِ: البقاعيُّ؛ فقال: (﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ ﴾ أي تنزَّه الموجدُ لنا، المدبرُ لأمورِنا، المحسنُ إلينا، عن شوائبِ النقصِ؛ لأنَّه وعَد على ألسنةِ رسلِنا أن يبعثَنا بعدَ الموتِ ووعدُه الحقُّ، فلا بدَّ أن يكونَ، ووعَد أن يأتيَ بهذا الكتابِ على لسانِ هذا النبيِّ العربيِّ، وأوصَل هذا الوعدَ إلينا في الكتبِ السالفةِ فأنجَز ما سبَق به وعدُه ﴿إِن ﴾ أي: إنَّه ﴿كَانَ ﴾ أي: كونًا لا ينفكُّ ﴿وَعْدُ رَبِّنَا ﴾ أي: المحسنِ إلينا بالإيمانِ، وما تبِعه مِن وجوهِ العرفانِ ﴿لَمَفْعُولًا ﴾ دونَ خُلْفٍ، ولا بدَّ أن يأتيَ جميعُ ما وعَد به مِن الثوابِ والعقابِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٥٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨).

وممَّن اختار أنَّ ﴿إِن ﴾ هنا هي المخفَّفةُ مِن الثقيلةِ: أبو حيان، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٤).

وممَّن اختار أنَّ (إِنْ) هنا نافيةٌ، واللامُ بمعنى (إلَّا): ابنُ جرير، والزجاج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٦٤).

أي: ويَسقُطونَ على أذقانِهم يَبكُونَ خاضِعينَ لِلَّهِ عند سَماعِهم القُرآنَ[١].

﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

أي: ويَزيدُهم القُرآنُ[٢] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٢)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤٣٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٤٢ - ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨).

وقال ابن تيمية: (مدح هؤلاء وأثنى عليهم بخرورِهم للأذقانِ، أي: على الأذقان سجَّدًا. والثاني بخرورهم للأذقان: أي عليها يبكُون. فتبيَّن أنَّ نفسَ الخرور على الذقَنِ عبادةٌ مقصودة يحبُّها الله، وليس المرادُ بالخرور إلصاقَ الذقَنِ بالأرض كما تُلصَقُ الجبهةُ، والخرورُ على الذقَنِ هو مبدأُ الركوعِ، والسجودُ منتهاه؛ فإن الساجِدَ يسجُدُ على جبهتِه لا على ذقَنِه لكنَّه يخِرُّ على ذقنِه، والذَّقَنُ آخِرُ حَدِّ الوجهِ، وهو أسفَلُ شيء منه وأقربُه إلى الأرضِ، فالذي يخِرُّ على ذقَنِه يخرُّ وجهُه ورأسُه خضوعًا لله. ومن حينئذ قد شرع في السجود، فكما أنَّ وضْعَ الجبهة هو آخِرُ السجودِ فالخرورُ على الذَّقَنِ أوَّلُ السجودِ، وتمامُ الخرور أن يكونَ من قيام أو قعود... والذي يخِرُّ على الذَّقَنِ لا يسجُدُ على الذقَنِ؛ فليس الذقَنُ من أعضاءِ السجود... ولو سجد على ذقَنِه ارتفعت جبهتُه، والجمع بينهما متعَذِّرٌ أو متعسِّر؛ لأنَّ الأنفَ بينهما وهو ناتئ يمنع إلصاقَهما معًا بالأرض في حالٍ واحدةٍ، فالساجِدُ يخِرُّ على ذقنِه ويسجدُ على جبهتِه، فهذا خرورُ السجود. ثمَّ قال: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ [الإسراء: ١٠٩]، فهذا خرورُ البكاء قد يكونُ معه سجودٌ وقد لا يكون. فالأولُ كقَولِه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ فهذا خرورٌ وسجودٌ وبكاءٌ. والثاني: كقَولِه: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ فقد يبكي الباكي من خشيةِ الله مع خضوعِه بخرورِه وإن لم يصِلْ إلى حدِّ السجود. وهذا عبادةٌ أيضًا؛ لِما فيه من الخرورِ لله والبكاءِ له، وكلاهما عبادةٌ لله؛ فإنَّ بكاءَ الباكي لله -كالذي يبكي من خشيةِ الله- من أفضَلِ العباداتِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ١٤٢-١٤٤).

وقال ابن كثير: (وقولُه: ﴿ وَيَخِرُّونَ ﴾ عطفُ صفةٍ على صفةٍ، لا عطفُ سُجودٍ على سجودٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨).

(٢) ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ ﴾ عائدٌ إلى القُرآنِ: ابنُ جريرٍ، والواحدي،

خُضوعًا لله، واستِكانةً له، ورِقَّةً ولِينًا في قُلوبِهم[(١)].

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ

والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٥).

وقيل: الضَّميرُ يَعودُ إلى الله تعالى، أي: يَزيدُهم اللهُ إيمانًا وتَسليمًا، كما قال سُبحانَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظَر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٥).

قال ابن رجب: (أصلُ الخشوعِ هو: لينُ القَلبِ ورقَّتُه، وسكونُه وخُضوعُه، وانكسارُه وحُرقتُه، فإذا خشع القلبُ تبِعَه خشوعُ جميع الجوارح والأعضاء؛ لأنَّها تابعة له... فإذا خشع القلبُ خشع السَّمعُ والبصر، والرأسُ والوجهُ، وسائِرُ الأعضاءِ وما ينشأ منها حتى الكلامُ؛ لهذا كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ في ركوعِه في الصَّلاةِ: «خشع لك سمعي وبصري ومخِّي وعظمي» وفي رواية: «وما استقَلَّ به قدمي»، ورأى بعضُ السَّلَفِ رجلًا يعبثُ بيَدِه في الصلاةِ فقال: لو خشع قلبُ هذا لخشَعَت جوارِحُه). ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٩٠).

﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا طالت الكَلِماتُ في المُناظَرةِ مع المشركين ومُنكِري النبوَّاتِ والجوابِ عن شُبُهاتِهم؛ أتبَعَها ببيانِ كيف يَدعُون الله ويُطيعونَه، وكيف يَذكُرونَه في وقتِ الاشتغالِ بأداء العبوديَّةِ، فقال تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١]:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ[٢]: إنْ شِئْتُم فقُولوا في دُعائِكم: يا اللهُ، وإنْ شِئْتُم فقُولوا: يا رَحمنُ؛ فكِلاهما اسمٌ لله الواحِدِ الذي لا شَريكَ له[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٤٤).

(٢) قيل: المرادُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قَومِك المُنكِرينَ صِفةَ الرَّحمةِ لِلَّهِ، عزَّ وجلَّ، المانعينَ مِنْ تسميتِه بالرَّحمنِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أمَّا قَولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الآية: فهذا الدُّعاءُ: المشهورُ أنَّه دُعاءُ المسألةِ، وهو سَبَبُ النُّزولِ. قالوا: كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعو ربَّه فيَقولُ مَرَّةً: «يا اللهُ» ومَرَّةً: «يا رحمنُ»، فظَنَّ المُشرِكونَ أنَّه يدعو إلهَينِ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٤).

وقيل: المرادُ: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- للمُؤمِنينَ. وممَّن قال بهذا: الواحدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢١١، ٢١٢)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٩٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٦،

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: بأيِّ اسمٍ مِن أسماءِ اللَّهِ(١) دَعَوتُم، فإنَّما تَدعُونَ اللهَ الواحِدَ سُبحانَه؛ فله أحسَنُ الأسماءِ المُتضَمِّنةِ أفضَلَ الأوصافِ، فليس له اسمٌ غَيرُ حَسَنٍ حتى يُنهَى عن دُعائِه به(٢).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

---

٢٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٩).

قال ابن عاشور: (معنى ﴿ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ ادعوا هذا الاسمَ أو هذا الاسم، أي: اذكروا في دعائِكم هذا أو هذا، فالمسمَّى واحد. وعلى هذا التفسيرِ قد وقع تجوُّزٌ في فعلِ ﴿ٱدْعُواْ﴾ مستعمَلًا في معنى: اذكروا، أو سَمُّوا في دعائِكم.

ويجوزُ أن يكون الدعاءُ مُستعمَلًا في معنى سَمُّوا، وهو حينئذٍ يتعدى إلى مفعولين. والتقدير: سَمُّوا ربَّكم اللهَ أو سمُّوه الرحمنَ، وحُذِف المفعولُ الأولُ مِن الفعلينِ وأُبقيَ الثاني لدَلالةِ المقامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٧).

(١) قال ابن القيم: (أسماؤه الدالَّةُ على صفاتِه هي أحسَنُ الأسماء وأكمَلُها، فليس في الأسماء أحسَنُ منها ولا يقومُ غيرُها مقامَها... كما أنَّ صفاتِه أكمَلُ الصفاتِ، فلا تَعدِل عمَّا سمَّى به نفسَه إلى غيرِه، كما لا تتجاوَز ما وصف به نفسَه ووصَفَه به رسولُه إلى ما وصَفَه به المبطِلون والمعَطِّلون). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٦٨).

وقال القرطبي: (وهي بتَوقيفٍ لا يَصِحُّ وَضعُ اسمٍ لله بِنَظَرٍ إلَّا بتوقيفٍ مِن القُرآنِ أو الحَديثِ أو الإجماعِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٣)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٩٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

وقال سُبحانَه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ لله تِسعةً وتِسعينَ اسمًا؛ مِئةً إلاَّ واحِدًا، مَن أحصاها[١] دخَلَ الجَنَّةَ))[٢].

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما في قَولِه عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: ((نَزَلَت ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُتوارٍ بِمكَّةَ، فكان إذا صلَّى بأصحابِه رَفَعَ صَوتَه بالقُرآنِ، فإذا سَمِعَ ذلك المُشرِكونَ سَبُّوا القُرآنَ ومَن أنزَلَه، ومَن جاء به، فقال اللهُ تعالى لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيَسمَعَ المُشرِكونَ قِراءَتَك، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابِك، أسْمِعْهم القُرآنَ ولا تَجهَرْ ذلك الجَهرَ، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، يقولُ: بينَ

(١) مَن أحصاها: أي: حَفِظَها وأحسنَ المُراعاةَ لها والمحافظةَ على ما تقتَضيه وصَدَّق بمعانيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٥).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

الجَهرِ والمُخافَتةِ))[١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (نَزَلَت هذه الآيةُ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ في الدُّعاءِ)[٢].

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾.

أي: ولا تَرفَعْ صَوتَك -يا مُحَمَّدُ- بقِراءةِ القُرآنِ في صَلاتِك، ودُعائِك وذِكْرِك لله فيها، ولا تُسِرَّ بذلك[٣].

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٢٢)، ومسلم (٤٤٦) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٧٥٢٦) واللفظ له، ومسلم (٤٤٧).

قال ابنُ حَجَرٍ: (هكذا أَطلَقَت عائِشةُ، وهو أعَمُّ مِن أن يكونَ ذلك داخِلَ الصَّلاةِ أو خارِجَها، وقد أخرَجَه الطَّبريُّ وابنُ خُزَيمة والعمري والحاكِمُ مِن طريق حفص بن غياث عن هشام، فزاد في الحديث: «في التشَهُّد»... ورجَّحَ الطَّبَريُّ حَديثَ ابنِ عَبَّاسٍ، قال: لأنَّه أصَحُّ مَخرجًا، ثمَّ أسند عن عطاءٍ قال: «يقولُ قَومٌ: إنَّها في الصَّلاةِ، وقومٌ إنَّها في الدُّعاء»... ورَجَّحَ النوويُّ وغَيرُه قَولَ ابنِ عَبَّاسٍ، كما رَجَّحَه الطَّبريُّ، لكِنْ يَحتَمِلُ الجَمعُ بينهما بأنَّها نَزَلَت في الدُّعاءِ داخِلَ الصَّلاةِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٤٠٥، ٤٠٦).

(٣) وممَّن اختار القولَ المذكورَ، وهو أنَّ قولَه: ﴿بِصَلَاتِكَ﴾ يشمَلُ القِراءةَ، والدُّعاء، والذِّكرَ في الصَّلاةِ: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٣٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦١).

وقيل: المرادُ بالصَّلاةِ هنا: القراءةُ فيها. وممَّن اختار هذا القول: الزجَّاج، والواحدي، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

أي: واسلُكْ -يا مُحَمَّدُ- طَريقًا وَسَطًا بينَ الجَهرِ والمُخافَتةِ[١].

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى ألَّا يُذكَرَ ولا يُنادى إلَّا بأسمائِه الحُسنى؛ عَلَّمَه كيفيَّةَ التَّحميدِ[٢].

وأيضًا لَمَّا كان النَّهيُ عن الجَهرِ بالدُّعاءِ أو قراءةِ الصَّلاةِ سَدًّا لِذَريعةِ زِيادةِ تَصميمِ الكافِرينَ على الكُفرِ؛ أعقَبَ ذلك بأمْرِه بإعلانِ التَّوحيدِ؛ لِقَطعِ دابِرِ توَهُّمِ مَن توَهَّموا أنَّ (الرَّحمنَ) اسمٌ لِمُسمًّى غَيرِ مُسمَّى اسمِ اللهِ؛ فبَعضُهم توَهَّمَه إلهًا شَريكًا، وبَعضُهم توَهَّمَه مُعِينًا وناصِرًا، فأُمِرَ النَّبيُّ بأن يقولَ ما يَقلَعُ ذلك كُلَّه، وأن يُعَظِّمَه بأنواعٍ مِن التَّعظيمِ[٣].

وأيضًا لَمَّا أثْبَتَ تعالى لنفسِه الكريمةِ الأسماءَ الحسنَى؛ نَزَّهَ نفسَه عن النَّقائصِ، فقال[٤]:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾.

أي: وقُلْ -يا مُحَمَّدُ: الثَّناءُ الجَميلُ لله المتَّصِفِ بالكَمالِ، المُنَزَّهِ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٠).

النَّقائِصِ، الذي لم يَجعَلْ له ولدًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا * لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا * وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨- ٩٢].

وقال سُبحانَه حِكايةً عن قَولِ مُؤمِني الجِنِّ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾ [الجن: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ * وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾.

أي: ولا يُوجَدُ أحدٌ يُشارِكُه في مُلكِه وسُلطانِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٠).

تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾.

أي: ولا يُوجَدُ لله وليٌّ يُناصِرُه ويُدافِعُ عنه، ويتعزَّزُ به، ويُعاوِنُه مِن أجْلِ ذلٍّ فيه أو عَجزٍ أو افتقارٍ -سُبحانَه وتعالى- بل هو الغَنيُّ ذو العِزَّةِ والكِبرياءِ، وكُلُّ شَيءٍ خاضِعٌ له، وتَحتَ قَهرِه وقُدرتِه، ولا يكونُ إلهًا يُطاعُ ويُعبَدُ، مَن كان ذليلًا مَهينًا مُحتاجًا إلى وَليٍّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨].

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

أي: وعَظِّمْ -يا مُحَمَّدُ- ربَّك تَعظيمًا تامًّا شَديدًا، فلا تَعبُدْ غَيرَه، وأطِعْ أمْرَه، واجتَنِبْ نَهْيَه، وأخبِرْ عنه بأوصافِه الحُسنى، وأفعالِه العَظيمةِ، ونزِّهْه عن كلِّ آفَةٍ ونَقصٍ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٥)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٠).

كما قال تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ دلَّ نَعتُ هؤلاء ومَدْحُهم بخُرورِهم باكينَ، على استِحبابِ البُكاءِ والتخَشُّعِ؛ فإنَّ كُلَّ ما حُمِدَ فيه مِن النُّعوتِ والصِّفاتِ التي وَصَفَ اللهُ تعالى بها مَن أحَبَّه مِن عبادِه، يلزَمُ الاتِّصافُ بها. كما أنَّ ما ذَمَّ منها مَن مَقَتَه منهم، يجِبُ اجتِنابُه[١]، فيستحبُّ البكاءُ والتَّباكي لمن لا يقدِرُ على البكاءِ؛ فإنَّ البكاءَ عندَ القراءةِ صفةُ العارفينَ، وشعارُ عِبادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ[٢].

٢- عن عبدِ الأعلى التَّيميِّ، قال: (مَن أُوتِيَ مِن العِلمِ ما لا يُبْكيه، لَخليقٌ ألَّا يَكونَ أُوتِيَ عِلمًا يَنفَعُه؛ لأنَّ اللهَ نَعَت العُلَماءَ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾)[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ مَدْحٌ لِمَن أوجبَ له سَماعُ كتابِ اللهِ الخُشوعَ في قلْبِه[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ فيه كَمالُ غِنَى اللهِ عزَّ وجلَّ عن كلِّ أحدٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٢١-٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((الأذكار)) للنووي (ص: ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((سنن الدارمي)) (٢٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٩٧).

وانفرادُه بالمُلْكِ، وتَمامُ عِزَّتِهِ وسُلطانِه، فعلى العبدِ أن يُعَظِّمَ اللهَ سُبحانَه وتعالى بما يَستَحِقُّ أنْ يُعَظَّمَ به بقَدْرِ استطاعتِه. وفيه أيضًا أن الله تعالى يُحمدُ على تَنَزُّهِه عن العُيوبِ، كما يُحمَدُ على صِفاتِ الكَمالِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- سلَّى الله نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإيمانِ أهلِ العلمِ بهذا القرآنِ، وأمَرَه ألَّا يعبأَ بالجاهلينَ شيئًا، فقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۞ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ وهذا شَرفٌ عَظيمٌ لأهلِ العِلمِ[٢].

٢- قال تعالَى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ وعلَّلَ ذلك بقولِه: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ فهما عِلَّتانِ: أنْ يُقْرَأَ على النَّاسِ، وتلك عِلَّةٌ لجعْلِه قُرآنًا -أي في تسميتِه قرآنًا-، وأنْ يُقْرَأَ على مُكْثٍ، أي: مَهَلٍ وبُطْءٍ، وهي عِلَّةٌ لتفريقِه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ دَليلٌ على مشروعيةِ التَّسبيحِ في السُّجودِ، وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُكثِرُ أن يَقولَ في رُكوعِه وسُجودِه: سُبحانَك اللَّهُمَّ رَبَّنا وبِحَمدِك، اللَّهُمَّ

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣١).

اغفِرْ لي))[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ استَدَلَّ به الشَّافِعيُّ على استِحبابِ هذا الذِّكرِ في سُجودِ التِّلاوةِ[٢].

٥- قَولُه: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾ يقتضي تعدُّدَ المدعُوِّ، وقَولُه: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يقتضي أنَّ المدعوَّ واحِدٌ له الأسماءُ الحُسنى، وقَولُه: ﴿ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ ولم يقُل: ادعوا باسمِ اللهِ أو باسمِ الرَّحمنِ، يتضمَّنُ أنَّ المدعوَّ هو الربُّ الواحِدُ بذلك الاسمِ؛ فقد جعل الاسمَ تارةً مدعوًّا، وتارة مدعوًّا به في قَولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ فهو مدعوٌّ به باعتبارِ أنَّ المدعوَّ هو المسمَّى، وإنما يُدعَى باسمِه، وجُعِل الاسمُ مدعوًّا باعتبارِ أنَّ المقصودَ به هو المسمَّى وإن كان في اللَّفظِ هو المدعوَّ المنادى، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي: ادعُوا هذا الاسمَ أو هذا الاسمَ، والمرادُ: إذا دعَوتَه هو المسمَّى، أيَّ الاسمينِ دعوتَ ومُرادُك هو المسمَّى ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فيه ردٌّ وتعليمٌ بأنَّ تَعَدُّدَ الأسماءِ لا يقتضي تَعَدُّدَ المسمَّى، وشتَّانَ بينَ ذلك وبينَ دعاءِ المشركينَ آلهةً مختلفةَ الأسماءِ والمسَمَّياتِ[٤].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فيه استحبابُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤١).
والحديث أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢١١-٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٦).

التوسُّطِ في القراءةِ في الصَّلاةِ الجَهريَّةِ بين المبالغةِ في رَفعِ الصَّوتِ والإسرارِ[١].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قولُه: ﴿بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتِك فيها، فأُطلِقَ هنا اسمُ الكُلِّ على الجُزءِ؛ إشارةً إلى أنَّ المقصودَ الصَّلاةُ، وفي قَولِه: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] أُطلِقَ اسمُ الجزءِ على الكُلِّ؛ لأنَّ المقصودَ الأعظَمَ هناك القراءةُ في الفَجرِ[٢].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ فلم ينفِ الوليَّ نفيًا عامًّا مُطلَقًا، بل نفى أن يكونَ له وليٌّ من الذُّلِّ، وأثبت في موضعٍ آخَرَ أنَّ له أولياءَ، بقَولِه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، وقَولِه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فهذا مُوالاةُ رَحمةٍ وإحسانٍ وجَبرٍ، والموالاةُ المنفيَّةُ مُوالاةُ حاجةٍ وذُلٍّ[٣]!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أَمَرَ اللهُ بحَمدِه؛ لانتفاءِ صِفاتِ النَّقصِ عنه، وهي: اتِّخاذُ الولدِ -ونَفيُه عن اللهِ يتَضَمَّنُ مع انتِفائِه كَمالَ غِناه- ونفيُ الشَّريكِ عن اللهِ يتَضَمَّنُ كَمالَ وحدانيَّتِه وقُدْرَتِه، ونَفيُ الوليِّ عنه مِن الذُّلِّ يتضَمَّنُ كَمالَ عِزِّه وقَهْرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٩).

فقد روَى الشيخانِ مِن حديثِ ابنِ عباسٍ أنَّها نزلَت في القراءةِ في الصلاةِ، وقد تقدَّم (ص: ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٤٠).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٦٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٣٦-١٣٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٧٩).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾

- في قولِه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ ذُكِرَ فعْلُ النُّزولِ مرَّتينِ، وذُكِرَ له في كلِّ مرَّةٍ مُتعلَّقٌ مُتماثِلُ اللَّفظِ، لكنَّه مُختلفُ المعنى؛ فعُلِّقَ إنزالُ اللهِ إيَّاه بأنَّه بالحقِّ، فكان معنى الحقِّ: الثَّابت الَّذي لا ريبَ فيه ولا كذِبَ، وهو رَدٌّ لتَكذيبِ المُشركينَ أنْ يكونَ القُرآنُ وحيًا من عندِ اللهِ. وعُلِّقَ نُزولُ القُرآنِ -أي: بُلوغُه للنَّاسِ- بأنَّه بالحقِّ، فكان معنى الحقِّ الثَّاني مُقابِلَ الباطلِ، ولولا اختلافُ معنى الباءين في الآيةِ لكان قولُه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ مُجرَّدَ تأكيدٍ لقولِه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾[(١)]. وقيل: إنَّ قولَه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ توكيدٌ من حيث المعنى؛ لمَّا كان يُقال: أنزَلْتُه فنزَلَ، وأنزَلْتُه فلم ينزِلْ؛ إذا عرَضَ له مانعٌ من نُزولِه، جاء ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾؛ مُزيلًا لهذا الاحتمالِ ومُؤكِّدًا[(٢)].

- وتقديمُ المجرورِ ﴿بِالْحَقِّ﴾ في الموضعينِ على عامِلِه للقصْرِ؛ رَدًّا على المُنكرين الَّذين ادَّعَوا أنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ، أو سِحْرٌ مُبينٌ، أو نحوُ ذلك[(٣)].

- قولُه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ فيه الذِّكرُ أو التَّصريحُ بقولِه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾، وهو إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ لنُكتةٍ بَديعةٍ؛ فإنَّه لو ترَكَ الإظهارَ، وعدَلَ عنه إلى الإضمارِ -كما يَقْتضي السِّياقُ- فقال: (وبالحقِّ أنزَلْناه وبه نَزَل)، لم يكُنْ فيه من الفخامةِ ما فيه الآنَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٩- ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥١٨).

- وجُملةُ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ مُعترضةٌ بين جُملةِ ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ وجُملةِ ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾، وفيها قصْرٌ بـ(ما... إلَّا)؛ للرَّدِّ على الَّذين سألوه أشياءَ من تصرُّفاتِ اللهِ تعالى والَّذين ظنُّوا ألَّا يكونَ الرَّسولُ بشَرًا[١].

- وفي هذه الآياتِ السَّابقةِ من البلاغةِ ما يُعرَفُ بالاستطرادِ والخُروجِ من معنًى إلى معنًى؛ وهو أنْ يكونَ المُتكلِّمُ في غرَضٍ من الأغراضِ يُوهِمُ أنَّه مُستمِرٌّ فيه لم يخرُجْ منه إلى غيرِه لمُناسبةٍ بينهما، ثمَّ يرجِعُ إلى الأوَّلِ، ويقطَعُ الكلامَ. وهنا قدِ انتقَلَ سُبحانَه من كلامِه عن القُرآنِ، وأنَّ الإنسَ والجنَّ عاجزونَ عن الإتيانِ بمثْلِه في فصاحتِه وبَلاغتِه، ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظَهيرًا، انتقَلَ إلى ما في مُنطوياتِه من مُثُلٍ وعِبَرٍ وبصائرَ، وانساقَ الكلامُ إلى تعنُّتِ الكافرينَ وتَمادِيهم في اللَّجاجِ، واستِمرارِهم في الغيِّ والمُكابرةِ، وطَمْسِ الحقائقِ، وإنكارِ الوقائعِ، ثمَّ أورَدَ شاهدًا على ذلك: ما لاقاهُ مُوسى من مُكابرةِ فِرعونَ وملَئِه، وضرَبَ مثَلًا في المَغبَّةِ الَّتي نالها فِرعونُ ومَن معه، ثمَّ عاد إلى الموضوعِ الَّذي شرَعَ فيه، وهو كونُ القُرآنِ نازلًا بالحقِّ، وإليه هادفًا[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾

- قولُه: ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ في التَّعبيرِ بفعْلِ ﴿نَزَّلۡنَاهُ﴾ المُضاعفِ وتأكيدِه بالمفعولِ المُطلَقِ: إشارةٌ إلى تَفريقِ إنزالِه المذكورِ في قولِه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥١٨-٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣١).

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾

- قولُه: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ...﴾ أمْرٌ يتضمَّنُ الإعراضَ عنهم، واحتقارَهم، والازدِراءَ بهم، وعدَمَ الاكتراثِ بهم وبإيمانِهم وبامتناعِهم عنه، وأنَّهم إنْ لم يَدْخُلوا في الإيمانِ ولم يُصدِّقوا بالقُرآنِ، وهم أهلُ جاهليَّةٍ وشِرْكٍ، فإنَّ خيرًا منهم وأفضَلَ -وهم العُلماءُ الَّذين قَرؤوا الكُتبَ، وعَلِموا ما الوحيُ وما الشَّرائعُ- قد آمَنوا به وصَدَّقوه. وفيه تعريضٌ بأنَّ الَّذين أعْرَضوا عن الإيمانِ بالقُرآنِ جهلةٌ وأهلُ جاهليَّةٍ؛ فالآيةُ تَحقيرٌ للكُفَّارِ، وفي ضِمْنِه ضَرْبٌ من التَّوعُّدِ، والمعنى: أنَّكم لستُمْ بحُجَّةٍ، فسواءٌ علينا آمنْتُم أمْ كفرْتُم، وإنَّما ضَررُ ذلك على أنفُسِكم، وإنَّما الحُجَّةُ أهلُ العلْمِ. وقيل: الآية مُخلَصةٌ للوعيدِ دُونَ التَّحقيرِ، والمعنى: فسَتَرون ما تُجازونَ به[1].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ تَعليلٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ تعليلًا لقولِه: ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾، وأنْ يكونَ تعليلًا لـ ﴿قُلْ﴾، على سبيلِ التَّسليةِ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَطييبِ نفْسِه، كأنَّه قيل: تسَلَّ عن إيمانِ الجهلةِ بإيمانِ العُلماءِ. وعلى الأوَّلِ: إنْ لم تُؤْمِنوا به لقد آمَنَ به مَن هو خيرٌ منكم[2].

- قولُه: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ معنى الخُرورِ للذَّقَنِ: السُّقوطُ على الوجْهِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٩).

وإنَّما ذُكِرَ الذَّقَنُ وهو مُجتمَعُ اللَّحيَينِ؛ لأنَّ السَّاجدَ أوَّلُ ما يَلْقى به الأرضَ من وجْهِه الذَّقَنُ، وعُبِّرَ هنا باللَّامِ دونَ حرفِ الاستعلاءِ (على)، وهو ظاهرُ المعنى إذا قلْتَ: خَرَّ على وجْهِه، وعلى ذَقَنِه، فقال: ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ ولم يقُلْ: (على الأذقانِ)؛ لأنَّ المعنى: أنَّه جعَلَ ذَقَنَه ووجْهَه للخُرورِ، واختَصَّه به؛ فعُبِّرَ باللَّامِ لأنَّ اللَّامَ للاختصاصِ[1].

٤- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾

- جُملةُ ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عُطِفَت على ﴿يَخِرُّونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم يَجْمعون بين الفعْلِ الدَّالِّ على الخُضوعِ، والقولِ الدَّالِّ على التَّنزيهِ والتَّعظيمِ. على أنَّ في قولِهم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ دَلالةً على التَّعجُّبِ والبهجةِ من تَحقُّقِ وعْدِ اللهِ في التَّوراةِ والإنجيلِ بمَجيءِ الرَّسولِ الخاتمِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وجُملةُ ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ مِن تَمامِ مقولِهم، وهو المقصودُ من القولِ؛ لأنَّ تَسبيحَهم قبلَه تَسبيحُ تعجُّبٍ واعتبارٍ بأنَّه الكتابُ الموعودُ به وبرسولِه في الكُتبِ السَّابقةِ[2].

٥- قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾

- قولُه: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ فيه تَكرارُ (الأذقانِ)؛ لاختلافِ الحالَينِ، وهما: خُرورُهم في حالِ كونِهم ساجدينَ، وخُرورُهم في حالِ كونِهم باكينَ. أو الأوَّلُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٩-٧٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٤).

واقعٌ في قِراءةِ القُرآنِ أو سماعِه، والثَّاني في غيرِ ذلك[١]. أو لاختلافِ السببِ؛ فإنَّ الأوَّلَ لتعظيمِ الله سُبحانَه وتنزيهِه، وقيل: للشُّكرِ عند إنجازِ الوعدِ، والثَّاني لِمَا أثَّرَ فيهم من مواعظِ القُرآن حالَ كونِهم باكينَ من خَشيةِ اللهِ[٢].

- ومن البلاغةِ: أنَّه عقَّبَ الحالينِ بحالٍ ثالثةٍ، وهي زيادتُهم خُشوعًا كلَّما قَرؤوا، وكلَّما سَجدوا؛ فاستوفى بذلك سائرَ أحوالِهم، وهم الكَمَلةُ الَّذين أُوتوا العلْمَ، وقد أُتِيَ بالحالِ الأُولى ﴿سُجَّدًا﴾ اسمًا؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ، وإشارةً إلى دوامِ ذلِّهم بالسجودِ المشروعِ، أو بمطلقِ الخضوعِ، وقيل: لأن حالةَ السُّجودِ لمَّا كانت لا تتجدَّدُ في كلِّ وقْتٍ عُبِّرَ فيها بالاسمِ. وأُتِيَ بالحالِ الثَّانيةِ ﴿يَبْكُونَ﴾ فِعلًا؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والحُدوثِ، فكأنَّما بُكاؤهم يتجدَّدُ بتجدُّدِ الأحوالِ الطَّارئةِ والعِظاتِ المُتتاليةِ، وأيضًا لما لهم في بعضِ الأحيانِ مِن السرورِ ببعضِ ما أُبيحَ مِن الملاذِّ[٣].

٦- قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾

- قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ اختصَّ هَذَينِ الاسمَينِ بالذِّكرِ؛ لأنَّهما أصلُ بَقيَّةِ أسماءِ اللهِ تعالى[٤]، وأيضًا فهذا التَخصيصُ يدُلُّ على أنَّهما

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٥- ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٢١- ٥٢٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١/ ٣٧٩).

أشرَفُ مِن سائِرِ الأسماءِ، وتَقديمُ اسمِ (الله) على اسمِ (الرحمن) يدُلُّ على أنَّ (الله) أعظَمُ الأسماءِ[١].

- قولُه: ﴿أَيًّا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ (ما) صِلَةٌ لتأكيدِ ما في ﴿أَيًّا﴾ من الإبهامِ[٢]، وأصْلُ الكلامِ: أيًّا ما تَدْعوا فهو حَسَنٌ، فوُضِعَ مَوضِعَه ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ للمُبالغةِ والدَّلالةِ على ما هو الدَّليلُ عليه؛ إذ حُسْنُ جميعِ أسمائِه يَسْتدعي حُسْنَ ذَيْنك الاسمينِ[٣]. وقولُه: ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ عِلَّةُ الجوابِ، والتَّقديرُ: أيَّ اسمٍ من أسمائِه تَعالى تَدْعُون، فلا حرَجَ في دُعائه بعدَّةِ أسماءٍ؛ إذ له الأسماءُ الحُسنى، وإذ المُسمَّى واحدٌ[٤].

٧- قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾

- لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّه واحدٌ وإنْ تعدَّدَت أسماؤُه، أمَرَ تعالى أنْ يحمَدَه على ما أنعَمَ به عليه ممَّا آتاه من شرَفِ الرِّسالةِ والاصطِفاءِ، ووصَفَ نفْسَه بأنَّه لم يتَّخِذْ ولدًا، فيُعْتَقَد فيه تَكثُّرٌ بالنَّوعِ، وكان ذلك رَدًّا على اليهودِ والنَّصارى والعربِ الَّذين عبَدوا الأصنامَ وجعَلوها شُركاءَ للهِ، والعربِ الَّذين عبَدوا الملائكةَ واعْتَقدوا أنَّهم بناتُ اللهِ. ونَفى أوَّلًا الولدَ خُصوصًا، ثمَّ نَفى

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٧).

الشَّريكَ في مُلْكِه، وهو أعمُّ من أنْ يُنْسَبَ إليه ولدٌ فيَشْركُه أو غيرُه، ولمَّا نَفى الولدَ ونَفى الشَّريكَ نَفى الوليَّ وهو النَّاصرُ، وهو أعمُّ من أنْ يكونَ ولدًا أو شريكًا أو غيرَ شريكٍ، ولمَّا كان اتِّخاذُ الوليِّ قد يكونُ للانتصارِ والاعتزازِ به والاحتماءِ من الذُّلِّ، وقد يكونُ للتَّفضُّلِ والرَّحمةِ لمَن والَى من صالحِي عِبادِه؛ كان النَّفيُ لمَن ينتصِرُ به من أجْلِ المَذلَّةِ؛ إذ كان مَوردُ الولايةِ يحتمِلُ هذينِ الوجهينِ، فنَفى الجهةَ الَّتي لأجْلِ النَّقصِ، بخلافِ الولدِ والشَّريكِ فإنَّهما نُفِيَا على الإطلاقِ. وجاء الوصفُ الأوَّلُ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا﴾، والمعنى: أنَّه تعالى لم يُسَمِّ ولم يَعُدَّ أحدًا ولدًا، ولم يَنْفِه بجِهَةِ التَّوالُدِ؛ لاستحالةِ ذلك في بَدائِه العُقولِ، فلا يتعرَّضُ لنَفْيِه بالمنقولِ؛ ولذلك جاء: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾[1] [الجن: ٣].

- ونَفى عنه أنْ يكونَ له ما يُشارِكُه من جنْسِه ومن غيرِ جنْسِه، اختيارًا واضطرارًا، وما يُعاوِنُه ويُقوِّيه، ورتَّبَ الحمْدَ عليه؛ للدَّلالةِ على أنَّه الَّذي يستحِقُّ جنْسَ الحمدِ؛ لأنَّه الكاملُ الذَّاتِ، المُنفرِدُ بالإيجادِ، المُنعِمُ على الإطلاقِ، وما عَداهُ ناقصٌ مملوكٌ؛ نِعمةٌ، أو مُنْعَمٌ عليه، ولذلك عُطِفَ عليه قولُه: ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرًا﴾[2].

- وجُملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تَقْتضي تخصيصَه تعالى بالحمْدِ، أي: قصْرَ جنْسِ الحمْدِ عليه تَعالى؛ لأنَّه أعظَمُ مُستحِقٍّ لأنْ يُحْمَدَ، فالتَّخصيصُ ادِّعائيٌّ؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٠).

بادِّعاءِ أنَّ دَواعِيَ حمْدِ غيرِ اللهِ تعالى في جانبِ دَواعي حمْدِ اللهِ بمنزلةِ العدَمِ[١].

- في قولِه: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ وصْفٌ بنَفْيِ الولدِ والشَّريكِ والذُّلِّ بكلمةِ التَّحميدِ؛ لأنَّ مَن هذا وصْفُه هو الَّذي يقدِرُ على إيلاءِ كلِّ نِعمةٍ، فهو الَّذي يستحِقُّ جنْسَ الحمْدِ[٢].

- وفي الأمرِ بالتكبيرِ في قولِه: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ -بعد ما تقدَّم- مؤكَّدًا بالمصدرِ المنكَّرِ، مِن غيرِ تعيينٍ لما يُعَظَّمُ به تعالى؛ فيه تَنبيهٌ على أنَّ العبدَ وإنْ بالغَ في التَّنزيهِ والتَّمجيدِ، واجتهَدَ في العبادةِ والتَّحميدِ، يَنْبغي أنْ يعترِفَ بالقُصورِ عن حَقِّه في ذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ والتَّكبيرُ أبلَغُ لفظةٍ للعَرَبِ في معنى التَّعظيمِ والإجلالِ، وأُكِّدَ بالمصدرِ؛ تَحقيقًا له، وإبلاغًا في معناه[٤]، ولِمَا في التَّنوينِ من التَّعظيمِ، ولأنَّ مَن هذه صِفاتُه هو الَّذي يقدِرُ على إعطاءِ النِّعمِ الَّتي يعجِزُ غيرُه عن إسدائِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٠).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الرابعَ عشرَ

ويليه المجلدُ الخامسَ عشرَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الكهفِ

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ الإسراءِ..... ٧
أسماءُ السُّورةِ: ٧
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ٨
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ: ٨
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٩
الآيات (١-٣) ١٢
غريبُ الكَلِماتِ: ١٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٢
المَعنى الإجماليُّ: ١٣
تَفسيرُ الآياتِ: ١٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٤
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٠
الآيات (٤-٨) ٣٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٨
المعنى الإجماليُّ: ٤٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٤١
الفَوائِدُ التربويَّة: ٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٣
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٤
الآيات (٩-١١) ٥٨
المَعنى الإجماليُّ: ٥٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٣
بَلاغةُ الآياتِ: ٦٤
الآيات (١٢-١٥) ٦٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٨
المَعنى الإجماليُّ: ٦٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٨٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٨٢
بَلاغةُ الآياتِ: ٨٥
الآيات (١٦-٢١) ٩٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٩٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ٩٣
المَعنى الإجماليُّ: ٩٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٩٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٠٣

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٠٦
بَلاغةُ الآياتِ: ١١٠
الآيات (٢٢-٢٥) ١١٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ١١٦
المَعنى الإجماليُّ: ١١٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١١٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٢٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٣٠
بَلاغةُ الآياتِ: ١٣٤
الآيات (٢٦-٣١) ١٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٤٣
المَعنى الإجماليُّ: ١٤٤
تَفسيرُ الآياتِ: ١٤٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٥٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٥٧
بَلاغةُ الآياتِ: ١٦٠
الآيات (٣٢-٣٥) ١٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٦٦
المَعنى الإجماليُّ: ١٦٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٦٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٧٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٧٧
بَلاغةُ الآياتِ: ١٨٠
الآيات (٣٦-٣٩) ١٨٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٨٥
المَعنى الإجماليُّ: ١٨٥
تَفسيرُ الآياتِ: ١٨٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٩٥
بَلاغةُ الآياتِ: ١٩٨
الآيات (٤٠-٤٤) ٢٠٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٠٢
المَعنى الإجماليُّ: ٢٠٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٠٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢١٤
بَلاغةُ الآياتِ: ٢١٥
الآيات (٤٥-٤٨) ٢٢١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٢١
المَعنى الإجماليُّ: ٢٢٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٢٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٣٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٣١
بَلاغةُ الآياتِ: ٢٣٢

الآيات (٤٩-٥٢) ٢٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٣٦
المَعنى الإجماليُّ: ٢٣٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٣٧
الفَوائِدُ العلميَّةُ واللطائِفُ: .. ٢٤٧
بَلاغةُ الآياتِ: ٢٤٧
الآيات (٥٣-٥٧) ٢٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٥٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٥٢
المَعنى الإجماليُّ: ٢٥٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٥٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٦٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٦٧
بَلاغةُ الآياتِ: ٢٧٠
الآيات (٥٨-٦٠) ٢٧٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٧٦
المَعنى الإجماليُّ: ٢٧٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٧٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٨٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٨٦
بَلاغةُ الآياتِ: ٢٨٩
الآيات (٦١-٦٥) ٢٩٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٩٢
المَعنى الإجماليُّ: ٢٩٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٩٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٠٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: . ٣٠٦
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٠٨
الآيات (٦٦-٦٩) ٣١٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣١٤
المَعنى الإجماليُّ: ٣١٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٣١٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٢٢
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٢٣
الآيات (٧٠-٧٢) ٣٢٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٢٨
المَعنى الإجماليُّ: ٣٢٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٢٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٣٧
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٣٩
الآيات (٧٣-٧٧) ٣٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٤٣

مشكِلُ الإعرابِ: ٣٤٣
المَعنى الإجماليُّ: ٣٤٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٥٢
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٥٥
الآيات (٧٨-٨١) ٣٥٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٥٩
المَعنى الإجماليُّ: ٣٦٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٦١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٧٣
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٧٧
الآيات (٨٢-٨٤) ٣٨١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٨١
المَعنى الإجماليُّ: ٣٨١
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٨٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٨٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٨٩
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٩٠
الآيات (٨٥-٨٧) ٣٩٣
المَعنى الإجماليُّ: ٣٩٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٩٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٠١
بَلاغةُ الآياتِ: ٤٠٢
الآيتان (٨٨-٨٩) ٤٠٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٠٥
المَعنى الإجماليُّ: ٤٠٥
تَفسيرُ الآيتينِ: ٤٠٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٠٨
بَلاغةُ الآيتينِ: ٤٠٩
الآيات (٩٠-٩٦) ٤١٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤١٤
المَعنى الإجماليُّ: ٤١٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٤١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٢٣
بَلاغَةُ الآياتِ: ٤٢٧
الآيات (٩٧-١٠٠) ٤٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٣٣
المَعنى الإجماليُّ: ٤٣٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٣٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٤٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٤٤

بَلاغةُ الآياتِ: ٤٤٨
الآيات (١٠١-١٠٤)..... ٤٥٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٥٦
المَعنى الإجماليُّ: ٤٥٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٦٧
بَلاغةُ الآياتِ: ٤٦٩
الآيات (١٠٥-١١١)..... ٤٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٧٢
المَعنى الإجماليُّ: ٤٧٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٧٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٩٣
بَلاغةُ الآياتِ: ٤٩٦
الفهرس ٥٠٧

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٣٥ درس

التفسير الميسر للقرآن الكريم

سورة الكهف

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الخامس عشر

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الكهف)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر: المجلد الخامس عشر: سورة الكهف/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٣٩هـ

٥٢٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٣-٦٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – سورة الكهف – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٩/٨٧٨٠

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٨٧٨٠

ردمك: ٣-٦٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الكهف)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الخامس عشر

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الكَهفِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الكَهفِ

أسماءُ السُّورةِ:

وردَ لهذه السورةِ اسمانِ:

١- سورةُ الكَهفِ[١]:

فعن النَّوَّاسِ بنِ سِمْعانَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((ذَكَرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الدجَّالَ ذاتَ غَداةٍ...))، وفيه أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((فمَن أدْرَكه منكم، فليَقْرأْ عليه فواتحَ سورةِ الكهفِ))[٢].

وعن أبي الدَّرداءِ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن حَفِظَ عَشرَ آياتٍ مِن أوَّلِ[٣] سُورةِ الكَهفِ، عُصِمَ مِن الدجَّالِ))[٤].

٢- سورةُ أصحابِ الكَهفِ:

فعن النَّوَّاسِ بن سِمْعانَ رضي الله عنه، قال: ((ذكَرَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم الدجَّالَ ذاتَ غَداةٍ...))، وفيه قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((فمَن رآه

---

(١) سُمِّيَت سورةَ الكهفِ؛ لاشتمالِها على قِصَّةِ أصحابِ الكَهفِ بتَفصيلِها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٧).

(٣) قال ابنُ القيم: (واختُلِفَ فيه، فقال بعضُ الرواة: «مِن أوَّلِ سُورةِ الكَهفِ»، وقال بعضُهم: «مِن آخرِها»، وكلاهما في الصحيحِ، لكنَّ الترجيحَ لِمن قال: «من أوَّلِ سورة الكهفِ»؛ لأنَّ في «صحيح مسلم» من حديث النوَّاسِ بنِ سِمعانَ في قصَّةِ الدجَّالِ: «فإذا رأيتُموه، فاقرَؤوا عليه فواتِحَ سورةِ الكهفِ»، ولم يُختَلفْ في ذلك، وهذا يدلُّ على أنَّ مَن روى العشرَ مِن أوَّلِ السورة حَفِظَ الحديثَ، ومن روى من آخِرِها لم يحفَظْه). ((جلاء الأفهام)) (١/ ٣٢٤)، ويُنظر: ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) للألباني (٢/ ١٢٤)، و (٦/ ٣١٤).

(٤) أخرجه مسلم (٨٠٩).

منكم، فليَقرأْ فواتِحَ سُورةِ أصحابِ الكَهفِ))[١].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- أنَّ قِراءةَ سُورةِ الكَهفِ سَبَبٌ لِنُزولِ السَّكينةِ:

فعن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ الله عنهما: ((قرأ رجلٌ الكَهفَ وفي الدَّارِ الدَّابَّةُ، فجعَلَت تَنفِرُ، فسَلَّمَ، فإذا ضبابةٌ أو سَحابةٌ غَشِيَته، فذكَرَه للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: اقرأْ فلانُ؛ فإنَّها السكينةُ نَزَلت للقُرآنِ، أو تنزَّلَت للقُرآنِ))[٢].

٢- حِفظُ عَشرِ آياتٍ مِن سورةِ الكهفِ عِصمةٌ مِن الدجَّالِ:

فعن النوَّاسِ بنِ سِمْعانَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((ذَكَر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الدجَّالَ ذاتَ غَداةٍ...))، وفيه أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((فمَن أدْرَكه منكم، فليَقْرأْ عليه فواتحَ سورةِ الكَهفِ))[٣].

وعن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن حَفِظَ عَشرَ آياتٍ مِن أوَّلِ سُورةِ الكَهفِ، عُصِمَ مِن الدجَّالِ))[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٤٠)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٧٨٣).
قال الترمذي: (حسنٌ صحيحٌ غريبٌ). وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٢٤٠).
والحديث أصله في مسلم (٢٩٣٧) دون لفظة «أصحاب».

(٢) رواه البخاري (٣٦١٤)، ومسلم (٧٩٥).

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) تقدَّم تخريجه.
وسببُ قراءةِ عشرِ آياتٍ مِن أوَّل سورةِ الكهفِ على الدجَّالِ، وكونِها عصمةً منه، فيه أوجهٌ:
منها: ما في قصةِ أصحابِ الكهفِ مِن العَجَبِ والآياتِ، فمَن عَلِمَها لا يَستغرِبُ أمرَ الدَّجالِ، ولا يُفتَنُ به.
ومنها: أنَّ قولَه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢] يُهَوِّن بأسَ الدجالِ، وقولَه:

٣- أنها من السُّورِ العَتيقةِ، ومن قديمِ ما حُفِظَ عند الصَّحابةِ:

فعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّه قال: (سورةُ بني إسرائيل والكهف، ومريم وطه والأنبياء: هُنَّ مِن العِتاقِ الأُوَلِ[١]، وهُنَّ مِن تِلادي[٢])[٣].

٤- أنَّها كُلَّها مُحكَمةٌ:

وقد نُقل الإجماعُ على أنَّه ليس فيها مَنسوخٌ[٤].

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢- ٣] يُهَوِّنُ الصبرَ على فتنِ الدجالِ بما يُظهِرُ مِن نعيمِه وعذابِه، وقولَه: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤] وقولَه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥] يذمُّ فيهما مَن يدَّعي لله ولدًا، ولا مثلَ له، فكيف يدَّعي الإلهيةَ مَن هو مثلٌ للخلقِ. فقد تضمَّنت الآياتُ ما يصرفُ فتنةَ الدجَّالِ، إلى قولِه: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ ...﴾ [الكهف: ١٠] فهؤلاء قومٌ ابتُلُوا فصَبَروا وسأَلوا صلاحَ أمورِهم فأُصْلِحت، وهذا تعليمٌ لكلِّ مَدعوٍّ إلى الشِّركِ. ومنها: أنَّه قد يكونُ هذا من خصائصِ اللهِ لمن حَفِظ ذلك.

يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٣/ ١٧٧)، ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٢/ ١٦٥)، ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٩٣).

(١) العِتاق الأُوَل: أي: السُّوَر التي أُنزِلت أوَّلًا بمكةَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٧٩).

(٢) تِلادي: أي: مِن أوَّل ما أخذْتُه وتعلَّمْتُه بمكةَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٩٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٣٩).

(٤) يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لابن سلامة المقري (ص: ١١٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٤٤)، لكنْ خالف السُّدِّي وقال: إنَّ فيها آيةً واحدةً منسوخةً، وهي قولُه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ...﴾ [الكهف: ٢٩]، قال: نسخَها قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]. ونَسَبه ابنُ حزمٍ إلى قتادةَ أيضًا.

قال أبو الحسنِ السخاوي: (والذي قاله باطلٌ، والمرادُ التهديدُ لا التخييرُ، ولو فُرِضَ ما قاله لم يكُنْ قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] مُعارِضًا له). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (ص: ٤٣٠).

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الكَهفِ مَكِّيَّةٌ، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[١].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصدِ هذه السورةِ:

تصحيحُ العقيدةِ، وتصحيحُ مَنهجِ الفِكرِ والنَّظَرِ، وتصحيحُ القِيَمِ بميزانِ العقيدةِ.

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ موضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- ذِكْرُ حَمدِ الله تعالى على إنزالِه الكتابَ على عَبدِه، ووصفُ هذا الكتابِ بأنَّه قيِّمٌ لا عوجَ فيه، جاء للتبشيرِ والإنذارِ.

٢- بيانُ أنَّ ما على ظهرِ الأرضِ هو زينةٌ لها، جعَله الله اختبارًا وابتلاءً.

٣- ذِكرُ قِصَّةِ أصحابِ الكَهفِ.

٤- ذِكرُ فِتنةِ المالِ بذِكرِ خَبَرِ قِصَّةِ صاحِبِ الجنَّتَينِ.

---

(١) ممن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والفيروزابادي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٩٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٢٤٠).

قال ابنُ الجوزي: (وهذا إجماعُ المفسِّرينَ مِن غيرِ خلافٍ نعلمُه، إلَّا أنَّه قد رُوي عن ابنِ عباسٍ وقتادةَ أنَّ فيها آيةً مدنيةً وهي قولُه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ ...﴾). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٣).

وقيل: مِن أوَّلِها إلى قولِه تعالى: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ مدنيٌّ. وقيل: قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ إلى آخرِ السُّورةِ [١٠٧- ١١٠] مدنيٌّ، وباقي السورةِ مكيٌّ. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٦١).

٥- ضَربُ المَثَلِ للحياةِ الدُّنيا بما يدُلُّ على فَنائِها وذَهابِ زُخرُفِها.

٦- ذِكرُ شَيءٍ مِن مَشاهِدِ يومِ القيامةِ.

٧- بيانُ عَداوةِ إبليسَ لآدَمَ وذُرِّيَّتِه، وفِسقِه عن أمرِ رَبِّه.

٨- بيانُ سُنَّةِ اللهِ في إهلاكِ الظَّالمينَ، ورحمةِ اللهِ وإمهالِه للمُذنبينَ إلى أجَلٍ مَعلومٍ.

٩- قِصَّةُ موسى عليه السَّلامُ مع العبدِ الصَّالحِ.

١٠- قِصَّةُ ذي القَرنَينِ.

١١- إبطالُ الشِّركِ ووعيدُ أهلِه، وبيانُ ما أعدَّ الله للمؤمنينَ.

١٢- التَّمثيلُ لِسَعةِ عِلمِ الله تعالى، وبيانُ أنَّ القرآنَ وَحيٌ مِن الله تعالى إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم.

الآيات (١-٦)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عِوَجَا﴾: أي: زَيغًا وتَحريفًا، وأصْلُ (عوج): يدلُّ على المَيلِ في الشَّيءِ[١].

﴿قَيِّمًا﴾: أي: مُستَقيمًا، أو مُقَوِّمًا لأمورِ مَعاشِهم ومَعادِهم، وأصلُ (قوم): يَدُلُّ على انتِصابٍ أو عَزمٍ[٢].

﴿كَبُرَتْ﴾: أي: عَظُمَت، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[٣].

﴿بَٰخِعٌ﴾: أي: قاتِلٌ ومُهلِكٌ، وأصلُ (بخع): يَدلُّ على الجَهدِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٨)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧١).

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾: أي: مِن بَعدِ تَوَلِّيهم وإعراضِهم عنك، يقال: جئتُ على أثرِ فلانٍ، كأنَّ المرادَ أثرُ سلوكِه الطريقَ، ثم استعمل بمعنى (بَعْدَ)، فيُقال: مات فلانٌ على أثرِ فلانٍ، أي: بعدَه، وأصلُه من الأثَرِ: الذي هو العَلامةُ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ ...﴾

قولُه: ﴿قَيِّمٗا﴾: في نصبِه أوجهٌ، أحدُها: أنَّه حالٌ مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وقولُه: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل﴾ اعتراضٌ بينهما. الثاني: أنَّه حالٌ مِن الهاءِ في ﴿لَّهُۥ﴾. الثالث: أنَّه منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ، تقديرُه: (جعَلَه أو: أنزله قيِّمًا)، وجملتُه مستأنفةٌ. الرابع: أنَّه حالٌ ثانيةٌ، وقولُه: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل﴾ حالٌ أيضًا، والتقديرُ: أنزَله غيرَ جاعلٍ له عوجًا، قيمًا[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾

قوله: ﴿كَلِمَةٗ﴾: تمييزٌ منصوبٌ، والفاعلُ مُضمَرٌ، أي: كبُرَت مقالتُهم[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مفتتحًا هذه السورةَ بالثناءِ على نفسِه: الحَمدُ لله الذي أنزل على عَبدِه ورَسولِه مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم القُرآنَ، ولم يَجعَلْ فيه زيغًا

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٦٧)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٤٣٧)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٨٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٨٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٤٤٠).

أو ميلًا عن الحَقِّ، أنزله مُستَقيمًا، قائِمًا على مَصالِحِ العِبادِ، مُهيمِنًا على سائِرِ الكُتُبِ الإلهيَّةِ، مُصَدِّقًا لها، وشاهِدًا بصِحَّتِها؛ لِيُنذِرَ به الكافِرينَ عذابًا شديدًا مِن عِندِه، ويُبَشِّرَ المُؤمِنينَ الذين يَعمَلونَ الأعمالَ الصَّالِحاتِ بأنَّ لهم ثوابًا جَزيلًا، وهو الجَنَّةُ، مقيمينَ في هذا الثوابِ لا يُفارِقونَه أبدًا، ويُنذِرَ به كذلك الكافِرينَ الذين قالوا: اتَّخذَ اللهُ وَلَدًا، ما لهؤلاء المُشرِكينَ شَيءٌ مِن العِلمِ على ما يَدَّعونَه لله مِن اتِّخاذِ الوَلَدِ، كما لم يكُنْ لآبائِهم الجاهِلينَ.

ثمَّ ذمَّهم الله تعالى ذمًّا شديدًا على قولِهم هذا، فقال: عَظُمَت هذه المَقالةُ الشَّنيعةُ كلمةً تَخرُجُ مِن أفواهِهم، ما يَقولُونَ إلَّا قَولًا كاذِبًا.

ثم قال تعالى مسليًا رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِن حزنٍ بسببِ إعراضِ المشركينَ عن دعوةِ الحقِّ: فلعَلَّك -يا محمَّدُ- قاتِلٌ نَفسَك غمًّا وحُزنًا على تولِّي هؤلاء وإعراضِهم عنك، إنْ لم يُصَدِّقوا بهذا القُرآنِ ويَعمَلوا به!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

أي: الحَمدُ لله الذي أنزَلَ على عَبدِه مُحَمَّدٍ القُرآنَ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٩).

قال ابنُ عثيمين: (قولُه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ هو وصفُ المحمودِ بالكمالِ محبةً وتعظيمًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧).

وقال السعدي: (﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ هو الثناءُ عليه بصفاتِه، التي هي كلُّها صفاتُ كمالٍ، وبنعمِه الظاهرةِ والباطنةِ، الدينيةِ والدنيويةِ، وأجلُّ نِعَمِه على الإطلاقِ إنزالُه الكتابَ العظيمَ على عبدِه ورسولِه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٩). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢).

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾.

أي: أنزَلَه على عَبدِه والحالُ أنَّه لم يَجعَلْ فيه أيَّ نَوعٍ مِن المَيلِ والزَّيغِ عن الحَقِّ، والتَّناقُضِ والاختِلافِ، والخللِ في ألفاظِه ومَعانيه؛ فأخبارُه صادِقةٌ، وأحكامُه عادِلةٌ(١).

كما قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾.

﴿قَيِّمًا﴾.

أي: أنزله مُستَقيمًا(٢)، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤١، ١٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩٤، ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٢).

قال ابنُ عُثَيمين: (يجِبُ الوقوفُ على قَولِه: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾؛ لأنَّك لو وَصَلْتَ لصار في الكلامِ تناقُضٌ؛ إذ يُوهِمُ أنَّ المعنى لم يكُنْ له عِوَجٌ قَيِّمٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩). ويُنظر: ((المكتفى في الوقف والابتدا)) لأبي عمرو الداني (ص: ١٢٤)، ((إيضاح الوقف والابتداء)) لأبي بكر الأنباري (٢/ ٧٥٦).

(٢) ممَّن اختار مِنَ المُفَسِّرينَ أنَّ ﴿قَيِّمًا﴾ تعني مُستَقيمًا: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، وابنُ كثير، والشنقيطي -ونسَبه للجمهورِ-، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٠-١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩).

قائِمًا على مَصالِحِ العِبادِ في دِينهم ودُنياهم[١]، مُهيمِنًا على سائِرِ الكُتُبِ الإلهيَّةِ، مُصَدِّقًا لها، وشاهِدًا بصِحَّتِها[٢].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى أنَّه أنزَلَ على عَبْدِه الكِتابَ المَوصوفَ بهذه الصِّفاتِ المَذكورةِ؛ أردَفَه ببَيانِ ما لأجْلِه أنزَلَه[٣].

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، والضحَّاكُ، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٠).

(١) ومِمَّن اختار أنَّ المرادَ: قائمًا على هَدْيِ الأُمَّةِ، ومصالحِ العبادِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّة: الرازي، وأبو السعود، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٢٢-٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٨).

وذكَر الشنقيطي أنَّ هذا الوجهَ يستلْزِمُه الوجهُ الآتي، وهو أنَّه قَيِّمٌ على ما قبلَه مِن الكتبِ السَّماوِيَّةِ، أي: مهيمِنٌ عليها. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٢).

وممن جمَع بينَ المعاني المذكورة: البقاعي، فقال: (﴿قَيِّمًا ﴾ تصريحًا باللازمِ؛ تأكيدًا له، ومفيدًا أنَّه مهيمنٌ على ما قبلَه مِن الكتبِ، مقيمٌ لغيرِه). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤).

قال الرسعني: (قال أكثرُ العلماءِ باللغةِ والتفسيرِ: في هذه الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ، التقديرُ: أنزَل على عبدِه الكتابَ قيمًا، ولم يجعلْ له عوجًا). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٤١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٢٠)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٣).

ومِن المفسِّرينَ مَن قال: ليس في الكلامِ تقديمٌ ولا تأخيرٌ، ومنهم: الرازي، والسمين الحلبي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٢٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٢٣).

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾.

أي: أنزَلَ اللهُ القُرآنَ على نَبيِّه مُحَمَّدٍ؛ لِيُنذِرَ[١] الكافِرينَ عَذابًا شَديدًا في الدُّنيا والآخِرةِ، يأتيهم مِن عِندِ اللهِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٩].

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

أي: وأنزَلَ اللهُ القُرآنَ على نَبيِّه؛ لِيُبَشِّرَ[٣] المُؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه وبِكُلِّ ما يَجِبُ عليهم الإيمانُ به، وقد صَدَّقوا إيمانَهم بقِيامِهم بالأعمالِ الصَّالِحةِ؛ يُبَشِّرُهم بأنَّ لهم ثَوابًا عَظيمًا جَميلًا، وهو الجنةُ[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

---

(١) قال ابنُ عُثَيمين: (الضَّميرُ في قَولِه: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ يَحتمِلُ أن يكونَ عائِدًا على ﴿عَبْدِهِ﴾، ويَحتمِلُ أن يكونَ عائِدًا على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، وكلاهما صحيحٌ؛ فالكتابُ نزَل على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأجْلِ أن يُنذِرَ به، والكِتابُ نفسُه مُنذِرٌ، يُنذِرُ النَّاسَ...، والإنذارُ: هو الإخبارُ بما يُخَوِّفُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩، ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠).

(٣) قال ابنُ عثيمين: (التبشيرُ: الإخبارُ بما يسرُّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ۞ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ [الإسراء: ٩- ١٠].

﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ٣ ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم باقُونَ في الأجرِ الحَسَنِ الذي أعَدَّه اللهُ لهم، بلا زَوالٍ ولا انقِطاعٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾ [النساء: ١٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢].

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الغالبُ على الإنسانِ المخالَفةَ للأوامِرِ؛ لِما جُبِلَ عليه من النقائِصِ- كان الإنذارُ أهمَّ، فأعاده لذلك، ولأنَّ المقامَ له؛ تبكيتًا لليهودِ المضِلِّين لهؤلاء

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢).

وقال السعدي: (... فهذا الأجرُ الحَسَنُ ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ﴾ لا يزولُ عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمُهم في كُلِّ وقتٍ مُتزايدٌ، وفي ذكرِ التبشيرِ ما يقتضي ذِكرَ الأعمال الموجِبة للمُبَشَّر به، وهو أنَّ هذا القرآنَ قد اشتمل على كلِّ عملٍ صالحٍ موصِلٍ لِما تستبشرُ به النفوسُ، وتفرَحُ به الأرواحُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠).

العرَبِ ولِمن قال بمقالتِهم[١].

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾.

أي: ويُنذِرَ الكافِرينَ -الذينَ قالوا: اتَّخَذ اللهُ لِنَفسِه ولَدًا- عَذابَه الشَّديدَ في العاجِلِ والآجِلِ[٢].

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾.

أي: ما للقائِلينَ بذلك أيُّ شَيءٍ مِن العِلمِ بأنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ لنَفسِه ولَدًا، ولا لآبائِهم الجاهِلينَ مِن قَبلِهم الذين قالوا بمِثلِ قَولِهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠].

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾.

أي: عَظُمَت كَلِمتُهم هذه كَلِمةً تخرُجُ مِن أفواهِهم، بقَولِهم: اتَّخذَ اللهُ وَلَدًا،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣).

قال ابن جرير: (فلِجَهْلِهم باللهِ وعَظَمتِه قالوا ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٧).

فما أشنَعَها مِن مَقالةٍ، وما أفظَعَ اجترِاءَهم على التلَفُّظِ بها[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۞ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩١].

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

أي: ما يَقولُ القائِلونَ بنِسبةِ الوَلَدِ إلى اللهِ إلَّا كَذِبًا على اللهِ تعالى؛ فهو قَولٌ مُنافٍ للصِّدقِ، مُخالِفٌ للواقِعِ، لا حَقيقةَ له بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ[٢].

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾.

أي: فلعلَّك[٣] -يا مُحَمَّدُ- قاتِلٌ نَفسَك ومُهلِكُها؛ لشِدَّةِ الحزنِ بعدَ تَولِّيهم وإعراضِهم عنك، إن لم يُؤمِنوا بهذا القُرآنِ الذي أنزلتُه عليكَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٥).

(٣) (لعل) للترجِّي في المحبوبِ، وللإشفاقِ في المحذورِ. قيل: وُضِعَت هنا موضِعَ النَّهيِ، فالمعنى: لا تبخَعْ نَفسَك. وقيل: وُضِعَت موضِعَ الاستفهامِ، وتقديرُه: هل أنت باخِعٌ نفسَك؟ وقيل: هي تقريرٌ وتوقيفٌ بمعنى الإنكارِ عليه، أي: لا تكُنْ كذلك. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٩، ١٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٣، ٧٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٦).

ممن اختار أنَّ معنى الأسفِ: الحزنُ الشديدُ: الزمخشري، والرازي، والرسعني، والشنقيطي،

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٧ - ٨٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ خبرٌ مِن الله تعالى أنَّه حمِد نفسَه، وفي ضمنِه إرشادُ العبادِ ليحمَدوه على إرسالِ الرسولِ إليهم،

وابنُ عاشور. ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٤)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٢٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٤٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٥).

قال ابنُ عطية: (و«الأسفُ» في هذا الموضعِ: الحزنُ، لأنَّه على مَن لا يملكُه، ولا هو تحتَ يدِ الآسفِ، ولو كان الأسفُ مِن مقتدرٍ على مَن هو في قبضتِه وملكِه لكان غضبًا، كقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥] أي أغضَبونا، وإذا تأملت هذا في كلامِ العربِ اطَّرد، وذكَره منذرُ بنُ سعيدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩٦).

وقيل: ﴿أَسَفًا﴾: أي: غضبًا وحزنًا. يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢).

وقال الواحدي: (والقولانِ متقاربان؛ لأنَّ الغضبَ مِن الحزنِ؛ والحزنَ مِن الغضبِ، فإذا جاءك ما تكرهُ ممَّن هو دونَك غضِبت، وإذا جاءك ممَّن هو فوقَك حزِنت، يسمَّى أحدُهما: حزنًا، والآخرُ: غضبًا، وأصلُهما أن يصيبَك ما تكرهُ). ((البسيط)) (٩/ ٣٦٦). وينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٧).

وإنزالِ الكتابِ عليهم[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ * قَيِّمًا﴾ ذكَرَ نَفيَ العَيبِ أوَّلًا، فقال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ ثمَّ إثباتَ الكَمالِ ثانيًا، فقال: ﴿قَيِّمًا﴾، فـ «التَّخليةُ قَبلَ التَّحليةِ»، يعني: قبل أن تُحَلِّيَ الشَّيءَ أخْلِ المَكانَ عَمَّا يُنافي التحلِّيَ، ثُمَّ حَلِّه[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُفيدُ أنَّه لا بدَّ مع الإيمانِ مِن العَمَلِ الصَّالحِ، فلا يَكفي الإيمانُ وَحْدَه، بل لا بُدَّ مِن عَمَلٍ صالِحٍ؛ ولهذا قيلَ لبَعضِ السَّلَفِ: (أليس مِفتاحُ الجنَّةِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؟ يعني: فمَن أتى به فُتِحَ له، قال: بلى، ولكِنْ هل يَفتحُ المِفتاحُ بلا أسنانٍ؟!)[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ ذِكْرُ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ استِحقاقَ ذلك الأجرِ بحُصولِ هَذينِ الأمرَينِ[٤].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ قَولُه في هذه الآيةِ الكَريمةِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بَيَّنَت المرادَ به آياتٌ أُخَرُ، فدَلَّت على أنَّ العَمَلَ لا يكونُ صالِحًا إلَّا بثلاثةِ أُمورٍ:

الأوَّلُ: أن يكونَ مُطابِقًا لِما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فكُلُّ عَمَلٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠).

والأثرُ علَّقه البخاريُّ في ((صحيحه)) عن وهبِ بنِ منبِّهٍ في (كتاب الجنائز)، (الباب الأول) قبل حديث رقم (١٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٠).

مُخالِفٍ لِما جاء به صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه، فليس بصالحٍ، بل هو باطِلٌ؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ.

الثَّاني: أن يكونَ العامِلُ مُخلِصًا في عملِه لله فيما بينَه وبينَ اللهِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۞ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۞ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۞ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۞ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ [الزمر: ١١- ١٥]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ.

الثَّالِثُ: أن يكونَ العملُ مَبنيًّا على أساسِ الإيمانِ والعَقيدةِ الصَّحيحةِ؛ لأنَّ العملَ كالسَّقفِ، والعَقيدةَ كالأساسِ؛ قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [النحل: ٩٧]، فجعل الإيمانَ قَيدًا في ذلك[١].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ في هذه الآيةِ ونَحوِها عِبرةٌ؛ فإنَّ المأمورَ بدُعاءِ الخَلقِ إلى اللهِ عليه التَّبليغُ والسَّعيُ بكُلِّ سَبَبٍ يُوصِلُ إلى الهِدايةِ، وسَدِّ طُرُقِ الضَّلالِ والغَوايةِ، بغايةِ ما يُمكِنُه، مع التوكُّلِ على اللهِ في ذلك، فإن اهتَدَوا فبها ونِعْمَتْ، وإلَّا فلا يَحزَنْ ولا يأسَفْ؛ فإنَّ ذلك مُضعِفٌ للنَّفسِ، هادِمٌ للقُوَى، ليس فيه فائِدةٌ، بل يَمضِي على فِعْلِه الذي كُلِّفَ به وتَوَجَّه إليه، وما عدا ذلك فهو خارِجٌ عن قُدرتِه، وإذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ اللهُ له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٦).

[القصص: ٥٦]، وموسى عليه السَّلامُ يقولُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِي﴾ [المائدة: ٢٥] الآية، فمَن عداهم مِن بابِ أَولى وأَحرى؛ قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ * لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾[1] [الغاشية: ٢١- ٢٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ لَمَّا كان المُرادُ وَصفَ جُملةِ الكِتابِ بالإعجازِ مِن غَيرِ نَظَرٍ إلى التَّفريقِ والتَّدريجِ، عَبَّرَ بالإنزالِ دونَ التَّنزيلِ[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ رَتَّبَ استِحقاقَ الحَمدِ على إنزالِه؛ تَنبيهًا على أنَّه أعظَمُ نَعْمائِه؛ وذلك لأنَّه الهادي إلى ما فيه كَمالُ العِبادِ، والدَّاعي إلى ما به يَنتَظِمُ صَلاحُ المَعاشِ والمَعادِ[3].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ خَصَّ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالذِّكرِ؛ لأنَّ إنزالَ القُرآنِ عليه كان نِعمةً عليه على الخُصوصِ، وعلى سائِرِ النَّاسِ على العُمومِ[4].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا﴾ في وَصْفِه بالحُسنِ دَلالةٌ على أنَّه لا مُكَدِّرَ فيه ولا مُنَغِّصَ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ؛ إذ لو وُجِدَ فيه شَيءٌ مِن ذلك لم يكُنْ حُسنُه تامًّا[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢-٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٦٩).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ سَمَّى اللهُ عزَّ وجَلَّ ثوابَ الأعمالِ أجرًا؛ لأنَّها في مُقابلةِ العَمَلِ، وهذا مِن عَدْلِه جَلَّ وعَلا؛ أن يُسَمِّيَ الثَّوابَ الذي يُثيبُ به الطَّائِعَ أجرًا؛ حتى يَطمَئِنَّ الإنسانُ لِضَمانِ هذا الثَّوابِ؛ لأنَّه مَعروفٌ أنَّ الأجيرَ إذا قام بعَمَلِه فإنَّه يَستَحِقُّ الأجرَ(١).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ مَعطوفٌ على قَولِه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢]، والمعطوفُ يغايِرُ المَعطوفَ عليه؛ فالأوَّلُ عامٌّ في حَقِّ كُلِّ مَن استَحَقَّ العذابَ، والثَّاني خاصٌّ بمن أثبَتَ للهِ ولَدًا، وعادةُ القرآنِ جارِيةٌ بأنَّه إذا ذَكَرَ قَضيَّةً كُلِّيَّةً عَطَفَ عليها بعضَ جُزئيَّاتِها؛ تَنبيهًا على كَونِه أعظَمَ جُزئيَّاتِ ذلك الكُلِّيِّ، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فكذا هاهنا العَطفُ يَدُلُّ على أنَّ أقبَحَ أنواعِ الكُفرِ والمَعصيةِ إثباتُ الوَلَدِ لله تعالى(٢).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۞ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ يظهَرُ فيه كيف أبطل اللهُ تعالى قَولَهم بالتَّدريجِ والانتقالِ مِن شَيءٍ إلى أبطَلَ منه؛ فأخبر أولًا أنَّه ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ والقَولُ على اللهِ بلا عِلمٍ: لا شَكَّ في مَنعِه وبُطلانِه، ثم أخبر ثانيًا أنَّه قولٌ قَبيحٌ شَنيعٌ، فقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، ثمَّ ذكَر ثالثًا مرتبَتَه مِن القُبحِ، وهو الكَذِبُ المنافي للصِّدقِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٢٤-٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٧٠).

٨- حيث وُجِدَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ -بل وفي كلامِ العَرَبِ نَظمِه ونَثْرِه- لَفظُ (كَلِمة)؛ فإنَّما يُرادُ به المفيدُ الذي تُسَمِّيه النُّحاةُ جُملةً تامَّةً، كقَولِه تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا * مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ [الكهف: ٤-٥]، وقَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨]، وقَولِه تعالى: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾ [الفتح: ٢٦]، وقَولِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أصدَقُ كَلِمةٍ قالها شاعِرٌ كَلِمةُ لَبيدٍ:

ألا كُلُّ شَيءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ))[1].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ فيه أنَّ كُلَّ خبرٍ لا يطابِقُ المخبَرَ عنه فهو كذِبٌ، سواءٌ عَلِمَ القائِلُ بكَونِه مطابِقًا أو لم يعلَمْ؛ فإنَّه تعالى وصف قولَهم بإثباتِ الولَدِ لله بكونِه كَذِبًا، مع أنَّ الكثيرَ منهم يقولُ ذلك، ولا يعلم كونَه باطِلًا[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾

- قولُه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ جُملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تُفيدُ استحقاقَه أكمَلَ الحمدِ، فأخبَرَ أنَّ مُستحِقَّ الحمدِ هو اللهُ تعالى

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٠١).
والحديث أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٢٥-٤٢٦).

لا غيرُه، فأجْرَى على اسمِ الجَلالةِ الوصفَ بالموصولِ؛ تَنويهًا بمضمونِ الصِّلةِ، وإيذانًا بعِظَمِ شأنِ التَّنزيلِ الجليلِ، ولِمَا يُفيدُه الموصولُ من تَعليلِ الخبرِ[١].

- وموقعُ الافتتاحِ بهذا التَّحميدِ كموقعِ الخُطبةِ؛ يُفتتَحُ بها الكلامُ في الغرَضِ المُهمِّ، وافْتُتِحتْ بالتَّحميدِ على إنزالِ الكتابِ؛ للتَّنويهِ بالقُرآنِ. وأُدْمِجَ فيه إنذارُ المُعانِدين الَّذين نسَبوا للهِ ولدًا، وبِشارةُ المُؤمِنين، وتَسليةُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عن أقوالِهم، حين تريَّثَ الوحيُ لِما اقْتضَتْه سُنَّةُ اللهِ مع أوليائِه؛ من إظهارِ عتَبِه على الغَفلةِ عن مُراعاةِ الآدابِ الكاملةِ[٢].

- وآثَرَ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿عَبۡدِهِ﴾، ولم يَجِئِ التَّركيبُ: (أنزَلَ عليك)؛ لِمَا في ﴿عَبۡدِهِ﴾ من الإضافةِ المُقتضيةِ تَشريفَه[٣]، وأيضًا في التَّعبيرِ عن الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالعبْدِ مُضافًا إلى ضَميرِ الجَلالةِ: تَنبيهٌ على بُلوغِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى أعلى مَعارجِ العِبادةِ، وتَشريفٌ له أيَّ تَشريفٍ، وإشعارٌ بأنَّ شأنَ الرَّسولِ أنْ يكونَ عبدًا للمُرسِلِ، لا كما زعَمَتِ النَّصارى في حَقِّ عيسى عليه السَّلامُ[٤]، وكذلك في ذِكْرِه بوصْفِ العُبوديَّةِ للهِ: تَقريبٌ لمَنزلتِه، وتَنويهٌ به بما في إنزالِ الكتابِ عليه من رِفعةِ قدْرِه[٥].

- وتأخيرُ المفعولِ الصَّريحِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ عن الجارِّ والمجرورِ -﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٥-٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٧).

﴾- مع أنَّ حَقَّه التَّقديمُ عليه؛ ليتَّصِلَ به قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾[١].

- وجُملةُ ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ مُعترِضةٌ بين ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وبينَ الحالِ منه وهو ﴿قَيِّمًا﴾، ويجوزُ كونُ الجملةِ حالًا والوَاوِ حاليَّةً، والمقصودُ من هذه الجُملةِ المُعترِضةِ أو الحاليَّةِ: إبطالُ ما يَرْميه به المُشرِكون من قولِهم: (افتراهُ، وأساطيرُ الأوَّلينَ، وقولُ كاهنٍ)؛ لأنَّ تلك الأُمورَ لا تخْلو من عِوَجٍ؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[٢] [النساء: ٨٢].

- وفي قولِه: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ عُدِّيَ الجَعْلُ باللَّامِ دونَ (في)؛ لأنَّ العِوَجَ المعنويَّ يُناسِبُه حرْفُ الاختصاصِ (اللَّامُ) دون حرْفِ الظَّرفيَّةِ (في)؛ لأنَّ الظَّرفيَّةَ من علائقِ الأجسامِ، وأمَّا معنى الاختصاصِ فهو أعَمُّ[٣].

- ونكَّرَ ﴿عِوَجَا﴾ ليعُمَّ جميعَ أنواعِه؛ لأنَّها نكِرةٌ في سِياقِ النَّفيِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾

- قولُه: ﴿قَيِّمًا﴾ على القولِ بأنَّه قيِّمٌ بالمصالحِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ للعِبادِ؛ فيكونُ وصْفًا له بالتَّكميلِ بعدَ وصْفِه بالكمالِ. وعلى القولِ بأنَّ معنى ﴿قَيِّمًا﴾ على ما قبْلَه من الكتُبِ السَّماويَّةِ، شاهِدًا بصِحَّتِها، ومُهيمنًا عليها، أو مُتناهيًا في الاستقامةِ؛ فيكونُ قولُه: ﴿قَيِّمًا﴾ تأكيدًا لِما دَلَّ عليه نفْيُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٥).

العِوَجِ، مع إفادةِ كونِ ذلك من صِفاتِه الذَّاتيَّةِ اللَّازمةِ له، حسْبَما تُنْبِئُ عنه صِيغَةُ ﴿قَيِّمًا﴾؛ فنفْيُ العِوَجِ معناهُ إثباتُ الاستقامةِ، وإنَّما جنَحَ إلى التَّكريرِ لفائدةٍ مُنقطعةِ النَّظيرِ، وهي التَّأكيدُ والبَيانُ؛ فرُبَّ مُستقيمٍ مَشهودٍ له بالاستقامةِ، مُجمَعٍ على استقامتِه، ومع ذلك فإنَّ الفاحِصَ المُدقِّقَ قد يجِدُ له أدنى عِوَجٍ؛ فلمَّا أثبَتَ له الاستقامةَ أزال شُبْهةَ بقاءِ ذلك الأدنى الَّذي يدِقُّ على النَّظرةِ السَّطحيَّةِ الأُولى[١].

- قولُه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيه تَقديمُ الإنذارِ على التَّبشيرِ؛ لإظهارِ كَمالِ العِنايةِ بزجْرِ الكُفَّارِ عمَّا هم عليه، مع مُراعاةِ تَقديمِ التَّخليةِ على التَّحليةِ[٢]، فالمقصودُ مِن إرسالِ الرُّسُلِ إنذارُ المُذنبينَ وبِشارةُ المُطيعينَ، ولَمَّا كان دَفْعُ الضَّررِ أهَمَّ عند ذَوي العُقولِ مِن إيصالِ النَّفعِ، لا جَرَمَ قَدَّمَ الإنذارَ على التَّبشيرِ في اللَّفظِ[٣].

- وقولُه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ إيماءٌ بالتَّهديدِ للمُشرِكين بما سيَلْقونه من القتْلِ والأسْرِ بأيدي المُسلِمين، وذلك بأسٌ مِن لدُنْه تعالى؛ لأنَّه بتَقديرِه وبأمْرِه عِبادَه أنْ يفْعَلوه[٤].

- وفي قولِه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ الاقتصارُ على أحدِ مفعوليْ (أنذر)

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٩).

وهو المُنْذَرُ؛ وذلك لأنَّه جُعِلَ المُنذَرُ به هو الغرَضَ المسبوقَ إليه؛ فوجَبَ الاقتصارُ عليه، ولدلالةِ السِّياقِ عليه؛ لظُهورِ أنَّه يُنذِرُ الَّذين لم يُؤْمِنوا بهذا الكتابِ ولا بالمُنزَلِ عليه، ولدلالةِ مُقابِلِه عليه في قولِه: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثمَّ صرَّحَ بالمُنذَرِ في قولِه حين كرَّرَ الإنذارَ، فقال: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾؛ فحُذِفَ المُنْذَرُ أوَّلًا؛ لدلالةِ الثَّاني عليه، وحُذِفَ المُنذَرُ به؛ لدلالةِ الأوَّلِ عليه، وهذا من بَديعِ الحذْفِ وجَليلِ الفصاحةِ، ولمَّا لم يُكرِّرِ البِشارةَ أتى بالمُبشَّرِ والمُبشَّرِ به. وقيل: المفعولُ الأوَّلُ لـ (يُنْذِر) مَحذوفٌ لقَصْدِ التَّعميمِ، أو تَنزيلًا للفعلِ مَنزلةَ اللَّازمِ؛ لأنَّ المقصودَ المُنذَرُ به، وهو البأسُ الشَّديدُ؛ تَهويلًا له، ولتَهديدِ المُشرِكين المُنكِرين إنزالَ القُرآنِ من اللهِ[1].

- في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آثرَ صِيغَةَ الاستقبالِ في الصِّلةِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾؛ للإشعارِ بتجدُّدِ الأعمالِ الصَّالحةِ واستمرارِها، وإجراءُ الموصولِ على مَوصوفِه المذكورِ؛ لِمَا أنَّ مدارَ قَبولِ الأعمالِ هو الإيمانُ[2]، وذِكْرُ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ استحقاقَ ذلك الأجْرِ بحُصولِ ذينك الأمرينِ[3].

- ولمَّا كنَّى عن الجنَّةِ بقولِه: ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾، قال: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾، أي: مُقيمينَ فيه، فجعَلَه ظرفًا لإقامتِهم، ولَمَّا كان المُكْثُ لا يَقْتضي التَّأبيدَ، قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٢-٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٨-٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٠).

﴿أَبَدًا﴾[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ تَعليلٌ آخرُ لإنزالِ الكتابِ على عبْدِه، جُعِلَ تاليًا لقولِه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ باعتبارِ أنَّ المُرادَ هنا إنذارٌ مَخصوصٌ مُقابِلٌ لِمَا بَشَّرَ به المُؤمِنين، وهذا إنذارٌ بجَزاءٍ خالدين فيه، وهو عذابُ الآخرةِ؛ فإنْ جرَيْتَ على تَخصيصِ البأسِ في قولِه: ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ بعذابِ الدُّنيا، كان هذا الإنذارُ مُغايرًا لِما قبْلَه، وإنْ جرَيْتَ على شُمولِ البأْسِ للعذابَينِ، كانت إعادةُ فعْلِ (يُنذِر) تأكيدًا، فكان عطْفُه باعتبارِ أنَّ لمفعولِه صِفَةً زائدةً على معنى مفعولِ فعْلِ (يُنذِر) السَّابقِ، يُعْرَفُ بها الفريقُ المُنْذَرون بكِلا الإنذارَينِ، وهو يُومِئُ إلى المُنْذَرينَ المحذوفِ في قولِه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾، ويُغْني عن ذِكْرِه، وهذه العِلَّةُ أثارَتها مُناسبةُ ذِكْرِ التَّبشيرِ قبْلَها، وقد حُذِفَ هنا المُنذَرُ به؛ اعتمادًا على مُقابِلِه المُبشَّرِ به[٢].

- قولُه: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ خَصَّهم بالذِّكرِ -أي: ويُنذِرَ من بين سائرِ الكفَرةِ هؤلاء المُتفوِّهينَ بمثْلِ هذه العظيمةِ خاصَّةً-، وكرَّرَ الإنذارَ مُتعلِّقًا بفرقةٍ خاصَّةٍ ممَّن عَمَّه الإنذارُ السَّابقُ من مُستحقِّي البأسِ الشَّديدِ؛ للإيذانِ بكَمالِ فَظاعةِ حالِهم لغايةِ شَناعةِ كُفْرِهم وضَلالِهم[٣].

- والتَّعبيرُ عن هؤلاءِ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾؛ لأنَّهم قد عُرِفوا بهذه المقالةِ بين أقوامِهم وبين المُسلِمين؛ تَشنيعًا عليهم بهذه المقالةِ، وإيماءً إلى أنَّهم استحقُّوا ما أُنْذِروا به لأجْلِها ولغيرِها؛ فمضمونُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٠-٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٢).

الصِّلةِ من مُوجباتِ ما أُنْذِروا به؛ لأنَّ العِللَ تتعدَّدُ[١]؛ فترْكُ إجراءِ الموصولِ على الموصوفِ كما فعَلَ في قولِه تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ للإيذانِ بكِفايةِ ما في حيِّزِ الصِّلةِ في الكُفْرِ على أقبَحِ الوُجوهِ[٢].

- وإيثارُ صِيغَةِ الماضي ﴿قَالُواْ﴾ في الصِّلةِ؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ صُدورِ تلك الكلمةِ القبيحةِ عنهم فيما سبَقَ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾

- قولُه: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ (مِن) لتَوكيدِ النَّفيِ[٤]، وفائدةُ ذِكْرِ هذه الحالِ أنَّها أشنَعُ في كُفْرِهم، وهي أنْ يقولوا كذِبًا ليس لهم فيه شُبهةٌ؛ فأُطْلِقَ العِلْمُ على سبَبِ العلْمِ، كما دَلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾[٥] [المؤمنون: ١١٧].

- وعُطِفَ ﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ لِقَطعِ حُجَّتِهم؛ لأنَّهم كانوا يقولونَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فإذا لم يكُنْ لآبائِهم حُجَّةٌ على ما يقولون، فليسوا جَديرين بأنْ يُقلِّدوهم[٦].

- وجُملةُ: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ استئنافٌ بالتَّشاؤُمِ بذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥١). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٧).

القولِ الشَّنيعِ. وفِعْلُ ﴿كَبُرَتْ﴾ مُستعملٌ في التَّعجُّبِ مِن كُبْرِ هذه الكلمةِ في الشَّناعةِ بقَرينةِ المقامِ، ودَلَّ على قصْدِ التَّعجيبِ منها انتصابُ ﴿كَلِمَةً﴾ على التَّمييزِ؛ إذ لا يَحتمِلُ التَّمييزُ هنا معنًى غيرَ أنَّه تَمييزُ نِسبةِ التَّعجُّبِ، ووجْهُ فصْلِ الجُملةِ: أنَّها مُخالِفةٌ للَّتي قبْلَها بالإنشائيَّةِ المُخالِفةِ للخبريَّةِ[١].

- وجُملةُ ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ صِفةٌ لـ﴿كَلِمَةً﴾، مقصودٌ بها استعظامُ جُرأتِهم على النُّطقِ بها ووَقاحتِهم في قولِها[٢]، والتَّعبيرُ بالفعْلِ المُضارِعِ ﴿تَخْرُجُ﴾؛ لاستحضارِ صُورةِ خُروجِها من أفواهِهم؛ تَخييلًا لفَظاعتِها. وفيه إيماءٌ إلى أنَّ مِثلَ ذلك الكلامِ ليس له مَصدرٌ غيرُ الأفواهِ؛ لأنَّه لاستحالتِه تتلقَّاهُ وتنطِقُ به أفواهُهم، وتسمَعُه أسماعُهم، ولا تتعقَّلُه عُقولُهم؛ لأنَّ المُحالَ لا يَعتقِدُه العقْلُ ولكنَّه يتلقَّاهُ المُقلِّدُ دونَ تأمُّلٍ[٣]، فصوَّر فَظاعةَ اجترائِهم على النُّطقِ بها بقولِه تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، أي: لم يَكفِهم خُطورُها في نُفوسِهم، وتَردُّدُها في صُدورِهم، حتى تَلفَّظوا بها، وكان تلفُّظُهم بها على وجهِ التكريرِ- بما أشارَ إليه التعبيرُ بالمضارعِ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ مُؤكِّدةٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ لأنَّ الشَّيءَ الَّذي تنطِقُ به الألسُنُ، ولا تحقُّقَ له في الخارجِ ونفْسِ الأمرِ، هو الكذِبُ، أي: تخرُجُ من أفواهِهم خُروجَ الكذِبِ، فما قولُهم ذلك إلَّا كذِبٌ، أي: ليستْ له صِفةٌ إلَّا صِفةُ الكذبِ. هذا إذا جُعِلَ القولُ المأخوذُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩).

من ﴿يَقُولُونَ﴾ خُصوصَ قولِهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤]، وعلى حمْلِ ﴿يَقُولُونَ﴾ على العُمومِ في سِياقِ النَّفيِ، أي: لا يَصدُرُ منهم قولٌ إلَّا الكذبُ؛ فيكونُ قصْرًا إضافيًّا(١)، أي: ما يقولونَه في القُرآنِ والإسلامِ، أو: ما يقولونَه من مُعتقداتِهم المُخالفةِ لِما جاء به الإسلامُ؛ فتكونُ جُملةُ ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ تَذييلًا(٢).

٥- قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ باعتبارِهم مُكذِّبينَ كافرينَ؛ بقَرينةِ مُقابَلةِ المُؤمِنين بهم في قولِه: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثمَّ قولِه: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، و(لعلَّ) هنا مُستعملةٌ في تَحذيرِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من الاغتمامِ والحُزْنِ على عدَمِ إيمانِ مَن لم يُؤْمِنوا من قومِه، وذلك في معنى التَّسليةِ لقِلَّةِ الاكتراثِ بهم، وكأنَّ هذا الكلامَ سِيقَ إلى الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلمَ في آخرِ أوقاتِ رَجائِه في إيمانِهم؛ إيماءً إلى أنَّهم غيرُ صائرينَ إلى الإيمانِ، وتهيئةً لنفْسِه أنْ تتحمَّلَ ما سيَلقاه من عِنادِهم؛ رأفةً مِن ربِّه به؛ ولذلك قال: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ بصِيغَةِ الفعْلِ المُضارِعِ المُقتضيةِ الحُصولَ في المُستقبلِ، أي: إنِ استمَرَّ عدَمُ إيمانِهم(٣).

---

(١) القصرُ الإضافي: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدمِ صحةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وترددِه؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ يدورُ حولَ احتمالينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويستدلُّ عليها بالقرائنِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٣-٢٥٥).

- وفي قولِه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ تَشبيهٌ تَمثيليٌّ بليغٌ مَصونٌ عن الابتذالِ؛ حيث شبَّهَه تعالى وإيَّاهم حين تولَّوا عنه ولم يُؤْمِنوا به، وأصَرُّوا على المُكابَرةِ والعِنادِ واللَّجاجِ بالسَّفسطةِ الباطلةِ، ثمَّ ما تداخَلَه من جرَّاءِ ذلك؛ من أَسَفٍ على تولِّيهم، وإشفاقٍ عليهم لسُوءِ الأمْرِ الَّذي تؤولُ إليه أُمورُهم؛ شَبَّه ذلك سُبحانَه برجُلٍ فارَقَه أحِبَّتُه وأعِزَّتُه، فهو يتساقَطُ حَسراتٍ على آثارِهم، ويبخَعُ نفْسَه وجْدًا عليهم، وتلهُّفًا على فراقِهم، وأتى بهذه الصُّورةِ الفريدةِ صِيانةً لتَشبيهِه من الابتذالِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى أراد أنْ يُسلِّيَ نَبيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنْ يُخفِّفَ عنه ما ألَمَّ به مِن هَمٍّ وألَمٍ، فعرَضَ الموقِفَ بصِيغَةِ التَّرجِّي ﴿ فَلَعَلَّكَ ﴾، وإنْ كان المُرادُ به النَّهيَ، أي: لا تبخَعْ نفْسَك ولا تُهْلِكْها من أجْلِ غَمِّك على عدَمِ إيمانِهم[1].

- قولُه: ﴿بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ ﴾ إشارةٌ إلى القُرآنِ؛ لأنَّه لحُضورِه في الأذهانِ كأنَّه حاضرٌ في مَقامِ نُزولِ الآيةِ؛ فأُشِيرَ إليه بذلك الاعتبارِ، وأتَى باسمِ الإشارةِ (هذا) لزِيادةِ تَمييزِه؛ تَقويةً لحُضورِه في الأذهانِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٣٧-٥٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٦٩)، و(١٥/ ٢٥٣ - ٢٥٥).

الآيتان (٧-٨)

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَعِيدًا﴾: أي: ترابًا، والصعيدُ: الأملسُ المستوي، ويُطلقُ أيضًا على وجهِ الأرضِ، وأصلُ (صعد): يدلُّ على ارتفاعٍ ومشقةٍ[١].

﴿جُرُزًا﴾: أي: جَرداءَ لا نباتَ فيها، وأصلُ (جرز): يدلُّ على قَطعٍ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله سبحانه وتعالى مسلِّيًا لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم ومُثَبِّتًا له: إنَّا جَعَلْنا ما على وَجهِ الأرضِ مِن الحيواناتِ والنباتِ والجمادِ زينةً لها؛ لنختبرَ العبادَ: أيُّهم أخلصُ عملًا وأصوبُه. وإنَّا لجاعِلونَ ما على الأرضِ مِن تلك الزِّينةِ عند انقِضاءِ الدُّنيا تُرابًا مستويًا لا نباتَ فيه، فهلَّا عَمِلوا للباقي ولم يغتَرُّوا بالفاني الزَّائلِ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧/ ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩١)، ((باهر البرهان)) للنيسابوري (٢/ ٨٤٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

ارتباطُ هذه الآيةِ بما قبْلَها هو على سَبيلِ التَّسليةِ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه تعالى أخبَرَ أنَّه خلَقَ ما على الأرضِ من الزِّينةِ للابتلاءِ والاختبارِ؛ أيُّ النَّاسِ أحسَنُ عملًا، فليسوا على نمَطٍ واحدٍ في الاستقامةِ واتِّباعِ الرُّسلِ، بل لا بُدَّ أنْ يكونَ فيهم مَن هو أحسَنُ عمَلًا، ومَن هو أسوَأُ عملًا، فلا تغتَمَّ وتحزَنْ على مَن فُضِّلْتَ عليه بأنَّه يكونُ أسوَأَ عملًا، ومع كونِهم يكْفُرون بي لا أقطَعُ عنهم موادَّ هذه النِّعمِ الَّتي خلقْتُها[1].

وأيضًا فهي تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ على إعراضِ المُشرِكينَ بأنَّ اللهَ أمهَلَهم وأعطاهم زِينةَ الدُّنيا؛ لعَلَّهم يَشكُرونَه، وأنَّهم بَطِروا النِّعمةَ، فإنَّ اللهَ يَسلُبُ عنهم النِّعمةَ فتَصيرُ بلادُهم قاحِلةً، ولهذا اتِّصالٌ بِقَولِه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾[2] [الكهف: ٢].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾.

أي: إنَّا جَعَلْنا ما على وَجهِ الأرضِ من الحيواناتِ والنباتِ والجمادِ زِينةً لها[3]، فجعَلَ اللهُ تعالى الدنيا مُستطابةً في ذَوقِها، مُستَحسَنةً في مَنظَرِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٦).

(٣) قال الواحدي: (قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ بما عليها مِن الماءِ والنباتِ والأشجارِ، والمعادنِ مِن الذهبِ والفضةِ وأنواعِ الجواهرِ، ويدخلُ في هذا كلِّه ما على الأرضِ مِن ذي الرُّوحِ والجمادِ). ((الوسيط)) (٣/ ١٣٦).

وقال ابنُ عثيمين: (سَواءٌ أكانت هذه الزينةُ فيما خلَقه الله عزَّ وجلَّ وأوجَده، أم مما صنَعه الآدميُّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٨).

وقيَّد بعضُ المفسِّرينَ قولَه تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ بما يصلُحُ أن يكونَ زينةً لها، ومنهم: الزمخشري، وابنُ جزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٤)، ((تفسير ابن

وزُخرُفِها[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٥، ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أخوَفُ ما أخافُ عليكم ما يُخرِجُ اللهُ لكم مِن زَهرةِ الدُّنيا، قالوا: وما زَهرةُ الدُّنيا يا رسولَ اللهِ؟ قال: بَرَكاتُ الأرضِ))[٢].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِي الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الدُّنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ[٣]، وإنَّ اللهَ مُستَخلِفُكم فيها، فيَنظُرُ كيف تَعمَلونَ؛

جزي)) (١/ ٤٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٠).

وممن اختار العمومَ: القرطبيُّ، فقال: (والزِّينةُ كلُّ ما على وجهِ الأرضِ، فهو عمومٌ؛ لأنَّه دالٌّ على بارِئِه... والقولُ بالعمومِ أولَى، وأنَّ كلَّ ما على الأرضِ فِيه زِينَةٌ مِنْ جِهَةِ خَلْقِه وصُنْعِه وإحْكامِه). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥٤). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٨).

(٢) رواه البخاري (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢) واللفظ له.

(٣) حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ: أي: غَضَّةٌ ناعِمةٌ طيِّبةٌ، مُزَيَّنةٌ في عُيونِكم وقُلوبِكم، وإنَّما وَصَفها بالخَضِرَة؛ لأنَّ العربَ تُسَمِّي الشَّيءَ النَّاعِمَ خَضِرًا، أو لتَشَبُّهِها بالخضْرَواتِ في سُرعةِ زَوالِها. يُنظر: ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازري (٢/ ٣٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠٤٤).

فاتَّقوا الدُّنيا، واتَّقوا النِّساءَ؛ فإنَّ أوَّلَ فِتنةِ بني إسرائيلَ كانت في النِّساءِ))[١].

وعن حَكيمِ بنِ حِزامٍ رَضِي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلوةٌ))[٢].

ثمَّ بيَّن الله تعالى الحكمةَ في خلقِ الأرضِ وزينتِها[٣]، فقال:

﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

أي: جعَلْنا ما على الأرضِ زِينةً لها؛ لِنَختَبِرَ النَّاسَ: أيُّهم أصلَحُ عَمَلًا -أي: أخلَصُه لله، وأصوَبُه مِن جِهةِ مُوافَقتِه للشَّرعِ[٤]- وأزهدُ في زينةِ الدُّنيا[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٢) رواه البخاري (٦٤٤١)، ومسلم (١٠٣٥).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٧٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).

ويُنظر أيضًا: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ٣٠٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٣١٨)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٩).

قال الشوكاني: (والمرادُ بالابتلاءِ: أنَّه سبحانَه يعامِلُهم معاملةً لو كانت تلك المعاملةُ مِنْ غيرِه لكانت مِنْ قبيلِ الابتلاءِ والامتحانِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٠).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (وكان أَبي رَضِيَ اللهُ عنه يقولُ: أحسَنُ العَمَلِ: أخْذٌ بحَقٍّ، وإنفاقٌ في حَقٍّ، مع الإيمانِ، وأداءِ الفَرائضِ، واجتِنابِ المحارِمِ، والإكثارِ مِن المندوبِ إليه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩٧).

وقال القرطبي: (قلتُ: هذا قَولٌ حَسَنٌ وجيزٌ في ألفاظِه، بليغٌ في معناه، وقد جمعه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في لفظٍ واحدٍ، وهو قَولُه لسفيانَ بنِ عبدِ الله الثَّقَفيِّ لَمَّا قال: يا رسولَ الله، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحدًا بعدك- في رواية: غيرَك- قال: «قُل آمَنْتُ باللهِ ثمَّ استقِمْ». أخرجه مسلم [(٣٨)]). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥٥).

كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢].

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾.

أي: وإنَّا لِمُصَيِّرونَ ما على وَجهِ الأرضِ مِن زِينتِها تُرابًا مُستَويًا خاليًا، يابسًا لا نباتَ فيه، ولا ماءَ ولا بِناءَ[1].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٠).

قال ابنُ الجوزي: (قال المفَسِّرون: وهذا يكونُ يومَ القيامة؛ يجعَلُ اللهُ الأرضَ مُستَويةً لا نباتَ فيها ولا ماءَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٥).

صَفْصَفًا ۞ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- العملُ اليسيرُ الموافِقُ لمرضاةِ الرَّبِّ وسُنَّةِ رسولِه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم أحَبُّ إلى اللَّهِ تعالَى مِنَ العملِ الكثيرِ إذا خَلا عن ذلك أو عن بعضِه؛ ولهذا قالَ اللَّهُ تعالَى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧]، وقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧]، فهو سبحانَه وتعالى إنَّما خلَق السمواتِ والأرضَ والموتَ والحياةَ، وزيَّن الأرضَ بما عليها؛ ليبلوَ عبادَه أيُّهم أحسنُ عملًا، لا أكثرُ عملًا[(١)]، فالعِبرةُ بالأحسَنِ لا بالأكثَرِ[(٢)].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ ثمَّ بيَّن الحكمةَ، فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فإذا عَرَف العبدُ أنَّه خُلِق لأجلِ أن يُختبَرَ في إحسانِ العملِ كان حريصًا على الحالةِ التي ينجحُ بها في هذا الاختبارِ؛ لأنَّ اختبارَ ربِّ العالمينَ يومَ القيامةِ مَنْ لم ينجَحْ فيه جُرَّ إلى النَّارِ، فعدمُ النجاحِ فيه مهلكةٌ[(٣)]، ففي ذلك الحثُّ على محاسنِ الأعمالِ، والترقِّي دائمًا في مراتبِ الكمالِ[(٤)].

٣- قولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ فيه إشارةٌ إلى التَّزهيدِ

---

(١) يُنظر: ((المنار المنيف)) لابن القيم (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٩).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٠).

في الدُّنيا والرَّغبةِ عنها، وتَسليةٌ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا تَضمَّنَته أيدي المُتْرَفينَ من زينتِها؛ إذ مآلُ ذلك كلِّه إلى الفَناءِ[١]، وفيه أكبَرُ واعظٍ للنَّاسِ، وأعظَمُ زاجِرٍ عن اتِّباعِ الهَوى، وإيثارِ الفاني على الباقي[٢]؛ وذلك لأنَّ هذه الأرضَ ستعودُ صَعيدًا جُرُزًا قد ذَهَبَت لذَّاتُها، وانقَطَعت أنهارُها، واندرَسَت آثارُها، وزال نَعيمُها، هذه حقيقةُ الدُّنيا قد جَلَّاها اللهُ لنا كأنَّها رأيُ عَينٍ، وحَذَّرَنا مِن الاغترارِ بها، ورَغَّبَنا في دارٍ يَدومُ نَعيمُها، ويَسعَدُ مُقيمُها؛ كلُّ ذلك رَحمةً بنا، فاغتَرَّ بزُخرُفِ الدُّنيا وزِينتِها مَن نظَرَ إلى ظاهِرِ الدُّنيا دَونَ باطِنِها، فصَحِبوا الدُّنيا صُحبةَ البهائِم، وتمَتَّعوا بها تمتُّعَ السَّوائِم، لا يَنظُرون في حَقِّ رَبِّهم، ولا يَهتَمُّونَ لِمَعرفتِه، بل هَمُّهم تَناوُلُ الشَّهواتِ مِن أيِّ وَجهٍ حصَلَت، وعلى أيِّ حالةٍ اتَّفَقت، فهؤلاء إذا حضَرَ أحَدَهم الموتُ، قَلِقَ لِخَرابِ ذاتِه، وفَواتِ لَذَّاتِه، لا لِما قَدَّمَت يداه مِن التَّفريطِ والسَّيِّئات. وأمَّا مَن نظَرَ إلى باطِنِ الدُّنيا، وعَلِمَ المقصودَ منها ومنه؛ فإنَّه يتناوَلُ منها ما يَستَعينُ به على ما خُلِقَ له، وانتهَزَ الفُرصةَ في عُمُرِه الشَّريفِ، فجعَلَ الدُّنيا مَنزِلَ عُبور لا مَحَلَّ حُبُور، وشُقَّةَ سَفَرٍ لا مَنزِلَ إقامةٍ، فبَذَل جُهدَه في معرفةِ رَبِّه، وتنفيذِ أوامِرِه، وإحسانِ العَمَلِ؛ فهذا بأحسَنِ المنازِلِ عند الله، وهو حَقيقٌ منه بكُلِّ كَرامةٍ ونَعيم، وسُرورٍ وتَكريم، فنَظَرَ إلى باطِنِ الدُّنيا حينَ نَظَرَ المغتَرُّ إلى ظاهِرِها، وعَمِلَ لآخِرَتِه حينَ عَمِلَ البَطَّالُ لدُنياه، فشَتَّانَ ما بين الفَريقَينِ، وما أبعَدَ الفَرقَ بين الطَّائِفَتينِ[٣]!!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- اللهُ سبحانه قد عَلِمَ قبل أن يوجِدَ عبادَه أحوالَهم، وما هم عامِلون، وما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٧٠).

هم إليه صائِرون، ثمَّ أخرجهم إلى هذه الدارِ؛ لِيَظهَرَ مَعلومُه الذي عَلِمَه فيهم كما عَلِمَه، وابتلاهم مِن الأمرِ والنَّهيِ والخيرِ والشرِّ بما أظهر مَعلومه، فاستحقُّوا المدحَ والذمَّ والثوابَ والعقابَ بما قام بهم مِن الأفعالِ والصِّفاتِ المُطابِقة للعِلمِ السَّابقِ، ولم يكونوا يستَحِقُّون ذلك وهي في عِلْمِه قبل أن يَعمَلوها؛ فأرسل رسُلَه وأنزل كتُبَه وشرَعَ شرائِعَه؛ إعذارًا إليهم، وإقامةً للحُجَّةِ عليهم؛ لئلَّا يقولوا: كيف تُعاقِبُنا على عِلْمِك فينا، وهذا لا يدخل تحت كَسبِنا وقُدرتِنا؟! فلما ظهر عِلمُه فيهم بأفعالِهم حصَلَ العِقابُ على معلومِه الذي أظهره الابتلاءُ والاختبارُ، وكما ابتلاهم بأمرِه ونهيِه ابتلاهم بما زيَّنَ لهم من الدُّنيا وبما ركَّبَ فيهم من الشَّهواتِ، فذلك ابتلاءٌ بشَرعِه وأمرِه، وهذا ابتلاءٌ بقَضائِه وقَدَرِه؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧]، وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[1] [هود: ٧].

٢- قولُه تعالى: ﴿ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ قال الفضيلُ بنُ عياضٍ: (أخلصُه وأصوبُه). والخالصُ: أن يكونَ لله، والصوابُ: أن يكونَ على السنةِ، وهما أصلانِ عظيمانِ: أحدُهما: أن لا نعبدَ إلا الله، والثاني: أن لا نعبدَه إلا بما شرَع، لا نعبدُه بعبادةٍ مبتدَعةٍ، وهذان الأصلانِ هما تحقيقُ شهادةِ أن لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله[2].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٣٣).

- قولُه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ ... ﴾ استئنافٌ، وتَعليلٌ لِما في (لعلَّ) مِن معنى الإشفاقِ[١]؛ فمَوقعُ (إنَّ) في صَدْرِ هذه الجُملةِ موقعُ التَّعليلِ للتَّسليةِ الَّتي تضمَّنَها قولُه قبْلُ: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ ﴾[٢].

- وأُوثِرَ الاستدلالُ بحالِ الأرضِ الَّتي عليها النَّاسُ؛ لأنَّها أقرَبُ إلى حِسِّهم وتَعقُّلِهم[٣].

- قولُه: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيه إيرادُ صِيغَةِ التَّفضيلِ ﴿أَحْسَنُ﴾، مع أنَّ الابتلاءَ شامِلٌ للفريقينِ باعتبارِ أعمالِهم المُنقسمةِ إلى الحَسنِ والقبيحِ أيضًا، لا إلى الحَسنِ والأحسنِ فقطْ؛ للإشعارِ بأنَّ الغايةَ الأصليَّةَ للجَعلِ المذكورِ إنَّما هو ظُهورُ كَمالِ إحسانِ المُحسنينَ[٤].

- وقد جاء نظْمُ هذا الكلامِ على أُسلوبِ الإعجازِ في جمْعِ معانٍ كثيرةٍ يصلُحُ اللَّفظُ لها مِن مُختلَفِ الأغراضِ المقصودةِ؛ فإنَّ الإخبارَ عن خلْقِ ما على الأرضِ زينةً، يجمَعُ الامتنانَ على النَّاسِ، والتَّذكيرَ ببَديعِ صُنْعِ اللهِ؛ إذ وضَعَ هذا العالَمَ على أتقَنِ مثالٍ مُلائمٍ لِما تحِبُّه النُّفوسُ من الزَّينةِ والزُّخرفِ، والامتنانُ بمثْلِ هذا كثيرٌ. ولا تكونُ الأشياءُ زِينةً إلَّا وهي مبثوثةٌ فيها الحياةُ الَّتي بها نَماؤُها وازدهارُها. وهذه الزِّينةُ مُستمِرَّةٌ على وجْهِ الأرضِ منذُ رآها الإنسانُ، واستمرارُها باستمرارِ أنواعِها، وإنْ كان الزَّوالُ يعرِضُ لأشخاصِها، فتَخلُفُها أشخاصٌ أُخرى مِن نَوعِها، فيتضمَّنُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٥).

هذا امتنانًا ببَثِّ الحياةِ في الموجوداتِ الأرضيَّةِ. ومن لوازمِ هذه الزِّينةِ: أنَّها تُوقِظُ العُقولَ إلى النَّظرِ في وُجودِ مُنْشِئها، وتسبُرُ غوْرَ النُّفوسِ في مقدارِ الشُّكرِ لخالِقِها وجاعِلِها لهم، فمِن مُوفٍ بحَقِّ الشُّكرِ، ومُقصِّرٍ فيه، وجاحدٍ كافرٍ بنعمةِ هذا المُنعِمِ، ناسِبٍ إيَّاها إلى غيرِ مُوجدِها. ومن لوازمِها أيضًا: أنَّها تُثيرُ الشَّهواتِ لاقتطافِها وتناوُلِها، فتُسْتثارُ مِن ذلك مُختلَفُ الكيفيَّاتِ في تناوُلِها، وتعارُضُ الشَّهواتِ في الاستيثارِ بها، ممَّا يُفْضي إلى تغالُبِ النَّاسِ بعضِهم بعضًا، واعتداءِ بعضِهم على بعضٍ، وذلك الَّذي أوجَدَ حاجتَهم إلى الشَّرائعِ؛ لتَضبُطَ لهم أحوالَ مُعاملاتِهم؛ ولذلك علَّلَ جَعْلَ ما على الأرضِ زِينةً بقولِه: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: أفوتُ في حُسْنِ العمَلِ من عمَلِ القلْبِ الرَّاجعِ إلى الإيمانِ والكُفْرِ، وعمَلِ الجسَدِ المُتبدِّي في الامتثالِ للحقِّ والحَيدةِ عنه. فمجموعُ النَّاسِ مُتفاوتونَ في حُسنِ العملِ، ومِن دَرجاتِ التَّفاوُتِ في هذا الحُسنِ تُعلَمُ بطريقِ الفحوى درجةُ انعدامِ الحُسنِ من أصْلِه، وهي حالةُ الكُفْرِ وسُوءِ العمَلِ[(١)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ هذه الجُملةُ لتكميلِ ما في السَّابقةِ من التَّعليلِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ، أو لإدراجِ المُكلَّفينَ فيه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٥).

الآيات (٩-١٢)

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْكَهْفِ﴾: أي: الغارِ الواسعِ في الجبلِ[١].

﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾: أي: الكِتابِ، وهو فَعيلٌ بمعنى مَفعولٍ، والأصلُ فيه المرقومُ، وسُمِّيَ رَقيمًا؛ لأنَّ أسماءَ أصحابِ الكَهفِ كانت مَرقومةً -أي: مَكتوبةً- فيه. وقيل: الرقيمُ اسمُ الجبلِ الذي فيه الكهفُ، أو: اسمُ الوادي. وأصلُ (رقم): يدُلُّ على خَطٍّ وكِتابةٍ[٢].

﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾: أي: الشبابُ، جمعُ فتًى، وأصلُ (فتى) هنا: يدُلُّ على طَراوةٍ وجِدَّةٍ[٣].

﴿رَشَدًا﴾: الرَّشَدُ، والرُّشْدُ: نقيضُ الضلالِ، وهو الاهتداءُ والدَّيمومةُ عليه، وأصلُ (رشد): يدُلُّ على استقامةِ الطَّريقِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٣٨)، ((المفردات))

﴿ٱلۡحِزۡبَيۡنِ﴾: أي: الطائفتينِ، أو: الفريقينِ، والحزبُ: الجماعةُ مِنَ النَّاسِ الَّذينَ تَوافَقوا على شيءٍ واحدٍ، وأصلُ (حزب): تجمُّعُ الشَّيءِ[١].

﴿أَمَدًا﴾: أي: زَمانًا وغايةً[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾

﴿أَيُّ﴾ اسمُ استفهامٍ مبتدأٌ، وهو معلِّقٌ لفعلِ (نَعلَم) عن العمَلِ، و﴿أَحۡصَىٰ﴾ الخبَرُ، والجملةُ سدَّت مسدَّ مفعولي (نعلَم). و﴿أَحۡصَىٰ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ فِعلًا ماضيًا، وفاعِلُه ضميرُ ﴿أَيُّ﴾، و﴿أَمَدًا﴾ مفعولٌ به، و﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ﴾: متعلِّقٌ بأحصى، أو نعتٌ لـ﴿أَمَدًا﴾ قُدِّمَ عليه فصار حالًا. ويحتَمِلُ أن يكونَ ﴿أَحۡصَىٰ﴾ اسمَ تفضيلٍ مصوغًا من الرُّباعي قياسًا، على قَولِ سيبويه والزجَّاج، وعلى خلافِ القياسِ عندَ غيرهما. و﴿أَمَدًا﴾ تمييزٌ لاسمِ التَّفضيلِ تمييزُ نسبةٍ محوَّلٌ عن المفعولِ، وأصلُه أحصى أمدَ الزَّمانِ الذي لَبِثوا فيه. وقيل: محولٌ عن الفاعِلِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبينًا قصةَ أصحابِ الكهفِ: أظننتَ -يا مُحمَّدُ- أنَّ أصحابَ

للراغب (ص: ٣٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٥/ ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٤٣٧)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٨٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٤٤٨)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧).

الكَهفِ والكتابِ كانوا مِن آياتِنا العَجيبةِ؟! فإنَّ في آياتِنا ما هو أعجَبُ مِن ذلك! اذكُرْ حينَ لجأ أولئك الشُّبَّانُ إلى الكَهفِ؛ خَشيةً مِن فِتنةِ قَومِهم الكُفَّارِ لهم، فقالوا: ربَّنا أعطِنا مِن عِندِك رحمةً تُثبِّتُنا بها، ويَسِّرْ لنا أسبابًا توصِلُنا إلى ما تُحِبُّ، فألقَينا عليهم نَوْمًا ثَقيلًا عَميقًا سِنينَ كَثيرةً، ثمَّ أيقَظْناهم مِن نَومِهم؛ لنعلمَ علمَ ظهورٍ ومشاهدةٍ: أيُّ الطَّائِفَتَينِ المُتَنازِعَتَينِ في مُدَّةِ لُبثِهم أضبَطُ وأتقَنُ في الإحصاءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾.

أي: أظنَنْتَ -يا مُحمَّدُ- أنَّ أصحابَ الكَهفِ والكِتابِ[1] كانوا مِن آياتِنا

(١) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالرقيمِ: الكتابُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثير، والسعدي، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبير، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥٩).

قال ابنُ عاشور: (الرَّقيمُ: كتابٌ كان معَ أصحابِ الكهفِ في كهفِهم. قيل: كَتَبوا فيه ما كانوا يدينونَ به من التوحيدِ، وقيل: هو كتابُ دينِهم؛ دينٍ كان قبلَ عيسى عليه السلامُ. وقيل: هو دينُ عيسَى. وقيل: كَتَبوا فيه الباعِثَ الذي بعَثَهم على الالتجاءِ إلى الكهفِ فِرارًا مِن كُفرِ قَومِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٠).

وقال الشنقيطي: (أظهَرُ الأقوالِ عندي بحسَبِ اللغةِ العربيَّةِ وبَعضِ آياتِ القرآنِ: أنَّ الرقيمَ معناه: المرقومُ، فهو «فعيل» بمعنى «مفعول» من: رقَمْتُ الكتابَ: إذا كتبْتَه، ومنه قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩] سواءٌ قُلنا: إنَّ الرقيمَ كتابٌ كان عندهم فيه شَرعُهم الذي تمسَّكوا به، أو لوحٌ مِن ذهَبٍ كُتِبَت فيه أسماؤُهم وأنسابُهم وقِصَّتُهم وسبَبُ خُروجِهم، أو صخرةٌ نُقِشَت فيها أسماؤهم. والعلمُ عند الله تعالى. والظاهِرُ أنَّ أصحابَ الكَهفِ والرَّقيمِ: طائفةٌ واحِدةٌ أضيفَت إلى شيئينِ أحَدُهما معطوفٌ على الآخرِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٠٦).

العَجيبةِ؟ بل في آياتِنا ما هو أعجَبُ مِن ذلك[(١)].

وقيل: الرقيمُ: اسمُ الجبلِ الَّذي فيه كهفُهم، وممن قال بذلك مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، والحسنُ، وعطيةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٦).

وقيل: الرقيمُ: اسمُ الوادي الذي فيه الكهفُ، وممن قال بذلك مِن السلفِ: ابنُ عباس في روايةٍ عنه، وعطيةُ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، والضحاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٦).

وقال كعبٌ: هو اسمُ القريةِ التي خرَجوا منها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٦). وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٣٨٣، ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٨، ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢١).

وقال السعدي: (وليس المرادُ بهذا النَّفيِ أن تكونَ قِصَّةُ أصحابِ الكَهفِ مِن العجائِبِ، بل هي من آياتِ اللهِ العَجيبةِ، وإنَّما المرادُ أنَّ جِنسَها كثيرٌ جِدًّا؛ فالوقوفُ معها وَحدَها في مقامِ العَجَبِ والاستغرابِ: نَقصٌ في العِلمِ والعَقلِ، بل وظيفةُ المؤمِنِ التفكُّرُ بجميعِ آيات الله، التي دعا اللهُ العبادَ إلى التفكيرِ فيها؛ فإنَّها مِفتاحُ الإيمانِ، وطريقُ العلمِ والإيقانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).

وقال الشنقيطي: (أظهرُ الأقوالِ في معنى الآيةِ الكريمةِ: أنَّ اللهَ يقولُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ قِصَّةَ أصحابِ الكهفِ وإن استعظَمَها الناسُ وعَجِبوا منها، فليست شيئًا عجَبًا بالنسبةِ إلى قُدرتِنا وعظيمِ صُنعِنا؛ فإنَّ خَلْقَنا للسَّمواتِ والأرضِ، وجَعْلَنا ما على الأرضِ زينةً لها، وجعْلَنا إيَّاها بعدَ ذلك صعيدًا جُرُزًا: أعظَمُ وأعجَبُ مِمَّا فعَلْنا بأصحابِ الكهفِ، ومن كَونِنا أنَمْناهم هذا الزمَنَ الطويلَ ثمَّ بعَثْناهم). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٠٥).

وقال ابن كثير: (قال العَوفي عن ابنِ عباسٍ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ يقولُ: الذي آتيتُك مِن العِلمِ والسُّنَّة والكتابِ: أفضَلُ مِن شأنِ أصحابِ الكَهفِ والرَّقيمِ. وقال محمدُ بنُ إسحاقَ: ما أظهَرتُ مِن حُجَجي على العبادِ أعجَبُ مِن شأنِ أصحابِ الكَهفِ والرَّقيمِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٨).

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا صَغَّر اللهُ تعالى أمْرَهم بالنِّسبةِ إلى جَليلِ آياتِه، وعَظيمِ بيِّناتِه، وغَريبِ مَصنوعاتِه؛ لَخَّصَ قِصَّتَهم التي عَدُّوها عَجَبًا، وتَرَكوا الاستِبصارَ على وحدانيَّةِ الواحِدِ القَهَّارِ، بما هو العجَبُ العَجيبُ، والنَّبأُ الغَريبُ، فقال تعالى[1]:

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾.

أي: واذكُرْ حينَ لجأ أولئك الشَّبابُ إلى كَهفِ جَبَلٍ؛ خَوفًا مِن أن يَفتِنَهم قَومُهم الكُفَّارُ عن دِينِهم[2].

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾.

أي: فبادَرَ أولئك الشَّبابُ حين أَوَوا إلى الكَهفِ إلى الدُّعاءِ، فقالوا: ربَّنا أعطِنا مِن عِندِك رحمةً عَظيمةً تَرحَمُنا بها[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٥، ٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الظَّرفَ مُتعَلِّقٌ بفِعلٍ محذوفٍ تَقديرُه: (اذكر): الواحدي، والرازي، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٢).

واختار ابنُ عاشورٍ أنَّ (إذ) ظَرفٌ مُضافٌ إلى الجُملةِ بَعدَه، متعَلِّقٌ بـ﴿كَانُوا۟﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٢).

﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

أي: وأعِدَّ لنا أسبابًا وأحوالًا تكونُ عاقِبَتُها حُصولَ ما خَوَّلْتَنا مِن الثَّباتِ على الحَقِّ، والنَّجاةِ من المُشرِكينَ، وحُصُولَ العِلمِ النَّافِعِ، والعَمَلِ به، فيكونُ أمرُ دِينِنا ودُنيانا صالِحًا مُوافِقًا للصَّوابِ(١).

قيل: الرحمةُ: هي المغفرةُ والرزقُ والأمنُ مِن الأعداءِ. وممن اختار هذا القولَ: الزمخشري، والرسعني، والشوكاني، والقاسمي، واقتَصر الواحدي والقرطبي على تفسيرِها بالمغفرةِ والرزقِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٨).

ونسَب ابنُ عطيةَ تفسيرَ الرحمةِ بالرزقِ إلى المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩٩).

قال ابنُ عاشور: (سألوا رحمةً خاصَّةً وافرةً في حينِ تَوَقُّعِ ضِدِّها، وقصدوا الأمنَ على إيمانِهم مِنَ الفتنةِ، ولئلَّا يُلاقوا في اغترابِهم مشقَّةً وألمًا، وأن لا يُهينَهم أعداءُ الدِّينِ فيصيروا فتنةً للقومِ الكافرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٦١، ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٢، ٢٣).

قال الشنقيطي: (و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ فيها وجهان: أحدُهما أنها هنا للتجريدِ، وعليه فالمعنى: اجعَلْ لنا أمْرَنا رشدًا كُلَّه، كما تقول: لقيتُ مِن زيدٍ أسدًا، ومن عمرٍو بحرًا.

والثاني: أنَّها للتبعيض، وعليه فالمعنى: واجعَلْ لنا بعضَ أمْرِنا -وهو البعضُ الذي نحن فيه من مُفارقةِ الكُفَّارِ- رشَدًا، حتى نكونَ بسَبَبِه راشدين مُهتَدين). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٠٧).

وقال ابن عاشور: (الأمرُ هنا: الشأنُ والحالُ الذي يكونون فيه، وهو مجموعُ الإيمانِ والاعتصامِ إلى محَلِّ العُزلةِ عن أهلِ الشِّركِ. وقد أعدَّ الله لهم مِن الأحوالِ ما به رُشدُهم؛ فمِن ذلك صَرفُ أعدائِهم عن تتبُّعِهم، وأنْ ألهَمَهم موضِعَ الكهفِ، وأنْ كان وضعُه على جهةٍ صالحةٍ ببقاءِ أجسامِهم سليمةً، وأنْ أنامَهم نومًا طويلًا ليمضيَ عليهم الزمَنُ الذي تتغَيَّرُ فيه أحوالُ المدينةِ، وحصَل رُشدُهم إذ ثَبَتوا على الدِّينِ الحَقِّ، وشاهدوه منصورًا مُتَّبَعًا، وجعَلَهم آيةً للنَّاسِ على صِدقِ الدِّينِ، وعلى قُدرةِ الله، وعلى البَعثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٧).

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾.

أي: فألقَيْنا عليهم نَوْمًا ثَقيلًا عَميقًا لسِنينَ ذواتِ عَدَدٍ كثيرٍ(١).

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾.

أي: ثمَّ أيقَظْناهم مِن نَوْمِهم -بعدَ مُضِيِّ تلك السِّنينَ الكَثيرةِ- لنعلمَ علمًا يَظهرُ في الوجودِ(٢): أيُّ الفَريقَينِ المُختَلِفَينِ في مِقدارِ نَومِهم في الكَهفِ(٣)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧).

(٢) قال ابنُ تيميَّةَ: (أمَّا قَولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقَولُه: ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ ونحوُ ذلك؛ فهذا هو العِلمُ الذي يتعَلَّقُ بالمَعلومِ بعدَ وُجودِه، وهو العِلمُ الذي يترتَّبُ عليه المدحُ والذَّمُّ، والثَّوابُ والعِقابُ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٤٩٦).

وقال الشِّنقيطي: (معنى ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي: نعلمَ ذلك عِلمًا يُظهِرُ الحقيقةَ للنَّاسِ، فلا يُنافي أنَّه كان عالِمًا به قبلَ ذلك دونَ خَلْقِه). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٤).

(٣) قيل: هما فَريقانِ مِن أصحابِ الكَهفِ، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف: ١٩]. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الشنقيطي. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٠٨).

ويحتملُ أنَّ الحِزبَينِ مِن أهلِ زمانِهم، فاختلفوا فيهم. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩-٢٠).

قال ابن عاشور: (فالوجهُ: أنَّ المرادَ بالحزبيْنِ حِزبانِ مِنَ النَّاسِ؛ أهلِ بَلَدِهم اخْتَلَفَتْ أقوالُهم في مُدَّةِ لُبْثِهم بعدَ أنْ علموا انبعاثَهم مِنْ نومَتِهم، أحدُ الفريقينِ مصيبٌ والآخَرُ مخطِئٌ، واللَّهُ يعلمُ المصيبَ منهم والمخْطِئَ، فهما فريقانِ في جانِبَيْ صوابٍ وخطأٍ كما دلَّ عليه قولُه: ﴿أَحْصَىٰ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٩).

وجمع ابنُ عثيمين بين القَولينِ فقال: (تنازعوا أمْرَهم فقالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وقال

أضبَطُ وأتقَنُ في حِسابِ تلك المُدَّةِ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ فيه لفتٌ للعقولِ عن الاشتغالِ بعجائبِ القصصِ إلى أنَّ الأوْلَى الاتِّعاظُ بما فيها مِن العبرِ والأسبابِ وآثارِها؛ ولذلك ابْتُدِئَ ذكرُ أحوالِهم بقولِه: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ فأعْلَم النَّاسَ بثباتِ إيمانِهم باللَّهِ ورَجائِهم فيه، وبقولِه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ...﴾ الآياتِ [الكهف: ١٣]، الدَّالِّ على أنَّهم أبْطَلوا الشِّرْكَ، وسَفَّهوا أهلَه؛ تعريضًا بأنَّ حقَّ السَّامِعينَ أنْ يَقْتَدوا بهُداهم[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ هذه الآيةُ صَريحةٌ في الفِرارِ بالدِّينِ، وهِجرةِ الأهلِ والبَنينَ، والقَراباتِ والأصدقاءِ، والأوطانِ والأموالِ؛ خَوفَ الفِتنةِ وما يَلقاه

آخرون: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، ثمَّ الناسُ مِن بعدِهم اختلفوا كم لَبِثوا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٥).

وقيل: المرادُ بالحزبينِ: أصحابُ الكهفِ، والحزبُ الثاني هم أهلُ المدينةِ الذين بُعِث الفتيةُ على عهدِهم. وهذا الذي استَظْهَره القرطبي، ونسَب القولَ به إلى جمهورِ المفسِّرينَ، واختاره ابنُ جزي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٦، ١٧٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).

قال السعدي: (وفي العِلمِ بمِقدارِ لُبثِهم ضَبطٌ للحِسابِ، ومعرفةٌ لكَمالِ قُدرةِ الله تعالى وحِكمتِه ورَحمتِه، فلو استمَرُّوا على نَومِهم، لم يحصُلِ الاطِّلاعُ على شَيءٍ مِن ذلك من قِصَّتِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٩).

الإنسانُ مِن المِحنةِ، وقد خرج النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فارًّا بدِينِه وكذلك أصحابُه، وجلس في الغارِ -وقد نَصَّ اللهُ تعالى على ذلك في سورةِ «التَّوبة»- وهَجَروا أوطانَهم، وتَرَكوا أرْضَهم وديارَهم، وأهاليَهم وأولادَهم، وقَراباتِهم وإخوانَهم؛ رجاءَ السَّلامةِ بالدِّينِ، والنَّجاةِ مِن فِتنةِ الكافرينَ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ جَمَعوا بين السَّعيِ والفرارِ مِن الفِتنةِ إلى محَلٍّ يُمكِنُ الاستِخفاءُ فيه، وبين تَضَرُّعِهم وسُؤالِهم لله تَيسيرَ أُمورِهم، وعَدَمِ اتِّكالِهم على أنْفسِهم وعلى الخَلقِ؛ فلذلك استجابَ اللهُ دُعاءَهم، وقَيَّضَ لهم ما لم يَكُنْ في حِسابِهم[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ الشُّبَّانُ أقبَلُ للحَقِّ وأهدى للسَّبيلِ مِن الشُّيوخِ[٣]؛ ولهذا كان أكثرُ المستجيبينَ لِلَّه ولرَسولِه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ شَبابًا، وأَمَّا المشايخُ مِنْ قُرَيْشٍ فعامَّتُهم بَقُوا علَى دينِهم، ولم يُسْلِمْ منهم إلَّا القليلُ. وهكذا أخبرَ تعالَى عن أصحابِ الكهفِ أنَّهم كانوا فتيةً شبابًا[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ خَصَّصَ سُبحانَه وتعالى الآذانَ بالذِّكرِ؛ لأنَّها الجارِحةُ التي منها عُظْمُ فَسادِ النَّومِ، وقَلَّما يَنقَطِعُ نَومُ نائمٍ إلَّا مِن جِهةِ أُذُنِه، ولا يَستَحكِمُ نَومٌ إلَّا مع تعَطُّلِ السَّمعِ، ومِن

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٠).

ذِكرِ الْأُذُنِ في النَّومِ قَولُه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ذلك رجُلٌ بال الشَّيطانُ في أُذُنِه))[١]، أشار عليه السَّلامُ إلى رجُلٍ طَويلِ النَّومِ لا يَقومُ باللَّيلِ[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ في النَّومِ المَذكورِ حِفظٌ لقُلوبِهم من الاضطرابِ والخَوفِ، وحِفظٌ لهم مِن قَومِهم، ولِيَكونَ آيةً بَيِّنةً[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ فيه دَليلٌ على صِحَّةِ القَولِ بالكَراماتِ[٤]؛ فإنَّ بقاءَهم ثلاثَمِئةِ سَنةٍ بلا آفةٍ: مِنْ أعظمِ الخوارقِ[٥].

٥- قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ سَمَّى سُبحانَه وتعالى الاستِيقاظَ مِن النَّومِ بَعثًا؛ لأنَّ النَّومَ وَفاةٌ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾[الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾[الزمر: ٤٢]؛ فالنَّومُ وَفاةٌ[٦].

٦- قولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ المقصودُ من هذه القِصَّةِ إثباتُ البعثِ بعدَ الموتِ؛ فكان في ذِكْرِ لفظِ (البَعثِ) تَنبيهٌ على أنَّ في هذه الإفاقةِ دليلًا على

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٤)، ومسلم (٧٧٤) من حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((لوامع الأنوار البهية)) للسفاريني (٢/ ٣٩٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٣-٢٤).

إمكانِ البَعثِ وكيفيَّتِه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾

- قولُه: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ (أمْ) للإضرابِ الانتقاليِّ من غرَضٍ إلى غرضٍ[٢]، ولمَّا كان هذا من المقاصِدِ الَّتي أُنزِلَتِ السُّورةُ لبَيانِها، لم يكُنْ هذا الانتقالُ اقتضابًا، بلْ هو كالانتقالِ من الدِّيباجةِ والمُقدِّمةِ إلى المقصودِ، على أنَّ مُناسبةَ الانتقالِ إليه تتَّصِلُ بقولِه تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]؛ إذ كان ممَّا صرَفَ المُشرِكين عن الإيمانِ إحالتُهم الإحياءَ بعدَ الموتِ، فكان ذِكْرُ أهْلِ الكهفِ وبعْثِهم بعدَ خُمودِهم سِنينَ طويلةً مِثالًا لإمكانِ البعْثِ[٣].

- والاستفهامُ المُقدَّرُ بعدَ (أمْ) تَعجبيٌّ، والتَّقديرُ: أحسِبْتَ أنَّ أصحابَ الكهفِ كانوا عجَبًا من بينِ آياتِنا، أي: أعجَبَ من بقيَّةِ آياتِنا؛ فإنَّ إماتةَ الأحياءِ بعدَ حياتِهم أعظَمُ من عجَبِ إنامةِ أهْلِ الكهفِ؛ لأنَّ في إنامتِهم إبقاءً للحياةِ في أجسامِهم، وليس في إماتةِ الأحياءِ إبقاءٌ لشَيءٍ من الحياةِ فيهم على كثرتِهم وانتشارِهم. وهذا تَعريضٌ بغَفلةِ الَّذين طَلبوا من النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلمَ بَيانَ قِصَّةِ أهْلِ الكهفِ لاستعلامِ ما فيها من العجَبِ، بأنَّهم سَألوا عن عجيبٍ، وكَفروا بما هو أعجَبُ، وهو انقراضُ العالَمِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٥٩).

- ومعنى ﴿مِنۡ﴾ في قولِه: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَا﴾ التَّبعيضُ، أي: ليست قِصَّةُ أهْلِ الكهْفِ مُنفردةً بالعجَبِ من بينِ الآياتِ الأُخرى. أو تُجعَلُ للظَّرفيَّةِ، أي: كانوا عجبًا في آياتِنا، أي: وبقيَّةُ الآياتِ ليست عجَبًا، وهذا نِداءٌ على سُوءِ نظَرِهم؛ إذ يُعلِّقون اهتمامَهم بأشياءَ نادرةٍ، وبين يدَيْهم من الأشياءِ ما هو أجدَرُ بالاهتمامِ[1].

- قولُه: ﴿كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ أخبرَ عن أصحابِ الكهفِ بالعجَبِ، وإنَّما العجَبُ حالُهم في قومِهم، فثَمَّ مُضافٌ مَحذوفٌ يدُلُّ عليه الكلامُ، وأيضًا أخبَرَ عن حالِهم بالمصدَرِ ﴿عَجَبًا﴾؛ مُبالغةً، والمُرادُ (عَجيب)[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾

- قولُه: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ (إذ) ظرفٌ مُضافٌ إلى الجُملةِ بعدَه، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿كَانُواْ﴾ [الكهف: ٩]، فتكونُ هذه الجُملةُ مُتَّصلةً بالَّتي قبلها. أو مُتعلِّقٌ بفعْلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: (اذْكُر)؛ فتكونُ مُستأنَفةً استئنافًا بَيانيًّا للجُملةِ الَّتي قبْلها، والمقصودُ على كِلا الأمرينِ: إجمالُ قِصَّتِهم ابتداءً؛ تَنبيهًا على أنَّ قِصَّتَهم ليست أعجَبَ آياتِ اللهِ، مع التَّنبيهِ على أنَّ ما أكرَمَهم اللهُ به من العِنايةِ إنَّما كان تأييدًا لهم لأجْلِ إيمانِهم؛ فلذلك عُطِفَ عليه قولُه: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾[3].

- قولُه: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ فالفتيةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٦٥).

هم أصحابُ الكهْفِ المَذكورونَ في الآيةِ الَّتي قبْلُ، ومُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (إذ أوَوا)؛ فعُدِلَ عن ذلك لِما يدُلُّ عليه لفظُ ﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾ من كونِهم أترابًا مُتقاربي السِّنِّ، وذِكْرُهم بهذا الوصفِ؛ للإيماءِ إلى ما فيه من اكتمالِ خُلقِ الرُّجوليَّةِ المُعبَّرِ عنه بالفُتوَّةِ الجامعِ لمعنى سَدادِ الرَّأيِ، وثَباتِ الجأْشِ، والدِّفاعِ عن الحقِّ؛ ولذلك عُدِلَ عن الإضمارِ فلم يُقَلْ: (إذ أوَوا إلى الكهفِ)[1]. وقيل: إنَّما أُبرِزَ الضميرُ لبيانِ أنَّهم شُبَّانٌ ليسوا بكَثيري العَددِ؛ فليستْ لهم أسنانٌ استفادوا بها من التَّجارِبِ والتعلُّمِ ما اهتَدَوا إليه من الدِّين والدُّنيا، ولا كثرةٌ حُفِظوا بها ممَّن يُؤذيهم أيقاظًا ورُقودًا[2].

- قولُه: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ دلَّتِ الفاءُ في جُملةِ ﴿فَقَالُواْ﴾ على أنَّهم لمَّا أوَوا إلى الكهف، بادروا بالابتهالِ إلى اللهِ، ودَعوا اللهَ أنْ يُؤتِيَهم رحمةً من لَدُنْه، وذلك جامعٌ لخيرِ الدُّنيا والآخرةِ، أي: أنْ يمُنَّ عليهم برحمةٍ عظيمةٍ تُناسِبُ عِنايتَه باتِّباعِ الدِّينِ الَّذي أمَرَ به؛ فزيادةُ ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ للتَّعلُّقِ بفعْلِ الإيتاءِ تُشيرُ إلى ذلك؛ لأنَّ في (مِن) معنى الابتداءِ، وفي (لَدُن) معنى العِنديَّةِ والانتسابِ إليه؛ فذلك أبلَغُ ممَّا لو قالوا: (آتِنا رحمةً)، ثمَّ سألوا اللهَ أنْ يُقدِّرَ لهم أحوالًا تكونُ عاقِبتُها حُصولَ ما خوَّلَهم من الثَّباتِ على الدِّينِ الحقِّ، والنَّجاةَ من مُناوأةِ المُشرِكين؛ فعُبِّرَ عن ذلك التَّقديرِ بالتَّهيئةِ الَّتي هي إعدادُ أسبابِ حُصولِ الشَّيءِ[3].

- وفي قولِه: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ تَقديمُ المُجرورَين -﴿لَنَا﴾ و﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾- على المفعولِ الصَّريحِ ﴿رَشَدًا﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٦).

لإظهارِ الاعتناءِ بهما، وإبرازِ الرَّغبةِ في المُؤخَّرِ بتقديمِ أحوالِه؛ فإنَّ تأخيرَ ما حقُّه التَّقديمُ عمَّا هو من أحوالِه المُرغِّبةِ فيه، كما يُورِثُ شوقَ السَّامعِ إلى وُرودِه، يُنْبِئُ عن كَمالِ رَغبةِ المُتكلِّمِ فيه، واعتنائِه بحُصولِه لا مَحالةَ، وكذا الكلامُ في تَقديمِ قولِه تعالى: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ على تَقديرِ تعلُّقِه بـ ﴿ءَاتِنَا﴾. وتَقديمُ ﴿لَنَا﴾ على ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾؛ للإيذانِ من أوَّلِ الأمْرِ بكونِ المَسؤولِ مرغوبًا فيه لدَيْهم[(١)].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ تَفريعُ هذه الجُملةِ بالفاءِ إمَّا على جُملةِ دُعائِهم ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ...﴾؛ فيُؤذِنُ بأنَّ مَضمونَها استجابةُ دَعوتِهم، فجعَلَ اللهُ إنامتَهم كرامةً لهم، بأنْ سلَّمَهم من التَّعذيبِ بأيدي أعدائِهم، وأيَّدَ بذلك أنَّهم على الحقِّ، وأرى النَّاسَ ذلك بعدَ زمَنٍ طويلٍ. وإمَّا على جُملةِ ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ ...﴾؛ فيُؤذِنُ بأنَّ اللهَ عجَّلَ لهم حُصولَ ما قَصَدوه ممَّا لم يكُنْ في حُسبانِهم[(٢)].

- وحُذِفَ مفعولُ ﴿فَضَرَبْنَا﴾ لظُهورِه، أي: ضرَبْنا على آذانِهم غِشاوةً أو حائلًا عن السَّمعِ، كما يُقال: بنى على امرأتِه، تَقديرُه: بنى بيتًا[(٣)].

- قولُه: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ الضَّربُ على الآذانِ كِنايةٌ عن الإنامةِ؛ لأنَّ النَّومَ الثَّقيلَ يَستلزِمُ عدَمَ السَّمعِ؛ لأنَّ السَّمعَ السَّليمَ لا يَحجُبُه إلَّا النَّومُ، بخِلافِ البَصرِ الصَّحيحِ، فقد يُحْجَبُ بتَغميضِ الأجفانِ، وهذه الكِنايةُ من

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٤).

خَصائصِ القُرآنِ لم تكُنْ معروفةً قبْلَ هذه الآيةِ، وهي من الإعجازِ[١]. وعُبِّرَ بالضَّربِ؛ ليدُلَّ على قُوَّةِ المُباشَرةِ واللُّصوقِ واللُّزومِ[٢].

- قولُه: ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ فيه وصْفُ السِّنينَ بـ﴿عَدَدًا﴾، وهو للتَّكثيرِ؛ لأنَّه لا يُحْتاجُ أنْ يُعَدَّ إلَّا ما كثُرَ لا ما قَلَّ، وهو الأنسبُ بإظهارِ كَمالِ القُدرةِ. وقيل: للتَّقليلِ، وهو الأليقُ بمَقامِ إنكارِ كونِ القِصَّةِ عجَبًا من بين سائرِ الآياتِ العجيبةِ؛ فإنَّ مُدَّةَ لُبْثِهم كبعضِ يومٍ عنده عَزَّ وجَلَّ[٣]. وقد أُجْمِلَ العددُ هنا تَبعًا لإجمالِ القصَّةِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٨).

الآيات (١٢-١٥)

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾: أي: ثبَّتْنا قلوبَهم، وألْهَمناهم الصَّبرَ، وأصلُ (ربط): يدُلُّ على شَدٍّ وثَباتٍ[١].

﴿شَطَطًا﴾: أي: قَولًا جائِرًا بعيدًا عن الحَقِّ، وأصلُ (شطط): يدُلُّ على البُعدِ[٢].

﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾: أي: بحُجَّةٍ، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقَهرُ، مِن التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

بعدَ أن أجمَل الله تعالى الكلامَ عن أصحابِ الكهفِ أخَذ يُفصِّلُ قصتَهم، فقال تعالى: نحن نَقُصُّ عليك -يا مُحَمَّدُ- خبَرَ أصحابِ الكَهفِ بالصِّدقِ، إنَّ أصحابَ الكَهفِ شَبابٌ آمنوا باللهِ، وزِدْناهم ثَباتًا وهُدًى، وثبَّتْنا قُلوبَهم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦٥)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ١٠٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

بالإيمانِ، حين قاموا فقالوا: رَبُّنا هو رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ، لن نَعبُدَ غَيرَه مِن الآلهةِ، لو عَبَدْنا غيرَه لكُنَّا قد قُلْنا قَولًا جائِرًا بعيدًا عن الصَّوابِ والحَقِّ، هؤلاء قَومُنا اتَّخَذوا آلِهةً غَيرَ اللهِ تعالى، فهلَّا يأتونَ بدَليلٍ واضِحٍ على صِحَّةِ عبادتِهم لها، فلا أحَدَ أشَدُّ ظُلْمًا ممَّن اختَلَقَ على اللهِ الكَذِبَ، فادعى شريكًا له في الألوهيةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: نحن -يا مُحَمَّدُ- لا غَيرُنا نَروي لك خبَرَ أصحابِ الكَهفِ بالصِّدقِ المُطابِقِ للواقِعِ، واليَقينِ الذي لا شَكَّ فيه[1].

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴾.

أي: إنَّ أصحابَ الكَهفِ شَبابٌ آمنُوا باللهِ حقًّا[2]، فوحَّدُوه ولم يُشرِكُوا به شَيئًا[3].

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٨، ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٦).

(٢) قال ابن كثير: (ذُكِرَ أنَّهم كانوا على دينِ عيسى ابنِ مريمَ عليه السلام، والله أعلم. والظَّاهِرُ أنَّهم كانوا قبل مِلَّةِ النصرانيَّة بالكليَّةِ؛ فإنَّهم لو كانوا على دينِ النصرانيَّة لما اعتنى أحبارُ اليهود بحِفظِ خَبرِهم وأمْرِهم؛ لِمُباينتِهم لهم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).

أي: وبسَبَبِ أصلِ اهتدائِهم مِن قَبلُ إلى الإيمانِ، زِدْنَاهم إيمانًا، وعِلمًا بالحقِّ، وعملًا صالحًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧].

﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤﴾.

﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾.

أي: وشَدَدْنا على قُلوبِهم، وثَبَّتْناها بالإيمانِ والصَّبرِ، فاشتَدَّ عَزمُهم، وقَوِيَ صَبْرُهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

﴿إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا﴾.

أي: رَبَطْنا على قُلوبِهم حِينَ[٣] قاموا لله، فقالوا مُعلِنينَ الحَقَّ[٤]: رَبُّنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٤)، ((تفسير الكهف)) لابن عثيمين (ص: ٢٦).

(٣) قال ابنُ عاشور: (﴿إِذۡ قَامُواْ﴾ ظَرفٌ للرَّبطِ، أي: كان الرَّبطُ في وَقتِ قيامِهم، أي: كان ذلك الخاطِرُ الذي قاموا به مُقارِنًا لِرَبطِ الله على قُلوبِهم، أي: لولا ذلك لَمَا أقدَموا على مِثلِ ذلك العَمَلِ وذلك القَولِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٢).

(٤) قيل: قاموا بين يَدَي مَلِكِهم. وممَّن قال بهذا: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٩).

الذي خَلَقَنا ويَملِكُنا ويَرزُقُنا ويُدَبِّرُ أمورَنا، هو الرَّبُّ المتفَرِّدُ بخَلقِ السَّمواتِ والأرضِ ومِلْكِها وتَدبيرِها، لن نَعبُدَ[1] غَيرَه أبدًا؛ فهو الإلهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شريكَ له[2].

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾.

أي: لو دَعَوْنا غيرَ اللهِ لَكُنَّا قد أفرَطْنا وغَلَوْنا في قَولِ الكَذِبِ، والتحَدُّثِ بالباطِلِ والبهتانِ[3].

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَحَّد هؤلاء الفِتيةُ اللهَ تعالى، ورَفَضوا ما دُونَه مِن الآلهةِ، وذكَروا ما مَنَّ

وقيل: قاموا في قَومِهم. وممن قال بذلك: ابنُ عثيمين، وذكره ابنُ عاشورٍ احتمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٢).

قال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ﴾ يحتَمِلُ مَعنَيينِ؛ أحدُهما: أن يكونَ هذا وَصفَ مُقامِهم بينَ يَدَيِ المَلِك الكافِرِ؛ فإنَّه مقامٌ يَحتاجُ إلى الرَّبطِ على القَلبِ؛ حيث صَلُبوا عليه، وخالفوا دينَه، ورَفَضوا في ذاتِ اللهِ هَيبَتَه، والمعنى الثاني: أن يُعَبَّرَ بالقيامِ عن انبعاثِهم بالعَزمِ إلى الهُروبِ إلى الله، ومُنابَذةِ النَّاسِ، كما تقولُ: قام فلانٌ إلى أمرِ كذا: إذا اعتَزَم عليه بغايةِ الجِدِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠١).

(١) قال ابنُ عثيمين: (﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا﴾ لن نَدعُوَ -دُعاءَ مسألةٍ ولا دُعاءَ عِبادةٍ- إلَهًا سِواه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٩)، ((تفسير القشيري)) (٢/ ٣٨١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٦، ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٥، ٢١٦).

اللهُ به عليهم مِن الإيمانِ والهُدى؛ التَفَتوا إلى ما كان عليه قَومُهم مِن اتِّخاذِ الآلِهةِ مِن دونِ اللهِ، وأخَذُوا في ذَمِّهم وسُوءِ فِعلِهم، وأنَّهم لا حُجَّةَ لهم في عبادةِ غيرِ الله، ثمَّ عَظَّموا جُرْمَ مَن افترى على اللهِ كَذِبًا[١].

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ ﴾.

أي: قال الفِتيةُ المُؤمِنونَ[٢]: هؤلاءِ أهلُ عَصْرِنا وبَلَدِنا اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ آلِهةً يَعبُدونَها[٣].

﴿ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖ ﴾.

أي: فهلَّا يأتي قَومُنا بحُجَّةٍ واضِحةٍ تدُلُّ على صَوابِ عِبادةِ تلك الآلهةِ التي يَتَّخِذونَها[٤]؟!

﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

أنَّه تسَبَّبَ عن عَجزِهم عن دَليلٍ أنَّهم أظلَمُ الظَّالِمينَ؛ لافتِعالِهم الكَذِبَ عن مَلِكِ المُلوكِ ومالِكِ المُلكِ؛ فلذلك قالوا[٥]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢).

(٢) قال ابنُ عطيةَ: (وقولُهم: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ﴾ مَقالةٌ تَصلُحُ أن تكونَ مِمَّا قالوا في مقامِهم بين يَدَيِ المَلِك، وتصلُحُ أن تكونَ مِن قَولِ بَعضِهم لبعضٍ عند قيامِهم للأمرِ الذي عَزَموا عليه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٠، ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير الكهف)) لابن عثيمين (ص: ٢٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

أي: فلا أحدَ أشَدُّ ظُلمًا ممَّن اختَلَقَ الكَذِبَ على اللهِ، فادَّعى أنَّ له شَريكًا يُعبَدُ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ يُفهَمُ مِن هذه الآيةِ الكَريمةِ أنَّ مَن آمَنَ برَبِّه وأطاعَه، زاده رَبُّه هُدًى؛ لأنَّ الطَّاعةَ سَبَبٌ للمَزيدِ مِن الهُدى والإيمانِ[٢]، وإنَّ مِن ثوابِ الحسنةِ الحسنةَ بعدَها، ومَن عمِل بما يعلمُ أورَثه الله تعالى علمَ ما لم يعلَمْ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يُفهَمُ مِنه أنَّ مَن كان في طاعةِ رَبِّه جَلَّ وعَلا، أنَّه تعالى يُقَوِّي قَلْبَه، ويُثَبِّتُه على تحَمُّلِ الشَّدائِدِ، والصَّبرِ الجَميلِ[٤].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أنَّ المؤمنَ أحوجُ شيءٍ إلى أن يربِطَ الله على قلبِه، ولولا ذلك الربطُ افتتنوا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٦).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ هؤلاء افتَرَوا على اللهِ كَذِبًا، وذلك أنَّهم أشركوا معه غيرَه في الإلهيَّةِ؛ فقد كَذَبوا عليه في ذلك؛ إذ أثبتوا له صِفةً مُخالِفةً للواقِعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٤٣)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٤٣)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ هذا مِن جُموعِ القِلَّةِ، ويدُلُّ على أنَّهم كانوا دونَ العَشرةِ[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ استَدَلَّ بهذه الآيةِ وأمثالِها غيرُ واحدٍ مِن الأئمَّةِ -كالبُخاريِّ وغَيرِه- على زيادةِ الإيمانِ وتَفاضُلِه، وأنَّه يزيدُ ويَنقُصُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] إلى غيرِ ذلك منَ الآياتِ الدَّالَّةِ على ذلك[(٢)].

٣- قال اللهُ تعالى عن أهلِ الكَهفِ: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ قاموا فذَكَروا اللهَ على هِدايَتِه، وشَكَروا لِمَا أولاهم مِن نِعْمَتِه، ثمَّ هامُوا على وُجوهِهم مُنقَطِعينَ إلى رَبِّهم، خائِفينَ مِن قَومِهم، وهذه سُنَّةُ اللهِ في الرُّسُلِ والأنبياءِ والفُضَلاءِ الأولياءِ[(٣)].

٤- قال اللهُ تعالى عن أهلِ الكَهفِ: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾، فاستَدَلُّوا بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ على توحيدِ الإلهيَّةِ؛ ولهذا قالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾[(٤)].

عبد الوهاب).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢).

٥- قال تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي: لو دَعَوْنا وعَبَدْنا مِن دونِه إلهًا واللهِ لقد قُلْنا إذًا شَطَطًا، واستلزامُ العبادةِ القَولَ؛ لِمَا أنَّها لا تَعرَى عن الاعترافِ بألوهيَّةِ المعبودِ، والتضَرُّعِ إليه، وفي هذا القَولِ دَلالةٌ على أنَّ الفِتيةَ دُعُوا لعبادةِ الأصنامِ، ولِيمُوا على تَركِها[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾

- هذا شُروعٌ في مُجْمَلِ القصَّةِ والاهتمامِ بمَواضعِ العِبْرةِ منها[٢]، وقُدِّمَ منها ما فيه وصْفُ ثَباتِهم على الإيمانِ، ومُنابذتِهم قومَهم الكَفَرةَ، ودُخولِهم الكهْفَ. ولمَّا اقْتَضى قولُه قبْلُ: ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ﴾ أنَّ في نبَأِ أهْلِ الكهْفِ تَخرُّصاتٍ ورجْمًا بالغيبِ؛ أثارَ ذلك في النَّفسِ تطلُّعًا إلى معرفةِ الصِّدقِ في أمْرِهم، من أصْلِ وُجودِ القصَّةِ إلى تَفاصيلِها، من مُخبِرٍ لا يُشَكُّ في صِدْقِ خبَرِه؛ فكانت جُملةُ ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ استئنافًا بَيانيًّا لجُملةِ ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾[٣].

- قولُه: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ تَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿نَّحْنُ﴾ على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿نَقُصُّ﴾ يُفيدُ الاختصاصَ، أي: نحن لا غيرُنا يقُصُّ قصَصَهم بالحقِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٠-٢٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٧١).

- والباءُ في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ للمُلابَسةِ، أي: القَصصُ المُصاحِبُ للصِّدقِ لا للتَّخرُّصاتِ[١].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ﴾ مُبيِّنةٌ للقصصِ والنَّبأِ. وافتتاحُ الجُملةِ بحرْفِ التَّأكيدِ ﴿إِنَّهُمۡ﴾؛ لمُجرَّدِ الاهتمامِ، لا لردِّ الإنكارِ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ﴾ استئنافٌ تَحقيقيٌّ مَبْنيٌّ على تَقديرِ السُّؤالِ من قِبَلِ المُخاطَبِ[٣].

- قولُه: ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ فيه الْتِفاتٌ، حيث لم يقُلْ: (آمَنوا بِنا)؛ للإشعارِ بعِلِّيَّةِ وصْفِ الرُّبوبيَّةِ لإيمانِهم، ولمُراعاةِ ما صدَرَ عنهم من المقالةِ حسَبَما سيُحْكَى عنهم[٤]، أو للإشعارِ بتلك الرُّتبةِ؛ وهي أنَّهم مَرْبوبون له مَمْلوكون[٥].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَزِدۡنَٰهُمۡ﴾ الْتِفاتٌ من الغَيبةِ إلى ما عليه سَبْكُ النَّظمِ سِباقًا وسِياقًا من التَّكلُّمِ، ولم يأْتِ التَّركيبُ: (وزادهم)؛ لِما في لفظةِ (نا) من العَظمةِ والجَلالِ[٦].

٢- قوله تعالى: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾

- قولُه: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ لمَّا كان الفزَعُ وخوفُ النَّفسِ يُشْبِهُ بالتَّناسُبِ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٠).

الانحلالَ، حسُنَ في شِدَّةِ النَّفسِ وقُوَّةِ التَّصميمِ أنْ تُشْبِهَ الرَّبطَ[١].

- قولُهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ عَرَّفوا اللهَ تعالى بطريقِ الإضافةِ إلى ضَميرِهم؛ إمَّا لأنَّهم عُرِفوا من قبْلُ بأنَّهم عَبَدوا اللهَ المُنزَّهَ عن خَصائصِ المُحدَثاتِ، وإمَّا لأنَّ اللهَ لم يكُنْ مَعروفًا باسمٍ علَمٍ عندَ أولئك المُشرِكين؛ فلم يكُنْ طَريقٌ لتَعريفِهم الإلهَ الحقَّ إلَّا طريقَ الإضافةِ، هذا إنْ كان القولُ مَسوقًا إلى قومِهم المُشرِكين؛ قَصَدوا به موعظةَ قومِهم بدونِ مُواجهةِ خِطابِهم؛ استِنزالًا لطائرِهم على طَريقةِ التَّعريضِ من بابِ (إيَّاكِ أعْني فاسْمَعي يا جارةُ)، واستقصاءً لتَبليغِ الحقِّ إليهم، أو قَصَدوا به إعلانَ إيمانِهم بين قومِهم، وإظهارَ عدَمِ الاكتراثِ بتَهديدِ الملِكِ وقومِه. وإنْ كان هذا القولُ قد جرى بينهم في خاصَّتِهم تَمهيدًا لقولِهم: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ ...﴾، وتضمَّن التعريفُ بالإضافةِ تَشريفًا لأنفُسِهم[٢]، وضَمَّنوا دَعواهم ما يُحقِّقُ فَحواها، ويَقْضي بمُقتضاها؛ فإنَّ رُبوبيَّتَه عَزَّ وجَلَّ للسمواتِ والأرضِ تَقْتضي رُبوبيَّتَه لِما فيهما[٣]، وفيه تأكيدُ هذا التَّوحيدِ بالبَراءةِ من إلهٍ غيرِه بلفْظِ النَّفيِ (لن) المُستغرِقِ تأبيدَ الزَّمانِ على قولٍ[٤].

- قولُهم: ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ فيه ذِكْرُ الدُّعاءِ دُونَ العِبادةِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ يشمَلُ الأقوالَ كلَّها من إجراءِ وصْفِ الإلهيَّةِ على غيرِ اللهِ، ومن نِداءِ غيرِ اللهِ عندَ السُّؤالِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٣).

- وفي قولِه: ﴿إِلَٰهًا﴾ العُدولُ عن أنْ يُقالَ: (ربًّا)؛ للتَّنصيصِ على رَدِّ المُخالِفين؛ حيث كانوا يُسمُّون أصنامَهم آلهةً، وللإشعارِ بأنَّ مَدارَ العِبادةِ وصْفُ الأُلوهيَّةِ، وللإيذانِ بأنَّ رُبوبيَّتَه تعالى بطريقِ الألوهيَّةِ[١].

- وجُملةُ: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لِما أفاده تَوكيدُ النَّفيِ بـ (لن)[٢]. واللَّامُ في ﴿لَقَدْ﴾ لامُ تَوكيدٍ[٣].

- قولُه: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي: قولًا ذا شطَطٍ، أي: تجاوُزًا عن الحَدِّ. أو: قولًا شَططًا، فجعَلَه هو عينَ الشَّططِ، على أنَّه وُصِفَ بالمصدرِ مُبالغةً، ثمَّ اقتُصِرَ على الوصْفِ؛ مُبالغةً على مُبالغةٍ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾

- قولُه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لِما اقتضَتْه جُملةُ ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾؛ إذ يَثورُ في نفْسِ السَّامعِ أنْ يَتساءلَ عمَّن يقولُ هذا الشَّططَ؟ إنْ كان في السَّامعينَ مَن لا يعلَمُ ذلك، أو بتَنزيلِ غيرِ السَّائلِ منزلةَ السَّائلِ[٥].

- والإشارةُ إلى قومِهم بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ لقَصدِ تَمييزِهم بما سيُخْبَرُ به عنهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٣).

وفي هذه الإشارةِ تَعريضٌ بالتَّعجُّبِ مِن حالِهم، وتَفضيحُ صُنْعِهم، واحتقارٌ لهم، وهو من لَوازمِ قصْدِ التَّمييزِ[١]. وجُملةُ: ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ خبَرٌ عن اسمِ الإشارةِ، وهو خبَرٌ مُستعملٌ في الإنكارِ عليهم دونَ الإخبارِ؛ إذ اتِّخاذُهم آلهةً من دُونِ اللهِ معلومٌ بين المُتخاطبينَ، فليس الإخبارُ به بمُفيدٍ فائدةَ الخبَرِ[٢].

- في قولِه: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ﴾ تَحضيضٌ صَحِبَه الإنكارُ؛ إذ يستحيلُ وُقوعُ سُلطانٍ بيِّنٍ على ثُبوتِ الإلهيَّةِ للأصنامِ الَّتي اتَّخَذوها آلهةً، بقَرينةِ أنَّهم أنْكَروه عليهم؛ فلا يُمكِنُ فيه التَّحضيضُ الصِّرفُ؛ فانصرَفَ التَّحضيضُ إلى التَّبكيتِ والتَّغليطِ، وكان حضُّهم على ذلك على سَبيلِ التَّعجيزِ لهم، أي: اتَّخَذوا آلهةً من دُونِ اللهِ لا بُرهانَ على إلهيَّتِهم؛ فكانت هذه الجُملةُ مُؤكِّدةً للجُملةِ الَّتي قبْلَها باعتبارِ أنَّها مُستعملةٌ في الإنكارِ؛ لأنَّ مَضمونَ هذه الجُملةِ يُقوِّي الإنكارَ عليهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٥).

الآيات (١٦-١٨)

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾: أي: فارَقْتُموهم، وأصلُ (عزل): يدُلُّ على تَنحيةٍ[١].

﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾: أي: فصِيروا إليه، واجْعَلوه مَأْواكم، والمأْوَى: المَكانُ الَّذي يُرْجَعُ إليه ليلًا أو نهارًا، يُقال: أَوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه، وأصْلُه: التَّجمُّعُ[٢].

﴿يَنشُرۡ﴾: أي: يبسُطْ ويُوَسِّعْ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فتحِ شيءٍ وتَشَعُّبِه[٣].

﴿مِّرۡفَقٗا﴾: أي: ما تَرتَفِقون به، أي: تَنْتَفعون به، والمِرفَقُ والمَرفِقُ: ما يُرتفَقُ به، والارتفاقُ: الانتفاعُ، وأصلُ (رفق): يدُلُّ على مُوافَقةٍ ومُقارَبةٍ بلا عُنفٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٨)،

﴿تَّزَٰوَرُ﴾: أي: تَميلُ، وأصلُ (زور): يدلُّ على مَيلٍ وعُدولٍ[١].

﴿تَّقۡرِضُهُمۡ﴾: أي: تُجاوِزُهم وتَدَعُهم، أي: لا تَطلُعُ في كَهفِهم، يُقالُ: قرضْتُ موضعَ كذا؛ إذا قطعتَه فجاوزتَه، وأصلُ (قرض): يدلُّ على القَطعِ[٢].

﴿فَجۡوَةٖ﴾: أي: مُتَّسَعٍ، وأصلُ (فجو): يدُلُّ على اتِّساعٍ في شَيءٍ[٣].

﴿بِٱلۡوَصِيدِ﴾: أي: فِناءِ الكَهفِ، وأصلُ (وصد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٤].

المَعنى الإجماليُّ:

يحكي الله سبحانه ما تناجَى به أولئك الفتيةُ فيما بينَهم، وما قرَّروه بعدَ اعتزالِ قومِهم، فيذكرُ أنَّ بعضَ الفتيةِ قال لِبَعضٍ: ولِكَونِكم فارَقتُم قَومَكم، وتَرَكتُم ما يَعبُدونَ مِن الآلهةِ سوى اللهِ، فالجَؤوا إلى الكَهفِ لتَعبُدوا رَبَّكم وَحدَه، يَبْسُطْ

((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

لكم ربُّكم مِن رَحمتِه، ويُسَهِّلْ لكم مِن أمْرِكم ما تَنتَفِعونَ به في حياتِكم من أسبابِ العَيشِ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى بعضَ أحوالِ هؤلاء الفتيةِ بعدَ استقرارِهم في الكهفِ، وإلقاءِ النومِ عليهم، فيذكر مِن مظاهِرِ حِفظِه لهم أنَّك ترى الشَّمسَ إذا أشرَقَت تَميلُ عن الكهفِ إلى جِهةِ اليمينِ؛ لئلَّا تُصيبَهم أشعَّتُها، وإذا غَرَبت تترُكُهم وتتجاوَزُهم إلى جهةِ اليَسارِ، وهم في مكانٍ مُتَّسِعٍ مِن الكَهفِ، ذلك الذي فعَلْناه بهؤلاء الفِتيةِ مِن دلائِلِ قُدرةِ اللهِ، وعَظيمِ لُطفِه بعبادِه.

ثمَّ ختَم الله تعالى هذه الآيةَ، فقال: مَن يُوَفِّقْه اللهُ للاهتداءِ إلى الحَقِّ، فهو الموفَّقُ حقًّا، ومَنْ لم يوفِّقْه لذلك فلن تجِدَ له مُعِينًا يُرشِدُه إلى الحَقِّ.

ثم يحكي الله تعالى مشهدًا عجيبًا لأصحابِ الكهفِ، فيقولُ تعالى: وتظُنُّ أهلَ الكَهفِ -لو قُدِّر لك النَّظَرُ إليهم- أيقاظًا، وهم في الواقِعِ نِيامٌ، ونُقَلِّبُهم حالَ نَومِهم؛ مَرَّةً للجَنبِ الأيمَنِ، ومَرَّةً للجَنبِ الأيسَرِ، وكَلبُهم الذي صاحَبَهم مادٌّ ذراعَيه بفِناءِ الكَهفِ، لو أشرفتَ عليهم وعايَنْتَهم لفرَرْتَ منهم هارِبًا، ولمُلِئَت نفسُك منهم فَزَعًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا استدَلَّ الفِتيةُ على مُعتَقَدِهم، وعَلِموا سَفَهَ مَن خالَفَهم، وهم قَومٌ لا قُدرةَ لهم ولا طاقةَ بمقاومَتِهم؛ لِكَثرتِهم وقِلَّتِهم- تسَبَّبَ عن ذلك هِجرَتُهم؛

لِيَسلَمَ لهم دينُهم، فقال تعالى شارِحًا لِما بَقِيَ مِن أمرِهم[١]:

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾.

أي: قال بعضُ الفِتيةِ لِبَعضٍ[٢]: ولأجلِ[٣] أنَّكم انفرَدْتُم وتباعَدْتُم عن مُخالطةِ قَومِكم الكافرينَ، وتَرَكتُم ما يَعبُدونَ مِن الآلهةِ سوى اللهِ؛ فاتَّخِذوا الكَهفَ[٤] مأوًى لكم؛ لِتَختَفوا فيه مِن قَومِكم، وتَعبُدوا اللهَ وَحدَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣).

(٢) قال ابن عاشور: (يتعيَّنُ أن يكونَ هذا من كلامِ بَعضِهم لبعضٍ، على سبيلِ النُّصحِ والمشورةِ الصَّائبةِ، وليس يلزَمُ في حكايةِ أقوالِ القائلينَ أن تكون المحكيَّاتُ كُلُّها صادِرةً في وقتٍ واحدٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٦).

وقيل: هو كلامٌ معترضٌ؛ إخبارٌ مِن الله تعالى عن الفتيةِ أنَّهم لم يعبدوا غيرَ الله تعالى. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٥٧).

(٣) قال الشنقيطي: («إِذْ» في قولِه: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ للتَّعليلِ، على التَّحقيقِ، كما قالَه ابنُ هشامٍ، وعليه فالمعنَى: ولأجلِ اعتزالِكم قومَكم الكفَّارَ وما يعبدونَه مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَاتَّخِذوا الكهفَ مأوًى ومكانَ اعتصامٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢١٧).

(٤) قال ابنُ عاشور: (التعريفُ في ﴿ٱلۡكَهۡفِ﴾ يجوزُ أن يكونَ تَعريفَ العَهدِ، بأن كان الكَهفُ مَعهودًا عندهم يتعَبَّدون فيه مِن قَبلُ، ويجوزُ أن يكونَ تَعريفَ الحقيقةِ، مثل: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: ١٣]، أي: فأْوُوا إلى كهفٍ مِن الكهوفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨١، ١٨٢)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤٣٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٧).

قال الشنقيطي: (قَولُه: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قيل: هو استثناءٌ متَّصِلٌ، بناءً على أنَّهم كانوا يعبدون اللهَ والأصنامَ. وقيل: هو استثناءٌ منقَطِعٌ، بناءً على القَولِ بأنَّهم كانوا لا يعبدون إلَّا الأصنامَ، ولا يعرفون اللهَ ولا يعبدونَه). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢١٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن

﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾.

أي: فإنِ اعتزَلْتُم قَومَكم وما يَعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ، وصِرتُم إلى الكَهفِ؛ يَبسُطْ لكم رَبُّكم مِن رَحمتِه، فيَحفَظْ لكم دينَكم، ويُنجِكم مِن قَومِكم(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾.

أي: ويُسَهِّلْ لكم ربُّكم مِن أمْرِكم الذي أنتم فيه ما تَنتَفِعونَ به في أمرِ مَعيشَتِكم، فيأتِكم باليُسرِ والرِّفقِ واللُّطفِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۞ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤].

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى قَولَ بَعضِهم لبَعضٍ: ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن

عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٧، ٢١٨).

رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦]؛ بيَّن سبحانَه حالَهم بعد أن أَوَوا إلى الكَهفِ، مُشيرًا إلى تحقيقِ رَجائِهم في ربِّهم، وهو ما هيَّأ لهم في أمرِهم مِن مِرفَقٍ، وأنَّ ذلك جزاؤُهم على اهتدائِهم، وهو من لُطفِ اللهِ بهم[١].

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾.

أي: وترى[٢] الشَّمسَ إذا أشرَقَتْ تَميلُ عن الكَهفِ[٣] الذي أوَى إليه الفِتيةُ، إلى جِهةِ يمينِه؛ لئلَّا تصيبَهم أشعَّتُها[٤].

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٧).

(٢) المخاطَبُ قيل: هو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٤).

وقيل: المخاطَبُ غيرُ مُعَيَّنٍ. وممن قال بذلك: الرازي، والقرطبي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٨).

قال الشنقيطي: (المعنى: أنَّك لو رأيتَهم لرأيتَهم كذلك، لا أنَّ المُخاطَبَ رآهم بالفِعلِ، كما يدُلُّ لهذا المعنى قَولُه تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾، والخِطابُ بمِثلِ هذا مشهورٌ في لغةِ العَرَبِ التي نزل بها هذا القرآنُ العظيمُ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٢٠).

(٣) قال ابنُ كثير: (أخبَر الله تعالى بذلك، وأراد منا فَهْمَه وتدَبُّرَه، ولم يخبِرْنا بمكانِ هذا الكهفِ في أيِّ البلادِ مِن الأرضِ؛ إذ لا فائدةَ لنا فيه ولا قَصْدَ شرعيٌّ. وقد تكَلَّف بعضُ المفسِّرين فذكروا فيه أقوالًا... والله أعلم بأيِّ بلادِ الله هو. ولو كان لنا فيه مصلحةٌ دينيَّةٌ لأرشَدَنا اللهُ ورسولُه إليه... فأعلَمَنا تعالى بصِفتِه، ولم يُعلِمْنا بمكانِه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٨، ٢٢٠).

قال ابنُ جرير: (لأنَّها لو طلَعَت عليهم قُبالَهم لأحرَقَتْهم وثيابَهم، أو أشحَبَتْهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٧).

أي: وترَى الشَّمسَ إذا غَرَبَت تَعدِلُ عن الفتيةِ وتَترُكُهم[١] جِهةَ شِمالِ الكَهفِ، فلا يُصيبُهم شُعاعُها[٢].

---

(١) ممن قال بأن ﴿تَقْرِضُهُمْ﴾ بمعنى: تتركُهم فلا تصيبُهم: ابن جرير، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٦-١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٠).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٧).

وقال ابنُ عثيمين: (قيل: المعنى تتركُهم. وقيل: تصيبُ منهم، وهو الأقربُ؛ أنَّها تصيبُ منهم، وفائدةُ هذه الإصابةِ أن تمنَعَ أجسامَهم من التغيُّر؛ لأنَّ الشَّمسَ كما يقول الناس: إنها صِحَّةٌ وفائدةٌ للأجسامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٦، ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٨، ٢٧٩).

قال الرازي: (للمفسِّرين هاهنا قولان؛ القولُ الأول: أنَّ بابَ ذلك الكَهفِ كان مفتوحًا إلى جانبِ الشِّمالِ، فإذا طلعت الشمسُ كانت على يمينِ الكَهفِ، وإذا غربت كانت على شمالِه، فضوءُ الشمس ما كان يصِلُ إلى داخِلِ الكهف، وكان الهواءُ الطيِّبُ والنَّسيمُ الموافِقُ يَصِلُ. والمقصودُ أن الله تعالى صان أصحابَ الكَهفِ من أن يقع عليهم ضوءُ الشَّمسِ وإلا لفَسَدت أجسامُهم، فهي مصونةٌ عن العُفونةِ والفسادِ. والقَولُ الثاني: أنَّه ليس المرادُ ذلك، وإنما المرادُ أنَّ الشَّمسَ إذا طلعت منع اللهُ ضوءَ الشَّمسِ مِن الوقوع، وكذا القَولُ حالَ غُروبِها، وكان ذلك فِعلًا خارِقًا للعادة وكرامةً عظيمةً خَصَّ اللهُ بها أصحابَ الكَهفِ، وهذا قَولُ الزجَّاج، واحتجَّ على صِحَّتِه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال: ولو كان الأمرُ كما ذكره أصحابُ القَولِ الأول لكان ذلك أمرًا معتادًا مألوفًا، فلم يكن ذلك من آياتِ الله، وأمَّا إذا حمَلْنا الآيةَ على هذا الوجهِ الثاني كان ذلك كرامةً عَجيبةً، فكانت من آياتِ الله). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٤٣).

وممَّن قال بالقولِ الأوَّلِ: ابنُ قتيبةَ، والقرطبي، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشورٍ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤- ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣١).

﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾.

أي: والفتيةُ في مكانٍ متَّسِعٍ داخِلَ الكَهفِ[١].

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فعلُنا الذي فعَلْنا بهؤلاء الفِتيةِ؛ من تيسيرِ الكهفِ لحفظِهم فيه، وميلِ الشمسِ عنهم عندَ طلوعِها، وتركِها لهم عندَ غروبِها- مِن عجائبِ صُنعِ اللهِ الدَّالَّةِ على عَظيمِ قُدرَتِه وسُلطانِه، ولُطفِه بعِبادِه[٢].

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان انفِرادُهم بالهُدَى عن أهلِ ذلك القَرنِ كُلِّهم عَجَبًا؛ وصَلَ به ما إذا تؤُمِّلَ زال عجَبُه، فقال تعالى[٣]:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾.

أي: مَن يُرشِدْه اللهُ ويوفِّقْه للاهتداءِ إلى الحَقِّ، فهو المهتدي حقًّا، مِثل

وممن اختار القول الثاني: الزجاجُ، واستظهره ابنُ جزي، وأيَّده الشوكاني، ورجَّحه الشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٧٣-٢٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٨-٢١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨).

هؤلاء الفِتيةِ الذين هداهم اللهُ مِن بَينِ قَومِهم[١].

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

أي: ومَن يَخذُلْه اللهُ، فلن تجِدَ له -يا مُحَمَّدُ- خليلًا ومُعِينًا يتولَّى إرشادَه إلى الحَقِّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾.

أي: وتَظُنُّ[٣] هؤلاء الفِتيةَ -لو رأيتَهم- أيقاظًا، والحالُ أنَّهم نائِمونَ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٤).

(٣) قيل: الخِطابُ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم. وممن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٠).

وممن قال بذلك من السلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٥٢).

وقيل: الخطابُ لغيرِ مُعَيَّنٍ، أي: تظنُّهم أيُّها المُخاطَبُ، أو أيُّها الرَّائي. وممن قال بذلك: السعدي، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٤).

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾.

أي: ونقلِّبُهم على جُنوبِهم؛ مرَّةً للجَنبِ الأيمَنِ، ومرَّةً للأيسَرِ[1].

قال ابن عطية: (قال أهلُ التفسيرِ: كانت أعينُهم مفتوحةً وهم نائمونَ؛ فلذلك كان الرَّائي يحسَبُهم أيقاظًا.

ويحتَمِل أن يحسَبَ الرَّائي ذلك؛ لشِدَّةِ الحِفظِ الذي كان عليهم، وقِلَّةِ التَّغيُّر، وذلك أنَّ الغالِبَ على النوَّامِ أن يكون لهم استرخاءٌ وهَيئاتٌ تقتضي النَّومَ، ورُبَّ نائمٍ على أحوالٍ لم يتغيَّرْ عن حالةِ اليقظةِ، فيَحسَبُه الرائي يقظانَ، وإن كان مسدودَ العينين، ولو صَحَّ فَتحُ أعيُنِهم بسندٍ يقطَعُ العُذرَ، كان أبيَنَ في أن يُحسَبَ عليهم التيقُّظُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٣).

وقال ابنُ كثيرٍ: (ذَكَر بعضُ أهلِ العلمِ أنَّهم لَمَّا ضَرَب اللَّهُ على آذانِهم بالنَّومِ، لم تَنْطَبِقْ أعينُهم؛ لئلَّا يُسْرِعَ إليها البِلَى، فإذا بَقِيَتْ ظاهرةً للهواءِ كانَ أبقَى لها؛ ولهذا قالَ تعالَى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٣).

وقال الزجاج: (وقيل: لكثرةِ تقلُّبِهم يُظَنُّ أنَّهم غيرُ نيامٍ، ويدلُّ عليه ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٢٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨١).

قال الشنقيطي: (وكلامُ المفسِّرينَ هنا في عددِ تَقَلُّبِهم مِنْ كثرةٍ وقِلَّةٍ لا دليلَ عليه). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٢٤).

وقال ابن عاشور: (المعنى: أنَّ الله أجرى عليهم حالَ الأحياءِ الأيقاظِ، فجعَلَهم تتغَيَّرُ أوضاعُهم من أيمانِهم إلى شمائِلِهم والعكس؛ وذلك لحكمةٍ لعَلَّ لها أثرًا في بقاءِ أجسامِهم بحالةِ سَلامةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨١).

وقيل: الحكمةُ مِن تقليبِهم: أنَّهم لو لم يُقَلَّبوا لأكَلَتْهم الأرضُ. وممن قال به مِن السلفِ: ابنُ عباس، وسعيدُ بنُ جبير، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٣٧٣).

وقيل: قلَّبَهم؛ لينالَ رَوحُ النسيمِ جميعَ أبدانِهم، ولا يتأثر ما يلي الأرضَ منها بطولِ المكثِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩).

وقيل: الحكمةُ من تقليبِهم: مِن أجلِ توازنِ الدمِ في الجسدِ، حتَّى لا يكونَ في جانبٍ واحدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٥).

﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾.

أي: وكَلبُ[١] هؤلاء الفِتيةِ جالسٌ على بَطنِه مادٌّ يَدَيه عندَ مَدخَلِ الكَهفِ بِفِنائِه؛ لحِراستِهم[٢].

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾.

أي: لو أشرَفْتَ[٣] على أصحابِ الكَهفِ فرأيتَهم وهم رُقودٌ، لفَرَرْتَ منهم هارِبًا[٤].

---

(١) قال ابنُ كثير: (اختلفوا في لونِه على أقوالٍ لا حاصِلَ لها، ولا طائِلَ تحتها، ولا دليلَ عليها، ولا حاجةَ إليها، بل هي مما يُنهَى عنه؛ فإنَّ مُستنَدَها رجمٌ بالغَيبِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٥).

قال ابنُ كثير: (رَبَضَ كلبُهم على البابِ كما جرَتْ به عادةُ الكلابِ. قال ابنُ جُريجٍ: يحرُسُ عليهم البابَ. وهذا مِنْ سجيَّتِه وطبيعتِه، حيثُ يَربِضُ ببابِهم كأنَّه يحرُسُهم، وكان جلوسُه خارجَ البابِ؛ لأنَّ الملائكةَ لا تدخلُ بيتًا فيه كلبٌ،كما ورَد في الصحيحِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٤).

(٣) قال ابنُ عاشور: (الخطابُ لغيرِ معيَّنٍ، أي: لو اطلعتَ عليهم أيُّها السامعُ حينَ كانوا في تلك الحالةِ قبلَ أن يبعثَهم الله). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨١).

وقيل: الخطابُ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٦/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨١).

قال ابن كثير: (أي: أنَّه تعالى ألقى عليهم المهابةَ، بحيث لا يقَعُ نظَرُ أحدٍ عليهم إلَّا هابهم؛ لِما أُلبِسوا مِن المهابةِ والذُّعرِ؛ لئلَّا يدنوَ منهم أحدٌ، ولا تمَسَّهم يدُ لامسٍ، حتى يبلُغَ الكِتابُ أجَلَه، وتنقَضِيَ رِقدتُهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم؛ لِما له في ذلك من الحُجَّةِ والحِكمةِ البالغةِ، والرَّحمةِ الواسعةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٦).

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

أي: ولامتَلأَتْ نفسُك خَوفًا وفَزَعًا منهم[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ اعتزالَ المؤمِنِ قَومَه الكُفَّارَ ومَعبوديهم، مِن أسبابِ لُطفِ اللهِ به ورَحمتِه[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ المشروعُ عند وُقوعِ الفِتَنِ في النَّاسِ، أن يَفِرَّ العَبدُ منهم خَوفًا على دينِه، كما جاء في الحديثِ: ((يُوشِكُ أن يكونَ خَيرَ مالِ المسلم غَنَمٌ يَتبَعُ بها شَعَفَ الجِبالِ[٣] ومواقِعَ القَطْرِ[٤]؛ يَفِرُّ بدِينِه مِن الفِتنِ))[٥]، ففي هذه الحالِ تُشرَعُ العُزلةُ عن النَّاسِ، ولا تُشرَعُ فيما عداها؛

وقال القرطبي: (قيل: الفِرارُ منهم لطولِ شُعورِهم وأظفارِهم، وذكره المهدويُّ والنحَّاس والزجَّاج والقُشيري. وهذا بعيدٌ؛ لأنَّهم لَمَّا استيقَظوا قال بعضُهم لبعضٍ: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ودَلَّ هذا على أنَّ شُعورَهم وأظفارَهم كانت بحالِها، إلَّا أن يُقال: إنما قالوا ذلك قبل أن ينظُروا إلى أظفارِهم وشعورِهم. قال ابن عطية: «والصحيحُ في أمرِهم أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حَفِظ لهم الحالةَ التي ناموا عليها؛ لتكونَ لهم ولغيرِهم فيهم آية، فلم يَبْلُ لهم ثوبٌ ولم تُغيَّرْ صِفةٌ، ولم يُنكِرِ النَّاهِضُ إلى المدينةِ إلَّا معالمَ الأرضِ والبناءِ، ولو كانت في نفسِه حالةٌ يُنكِرُها لكانت عليه أهَمَّ»). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٧).

(٣) شَعَفَ الجبالِ: أي: رُؤوسَها وأطرافَها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٣٩).

(٤) مَواقِعَ القَطرِ: أي: بُطونَ الأوديةِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٦٩).

(٥) أخرجه البخاري (١٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

لِما يَفوتُ بها مِن تَركِ الجَماعاتِ والجُمَعِ[١]، فاللهُ تعالى مدَح في هذه الآيةِ مَن فَرَّ بدِينِه خَشيةَ الفِتنةِ عليه[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾، وفيما تقَدَّمَ أخبَرَ أنَّهم دَعَوه بقَولِهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠] فجَمَعوا بين التَّبرِّي مِن حَولِهم وقُوَّتِهم، والالتجاءِ إلى اللهِ في صلاحِ أمْرِهم ودُعائِه بذلك، وبين الثِّقةِ باللهِ أنَّه سيَفعَلُ ذلك[٣].

٤- يجِبُ على الإنسانِ أن يعتمِدَ على الله سبحانه وتعالى في أدَبِ أولادِه وهدايتِهم؛ فإنَّ الله تعالى هو الهادي سُبحانَه وبحمدِه؛ قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ وعلى هذا فالذي يحَدِّدُ نسلَه خوفًا مِن عدمِ القدرةِ على تأديبِهم، هو أيضًا مسيءُ الظَّنِّ برَبِّه تبارك وتعالى، وإلَّا فالله سبحانه وتعالى بيدِه الأمورُ[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ فيه تَنبيهٌ إلى عدمِ سؤالِ الهِدايةِ إلَّا مِنَ اللهِ، وعدمِ الجزعِ أو السخطِ عندَ رؤيةِ مَن هو ضالٌّ؛ فالله تعالى جَعَلَ النَّاسَ على قِسمَينِ: مهتدٍ وضالٍّ، فلا بدَّ مِن الإيمانِ بالقدرِ، والرضَا به على كُلِّ حالٍ، وألا نَسخَطَ الإضلالَ الواقِعَ مِن اللهِ، أما المقدورُ ففيه تَفصيلٌ[٥]، ولكنْ يجبُ علينا مع ذلك أنْ نسعى في هدايةِ الخَلقِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤١-١٤٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٦/ ١٦).

(٥) فإذا كان المقدورُ طاعاتٍ فيَجِبُ الرِّضا بها، وإذا كان المقدورُ معاصيَ فلا يجوزُ الرِّضا بها

وأنْ نُرشِدَ هؤلاء الضالِّينَ[١].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ شَمِلَت كَلْبَهم بركتُهم، فأصابه ما أصابَهم مِن النَّومِ على تلك الحالِ، وهذه فائدةُ صُحبةِ الأخيارِ؛ فإنَّه صار لهذا الكلبِ ذِكرٌ وخبَرٌ وشأنٌ[٢]، فذِكْرُ هذا الكَلبِ على طولِ الآبادِ بجَميلِ هذا الرُّقادِ: مِن بركةِ صُحبةِ الأمجادِ[٣]، فمن أحبَّ أهل الخير نال مِن بركتِهم؛ فهذا الكَلبُ أحَبَّ أهلَ فَضلٍ وصَحِبَهم، فذكَرَه الله في مُحكَمِ تنزيلِه[٤]. وإذا كان بعضُ الكلابِ قد نال هذه الدَّرجةَ العليا بصُحبته ومخالطتِه الصُّلَحاءَ والأولياءَ حتى أخبَرَ الله تعالى بذلك في كتابِه جلَّ وعلا، فما ظَنُّك بالمُؤمِنين الموحِّدين المُخالطين المحِبِّين للأولياءِ والصالحين؟! بل في هذا تسليةٌ وأُنسٌ للمؤمنينَ المقصِّرينَ عن دَرَجاتِ الكمالِ، المحبِّينَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وآلِه[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ فيه اعتزالُ أهلِ الشِّركِ، واعتزالُ مَعْبوديهم[٦].

من حيثُ هي مقدورٌ، أمَّا من حيثُ كونُها قَدرَ الله، فيَجِبُ الرِّضا بتقديرِ اللهِ بكلِّ حالٍ. يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين)) (١٠/ ٦٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩-٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧١).

(٦) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٤٤)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

٢- قولُه تعالى: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ فيه شدةُ صلابتِهم في دينِهم؛ حيثُ عزَموا على تركِ ما كانوا فيه مِن النعمةِ العظيمةِ، واستبدلوا بها كهفًا في رأسِ جبلٍ[١].

٣- حسنُ ظنِّ أصحابِ الكهفِ باللهِ ومعرفتُهم ثمرةَ الطاعةِ، ولو كان مباديها ذهابَ الدنيا، حيث قالوا: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[٢].

٤- قولُه: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ و﴿ٱلشِّمَالِ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: يمينَ الكهْفِ وشِمالَه؛ فيدُلُّ على أنَّ فَمَ الكهْفِ كان مفتوحًا إلى الشِّمالِ الشَّرقيِّ؛ فالشَّمسُ إذا طلعَتْ تطلُعُ على جانبِ الكهْفِ ولا تخترِقُه أشعَّتُها، وإذا غربَتْ كانت أشعَّتُها أبعدَ عن فَمِ الكهْفِ منها حينَ طُلوعِها، وهذا وضْعٌ عجيبٌ يسَّرَه اللهُ لهم بحكمتِه؛ ليكونَ داخلُ الكهْفِ بحالةِ اعتدالٍ، فلا يَنتابُ البِلى أجسادَهم، وذلك من آياتِ قُدرةِ اللهِ[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: مِن الكَهفِ، أي: مكانٍ مُتَّسِعٍ؛ وذلك لِيَطرُقَهم الهواءُ والنَّسيمُ، ويزولَ عنهم الوَخمُ والتأذِّي بالمكانِ الضَّيِّقِ، خصوصًا مع طولِ المُكثِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ بيانُ فَسادِ مذهَبِ القَدَريَّةِ الذين يَزعُمونَ أنَّ العبدَ لا يَفتَقِرُ في حصولِ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢).

هذا الاهتداءِ إلى اللهِ، بل كلُّ عبدٍ عندهم فمَعَه ما يحصُلُ به الطَّاعةُ والمعصيةُ، لا فرْقَ عندهم بين المؤمِنِ والكافِرِ! ولم يَخُصَّ اللهُ المؤمِنَ عندهم بهُدًى حصلَ به الاهتداءُ[١]!

٧- دلَّ قَولُ الله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ على أنَّ كلَّ مَن هداه اللهُ اهتدى، ولو هدى الكافرَ -كما هدَى المُؤمِنَ- لاهتدَى[٢].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ هذا مِن حِفظِ اللهِ تعالى لأبدانِهم؛ لأنَّ الأرضَ مِن طبيعتِها أكلُ الأجسامِ المتَّصِلةِ بها، فكان مِن قَدَرِ الله أنْ قَلَّبَهم على جُنوبِهم يَمينًا وشِمالًا بقَدْرِ ما لا تُفسِدُ الأرضُ أجسامَهم -هذا على أحدِ الأقوالِ في الحكمةِ مِن تقليبِهم-، واللهُ تعالى قادِرٌ على حِفْظِهم مِنَ الأرضِ مِن غَيرِ تَقليبٍ، ولكنَّه تعالى حَكيمٌ، أراد أن تَجريَ سُنَّتُه في الكَونِ، ويَربِطَ الأسبابَ بمُسَبَّباتِها[٣].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ في قَولِه: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ فِعْلَ النائمِ لا يُنسَبُ إليه، ووجهُ الدَّلالةِ: أنَّ اللهَ أضاف تقلُّبَهم إليه، فلو أنَّ النَّائِمَ قال في نَومِه: (امرأتي طالِقٌ) أو: (في ذِمَّتي لفلانٍ ألفُ ريالٍ) لم يَثبُتْ؛ لأنَّه لا قَصْدَ له ولا إرادةَ له، لا في القَولِ ولا في الفِعلِ[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ دليلٌ على جوازِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٥).

اتِّخاذِ الكَلبِ لحراسةِ الآدميِّين، أمَّا حراسةُ الماشيةِ، وحراسةُ الحرثِ فقد جاءَت به السنةُ[١]. وإذا جاز اتخاذُ الكلبِ لحراسةِ الماشيةِ والحرثِ، أو للصيدِ الذي هو كمالٌ؛ فاتِّخاذُه لحراسةِ البيتِ مِن بابِ أولَى[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾

- قولُه: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ ...﴾ يحتملُ أنْ يكونوا قال بعضُهم لبعضٍ ذلك بعدَ اليأْسِ من رُجوعِ قومِهم عن فِتْنتِهم في مَقامٍ آخرَ. ويحتملُ أنْ يكونَ ذلك في نفْسِ المقامِ الَّذي خاطبوا فيه قومَهم، بأنْ غيَّروا الخِطابَ من مُواجهةِ قومِهم إلى مُواجهةِ بعضِهم بعضًا، وهو ضرْبٌ من الالتفاتِ؛ فعلى الوجْهِ الأوَّلِ يكونُ فِعْلُ ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ مُستعمَلًا في إرادةِ الفِعلِ، مثْلُ ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، وعلى الوجْهِ الثَّاني يكونُ الاعتزالُ قد حصَلَ فيما بين مَقامِ خِطابِهم قومَهم وبين مُخاطَبةِ بعضِهم بعضًا؛ وعلى الاحتمالينِ فقدِ اقتُصِرَ في حكايةِ أقوالِهم على المقصَدِ الأهمِّ منها في الدَّلالةِ على ثَباتِهم، دُونَ ما سِوى ذلك ممَّا لا أثَرَ له في الغرَضِ، وإنَّما هو مُجرَّدُ قَصصٍ[٣].

- قولُه: ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ الفاءُ للتَّفريعِ على جُملةِ ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٥٤٨٠)، ومسلم (١٥٧٤) مِن حديثِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما. وما أخرجه البخاري (٣٣٢٤)، ومسلم (١٥٧٥) مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٦).

باعتبارِ إفادتِها معنى: اعتزلْتُم دِينَهم اعتزالًا اعتقاديًّا؛ فيُقدَّرُ بعدَها جُملةٌ نحوُ: اعْتَزِلوهم اعتزالَ مُفارقةٍ، فأْوُوا إلى الكهفِ، أو يُقدَّرُ: وإذِ اعتزَلْتُم دِينَهم يُعذِّبونكم، فأْوُوا إلى الكهفِ(١).

- قولُه: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ فيه تَقديمُ ﴿لَكُمْ﴾ في الموضعينِ؛ للإيذانِ من أوَّلِ الأمْرِ بكَونِ المُؤخَّرِ من مَنافعِهم، والتَّشويقِ إلى وُرودِه(٢).

- و﴿يَنشُرْ﴾ مجزومٌ في جوابِ الأمْرِ، وهو مَبْنيٌّ على الثِّقةِ بالرَّجاءِ والدُّعاءِ، وساقُوه مَساقَ الحاصلِ؛ لشِدَّةِ ثِقَتِهم بلُطْفِ ربِّهم بالمُؤمِنين(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾

- قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ...﴾ بيانٌ لحالِهم بعدَما أوَوا إلى الكهفِ، وقد أوجَزَ مِن الخبَرِ أنَّهم لمَّا قال بعضُهم لبعضٍ: ﴿فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾: أنَّهم أوَوا إليه، والتَّقديرُ: فأخَذوا بنَصيحتِه، فأوَوا إلى الكهْفِ، ودَلَّ عليه قولُه في صَدْرِ القصَّةِ: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾؛ فرَدَّ عجُزَ الكلامِ على صَدْرِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٧٦- ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٨).

- والإتيانُ بفعْلِ المُضارَعةِ ﴿تَّزَٰوَرُ﴾؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ ذلك كلَّ يومٍ[١].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الإشارةُ بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المذكورِ من قولِه: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ﴾؛ للتَّعظيمِ، والجُملةُ مُعترِضةٌ في خِلالِ القصَّةِ؛ للتَّنويهِ بأصحابِها[٢].

- قولُه: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لِما اقتضاهُ اسمُ الإشارةِ من تَعظيمِ أمْرِ الآيةِ وأصحابِها[٣]، والمُرادُ بقولِه: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾ إمَّا الثَّناءُ عليهم، أو التَّنبيهُ على أنَّ أمثالَ هذه الآياتِ كثيرةٌ، ولكنَّ المُنتفِعَ بها مَن وفَّقَه اللهُ للتَّأمُّلِ فيها، والاستبصارِ بها[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾

- قولُه: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ عطْفٌ على بقيَّةِ القصَّةِ، وما بينهما اعتراضٌ، وهذا انتقالٌ إلى ما في حالِهم من العِبْرةِ لمَن لو رآهم مِن النَّاسِ، مُدمجٌ فيه بَيانُ كَرامتِهم، وعظيمِ قُدرةِ اللهِ في شأنِهم، وهو تعجُّبٌ من حالِهم لمَن لو رآهُ من النَّاسِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٧٩-٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٠).

- وصِيغَ فِعْلُ (تَحْسَبُهُمْ) مُضارِعًا؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك يتكرَّرُ مُدَّةً طويلةً[١].

- والإتيانُ بالمُضارعِ ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ بحسَبِ الزَّمنِ المَحكيِّ، ولا يلزَمُ أنْ يكونوا كذلك حين نُزولِ الآيةِ[٢]، وفيه مَزيدُ اعتناءِ اللهِ بهم؛ حيث أسنَدَ التَّقليبَ إليه تعالى، وأنَّه هو الفاعلُ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ...﴾ الاطِّلاعُ افتعالٌ مِن (طلَعَ)، وصِيغَ الافتعالُ؛ للمُبالَغةِ في الارتقاءِ، وضُمِّنَ معنى الإشرافِ، فعُدِّيَ بـ (على)[٤].

- وتأخَّرَ قولُه: ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ عن ذِكْرِ التَّوليةِ ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾؛ للإيذانِ باستقلالِ كلٍّ منهما في التَّرتُّبِ على الاطِّلاعِ؛ إذ لو رُوعِيَ تَرتيبُ الوُجودِ لَتَبادرَ إلى الفَهمِ ترتُّبُ المجموعِ من حيث هو هو عليه، وللإشعارِ بعدَمِ زَوالِ الرُّعبِ بالفِرارِ كما هو المُعتادُ[٥].

- وانتصَبَ ﴿رُعْبًا﴾ على تَمييزِ النِّسبةِ المُحوَّلِ عن الفاعلِ في المعنى؛ لأنَّ الرُّعبَ هو الَّذي يمْلَأُ، فلمَّا بُنِيَ الفعْلُ إلى المجهولِ لقصْدِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ، صار ما حَقُّه أنْ يكونَ فاعلًا تَمييزًا، وهو إسنادٌ بديعٌ حصَلَ منه التَّفصيلُ بعدَ الإجمالِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٣).

الآيتان (١٩-٢٠)

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِوَرِقِكُمْ﴾: الوَرِقُ: الفِضَّةُ المَضروبةُ، وهي الدَّراهِمُ، وأصلُ (ورق): يدُلُّ على خَيرٍ ومالٍ[١].

﴿أَزْكَىٰ﴾: أي: أطْيبُ، وأحلُّ، وأطهرُ، والزَّكوُ: الزِّيادةُ في الخيرِ والنَّفعِ، وأصلُ الزكاءِ: النَّماءُ والزِّيادةُ[٢].

﴿بِرِزْقٍ﴾: أي: بطعامٍ تأكلونَه، وقوتٍ تقتاتونَه، والرِّزقُ يُطلَقُ على ما يصِلُ إلى الجوفِ ويُتغَذَّى به؛ فيُطلَقُ على الطَّعامِ والثِّمارِ وعلى ما هو أعمُّ مِن ذلك مما يُنتفَعُ به، وأصلُ (رزق): يَدُلُّ على عطاءٍ لوَقْتٍ[٣].

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾: أي: ولْيُدقِّقِ النَّظرَ، ولْيَحتَلْ حتى لا يطَّلِعَ عليه أحَدٌ، ويُعبَّرُ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٥).

باللَّطافةِ واللُّطفِ عن الحَرَكةِ الخفيفةِ، وعن تعاطي الأُمورِ الدَّقيقةِ، وأصلُ (لطف): يدُلُّ على رِفقٍ[١].

﴿يَظْهَرُواْ﴾: أي: يَطَّلِعوا ويُشرِفوا على مكانِكم أو على أنفُسِكم، والظُّهورُ أصلُه: البروزُ دونَ ساترٍ، ويُطلَقُ على الظَّفَرِ بالشَّيءِ، وعلى الغَلَبةِ على الغَيرِ، وهو المرادُ هنا[٢].

﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾: أي: يَقْتُلوكم بالرَّجْمِ، والرَّجْمُ: الرَّميُ بالرِّجامِ، وهي الحجارةُ، وأصلُ (رجم): الرَّميُ بالحجارةِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

حكى الله سبحانه حالَ هؤلاء الفتيةِ بعدَ استيقاظِهم مِن هذا النومِ الطويلِ، فقال: وكما أنَمْناهم وحَفِظْناهم هذه المُدَّةَ الطَّويلةَ أيقَظْناهم مِن نَومِهم على هَيئَتِهم دونَ تغيُّرٍ؛ ليسألَ بَعضُهم بعضًا: كم مِن الوَقتِ مَكَثْنا نائمينَ هنا؟ فقال بعضُهم: مَكَثْنا يومًا أو بعضَ يومٍ، ففَوَّضوا عِلْمَ ذلك إلى اللهِ لَمَّا أعياهم التحَقُّقُ، وقالوا: ربُّكم أعلَمُ بمدَّةِ نَومِكم، فأرسِلوا أحَدَكم بدراهمِكم الفِضِّيَّةِ هذه إلى مَدينتِنا، فلْيَنظُرْ: أيُّ أهلِ المدينةِ أطيَبُ وأحَلُّ طَعامًا؟ فلْيَأتِكم بقُوتٍ منه، ولْيَترفَّقْ في دخولِه المدينةَ، وشِرائِه، وخُروجِه منها، ومجيئِه إلى الكَهفِ، ولا يُعْلِمَنَّ بكم أحدًا مِن النَّاسِ؛ إنَّ قَومَكم إنْ يَعْلموا بمكانِكم، ويَظْفروا بكم؛

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٢).

يَرجُموكم بالحِجارةِ، فيَقتُلوكم، أو يَرجِعوكم إلى دينِهم، فتَصِيروا كُفَّارًا مِثلَهم، ولن تَفوزوا بالخيرِ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ -إنْ فَعلْتُم ذلك- أبدًا.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ﴾.

أي: وكما أنَمْنا هؤلاء الفِتيةَ فحَفِظناهم في الكَهفِ، كذلك أيقَظْناهم مِن نَومِهم الطَّويلِ بذاتِ الحالةِ التي كانوا عليها، دونَ أن يتغيَّرَ مِن أحوالِهم وهَيئاتِهم شَيءٌ؛ ليَسألَ بَعضُهم بعضًا عن مُدَّةِ نَومِهم، فإذا تبيَّنوا طولَ الزَّمانِ عليهم، وهم بنَفسِ هَيئتِهم التي رَقَدوا بها، ازدادوا مَعرفةً بعَظيمِ سُلطانِ اللهِ وعجائِبِ قُدرتِه، وبحُسنِ دِفاعِ اللهِ عن أوليائِه، وازدادوا بصيرةً في أمْرِهم الذي هم عليه مِن التبَرُّؤِ مِن عبادةِ الآلهةِ، وإخلاصِ العبادةِ لله وَحْدَه لا شريكَ له[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٥، ١٩٦، ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٧).

ظاهرُ عباراتِ كثيرٍ مِن المفسِّرينَ أنَّ اللامَ في قولِه تعالى: ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ﴾ للتعليل. ومنهم: ابنُ جرير، وابنُ الجوزي، وابنُ كثير، والشنقيطي، وصرَّح بذلك السعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٥-١٩٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

قال ابن الجوزي: (أي: ليكونَ بينهم تساؤلٌ وتنازعٌ واختلافٌ في مُدَّةِ لُبثِهم، فيُفيد تساؤلُهم اعتبارَ المُعتَبِرين بحالِهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٢).

وقيل: اللامُ هنا للعاقبةِ والصَّيرورةِ. وممَّن نَصَّ على ذلك: القرطبي، وابنُ عثيمين. يُنظر:

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾.

أي: قال قائِلٌ مِن الفِتيةِ لأصحابِه: كم كانت مُدَّةُ نَومِكم[1]؟!

﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾.

أي: فأجابه الآخَرونَ بما يَظُنُّونَ: لَبِثْنا في نَومِنا يومًا كاملًا أو بعضًا منه[2].

﴿قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾.

أي: قالوا مُفَوِّضينَ العِلمَ لله: ربُّكم أعلَمُ منكم بمدَّةِ نَومِكم[3].

((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٧).

قال ابنُ كثير: (﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ كان دخولُهم إلى الكهفِ في أوَّلِ نهارٍ، واستيقاظُهم كان في آخِرِ نهار؛ ولهذا استدرَكوا فقالوا: ﴿أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ...﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

قال ابنُ عاشور: (القائلونَ: ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾ يجوز أن يكونَ جميعهم، وهو الظاهرُ. ويجوزُ أن يكونَ قَولَ بعضِهم، فأُسنِدَ إليهم؛ لأنهم رأوه صوابًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٤).

وقال السعدي: (ولعلَّ اللهَ تعالى -بعد ذلك- أطلعَهم على مُدَّة لُبثِهم؛ لأنَّه بعَثَهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنَّهم تساءلوا، وتكلَّموا بمبلغِ ما عندهم، وصار آخِرَ أمرِهم الاشتباهُ، فلا بدَّ أن يكون قد أخبرهم يقينًا، عَلِمْنا ذلك من حكمتِه في بَعثِهم، وأنه لا يفعَلُ ذلك عبثًا، ومِن رحمتِه بمن طلب عِلمَ الحقيقة في الأمور المطلوبِ عِلمُها، وسعى لذلك ما أمكَنَه؛ فإن الله يوضِّحُ له ذلك، وبما ذُكِرَ فيما بعدَه مِن قَولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: ٢١]، فلولا أنَّه حصل العِلمُ بحالهم، لم يكونوا دليلًا على ما ذُكِر).

﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾.

أي: قال الفِتيةُ: فأرسلوا واحِدًا مِنَّا بهذه الدَّراهِمِ الفِضِّيةِ التي بحَوزَتِنا، إلى مَدينَتِنا التي فرَرْنا منها[١].

﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾.

أي: فلْيَنظُرْ مَن ستُرسِلونَه: أيُّ أهلِ المدينةِ[٢] أطيَبُ وأحَلُّ وأطهَرُ طعامًا مِن غَيرِه[٣]، .....

((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٤).

قال ابن جزي: (إن قيل: كيفَ اتَّصل بعثُ أحدِهم بتذكرِ مدةِ لبثِهم؟

فالجوابُ: أنَّهم كانوا قالوا: ربُّكم أعلمُ بما لبثتُم، ولا سبيلَ لكم إلى العلمِ بذلك، فخُذوا فيما هو أهمُّ مِن هذا وأنفعُ لكم). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦١).

(٢) قال الشوكاني: (﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾ أي: يَنظُر أيُّ أهلِها أطيبُ طعامًا، وأحلُّ مكسبًا، أو أرخصُ سعرًا. وقيل: يجوزُ أن يعودَ الضميرُ إلى الأطعمةِ المدلولِ عليها في المقامِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٧).

وقال ابنُ عاشور: (أي: فليَنظُرْ أيُّ مكانٍ منها هو أزكَى طعامًا، أي: أزكَى طعامُه مِن طعامِ غيرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٥).

(٣) قيل: معنى ﴿أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾: أي: أَحَلُّ ذبيحة، قاله ابنُ عباسٍ، وعطاءٌ. وقيل: أَحَلُّ طعامًا، قاله سعيدُ بنُ جبيرٍ. وقيل: أجودُ، قاله قتادةُ. وقيل: أكثرُ، قاله عكرمةُ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٣).

قال الشنقيطي: (في قولِه في هذه الآيةِ: ﴿أَزۡكَىٰ﴾ قولانِ للعلماءِ:

أحدهما: أنَّ المرادَ بكونِه ﴿أَزۡكَىٰ﴾: أطيبُ؛ لكونِه حلالًا ليسَ ممَّا فيه حرامٌ ولا شبهةٌ.

والثَّاني: أنَّ المرادَ بكونِه أزكَى: أنَّه أكثرُ...

والقولُ الأوَّلُ هو الَّذي يدلُّ له القرآنُ؛ لأنَّ أكلَ الحلالِ والعملَ الصَّالحَ أمَر اللَّهُ به المؤمنينَ كما أمَر المرسلينَ، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ الآيةَ [المؤمنون: ٥١]،

فلْيَشتَرِ لكم قُوتًا منه، ولْيُحضِرْه إليكم لِتَأكلوه[١].

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾.

أي: ولْيَترفَّقِ الذي ستُرسِلونَه لشِراءِ الطَّعامِ، فيتخَفَّ ويتحَيَّلْ في دخولِه المدينةَ، وشِرائِه، وخُروجِه منها، ومجيئِه إلى الكَهفِ[٢].

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

أي: ولا يُعلِمَنَّ أحدًا من النَّاسِ بمَكانِكم الذي تختَبِئونَ فيه، فلا يقولَنَّ أو يفعَلَنَّ ما يُؤدِّي مِن غيرِ قَصدٍ منه إلى الشُّعورِ بكم[٣].

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نَهَوا رسولَهم عن الإشعارِ بهم، عَلَّلوا ذلك، فقالوا[٤]:

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[البقرة: ١٧٢]، ويكثرُ في القرآنِ إطلاقُ مادَّةِ الزَّكاةِ على الطَّهارةِ... فاللَّائقُ بحالِ هؤلاءِ الفتيةِ الأخيارِ المتَّقينَ أنْ يكونَ مطلبُهم في مأكلِهم الحليةَ والطَّهارةَ، لا الكثرةَ. ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٣، ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٤)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨).

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾.

أي: وذلك لأنَّ قومَكم الكُفَّارَ إن يَعلَموا بمكانِكم في الكَهفِ ويَظفَروا بكم، يَقتُلوكم رَجمًا بالحِجارةِ إن ثَبَتُّم على ما أنتم عليه مِن الحَقِّ(١).

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾.

أي: أو يَرجِعوكم لِتَدخُلوا قَهرًا في دِينِهم، فتُصبِحوا كُفَّارًا مِثلَهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨- ٨٩].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للأصفهاني (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٠).

وقيل: المعنى: يرجموكم شتمًا بالقولِ. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٧).

قال الشوكاني: (﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ أي: يَرُدُّوكم إلى مِلَّتِهم الَّتي كنتُم عليها قبلَ أنْ يهدِيَكم اللَّهُ، أو المرادُ بالعودِ هنا: الصَّيْرورَةُ، على تقديرِ أنَّهم لم يَكونوا على مِلَّتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٧).

قال الزمخشري: (والعَودُ في معنى الصَّيرورةِ أكثَرُ شَيءٍ في كلامِهم؛ يقولون: ما عُدتُ أفعلُ كذا، يريدون ابتداءَ الفعلِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١١). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٤).

﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾.

أي: ولن تَفوزوا بالخَيرِ أبدًا في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ إن عُدتُم في ملَّتِهم[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾ دَلَّ على الحَثِّ على العِلمِ، وعلى المُباحثةِ فيه؛ لِكَونِ اللهِ بعَثَهم لأجلِ ذلك[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾ فيه الأدَبُ فيمن اشتَبَه عليه العِلمُ؛ أن يَرُدَّه إلى عالِمِه، وأن يَقِفَ عند حَدِّه[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ السَّعيَ في إمساكِ الزَّادِ أمرٌ مُهِمٌّ مَشروعٌ، وأنَّه لا يُبطِلُ التوكُّلَ على اللهِ تعالى؛ إذ حَقيقةُ التوكُّلِ على اللهِ تعالى: تهيئةُ الأسبابِ، واعتِقادُ أنْ لا مُسَبِّبَ للأسبابِ إلَّا اللهُ تعالى[٤]، فتزوُّدُهم ما كان معهم مِن الوَرِقِ عندَ فِرارِهم دَليلٌ على أنَّ حَملَ النَّفَقةِ وما يُصلِحُ المسافِرَ، هو رأيُ المتوكِّلينَ على اللهِ دونَ المُتَّكِلينَ على الاتِّفاقاتِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير الكهف)) لابن عثيمين (ص: ٤٠).
قال البقاعي: (﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا﴾ أي: إذا عُدتُم فيها مُطمئنِّينَ بها؛ لأنَّكم وإن أُكرِهتُم ربما استدرجَكم الشيطانُ بذلك إلى الإجابةِ حَقيقةً). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٥٧).

وعلى ما في أوعيةِ القَومِ مِن النَّفَقاتِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ فيه الحَثُّ على التحَرُّزِ، والاستخفاءِ، والبُعدِ عن مواقِعِ الفِتَنِ في الدِّينِ، واستِعمالِ الكِتمانِ في ذلك على الإنسانِ وعلى إخوانِه في الدِّينِ[٢]. وفيه أيضًا دَليلٌ على أخْذِ الحَذَرِ مِن الأعداءِ بكُلِّ وسيلةٍ، إلَّا الوسائلَ المُحَرَّمةَ؛ فإنَّها مُحرَّمةٌ لا يجوزُ أنْ يقعَ الإنسانُ فيها[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ دَلَّ على ذِكرِ ما اشتملَ عليه الشرُّ مِن المضارِّ والمفاسِدِ الدَّاعيةِ لبُغضِه وتَرْكِه، وأنَّ هذه الطريقةَ هي طريقةُ المؤمنينَ المتقَدِّمينَ والمتأخِّرينَ؛ لِقَولِهم: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى حكايةً عن أصحابِ الكهفِ: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ لم يعثُرْ عليهم أحَدٌ مع قُربِهم من المدينةِ جِدًّا، والدَّليلُ على قُربِهم أنَّهم لَمَّا استيقظوا أرسلوا أحَدَهم يشتري لهم طعامًا من المدينةِ، وبَقُوا في انتظارِه؛ فدَلَّ ذلك على شِدَّةِ قُربِهم منها[٥].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أصلٌ في الوَكالةِ والنِّيابةِ[١]، وفيه دليلٌ على صحةِ الوكالةِ في البيعِ والشراءِ[٢]، والوَكالةُ عَقدُ نيابةٍ أذِنَ الله فيه للحاجةِ إليه، وقيامِ المَصلحةِ به؛ إذ يَعجِزُ كُلُّ أحدٍ عن تناوُلِ أمورِه إلَّا بمعونةٍ مِن غَيرِه، أو يترَفَّهُ فيستنيبُ من يُريحُه، حتى جاز ذلك في العباداتِ؛ لُطفًا منه سبحانَه، ورِفقًا بضَعَفةِ الخليقةِ؛ ذكَرَها الله كما تَرَون، وبيَّنَها رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كما تسمَعونَ، وهو أقوَى آيةٍ في الغَرَضِ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ يدُلُّ على جوازِ خَلطِ دراهِمِ الجماعةِ، والشِّراءِ بها، والأكلِ مِن الطَّعامِ الذي بينهم بالشَّرِكةِ، وإن كان فيهم مَن يأكُلُ أكثَرَ ومَن يأكُلُ أقَلَّ؛ وذلك أنَّه قال: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ فأضاف الوَرِقَ إلى الجَميعِ[٤].

٤- إنْ قيل: أليس أنَّهم لو أُكرِهوا على الكفرِ حتى أظهَروا الكفرَ لم يكنْ عليهم مضرَّةٌ، فكيفَ قالوا: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾؟

وأُجِيب: أنَّهم خافوا أنَّهم لو بَقُوا على الكفرِ مُظهرينَ له، فقد يميلُ بهم ذلك إلى الكفرِ الحقيقيِّ، فكان خوفُهم بسببِ هذا الاحتمالِ[٥].

وقيل: إنَّ العُذرَ بالإكراهِ مِن خَصائِصِ هذه الأمَّةِ؛ لأنَّ قَولَه عن أصحابِ الكَهفِ: ﴿إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ ظاهِرٌ في

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٢٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٥٨).

إكراهِهم على ذلك، وعدَمِ طواعِيتِهم، ومع هذا قال عنهم: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ ذلك الإكراهَ ليس بعُذرٍ[١].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ الكافُ للتَّشبيهِ، والإشارةُ بـ (ذلك) إلى المذكورِ من إنامتِهم وكيفيَّتِها، أي: كما أنَمْناهم قُرونًا بعَثْناهم[٢]، ووجْهُ الشَّبهِ: أنَّ في الإفاقةِ آيةً على عظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى مثْلَ آيةِ الإنامةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ تَشبيهُ البَعثِ المذكورِ بنفْسِه؛ للمُبالغةِ في التَّعجيبِ[٣].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ فيه الاقتصارُ على ذِكْرِ التَّساؤُلِ بينهم؛ لاستتباعِه لسائرِ آثارِه، والتَّقديرُ: ليَسألَ بعضُهم بعضًا، فيترتَّبُ عليه ما فُصِّلَ من الحِكَمِ البالغةِ. وجعْلُه غايةً للبعثِ المُعلَّلِ فيما سبَقَ بالاختبارِ، مِن حيثُ إنَّه من أحكامِه المُترتِّبةِ عليه[٤].

- وجُملةُ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ﴾، وسُمِّيَت هذه المُحاورةُ تَساؤُلًا؛ لأنَّها تحاوُرٌ عن تطلُّبِ كلٍّ رأيَ الآخرِ؛ للوُصولِ إلى

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٣).

تَحقيقِ المُدَّةِ. والَّذين قالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ هم مَن عدا الَّذي قال: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾، وأسنَدَ الجوابَ إلى ضَميرِ جماعتِهم؛ إمَّا لأنَّهم تَواطؤوا عليه، وإمَّا على إرادةِ التَّوزيعِ، أي: منهم مَن قال: لبِثْنا يومًا، ومنهم قال: لبِثْنا بعضَ يومٍ، وعلى هذا يَجوزُ أنْ تكونَ (أو) للتَّقسيمِ في القولِ؛ بدَليلِ قولِه بعْدُ: ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، أي: لمَّا اخْتَلفوا رجَعوا، فعَدلوا عن القولِ بالظَّنِّ إلى تَفويضِ العلْمِ إلى اللهِ تعالى، وذلك من كَمالِ إيمانِهم[١].

- وتَفريعُ قولِهم: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ﴾ على قولِهم: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾؛ لأنَّه في معنى: فدَعوا الخوضَ في مُدَّةِ اللُّبثِ؛ فلا يعلَمُها إلَّا اللهُ، وخُذوا في شَيءٍ آخرَ ممَّا يهُمُّكم[٢]، وهو قريبٌ من الأُسلوبِ الحكيمِ، وهو تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تَنبيهًا على أنَّ غيرَه أولَى بحالِه، ولولا قولُهم: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، لكانَ قولُهم: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ﴾ عيْنَ الأُسلوبِ الحكيمِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾، أي: ولْيتكلَّفِ اللُّطفَ في الاستخفاءِ؛ لئلَّا يُعْرَفَ، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ مِن أهْلِ المدينةِ؛ فإنَّه يَستدْعي شُيوعَ أخبارِكم، أي: لا يفعلَنَّ ما يُؤدِّي إلى ذلك؛ فالنَّهيُ على ذلك تأكيدٌ للأمْرِ بالتَّلطُّفِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٤).

- قولُه: ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ سُمِّيَ ذلك إشعارًا منه بهم؛ لأنَّه سبَبٌ فيه؛ فالتَّقديرُ: ولا يفعلَنَّ ما يُؤدِّي من غيرِ قصْدٍ منه إلى الشُّعورِ بنا[١].

وقيل: ولا يُخبِرَنَّ بوُجودِكم أحدًا؛ فهنا مُضافٌ مَحذوفٌ دلَّت عليه دَلالةُ الاقتضاءِ[٢]، فيشمَلُ جميعَ أحوالِهم؛ من عدَدِهم ومكانِهم وغيرِ ذلك[٣].

- والنُّونُ في ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ﴾ لتَوكيدِ النَّهيِ؛ تَحذيرًا من عَواقبِه المُضمَّنةِ في جُملةِ ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ﴾[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ عِلَّةٌ للأمْرِ بالتَّلطُّفِ، والنَّهيِ عن إشعارِ أحدٍ بهم[٥]، وبَيانٌ لوجْهِ تَوكيدِ النَّهيِ بالنُّونِ في ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ﴾؛ فهي واقعةٌ موقعَ العلَّةِ والبَيانِ، وكِلاهما يَقْتضي فصْلَها عمَّا قبْلَها[٦].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾ تَقديمُ احتمالِ الرَّجمِ على احتمالِ الإعادةِ؛ لأنَّ الظَّاهرَ من حالِهم هو الثَّباتُ على الدِّينِ المُؤدِّي إليه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥٦-١٥٧).

(٢) دلالةُ الاقتضاءِ: هي دلالةُ اللفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصدقِ أو الصحةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٤).

- قولُه: ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾ فيه إيثارُ كلمةِ (في) على كلمةِ (إلى)؛ للدَّلالةِ على الاستقرارِ الَّذي هو أشَدُّ شَيءٍ عندهم كراهةً[١].

- قولُه: ﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ فيه تأكيدُ التَّحذيرِ من الإرجاعِ إلى مِلَّتِهم بأنَّها يترتَّبُ عليها انتفاءُ فَلاحِهم في المُستقبَلِ؛ لِما دلَّتْ عليه (إذن) مِن الجَزائيَّةِ. و﴿أَبَدًا﴾ ظرفٌ للمُستقبَلِ كلِّه، وهو تأكيدٌ لِما دَلَّ عليه النَّفيُ بـ (لن) من التَّأبيدِ أو ما يُقارِبُه[٢]، وفيه من التَّشديدِ في التَّحذيرِ ما لا يَخْفى[٣].

- وضَميرُ الخِطابِ في المواضعِ الأربعةِ (عَلَيْكُمْ - يَرْجُمُوكُمْ - يُعِيدُوكُمْ - وَلَنْ تُفْلِحُوا)؛ للمُبالَغةِ في حملِ المبعوثِ على الاستخفاءِ، وحَثِّ الباقينَ على الاهتمامِ بالتَّوصيةِ؛ فإنَّ تَمحيضَ النُّصحِ أدخَلُ في القَبولِ، واهتمامُ الإنسانِ بشأْنِ نفْسِه أكثَرُ وأوفَرُ[٤].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢١-٢٦)

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَعۡثَرۡنَا﴾: أي: أظهَرْنا وأطلَعْنا، وأصلُ (عثر) هنا: يدُلُّ على الاطِّلاعِ على الشَّيءِ[1].

﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِ﴾: أي: ظنًّا غيرَ يقينٍ، ويُعَبَّرُ بالرَّجمِ عن الرَّميِ بالظنِّ، وأصلُ (رجم): يدُلُّ على الرَّميِ بالحجارةِ، وأصلُ (غيب): يدُلُّ على تَستُّرِ الشَّيءِ عن العيونِ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧٨).

قال الرازي: (يُقالُ: عَثَرْتُ على كذا أي: عَلِمته. وقالوا: إنَّ أصلَ هذا أنَّ مَن كان غافلًا عن شيءٍ فعَثَر به نَظَر إليه فعَرَفه، فكانَ العثارُ سببًا لحصولِ العلمِ والتَّبيُّنِ؛ فأُطْلِق اسمُ السَّببِ على المُسَبَّبِ). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٥- ٢٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٨)،

﴿تُمَارِ﴾ ﴿مِرَآءً﴾: المِراءُ: الجِدالُ، يُقالُ: مارَى يُماري مُماراةً ومِراءً، أي: جادَل؛ مِن: مَرَيْتُ الشاةَ؛ إذا استخرجتَ لبنَها، كأنَّ المجادلَ يستخرِجُ غضبَ خصمِه أو ما عندَه. وقيل: أصلُه يدُلُّ على صلابةٍ في شيءٍ؛ لأنَّ المراءَ كلامٌ فيه بعضُ الشِّدَّةِ(١).

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾: أي: ما أبصَرَه وأسمَعَه(٢)!

المَعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى لنا مشهدًا آخرَ مِن أحوالِ هؤلاء الفتيةِ، فيقول: وكما أنَمْناهم سِنينَ كَثيرةً وأيقَظْناهم بعدَها، أطْلَعْنا عليهم أهلَ المدينةِ؛ ليَعلَموا أنَّ وَعْدَ اللهِ بالبَعثِ حَقٌّ، وأنَّ القيامةَ آتيةٌ لا شَكَّ في وقوعِها، إذ يتنازَعُ المطَّلِعونَ على أصحابِ الكَهفِ في أمرِ البعثِ بعدَ الموتِ؛ فمِن مُثْبِتٍ له ومِن مُنْكِرٍ، فقال الذين أعثَرَهم اللهُ على أصحابِ الكَهفِ: ابنُوا عليهم بناءً يَحجُبُهم، ربُّهم أعلَمُ بحالِهم وشَأنِهم، وقال الرُّؤساءُ أصحابُ الغَلَبةِ والنُّفوذِ: لنتَّخِذَنَّ على مكانِهم مَسجِدًا للعبادةِ.

ثم يحكي الله تعالى ما حصَل مِن خلافٍ حولَ عددِ أصحابِ الكهفِ قائلًا: سيقولُ بَعضُ الخائِضينَ في عَدَدِ أصحابِ الكَهفِ: هم ثلاثةٌ رابِعُهم كَلبُهم، ويقولُ بعضُهم: هم خَمسةٌ سادِسُهم كلبُهم، وكلامُ الفريقينِ قَولٌ بالظَّنِّ مِن غيرِ عِلمٍ ولا دَليلٍ، ويقولُ بَعضُهم: هم سبعةٌ وثامِنُهم كَلبُهم.

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣) و(٤/ ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٢).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٢٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٦).

قُل -يا مُحمَّدُ- للخائِضينَ في عَدَدِ أصحابِ الكَهفِ بلا عِلمٍ: ربِّي هو الأعلَمُ بعَدَدِهم، ما يعلَمُ عَدَدَهم إلَّا قليلٌ مِن خَلقِه؛ فلا تجادِلْ في عَدَدِهم إلَّا جِدالًا ظاهِرًا، ولا تَسألْهم عن عَدَدِهم وأحوالِهم.

وينهَى الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عن الإخبارِ عن فعلِ شيءٍ مستقبلًا إلَّا بعدَ تقديمِ مشيئتِه سبحانَه، فيقولُ: ولا تقولَنَّ -يا محمَّدُ- لشَيءٍ تَعزِمُ على فِعلِه: إنِّي فاعِلٌ ذلك الشَّيءَ غدًا، إلَّا أن تُعَلِّقَ قَولَك بالمَشيئةِ، فتقولَ: إن شاء الله. واذكُرْ رَبَّك عند النِّسيانِ بقَولِك: إن شاء اللهُ، وقل: عسى أن يهديَني ربِّي لأقرَبِ الطُّرُقِ المُوصِلةِ إلى الهُدى والرَّشادِ.

ثمَّ يبينُ الله تعالى المدةَ التي مكَثها الفتيةُ في الكهفِ، فيقولُ: ومكثَ الفِتيةُ نِيامًا في كَهفِهم ثلاثَمِئةِ سَنةٍ وتِسعَ سِنينَ، قُل -يا محمدُ-: اللهُ أعلَمُ بمُدَّةِ لُبثِهم في الكَهفِ، له غيبُ السَّمَواتِ والأرضِ، ما أبصَرَ اللهَ لكُلِّ مَوجودٍ، وما أسمَعَه سبحانَه لكُلِّ صَوتٍ! ليس للخَلقِ أحَدٌ غيرُه يُدَبِّرُ شُؤونَهم، ويتولَّى أمورَهم، وليس له شَريكٌ في حُكمِه وقَضائِه بين خَلقِه سُبحانَه وتعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها انتِقالٌ إلى جُزءِ القِصَّةِ الذي هو مَوضِعُ عِبرةِ أهلِ زَمانِهم بحالِهم، وانتفاعِهم باطمِئنانِ قُلوبِهم لوقوعِ البَعثِ يومَ القيامةِ بطريقةِ التَّقريبِ بالمُشاهَدةِ، وتأييد الدِّينِ بما ظهَرَ مِن كَرامةِ أنصارِه، فالكلامُ عَطفٌ على قَولِه:

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾[1] [الكهف: ١٩].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

أي: وكما أنَمْنا الفِتيةَ وبَعَثْناهم مِن نَومِهم على هَيئتِهم، أطلَعْنا عليهم أهلَ المدينةِ في ذلك الزَّمانِ؛ ليَعلَموا أنَّ وعدَ اللهِ بإحياءِ الموتى حقٌّ، فلا يَشكُّونَ في قُدرةِ الله على البَعثِ؛ لأنَّ حالةَ أصحابِ الكَهفِ في نَومِهم وانتباهتِهم بعدَ مُدَّةٍ طَويلةٍ كحالِ مَن يموتُ ثُمَّ يُبعَثُ[2].

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٨).

قال ابنُ الجوزي: (قَولُه تعالى: ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ في المشارِ إليهم بهذا العلمِ قولان:

أحدهما: أنَّهم أهلُ بلدِهم حينَ اختصموا في البعثِ، فبعَث الله أهلَ الكهفِ؛ ليعلموا أنَّ وعدَ اللَّهِ بالبعثِ والجزاءِ حَقٌّ، وأنَّ القيامةَ لا شكَّ فيها، هذا قولُ الأكثرينَ. والثاني: أنَّهم أهلُ الكهفِ، بعثناهم؛ ليرَوْا بعدَ علمِهم أنَّ وعدَ الله حقٌّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٣).

قال الزجاج: (أي: لِيَعلَمَ الذين يُكَذِّبون بالبعثِ أنَّ وَعدَ الله حَقٌّ، ويزدادَ مَن يؤمِنُ به إيمانًا). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٧٦).

وقال ابنُ كثير: (ذكر غيرُ واحدٍ مِن السلفِ أنَّه كان قد حصَل لأهلِ ذلك الزمانِ شَكٌّ في البَعثِ وفي أمرِ القيامةِ. وقال عِكرمةُ: كان منهم طائفةٌ قد قالوا: تُبعَثُ الأرواحُ ولا تُبعَثُ الأجسادُ، فبَعَث اللهُ أهلَ الكهف؛ حُجَّةً ودَلالةً وآيةً على ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٦).

وقال القاسمي: (﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أنمناهم وبعَثْناهم لِما في ذلك من الحكمةِ، أطلَعْنا عليهم أهلَ المدينةِ حتى دخَلَها مَن بعثوه للطَّعامِ، وأخرج وَرِقَهم المتقادِمةَ العَهدِ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٥).

وقال ابن عثيمين: (﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ إمَّا أنَّ المعنى: بقيامِ الساعة الذي كان يُنكِرُه هؤلاء، أو لأنَّ الله تعالى ينجِّي المؤمنينَ مِن الكفار؛ لأنَّ هؤلاء السبعةَ نَجَوا من أمَّةٍ عَظيمةٍ تقاتِلُهم وتنهاهم عن التوحيدِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٠).

أي: وأنَّ القيامةَ حَقٌّ، لا شَكَّ في مجيئِها، ووقُوعِ الثَّوابِ والعقابِ فيها[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾.

أي: أعْثَرْنا على أصحابِ الكهفِ حينَ اختَلف أهلُ ذلك الزمانِ في البعثِ بعدَ الموتِ، فمِنهم مَن يؤمنُ به، ومِنهم مَن ينكرُه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الكهف)) (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

وممَّن قال بأنَّ التنازعَ كان في أمرِ البعثِ: يحيى بنُ سلام، وابنُ جريرٍ، ومكي، والزمخشري، والرسعني، والبيضاوي، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ١٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٦)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٦/ ٤٣٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عكرمة. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٤).

قال الزمخشري: (أي: أعثَرْناهم عليهم حين يتنازَعون بينهم أمرَ دينِهم ويختَلِفون في حقيقةِ البَعثِ، فكان بعضُهم يقول: تُبعَثُ الأرواحُ دون الأجسادِ. وبعضُهم يقول: تُبعَثُ الأجسادُ مع الأرواح؛ ليرتفِعَ الخلافُ، وليتبيَّنَ أنَّ الأجسادَ تُبعَثُ حيَّةً حسَّاسةً فيها أرواحُها كما كانت قبل الموتِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١١). ويُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧٨-٣٧٩).

وممن اختار أنَّ التنازعَ كان في أمرِ الفتيةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جزي، وجلال الدين المحلي، والعليمي، والشربيني، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٢)، ((تفسير

﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ﴾.

أي: فقال الذين أعثَرَهم اللهُ على أصحابِ الكَهفِ حين ماتُوا: ابنُوا عليهم بنيانًا يَستُرُهم(١)؛ ربُّهم أعلَمُ بهم وبِشَأنِهم وحالِهم(٢).

الجلالين)) (ص: ٣٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٠).

وممن قال مِن السلفِ: إنَّ المتنازَعَ فيه هو أمرُ أصحابِ الكهفِ: ابنُ عباسٍ، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٤).

واختُلِف في المتنازَعِ عليه مِن أمرِ الفتية؛ فقيل: تنازعوا فِي قدرِ مكثِهم فِي الكهفِ. وقيل: في عددِهم. وقيل: فيما يفعلونَ بعدَ أن اطَّلعوا عليهم. وقيل: تنازعوا هل هم أمواتٌ أو أحياءٌ. وقيل: تنازعوا في البنيانِ، والمسجدِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٤).

وقال ابن عاشور: (وضميرُ ﴿أَمۡرِهِمۡ﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى أصحابِ الكهف، والأمرُ هنا بمعنى الشأنِ. والتنازعُ: الجِدالُ القويُّ، أي: يتنازعُ أهلُ المدينة بينهم شأنَ أهل الكهف، مثل: أكانوا نيامًا أم أمواتًا، وأيبقَون أحياءً أم يموتون، وأيبقَون في ذلك الكَهفِ أم يَرجِعون إلى سُكنى المدينة؟ وفي مدَّةِ مُكثِهم. ويجوزُ أن يكون ضميرُ ﴿أَمۡرِهِمۡ﴾ عائدًا إلى ما عاد عليه ضميرُ ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾، أي: شأنَهم فيما يفعلونَه بهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٨-٢٨٩).

(١) قال الواحدي: (قوله: ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗا﴾، يعني: استُروهم مِن الناسِ، قال ذلك المفسِّرونَ). ((البسيط)) (١٣/ ٥٧٣).

قال الرسعني: (أرادوا سترَهم عن أعينِ الناسِ؛ حفظًا لهم، وزيادةً في الإكرام لهم، واحترامِهم بتغييبِهم عن الأبصارِ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٦٣).

وقال ابن كثير: (سُدُّوا عليهم بابَ كهفهم، وذَروهم على حالِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧).

وقال ابن عاشور: (وإنما ارتأَوا أن يَبنوا عليهم بنيانًا؛ لأنهم خَشُوا عليهم من تردُّد الزائرينَ غيرِ المتأدِّبينَ؛ فلعلَّهم أن يُؤذوا أجسادَهم وثيابَهم باللَّمسِ والتَّقليبِ، فأرادوا أن يبنُوا عليهم بناءً يُمكِنُ غَلقُ بابِه وحراستُه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾.

أي: قال رُؤساءُ المدينةِ الذين غَلَبوا على أهلِها[1]: لَنبنيَنَّ عليهم مَسجِدًا يُعبَدُ

قال الرازي: (ثمَّ قال تعالى: ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ﴾ وهذا فيه وجهان:
أحدُهما: أنَّه من كلام المتنازِعينَ، كأنهم لَمَّا تذاكروا أمْرَهم وتناقلوا الكلامَ في أسمائِهم وأحوالِهم ومُدَّةِ لُبثِهم، فلمَّا لم يهتدوا إلى حقيقةِ ذلك قالوا: ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ﴾.
الثاني: أنَّ هذا من كلامِ الله تعالى؛ ذكَرَه ردًّا للخائضينَ في حديثِهم من أولئك المتنازِعينَ). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٤٧).

(١) وممَّن قال: إنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾: هم أهلُ الغلبةِ وأصحابُ الكلمةِ والنُّفوذِ مِن الولاةِ والرؤساءِ: القرطبي، وابنُ كثير، وابنُ رجب، والسعدي، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤١).
قال ابنُ كثير: (حكى ابنُ جرير في القائلين ذلك قولينِ: أحدُهما: أنَّهم المسلمون منهم. والثاني: أهلُ الشرك منهم، فالله أعلم. والظاهِرُ أنَّ الذين قالوا ذلك هم أصحابُ الكلمة والنُّفوذِ. ولكِنْ هل هم محمودونَ أم لا؟ فيه نظرٌ؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: «لعن اللهُ اليهودَ والنَّصارى؛ اتَّخَذوا قبورَ أنبيائِهم وصالِحيهم مساجِدَ»). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧).
وقال ابنُ باز في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾: (إنَّ الله سبحانه وتعالى أخبَر عن الرُّؤساءِ وأهلِ السَّيطرةِ في ذلك الزمانِ أنَّهم قالوا هذه المقالةَ، وليس ذلك على سبيلِ الرضا والتقريرِ لهم، وإنَّما هو على سبيلِ الذمِّ والعيبِ والتنفيرِ مِن صنيعِهم، ويدُلُّ على ذلك أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلم الذي أُنزِلَت عليه هذه الآيةُ وهو أعلَمُ النَّاسِ بتأويلِها: قد نهى أمَّتَه عن اتخاذِ المساجدِ على القبور، وحَذَّرهم من ذلك، ولعن وذَمَّ مَن فعَلَه، ولو كان ذلك جائزًا لَمَّا شَدَّد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في ذلك التَّشديدَ العظيمَ، وبالغ في ذلك حتى لَعَن مَن فَعَله، وأخبر أنَّه من شرارِ الخَلقِ عند الله عزَّ وجَلَّ، وهذا فيه كفايةٌ ومَقنعٌ لطالبِ الحَقِّ، ولو فرَضْنا أنَّ اتخاذَ المساجِدِ على القبورِ جائزٌ لِمن قَبْلَنا، لم يجُزْ لنا التأسِّي بهم في ذلك؛ لأنَّ شريعتَنا ناسِخةٌ للشرائعِ قَبلَها، ورسولُنا عليه الصلاة والسلام هو خاتَمُ الرُّسُلِ). ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١/ ٤٣٥). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١٩٣).

اللهُ فيه[١].

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾.

أي: سيقولُ بَعضُ الخائِضينَ في عَدَدِ أصحابِ الكَهفِ: هم ثلاثةُ أشخاصٍ، والرَّابِعُ هو كَلبُهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤١).

قال الواحدي في قوله: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾: (ومعنى: ﴿عَلَيْهِم ﴾ هاهنا وفي قوله: ﴿ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ﴾ أنَّهم يجعلون وراء ذلك، كما يقال: بني عليه جِدارًا: إذا حَوَّطه وجعله وراءَ الجِدارِ). ((البسيط)) (١٣/ ٥٧٤).

قيل: بَنَوا على بابِ الكهفِ مسجِدًا للصلاةِ فيه. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

قال القرطبي: (الضميرُ في ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ يرادُ به أهلُ التوراة، ومُعاصِرو النبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ وذلك أنَّهم اختلفوا في عددِ أهل الكهفِ هذا الاختلافَ المنصوصَ. وقيل: المرادُ به: النصارى؛ فإنَّ قومًا منهم حَضَروا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن نجران، فجرى ذِكرُ أصحابِ الكهفِ. فقالت اليعقوبيَّة: كانوا ثلاثةً رابعُهم كلبُهم. وقالت النسطوريةُ: كانوا خمسةً سادِسُهم كلبُهم. وقال المسلمونَ: كانوا سبعةً ثامِنُهم كلبُهم). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨٢).

ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٦).

وقال الشوكاني: (﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ... ﴾ هؤُلاءِ القائلونَ بأنَّهم ثلاثةٌ أو خمسةٌ أو سبعةٌ، هم المتنازعونَ فِي عددِهم في زمنِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم مِنْ أهلِ الكتابِ

﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

أي: وسيقولُ بَعضُهم: هم خمسةُ أشخاصٍ، والسَّادِسُ هو كَلبُهم[(١)].

﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾.

أي: إنَّما يقولُ الخائِضونَ في عَددِ الفتيةِ ما يقولونَ بمُجَرَّدِ الظَّنِّ والتَّخمينِ، مِن غيرِ عِلمٍ ولا يقينٍ[(٢)].

﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

أي: ويقولُ بَعضُهم: عدَدُ أصحابِ الكَهفِ سَبعةٌ، والثَّامِنُ هو كَلبُهم[(٣)].

والمسلمينَ، وقيلَ: هم أهلُ الكتابِ خاصَّةً). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٩).

وقال ابن عثيمين: (كيف يمكِنُ أن يكون قولان لغائبٍ واحدٍ؟

هذا يُخَرَّج على وجهَينِ:

الوجه الأول: أنَّ المعنى: سيقول بعضُهم: ثلاثةٌ رابِعُهم كَلبُهم، ويقولُ البعضُ الآخَرُ: خمسةٌ سادِسُهم كَلبُهم، ويقول البعض الثالث: سبعةٌ وثامِنُهم كلبُهم.

والوجه الثاني: أن المعنى أنهم سيترددون؛ مرةً يقولون: ثلاثةٌ، ومرة يقولون: خمسةٌ، ومرة يقولون: سبعةٌ. وكلاهما محتَمِلٌ ولا يتنافيان، فتَجدُهم أحيانًا يقولون كذا، وأحيانًا يقولون كذا، حسَبَ ما يكونُ في أذهانِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤١-٤٢).

وممن اختار الوجهَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

قال الشوكاني: (﴿ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي: هم ثلاثةُ أشخاصٍ، وجملةُ ﴿رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ، أي: حالَ كونِ كلبِهم جاعلَهم أربعةً بانضمامِه إليهم، ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الكلامُ فيه كالكلامِ فيما قبله). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٧، ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٤)، ((تفسير

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾.

أي: قل -يا مُحَمَّدُ- للخائِضينَ في عَدَدِ أصحابِ الكَهفِ بلا عِلمٍ: ربِّي أعلَمُ مِن غَيرِه بعَدَدِ الفِتيةِ عِلمًا تامًّا[١].

﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾.

أي: ما يعلَمُ عَدَدَ أصحابِ الكَهفِ على الصَّوابِ إلَّا قليلٌ مِن خَلقِه[٢].

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾.

أي: فلا تُحاجِجْ -يا مُحمَّدُ[٣]- .....

البيضاوي)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

قال ابن كثير: (يقول تعالى مخبرًا عن اختلافِ النَّاسِ في عِدَّةِ أصحاب الكهفِ، فحكى ثلاثةَ أقوال، فدلَّ على أنَّه لا قائل برابعٍ، ولَمَّا ضَعَّف القولين الأوَّلَينِ بقَولِه: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: قولًا بلا علمٍ، كمن يرمي إلى مكانٍ لا يَعرِفُه، فإنَّه لا يكادُ يصيبُ، وإن أصاب فبلا قَصدٍ؛ ثم حكى الثالثَ وسكت عليه أو قَرَّره بقَولِه: ﴿وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾؛ فدَلَّ على صِحَّتِه، وأنَّه هو الواقِعُ في نفسِ الأمر). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٦٧-٣٦٨).

وقال أيضًا: (الصَّحيح عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّهم كانوا سبعةً، وهو ظاهرُ الآيةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٨).

وقال الرسعني: (على هذا أكثرُ العلماءِ؛ أنَّ عِدَّةَ أصحابِ الكهفِ سبعةٌ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٣).

(٣) قيل: لا تحاجِجْ أهلَ الكتاب. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ أبي زمنين، وابنُ جزي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٥٤)،

في أصحابِ الكَهفِ[١] إلاَّ مُحاجَّةً ظاهِرةً[٢]، ولا تُجهِدْ نَفسَك فيما لا طائِلَ مِن

((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٨).

وقيل: لا تُحاجِج المشركينَ. وممن قال بذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٤).

(١) قيل: المرادُ: لا تمارِ في عددِهم. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والقرطبي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٤).

وقيل: المرادُ: لا تمارِ في شأنهم. وممن قال بذلك: الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٩).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي: في شأنِهم، في زمانِهم، في مكانِهم، في مآلِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٣).

(٢) اختلف المفسِّرونَ في تفسيرِ المِراءِ الظاهِرِ، وذكر الواحدي بعضَ أقوالِ السلفِ، ثم قال: (فعلى ما قالوا: المراءُ الظاهرُ هو: أن يجادلَهم بما أُنزِل إليه مِن أنَّه لا يعلمُ عددَهم إلَّا القليلُ). ((البسيط)) (١٣/ ٥٨٠).

وممن قال مِن السلفِ أنَّ المرادَ: حسبُك ما قصَصْنا عليك مِن شأنِهم، وأظهَرْنا لك مِن أمرِهم: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢١).

وقال ابن عاشور: (والمراءُ الظَّاهِرُ: هو الَّذي لا سبيلَ إلى إنكارِه، ولا يطولُ الخوضُ فيه. وذلك مثلُ قولِه: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، وقولِه: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾؛ فإنَّ هذا مِمَّا لا سبيلَ إلى إنكارِه وإبايَتِه؛ لوُضوحِ حُجَّتِه، وما وراءَ ذلك محتاجٌ إِلَى الحجَّةِ؛ فلا يَنْبَغي الاشتغالُ به لقلَّةِ جَدْواه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٤).

وقيل: هو أن يقول لهم: ليس كما تقولون، ليس كما تعلمون. قاله ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٩٨).

وقال ابنُ كثير: (قال تعالَى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ أي: سَهلًا هَيِّنًا؛ فإنَّ الأمرَ في معرفةِ ذلك لا يترتَّبُ عليه كبيرُ فائدةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٣).

وقيل: إلَّا مراءً على اللِّسانِ لا يصِلُ إلى القَلبِ؛ لأنَّه إذا وصل الجِدالُ إلى القَلبِ اشتَدَّ المجادِلُ، وغَضِبَ وانتفَخَت أوداجُه وتأثَّر، في أمرٍ ليس للجِدالِ فيه كبيرُ فائدةٍ. وممن قال بذلك: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٣).

ورائِه[١].

﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾.

أي: ولا تَسألْ -يا مُحمَّدُ- في أصحابِ الكَهفِ[٢] أحدًا مِن أهلِ الكِتابِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٦٧، ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٣).

(٢) قيل: في عَدَدِهم. قاله ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٢).

وقيل: في شأنِهم. قاله الشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٤).

وممَّن قال بأنَّ المراد بالضميرِ في ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ يعود إلى أهلِ الكِتابِ: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٦).

قال ابنُ كثير: (﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ أي: فإنَّهم لا عِلمَ لهم بذلك إلَّا ما يقولونَه مِن تلقاءِ أنفُسِهم رجمًا بالغيبِ، أي: مِن غيرِ استنادٍ إلى كلامٍ مَعصومٍ، وقد جاءك اللهُ -يا محمَّدُ- بالحَقِّ الذي لا شَكَّ فيه ولا مِريةَ؛ فهو المقَدَّمُ الحاكِمُ على كُلِّ ما تقَدَّمَه من الكُتُبِ والأقوالِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٨).

قال الرسعني: (﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ أي: ولا تستَفْتِ في أصحابِ الكَهفِ مِن أهلِ الكتابِ أحدًا؛ لأنَّ سؤالَهم إمَّا تعنُّتٌ أو استرشادٌ؛ والأوَّلُ ليس من أخلاقِك المَرْضيَّةِ، والثاني لا حاجةَ بك إليه؛ لأنَّك قد علِمْتَه بإيحائِنا إليك، وقَصَصِنا عليك). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٦٧).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: عمومُ النَّاسِ، سواءٌ من أهلِ الكتابِ أم مِن غيرهم. وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٤).

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ولا تَقولَنَّ -يا محمَّدُ- لأيِّ شيءٍ تعزِمُ على فِعْلِه: إنِّي فاعلٌ ذلك الأمرَ في المُستَقبلِ[١].

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: إلَّا أن تقولَ مع ذلك القَولِ: إن شاء اللهُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

أي: إن قُلتَ -يا محمَّدُ-: سأفعَلُ شيئًا غدًا، ونَسِيتَ أن تقولَ: إن شاءَ اللهُ، فاذكُرْ رَبَّك بعد نِسيانِك بقَولِك: إن شاء اللهُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٣).

قال ابن القيم: (الذي أجمع عليه المفسِّرون: أنَّ أهلَ مكَّةَ سألوا النبيَّ عن الرُّوحِ، وعن أصحابِ الكَهفِ، وعن ذي القَرنَينِ، فقال: أُخبِرُكم غدًا. ولم يقُلْ: إن شاء الله. فتلبَّثَ الوحيُ أيَّامًا، ثم نزَلت هذه الآيةُ). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٧).

وممن اختار هذا المعنى المذكورَ: ابنُ القيم، والسعدي، واستظهره الشنقيطي، ونسبه إلى الجمهورِ، وقال به ابنُ عثيمين. يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٥٨)، ((تفسير

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ- داعيًا ربَّك: أرجو أن يوفِّقَني ربِّي، ويَدُلَّني إلى طريقٍ هو أقرَبُ الطُّرُقِ المُوصِلةِ إلى الرَّشادِ، ويُثبِّتَني عليه[1].

السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وأبو العاليةِ، والحسنُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٦).

قال ابنُ كثير: (ويحتَمِلُ في الآيةِ وجهٌ آخرُ، وهو أن يكونَ اللهُ عزَّ وجَلَّ قد أرشدَ مَن نَسِيَ الشيءَ في كلامِه إلى ذِكر الله تعالى؛ لأنَّ النسيانَ مَنشؤُه مِن الشَّيطانِ، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]، وذِكْرُ اللهِ تعالى يطرُدُ الشَّيطانَ، فإذا ذهب الشَّيطانُ ذهب النِّسيانُ، فذِكْرُ الله سببٌ للذِّكرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٠). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٤).

قال السعدي: (ويُؤخَذُ مِن عمومِ قولِه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الأمرُ بذكرِ الله عندَ النسيانِ، فإنَّه يزيلُه، ويُذكِّرُ العبدَ ما سها عنه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

وقيل: هذه الآيةُ فيمَن نسِي صلاةً فعليه أن يُصلِّيَها إذا ذكَرها، وهو مرويٌّ عن السُّديِّ والضَّحَّاكِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٨).

قيل: المرادُ: قلْ عسَى أن يُعطيَني من الآياتِ والدَّلالاتِ على النبوَّةِ ما يكونُ أقربَ في الرَّشَدِ وأدَلَّ من قصَّةِ أصحابِ الكهفِ. فالمشارُ إليه بقولِه ﴿مِنْ هَٰذَا﴾ -على هذا القولِ- هو نَبَأُ أصحابِ الكهف. وممَّن اختار هذا المعنى: الزجاج، وابن أبي زمنين، والواحدي، والبيضاوي، وابن جزي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٨- ٢٩٩).

قال البيضاوي: (وقد هداه لأعظَمَ مِن ذلك، كقَصَصِ الأنبياءِ المتباعِدةِ عنه أيَّامُهم، والإخبارِ

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى عن استفتاءِ أهلِ الكتابِ في شأنِ أهلِ الكَهفِ؛ لِعَدَمِ عِلمِهم بذلك، وكان اللهُ عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، العالمَ بكُلِّ شَيءٍ؛ أخبَرَ بمُدَّةِ لُبثِهم، وأنَّ عِلمَ ذلك عنده وَحدَه؛ فإنَّه مِن غَيبِ السَّمواتِ والأرضِ، وغَيبُها مختَصٌّ به سُبحانَه، فما أخبَرَ به عنها على ألسنةِ رُسُلِه، فهو الحَقُّ اليقينُ الذي لا يُشَكُّ فيه، وما لا يُطلِعُ رُسُلَه عليه فإنَّ أحدًا من الخَلقِ لا يَعلَمُه[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا فَرَغ اللهُ تعالى مِن هذه التَّربيةِ في أثناءِ القِصَّةِ، وخَتَمَها بالتَّرجيةِ

بالغُيوبِ والحوادثِ النازلةِ في الأعصارِ المُستَقبَلةِ إلى قيامِ الساعةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٨).

وقال ابنُ عاشور: (لَمَّا أبَرَّ اللهُ وَعدَ نبيِّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الذي وعَدَه المُشرِكين أن يبيِّنَ لهم أمْرَ أهلِ الكَهفِ، فأوحاه إليه وأوقَفَهم عليه؛ أعقَبَ ذلك بعتابِه على التصَدِّي لمجاراتِهم في السؤالِ عَمَّا هو خارِجٌ عن غرَضِ الرِّسالةِ دون إذنٍ مِن الله، وأمَرَه أن يذكُرَ نهيَ ربِّه، ويعزِمَ على تدريبِ نَفسِه على إمساكِ الوَعدِ ببيانِ ما يُسألُ منه بيانُه دون أن يُؤذِنَه الله به؛ أمرَه هنا أن يخبِرَ سائليه بأنَّه ما بُعِث للاشتغالِ بمثلِ ذلك، وأنَّه يرجو أنَّ اللهَ يهديه إلى ما هو أقرَبُ إلى الرُّشدِ مِن بيانِ أمثالِ هذه القِصَّةِ، وإن كانت هذه القِصَّةُ تشتَمِلُ على موعِظةٍ وهُدًى، ولكِنَّ الهدى الذي في بيانِ الشَّريعةِ أعظَمُ وأهَمُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٨-٢٩٩).

وقيل: المعنى: إذا نسيتَ شيئًا فاذكُرْ رَبَّك بأن تقولَ: عسى ربِّي أن يهديَني لشيءٍ آخرَ بدَلَ هذا المنسيِّ أقرَبَ منه رَشَدًا، وأدنى خيرًا ومنفعةً. والإشارةُ -بناءً على هذا القولِ- إلى قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾. وممن قال بذلك: النسفي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٩٦).

وقيل: المعنى: إذا سُئِلتَ عن شيءٍ لا تعلمُه، فاسألِ اللهَ فيه، وتوجَّهْ إلى الله أن يوفِّقَك للصوابِ والرشدِ. وممن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٠).

وقال ابنُ جرير: (يقولُ عزَّ ذِكرُه لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: قلْ: ولعلَّ اللهَ أن يهديَني فيُسَدِّدَني لأسَدَّ مِمَّا وعدتُكم وأخبَرتُكم أنَّه سيكونُ، إن هو شاء). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٧-٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٧٤).

في الهدايةِ للأرشَدِ، وكان عِلمُ مُدَّةِ لُبثِهم أدَقَّ وأخفى مِن عِلمِ عَدَدَهم؛ شَرَعَ في إكمالِها مُبَيِّنًا لهذا الأخفى(١).

﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥ ﴾.

أي: وبَقِيَ الفِتيةُ في الكَهفِ نِيامًا مُدَّةَ ثَلاثِمئةِ سَنةٍ وزيادة تِسعِ سنينَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٠)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

وهذه الآيةُ إخبارٌ مِن الله تعالى عن قدرِ لبثِهم في الكهفِ، وأنَّهم لبثوا فيه ثلاثَمئةِ سنةٍ وتسعَ سنينَ. ونسَبه الكرماني للجمهورِ. يُنظر: ((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) (١/ ٦٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ، وعبدُ الله بنُ عبيدِ بنِ عميرٍ، والضحاكُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٨).

وقيل في فائدةِ قولِه: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ بعدَ قولِه تعالى: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ ﴾: أنَّها ثلاثُمِئةِ سنةٍ بحسابِ السَّنةِ الشَّمسيَّةِ، وثلاثُمِئةِ سنةٍ وتسعُ سنينَ بحسابِ السَّنةِ القمريَّةِ.

وممن ذهَب إلى هذا القولِ: الماوردي، وابنُ كثير، والبقاعي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٠)، (٥/ ١٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٧).

ونسَب ابنُ عطيةَ هذا القولَ للنقاشِ، ونسَبه الشوكاني للزجَّاجِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣١).

قال ابنُ عاشور بعدَ أن ذكَر هذا القولَ: (وبهذا تظهرُ نكتةُ التَّعبيرِ عن التِّسعِ السِّنينِ بالازديادِ، وهذا مِنْ علمِ القرآنِ وإعجازِه العلميِّ الَّذي لم يَكُنْ لعمومِ العربِ علمٌ به). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠١).

وضَعَّف ابنُ عثيمين هذا القَولَ، ورَدَّه من وجهينِ:

الأولُ: أنَّه لا يمكِنُ أنْ نشهَدَ على اللهِ أنه أراد هذا.

الثاني: أنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ والسَّنَواتِ عندَ الله بالأهِلَّةِ؛ فقد قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ

﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦ ﴾.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: اللهُ أعلَمُ بمُدَّةِ لُبثِ الفِتيةِ في الكَهفِ نائِمينَ، وقد أخبَرَنا بمقدارِ تلك المُدَّةِ بالحَقِّ، والصِّدقِ المطابِقِ للواقِعِ، فلا نقبَلُ قولَ غَيرِه[1].

ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩]. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين-سورة الكهف)) (ص: ٥٠).

وقيل أيضًا في فائدةِ قولِه: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾: أنَّه لعلَّهم لما استكمل لهم ثلاثَمِئةِ سنةٍ، قرُب أمرُهم مِن الانتباهِ، ثمَّ اتَّفَق ما أوْجَب بقاءَهم في النَّومِ بعدَ ذلك تسعَ سنينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ٤٦٤).

وقيل: إنَّ هذه الآيةَ إخبارٌ عن أهلِ الكتابِ أنَّهم قالوا ذلك. وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، ومطرٌ الوراقُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٨).

قال ابن تيميَّةَ: (بعضُ المفسِّرينَ زعَموا أنَّ هذا قَولُ بَعضِ أهلِ الكتابِ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾، وليس كذلك؛ فإنَّ اللهَ لم يذكُرْ هذا عن أهلِ الكتابِ، بل ذكَرَه كلامًا منه تعالى). ((الجواب الصحيح)) (٤/ ٢٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الكهف)) (ص: ٥١).

وقيل: المعنى: اللهُ أعلَمُ بما لَبِثوا بعد أن قبَضَ أرواحَهم مِن بعدِ أن بعَثَهم مِن رَقدتِهم إلى يومِنا هذا، فلا يعلَمُ بذلك غيرُ اللهِ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣١).

قال الخازن: (يعني: إن نازعوك في مدَّةِ لُبثِهم في الكَهفِ، فقل أنت: الله أعلَمُ بما لَبِثوا، أي: هو أعلَمُ منكم، وقد أخبر بمدَّةِ لُبثِهم). ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٢).

وقال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ أي: إذا سُئِلْتَ عن لُبثِهم وليس عندك عِلمٌ في ذلك وتوقيفٌ مِن الله عزَّ وجَلَّ، فلا تتقَدَّمْ فيه بشَيءٍ، بل قُلْ في مثلِ هذا: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ

﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: لله وَحدَه عِلمُ ما غاب وخَفِيَ في السَّمواتِ والأرضِ، ولا يخفى عليه شَيءٌ فيهما(١).

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾.

أي: ما أبصَرَ اللهَ لكُلِّ مَوجودٍ، وما أسمَعَه لكُلِّ صَوتٍ، فلا يخفى عليه شَيءٌ

لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: ٢٦] أي: لا يعلَمُ ذلك إلا هو أو من أطلَعَه اللهُ عليه مِن خَلْقِه. وهذا الذي قُلْناه عليه غيرُ واحدٍ مِن عُلَماءِ التفسيرِ، كمجاهد، وغيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ والخَلَفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥١).

قال ابنُ عثيمين: (أي: له ما غاب في السَّمواتِ والأرضِ، أو له عِلمُ غَيبِ السَّمواتِ والأرضِ، وكِلا المعنيينِ حَقٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥١).

من ذلك[١]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾.

أي: ما لجَميعِ الخَلقِ في السَّمَواتِ والأرضِ مِن دونِ اللهِ مِن وَليٍّ يلي أمرَهم، ويُدَبِّرُ شُؤونَهم، ومن ذلك أنَّه تولَّى شأنَ أصحابِ الكَهفِ بلُطفِه وكَرَمِه، ولم يَكِلْهم إلى أحَدٍ مِن خَلقِه[٢].

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٢).

قال الزجاج: (أجمَعَت العلماءُ أنَّ معناه: ما أسمَعَه وأبصَرَه! أي: هو عالمٌ بقصَّةِ أصحابِ الكَهفِ وغَيرِهم). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٨٠).

وقال السعدي: (قوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ تعجُّبٌ مِن كمالِ سَمعِه وبَصَرِه، وإحاطتِهما بالمسموعاتِ والمُبصَراتِ، بعد ما أخبَر بإحاطة عِلمِه بالمعلوماتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير) (٥/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٧-٢٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٣).

قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: الضميرُ في قولِه: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ راجِعٌ لأهلِ السَّمَواتِ والأرضِ المفهومينَ مِن قَولِه تعالى: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٢٦]. وقيل: الضميرُ في قوله: ﴿مَا لَهُم﴾ راجعٌ لمعاصِري النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم من الكُفَّارِ، ذكَرَه القرطبي. وعلى كلِّ حالٍ فقد دلَّت الآياتُ المتقَدِّمةُ أنَّ وِلايةَ الجَميعِ لخالِقِهم جلَّ وعلا، وأنَّ منها وِلايةَ ثوابٍ وتوفيقٍ وإعانةٍ، وولايةَ مِلْكٍ وقَهرٍ ونُفوذٍ ومَشيئةٍ. والعِلمُ عند الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٥٨).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ بالتاء والجزمِ، بتوجيهِ الخطابِ[١] بالنَّهيِ عن الإشراكِ باللهِ في حُكمِه، فلا يَحكُم بين النَّاسِ بغيرِ حُكمِ اللهِ[٢].

٢- قِراءةُ ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ بالياء والرَّفع، على الخبَرِ عن اللهِ تعالى أنَّه نفى عن أيِّ أحدٍ مِن خَلقِه إشراكَه في حُكمِه وقَضائِه، أي: لا يُشرِكُ اللهُ في حُكمِه أحدًا سواه؛ فهو المتفرِّدُ وَحدَه بالحُكمِ بين العبادِ[٣].

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

أي: ولا يُشركُ اللهُ في قَضائِه بين خَلقِه وفي تدبيرِهم أحدًا سواه؛ فهو المتفرِّدُ وَحدَه بالحُكمِ في خَلقِه قَضاءً وقَدَرًا، وخلْقًا وتدبيرًا، وبالحُكمِ فيهم أمرًا ونهيًا، وثوابًا وعقابًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾

---

(١) قال ابنُ خالَويه: (والحُجَّةُ لِمَن قرأه بالتاءِ والجزمِ: أنَّه قصد الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ووجَّهَه إلى غيرِه، وجَعَل «لا» للنَّهيِ؛ فجَزَم بها). ((الحجة في القراءات السبع)) (ص: ٢٢٣).
وقال أبو علي الفارسي: (قراءةُ ابنِ عامرٍ: ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ أنت -أيُّها الإنسانُ- في حُكمِه؛ على النهيِ عن الإشراكِ في حُكمِه). ((الحجة للقراء السبعة)) (٥/ ١٤١).

(٢) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٤٤)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٢٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ١٤١).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٤)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٥٩)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٤).

[الأنعام: ١١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الخُلاصةُ التي تُستخلَصُ مِن قِصَّةِ أهلِ الكَهفِ هي: أنَّ كُلَّ مَنِ التجأَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يحميه بأسبابٍ قد يُدرِكُها وقد لا يُدرِكُها، وهو مِصداقُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]؛ فإنَّ مُدافعةَ اللهِ عن المؤمنينَ قد تكونُ بأسبابٍ معلومةٍ، وقد تكونُ بأسبابٍ مجهولةٍ لهم؛ فهذا يُرشِدُنا إلى أنْ نُحَقِّقَ الإيمانَ بالله عزَّ وجَلَّ، والقيامَ بطاعتِه(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ في هذه القِصَّةِ دَليلٌ على أنَّ مَن فَرَّ بدِينِه مِن الفِتَنِ، سَلَّمَه اللهُ منها، وأنَّ مَن حَرَص على العافيةِ عافاه الله، ومَن أوى إلى الله آواه الله، وجعلَه هدايةً لغيرِه، ومن تحمَّلَ الذُّلَّ في سبيلِه وابتغاءَ مَرضاتِه، كان آخِرَ أمْرِه وعاقِبتَه العِزُّ العظيمُ مِن حيثُ لا يحتَسِبُ(٢)، فالخوفُ العظيمُ مِن أهلِ الكَهفِ وقتَ إيمانِهم، ودخولِهم في الغارِ، أبدلهم الله به بعدَ ذلك أمنًا وتعظيمًا مِن الخلقِ، وهذه عوائِدُ الله فيمن تحمَّلَ المشاقَّ مِن أجلِه: أن يجعَلَ له العاقِبةَ الحَميدةَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تيسير اللطيف المنان)) للسعدي (١/ ٢٨٩).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ أبهم تعالى على عُمومِ النَّاسِ الإعلامَ بذلك؛ لحِكمةٍ، وهي أن تتعوَّدَ الأمَّةُ بتَركِ الاشتغالِ فيما ليست منه فائدةٌ للدينِ أو للنَّاسِ(١).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴾ اشتملَ على الأدَبِ في هذا المقامِ، وتعليمِ ما ينبغي في مِثْلِ هذا؛ فإنَّه تعالى أخبَرَ عنهم بثلاثةِ أقوالٍ، ضَعَّفَ القَولَينِ الأوَّلَينِ، وسَكَتَ عن الثَّالثِ، فدلَّ على صِحَّتِه؛ إذْ لو كان باطِلًا لردَّه كما ردَّهما، ثمَّ أرشدَ إلى أنَّ الاطِّلاعَ على عِدَّتِهم لا طائِلَ تحتَه، فيُقالُ في مِثلِ هذا: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾؛ فإنَّه ما يعلمُ بذلك إلَّا قليلٌ مِن النَّاسِ ممَّن أطْلَعَه اللهُ عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا ﴾ أي: لا تُجْهِدْ نفسَك فيما لا طائِلَ تحته، ولا تَسألْهم عن ذلك؛ فإنَّهم لا يَعلَمونَ مِن ذلك إلَّا رَجْمَ الغَيبِ، فهذا أحسنُ ما يكونُ في حكايةِ الخلافِ: أنْ تُستوعَبَ الأقوالُ في ذلك المقامِ، وأن يُنبَّهَ على الصَّحيحِ منها، ويُبطَلَ الباطِلُ، وتُذكَرَ فائِدةُ الخلافِ وثَمرتُه؛ لئلَّا يَطولَ النزاعُ والخِلافُ فيما لا فائدةَ تحتَه، فيُشتَغَلَ به عن الأهَمِّ، كذلك مَن نَصَبَ الخِلافَ فيما لا فائِدةَ تَحتَه، أو حكى أقوالًا متعدِّدةً لفظًا، ويَرجِعُ حاصِلُها إلى قَولٍ أو قَولينِ معنًى؛ فقد ضَيَّعَ الزمانَ وتكَثَّرَ بما ليس بصحيحٍ؛ فهو كلابِسِ ثَوبَي زُورٍ، واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٦٧).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشادٌ إلى أنَّ الأحسَنَ في مِثلِ هذا المقامِ رَدُّ العِلمِ إلى اللهِ تعالى؛ إذ لا احتياجَ إلى الخَوضِ في مِثلِ ذلك بلا عِلمٍ، لكِنْ إذا اطَّلَعْنا على أمرٍ قُلنا به، وإلَّا وقَفْنا حيث وقَفْنا[١]؛ ففيه تعليمٌ للنَّاسِ أن يردُّوا عِلمَ الأشياءِ إلى خالِقِها جلَّ وعلا وإن عَلِموا بها، كما أعلم نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بمدَّةِ لُبثِهم في قَولِه: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف: ٢٥]، ثم أمَرَه مع ذلك برَدِّ العلمِ إليه جلَّ وعلا في قَولِه جلَّ وعلا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم﴾ فيه دليلٌ على المَنعِ مِن استِفتاءِ مَن لا يَصلُحُ للفَتوى؛ إما لِقُصورِه في الأمرِ المُستفتَى فيه، أو لِكَونِه لا يُبالي بما تكَلَّمَ به، وليس عِندَه وَرَعٌ يَحجُزُه، وإذا نُهيَ عن استفتاءِ هذا الجِنسِ، فنَهيُه هو عن الفتوى مِن بابِ أولَى وأحرَى[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فنهى أن يقولَ العبدُ في الأمورِ المُستقبَلة، ﴿إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ﴾ مِن دونِ أن يقرِنَه بمشيئةِ الله؛ وذلك لِما فيه من المحذورِ، وهو: الكلامُ على الغَيبِ المُستقبَلِ الذي لا يَدري هل يفعَلُه أم لا، وهل يكونُ أم لا، وفيه ردُّ الفِعلِ إلى مشيئةِ العبدِ استقلالًا، وذلك محذورٌ محظورٌ؛ لأنَّ المشيئةَ كُلَّها لله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، ولِما في ذِكرِ مَشيئةِ الله مِن تيسيرِ الأمرِ وتَسهيلِه، وحُصولِ البركةِ فيه، والاستعانةِ مِن العبدِ لرَبِّه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

٨- من تَرَك شيئًا مِن ذِكرِ اللهِ الواجِبِ عليه سَهوًا، فلْيعُدْ إليه إذا ذَكَر، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾؛ فقد أمَرَه إذا نسيَ رَبَّه أن يذكُرَه بعد ذلك، فمن نسيَ الصَّلاةَ فقد نسيَ ذِكرَ رَبِّه، فإذا ذكَرَ أنَّه نَسِيَ فلْيعُدْ إلى ذكرِ الله بعدَ نِسيانِه[1]. وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ الإيمانُ بأنَّ اللهَ تعالى ذو بَصَرٍ نافذٍ لا يَغيبُ عنه شيءٌ، وذو سَمعٍ ثاقبٍ لا يخفَى عليه شَيءٌ، والإيمانُ بذلك يَقتَضي للإنسانِ ألَّا يُريَ ربَّه ما يكرَهُه، ولا يُسمِعه ما يكرَهُه؛ لأنَّك إنْ عَمِلتَ أيَّ عَمَلٍ رآه، وإنْ قُلْتَ أيَّ قولٍ سَمِعَه، وهذا يُوجِبُ أن تخشى اللهَ عزَّ وجلَّ، وألَّا تفعلَ فِعلًا يَكرَهُه، ولا تقولَ قَولًا يَكرَهُه اللهُ عزَّ وجلَّ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّ قصةَ أصحابِ الكَهفِ هي مِن آياتِ الله؛ فإنَّ مُكثَهم نِيامًا لا يَموتونَ ثلاثَمِئةِ سَنةٍ وتسعَ سنينَ؛ آيةٌ دالةٌ على قُدرةِ الله ومَشيئتِه، وأنَّه يَخلُقُ ما يشاءُ، ليس كما يقولُه أهلُ الإلحادِ، وهي آيةٌ على مَعادِ الأبدانِ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾، وكان الناسُ قد تنازَعوا في زَمانِهم: هل تعادُ الأرواحُ دُونَ الأبدانِ؟ وإخبارُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقِصَّتِهم -مِن غيرِ أنْ يُعَلِّمَه بَشَرٌ- آيةٌ على نبُوَّتِه، فكانت قصَّتُهم آيةً على أصولِ الإيمانِ الثلاثةِ: الإيمانُ باللهِ، واليومِ الآخِرِ، والإيمانُ برَسولِه، ومع هذا فليسوا من آياتِ اللهِ بعَجَبٍ، بل مِن آياتِ اللهِ ما هو أعجَبُ مِن ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٣).

عَجَبًا ﴾[١] [الكهف: ٩].

٢- اتخاذُ القبورِ مساجدَ ليس هو مِن شريعةِ الإسلامِ، بل مِن عملِ اليهودِ، وقد لعَنهم النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم على ذلك، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدًا ﴾ فجعَل اتِّخاذَ المساجِدِ على القُبورِ مِن فِعْلِ أهلِ الغَلَبةِ على الأمورِ، وذلك يُشْعِرُ بأنَّ مُستَنَدَه القَهْرُ والغَلَبةُ واتِّباعُ الهوى، وأنَّه ليس مِن فِعْلِ أهلِ العِلمِ والفَضلِ المُتَّبِعينَ لِمَا أنزلَ اللهُ على رُسُلِه مِن الهُدى[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدًا ﴾ مِن فوائِدِ الآيةِ أنَّ مِن أسبابِ بناءِ المَساجِدِ على القُبورِ الغُلوَّ في أصحابِ القُبورِ؛ لأنَّ الذين غَلَبوا على أمْرِهم بَنَوا عليهم المساجِدَ؛ لأنَّهم صاروا عِندَهم مَحَلَّ الاحترامِ والإكرامِ، فغَلَوا فيهم[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ وصفُ الأوَّلَينِ بالرَّجمِ بالغَيبِ دُونَ الثَّالِثِ يدُلُّ على أنَّه مَرْضِيٌّ وصَحيحٌ[٤].

٥- هنا نُكتةٌ في مسألةِ العَدَدِ؛ فاللهُ تعالى قال: ﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ ولم يقُلْ: ثمانيةٌ ثامِنُهم كلبُهم؛ لأنَّ الكلبَ مِن غيرِ الجِنسِ، وإذا كان مِن غيرِ الجِنسِ؛ فإنَّه لا يَدخُلُ في العددِ، ولكِنَّه يُجعَلُ بعدَه؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٧٠).

مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧] ولم يَقُلْ: «مِن نجوى أربعةٍ إلَّا هو رابِعُهم»؛ لأنَّه خالِقٌ وهم مخلوقونَ(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ دَلَّ عَلَمُ الاستقبالِ -السينُ في سيَقولونَ- على أنَّ النَّاسَ لا يزالونَ يَخوضونَ في ذلك(٢).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ فيه تحريمُ الجِدالِ بغَيرِ عِلمٍ وبلا حُجَّةٍ ظاهرةٍ(٣).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ الشَّخصَ قد يكون مَنهيًّا عن استفتائِه في شيءٍ دون آخَرَ، فيُستفتَى فيما هو أهلٌ له، بخلافِ غيرِه؛ لأنَّ الله لم ينهَ عن استفتائِهم مطلقًا، إنما نهَى عن استفتائِهم في قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ، وما أشبهَها(٤).

٩- قولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ والقَدَريةِ واضحةٌ؛ ألا ترى أنَّ الله جَلَّ جلالُه كيف أدَّب نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فأعلَمَه أنَّ فِعلَه الشيءَ -وإن كان منسوبًا إليه- فبمَشيئتِه يَفعَلُه، ونهاه أن يُطلِقَ القَولَ في فِعلِه بغيرِ استثناءِ مَشيئتِه(٥).

---

(١) يُنظر: ((شرح مقدمة التفسير)) لابن عثيمين (ص: ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٨٦).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ فيه استِحبابُ تَقديمِ المَشيئةِ في كُلِّ شَيءٍ[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ استدَلَّ به الشَّافِعيُّ وغَيرُه على أنَّ الاستِثناءَ في الأيمانِ والطَّلاقِ والعِتقِ، مُعتبَرٌ[٢].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ إلَّا قَولًا مَقرونًا بمَشيئةِ الله؛ فقَرنُ ذلك بمشيئةِ الله يَستفيدُ منه الإنسانُ فائِدَتينِ عَظيمَتينِ:

إحداهما: أنَّ اللهَ يُيَسِّرُ الأمرَ له؛ حيث فوَّضَه إليه جلَّ وعلا.

والثانيةُ: إنْ لم يَفعَلْ لم يَحنَثْ[٣].

١٣- قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ الفائِدةُ مِن أمْرِ اللهِ تعالى أنْ نَذكُرَه إذا نَسِينا هو ارتِفاعُ الإثمِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ فإذا نَسِيتَ فقُلْها إذا ذكَرْتَ، لكنْ هل تنفعُك فلا تَحنَثُ، أم يرتَفِعُ عنك الإثمُ دونَ حُكْمِ اليَمينِ؟ الظَّاهرُ: الثَّاني؛ أنْ يَرتفِعَ الإثمُ، وأمَّا الحِنْثُ فإنَّه يَحنَثُ لو خالفَ؛ لأنَّ الاستثناءَ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٦).

قال الرسعني: (والفائدةُ في الاستثناءِ: الخروجُ مِن الكذبِ، والتخلُّصُ مِن حنثِ الحالفِ إذا لم يفعلِ المحلوفَ عليه). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٦٨).

بالنِّسبةِ للحِنْثِ لا ينبغي إلَّا أنْ يكونَ مُتَّصِلًا[١]. وقد أجمع المُسلِمونَ على أنَّ الحالِفَ إذا استثنى في يمينه مُتَّصِلًا بها فقال: لأفعلَنَّ كذا أو لا أفعَلُه إن شاء اللهُ؛ أنَّه لا يحنَثُ إذا خالفَ ما حلف عليه؛ لأنَّ مِن أصلِ أهلِ الإسلامِ أنَّه لا يكون شيءٌ إلَّا بمشيئةِ الله، فإذا عَلَّقَ الحالِفُ الفِعلَ أو التَّركَ بالمشيئةِ، لم يحنَثْ عند عَدَمِ المشيئةِ، ولا تجِبُ عليه الكَفَّارةُ[٢].

١٤- قوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ ﴿عَسَىٰٓ﴾ مستعملةٌ في الرجاءِ تأدُّبًا[٣].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ استُدِلَّ بالتَّعجُّبِ فيه على جوازِ إطلاقِ صِيغةِ التعجُّبِ في صفاتِ اللهِ، كقَولِ: ما أعظَمَ اللهَ وما أجَلَّه[٤]!

١٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ على قراءةِ: ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ فالمعنى: لا يجوزُ أن يَحكُمَ حاكِمٌ إلَّا بما حكَمَ اللهُ، أو بما يدُلُّ عليه حُكمُ الله، وليس لأحدٍ أن يَحكُمَ مِن ذاتِ نَفسِه، فيكونَ شَريكًا لله في حُكمِه[٥].

١٧- يُفهِمُ قَولُه: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ على كِلتا قراءتَيه[٦]، وكذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٧).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٧٠). ويُنظر أيضًا: ((طبقات الشافعية الكبرى)) للسبكي (٩/ ٢٩٣).

ونقل الزجاجُ الإجماعَ في قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ على أنَّ معناه: ما أسمَعَه وأبْصَرَه. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٨٠).

(٥) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٨٠).

(٦) تقدَّم ذكرُ القراءتينِ في (القراءات ذات الأثرِ في التفسيرِ) (ص: ١٢٨).

قولُه تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقولُه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ- أنَّ متَّبِعي أحكامِ المشَرِّعين غيرَ ما شرَعَه اللهُ؛ أنَّهم مُشرِكون بالله، وهذا المفهومُ جاء مُبيَّنًا في آياتٍ أُخَرَ، كقَولِه فيمن اتَّبَع تشريعَ الشيطانِ في إباحةِ المَيتةِ بدعوى أنَّها ذبيحةُ اللهِ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فصَرَّح بأنَّهم مُشرِكون بطاعتِهم، وهذا الإشراكُ في الطاعةِ. واتِّباعُ التَّشريعِ المخالِفُ لِما شرعه اللهُ تعالى: هو المرادُ بعبادةِ الشَّيطانِ في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، وقَولِه تعالى عن نبيِّه إبراهيمَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]، وقَولِه تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧]، أي: ما يعبدون إلَّا شيطانًا، أي: وذلك باتِّباعِ تَشريعِه، ومِن أصرَحِ الأدلَّةِ في هذا: أنَّ الله جلَّ وعلا في سورةِ (النساء) بيَّنَ أنَّ مَن يريدون أن يتحاكَموا إلى غيرِ ما شرَعَه الله يُتعَجَّبُ مِن زعمِهم أنَّهم مؤمِنون، وما ذلك إلَّا لأنَّ دعواهم الإيمانَ مع إرادةِ التَّحاكُمِ إلى الطاغوتِ بالغةٌ مِن الكَذِبِ ما يحصُلُ منه العَجَبُ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[1] [النساء: ٦٠].

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٩).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ فقبْلَ هذا الكلامِ جُملٌ مَحذوفةٌ؛ والتَّقديرُ: فبَعَثوا أحدَهم ونظَرَ أيُّها أزكى طعامًا وتلطَّفَ، ولم يُشْعِرْ بهم أحدًا، فأطلَعَ اللهُ أهْلَ المدينةِ على حالِهم، وقصَّةِ ذَهابِه إلى المدينةِ، وما جَرى له مع أهْلِها[١].

- ومفعولُ ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾ مَحذوفٌ، دَلَّ عليه عُمومُ ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾، تَقديرُه: أعثَرْنا أهلَ المدينةِ عليهم[٢].

- قولُه: ﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡ﴾ الظَّرفُ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾؛ قُدِّمَ عليه الغايةُ إظهارًا لكَمالِ العنايةِ بذِكْرِها، أي: أعثَرْنا عليهم حين تَنازعوا أمْرَهم. وصِيغَ ذلك بصِيغَةِ الظَّرفيَّةِ؛ للدَّلالةِ على اتِّصالِ التَّنازُعِ في أمْرِ أهْلِ الكهفِ بالعُثورِ عليهم، بحيث تَبادروا إلى الخوضِ في كَرامةٍ يَجْعلونها لهم[٣]، وهذا إدماجٌ لذِكْرِ نِزاعٍ جَرى بين الَّذين اعْتَدوا عليهم في أُمورٍ شَتَّى، جمَعَها قولُه تعالى: ﴿أَمۡرَهُمۡ﴾؛ فضميرُ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ و﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ عائدانِ إلى ما عاد إليه ضَميرُ ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ﴾[٤]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٨).

- والإتيانُ بالمُضارِعِ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾؛ لاستحضارِ حالةِ التَّنازُعِ[١].

- قولُه: ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗا﴾ معطوفٌ على ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾، وإيثارُ صِيغَةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا القولَ ليس ممَّا يَستمِرُّ ويتجدَّدُ كالتَّنازُعِ[٢].

- قولُه: ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ طُوِيَ هنا وصْفُ العُثورِ عليهم، وذِكْرُ عودِهم إلى الكهفِ؛ لعدَمِ تعلُّقِ الغرَضِ بذِكْرِه؛ إذ ليس موضعَ عِبْرةٍ؛ لأنَّ المصيرَ إلى مَرقدِهم، وطُرُوَّ الموتِ عليهم شأنٌ مُعتادٌ لكلِّ حَيٍّ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾

- جيء بسينِ الاستقبالِ في قولِه: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ الأوَّل دونَ الآخرَيْنِ: ﴿وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ﴾، ﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ﴾؛ إمَّا لأنَّه يدخلُ الآخرانِ في حكمِ (السينِ)، كما تقولُ: قد أُكرَمُ وأُنعمُ، تريدُ معنى التوقعِ في الفعلينِ جميعًا؛ فحَرفُ العَطفِ يُوجِبُ دُخولَ القَولَينِ الآخرَينِ فيه، وإمَّا يرادُ بـ(يفعل) معنى الاستقبالِ الَّذي هو صالحٌ له[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٣)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩١).

- قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ...﴾ فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قال هنا: ﴿وَثَامِنُهُمْ﴾ بزيادةِ واوِ العطْفِ، بخِلافِ الَّذي قبْلَه ﴿رَّابِعُهُمْ﴾ ﴿سَادِسُهُمْ﴾؛ فاختُصَّت الثَّمانيةُ بالواوِ، ولمْ ترِدِ الجُملةُ من قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ صِفةً للنَّكرةِ قبْلَها كما تقدَّمَ فيما قبْلُ، وعُدِلَ إلى العطْفِ؛ ووجه ذلك قيل: إنَّ هذا الإخبارَ مُعرِّفٌ باختلافِ اليهودِ في فِتية الكَهفِ، وإنَّهم أو أكثرَهم لم يَتحقَّقوا عددَهم؛ فحَكَى سُبحانَه أقوالَهم، وأومأَ إلى تقريرِ الصَّحيحِ منها، مع أنَّ أكثرَ اليهود غيرُ عالِمينَ بذلك ولا مُرجِّحين؛ فأتى بالجُملتَينِ ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، ثمَّ أتْبَع هذا الكلامَ مِن اختلافِهم بقولِه: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾؛ فأفهمَ أنَّ هذا ليس مِن نَمطِ ما تَقدَّم، كأنَّه قيل: ويقولون سَبعةٌ وثامنُهم كلبُهم، وأنَّ هذا ليس داخلًا تحت ما تقدَّمَ من أنَّه رجمٌ بالغَيبِ[1].

وقيل: هذه الواوُ هي الواوُ الَّتي تدخُلُ على الجُملةِ الواقعةِ صِفَةً للنَّكرةِ، وفائدتُها توكيدُ اتِّصالِ الصِّفةِ بالموصوفِ، والدَّلالةُ على أنَّ اتِّصالها أمرٌ ثابتٌ مُستقِرٌّ، وهذه الواو هي الَّتي آذنَتْ بأنَّ الَّذين قالوا: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، قالوا عن ثباتِ علْمٍ وطُمأنينةِ نفْسٍ، ولم يَرْجُموا بالظَّنِّ كما غيرُهم. والدَّليلُ عليه: أنَّ اللهَ سُبحانَه أتبَعَ القولينِ الأوَّلينِ قولَه: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، وأتبَعَ القولَ الثَّالثَ قولَه: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2].

- وقيل: إنَّ الفِرقةَ الَّتي قالتْ: كانوا ثلاثةً، كانتْ بعدَها فِرقتانِ أُخريانِ،

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٧)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣١٧-٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٨).

وكذلك الثَّانيةُ الَّتي قالت: ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، وأمَّا السَّبعةُ فانتهَتْ عندها العِدَّةُ، وانقطَعَتْ بها القصَّةُ، ولم تكُنْ هناك فِرقةٌ رابعةٌ تَذكُرُ قولًا رابعًا، والشَّيءُ إذا تَمَّ وانتهى، وكانت الجُملةُ فيما لم يَنْتَهِ تتَّصِلُ بالأوَّلِ اتِّصالَ الشَّيءِ منه؛ كانتِ الواوُ فيها دَليلًا على انقضائِها، والآخر في كلامٍ في حُكْمِ المَنقطعِ منها في اللَّفظِ، وإنْ كان اتِّصالُه بها في المعنى كاتِّصال الأوَّلينِ[١]. وقيل: لمَّا كانتِ السَّبعةُ أصلًا للنِّهايةِ في تركيبِ العدَدِ؛ فصارتِ السَّبعةُ أصلًا للمُبالَغةِ في العدَدِ[٢].

- وقيل: إنَّ العرَبَ تقولُ: واحدٌ، اثنانِ، ثلاثةٌ، أربعةٌ، خمسةٌ، سِتَّةٌ، سبعةٌ، وثمانيةٌ، فإذا بلغَتِ الثَّمانيةَ لم تُجْرِها مَجْرى الأخواتِ الَّتي لا يُعْطَفُ بعضُها على بعضٍ، فيُعْطَفُ الثَّامنُ على ما قبْلَه، ولم يدخُلْ واوُ العطْفِ على ما قبْلَه[٣].

- وجُملةُ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا بَيانيًّا لِما تُثيرُه جُملةُ ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ إلى آخرِها، مِن ترقُّبِ تَعيينِ ما يُعتمَدُ عليه من أمْرِ عِدَّتِهم؛ فأُجِيبَ بأنْ يُحالَ العلْمُ بذلك على علَّامِ الغُيوبِ[٤].

- وإسنادُ اسمِ التَّفضيلِ إلى اللهِ تعالى في قولِه: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ يُفيدُ أنَّ علْمَ اللهِ بعِدَّتِهم هو العلْمُ الكاملُ، وأنَّ علْمَ غيرِه مُجرَّدُ ظَنٍّ وحَدَسٍ، قد

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٦٧-٨٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٦٨-٨٦٩).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٧٠-٨٧٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٦٨-١٦٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٨).
ويُنظر ما قيل في واوِ الثمانيةِ في: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥١)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٤٧٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٣).

يُصادِفُ الواقعَ وقد لا يُصادِفُه[١].

- وجُملةُ: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ الإخبارَ عن اللهِ بأنَّه الأعلَمُ يُثيرُ في نُفوسِ السَّامعينَ أنْ يَسألوا: هل يكونُ بعضُ النَّاسِ عالمًا بعِدَّتِهم علْمًا غيرَ كاملٍ؟ فأُجِيبَ بأنَّ قليلًا من النَّاسِ يَعْلمون ذلك، ولا مَحالةَ هم مَن أطلَعَهم اللهُ على ذلك بوحيٍّ، وعلى كل حالٍ فهم لا يُوصفونَ بالأعلميَّةَ؛ لأنَّ علْمَهم مُكتسبٌ من جِهَةِ اللهِ الأعلَمِ بذلك[٢].

- قولُه: ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ الفاءُ لتَفريعِ النَّهيِ على ما قبْلَه، أي: إذ قد عرَفْتَ جهْلَ أصحابِ القولينِ الأوَّلينِ، فلا تُجادِلهم[٣]، وهذا التَّفريعُ وما عُطِفَ عليه مُعترِضٌ في أثناءِ القصَّةِ[٤].

- قولُه: ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ سَمَّى مُراجعتَه لهم مِراءً على سَبيلِ المُقابَلةِ؛ لمُماراةِ أهْلِ الكتابِ له في ذلك[٥].

- قولُه: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ يعني: في عدَّتِهم، وحُذِفت العِدَّةُ؛ لدلالةِ ظاهرِ القولِ عليها[٦]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ المُرادُ من النَّهيِ عن استفتائِهم: الكِنايةُ عن جهْلِهم بأمْرِ أهْلِ الكهفِ؛ فضميرُ ﴿مِّنْهُمْ﴾ عائدٌ إلى ما عاد

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٨).

إليه ضَميرُ ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ ﴾، أو يكونُ كِنايةً رمزيَّةً عن حُصولِ علْمِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلمَ بحقيقةِ أمْرِهم، بحيث هو غَنِيٌّ عن استفتاءِ أحدٍ، وتكونُ (مِن) تَعليليَّةً[١].

٣- قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴾

- قولُه: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ في الكلامِ حذفٌ يقتضيه الظاهرُ، ويحسنُه الإيجازُ، والتقديرُ: إلَّا أن تقولَ: إلَّا أن يشاءَ الله، أو: إلَّا أن تقولَ: إنْ شاءَ اللهُ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ في تعريفِ الجلالةِ بلفظِ الربِّ مضافًا إلى ضميرِ المخاطبِ دونَ اسمِ الجلالةِ العَلَمِ مِن كمالِ الملاطفةِ ما لا يخفَى[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾

- قولُه: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾ فيه تفصيلٌ بعدَ الإجمالِ؛ فالجملةُ مستأنفةٌ، مُبيِّنةٌ لِمَا أُجْمِل فيما سبَق في قولِه: ﴿ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴾[٤].

- قوله: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾ أي: تسعَ سنينَ، فاستغنَى عن ذِكرِ السنينَ؛ لتقدُّمِ ذِكرِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٤-٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٧١).

٥- قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾

- قولُه: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه تقديمُ الخبر المجرور؛ لإفادة الاختصاص، أي: للهِ لا لغيره؛ ردًّا على الَّذين يزعمون علمَ خبرِ أهلِ الكهفِ ونحوِهم[١].

- قولُه: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ فيه مجيءُ ما دلَّ على التعجُّبِ مِن إدراكِه المسموعاتِ والمبصَراتِ؛ للدلالةِ على أنَّ أمرَه في الإدراكِ خارجٌ عن حدِّ ما عليه إدراكُ السامعينَ والمبصِرينَ؛ لأنَّه يدركُ ألطفَ الأشياءِ وأصغرَها، كما يدركُ أكبرَها حجمًا وأكثفَها جِرمًا، ويدركُ البواطنَ كما يدركُ الظواهرَ[٢].

- وفي قولِه: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ تقديمُ أمرِ الإبصارِ على السمعِ؛ ولعلَّ ذلك لأنَّ الشيءَ المتحدَّثَ عنه مِن قبيلِ المبصَراتِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ أبلغُ في نفيِ الشريكِ مِن أن يُقالَ: مِن وليٍّ ولا شريكٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠١-٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٧-٢٩)

﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٢٩ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُلۡتَحَدٗا﴾: أي: مَلجأً تَميلُ إليه، وأصلُ (لحد): يدُلُّ على مَيلٍ[١].

﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾: الغَداةُ: أوَّلُ النَّهارِ، وأصلُ (غدو): يَدُلُّ على زَمانٍ[٢]. والعَشِيُّ: مِنْ زوالِ الشَّمْسِ إلى الصَّباحِ، وآخِرُ النَّهارِ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظَلامٍ، وقِلَّةِ وضوحِ الشَّيءِ[٣].

﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ﴾: أي: لا تَصرِفْ عَينيك عنهم، ولا تُجاوِزْهم إلى غَيرِهم، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على التَّجاوزِ في الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٩، ٦٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧) و(٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

(٤) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢١٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٦)، ((تفسير ابن

﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾: أي: شغَلْنا قلبَه، وجعَلْناه غافلًا، والغفلةُ: سهوٌ يعتري الإنسانَ مِن قلَّةِ التَّحفُّظِ والتَّيقُّظِ. وقيل: المعنى: تركناه غُفْلًا، أي: فارغًا، والغُفْلُ: الشيءُ الفارغُ، والأرضُ الغُفْلُ: التي لا علامةَ بها[١].

﴿فُرُطًا﴾: أي: سَرَفًا وتَفريطًا وضَياعًا، وهو مِنَ الإفراطِ في الشَّيءِ والتَّجاوُزِ فيه، وقيل: أصلُه مِن التفريطِ، وهو تقديمُ العَجْزِ، فمَن قدَّم العَجْزَ في أمرِه أضاعَه وأهلَكه[٢].

﴿سُرَادِقُهَا﴾: أي: فُسطاطُها وسُورُها، وكُلُّ ما أحاط بشيءٍ واشتمَلَ عليه مِن ثَوبٍ أو حائطٍ، يقالُ له: سُرادِقٌ، وهو فارسيٌّ مُعَرَّب[٣].

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: المُهلُ: ما انتهى حَرُّه مِمَّا أُذِيبَ من النُّحاس والرَّصاصِ وأشباهِ ذلك، أو عَكَرُ الزَّيتِ، وأصلُ (مهل): يدل على جِنسٍ مِن الذَّائباتِ[٤].

جرير)) (١٥/ ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٦٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٩)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٦٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٦٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٠-٢٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٦/ ١٧١)،

﴿مُرْتَفَقًا﴾: أي: مَنزِلًا، ومَقرًّا يُعَدُّ للارتفاقِ والانتفاعِ، أو مجلسًا، وأصلُ الارتفاقِ: الاتكاءُ على المِرْفقِ، وأصلُ (رفق): يدُلُّ على مُوافَقةٍ ومُقارَبةٍ بلا عنفٍ، ويُشتَقُّ منه كلُّ شيءٍ يَدْعو إلى راحةٍ وموافَقَةٍ(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: واقرأْ -يا مُحمَّدُ- ما أوحاه اللهُ إليك من القُرآنِ، وبلِّغْه للناسِ، واتَّبِعْه؛ فإنَّه لا يستطيعُ أحَدٌ أن يُبدِّلَ كَلِماتِ اللهِ؛ ولن تجِدَ مِن دونِ رَبِّك مَلجأً تلجأُ إليه إن أنت لم تَتلُ القرآنَ وتتَّبِعْه وتبلِّغْه.

ثم يرشدُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم إلى أحدِ الآدابِ المهمةِ، فيقولُ: واحبِسْ نفسَك -يا مُحمَّدُ- مع أصحابِك الذين يَعبُدونَ رَبَّهم وحدَه، ويَدْعُونَه أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه مُخلِصينَ في عبادتِه، ولا تَصرِفْ نَظَرَك عنهم إلى غَيرِهم مِن الكُفَّارِ مِن أهلِ الغنَى والجاهِ؛ راغبًا في مجالستِهم، ولا تُطِعْ مَن جعَلْنا قلبَه غافِلًا عن ذِكرِنا، وآثَرَ هواه، وصار أمرُه في جميعِ أعمالِه ضَياعًا وسَفَهًا وتفريطًا.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يجهرَ بكلمةِ الحقِّ، فيقولُ تعالى: وقُلْ لهؤلاء الغافلينَ: ما جئتُكم به هو الحَقُّ مِن رَبِّكم، فإنْ شِئتُم فآمِنوا، وإن شِئتُم فاكفُروا، إنا أعدَدْنا للكافرينَ نارًا شديدةً أحاط بهم سُورُها مِن كُلِّ جانبٍ، وإنْ يَستَغِثْ هؤلاء الكُفَّارُ في النَّارِ بطَلَبِ الماءِ مِن شِدَّةِ عطَشِهم، يُؤتَوا بماءٍ مُنتِنٍ أسودَ شَديدِ الحرارةِ يَشوي وجوهَهم، قَبُحَ هذا الشرابُ الذي يُؤتَونَ

((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٦٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٣، ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٥).

به، وقَبُحَت النَّارُ مَنزِلًا لهم ومُقامًا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أنزَل اللهُ تعالى على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما أنزَل مِن قِصَّةِ أهل الكهفِ؛ أمَرَه بأن يقُصَّ ويتلوَ على معاصريه ما أوحَى إليه تعالى مِن كتابِه في قِصَّةِ أهلِ الكَهفِ وفي غيرِهم[١].

وأيضًا لَمَّا دلَّ اشتمالُ القُرآنِ على قِصَّةِ أصحابِ الكَهفِ، مِن حيث إنَّها من المُغَيَّباتِ بالإضافةِ إلى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، على أنَّه وحيٌ مُعجِزٌ؛ أمَرَه أن يداوِمَ دَرسَه، ويلازِمَ أصحابَه[٢].

وأيضًا لَمَّا أخبَر الله تعالى أنَّ له غيبَ السَّمواتِ والأرضِ، فليس لمخلوقٍ إليها طريقٌ إلَّا عن الطريقِ التي يخبِرُ بها عبادَه، وكان هذا القرآنُ قد اشتملَ على كثيرٍ مِن الغيوبِ؛ أمر تعالى بالإقبالِ عليه، فقال[٣]:

﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾.

أي: واقرأ -يا محمَّدُ- ما أوحَى اللهُ إليك مِن القرآنِ، وأبلِغْه إلى النَّاسِ، واتَّبِعْه بتصديقِ أخبارِه والعَمَلِ بما فيه، بامتثالِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((أضواء البيان))

كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ * وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النمل: ٩١- ٩٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الزخرف: ٤٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

أي: لا أحدَ يَستطيعُ أن يغيِّرَ كَلِماتِ الله[١] الشرعيةَ، فيُحَرِّفَ القرآنَ بتغييرِ أخبارِه، وتبديلِ أحكامِه، أو صرفِها عن معانيها الصَّحيحةِ[٢]، ولا أن يُغيِّرَ كَلِماتِه

للشنقيطي (٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٥).

(١) قال ابن الجوزي: (في قولِه: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ قولان:
أحدهما: لا يَقدِرُ المُفتَرون على الزيادةِ فيها والنقصانِ منها.
والثاني: لا خُلفَ لمواعيده، ولا مغيِّرَ لحُكمِه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٦٩). ويُنظر: (٢/ ٢٤).
وقال ابن جرير: (﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يقول: لا مُغَيِّرَ لما أَوعَدَ بكلماتِه التي أنزلها عليك أهلَ معاصيه، والعاملينَ بخلافِ هذا الكتابِ الذي أوحيناه إليك). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٤).
وقال ابن جُزي: (يحتملُ أن يُرادَ بالكلماتِ هنا: القرآنُ، فالمعنى: لا يُبدِّلُ أحدٌ القرآنَ ولا يغيِّره، ويحتمِلُ أن يريدَ بالكلماتِ: القَضاءَ والقدَرَ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٤). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦١).
قال البقاعي: (فلا عُذرَ في التقصيرِ في إبلاغِها). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٨).

الكونيةَ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ [يونس: ١٥].

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾.

أي: ولن تَجِدَ -يا مُحمَّدُ- مِن دونِ اللهِ مَلجأً تَهرُبُ إليه، وتحتمي به مِن العذابِ، إن أنتَ لم تتلُ القُرآنَ فتَتَّبِعْه وتُبَلِّغْه[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٧).
قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يعني: لا أحدَ يستطيعُ أن يُبدِّلَ كلماتِه، لا الكونيةَ ولا الشرعيةَ). ((المصدر السابق)).
وقال أيضًا: (أمَّا الشرعيَّةُ فلا أحدَ يستطيعُ شَرعًا أن يبَدِّلَها. والنفيُ هنا ليس نفيًا للوجودِ، ولكِنَّ النفيَ هنا للإمكانِ الشَّرعيِّ، فلا أحَدَ يستطيعُ شرعًا أن يبَدِّلَ كَلِماتِ اللهِ الشَّرعيَّةَ؛ فالواجِبُ على الجميعِ أن يستسلِموا لله، فلو قال قائِلٌ: وجَدْنا من يبَدِّلُ كلامَ الله... قلنا: هذا تبديلٌ شَرعيٌّ، والتبديلُ الشَّرعيُّ قد يقَعُ مِن البَشَرِ، فيُحَرِّفونَ الكلامَ عن مواضِعِه، ويفَسِّرونَ كلامَ الله بما لا يريدُه الله). ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير الكهف)) لابن عثيمين (ص: ٥٧).

٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾.

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾.

أي: واحبِسْ نفسَك -يا مُحمَّدُ- مع أصحابِك الذين يَعبُدونَ رَبَّهم أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، ويَدْعونَه ويَذكُرونَه مُخلِصينَ له في ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سِتَّةَ نَفَرٍ، فقال المُشرِكونَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اطرُدْ هؤلاء لا يَجتَرِئونَ علينا! قال: وكنتُ أنا وابنُ مسعودٍ، ورجلٌ مِن هُذَيل، وبِلالٌ، ورجلانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٥٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا قَولُه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ فهي عامَّةٌ فيمن تناوله هذا الوصفُ، مثل الذين يُصلُّونَ الفجرَ والعصرَ في جماعةٍ؛ فإنَّهم يدعونَ رَبَّهم بالغداةِ والعَشيِّ يريدونَ وَجهَه). ((مجموع الفتاوى)) (١١/ ٥٩). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٣، ٢٦٤).

لستُ أُسمِّيهما، فوقع في نفسِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما شاء اللهُ أن يقعَ، فحدَّث نفسَه، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]))[١].

وعن أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لَأَنْ أقعُدَ مع قَومٍ يَذكُرونَ اللهَ تعالى مِن صَلاةِ الغَداةِ حتى تَطلُعَ الشَّمسُ، أَحَبُّ إليَّ مِن أن أُعتِقَ أربعةً مِن ولَدِ إسماعيلَ، ولَأَنْ أقعُدَ مع قومٍ يَذكُرونَ اللهَ مِن صلاةِ العَصرِ إلى أن تَغرُبَ الشَّمسُ، أَحَبُّ إليَّ مِن أن أُعتِقَ أربعةً))[٢].

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: ولا تَصرِفْ عينَيك -يا مُحمَّدُ- عن الذين يَعبُدونَ رَبَّهم بالغَداةِ والعَشيِّ؛ لرثاثةِ هيئتِهم وزِيِّهم، مُحتَقِرًا لهم، فتَتجاوزَهم إلى أهلِ الشَّرَفِ والجاهِ، والغنَى والثروةِ، طامحًا إلى مُجالَستِهم بدلًا مِن أولئك[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٤١٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٦٧) واللفظ له، والطبراني في ((الدعاء)) (١٨٧٨)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٥٦١).

حسَّن إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٥٤)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٦٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٧، ٢٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦١).

قال القرطبي: (لم يُرِدِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يفعلَ ذلك، ولكنَّ الله نهاه عن أن يفعَلَه، وليس هذا بأكثَرَ مِن قولِه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وإن كان اللهُ أعاذه مِن الشِّركِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩١).

كما قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾.

أي: ولا تُطِعْ -يا مُحمَّدُ- من جعَلْنا قلبَه غافلًا[١] عن ذِكرِنا وعبادتِنا وعن القرآنِ، وانشغل عن ذلك بالدُّنيا[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

---

(١) قال السعدي: (﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ غفَلَ عن الله فعاقَبَه بأن أغفَلَه عن ذِكرِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٤).

وذهب مقاتلُ بنُ سليمان والجلال المحلي إلى أنَّ المرادَ بـ﴿ذِكْرِنَا﴾: القرآنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٣٨٤).

وقال ابن الجوزي: (﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: عن التوحيدِ والقرآنِ والإسلامِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٩).

وقال ابن عثيمين: (﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ يعني: عن ذِكْرِه إيَّانا، أو عن الذِّكرِ الذي أنزَلْناه؛ فعلى الأولِ: يكونُ المرادُ الإنسانَ الذي يذكُرُ اللهَ بلسانِه دونَ قَلبِه، وعلى الثاني: يكونُ المرادُ الرجُلَ الذي أغفل اللهُ قَلبَه عن القرآنِ فلم يرفَعْ به رأسًا، ولم يَرَ في مخالفتِه بأسًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٢).

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾.

أي: وآثَرَ اتِّباعَ شَهواتِ نَفسِه، فاختار الكُفرَ والشِّركَ والمعاصيَ على الإيمانِ والتَّوحيدِ والطَّاعةِ(١).

﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

أي: وكانت شُؤونُه وأعمالُه سَفَهًا وتفريطًا وضَياعًا، قد تجاوَز فيها الحَدَّ، وتقدَّم فيها على الحَقِّ، نابذًا له وراءَ ظهرِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٥، ٢٦٦).

قيل: معنى قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾: تَفْريطٌ وضَياعٌ. وممن اختار هذا المعنى: ابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٢).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ من السلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٢).

وقيل: مِن الإفراطِ الذي هو مجاوزةُ الحدِّ، كقولِ الكُفَّارِ المُحتَقِرينَ لفُقراءِ المؤمنين: نحن أشرافُ مُضَرَ وساداتُها، إن اتَّبعناك اتَّبَعك جميعُ الناس. وهذا مِن التكبُّرِ والإفراطِ في القولِ.

وممن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٣).

قال ابن جرير: (معناه: وكان أمرُ هذا الذي أغفَلْنا قلبَه عن ذِكرِنا في الرياءِ والكبرِ واحتقارِ أهل الإيمانِ سَرَفًا، قد تجاوز حدَّه، فضَيَّع بذلك الحَقَّ وهَلَك). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٣).

وقال الشنقيطي بعدَ أن ذكَر كلا المعنيين: (وأظهرُ الأقوال في معنى الآية الكريمة عندي بحسَب اللغة العربية التي نزل بها القرآن: أنَّ معنى قوله: ﴿فُرُطًا﴾ أي: متقَدِّمًا للحقِّ والصواب، نابذًا له وراءَ ظَهرِه... وإلى ما ذكرْنا في معنى الآية تَرجِعُ أقوالُ المفسرين كلها، كقول قتادة ومجاهد: ﴿فُرُطًا﴾ أي: ضياعًا، وكقول مقاتل بن حيان: ﴿فُرُطًا﴾ أي: سَرَفًا، وكقول الفراء: ﴿فُرُطًا﴾ أي: متروكًا، وكقول الأخفش: ﴿فُرُطًا﴾ أي: مجاوِزًا للحدِّ، إلى غيرِ ذلك مِن الأقوالِ). ((أضواء

﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعد أن أمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم بما فيه نَقضُ ما يَفتِلونَه مِن مُقتَرحاتِهم، وتعريضٌ بتأييسِهم من ذلك -كاقتراحِهم طردَ الفقراءِ حتَّى يُؤمنوا-؛ أمَرَه أن يُصارِحَهم بأنَّه لا يَعدِلُ عن الحَقِّ الذي جاءه مِن الله، وأنَّه مُبلِّغُه بدونِ هَوادةٍ، وأنَّه لا يَرغَبُ في إيمانِهم ببَعضِه دونَ بَعضٍ، ولا يتنازَلُ إلى مُشاطَرتِهم في رَغَباتِهم بشَطرِ الحَقِّ الذي جاء به، وأنَّ إيمانَهم وكُفرَهم موكولٌ إلى أنفُسِهم، لا يَحسَبونَ أنَّهم بوعدِ الإيمانِ يَستَنزِلونَ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عن بعضِ ما أُوحيَ إليه، فالدينُ الحقُّ إنما أتَى مِن عندِ الله، فإن قبلوه عاد النفعُ إليهم، وإن لم يقبلوه عاد الضررُ إليهم، ولا تعلُّقَ لذلك بالفقرِ والغنَى، والقبحِ والحسنِ، والخمولِ والشهرةِ[1].

﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾.

أي: وقُلْ -يا مُحمَّدُ- مُعلِنًا[2]: هذا الذي جِئتُكم به مِن عندِ رَبِّكم هو الحَقُّ

البيان)) (٣/ ٢٦٥، ٢٦٦).

وذهب البقاعي إلى نحوِ قولِ الشنقيطي، فقال: (﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ أي: مُتجاوزًا للحَدِّ مُسرِفًا فيه، متقدمًا على الحَقِّ، فيكون الحقُّ منبوذًا به وراء الظَّهرِ مُفرَّطًا فيه بالتَّقصيرِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٧).

(٢) قيل: المرادُ: أن يقولَ للذين أغفلَ الله قلوبَهم عن ذِكرِه، واتَّبعوا أهواءَهم. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٣).

بلا شَكٍّ، فلا تَطلُبوه مِن غَيرِه؛ فهو وَحدَه الذي يَهدي إليه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضِلُّ مَن يشاءُ منهم(١).

﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾.

أي: فإنْ شِئتُم فآمِنوا، وإن شِئتُم فاكفُروا؛ فإن اختَرتُم الإيمانَ فلكم الجنَّةُ،

وقيل: المرادُ: أن يقولَ للنَّاسِ. وممن قال بذلك: ابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٢).

قال القرطبي: (فاللهُ يؤتي الحَقَّ مَن يشاءُ وإن كان ضعيفًا، ويَحرِمُه مَن يشاءُ وإن كان قويًّا غنيًّا، ولستُ بطارِدِ المؤمنينَ لِهواكم). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٣).

وقال الشنقيطي: (وفي إعرابِه وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ مبتدأٌ، والجارَّ والمجرورَ خبَرُه، أي: الحقُّ الذي جئتُكم به في هذا القرآن العظيمِ، المتضَمِّنُ لدين الإسلامِ: كائِنٌ مبدؤُه مِن ربِّكم جلَّ وعلا؛ فليس من وحيِ الشَّيطانِ، ولا مِن افتراءِ الكَهَنةِ، ولا مِن أساطيرِ الأوَّلينَ، ولا غير ذلك. بل هو مِن خالِقِكم جلَّ وعلا، الذي تلزَمُكم طاعتُه وتوحيدُه، ولا يأتي مِن لَدُنْه إلَّا الحَقُّ الشامِلُ للصِّدقِ في الأخبارِ، والعَدل في الأحكامِ، فلا حَقَّ إلَّا منه جلَّ وعلا.

الوجه الثاني: أنَّه خبَرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هذا الذي جئتُكم به الحَقُّ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٦٦). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٢).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأولِ: ابنُ جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٣).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثاني: الزجَّاجُ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥).

قال الشوكاني: (أي: قُلْ لهم: إنَّ ما أُوحِيَ إليك، وأُمِرتَ بتلاوتِه: هو الحَقُّ الكائِنُ مِن جهةِ الله، لا مِن جهةِ غَيرِه حتى يمكِنَ فيه التَّبديلُ والتغييرُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٦).

وإن اختَرْتُم الكُفرَ فقد أُعِدَّت لكم النَّارُ[١].

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا هدَّدَ السَّامِعينَ بما حاصِلُه: لِيَختَرْ كلُّ امرئٍ لنَفسِه ما يجِدُه غَدًا عندَ الله تعالى؛ أتبَعَ هذا التهديدَ تَفصيلًا لِمَا أَعَدَّ للفَريقينِ مِن الوَعدِ والوعيدِ[٢]، ولَمَّا كان الكلامُ مع الكُفَّارِ وفي سياقِ ما طلبوا من الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كانت البداءةُ بما أعَدَّ لهم أهَمَّ وآكَدَ[٣].

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾.

أي: إنَّا أعدَدْنا وأرصَدْنا وهيَّأْنا للكافرينَ نارًا يُحيطُ بهم سُورُها مِن كُلِّ جانبٍ، فلا سبيلَ لهم إلى الخُروجِ منها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٦).
والمرادُ مِن الأمرِ هنا: التهديدُ والتَّخويفُ والوعيدُ الشديدُ، لا التخييرُ بينَ الكفرِ والإيمانِ. وممن نصَّ على ذلك: ابنُ جرير، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٦- ٢٦٨).
وممن قال بأنَّ المرادَ بسُرادقِها: سورُها: يحيى بن سلام، وابنُ أبي زَمَنين، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ١٨٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (١/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥).
وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٦).
قال الشنقيطي: (أمَّا المرادُ بالسُّرادِقِ في الآيةِ الكريمةِ، ففيه للعُلَماءِ أقوالٌ مَرجِعُها إلى شَيءٍ

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١].

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾.

أي: وإنْ يَطلُبِ الكافِرونَ المعذَّبونَ في النَّارِ الماءَ؛ مِن شِدَّةِ عَطَشِهم، يُؤتَوا بماءٍ مُنتِنٍ غَليظٍ أسودَ، غاية في الحرارةِ، يشوي وُجوهَهم(١)؛ مِن شِدَّةِ حَرِّه(٢).

واحدٍ، وهو إحداقُ النَّارِ بهم من كلِّ جانبٍ، ... فمعنى الآية الكريمة: أنَّ النَّارَ مُحيطةٌ بهم من كلِّ جانبٍ، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٦٨-٢٦٩).

(١) قال البقاعي: (﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ أي: إذا قُرِّب إلى الفَمِ، فكيف بالفَمِ والجوفِ؟!). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٥٤). وبنحو ذلك قال ابنُ كثير، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٨، ٢٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤، ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٣).

قال ابنُ جرير بعدَ أن ذكَر جملةً مِن الأقوالِ في معنَى المُهْلِ: (وهذه الأقوالُ وإن اختَلَفت بها ألفاظُ قائليها، فمتقارباتُ المعنى؛ وذلك أنَّ كُلَّ ما أُذيبَ مِن رَصاصٍ أو ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ فقد انتهى حَرُّه، وأنَّ ما أُوقِدَت عليه من ذلك النَّارُ حتى صار كدُردِيِّ الزيتِ، فقد انتهى أيضًا حَرُّه... فالمُهْلُ إذَن هو كُلُّ مائعٍ قد أوقِدَ عليه حتى بلغَ غايةَ حَرِّه، أو لم يكُنْ مائعًا فانماعَ بالوُقودِ عليه، وبلغ أقصى الغايةِ في شِدَّةِ الحَرِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٠-٢٥١).

وقال الشنقيطي: (المهلُ في اللغةِ: يطلقُ على ما أُذيبَ مِن جواهرِ الأرضِ، كذائبِ الحديدِ والنحاسِ، والرصاصِ ونحوِ ذلك. ويُطلقُ أيضًا على دُرْدِيِّ الزيتِ وهو عكرُه. والمراد بالمهلِ

﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾.

أي: بئسَ شَرابُ الكافرينَ هذا الماءُ الذي يُؤتَونَ به، فيكونُ زيادةً في عقابِهم(١).

﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾.

أي: وقبُحَت جهنَّمُ مُقامًا يَستَقِرُّ فيه الكافِرونَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ فيه الأمرُ بصُحبةِ الأخيارِ، ومُجاهَدةِ النَّفسِ

في الآيةِ: ما أُذيب مِن جواهرِ الأرضِ. وقيل: دُردي الزيتِ. وقيل: هو نوعٌ مِن القطرانِ. وقيل: السمُّ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٦٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٤- ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤-١٥٥).

وقال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذكَر أقوالَ السلفِ في معنى المهلِ، قال: (وهذه الأقوالُ ليس شيءٌ منها ينفي الآخرَ، فإنَّ المهلَ يجمعُ هذه الأوصافَ الرَّذيلةَ كُلَّها، فهو أسودُ مُنْتِنٌ غليظٌ حارٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٠).

قال الشنقيطي: (للعُلَماءِ في المرادِ بالمُرتَفَقِ في الآيةِ أقوالٌ متقارِبةٌ في المعنى؛ قيل: ﴿مُرۡتَفَقًا﴾ أي: مَنزِلًا، وهو مرويٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ. وقيل: مقرًّا، وهو مرويٌّ عن عطاءٍ. وقيل: مَجلِسًا، وهو مرويٌّ عن العتبي. وقال مجاهِدٌ: ﴿مُرۡتَفَقًا﴾ أي: مجتَمَعًا. فهو عنده مكانُ الارتفاقِ بمعنى مُرافَقةِ بعضِهم لبعضٍ في النَّارِ. وحاصِلُ معنى الأقوالِ أنَّ النَّارَ بئسَ المستقَرُّ هي، وبئس المُقامُ هي، ويدُلُّ لهذا قَولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٧٠).

على صُحبَتِهم ومخالَطتِهم وإن كانوا فُقرَاءَ؛ فإنَّ في صُحبَتِهم مِن الفوائِدِ ما لا يُحصى[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مُجالسةَ الصالحينَ مأثورةٌ على مجالِسِ غَيرِهم، ومَندوبٌ إليها المُؤمِنونَ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ إرشادٌ إلى حَمْلِ النَّفسِ على المَكارِهِ، والْتِماسِ القُرْبَةِ إلى الله، وصرْفِها عمَّا تُنازِعُ إليه مِن هواها[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ في الآيةِ الكريمةِ فَضْلُ الاجتماعِ على الذِّكْرِ والدُّعاءِ[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ فيه فَضْلُ الإخلاصِ، وأنَّ الإخلاصَ هو الذي عليه مدارُ كلِّ شيءٍ[٥].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ في الآيةِ أنَّ الإنسانَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((النُّكَتُ الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٥٣٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لا ينبغي له أنْ يدَعَ أحوالَ الآخرةِ والعباداتِ إلى أحوالِ الدُّنيا[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ فيه استحبابُ الذِّكرِ والدُّعاءِ والعبادةِ طَرَفي النَّهارِ؛ لأنَّ اللهَ مَدَحهم بفِعلٍ، وكلُّ فِعلٍ مدحَ اللهُ فاعِلَه، دلَّ ذلك على أنَّ اللهَ يُحِبُّه، وإذا كان يحِبُّه فإنَّه يأمرُ به، ويُرَغِّبُ فيه[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ يدُلُّ على أنَّ الذي ينبغي أن يُطاعَ، ويكونَ إمامًا للنَّاسِ: مَن امتلأ قلبُه بمحَبَّةِ الله، وفاض ذلك على لِسانِه، فلَهِجَ بذِكرِ الله، واتَّبَع مراضيَ رَبِّه، فقَدَّمَها على هواه، فحَفِظَ بذلك ما حَفِظَ مِن وَقتِه، وصَلَحت أحوالُه، واستقامت أفعالُه، ودعا النَّاسَ إلى ما مَنَّ الله به عليه؛ فحَقيقٌ بذلك أن يُتَّبَعَ ويُجعَلَ إمامًا[٣]، أمَّا مُتَّبِعُ الهوى فليس أهلًا أنْ يُطاعَ، ولا أنْ يكونَ إمامًا ولا مَتبوعًا؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى نهَى عن طاعتِه كما في هذه الآيةِ، وعَزَله عنِ الإمامةِ، كما في قولِه تعالى لخليلِه إبراهيم عليه السلامُ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي: لا ينالُ عهدي -بالإمامةِ- ظالِمًا، وكلُّ مَنِ اتَّبَع هواه فهو ظالمٌ، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾[٤] [الروم: ٢٩]، فينبغي للرجُلِ أنْ يَنظرَ في شَيخِه وقُدوتِه ومَتبوعِه؛ فإنْ وجَدَه كذلك فليَبعُدْ عنه، وإنْ وجَدَه ممن غَلَب عليه ذِكْرُ اللهِ تعالى، واتِّباعُ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٧٥).

السُّنَّةِ، وأمْرُه غيرُ مفروطٍ عليه، بل هو حازمٌ في أمْرِه؛ فليستَمسِك بغَرْزِه[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ ذِكْرَ اللهِ عزَّ وجلَّ هو ذِكْرُ القَلبِ، وأمَّا ذِكْرُ اللِّسانِ مجرَّدًا عن ذِكْرِ القَلبِ، فإنَّه ناقِصٌ؛ فلم يَقُلْ سُبحانه: (مَن أمسَكْنا لِسانَه عن ذِكرِنا)، بل قال: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾؛ فالذِّكْرُ النافعُ هو ذِكْرُ القَلبِ[٢].

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ في هذه الآية إشارةٌ إلى أهميَّةِ حُضورِ القَلبِ عندَ ذِكْرِ اللهِ، وأنَّ الإنسانَ الذي يَذْكُرُ اللهَ بلسانِه، لا بقَلبِه، تُنزَعُ البركةُ مِن أعمالِه وأوقاتِه، حتى يكونَ أمرُه فُرُطًا عليه؛ تجدُه يبقَى السَّاعاتِ الطويلةَ ولم يُحَصِّلْ شيئًا، ولكن لو كان أمرُه مع الله لحصَلَتْ له البركةُ في جميعِ أعمالِه[٣].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ يدُلُّ على أنَّ شَرَّ أحوالِ الإنسانِ أن يكونَ قَلبُه خاليًا عن ذِكرِ الحَقِّ، ويكونَ مملوءًا مِن الهوى الدَّاعي إلى الاشتغالِ بالخَلقِ[٤].

١٢- قولُه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّ الباعثَ لهم إلى استدعاءِ الطردِ: غفلةُ قلوبِهم عن جنابِ الله تعالى شأنُه، وملاحظةِ المعقولاتِ، وانهماكُهم في المحسوساتِ، حتَّى خفِيَ عليهم أنَّ الشَّرفَ بحِلْيةِ النَّفسِ لا بزِينةِ الجسَدِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٩)، ((تفسير الألوسي))

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾، أي: مِن البشرِ، وإلَّا فاللهُ يُبدِّلُها؛ قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقال: ﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ ... ﴾ الآيةَ[١] [النحل: ١٠١].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ في إضافةِ الرَّبِّ إلى الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ دَليلٌ على أنَّ ما أوحاه اللهُ إلى رَسولِه من تمامِ عِنايتِه به[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ بُني فِعلُ (أُوحي) للمفعولِ؛ لأنَّ الخِطابَ مع النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وهو على القَطعِ بأنَّ الموحِيَ إليه هو اللهُ سُبحانَه وتعالى[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ في الآيةِ إثباتُ الوَجهِ لله تعالى، وقد أجمعَ سلَفُ الأمَّةِ، وعُلَماءُ أهلِ السُّنَّةِ على ثُبوتِ الوَجهِ لله تعالى، بدَلالةِ الكِتابِ والسُّنةِ على ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أعوذُ بوَجهِك))[٤].

(٨/ ٢٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٨).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الدعاءَ بالغَدواتِ والعَشِيَّاتِ أفضَلُ وأجدَرُ بالإجابةِ[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الاستبدالَ بمجالسةِ صالحي الفقراءِ مجالسةَ طالحي الأغنياءِ، مَعصيةٌ، وإنْ لم يعملِ المُستبدِلُ بأعمالِهم[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لو فارَقَهم -هؤلاء الذين يَدْعُونَ اللهَ- لِمَصلحةٍ دينيَّةٍ؛ لم يدخُلْ هذا في النَّهيِ[٣].

٨- قولُه تعالى: ﴿أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ ما يَعرِضُ للعَبدِ مِن غَفلةٍ ومعصيةٍ، إنَّما هو بمشيئةِ الله تعالى؛ إذ لا يقَعُ شَيءٌ البتَّةَ كائِنًا ما كان إلَّا بمشيئتِه الكونيَّةِ القَدَريَّةِ -جلَّ وعلا- ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة: ٧]، ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ الدالَّةِ على أنَّ كُلَّ شيءٍ مِن خيرٍ وشَرٍّ، لا يقَعُ إلَّا بمشيئةِ خالقِ السَّمواتِ والأرضِ[٤].

والحديث أخرجه البخاري (٤٦٢٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

(١) يُنظر: ((النُّكَتُ الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦١).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٥).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿أَغۡفَلۡنَا﴾ -ولم يقُلْ: (غَفَلوا)-، ثمَّ قال: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ -ولم يقلْ: (وأتبَعْناه هواه)-، ففيه أكبرُ الدليلِ على أنَّ إضافةَ أفعالِهم إليهم في مواضِعِ الإضافةِ في القُرآنِ غيرُ دافعٍ فِعْلَه بهم وإرادتَه فيهم؛ إذْ قد يُجْمَعُ بينهما في حَرفٍ واحدٍ كما ترى[١].

١٠- قولُه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ هذا نَهيٌ جامعٌ عن مُلابَسةِ شَيءٍ ممَّا يأمُرُه به المُشرِكون، والمقصودُ من النَّهيِ تأسيسُ قاعدةٍ لأعمالِ الرَّسولِ والمُسلِمين تُجاهَ رغائبِ المُشرِكين، وتأييسُ المُشرِكين من نَوالِ شَيءٍ ممَّا رَغِبوه من النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّمَ[٢].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ يدُلُّ على أنَّ صُدورَ الفِعلِ عن الفاعِلِ بدونِ القَصدِ والدَّاعي، مُحالٌ[٣].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ هذه الصيغةُ تهديدٌ ووعيدٌ، وليست بتخييرٍ، وذلك يدُلُّ على أنَّ صِيغةَ الأمرِ لا لمعنى الطَّلَبِ في كتابِ اللهِ كثيرةٌ[٤].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ الآيةُ تدُلُّ على أنَّه تعالى لا ينتَفِعُ بإيمانِ المؤمنينَ ولا يستَضِرُّ بكُفرِ الكافرينَ، بل نَفعُ الإيمانِ يعودُ إليهم، وضرَرُ الكُفرِ يَعودُ عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ

(١) يُنظر: ((النُّكَتُ الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[١] [الإسراء: ٧].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ فيه سؤالٌ: هل في هذا إباحةُ الكُفرِ؟

الجواب: لا؛ فالأَمْرُ في قوله تعالى: ﴿فَلْيَكْفُرْ ﴾ للتهديد وليس للإباحة! كما يُهَدِّدُ الإنسانُ غيرَه فيقول: «إنْ كنتَ صادقًا فافعلْ كذا»، ويدلُّ عليه قولُه تعالى بعده: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ يعني: مَن كَفَرَ؛ فله النارُ قد أُعِدَّتْ[٢]، وهذا بِناءً على أن الضَّميرَ في (شاء) لـ (مَن)، وعليه الجُمهورُ.

وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّ مَن شاء اللهُ إيمانَه آمنَ، ومن شاء كُفرَه كفَرَ، بناءً على أنَّ الضميرَ فيه (لله)[٣]، وكأنَّه لمَّا كان الإيمانُ والكُفْرُ تابعيْنِ لمَشيئةِ اللهِ، جاء بصِيغَةِ الأمْرِ، حتَّى كأنَّه تحتَّمَ وُقوعُه، مأمورٌ به، مطلوبٌ منه[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾

- الأمْرُ في قولِه: ﴿ وَٱتْلُ ﴾ كِنايةٌ عن الاستمرارِ. و﴿مَآ أُوحِيَ ﴾ مُفيدٌ للعُمومِ، أي: كلَّ ما أُوحِيَ إليك، ومفهومُ الموصولِ: أنَّ ما لم يُوحَ إليه لا يَتْلوه[٥].

- قولُه: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ ﴿لَا مُبَدِّلَ ﴾ عامٌّ، و﴿لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ عامٌّ أيضًا؛

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٣).

فالتَّخصيصُ إمَّا في ﴿لَا مُبَدِّلَ﴾، أي: لا مُبدِّلَ له سِواهُ، ألَا ترى إلى قولِه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ [النحل: ١٠١]. وإمَّا في ﴿كَلِمَاتِهِ﴾، أي: لكلماتِه المُتضمِّنةِ الخبرَ؛ لأنَّ ما تضمَّنَ غيرَ الخبرِ وقَعَ النَّسخُ في بعْضِه[١].

- قولُه: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ فيه مَجيءُ ﴿مُلْتَحَدًا﴾ بصِيغَةِ الافتعالِ؛ لأنَّ أصْلَه تكلُّفُ الميْلِ، ويُفْهَمُ من صِيغَةِ التَّكلُّفِ أنَّه مَفَرٌّ من مَكروهٍ، يتكلَّفُ الخائفُ أنْ يأوِيَ إليه؛ فلذلك كان المُلتحَدُ بمعنى الملجَأِ، والمقصودُ من هذا تأييسُهم ممَّا طَمِعوا فيه[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾

- قولُه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ (مع) تَقْتضي الصُّحبةَ والمُوافقةَ، والأمْرُ بالصَّبرِ هنا يظهَرُ منه كبيرُ اعتناءٍ بهؤلاء الَّذينَ أُمِرَ أنْ يصبِرَ نفْسَه معهم[٣].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث قال في سُورةِ الأنعامِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]؛ وذلك أنَّ سادةَ المُشركينَ كانوا زعَموا أنَّه لولا أنَّ مِن المُؤمِنين ناسًا أهْلَ خَصاصةٍ في الدُّنيا، وأرقَّاءَ لا يُدانونهم ولا يستأْهِلونَ الجُلوسَ معهم؛ لأتَوْا إلى مُجالَسةِ النَّبيِّ صَلَّى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٦).

اللهُ عليه وآلِه وسلَّمَ، واسْتَمعوا القُرآنَ، فاقْتَرحوا عليه أنْ يطرُدَهم مِن حولِه إذا غشِيَه سادةُ قُريشٍ؛ فرَدَّ اللهُ عليهم بما في سُورةِ الأنعامِ، وما هنا في هذه السُّورةِ آكَدُ؛ إذ أمَرَه بمُلازمتِهم بقولِه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾، ولتَضمينِ فعْلِ (اصْبِر) معنى المُلازَمةِ عُلِّقَ به ظرْفُ (مع)[١].

- قولُه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ والتَّعبيرُ عنهم بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ للإيماءِ إلى تَعليلِ الأمْرِ بمُلازمتِهم، أي: لأنَّهم أحرياءُ بذلك؛ لأجْلِ إقبالِهم على اللهِ، فهم الأجدرُ بالمُقارَنةِ والمُصاحبةِ[٢].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ فيه تخصيصُ الغداةِ والعشيِّ بالذِّكرِ؛ لأنَّ العربَ إذا أرادَتِ الدوامَ أطْلَقَتِ الليلَ والنهارَ، والغداةَ والعشيَّ، يَعْنُونَ أنَّهم دائمونَ على ذلك، أو: لأنَّ أولَ النهارِ وآخِرَهُ من أفضلِ الأوقاتِ التي تُنْتَهَزُ فيها فرصةُ العباداتِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ جِيءَ بقولِه: ﴿عَيۡنَاكَ﴾ والمقصودُ هو؛ لأنَّهما بهما تكونُ المُراعاةُ للشَّخصِ والتَّلفُّتُ له، والمعنى: ولا تَعْدُ أنت عنهم النَّظرَ إلى غيرِهم[٤]. وفيه تأكيدُ الأمْرِ بمُواصلتِهم بالنَّهيِ عن أقَلِّ إعراضٍ عنهم، وظاهِرُ ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ نهْيُ العينينِ عن أنْ تَعْدُوَا عن الَّذين يَدْعون ربَّهم، والمقصودُ: الإعراضُ؛ ولذلك ضُمِّنَ فعْلُ العَدوِ معنى الإعراضِ؛ فعُدِّيَ إلى المفعولِ بـ(عن)، وكان حَقُّه أنْ يتعدَّى إليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٤-٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٨-٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٧).

بنفْسِه، أو ضُمِّن معنى (نَبا) و(علا)، والغرضُ في هذا التَّضمينِ -وعدَمِ قولِه مثلًا: (ولا تَعْدُهم عيناكَ)، أو: (ولا تعْلُ عيناكَ عنهم)- إعطاءُ مجموعِ مَعنيينِ، وذلك أقوى من إعطاءِ معنًى فردٍ؛ إذ المعنى هنا: ولا تَقْتحِمْهم عيناكَ مُجاوِزَتينِ إلى غيرِهم[١].

- قولُه: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فيه تَعريضٌ بحَماقةِ سَادةِ المُشرِكين الَّذين جعَلوا همَّهم وعِنايتَهم بالأُمورِ الظَّاهرةِ، وأهْمَلوا الاعتبارَ بالحقائقِ والمَكارمِ النَّفسيَّةِ، فاسْتَكبروا عن مُجالَسةِ أهْلِ الفضلِ والعُقولِ الرَّاجحةِ والقُلوبِ النَّيِّرةِ، وجَعَلوا هَمَّهم الصُّورَ الظَّاهرةَ[٢].

- في قولِه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ عبَّرَ عنهم بالموصولِ ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا﴾؛ للإيذانِ بعِلِّيةِ ما في حيِّزِ الصِّلةِ للنَّهيِ عن الإطاعةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ فيه زِيادةُ فعْلِ الكونِ؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ الخبرِ من الاسمِ، أي: حالةَ تمكُّنِ الإفراطِ والاعتداءِ على الحقِّ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٦).

- التَّعبيرُ بـ﴿رَّبِّكُمۡ﴾ للتَّذكيرِ بوُجوبِ تَوحيدِه[١].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ إمَّا من تَمامِ القولِ المأمورِ به، والفاءُ لتَرتيبِ ما بعدها على ما قبْلَها بطَريقِ التَّهديدِ، لا لتَفريعِه عليه، كما في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [ص: ٣٩]، وقولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]، أي: عَقِيبَ تحقُّقِ أنَّ ما أُوحِيَ إليَّ حَقٌّ لا ريبَ فيه، وأنَّ ذلك الحقَّ من جِهَةِ ربِّكم؛ فمَن شاء أنْ يُؤمِنَ به، فلْيُؤْمِنْ كسائرِ المُؤمِنين، ولا يتعلَّلْ بما لا يكادُ يصلُحُ للتَّعليلِ، ومَن شاء أنْ يكفُرَ به فلْيفعَلْ، وفيه من التَّهديدِ وإظهارِ الاستغناءِ عن مُتابعتِهم، وعدَمِ المُبالاةِ بهم وبإيمانِهم وُجودًا وعدَمًا: ما لا يَخْفى. وإمَّا تَهديدٌ من جِهَةِ اللهِ تعالى، والفاءُ لتَرتيبِ ما بعدَها من التَّهديدِ على الأمْرِ، لا على مَضمونِ المأمورِ به، والمعنى: قُلْ لهم ذلك، وبعدَ ذلك مَن شاء أنْ يُؤمِنَ به أو أنْ يُصدِّقَك فيه، فلْيُؤمِنْ، ومَن شاء أنْ يكفُرَ به أو يُكذِّبَك فيه، فلْيفعَلْ[٢].

- والأمْرُ في قولِه: ﴿فَلۡيُؤۡمِن﴾ وقولِه: ﴿فَلۡيَكۡفُرۡ﴾؛ للتَّسويةِ المُكنَّى بها عن الوعدِ والوعيدِ. وقُدِّمَ الإيمانُ على الكُفرِ؛ لأنَّ إيمانَهم مَرغوبٌ فيه. وفِعْلا (يُؤمِن، ويَكفُر) مُستعملانِ للمُستقبَلِ، أي: مَن شاء أنْ يُوقِعَ أحدَ الأمرينِ، ولو بوجْهِ الاستمرارِ على أحدِهما المُتلبِّسِ به الآنَ؛ فإنَّ العزْمَ على الاستمرارِ عليه تَجديدٌ لإيقاعِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٩-٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٧).

- وجُملةُ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ ما دَلَّ عليه الكلامُ من إيكالِ الإيمانِ والكُفْرِ إلى أنفُسِهم، وما يُفيدُه من الوعيدِ، كِلاهما يُثيرُ في النُّفوسِ أنْ يقولَ قائلٌ: فمَاذا يُلاقي مَن شاء، فاستمَرَّ على الكُفْرِ؟ فيُجابُ بأنَّ الكُفْرَ وخيمُ العاقبةِ عليهم[١]. وتنكيرُ ﴿نَارًا﴾؛ للتَّهويلِ والتَّعظيمِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا ...﴾ فيه وعيدٌ شَديدٌ، وتأكيدٌ للتَّهديدِ، وتَعليلٌ لِما يُفيدُه من الزَّجْرِ عنِ الكُفْرِ، أو لِما يُفْهَمُ من ظاهرِ التَّخييرِ؛ من عدَمِ المُبالاةِ بكُفْرِهم، وقِلَّةِ الاهتمامِ بزجْرِهم عنه؛ فإنَّ إعدادَ جزائِه مِن دواعي الإملاءِ والإمهالِ، وعلى القولِ بأنَّه مِن تمامِ القولِ المأمورِ بِهِ فهو تَعليلٌ للأمْرِ بما ذُكِرَ من التَّخييرِ التَّهديديِّ، أي: قُلْ لهم ذلك[٣].

- والتَّعبيرُ عنهم بـ﴿الظَّالِمِينَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مَشيئةَ الكُفْرِ واختيارَه تَجاوزٌ عن الحدِّ، ووضْعٌ للشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه. وأُوثِرَت صِيغَةُ الماضي في قولِه: ﴿أَحَاطَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ تَشبيهٌ مُؤكَّدٌ؛ فقد شبَّهَ النَّارَ المُحيطةَ بهم بالسُّرادقِ المضروبِ على مَن يَحتويهم، وأُضِيفَ السُّرادِقُ إلى النَّارِ؛ فذلك هو التَّشبيهُ المُؤكَّدُ، وهو أنْ يُضافَ المُشبَّهُ إلى المُشبَّهِ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٧-٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٩٠).

- قولُه: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ فيه تهكُّمٌ، حيث سمَّى أعلَى أنواعِ العَذابِ إغاثةً -والإغاثةُ هي الإنقاذُ من العذابِ-؛ تهكُّمًا بهم وتَشفِّيًا منهم، والتَّهكُّمُ فنٌّ طريفٌ من فُنونِهم، وهو من تَأكيدِ الشَّيءِ بما يُشْبِهُ ضِدَّه. والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ في سَوادِ اللَّونِ وشِدَّةِ الحرارةِ، فلا يَزيدُهم إلَّا حرارةً؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾، وهو استئنافٌ ابتدائيٌّ[١].

- وقيل: أتى قولُه: ﴿يُغَاثُواْ﴾ على سَبيلِ المُقابَلةِ لقولِه: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾، وإلَّا فليست إغاثةً[٢].

- قولُه: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ فيه اختصاصُ الوُجوهِ بهذا؛ لكونِها عندَ شُربِهم يقرُبُ حرُّها من وُجوهِهم. وقيل: عُبِّرَ بالوُجوهِ عن جميعِ أبدانِهم[٣].

- وجُملةُ: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ؛ لتَشنيعِ ذلك الماءِ مَشروبًا كما شُنِّعَ مُغتَسلًا، والمخصوصُ بذَمِّ (بئْس) محذوفٌ، دَلَّ عليه ما قبْلَه، والتَّقديرُ: بئْسَ الشَّرابُ ذلك الماءُ[٤].

- وجُملةُ: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ معطوفةٌ على جُملةِ: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾، فهي مُستأنَفةٌ أيضًا لإنشاءِ ذَمِّ تلك النَّارِ بما فيها، وشأْنُ المُرتفَقِ أنْ يكونَ مكانَ استراحةٍ؛ فإطلاقُ ذلك على النَّارِ تهكُّمٌ، كما أُطْلِقَ على ما يُزادُ به عذابُهم لفظُ الإغاثةِ، وكما أُطْلِقَ على مكانِهم السُّرادقُ[٥]؛ فهو لمُقابَلةِ ومُشاكَلةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قولِه: ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾، وإلَّا فلا ارتفاقَ لأهْلِ النَّارِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٩٠-٥٩١).

الآيتان (٢٠-٢١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَسَاوِرَ﴾: جمعُ أسورةٍ، وأسورةٌ جمعُ سِوارٍ، وهو الذي يُلبَسُ في الذِّراعِ مِن ذهبٍ[١].

﴿سُندُسٖ﴾: أي: رَقيقِ الحَريرِ[٢].

﴿وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾: أي: غليظِ الحريرِ[٣].

﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾: أي: جمعُ أريكةٍ، وهي السريرُ في الحجالِ[٤]، وأصلُ (أرك) هنا: إقامةٌ، سُمِّيت بذلك؛ لكونِها مكانًا للإقامةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٤) الحَجَلَةُ: كالقُبَّةِ، وموضعٌ يُزَيَّنُ بالثيابِ والسُّتورِ للعَروسِ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٩٨٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

المَعنى الإجماليُّ:

يبينُ الله تعالى حسنَ عاقبةِ المؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ، إنَّا لا نُضيعُ أجورَهم ولا نَنقُصُها؛ لأنَّهم أحسَنوا عَمَلَهم، أولئك لهم جنَّاتُ إقامةٍ دائمةٍ، تجري مِن تحتِ غُرَفِهم ومَنازِلِهم وأشجارِهم الأنهارُ العَذبةُ، يُحَلَّونَ فيها مِن أساوِرِ الذَّهبِ، ويَلْبَسونَ ثيابًا خَضراءَ مِن حريرٍ رَقيقٍ وغَليظٍ، يتَّكِئونَ فيها على الأسِرَّةِ المُزينةِ المغطَّاةِ بقُبَّةٍ مِن الثِّيابِ الفاخِرةِ، نِعْمَ الثوابُ تلك الجنَّاتُ، وحَسُنت مَنزِلًا ومَقرًّا لهم!

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ وَعيدَ المُبطِلينَ، أردَفَه بوَعدِ المُحِقِّينَ[1].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠ ﴾.

أي: إنَّ الذين آمَنوا بكُلِّ ما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ، إنَّا لا نُضيعُ جَزاءَهم؛ لأنَّهم أحسَنوا عَمَلَهم، ولا نُضيعُ جَزاءَ كُلِّ مَن أحسَنَ عمَلَه كذلك، فجعَلَه خالِصًا لله، واتَّبع فيه شَرْعَه على هَدْيِ رَسولِه[2].

وقيل: تسميتُها بذلك لكونِها في الأرضِ متَّخذةً مِن أراكٍ، وهو شجرةٌ. يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٥).

كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أن اللهَ تعالى لَمَّا أثبَتَ الأجرَ المُبهَمَ للمُحِقِّينَ، أردفه بالتَّفصيلِ مِن وُجوهٍ؛ أوَّلُها: صفةُ مكانِهم. وثانيها: لِباسُهم. وثالثُها: كيفيَّةُ جُلوسِهم[1].

وأيضًا لمَّا ذكَرَ مكانَ أهْلِ الكُفْرِ -وهو النَّارُ-، ذكَرَ مكانَ أهْلِ الإيمانِ، وهي جنَّاتُ عدْنٍ، ولمَّا ذكَرَ هناك ما يُغاثونَ به -وهو الماءُ كالمُهْلِ-، ذكَرَ هنا ما خَصَّ به أهْلَ الجنَّةِ من كونِ الأنهارِ تَجْري من تحتِهم، ثمَّ ذكَرَ ما أنعَمَ عليهم من التَّحليةِ واللِّباسِ اللَّذينِ هما زِينةٌ ظاهرةٌ[2].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: أولئك -الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ- لهم بساتينُ إقامةٍ دائِمةٍ، تجري الأنهارُ الكَثيرةُ بينَ أيديهم مِن تَحتِ غُرَفِهم ومَنازِلِهم وأشجارِهم[3].

كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٥).

خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[التوبة: ٧٢].

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾.

أي: يُزيَّنُ المُؤمِنونَ في الجنَّةِ بأساورَ مِن ذَهَبٍ في أيديهم(١).

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾.

أي: ويَلبَسونَ ثيابًا خَضراءَ مِن الحريرِ الرَّقيقِ، ومِنَ الحَريرِ الغليظِ(٢).

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم متَّكِئونَ(٣) في الجنَّةِ على السُّررِ المزيَّنةِ المغطَّاةِ بقُبَّةٍ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٥).

قال ابن عثيمين: (﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ إمَّا أن تكون للتبعيض: أي يُحلَّونَ فيها بعضَ أساوِرَ، أي: يُحلَّى كلُّ واحدٍ منهم شَيئًا من هذه الأساورِ، وحينئذٍ لا يكونُ إشكالٌ، وإمَّا أن تكون «للبيان» أي: بيان ما يُحَلَّون، وهو أساوِرُ، وليس قلائِدَ أو خُروصًا مثلًا، وأما قَولُه: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ فهي بيانيَّة، أي: لبيان الأساوِرِ أنَّها مِن ذَهَبٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٧).

قال ابن عاشور: (السندسُ: صِنفٌ مِن الثياب، وهو الدِّيباجُ الرَّقيقُ يُلبَسُ مُباشِرًا للجِلدِ؛ ليقيَه غِلَظَ الإستبرقِ. والإستبرق: الدِّيباجُ الغَليظُ المنسوجُ بخُيوطِ الذهب، يُلبَسُ فوق الثيابِ المباشِرةِ للجِلدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٣).

(٣) قال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ الاتكاءُ: قيل: الاضطجاعُ. وقيل: التربُّعُ في الجلوس، وهو أشبَهُ بالمراد هاهنا، ومنه الحديثُ في الصحيح: «أمَّا أنا، فلا آكُلُ مُتَّكِئًا» فيه

الثِّيابِ الفاخِرةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۞ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٥- ٥٦].

﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾.

أي: نِعمَ ثَوابُ المؤمنينِ تلك الجنَّاتُ التي وصَفَ اللهُ بعضَ نَعيمِها؛ جزاءً لهم على أعمالِهم الصَّالحةِ[٢].

﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾.

أي: وحسُنَت تلك الجنَّاتُ مُقامًا ومَنزِلًا يَستَقِرُّ فيه الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ[٣].

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ

القولان). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٦).

وقال البقاعي: (استأنفَ الوَصفَ عن حالِ جُلوسِهم فيها بأنَّه جُلوسُ الملوكِ المتمَكِّنينَ مِن النَّعيمِ، فقال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي: لأنَّهم في غايةِ الرَّاحةِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٥٥).

وقال ابن عثيمين: (الاتكاءُ يدُلُّ على راحةِ النَّفسِ وعلى الطُّمأنينةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٠، ٢٧٣).

وَسَلَامًا ۞ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٥- ٧٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ إحسانُ العَمَلِ: أن يُريدَ العَبدُ العملَ لوَجهِ الله مُتَّبِعًا في ذلك شَرعَ اللهِ، فهذا العمَلُ لا يُضَيِّعُه اللهُ ولا شيئًا منه، بل يحفَظُه للعاملينَ، ويُوَفِّيهم مِن الأجرِ بحَسَبِ عَمَلِهم وفَضْلِه وإحسانِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ يدلُّ على أنَّ الحِليةَ في الجنةِ عامَّةٌ للذُّكورِ والإناثِ؛ لأنَّه أطلَقَها في قَولِه: ﴿يُحَلَّوْنَ ﴾، وكذلك الحريرُ ونَحوُه[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ السُّندُسُ والإستِبرقُ نوعانِ مِن الحريرِ، وأحسَنُ الألوانِ الأخضَرُ، وألْيَنُ اللباسِ الحريرُ؛ فجمَعَ لهم بين حُسنِ مَنظَرِ اللِّباسِ والْتذاذِ العَينِ به، وبين نُعومتِه والتذاذِ الجِسمِ به، وقال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾[٣] [الحج: ٢٣].

٣- قولُه: ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾. إنِ قيل: إنَّ (إستبرق) ليس بعربيٍّ، وغيرُ العربيِّ من الألفاظِ دونَ العربيِّ في الفصاحةِ والبلاغةِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٧).

فالجوابُ: أنَّه لو اجتمَعَ فُصحاءُ العالَمِ، وأرادوا أنْ يَتْركوا هذا اللَّفظَ، ويأْتوا بلفظٍ يقومُ مقامَه في الفصاحةِ لَعَجزوا؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى إذا حَثَّ عِبادَه على الطَّاعةِ، فإنْ لم يُرغِّبْهم بالوعدِ الجميلِ، ويُخوِّفْهم بالعذابِ الوبيلِ، لا يكونُ حَثُّه على وجْهِ الحكمةِ، فالوعدُ والوعيدُ نظرًا إلى الفَصاحةِ واجبٌ، ثمَّ إنَّ الوعدَ بما يرغَبُ فيه العُقلاءُ، وهو مُنحصرٌ في: الأماكنِ، والمآكلِ، والمشاربِ، والملابسِ، والمناكحِ، ونحوِها ممَّا تتَّحِدُ فيه الطِّباعُ أو تختلِفُ فيه. وأرفَعُ الملابسِ في الدُّنيا الحريرُ، والحريرُ كلَّما كان ثوبُه أثقَلَ كان أرفَعَ، فحينئذٍ وجَبَ على الفصيحِ أنْ يَذكُرَ الأثقلَ والأثخنَ، ولا يترُكَه في الوعدِ. فإذا أُريدَ ذِكْرُ هذا، فالأحسَنُ أنْ يُذْكَرَ بلفظٍ واحدٍ موضوعٍ له صريحٍ، وذلك ليس إلَّا (الإستبرق)[1]، على أنَّ كونَ كلمةِ (إستبرق) غيرَ عربيةٍ هو موضعُ خلافٍ بينَ أهلِ العلمِ، فمِنهم مَن يرَى أنَّها عربيةُ الأصلِ، فالمسألةُ خلافيةٌ[2].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ مُستأنفٌ استئنافًا بَيانيًّا، مُراعًى فيه حالُ السَّامعينَ من المُؤمِنين؛ فإنَّهم حين يَسْمعونَ ما أُعِدَّ للمُشرِكين، تتشوَّفُ نُفوسُهم إلى معرفةِ ما أُعِدَّ للَّذين آمنوا ونَبَذوا الشِّركَ، فأُعْلِموا أنَّ عمَلَهم مَرْعيٌّ عندَ ربِّهم، وجرْيًا على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ الوعيدِ بالوعدِ، والتَّرهيبِ بالتَّرغيبِ[3]. وهو في مَحلِّ التَّعليلِ للحثِّ على الإيمانِ المفهومِ من التَّخييرِ ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾؛ كأنَّه

(١) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٢/ ١٢٧- ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٣-٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٤٨٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (ص: ٧٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٩-٣١٠).

قيل: (والَّذين آمَنوا)[١].

- ولعلَّ تَغييرَ نظْمِه عن الكلامِ على الفَريقِ الآخرِ في قولِه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا ...﴾ الآيةَ؛ للإيذانِ بكَمالِ تَنافي مآلَيِ الفريقينِ، أي: إنَّ الَّذين آمَنوا بالحقِّ الَّذي أُوحِيَ إليك[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ افتُتِحَتِ الجُملةُ الأُولى بحرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لتَحقيقِ مَضمونِها. وإعادةُ حرْفِ (إنَّ) في الجُملةِ الثَّانيةِ المُخبَرِ بها عن المُبتدَأِ الواقعِ في الجُملةِ الأُولى؛ لمَزيدِ العِنايةِ والتَّحقيقِ. والجُملةُ الثَّانيةُ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ لها استقلالٌ بمَضمونِها من حيث هي مُفيدةٌ حُكمًا يعُمُّ ما وقعَتْ خبرًا عنه، وغيرَه مِن كلِّ مَن يُماثِلُ الخبَرَ عنهم في عمَلِهم؛ فذلك العُمومُ في ذاتِه حُكمٌ جَديرٌ بالتَّأكيدِ؛ لتَحقيقِ حُصولِه لأربابِه[٣].

- وقَولُه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أشار بإظهارِ ضَميرِهم إلى أنَّهم استحَقُّوا ذلك الوَصفَ بالإحسانِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرًا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾

- جُملةُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي ...﴾ يجوزُ أنْ تكونَ خبَرَ ﴿إِنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٤).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وتكونَ جُملةُ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ اعتراضًا، أو تكونَ مُستأنفةً استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ ما أُجْمِلَ من عدَمِ إضاعةِ أجْرِهم يَستشرِفُ بالسَّامعِ إلى ترقُّبِ ما يُبيِّنُ هذا الأجْرَ(١).

- وافتتاحُ الجُملةِ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لِما فيه من التَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم جديرونَ لِما بعدَ اسمِ الإشارةِ؛ لأجْلِ الأوصافِ المذكورةِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ، وهي كونُهم آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أُوثِر إضافةُ (تحت) إلى ضَميرِهم دونَ ضَميرِ الجنَّاتِ؛ زِيادةً في تَقريرِ المعنى الَّذي أفادَتْه لامُ المِلْكِ؛ فاجتمَعَ في هذا الخبرِ عِدَّةُ مُقرِّراتٍ لمَضمونِه، وهي: ذِكْرُ اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، ولامُ المِلْكِ، وجَرُّ اسمِ الجهةِ بـ(مِن)، وإضافةُ اسمِ الجِهةِ إلى ضَميرِهم، والمقصودُ من ذلك: التَّعريضُ بإغاظةِ المُشرِكين؛ لتَتقرَّرَ بِشارةُ المُؤمِنين أتَمَّ تَقرُّرٍ(٣).

- قولُه: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ...﴾ نكَّرَ (أساورَ)؛ لإبهامِ أمْرِها في الحُسنِ. وجمَعَ بين السُّندسِ -وهو ما رَقَّ من الدِّيباجِ- وبين الإستبرقِ -وهو الغليظُ منه- جمْعًا بين النَّوعينِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ فيها ما تَشْتهي الأنفُسُ وتلَذُّ الأعينُ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وخَصَّ الاتِّكاءَ؛ لأنَّه هيئةُ المُنعَّمينَ والمُلوكِ على أسِرَّتِهم[١]، وذلك بعدَ أن وصَفَ الجنةَ بأنَّ الأنهارَ تجري خلالَها مِن تحتِهم، وهذا يُسمَّى الاستِتباعَ[٢].

- وبِناءُ فعْلِ ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ للمفعولِ الَّذي لم يُسَمَّ فاعِلُه؛ إشعارًا بأنَّهم يُكْرَمون بذلك، ولا يَتعاطَون ذلك بأنفُسِهم. وأسنَدَ اللِّباسَ ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾ إليهم؛ لأنَّ الإنسانَ يَتعاطى ذلك بنفْسِه، خُصوصًا لو كان باديَ العورةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧١-١٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٩١).

والاستِتباع -ويُقالُ له أيضًا: الاستقصاء- مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو: تناوُلُ المُتكلِّمِ معنًى يَستقصيه؛ فيأتي بجميعِ عَوارضِه ولوازمِه، بعدَ أن يَستقصيَ جميعَ أوصافِه الذاتيةِ، بحيثُ لا يترُكُ بعدَه فيه مقالًا، ومثالُه: قولُه تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]؛ فإنَّه تعالى لو اقتصَر على قوله: ﴿جَنَّةٌ﴾ لكان كافيًا، فلم يقِفْ عندَ ذلك حتَّى قال في تفسيرِها: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؛ فإنَّ مُصابَ صاحبها بها أعظمُ، ثم زاد ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مُتمِّمًا لوَصْفها بذلك، ثم كَمَّل وصْفَها بعدَ التتميمينِ فقال: ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ فأتى بكلِّ ما يكونُ في الجِنان؛ ليشتدَّ الأسفُ على إفسادها، ثم قال في وصْف صاحبها: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾، ثم استقصَى المعنى في ذلك بما يُوجِبُ تعظيمَ المصابِ بقولِه بعد وصْفِه بالكبر: ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ﴾، ولم يقِفْ عند ذلك حتى وصَفَ الذريةَ بالضعفاءِ، ثم ذَكَر استئصالَ الجنةِ التي ليس لهذا المصابِ غيرُها بالهلاكِ في أسرعِ وقتٍ، حيث قال: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾، ولم يَقتصرْ على ذِكرِه للعلم بأنه لا يحصُل سرعةُ الهلاك، فقال: ﴿فِيهِ نَارٌ﴾، ثم لم يقِفْ عند ذلك حتى أخبَر باحتراقها؛ لاحتمالِ أنْ تكون النارُ ضعيفةً لا تفي باحتراقها لِما فيها من الأنهار ورُطوبة الأشجار؛ فاحترَس عن هذا الاحتمال بقوله: ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾؛ فهذا أحسنُ استقصاءٍ وقَع في كلامٍ، وأتمُّه وأكملُه. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٢).

- وقُدِّمتِ التَّحليةُ على اللِّباسِ؛ لأنَّ الحُلِيَّ في النَّفسِ أعظَمُ، وإلى القلْبِ أحبُّ، وفي القيمةِ أغلَى، وفي العينِ أحلَى[١]. أو قُدِّمَ ذِكْرُ الحُليِّ على اللِّباسِ هنا؛ لأنَّ ذلك وقَعَ صِفَةً للجنَّاتِ ابتداءً، وكانت مَظاهِرُ الحُليِّ أبهَجَ للجنَّاتِ، فقُدِّمَ ذِكْرُ الحُليِّ، وأُخِّرَ اللِّباسُ؛ لأنَّ اللِّباسَ أشَدُّ اتِّصالًا بأصحابِ الجنَّةِ لا بمَظاهِرِ الجنَّةِ، وعُكِسَ ذلك في سُورةِ الإنسانِ في قولِه: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ [الإنسان: ٢١]؛ لأنَّ الكلامَ هُنالك جَرى على صِفاتِ أصحابِ الجنَّةِ[٢].

- قولُه: ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ الأساورُ: أصْلُه جمْعُ (أسورةٍ) الَّذي هو جمْعُ سِوارٍ؛ فصيغَةُ جمْعِ الجمْعِ للإشارةِ إلى اختلافِ أشكالِ ما يُحلَّون به منها؛ فإنَّ الحِليةَ تكونُ مُرصَّعةً بأصنافِ اليواقيتِ. وقيل: جمْعُ (سِوارٍ) على غيرِ قياسٍ[٣].

- قولُه: ﴿مِن ذَهَبٖ﴾ في الكلامِ اكتفاءٌ، أي: من ذهَبٍ وفِضَّةٍ، كما اكْتَفى في آيةِ سُورةِ الإنسانِ بذِكْرِ الفِضَّةِ عن ذِكْرِ الذَّهبِ بقولِه: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: ٢١]، ولكلٍّ من المَعدنينِ جَمالُه الخاصُّ[٤].

- قولُه: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرًا﴾ خُصَّ الأخضرُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أعدلُ الألوانِ وأنفعُها عندَ البصرِ، وأشدُّ ما يكونُ راحةً للعينِ؛ ففيه جمالٌ، وفيه راحةٌ للعينِ، وكان مِن شعارِ الملوكِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٧).

- قولُه: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ جُملةُ ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ استئنافُ مدْحٍ، ومَخصوصُ فعْلِ المدحِ محذوفٌ؛ لدَلالةِ ما تقدَّمَ عليه. والتَّقديرُ: نِعْمَ الثَّوابُ الجنَّاتُ الموصوفةُ. وعُطِفَ عليه فعْلُ إنشاءٍ ثانٍ وهو ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾؛ لأنَّ (حسُنَ) و(ساء) مُستعملانِ استعمالَ (نِعْمَ) و(بئْس)؛ فعَمِلا عمَلَهما؛ ولذلك كان التَّقديرُ: وحسُنَتِ الجنَّاتُ مُرتفقًا. وهذا مُقابِلُ قولِه في حكايةِ حالِ أهْلِ النَّارِ: ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٤).

الآيات (٣٢-٣٤)

﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَفَفْنَاهُمَا﴾: # أي: أحَطْناهما مِن جوانِبِهما، والحَفُّ: الإطافةُ بالشَّيءِ، يقالُ: حَفَّ القَومُ بسَيِّدهم: إذا أطافُوا به، وأصلُ (حف): يدُلُّ على إطافةِ شَيءٍ بشَيءٍ[(١)].

﴿أُكُلَهَا﴾: أي: ثَمَرَها، وما يُؤْكَلُ منها، وسُمِّي الثَّمرُ أُكُلًا؛ لأنَّه يُؤْكَلُ، وأصْلُ (أكل): التَّنَقُّصُ[(٢)].

﴿تَظْلِم﴾: أي: تَنقُصْ، والظُّلمُ: وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعِه المختَصِّ به، إمَّا بنقصانٍ أو بزيادةٍ، وإمَّا بعدولٍ عن وقتِه أو مكانِه، وأصلُ (ظلم): وضعُ الشَّيءِ غيرَ موضعِه تعدِّيًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٧، ١٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١، ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

وذهَب بعضُ أئِمَّةِ الاشْتِقاقِ إلى أنَّ الظلمَ في أصلِ اللُّغةِ: النَّقْصُ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٣/ ٣٣).

﴿نَفَرًا﴾: أي: عَشيرةً وأعوانًا، والنَّفَرُ: ما بين الثلاثةِ إلى العَشرةِ، وأصلُ (نفر): يدلُّ على تجافٍ وتباعُدٍ، وسُمُّوا نَفَرًا؛ لأنَّهم يَنفِرونَ للنُّصرةِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يضربَ المثلَ برجلينِ: مؤمنٍ شاكرٍ لنعمِ الله عليه، وكافرٍ مشركٍ جاحدٍ لنعمِ الله عليه، فيقول: واذكُرْ -يا مُحَمَّدُ- لمُشرِكي قَومِك مَثَلًا: رَجُلَينِ؛ أحَدُهما مؤمِنٌ، والآخَرُ كافِرٌ؛ لِيَعتَبِروا بحالِهما ويتَّعِظوا، وقد جعَلْنا للكافِرِ حَديقتَينِ مِن أعنابٍ، وأحَطْناهما بنَخلٍ كثيرٍ، وأنبَتْنا وسْطَهما زُروعًا. كلتا الحديقتين أخرجَت ثَمَرَها، ولم تَنْقُصْ منه شَيئًا، وشَقَقْنا بينهما نهرًا لِسَقيِهما. وكان لصاحِبِ الحَديقَتَينِ ثمارٌ منهما، فقال لصاحِبِه المؤمنِ وهو يحاوِرُه، تكبُّرًا وافتخارًا: أنا أكثَرُ منك مالًا، وأعَزُّ أنصارًا وأعوانًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ...﴾ الآيات؛ فإنَّه بعدَ أن بَيَّنَ لهم ما أعدَّ لأهلِ الشِّركِ، وذكَرَ ما يُقابِلُه مِمَّا أعَدَّه للذين آمنوا؛ ضرَبَ مَثلًا لحال الفريقَينِ بمَثَلِ قِصَّةٍ أظهَرَ اللهُ فيها تأييدَه للمُؤمِنِ وإهانتَه للكافِرِ، فكان لذلك المَثَلِ شَبَهٌ بمَثَلِ قصَّةِ أصحابِ الكَهفِ مِن عَصرٍ أقرَبَ لعِلْمِ المُخاطَبينَ مِن عَصرِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٠).

أهلِ الكَهفِ، فضرَبَ مَثَلًا للفريقَينِ -للمُشرِكينَ وللمُؤمِنينَ- بمَثَلِ رَجُلَينِ كان حالُ أحَدِهما مُعجِبًا مُؤنِقًا، وحالُ الآخَرِ بخِلافِ ذلك، فكانت عاقِبةُ صاحِبِ الحالِ المُؤنقةِ تَبابًا وخَسارةً، وكانت عاقبةُ الآخَرِ نجاحًا؛ لِيَظهَرَ للفريقينِ ما يجُرُّه الغرورُ والإعجابُ والجَبَروتُ إلى صاحِبِه مِن الأرزاءِ، وما يلقاه المؤمِنُ المتواضِعُ العارِفُ بسُنَنِ اللهِ في العالَمِ مِن التَّذكيرِ والتَّدبُّرِ في العواقِبِ، فيكونُ مُعَرَّضًا للصَّلاحِ والنَّجاحِ[١].

وأيضًا بعدَ أن أمَرَ اللهُ نبيَّه بصبرِ نَفسِه مع فُقَراءِ المؤمنين، وعَدَمِ طاعةِ أولئك الأغنياءِ مِن المُشرِكين الذين طلَبوا منه صلَّى الله عليه وسلَّم طَرْدَهم- قفَّى على ذلك بمَثَلٍ يَستبينُ منه أنَّ المالَ لا ينبغي أن يكون موضِعَ فَخارٍ؛ لأنَّه ظِلٌّ زائِلٌ[٢]، وظهَرَ بضرْبِ هذا المَثلِ الرَّبطُ بينَ هذه الآيةِ والَّتي قبْلَها؛ إذ كان من أشرَكَ إنَّما افتخَرَ بمالِه وأنصارِه، وهذا قد يزولُ، فيَصيرُ الغَنِيُّ فقيرًا، وإنَّما المُفاخَرةُ بطاعةِ اللهِ[٣].

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ المُستَكبرينَ، الذين سألوك أن تطرُدَ الضُّعَفاءَ والمَساكينَ الذين يَدْعونَ رَبَّهم بالغَداةِ والعَشيِّ ابتغاءَ وَجهِه؛ اذكُرْ لهم مَثَلًا[٤] قِصَّةَ رَجُلَينِ[٥] أحَدُهما مؤمِنٌ، والآخَرُ كافِرٌ؛ لِيَعتَبِروا بحالِهما،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٥/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٤).

(٤) قال القرطبي: (هذا مَثَلٌ لِمَن يتعَزَّزُ بالدنيا ويستنكِفُ عن مجالسةِ المؤمنين، وهو متَّصِلٌ بِقَولِه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٩). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٨).

(٥) قال الشوكاني: (وقد اخْتُلِف في الرَّجلَينِ هل هما مُقدَّرانِ أو مُحقَّقانِ؟ فقالَ بالأوَّلِ بعضُ

ويتَّعِظوا بما جرَى لهما[١].

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾.

أي: جعَلْنا لأحدِ هذينِ الرَّجُلينِ -وهو الكافرُ- بُستانَينِ مِن أعنابٍ[٢].

﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾.

أي: وأحَطْنا هذين البُستانَينِ بنَخلٍ يُحدِقُ بهما[٣].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾.

أي: وجعَلْنا وَسْطَ بُستانَيِ العِنَبِ زَرعًا[٤].

المفسِّرينَ. وقال بالآخرِ بعضٌ آخرُ. وَاخْتَلفوا في تعيينِهما). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٨). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠١).

قال السعدي: (ليس معرفةُ أعيانِ الرَّجُلينِ، وفي أيِّ زمانٍ أو مكانٍ هما، فيه فائدةٌ أو نتيجةٌ؛ فالنتيجةُ تَحصُلُ مِن قِصَّتِهما فقط، والتعَرُّضُ لِما سوى ذلك مِن التكَلُّف). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦).

قال ابن عاشور: (معنى ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾: قدَّرْنا له أسبابَ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧).

قال ابنُ عاشور: (وظاهِرُ الكلامِ أنَّ هذا الزَّرْعَ كانَ فاصلًا بينَ الجنَّتينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٧).

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾.

أي: كِلا البُستانَينِ أخرجَ ثِمارَه دونَ أن يَنقُصا منها شيئًا[١].

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾.

أي: وأجرَيْنا وشَقَقْنا خِلالَ هذينِ البُستانَينِ نَهرًا بين أشجارِهما[٢].

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿ثَمَرٌ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ:

١- ﴿ثَمَرٌ﴾، بفتحِ الثَّاءِ والمِيمِ في الحرفينِ؛ جمعُ ثَمَرَةٍ، كبَقَرةٍ وبَقَرٍ، الفرقُ بينَ الواحِدِ والجمعِ إسقاطُ الهاءِ[٣].

وقد أعلَمَ اللهُ سُبحانَه وتعالى أنَّ عِمارتَهما كامِلةٌ متَّصِلةٌ، لا يَفصِلُ بينهما إلَّا عِمارةٌ، فلم يكُنْ بين الجنَّتينِ مَوضِعُ خَرابٍ، وقد جعَلَها أرضًا جامِعةً للأقواتِ والفواكِهِ، مع الشَّكلِ الحَسَنِ، والترتيبِ الأنيقِ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٨).

وقيل: معنى ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي: بينَ النخلِ والأعنابِ. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٧-٢٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠١، ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٩).

(٣) قرأ بها عاصمٌ، وأبو جعفرٍ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٠).

٢- ﴿ثُمْرٌ﴾، بضمِّ الثاءِ، وإسكانِ الميمِ، جمعُ ثَمَرَةٍ، كبَدَنَةٍ وبُدْنٍ، ويجوزُ أَن يكونَ جمعَ ثمارٍ، كما يُخفَّفُ (كُتْب)[١].

٣- ﴿ثُمُرٌ﴾، بضمِّ الثاءِ والميمِ، جمعُ ثمارٍ، كقولِك: كتابٌ وكُتُبٌ، قيل: معناها الأموالُ، وقيل: الأصولُ التي تحملُ الثمرةَ[٢].

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾.

أي: وكان لصاحِبِ الجَنَّتَينِ ثمارٌ عظيمةٌ منهما[٣].

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤١٦).

(١) قرأ بها أبو عمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٠).

ويُنظر: لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤١٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٨١).

ونسَب الواحدي القولَ بأنَّ المرادَ بها: الأموالُ إلى أكثرِ المفسرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٢).

قال العليمي: (مَن قرَأ بالضمِّ، فهي الأموالُ الكثيرةُ المثمرةُ مِن كلِّ صنفٍ، جمعُ ثمارٍ، ومَن قرَأ بالفتحِ، جمعُ ثمرةٍ، وما يخرجُه الشجرُ مِن الثمارِ المأكولةِ). ((تفسير العليمي)) (٤/ ١٧٥).

وقال الرازي: (ذَكَر أهلُ اللُّغةِ: أنَّه بالضَّمِّ: أنواعُ الأموالِ مِن الذَّهبِ والفضَّةِ وغيرِهما، وبالفتحِ: حَمْلُ الشَّجرِ). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٦٣).

وقال ابنُ عطية: (اختلف المتأوِّلونَ في «الثمر» بضمِّ الثاءِ والميمِ؛ فقال ابنُ عباسٍ وقتادةُ: «الثمر»: جميعُ المالِ مِن الذهبِ والفضةِ والحيوانِ وغيرِ ذلك... وقال ابنُ زيدٍ: «الثمر» هي الأصولُ التي فيها الثمرُ... وأمَّا مَن قرَأ بفتحِ الثاءِ والميمِ، فلا إشكالَ في أنَّ المعنى ما في رؤوسِ الشجرِ مِن الأُكُلِ، ولكن فصاحة الكلامِ تقتضي أن يعبَّر إيجازًا عن هلاكِ الثمرِ والأصولِ بهلاكِ الثمرِ فقط، فخصَّصها بالذكرِ؛ إذ هي مقصودُ المستغلِّ، وإذ هلاكُ الأصولِ إنما يسوءُ منه هلاكُ الثمرِ الذي كان يُرجَى في المستقبلِ، كما يقتضي قولُه: «إنَّ له ثمرًا» أنَّ له أصولًا، كذلك تقتضي الإحاطةُ المطْلقةُ بالثمرِ أنَّ الأصولَ قد هلَكت). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٧٢)،

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾.

أي: فقال مالِكُ الجَنَّتَينِ الكافِرُ لصاحِبِه[1] المؤمِنِ -المجعولِ مَثَلًا لفُقَراءِ المؤمِنينَ- وهو يُراجِعُه في الكلامِ ويُخاطِبُه، ويجادِلُه تكبُّرًا وافتخارًا عليه، وتقبيحًا لحالِه بالنِّسبةِ إليه: لي من المالِ أكثَرُ مِمَّا تَملِكُ، وأنا أكثَرُ منك أُناسًا يَنصُرونَني فيقومونَ معي في المُهِمَّات، ويَنفِرونَ عند الضَّروراتِ؛ مِن وَلَدٍ أو عشيرةٍ، أو خَدَمٍ وأتباعٍ[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ دلَّ فِعلُ المُحاورةِ على أنَّ صاحِبَه قد وعَظَه في الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، فراجَعَه الكلامَ بالفَخرِ عليه والتَّطاوُلِ، شأنُ أهلِ الغَطرسةِ والنَّقائِصِ؛ أن يَعدِلوا عن المجادلةِ بالتي هي أحسَنُ إلى إظهارِ العَظَمةِ والكِبرياءِ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ

((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦).

ممن قال بأنَّ المرادَ بالثمرِ هاهنا: الثمارُ المعروفةُ، وهي ما يخرجُه الشجرُ مِن الثمارِ المأكولةِ: ابنُ جريرٍ، وابنُ القيِّمِ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

(١) قال ابن عاشور: (و«الصَّاحِبُ» هنا بمعنى المقارِنِ في الذِّكرِ؛ حيث انتظمَهما خبَرُ المَثَلِ، أو أريدَ به الملابِسُ المخاصِمُ... والمرادُ بالصَّاحِبِ هنا الرجُلُ الآخَرُ مِن الرَّجُلين، أي: فقال مَن ليس له جنَّاتٌ في حوارٍ بينهما، ولم يتعلَّقِ الغَرَضُ بذِكرِ مكانِ هذا القَولِ ولا سَبَبِه؛ لعَدَمِ الاحتياجِ إليه في الموعِظةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٠).

وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۞ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۞ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ تأمَّلْ هذه الهيئةَ التي ذكَرَ اللهُ؛ فإنَّ المرءَ لا يَكادُ يتخَيَّلُ أجمَلَ منها في مكاسبِ النَّاسِ: جَنَّتا عِنَبٍ أحاط بهما نَخلٌ، بينهما فُسحةٌ، هي مُزدرَعٌ لجَميعِ الحُبوبِ، والماءُ الجاري يَسقي جميعَ ذلك من النَّهرِ الذي قد جَمَّلَ هذا المنظَرَ، وعَظَّمَ النَّفعَ، وقَرَّبَ الكَدَّ، وأغنى عن النواضِحِ[١] وغَيرِها[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ فجعَل الفِعلَ واحِدًا، ولم يقُلْ: (آتَتَا أكُلَها)؛ لأنَّه يجوزُ مراعاةُ اللَّفظِ ومُراعاةُ المعنى في (كلتا)، فلو راعى معنى قَولِه: ﴿كِلْتَا﴾ لقال: (آتتا)، لكِنَّه راعى اللفظ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾

- أُبْهِمَ في قولِه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أيُّ الرَّجُلينِ، وتبيَّنَ أنَّه هو الكافرُ الشَّاكُّ في البَعثِ، وأبْهَمَ تعالى مكانَ الجنَّتينِ؛ إذ لا يتعلَّقُ بتَعيينِه كبيرُ فائدةٍ[٤].

- قولُه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ فيه تَتميمٌ[٥] .....

---

(١) النَّواضِحُ: الإبِلُ التي يُستقَى عليها، واحِدُها: ناضِحٌ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٤).

(٥) التتميم: هو أن يُؤتى في كلامٍ لا يُوهِم غيرَ المرادِ بفضلةٍ تُفيد نكتةً. أو بعبارة أخرى هو: إردافُ الكلامِ بكلمةٍ ترفعُ عنه اللبسَ، وتقرِّبُه للفهمِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ١٢٠)، (٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد

واحتراسٌ[(١)] وكِنايةٌ[(٢)]؛ فالتَّتميمُ أو التَّمامُ في وصْفِ الجنَّتينِ؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ﴾ يحتملُ أنْ تكونَ الجنَّتانِ مُجرَّدَ اجتماعِ شَجرٍ مُتكاثفٍ، أو يكونَ النَّفعُ منها ضَئيلًا، فيكون أسَفُه عليها أقلَّ مِن أنْ تكونَ الجنَّتانِ من نَخيلٍ وأعنابٍ يَنتفِعُ بما تُثمرانِه عليه، ثمَّ تمَّمَ ذلك أيضًا بقولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ الانتفاعَ قاصرٌ على النَّخيلِ والأعنابِ، ولتكونَ كلٌّ من الجنَّتينِ جامعةً للأقواتِ والفواكهِ، وعلى الشَّكلِ الحسنِ والتَّرتيبِ الأنيقِ، ثمَّ تمَّمَ ذلك بقولِه: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾؛ للدَّلالةِ على دَيمومةِ الانتفاعِ بهما؛ فإنَّ الماءَ هو سِرُّ الحياةِ، وعامِلُ النُّموِّ الأوَّلِ في النَّباتاتِ، ثمَّ تمَّمَ ذلك بقولِه: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ التَّامَّةِ للانتفاعِ بالمواردِ، واحترَسَ بقولِه: ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ من أنْ يكونَ ثمَّةَ نقْصٌ في الأُكلِ الَّذي آتَتْه، وليكونَ كِنايةً عن تَمامِ الجنَّتينِ ونُمُوِّهما دائمًا

سعد الخطيب (١/ ٢٤٠).

(١) الاحتراس: هو التحرُّز من الشيء والتحفُّظ منه، وهو نوعٌ من أنواع إطناب الزِّيادة، وهو أن يكون الكلام محتملًا لشيءٍ بعيدٍ، فيُؤتى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدْفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ التَّكميلَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(٢) الكِناية في اصطلاح البلاغيِّين: هي لفظٌ أُريدَ به غيرُ مَعناهُ الذي وُضِعَ له، مع جوازِ إرادةِ المعنى، حيثُ يُريدُ المتكلمُ إثباتَ معنى من المعاني فلا يَذكُره باللفظِ الموضوعِ له مِن اللُّغة، ولكن يَجيءُ إلى معنى هو تاليه ورَديفُه في الوجودِ فيُشيرُ به إليه ويجعلُه دليلًا عليه؛ فيدلُّ على المرادِ مِن طريقٍ أولى، مِثل قولهم: «كثير الرماد»؛ يعنون كثيرَ الضِّيافةِ؛ فتوصَّلوا إلى المرادِ بذِكرِ معنًى آخَرَ هو رديفُه في الوجودِ؛ لأنَّه إذا كَثُرَ القِرَى كَثُر الرَّماد. والكنايةُ أبلغُ مِن التصريحِ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦).

وأبدًا، فهي فيَّاضةُ الموردِ في كلِّ حينٍ؛ فقدِ استوفى وصْفُ الجنَّتينِ هذه الفُنونَ الثَّلاثةَ جميعًا[١].

٢- قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾

- جُملةُ: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ مُعترِضةٌ بين الجُملِ المُتعاطِفةِ. والمعنى: أثمرَتِ الجنَّتانِ إثمارًا كثيرًا حتَّى أشبهَتِ المُعطِيَ مِن عندِه[٢].

- قولُه: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ في الكلامِ إيجازٌ بحذْفِ مُضافٍ، والتَّقديرُ: ولم تَظلِمْ من مِقدارِ أمثالِه[٣].

- قولُه: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ فيه تأخيرُ ذِكْرِ النَّهرِ عن ذِكْرِ إيتاءِ الأُكُلِ، مع أنَّ التَّرتيبَ الخارجِيَّ على العكسِ؛ للإيذانِ باستقلالِ كلٍّ من إيتاءِ الأُكلِ وتَفجيرِ النَّهرِ في تَكميلِ مَحاسنِ الجنَّتينِ، ولو عُكِسَ لانْفَهمَ أنَّ المجموعَ خَصلةٌ واحدةٌ بعضُها مُترتِّبٌ على بعضٍ؛ فإنَّ إيتاءَ الأُكلِ مُتفرِّعٌ على السَّقْيِ عادةً. وفيه إيماءٌ إلى أنَّ إيتاءَ الأُكلِ لا يتوقَّفُ على السَّقيِ[٤].

- قولُه: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ شُدِّدَ ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ وهو نَهرٌ واحدٌ؛ لأنَّ النَّهرَ يمتَدُّ، فكأنَّ التَّفجُّرَ فيه كلِّه، أعلَمَ اللهُ تعالى أنَّ شُرْبَهما كان من نَهرٍ واحدٍ، وهو أغزَرُ الشُّربِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦٠٤-٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٤).

٣- قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾

- قولُه: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ...﴾ الفاءُ للتَّفريعِ على الجُملِ السَّابقةِ؛ لأنَّ ما تَضمَّنَته الجُملُ السَّابقةُ من شأْنِه أنْ ينشَأَ عنه غُرورٌ بالنَّفسِ يَنطِقُ ربُّه عن مثْلِ ذلك القولِ[(١)].

- قولُه: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾ فيه المُبالَغةُ والإفراطُ في الصِّفةِ؛ وهو أنْ يذكُرَ المُتكلِّمُ حالًا لو وقَفَ عندها لأجزأَتْ، فلا يقِفُ عندها حتَّى يَزيدَ في معنى كلامِه ما يكونُ أبلَغَ في معنى قصْدِه، وهو أنواع، وهو هنا الإتيانُ بصِيغةِ اسمِ التَّفضيلِ وهو مَحضُ الحَقيقةِ مِن غيرِ قَرينةٍ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ فيه اللَّفُّ والنَّشرُ المُشوَّشُ[(٣)]، وحاصِلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦٠٦).

(٣) اللَّف والنَّشْر: هو أن يُذكر شيئان أو أشياء، إمَّا تفصيلًا -بالنصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا- بأن يُؤتَى بلفظٍ يشتملُ على متعدِّدٍ - ثم يذكر أشياء على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامعِ ردُّ كلِّ واحد إلى ما يَليقُ به؛ فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ، مثل: قولِه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النصارى، وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّف والنَّشر إمَّا مُرتَّب، وإمَّا غيرُ مُرتَّب؛ فاللَّف والنشرُ المُرتَّب، هو: أن يأتي النشرُ على وَفقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلٍّ ما يليقُ به على الترتيبِ، كقولِه تعالى: ﴿ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارةِ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾، وجاء النَّشرُ وَفقَ توزيعٍ مُرتَّب؛ فقولُه: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ ﴾ يتعلَّقُ باللَّيلِ، وقولُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهار.

ما قاله هذا الكافرُ ثلاثُ مَقالاتٍ شَنيعةٍ؛ الأولى: قولُه: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾. والثَّانيةُ: عندما دخَلَ جنَّتَه مُتكبِّرًا مَزْهُوًّا ظالِمًا لنفْسِه، قال -وقد رنَّحه الغُرورُ-: ﴿مَّآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾. والثَّالثةُ: قولُه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾، فردَّ المؤمنُ على مقالاتِه الثلاثِ بادئًا بالأخيرةِ -لأنَّها الأهمُّ- قائلًا: ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ وذلك لشكِّه في البعثِ، وثنَّى بالثَّانيةِ ناصحًا؛ لأنَّها تأتي في المرتبةِ بعدَها فقال: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ ...﴾، وثلَّثَ بالأُولى مُقرِّعًا فقال: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾[1].

وغيرُ المرتَّب، وقد يُعَبَّر عنه بـ «اللَّف والنَّشر المُشَوَّش»، أو «المعكوس»: هو أن يأتيَ النشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّل، وجاء بعدَها نَشْرٌ غَيرُ مُرَتَّب؛ فجملةُ: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى ومتعلِّقةٌ بها. وجُملَةُ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثالثةِ ومُتعلِّقةٌ بها. وجُملةُ: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى: ٩ - ١١] ملائمةٌ للجملةِ الثانيةِ ومتعلِّقةٌ بها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠-٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦٠٥).

الآيات (٣٥-٤١)

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبِيدَ﴾: أي: تَفنى وتَخرَبُ، وأصلُ (بيد): يدُلُّ على هَلاكِ الشَّيءِ[(١)].

﴿مُنقَلَبًا﴾: أي: مَرجِعًا وعاقِبةً، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على ردِّ الشَّيءِ[(٢)].

﴿حُسْبَانًا﴾: أي: مَراميَ يُرمَى بها مِن عذابِه؛ إمَّا حجارةً، وإما نارًا أو غيرَ ذلك مِن أنواعِ العذابِ، واحِدُها حُسبانةٌ، والحُسبانُ أيضًا: العَذابُ والسِّهامُ القِصارُ[(٣)].

﴿زَلَقًا﴾: أي: مَلساءَ، لا تَثبُتُ فيها قَدَمٌ، وأصلُ (زلق): يدُلُّ على تزلُّجِ شَيءٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٢٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٣).

عن مَقامِه[١].

﴿غَوْرًا﴾: أي: غائِرًا ذاهِبًا في الأرضِ، وأصلُ (غور): يدلُّ على خُفوضٍ في الشَّيءِ وانحِطاطٍ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ودخَل الرجُلُ حَديقتَه، وهو ظالمٌ لِنَفسِه بالكُفرِ باللهِ وإنكارِه البَعثَ، وقال: ما أظنُّ أن تَهلِكَ هذه الحديقةُ أبدًا، وما أظنُّ القيامةَ واقعةً، وإنْ فُرِضَ وقوعُها ورُجِعْتُ إلى رَبِّي، لأجِدَنَّ عنده خيرًا مِن هذه الحديقةِ التي أعطانيها في الدُّنيا؛ لكَرامَتي ومَنزِلتي عندَه. قال له صاحِبُه المؤمِنُ وهو يحاوِرُه: أكفَرْتَ باللهِ الذي خلق أصلَك آدَمَ مِن تُرابٍ، ثمَّ أنشأك مِن نُطفةِ أبوَيك، ثمَّ سَوَّاك بَشَرًا مُعتَدِلَ القامةِ والخِلْقةِ؟!

لكِنْ أنا لا أقولُ بمقالَتك الدَّالَّةِ على كُفرِك، وإنَّما أقولُ: المستحِقُّ العبادةَ هو اللهُ رَبِّي وَحدَه، ولا أُشرِكُ في عبادتي له أحَدًا غيرَه، وهلَّا حين دخَلْتَ حديقَتَك فأعجَبَتْك، قلتَ: ما شاء اللهُ، لا قُوَّةَ لي على شيءٍ إلَّا باللهِ، إنْ كنتَ تراني أقَلَّ منك مالًا وأولادًا، فعسى ربِّي أن يُعطِيَني أفضَلَ مِن حَديقتِك، ويُرسِلَ على حديقتِك عَذابًا من السَّماءِ، فتُصبِحَ أرضًا مَلساءَ جَرداءَ لا يَنبُتُ فيها نَباتٌ، ولا تَثبُتُ عليها قَدَمٌ، أو يصيرَ ماؤُها الذي تُسقَى منه ذاهبًا في الأرضِ، فلا تَقدِرَ على إخراجِه.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥﴾.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفۡسِهِۦ﴾.

أي: ودخل الرَّجُلُ[١] بُستانَه والحالُ أنَّه ظالمٌ لِنَفسِه بالكُفرِ باللهِ وتَكبُّرِه وتجَبُّرِه، وإنكارِه البَعثَ يومَ القيامةِ[٢].

﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾.

أي: قال: ما أظُنُّ أن تفنى وتضمَحِلَّ جنَّتي هذه أبدًا[٣]!

---

(١) قال الشوكاني: (قال المفسِّرُونَ: أخَذ بيدِ أخيه المسلمِ، فأدْخَله جَنَّتَه يطوفُ به فيها، ويُرِيه عجائِبَها). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٩).

وقال ابنُ عاشورٍ: (جملةُ ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ في موضِعِ الحالِ مِن ضميرِ ﴿قَالَ﴾، أي: قال ذلك وقد دخل جنَّتَه مُرافِقًا لصاحِبِه، أي: دخَلَ جَنَّتَه بصاحِبِه، كما يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾ [الكهف: ٣٥]؛ لأنَّ القَولَ لا يكونُ إلَّا خِطابًا لآخَرَ، أي: قال له، ويدُلُّ عليه أيضًا قَولُه: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: ٣٧]، ووقوعُ جوابِ قَولِه: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ [الكهف: ٣٤] في خلالِ الحوارِ الجاري بينهما في تلك الجنَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٩).

وممَّن قال بأنَّ الإشارةَ في قوله ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إلى جنَّتِه: ابن جرير، وابن كثير، والشوكاني، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: الإشارةُ ترجِعُ إلى الدنيا، فيكون الرجلُ مُنكِرًا لفناءِ الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى ذلك: الواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٤).

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾.

أي: وما أظُنُّ القِيامةَ كائِنةً؛ فلا يُوجَدُ بَعثٌ ولا حِسابٌ ولا جَزاءٌ[(١)]!

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾.

أي: ولو قُدِّرَ وافتُرِضَ أنَّني رُجِعْتُ إلى ربِّي فبعَثَني بعد موتي، لَأُعطَيَنَّ في الآخرةِ جَنَّةً خَيرًا مِن هذه الجنَّةِ التي أعطانيها في الدُّنيا؛ لأنَّه لم يُعطِني هذه إلَّا لأني أستحِقُّها ولي عنده حُظوةٌ ومكانةٌ، فكذلك يكون حالي في الآخرةِ على تقديرِ وُجودِها[(٢)]!

قال ابنُ جُزي: (يحتملُ أن تكونَ الإشارةُ إلى السَّمواتِ والأرض وسائرِ المخلوقاتِ، فيكون قائلًا ببقاء هذا الوجودِ، كافرًا بالآخرةِ، أو تكون الإشارةُ إلى جنَّته، فيكون قولُه إفراطًا في الاغترارِ، وقِلَّةِ التَّحصيلِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٢، ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٠).

قال السعدي: (هذا لا يخلو من أمرَينِ: إمَّا أن يكونَ عالِمًا بحقيقةِ الحالِ، فيكونَ كَلامُه هذا على وَجهِ التهَكُّمِ والاستهزاءِ، فيكونَ زيادةَ كُفرٍ إلى كُفرِه، وإما أن يكونَ هذا ظَنَّه في الحقيقةِ، فيكونَ مِن أجهَلِ النَّاسِ، وأبخَسِهم حظًّا من العَقلِ؛ فأيُّ تلازمٍ بين عطاءِ الدنيا وعطاءِ الآخرة، حتى يَظُنَّ بجَهلِه أنَّ مَن أعطِيَ في الدنيا أعطِيَ في الآخرةِ؟! بل الغالِبُ أنَّ اللهَ تعالى يزوي الدُّنيا عن أوليائِه وأصفيائِه، ويوسِّعُها على أعدائِه الذين ليس لهم في الآخِرةِ نصيبٌ، والظَّاهِرُ أنَّه يعلَمُ حَقيقةَ الحالِ، ولكِنَّه قال هذا الكلامَ على وَجهِ التهَكُّمِ والاستهزاءِ، بدليلِ قَولِه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾؛ فإثباتُ أنَّ وَصْفَه الظُّلمُ في حالِ دخولِه الذي جرى منه من القَولِ ما جرى: يدُلُّ على تمرَّدِه وعِنادِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾.

أي: قال له صاحِبُه المؤمِنُ وهو يخاطِبُه ويكَلِّمُه: أكفَرْتَ باللهِ الذي خلقَ أصلَك آدَمَ مِن تُرابٍ، ثمَّ أنشأك مِن مَنِيٍّ، ثمَّ عَدَلَك وكَمَّلَك، فصَيَّرك رجُلًا سَوِيًّا مُعتَدِلَ القامةِ والخِلْقةِ، صحيحَ الأعضاءِ؟! فالذي خلَقَك كذلك قادِرٌ على البَعثِ الذي أنت تُنكِرُه[1]!

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال ابن عثيمين: (فكأنَّه يقولُ: بما أنَّ الله أنعم عليَّ بالدُّنيا، فلا بُدَّ أن يُنعِمَ عليَّ بالآخرةِ. وهذا قياسٌ فاسِدٌ؛ لأنَّه لا يلزَمُ مِن التَّنعيمِ في الدُّنيا أن يُنعَّمَ الإنسانُ في الآخرةِ، ولا مِن كَونِ الإنسانِ لا يُنَعَّمُ في الدنيا ألَّا ينَعَّمَ في الآخرةِ؛ لا تلازُمَ بين هذا وهذا، بل إنَّ الكُفَّارَ ينعَّمونَ في الدُّنيا وتُعَجَّلُ لهم طيِّباتُهم في حياتِهم الدُنيا، ولكِنَّهم في الآخرةِ يعَذَّبونَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧١).

قال الرازي: (هذا الاستِدلالُ يحتَمِلُ وَجهَينِ:

الأوَّلُ: يرجِعُ إلى الطريقةِ المذكورةِ في القُرآنِ، وهو أنَّه تعالى لَمَّا قَدَر على الابتداءِ وجَبَ أن يقدِرَ على الإعادةِ؛ فقولُه: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ إشارةٌ إلى خَلقِ الإنسانِ في الابتداءِ.

الوجه الثاني: أنَّه لَمَّا خَلَقَك هكذا فلم يخلُقْك عبثًا، وإنما خلَقَك للعبوديةِ، وإذا خلَقَك لهذا المعنى وجَبَ أن يحصُلَ للمُطيعِ ثوابٌ، وللمذنِبِ عِقابٌ...، ويدُلُّ على هذا الوَجهِ قَولُه: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي: هيَّأك هيئةً تَعقِلُ وتَصلُحُ للتَّكليفِ، فهل يجوزُ في العَقلِ مع هذه الحالةِ إهمالُه أمْرَك؟!). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٦٤).

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧-٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧، ٨].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

أي: لكِنْ أنا لا أكفُرُ ولا أقولُ مِثلَ قَولِك، بل أقولُ: الذي يستَحِقُّ العبادةَ وَحدَه، هو الله ربِّي، ولا أعبُدُ أحدًا غَيرَه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

قال الفراء: (قَولُه: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ معناه: لكِنْ أنا هو اللهُ ربي، تُرِك همزةُ الألفِ مِن «أنا»، وكثُرَ بها الكلامُ، فأُدغِمَت النونُ مِن «أنا» مع النونِ مِن «لكنْ»). ((معاني القرآن)) (٢/ ١٤٤).

ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٤٠٣).

قال الشوكاني: (وضميرُ ﴿هُوَ﴾ للشَّأنِ، والجملةُ بعدَه خبرُه، والمجموعُ خبرُ «أنا»، والرَّاجعُ ياءُ الضَّميرِ، وتقديرُ الكلامِ: لكنَّ أنا الشَّأنُ اللَّهُ رَبِّي). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٠).

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

أي: وهلَّا إذ دخلتَ بُستانَك قلتَ حين أعجَبَك: ما شاءَ اللهُ[١].

﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾.

أي: وهَلَّا قُلتَ: لا قُوَّةَ لي على شَيءٍ إلَّا بإعانةِ اللهِ لي، ومِن ذلك إنشاءُ الجنَّتَينِ وعِمارتُهما، وتدبيرُ أمرِهما[٢].

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: ((يا عبدَ اللهِ بنَ قَيسٍ، ألَا أعَلِّمُك كَلِمةً هي مِن كُنوزِ الجنَّةِ؟ لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ))[٣].

﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٨).

قال الزمخشري: (﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يجوزُ أن تكونَ ﴿مَا﴾ موصولةً مرفوعةَ المحلِّ على أنَّها خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديرُه: الأمرُ ما شاء اللهُ. أو شرطيَّةً منصوبةَ الموضِعِ، والجزاءُ محذوفٌ، بمعنى: أيَّ شَيءٍ شاء اللهُ كان). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٣).

وممن اختار المعنى الأولَ: الزجاج. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٢٨٨).

وممن اختار المعنى الثاني: ابنُ جرير، وابنُ تيمية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٤).

(٣) رواه البخاري (٦٦١٠) واللفظ له، ومسلم (٢٧٠٤).

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا عَلَّمه الإيمانَ وتفويضَ الأمورِ إلى اللَّهِ سبحانَه؛ أجابَه على افتخارِه بالمالِ والنَّفَرِ، فقالَ[١]:

﴿إِن تَـرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

أي: قال الرجُلُ المؤمِنُ للكافِرِ: إنْ رأيتَني أقَلَّ منك مالًا وأولادًا، فتكبَّرْتَ وافتخَرْتَ بذلك عليَّ واحتقَرْتَني[٢].

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾.

أي: فلعَلَّ[٣] ربِّي أن يَرزُقَني لإيماني خَيرًا مِن بُستانِك الذي تفتَخِرُ به عليَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الكهف)) (ص: ٧٣).

(٣) قولُه تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ يحتَمِلُ أحدَ مَعنَيَينِ:

الأول: الترجِّي، وأنَّ هذا دعا أن يؤتيَه اللهُ خَيرًا مِن جَنَّتِه، وأن يُنْزِلَ عليها حُسبانًا من السَّماءِ؛ لأنَّه احتَقَره واستذَلَّه، فدعا عليه بمِثلِ ما فَعَلَ به من الظُّلم.

الثاني: التوقُّع، والمعنى أنَّك إن كنتَ ترى هذا فإنَّه يُتَوقَّعُ أنَّ الله تعالى يُزيلُ عني ما عِبْتَني به، ويُزيلُ عنك ما تفتَخِرُ به. وأيًّا ما كان فالأمرُ وقَع؛ إمَّا استجابةً لدعائِه، وإمَّا تحقيقًا لتوقُّعِه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٣- ٧٤).

وذهب البِقاعي إلى أنَّه دعاءٌ بصورةِ التوقُّع. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٣).

قال ابنُ عاشور: (و﴿عَسَى﴾ للرَّجاءِ، وهو طلبُ الأمرِ القريبِ الحصولِ. ولعلَّه أرادَ به الدُّعاءَ لنفسِه وعلى صاحِبِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي))

﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: ويُرسِلَ على بُستانِك الذي ظَنَنْتَ أنَّه لا يَبيدُ ولا يفنى عَذابًا من السَّماءِ لِيُهلِكَه(١).

﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا﴾.

أي: فيُصبِحَ بُستانُك بسَبَبِ العذابِ أرضًا مُسْتويةً، جَرداءَ لا نباتَ فيها، ملساءَ لا تَثبُتُ عليها قَدَمٌ(٢).

(١٠/ ٤٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٢).

قال الماوَردي: (فيه وجهان: أحدُهما: ﴿خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الدُّنيا فأساويك فيها. الثاني: وهو الأشهَرُ ﴿خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الآخرةِ، فأكون أفضَلَ منك فيها). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٠٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهَا﴾ أي: في الآخرةِ: البغوي، والقرطبي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٥).

قال ابنُ كثير: (والظاهِرُ أنَّه مطَرٌ عَظيمٌ مُزعِجٌ، يَقلَعُ زَرعَها وأشجارَها). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٩).

وقال ابنُ عاشور: (الحُسْبانُ: مصدَرُ حَسَب، كالغُفران. وهو هنا صِفةٌ لِموصوفٍ محذوفٍ، أي: هَلاكًا حُسبانًا، أي: مقدَّرًا من الله، كقَولِه تعالى: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦]. وقيل: الحُسبانُ: اسمُ جمعٍ لسهامٍ قِصارٍ يُرمى بها في طَلَقٍ واحدٍ، وليس له مفردٌ. وقيل: اسمُ جَمعِ حُسبانةٍ، وهي الصاعقةُ. وقيل: اسمٌ للجرادِ. والمعاني الأربعة صالحةٌ هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٥).

قال الرسعني: (يرمي ويرسلُ عليها مراميَ مِن عذابِه، إمَّا حجارةً، وإمَّا بردًا، وإما نارًا، إلى غيرِ ذلك مِن أنواعِ العذابِ، وهذا يجمعُ أقوالَ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٤٨)، ((الوسيط))

﴿ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١ ﴾.

أي: أو يُصبِحَ ماءُ النَّهرِ الذي يَسْقي بستانَك غائرًا ذاهبًا في الأرضِ، فلن تَقدِرَ على طَلَبِ الماءِ واستِخراجِه[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ فيه استِحبابُ هذ الذِّكرِ عند رؤيةِ ما يُعجِبُ[2]؛ حتى يفَوِّضَ الأمرَ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ لا إلى حَولِه وقُوَّتِه[3]، فينبغي لِمن دخل بُستانَه أو دارَه، أو رأى في مالِه

للواحدي (٣/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

قال ابنُ كثيرٍ في قولِه: ﴿غَوۡرٗا﴾: (أي: غائرًا في الأرضِ، وهو ضِدُّ النَّابعِ الذي يَطلُبُ وجهَ الأرض، فالغائِرُ يَطلُبُ أسفلَها، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۢ﴾ [الملك: ٣٠] أي: جارٍ وسائحٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٩).

وقال القرطبي: (﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾ أي: لن تستطيعَ ردَّ الماءِ الغائرِ، ولا تقدِرُ عليه بحيلةٍ. وقيل: فلن تستطيعَ طلَبَ غيرِه بدلًا منه). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٩).

وقال ابنُ عثيمين: (فدعا دعوةً يكونُ فيها زوالُ هذه الجنَّةِ، إمَّا بماءٍ يُغرِقُها حتى تصبحَ ﴿صَعِيدٗا زَلَقًا﴾، وإما بغَورٍ لا سُقيا معه؛ لِقَولِه: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾، وكلا الأمرينِ تدميرٌ وخرابٌ. فالفيضاناتُ تدمِّرُ المحصولَ، وغَورُ الماءِ حتى لا يستطيعَ أن يَطلُبَه لِبُعدِه في قاعِ الأرضِ أيضًا يدَمِّرُ المحصولَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٤-٧٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٢).

وأهلِه ما يُعجِبُه: أن يبادِرَ إلى هذه الكَلِمةِ؛ فإنَّه لا يرى فيه سُوءًا[١]؛ ولهذا قال بعضُ السَّلَفِ: (من أعجبه شيءٌ مِن حالِه أو مالِه أو ولَدِه، فليقُلْ: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾). وهذا مأخوذٌ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أفادت هذه الكَلِمةُ إثباتَ القُوَّةِ لله، وبراءةَ العَبدِ منها، والتَّنبيهَ على أنَّه لا قُدرةَ لأحدٍ مِن الخَلقِ إلَّا بتَقديرِه تعالى، فلا يُخافُ مِن غَيرِه[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۞ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الآيةِ الإرشادُ إلى التسَلِّي عن لذَّاتِ الدُّنيا وشَهَواتِها بما عندَ اللهِ مِن الخَيرِ[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ فيه الدُّعاءُ بتَلَفِ مالِ مَن كان مالُه سَبَبَ طُغيانِه وكُفرِه وخُسرانِه -وذلك على أحدِ الاحتمالينِ في التفسيرِ-، خُصوصًا إنْ فَضَّلَ نَفسَه بسَبَبِه على المُؤمِنينَ، وفخَرَ عليهم[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ في إفرادِ الجنَّةِ بعد تثنيتِها فيما سبق أوجهٌ:

الوجه الأول: أنَّه وحَّد لإرادة الجِنسِ، ودلالةً على ما أفاده الكلامُ مِن أنَّهما

(١) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لاتصالِهما كالجنَّةِ الواحدةِ[١].

الوجه الثاني: لأنَّه أوَّلَ ما يدخُلُ إنَّما يدخُلُ إحداهما قبل أن ينتَقِلَ منها إلى الأخرى، فما دخل إلَّا إحدى الجنَّتين؛ لأنَّه لا يدخُلُهما معًا في وقتٍ واحدٍ[٢].

الوجه الثالث: أنَّه إنما أفرَدَها بعد ذِكرِ التثنيةِ؛ اكتفاءً بالواحِدِ للعِلمِ بالحالِ[٣].

الوجه الرابع: أنَّه أفرَدَ؛ لأنَّهما جميعًا مِلْكُه، فصارا كالشَّيءِ الواحِدِ[٤].

الوجه الخامس: أنَّ معناه: (ودخل ما هو جنَّتُه، ما له جنةٌ غيرُها)، يعني: أنَّه لا نصيبَ له في الجنَّةِ التي وُعِدَ المؤمنون؛ لأنَّه لا حَظَّ له في الآخرةِ، فما ملَكَه في الدُّنيا هو جنَّتُه لا غيرُ، ولم يقصِدِ الجنَّتين ولا واحدةً منهما[٥].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۞ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۞ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ في هذه الآياتِ أنَّ الإنسانَ الأوَّلَ قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، وهذا الثَّاني كَفَّرَه؛ حيث قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ وهذا يدُلُّ على أنَّ الشَّاكَّ في حُصولِ البَعثِ ومنكرَ المعادِ كافرٌ بربِّ العالمين، وإن زعَم أنَّه مقِرٌّ به[٦]، وقد جاء

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ٤٨٦).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٤٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٩).

لكن استبعَد الشوكاني هذا الوجهَ، فقال: (وما أبعدَ ما قالَه صاحبُ الكشَّافِ أنَّه وَحَّد الجنَّةَ للدَّلالَةِ على أنَّه لا نصيبَ له في الجنَّةِ الَّتي وُعِد المؤمِنونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٦٤)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٤).

ذلك صريحًا في أوَّلِ سورةِ (الرَّعدِ) في قولِه تعالَى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1] [الرعد: ٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ ما قال سُبحانَه: «ما شاء اللهُ كان» ولا: «يكونُ»، بل أطلقَ اللفظَ؛ ليَعُمَّ الماضيَ والمستقبلَ والرَّاهنَ[2].

٤- قال ابنُ هُبيرة: (تدبَّرتُ قولَه تعالى: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، فرأيتُ لها ثلاثةَ أوجهٍ:

أحدُها: أنَّ قائِلَها يتبرَّأُ مِن حَولِه وقُوَّتِه، ويُسَلِّمُ الأمرَ إلى مالِكِه.

والثاني: أنَّه يعلمُ أنْ لا قُوَّةَ للمَخلوقينَ إلَّا باللَّه، فلا يخافُ منهم؛ إذ قُواهُم لا تكونُ إلَّا باللَّهِ، وذلك يُوجِبُ الخوفَ من اللهِ وحدَهُ.

والثَّالثُ: أنَّه ردٌّ على الفَلاسفةِ والطَّبائعيِّينَ الذين يدَّعونَ القُوى في الأشياءِ بطبيعتِها؛ فإنَّ هذه الكَلِمةَ بَيَّنَت أنَّ القَويَّ لا يكونُ إلَّا باللهِ)[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾ استئنافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ من

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٧).

(٢) الفائدةُ لابنِ هبيرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٢، ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) (٢/ ١٤٣).

ذِكْرِ دُخولِ جنَّتِه حالَ ظُلْمِه لنفْسِه؛ كأنَّه قيل: فماذا قال إذْ ذاك؟ فقيل: قال قولَه: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، ولعلَّه إنَّما قاله بمُقابلةِ مَوعظةِ صاحبِه، وتَذْكيرِه بفَناءِ جنَّتَيه، ونَهْيِه عن الاغترارِ بهما، وأمْرِه بتَحصيلِ الباقياتِ الصَّالحاتِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾

- عقَّبَ نفيَ قيامِ الساعةِ بقولِه: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾؛ تهكُّمًا بصاحبِه، وقرينةُ التَّهكُّمِ قولُه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، وأكَّدَ كلامَه بلامِ القَسَمِ ونُونِ التَّوكيدِ؛ مُبالغةً في التَّهكُّمِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ حكَى كلامَ صاحبِه بفِعْلِ القولِ بدونِ عطْفٍ؛ للدَّلالةِ على أنَّه واقعٌ موقعَ المُحاورةِ والمُجاوبةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ؛ فائدتُها التَّنبيهُ من أوَّلِ الأمْرِ على أنَّ ما يَتْلوه كلامٌ مُعتنًى بشأنِه، مسوقٌ للمُحاوَرةِ[٤].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ مُستعملٌ في التَّعجُّبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٢).

والإنكارِ، وليس على حقيقتِه؛ لأنَّ الصاحبَ كان يعلَمُ أنَّ صاحبَه مُشرِكٌ؛ بدَليلِ قولِه له: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾؛ فالمُرادُ بالكُفْرِ هنا الإشراكُ، الَّذي من جُملةِ مُعتقداتِه إنكارُ البعْثِ؛ ولذلك عُرِّفَ بطريقِ الموصوليَّةِ؛ لأنَّ مَضمونَ الصِّلةِ مِن شأْنِه أنْ يَصرِفَ مَن يُدرِكُه عن الإشراكِ به؛ فإنَّهم يَعترِفون بأنَّ اللهَ هو الَّذي خلَقَ النَّاسَ، فما كان غيرُ اللهِ مُستحِقًّا للعِبادةِ. ثمَّ إنَّ العلْمَ بالخلْقِ الأوَّلِ من شأْنِه أنْ يَصرِفَ الإنسانَ عن إنكارِ الخَلْقِ الثَّاني، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [ق: ١٥]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧]؛ فكان مضمونُ الصِّلةِ تَعريضًا بجهْلِ المُخاطَبِ[١]. والتعبيرُ بالموصولِ؛ للإشعارِ بعِلِّيَّةِ ما في حيِّزِ الصِّلةِ لإنكارِ الكُفرِ، والتَّلويحِ بدَليلِ البعثِ الَّذي نطَقَ به قولُه عَزَّ من قائلٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ...﴾[٢] [الحج: ٥].

وقِيل: الظاهرُ أنَّ الإنكارَ المدلولَ عليه بهَمزةِ الإنكار في قوله: ﴿أَكَفَرۡتَ﴾ مُضمَّنٌ معنى الاستبعادِ؛ لأنَّه يُستبعَدُ جدًّا كُفرُ المخلوقِ بخالقِه، الذي أبرزَهُ من العدمِ إلى الوجودِ، ويُستبعدُ إنكارُ البعثِ ممَّن عَلِم أنَّ اللهَ خلَقَه مِن تُرابٍ، ثُمَّ مِن نُطفةٍ، ثم سوَّاه رجلًا[٣].

- وجعَلَ كُفْرَه بالبعثِ كُفرًا باللهِ تعالى؛ لأنَّ منشَأَهُ الشَّكُّ في كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى؛ ولذلك رتَّبَ الإنكارَ على خلْقِه إيَّاهُ من التُّرابِ؛ فإنَّ مَن قدَرَ على بَدْءِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٦).

خلْقِه منه قدَرَ أنْ يُعيدَه منه[١].

٤- قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾

- قولُه: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ موقعُ الاستدراكِ هنا مُضادةُ ما بعدَ (لكن) لِما قبْلَها[٢]، ولا سيَّما إذا كان الرَّجلانِ أخوينِ أو خليلينِ كما قيل؛ فإنَّه قد يُتوهَّمُ أنَّ اعتقادَهما سواءٌ. وأكَّدَ إثباتَ اعترافِه بالخالقِ الواحدِ بمُؤكِّداتٍ أربعةٍ، وهي:

الأول: الجُملتانِ الاسميَّتانِ؛ فأصلُ الكلامِ (لكنْ أنا هُو اللهُ ربِّي)؛ فـ (الله ربي) جملةٌ اسميَّةٌ خبرٌ لـ (هو)، و(هو الله ربي) جملةٌ اسميَّة خبَر لـ (أنا)، وهذان هُما الجملتان.

الثاني: ضَميرُ الشَّأنِ في قولِه: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾.

الثالث: تَعريفُ المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه في قولِه: ﴿ٱللَّهُ رَبِّي﴾، المُفيدُ قصْرَ صِفَةِ رُبوبيَّةِ اللهِ على نفْسِ المُتكلِّمِ قصْرًا إضافيًّا بالنِّسبةِ لمُخاطبِه، أي: دونَك؛ إذ تعبُدُ آلهةً غيرَ اللهِ، وما القصرُ إلَّا توكيدٌ مُضاعفٌ.

الرابع: التَّوكيدُ اللَّفظيُّ للجُملةِ بقولِه: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾[٣].

- في قولِه: ﴿لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ تَعريضٌ بإشراكِ صاحبِه، وأنَّه مُخالِفُه في ذلك، وقد صرَّحَ بذلك صاحبُه في قولِه: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٣).

٤٢][(١)].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾

- عطْفُ جُملةِ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ﴾ على جُملةِ ﴿أَكَفَرْتَ﴾ عطْفُ إنكارٍ على إنكارٍ، و(لولا) للتَّوبيخِ، كشأنِها إذا دخلَتْ على الفِعلِ الماضي[(٢)].

- قولُه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فيه تقديمُ الظَّرفِ ﴿إِذْ﴾ على المُحضَّضِ عليه؛ للإيذانِ بتحتُّمِ القولِ في آنِ الدُّخولِ من غيرِ إبطاءٍ، لا للقصْرِ[(٣)].

- وجُملةُ: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ تعليلٌ لكونِ تلك الجنَّةِ من مَشيئةِ اللهِ، أي: لا قُوَّةَ لي على إنشائِها، أو لا قُوَّةَ لمَن أنشَأَها إلَّا باللهِ؛ فإنَّ القُوى كلَّها موهبةٌ من اللهِ تعالى، لا تُؤثِّرُ إلَّا بإعانتِه بسَلامةِ الأسبابِ والآلاتِ المُفكِّرةِ والصَّانعةِ؛ فما في جُملةِ ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ من العُمومِ، جعَلَها كالعِلَّةِ والدَّليلِ لكونِ تلك الجنَّةِ جُزئيًّا من جُزئياتِ مُنشآتِ القُوى البشريَّةِ الموهوبةِ للنَّاسِ بفضْلِ اللهِ[(٤)].

- قولُه: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فائدةُ ذِكْرِ ﴿أَنَا۠﴾ في مثْلِ ذلك: حصْرُ الخبرِ في المُبتدأِ، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢]، وقولِه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾[(٥)] [القصص: ٣٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٤).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤١).

٦- قوله تعالى: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴾

- قَولُه: ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ خَصَّ السماءَ؛ لأنَّ ما جاء مِن الأرضِ قد يُدافَعُ؛ كأمطارٍ وسيولٍ جارِفةٍ أو نيرانٍ مُحرِقةٍ، فهذه يمكنُ أنْ تُدافَعَ، لكنْ ما نَزلَ مِن السَّماءِ يَصعُبُ دَفعُه أو يَتعذَّرُ[١].

- قولُه: ﴿زَلَقًا﴾ مصدرٌ أُريدَ به المفعولُ، مُبالغةً[٢].

٧- قوله تعالى: ﴿ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴾

- قولُه: ﴿ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا ﴾، أي: غائرًا في الأرضِ، ووصْفُه بالمصدرِ للمُبالَغةِ[٣]؛ ولذلك فرَّعَ عليه: ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴾، وجاء بحرْفِ تَوكيدِ النَّفيِ (لن)؛ زِيادةً في التَّحقيقِ لهذا الرَّجاءِ الصَّادرِ مصدرَ الدُّعاءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٥).

الآيات (٤٢-٤٤)

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾: أي: أصابه ما أهلَكَه، وأصلُه مِن: أحاطَ به العدوُّ؛ لأنَّه إذا أحاط به فقد مَلَكه واستولَى عليه، ثم استُعمِل في كلِّ إهلاكٍ، وأصلُ (حوط): يدُلُّ على الشَّيءِ يُطيفُ بالشَّيءِ[(١)].

﴿خَاوِيَةٌ﴾: أي: خاليةٌ، قد سقط بعضُها على بعضٍ، وأصلُ (خوي): يدلُّ على الخلوِّ والسُّقوطِ[(٢)].

﴿عُرُوشِهَا﴾: أي: سُقوفِها، وأصلُ (عرش): يدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ مَبنيٍّ[(٣)].

﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾: أي: المُوالاةُ والنُّصرةُ. والوَلايةُ والوِلايةُ قيل: كلاهما بمعنًى، وقيل: بالكسر معناها الإمارةُ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٧١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٨، ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ٢٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٠)، ((غريب

﴿عُقْبًا﴾: أي: عاقِبةً، وأصلُ (عقب): يدلُّ على تأخيرِ شَيءٍ وإتيانِه بعدَ غيرِه[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يختتمُ الله سبحانه مثلَ الرجلين: المؤمنِ والكافرِ ببيانِ العاقبةِ السيئةِ التي حلَّت بذلك الكافرِ، فيقولُ تعالى: وأحاط الدَّمارُ بحَديقةِ هذا الكافرِ، فهلك كلُّ ما فيها، فصار يُقَلِّبُ كَفَّيه؛ حَسرةً وندامةً على ما أنفَقَ فيها، وهي خاويةٌ من كلِّ شيءٍ، قد سقطَ بَعضُها على بعضٍ، ويقولُ: يا ليتَني لم أُشرِكْ بربِّي أحدًا! ولم تكنْ له جماعةٌ ممَّن افتخَرَ بهم يمنَعونَه مِن عذابِ اللهِ النَّازلِ به، وما كان مُمتَنِعًا بنَفسِه وقُوَّتِه من ذلك العذابِ. في تلك الحالِ تكونُ النُّصرةُ لله الحَقِّ، ويتولَّاه الجميعُ ويُؤمِنونَ به، ويتبرَّؤون مما كانوا يعبدونَ مِن دونِه، لكِنَّ الله لا يتولَّى إلا المؤمِنينَ المتَّقينَ، والله هو خيرٌ جزاءً، وخيرٌ عاقِبةً لأهلِ طاعتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان من المعلومِ أنَّ هذا المُؤمِنَ المُخلِصَ بعَينِ الرِّضا، كان من المعلومِ أنَّ التَّقديرَ: فاستُجيبَ لهذا الرَّجُلِ المُؤمِنِ، أو: فحُقِّقَ له ما توَقَّعَه، فخُيِّبَ ظَنُّ المُشرِكِ، فعُطِفَ عليه قولُه[٢]:

القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٤).

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾.

أي: وأحاط الهلاكُ بثِمارِ جَنَّةِ الكافِرِ مِن كُلِّ جانبٍ، فتَلِفَت أشجارُه، وزُروعُه، وثِمارُه[1].

﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾.

أي: فأصبح يُقَلِّبُ كَفَّيه[2]؛ تحسُّرًا ونَدَمًا على ذَهابِ أموالِه الكثيرةِ التي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٦).

قال السعدي: (والإحاطةُ بالثمرِ يستلزمُ تلفَ جميعِ أشجارِه، وثمارِه، وزرعِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

وقيل: أُتْلِف مالُه كلُّه، وهَلَكَتْ أنعامُه، وسُلِبَتْ أموالُه. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٦).

وسبَق ذِكرُ القراءاتِ في كلمةِ (ثمر)، والخلافِ في معناها (ص: ١٨٩).

(٢) قال الرسعني: (﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ قال ابنُ عباس: يضرِبُ يديه واحدةً على أخرى. وقيل: يُقلِّبُهما ظهرًا لبَطنٍ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٩٢).

وممن ذهَب إلى المعنى الأولِ: الواحدي، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٩-٤١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي(١٢/ ٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤١).

وممن ذهب إلى المعنى الثاني: ابنُ جرير، والزمخشري، والبيضاوي، وأبو حيان، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٦).

قال أبو حيان: (وتقليبُ كَفَّيه ظاهِرُه أنَّه يقَلِّبُ كَفَّيه ظهرًا لِبَطنٍ، وهو أنَّه يُبدي باطِنَ كَفِّه ثمَّ يعوجُ كَفَّه حتى يبدوَ ظَهرُها). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨١).

وقيل: يصفقُ بكفٍّ على كفٍّ، ويقلبُ كفَّيه ظهرًا لبطنٍ. وممن ذهب إلى ذلك: الثعلبي، والبغوي، والخازنُ، والعليمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٩٣)،

أنفَقَها في جنَّتِه، فلم يَبقَ لها عِوَضٌ[١].

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

أي: وهي خاليةٌ مِن الأشجارِ والزُّروعِ والثِّمارِ، قد سقَطَت سقوفُها ثمَّ سقَطَت جُدرانُها عليها[٢].

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾.

أي: ويقولُ الكافِرُ[٣]: يا ليتَني كنتُ مُوَحِّدًا لم أُشرِكْ برَبِّي أحدًا، وشَكَرتُه

((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ١٧٩).

قال الألوسي: (وأيًّا ما كان فهو كنايةٌ عن الندمِ والتحسُّرِ). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٢٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

قال القرطبي: (دلَّ قَولُه: ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ على أنَّ هذا الإهلاكَ جرى بالليلِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٩-٢٠]). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٠).

قال الشوكاني: (﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي: في عمارتِها وإصلاحِها من الأموالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤١).

وقيل: (في) هاهنا بمعنى (على). يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٥).

قال ابنُ أبي زمنين: (معنى ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: خرابٌ على سقفِها، والأصلُ في ذلك: أن يسقُطَ السَّقفُ، ثم تسقُطَ الحِيطانُ عليها). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٦٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٩).

(٣) ذهب ابنُ جريرٍ، والسمرقندي، ومكي إلى أنَّ هذا القولَ يقولُه الكافرُ في الآخرةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٤٨)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤٣٨٩).

وممن ذهب إلى أنَّه في الدنيا: الزمخشري، والرازي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٤)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

على نِعَمِه ولم أكفُرْ به[١].

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا افتخر الكافرُ بكثرةِ مالِه، وعِزَّةِ نَفَرِه؛ أخبرَ تعالى أنَّه لم تكُنْ له فِئَةٌ -أي: جماعةٌ- تنصُرُه، ولا كانَ هو مُنتَصِرًا بنفسِه[٢].

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ولم تكُنْ له جماعةٌ يَمنَعونَ عنه عذابَ اللهِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٦).

قال الزمخشري: (تذكَّر موعظةَ أخيه فعَلِمَ أنه أُتي من جهةِ شِركِه وطُغيانِه، فتمنَّى لو لم يكُنْ مُشرِكًا حتى لا يُهلِكَ الله بستانَه، ويجوزُ أن يكونَ توبةً مِن الشركِ، وندمًا على ما كان منه، ودخولًا في الإيمانِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٤).

وقال السعدي: (ولا يُستبعَدُ مِن رحمة اللهِ ولُطفِه: أنَّ صاحِبَ هذه الجنَّةِ التي أحيطَ بها، تحسَّنَت حالُه، ورَزَقَه اللهُ الإنابةَ إليه، وراجَعَ رُشدَه، وذهَبَ تمَرُّدُه وطُغيانُه؛ بدليلِ أنَّه أظهَرَ الندَمَ على شِركِه برَبِّه، وأنَّ الله أذهَبَ عنه ما يُطغيه، وعاقَبَه في الدنيا، وإذا أراد اللهُ بعبدٍ خَيرًا عجَّل له العُقوبةَ في الدُّنيا. وفَضلُ اللهِ لا تحيطُ به الأوهامُ والعُقول، ولا يُنكِرُه إلَّا ظالِمٌ جَهولٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٠).

قال الواحدي: (لم ينصُرْه النفَرُ الذين افتخر بهم حين قال: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾). ((الوجيز)) (ص: ٦٦٢).

وقال السعدي: (لَمَّا نزل العذاب بجنَّتِه، ذهب عنه ما كان يفتخِرُ به من قوله لصاحبِه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فلم يدفعوا عنه من العذابِ شيئًا، أشدَّ ما كان إليهم حاجةً!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾.

أي: وما كان مُمتَنِعًا بنَفسِه مِن عذابِ اللهِ[١].

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أنتج هذا المثَلُ قَطعًا أنَّه لا أمرَ لغيرِ الله المرجوِّ لنَصرِ أوليائه بعد ذُلِّهم، ولإغنائِهم بعد فَقرِهم، ولإذلالِ أعدائِه بعدَ عِزِّهم وكِبرِهم، وإفقارِهم بعد إغنائِهم وتجبُّرِهم، وأنَّ غيرَه إنما هو كالخيالِ لا حقيقةَ له- صَرَّحَ بذلك في قَولِه تعالى[٢]:

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله: ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ قراءتان:

١- قراءةُ ﴿الْوِلَايَةُ﴾ بكسر الواو، أي: المُلكُ والسُّلطانُ والقدرةُ لله[٣].

٢- قراءةُ ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ بفتح الواو، أي: النُّصرةُ لله[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٥).

(٣) قرأ بها حمزةُ، والكسائي، وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١١٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤١٨).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١١٢)، ((حجة القراءات)) لابن

وفي قوله: ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ قراءتان:

١- قراءةُ ﴿الْحَقُّ﴾ بضمِّ القافِ، صِفةً للوَلايةِ، قيل المعنى: وَلايةُ اللهِ حَقٌّ وصِدقٌ لا يشوبُها نَقصٌ ولا خَلَلٌ. وقيل المعنى: الولايةُ الحَقُّ لله لا يستَحِقُّها غيرُه[١].

٢- قراءةُ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ بكسرِ القافِ، صفةً لله تعالى، بمعنى: ذي الحَقِّ، أي: هو الحَقُّ في ألوهيَّتِه[٢].

﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي: في ذلك المقامِ، وتلك الحالِ[٣]، النُّصرةُ لله المعبودِ الحَقِّ وَحدَه، لا يملكُها غيرُه، ولا يَقدِرُ عليها سِواه[٤]، فيتولَّونَ اللهَ جميعُهم ويُؤمِنونَ به،

زنجلة (ص: ٤١٨).

(١) قرأ بها أبو عمرٍو، والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤١٩)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٩).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٦٣).

(٣) وممن ذهَب إلى أنَّ الإشارةَ في قولِه: ﴿هُنَالِكَ﴾ إلى العذابِ الذي أصاب جنتَه في الدنيا: الزمخشري، وابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٩).
وممن ذهب إلى أنَّ الإشارةَ فيها إلى العذابِ في الآخرةِ: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والقرطبي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٧).

ويتبرَّؤون مِن الآلهةِ الباطلةِ الكاذبةِ، لكِنَّ الله لا يتولَّى ولا ينصُرُ سوى عبادِه المؤمِنينَ المتَّقينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [هود: ١٠١].

وممن اختار المعنى المذكورَ: الرسعني، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: المصادر السابقة.

(١) ممن اختار هذا المعنى: يحيى بنُ سلام، وابنُ قتيبة، والنحاس، وابنُ أبي زمنين، والواحدي، والخازن، وابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ١٨٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٠).

قال الشنقيطي: (على قراءةِ مَنْ قَرَأَ ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ﴾ بفتحِ الواوِ فإنَّ معناها: الموالاةُ والصِّلةُ، وعلى هذه القراءةِ ففي معنَى الآيةِ وجهانِ:

الأوَّلُ: أنَّ معنَى ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ﴾، أي: في ذلك المقامِ، وتلكَ الحالِ تكونُ الولايةُ مِنْ كلِّ أحدٍ للَّهِ؛ لأنَّ الكافرَ إذا رأَى العذابَ رَجَع إلى اللَّهِ، وعلَى هذا المعنَى فالآيةُ كقولِه تعالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤]، وقولِه في فرعونَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ * ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠ - ٩١]، ونحو ذلك مِنَ الآياتِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الولايةَ في مثلِ ذلك المقامِ وتلك الحالِ للَّهِ وحدَه، فيوالِي فيه المسلمينَ ولايةَ رحمةٍ، كما في قولِه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٥٧]، وقولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١١]، وله على الكافرينَ وَلايةُ الملكِ والقهرِ، كما في قولِه: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠]). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٧٩).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤].

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

أي: اللهُ أفضَلُ جَزاءً لأهلِ طاعتِه في الدُّنيا وفي الآخرةِ، وعاقِبةُ طاعتِه خيرٌ مِن عاقبةِ طاعةِ غيرِه[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا * وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ في هذه القِصَّةِ العَظيمةِ اعتِبارٌ بحال الذي أنعم اللهُ عليه نِعَمًا دُنيويَّةً، فألهَتْه عن آخِرتِه وأطغَتْه، وعصى اللهَ فيها؛ أنَّ مآلَها الانقِطاعُ والاضمِحلالُ، وأنَّه وإن تمتَّعَ بها قليلًا فإنَّه يُحرَمُها طَويلًا[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ...﴾ فأحاطَ به هذا العِقابُ لا لمُجرَّدِ الكُفْرِ؛ لأنَّ اللهَ قد يُمتِّعُ كافرينَ كثيرينَ طولَ حياتِهم، ويُمْلي لهم ويَسْتدرِجُهم، وإنَّما أحاط به هذا العِقابُ جزاءً على طُغيانِه، وجعْلِه ثَروتَه ومالَه وسيلةً إلى احتقارِ المُؤمنِ الفقيرِ؛ فإنَّه لمَّا اعتَزَّ بتلك النِّعمِ، وتوسَّلَ بها إلى التَّكذيبِ بوعْدِ اللهِ؛ استحَقَّ عِقابَ اللهِ بسلْبِ تلك النِّعمِ عنه، كما سُلِبَتِ النِّعمةُ عن قارونَ حين قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]. وبهذا كان هذا المَثَلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٧٧).

موضِعَ العِبرةِ للمُشرِكينَ الَّذين جَعَلوا النِّعمةَ وسيلةً للتَّرفُّعِ عن مجالسِ الدَّعوةِ؛ لأنَّها تجمَعُ قومًا يَرَونهم أحطَّ منهم، وطَلَبوا من النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّمَ طرْدَهم عن مَجْلِسِه[١].

٣- كشَف هذا المثلُ أنَّ ما فيه الكفارُ مِن الارتفاقِ العاجلِ ليس أهلًا لأن يُفتخرَ به؛ لأنَّه إلى زوالٍ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ بُني الفِعلُ للمَفعولِ؛ لأنَّ النَّكَدَ حاصِلٌ بإحاطةِ الهَلاكِ مِن غيرِ نَظَرٍ إلى فاعلٍ مَخصوصٍ[٣].

٢- قولُه: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (خَيْرٌ) هنا ليستْ على بابِها[٤] -أي ليستْ للتَّفضيلِ، ولكنْ لإثباتِ الخَيريَّةِ المُطلَقةِ لثَوابِ اللهِ، ونَفْيِه عن غَيرِه-؛ إذْ غيرُ اللهِ لا يُثيبُ، ولا تُحْمَدُ طاعتُه في العاقبةِ ليكونَ اللهُ خيرًا منه ثوابًا وعُقبًا، أو ذلك على سَبيلِ الفرضِ والتَّقديرِ[٥].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ فيه أنَّ وَلايةَ اللهِ وعَدَمَها إنَّما تتَّضِحُ نتيجتُها إذا انجلى الغُبارُ، وحَقَّ الجزاءُ، ووجَدَ العامِلونَ أجْرَهم، فـ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: عاقبةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٧٨).

(٤) قال الشنقيطي: (ولفظةُ «خيرٍ» و«شرٍّ» كلتاهما تأتي صيغةَ تفضيلٍ حُذِفَتْ منها الهمزةُ تخفيفًا؛ لكثرةِ الاستعمالِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٨٠).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤١).

ومآلًا[١].

٤- الحَقُّ اسمٌ مِن أسماءِ اللهِ تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾

- قولُه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ عطْفٌ على مُقدَّرٍ؛ كأنَّه قيلَ: فوقَعَ بعضُ ما توقَّعَ من المحذورِ وأُهْلِكَ أموالُه -وذلك على أحدِ القولينِ في التفسيرِ-؛ وإنَّما حُذِفَ لدَلالةِ السِّباقِ والسِّياقِ عليه[٣].

- وقوله: ﴿وَأُحِيطَ﴾، أي: أوقعتِ الإحاطةُ بالهلاكِ، وبُني للمفعولِ؛ لأنَّ الفِكرَ حاصلٌ بإحاطةِ الهلاكِ مِن غيرِ نَظرٍ إلى فاعِلٍ مخصوصٍ، وللدَّلالةِ على سُهولتِه[٤].

- قولُه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ خُصِّص الثمرُ بالذكرِ مع أنَّ الأصولَ والثمرَ قد أُهلِكا جميعًا؛ إذ الثمرُ مقصودُ المستغِلِّ، وإذ هلاكُ الأصولِ إنما يسوء منه هلاكُ الثمرِ الذي كان يُرجَى في المستقبَلِ، كذلك تقتضي الإحاطةُ المطلقةُ بالثمرِ أنَّ الأصولَ قد هلكَتْ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ١٨٨). ويُنظر: ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) لعلوي السقاف (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٦).

- وإنَّما لم تُعْطَفْ جُملةُ ﴿وَأُحِيطَ﴾ بفاءِ التَّفريعِ على رَجاءِ صاحبِه المُؤمنِ؛ إذ لم يَتعلَّقِ الغرضُ في هذا المقامِ بالإشارةِ إلى الرَّجلِ المُؤمنِ، وإنَّما المُهِمُّ التَّنبيهُ على أنَّ ذلك حادثٌ حَلَّ بالكافرِ بسَببِ كُفرِه وطُغيانِه؛ ليعلَمَ السَّامِعون أنَّ ذلك جزاءُ أمثالِه، وأنْ ليس بخُصوصيةٍ لدَعوةِ الرَّجلِ المُؤمنِ[(١)].

- قولُه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ...﴾ فيه تتميمٌ، حيثُ صَوَّرَ الإطاحةَ بالجنَّتينِ وبالثَّمرِ معًا، فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، ثمَّ وصَفَ حالتَه فقال: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾[(٢)].

- في قولِه: ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ تَقليبُ الكفَّينِ كِنايةٌ عن النَّدمِ والتَّحسُّرِ؛ لأنَّ النَّادِمَ يُقلِّبُ كفَّيْه ظهرًا لبطنٍ[(٣)].

- قولُه: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ لعلَّ تَخصيصَ النَّدمِ به دُونَ ما هلَكَ الآنَ من الجنَّةِ؛ لأنَّه إنَّما يكونُ على الأفعالِ الاختياريَّةِ، ولأنَّ ما أنفَقَ في عِمارتِها كان ممَّا يُمكِنُ صِيانتُه عن طوارقِ الحَدثانِ، وقد صرَفَه إلى مصالحِها؛ رجاءَ أنْ يتمتَّعَ بها أكثَرَ ممَّا يتمتَّعُ به، وكان يَرى أنَّه لا تَنالُها أيدي الرَّدى؛ ولذلك قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، فلمَّا ظهَرَ له أنَّها ممَّا يَعتريه الهلاكُ، ندِمَ على ما صنَعَ بِناءً على الزَّعمِ الفاسدِ، من إنفاقِ ما يُمكِنُ ادِّخارُه في مثْلِ هذا الشَّيءِ السَّريعِ الزَّوالِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦٠٤- ٦٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٣-٢٢٤).

- قولُه: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، أي: وهي خاليةٌ من الشَّجرِ والزَّرعِ، والعُروشُ: السُّقفُ. وهذا التَّركيبُ أرسَلَه القُرآنُ مثَلًا للخَرابِ التَّامِّ الَّذي هو سُقوطُ سُقوفِ البِناءِ وجُدرانِه[١]. وقيل: تَخصيصُ حالِ العُروشِ فقط بالذِّكرِ دُونَ النَّخلِ والزَّرعِ؛ لأنَّها العُمدةُ وهما من مُتَمِّماتِها، أو لأنَّ ذِكْرَ هلاكِها مُغْنٍ عن ذِكْرِ هلاكِ الباقي؛ لأنَّها حيثُ هلَكَت وهي مُشيَّدةٌ بعُروشِها؛ فهلاكُ ما عداها بالطَّريقِ الأَولى، وإمَّا لأنَّ الإنفاقَ في عِمارتِها أكثرُ[٢].

- قوله: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي﴾ جيءَ بالمُضارِعِ ﴿وَيَقُولُ﴾ -مع أنَّه حِكايةٌ لتندُّمِه على ما فرَطَ منه حين لا ينفَعُه النَّدمُ بعدَ حُلولِ العذابِ-؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ ذلك القولِ منه[٣].

- وحرْفُ النِّداءِ (يا) مُستعملٌ في التَّلهُّفِ. و(لَيْتَنِي) تمَنٍّ مُرادٌ به التَّندُّمُ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾

- قولُه: ﴿فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ﴾ لم يقُلْ: (تَنصُرُه) وإنَّما جُمِعَ الضَّميرُ في ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ باعتبارِ المعنى، كما في قولِه عَزَّ وعَلا: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ﴾[٥] [آل عمران: ١٣].

٣- قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبًا﴾

- قولُه: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبًا﴾ تَذييلٌ للجُملِ قبْلَها؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٤).

لِما في هذه الجُملةِ من العُمومِ الحاصلِ من قصْرِ الولايةِ على اللهِ تعالى المُقْتضي تَحقيقَ جُملةِ ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٢]، وجُملةِ ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٤٣]، وجُملةِ ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف: ٤٣]؛ لأنَّ الولايةَ من شأْنِها أنْ تبعَثَ على نصْرِ المَولى، وأنْ تُطمِّعَ المَولى في أنَّ وَلِيَّه ينصُرُه؛ ولذلك لمَّا رأى الكافرُ ما دهاهُ من جرَّاءِ كُفْرِه، الْتجأَ إلى أنْ يقولَ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٢]؛ إذ علِمَ أنَّ الآلهةَ الأُخرى لم تُغْنِ ولايتُهم عنه شيئًا[(١)].

- واسمُ إشارةِ المكانِ البَعيدِ ﴿هُنَالِكَ﴾ للإشارةِ إلى الحالِ العجيبةِ بتَشبيهِ الحالةِ بالمكانِ؛ لإحاطتِها بصاحبِها، وتَشبيهِ غَرابتِها بالبُعدِ؛ لنُدرةِ حُصولِها. والمعنى: أنَّ في مثْلِ تلك الحالةِ تُقْصَرُ الولايةُ على اللهِ؛ فالولايةُ: جِنسٌ مُعرَّفٌ بلامِ الجنسِ، يُفيدُ أنَّ هذا الجنسَ مُختصٌّ باللَّامِ على نحوِ ما قُرِّرَ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾[(٢)] [الفاتحة: ٢]. وقيل: أُشيرَ به لدارِ الآخرةِ، أي: في تلك الدَّارِ الولايةُ للهِ، كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٦]؛ لَمَّا نفى عنه الفِئةَ النَّاصرةَ في الدُّنيا، نَفى عنه أنْ يَنتصِرَ في الآخِرةِ، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ﴾، أي: في الدَّارِ الآخرةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٢).

الآيتان (٤٥-٤٦)

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَشِيمًا﴾: أي: يابِسًا مُتفَتِّتًا، وأصلُ (هشم): يدُلُّ على كسرِ الشَّيءِ[1].

﴿تَذۡرُوهُ﴾: أي: تَنسِفُه وتُفَرِّقُه، وأصلُ (ذرو): يدلُّ على الشَّيءِ يتساقَطُ مُتفَرِّقًا[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى نبيَّه أن يضربَ مثلًا عامًّا للدنيا في سرعةِ زوالِها وانقضائِها، فيقولُ: واضرِبْ -يا مُحمَّدُ- مثلًا للدُّنيا التي اغترُّوا بها، في بهجَتِها وسُرعةِ زَوالِها؛ فهي كَماءٍ أنزله اللهُ مِن السَّماءِ على الأرضِ، فكثُرَ بسببِ هذا المطرِ نباتُ الأرضِ والتفَّ واجتمَعَ بعضُه ببَعضٍ، فصار هذا النَّباتُ -بعد أن كان نَضِرًا مُبهِجًا- يابِسًا متكَسِّرًا تُفَرِّقُه الرِّياحُ، وكان اللهُ على كُلِّ شَيءٍ قديرًا.

ثم يبينُ الله تعالى أنَّ الأموالَ والأبناءَ في حقيقتِهما مجردُ زينةٍ، وأن الذي ينفعُ العبدَ في الآخرةِ هو العملُ الصالحُ، فيقول: الأموالُ والأولادُ زينةُ هذه الحياةِ الدُّنيا، والأعمالُ الصَّالحةُ الباقيةُ لصاحبِها في الآخرة أفضَلُ أجرًا، وهي خيرُ ما يؤمِّلُه الإنسانُ عندَ الله من زينةِ الحياةِ الدُّنيا الفانيةِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢).

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى في المَثَلِ السَّابِقِ حالَ الكافِرِ والمؤمِنِ، وما آل إليه ما افتخَرَ به الكافِرُ مِن الهلاكِ؛ بَيَّنَ في هذا المَثَلِ حالَ الحياةِ الدُّنيا واضمِحلالَها، ومصيرَ ما فيها من النَّعيمِ والترَفُّه إلى الهلاكِ[1]، فبعدَ أن ضرَب المثلَ لدُنيا هؤلاء الكافرينَ التي أبطَرتْهم، وكانت سببَ شقائِهم- ضرَب مثلًا لدارِ الدُّنيا عامةً[2].

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- لهم[3] ما يُشبِهُ الحياةَ الدُّنيا[4] في زَهرتِها وسُرعةِ تقَلُّبِها، وزوالِها وانقِضائِها؛ لِيَعرِفوا حقيقتَها، فصِفتُها كمَطَرٍ أنزَلْناه من السَّماءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٥/ ١٥٢).

(٣) قيل: المرادُ: المستكبرينَ الذين سألوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طرْدَ فقراءِ المؤمنين. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٢).

وقيل: المرادُ: الناسُ. وممن قال بذلك: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٨).

(٤) قال ابنُ عاشور: (الحياةُ الدُّنيا: تُطلَقُ على مدَّةِ بقاءِ الأنواعِ الحيَّةِ على الأرضِ، وبقاءِ الأرضِ على حالتِها؛ فإطلاقُ اسمِ الحياةِ الدنيا على تلك المدَّةِ؛ لأنَّها مُدَّةُ الحياة الناقصةِ غيرِ الأبديَّةِ؛ لأنَّها مُقَدَّرٌ زوالُها، فهي دنيا. وتطلَقُ الحياةُ الدنيا على مدَّةِ حياة الأفراد، أي: حياةِ كلِّ أحد... وهذا المثَلُ مُنطَبِقٌ على الحياةِ الدنيا بإطلاقَيها، فهما مرادانِ منه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٠-٣٣١).

على الأرضِ[١].

﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: فشبَّ نباتُ الأرضِ، وحَسُنَ استِواؤُه[٢]، وكثُرَ والتفَّ، واجتمَعَ بعضُه ببَعضٍ[٣]؛ بسبَبِ المطر[٤].

﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾.

أي: فأصبح النَّباتُ -بعد أن كان مُتَنوِّعًا نَضِرًا مُبهِجًا- يابسًا متفَتِّتًا، تحمِلُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦١).

(٣) وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحدي، وابنُ عطية، وابن عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٧).

قال ابن عاشور: (اختلاطُ النباتِ: وفرتُه والتفافُ بعضِه ببعضٍ مِن قوَّةِ الخصبِ والازدهارِ، والباءُ في قولِه: ﴿بِهِۦ﴾ باءُ السَّبَبِيَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣١).

وقيل: المعنى: اختلط وتداخَل النباتُ بذلك الماءِ. وممن اختاره: السمعاني، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٣). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣١)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٠٩).

وتكونُ الباءُ في قوله ﴿بِهِۦ﴾ -على ذلك القولِ- للمصاحبةِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧).

قال الماوردي: (﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ يحتَمِلُ وجهينِ: أحدُهما: أنَّ الماءَ اختلَط بالنَّباتِ حينَ استوَى. الثاني: أنَّ النباتَ اختلَط بعضُه ببعضٍ حينَ نزَل عليه الماءُ حتَّى نما). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٢، ٢٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣١).

الرِّياحُ وتُفَرِّقُه[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾.

أي: وكان اللهُ على فِعلِ كُلِّ شَيءٍ؛ من الإنشاءِ والإفناءِ، والإعادةِ وغير ذلك، قويًّا قادِرًا، لا يُعجِزُه شَيءٌ[٢].

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٢)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٧).

قال ابن القيم: (المراد: قِلَّةُ بقاء زَهرةِ الدُّنيا كقِلَّةِ بقاء هذا الخَضِر). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَقَّر تعالَى حالَ الدُّنيا بما ضَرَبه مِن ذلك المَثَلِ؛ ذَكَر أنَّ المال والبنينَ زينةُ هذه الحياةِ الدُّنيا المحقَّرَةِ، وأنَّ مصيرَ ذلك إنَّما هو إلى النَّفادِ، فينبَغي أنْ لا يُكْتَرَثَ به[١].

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: الأموالُ[٢] والأبناءُ[٣] يتجَمَّلُ بهما النَّاسُ في حياتِهم الدُّنيا ويتزيَّنونَ، وليسا مما ينفعُ في الآخرةِ؛ فهما مما يفنَى عن قريبٍ[٤].

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٦).

(٢) قال ابن عثيمين: (قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ﴾ مِن أيِّ نوعٍ، سواء كان مِن العُروضِ أو النقودِ أو الآدميينَ أو البهائمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٨).

(٣) قال ابن عرفة: (لفظُ البنينَ خاصٌّ بالذكور؛ ولذلك لم يقُل: المالُ والأولادُ؛ لدخول البناتِ في الأولادِ، وقد كانوا [يَقْتلونَهنَّ] ويَتشاءَمونَ بهنَّ، فكيف يكُنَّ زينةً؟!). ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٩١).

وقال ابنُ عثيمين: (ذَكَرَ البنينَ دونَ البناتِ؛ لأنَّه جرت العادةُ أنَّهم لا يفتَخِرونَ إلَّا بالبنينَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٨، ٧٩).

قال القرطبي: (إنَّما كان المالُ والبنون زينةَ الحياة الدنيا؛ لأنَّ في المال جمالًا ونفعًا، وفي البنينَ قُوَّةً ودَفعًا، فصارا زينةَ الحياة الدنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٣).

وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ١١].

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

أي: وأعمالُ الخيرِ الصَّالحةُ التي تبقَى لصاحِبِها في الآخرةِ الباقيةِ، ويبقَى نَفعُها وثوابُها؛ أفضَلُ جزاءً عندَ رَبِّكَ -يا مُحمَّدُ- من زينةِ الحياةِ الدُّنيا الفانيةِ، وهي أفضَلُ ما يُؤَمِّلُه الإنسانُ، ويرجو نَفعَه وعواقِبَه الحميدةَ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٣، ٢٨١)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦١- ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٢، ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٩).

قال الشنقيطي: (وأقوالُ العُلماءِ في الباقيات الصالحات كُلُّها راجعةٌ إلى شيءٍ واحدٍ، وهو الأعمالُ التي تُرضي الله، سواءٌ قلنا: إنَّها الصلواتُ الخمسُ، كما هو مرويٌّ عن جماعةٍ مِن السلَفِ: منهم ابنُ عباس، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وأبو ميسرةَ، وعمرو بنُ شرحبيل؛ أو أنَّها: سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلَّا الله، والله أكبرُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيمِ، وعلى هذا القولِ جمهورُ العلماء، وجاءت دالةً عليه أحاديثُ مرفوعةٌ عن أبي سعيدٍ الخُدري، وأبي الدرداء، وأبي هريرة، والنعمان بن بشير، وعائشة رضي الله عنهم.

قال مقيِّدُه [الشنقيطي] عفا الله عنه: التحقيقُ أن «الباقيات الصالحات» لفظٌ عامٌّ يشملُ الصلواتِ

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ لله، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، والله أكبَرُ؛ مِن الباقياتِ الصَّالِحاتِ))[1].

الخمسَ، والكلماتِ الخَمسَ المذكورةَ، وغيرَ ذلك من الأعمالِ التي تُرضي الله تعالى؛ لأنَّها باقيةٌ لصاحِبها غيرُ زائلةٍ ولا فانيةٍ، كزينةِ الحياةِ الدنيا، ولأنَّها أيضًا صالحةٌ لوقوعِها على الوجه الذي يُرضي الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٨١).

وذكَر الرسعني بعضَ الأقوالِ في معنى الباقياتِ الصالحاتِ، ثم قال: (هذا وأمثالُه ليس على سبيلِ الحَصرِ، وإنما هو لبيانِ جِنسِ المرادِ، بذِكرِ بعضِ أنواعِه). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٩٨).

قال السعدي: (الباقياتُ الصَّالحاتُ... يشملُ جميعَ الطاعاتِ الواجبةِ والمستحَبَّةِ مِن حقوق اللهِ، وحقوقِ عبادِه؛ مِن صلاةٍ، وزكاةٍ، وصدقةٍ، وحَجٍّ، وعمرةٍ، وتسبيحٍ، وتحميدٍ، وتهليلٍ، وتكبير، وقراءة، وطلَبِ علمٍ نافع، وأمرٍ بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيامٍ بحقِّ الزوجات والمماليك والبهائم؛ وجميعَ وجوهِ الإحسان إلى الخَلقِ. كلُّ هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خيرٌ عند الله ثوابًا وخيرٌ أملًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩).

وقال القرطبي: (﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: أفضَلُ. ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: أفضَلُ مِن ذي المال والبنينَ دونَ عَمَلٍ صالحٍ، وليس في زينةِ الدنيا خيرٌ، ولكِنَّه خرجَ مُخرَجَ قَولِه: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤]. وقيل: خيرٌ في التحقيقِ مِمَّا يظُنُّه الجُهَّالُ أنَّه خيرٌ في ظنِّهم). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٤).

قال الشوكاني: (﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: أفضلُ أملًا، يعني أنَّ هذه الأعمالَ الصَّالحةَ لأهلِها مِن الأملِ أفضلُ مِمَّا يُؤمِّلُه أهلُ المالِ والبنينَ لأنَّهم يَنالونَ بها في الآخرَةِ أفضلَ مِمَّا كان يُؤمِّلُه هؤُلاءِ الأغنياءُ في الدُّنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٤).

(١) أخرجه ابن جرير في ((التفسير)) (١٨/ ٣٤).

صحَّحه الألباني بشواهدِه في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٢٦٤).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ فأحوالُ الدُّنيا تظهَرُ أوَّلًا في غايةِ الحُسنِ والنَّضارة، ثم تتزايدُ قليلًا قليلًا، ثم تأخُذُ في الانحطاطِ إلى أن تنتهيَ إلى الهلاكِ والفَناءِ، ومِثلُ هذا الشيءِ ليس للعاقِلِ أن يبتهِجَ به[١]؛ فالدُّنيا سريعةُ الزوالِ، وشيكةُ الارتحالِ، مع كثرةِ الأنكادِ، ودوامِ الأكدارِ، مِن الكَدِّ والتَّعَب، والخَوفِ والنَّصَب، فهي جديرةٌ لذلك بالزُّهدِ فيها، والرغبةِ عنها، وألَّا يفتَخِرَ بها عاقِلٌ فَضلًا عن أن يكاثِرَ بها غيرَه[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ أخبر تعالى أنَّ المالَ والبنينَ زينةُ الحياةِ الدُّنيا، أي: ليس وراءَ ذلك شيءٌ، وأنَّ الذي يبقى للإنسانِ وينفَعُه ويَسُرُّه: الباقياتُ الصَّالحاتُ، وهذا يشمَلُ جميعَ الطَّاعاتِ الواجبةِ والمستحبَّةِ مِن حقوقِ الله، وحقوقِ عبادِه؛ فهذه خيرٌ عند الله ثوابًا وخيرٌ أملًا؛ فثوابُها يبقَى ويتضاعَفُ على الآباد، ويُؤمَّلُ أجرُها وبِرُّها ونَفعُها عند الحاجةِ، فهذه التي ينبغي أن يتنافَسَ فيها المتنافِسونَ، ويستبِقَ إليها العامِلون، ويجِدَّ في تحصيلِها المجتَهِدون، وتأمَّلْ كيف لَمَّا ضرب اللهُ مَثَلَ الدُّنيا وحالَها واضمحلالَها، ذكر أنَّ الذي فيها نوعان: نوعٌ مِن زينتها يُتمَتَّعُ به قليلًا ثم يزولُ بلا فائدةٍ تعود لصاحِبِه، بل ربَّما لَحِقتْه مَضرَّتُه وهو المالُ والبنونَ؛ ونوعٌ يبقَى وينفَعُ صاحِبَه على الدَّوامِ، وهي الباقياتُ الصَّالحاتُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٨-٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩).

٣- قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ المرادُ مِن الآيةِ الكريمةِ تنبيهُ النَّاسِ للعمَلِ الصَّالحِ؛ لئلَّا يشتَغِلوا بزينةِ الحياةِ الدُّنيا مِن المالِ والبنينَ عَمَّا ينفَعُهم في الآخرةِ عندَ الله من الأعمالِ الباقياتِ الصَّالحاتِ، وهذا المعنى الذي أشار له هنا جاء مُبيَّنًا في آياتٍ أُخَرَ، كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وقوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ الدالَّةِ على أنَّ الإنسانَ لا ينبغي له الاشتِغالُ بزينةِ الحياةِ الدُّنيا عمَّا ينفَعُه في آخِرتِه[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ كان أعظمَ حائلٍ بينَ المشركينَ وبينَ النظَرِ في أدلَّةِ الإسلام انهماكُهم في الإقبالِ على الحياةِ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٠).

الزائلةِ ونعيمِها، والغُرور الذي غرَّ طُغاةَ أهلِ الشِّركِ، وصرَفَهم عن إعمالِ عُقولِهم في فَهمِ أدلَّة التوحيدِ والبعثِ، كما قال تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ [المزمل: ١١]، وقال: ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [القَلَم: ١٤- ١٥]، وكانوا يحسَبونَ هذا العالَمَ غيرَ آيلٍ إلى الفَناءِ ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وما كان أحدُ الرجُلينِ اللذينِ تقدَّمت قصَّتُهما إلَّا واحدًا مِن المشركينَ؛ إذ قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ [الْكَهْف: ٣٦]، فأمر اللهُ رسولَه بأن يضرِبَ لهم مثَلَ الحياةِ الدنيا التي غرَّتْهم بهجتُها[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ إنَّما شبَّه تعالى الدُّنيا بالماءِ؛ لأنَّ الماءَ لا يستَقِرُّ في موضعٍ، كذلك الدُّنيا: لا تبقَى على واحدٍ، ولأنَّ الماءَ لا يستقيمُ على حالةٍ واحدةٍ، كذلك الدُّنيا، ولأنَّ الماءَ لا يبقَى، ويذهَبُ، كذلك الدُّنيا تفنَى، ولأنَّ الماءَ لا يَقدِرُ أحَدٌ أن يَدخُلَه ولا يبتَلَّ، كذلك الدنيا: لا يسلَمُ أحَدٌ دخلَها مِن فِتنَتِها وآفَتِها، ولأنَّ الماءَ إذا كان بقَدَرٍ كان نافِعًا مُنبِتًا، وإذا جاوز المقدارَ كان ضارًّا مُهلِكًا، وكذلك الدُّنيا: الكَفافُ منها ينفَعُ، وفُضولُها يضُرُّ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾

شُبِّهَت حالةُ الدُّنيا في نُضرتِها وبَهجتِها وما يَتعقَّبُها من الهلاكِ والفناءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٢).

وحالُ هذا العالَمِ بما فيه، بحالةِ الرَّوضةِ تَبْقَى زمانًا بَهِجةً خضِرةً، ثمَّ يصيرُ نبْتُها بعدَ حينٍ إلى اضمحلالٍ، ويَهيجُ فتُطيِّرُه الرِّياحُ كأنْ لم يَكُن. ووجْهُ الشَّبهِ: المصيرُ من حالٍ حسَنٍ إلى حالٍ سَيِّءٍ، وهذا تَشبيهُ معقولٍ بمحسوسٍ؛ لأنَّ الحالةَ المُشبَّهةَ معقولةٌ؛ إذ لم يَرَ النَّاسُ بوادرَ تقلُّصِ بهَجةِ الحياةِ. وأيضًا شُبِّهَت هيئةُ إقبالِ نَعيمِ الدُّنيا في الحياةِ مع الشَّبابِ والجِدَةِ، وزُخرفِ العيشِ لأهْلِه، ثمَّ تَقلُّصِ ذلك وزوالِ نفْعِه، ثمَّ انقراضِه أشتاتًا: بهيئةِ إقبالِ الغيثِ مُنبتِ الزَّرعِ، ونشأْتِه عنه ونَضارتِه ووفْرَتِه، ثمَّ أخْذِه في الانتقاصِ وانعدامِ التَّمتُّعِ به، ثمَّ تَطايُرِه أشتاتًا في الهواءِ؛ تَشبيهًا لمُركَّبٍ محسوسٍ بمُركَّبٍ مَحسوسٍ[(١)]. قيل: وهو تَشبيهٌ تَمثيليٌّ مقلوبٌ[(٢)]؛ أمَّا التَّشبيهُ التَّمثيليُّ فهو تَشبيهُ الحياةِ الدُّنيا وما فيها من زخارفَ تُعجِبُ المُتلهِّيَ برُؤيتِها والمُستمتِعَ بزينتِها، حتَّى إذا أفاق من عَمايتِه وجَدَ أنَّ ما كان يتلَّهى ويستمتِعُ به باطلٌ لا حقيقةٌ، شبَّهَ ذلك بالنَّباتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣١ - ٣٣٢).

(٢) التشبيه: هو إلحاقُ شيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: إثباتُ حُكمٍ للمُشبَّه من أحكام المُشبَّه به. وقد اتَّفق الأدباءُ على شَرفِه في أنواعِ البلاغة، وأنه إذا جاء في أعقابِ المعاني أفادَها كمالًا، وكساها حُلةً وجمالًا، وهو جارٍ في كلام العرب، بل هو أكثرُ كلامهم. وينقسمُ التشبيهُ عِدَّةَ تقسيماتٍ باعتبارات عِدَّة: فمنه: التشبيه المفرَد. ومنه: التشبيه المركَّب: هو الذي يكون وجهُ الشبه فيه مُنتزَعًا من متعدِّد، أو من أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتشبيهُ مركَّب من أحوال الحِمار. وخصَّ البيانيون لفظ «التمثيل» بالتشبيه المركَّب. وقد يكونُ التشبيه (تشبيهًا مقلوبًا) بجَعْلِ المُشبَّهِ به مُشبَّهًا، والمُشبَّهِ مُشبَّهًا به؛ لغَرَضِ المبالغةِ. ومنه: التشبيه البليغ: وهو ما كانت أداة التشبيه فيه محذوفة. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي، (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

الَّذي اختلَطَ به الماءُ الهاطِلُ من السَّماءَ فربَا والْتفَّ، وزهَا ورَفَّ، وأنبَتَ من كلِّ زوجٍ بَهيجٍ، ولم تكَدِ العينُ تَستمتِعُ به، والنَّفسُ تنشرِحُ بمَنظرِه، حتَّى يبِسَ وتصوَّحَ، ثمَّ جَفَّ وذبَلَ، ثمَّ أصبَحَ هشيمًا تَذروهُ الرِّياحُ، فكأنَّه ما كان. وأمَّا التَّشبيهُ المقلوبُ فقد كان من حَقِّ الكلامِ أنْ يقولَ: فاختَلطَ بنَباتِ الأرضِ -على أحدِ القولين في التفسيرِ-، ووجْهُه: أنَّه لمَّا كان كلٌّ من المُختلطينِ موصوفًا بصِفَةِ صاحبِه عُكِسَ؛ للمُبالَغةِ في كثرتِه[١].

- قوله: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ وصْفُها بـ(الدُّنيا) بمعنى القريبةِ، أي: الحاضرةِ غيرِ المُنتظَرةِ، كنَّى عن الحُضورِ بالقُربِ، والوصْفُ للاحترازِ عن الحياةِ الآخرةِ، وهي الحياةُ بعدَ الموتِ[٢].

- قولُه: ﴿ كَمَآءٍ ﴾ استئنافٌ لبَيانِ المثَلِ، أي: هي كماءٍ[٣].

- قولُه: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ الباءُ في قولِه: (به) قيل إنَّها: باءُ السَّببيَّةِ، أي: فالْتفَّ بسَببِه، وتكاثَف حتى خالَطَ بعضُه بعضًا من كثْرَتِه. وقيل: نَجَع في النباتِ الماءُ فاختَلَط به حتَّى روَى وبَرَق وتَلألأَ، وكان حقُّ اللَّفظِ على هذا التفسيرِ: فاختلط بنباتِ الأرضِ. وإيثارُ ما عليه النَّظمُ الكريمُ عليه؛ للمُبالَغةِ بالكثرةِ؛ فإنَّ كُلَّ مُختلطينِ موصوفٌ كلُّ واحدٍ منهما بصِفةِ صاحبِه[٤].

- وجُملةُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ في آخرِ الكلامِ.

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦١٨- ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٠-٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٥).

موقِعُها: التَّذكيرُ بقُدرةِ اللهِ تعالى على خلْقِ الأشياءِ وأضدادِها، وجعْلُ أوائلِها مُفضيةً إلى أواخرِها، وتَرتيبُه أسبابَ الفَناءِ على أسبابِ البقاءِ، وذلك اقتدارٌ عجيبٌ. وقد أُفيدَ ذلك على أكمَلِ وجْهٍ بالعُمومِ الَّذي في قولِه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وهو بذلك العُمومِ أشبَهَ التَّذييلَ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

- قولُه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ اعتراضٌ أُريدَ به الموعظةُ والعِبرةُ للمُؤمِنينَ، بأنَّ ما فيه المُشرِكون من النِّعمةِ من مالٍ وبنينَ ما هو إلَّا زينةُ الحياةِ الدُّنيا الَّتي علِمْتُم أنَّها إلى زوالٍ، كقولِه تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، وأنَّ ما أعَدَّ اللهُ للمُؤمِنين خيرٌ عندَ اللهِ وخيرٌ أملًا. والاغتباطُ بالمالِ والبنينَ عادةٌ معروفةٌ في العربِ[٢]؛ فقولُه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بيانٌ لشأنِ ما كانوا يَفتخِرون به من مُحسِّناتِ الحياةِ الدُّنيا، كما قال الرجلُ الكافرُ: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، إثْرَ بيانِ شأْنِ نفْسِها بما مَرَّ من المثَلِ[٣].

- وتَقديمُ المالِ هنا على البنينَ مع كونِهم أعَزَّ منه، كما في الآيةِ المحكيةِ آنفًا، وقولِه تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٦]، وغيرِ ذلك من الآياتِ الكريمةِ؛ لأنَّه أسبَقُ خُطورًا لأذهانِ النَّاسِ؛ لأنَّه يرغَبُ فيه الصَّغيرُ والكبيرُ، والشَّابُّ والشَّيخُ، ومَن له من الأولادِ ما قد كفاهُ[٤]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٣).

ولعَراقتِه فيما نِيطَ به مِن الزِّينةِ والإمدادِ وغيرِ ذلك، وعُمومِه بالنِّسبةِ إلى الأفرادِ والأوقاتِ؛ فإنَّه زينةٌ، وممدٌّ لكلِّ أحدٍ مِن الآباءِ والبنينَ في كلِّ وقتٍ وحينٍ، وأمَّا البنونَ فزينتُهم وإمدادُهم إنَّما يكونُ بالنِّسبةِ إلى مَن بلَغَ مبلغَ الأُبوَّةِ، ولأنَّ المالَ مناطٌ لبقاءِ النَّفسِ، والبنينَ لبقاءِ النَّوعِ، ولأنَّ الحاجةَ إليه أمسُّ مِن الحاجةِ إليهم، ولأنَّه أقدَمُ منهم في الوُجودِ، ولأنَّه زِينةٌ بدونِهم مِن غيرِ عكسٍ؛ فإنَّ مَن له بنونَ بلا مالٍ، فهو في ضِيقِ حالٍ ونَكالٍ[(١)]، فالولدُ بعدَ وجودِ المالِ نِعمةٌ ومسرَّةٌ، وعندَ الفقرِ وسُوءِ الحالِ هَمٌّ ومَضرَّة، فهذا مِن بابِ تقديمِ السَّببِ على المسبَّبِ؛ لأنَّ المالَ سببُ تمامِ النِّعمةِ بالولدِ، وأمَّا قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤]؛ فتقديمُ النِّساءِ على البَنينَ بالسببِ، وتَقدُّمُ الأموالِ على البنينِ بالرُّتبةِ[(٢)].

- وأُفْرِدت الزِّينةُ في قولِه: ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ معَ أنَّها مُسْنَدةٌ إلى الاثنينِ؛ لأنَّها مصدرٌ في الأصْلِ أُطلِقَ على المفعولِ مُبالغةً، كأنَّهما نفْسُ الزِّينةِ[(٣)]، وهذا يُسمَّى بفنِّ الجمْعِ؛ وهو أنْ يجمَعَ المُتكلِّمُ بين شيئينِ أو أكثرَ في حُكْمٍ واحدٍ، وهو واضحٌ في الآيةِ[(٤)].

- وفي قولِه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ إذ كان مُقْتضَى الظَّاهرِ في تَرتيبِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦٢٠).

الوصفينِ: أنْ يُقدَّمَ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ على ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ﴾؛ لأنَّهما وإنْ كانا وَصفَينِ لموصوفٍ محذوفٍ، إلَّا أنَّ أعرَفَهما في وَصفيَّةِ ذلك المحذوفِ هو الصَّالحاتُ؛ لأنَّه قد شاعَ أنْ يُقالَ: الأعمالُ الصَّالحاتُ، ولا يُقال: الأعمالُ الباقياتُ، ولأنَّ بقاءَها مُترتِّبٌ على صلاحِها، فلا جرَمَ أنَّ (الصَّالحاتِ) وصفٌ قام مَقامَ الموصوفِ، وأغنى عنه كثيرًا في الكلامِ، حتَّى صار لفظُ (الصَّالحات) بمنزلةِ الاسمِ الدَّالِّ على عمَلِ خيرٍ، وخُولِفَ مُقْتضى الظَّاهرِ هنا؛ فقُدِّمَ (الباقياتُ)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ ما ذُكِرَ قبْلَه إنَّما كان مفضولًا؛ لأنَّه ليس بباقٍ، وهو المالُ والبنونَ، كقولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، فكان هذا التَّقديمُ قاضيًا لحقِّ الإيجازِ؛ لإغنائِه عن كلامٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: (أنَّ ذلك زائلٌ)، أو: (ما هو بباقٍ)، والباقياتُ مِن الصَّالحاتِ خيرٌ منه، فكان قولُه: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥] مُفيدًا للزَّوالِ بطريقةِ التَّمثيلِ، وهو من دَلالةِ التَّضمُّنِ، وكان قولُه: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ﴾ مُفيدًا زوالَ غيرِها بطريقةِ الالتزامِ[1]، فحصَلَ دَلالتانِ غيرُ مُطابقتَينِ، وهما أوقَعُ في صِناعةِ البلاغةِ، وحصَلَ بثانيتِهما تأكيدٌ لمُفادِ الأُولى؛ فجاء كلامًا مُؤكَّدًا مُوجَزًا[2].

---

(١) الدَّلالة اللفظية الوضعية تنقسم ثلاثة أقسام: دلالة المطابقة، ودلالة التضمُّن، ودلالة الالتزام؛ فدلالة المطابقة: هي دلالة اللفظ على تمام مسماه، كدلالة الإنسان والأسد على حقيقتيهما. ودلالة التضمن: دلالة اللفظ على بعض مسماه، كدلالة البيت على السقف أو الحائط. ودلالة التزام: دلالةُ اللفظ على معنىً آخر خارجٍ عن معناه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٩- ٣٣٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٢٠٩-٢١٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن ابن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٣٠- ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٣).

- وإخراجُ بَقاءِ تلك الأعمالِ وصلاحِها مَخرجَ الصِّفاتِ المفروغِ عنها، مع أنَّ حقَّهما أنْ يكونَا مَقصودَيِ الإفادةِ، لا سيَّما في مُقابَلةِ إثباتِ الفَناءِ لِما يُقابِلُها من المالِ والبنينَ على طريقةِ قولِه تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦]؛ للإيذانِ بأنَّ بقاءَها أمرٌ مُحقَّقٌ لا حاجةَ إلى بَيانِه، بل لفظُ (الباقيات) اسمٌ له وصفٌ، ولذلك لم يُذْكَرِ الموصوفُ، وإنَّما الَّذي يحتاجُ إلى التَّعرُّضِ له خَيريَّتُها[١].

- قولُه: ﴿عِندَ رَبِّكَ ﴾، أي: في الآخرةِ، وهو بَيانٌ لِما يَظهَرُ فيه آثارُ خَيريَّتِها، بمنزلةِ إضافةِ الزِّينةِ إلى الحياةِ الدُّنيا، لا لأفضليَّتِها فيها من المالِ والبنينَ، مع مُشاركةِ الكلِّ في الأصلِ؛ إذ لا مُشاركةَ لهما في الخيريَّةِ في الآخرةِ[٢].

- قولُه: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ تكريرُ ﴿خَيْرٌ ﴾؛ للإشعارِ باختلافِ حيثيَّةِ الخيريَّةِ والمُبالَغةِ فيها[٣].

- ومعنى ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ أنَّ أمَلَ الآمِلِ في المالِ والبنينَ إنَّما يأمُلُ حُصولَ أمْرٍ مَشكوكٍ في حُصولِه، ومَقصورٍ على مُدَّتِه. وأمَّا الآمِلُ لثَوابِ الأعمالِ الصَّالحةِ، فهو يأمُلُ حُصولَ أمْرٍ موعودٍ به من صادقِ الوعدِ، ويأمُلُ شيئًا تحصُلُ منه منفعةُ الدُّنيا ومَنفعةُ الآخرةِ؛ فكان قولُه: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ بالتَّحقُّقِ والعُمومِ تَذييلًا لِما قبْلَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٤).

الآيات (٤٧-٤٩)

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَارِزَةً﴾: أي: بادِيةً ظاهِرةً ليس عليها جَبَلٌ ولا شجَرٌ ولا بِناءٌ، وأصلُ (برز): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبُدُوِّه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا بعضَ مشاهدِ يومِ القيامةِ وأهوالِها: واذكُرْ يومَ نُزيلُ الجِبالَ عن أماكِنِها، وترى الأرضَ ظاهِرةً ليس عليها شيءٌ يَستُرُها، وجمَعْنا العبادَ كُلَّهم لِمَوقِفِ الحسابِ، فلم نَترُكْ منهم أحدًا، وعُرِضوا جميعًا على ربِّك مُصطَفِّينَ لا يُحجَبُ منهم أحَدٌ، فيُقالُ لهم: لقد جِئتُم إلينا كما خلَقْناكم أوَّلَ مَرَّةٍ، فُرادى، حُفاةً، عُراةً، غيرَ مختونينَ، لا مالَ معكم ولا ولَدَ، ثمَّ يقالُ لمُنكِري البعثِ: بل ظَنَنْتُم أنْ لن نجعَلَ لكم مَوعِدًا نبعَثُكم فيه؛ لِمُجازاتِكم على أعمالِكم.

ووُضِعَ كِتابُ أعمالِ العباد، فتُبصِرُ المجرمينَ خائِفينَ مِمَّا فيه؛ بسبَبِ ما عَمِلوه من السيِّئاتِ، ويقولونَ حين يطَّلِعون عليه: يا ويلَنا! ما لهذا الكِتابِ لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٥).

يَترُكْ صغيرةً مِن أفعالِنا ولا كبيرةً إلَّا عدَّها وأثبَتَها؟! ووجَدوا كُلَّ ما عَمِلوه في الدُّنيا حاضِرًا مُثبَتًا، ولا يَظلِمُ رَبُّك أحدًا مِثقالَ ذَرَّةٍ؛ فلا يَنقُصُ أحدًا من حَسَناتِه، أو يزيدُ في سَيِّئاتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن بيَّنَ لهم تعَرُّضَ ما هم فيه من نعيمٍ إلى الزَّوالِ على وجهِ الموعظةِ؛ أعقَبَه بالتَّذكيرِ بما بعد ذلك الزَّوالِ، بتَصويرِ حالِ البَعثِ وما يترقَّبُهم فيه من العِقابِ على كُفرِهم به؛ وذلك مقابلةً لضِدِّه المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ﴾[1] [الكهف: ٤٦].

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾.

أي: واذكُرْ[2] يومَ نُزيلُ الجِبالَ عن أماكِنِها ونَنسِفُها، فتضمَحِلُّ وتتلاشَى[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٤).

(٢) قال ابن عطية: (التقديرُ: واذكُرْ يومَ، وهذا أفصَحُ ما يُتأوَّلُ في هذا هنا). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٠).

وقال ابن عثيمين: (أي: اذكُرْ للنَّاسِ هذه الحالَ، وهذا المشهدَ العظيمَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٥).

قال أبو السعود: (نَقلَعُها من أماكِنِها ونُسَيِّرُها في الجوِّ على هيئاتِها، كما ينبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أو نُسَيِّرُ أجزاءَها بعد أن نجعَلَها هباءً مُنبَثًّا. والمرادُ بتذكيرِه: تحذيرُ المُشرِكينَ مِمَّا فيه من الدَّواهي). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٥).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾.

أي: وترَى الأرضَ يومَ القيامةِ باديةً ظاهِرةً لأعيُنِ النَّاظِرينَ، ليس عليها شيءٌ يَستُرُها مِن جبَلٍ أو شجَرٍ أو بُنيانٍ، وليس فيها مَعلَمٌ لأحدٍ، ولا مكانٌ يُواري أحدًا[1].

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

أي: وجمَعْنا العِبادَ أوَّلَهم وآخِرَهم على تلك الأرضِ؛ للحِسابِ والجزاءِ،

وقال ابنُ عثيمين: (قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: ظاهِرةً؛ لأنَّها تكون قاعًا وصفصَفًا، وهي الآن ليست بارزةً لأنَّها مُكَوَّرةٌ، وأكثَرُها غيرُ بارزٍ، ثم إنَّ البارِزَ لنا أيضًا كثيرٌ منه مختفٍ بالجبالِ، فيومَ القيامةِ لا جبالَ ولا أرضَ كُرَويَّة، بل تُمَدُّ الأرضُ مَدَّ الأديمِ؛ قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ - ٣]). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٣).
قال أبو السعود: (الخطابُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو لكل أحدٍ ممَّن يتأتَّى منه الرُّؤيا). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٦).

فلم نَترُكْ منهم أحَدًا بلا بَعثٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣- ٩٥].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حَشرَ الخَلقِ، ذكَرَ كيفيَّةَ عَرضِهم[٢]، فقال تعالى:

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾.

أي: وعُرِضَ العِبادُ على ربِّك -يا مُحمَّدُ- مُصطَفِّينَ ظاهِرينَ، لا يخفَى منهم أحَدٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٨١-٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩).

قال ابن كثير: (يحتَمِل أن يكونَ المرادُ: أنَّ جميعَ الخلائِقِ يقومونَ بين يدي اللهِ صَفًّا واحدًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، ويحتَمِلُ أنَّهم يقومونَ صُفوفًا صفوفًا، كما قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٥).

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: فيُقالُ لهم: لقد جِئتُمونا -أيُّها النَّاسُ- بعد مَوتِكم أحياءً، كهَيئتِكم حينَ خَلَقْناكم أوَّلَ مَرَّةٍ: فُرادَى، حُفاةً، عُراةً، غيرَ مختونينَ، لا شيءَ معكم ممَّا كنتُم تتباهَوْن به في الدُّنيا من الأهلِ والأموالِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما قال: ((قام فينا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَخطُبُ، فقال: إنَّكم مَحشُورونَ حُفاةً عُراةً غُرلًا[2]: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]))[3].

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾.

أي: يُقالُ لِمُنكري البَعثِ[4]: بل اعتَقَدتُم خَطأً في الدُّنيا أنَّ اللهَ لن يبعَثَكم بعدَ مَوتِكم للحِسابِ والجزاءِ يومَ القيامةِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٥).

(٢) غُرلًا: جمعُ أغْرَل، وهو الذي لم يُختَنْ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٩٣).

(٣) رواه البخاري (٦٥٢٦) واللفظ له، ومسلم (٢٨٦٠).

(٤) قال الواحدي: (قَولُه تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ خِطابٌ لِمُنكري البعثِ خاصَّةً، ومعناه: بل زعمتُم في الدنيا أن لن تُبعَثوا؛ لأنَّ الله وعَدَهم البَعثَ فلم يصَدِّقوا، والمعنى: ﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ للبعثِ والجزاءِ، و﴿بَلْ﴾ هاهنا إيذانٌ بأنَّ القِصَّةَ الأولَى قد تمَّت، وبدأ في كلامٍ آخَرَ؛ وذلك أنَّ الآيةَ عامَّةٌ في المؤمنِ والكافرِ إلى قَولِه: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾، فلمَّا أخَذ في كلامٍ خاصٍّ لأحَدِ الفريقينِ أدخَلَ ﴿بَلْ﴾ ليؤذِنَ بتحقيقِ ما سبق، وتوكيدِ ما يأتي بعدَه). ((البسيط)) (١٤/ ٤١). ويُنظر ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي))

كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧].

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾.

أي: ووُضِعَت كُتُبُ أعمالِ العبادِ -التي كتَبَتْها الملائِكةُ- في أيديهم؛ فمنهم آخِذٌ كتابَه بيَمينِه، ومنهم آخِذٌ كِتابَه بشِمالِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا

(ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٨٣).

وقيل في قولِه: ﴿مَّوۡعِدٗا﴾: إنَّ الموعِدَ يشمَلُ زمانَ الوعدِ ومكانَه، والمعنى: أنَّهم زعَموا أنَّ الله لم يجعَلْ وَقتًا ولا مكانًا لإنجازِ ما وعدَهم على ألسنةِ رُسُلِه من البَعثِ والجزاءِ والحسابِ. وممن قال بذلك: البقاعي، والشنقيطي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٦).

وقيل: المرادُ به هنا: الزمنُ الموعودُ به؛ الحياةُ بعدَ الموتِ. وممن قال بذلك: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٨٤).

يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣- ١٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

وقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥].

﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾.

أي: فتَرى المُجرمِينَ[١] خائِفينَ مِمَّا في كُتُبِ أعمالِهم من السَّيِّئاتِ التي عَمِلوها في الدُّنيا، خوفًا عظيمًا مِن عقابِ اللهِ والفَضيحةِ بين خَلقِ الله[٢].

﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾.

أي: ويقولُ المُجرِمونَ إذا اطَّلَعوا على كُتُبِ أعمالِهم، فرَأَوا ما فيها من السَّيِّئاتِ: يا حَسرَتَنا وهلاكَنا! ما شأنُ هذا الكتابِ لا يَترُكُ صَغيرةً مِن ذُنوبِنا ولا كبيرةً منها إلَّا حَفِظَها وعَدَّها[٣]؟!

---

(١) قال ابنُ الجوزي: (قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قال مجاهدٌ: هم الكافِرونَ. وذكَرَ بعضُ أهل العلم أنَّ كُلَّ مجرمٍ ذُكِرَ في القرآن، فالمرادُ به: الكافرُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨٩).
وممن فسَّر ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بالمُشرِكينَ: ابنُ جرير، وابنُ أبي زمنين، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٥٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٨).
قال الشِّنقيطي: (قَولُ مَن قال: الصَّغيرةُ: القُبلةُ، والكبيرةُ: الزِّنا، ونحوُ ذلك من الأقوالِ في الآيةِ؛

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧ - ١٨].

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾.

أي: ووجَدوا كُلَّ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ مَكتوبًا مُثبَتًا في صُحُفِ أعمالِهم، فجُوزُوا به[1].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨].

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

أي: ولا يَظلِمُ رَبُّك -يا مُحمَّدُ- أحدًا مِن عبادِه، سواء مِن هؤلاء المُجرِمينَ أم مِن غَيرِهم؛ فلا يَنقُصُ أحدًا من حَسَناتِه، أو يزيدُ في سَيِّئاتِه، أو يُعاقِبُه بذنبٍ لم يفعَلْه، ونحو ذلك من الأفعالِ التي يُنزِّهُ عنها الرَّبُّ سُبحانه؛ لكَمالِ عَدلِه وغِناه

إنَّما هو على سبيلِ التَّمثيلِ لا على سبيلِ الحَصرِ. ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٣).

ورَحمتِه، وإنَّما يُجازي كلًّا بما يستَحِقُّه[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١].

وعن عبد اللهِ بنِ أُنَيسٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القيامةِ -أو قال: العِبادُ- عُراةً غُرْلًا بُهْمًا. قال: قُلْنا: وما بُهمًا؟ قال: ليس معهم شَيءٌ، ثُمَّ يناديهم بصَوتٍ يَسمَعُه مَن بَعُدَ كما يَسمَعُه مَن قَرُب: أنا المَلِكُ، أنا الدَّيَّانُ، ولا ينبغي لأحدٍ مِن أهلِ النَّارِ أن يَدخُلَ النَّارَ وله عندَ أحدٍ مِن أهلِ الجَنَّةِ حَقٌّ حتى أُقُصَّه منه، ولا ينبغي لأحدٍ مِن أهلِ الجنَّةِ أن يَدخُلَ الجنَّةَ ولأحدٍ مِن أهلِ النَّارِ عندَه حَقٌّ حتى أُقُصَّه منه، حتى اللَّطمةُ. قال: قُلْنا: كيف وإنَّا إنَّما نأتي اللهَ عَزَّ وجَلَّ عُراةً غُرلًا بُهمًا؟ قال: بالحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ))[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٤٢، ١٤٦)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٩).

(٢) أخرجه البُخاريُّ مُعَلَّقًا بصيغةِ التَّمريضِ قبل حديث (٧٤٨١) مختصرًا، وأخرجه موصولًا أحمد (١٦٠٤٢) واللَّفظ له.

حَسَّنَ إسنادَه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٣٠٣)، وقال الذهبي في ((العرش)) (٨٠): (محفوظٌ وله طُرق يُصَدِّقُ بعضُها بعضًا)، وحسَّنه ابن القيم في ((مختصر الصواعق

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾، فلا مالَ، ولا أهلَ، ولا عَشيرةَ، ما معهم إلَّا الأعمالُ التي عَمِلوها، والمكاسِبُ في الخيرِ والشَّرِّ التي كَسِبوها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾[(١)] [الأنعام: ٩٤].

٢- عن قَتادةَ في قَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ قال: (يَشتكي القَومُ - كما تَسمَعونَ - الإحصاءَ، ولم يَشتَكِ أحَدٌ ظُلمًا، فإيَّاكم والمُحَقَّراتِ مِن الذُّنوبِ؛ فإنَّها تجتَمِعُ على صاحبِها حتى تُهلِكَه)[(٢)].

٣- عن عَونِ بنِ عبدِ اللهِ في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾، قال: (ضجَّ -واللهِ- القَومُ مِن الصِّغارِ قبلَ الكِبارِ)[(٣)]!

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾، وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:

المرسلة)) (٤٨٩)، وحسَّنَ إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٥/ ٢٨٣)، ووثَّق رجاله الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٣٤٨)، وحسَّنه لغيره الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٦٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) لابن عبد البر (٢/ ٨٤).

٣٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]، كُلُّ ذلك يدُلُّ على أنَّ الله ليس في خَلقِه، ولا خَلْقُه فيه، سُبحانه وتعالى عمَّا يقولُ الظَّالِمونَ عُلُوًّا كبيرًا(١).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ليس المرادُ حصولَ المساواةِ مِن كلِّ الوجوهِ؛ لأنَّهم خُلِقوا صِغارًا ولا عقلَ لهم ولا تكليفَ عليهم، بل المرادُ أنَّه قال للمُشرِكين المُنكِرين للبَعثِ، المفتَخِرين في الدُّنيا على فُقراءِ المؤمنينَ بالأموالِ والأنصارِ: قد جئتُمونا كما خلَقْناكم أوَّلَ مرَّةٍ عراةً حُفاةً بغيرِ أموالٍ ولا أعوانٍ(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ يَدُلُّ على إثباتِ صَغائِرَ وكبائِرَ في الذُّنوبِ، وهذا مُتَّفَقٌ عليه بينَ المُسلِمينَ(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ فيه سؤالٌ: لماذا قال: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾ مع أنَّ الصَّغائِرَ تكَفَّرُ باجتنابِ الكبائِرِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]؟

الجوابُ: أنَّ الآيةَ الأولَى في حَقِّ الكافرينَ؛ بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، والثانيةُ في حقِّ المؤمنينَ؛ لأنَّ اجتنابَ الكبائِرِ لا يتحقَّقُ مع الكُفرِ.

---

(١) يُنظر: ((الإبانة عن أصول الديانة)) للأشعري (ص: ١١٦)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٤٧١).

أو يقال: إنَّ الأُولى في حقِّ المؤمنينَ أيضًا، لكِنْ يجوز أن تُكتَبَ الصَّغائِرُ لِيُشاهِدَها العبدُ يومَ القيامةِ، ثمَّ يُكَفَّر عنه، فيَعلَم قَدْرَ نِعمةِ العَفوِ عليه[١].

٥- القرآنُ مملوءٌ مِن الأخبارِ بأنَّ دُخولَ النَّارِ إنَّما يكونُ بالأعمالِ، كما في قولِه: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾، وقولِه تعالى: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] إلى غيرِ ذلك من النُّصوصِ[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ يُستفادُ مِن ذلك أنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ تَعُمُّ[٣].

٧- إنَّ نفيَ الظُّلمِ عنه سُبحانه في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ يتضَمَّنُ كمالَ عَدلِه[٤]، فهو سبحانَه حكمٌ عدلٌ لا يضعُ الأشياءَ إلا مواضعَها، ووضعُها غيرَ مواضعِها ليس ممتنعًا لذاتِه؛ بل هو ممكنٌ لكنَّه لا يفعلُه؛ لأنَّه لا يريدُه؛ بل يكرهُه ويبغضُه؛ إذ قد حرَّمه على نفسِه، فاستحقَّ الحمدَ والثناءَ؛ لأنَّه ترَك هذا الظلمَ وهو قادرٌ عليه، وكما أنَّ الله منزهٌ عن صفاتِ النقصِ والعيبِ، فهو أيضًا منزهٌ عن أفعالِ النقصِ والعيبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢).

(٤) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٢٣).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٤٥، ١٤٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥]؛ فلفظُ (يوم) منصوبٌ بفعْلٍ مُضمَرٍ، تَقديرُه: اذكُرْ. ويجوزُ أنْ يكونَ الظَّرفُ مُتعلِّقًا بمحذوفٍ غيرِ فعْلِ (اذكُرْ) يدُلُّ عليه مقامُ الوعيدِ، مثلُ: يَرَون أمرًا مُفظعًا أو عظيمًا، أو نحوُ ذلك ممَّا تذهَبُ إلى تَقديرِه نفْسُ السَّامعِ. ويُقدَّرُ المحذوفُ مُتأخِّرًا عن الظَّرفِ وما اتَّصَلَ به؛ لقَصدِ تَهويلِ اليومِ وما فيه[١].

- قولُه: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ فيه إيثارُ صِيغَةِ الماضي بعدَ ﴿نُسَيِّرُ﴾ ﴿وَتَرَى﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الحشرِ المُتفرِّعِ على البعثِ الَّذي يُنكِرُه المُنكِرون[٢]. وقيل: هو للدَّلالةِ على أنَّ حشْرَهم قبْلَ التَّسييرِ والبُروزِ؛ ليُعاينوا تلك الأهوالَ، كأنَّه قيلَ: وحشرْناهم قبْلَ ذلك[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾

- جُملةُ: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾، فهي في موضعِ الحالِ من الضَّميرِ المنصوبِ في ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾، أي: حشَرْناهم وقد عُرِضوا؛ تَنبيهًا على سُرعةِ عَرْضِهم في حينِ حشْرِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٦).

- قولُه: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ في الالْتِفات إلى الغَيبةِ في قوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾ دُونَ أَنْ يُقَالَ: (علينا)، وبِناءِ الفعلِ ﴿ وَعُرِضُواْ ﴾ للمفعولِ، مع التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، والإضافةِ إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: من تَربيةِ المَهابةِ، والجَريِ على سَننِ الكبرياءِ، وإظهارِ اللُّطْفِ به صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما لا يَخْفى[١]. وفيه كذلك تَنويهٌ بشأْنِ المُضافِ إليه، بأنَّ في هذا العرضِ وما فيه من التَّهديدِ نَصيبًا من الانتصارِ للمُخاطَبِ؛ إذ كذَّبوه حين أخبَرَهم وأنذَرَهم بالبعثِ[٢].

- قولُه: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾، أي: مُصْطفِّينَ. وقيل: المعنى صَفًّا صفًّا، فحُذِفَ (صَفًّا) وهو مُرادٌ، وهذا التَّكرارُ مُنبِئٌ عنِ استيفاءِ الصُّفوفِ إلى آخرِها[٣]، وانتصَبَ ﴿صَفًّا ﴾ على الحالِ من واوِ ﴿ وَعُرِضُواْ ﴾، وتلك الحالةُ إيذانٌ بأنَّهم أُحْضِروا بحالةِ الجُناةِ الَّذين لا يَخْفى منهم أحدٌ؛ إيقاعًا للرُّعبِ في قُلوبِهم[٤].

- وجُملةُ: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ مقولٌ لقولٍ مَحذوفٍ، دَلَّ عليه أنَّ الجُملةَ خِطابٌ للمَعروضينَ؛ فتعيَّنَ تَقديرُ القولِ، وهذه الجُملةُ في مَحلِّ الحالِ، والتَّقديرُ: قائلينَ لهم: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾[٥]. والخبرُ في قولِه: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ مُستعملٌ في التَّهديدِ والتَّغليظِ والتَّنديمِ على إنكارِهم البعثَ[٦] مع التقريعِ،

(١) يُنظر: يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٦).

والتوبيخِ لهم على رؤوسِ الأشهادِ[١].

- قولُه: ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ واقعٌ موقعَ المفعولِ المُطلَقِ المُفيدِ للمُشابهةِ، أي: جئْتُمونا مَجيئًا كخلْقِكم أوَّلَ مرَّةٍ؛ فالخلْقُ الثَّاني أشبَهَ الخلْقَ الأوَّلَ، أي: فهذا خلْقٌ ثانٍ. و(ما) مصدريَّةٌ، أي: كخلْقِنا إيَّاكم المرَّةَ الأُولى، والمقصودُ التَّعريضُ بخطَئِهم في إنكارِهم البعثَ[٢].

- قولُه: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ للإضرابِ بمعنى الانتقالِ من خبرٍ إلى خبرٍ، وليس بمعنى الإبطالِ[٣]، وهو انتقالٌ من التَّهديدِ، وما معه من التَّعريضِ بالتَّغليطِ، إلى التَّصريحِ بالتَّغليطِ في قالبِ الإنكارِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

- قولُه: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ اللَّامُ للجنْسِ، وهو صحُفُ الأعمالِ، أي: وُضِعَت كُتبُ أعمالِ البشرِ؛ لأنَّ لكلِّ أحدٍ كِتابًا، كما دلَّتْ عليه آياتٌ أُخرى؛ منها قولُه تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾[٥] [الإسراء: ١٣، ١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٧).

- قولُه: ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ جاء الفعْلُ بصِيغَةِ الماضي؛ لتَحقُّقِ وُقوعِه[١].

- وإفرادُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿مِمَّا فِيهِ ﴾؛ لمُراعاةِ إفرادِ لفْظِ (الكِتاب)[٢].

- قولُه: ﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، أي: قاطبةً، فيدخُلُ فيهم الكَفرةُ المُنكِرون للبعثِ دُخولًا أوَّليًّا[٣].

- في قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ عُبِّرَ بالمضارعِ (يَقُولُونَ)؛ لاستِحضارِ الحالةِ الفظيعةِ، أو لإفادةِ تَكرُّرِ قولِهم ذلك وإعادتِه، شأْنَ الفَزِعينَ الخائفينَ[٤].

- قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا ﴾ ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا ﴾ كِنايةٌ عن أنَّه لا نَديمَ لهم إذ ذاكَ إلَّا الهلاكُ[٥].

- والاستفهامُ في قولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ مُستعملٌ في التَّعجُّبِ[٦]؛ فـ (ما) اسمُ استفهامٍ، ومعناها: أيُّ شَيءٍ، و(لِهَذَا الْكِتَابِ) صِفَةٌ لـ (ما) الاستفهاميَّةِ؛ لِما فيها من التَّنكيرِ، أي: ما ثبَتَ لهذا الكتابِ. واللَّامُ للاختصاصِ مثْلُ قولِه: ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾[يوسف: ١١]. وجُملةُ ﴿لَا يُغَادِرُ ﴾ في موضعِ الحالِ، هي مَثارُ التَّعجُّبِ، وقد جَرى الاستعمالُ بمُلازمةِ الحالِ لنحوِ: (ما لكَ)، فيقولون: ما لك لا تفعَلُ؟ وما لك فاعلًا[٧]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٧-٣٣٨).

- قولُه: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾، أي: حَواها وضبَطَها، جُملةٌ حاليَّةٌ مُحقِّقةٌ لِما في الجُملةِ الاستفهاميَّةِ من التَّعجُّبِ. أو استئنافيَّةٌ مَبنيَّةٌ على سُؤالٍ نشَأَ من التَّعجُّبِ؛ كأنَّه قيل: ما شأْنُه حتَّى يُتَعَجَّبَ منه؟ فقيل: لا يُغادِرُ سيِّئةً صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أحصاها[1].

- قولُه: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ قُدِّم الصغيرةُ اهتمامًا بها؛ ليُنبِّهَ منها، ويدلَّ أنَّ الصغيرةَ إذا أُحصيتْ، فالكبيرةُ أحْرَى بذلك، والعربُ أبدًا تُقدِّمُ في الذِّكرِ الأقلَّ مِن كُلِّ مُقترنَينِ، نحو قولِهم: القَمران، والعُمران، سَمَّوْا باسمِ الأقلِّ؛ تَنبيهًا منهم؛ فقُدِّمَ ذِكْرُ الصَّغيرةِ؛ لأنَّها أهَمُّ من حيثُ يتعلَّقُ التَّعجُّبُ من إحصائِها، وعُطِفَت عليها الكبيرةُ؛ لإرادةِ التَّعميمِ في الإحصاءِ؛ لأنَّ التَّعميمَ أيضًا ممَّا يُثيرُ التَّعجُّبَ، فقد عَجِبوا من إحاطةِ كاتبِ الكتابِ بجميعِ الأعمالِ[2]. وقيل: تَقديمُ الصغائر على الكبائر؛ لأنَّهم لَمَّا هالَهم إثباتُ جميعِ الصغائرِ، بَدؤوا بها، وصرَّحوا بالكبائرِ -وإنْ كان إثباتُ الصغائرِ يُفهِمُها- تأكيدًا؛ لأنَّ المقامَ للتهويلِ وتَعظيمِ التفجُّعِ، وإشارةً إلى أنَّ الذي جرَّهم إلى الكبائِرِ هو الصغائرُ[3].

- قوله: ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ الاستثناءُ من عُمومِ أحوالِ الصَّغيرةِ والكبيرةِ، أي: لا يُبْقي صَغيرةً ولا كبيرةً في جميعِ أحوالِهما إلَّا في حالِ إحصائِه إيَّاها، أي: لا يُغادِرُه غيرَ مُحصًى، فالاستثناءُ هنا مِن تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه؛ لأنَّه إذا أحصاهُ فهو لم يُغادِرْه، فآلَ إلى معنى: أنَّه لا يُغادِرُ شيئًا، وانتفَتْ حقيقةُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٣).

الاستثناءِ[١].

- قولُه: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ فيه استعمالُ العامِّ في النَّفيِ، والخاصِّ في الإثباتِ؛ فإنَّ وُجودَ المُؤاخذةِ على الصَّغيرةِ يَلزَمُ منه وُجودُ المُؤاخذةِ على الكبيرةِ؛ فيَنْبغي أنْ يكونَ لا يُغادِرُ كبيرةً ولا صغيرةً؛ لأنَّه إذا لم يُغادِرْ صَغيرةً، فمِن الأَولى ألَّا يُغادِرَ كبيرةً، وأمَّا إذا لم يُغادِرْ كبيرةً، فإنَّه يجوزُ أنْ يُغادِرَ صغيرةً؛ لأنَّه إذا لم يَعْفُ عن الصَّغيرةِ، فيَنْبغي القياسُ أنَّه لا يَعْفو عن الكبيرةِ، وإذا لم يَعْفُ عن الكبيرةِ، فيجوزُ أنْ يعفُوَ عن الصَّغيرةِ[٢].

- وجُملةُ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾؛ لِما أفهمَتْه الصِّلةُ من أنَّهم لم يَجِدوا غيرَ ما عَمِلوا، أي: لم يُحْمَلْ عليهم شَيءٌ لم يَعْمَلوه؛ لأنَّ اللهَ لا يظلِمُ أحدًا، فيُؤاخِذُه بما لم يَقترِفْه، وقد حدَّدَ لهم من قبْلِ ذلك ما ليس لهم أنْ يَفْعلوه وما أُمِرُوا بفعْلِه، وتوعَّدَهم ووعَدَهم، فلم يكُنْ في مُؤاخذتِهم بما عَمِلوه من المَنهيَّاتِ بعدَ ذلك ظُلمٌ لهم. والمقصودُ: إفادةُ هذا الشَّأنِ من شُؤونِ اللهِ تعالى، فلذلك عُطِفَتِ الجُملةُ؛ لتَكونَ مقصودةً أصالةً، وهي مع ذلك مُفيدةٌ معنى التَّذييلِ؛ لِما فيها من الاستِدلالِ على مضمونِ الجُملةِ قبْلَها، ومن العُمومِ الشَّاملِ لمَضمونِ الجُملةِ قبْلَها وغيرِه؛ فكانت من هذا الوجْهِ صالحةً للفصْلِ بدُونِ عطْفٍ؛ لتكونَ تَذييلًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٩).

الآيتان (٥٠-٥١)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَضُدًا﴾: أي: أعوانًا وأنصارًا، وأصلُ (عضد): يدُلُّ على عُضوٍ مِن الأعضاءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبينًا عداوةَ إبليسَ لآدمَ، محذرًا مِن تولِّيه وذريتِه: واذكُرْ -يا مُحَمَّدُ- حينَ أمَرْنا الملائِكةَ بالسُّجودِ لآدَمَ سُجودَ تشريفٍ وتكريمٍ، فسجَدَ الملائكةُ جَميعًا إلَّا إبليسَ كان من الجِنِّ فخرج عن طاعةِ رَبِّه، ولم يَسجُدْ معهم كِبرًا وحَسَدًا. أفتجعَلونَه -يا بني آدَمَ- وذُرِّيَّتَه أولياءَ لكم تُطيعونَهم وتَتركونَ طاعتي، وهم لكم أعداءٌ يُضِلُّونكم؟! قَبُحَ اتخاذُ إبليسَ وليًّا مِن دونِ الرَّحمنِ بَدَلًا.

ثمَّ يذكرُ تعالى ما يدلُّ على كمالِ علمِه وقدرتِه، فيقولُ: ما أحضَرْتُ إبليسَ وذُرِّيَّتَه خَلْقَ السَّمواتِ والأرضِ فأستعينَ بهم على خَلْقِهما، ولا أشهَدْتُ بعضَهم خَلْقَ بَعضٍ، بل تفرَّدْتُ بخلقِ جميعِ ذلك بغيرِ مُعينٍ ولا ظهيرٍ، وما كنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ مِن الشَّياطينِ وغَيرِهم أعوانًا لي.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩).

أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المقصودَ مِن ذِكرِ الآياتِ المتقَدِّمةِ الرَّدُّ على القَومِ الذين افتَخَروا بأموالِهم وأعوانِهم على فُقَراءِ المُسلِمينَ، وهذه الآيةُ المقصودُ مِن ذِكرِها عَينُ هذا المعنى؛ وذلك لأنَّ إبليسَ إنما تكبَّرَ على آدمَ لأنَّه افتخر بأصلِه ونَسَبِه، وهؤلاء المُشرِكونَ عامَلوا فُقَراءَ المُسلِمينَ بعَينِ هذه المُعاملة؛ فاللهُ تعالى ذكَرَ هذه القِصَّةَ هاهنا تنبيهًا على أنَّ هذه الطَّريقةَ هي بعينِها طريقةُ إبليسَ، ثمَّ إنَّه تعالى حَذَّرَ عنها وعن الاقتداءِ بها في قَولِه تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ﴾[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ الله تعالى يومَ القيامةِ والحَشر، وذكَرَ خَوفَ المُشرِكينَ مِمَّا سُطِرَ في ذلك الكِتابِ، وكان إبليسُ هو الذي حمَلَ المُجرِمينَ على مَعاصيهم، واتِّخاذِ شُرَكاءَ مع الله؛ ناسب ذِكرُ إبليسَ والنَّهي عن اتِّخاذِ ذُرِّيتِه أولياءَ مِن دُونِ الله؛ تبعيدًا عن المعاصي، وعن امتِثالِ ما يُوسوِسُ به[2].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكر الله تعالى البَعثَ، وختَمَه بإحسانِه بالعَدلِ المثمِرِ لإعطاءِ كُلِّ أحدٍ ما يستحقُّه؛ أتبَعَه -بما له مِن الفَضلِ- بابتداءِ الخَلقِ الذي هو دليلُه، في سياقِ مذَكِّرٍ بوَلايتِه الموجِبةِ للإقبالِ عليه، وعداوةِ الشَّيطانِ الموجِبةِ للإدبارِ عنه؛ مُبَيِّنٍ لِما قابلوا به عَدْلَه فيهم وفي عدُوِّهم من الظُّلمِ بفِعلِهم، كما فعَلَ مِن التكَبُّرِ على آدَمَ عليه السلامُ بأصلِه، فتكَبَّروا على فُقَراءِ المؤمنينَ بأصلِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٧١).

لكن قال أبو حيان بعدَ أن ذكَر هذه المناسبةَ: (وهذا الذي ذكروه في الارتباطِ هو ظاهرٌ بالنسبةِ للآياتِ السابقةِ قبلَ ضربِ المثلينِ، وأمَّا أنَّه واضحٌ بالنسبةِ لما بعدَ المثلينِ فلا). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٩).

وأموالِهم وعشائِرِهم، فكان فِعلُهم فِعْلَه سواءً، فكان قدوتَهم وهو عدوُّهم، ولم يقتَدوا بخيرِ خَلْقِه وهو وليُّهم وهو أعرَفُ النَّاسِ به[١].

وأيضًا لمَّا بيَّنَ حالَ المغرورِ بالدُّنيا والمُعرِضِ عنها، وكان سبَبُ الاغترارِ بها حُبَّ الشَّهواتِ وتَسويلَ الشَّيطانِ؛ زهَّدَهم أوَّلًا في زخارفِ الدُّنيا بأنَّها عُرضةُ الزَّوالِ، والأعمالُ الصَّالحةُ خيرٌ وأبْقَى مِن أنْفَسِها وأعْلاها، ثمَّ نفَّرَهم عنِ الشَّيطانِ بتَذكيرِ ما بينهم مِن العداوةِ القديمةِ[٢].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حين قُلْنا للمَلائِكةِ: اسجُدوا لآدَمَ، فسجدَ الملائِكةُ كُلُّهم لآدمَ؛ امتثالًا لأمرِ اللهِ، سُجودَ تشريفٍ وتكريمٍ، إلَّا إبليسَ لم يَسجُدْ معهم؛ استكبارًا على اللهِ، وحَسَدًا لآدمَ[٣]!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٤-٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه مذَكِّرًا هؤلاء المُشرِكين حسَدَ إبليسَ أباهم، ومُعْلِمَهم ما كان منه مِن كِبْرِه واستكبارِه عليه حين أمَرَه بالسُّجودِ له، وأنَّه من العداوةِ والحسَدِ لهم على مِثلِ الذي كان عليه لأبيهم: ﴿وَ﴾ اذكُرْ -يا محمَّدُ- ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الذي يطيعُه هؤلاء المُشرِكون ويتَّبِعون أمْرَه ويخالِفونَ أمْرَ الله). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٥-٢٨٦).

لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١].

﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾.

أي: كان إبليسُ مِن صِنفِ الجِنِّ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩١).

قيل: لم يكُنْ إبليسُ مِن الملائكةِ، وممن رجَّح ذلك: الزجاجُ، وابنُ حزمٍ، والزمخشري، والبيضاوي، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطي، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (١/ ١١٤)، ((الفِصَل)) لابن حزم (٤/ ٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩١).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الحسنُ، وشهرُ بنُ حَوْشَب، وسعدُ بنُ مسعود، وابنُ زيدٍ، والزهري، وسعيدُ بنُ جبير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (١/ ٥٤).

قال ابنُ حزم: (ادَّعى قَومٌ أنَّ إبليسَ كان ملَكًا فعصى، وحاشا لله مِن هذا؛ لأنَّ الله تعالى قد كذَّب هذا القَولَ بقَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، وبقَولِه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف: ٥٠] ولا ذريَّةَ للملائكةِ، وبقَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وبإخباره أنَّه خلق إبليسَ مِن نارِ السَّمومِ، وصَحَّ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنه قال: «خُلِقت الملائكةُ مِن نورٍ»، والنورُ غيرُ النارِ بلا شَكٍّ؛ فصحَّ أنَّ الجِنَّ غيرُ الملائكة، والملائِكةُ كُلُّهم خِيارٌ مُكْرَمون بنصِّ القرآنِ، والجِنُّ والإنسُ فيهما مذمومٌ ومحمودٌ). ((الفِصَل)) (٤/ ٢٨).

وقيل: بل كان إبليسُ مِن الملائكةِ، وممن رجَّح ذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والسمعاني، والبغوي، واستظهره القرطبي، ونسبه البغوي والقرطبي إلى جمهورِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٤٢، ٥٤٣) و (١٥/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٦٧)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٩٤).

وممن قال من السلفِ: إنَّ إبليسَ كان مِن الملائكةِ: ابنُ مسعود في روايةٍ عنه، وابنُ عباسٍ،

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((خُلِقَت الملائكةُ مِن نُورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِن مارجٍ مِن نارٍ[(١)]، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لكم))[(٢)].

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

أي: فخرج عن طاعةِ رَبِّه، فلم يسجُدْ لآدَمَ كما أَمَرَه اللهُ[(٣)].

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾.

أي: أبعْدَ ما ظهَرَ من إبليسَ مِن الفِسقِ والاستكبارِ، فرفَضَ السُّجودَ لأبيكم

وسعيدُ بنُ المسيب، وقتادةُ، ومحمدُ بنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (١/ ٥٤).

قال محمدُ بنُ إسحاق فيما رواه عنه ابنُ جرير: (أمَّا قَولُه: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: كان من الملائكةِ، وذلك أنَّ الملائكةَ اجتنُّوا فلم يُرَوا، وقد قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨]، وذلك لِقَولِ قُريشٍ: إن الملائكةَ بناتُ الله... قال: فأبت العربُ في لغتِها إلَّا أن الجِنَّ كلُّ ما اجتَنَّ. يقول: ما سمَّى الله الجِنَّ إلا أنَّهم اجتَنُّوا فلم يُرَوا، وما سَمَّى بني آدم الإنسَ إلَّا أنَّهم ظهروا فلم يَجتنُّوا، فما ظهر فهو إنسٌ، وما اجتَنَّ فلم يُرَ فهو جِنٌّ). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٣٩).

(١) مارِجُ النَّارِ: لَهَبُها المُختَلِطُ بسوادِها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣١٥).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٠-٢٩١).

قال الشنقيطي: (وقولُه تعالَى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، أيْ: خَرَج عن طاعةِ أمرِ رَبِّه... وهذا المعنَى ظاهرٌ لا إشكالَ فيه، فلا حاجةَ لقولِ مَنْ قالَ: إنَّ «عَنْ» سَبَبِيَّةٌ، كقولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣]، أي: بسَبَبِه، وأنَّ المعنَى: ففَسَق عن أمرِ رَبِّه، أَيْ: بسببِ أمرِه حيثُ لم يمتثلْهُ، ولا غيرَ ذلك مِنَ الأقوالِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٩١).

-يا بني آدَمَ- وحَسَدَه، وأخرَجَه من الجنَّةِ، تتَّخِذونَه وذُرِّيَّتَه من الشياطينِ أولياءَ تُطيعونَهم وتُوالونَهم في خِلافِ مَرضاتي، والحالُ أنَّهم لكم أعداءٌ يُضِلُّونَكم، بدلًا مِن طاعتي، وأنا ربُّكم الذي أنعَمَ عليكم وأكرَمَكم[(١)]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

أي: بِئسَ البدلُ للظَّالِمينَ[(٢)] اتِّخاذُ إبليسَ وذُرِّيَّتِه أولياءَ مِن دونِ اللهِ، وهم لهم أعداءٌ، فتركوا وَلايةَ الذي أنعَمَ عليهم وعلى أبيهم آدَمَ مِن قَبلُ، والذي في وَلايتِه كُلُّ الخيرِ والسَّعادةِ والفلاحِ[(٣)].

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٢)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٢).

(٢) قال ابنُ عثيمين: (قولُه تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ يمكِنُ أن نقولَ: إنَّها بمعنى الكافرينَ؛ لأنَّهم هم الذين اتَّخذوا الشَّيطانَ وذُرِّيَّتَه أولياءَ على وجهِ الإطلاقِ، ويُمكِنُ أن نقولَ: إنَّها تعُمُّ الكافرينَ ومَن كان ظُلمُهم دونَ ظُلمِ الكُفرِ؛ فإنَّ لهم مِن وَلايةِ الشَّيطانِ بقَدرِ ما أعرَضوا به عن وَلايةِ الرَّحمنِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٣).

وممَّن فسَّر الظالِمينَ هنا بالكافرين: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٣).

وقال ابن عاشور: (الظالِمونُ: هم المُشرِكونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٢).

وقال الشنقيطي: (والبدلُ: العِوَضُ مِنَ الشَّيءِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٢).

عَضُدًا ﴿٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الشريكُ لا يستأثِرُ بفِعلِ أمرٍ عَظيمٍ في المُشتَرَكِ فيه مِن غيرِ عِلمٍ لشريكِه به؛ قال معلِّلًا للذمِّ على الظُّلمِ المذكورِ في الآيةِ السَّابقةِ بما يدُلُّ على حقارتِهم عن هذه الرُّتبة[1]:

﴿مَّآ أَشۡهَدۡتُهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ما أحضَرْتُ الشَّياطينَ خَلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ؛ لأستعينَ بهم على خَلقِها أو أشاوِرَهم في ذلك، بل لم يكونوا موجودينَ حينذاك؛ فأنا المستَقِلُّ بخَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، ومُدَبِّرُها وَحدي، ليس معي في ذلك شَريكٌ، ولا وزيرٌ، ولا مُشيرٌ[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾.

أي: ولا أشهَدْتُ بَعضَهم خَلْقَ بَعضٍ، بل تفَرَّدتُ بخَلقِهم بغيرِ مُعينٍ ولا ظهيرٍ، فكيف تَصرِفونَ لهم حَقِّي، وتتَّخِذونَهم أولياءَ مِن دوني، وأنا خالِقُ كُلِّ شَيءٍ[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٢، ٣٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((أضواء البيان))

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

أي: وما ينبغي ولا يليقُ أن أتَّخِذَ الذين يُضِلُّونَ الخلقَ عن طريقِ الحَقِّ أعوانًا لي في أيِّ شأنٍ مِن الشُّؤونِ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ فيه الحثُّ على اتِّخاذِ الشَّيطانِ عَدُوًّا، والإغراءُ بذلك، وذِكرُ السَّبَبِ المُوجِبِ لذلك، وأنَّه لا يتَّخِذُ الشيطانَ وليًّا إلا ظالمٌ، وأيُّ ظُلمٍ أعظَمُ مِن ظُلمِ مَن اتَّخذ عَدُوَّه الحقيقيَّ وليًّا، وتَرَكَ الوليَّ الحميدَ(٢)؟!

٢- قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ تأمَّلْ ما تحتَ هذا الخِطابِ الذي يَسلُبُ الأرواحَ حَلاوةً وعِقابًا، وجلالةً وتَهديدًا! كيف صَدَّره بإخبارِنا أنَّه أمَرَ إبليسَ بالسُّجودِ لأبينا، فأبى ذلك فطرَدَه ولعَنَه وعاداه؛ مِن أجلِ إبائِه عن السُّجودِ لأبينا، ثمَّ أنتم توالونَه مِن دوني وقد لعَنْتُه وطرَدْتُه؛ إذ لم يسجُدْ لأبيكم، وجعلتُه عدوًّا لكم ولأبيكم، فواليتُموه وتَرَكتُموني(٣)!! ويُشبِهُ

للشنقيطي (٣/ ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٣، ٣٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٥).
قال ابن عاشور: (المعنى: لا يليقُ بالكَمالِ الإلهيِّ أن أتَّخِذَ أهلَ الإضلالِ أعوانًا، فأشرَكَهم في تصرُّفي في الإنشاءِ؛ فإنَّ اللهَ مُفيضُ الهدايةِ، وواهبُ الدرايةِ، فكيف يكونُ أعوانُه مصادِرَ الضلالةِ، أي: لا يُعينُ المعين إلَّا على عمَلِ أمثالِه، ولا يكونُ إلَّا قرينًا لأشكالِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٣).

أنْ يكونَ تحت هذا الخطابِ نوعٌ مِن العتابِ لَطيفٌ عَجيبٌ، وهو: أنِّي عاديتُ إبليسَ؛ إذ لم يسجدْ لأبيكم آدمَ مع ملائِكتي، فكانت معاداتُه لأجلِكم، ثمَّ كان عاقبةُ هذه المعاداةِ أنْ عقَدْتُم بينكم وبينه عَقْدَ المُصالحةِ[١]!! فليتأملِ اللبيبُ مواقعَ هذا الخطابِ، وشدةَ لصوقِه بالقلوبِ، والتباسه بالأرواحِ، وأكثرُ القرآنِ جاء على هذا النمطِ مِن خطابِه لعبادِه بالتوددِ والتحننِ واللطفِ والنصيحةِ البالغةِ[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ التَّنبيهُ على أنَّ الضَّالِّينَ المُضِلِّينَ لا تنبغي الاستعانةُ بهم[٣]، ولا ينبغي الاعتمادُ على السُّفَهاءِ، ولا أهلِ الأهواءِ المُنحَرفةِ؛ لأنَّهم لا خيرَ فيهم، فإذا كان اللهُ لم يتخذِ المضلِّين عَضُدًا، فنحن كذلك لا يَليقُ بنا أنْ نتَّخِذَ المضلِّينَ عَضُدًا، وفي هذا: النهيُ عن بطانةِ السُّوءِ، وعن مُرافقةِ أهلِ السُّوءِ، وأنْ يَحذرَ الإنسانُ مِن جُلَساءِ السوءِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ بيَّن في سورةِ (الحِجر) وسورة (ص) أنَّ أصلَ الأمرِ بالسُّجودِ متقدِّمٌ على خَلقِ آدَمَ مُعلَّقٌ عليه؛ قال في (الحِجر): ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩]،

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٤).

وقال في (ص): ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢]، ولا ينافي هذا أنَّه بعد وجودِ آدَمَ جَدَّد لهم الأمرَ بالسُّجودِ له؛ تنجيزًا[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ الأصلُ أنَّ سُجودَ الملائِكةِ لآدَمَ كان على الجَبهةِ، وإذا وقع ذلك امتِثالًا لأمرِ اللهِ كان طاعةً مِن الطَّاعاتِ، ولم يكُنْ شِرْكًا؛ فالسُّجودُ لآدَمَ لولا أمْرُ الله لكان شِرْكًا، لكِنْ لَمَّا كان بأمرِ الله كان طاعةً لله، كما أن قَتْلَ النفسِ بغيرِ حَقٍّ مِن كبائرِ الذُّنوبِ، لكِنْ لَمَّا أُمِرَ إبراهيمُ الخَليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بذَبحِ ابنِه فامتَثَل أمْرَ اللهِ، وشَرَع في تنفيذِ الذَّبحِ؛ صار طاعةً[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ استدلَّ به الجمهورُ على أنَّ إبليسَ لم يكُنْ مِن الملائِكةِ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: خانه أصلُه؛ فإنَّه خُلِقَ مِن مارجٍ مِن نارٍ، وأصلُ خَلقِ الملائكةِ مِن نورٍ، فعند الحاجةِ نضَحَ كُلٌّ وعاءٍ بما فيه، وخانه الطَّبعُ عند الحاجة؛ وذلك أنَّه كان قد توسَّم بأفعالِ الملائكةِ وتشَبَّه بهم، وتعَبَّد وتنَسَّك؛ فلهذا دخَلَ في خطابِهم، وعصى بالمُخالفةِ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٨٨-٨٩).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧١).

وتقدَّم ذكرُ الخلافِ في ذلك (ص: ٢٦٩، ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٧).

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ المَلَك لا يَعصي البتَّةَ، وإنَّما عصى إبليسُ؛ لأنَّه كان جنيًّا في أصلِه(١).

٦- الفِسقُ قد يكون ناقِلًا عن المِلَّةِ، كما قال في حَقِّ إبليسَ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، وقال ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]. وقد لا يكونُ الفِسقُ ناقِلًا عن المِلَّةِ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾(٢) [البقرة: ٢٨٢].

٧- قول الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّ الشَّيطانَ وذُرِّيَّته ليسوا أولياءَ، بل أعداءٌ؛ لأنَّ الأولياءَ هم الأصدقاءُ؟

الجوابُ: المرادُ بالوَلايةِ هنا اتِّباعُ النَّاسِ لهم فيما يأمُرونَهم به من المعاصي(٣).

٨- استَدَلَّ مَن قال بأنَّ الجِنَّ يَتناكَحونَ بقَولِه تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾، وكذلك قولُه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]، والدَّلالةُ مِن ذلك ظاهرةٌ(٤).

٩- قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ قولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ دليلٌ على أنَّ للشيطانِ ذريةً(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٤٥).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٢).

وقال الشنقيطي: (ولكنْ طريقةُ وجودِ نسلِه هل هي عن تزويجٍ أو غيرِه، لا دليلَ عليها مِنْ نصٍّ

١٠- قولهُ تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ قال: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنَّهم اعْتاضوا من الحقِّ بالباطلِ، وجَعَلوا مكانَ ولايتِهم إبليسَ وذُرِّيَّتَه، وهذا نفْسُ الظُّلمِ؛ لأنَّه وضْعُ الشَّيءِ في غيرِ موضِعِه[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ دليلٌ على أنَّ كلَّ مَن تكلَّمَ في شيءٍ مِن أمْرِ السَّمواتِ والأرضِ بدونِ دَليلٍ شَرعيٍّ أو حِسِّيٍّ، فإنَّه لا يُقبلُ قَولُه، ويقالُ له: إنَّ الله ما أشهَدَك خلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ، ولن نقبَلَ منك أيَّ شيءٍ مِن هذا إلَّا إذا وجَدْنا دليلًا حِسِّيًّا لا مَناصَ لنا منه، حينَئذٍ نأخذُ به؛ لأنَّ القرآنَ لا يُعارِضُ الأشياءَ المحسوسةَ[٢]. وفيه أيضًا الرَّدُّ على الكُهَّانِ والمُنجِّمينَ وغَيرِهم ممَّن يخوضُ في هذه الأشياءِ[٣].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾

- تكرَّرَتْ هذه القِصَّةُ في مواضعَ كثيرةٍ من القُرآنِ، وهي في كلِّ موضعٍ تَشتمِلُ على شَيءٍ لم تَشتمِلْ عليه في الآخَرِ، ولها في كلِّ موضعٍ ذُكِرَت فيه عِبرةٌ تُخالِفُ عِبرةَ غيرِه؛ فذِكْرُها في سُورةِ البقرةِ -مثلًا- إعلامٌ بمبادئِ الأُمورِ، وذِكْرُها هنا تَنظيرٌ للحالِ، وتَوطئةٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ[٤].

صريحٍ، والعلماءُ مختلِفونَ فيها). ((المصدر السابق)).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٠).

- قولُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾، بتَقديرِ: واذكُرْ إذْ قُلْنا للملائكةِ؛ تَفنُّنًا لغرَضِ الموعظةِ الَّذي سِيقَتْ له هذه الجُملُ، وهو التَّذكيرُ بعَواقبِ اتِّباعِ الهوى والإعراضِ عن الصَّالحاتِ، وبمَداحضِ الكبرياءِ والعُجْبِ، واحتقارِ الفضيلةِ، والابتهاجِ بالأعراضِ الَّتي لا تُكسِبُ أصحابَها كمالًا نَفسيًّا. وكما وُعِظُوا بآخرِ أيَّامِ الدُّنيا، ذُكِّروا هنا بالموعظةِ بأوَّلِ أيَّامِها، وهو يومُ خلْقِ آدمَ، وهذا أيضًا تَمهيدٌ وتَوطئةٌ لقولِه: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ...﴾ الآيةَ؛ فإنَّ الإشراكَ كان من غُرورِ الشَّيطانِ ببَني آدمَ[1].

- قولُه: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ كلامٌ مُستأنفٌ جارٍ مَجْرى التَّعليلِ بعدَ استثناءِ إبليسَ من السَّاجدينَ، كأنَّ قائلًا قال: ما له لَمْ يسجُدْ؟ فقيلَ: كان من الجِنِّ، ففسَقَ عن أمْرِ ربِّه، والفاءُ للتَّسبيبِ أيضًا؛ جُعِلَ كونُه من الجنِّ سَببًا في فسْقِه[2].

- وفي قولِه: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ عُدولٌ إلى التَّعريفِ بطريقِ الإضافةِ دُونَ الضَّميرِ؛ لتَفظيعِ فِسْقِ الشَّيطانِ عن أمْرِ اللهِ بأنَّه فِسْقُ عبْدٍ عن أمرِ مَن تجِبُ عليه طاعتُه؛ لأنَّه مالكُه[3].

- قولُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ فُرِّعَ على التَّذكيرِ بفِسْقِ الشَّيطانِ، وعلى تعاظُمِه على أصْلِ النَّوعِ الإنسانيِّ: إنكارُ اتِّخاذِه واتِّخاذِ جُندِه أولياءَ؛ لأنَّ تكبُّرَه على آدمَ يَقْتضي عداوتَه للنَّوعِ، ولأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤١).

عِصيانَه أمْرَ مالِكه يَقْتضي أنَّه لا يُرْجى منه خيرٌ، وليس أهلًا لأنْ يُتَّبَعَ[١].

- والهمزةُ في ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ للتَّوبيخِ والإنكارِ والتَّعجُّبِ، أي: أبعْدَ ما ظهَرَ منه مِن الفسْقِ والعِصيانِ تتَّخِذونه وذُرِّيَّتَه أولياءَ من دُوني، مع ثُبوتِ عَداوتِه لكم تتَّخِذونه وليًّا[٢]؟!

- قولُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ و(مِن) صِلةٌ للتَّوكيدِ، أي: تتَّخِذونهم أولياءَ مُباعِدين لي، وذلك هو إشراكُهم في العِبادةِ[٣].

- في قولِه: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ قُيِّدَ الاتِّخاذُ بالجُملةِ الحاليَّةِ لتأكيدِ الإنكارِ وتَشديدِه؛ فإنَّ مَضمونَها مانعٌ من وُقوعِ الاتِّخاذِ، ومُنافٍ له قطْعًا[٤].

- وجُملةُ: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ مُستأنفةٌ لإنشاءِ ذَمِّ إبليسَ وذُرِّيَّتِه باعتبارِ اتِّخاذِ المُشرِكين إيَّاهم أولياءَ، أي: بئْسَ البدلُ للمُشرِكين الشَّيطانُ وذُرِّيَّتُه، فقولُه: ﴿بَدَلًا﴾ تَمييزٌ مُفسِّرٌ لاسمِ (بئس) المحذوفِ؛ لقصْدِ الاستغناءِ عنه بالتَّمييزِ، على طريقةِ الإجمالِ ثُمَّ التَّفصيلِ[٥].

- في قولِه: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ الْتِفاتٌ إلى الغَيبةِ، وفي هذا الالتفاتِ، مع وضْعِ (الظَّالمينَ) موضعَ الضَّميرِ: مِن الإيذانِ بكَمالِ السُّخطِ، والإشارةِ إلى أنَّ ما فَعَلوه ظُلمٌ قَبيحٌ ما لا يَخْفى[٦]؛ فأبرَزَ اللهُ تعالى الضميرَ في قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٢).

﴿لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾، وكان الأصلُ: (لكم)؛ لتعليقِ الفِعلِ بالوصفِ والتعميم؛ إذ استبدلُوا مَن ليس لهم شيءٌ من الأمرِ -وهم لهم عدوٌّ- بمَن له الأمرُ كلُّه -وهو لهم وليٌّ[(١)].

٢- قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾

- قولُه: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ عدَمِ استحقاقِهم للاتِّخاذِ المذكورِ في أنفُسِهم، بعدَ بَيانِ الصَّوارفِ عن ذلك؛ من خَباثةِ الطبع، والفِسقِ والعداوةِ، أي: ما أحضرْتُ إبليسَ وذُرِّيَّتَه[(٢)].

- وهذه الجُملةُ تَتنزَّلُ مَنزلةَ التَّعليلِ للجُملتينِ اللَّتينِ قبْلَها، وهما: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ إلى قولِه: ﴿بَدَلًا﴾؛ فإنَّهم لمَّا لم يَشْهَدوا خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ، لم يَكونوا شُركاءَ للهِ في الخلْقِ بطريقِ الأَولى، فلم يَكونوا أحِقَّاءَ بأنْ يُعْبَدوا. وهذا احتجاجٌ على المُشرِكين بما يَعترِفون به؛ فإنَّهم يَعترِفون بأنَّ اللهَ هو المُتفرِّدُ بخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وخلْقِ الموجوداتِ. والإشهادُ هنا كِنايةٌ عن إحضارٍ خاصٍّ، وهو إحضارُ المُشارَكةِ في العمَلِ أو الإعانةِ عليه. ونفيُ هذا الشُّهودِ يَستلزِمُ نفْيَ المُشارَكةِ في الخلْقِ والإلهيَّةِ بالأَولى؛ فإنَّ خلْقَ السَّمواتِ كان قبْلَ وُجودِ إبليسَ وذُرِّيَّتِه، فهو استدلالٌ على انتفاءِ إلهيَّتِهم بسَبْقِ العدَمِ على وُجودِهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٢).

- قولُه: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ فيه إيثارُ نفْيِ الإشهادِ على نفْيِ شُهودِهم، ونفْيِ اتِّخاذِهم أعوانًا على نفْيِ كونِهم كذلك؛ للإشعارِ بأنَّهم مَقْهورون تحتَ قُدرتِه تعالى، تابِعون لمَشيئتِه وإرادتِه فيهم، وأنَّهم بمَعزلٍ من استحقاقِ الشُّهودِ والمعونةِ من تِلْقاءِ أنفُسِهم من غيرِ إحضارٍ واتِّخاذٍ، وإنَّما قُصارى ما يُتوهَّمُ في شأْنِهم: أنْ يَبْلغوا ذلك المبلغَ بأمْرِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ولم يَكَدْ ذلك يكونُ[(١)].

- وقولُه: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، حيث لم يقُلْ: (وما كنْتُ مُتَّخِذَهم)؛ لإفادةِ الذَّمِّ، والتنبيه بذلك على وَصْفِهم القَبيحِ، وتأكيدًا لِما سبَقَ من إنكارِ اتِّخاذِهم أولياءَ[(٢)]، ولأنَّ التَّذييلَ يَنْبغي أنْ يكونَ كلامًا مُستقِلًّا[(٣)]، وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه أبرَزَ الضَّميرَ إرشادًا إلى أنَّ المُضِلَّ لا يُستَعانُ به؛ لأنَّه مع عدَمِ نَفعِه يَضُرُّ[(٤)].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ تَهكُّمٌ بهم، وإيذانٌ بكَمالِ رَكاكةِ عُقولِهم وسَخافةِ آرائِهم؛ حيث لا يَفْهمون هذا الأمْرَ الجَلِيَّ الَّذي لا يكادُ يَشتبِهُ على البُلْهِ والصِّبيانِ، فيَحْتاجون إلى التَّصريحِ به[(٥)].

- وكذلك في قولِه: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ تَشبيهٌ بليغٌ؛ فقدْ شَبَّهَ المُضلِّينَ بالعضُدِ الَّذي يَتقوَّى به الإنسانُ، وأصْلُه العُضْوُ الَّذي هو المِرْفَقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٨).

إلى الكتِفِ، ولم يَذكُرِ الأداةَ[١]، والله سُبحانَه وتعالَى لا يَحتاجُ إلى عونِ أحدٍ. وخَصَّ المضلِّين بالذِّكرِ؛ لزِيادةِ الذمِّ والتوبيخِ[٢].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢).

الآيات (٥٢-٥٦)

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّوْبِقًا﴾: مَهلِكًا وحاجِزًا، وأصلُ (وبق): يدُلُّ على هَلاكٍ، وحَيلولةٍ بينَ شَيئَينِ[(١)].

﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: طَريقتُنا في إهلاكِهم، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَريانِ الشَّيءِ، واطرادِه في سُهولةٍ[(٢)].

﴿قُبُلًا﴾: أي: عِيانًا ومُواجَهةً، وأصلُ (قبل): يدلُّ على مُواجَهةِ شَيءٍ لشَيءٍ[(٣)].

﴿لِيُدْحِضُوا۟﴾: أي: لِيُبطِلوا ويُزيلوا، وأصلُ (دحض): يدلُّ على زَوالِ شيءٍ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١).

عن مَقامِه[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالَى مشهدًا مِن مشاهدِ القيامةِ، يكشفُ عن حالِ المشركينَ معَ شركائِهم، فيقولُ: واذكُرْ يومَ يقولُ اللهُ للمُشرِكينَ يومَ القيامةِ: نادُوا آلهَتَكم الذين كُنتُم تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لي في العبادةِ؛ لِيَنصروكم اليومَ مني، فاستغاثوا بهم فلم يُغيثوهم، وجعَلْنا بين المُشرِكينَ وآلهَتِهم حائلًا مُهلِكًا في جَهنَّمَ.

ثمَّ يُبيِّنُ حالةَ المجرمينَ عندَما يبصِرونَ النارَ، فيقولُ: ورأى المُجرِمونَ النَّارَ فأيقَنوا أنَّهم واقِعونَ فيها، ولم يَجِدوا عنها مكانًا يَنصَرِفونَ إليه.

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن عظمةِ القرآنِ، فيقولُ: ولقد وضَّحْنا ونوَّعْنا في هذا القُرآنِ للنَّاسِ أمثالًا كثيرةً؛ ليتذَكَّروا ويتَّعِظوا بها. وكان الإنسانُ أكثَرَ المخلوقاتِ مُجادَلةً ومُخاصَمةً.

ثمَّ يحكي الله تعالى الأسبابَ التي منَعتْ بعضَ الناسِ مِن الإيمانِ، فيقول: وما منعَ النَّاسَ مِن الإيمانِ بالحقِّ -حين جاءَهم- واستغفارِ رَبِّهم، إلَّا ما قدَّره اللهُ مِن أنَّهم لا يؤمِنونَ، بل يستمرُّون على كفرِهم فتُصيبُهم سُنَّةُ اللهِ في إهلاكِ السَّابِقينَ عليهم من الأمم الكافرة واستِئصالِهم، أو يُصيبُهم عذابُ الله عِيانًا يَرَونَه.

ثمَّ يبينُ تعالى وظيفةَ الرسلِ، فيقولُ: وما نُرسِلُ الرُّسُلَ إلى النَّاسِ إلَّا ليكونوا مُبَشِّرينَ المُؤمِنينَ بالثَّوابِ العاجِلِ والآجِلِ، ومُخوِّفينَ الكافِرينَ من العِقابِ العاجِلِ والآجِلِ، ويُخاصِمُ الذين كَفَروا رُسُلَهم بالباطِلِ تَعَنُّتًا؛ لِيُزيلوا بباطِلِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

الحَقَّ الذي جاءَهم به الرَّسولُ، واتَّخَذوا كِتابي وحُجَجي وما خُوِّفوا به مِن العذابِ سُخريةً واستِهزاءً.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ مَن أشرك به في الدُّنيا، وحَكَم بجَهلِ المشركِين وسَفَهِهم، وأبطَلَ هذا الشِّركَ غايةَ الإبطالِ، وأقام البُرهانَ القاطِعَ على بُعدِ رُتبةِ مَعبوداتِ المُشرِكينَ عن المَنزِلةِ التي أحَلُّوهم بها مِنَ الشِّركِ؛ أخبَرَ عن حالِهم مع شُرَكائِهم يومَ القيامةِ مبينًا أنَّهم مع عدَمِ نَفعِهم لهم في الدُّنيا، يتخَلَّونَ عنهم في الآخِرةِ أحوجَ ما يكونونَ إليهم؛ تخييبًا لِظَنِّهم أنَّهم يُقَرِّبونَهم إلى اللهِ زُلفى[1].

وأيضًا فإنَّه انتقالٌ مِن إبطالِ مَعبوديَّةِ الشَّيطانِ والجِنِّ إلى إبطالِ إلهيَّةِ جَميعِ الآلهةِ التي عبَدَها دَهماءُ المُشرِكينَ، مع بيانِ ما يعتريهم من الخَيبةِ واليأسِ يَومَئذٍ[2].

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾.

أي: واذكُرْ يومَ يقولُ اللهُ للمُشرِكينَ يومَ القيامةِ تَوبيخًا وتقريعًا لهم: نادُوا آلهَتَكم التي ادَّعيتُم في الدُّنيا كَذِبًا أنَّهم شُرَكائي في العِبادةِ؛ نادُوهم لِيَنصُروكم ويَمنَعوكم مِن عَذابي[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٤-٣٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾.

أي: فاستغاثَ المُشرِكونَ بآلهَتِهم التي كانوا يَعبُدونَها في الدُّنيا، فلم يُجيبوهم ولم يَنصُروهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾.

أي: وجعَلْنا بين المُشرِكينَ وآلهَتِهم التي عَبَدوها حائِلًا مُهلِكًا[(٢)] يَفصِلُ بينهم؛ فليس لأحدِ الفريقَينِ مِن سَبيلٍ للوُصولِ إلى الآخَرِ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ

(٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٥).

(٢) قال ابنُ كثيرٍ عن (الموبق): (يجوزُ أن يكونَ واديًا في جهنَّمَ، أو غيرَه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٨).

وقال ابن عاشور: (والموبقُ هنا أُريدَ به جَهَنَّمُ، أيْ: حينَ دَعَوْا أصنامَهم بأسمائِهم كَوَّنَ اللَّهُ فيما بينَ مكانِهم ومكانِ أصنامِهم فُوَّهاتِ جهنَّمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٨-٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٦ - ٢٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٥).

فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٢٨].

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾.

أي: وعاينَ المُشرِكونَ النَّارَ فتيَقَّنوا[١] أنَّهم داخِلُوها، وواقِعونَ فيها[٢].

﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾.

أي: ولم يجِدِ المُشرِكونَ عن النَّارِ التي رأَوها مَكانًا يَنصَرِفونَ إليه، فيَصرِفُهم عن الوقوعِ فيها، أو طَريقًا يعدِلون عنها إليه، فلا بدَّ لهم منها[٣].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

---

(١) ممن قال بأنَّ المرادَ بالظنِّ هنا اليقينُ: ابنُ جرير، والبغوي، والقرطبي، وابنُ كثير، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٥).

ونسَب أبو حيان هذا القولَ إلى أكثرِ الناسِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٢).

وقيلَ: الظنُّ هنا على موضوعِه مِنْ كونِه ترجيحَ أحدِ الجانبينِ، وكونهم لم يَجْزِموا بدخولِها رَجاءً وطمعًا في رحمةِ اللَّهِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٢).

وقال ابنُ عاشور: (والظَّنُّ مُستعملٌ هنا في معنى التحَقُّقِ، وهو مِن استعمالاتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الكافرينَ لَمَّا افتخَروا على فُقَراءِ المسلمينَ بكثرةِ أموالِهم وأتباعِهم، وبيَّن تعالى بالوجوهِ الكثيرةِ أنَّ قولَهم فاسِدٌ، وشُبهَتَهم باطِلةٌ، وذكر فيه المَثَلينِ المتقَدِّمين، قال بعدَه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: ٥٤]، وهو إشارةٌ إلى ما سبق[١].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾.

أي: ولقد نَوَّعْنا وكرَّرْنا وبَيَّنَّا في هذا القُرآنِ للنَّاسِ الأمثالَ بعِباراتٍ مُختَلفةٍ، وأساليبَ مُتَنوِّعةٍ، ومِن كُلِّ جِنسٍ وصِنفٍ؛ لِيَعقِلوا ويتذَكَّروا، ويتَّعِظوا ويَهتَدوا إلى الحَقِّ[٢].

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

أي: ومع هذا البَيانِ لم يتقَبَّلوا القُرآنَ، وجادلوا فيه؛ لأنَّ الإنسانَ بطَبعِه هو أكثَرُ الأشياءِ مُجادَلةً ومُخاصَمةً، فيُعارِضُ الحَقَّ بالباطِلِ، فلا يُنيبُ إلى الحَقِّ، ولا يَنزَجِرُ بالمواعِظِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٩، ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠١).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ هنا مُطلَقُ الجدَلِ وبخاصَّةٍ ما كان منه بباطلٍ، أي: أنَّ كُلَّ إنسانٍ في طَبعِه الحِرصُ على إقناعِ المخالفِ بأحقيَّةِ مُعتَقَدِه أو عَمَلِه، وسياقُ الكلامِ يقتضي إرادةَ الجَدلِ الباطِلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٩).

كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤].

وعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طَرَقَه[١] وفاطِمةَ بنتَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليلةً، فقال لهم: ألَا تُصَلُّونَ؟! قال عليٌّ: فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّما أنفُسُنا بيَدِ اللهِ، فإذا شاء أن يبعَثَنا بعَثَنا، فانصرف رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين قلتُ ذلك، ولم يرجِعْ إليَّ شَيئًا، ثمَّ سَمِعتُه وهو مُدبِرٌ يَضرِبُ فَخِذَه ويقولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾))[٢].

وقال ابنُ عثيمين: (إذا مَرَّ بك مِثلُ هذا في القُرآنِ الكريمِ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فلا تحمِلْه على الكافِرِ إلَّا إذا كان السِّياقُ يعَيِّنُ ذلك، فإذا كان السياقُ يراد به ذلك، صار هذا عامًّا يرادُ به الخاصُّ، لكِنْ إذا لم يكُنْ في السياقِ ما يُعَيِّنُ ذلك فاجعَلْه للعُمومِ؛ اجعَلْه إنسانًا بوَصفِ الإنسانيَّةِ، والإنسانيَّةُ إذا غلَبَ عليها الإيمانُ اضمحَلَّ مُقتضاها المخالِفُ للفِطرةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٧).

وقال الشوكاني: (قال الزَّجَّاجُ: المرادُ بالإنسانِ: الكافرُ، واستدلَّ على أنَّ المرادَ: الكفارُ بقولِه تعالَى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [الكهف: ٥٦]، وقيلَ: المرادُ به في الآيةِ: النَّضرُ بنُ الحارِثِ. والظَّاهِرُ العمومُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٩٦).

وقال الشنقيطي: (أي: أكثَرُ الأشياءِ التي مِن شأنِها الخصومةُ إنْ فصَّلْتَها واحِدًا بعد واحِدٍ ﴿جَدَلًا﴾ أي: خُصومةً ومماراةً بالباطِلِ؛ لِقَصدِ إدحاضِ الحَقِّ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٠١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٣).

(١) طَرَقَه: أي: أتاه في اللَّيلِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٦٤).

(٢) رواه البخاري (٧٤٦٥) واللفظ له، ومسلم (٧٧٥).

قال ابنُ تيمية: (هذا الحديثُ نَصٌّ في ذَمِّ مَن عارضَ الأمرَ بالقَدَرِ؛ فإنَّ قَولَه: «إنَّما أنفُسُنا بيد الله» إلى آخِره، استنادٌ إلى القَدَرِ في تَركِ امتثالِ الأمرِ، وهي في نفسِها كَلِمةُ حَقٍّ؛ لكِنْ لا تصلُحُ لمعارضةِ الأمرِ، بل معارضةُ الأمرِ بها من بابِ الجَدَلِ المذمومِ الذي قال اللهُ فيه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٢٩).

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ ﴾.

أي: وما منع النَّاسَ مِن الإيمانِ بالحَقِّ حين جاءَهم، وأن يَطلُبوا مِن رَبِّهم مَغفِرةَ ذُنوبِهم[1].

﴿ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾.

أي: إلا ما قدَّره الله وسبَق في علمِه أنَّهم لا يؤمنون، بل يستمرُّون على كفرِهم حتى يأتيَهم سنةُ الأممِ الكافرةِ قبلَهم، وهي عذابُ الاستئصالِ، والإهلاكُ في الدُّنيا[2].

---

(١) مِن المفسِّرينَ مَن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾: الكُفَّارُ والمُشركون في عهدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ المرادَ بالهُدى: ما جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. ومنهم: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٥).

قال ابنُ الجوزي: (قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ ﴾ قال المفسِّرون: يعني: أهلَ مكة إذ جاءهم الهُدى، وهو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، والقرآنُ، والإسلامُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٩٢).

وقيل: المعنى: وما منع الكُفَّارَ مِن جميعِ الأمم أن يؤمِنوا حين جاءَتْهم رسُلُهم بالبيِّناتِ. وممن قال بذلك: ابنُ كثير، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٣، ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٣، ٣٠٤).

وممن ذهب إلى المعنى المذكور: الواحدي، وابنُ جزي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن المظفر الرازي: (تحقيقُه: أنَّه وعيدٌ وتهديدٌ لهم بالعذابِ، كأنَّه قال: إنَّهم لا يؤمنونَ إلى أن يأتيَهم العذابُ، فحينئذٍ يؤمنونَ، ولا ينفعُهم إيمانُهم، نظيره: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١]، كما تقولُ في

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٠ - ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢- ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨١ - ٨٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال سُبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾

الشاهدِ لعدوِّك: ما تريدُ إلَّا أن أقتلَك، ولا شكَّ أنَّه لا يريدُ ذلك، كأنَّه قال: إنَّما يمتنعونَ مِن الإيمانِ لأعذبَهم. والله أعلم. ((مباحث التفسير)) (ص: ٢٠٨).

وقيل: المعنى: ما منَعَ النَّاسَ أن يؤمنوا إلَّا الذي منَع الأوَّلينَ قَبلَهم؛ مِن عادةِ العِنادِ والطغيانِ، وطريقتِهم في تكذيبِ الرسُلِ، والاستخفافِ بهم. فمَنَعهم تقليدُ سُنَّةِ الأوَّلينَ مِن الإيمانِ إلى أن يأتيَهم العذابُ كما أتى الأوَّلينَ. وممن قال به: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٠).

وقيل: المعنى: ما منَع الناسَ مِن الإيمانِ إلَّا طلبُ مجيءِ العذابِ، كما أتَى الأوَّلينَ عندَ امتناعِهم مِن الإيمانِ. وممن ذهَب إلى هذا المعنى: الزجاج، ومكي بنُ أبي طالبٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٩٦)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٢).

[غافر: ٨٤- ٨٥].

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿قُبُلًا﴾ بضَمِّ القافِ والباءِ، قيل: جمعُ (قَبيلٍ)، أي: صنفًا صنفًا، ونوعًا نوعًا، والمعنى: يأتيهم العذابُ أنواعًا وأصنافًا مُختَلفةً يتلو بَعضُها بعضًا. وقيل: (قُبُل) بالضمِّ بمعنَى (قِبَل) بكسرِ القافِ، أي: مواجهةً، والمعنى: يأتيهم العذابُ عِيانًا أمامَ وُجوهِهم[(١)].

٢- قِراءةُ ﴿قِبَلًا﴾ بكَسرِ القافِ وفتحِ الباءِ، أي: يأتيهم العذابُ عِيانًا أمامَ وُجوهِهم[(٢)].

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾.

أي: أو[(٣)] .....

---

(١) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكسائي، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠١)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ١٥٣، ١٥٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠١)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ١٥٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٥).

(٣) قال ابنُ الجوزي: (ذكر ابنُ الأنباري في ﴿أَوۡ﴾ هاهنا ثلاثةَ أقوالٍ: أحدُها: أنَّها بمعنى الواوِ. والثاني: أنَّها لوقوعِ أحدِ الشيئينِ؛ إذ لا فائدةَ في بيانِه. والثالثُ: أنَّها دخلَتْ للتَّبعيضِ، أي: أنَّ بعضَهم يقَعُ به هذا، وبعضَهم يقعُ به هذا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٩٢).
وقال ابنُ عاشور: («أو» هي التي بمعنى «إلى»، وانتصابُ فعلِ ﴿يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ بـ «أن» مضمرةٍ

يأتيَ العذابُ الكُفَّارَ عِيانًا يَرَونَه أمامَ وُجوهِهم[١].

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعدَ أن أشارَ اللهُ تعالى إلى جِدالِ الكافرينَ في هُدى القُرآنِ، بما مهَّدَ له مِن قَولِه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]، وأشار إلى أنَّ الجِدالَ فيه مُجَرَّدُ مُكابَرةٍ وعِنادٍ، وأنَّه لا يَحُفُّ بالقُرآنِ ما يَمنَعُ مِن الإيمانِ به، كما لم يَحُفَّ بالهُدى الذي أُرسِلَ إلى الأُمَمِ ما يمنَعُهم الإيمانَ به- أعقَبَ ذلك بأنَّ وظيفةَ الرُّسُلِ التَّبليغُ بالبِشارةِ والنِّذارةِ، لا التَّصدِّي للمُجادَلة؛ لأنَّها مُجادَلةٌ لم يُقصَدْ منها الاستِرشادُ، بل الغايةُ منها إبطالُ الحَقِّ[٢].

بعدَ «أو». و «أو» متصلةُ المعنى بفِعلِ «مَنَع»، أي: منَعَهم تقليدُ سنةِ الأولينَ مِن الإيمانِ إلى أن يأتيَهم العذابُ كما أتَى الأوَّلينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٩).

وقال الشوكاني: (﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي: عذابُ الآخرةِ ﴿قُبُلًا ﴾: قال الفرَّاء: إنَّ قُبُلًا جمعُ قَبيلٍ، أي: متفرِّقًا يتلو بعضُه بعضًا. وقيل: عِيانًا. وقيل: فجأةً. ويناسِبُ ما قاله الفرَّاءُ قراءةُ أبي جعفرٍ وعاصمٍ والأعمشِ وحمزةَ والكسائيِّ ويحيى بن وثَّاب وخلف ﴿قُبُلًا ﴾ بضمتين، فإنَّه جمعُ قبيل، نحوُ سَبيل وسُبُل، والمرادُ أصنافُ العذابِ، ويناسِبَ التفسيرَ الثانيَ -أي: عِيانًا- قراءةُ الباقين بكسرِ القاف وفتح الباءِ: أي: مُقابلةً ومُعاينةً، وقرئ بفتحتين على معنى: أو يأتيَهم العذابُ مُستقبَلًا، وانتصابُه على الحال. فحاصِلُ معنى الآية أنَّهم لا يؤمنون ولا يَستغفِرون إلَّا عند نزولِ عذابِ الدنيا المستأصِلِ لهم، أو عند إتيان أصنافِ عذابِ الآخرةِ أو معاينتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٢).

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾.

أي: وما نُرسِلُ الرُّسُلَ إلَّا لِيُبَشِّروا المُؤمِنينَ بالثَّوابِ العاجِلِ والآجِلِ، ويُنذِروا الكافِرينَ بالعِقابِ العاجِلِ والآجِلِ، ولم نُرسِلْهم عَبَثًا، ولا لِيَتَّخِذَهم النَّاسُ أربابًا، ولا لِيدْعوا إلى أنفُسِهم، ولا لِيَجبُروا النَّاسَ على الإيمانِ، ولا لِيُجيبوا أقوامَهم إلى طَلَبِ الآياتِ المُقتَرَحةِ أو إتيانِهم بالعَذابِ والهَلاكِ؛ فليس لهم ذلك ولا هو مِن مَهامِّهم(١).

﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾.

أي: لَسْنا نَبعَثُ رُسُلَنا للجِدالِ والخُصُوماتِ، وإنَّما نَبعَثُهم مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ، ولكِنَّ الكُفَّارَ يُخاصِمونَ رُسُلَهم بالباطِلِ؛ لِيُزيلوا ويُبطِلوا بجِدالِهم الحقَّ الذي جاءَت به الرُّسُلُ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٦، ٣٠٧).

قال الشِّنقيطي: (كقَولِهم في الرَّسولِ: ساحِرٌ، شاعِرٌ، كاهِنٌ، وكقولهم في القرآنِ: أساطيرُ الأوَّلينَ، سِحر، شِعر، كهانة، وكسُؤالِهم عن أصحابِ الكهف، وذي القرنين، وسؤالِهم عن الرُّوحِ؛ عِنادًا وتعَنُّتًا، لِيُبطِلوا الحقَّ بجدالهم وخِصامِهم بالباطلِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٠٦).

وقال ابنُ عثيمين: (مثالُ ذلك في الرسُلِ يقولون: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن: ٦]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، ويجادلونَ في البَعثِ فيقولون: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨]، ويجادِلون في الآلهة؛ يقولون: إذا كان المشرِكونَ وما يَعبُدونَ مِن دون الله حَصَبَ جهنَّمَ، فعيسى عليه السَّلامُ مِن حَصَبِ جهنَّمَ، وغير ذلك من المجادلة، وقد أبطل اللهُ مجادلتَهم بعيسى؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾، ومنهم عيسى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١]). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٠).

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وقال سُبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾.

أي: وجعَل[١] الكُفَّارُ حُجَجي وبَراهيني، وما أيَّدتُ به رُسُلي من المُعجِزاتِ، وما خُوِّفوا به مِن العذابِ، موضعَ سخريةٍ واستخفافٍ واستهزاءٍ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ يخبِرُ الله تعالى عن عَظَمةِ القرآنِ، وجلالتِه، وعُمومِه، وأنَّه صَرَّف فيه مِن كُلِّ مَثَلٍ، أي: من كلِّ طريقٍ مُوصِلٍ إلى العلومِ النَّافعةِ، والسَّعادةِ الأبَديَّةِ، وكلِّ طريقٍ يَعصِمُ مِن الشَّرِّ والهلاكِ؛ ففيه أمثالُ الحلالِ والحرامِ، وجزاءُ الأعمالِ، والترغيبُ والترهيبُ، والأخبارُ الصَّادقةُ النافعةُ للقُلوبِ؛ اعتقادًا، وطُمأنينةً، ونورًا، وهذا مما يوجِبُ التَّسليمَ لهذا القرآنِ وتلقِّيَه بالانقيادِ والطاعةِ، وعدمَ المنازعةِ له في أمرٍ مِن الأمورِ، ومع ذلك كان كثيرٌ مِن النَّاسِ يجادِلونَ في الحَقِّ بعد ما تبيَّن، ويجادِلونَ بالباطِلِ ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ

(١) قال الراغب: (والاتِّخاذُ افتعالٌ منه [أي: الأخذ]، ويعدَّى إلى مفعولينِ، ويجري مجرَى الجعلِ). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٦٧). ويُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٣)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠١).

ٱلْحَقَّ ﴾؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ أي: مجادلةً ومُنازعةً فيه، مع أنَّ ذلك غيرُ لائقٍ بهم، ولا عَدلٌ منهم، والذي أوجب له ذلك وعدمَ الإيمانِ باللهِ إنَّما هو الظُّلمُ والعِنادُ، لا لقُصورٍ في بيانِه وحُجَّتِه وبُرهانِه، وإلَّا فلو جاءهم العذابُ، وجاءهم ما جاء قَبلَهم؛ لم تكُنْ هذه حالَهم[1].

٢- الجدالُ مذمومٌ إذا استُعمِلَ عندَ عدمِ الحاجةِ إليه، فيكونُ حينئذٍ شاغلًا عن الدعوةِ ومؤديًا -في الأكثرِ- إلى الفسادِ والفتنةِ. فإذا كان الجدالُ لمجردِ الغلبةِ والظهورِ فهو شرٌّ كلُّه، وأشدُّ شرًّا منه إذا كان لمدافعةِ الحقِّ بالباطلِ، قال تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾[2]، فكلُّ إنسانٍ يُجادِلُ مِن أجلِ أن يُدحِضَ الحقَّ، فله نصيبٌ من هذه الآيةِ أي: مِن الكُفرِ -والعياذُ باللهُ- لأنَّ الكافرينَ هم الذين يُجادِلونَ بالباطِلِ؛ لِيُدحِضوا به الحقَّ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ فهم تحقَّقوا -لا محالةَ- أنَّهم مُواقِعوها؛ لِيَكونَ ذلك من بابِ تَعجيلِ الهَمِّ والحَزَنِ لهم؛ فإنَّ توقُّعَ العذابِ والخَوفَ منه قبلَ وُقوعِه، عذابٌ ناجِزٌ[4].

٢- وجهُ الجَمعِ بينَ قَولِه تعالى هنا: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾، وبينَ قولِه تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤] بما حاصِلُه: أنَّ المانِعَ المذكورَ في سورة (الإسراء)

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧١).

مانِعٌ عاديٌّ يجوزُ تخَلُّفُه؛ لأنَّ استِغرابَهم بَعْثَ رَسولٍ مِن البشَرِ مانِعٌ عادِيٌّ يجوزُ تخَلُّفُه؛ لإمكانِ أن يستغرِبَ الكافِرُ بَعثَ رَسولٍ مِن البشَرِ، ثمَّ يُؤمِنَ به مع ذلك الاستغرابِ؛ فالحَصرُ في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤] حصرٌ في المانعِ العاديِّ، وأمَّا الحصرُ في قَولِه هنا: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ فهو حَصرٌ في المانِعِ الحقيقيِّ؛ لأنَّ إرادتَه جَلَّ وعلا عَدَمَ إيمانِهم، وحُكْمَه عليهم بذلك، وقضاءَه به: مانِعٌ حقيقيٌّ مِن وقوعِ غيرِه[1].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ فيه دليلٌ على إثباتِ القدرِ[2]، وذلك على القولِ المختارِ في تفسيرِ الآيةِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ﴾؛ فيُقدَّرُ: واذكُرْ يومَ يقولُ: نادُوا شُركائي، أو على جُملةِ ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ فالتَّقديرُ: ولا أشهدْتُ شُركاءَهم جميعًا، ولا تنفَعُهم شُركاؤُهم يومَ الحشرِ؛ فهو انتقالٌ مِن إبطالِ مَعبوديَّةِ الشَّيطانِ والجنِّ إلى إبطالِ إلهيَّةِ جميعِ الآلهةِ الَّتي عبَدَها دَهْماءُ المُشرِكين، مع بَيانِ ما يَعتريهم من الخَيبةِ واليأسِ يومئذٍ. وقد سلَكَ في إبطالِ إلهيَّتِها بالاستدلالِ على انتفاءِ الماهيَّةِ بانتفاءِ لَوازِمِها؛ فإنَّه إذا

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٥).
(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٩).

انْتَفى نفْعُها للَّذين يَعبُدونها، استلزَمَ ذلك انتفاءَ إلهيَّتِها، وحصَلَ بذلك تَشخيصُ خَيبتِهم ويأسِهم من النَّجاةِ[١].

- قولُه: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ ﴾، أي: اللهُ عَزَّ وجَلَّ للكافرينَ؛ تَوبيخًا وتَعجيزًا[٢]، وضميرُ الغائبِ عائدٌ إلى اللهِ تعالى؛ لدَلالةِ المقامِ عليه[٣].

- وإضافةُ الشُّركاءِ إليه في قولِه: ﴿شُرَكَآءِىَ ﴾ على زَعْمِهم؛ تَوبيخًا لهم، والإضافةُ تَكونُ بأدنى مُلابسةٍ. ومفعولَا (زعَمْتُم) مَحذوفانِ؛ لدَلالةِ المعنى عليهما؛ إذ التَّقديرُ: زعمْتُموهم شُركائي[٤].

- قولُه: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أمْرُه إيَّاهم بمُناداةِ شُركائِهم مُستعملٌ في معناه مع إرادةِ لازمِه، وهو إظهارُ باطلِهم؛ بقرينةِ فعْلِ الزَّعمِ، ولذلك لم يسَعْهم إلَّا أنْ يُنادوهم، حيث قال: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لطمَعِهم، فإذا نادَوهم تبيَّنَ لهم خَيبةُ طمَعِهم، ولذلك عُطِفَ فعْلُ الدُّعاءِ بالفاءِ الدَّالَّةِ على التَّعقيبِ، وأتَى به في صِيغَةِ المُضِيِّ؛ للدَّلالةِ على تَعجيلِ وُقوعِه حينئذٍ، حتَّى كأنَّه قدِ انْقَضى[٥].

- وفيه تقديمُ وصْفِهم بوصْفِ الشُّركاءِ قبْلَ فعْلِ الزَّعمِ؛ تَهكُّمًا بالمُخاطبينَ، وتَوبيخًا لهم، ثمَّ أردَفَ بما يدُلُّ على كذِبِهم فيما ادَّعَوا بفعْلِ الزَّعمِ الدَّالِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٥).

على اعتقادٍ باطلٍ[١].

- قولُه: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾، أي: نادَوهم للإغاثةِ، وفيه بَيانٌ لكَمالِ اعتنائِهم بإعانتِهم على طريقةِ الشَّفاعةِ؛ إذ مَعلومٌ أنْ لا طريقَ إلى المُدافعةِ، وفي إيرادِ عدمِ استجابتِه لهم مع ظُهورِه: تَهكُّمٌ بهم، وإيذانٌ بأنَّهم في الحَماقةِ بحيثُ لا يَفْهمونه إلَّا بالتَّصريحِ به[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾، أي: جعَلْنا المَوبقَ وراءَ المُجْرِمون؛ فذِكْرُ المُجرِمين إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للدِّلالةِ على ما يُفيده ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ من تلبُّسِهم بما استحقُّوا به عذابَ النَّارِ[٣]، وكذلك عُبِّرَ بـ(النَّارِ) في مَقامِ الإضمارِ للمَوبقِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ المَوبقَ هو النَّارُ، فهو شَبيهٌ بعطْفِ البَيانِ[٤]. ولم يقل: (وَرأَوا)، ولكنَّه أظهرَ؛ للدَّلالةِ على تَعليقِ الحُكمِ بالوصفِ[٥].

- قولُه: ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ والظَّنُّ مُستعمَلٌ هنا في معنى التَّحقُّقِ، ولعلَّ اختيارَه هنا ضربٌ من التَّهكُّمِ بهم، بأنَّهم رَجَّحوا أنَّ تلك النَّارَ أُعِدَّتْ لأجْلِهم في حينِ أنَّهم مُوقِنون بذلك. والمُواقَعةُ: مُفاعَلةٌ من الوُقوعِ، وهو الحصولُ؛ لقصْدِ المُبالَغةِ، أي: واقِعون فيها وُقوعَ الشَّيءِ الحاصلِ في موقعٍ يتطلَّبُه، فكأنَّه يقَعُ هو فيه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٥-٣٤٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٦).

- قولُه: ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ في الكلامِ إيجازٌ، تَقديرُه: وحاوَلوا الانقلابَ أو الانصرافَ، فلم يَجِدوا عنها مَصرِفًا(٧).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ عطْفٌ على الجُملِ السَّابقةِ الَّتي ضُرِبَت فيها أمثالٌ، مِن قولِه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢]، وقولِه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥]، ولمَّا كان في ذلك لهم مَقنعٌ، وما لهم منه مَدفعٌ، عاد إلى التَّنويهِ بهَدْيِ القُرآنِ عودًا ناظرًا إلى قولِه: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقولِه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]؛ فأشارَ لهم أنَّ هذه الأمثالَ الَّتي قرَعَتْ أسماعَهم هدْيٌ من جُملةِ هدْيِ القُرآنِ الَّذي تَبرَّموا منه(٨).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ نظيرُ هذه الآيةِ في سُورةِ الإسراءِ، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، فقُدِّمَ في هذه الآيةِ أحدُ مُتعلِّقَي فعْلِ التَّصريفِ على الآخرِ؛ إذ قُدِّمَ هنا قولُه: ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ على قولِه: ﴿لِلنَّاسِ﴾، عكْسَ آيةِ سُورةِ الإسراءِ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ ذِكْرَ القُرآنِ أهمُّ من ذِكْرِ النَّاسِ بالأصالةِ، ولا مُقْتضى للعُدولِ عنه هنا، بل الأمْرُ بالعكْسِ؛ لأنَّ الكلامَ جارٍ في التَّنويهِ بشأْنِ القُرآنِ، وأنَّه يَنزِلُ بالحقِّ لا بِهَوى الأنفُسِ. والنَّاسُ:

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اسمٌ عامٌّ لكلِّ مَن يبلُغُه القُرآنُ في سائرِ العُصورِ المُستقبَلةِ، والمقصودُ على الخُصوصِ المُشرِكون، كما دَلَّ عليه جُملةُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾، فوِزانُه وِزانُ قولِه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، وسيجيءُ قولُه: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦]. وهذا يُشبِهُ العامَّ الواردَ على سبَبٍ خاصٍّ وقرائنَ خاصَّةٍ[١].

- وجُملةُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ تَذييلٌ، وهو مُؤذِنٌ بكلامٍ مَحذوفٍ على وجْهِ الإيجازِ، والتَّقديرُ: فجَادلوا فيه؛ وكان الإنسانُ أكثرَ جدَلًا، فإنَّ الإنسانَ اسمٌ لنَوعِ بني آدمَ، وحرْفُ (أل) فيه لتعريفِ الحقيقةِ، فهو أوسعُ عُمومًا من لفْظِ (النَّاس)[٢].

- وقولُه: ﴿شَىْءٍ﴾ اسمٌ مُفردٌ مُتوغِّلٌ في العُمومِ؛ ولذلك صَحَّت إضافةُ اسمِ التَّفضيلِ إليه، أي: أكثرَ الأشياءِ، واسمُ التَّفضيلِ هنا مَسلوبُ المُفاضَلةِ، وإنَّما أُتِيَ بصِيغَتِه؛ لقصْدِ المُبالَغةِ في شِدَّةِ جدَلِ الإنسانِ، وجُنوحِه إلى المُماراةِ والنِّزاعِ حتَّى فيما تَرْكُ الجدالِ في شأْنِه أحسَنُ، بحيث إنَّ شِدَّةَ الوصفِ فيه تُشْبِهُ تفوُّقَه في الوصْفِ على كلِّ مَن يَعرِضُ أنَّه موصوفٌ به[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ هذا تأسُّفٌ عليهم، وتَنبيهٌ على فَسادِ حالِهم؛ لأنَّ هذا المنْعَ لم يكُنْ بقصْدٍ منهم أنْ يَمتنِعوا ليَجِيئَهم العذابُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٦-٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وإنَّما امْتَنعوا هم مع اعتقادِ أنَّهم مُصيبونَ، لكنَّ الأمْرَ في نفْسِه يَسوقُهم إلى هذا، فكان حالُهم يَقْتضي التَّأسُّفَ عليهم[(١)].

- وهو عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ...﴾ [الكهف: ٥٤]، ومعناها مُتَّصِلٌ تَمامَ الاتِّصالِ بمعنى الجُملةِ الَّتي قبْلَها، بحيث لو عُطِفَت عليها بفاءِ التَّفريعِ لكان ذلك مُقْتضَى الظَّاهرِ، وتُعْتَبَرُ جُملةُ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] مُعترِضةً بينهما، لولا أنَّ في جَعْلِ هذه الجُملةِ مُستقِلَّةً بالعطْفِ اهتمامًا بمضمونِها في ذاتِه، بحيث يُعَدُّ تَفريعُه على مَضمونِ الَّتي قبْلَها يَحيدُ به عن الموقعِ الجديرِ هو به في نُفوسِ السَّامعينَ؛ إذ أُريدَ أنْ يكونَ حقيقةً مُقرَّرةً في النُّفوسِ. ولهذه الخُصوصيَّةِ عُدِلَ في هذه الجُملةِ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ بقولِه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾، وبقولِه: ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ دونَ أنْ يقولَ: وما منَعَهم أنْ يُؤمِنوا إذ جاءهم الهُدى؛ قصْدًا لاستقلالِ الجُملةِ بذاتِها غيرِ مُستعانةٍ بغيرِها، فتكونُ فائدةً مُستقِلَّةً تَستأهِلُ توجُّهَ العُقولِ إلى وعْيِها لذاتِها، لا لأنَّها فرعٌ على غيرِها. على أنَّ عُمومَ (النَّاس) هنا أشمَلُ من عُمومِ لفْظِ (النَّاس) في قولِه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾ [الكهف: ٥٤]؛ فإنَّ ذلك يعُمُّ النَّاسَ الَّذين يَسْمَعون القُرآنَ في أزمانِ ما بعْدَ نُزولِ تلك الآيةِ، وهذا يعُمُّ النَّاسَ كلَّهم الَّذين امْتَنعوا من الإيمانِ باللهِ. وكذلك عُمومُ لفْظِ (الهُدى) يشمَلُ هُدى القُرآنِ وما قبْلَه من الكُتبِ الإلهيَّةِ وأقوالِ الأنبياءِ كلِّها؛ فكانت هذه الجُملةُ قِياسًا تَمثيليًّا بشَواهدِ التَّاريخِ وأحوالِ تلقِّي الأُمَمِ دَعواتِ رُسلِهم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٩).

- وذِكْرُ الاستغفارِ هنا بعْدَ ذِكْرِ الإيمانِ تلْقينٌ لهم بأنْ يُبادِروا بالإقلاعِ عنِ الكُفرِ، وأنْ يَتوبوا إلى اللهِ من تَكذيبِ النَّبيِّ ومُكابرتِه[١].

- قولُه: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أي: إلَّا طلَبُ، أو: انتظارُ، أو: تَقديرُ أنْ تَأتيَهم سُنَّةُ الأوَّلينَ، وهي الاستئصالُ؛ فحُذِفَ المُضافُ وأُقِيمَ المُضافُ إليه مَقامَه[٢] -وهذا على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ- والمرادُ: ما منَعهم إلَّا سببُ إتيانِ سُنَّةِ الأوَّلينَ لهم، أو إتيانُ العذابِ؛ وسببُ ذلك هو: التكبُّرُ والمكابرةُ والتمسُّكُ بالضلالِ؛ فلا يُوجَدُ مانعٌ يَمنعُهم الإيمانَ يُعطيهم المعذرةَ به، ولكنَّهم ساروا على سَننِ مَن قَبْلَهم مِن الضلالِ. وهذا كنايةٌ عن انتفاءِ إيمانِهم إلى أنْ يَحُلَّ بهم أحدُ العَذابَينِ، وفي هذه الكِنايةِ تهديدٌ وإنذارٌ وتحذيرٌ، وحثٌّ على المبادرةِ بالاستغفارِ مِن الكفرِ[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾

- جُملةُ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، وكِلْتا الجُملتينِ مُرتبِطٌ بجُملتيْ ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٤]، وتَرتيبُ هذه الجُملِ في الذِّكرِ جارٍ على تَرتيبِ مَعانيها في النَّفسِ، بحيث يُشْعِرُ بأنَّ كلَّ واحدةٍ منها ناشئٌ مَعناها على معنى الَّتي قبْلَها؛ فكانت جُملةُ ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ مُفيدةً معنى الاستدراكِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٢).

أي: أرسَلْنا الرُّسلَ مُبشِّرينَ ومُنذِرينَ بما فيه مَقنعٌ لطالبِ الهُدى، ولكنَّ الَّذين كَفَروا جادَلوه بالباطلِ؛ لإزالةِ الحقِّ لا لقصْدٍ آخرَ[١].

- واختيارُ فِعْلِ المُضارَعةِ ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ المُجادَلةِ، أو لاستحضارِ صُورةِ المُجادَلةِ[٢].

- وجُملةُ: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾؛ فإنَّهم ما قَصَدوا مِن المُجادَلةِ الاهتداءَ، ولكنْ أرادوا إدحاضَ الحقِّ، واتِّخاذَ الآياتِ كلِّها -وبخاصَّةٍ آياتُ الإنذارِ- هُزؤًا[٣].

- وفعلُ الاتِّخاذِ إذا قُيِّد بحالةٍ يفيدُ شدَّةَ اعتناءِ المُتَّخِذِ بتلك الحالةِ بحيثُ ارتَكَب الفعلَ لأجلِها، وجَعَله لها قَصْدًا[٤].

- وعطْفُ ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ على (الآياتِ) عطْفُ خاصٍّ على عامٍّ؛ لأنَّه أبلَغُ في الدَّلالةِ على توغُّلِ كُفْرِهم وحَماقةِ عُقولِهم. و(مَا) مَصدريةٌ، أي: وإنذارَهم، والإخبارُ بالمصدرِ للمُبالَغةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٥٣).

الآيات (٥٧-٥٩)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَكِنَّةً﴾: أي: أغطيةً، جمعُ كِنانٍ، وهو الغِطاءُ، وأصلُ (كنن): يدلُّ على سترٍ وصونٍ[١].

﴿وَقْرًا﴾: أي: ثِقَلًا، وصممًا، وأصلُ (وقر): يدلُّ على ثِقَلِ الشيءِ[٢].

﴿مَوْئِلًا﴾: أي: مَلْجَأً؛ يُقال: وَأَلَ فلانٌ إلى كذا: إذا لجأ، وأصلُ (وأل): يدُلُّ على تجَمُّعٍ والتِجاءٍ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا سوءَ عاقبةِ المعرضينَ: لا أحَدَ أشَدُّ ظُلمًا لِنَفسِه ممَّن وُعِظَ بآياتِ رَبِّه الواضِحةِ، فأعرضَ عنها، ونَسِيَ ما قدَّمَتْه يداه مِن السيِّئاتِ فلم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢، ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠، ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس(٦/ ٧٩)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٩٩).

يَرجِعْ عنها، ولم يَتُبْ إلى اللهِ منها، إنَّا جعَلْنا على قُلوبِهم أغطيةً، لئَلَّا يَفهَموا ما ذُكِّروا به منها، وجعَلْنا في آذانِهم ثِقلًا؛ لئلَّا يسمَعوه سماعَ انتفاعٍ، وإن تَدْعُهم إلى الحقِّ فلن يَستَجيبوا لك، ولن يَهتَدوا إليه أبدًا.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى ما يدلُّ على سعةِ رحمتِه، وعظيمِ فضلِه، فيقول: وربُّك الغفورُ لذُنوبِ عِبادِه إذا تابوا، ذو الرَّحمةِ بهم، لو أراد أن يُعاقِبَ هؤلاء المُعرِضينَ عن آياتِه بما كَسَبوا من الذُّنوبِ والآثامِ، لعجَّلَ لهم العذابَ في الدُّنيا، بل لهم مَوعِدٌ وأجلٌ مقدَّرٌ لعذابِهم إذا حلَّ لم يتأخَّرْ عنهم، ولن يَجِدوا مَلجَأً يَلجَؤون إليه مِنَ العذابِ، وتلك القُرى أهلَكْنا أهلَها حين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والمعاصي، وجعَلْنا لهلاكِهم مَوعِدًا مُقَدَّرًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن الكُفَّارِ جِدالَهم بالباطِلِ، وصَفَهم بعدَه بالصِّفاتِ المُوجِبةِ للخِزيِ والخِذلانِ(١).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المُشرِكينَ مِن مُجادَلةِ الرُّسُلِ، ومِن استهزائِهم بالإنذارِ، وعرَّضَ بحَماقتِهم؛ أتبَعَ ذلك بأنَّه أشَدُّ الظُّلمِ(٢).

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٤).

أي: ولا أحدَ أظلمُ لِنَفسِه ممَّن ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّه[١] التي تَدُلُّه على طريقِ الحَقِّ والنَّجاةِ مِن الهَلاكِ، فأعرضَ عنها، فلم يتدبَّرْها، ولم يتَّعِظْ ويتذكَّرْ بها، ونَسِيَ ما عَمِلَ مِن السيِّئاتِ مِن الكُفرِ والمعاصي، فلم يتفكَّرْ في عاقِبتِها، ولم يَتُبْ إلى اللهِ منها[٢].

---

(١) قال الشنقيطي: (لا أحدَ أظلَمُ، أي: أكثَرُ ظُلمًا لنَفسِه ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾، أي: وُعِظَ بآياتِ رَبِّه، وهي هذا القرآنُ العظيمُ ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: تولَّى وصَدَّ عنها. وإنَّما قلنا: إنَّ المرادَ بالآياتِ: هذا القرآنُ العظيمُ؛ لقرينةِ تذكيرِ الضميرِ العائدِ إلى الآياتِ في قوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، أي: القرآنَ المُعَبَّرَ عنه بالآياتِ، ويحتملُ شمولُ الآيات للقرآنِ وغيرِه، ويكونُ الضميرُ في قوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: ما ذُكِرَ مِن الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٠٩).

وقال ابنُ عثيمين: (قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي: ذكَّره الواعِظُ بآياتِ ربِّه الكونيَّةِ، كأخْذِه الأمَمَ المكذِّبينَ، أو الشَّرعيةِ، كالقُرآنِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٢).

وقال الشوكاني: (أي: لا أحدَ أظلمُ لنفسِه مِمَّنْ وُعِظَ بآياتِ رَبِّه التَّنزيليَّةِ أو التَّكوينيَّةِ أو مجموعِهما). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٢-١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٠-٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٩).

قال ابنُ عاشور: (ومعنى نسيانِ ما قَدَّمت يداه أنَّه لم يَعرِضْ حالَه وأعمالَه على النظَرِ والفِكرِ؛ لِيَعلمَ أهي صالحةٌ لا تُخشى عواقِبُها، أم هي سيِّئةٌ مِن شأنِها ألَّا يَسلَمَ مُقترِفُها من مؤاخذةٍ. والصلاحُ بيِّنٌ والفسادُ بيِّنٌ؛ ولذلك سمِّيَ الأوَّلُ معروفًا، والثاني منكرًا، ولا سيَّما بعدَ أن جاءتهم الذِّكرى على لسانِ الرسولِ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فهم بمجموعِ الحالَينِ أشدُّ الناسِ ظُلمًا، ولو تفكَّروا قليلًا لعَلِموا أنَّهم غيرُ مُفلِتينَ مِن لقاءِ جزاءِ أعمالِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٤).

وقال أيضًا: (والنسيانُ: مُستعمَلٌ في التغاضي عن العَمَلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٥).

وقال الشنقيطي: (اليدُ أكثَرُ مُزاولةً للأعمالِ مِن غيرِها من الأعضاءِ، فنُسِبَت الأعمالُ إليها على عادةِ العرَبِ في كلامِهم، وإن كانت الأعمالُ التي قدَّمها: منها ما ليس باليدِ، كالكُفرِ باللسانِ والقَلبِ، وغير ذلك من الأعمالِ التي لا تزاوَلُ باليدِ، كالزِّنا). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣١٠).

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾.

أي: إنَّا جعَلْنا[١] على قُلوبِ هؤلاء المُعرِضينَ عن آياتِ اللهِ إذا ذُكِّروا بها أغطيةً؛ لئَلَّا يَفهَموا ما ذُكِّروا به منها، ولا يُدرِكوا معانيَها إدراكًا ينتَفِعونَ به[٢].

---

(١) قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ قيل: إنه تعليلٌ لإعراضِهم ونِسيانِهم، وممن ذهَب إلى ذلك: البيضاوي، والبقاعي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٩١-٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٥).

قال القاسمي: (والجملةُ تعليلٌ لإعراضِهم ونسيانِهم، بأنَّهم مطبوعٌ على قلوبِهم؛ وذلك لإيثارِهم الضَّلالَ على الهدى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٥).

وقد دلَّت آياتٌ كثيرةٌ على أنَّ الأكنَّةَ والطبعَ والختمَ ونحوَ ذلك سَبَبُه الأوَّلُ الإعراضُ عن آياتِ اللَّهِ، والكفرُ بها. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١).

وقال ابن القيم: (قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، وهذه الأكِنَّةُ والوَقرُ: هي شِدَّةُ البُغضِ والنُّفرةِ والإعراضِ، التي لا يستطيعون معها سمعًا ولا عقلًا، والتحقيقُ أنَّ هذا ناشئٌ عن الأكِنَّة والوَقرِ فهو موجِبُ ذلك ومقتضاه، فمن فسَّر الأكِنَّةَ والوَقْرَ به، فقد فسَّرَهما بموجِبِهما ومقتضاهما. وبكُلِّ حال فتلك النُّفرةُ والإعراضُ والبُغضُ: من أفعالِهم، وهي مجعولةٌ لله سبحانه، كما أنَّ الرأفةَ والرحمةَ ومَيلَ الأفئدةِ إلى بيتِه: هو مِن أفعالِهم، والله جاعِلُه، فهو الجاعِلُ للذواتِ وصفاتِها وأفعالِها، وإراداتِها واعتقاداتِها، فذلك كلُّه مجعولٌ مخلوقٌ له، وإن كان العبدُ فاعِلًا له باختيارِه وإرادتِه). ((شفاء العليل)) (ص: ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١١، ٣١٣).

ممَّن أعاد الضميرَ في قولِه تعالى: ﴿يَفْقَهُوهُ﴾ إلى القرآنِ: ابنُ تيميةَ، وابنُ كثيرٍ، والبقاعي، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٤).

كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٗا﴾.

أي: وجعَلْنا في آذانِ المُعرِضينَ عن آياتِ اللهِ ثِقلًا؛ لئلَّا يَسمَعوا آياتِه سَماعَ فَهمٍ وانتِفاعٍ بها[1].

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾.

قال ابنُ تيميَّةَ: (قولُه: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ يتناولُ مَن لم يفهَمْ منه تفسيرَ اللَّفظِ كما يُفهَمُ بمجرَّد العربيةِ، ومَن فَهِمَ ذلك لكِنْ لم يعلَمْ نَفسَ المرادِ في الخارجِ، وهو: «الأعيان» و«الأفعال» و«الصفات» المقصودةُ بالأمرِ والخبر؛ بحيث يراها ولا يعلَمُ أنَّها مدلولُ الخِطابِ، مِثلُ: مَن يعلَمُ وَصفًا مذمومًا ويكونُ هو متَّصِفًا به أو بعضًا مِن جِنسِه، ولا يعلَمُ أنَّه داخِلٌ فيه). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٩).

وقال ابنُ القَيِّم في نظيرِ هذه الآيةِ من سورةِ الإسراءِ، الآية (٤٦): (أخبر سبحانَه أنَّه منَعَهم فِقهَ كَلامِه، وهو الإدراكُ الذي يَنتفِعُ به من فَقِهَه، ولم يكن ذلك مانعًا لهم من الإدراكِ الذي تقومُ به الحجَّةُ عليهم... ومعلومٌ أنَّهم لم يَعدَموا السَّمعَ جملةً ويصيروا كالأصَمِّ؛ ولذلك ينفي سُبحانَه عنهم السَّمعَ تارةً، ويُثبِتُه أخرى؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرٗا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، ومعلومٌ أنهم قد سمعوا القرآنَ، وأَمَرَ الرَّسولَ بإسماعِهم إيَّاه؛ وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، فهذا السَّمعُ المنفيُّ عنهم سَمعُ الفَهمِ والفِقهِ. والمعنى: ولو عَلِمَ الله فيهم خيرًا لأسمَعَهم سمعًا ينتَفِعونَ به، وهو فِقهُ المعنى وعَقلُه، وإلَّا فقد سمعوه سمعًا تقومُ به عليهم الحُجَّةُ، ولكِنْ لَمَّا سَمِعوه مع شِدَّةِ بُغضِه وكراهتِه ونُفرتِهم عنه، لم يفهَموه!). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٠١-١٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١١).

أي: وإن تَدعُهم -يا مُحمَّدُ- إلى طريقِ الحَقِّ، فلن يَسلُكوه أبدًا؛ لإعراضِهم، وطبْعِ اللهِ على قُلوبِهم وأسماعِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦- ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠- ٨١].

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ٥٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٤).

قال السعدي: (﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ [الكهف: ٥٧]؛ لأنَّ الذي يُرجى أن يُجيبَ الدَّاعيَ للهُدى مَن ليس عالِمًا، وأما هؤلاء الذين أبصروا ثمَّ عَمُوا، ورأوا طريقَ الحَقِّ فتَرَكوه، وطريقَ الضَّلالِ فسَلَكوه، وعاقَبَهم الله بإقفالِ القلوبِ والطبعِ عليها: فليس في هدايتِهم حيلةٌ ولا طريقٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١).

وقال الشنقيطي: (هذه الآيةُ وأمثالُها في القرآنِ فيها وجهانِ معروفانِ عندَ العلماءِ:

أحدُهما: أنَّها في الذين سبَق لهم في علمِ الله أنَّهم أشقياءُ، عياذًا بالله تعالى.

والثاني: أنَّ المرادَ أنهم كذلك ما داموا متلبِّسينَ بالكفرِ، فإنْ هداهم الله إلى الإيمانِ وأنابوا زال ذلك المانِعُ. والأوَّلُ أظهَرُ، والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣١٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ مِن عادةِ القُرآنِ تَعقيبَ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ والعكس، فلمَّا رماهم بقوارعِ التَّهديدِ والوعيدِ؛ عطَفَ على ذلك التَّعريضَ بالتذكيرِ بالمغفرةِ؛ لعلَّهم يتفكَّرونَ في مرضاتِه؛ ثمَّ التَّذكيرَ بأنَّه يَشمَلُ الخَلقَ برَحمتِه في حينِ الوعيدِ، فيؤخِّرُ ما توعَّدَهم به إلى حَدٍّ معلومٍ؛ إمهالًا للنَّاسِ لعلَّهم يَرجِعونَ عن ضلالِهم، ويتدبَّرونَ فيما هم فيه مِن نِعَمِ الله تعالى؛ فلعَلَّهم يَشكُرونَ[١].

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾.

أي: وربُّك -يا مُحمَّدُ- كثيرُ السَّترِ على ذُنوبِ عِبادِه، والتَّجاوُزِ عن مؤاخَذتِهم بها، وهو الرَّحيمُ بهم[٢].

﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾.

أي: لو أراد اللهُ أن يُعاقِبَ هؤلاء الكفارَ، المُعرِضينَ عن آياتِه، بما عَمِلوا من الذُّنوبِ والآثامِ التي من جُملتِها: الكُفرُ، والمُجادلةُ، والإعراضُ؛ لعجَّلَ لهم العذابَ في الدُّنيا، ولكِنَّه تعالى لاتِّصافِه بالمغفرةِ والرَّحمةِ، ترَكَ معاجَلَتَهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١٦).

قال الرسعني: (﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ بهم إذ لم يُعاجِلْهم بالعقوبةِ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣١٠). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٠).

وقال الشنقيطي: (﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾: يرحَمُ عبادَه المؤمنينَ يومَ القيامةِ، ويرحمُ الخلائقَ في الدُّنيا). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾.

أي: ولكنْ لهم مَوعِدٌ[(١)] .....

الشوكاني)) (٣/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٥).

وممن اختار المعنَى المذكورَ، وهو أنَّ الضميرَ في قولِه: ﴿يُؤَاخِذُهُم﴾ يعودُ على الكفارِ: ابنُ جريرٍ، والبغوي، وابنُ عطيةَ، وهو ظاهرُ اختيارِ الشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٠، ٣٥١).

وممن اختار أنَّه يعودُ على الناسِ: السعدي، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٥).

(١) قيل: المرادُ بالموعدِ هنا: يومُ القيامةِ. وممن قال بذلك: البغوي، والخازنُ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، واختاره ابنُ عثيمين. ونسَبه الواحدي إلى المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٦٢).

وممن قال مِن السلفِ: إنَّ الموعدَ هنا يومُ القيامةِ: السديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٦٩).

وقيل: المرادُ به: يومُ بدرٍ. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والزمخشري، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٠٨).

قال ابنُ عطيةَ: (ولكنَّه تعالى أخَّرَهم إلى موعدٍ لا يجِدون عنه منجًى، قالت فرقةٌ: هو أجَلُ الموتِ، وقالت فرقةٌ: هو عذاب الآخرة، وقال الطبري: هو يومُ بدرٍ ...). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٦).

وقال القرطبي: (﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ أي: أجَلٌ مقدَّرٌ يؤخَّرون إليه، أي: إذا حَلَّ لم يتأخَّرْ عنهم إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧-٨).

مَضروبٌ، وأجلٌ مقدَّرٌ لعذابِهم[١]، يُؤَخِّرُهم اللهُ إليه، ولن يَجِدوا مَلجَأً يَلجَؤون إليه مِنَ العذابِ[٢].

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعد أن أُزيلَ غُرورُ الكافِرينَ بتأخُّرِ العذابِ، وأُبطِلَ ظَنُّهم الإفلاتَ منه ببيانِ أنَّ ذلك إمهالٌ مِن أثَرِ رَحمةِ الله بخَلقِه؛ ضرَبَ لهم المثَلَ في ذلك بحالِ أهلِ القُرى السَّالفينَ الذين أُخِّرَ عنهم العذابُ مُدَّةً، ثمَّ لم يَنجُوا منه بأَخَرَةٍ، فالجُملةُ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾[٣].

وأيضًا لَمَّا كانت هذه سُنَّتَه في القُرونِ الماضيةِ والأُمَمِ الخالية؛ قال تعالى

وقال القاسمي: (الموعدُ المذكورُ هو يومُ بدرٍ، أو: الفتحُ المشارُ إليه في كثيرٍ مِن الآياتِ، أو: يومُ القيامةِ. والكلُّ لاحقٌ بهم). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٦).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨]، أي: مكانًا يَؤولون إليه، وهذا يومُ القيامةِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ ما يحصُلُ للكُفَّارِ مِن القَتلِ على أيدي المؤمنينَ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥] إذًا يحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ ما سيكونُ عليهم من القَتلِ والأخذِ في الدنيا، أو ما سيكونُ عليهم يوم القيامة الذي لا مفَرَّ منه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٤)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤٤١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧، ٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٣-٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٨).

عاطِفًا على قَولِه: ﴿لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ مُرَوِّعًا لهم بالإشارةِ إلى ديارِهم، المُصَوِّرةِ لدمارِهم[(١)]:

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾.

أي: وتلك قُرى قَومِ نُوحٍ، وهُودٍ، وصالحٍ، وشُعَيبٍ، ولوطٍ، وغيرِهم من الأُمَمِ الماضيةِ؛ أهلَكْنا أهلَها لَمَّا ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والمعاصي[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۞ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۞ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۞ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۞ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠ - ١٠٢].

﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾.

أي: وجعَلْنا لوَقتِ إهلاكِ القُرى الظَّالِمةِ مِيقاتًا مَعلومًا ومَوعِدًا مُقَدَّرًا لا يُتقَدَّمُ عنه ولا يُتأخَّرُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١٩).

كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟﴾ فيه مِنَ التَّخويفِ لِمَن ترَكَ الحَقَّ بعد عِلْمِه؛ أن يُحالَ بينَهم وبينَه، ولا يتمَكَّنَ منه بعدَ ذلك، ما هو أعظَمُ مُرَهِّبٍ وزاجرٍ عن ذلك[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ حَثٌّ على فِقْهِ القرآنِ، وأنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يقرأَ القرآنَ، ويَتَعَلَّمَ معناه، كما كان الصَّحابةُ -رضوانُ الله عليهم- لا يتجاوَزونَ عَشرَ آياتٍ حتى يتعَلَّموها وما فيها مِن العِلمِ والعَمَلِ[(٢)]؛ فقَولُه: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ يعودُ إلى القرآنِ كُلِّه، فعُلِمَ أنَّ الله يحِبُّ أن يُفقَهَ؛ ولهذا قال الحسَنُ البَصريُّ: (ما أنزل اللهُ آيةً إلَّا وهو يحِبُّ أن يُعلَمَ في ماذا أنزِلَت وماذا عَنى بها، وما استَثنى مِن ذلك لا مُتَشابِهًا ولا غيرَه). وقال مجاهِدٌ: (عرَضْتُ المُصحَفَ على ابنِ عبَّاسٍ مِن أوَّلِه إلى آخِرِه مرَّاتٍ، أقِفُ عند

قال البقاعي: (كما أنَّا جعَلْنا لهؤلاء موعِدًا في الدنيا بيوم بدرٍ والفتحِ وحُنَينٍ ونحوِ ذلك، وفي الآخرةِ لن نُخلِفَه، وكذا كُلُّ أمرٍ يقولُه نبيٌّ من الأنبياءِ عَنَّا لا يقَعُ فيه خُلفٌ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٤).

كلِّ آيةٍ وأسألُه عنها)[١].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ أخبَرَ تعالى عن سَعةِ مَغفِرتِه ورَحمتِه، وأنَّه يَغفِرُ الذُّنوبَ، ويتوبُ اللهُ على من يتوبُ، فيتغَمَّدُه برَحمتِه، ويَشمَلُه بإحسانِه، وأنَّه لو آخَذَ العِبادَ على ما قَدَّمَت أيديهم من الذُّنوبِ، لعجَّلَ لهم العذابَ، ولكِنَّه تعالى حليمٌ لا يَعجَلُ بالعقوبةِ، بل يُمهِلُ ولا يُهمِلُ، والذنوبُ لا بُدَّ مِن وقوعِ آثارِها وإن تأخَّرَت عنها مُدَّةً طويلةً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ فيه تحذيرٌ مِن الظُّلمِ؛ إذ نتيجتُه الإهلاكُ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يُخبِرُ تعالى أنَّه لا أعظَمَ ظُلمًا، ولا أكبَرَ جُرمًا، مِن عَبدٍ ذُكِّرَ بآياتِ اللهِ وبُيِّنَ له الحَقُّ مِن الباطِلِ، والهدَى مِنَ الضَّلالِ، وخُوِّفَ ورُهِّبَ ورُغِّبَ؛ فأعرض عنها، فلم يتذكَّرْ بما ذُكِّرَ به، ولم يَرجِعْ عمَّا كان عليه، ونَسِي ما قَدَّمَت يداه مِن الذُّنوبِ، ولم يُراقِبْ علَّامَ الغُيوبِ؛ فهذا أعظَمُ ظُلمًا مِن المُعرِضِ الذي لم تأتِه آياتُ الله ولم يُذَكَّرْ بها، وإن كان ظالِمًا، فإنَّه أخَفُّ ظُلمًا مِن هذا؛ لكَونِ العاصي على بصيرةٍ وعلمٍ أعظَمَ مِمَّن ليس كذلك[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ وقد جاءت

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١).

آياتٌ أُخَرُ يُفهَمُ منها خِلافُ هذا، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقَولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ١٤٤]، وقَولِه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٢] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ.

وللجَمعِ بين هذه الآياتِ أوجهٌ:

منها: تخصيصُ كُلِّ موضِعٍ بمعنى صِلتِه، أي: لا أحَدَ مِن المانعينَ أظلَمُ ممَّن منع مساجِدَ الله، ولا أحدَ مِن المُفتَرين أظلَمُ ممَّن افترى على الله كَذِبًا، وإذا تخصَّصَت بِصِلاتِها زال الإشكالُ.

ومنها: أنَّ التَّخصيصَ بالنِّسبةِ إلى السَّبقِ، أي: لَمَّا لم يسبِقْهم أحدٌ إلى مِثلِه حُكِمَ عليهم بأنَّهم أظلَمُ ممَّن جاء بعدَهم سالِكًا طريقَهم، وهذا يَؤولُ معناه إلى ما قبلَه؛ لأنَّ المرادَ السَّبقُ إلى المانعيَّةِ والافترائيَّةِ مَثلًا.

ومنها: أنَّ نَفيَ التَّفضيلِ لا يَستلزِمُ نَفيَ المساواةِ؛ فلم يكُنْ أحدٌ ممَّن وُصِفَ بذلك يزيدُ على الآخَرِ؛ لأنَّهم يتساوَونَ في الأظلميَّةِ، فيصيرُ المعنى: لا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن منَعَ مساجِدَ الله، ومَن افترى على الله كَذِبًا، ومَن كذَّب بآياتِ اللهِ، ولا إشكالَ في تساوي هؤلاء في الأظلميَّةِ، ولا يدُلُّ على أنَّ أحَدَهم أظلَمُ مِن الآخَرِ، كما إذا قُلْتَ: لا أحَدَ أفقَهُ مِن فلانٍ وفلانٍ مثلًا[1].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١٠-٣١١). ويُنظر أيضًا: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٩٧).

قال ابنُ عثيمينَ بعد أن ذكر الوجهَ الأوَّلَ: (وقيل: إنَّ «أظلم» و«أظلم» يشتركانِ في الأظلميَّةِ ويتساويانِ فيها بالنسبةِ لغيرِهما، وفيه نظرٌ؛ لأنَّه لا يمكِنُ أن نقول: إنَّ مَن ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّه فأعرض عنها أنَّه يُساوي مَن افترى على الله كَذِبًا، أو مَن منع مساجِدَ الله أن يُذكَرَ فيها اسمُه يُساوي من كَذَب على الله، ونحو ذلك). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ إنْ قيل: إذا كانوا لا يستطيعونَ السَّمعَ ولا يُبصِرون ولا يَفقَهون؛ لأنَّ الله جعل الأكِنَّةَ المانعةَ مِن الفَهمِ على قلوبِهم، والوَقْرَ -الذي هو الثِّقلُ المانِعُ من السَّمعِ- في آذانِهم، فهم مجبورونَ، فما وجهُ تعذيبِهم على شيءٍ لا يستطيعونَ العُدولَ عنه، والانصرافَ إلى غيره؟!

فالجواب: أنَّ الله جَلَّ وعلا بيَّنَ في آياتٍ كثيرةٍ مِن كتابِه العظيمِ أنَّ تلك الموانِعَ التي يجعَلُها على قُلوبِهم وسَمعِهم وأبصارِهم، كالخَتمِ والطَّبعِ، والغِشاوةِ والأكِنَّة، ونحو ذلك: إنما جعَلَها عليهم جزاءً وِفاقًا لِما بادروا إليه من الكُفرِ وتكذيبِ الرُّسُلِ باختيارِهم، فأزاغ اللهُ قُلوبَهم بالطَّبعِ والأكِنَّةِ ونحوِ ذلك؛ جزاءً على كُفرِهم. فمن الآياتِ الدالَّةِ على ذلك قولُه تعالى: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [النساء: ١٥٥]، أي: بسبَبِ كُفرِهم، وهو نصٌّ قرآنيٌّ صريحٌ في أنَّ كُفرَهم السَّابِقَ هو سبَبُ الطبعِ على قلوبِهم؛ وقَولُه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥]، وهو دليلٌ أيضًا واضِحٌ على أنَّ سَبَبَ إزاغةِ الله قُلوبَهم هو زيغُهم السَّابِقُ؛ وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [المنافقون: ٣]، وقَولُه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقَولُه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقَولُه تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ الدالَّةِ على أنَّ الطبعَ على القُلوبِ، ومَنْعَها مِن فَهمِ ما ينفَعُ: عِقابٌ مِن اللهِ على الكُفرِ السَّابِقِ على ذلك[1].

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١١).

٤- قال الله تعالى: ﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ إنْ قال قائِلٌ: هل في هذا تيئيسٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أنَّه وإن دعا لا يُقبَلُ منه، أو فيه تَسليةٌ له؟

فالجواب: في هذا تسليةٌ له، وأنَّهم إذا لم يَقبَلوا الحَقَّ فلا عليك منهم؛ ﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾[(١)].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ هذا فيه تسليةٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يمكِنُ أن يقولَ: لماذا لم يُعاجَلوا بالعُقوبةِ، كيف يُكَذِّبونَني وأنا رسولُ الله ولم يعاقِبْهم؟! ولكِنْ بَيَّنَ اللهُ له أنَّه هو ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ أي: الذي يستُرُ الذنوبَ ويتجاوَزُ عنها، ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ أي: صاحِبُ الرَّحمةِ الذي يلطُفُ بالمُذنبِ؛ ولهذا قال: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ يعني: لو أراد اللهُ أن يؤاخِذَ النَّاسَ بما كسبوا، لعجَّلَ لهم العذابَ[(٢)].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ إن قيل: ظاهِرُ هذه الآيةِ يَقتضي أنَّ تأخيرَ العَذابِ عن الكُفَّارِ برحمةِ الله، ومعلومٌ أنَّه لا نَصيبَ لهم في رَحمتِه! **فعنه جوابانِ**:

أحدهما: أنَّ الرحمةَ هاهنا بمعنى النِّعمةِ، ونِعمةُ الله لا يخلو منها مؤمِنٌ ولا كافِرٌ، فأمَّا الرَّحمةُ التي هي الغُفرانُ والرِّضا، فليس للكافِرِ فيها نصيبٌ.

والثاني: أنَّ رحمةَ اللهِ مَحظورةٌ على الكُفَّارِ يومَ القيامةِ، فأمَّا في الدُّنيا فإنَّهم ينالونَ منها العافيةَ والرِّزقَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٩٣).

٧- في قولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ قد يقولُ قائِلٌ: هنا إشكالٌ: فإنَّ القُرى جمادٌ، والجَمادُ لا يعودُ عليه الضميرُ بصيغةِ الجَمعِ، فمثلًا يقال: هذه البيوتُ عَمَّرْناها، ولا يقال: عَمَّرْناهم، فلماذا قال: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾؟

فالجواب: لأنَّ الذي يَهلِكُ هم أهلُ القرى، فالقرى قد يراد بها أهلُها، وقد يُراد بها البِناءُ المجتَمِعُ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾

- قولُه: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ عطْفُ إعراضِهم عن الذِّكرِ على التَّذكيرِ بفَاءِ التَّعقيبِ: إشارةٌ إلى أنَّهم سارعوا بالإعراضِ، ولم يَتْركوا لأنفُسِهم مُهلةَ النَّظرِ والتَّأمُّلِ[(٢)].

- في قولِه: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ علَّلَ إعراضَهم ونِسيانَهم بأنَّهم مَطبوعٌ على قُلوبِهم، وجمَعَ بعْدَ الإفرادِ؛ حمْلًا على لفْظِ (مَن) ومعناهُ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ وأكثرُ ما يُستعمَلُ مثْلُ هذا التَّركيبِ في القُرآنِ في العملِ السَّيِّئِ، فصار جاريًا مَجْرى المثَلِ؛ قال تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠]، وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٠).

مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[(١)] [الشورى: ٣٠].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ مُستأنَفةٌ بَيانيَّةٌ، نشأَتْ على جُملةِ ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾، أي: إنْ لم تعلَمْ سبَبَ نِسيانِه ما قدَّمَت يداهُ، فاعلَمْ أنَّا جعَلْنا على قُلوبِهم أكِنَّةً[(٢)].

- وعاد الضَّميرُ مُفردًا في قولِه: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ ﴾؛ لأنَّ الآياتِ المُضافةَ إلى الرَّبِّ في قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ هي القُرآنُ[(٣)].

- وجُملةُ: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾، وهي مُتفرِّعةٌ عليها، ولكنَّها لم تُعْطَفْ بالفاءِ؛ لأنَّ المقصودَ جَعْلُ ذلك في الإخبارِ المُستقِلِّ. وأكَّدَ نفْيَ اهتدائِهم بحرْفِ تَوكيدِ النَّفيِ وهو (لن)، وبلفظِ (أبدًا) المُؤكِّدِ لمَعنى (لن)، وبحرْفِ الجزاءِ المُفيدِ تسبُّبَ الجوابِ على الشَّرطِ. وإنَّما حصَلَ معنى الجزاءِ باعتبارِ تفرُّعِ جُملةِ الشَّرطِ على جُملةِ الاستئنافِ البَيانيِّ، أي: ذلك مُسبَّبٌ على فطْرِ قُلوبِهم على عدَمِ قَبولِ الحقِّ[(٤)].

- قولُه: ﴿فَلَن يَهْتَدُوا ﴾، أي: فلا يكونُ منهم اهتداءُ الْبتَّةَ، كأنَّه مُحالٌ منهم؛ لشِدَّةِ تَصميمِهم، ﴿أَبَدًا ﴾ مُدَّةَ التَّكليفِ كلَّها. و(إذًا) جزاءٌ وجوابٌ؛ فدَلَّ على انتفاءِ اهتدائِهم لدعوةِ الرَّسولِ، بمعنى أنَّهم جَعَلوا ما يجِبُ أنْ يكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٦).

سبَبَ وُجودِ الاهتداءِ سببًا في انتفائِه، وعلى أنَّه جوابٌ للرَّسولِ، على تَقديرِ قولِه: ما لي لا أدْعوهم حِرْصًا على إسلامِهم؟ فقيل: ﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ وهذا من العامِّ، والمُرادُ به الخُصوصُ، وهو مَن طبَعَ اللهُ على قلْبِه وقَضى عليه بالمُوافاةِ على الكُفْرِ؛ إذ قدِ اهتدى كثيرٌ من الكَفرةِ وآمَنوا، ويحتملُ أنْ يكونَ ذلك حُكمًا على الجميعِ، وفي تَقييدِه بالأبديَّةِ مُبالَغةٌ في انتفاءِ هِدايتِهم[2].

- قولُه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا...﴾ قاله هنا بالفاءِ الدَّالَّةِ على التَّعقيبِ؛ لأنَّ ما هنا في الأحياءِ من الكفَّارِ؛ فإنَّهم ذُكِّروا فأعْرَضوا عَقِبَ ما ذُكِّروا، وقاله في السَّجدةِ بـ (ثُمَّ) الدَّالَّةِ على التَّراخي؛ لأنَّ ما هناك في الأمواتِ من الكُفَّارِ؛ فإنَّهم ذُكِّروا مرَّةً بعْدَ أُخرى، ثمَّ أعْرَضوا بالموتِ فلم يُؤْمِنوا[3].

٢- قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾

وجَّه الخِطابَ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّمَ، مُفتتِحًا باستحضارِ الجَلالةِ بعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّمَ؛ إيماءً إلى أنَّ مَضمونَ الخبرِ تكريمٌ له، كقولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾[4] [الأنفال: ٣٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) لزكريا الأنصاري (ص: ٣٤٤). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٧٦-٨٧٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٩-١٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٦).

- في قولِه: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ أورَدَ المغفرةَ على صِيغَةِ المُبالَغةِ دُونَ الرَّحمةِ؛ للتَّنبيهِ على كثرةِ الذُّنوبِ. وتَقديمُ الوصْفِ الأوَّلِ؛ لأنَّ التَّخليةَ قبْلَ التَّحليةِ، أو لأنَّه أهمُّ بحسَبِ الحالِ؛ إذ المَقامُ مَقامُ بَيانِ تأخُّرِ العُقوبةِ عنهم بعدَ استيجابِهم لها[1].

- قولُه: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ خُصَّ بالذِّكرِ من أسماءِ اللهِ تعالى اسمُ (الغفورِ)؛ تَعريضًا بالتَّرغيبِ في الاستغفارِ. و(الغفورُ) اسمٌ يتضمَّنُ مُبالغةَ الغُفرانِ؛ لأنَّه تعالى واسعُ المغفرةِ؛ إذ يغفِرُ لمَن لا يُحْصَونَ، ويغفِرُ ذُنوبًا لا تُحْصى إنْ جاءه عبْدُه تائبًا مُقلِعًا مُنكسِرًا، على أنَّ إمهالَه الكُفَّارَ والعُصاةَ هو أيضًا من أثرِ المغفرةِ؛ إذ هو مَغفرةٌ مُؤقَّتةٌ. وقولُه: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ هو المقصودُ تمهيدًا لجُملةِ ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ ﴾؛ فلذلك كانت تلك الجُملةُ بَيانًا لجُملةِ ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾، باعتبارِ ﴿ٱلْغَفُورُ ﴾ الخبَرَ، وهو الوصْفُ الثَّاني. والمعنى: أنَّهم فيما كَسَبوه من الشِّركِ والعِنادِ أحرياءُ بتَعجيلِ العُقوبةِ، لكنَّ اللهَ يُمْهِلُهم إلى أمدٍ معلومٍ مُقدَّرٍ. وفي ذلك التَّأجيلِ رحمةٌ بالنَّاسِ، بتَمكينِ بعضِهم من مُهْلَةِ التَّدارُكِ وإعادةِ النَّظرِ، وفيه استبقاؤُهم على حالِهم زمنًا. فوصف ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ يساوي وصف (الرحيم)؛ لأن (ذو) تقتضي رسوخ النسبة بين موصوفها وما تضاف إليه. وإنما عدل عن وصف (الرحيم) إلى ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾؛ للتنبيه على أنَّه خبر لا نعت تنبيهًا بطريقة تغيير الأسلوب؛ فإنَّ اسم (الرَّحيم) -مع كونِه مُشتَقًّا ومُتضمِّنًا لصِفةٍ- صارَ شَبيهًا بالأسماءِ الجامدة؛ لأنَّه صِيغَ بصِيغةِ الصِّفةِ المُشبَّهةِ؛ فبَعُدَ عن مُلاحظةِ الاشتقاقِ فيه، واقترَبَ مِن صِنفِ الصِّفةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣١).

الذَّاتيةِ[١].

- في قولِه: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ أُوثِرَتِ المُؤاخذةُ -المُنْبِئةُ عن شِدَّةِ الأخْذِ بسُرعةٍ- على التَّعذيبِ والعُقوبةِ ونحوِهما؛ للإيذانِ بأنَّ النَّفيَ المُستفادَ من مُقدمِ الشَّرطيَّةِ مُتعلِّقٌ بوصْفِ السُّرعةِ، كما يُنبِئُ عنه تاليها. وإيثارُ صِيغَةِ الاستقبالِ -وإنْ كان المعنى على المُضِيِّ-؛ لإفادةِ أنَّ انتفاءَ تَعجيلِ العذابِ لهم بسبَبِ استمرارِ عدَمِ إرادةِ المُؤاخَذةِ؛ فإنَّ المُضارِعَ الواقعَ موقعَ الماضي يُفيدُ استمرارَ انتفاءِ الفعْلِ فيما مَضى[٢].

- جُملةُ: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٌ﴾ معطوفةٌ على مُقدَّرٍ، كأنَّه قيل: لكنَّهم ليسوا بمُؤاخَذينَ بغْتةً...[٣].

- قولُه: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ (بل) للإضرابِ الإبطاليِّ عن مَضمونِ جوابِ (لو)، أي: لم يُعَجِّلْ لهم العذابَ؛ إذ لهم موعدٌ للعذابِ مُتأخِّرٌ، وهذا تَهديدٌ بما يحصُلُ لهم، وأكَّدَ النَّفيَ بـ (لن)؛ رَدًّا على إنكارِهم؛ إذ هم يحْسَبون أنَّهم مُفلِتونَ من العذابِ حين يَرَون أنَّه تأخَّرَ مُدَّةً طويلةً، أي: لأنْ لا ملجَأَ لهم من العذابِ دُونَ وقْتِ وعْدِه أو مكانِ وعْدِه، فهو ملْجَؤُهم. وهذا مِن تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشْبِهُ ضِدَّه، أي: هم غيرُ مُفلِتينَ منه[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٦-٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٧).

- قولُه: ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ فيه إشعارٌ بعِلَّةِ الإهلاكِ، وهي الظُّلمُ، ففيه تَحذيرٌ من الظُّلمِ؛ إذ نَتيجتُه الإهلاكُ[١]. وفيه ترْكُ المفعولِ، وهو إمَّا لتَعميمِ الظُّلمِ، أو لتَنزيلِه منزلةَ اللَّازمِ، أي: لمَّا فَعَلوا الظُّلمَ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣١).

الآيات (٦٠-٧٠)

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَآ أَبْرَحُ﴾: أي: لا أزالُ سائِرًا، مِن قَولِهم: بَرِحَ الرَّجُل بَراحًا: إذا راح مِن مَوضِعِه، وأصلُ (برح): يدلُّ على الزَّوالِ[١].

﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: أي: اجتماعَهما، أو: مُلتقاهما، وأصلُ (جمع): يدُلُّ على تضامِّ الشَّيءِ[٢].

﴿حُقُبًا﴾: أي: زَمانًا ودَهرًا، وجمْعُه: أحقابٌ، ولا يكادُ يُستعملُ الحقبُ إلَّا حيثُ يُرادُ تتابعُ الأزمنةِ وتَواليها، وأصلُ (حقب): يدلُّ على ترادُفٍ وتتابُعٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((ياقوتة الصراط)) للمطرز الباوردي (ص: ٣٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ١٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٩)،

﴿سَرَبًا﴾: أي: طريقًا ومَذهَبًا، وأصلُ (سرب): يدلُّ على الاتِّساعِ والذَّهَابِ في الأرضِ[(١)].

﴿نَصَبًا﴾: أي: تَعَبًا وعَناءً، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ، لأنَّ الإنسانَ لا يزالُ مُنتَصِبًا حتى يُعيِي[(٢)].

﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾: أي رَجَعا مِنَ الطَّريقِ الذي سَلَكاه يتَتَبَّعانِ الأثَرَ، والارتدادُ: الرُّجوعُ، والقَصَصُ: اتِّباعُ الأثَرِ. وأصلُ (رد): يدلُّ على رَجعِ الشَّيءِ، و (أثر): يدُلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي، و (قص): يدُلُّ على تتبُّعِ الشَّيءِ[(٣)].

﴿خُبْرًا﴾: أي: عِلمًا، والخُبْرُ: العلمُ بالأشياءِ المعلومةِ من جهةِ الخَبَرِ، وأصلُ (خبر): العِلمُ[(٤)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا قصةَ موسَى والخضرِ -عليهما السلامُ-: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حينَ قال موسى لخادِمِه يوشَعَ بنِ نون: لا أزالُ أتابِعُ السَّيرَ حتى أصِلَ

((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٧).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣) و(٢/ ٣٨٦) و(٥/ ١١)، ((الغريبين)) للهروي (٥/ ١٥٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٩)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٣).

إلى مُلتقى البَحرينِ، أو أسيرَ زمنًا طويلًا حتى أجدَ العبدَ الصَّالحَ الذي أخبَرَني اللهُ بعِلمِه وفَضلِه؛ لأتعلَّمَ منه ما ليس عندي مِن العِلمِ، فلمَّا وصَل موسَى عليه السلامُ وفتاه إلى مُلتقى البَحرينِ نَسِيا حُوتَهما الذي جعَلَه اللهُ عَلامةً على وجودِ الخَضِرِ في المكانِ الذي يَفقِدانِه فيه، فشقَّ الحوتُ طَريقَه في البَحرِ نفقًا ظاهِرًا في الماءِ، فلمَّا فارقا المكانَ الذي نَسِيَا فيه الحوتَ قال موسى لخادِمِه: أحضِرْ إلينا غداءَنا، لقد لَقِينا مِن سَفَرِنا هذا تَعَبًا. قال له خادِمُه: أرأيتَ حين مكَثْنا عند الصَّخرةِ فإنِّي نَسِيتُ الحوتَ في ذلك المكانِ، وما أنساني أن أذكُرَ الحوتَ إلَّا الشَّيطانُ، واتَّخذ الحوتُ طريقَه في البَحرِ عجبًا.

قال موسى: ما حصَلَ مِن فَقدِ الحوتِ هو ما كنَّا نَطلُبُه؛ فإنَّه علامةٌ لي على مكانِ العبدِ الصَّالحِ، فرجَعا يتتَبَّعانِ آثارَ مَشيِهما حتى انتَهَيا إلى الصَّخرةِ التي فقدا الحوتَ عندها، فوجدَا هناك عبدًا صالحًا من عبادِنا -هو الخَضِرُ عليه السلامُ- آتيناه رحمةً مِن عِندِنا، وعَلَّمْناه مِن لدنَّا عِلمًا عَظيمًا نافِعًا. قال له موسى: أتأذَنُ لي أن أتَّبِعَك؛ لتُعَلِّمَني من العِلمِ الذي علَّمَك اللهُ إيَّاه ما أهتدي به إلى الصَّوابِ ؟ قال له الخَضِرُ: إنَّك -يا موسى- لن تُطيقَ أن تصبِرَ على اتِّباعي ومُلازَمتي، وكيف لك الصَّبرُ على ما سأفعَلُه مِن أمورٍ تَخفى عليك ممَّا عَلَّمَني اللهُ تعالى إياه؟! قال له موسى: ستَجِدُني إن شاء اللهُ صابِرًا على ما أراه منك، ولا أخالِفُ لك أمرًا تأمُرُني به. فقال له الخَضِرُ: فإنْ صاحَبْتَني فلا تسألْني عن شَيءٍ تُنكِرُه حتى أخبِرَك به دونَ سؤالٍ منك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴿٦٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعدَ أن ذكَرَ الله سُبحانَه قَصَصَ المُشرِكين الذين افتَخَروا على فُقَراءِ المؤمِنينَ بكَثرةِ الأموالِ والأنصارِ، وامتَنَعوا عن حضورِ مجلِسِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لئلَّا يشتَرِكوا معهم في مجلسٍ واحدٍ- قفَّى على ذلك بذِكرِ قَصَصِ موسى عليه السَّلامُ مع الخَضِر؛ لِيبيِّنَ بها أنَّ موسى مع كونِه نبيًّا صادِقًا أرسَلَه اللهُ إلى بني إسرائيلَ بشيرًا ونذيرًا، وهو كليمُ اللهِ- أُمِرَ أن يذهَبَ إلى الخَضِرِ ليتعَلَّمَ منه ما لم يعلَمْه، وفي ذلك دليلٌ على أنَّ التواضُعَ خيرٌ مِن التكبُّرِ[١].

وأيضًا فإنه لَمَّا جَرى ذِكرُ قصَّةِ خَلْقِ آدمَ وأمْرِ اللهِ الملائكةَ بالسُّجودِ له، وما عَرَضَ للشَّيطانِ مِن الكِبْرِ والاعتِزازِ بعُنصُرِه؛ جهلًا بأسبابِ الفضائلِ، ومُكابَرةً في الاعْتِرافِ بها، وحسَدًا في الشَّرفِ والفَضْلِ، فضرَب بذلك مَثلًا لأهلِ الضَّلالِ عَبيدِ الهَوى والكِبْرِ والحسَدِ، أعقَب تلك القِصَّةَ بقِصَّةٍ هي مَثلٌ في ضِدِّها؛ لأنَّ تَطلُّبَ ذي الفضلِ والكمالِ للازديادِ منهما وسَعْيِه للظَّفرِ بمَن يُبلِّغُه الزِّيادةَ مِن الكَمالِ، اعتِرافًا للفاضلِ بفَضيلتِه. وفي ذلك إبداءُ المقابَلةِ بين الخلقَيْن، وإقامةُ الحُجَّةِ على المماثَلةِ والمخالَفةِ بين الفريقَينِ المؤمنِين والكافِرين، وفي خلالِ ذلك تَعليمٌ وتنويهٌ بشَأنِ العِلمِ والهُدى، وتربيةٌ للمتَّقين[٢].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حينَ قال موسَى[٣] لفتاه يُوشَعَ بنِ نون[٤]: لا أزالُ

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٥/ ١٧٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٨-٣٥٩).

(٣) قال الشوكاني: (اتَّفق أهلُ العِلمِ على أنَّ موسى المذكورَ هو موسى بنُ عِمرانَ؛ النبيُّ المرسَلُ إلى فرعونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٢).

(٤) قال ابن الجوزي: (فأمَّا فتاه فهو يوشَعُ بنُ نون، مِن غيرِ خلافٍ؛ وإنَّما سُمِّي فتاه؛ لأنَّه كان يلازِمُه، ويأخذُ عنه العِلمَ ويَخدُمُه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٩٥).

أسيرُ في طَلَبِ العَبدِ الذي أخبَرَني اللهُ بعِلمِه وفَضلِه، حتى أصِلَ إلى مَوضِعِ مُلتقَى البَحرينِ الذي أعرِفُه[١] فألقاه هناك[٢].

عن عُبَيدِ اللهِ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ عُتبةَ بنِ مَسعودٍ، عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أنَّه تمارى هو والحُرُّ بنُ قَيسِ بنِ حصنٍ الفَزاريُّ في صاحِبِ موسى، فمَرَّ بهما أُبيُّ بنُ كَعبٍ، فدعاه ابنُ عبَّاسٍ فقال: إنِّي تماريتُ أنا وصاحبي هذا في صاحِبِ موسى الذي سأل السَّبيلَ إلى لُقِيِّه، هل سَمِعتَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يذكُرُ شَأنَه؟ فقال أُبيٌّ: نعم، سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَذكُرُ شأنَه يقول: ((بينَما موسَى في ملإٍ مِن بني إسرائيلَ، إذ جاءه رجُلٌ فقال: أتعلَمُ أحدًا أعلَمَ منك؟ قال موسى: لا، فأوحى اللهُ عزَّ وجَلَّ إلى موسى: بلى، عَبدُنا خَضِرٌ، فسأل السَّبيلَ إلى لُقِيِّه، فجعَلَ اللهُ له الحوتَ آيةً، وقيل له: إذا فقَدْتَ الحُوتَ فارجِعْ فإنَّك ستلقاه، فكان موسى صَلَّى اللهُ عليه يَتبَعُ أثَرَ الحوتِ في البَحرِ، فقال فتى موسى لموسى: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾، قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، فوجدا خَضِرًا، فكان من شأنِهما ما قصَّ اللهُ في كتابِه))[٣].

وقال أبو حيان: (والفتى: الشابُّ، ولَمَّا كان الخَدَمُ أكثَرَ ما يكونون فِتيانًا، قيل للخادمِ: فتًى، على جهةِ حُسنِ الأدَبِ، ونَدَبت الشريعةُ إلى ذلك؛ ففي الحديث: «لا يَقُلْ أحَدُكم: عبدي، ولا أمَتي، وليَقُلْ: فَتايَ وفتاتي»). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٨).

(١) قال الشنقيطي: (تعيينُ ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ لا دليلَ عليه من كتابٍ ولا سُنَّةٍ، وليس في معرفتِه فائِدةٌ؛ فالبَحثُ عنه تعَبٌ لا طائِلَ تحته، وليس عليه دليلٌ يجِبُ الرجوعُ إليه). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٢١).

(٣) رواه البخاري (٧٨) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

وعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: قلتُ لابنِ عَبَّاسٍ: إنَّ نَوْفًا البِكَاليَّ[١] يزعُمُ أنَّ موسى صاحِبَ الخَضِرِ ليس هو موسى صاحِبَ بني إسرائيلَ! فقال ابنُ عبَّاسٍ: كذَبَ عَدُوُّ اللهِ[٢]، حدَّثَني أُبيُّ بنُ كعبٍ أنَّه سَمِعَ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ موسى قام خطيبًا في بني إسرائيلَ، فسُئِلَ: أيُّ النَّاسِ أعلَمُ؟ فقال: أنا، فعتَب اللهُ عليه؛ إذ لم يَرُدَّ العِلمَ إليه، فأوحى اللهُ إليه: إنَّ لي عبدًا بمَجمَعِ البَحرينِ هو أعلَمُ منك...)) فذكَر الحديثَ إلى أن قال: ((رجعا يَقُصَّانِ آثارَهما حتى انتَهَيا إلى الصَّخرةِ، فإذا رجلٌ مُسجًّى[٣] ثوبًا فسَلَّمَ عليه موسى، فقال الخَضِرُ: وأنَّى بأرضِك السَّلامُ؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيلَ؟ قال: نعم، أتيتُك لتعَلِّمَني مما عُلِّمْتَ رُشدًا...)) الحديث[٤].

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾.

أي: أو أسيرَ زمانًا طَويلًا -إن لم أظفَرْ به في مجمَعِ البَحرينِ الذي أعرِفُه- حتى أجِدَه؛ لأتعَلَّمَ منه ما لا أعلَمُ[٥].

---

(١) هو نوفُ بنُ فَضالَةَ البِكالِيُّ الشَّاميُّ، ابنُ امرأةِ كعبِ الأحبارِ، قال ابنُ حجرٍ: (مستورٌ، وإنما كذَّب ابنُ عباسٍ ما رواه عن أهلِ الكتابِ). يُنظر: ((تاريخ الإسلام)) للذهبي (٢/ ١٠١٣)، ((تقريب التهذيب)) لابن حجر (ص: ٥٦٧).

(٢) قال النووي في قولِه: (كذَب عدوُّ الله): (قال العلماءُ: هو على وجهِ الإغلاظِ والزَّجرِ عن مِثلِ قَولِه، لا أنَّه يعتَقِدُ أنَّه عدوُّ الله حقيقةً، إنما قاله مبالغةً في إنكارِ قَولِه؛ لِمُخالفتِه قولَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وكان ذلك في حالِ غَضَبِ ابنِ عبَّاسٍ؛ لشدةِ إنكارِه، وحالُ الغَضَبِ تُطلَقُ الألفاظُ، ولا تُرادُ بها حقائِقُها). ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٣٧). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤١٣).

(٣) مُسَجًّى: أي: مُغَطًّى. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٢٤).

(٤) رواه البخاري (٤٧٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير))

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾.

أي: فلمَّا وصَلَ موسى وفتاه إلى مكانِ اجتِماعِ البَحرينِ نَسِيَا حوتَهما[1] الذي

(٥/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٨).

قال أبو جعفر النحَّاس: (روى عمرُو بنُ ميمون عن عبدِ الله بنِ عَمرٍو قال: الحُقُب: ثمانون سنةً... قال أبو جعفر: الذي يعرِفُه أهلُ اللغةِ أنَّ الحُقبَ والحِقبةَ: زمانٌ مِن الدَّهرِ مُبهَمٌ غيرُ مَحدودٍ). ((معاني القرآن)) (٤/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(١) قال الواحدي: (وقولُه تعالى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ إجماعُ المفسِّرين أنَّ النسيانَ هاهنا معناه: نسيانُ الفتى ذِكرَ قِصَّةِ الحوتِ لموسى، والناسي كان أحَدَهما، وأُضيف إليهما جميعًا، واختلفوا في وجهِ هذا). ((البسيط)) (١٤/ ٧٣).

وممَّا قيل في وجهِ إضافةِ النسيانِ إليهما: أنَّه إنما نُسِبَ إليهما، مع أنَّ الناسيَ له هو الفتى؛ لأنَّهما جميعًا تزوَّدا الحوتَ لسَفَرِهما. وممن قال بذلك: الثعلبي، والبغوي، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ١٨١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٩).

وقال الشنقيطي: (إنما أُسنِدَ النِّسيانُ إليهما؛ لأنَّ إطلاقَ المجموعِ مُرادًا بعضُه أسلوبٌ عربيٌّ كثيرٌ في القرآنِ وفي كلامِ العَرَبِ،... والدَّليلُ على أنَّ النِّسيانَ إنما وقع مِن فتى موسى دونَ موسَى قَولُه تعالى عنهما: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ الآية [الكهف: ٦٢، ٦٣]؛ لأنَّ قَولَ موسى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ يعني به الحوتَ، فهو يظُنُّ أنَّ فتاه لم ينْسَه، كما قاله غيرُ واحدٍ، وقد صرَّحَ فتاه بأنَّه نَسِيَه، بقولِه: ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الآية). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٢١).

وقيل: النسيانُ واقعٌ حقيقةً منهما. وممن قال بذلك: البيضاوي، والبقاعي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٦).

قال البيضاوي: (نسِيَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أن يطلُبَه ويتعَرَّفَ حالَه، ويوشَعُ أن يذكُرَ له ما

جعَلَه اللهُ علامةً على وجودِ الخَضِرِ في المكانِ الذي يَفقِدانِه فيه[١].

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾.

أي: فشقَّ الحوتُ طريقَه الذي سلَكَه في البَحرِ نفقًا ظاهرًا في الماءِ، لا يَلتَئِمُ بعده[٢]!

رأى من حياتِه ووقوعِه في البَحرِ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٦). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٦).

وقال ابنُ عاشور: (ومعنى نسيانِهما أنَّهما نَسِيَا أن يُراقِبا حالَه: أباقٍ هو في مِكْتَلِه حينئذٍ، حتى إذا فقداه في مقامِهما ذلك تحقَّقا أنَّ ذلك الموضِعَ الذي فقداه فيه هو الموضِعُ المؤقَّتُ لهما بتلك العلامةِ؛ فلا يزيدان تعبًا في المشيِ؛ فإسنادُ النسيانِ إليهما حقيقةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٦).

وقال الشوكاني: (قال المفسِّرون: إنَّهما تزوَّدا حوتًا مُملَّحًا في زنبيلٍ [أي: قُفَّة]، وكانا يصيبانِ منه عندَ حاجتِهما إلى الطعامِ، وكان قد جعل اللهُ فقدانَه أمارةً لهما على وِجدانِ المطلوبِ... فلمَّا انتَهَيا إلى ساحِلِ البحرِ وضَعَ فتاه المِكتَلَ الذي فيه الحوتُ، فأحياه اللهُ، فتحَرَّك واضطربَ في المِكتَل، ثم انسربَ في البحرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٢، ٣٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٥، ٣٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٩).

قال ابنُ عطية: (الذي ورد في الحديثِ عن النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقاله جمهورُ المفسِّرينَ: أنَّ الحوتَ بَقِيَ موضِعُ سُلوكِه فارِغًا). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٨).

قال الواحدي: (في نظمِ الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ على تقديرِ: فلمَّا بلَغا مجمعَ بينِهما اتَّخذَ الحوتُ سبيلَه في البحرِ سربًا، ونسِي يوشعُ أن يذكرَ ذلك لموسَى؛ لأنَّ النسيانَ لم يتقدَّمْ على ذهابِ الحوتِ). ((البسيط)) (١٤/ ٧٢). ويُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٧).

وفي حديثِ قِصَّةِ موسى والخَضِرِ: ((وتَضَرَّبَ[١] الحوتُ حتى دخل البَحرَ[٢]، فأمسك اللهُ عنه جَريةَ البَحرِ، حتى كأنَّ أثَرَه في حَجَرٍ -قال لي عَمرٌو[٣]-: هكذا كأنَّ أثَرَه في حَجَرٍ، وحَلَّقَ بين إبهامَيه واللَّتَينِ تليانِهما))[٤].

وفي لفظٍ آخَرَ: ((... أوحى اللهُ إليه: إنَّ لي عبدًا بمَجمَعِ البَحرينِ هو أعلَمُ منك، قال موسى: يا ربِّ فكيف لي به، قال: تأخُذُ معك حوتًا فتَجعَلُه في مِكتَلٍ[٥]، فحيثما فقدْتَ الحوتَ فهو ثَمَّ، فأخذ حوتًا فجعله في مِكتَلٍ، ثم انطلق وانطلَقَ معه بفتاه يوشَعَ بنِ نون، حتى إذا أتيا الصخرةَ وَضَعا رؤوسَهما فناما، واضطرب الحوتُ في المِكتَل، فخرج منه فسَقَط في البَحرِ، ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾، وأمسك اللهُ عن الحوتِ جريةَ الماءِ، فصار عليه مِثلَ الطَّاقِ[٦]، فلمَّا استيقظ نَسِيَ صاحِبُه أن يخبِرَه بالحوتِ، فانطلقا بقيَّةَ يَومِهما وليلَتَهما))[٧].

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾.

أي: فلمَّا جاوز موسى وفتاه مجْمَعَ البَحرينِ الذي نسِيا فيه الحوتَ، قال

---

(١) تضَرَّب: أي: اضطرَبَ سائِرًا. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٢٣).

(٢) قال البخاري: (قالَ سفيانُ [أي: ابن عيينة]: وفي حديثِ غيرِ عمرٍو [أي: ابن دينار]، قالَ: وفي أصلِ الصَّخرَةِ عينٌ يُقالُ لها: الحياةُ لا يُصيبُ مِنْ مائِها شيءٌ إلَّا حَيِيَ، فأصابَ الحوتَ مِنْ ماءِ تلكَ العينِ). ((صحيح البخاري)) (٦/ ٩٢) (٤٧٢٧). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤١٥).

(٣) أي قال عمرُو بنُ دينارٍ لابنِ جريجٍ.

(٤) رواه البخاري (٤٧٢٦) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديثِ أبيِّ بنِ كعب رضي الله عنه.

(٥) مِكتَلٍ: أي: قُفَّةٍ كبيرةٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٤٦٨).

(٦) الطاقُ: أي: الكَوَّةِ والنَّفَقِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٥١).

(٧) رواه البخاري (٤٧٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

موسى لفتاه: أحضِرْ طعامَنا[١] لنأكُلَ منه فنتقَوَّى به[٢].

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

أي: لقد وجَدْنا في سَفَرِنا هذا تعبًا ومَشقَّةً[٣].

وفي قصةِ موسى والخضرِ من حديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ رضي اللهُ عنه: ((قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، قال: ولم يجِدْ موسى النَّصَبَ حتى جاوَزا المكانَ الذي أمَرَ الله به))[٤]!

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾.

---

(١) قال أبو السعود: (﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ أي: ما نتغدَّى به، وهو الحوتُ كما ينبئُ عنه الجوابُ). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٧).

قال البقاعي: (وكأنَّ المَجمَع كان ممتدًّا، فظنَّ موسى عليه السَّلامُ أنَّ المطلوبَ أمامَه، أو ظَنَّ أنَّ المرادَ مجمَعٌ آخَرُ، فسار). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١).

قال الشوكاني: (قال المفسِّرون: الإشارةُ بقَولِه: ﴿سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ إلى السَّفَرِ الكائِنِ منهما بعدَ مجاوزةِ المكانِ المذكورِ؛ فإنَّهما لم يَجِدا النَّصَبَ إلَّا في ذلك دونَ ما قَبلَه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٣). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٢).

قال الألوسي: (الحِكمةُ في حُصولِ الجوعِ والتَّعَبِ له حين جاوز: أن يَطلُبَ الغداءَ فيَذكُرَ الحوتَ، فيرجِعَ إلى حيثُ يجتَمِعُ بمرادِه). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٢٩٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٦).

(٤) رواه البخاري (٤٧٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

أي: قال يُوشَعُ لموسى: أرأيتَ حينَ أقَمْنا عندَ الصَّخرةِ التي في مَجمَعِ البَحرينِ، فإنِّي نَسِيتُ الحوتَ في ذلك المكانِ[١]!

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ رضي اللهُ عنه: ((قال: فبينما هو في ظِلِّ صَخرةٍ في مكانٍ ثَرْيانَ[٢]، إذ تضرَّبَ الحوتُ وموسى نائمٌ، فقال فتاه: لا أوقِظُه، حتى إذا استيقظ نَسِيَ أن يخبِرَه، وتضرَّبَ الحوتُ حتى دخل البحرَ، فأمسك اللهُ عنه جَريةَ البَحرِ، حتى كأنَّ أثَرَه في حَجَرٍ))[٣].

وفي روايةٍ: ((قال: فانطلق هو وفتاه حتى انتَهَيا إلى الصَّخرةِ، فعُمِّيَ عليه، فانطلق وترك فتاه، فاضطرب الحوتُ في الماء، فجعل لا يلتَئِمُ عليه، صار مِثلَ الكَوَّةِ، قال فقال فتاه: ألا ألحَقُ نبيَّ الله فأخبِرَه؟ قال: فنُسِّيَ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٠، ١١١).

قال الماوردي: (﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ فيه وجهانِ: أحدُهما: فإني نسيتُ حَملَ الحوتِ. الثاني: فإنِّي نسيتُ أن أخبِرَك بأمرِ الحوتِ). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٢٤).

وقال ابن عثيمين: (﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ يعني: نَسِيتُ أن أتفَقَّدَه أو أسعى في شأنِه أو أذكُرَه لك، وإلَّا فالحوتُ معروفٌ كان في المِكتَلِ). ((تفسير ابن عثيمين-سورة الكهف)) (ص: ١١١).

وقال الزمخشري: (﴿أَرَءَيْتَ﴾ بمعنى: أخبِرْني. فإن قلتَ: ما وجهُ التئامِ هذا الكلامِ؛ فإنَّ كُلَّ واحدٍ مِن ﴿أَرَءَيْتَ﴾ و ﴿إِذْ أَوَيْنَآ﴾ و ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ لا مُتعَلَّقَ له؟ قلتُ: لَمَّا طلَبَ موسى عليه السَّلامُ الحوتَ، ذكَرَ يوشَعُ ما رأى منه وما اعتراه مِن نسيانِه إلى تلك الغايةِ، فدُهِشَ وطَفِقَ يسألُ موسى عليه السَّلامُ عن سبب ذلك، كأنَّه قال: أرأيتَ ما دهاني إذ أوَينا إلى الصَّخرةِ؟! فإني نَسِيتُ الحوتَ، فحُذِفَ ذلك). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٣).

وممَّن ذهب إلى قولِ الزمخشري هاهنا في الحذفِ وتقديره: أبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٣).

(٢) ثَرْيان: أي: في ترابِه بلَلٌ ونَدى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢١١).

(٣) رواه البخاري (٤٧٢٦).

(٤) رواه مسلم (٢٣٨٠).

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾.

أي: وما أنساني أن أذكُرَ الحُوتَ إلَّا الشَّيطانُ[١].

وفي حديثِ قِصَّةِ موسى والخَضِر: ((ذكَّر -أي: موسى عليه السَّلامُ- النَّاسَ يومًا حتى إذا فاضت العيونُ، ورَقَّت القلوبُ، ولَّى، فأدركه رجلٌ فقال: أيْ رسولَ اللهِ، هل في الأرضِ أحَدٌ أعلَمُ منك؟ قال: لا، فعَتَب عليه؛ إذْ لم يرُدَّ العِلمَ إلى اللهِ، قيل: بلى، قال: أيْ رَبِّ، فأين؟ قال: بمجمَعِ البَحرينِ، قال: أيْ ربِّ، اجعَلْ لي عِلمًا أعلَمُ ذلك به -فقال لي عمرو[٢]- قال: حيث يفارِقُك الحوتُ -وقال لي يَعلى[٣]- قال: خُذْ نونًا[٤] ميِّتًا، حيث يُنفَخُ فيه الرُّوحُ، فأخذ حوتًا فجعَلَه في مِكْتَلٍ، فقال لِفَتاه: لا أكلِّفُك إلَّا أن تخبِرَني بحيث يفارِقُك الحوتُ، قال: ما كَلَّفْتَ كثيرًا؛ فذلك قولُه جلَّ ذِكرُه: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ يُوشَعَ بنِ نونٍ))[٥].

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾.

أي: واتَّخَذ الحوتُ طريقَه الذي سلَكه في البحرِ عجبًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١).

(٢) هو عمرُو بنُ دينارٍ، أحدُ رواةِ الحديثِ.

(٣) هو يعلَى بنُ مسلمٍ، أحدُ رواةِ الحديثِ.

(٤) نونًا: أي: حُوتًا. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ١٣١).

(٥) رواه البخاري (٤٧٢٦) من حديث أُبيٍّ رضي الله عنه.

(٦) ينظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٩).

ممن اختار هذا المعنى، وهو أنَّ الضمير في (اتَّخذ) يعودُ على الحوتِ، أي: اتَّخَذَ الحوتُ سبيلَه في البحرِ: الزجَّاج، والواحدي، والكرماني، والرسعني، وأبو حيان، والبقاعي، وأبو السعود، والسعدي، وابن عاشور. ينظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٠٠)، ((البسيط))

للواحدي (١٤/ ٧٨)، ((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) للكرماني (١/ ٦٦٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٧).

وهذا الكلامُ هو مِن تتمَّةِ كلامِ فتَى موسَى عليه السلامُ (يوشع)، وممن اختارَ هذا القولَ، ونصَّ عليه: الزجاجُ، والواحدي، والكرماني، والرسعني، وأبو حيان، وابنُ عاشور.

قال الألوسي: (﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ الظاهرُ الذي عليه أكثرُ المفسرينَ أنَّ مجموعَه كلامُ يوشعَ، وهو تتمةٌ لقولِه: ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ وفيه إنباءٌ عن طرفٍ آخرَ مِن أمرِه، وما بينَهما اعتراضٌ قُدِّم عليه؛ للاعتناءِ بالاعتذارِ، كأنَّه قيل: حَيِي واضطربَ ووقَع في البحرِ، واتَّخذ سبيلَه فيه سبيلًا عجبًا). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٠٠).

قال ابنُ عطية: (ويحتملُ أن يكونَ قولُه: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ...﴾ الآيةَ إخبارًا مِن الله تعالى، وذلك على وجهينِ: إمَّا أن يخبرَ عن موسَى أنَّه اتَّخذَ سبيلَ الحوتِ مِن البحرِ عجبًا، أي: تعجَّب منه، وإمَّا أن يخبرَ عن الحوتِ أنَّه اتَّخذَ سبيلَه عجبًا للناسِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٩).

وممن اختار أنَّ موسَى هو الذي اتَّخذَ سبيلَ الحوتِ مِن البحرِ عجبًا، أي: تعجَّب منه: مقاتلُ ابنُ سليمانَ، والفرَّاءُ. ينظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٩٤)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٥٤). ويُنظر أيضًا: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ٣٠٠).

وقيل: اتَّخذ موسَى عليه السلام سبيلَ الحوتِ في البحرِ، أي: دخل في مدخَلِه فرأى الخَضِرَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٩٧)، ((التبصرة)) لابن الجوزي (١/ ٢٣٩).

قال القرطبي: (جمهورُ المفسِّرينَ أنَّ الحوتَ بقِي موضعُ سلوكِه فارغًا، وأنَّ موسَى مشَى عليه متَّبِعًا للحوتِ، حتَّى أفضَى به الطريقُ إلى جزيرةٍ في البحرِ، وفيها وجَد الخضرُ. وظاهرُ الرواياتِ والكتابِ أنَّه إنَّما وجَد الخضرَ في ضفَّةِ البحرِ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٦٨).

وقوله: ﴿عَجَبًا﴾ قيل: صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، أي: اتخاذًا عجبًا، أو: مصدرُ فعلٍ محذوفٍ، أي: أتعجَّبُ منه عجبًا. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٧).

قال ابنُ عادل: (﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ ووجهُ كونِه عجبًا: انقلابُه مِن المكتلِ، وصيرورتُه حيًّا، وإلقاءُ نفسِه في البحرِ على غفلةٍ منهما، ويكون المرادُ منه ما ذكرنا أنَّه تعالى جعَل الماءَ عليه كالطَّاقِ والسَّرَبِ. وقيل: تمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، ثم قال: ﴿عَجَبًا

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ بن كعب رضي الله عنه: ((... واضطربَ الحوتُ في المِكتَلِ، فخرج منه فسقَطَ في البَحرِ، ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾، وأمسك اللهُ عن الحوتِ جَريةَ الماء، فصار عليه مِثلَ الطَّاقِ... قال: فكان للحُوتِ سَرَبًا، ولموسى ولفتاه عجَبًا))[1].

وفي حديث أبيٍّ بنِ كعبٍ أيضًا، في روايةٍ: ((ولم يَجِدْ موسَى النَّصَبَ حتَّى جاوَز حيثُ أمَرَه اللَّهُ، قالَ له فَتاهُ: ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾ فكانَ للحُوتِ سَرَبًا، ولهما عَجَبًا))[2].

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ﴾.

أي: قال موسى لفتاه: فقْدُ الحوتِ هو ما نَطلُبُه في سَفَرِنا؛ حيث نَجِدُ الرجُلَ الذي نبحَثُ عنه في المكانِ الذي فقَدْنا فيه الحوتَ[3].

﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾.

﴾ أي: أنَّه يعجبُ مِن رؤيةِ تلك العجيبةِ، ومِن نسيانِه لها). ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ٥٢٨).
وقيل: يحتملُ أن يكونَ قولُه: ﴿عَجَبًا﴾ مِن كلامِ موسَى عليه السلامُ، أجاب به فتاه، كأنَّه قال: أعجبُ عَجَبًا. ينظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٠٠).

(١) رواه البخاري (٤٧٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١١).
قال الرازي: (وقولُه: ﴿نَبۡغِ﴾ أصلُه «نَبْغِي»، فحُذِفَتِ الياءُ طلبًا للتَّخفيفِ؛ لدلالةِ الكسرةِ عليه). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٨١).

أي: فرجَعَ موسى وفتاه من الطريقِ الذي أتَيَا منه يتتبَّعانِ آثارَ سَيرِهما؛ لِيَصِلا إلى الصَّخرةِ التي فقدا الحوتَ عندها[١].

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيِّ بن كعبٍ: ((... فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾، قال: رجعا يقُصَّانِ آثارَهما...))[٢].

﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾.

﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾.

أي: فوجد موسى وفتاه عندَ الصَّخرةِ عَبدًا مِن عبادِ اللهِ -وهو الخَضِرُ[٣]-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٨).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

(٣) قال الشنقيطي: (هذا العبدُ المذكورُ في هذه الآيةِ الكريمةِ هو الخَضِرُ عليه السَّلامُ، بإجماعِ العُلَماءِ، ودلالةِ النُّصوصِ الصَّحيحةِ على ذلك من كلامِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٢٢).

وقال ابنُ تيمية: (أجمع المسلمونَ على أنَّ موسى أفضَلُ مِن الخَضِر). ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (١/ ١١٣).

وقال الشنقيطي: (هذه الرحمةُ والعِلمُ اللدُنِّي اللذان ذكَرَ اللهُ امتنانَه عليه بهما لم يبيِّنْ هنا: هل هما رحمةُ النبُوَّة وعِلمُها، أو رحمةُ الولاية وعِلمُها). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٢٢).

فقيل: الخَضِرُ نبيٌّ مِن الأنبياءِ، وممَّن رجَّح ذلك: القرطبي -ونسَب هذا القولَ إلى الجُمهورِ- وابنُ كثير، وابنُ حجرٍ العسقلاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٢٤٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٤٤٣)، ((الزهر النضر في حال الخضر)) لابن حجر (ص: ٦٦، ٦٧، ١٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٢٦).

وممَّن قال مِن السلفِ: إنَّ الخضرَ كان نبيًّا: ابنُ عبَّاسٍ، وعكرمةُ، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٩٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٤٢٥).

قال الشنقيطي: (يُفهَمُ مِن بعض الآياتِ أنَّ هذه الرَّحمةَ المذكورةَ هنا رحمةُ نبوَّةٍ، وأنَّ هذا العِلمَ اللدُنِّي علمُ وحيٍ... اعلم أولًا أنَّ الرحمةَ تكرَّر إطلاقُها على النبوَّةِ في القرآنِ، وكذلك العِلمُ

المؤتى مِن الله تكرَّر إطلاقُه فيه على عِلمِ الوحيِ؛ فمن إطلاقِ الرحمةِ على النبوَّةِ قَولُه تعالى في «الزخرف»: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢]، أي: نبوَّته... ومن إطلاقِ إيتاءِ العِلمِ على النبوَّةِ قَولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وقولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ الآية، إلى غير ذلك من الآياتِ... ومن أظهَرِ الأدلَّةِ في أنَّ الرحمةَ والعِلمَ اللدُنِّي اللَّذينِ امتنَّ الله بهما على عَبدِه الخَضِرِ، عن طريقِ النبوَّةِ والوحيِ- قَولُه تعالى عنه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]، أي: وإنما فعلتُه عن أمرِ اللهِ جَلَّ وعلا، وأمْرُ اللهِ إنما يتحَقَّقُ عن طريقِ الوَحيِ؛ إذ لا طريقَ تُعرَفُ بها أوامِرُ الله ونواهيه إلَّا الوحيُ من الله جلَّ وعلا، ولا سيَّما قَتلُ الأنفُسِ البريئةِ في ظاهرِ الأمر، وتعييبُ سُفُنِ الناس بخَرقِها؛ لأنَّ العُدوانَ على أنفُسِ الناسِ وأموالِهم لا يصِحُّ إلا عن طريق الوحيِ مِن الله تعالى، وقد حصر تعالى طرُقَ الإنذارِ في الوحيِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، و «إنما» صيغةُ حصر... وبهذا كلِّه تعلَمُ أنَّ قَتلَ الخَضِرِ للغلامِ، وخَرْقَه للسفينةِ، وقَولَه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾؛ دليلٌ ظاهِرٌ على نبوَّتِه.

وعزا الفخرُ الرازي في تفسيرِه القَولَ بنبوَّتِه للأكثرين، وممَّا يُستأنَسُ به للقَولِ بنبوَّتِه تواضُعُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ له في قولِه: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، وقَولِه: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِنْ شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾، معَ قولِ الخضِرِ له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾. ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٢٣- ٣٢٦).

وقيل: إنَّ الخَضِرَ عبدٌ صالحٌ وليس نبيًّا، وممَّن ذهَب إلى ذلك: البغَويُّ -ونسَب هذا القولَ إلى أكثَرِ أهلِ العلم- والقنُّوجي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير القنوجي)) (٨/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٢).

قال السعدي: (العبدُ الذي لَقِياه ليس نبيًّا، بل عبدٌ صالحٌ؛ لأنَّه وصَفَه بالعبوديَّة، وذَكَر منَّةَ الله عليه بالرحمةِ والعلمِ، ولم يذكُرْ رسالتَه ولا نبوَّتَه، ولو كان نبيًّا لذَكَر ذلك كما ذكَرَ غيرَه. وأمَّا قولُه في آخِرِ القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ فإنَّه لا يدُلُّ على أنه نبيٌّ، وإنما يدلُّ على الإلهامِ والتحديثِ، كما يكونُ لغير الأنبياءِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]. ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٤). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٣٨).

وهَبْنا له مِن عِندِنا رَحمةً واسعةً عَظيمةً[١].

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ رضي الله عنه: ((... فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، قال: رجعا يقُصَّانِ آثارَهما حتى انتَهَيا إلى الصَّخرةِ، فإذا رجلٌ مُسجَّى ثوبًا، فسَلَّمَ عليه موسى))[٢].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((إنَّما سُمِّي الخَضِرَ؛ أنَّه جلَس على فَروةٍ بَيضاءَ، فإذا هي تهتَزُّ مِن خَلفِه خَضراءَ))[٣].

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

وقال ابنُ عاشور: (اتفق الناسُ على أنَّه كان من المعَمَّرين، ثم اختلفوا في أنَّه لم يزَلْ حيًّا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٣).

وقال الشنقيطي: (اعلَمْ أنَّ العُلَماءَ اختلفوا في الخَضِر: هل هو حيٌّ إلى الآن أو هو غيرُ حيٍّ، بل ممَّن مات فيما مضى من الزمانِ؟ فذهب كثيرٌ مِن أهل العلم إلى أنَّه حيٌّ، وأنَّه شَرِبَ مِن عينٍ تُسَمَّى عينَ الحياةِ، وممَّن نصر القولَ بحياتِه القرطبيُّ في «تفسيره»، والنوويُّ في «شرح مسلم»، وغيره، وابنُ الصلاح، والنقَّاش، وغيرهم... قال مقيِّدُه [الشنقيطي] عفا الله عنه: الذي يظهَرُ لي رُجحانُه بالدليلِ في هذه المسألةِ: أنَّ الخَضِرَ ليس بحيٍّ، بل توفِّيَ؛ وذلك لعِدَّةِ أدِلَّةٍ...). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٢٦-٣٣٨).

وقال ابنُ تيميةَ: (والذي عليه سائرُ العلماءِ المحقِّقينَ أنَّه مات). ((منهاج السنة النبوية)) (٤/ ٩٣).

ويُنظر: ((الموضوعات)) لابن الجوزي (١/ ١٩٣ - ١٩٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ١٠٠- ١٠٢)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ١٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٤)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٢٥٠ - ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٣٤)، ((الزهر النضر)) لابن حجر (ص: ٨٦- ١٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٨).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

(٣) رواه البخاري (٣٤٠٢).

أي: وعَلَّمْنا عَبْدَنا الخَضِرَ مِن عِندِنا عِلمًا نافِعًا خَصَصْناه به، ومن ذلك ما أطلَعَه اللهُ عليه مِن عِلمِ الغَيبِ[١].

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ رضي الله عنه: ((... قال له الخَضِر: يا موسى، إنَّك على عِلمٍ مِن عِلمِ اللهِ عَلَّمَكَه اللهُ لا أعلَمُه، وأنا على علمٍ مِن عِلمِ اللهِ عَلَّمَنيه اللهُ لا تَعلَمُه... قال: ووقع عُصفورٌ على حَرفِ السَّفينةِ فغَمَس مِنقارَه في البَحرِ، فقال الخَضِرُ لموسى: ما عِلمُك وعِلمي وعِلمُ الخلائِقِ في عِلمِ اللهِ إلَّا مِقدارُ ما غَمَس هذا العُصفورُ مِنقارَه!!))[٢].

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾.

أي: قال موسى للخَضِرِ: هل أصحَبُك لتعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمَك اللهُ عِلمًا أهتدي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الكهف)) (ص: ١١٢).
قال ابن القيم: (العِلمُ اللدُنِّي: هو العِلمُ الذي يقذِفُه الله في القَلبِ إلهامًا بلا سبَبٍ مِن العبدِ، ولا استدلالٍ؛ ولهذا سُمِّيَ لدُنيًّا). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٣٩٩).
وقال القاسمي: (دلَّ قَولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ على أنَّ مِن العِلمِ عِلمًا غَيبيًّا -وهو المسمَّى بالعِلمِ اللدُنِّي- فالآيةُ أصلٌ فيه). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٦١).
وقال السعدي: (كان قد أُعطِيَ من العلمِ ما لم يُعطَ موسى، وإن كان موسى عليه السَّلامُ أعلَمَ منه بأكثَرِ الأشياء، وخصوصًا في العلومِ الإيمانيَّة والأصوليَّة؛ لأنَّه مِن أولي العَزمِ مِن المُرسَلينَ، الذين فضَّلَهم اللهُ على سائرِ الخَلقِ بالعِلمِ والعَمَلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١).
وقال ابنُ عثيمين: (﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ يعني: عِلمًا لا يطَّلِعُ عليه الناس، وهو عِلمُ الغيب في هذه القصَّة المعيَّنة، وليس علمَ نبوَّة، ولكِنَّه علمٌ خاصٌّ؛ لأنَّ هذا العلمَ الذي اطَّلع عليه الخَضِرُ لا يمكِنُ إدراكُه، وليس شيئًا مبنيًّا على المحسوس، فيُبنى المستقبَلُ على الحاضر، بل شيءٌ من الغائب، فأطلَعَه الله تعالى على معلوماتٍ لا يطَّلِعُ عليها البشَرُ). ((تفسير ابن عثيمين-سورة الكهف)) (ص: ١١٢). وهذا القولُ بناءً على أنَّه عبدٌ صالحٌ، وليس بنبيٍّ.

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٧) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

به إلى الصَّوابِ[(١)]؟

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ: ((... أتيتُك لتعَلِّمَني مما عُلِّمْتَ رُشدًا، قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يا موسى، إنِّي على عِلمٍ مِن عِلمِ اللهِ عَلَّمَنيه لا تَعلَمُه أنت، وأنت على علمٍ مِن عِلمِ اللهِ عَلَّمَكَه اللهُ لا أعلَمُه))[(٢)].

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾.

أي: قال الخَضِرُ لموسى: إنَّك لن تُطيقَ الصَّبرَ على اتِّباعي؛ لِما تراه مِن أفعالي التي ظاهِرُها مُنكَرٌ، وباطِنُها بخلافِ ذلك[(٣)].

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾.

أي: وكيف تَصبِرُ -يا موسى- على إقراري على فِعلِ ما تظنُّه مُنكَرًا، وأنت لا تعلَمُ وَجهَ صَوابِه، ولا الحِكمةَ مِن فِعلي له، ولا مَصلحَتَه الباطِنةَ التي أُطلِعْتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١).

قال ابنُ عاشور: (هذا العِلمُ الذي سأل موسى تعَلُّمَه هو مِن العِلمِ النافِعِ الذي لا يتعَلَّقُ بالتشريعِ للأمةِ الإسرائيلية؛ فإنَّ موسى مستغنٍ في علمِ التشريعِ عن الازديادِ إلَّا من وحي الله إليه مباشرةً؛ لأنَّه لذلك أرسله، وما عدا ذلك لا تقتضي الرسالةُ عِلمَه... وإنما رام موسى أن يعلَمَ شَيئًا من العلم الذي خَصَّ الله به الخَضِرَ؛ لأنَّ الازديادَ من العلوم النافعة هو من الخيرِ، وقد قال الله تعالى تعليمًا لنبيِّه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. وهذا العِلمُ الذي أوتِيَه الخَضِرُ هو عِلمُ سياسةٍ خاصَّةٍ غيرِ عامَّةٍ تتعَلَّقُ بمعيَّنينَ لجلبِ مصلحةٍ أو دفعِ مَفسدةٍ، بحسَبِ ما تهيِّئُه الحوادِثُ والأكوانُ، لا بحسَبِ ما يناسِبُ المصلحةَ العامةَ، فلعَلَّ الله يسَّرَه لنَفعِ مُعَيَّنين من عندِه، كما جعل محمدًا صلَّى الله عليه وآله وسلَّم رحمةً عامَّةً لكافَّةِ الناس، ومن هنا فارقَ سياسةَ التشريعِ العامَّة). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٠).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

عليها دونَك[١]؟!

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه: ((﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ شيءٌ أُمِرتُ به أن أفعَلَه، إذا رأيتَه لم تَصبِرْ))[٢].

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ٦٩﴾.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾.

أي: قال موسى للخَضِر: ستَجِدُني -إن شاء اللهُ- صابِرًا على ما أرى منك، وإن كان على خلافِ ما أراه صَوابًا[٣].

﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾.

أي: ولا أخالِفُك في أيِّ شَيءٍ تأمُرُني به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٢) رواه مسلم (٢٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٤).

قال الرسعني: (﴿قَالَ﴾ حرصًا على طلبِ الزيادةِ في العلمِ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ عن الإنكارِ والسؤالِ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٢٦).

وقال البغوي: (إنَّما استثنَى؛ لأنَّه لم يثِقْ مِن نَفسِه بالصَّبرِ). يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٦).

وقيل: علَّقه على المشيئةِ حينَ رأَى ذلك العالمَ الكاملَ قد نفَى عنه وصفَ الاستطاعةِ بقولِه: ﴿لَن تَسْتَطِيعَ﴾. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٢٦).

وقيل: علَّقه بمشيئةِ الله؛ لئلَّا يكونَ ذلك اعتزازًا بنفسِه، وإعجابًا بها. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨١).

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠ ﴾.

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ ﴾.

أي: قال الخَضِرُ لموسى: فإنْ صَحِبْتَني فلا تبتَدِئْني بالسُّؤالِ عن أيِّ شَيءٍ أفعَلُه مِمَّا تَستَنكِرُه[1].

﴿ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾.

أي: لا تَسأَلْني أبدًا إلى أن أُخبِرَك عن سَبَبِ فِعلي الذي تَستَنكِرُه، وأبَيِّنَ لك حقيقَتَه، ووجهَ صَوابِه[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَال الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ... ﴾ فموسَى عليه السلامُ رحَل مسافةً طويلةً، ولقِي النَّصَبَ في طلبِ العلمِ، وفي ذلك دَليلٌ على فضيلةِ العلمِ، والحَثِّ على الرِّحلةِ في طَلَبِه[3]، واغتنامِ لِقاءِ الفُضَلاءِ والعُلَماءِ وإن بَعُدت أقطارُهم، وذلك كان دأبَ السَّلَفِ الصَّالحِ، وبسبَبِ ذلك وصلَ المرتَحِلونَ إلى الحَظِّ الرَّاجِحِ، وحصَلوا على السَّعيِ النَّاجِحِ، فرسَخَت لهم في العُلومِ أقدامٌ، وصَحَّ لهم مِن الذِّكرِ والأجرِ والفَضلِ أفضَلُ الأقسامِ؛ قال البخاريُّ[4]: ورحل جابرُ بنُ عبدِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٥٨)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٤، ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٤) ((صحيح البخاري)) (كتاب العلم، باب الخروجِ في طلبِ العلمِ). قبل حديث (٧٨).

مَسيرةَ شَهرٍ إلى عبدِ اللهِ بنِ أُنَيسٍ في حديثٍ[١]!

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ هذا إخبارٌ مِن موسى بأنَّه وطَّن نَفسَه على تحمُّلِ التَّعَبِ الشَّديدِ والعَناءِ العَظيمِ في السَّفَرِ لأجلِ طَلَبِ العِلمِ، وذلك تنبيهٌ على أنَّ المتعَلِّمَ لو سافرَ مِن المَشرِقِ إلى المَغربِ لطَلَبِ مَسألةٍ واحدةٍ، لَحَقَّ له ذلك[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ... ﴾ رحَل موسَى عليه السلامُ لطلبِ العلمِ، وترَك القعودَ عندَ بني إسرائيلَ؛ لتعليمِهم وإرشادِهم، وفي ذلك دليلٌ على البداءةِ بالأهمِّ فالأهمِّ؛ فإنَّ زيادةَ العلمِ، وعلم الإنسانِ: أهمُّ مِن تركِ ذلك، والاشتغالِ بالتعليمِ مِن دونِ تزوُّدٍ مِن العلمِ، والجمعُ بينَ الأمرينِ أكملُ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ فيه أنَّ المُسافِرَ لطَلَبِ عِلمٍ أو جِهادٍ أو نحوِه، إذا اقتَضَت المَصلحةُ الإخبارَ بمَطلَبِه، وأين يُريدُه، فإنَّه أكمَلُ مِن كَتمِه؛ فإنَّ في إظهارِه فوائِدَ، مِن الإعدادِ له عُدَّتَه، وإتيانِ الأمرِ على بصيرةٍ، وإظهارِ شَرَفِ هذه العبادةِ الجَليلةِ[٤].

٥- إسنادُ النِّسيانِ إليهما في قولِه تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ حقيقةٌ -على أحد القولين-؛ لأنَّ يوشَعَ وإن كان هو الموكَّلَ بحِفظِ الحوتِ، فكان عليه مراقبَتُه، إلَّا أنَّ موسى هو القاصِدُ لهذا العَمَلِ، فكان يُهِمُّه

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَعهُّدُه ومراقَبتُه؛ وهذا يدُلُّ على أنَّ صاحِبَ العَمَلِ أو الحاجةِ إذا وكَلَه إلى غيرِه، لا ينبغي له تَركُ تعَهُّدِه[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾ فيه استحبابُ إطعامِ الإنسانِ خادِمَه مِن مأكَلِه، وأكلِهما جميعًا؛ لأنَّ ظاهِرَ قَولِه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ إضافةً إلى الجَميعِ: أنَّه أكل هو وخادِمُه جميعًا[٢].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾ فيه أنَّ المعونةَ تَنزِلُ على العَبدِ على حَسَبِ قيامِه بالمأمورِ به، وأنَّ الموافِقَ لأمرِ اللهِ يُعانُ ما لا يُعانُ غَيرُه[٣]، فقد قال أهلُ العلمِ: إنَّ هذا مِن آياتِ الله؛ فقد سارا قبلَ ذلك مسافةً طويلةً ولم يتعَبا، ولمَّا جاوزا المكانَ الذي فيه الخَضِرُ، تعِبا سريعًا مِن أجلِ ألا يتمادَيا في البعدِ عن المكانِ[٤]؛ لأنَّ الله ميسرٌ أسبابَ الامتثالِ لأوليائِه[٥].

٨- لَمَّا سافَرَ موسَى إلى الخَضِرِ وجَدَ في طريقِه مَسَّ الجُوعِ والنَّصَبِ، فقال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾ فإنَّه سفرٌ إلى مخلوقٍ، ولَمَّا واعده ربُّه ثلاثين ليلةً وأتمَّها بعشرٍ، فلم يأكُلْ فيها، لم يجِدْ مَسَّ الجوعِ ولا النَّصَبِ؛ فإنَّه سفرٌ إلى رَبِّه تعالى. وهكذا سَفَرُ القلبِ وسَيرُه إلى رَبِّه؛ لا يجِدُ فيه مِن الشَّقاءِ والنَّصَبِ ما يجِدُه في سَفَرِه إلى بعضِ المخلوقينَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٢).

(٦) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢٠٣).

٩- في قولِه: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ حُسنُ أدَبٍ؛ حيثُ نسَب النِّسيانَ إلى المتسبِّبِ فيه بوَسْوستِه[1]، وهو الشيطانُ، فمِن وسوستِه أن يشغَلَ القلبَ بحديثِه حتى ينسيَه ما يريدُ أن يفعلَه، ولهذا يُضاف النسيانُ إليه إضافتَه إلى سببِه[2]، والشرُّ وأسبابُه وسائرُ الأمورِ المكروهةِ تُنسَبُ إلى الشيطانِ؛ تأدُّبًا عن نسبتِها إلى اللهِ تعالى، وإن كان الكُلُّ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه[3].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فيه دليلٌ على التواضُعِ للعالِمِ[4]، فموسَى عليه السلامُ راعى في ذلك غايةَ التَّواضُعِ والأدَبِ، فاستجهَل نفْسَه، واستأذَن أن يَكونَ تابِعًا له، وسأَل مِنه أن يُرشِدَه ويُنعِمَ عليه بتَعليمِ بعضِ ما أنعَم اللهُ عليه[5].

١١- قال قتادة: (لو كان أحدٌ يكتفي مِن العِلمِ بشَيءٍ، لاكتفى موسى عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٢).
وقيل: إنَّما نسَبه إلى الشَّيطانِ هَضمًا لنَفسِه، أو: لأنَّ عدَمَ احتِمالِ القوَّةِ للجانِبَينِ، واشتِغالَها بأحَدِهما عن الآخَرِ يُعَدُّ مِن نُقصانِ نفسِه. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).
قال الشنقيطي: (الصَّحيح عندَ علماءِ السَّلفِ أنَّ حقيقةَ النِّسيانِ والإنساءِ والتَّذكيرِ والتَّذكُّرِ كحقيقةِ أيِّ معنًى مِنَ المعاني، وأنَّها كُلَّها مِنَ اللَّهِ: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، فما نُسِبَ إلى الشَّيطانِ فهو بتسليطٍ مِنَ اللَّهِ كما في قولِه تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦ﴾، ثُمَّ قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فيكونُ إسنادُ الإنساءِ إلى الشَّيطانِ مِنْ بابِ قولِ الخليلِ عليه السَّلامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]؛ تأدُّبًا في الخطابِ معَ اللَّهِ تعالى). ((أضواء البيان)) (٨/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٧).

السَّلامُ، ولكنَّه قال: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾)[١].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فيه دليلٌ على حُسنِ التلَطُّفِ والاستنزالِ، والأدَبِ في طَلَبِ العِلمِ[٢]، فقال: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فأخرَجَ الكلامَ بصورةِ الملاطفةِ والمشاورةَ، وأنَّك هل تأذنُ لي في ذلك أو لا، وإقرارُه بأنَّه يتعلمُ منه، بخلافِ ما عليه أهلُ الجفاءِ أو الكبرِ، لا يُظهِرُ الواحدُ منهم للمعلِّمِ افتقارَه إلى علمِه، بل يدَّعي أنَّه يتعاونُ هو وإيَّاه، بل ربَّما ظنَّ أنَّه يُعَلِّمُ معلِّمَه، وهو جاهلٌ جدًّا، فالذلُّ للمعلِّمِ، وإظهارُ الحاجةِ إلى تعليمِه، مِن أنفعِ شيءٍ للمتعلِّمِ[٣]، وبَيَّنَ موسى عليه السلامُ أنَّه لا يَطلُبُ من الخضر غيرَ العِلمِ، بقَولِه: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾، وزاد في التلَطُّفِ بالإشارةِ إلى أنَّه لا يَطلُبُ جميعَ ما عِندَه لِيَطولَ عليه الزَّمانُ، بل جوامِعَ منه يسترشِدُ بها إلى باقيه، فقال: ﴿مِمَّا عُلِّمۡتَ﴾[٤].

١٣- قول اللهِ تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ حقَّ المعلِّمِ على المتعلِّمِ اتِّباعُه والاقتداءُ به[٥]. وفيه دَليلٌ على أنَّ المتعَلِّمَ تَبَعٌ للعالِمِ، وإن تفاوَتَت المراتِبُ[٦].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾

---

(١) يُنظر: ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (١/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٧).

فيه المُسافَرةُ مع العالمِ؛ لاقتباسِ فوائِدِه[١].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فيه تواضُعُ الفاضِلِ للتعَلُّمِ ممَّن دُونَه؛ فإنَّ موسى -بلا شَكٍّ- أفضَلُ مِن الخَضِر[٢].

١٦- قال بعضُ أهلِ العِلمِ: (إنَّ فيما عاناه موسى مِن الدَّأبِ والسَّفَرِ، وصَبَر عليه من التواضُعِ والخُضوعِ للخَضِر بَعدَ مُعاناةِ قَصْدِه، مع محلِّ موسى مِن اللهِ ومَوضِعه مِن كرامتِه، وشَرفِ نُبُوَّتِه- دَلالةً على ارتفاعِ قَدرِ العِلمِ، وعلوِّ مَنزلةِ أهلِه، وحُسنِ التواضُعِ لِمن يُلتَمَس منه ويُؤخَذ عنه، ولو ارتفع عن التواضُعِ لِمخلوقٍ أحدٌ، بارتفاعِ دَرجةٍ، وسُمُوِّ منزلةٍ؛ لسبق إلى ذلك موسى، فلما أظهرَ الجِدَّ والاجتهادَ، والانزعاجَ عن الوطنِ، والحِرصَ على الاستفادةِ، مع الاعترافِ بالحاجةِ إلى أن يَصِلَ من العلمِ إلى ما هو غائبٌ عنه؛ دلَّ على أنَّه ليس في الخَلقِ مَن يعلو على هذه الحالِ، ولا يَكبُرُ عنها)[٣].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فيه تعَلُّمُ العالِمِ الفاضِلِ للعِلمِ الذي لم يتمَهَّرْ فيه، ممَّن مهَرَ فيه، وإن كان دونَه في العِلمِ بدَرَجاتٍ كثيرةٍ؛ فإنَّ موسى -عليه السَّلامُ- مِن أُولي العَزمِ مِن المُرسَلينَ الذين منحَهم اللهُ وأعطاهم من العِلمِ ما لم يُعطِ سِواهم، ولكِنْ في هذا العِلمِ الخاصِّ كان عند الخَضِر ما ليس عندَه؛ فلهذا حَرَص على التعَلُّمِ منه[٤].

١٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((الرحلة في طلب الحديث)) للخطيب البغدادي (ص: ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

إضافةُ العِلمِ وغيرِه مِن الفضائِلِ لله تعالى، والإقرارُ بذلك، وشُكرُ الله عليها؛ لِقَولِه: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي: ممَّا عَلَّمَك اللهُ تعالى[١].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فيه أنَّ العِلمَ النَّافِعَ هو العِلمُ المُرشِدُ إلى الخيرِ، فكُلُّ عِلمٍ يكونُ فيه رُشدٌ وهدايةٌ لطُرقِ الخيرِ، وتحذيرٌ عن طريقِ الشَّرِّ، أو وسيلةٌ لذلك؛ فإنَّه مِن العِلمِ النَّافِعِ، وما سوى ذلك فإمَّا أن يكونَ ضارًّا، أو ليس فيه فائِدةٌ[٢].

٢٠- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ في هذا أصلٌ مِن أصولِ التَّعليمِ: أن يُنَبِّهَ المعلِّمُ المتعَلِّمَ بعوارِضِ مَوضوعاتِ العُلومِ المُلَقَّنةِ، لا سيَّما إذا كانت في معالجَتِها مَشقَّةٌ[٣].

٢١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ فيه أنَّ مَن ليس له قُوَّةُ الصبرِ على صُحبةِ العالِمِ والعِلمِ، وحُسنِ الثَّباتِ على ذلك، أنَّه يفوتُه بحَسَبِ عَدَمِ صَبرِه كثيرٌ مِن العِلمِ؛ فمَن لا صَبْرَ له لا يُدرِكُ العِلمَ، ومن استعمل الصَّبرَ ولازَمَه، أدرك به كُلَّ أمرٍ سعى فيه؛ لِقَولِ الخَضِر يَعتَذِرُ من موسى بذِكرِ المانِعِ لموسى في الأخذِ عنه: إنَّه لا يصبرُ معه[٤].

٢٢- السَّبَبُ الكبيرُ لحُصولِ الصَّبرِ على أمرٍ ما، هو إحاطةُ الإنسانِ عِلمًا وخِبرةً بذلك الأمرِ الذي أُمِرَ بالصَّبرِ عليه، وإلَّا فالذي لا يَدريه، أو لا يَدري

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٤).

غايتَه ولا نتيجَتَه، ولا فائِدَتَه وثمَرتَه، ليس عنده سَبَبُ الصبرِ عليه؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ الخَضِرِ لموسى عليه السَّلامُ: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ فجعَلَ المُوجِبَ لعدَمِ صَبرِه عَدَمَ إحاطتِه خُبرًا بالأمرِ[١].

٢٣- قَولُ الخَضِر لموسى عليه السَّلامُ: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ نِسبةٌ إلى قِلَّةِ العِلمِ والخُبرِ، وقَولُ موسى له: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ تواضُعٌ شديدٌ وإظهارٌ للتحَمُّلِ التامِّ والتواضُعِ الشَّديدِ، وكلُّ ذلك يدُلُّ على أنَّ الواجِبَ على المتعَلِّم إظهارُ التواضُعِ بأقصى الغاياتِ، وأمَّا المعَلِّمُ فإنْ رأى أنَّ في التَّغليظِ على المتعَلِّمِ ما يفيدُه نفعًا وإرشادًا إلى الخيرِ، فالواجِبُ عليه ذِكرُه؛ فإنَّ السُّكوتَ عنه يُوقِعُ المتعَلِّمَ في الغُرورِ والنَّخوةِ، وذلك يمنَعُه من التعَلُّمِ[٢].

٢٤- نَستفيدُ مِن قَولِه تعالى: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ تعليقَ الأمورِ المُستقبليَّةِ التي من أفعالِ العِبادِ بالمَشيئةِ، وألَّا يقولَ الإنسانُ للشَّيءِ: إني فاعِلٌ ذلك في المُستَقبلِ، إلَّا أن يقولَ: (إنْ شاء الله)[٣].

٢٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ فيه الأمرُ بالتَّأنِّي والتَّثبُّت، وعَدَمُ المبادرةِ إلى الحُكمِ على الشَّيءِ حتى يُعرَفَ ما يُرادُ منه وما هو المَقصودُ[٤].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ذِكْرًا﴾ هذا توجيهٌ مِن مُعَلِّمٍ لِمَن يتعلَّمُ منه؛ ألَّا يَتعجَّلَ في الرَّدِّ على معلِّمِه، بل ينتظرُ حتى يُحدِثَ له بذلك ذِكْرًا، وهذا مِن آدابِ المُتَعَلِّم؛ ألَّا يَتَعَجَّلَ في الرَّدِّ حتى يتبيَّنَ الأمْر(١).

٢٧- في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ۞ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا﴾ قبولُ نصيحةِ الشيخِ؛ لعلمِه منك ما لا تعلمُه مِن نفسِك، وإن كنتَ أفضلَ منه(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبًا﴾ تسميةُ التلميذِ الخادمِ فتًى(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ فيه مِن الفِقهِ: استِعانةُ العالِمِ على رِحلتِه في طَلبِ الازديادِ مِن العِلمِ بالخادِمِ والصَّاحِبِ(٤)، وأنَّه لا بأسَ بالاستخدامِ، واتخاذِ الرقيقِ والخادمِ في السفرِ(٥).

٣- في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أنَّه يجوزُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٥٦)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

(٣) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٥٥)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٣).

النبيِّ النسيانُ[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾ السَّفَرُ الطَّويلُ الذي وصلا به إلى مجمَعِ البَحرينِ لم يجِدا مَسَّ التَّعَبِ فيه، وهذا مِن الآياتِ والعَلاماتِ الدالَّةِ لموسى على وجودِ مَطلَبِه، وأيضًا فإنَّ الشَّوقَ المتعَلِّقَ بالوصولِ إلى ذلك المكانِ سَهَّلَ لهما الطَّريقَ، فلمَّا تجاوَزا غايتَهما وجَدَا مَسَّ التَّعَبِ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾ فيه اتِّخاذُ الزَّادِ للسَّفَرِ، وأنَّه لا يُنافي التوكُّلَ، وهو رَدٌّ على الصُّوفيَّةِ الجَهَلَةِ الأغْمار، الذين يقتَحِمونَ المَهامِهَ[٣] والقِفارَ، زعمًا منهم أنَّ ذلك هو التوكُّلُ على اللهِ الواحِدِ القَهَّارِ؛ هذا موسى نبيُّ اللهِ وكَليمُه مِن أهلِ الأرضِ قد اتَّخَذ الزادَ، مع مَعرِفتِه برَبِّه وتوكُّلِه على رَبِّ العِبادِ[٤].

٦- يقولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾ فيه جوازُ إخبارِ الإنسانِ عَمَّا هو مِن مُقتضى طبيعةِ النَّفسِ؛ مِن نَصَبٍ أو جُوعٍ أو عَطَشٍ، إذا لم يكُنْ على وجهِ التسَخُّطِ، وكان صِدقًا[٥].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَـٰنِيهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٥٣)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١-٤٨٢).

(٣) المهامهُ: جمعُ مَهْمَهٍ أو مَهْمَهةٍ: وهي المفازةُ والصَّحراءُ البعيدةُ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٦/ ٥٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ١٩١).

﴿إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾ فيه سؤالٌ: كيف نسي يوشَعُ ذلك، ومِثلُه لا يُنسَى؛ لكَونِه أمارةً لهما على الطَّلِبةِ التي تناهَضا من أجلِها، ولكونِه مُعجِزةً؟ ثمَّ كيف استمَرَّ به النسيانُ حتى خَلَّفا الموعِدَ، وحتى طلب موسى عليه السَّلامُ الحوتَ؟

الجوابُ من وجوهٍ:

الأول: أنَّه قد شَغَله الشيطانُ بوساوسِه، فذهب بفِكرِه كُلَّ مَذهَبٍ، حتى اعتراه النِّسيانُ[1].

الثاني: أنَّ يُوشَعَ كان قد شاهَدَ المعجزاتِ القاهرةَ مِنْ موسَى عليه السَّلامُ كثيرًا، فلم يَبْقَ لهذه المعجزةِ عندَه وَقعٌ عظيمٌ؛ فجاز حصولُ النِّسيان.

الثالث: أنَّ موسى عليه السَّلامُ لَمَّا استعظم عِلمَ نَفسِه، أزال الله عن قَلبِ صاحِبِه هذا العِلمَ الضَّروريَّ؛ تنبيهًا لِموسى عليه السلام على أنَّ العِلمَ لا يحصُلُ إلَّا بتعليمِ اللهِ وحِفظِه على القَلبِ والخاطِرِ[2].

٨- في قوله تعالى -عن فتى موسى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾ حجةٌ في إجازة «أرأيتَ» في المخاطبات؛ وإباحتِه في المحاورات، وردٌّ على مَن ينكرُ اللفظةَ في نفْسِها مِن أَجْلِ استعمال أهلِ الرأي لها، وقد ذكرها اللهُ تعالى عن نفْسِه في غيرِ موضعٍ مِن كتابه فقال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ [الأنعام: ٤٦]. وأمَّا قولُ الشعبيِّ رحمه اللهُ: (بَغَّض هذا المسجدَ إليَّ الأرأيتيُّونَ: أرأيتَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٢-٧٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٨٠).

أرأيتَ)؛ فإنما أنْكَر منهم مرادَهم به، لا نفسَ الكلمةِ[١].

٩- نسيانُ الخيرِ يكونُ مِن الشيطانِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقال أيضًا: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾[٢] [المجادلة: ١٩].

١٠- دلَّ قولُه تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدًا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمًا﴾ على أنَّ العِلْمَ غيرُ مقسومٍ على فضائلِ الرِّجالِ ودَرَجاتِهم عندَ الله، حتى يكونَ مَن هو أعظمُ فضلًا في عَمَلِه ودَرَجتِه أعلمَ في دِينِه، أو أنَّه غيرُ جائزٍ أنْ يكونَ الأدْوَنُ في الفَضلِ أعلمَ في أشياءَ ممَّن فَوقَه في درجةِ الفَضلِ، وإنَّما العِلمُ مَوهبةٌ مِن مواهبِ اللهِ يَخُصُّ به مَن يشاءُ مِن عبادِه، ويُفَضِّلُ بعضَهم على بعضٍ فيه[٣].

١١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدًا﴾ يُؤخَذُ منه جوازُ التَّعاقُدِ على تعليمِ القرآنِ والعلمِ، فصيغةُ: (أفعلُ كذا على كذا)، مِنْ صِيَغِ الالتزامِ والتَّعاقُدِ[٤].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا﴾ فيه اعتِذارُ العالِمِ إلى مَن يريدُ الأخذَ عنه، في عَدَمِ تعليمِه ما لا يَحتَمِلُه طَبعُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ١٨٣). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧١).

١٣- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ حكَمَ عليه بعادةِ الخَلقِ في عَدَمِ الصَّبرِ عمَّا يخرجُ مِن الاعتيادِ، وهو أصلٌ في الحُكمِ بالعادةِ(١).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ دَلالةُ على أنَّ الاختيارَ والمستحَبَّ في الاستثناءِ أن يكونَ في ابتداءِ الكلامِ؛ لأنَّ موسى ابتدأَ به، وكذلك قَولُه: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] فإذا ترَكَه في أوَّلِ كلامِه أو نَسِيَ، يَستثني في آخِرِه(٢).

١٥- قولُه تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ فيه دليلٌ على أنَّ أفعالَ العبادِ واقعةٌ بمشيئةِ اللهِ تعالى(٣).

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ فيه أنَّ العَزمَ على فِعلِ الشَّيءِ ليس بمَنزلةِ فِعلِه؛ فإنَّ موسى عليه السَّلامُ قالَ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، فوطَّنَ نَفسَه على الصَّبرِ ولم يَفعَلْ(٤).

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، فيه جوازُ اشتراطِ المَتبوعِ على التَّابِعِ، وأنَّه يَلزَمُ الوفاءُ بالشَّرطِ(٥).

١٨- قولُه: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فيه إيذانٌ بأنَّ كلَّ ما صدَر عنه فله حِكمةٌ وغايةٌ حميدةٌ البتَّةَ(٦).

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٥).

١٩- قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ فنهَى الخضرُ موسَى عليه السلامُ عن السُّؤالِ عن شيءٍ ممَّا يُشاهِدُه مِن تَصرُّفاتِه حتَّى يُبيِّنَه له مِن تِلْقاءِ نَفْسِه؛ لأنَّ السُّؤالَ قد يُصادِفُ وقتَ اشتغالِ المسؤولِ بإكمالِ عملِه، فتَضيقُ له نفسُه، فرُبَّما كان الجوابُ عنه بدونِ نشاطِ نفْسٍ، وربَّما خالَطه بعضُ القلقِ، فيكونُ الجوابُ غيرَ شافٍ، فأراد الخَضِرُ أن يتَولَّى هو بيانَ أعمالِه في الإبَّانِ الَّذي يَراه مُناسِبًا؛ ليكونَ البيانُ أبسَطَ، والإقبالُ أبهجَ، فيَزيدَ الاتِّصالُ بينَ القَرينينِ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ في سَوْقِ هذه القِصَّةِ تعريضٌ بأهلِ الكتابِ بأنَّ الأوْلَى لهم أن يَدُلُّوا النَّاسَ على أخبارِ أنبياءِ بني إسرائيلَ، وعلى سَفَرٍ لأجلِ تحصيلِ العِلمِ والحِكْمةِ، لا سَفَرٍ لأجْلِ بَسْطِ المُلْكِ والسُّلطانِ[(٢)].

- وجملةُ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ... ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ [الكهف: ٥٠] عَطْفَ القِصَّةِ على القصَّةِ، والتَّقديرُ: واذْكُرْ إذْ قال مُوسى لِفَتاه، أي: اذْكُرْ ذلك الزَّمَنَ وما جَرى فيه. وناسَبَها تقديرُ فِعلِ (اذْكُرْ)؛ لأنَّ في هذه القصَّةِ موعِظةً وذِكْرى، كما في قِصَّةِ خَلْقِ آدمَ[(٣)].

- وابتُدِئَت القصَّةُ بحِكايةِ كلامِ موسى عليه السَّلامُ المقتَضِي تَصميمًا على ألَّا يَزولَ عمَّا هو فيه، أي: لا يَشتَغِلَ بشيءٍ آخَرَ حتَّى يَبلُغَ مَجْمَعَ البحرَينِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٤٦، ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٥٩).

ابتِداءً عَجيبًا في بابِ الإيجازِ. وحُذِف ذِكرُ الغرَضِ الَّذي سارَ لأجْلِه موسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّه سيُذكَرُ بعدُ، وهو حَذفُ إيجازٍ وتشويقٍ، له مَوقِعٌ عظيمٌ في حكايةِ القِصَّةِ؛ لإخراجِها عن مَطْروقِ القَصصِ إلى أسلوبِ بديعِ الحِكَمِ والأمثالِ؛ قَضاءً لحقِّ بلاغةِ الإعجازِ[١].

- قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ عُطِفَ ﴿أَمۡضِيَ﴾ على ﴿أَبۡلُغَ﴾ بـ (أَوْ)، فصارَ المعطوفُ إحْدى غايتَيْنِ للإقلاعِ عن السَّيرِ، أي: إمَّا أن أبلُغَ المكانَ، أو أَمْضيَ زمَنًا طويلًا. ولَمَّا كان موسى لا يُخامِرُه الشَّكُّ في وُجودِ مكانٍ هو مَجمَعٌ للبَحْرينِ، وإلْفاءِ طِلْبَتِه عِندَه؛ لأنَّه عَلِم ذلك بوَحيٍ مِن اللهِ تعالى - تَعيَّن أن يكونَ المقصودُ بحَرفِ التَّرديدِ (أو) تأكيدَ مُضيِّه زمَنًا يتَحقَّقُ فيه الوصولُ إلى مَجمَعِ البحرَين[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا﴾ الفاءُ للتَّفريعِ، والفَصيحةُ؛ لأنَّها تُفْصِحُ عن كلامٍ مُقدَّرٍ، أي: فسَارَا حتَّى بَلَغا مَجمعَ البحرَين[٣].

- قولُه: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾ شَبَّهَ بالسَّرَبِ مَسْلَكَ الحوتِ في الماء حينَ لم يَنطبِقِ الماءُ بعدَه، بل بَقِي كالطَّاقِ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال عزَّ وجلَّ هنا: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾، وفي الآيةِ الثَّالثةِ: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]؛ وذلك لأنَّ الفاءَ للتَّعقيبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٠ - ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠١).

والعَطْفِ، فكان اتِّخاذُ الحوتِ للسَّبيلِ عَقِيبَ النِّسيانِ، فذُكِرَ بالفاءِ. وفي الآيةِ الأُخْرى لَمَّا حِيلَ بينَهما بقَولِه: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣] زالَ مَعنى التَّعقيبِ، وبَقي العَطفُ المجرَّدُ، وحَرفُه الواوُ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾

- حُذِفَ مفعولُ ﴿جَاوَزَا﴾ للعِلْمِ، أي: جاوَزا مَجْمَعَ البحرَين[٢].

- وجملةُ: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ في مَحلِّ التَّعليلِ للأمرِ بإيتاءِ الغَداءِ؛ إمَّا باعتبارِ أنَّ النَّصَبَ إنَّما يَعتَري بسبَبِ الضَّعفِ النَّاشئِ عن الجُوعِ، وإمَّا باعتبارِ ما في أثْناءِ التَّغدِّي مِن استراحةٍ ما[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾

- في قولِه: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ﴾ مُرادُه بالاستفهامِ تَعجيبُ موسى عليه السَّلامُ ممَّا اعْتراه هُناك مِن النِّسيانِ، مع كَونِ ما شاهَدَه مِن العَظائمِ الَّتي لا تَكادُ تُنْسى[٤].

- قولُه: ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾، ذَكَر الإِواء إليها مع أنَّ المذكورَ فيما سبَق مرَّتَين بُلوغُ مجمَعِ البحرَين؛ لِزيادةِ تَعْيينِ مَحلِّ الحادثةِ؛ فإنَّ المَجمَعَ محلٌّ متَّسِعٌ لا يُمكِنُ تحقيقُ المرادِ المذكورِ بنِسْبةِ الحادثةِ إليه، ولِتَمهيدِ

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦٢٩).

العُذرِ؛ فإنَّ الإواءَ إليها، والنَّومَ عِندَها ممَّا يُؤدِّي إلى النِّسيانِ عادةً[١].

- قولُه: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ فيه تأكيدٌ للتَّعجيبِ، وتربيةٌ لاستِعْظامِ المنسيِّ. وإيقاعُ النِّسيانِ على اسْمِ الحوتِ دونَ ضميرِ الغَداءِ، مع أنَّه المأمورُ بإتيانِه؛ للتَّنبيهِ مِن أوَّلِ الأمرِ على أنَّه ليس مِن قَبيلِ نِسيانِ المسافِرِ زادَه في المنزِلِ، وأنَّ ما شاهَدَه ليس مِن قَبيلِ الأحوالِ المتعلِّقةِ بالغَداءِ مِن حيث هو غَداءٌ وطَعامٌ، بل مِن حيث هو حوتٌ كَسائرِ الحيتانِ، مع زيادةٍ، أي: نَسيتُ أن أَذكُرَ لك أمْرَه، وما شاهَدتُ مِنه مِن الأمورِ العَجيبةِ[٢].

- ووجهُ حَصرِه إسنادَ هذا الإنساءِ إلى الشَّيطانِ: أنَّ ما حَصَل له مِن نسيانٍ أن يُخبِرَ موسى بتِلْك الحادثةِ نِسيانٌ ليس مِن شأنِه أن يقَعَ في زمَنٍ قريبٍ، مع شِدَّةِ الاهتمامِ بالأمرِ المنسيِّ، وشِدَّةِ عنايتِه بإخبارِ نبيِّه به. ومعَ كونِ المنسيِّ أُعْجوبةً شأنُها ألَّا تُنْسى- يتَعيَّنُ أنَّ الشَّيطانَ أَلْهاه بأشياءَ عن أن يتَذكَّرَ ذلك الحادثَ العَجيبَ، وعَلِم يوشَعُ أنَّ الشَّيطانَ يَسوءُه الْتِقاءُ هذَيْن العبدَيْن الصَّالِحَين، وما له مِن الأثرِ في بَثِّ العلومِ الصَّالحةِ؛ فهو يَصرِفُ عنها ولو بتَأخيرِ وُقوعِها؛ طَمَعًا في حُدوثِ العَوائقِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ اعتراضٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه[٤]. وقُدِّم على المعطوفِ عليه؛ للاعْتِناءِ بالاعْتِذارِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٣).

٥- قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾

- قولُه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ تَنكيرُ ﴿عَبْدًا﴾ للتَّفخيمِ، والإضافةُ في ﴿عِبَادِنَآ﴾ للتَّشريفِ والاختصاصِ[١]؛ فوُصِف بأنه مِن عبادِ اللهِ تَشريفًا له، وعَدَل عن الإضافةِ إلى التَّنكيرِ والصِّفةِ؛ لأنَّه لم يَسبِقْ ما يَقْتَضي تعريفَه، وللإشارةِ إلى أنَّ هذا الحالَ الغريبَ العظيمَ الَّذي ذُكِر مِن قصَّتِه ما هو إلَّا مِن أحوالِ عبادٍ كَثيرينَ للهِ تعالى[٢].

- والمخالَفةُ بينَ ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ وبينَ ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ للتَّفنُّنِ؛ تَفاديًا مِن إعادةِ الكلمةِ[٣].

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشَأ مِن السِّياقِ، كأنَّه قيل: فماذا جَرى بينَهما مِن الكلامِ؟ فقيل: قال له مُوسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾[٤]. وجملةُ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ ابتداءُ مُحاوَرةٍ، فهو استِئْنافٌ ابتدائيٌّ؛ ولذلك لم يقَعِ التَّعبيرُ بـ(قالَ) مُجرَّدةً عن العاطِفِ[٥]. وفي الكلامِ محذوفٌ تقديرُه: فلَمَّا الْتَقيَا وتَراجَعا الكلامَ قال له موسى: هل أَتَّبِعُك[٦]؟

- قولُه: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ الاستفهامُ مُستعمَلٌ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٥).

العَرْضِ؛ بقَرينةِ أنَّه استِفْهامٌ عن عمَلِ نفسِ المستفهِمِ[١].

- و(على) مُستعمَلةٌ في معنى الاشْتِراط؛ جعَل الاتِّباع كأنَّه مُستعمَلٌ فوقَ التَّعليمِ؛ لِشِدَّةِ المقارَنةِ بينَهما[٢].

٧- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ نَفى عنه استِطاعةَ الصَّبرِ معَه على وُجوهٍ مِن التَّأكيدِ؛ كأنَّها ممَّا لا يَصِحُّ ولا يَستقيمُ، وعَلَّل ذلك واعتذَر عنه بقولِه: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾[٣]؛ فأكَّد جملة ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ بحرف (إنَّ) وبحرف (لَن)؛ تَحقيقًا لِمَضمونِها مِن تَوقُّعِ ضِيقِ ذَرْعِ مُوسى عن قَبولِ ما يُبْديه إليه؛ لأنَّه عَلِم أنَّه تَصْدُرُ منه أفعالٌ ظاهِرُها المنكَرُ، وباطِنُها المعروفُ. وهذا تحذيرٌ مِنه لِمُوسى عليه السَّلامُ، وتنبيهٌ على ما يَستقبِلُه منه؛ حتَّى يُقْدِمَ على مُتابَعتِه إنْ شاء على بَصيرةٍ وعلى غيرِ اغْتِرارٍ، وليس المقصودُ منه الإخبارَ[٤]؛ فمَناطُ التَّأكيداتِ في جُملةِ ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ إنَّما هو تحقيقُ خُطورةِ أعمالِه وغَرابتِها في المتعارَفِ بحيث لا تُتحَمَّلُ، ولو كان خَبرًا على أصلِه لم يُقبَلْ فيه المراجعةُ، ولم يُجِبْه موسى بقولِه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، وزادَها تأكيدًا عُمومُ الصَّبرِ المنفيِّ؛ لِوُقوعِه نَكِرةً في سياقِ النَّفيِ، وأنَّ المنفيَّ استِطاعتُه الصَّبرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧١).

المفيدُ أنَّه لو تَجشَّم أن يَصبِرَ لم يَستطِعْ ذلك، فأفادَ هذا التَّركيبُ نفْيَ حُصولِ الصَّبرِ منه في المستقبَلِ على آكَدِ وجْهٍ[١].

- وفي زِيادةِ ﴿مَعِيَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه يَجِدُ مِن أعمالِه ما لا يَجِدُ مِثلَه معَ غيرِه؛ فانْتِفاءُ الصَّبرِ على أعمالِه أجْدَرُ[٢].

٨- قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾

- جُملةُ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ في موضِعِ الحالِ مِن اسْمِ (إنَّ) أو مِن ضميرِ ﴿تَسْتَطِيعَ﴾؛ فالواوُ واوُ الحالِ، وليسَت واوَ العطفِ؛ لأنَّ شأنَ هذه الجملةِ ألَّا تُعطَفَ على الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ بينَهما كَمالَ الاتِّصالِ؛ إذِ الثَّانيةُ كالعِلَّةِ للأُولى. وإنَّما أُوثِرَ مَجيئُها في صورةِ الجملةِ الحاليَّةِ، دونَ أن تُفصَلَ عن الجملةِ الأُولى فتَقَعَ عِلَّةً، مع أنَّ التَّعليلَ هو المرادُ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مَضمونَها عِلَّةٌ مُلازِمةٌ لِمَضمونِ الَّتي قبلَها؛ إذْ هي حالٌ مِن المسنَدِ إليه في الجملةِ قبلَها[٣].

- و(كيف) للاستِفْهامِ الإنكاريِّ في معنى النَّفْيِ، أي: وأنتَ لا تَصبِرُ على ما لم تُحِطْ به خُبرًا[٤].

٩- قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾

- قولُه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ أبْلَغُ في ثُبوتِ الصَّبرِ مِن نحوِ: (سأَصبِرُ)؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لأنَّه يَدُلُّ على حُصولِ صبرٍ ظاهرٍ لرَفيقِه ومَتبوعِه[١].

- وفي تأكيدِه ذلك بالتَّعليقِ على مَشيئةِ اللهِ -استِعانةً به وحِرصًا على تَقدُّمِ التَّيسيرِ؛ تأدُّبًا مع اللهِ-: إيذانٌ بأنَّ الصبرَ والطَّاعةَ مِن المتعلِّمِ الَّذي له شيءٌ مِن العلمِ أعسَرُ مِن صَبرِ وطاعةِ المتعلِّمِ السَّاذَجِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ لَمَّا كان هذا الصَّبرُ الكاملُ يَقْتضي طاعةَ الآمِرِ فيما يأمُرُه به- عطَف عليه ما يُفيدُ الطَّاعةَ؛ إبلاغًا في الاتِّسام بأكمَلِ أحوالِ طالبِ العلمِ[٣].

١٠- قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ ...﴾ تَفريعٌ على وعْدِ موسى إيَّاه بأنَّه يَجِدُه صابِرًا، ففرَّع على ذلك نَهْيَه عن السُّؤالِ عن شيءٍ ممَّا يُشاهِدُه مِن تَصرُّفاتِه حتَّى يُبيِّنَه له مِن تِلْقاءِ نَفْسِه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧١-٧٢)

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿إِمْرًا﴾: أي: عَظِيمًا مُنكرًا، من قَولِهم: أَمِرَ الأمرُ، أي: كَبُر وكَثُر. وقيل: عجبًا[1].

﴿تُرْهِقْنِي﴾: تُغْشِني، وتُكَلِّفْني، وتُلْحِقْني، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: فانطلق موسى والخَضِرُ يَمشِيانِ على السَّاحِلِ، فمَرَّت بهما سَفينةٌ، فطلبا مِن أهلِها أن يركَبا معهم، فلمَّا رَكِبا قَلَعَ الخَضِرُ لوحًا من السَّفينةِ فخَرَقَها، فقال له موسى: أَخَرَقْتَ السَّفينةَ؛ لتُغرِق أهلَها؟! لقد فعَلْتَ فعلًا عظيمًا مُنكَرًا. قال له الخَضِرُ: قد قُلتُ لك مِن أوَّلِ الأمرِ: إنَّك لن تستطيعَ الصَّبرَ على صُحبتي. قال موسى مُعتَذِرًا: لا تؤاخِذْني بنِسياني شَرطَك عليَّ، ولا تُكَلِّفْني مَشقَّةً في تعلُّمي منك، وعامِلْني بيُسرٍ ورِفقٍ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، ((تفسير الطبري)) (١٥/ ٣٣٥-٣٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٨٨)، ((تفسير غريب ما في الصحيحين)) للحميدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾.

أي: فانطلق موسى والخَضِرُ يَسيرانِ إلى أنْ رَكِبا سَفينةً في البَحرِ، فقام الخَضِرُ بخَرقِها[١].

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ: ((فانطلقَ الخَضِرُ وموسى يمشِيانِ على ساحِلِ البَحرِ، فمَرَّت بهما سَفينةٌ، فكَلَّماهم أن يحمِلوهما، فعَرَفوا الخَضِرَ، فحَمَلوهما بغَيرِ نَولٍ[٢]، فعمَد الخَضِرُ إلى لوحٍ مِن ألواحِ السَّفينةِ فنَزَعه))[٣].

وفي روايةٍ: ((وجدا معابِرَ[٤] صِغارًا تحمِلُ أهلَ هذا السَّاحِلِ إلى أهلِ هذا السَّاحِلِ الآخَرِ، عَرَفوه فقالوا: عبدُ الله الصَّالحُ -قال: قُلْنا لسعيدِ بنِ جُبَير: خَضِر؟ قال: نَعَم- لا نحمِلُه بأجرٍ، فخَرَقَها ووتَدَ فيها وتدًا[٥]))[٦].

﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٤، ٣٧٥).

(٢) بغَيرِ نَولٍ: أي: بغير أجرٍ ولا جُعْلٍ، والنَّولُ والنَّوالُ: العطاءُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٢٩)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٤٠).

(٣) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) واللفظ له.

(٤) معابِرَ: أي: مَراكِبَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٥٢).

(٥) وتَدَ فيها وتدًا: أي: جعل فيها وتدًا، والوَتدُ: ما ثُبِّتَ في الأرضِ أو الحائِطِ من خَشَبٍ ونَحوِه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٢٤)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٣/ ٢٣٩٤).

(٦) رواه البخاري (٤٧٢٦).

أي: قال موسى للخَضِر: أخرَقْتَ السَّفينةَ لتُغرقَ[١] ركَّابَها؛ فإنَّ خرقَها سببٌ لدخولِ الماءِ فيها وغَرقِهم[٢]؟!

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه: ((فقال له موسى: قومٌ حَمَلونا بغيرِ نَولٍ، عَمَدْتَ إلى سفينتِهم فخَرَقْتَها لتُغرِقَ أهلَها؟!))[٣].

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾.

أي: لقد أتيتَ شيئًا عظيمًا، وفعَلْتَ فِعلًا منكرًا[٤]!

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾.

أي: قال الخَضِرُ لِموسى: ألم أُخبِرْك بأنَّك لن تُطيقَ الصَّبرَ على اتِّباعي؛ لِما تراه مِن أفعالي التي ظاهِرُها مُنكَرٌ قَبيحٌ؟! وأنَّك لن تَصبِرَ عن سؤالي عن أفعالي؛ لأنَّك لم تُحِطْ بها خُبْرًا[٥]؟!

---

(١) قال ابنُ عثيمين: (واللامُ في قَولِه: ﴿لِتُغْرِقَ﴾ ليست للتعليلِ، ولكِنَّها للعاقبةِ، يعني: أنَّك إذا خرَقْتَها غَرِقَ أهلُها، وإلَّا لا شَكَّ أنَّ موسى عليه السَّلامُ لا يدري ما غَرَضُ الخَضِر، ولا شَكَّ أيضًا أنَّه يدري أنَّه لا يريدُ أن يُغرِقَ أهلَها؛ لأنَّه لو أراد أن يُغرِقَ أهلَها لكان أوَّلَ مَن يَغرَقُ هو وموسى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٥).

(٣) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٦).

قال الواحدي: (قال مجاهدٌ: منكرًا. وهو قولُ قتادةَ، والمفسرينَ). ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٢، ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٦).

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

أي: قال موسى للخَضِر مُعتَذِرًا: لا تُؤاخِذْني بالذي نَسيتُه مِن عَهدِك إليَّ، واشتِراطِك ألَّا أسألَك عن شَيءٍ حتى تُخبِرَني[(١)].

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ قال: ((كانت الأولى مِن موسى نِسيانًا))[(٢)].

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾.

أي: ولا تُضَيِّقْ عليَّ أمري معك، وتشدِّدْ عليَّ في صُحبتي لك[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قولِه: ﴿أَخَرَقَهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ نِسيانُ نَفسِه عندَما قال: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهو بينَ الرَّاكِبين، وهو جَديرٌ بأن يَنهمِكَ بأمرِ نفْسِه، وما هو مُقْدِمٌ عليه مِن سوءِ المصيرِ، وإنَّما حمَلَه على المبادَرةِ بالإنكارِ الالْتِهابُ والحَميَّةُ للحقِّ، فنَسِي نفْسَه واشتَغَل بغيرِه في الحالةِ الَّتي يقولُ فيها كلُّ واحدٍ: نَفْسي نَفسي، ولا يَلْوي على مالٍ ولا ولَدٍ، وتلك حالةُ الغرَقِ تَذهَلُ فيها العقولُ، وتَغرُبُ الأحلامُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٧).

قال ابنُ عاشور: (﴿مِنْ﴾ يجوزُ أن تكونَ ابتدائيَّةً، فيكون المرادُ بـ «أمْرِه»: نسيانَه، أي: لا تجعَلْ نسياني مُنشِئًا لإرهاقي عُسرًا. ويجوزُ أن تكونَ بيانيَّةً، فيكون المرادُ بـ «أمرِه»: شأنَه معه، أي: لا تجعَلْ شأني إرهاقَك إيَّاي عُسرًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٧).

ويَضيعُ الرُّشدُ مِن الألبابِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ فيه أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يأخُذَ مِن أخلاقِ النَّاسِ ومُعامَلاتِهم العَفوَ منها، وما سَمَحَت به أنفُسُهم، ولا ينبغي له أن يُكَلِّفَهم ما لا يُطيقونَ، أو يَشُقَّ عليهم ويُرهِقَهم؛ فإنَّ هذا مَدعاةٌ إلى النُّفورِ منه والسَّآمةِ، بل يأخُذُ المُتيَسِّرَ ليتيسَّرَ له الأمرُ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ إنْ قيل: فما بالُ فتَى موسَى ذُكِر في أوَّلِ القصةِ، ثمَّ لم يُذكَرْ بعدَ ذلك؟

فالجوابُ: أنَّ المقصودَ بالسياقِ إنما هو قصةُ موسَى معَ الخضرِ، وذِكرُ ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبعٌ، فاقتصر على ذكرِ المتبوعِ دونَ التابعِ، ويحتملُ أن يكونَ يوشعُ تأخَّر عنهما؛ لأنَّ المذكورَ انطلاقُ اثنينِ[٣]. وقيل: كان موسى قد صَرَفه ورَدَّه إلى بَني إسرائيلَ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ ﴾ فيه جوازُ رُكوبِ البَحرِ في غيرِ الحالةِ التي يُخافُ منها[٥].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ فيه أنَّ الأمورَ تجري أحكامُها على ظاهِرِها، وتُعَلَّقُ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

بها الأحكامُ الدُّنيويَّةُ، في الأموالِ والدِّماءِ وغَيرِها؛ فإنَّ موسى -عليه السَّلامُ- أنكر على الخَضِر خَرْقَه السَّفينةَ، وقَتْلَ الغُلامِ -كما سيأتي-، وأنَّ هذه الأمورَ ظاهِرُها أنَّها مِن المُنكَر، وموسى عليه السَّلامُ لا يَسَعُه السُّكوتُ عنها في غيرِ هذه الحالِ التي صَحِبَ عليها الخَضِرَ، فاستعجل عليه السَّلامُ، وبادر إلى الحُكمِ في حالتِها العامَّةِ، ولم يلتَفِتْ إلى هذا العارِضِ الذي يوجِبُ عليه الصَّبرَ، وعَدَمَ المبادرةِ إلى الإنكارِ[١].

٤- في قَولِه تعالى عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ قُلوبَ المؤمنينَ مَجبولةٌ على إنكارِ المنكَر؛ وغيرُ مالكةٍ للصَّبرِ على احتمالِه؛ لأنَّ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وَعَد الخَضِرَ أنْ يَصْبِرَ على ما يراه منه، فلمَّا رأَى منه ما يَعتقدُ أنه منكرٌ أنكَرَه عليه[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ فيه أنَّ النَّاسيَ غيرُ مُؤاخَذٍ بنِسيانِه؛ لا في حقِّ اللهِ، ولا في حُقوقِ العِبادِ[٣].

٦- قَولُه تعالى عن موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦] فيه قيامُ العُذْرِ بالمَرَّة الواحدةِ، وقيامُ الحُجَّةِ بالثَّانيةِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٢٢).

١- قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾

- في الكلامِ إيجازٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾؛ فأصلُ الكلامِ: حتَّى استَأْجَرا سفينةً فرَكِباها، فلمَّا رَكِبا في السَّفينةِ خرَقَها، وتعريفُ السَّفينةِ تعريفُ العَهدِ الذِّهْنيِّ(١).

- والاستفهامُ في ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾ للإنكارِ، ومَحلُّ الإنكارِ هو العِلَّةُ بقولِه: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾؛ لأنَّ العِلَّةَ مُلازِمةٌ للفِعْلِ المستفهَمِ عنه؛ ولذلك تَوجَّهَ أن يُغيِّر موسى عليه السَّلامُ هذا المنكَرَ في ظاهرِ الأمرِ، وتأكيدُ إنكارِه بقولِه: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيث قال عزَّ وجلَّ هنا مُخبِرًا عن قولِ موسى للخَضِرِ عَليهِما السَّلامُ حين خرَق السَّفينةَ: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾، وعندَ قَتلِ الغُلامِ قال: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]؛ ففي الأُولى (الإِمْرُ) وفي الثَّانيةِ: (النُّكْرُ)، وذلك لِمُناسَبةٍ حسَنةٍ: وهي أنَّ خَرْقَ السَّفينةِ لم يَبلُغْ بحيثُ يُتلِفُها، وإنَّما قَصَد به الخَضِرُ عَيْبَها؛ ليَزهدَ فيها مُريدُ غَصْبِها؛ بدليلِ قولِه بعدُ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، فإنَّما أراد إبقاءَها على مالِكِها، ودَفْعَ هذا الغاصبِ إذا رأى ما بها مِن العيبِ المانِعِ مِن الرَّغبةِ فيها، وهذا لا يَبلُغُ ظاهِرُه مبلغَ ظاهرِ قتلِ الغُلامِ بغيرِ سببٍ ظاهرٍ، فوصَف بإمرٍ في قولِه: ﴿شَيْـًٔا إِمْرًا﴾، وهو دُونَ النُّكْرِ. وأمَّا البادي الظَّاهرُ مِن قتْلِ الغُلامِ عِندَ مَن يَغيبُ عنه ما عَلِمه مِن الخَضِرِ فشيءٌ نُكْرٌ، ومُرتَكَبٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٧٥).

-عندَ مَن لَحَظَه بظاهِرِه، وغابَ عنه ما في طَيِّه- شنيعٌ ووِزرٌ، فوقَع التَّعبيرُ في الموضِعَينِ بما يُناسِبُ كِلا الفِعْلَين، وعن قتادةَ رَحِمه اللهُ: (النُّكْرُ أشَدُّ مِن الإمْرِ)، فجاء كلٌّ على ما يُلائِمُ، ولم يَكُنْ لِيَحسُنَ مَجيءُ أحَدِ الوصفَينِ في الموضِعِ الآخَرِ، واللهُ أعلمُ[١]. وقيل: لأنَّ العملَ الذي عَمِله الخَضِرُ ذَريعةٌ للغرقِ، ولم يقَعِ الغرقُ بالفِعلِ، أمَّا قتلُ النفسِ فإنَّه مباشرةٌ، وهو منكرٌ حادثٌ ما فيه احتمالٌ، فالأوَّلُ ذريعةُ فسادٍ، والثاني فسادٌ حاصلٌ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ استفهامُ تَقريرٍ وتعريضٍ باللَّومِ على عَدمِ الوَفاءِ بما الْتَزم، أي: أتُقِرُّ أنِّي قُلتُ: إنَّك لا تَستطيعُ مَعي صَبرًا[٣]؟ و﴿مَعِيَ﴾ ظرفٌ مُتعلِّقٌ بـ ﴿تَسْتَطِيعَ﴾، فاستِطاعةُ الصَّبرِ المنفيَّةُ هي الَّتي تَكونُ في صُحبتِه؛ لأنَّه يَرى أُمورًا عَجيبةً لا يُدرِكُ تأويلَها. وحذَف مُتعلَّقَ القولِ؛ تنزيلًا له مَنزِلةَ اللَّازِم، أي: ألَم يقَعْ منِّي قولٌ فيه خِطابُك بعدَمِ الاستِطاعةِ[٤]؟

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيثُ قال تعالى في حِكايةِ قَولِ الخَضِرِ لموسى عليهِما السَّلامُ في خَرْقِ السَّفينةِ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ بحَذفِ ﴿لَّكَ﴾، وفي قَتْلِ الغلامِ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ﴾ [الكهف: ٧٥] بذِكْرِه؛ لأنَّ في ذِكْرِه قصْدَ زِيادةِ المواجَهةِ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٢٢). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٧٨-٨٨٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٦).

بالعِتابِ على تَرْكِ الوصيَّةِ مرَّةً ثانيةً[١]، فإثباتُه فيه لومٌ أشدُّ على موسَى، فلو أنَّك كلَّمتَ شخصًا بشيءٍ، وخالَفك، فتقولُ في الأوَّلِ: (ألم أقلْ: إنَّك)، وفي الثاني تقولُ: (ألم أقلْ لك)، يعني: أنَّ الخطابَ ورَد عليك ورودًا لا خفاءَ فيه، ومع ذلك خالفْتَ، فكان قولُ الخضرِ لموسَى في الثانيةِ أشدَّ[٢].

وقيل: إنَّ إثباتَه للتوكيدِ، واختزالَه له؛ لوضوحِ المعنَى، وكلاهما معروفٌ عندَ الفصحاءِ[٣].

وقيل: إنَّ الفَرقَ الموجِبَ لزِيادة «لك» في هذا القول الثَّاني: أنَّ الخَضِرَ قد كان قال لِمُوسى -حينَ قال له موسى عليه السَّلامُ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾-: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، فلَمَّا كان مِن موسى عندَ خَرْقِ السَّفينةِ ما كان مِن الإنكارِ بقولِه: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]، ذَكَّره الخَضِرُ بما كان قدْ قاله له، مِن غيرِ أن يَزيدَه على إيرادِ ما كان قد قالَه، فاعتذَر موسى عليه السَّلامُ بقولِه: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣]، فلمَّا وقَع منه بعدَ ذلك إنكارُ قتلِ الغُلامِ، وأبلَغ في وصْفِ الفَعْلةِ بقولِه: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]، قابَل الخَضِرُ ذلك بتَأكيدِ الكلامِ المتقدِّمِ، فقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ [الكهف: ٧٥]؛ فهذه الزِّيادةُ (لَك) بيانٌ جيءَ به تأكيدًا؛ لِيُقابِلَ بالكَلامِ ما وقَع جَوابًا له مِن قَولةِ موسى عليه السَّلامُ؛ زيادةً للتَّناسُبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) لزكريا الأنصاري (ص: ٣٤٥ - ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٢٣-٣٢٤).

- وقِيل: وجهُ زيادة (لك): أنَّ الخَضِرَ عليه السَّلامُ قال في الأولى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، أي: إنَّك تَعجِزُ عن احْتِمالِ ما تَرى حتَّى تُبادِرَ إلى الإنكارِ، فلمَّا رأى قَتْلَ الغُلامِ وعادَ إلى الإنكارِ أكَّد التَّقريرَ الثَّانيَ بقولِه: ﴿لَّكَ﴾، وهذا وجَبَ في الثَّاني لا في الأوَّلِ الَّذي لم تتأكَّدْ حُجَّةُ الخَضِرِ كتَأكُّدِها في الثَّاني[1].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾

قولُه: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي﴾ المؤاخَذةُ: مُفاعَلةٌ مِن الأخذِ، وهي هُنا للمُبالَغةِ؛ لأنَّها مِن جانبٍ واحدٍ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾[2] [النحل: ٦١].

- قولُه: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: بالذي نسيتُه، أو بشيءٍ نسيتُه، أو بنِسْياني: أراد أنَّه نَسي وصيَّتَه، ولا مُؤاخَذةَ على النَّاسي. أو أخرَج الكلامَ في مَعرِضِ النَّهيِ عن المؤاخَذةِ بالنِّسيانِ، يُوهِمُه أنَّه قد نَسي؛ لِيَبسُطَ عُذرَه في الإنكارِ، وهو مِن التوريةِ ومَعاريضِ الكلامِ الَّتي يُتَّقى بها الكَذِبُ، مع التَّوصُّلِ إلى الغرَضِ، وهو هنا إيهامُ خِلافِ المرادِ؛ لِئلَّا يُلزَمَ الكَذِبَ، وهو فنٌّ ظَريفٌ مِن فُنونِهم، ولَعلَّه أجمَلُ أنواعِ التَّوريَةِ[3]. وقيل: اعتذَر موسى بالنِّسيانِ، وكان قد نَسِي التزامَه بما غَشِي ذِهنَه مِن مُشاهدةِ ما يُنكِرُه. والنَّهيُ مُستعمَلٌ في التَّعطُّفِ والتماسِ عدمِ المؤاخذةِ؛ لأنَّه قد يُؤاخِذُه على النِّسيانِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٨١-٨٨٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٢).

مُؤاخذةَ مَن لا يَصلُحُ للمُصاحبةِ؛ لِما يَنشأُ عن النِّسيانِ مِن خطَرٍ؛ فالحزامةُ الاحتِرازُ مِن صُحبةِ مَن يَطرَأُ عليه النِّسيانُ؛ ولذلك بُني كلامُ موسى على طلَبِ عدمِ المؤاخَذةِ بالنِّسيانِ، ولم يُبنَ على الاعتذارِ بالنِّسيانِ، كأنَّه رأى نفْسَه مَحقوقًا بالمؤاخَذةِ، فكان كَلامًا بَديعَ النَّسيجِ في الاعْتِذارِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٦).

الآيات (٧٤-٧٦)

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زَكِيَّةَۢ﴾: أي: طاهِرةً من الذُّنوبِ، وأصلُ (زكي): يدلُّ على طَهارةٍ[١].

﴿نُّكۡرٗا﴾: أي: مُنكرًا عظيمًا، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: انطلق موسَى والخضرُ بعدَ أن خرَجَا مِن السَّفينةِ، فبينما هما يَمشِيانِ إذ أبصَرَا غُلامًا صغيرًا، فقتَلَه الخَضِرُ، فأنكر موسى عليه وقال: كيف قتَلْتَ نَفسًا طاهِرةً من الذنوبِ وهي لم تَقتُلْ نفسًا، حتى تستحِقَّ القَتلَ بها؟! لقد فَعَلْتَ أمرًا مُنكَرًا عظيمًا. قال الخَضِرُ لموسى مُعاتِبًا ومُذَكِّرًا: ألم أقُلْ لك إنَّك لن تستطيعَ معيَ صَبرًا؟ قال موسى له: إنْ سألْتُك عن شَيءٍ بعد هذه المَرَّةِ فاترُكْني ولا تُصاحِبْني، قد وصلتَ إلى حالٍ تُعْذَرُ فيها في مفارقتي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧- ١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

نُكْرًا ﴿٧٤﴾.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾.

أي: فانطلقَ موسى والخَضِرُ بعدَ ذلك يَسيرانِ إلى أن لَقِيَا غُلامًا صَغيرًا[١]، فقتَلَه الخَضِرُ[٢]!!

وفي قِصَّةِ موسَى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ بن كعبٍ رضي الله عنه: ((فلمَّا خَرَجا مِن البَحرِ مَرُّوا بغُلامٍ يلعَبُ مع الصِّبيانِ، فأخَذ الخَضِرُ برأسِه فقَلَعَه بيَدِه هكذا- وأومأ سُفيانُ بأطرافِ أصابعِه كأنَّه يَقطِفُ شَيئًا!))[٣].

وفي روايةٍ: ((وَجَد غِلمانًا يَلعَبونَ فأخذ غُلامًا كافِرًا ظَريفًا[٤]، فأضجَعَه ثمَّ ذبَحَه بالسِّكِّينِ[٥]))[٦].

وفي روايةٍ: ((فانطلَقا حتى إذا لَقِيا غِلمانًا يَلعَبونَ، قال: فانطلَقَ إلى أحَدِهم

---

(١) قال القرطبي: (قال الجمهورُ: لم يكُنْ بالغًا؛ ولذلك قال موسَى: «زاكيةً لم تُذْنِبْ»، وهو الَّذي يَقْتَضيه لفظُ الغلامِ، فإنَّ الغلامَ في الرِّجالِ يُقالُ على مَنْ لم يبلُغْ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٧).

(٣) رواه البخاري (٣٤٠١).

(٤) الظَّرْفُ: حُسنُ الوَجْهِ والهَيئةِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٤/ ١١٢).

(٥) قال ابن حجر: (فأضْجَعه ثُمَّ ذَبَحه بالسِّكِّينِ، وفي روايةِ سفيانَ: «فأخَذ الخضرُ برأسِه فاقتلَعه بيدِه فقتَلَه»، وفي روايتِه في البابِ الَّذي يَلِيه: «فقَطَعه»، وَيُجمَعُ بينَهما بأنَّه ذبَحه ثُمَّ اقتلَع رأسَه، وفي روايةٍ أُخرَى عندَ الطَّبريِّ: «فأخَذ صخرةً فثَلغ رَأسَه» وهي بمثلثة ثمَّ معجمةٍ، والأوَّلُ أصحُّ، ويمكنُ أنْ يكونَ ضَرَب رأسَه بالصَّخرةِ، ثمَّ ذبَحه وقطَع رأسَه). ((فتح الباري)) (٨/ ٤١٩).

(٦) رواه البخاري (٤٧٢٦).

باديَ الرَّأيِ[١] فقتلَه، فذُعِرَ[٢] عندها موسى عليه السَّلامُ ذَعرةً مُنكَرةً))[٣].

﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾.

أي: قال موسى مُنكِرًا على الخَضِرِ قَتْلَ الغُلامِ: أقتَلْتَ نفسًا طاهرةً من الذُّنوبِ بغيرِ حَقٍّ ومُستَنَدٍ يُخَوِّلُ لك قَتْلَه؟! فلمْ يَقتُلِ الغُلامُ أحدًا حتى تَقتُلَه[٤]!

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِرِ من حديثِ أبيِّ بنِ كعبٍ رضي الله عنه: ((﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ لم تعمَل بالحِنثِ[٥]؟!))[٦].

﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾.

أي: لقد فعلتَ -بقَتلِك الغُلامَ بغيرِ ذَنبٍ- فِعلًا مُنكَرًا ظاهِرَ النَّكارةِ[٧]!

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾.

---

(١) بادِيَ الرأيِ: أي: ظاهِرَ الرأْيِ والنَّظرِ من غير فِكرٍ ولا رَويَّةٍ، من البُدُوِّ: وهو الظُّهورُ، ومَن همزه (بادئَ) فيكونُ المعنى: أي: في أوَّل رَأيٍ رآه وابتَدأ به. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٦٢).

(٢) فذُعِرَ: الذُّعرُ: الفزعُ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ١٦١).

(٣) رواه مسلم (٢٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٩، ٣٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

قال الزمخشري: (قُرِئَ: زاكية، وزكيَّة، وهي: الطَّاهِرةُ مِن الذُّنوبِ؛ إمَّا لأنَّها طاهرةٌ عنده؛ لأنَّه لم يَرَها قد أذنبت، وإمَّا لأنَّها صغيرةٌ لم تبلُغِ الحِنثَ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٦).

(٥) الحِنث: أي: الإثم والمعصية، أي: لم يَبلُغْ. يُنظر: ((الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري)) للكرماني (١٧/ ١٩٨).

(٦) رواه البخاري (٤٧٢٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

قال السعدي: (كانت الأولَى مِن موسَى نسيانًا، وهذه غيرُ نِسيانٍ، ولكنْ عَدَم صَبرٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

أي: قال الخَضِرُ لموسى: ألم أَقُلْ لك مِن قَبلِ أن تَصحَبَني: إنَّك لن تُطيقَ الصَّبرَ على اتِّباعي؛ لِما تراه من أفعالي التي ظاهِرُها مُنكَرٌ، وإنَّك لن تَصبِرَ عن سُؤالي عن أفعالي؛ لأنَّك لم تُحِطْ بها خُبْرًا[١]؟!

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾.

أي: قال موسى للخَضِرِ: إنْ سألتُك عن أيِّ شَيءٍ بعد هذه المرَّة، ففارِقْني، واترُك صُحبَتي[٢].

﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾.

أي: قد وصلتَ إلى حالٍ تُعْذَرُ فيها في مُفارَقتي، وتَرْكِ مُصاحَبتي؛ وذلك باعتراضي مَرَّتَينِ، واحتِمالِك لي فيهما[٣].

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيِّ بنِ كعبٍ: فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ هذا المكانِ: ((رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لولا أنَّه عَجَّلَ لرأى العَجَب، ولكِنِه أخذَتْه مِن صاحِبِه ذِمامةٌ[٤]، ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾، ولو صبَرَ لرأى العَجَب!!))[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٩).

(٤) ذِمامةٌ: أي: حَياءٌ وإشفاقٌ، مِن الذَّمِّ واللَّومِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٧٠).

(٥) رواه مسلم (٢٣٨٠).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِيۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ فيه أنَّه ينبغي للصَّاحِبِ ألَّا يُفارِقَ صاحِبَه في حالةٍ مِن الأحوالِ، ويَترُكَ صُحبَتَه، حتى يُعتِبَه[١]، ويُعذِرَ منه، كما فعل الخَضِرُ مع موسى[٢].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ الحكمُ بالظاهرِ؛ لقولِه عليه السلامُ: ﴿نَفْسًا زَكِيَّةً﴾[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ فيه أنَّ القَتلَ قِصاصًا غيرُ مُنكَرٍ، وأنَّ القصاصَ كان في شرعِ مَن قبلَنا[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ فيه أنَّ القَتلَ مِن أكبَرِ الذُّنوبِ[٥].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِيۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ لم يَعتذِرْ هنا موسى عليه السَّلامُ بالنِّسيانِ؛ إمَّا لأنَّه لم يَكُنْ نَسي، ولكنَّه رجَّح تغييرَ المنكَرِ العَظيمِ، وهو قَتْلُ النَّفسِ بدونِ موجِبٍ، على واجبِ الوفاءِ بالالْتِزامِ، وإمَّا لأنَّه نَسي وأعرَض عن الاعتِذارِ بالنِّسيانِ؛ لِسَماجَةِ تَكرُّرِ الاعْتِذارِ

---

(١) أعتبه: أي: أزال شكواه، والهمزةُ فيه للسَّلبِ. ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٥٩)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

(٤) يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للمازري (٧/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

به، وعلى الاحْتِمالَينِ فقد عدَل إلى المبادَرةِ باشْتِراطِ ما تَطمئِنُّ إليه نفسُ صاحبِه بأنَّه إن عاد للسُّؤالِ الَّذي لا يَبْتَغيه صاحِبُه فقد جعَل له أن لا يُصاحِبَه بعدَه[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ فيه أنَّ للثَّلاثِ اعتِبارًا في التَّكرارِ ونَحوِه[٢].

٦- قَولُ موسى للخَضِر: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ والتزامُ موسى بذلك ولم يكتُبا ذلك، ولم يُشهِدا أحدًا؛ فيه دَلالةٌ على العَمَلِ بمُقتضى ما دلَّ عليه الشَّرطُ؛ فإنَّ الخَضِرَ قال لموسى لَمَّا أخلَفَ الشَّرطَ: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨] ولم يُنْكِرْ موسى ذلك[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾

- قولُه: ﴿فَانطَلَقَا﴾ في الكلامِ حذفٌ تَقديرُه: فخرَجا مِن السَّفينةِ، ولم يقَعْ غرَقٌ بأهلِها، فانطلَقا[٤]، أو: فقَبِل عُذرَه، فخَرَجا مِن السَّفينةِ، فانطَلَقا[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنة؛ حيثُ قال عزَّ وجلَّ هُنا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ بالفاءِ؛ وقال فيما سبق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ بغيرِ فاءٍ، ووجهُ ذلك: أنَّه جعَل خَرْقَها جَزاءَ الشَّرطِ، فلم يَحتَجْ للفاءِ، وجعَلَ قتْلَ الغُلامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧١).
(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٣٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٥).

مِن جُملةِ الشَّرطِ؛ فعَطَفه عليه بالفاءِ، وجَزاءُ الشَّرطِ قولُه: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: ٧٤]، وخُولِفَ بينَهما؛ لأنَّ خَرْقَ السَّفينةِ لم يَتعقَّبِ الرُّكوبَ، وقد تَعقَّبَ القَتْلُ لِقاءَ الغُلامِ[١]. وقيل: لعلَّ تَغْييرَ النَّظْمِ بأنْ جعَل خرْقَها جَزاءً، واعتِراضَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُستأنَفًا في الأُولى وفي الثَّانية (قَتَلَهُ) مِن جُملةِ الشَّرطِ واعتِراضَه جَزاءً؛ لأنَّ القتلَ أقبَحُ والاعتِراضَ عليه أدخَلُ؛ فكان جَديرًا بأن يُجعَلَ عُمدةَ الكَلامِ؛ ولذلك فصَلَه بقولِه: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾[٢]. وقيل: ولعلَّ تَغْييرَ النَّظْمِ الكَريمِ بِجَعلِ ما صدَر عن الخَضِرِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هاهنا مِن جُملةِ الشَّرطِ وإبرازِ ما صدَر عن موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في مَعرِضِ الجَزاءِ المقصودِ إفادتُه، مع أنَّ الحَقيقَ بذلك إنَّما هو ما صدَر عَن الخَضِرِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن الخَوارِقِ البَديعةِ؛ لاسْتِشرافِ النَّفْسِ إلى وُرودِ خَبرِها لِقلَّةِ وُقوعِها في نفسِ الأمرِ، ونُدْرةِ وُصولِ خبَرِها إلى الأذهانِ؛ ولذلك رُوعِيَت تلك النُّكتةُ في الشَّرطيَّةِ الأُولى لِما أنَّ صُدورَ الخَوارِقِ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خرَج بوُقوعِه مرَّةً مَخرَجَ العادةِ، فانصرَفَتِ النَّفسُ عن تَرقُّبِه إلى تَرقُّبِ أحوالِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ هل يُحافِظُ على مُراعاةِ شَرطِه بمُوجِبِ وعْدِه الأكيدِ عِندَ مُشاهَدةِ خارِقٍ آخَرَ، أو يُسارِعُ إلى المناقَشةِ، كما مرَّ في المرَّةِ الأُولى؟ فكان المقصودُ إفادةَ ما صدَر عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ففعَل ما فعَل، وللهِ دَرُّ شأنِ التَّنزيلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٦).

وقيل: خَرقُ السفينةِ ملائِمٌ لِسَببِه وهو الركوبُ؛ لأنَّهم فعلوا معهم أمرًا ملائِمًا، فحملوهم بغيرِ نَولٍ، ففعل هو معهم بسبَبِ ذلك أمرًا ملائِمًا، وهو خَرقُ السفينةِ الموجِبُ إنجاءَهم من المَلِك الذي يأخُذُ كُلَّ سفينةٍ غَصبًا، فناسب جعْلَه سببًا عنه، وأمَّا قَتلُ الغلامِ فليس ملائِمًا للَّقاءِ، وإنَّما الملائِمُ له فِعلٌ مُقدَّرٌ، وهو خوفُ أن يُرهِقَ والِدَيه المؤمِنَينِ طُغيانًا وكفرًا؛ فلذلك عطَفَه على الشَّرطِ، ولم يجعَلْه جوابًا له ولا سببًا عنه[١].

- قولُه: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ تَعقيبٌ لفِعلِ ﴿لَقِيَا﴾ تأكيدًا للمُبادَرةِ المفهومةِ مِن تقديمِ الظَّرفِ؛ فكانَت المبادرةُ بقَتلِ الغُلامِ عندَ لِقائِه أسرَعَ مِن المبادَرةِ بخَرقِ السَّفينةِ حينَ رُكوبِها[٢].

- قولُه: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، أي: بغَيرِ قتلِ نَفْسٍ محرَّمةٍ، وتخصيصُ نَفْيِ هذا المبيحِ بالذِّكْرِ مِن بينِ سائرِ المبيحاتِ؛ مِن الكُفرِ بعدَ الإيمانِ، والزِّنا بعدَ الإحصانِ؛ لأنَّه الأقرَبُ إلى الوُقوعِ نَظرًا إلى حالِ الغُلامِ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾

- في قولِه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ استفهامُ تقريرٍ وتعريضٍ باللَّومِ على عدَمِ الوفاءِ بما الْتزَم، أي: أتُقِرُّ أنِّي قُلتُ: إنَّك لا تَستطيعُ مَعي صبرًا[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٦).

- واللامُ في قولِه ﴿لَّكَ﴾ لامُ التَّبليغِ، وذلك عندَما يَكونُ الْمَقولُ له الكلامُ مَعلومًا مِن السِّياقِ، فيَكونُ ذِكرُ اللَّامِ لزيادةِ تَقوِّي الكَلامِ، وتَبْليغِه إلى السَّامِعِ؛ ولذلك سُمِّيَت لامَ التَّبليغِ؛ فاللَّامُ لم يُحتَجْ لذِكْرِها في جوابِه أوَّلَ مرَّةٍ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]؛ فكان التَّقريرُ والإنكارُ مع ذِكْرِ لامِ تَعدِيَةِ القولِ أقْوى وأشَدَّ[١].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٥).

الآيتان (٧٧-٧٨)

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَأَبَوۡاْ﴾: أي: امْتَنعوا، والإباءُ: شِدَّةُ الامتناعِ؛ فكلُّ إباءٍ امتناعٌ، وليس كلُّ امتناعٍ إباءً[١].

﴿يَنقَضَّ﴾: أي: يَسقُطَ وينهَدِمَ، وأصلُ (نقض): يدُلُّ على هُوِيِّ الشَّيءِ[٢].

﴿بِتَأۡوِيلِ﴾: أي: بعِلْمِ وتَفسيرِ، وأصلُ (أول): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى الأصلِ؛ لأنَّ التَّأويلَ: إخبارٌ عمَّا يَرجِعُ إليه اللَّفظُ مِن المعنى[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: فسار موسى والخَضِرُ حتى أتيا أهلَ قَريةٍ، فطَلَبا منهم طعامًا على سَبيلِ الضِّيافةِ، فامتَنَعوا عن ضيافتِهما، فوجدا فيها حائِطًا مائِلًا يُوشِكُ أن يَسقُطَ، فأصلَحَه الخَضِرُ حتى صار مستقيمًا، قال له موسى: لو شِئتَ لأخَذْتَ على هذا العَمَلِ أجرًا، ولم تُقِمْه لهم مجَّانًا. قال الخَضِر لموسى: هذا وقتُ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

الفِراقِ بيني وبينَك، سأُخبِرُك بما أنكَرْتَ عليَّ مِن أفعالي التي فعَلْتُها، والتي لم تستَطِعْ أن تصبِرَ عن سؤالي عنها والإنكارِ عليَّ فيها.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾.

أي: فانطلق موسى والخَضِرُ يَسيرانِ بعدَ قَتْلِ الغُلامِ إلى أن بَلَغا قريةً[1] فطَلَبا مِن أهلِها إطعامَهما، فامتَنَعوا عن أن يُنزِلوهما ويُطعِموهما؛ لُؤمًا منهم[2]!

وفي حديثِ قِصَّةِ موسى والخَضِر: ((﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ لِئامًا، فطافا في المجالِسِ فـ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾))[3].

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾.

أي: فوجَد موسى والخَضِرُ في تلك القريةِ حائِطًا مائِلًا يُوشِكُ أن يَسقُطَ

---

(١) قال ابن حجر: (قيلَ: هي الأُبُلَّةُ. وقيلَ: إنطاكيةُ. وقيلَ: أذْرَبِيجانُ. وقيلَ: بُرقةُ. وقيلَ: ناصِرَةُ. وقيلَ: جزيرةُ الأندلسِ... وشدَّةُ المباينةِ في ذلك تقتضي أنْ لا يُوثَقَ بشيءٍ مِنْ ذلك). ((فتح الباري)) (٨/ ٤٢٠).

وقال ابنُ عثيمين: (لم يُعَيِّن اللهُ عزَّ وجَلَّ القريةَ، فلا حاجةَ إلى أن نبحَثَ عن هذه القريةِ، بل نقولُ: قريةٌ أبهَمَها الله فنُبهِمُها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧).

(٣) رواه مسلم (٢٣٨٠).

ويَنهَدِمَ، فأصلَحَه الخَضِرُ، وعدَّل مَيلَه فاستقامَ[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٥، ٣٥٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨).

وذهب ابنُ تيميَّةَ والشنقيطيُّ وابنُ عُثيمين إلى أنَّ إرادةَ الجدارِ السُّقوطَ حَقيقيَّةٌ، وليست مجازًا. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٠٧، ١٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٠).

قال ابنُ تيمية: (لَفظُ الإرادةِ قد استُعمِلَ في الميلِ الذي يكونُ معه شعورٌ، وهو مَيلُ الحَيِّ، وفي المَيلِ الذي لا شعورَ فيه، وهو مَيلُ الجَمادِ، وهو مِن مشهورِ اللُّغةِ؛ يقالُ: هذا السقفُ يريدُ أن يقَعَ، وهذه الأرضُ تريد أن تُحرَثَ، وهذا الزرعُ يُريدُ أن يُسقَى، وهذا الثَّمرُ يُريد أن يُقطَفَ، وهذا الثوبُ يريدُ أن يُغسَل، وأمثال ذلك. واللفظُ إذا استُعمل في معنيَينِ فصاعِدًا، فإمَّا أن يُجعَلَ حقيقةً في أحدهما مجازًا في الآخَرِ، أو حقيقةً فيما يختَصُّ به كلٌّ منهما، فيكونَ مُشتَرَكًا اشتِراكًا لَفظيًّا، أو حقيقةً في القَدرِ المُشتَرَك بينهما، وهي الأسماءُ المتواطئة، وهي الأسماءُ العامَّةُ كُلُّها. وعلى الأوَّلِ يلزَمُ المجازُ، وعلى الثاني يلزمُ الاشتراكُ، وكلاهما خلافُ الأصلِ؛ فوجب أن يُجعَلَ مِن المتواطئةِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٠٨).

وقال الشنقيطي: (قولُه: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ لا مانِعَ مِن حَملِه على حقيقةِ الإرادةِ المعروفةِ في اللغة؛ لأنَّ الله يَعلَمُ للجماداتِ ما لا نَعلمُه لها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] الآية. وقد ثبت في «صحيحِ البُخاريِّ» حنينُ الجِذعِ الذي كان يخطُبُ عليه صلَّى الله عليه وسلم، وثبت في «صحيحِ مُسلِمٍ» أنَّه صلَّى الله عليه وسلم قال: «إني أعرِفُ حَجَرًا كان يُسَلِّمُ عليَّ في مكَّةَ». وأمثال هذا كثيرةٌ جِدًّا، فلا مانع مِن أن يَعلَمَ اللهُ مِن ذلك الجدارِ إرادةَ الانقضاض. ويجابُ عن هذه الآية أيضًا بما قَدَّمنا من أنَّه لا مانِعَ مِن كون العرب تستَعمِلُ الإرادةَ عند الإطلاقِ في معناها المشهورِ، وتستعمِلُها في الميلِ عند دَلالةِ القرينةِ على ذلك. وكلا الاستعمالَينِ حَقيقةٌ في محَلِّه. وكثيرًا ما تَستعمِلُ العَرَبُ الإرادةَ في مُشارفةِ الأمر، أي: قُرْبِ وُقوعِه). ((منع جواز المجاز)) (ص: ٢٦، ٢٧).

وقيل: نسبةُ الإرادةِ إلى الجدارِ مجازٌ، وممن اختار هذا القولَ: الواحدي، والبغوي، والرسعني، والقرطبي، وابنُ جزي، والخازنُ، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧١)، ((تفسير الخازن))

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيِّ بنِ كعبٍ: ((﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ يقولُ: مائِلٌ، قال الخَضِرُ بيده هكذا، فأقامَه))[(١)].

وفي روايةٍ: ((أومَأَ بِيَدِه هكذا، وأشار سُفيانُ كأنَّه يَمسحُ شَيئًا إلى فوق))[(٢)].

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

أي: قال موسى للخَضِر: لو شِئتَ لم تُصلِحْ جِدارَ أهلِ هذه القريةِ اللِّئامِ، حتى يعطوك أُجرةً على ذلك، ولم تُقِمْه لهم مجَّانًا[(٣)].

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيِّ بنِ كعبٍ: ((قال له موسى: قومٌ

(٣/ ١٧٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٨).

وقال ابنُ كثير: (وقولُه: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ أي: فرَدَّه إلى حالةِ الاستقامةِ، وقد تقدَّم في الحديثِ أنَّه ردَّه بيديه ودعَمَه حتى ردَّ مَيلَه، وهذا خارِقٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٤).

وقال ابنُ عطيةَ: (اختَلف المفسِّرونَ في قولِه: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ فقالت فِرقةٌ: هدَمَه وقعَدَ يبنيه، ووقَع هذا في مُصحَفِ ابنِ مسعودٍ، ويؤيِّدُ هذا التأويلَ قولُه: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ لأنَّه فِعلٌ يَستحِقُّ أجرًا. وقال سعيدُ بنُ جُبيرٍ: مسَحَه بيَدِه وأقامَه فقام. قال القاضي أبو محمدٍ: ورُوِيَ في هذا حديثٌ، وهو الأشبَهُ بأفعالِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣٤).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥١).

(١) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٣٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧، ٩).

قال ابنُ تيميَّةَ: (هذا سؤالٌ من جهةِ المعنى، فإنَّ السؤالَ والطَّلَبَ قد يكونُ بصيغةِ الشَّرطِ، كما تقولُ: لو نزَلْتَ عندنا لأكرَمْناك، وإن بِتَّ الليلةَ عندنا أحسنتَ إلينا، ومنه قولُ آدمَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقولُ نوحٍ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٧٥). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢١١).

أتيناهم فلم يُضَيِّفونا ولم يُطعِمونا، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾))[١]!

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر في روايةٍ: ((﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾: أجرًا نأكُلُه))[٢].

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

أي: قال الخَضِرُ لموسى: سُؤالُك لي واعتراضُك على فِعلي للمَرَّةِ الثالثةِ سَبَبُ حُصولِ الفِراقِ بيني وبينَك، وقد انتهى ما بينَنا، فلن تَصحَبَني بعدَ الآن[٣].

﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

أي: سأُخبرُك قبل مُفارَقتِك بتفسيرِ أفعالي التي أنكَرْتَها عليَّ، ولم تستَطِعْ أن تصبِرَ عن سؤالي عنها حتى أُخبِرَك بحَقيقتِها[٤].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ فمَن لم يُعْطَ يَتَعَزَّ بهذه القصةِ، وكم ممن هانَ على الناسِ وهو جليلٌ عندَ الله[٥].

---

(١) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٣)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤٤٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٥٧)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد ابن عبد الوهاب).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، قال: ﴿أَتَيَآ﴾، ولم يقُلْ: (وصَلا إلى أهلِ قريةٍ)؛ إشارةً إلى أنَّ إتيانَهم لها كان على قَصدٍ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ في الآيةِ دَليلٌ على إباحةِ طَلَبِ الطعامِ لعابِرِ السَّبيلِ؛ لأنَّه شَرعُ مَن قَبلَنا، وحكاه القرآنُ، ولم يَرِدْ ما يَنسَخُه[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ في الآيةِ مَشروعيَّةُ ضيافةِ عابِرِ السَّبيلِ إذا نزَل بأحدٍ مِن الحَيِّ أو القَريةِ[٣].

٤- في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ ما عليه الإنسانُ مِن البشريةِ ولو كان نبيًّا، وذلك مِن أدلةِ التوحيدِ[٤].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾ في هذه الآيةِ إباحةُ المكاسِبِ، وأخذِ الأُجرةِ على العَمَلِ، وفي ذلك تجهيلُ مَن يُحَرِّمُ الكَسبَ مِن الصوفيَّةِ؛ لأنَّ موسى صلَّى اللهُ عليه وسلم قال له: ﴿لَوۡ شِئۡتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧). ويُنظر أيضًا: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٥٣)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ فلم يُنْكِرِ الخَضِرُ ما قال، بل أعلَمَه أنَّ الانتظارَ به إلى وقتِ اتِّخاذِه الأجرَ لم يُمكِنْه؛ لِما خشِيَ مِن ظهورِ الكَنزِ بعد انقِضاضِه(١).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أي: كان في مُكْنَتِك [أي: استطاعتِك] أن تجعَلَ لنفسِك أجرًا على إقامةِ الجِدارِ تأخُذُه ممَّن يَملِكُه من أهلِ القريةِ، ولا تقيمَه مجانًّا؛ لأنَّهم لم يقوموا بحَقِّ الضيافةِ، ونحن بحاجةٍ إلى ما نُنفِقُه على أنفُسِنا، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ نَفَقةَ الأتباعِ على المتبوعِ(٢).

٧- وقولُ موسى عليه السَّلامُ: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ لَوْمٌ، وهذا اللَّومُ يتَضمَّنُ سُؤالًا عن سَببِ تَرْكِ المشارَطةِ على إقامةِ الجِدارِ عند الحاجةِ إلى الأجرِ، وليس هو لَوْمًا على مجرَّدِ إقامتِه مجَّانًا؛ لأنَّ ذلك مِن فِعلِ الخيرِ، وهو غيرُ مَلومٍ(٣).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ قال: ﴿لَوْ شِئْتَ ﴾، وهذا لا شَكَّ أنَّه أُسلوبٌ رَقيقٌ فيه عَرضٌ لَطيفٌ، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أي: عِوَضًا عن بنائِه(٤).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ فيه سؤالٌ: كيف ساغ إضافةَ (بين) إلى غيرِ متعدِّدٍ؟

الجواب: أنَّ مسوِّغَ ذلك تكريرُه بالعَطفِ بالواو، ألا ترى أنَّك لو اقتصرت على قولِك: (المالُ بيني) لم يكُنْ كلامًا حتى تقولَ: (بينَنا) أو (بيني وبينَ

(١) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٠).

فلانٍ)[١].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾

- قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ فيه تكرارُ (أَهْل) على سَبيلِ التَّوكيدِ، وقد يَظهَرُ له فائدةٌ عن التَّوكيدِ، وهو أنَّهما حينَ أتَيا أهْلَ القريةِ لم يأتِيا جَميعَ أهْلِ القريةِ، إنَّما أتَيا بعضَهم، فلمَّا قال: ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ﴾ احتَمَل أنَّهما لم يَستطعِما إلَّا ذلك البعضَ الَّذي أتَيَاه، فجِيءَ بلَفظِ ﴿أَهۡلَهَا﴾؛ لِيَعُمَّ جَميعَهم، وأنَّهم يتبعونهم واحِدًا واحدًا بالاستِطْعامِ، ولو كان التَّركيبُ (استَطْعَماهم) لكان عائِدًا على البعضِ المأتيِّ[٢]؛ فإظهارُ لفظِ ﴿أَهۡلَهَا﴾ دونَ الإتيانِ بضميرِهم؛ لزيادةِ التَّصريحِ، تَشنيعًا بهِم في لُؤمِهم؛ إذْ أبَوْا أن يُضيِّفوهما[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾

- قولُه: ﴿فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَ﴾ فيه تَكريرُ (بين)، وعُدولُه عن (بَينِنا)؛ لِمَعنى التَّأكيدِ[٤].

- وجملةُ ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بيانيًّا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢١١).

تقَعُ جَوابًا لسُؤالٍ يَهجِسُ في خاطِرِ موسى عليه السَّلامُ عن أسبابِ الأفعالِ الَّتي فعَلَها الخَضِرُ عليه السَّلامُ، وسأَله عنها موسى؛ فإنَّه قد وعَده أن يُحْدِثَ له ذِكْرًا ممَّا يفعَلُه[١].

- والسِّينُ في ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ للتَّأكيدِ؛ لِعدَمِ تَراخي التَّنبئةِ[٢]، أي: سأُخبِرُك عن قُربٍ قبلَ المفارقةِ، و(السينُ) تدُلُّ على القُربِ، وتفيدُ مع القُربِ التَّحقيقَ[٣].

- وأكَّد الموصولَ الأولَ الواقِعَ في قولِه: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾؛ تأكيدًا للتَّعريضِ باللَّومِ على عدَمِ الصبرِ[٤]؛ ففي جَعْلِ صِلَةِ الموصولِ عدَمَ استِطاعةِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ للصَّبرِ -دونَ أن يُقالَ: بتأويلِ ما فعَلت، أو بتأويلِ ما رأيتَ، ونَحوُهما-: نوعُ تعريضٍ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وعِتابٍ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥)

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١).

الآيات (٧٩-٨٢)

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَعِيبَهَا﴾: أي: أجعَلَها ذاتَ عَيبٍ[١].

﴿زَكَوٰةً﴾: أي: صلاحًا وطَهارةً، وأصل (زكو): يدُلُّ على نماءٍ وزيادةٍ[٢].

﴿رُحْمًا﴾: أي: رَحمةً وعَطفًا، وأصلُ (رحم): يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطفِ والرَّأفةِ[٣].

﴿يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾: بلَغ أشدَّه، أي: بلَغ مُنْتهَى شَبابِه وقُوَّتِه، أو: اشتدَّ جِسْمُه وقوي، والبُلوغُ والبَلاغُ: الانتهاءُ إلى أقصَى المقصدِ والمنتهَى. وأصلُ (بلغ): الوصولُ إلى الشَّيءِ، وأصل (شدد): يدلُّ على قوةٍ في الشيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس(٢/ ٤٩٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥، ٢٥٤، ٢٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١)، (٣/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى قولَ الخضرِ لموسى حيثُ بيَّن له ما خفِي عليه مِن الأمورِ الثلاثةِ، وأنَّه قال له: أمَّا السَّفينةُ التي خَرقتُها فإنَّها كانت لأُناسٍ مَساكينَ يَعمَلونَ في البَحرِ عليها، فأردتُ أن أَعيبَها بذلك الخَرقِ؛ لأنَّ أمامَهم مَلِكًا كان يَستولي على كُلِّ سَفينةٍ صالحةٍ غَصبًا مِن أصحابِها. وأمَّا الغلامُ الذي قتَلْتُه فكان أبوه وأمُّه مُؤمِنَينِ، وكان هو -في عِلمِ ربِّك- كافرًا، فخَشِينا لو بَقِيَ الغلامُ حيًّا أن يَحمِلَ والِدَيه على الكُفرِ باللهِ تعالى، فأرَدْنا أن يُبدِلَ اللهُ أبَوَيه بمن هو خيرٌ منه صَلاحًا ودينًا، وطهارةً مِن الذُّنوبِ، وبِرًّا بهما، وأرحمُ بهما منه. وأمَّا الحائِطُ الذي أقمتُه فكان لغُلامَينِ يَتيمَينِ في المدينةِ، وكان تحته كَنزٌ لهما، وكان أبوهما رَجُلًا صالحًا، فأراد ربُّك أن يَكبَرا ويبلُغا تمامَ قُوَّتِهما، ويستَخرِجا كنزَهما؛ رحمةً مِن رَبِّك بهما. وما فعَلْتُ -يا موسى- جميعَ الأمورِ التي رأيتَني فعَلْتُها، عن أمري ومِن تلقاءِ نَفسي، وإنَّما فعَلْتُها عن أمرِ اللهِ، ذلك الذي بَيَّنْتُ لك أسبابَه هو تَفسيرُ الأمورِ التي لم تَستَطِعْ صَبْرًا عن سؤالي عنها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾.

أي: قال الخَضِرُ لموسى: أمَّا السَّفينةُ التي خَرَقْتُها فكانت لمساكينَ يَطلُبونَ فيها الرِّزقَ في البَحرِ[1].

(ص: ١٤٤، ٤٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير))

وفي قصةِ موسَى والخضرِ عليهما السلامُ، من حديثِ أبيٍّ بن كعبٍ رضي الله عنه: ((وجدا معابرَ صِغارًا تحمِلُ أهلَ هذا السَّاحِلِ إلى أهلِ هذا السَّاحِلِ الآخَرِ، عَرَفوه فقالوا: عبدُ الله الصَّالحُ -قال: قُلْنا لسعيدِ بنِ جُبَير: خَضِر؟ قال: نَعَم- لا نحمِلُه بأجرٍ، فخَرَقَها ووتَدَ فيها وتدًا))[1].

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾.

أي: فأردتُ أن أخرِقَ السَّفينةَ، فأجعَلَها مَعِيبةً[2].

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

أي: وكان أمامَ[3] أصحابِ السَّفينةِ مَلِكٌ ظالِمٌ يَستولي على كُلِّ سَفينةٍ صالحةٍ

(٥/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الكهف)) (ص: ١٢١).

(١) تقدَّم تخريجُه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٤).

(٣) ممن اختار أنَّ معنى ﴿وَرَآءَهُم﴾: أمامَهم: مقاتلُ بنُ سليمان، والفرَّاء، وابنُ قتيبة، وابنُ جرير، والسمرقندي، والواحدي ونسَبه لأكثرِ المفسِّرينَ، والبغوي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٩٨)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٥٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٥٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١١٩).
قال الواحدي: (أكثَرُ أهلِ العِلمِ مِن المفسِّرين وأصحابِ المعاني قالوا: ﴿وَرَآءَهُم﴾ هاهنا معناها أمامَهم... ولا خِلافَ بين أهلِ اللُّغةِ أنَّ «وراء» يجوزُ أن تكونَ بمعنى قُدَّام). ((البسيط)) (١٤/ ١١٣، ١١٥).
وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقتادةُ. وقرَأ ابنُ عبَّاسٍ، وأبيُّ بنُ كعبٍ، وابنُ مسعودٍ: (وكان أمامَهم مَلِك). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٠٢).

وقيل ﴿وَرَآءَهُم﴾ بمعنى: خلفَهم. وممن قال بذلك: الزجاجُ، وابنُ عطية. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣٥).

قال الزجاج: (و﴿وَرَآءَهُم﴾: خلفَهم، هذا أجودُ الوجهينِ. ويجوزُ أن يكونَ كان رجوعُهم في طريقِهم عليه، ولم يكونوا يعلمونَ بخبرِه، فأعلمَ اللَّهُ الخَضِر خَبَرَه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٣٠٥).

وقال ابنُ عطية: (وقولُه: ﴿وَرَآءَهُم﴾ هو عندي على بابِه، وذلك أنَّ هذه الألفاظَ إنما تجيءُ مُراعًى بها الزَّمنُ، وذلك أنَّ الحادِثَ المقَدَّمَ الوجودِ هو الأمامُ، وبينَ اليدِ: لِما يأتي بعده في الزمَنِ، والذي يأتي بعدُ: هو الوراءُ، وهو ما خَلف، وذلك بخلافِ ما يظهَرُ ببادي الرأي، وتأمَّلْ هذه الألفاظَ في مواضعِها حيث وردَت تجِدْها تطَّرِدُ؛ فهذه الآيةُ معناها: أنَّ هؤلاء وعَمَلَهم وسَعْيَهم يأتي بعده في الزمَنِ غَصبُ هذا المَلِك، ومن قرأَ «أمامهم»، أراد في المكانِ، أي: إنهم كانوا يسيرونَ إلى بلَدِه، وقولُه تعالى في التوراةِ والإنجيلِ إنَّهما بين يدَيِ القرآنِ، مطَّرِدٌ على ما قُلْنا في الزَّمنِ، وقولُه: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] مطَّرِدٌ كما قلنا مراعاةً للزَّمنِ، وقَولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «الصَّلاةُ أمامَك» يريدُ في المكانِ، وإلَّا فكَونُهم في ذلك الوقتِ كان أمام الصلاةِ في الزَّمَنِ، وتأمَّلْ هذه المقالةَ فإنَّها مريحةٌ مِن شَغبِ هذه الألفاظِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣٥).

وقال القُرطبيُّ مُعَلِّقًا على كلامِ ابنِ عطيةَ: (وما اختاره هذا الإمامُ قد سبَقه إليه في ذلك ابنُ عرفة؛ قال الهَرَوي: قال ابنُ عرفة: يقولُ القائِلُ: كيف قال: «من ورائِه» وهي أمامه؟ فزعم أبو عُبَيد وأبو عليٍّ قُطرُب أنَّ هذا مِن الأضدادِ، وأنَّ «وراء» في معنى «قُدَّام»، وهذا غيرُ مُحصِّل؛ لأنَّ «أمام» ضِدُّ «وراء»، وإنما يصلُحُ هذا في الأماكِنِ والأوقاتِ، كقولِك للرجلِ إذا وعَد وعدًا في رجبٍ لرمضانَ، ثم قال: «ومِن ورائك شعبانُ»، لجاز وإن كان أمامَه؛ لأنه يخلفُه إلى وقتِ وَعدِه. وأشار إلى هذا القول أيضًا القُشيري، وقال: إنما يقال هذا في الأوقاتِ، ولا يقالُ للرجلِ أمامَك: إنَّه وراءك). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٥).

وقال ابنُ القيم: (وأمَّا قَولُه: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ فإنْ صَحَّت قراءةُ: «وكان أمامَهم مَلِكٌ» فلها معنًى لا يناقِضُ القراءةَ العامَّةَ، وهو أنَّ المَلِكَ كان خَلْفَ ظهورِهم، وكان مَرجِعُهم عليه، فهو وراءَهم في ذَهابِهم، وأمامَهم في مَرجِعِهم؛ فالقراءتان بالاعتبارينِ. والله سبحانه وتعالى أعلم). ((بدائع الفوائد)) (٤/ ١٩٦).

وقال ابنُ عاشور: (و«وراء»: اسمُ الجهةِ التي خَلْفَ ظَهرِ مَن أضيفَ إليه ذلك الاسمُ، وهو ضِدُّ

قَهرًا[١].

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه: ((﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، فإذا جاء الذي يُسَخِّرُها[٢] وجَدَها مُنخَرِقةً فتَجاوَزَها، فأصلَحوها بخَشَبةٍ))[٣].

وفي روايةٍ: ((فأرَدتُ إذا هي مَرَّتْ به أن يَدَعَها لِعَيبِها، فإذا جاوَزوا أصلَحوها، فانتَفَعوا بها))[٤].

وعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: (فكان ابنُ عبَّاسٍ يقرأُ: «وكان أمامَهم مَلِكٌ يأخُذُ كُلَّ سَفينةٍ صالحةٍ غَصبًا»)[٥].

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾.

«أمام» و«قُدَّام»... وبعض المفسِّرين فسَّروا ﴿وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ بمعنى: أمامهم مَلِكٌ، فتوهَّم بعضُ مدوِّني اللغةِ أنَّ «وراء» مِن أسماءِ الأضدادِ، وأنكره الفَرَّاء وقال: لا يجوزُ أن تقولَ للذي بين يديك: «هو وراءَك»، وإنما يجوزُ ذلك في المواقيتِ مِن الليالي تقولُ: وراءك بردٌ شديدٌ، وبين يديك بردٌ شديدٌ. يعني أنَّ ذلك على المجاز. قال الزجَّاج: وليس من الأضدادِ كما زعم بعضُ أهلِ اللغةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١-١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٠٥)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢).

(٢) يُسَخِّرُها: التَّسخيرُ بمعنَى التَّكليفِ، والحملِ على الفعلِ بغيرِ أُجرةٍ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٥٠).

(٣) رواه مسلم (٢٣٨٠).

(٤) رواه البخاري (٤٧٢٦).

(٥) رواه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

أي: وأمَّا الغلامُ الذي قتَلْتُه، فكان أبوه وأمُّه مُؤمِنَينِ باللهِ، وكان الغُلامُ كافِرًا[١].

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ: ((وأمَّا الغُلامُ فطُبِعَ يومَ طُبِعَ كافِرًا))[٢].

وعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: (فكان ابنُ عَبَّاسٍ يَقرأُ: «وأمَّا الغلامُ فكان كافِرًا وكان أبواه مؤمِنَينِ»)[٣].

﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾.

أي: فخَشِينا[٤] إنْ بَقِيَ الغلامُ حيًّا أن يغْشَى أبوَيه بالعُقوقِ، ويَحمِلَهما على الكُفرِ باللهِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٢).

(٢) رواه مسلم (٢٣٨٠).

(٣) رواه البخاري (٤٧٢٥).

(٤) قال ابنُ الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿فَخَشِينَآ﴾ في القائِلِ لهذا قولان: أحدُهما: الله عزَّ وجلَّ. ثمَّ في معنى الخَشيةِ المضافةِ إليه قولان: أحدُهما: أنَّها بمعنى: العِلم. قال الفرَّاء: معناه: فعَلِمْنا. والثاني: الكراهةُ، قاله الأخفَشُ والزجَّاج. وقال ابنُ عَقيل: المعنى: فعَلْنا فِعلَ الخاشي. والثاني: أنَّه الخَضِرُ، فتكون الخشيةُ بمعنى الخَوفِ للأمرِ المتوَهَّم، قاله ابنُ الأنباري. وقد استدلَّ بعضُهم على أنَّه مِن كلامِ الخَضِرِ بقَولِه: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٠٣).

وممَّن ذهبَ إلى أنَّ المرادَ بالخشيةِ هنا: العلمُ: ابنُ جريرٍ، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٦- ٣٥٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بها: الخوفُ، وأنَّها مِن كلامِ الخَضِر: الزمخشري، ورجَّحه القرطبي، وذكر أنَّه قَولُ كثيرٍ مِن المفَسِّرين، وفَسَّره بذلك: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ: ((وأمَّا الغُلامُ فطُبِع يومَ طُبِع كافِرًا، وكان أبواه قد عطَفَا عليه، فلو أنَّه أدرك، أرهَقَهما طُغيانًا وكُفرًا))(١).

وفي روايةٍ: ((﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ أن يَحمِلَهما حُبُّه على أن يُتابِعاه على دِينِه))(٢).

﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾.

أي: قال الخَضِرُ: فأرَدْنا بقَتلِ الغُلامِ الكافِرِ أن يُبدِلَ اللهُ أبوَيه المُؤمِنَينِ ولَدًا صالِحًا خَيرًا مِن الأوَّلِ: دينًا، وصَلاحًا، وطهارةً مِن الذُّنوبِ، وأرحمَ بوالِدَيه، وأبَرَّ بهما منه(٣).

الزمخشري)) (٢/ ٧٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٦، ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٩).

قال ابن تيمية: (الغلامُ الذي قتَلَه الخَضِرُ: إمَّا أن يكونَ كافرًا بالغًا كَفَر بعدَ البلوغِ، فيجوزُ قَتلُه، وإمَّا أن يكونَ كافرًا قبلَ البلوغِ، وجاز قَتْلُه في تلك الشَّريعةِ، وقُتِل؛ لئلَّا يَفتِنَ أبويه عن دينِهما، كما يُقتَلُ الصبيُّ الكافِرُ في ديننا إذا لم يندَفِعْ ضَرَرُه عن المُسلِمينَ إلَّا بالقَتلِ). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٨/ ٤٢٨). ويُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ١٠٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٦، ٥٧).

(١) رواه مسلم (٢٣٨٠).

قال ابن تيمية: (يعني: طَبَعه اللهُ في أمِّ الكِتابِ، أي: كتَبَه وأثبَتَه كافِرًا، أي: أنَّه إن عاش كَفَر بالفِعلِ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٤٦). ويُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٣٦٣).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٠، ٣٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٩، ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٢).

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ بن كعبٍ رضي الله عنه: ((ووقع أبوه على أمِّه فَعَلِقَتْ[١]، فوَلَدَت منه خيرًا منه زكاةً، وأقرَبَ رُحمًا))[٢].

وفي حديثِ أبيِّ بنِ كعبٍ أيضًا في روايةٍ: ((﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ هما به أرحَمُ منهما بالأوَّلِ الذي قَتَل خَضِرٌ)). [قال ابنُ جُرَيجٍ]: وزعم غيرُ سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ: أنهما أُبدِلَا جاريةً. وأما داودُ بنُ أبي عاصِمٍ فقال: عن غيرِ واحدٍ: إنَّها جاريةٌ[٣].

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾.

أي: وأمَّا الحائِطُ الذي أقَمْتُه فكان لغُلامَينِ يتيمَينِ في المدينةِ التي أبَى أهلُها أن يُضَيِّفونا، فحالُهما تقتضي رحمَتَهما والرَّأفةَ بهما؛ لكَونِهما صَغيرَينِ فَقَدا أباهما[٤].

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾.

قال البقاعي: (فكان الضَّرَرُ اللَّاحِقُ لهما بالتأسُّفِ عليه أدنى من الضَّرَرِ اللاحِقِ لهما عند كِبَرِه، بإفسادِ دينِهما أو دُنياهما). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٢١-١٢٢).

(١) عَلِقَت: أي: حَبِلَت. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للفيومي (ص: ٢١٦).

(٢) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٥٨٤٤)، وعبد الله بن أحمد في ((زوائد المسند)) (٢١١١٨) واللفظ له.

صحَّح إسنادَه شُعَيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣٥/ ٥٢).

(٣) رواه البخاري (٤٧٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٣).

أي: وكان تحت الجِدارِ مالٌ عَظيمٌ مَدفونٌ لليتيمَينِ، فلو وقع الجِدارُ لكان أقرَبَ إلى ضَياعِ مالِهما[١].

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾.

أي: وكان والِدُ اليتيمَينِ -الذي مات وخلَّفهما- صالِحًا، فينبغي مُراعاتُه، والعنايةُ بذُرِّيتِه[٢].

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾.

أي: فأراد ربُّك -يا موسى- أن يَكبَرَ اليتيمانِ حتى يَصِلا إلى سِنِّ الرُّشدِ، وتَمامِ القُوَّةِ، ويَستَخرِجا حينَئذٍ مالَهما المدفونَ تحت الجِدارِ[٣].

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

أي: هذا الذي كان -يا موسى- إنما فَعَلْتُه رَحمةً مِنْ رَبِّك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٥، ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢٢).

قال ابن جُزي: (قيل: إنَّه الأبُ السَّابِعُ. وظاهِرُ اللَّفظِ أنَّه الأقرَبُ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٣).

قال البقاعي: (فكان التَّعَبُ في إقامةِ الجِدارِ مجَّانًا أدنى من الضَّرَرِ اللازِمِ مِن سُقوطِه؛ لِضَياعِ الكَنزِ، وفَسادِ الجدار). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٤).

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾.

أي: وما فعلتُ جميعَ تلك الأمورِ التي رأيتَني فعَلْتُها عن رأيي، ومِن تِلقاءِ نَفسي، وإنَّما فعَلْتُها بأمرِ اللهِ[1].

﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

أي: ذلك الذي بيَّنْتُه لك -يا مُوسى- هو تَفسيرُ أفعالي التي استنكَرْتَها عليَّ، ولم تستَطِعْ أن تَصبِرَ عن سؤالي عنها[2].

قال أبو السعود: (﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدرٌ في موقعِ الحالِ، أي: مرحومَين منه عزَّ وجلَّ، أو مفعولٌ له، أو مصدرٌ مؤكدٌ لـ «أراد»؛ فإنَّ إرادةَ الخير رحمةٌ. وقيل: متعلقٌ بمضمرٍ، أي: فعلتُ ما فعلتُ مِن الأمورِ التي شاهدتَها رحمةً مِن ربِّك، ويعضُدُه إضافةُ الربِّ إلى ضميرِ المخاطبِ دونَ ضميرِهما، فيكونُ قولُه عزَّ وعلا: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي: عن رأيي واجتهادي؛ تأكيدًا لذلك). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٩).

قال ابنُ كثير: (هذا الَّذي فعلْتُه في هذه الأحوالِ الثَّلاثةِ، إنَّما هو مِنْ رحمةِ اللَّهِ بمَن ذكَرنا مِنْ أصحابِ السَّفينةِ، ووالِدَيِ الغلامِ، وولَدَيِ الرَّجلِ الصَّالِحِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٧).

وقال ابنُ جرير: (فَعَلْتُ فِعلي هذا بالجدارِ؛ رحمةً مِنْ ربِّك لليتيمَيْنِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٤).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾ أي: ذلك تفسيرُه الذي وعَدْتُك به ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أي: تفسيرِه، ويحتَمِلُ أن يكونَ التأويلُ هنا في الثاني: العاقِبَةَ، يعني: ذلك عاقبةُ ما لم تستطِعْ عليه صبرًا؛ لأنَّ التأويلَ يرادُ به العاقبةُ، ويرادُ به التفسيرُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٤).

وقال ابنُ تيميةَ: (هذا تأويلُ فِعلِه، ليس هو تأويلَ قَولِه، والمرادُ به: عاقبةُ هذه الأفعالِ بما

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ يدُلُّ على أنَّ العبدَ الصَّالحَ قدْ يحفظُه الله تعالى بصلاحِه بعدَ موتِه في ذُرِّيَّتِه، وتشملُ بركةُ عبادتِه لهم في الدُّنيا والآخرةِ، بشفاعتِه فيهم، ورفعِ درجتِهم إلى أعلَى درجةٍ في الجنَّةِ؛ لتَقَرَّ عينُه بهم، كما جاءَ في القرآنِ، ووَرَدَتِ السُّنَّةُ به[١]، فالآيةُ دلَّت على أنَّ الوعدَ على العملِ الصالحِ ليس مختصًّا بالآخرةِ، بل يدخلُ فيه أمورُ الدنيا حتى في الذريَّةِ بعدَ موتِ العاملِ[٢].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىٓ ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فيه أنَّ هذه القَضايا التي أجراها الخَضِرُ، هي قَدَرٌ مَحضٌ، أجراها الله وجعَلَها على يَدِ هذا العَبدِ الصَّالحِ؛ لِيستَدِلَّ العبادُ بذلك على ألطافِه في أَقضِيَتِه، وأنَّه يُقدِّرُ على العبدِ أمورًا يَكرَهُها جِدًّا، وهي صلاحُ دِينِه، كما في قَضِيَّةِ الغُلامِ، أو وهي صَلاحُ دُنياه كما في قَضِيَّةِ السَّفينةِ، فأراهم نَموذجًا مِن لُطفِه وكَرَمِه؛ لِيَعرِفوا ويَرضَوا غايةَ الرِّضا بأقدارِه المكروهةِ[٣].

يؤولُ إليه ما فعَلْتُه مِن مَصلحةِ أهلِ السَّفينةِ، ومَصلحةِ أبوَيِ الغُلام، ومَصلحةِ أهلِ الجِدارِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٦٧).

بل قال محمد رشيد رضا: (لفظ التَّأويلِ لم يَرِدْ في القرآنِ إلَّا بمعنَى الأمرِ العمليِّ الَّذي يقعُ في المآلِ تصديقًا لخبرٍ أو رُؤيا أو لعملٍ غامضٍ يُقصَدُ به شيءٌ في المستقبلِ). ((تفسير المنار)) (٣/ ١٤٤).

وكلمةُ (تسطع) و(تستطيع) كلاهما بمعنًى واحدٍ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٢٧).

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٥٥)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فيه أنَّ خِدمةَ الصَّالِحينَ أو من يتعلَّقُ بهم، أفضَلُ مِن غَيرِها؛ لأنَّه عَلَّلَ استخراجَ كَنزِهما، وإقامةَ جِدارِهما بأنَّ أباهما صالِحٌ[(١)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فيه استِعمالُ الأدَبِ مع الله تعالى في الألفاظِ؛ فإنَّ الخَضِرَ أضاف عَيبَ السَّفينةِ إلى نَفسِه، وأمَّا الخَيرُ فأضافه إلى اللهِ تعالى فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، كما قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وقالت الجِنُّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، مع أنَّ الكُلَّ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ فيه أنَّ المسكينَ قد يكونُ له مالٌ لا يَبلُغُ كِفايتَه، ولا يَخرُجُ بذلك عن اسمِ المَسكنةِ؛ لأنَّ الله أخبَرَ أنَّ هؤلاء المساكينَ لهم سَفينةٌ[(٣)]، وأنَّ المسكينَ أصلَحُ حالًا مِن الفَقيرِ[(٤)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ فيه أنَّ العَمَلَ يجوزُ في البَحرِ[(٥)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ عَمَلَ الإنسانِ في مالِ غَيرِه، إذا كان على وَجهِ المَصلَحةِ وإزالةِ المَفسَدةِ، أنَّه يجوزُ ولو بلا إذنٍ، حتى ولو ترَتَّبَ على عَمَلِه إتلافُ بَعضِ مالِ الغَيرِ، كما خَرَق الخَضِرُ السَّفينةَ؛ لِتَعيبَ فتَسلَمَ مِن غَصبِ المَلِك الظَّالِم، فعلى هذا لو وقَعَ حَرقٌ أو غَرَقٌ أو نحوُهما في دار إنسانٍ أو مالِه، وكان إتلافُ بَعضِ المالِ، أو هَدمُ بعضِ الدارِ، فيه سَلامةٌ للباقي؛ جاز للإنسانِ، بل شُرِعَ له ذلك؛ حِفظًا لمالِ الغَيرِ، وكذلك لو أراد ظالِمٌ أخْذَ مالِ الغَيرِ، ودفَعَ إليه إنسانٌ بعضَ المالِ؛ افتداءً للباقي جاز، ولو مِن غَيرِ إذنٍ[1].

٤- في قَولِه تعالى حكايةً عن الخَضِر: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الحقَّ عندَ اللهِ واحِدٌ، وإنْ كان قد جُعِلَ لكلٍّ بأنْ يتكَلَّمَ فيه على اختلافِ ظاهِرِ الرأيِ؛ إذْ إنكارُ موسى فِعْلَ الخَضِرِ -صلَّى اللهُ عليهما- كان حقًّا في الظَّاهِرِ عندَه، وفِعْلُ الخَضرِ هو الحقُّ عندَ اللهِ في الباطِنِ[2].

٥- في قَولِه تعالى حكايةً عن الخَضِر: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ دَلالةٌ على أنَّ إحياءَ الحُقوقِ بذَهابِ بَعضِها قُربةٌ إلى اللهِ، إذا لم يوجدِ السَّبيلُ إليه إلَّا بذلك؛ لأنَّ الخَضِرَ صلَّى اللهُ عليه قد أنقَصَ بخَرقِ السَّفينةِ مِن ثَمَنِها؛ طَمَعًا في أنْ يبقى أصلُها لأصحابِها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٩).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۞ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ عن قتادةَ قال: قال مُطَرِّفُ بنُ الشِّخِّيرِ: (إنَّا لَنعلَمُ أنَّهما قد فَرِحا به يومَ وُلِدَ، وحَزِنا عليه يومَ قُتِلَ، ولو عاش لكان فيه هلاكُهما، فلْيَرضَ العَبدُ بما قَسَم اللهُ له؛ فإنَّ قَضاءَ اللهِ للمُؤمِنِ خَيرٌ مِن قَضائِه لِنَفسِه، وقضاءُ اللهِ لك فيما تَكرَهُ خَيرٌ مِن قَضائِه لك فيما تُحِبُّ)[1].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۞ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ يُستفادُ مِن هذه الآيةِ تَهوينُ المصائِبِ بفَقدِ الأولادِ، وإن كانوا قِطَعًا مِن الأكبادِ، ومَن سَلَّم للقضاءِ، أسفَرَت عاقِبَتُه عن اليدِ البَيضاءِ[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ؛ لأنَّ الأمَّةَ بأسرِها مُجمِعةٌ على أنَّ المولودَ بين أبوينِ مُؤمِنَينِ يكونُ مُؤمِنًا، وهذا مولودٌ طُبِعَ كافِرًا، وأبواه مُؤمِنان، وليس في ذلك ارتيابٌ البتَّةَ؛ لإباحةِ قَتلِه، ولإخبارِ الكُفرِ عنه بلَفظِه، فلو لم يكُنْ مِن الحُجَّةِ عليهم إلَّا هذا الغلامُ المخلوقُ كافرًا، وإباحةُ قَتلِه قبلَ بُلوغِ الحِنثِ، وجَريِ القَلَمِ عليه، والسَّلكُ به غيرَ مَسلَكِ أبوَيه؛ لكفى، فأين تَحذلُقُهم وادِّعاءُ الفَلسفةِ في مَعرفةِ عَدْلِ اللهِ عندهم بعُقولِهم النَّاقِصةِ العاثرةِ؟! وهل يَقدِرونَ في هذا الموضِعِ إلَّا على التَّسليمِ لعَدلٍ لا يَعرِفونَه ضَرورةً، فيَلزَمُهم أن يُسَلِّموه في بابِ القَضاءِ والقَدَرِ ضَرورةً، أو يَكفُرونَ بالقُرآنِ، ويَنسُبونَ الخَضِرَ -صلى الله عليه- إلى أنَّه قَتَل

(١) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٤٢٩)، وعزاه لابن أبي حاتم والبيهقي في ((الشعب)).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٧).

في الحقيقةِ نَفسًا زكيَّةً بغيرِ نَفسٍ، كما رأى موسى -صلَّى الله عليه- مِن ظاهِرِ فِعلِه، وكيف لهم بذلك -وَيْلَهم- وقد سَلَّمَه موسى للخَضِر، وعَلِمَ أنَّه الحَقُّ، ثمَّ أخبَرَ اللهُ نبيَّه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وأنزله في كتابِه الذي لا يأتيه الباطِلُ مِن بينِ يَدَيه ولا مِن خَلفِه مِن غيرِ إنكارٍ عليه؟! بل أخبَرَ أنَّه فعَلَ بأمْرِه تبارك وتعالى حيثما يقولُ إخبارًا عنه -صلَّى الله عليه-: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[1].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۞ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ فيه دليلٌ على أنَّه يُدفَعُ الشَّرُّ الكبيرُ بارتِكابِ الشَّرِّ الصَّغيرِ، وأنَّه يُراعى أكبَرُ المصلَحَتينِ بتَفويتِ أدناهما؛ فإنَّ قَتلَ الغُلامِ شَرٌّ، ولكِنَّ بقاءَه حتى يَفتِنَ أبوَيه عن دينِهما أعظَمُ شَرًّا منه، وبقاءُ الغلامِ مِن دونِ قَتلٍ وعِصمَتُه، وإن كان يُظَنُّ أنَّه خَيرٌ، فالخَيرُ ببقاءِ دينِ أبوَيه وإيمانِهما خيرٌ مِن ذلك؛ فلذلك قَتَله الخَضِر، وتحت هذه القاعدةِ مِن الفُروعِ والفوائِدِ ما لا يدخُلُ تحتَ الحَصرِ، فتزاحُمُ المصالحِ والمفاسِدِ كُلِّها داخِلٌ في هذا[2].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ لَمَّا كان التَّعويضُ عن هذا الولَدِ لله وَحدَه، أسنَدَ الفِعلَ إليه تعالى[3].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ فيه دليلٌ على إطلاقِ القريةِ على المدينةِ، وجوازِ تَسميةِ إحداهما بالأُخرى؛ لأنَّه قال

(١) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢١).

أولًا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾، وقال هاهنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾[(١)].

١٢- وَصْفُ الغُلامَينِ باليُتْمِ في قَولِه: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ يَدُلُّ على أنَّهما كانا صَغيرَين[(٢)].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا﴾ يدُلُّ على أنَّه يجوزُ دَفنُ المالِ في الأرضِ[(٣)].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ إباحةُ حِفْظِ الأموالِ على الصِّغارِ إلى وقتِ البُلوغِ[(٤)].

١٥- قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ فيه ردٌّ على مَن اعتقَد أنَّ الإنسانَ لا ينتفعُ إلَّا بعملِه؛ فإنَّ الغلامَينِ اليتيمَينِ قد انتَفَعا بصَلاحِ أبيهما، وليس مِن سَعيِهما[(٥)].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِي﴾ استَدَلَّ به مَن قال بنُبُوَّةِ الخَضِر؛ لأنَّه يقتضي أنَّه أُوحِيَ إليه[(٦)]، وهو مِن أوضَحِ ما يُستدلُّ به على نُبُوَّتِه[(٧)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ٥٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧١).

(٤) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٢٢).

(٥) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٣)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٢).

(٧) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٢٠).

١٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ في قِصَّةِ موسى مع الخَضِر حثٌّ كبيرٌ على المجاهَرةِ بالمُبادرة بالأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَر والمُصابرةِ عليه، وألَّا يُراعَى فيه كَبيرٌ ولا صغيرٌ، إذا كان المرءُ على ثقةٍ مِن أمْرِه في الظَّاهِرِ بما عنده في ذلك مِن العِلمِ عن اللهِ ورَسولِه وأئِمَّةِ دِينِه[(١)].

١٨- هذه القِصَصُ التي أخبر اللهُ عزَّ وجَلَّ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بها عن موسى وصاحبِه: تأديبٌ منه له، وتقدُّمٌ إليه بتركِ الاستعجالِ بعُقوبةِ المُشرِكين الذين كذَّبوه واستهزَؤوا به وبكتابِه، وإعلامٌ منه له أنَّ أفعالَه بهم وإن جرت فيما ترى الأعيُنُ بما قد يجري مثلُه أحيانًا لأوليائِه؛ فإنَّ تأويلَه صائرٌ بهم إلى أحوالِ أعدائِه فيها، من هلاكِهم وبوارِهم بالسَّيفِ في الدُّنيا، واستحقاقِهم من اللهِ في الآخرةِ الخِزيَ الدَّائِمَ، كما كانت أفعالُ صاحبِ موسى واقعةً بخلافِ الصحَّةِ في الظاهِرِ عند موسى -إذ لم يكُنْ عالِمًا بعواقِبِها- وهي ماضيةٌ على الصحَّةِ في الحقيقةِ، وآيلةٌ إلى الصوابِ في العاقبةِ؛ يُنبئُ عن صحَّةِ ذلك قولُه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ [الكهف: ٥٨]، ثمَّ عقَّب ذلك بقصَّةِ موسى وصاحِبِه[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾

وقال: (ويَنبغي اعتقادُ كونِه نبيًّا؛ لئلَّا يتذَرَّعَ بذلك أهلُ الباطلِ في دَعْواهم أنَّ الوليَّ أفضلُ من النَّبيِّ، حاشا وكلَّا) ((المصدر السابق)).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٦٧- ٣٦٨).

- معنى ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فيه حذفٌ، والتقديرُ: أي: كُلَّ سَفِينَةٍ صالِحةٍ، بقَرينةِ قولِه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[١].

- قولُه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فيه تَقديمٌ وتَأخيرٌ، حيث قدَّم قولَه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ على قولِه: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾، وقولِه: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾؛ لأنَّ إرادةَ التَّعييبِ مُسبَّبةٌ عن خوفِ الغَصبِ عليها، فكان حقُّ قولِه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أن يتأخَّرَ عن السَّببِ، وإنَّما قُدِّم؛ للعِنايةِ، ولأنَّ خوفَ الغَصبِ ليس هو السَّببَ وحدَه، ولكنْ مع كونِها للمَساكينِ[٢]. أو: لأنَّ السببَ لَمَّا كان مجموعَ الأمرَيْنِ: خَوْفِ الغَصْبِ، ومَسكَنة المُلَّاكِ؛ رتَّبه على أقْوى الجُزْأَين وأدْعاهُما، وعقَّبَه بالآخَرِ على سَبيلِ التَّقْييدِ والتَّتْميمِ[٣].

- وقُدِّم قولُه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أيضًا خِلافًا لِمُقتَضى الظَّاهِرِ؛ لِقَصدِ الاهْتِمامِ والعنايةِ بإرادةِ إعابةِ السَّفينةِ -حيثُ كان عمَلًا ظاهِرُه الإنكارُ، وحَقيقتُه الصَّلاحُ- زيادةً في تشويقِ موسى إلى عِلمِ تأويلِه؛ لأنَّ كَونَ السَّفينةِ لِمَساكينَ ممَّا يَزيدُ السَّامِعَ تَعجُّبًا في الإقدامِ على خَرقِها. والمعنى: فأرَدتُ أن أَعيبَها وقد فعَلْتُ، وإنَّما لم يَقُلْ: (فعِبْتُها)؛ لِيَدُلَّ على أنَّ فِعلَه وقَع عن قصدٍ وتأمُّلٍ[٤].

- ومِن المُناسَبةِ الحَسَنةِ كذلك: أنَّه عزَّ وجلَّ حَكَى عن الخَضِرِ أنَّه قال

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٦/ ٢٤٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢).

هنا: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وقال بَعدَه: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكهف: ٨١]، وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]؛ فاختَلَفَتِ الإضافةُ في هذه الإراداتِ الثَّلاثِ، وهي كُلُّها في قِصَّةٍ واحدةٍ وفِعلٍ واحدٍ؛ ووجهُ ذلك: أنَّه لَمَّا ذَكَر (العَيب) أضافَ عَيبَ السَّفينةِ إلى إرادةِ نفسِه، فقال: ﴿أَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، مِن بابِ الأدَبِ مع اللهِ في الألفاظِ، أمَّا الخيرُ فأضافَه إلى اللهِ، فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾. وأيضًا لَمَّا ذَكَر رِعايةَ مَصالِحِ اليتيمَيْنِ لأجْلِ صَلاحِ أبيهِما؛ أضافَه إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه سُبحانَه هو المتكفِّلُ بمَصالِحِ الأبناءِ لِرعايَةِ حقِّ الآباءِ. وقيل: أسنَد الإرادةَ في قصَّةِ الجِدارِ إلى اللهِ تعالى دونَ القِصَّتَينِ السَّابقَتين؛ لأنَّ العمَلَ فيهما كان مِن شأنِه أن يَسعَى إليه كلُّ مَن يَقِفُ على سِرِّه؛ لأنَّ فيهما دفْعَ فَسادٍ عن النَّاسِ، بخِلافِ قِصَّةِ الجِدارِ؛ فتِلْك كَرامةٌ مِن اللهِ لأَبي الغُلامَين. وأيضًا قال في قِصَّة الجِدارِ والغُلامَينِ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾؛ لأنَّ بَقاءَ الغُلامَينِ حتى يَبلُغَا أَشُدَّهما ليس للخَضِرِ فيه أيُّ قُدرةٍ، لكنِ الخَشيةُ -خشيةُ أنْ يُرْهِقَ الغُلامُ أبويه بالكُفرِ- تَقَعُ مِن الخَضرِ، وكذلك إرادةُ عَيبِ السَّفينةِ. ولَمَّا ذكَر (القَتْلَ) عبَّر عن نفْسِه بلَفظِ الجَمعِ، فقال: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكهف: ٨١]؛ ووجهُ ذلك: الإشارةُ إلى أنَّه لا يُقْدِمُ على هذا القتلِ إلَّا لحِكْمةٍ عاليَةٍ، ولأنَّ قَتْلَه للغُلامِ إفسادٌ من حَيثُ القَتلُ، وإنعامٌ من حيثُ التَّأويلُ؛ فأسنَده إلى نَفْسِه وإلى اللهِ عزَّ وجلَّ، بخِلافِ الأوَّلِ (عَيْب السَّفينة) فإنَّه في الظَّاهرِ إفسادٌ؛ فأسنَدَه إلى نَفْسِه، والثَّالثَ (إقامة الجِدار) فإنَّه إنعامٌ مَحضٌ؛ فأسنَدَه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ. وأيضًا ضَميرَا الجَماعةِ في قولِه: ﴿فَخَشِينَآ﴾، وقولِه: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ عائِدانِ

إلى المتكلِّمِ الواحدِ بإظهارِ أنَّه مُشارِكٌ لغيرِه في الفِعلِ، وهذا الاستِعْمالُ يَكونُ من التَّواضُعِ لا مِن التَّعاظُمِ؛ لأنَّ الْمَقامَ مَقامُ الإعلامِ بأنَّ اللهَ أطْلَعه على ذلك، وأمَرَه، فناسبَه التَّواضُعُ، فقال: ﴿فَخَشِينَآ﴾ ﴿فَأَرَدْنَآ﴾، ولم يَقُلْ مِثلَه عندَما قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾؛ لأنَّ سببَ الإعابةِ إدراكُ حالِ تِلك الأصْقاعِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾

- قولُه: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ ولم يُصرِّحْ بكُفرِ الغُلامِ؛ إشعارًا بعدَمِ الحاجةِ إلى الذِّكْرِ؛ لظُهورِه[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾

- قوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا﴾ في التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، والإضافةِ إليهما: ما لا يَخْفى مِن الدَّلالةِ على إرادةِ وُصولِ الخيرِ إليهما[٣].

- وقال: ﴿زَكَوٰةً﴾ مُراعاةً لقولِ موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٩٢-٤٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢١٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٠-١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣).

رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴾

- قولُه: ﴿فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ هي القريةُ المذكورةُ فيما سبَق؛ ولعلَّه عبَّر عنها بذلك؛ لإظهارِ نوعِ اعْتِدادٍ بها، باعْتِدادِ ما فيها مِن اليتيمَيْن وأَبيهِما الصَّالحِ[1].

- قولُه: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ في إضافةِ الرَّبِّ إلى ضَميرِ موسَى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ دونَ ضَميرِهما: تَنبيهٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على تَحتُّمِ كَمالِ الانْقِيادِ والاستِسْلامِ لإرادَتِه سُبحانه، ووجوبِ الاحْتِرازِ عن المناقَشةِ فيما وقَع بحسَبِها مِن الأمورِ المذكورةِ[2].

- وقولُه: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ تصريحٌ بما يُزيل إنكارَ موسى عليه تَصرُّفاتِه هذه بأنَّها رحمةٌ ومصلَحةٌ؛ فلا إنكارَ فيها بعدَ مَعرِفةِ تأويلِها. ثمَّ زاد بأنَّه فعَلَها عن وحيٍ مِن اللهِ؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ عَلِم موسى أنَّ ذلك بأمرٍ مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّ النَّبيَّ إنَّما يتَصرَّفُ عن اجتهادٍ أو عن وحيٍ -هذا على القولِ بأنَّ الخضرَ كان نبيًّا-، فلمَّا نَفى أن يَكونَ فِعلُه ذلك عن أمرِ نفسِه تعيَّن أنَّه عن أمرِ اللهِ تعالى. وإنَّما أُوثِرَ نفيُ كَونِ فِعلِه عن أمرِ نفْسِه على أن يَقولَ: (وفَعَلتُه عن أمرِ ربِّي)؛ تَكمِلةً لِكَشفِ حَيرةِ موسى وإنكارِه؛ لأنَّه لَمَّا أنكَر عليه فَعْلاتِه الثَّلاثَ كان يُؤيِّدُ إنكارَه بما يَقْتَضي أنَّه تَصرَّف عن خطأٍ[3].

٥- قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن مَعْنى البُعْدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ درَجتِها في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤-١٥).

الفَخامةِ[١].

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ فَذْلَكةٌ[٢] للجُمَلِ الَّتي قبْلَها ابْتِداءً مِن قولِه: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الكهف: ٧٩]؛ فالإشارةُ بذلك إلى المذكورِ في الكلامِ السَّابقِ، وهو تَلْخيصٌ للمَقْصودِ[٣].

- وفي جَعْلِ الصِّلةِ ﴿مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ عَيْنَ ما مرَّ تكريرٌ للتَّنكيرِ، وتَشديدٌ للعتابِ[٤].

- وقولُه: ﴿مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال عزَّ وجلَّ هنا: ﴿تَسۡطِع﴾ بحذفِ التاءِ، بينما قال في الآيةِ الأُولَى: ﴿مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾، بإثباتِ التَّاءِ؛ وذلك لأنَّه لمَّا أنْ فسَّرَه له وبيَّنَه ووضَّحه، وأزالَ المشكلَ؛ قال: ﴿تَسۡطِع﴾، وقبلَ ذلك كان الإشكالُ قويًّا ثقيلًا فقَال: ﴿تَسۡتَطِع﴾ فقابلَ الأثقلَ بالأثقلِ، والأخفَّ بالأخفِّ[٥]. وقيل: ﴿تَسۡطِع﴾ مضارِعُ (اسْطَاعَ) بمَعْنى (اسْتَطَاعَ)، فحذَف تاءَ الاستِفْعالِ تَخفيفًا؛ لِقُربِها مِن مَخرَجِ الطَّاءِ، والمخالَفةِ بينَه وبينَ قولِه: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ للتَّفنُّنِ؛ تَجنُّبًا لإعادةِ لَفْظٍ بعَينِه مع وجودِ مُرادِفِه، وابتُدِئَ بأشهَرِهما استِعْمالًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٩).

(٢) الفَذْلكة: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملةِ والحوقلةِ مِن قولِهم: (فذلك كذا)، أي: ذَكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخلاصتَه. وقد يُرادُ بالفذلكةِ النتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريع عليه، ومنها فذلكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨ - ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٨).

وجيءَ في الثَّانيةِ بالفِعْلِ المخفَّفِ؛ لأنَّ التَّخفيفَ أولَى به؛ لأنَّه إذا كَرَّر ﴿تَسْتَطِع﴾ يَحصُلُ مِن تَكْريرِه ثِقَلٌ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥).

الآيات (٨٢-٩١)

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَبَبًا﴾: أي: طَريقًا ومَسلكًا، يُقالُ للطَّريقِ إلى الشَّيءِ: سَبَبٌ، وللحَبْلِ يُتوصَّلُ به إلى الماءِ: سَبَبٌ، ولكُلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شَيءٍ يَبعُدُ عنك: سَبَبٌ، وأصلُ (سبب): يدُلُّ على طولٍ وامتِدادٍ[1].

﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾: أي: عينِ ماءٍ ذاتِ حَمْأةٍ، والعينُ تُطلَقُ على الينبوعِ، وهو الماءُ الكثيرُ، والمرادُ بالعينِ: البحرُ، أو عينٌ مِن البحرِ، والحمأةُ هي: الطِّينُ الأسْودُ المُنتِنُ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٤)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٤١).

يقولُ تعالى: ويَسألُك -يا مُحمَّدُ- هؤلاء الكفَّارُ عن خَبَرِ ذي القَرنَينِ، قُل لهم: سأقصُّ عليكم منه ذِكْرًا تتذَكَّرونَه وتَتَّعِظونَ به: إنَّا مكَّنَّا له في الأرضِ، وآتيناه مِن كُلِّ شيءٍ يحتاج إليه مثلُه مِن علمٍ أو قدرةٍ أو آلةٍ، ليصلَ به إلى مقصودِه، فأخذَ بتلك الأسبابِ التي تُوصِلُه إلى مَقصودِه، حتى إذا وصل ذو القَرنَينِ إلى مَغرِبِ الشَّمسِ وَجَدها في مرأى العَينِ كأنَّها تَغرُبُ في بحرٍ ذي طينٍ أسوَدَ، ووجد عند مَغرِبِها أمةً مِن الأممِ. قُلْنا: يا ذا القَرنَينِ، إمَّا أن تُعَذِّبَ مَن أصرَّ منهم على الكُفرِ، وإمَّا أن تُحسِنَ إليهم، فتُعَلِّمَهم الهُدى وتُبَصِّرَهم الرَّشادَ.

قال ذو القَرنَينِ: أمَّا مَن ظلَمَ نَفسَه منهم فأصرَّ على الكُفرِ، فسوف نُعَذِّبُه في الدُّنيا، ثمَّ يَرجِعُ إلى رَبِّه فيُعَذِّبُه عذابًا فظيعًا شَديدًا، وأمَّا مَن آمنَ منهم برَبِّه وعَمِلَ صالحًا، فله الجنَّةُ ثوابًا مِنَ اللهِ، وسنُحسِنُ إليه، ونُلينُ له في القَولِ، ونُعامِلُه باليُسرِ.

ثمَّ سار ذو القَرنَينِ إلى المَشرِقِ مُتَّبِعًا الأسبابَ التي أعطاه اللهُ إيَّاها، حتى إذا وصل إلى مَطلِعِ الشَّمسِ وجَدَها تَطلُعُ على قَومٍ ليس لهم شيءٌ يَستُرُهم منَ الشَّمسِ، كذلك وقد أحاط عِلْمُنا بما عِندَ ذي القرنَينِ من شيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا فرَغَ اللهُ تعالى مِن قِصَّةِ موسى والخَضِر -عليهما السَّلامُ- التي حاصِلُها أنَّها طَوافٌ في الأرضِ لطَلَبِ العِلمِ؛ عَقَّبَها بقِصَّةِ مَن طاف الأرضَ لطَلَبِ الجِهادِ، وقدَّم الأُولَى إشارةً إلى علوِّ دَرَجةِ العِلمِ؛ لأنَّه أساسُ كُلِّ سَعادةٍ،

وقِوامُ كُلِّ أمرٍ[١].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾.

أي: ويَسألُك الكُفَّارُ[٢] -يا محمَّدُ- عن شَأنِ ذي القَرنَينِ[٣] وخَبَرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢٨).

(٢) قال ابن عثيمين: (سواءٌ مِن يهود، أو من قُرَيش، أو مِن غيرِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٤).

وذهب ابنُ جريرٍ وابنُ عاشور إلى أنَّ السائلينَ هم كفَّارُ قُرَيشٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧).

قال ابنُ عاشور: (السائلون: قريشٌ لا محالةَ، والمسؤول عنه: خبرُ رجلٍ مِن عظماء العالَم عُرِفَ بلَقَبِ ذي القرنين، كانت أخبارُ سيرته خفيَّةً مُجمَلةً مُغلَقةً، فسألوا النبيَّ عن تحقيقِها وتفصيلِها، وأذِنَ له الله أن يبيِّنَ منها ما هو موضِعُ العبرة للناسِ في شؤون الصلاحِ والعدل، وفي عجيبِ صنعِ الله تعالى في اختلافِ أحوال الخَلقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧).

(٣) قال البقاعي: (ذو القَرنَينِ: سُمِّي لشَجاعتِه، أو لبلوغِه قَرنَي مَغرِب الشَّمسِ ومَشرِقها، أو لانقراضِ قرنينِ مِن النَّاسِ في زمانِه، أو لأنَّه كان له ضفيرتانِ مِن الشَّعرِ، أو لتاجه قرنانِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨).

قال أبو السعود: (اختُلِف في نبُوَّتِه بعد الاتِّفاقِ على إسلامِه... والصَّحيحُ أنَّه ما كان نبيًّا ولا مَلَكًا، وإنَّما كان مَلِكًا صالِحًا عادِلًا). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٠).

وقال البغوي: (الأكثرونَ على أنَّه كان مَلِكًا عادِلًا صالِحًا). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٢).

وقال ابنُ القَيِّم: (الإسكندرُ المَقدونيُّ، وهو ابن فيلبس، وليس هو بالإسكندر ذي القَرنَينِ الذي قَصَّ الله تعالى نبأه في القرآنِ، بل بينهما قرونٌ كثيرةٌ، وبينهما في الدِّينِ أعظَمُ تبايُنٍ؛ فذو القرنين كان رجلًا صالحًا موحِّدًا لله تعالى، يؤمِنُ بالله تعالى وملائكتِه، وكُتُبه ورُسُلِه واليومِ الآخرِ، وكان يغزو عُبَّادَ الأصنامِ، وبلغ مشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها، وبنى السَّدَّ بين الناسِ وبين يأجوجَ ومأجوجَ. وأمَّا هذا المقدونيُّ فكان مُشرِكًا يعبُدُ الأصنامَ هو وأهلُ مملكتِه). ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ٢٦٣-٢٦٤). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٧١).

﴿قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمَن سألَك عن ذي القَرنَينِ: سأقُصُّ عليكم بعضَ أخبارِه مِمَّا يكونُ فيها ذِكرى وعِبرةٌ وعِظةٌ(١).

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّا وطَّأْنا ومهَّدْنا لذي القَرنَينِ المُلكَ في الأرضِ، فأقدَرْناه على ذلك، وقوَّيناه بكَثرةِ الجُنودِ وآلاتِ الحَربِ، وحُسنِ التدبيرِ، وبسْطِ الهَيبةِ، وغيرِ ذلك(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣).

قال البقاعي: (﴿مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ كافيًا لكم في تعرُّفِ أمرِه، جامعًا لمجامِعِ ذِكرِه). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٢٩).

وقال الألوسي: (﴿قُلْ﴾ لهم في الجوابِ ﴿سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ الخطابُ للسائلين، والهاء لذي القرنينِ، ومِنْ: تبعيضيةٌ، والمرادُ: من أنبائِه وقَصَصِه، والجارُّ والمجرور صفةُ ﴿ذِكْرًا﴾ قُدِّمَ عليه فصار حالًا، والمراد بالتلاوةِ: الذِّكرُ، وعبَّرَ عنه بذلك؛ لكونِه حكايةً عن جهة الله عزَّ وجَلَّ، أي: سأذكرُ لكم نبأً مذكورًا من أنبائِه. ويجوز أن يكون الضميرُ له تعالى، ومن: ابتدائيةٌ، ولا حَذْفَ، والتلاوةُ على ظاهِرِها، أي: سأتلو عليكم من جهتِه سبحانه وتعالى في شأنِه ذِكرًا، أي: قُرآنًا). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤، ٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٦).

تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾.

أي: وآتَيناه مِن كُلِّ شَيءٍ يحتاجُ إليه مِثلُه مِن علمٍ أو قدرةٍ أو آلةٍ؛ حتَّى يصلَ به إلى مقصودِه مِن فَتحِ الأقاليمِ، وكَسرِ الأعداءِ، والتمكينِ في الأرضِ إلى غيرِ ذلك[(١)].

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾.

أي: فسار ذو القرنينِ في طَريقٍ آخذًا بالأسبابِ والوسائِلِ التي تُوصِلُه إلى مَقصودِه[(٢)].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٤٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٦).

قال ابن عثيمين: (وقولُه: ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ لا يعمُّ كلَّ شيءٍ؛ لكنَّ المرادَ: مِن كلِّ شيءٍ يحتاجُ إليه في قوةِ السلطانِ، والتمكينِ في الأرضِ، والدليلُ على هذا أنَّ «كل شيء» بحسبِ ما تُضافُ إليه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٦).

وقال السعدي: (هذه الأسبابُ التي أعطاه اللهُ إيَّاها لم يُخبِرْنا الله ولا رسولُه بها، ولم تتناقَلْها الأخبارُ على وجهٍ يُفيدُ العِلمَ... ولكِنَّنا نعلَمُ بالجُملةِ أنَّها أسبابٌ قَويَّةٌ كثيرةٌ، داخليَّةٌ وخارجيَّةٌ، بها صار له جندٌ عظيمٌ، ذو عَدَد وعُدَد ونظامٍ، وبه تمكَّنَ مِن قَهرِ الأعداء، ومِن تَسهيلِ الوصولِ إلى مشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها وأنحائِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٤٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤، ٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٦).

ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿حَمِئَةٍ﴾ أي: عَينٍ ذاتِ حَمْأةٍ، وهو: الطِّينُ الأسوَدُ المُنتِنُ(١).

٢- قِراءةُ ﴿حَامِيَةٍ﴾ أي: عَينِ ماءٍ حارَّةٍ(٢).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾.

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ كثيرٍ، وأبو عمرٍو، ويعقوبُ، وحفصٌ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٣٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٢١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٢٩)، ((مفاتيح الأغاني)) لأبي العلاء الكرماني (ص: ٢٦١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٤)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٣٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٢١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٢٨).

قال ابنُ جرير: (الصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي أن يقال: إنَّهما قراءتانِ مُستفيضتانِ في قراءةِ الأمصار، ولكُلٍّ واحدةٍ منهما وجهٌ صحيحٌ ومعنًى مفهومٌ، وكلا وجهَيه غيرُ مُفسدٍ أحدُهما صاحبَه؛ وذلك أنَّه جائزٌ أن تكون الشَّمسُ تَغرُبُ في عينٍ حارَّةٍ ذاتِ حمأةٍ وطينٍ، فيكون القارئُ ﴿فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ﴾ [واصِفَها] بصِفتِها التي هي لها -وهي الحرارة- ويكون القارئُ ﴿فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ واصِفَها بصِفتِها التي هي بها، وهي أنَّها ذاتُ حمأةٍ وطينٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٧).

وقال ابن كثير: (قلتُ: ولا مُنافاةَ بين مَعنَييهما؛ إذ قد تكون حارَّةً لمجاورتِها وَهجَ الشَّمسِ عند غروبِها، وملاقاتِها الشُّعاعَ بلا حائل، و ﴿حَمِئَةٍ﴾ في ماءٍ وطينٍ أسوَدَ، كما قال كعبُ الأحبارِ وغيرُه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٢).

وقال البقاعي: (﴿فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: ذاتِ حمأةٍ، أي: طينٍ أسوَدَ، وهي مع ذلك حارَّةٌ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٣٠).

أي: سار ذو القرنَينِ إلى أن بلغَ أقصى موضِعٍ يُمكِنُ سُلوكُه مِن اليابِسةِ مِن الجِهةِ الغَربيَّةِ للأرضِ، فوجد الشَّمسَ تَغرُبُ -في ناظِرَيه[١]- في بحرٍ ذي طينٍ أسودَ مُنتِنٍ، فرآها وكأنَّها تَغرُبُ في ذلك البحرِ[٢].

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾.

أي: ووجد ذو القَرنَينِ عندَ تلك العَينِ على ساحِلِ البَحرِ أُمَّةً مِن الأُمَمِ[٣].

﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.

أي: قُلْنا: يا ذا القَرنَينِ، إمَّا أن تُعَذِّبَ مَن أصَرَّ منهم على الكُفرِ[٤]، وإمَّا أن

---

(١) قال ابنُ تيميَّةَ: (معنى ﴿تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ﴾ أي: في رأيِ النَّاظِرِ باتِّفاقِ المفَسِّرينَ، وليس المرادُ تسقُطُ مِن الفَلَك فتَغرُبُ في تلك العين؛ فإنها لا تنزِلُ مِن السماءِ إلى الأرضِ، ولا تُفارِقُ فَلَكَها). ((مختصر الفتاوى المصرية)) (ص: ٥٧٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥).

قال الشنقيطي: (المرادُ بالعين في الآية: البحرُ المحيط، وهو ذو طينٍ أسوَدَ، والعينُ تُطلَقُ في اللغةِ على ينبوعِ الماءِ، واليَنبوعُ: الماءُ الكثير، فاسمُ العينِ يَصدُقُ على البحر لغةً، وكونُ مَن على شاطئِ المحيط الغربيِّ يرى الشَّمسَ في نَظَرِ عَينِه تَسقُطُ في البحرِ؛ أمرٌ معروف). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٤١). ويُنظر: ((حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي)) (٦/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٤، ٣٧٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩١، ١٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٠)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٧).

قال البيضاوي: (كانوا كُفَّارًا فخَيَّرَه اللهُ بين أن يعذِّبَهم أو يدعُوَهم إلى الإيمانِ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢).

(٤) قيل: المرادُ بالتعذيبِ: القتلُ. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والبغوي، والبيضاوي،

تُحسِنَ إليهم[(١)].

والبقاعي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦).

وقيل: المرادُ: القتلُ والسبي. وممن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٣).

وقال السعدي: (﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي: إمَّا أن تعَذِّبَهم بقَتلٍ أو ضربٍ أو أَسْرٍ، ونحوِه، وإمَّا أن تُحسِنَ إليهم؛ فخُيِّرَ بينَ الأمرينِ؛ لأنَّ الظَّاهِرَ أنَّهم كُفَّارٌ أو فُسَّاقٌ، أو فيهم شيءٌ من ذلك؛ لأنَّهم لو كانوا مؤمنين غيرَ فُسَّاقٍ، لم يُرخَّصْ في تعذيبِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥-٤٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٧).

وقال ابن عاشور: (دلَّ قولُه: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ على أنَّهم مُستحِقُّون للعذابِ؛ فدلَّ على أنَّ أحوالَهم كانت في فَسادٍ مِن كُفرٍ وفَسادِ عمَلٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٧).

قيل: المراد بقولِه: ﴿تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾: أن تأسرَهم فتعلمَهم الهدَى، وتبصرَهم الرشادَ. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٠).

وقيل: المرادُ: تتَّخذَ فيهم حسنًا بالإرشادِ، وتعليمِ الشرائعِ. وممن قال بذلك: البيضاوي، والبقاعي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦).

وقيل: المرادُ: تعفو وتصفح. وممن قال بذلك: البغوي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣).

وقيل: المرادُ: المَنُّ أو الفداء. وممن قال بذلك: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٣).

وقال الرسعني: (﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ من قال: إنَّه نبيٌّ فالمعنى: قُلْنا له بطريقِ الوحيِ أو التكليمِ، ومن قال: عبدٌ صالحٌ، فالمعنى: قُلْنا له بطريقِ الإلهامِ، أو بطريقِ الإرسالِ إليه). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٥٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٧٢).

وقال القرطبي: (يجوزُ أنْ يكونَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ خاطبَه على لسانِ نبيٍّ في وقتِه). ((تفسير القرطبي))

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾.

أي: قال ذو القرنَينِ(١): أمَّا مَن ظلَمَ نَفسَه بالإصرارِ على الكُفرِ بعد دَعوتِه للحقِّ، فسوف نُعَذِّبُه(٢).

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾.

أي: ثُمَّ يَرجِعُ الكافِرُ بعد تعذيبِنا له في الدُّنيا إلى رَبِّه، فيُعَذِّبُه عذابًا فَظيعًا شَديدًا(٣).

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

(١١/ ٥٢).

(١) قال ذو القرنين ذلك الكلامَ لمن عندَه مِن خواصِّه وأهلِ مشورتِه. وقيل: قاله للنبيِّ الذي خاطَبه الله على لسانِه. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧).
قال أبو حيان: (الظُّلمُ هو الكُفرُ هنا بلا خلافٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧).
قال البقاعي: (﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ شديدًا جِدًّا لم يُعهَدْ مِثلُه؛ لكُفرِه لنعمتِه، وبَذْلِ خَيرِه في عبادةِ غيرِه، وفي ذلك إشارةٌ بالتهديدِ الشديدِ لليهود الغارِّين لقريشٍ، وإرشادٌ لقُريشٍ إلى أن يسألوهم عن قَولِه هذا؛ ليكون قائدًا لهم إلى الإقرارِ بالبَعثِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٣١).
قال ابن عثيمين: (ولكنَّه بالنسبة لله تعالى ليس بنُكْرٍ، بل هو حَقٌّ وعَدلٌ، لكِنَّه ينكِرُه المعَذَّبُ، ويرى أنَّه شديدٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٨).

أي: وأمَّا مَن آمنَ بعدَ كُفرِه، وعَمِلَ بطاعةِ اللهِ مُخلِصًا له وَحدَه لا شَريكَ له؛ فله في الآخرةِ الجَنَّةُ ثوابًا على إيمانِه وعَمَلِه الصَّالحِ[١].

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾.

أي: وسنُلطِفُ له القَولَ ونُلينُه في الدُّنيا، ونُعَلِّمُه ما تيسَّرَ تعليمُه مِن الخيرِ، ونُعامِلُه باليُسرِ، ونُحسِنُ إليه[٢].

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٩﴾.

أي: ثمَّ سار ذو القرنَينِ في طريقٍ آخَرَ آخِذًا بالأسبابِ والوسائِلِ؛ كي يصِلَ إلى جهةِ المَشرِقِ[٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ٩٠﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾.

أي: سار ذو القَرنَينِ إلى أن بلغ أقصى مَوضِعٍ يُمكِنُ سُلوكُه من الجِهةِ الشَّرقيَّةِ للأرضِ، حيث تَطلُعُ الشَّمسُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٨).
قال ابنُ عاشور: (والقولُ اليسرُ: هو الكلامُ الحسَنُ، وُصِفَ باليُسرِ المعنوِيِّ؛ لكونِه لا يثقُلُ سماعُه، وهو مِثْلُ قولِه تعالَى: ﴿فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾ [الإسراء: ٢٨] أي: جميلًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٩).

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾.

أي: فوجد الشَّمسَ تَطلُعُ على قَومٍ ليس لهم شيءٌ يُظِلُّهم منها؛ من جَبَلٍ أو شَجَرٍ أو بِناءٍ[1]!

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾.

أي: كذلك[2]، وقد عَلِمْنا ما لدى ذي القرنَينِ مِن الجُندِ والأموالِ، والآلاتِ

قال ابنُ الجوزي: (قال ابنُ الأنباري: ولا خلافَ بينَ أهلِ العربيَّةِ في أنَّ المَطْلِعَ والمَطْلَعَ كلاهما يُعنى بهما المكانُ الذي تَطلُعُ منه الشَّمسُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٠٧).

وقال ابنُ عاشور: (مَطلِعُ الشَّمسِ: جِهةُ المشرِقِ مِن سُلطانِه ومَملكتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨). ويُنظر: ((زهرة التفاسير)) لأبي زهرة (٩/ ٤٥٨٢، ٤٥٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٦٥).

قال السعدي: (أي: وجدها تطلُعُ على أناسٍ ليس لهم سِترٌ مِن الشَّمسِ؛ إمَّا لعدَمِ استعدادِهم في المساكِنِ؛ وذلك لزيادة همجيَّتِهم وتوحُّشِهم، وعَدَمِ تَمدُّنهم، وإمَّا لكون الشَّمسِ دائمةً عندهم، لا تغرُبُ عنهم غروبًا يُذكَرُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦).

وقال ابن عثيمين: (تَطلُعُ على قَومٍ ليس عندهم بناءٌ، ولا أشجارٌ ظَليلةٌ ولا دُورٌ ولا قصورٌ، وبعضُ العلماءِ بالغَ حتى قال: وليس عليهم ثيابٌ؛ لأنَّ الثيابَ فيها نوعٌ مِن السَّترِ. المهِمُّ أنَّ الشَّمسَ تَحرِقُهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٠).

وممن ذكَر أنَّهم قومٌ عراةٌ، لا لباسَ لهم: السمرقندي، والواحدي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٦٥).

(٢) اختَلَف المفسِّرونَ في المشَبَّهِ به، والمشارِ إليه في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فقيل: متعلقٌ بـ﴿أَتْبَعَ﴾ فيكونُ المعنى: ثم أتبَع سببًا، حتى بلَغ مطلعَ الشمسِ، كما أتبَع سببًا حتَّى بلَغ مغربَها. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٦٥).

وقيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي: كما بلَغ مغربَ الشمسِ، كذلك بلَغ مطلعَها. وممن اختاره: السمرقندي، والرسعني، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٧٦).

وأسبابِ المُلكِ والقُوَّة، فلم يخْفَ علينا شيءٌ مِن ذلك[١].

وقيل: المعنى: كما حكَم في القومِ الذين هم عندَ مغربِ الشمسِ، كذلك حكَم في الذين هم عندَ مطلعِ الشمسِ. وممن قال به: البغوي، وابنُ عطية، والعليمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢١٦).

وقيل: المعنى: كذلك أمرُ ذي القرنين هو كما وصفناه لكم. وممن قال بذلك في الجملةِ: الزمخشري، وأبو السعود، والبقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٢-١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٠).

وقال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ اختَلَفوا في المشَبَّهِ به، والمشارِ إليه، فقال الزجَّاجُ: يجوزُ أن يكونَ التَّقديرُ: وجَدَها تطلُعُ على قَومٍ كذلك القَبيلِ الذين كانوا عند مغربِ الشَّمسِ، وأنَّ حُكْمَهم حُكمُ أولئك. وقال غيره: المعنى: كما بلَغ مغربَ الشَّمسِ، فكذلك بلغ مَطلِعَها. وقيل: أتبَعَ سببًا كما أتبَعَ سَببًا. والقولُ ما قاله أبو إسحاقَ [الزجَّاج]؛ لأنَّ التَّشبيهَ بالكافِ يجِبُ أن يرجِعَ إلى أقرَبِ المذكورِ إليه، والأقرَبُ وجودُ القَومِ لا البلوغُ والإتباعُ). ((البسيط)) (١٤/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠).

وممن اختار هذا المعنى لقولِه تعالى: ﴿أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ في الجملة: البغوي، وابنُ الجوزي، والبيضاوي، وابنُ كثير، والسعدي، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٠).

قال البيضاوي: (﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنودِ والآلاتِ والعُدَدِ والأسبابِ ﴿خُبْرًا﴾ عِلمًا تعَلَّقَ بظواهِرِه وخفاياه، والمرادُ: أنَّ كثرةَ ذلك بلَغت مبلغًا لا يُحيطُ به إلَّا عِلمُ اللَّطيفِ الخبيرِ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢).

وقيل: المعنى: وقد أحَطْنا بما عند مَطلِعِ الشَّمسِ عِلمًا، لا يخفى علينا مِمَّا هنالك من الخَلقِ وأحوالِهم وأسبابِهم، ولا مِن غَيرِهم؛ شيءٌ. وممن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: الاعتبارُ بتخليدِ جميلِ الثَّناءِ، وجليلِ الآثارِ؛ فإنَّ مَن أنعَمَ النَّظَرَ فيما قُصَّ عنه في هذه الآياتِ الكريمةِ يتَّضِحُ له جَليًّا حُسنُ سجاياه، وسموُّ مزاياه: من الشَّجاعةِ، وعلوِّ الهِمَّةِ، والعِفَّةِ، والعدلِ، ودأبِه على توطيدِ الأمنِ، وإثابتِه المحسنينَ، وتأديبِه للظَّالمينَ، والإحسانِ إلى النَّوعِ البشري، لا سيَّما في زمانٍ كان فيه أكثَرُ عوائِدِ وأخلاقِ الأُمَمِ -المتمَدِّنةِ وغيرِ المتمَدِّنةِ- وحشيةً فاسدةً[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبًا ﴾ الاعتبارُ برفعِ الله بعضَ النَّاسِ دَرَجاتٍ على بَعضٍ، ورِزقِه من يشاءُ بغيرِ حِسابٍ -مُلكًا ومالًا- لِما له مِن خَفِيِّ الحِكَمِ، وباهِرِ القُدرةِ، فلا إلهَ سِواه[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ ﴾ الإشارةُ إلى القيامِ بالأسبابِ، والجريِ وراءَ سُنَّةِ الله في الكَونِ مِن الجِدِّ والعَمَلِ، وأنَّ على قَدْرِ بَذلِ الجُهدِ يكونُ الفوزُ والظَّفَرُ؛ فإنَّ ما قُصَّ عن ذي القرنينِ مِن ضَرْبِه في

ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٤). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٤).

وقيل: معناه: وقد علِمْنا حينَ ملَّكناه ما عندَه مِن الصلاحيةِ بذلك الملكِ، والاستقلالِ به، والقيامِ بأمرِه. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦٧).

الأرضِ إلى مَغرِبِ الشَّمسِ ومَطلعِها وشِمالها، وعَدَمِ فُتورِه، ووجدانِه اللذَّةَ في مواصلةِ الأسفارِ، وتجَشُّمِ الأخطارِ، وركوبِ الأوعارِ والبِحارِ؛ ثمَّ إحرازِه ذلك الفَخارَ -الذي لا يُشَقُّ له غُبارٌ- أكبَرُ عبرةٍ لأولي الأبصارِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ تنشيطُ الهِمَمِ لرَفعِ العوائِقِ، وأنَّه ما تيسَّرَت الأسبابُ فلا ينبغي أن يُعَدَّ ركوبُ البَحرِ ولا اجتيازُ القَفرِ عُذرًا في الخُمولِ والرِّضا بالدُّونِ! بل ينبغي أن يَنشَطَ ويتمَثَّلَ في مرارتِه حَلاوةَ عُقباه من الرَّاحةِ والهناءِ، كما قضى ذو القَرنينِ عُمُرَه ولم يذُقْ إلَّا حلاوةَ الظَّفَرِ ولذَّةَ الانتصارِ؛ إذ لم يكُنْ مِن الذين تُقعِدُهم المصاعِبُ عن نَيلِ ما يبتغونَ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أنَّ مَن قدَرَ على أعدائِه وتمكَّن منهم؛ فلا ينبغي له أن تُسكِرَه لذَّةُ السُّلطةِ بسَوقِهم بعَصا الإذلال، وتجريعِهم غُصَصَ الاستعبادِ والنَّكال! بل يعامِلُ المحسِنَ بإحسانِه، والمسيءَ بقَدرِ إساءتِه؛ فإنَّ ما حُكِيَ عن ذي القرنينِ مِن قَولِه هو نهايةٌ في العدلِ، وغايةٌ في الإنصافِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ قَولُه: ﴿مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ تنبيهٌ على أنَّ أحوالَه وأخبارَه كَثيرةٌ، وأنَّهم إنَّما يُهِمُّهم بعضُ أحوالِه المُفيدةِ ذِكرًا وعِظةً؛ ولذلك لم يقُلْ في قِصَّةِ أهلِ الكَهفِ: نحن نقُصُّ

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٦٨).

عليك مِن نَبَئِهم؛ لأنَّ قِصَّتَهم مُنحَصِرةٌ فيما ذُكِرَ، وأحوالَ ذي القرنَينِ غَيرُ مُنحَصِرةٍ فيما ذُكِرَ هنا(١).

٢- والأمرُ في قولِه: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم﴾ إذْنٌ مِن اللهِ لرَسولِه بأن يَعِدَ بالجَوابِ عن سُؤالِهم؛ عَملًا بقولِه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] على أحَدِ تأويلَينِ في مَعناه(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ جعل خبَرَ ذي القَرنَينِ تِلاوةً وذِكرًا؛ للإشارةِ إلى أنَّ المُهِمَّ مِن أخبارِه ما فيه تذكيرٌ، وما يَصلُحُ لأن يكونَ تلاوةً حَسَبَ شأنِ القُرآنِ، فإنَّه يُتلَى لأجلِ الذِّكرِ، ولا يُساقُ مَساقَ القَصَصِ(٣)، لذا لم يتَجاوَزِ القرآنُ ذِكْرَ هذا الرَّجلِ بأكثرَ مِن لقَبِه المشتهِرِ به إلى تعيينِ اسمِه وبلادِه وقومِه؛ لأنَّ ذلك مِن شُؤونِ أهلِ التَّاريخِ والقَصصِ، وليس مِن أغراضِ القرآنِ؛ فكان مِنه الاقتصارُ على ما يُفيدُ الأُمَّةَ مِن هذه القِصَّةِ عِبرةً حُكميَّةً أو خُلقيَّةً؛ فلِذلك قال الله: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾(٤).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ افتِتاحُ هذه القِصَّةِ بـ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يدُلُّ على أنَّها مِمَّا نزلت السُّورةُ للجوابِ عنه، كما كان الابتداءُ بقِصَّةِ أصحابِ الكَهفِ اقتِضابًا؛ تنبيهًا على مِثلِ ذلك(٥).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٧).

أي: استعمَلَها على وَجهِها؛ فليس كلُّ مَن عندَه شَيءٌ مِن الأسبابِ يَسلُكُه، ولا كُلُّ أحدٍ يكونُ قادِرًا على السَّبَبِ، فإذا اجتمع القُدرةُ على السَّبَبِ الحقيقيِّ والعَمَلُ به، حصل المقصودُ، وإن عَدِما أو أحدُهما، لم يَحصُلْ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ أنَّه لا حرجَ أن يُخبِرَ الإنسانُ عن الشَّيءِ الذي تراه عيناه بحَسَبِ ما رآه؛ فمعلومٌ أنَّ الشَّمسَ تغرُبُ في هذه العَينِ الحَمِئةِ حَسَبَ رؤيةِ الإنسانِ؛ وإلَّا فهي أكبَرُ مِن الأرضِ، وأكبَرُ من هذه العَينِ الحَمِئةِ(٢).

٧- قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ۞ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ۞ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ فوعَدَ الظَّالِمَ بأمرَينِ: أنَّه يُعذِّبُه، وأنَّه يُرَدُّ إلى رَبِّه، فيُعَذِّبُه عذابًا نُكرًا، والمؤمِنُ وَعَده بأمرينِ: بأنَّ له الحُسنَى، وأنَّه يُعامِلُه بما فيه اليُسرُ والسُّهولةُ، لكِنْ تأمَّلْ في حالِ المشركِ؛ بدأ بتعذيبِه ثم ثَنَّى بتعذيبِ الله، والمؤمنُ بدأ بثوابِ اللهِ أولًا، ثمَّ بالمعاملةِ باليُسْرِ ثانيًا، والفرقُ ظاهرٌ؛ لأنَّ مقصودَ المؤمنِ الوصولُ إلى الجنَّةِ، والوصولُ إلى الجنَّةِ لا شَكَّ أنَّه أفضَلُ وأحَبُّ إليه مِن أن يُقالَ له قَولٌ يُسْرٌ، وأمَّا الكافرُ فعذابُ الدُّنيا سابقٌ على عذابِ الآخرةِ وأيسرُ منه؛ فبدأَ به، وأيضًا فالكافرُ يخافُ مِن عذابِ الدُّنيا أكثرَ مِن عذابِ الآخرةِ؛ لأنَّه لا يؤمِنُ بالثَّاني(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٩).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾

- قولُه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ؛ إذْ إنَّ المرادَ بالسُّؤالِ عن ذي القَرنينِ السُّؤالُ عن خبَرِه، فحذَف المضافَ إيجازًا؛ لِدَلالةِ المَقامِ[١].

- والتعبيرُ بصِيغةِ الاستِقْبالِ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ للدَّلالةِ على استِمْرارِهم على ذلك إلى وُرودِ الجوابِ[٢].

- قولُه: ﴿سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ السِّينُ للتَّأكيدِ في ﴿سَأَتْلُوا۟﴾، والدَّلالةِ على التَّحقيقِ المناسِبِ لِمَقامِ تأييدِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وتَصديقِه، بإنْجازِ وعْدِه، أي: لا أترُكُ التِّلاوةَ البَتَّةَ، لا الدَّلالةِ على أنَّ التِّلاوةَ ستَقَعُ فيما يُستقبَلُ كما قيل؛ لأنَّ هذه الآيةَ ما نزَلَتْ بانفِرادِها قبلَ الوحيِ بتَمامِ القصَّةِ، بل موصولةً بما بَعدَها[٣]. والسِّينُ في قولِه: ﴿سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم﴾ لتحقيقِ الوَعدِ[٤].

- قولُه: ﴿سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ فيه إيجازٌ بحَذفِ المضافِ، أي: مِن خبَرِه، و(مِن) تبعيضيَّةٌ، والذِّكْرُ: التَّذكُّرُ والتَّفكُّرُ، أي: سأَتْلو علَيكم ما به التَّذكُّرُ؛ فجعَل المتلُوَّ نفْسَه ذِكرًا مُبالَغةً بالوصفِ بالمصدَرِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾

- ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: مكَّنَّا له أمْرَه مِن التَّصرُّفِ فيها كيف شاء،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٧-١٨).

فحذَف المفعولَ[١].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للتَّوكيدِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًاۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾

- قوله: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ تنكيرُ ﴿قَوْمًا﴾ يُؤذِنُ بأنَّهم أمَّةٌ غيرُ مَعروفةٍ ولا مألوفةٍ حالةُ عَقائدِهم وسيرتِهم[٣].

- قولُه: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لِما أشعَرَ به تنكيرُ ﴿قَوْمًا﴾ مِن إثارةِ سؤالٍ عن حالِهم وعمَّا لاقاه بهم ذو القرنَين[٤].

- قولُه تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ قيل: إنَّه كنايةٌ عن تمكينِه تعالى له منهم، لا أنَّه قولُ مشافهةٍ[٥].

- قولُه: ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦]، فيه إيجازٌ بحذفِ المُضافِ، أي: أمرًا ذا حُسْنٍ؛ على حَذْفِ المضافِ، أو على طَريقةِ إطلاقِ المصدَرِ على مَوصوفِه مُبالَغةً؛ وذلك بالدَّعوةِ إلى الإسلامِ، والإرشادِ إلى الشَّرائعِ[٦].

- قولُه: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ يَجوزُ أن يَكونَ (إمَّا) و(إمَّا) للتَّقْسيمِ دونَ التَّخييرِ، أي: لِيَكُنْ شأنُك معَهم إمَّا التَّعذيبَ وإمَّا الإحسانَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٧٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٢).

فالأوَّلُ لِمَن أصَرَّ على الكُفرِ، والثَّاني لِمَن تاب عنه[١].

- قولُه: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾، أي: إمَّا أن تُكفِّرَ فتُعذِّبَ، وإمَّا أن تُؤمِّنَ فتُحْسِنَ؛ فعبَّر في التَّخْييرِ بالمسبَّبِ عن السَّببِ[٢].

- و﴿حُسۡنٗا﴾ مصدَرٌ، وعدَل عن (أن تُحسِنَ إليهِم) إلى ﴿أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾ مُبالَغةً في الإحسانِ إليهم حتَّى جُعِل كأنَّه اتَّخَذ فيهم نفْسَ الحُسْنِ، وفي هذه المبالَغةِ تَلْقينٌ لاخْتِيارِ أحَدِ الأمرَينِ المخيَّرِ بينَهما[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾

- قولُه: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ اجتِلابُ حرفِ الاستِقْبالِ والتَّنفيسِ (سوف) يُشيرُ إلى أنَّه سيَدْعوه إلى الإيمانِ، فإنْ أصَرَّ على الكُفرِ يُعذِّبُه؛ فأَتَى بحَرفِ التَّنفيسِ؛ لِمَا يُتخَلَّلُ بين إظهارِه كُفْرَه وبين تَعذيبِه، مِن دُعائِه إلى الإيمانِ وتأبِّيه عنه؛ فهو لا يُعاجِلُهم بالقَتلِ على ظُلمِهم، بل يَدْعُوهم ويُذَكِّرُهم، فإنْ رجَعوا وإلَّا فالقَتلُ. وقد صرَّح بهذا المفهومِ في قولِه: ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾، أي: آمَن بعدَ كُفرِه. ولا يَجوزُ أن يَكونَ المرادُ مَن هو مُؤمِنٌ الآنَ؛ لأنَّ التَّخييرَ بينَ تَعذيبِهم، واتِّخاذِ الإمهالِ معَهم؛ يَمنَعُ أن يَكونَ فيهم مؤمِنون حينَ التَّخْييرِ. وأتى بنُون العظَمةِ في ﴿نُعَذِّبُهُۥ﴾ على عادةِ المُلوكِ في قولِهم: (نحن فعَلْنا)[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦-٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧).

- وما أحسَنَ مَجيءَ هذه الجُمَلِ! لَمَّا ذكَر ما يَستحِقُّه مِن ظُلمٍ بدَأ بما هو أقرَبُ لهم ومَحسوسٌ عِندَهم، وهو قولُه: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾، ثمَّ أخبَر بما يَلحَقُه آخِرًا يومَ القيامةِ، وهو تعذيبُ اللهِ إيَّاه العذابَ النُّكْرَ، ولأنَّ التَّرتيبَ الواقِعَ هو كذا[1].

٥- قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾

- قولُه: ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿جَزَآءً﴾ مصدرٌ مُؤكِّدٌ لِمَضمونِ الجُملةِ؛ قُدِّمَ على المبتدَأِ اعتِناءً به[2].

- وتأنيثُ الحُسْنى باعتِبارِ الخَصْلةِ أو الفَعْلةِ. ويَجوزُ أن تَكونَ الحُسْنى هي الجَنَّةَ كما في قولِه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فإن كان المرادُ مِن الحُسنى الخِصالَ الحُسْنى، فمَعنى عَطْفِ ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أنَّه يُجازي بالإحسانِ وبالثَّناءِ، وكِلاهُما مِن ذي القَرْنين، وإنْ كان المرادُ مِن الحُسْنى ثوابَ الآخِرةِ فذلك مِن أمرِ اللهِ تعالى، وإنَّما ذو القَرنَين مخبِرٌ به خبرًا مُستعمَلًا في فائدةِ الخبرِ، على معنى: إنَّا نُبشِّرُه بذلك، أو مُستعمَلًا في لازِمِ الفائدةِ تأدُّبًا مع اللهِ تعالى، أي: أنِّي أعلَمُ جَزاءَه عِندَك الحُسْنى. وعُطِف عليه: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾؛ لبيانِ حَظِّ الملِكِ مِن جَزائِه، وأنَّه البِشارةُ والثَّناءُ[3].

- قولُه: ﴿يُسْرًا﴾ أُطلِق عليه المصدرُ؛ مُبالَغةً[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٣).

- وما أحسَنَ مَجيءَ هذه الجُمَلِ! لَمَّا ذكَر ما يَستحِقُّه مَن آمَنَ وعَمِل صالِحًا، ذكَر جَزاءَ اللهِ له في الآخِرةِ وهو الحُسْنى، أي: الجَنَّةُ؛ لأنَّ طمَعَ المؤمِنِ في الآخِرةِ ورَجاءَه هو الَّذي حمَلَه على أنْ آمَن؛ لأجْلِ جَزائِه في الآخرةِ، وهو عَظيمٌ بالنِّسبةِ للإحسانِ في الدُّنْيا، ثمَّ أتبَعَ ذلك بإحسانِه له في الدُّنيا، بقولِه: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾، ولَمَّا ذكَر ما أعَدَّ اللهُ له مِن الحُسْنى جَزاءً لم يُناسِبْ أن يَذكُرَ جَزاءَه بالفِعْلِ، بل اقتَصر على القولِ؛ أدَبًا مع اللهِ تعالى، وإن كان يَعلَمُ أنه يُحسِنُ إليه فِعلًا وقولًا[1].

٦- قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا﴾

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكافُ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتَّشبيهِ، والمشبَّهُ به شيءٌ تضَمَّنه الكلامُ السَّابقُ بلَفظِه أو مَعْناه، ويجوزُ أن يكونَ صِفةً لـ﴿قَوۡمٗا﴾، أي: قومًا كذلكَ القومِ الَّذين وجَدَهم في مَغرِبِ الشَّمسِ، أي: في كَونِهم كُفَّارًا، وفي تَخييرِه في إجراءِ أمْرِهم على العقابِ أو على الإمْهالِ. ويَجوزُ أن يكونَ المجرورُ جُزءَ جملةٍ أيضًا جُلِبَت للانتقالِ مِن كلامٍ إلى كلامٍ يَكونُ فَصْلَ خِطابٍ، كما يُقال: هذا الأمرُ كذا. وعلى الوُجوهِ كُلِّها فهو اعتراضٌ بينَ جُملةِ: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ...﴾، إلخ، وجُملةِ: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ...﴾ [الكهف: ٩٢، ٩٣]، إلخ[2]. وقيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: أمْرُ ذي القرنَيْن كذَلِك، أي: كما وصَفْناه؛ تَعظيمًا لأمرِه[3]. وقيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مَعْناه: فَعَل معَهم كفِعْلِه مع الأوَّلين أهْلِ المغرِبِ، وأخبَر

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤٥-٧٤٦).

بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، ثمَّ أخبَر تعالى عن إحاطتِه بجَميعِ ما لَدى ذي القرنَيْن وما تَصرَّف فيه مِن أفعالِه. ويَحتمِلُ أن يكونَ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ استئنافَ قولٍ، ولا يَكونَ راجِعًا على الطَّائفةِ الأُولى[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٤).

الآيات (٩٢-٩٨)

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلسَّدَّيۡنِ﴾: أي: الجَبَلين، وأصلُ (سدد): يدُلُّ على رَدمِ شَيءٍ ومُلاءمتِه[1].

﴿خَرۡجًا﴾: أي: جُعْلًا وأجرًا، وأصلُ (خرج): يدُلُّ على النَّفاذِ عن الشَّيءِ؛ لأنَّه مالٌ يُخرِجُه المُعطي[2].

﴿رَدۡمًا﴾: أي: حاجِزًا حَصينًا، وأصلُ (ردم): يدلُّ على سدِّ الثُّلمةِ (أي: الفراغِ، أو: الشقِّ)[3].

﴿زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ﴾: أي: قِطَعَه الضَّخمةَ العَظيمةَ، واحِدُها: زُبْرةٌ، وأصلُ (زبر):

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨- ٢٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

يدُلُّ على الاجتِماعِ؛ لأنَّ الزُّبرةَ جملةٌ مُجتَمِعةٌ مِن الحديدِ[١].

﴿ٱلصَّدَفَيْنِ﴾: أي: ناحِيَتي الجَبَل، أو: ما بين النَّاحِيَتينِ مِن الجَبَلينِ، وأصلُ (صدف): يدُلُّ على المَيلِ[٢].

﴿أُفْرِغْ﴾: أي: أصُبَّ، يُقالُ: أفرغْتُ الدَّلوَ: أي: صببْتُ ما فيه، وأصلُ (فرغ): يدُلُّ على خُلُوٍّ وسَعَةِ ذَرْعٍ[٣].

﴿قِطْرًا﴾: أي: نُحاسًا ذائبًا، وأصلُه مِن القَطْرِ؛ وذلك أنَّه إذا أُذيبَ قَطَر كما يَقطُرُ الماءُ[٤].

﴿يَظْهَرُوهُ﴾: أي: يَعلُوه ويتسَوَّروه، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على بُروزٍ[٥].

﴿نَقْبًا﴾: ثَقبًا وخَرقًا، وأصلُ (نقب): يدُلُّ على فَتحٍ في شَيءٍ[٦].

﴿دَكَّآءَ﴾: أي: مَدكوكًا مُستويًا مع وجهِ الأرضِ، وأصلُ (دكك): يدلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨١٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٤٨)، (١١/ ٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٩، ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٠).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٠).

تَطامُنٍ وانسِطاحٍ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: ثمَّ سار ذو القرنينِ آخِذًا بالطُّرُقِ والأسبابِ التي منَحْناها إيَّاه، حتى إذا وصل مَوضِعًا بين جبَلَينِ، وجَدَ مِن دونِهما قَومًا لا يكادونَ يَعرِفونَ كَلامَ غَيرِهم. قالوا: يا ذا القَرنَينِ، إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ مُفسِدونَ في الأرضِ بالقَتلِ والنَّهبِ وغيرِ ذلك، فهل نجعَلُ لك أُجرةً أو جُعْلًا على أن تجعَلَ بيننا وبينهم حاجِزًا يمنَعُهم مِن الوصولِ إلينا؟ قال ذو القَرنَينِ: ما أعطانيه رَبِّي مِن التَّمكينِ والمُلكِ والعلمِ والمالِ: خَيرٌ لي مِن مالِكم، فأعينوني برِجالٍ أقوياءَ منكم أجعَلْ بينكم وبينهم سَدًّا مَنيعًا؛ أعطوني وناولوني قِطَعَ الحَديدِ الضَّخمةَ، فلما جاؤُوه بها وحاذَوا بها جانِبَي الجَبَلينِ، قال لهم: انفُخوا في النَّار، حتى إذا صار الحديدُ كُلُّه نارًا، قال: أعطوني نُحاسًا أَصُبَّه عليه، فما استطاعت يأجوجُ ومأجوجُ أن تصعَدَ فَوقَ السَّدِّ؛ لارتِفاعِه ومَلاستِه، وما استَطاعوا أن يَخرِقوا فيه خَرقًا مِن أسفَلِه؛ لإحكامِ بنائِه، وقُوَّتِه. قال ذو القرنَينِ: هذا الحاجِزُ الذي بَنَيتُه بينكم وبين يأجوجَ ومأجوجَ؛ رَحمةٌ مِن رَبِّي بالنَّاسِ، فإذا جاء وعدُ رَبِّي بخروجِ يأجوجَ ومأجوجَ، جعلَ اللهُ هذا الحاجِزَ مُنهَدِمًا مُستويًا بالأرضِ، وكان وَعدُ رَبِّي حقًّا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٩٢﴾.

أي: ثمَّ سار ذو القَرنَينِ في طريقٍ ثالثٍ آخِذًا بالأسبابِ والوسائِلِ؛ لِيَبلُغَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٨).

الجِهةَ التي يُريدُها[١].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾.

أي: سار إلى أن بلَغَ مَوضِعًا بين جبَلَينِ[٢].

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يُفْقِهُونَ﴾ بضَمِّ الياءِ، وكَسرِ القافِ، أي: لا يَكادونَ يُفهِمونَ أحدًا إذا نَطَقوا[٣].

٢- قِراءةُ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ بفَتحِ الياءِ والقافِ، أي: لا يَكادونَ يَفهمونَ ما يُقالُ لهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٠).

قال البقاعي: (﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ﴾ في إرادتِه ناحيةَ السَّدِّ مَخرج يأجوجَ ومأجوجَ ﴿سَبَبًا﴾ مِن جِهةِ الشِّمالِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٣٣).

وقال ابن عاشور: (يظهَرُ أنَّ هذا السَّبَبَ اتَّجَه به إلى جِهةٍ غيرِ جِهتَي المغربِ والمَشرِقِ، فيُحتَمَل أنَّها الشِّمالُ أو الجَنوب). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٥).

(٣) قرأ بها حمزةُ، والكسائي، وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٢٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ١٧٢).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٣١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٣٢).

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾.

أي: وجد ذو القرنين مِن دُونِ الجبَلَينِ[(١)] قومًا لا يَكادونَ يَفهمونَ ما يُقالُ لهم بغيرِ لُغتِهم[(٢)].

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾.

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: قال أولئك القَومُ: يا ذا القَرنَينِ، إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ[(٣)] يَخرُجونَ مِن بينِ

قال ابنُ جرير: (القومُ الذين أخبَرَ الله عنهم هذا الخبَرَ جائِزٌ أن يكونوا لا يَكادونَ يَفقَهونَ قَولًا لِغَيرِهم عنهم، فيكونُ صوابًا القراءةُ بذلك، وجائِزٌ أن يكونوا مع كَونِهم كذلك كانوا لا يَكادونَ أن يُفقِهوا غَيرَهم لعِلَلٍ: إما بألسِنَتِهم، وإمَّا بمَنطِقِهم، فتكونُ القراءةُ بذلك أيضًا صوابًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٨).

(١) قال ابنُ عطيةَ: (الضميرُ في ﴿دُونِهِمَا﴾ عائِدٌ على الجبَلَينِ، أي: وجَدَهم في الناحيةِ التي تلي عمارةَ النَّاسِ إلى المغرِبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤١).

وقال البقاعي: (﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: بقُربِهما من الجانِبِ الذي هو أدنَى منهما إلى الجِهةِ التي أتَى منها ذو القَرنَينِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٥٥).

قال ابن عاشور: (وقرأ الجُمهورُ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ -بفتحِ الياءِ التَّحتيَّةِ وفتحِ القافِ- أي: لا يفهمونَ قولَ غيرِهم. وقرَأ حمزةُ، والكسائيُّ -بضمِّ الياءِ وكسرِ القافِ- أي: لا يستطيعونَ إفهامَ غيرِهم قولَهم. والمعنيانِ متلازِمانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢).

(٣) قال ابنُ جرير: (هم أمَّتانِ مِن وراءِ السدِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٨).

وقال ابنُ عثيمين: (هاتان قبيلتانِ مِن بني آدَمَ، كما صحَّ ذلك عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... وبهذا نعرِفُ خطأَ من قال: إنهم ليسوا على شَكلِ الآدميِّينَ، وأنَّ بَعضَهم في غايةِ ما يكونُ مِن القِصَر، وبعضَهم في غايةِ ما يكونُ مِن الطولِ، وأنَّ بَعضَهم له أذنٌ يَفتَرِشُها، وأذنٌ يلتَحِفُ بها،

السَّدَّينِ، فيُفسِدونَ في أرضِنا بالقَتلِ والنَّهبِ والتَّخريبِ، وغيرِ ذلك مِن وُجوهِ الإفسادِ[١].

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يقولُ اللهُ تعالى: يا آدَمُ، فيقولُ: لبَّيك وسَعدَيك[٢]، والخيرُ في يَدَيك، فيقولُ: أخرِجْ بَعْثَ النَّارِ[٣]، قال: وما بَعثُ النَّارِ؟ قال: مِن كُلِّ ألفٍ تِسعَمائةٍ وتِسعةً وتسعينَ! فعنده يَشيبُ الصَّغيرُ، وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَملٍ حَمْلَها، وترى النَّاسَ سُكارى وما هم بسُكارى، ولكِنَّ عذابَ اللهِ شَديدٌ! قالوا: يا رسولَ اللهِ، وأيُّنا ذلك الواحِدُ؟! قال: أبشِروا؛ فإنَّ منكم رجُلًا، ومِن يأجوجَ ومأجوجَ ألفًا. ثمَّ قال: والذي نَفسي بِيَدِه، إنِّي أرجو أن تكونوا رُبُعَ أهلِ الجَنَّةِ! فكَبَّرْنا، فقال: أرجو أن تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجنَّةِ! فكَبَّرْنا، فقال: أرجو أن تكونوا نِصفَ أهلِ

وما أشبهَ ذلك، كلُّ هذا مِن خرافاتِ بني إسرائيل! ولا يجوزُ أن نصَدِّقَه، بل يقال: إنَّهم من بني آدمَ، لكِنْ قد يختَلِفونَ كما يختَلِفُ النَّاسُ في البيئاتِ، فتَجِدُ أهلَ خَطٍّ الاستواء بيئتُهم غيرُ بيئةِ الشَّماليِّينَ، فكُلٌّ له بيئةٌ، الشرقيُّون الآن يختَلِفونَ عن أهل وَسَطِ الكرةِ الأرضيَّة، فهذا ربما يختَلِفونَ فيه، أمَّا أن يختَلِفوا اختِلافًا فادِحًا كما يُذكَرُ، فهذا ليس بصَحيحٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣١-١٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أن المعنى: إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ سيُفسِدونَ في الأرضِ، ولم يقَعْ منهم إفسادٌ في الأرضِ، وإنما ذلك سيكونُ في آخِرِ الزَّمانِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠١).

(٢) لبَّيك: أي: أدومُ على طاعتِك دوامًا بعد دوامٍ، وأقيمُ على طاعتِك إقامةً بعد إقامةٍ، من: ألبَّ بالمكانِ: إذا أقام به. وسعديك: أي: ساعدتُ طاعتَك يا ربِّ مساعدةً بعد مساعدةٍ، وهي الموافَقةُ والمسارعةُ، أو أسعدُ بإقامتي على طاعتِك وإجابتي لدعوتِك سعادةً بعد سعادةٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٦٧٣).

(٣) بَعْثَ النَّارِ: أي: المبعوثَ إليها من أهلِها، وهو من بابِ تسميةِ المفعولِ بالمصدرِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٣٨).

الجنَّةِ! فكَبَّرْنا، فقال: ما أنتم في النَّاسِ إلَّا كالشَّعرةِ السَّوداءِ في جِلدِ ثَورٍ أبيَضَ، أو كشَعرةٍ بَيضاءَ في جِلدِ ثَورٍ أسوَدَ!))[١].

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿خَرَاجًا﴾ بألِفٍ، وهو الذي يُؤخَذُ على الأرضِ في كُلِّ عامٍ مِن الضرائِبِ، فكأنَّهم قالوا: فهل نجعَلُ لك أجرةً مَعلومةً نُؤدِّيها إليك كلَّ سَنةٍ، على أن تبنيَ بيننا وبينهم سدًّا[٢]؟

٢- قراءةُ ﴿خَرْجًا﴾ بغيرِ ألِفٍ، أي: جُعْلًا، فكأنَّهم قالوا: نجعَلُ لك جُعْلًا ندفَعُه إليك الآن مِن أموالِنا مَرَّةً واحِدةً، على أن تبنيَ بيننا وبينهم سَدًّا؟ وقيل: الخرجُ والخراجُ بمعنًى واحدٍ[٣].

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

أي: فهل نجعَلُ لك -يا ذا القَرنَينِ- أُجرةً أو جُعلًا مِن أموالِنا على أن تبنيَ لنا حاجِزًا بيننا وبين يأجُوجَ ومأجوجَ، فلا يُمكِنَهم الوصولُ إلينا[٤]؟

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٨) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢).

(٢) قرأ بها حمزةُ، والكسائي، وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٣١)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٧٧-٧٨).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٣١)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦).

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾.

أي: قال ذو القَرنَينِ: الذي بَسَطَه لي ربِّي مِن المُلكِ والعِلمِ، والقُوَّةِ والقُدرةِ والأموالِ؛ خَيرٌ مِن المالِ الذي تَعرِضونَه عليَّ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾.

أي: قال ذو القَرنَينِ: فأعينُوني برِجالٍ أقوياءَ يُحسِنونَ العَمَلَ، وبآلاتٍ للبناءِ؛ أجعَلْ بينكم وبينَ يأجوجَ ومأجوجَ حاجِزًا مَنيعًا وقَويًّا(٢).

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ﴾.

أي: قال ذو القَرنَينِ للقَومِ الذين سألوه بناءَ السَّدِّ: أعطوني قِطَعَ الحَديدِ الضَّخمةَ وناوِلونيها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٤).

قال الواحدي: (الردمُ: سَدُّ البابِ والثُّلمةِ). ((الوسيط)) (٣/ ١٦٧).

وقال النحاس: (الرَّدمُ في اللغة أكثَرُ مِن السَّدِّ؛ لأنه شيءٌ مُتكاثِفٌ بَعضُه على بعضٍ). ((معاني القرآن)) (٤/ ٢٩٣). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٠، ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ﴾.

أي: فلمَّا جاؤوه بقِطَعِ الحَديدِ الكَبيرةِ، وغطَّى بها ذو القَرنَينِ المَنفَذَ بينَ الجبَلَينِ حتَّى حاذَى بذلك البناءِ رُؤوسَهما؛ قال للعُمَّالِ: انفُخوا النَّارَ بالآلاتِ على قِطَعِ الحديدِ(١).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

أي: فنَفَخوا حتى جعل ذو القَرنَينِ الحديدَ نارًا، فقال: أعطوني نُحاسًا ذائِبًا أَصُبَّه على الحديدِ المُحْمَى(٢).

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾.

قولُه: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ لا ينافي ردَّ خراجِهم؛ لأنَّ المرادَ مِن الإيتاءِ المأمورِ به: الإيتاءُ بالثمنِ أو مجردِ المناولةِ والإيصالِ، لا الخَراج على العملِ، ولأنَّ إيتاءَ الآلةِ مِن قبيلِ الإعانةِ بالقوةِ، وعلى تسليمِ كونِ الإيتاءِ بمعنَى الإعطاءِ لا المناولةِ يقالُ: إنَّ إعطاءَ الآلةِ للعملِ لا يلزمُه تملكُها. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٦١).

قال القرطبي: (أمَرهم بنَقْلِ الآلةِ، وهذا كلُّه إنَّما هو استدعاءُ العطِيَّةِ الَّتي بغيرِ معنَى الهبةِ، وإنَّما هو استدعاءٌ للمناولةِ، لأنَّه قد ارتَبَط مِنْ قولِه: أنَّه لا يأخذُ منهم الخرجَ، فلم يَبْقَ إلَّا استدعاءُ المناولةِ، وأعمالُ الأبدانِ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠٦، ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٤).

قال الواحدي: (الصَّدَفانِ: الجَبلانِ، في قولِ جميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٤/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، ((زهرة التفاسير)) لأبي زهرة (٩/ ٤٥٨٩).

قال القرطبي: (والقِطرُ عندَ أكثَرِ المفَسِّرينَ: النُّحاسُ المذابُ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٢).

أي: ففَعَلوا ذلك، فاختَلَط والتصَقَ بعضُه ببعضٍ، وصار حاجِزًا صَلْدًا مَنيعًا، واستحكَمَ استحكامًا هائلًا، فلم يَقدِرْ يأجوجُ ومأجوجُ على صعودِ ذلك الرَّدمِ فيَنزِلوا منه على النَّاسِ؛ لارتفاعِه ومَلاستِه، فهو مُستَوٍ مع الجَبَلِ، والجبَلُ عالٍ لا يُرامُ[(١)].

﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾.

أي: ولم يَقْدِروا على خَرقِ ذلك الرَّدمِ مِن أسفَلِه خَرقًا يَنفُذُ بهم إلى الجِهةِ الأُخرى؛ وذلك لإحكامِ بنائِه، وصَلابتِه وشِدَّتِه[(٢)].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ لَيَحفِرونَ السَّدَّ كُلَّ يَومٍ[(٣)]، حتى إذا كادُوا يَرَونَ شُعاعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٧)، ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦).

(٣) قال ابن كثير: (في رَفعِه نَكارةٌ؛ لأنَّ ظاهِرَ الآية يقتضي أنَّهم لم يتمَكَّنوا من ارتقائِه ولا من نَقْبِه؛ لإحكامِ بنائِه وصلابتِه وشِدَّتِه... ولعَلَّ أبا هريرة تلقَّاه من كعبٍ؛ فإنَّه كان كثيرًا ما كان يجالِسُه ويحَدِّثُه، فحَدَّث به أبو هريرةَ، فتوهَّم بعضُ الرواةِ عنه أنَّه مرفوعٌ فرفَعَه. والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٨).

وقال أيضًا: (إن لم يكُنْ رفْعُ هذا الحديث محفوظًا، وإنما هو مأخوذٌ عن كعبِ الأحبارِ-كما قاله بعضُهم- فقد استرحنا من المؤونة، وإن كان محفوظًا فيكونُ محمولًا على أنَّ صنيعَهم هذا يكونُ في آخِرِ الزَّمانِ عند اقترابِ خُروجِهم، كما هو المرويُّ عن كعبِ الأحبار، أو يكونُ المراد بقوله: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ [الكهف: ٩٧] أي: نافِذًا منه، فلا ينفي أن يلحَسوه ولا ينفذوه. والله أعلم). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٥٥٩).

الشَّمسِ، قال الذي عليهم: ارجِعوا فستَحفِرونَه غَدًا، فيَعودونَ إليه كأشَدِّ ما كان، حتى إذا بلَغَت مُدَّتُهم[١] وأراد اللهُ أن يبعَثَهم على النَّاسِ، حَفَروا، حتى إذا كادوا يَرَونَ شُعاعَ الشَّمسِ، قال الذي عليهم: ارجِعوا فستَحفِرونَه غَدًا إن شاء اللهُ، ويَستَثني، فيعودونَ إليه وهو كهيئَتِه حين ترَكَوه، فيَحفِرونَه ويَخرُجونَ على النَّاسِ، فيُنَشِّفونَ المياهَ، ويتحَصَّنُ النَّاسُ منهم في حُصونِهم، فيَرمُونَ بسِهامِهم إلى السَّماءِ، فترجِعُ وعليها كهيئةِ الدَّمِ! فيقولون: قَهَرْنا أهلَ الأرضِ، وعَلَونا أهلَ السَّماءِ، فيَبعَثُ الله عليهم نَغَفًا[٢] في أقفائِهم فيَقتُلُهم بها، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: والذي نَفسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، إنَّ دوابَّ الأرضِ لَتَسمَنُ وتَشكَرُ شَكَرًا[٣] مِن لُحومِهم ودمائِهم))[٤].

﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾.

وقال الألباني: (الآيةُ لا تدُلُّ من قريبٍ ولا من بعيدٍ أنَّهم لن يستطيعوا ذلك أبدًا، فالآيةُ تتحَدَّث عن الماضي، والحديثُ عن المستقبَلِ الآتي، فلا تنافيَ ولا نكارةَ، بل الحديثُ يتمشى تمامًا مع القرآنِ في قَولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]). ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٤/ ٣١٤).

(١) بلَغَت مُدَّتُهم: أي: أدركوا المدَّةَ التي قُدِّرَت لهم. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٨/ ٤٧٤).

(٢) نغفًا: النَّغفُ: دودٌ يكونُ في أنوفِ الإبلِ والغنمِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٩).

(٣) وتَشكَرُ شَكَرًا: أَيْ: تسمَنُ وتمتلئُ شحْمًا. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٤٩٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٣١٥٣)، وابن ماجه (٤٠٨٠)، وأحمد (١٠٦٣٢) واللفظ له.

قال الترمذي: (حسَنٌ غريب)، وأخرجه ابنُ حبَّان في ((صحيحه)) (٦٨٢٩)، وقال ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٥/ ١٩٤): (إسناده جيِّد قويٌّ، في رفعِه نَكارةٌ)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١٣/ ١١٦): (رجاله رجالُ الصَّحيحِ إلَّا أنَّ قتادةَ مدَلِّس)، وذكَر أنَّه جاء في روايةٍ أخرى التَّصريحُ بالتحديثِ، وأنَّ له طريقًا آخرَ موقوفًا على أبي هريرةَ. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٠٨٠).

﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾.

أي: قال ذو القَرنَينِ: هذا الرَّدمُ الذي مكَّنَني اللهُ مِن جَعْلِه حاجزًا بينَ يأجوجَ ومأجوجَ وبينَ الإفسادِ في الأرضِ؛ رَحمةٌ مِن رَبِّي بالنَّاسِ(١).

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾.

أي: فإذا جاء وعدُ رَبِّي الذي وقَّتَه لخُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ مِن وَراءِ هذا الرَّدْمِ، جعَلَ اللهُ هذا الرَّدمَ مُنهَدِمًا مُستَويًا بالأرضِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٦).

قال الشنقيطي: (... فقولُكم: لو كانوا موجودينَ وراءَ السَّدِّ إلى الآن، لاطَّلعَ عليهم النَّاسُ- غيرُ صحيحٍ؛ لإمكانِ أن يكونوا موجودينَ، واللهُ يُخفي مكانَهم على عامَّةِ النَّاسِ، حتى يأتيَ الوقتُ المحَدَّد لإخراجِهم على النَّاسِ؛ وممَّا يؤيدُ إمكانَ هذا ما ذكره الله تعالى في سورة «المائدة» مِن أنَّه جعل بني إسرائيلَ يتيهونَ في الأرض أربعينَ سنةً، وذلك في قولِه تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: ٢٦] الآية، وهم في فراسِخَ قليلةٍ مِن الأرض، يمشونَ ليلَهم ونهارَهم، ولم يَطَّلِع عليهم الناسُ، حتى انتهى أمَدُ التِّيهِ؛ لأنَّهم لو اجتمعوا بالنَّاسِ لبَيَّنوا لهم الطريقَ، وعلى كلِّ حالٍ فربُّك فعَّالٌ لِما يريد، وأخبارُ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الثابتةُ عنه صادِقةٌ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٤٥).

وقال أيضًا: (اعلمْ أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ، وآيةَ الأنبياءِ قد دَلَّتا في الجملةِ على أنَّ السَّدَّ الَّذي بَناه ذُو القرنينِ دونَ يأجوجَ ومأجوجَ إنَّما يجعلُه اللَّهُ دكًّا عندَ مجيءِ الوقتِ الموعودِ بذلك فيه، وقد دَلَّتا على أنَّه بقربِ يومِ القيامةِ؛ لأنَّه قالَ هنا: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ الآيةَ [الكهف: ٩٨، ٩٩]...). ثمَّ ذكَر ما يدلُّ على ذلك مِن السنةِ الصحيحةِ، وأنَّ في بعضِ هذه الأحاديثِ: (تصريحَ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم: بأنَّ اللَّهَ يوحي إلى عيسى ابنِ مريمَ خروجَ يأجوجَ ومأجوجَ بعدَ قتلِه الدَّجَّالَ. فمَنْ يَدَّعي أنَّهم رُوسِيَّةٌ، وأنَّ السَّدَّ قد انْدَكَّ منذُ زمانٍ، فهو مخالفٌ لِمَا أخبَر به النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم مخالفةً صريحةً لا وجهَ

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ * وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦- ٩٧].

وعن زينبَ بنتِ جَحشٍ رَضِيَ الله عنها، ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دخَل عليها فَزِعًا يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وَيلٌ للعَرَب مِن شَرٍّ قد اقتَرَب؛ فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه -وحَلَّق بإصبَعِه الإبهامِ والتي تليها- فقُلتُ: يا رسولَ الله، أنَهلِكُ وفينا الصَّالِحونَ؟ قال: نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ[١]))[٢].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((فُتِح اليومَ مِن رَدمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثلُ هذه[٣] -وعقد بِيَدِه تِسعينَ[٤]))[٥].

وعن النوَّاسِ بنِ سِمعانَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((ذكَرَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الدجَّالَ ذاتَ غَداةٍ، فخَفَّض فيه ورَفَّع[٦]...))، وفيه: ((ثُمَّ يأتي عيسَى ابنَ مريمَ قومٌ قد عَصَمهم اللهُ منه، فيمسحُ عن وجوهِهم، ويحدِّثُهم بدرجاتِهم

لها). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٤١- ٣٤٤).

(١) الخَبَثُ: أي: الفُسوقُ والفُجورُ. يُنظر: ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازَري (٣/ ٣٦٧).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٦)، واللفظ له ومسلم (٢٨٨٠).

(٣) قال الألباني: (وفي الحديثِ إشارةٌ قويَّةٌ إلى أنَّ السَّدَّ سيُفتَحُ مِن يأجوجَ ومأجوجَ يومَ يأذَنُ الله لهم بذلك؛ كما في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ [الكهف: ٩٨]، وقد جاء التَّصريحُ بالفتحِ المذكورِ في حديثٍ صَحيحٍ [وهو حديثُ أبي هريرةَ السَّابقُ قَريبًا]...، وفيه تفصيلُ الفَتحِ المشارِ إليه، وأنَّهم يَحفِرونَه، ويخرُجون على النَّاسِ). ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٧/ ٣٧).

(٤) عَقدُ التِّسعينَ مِن مُواضعاتِ الحِسابِ، وهو أن تجعَلَ رأسَ الأُصبَعِ السبَّابة في أصلِ الإبهامِ، وتضُمَّها حتى لا يَبينَ بينهما إلا خلَلٌ يسيرٌ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢١٦).

(٥) رواه البخاري (٣٣٤٧) ومسلم (٢٨٨١)، واللفظ له.

(٦) خَفَّض: أي: حَقَّره. رَفَّعَ: أي: عَظَّمَه وفخَّمَه. وقيل: خَفَّض مِن صوتِه بعدَ طُولِ الكلامِ والتَّعَبِ لِيَستريحَ، ثمَّ رفَعَ ليَبلُغَ صَوتُه كُلَّ أحدٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٣).

في الجنَّةِ، فبينما هو كذلك إذ أوحى اللهُ إلى عيسى: إنِّي قد أخرجتُ عِبادًا لي لا يدانِ[١] لأحَدٍ بقِتالِهم، فحرِّزْ عبادي إلى الطُّورِ[٢]، ويَبعَثُ اللهُ يأجوجَ ومأجوجَ، وهم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلونَ[٣]، فيمُرُّ أوائِلُهم على بُحَيرةِ طَبَرِيَّة[٤] فيَشرَبونَ ما فيها، ويمُرُّ آخِرُهم فيقولونَ: لقد كان بهذه مَرَّةً ماءٌ! ويُحصَرُ[٥] نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه، حتى يكونَ رأسُ الثَّورِ لأحَدِهم خيرًا مِن مائةِ دينارٍ لأحَدِكم اليومَ! فيَرغَبُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه، فيُرسِلُ اللهُ عليهم النَّغَفَ في رقابِهم، فيُصبِحونَ فَرسَى[٦] كمَوتِ نَفسٍ واحدةٍ، ثمَّ يَهبِطُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه إلى الأرضِ، فلا يَجِدونَ في الأرضِ مَوضِعَ شِبرٍ إلاَّ ملأه زَهَمُهم[٧] ونَتْنُهم، فيرغَبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابُه إلى اللهِ، فيُرسِلُ اللهُ طيرًا كأعناقِ البُختِ[٨]، فتَحمِلُهم فتَطرَحُهم حيثُ شاء الله، ثم يُرسِلُ اللهُ مَطرًا لا يَكُنُّ منه بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ[٩]،

---

(١) لا يدانِ: أي: لا قُدرةَ ولا طاقةَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٩٣).

(٢) فحرِّزْ عبادي إلى الطُّورِ: أي: ضُمَّهم إليه، واجعَلْه لهم حِرزًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٦٦).

(٣) يَنسِلونَ: أي: يَمشونَ مُسرِعينَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٨).

(٤) بُحَيرة طَبَرِيَّة: هي نحوُ عشرةِ أميالٍ في ستةِ أميالٍ، وهي كالبركةِ تحيطُ بها الجبالُ، وطبريةُ بليدةٌ مطلَّةٌ على البحيرةِ، وهي مِن أعمالِ الأردن. يُنظر: ((مراصد الاطلاع)) للقطيعي (١/ ١٦٨)، و (٢/ ٨٧٨).

(٥) يُحصَرُ: أي: يُحبَسُ في جَبلِ الطُّورِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٣).

(٦) فرسى: أي: قتلى. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٩).

(٧) زَهَمُهم: أي: رائحتُهم الكريهةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٩).

(٨) البُخت: نوع من الإبلِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٤).

(٩) مَدَرٍ ولا وبَرٍ: أي: المدن، والقُرى والبوادي، وهو من وَبَرِ الإبلِ: أي: شَعرِها؛ لأنَّهم كانوا يتَّخِذون منه ومِن نحوه خيامَهم غالبًا. والمَدَرُ جمعُ مَدرةٍ، وهي اللَّبِنةُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١١٦).

فيَغسِلُ الأرضَ حتى يتركها كالزَّلَفةِ[١]، ثمَّ يقالُ للأرضِ: أنبِتي ثَمَرتَكِ، ورُدِّي بركَتَكِ، فيَومئذٍ تأكُلُ العِصابةُ[٢] مِن الرُّمَّانةِ، ويَستَظِلونَ بقِحْفِها[٣]، ويُبارَكُ في الرِّسْلِ[٤]، حتى إنَّ اللِّقْحةَ[٥] من الإبلِ لتكفي الفِئامَ[٦] مِن النَّاسِ، واللِّقْحةَ من البَقَرِ لتكفي القبيلةَ مِن النَّاسِ، واللِّقْحةَ من الغَنَمِ لتكفي الفَخْذَ[٧] مِن النَّاسِ! فبينما هم كذلك إذ بعثَ اللهُ ريحًا طيِّبةً، فتأخُذُهم تحت آباطِهم، فتَقبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤمِنٍ وكُلِّ مُسلِمٍ، ويبقى شِرارُ النَّاسِ يتهارَجونَ[٨] فيها تهارُجَ الحُمُرِ، فعليهم تقومُ السَّاعةُ))[٩].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لَيُحَجَّنَّ البَيْتُ، ولَيُعتمَرَنَّ بعدَ خُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ))[١٠].

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

أي: وكان وَعدُ اللهِ عِبادَه بخُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ في آخرِ الزَّمانِ وغيرِ ذلك

---

(١) كالزَّلَفةِ: أي: كالمرآةِ في صفائِها ونظافتِها، وقيل: كمصانعِ الماءِ، أي: إنَّ الماءَ يستنقعُ فيها حتى تصيرَ كالمصنعِ الذي يجتمعُ فيه الماءُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٩).

(٢) العصابةُ: أي: الجَماعةُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٣) بقِحْفِها: أي بقِشرِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٤) الرِّسْلِ: أي: اللَّبَنِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٥) اللِّقْحةَ: أي: النَّاقةَ الحَلوبةَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٦) الفِئامَ: أي: الجماعةَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٧) الفَخْذَ: بسكون الخاء المعجمة لا غير: جماعةٌ مِن الأقاربِ، وهم دون البطنِ، والبطنُ دونَ القبيلةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٨) يتهارجون: أي: يَختَلِطون ويتسافَدونَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٦).

(٩) رواه مسلم (٢٩٣٧).

(١٠) رواه البخاري (١٥٩٣).

مِن وُعودِه، كائنًا لا محالةَ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾ أنَّ على المَلكِ التعفُّفَ عن أموالِ رعيَّتِه، والزُّهدَ في أخذِ أُجرةٍ في مُقابلةِ عَمَلٍ يأتيه -ما أغناه اللهُ عنه- ففي ذلك حِفظُ كرامتِه، وزيادةُ الشَّغَفِ بمحبَّتِه، كما تأبَّى ذو القرنينِ؛ تفَضُّلًا وتكَرُّمًا[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾ التحَدُّثُ بنِعمةِ الله تعالى إذا اقتَضاه المقامُ، كقَولِ ذي القرنينِ هذا في مقامِ تعَفُّفِه عن أموالِهم، والشَّفَقةِ عليهم؛ وكقَولِ سُلَيمانَ: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾[٣] [النمل: ٣٦].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ مُشاطَرةُ المَلِكِ العُمَّالَ في الأعمالِ، ومُشارفتُهم بنفسِه إذا اقتضى الحالُ؛ تنشيطًا لهِمَّتِهم، وتجرئةً لهم، وترويحًا لقُلوبِهم، وقد كان ذو القرنينِ يقاسِمُ الرِّجالَ الأتعابَ، ويديرُ العَمَلَ بنَفسِه[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا * قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا * ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦٩).

قِطْرًا ۞ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لَمَّا فعَلَ ذو القَرنَينِ هذا الفِعلَ الجَميلَ والأثَرَ الجليلَ، أضاف النِّعمةَ إلى مُولِيها، فقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾، وهذه حالُ الخُلَفاءِ الصَّالحينَ: إذا منَّ اللهُ عليهم بالنِّعَمِ الجليلةِ، ازداد شُكرُهم وإقرارُهم، واعترافُهم بنِعمةِ الله، ولم يُسنِدوا ما يَعمَلونَه إلى أنفُسِهم، ولكِنَّهم يُسنِدونَه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وإلى فَضلِه[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ۞ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ تعريفُ الغيرِ ثمرةَ العَمَلِ المهِمِّ؛ ليَعرِفوا قَدْرَه، فيُظهِروا شُكرَه[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ الإعلامُ بالدَّورِ الأُخرويِّ، وانقضاءِ هذا الطَّورِ الأوَّليِّ؛ لتبقى النفوسُ طامحةً إلى ذلك العالَمِ الباقي، والنَّعيمِ السَّرمديِّ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فيه سؤالٌ: كيف فَهِمَ ذو القرنَينِ منهم هذا الكلامَ بعد أن وصَفَهم اللهُ تعالى بقَولِه: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾؟

الجواب من وجوهٍ:

الوجهُ الأولُ: أنَّ (كاد) فيه قولان: الأوَّلُ: أنَّ إثباتَه نفيٌ، ونفيَه إثباتٌ؛ فقَولُه: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لا يدُلُّ على أنَّهم لا يَفهَمون شيئًا، بل يدُلُّ على أنَّهم قد يفهمونَ على مشقَّةٍ وصُعوبةٍ. والقول الثاني: أنَّ (كاد) معناه المقاربةُ، وعلى هذا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، تفسير ((سورة الكهف)) لابن عثيمين (ص: ١٣٥-١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

القَولِ فقَولُه: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي: لا يعلَمونَ، وليس لهم قُربٌ مِن أن يفقَهوا. وعلى هذا القَولِ فلا بدَّ مِن إضمارٍ، وهو أن يقال: لا يكادونَ يفهَمونَه إلَّا بعد تقريبٍ ومشقَّةٍ مِن إشارةٍ ونَحوِها[١].

الوجه الثاني: أنَّه تكلَّم عنهم مُترجِمٌ[٢]؛ فذو القرنين أعطاه الله تعالى مُلكًا عظيمًا، وعنده من المترجِمينَ ما يَعرِفُ به ما يريدُ[٣].

الوجه الثالث: أنَّ الله قد أعطى ذا القرنينِ مِن الأسبابِ العِلميَّةِ ما فَقِهَ به ألسنةَ أولئك القَومِ، وفَقَّهَهم، وراجَعَهم وراجَعوه[٤].

الوجه الرابع: أنَّه قد يكون الله عزَّ وجَلَّ قد ألهمه لغةَ النَّاسِ الذين استولى عليهم كلِّهم[٥].

٢- قولُهم: ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ افْتَتحوا الكلامَ بالنِّداءِ، ونادَوْه نِداءَ المستغيثينَ المضطرِّينَ، ونداؤُهم إيَّاه بلَقبِ ذي القرنَينِ يدُلُّ على أنَّه مشهورٌ بمعنَى ذلك اللَّقبِ بينَ الأُممِ المتاخِمةِ لبلادِه[٦].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ فيه جوازُ الخَراجِ والأجرِ على الأعمالِ[٧].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٨٩-٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢).

(٧) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٢).

لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾ فيه أنَّ على المَلِك القِيامَ بمصالحِ الخَلقِ، وسَدَّ الفُرَج، وإصلاحَ الثُّغورِ، ولو بأن يأخُذَ مِن أموالِهم إذا احتاجَ[١]، وأنَّ عليه أن يَبذُلَ وُسعَه في الرَّاحةِ والأمنِ؛ دِفاعًا عن الوطنِ العزيزِ، وصيانةً للحريَّةِ والتمَدُّنِ، مِن مخالبِ التوحُّشِ والخَرابِ؛ قيامًا بفريضةِ دَفعِ المُعتَدين، وإمضاءِ العَدلِ بينَ العالَمينَ، كما لبَّى ذو القرنينِ دَعوةَ الشاكينَ في بناءِ السَّدِّ[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على اتِّخاذِ السُّجونِ، وحَبسِ أهلِ الفَسادِ فيها، ومَنعِهم من التصَرُّفِ لِما يُريدونَه، ولا يُترَكونَ وما هم عليه[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ۞ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ هذا تأييدٌ مِن اللهِ تعالى لذي القرنينِ في هذه المحاورةِ؛ فإنَّ القَومَ لو جمعوا له خَرْجًا لم يُعِنْه أحدٌ، ولوكَلُوه إلى البُنيانِ. ومعونتُه بأنفُسِهم أجمَلُ به، وأسرَعُ في انقضاءِ هذا العمَلِ[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ المَلِكَ فُرِضَ عليه أن يقومَ بحمايةِ الخَلقِ في حِفظِ بَيضتِهم، وسَدِّ فُرجتِهم، وإصلاحِ ثُغورِهم، من أموالِهم التي تَفيءُ عليهم، وحُقوقِهم التي تجمَعُها خِزانتُهم تحت يَدِه ونَظَرِه، حتى لو أكلَتْها الحقوقُ وأنفَذَتْها المُؤَن، لكان عليهم جَبرُ ذلك من أموالِهم، وعليه حُسنُ النَّظَرِ لهم،

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٢). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٥٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٦٠).

وذلك بثلاثةِ شُروطٍ: الأول: ألَّا يَستأثِرَ عليهم بشيءٍ. الثاني: أن يبدأ بأهلِ الحاجةِ فيُعينَهم. الثالث: أن يُسَوِّيَ في العطاءِ بينهم على قَدرِ مَنازِلِهم. فإذا فَنِيت بعد هذا، وبَقِيَت صفرًا، فأطلَعَت الحوادِثُ أمرًا، بذلوا أنفُسَهم قبل أموالِهم، فإنْ لم يُغنِ ذلك فأموالُهم تؤخَذُ منهم على تَقدير، وتَصريفٍ بتدبير؛ فهذا ذو القرنينِ لَمَّا عَرَضوا عليه المالَ في أن يكُفَّ عنهم ما يَحذَرونَه مِن عاديةِ يأجوجَ ومأجوجَ، قال: لستُ أحتاجُ إليه، وإنَّما أحتاجُ إليكم﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾، أي: اخدُموا بأنفُسِكم معي؛ فإنَّ الأموالَ عندي والرِّجالَ عندكم، ورأى أنَّ الأموالَ لا تُغني عنهم؛ فإنَّه إن أخَذَها أجرةً نَقَص ذلك ممَّا يحتاجُ إليه، فيعودُ بالأجرِ عليهم، فكان التطَوُّعُ بخِدمة الأبدانِ أولى. وضابِطُ الأمورِ: لا يحِلُّ مالُ أحدٍ إلَّا لضَرورةٍ تَعرِضُ، فيؤخَذُ ذلك المالُ جَهرًا لا سِرًّا، ويُنفَقُ بالعَدلِ لا بالاستيثارِ، وبرأيِ الجَماعةِ لا بالاستبدادِ بالأمرِ[(١)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۞ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ تدعيمُ الأسوارِ والحُصونِ في الثُّغورِ، وتقويتُها بذَوبِ الرَّصاصِ، وبوَضعِ صَفائِحِ النُّحاسِ خِلالَ الصُّخورِ الصُّمِّ؛ صِدقًا في العَمَلِ، ونُصحًا فيه، ليُنتَفَعَ به على تطاوُلِ الأجيالِ؛ فإنَّ البناءَ غيرَ الرَّصينِ لا ثمرةَ فيه[(٢)].

٩- إنْ قيلَ: ما الجَمعُ بينَ قَولِه تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾، وبين الحَديثِ الذي رواه البخاريُّ ومُسلِمٌ: ((فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثلُ هذه -وعَقَدَ بِيَدِه تِسعينَ))[(٣)]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٦٩).

(٣) رواه البخاري (٣٣٤٧)، ومسلم (٢٨٨١) واللفظ له.

فالجوابُ: أمَّا على قَولِ مَن ذهب إلى أنَّ هذا الحديثَ إشارةٌ إلى فَتحِ أبوابِ الشَّرِّ والفِتَن، وأنَّ هذا استعارةٌ مَحضةٌ وضَربُ مَثَلٍ، فلا إشكالَ. وأمَّا على قَولِ مَن جعل ذلك إخبارًا عن أمرٍ مَحسوسٍ -كما هو الظاهِرُ المتبادِرُ- فلا إشكالَ أيضًا؛ لأنَّ قَولَه: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ أي: في ذلك الزَّمانِ؛ لأنَّ هذه صيغةُ خبرٍ ماضٍ، فلا ينفي وقوعَه فيما يُستقبَلُ بإذنِ اللهِ لهم في ذلك قَدَرًا، وتسليطَهم عليه بالتدريجِ قليلًا قليلًا، حتى يتِمَّ الأجَلُ وينقضيَ الأمَدُ المقدورُ، فيَخرُجون، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾[1] [الأنبياء: ٩٦].

١٠- قولُه: ﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي﴾ فيه إيذانٌ بأنَّه ليس مِن قَبيلِ الآثارِ الحاصِلةِ بمُباشَرةِ الخلقِ عادَةً، بل هو إحسانٌ إلهيٌّ محضٌ، وإن ظهَر بمُباشَرتي[2].

١١- قولُه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ فيه بيانٌ لعِظَمِ قُدرتِه عزَّ وجلَّ بعدَ بيانِ سَعةِ رَحمتِه[3].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ فيه خروجُ يأجوجَ ومأجوجَ قُرْبَ السَّاعةِ[4].

١٣- مِن المناسباتِ الصُّوريَّةِ بين قِصَّةِ ذي القرنين وموسى مع الخَضِرِ: أنَّ في قِصَّةِ كلٍّ منهما ثلاثةَ أشياءَ آخِرُها بناءُ جِدارٍ لا سَقْفَ له، وإنَّما هو لأجلِ حِفظِ ما يُهتَمُّ به خَوفَ المُفسِدِ[5].

---

(١) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٤٦-٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾ فيه إطلاقُ السَّدِّ على الجبلِ؛ لأنَّه سَدٌّ في الجُملة، أو لكونِه مُلاصِقًا للسدِّ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾

- ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ الاستفهامُ مُستعمَلٌ في العَرْضِ[٢]، والفاءُ لِتَفريعِ العَرضِ على إفسادِهم في الأرضِ[٣]، وهو استِدْعاءٌ منهم قَبولَ ما يَبذُلونه ممَّا يُعينُه على ما طلَبوا على جِهَةِ حُسنِ الأدَبِ؛ إذْ سألوه ذلك[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾

- قولُه: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ الفاءُ لِتَفريعِ الأمرِ بالإعانةِ على خيريَّةِ ما مَكَّنه اللهُ تعالى فيه مِن مالِهم، أو على عدَمِ قَبولِ خَرْجِهم[٥].

- قولُه: ﴿أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ﴾ فيه تقديمُ إضافةِ الظَّرفِ إلى ضَميرِ المخاطَبينَ ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ على إضافتِه إلى ضَميرِ يَأْجوجَ ومأجوجَ: ﴿وَبَيۡنَهُمۡ﴾؛ لإظهارِ كَمالِ العِنايَةِ بمَصالِحِهم كما راعَوْه في قولِهم: ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ﴾[٦].

٤- قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٥).

جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾

- قولُه: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ﴾ لَعلَّ تَخصيصَ الأمرِ بالإيتاءِ بها دونَ سائرِ الآلاتِ مِن الصُّخورِ والحطَبِ ونَحوِهما؛ لأنَّ الحاجَةَ إليها أمَسُّ؛ إذْ هي الرُّكنُ في السَّدِّ، ووُجودُها أعَزُّ[١].

- قولُه: ﴿أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ﴾، و: ﴿سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾، و: ﴿جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ و: ﴿أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾، فيه إسنادُ ذلك إلى ذي القرنَين مع أنَّه فِعلُ العُمَّال؛ للتَّنبيهِ على أنَّه العمدةُ في ذلك، وهم بمَنزِلةِ الآلةِ[٢].

- قولُه: ﴿جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ تَشبيهُ بليغٌ، أي: كالنَّارِ في الحرارةِ وشِدَّةِ الاحْمِرارِ؛ حُذِفَت أداةُ التَّشبيهِ ووَجهُ الشَّبهِ، فأصبَح بَليغًا[٣].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ؛ حيث إنَّ تقديرَ الكلامِ: فآتَوْه زُبَرَ الحديدِ فنَضَدَها وبَناها، حتَّى إذا جعَل ما بينَ الصَّدَفَين مُساوِيًا لعُلوِّ الصَّدَفين[٤].

- وحذَف مُتعلَّقَ ﴿ٱنفُخُواْ﴾؛ لِظُهورِه مِن كَونِ العمَلِ في صُنعِ الحديدِ. والتَّقديرُ: انفُخوا في الكِيران[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٦/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٧).

والكِيران: جمْعُ كُور، ومعناه هنا: مِجْمَرةُ الحَدَّادِ المَبْنِيَّةُ مِن الطِّينِ الَّتِي تُوقَد فِيهَا النارُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٨١٠)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٤٧٢).

- قولُه: ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ فيه إيجازٌ بحَذْفِ المفعولِ به للفِعْلِ ﴿ءَاتُونِيٓ﴾، وتقديرُه: آتوني قِطْرًا أُفرِغْ عليه قِطْرًا؛ فحُذِفَ الأوَّلُ؛ لِدَلالةِ الثَّاني عليه[1].

٥- قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾

- فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ جاء قولُه: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ هنا بتَخْفِيفِ (اسْتَطَاعُوا) من غيرِ تاءٍ، ثُمَّ قال: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ بالتاء؛ ووجه ذلك: أنَّ مِن خَصائصِ مُخالَفةِ مُقْتضى الظَّاهرِ هنا إيثارَ فِعْلٍ ذي زِيادةٍ في المبْنَى بمَوْقِعٍ فيه زِيادةُ المعنى؛ لأنَّ استِطاعةَ نَقْبِ السَّدِّ أقْوى مِن استِطاعةِ تَسلُّقِه، فهذا مِن مَواضِعِ دَلالةِ زِيادةِ المبنى على زيادةٍ في المعنى[2]؛ فجِيءَ أوَّلًا بالفِعْلِ مُخفَّفًا عِندَ إرادةِ نَفْيِ قُدرتِهم على الظُّهورِ على السَّدِّ، والصُّعودِ فوقَه، ثمَّ جِيءَ بأصلِ الفِعلِ مُستَوْفَى الحُروفِ عندَ نفْيِ قُدرتِهم على نَقْبِه وخَرْقِه، ولا شكَّ أنَّ الظُّهورَ أيسَرُ مِن النَّقْبِ، والنَّقْبُ أشَدُّ عليهِم وأثقَلُ، فجِيءَ بالفِعلِ مُخفَّفًا معَ الأخَفِّ، وجيءَ به تامًّا مستوفًى مع الأثقَلِ، فتَناسَب، ولو قُدِّر بالعَكسِ لَما تَناسَب. وأيضًا فإنَّ الثَّانيَ في مَحلِّ التَّأكيدِ لِنَفيِ قُدرتِهم على الاسْتيلاءِ على السَّدِّ وتَمكُّنِهم منه؛ فناسَب ذلك الإطالةَ، واللهُ سبحانه أعلمُ بما أراد[3]. وقيل: لأنَّ الثَّانيةَ تعدَّت إلى اسمٍ، وهو قولُه عزَّ وجلَّ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٢٣-٣٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الكهف)) (ص: ١٣٥).
وذكر ابنُ رجبٍ عن الوزيرِ ابنِ هبيرةَ أنَّه قال: («التاءُ» من حروف الشِّدَّةِ، تقولُ في الشَّيءِ القَريبِ

﴿نَقْبًا﴾ فخَفَّ مُتعلَّقُها، فاحتمَلَتْ بأن يَتِمَّ لَفظُها، وأمَّا الأُولى فإنَّها تَعلَّقَ مَكانُ مفعولِها بـ (أنْ) والفِعْلِ بعدَها، وهي أربعةُ أشياءَ: أنْ، والفِعلُ، والفاعِلُ، والمفعولُ الَّذي هو الهاءُ، فثَقُلَ لفظُ ﴿ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾، وكان يَجوزُ تَحقيقُه حيث لا يُقارِنُه ما يَزيدُه ثِقلًا، فلمَّا اجتمَع الثقلانِ، واحتَمَل الأوَّلُ التَّخفيفَ، ألزمَ في الأوَّلِ دونَ الثَّاني الَّذي خفَّ مُتعلَّقُه[١].

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي﴾ قيل: في الكلامِ حَذْفٌ، وتَقديرُه: فلَمَّا أكمَل بِناءَ السَّدِّ واستَوى واستَحْكَم قال: هذا رحمةٌ مِن ربِّي[٢].

- جملةُ ﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّه لما آذَن الكلامُ بانْتِهاءِ حكايةِ وصْفِ الرَّدْمِ كان ذلك مُثيرًا سُؤالَ مَن يَسأَلُ: ماذا صدَر مِن ذي القَرْنَين حين أتَمَّ هذا العمَلَ العظيمَ؟ فيُجابُ بجُملةِ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي﴾، وجُعِلَت الرَّحمةُ مِن اللهِ؛ لأنَّ اللهَ أَلْهمَه لذلك ويَسَّر له ما هو صعبٌ[٣]، وفي التَّعرُّضِ لِوَصفِ الرُّبوبيَّةِ تَربيةُ مَعْنى الرَّحمةِ[٤].

- قولُه: ﴿دَكَّآءَ﴾ الدَّكَّاءُ: بمَعْنى المفعولِ؛ للمُبالَغةِ، أي: جعَله مَدْكوكًا، أي:

الأمرِ: ما اسْطَعتُه، وفي الشَّديدِ: ما استطَعْتُه، فالمعنى: ما أطاقوا ظهورَه لِضَعفِهم، وما قَدَروا على نَقْبِه لقوَّتِه وشِدَّتِه). ((ذيل طبقات الحنابلة)) (٢/ ١٤١، ١٤٣).

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٨٣-٨٨٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٢٣-٣٢٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٦).

مُسوًّى بالأرضِ بعدَ ارتِفاعٍ[١].

- قولُه: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ تذييلٌ للعِلْمِ بأنَّه لا بُدَّ له مِن أجَلٍ يَنْتهي إليه، وكان تأجيلُ اللهِ الأشياءَ حقًّا ثابِتًا لا يتَخلَّفُ؛ فهذه الجملةُ بعُمومِها وما فيها مِن حِكمةٍ كانت تَذْييلًا بَديعًا[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٠).

الآيات (٩٩-١٠٢)

﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَمُوجُ﴾: أي: يَضطَرِبُ ويختَلِطُ، وأصلُ (موج): يدلُّ على اضْطِرابٍ فِي شَيءٍ[(١)].

﴿الصُّورِ﴾: أي: القرنِ ينفخُ فيه إسرافيلُ. وقيل: الصورُ جمعُ صُورَةٍ يَنْفُخُ فيها رُوحَها فتَحْيا[(٢)].

﴿نُزُلًا﴾: النُّزُلُ: ما يُعَدُّ للنَّازلِ مِن الزَّادِ، وما يُقدَّمُ للضيفِ، أو: النُّزُلُ: المنزلُ وموضعُ النُّزولِ، وأصلُ (نزل): يدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: وترَكْنا يأجوجَ ومأجوجَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧، ٢٧١، ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٥).

-يومَ يأتيهم وَعْدُ الله بِدَكِّ الردمِ- يَخرُجونَ مُزدَحِمينَ مُختَلِطينَ بالنَّاسِ، وينتَشِرونَ بينهم مفسدينَ. ونُفِخَ في الصُّورِ للبَعثِ، فجَمَعْنا الخَلقَ جَميعًا للحِسابِ والجزاءِ، وأبرَزْنا جهنَّمَ للكافرينَ ليَرَوها عِيانًا؛ الذين كانت أعيُنُهم في الدُّنيا في غِطاءٍ عن النَّظَرِ في آياتِ القُرآنِ وتدَبُّرِها، وكانوا لا يُطيقونَ سَماعَ كَلامي، أفظَنَّ الذين كَفَروا أن يتَّخِذوا عبادي أولياءَ مِن دوني؟ إنَّا أعتَدْنا نارَ جهنَّمَ للكافرينَ مَنزِلًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا انقضى الجوابُ عَمَّا سأل عنه الكافِرونَ على أحسَنِ وَجهٍ، في أبلَغِ سِياقٍ وأبدَعِ تناسُبٍ؛ وأدرجَ اللهُ تعالى في خلالِه ما أدرَجَ مِن التَّذكيرِ والوَعظِ، والأمرِ والنَّهيِ، والوَعدِ والوَعيدِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والتَّبكيتِ للكاتمينَ لِما عِندَهم من العِلمِ، النَّاكبينَ عمَّا استبان لهم مِن الطَّريقِ والمَنهجِ الواضِحِ، وخَتَمه بما هو عَلَمٌ عَظيمٌ للسَّاعةِ- ذكَرَ ما يكونُ إذ ذاك، وما يكونُ بَعدَه إلى حُصولِ كُلٍّ مِن الفَريقَينِ في دارِه، ومحَلِّ استِقرارِه[1].

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾.

أي: وتَرَكْنا يأجوجَ ومأجوجَ يومَ يأتي وعدُ اللهِ بدَكِّ الرَّدمِ، يَخرُجونَ مُزدَحِمينَ مُختَلِطينَ بالنَّاسِ، وينتَشِرونَ بينهم للإفسادِ في الأرضِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٤٣-١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٤١، ٣٤٢).

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾.

أي: ونُفِخَ في البُوقِ؛ لتَعودَ الأرواحُ إلى أجسادِها، فإذا هم قيامٌ لرَبِّ العالَمينَ(١).

واختار هذا المعنى المذكورَ: ابنُ كثير، والبقاعي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المراد: ﴿وَتَرَكْنَا﴾ يأجوجَ ومأجوجَ يومَ الانتهاءِ مِن بناءِ الرَّدمِ مُضطربينَ مُختَلِطينَ؛ لكَثرتِهم لا يستطيعونَ الخروجَ مِن وراء الرَّدمِ، وجَعَلْنا فَسادَهم قاصِرًا على أنفُسِهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سليمان، والواحدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٠).

وقيل: الضَّميرُ في قوله: ﴿بَعْضَهُمْ﴾ يعودُ على الخَلقِ، وأنَّ المعنى: وترَكْنا الخَلقَ يومَ القيامةِ يدخُلُ بَعضُهم في بعضٍ، فيختَلِطُ جِنُّهم بإنسِهم. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابن جرير، واستحسنه القرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٥).

قال ابنُ عطية: (الضَّميرُ في ﴿وَتَرَكْنَا﴾ لله تعالى، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ به يومَ القيامةِ؛ لأنَّه قد تقدَّم ضَميرُه، فالضَّميرُ في قَولِه: ﴿بَعْضَهُمْ﴾ -على ذلك- لجَميعِ الناس، ويحتَمِلُ أن يريدَ بقَولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يومَ كمالِ السَّدِّ، فالضميرُ في قَولِه: ﴿بَعْضَهُمْ﴾ ليأجوجَ ومأجوجَ... وقولُه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ الآية: المعنيُّ به يومُ القيامةِ، فلا احتمالَ لغيره، فمن تأوَّلَ الآيةَ كُلَّها في يوم القيامة اتَّسقَ تأويلُه، ومن تأوَّلَ الآيةَ إلى قَولِه: ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ في أمرِ يأجوجَ ومأجوجَ، تأوَّلَ القَولَ «وتركْناهم يموجون» يموجون دأبًا على مَرِّ الدهرِ، وتناسُلِ القرونِ بينهم، وقيامِهم، ثمَّ نُفِخَ في الصورِ فيجتَمِعونَ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤٤)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٧).

قال ابنُ عطية: (الصُّورُ في قَولِ الجُمهور وظاهِرِ الأحاديثِ الصِّحاحِ: هو القَرنُ الذي يُنفَخُ فيه للقيامة. وقالت فرقةٌ: الصُّورُ: جمعُ صُورةٍ، فكأنَّه أراد صُوَرَ البشَر والحيوانِ نُفِخَ فيها الروحُ. والأوَّلُ أبيَنُ وأكثَرُ في الشَّريعةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤٤).

وقال القرطبي: (الأمَمُ مُجمِعةٌ على أن الذي يَنفُخُ في الصورِ إسرافيلُ عليه السلام). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠).

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قَرْنٌ يُنفَخُ فيه))(١).

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كيف أنعَمُ، وقد الْتقمَ(٢) صاحبُ القرنِ القرنَ، وحنَى جبهتَه، وأصْغَى سمعَه، ينتَظِرُ أن يُؤمرَ أن يَنفُخَ فيَنفُخَ؟! قال المُسلِمونَ: فكيف نقولُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: قولوا: حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، توكَّلْنا على اللهِ ربِّنا -وربَّما قال سفيانُ-: على اللهِ توكَّلْنا))(٣).

﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾.

وقال الشوكاني: (قيل: هي النَّفخةُ الثانية؛ بدليلِ قَولِه بعدُ: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ فإنَّ الفاءَ تُشعِرُ بذلك، ولم يذكُر النفخةَ الأولى؛ لأنَّ المقصود هنا ذِكرُ أحوال القيامة). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧٢).

وقال الألوسي: (الظَّاهِرُ أنَّ المرادَ النفخةُ الثانيةُ؛ لأنَّه المناسِبُ لِما بعدُ، ولعَلَّ عدمَ التعَرُّضِ لذكر النفخةِ الأولى؛ لأنَّها داهيةٌ عامَّةٌ ليس فيها حالةٌ مختصَّةٌ بالكفَّارِ. وقيل: لئلَّا يقعَ الفصلُ بين ما يقعُ في النشأةِ الأولى من الأحوالِ والأهوالِ، وبين ما يقعُ منها في النشأةِ الآخرةِ). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٦٥).

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٤٢)، وأحمد (٦٥٠٧) باختلاف يسير، والترمذي (٢٤٣٠)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٥٦) واللفظ لهما.

حسَّنه الترمذي، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٥٠)، ووافقه الذهبي في ((التلخيص)) (٢/ ٥٥٠)، وذكَر ابنُ كثيرٍ في ((تفسير القرآن)) (٥/ ٣٠٨) أنَّه ثابتٌ، وصحَّح إسناده أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ٩)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٣٠).

(٢) التقم: أي: وضع طَرفَ الصُّورِ في فَمِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٠٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٤٣)، وأحمد (١١٠٣٩).

حسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (٣٢٤٣).

أي: فجَمَعْنا جميعَ الخَلقِ إلى مَوقِفِ القيامةِ؛ لحِسابِهم ومُجازاتِهم على أعمالِهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾.

أي: وأبرَزْنا جهنَّمَ يومَ القيامةِ، وأظهَرْناها للكافرينَ؛ حتى يُشاهِدوها عِيانًا قبلَ دُخولِها[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ * وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٤- ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١].

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٩).
قال ابنُ عُثَيمينَ: (هذا الجَمعُ يَشمَلُ: الإنسَ والجِنَّ والملائكةَ، والوحوشَ وجميعَ الدوابِّ؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٩-١٤٠).

أي: أظهَرْنا جهنَّمَ للكافرينَ الذين كانت أعيُنُهم مُغَطَّاةً عن النَّظَرِ في آياتِ القُرآنِ وتدَبُّرِها، وتَعامَوا عن قَبولِ الحَقِّ واتِّباعِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ [البقرة: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾.

أي: وكان الكافِرونَ لا يُطيقونَ سَماعَ كَلامِ اللهِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤٠).

قال ابن القيم: (هذا يتضَمَّنُ مَعنيينِ؛ أحَدُهما: أنَّ أعيُنَهم في غطاءٍ عَمَّا تضمَّنه الذِّكرُ مِن آياتِ اللهِ وأدلَّةِ تَوحيدِه وعجائِبِ قُدرتِه، والثاني: أنَّ أعيُنَ قُلوبِهم في غِطاءٍ عن فَهمِ القُرآنِ وتدَبُّره، والاهتداءِ به، وهذا الغِطاءُ للقَلبِ أوَّلًا، ثمَّ يسري منه إلى العينِ). ((شفاء العليل)) (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٧).

قال ابن تيمية: (على تفسيرِ السَّلَف والجمهورِ: المرادُ بعدم الاستطاعةِ: مَشقَّةُ ذلك عليهم وصعوبتُه على نفوسِهم؛ فنفوسُهم لا تستطيعُ إرادتَه، وإن كانوا قادرينَ على فِعلِه لو أرادوه! وهذه حالُ من صَدَّه هواه ورأيُه الفاسِدُ عن استماعِ كتُبِ الله المنَزَّلة واتباعِها). ((مجموع الفتاوى)) (٣/ ٣١٩).

وقال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، في هذه الآيةِ الكريمةِ للعُلماءِ أوجهٌ، بعضُها يشهَدُ له القرآنُ:

الأوَّلُ: وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ الطبري في «تفسيرِه»، ونقله عن ابنِ عباسٍ وقتادةَ: أنَّ معنى ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾: أنَّهم لا يستطيعون أن يسمعوا الحَقَّ سَماعَ مُنتَفِعٍ، ولا أن يُبصِروه إبصارَ مُهتدٍ؛ لاشتغالِهم بالكُفرِ الذي كانوا عليه مقيمينَ عن استعمالِ جوارحِهم في طاعةِ الله تعالى، وقد كانت لهم أسماعٌ وأبصارٌ...

الثاني: وهو أظهَرُها عندي: أنَّ عدمَ الاستطاعةِ المذكورَ في الآيةِ إنَّما هو للخَتمِ الذي ختَمَ

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى مِن حالِ الكافرينَ أنَّهم أعرَضوا عن الذِّكرِ، وعن استِماعِ ما جاء به الرَّسولُ؛ أتبَعَه بقَولِه: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾، والمراد: أفظَنُّوا أنَّهم ينتَفِعون بما عَبَدوه مع إعراضِهم عن تدبُّرِ الآياتِ، وتمَرُّدِهم عن قَبولِ أمرِه، وأمرِ رَسولِه[1]؟

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

أي: أفظَنَّ الذين كَفَروا باللهِ أن يتَّخِذوا عباديَ الذينَ عَبَدوهم مِن دوني -كالمسيحِ عيسى ابنِ مريمَ، والملائكةِ والأنبياءِ، وغيرِهم من الصَّالحينَ- أولياءَ لهم[2]؟

الله على قلوبِهم وأسماعِهم، والغِشاوةِ التي جَعلَ على أبصارِهم، وتكذيبِ الرُّسُلِ باختيارِهم ومشيئتِهم، كما دلَّت عليه آياتٌ كثيرة). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٧٥- ١٧٦).

وقال ابن عثيمين: (﴿وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ هل المرادُ: لا يريدون؟ كقَولِه تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢]، أي: هل يريدُ؟ أو المعنى أنَّهم لا يستطيعون ﴿سَمْعًا﴾ أي: سَمْعَ الإجابةِ، وليس سَمْعَ الإدراك؟ الجوابُ: يحتَمِلُ المعنيين جميعًا، وكلاهما حَقٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٨، ٣٤٩).

قال الشِّنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: تقديرُ المحذوفِ هو: أفحَسِبَ الذين كفروا أن يتَّخِذوا عبادي مِن دوني أولياء، ولا أعاقِبُهم العقابَ الشَّديدَ؟ كلَّا! بل سأعاقِبُهم على ذلك العقابَ الشَّديدَ؛ بدليل قولِه تعالى بعده: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾.

وقال بعضُ العلماءِ: تقديرُه: أفحَسِبَ الذين كفروا أن يتَّخِذوا عبادي من دوني أولياءَ وأنَّ ذلك ينفَعُهم؟ كلَّا! لا ينفَعُهم بل يضُرُّهم، ويدُلُّ لهذا قولُه تعالى عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقوله عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]).

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ * فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:

((أضواء البيان)) (٣/ ٣٤٨).

وممَّن اختار المعنى الأول: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٥).

وممَّن اختار المعنى الثاني: الزجَّاج، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجَّاج (٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤١).

وقال ابنُ جريرٍ: (أفظنَّ الَّذينَ كفروا باللَّهِ مِنْ عبدَةِ الملائكةِ والمسيحِ، أَنْ يتَّخِذوا عِبادي الَّذينَ عَبَدوهم مِن دونِ اللَّهِ أولِياءَ؟ يقولُ: كلَّا بلْ هم لهم أعداءُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢١).

وقال ابن عاشور: (و﴿مِن دُونِهِمْ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ إما بجعلِ ﴿دُونِهِمْ﴾ اسمًا بمعنى حَول، أي: مِن حَولِ عذابي، وتأويل ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ بمعنى: أنصارًا، أي حائلين دون عذابي ومانِعِيهم منه، وإما بجَعلِ ﴿دُونِهِمْ﴾ بمعنى غيري، أي: أحَسِبوا أنهم يَستغنون بوَلايتِهم؟). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٤).

قال ابن عثيمين: (﴿أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: أربابًا، يدعونَهم، ويستغيثونَ بهم، وينسونَ ولايةَ الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤١).

٥- ٦].

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾.

أي: إنَّا هيَّأْنا جهنَّم مَنزِلًا للكافرينَ(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ مِن الحِكَمِ في إخبارِ اللهِ عزَّ وجلَّ بذلك: أنْ يُصْلِحَ الإنسانُ ما بينه وبينَ اللهِ؛ وأنْ يَخافَ مِن هذا اليومِ، وأنْ يَستعِدَّ له، وأنْ يُصَوِّرَ نفسَه وكأنَّه تحتَ قدَمَيه، كما قال الصِّديقُ رَضِيَ الله عنه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠١).

وممن اختار أنَّ النزلَ بمعنى المنزلِ: مقاتل بن سليمان، وابنُ جريرٍ، والزجاج، والواحدي، وابنُ كثير. يُنظر المصادر السابقة.

وقيل: النُّزُلُ: ما يُعَدُّ للضيفِ. وممن اختار ذلك المعنى: الرسعني، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (١/ ٤٠١)، (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٤، ٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤١).

قال الشنقيطي: (والمعنَى: أَنَّ الَّذي يُهَيَّأُ لهم مِنَ الإكرامِ عندَ قُدومِهم إلى رَبِّهم هو جهنَّمُ المعَدَّةُ لهم، كقولِه: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [آل عمران: ٢١]، وقولِه: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ [الكهف: ٢٩]). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٤٩).

وقال ابنُ عثيمين: (ومعنى النُّزُل: ما يقَدِّمُه صاحِبُ البيتِ للضَّيفِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ بمعنى المَنزِل، وكلاهما صحيحٌ؛ فهم نازِلونَ فيها، وهم يُعطَونَها كأنَّها ضيافةٌ، وبِئْسَت الضيافةُ!!). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤١).

وقال الثعالبي: (والآية تحتملُ الوجهَينِ). ((تفسير الثعالبي)) (٣/ ٥٤٤).

(كلُّ امــرئٍ مُصَبَّــحٌ فــي أهلِه والموتُ أدنى مِن شِــراكِ نَعْلِه)[١]

فتصَوَّرْ هذا، وتصوَّرْ أنَّه ليس بينك وبينه إلَّا أنْ تَخرجَ هذه الرُّوحُ مِن الجسَدِ، وحينئذٍ ينتهي كلُّ شيءٍ[٢]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تَرْكُه سُبحانَه للشَّيءِ صِفةٌ مِن صفاتِهِ الفِعليَّةِ، الواقعةِ بمشيئتِه، التَّابعةِ لحكمتِه؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ [العنكبوت: ٣٥]، والنصوصُ في ثبوتِ التَّرْكِ وغيرِه مِن أفعالِه المتعَلِّقةِ بمشيئتِه كثيرةٌ معلومةٌ، وهي دالَّةٌ على كمالِ قُدرتِه وسُلطانِه. وقيامُ هذه الأفعالِ به سُبحانَه لا يُماثِلُ قيامَها بالمَخلوقينَ، وإنْ شارَكَه في أصلِ المعنى، كما هو معلومٌ عند أهلِ السُّنَّةِ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ ليكونَ ذلك أبلَغَ في تعجيلِ الهَمِّ والحُزنِ لهم[٤].

٣- النَّارُ تُعرَضُ على الكافرين ويُعرَضونَ عليها؛ لأنها تُقرَّبُ إليهم ويُقرَّبونَ إليها، كما قال تعالى في عَرضِها عليهم هنا: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾، وقال في عَرضِهم عليها: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾[٥] [الأحقاف: ٢٠].

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٧).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ كلامٌ مَسوقٌ مِن جَنابِه تعالى مَعطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾، ومُحقِّقٌ لِمَضمونِه[1]؛ فهو عطفٌ على الجُملةِ الَّتي قبْلَها ابتِداءً مِن قولِه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾، فهذه الجملةُ لذِكْرِ صُنعِ اللهِ تعالى في هذه القِصَّةِ الثَّالثةِ مِن قَصصِ ذي القَرْنينِ؛ إذْ أَلْهمَه دفْعَ فَسادِ يأجوجَ ومأْجوجَ، بمَنزِلةِ جُملةِ: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ في القصَّةِ الأُولى، وجملةُ ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾؛ فجاء أسلوبُ حِكايَةِ هذه القَصصِ الثَّلاثِ على نسَقٍ واحِدٍ[2].

- قولُه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ هذا تخلُّصٌ مِن أغراضِ الاعْتِبارِ بما في القِصَّةِ مِن إقامةِ المصالِحِ في الدُّنيا على أيدي مَن اختارَه اللهُ لإقامتِها مِن خاصَّةِ أوليائِه، إلى غرَضِ التَّذكيرِ بالموعظةِ بأحوالِ الآخرةِ، وهو تَخلُّصٌ يُؤذِنُ بتشبيهِ حالِ تَموُّجِهم بحالِ تَموُّجِ النَّاسِ في المحشرِ؛ تذكيرًا للسَّامِعين بأمْرِ الحشرِ، وتقريبًا بحُصولِه في خَيالِ المشرِكين؛ فإنَّ القادِرَ على جمعِ أمَّةٍ كامِلةٍ وراءَ هذا السَّدِّ، بفعلِ مَن يَسَّره لذلك مِن خَلْقِه، هو الأقدرُ على جمعِ الأُممِ في الحشرِ بقُدرتِه؛ لأنَّ مُتعلَّقاتِ القُدرةِ في عالَمِ الآخرةِ أعجبُ[3].

٢- قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾

- ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ﴾ قيل: اللَّامُ بمَعْنى (على). وتَخصيصُه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤١).

بالكافِرين بِشارةٌ للمُؤمِنين[١]، وتخصيصُ العَرْضِ بهِم مع أنَّها بمَرْأًى مِن أهلِ الجَمْعِ قاطِبةً؛ لأنَّ ذلك لأجْلِهم خاصَّةً[٢].

- قولُه: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ عَرْضُ جَهنَّمَ مُستعمَلٌ في إبرازِها حين يُشْرِفون عليها وقد سِيقوا إليها، فيَعلَمون أنَّها المهيَّأةُ لهم؛ فشُبِّه ذلك بالعَرْضِ تَهكُّمًا بهم؛ لأنَّ العَرْضَ هو إظهارُ ما فيه رَغبةٌ وشهوةٌ[٣].

- قولُه: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾، وقولُه: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ فيهما تأكيدُ الفِعلَينِ (جمَع - عرَض) بمَصْدرَيهما (جَمْعًا - عرْضًا)؛ لِتحقُّقِ أنَّه جمعٌ حقيقيٌّ وعرضٌ حقيقيٌّ، ليْسا مِن المَجازِ[٤].

- وفي تنكيرِ الجَمْعِ والعَرْضِ تهويلٌ[٥].

- واستُعمِلَ الماضي مَوضِعَ المضارِعِ؛ تَنبيهًا على تحقيقِ وُقوعِه[٦].

٣- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ جيءَ بالموصولِ؛ لِذَمِّهم، وللتَّنبيهِ على أنَّ مَضْمونَ الصِّلَةِ هو سببُ عَرْضِ جَهنَّمَ لهم، أي: الَّذين عُرِفوا بذلك في الدُّنْيا[٧].

- وحَرْفُ (في) للظَّرفيَّةِ المَجازيَّةِ، وهي تَمكُّنُ الغِطاءِ مِن أعيُنِهم؛ بحيث

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٢).

كأنَّها مَحْويَّةٌ للغِطاءِ[١].

- قولُه: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ نَفْيُ استِطاعَتِهم السَّمعَ: أنَّهم لشِدَّةِ كُفرِهم لا تُطاوِعُهم نُفوسُهم للاستِماعِ، فنَفيُ الاستِطاعةِ مُستعمَلٌ في نَفْيِ الرَّغبةِ وفي الإعراضِ، كقَولِه: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥][٢]، وهو مُبالَغةٌ في انتفاءِ السَّمعِ؛ إذ نُفيتِ الاستطاعةُ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾ أعْقَب وَصْفَ حِرْمانِهم الانْتِفاعَ بدَلائلِ المشاهَداتِ على وَحْدانيَّةِ اللهِ وإعراضِهم عن سَماعِ الآياتِ بتَفْريعِ الإنكارِ -لاتِّخاذِهم أولياءَ مِن دونِ اللهِ يَزعُمونها نافِعةً لهم تَنصُرُهم- تَفْريعَ الإنكارِ على صِلَةِ ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾؛ لأنَّ حُسْبانَهم ذلك نشَأ عن كَوْنِ أعيُنِهم في غِطاءٍ، وكَونِهم لا يَستَطيعون سَمعًا[٤].

- قولُه: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ استِفْهامٌ فيه مَعْنى الإنكارِ والتَّوبيخِ؛ للإنكارِ عليهم فيما يَحسَبونه يَقْتضي أنَّ ما ظنُّوه باطِلٌ[٥]، والإنكارُ مُتسلِّطٌ على مَعمولِ المفعولِ الثَّاني وهو ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ المعمولُ لـ ﴿يَتَّخِذُواْ﴾ بقَرينةِ ما دلَّ عليه فِعلُ (حَسِبَ) مِن أنَّ هُنالِك مَحسوبًا باطِلًا، وهو كونُهم أولياءَ باعْتِبارِ ما تَقْتَضيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٣).

حقيقةُ الوِلايةِ مِن الحمايةِ والنَّصرِ[١].

- قولُه: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فيه إظهارُ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ دونَ أن يُقالَ: (أفحَسِبوا)، بإعادةِ الضَّميرِ إلى الكافِرينَ في الآيةِ قبْلَها؛ لِقَصدِ استِقْلالِ الجُمْلةِ بدَلالتِها، وزِيادةً في إظهارِ التَّوبيخِ لها[٢].

- قولُه: ﴿أَن يَتَّخِذُواْ﴾ صِيغَ فِعلُ الاتِّخاذِ بصِيغَةِ المضارِعِ؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِه منهم، وأنَّهم غيرُ مُقْلِعينَ عنه[٣].

- قولُه: ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ في الكلامِ إيجازٌ بالحَذْفِ، والتَّقديرُ: أن يَتَّخِذوا عِبادي مِن دوني أوْلياءَ، فيُجْدي ذلك ويَنتفِعون بذلك الاتِّخاذِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ مُقرِّرٌ لإنكارِ انْتِفاعِهم بأوليائِهم؛ فأُكِّد بأنَّ جَهنَّمَ أُعِدَّتْ لهم نُزلًا؛ فلا مَحيصَ لهم عَنْها؛ ولذلك أكَّد بحَرْفِ (إنَّ)[٥]. وفيه: تَهكُّمٌ وتَنبيهٌ على أنَّ لهم وَراءَها مِن العَذابِ ما تُستَحقَرُ دونَه[٦]. وهذا على القولِ بأنَّ معنى النُّزلِ ما يعدُّ للضيفِ.

- وجَعَل المسنَدَ إليه في ﴿أَعْتَدْنَا﴾ ضَميرَ الجلالةِ (نا)؛ لإدخالِ الرَّوعِ في ضَمائرِ المشرِكين[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٣-٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٥).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ عَدَل عن الإضمارِ -فلم يَقُلْ: أعتَدْنا لهم-؛ ذَمًّا لهم، وإشعارًا بأنَّ ذلك الإعدادَ بسبَبِ كُفرِهم المتضمِّنِ لِحُسبانِهم الباطلِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٨).

الآيات (١٠٢-١٠٦)

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَحَبِطَتْ﴾: أي: بَطَلتْ وذَهَبتْ، من الحَبَطِ: وهو فَسادٌ يَلحَقُ الماشيةَ في بُطونِها لأكلِ الكَلأِ حتى تَنتَفِخَ أجوافُها، وأصلُ (حبط): يدُلُّ على بُطلانٍ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾

في توجيهِه أوجُهٌ، أحدُها: أَنْ يكونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلك، و﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جملةً اسميَّةً برأسِها. الثاني: أن يكونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأً أولَ، و﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ مبتدأً ثانيًا، و﴿جَهَنَّمُ﴾ خبرَه، وهو وخَبرُه خبرَ الأوَّلِ. والعائدُ محذوفٌ، أي: جزاؤُهم به. الثالثُ: أن يكونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأً، و﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ بدلًا منه، و﴿جَهَنَّمُ﴾ خبرَه. الرَّابعُ: أن يكونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأً، و﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ خبرَه، و﴿جَهَنَّمُ﴾ بدَلًا منه، أو خبَرَ مبتدأٍ محذوفٍ. وقيل غيرُ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٨٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٥٥٥)، ((الجدول)) لمحمود صافي (١٦/ ٢٦٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يبينَ للناسِ مَن هم الأخسرونَ أعمالًا، فيقول: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: هل نُخبِرُكم بأخسَرِ النَّاسِ أعمالًا؟ إنَّهم الذين بطَل عمَلُهم في الحياةِ الدُّنيا مِن المُشرِكين والضالِّين عن سَواءِ السَّبيلِ، وهم يظنُّونَ أنَّهم مُحسِنونَ في أعمالِهم ولا يَعلَمونَ أنَّها باطِلةٌ، أولئك هم الذين كَفَروا بآياتِ رَبِّهم وكذَّبوا بها، وأنكَروا البعثَ، فبَطَلت أعمالُهم بسَبَبِ كُفرِهم، فلا نُثَقِّلُ موازينَهم يومَ القيامةِ؛ لأنَّه ليس لهم حَسَناتٌ، ذلك جزاؤُهم نارُ جهنَّمَ؛ بسَبَبِ كُفرِهم باللهِ واتِّخاذِهم آياتِه ورُسُلَه استهزاءً وسُخريةً.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا تبيَّنَ بما لا مِريةَ فيه أنَّ الكافرينَ خَسِروا خَسارةً لا رِبحَ معها، وخاب ما كانوا يُؤمِّلونَ؛ أمَرَ تعالى نبيَّه أن ينبِّهَهم على ذلك، فقال[1]:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ[2]: هل نُخبِرُكم بأخسَرِ النَّاسِ أعمالًا وأضيَعِها، فلا ينتَفِعون

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٤٧).

(٢) قيل: المرادُ: قل لهؤلاء الذين يَبغُونَ عَنَتَك، ويجادِلونك بالباطِلِ، ويُحاوِرونَك بالمسائِلِ مِن أهلِ الكتابَينِ: اليهودِ، والنصارى. وممن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٣).

وقيل: المرادُ: قُل للنَّاسِ. وممَّن قال بذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿قُلْ﴾ أي: يا محمدُ للأمةِ كلِّها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الكهف)) (ص: ١٤٢).

بها[(١)]؟

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: هم الذين بَطَلت أعمالُهم التي عَمِلوها في الدُّنيا واضمحلَّتْ؛ لفَسادِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨).

عن مُصعَبِ بنِ سعدِ بنِ أبي وقَّاص قال: (سألتُ أبي: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾: هم الحَروريَّة؟ قال: لا، هم اليهودُ والنَّصارى؛ أمَّا اليهودُ فكَذَّبوا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم، وأمَّا النصارى فكَفَروا بالجنَّة وقالوا: لا طعامَ فيها ولا شرابَ! والحروريَّةُ ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧])، وكان سَعدٌ يُسَمِّيهم الفاسقينَ). رواه البخاري (٤٧٢٨).

قال ابنُ جرير: (الصوابُ مِن القَولِ في ذلك عندنا أن يُقالَ: إنَّ الله عزَّ وجلَّ عنى بقَولِه: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ [الكهف: ١٠٣] كلَّ عاملٍ عَمَلًا يَحسَبُه فيه مصيبًا، وأنَّه لله بفِعلِه ذلك مُطيعٌ مُرضٍ، وهو بفِعلِه ذلك لله مُسخِطٌ، وعن طريقِ أهل الإيمان به جائِرٌ، كالرَّهابنة والشَّمامسة وأمثالِهم مِن أهلِ الاجتهادِ في ضلالتِهم، وهم مع ذلك مِن فِعلِهم واجتهادِهم باللهِ كَفرةٌ مِن أهلِ أيِّ دينٍ كانوا). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٧).

وقال ابنُ كثير: (هذه الآيةُ مكيَّةٌ قبل خِطابِ اليَهودِ والنَّصارى، وقبل وجودِ الخوارجِ بالكُلِّيَّة، وإنَّما هي عامَّةٌ في كلِّ مَن عبد اللهَ على غيرِ طريقةٍ مُرضيةٍ، يحسَبُ أنَّه مصيبٌ فيها، وأنَّ عَمَله مَقبولٌ، وهو مُخطئٌ، وعَمَلُه مردودٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٢).

وقال الشنقيطي: (التحقيقُ: أنَّ الآيةَ نازلةٌ في الكُفَّارِ الذين يعتَقِدونَ أنَّ كُفرَهم صوابٌ وحَقٌّ، وأنَّ فيه رضا ربِّهم؛ فقَولُ من قال: إنَّهم الكُفَّارُ، وقَولُ مَن قال: إنهم الرُّهبانُ، وقَولُ مَن قال: إنَّهم أهلُ الكتاب الكافرونَ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- كُلُّ ذلك تشمَلُه هذه الآيةُ... وما رُوي عن عليٍّ رَضِيَ الله عنه مِن أنَّهم أهلُ حَروراءَ معناه أنهم يكونُ فيهم من معنى الآيةِ بقَدرِ ما فَعَلوا؛ لأنَّهم يرتَكِبونَ أمورًا شَنيعةً مِن الضَّلالِ، ويعتقدون أنَّها هي معنى الكتابِ والسُّنَّة؛ فقد ضَلَّ سَعيُهم وهم يَحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا، وإن كانوا في ذلك أقَلَّ مِن الكُفَّار المجاهرينَ؛ لأنَّ العبرةَ بعُمومِ الألفاظِ لا بخُصوصِ الأسبابِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٥٠).

اعتقادِهم، ومخالفتِهم شَريعةَ ربِّهم[١].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢-٤].

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن عَمِلَ عَمَلًا ليس عليه أمْرُنا، فهو رَدٌّ))[٢].

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

أي: والحالُ أنَّهم يظُنُّونَ أنَّهم يُحسِنونَ في أعمالِهم، وسيَنتَفِعونَ بآثارِها، ولا يَدرونَ أنَّها باطِلةٌ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾.

أي: أولئك هم الذين كَفَروا بحُجَجِ رَبِّهم وأدِلَّتِه[٤] وكذَّبوا بالبَعثِ بعد

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٨)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٨، ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧٢، ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨).

(٤) قال السعدي: (جَحَدوا الآياتِ القُرآنيَّةَ والآياتِ العِيانيَّة، الدَّالَّةَ على وجوبِ الإيمانِ به،

الموتِ، فأبطلَ اللهُ أعمالَ الخيرِ التي عَمِلوها، فلا يُثابونَ عليها في الآخرةِ؛ لعَدَمِ بِنائِها على أساسٍ مِن الإيمانِ(١).

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾.

أي: فلا نُثقِّلُ مَوازينَهم يومَ القيامةِ؛ لأنَّه ليس لهم حَسَناتٌ(٢).

وملائكتِه، ورُسُلِه وكُتُبِه واليومِ الآخِرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٩)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٦/ ٤٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٢).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: ابن جرير، ومكي، وابن كثير. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن اختار أيضًا نحوَ هذا المعنى، وأنَّه لا حسنةَ لهم تُوزنُ؛ لأن أعمالهم قد حَبِطَتْ: الثعالبي، والقرطبي، وابنُ جزي. يُنظر: ((تفسير الثعالبي)) (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٥).

قال السعدي: (﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ لأنَّ الوزنَ فائدتُه مقابلةُ الحسناتِ بالسيئاتِ، والنظرُ في الراجحِ منها والمرجوحِ، وهؤلاء لا حسنات لهم؛ لعدمِ شرطِها، وهو الإيمانُ، كما قال تعالى ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، لكن تعدُّ أعمالُهم وتُحصَى، ويُقرَّرون بها، ويُخزون بها على رؤوسِ الأشهادِ، ثم يعذَّبون عليها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨).

ويُنظر الخلافُ في مسألةِ وزنِ أعمالِ الكفارِ في: ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٧١٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٥٣٨)، ((لوائح الأنوار السنية)) للسفاريني (٢/ ٢٠٣).

وقيل: المراد: أنَّهم لا يُعتَدُّ بهم، ولا يكونُ لهم عند الله قَدرٌ ومَنزِلةٌ. وممَّن اختار هذا المعنى: الواحدي، والبغوي، والعليمي، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٦٦- ١٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤٦).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّه لَيأتي الرجُلُ العَظيمُ السَّمينُ يومَ القيامةِ لا يَزِنُ عند الله جَناحَ بَعوضةٍ، وقال: اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾))[1].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ﴾.

أي: إنما جازينا أولئك الكافرين بجهنم بسَبَبِ كُفرِهم[2].

قال الشنقيطي: (وقولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾، فيه للعلماءِ أوجهٌ: أحدُها: أنَّ المعنَى أنَّهم ليسَ لهم حسناتٌ تُوزَنُ في الكِفَّةِ الأُخرى في مقابلةِ سيِّئاتِهم، بل لم يكُنْ إلَّا السَّيِّئاتُ، ومَنْ كانَ كذلك فهو في النَّارِ، كما قالَ تعالَى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾، [المؤمنون: ١٠٣ - ١٠٤]، وقالَ: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ الْآيَةَ [الأعراف: ٨ - ٩]، وقالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٨ - ١١]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ.

وقالَ بعضُ أهلِ العلمِ: معنَى ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾: أنَّهم لا قدرَ لهم عندَ اللَّهِ لحقارَتِهم، وهو أنَّهم بسببِ كفرِهم، وذلك كقولِه عنهم: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: صاغرينَ أذِلَّاءَ حقيرينَ، وقولِه: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٨]، وقولِه: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ على هوانِهم وصغارِهم وحقارتِهم). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٥٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤٥).

(١) رواه البخاري (٤٧٢٩) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٣).

وقال ابنُ عاشور: (الإشارةُ إما إلى ما تقدَّم من وعيدِهم... وإمَّا إلى مقدَّرٍ في الذِّهنِ دَلَّ عليه السياقُ، يبيِّنُه ما بعده، على نحوِ استعمالِ ضميرِ الشأنِ مع تقديرِ مبتدأٍ محذوفٍ. والتقديرُ: الأمرُ والشأنُ ذلك جزاؤُهم جهنَّمُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٨).

وقال البقاعي: (﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ العَظيمُ الذي بيَّنَّاه من وعيدِهم ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ لكِنْ لَمَّا كان حاكمًا بضلالِهم وغباوتِهم، بيَّن الجزاءَ بقَولِه: ﴿جَهَنَّمُ﴾، وصَرَّح بالسببيَّةِ بقَولِه: ﴿بِمَا كَفَرُواْ

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾.

أي: وبسَبَبِ استِهزائِهم، واستِخفافِهم بالحُجَجِ والدَّلائِلِ ورُسُلِ اللهِ، وسُخريتِهم منهم[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ لَمَّا كانت أعمالُ الكافرينَ مُختَلِفةً؛ فمنهم من يعبُدُ الملائِكةَ، ومنهم مَن يَعبُدُ النُّجومَ، ومنهم من يَعبُدُ بعضَ الأنبياءِ، ومنهم مَن يعبُدُ الأوثانَ، ومنهم من يكفُرُ بغير ذلك- جمع المميِّزَ فقال: ﴿أَعْمَٰلًا﴾[(٢)]؛ لأنَّ أعْمالَهم في الضَّلالِ مُختلِفةٌ، ولَيْسوا مُشتَرِكين في عمَلٍ واحدٍ[(٣)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ مِن النَّاسِ مَن يعمَلُ العَمَلَ وهو يَظُنُّ أنَّه مُحسِنٌ، وقد حَبِطَ سَعيُه، والذي يُوجِبُ إحباطَ السَّعيِ إمَّا فَسادُ الاعتقادِ أو المُراءاة[(٤)].

٣- قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ ...﴾ هذا مِن أدَلِّ الدَّلائِلِ على خطأِ قَولِ مَن زعَمَ أنَّه لا يَكفُرُ باللهِ أحَدٌ إلَّا مِن حيثُ يَقصِدُ إلى الكُفرِ بعد العِلمِ بوحدانيَّتِه؛ وذلك أنَّ الله -تعالى ذِكْرُه- أخبر عن هؤلاء الذين

﴾). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٥).

وَصَف صِفَتَهم في هذه الآيةِ: أنَّ سَعْيَهم الذي سَعَوا في الدنيا ذهب ضلالًا، وقد كانوا يَحسَبونَ أنَّهم مُحسِنونَ في صُنعِهم ذلك، وأخبَرَ عنهم أنَّهم هم الذين كفَروا بآياتِ رَبِّهم، ولو كان القَولُ كما قال الذين زعموا أنَّه لا يَكفُرُ بالله أحَدٌ إلَّا مِن حيث يعلَمُ، لوجب أن يكونَ هؤلاء القَومُ في عمَلِهم الذي أخبر اللهُ عنهم أنَّهم كانوا يَحسَبون فيه أنَّهم يُحسِنون صُنعَه، كانوا مُثابين مأجورين عليها، ولكِنَّ القَولَ بخلافِ ما قالوا، فأخبر جلَّ ثناؤه عنهم أنَّهم بالله كَفَرةٌ، وأنَّ أعمالهم حابِطةٌ[(١)].

٤- في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۞ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ دلالةٌ على أنَّ الإنسانَ يُوزَنُ مع عمَلِه[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٥/ ٤٢٨-٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((النُّكَتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٦٨).

قال حافظ حكمي: (والذي استُظهِرَ من النصوصِ -والله أعلم- أنَّ العاملَ وعمَلَه وصَحيفةَ عَمَلِه: كُلُّ ذلك يُوزَنُ؛ لأنَّ الأحاديثَ التي في بيانِ القُرآنِ قد وردت بكُلٍّ من ذلك، ولا منافاةَ بينها). ((معارج القبول)) (٢/ ٨٤٨-٨٤٩). ويُنظر أيضًا: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز الحنفي (٢/ ٦١٠- ٦١٣).

ومِن أهلِ السنة مَن ذهَب إلى أنَّ الذي يُوزنُ هو العملُ؛ لأنَّ أكثرَ النصوصِ تدلُّ على ذلك، وأجاب عن هذه الآيةِ بأنَّه لا دلالةَ فيها على وزنِ العاملِ، وأنَّ المرادَ: أنَّهم لا قيمةَ لهم ولا اعتبارَ، أو: أنَّ بعضَ الناسِ يُخصُّ فيُوزنُ هو نفسُه، أو صحيفةُ عملِه، والله أعلم. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٩)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٧٣)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ١٤٣).

- قولُه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ اعتراضٌ باستئنافٍ ابتدائيٍّ أَثاره مَضمونُ جُملةِ ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾، وافْتِتاحُ الجُمْلةِ بالأمرِ بالقَوْلِ ﴿قُلْ﴾؛ للاهْتِمامِ بالمقولِ بإصغاءِ السَّامِعين؛ لأنَّ مِثلَ هذا الافْتِتاحِ يُشعِرُ بأنَّه في غرَضٍ مهمٍّ، وكذلك افْتِتاحُه باستِفْهامِهم عن إنبائِهم استفهامًا مُستعمَلًا في العَرْضِ؛ لأنَّه بمَعْنى: أتُحِبُّون أن نُنبِّئَكم بالأخسَرين أعمالًا؟ وهو عرضُ تَهكُّمٍ؛ لأنَّه مُنبِّئُهم بذلك دونَ توقُّفٍ على رِضاهم[1]، هذا على أن المقولَ لهم: هم المشرِكون، قاله لهم؛ تَوبيخًا لهم، وتَنْبيهًا على ما غَفَلوا عنه مِن خَيبةِ سَعيِهم[2].

- وفي قولِه: ﴿نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الْتِفاتٌ؛ حيث عدَل فيه عن طريقةِ الخِطابِ بأن يُقالَ لهم: هل نُنبِّئُكم بأنَّكم الأخْسَرون أعمالًا؟ إلى طريقةِ الغَيْبةِ؛ بحيث يَستشرِفون إلى مَعرِفةِ هؤلاء الأخْسَرينَ فما يَروعُهم إلَّا أن يَعلَموا أنَّ المخبَرَ عَنهم هم أنفُسُهم[3]، هذا على أنَّ المقولَ لهم هم المشركون. ونونُ المتكلِّمِ المشارِكِ في قولِه: ﴿نُنَبِّئُكُم﴾ يَجوزُ أن تَكونَ نونَ العظَمةِ راجِعةً إلى ذاتِ اللهِ، على طَريقةِ الالْتِفاتِ في الحِكايةِ. ومُقْتضى الظَّاهرِ أن يُقالَ: هل يُنبِّئُكم اللهُ، أي: سيُنبِّئُكم. ويَجوزُ أن تَكونَ للمُتكلِّمِ المشارِكِ، راجِعةً إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم وإلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه يُنبِّئُهم بما يُوحَى إليه مِن ربِّه. ويجوزُ أن تكونَ راجِعةً للرَّسولِ وللمسلمينَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٥-٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٨-٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٦).

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾

- في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بعدَ قولِه: ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾: إطنابٌ؛ لزيادةِ التَّشويقِ إلى مَعرِفةِ هؤلاءِ الأخْسَرين؛ حيث أجْرى عليهم مِن الأوصافِ ما يَزيدُ السَّامِعَ حِرْصًا على مَعرِفةِ الموصوفينَ بتلك الأوصافِ والأحوالِ[١].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيه تشبيه سَعْيِهم غيرِ المثمِرِ بالسَّيرِ في طريقٍ غيرِ مُوصِّلةٍ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مِن جَنابِه تعالى، مَسوقٌ لِتَكميلِ تَعريفِ الأخسَرين، وتَبْيينِ سببِ خُسْرانِهم وضَلالِ سَعْيِهم وتَعْيينِهم؛ بحيث يَنطبِقُ التَّعريفُ على المخاطَبين، غيرَ داخِلٍ تحتَ الأمرِ[٣].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ فيه: التَّعرُّضُ لِعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ؛ لِزيادةِ تَقْبيحِ حالِهم في الكُفْرِ المذكورِ[٤].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ جيءَ باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لِتَمييزِهم أكمَلَ تَمييزٍ؛ لِئلَّا يَلتَبِسوا بغَيرِهم، وللتَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليهم أحْرِياءُ بما بعدَ اسْمِ الإشارةِ مِن حُكْمٍ؛ بِسبَبِ ما أُجْرِي عليهم مِن الأوصافِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٧).

- وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، ومُقتَضى الظَّاهرِ أن يُقالَ: (أولَئِك الَّذين كفَروا بآياتِنا)[١].

- قولُه: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ نَفيُ إقامةِ الوَزْنِ مُستعمَلٌ في عدَمِ الاعْتِدادِ بالشَّيءِ، وفي حَقارتِه؛ لأنَّ النَّاسَ يَزِنونَ الأشياءَ المتنافَسَ في مَقاديرِها، والشَّيءَ التَّافِهَ لا يُوزَنُ -على أحدِ القولينِ في التفسيرِ-. وجعَلَ عدَمَ إقامةِ الوزنِ مُفرَّعًا على حَبْطِ أعمالِهم؛ لأنَّهم بحَبْطِ أعمالِهم صاروا مُحقَّرين لا شيءَ لهم مِن الصَّالحاتِ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوٗا﴾ بَيانٌ لِمَآلِ كُفرِهم، وسائرِ مَعاصيهم، إثْرَ بيانِ مآلِ أعْمالِهم المحبَطةِ[٣].

- وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ...﴾ قولُه: ﴿جَهَنَّمُ﴾ بدَلٌ مِن ﴿جَزَآؤُهُمۡ﴾ بدَلًا مُطابِقًا؛ لأنَّ إعدادَ جهَنَّمَ هو عَينُ جَهنَّم، وإعادةُ لفظِ (جَهَنَّمَ) أكْسَبه قوَّةَ التَّأكيدِ، والباءُ للسَّببيَّةِ، و(ما) مَصْدريَّةٌ، أي: بسبَبِ كُفرِهم[٤].

- قولُه: ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ تَصريحٌ بأنَّ ما ذُكِر: جَزاءٌ لكُفرِهم المتضمِّنِ لِسائرِ القبائحِ الَّتي أنبَأ عنها قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوٗا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
وهذا الوجهُ على القَولِ بأنَّ النُّونَ في قولِه: ﴿هَلۡ نُنَبِّئُكُمۡ﴾ نونُ العظَمةِ. وأما على القولِ بأنَّها للمُتكلِّمِ المشارِكِ راجعةٌ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، وإلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه يُنبِّئُهم بما يُوحَى إليه مِن ربِّه، أو على أنَّها راجِعةٌ للرَّسولِ وللمُسلِمين؛ فيَكونَ على مُقْتَضى الظَّاهِرِ، وليس فيه هذا الوجهُ البَلاغيُّ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٨-٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٠).

- قولُه: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ (الرُّسُلُ) يَجوزُ أن يُرادَ به حَقيقةُ الجَمْعِ؛ فيَكونَ إخْبارًا عن حالِ كُفَّارِ قُريشٍ ومَن سبَقَهم مِن الأمَمِ المكذِّبين، ويَجوزُ أن يُرادَ به الرَّسولُ الَّذي أُرسِلَ إلى النَّاسِ كُلِّهم، وأطلَق عليه اسْمَ الجَمْعِ تَعظيمًا؛ كما في قولِه: ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾[1] [إبراهيم: ٤٤].

- والهُزُؤُ -بضَمَّتَينِ- مَصْدرٌ بمَعْنى المفعولِ، وهو أشَدُّ مُبالَغةً مِن الوَصفِ باسْمِ المفعولِ، أي: كانوا كَثيري الهزُؤِ بهِم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٤٨).

الآيات (١٠٧-١١٠)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ١٠٨ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾: أي: أعلَى الجنَّةِ، وأوسطِها، أو: مُعْظم الجنَّةِ. وقيل: هو البستانُ المخصوصُ بالحسنِ وذلك بلسانِ الرُّومِ. وأصلُ الفردوسِ: البستانُ الواسعُ الجامعُ لأصنافِ الثَّمَرِ[(١)].

﴿حِوَلًا﴾: أي: تَحَوُّلًا، وأصلُ (حول): يَدلُّ على تَغيُّرِ الشَّيءِ، وانفصالِه عن غَيرِه[(٢)].

﴿لَنَفِدَ﴾: أي: فَنِيَ، والنَّفادُ: الفَناءُ، وأصلُ (نفد): يدُلُّ على انْقِطاعِ شيءٍ وفَنائِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧).

﴿مَدَدًا﴾: أي: زيادةً، وأصلُ (مدد): يدُلُّ على اتِّصالِ شَيءٍ بشَيءٍ في استِطالةٍ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبينًا الوعدَ الحسنَ للمؤمنينَ: إنَّ الذين آمَنوا، وعَمِلوا الصَّالحاتِ؛ لهم جنَّاتُ الفِردَوسِ مَنزِلًا، خالدينَ فيها أبدًا، لا يُريدونَ عنها تحوُّلًا. قُلْ -يا محمَّدُ-: لو كان ماءُ البَحرِ حِبرًا للأقلامِ التي يُكتَبُ بها كَلامُ اللهِ، لنَفِدَ ماءُ البَحرِ قبلَ أن تنفَدَ كَلِماتُ اللهِ، ولو جِئْنا بمِثلِ البَحرِ بِحارًا أُخرى مَدَدًا له. قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: إنَّما أنا بشَرٌ مِثلُكم يُوحَى إليَّ مِن ربِّي أنَّ مَعبودَكم إلهٌ واحِدٌ، فمَن كان يرجو رؤيةَ اللهِ في الآخرةِ وثوابَه، ويخشى عِقابَه؛ فلْيعمَلْ عَملًا صالِحًا لرَبِّه مُوافِقًا لشَرعِه، ولا يُشرِكْ في العبادةِ معه أحدًا غيرَه، ولا يراءِ في عبادتِه أحدًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما فرغَ مِن ذِكرِ الكفرةِ والأخسرينَ أعمالًا الضالِّينَ- عقَّب بذِكرِ حالةِ المؤمنينَ؛ ليظهرَ التباينُ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الوعيدَ؛ أتبَعَه بالوعدِ، ولَمَّا ذكر في الكُفَّارِ أنَّ جهنَّمَ نُزُلُهم؛ أتبَعَه بذِكرِ ما يُرغِّبُ في الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، فقال[٣]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٠٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾.

أي: إنَّ الذينَ آمنوا باللهِ وبما جاءت به رسُلُه، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ الخالِصةَ لله، الموافِقةَ لشريعتِه؛ كانت لهم بساتينُ الفِردوسِ منازِلَ يَسكُنونَها[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٣).

ممن اختار أنَّ النزلَ بمعنى المنزلِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٧٠).

وممن اختار أنَّ النزلَ بمعنى ما يُهيَّأُ للضيفِ: الرسعني، وابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٥٤).

قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ﴾ هل المرادُ بالكينونةِ هنا الكينونةُ الماضيةُ، أو المرادُ تَحقيقُ كَونِها نُزُلًا لهم، كقَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؟ نقول: الأمرانِ واقعانِ، فكانت في عِلمِ اللهِ نُزُلًا لهم، وكانت نزلًا لهم على وجهِ التحقيقِ؛ لأنَّ «كان» قد يُسلَبُ منها معنى الزمانِ، ويكونُ المرادُ بها التحقيقَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤٨).

وقال ابنُ القيم: (الفِردوسُ: اسمٌ يقالُ على جميعِ الجنَّةِ، ويُقال: على أفضَلِها وأعلاها، كأنَّه أحقُّ بهذا الاسمِ مِن غيرِه مِن الجنَّات، وأصلُ الفِردوسِ: البُستانُ... وقال الضحَّاكُ: هي الجنَّةُ الملتفَّةُ بالأشجارِ، وهو اختيارُ المبرِّد. وقال: الفردوسُ فيما سَمِعتُ مِن كلامِ العَرَبِ: الشَّجرُ الملتَفُّ، والأغلَبُ عليه العِنَبُ، وجمعُه الفراديسُ... قال الزجَّاج: وحقيقتُه أنَّه البستانُ الذي يجمَعُ كُلَّ ما يكونُ في البساتينِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٩، ١٠٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣١٥).

وقال السعدي: (يحتَمِلُ أن المرادَ بجنَّاتِ الفردوسِ: أعلى الجنَّة، وأوسَطُها، وأفضَلُها، وأنَّ هذا الثوابَ لِمن كَمَّلَ الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالحَ، وهم الأنبياءُ والمقرَّبون. ويحتَمِلُ أن يُرادَ بها جميعُ منازِلِ الجِنانِ، فيشمَلُ هذا الثَّوابُ جميعَ طَبقاتِ أهلِ الإيمانِ مِن المقرَّبين والأبرارِ والمقتَصِدين، كلٌّ بحَسَبِ حالِه، وهذا أولى المعنيَينِ؛ لعُمومِه، ولذِكرِ الجنَّةِ بلَفظِ الجَمعِ

عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ في الجنَّةِ مائةَ دَرَجةٍ، أعدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ، ما بين الدَّرَجتَينِ كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سألتُم اللهَ فاسْألوه الفِردَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفوقه عَرشُ الرَّحمنِ، ومنه تفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ))[١].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾.

أي: لابثينَ في جنَّاتِ الفِردَوسِ أبدًا، لا يَطلُبونَ عنها تَحوُّلًا إلى غَيرِها، ولا يَختارونَ سِواها[٢].

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما ذكَر الله تعالى في هذه السورةِ أنواعَ الدلائلِ والبيناتِ، وشرَح أقاصيصَ الأولينَ؛ نبَّه على كمالِ حالِ القرآنِ[٣].

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

المضافِ إلى الفِردَوس، ولأنَّ الفِردَوسَ يطلَقُ على البستانِ المحتوي على الكَرْمِ، أو الأشجارِ الملتَفَّةِ، وهذا صادِقٌ على جميعِ الجنَّةِ؛ فجنَّةُ الفردوسِ نُزُلٌ وضيافةٌ لأهلِ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ. ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٠).

(١) رواه البخاري (٢٧٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧٥).

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (قالت قُرَيشٌ لليهودِ: أعطُونا شَيئًا نسألُ عنه هذا الرَّجلَ، فقالوا: سَلُوه عن الرُّوحِ، فسألوه، فنَزَلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، قالوا: أُوتينا عِلمًا كثيرًا؛ أُوتينا التَّوراةَ، ومَن أُوتيَ التَّوراةَ فقد أُوتيَ خيرًا كثيرًا! قال: فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾)[1].

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: لو كان البَحرُ مِدادًا للأقلامِ التي تُكتَبُ بها كَلِماتُ رَبِّي[2]، لفَرَغ ماءُ البحرِ قبل أن يُفرَغَ مِن كِتابةِ كَلِماتِ رَبِّي؛ لعدَمِ تناهي مَعلوماتِه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٤٠)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٣١٤)، وأحمد (٢٣٠٩) واللفظ له.

قال الترمذي: (حسنٌ صحيحٌ غريبٌ مِن هذا الوجه)، وأخرجه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (٩٩)، وصحَّح إسنادَه الحاكِمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٧٩)، وصحَّحه ابنُ دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٠٤)، وصحَّح إسنادَه الذهبي في ((تاريخ الإسلام)) (١/ ٢١٢)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٢٥٣): (رجالُه رجالُ مسلمٍ)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ٨٦)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٤٠).

(٢) قال الرسعني: (المِداد: ما تُمَدُّ به الدواةُ مِن الحِبرِ، وأصلُه: الزيادةُ، ومجيءُ الشيءِ بعدَ الشيءِ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٨٠).

وقال ابنُ عثيمين: (والمرادُ بالكلماتِ هنا: الكلماتُ الكونيةُ والشرعيةُ). ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (١/ ٢٥٣).

وقال أيضًا: (أمَّا الشَّرعيَّةُ فهو ما أوحاه إلى رسُلِه، وأمَّا الكونيَّةُ فهي ما قضى به قَدَرُه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٥٠).

سُبحانَه وبِحَمدِه[١].

﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

أي: ولو زِدْنا البحرَ بمِثلِ ما فيه من الماءِ مَرَّةً بعدَ أُخرى، لنَفِدَ ماءُ البحرِ وما زِيدَ فيه مِن بحارٍ، ولم تَنفَدْ كَلِماتُ اللهِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ كَمالَ كَلامِ اللهِ، أمَرَ مُحمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَسلُكَ طريقةَ التواضُعِ، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي: لا امتيازَ بيني وبينكم في شَيءٍ مِن الصِّفاتِ إلَّا أنَّ اللهَ تعالى أوحى إليَّ أنَّه: لا إلهَ إلَّا اللهُ الواحدُ الأحدُ الصَّمدُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٤).

وقال الرسعني: (وإنَّما لم تنفَدْ كَلِماتُ الله؛ لأنَّ كلامَه صِفةٌ مِن صفاتِه، فلا يتطرَّقُ إليها نفادٌ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٧٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٠٣).

وأيضًا لَمَّا كان الكافرون ربَّما قالوا: ما لك لا تحَدِّثُنا من هذه الكلماتِ بكُلِّ ما نسألُك عنه حيثما سألناك؟! وكانوا قد استنكروا كونَ النبيِّ بشَرًا، وجوَّزوا كونَ الإلهِ حَجَرًا! وغَيَّوا إيمانَهم به بأمورٍ سألوه في الإتيانِ بها، وكان قد ثبَت بإجابتِهم عن المسائِلِ على هذا الوجهِ أنَّه رسولٌ- أمَرَه سبحانَه أن يجيبَهم عن ذلك كُلِّه بما يَرُدُّ عليهم غلَطَهم، ويفضَحُ شُبَهَهم؛ إرشادًا لهم إلى أهَمِّ ما يَعنيهم مِنَ الحَرْفِ الذي النِّزاعُ كُلُّه دائرٌ عليه، وهو التَّوحيدُ[١].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ المكَذِّبينَ برِسالتِك[٢]: إنَّما أنا بشَرٌ مِثلُكم مِن بني آدَمَ، لا عِلمَ لي بالغَيبِ إلَّا ما عَلَّمَني ربِّي، وقد أوحى إليَّ بأنْ أُبلِّغَكم أنَّ مَعبودَكم الذي يستَحِقُّ العبادةَ واحدٌ لا شريكَ له[٣].

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾.

أي: فمَن كان يرجو رُؤيةَ اللهِ في الآخرةِ، وثوابَه، ويخشَى عِقابَه؛ فلْيَعمَلْ في الدُّنيا عَمَلًا صالِحًا خالِصًا لله، مُوافِقًا لِشَرعِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٥٣).

(٢) ممَّن جعل الخِطابَ للمُشرِكينَ: ابن جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٥).

وقال السعدي: (أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّدُ للكُفَّارِ وغَيرِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٤٦٢) و (٢٨/ ١٧٧)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

أي: لا يعبُدْ معَ اللهِ غيرَه[١] ولا يُراءِ في عبادةِ اللهِ أحدًا مِن الخَلقِ، بل يَجعَل عبادتَه خالِصةً لله وَحدَه لا شَريكَ له[٢].

قال الشنقيطي: (قولُه في هذه الآيةِ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ يشملُ كونَه يأمُلُ ثوابَه، ورؤيةَ وجهِه الكريمِ يومَ القيامةِ، وكونَه يخشَى عِقابَه، أي: فمَنْ كان راجيًا مِنْ رَبِّه يومَ يلقاهُ الثَّوابَ الجزيلَ والسَّلامةَ مِنَ الشَّرِّ ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٥٦).

(١) قال ابن جُزي: (﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ الشِّركَ بالله، وهو عبادةُ غَيرِه، فيكونَ راجعًا إلى قولِه: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، أو يريدَ الرِّياءَ؛ لأنَّه الشِّركُ الأصغَرُ، واللَّفظُ يحتَمِلُ الوَجهينِ، ولا يَبعُدُ أن يُحمَلَ على العُمومِ في المعنيَينِ. والله أعلم). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٦).

وقال الشوكاني: (قال الماوَرْديُّ: قال جميعُ أهلِ التأويلِ في تفسيرِ هذه الآية: إنَّ المعنى: لا يُرائي بعَمَلِه أحدًا. وأقولُ: إنَّ دخولَ الشِّرك الجليِّ الذي كان يفعَلُه المُشرِكونَ تحت هذه الآيةِ هو المقَدَّمُ على دخولِ الشِّركِ الخفيِّ الذي هو الرِّياءُ، ولا مانِعَ مِن دُخولِ هذا الخفيِّ تحتها، إنَّما المانِعُ مِن كونِه هو المرادَ بهذه الآيةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٥٥).

وقال الشنقيطي: (وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ قال جماعةٌ مِن أهلِ العلمِ: أي: لا يُراءِ النَّاسَ في عمَلِه؛ لأنَّ العمَلَ بعبادةِ الله لأجلِ رياءِ النَّاسِ مِن نَوعِ الشِّركِ، كما هو معروفٌ عند العُلَماءِ أنَّ الرياءَ مِن أنواعِ الشِّركِ،... والتحقيقُ أنَّ قَولَه: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ أعَمُّ مِن الرياءِ وغَيرِه، أي: لا يعبُدْ رَبَّه رياءً وسُمعةً، ولا يَصرِفْ شَيئًا مِن حقوقِ خالِقِه لأحدٍ مِن خَلقِه؛ لأنَّ الله يقولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، [النساء: ١١٦] في الموضِعَينِ، ويقولُ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

وممَّن اختار أنَّ المراد بالشِّركِ هنا الرِّياءُ: ابن جرير، والواحدي، والزمخشري، وابن تيمية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٤)،

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشرَكَ فيه معيَ غيري، تَرَكتُه وشِرْكَه))(١).

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقضى يومَ القيامةِ عليه رجُلٌ استُشهِد، فأُتيَ به، فعرَّفه نِعَمَه فعَرَفَها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: قاتَلتُ فيك حتى استُشهِدتُ، قال: كَذَبتَ، ولكِنَّك قاتَلْتَ؛ لِأن يُقالَ: جريءٌ، فقد قيل، ثمَّ أُمِر به فسُحِبَ على وجهِه حتى أُلقيَ في النَّارِ! ورجلٌ تعلَّم العِلمَ وعلَّمَه، وقرأ القُرآنَ، فأُتيَ به، فعرَّفه نِعَمه فعَرَفَها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العِلمَ وعَلَّمتُه، وقرأتُ فيك القُرآنَ، قال: كَذبْتَ، ولكنَّك تعَلَّمتَ العِلمَ؛ لِيُقالَ: عالمٌ، وقرأتَ القُرآنَ؛ لِيُقال: هو قارئٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِب على وجهِه، حتى أُلقيَ في النَّارِ! ورجلٌ وسَّع اللهُ عليه، وأعطاه مِن أصنافِ المالِ كُلِّه، فأُتيَ به، فعرَّفه نِعَمَه فعَرَفَها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: ما تركتُ مِن سَبيلٍ تحِبُّ أن يُنفَقَ فيها إلَّا أنفَقتُ فيها لك، قال: كذبْتَ، ولكِنَّك فعَلْتَ؛ ليقالُ: هو جَوادٌ، فقد قيل، ثمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على

((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩). ويُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٢).

وعزا الماوردي هذا القولَ إلى جميعِ أهلِ التأويلِ -كما في ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٠)-، وعزاه النيسابوري في ((تفسيره)) (٤/ ٤٦٤) إلى المفسِّرينَ.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: سفيانُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١١٥).

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

وجهه، ثم أُلقيَ في النَّارِ!))[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠] أي: لا يُراءِ بعَمَلِه، بل يعمَلُه خالِصًا لوجهِ اللهِ تعالى؛ فالذي يجمَعُ بين الإخلاصِ والمُتابعةِ، هو الذي ينالُ ما يرجو ويَطلُبُ، وأمَّا مَن عدا ذلك، فإنَّه خاسِرٌ في دُنياه وأُخراه، وقد فاته القُربُ مِن مَولاه، ونَيلُ رِضاه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ أنَّه لا بدَّ مِن مُلاقاةِ الله عزَّ وجلَّ، والنصوصُ في هذا كثيرةٌ، كقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، فيُؤخَذُ مِن ذلك: أنَّه يجِبُ على الإنسانِ أنْ يَستَعِدَّ لمُلاقاةِ اللهِ، وأنْ يَعرِفَ كيف يُلاقي اللهَ؛ هل يُلاقيه على حالٍ مَرْضيَّةٍ عندَ الله عزَّ وجلَّ، أو على العَكسِ؟ ففتِّشْ نفسَك واعرِفْ ما أنت عليه[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ مَن عَلِمَ أنَّ إلهَهُ ومَعبودَه فَردٌ؛ فليُفرِدْه بالعُبوديَّةِ[٤].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ في تأمُّلِ قَولِه تعالى: ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦ﴾ يتبيَّنُ أنَّه جلَّ وعلا حَقيقٌ بألَّا يُشرَكَ

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٥٩).

به؛ لأنَّه الربُّ الخالِقُ المالكُ المُدَبِّرُ لجميعِ المخلوقاتِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ دفعًا لِما قد يُتوَهَّمُ مِن أنَّ الأمرَ كما في الدُّنيا مِن أنَّ كُلَّ أحدٍ في أيِّ نعيمٍ كان: يشتهي ما هو أعلى منه؛ لأنَّ طولَ الإقامةِ قد يُورِثُ السَّآمةَ، بل هم في غايةِ الرِّضا بها؛ لِما فيها من أنواعِ الملاذِّ التي لا حَصرَ لها ولا انقِضاءَ، لا يشتهي أحدٌ منهم غيرَ ما عنده سواءٌ كان في الفردوسِ أو فيما دونَه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ فَرَّقَ سُبحانَه بين المِدَادِ الذي يُكتَبُ به كلماتُه وبين كلماتِه؛ فالبحرُ وغيرُه مِن المِدَادِ الذي يُكْتَبُ به الكلماتُ مخلوقٌ؛ وكلماتُ اللهِ غيرُ مخلوقةٍ[٣].

٣- كونُ الرَّبِّ لم يَزَلْ مُتكلِّمًا إذا شاء -كما هو قولُ أهلِ الحديثِ- مبنيٌّ على مُقَدِّمتَينِ: على أنَّه تقومُ به الأمورُ الاختياريَّةُ، وأنَّ كلامَه لا نهايةَ له؛ قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٤] [لقمان: ٢٧].

٤- قولُه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٣٥٩).

وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ هذا مِن بابِ تقريبِ المعنى إلى الأذهانِ؛ لأنَّ هذه الأشياءَ مخلوقةٌ، وجميعُ المخلوقاتِ مُنقَضيةٌ مُنتَهيةٌ، وأمَّا كلامُ اللهِ فإنَّه من جملةِ صفاتِه، وصفاتُه غيرُ مخلوقةٍ، ولا لها حَدٌّ ولا مُنتهى، فأيُّ سَعةٍ وعَظَمةٍ تصوَّرَتْها القُلوبُ، فالله فوقَ ذلك، وهكذا سائِرُ صِفاتِ الله تعالى؛ كعِلْمِه، وحِكْمتِه، وقُدرتِه، ورَحمتِه[١].

٥- قَوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ فيه دَليلٌ على رؤيةِ اللهِ، وقد أجمع أهلُ اللِّسانِ على أنَّ اللقاءَ متى نُسِبَ إلى الحيِّ السَّليمِ مِن العَمَى والمانِعِ، اقتضَى المعاينةَ والرُّؤيةَ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا بدَّ في العملِ أنْ يكونَ مَشروعًا مأمورًا به -وهو العملُ الصَّالحُ- ولا بدَّ أنْ يُقصَدَ به وجهُ اللهِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾

هذا مُقابِلُ قولِه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٢]، على عادةِ القرآنِ في ذِكْرِ البِشارةِ بعدَ الإنذارِ[٤]، وهو بيانٌ -بطَريقِ الوعدِ- لِمآلِ الَّذين اتَّصَفوا بأضدادِ ما اتَّصَف به الكفَرةُ إثْرَ بَيانِ مآلِهم بطريقِ الوعيدِ، أي: آمَنوا بآياتِ ربِّهم ولِقائِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٠).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيه تأكيدُ الجملةِ للاهتمامِ بها؛ لأنَّها جاءَت في مُقابلةِ جملةِ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٢]، وهي مُؤكَّدةٌ؛ كي لا يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ جزاءَ المؤمِنين غيرُ مُهتمٍّ بتأكيدِه مع ما في التَّأكيدَيْنِ مِن تَقْويَةِ الإنذارِ وتقْويةِ البِشارةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جَعْلُ المسنَدِ إليه الموصولَ بصِلَةِ الإيمانِ وعمَلِ الصَّالحاتِ؛ للاهْتِمامِ بشأنِ أعمالِهم؛ فلِذلك خُولِف نَظْمُ الجملةِ الَّتي تُقابِلُها، فلم يَقُلْ: (جَزاؤُهم الجَنَّةُ)[٢].

- قولُه: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ في الإتيانِ بقولِه: ﴿كَانَتۡ﴾ دَلالةٌ على أنَّ استِحْقاقَهم الجَنَّاتِ أمرٌ مُستقِرٌّ مِن قَبلُ مهيَّأٌ لهم. وجيءَ بلامِ الاستِحْقاقِ؛ تَكريمًا لهم بأنَّهم نالوا الجَنَّةَ باستِحْقاقِ إيمانِهم وعمَلِهم[٣].

- قولُه: ﴿جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾ جمَعَ الجنَّاتِ؛ إيماءً إلى سَعَةِ نَعيمِهم، وأنَّها جِنانٌ كثيرةٌ. وإضافةُ الجَنَّاتِ إلى الفِرْدَوسِ بَيانيَّةٌ، أي: جَنَّاتٌ هي مِن صِنْفِ الفِرْدَوسِ، وهو البستانُ الجامعُ لكلِّ ما يكونُ في البساتينِ، أو تكونُ إِضَافَةُ (جَنَّات) إلى (الفردوسِ) إضافةً حقيقيَّةً، أي: جنَّاتُ هذا المكانِ، على اعتبار أن الفردوسَ هو أعلَى الجنَّةِ أو وسطُها[٤].

- قولُه: ﴿نُزُلًا﴾ المعنى: كانَت لهم ثِمارُ جَنَّاتِ الفِرْدَوسِ نُزلًا، أو جُعِلَت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٤٩-٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٠).

نفْسُ الجَنَّاتِ نُزلًا؛ مُبالَغةً في الإكرامِ، وفيه إيذانٌ بأنَّها عِندما أعَدَّ اللهُ لهم على ما جَرى على لِسانِ النُّبوَّةِ مِن قولِه: (أعدَدتُ لعِبادي الصَّالِحين ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَر على قلبِ بشَر)[١]، بمَنْزِلة النُّزلِ بالنِّسبةِ إلى الضِّيافةِ[٢]، وذلك على أحدِ القولينِ في معنَى النزلِ.

٢- قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾

- قولُه: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾، أي: لا مَزيدَ عليها حتَّى تُنازِعَهم أنفُسُهم إلى ما هو أجْمَعُ لأغراضِهم وأمانيِّهم. وهذه غايةُ الوصفِ؛ لأنَّ الإنسانَ في الدُّنيا في أيِّ نعيمٍ كان فهو طامِحُ الطَّرْفِ إلى أرفَعَ مِنه. ويَجوزُ أن يُرادَ نَفْيُ التَّحوُّلِ وتأكيدُ الخُلودِ[٣]. وهو تعريضٌ بالكَفَرةِ في أنَّهم يَصطَرِخون في النَّارِ: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، وذلك عكسُ ما كان في الدُّنيا من ركونِ الكُفَّارِ إليها، ومحبَّتِهم في طولِ البَقاءِ فيها، وعزوفِ المؤمنين عنها، وشَوقِهم إلى رَبِّهم بمفارقتِها[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ استِئْنافٌ ابتِدائيٌّ، وهو انْتِقالٌ إلى التَّنويهِ بعِلْمِ اللهِ تعالى مُفيضِ العِلمِ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم؛ لأنَّ المشرِكين لَمَّا سأَلوه عن أشياءَ يَظُنُّونَها مُفحِمةً للرَّسولِ وأنْ لا قِبَلَ له بعِلْمِها عَلَّمه اللهُ إيَّاها، وأخبَر عنها أصْدَقَ خبَرٍ، وبيَّنها بأقْصَى ما تَقبَلُه أفهامُهم، وبما يَقصُرُ عنه عِلمُ الَّذين

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٥٠).

أغْرَوُا المشْرِكين بالسُّؤالِ عنها، وكان آخِرُها خبَرَ ذي القرنَيْنِ؛ أتْبَع ذلك بما يُعلَمُ منه سَعةُ عِلْمِ اللهِ تعالى، وسَعةُ ما يَجْري على وَفْقِ عِلمِه مِن الوحيِ إذا أرادَ إبلاغَ بعضِ ما في علمِه إلى أحدٍ مِن رسلِه. وفي هذا رَدُّ عَجُزِ السُّورةِ على صَدْرِها[1]؛ فإنَّه لَمَّا ابتُدِئتْ هذه السُّورةُ بالتنويهِ بشَأنِ القُرآنِ، حيث قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١-٢] ثُمَّ أُفيض فيها من أفانينِ الإرشادِ والإنذارِ والوعدِ والوعيدِ، وذُكِرَ فيها مِن أحسنِ القَصصِ ما فيه عِبرةٌ ومَوعظةٌ، وما هو خَفيٌّ من أحوالِ الأممِ؛ حوَّلَ الكلامَ إلى الإيذانِ بأنَّ كلَّ ذلك قَليلٌ مِن عَظيمِ عِلمِ اللهِ تعالى، الذي يَنفَدُ البَحرُ قَبلَ أنْ تَنفَدَ كَلِماتُه سُبحانَه[2].

- قولُه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ اللَّامُ في قَولِه: ﴿لِّكَلِمَٰتِ﴾ لامُ العِلَّةِ،

---

(١) رَدُّ العَجُز على الصَّدر -ويُعرَف أيضًا بالتصدير- وهو كلُّ كلامٍ منثورٍ أو منظومٍ يُلاقي آخرُه أوَّلَه بوجهٍ مِن الوجوهِ، أو: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظينِ المُكرَّرينِ، أو المتجانسَينِ، أو المُلحقَينِ بهما في أوَّل الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّل: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصلةِ آخِرَ كَلمةٍ في الصَّدرِ، كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلُ كَلمةٍ منه، كقولِه: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثالث: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلماتِه، كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ١٠٩)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥١).

أي: لأجْلِ كَلِماتِ ربِّي، والكَلامُ يُؤْذِنُ بمُضافٍ محذوفٍ، تَقديرُه: لِكِتابةِ كَلِماتِ ربِّي؛ إذِ المِدادُ يُرادُ للكِتابةِ وليس البَحرُ ممَّا يُكتَبُ به، ولكنَّ الكلامَ بُنِي على المفروضِ بواسطةِ ﴿لَوْ﴾[١].

- قولُه: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ في إضافةِ الكَلِماتِ إلى اسْمِ الرَّبِّ المضافِ إلى ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الموضعَينِ مِن تفخيمِ المضافِ، وتشريفِ المضافِ إليه ما لا يخفَى[٢].

- وإظهارُ البحرِ والكلماتِ في مَوضِعِ الإضْمارِ لزِيادةِ التَّقريرِ[٣].

- وقال: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ ولم يَقُلْ: (مِدادًا)؛ إذْ ليس المقصودُ تشبيهَه بالحِبْرِ؛ لِحُصولِ ذلك بالتَّشبيهِ الَّذي قبْلَه، وإنَّما قصَد هنا أنَّ مِثلَه يُمِدُّه[٤]. وانْتصَب مَددًا على التَّمييزِ المفسِّرِ؛ للإبهامِ الَّذي في لَفْظِ ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾[٥].

- جوابُ (لو) في قولِه: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ محذوفٌ؛ لِدَلالةِ المَعْنى عليه، تَقديرُه: لَنَفِد[٦].

٤- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٥٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٣٤).

- قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ استئنافٌ ثانٍ، انْتقَل به مِن التَّنويهِ بسَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يُعجِزُه أن يُوحِيَ إلى رَسولِه بعِلْمِ كلِّ ما يُسأَلُ عن الإخبارِ به[١].

- والحَصْرُ في قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ لِقَصرِ الموصوفِ على الصِّفَةِ، وهو إضافيٌّ للقَلْبِ[٢]، أي: ما أنا إلَّا بشَرٌ لا أتجاوزُ البشَريَّةَ إلى العلمِ بالمغيباتِ[٣].

- قولُه: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أَدْمَج في هذا أهَمَّ ما يُوحَى إليه وما بُعِث لأجْلِه، وهو تَوحيدُ اللهِ، والسَّعيُ لِما فيه السَّلامةُ عندَ لِقاءِ اللهِ تعالى. وهذا مِن رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ مِن قولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢]، إلى قولِه: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[٤] [الكهف: ٥].

- قولُه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ فيه إدخالُ الماضي ﴿كَانَ﴾ على المستقبَلِ ﴿يَرْجُواْ﴾ -إذْ إنَّ الرَّجاءَ تَوقُّعُ وُصولِ الخيرِ في المستقبَلِ-؛ للدَّلالةِ على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٤-٥٥).

(٢) قصرُ القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلمُ فيه حُكمَ السامع، كقولك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لمن يعتقد أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معينةٍ أو طرفٍ معينٍ، لكنَّه يقول: ما زيدٌ هناك بشاعر. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٤-٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٥).

اللَّائقَ بحالِ المؤمِنِ الاستِمْرارُ والاستدامةُ على رَجاءِ اللِّقاءِ[١].

- وتَفْريعُ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ هو مِن جُملةِ الموحَى به إليه، أي: يُوحَى إلَيَّ بوَحْدانيَّةِ الإلهِ، وبإثباتِ البَعْثِ وبالأعمالِ الصَّالحةِ؛ فجاء النَّظْمُ بطَريقةٍ بَديعةٍ في إفادةِ الأُصولِ الثَّلاثةِ؛ إذْ جُعِل التَّوحيدُ أصلًا لها، وفُرِّع عليه الأصْلانِ الآخَران، وأُكِّد الإخبارُ بالوَحْدانيَّةِ بالنَّهيِ عن الإشراكِ بعِبادةِ اللهِ تعالى بقولِه: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، وحصَل مع ذلك رَدُّ العَجُزِ على الصَّدْرِ، وهو أسلوبٌ بديعٌ[٢].

- قولُه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ فيه وَضْعُ المُظهَرِ ﴿رَبِّهِۦ﴾ موضعَ المُضمَرِ في الموضِعَينِ، معَ التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ؛ لِزيادةِ التَّقْريرِ، وللإشْعارِ بعِلِّيَّةِ العُنوانِ للأمْرِ والنَّهيِ، ووُجوبِ الامْتِثالِ فِعلًا وتركًا[٣].

- وفيه مُناسَبَةٌ حَسَنةٌ، حيث قال عزَّ وجلَّ هنا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وفي سورةِ الأنبياءِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]؛ فلم يقَعْ في هذه الثَّانيةِ لفظُ ﴿أَنَا۠ بَشَرٌ﴾، ووَرَد في الأُولى؛ ووجه ذلك: أنَّه لَمَّا تَقدَّم في أوَّلِ سورةِ الأنْبياءِ إثباتُ كَونِ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ مِن البشَرِ، فيما حَكاه تعالى مِن قولِ الكُفَّارِ بَعضِهم لبعضٍ: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]، ثمَّ قال تعالى رادًّا لقولِهم، مُثبِتًا كونَ الرُّسلِ مِن البشَرِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥١).

﴾[الأنبياء: ٧]، ثمَّ تَتابَع في السُّورةِ ذِكْرُ الرُّسلِ مِن البشَرِ في عِدَّةِ مَواضِعَ إفصاحًا وإشارةً، آخِرُها قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، والخِطابُ لِنَبيِّنا عليه السَّلامُ، قال تعالى بعدَ ذلك: ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، فلم يُحتَجْ هنا أن يُذكرَ كونُه عليه السَّلامُ مِن البشَرِ؛ إذ قد تَوالَى ذِكرُ ذلك جُملةً وتَفصيلًا. أمَّا سورةُ الكهفِ فلم يتَقدَّمْ فيها مِثلُ هذا؛ فكان مَظِنَّةَ الإعلامِ بكَونِه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم مِن البشَرِ إرغامًا لأعدائِه، ولِمَا في ذلك مِن تَلطُّفِه تعالى بالخَلقِ ورَحمتِه إيَّاهم؛ فكَونُ الرُّسلِ مِن البشَرِ مِن أعظَمِ إنعامِه سُبحانه على الخَلقِ، وخُصَّتْ آيةُ الكَهفِ بذِكْرِ بَشريَّتِه عليه السَّلامُ لِما بُيِّن؛ فوَرَد كلٌّ ذلك على ما يُناسِبُ، ولم يَكُنْ عَكْسُ الوارِدِ لِيُناسِبَ[1].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الخامسَ عشرَ

ويليه المجلدُ السادسَ عشرَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ مريمَ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٢٤).

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ الكَهفِ ٧
أسماءُ السُّورةِ: ٧
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ٨
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ: ١٠
مَقاصِدُ السُّورةِ: ١٠
موضوعاتُ السُّورةِ: ١٠
الآيات (١-٦) ١٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٣
المَعنى الإجماليُّ: ١٣
تَفسيرُ الآياتِ: ١٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٤
بلاغةُ الآياتِ: ٢٦
الآيتان (٧-٨) ٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٦
المَعنى الإجماليُّ: ٣٦
تَفسيرُ الآيتينِ: ٣٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٢
بلاغةُ الآيتينِ: ٤٣
الآيات (٩-١٢) ٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٦
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٧
المَعنى الإجماليُّ: ٤٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٤
بلاغةُ الآياتِ: ٥٦
الآيات (١٣-١٥) ٦١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦١
المَعنى الإجماليُّ: ٦١
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٧
بلاغةُ الآياتِ: ٦٨
الآيات (١٦-١٨) ٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٧٣
المَعنى الإجماليُّ: ٧٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٧٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٨٤

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٨٦
بلاغةُ الآياتِ: ٨٩
الآيتان (١٩-٢٠) ٩٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٩٣
المَعنى الإجماليُّ: ٩٤
تَفسيرُ الآيتينِ: ٩٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٠١
بلاغةُ الآيتينِ: ١٠٣
الآيات (٢١-٢٦) ١٠٧
غريبُ الكَلِماتِ: ١٠٧
المَعنى الإجماليُّ: ١٠٨
تَفسيرُ الآياتِ: ١٠٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٢٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٣٠
بلاغةُ الآياتِ: ١٣٦
الآيات (٢٧-٢٩) ١٤٣
غريبُ الكَلِماتِ: ١٤٣
المَعنى الإجماليُّ: ١٤٥
تَفسيرُ الآياتِ: ١٤٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٦١
بلاغةُ الآياتِ: ١٦٤
الآيتان (٣٠-٣١) ١٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٧٢
المَعنى الإجماليُّ: ١٧٣
تَفسيرُ الآيتَينِ: ١٧٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٧٧
بلاغةُ الآيتينِ: ١٧٨
الآيات (٣٢-٣٤) ١٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٨٤
المَعنى الإجماليُّ: ١٨٥
تَفسيرُ الآياتِ: ١٨٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٩٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٩٠
بلاغةُ الآياتِ: ١٩١
الآيات (٣٥-٤١) ١٩٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٩٦
المَعنى الإجماليُّ: ١٩٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٩٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٠٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٠٦
بلاغةُ الآياتِ: ٢٠٨

الآيات (٤٢-٤٤) ٢١٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢١٤
المَعنى الإجماليُّ: ٢١٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٢١٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٢٣
بلاغةُ الآياتِ: ٢٢٤
الآيتان (٤٥-٤٦) ٢٢٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٢٨
المَعنى الإجماليُّ: ٢٢٨
تَفسيرُ الآيتينِ: ٢٢٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٣٦
بلاغةُ الآياتِ: ٢٣٧
الآيات (٤٧-٤٩) ٢٤٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٤٤
المَعنى الإجماليُّ: ٢٤٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٤٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٥٣
بلاغةُ الآياتِ: ٢٥٦
الآيتان (٥٠-٥١) ٢٦٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٦٢
المَعنى الإجماليُّ: ٢٦٢
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٢٦٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٦٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٧٠
بلاغةُ الآيتَينِ: ٢٧٣
الآيات (٥٢-٥٦) ٢٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٧٩
المَعنى الإجماليُّ: ٢٨٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٨١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٩٢
بلاغةُ الآياتِ: ٢٩٣
الآيات (٥٧-٥٩) ٣٠١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٠١
المَعنى الإجماليُّ: ٣٠١
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٠٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣١٢
بلاغةُ الآياتِ: ٣١٦
الآيات (٦٠-٧٠) ٣٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٢٢

المَعنى الإجماليُّ: ٣٢٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٢٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٥٠
بلاغةُ الآياتِ: ٣٥٥
الآيات (٧١-٧٣) ٣٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٦٣
المَعنى الإجماليُّ: ٣٦٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٦٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٦٧
بلاغةُ الآياتِ: ٣٦٨
الآيات (٧٤-٧٦) ٣٧٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٧٤
المَعنى الإجماليُّ: ٣٧٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٧٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٧٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٧٨
بلاغةُ الآياتِ: ٣٧٩
الآيتان (٧٧-٧٨) ٣٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٨٣
المَعنى الإجماليُّ: ٣٨٣
تَفسيرُ الآيتينِ: ٣٨٤
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٣٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٨٨
بلاغةُ الآيتَينِ: ٣٩٠
الآيات (٧٩-٨٢) ٣٩٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٩٢
المَعنى الإجماليُّ: ٣٩٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٩٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٠٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٠٣
بلاغةُ الآياتِ: ٤٠٨
الآيات (٨٣-٩١) ٤١٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤١٥
المَعنى الإجماليُّ: ٤١٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٤١٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٢٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٢٨
بلاغةُ الآياتِ: ٤٣١
الآيات (٩٢-٩٨) ٤٣٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٣٧
المَعنى الإجماليُّ: ٤٣٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٣٩

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٥٣
بلاغةُ الآياتِ: ٤٥٨
الآيات (٩٩-١٠٢) ٤٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٦٣
المَعنى الإجماليُّ: ٤٦٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٦٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٤٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٧٢
بلاغةُ الآياتِ: ٤٧٣
الآيات (١٠٣-١٠٦)..... ٤٧٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٧٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٧٨
المَعنى الإجماليُّ: ٤٧٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٧٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٨٤
بلاغةُ الآياتِ: ٤٨٥
الآيات (١٠٧-١١٠)..... ٤٩٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٩٠
المَعنى الإجماليُّ: ٤٩١
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٩١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٩٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥٠٠
بلاغةُ الآياتِ: ٥٠١
الفهرس ٥١١

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٣٥ درس

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة مريم و سورة طه

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة القصيم

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بالقاهرة

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السادس عشر

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة مريم وسورة طه)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية للنشر

التفسير المحرر للقرآن الكريم: سورة مريم وسورة طه / القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية للنشر - الظهران، ١٤٤٠هـ

٧٢٠ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٤-٦٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٠/٢٥٣٠

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٢٥٣٠

ردمك: ٤-٦٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣ / فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة مريم وسورة طه)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السادس عشر

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ مَريمَ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ مَريمَ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (مَريمَ)[١]، ومما يدلُّ على ذلك:

١- عن عبدِ الله بنِ مَسعودٍ رضيَ الله عنه، قال: (سورةُ «بني إسرائيلَ»، و«الكَهفِ»، و«مَريمَ»، و«طه»، و«الأنبياءِ»: هُنَّ مِن العِتاقِ الأُوَلِ[٢]، وهُنَّ مِن تِلادي[٣])[٤].

٢- عن أبي هُريرةَ رضِي الله عنه، قال: (قدمتُ المدينةَ مهاجرًا، فصليتُ الصبحَ وراءَ سِباعٍ[٥] فقرَأ في السجدةِ الأُولَى سورةَ «مريمَ»، وفي الأُخرَى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾)[٦].

---

(١) سُمِّيَت بسورةِ مريمَ؛ لاشتِمالِها على قِصَّتِها مُفصَّلةً. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٨).

(٢) العِتاق: جمعُ عتيقٍ، وهو القديمُ، أو: هو كلُّ ما بلَغ الغايةَ في الجودةِ، والمرادُ بقوله: (العِتَاق الأُوَل): السُّوَرُ الَّتي أُنزِلتْ أوَّلًا بمكَّةَ، وأنَّها مِنْ أوَّلِ ما تَعلَّمه مِنَ القرآنِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٧٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٨٨).

(٣) تِلادي: أي: مما حُفِظ قديمًا، والتلادُ قديمُ المِلكِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٨٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٣٩).

قال الكرماني: (يريدُ [أي: ابنُ مَسعودٍ] تفضيلَ هذه السُّوَرِ؛ لِما يتضَمَّنُ مُفتَتَحُ كُلٍّ منها مِن أمرٍ غريبٍ وقع في العالَمِ، خارِقًا للعادةِ، وهو الإسراءُ، وقِصَّةُ أصحابِ الكَهفِ، وقِصَّةُ مريمَ، ونحوُها، والأوَّليَّةُ إمَّا باعتبارِ حِفظِها، أو باعتبارِ نُزولِها؛ لأنَّها مكِّيَّاتٌ). ((الكواكب الدراري)) (١٧/ ١٧٧).

(٥) هو سِباعُ بنُ عُرْفُطةَ، صحابيٌّ، استعمَله النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على المدينةِ لما خرَج إلى خيبرَ، وإلى دُومةِ الجندلِ. يُنظر: ((الاستيعاب في معرفة الأصحاب)) لابن عبد البر (٢/ ٦٨٢)، ((أسد الغابة)) لابن الأثير (٢/ ١٧١).

(٦) أخرجه أحمد (٨٥٥٢)، وابن حبان (٧١٥٦)، والبيهقي (٤١٩١) واللفظ له. =

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

أنَّها مِن السُّوَرِ المتقدِّمِ نزولُها، ومِن قديمِ ما حفِظ الصَّحابةُ وتعلَّموه:

كما في أثرِ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ الله عنه المتقدِّمِ قريبًا.

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ مَريمَ مَكِّيَّةٌ[١]، وحُكِي الإجماعُ على ذلك[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

تحقيقُ العُبوديَّةِ، وتعظيمُ شَأنِ الرُّبوبيَّة، وتقريرُ مَبدأِ البَعثِ[٣].

موضوعاتُ السُّورةِ:

من أهمِّ موضوعات هذه السُّورةِ:

١- ذِكرُ قِصَّة زكريَّا عليه السلامُ.

= قال الذهبي في ((المهذب)) (٢/ ٨١٥): (إسناده صالح)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ١٢٢): (رجالُه رجالُ الصحيح)، وصحَّح إسناده ابن كثير في ((الأحكام الكبير)) (٣/ ١٥٤)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٦/ ٢٢٩).

(١) وقيل: مَكيَّة إلَّا آيتينِ منها، فمدنيَّتانِ، وهما قَولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ [مريم: ٥٨]، وقَولُه: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا ...﴾ [مريم: ٧١]. وقيل: إلَّا آية السجدةِ منها فمدنيَّةٌ. وقيل: إنَّ السورةَ كلَّها مدنيةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: القرطبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٠٥).

وقال ابنُ عطية: (هذه السورةُ مكيَّةٌ بإجماعٍ إلَّا السَّجدةَ منها، فقالت فرقةٌ: هي مكيَّةٌ، وقالت فرقةٌ: هي مدنيةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٤١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٣٠).

٢- ذكرُ قِصَّةِ مَريمَ ومولدِ عيسى عليهما السلامُ.

٣- ذِكرُ طرفٍ من قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع أبيه.

٤- الإشارةُ إلى عددٍ مِن النبيينَ، ومنهم: موسى، وهارونُ، وإسماعيلُ، وإدريسُ عليهم السَّلامُ.

٥- بيانُ جزاءِ المتَّقينَ وعقابِ الكافِرينَ، وفَتحُ بابِ التَّوبةِ للعاصينَ.

٦- حكايةُ بَعضِ شُبهاتِ المشركينَ المتعلقةِ بالقرآنِ والبعثِ والوحدانيةِ مع الردِّ عليها، وإقامةِ الأدلةِ على وحدانيةِ الله، ونفيِ الشريكِ والولدِ، وإقامةِ الأدلةِ على أنَّ البعثَ حقٌّ.

٧- بيانُ بعضِ مَشاهِدِ القيامةِ.

٨- خُتِمَت السورةُ بما بَدَأت به مِن بَيانِ مَحبَّةِ اللهِ تعالى وتكريمِه لأوليائِه، وبيانِ الحِكمةِ مِن نُزولِ القُرآنِ، وهي: البِشارةُ والنِّذارةُ.

الآيات (١-٦)

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبًا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ﴾: أي: رقَّ وضَعُف، وأصلُ (وهن): يدُلُّ على ضَعفٍ[١].

﴿وَٱشۡتَعَلَ﴾: أي: انتَشَر، والاشتعالُ في الأصلِ: انتشارُ شُعاعِ النَّارِ، وأصلُ (شعل): يدُلُّ على انتِشارٍ وتفَرُّقٍ في الشَّيءِ الواحِدِ مِن جَوانِبِه[٢].

﴿شَقِيًّا﴾: أي: خائبًا؛ يُقالُ لكُلِّ مَن سعى في أمرٍ فبطَلَ سَعيُه: قد شَقِيَ به، وإذا أدركَه قيل: قد سَعِدَ به، وأصْلُ (شقي): يدُلُّ على المعاناةِ، وخِلافِ السُّهولةِ والسَّعادةِ[٣].

﴿ٱلۡمَوَٰلِيَ﴾: أي: الأقاربَ والعَصَبةَ مِن الوَرَثةِ الذين يَلونَه في النَّسَبِ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٢)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ١٠٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٧١)، ((مقاييس =

﴿عَاقِرًا﴾: أي: لا تَلِدُ؛ يُقالُ: عَقَرْتُ النَّخلَ: إذا قطعتَه مِن أصلِه، فإذا لم تلِدْ كأنَّها تعقرُ النسلَ، أي: تقطعُه. وقيل: العاقِرُ: الرَّملةُ التي لا نَبْتَ فيها، ومنه قيل للمرأةِ التي لا تَلِدُ: عاقرٌ[(١)].

﴿رَضِيًّا﴾: أي: مَرضيًّا في أخلاقِهِ وأفعالِه، وأصلُ (رضي): يدُلُّ على خِلافِ السُّخْطِ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

ابتدأ الله هذه السورةَ بالحُروفِ المقَطَّعةِ التي تُبيِّنُ إعجازَ القرآنِ؛ فتُبرِزُ عجزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بالإتيانِ بشيءٍ مِن مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّة التي يتحدَّثون بها!

ثمَّ قال تعالى: هذا الذي نَتلوه عليك ذِكْرُ رَحمةِ رَبِّك عَبدَه زكريَّا؛ إذ دعا ربَّه سرًّا، قال: رَبِّ إني كَبِرْتُ، ورقَّ عَظمي، وانتشَرَ الشَّيبُ في رأسي، ولم أكُنْ مِن قَبلُ حين أدعوك مَحرومًا من إجابةِ الدُّعاءِ، وإنِّي خِفتُ أقاربي وعَصَبتي مِن بعدِ مَوتي أن يُضَيِّعوا الدِّينَ والعِلمَ، ولا يقوموا بهما حَقَّ القيامِ، وكانت زوجَتي عاقِرًا لا تَلِدُ؛ فارزُقْني مِن عِندِك وَلَدًا يَرِثُ عِلْمي ونُبُوَّتي، ونُبُوَّةَ أجدادِه آلِ يَعقوبَ، واجعَلْ هذا الولَدَ مَرضِيًّا عندَك وعندَ عِبادِك.

= اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((المنتخب من كلام العرب)) لكراع النمل (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٩٠)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٤).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كٓهيعٓصٓ ١﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعة التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها[١].

﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢﴾.

أي: هذا الذي نَتلوه في هذه الآياتِ، قِصَّةُ رَحمةِ رَبِّك -يا مُحمَّدُ- عَبدَه زكريَّا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كان زكريَّاءُ نجَّارًا))[٣].

﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣﴾.

أي: إذ[٤] دعا زكريَّا رَبَّه، وسأَله بنداءٍ خَفيٍّ عن النَّاسِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

والمرادُ برحمةِ الله لزكريَّا هنا: إجابتُه إيَّاه حينَ دعاه، وسألَه الولَدَ. وممَّن قال بذلك: الواحدي، والرسعني، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٧٥)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٣).

(٣) رواه مسلم (٢٣٧٩).

(٤) قال ابنُ عاشور: (﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ ظَرفٌ لـ ﴿رَحۡمَتِ﴾. أي: رحمةِ اللهِ إيَّاه في ذلك الوقتِ؛ أو بدلٌ مِن ﴿ذِكۡرُ﴾، أي: ذِكْرُ ذلك الوَقتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٧٥)، ((تفسير ابن =

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾.

أي: قال زكريَّا: يا رَبِّ، إنِّي رقَّ عَظمي، وضعُفَت قُوَّةُ بَدَني[(١)].

﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾.

أي: وانتشَرَ بَياضُ الشَّيبِ في رأسي[(٢)].

﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾.

أي: ولم أكُنْ حين أدعوك مِن قَبلُ -يا رَبِّ- خائبًا مَحرومًا مَردودَ الدَّعوةِ، بل عوَّدْتَني إجابةَ دَعوتي، وقَضاءَ حاجَتي[(٣)].

= عاشور)) (١٦/ ٦٢).

واختُلِف في سببِ إخفائِه هذا النِّداءَ:

فقيل: أخفاه مِن قَومِه؛ لئلَّا يُلامَ على مسألةِ الولَدِ عند كِبَرِ السِّنِّ، فيقولوا: انْظُروا إلى هذا الشَّيخِ يَسألُ على كبرِه الولَدَ.

وقيل: لأنَّ الإخفاءَ أقربُ إلى الإخلاصِ، وأبعدُ مِن الرياءِ.

وقيل: إنَّه دعا في جوفِ اللَّيلِ، وهو ساجدٌ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٠).

قال ابنُ كثيرٍ: (المرادُ من هذا: الإخبارُ عن الضَّعفِ والكِبَرِ، ودلائِلِه الظَّاهرةِ والباطِنةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١١). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٥٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦١).

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ ﴾.

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي ﴾.

أي: وإنِّي -يا ربِّ- خِفتُ أن يُضَيِّعَ أقاربي مِن بَعدِ موتي الدِّينَ والعِلمَ، ولا يَقوموا بحَقِّهما[1].

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾.

أي: وكانت امرأتي عَقيمًا لا تَلِدُ أصلًا[2].

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾.

أي: فارْزُقْني -يا رَبِّ- مِن عِندِك ولدًا يقومُ بالدِّينِ مِن بعدي حَقَّ القيامِ[3].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٢٢٤-٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٢-٢١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦١).

قال ابن كثير: (وجهُ خوفِه أنَّه خَشِي أنْ يتصرَّفُوا مِن بعدِه في النَّاسِ تصرُّفًا سيِّئًا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦١).

قال ابنُ عاشورٍ: (ومَعنى ﴿مِن لَّدُنكَ ﴾: أنَّه مِن عندِ اللهِ عِنديَّةً خاصَّةً؛ لأنَّ المتكَلِّمَ يَعلَمُ أنَّ كُلَّ شَيءٍ مِن عندِ اللهِ بتقديرِه وخَلْقِه الأسبابَ ومُسَبِّباتِها تَبعًا لخَلقِها، فلمَّا قال: ﴿مِن لَّدُنكَ ﴾؛ دلَّ على أنَّه سأل وليًّا غيرَ جارٍ أمرُه على المعتادِ مِن إيجادِ الأولادِ؛ لانعدامِ الأسبابِ المعتادةِ، فتكونُ هِبَتُه كرامةً له). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٧). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٦٩).

=

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾.

أي: يَرِثُ عِلمي ونُبُوَّتي، ويَرِثُ مِن أجدادِه آلِ يَعقوبَ العِلمَ والنُبُوَّةَ، فيكونُ نبيًّا، داعيًا إلى الله، قائمًا بدِينِه(١).

﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

أي: واجعَلْ وَلَدي -يا رَبِّ- مَرْضيًّا عندك وعندَ عِبادِك، صالحًا في دينِه وخُلُقِه وأعمالِه(٢).

= قال الشنقيطي: (وقولُه تعالَى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾، يعني بهذا الوليِّ الولَدَ خاصَّةً دونَ غيرِه مِنَ الأولياءِ، بدليلِ قولِه تعالَى في القصَّةِ نفسِها: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ الآيةَ [آل عمران: ٣٨]، وأشارَ إلى أنَّه الولَدُ أيضًا بقولِه: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، فقولُه: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾، أي: واحدًا بلا وَلَدٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٢٢٤، ٢٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٣)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٦).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ أي: هذا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ سنقُصُّه عليك، ونفصِّلُه تَفصيلًا يُعرَفُ به حالةُ نبيِّه زكريَّا، وآثارُه الصَّالحةُ، ومَناقِبُه الجميلةُ؛ فإنَّ في قَصِّها عِبرةً للمُعتبرينَ، وأُسوةً للمُقتَدينَ، ولأنَّ في تفصيلِ رحمتِه لأوليائِه، وبأيِّ سبَبٍ حَصَلتْ لهم: ما يدعو إلى محبَّةِ الله تعالى، والإكثارِ مِن ذِكرِه، ومَعرفتِه، والسَّبَبِ المُوصلِ إليه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ فيه استِحبابُ الإسرارِ بالدُّعاءِ[٢]، وفي إخفاءِ الدُّعاءِ والإسرارِ به فوائِدُ عديدةٌ:

أحدُها: أنَّه أعظَمُ إيمانًا؛ لأنَّ صاحِبَه يعلَمُ أنَّ اللهَ يَسمَعُ الدُّعاءَ الخَفيَّ.

ثانيها: أنَّه أعظَمُ في الأدبِ والتعظيمِ؛ لأنَّ الملوكَ لا تُرفَعُ الأصواتُ عِندَهم، ومَن رفَعَ صَوتَه لديهم مَقَتوه، ولله المثَلُ الأعلى.

ثالثها: أنَّه أبلَغُ في التضَرُّعِ والخُشوعِ الذي هو رُوحُ الدُّعاءِ ولُبُّه ومَقصودُه.

رابعُها: أنَّه أبلَغُ في الإخلاصِ.

خامسها: أنَّه أبلَغُ في جَمعيَّةِ القَلبِ على الذِّلَّةِ في الدُّعاءِ؛ فإنَّ رَفعَ الصَّوتِ يُفرِّقُه، فكلَّما خَفَض صَوتَه كان أبلغَ في تجريدِ هِمَّتِه وقَصدِه للمَدعُوِّ سُبحانَه.

سادسها -وهو مِن النُّكَتِ البَديعةِ جِدًّا: أنَّه دالٌّ على قُربِ صاحِبِه للقَريبِ، لا مسألةَ نداءِ البعيدِ للبَعيدِ؛ ولهذا أثنى اللهُ على عَبدِه زكريَّا بقَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِذْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٣).

نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم: ٣]، فلمَّا استحضَرَ القَلبُ قُربَ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وأنَّه أقرَبُ إليه مِن كُلِّ قَريبٍ؛ أخفى دُعاءَه ما أمكَنَه.

سابعها: أنَّه أدعى إلى دوامِ الطَّلَبِ والسُّؤالِ؛ فإنَّ اللِّسانَ لا يَمَلُّ، والجوارِحَ لا تتعَبُ، بخلافِ ما إذا رَفَع صَوتَه، فإنَّه قد يَمَلُّ اللِّسانُ وتَضعُفُ قُواه.

ثامنها: أنَّ إخفاءَ الدُّعاءِ أبعَدُ له من القواطِعِ والمشَوِّشاتِ؛ فإنَّ الدَّاعيَ إذا أخفى دُعاءَه لم يَدرِ به أحَدٌ، فلا يحصُلُ على هذا تشويشٌ ولا غيرُه، وإذا جهَرَ به فَرَطَت له الأرواحُ البشَريَّةُ -ولا بُدَّ- ومانعَتْه وعارضَتْه، ولو لم يكُنْ إلَّا أنَّ تعَلُّقَها به يُفزِعُ عليه همَّته، فيُضعِفُ أثَرَ الدُّعاءِ، ومن له تجرِبةٌ يَعرِفُ هذا، فإذا أسَرَّ الدُّعاءَ أمِنَ هذه المَفسَدةَ.

تاسعها: أنَّ أعظَمَ النِّعمةِ الإقبالُ والتعَبُّدُ، ولكُلِّ نِعمةٍ حاسِدٌ على قَدْرِها، دَقَّت أو جَلَّت، ولا نِعمةَ أعظَمُ مِن هذه النِّعمةِ؛ فإنَّ أنفُسَ الحاسِدينَ مُتعَلِّقةٌ بها، وليس للمَحسودِ أسلَمُ مِن إخفاءِ نِعمتِه عن الحاسِدِ.

عاشرها: أنَّ الدُّعاءَ هو ذِكرٌ للمَدعُوِّ سُبحانَه وتعالى، متضَمِّنٌ للطَّلَبِ والثَّناءِ عليه بأوصافِه وأسمائِه، فهو ذِكرٌ وزيادةٌ، كما أنَّ الذِّكرَ سُمِّيَ دُعاءً لتضَمُّنِه للطَّلَبِ. والمقصودُ: أنَّ كُلَّ واحدٍ من الدُّعاءِ والذِّكرِ يتضَمَّنُ الآخَرَ ويدخُلُ فيه، وقد قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فأمَرَ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَذكُرَه في نَفسِه[١].

٣- قال الحَسَنُ البَصريُّ: (لقد أدرَكْنا أقوامًا ما كان على الأرضِ مِن عَمَلٍ يَقدِرونَ على أن يَعمَلوه في السِّرِّ، فيَكونُ علانيةً أبدًا، ولقد كان المُسلِمونَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٥- ١٨).

يجتَهِدونَ في الدُّعاءِ، وما يُسمَعُ لهم صَوتٌ، إنْ كان إلَّا هَمسًا بينهم وبين رَبِّهم عزَّ وجَلَّ؛ ذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وذلك أنَّ الله تعالى ذكَرَ عَبدًا صالِحًا ورَضِيَ قَولَه، فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣])[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۞ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ مِن فوائِدِ هذه القِصَّةِ تعليمُ آدابِ الدُّعاءِ، وهي مِن جِهاتٍ:

أحدُها: قَولُه: ﴿نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ وهو يدُلُّ على أنَّ أفضَلَ الدُّعاءِ ما هذا حالُه، ويؤكِّدُ قَولَه تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، ولأنَّ رَفعَ الصَّوتِ مُشعِرٌ بالقُوَّةِ والجَلادةِ، وإخفاءَ الصَّوتِ مُشعِرٌ بالضَّعفِ والانكسارِ، وعُمدةُ الدُّعاءِ الانكِسارُ والتبَرِّي عن حولِ النَّفسِ وقُوَّتِها، والاعتمادُ على فَضلِ اللهِ تعالى وإحسانِه.

ثانيها: أنَّ المُستحَبَّ للدَّاعي أن يَذكُرَ في مُقَدِّمةِ الدُّعاءِ عَجزَ النَّفسِ وضَعفَها، كما في قولِ الله تعالى حكايةً عن زكريا عليه السلامُ: ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾[٢]، فالشَّيبُ دَليلُ الضَّعفِ والكِبَرِ، ورسولُ الموتِ ورائِدُه، ونذيرُه، فتوسَّلَ إلى الله تعالى بضَعفِه وعَجزِه، وهذا مِن أحَبِّ الوَسائِلِ إلى الله؛ لأنَّه يدُلُّ على التبَرِّي من الحَولِ والقُوَّةِ، وتعلُّقِ القَلبِ بحَولِ اللهِ وقُوَّتِه[٣].

---

(١) يُنظر: أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٤٠)، وابن جرير في ((تفسيره)) (١٠/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

ويُستحَبُّ له أيضًا أن يَذكُرَ كَثرةَ نِعَمِ الله، على ما في قولِه تعالى حكايةً عن زكريا عليه السلامُ أيضًا: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾.

ثالثُها: أن يكونَ الدُّعاءُ لأجلِ شَيءٍ مُتعَلِّقٍ بالدِّينِ، لا لِمَحضِ الدُّنيا، كما قال: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾.

رابعُها: أن يكونَ الدُّعاءُ بلَفظِ (يا رَبِّ)، على ما في هذا الموضِعِ[١].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ فيه التوسُّلُ إلى اللهِ بنِعَمِه وعوائدِه الجَميلةِ[٢]. وهذه وَسيلةٌ حَسَنةٌ: أن يُتشَفَّعَ إليه بنِعَمِه، ويُستَدَرَّ فَضلُه بفَضلِه[٣]، فزكريا عليه السلامُ توسَّل إلى الله بإنعامِه عليه، وإجابةِ دعواتِه السابقةِ، فسأل الذي أحسَنَ سابقًا، أن يتمِّمَ إحسانَه لاحقًا[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ...﴾ فافتُتِحَتْ قِصَّةُ مريمَ وعيسى بما يتَّصِلُ بها من شُؤونِ آلِ بيتِ مريمَ وكافِلِها؛ لأنَّ في تلك الأحوالِ كلِّها تذكيرًا برحمةِ اللهِ تعالى وكرامتِه لأوليائِه[٥].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ وصَفَه بالعبوديَّةِ؛ تَشريفًا له، وإعلامًا له بتَخصيصِه وتَقريبِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٧).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ مِن شَرطِ النِّداءِ الجَهرَ، فكيف الجَمعُ بينَ كَونِه (نداءً) و(خَفيًّا)؟

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الوجهُ الأولُ: أنَّ زكريَّا -عليه السَّلامُ- أتَى بأقصى ما قدَرَ عليه مِن رَفعِ الصَّوتِ، إلَّا أنَّ الصَّوتَ كان ضَعيفًا لنهايةِ الضَّعفِ؛ بسبَبِ الكِبَرِ، فكان نداءً نظرًا إلى قَصدِه، وخفيًّا نظرًا إلى الواقِعِ.

الوجه الثاني: أنَّه دعا في الصَّلاةِ؛ لأنَّ الله تعالى أجابه في الصَّلاةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩]، فكَونُ الإجابةِ في الصَّلاةِ يدُلُّ على كَونِ الدُّعاءِ في الصَّلاةِ؛ فوجب أن يكونَ النداءُ فيها خَفيًّا[(١)].

الوجهُ الثالث: أنَّه لا مُنافاةَ بينَ كَونِه (نداءً) وكونِه (خفيًّا)؛ لأنَّه نداءُ مَن يَسمَعُ الخَفاءَ[(٢)].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ فيه شَفَقةُ زكريَّا عليه السَّلامُ ونُصحُه، وأنَّ طَلَبَه للوَلدِ ليس كطَلَبِ غيرِه؛ قَصْدُه مجرَّدُ المصلحةِ الدُّنيويَّة، وإنَّما قَصدُه مصلحةُ الدِّينِ، والخَوفُ مِن ضَياعِه[(٣)].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾ في الإخبارِ بـ﴿خِفْتُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

قال القرطبي: (قال العلماءُ: دعاءُ زكريا عليه السلام في الولَدِ إنَّما كان لإظهارِ دينِه، وإحياءِ نُبوَّتِه، ومُضاعفةً لأجرِه، لا للدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٠).

بلَفظِ الماضي إعلامٌ بتقادُمِ العَهدِ في ذلك[١].

٦- في قولِه تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ حُجَّةٌ في تسميةِ المخلوقينَ بأسماءِ اللهِ؛ إذِ الوَليُّ اسمٌ مِن أسمائِه[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَرِثُنِي﴾ استدَلَّ به من قال: إنَّ الأنبياءَ يُورَثونَ، ورُدَّ بأنَّ المرادَ إرثُ العِلمِ والنبُوَّةِ، والأنبياءُ أعظَمُ مِن أن يهتَمُّوا بإرثِ المالِ، ويدُلُّ له قَولُه: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٢٤).

لكنْ في ذلك تفصيلٌ؛ فقد جاء في فتاوى اللَّجنةِ الدَّائمةِ: (ما كان من أسماءِ الله تعالى عَلَم شَخصٍ، كلَفظِ «الله»: امتنع تسميةُ غيرِ الله به؛ لأنَّ مُسمَّاه مُعيَّنٌ لا يَقبَلُ الشَّرِكةَ، وكذا ما كان من أسمائِه في معناه في عدَمِ قَبولِ الشَّرِكةِ، كالخالقِ والبارئِ؛ فإن الخالِقَ: مَن يُوجِدُ الشَّيءَ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، والبارئَ: من يوجِدُ الشَّيءَ بريئًا من العيبِ، وذلك لا يكونُ إلَّا من الله وحده؛ فلا يُسمَّى به إلَّا اللهُ تعالى.

أمَّا ما كان له معنًى كُلِّيٌّ تتفاوتُ فيه أفرادُه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، كالملك، والعزيز، والجبار، والمتكبر؛ فيجوزُ تسميةُ غيرِه بها؛ فقد سمَّى الله نفسَه بهذه الأسماءِ، وسمَّى بعضَ عبادِه بها). ((فتاوى اللجنة الدائمة- المجموعة الثانية)) (٢/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٧٣).

قال ابنُ كثير: (... سألَ اللَّهَ ولدًا، يكونُ نبيًّا مِن بعدِه؛ ليسوسَهم بنُبُوَّتِه وما يُوحَى إليه. فأُجِيب في ذلك، لا أنَّه خَشِي مِنْ وِراثَتِهم له مالَه؛ فإنَّ النَّبيَّ أعظمُ منزلةً وأجلُّ قدرًا مِنْ أنْ يُشْفِقَ على مالِه إلى ما هذا حدُّه أنْ يأنفَ مِنْ وراثةِ عَصباتِه له، ويسألَ أنْ يكونَ له وَلَدٌ، فيحوزَ ميراثَه دونَهم. هذا وجهٌ.

الثَّاني: أنَّه لم يُذْكَرْ أنَّه كان ذا مالٍ، بل كان نَجَّارًا يأكلُ مِنْ كسبِ يديه، ومِثْلُ هذا لا يجمعُ مالًا، ولا سِيَّما الأنبياءُ، عليهم السَّلامُ؛ فإنَّهم كانوا أزهدَ شيءٍ في الدُّنيا.

الثَّالثُ: أنَّه قد ثَبَت في الصَّحيحينِ مِن غيرِ وجهٍ: أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قالَ: «لا نُورَثُ، ما تركْنا فهو صدقةٌ»، وفي روايةٍ عندَ التِّرمذيِّ بإسنادٍ صحيحٍ: «نحنُ معشرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ»، وعلى هذا فتعَيَّن حملُ قولِه: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي﴾ على ميراثِ =

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ خُصَّ اسمُ (يعقوب) اقتداءً به نفسِه؛ إذ قال ليوسُفَ -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ-: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٦]، ولأنَّ إسرائيلَ صار عَلَمًا على الأسباطِ كُلِّهم، وكانت قد غَلَبَت عليهم الأحداثُ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ جاء نظْمُ هذا الكلامِ على طريقةٍ بديعةٍ من الإيجازِ، والعُدولِ عن الأُسلوبِ المُتعارَفِ في الإخبارِ، وأصْلُ الكلامِ: ذِكْرُ عبْدِنا زكريَّا إذ نادى ربَّه، فقال: ربِّ... إلخ، فرحِمه ربُّك؛ فكان في تَقديمِ الخبرِ بأنَّ اللهَ رحِمَه: اهتمامٌ بهذه المَنقبةِ له، والإنباءُ بأنَّ اللهَ يرحَمُ مَن الْتجَأَ إليه[٢].

- وفي التَّعرُّضِ لوصفِ الرُّبوبيَّةِ -﴿رَبِّكَ﴾- المُنبئةِ عنِ التَّبليغِ إلى الكمالِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إيذانٌ بأنَّ تنزيلَ السُّورةِ عليه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تكميلٌ له صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣]، وأيضًا في إضافةِ (ربِّ) إلى ضَميرِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قولِه: ﴿رَبِّكَ﴾، وإلى ضَميرِ زكريَّا في قولِه: ﴿عَبْدَهُۥ﴾: تَنويهٌ بهما[٤].

= النُّبوَّةِ؛ ولهذا قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النَّمل: ١٦] أي: في النُّبوَّةِ؛ إذ لو كان في المالِ لَمَا خصَّه مِن بينِ إخوتِه بذلك، ولَمَا كان في الإخبارِ بذلك كبيرُ فائدةٍ؛ إذ مِن المعلومِ المستقِرِّ في جميعِ الشَّرائعِ والمِلَلِ أنَّ الولدَ يَرِثُ أباه، فلولا أنَّها وِراثَةٌ خاصَّةٌ لَمَا أخبَر بها). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦١-٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٢).

٢- قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾

- جُملةُ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، وهي وما بعدَها تَمهيدٌ للمقصودِ من الدُّعاءِ، وهو قولُه: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾؛ وإنَّما كان ذلك تَمهيدًا لِما يتضمَّنُه من اضطرارِه لسُؤالِ الولدِ، واللهُ يُجيبُ المُضطَرَّ إذا دعاهُ؛ فليس سُؤالُه الولدَ سُؤالَ توسُّعٍ لمُجرَّدِ تَمتُّعٍ أو فخْرٍ، ووصَفَ من حالِه ما تشتَدُّ معه الحاجةُ إلى الولدِ حالًا ومآلًا؛ فكان وهْنُ العظْمِ وعُمومُ الشَّيبِ حالًا مُقتضيًا للاستعانةِ بالولدِ، مع ما يَقْتضيه مِن اقترابِ إبَّانِ الموتِ عادةً؛ فذلك مقصودٌ لنفْسِه، ووسيلةٌ لغيرِه وهو الميراثُ بعدَ الموتِ[١].

- وقَولُه: ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ بحَذفِ أداةِ النِّداءِ؛ للدَّلالةِ على غايةِ القُربِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ فيه تأكيدُ الجُملةِ بـ(إنَّ)؛ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بتَحقيقِ مَضمونِها[٣].

- والخبرانِ من قولِه: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ مُستعملانِ في لازمِ الإخبارِ، وهو الاسترحامُ لحالِه؛ لأنَّ المُخْبَرَ عالمٌ بما تَضمَّنَه الخبرانِ[٤].

- وقولُه: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ﴾ فيه إسنادُ الوهْنِ إلى العظْمِ؛ لأنَّه عمودُ البدَنِ، وبه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٦٨)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٣).

قوامُه، وهو أصلُ بِنائِه، فإذا وهَنَ تداعى وتساقطَتْ قُوَّتُه، ولأنَّه أشدُّ ما فيه وأصلَبُه، فإذا وهَنَ كان ما وراءَه أوهَنَ. ووحَّدَه -حيث لم يقُل: (العِظام)-؛ لأنَّ الواحِدَ هو الدَّالُّ على معنى الجِنسيَّةِ، وقصْدُه: أنَّ هذا الجنسَ الَّذي هو العمودُ والقوامُ وأشَدُّ ما تركَّبَ منه الجسدُ قد أصابَه الوهْنُ، ولو جمَعَ لكان قاصدًا معنًى آخرَ، وهو أنَّه لم يَهِنْ منه بعضُ عِظامِه ولكنْ كلُّها[1].

- وفي قولِه: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ إطنابٌ؛ فقدِ انتقَلَ أوَّلًا: من (شِخْتُ) الدَّالِّ على ضعْفِ البدَنِ وشيْبِ الرَّأسِ إجْمالًا إلى هذا التَّفصيلِ؛ لمزيدِ التَّقريرِ. وثانيًا: من هذه المرتبةِ إلى ثالثةٍ أبلَغَ منها، وهي الكِنايةُ الَّتي هي أبلَغُ من التَّصريحِ. وثالثًا: من هذه المرتبةِ إلى رابعةٍ أبلَغَ في التَّقريرِ، وهي بِناءُ الكنايةِ على المبتدأِ، أي قولُك: أنا وهنَتْ عِظامُ بَدَني. ورابعًا: من هذه المرتبةِ إلى خامسةٍ أبلَغَ، وهي إدخالُ (إنَّ) على المبتدأِ (إنِّي وهنَتْ عِظامُ بَدَني). وخامسًا: إلى مرتبةٍ سادسةٍ، وهي سُلوكُ طريقِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ، أي: (إنِّي وهنَتِ العِظامُ من بَدَني). وسادسًا: إلى مرتبةٍ سابعةٍ، وهي ترْكُ توسيطِ البدَنِ لادِّعاءِ اختصاصِها بالبدَنِ، بحيث لا يحتاجُ إلى التَّصريحِ بالبدنِ. وسابعًا: إلى مرتبةٍ ثامنةٍ، وهي ترْكُ جمْعِ العظْمِ إلى الإفرادِ؛ لشُمولِ الوهْنِ العِظامَ فردًا فردًا[2]؛ وكان الأصْلُ (اشتعَلَ شيْبُ رأْسي)، فأسنَدَ الاشتعالَ إلى الرَّأسِ؛ لإفادةِ شُمولِه لكلِّها؛ فإنَّ وِزانَه بالنِّسبةِ إلى الأصْلِ وِزانُ: (اشتعَلَ بيتُه نارًا) بالنِّسبةِ إلى (اشتعَلَ النَّارُ في بيتِه)،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٢).

ولزيادةِ تَقريرِه بالإجمالِ أوَّلًا، والتَّفصيلِ ثانيًا، ولمَزيدِ تَفخيمِه بالتَّنكيرِ[١]، وشبَّه بياضَ الشيبِ وانتشارَه في الرأسِ بشعاعِ النارِ وانتشارِها، وأضاف الاشتعالَ إلى مكانِ الشعرِ ومنبتِه وهو الرأسُ، ولم يُضِف الرأسَ؛ اكتفاءً بعلمِ المخاطبِ أنَّه رأسُ زكريَّا عليه السلامُ[٢]. وقيل: أسندَ الاشتِعالَ إلى الرَّأسِ، وهو مكانُ الشَّعرِ الذي عَمَّه الشَّيبُ؛ لأنَّ الرَّأسَ لا يَعمُّه الشَّيبُ إلَّا بعد أن يَعُمَّ اللِّحيةَ غالِبًا، فعُمومُ الشَّيبِ في الرَّأسِ أمارةُ التوغُّلِ في كِبَرِ السِّنِّ[٣].

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ وقولُه: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ فيه: التَّعرُّضُ في الموضعينِ لوصفِ الرُّبوبيَّةِ المُنبئةِ عن إضافةِ ما فيه صَلاحُ المربوبِ مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، لا سِيَّما توسيطِه بين (كان) وخبَرِها؛ لتَحريكِ سلسلةِ الإجابةِ بالمُبالغةِ في التَّضرُّعِ[٤].

- وجُملةُ: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أطلَقَ نفْيَ الشَّقاوةِ، والمُرادُ حُصولُ ضِدِّها -وهو السَّعادةُ- على طريقِ الكِنايةِ؛ إذ لا واسطةَ بينهما عُرْفًا، ومثْلُ هذا التَّركيبِ جَرى في كلامِ العربِ مَجْرى المثَلِ في حُصولِ السَّعادةِ من شَيءٍ[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٥).

- قولُه: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ ﴾ عطْفٌ على قولِه تعالى: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ﴾ مُترتِّبٌ مضمونُه على مَضمونِه؛ فإنَّ ضَعْفَ القُوى وكِبَرَ السِّنِّ من مبادئِ خوْفِه عليه السَّلامُ مَن يَلِي أمْرَه بعدَ موتِه[١].

- قولُه: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ يَنساقُ إليه الذِّهنُ، أي: فِعْلَ الموالي مِن بعدي، أو جَورَ الموالي[٢].

- قولُه: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ أتى بفعْلِ (كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّ العَقْرَ مُتمكِّنٌ منها، وثابتٌ لها؛ فلذلك حُرِمَ من الولدِ منها[٣].

- قولُه: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ الفاءُ لترتيبِ ما بعدها على ما قبْلَها؛ فإنَّ ما ذكَرَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من كِبَرِ السِّنِّ، وضعْفِ القُوى، وعَقْرِ المرأةِ: مُوجِبٌ لانقطاعِ رجائِه عليه السَّلامُ عن حُصولِ الولَدِ بتوسُّطِ الأسبابِ العاديَّةِ، واستيهابِه على الوجْهِ الخارقِ للعادةِ، ولا يقدَحُ في ذلك أنْ يكونَ هناك داعٍ آخرُ إلى الإقبالِ على الدُّعاءِ المذكورِ من مُشاهدتِه عليه السَّلامُ للخوارقِ الظَّاهرةِ في حَقِّ مريمَ، كما يُعرِبُ عنه قولُه تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٨] الآيةَ، وعدَمُ ذِكْرِه هاهنا للتَّعويلِ على ذِكْرِه هناك، كما أنَّ عدَمَ ذِكْرِ مُقدِّمةِ الدُّعاءِ هناك للاكتفاءِ بذكْرِه هاهنا؛ فإنَّ الاكتفاءَ بما ذُكِرَ في موطنٍ عمَّا تُرِكَ في موطنٍ آخرَ من النُّكتِ التَّنزيليَّةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٤).

- وإنَّما قدَّمَ ﴿لِي﴾ على ﴿مِن لَّدُنكَ﴾؛ لأنَّه الأهمُّ في غرَضِ الدَّاعي، وهو غرَضٌ خاصٌّ يُقدَّمُ على الغرضِ العامِّ[١].

- وقولُه: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تأكيدٌ لكونِه وَلِيًّا مرضيًّا، بكونِه مُضافًا إلى اللهِ تعالى، وصادرًا من عندِه[٢].

- وتأخيرُ ﴿وَلِيًّا﴾ عن الجارَّينِ -﴿لِي﴾ ﴿مِن لَّدُنكَ﴾-؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بكونِ الهبةِ له على ذلك الوجْهِ البديعِ، مع ما فيه من التَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ؛ فإنَّ ما حَقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّرَ تَبْقَى النَّفسُ مُستشرِفةً، فعندَ وُرودِه لها يتمكَّنُ عندَها فضْلَ تمكُّنٍ، ولأنَّ فيه نوعَ طولٍ بما بعدَه من الوصفِ، فتأخيرُهما عن الكلِّ أو توسيطُهما بين الموصوفِ والصِّفةِ ممَّا لا يليقُ بجَزالةِ النَّظمِ الكريمِ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

- قولُه: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، أي: يرِثُني به وارثٌ، ويُسمَّى في علْمِ البيانِ التَّجريدَ[٤]، وهذا التَّجريدُ في الآيةِ هنا بـ (مِن) التَّجريديَّةِ كقولِهم: لي من فُلانٍ صديقٌ حميمٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٤).

(٤) التجريد: هو أنْ ينتزِعَ المُتكلِّمُ من أمْرٍ ذي صِفَةٍ أمرًا آخرَ بمثالِه له فيها؛ مُبالغةً لكمالِها فيه، كأنَّه بلَغَ من الاتِّصافِ بتلك الصِّفةِ إلى حيثُ يصِحُّ أنْ يُنتزَعَ منه موصوفٌ آخرُ بتلك الصِّفةِ. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) (٦/ ٦٢)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (ص: ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٢).

- قولُه: ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ فيه توسيطُ (رَبِّ) بين مَفْعولي (اجعَلْ)؛ للمُبالغةِ في الاعتناءِ بشأْنِ ما يَسْتدعيه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٥).

الآيات (٧-١١)

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَمِيًّا﴾: أي: أحدًا مُسمًّى قَبلَه بهذا الاسمِ، وأصلُه مِن السُّمُوِّ[1]، وهو الذي به رَفعُ ذِكرِ المُسَمَّى، فيُعرَفُ به[2].

﴿عِتِيًّا﴾: أي: غايةَ الكِبَرِ في السِّنِّ، حتَّى نحِل العظمُ ويَبِس، والعِتِيُّ: الكِبَرِ المُتَناهي، وكلُّ مُتَناهٍ إلى غايَتِه في كِبرٍ، أو فسادٍ، أو كفرٍ، فهو عاتٍ، وقيل: العِتِيُّ: يبسٌ في الأعضاءِ والمفاصلِ[3].

﴿سَوِيًّا﴾: أي: صَحيحًا، لا عِلَّةَ به مِن خَرَسٍ أو مَرَضٍ يمنَعُه مِن الكَلامِ،

---

(١) قال السمين الحلبي: (وذهَب الكوفيون إلى أنَّه مشتقٌّ مِن الوَسْمِ، وهو العلامةُ؛ لأنه علامةٌ على مُسَمَّاه، وهذا وإنْ كان صحيحًا مِن حيثُ المعنى، لكنَّه فاسدٌ مِن حيثُ التصريفُ). ((الدر المصون)) (١/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٨).

وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتدالٍ[١].

﴿ٱلۡمِحۡرَابِ﴾: المحرابُ: الموضِعُ العالي الشَّريفُ، ويُطلَقُ على الغُرفةِ، والمسجدِ، ومقدَّمِ كلِّ مجلسٍ ومصلًّى[٢].

﴿بُكۡرَةً﴾: أي: أوَّلَ النهارِ، وقيل: المرادُ صلاةُ الغداةِ، وأصلُ (بكر): أوَّلُ الشيءِ وبدؤُه[٣].

﴿وَعَشِيًّا﴾: أي: آخرَ النهارِ، أو: ما بعدَ الزَّوالِ إلى المغرِب، أو: من الظُّهْرِ إلى نِصْفِ اللَّيْل، أو: مِنْ زوالِ الشَّمْسِ إلى الصَّباحِ، وقيل: المرادُ صلاةُ العصرِ، وأصلُ (عشو): يدلُّ على ظلامٍ، وقلةِ وضوحِ الشيءِ[٤].

المَعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى أنَّه قد أجاب بفضلِه وكرمِه دعاءَ عبدِه زكريا، وأنَّه نوديَ: يا زكريَّا، إنَّا نُبشِّرُك بإجابةِ دُعائِك، قد وَهَبْنا لك غُلامًا اسمُه يحيى، لم نُسَمِّ أحدًا قَبلَه بهذا الاسمِ، قال زكريَّا متعَجِّبًا: ربِّ كيف يكونُ لي غُلامٌ، وكانت

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢ ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٥٨)، (١٥/ ٤٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣- ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٤٢)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ١٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

امرأتي عقيمًا لا تَلِدُ، وقد بلغتُ النِّهايةَ في الكِبَر؟ قال: هكذا الأمرُ كما تقولُ مِن كَونِ امرأتِك عاقِرًا، وبلوغِك من الكِبَرِ عِتيًّا، ولكنَّ ربَّك قال: هذا أمرٌ سَهلٌ هيِّنٌ عليَّ، وقد خَلقتُك أنت مِن قَبلِ يحيى، ولم تكُن شَيئًا مَوجودًا. قال زكريَّا: ربِّ اجعَلْ لي علامةً على تحقُّقِ هذه البشارةِ. قال: علامتُك ألَّا تَقدِرَ على كلامِ النَّاسِ مُدَّةَ ثلاثِ ليالٍ، وأنت صحيحٌ ليس بك مَرَضٌ يمنَعُك من الكلامِ. فخرج زكريَّا على قَومِه مِن مُصَلَّاه الذي بُشِّرَ فيه بالوَلَدِ، فأشار إليهم: أنْ سَبِّحوا اللهَ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه؛ شُكرًا له تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيًّا ٧ ﴾.

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ ﴾.

أي: فاستجاب اللهُ له ونُودِيَ[1]: يا زكريَّا، إنا نُبَشِّرُك بإجابةِ دُعائِك، فستُوهَبُ غُلامًا اسمُه يحيى[2].

---

(١) قال الشنقيطي: (في هذه الآيةِ الكريمةِ حذفٌ دَلَّ المقامُ عليه، وتقديرُه: فأجابَ الله دعاءَه فنُودِي: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ ... ﴾ الآيةَ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٨، ٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٧).

قال الشنقيطي: (وقد أوضَح جلَّ وعلا في موضعٍ آخرَ هذا الَّذي أجْمَله هنا، فبيَّن أنَّ الَّذي ناداهُ بعضُ الملائكةِ، وأنَّ النِّداءَ المذكورَ وَقَع وهو قائمٌ يصلِّي في المحرابِ، وذلك قولُه تعالَى: ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقولُه تعالَى: ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾، قال بعضُ العلماءِ: أطْلَق الملائكةَ وأرادَ جبريلَ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٦٧).

وقال الواحدي: (وهذا قولُ ابنِ عباسٍ، والأكثرينَ: أنَّ المنادِيَ جبريلُ وحدَه). ((البسيط)) (٥/ ٢٢٠).

=

كما قال تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

أي: لم نُسَمِّ أحدًا قبلَ يحيى بهذا الاسمِ[(١)].

= وذكَر الرازي أنَّ الأكثرينَ على أنَّ المناديَ هو الله تعالى؛ قال: (وذلك لأنَّ ما قبلَ هذه الآيةِ يدُلُّ على أنَّ زكريَّا عليه السَّلامُ إنما كان يخاطِبُ الله تعالى ويسألُه). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥١١-٥١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٨).

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

ونسَبه إلى أكثرِ المفسرينَ: ابنُ الجوزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨١)

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، وابنُ جُريجٍ، وعبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ، وعكرمةُ، والسديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٠).

وقيل: معنى ﴿سَمِيًّا﴾: مَثيلًا ونَظيرًا.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور، وجعَله السعدي احتِمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٩- ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٠).

واستَبعد القرطبي والشنقيطي هذا المعنى؛ لوجودِ أنبياءَ أفضَلَ مِن يحيى عليه السلامُ، =

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا ﴾.

أي: قال زكريَّا مُتعَجِّبًا: يا ربِّ كيف يُولَدُ لي غُلامٌ، وزوجتي عقيمٌ لا تَحمِلُ[(١)].

﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴾.

وقد بلغتُ غايةً في كِبَر السنِّ حتى نحَلَت عظامي ويَبِسَت[(٢)]؟!

= كإبراهيمَ، وموسى، وغيرِهما مِن الأنبياءِ عليهم السلامُ جميعًا. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٨).

ولكِنْ قال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّه لم يجئْ قبلَ يحيى من الأنبياءِ مَن اجتمعَ له ما اجتمع ليحيى؛ فإنَّه أُعطيَ النبُوَّةَ وهو صَبيٌّ [على القولِ بأنَّ المرادَ بالحُكمِ الذي أُوتي في صباه هو النبوةُ]... وجُعِل حَصورًا؛ ليكونَ غيرَ مَشقوقٍ عليه في عِصمتِه عن الحرامِ، ولئلَّا تكونَ له مَشقَّةٌ في الجَمعِ بينَ حُقوقِ العبادةِ وحُقوقِ الزَّوجةِ، ووُلِد لأبيه بعد الشَّيخوخةِ ولأمِّه بعدَ العُقرِ... وجُعِلَ اسمُه العَلَمُ مُبتكَرًا غيرَ سابقٍ مِن قَبلِه. وهذه مزايا وفضائِلُ وُهِبت له ولأبيه، وهي لا تقتضي أنَّه أفضَلُ الأنبياءِ؛ لأنَّ الأفضليَّةَ تكونُ بمَجموعِ فَضائِلَ لا ببَعضِها وإن جَلَّت؛ ولذلك قيل: «المزيَّةُ لا تقتضي الأفضليَّةَ» وهي كلمةُ صِدقٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٩، ٧٠).

وقال السعدي: (يحتَمِلُ أنَّ المعنى: لم نجعَلْ له مِن قَبلُ مَثيلًا ومُسامِيًا، فيكونُ ذلك بِشارةً بكَمالِه، واتِّصافِه بالصِّفاتِ الحميدةِ، وأنَّه فاق مَن قَبلَه، ولكِنْ على هذا الاحتمالِ، هذا العُمومُ لا بُدَّ أن يكونَ مخصوصًا بإبراهيمَ وموسى ونوحٍ عليهم السَّلامُ، ونحوهم، ممَّن هو أفضَلُ مِن يحيى قطعًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٣، ٤٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٣، ٤٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير الشنقيطي)) (٣/ ٣٦٨).

قال السعدي: (وكأنَّه وقتَ دُعائِه لم يستحضِرْ هذا المانِعَ؛ لقوةِ الواردِ في قلبِه، وشِدَّةِ =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠].

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾.

أي: قال لزكريَّا[1]: هكذا الأمرُ كما ذكرتَ مِن أنَّ امرأتَك عاقِرٌ، وأنَّك بلغْتَ من الكِبَر عِتيًّا، فمجيءُ الولَدِ منكما والحالةُ هذه أمرٌ مُستغرَبٌ في العادةِ، ولكِنْ قال ربُّك: هذا الأمرُ يسيرٌ وسَهلٌ عليَّ[2].

= الحِرصِ العظيمِ على الولَدِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠).

وقال الشنقيطي: (استفهامُ زكريَّا استِفهامُ استِخبارٍ واستعلامٍ؛ لأنَّه لا يعلَمُ هل اللهُ يأتيه بالولَدِ مِن زوجِه العجوزِ على كِبَرِ سِنِّهما على سبيلِ خرق العادة، أو يأمُرُه بأن يتزوَّجَ شابَّةً، أو يرُدُّهما شابَّينِ؟ فاستفهَم عن الحقيقةِ ليعلَمَها). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٦٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦).

(١) ممَّن قال بأنَّ القائِلَ هو مَلَكٌ مِن الملائكةِ: يحيى بنُ سلَّام، وابنُ أبي زمنين، وابنُ عطية، والقرطبي، وابنُ كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢١٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٧).

واختار الرازي أنَّ القائلَ هو الله تعالى. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢١٥، ٢١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٥).

وممن اختار أنَّ الإشارَة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إلى ما سَبَق مِنْ قولِ زكريَّا: ابنُ جرير، والسمرقندي، والزمخشري، وابن عطية، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٢).

وقيل: المعنى: قال: الأمرُ كذلك، أي: الأمرُ كما قيل لك. أي: أهبُ لك غلامًا اسمُه يحيى. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٤٩٩).

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٤٠].

﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾.

أي: وقد أوجَدْتُك -يا زكريَّا- مِن قَبلِ يحيى، ولم تكنْ شيئًا موجودًا؛ فكذلك أنا قادِرٌ على إيجاد ولدٍ لك مِن زوجتِك العاقِرِ مع كِبَرِ سِنِّك، فلا تعجَبْ؛ فكما لا عجَبَ مِن خَلقِ الولَدِ في الأحوالِ المألوفةِ، كذلك لا عجَبَ مِن خَلقِ الولَدِ في الأحوالِ النَّادرةِ؛ فكلاهما إيجادٌ بعدَ عَدَمٍ[(١)].

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ ﴾.

أي: قال زكريَّا: يا رَبِّ، اجعَلْ لي علامةً أستَدِلُّ بها على حَملِ زوجتي؛ ليطمَئِنَّ قلبي[(٢)].

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴾.

أي: قال اللهُ لزكريَّا: العَلامةُ التي جعَلْناها لك دليلًا على حَملِ زَوجتِك: ألَّا تَقدِرَ على الكَلامِ مع النَّاسِ ثَلاثَ ليالٍ، وأنت صحيحٌ ليس بك مَرَضٌ يمنَعُك مِن الكلامِ[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٧١). =

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ [آل عمران: ٤١].

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ ﴾.

أي: فخرج زكريَّا على قَومِه بني إسرائيلَ مِن مُصَلَّاه الذي بُشِّرَ فيه بالوَلَدِ[(١)].

قال تعالى: ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴾.

أي: فأشار إلى قَومِه أن سبِّحوا[(٢)] في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه[(٣)].

= قال السعدي: (هذا مِن الآياتِ العَجيبةِ؛ فإنَّ مَنْعَه من الكلامِ مُدَّةَ ثلاثةِ أيَّامٍ، وعجزَه عنه -مِن غيرِ خَرسٍ ولا آفةٍ، بل كان سَوِيًّا لا نقصَ فيه- مِنَ الأدلَّةِ على قُدرةِ اللهِ الخارقةِ للعوائِدِ! وهو مع هذا ممنوعٌ مِن الكلامِ الذي يتعلَّقُ بالآدميِّينَ وخطابِهم، وأمَّا التَّسبيحُ والتَّهليلُ والذِّكرُ ونحوُه فغيرُ ممنوعٍ منه!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٧٢، ٣٧٣).

(٢) قال ابنُ جرير: (وقد يجوزُ في هذا الموضِعِ أن يكونَ عنى به التسبيحَ الذي هو ذِكرُ الله، فيكونَ أمَرَهم بالفراغِ لذِكرِ الله في طَرَفي النَّهارِ بالتَّسبيح، ويجوزُ أن يكونَ عنى به الصَّلاةَ، فيكونَ أمَرَهم بالصَّلاةِ في هذين الوقتَينِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٧٣).

و(أَنْ) في قولِه: ﴿أَن سَبِّحُواْ﴾ مصدريَّةٌ أو مفسِّرةٌ، والمعنَى: فأوحَى إليهم بأنْ سبِّحوا أو: أي سبِّحوا. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٧١، ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٧٢). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

يُستحبُّ للمُسلِمِ أنْ يُبادِرَ إلى مَسَرَّةِ أخيه، وإعلامِه بما يُفرِحُه، ومن ذلك بِشارةُ مَن وُلِدَ له وَلَدٌ، قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ سمَّاه اللهُ له «يحيى» وكان اسمًا موافِقًا لِمُسماه: يحيا حياةً حِسِّيةً، فتَتِمُّ به المنَّةُ، ويحيا حياةً مَعنويَّةً، وهي حياةُ القلبِ والرُّوحِ بالوَحيِ والعِلمِ والدِّينِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ فيه فضيلَةٌ ليحيى مِن جهتينِ: الأولَى أَنَّ اللَّهَ سبحانَه هو الَّذي تولَّى تَسْمِيَتَه به، ولم يَكِلْها إلى الأبوينِ. والجهةُ الثَّانيةُ: أنَّ تسميتَه باسمٍ لم يُوضَعْ لغيرِه يُفيدُ تشريفَه وتعظيمَه[٣].

٣- في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾ دليلٌ على تثبيتِ الخبرِ المرويِّ وصحته: ((ليس الخَبَرُ كَالمعاينة))[٤]؛ وذلك

= قال السَّعدي: (﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ لأنَّ البِشارةَ بـ «يحيى» في حقِّ الجميعِ مَصلحةٌ دينيَّةٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠).

(١) يُنظر: ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٩١).

(٤) أخرجه أحمد في ((المسند)) (٢٤٤٧)، وابن حبان في ((صحيحه)) (٦٢١٣) من حديث ابن عباس مرفوعًا. =

أنَّ زكريا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَشْكُ إلى ربِّه وَهَنَ عَظْمِه، واشتعالَ الشيبِ في رأسه إلَّا وهو مُوقنٌ بإجابةِ دعوتِه؛ ثم بَشَّرَه اللهُ ببشارةِ الغلامِ؛ فقال ما قال -وهو عالمٌ بأنَّ ربَّه يَقْدِرُ عليه- فلا وجهَ له -واللهُ أعلمُ- غيرُ ما قُلْنا مِن أنَّ المعاينةَ في الأشياءِ أبلغُ مِن الخَبرِ، وإنْ كان الخَبرُ بالغًا عندَ المؤمنين[١].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ جُعِلت الآيةُ الدالةُ عليه سكوتًا عن غيرِ ذكرِ الله؛ دلالةً على إخلاصِه، وانقطاعِه بكليتِه إلى الله دونَ غيرِه[٢].

٥- الإنسانُ لَمَّا كان يعلمُ أنه خُلِقَ بعد أنْ لم يكُنْ، ذُكِّرَ بذلك؛ ليَستدِلَّ به على قُدرةِ الخالقِ على تغييرِ العادةِ؛ ولهذا ذَكَر تعالى ذلك في خَلْقِ يحيى بنِ زكريا عليه السَّلامُ، وفي النَّشأةِ الثَّانيةِ؛ قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٦ - ٦٧]، فذُكِّرَ الإنسانُ بما يعلَمُه مِن أنَّه خلقَه ولم يَكُ شيئًا؛ ليَستَدِلَّ بذلك على قُدرتِه على مِثلِ ذلك، وعلى ما هو أهوَنُ منه[٣].

= صحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٤٧)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٣٧٤).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (١/ ٣٧٣).

٦- قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ﴾، وإنَّما أمَرَهم زكريا عليه السلامُ بالتَّسبيحِ؛ لئلَّا يَحسَبوا أنَّه لمَّا لم يُكلِّمْهم قد نذَرَ صمْتًا، فيَقْتدوا به فيصْمُتوا، وكان الصَّمتُ من صُنوفِ العبادةِ في الأُممِ السَّالفةِ، فأومَأَ إليهم أنْ يشْرَعوا فيما اعتادوهُ من التَّسبيحِ، أو أراد أنْ يُسبِّحوا اللهَ تَسبيحَ شُكْرٍ على أنْ وهَبَ نَبِيَّهم ابنًا يرِثُ علْمَه[1]، وذلك على أحدِ القولينِ في معنى التسبيحِ.

٧- قولُه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ دليلٌ على أنَّ مَن حَلَف ألَّا يُكَلِّمَ رَجُلًا، فكتَبَ إليه أو أشار: أنَّه لا يَحنَثُ؛ لأنَّ زكريَّا لم يخرِجْه مِن الآيةِ إفهامُ قومِه بما قام عندَهم مقامَ الكلامِ في الفهمِ، ولم يكُنْ كلامًا[2].

٨- يُستحَبُّ الذِّكرُ بعدَ الصَّلاتَينِ اللَّتينِ لا تطَوُّعَ بعدَهما، وهما: الفَجرُ والعَصرُ، فيُشرَعُ الذِّكرُ بعد صلاةِ الفَجرِ إلى أن تَطلُعَ الشَّمسُ، وبعد العَصرِ حتى تَغرُبَ الشَّمسُ، وهذان الوقتان -أعني وقتَ الفَجرِ ووقتَ العَصرِ- هما أفضَلُ أوقاتِ النَّهارِ للذِّكرِ؛ ولهذا أمرَ الله تعالى بذِكرِه فيهما في مواضِعَ مِن القرآنِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، وقَولِه: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وقَولِه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥]، وقَولِه: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقولِه: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، وقَولِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقَولِه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٤-٧٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٢٧). ويُنظر أيضًا: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٦١٦).

وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقولِه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠]، وقَولِه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾[(١)] [ق: ٣٩].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾

- قولُه: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ مقولُ قولٍ محذوفٍ دَلَّ عليه السِّياقُ عقِبَ الدُّعاءِ إيجازًا، أي: قُلْنا: يا زكريَّا... إلخ[(٢)]. ومعنى ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾: سَمِّه يحيى؛ فالكلامُ خبرٌ مُستعملٌ في الأمرِ[(٣)].

- وفي تَعيينِ اسْمِ يحيى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تأكيدٌ للوعدِ، وتَشريفٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي تَخصيصِه به عليه السَّلامُ حَسَبَما يُعرِبُ عنه قولُه تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾، أي: شريكًا له في الاسمِ، حيث لم يُسَمَّ أحدٌ قبْلَه بيحيى: مزيدُ تَشريفٍ وتَفخيمٍ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّ التَّسميةَ بالأسامي البديعةِ المُمتازةِ عن أسماءِ سائرِ النَّاسِ تَنويهٌ بالمُسمَّى لا مَحالةَ[(٤)].

٢- قولُه تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ استئنافٌ مَبنيٌّ على السُّؤالِ؛ كأنَّه قيلَ: فماذا قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينئذٍ؟ فقيلَ: ﴿ قَالَ رَبِّ... ﴾؛ ناداهُ تعالى بالذَّاتِ مع

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٥).

وُصولِ خطابِه تعالى إليه بتَوسيطِ الملَكِ؛ للمُبالغةِ في التَّضرُّعِ والمُناجاةِ والجِدِّ في التَّبتُّلِ إليه تعالى، والاحترازِ عمَّا عسى يُوهِمُ خِطابُه للملَكِ مِن توهُّمِ أنَّ علْمَه تعالى بما يصدُرُ عنه مُتوقِّفٌ على توسُّطِه، كما أنَّ علْمَ البشرِ بما يصدُرُ عنه سُبحانه مُتوقِّفٌ على ذلك في عامَّةِ الأوقاتِ[١].

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ (أنَّى) استفهامٌ مُستعملٌ في التَّعجُّبِ، والتَّعجُّبُ مُكنًّى به عن الشُّكرِ، فهو اعترافٌ بأنَّها عطيَّةٌ عزيزةٌ غيرُ مألوفةٍ؛ لأنَّه لا يجوزُ أنْ يسأَلَ اللهَ أنْ يهَبَ له ولدًا، ثمَّ يتعجَّبَ من استجابةِ اللهِ له[٢]. وقيل: قاله استعظامًا لقُدرةِ اللهِ تعالى، وتعجُّبًا منها، تعجُّبَ فرَحٍ وسُرورٍ، واعتدادًا بنِعمتِه تعالى عليه في ذلك بإظهارِ أنَّه من مَحْضِ لُطفِ الله -عَزَّ وعلا- وفضلِه، مع كونِه في نفْسِه من الأُمورِ المُستحيلةِ عادةً، لا استبعادًا له. وقيل: لم يقُلْه إنكارًا، إنَّما قاله ليُجابَ بما أُجيبَ به عن طلَبِه الولَدَ، وهو قولُه تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾؛ فيَزدادَ المُؤمِنون الموقِنون إيقانًا، ويرتدِعَ المُبطِلون. وقيل: كان ذلك منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ استفهامًا عن كيفيَّةِ حُدوثِه[٣].

- وفيه إيجازٌ؛ فظاهِرُ الكلامِ يُوهِمُ أنَّه استبعَدَ ما وعَدَه اللهُ عزَّ وجلَّ بوُقوعِه، ولا يجوزُ لأحدٍ -بَلْهَ النَّبيِّ- النُّطْقُ بما لا يَسوغُ أو بما في ظاهِرِه الإيهامُ، فجاء الكلامُ مُوجَزًا، وتَقديرُه: هل تُعادُ لنا قُوَّتُنا وشبابُنا فنُرزقَ بغُلامٍ؟ أو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٠).

هل يكونُ الولَدُ لغيرِ الزَّوجةِ العاقرِ؟ إذنْ فالمُستبعَدُ هو مَجيءُ الولدِ منهما بحالِهما، ولكنَّ الجوابَ أزال الإشكالَ؛ إذ قيل له: سيكونُ لكما الولدُ وأنتما بحالِكما[١].

- قولُ زكريَّا عليه السلامُ، فيما يحكيه اللهُ عنه: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ فيه البَداءةُ هاهنا بذكْرِ حالِ امرأتِه على عكْسِ قولِه الذي حكاه الله عنه في سُورةِ (آلِ عمرانَ)؛ حيث قال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ [آل عمران: ٤٠]؛ ولعلَّ ذلك لأنَّه قد ذُكِرَ حالُه في تَضاعيفِ دُعائِه في (آلِ عمرانَ)، وإنَّما المذكورُ هاهنا بُلوغُه أقصَى مراتبِ الكِبَرِ تتمَّةً لِما ذُكِرَ قبْلُ، وأمَّا هنالك فلم يَسبِقْ في الدُّعاءِ ذِكْرُ حالِه؛ فلذلك قدَّمَه على ذِكْرِ حالِ امرأتِه؛ لِما أنَّ المُسارعةَ إلى بَيانِ قُصورِ شأنِه أنسبُ[٢].

- قولُه: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ حالٌ من ضَميرِ المُتكلِّمِ مُؤكِّدةٌ للاستبعادِ إثرَ تأكيدٍ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ استِئنافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ ممَّا سلَفَ. وقولُه: ﴿قَالَ رَبُّكَ ...﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لمضمونِه، أي: قال عَزَّ وعلا: الأمْرُ كما وعدْتُ، وهو واقعٌ لا مَحالةَ، وتوسيطُ ﴿قَالَ﴾ بينَ الجُملتينِ مُشعِرٌ بمزيدِ الاعتناءِ بكلٍّ نهما. وقيل: (ذلك) إشارةٌ إلى ما قاله زكريَّا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أي: قال تعالى: الأمْرُ كما

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قلْتَ؛ تَصديقًا له فيما حَكاهُ من الحالةِ المُباينةِ للولادةِ في نفْسِه وفي امرأتِه، وقولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ ...﴾ استِئنافٌ مسوقٌ لإزالةِ استبعادِه بعدَ تقريرِه، أي: قال تعالى: وهو مع بُعْدِه في نفْسِه عليَّ هيِّنٌ. وقيل: (ذلك) في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى مُبْهَمٍ يُفسِّرُه قولُه تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ المُشارُ إليه بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هو القولَ المأخوذَ من ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾، أي: إنَّ قولَ ربِّكَ: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ بلَغَ غايةَ الوُضوحِ في بابِه، بحيثُ لا يَبينُ بأكثَرِ مما علِمْتَ؛ فيكونُ جاريًا على طريقةِ التَّشبيهِ، وعلى هذا الاحتمالِ فجُملةُ ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ تعليلٌ لإبطالِ التَّعجُّبِ إبطالًا مُستفادًا من قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾، ويكونُ الانتقالُ من الغَيبةِ في قولِه: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ إلى التَّكلُّمِ في قولِه: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ الْتفاتًا، ومُقْتضى الظَّاهرِ: هو عليه هيِّنٌ[1].

- وفُصِلَت جُملةُ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ عن الَّتي قبْلَها، أي: لم تُعْطَفْ عليها؛ لأنَّها جرَتْ على طريقةِ المُحاورةِ، وهي جوابٌ عن تعجُّبِه. والمقصودُ منه إبطالُ التَّعجُّبِ الَّذي في قولِه: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[2] [مريم: ٨].

- وقولُه: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ جوابًا لسُؤالٍ ناشئٍ عن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّ تقريرَ منشأِ التَّعجُّبِ يُثيرُ ترقُّبَ السَّامعِ أنْ يعرِفَ ما يُبطِلُ ذلك التَّعجُّبَ المُقرَّرَ، وهي أيضًا جُملةٌ مُقرِّرةٌ للوَعدِ المذكورِ، دالَّةٌ على إنجازِه، داخلةٌ في حيِّزِ (قال) الأوَّلِ؛ كأنَّه قيل: قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ: مثْلَ ذلك القولِ البديعِ قلْتُ -وذلك على أحدِ القولينِ في القائلِ-، أي: مثْلَ ذلك الوعدِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧١).

الخارقِ للعادةِ وعدْتُ: هو علَيَّ خاصَّةً هيِّنٌ، وإنْ كان في العادةِ مُستحيلًا. ثمَّ أُخرِجَ القولُ الثَّاني ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ مخرَجَ الالتفاتِ؛ جرْيًا على سَننِ الكبرياءِ لتَربيةِ المَهابةِ، وإدخالِ الرَّوعةِ. ثمَّ أسنَدَ -في قولِه: ﴿رَبُّكَ﴾- إلى اسمِ الرَّبِّ المُضافِ إلى ضَميرِه عليه السَّلامُ؛ تَشريفًا له، وإشعارًا بعلَّةِ الحُكْمِ؛ فإنَّ تذكيرَ جَريانِ أحكامِ رُبوبيَّتِه تعالى عليه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مِن إيجادِه مِن العَدمِ، وتَصريفِه في أطوارِ الخَلْقِ من حالٍ إلى حالٍ، شيئًا فشيئًا، إلى أنْ يبلُغَ كمالَه اللَّائقَ به: ممَّا يَقلعُ أساسَ استبعادِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لحُصولِ الموعودِ، ويُورِثُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الاطمئنانَ بإنجازِه لا مَحالةَ. ثمَّ الْتفَتَ في قولِه: ﴿عَلَيَّ﴾ من ضَميرِ الغائبِ العائدِ إلى الرَّبِّ إلى ياءِ العَظمةِ؛ إيذانًا بأنَّ مدارَ كونِه هيِّنًا عليه سُبحانه هو القُدرةُ الذَّاتيَّةُ لا رُبوبيَّتُه تعالى له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خاصَّةً، وتَمهيدًا لِما يعقُبُه[1].

- وجُملةُ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ قيل: إنَّها جُملةٌ مُستأنَفةٌ مُقرِّرةٌ لِما قبْلَها، والمُرادُ به ابتداءُ خلْقِ البشرِ هو الواقعُ إثرَ العدَمِ المحضِ، لا ما كان بعدَ ذلك بطريقِ التَّوالُدِ المُعتادِ. وإنَّما لم يُنسَبْ ذلك إلى آدمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وهو المخلوقُ من العدَمِ حقيقةً، بأنْ يُقالَ: وقد خلقْتُ أباك أو آدمَ من قبْلُ ولم يَكُ شيئًا، مع كِفايتِه في إزالةِ الاستبعادِ بقياسِ حالِ ما بُشِّرَ به على حالِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: لتأكيدِ الاحتجاجِ به، وتَوضيحِ منهاجِ القياسِ؛ حيث نَبَّهَ على أنَّ كلَّ فردٍ من أفرادِ البشرِ له حظٌّ من إنشائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من العدمِ. ولمَّا كان خلْقُ آدمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على هذا النَّمطِ السَّاري إلى جميعِ أفرادِ ذُرِّيتِه، أبدعَ من أنْ يكونَ ذلك مقصورًا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٦-٢٥٧).

على نفْسِه، كما هو المفهومُ من نِسبةِ الخلْقِ المذكورِ إليه، وأدلَّ على عِظَمِ قُدرتِه تعالَى، وكمالِ علْمِه وحكمتِه، وكان عدَمُ زكريَّا حينئذٍ أظهَرَ عنده وأجْلى، وكان حالُه أولى بأنْ يكونَ مِعيارًا لحالِ ما بُشِّرَ به؛ نسَبَ الخلْقَ المذكورَ إليه، كما نسَبَ الخلْقَ والتَّصويرَ إلى المُخاطبينَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]؛ توفيةً لمقامِ الامتنانِ حَقَّه، فكأنَّه قيل: وقد خلقْتُك مِن قبْلُ في تضاعيفِ خلْقِ آدمَ ولم تكُنْ إذ ذاك شيئًا أصلًا، بلْ عدمًا بحتًا، ونفيًا صِرفًا[١]. وقيل: الجُملةُ في موضعِ الحالِ مِن ضَميرِ الغَيبةِ الَّذي في قولِه: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أي: إيجادُ الغُلامِ لكَ هيِّنٌ عليَّ في حالِ كوني قد خلقْتُك مِن قبْلِ هذا الغُلامِ ولم تكُنْ موجودًا، أي: في حالِ كونِه مُماثِلًا لخلْقي إيَّاكَ، فكما لا عجَبَ من خلْقِ الولدِ في الأحوالِ المألوفةِ، كذلك لا عجَبَ من خلْقِ الولدِ في الأحوالِ النَّادرةِ؛ إذ هما إيجادٌ بعدَ عدمٍ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ في هذا الاستعجالِ تَعريضٌ بطلَبِ المُبادرةِ به؛ ولذلك حُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿ءَايَةً﴾[٣].

- قولُه: ﴿ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ اللَّامُ في ﴿لِّيٓ﴾ مُتعلِّقةٌ بـ﴿ٱجْعَل﴾، وتقديمُها على المفعولِ به؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ. أو مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٧٣).

وقَعَ حالًا من ﴿ءَايَةً﴾؛ إذ لو تأخَّرَ لكان صِفَةً لهَا. وقيل: ﴿ٱجۡعَل﴾ بمعنى التَّصييرِ لمَفعولينِ؛ أوَّلُهما: ﴿ءَايَةً﴾، وثانيهما: الظَّرفُ ﴿لِّيٓ﴾، وتقديمُه لأنَّه لا مُسوِّغَ لكونِ ﴿ءَايَةً﴾ مُبتدأً عندَ انحلالِ الجُملةِ إلى مُبتدأٍ وخبرٍ سِوى تقديمِ الظَّرفِ؛ فلا يتغيَّرُ حالُهما بعدَ وُرودِ النَّاسخِ ﴿ٱجۡعَل﴾[1].

- قولُه: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ ذكَرَ اللَّياليَ هنا، والأيَّامَ في (آلِ عمرانَ) في قولِه: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗا﴾ [آل عمران: ٤١]؛ للدَّلالةِ على أنَّه استمَرَّ عليه المنعُ من كلامِ النَّاسِ والتَّجرُّدُ للذِّكرِ والشُّكرِ ثلاثةَ أيَّامٍ ولياليهنَّ[2].

- قولُه: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ ﴿سَوِيّٗا﴾ حالٌ من فاعلِ ﴿تُكَلِّمَ﴾ مُفيدٌ لكونِ انتفاءِ التَّكلُّمِ بطريقِ الاضطرارِ دونَ الاختيارِ، أي: تُمنَعَ الكلامَ، فلا تُطيقَ به حالَ كونِك سَوِيَّ الخلْقِ، سليمَ الجوارحِ، ما بك شائبةُ بَكَمٍ ولا خَرَسٍ، وعلى هذا فذِكْرُ الوصفِ لمُجرَّدِ تأكيدِ الطُّمأنينةِ، وإلَّا فإنَّ تأجيلَه بثلاثِ ليالٍ كافٍ في الاطمئنانِ على انتفاءِ العاهةِ[3].

٥- قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ فيه تعديةُ لفظةِ ﴿فَخَرَجَ﴾ بـ ﴿عَلَىٰ﴾؛ لأنَّه ضمَّنَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٤).

(خرَجَ) معنى (طلَعَ)[١].

- قولُه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ﴾ خَصَّ التَّسبيحَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ العادةَ جاريةٌ أنَّ كلَّ مَن رأى أمْرًا عجِبَ منه، أو رأى فيه بديعَ صَنعةٍ أو غريبَ حِكمةٍ يقولُ: سُبحانَ اللهِ! سُبحانَ الخالقِ! فلمَّا رأى حُصولَ الولدِ من شيخٍ وعاقرٍ عجِبَ من ذلك، فسبَّحَ، وأمَرَ بالتَّسبيحِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٥).

الآيات (١٢-١٥)

﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَحَنَانًا﴾: أي: رَحمةً ومحبَّة، وأصلُ (حنن): يَدلُّ على الإشفاقِ والرِّقَّةِ[١].

﴿جَبَّارًا﴾: أي: متكبِّرًا، متعاليًا عن قَبولِ الحقِّ، ويُقالُ للقاهرِ غيرَه: جبارٌ، وقيل: هو الذي يَضربُ، ويقتُلُ على الغضبِ، وأصلُ (جبر) هنا: جنسٌ مِن العظمةِ والعلُوِّ[٢].

﴿عَصِيًّا﴾: أي: عاصيًا، والعَصِيُّ: ذو العصيانِ، وعَصَى عِصيانًا: إذا خرَج عن الطاعةِ، وأصلُه أن يتمنَّعَ بعَصاه[٣].

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾: أي: سَلامةٌ وأمانٌ، وأصلُ (سلم): يدلُّ على صِحَّةٍ وعافيةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٢٧)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

المَعنى الإجماليُّ:

أوجَد الله تعالى هذا الغلامَ المبشَّرَ به، وهو يحيى عليه السلامُ، وبيَّن سبحانَه ما أمَره به، وما منَحه مِن صفاتٍ فاضلةٍ، فقال تعالى: يا يحيى، خُذِ التَّوراةَ بجِدٍّ واجتِهادٍ؛ بحِفظِ ألفاظِها، وفَهمِ مَعانيها، والعَمَلِ بها، والدعوةِ لاتِّباعِها، وأعطيناه الفَهمَ لكِتابِ اللهِ، والحُكمَ به وهو صغيرُ السِّنِّ. وآتيناه رَحمةً ومَحبَّةً مِن عندِنا، وطهارةً مِن الذُّنوب، وكان مُطيعًا لله تعالى، وكان بارًّا بوالِدَيه مُطيعًا لهما، ولم يكُنْ متكَبِّرًا ولا عاصيًا. وسلامٌ مِن اللهِ على يحيى وأمانٌ له يومَ وُلِد، ويومَ يموتُ، ويومَ يُبعَثُ حيًّا يومَ القيامةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾.

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾.

أي: فوُلِد لزكريَّا يحيى، وقال اللهُ له: يا يحيى، خُذِ التَّوراةَ بجِدٍّ واجتهادٍ وعَزمٍ؛ فَهمًا لمعانيها، وعَمَلًا بما فيها، وحَملًا للنَّاسِ على اتِّباعِها[1].

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾.

أي: وأعطَينا يحيى الفَهمَ لكِتابِ اللهِ، والعِلمَ بأحكامِه، والعَمَلَ به، والحُكمَ به في حالِ صِغَرِه وصِباه قبلَ بُلوغِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٧٨).
قال الشنقيطي: (وعامَّةُ المفسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالكتابِ هنا: التَّوراةُ، وحكَى غيرُ واحدٍ عليه الإجماعَ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) =

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

أي: وأعْطَيْنا يحيى رَحمةً مِن عِندِنا[1].

= (١٦/ ٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٧٨، ٣٧٩).

قال الشوكاني: (﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ المرادُ بالحكمِ الحكمةُ، وهي الفهمُ للكتابِ الَّذي أُمِر بأخذِه وفهمُ الأحكامِ الدِّينيَّةِ. وقيلَ: هي العلمُ وحفظُه والعملُ به. وقيلَ: النُّبوَّةُ. وقيلَ: العقلُ. ولا مانعَ مِن أنْ يكونَ الحكمُ صالحًا لحملِه على جميعِ ما ذُكِر). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٤).

قال الشنقيطي: (وللعُلَماءِ في المرادِ بالحُكمِ أقوالٌ مُتقارِبةٌ، مَرجِعُها إلى شَيءٍ واحدٍ، وهو أنَّ الله أعطاه الفَهْمَ في الكتابِ، أي: إدراكَ ما فيه والعَمَلَ به في حالِ كَونِه صَبيًّا). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٧٨).

ونسَب السمعاني القولَ بأنَّ المرادَ بـ ﴿ٱلْحُكْمَ﴾: النُّبُوَّةُ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٨٢).

لكن قال ابنُ عاشور: (ويَبعُدُ أن يكونَ يحيى أُعطِيَ النبُوَّةَ وهو صبيٌّ؛ لأنَّ النبُوَّةَ رُتبةٌ عظيمةٌ، فإنَّما تُعطى عند بُلوغِ الأشُدِّ. واتَّفَق العُلماءُ على أنَّ يحيى أُعطيَ النبوَّةَ قبل بلوغِ الأربعينَ سنةً بكثيرٍ. ولعلَّ الله لَمَّا أراد أن يكونَ شَهيدًا في مُقتَبَلِ عُمُرِه باكَرَه بالنبُوَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٦).

(١) قال الرسعني: (قال ابنُ عباسٍ وأكثرُ المفسِّرينَ واللغويينَ: الحنانُ: الرحمةُ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧).

وممن اختار أنَّ (حنانًا) معطوفٌ على ﴿ٱلْحُكْمَ﴾ أي: وآتيناه حنانًا: يحيى بنُ سلام، والزجاج، والنحاس، وابنُ عطية، والقرطبي، وابنُ كثير، والبقاعي، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢١٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٢٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٧٩). =

﴿وَزَكَوٰةً﴾.

أي: وطهارةً مِن الذُّنوبِ والآفاتِ، ونقاءً مِن الخبائِثِ[١].

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

أي: وكان مُمتَثِلًا لأوامِرِ رَبِّه، مُجتَنِبًا لنواهيه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾.

أي: وكان مُسارِعًا في طاعةِ والِدَيه، كثيرَ الإكرامِ والإحسانِ إليهما قَولًا وفِعلًا[٣].

= قال النحاس: (﴿وَحَنَانًا﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْحُكْمَ﴾، وفي معناه قولان عن ابن عبَّاسٍ: أحدهما: قال: تعطُّفُ اللهِ جلَّ وعزَّ عليه بالرحمةِ. والقول الآخَرُ: ما أُعطِيَه من رحمةِ النَّاسِ حتى يُخلِّصَهم من الكُفرِ والشَّرِّ). ((إعراب القرآن)) (١١/ ٨٧).

وقال الشنقيطي: (والحنانُ: هو ما جُبِل عليه مِن الرَّحمةِ، والعطفِ والشَّفقةِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٧٩). يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٧).

وقال ابن عطية: (ويجوزُ أن يكونَ قولُه: ﴿وَحَنَانًا﴾ عطفًا على قولِه: ﴿صَبِيًّا﴾، أي: وبحالِ حنانٍ منا وتزكيةٍ له). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧).

وقال ابن جرير: (وقَولُه: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: ورَحمةً مِنَّا ومحبَّةً له آتيناه الحُكمَ صَبيًّا). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٠).

قال البقاعي: (﴿وَكَانَ﴾ أي: جِبِلَّةً وطَبعًا). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

أي: ولم يكُنْ مُتكَبِّرًا عن عبادةِ اللهِ، ولا مُترفِّعًا على أبويه وغيرِهما مِن النَّاسِ، ولا مُستَخِفًّا بحقوقِ العبادِ، بل كان مُتواضِعًا مُتذلِّلًا، طائعًا لا يعصي ربَّه ولا والِدَيه، ولا يَظلِمُ عِبادَ اللهِ(١).

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ١٥﴾.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾.

أي: وتحيَّةٌ مِن اللهِ ليحيى يومَ وُلِد، وأمانٌ وسَلامةٌ له من الشَّيطانِ، ومِن كُلِّ ما يكرَهُ(٢).

= (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٠، ٤٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨١).

قيل: معنى السلامِ هنا: الأمانُ. وممن اختاره: ابنُ جريرٍ، والسمعاني، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٧).

قال ابنُ عطية: (والأظهَرُ عندي أنَّها التحيَّةُ المتعارَفةُ، فهي أشرَفُ وأنبَهُ مِن الأمانِ؛ لأنَّ الأمانَ متحَصِّلٌ له بنَفيِ العِصيانِ، وهي أقَلُّ دَرَجاتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨).

قال الشنقيطي: (ومَرجِعُ القَولينِ إلى شيءٍ واحدٍ؛ لأنَّ معنى سلامِ التحيَّةِ: الأمانُ، والسَّلامةُ ممَّا يُكرَهُ، وقَولُ مَن قال: هو الأمانُ، يعني: أنَّ ذلك الأمانَ مِن الله. والتحيةُ مِنَ الله معناها: الأمانُ والسَّلامةُ مِمَّا يُكرَهُ، والظاهِرُ المتبادِرُ أنَّ قَولَه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾ تحيةٌ مِن الله ليحيى، ومعناها: الأمانُ والسَّلامةُ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٨١).

﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾.

أي: وتحيةٌ مِنَ اللهِ على يحيى يومَ يموتُ، وأمانٌ وسَلامةٌ له مِن كُرَبِ الموتِ، وعذابِ القَبرِ وفِتنَتِه[١].

﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

أي: وتحيَّةٌ مِنَ اللهِ ليحيى، وأمانٌ وسلامةٌ له حين نبعَثُه حيًّا يومَ القيامةِ، فيأمَنُ مِن الفَزعِ والأهوالِ وعذابِ النَّارِ[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ فيه ردٌّ لِمَن قال: إنَّ النبُوَّةَ لم تحصُلْ لأحدٍ إلَّا بعدَ الأربعينَ[٣]، وهذا على القولِ بأنَّ ﴿ٱلْحُكْمَ﴾ هنا المرادُ به: النبوةُ.

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ يدُلُّ على أنَّ فِعلَ العبدِ خَلقٌ لله تعالى؛ لأنَّه تعالى جَعَلَ طَهارةَ يحيى عليه السَّلامُ وزَكاتَه منه تعالى[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي: لم يكُنْ مُتجبِّرًا مُتكبِّرًا عن عبادةِ اللهِ، ولا مُترفِّعًا على عبادِ الله، ولا على والِدَيه، بل كان مُتواضِعًا، مُتذَلِّلًا مُطيعًا، أوَّابًا لله على الدَّوامِ؛ فجمَع بينَ القيامِ بحَقِّ اللهِ، وحَقِّ خَلْقِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥١٨).

ولهذا حصَلَت له السَّلامةُ مِنَ اللهِ في جميعِ أحواله؛ مَبادِئِها وعواقِبِها؛ فلذا قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾، وذلك يقتضي سلامَتَه من الشَّيطانِ والشَّرِّ والعِقابِ في هذه الأحوالِ الثَّلاثةِ وما بينَها، وأنَّه سالمٌ مِن النَّارِ والأهوالِ، وأنَّه مِن أهلِ دارِ السَّلامِ[1].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ إنْ قيلَ: ما الحِكمةُ في تقييدِ السَّلامِ في قِصَّةِ يحيى عليه السَّلامُ بهذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ، وكذلك المسيحُ في قَولِه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٣]؟

فالجوابُ: أنَّ سِرَّه -والله أعلمُ- أنَّ طَلَبَ السَّلامةِ يتأكَّدُ في المواضِعِ التي هي مَظانُّ العَطَبِ ومواطِنُ الوَحشةِ، وكلَّما كان الموضِعُ مَظِنَّةَ ذلك تأكَّد طَلَبُ السَّلامةِ، وتعلَّقَت بها الهِمَّةُ، فذُكِرَت هذه المواطِنُ الثَّلاثةُ؛ لأنَّ السَّلامةَ فيها آكَدُ، وطَلَبَها أهمُّ، والنَّفسَ عليها أحرَصُ؛ لأنَّ العبدَ فيها قد انتقلَ مِن دارٍ كان مُستقِرًّا فيها مُوطِّنَ النَّفسِ على صُحبتِها وسُكناها، إلى دارٍ هو فيها مُعَرَّضٌ للآفاتِ والمحَنِ والبلاءِ، فإنَّ الجنينَ مِن حينِ خَرَج إلى هذه الدَّارِ انتصَبَ لبلائِها وشَدائِدِها، ولأَوائِها ومِحَنِها وأفكارِها؛ ولهذا مِن حينِ خَرَج ابتدرَتْه طَعنةُ الشَّيطانِ في خاصرتِه، فبكى لذلك، ولِمَا حصلَ له من الوَحشةِ بِفِراقِ وَطَنِه الأوَّلِ؛ فكان طَلَبُ السَّلامةِ في هذه المواطِنِ مِن آكَدِ الأمورِ.

الموطنُ الثَّاني: خروجُه مِن هذه الدَّارِ إلى دارِ البَرزخِ عندَ الموتِ، ونِسبةُ الدُّنيا إلى تلك الدَّارِ كنِسبةِ دارِه في بطنِ أمِّه إلى الدُّنيا تقريبًا وتمثيلًا، وإلَّا فالأمرُ أعظَمُ مِن ذلك وأكبَرُ، وطلَبُ السَّلامةِ أيضًا عند انتقالِه إلى تلك الدَّارِ مِن أهَمِّ الأمورِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠).

الموطنُ الثالث: مَوطِنُ يومِ القيامةِ، يومَ يَبعَثُ الله تعالى الأحياءَ، ولا نِسبةَ لِما قَبلَه مِن الدُّورِ إليه، وطلَبُ السَّلامةِ فيه آكَدُ مِن جميعِ ما قَبلَه؛ فإنَّ عَطَبَه لا يُستدرَكُ، وعَثْرتَه لا تُقالُ، وسَقَمَه لا يُداوَى، وفَقْرَه لا يُسَدُّ.

فتأمَّلْ كيف خَصَّ هذه المواطِنَ بالسَّلامِ؛ لشِدَّةِ الحاجةِ إلى السلامةِ فيها، وتأمَّلْ ما في السَّلامِ مع الزيادةِ على السَّلامةِ مِن الأُنسِ، وذَهابِ الوَحشةِ، ثمَّ أنزِلْ ذلك على الوَحشةِ الحاصلةِ للعَبدِ في هذه المواطِنِ الثلاثةِ؛ عند خُروجِه إلى عالمِ الابتلاءِ، وعند مُعاينتِه هَولَ المَطلَعِ إذا قَدِمَ على اللهِ وحيدًا مجرَّدًا عن كلِّ مُؤنِسٍ إلَّا ما قدَّمه من صالحِ عَمَلٍ، وعند موافاتِه القيامةَ مع الجَمعِ الأعظَمِ؛ ليصيرَ إلى إحدى الدارَينِ التي خُلِقَ لها، واستُعمِلَ بعَمَلِ أهلِها؛ فأيُّ موطنٍ أحَقُّ بطلَبِ السَّلامةِ مِن هذه المواطِنِ[1] التي يكونُ الإنسانُ فيها في غايةِ الضَّعفِ والحاجةِ، وقِلَّةِ الحِيلةِ والفَقرِ إلى اللهِ، وعَظيمِ الهَولِ[2]؟!

عن ابنِ عُيَينةَ قال: (أوحَشُ ما يكونُ الخَلقُ في ثلاثةِ مَواطِنَ: يومَ يُولَدُ فيرى نفسَه خارجًا مِمَّا كان فيه، ويومَ يموتُ فيرَى قَومًا لم يكُنْ عايَنَهم، ويومَ يُبعَثُ فيرَى نفسَه في محشَرٍ عظيمٍ. قال: فأكرَمَ اللهُ فيها يحيى بنَ زكريَّا، فخصَّه بالسَّلامِ عليه؛ فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾)[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ استئنافٌ طُوِيَ قبْلَه جُمَلٌ كثيرةٌ؛ مُسارَعةً إلى الإنباءِ بإنجازِ الوعدِ الكريمِ، والتَّقديرُ: فلمَّا

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٢).

وُلِدَ يحيى وكبِرَ، وبلَغَ السِّنَّ الَّذي يُؤمَرُ فيه، قال اللهُ له...[١]، وهو مقولُ قولٍ محذوفٍ، بقرينةِ أنَّ هذا الكلامَ خِطابٌ ليحيى؛ فلا مَحالةَ أنَّه صادرٌ من قائلٍ، ولا يُناسِبُ إلَّا أنْ يكونَ قولًا من اللهِ تعالى. وهذا ابتداءُ ذِكْرِ فضائلِ يحيى، وطُوِيَ ما بين ذلك؛ لعدَمِ تعلُّقِ الغرضِ به، والسِّياقُ يدُلُّ عليه[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ جعْلُ حنانِ يحيى من لدُنِ اللهِ: إشارةٌ إلى أنَّه مُتجاوِزٌ المُعتادَ بينَ النَّاسِ. وجِيءَ في وصْفِه بالتَّقوى بفعْلِ (كَانَ)؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِه مِن الوصفِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ عطْفٌ على ﴿ٱلْحُكْمَ﴾، وتنوينُ (حَنَانًا) وتنكيرُه؛ للتَّفخيمِ، و﴿مِّن﴾ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقَعَ صِفةً له مُؤكِّدةً لِما أفادَه التَّنوينُ من الفخامةِ الذَّاتيَّةِ بالفخامةِ الإضافيَّةِ، أي: وآتيناهُ رحمةً عظيمةً، كائنةً من جنابِنا، أو رحمةً في قلْبِه وشفقةً على أبويه وغيرِهما[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾

- قولُه: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ فيه عطْفُ بُرورِه بوالديهِ على كونِه تقيًّا؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِه من هذا الوصفِ. والبَرُّ -بفتحِ الباءِ- وصْفٌ على وزْنِ المصدرِ؛ فالوصفُ به مُبالغةٌ[٥].

- قولُه: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ المُبالغةُ مُنصرِفةٌ إلى النَّفيِ لا إلى المنفيِّ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٧٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٥٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٧٧).

أي: لم يكُنْ عاصيًا بالمرَّةِ[١].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال تعالى هنا في قصَّةِ يحيى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، وفي قصَّةِ عيسى عليه السَّلامُ قال: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]؛ فاختلَفَ الوصفانِ في الآيتينِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ سُبحانه وصَفَ يحيى عليه السَّلامُ بعِظَمِ التَّقوى في قولِه: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾، وتقيٌّ: فعيلٌ من التَّقوى، وهو من أبنيةِ المُبالغةِ؛ فيُفْهَمُ الوفاءُ بوُجوهِ التَّقوى حتَّى لا يكونَ من الموصوفِ به معصيةٌ ولا تقصيرٌ، فالمُرادُ بقولِه: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ نفْيٌ للمعاصي جُملةً؛ ثمَّ نُوسِبَ بينَ هذا الوصفِ وما تقدَّمَه ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾؛ فورَدَ بلفظِ المُبالغةِ مثْلَه. وأمَّا قولُه في قصَّةِ عيسى عليه السَّلامُ: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾؛ فملحوظٌ في ذلك ما جرَى لأتْباعِه عليه السَّلامُ، وما وَقَعوا فيه مِن العظيمةِ حينَ قالوا: هو ابنُ اللهِ -تعالى اللهُ عن ذلك عُلوًّا كبيرًا-، فاستحقُّوا الوصفَ بالشَّقاءِ بمقالِهم، والشَّقِيُّ مُستحِقٌّ العذابَ الأُخرويَّ[٢].

ووجهٌ آخَرُ: أنَّ الأوَّلَ: إخبارٌ مِن اللهِ تعالى ببركتِه وسلامِه عليه. والثاني: إخبارُ عيسى عليه السَّلامُ عن نَفسِه؛ فناسَبَ عَدَمُ التَّزكيةِ لِنَفسِه بنَفيِ المعصيةِ؛ أدبًا مع اللهِ تعالى، وقال: ﴿شَقِيًّا﴾ أي: بعُقوقِ أمِّي، أو بعيدًا مِن الخيرِ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾، أي: إنَّ إكرامَ اللهِ مُتمكِّنٌ من أحوالِه الثَّلاثةِ المذكورةِ. وهذا كنايةٌ على أنَّه بمَحلِّ العنايةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٢٥-٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((كشف المعاني فى المتشابه من المثاني)) لابن جماعة (ص: ٢٤٦).

الإلهيَّةِ في هذه الأحوالِ، والمُرادُ باليومِ: مُطلَقُ الزَّمانِ الواقعِ فيه تلك الأحوالُ، وجِيءَ بالفعلِ المُضارعِ في ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾؛ لاستحضارِ الحالةِ الَّتي مات فيها[1].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قال تعالى هنا: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ...﴾، فقاله في قصَّةِ يحيى مُنكَّرًا، وقال بعدُ في قصَّةِ عيسى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ ...﴾ مُعرَّفًا؛ لأنَّ الأوَّلَ من اللهِ، والقليلُ منه كثيرٌ، والثَّاني من عيسى، و(أل) للاستغراقِ أو للعهْدِ، أي: ذلك السَّلامُ الموجَّهُ إلى يحيى مُوجَّهٌ إليَّ[2].

وقيل: الحِكمةُ في تسليمِ اللهِ تعالى على يحيى بلَفظِ النَّكِرةِ، وتَسليمِ المسيحِ على نَفسِه بلَفظِ المعرفةِ: أنَّ في دُخولِ اللامِ في السَّلامِ فوائِدَ، وهي: قَصدُ التبَرُّكِ باسمِه السَّلامِ، والإشارةُ إلى طَلَبِ السَّلامِ له، وسُؤالُها من اللهِ باسمِ السَّلامِ، وقَصدُ عُمومِ السَّلامِ؛ لذا كان ذلك هو الأحسَنَ في سلامِ العبادِ؛ ولذلك دخَلَت الألفُ واللامُ في سلامِ عيسى على نفسِه. ولَمَّا كان المتكَلِّمُ بالسَّلامِ على يحيى هو اللهَ تعالى في قَولِه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ فلم يَقصِدْ تبَرُّكًا بذِكرِ الاسمِ، كما يَقصِدُ العَبدُ؛ فإنَّ التبَرُّكَ استِدعاءُ البَرَكةِ واستِجلابُها، والعبدُ هو الذي يَقصِدُ ذلك، ولا قَصَدَ أيضًا تعرُّضًا وطلَبًا على ما يَقصِدُه العَبدُ، ولا قصَدَ العُمومَ، وهو أيضًا غيرُ لائقٍ هنا؛ لأنَّ سلامًا منه سُبحانَه كافٍ مِن كُلِّ سَلامٍ، ومُغنٍ عن كلِّ تحيةٍ، ومُقَرِّبٌ مِن كلِّ أمنيةٍ؛ فأدنى سَلامٍ منه -ولا أدنى هناك- يَستغرِقُ الوَصفَ، ويُتِمُّ النِّعمةَ، ويَدفَعُ البُؤسَ، ويُطيِّبُ الحياةَ، ويَقطَعُ موادَّ العَطَبِ والهلاكِ؛ فلم يكُنْ لِذِكرِ الألفِ واللَّامِ هنا معنًى[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٧-٧٨).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٦٦).

وقيل: إنَّما دخَلَ الألفُ واللَّامُ؛ لأنَّ النَّكرةَ إذا تكرَّرتْ تعرَّفَتْ. وقيل: نكرةُ الجنسِ ومعرفتُه سواءٌ؛ تقولُ: لا أشرَبُ ماءً، ولا أشرَبُ الماءَ، فهُما سواءٌ[١].

وقيل: سلامُ عيسى أرجحُ؛ لأنَّه تعالى أقامَه في ذلك مَقامَ نفْسِه، فسلَّمَ نائبًا عن اللهِ تعالى[٢].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٠).

الآيات (١٦-٢١)

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱنتَبَذَتۡ﴾: أي: اعتزَلتْ، وانفرَدَتْ، وتنحَّتْ، من النبْذَة، (بضمِّ النونِ وفتحِها)، وهي الناحيةُ، وأصلُ (نبذ): يدلُّ على الطَّرحِ والإلقاءِ[١].

﴿سَوِيّٗا﴾: أي: مُعتَدِلًا تامًّا، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتدالٍ[٢].

﴿زَكِيّٗا﴾: أي: طاهِرًا مِن الذُّنُوبِ، يَنْمو على النَّزاهةِ والعِفَّةِ، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على نَماءٍ وزِيادةٍ[٣].

﴿بَغِيّٗا﴾: أي: زانيةً، وأصلُ (بغي) هنا: يدلُّ على جِنسٍ مِن الفَسادِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩١).

وقيل: البغيُّ التي تبغي الزِّنا، أي: تطلبُه. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤).

﴿مَّقۡضِيّٗا﴾: أي: محكومًا به، مفروغًا منه، سابقًا في علمِ الله أنَّه كائنٌ، فهو واقعٌ لا مَحالةَ، وأصلُ (قضي): يدُلُّ على إحكامِ أمرٍ، وإنفاذِه لجِهَتِه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

بعدَ أن ذكَر الله تعالى جانبًا مِن قصةِ زكريا ويحيى -عليهما السلام- وما فيها مِن العجبِ؛ ذكَر قصةً أخرَى أعجبَ منها، وهي قصةُ مريمَ، وميلادِ ابنِها عيسى عليه السلامُ، فقال تعالى: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- في هذا القُرآنِ خَبَرَ مَريمَ إذ تباعَدَت عن أهلِها، فاتَّخَذت لها مَكانًا جهة الشَّرقِ. فجعَلَت بينَها وبينَ أهلِها سِترًا يَستُرُها عنهم وعن النَّاسِ، لتتفرَّغَ للعبادةِ، فأرسَلْنا إليها جبريلَ، فتمثَّل لها في صورةِ رجلٍ تامِّ الخَلْقِ، جَميلِ الصُّورةِ. قالت مريمُ له: إنِّي أستجيرُ بالرَّحمن منك أن تنالَني بسوءٍ إنْ كُنتَ تتقي اللهَ فستنتهي بتعوُّذي منك. قال لها المَلَكُ: إنَّما أنا رسولُ رَبِّك بعَثَني إليك؛ لأهَبَ لكِ غلامًا طاهرًا من الذُّنوبِ. قالت مريمُ للمَلَك: كيف يكونُ لي غُلامٌ ولم يمسَسْني بشَرٌ بنكاحٍ، ولم أكُن زانيةً؟! قال لها المَلَكُ: هكذا الأمرُ كما تَصِفينَ مِن أنَّه لم يَمسَسْكِ بَشَرٌ، ولم تكوني بَغِيًّا، ولكِنَّ رَبَّك قال: خلْقُ الغُلامِ منك مِن غيرِ أبٍ عليَّ سَهلٌ؛ ولِيَكونَ هذا الغُلامُ عَلامةً للنَّاسِ تدُلُّ على قُدرةِ اللهِ تعالى، ورحمةً منَّا به وبك وبالنَّاسِ، وكان خلقُه على هذه الحالةِ قَضاءً سابِقًا مُقَدَّرًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢١٧)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٩).

لَمَّا ذكَرَ تعالى قِصَّةَ زكريَّا -عليه السَّلامُ- وأنَّه أوجَدَ منه في حالِ كِبَرِه وعُقمِ زَوجتِه ولدًا زكيًّا طاهِرًا مُباركًا- عطَفَ بذِكرِ قِصَّةِ مَريمَ في إيجادِه ولَدَها عيسى -عليهما السَّلامُ- منها مِن غيرِ أبٍ؛ فإنَّ بينَ القِصَّتينِ مُناسَبةً ومُشابَهةً؛ ولهذا ذكَرَهما في (آلِ عِمرانَ)، وهاهنا، وفي سورةِ (الأنبياءِ)، يَقرِنُ بين القِصَّتينِ؛ لتقارُبِ ما بينهما في المعنى، ليَدُلَّ عِبادَه على قُدرتِه، وعَظمةِ سُلطانِه، وأنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى قِصَّةَ زكريَّا -عليه السَّلامُ- وطلَبَه الولدَ، وإجابةَ الله إيَّاه، فوُلِدَ له من شَيخٍ فانٍ، وعَجوزٍ له عاقرٍ، وكان ذلك مما يُتعَجَّبُ منه- أردفه بما هو أعظَمُ في الغَرابةِ والعَجَبِ، وهو وُجودُ ولَدٍ مِن غَيرِ ذَكَرٍ[(٢)]، فقال تعالى:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾.

أي: واتْلُ -يا مُحمَّدُ- في القُرآنِ خبَرَ مَريمَ عليها السَّلامُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٨-٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٥).

قال البقاعي: (﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ بلَفظِ الأمرِ ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ ابنةَ عِمرانَ؛ خالةَ يحيى، كما في الصَّحيحِ مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ عن مالكِ بنِ صَعصعةَ الأنصاريِّ رَضِيَ الله عنهما في حديثِ الإسراءِ: «فلمَّا خَلَصتُ فإذا يحيى وعيسى، وهما ابنا خالة»). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٨٢-١٨٣).

وقد اختلف العُلَماءُ في نُبُوَّةِ مريمَ عليها السَّلامُ، والأكثرُ على أنَّها ليست نبيَّةً، وحُكِي الإجماعُ على ذلك، وحكَى أبو بكر الباقِلَّاني، والقاضي أبو يعلى، وأبو المعالي الجويني وغيرُهم الإجماعَ على أنَّه لا يوجدُ في النِّساءِ نَبيَّةٌ. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (٧/ ٤٤٠)، ((الأذكار)) للنووي (ص: ١١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٩٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٣٤٩). =

﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾.

أي: حينَ تنحَّتْ عن أهلِها وانفَرَدتْ وَحدَها في موضعٍ جِهةَ المَشرِقِ(١).

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾.

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾.

= وقال ابنُ كثير: (الذي عليه أئمَّةُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وهو الذي نقَله الشيخُ أبو الحسَنِ عليُّ بنُ إسماعيلَ الأشعريُّ عنهم: أنَّه ليس في النِّساءِ نبيَّةٌ، وإنَّما فيهنَّ صِدِّيقاتٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٣).

وقال ابنُ تيميةَ: (والقرآنُ والسُّنَّةُ دلَّا على ذلك؛ كما في قولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقولِه: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ﴾ [المائدة: ٧٥] ذَكَر أنَّ غايةَ ما انتهَتْ إليه أُمُّه: الصديقيَّةُ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣٩٦).

وقيل: هي نبيَّةٌ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ حزمٍ، وابنُ عطيةَ، والقرطبي. يُنظر: ((الفِصَل)) لابن حزم (٥/ ١٢، ١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٢، ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٩، ٨٠).

قيل في سببِ انفرادِها عنهم: إنَّها اتخذَتْ مكانًا تنفردُ فيه للعبادةِ.

قال ابنُ عطية: (وذلك أنَّ مريمَ كانت وقفًا على سدانةِ المتعبَّدِ وخدمتِه والعبادةِ فيه، فتنحَّتْ مِن الناسِ لذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩).

وقيل: إنَّها اتخَذتْ مكانًا تعتزلُ فيه أيامَ حيضِها. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٣).

وقال ابن كثير: (ذهبَت إلى شرقِ المسجدِ المقدسِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٩). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٥).

وقيل: جهةَ الشرقِ مِن مساكنِ أهلِها. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩).

وقيل في سببِ كونِ هذا المكانِ في الشرقِ: لأنَّهم كانوا يُعَظِّمونَ جهةَ الشَّرقِ؛ لأنَّها مطلعُ الأنوارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٦).

أي: فجعَلَت مَريمُ بينَها وبينَ أهلِها حاجِزًا يَستُرُها عنهم وعن النَّاسِ؛ حتى تتفَرَّغ لعبادةِ اللهِ[١].

﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾.

أي: فأرسَلْنا إلى مَريمَ جِبريلَ فجاءَها على هيئةِ رَجُلٍ مُعتَدِلِ الخِلْقةِ، جَميلِ الصُّورةِ[٢].

﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾.

﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾.

أي: قالت مَريمُ وهي خائِفةٌ: إني ألتَجِئُ وأعتَصِمُ بالرَّحمنِ منك -أيُّها الرَّجُلُ- أن تنالَني بسُوءٍ[٣].

﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٥، ٤٨٦)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ١٠٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٦).

قال أبو السعود: (﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾...؛ لتستأنِسَ بكلامِه وتتلقَّى منه ما يُلقي إليها من كلماتِه تعالى؛ إذ لو بدا لها على الصورةِ الملَكيَّة، لنَفِرَت منه، ولم تستَطِعْ مُفاوضتَه). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٦، ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).

قال ابنُ عاشور: (حَسِبَت أنَّه بشَرٌ اختبأَ لها؛ لِيُراوِدَها عن نفسِها، فبادرَتْه بالتعوُّذِ منه قبلَ أن يكَلِّمَها، مُبادِرةً بالإنكارِ على ما توهَّمتْه مِن قَصدِه الذي هو المتبادِرُ مِن أمثالِه في مِثلِ تلك الحالةِ... وهذه مَوعِظةٌ له). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٠، ٨١).

أي: إنْ كُنتَ ذا تقوى تجتَنِبُ ما حرَّم اللهُ، ولا تُقدِمُ على الفُجورِ، فستنتهي بتعوُّذي منك[١].

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾.

أي: قال جِبريلُ لِمَريمَ: إنَّما أنا مَلَكٌ مُرسَلٌ من الله إليك، ولستُ كما تظُنِّينَ، فلا تخافي مني[٢].

﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿لِيَهَبَ﴾ بإخبارِ جِبريلَ عليه السَّلامُ عن اللهِ عزَّ وجَلَّ، أي: لِيَهَبَ لكِ اللهُ غُلامًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٧)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).

قال ابن جرير: (قالت: إني أعوذُ -أيُّها الرَّجُلُ- بالرَّحمنِ منك، تقولُ: أستجيرُ بالرَّحمنِ منك أن تنالَ مني ما حَرَّمه عليك، إن كنتَ ذا تقوى له تتَّقي محارِمَه، وتجتَنِبُ معاصيَه؛ لأنَّ مَن كان لله تقيًّا، فإنَّه يجتنِبُ ذلك. ولو وُجِّهَ ذلك إلى أنَّها عَنَت: إني أعوذُ بالرَّحمنِ منك إن كنتَ تتَّقي اللهَ في استجارتي واستعاذتي به منك، كان وجهًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٧).

وقال ابن الجوزي: (المعنى: إن كنتَ تتَّقي الله، فستنتهي بتعوُّذي منك. هذا هو القولُ عندَ المحقِّقينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨١).

(٣) قرأ بها أبو عمرٍو ويعقوبُ البصريان، وورشٌ عن نافعٍ، واختُلِف في قراءةِ قالونَ بها. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٧، ٣١٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٣٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٣٢).

٢- قِراءةُ ﴿لِأَهَبَ﴾ بإسناد الفِعلِ إلى جبريلَ عليه السَّلامُ؛ وذلك لأنَّ الله أمَرَ جِبريلَ أن ينفُخَ الرُّوحَ في مَريمَ، فهو سببٌ في وجودِ غُلامِها(١).

﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾.

أي: قال جِبريلُ لِمَريمَ: أرسَلَني اللهُ إليكِ؛ لأكونَ سَبَبًا في هبةِ غلامٍ لك طاهِرٍ من الذُّنوبِ والخِصالِ الذَّميمةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾.

أي: قالت مَريمُ: كيف يكونُ لي غُلامٌ أَلِدُه، ولم يَقرَبْني أحدٌ بنِكاحٍ(٣)؟!

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٧، ٣١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٤٠، ٤٤١)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٧).
قال الشنقيطي: (الظاهِرُ أنَّ استفهامَها استخبارٌ واستعلامٌ عن الكيفيَّةِ التي يكونُ فيها حَملُ الغلامِ المذكورِ؛ لأنَّها مع عدمِ مَسيسِ الرِّجالِ لم تَتَّضِحْ لها الكيفيَّةُ، ويحتملُ أن يكون استفهامُها تعجُّبًا من كمالِ قُدرةِ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٨٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧].

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

أي: ولم يكُنْ مِن دَأبي الفُجورُ والوقوعُ في الفاحِشةِ، فكيف يكونُ لي ولَدٌ[١]؟!

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾.

أي: قال جبريلُ لِمَريمَ: هكذا الأمرُ كما ذكرتِ مِن أنَّه لم يمسَسْكِ بشَرٌ، ولم تكوني بَغيًّا، ولكِنْ قال ربُّكِ: خلْقُ الغُلامِ منك مِن غيرِ أبٍ سَهلٌ ويَسيرٌ عليَّ[٢]!

﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾.

أي: ونخلُقُ ولَدَكِ الذي تَلِدينَه مِن غيرِ أبٍ؛ لنجعَلَ ذلك عَلامةً للنَّاسِ، ودَلالةً تَدُلُّهم على كمالِ قُدرةِ الخالِقِ العَجيبةِ، وعَظمةِ سُلطانِه، وتَوحيدِه سُبحانَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٨).

وممن اختار المعنى المذكور: ابنُ جرير، وابنُ عطية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٣).

قال ابن عطية: (المعنى: قال لها الملكُ: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ هو كما وَصَفْتِ، ولكن ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾، ويحتمِلُ أن يريدَ: على هذه الحالِ ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾، والمعنى متقاربٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩).

ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾.

أي: ونبيًّا يدعو إلى اللهِ؛ رَحمةً منَّا له ولكِ وللنَّاسِ، خُصوصًا مَن آمَنَ به واتَّبَعه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٤٩ - ٥١].

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

أي: وكان خَلْقُ اللهِ للولَدِ منكِ مِن غيرِ أبٍ أمرًا قد قضاه اللهُ وقَدَّرَه؛ فوقوعُه كائِنٌ لا محالةَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).
قال السعدي: (أمَّا رحمةُ الله به: فلِمَا خَصَّه الله بوحيه، ومنَّ عليه بما منَّ به على أولي العَزمِ، وأمَّا رحمتُه بوالدته: فلِمَا حَصَل لها مِن الفَخرِ والثَّناءِ الحَسَنِ، والمنافِع العظيمةِ، وأمَّا رحمتُه بالنَّاسِ فإنَّ أكبَرَ نِعَمِه عليهم أنْ بَعَث فيهم رسولًا يتلو عليهم آياتِه، ويزكِّيهم، ويعَلِّمُهم الكتابَ والحِكمةَ، فيُؤمِنونَ به ويُطيعونَه، وتحصُلُ لهم سعادةُ الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٩). =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- أحسَنُ الطُّرُقِ في التَّعليمِ والتَّفهيمِ: الأخذُ مِن الأقرَبِ فالأقرَبِ، مُترقِّيًا إلى الأصعَبِ فالأصعَبِ؛ فالله تعالى قدَّم قِصَّةَ يحيى على قِصَّةِ عيسى -عليهما السَّلامُ-؛ لأنَّ خَلقَ الولَدِ مِن شَيخينِ فانيَينِ أقرَبُ إلى مناهِجِ العاداتِ مِن تَخليقِ الولَدِ لا مِن الأبِ البتَّةَ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ فجمَعَت مريمُ عليها السَّلامُ بينَ الاعتِصامِ برَبِّها، وبينَ تخويفِ ذلك الشَّابِّ، وترهيبِه وأمْرِه بلُزومِ التقوى، وهي في تلك الحالةِ الخاليةِ، والشَّبابِ، والبُعدِ عن النَّاسِ، وهو في ذلك الجمالِ الباهِرِ، والبَشَريَّةِ الكاملةِ السَّويَّة، ولم ينطِقْ لها بسوءٍ أو يتعَرَّضْ لها، وإنما ذلك خَوفٌ منها، وهذا أبلغُ ما يكونُ مِن العِفَّةِ، والبُعدِ عن الشَّرِّ وأسبابِه، وهذه العِفَّةُ -خصوصًا مع اجتِماعِ الدَّواعي، وعدَمِ المانِعِ- مِن أفضَلِ الأعمالِ؛ ولذلك أثنى اللهُ عليها، فقال: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، فأعاضها اللهُ بعِفَّتِها ولدًا مِن آياتِ اللهِ، ورسولًا مِن رُسُلِه[٢].

= قال ابن عاشور: (جملة ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ يجوزُ أن تكونَ مِن قولِ الملَكِ، ويجوزُ أن تكونَ مُستأنفةً). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).

٣- قَولُ مَريمَ للمَلَكِ: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي: إن كُنتَ تخافُ اللهَ، تذكيرٌ له بالله، وهذا هو المشروعُ في الدَّفعِ: أن يكونَ بالأسهَلِ فالأسهَلِ، فخَوَّفَته أوَّلًا بالله عزَّ وجَلَّ(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ يدُلُّ على كَمالِ قُدرةِ الله تعالى، وعلى أنَّ الأسبابَ جَميعَها لا تستَقِلُّ بالتأثيرِ، وإنَّما تأثيرُها بتقديرِ اللهِ، فيُري تعالى عبادَه خَرْقَ العوائِدِ في بعضِ الأسبابِ العاديَّةِ؛ لئلَّا يَقِفوا مع الأسبابِ، ويَقطَعوا النَّظَرَ عن مُقَدِّرِها ومُسَبِّبِها(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ فأخبَرَ هذا الرُّوحُ الذي تمثَّلَ لها بشَرًا سَوِيًّا أنَّه رسولُ رَبِّها، فدَلَّ الكلامُ على أنَّ هذا الرُّوحَ عينٌ قائِمةٌ بنَفسِها، ليسَت صِفةً لِغَيرِها، وأنَّه رسولٌ مِن اللهِ، ليس صفةً مِن صفاتِ الله؛ ولهذا قال جماهيرُ العُلَماءِ: إنَّه جبريلُ عليه السَّلامُ؛ فإنَّ اللهَ سمَّاه الرُّوحَ الأمينَ، وسمَّاه رُوحَ القُدُسِ، وسمَّاه جبريلَ، وهكذا عندَ أهلِ الكتابِ أنَّه تجسَّد مِن مريمَ ومِن رُوحِ القُدُسِ، لكنْ ضُلَّالُهم حيثُ يظنُّونَ أنَّ رُوحَ القُدُسِ حياةُ اللهِ، وأنَّه إلهٌ يَخلُقُ ويَرزُقُ ويُعبَدُ! وليس في شيءٍ مِن الكُتُبِ الإلهيَّةِ ولا في كلامِ الأنبياء أنَّ اللهَ سمَّى صفتَه القائمةَ به رُوحَ القُدُسِ، ولا سمَّى كلامَه ولا شيئًا مِن صفاتِه ابْنًا، وهذا أحدُ ما يَثبُتُ به ضَلالُ النَّصارى وأنَّهم حرَّفوا كلامَ الأنبياءِ، وتأوَّلوه على غيرِ ما أرادتِ الأنبياءُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٥١).

٢- قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾، أي: جبريلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ الدِّينَ يحيا به وبوحيِه[١]. وقيل: إنَّما سُمِّي جبريلُ رُوحًا؛ لأنَّه بمنزلةِ الأرواحِ للأبدانِ تحيا بما يأتي مِن البيانِ عن الله عزَّ وجلَّ مَن يُهدَى به[٢].

٣- قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا...﴾ وخِطابُ الملائكةِ لمريمَ لا يقتَضي النبُوَّةَ؛ لأنَّ النبيَّ مَن يُوحَى إليه بشَرعٍ، ومريمُ لم يُوحَ إليها بشَيءٍ مِن الشَّرعِ، ولكِنَّه كان خِطابًا للبِشارةِ بواقعةٍ مُعَيَّنةٍ دالَّةٍ على علُوِّ مَنزِلتِها، واصطفاءِ الله سُبحانه وتعالى لها[٣]، ولأنَّ الملائكةَ قد كَلَّموا مَن ليس بنبيٍّ إجماعًا[٤].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ السَّوِيُّ: المُسَوَّى، أي: التَّامُّ الخَلقِ، وإنَّما تمثَّلَ لها كذلك؛ لِوُجوهٍ ذكَرَها العُلماءُ، منها:

الوجه الأول: للتناسُبِ بينَ كَمالِ الحقيقةِ، وكَمالِ الصُّورةِ.

الوجه الثاني: أُرسِلَ حَسَنَ الشَّكلِ؛ لئلَّا تَشتَدَّ نُفرتُها ورَوْعُها منه[٥].

الوجه الثالث: كان تمثيلُه على ذلك الحُسنِ الفائِقِ والجَمالِ الرَّائقِ؛ لابتلائِها وسَبْرِ عِفَّتِها، ولقد ظهَرَ منها مِنَ الوَرَعِ والعَفافِ ما لا غايةَ وراءَه[٦]، ففي ذلك إشارةٌ إلى كَمالِ عِصمَتِها؛ إذ ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[٧].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٣/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((زهرة التفاسير)) لأبي زهرة (٣/ ١٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ١٤٨)

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٠).

بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۞ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾ إثباتُ الملائكةِ، وأنَّهم أحياءٌ، ناطِقونَ، مُنفَصِلونَ عن الآدميِّينَ، يُخاطِبونَهم، ويَرَونَهم في صُورِ الآدميينَ؛ الأنبياءُ وغيرُ الأنبياءِ، كقَولِه تعالى: ﴿ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ۞ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ۞ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ۞ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر: ٥١- ٥٤]، وغيرُ الأنبياءِ، كما رأتْهم سارةُ امرأةُ الخليلِ عليه السَّلامُ، وكما كان الصَّحابةُ يرَون جبريلَ إذا جاء؛ لَمَّا جاء في صورةِ أعرابيٍّ[١]، وتارةً في صورةِ دِحْيةَ[٢] الكَلْبيِّ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۞ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ ﴾ لِياذُها باللهِ وعياذُها به وقْتَ التَّمثيلِ دليلٌ على أنَّه أوَّلَ ما تمثَّلَ لها استعاذتْ من غيرِ جرْيِ كلامٍ بينهما[٤].

٧- قولُه تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾ إنْ قال قائِلٌ: الهِبةُ مِن اللهِ تعالى، فلِمَ أخبَرَ جِبريلُ عن نَفسِه؟

والجوابُ مِن وُجوهٍ:

الأولُ: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿لِأَهَبَ لَكِ ﴾، فهو على الحِكايةِ، وحَملَ الحكايةَ على المعنى، على تأويلِ: قال: أُرسِلْتُ إليكِ؛ لأهَبَ لك، فحُذِفَ مِن الكلامِ (أُرسِلْتُ)؛ لدَلالةِ ما ظهَرَ على ما حُذِفَ.

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٤٥١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٩).

الثَّاني: جِبريلُ عليه السَّلامُ قال لمريم: إنَّما أنا رَسولُ ربِّك أرسلني لأهَبَ لك؛ إذ كان النافِخَ في جَيبِها بأمرِ الله، فتكونُ الهِبةُ في المعنى مِنَ الله، وهي في اللَّفظِ مُسنَدةٌ إلى جبريلَ؛ لأنَّ الرَّسولَ والوكيلَ قد يُسنِدانِ هذا النَّحوَ إلى أنفُسِهم، وإن كان الفِعلُ للمُوكَّلِ والمُرسَلِ؛ للعِلمِ بأنَّه في المعنى للمُرسِلِ، وأنَّ الرَّسولَ مُترجِمٌ عنه(١).

الثَّالثُ: أنه جَعَل الهبةَ مِن قِبَلِه؛ لكونِه سببًا فيها مِن جهةِ كونِ الإعلامِ لها مِن جِهتِه(٢).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ قَولَ مَريمَ عليها السَّلامُ: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ يدخُلُ تحتَه قَولُها: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فلماذا أعادَته؟ وممَّا يؤكِّدُ هذا السُّؤالَ أنَّ في سورةِ (آلِ عِمرانَ) ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٧] فلم تَذكُرِ البِغاءَ؟

والجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّها جعَلَت المسَّ عِبارةً عن النِّكاحِ الحَلالِ؛ لأنَّه كنايةٌ عنه؛ لِقَولِه: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، والزِّنا ليس كذلك.

الوجهُ الثاني: أنَّ إعادتَها لِتَعظيمِ حالِها، كقَولِه تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقَولِه: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فكذا هاهنا: أنَّ مَن لم تُعرَفْ مِن النِّساءِ بزَوجٍ، فأغلَظُ أحوالِها إذا أتَت بوَلَدٍ أن تكونَ زانيةً، فأُفرِدَ ذِكرُ البِغاءِ -بعد دُخولِه في الكَلامِ

(١) يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٤٠، ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٧).

الأوَّلِ- لأنَّه أعظَمُ ما في بابِه[١].

٩- قولُها: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ لم تقُلْ: (بغيَّةً)؛ لأنَّ «بغيًّا» غالبٌ في النِّساءِ، وقلَّما يقولُ العربُ: رجلٌ بغيٌّ؛ فترَكوا التَّاءَ فيه إجراءً له مَجْرَى حائضٍ، وعاقرٍ. أو هو: «فعيلٌ» بمعنى فاعلٍ، فترَكوا التَّاءَ فيه كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦][٢]، أو لموافقةِ الفواصلِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾

- قولُه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ...﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٢]، عطْفَ القِصَّةِ على القصَّةِ؛ فلا يُراعَى حُسْنُ اتِّحادِ الجُملتينِ في الخبريَّةِ والإنشائيَّةِ، على أنَّ ذلك الاتِّحادَ ليس بمُلتزَمٍ، وفي افتتاحِ القصَّةِ بهذا زيادةُ اهتمامٍ بها، وتَشويقٌ للسَّامعِ أنْ يتعرَّفَها ويَتدبَّرَها[٤].

- وقدِ اختُصَّتْ هذه السُّورةُ بزيادةِ كلمةِ ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ بعدَ كلمةِ ﴿وَٱذْكُرْ﴾؛ وفائدةُ ذلك: التَّنبيهُ إلى أنَّ ذِكْرَ مَن أُمِرَ بذكْرِهم كائنٌ بآياتِ القُرآنِ، وليس مُجرَّدَ ذكْرِ فضْلِه في كلامٍ آخرَ من قولِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ولم يأْتِ مثْلُ هذه الجُملةِ في سُورةٍ أُخرى؛ لأنَّه قد حصَلَ علْمُ المُرادِ في هذه السُّورةِ؛ فعُلِمَ أنَّه المُرادُ في بقيَّةِ الآياتِ الَّتي جاء فيها لفظُ (اذكُرْ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٨-٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٧٩).

- وفي قولِه: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ نكَّرَ المكانَ إبهامًا له؛ لعدَمِ تعلُّقِ الغرضِ بتَعيينِ نوعِه؛ إذ لا يُفيدُ كمالًا في المقصودِ من القصَّةِ. وأمَّا التَّصدِّي لوصْفِه بأنَّه شرقيٌّ، فللتَّنبيهِ على أَصْلِ اتِّخاذِ النَّصارى الشَّرقَ قِبْلةً لصلواتِهم[١]، فذِكْرُ كونِ المكانِ شرقيًّا نُكتةٌ بديعةٌ من تاريخِ الشَّرائعِ، مع ما فيه مِن مُؤاخاةِ الفواصلِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾، أي: جبريلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، عبَّرَ عنه بذلك؛ توفيةً للمقامِ حَقَّه[٣].

- قولُه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ تَعليقُ الإرسالِ به، وإضافتُه إلى ضَميرِ الجلالةِ دَلَّا على أنَّه مِن الملائكةِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾

- جُملةُ: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ خبريَّةٌ، ولذلك أُكِّدَت بحرفِ التَّأكيدِ (إنَّ). وذِكْرُها صِفَةَ (الرَّحمنِ) دونَ غيرِها من صفاتِ اللهِ؛ لأنَّها أرادتْ أنْ يرحَمَها اللهُ بدفْعِ من حسِبَتْه داعرًا عليها[٥]، فذِكْرُه تعالى بعُنوانِ الرَّحمانيَّةِ؛ للمُبالغةِ في العياذِ به تعالى، واستجلابِ آثارِ الرَّحمةِ الخاصَّةِ الَّتي هي

(١) يُنظر ما أخرجه ابنُ جرير في ((تفسيره)) (١٥/ ٤٨٤)، وابنُ أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥/ ١٦١١) عن ابنِ عباس رضي لله عنهما في أنَّ ذلك هو سببُ اتِّخاذِ النَّصارى الشرقَ قبلةً.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٨١).

العِصمةُ ممَّا دهَمها[١].

- وقولُها: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ تذكيرٌ له بالموعظةِ بأنَّ عليه أنْ يتَّقِيَ ربَّه، ومجيءُ هذا التَّذكيرِ بصِيغَةِ الشَّرطِ المُؤذِنِ بالشَّكِّ في تَقواهُ: قصْدٌ لتهييجِ خشيَتِه، وكذلك اجتلابُ فعْلِ الكونِ -﴿كُنتَ﴾- الدَّالِّ على كونِ التَّقوى مُستقِرَّةً فيه، وهذا أبلَغُ وعْظٍ وتذكيرٍ وحَثٍّ على العملِ بتَقواهُ[٢].

- قولُه: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ جوابُ الشَّرطِ محذوفٌ دَلَّ عليه ما قبْلَه، أي: فإنِّي عائذةٌ منك، أو فتتَّعِظُ بتَعويذي، أو فلا تتعرَّضْ لي. ويجوزُ أنْ يكونَ للمُبالغةِ، أي: إنْ كنتَ تقيًّا مُتورِّعًا، فإنِّي أتعوَّذُ منك؛ فكيف إذا لم تكنْ كذلك[٣]؟! أو تعليقُها الاستعاذةَ على شرطِ تقواهُ؛ لأنَّه لا تنفَعُ الاستعاذةُ ولا تُجْدي إلَّا عندَ مَن يتَّقي اللهَ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ فيه قصرٌ إضافيٌّ، أي: لستُ بشرًا؛ ردًّا على قولِها: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ المُقْتضي اعتقادَها أنَّه بشرٌ[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾

- إنَّما قالت: ﴿بَشَرٌ﴾؛ مُبالغةً في بَيانِ تنزُّهِها مِن مبادئِ الولادةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٠).

- وقولُها: ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ تبرئةٌ لنفْسِها من البغاءِ بما يَقْتضيه فعْلُ الكونِ من تمكُّنِ الوصفِ الَّذي هو خبَرُ الكونِ، والمقصودُ منه تأكيدُ النَّفيِ[١].

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ...﴾، أي: إنَّ الأمْرَ كما قلْتِ، وهو عُدولٌ عن إبطالِ مُرادِها من المُراجعةِ إلى بَيانِ هونِ هذا الخلْقِ في جانبِ القُدرةِ، على طريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ إمَّا علَّةٌ لمُعلَّلٍ محذوفٍ، أي: ولنجعَلَ وهْبَ الغلامِ آيةً لهم وبُرهانًا يَستدِلُّونَ به على كَمالِ قُدرتِنا نفعَلُ ذلك. أو معطوفٌ على علَّةٍ أُخرى مُضمَرةٍ، أي: لنُبيِّنَ به عِظَمَ قُدرتِنا، ولنجعَلَه آيةً... إلخ[٣].

- والالتفاتُ إلى نُونِ العظمةِ في قولِه: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ﴾؛ لإظهارِ كَمالِ الجلالةِ[٤]؛ فقولُه: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ﴾ عطفٌ على ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ باعتبارِ ما في ذلك من قولِ الرُّوحِ لها: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾؛ فوقَعَ الْتفاتٌ من طريقةِ الغيبةِ إلى طريقةِ التَّكلُّمِ[٥].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ فالكلامُ في الموضعينِ على لسانِ الملَكِ من عندِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٣).

اللهِ، ولكنَّه أُسْنِدَ في هذه القصَّةِ إلى الملَكِ؛ لأنَّه جوابٌ عن خِطابِها إيَّاهُ، وأُسْنِدَ في قصَّةِ زكريَّا إلى اللهِ؛ لأنَّ كلامَ الملَكِ كان تبليغَ وحيٍ عن اللهِ جوابًا من اللهِ عن مُناجاةِ زكريَّا[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٣).

الآيات (٢٢-٢٦)

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَصِيًّا﴾: أي: نائيًا بَعيدًا، وأصلُ (قصو): يدُلُّ على بُعدٍ وإبعادٍ[١].

﴿فَأَجَآءَهَا﴾: أي: ألجَأها واضْطرَّها، يُقالُ: جاء بها وأجاءَها: بمعنًى[٢].

﴿ٱلْمَخَاضُ﴾: أي: وجَعُ الوِلادةِ، وهو الطَّلْقُ، وسُمِّي مخاضًا مِن المَخْضِ، وهو الحركةُ الشَّديدةُ؛ لشدَّةِ تحرُّكِ الجنينِ في بطنِها إذا أرادَ الخروجَ، وأصلُ المخضِ: تحريكُ سقاءِ اللبنِ وهزُّه؛ ليجتمِعَ زُبدُه وسَمنُه[٣].

﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾: أي: شَيئًا حَقيرًا لا يُؤبَهُ له، وأصلُ (نسي): يدُلُّ على تَركِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٨)، ((حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي)) (٦/ ١٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٠).

الشَّيءِ وإغفالِه[١].

﴿سَرِيًّا﴾: أي: جَدولًا ونَهرًا صغيرًا، وسُمِّيَ النَّهرُ سَرِيًّا؛ لأنَّ الماءَ يسري فيه، أي: يمُرُّ جاريًا. وقيل: بل ذلك من السَّرْوِ، أي: الرِّفعةِ، والإشارةُ بذلك إلى عيسى عليه السَّلامُ[٢].

﴿جَنِيًّا﴾: أي: مَجْنيًّا غَضًّا طَرِيًّا، وجَنَى الشَّجرةِ: ما جُنِيَ منها، وأصلُ (جني): يدُلُّ على أخْذِ الثَّمرةِ مِن شَجَرِها[٣].

﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾: أي: طِيبي نَفسًا، وأصلُه من القُرِّ، أي: البَردِ، فَقَرَّتْ عينه، أي: بَرَدَت، وقيل: هو من القَرارِ؛ لأنَّ اللهَ أعطاها ما تَسكُنُ به عينُها فلا تطمَحُ إلى غيرِه[٤].

﴿صَوْمًا﴾: أي: صَمتًا، والصَّوْمُ في الأصلِ: الإمساكُ عن الفِعلِ مَطعمًا كان أو كلامًا أو مَشيًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٠)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٠)، ((تذكرة =

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى عن مشهدٍ آخرَ مِن مشاهدِ تلك القصةِ العجيبةِ، حينَ حمَلت مريمُ بعيسى عليه السلامُ، وعندما جاءَها المخاضُ، فيقولُ تعالى: فحَمَلت مريمُ بعيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فتباعَدَت به إلى مَكانٍ بعيدٍ عن النَّاسِ، فألجأها طَلْقُ الحَملِ ووجعُ الولادةِ إلى جِذعِ النَّخلةِ، فقالت: يا ليتني مِتُّ قبلَ هذا اليومِ، وكنتُ شيئًا لا يُعرَفُ ولا يُذكَرُ! فناداها مولودُها عيسى مِن تحتِها عندما وضَعتْه: أنْ لا تَحزني، قد جعل ربُّكِ تحت قَدَميك جَدْولَ ماءٍ، وحَرِّكي جِذعَ النَّخلةِ تُسَاقِطْ عليك النَّخلةُ رطبًا طريًّا طيِّبًا، فكُلي من الرُّطَب، واشرَبي من الماءِ، وطِيبي نفسًا، ولا تحزني، فإنْ رأيتِ مِن النَّاسِ أحدًا فسَأَلَكِ عن أمْرِك، فقولي له: إني أوجَبْتُ على نفسي لله سُكوتًا، فلن أكَلِّمَ اليومَ أحدًا من النَّاسِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ٢٢﴾.

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾.

أي: فحَمَلَت مريمُ بعيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٩، ٣٩٠).

قال ابنُ تيميةَ: (إنَّما حَمَلت به بعدَ النَّفخِ، لم تَحمِلْ به مُدَّةً بلا نفخٍ ثم نُفِخَت فيه روحُ الحياة كسائر الآدميِّين، ففَرْقٌ بين النَّفخِ للحَملِ، وبين النفخِ لرُوحِ الحياةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٢٦٧).

أي: فتنحَّت بحَمْلِها إلى مكانٍ بعيدٍ عن النَّاسِ[١].

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾.

أي: فألجأَها ألمُ الطَّلْقِ إلى جِذعِ نَخلةٍ[٢].

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾.

أي: قالت: يا ليتني مِتُّ قبل أن أحمِلَ هذا الغلامَ مِن غيرِ زَوجٍ، وكنتُ شَيئًا حقيرًا يُترَكُ ويُنسَى فلا يَخطُرُ على بالٍ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٢).

قال الشنقيطي: (الجمهورُ على أنَّ المكانَ المذكورَ بيتُ لحمٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٩٢، ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٩، ٣٩٠).

قال الرسعني: (﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ الجذعُ: ساقُ النخلةِ، كأنَّها عليها السلامُ قصَدت الاسترواحَ مِن ألمِ الولادةِ بالاتكاءِ إليه، والاعتمادِ عليه). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٠٦).

قال الواحدي: (قال المفسرون: وكان جذعَ نخلةٍ يابسةٍ ليس لها سعفٌ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ ولم يقُلْ «إلى النخلةِ»؛ لأنَّها لم يبقَ منها إلا الجذعُ). ((البسيط)) (١٤/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٩٨، ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٥، ٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٩١).

وقال السَّعدي: (فلمَّا آلَمَها وَجَعُ الولادةِ، ووجَعُ الانفرادِ عن الطَّعامِ والشراب، ووَجَعُ قَلبِها مِن قالةِ النَّاس، وخافت عدَمَ صَبرِها؛ تمنَّت أنَّها ماتت قبل هذا الحادثِ، وكانت نَسيًا مَنسيًّا فلا تُذكَرُ. وهذا التمنِّي بناءٌ على ذلك المُزعِجِ، وليس في هذه الأمنيةِ خيرٌ لها ولا مَصلحةٌ، وإنما الخيرُ والمصلحةُ بتقديرِ ما حصل). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢). =

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي﴾.

أي: فناداها مولودُها عيسَى مِن تَحتِها عندما وضَعَتْه[1] قائِلًا لها: لا تَحزَني[2].

= وقال ابنُ عاشور: (المشارُ إليه في قولِها ﴿قَبْلَ هَٰذَا﴾ هو الحملُ. أرادَتْ أن لا يُتطرَّقَ عرضُها بطعنٍ، ولا تجُرَّ على أهلِها معرةً. ولم تتمَنَّ مريم أنْ تكونَ ماتت بعدَ بُدوِّ الحمْلِ؛ لأنَّ الموتَ حينئذٍ لا يَدفَعُ الطَّعنَ في عرْضِها بعدَ موتِها ولا المعرَّةَ على أهلِها؛ إذ يُشاهِدُ أهْلُها بطْنَها بحمْلِها وهي ميتةٌ، فتَطرُقُها القالةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٥-٨٦).

(١) قال البغوي: (لم يُرِدْ به أنَّه تحتَها وهي قاعدةٌ عليه! بل أراد: بينَ يدَيْها). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١١).

وقال الشنقيطي: (وأمَّا على القَولِ بأنَّ المناديَ هو عيسى، فالمعنى على القراءةِ الأولى [أي: قراءةِ ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾]: فناداها هو -أي: المولودُ الذي وضعَتْه- مِن تحتِها؛ لأنَّه كان تحتَها عند الوَضعِ، وعلى القراءة الثانية: ﴿فَنَادَاهَا مَنْ تَحْتَهَا﴾ أي: الذي تحتَها، وهو المولودُ المذكورُ الكائِنُ تحتَها عند الوضعِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٠٠، ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١، ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٦، ٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٤).

وممَّن قال بأنَّ المناديَ لها هو عيسَى: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال مِن السلفِ أنَّ المناديَ كان عيسى عليه السلامُ: أُبيُّ بنُ كعبٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ، ووهبُ بنُ مُنبِّهٍ، وسعيدُ بنُ جبير في روايةٍ عنه، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٤٠٤).

قال الشنقيطي: (أظهَرُ القولينِ عندي أنَّ الذي ناداها هو ابنُها عيسى، وتدُلُّ على ذلك قرينتان: الأولى: أنَّ الضميرَ يرجِعُ إلى أقرب مذكور إلَّا بدليلٍ صارفٍ عن ذلك يجِبُ الرجوعُ إليه، وأقربُ مذكورٍ في الآيةِ هو عيسى لا جبريلُ؛ لأنَّ الله قال: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾، يعني: عيسى ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾، أي: بعيسى. ثمَّ قال بعده: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ فالذي يظهرُ ويتبادَرُ مِن السياقِ أنَّه عيسى.

والقرينة الثانية: أنَّها لَمَّا جاءت به قَومَها تَحمِلُه، وقالوا لها ما قالوا، أشارت إلى عيسى ليكلِّموه، =

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

أي: قد أجرى ربُّك تحت قَدَميك نهرًا صغيرًا؛ لتَشربي منه[1].

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾.

= كما قال تعالى عنها: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾، وإشارتُها إليه ليكَلِّموه قرينةٌ على أنَّها عَرَفت قبل ذلك أنَّه يتكلَّمُ على سبيلِ خَرقِ العادةِ؛ لندائِه لها عندما وضعَتْه). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٩٤).

وقيل: المنادي لها هو المَلَكُ. وممن اختار ذلك: السمعاني، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٣، ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

وممن قال مِن السلفِ أنَّ المناديَ كان مَلَكًا: ابنُ عباس، والبراءُ، وعمرُو بنُ ميمون الأودي، وسعيدُ بنُ جبيرٍ في روايةٍ عنه، والضحَّاكُ، وقتادةُ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٠١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٤٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٤، ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٥، ٣٩٦).

وممن اختار أنَّ السَّريَّ هنا هو الجدولُ والنَّهرُ الصغير: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ كثير، والسعدي، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الزجاج: (لا اختلاف بين أهلِ اللغة أنَّ السَّرِيَّ النَّهرُ بمنزلةِ الجَدولِ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٣٢٥).

وقال الشوكاني: (قال جمهورُ المفسِّرينَ: السريُّ: النهرُ الصغيرُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٨). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٠٨).

وقيل: السَّرِيُّ: أي: السَّيدُ الشَّريفُ، وهو عيسى عليه السَّلامُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: الحسنُ البصري-وقيل: رجَع عن هذا القولِ- وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٠٩، ٥١٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٢٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٦٣).

أي: وحَرِّكي جِذعَ النَّخلةِ[١].

﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾.

أي: تُسْقِطْ عليكِ النَّخلةُ رُطَبًا طَرِيًّا طيِّبًا نافعًا[٢].

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾.

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾.

أي: فكُلي من الرُّطَبِ، واشرَبي مِن ماءِ النَّهرِ، وطيبي نفسًا، وافرَحي ولا تحزَني[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٠، ٥١٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٨).
قال ابن عطية: (والظاهِرُ من الآيةِ أنَّ عيسى هو المكَلِّمُ لها). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١-١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٣، ٥١٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٠٠).
وقال الشنقيطي: (الذي يُفهَمُ مِن سياقِ القُرآنِ: أنَّ الله أنبتَ لها ذلك الرُّطَبَ على سبيلِ خَرقِ العادةِ، وأجرى لها ذلك النَّهرَ على سبيلِ خَرقِ العادة، ولم يكُنِ الرُّطَبُ والنَّهرُ موجودينِ قبل ذلك، سواءً قلنا: إنَّ الجِذعَ كان يابِسًا أو نخلةً غيرَ مُثمِرةٍ، إلَّا أنَّ الله أنبت فيه الثَّمرَ، وجعَلَه رُطبًا جَنيًّا، ووجهُ دَلالةِ السِّياقِ على ذلك أنَّ قَولَه تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ يدُلُّ على أنَّ عينَها إنما تقَرُّ في ذلك الوقتِ بالأمورِ الخارقةِ للعادةِ؛ لأنَّها هي التي تُبَيِّنُ براءتَها مما اتَّهَموها به... وبذلك يكونُ قُرَّةَ عينٍ لها؛ لأنَّ مجرَّدَ الأكلِ والشُّربِ معَ بقاءِ التُّهمةِ التي تمنَّتْ بسبَبِها أن تكونَ قد ماتت مِن قَبلُ، وكانت نَسيًا مَنسيًّا، لم يكُنْ قُرَّةً لعينِها في ذلك الوقتِ، كما هو ظاهِرٌ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٩٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٧).

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾.

أي: فإنْ رأيتِ أحدًا من النَّاسِ يُريدُ أن يُكلِّمَكِ فقُولي[1]: إنِّي أوجبتُ على نفسي للرَّحمنِ أن أُمسِكَ عن الكلامِ[2].

---

(١) قيل: المرادُ بالقولِ هنا: التلفُّظُ بالكلامِ حقيقةً. وممَّن استظهر هذا: ابنُ عطية -ونسَبه للجمهورِ-، وأبو حيان، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيِّمِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢١٨).

قال ابنُ عطية: (ظاهِرُ الآيةِ أنَّها أُبيحَ لها أن تقولَ هذه الألفاظَ التي في الآيةِ، وهو قَولُ الجُمهورِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣).

وقال ابنُ القيم: (لم يكُنْ ما أخبَرَت به داخلًا تحت الخبرِ، وإلَّا كان قولُها هذا مخالفًا لِنَذرِها). ((بدائع الفوائد)) (٤/ ٢١٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالقولِ هنا: الإشارةُ: ابنُ كثير، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٣).

ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٩، ٩٠، ٩٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالصومِ هنا: الصَّمتُ: ابنُ جرير، والرسعني، والقرطبي، والخازن، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

ونسَب الشنقيطي هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٠).

وممن قال بهذا القول مِن السلفِ: أنسُ بنُ مالكٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عباسٍ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٥).

وقيل: المرادُ: الصومُ عن الطعامِ والكلامِ معًا. وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: أنسُ بنُ مالكٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ، والسدي. يُنظر: =

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

أي: فلن أكلِّمَ اليومَ أحدًا من النَّاسِ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ فيه أمرٌ بالسَّبَبِ في الرزقِ، وتكَلُّفِ الكَسبِ[٢]، واستُدِلَّ مِن هذه الآيةِ على أنَّ الرِّزقَ وإن كان محتومًا، فإنَّ اللهَ تعالى قد وكلَ ابنَ آدمَ إلى سعيٍ ما فيه؛ لأنَّه أمَرَ مريمَ بهَزِّ النَّخلةِ؛ لترى آيةً، وكانت الآيةُ تكونُ بألَّا تَهُزَّ[٣]، فأخذ بعضُ العُلَماءِ مِن هذه الآيةِ أنَّ السَّعيَ والتسَبُّبَ في تحصيلِ الرِّزقِ أمرٌ مأمورٌ به شرعًا، وأنَّه لا ينافي التوكُّلَ على الله جلَّ وعلا، وهذا أمرٌ كالمعلومِ مِن الدِّينِ بالضَّرورةِ: أنَّ الأخذَ

= ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٣).

قال ابنُ عطيةَ: (ومعنى هذه الآيةِ أنَّ الله تعالى أمَرها على لسانِ جبريلَ أو ابنِها على الخلافِ المتقَدِّمِ بأن تُمسِكَ عن مخاطبةِ البشَرِ، وتُحيلَ على ابنِها في ذلك؛ ليرتَفِعَ عنها خجَلُها، وتَبينَ الآيةُ فيقومَ عُذرُها... قال المفسِّرون: أُمِرَت مريمُ بهذا؛ ليكفيَها عيسى الاحتجاجَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣).

وقال السعدي: (إنما لم تؤمَرْ بخِطابِهم في نفيِ ذلك عن نفسِها؛ لأنَّ النَّاسَ لا يصَدِّقونَها، ولا فيه فائدةٌ، ولتكونَ تبرئتُها بكلامِ عيسى في المهدِ أعظَمَ شاهدٍ على براءتِها؛ فإنَّ إتيانَ المرأةِ بولدٍ مِن دونِ زَوجٍ، ودعواها أنَّه مِن غيرِ أحدٍ: من أكبرِ الدَّعاوى التي لو أُقيم عِدَّةٌ مِن الشُّهودِ لم تُصَدَّقْ بذلك؛ فجُعِلَت بينةُ هذا الخارقِ للعادةِ أمرًا مِن جِنسِه، وهو كلامُ عيسى في حالِ صِغَرِه جِدًّا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٥).

بالأسبابِ في تحصيلِ المنافِعِ، ودَفعِ المضارِّ في الدُّنيا؛ أمرٌ مأمورٌ به شَرعًا لا ينافي التوكُّلَ على اللهِ بحالٍ؛ لأنَّ المكَلَّفَ يتعاطى السَّبَبَ امتِثالًا لأمرِ رَبِّه، مع عِلمِه ويقينِه أنَّه لا يقَعُ إلَّا ما يشاءُ اللهُ وُقوعَه، فهو متوكِّلٌ على اللهِ، عالمٌ أنَّه لا يُصيبُه إلَّا ما كتَبَ اللهُ له مِن خيرٍ أو شَرٍّ، ولو شاء الله تَخلُّفَ تأثيرِ الأسبابِ عن مُسَبِّباتِها، لتخلَّفَ[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أمَرَها اللهُ تعالى بأن تنذرَ الصَّومَ؛ لئلَّا تَشرعَ مع مَن اتَّهمها في الكلامِ لِمَعنيين:

أحدُهما: أنَّ كلامَ عيسى عليه السَّلامُ أقوى في إزالةِ التُّهمةِ مِن كلامِها، وفيه دَلالةٌ على أنَّ تفويضَ الأمرِ إلى الأفضَلِ أَولى.

والثاني: كراهةُ مُجادلةِ السُّفهاءِ، وفيه أنَّ السُّكوتَ عن السَّفيهِ واجِبٌ، ومِن أذَلِّ النَّاسِ سَفيهٌ لم يجِدْ مُسافِهًا[2].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى حكايةً عن مريمَ: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ تمنَّتْ لو كانت شيئًا لا يُؤْبَهُ له، من شأْنِه وحقِّه أنْ يُنْسى في العادةِ، وقد نُسِيَ وطُرِحَ، فوُجِدَ فيه النِّسيانُ الَّذي هو حقُّه؛ وذلك لِما لحِقَها مِن فرطِ الحياءِ والخجلِ مِن النَّاسِ على حُكمِ العادةِ البشريَّةِ، لا كراهةً لحُكمِ اللهِ. أو لشدَّةِ التَّكليفِ عليها إذا بَهَتوها وهي عارفةٌ ببَراءةِ السَّاحةِ، وبضِدِّ ما عِيبَتْ به، مِن اختصاصِ اللهِ إيَّاها بغايةِ الإجلالِ والإكرامِ؛ لأنَّه مقامٌ دَحْضٌ، قلَّما تثبُتُ عليه الأقدامُ: أنْ تعرِفَ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٢٩).

اغتباطَكَ بأمْرٍ عظيمٍ وفضْلٍ باهرٍ، تستحِقُّ به المدحَ وتستوجِبُ التَّعظيمَ، ثمَّ تراهُ عندَ النَّاسِ -لجَهْلِهم به- عيبًا يُعابُ به ويُعنَّفُ بسَببِه، أو لخوفِها على النَّاسِ أنْ يَعْصوا اللهَ بسببِها[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى إخبارًا عن مريمَ عليها السَّلامُ: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ فيه دَليلٌ على جوازِ تمنِّي الموتِ عندَ الفِتنةِ؛ فإنَّها عَرَفَت أنَّها ستُبتلَى وتُمتحَنُ بهذا المولودِ الذي لا يحمِلُ النَّاسُ أمرَها فيه على السَّدادِ، ولا يصَدِّقونها في خبرِها، وبعدما كانت عندَهم عابِدةً ناسِكةً تُصبِحُ عِندَهم -فيما يظنُّونَ- عاهرةً زانيةً[٢]، فمريمُ تمنَّت الموتَ مِن جهةِ الدِّينِ؛ إذ خافت أن يُظَنَّ بها الشَّرُّ في دينِها وتُعيَّرَ؛ فيَفتِنَها ذلك، وهذا مباحٌ، وعلى هذا الحَدِّ تمنَّاه جماعةٌ مِن الصالحينَ. ونَهيُ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن تمنِّي الموتِ[٣] إنَّما هو لِضُرٍّ نَزَل بالبَدَنِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ في هذا دليلٌ على مقامِ صبْرِها وصدْقِها في تلقِّي البَلوَى الَّتي ابتلاها اللهُ تعالى؛ فلذلك كانت في مقامِ الصِّدِّيقيَّةِ[٥].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ فيه أصلٌ لِما يقولُه الأطبَّاءُ: إنَّ الرُّطَبَ ينفَعُ النُّفَساءَ[٦]، وقال

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر ما أخرجه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٥).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٧٣).

عمرُو بنُ مَيمونٍ: (ما من شَيءٍ خَيرٌ للنُّفَساءِ مِن التَّمرِ والرُّطَبِ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ الكريمةَ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾)[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ فأُعْطِيَت رُطبًا دونَ التَّمرِ؛ لأنَّ الرُّطبَ أشهَى للنَّفْسِ؛ إذ هو كالفاكهةِ، وأمَّا التَّمرُ فغِذاءٌ[٢].

٦- إنْ قيل: ما كان حزنُها لفقْدِ الطَّعامِ والشَّرابِ حتَّى تُسلَّى بالسَّريِّ والرُّطبِ؟

فالجوابُ: لم تقَعِ التَّسليةُ بهما مِن حيثُ إنَّهما طعامٌ وشرابٌ، ولكنْ من حيثُ إنَّهما مُعجزتانِ تُريانِ النَّاسَ أنَّها من أهلِ العصمةِ، والبُعدِ من الرِّيبةِ، وأنَّ مثْلَها ممَّا قَرَفوها به بمَعزلٍ، وأنَّ لها أُمورًا إلهيَّةً خارجةً عن العاداتِ، خارقةً لِما ألِفُوا واعتادوا، حتَّى يتبيَّنَ لهم أنَّ وِلادَها من غيرِ فحْلٍ ليس ببِدْعٍ مِن شأنِها[٣].

٧- قصةُ مريمَ فيها كرامةٌ مِن عِدَّةِ أوجُهٍ:

الأول: أنَّه فقد قيلَ لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ وهي امرأةٌ نُفَساءُ، والمرأةُ النُّفَساءُ عادةً تكونُ ضعيفةً، والهَزُّ بجِذعِ النَّخلةِ لا يتأتَّى، بل إنَّه صَعبٌ؛ فإنَّ الرجُلَ القَويَّ إذا هزَّها مِن أسفَلَ لا تهتَزُّ، لكنَّ مَريمَ قيل لها: هُزِّي بجِذعِ النَّخلةِ، فهَزَّت؛ فاهتَزَّت النَّخلةُ، وهذه كرامةٌ.

الثاني: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾، والعادةُ أنَّ الرُّطَبَ إذا تساقَطَ مِن فَوقِ النَّخلةِ، فإنَّه يَفسُدُ ويتفضَّخُ[٤]، لكِنَّه في شأنِها بَقِيَ رُطَبًا جَنيًّا، وهذه كرامةٌ!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٧-٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٣).

(٤) فَضْخُ الرُّطَبةِ: شَدْخُها. والفَضخُ: كَسْرُ كلِّ شَيْءٍ. يُنظر: ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٥/ ٤٤).

الثالث: أنَّه ولَمَّا جاءت تحمِلُ الولَدَ فقالوا لها مُعرِّضينَ لها بالزِّنا: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٨]، ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِ﴾ [مريم: ٢٩] فكلَّمَهم، وهذه كرامةٌ.

فهذه كراماتٌ، وهي في الحقيقةِ تُشبِهُ آياتِ الأنبياءِ، لكِنَّ الفَرقَ بينهما أنَّ آياتِ الأنبياءِ تأتي من النبيِّ، وكرامةَ الأولياءِ تأتي مِن وليٍّ مُتَّبِعٍ للنبيِّ[١].

٨- النكرةُ في سياقِ الشَّرطِ تَعُمُّ؛ يُستفاد ذلك مِن قولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ ...﴾[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿فَحَمَلَتۡهُ ...﴾ الفاءُ للتَّفريعِ والتَّعقيبِ، أي: فحمَلَتْ بالغُلامِ في فورِ تلك المُراجعةِ[٣]. وفي الكلامِ إيجازٌ، والتَّقديرُ: فاطمأنَّتْ إلى قولِه، فدنا منها، فنفَخَ في جَيبِ درعِها، فوصَلَتِ النَّفخةُ إلى بطْنِها، فحمَلَتْ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ التعريفُ فيه إمَّا أن يكونَ مِن تعريفِ الأسماءِ الغالبةِ؛ كتعريفِ النجمِ، كأنَّ تلك الصحراءَ كان فيها جذعُ نخلةٍ متعارَفٌ عندَ الناسِ،

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠).

فإذا قيل: «جذع النخلة». فُهِمَ منه ذاك، وإمَّا أن يكونَ تعريفَ الجنسِ[١].

- وجُملةُ: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ السَّامعَ يتشوَّفُ إلى معرفةِ حالِها عندَ إبَّانِ وضْعِ حمْلِها بعدما كان أمْرُها مُستتِرًا غيرَ مكشوفٍ بينَ النَّاسِ، وقد آنَ أنْ ينكشِفَ؛ فيُجابُ السَّامعُ بأنَّها تمنَّتِ الموتَ قبْلَ ذلك، فهي في حالةٍ من الحُزنِ ترى أنَّ الموتَ أهونُ عليها من الوُقوعِ فيها[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾

- قولُه: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ على القولِ بأنَّ قائلَ هذا هو عيسى عليه السَّلامُ؛ فهذا إرهاصٌ[٣] لعيسى، وكرامةٌ لأُمِّه عليهما السَّلامُ، وقُيِّدَ بقولِه: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ لتحقيقِ ذلك، ولإفادةِ أنَّه ناداها عندَ وضْعِه قبْلَ أنْ ترفَعَه؛ مُبادرةً للتَّسليةِ والبشارةِ، وتَصويرًا لتلك الحالةِ الَّتي هي حالةُ تَمامِ اتِّصالِ الصَّبيِّ بأُمِّه[٤].

- قولُه: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ جُملةٌ خبريَّةٌ مُرادٌ بها التَّعليلُ لانتفاءِ الحزْنِ المفهومِ من النَّهيِ عنه في قوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾، أي: أنَّ حالتَك حالةٌ جديرةٌ بالمسرَّةِ دونَ الحزنِ؛ لِما فيها من الكرامةِ الإلهيَّةِ[٥]. والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِها؛ لتَشريفِها، وتأكيدِ التَّعليلِ، وتكميلِ التَّسليةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٥).

(٣) إرهاصٌ: مُقَدِّمةٌ له وإيذانٌ به. يُنظر: ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٤/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٧)

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٢).

٤- قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾

- الباءُ في قولِه: ﴿بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ صلةٌ للتَّأكيدِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ ...﴾[1] [البقرة: ١٩٥]، أو لإلصاقِ الفعْلِ بمدخولِها، أي: افْعَلي الهزَّ بجذْعِها، أو هُزِّي الثَّمرةَ بهَزِّه[2].

- قولُه: ﴿رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ هو كِنايةٌ عن حَدثانِ سُقوطِه، أي: عن طَراوتِه، ولم يكُنْ من الرُّطبِ المخبوءِ من قبْلُ؛ لأنَّ الرُّطبَ متى كان أقرَبَ عهدًا بنخلتِه كان أطيبَ طعمًا[3].

٥- قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾، جُملةُ ﴿فَكُلِي﴾ وما بعْدَها فذلكةٌ[4] للجُمَلِ الَّتي قبْلَها مِن قولِه: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾، أي: فأنتِ في بحبوحةِ عيشٍ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٤-٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٤-٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٧-٨٨).

(٤) الفَذْلكةُ: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملةِ والحوقلةِ مِن قولِهم: (فذلك كذا)، أي: ذكرُ مُجمَلِ ما فُصِّل أولًا وخلاصتِه. وقد يُرادُ بالفذلكةِ النتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فذلكةُ الحساب، أي: مُجمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ بعدَ قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾[البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨ - ٦٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٩).

- وقدَّم الأكلَ على الشُّربِ؛ لأنَّ احتياجَ النُّفَساءِ إلى أكلِ الرُّطَبِ أشَدُّ مِن احتياجِها إلى شُربِ الماءِ؛ لِكَثرةِ ما سال منها مِنَ الدِّماءِ[١]. أو لأنَّه لَمَّا كانت العادةُ تقديمَ الأكلِ على الشُّربِ، تقدَّمَ في الآيةِ[٢]، وهذا هو المُطَّرِدُ في القُرآنِ الكريمِ في جَميعِ المواضِعِ.

- قولُه: ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾ قُرَّةُ العينِ: كنايةٌ عن السُّرورِ، وهي كنايةٌ ناشئةٌ عن ضدِّها، وهو سُخْنةُ العينِ الَّتي هي أثرُ البكاءِ اللَّازمِ للأسفِ والحزنِ، فلمَّا كُنِّي عن الحزنِ بسُخْنةِ العينِ؛ أتْبَعوا ذلك بأنْ كنَّوْا عن السُّرورِ بضِدِّ هذه الكنايةِ فقالوا: قُرَّةُ عينٍ، وأقرَّ اللَّهُ عينَه، وقُرَّةُ العينِ تشمَلُ هناءَ العيشِ، وتشمَلُ الأُنسَ بالطِّفلِ المولودِ. وفي كونِه قُرَّةَ عينٍ كِنايةٌ عن ضمانِ سَلامتِه، ونَباهةِ شأْنِه[٣].

- قولُه: ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ قيل: إنَّه مُرتَّبٌ على مُقدَّرٍ بينه وبينَ الشَّرطِ، تقديرُه: فإمَّا ترينَّ مِن البشرِ أحدًا، فيسألْكِ الكلامَ، فقولي: إنِّي نذرْتُ... إلخ، وبهذا سقَطَ ما قيلَ مِن أنَّ قولَها: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ كلامٌ بعدَ النَّذرِ؛ إذ هو بهذا التَّقديرِ مِن تَمامِ النَّذرِ لا بعْدَه[٤]. وقيل: المعنى: فانْذِري صومًا، وإنْ لقيتِ من البشرِ أحدًا، فقولي: إنِّي نذرْتُ صومًا، فحُذِفَتْ الجُملةُ للقرينةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٩)، (٢٠/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٣).

- قولُه: ﴿إِنسِيًّا﴾ نِكرةٌ في سياقِ النَّفيِ؛ فيُفيدُ العُمومَ، أي: لنْ أُكلِّمَ أحدًا، وعُدِلَ عن (أحدٍ) إلى ﴿إِنسِيًّا﴾؛ لرعايةِ فاصلةِ الياءِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٤).

الآيات (٢٧-٣٦)

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ
مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى
ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا
كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا
شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ
مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا
فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَرِيًّا﴾: أي: عظيمًا عجيبًا مُنكَرًا، وأصلُ (فري): يدلُّ على قطعِ الشَّيءِ، كأنَّه مِمَّا يخرِقُ العادةَ، أو يُقطَعُ بكونِه عجيبًا نادرًا[١].

﴿ٱلْمَهْدِ﴾: المَهدُ: ما يُهيَّأُ للصَّبيِّ، والمَهدُ: الحِجْرُ، وأصلُ (مهد): يدلُّ على التَّوطئةِ للشَّيءِ وتَسهيلِه[٢].

﴿يَمْتَرُونَ﴾: أي: يَشُكُّونَ ويختَلِفونَ، والمِريَةُ: التَّردُّدُ في الأمرِ، وهي أخصُّ مِن الشَّكِّ، والامتراءُ والمُماراةُ: المحاجَّةُ فيما فيه مِريةٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٦).

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾

﴿وَبَرًّا﴾: معطوفٌ على ﴿مُبَارَكًا﴾ مَنصوبٌ، أي: جعلني مباركًا وبَرًّا. أو مَنصوبٌ بإضمارِ فعلٍ، أي: وجعلني برًّا. واختِير هذا على الأوَّلِ؛ لأنَّ فيه فَصلًا كثيرًا بجُملةِ (أوصانِي) ومُتعلِّقِها[1].

٢- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾

﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ في نصبِه أوجهٌ، أحدُها: أنَّه مَصدرٌ مؤكِّدٌ لِمَضمونِ الجملةِ، مفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ مَحذوفٍ، أي: أقولُ قولَ الحق، وهو مِنْ إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه، أي: القولَ الحَقَّ، كقولِك: هو عبدُ اللهِ حَقًّا، والحَقَّ لا الباطِلَ. وتكونُ جملتُه على هذا التقدير اعتراضًا بين الصِّفةِ والموصوف؛ لأنَّ التقديرَ: ذلك عيسى بنُ مريمَ الذي فيه يمترون. والثاني: أن يكونَ مَنصوبًا على المدحِ إذا أُريد بـ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ كلمةُ اللهِ. وسُمِّي عيسى قولًا كما سُمِّي كلمةً؛ لأنَّه عنها نشأ. والثالث: أن يكونَ منصوبًا على الحالِ من ﴿عِيسَى﴾. وقُرِئَ ﴿قَوْلُ ٱلْحَقِّ﴾ بالرَّفعِ على أنَّه خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو قَولُ الحَقِّ. أو خبَرٌ ثانٍ لـ﴿ذَٰلِكَ﴾. وقيل: صفةٌ لعيسى أو بدلٌ منه. وقيل: ﴿عِيسَى﴾ بدلٌ أو عطفُ بيان، و﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ خَبَرٌ لـ﴿ذَٰلِكَ﴾[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٨٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ١٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٢٩)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٤٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٤٨٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٨٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٥٩٨).

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى ما حدَث عندما جاءَتْ مريمُ بوليدِها إلى قومِها، فيقولُ سبحانه: فأتت مريمُ قَومَها تَحمِلُ مَولودَها، فلمَّا رأَوها كذلك قالوا لها: يا مَريمُ، لقد فَعلتِ مُنكَرًا عَظيمًا! يا أختَ الرَّجُلِ الصَّالحِ هارونَ، ما كان أبوكِ رجُلَ سَوءٍ يرتكِبُ الفواحِشَ، وما كانت أمُّكِ امرأةَ سَوءٍ تأتي الفاحشةَ! فأشارت مَريمُ إلى مَولودِها عيسى ليُكلِّموه، فقالوا مُنكِرينَ عليها: كيف نكَلِّمُ طِفلًا رَضيعًا لا يزالُ في مَهدِه؟! فنطَق عيسى قائلًا: إنِّي عبدُ اللهِ، قضى بإعطائي الإنجيلَ وجَعْلِي نبيًّا، وجعَلَني عظيمَ الخَيراتِ وكثيرَ النفعِ للناسِ حيثُما وُجِدْتُ، وأوصاني بالمُحافَظةِ على الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ ما بَقِيتُ حَيًّا، وجعَلني بارًّا بوالِدتي، ولم يجعَلْني مُتكَبِّرًا، ولا شَقيًّا عاصيًا لرَبِّي، والتحيةُ والسَّلامةُ والأمانُ عليَّ مِن اللهِ يومَ وُلِدتُ، ويومَ أموتُ، ويومَ أُبعَثُ حيًّا يومَ القيامةِ.

ثم يقولُ الله تعالى لرسولِه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: ذلك هو عيسى بنُ مريمَ، وتلك حقيقتُه، قولَ الحَقِّ الذي شَكَّ فيه اليهودُ والنَّصارى. لا يليقُ بالله تعالى أن يتَّخِذَ مِن عبادِه وخَلْقِه ولَدًا، تنزَّه وتقدَّسَ عن ذلك، إذا قضى أمرًا فإنَّما يقولُ له: «كُنْ»، فيكونُ كما شاءه وأرادَه.

ويخبرُ تعالى أنَّ عيسى عليه السلامُ قال لِقَومِه أيضًا وهو في مهدِه: إنَّ اللهَ ربِّي وربُّكم، فاعبدُوه وَحدَه لا شريكَ له، هذا طريقٌ قَويمٌ لا اعوِجاجَ فيه، مَن سلَكَه اهتَدَى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾.

أي: فجاءت مَريمُ إلى قَومِها وهي تَحمِلُ عيسى دونَ أن تُخفِيَه، مُطمَئِنَّةً إلى أمرِ اللهِ، غيرَ مُكتَرِثةٍ بما سيقولُه النَّاسُ عنها[١].

﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾.

أي: فلمَّا رآها قَومُها وهي تَحمِلُ مولودًا، قالوا: يا مريمُ، لقد فَعلتِ مُنكَرًا عَظيمًا[٢]!

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾.

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾.

أي: يا أُختَ الرجُلِ الصَّالحِ هارونَ[٣]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٣).

قال الشنقيطي في المرادِ بقولِهم: ﴿فَرِيّٗا﴾: (يَعنونَ به الزِّنا؛ لأنَّ ولَدَ الزِّنا كالشَّيءِ المُفترَى المُختَلَقِ؛ لأنَّ الزانيةَ تدَّعي إلحاقَه بمن ليس أباه، ويدُلُّ على أنَّ مُرادَهم بقولِهم: ﴿فَرِيّٗا﴾ الزِّنا، قَولُه تعالى: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٦]؛ لأنَّ ذلك البُهتانَ العظيمَ هو ادِّعاؤُهم أنَّها زنَتْ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤١٣).

(٣) قال الواحدي: (﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ قال ابنُ عباس، وقتادة: هارونُ رجلٌ صالحٌ مِن بني إسرائيل، يُنسَبُ إليه مَن عُرِفَ بالصَّلاحِ، والمعنى: يا شبيهتَه في العِفَّةِ، وعلى هذا يدُلُّ حديثُ المغيرةِ بنِ شُعبةَ). ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٨٢). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤١٣).

وقال الشنقيطي: (وإطلاقُ اسمِ الأخِ على النَّظيرِ المُشابِهِ مَعروفٌ في القرآنِ، وفي كلامِ العَربِ؛ فمِنه في القرآنِ قَولُه تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨]، وقَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤١٥).

وقال ابن جرير: (والصوابُ مِن القَولِ في ذلك ما جاء به الخبَرُ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي ذكرناه، وأنَّها نُسِبَت إلى رجلٍ مِن قَومِها). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٥). =

لم يكُنْ أبوك رجلًا يقارِفُ الفاحِشةَ[(١)]!

عن المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا قَدِمتُ نَجرانَ سَألوني فقالوا: إنَّكم تقرؤونَ ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾، وموسى قبلَ عيسى بكذا وكذا، فلمَّا قَدِمتُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سألتُه عن ذلك، فقال: إنَّهم كانوا يُسَمُّونَ بأنبيائِهم والصَّالحينَ قَبلَهم))[(٢)].

﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾.

أي: ولم تكُنْ أمُّك -يا مَريمُ- زانيةً فتَتأسَّيْ بها، فكيف قارفتِ ذلك وأنتِ مِن أولئك القَومِ الصَّالحينَ[(٣)]؟!

= قال الشنقيطي: (وبهذا الحديثِ الصَّحيحِ... تعلَمُ أنَّ قَولَ من قال: إنَّ المرادَ هارونُ أخو موسى- باطِلٌ، سواءٌ قيل: إنَّها أختُه، أو: إنَّ المرادَ بأنَّها أختُه أنَّها من ذريَّتِه، كما يقال للرَّجُلِ: يا أخا تميمٍ، والمرادُ: يا أخا بني تميم؛ لأنَّه مِن ذريَّةِ تَميمٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤١٤).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ القَولَ باحتمالِ أنَّها مِن ذريَّةِ هارون أخي موسى ليس فيه ما يُنافي حديثَ المغيرةِ بنِ شُعبةَ، وذكَرَ احتِمالًا آخَرَ أن يكونَ لمريمَ أخٌ اسمُه هارون، كان صالحًا في قَومِه. واستظهر هذا الاحتِمالَ السعدي، ونَفَى أن يكونَ المرادُ هارونَ بنَ عمرانَ أخا موسَى؛ لأنَّ بينَهما قُرونًا كثيرةً. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٥، ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٠، ١٠١)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٦٨، ٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٣، ٤١٤).

(٢) رواه مسلم (٢١٣٥).

قال الشوكاني: (وهذا التَّفسيرُ النَّبَويُّ يُغني عن سائرِ ما رُوي عن السَّلفِ في ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

قال الرسعني: (ولم أرَ أحدًا مِن أربابِ المعاني تعرَّض لمقصودِهم بذِكرِ الأبوَينِ ونَفيِ الزِّنا =

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾.

أي: فلم تُكَلِّمْ مَريمُ قَومَها، وأشارت إلى ابنِها عيسى أنْ كَلِّموه؛ لِيُجيبَهم بدلًا منها[1].

﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

أي: قال قَومُ مَريمَ مُنكِرينَ عليها: كيف نكَلِّمُ رَضيعًا لا يزالُ في فِراشِه، وليس في استطاعتِه الكَلامُ[2]؟!

= عنهما. ويلوحُ لي فيه معنيان:

أحدهما: أن يكونَ مقصودُهم من ذلك التعجُّبَ مِن تلبُّسِها بالفُجورِ -على ظنِّهم- مع طهارةِ أعراقِها، وطِيبِ مَنبتِها...

الثاني: زيادةُ توبيخِها، والمبالغةُ في لَومِها باجتراحِها السيئةَ التي لم تُلْفِ عليها أمًّا ولا أبًا؛ فإنَّ مَن فَعَل فِعلَ أصلِه لم يُلَمْ، ومن أشبَه أباه فما ظَلَم). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٧).

قال ابنُ القيم: (وتأمَّلْ... قوله تعالى: ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ كيف تجِدُ معنى الشَّرطية فيه، حتى وقعَ الفِعلُ بعد ﴿مَن﴾ بلَفظِ الماضي والمرادُ به المُستقبَلُ، وأنَّ المعنى: من كان في المهدِ صبيًّا، فكيف نكلِّمُه؟). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٣٦). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤١٥).

وقيل: (كان) زائدةٌ أي: كيف نُكَلِّمُ مَنْ في المهدِ صبيًّا.

وقيل: إنها تامةٌ بمعنى حَدَث ووُجد. والتقديرُ: كيف نكلِّم مَنْ وُجِد صبيًّا؟!

وقيل: إنَّها بمعنى (صار)، أي: كيف نُكَلِّم مَنْ صار في المهد صَبِيًّا؟! يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٥٩٤). =

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾.

أي: فنطَقَ عيسَى وهو صبيٌّ في المَهدِ، فقال: إنِّي عبدُ اللهِ؛ فهو الذي يستَحِقُّ العبادةَ وَحْدَه، لا شَريكَ له[1].

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

أي: قضى اللهُ وقَدَّرَ مِن قبلُ أنَّه سيُؤتيني الإنجيلَ، وسيَجعَلُني نَبيًّا[2].

= وممَّن اختار أنَّ المرادَ بـ﴿ٱلْمَهْدِ﴾: فراشُه ونحو ذلك: الكرماني، وابنُ جزي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) للكرماني (٢/ ٦٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٧).

قال ابنُ جريرٍ: (المهدُ: ... يعني به مضجِعَ الصبيِّ في رضاعِه). ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٢).

وقيل: المرادُ به: حجرُ أمِّه. وممَّن اختار ذلك: السمرقندي، وابنُ أبي زمنين، والثعلبي، والواحدي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٥٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٢١٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٨٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٤٩).

وقيل: المعنَى: كيفَ نكلِّمُ مَن سبيلُه أن ينوَّمَ في المهدِ لصغرِه؟! يُنظر ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٩)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٦).

قال الشنقيطي: (وقولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، التَّحقيقُ فيه إنْ شاءَ اللَّهُ: أنَّه عَبَّر بالماضي عمَّا سيَقَعُ في المستقبلِ؛ تنزيلًا لتحَقُّقِ الوقوعِ منزلةَ الوقوعِ، ونظائِرُه في القرآنِ كثيرةٌ، كقولِه تعالَى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ...﴾ إلى قولِه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [الزمر: ٦٨ - ٧١]، وقولِه تعالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] ... =

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال عيسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فأخبَرَهم بأنَّه عبدُ الله، وأنَّ اللهَ عَلَّمَه الكتابَ، وجَعَله من جملةِ أنبيائِه، فهذا مِن كَمالِه لنَفسِه؛ ذكَرَ بَعدَه تكميلَه لِغَيرِه، فقال[1]:

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾.

أي: وجعَلَني ذا برَكاتٍ، كثيرَ الخَيراتِ، ومِن ذلك أن أكونَ نفَّاعًا للخَلقِ، مُعَلِّمًا للخيرِ في أيِّ مكانٍ وزَمانٍ أكونُ فيه[2].

= وهذا الَّذي ذَكَرْنا مِن أنَّ الأفعالَ الماضيةَ في قولِه تعالَى: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ ...﴾ إلخ، بمعنَى المستقبلِ هو الصَّوابُ إن شاءَ اللَّهُ، خلافًا لمَن زَعَم أنَّه نُبِّئ وأُوتيَ الكتابَ في حالِ صِباهُ لظاهِرِ اللَّفظِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٠، ٥٣١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٣)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٦).

قال مجاهدٌ، وعمرُو بنُ قيسٍ، والثوريُّ في معنى ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾: أي: جعَلَني مُعلِّمًا للخيرِ. وفي روايةٍ عن مجاهدٍ: نفَّاعًا. وقال عطاءٌ: أدعو إلى اللهِ وإلى توحيدِه وعبادتِه. وقيل: مُباركًا على مَن تَبِعَني. وقيل: وجعلني آمُرُ بالمعروفِ، وأنهى عن المنكَرِ، وأرشُدُ الضالَّ، وأنصُرُ المظلومَ، وأُغيثُ الملهوفَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٩).

قال ابنُ جزي: (واللفظُ أعمُّ مِن ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٠).

وقال ابن القيم: (قال المسيحُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ قال غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ: مُعلِّمًا للخيرِ أينَما كنتُ، وهذا جزءُ المسمَّى؛ فالمبارَكُ كثيرُ الخيرِ في نَفسِه، الذي يحصِّلُه =

﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

أي: وأوصاني اللهُ أن أحافِظَ على الصَّلاةِ والزَّكاةِ في مُدَّةِ حياتي(١).

= لغيرِه: تعليمًا وإقدارًا، ونُصحًا وإرادةً واجتهادًا؛ ولهذا يكونُ العبدُ مُباركًا لأنَّ الله بارَك فيه وجعَله كذلك). ((جلاء الأفهام)) (ص: ١٦٨).

وقال ابنُ عاشور: (ذلك أنَّ الله أرسَلَه برَحمةٍ لبني إسرائيل؛ لِيُحِلَّ لهم بعضَ الذي حُرِّمَ عليهم، ولِيَدعوَهم إلى مكارمِ الأخلاق بعدَ أن قَسَت قلوبُهم وغَيَّروا مِن دينِهم، فهذه أعظَمُ بَرَكةٍ تُقارِنُه، ومِن بركتِه أن جعَل اللهُ حُلولَه في المكانِ سَببًا لخيرِ أهلِ تلك البُقعةِ؛ مِن خِصبِها، واهتداءِ أهلِها، وتوفيقِهم إلى الخير). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٢٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٣٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٠)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٤٤).

قال ابنُ جرير: (وفي الزَّكاة معنيان: أحدُهما: زكاةُ الأموال أن يُؤدِّيَها. والآخَرُ: تطهيرُ الجسَدِ مِن دَنَسِ الذُّنوبِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣١).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالزكاةِ هنا: زكاةُ المالِ: السمرقندي، والقرطبي، والبقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بها: التطهيرُ مِن الذُّنوبِ: الزجَّاج، والنحاس، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٢٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٣٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٠).

قال ابن جرير: (قولُه: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يقولُ: ما كنتُ حيًّا في الدنيا موجودًا، وهذا يُبِينُ عن أنَّ معنى الزكاةِ في هذا الموضِعِ: تطهيرُ البدَنِ مِن الذنوبِ؛ لأنَّ الذي يُوصَفُ به عيسى صلواتُ الله وسلامُه عليه أنَّه كان لا يدَّخِرُ شَيئًا لغدٍ؛ فتَجِبَ عليه زكاةُ المالِ، إلَّا أن تكونَ الزكاةُ التي كانت فُرِضَت عليه الصَّدَقةَ بكُلِّ ما فَضَل عن قُوتِه، فيكونَ ذلك وجهًا صحيحًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣١).

وقال القرطبي: (رُوِيَ أنَّ عيسى عليه السَّلامُ إنَّما تكلَّمَ في طفولتِه بهذه الآية، ثم عاد إلى حالةِ الأطفالِ، حتى مشى على عادةِ البَشَرِ إلى أن بلغ مبلغَ الصِّبيانِ، فكان نطقُه لإظهارِ براءةِ أمِّه =

كما قال تعالى لنَبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

﴿وَبَرّٗا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾.

﴿وَبَرّٗا بِوَٰلِدَتِي﴾.

أي: وجعَلَني اللهُ بارًّا بوالِدتي مريمَ، مُطيعًا لها، محسنًا إليها غايةَ الإحسانِ[١].

﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾.

أي: ولم يجعَلْني اللهُ مُستكبرًا عن عبادتِه وبِرِّ أمِّي، ولا غليظًا في مُعاملةِ النَّاسِ مُترَفِّعًا عليهم، بل جعَلَني خاضِعًا خاشِعًا مُتذَلِّلًا له، متواضِعًا لعبادِه، سَعيدًا في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾.

﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ﴾.

أي: والتحيَّةُ مِنَ اللهِ عليَّ، والسَّلامةُ والأمانُ لي يومَ وُلِدتُ، ومِن ذلك السلامةُ مِن طَعنِ الشَّيطانِ عندَ الولادةِ[٣].

= لا أنَّه كان ممَّن يَعقِلُ في تلك الحالة، وهو كما يُنطِقُ اللهُ تعالى الجوارحَ يوم القيامة. ولم يُنقَلْ أنَّه دام نُطقُه، ولا أنَّه كان يصلِّي وهو ابنُ يومٍ أو شهرٍ، ولو كان يدوم نُطقُه وتسبيحُه ووَعظُه وصلاتُه في صِغَرِه مِن وَقتِ الوِلادِ، لكان مثلُه ممَّا لا ينكَتِمُ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير البغوي)) =

عن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((ما مِن بَني آدمَ مَولودٌ إلاَّ يَمَسُّه الشَّيطانُ حين يُولَدُ، فيَستَهِلُّ[١] صارِخًا مِن مَسِّ الشَّيطانِ، غيرَ مَريمَ وابنِها))، ثمَّ يقولُ أبو هريرةَ: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]))[٢].

وفي روايةٍ: ((كُلُّ بني آدمَ يَطْعُنُ الشَّيطانُ فِي جنبَيْه بإِصبعِه حينَ يُولَدُ غيرَ عيسى بنِ مريمَ؛ ذَهَب يَطْعُنُ فطَعَن في الحجابِ[٣]))[٤].

﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾.

أي: وتحيةٌ مِن اللهِ يومَ أموتُ وسَلامةٌ وأمانٌ لي مِن كُلِّ سُوءٍ؛ ككُرَبِ

= (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

نسب ابن الجوزي إلى المفسرين أن المعنى: السلامة عليَّ من الله يوم وُلدتُ حتى لم يضرَّني شيطان. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٢).

وقال السمعاني: (قوله تعالَى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ معناهُ: التَّحيَّة وَالحفظُ مِن الله لي يَوْمَ ولدتُ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٩١).

وَذكر الشنقيطي القولين (أي أنَّ معنَى السلامِ: التحيةُ، والثاني أنَّ معناه الأمانُ) في قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ وأنَّ مرجِعَهما إلى شيءٍ واحدٍ؛ لأنَّ معنَى سلامِ التَّحِيَّة: الأمانُ، والسَّلامةُ ممَّا يكرهُ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨١).

(١) استهَلَّ الصَّبيُّ: صاح عند الولادةِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٢٧).

(٢) رواه البخاري (٣٤٣١) واللفظ له، ومسلم (٢٣٦٦).

(٣) الحجابِ: أي: المشيمةِ التي فيها الولدُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٧٠).

قال الحافظ ابن حجر: (قال القرطبي: هذا الطعنُ مِن الشيطانِ هو ابتداءُ التسليطِ، فحفِظ الله مريمَ وابنَها منه ببركةِ دعوةِ أمِّها؛ حيثُ قالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] ولم يكُنْ لمريمَ ذريةٌ غير عيسى). ((المصدر السابق)).

(٤) رواه البخاري (٣٢٨٦).

الموتِ، وسُوءِ الخاتمةِ، وعذابِ القَبرِ وفِتنَتِه[١].

﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

أي: وتحيةٌ مِنَ اللهِ وسَلامةٌ وأمانٌ لي يومَ القيامةِ حينَ يَبعَثُني حيًّا فيُؤَمِّنُني مِن الفزَعِ والأهوالِ، وعذابِ النَّارِ[٢].

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: ذلك العَظيمُ القَدرِ، العالي المَنزِلة الذي أخبَرتُكم بشأنِه هو عيسى بنُ مَريمَ، فهذه صِفتُه، وتلك حقيقةُ نَشأتِه، قَولَ الحَقِّ، الذي فيه يختلفُ النَّاسُ ويشُكُّون، فكذلك فاعتَقِدوا، لا كما يظنُّ اليهودُ أنَّه ابنُ زِنا، ولا كما يظُنُّ النَّصارى أنَّه اللهُ أو ابنُ اللهِ أو ثالثُ ثلاثةٍ[٣]!!

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٤، ١٠٥)، ((تفسير الإيجي)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٤-٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٥-١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩٥-١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠١، ١٠٢).

قال الشنقيطي: (اعلمْ أنَّ لَفظةَ ﴿ٱلْحَقِّ﴾ في قَولِه هنا: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ فيها للعلماء وجهان:

الأول: أنَّ المرادَ بالحَقِّ ضِدُّ الباطِلِ، بمعنى الصِّدقِ والثُّبوتِ، كقَولِه: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦].

الوجه الثاني: أنَّ المرادَ بالحَقِّ في الآيةِ: اللهُ جلَّ وعلا؛ لأنَّ مِن أسمائِه «الحَقَّ»، كقَولِه: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦]). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤١٧-٤١٨). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالَى أنَّه خَلَقه عبدًا نَبِيًّا، نَزَّه نفسَه المُقدَّسةَ، فقالَ[١]:

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾.

أي: ما ينبغي لله أن يَجعلَ له ولَدًا، تنزَّه اللهُ عن الوَلَدِ والنَّقصِ، وعن كلِّ ما لا يليقُ بكَمالِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال سُبحانه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢].

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

أي: إذا أراد اللهُ إحداثَ شَيءٍ فإنَّما يقولُ له: كُنْ، فيَصيرُ مَوجودًا كما يشاءُ بلا كُلفةٍ ولا مَشقَّةٍ، كما خلقَ عيسى بنَ مَريمَ بكَلِمةِ (كُنْ)، فصار مخلوقًا بدونِ أبٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٣/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٩).

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

أي: قال عيسى لِقَومِه وهو في مَهدِه: ولأنَّ اللهَ رَبِّي ورَبُّكم فاعبُدوه وَحدَه لا شريكَ له[١].

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

أي: هذا الذي جئتُكم به مِن عندِ اللهِ هو طريقٌ قويمٌ، لا اعوِجاجَ فيه، فمَن سلَكَه اهتَدَى، ومَن خالفَه ضلَّ وغوَى[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ إذا زنى؛ فقد يُبْتَلَى نسْلُه بالزِّنا، والعياذُ بالله[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّ الفواحشَ من أولادِ الصَّالحينَ أفحَشُ[٤].

٣- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تنبيهٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٣).

على أَثَرةِ المرأةِ ذاتِ الأصلِ الطاهرِ، والمنبتِ الطيبِ، واجتنابِ ذواتِ المنابتِ الخبيثةِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ إن قيل: (أَتَتْ بِهِ) يُغني عن ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ فما فائدةُ التَّكريرِ؟

فالجوابُ: أنَّه لَمَّا ظَهَرت منه آياتٌ، جاز أن يتوهَّمَ السَّامِعُ من ﴿فَأَتَتْ بِهِ﴾ أن يكونَ ساعيًا على قَدَميه، فيكونَ سَعيُه آيةً كنُطقِه، فقطع ذلك التوهُّمَ، وأعلَمَ أنَّه كسائرِ الأطفالِ، وهذا مِثلُ قَولِ العَرَبِ: نظَرْتُ إلى فُلانٍ بعَيني، فنَفَوا بذلك نظَرَ العَطفِ والرَّحمةِ، وأثبَتوا أنَّه نظَرُ عَينٍ[٢].

٢- جُملةُ: ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ حالٌ من تاءِ ﴿فَأَتَتْ﴾، وهذه الحالُ للدَّلالةِ على أنَّها أتَتْ مُعلِنةً به غيرَ ساترةٍ؛ لأنَّها قد علِمَتْ أنَّ اللهَ سيُبرِّئُها ممَّا يُتَّهمُ به مثْلُ مَن جاء في حالتِها[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ دلالةٌ على أنَّ الإشارةَ وإنْ قامتْ في الإفهامِ مَقامَ الكلامِ فليستْ بكَلامٍ؛ لأنَّ مَريمَ كانت نَذَرتْ ألَّا تُكَلِّمَ أحدًا، فلم تُخرِجْها الإشارةُ إلى ابنِها عيسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن النَّذر، ولا عَدَّتْ كلامَها مما يُخرِجُها منه[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ إنَّما

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٣٨).

أشارَتْ إليه؛ لِما تقدَّم لها مِن وعدِه أنَّه يجيبُهم عنها، ويُغنيها عن الكلامِ، وقيل: بوحيٍ مِن الله إليها[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ الذُّريَّةُ -في الغالِبِ- بَعضُها مِن بعضٍ، في الصَّلاحِ وضِدِّه[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ ردٌّ على الغُلاةِ في المَسيحِ، وعلى الجُفاةِ النَّافينَ عنه ما أنعَمَ اللهُ به عليه[٣].

٧- قال الله تعالى حِكايةً عن عيسى حينَ تكلَّمَ في المهدِ صَبيًّا: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ أنطقَه اللهُ تعالى به أوَّلًا؛ لأنَّه أوَّلُ المقاماتِ، وللرَّدِّ على مَن يَزعُمُ رُبوبيَّتَه[٤]، ففي ذلك أعظمُ زجرٍ للنَّصارَى عن دعواهم أنَّه الله أو ابنُه أو إلهٌ معه[٥]. قال مُقاتِلٌ: (أقَرَّ على نفسِه بالعُبوديَّةِ لله عزَّ وجَلَّ أوَّلَ ما تكَلَّمَ؛ لِئَلَّا يُتَّخَذَ إلهًا)[٦].

٨- قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ كلامُ عيسى هذا مِمَّا أهمَلَتْه أناجيلُ النَّصارى؛ لأنَّهم طَوَوا خبَرَ وُصولِها إلى أهلِها بعد وَضعِها، وهو طَيٌّ يُتعَجَّبُ منه، ويدُلُّ على أنَّها كُتِبَت في أحوالٍ غيرِ مَضبوطةٍ، فأطلَعَ اللهُ تعالى عليه نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٣٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٨).

٩- قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ هذه الكَلِمةُ التي نَطقَ بها عيسى في أوَّلِ خِطابِه لهم، ذكرها اللهُ جَلَّ وعلا عنه في مواضِعَ أُخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١]، وقَولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٣-٦٤]، وقال هنا: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦]، وقَولِه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ(١).

١٠- قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ مع أنَّ الذي اشتَدَّت الحاجةُ إليه في ذلك الوَقتِ إنَّما هو نفيُ تُهمةِ الزِّنا عن مَريمَ عليها السَّلامُ، إلَّا أنَّ عيسى عليه السلامُ لم يَنُصَّ على ذلك، وإنَّما نَصَّ على إثباتِ عُبوديَّةِ نَفسِه، كأنَّه جَعَل إزالةَ التُّهمةِ عن اللهِ تعالى أَولى من إزالةِ التُّهمةِ عن الأمِّ؛ فلهذا أوَّلَ ما تكَلَّمَ إنَّما تكَلَّمَ بها(٢).

١١- قولُه تعالى: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ...﴾: فيه تنبيهٌ على بَراءةِ أُمِّه ممَّا اتُّهِمَتْ به؛ لأنَّه تعالى لا يخُصُّ بولدٍ موصوفٍ بالنُّبوَّةِ والخلالِ الحميدةِ إلَّا مُبرَّأةً مُصطفاةً(٣).

١٢- قال المسيحُ عليه السَّلامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، فبَرَكاتُ أولياءِ الله الصَّالحينَ باعتبارِ نَفعِهم للخَلقِ بدُعائِهم إلى طاعةِ اللهِ، وبدُعائِهم

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٨).

للخَلقِ، وبما يُنزِلُ اللهُ مِن الرَّحمةِ ويَدفَعُ من العذابِ بسَبَبِهم- حقٌّ موجودٌ[١].

١٣- في قولِ الله تعالى: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ إنْ قلْتَ: كيف أُمِرَ بذلك مع أنَّه كان طِفلًا، وخِطابُ التَّكليفِ إنَّما يكونُ بعدَ البُلوغِ والتَّمييزِ؟

فالجوابُ: أنَّ ذلك لا يدُلُّ على أنَّه أوصاهُ بأداءِ ذلك في الحالِ، بل أوصاهُ في الحالِ بالأداءِ بعدَ البُلوغِ والتَّمييزِ. وقيل: إنَّ اللهَ صَيَّره عقِبَ وِلادتِه بالغًا مُميِّزًا؛ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فكما أنَّه تعالى خلَقَ آدمَ تامًّا كاملًا دَفعةً، فكذا القولُ في عيسى عليهما السَّلامُ، وهو أقرَبُ إلى ظاهرِ قولِه: ﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾، فما أوصاهُ بذلك إلَّا بعدَ بُلوغِه وتَمييزِه.

فإنْ قلْتَ: الزَّكاةُ إنَّما تجِبُ على الأغنياءِ، وعيسى لم يزَلْ فقيرًا، لابِسًا كِساءً مُدَّةَ مُكثِه في الأرضِ، مع علْمِه تعالى بحالِه؛ فكيف أوصاهُ بها؟!

فالجواب: المُرادُ بالزَّكاةِ هنا: تزكيةُ النَّفسِ وتطهيرُها من المعاصي، لا زكاةُ المالِ[٢]. وقيل: بلْ على حقيقتِها، وهذا أمْرٌ خاصٌّ به، وقرينةُ الخُصوصِ قولُه: ﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾؛ لدلالتِه على استغراقِ مُدَّةِ حياتِه بإيقاعِ الصَّلاةِ والصَّدقةِ، أي: أنْ يُصلِّيَ ويتصدَّقَ في أوقاتِ التَّمكُّنِ من ذلك؛ فالاستغراقُ المُستفادُ من قولِه: ﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ استغراقٌ عُرفيٌّ مُرادٌ به الكثرةُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٤-٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٠).

١٤- عن عبدِ اللهِ بنِ واقدٍ أبي رجاء، عن بعضِ أهلِ العِلمِ، قال: (لا تجِدُ عاقًّا إلَّا وجَدْتَه جبَّارًا شقيًّا، ثمَّ قرأ ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾)[١].

١٥- قال اللهُ تعالى عن المسيحِ عليه السَّلامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾ فبيَّنَ أنَّ اللهَ هو الذي جعله بَرًّا بوالِدتِه، ولم يَجعَلْه جبَّارًا شَقيًّا، وهذا صريحُ قولِ أهلِ السُّنةِ في أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خالقُ أفعالِ العِبادِ[٢].

١٦- قوله: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ قد خَصَّه اللهُ تعالى بذلك بينَ قومِه، قيل: لأنَّ بِرَّ الوالدينِ كان ضعيفًا في بني إسرائيلَ يومئذٍ، وبخاصَّةٍ الوالدة؛ لأنَّها تُستضعَفُ؛ لأنَّ فرطَ حنانِها وشفقَتِها قد يُجرِّئانِ الولَدَ على التَّساهُلِ في البِرِّ بها[٣].

١٧- قولُه تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ إشارةٌ إلى تنزيهِ أُمِّه عن الزِّنا؛ إذْ لو كانت زانيةً لَمَا كانَ الرَّسولُ المعصومُ مأمورًا بتعظيمِها[٤].

١٨- قولهُ تعالى حكايةً عن عيسى عليه السلامُ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ...﴾ احتَجَّ مالِكٌ -رحمه الله- بهذه الآيةِ على القَدَريَّةِ، فقال: (ما أشَدَّها على أهلِ القَدَرِ! أخبَرَ عيسى عليه السَّلامُ بما قُضِيَ مِن أمْرِه، وبما هو كائِنٌ إلى أن يموتَ)[٥].

١٩- قال تعالى حكايةً عن عيسى عليه السلامُ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٧).

أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أعظَمُ أحوالِ الإنسانِ احتياجًا إلى السَّلامةِ هي هذه الأحوالُ الثَّلاثةُ، وهي يومُ الوِلادةِ، ويومُ الموتِ، ويَومُ البَعثِ؛ فجَميعُ الأحوالِ التي يُحتاجُ فيها إلى السَّلامةِ واجتِماعِ السَّعادةِ مِن قِبَلِه تعالى طَلَبَها؛ لِيَكونَ مَصونًا عن الآفاتِ والمخافاتِ في كلِّ الأحوالِ(١).

٢٠- القضاءُ في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ هو القضاءُ الكونيُّ، ويقابلُه القضاءُ الدينيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] أي: أمَرَ(٢).

٢١- قَولُه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فيه إثباتُ القَولِ لله(٣).

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ قولَ اللهِ يكونُ بصَوتٍ مَسموعٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، و﴿لَهُۥ﴾ صريحةٌ في توجيهِ القَولِ للمَقولِ له، ولولا أنه يَسمَعُه لَمَا صار في توجيهِه له فائدةٌ؛ ولهذا يَسمَعُه المُوَجَّهُ إليه الأمرُ، فيَمتثِلُ ويكونُ(٤).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ قَولَ اللهِ يكونُ بحروفٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿كُن﴾، وهي كلمةٌ بحرفينِ، فإن قال قائل: كيف يمكِنُ أن نتصَوَّرَ هذا ونحن نقولُ: ليس كمِثْلِه شَيءٌ، وأنتم تقولون: إنَّه بحروفٍ؟

فالجوابُ: نعم، الحروفُ هي الحروفُ، لكِنَّ كيفيَّةَ الكلامِ وحقيقةَ النُّطقِ بها

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أو القَولِ، لا يُماثِلُ نُطقَ المَخلوقِ وقَولَه، ومِن هنا نَعرِفُ أنَّنا لا نكونُ مُمَثِّلةً إذا قلنا: إنَّه بحرفٍ وصَوتٍ مَسموعٍ؛ لأننا نقول: صَوتٌ ليس كأصواتِ المخلوقينَ، بل هو حَسَبَ ما يليقُ بعَظَمتِه وجلالِه[١].

٢٤- في قولِه تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ دَلالةٌ على أنَّه ليس بينَ أمْرِ اللهِ بالتَّكوينِ وتكوُّنِه تراخٍ، بل يكونُ على الفوريَّةِ؛ وذلك لقَولِه تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالفاءِ، والفاءُ تدلُّ على الترتيبِ والتَّعقيبِ[٢].

٢٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ يدُلُّ على أنَّ مُدبِّرَ النَّاسِ ومُصلِحَ أمورِهم هو اللهُ تعالى، على خِلافِ قَولِ المنَجِّمينَ: إنَّ مُدَبِّرَ النَّاسِ ومُصلِحَ أمورِهم في السَّعادةِ والشَّقاوةِ هي الكواكِبُ[٣]!

٢٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ فيه الإقرارُ بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ وتوحيدِ الإلهيَّةِ، والاستِدلالُ بالأوَّلِ على الثَّاني[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ دلَّتِ الفاءُ في ﴿فَأَتَتۡ﴾ على أنَّ مريمَ جاءت أهْلَها عقِبَ انتهاءِ الكلامِ الَّذي كلَّمَها ابنُها[٥].

- قولُه: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ﴾ الجُملةُ مُستأنفةٌ استئنافًا بَيانيًّا. وقال قومُها هذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٤).

المقالةَ توبيخًا لها[١]، وفي الكلامِ إيجازٌ بالحذفِ؛ أي: فلمَّا رأَوْها وابنَها قالوا: ...[٢].

- قولُه: ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، أي: فعَلْتِ شيئًا عظيمًا بديعًا مُنكَرًا، من: فرَى الجلدَ، أي: قطَعَه، أو جئتِ مجيئًا عجيبًا؛ عُبِّرَ عنه بالشَّيءِ؛ تحقيقًا للاستغرابِ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ استئنافٌ لتجديدِ التَّعييرِ، وتأكيدِ التَّوبيخِ[٤].

- وجُملةُ: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تقريرٌ لأنَّ ما جاءت به فَرِيٌّ[٥].

- قولُهم: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ لمَّا اتَّهموها بما اتَّهموها، نَفَوا عن أبويْها السُّوءَ لمُناسَبةِ الولادةِ، ولم ينُصُّوا على إثباتِ الصَّلاحِ -وإنْ كان نفيُ السُّوءِ يُوجِبُ الصَّلاحَ، ونفْيُ البغاءِ يُوجِبُ العِفَّةَ-؛ لأنَّهما بالنِّسبةِ إليهما نقيضانِ[٦]، وقَصدوا بهذا الكلامِ الكنايةَ عن كونِها أتتْ بأمْرٍ ليس من شأْنِ أهْلِها، أي: أتَتْ بسُوءٍ ليس من شأْنِ أبيها، وبِغاءٍ ليس من شأْنِ أُمِّها، وخالَفَتْ سيرةَ أبويْها؛ فكانت امرأةَ سَوءٍ، وكانت بَغيًّا، وما كان أبوها امرأَ سَوءٍ، ولا كانت أُمُّها بغيًّا؛ فكانت مُبتكِرةً الفواحشَ في أهْلِها، وهم أرادوا ذَمَّها؛ فأتَوا بكلامٍ صريحُه ثناءٌ على أبويها مُقتضٍ أنَّ شأْنَها أنْ تكونَ مثْلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٧).

أبويْها[١].

٣- قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ لَمَّا كانت إشارتُها بمنزلةِ مُراجعةِ كلامٍ، حكَى حِوارَهم الواقعَ عقِبَ الإشارةِ بجُملةِ القولِ مفصولةً غيرَ معطوفةٍ[٢].

- قولُه: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ الفعلُ ﴿كَانَ﴾ لإيقاعِ مضمونِ الجُملةِ في زمانٍ ماضٍ مُبهَمٍ يصلُحُ لقريبِه وبَعيدِه، وهو هاهنا لقريبِه خاصَّةً، والدَّالُّ عليه مَبْنى الكلامِ، وأنَّه مسوقٌ للتَّعجُّبِ؛ فعلى هذا يكونُ: ﴿نُكَلِّمُ﴾ للحالِ الحاضرةِ[٣]. أو يكونُ ﴿نُكَلِّمُ﴾ حكايةَ حالٍ ماضيةٍ، أي: كيفَ عُهِد قبلَ عيسَى أن يكلِّمَ النَّاسُ صبيًّا في المهدِ فيما سلَف مِن الزمانِ حتَّى نكلِّمَ هذا[٤]؟!

- قولُه: ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ إنكارٌ وتهكُّمٌ بها، أي: إنَّ مَن كان في المهدِ يُربَّى لا يُكلَّمُ[٥]؛ فالاستفهامُ للإنكارِ؛ أنْكَروا أنْ يُكلِّموا مَن ليس من شأْنِه أنْ يتكلَّمَ، وأنْكَروا أنْ تُحيلَهم على مُكالمتِه، أي: كيف نترقَّبُ منه الجوابَ، أو كيف نُلْقي عليه السُّؤالَ؛ لأنَّ الحالتينِ تَقتضيانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٧).

التَّكلُّمَ[١]؟!

- وزيادةُ فعْلِ الكونِ في ﴿مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ المظروفيَّةِ في المهدِ مِن هذا الَّذي أُحيلوا على مُكالمتِه، وذلك مُبالغةٌ منهم في الإنكارِ، وتعجُّبٌ من استخفافِها بهم، ففعْلُ (كان) زائدٌ للتَّوكيدِ؛ ولذلك جاء بصِيغَةِ الماضي؛ لأنَّ (كان) الزَّائدةَ تكونُ بصِيغَةِ الماضي غالبًا[٢]، وهذا على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ.

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ من سياقِ النَّظمِ الكريمِ؛ كأنَّه قيل: فماذا كان بعدَ ذلك؟ فقيل: قال عيسى عليه السَّلامُ...[٣].

- والتَّعبيرُ في ﴿ءَاتَىٰنِيَ﴾ ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ بصِيغَةِ الماضي؛ إمَّا باعتبارِ ما سبَقَ في القضاءِ المحتومِ، أو بجعْلِ المُحقَّقِ وُقوعُه لا مَحالةَ واقعًا[٤].

٥- قوله تعالى عن عيسى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ كونُه مُبارَكًا أعمُّ من كونِه نبيًّا عُمومًا وجْهِيًّا[٥]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٨).

(٥) أي: أنَّ كُلَّ كَلِمةٍ منهما أعمُّ مِن الأخرى مِن وَجهٍ، وأخَصُّ مِن آخَرَ؛ مثالُ ذلك: إنسانٌ، وأبيضُ، كُلُّ واحدٍ منهما أعَمُّ مِن الآخَرِ مِن وَجهٍ؛ فكَلِمةُ (إنسان) تعُمُّ الأبيضَ وغيرَ الأبيضِ، وكَلِمةُ =

فلم يكُنْ في قولِه: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ غُنْيةٌ عن قولِه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾[١].

- قولُه: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ شرطٌ، وجزاؤُه محذوفٌ تقديرُه: جعَلني مُبارَكًا، وحُذِفَ؛ لدلالةِ ما تقدَّمَ عليه[٢].

- والتَّعميمُ الَّذي في قولِه: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ تعميمٌ للأمكنةِ، فهو حيثُما حَلَّ تحُلُّ معه البركةُ[٣].

- قولُه: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ فيه استعمالُ صِيغَةِ الماضِي في (أوصاني)، باعتبارِ ما سبَقَ في القدَرِ المحتومِ، أي: قدَّرَ وصيَّتي بالصَّلاةِ والزَّكاةِ[٤].

٦- قوله تعالى عن عيسى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾

- في قولِه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ التَّعريفُ في (السَّلام) قيل: إنَّه للعهْدِ الذِّكري، والمعنى: ذلك السَّلامُ المُوجَّهُ إلى يحيى في المواطنِ الثَّلاثةِ مُوجَّهٌ إليَّ. وقيل: اللَّامُ للجنسِ والتَّعريضِ باللَّعنِ على أعدائِه، فإذا قال: جنْسُ السَّلامِ عليَّ خاصَّةً؛ فقد عَرَّضَ بأنَّ ضِدَّه عليكم، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧]، يعني:

= (أبيض) تُطلَقُ على الإنسانِ وغيرِ الإنسانِ؛ فالأبيضُ إذَن أعَمُّ مِن الإنسانِ مِن وجهٍ؛ لأنَّها تُطلَقُ عليه وعلى غيرِه، والإنسانُ أعَمُّ من البَياضِ مِن وَجهٍ؛ لأنَّها تُطلَقُ على الأبيَضِ وغَيرِه. يُنظر: ((شرح مختصر التحرير)) لابن عثيمين (ص: ٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ العذابَ على مَن كذَّبَ وتولَّى، وكان المقامُ مَقامَ مُناكرةٍ وعِنادٍ، فهو مَئِنَّةٌ لنحوِ هذا من التَّعريضِ[١]. وقيل: جيءَ بالسَّلامِ هنا مُعرَّفًا باللَّامِ الدَّالَّةِ على الجنسِ؛ مُبالغةً في تعلُّقِ السَّلامِ به، حتَّى كأنَّ جنْسَ السَّلامِ بأجمَعِه عليه، وهذا مُؤذِنٌ بتفضيلِه على يحيى؛ إذ قيل في شأنِه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾. ويجوزُ جعْلُ اللَّامِ للعهدِ، أي: سلامٌ إليه، وهو كنايةٌ عن تكريمِ اللهِ عبْدَه بالثَّناءِ عليه في الملأِ الأعلى وبالأمْرِ بكَرامتِه، ومُؤذِنٌ أيضًا بتمهيدِ التَّعريضِ باليهودِ؛ إذ طَعَنوا فيه وشَتَموه في الأحوالِ الثَّلاثةِ، فقالوا: وُلِدَ مِن زِنًا، وقالوا: مات مَصلوبًا، وقالوا: يُحشَرُ مع الملاحدةِ والكفرةِ؛ لأنَّهم يَزعمون أنَّه كفَرَ بأحكامٍ من التَّوراةِ[٢]!

٧- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ...﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قبْلَه[٣]، أي: الَّذي تقدَّمَ نعْتُه هو عيسَى بنُ مريمَ لا ما يصِفُه النَّصارى، وهو تكذيبٌ لهم فيما يصِفونَه على الوجْهِ الأبلغِ والطَّريقِ البُرهانيِّ؛ حيث جعَلَه موصوفًا بأضدادِ ما يصِفونَه، ثمَّ عكَسَ الحُكمَ[٤]؛ فهو اعتراضٌ بين الجُملِ المقولةِ في قولِه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] مع قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ [مريم: ٣٦]، أي: ذلك المذكورُ هو عيسى بنُ مريمَ لا كما تزعُمُ النَّصارى واليهودُ. والإشارةُ لتمييزِ المذكورِ أكمَلَ تَمييزٍ؛ تعريضًا بالرَّدِّ على اليهودِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٠-١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٤).

والنَّصارى جميعًا؛ لأنَّهم لمَّا وصَفوه بغيرِ ما هو صِفَتُه جُعِلوا بمنزلةِ مَن لا يعرِفونَه، فاجْتُلِبَ اسمُ الإشارةِ؛ ليتميَّزَ الموصوفُ أكمَلَ تَمييزٍ عندَ الَّذين يُريدونَ أنْ يعرِفوهُ حقَّ معرفتِه. والمقصودُ بالتَّمييزِ تمييزُ صِفاتِه الحقيقيَّةِ عن الصِّفاتِ الباطلةِ الَّتي ألْصَقوها به، لا تمييزُ ذاتِه عن الذَّواتِ؛ إذ ليستْ ذاتُه بحاضرةٍ وقْتَ نُزولِ الآيةِ، أي: تلك حقيقةُ عيسى عليه السَّلامُ وصِفَتُه[1].

فقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى من فُصِّلَت نُعوتُه الجليلةُ، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للدَّلالةِ على عُلوِّ مَرتبتِه، وبُعدِ مَنزلتِه، وامتيازِه بتلك المناقبِ الحميدةِ عن غيرِه، ونُزولِه منزلةَ المُشاهَدِ المحسوسِ[2].

٨- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

- جُملةُ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ تقريرٌ لمعنى العُبوديَّةِ، أو تفصيلٌ لمضمونِ جُملةِ ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾؛ فتكونُ بمنزلةِ بَدلِ البعضِ أو الاشتمالِ منها؛ اكتفاءً بإبطالِ قولِ النَّصارى بأنَّ عيسى ابنُ اللهِ؛ لأنَّه أهمُّ بالإبطالِ؛ إذ هو تقريرٌ لعُبوديَّةِ عيسى، وتنزيهٌ للهِ تعالى عمَّا لا يليقُ بجَلالِ الأُلوهيَّةِ مِن اتِّخاذِ الولدِ، ومن شائبةِ الشِّركِ، ولأنَّه القولُ النَّاشئُ عن الغُلوِّ في التَّقديسِ، فكان فيما ذُكِرَ من صفاتِ المدحِ لعيسى ما قد يُقوِّي شُبهتَهم فيه بخلافِ قولِ اليهودِ؛ فقد ظهَرَ بُطلانُه بما عُدِّدَ لعيسى من صفاتِ الخيرِ[3].

- وصِيغَةُ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ﴾ تُفيدُ انتفاءَ الولدِ عنه تعالى بأبلغِ وجهٍ؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠١-١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦ / ١٠٣).

لامَ الجُحودِ تُفيدُ مُبالغةَ النَّفيِ، وأنَّه ممَّا لا يُلاقي وُجودَ المنفيِّ عنه، ولأنَّ في قولِه: ﴿أَن يَتَّخِذَ﴾ إشارةً إلى أنَّه لو كان له ولدٌ، لكان هو خلَقَه واتَّخذَه، فلم يَعْدُ أنْ يكونَ من جُملةِ مخلوقاتِه. وجُملةُ: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖ﴾؛ لإبطالِ شُبهةِ النَّصارى[١].

- ولَمَّا كان المقامُ يقتَضي النَّفيَ العامَّ، أكَّدَه بـ (مِن) فقال: ﴿مِن وَلَدٖ﴾[٢].

٩- قوله تعالى عن عيسى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ عُطِفَ على قولِه: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾، فيكونُ محكيًّا، وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ إلى ﴿يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ جُمَلَ اعتراضٍ، أخبَرَ اللهُ تعالى بها رسولَه عليه السَّلامُ[٣].

- وجُملةُ: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ تذييلٌ وفذلكةٌ لِما سبَقَه. والإشارةُ إلى مضمونِ ما تقدَّمَ[٤]، والمُرادُ بالصِّراطِ المُستقيمِ: اعتقادُ الحقِّ، شُبِّهَ بالصِّراطِ المُستقيمِ على التَّشبيهِ البليغِ؛ شُبِّهَ الاعتقادُ الحقُّ في كونِه موصلًا إلى الهُدى بالصِّراطِ المُستقيمِ في إيصالِه إلى المكانِ المقصودِ باطمئنانِ بالٍ، وعُلِمَ أنَّ غيرَ هذا كبُنَيَّاتِ[٥] الطَّريقِ، مَن سلَكَها ألْقَت به في المخاوفِ والمتالفِ[٦].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦ / ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦ / ١٠٥).

(٥) بُنَيَّاتُ الطَّريقِ: هي الطُّرُقُ الصِّغارُ تتشَعَّبُ مِن الجادَّةِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٤٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦ / ١٠٥).

مُّسْتَقِيمٌ﴾، وقال في الزُّخرفِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ [الزخرف: ٦٤] بزيادةِ (هو)؛ لأنَّه تعالى ذكَرَ قصَّةَ عيسى عليه السَّلامُ هنا مُستوفاةً، فأغْنى ذلك عن التَّأكيدِ، بخلافِه ثَمَّ[١].

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٥-٣٥٦).

الآيات (٣٧-٤٠)

﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٩ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٤٠ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡأَحۡزَابُ﴾: أي: اليهودُ والنَّصارى، والحزبُ: الجماعةُ مِن الناسِ، أو: جماعةٌ فيها غِلَظٌ، والطَّائفةُ مِن كلِّ شيءٍ حزبٌ، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ[1].

﴿مَّشۡهَدِ﴾: أَيْ: شُهودِ، والشَّهادةُ: الحضورُ مع المشاهدةِ، إمَّا بالبصرِ، أو بالبصيرةِ، وأصلُ (شهد): يدلُّ على حضورٍ وعِلْمٍ وإعلامٍ[2].

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾: أي: ما أَشَدَّ سَمْعَهم، وما أنفَذَ بَصَرَهم! وأصلُ (سمع): يدُلُّ على إيناسِ الشَّيءِ بالأُذُنِ، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على إبصارِ الشَّيءِ، والعِلمِ به[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله سبحانه موقفَ أهلِ الكتابِ مِن عيسى عليه السلامُ، فيقول تعالى: فاختَلَفت اليهودُ والنَّصارى في أمرِ عيسى عليه السَّلامُ؛ فمنهم غالٍ فيه وهم النَّصارى، ومنهم جافٍ عنه وهم اليهودُ، قالوا: إنَّه -حاشاه- ابنُ زنا؛ فوَيلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣) (٣/ ١٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩٩).

لِلَّذينَ كَفَروا مِن شُهودِ يومِ القيامةِ العَظيمِ الهَولِ، ما أشدَّ سَمعَهم وبصَرَهم يومَ القيامةِ! لكنِ الظَّالِمونَ اليومَ في هذه الدُّنيا في ضلالٍ واضحٍ عن الحَقِّ.

ثم يأمرُ الله تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يخوِّفَ المشركينَ مِن أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقول تعالى: وأنذِرْ -يا مُحمَّدُ- النَّاسَ يومَ النَّدامةِ حينَ يُقضى الأمرُ، ويُحكَمُ بينَ العبادِ، وهم اليومَ في هذه الدُّنيا في غَفلةٍ عمَّا أُنذِروا به، وهم لا يُؤمِنونَ باللهِ ولا بالبَعثِ والجَزاءِ في الآخرةِ.

ثم يذكرُ سبحانه ما يدلُّ على كمالِ قدرتِه، وشمولِ مُلكِه، فيقولُ: إنَّا نحن الوارِثونَ للأرضِ ومَن عليها، وإلينا مَصيرُهم، فنُجازيهم على أعمالِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧ ﴾.

﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ ﴾.

أي: فاختلف اليهودُ والنَّصارى في أمرِ عيسى، فزعم اليَهودُ أنَّه ابنُ زِنا، وزعم بعضُ النَّصارى أنَّه ابنُ اللهِ، وزعم بعضُهم أنَّه ثالِثُ ثلاثةٍ، وزعَمَ بَعضُهم أنَّه اللهُ -تعالى اللهُ عمَّا يَقولونَ عُلُوًّا كبيرًا- وقال آخَرونَ في شأنِه القَولَ الحَقَّ: أنَّه عبدُ اللهِ ورَسولُه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣١)، (تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٠).

وممَّن قال بأنَّ المُختَلِفينَ هنا هم اليهودُ والنصارى في الجملةِ: ابنُ عطية، وابنُ تيمية، وابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: اختلافُ فِرَق النصارى خاصَّةً. وممن ذهب إلى ذلك: الواحدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٦). =

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: فوَيلٌ[١] للكافرينَ الذين اعتَقَدوا في عيسى مُعتَقَدًا باطِلًا، ولِغَيرِهم من الكُفَّارِ، مِن حُضورِهم وشُهودِهم يومَ القيامةِ المُمتَلِئَ بالشدائدِ والأهوالِ، المُشتَمِلَ على الجَزاءِ بالأعمالِ، وما سيُلاقونَه فيه مِن العَذابِ والنَّكالِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۞ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٣ - ٦٥].

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾.

أي: ما أسمَعَ الكافرينَ، وما أبصَرَهم للحَقِّ الذي كانوا يُنكِرونَه، يومَ قُدومِهم علينا يومَ القيامةِ[٣]!

= ويُنظر أيضًا: ((الفِصَل)) لابن حزم (١/ ٤٧، ٤٨)، ((المِلل والنِّحَل)) للشهرستاني (٢/ ٢٧). قال ابنُ عطية: (قولُه: ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ معناه أنَّ الاختلافَ لم يخرجْ عنهم، بل كانوا المختلفينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦).

(١) قيل: الويلُ: كلمةٌ تعني الهلاكَ والعذابَ والشِّدَّة. وقيل: وادٍ في جهنَّمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٠). قال الواحدي: (﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: مِن حُضورِ ذلك اليومِ... ويجوزُ أن يكونَ الحُضورُ لهم، وأُضيفَ إلى الظَّرفِ؛ لِوقوعِه فيه، كما تقولُ: وَيلٌ لفُلانٍ مِن قتالِ يومِ كذا، والمعنى: ويلٌ لهم حُضورُهم ذلك وشُهودُهم إيَّاه للجزاءِ والحِسابِ). ((البسيط)) (١٤/ ٢٤٨-٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٣)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٦٦)، =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: لكِنِ الكافِرونَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكَذِبِ والافتراءِ على اللهِ: هم اليومَ في الدُّنيا في ضَلالٍ واضحٍ عن الحَقِّ، لا يَسمَعونَه ولا يُبصِرونَه ولا يَعقِلونَه[1]!

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه عقَّب تَحذيرَهم من عذابِ الآخرةِ، والنِّداءَ على سُوءِ ضَلالِهم في الدُّنيا، بالأمرِ بإنذارِهم؛ استِقصاءً في الإعذارِ لهم[2].

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾.

أي: وخوِّفِ النَّاسَ يومَ القيامةِ -يا مُحمَّدُ- يومَ يَندَمُ الظَّالِمونَ على تَفريطِهم في الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وعلى ما فاتهم مِن الثَّوابِ، وعلى ما يُصيبُهم مِن العذابِ[3].

= ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٤)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٨، ١٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٢).

كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦- ١٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

وقال سُبحانه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾.

أي: حينَ فُرِغَ مِن الحسابِ والحُكمِ بينَ العبادِ، فيَدخُلُ المُؤمِنونَ الجنَّةَ، ويَدخُلُ الكافِرونَ النَّارَ، ويُذبَحُ الموتُ بين الفَريقَينِ[(١)].

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُؤتَى بالموتِ كهَيئةِ كَبشٍ أملَحَ، فيُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيَشرَئِبُّونَ[(٢)] ويَنظُرونَ، فيقولُ: هل تَعرِفونَ هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموتُ، وكُلُّهم قد رآه، ثمَّ ينادي: يا أهلَ النَّارِ، فيَشرَئِبُّونَ ويَنظُرونَ، فيقولُ: وهل تَعرِفونَ هذا؟ فيقولونَ: نعم، هذا الموتُ، وكُلُّهم قد رآه، فيُذبَحُ، ثُمَّ يقولُ: يا أهلَ الجنَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٣).

(٢) فَيَشْرَئِبُّونَ: أي: يَرفَعونَ رُؤوسَهم إلى المنادي. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٨٥).

خُلودٌ فلا مَوتَ، ويا أهلَ النَّارِ خُلودٌ فلا موتَ، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾، وهؤلاء في غَفلةِ أهلِ الدُّنيا ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾))[١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رَضِي الله عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا صار أهلُ الجنَّةِ إلى الجنَّةِ، وصار أهلُ النَّارِ إلى النَّارِ، أُتيَ بالموتِ حتى يُجعَلَ بين الجنَّةِ والنَّارِ، ثمَّ يُذبَحُ، ثم يُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ لا موتَ، ويا أهلَ النَّارِ لا موتَ، فيزدادُ أهلُ الجنَّةِ فَرَحًا إلى فَرَحِهم، ويزدادُ أهلُ النَّارِ حُزنًا إلى حُزنِهم))[٢].

﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾.

أي: والحالُ أنَّ الكافرينَ في الدُّنيا في غَفلةٍ وذُهولٍ عَمَّا أُنذِروا به، وعمَّا ينتَظِرُهم مِن العذابِ يومَ القيامةِ، فهم مُنشَغِلونَ بدُنياهم، مُعرِضونَ عَمَّا يُرادُ منهم[٣].

---

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠) واللفظ له، ومسلم (٢٨٤٩).

(٢) رواه البخاري (٦٥٤٨) ومسلم (٢٨٥٠) واللفظ له.

قال ابنُ القيِّم: (هذا الكَبشُ والإضجاعُ والذَّبحُ ومُعاينةُ الفَريقَينِ: ذلك حقيقةٌ لا خيالٌ ولا تمثيلٌ، كما أخطأ فيه بعضُ النَّاسِ خطأً قبيحًا! وقال: الموتُ عَرَضٌ، والعَرَضُ لا يتجَسَّمُ، فَضلًا عن أن يُذبَح، وهذا لا يصِحُّ؛ فإنَّ اللهَ سبحانه ينشئُ مِن الموتِ صُورةَ كَبشٍ يُذبَحُ، كما يُنشِئُ مِن الأعمالِ صُورًا مُعايَنةً يُثابُ بها ويُعاقَبُ، واللهُ تعالى ينشئُ مِن الأعراضِ أجسامًا تكونُ الأعراضُ مادَّةً لها، ويُنشِئُ مِن الأجسامِ أعراضًا، كما ينشئُ سُبحانه وتعالى من الأعراضِ أعراضًا، ومن الأجسامِ أجسامًا، فالأقسامُ الأربعةُ مُمكِنةٌ مَقدورةٌ للرَّبِّ تعالى، ولا يستلزمُ جَمعًا بين النَّقيضَينِ، ولا شيئًا مِن المحال... اللهُ سُبحانَه يُنشِئُ مِن الأعراضِ أجسامًا ويجعَلُها مادَّةً لها، كما في الصَّحيحِ عنه: «تجيءُ البَقَرةُ وآلُ عِمرانَ يومَ القيامةِ كأنَّهما غَمامتانِ...» الحديث). ((حادي الأرواح)) (ص: ٤٠١، ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٢). =

كما قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ * مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ * لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق: ٢٢].

﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: وهم في الدُّنيا لا يُؤمِنونَ باللهِ، ولا بالبَعثِ والجَزاءِ في الآخرةِ[(١)].

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٤٠﴾.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾.

أي: قال اللهُ تعالى: إنِّي أرِثُ وَحدي الأرضَ وكُلَّ ما عليها بعدَ مَوتِ الخلائِقِ، ولا يَملِكُها أحدٌ سواي[(٢)].

= قال الشنقيطي: (قَولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾، أي: في غفلةِ الدُّنيا مُعرِضونَ عن الآخرةِ، وجملةُ ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾ حاليةٌ، والعامِلُ فيها (أَنْذِرْهُمْ) أي: أنذِرْهم في حالِ غَفلتِهم غيرَ مُؤمِنينَ، خلافًا لِمن قال: إنَّ العامِلَ في الجملة الحاليةِ قَولُه قبلَ هذا ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [مريم: ٣٨]). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣).

قال ابنُ عاشور: (ومعنى ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾: استِمرارُ عَدَمِ إيمانِهم إلى حُلولِ قَضاءِ الأمرِ يومَ الحَسرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإلينا لا إلى غَيرِنا يُرَدُّ العِبادُ يومَ القيامةِ فيُبعَثونَ، وبأعمالِهم يُجازَونَ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ والإنذارُ هو الإعلامُ بالمَخُوفِ على وَجهِ التَّرهيبِ، والإخبارُ بصِفاتِه، وأحقُّ ما يُنذَرُ به ويُخَوَّفُ به العِبادُ يومَ الحَسرةِ حينَ يُقضى الأمرُ، فيُجمَعُ الأوَّلونَ والآخِرونَ في مَوقِفٍ واحدٍ، ويُسأَلونَ عن أعمالِهم، فمَن آمنَ باللهِ واتَّبَع رُسُلَه؛ سَعِدَ سَعادةً لا يشقى بعدَها، ومَن لم يؤمِنْ باللهِ ويتَّبِعْ رُسُلَه؛ شَقِيَ شَقاوةً لا سعادةَ بَعدَها، وخَسِرَ نَفسَه وأهلَه، فحينئذٍ يتحَسَّرُ ويندَمُ ندامةً تتقَطَّعُ منها القُلوبُ، وتنصَدِعُ منها الأفئدةُ، وأيُّ حسرةٍ أعظمُ مِن فواتِ رضا الله وجنَّتِه، واستحقاقِ سخطِه والنارِ، على وجهٍ لا يتمكَّنُ مِن الرُّجوعِ؛ ليَستأنفَ العملَ، ولا سبيلَ له إلى تغييرِ حالِه بالعودِ إلى الدُّنيا[٢]؟!

= ابن كثير)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٣).

قال ابنُ جرير: (يقول تعالى ذِكرُه لنبيِّه محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا يَحزُنْك تكذيبُ هؤلاء المُشرِكينَ لك -يا مُحمَّدُ- فيما أتيتَهم به من الحَقِّ؛ فإنَّ إلينا مَرجِعَهم ومَصيرَهم ومصيرَ جَميعِ الخَلقِ غَيرِهم، ونحن وارِثو الأرضِ ومَن عليها من النَّاسِ، بفَنائِهم منها، وبقائِها لا مالِكَ لها غيرُنا). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعدَ قَولِه: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ ولم يقُلْ: (فويلٌ لهم) ليعودَ الضَّميرُ إلى الأحزابِ؛ لأنَّ مِن الأحزابِ المُختَلِفينَ طائفةً أصابت الصَّوابَ، ووافَقَت الحَقَّ، فقالت في عيسى: إنَّه عبدُ اللهِ ورَسولُه، فآمَنوا به واتَّبَعوه، فهؤلاء مُؤمِنونَ غيرُ داخِلينَ في هذا الوَعيدِ؛ فلهذا خَصَّ اللهُ بالوعيدِ الكافرينَ[(١)].

٢- قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ لِمَن كَذَب على اللهِ وافترى، وزعَم أنَّ له وَلدًا، ولكِنْ أنظَرَهم تعالى إلى يومِ القيامةِ وأجَّلَهم؛ حِلمًا وثِقةً بقُدرتِه عليهم؛ فإنَّه الذي لا يَعجَلُ على مَن عصاه، كما جاء في الصَّحيحينِ: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالمِ حتى إذا أخَذه لم يُفلِتْه. ثمَّ قرأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))[(٢)]. وفي الصَّحيحَينِ[(٣)] أيضًا عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((ما أحدٌ أصبَرَ على أذًى سَمِعه مِنَ الله؛ يَدَّعونَ له الولدَ، ثمَّ يُعافيهم ويرزُقُهم!))[(٤)]. وما أشار اللهُ إليه مِن أنَّه لم يُعاجِلْهم بالعذابِ، وأنَّه يُؤخِّرُ عذابَهم إلى الوَقتِ المَحدَّدِ لذلك؛ أشار له في مواضِعَ أُخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقَولِه تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، وقَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٧٨) واللفظ له، ومسلم (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٢).

لَجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[(١)] [العنكبوت: ٥٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ﴾ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبْلَها؛ تَنبيهًا على سُوءِ صنيعِهم بجعْلِهم ما يُوجِبُ الاتِّفاقَ منشأً للاختلافِ؛ فإنَّ ما حُكِيَ مِن مقالاتِ عيسى عليه السَّلامُ مع كونِها نُصوصًا قاطعةً في كونِه عبدَه تعالى ورسولَه، قدِ اختلفَتِ اليهودُ والنَّصارى بالتَّفريطِ والإفراطِ[(٢)].

- وقولُه: ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ مُتعلِّقٌ بـ (اخْتَلَفَ)، و﴿مِنۢ﴾ حرفُ توكيدٍ، أي: اخْتَلفوا بينهم[(٣)].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، وفي سُورةِ (الزُّخرفِ) قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[الزخرف: ٦٥]؛ فخَصَّ الأُولى بلفظِ (كَفَروا) والثَّانيةَ (ظَلَموا)، وكِلْتا الآيتينِ في قصَّةِ عيسى عليه السَّلامُ وتوعُّدِ مَن أثبَتَ للهِ تعالى ولدًا؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الكفرَ أَبلغُ مِن الظُّلمِ، وأشدُّ قُبحًا، وقصةُ عيسى في هذه السُّورةِ مشروحةٌ، وفيها ذِكرُ نسبتِهم إيَّاه إلى الله تعالى، حينَ قال: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾، فذُكِر بلفظِ الكفرِ، وأما قصتُه في سورةِ الزُّخرفِ فمجمَلةٌ، فوصَفهم بلفظٍ دونَه، وهو الظُّلمُ، فكان وصْفُ مَن ذُكِرَ بالكُفرِ في المَحلِّ الَّذي اسْتُوفِيَ فيه قصَّةُ عيسى، أنسَبَ بالمحلِّ الَّذي أُجْمِلَ فيه قصَّتُه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦ / ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٨٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) =

٢- قوله تعالى: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾

- قولُه: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾ تعجُّبٌ من حِدَّةِ سمْعِهم وأبصارِهم يومئذٍ، ومعناه: أنَّ أسماعَهم وأبصارَهم يومَ القيامةِ جديرٌ بأنْ يُتعجَّبَ منها بعدَ أنْ كانوا في الدُّنيا صُمًّا عُميًا[(١)]، فقولُه: ﴿أَسۡمِعۡ﴾ وقولُه: ﴿وَأَبۡصِرۡ﴾ صِيغتَا تعجُّبٍ[(٢)].

- ومعمولُ السَّمعِ والبصرِ محذوفٌ؛ لقصدِ التَّعميمِ؛ ليشمَلَ كلَّ ما يصِحُّ أنْ يُسْمَعَ وأنْ يُبْصَرَ، وهذا كنايةٌ عن التَّهديدِ[(٣)].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾، وعكَسَ في (الكهفِ) فقال: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ [الكهف: ٢٦]؛ لأنَّ معناه هنا: أنَّه تعالى ذكَرَ قصصَ الأنبياءِ، فاسْمَعْها وتدبَّرْها، واستعمِلِ النَّظرَ فيها ببصيرتِك، ومعناه في (الكهفِ): أنَّه تعالى له غيبُ السَّمواتِ والأرضِ، فاجعَلْ بصيرتَك في الفكرِ في مَخلوقاتِه، وتدبَّرْها بحيثُ تصِلُ إلى معرفتِه، واسمَعْ لصفاتِه ووحِّدْهُ، فناسَبَ تَقديمُ السَّمعِ هنا، والبصرِ ثَمَّ[(٤)].

- والاستدراكُ الَّذي أفادهُ قولُه: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ راجعٌ إلى ما يُفيدُه التَّقييدُ بالظَّرفِ في قولِه: ﴿يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾ من ترقُّبِ سُوءِ حالِهم

= للكرماني (ص:١٧٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٠٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٦).

يومَ القيامةِ الَّذي يَقْتضي الظَّنَّ بأنَّهم الآنَ في سَعةٍ مِن الحالِ؛ فأُفيدَ أنَّهم مُتلبِّسونَ بالضَّلالِ المُبينِ، وهو من سُوءِ الحالِ لهم؛ لِما يَتْبَعُه من اضطرابِ الرَّأيِ، والْتِباسِ الحالِ على صاحبِه، وتلك نُكتةُ التَّقييدِ بالظَّرفِ في قولِه: ﴿ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

- قولُه: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فيه إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ؛ إشعارًا بأنَّهم ظَلَموا أنفُسَهم أشَدَّ الظُّلمِ؛ حيث أغْفَلوا الاستماعَ والنَّظرَ حينَ ينفَعُهم[2]، وتنبيهًا على الوصفِ الذي أحلَّهم ذلك المحلَّ[3]. ونُكتتُه: التَّخلُّصُ إلى خُصوصِ المُشرِكين؛ لأنَّ اصطلاحَ القُرآنِ إطلاقُ الظَّالمينَ على عبدةِ الأصنامِ، وإطلاقُ الظُّلمِ على عبادةِ الأصنامِ[4]. وقيل: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ عُمومٌ يَندرِجُ فيه هؤلاء الأحزابُ الكفَّارُ وغيرُهم من الظَّالمينَ[5]. وسجَّلَ على إغفالِهم بأنَّه ضَلالٌ بيِّنٌ[6].

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ أُضيفَ اليومُ إلى الحسرةِ؛ لكثرةِ ما يحدُثُ فيه من تحسُّرِ المُجرِمين على ما فرَّطوا فيه من أسبابِ النَّجاةِ؛ فكان ذلك اليومُ كأنَّه ممَّا اختَصَّتْ به الحسرةُ، فهو يومُ حَسرةٍ بالنِّسبةِ إليهم، وإنْ كان يومَ فرحٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١).

بالنِّسبةِ إلى الصَّالحينَ[١]. وقيل: يتحسَّرُ المُسِيءُ على إساءتِه، والمُحسِنُ على قِلَّةِ إحسانِه[٢]. وقيل: اللَّامُ في ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ للجنسِ؛ لأنَّ هذه حسراتٌ كثيرةٌ في مواطنَ عدَّةٍ، ومنها يومُ الموتِ، ومنها وقتُ أخْذِ الكتابِ بالشِّمالِ، وغيرُ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾ على احتمالِ أنَّ معناه: تُمِّمَ أمْرُ اللهِ بزَجِّهم في العذابِ، فلا مُعَقِّبَ له؛ فهو كِنايةٌ عن سُرعةِ صُدورِ الأمْرِ بتعذيبِهم، أي: قُضِيَ أمْرُهم على حينِ أنَّهم في غفْلةٍ، أي: بَهْتٍ[٤].

- قولُه: ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فيه اختيارُ صِيغَةِ المُضارعِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ دونَ صِيغَةِ اسمِ الفاعلِ (غيرُ مُؤمِنين)؛ لِما يدُلُّ عليه المُضارِعُ من استمرارِ الفعلِ وقتًا فوقتًا؛ استحضارًا لذلك الاستمرارِ العجيبِ في طُولِه وتمكُّنِه[٥].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ تذييلٌ لخَتْمِ القصَّةِ على عادةِ القُرآنِ في تَذييلِ الأغراضِ عندَ الانتقالِ منها إلى غيرِها، وأفاد هذا التَّذييلُ التَّعريفَ بتَهديدِ المُشرِكين، بأنَّهم لا مفَرَّ لهم من الكونِ في قبْضةِ الرَّبِّ الواحدِ الَّذي أشْرَكوا بعبادتِه بعضَ ما على الأرضِ، وأنَّ آلهتَهم ليست بمَرجُوَّةٍ لنفْعِهم؛ إذ ما هي إلَّا ممَّا يرِثُه اللهُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٨-١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١١٠-١١١).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ﴾ تأكيدٌ بحرْفِ التَّوكيدِ (إِنَّ)؛ لدفْعِ الشَّكِّ؛ لأنَّ المُشرِكين يُنكِرون الجزاءَ، فهم يُنكِرون أنَّ اللهَ يرِثُ الأرضَ ومَن عليها بهذا المعنى، وكذلك ضميرُ الفصلِ ﴿نَحْنُ﴾ يُفيدُ التَّأكيدَ[١].

- قولُه: ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فيه تَقديمُ ﴿وَإِلَيْنَا﴾ على قولِه: ﴿يُرْجَعُونَ﴾؛ لإفادةِ قصْرِ الرُّجوعِ إليه سُبحانه وحدَه، أي: لا يَرجِعون إلى غيرِنا. ومَحملُ هذا التَّقديمِ بالنِّسبةِ إلى المُسلِمين الاهتمامُ، ومَحملُه بالنِّسبةِ إلى المُشرِكين القصْرُ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١١١).

الآيات (٤١-٥٠)

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ٥٠﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿صِدِّيقًا﴾: الصِّدِّيقُ: هو المُصدِّقُ قولَه بفِعلِه، أو صدَق بقولِه واعتقادِه، وحقَّق صِدْقَه بفِعلِه، وقيل: هو مَن كثُر منه الصِّدقُ، وقيل: هو مَنْ لا يَكذِبُ قطُّ، أو مَن لا يَتأتَّى منه الكذبُ؛ لتعوُّدِه الصِّدقَ، وأصلُ (صدق): يدلُّ على قوَّةٍ في الشيءِ قولًا وغيرَه[1].

﴿سَوِيًّا﴾: مستقيمًا مستويًا، والسَّوِيُّ يُقالُ فيما يُصانُ عن الإفراطِ والتَّفريطِ مِن حيثُ القدرُ والكيفيَّةُ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ، واعتِدالٍ بينَ شَيئينِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٧/ ٢١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٤).

﴿عَصِيًّا﴾: أي: عاصيًا أو عاقًّا، وأصلُه هنا يدلُّ على الفُرقةِ[١].

﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾: الرَّجْمُ: الرَّمْيُ بالرِّجامِ، أي: الحجارةِ، والرجمُ: القتلُ؛ لأنَّهم كانوا يقتلونَ بالرَّجمِ، والرَّجمُ: الشَّتمُ والسَّبُّ؛ لأنَّه رمْيٌ بالقولِ القبيحِ، وأصلُ الرَّجمِ: يدلُّ على الرَّميِ بقولٍ كان أو بفعلٍ[٢].

﴿مَلِيًّا﴾: أي: حينًا طَويلًا، والإملاءُ: الإمدادُ، ومنه قيل للمُدَّة الطويلةِ: مُلاوةٌ مِن الدَّهرِ، وأصلُ (ملو): يدُلُّ على امتدادٍ في شَيءٍ؛ زَمانٍ أو غيرِه[٣].

﴿حَفِيًّا﴾: أي: لطيفًا بارًّا كثيرَ الإحسانِ، والتحَفِّي: التلَطُّفُ في القَولِ والفِعلِ، وأصلُ (حفي): يدُلُّ على المُبالغةِ[٤].

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصةِ إبراهيمَ -عليه السلامُ-، ودعوتِه لأبيه، وما دار بينَهما مِن حوارٍ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- لقومِك في هذا القرآنِ قِصَّةَ إبراهيمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١١٠) (١٥/ ٥٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٠- ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦، ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٩).

-عليه السَّلامُ-: إنَّه كان كثيرَ الصِّدقِ، وكان نبيًّا رفيعَ المنزلةِ؛ إذ قال لأبيه: يا أبتِ، لماذا تَعبُدُ ما لا يسمَعُ ولا يُبصِرُ ولا يدفَعُ عنكَ شيئًا من دونِ الله؟! يا أبتِ، إنَّ الله أعطاني مِن العِلمِ ما لم يُعطِك، فاتَّبِعْني إلى ما أدعوك إليه أُرشِدْك طريقًا مُستقيمًا. يا أبتِ، لا تُطِعِ الشَّيطانَ فيما يُزَيِّنُ لك مِن الكُفرِ والشِّركِ؛ إنَّ الشَّيطانَ كان عاصيًا لله، مُستَكبرًا عن طاعتِه. يا أبتِ، إني أخافُ أن يمَسَّك عذابٌ مِن الرَّحمنِ إن أصرَرْتَ على كُفرِك، فتكونَ للشَّيطانِ قَرينًا في النَّارِ.

فقال له أبوه: أمُعرِضٌ أنت عن عبادةِ آلهتي يا إبراهيمُ؟ لئِنْ لم تنتَهِ عن سَبِّها لأرجُمَنَّك، واذهَبْ عني زمانًا طويلًا. قال إبراهيمُ لأبيه: سلامٌ عليك منِّي، فلا ينالُك منِّي ما تَكرهُ، وسوف أدعو اللهَ لك بالمغفرةِ؛ إنَّ ربِّي كان رَحيمًا لطيفًا مُعتَنيًا بي، يُجيبُني إذا دَعَوتُه، وأفارِقُكم وآلهَتَكم التي تَعبُدونَها مِن دونِ الله، وأدعو ربِّي مُخلِصًا؛ عسى ألَّا أشقى بدُعاءِ ربي، وإفرادي له بالعبادة.

ثم يبيِّنُ الله سبحانه ما ترتَّب على اعتزالِ إبراهيمَ للشركِ والمشركينَ فيقولُ: فلمَّا فارقهم وآلهَتَهم التي يعبدونَها مِن دونِ اللهِ رزَقْناه إسحاقَ ويعقوبَ بنَ إسحاقَ، وجعَلْناهما نبيَّينِ، ووهَبْنا لهم جميعًا -إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ- مِن رحمَتِنا فضلًا كثيرًا، وعِلمًا نافِعًا، وأعمالًا صالحةً، ورزقًا واسعًا، وذريَّةً كثيرةً، إلى غيرِ ذلك، وجعَلْنا لهم ذِكرًا حَسَنًا، وثناءً جميلًا باقيًا في النَّاسِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى ضَلالَ مَن أثبَتَ مَعبودًا غيرَ اللهِ حَيًّا عاقِلًا فاهِمًا، وهم النَّصارى؛

تكلَّمَ في ضَلالِ مَن أثبَتَ مَعبودًا غيرَ اللهِ جمادًا، وهم عَبَدةُ الأوثانِ[١]؛ فذكَرَ قِصَّةَ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- مع أبيه؛ تذكيرًا للعَربِ بما كان إبراهيمُ عليه مِن توحيدِ الله، وتبيينِ أنَّهم سالِكو غيرِ طَريقِه[٢]، فقال:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

أي: واتلُ -يا محمَّدُ- في القرآنِ خبَرَ إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، على قَومِك الذين هم مِن ذريَّتِه، ويدَّعون كَذِبًا أنَّهم على مِلَّتِه، ويتمَسَّكونَ بتَقليدِ آبائِهم، فهم يَعبُدونَ الأصنامَ والحالُ أنَّ أعظَمَ آبائِهم -إبراهيمَ- كان حنيفًا مُسلِمًا ينهَى أباه عن الشِّركِ، وعبادةِ الأصنامِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾.

أي: إنَّ إبراهيمَ كان كثيرَ الصِّدقِ في أقوالِه وأعمالِه ومواعيدِه، بليغَ التَّصديقِ بكُلِّ ما هو أهلٌ لأن يُصَدَّقَ به، وكان نبيًّا رفيعَ القَدرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧، ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٣-٢٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٤، ٤٢٥).

قال الشنقيطي: (الصِّدِّيقُ صِيغةُ مبالغةٍ مِن الصِّدقِ؛ لشِدَّةِ صِدقِ إبراهيمَ في معاملتِه مع رَبِّه، وصِدقِ لهجتِه، كما شَهِدَ اللهُ له بصِدقِ معاملتِه في قَولِه: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]، وقَولِه: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا﴾ [البقرة: ١٢٤]، ومِن صِدقِه في معاملتِه رَبَّه: رِضاه بأن يَذبَحَ ولَدَه، وشُروعُه بالفِعلِ في ذلك؛ طاعةً لرَبِّه... ومِن صِدقِه =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢﴾.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ﴾.

أي: اذكُرْ -يا مُحمَّدُ- إبراهيمَ حين قال لأبيه: يا أبتِ، لِماذا تعبُدُ أصنامًا لا تَسمَعُ ولا تُبصِرُ شَيئًا[1]؟!

﴿وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: ولا تدفَعُ الأصنامُ عنك -يا أبتِ- أيَّ ضَررٍ، ولا تنفَعُك بأيِّ شَيءٍ، فلِمَ تَعبُدُها[2]؟!

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لما سألَه عن العلَّةِ في عبادةِ الصنمِ، ولا يمكنُ أن يجِدَ جوابًا؛ انتقَل معه إلى

= في معاملتِه مع ربِّه: صبرُه على الإلقاءِ في النَّارِ... ومِن صِدقِه في معاملتِه رَبَّه: صبرُه على مفارقةِ الأهلِ والوطنِ؛ فرارًا بدينِه). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٢٤، ٤٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤).

إخبارِه بأنَّه قد جاءَه مِن العلمِ ما لم يأتِه[١].

وأيضًا لَمَّا نبَّهَه على أنَّ ما يَعبُدُه لا يَستَحِقُّ العبادةَ، بل لا تجوزُ عبادتُه؛ لِنَقصِه مُطلَقًا، ثمَّ نَقصِه عن عابِدِه، ولن يكونَ المعبودُ دونَ العابدِ أصلًا، وكان أقَلُّ ما يَصِلُ إليه بذلك مقامَ الحَيرةِ- نبَّهَه على أنَّه أهلٌ للهِدايةِ، فقال[٢]:

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾.

أي: يا أبتِ، إنِّي قد أُعطيتُ مِن العِلمِ بالحَقِّ ما لم تُعْطَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ [الأنبياء: ٥١].

﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطًا سَوِيّٗا﴾.

أي: فاقبَلْ نَصيحتي، واعبُدِ اللهَ وَحدَه، ولا تُشرِكْ به شيئًا؛ أُرشِدْك طريقًا مُستقيمًا لا اعوِجاجَ فيه، مُوصِلًا إلى نيلِ المطلوبِ، والنَّجاةِ مِن المرهوبِ[٤].

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾.

أي: يا أبتِ، لا تُطِعِ الشَّيطانَ فيما يُزَيِّنُ لك مِن الكُفرِ والشِّركِ، فتكونَ عابدًا له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٦).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾.

أي: لأنَّ الشَّيطانَ عاصٍ للرَّحمنِ، مُستكبِرٌ عن طاعتِه، فلا تتَّبِعْه فتكونَ عاصيًا لله مِثلَه(١).

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما قرَّر له أنَّ عبادتَه الأصنامَ اتِّباعٌ لأمرِ الشَّيطانِ؛ انْتَقَل إلى تَوَقُّعِ حرمانِه مِنْ رحمةِ اللَّهِ بأنْ يَحِلَّ به عذابٌ مِنَ اللَّهِ، فحَذَّره مِنْ عاقبةِ أنْ يصيرَ مِن أولياءِ الشَّيطانِ(٢).

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

أي: يا أبتِ إنِّي أخافُ -إن أقمْتَ على الشِّركِ، وأصرَرْتَ عليه- أن يُصيبَك عذابٌ واقِعٌ مِن الرَّحمنِ(٣).

﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٧).
قال الواحدي: (﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ قيل: كان: زائدةٌ. وقيل: إنَّه بمعنى صار. والصحيحُ: أنَّه بمعنى الحالِ، أي: كائن). ((البسيط)) (١٤/ ٢٥٤). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤).

أي: فتكونَ من أولياءِ الشَّيطانِ، ومُقارِنًا له في النِّيرانِ، ويتبرَّأَ منك الرَّحمنُ، فلا تكونَ لك نصرةٌ أبدًا(١).

كما قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وقال سُبحانه: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾.

أي: قال أبوه: أتُعرِضُ -يا إبراهيمُ- عن عبادةِ آلهَتي، وتَترُكُها إلى غيرِها(٢)؟!

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾.

أي: لئِنْ لم تَترُكْ -يا إبراهيمُ- نُصحي، وذِكرَ آلهتي بسُوءٍ لأرجُمَنَّك(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٧، ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥١)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٤١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).

قيل معنى: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾: لأشتُمَنَّك. وممن ذهَب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والزجَّاج، والواحدي، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، والسدي، وابنُ جُريجٍ، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٢). =

﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾.

أي: وابتَعِدْ عني زَمنًا طويلًا[(١)].

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧﴾.

= وقيل: معنى: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾ أي: بالحجارةِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ في الجملةِ: يحيى ابنُ سلام، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور، واستظهَره الشنقيطي. ونصَّ يحيى بنُ سلام، والسعدي، وابنُ عاشور على أنَّ المرادَ: القتلُ بها. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٧).

قال ابن عطية: (وقال الحسنُ بنُ أبي الحسنِ: معناه: لأرجُمَنَّك بالحجارةِ، وقالتْ فرقةٌ: معناه لأقتلنَّك، وهذان القولانِ بمعنًى واحدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨).

ونقل ابن الجوزي عن الحسن أنَّ معنى قولِه: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾: أي: بالحجارةِ حتى تتباعدَ عنِّي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٨٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٧).

وممَّن اختار أن المراد بقولِه ﴿مَلِيّٗا﴾: زمنًا طويلًا: ابنُ قتيبة، والواحدي، وابنُ جُزي، والبقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ عطيةَ: (﴿مَلِيّٗا﴾ معناه: دهرًا طويلًا، مأخوذٌ مِن المَلَوينِ، وهما الليلُ والنهارُ، وهذا قولُ الجمهورِ، والحسنِ، ومجاهدٍ، وغيرِهما). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨).

وقال النحَّاس: (القولُ عندَ أهلِ اللغةِ أنَّه بمعنى: زمانًا ودهرًا). ((معاني القرآن)) (٤/ ٣٣٥).

وممن قال بنحو هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والحسنُ البصري، ومحمدُ بنُ إسحاقَ، وسعيدُ بنُ جُبير، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٥).

وقيل: معنى ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾: سالِمًا مِن عقوبتي. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٤، ٥٥٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، وعطيةُ العوفي، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٥).

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لأبيه: أنتَ في أمانٍ وسَلامةٍ مني، فلا ينالُك مني سوءٌ[(١)].

كما قال تعالى في صفةِ المؤمنينَ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ﴾.

أي: سأطلُبُ لك مِن ربِّي أن يستُرَ ذُنوبَك، ويتجاوَزَ عن مُؤاخَذتِك بها[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢١).

وقيل: المرادُ: دُعاءُ إبراهيم بأن يهديَ اللهُ أباه للتوحيدِ، فتحصُلَ له بذلك مغفرةُ ذنوبِه. وممن قال بهذا المعنى: ابنُ عطيةَ، والبقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢١).

قال ابنُ كثير: (وقد استغفر إبراهيمُ لأبيه مدةً طويلةً، وبعد أن هاجرَ إلى الشامِ وبنى المسجِدَ الحرامَ، وبعد أن وُلِدَ له إسماعيلُ وإسحاقُ -عليهما السلامُ- في قَولِه: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١]. وقد استغفر المسلِمونَ لقراباتِهم وأهليهم من المُشرِكين في ابتداءِ الإسلامِ؛ وذلك اقتداءً بإبراهيمَ الخليلِ في ذلك، حتى أنزل الله تعالى: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ ﴾ [الممتحنة: ٤]، يعني: إلَّا في هذا القَولِ، فلا تتأسَّوا به. ثمَّ بيَّن =

كما حكى تعالى قولَ إبراهيمَ: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾.

أي: إنِّي عَهِدتُ رَبِّي لطيفًا، مُعتَنيًا بي، شديدَ البِرِّ والإكرامِ لي، كثيرَ الإحسانِ إليَّ، وقد هداني وعوَّدَني إجابةَ دُعائي[(١)].

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾.

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وأجتَنِبُكم وآلهَتَكم التي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ[(٢)].

﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾.

أي: وأعبُدُ رَبِّي وَحدَه، وأدعوه مُخلِصًا له لا أُشرِكُ به شيئًا[(٣)].

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾.

= تعالى أنَّ إبراهيمَ أقلعَ عن ذلك، ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ * وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٢، ١٢٣).

أي: أرجو ألَّا أشقَى بدُعائي لربِّي، وإفرادي له بالعبادةِ، بل أرجو أن يجيبَني، ويتقَبَّلَ أعمالي ويُسعِدَني[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

أي: فلمَّا اجتنَبَ إبراهيمُ قَومَه، واجتنَب عبادةَ أصنامِهم وهاجَر؛ رزَقْناه ابنَه إسحاقَ وحفيدَه يعقوبَ[(٢)].*

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ٩٩، ١٠٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١- ٧٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).

قال ابن كثير: («عسى» هذه مُوجِبةٌ لا محالةَ؛ فإنَّه عليه السلام سيِّدُ الأنبياءِ بعد محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٤).

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرون: هاجَر عنهم إلى أرضِ الشَّامِ، فوهَب اللهُ له إسحاقَ ويعقوبَ، فآنَسَ الله وحَشَته عن فراقِ قَومِه بأولادٍ كرام). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٤).

أي: وكلًّا مِن إسحاقَ ويعقوبَ جعَلْناه نبيًّا[١].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾.

أي: وأعطَينا إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ عِلمًا نافِعًا، وأعمالًا صالحةً، ورزقًا واسعًا، وذريَّةً كثيرةً، وشرفًا عظيمًا، وغيرَ ذلك من الخيراتِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

أي: وجعَلْنا لهم ثناءً حَسَنًا، وذِكرًا جميلًا عاليًا صادقًا، مُستَمِرًّا مَنشورًا بين النَّاسِ إلى يومِ القيامةِ[٣].

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝ إِنَّآ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٤٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٧)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).

أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾[(١)] [ص: ٤٥، ٤٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- تأمَّلْ قولَ إبراهيمَ الخليلِ -عليه السَّلامُ- لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ ابتدأ خطابَه بذِكْرِ أُبُوَّتِه الدَّالَّةِ على توقيرِه، ولم يُسَمِّه باسمِه، ثم أخرجَ الكلامَ معه مَخْرَجَ السُّؤالِ، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ ولم يقُلْ: «لا تعبُدْ»، ثمَّ قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ فلم يقُلْ له: «جاهلٌ لا عِلْمَ عندك!»، بل عَدَل عن هذه العبارةِ إلى ألطفِ عبارةٍ تدلُّ على هذا المعنى، فقال: ﴿جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾، فأتَى بصيغةٍ تقتضي أنَّ عندي وعندك علمًا، وأنَّ الذي وصَل إليَّ لم يصلْ إليك، ولم يأتِك، فينبغي لك أن تتبعَ الحجةَ، وتنقادَ لها، ثم قال: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾، وهذا مِثْلُ قولِ موسى لفرعونَ: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النازعات: ١٩]، ثمَّ قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ فنسَبَ الخوفَ إلى نفْسِه دون أبيه، كما يَفعَلُ الشفيقُ الخائفُ على مَن يُشْفِقُ عليه، وقال: ﴿يَمَسَّكَ﴾ فذكَر لفظَ المَسِّ الذي هو ألطفُ مِن غيره، ثم نَكَّرَ العذابَ، ثمَّ ذَكَرَ الرحمنَ، ولم يقلِ: «الجبارُ» ولا «القهارُ»، فأيُّ خطابٍ ألطفُ وألينُ مِن هذا[(٢)]؟!

٢- نصيحةُ الابنِ لأبيه أو لأمِّه أو لأقاربه ليست عقوقًا للوالِدَينِ، ولا قطيعةً للأقاربِ، بل هذا مِن بِرِّ الوالِدَينِ وصِلةِ الأقاربِ؛ فالواجِبُ على الإنسانِ أن

---

(١) قال ابنُ القيم في قولِه: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾: (هو الذِّكرُ الجميلُ الَّذي يُذكرونَ به في هذه الدَّارِ). ((الجواب الكافي)) (ص: ٨٠)، وفي هذه الآيةِ أقوالٌ أُخرَى. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤).

يبَرَّ والدَيه بنصيحتِهما، وأن يصِلَ أقارِبَه بنَصيحتِهم، كما قال الله تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وإذا غَضِبَ الوالدانِ أو الأقاربُ مِن هذه النَّصيحةِ فغَضَبُهم عليهم، وليس عليك منهم شيءٌ، ولا يُعَدُّ إغضابُهم بالنصيحةِ قطيعةً ولا عقوقًا، ولكن يجِبُ عليك أن تكون حكيمًا في النصيحةِ، بأن تتحرَّى الأحوالَ التي يكونون بها أقرَبَ إلى الإجابةِ والقَبولِ، وألَّا تُعَنِّفَ وتَسُبَّ وتَشتُمَ؛ لأنَّ هذا قد ينفِّرُ من تُوجِّهُ إليهم النصيحةَ، فإذا أتيتَ بالتي هي أحسَنُ مُخلِصًا لله عزَّ وجلَّ مُمتَثِلًا لأمرِه، ناصِحًا لعباده؛ كان في هذا خيرٌ كثيرٌ، ولا يضُرُّك غَضَبُ مَن غَضِبَ، ولنا في قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السلامُ مع أبيه أُسوةٌ، لما نصَحه إبراهيمُ عليه السلامُ متلطفًا في خطابِه، ماذا قال له أبوه: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ فهل تجدُ غضبًا أشدَّ مِن هذا الغضبِ؟! يقول لابنِه: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ ويقولُ: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ طويلًا، فماذا قال له: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ فاتَّخِذْ من هذه القصةِ عبرةً[1].

٣- قال الله تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا...﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ فرتَّب نبيُّ الله إبراهيمُ صلَّى الله عليه وسلَّم كلامَه في غايةِ الحُسنِ؛ لأنَّه نبَّه أوَّلًا على ما يدُلُّ على المنعِ مِن عبادةِ الأوثانِ، ثمَّ أمَرَه باتِّباعِه فيما يدعو إليه مِن التوحيدِ ونبذِ الشركِ، ثمَّ نبَّه على أنَّ طاعةَ الشيطانِ غيرُ جائزةٍ في العقولِ، ثمَّ ختم الكلامَ بالوعيدِ الزَّاجِرِ عن الإقدامِ على ما لا ينبغي، ثمَّ إنَّه عليه السَّلامُ أورد هذا الكلامَ الحَسَنَ مَقرونًا باللُّطفِ والرِّفقِ؛ فإنَّ قولَه

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٢٨٥).

في مُقَدِّمةِ كُلِّ كلامٍ: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، دليلٌ على شِدَّةِ الحُبِّ، والرَّغبةِ في صَونِه عن العِقابِ، وإرشادِه إلى الصوابِ، وختَم الكلامَ بقَولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ وذلك يدُلُّ على شِدَّةِ تعَلُّقِ قَلبِه بمصالحِه، وإنَّما فعَل ذلك لوجوهٍ:

أحدُها: قضاءً لحَقِّ الأبوَّةِ على ما قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. والإرشادُ إلى الدينِ مِن أعظَمِ أنواعِ الإحسانِ، فإذا انضاف إليه رعايةُ الأدبِ والرِّفقِ، كان ذلك نورًا على نور.

وثانيها: أنَّ الهاديَ إلى الحقِّ لا بدَّ أن يكونَ رفيقًا لطيفًا، يورِدُ الكلامَ لا على سبيلِ العُنفِ؛ لأنَّ إيرادَه على سبيلِ العُنفِ يصير كالسبَّبِ في إعراضِ المُستَمِع، فيكونُ ذلك في الحقيقةِ سَعيًا في الإغواءِ[(١)].

٤- سمَّى اللهُ تعالى طاعةَ الشَّيطانِ في معصيتِه عِبادةً للشَّيطانِ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠]، وقال حاكيًا عن خليلِه إبراهيمَ أنَّه قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾، فمن لم يحقِّقْ عُبوديَّةَ الرَّحمنِ وطاعتَه، فإنَّه يعبُدُ الشَّيطانَ بطاعتِه له، ولم يَخلُصْ مِن عبادةِ الشَّيطانِ إلَّا مَن أخلَصَ عبوديَّةَ الرَّحمنِ، وهم الذين قال اللهُ فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]؛ فهم الذين حَقَّقوا قَولَ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» وأخلصوا في قَولِها، وصَدَّقوا قَولَهم بفِعلِهم، فلم يلتَفِتوا إلى غَيرِ الله؛ محبَّةً ورجاءً، وخشيةً وطاعةً وتوكُّلًا، وهم الذين صَدَقوا في قَولِ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» وهم عبادُ الله حقًّا، فأمَّا مَن قال: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» بلِسانِه، ثمَّ أطاع الشَّيطانَ وهواه في مَعصيةِ الله ومخالفتِه؛ فقد كَذَّب فِعلُه قَولَه، ونَقَص مِن كَمالِ توحيدِه بقَدرِ مَعصيةِ اللهِ في طاعةِ الشَّيطانِ والهوى.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٤٥).

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠] ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[١] [ص: ٢٦].

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ في ذِكرِ إضافةِ العِصيانِ إلى اسمِ الرَّحمنِ إشارةٌ إلى أنَّ المعاصيَ تمنَعُ العبدَ مِن رَحمةِ اللهِ، وتُغلِقُ عليه أبوابَها، كما أنَّ الطاعةَ أكبَرُ الأسبابِ لِنَيلِ رَحمتِه[٢].

٦- قولُه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ التَّعبيرُ بالخوفِ الدَّالِّ على الظَّنِّ دونَ القطعِ: تأدُّبٌ مع اللهِ تعالى بألَّا يُثْبِتَ أمرًا فيما هو مِن تصرُّفِ اللهِ، وإبقاءٌ للرَّجاءِ في نفْسِ أبيه؛ لينظُرَ في التَّخلُّصِ من ذلك العذابِ بالإقلاعِ عن عبادةِ الأوثانِ[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ في ذلك تَسليةٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم، وتأسيةٌ فيما كان يلقَى مِن الأذى، ويُقاسي مِن قَومِه مِن العناءِ، ومِن عَمِّه أبي لهبٍ مِن الشَّدائِدِ والبلايا: بأعظَمِ آبائِه وأقرَبِهم به شَبَهًا[٤].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ هذا دليلٌ على جوازِ مُتاركةِ المنصوحِ إذا ظهَر منه اللَّجاجُ[٥].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ هذا دليلٌ على أنَّه تَحسُنُ مُقابلةُ الإساءةِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٤٦).

بالإحسانِ[١]، فقولُه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَ﴾ توديعٌ ومُتارَكةٌ على طريقةِ مُقابلةِ السَّيِّئةِ بالحسنةِ، أي: لا أُصِيبُك بمكروهٍ بعْدُ، ولا أُشافِهُك بما يُؤذيك[٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ قد دعا له بالسَّلامةِ؛ استمالةً له، ودليلُ ذلك أنَّه وعَدَه الاستغفارَ[٣]. وبادرَهُ بالسَّلامِ قبْلَ الكلامِ الَّذي أعقَبَه به؛ إشارةً إلى أنَّه لا يَسوؤه ذلك الهجْرُ في ذاتِ اللهِ تعالى ومَرضاتِه[٤].

١٠- قال الله تعالى حاكيًا عن إبراهيمَ: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ قال بعضُ الحُكَماءِ: (من هاجر لطَلَبِ رِضا اللهِ عَزَّ وجَلَّ، أكرمَه الله عزَّ وجلَّ في الدُّنيا والآخرةِ)، كما أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ هاجر مِن قَومِه في طلَبِ رِضا الله تعالى عنه، فأكرَمَه الله تعالى[٥]، وعوَّضه أولادًا مؤمنينَ أنبياءَ، فما خسِر على اللهِ أحدٌ ترَك الكفَّارَ الفسقةَ لوجهِه[٦]، واللَّهُ سبحانَه يَجْزي العبدَ على عملِه بما هو مِن جنسِ عملِه، ومَن تَرَك لِلَّهِ شيئًا عَوَّضه اللَّهُ خيرًا منه[٧].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ النبيُّ يجِبُ أن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٧٦-٣٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢).

(٧) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٩).

يكونَ صادِقًا في كلِّ ما أخبَرَ عنه؛ لأنَّ الله تعالى صَدَّقَه، ومَن يُصَدِّقْه اللهُ فهو صادِقٌ، وإلَّا لزِمَ الكَذِبُ في كلامِ الله تعالى؛ فيلزمُ مِن هذا كَونُ الرَّسولِ صادِقًا في كُلِّ ما يقولُ، ولأنَّ الرُّسُلَ شُهَداءُ اللهِ على النَّاسِ، على ما قال اللهُ تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، والشَّهيدُ إنَّما يُقبَلُ قَولُه إذا لم يكُنْ كاذِبًا، فلمَّا ثَبَت أنَّ كُلَّ نبيٍّ يجِبُ أن يكونَ صِدِّيقًا، ولا يجِبُ في كلِّ صِدِّيقٍ أن يكونَ نبيًّا- ظهَرَ بهذا قُربُ مَرتبةِ الصِّدِّيقِ مِن مَرتبةِ النبيِّ؛ فلهذا انتقَلَ مِن ذِكرِ كَونِه صِدِّيقًا إلى ذِكرِ كَونِه نبيًّا(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، وقَولِه: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ﴾ وقَولِه: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ﴾، وقَولِه: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ تذكرةَ قَصصِ الأنبياءِ المتقَدِّمينَ هو ممَّا أمَرَ اللهُ به المؤمنينَ(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا * يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ فتدرَّجَ الخَليلُ عليه السَّلامُ بدعوة أبيه، بالأسهلِ فالأسهَلِ، فأخبَرَه بعِلمِه، وأنَّ ذلك مُوجِبٌ لاتِّباعِك إياي، وأنَّك إن أطعتَني اهتديتَ إلى صراطٍ مُستَقيمٍ، ثمَّ نهاه عن عبادةِ الشَّيطانِ، وأخبَرَه بما فيها من المضارِّ، ثمَّ حَذَّره عقابَ اللهِ ونِقمَتَه إن أقام على حالِه، وأنَّه يكونُ وليًّا للشَّيطانِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤).

٤- قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾، فوَصَف الأوثانَ بصِفاتٍ ثلاثٍ، كُلُّ واحدةٍ منها قادِحةٌ في الإلهيَّةِ، وبيانُ ذلك مِن أوجُهٍ:

أحدها: أنَّ العبادةَ غايةُ التعظيمِ؛ فلا يَستَحِقُّها إلَّا مَن له غايةُ الإنعامِ، وهو الإلهُ الذي منه أصولُ النِّعَمِ وفُروعُها؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [مريم: ٣٦]، وقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] الآية، وكما يُعلَمُ بالضَّرورةِ أنَّه لا يجوزُ الاشتِغالُ بشُكرِها ما لم تكُنْ مُنعِمةً، وجَبَ ألَّا يجوزَ الاشتِغالُ بعبادتِها.

ثانيها: أنَّها إذا لم تَسمَعْ ولم تُبصِرْ، ولم تميِّزْ مَن يُطيعُها عَمَّن يَعصيها، فأيُّ فائدةٍ في عبادتِها؟! وهذا ينبِّهُك على أنَّ الإلهَ يجِبُ أن يكونَ مَوصوفًا بصِفاتِ الكَمالِ، عالِمًا بكُلِّ المعلوماتِ؛ حتى يكونَ العبدُ آمِنًا مِن وُقوعِ الغَلَطِ للمَعبودِ.

ثالثها: أنَّ الدُّعاءَ هو العبادةُ؛ فالوَثَنُ إذا لم يَسمَعْ دُعاءَ الدَّاعي، فأيُّ مَنفعةٍ في عبادتِه؟! وإذا كانت لا تُبصِرُ بتقَرُّبِ مَن يتقَرَّبُ إليها، فأيُّ مَنفعةٍ في ذلك التقَرُّبِ؟!

رابعها: أنَّ السَّامِعَ المُبصِرَ، الضَّارَّ النَّافِعَ: أفضَلُ مِمَّن كان عاريًا عن كلِّ ذلك، والإنسانُ موصوفٌ بهذه الصِّفاتِ؛ فيكونُ أفضَلَ وأكمَلَ مِن الوَثَنِ، فكيف يليقُ بالأفضَلِ عِبادةُ الأخَسِّ؟!

خامسها: إذا كانت لا تنفَعُ ولا تضُرُّ، فلا يُرجَى منها مَنفَعةٌ، ولا يُخافُ مِن ضَرَرِها، فأيُّ فائدةٍ في عبادتِها؟!

سادسها: إذا كانت لا تحفَظُ أنفُسَها عن الكَسرِ والإفسادِ، على ما حكى اللهُ

تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه كَسَرَها، وجعَلَها جُذاذًا؛ فأيُّ رجاءٍ للغيرِ فيها[١]؟!

٥- قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ عاب الوَثَنَ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ؛ أحَدُها: لا يسمَعُ، وثانيها: لا يُبصِرُ. وثالثها: لا يغني عنك شيئًا، كأنه قال له: بل الإلهيَّةُ ليست إلَّا لربي؛ فإنَّه يسمَعُ ويُجيبُ دَعوةَ الداعي ويُبصِرُ، كما قال: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ويقضي الحوائِجَ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[٢] [النمل: ٦٢]. فالآيةُ فيها دَلالةٌ على أنَّ مَنْ لا يتَّصِفُ بصِفاتِ الكَمالِ لا يصلحُ أنْ يكونَ ربًّا ولا إلهًا[٣].

٦- في قَولِه تعالى عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ ردٌّ على المعتزلةِ والجَهميَّةِ، إذْ لا يُنْكِرُ إبراهيمُ على أبيه ما لا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ إلَّا ومعبودُه يُبصِرُ ويَسمعُ، ويُغني عن كلِّ شَيءٍ[٤].

٧- قال تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ تَفريعُ أمْرِه بأنْ يتَّبِعَه على الإخبارِ بما عندَه من العلْمِ: دليلٌ على أنَّ أحقِّيَّةَ العالِمِ بأنْ يُتَّبَعَ مركوزةٌ في غريزةِ العُقولِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١٠/ ١٥٤)، ((تقريب التدمرية)) لابن عثيمين (ص: ٢٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٤١).

لم يزَلِ البشرُ يتقصَّونَ مظانَّ المعرفةِ والعلْمِ؛ لجلْبِ ما ينفَعُ، واتِّقاءِ ما يضُرُّ[١].

٨- قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ فقال: ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ ولم يقُلْ: للجَبَّارِ؛ لئلَّا يُتوَهَّمَ أنَّه ما أملَى لعاصِيه مع جَبَروتِه إلَّا للعَجزِ عنه -سُبحانَه وتعالى-[٢].

٩- قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ إنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لإمعانِه في الإخلاصِ لم يذكُرْ مِن جناياتِ الشَّيطانِ إلَّا كَونَه عاصيًا لله تعالى، ولم يَذكُرْ مُعاداتَه لآدمَ عليه السَّلامُ، كأنَّ النَّظَرَ في عِظَمِ ما ارتكبَه من ذلك العِصيانِ غَمَّى فِكرَه، وأطبَقَ على ذِهنِه. وأيضًا فإنَّ مَعصيةَ اللهِ تعالى لا تَصدُرُ إلَّا عن ضَعيفِ الرَّأيِ، ومَن كان كذلك كان حقيقًا ألَّا يُلتفَتَ إلى رأيِه، ولا يُجعَلَ لِقَولِه وَزنٌ[٣].

١٠- قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ كلُّ مَن كان الشَّيطانُ يُزَيِّنُ له الكُفرَ والمعاصيَ فيَتَّبِعُه في ذلك في الدنيا، فلا وليَّ له في الآخرةِ إلَّا الشَّيطانُ[٤].

١١- قال الله تعالى حكايةً عن والدِ إبراهيمَ: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ بيَّنَ الله جلَّ وعلا هنا أنَّ إبراهيمَ لَمَّا نصَح أباه النَّصيحةَ المذكورةَ، مع ما فيها مِن الرِّفقِ واللِّينِ، وإيضاحِ الحَقِّ، والتحذيرِ مِن عبادةِ ما لا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ، ومِن عذابِ الله تعالى ووَلايةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٥-١١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٤٤).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٦).

الشَّيطانِ- خاطَبَه هذا الخِطابَ العَنيفَ، وسمَّاه باسمِه لا بلَفظِ البُنُوَّة المذكِّرِ بالشَّفقةِ والعَطفِ؛ زيادةً في الإشارةِ إلى المقاطعةِ وتَوابِعِها، فلم يقُلْ له: (يا بُنَيَّ) في مقابلةِ قولِه له: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، وأنكَر عليه أنَّه راغِبٌ عن عبادةِ الأوثانِ[١]!

١٢- لمَّا كان في قولِه: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾ فظاظةٌ وقساوةُ قلْبٍ، قابَلَه إبراهيمُ عليه السلامُ بالدُّعاءِ له بالسَّلامِ والأمْنِ، ووعَدَه بالاستغفارِ؛ قضاءً لحقِّ الأُبوَّةِ، وإنْ كان قد صدَرَ منه إغلاظٌ[٢].

١٣- في قولِ الله تعالى حاكيًا عن إبراهيمَ: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم شَقُوا بعبادةِ الأصنامِ؛ لأنَّها لا تنفَعُهم، ولا تجيبُ دُعاءَهم[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ۞ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ دَلالةٌ على أنَّ طاعةَ المؤمنِ تُثمِرُ له الثَّوابَ في الدُّنيا والآخرةِ[٤].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ۞ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ دَلالةٌ على أنَّ الشَّيءَ إذا سُمِّيَ به شيءٌ، جاز أن يُنقلَ إلى غيرِه؛ لِسَعةِ اللِّسانِ؛ إذِ اللسانُ المعروفُ عند العامَّةِ هو الذي يُنطَقُ به، وقد نُقِلَ في هذا الموضِعِ إلى الثَّناءِ الحَسَنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي(٣/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤٦).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا * وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الثَّناءَ الحَسَنَ حِليةٌ جميلةٌ يُلبِسُ اللهُ عبدَه المؤمِنَ التقيَّ؛ لأنَّ ﴿لِسَانَ صِدۡقٍ﴾ في هذا الموضِعِ هو الثناءُ الحَسَنُ، وإذا كان اللهُ بجودِه جعَلَه في عِداد النِّعَم، ومَدَحَ به مَن جعَلَه فيه، لم يَجُزْ للمؤمِنِ أنْ يكرَهَه، وكان له أن يفرحَ به، ويَعُدَّه مِن كِبارِ نِعَمِ اللهِ عليه[1].

١٧- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ المرادُ باللِّسانِ هاهنا: الثَّناءُ الحَسَنُ. فلمَّا كان الصِّدقُ باللِّسانِ، وهو محَلُّه، أطلَقَ اللهُ سُبحانَه ألسِنةَ العبادِ بالثَّناءِ على الصَّادقِ؛ جزاءً وِفاقًا، وعبَّرَ به عنه[2].

١٨- مِن أعظَمِ نِعَمِ اللهِ على العَبدِ: أن يَرفَعَ له بينَ العالَمينَ ذِكرَه، ويُعلِيَ قَدْرَه؛ ولهذا خَصَّ أنبياءَه ورُسُلَه مِن ذلك بما ليس لِغَيرِهم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ * إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾ [ص: ٤٥، ٤٦]، أي: خصَصْناهم بخَصيصةٍ، وهو الذِّكرُ الجَميلُ الذي يُذكَرونَ به في هذه الدَّارِ -وهذا على قَولٍ في الآيةِ- وهو لِسانُ الصِّدقِ الذي سأله إبراهيمُ الخَليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيث قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال سُبحانَه وتعالى عنه وعن بنيه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٠]، وقال لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ٤]؛ فأتباعُ الرُّسُلِ لهم نَصيبٌ مِن ذلك بحَسَبِ مِيراثِهم مِن طاعتِهم ومُتابعتِهم، وكُلُّ مَن خالفَهم فإنَّه بَعيدٌ مِن

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٦٠).

ذلك بحسَبِ مُخالفتِهم ومَعصيتِهم[١].

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾

- في قولِه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ قُدِّمَ ذِكْرُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه لمَّا كان قد جاء بالحَنيفيَّةِ وخالَفَها العربُ بالإشراكِ، وهم ورثةُ إبراهيمَ، كان لتَقديمِ ذِكْرِه على بقيَّةِ الأنبياءِ الموقعُ الجليلُ مِن البلاغةِ. وفي ذلك تَسليةٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما لقِيَ من مُشرِكي قومِه؛ لمُشابهةِ حالِهم بحالِ قومِ إبراهيمَ[٢].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتعليلِ مُوجبِ الأمرِ؛ فإنَّ وصْفَه -عليه السَّلامُ- بذلك مِن دواعي ذِكْرِه[٣]. وهو تعليلٌ للاهتمامِ بذكْرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ في التِّلاوةِ[٤].

- وفيه تأكيدُ هذا الخبرِ بحرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بتَحقيقِه زيادةً في الثَّناءِ عليه[٥].

- وقولُه: ﴿نَّبِيّٗا﴾ خبرٌ آخرُ لـ (كان) مُقيِّدٌ للأوَّلِ مُخصِّصٌ له، ولعلَّ هذا التَّرتيبَ للمُبالغةِ في الاحترازِ عن توهُّمِ تَخصيصِ الصِّدِّيقيَّةِ بالنُّبوَّةِ؛ فإنَّ كلَّ نَبيٍّ صِدِّيقٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٦).

٢- قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾

- قولُه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ فيه افتتاحُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ خِطابَه أباهُ بندائِه ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، مع أنَّ الحضرةَ مُغنيةٌ عن النِّداءِ؛ قصدًا لإحضارِ سمْعِه وذِهْنِه لتلقِّي ما سيُلْقِيه إليه[١].

- وقد كُرِّرتْ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أربعَ مرَّاتٍ؛ لأنَّه ذكَرَها للاستعطافِ[٢]، وقيل: تَكرارُ النِّداءِ أربَعَ مرَّاتٍ اقتضاهُ مَقامُ استنزالِه إلى قَبولِ الموعظةِ؛ لأنَّها مقامُ إطنابٍ[٣].

- قولُه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ استفهَمَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ عن السَّببِ الحاملِ لأبيه على عِبادةِ الصَّنمِ، وهو مُنتفٍ عنه السَّمعُ والبصرُ، والإغناءُ عنه شيئًا؛ تَنبيهًا على شُنْعةِ الرَّأيِ، وقُبْحِه وفسادِه في عِبادةِ مَن انتفَتْ عنه هذه الأوصافُ[٤].

- قولُه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ كِنايةٌ عن التَّعجيزِ عن إبداءِ المسؤولِ عنه؛ فهو مِن التَّوريةِ في مَعنيينِ يَحتمِلُهما الاستفهامُ[٥].

- ومعمولُ ﴿يَسْمَعُ﴾ و﴿يُبْصِرُ﴾ مَنسيٌّ ولا يُنْوَى، أي: ما ليس به استماعٌ ولا إبصارٌ؛ لأنَّ المقصودَ نفْيُ هاتينِ الصِّفتينِ دونَ تَقييدٍ بمُتعلِّقٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٨).

٣- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ في إعادةِ نِدائِه بوصْفِ الأُبُوَّةِ: تأكيدٌ لإحضارِ الذِّهنِ، ولإمحاضِ النَّصيحةِ المُستفادِ من النِّداءِ الأوَّلِ[١].

- وقال: ﴿مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ على سَبيلِ التَّبعيضِ، أي: شيء من العلْمِ ليس معك[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ فيه إعادةُ النِّداءِ في قولِه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾؛ لزيادةِ تأكيدِ ما أفادهُ النِّداءُ الأوَّلُ والثَّاني. وفيه: إيجازٌ بالحذفِ؛ حيث إنَّ الكلامَ معناهُ: لا تعبُدِ الأصنامَ؛ لأنَّ اتِّخاذَها مِن تَسويلِ الشَّيطانِ للَّذين اتَّخذوها ووضَعُوها للنَّاسِ، وعِبادتَها مِن وَساوسِ الشَّيطانِ للَّذين سَنُّوا سننَ عِبادتِها، ومِن وَساوسِه للنَّاسِ الَّذين أطاعوهم في عِبادتِها، فمَن عبَدَ الأصنامَ فقد عبَدَ الشَّيطانَ، وكفَى بذلك ضَلالًا معلومًا. وفي هذا تَبغيضٌ لعبادةِ الأصنامِ؛ لأنَّ في قرارةِ نُفوسِ النَّاسِ بُغْضَ الشَّيطانِ، والحذَرَ من كيْدِه[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ تعليلٌ لمُوجِبِ النَّهيِ، فهو تَعليلٌ للنَّهيِ عن عبادتِه وعبادةِ آثارِ وَسوستِه بأنَّه شديدُ العصيانِ للرَّبِّ واسعِ الرَّحمةِ. وتأكيدٌ له ببَيانِ أنَّه مُستعصٍ على ربِّك الَّذي أنعَمَ عليك بفُنونِ النِّعمِ، ولا ريبَ أنَّ المُطيعَ للعاصي عاصٍ، وكلُّ مَن هو عاصٍ حقيقٌ بأنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٦).

يَستردَّ منه النِّعمَ، وينتقِمَ منه[١].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ بعدَ قولِه: ﴿لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ إظهارُ اسمِ الشَّيطانِ في مَقامِ الإضمارِ؛ إذ لم يقُلْ: (إنَّه كان للرَّحمنِ عصيًّا)؛ لإيضاحِ إسنادِ الخبرِ إلى المُسنَدِ إليه، ولزيادةِ التَّنفيرِ من الشَّيطانِ؛ لأنَّ في ذِكْرِ صَريحِ اسْمِه تَنبيهًا إلى النُّفرةِ منه، ولتكونَ الجُملةُ موعظةً قائمةً بنفْسِها[٢].

- وجاء لفظُ (الرَّحمنِ) هنا؛ تَنبيهًا على سَعةِ رحمتِه، وأنَّ مَن هذا وصْفُه هو الَّذي يَنْبغي أنْ يُعبَدَ ولا يُعْصى، ولإظهارِ كَمالِ شَناعةِ عصيانِه؛ حيث عصى مَن هذه صِفَتُه، وارتكَبَ من ذلك ما طرَدَه مِن هذه الرَّحمةِ[٣].

- والاقتصارُ على ذِكْرِ عصيانِه من بينِ سائرِ جِناياتِه؛ لأنَّه مِلاكُها، أو لأنَّه نَتيجةُ مُعاداتِه لآدمَ عليه السَّلامُ وذُرِّيتِه؛ فتَذكيرُه داعٍ لأبيه إلى الاحترازِ عن مُوالاتِه وطاعتِه[٤].

- وذكْرُ وصْفِ ﴿عَصِيّٗا﴾ الَّذي هو من صِيَغِ المُبالغةِ في العصيانِ، مع زيادةِ فعْلِ (كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّه لا يُفارِقُ عِصيانَ ربِّه، وأنَّه مُتمكِّنٌ منه، فلا جرَمَ أنَّه لا يأمُرُ إلَّا بما يُنافي الرَّحمةَ، أي: بما يُفْضي إلى النِّقمةِ، ولذلك اخْتِيرَ وصْفُ الرَّحمنِ من بينِ صفاتِ اللهِ تعالى؛ تَنبيهًا على أنَّ عِبادةَ الأصنامِ تُوجِبُ غضَبَ اللهِ، فتُفْضي إلى الحرمانِ من رَحمتِه، فمَن كان هذا حالَهُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٤١٥).

فهو جديرٌ بألَّا يُتَّبَعَ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ خوَّفَه إبراهيمُ سُوءَ العاقبةِ، وتأدَّبَ معه؛ إذ لم يُصرِّحْ بلُحوقِ العذابِ به، بل أخرَجَ ذلك مَخرجَ الخائفِ، وأتى بلفظِ (المَسِّ) الَّذي هو ألطَفُ من المُعاقبةِ، ونكَّرَ (العذابَ)، ورتَّبَ على مَسِّ العذابِ ما هو أكبرُ منه، وهو ولايةُ الشَّيطانِ، كما قال في مُقابلِ ذلك: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. وقيل: في الكلامِ تَقديمٌ وتأخيرٌ، والتَّقديرُ: إنِّي أخافُ أنْ تكونَ وليًّا في الدُّنيا للشَّيطانِ، فيمسَّكَ في الآخرةِ عذابٌ من الرَّحمنِ. وقيل: لا يتعيَّنُ أنَّ العذابَ يكونُ في الآخرةِ، بل يَحْتَمِلُ أنْ يُحمَلَ العذابُ على الخِذلانِ من اللهِ، فيَصيرَ مُواليًا للشَّيطانِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَسُّ العذابِ في الدُّنيا بأنْ يُبْتَلى على كُفرِه بعذابٍ في الدُّنيا، فيكون ذلك العذابُ سببًا لِتَماديه على الكُفرِ، وصَيرورتِه إلى ولايةِ الشَّيطانِ إلى أنْ يُوافى على الكُفْرِ[٢].

- وكلمةُ (مِن) مُتعلِّقةٌ بمُضمرٍ وقَعَ صِفةً للعذابِ، مُؤكِّدةٌ لِما أفادهُ التَّنكيرُ في (عذاب) من الفخامةِ الذَّاتيَّةِ بالفخامةِ الإضافيَّةِ[٣].

- وذِكْرُ الخوفِ والمَسِّ وتَنكيرُ العذابِ؛ إمَّا للمُجامَلةِ، وإبرازِ الاعتناءِ بأمْرِه، أو لخفاءِ العاقبةِ[٤].

- قولُه: ﴿أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عبَّرَ عن الجلالةِ بوصْفِ (الرَّحمنِ)؛ للإشارةِ إلى أنَّ حُلولَ العذابِ ممَّن شأْنُه أنْ يَرْحَمَ إنَّما يكونَ لفظاعةِ جُرمِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٧-٢٦٨).

إلى حدِّ أنْ يَحرِمَه مِن رَحمتِه مَن شأْنُه سَعةُ الرَّحمةِ[١].

- قولُه: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ كُنِّي بالولايةِ عن المُقارَنةِ في المصيرِ[٢].

- وهذه الآياتُ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ إلى قولِه: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ بلغَتْ ذِروةَ البلاغةِ، وانطوَتْ على معاجزَ تُذهِلُ العُقولَ؛ فمنها الاستدراجُ[٣]، وحسنُ التَّرتيبِ والاتِّساق، وكلُّ هذا ظاهرٌ في هذه الآياتِ: فحين أراد إبراهيمُ أنْ ينصَحَ أباهُ ويَعِظَه فيما كان مُتورِّطًا فيه من الخطَأِ العظيمِ، والارتكابِ الشَّنيعِ؛ رتَّبَ الكلامَ معه في أحسنِ اتِّساقٍ، مع استعمالِ المُجامَلةِ واللُّطفِ والرِّفقِ، والأدبِ الجميلِ والخُلقِ الحسنِ؛ وذلك أنَّه طلَبَ منه أوَّلًا: العلَّةَ في خطئِه؛ لأنَّ المعبودَ لو كان حيًّا مُميزًا سميعًا بصيرًا، مُقتدِرًا على الثَّوابِ والعقابِ، نافعًا ضارًّا، إلَّا أنَّه بعضُ الخلْقِ: لاسْتُخِفَّ عقْلُ مَن أهَّلَه للعبادةِ، ووصَفَه بالرُّبوبيةِ، ولسُجِّلَ عليه بالغيِّ المُبينِ، والظُّلمِ العظيمِ، وإنْ كان أشرَفَ الخلْقِ، وأعلاهم منزلةً، فما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٧-١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٨).

(٣) الاستدراجُ لُغةً: الترقيةُ والإدناءُ على التدريجِ، والأخْذُ قليلًا قليلًا وعدَمُ المُباغَتةِ. أو التوصُّلُ إلى حُصولِ المقصودِ من غيرِ إشعارٍ مِن أوَّلِ وهلةٍ.

واصطلاحًا: هو الكلامُ المشتمِلُ على إسماعِ الحقِّ على وجهٍ لا يُورِثُ مزيدَ غضَبِ المخاطَبِ، سواء كان فيه تعريضٌ أو لا، كقولِه تعالى عن مُؤمِنِ (يس): ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس: ٢٢]، أي: ما لكم -أيُّها الكَفرةُ- لا تَعبُدون الذي خلَقَكم، ثم قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ ففيه تعريضٌ لهم بأنَّهم على الباطلِ، ولم يُصرِّحْ بذلك؛ لئلَّا يزيدَ غضبُهم، حيثُ يُريدُ المتكلِّمُ لهم ما يُريدُ لنَفْسِه، وسمَّاه بعضهم: «المُنصِف من الكلام»، ومنه قولُ الخليل عليه السَّلامُ لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٥/ ٥٥٩- ٥٦٠)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١١١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١١٠).

ظنُّك بمَن وجَّهَ عِبادتَه إلى جمادٍ ليس به حسٌّ ولا شُعورٌ؟! ثمَّ ثنَّى بدعوتِه إلى الحقِّ مُترفِّقًا به مُتلطِّفًا، ثمَّ ثلَّثَ بتَثبيطِه ونهْيِه عمَّا كان عليه بأنَّ الشَّيطانَ الَّذي استعصى على ربِّك الرَّحمنِ، الَّذي جميعُ ما عندَك مِن النِّعمِ مِن عندِه، وهو عدُوُّك الَّذي لا يُريدُ بك إلَّا كلَّ هلاكٍ وخزْيٍ ونكالٍ، هو الَّذي ورَّطَك في هذه الضَّلالةِ، وزيَّنَها لك، فأنت إنْ حقَّقتَ النَّظرَ عابدُ الشَّيطانَ، ثمَّ ربَّعَ بتخويفِه سُوءَ العاقبةِ، وبما يجُرُّه ما هو فيه مِن التَّبعةِ والوبالِ، ولم يخْلُ ذلك مِن حُسنِ الأدبِ؛ حيث لم يُصرِّحْ بأنَّ العقابَ لاحقٌ له، وأنَّ العذابَ لاصقٌ به، ولكنَّه قال: ﴿أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ استئنافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ من صدْرِ الكلامِ، كأنَّه قيلَ: فماذا قال أبوهُ عندما سمِعَ منه عليه السَّلامُ هذه النَّصائحَ الواجبةَ القَبولِ؟ فقيل: قال مُصِرًّا على عِنادِه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، بتَوجيهِ الإنكارِ إلى نفْسِ الرَّغبةِ، مع ضرْبٍ مِن التَّعجُّبِ؛ كأنَّ الرَّغبةَ عنها ممَّا لا يَصدُرُ عن العاقلِ، فضْلًا عن تَرغيبِ الغيرِ عنها[2].

- ولمَّا أطلَعَه على سَماجةِ صُورةِ أمْرِه، وهدَمَ مذهبَه بالحُججِ القاطعةِ، وناصَحَه المُناصحةَ العجيبةَ، مع تلك المُلاطفاتِ، فقابَلَ استعطافَه ولُطفَه في الإرشادِ بفظاظةِ الكُفرِ وغِلظةِ العنادِ؛ فناداهُ باسْمِه، ولم يُقابِلْ: (يا أَبَتِ) بـ(يا بُنَيَّ). وقدَّمَ الخبرَ على المُبتدأِ في قولِه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠-٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١-١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٨).

ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾؛ لأنَّه كان أهمَّ عنده، وهو عنده أعْنى. وصَدَّرَه بالهمزةِ؛ لإنكارِ نفْسِ الرَّغبةِ عن آلهتِه على ضرْبٍ من التَّعجُّبِ، وأنَّ آلهتَه ما يَنْبغي أنْ يَرْغَبَ عنها أحدٌ، كأنَّها ممَّا لا يرغَبُ عنها عاقلٌ. وفي هذا سُلوانٌ وثلْجٌ لصدْرِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا كان يَلْقَى مِن مثْلِ ذلك من كُفَّارِ قومِه[١]؛ فالاستفهامُ في ﴿أَرَاغِبٌ ﴾ للإنكارِ؛ إنكارًا لِتَجافي إبراهيمَ عن عِبادةِ أصنامِهم. وإضافةُ الآلهةِ إلى ضَميرِ نفْسِه إضافةَ ولايةٍ وانتسابٍ إلى المُضافِ؛ لقصْدِ تَشريفِ المُضافِ إليه. وقد جاء في جوابِه دعوةَ ابْنِه بمُنتهَى الجفاءِ والعُنْجُهيَّةِ بعكْسِ ما في كلامِ إبراهيمَ من اللِّينِ والرِّقَّةِ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّه كان قاسيَ القلْبِ، بعيدَ الفَهمِ، شديدَ التَّصلُّبِ في الكُفرِ[٢].

- والنِّداءُ في قولِه: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾ تكملةٌ لجُملةِ الإنكارِ والتَّعجُّبِ؛ لأنَّ المُتعجَّبَ مِن فعْلِه مع حُضورِه يُقْصَدُ بندائِه تَنبيهُه على سُوءِ فعْلِه، كأنَّه في غَيبةٍ عن إدراكِ فعْلِه؛ فالمُتكلِّمُ يُنزِّلُه منزلةَ الغائبِ، فيُناديه لإرجاعِ رُشدِه إليه، فيَنْبغي الوقْفُ على قولِه: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾[٣].

- وجُملةُ: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَ ﴾ مُستأنفةٌ، واللَّامُ في قولِه: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ ﴾ مُوطِّئةٌ للقسمِ؛ تأكيدًا لكونِه راجِمَه إنْ لم يَنْتهِ عن كُفرِه بآلهتِهم[٤]، وهو تَهديدٌ وتحذيرٌ عمَّا كان عليه من العِظَةِ والتَّذكيرِ، أي: واللهِ لئِن لمْ تَنتهِ عمَّا كنْتَ عليه من النَّهيِ عن عِبادتِها، لَأرجُمنَّك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٨).

- ومُتعلِّقُ ﴿تَنتَهِ﴾ محذوفٌ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ: عن مُخاطَبتي بما خاطبْتَني به، ودَعَوتني إليه، وأنْ يكونَ: لئنْ لم تَنتهِ عن الرَّغبةِ عن آلِهَتي[١].

- قولُه: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ الرَّجمُ: الرَّميُ بالحجارةِ، وهو كِنايةٌ مَشهورةٌ في معنى القتْلِ بذلك الرَّميِ[٢]، وهذا على قولٍ في التفسيرِ.

- وجُملةُ: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ عطْفٌ على جُملةِ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾؛ وذلك أنَّه هدَّدَه بعُقوبةٍ آجلةٍ إنْ لم يُقلِعْ عن كُفرِه بآلهتِهم، وبعُقوبةٍ عاجلةٍ، وهي طردُه من مُعاشرتِه، وقطْعِ مُكالمتِه. وإنَّما أمَرَ أبو إبراهيمَ ابْنَه بهِجرانِه، ولم يُخْبِرْه بأنَّه هو يهجُرُه؛ ليدُلَّ على أنَّ هذا الهِجرانَ في معنى الطَّردِ والخلْعِ؛ إشعارًا بتَحقيرِه[٣]. وقيل: عطَفَ ﴿وَٱهْجُرْنِي﴾ على معطوفٍ عليه مَحذوفٍ، يدُلُّ عليه ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، أي: فاحْذَرْني واهجُرْني؛ لأنَّ ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ تَهديدٌ وتقريعٌ[٤].

٧- قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾

- قولُه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ، وعلامةُ الاستقبالِ والفعْلُ المُضارعُ في قولِه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ﴾ مُؤذنانِ بأنَّه يُكرِّرُ الاستغفارَ في المُستقبلِ[٥].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ تعليلٌ لِما يَتضمَّنُه الوعدُ بالاستغفارِ من رَجاءِ المغفرةِ؛ استجابةً لدعوةِ إبراهيمَ بأنْ يُوفِّقَ اللهُ أبا إبراهيمَ للتَّوحيدِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢١).

ونبْذِ الإشراكِ[١].

٨- قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾

- جُملةُ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾، أي: يقَعُ الاستغفارُ في المُستقبلِ، ويقَعُ اعتزالي إيَّاكم الآنَ؛ لأنَّ المُضارِعَ غالبٌ في الحالِ[٢].

- وضَميرُ جماعةِ المُخاطبينَ في ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ عائدٌ إلى أبي إبراهيمَ وقومِه؛ تَنزيلًا لهم منزلةَ الحُضورِ في ذلك المجلسِ؛ لأنَّ أباهُ واحدٌ منهم، وأمْرُهم سواءٌ، أو كان هذا المقالُ جَرى بمَحضرِ جماعةٍ منهم[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عطَفَ على ضميرِ القومِ أصنامَهم؛ للإشارةِ إلى عداوتِه لتلك الأصنامِ؛ إعلانًا بتَغييرِ المُنكرِ، وعبَّرَ عن الأصنامِ بطريقِ الموصوليَّةِ بقولِه: ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للإيماءِ إلى وجْهِ بِناءِ الخبرِ، وعلَّةِ اعتزالِه إيَّاهم وأصنامَهم: بأنَّ تلك الأصنامَ تُعْبَدُ مِن دونِ اللهِ، وأنَّ القومَ يَعْبدونها، فذلك وجْهُ اعتزالِه إيَّاهم وأصنامَهم[٤].

- قولُه: ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ زاد على الإعلانِ باعتزالِ أصنامِهم الإعلانَ بأنَّه يَدْعو اللهَ؛ احتراسًا من أنْ يَحْسَبوا أنَّه نوَى مُجرَّدَ اعتزالِ عبادةِ أصنامِهم؛ فربَّما اقْتَنعوا بإمساكِه عنهم، ولذا بيَّنَ لهم أنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعكْسِ ذلك؛ يَدْعو اللهَ الَّذي لا يَعْبدونه[١].

- وعبَّر عن اللهِ بوصْفِ الرُّبوبيَّةِ المُضافِ إلى ضَميرِ نفْسِه ﴿رَبِّي﴾؛ للإشارةِ إلى انفرادِه من بينِهم بعبادةِ اللهِ تعالى؛ فهو ربُّه وحدَه مِن بينِهم؛ فالإضافةُ هنا تُفيدُ معنى القصرِ الإضافيِّ، مع ما تضمَّنتْه الإضافةُ مِن الاعتزازِ برُبوبيَّةِ اللهِ إيَّاهُ، والتَّشريفِ لنفْسِه بذلك[٢].

- قولُه: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ في إعلانِه هذا الرَّجاءَ بينَ ظهرانَيْهم تَعريضٌ بشقاوتِهم بدُعاءِ آلهتِهم، معَ التَّواضُعِ للهِ بكلمةِ (عَسى) وما فيه من هضْمِ النَّفسِ[٣]، والتَّنبيهِ على أنَّ الإجابةَ والإثابةَ تفضُّلٌ غيرُ واجبتينِ، وأنَّ العِبرةَ بالخاتمةِ، وذلك مِن الغيوبِ المُختصَّةِ بالعليمِ الخبيرِ[٤]. وقيل: كأنَّه احترَز بذلك عمَّا لا بدَّ للأولياءِ مِنه في الدُّنيا مِن البلاءِ[٥].

٩- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيًّا﴾

- طُوِيَ ذِكْرُ اعتزالِه إيَّاهم بعدَ أنْ ذكَرَ عزْمَه عليه؛ إيجازًا في الكلامِ؛ للعلْمِ بأنَّ مثْلَه لا يعزِمُ أمرًا إلَّا نفَّذَ عزْمَه، واكتفاءً بذِكْرِ ما ترتَّبَ عليه من جعْلِ عزْمِه حدَثًا واقعًا قد حصَلَ جزاؤهُ عليه مِن ربِّه، فإنَّه لمَّا اعتزَلَ أباهُ وقومَه، واستوحَشَ بذلك الفراقِ، وهَبَه اللهُ ذُرِّيةً يأنَسُ بهم؛ إذ وهبَهُ إسحاقَ ابْنَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٩).

ويعقوبَ ابنَ ابْنِه، وجعَلَهما نَبيَّينِ. وحسْبُك بهذه مَكرُمةً له عندَ ربِّه[١].

- قولُه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ لعلَّ تَرتيبَ هِبَتِهما على اعتزالِه هاهنا؛ لبَيانِ كمالِ عِظَمِ النِّعمِ الَّتي أعطاها اللهُ تعالى إيَّاهُ، بمُقابَلةِ مَنِ اعتزَلَهم من الأهلِ والأقرباءِ؛ فإنَّهما شَجَرتا الأنبياءِ، لهما أولادٌ وأحفادٌ، أولو شأنٍ خطيرٍ، وذُو عددٍ كثيرٍ[٢].

- في قولِه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ خُصَّ إسحاقُ ويعقوبُ بالذِّكرِ؛ لأنَّهما شَجرتا الأنبياءِ، أو لأنَّه أراد أنْ يذكُرَ إسماعيلَ بفضْلِه على الانفرادِ[٣]. وقيل: إنَّما اقتصَرَ على ذكْرِ إسحاقَ ويعقوبَ دونَ ذكْرِ إسماعيلَ، فلم يقُلْ: (وهَبْنا له إسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ)؛ لأنَّ إبراهيمَ لمَّا اعتزَلَ قومَه، خرَجَ بزوجِه سارةَ قريبتِه، فهي قد اعتزلَتْ قومَها أيضًا إرضاءً لربِّها ولزوجِها، فذكَر اللهُ الموهبةَ الشَّاملةَ لإبراهيمَ ولزوجِه؛ وهي أنْ وهَبَ لهما إسحاقَ وبعْدَه يعقوبَ، ولأنَّ هذه الموهبةَ لمَّا كانت كِفاءً لإبراهيمَ على مُفارقتِه أباهُ وقومَه، كانتْ مَوْهبةَ مَن يُعاشِرُ إبراهيمَ ويُؤنِسُه، وهما إسحاقُ ويعقوبُ. أمَّا إسماعيلُ فقد أراد اللهُ أنْ يكونَ بعيدًا عن إبراهيمَ في مكَّةَ؛ ليكونَ جارَ بيتِ اللهِ، وإنَّه لجوارٌ أعظمُ مِن جوارِ إسحاقَ ويعقوبَ أباهما[٤].

- والنُّكتةُ في ذِكْرِ يعقوبَ: أنَّ إبراهيمَ رآهُ حفيدًا وسُرَّ به؛ فقد وُلِدَ يعقوبُ قبْلَ موتِ إبراهيمَ، وأنَّ مِن يعقوبَ نشأَتْ أُمَّةٌ عظيمةٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٢٥).

- قولُه: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ ﴿وَكُلًّا﴾ مفعولٌ أوَّلُ لقولِه تعالى: ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾؛ قُدِّمَ عليه للتَّخصيصِ، لكنْ لا بالنِّسبةِ إلى مَن عَدَاهم، بل بالنِّسبةِ إلى بعضِهم، أي: كلَّ واحدٍ منهم جعَلْنا نَبِيًّا لا بعضَهم دونَ بعضٍ[1].

١٠- قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ فيه إضافةُ اللِّسانِ إلى الصِّدقِ، ووصْفُه بالعُلوِّ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم أحِقَّاءُ بما يُثْنون عليهم، وأنَّ مَحامِدَهم لا تَخْفَى على تباعُدِ الأعصارِ، وتحوُّلِ الدُّولِ، وتبدُّلِ المِلَلِ والنِّحلِ[2].

- وقد رُتِّبَ جزاءُ اللهِ إبراهيمَ على نبْذِه أهْلَ الشِّركِ تَرتيبًا بديعًا؛ إذ جُوزِيَ بنعمةِ الدُّنيا وهي العقِبُ الشَّريفُ، ونِعمةِ الآخرةِ وهي الرَّحمةُ، وبأثَرِ تَيْنِك النِّعمتينِ وهو لسانُ الصِّدقِ؛ إذ لا يُذْكَرُ به إلَّا مَن حصَّلَ النِّعمتينِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٦).

الآيات (٥١-٥٨)

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ ٥٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَجِيًّا﴾: أي: مُناجِيًا، وأصلُه هنا: يدلُّ على سَتْرٍ وإخْفاءٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مادحًا نبيَّه موسى عليه السلامُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- في القُرآنِ لقومِك قِصَّةَ مُوسى عليه السَّلامُ، إنَّه كان مُصطفًى مُختارًا، وكان رسولًا نبيًّا، ونادَينا موسى مِن ناحيةِ جَبَلِ طُورِ سَيْناءَ الواقِعِ على يمينِ موسى، وقرَّبناه فشرَّفناه بمُناجاتِنا له بلا واسِطةٍ، ووهَبْنا لِموسى من رحمتِنا أخاه هارونَ نبيًّا يُعينُه ويُؤازِرُه.

ثمَّ يذكرُ سبحانَه جانبًا مِن فضائلِ إسماعيلَ عليه السلامُ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- في هذا القرآنِ لقومِك خبَرَ إسماعيلَ عليه السَّلامُ، إنَّه كان صادقًا في وَعدِه، وكان رسولًا نبيًّا، وكان يأمُرُ أهلَه بإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، وكان محمودًا عندَ اللهِ في أعمالِه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

ثمَّ يخبرُ تعالى عن نبيِّه إدريسَ عليه السلامُ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- في هذا القرآنِ لقومِك خبرَ إدريسَ عليه السَّلامُ، إنَّه كان كثيرَ الصِّدقِ في قَولِه وعَمَلِه، ومُصَدِّقًا تصديقًا تامًّا بما أتاه من الحَقِّ، ونبيًّا يُوحى إليه، ورفَعْناه إلى السَّماءِ الرَّابعةِ.

ثم يقولُ تعالى: هؤلاء الذين قَصَصتُ عليك خبَرَهم من الأنبياءِ هم الذين أنعَمَ اللهُ عليهم بالنبُوَّةِ والعِلمِ النَّافِعِ، مِن ذُريَّةِ آدمَ، ومِن ذُريةِ مَن حمَلْنا مع نوحٍ في السَّفينةِ، ومِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ، ومِن ذُرِّيَّة يعقوبَ، وممَّن هَدَينا للإيمانِ والعملِ الصالحِ، واصطَفَينا للرِّسالةِ والنبُوَّةِ، إذا تُتلى عليهم آياتُ الرَّحمنِ، خرُّوا ساجِدينَ لله، باكينَ مِن خَشيتِه سُبحانه وتعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه أفضَتْ مُناسَبةُ ذِكرِ إبراهيمَ ويَعقوبَ -عليهما السَّلامُ- إلى أن يُذكَرَ موسى عليه السلامُ في هذا الموضع؛ لأنَّه أشرَفُ نبيٍّ مِن ذُرِّيةِ إسحاقَ ويعقوبَ، عليهما السَّلامُ[1].

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾

أي: واتْلُ -يا محمَّدُ- في القُرآنِ على قَومِك خبَرَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿مُخْلَصًا﴾ بفتحِ اللَّام، أي: إنَّ موسى أخلصَه اللهُ، واختاره لرسالتِه، وجعَلَه نبيًّا مُرسَلًا، خالِصًا مِن الدَّنَسِ[(١)].

٢- قراءةُ ﴿مُخْلِصًا﴾ بكسرِ اللَّامِ، أي: إنَّ موسى كان يُخلِصُ لله في عبادتِه، ولا يُرائي بأعمالِه أحدًا[(٢)].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾.

أي: إنَّ موسَى كان الله تعالى قد اختاره لرسالتِه وتَكليمِه وعبادتِه، وجعَله خالصًا مِن الدَّنَسِ؛ وذلك لإخلاصِه لله في عبادتِه[(٣)].

---

(١) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكسائي، وخَلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٤٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).
قال ابنُ جرير: (الصَّوابُ من القول في ذلك عندي: أنَّه كان صلَّى الله عليه وسلم مُخلِصًا عبادةَ الله، مُخلَصًا للرِّسالةِ والنبوَّة). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٨).
وقال السعدي: (المعنيان متلازِمان؛ فإنَّ اللهَ أخلصه لإخلاصِه، وإخلاصُه موجِبٌ لاستخلاصِه، وأجَلُّ حالةٍ يُوصَفُ بها العبد: الإخلاصُ منه، والاستخلاصُ مِن رَبِّه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).
وقال الرسعني: (مَن فتَح فعلى معنَى: أنَّه كان ممن أخلَصه الله مِن الدَّنَسِ. ويجوزُ عندي أن يكونَ المعنى: أنَّه كان ممن أخلَصه الله واصطفاه للقيامِ بأثقالِ النبوةِ، والنهوضِ بأعبائِها. وكأنَّ الأوَّلَ أظهرُ؛ لأنَّ المعنى حاصلٌ بقولِه: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٢٧).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

أي: وكان موسى رسولًا إلى بني إسرائيلَ والقِبطِ، ونبيًّا رفيعَ القَدرِ يُوحي اللهُ إليه(١).

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾.

أي: وكلَّمْنا موسَى بصَوتٍ يَسمَعُه مِن ناحيةِ جَبَلِ طُورِ سَيناءَ الواقِعِ على يمينِ موسى، حينَ أقبَلَ مِن مَدينَ مُتوجِّهًا إلى مِصرَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۞ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۞ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۞ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).

قال ابن تيمية: (النبيُّ هو الذي ينبِّئُه الله، وهو ينبِّئُ بما أنبأ اللهُ به؛ فإنْ أُرسِلَ مع ذلك إلى مَن خالف أمرَ اللهِ؛ لِيُبلِّغَه رسالةً مِن الله إليه؛ فهو رَسولٌ، وأمَّا إذا كان إنما يعمَلُ بالشريعةِ قَبلَه، ولم يُرسَلْ هو إلى أحدٍ يُبلِّغُه عن اللهِ رسالةً؛ فهو نبيٌّ، وليس برسولٍ). ((النبوات)) (٢/ ٧١٤-٧١٥).

وقال السعدي: (فالرسالةُ تقتضي تبليغَ كلامِ المرسِلِ، وتبليغَ جميعِ ما جاء به مِن الشرعِ، دِقِّه وجِلِّه. والنبوةُ تقتضي إيحاءَ الله إليه، وتخصيصَه بإنزالِ الوحيِ إليه، فالنبوَّةُ بينه وبينَ رَبِّه، والرِّسالةُ بينه وبين الخَلقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٢).

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۞ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۞ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴾ [طه: ١١- ١٦].

﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾.

أي: وأدنَيْنا موسى، فسَمِع كلامَ اللهِ، وخاطَبه عن قُربٍ، بلا واسِطةٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾.

أي: وآتَينا موسى مِن رَحمتِنا له[٢] إجابةَ سُؤالِه، فجعَلْنا أخاه هارونَ نبيًّا مِثلَه؛ لِيُعينَه[٣].

كما قال تعالى حكايةً عنه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۞ هَٰرُونَ أَخِي ۞ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۞ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۞ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۞ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۞ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ۞ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٩ - ٣٦].

وقال سُبحانه حكايةً عنه: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۞ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٤- ٣٥].

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٢٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٠٣).

(٢) و(من) في قولِه: ﴿مِن رَّحۡمَتِنَآ﴾ سببيَّةٌ، و﴿أَخَاهُ﴾ مَفعولُ قولِه: ﴿وَوَهَبۡنَا﴾. وقيل: إنَّ (من) هنا للتبعيضِ، و﴿أَخَاهُ﴾ بدلٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢١٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان إسماعيلُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- هو الذي ساعد إبراهيمَ عليه السَّلامُ في بناءِ البَيتِ الذي كان مِن الأفعالِ التي أبقَى اللهُ بها ذِكْرَه، وشَهَر أمْرَه، وكان مُوافِقًا لِموسى عليه السَّلامُ في ظُهورِ آيةِ الماءِ الذي به حياةُ كُلِّ شَيءٍ، وإن كانت آيةُ موسى عليه السَّلامُ انقَضَت بانقضائِه، وآيتُه هو باقيةً إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها- عَقَّب ذِكْرَه بذلك[1].

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَ﴾.

أي: واتْلُ -يا مُحمَّدُ- في القرآنِ على قَومِك خبَرَ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلام[2].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾.

أي: إنَّ إسماعيلَ كان صادِقًا في وعودِه لرَبِّه وللنَّاسِ، يَفي بوَعدِه، ولا يُخلِفُه[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

قال الشنقيطي: (ممَّا يُبيِّنُ من القرآنِ شِدَّةَ صِدقِه في وعدِه: أنَّه وعَدَ أباه بصبرِه له على ذبحِه، ثمَّ وفى بهذا الوعدِ، ومن وفى بوَعدِه في تسليمِ نفسِه للذبحِ، فإنَّ ذلك من أعظمِ الأدلَّةِ على عظيمِ صِدقِه في وعدِه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فهذا وعدُه، وقد بيَّن تعالى وفاءَه به في قَولِه: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٣٧).

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

أي: وكان رَسولًا[١] ونبيًّا، رفيعَ القَدرِ يُوحي اللهُ إليه[٢].

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾.

أي: وكان يأمُرُ أهلَه بإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ[٣].

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾.

أي: وكان محمودًا عندَ اللهِ في أعمالِه، ارتضاه اللهُ، وجعَلَه من الخواصِّ المقرَّبينَ؛ لاجتهادِه فيما يُرضيه، فرضِي ربُّه عنه، ورضِيَ هو عن رَبِّه[٤].

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦﴾.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾.

أي: واتلُ -يا محمَّدُ- في القُرآنِ على قَومِك خبَرَ إدريسَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٥].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

---

(١) قال القرطبي: (﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ قيل: أُرسِلَ إسماعيلُ إلى جُرْهُم). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٢)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٥٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

أي: إنَّ إدريسَ كان كثيرَ الصِّدقِ في أفعالِه وأقوالِه، صادِقًا فيما يخبِرُ به عن اللهِ، ومُصَدِّقًا تصديقًا تامًّا بما أتاه من الحَقِّ، ونبيًّا رفيعَ القَدرِ يُوحي اللهُ إليه[(١)].

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ورفَعْنا إدريسَ إلى مكانٍ ذي علوٍّ وارتفاعٍ؛ إلى السَّماءِ الرَّابعةِ[(٢)].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((... ثمَّ عُرِج بنا إلى السَّماءِ الرَّابعةِ، فاستفْتَح جبريلُ عليه السَّلامُ، قِيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: محمَّدٌ، قال: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه، فَفُتِح لنا فإذا أنا بإدريسَ، فرَحَّب ودعا لي بخيرٍ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٧٨)، ((تفسير القشيري)) (٢/ ٤٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٢)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: رفعُه إلى السماءِ الرابعةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والرازي، والقرطبي، وابنُ جُزي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال الرازي: (فيه قولان: أحدهما: أنَّه مِن رِفعةِ المنزلةِ، كقَولِه تعالى لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلم: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]... الثاني: أنَّ المرادَ به الرِّفعةُ في المكانِ إلى موضعٍ عالٍ، وهذا أَولى؛ لأنَّ الرِّفعةَ المقرونةَ بالمكانِ تكونُ رِفعةً في المكانِ لا في الدَّرَجةِ). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥٠).

وممن قال بأنَّ المعنى: رفَعَ الله منزلتَه، وشرَّفَه بالنبوَّةِ والزلفَى عندَ الله: الزمخشري، والألوسي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

قال السعدي: (﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أي: رفَعَ اللهُ ذِكْرَه في العالَمينَ، ومَنزِلتَه بين المقرَّبينَ، فكان عاليَ الذِّكرِ، عاليَ المنزلةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]))[١].

وعن قتادةَ في قَولِه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: حدَّثَنا أنسُ بنُ مالكٍ أنَّ نبيَّ اللهَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم قال: ((لَمَّا عُرِجَ بي رأيتُ إدريسَ في السَّماءِ الرَّابعةِ))[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا انقضى كَشفُ هذه الأخبارِ العَليَّةِ المِقدارِ، الجليلةِ الأسرارِ؛ شرَعَ سُبحانَه وتعالى ينسُبُ أهلَها بأشرَفِ نَسَبِهم، ويذكُرُ المِنَنَ بينهم، فقال عزَّ مِن قائلٍ[٣]:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾.

أي: أولئك الأنبياءُ المذكورونَ في هذه السورةِ هم الذين أنعَمَ اللهُ عليهم بالهدايةِ والنُّبُـوَّةِ، والعِلمِ النَّافِعِ، والعَمَلِ الصَّالحِ؛ مِنَ النبيِّينَ مِن ذُرِّيةِ آدَمَ، وهو إدريسُ عليه السلامُ[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٢).

وأخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ، عن مالكِ بنِ صَعْصَعة بنحوِه دونَ ذكرِ الآيةِ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٥٧) واللفظ له، وأحمد (١٣٧٣٩).

حسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٤٢).

قال البيضاوي: (﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بأنواعِ النِّعمِ الدينيةِ والدنيويةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤).

=

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾.

أي: ومِن ذُرِّيَّةِ مَن حَملْنا معَ نوحٍ في السَّفينةِ، وهو إبراهيمُ عليه السلامُ[1].

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

= وعلى القولِ بأنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأنبياءُ المذكورون في السورةِ، فالمرادُ بقولِه: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾: إدريسُ عليه السلامُ وحدَه. وممن اختار ذلك: ابنُ جرير، ومكي، والسمعاني، وابنُ الجوزي، والرازي، والقرطبي، وابنُ تيمية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٥)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٥٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٣١).

قال الرازي: (والَّذي يختصُّ بأنَّه مِن ذُرِّيَّةِ آدمَ دونَ مَن حُمِل معَ نوحٍ هو إدريسُ عليه السَّلامُ؛ فقد كان سابقًا على نُوحٍ على ما ثَبَت في الأخبارِ). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥٠).

وقال ابن كثير: (هذا هو الأظهرُ أنَّ إدريسَ في عمودِ نَسبِ نوحٍ، عليهما السَّلامُ. وقد قيلَ: إنَّه مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ، أخذًا مِنْ حديثِ الإسراءِ، حيثُ قال في سلامِه على النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم: «مرحبًا بالنَّبيِّ الصَّالحِ، والأخِ الصَّالحِ»، ولم يَقلْ: «والولدِ الصَّالحِ»، كما قال آدمُ وإبراهيمُ، عليهما السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٢).

وقيل: المرادُ: إدريسُ ونوحٌ عليهما السلامُ. وممن اختار ذلك: ابنُ عطية، والرسعني، والخازن، والعُليمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٢٦١).

قال الرسعني: (﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾... يريدُ به: إدريسَ ونوحًا؛ لقربِهما مِن آدمَ عليه السلامُ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٣٣).

وذهَب ابنُ كثيرٍ إلى أنَّ الإشارةَ في هذه الآيةِ ليست للأنبياءِ المذكورينَ في هذه السورةِ فقط، بل الإشارةُ إلى جنسِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسلام. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٣١).

قال ابن الجوزي: (﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ يعني: إبراهيمَ؛ لأنَّه مِن ولدِ سامِ بنِ نوحٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٧). ويُنظر: ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٢٦١).

أي: ومِن ذُرِّيةِ إبراهيمَ، وهم: إسماعيلُ، وإسحاقُ، ويعقوبُ عليهم السلامُ، ومِن ذُرِّيةِ إسرائيلَ -أي: يعقوبَ عليه السلامُ-، وهم موسَى، وهارونُ، وزكريَّا، ويحيى، وعيسَى بنُ مريمَ- عليهم السلامُ[(١)].

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾.

أي: وممَّن هدينا للإيمانِ، والعمَلِ الصَّالحِ، وممَّن اختَرْناهم للنُّبوَّةِ[(٢)].

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

أي: إذا تُتلى على أولئك القومِ -الذين هَدَينا مِن النبيِّينَ- آياتُ الرَّحمنِ التي أنزلها عليهم في كُتُبِه؛ بادروا إلى السُّجودِ لله باكينَ مِن خَشيتِه تعالى[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٥، ٥٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤).

ومِن المفسِّرينَ مَن زاد مريمَ عليها السلامُ. ومنهم: ابنُ جرير، ومكي، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٥)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٥٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١).

قال السمعاني: (وقولُه تعالَى: ﴿وَإِسْرَائِيلَ﴾، أي: مِن ذُرِّيَّةِ إسرائيلَ، والمرادُ منه: موسَى، وداوُدُ، وسليمانُ، ويوسفُ، وعيسَى، وكلُّ أنبياءِ بني إسرائيلَ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤).

قال الرازي: (فرَتَّب اللَّهُ سبحانَه وتعالَى أحوالَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ الَّذينَ ذكرَهم على هذا التَّرتيبِ؛ مُنَبِّهًا بذلك على أنَّهم كما فُضِّلوا بأعمالِهم فلهم مزيدٌ في الفضلِ بِولادَتِهم مِن هؤلاءِ الأنبياءِ). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

قال البيضاوي: (﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ خبرٌ لـ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إنْ جَعَلْتَ =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ فيه أنَّ حَقَّ الصَّالحِ ألَّا يألوَ نُصحًا للأجانبِ، فضلًا عن الأقاربِ والمتَّصِلينَ، وأن يُحظِيَهم بالفوائِدِ الدِّينيةِ، ولا يفرِّطَ في شَيءٍ مِن ذلك[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى عن إسماعيلَ عليه السَّلامُ أنَّه كان يأمُرُ أهلَه بالصَّلاةِ والزكاة، وكان عندَ ربِّه مَرضيًّا؛ فالإنسانُ مَسؤولٌ عن أهلِه، مسؤولٌ عن تربيتِهم، حتى ولو كانوا صِغارًا إذا كانوا مميِّزينَ، أمَّا غيرُ المميِّزِ فإنَّه يُؤمَرُ بما يتحمَّلُه عَقلُه[٢].

٣- عن الحَسَنِ قال: (من كان له واعِظٌ مِن نَفسِه، كان له مِنَ اللهِ حافِظٌ، فرَحِمَ اللهُ مَن وعَظَ نَفسَه وأهلَه، فقال: يا أهلي، صلاتَكم صلاتَكم، زكاتَكم زكاتَكم، جيرانَكم جيرانَكم، مساكينَكم مساكينَكم؛ لعلَّ الله أن يرحَمَكم يومَ القيامةِ؛ فإنَّ الله عزَّ وجَلَّ أثنى على عبدٍ كان هذا عَمَلَه، فقال: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾)[٣].

= الموصولَ صِفَتَه، واستئنافٌ إن جعَلْتَه خبَرَه؛ لبيانِ خَشيتِهم مِن اللهِ وإخباتِهم له، مع ما لهم مِن علوِّ الطبقةِ في شَرَفِ النَّسَبِ، وكمالِ النَّفسِ، والزُّلفَى مِن الله تعالى). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤).

وقال ابنُ كثير: (أجمع العُلَماءُ على شرعيَّةِ السجودِ هاهنا؛ اقتداءً بهم، واتِّباعًا لمِنوالِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٣-١٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ١٦٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في ((النفقة على العيال)) (٣٣٣) (١/ ٥٠٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- وصفَ اللهُ تعالى نفسَه بالمناداةِ والمُناجاةِ، في قولِه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾، وقولِه: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ [القصص: ٦٢]، وقولِه: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ووصفَ عبدَه بالمناداةِ والمناجاةِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]، وقال: ﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المجادلة: ١٢]، وقال: ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المجادلة: ٩]، وليست المناداةُ كالمناداةِ، ولا المناجاةُ كالمناجاةِ[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ ذَكَر مناداتَه لموسى عليه السَّلامُ ومناجاتَه إيَّاه في مواضِعَ مِن القرآنِ، ولم يَذكُرْ أنَّه فعَل ذلك بغيرِه مِن الأنبياءِ، وهذا ممَّا أجمع عليه المُسلِمونَ وأهلُ الكتابِ: أنَّ تكليمَ اللهِ تعالى لموسى من خصائِصِه التي فضَّله بها على غَيرِه من الأنبياءِ والرُّسُلِ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ حُجَّةٌ على مَن يقولُ بخَلْقِ القُرآنِ؛ إذْ لا يمكنُه أنْ يقولَ في المناداةِ ما يتأوَّلُه في الكلامِ -وإنْ كان ما يتأوَّلُه فيه خطأً- وقولُه: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ أكَّدَه بلا إشكالٍ؛ لأنَّ النَّجِيَّ لا يكونُ إلَّا مَن يُكَلَّمُ ويُحاوَرُ[(٣)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ حُجَّةٌ على مَن يُنْكِرُ أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه

---

(١) يُنظر: ((التدمرية)) لابن تيمية (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((بغية المرتاد)) لابن تيمية (ص: ٣٨٢).
وقد كلَّم الله تعالى نبيَّنا محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم ليلةَ الإسراءِ. يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٩/ ٣٥٤، ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٥٣).

بنَفسِه على العَرشِ، وأنَّ عِلْمَه في الأرضِ؛ إذ لو كان بنَفسِه في كلِّ مَوضعٍ -كما يزعُمونَ- ما كان لقَولِه: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ مَعنًى، ولَمَا كان لموسى فضيلةٌ على غَيرِه؛ إذِ المعنى الذي يَذهَبُ إليه يستوي جميعُ النَّاسِ فيه -كافِرُهم ومُؤمِنُهم- وليس لِمَا يتأوَّلُه مِن أنَّ القُرْبَ قُربُ الطَّاعةِ -لَمَّا قَرَّبَه بالمناجاة- خَصيصةٌ؛ ولذا رُوِيَ في الخبر: (أنَّه قَرَّبَه حتى سَمِعَ صريفَ القَلَمِ)[1].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ هذه الآيةُ مِمَّا يدُلُّ على أنَّ اللهَ يتكَلَّمُ كيف شاء، مُناداةً كان الكَلامُ أو مُناجاةً[2]، وأنَّ اللهَ تعالى يتكلمُ بصوتٍ، فالنداءُ في لغةِ العربِ هو صوتٌ رفيعٌ، ولا يُطْلَقُ النداءُ على ما ليس بصوت -لا حقيقةً ولا مجازًا- وإذا كان النداءُ نوعًا مِن الصوتِ؛ فالدالُّ على النوعِ دالٌّ على الجنسِ بالضرورةِ[3]، وموسى عليه السَّلامُ سَمِعَ كلامَ الله تعالى بحَرفٍ وصَوتٍ، كما تدُلُّ عليه النُّصوصُ التي بلَغَت في الكثرةِ مَبلغًا لا ينبغي معه تأويلٌ، ولا يناسِبُ في مقابلتِه قال وقيل؛ فقد قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء: ١٠]، ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [القصص: ٣٠]، ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦]، ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]، واللائقُ بمقتضى اللُّغةِ والأحاديثِ أن يُفسَّرَ النِّداءُ بالصَّوتِ، بل قد ورَد إثباتُ الصَّوتِ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٥٤).
والخبر أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٥/ ٥٥٩) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.
ويُنظر ما أخرجه البخاري (٣٤٩) من حديث أبي ذر، رضي الله عنه، ومسلمٌ (١٦٣) من حديث عبدالله بن عباس، وأبي حبة الأنصاري، رضي الله عنهم.
(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٢٢).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٣١).

لله تعالى شأنُه في أحاديثَ لا تُحصى، وأخبارٍ لا تُستقصَى[١].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ النِّداءُ والنِّجاءُ أخَصُّ مِنَ التَّكليمِ؛ لأنَّه تكليمٌ خاصٌّ؛ فالنِّداءُ تكليمٌ مِن البُعدِ يَسمَعُه المنادي، والنِّجاءُ تَكليمٌ مِن القُربِ[٢].

٧- قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾، وإنَّما جُعِلَتْ تلك الهِبةُ من رحمةِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ رحِمَ مُوسى؛ إذ يسَّرَ له أخًا فصيحَ اللِّسانِ، وأكمَلَه بالإنباءِ حتَّى يُعْلَمَ مُرادُ مُوسى ممَّا يُبلِّغُه عن اللهِ تعالى[٣].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ قولُه: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ يدُلُّ على أنَّ الرَّسولَ لا يَلزَمُ أن يكونَ صاحِبَ شَريعةٍ؛ فإنَّ أولادَ إبراهيمَ كانوا على شريعتِه[٤].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ في هذا دلالةٌ على شَرفِ إسماعيلَ على أخيه إسحاقَ؛ لأنَّه إنما وُصِفَ بالنُّبُوَّةِ فقط، وإسماعيلُ وُصِفَ بالنُّبُوَّةِ والرِّسالةِ[٥].

١٠- قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ فرَّق تعالى ذِكْرُه أنسابَهم، وإن كان يجمَعُ جميعَهم آدمُ؛ لأنَّ فيهم

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٩-٢٤٠).

من ليس مِن ولَدِ مَن كان مع نوحٍ في السَّفينةِ، وهو إدريسُ[١]، على القَولِ بأنَّه كان قَبلَ نوحٍ عليه السَّلامُ.

١١- قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ لإدريسَ ونوحٍ شَرَفُ القُربِ مِن آدَمَ -على القَولِ بأنَّ إدريسَ قبلَ نوحٍ- ولإبراهيمَ شَرَفُ القُربِ مِن نوحٍ، ولإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ شَرَفُ القُربِ مِن إبراهيمَ[٢].

١٢- قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: وَمِن ذُرِّيَّةِ إسرائيلَ، وكان منهم موسى وهارونُ وزكريَّا ويحيى وعيسى، وفيه دَليلٌ على أنَّ أولادَ البَناتِ مِن الذُّرِّيَّةِ[٣]؛ لأنَّ عيسى مِن مريمَ، وهي مِن نَسلِ يَعقوبَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٥/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((روح البيان)) للخلوتي (٥/ ٣٤٣).

قال الشنقيطي: (وذكرُ عِيسَى هنا أخذَ العلماءُ منه حُكمًا فِقهيًّا معروفًا، وهو أنَّه إذا قال رجلٌ: «هذا وَقْفٌ على ذُرِّيَّتِي»، أو أوصَى لذُرِّيَّتِه- أنَّ أولادَ البناتِ يدخلونَ؛ لأَنَّ عيسى ولدُ بنتٍ... لا أبَ له. فاللَّهُ جلَّ وعلا أدرَجَه في اسمِ الذريَّةِ، ومِن هنا يُعرَفُ أنَّ أولادَ البناتِ مِنَ الذرِّيةِ، وهذه المسألةُ التي هدَّدَ الحَجَّاجُ عليها يحيَى بنَ يَعمرَ، قال له: أتقولُ: إنَّ الحَسنَ والحُسينَ رضي الله عنهما مِن ذُرِّيَّةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؟ قال: نَعَمْ. وأنَّه قالَ له: إنْ لم تَجِئْني بدَليلٍ من كتابِ اللَّهِ فعلْتُ بك وفعلْتُ. قال: أتقرأُ في سورةِ الأنعامِ؟ قال: نَعَمْ، قال: قال اللَّهُ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ إلى أن قالَ: ﴿وَعِيسَىٰ﴾ وعيسَى ابنُ بنتٍ. وهذا صريحٌ في دُخولِ ابنِ البنتِ في الذريةِ. وعلى هذا أكثرُ العلماءِ؛ على أنَّه لو أوصى للذرِّيةِ أو وَقَفَ عليهم- أنَّ أولادَ البناتِ =

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في إضافةِ الآياتِ إلى اسمِه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ آياتِه تعالى مِن رَحمتِه بعِبادِه وإحسانِه إليهم؛ حيثُ هداهم بها إلى الحَقِّ، وبصَّرَهم مِن العَمى، وأنقَذَهم من الضَّلالةِ، وعَلَّمَهم مِن الجَهالةِ[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ حُجَّةٌ في جوازِ البُكاءِ في السُّجودِ، والاقترابِ به مِن المعبودِ[٢]، وأنَّه لا يقطعُ الصَّلاةَ؛ لأنَّ اللَّه تعالَى قد مَدَحهم بالبكاءِ في السُّجودِ، ولم يُفَرِّقْ بينَ سجودِ الصَّلاةِ وسُجودِ التِّلاوةِ وسَجدةِ الشُّكرِ[٣].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ استُدِلَّ بهذه الآيةِ على مشروعِيَّةِ سُجودِ التِّلاوةِ[٤].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ فيه استِحبابُ البكاءِ عندَ تلاوةِ القُرآنِ[٥]، وعن عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه: (أنَّه قرأ سورةَ

= يدخُلونَ؛ لهذه الآيةِ). ((العذب النمير)) (١/ ٤٥٩).

لكن قال ابنُ عثيمين: (ليس في الآيةِ دَلالةٌ؛ لأنَّ عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أمُّه أبوه، يعني: ليس له نسَبٌ مِن قِبَلِ الأُبُوَّةِ، منقطِعٌ؛ ولهذا: المرأةُ الملاعِنةُ -أو المُلاعَنةُ- إذا نفى زوجُها ولَدَها منه، صارت هي أمًّا أبًا، فالصوابُ أنَّ الذريَّةَ لا يدخُلُ فيها أولادُ البناتِ، هذا من حيثُ ناحية اللُّغةِ والشَّرعِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٤).

مريمَ فسجَد، وقال: هذا السجودُ، فأين البكيُّ؟) يريدُ: فأين البكاءُ[١].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ استُدِلَّ به علَى أنَّ سامِعَ السَّجدةِ وتالِيَها سَواءٌ في حكمِها، وأنَّهم جميعًا يسجُدونَ؛ لأنَّه مَدَح السَّامعينَ لها إذا سَجَدوا[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾

- قولُه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ قُدِّمَ ذِكرُ مُوسى على ذكْرِ إسماعيلَ عليهما السَّلامُ؛ لئلَّا ينفصِلَ عن ذكْرِ يعقوبَ عليهما السَّلامُ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ فيه تَخصيصُ مُوسى بعُنوانِ (المُخلص) -بفتْحِ اللَّامِ وكسْرِها-؛ لأنَّ ذلك مَزيَّتُه، فإنَّه أخلَصَ في الدَّعوةِ إلى اللهِ، فاستخَفَّ بأعظمِ جبَّارٍ وهو فرعونُ، وجادَلَه مُجادلةَ الأكْفَاءِ، وكذلك ما حكاهُ اللهُ عنه بقولِه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]؛ فكان الإخلاصُ في أداءِ أمانةِ اللهِ تعالى ميزتَه، ولأنَّ اللهَ اصطفاهُ لكلامِه مُباشرةً قبْلَ أنْ يُرسِلَ إليه الملَكَ بالوحيِ؛ فكان مُخلَصًا بذلك، أي: مُصطفًى[٤].

- قولُه: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ قَدَّمَ ﴿رَسُولًا﴾ مع كونِه أخصَّ وأعْلى؛ لأنَّ اللهَ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ((الرقة والبكاء)) (٤١٨)، وابن جرير في ((تفسيره)) (١٥/ ٥٦٧)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١٨٩٧).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٧).

تعالى أرسَلَه إلى الخلْقِ، فأنبَأَهم عنه[١]، والجمْعُ بين ﴿رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ هنا لتأكيدِ الوصفِ؛ إشارةً إلى أنَّ رسالتَه بلَغَتْ مَبلغًا قويًّا؛ فقولُه: ﴿نَّبِيًّا﴾ تأكيدٌ لوصْفِ ﴿رَسُولًا﴾[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ فيه إيجازٌ بالحذفِ، وتَقديرُ الكلامِ: وناديناهُ حينَ أقبَلَ مِن مدينَ، ورأى النَّارَ مِن الشَّجرةِ، وهو يُريدُ مَن يَهْديه إلى طريقِ مصرَ[٣].

- وقولُه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ صِيغَةُ المُفاعَلةِ للمُبالغةِ؛ فليس هنا حُصولُ فعْلٍ من جانبينِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾

- فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال تعالى هنا: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۞ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾، وقال في سُورةِ الفُرقانِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥]؛ اختلَفَ الوصْفُ بالنُّبوَّةِ والوزارةِ مع اتِّحادِ المقصودِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ السُّورَ المُتردِّدَ فيها ذِكْرُ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ مَنوطٌ فيها ذكْرُهم بذكْرِ أُمَمِهم، وما كان من مُعاندةِ الأُمَمِ وتكذيبِهم، وأخْذِ المُكذِّبينَ بمُرتكباتِهم، ثمَّ إنَّ سُورةَ مريمَ تضمَّنَت طائفةً عظيمةً؛ فُصِّلَ ذِكْرُ بعضِهم، وأُجْمِلَ ذِكْرُ البعضِ، وقد تجرَّدَ فيها من الإخبارِ بأحوالِهم ذِكْرُ التَّعريفِ بخصائصَ مِن مِنَحِهم، وعَليِّ أقْدارِهم، وما أُيِّدوا به من ذلك، ثمَّ إنَّ النُّبوَّةَ أعظَمُ خصائصِهم الَّتي تَساوَوا

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٨).

في تحمُّلِ أمانتِها، وأُفْرِدوا عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بها، ولم يُشارِكْهم فيها غيرُهم، أمَّا اسمُ الوزارةِ والوصْفُ بها فليس ممَّا يخُصُّهم، ولا ممَّا أُفْرِدوا به، فلم يكُنْ وصْفُ هارونَ عليه السَّلامُ هنا بها لِيُناسِبَ هذا القصْدَ العليَّ، ولا لِيُلائمَه. وأمَّا قولُه تعالى في سُورةِ الفُرقانِ: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥] فمُرتَّبٌ على سُؤالِ موسى عليه السَّلامُ في سُورةِ طه في قولِه: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَٰرُونَ﴾ [طه: ٢٩، ٣٠]؛ فأُعْطِيَ عليه السَّلامُ مَطْلبَه، ورَدَ هذا على التَّرتيبِ المُتقرِّرِ في المصحفِ. ثمَّ إنَّ ما اتَّصلَ بهذه الآيةِ وآيةِ سُورةِ مريمَ ممَّا قبْلَهما وبعْدَهما يَسْتدعي التَّناسُبَ في مقاطعِ الآيِ وفواصلِها، فلم يكُنْ وُرودُ الآيتينِ في السُّورتينِ على غيرِ ما ورَدَ لِيُناسِبَ؛ فجاء ذلك على ما يجِبُ من الوَجهينِ المذكورينِ، واللهُ أعلمُ بما أراد[١].

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾

- قولُه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾ فُصِلَ ذِكْرُ إسماعيلَ عن ذكْرِ أبيه وأخيه عليهم السَّلامُ؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بأمْرِه بإيرادِه مُستقِلًّا[٢]؛ فتَخصيصُ إسماعيلَ بالذِّكرِ هنا تَنبيهٌ على جَدارتِه بالاستقلالِ بالذِّكرِ عقِبَ ذكْرِ إبراهيمَ وابنِه إسحاقَ؛ لأنَّ إسماعيلَ صار جَدَّ أُمَّةٍ مُستقِلَّةٍ قبْلَ أنْ يصيرَ يعقوبُ جَدَّ أُمَّةٍ، ولأنَّ إسماعيلَ هو الابنُ البِكْرُ لإبراهيمَ، وشريكُه في بناءِ الكعبةِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ تعليلٌ لمُوجِبِ الأمرِ[٤]، وذكَرَ إسماعيلَ عليه

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٢٨-٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٠).

السَّلامُ بِصِدْقِ الوعدِ -وإنْ كان ذلك موجودًا في غيرِه من الأنبياءِ-؛ تَشريفًا له وإكرامًا، كالتَّلقيبِ بنحوِ: الحليمِ، والأوَّاهِ، والصِّدِّيقِ، ولأنَّه المشهورُ مِن خِصالِه[١].

٥- قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿نَّبِيّٗا﴾ خبرٌ آخرُ لـ (كان) مُخصِّصٌ للأوَّلِ؛ إذ ليس كلُّ صِدِّيقٍ نَبِيًّا[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾

- اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المَذكورينَ في السُّورةِ من زكريَّا إلى إدريسَ عليهم السَّلامُ، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتبِهم ومَنزلَتِهم في الفضْلِ[٣]. والإتيانُ به دونَ الضَّميرِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم جديرونَ بما يُذكَرُ بعدَ اسمِ الإشارةِ لأجْلِ ما ذُكِرَ مع المُشارِ إليهم مِن الأوصافِ، أي: كانوا أحرياءَ بنعمةِ اللهِ عليهم، وكونِهم في عدادِ المَهديينَ المُجْتبينَ، وخَليقينَ بمحبَّتِهم للهِ تعالى، وتَعظيمِهم إيَّاهُ[٤].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ تلك وإنْ كانت نِعمًا وهدايةً واجتباءً؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧٦-٢٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٢).

فقد زادت هذه الآيةُ بإسنادِ تلك العَطايا إلى اللهِ تعالى تَشريفًا لها؛ فكان ذلك التَّشريفُ هو الجزاءَ عليها؛ إذ لا أزْيَدَ من المُجازَى عليه إلَّا تَشريفُه[١].

- قولُه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبَيانِ خشيتِهم مِن اللهِ تعالى، وإخباتِهم له، معَ حالِهم مِن عُلوِّ الرُّتبةِ، وسُموِّ الطَّبقةِ في شرَفِ النَّسَبِ، وكَمالِ النَّفسِ، والزُّلفى من اللهِ عَزَّ سُلطانُه[٢]. وقيل: مُستأنَفٌ دالٌّ على شُكرِهم نِعمَ اللهِ عليهم، وتَقريبِه إيَّاهم بالخُضوعِ له بالسُّجودِ عندَ تلاوةِ آياتِه وبالبُكاءِ[٣].

- وعبَّر بالاسمِ في كلٍّ مِن السجودِ والبكاءِ في قولِه: ﴿سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾؛ إشارةً إلى أنَّ خَوفَهم دائِمٌ،كما أنَّ خُضوعَهم دائِمٌ لِعَظمةِ الكبيرِ الجَليلِ؛ لأنَّ تلك الحَضرةَ لا تَغيبُ عنهم أصلًا[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٢٢).

الآيات (٥٩-٦٢)

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَلْفٌ﴾: الخَلْفُ: الرَّدِيءُ مِن الناسِ ومِن الكلامِ، والرَّديءُ مِن كلِّ شيءٍ، وأكثرُ ما يُستعمَلُ باللامِ الساكنةِ (خَلْفٌ) في الذمِّ، وبالفتحِ (خَلَف) في المدحِ، وأصلُه: مجيءُ شيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَه[١].

﴿غَيًّا﴾: أي: شرًّا، وخُسرانًا، وهَلاكًا. أو: هو وادٍ في جهنَّمَ، وأصلُه: يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمرِ[٢].

﴿عَدْنٍ﴾: أي: إقامَةٍ، واستقرارٍ، وثباتٍ، يُقال: عَدَن بالمكانِ، يَعْدِنُ عَدْنًا، إذا أقامَ به، واستقرَّ، وأصلُ (عدن): يدلُّ على الإقامةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((ياقوتة الصراط)) لغلام ثعلب (ص: ٢٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

﴿مَأْتِيًّا﴾: أي: يَأْتيه أولياءُ الله، أو مفعولٌ بمعنَى فاعلٍ، أي: آتيًا، وأصلُ الإتيانِ: مجيءٌ بسهولةٍ[١].

﴿لَغْوًا﴾: أي: باطلًا مِن الكلامِ، وفُحشًا، واللغوُ: هو فضولُ الكلامِ، ويدخلُ فيه فحشُ الكلامِ وباطِلُه، وأصلُه يدلُّ على الشَّيءِ لا يُعْتَدُّ به[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله سبحانَه ما حدَث مِن الذين جاؤوا بعدَ هؤلاءِ المنعَمِ عليهم، فيقولُ: فأتى مِن بعدِ هؤلاء المنعَمِ عليهم عَقِبُ سَوءٍ أضاعوا الصَّلاةَ؛ بتركِها، أو التفريطِ في شروطِها أو أركانِها أو واجباتِها، واتَّبَعوا شَهواتِهم، مؤثرينَ لها على طاعةِ اللهِ، فسوف يَلقَونَ عذابًا شَديدًا في جهنَّمَ. لكِنْ مَن تاب منهم مِن ذَنبِه وآمَنَ برَبِّه وعَمِلَ صالِحًا، فأولئك يَدخُلونَ الجنَّةَ ولا يُنقَصونَ شَيئًا مِن حَسَناتِهم؛ يدخلونَ جناتِ خُلدٍ وإقامةٍ دائمةٍ، وهي التي وعد الرَّحمنُ بها عبادَه فآمَنوا بذلك، والحالُ أنَّهم لم يَرَوها في الدُّنيا، إنَّ وَعدَ الله لعبادِه بهذه الجنَّةِ يأتيه المؤمنون فيدخلون الجنةَ.

ثم يصِفُ الله سبحانه الجنةَ وأهلَها بما يَحْمِلُ على الاستعدادِ لها، فيقولُ: لا يَسمَعُ أهلُ الجنَّةِ فيها كلامًا باطلًا أو ساقطًا، لكن يَسمَعونَ ما يَسُرُّهم من الأقوالِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥، ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٦٦).

والأصواتِ السَّالمةِ مِن كُلِّ عَيبٍ، ولهم رِزقُهم فيها من الطَّعامِ والشَّرابِ وما يشتهونَ في كُلِّ يَومٍ في قَدرِ وَقتِ البُكرةِ ووَقتِ العَشيِّ مِن أيَّامِ الدُّنيا، تلك الجنَّةُ الموصوفةُ بتلك الصِّفاتِ هي التي يُعطيها اللهُ عبادَه المتَّقينَ له، بامتثالِ أوامِره واجتِنابِ نَواهيه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وصَفَ الأنبياءَ المذكورينَ في الآياتِ السَّابقةَ بصفاتِ المَدحِ؛ ترغيبًا لنا في التأسِّي بطريقتِهم؛ ذكَرَ بَعدَهم مَن هو بالضِّدِّ منهم[1]، فقال:

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

أي: فجاء مِن بعدِ الذين أنعَم اللهُ عليهم مِن النبيِّينَ عَقِبُ سَوءٍ[2] أضاعُوا الصَّلاةَ؛ إمَّا بتَركِها بالكُليَّةِ، أو تَرْكِ بَعضِ أركانِها وشُروطِها، أو التَّفريطِ في واجباتِها، أو تأخيرِها عن مواقيتِها، وغير ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٤).

قال الشنقيطي: (الظاهِرُ أنَّهم اليهودُ والنَّصارى وغيرُهم مِن الكُفَّارِ الذين خَلَفوا أنبياءَهم وصالحيهم قبلَ نزولِ الآيةِ، فأضاعوا الصَّلاةَ، واتَّبَعوا الشهواتِ، وعلى كُلِّ حالٍ فالعبرةُ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّبَبِ؛ فكُلُّ خَلْفٍ أضاعوا الصلاةَ واتَّبَعوا الشهواتِ يَدخُلونَ في الذمِّ والوعيدِ المذكورِ في هذه الآيةِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٣٤، ٢٣٥) و (٢٢/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٤٣، ٤٤٤). =

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾.

أي: وأقبلوا على شَهَواتِ أنفُسِهم، وانهَمَكوا في تحقيقِ رَغَباتِها الدُّنيويَّةِ،

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ بإضاعةِ الصَّلاةِ: تركُها: ابنُ جرير، والزجاج، والثعلبي، والواحدي، والرازي، والخازن، والعُليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٢٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٢٦٣).

وممن قال بذلك من السلف: محمدُ بنُ كعبٍ القُرَظي، وابنُ زيدِ بنِ أسلمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٣).

وقيل: المرادُ بإضاعةِ الصَّلاةِ: إضاعةُ أوقاتِها، والإخلالُ بواجباتِها. وممن اختار ذلك في الجملةِ: السمرقندي، والقرطبي، وابن تيمية. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٣٤) و(٢٢/ ٦).

وممن قال بنحو هذا القولِ مِن السلفِ: عبد الله بنُ مسعود، والنَّخَعيُّ، وسعيدُ بنُ المسيب، وعمرُ بنُ عبد العزيز، والقاسم بنُ مخيمرة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٧).

وممن اختار العمومَ، وأنَّ ما سبَق وغيرَه يدخلُ في الإضاعةِ: الثعالبي، والبقاعي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٤٤).

قال الشنقيطي: (اختلف أهلُ العِلمِ في المرادِ بإضاعتِهم الصَّلاةَ، فقال بعضُهم: المرادُ بإضاعتِها: تأخيرُها عن وَقتِها... وقال بعضُهم: إضاعتُها: الإخلالُ بشُروطِها... وقال بعضُهم: المرادُ بإضاعتِها: جَحدُ وجوبِها... وقيل: إضاعتُها: إقامتُها في غيرِ الجَماعاتِ. وقيل: إضاعتُها: تعطيلُ المساجِدِ، والاشتِغالُ بالصَّنائعِ والأسبابِ... وكلُّ هذه الأقوالِ تدخُلُ في الآيةِ؛ لأنَّ تأخيرَها عن وَقتِها، وعدمَ إقامتِها في الجماعةِ، والإخلالَ بشُروطِها، وجَحْدَ وجوبِها، وتعطيلَ المساجِدِ منها: كُلُّ ذلك إضاعةٌ لها، وإن كانت أنواعُ الإضاعةِ تتفاوتُ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٤٤).

وقال الشوكاني: (والظَّاهِرُ أنَّ مَن أخَّر الصَّلاةَ عن وَقْتِها، أو تَرَك فرضًا مِن فروضِها، أو شرطًا مِن شروطِها، أو ركنًا مِن أركانِها فقد أضاعَها، ويدخلُ تحتَ الإضاعةِ مَن تَرَكها بالمرَّةِ أو جَحَدها دُخولًا أوَّليًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٠).

وآثَروها على طاعةِ اللهِ[١].

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

أي: فسوف يلقَونَ عذابًا شَديدًا يومَ القيامةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٤٢٧).

قال ابنُ تيمية: (قولُه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يتناولُ كُلَّ مَن استعمَلَ ما يشتهيه عن المحافظةِ عليها في وَقتِها، سواءٌ كان المُشتَهى من جنسِ المحرَّماتِ؛ كالمأكولِ المحَرَّمِ، والمشروبِ المحَرَّمِ، والمنكوحِ المحَرَّمِ، والمسموعِ المحَرَّمِ؛ أو كان مِن جنسِ المباحاتِ لكِنَّ الإسرافَ فيه يُنهَى عنه؛ أو غيرَ ذلك. فمن اشتغل عن فِعلِها في الوَقتِ بلعبٍ، أو لهوٍ، أو حديثٍ مع أصحابِه، أو تنَزُّهٍ في بُستانِه، أو عِمارةِ عَقارِه، أو سعيٍ في تجارتِه، أو غيرِ ذلك- فقد أضاع تلك الصَّلاةَ، واتَّبَع ما يشتهيه). ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ٥٥). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧١، ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٤٦).

قال ابنُ الجوزي: (ليس معنى هذا اللقاءِ مُجرَّدَ الرؤيةِ، وإنَّما المرادُ به: الاجتماعُ والملابسةُ مع الرؤيةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٨).

وقال الشنقيطي: (في المرادِ بقَولِه: ﴿غَيًّا﴾ في الآيةِ أقوالٌ مُتقاربةٌ؛ منها أنَّ الكلامَ على حَذفِ مُضافٍ، أي: فسوف يلقَونَ جَزاءَ غَيٍّ، ولا شَكَّ أنَّهم سيلقَونَ جزاءَ ضلالِهم. وممن قال بهذا القول: الزجَّاج. ونظيرُ هذا التفسيرِ قَولُه تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] عند من يقولُ: إنَّ معناه: يلقَ مُجازاةَ آثامِه في الدنيا... ومنها: أنَّ الغَيَّ في الآيةِ: الخُسرانُ والحُصولُ في الوَرَطاتِ. وممَّن رُوِيَ عنه هذا القولُ: ابنُ عباس، وابنُ زيد. ورُوِيَ عن ابنِ زيدٍ أيضًا: ﴿غَيًّا﴾ أي: شَرًّا، أو ضلالًا، أو خَيبةً. وقال بعضُهم: إنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿غَيًّا﴾ في الآيةِ: وادٍ في جهنَّمَ مِن قَيحٍ؛ لأنَّه يَسيلُ فيه قَيحُ أهلِ النَّارِ وصَديدُهم، وهو بعيدُ القعرِ، خَبيثُ الطَّعمِ. وممن قال بهذا: ابنُ مسعود، والبراء بن عازب، ورُوِيَ عن عائشة... وقيل: إنَّ المعنى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي: ضلالًا في الآخرةِ عن طريقِ الجنَّةِ. ذكره الزمخشري. وفيه أقوالٌ أُخَرُ، ومدارُ جميعِ الأقوالِ في ذلك على شَيءٍ واحدٍ، وهو: أنَّ أولئك الخَلْفَ الذين أضاعوا الصَّلاةَ واتَّبَعوا الشَّهَواتِ سوف يَلقَونَ يومَ القيامةِ عذابًا عَظيمًا). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٤٥، ٤٤٦).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤ - ٥].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠﴾.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

أي: إلَّا الذين تابوا عن إضاعةِ الصَّلواتِ، واتِّباعِ الشَّهَواتِ، وآمنوا باللهِ وما جاءت به رسُلُه، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ المشروعةَ بإخلاصٍ لله، فأدَّوا فرائِضَه، واجتَنَبوا محارِمَه؛ فأولئك يدخُلونَ الجنَّةَ، ويَنجُونَ مِن النَّارِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا * يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: ولا يَنقُصُهم اللهُ شَيئًا مِن حَسَناتِهم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٧).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١﴾.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

أي: يدخُلُ أولئك التائبونَ بساتينَ إقامةٍ دائمةٍ قد وعد الرَّحمنُ عِبادَه المؤمنينَ أن يَدخُلوها في الآخرةِ، فآمنوا بذلك، والحالُ أنَّهم لم يَرَوها في الدُّنيا(١).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا كان مِن شأنِ الوُعودِ الغائبةِ -على ما يتعارَفُه النَّاسُ بينهم- احتِمالُ عَدَمِ الوُقوعِ؛ بَيَّن أنَّ وَعدَه ليس كذلك، بقَولِه(٢):

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾.

أي: سيأتي المُؤمِنونَ المطيعونَ، ويَصيرونَ إلى اللهِ، وينالونَ ما وُعِدوا به، فيُدخِلُهم جنَّتَه؛ تحقيقًا لوَعدِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٧).

قال الشوكاني: (﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ في محلِّ نَصْبٍ على الحالِ مِن «الجنَّاتِ»، أو مِن «عبادِه»، أي: مُتَلَبِّسةً، أو: مُتلبِّسينَ بالغيبِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠١).

وقال الرسعني: (﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: وعَدهم بها، وهي غائبةٌ عنهم، أو: هم غائبونَ عنها). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٥، ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٦٤، ٤٦٥). =

﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾.

أي: لا يَسمَعُ أهلُ الجنَّةِ فيها باطِلًا وفُحشًا وكَلامًا لا ينفَعُهم، ولكِنْ[(١)] يَسمَعونَ فيها ما يَسُرُّهم مِن الأقوالِ والأصواتِ السَّالمةِ مِن كُلِّ عَيبٍ، مثل تحيَّةِ اللهِ وملائكتِه لهم، وتسليمِ بعضِهم على بعضٍ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠].

= قال ابنُ جرير: (وعدُه في هذا الموضعِ موعودُه، وهو الجنةُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٥).
وقال ابنُ جزي: (﴿مَأْتِيًّا﴾ وزنُه مفعولٌ، فقيل: إنَّه بمعنى «فاعلٍ»؛ لأنَّ الوعدَ هو الذي يأتي، وقيل: إنَّه على بابِه؛ لأنَّ الوعدَ هو الجنةُ، وهم يأتونها). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٣).
وقال ابن كثير: (ومنهم مَن قالَ: ﴿مَأْتِيًّا﴾ بمعنَى: آتِيًا؛ لأنَّ كلَّ ما أتاكَ فقدْ أتيتَه، كما تقولُ العربُ: أتَتْ عليَّ خمسونَ سنةً، وأتيتُ على خمسينَ سنةً، كلاهما بمعنى واحدٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٦).

(١) ممن قال بأنَّ الاستثناءَ هنا منقطعٌ: ابنُ جرير، والبغوي، والقرطبي، وابنُ كثير، واستظهره الشنقيطي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٦٦).
وقال البقاعي: (ويَحسُنُ أن يُرادَ باللَّغوِ مُطلَقُ الكَلامِ؛ قال في «القاموس»: لغا لَغْوًا: تكلَّمَ. أي: لا يَسمَعونَ فيها كَلامًا إلَّا كلامًا يدُلُّ على السَّلامةِ، ولا يَسمَعونَ شيئًا يدُلُّ على عَطَبِ أحَدٍ منهم، ولا عَطَبِ شَيءٍ فيها). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٦٦).
قال السعدي: (﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ أي: إلَّا الأقوالَ السَّالِمةَ مِن كُلِّ عَيبٍ؛ مِن ذِكرٍ للهِ، وتحيةٍ، وكلامِ سُرورٍ، وبِشارةٍ، ومُطارحةِ الأحاديثِ الحَسَنةِ بين الإخوانِ، وسَماعِ خِطابِ الرَّحمنِ، والأصواتِ الشَّجيَّةِ مِن الحُورِ والملائِكةِ والوِلدانِ، والنَّغَماتِ المُطرِبةِ، والألفاظِ الرَّخيمةِ؛ لأنَّ الدَّارَ دارُ السَّلامِ، فليس فيها إلَّا السَّلامُ التامُّ في جميعِ الوُجوهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٧).

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ: ٣٥].

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

أي: ولأهلِ الجنَّةِ رِزقُهم في الجنَّةِ مِن الطَّعامِ والشَّرابِ وما يَشتَهونَ[1] في كُلِّ يَومٍ في قَدرِ وَقتِ البُكرةِ ووَقتِ العَشيِّ مِن أيَّامِ الدُّنيا[2].

---

(١) قال السعدي: (﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: أرزاقُهم مِن المآكِلِ والمشارِبِ، وأنواعِ اللَّذَّاتِ: مُستَمِرَّةٌ حيثما طَلَبوا، وفي أي وقتٍ رَغِبوا، ومِن تمامِها ولذَّاتِها وحُسنِها أن تكونَ في أوقاتٍ معلومةٍ ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾؛ لِيَعظُمَ وَقعُها، ويَتِمَّ نَفعُها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٧، ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٧).

قال ابنُ جرير: (وإنما يعني أنَّ الذي بين غدائِهم وعشائِهم في الجنَّةِ قَدرُ ما بين غداءِ أحدِنا في الدنيا وعشائه، وكذلك ما بين العَشاءِ والغَداءِ؛ وذلك لأنَّه لا ليلَ في الجنةِ ولا نهار). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٦).

قال الزجاج: (قيل: ليس ثَمَّ بكرةٌ ولا عَشِيٌّ، ولكنَّهم خُوطِبوا بما يَعقِلونَ في الدنيا. فالمعنَى لهم: رزقُهم في مقدارِ ما بينَ الغداةِ والعشيِّ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٣٣٧).

وقال الواحدي معلقًا على كلامِ الزجاجِ: (وهذا قَولُ جميعِ أهلِ التأويلِ). ((البسيط)) (١٤/ ٢٧٧).

وقال الزجَّاج أيضًا: (وإذا قيلَ: في مِقدارِ الغَداةِ والعَشِيِّ، فالذي يُقسَمُ في ذلك الوَقتِ يكونُ مِقدارَ ما يريدونَ في كُلِّ ساعةٍ إلى أن يأتيَ الوَقتُ الذي يتلوه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٣٣٧).

وقال ابنُ تيمية: (ليس في الجنَّةِ شَمسٌ ولا قمر، ولا هناك حركةُ فَلَك، بل ذلك الزمانُ مُقدَّرٌ =

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

أي: هذه الجنَّةُ العاليةُ القَدرِ التي وصَفْنا بهذه الصِّفاتِ العظيمةِ نُنْزِلُها ونُعْطيها مَن كان مِن عبادِنا مُتَّقِيًا لعذابِ اللهِ، بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه[1].

= بحركات، كما جاء في الآثار: أنهم يعرفون ذلك بأنوارٍ تظهَرُ مِن جهةِ العرشِ). ((شرح حديث النزول)) (ص: ١٧٨).

وقال القرطبي: (وقال العلماءُ: ليس في الجنَّةِ ليلٌ ولا نهارٌ، وإنَّما هم في نورٍ أبدًا، إنَّما يعرفونَ مقدارَ اللَّيلِ مِن النَّهارِ بإرخاءِ الحجبِ، وإغلاقِ الأبوابِ، ويعرِفونَ مقدارَ النَّهارِ برفعِ الحجبِ، وفتحِ الأبوابِ. ذَكَره أبو الفرجِ الجوزيُّ والمهدَوِيُّ وغيرُهما). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٧).

وقيل: المعنى: لهم رزقُهم فيها كلَّ سَاعةٍ، فالمرادُ بقولِه: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: دوامُ الرِّزقِ، مِن بابِ ذِكرِ الطَّرَفينِ الذي يَشمَلُ الجميعَ، كما تقولُ: أنا عندَ فُلانٍ صباحًا ومَساءً، وبُكرةً وعَشِيًّا. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجَّاج (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢٥٥).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٧٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٢٧).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ في معنى إيراثِ الجنَّةِ قولان للمفسِّرينَ:

أحدُهما: أنَّ معناه نُنزِلُ. وهو قولُ الكلبيِّ. وجعَل ذلك كالميراثِ مِن جهةِ أنَّه يُملَكُ بحالٍ استُؤنِفَت عن حالٍ قد انقَضَت مِن أمرِ الدُّنيا، كما ينقضي حالُ الميتِ مِن أمرِ الدُّنيا.

القول الثاني: أن الله تعالى يُورِثُ عبادَه المؤمنينَ مِن الجنَّة المساكِنَ التي كانت لأهلِ النارِ لو آمنوا). ((البسيط)) (١٤/ ٢٧٨).

وممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّل: البغوي، والبيضاوي، والنسفي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧١).

قال البقاعي: (﴿نُورِثُ﴾ أي: نُعطي عَطاءَ الإرثِ الذي لا نَكَدَ فيه مِن حينِ التأهُّلِ له بالموتِ، ولا كَدَّ ولا استِرجاعَ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٢٢٧). =

كما قال سُبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- إنَّ مِن أهمِّ وأعظَمِ أسبابِ التَّهاونِ في الصَّلاةِ اتِّبَاعَ الشَّهَواتِ؛ ولهذا قرنَ اللهُ تبارك وتعالى إضاعةَ الصَّلاةِ باتِّباعِ الشَّهَواتِ؛ فقال سُبحانَه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[1].

٢- الصَّالحونَ كُلُّهم قَلَّلوا مِن عَيشِ الأجسادِ، وكثَّروا من عيشِ الأرواحِ؛ فإنَّ الأخذَ مِن عَيشِ الأجسادِ أكثَرَ مِن قَدرِ الحاجةِ يُلهي عن اللهِ، ويَشغَلُ عن خِدمتِه، فما تفرَّغ أحدٌ لطَلَبِ عَيشِ الأجسادِ، وأعطَى نفسَه حَظَّها مِن ذلك، إلَّا ونقَص حَظُّه مِن عَيشِ الأرواحِ، وربَّما مات قلبُه مِن غَفلتِه عن الله، وإعراضِه عنه، وقد ذمَّ اللهُ مَن كان كذلك؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾، ثمَّ إنَّ ما حصَّلوه مِن شَهواتِهم ينقَطِعُ ويزولُ بالموتِ، ويَنقُصُ بذلك حظُّهم عندَ الله في الآخرةِ، فإن كان ما حصَّلوه من شهواتِهم مِن حَرامٍ، فذلك هو الخُسرانُ المبينُ؛ فإنَّه يُوجِبُ العقوبةَ الشَّديدةَ

= وممَّن ذهَب إلى القولِ الثاني: ابنُ جرير، والرسعني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٤٠).

قال الشنقيطي: (قد جاءَ حديثٌ يدُلُّ لِمَا ذُكِر مِنْ أنَّ لكلِّ أحدٍ منزِلًا في الجنَّةِ، ومنزلًا في النَّارِ، إلَّا أنَّ حملَ الآيةِ عليه غيرُ صوابٍ؛ لأنَّ أهلَ الجنَّةِ يَرِثونَ مِن الجنَّةِ منازِلَهم المُعَدَّةَ لهم بأعمالِهم وتَقْواهم، كما قد قالَ تعالَى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ونحوِها مِن الآياتِ، ولو فَرَضْنا أنَّهم يَرِثونَ منازلَ أهلِ النَّارِ فحملُ الآيةِ على ذلك يُوهِمُ أنَّهم ليس لهم في الجنَّةِ إلَّا ما أُورِثوا مِنْ منازلِ أهلِ النَّارِ، والواقعُ بخلافِ ذلك كما ترَى). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٧٢).

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٤/ ٧).

في الآخرةِ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ فيه تنبيهٌ ظاهِرٌ على وجوبِ تجنُّبِ اللَّغوِ واتِّقائِه؛ حيثُ نَزَّه اللهُ عنه الدَّارَ التي لا تكليفَ فيها، وما أحسَنَ قولَه سُبحانه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، و﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[٢] [القصص: ٥٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أنَّه إذا كان سبحانه قد تَوعَّدَ بلُقِيِّ الغَيِّ مَن يُضيعُ الصلاةَ عن وقتِها -وذلك على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ-، ويَتبعُ الشَّهواتِ، والمُؤَخِّرُ لها عن وَقتِها مُشتَغِلًا بما يَشتَهيه هو مُضيِّعٌ لها، مُتَّبِعٌ لشَهوتِه؛ فدَلَّ ذلك على أنَّه مِن الكبائِرِ؛ إذْ هذا الوعيدُ لا يكون إلَّا على كبيرةٍ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ استُدِلَّ به على كُفْرِ تاركِ الصلاةِ الكفرَ الأكبرَ المُخْرِجَ عن الملة، ووجهُ الدلالةِ: أنَّ اللهَ قال في المضيِّعينَ للصلاةِ، المتَّبعينَ للشهواتِ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ فدلَّ على أنَّهم حينَ إضاعتِهم للصلاةِ واتِّباعِ الشهواتِ غيرُ مؤمنين[٤]، فلو كان مضيِّعُ الصلاةِ مؤمنًا لم يُشترَطْ في توبتِه

(١) يُنظر: ((شرح حديث لبيك اللهم لبيك)) لابن رجب (ص: ٦٩-٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٢/ ١٢٧).

الإيمانُ؛ فإنَّه يكونُ تحصيلًا للحاصلِ[١]، وذلك على أنَّ المرادَ بالإضاعةِ: التركُ.

٣- في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ ذمٌّ لمَن ترَكَ شيئًا مِن واجباتِ الصلاةِ -وإنْ كان في الظاهر مُصَلِّيًا- مثل أنْ يَتْرُكَ الوقتَ الواجبَ، أو يَتْرُكَ تكميلَ الشرائطِ والأركانِ مِن الأعمالِ الظاهرةِ والباطنةِ[٢]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ.

٤- شَرَط الله في قَبولِ التوبةِ ومغفرةِ الذنوبِ بها العملَ الصالحَ، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، وقَولِه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [طه: ٨٢]، وقَولِه: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾[٣] [القصص: ٦٧].

٥- قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾، قَولُه: ﴿نُورِثُ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّها ليست عِوَضًا عن الأعمالِ بوَجهٍ، ولم يأخُذْها أحَدٌ بالاستِحقاقِ، وإنَّما كالوارِثِ الذي أخَذَ كوارِثٍ بغيرِ مُعاوَضةٍ ولا استِحقاقٍ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ فُرِّعَ على الثَّناءِ عليهم اعتبارٌ وتَنديدٌ بطائفةٍ من ذُرِّياتِهم لم يَقْتدوا بصالحِ أسلافِهم، وهم الذين عناهم بقولِه: ﴿خَلۡفٌ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٧).

(٢) يُنظر: ((القواعد النورانية)) لابن تيمية (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ١٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٤).

- وقولُه: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ يشمَلُ طَبقاتٍ وقُرونًا كثيرةً، وليس قيدًا؛ لأنَّ الخلَفَ لا يكونُ إلَّا مِن بعْدِ أصْلِه، وإنَّما ذُكِرَ لاستحضارِ ذَهابِ الصَّالحينَ(١).

- قولُه: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ﴾ حرْفُ (سَوْفَ) دالٌّ على أنَّ لقاءَهم الغيَّ مُتكرِّرٌ في أزمنةِ المُستقبَلِ؛ مُبالغةً في وعيدِهم، وتَحذيرًا لهم من الإصرارِ على ذلك(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾

- جِيءَ في جانبِهم باسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ إشادةً بهم، وتَنبيهًا لهم؛ للتَّرغيبِ في تَوبتِهم(٣)؛ فما في اسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ مَنزلتِهم، أي: فأولئك المَنعوتونَ بالتَّوبةِ والإيمانِ والعملِ الصَّالحِ(٤).

- قولُه: ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ جِيءَ بالمُضارعِ الدَّالِّ على الحالِ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم لا يُمْطَلون في الجَزاءِ(٥).

- وذِكْرُ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في سياقِ النَّفيِ يفيدُ نفْيَ كلِّ فردٍ من أفرادِ النَّقصِ والإجحافِ والإبطاءِ، فيُعْلَمُ انتفاءُ النَّقصِ القويِّ بالفحوى(٦)؛ دفعًا لِما عسى أنْ يُخالِجَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٦).

(٦) فحْوَى الخطابِ: ويسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ، وهو إثباتُ حكمِ المنطوقِ به للمسكوتِ عنه بطريقِ الأولَى، كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظمُ مِن التَّأْفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كانَ دونَ القنطارِ، ففي هذه الآيةِ نبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأولى نبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه =

نُفوسَهم من الانكسارِ بعدَ الإيمانِ، بظَنِّ أنَّ سبْقَ الكُفرِ يحُطُّ من حُسنِ مَصيرِهم[١]، ففيه: تنبيهٌ على أنَّ كُفرَهم السَّابقَ لا يضُرُّهم ولا ينقُصُ أُجورَهم[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ جِيءَ بصيغةِ جمْعِ (جنَّاتٍ) مع أنَّ المُبدَلَ منه مُفردٌ؛ لأنَّه يَشتمِلُ على جنَّاتٍ كثيرةٍ[٣].

- ووُصِفَتِ الجنَّاتُ بـ ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾؛ لزيادةِ تَشريفِها وتحسينِها، وفي ذلك إدماجٌ[٤] لتَبشيرِ المُؤمِنين السَّابقينَ في أثناءِ وعْدِ المَدْعوين إلى الإيمانِ[٥].

= والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٦).

(٤) الإدماجُ، لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه.

واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة: البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٦-١٣٧).

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرَّحمةِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ وعْدَها وإنجازَه لكَمالِ سَعةِ رحمَتِه تعالى[١].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ تعليلٌ لجُملةِ ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾، أي: يَدْخلون الجنَّةَ وعْدًا من اللهِ واقعًا، وهذا تحقيقٌ للبِشارةِ[٢].

- في قولِه: ﴿مَأۡتِيّٗا﴾ عُبِّرَ بالإتيانِ عن حُصولِ المطلوبِ المُترقَّبِ؛ تَشبيهًا لمَن يُحصِّلُ الشَّيءَ بعدَ أنْ سعَى لتَحصيلِه بمَن مَشَى إلى مكانٍ حتَّى أتاهُ، وتَشبيهًا للشَّيءِ المُحصَّلِ بالمكانِ المقصودِ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ صُدورِ اللَّغوِ عن أهْلِها[٤]، وكِنايةٌ عن انتفاءِ أقلِّ المُكدِّراتِ في الجنَّةِ، وكِنايةٌ عن جعْلِ مُجازاةِ المُؤمِنين في الجنَّةِ بضِدِّ ما كانوا يُلاقُونَه في الدُّنيا من أذَى المُشرِكين ولَغْوِهم[٥].

- قولُه: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ جِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ ذلك ودوامِه؛ فيفيدُ التَّكرُّرَ المُستمِرَّ، وهو أخصُّ من التَّكرُّرِ المُفادِ بالفعْلِ المُضارعِ وأكثَرُ[٦].

- وتَقديمُ الظَّرفِ ﴿وَلَهُمۡ﴾؛ للاهتمامِ بشأْنِهم. وإضافةُ (رِزْق) إلى ضَميرِهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٧).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٣٨).

﴿رِزۡقُهُمۡ﴾؛ لزيادةِ الاختصاصِ[١].

- والجمْعُ بينَ ﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ كِنايةٌ عن استغراقِ الزَّمنِ، أي: لهم رزقُهم غيرَ محصورٍ ولا مُقدَّرٍ، بلْ كلَّما شاؤوا[٢]، وذلك على قولٍ في تَفسيرِ الآيةِ.

٥- قولُه تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ الوراثةُ أقْوَى لَفظٍ يُستعمَلُ في التَّملُّكِ والاستحقاقِ؛ من حيثُ إنَّها لا تُعْقَبُ بفسْخٍ ولا استرجاعٍ، ولا تبطلُ برَدٍّ ولا إسقاطٍ، وفيه تَشبيهٌ تَمثيليٌّ بليغٌ؛ فقد شبَّهَ عطاءَ الجنَّةِ لهم بالعَطاءِ الَّذي لا يُرَدُّ، وهو الميراثُ الَّذي يرِثُه الوارثُ؛ فلا يرجِعُ فيه المورِّثُ، أي: نُبْقيها عليهم من ثَمرةِ تَقْواهم، كما يَبْقى على الوارثِ مالُ مُورِّثِه[٣].

- وجُملةُ: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ...﴾ مُستأنفةٌ ابتدائيَّةٌ، واسمُ الإشارةِ ﴿تِلۡكَ﴾ لزيادةِ التَّمييزِ؛ تَنويهًا بشأْنِها، وأُجْرِيَت عليها الصِّفةُ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّتِي نُورِثُ...﴾؛ تَنويهًا بالمُتَّقينَ، وأنَّهم أهْلُ الجنَّةِ[٤]. وجِيءَ كذلك باسمِ الإشارةِ ﴿تِلۡكَ﴾؛ لتَعظيمِ شأنِ الجنَّةِ، وتَعيينِ أهْلِها؛ فإنَّ ما في اسمِ الإشارةِ من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٢٥).

وقال ابنُ عاشورٍ: (وحقيقةُ الإرثِ: انتقالُ مالِ القريبِ إلى قَريبِه بعدَ موته؛ لأنه أَوْلى الناس بمالِه؛ فهو انتقالٌ مقيَّد بحالة. واستُعير هنا للعطيةِ المُدَّخرةِ لمُعطاها؛ تشبيهًا بمال الموروث الذي يَصيرُ إلى وارثه آخِرَ الأمرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٨).

معنى البُعدِ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِها، وعُلوِّ رُتبتِها[١].

- وقولُه: ﴿مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ فيه تشريفٌ لهم مِن جهةِ إضافةِ لفظِ العبادِ إلى الله تعالى، ولأنَّ (تَقِيًّا) أخصُّ مِن (المتَّقي)[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ١٢٦).

الآيتان (٦٤-٦٥)

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَسِيًّا﴾: أي: ذا نِسيانٍ، أو: تاركًا لك، وأصلُ (نسي): يدلُّ على إغْفالِ الشيءِ، أو تركِه[1].

﴿وَٱصْطَبِرْ﴾: أي: اصبِرْ، أو: اصبِرْ صبرًا عظيمًا، أو: تحمَّلِ الصَّبرَ بجهدِك، ويُقالُ: اصْطَبر: إذا اكتسَب الصبرَ وتعلَّمَه، والاصْطِبارُ[2]: شِدَّةُ الصَّبرِ على الأمرِ الشَّاقِّ، وأصلُ (صبر) هنا: الحبسُ والمنعُ[3].

﴿سَمِيًّا﴾: أي: مَثيلًا وشَبيهًا ونَظيرًا، فالسميُّ: المُسامي؛ فعيلٌ بمعنَى مُفاعِل، أي: المماثلِ في السموِّ والرفعةِ والشَّرَفِ، وأصلُ (سمو): يدُلُّ على العُلوِّ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢، ٢٢٥).

(٢) قال ابن عاشور: (صيغة الافتعالِ تَرِدُ لإفادةِ قُوَّةِ الفعلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٨٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٧٤)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٥، ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٢).

وقال ابنُ القيِّمِ بعدَ أن ذكَر الخلافَ في أصلِ كلمةِ «صبر»: (والتحقيقُ أنَّ في الصبرِ المعانيَ الثلاثةَ: المنعَ، والشِّدَّةَ، والضَّمَّ). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٦).

وأصلُ اصْطَبر: (اصتبر)؛ افْتَعل مِن الصبرِ، لكن قُلِبَت التاءُ طاءً. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٧).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: قلْ -يا جِبريلُ- لمحمَّدٍ: وما نتنَزَّلُ نحن -الملائِكةَ- من السَّماءِ إلى الأرضِ إلَّا بأمرِ رَبِّك لنا، فلا تَستبطِئْ نُزولَنا، لله وحده جميعُ الجهاتِ والأماكنِ، وجميعُ الأزمانِ: الحاضرةِ والماضيةِ والمستقبلةِ، فلا نقدرُ أن ننتقلَ مِن جهةٍ إلى جهةٍ، أو في زمانٍ دونَ زمانٍ إلَّا بأمرِ ربِّك ومشيئتِه، وما كان ربُّك ناسيًا لشيءٍ مِن الأشياءِ؛ فهو رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ وما بينهما، ومالِكُ ذلك كُلِّه وخالِقُه ومُدَبِّرُه، فاعبُدْه وَحدَه -يا محمَّدُ- واصطَبِرْ على طاعتِه؛ لأنَّه ليس كمِثلِه شَيءٌ في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه سُبحانَه؛ فيَستَحِقَّ أن يُعبَدَ مِثلَ اللهِ، وأن يُسمَّى بما يختصُّ به اللهُ مِن الأسماءِ الحُسنى.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ذكَرَ قَصَص الأنبياءِ عليهم السَّلامُ؛ تثبيتًا له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأعقَبَه بذِكرِ ما أحدَثَه الخَلْفُ بَعدَهم، وذكَرَ جزاءَ الفَريقينِ؛ أعقَبَ ذلك بقَصَصِ تأخُّرِ نُزولِ جِبريلَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ زعم المُشرِكونَ أنَّ اللهَ ودَّعَه وقلاه، وقد ردَّ عليهم زعْمَهم وأبان لهم أنَّ الأمرَ على غيرِ ما زَعَموا[1].

وأيضًا لَمَّا كَشَفَت هذه السُّورةُ عن هذه القِصَصِ الغَريبةِ، وكان المتعَنِّتونَ ربَّما قالوا: نريدُ أن يخبِرَنا هذا الذي يَنزِلُ عليك بجَميعِ أنباءِ الأقدَمينَ، وأخبارِ

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٦/ ٧٠).

الماضِينَ؛ كان جوابًا عن ذلك أن قيلَ: ما أُنزِلْنا عليك بأخبارِ هؤلاء إلَّا بأمرِ رَبِّك، وما نتنزَّلُ فيما يأتي أيضًا إلَّا بأمرِ ربِّك[١].

سببُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يا جِبريلُ، ما يمنَعُك أن تَزورَنا أكثَرَ مِمَّا تَزورُنا؟ فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ إلى آخِرِ الآية، قال: كان هذا الجوابُ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[٢].

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

أي: قُلْ -يا جبريلُ- لمحمَّدٍ: وما ننْزِلُ نحن -الملائِكةَ- من السَّماءِ إلَّا بأمرِ رَبِّك لنا بالنُّزولِ متى شاء؛ فنحن عبيدٌ مأمورونَ، ليس لنا مِن الأمرِ شَيءٌ، فلا تَستبطِئْ نُزولَنا يا محمَّدُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٠).

قال ابن عاشور: (لا شكَّ أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قالَ ذلك لجبريلَ عليه السَّلامُ [أي: ألا تزورُنا أكثرَ مِمَّا تزورُنا] عندَ انتهاءِ قَصصِ الأنبياءِ في هذه السُّورةِ، فأُثْبِتت الآيةُ في الموضعِ الَّذي بَلَغ إليه نزولُ القرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٩).

وقال أيضًا: (يَندُرُ أن يكونَ مَوقِعُ الآيةِ عَقِبَ التي قَبلَها؛ لأجلِ نُزولِها عَقِبَ التي قَبلَها من سورةٍ هي بصدَدِ النُّزولِ، فيُؤمَرَ النبيُّ بأن يقرأَها عَقِبَ التي قبلَها، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ عَقِبَ قَولِه: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ في سورة مريم؛ فقد رُوِيَ أنَّ جبريلَ لَبِثَ أيامًا لم يَنزِلْ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بوَحيٍ، فلمَّا نزل بالآياتِ السَّابقةِ عاتَبَه النبيُّ، فأمر اللهُ جبريلَ أن يقولَ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾؛ فكانت وحيًا نزل به جبريلُ، فقُرِئَ مع الآيةِ التي نزل بأثَرِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٨٠).

(٢) رواه البخاري (٧٤٥٥). #

قال الواحدي: (المفسِّرون كلُّهم في سببِ نزولِ هذه الآيةِ على هذا). ((البسيط)) (١٤/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

أي: لله وحدَه[١] جميعُ الجهاتِ والأماكنِ، وجميعُ الأزمانِ: الحاضرةِ والماضيةِ والمستقبلةِ، فلا نقدرُ أن ننتقلَ مِن جهةٍ إلى جهةٍ، أو في زمانٍ دونَ زمانٍ إلَّا بأمرِ ربِّك ومشيئتِه[٢].

= (ص: ٤٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٩، ١٤٠).

قال الشوكاني: (قَولُه: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ أي: قال الله سُبحانَه: قُلْ -يا جبريلُ-: وما نتنَزَّلُ... وقيل: إنَّ هذا حكايةٌ عن أهلِ الجنَّةِ، وإنَّهم يقولونَ عند دخولِها: وما نتنزَّلُ هذه الجِنانَ إلَّا بأمرِ رَبِّك. والأوَّلُ أَولى؛ بدَلالةِ ما قَبلَه، ومعناه يحتَمِلُ وَجهَينِ: الأولُ: وما نتنزَّلُ عليك إلَّا بأمرِ رَبِّك لنا بالتنَزُّلِ. والثاني: وما نتنَزَّلُ عليك إلَّا بأمرِ رَبِّك الذي يأمُرُك به بما شَرَعه لك ولأمَّتِك). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٤).

قال ابنُ حجرٍ: (تنبيهٌ: الأمرُ في هذه الآيةِ معناه الإذنُ؛ بدليلِ سببِ النزولِ المذكورِ، ويحتمِلُ الحكمَ، أي: نتنزلُ مصاحبينَ لأمرِ الله عبادَه بما أوجَب عليهم، أو حرَّم، ويحتمِلُ أن يكونَ المرادُ ما هو أعمُّ مِن ذلك، عندَ مَن يجيزُ حملَ اللفظِ على جميعِ معانيه). ((فتح الباري)) (٨/ ٤٢٩).

(١) والمرادُ أنه تعالى المالكُ لكلِّ ذلك. وقيل: المراد: له علمُ ما بينَ أيدينا... إلخ، أي: فلا نُقدِمُ على ما لم يكنْ موافقَ حكمتِه سبحانَه وتعالى. واختار بعضُهم التعميمَ، أي: له سبحانه ذلك ملكًا وعلمًا. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

اختُلِف في تفسيرِ هذه الآيةِ على أقوالٍ؛ منها: أنَّ معنى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أي: ما يأتي مِن أمورِ الآخرةِ. ومعنى ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي: ما مضَى مِن الدنيا. ومعنى ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما بينَ وقتِنا هذا إلى يومِ القيامةِ. وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والزجَّاجُ، ومكي، والواحدي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٣، ٥٨٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٣٧)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٥٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٠٣). =

= وممن قال مِن السلفِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: الآخرةُ، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: الدنيا: ابنُ عبَّاسٍ، وعكرمةُ، وقتادةُ، والضحَّاكُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٤١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٤٠).

وممن قال مِن السلفِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما بينَ الدنيا والآخرةِ: سعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٤٠).

وممن اختار هذا القولَ أيضًا مِن المفسرينَ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والفرَّاءُ، والسمرقندي، والعُليمي، لكن قالوا: معنى ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما بينَ النفختينِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٣٣)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٨١)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٢٦٥).

وممن قال مِن السلفِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ ما بينَ النفختينِ: مجاهدٌ، وعكرمةُ، وقتادةُ -في روايةٍ عنه-، وأبو العاليةِ، والربيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٤٠).

واعترض الواحديُّ على هذا القولِ بأنَّه لم يَجْرِ للنفختينِ ذِكرٌ حتَّى يُشارَ إليه. ((البسيط)) (١٤/ ٢٨١).

وقال ابنُ عطية: (وقال ابنُ عباسٍ وقتادةُ فيما رُوي -وما أراه صحيحًا عنهما-: «ما بينَ الأيدي»: هي الآخرةُ، و«ما خلف»: هو الدنيا، وهذا مختلُّ المعنى إلَّا على التشبيهِ بالمكانِ؛ لأن ما بينَ اليدِ إنَّما هو ما تقدَّم وجودُه في الزمنِ بمثابةِ التوراةِ والإنجيلِ مِن القرآنِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤).

وقيل: معنى الآيةِ: له ما قدَّامنا وما خلفَنا، وما نحن فيه مِن الجهاتِ والأماكنِ، فليس لنا الانتقالُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ إلَّا بأمرِ الله، وممن اختار هذا القولَ: الزمخشريُّ، والنسفي، وابنُ جزي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٣).

قال ابن عطية: (الآيةُ إنَّما المقصدُ بها الإشعارُ بملكِ الله تعالى للملائكةِ، وأنَّ قليلَ تصرفِهم وكثيرَه إنَّما هو بأمرِه، وانتقالهَم مِن مكانٍ إلى مكانٍ، إنَّما هو بحكمتِه؛ إذ الأمكنةُ له، وهم له، فلو ذهب بالآيةِ إلى أنَّ المرادَ بـ «ما بينَ الأيدي وما خلف» الأمكنةُ التي فيها تصرفُّهم، والمرادُ بـ «ما بينَ ذلك» هم أنفسُهم ومقاماتُهم لكان وجهًا، كأنَّه قال: نحن مقيدون بالقدرةِ، لا ننتقلُ =

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

أي: ولم يكُنْ رَبُّك -يا محمَّدُ- ذا نسيانٍ لشَيءٍ مِن الأشياءِ، فإنْ تأخَّرَ نزولُنا إليك، فليس عن نِسيانٍ منه، وإنَّما اقتضت حكمتُه ذلك، ولم يكن ربُّك لينساك ويُهمِلَك، بل لم يَزَلْ مُعتَنيًا بك؛ فلا تحزَنْ إن تأخَّرَ نزولُنا، واعلَمْ أنَّ اللهَ أراد ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

= ولا نتنزلُ إلا بأمرِ ربِّك). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤).

واختار بعضُ المفسرين تفسيرَ الآيةِ بما يعمُّ الزمانَ والمكانَ، ومنهم: البيضاوي، والبقاعي، وأبو السعود، وابنُ عجيبة، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

قال البقاعي: (﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أي: مِن المكانِ والزمانِ، وما فيهما، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ مِن ذلك ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وهو نحن والمكانُ والزمانُ اللذان نحن بهما، وما فوقَه وتحتَه، ونحن نعلمُ ذلك، ونعملُ على حسبِ ما نعلمُ، فلا نتصرَّفُ في ملكِه إلَّا بأمرِه). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٢٣٠).

وذهب ابنُ عاشور إلى ما هو أعمُّ مِن ذلك، فقال: (المرادُ بـ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما هو أمامَنا، وبـ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: ما هو وراءَنا، وبـ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ما كان عن أيمانِهم وعن شمائلِهم؛ لأنَّ ما كان عن اليمينِ وعن الشمالِ هو بينَ الأمامِ والخلفِ. والمقصودُ استيعابُ الجهاتِ. ولما كان ذلك مخبَرًا عنه بأنَّه ملكٌ لله؛ تعيَّن أن يُرادَ به الكائناتُ التي في تلك الجهاتِ، ... فيعمُّ جميعَ الكائناتِ، ويستتبعُ عمومَ أحوالِها وتصرفاتِها، مثلَ التنزلِ بالوحيِ. ويستتبعُ عمومَ الأزمانِ: المستقبلَ والماضي والحالَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٠).

قال الشوكاني: (وعلى هذه الأقوالِ كلِّها يكونُ المعنى: أنَّ الله سبحانَه هو المحيطُ بكلِّ شيءٍ، لا يخفَى عليه خافيةٌ، ولا يَعزُبُ عن علمِه مثقالُ ذرَّةٍ، فلا نُقدِمُ على أمرٍ إلا بإذنِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣٠)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ١٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وُصِفَ اللهُ سبحانه وتعالى بنفوذِ الأمرِ، واتِّساعِ العِلمِ على وجهٍ ثبَت به ما أخبَرَ به عن الجنة، فثبَت أمرُ البعث؛ أتبع ذلك ما يُقَرِّرُه على وجهٍ أصرحَ منه وأعمَّ، فقال[1]:

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾.

أي: خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ ومالِكُهما وما بينَهما مِن الخَلقِ، ومُدَبِّرُ ذلك كلِّه، فلو كان نَسِيًّا لم يستَقِم الوُجودُ، ولاضطربَ نظامُ الحياةِ، وهلكَت المخلوقاتُ[2].

﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾.

أي: فاعبُدْ رَبَّك وَحدَه مُخلِصًا له، واصبِرْ صَبرًا عظيمًا بغايةِ جُهدِك على العَمَلِ بطاعتِه[3].

﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾.

أي: أمَرْناك بعبادةِ اللهِ والاصطبارِ عليها؛ لأنَّه لا مثيلَ ولا شبيهَ له في صِفاتِه وأسمائِه؛ فيستحقَّ أن يُعبَدَ مِثلَ اللهِ، وأن يُسمَّى بما يختصُّ به اللهُ مِن الأسماءِ الحُسنى[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣١-٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٢)، =

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ دليلٌ على أنَّ العبادةَ لا تخلو مِن مشقةٍ، والمؤمنُ مأمورٌ بالصَّبرِ عليها؛ إذ اسمُ الصبرِ لا يكونُ إلَّا مَقرونًا بالكَراهةِ والصُّعوبةِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّة واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ فيه سؤالٌ: وهو أنَّ قَولَه: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ كلامُ اللهِ، وقَولَه هنا: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ كلامُ غَيرِ اللهِ، فكيف جاز عَطْفُ هذا على ما قَبلَه مِن غيرِ فَصلٍ؟

الجواب: أنَّه إذا كانت القرينةُ ظاهِرةً لم يَقبُحْ، كما أنَّ قَولَه سُبحانَه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥] هو كلامُ اللهِ، وقولُه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ [مريم: ٣٦] كلامُ غيرِ اللهِ، وأحَدُهما معطوفٌ على الآخَرِ(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ استُدِلَّ به على

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٣).

قال ابن تيمية: (فلا أحدَ يُساميه، ولا يستحِقُّ أن يُسمَّى بما يختَصُّ به من الأسماءِ، ولا يساويه في معنى شيءٍ مِن الأسماء، لا في معنى الحيِّ ولا العليمِ ولا القديرِ، ولا غيرِ ذلك من الأسماء، ولا في معنى الذات والموجودِ ونحو ذلك من الأسماء العامَّة، ولا يكونُ إلهًا ولا ربًّا ولا خالقًا). ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٣٦٦).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥٤).

أنَّ الأزمنةَ ثَلاثةٌ: مُستقبَلٌ وماضٍ وحالٌ، خِلافًا لِمَن نفى الحالَ[١]، وهذا على القولِ بأنَّ الآيةَ في الأزمنةِ.

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، وقَولُه: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤]؛ لا يُعارِضُ قولَه تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وقَولَه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾؛ لأنَّ معنى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ [الأعراف: ٥١] ونحوِه، أي: نتركُهم في العذابِ محرومينَ مِن كُلِّ خَيرٍ، واللهُ تعالى أعلَمُ[٢].

٤- اجتمَعَت في قولِه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ أقسامُ التَّوحيدِ الثَّلاثةُ: توحيدُ الربوبيَّة، وتوحيدُ الألوهيَّة، وتوحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ[٣]؛ فالربوبيةُ في قولِه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾، والألوهيةُ في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾، والأسماءُ والصفاتُ في قولِه: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾.

٥- نهانا الله تعالى أن نَضرِبَ له المثَلَ، فقال: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]، وأخبَرَنا -عزَّ وجَلَّ- أنَّه لا مِثلَ له، فقال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ وبهذه الآياتِ يتبيَّنُ أنَّه لا يحِلُّ لنا أن نُمَثِّلَ صفاتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٧٤).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٦/ ٣٧).

٦- قال الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ يستفادُ منه أنَّ النكرةَ في سياقِ الاستفهامِ تَعُمُّ[(١)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ الاستفهامُ للنفيِ، وإذا كان الاستفهامُ بمعني النفيِ كان مُشرَبًا معنى التحَدِّي، يعني: إنْ كنتَ صادِقًا فأخبِرْنا: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[(٢)]؟

٨- قال ابنُ عقيلٍ: (كُلُّ ما انفردَ بِه اللهُ عزَّ وجلَّ، كـ «اللَّه» و«رحمن» و«خالق» لا يجوزُ التَّسمِّي به، وكلُّ ما وُجِدَ معنَاهُ في الآدَمِي: فإنْ كانَ يوجدُ تكبرًا، كالملكِ العظيم والأعظم، وملكِ الملوكِ، والجبارِ؛ فمكروهٌ، والصوابُ الجزمُ بتحريمِه، فأمَّا مَا يتسمَّى بِه المخلوقونَ مِنْ أسمائِهِ، كالسميع والبصيرِ، والقديرِ والعليم والرحيم، فإنَّ الإضافةَ قاطِعةٌ الشَّرِكةَ، وكذلك الوصفيةُ، فقولنا: زيدٌ سميعٌ بصيرٌ لا يُفيدُ إلا صفةَ المخلوقِ، وقولُنا: اللَّهُ سميعٌ بصيرٌ يفيدُ صفتَه اللائقةَ بِه، فانقطعتْ المشابهةُ بوجْهٍ من الوجوهِ؛ ولهذا قالَ تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾)[(٣)].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ في إعادةِ اسمِ الرَّبِّ المُعرِبِ عن التَّبليغِ إلى الكَمالِ اللَّائقِ، مضافًا إلى ضَميرِه عليه السَّلامُ: من تَشريفِه، والإشعارِ بعلَّةِ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢).
(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٥٢).
(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٥٠).

الحُكمِ ما لا يَخْفَى[١].

- و﴿نَسِيًّا﴾ صِيغَةُ مُبالغةٍ من: نَسِيَ، أي: كثيرَ النِّسيانِ أو شديدَه، والمقصودُ: صرْفُ المُبالغةِ إلى جانبِ نسبةِ نفْيِ النِّسيانِ عنِ اللهِ تعالى، أي: تَحقيقُ نفْيِ النِّسيانِ؛ فهو هنا كِنايةٌ عن إحاطةِ علْمِ اللهِ[٢]، وبيانٌ لاستحالةِ النِّسيانِ عليه تعالى[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ مِن كلامِ اللهِ تعالى، كما يَقْتضيه قولُه: ﴿فَٱعْبُدْهُ...﴾؛ ذيَّلَ بهِ الكلامَ الَّذي لَقَّنَه جبريلَ المُتضمِّنَ: أنَّ الملائكةَ لا يتصرَّفون إلَّا عن إذْنِ ربِّهم، وأنَّ أحوالَهم كلَّها في قبضَتِه بما يفيدُ عُمومَ تصرُّفِه تعالى في سائرِ الكائناتِ، ثمَّ فرَّعَ عليه أمْرَ الرَّسولِ عليه السَّلامُ بعبادتِه، فقدِ انتقَلَ الخطابُ إليه[٤]، وهي بَيانٌ لاستحالةِ النِّسيانِ عليه تعالى؛ فإنَّ مَن بيَدِه ملكوتُ السَّمواتِ والأرضِ وما بينهما كيف يُتصوَّرُ أنْ يحومَ حولَ ساحةِ سُبحانه الغفلةُ والنِّسيانُ[٥]؟!

وقيل: قولُه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تعليلٌ لإحاطةِ عِلمِه، وعدمِ نِسيانِه؛ فربوبيتُه للسَّمواتِ والأرضِ، وكونُهما على أحسَنِ نِظامٍ وأكمَلِه، ليس فيه غفلةٌ ولا إهمالٌ، ولا سُدى، ولا باطلٌ؛ برهانٌ قاطع على عِلمِه الشاملِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٠-١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤١-١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

- والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ لترتيبِ ما بعْدَها من مُوجبِ الأمْرينِ على ما قبْلَها، من كونِه تعالى ربَّ السَّمواتِ والأرضِ وما بينهما، ويحصُلُ منه التَّخلُّصُ إلى التَّنويهِ بالتَّوحيدِ، وتَفظيعِ الإشراكِ[(١)].

وقيل: من كونِه تعالى غيرَ تاركٍ له عليه السَّلامُ، أو غيرَ ناسٍ لأعمالِ العاملينَ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ عُدِّيَ (اصْطَبِرْ) باللَّامِ -ولم يُعَدَّ بـ (على) الَّتي هي صِلَتُه، كقولِه تعالى: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ [طه: ١٣٢]-؛ لتَضمينِه معنى الثَّباتِ، أي: اثبُتْ للعبادةِ؛ لأنَّ العبادةَ مَراتبُ كثيرةٌ من مُجاهدةِ النَّفسِ، وقد يغلِبُ بعضُها بعضَ النُّفوسِ، فتَستطيعُ الصَّبرَ على بعضِ العباداتِ دونَ بعضٍ[(٣)].

- وجُملةُ: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ واقعةٌ موقعَ التَّعليلِ للأمْرِ بعِبادتِه، والاصطبارِ عليها، والاستفهامُ إنكاريٌّ، أي: لا مُسامِيَ للهِ تعالى، أي: ليس مَن يُساميه -أي: يُضاهيه- موجودًا. وانتفاءُ تَسميةِ غيرِه من الموجوداتِ المُعظَّمةِ باسْمِه: كِنايةٌ عن اعترافِ النَّاسِ بأنْ لا مُماثِلَ له في صِفَةِ الخالقيَّةِ؛ لأنَّ المُشرِكين لم يَجتَرِئوا على أنْ يَدَّعوا لآلهتِهم الخالقيَّةَ، وبذلك يتِمُّ كونُ الجُملةِ تعليلًا للأمْرِ بإفرادِه بالعبادةِ على هذا الوجْهِ أيضًا، وقد كُنِّيَ بانتفاءِ العلْمِ بسَمِيِّه عن انتفاءِ وُجودِ سَمِيٍّ له؛ لأنَّ العلمَ يَستلزِمُ وُجودَ المعلومِ، وإذا انتفَى مُماثِلُه انتفَى مَن يَستحِقُّ العبادةَ غيرَه[(٤)]. فالمُرادُ بإنكارِ العلْمِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٣-١٤٤).

ونفْيِه: إنكارُ المعلومِ ونفْيُه على أبلَغِ وجْهٍ وآكدِه؛ فالجُملةُ تقريرٌ لِما أفادهُ الفاءُ مِن عِلِّيةِ رُبوبيَّتِه العامَّةِ لوُجوبِ عبادتِه، بل لوُجوبِ تَخصيصِها به تعالى؛ ببَيانِ استقلالِه عَزَّ وجَلَّ بذلك الاسمِ، وانتفاءِ إطلاقِه على الغيرِ بالكُلِّيةِ حقًّا أو باطلًا[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٤).

الآيات (٦٦-٧٢)

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جِثِيًّا﴾: أي: بُروكًا على رُكَبِهم، لا يستطيعونَ القيامَ ممَّا هم فيه، جمعُ جاثٍ. وقيل: ﴿جِثِيًّا﴾ أي: جميعًا، وقيلَ: أي: جماعاتٌ، جمعُ جَثْوَةٍ، وهي المجموعُ مِن التُّرابِ أو الحجارةِ[1].

﴿شِيعَةٍ﴾: الشيعةُ: الفرقةُ التي شايَع بعضُها بعضًا، أي: تابَعه، والشِّيعَةُ: مَن يتقوَّى بهم الإنسانُ، ويَنْتشِرون عنه، وكلُّ قومٍ اجتَمعوا على أمرٍ فهم شيعةٌ، وأصلُه يدلُّ على معاضدةٍ ومساعفةٍ[2].

﴿عِتِيًّا﴾: أي:تمرُّدًا، والعُتُوُّ: النُّبُوُّ -أي: الارتفاعُ- عن الطاعةِ، وكلُّ مُتَناهٍ إلى غايَتِه في كِبرٍ، أو فسادٍ، أو كفرٍ فهو عاتٍ، وأصلُ (عتو) هنا: يدُلُّ على استكبارٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٥، ٥٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٦٦).

﴿صِلِيًّا﴾: أي: دُخولًا، ومُقاساةً لحَرِّها، وأصلُ الصلي هنا: الإيقادُ بالنَّارِ. وقيل: أصلُه: القربُ مِن النارِ[١].

﴿وَارِدُهَا﴾: أي: مارٌّ عليها، أو: داخلُها، وأصلُ (ورد): يدلُّ على الموافاةِ إلى الشَّيءِ[٢].

﴿حَتْمًا﴾: أي: أمرًا محتومًا، لازمًا، جازمًا، واجِبًا لا محيدَ عنه، والحتمُ: إيجابُ القضاءِ، والقطعُ بالأمرِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبرُ الله تعالى عن موقفِ المشركينَ مِن البعثِ، ويحكي أقوالَهم الباطلةَ، فيقولُ تعالى: ويقولُ الإنسانُ الكافِرُ مُنكِرًا للبَعثِ بعدَ الموتِ: هل إذا ما مِتُّ وفَنِيتُ أُخرَجُ مِن قبري حيًّا؟!

ويردُّ الله سبحانَه عليهم بما يُبطِلُ قولَهم، فيقولُ: أولَا يَذكُرُ هذا الكافِرُ أنَّا خَلَقْناه أوَّلَ مَرَّةٍ، ولم يكُنْ شيئًا مذكورًا؟! فالقادِرُ على إيجادِه مِن العَدَمِ قادِرٌ على إحيائِه بعدَ مَوتِه.

ثمَّ يُقسِمُ الله سبحانَه على وقوعِ البعثِ والنشورِ فيقولُ: فوربِّك -يا محمَّدُ- لنجمعَنَّ هؤلاء المُنكِرينَ للبَعثِ يومَ القيامةِ مع الشَّياطينِ الذين أضَلُّوهم، ثمَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٩٣)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٨١).

لنُحضِرَنَّهم حَولَ جهنَّمَ باركينَ على رُكَبِهم، ثمَّ لنأخُذَنَّ مِن كلِّ طائفةٍ أشدَّهم تمرُّدًا وكُفرًا وعِصيانًا لله، فنبدأُ بعَذابِهم، ثمَّ لنحن أعلَمُ بمَن هم أحقُّ بشدَّةِ العذابِ في النَّارِ.

ثمَّ يُبيِّنُ أنَّ الجميعَ سيرِدُ جهنَّمَ، فيقولُ: وما منكم -أيُّها النَّاسُ- أحدٌ إلَّا وارِدُ النَّارَ، كان ذلك على ربِّك أمرًا محتومًا وقَضاءً واجبًا لا بدَّ مِن وقوعِه، ثمَّ ننجِّي الذين اتَّقَوا ربَّهم بامتِثالِ ما أمَرَ واجتنابِ ما نهى، ونتركُ الظالمينَ أنفُسَهم بالكُفرِ والمعاصي في النَّارِ باركينَ على رُكَبِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تضَمَّنَ قَولُه تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥] إبطالَ عَقيدةِ الإشراكِ به؛ ناسبَ الانتقالُ إلى إبطالِ أثَرٍ مِن آثارِ الشِّركِ، وهو نفيُ المشركينَ وُقوعَ البعثِ بعد الموتِ؛ حتى يتِمَّ انتقاضُ أصلَيِ الكُفرِ[1].

﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦﴾.

أي: ويقولُ الإنسانُ الكافِرُ مُنكِرًا للبَعثِ بعدَ الموتِ: هل سأُخرَجُ بعدَ موتي وفَنائي حيًّا مِن قبري[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٣).

وقال سُبحانه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿يَذْكُرُ﴾ قراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿يَذْكُرُ﴾ مِنَ (الذِّكر) الذي يكونُ عَقيبَ النِّسيانِ والغَفلةِ، أي: أوَلا يتنبَّهُ الإنسانُ ويعلَمُ[(١)]؟

٢- قِراءةُ ﴿يَذَّكَّرُ﴾ مِن (التذَكُّرِ) الذي هو بمعنى التدبُّر، أي: أوَلا يتدبَّرُ الإنسانُ ويتفَكَّرُ[(٢)]؟

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾.

أي: أوَلا يتنبَّهُ الكافِرُ المُنكِرُ قُدرةَ اللهِ على بَعثِه أنَّ اللهَ قد خلقَه مِن قَبلُ[(٣)] ولم يكُنْ شَيئًا مذكورًا؟! فالقادِرُ على إيجادِه مِن العَدَمِ قادِرٌ على إحيائِه بعدَ

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وعاصمٌ، وابنُ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٤٥)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٩٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٤٥)، ((الحجة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٠٤)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٩٠).

(٣) قيل: معنى ﴿مِن قَبْلُ﴾: أي: من قبلِ كلِّ حالةٍ هو عليها؛ فقيل: هي حالةُ بقائِه، وقيل: هي حالةُ جدالِه، وإنكارِه للبعثِ، وقولِه ما قال. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٦).

مَوتِه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال الله: كذَّبني ابنُ آدَمَ، ولم يكُنْ له ذلك، وشتَمَني، ولم يكنْ له ذلك؛ فأمَّا تكذيبُه إيَّاي فزَعَم أنِّي لا أقدِرُ أن أُعيدَه كما كان، وأمَّا شَتمُه إيَّاي فقولُه: لي ولَدٌ، فسُبحاني أن أتَّخِذَ صاحِبةً أو ولدًا!))[٢].

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾.

أي: فأُقسِمُ برَبِّك -يا محمَّدُ- لنجمَعَنَّ المُنكِرينَ للبَعثِ يومَ القيامةِ معَ شياطينِهم الذين أضَلُّوهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٦، ٥٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٣).

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٧)، ((فتح البيان)) للقنوجي (٨/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٤).

قال النيسابوري: (إضافة القَسَمِ إلى المخاطَب -وهو رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بإجماعِ المفَسِّرينَ- تفخيمٌ لشأنِه، ورفعٌ مِن مِقدارِه). ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٥٠٢).

إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٣].

﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾.

أي: ثمَّ لنُحضِرَنَّهم حولَ جهنَّمَ أذِلَّاءَ، باركينَ على رُكَبِهم؛ مِن شِدَّةِ الأهوالِ، وفظاعةِ الأحوالِ[1].

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ٦٩﴾.

أي: ثمَّ لنأخُذَنَّ بشِدَّةٍ وعُنفٍ مِن كُلِّ جماعةٍ وفِرقةٍ مِن طوائِفِ الكُفرِ والضَّلالِ أشَدَّهم تمَرُّدًا على الرَّحمنِ، وأعظَمَهم فَسادًا وكُفرًا وظُلمًا، فنبدأُ بتعذيبِهم، وإدخالِهم النَّارَ[2].

كما قال تعالى عن فرعونَ: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ٧٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنه لمَّا كان هذا النَّزعُ والتَّمييزُ مُجملًا، فقد يزعُمُ كلُّ فريقٍ أنَّ غيرَه أشدُّ عِصيانًا؛ أعلَمَ اللهُ تعالى أنَّه يعلَمُ مَن هو أولَى منهم بمِقدارِ صِلِيِّ النَّارِ؛ فإنَّها دركاتٌ مُتفاوتةٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٥، ٤٧٦).

قال الشنقيطي: (أي: لنَستخرجَنَّ ولنُميِّزَنَّ مِن كلِّ طائفةٍ مِن طوائفِ الغَيِّ والفسادِ أعصاهم فأعصاهم، وأعتاهم فأعتاهم، فيبدأُ بتعذيبه وإدخالِه النَّارَ على حسَبِ مراتبهم في الكفرِ، والإضلالِ والضلالِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٨).

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾.

أي: ثمَّ[(١)] لنحنُ أعلَمُ بمَن هم أحقُّ بشدَّةِ العذابِ في النَّارِ مِن غَيرِهم[(٢)].

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾.

أي: وما منكم أحدٌ -أيُّها النَّاسُ- إلَّا سيَرِدُ النَّارَ[(٣)].

---

(١) قال ابن كثير: (قولُه: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾، ﴿ ثُمَّ ﴾ هاهنا لِعَطفِ الخبَرِ على الخبَرِ، والمرادُ: أنَّه تعالى أعلَمُ بمن يستحِقُّ مِن العبادِ أن يَصلَى بنارِ جهنَّمَ ويَخلُدَ فيها، وبمَن يَستحِقُّ تَضعيفَ العذابِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥١-٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٩، ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

الخطابُ في قولِه: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ لجميعِ الناسِ، عندَ الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٤).

قال الواحدي: (وأكثرُ الناسِ على الحكمِ بظاهرِ هذه الآيةِ، وهو: أنَّ الخلقَ كلَّهم يرِدُ النارَ، ثم يُنجِّي الله المؤمنينَ). ((البسيط)) (١٤/ ٢٩٣).

واختلف المفسرون في معنى الورودِ، فقيل: هو المرورُ على الصراطِ. وقيل: الورودُ: الدخولُ. وقيل غير ذلك.

قال ابنُ تيميةَ: (ولفظُ «الورود» يحتمِلُ العبورَ، والدخولَ). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٥/ ٢٣٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ معناه: المرورُ على الصراط المقامِ على متنِ جهنَّم: ابنُ جرير، وابنُ تيمية، وابنُ كثير، وابنُ أبي العز. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٩٠، ٦٠١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٦)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٦٠٦).

قال ابن عبد البر: (وقال آخرونَ: الوُرودُ: المَمَرُّ على الصِّراطِ. روَى الكعبيُّ، عن أبي صالحٍ، =

= عن ابنِ عبَّاسٍ في قولِه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: المَمَرُّ على الصِّراطِ. ورُوِي ذلك عن عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ، وكعبِ الأحبارِ، وخالدِ بنِ معدانَ، وأبي نَضْرَةَ، وهو قولُ السُّدِّيِّ). ((الاستذكار)) (٣/ ٧٥).

وقال الزجَّاج: (والحُجَّةُ القاطعةُ في هذا القَولِ ما قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٢]. فهذا -والله أعلمُ- دليلٌ أن أهلَ الحسنى لا يدخلونَ النَّارَ. وفي اللغةِ: وردتُ بلدَ كذا وكذا، إذا أشرفتَ عليه؛ دخَلْتَه أو لم تدخُلْه... فالورودُ هاهنا بالإجماعِ ليس بدُخولٍ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٣٤١- ٣٤٢). ويُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٢٥٠).

وقيل: معنى الورودِ على جهنمَ: دخولُها، فيرِدُها جميعُ النَّاسِ، وتكون بردًا وسلامًا على المؤمنينَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: السمعاني، والرسعني -ونسَب القول بأنَّ المعنى: ما منكم أيُّها المؤمنونَ والكافرونَ مِن أحدٍ إلَّا داخلٌ النارَ إلى الأكثرينَ-، والقرطبي، والعُليمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣٩)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٢٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٩، ٤٨٠).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، وعبدُ الله بنُ رواحةَ، وجابرُ بنُ عبد الله. يُنظر: ((التمهيد)) لابن عبد البر (٦/ ٣٥٣)، ((طرح التثريب)) للعراقي (٣/ ٢٥١).

قال ابنُ رجب: (وقالت طائِفةٌ: الوُرودُ هو الدُّخولُ، وهذا هو المعروفُ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ، ورُوِيَ عنه من غيرِ وَجهٍ، وكان يَستَدِلُّ لذلك بقَولِه تعالى في فِرعونَ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، وبِقَولِه: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]، وكذلك قَولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٩]). ((التخويف من النار)) (ص: ٢٥٠). ويُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ١٦١).

وقال الشنقيطي: (مِن أنواعِ البَيانِ التي تضَمَّنَها [أي: تفسيرُه الأضواء]: الاستِدلالُ على أحَدِ المعاني الدَّاخِلةِ في معنى الآيةِ بكَونِه هو الغالِبَ في القُرآنِ، فغَلَبتُه فيه دَليلٌ استِقرائيٌّ على عدَمِ خُروجِه مِن مَعنى الآيةِ،... فإذا عَلِمْتَ ذلك فاعلَمْ أنَّ ابنَ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما استدَلَّ على المرادِ بورودِ النَّارِ في الآيةِ بمِثلِ ذلك الدَّليلِ الذي ذكَرْنا أنَّه مِن أنواعِ البَيانِ في هذا الكِتابِ المبارَكِ، وإيضاحُه أنَّ ورودَ النَّارِ جاء في القرآنِ في آياتٍ مُتعَدِّدةٍ، والمرادُ في كُلِّ واحدةٍ منها الدُّخولُ، فاستدَلَّ بذلك ابنُ عبَّاسٍ على أنَّ الورودَ في الآيةِ التي فيها النِّزاعُ: هو الدُّخولُ؛ =

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يؤتى بالجِسرِ فيُجعَلُ بين ظَهرَي جهنَّم. قُلنا: يا رسولَ اللهِ، وما الجِسرُ؟ قال:

= لدَلالةِ الآياتِ الأُخرى على ذلك). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٧٨).

وقال أيضًا: (أجاب مَن قال بأنَّ الوُرودَ في الآيةِ الدُّخولُ عن قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] بأنَّهم مُبعَدونَ عن عَذابِها وألَمِها؛ فلا ينافي ذلك ورودَهم إيَّاها مِن غيرِ شُعورِهم بألمٍ ولا حَرٍّ منها). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٨٠).

وقال الرسعني: (فإنْ قيلَ: فما تصنَعُ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ * لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٢]، وبقَولِه: ﴿إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، والمؤمِنون آمِنونَ مِن الخِزْيِ؟

قلتُ: لا يلزَمُ مِن وُرودِ النَّارِ على الوَجهِ الذي ذكَرْناه سَماعُ حَسيسِها ولا الدُّخولُ على وَجهِ الخِزيِ؛ فإنَّ ذلك إنَّما يكونُ إذا دخلَها دُخولَ تَعذيبٍ وخُلودٍ، لا دُخولَ وُرودٍ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٥٢).

وقال ابنُ حَجر: (وهذان القَولانِ أصَحُّ ما ورد في ذلك، ولا تنافيَ بينَهما؛ لأنَّ مَن عَبَّر بالدُّخولِ تجَوَّزَ به عن المرورِ، ووَجهُه أنَّ المارَّ عليها فَوقَ الصِّراطِ في معنى مَن دَخَلَها، لكِنْ تختَلِفُ أحوالُ المارَّةِ باختِلافِ أعمالِهم... ويؤيِّدُ صِحَّةَ هذا التأويلِ: ما رواه مُسلِمٌ مِن حديثِ أمِّ مُبَشِّرٍ «أنَّ حَفصةَ قالت للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا قال: لا يدخُلُ أحَدٌ شَهِدَ الحُدَيبيَةَ النَّارَ: أليس اللهُ يقولُ: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]؟! فقال لها: أليس اللهُ تعالى يقولُ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ الآية؟». وفي هذا بيانُ ضَعفِ قَولِ مَن قال: الورودُ مختَصٌّ بالكُفَّارِ، ومن قال: معنى الورودِ: الدُّنُوُّ منها، ومن قال: معناه: الإشرافُ عليها، ومن قال: معنى ورُودِها: ما يُصيبُ المؤمِنَ في الدُّنيا مِنَ الحُمَّى، على أنَّ هذا الأخيرَ ليس ببَعيدٍ، ولا ينافيه بقيَّةُ الأحاديثِ. والله أعلمُ). ((فتح الباري)) (٣/ ١٢٤).

وقال ابن كثير: (وقال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بنِ أسلمَ في قولِه: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: ورودُ المسلمينَ: المرورُ على الجسرِ بينَ ظهريها، وورودُ المشركينَ أن يدخلوها). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٦).

تنبيهٌ: قال ابنُ رجبٍ: (اعلَمْ أنَّ النَّاسَ مُنقَسِمونَ إلى مؤمنٍ يَعبُدُ اللهَ وَحدَه، ولا يُشرِكُ به شيئًا، ومُشرِكٍ يَعبُدُ مع اللهِ غَيرَه؛ فأمَّا المُشرِكونَ فإنَّهم لا يمُرُّونَ على الصِّراطِ، إنَّما يَقَعونَ في النَّارِ قبلَ وَضعِ الصِّراطِ). ((التخويف من النار)) (ص: ٢٣٥).

مَدحَضةٌ مَزِلَّةٌ[١]، عليه خطاطيفُ وكلاليبُ[٢]، وحَسَكةٌ مُفلطحةٌ[٣] لها شوكةٌ عُقَيفاءُ[٤] -تكونُ بنَجْدٍ، يقالُ لها: السَّعدان- المؤمِنُ عليها كالطَّرفِ[٥] وكالبَرقِ وكالرِّيحِ، وكأجاويدِ[٦] الخَيلِ والرِّكابِ[٧]؛ فناجٍ مُسَلَّمٌ، وناجٍ مَخدوشٌ، ومَكدوسٌ[٨] في نارِ جهنَّمَ، حتى يمُرَّ آخِرُهم يُسحَبُ سَحبًا))[٩].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما، قال: أخبَرَتني أمُّ مُبشِّر أنَّها سَمِعت النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ عند حفصةَ: ((لا يدخُلُ النَّارَ -إن شاء اللهُ- من أصحابِ الشَّجرةِ أحَدُ الذين بايعوا تحتَها، قالت: بلى يا رسولَ اللهِ! فانتهَرَها، فقالت حفصةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قد قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾))[١٠].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أمَّا أهلُ النَّارِ الذين هم أهلُها، فإنَّهم لا يموتونَ فيها ولا يَحيَونَ، ولكِنْ ناسٌ أصابَتهم النَّارُ بذُنوبِهم -أو قال: بخطاياهم- فأماتهم إماتةً، حتى إذا

---

(١) مَدحَضةٌ مَزلَّةٌ: أي: تَزلَقُ عليه الأقدامُ ولا تَثبُتُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣١٠).

(٢) كلاليبُ: جَمعُ كَلُّوبٍ، وهو: حَديدةٌ مَعطوفةُ الرَّأسِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢١).

(٣) حَسَكةٌ مُفلَطَحةٌ: شَوْكَة صُلبةٌ قَوِيَّة لَهَا عرضٌ واتِّساعٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٠٥).

(٤) عُقَيفاء: أي: مُعْوجَّةٌ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١٠/ ٤٠٥).

(٥) كالطَّرْفِ: أي: كلَمحِ البَصَرِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١٠/ ٤٠٥).

(٦) أجاويد الخيل: جَمعُ جَوادٍ، وهو الفَرَسُ السَّابِقُ الجيِّدُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١٠/ ٤٠٥).

(٧) الرِّكابُ: الإبِلُ، واحِدتُها الرَّاحِلةُ مِن غَيرِ لَفظِها. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١٠/ ٤٠٥).

(٨) مكدوسٌ: أي: مَصروعٌ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١٠/ ٤٠٥).

(٩) رواه البخاري (٧٤٣٩) واللفظ له، ومسلم (١٨٣).

(١٠) رواه مسلم (٢٤٩٦).

كانوا فَحمًا أُذِن بالشَّفاعةِ، فجيء بهم ضبائِرَ ضبائِرَ[١]، فبُثُّوا[٢] على أنهارِ الجنَّةِ، ثمَّ قيل: يا أهلَ الجنَّةِ أفيضُوا عليهم، فيَنبُتونَ نباتَ الحِبَّةِ[٣] تكونُ في حَميلِ السَّيلِ[٤]))[٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِي الله عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((لا يموتُ لمُسلمٍ ثلاثةٌ مِن الولَدِ فيَلِجَ النَّارَ، إلاَّ تَحِلَّةَ القَسَمِ[٦]))، قال أبو عبدِ اللهِ [أي: البخاري]: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[٧].

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

أي: كان ورودُكم النَّارَ أمرًا واجبًا لازمًا، قضَى الله تعالى أنَّه لا بُدَّ مِن وُقوعِه لا مَحالةَ، وحتَّمه على نفسِه[٨].

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾.

أي: ثمَّ نُخَلِّصُ الذين اتَّقوا اللهَ بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نهى، مِن النَّارِ بعدَ

---

(١) ضبائِرَ: أي: جَماعاتٍ متَفرِّقةً. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٣٨).

(٢) فبُثُّوا: أي: فُرِّقوا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٣٨).

(٣) الحِبَّة: اسمٌ جامِعٌ لحُبوبِ البُقولِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١٠/ ٤٠٦).

(٤) حميلُ السيلِ: هو ما يجيءُ به السيلُ مِن طينٍ وغيرِه، فعيلٌ بمعنى مفعولٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٠٨).

(٥) رواه مسلم (١٨٥).

(٦) تَحِلَّةَ القَسَمِ: أي: تحليلَ اليمينِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٠٧).

(٧) رواه البخاري (١٢٥١) واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٢).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٩٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٨١).

وُرودِ النَّاسِ إيَّاها[١].

﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

أي: ونترُكُ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والشِّركِ والمعاصي في النَّارِ بُروكًا على رُكَبِهم[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ فيه دعوةٌ للنَّظَرِ بالدَّليلِ العَقليِّ بألطَفِ خِطابٍ، وأنَّ إنكارَ مَن أنكر ذلك مبنيٌّ على غفلةٍ منه عن حالِه الأُولَى، وإلَّا فلو تذكَّرَها وأحضَرَها في ذِهنِه، لم يُنكِرْ ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (لَفظُ «النجاةِ مِنَ الشَّرِّ» يقتضي انعِقادَ سَبَبِ الشَّرِّ، لا نَفسَ حُصولِه في المُنجَّى؛ فقَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [مريم: ٧٢] لا يقتضي أنَّهم كانوا مُعذَّبينَ ثمَّ نجَوا، لكِنْ يقتضي أنَّهم كانوا مُعَرَّضينَ للعذابِ الذي انعقَدَ سَببُه، وهذا هو الورودُ؛ فقَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «لن يدخُلَ النَّارَ أحَدٌ بايعَ تحت الشَّجَرةِ» لا يُنافي هذا الورودَ؛ فإنَّ مجرَّدَ الوُرودِ ليس بعذابٍ، بل هو تعريضٌ للعذابِ، وهو إنما نفى الدُّخولَ الذي هو العذابُ، لم يَنفِ التَّقريبَ مِن العذابِ، ولا انعِقادَ سَبَبِه، ولا الدُّخولَ على سَطحِ مكانِ العذابِ). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٧/ ٥١).

وقال ابن عاشور: (اتَّفق جميعُ المفَسِّرينَ على أنَّ المتَّقينَ لا تنالُهم نارُ جهنمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٠٦)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير القنوجي)) (٨/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِ الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ قال بعضُ العُلَماءِ: لو اجتَمع كلُّ الخلائقِ على إيرادِ حُجَّةٍ في البعثِ على هذا الاختصارِ، ما قَدَروا عليه؛ إذ لا شكَّ أنَّ الإعادةَ ثانيًا أهونُ مِن الإيجادِ أوَّلًا[١]، فهذه الحُجَّةُ في غايةِ الاختصارِ والإلزامِ للخصمِ، ويُسمَّى هذا النَّوعُ الاحتجاجَ النَّظريَّ، وبعضُهم يُسمِّيه المذهبَ الكلاميَّ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ فإن قيل: كيف أمَر تعالى الإنسانَ بالذِّكرِ مع أنَّ الذِّكرَ هو العِلمُ بما قد عَلِمَه من قبلُ، ثمَّ تخلَّلهما سهوٌ؟

الجوابُ: أن المراد: أوَلا يتفكَّرُ فيَعلَم، خصوصًا إذا قرئ: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ بالتشديدِ، أمَّا إذا قرئ ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ﴾ بالتخفيف، فالمرادُ: أو لا يعلَمُ ذلك من حالِ نَفسِه؛ لأنَّ كُلَّ أحدٍ يعلَمُ أنَّه لم يكن حيًّا في الدُّنيا ثمَّ صار حيًّا[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في إلحاقِ المِثْلِ بمِثْلِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٦).

وقال أبو حيان في تعريفِه: (هو أن يَذكُرَ المتكَلِّمُ معنًى يَستدِلُّ عليه بضُروبٍ مِن المعقولِ، نحوُ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [يس: ٧٩]، ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ﴾ [يس: ٨١]). ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ١٢٧).

٤- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ العذابَ يَتَوَجَّهُ إلى السَّاداتِ أوَّلًا، ثم تكونُ الأتباعُ تَبَعًا لهم فيه، كما كانوا تَبَعًا لهم في الدُّنيا[١]، فيُعذَّب الرؤساءُ القادةُ في الكفرِ قبلَ غيرِهم، ويشدَّدُ عليهم العذابُ؛ لضلالِهم وإضلالِهم[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ في الوعيدِ شَديدةٌ؛ لزعمِهم أنَّ الدَّاخِلَ مِن الموحِّدينَ النارَ لا يَخْرُجُ منها أبدًا، وهذا نصُّ القرآنِ يُخْبِرُ بورودِ الجميعِ إيَّاها، وصَدْرِ المتَّقينَ عنها[٣]. وذلك على القولِ بأنَّ الورودَ هو الدخولُ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ بيانُ نعمةِ اللهِ على المتَّقينَ؛ أنَّهم مع الورودِ والعُبورِ عليها وسُقوطِ غيرِهم فيها، نجَوا منها[٤]، وذلك على القولِ بأنَّ الورودَ هو المرورُ على الصراطِ.

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ -على القَولِ بأنَّ الورودَ هو الدُّخولُ- فيه سؤالٌ: إذا لم يكُنْ على المؤمِنينَ عَذابٌ في دُخولِهم النَّارَ، فما الفائِدةُ في ذلك الدُّخولِ؟

الجوابُ من وجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ ذلك ممَّا يزيدُهم سرورًا إذا عَلِموا الخلاصَ منه.

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٥٠).

الوجهُ الثَّاني: أنَّ فيه مزيدَ غَمٍّ على أهلِ النَّارِ؛ مِن حيثُ يَرَونَ المؤمنينَ الذين هم أعداؤُهم يتخَلَّصون منها، وهم يبقَونَ فيها.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ فيه مزيدَ غَمٍّ على أهلِ النَّارِ؛ مِن حيثُ تَظهَرُ فضيحتُهم عند المؤمِنينَ، بل وعندَ الأولياءِ، وعندَ مَن كان يخوِّفُهم مِن النَّارِ فما كانوا يلتَفِتون إليه.

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّ المؤمنين إذا كانوا معهم في النَّارِ يُبكِّتونَهم؛ فزاد ذلك غمًّا للكُفَّارِ، وسُرورًا للمؤمنين.

الوجهُ الخامِسُ: أنَّ المؤمِنينَ كانوا يخوِّفونَهم بالحَشرِ والنَّشرِ، ويُقيمونَ عليهم صِحَّةَ الدَّلائِلِ، فما كانوا يَقبَلونَ تلك الدَّلائِلَ، فإذا دخلوا جهنَّمَ معهم أظهَروا لهم أنَّهم كانوا صادِقينَ فيما قالوا، وأنَّ المكَذِّبينَ بالحَشرِ والنَّشرِ كانوا كاذبينَ.

الوجهُ السَّادسُ: أنَّهم إذا شاهدوا ذلك العذابَ صار ذلك سببًا لِمَزيدِ الْتِذاذِهم بنعيمِ الجنَّةِ، كما قال الشاعر[(١)]:

وبضِدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ[(٢)]

٨- قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، على القولِ بأنَّ المرادَ بالوُرودِ: المرورُ على الصراطِ؛ فهذه أقوَى آيةٍ في ذِكرِ الصِّراطِ[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾

(١) وهو أبو الطيبِ المتنبي، ويُنظر: ((ديوانه)) (ص: ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٥).

- والواوُ في قولِه: ﴿وَيَقُولُ﴾ عاطفةٌ قصَّةً على قصَّةٍ، والإتيانُ بفعْلِ (يقول) مُضارِعًا؛ لاستحضارِ حالةِ هذا القولِ؛ للتَّعجيبِ من قائلِه تَعجيبَ إنكارٍ[١].

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يحتمِلُ أنْ يُرادَ بالإنسانِ الجنسُ بأَسْرِه، أو يُرادَ البعضُ المعهودُ منهم: وهم الكفرةُ. فإنْ قيل: لِمَ جازتْ إرادةُ الأَناسيِّ كلِّهم، وكلُّهم غيرُ قائلينَ ذلك؟ **أُجيبَ بأنَّه**: لمَّا كانت هذه المقالةُ موجودةً فيمَن هو من جنْسِهم، صَحَّ إسنادُه إلى جميعِهم[٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ وصْفٌ حُذِفَ، أي: الإنسانُ الكافرُ؛ فتكون كقولِه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۞ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[٣] [القيامة: ٣، ٤].

- قولُه: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ فيه تقديمُ الظَّرفِ (إذا)، ومَجيئُه بعدَ حرْفِ الإنكارِ (الهمزة)؛ لأنَّ المُنكَرَ كونُ ما بعدَ الموتِ وقْتَ الحياةِ[٤].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ استفهامٌ فيه معنى الجَحدِ والإنكارِ لوُقوعِ البعثِ[٥]؛ فلذلك أُتِيَ بالجُملةِ المُسلَّطِ عليها الإنكارُ مُقترِنةً بلامِ الابتداءِ الدَّالَّةِ على تَوكيدِ الجُملةِ الواقعةِ هي فيها، أي: يقولُ: لا يكونُ ما حَقَّقتموه من إحيائي في المُستقبَلِ[٦]، وإمَّا أنْ يكونَ إخبارًا على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٥).

سَبيلِ الهُزءِ والسُّخريةِ بمَن يقولُ ذلك؛ إذ لمْ يُرِدْ به مُطابقةَ اللَّفظِ للمَعْنى[١].

- وقولُه: ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ فيه إيجازٌ بالحذفِ، والتَّقديرُ: أُخْرَجُ من القبرِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ الاستفهامُ استفهامُ إنكارٍ وتعجُّبٍ من ذُهولِ الإنسانِ المُنكِرِ البعثَ عن خلْقِه الأوَّلِ[٣]، وتَوسيطُ همزةِ الإنكارِ بينه وبينَ العاطفِ مع أنَّ الأصلَ أنْ يتقدَّمَهما؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُنكِرَ بالذَّاتِ هو المعطوفُ، وأنَّ المعطوفَ عليه إنَّما نشَأ منه؛ فإنَّه لو تذكَّرَ وتأمَّلَ أنَّا خلَقْناه مِن قبْلُ، ولم يكُ شيئًا، بل كان عدَمًا صِرْفًا، لم يقُلْ ذلك؛ فإنَّه أعجَبُ مِن جمْعِ الموادِّ بعدَ التَّفريقِ، وإيجادِ مثْلِ ما كان فيها من الأعراضِ[٤].

- قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فيه إظهارُ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في موقعِ الإضمارِ؛ لأنَّ المرادَ منه الإنسانُ المذكورُ في قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]؛ ووُضِعَ المُظهرُ -وهو الإنسانُ- موضعَ المضمرِ؛ ليُؤذنَ بحَقارتِه ودَناءتِه، وأنَّ إعادةَ مِثلِه لا يُؤبَهُ بها -ولهذا صرَّح بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾- ولزِيادةِ التَّقريرِ، والإشعارِ بأنَّ (الإنسانيَّة) مِن دواعي التَّفكُّرِ فيما جَرَى عليه مِن شُؤونِ التَّكوينِ التي تُحتِّمُ عليه الإقلاعَ عن القَولِ المَذكورِ -وهو قولُه: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾- وهو السِّرُّ في إسنادِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٦).

بلَفظِ (الإنسان)، أي: ما أعجبَ الإنسانَ في إنكارِه وعَدمِ تَذكُّرِه لِمَا ذُكِرَ، وهو الذي أُعطي العَقلَ؛ لينظرَ في العواقِبِ، وأُنعِمَ عليه؛ ليَعرِفَ المُنعِمَ فيَشكُرَه ويَعبُدَه، فيُجازَى على فِعلِه[١]!

- قولُه: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ فإنَّه لمَّا حُذِفَ المُضافُ إليه، واعتُبِرَ مُضافًا إليه مُجْملًا، ولم يُراعَ له لفْظٌ مخصوصٌ تقدَّمَ ذِكْرُه: بُنِيَتْ (قبْلُ) على الضَّمِّ، والتَّقديرُ: أنَّا خلَقْناه من قبْلِ كلِّ حالةٍ هو عليها[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ تفريعٌ على جُملةِ ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ﴾؛ باعتبارِ ما تضمَّنَته من التَّهديدِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أقسَمَ اللهُ تعالى باسْمِه سُبحانه مُضافًا إلى نَبيِّه؛ تَحقيقًا للأمْرِ بالإشعارِ بعلِّيتِه، وتَفخيمًا لشأنِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ورفْعِ مَنزلتِه[٤]؛ فواوُ القسَمِ لتَحقيقِ الوعيدِ، والقسَمُ بالرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ المُخاطَبِ وهو النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إدماجٌ لتَشريفِ قدْرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٧٠)، (١٠/ ٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٦).

- قولُه: ﴿لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ﴾ إثباتٌ للبعثِ بالطَّريقِ البُرهانيِّ[١] على أبلغِ وجهٍ وآكدِه، كأنَّه أمرٌ واضحٌ غنيٌّ عن التَّصريحِ به، وإنَّما المحتاجُ إلى البَيانِ ما بعْدَ ذلك من الأهوالِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطْفُ (الشَّياطِينَ) على ضميرِ المُشرِكين ﴿لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ﴾؛ لقَصدِ تَحقيرِهم بأنَّهم يُحْشَرون مع أحقَرِ جنْسٍ وأفسَدِه، وللإشارةِ إلى أنَّ الشَّياطينَ هم سبَبُ ضلالِهم المُوجبِ لهم هذه الحالةَ، فحشْرُهم مع الشَّياطينِ إنذارٌ لهم بأنَّ مصيرَهم هو مَصيرُ الشَّياطينِ، وهو مُحقَّقٌ عندَ النَّاسِ كلِّهم؛ فلذلك عُطِفَ عليه جُملةُ ﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾، والضَّميرُ للجميعِ[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾ إعدادٌ آخرُ للتَّقريبِ مِن العذابِ؛ فهو إنذارٌ على إنذارٍ، وتدرُّجٌ في إلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهم؛ فحرْفُ (ثُمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ لا للمُهلةِ؛ إذ ليستِ المُهلةُ مقصودةً، وإنَّما المقصودُ أنَّهم يُنْقَلون من حالةِ عذابٍ إلى أشدَّ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا﴾

---

(١) الطريق البرهاني: هو قياسٌ استثنائيٌّ استُدِلَّ فيه بنفيِ اللازمِ، البيِّنِ انتفاؤُه، على نفيِ الملزومِ، كما يُقالُ: هل زيدٌ في البلدِ؟ فتقولُ: لا؛ إذ لو كان فيها لحضَرَ مجلسَنا، فيستدلُّ بعدمِ الحضورِ على عدمِ كونِه في البلدِ. أو: هو ما يلزمُ مِن نفْيِ مِثلِ مِثلِه نفيُ مثلِه. يُنظر: ((حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع)) (١/ ٤٥٢)، ((التقرير والتحبير)) لابن أمير الحاج (٢/ ٢٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- جُملةُ: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ﴾، إنذارٌ بعدَ إنذارٍ، وهي حالةٌ أُخرى مِن الرُّعبِ أشدُّ مِن اللَّتينِ قبْلَها، وهي حالةُ تَمييزِهم للإلقاءِ في دَركاتِ الجحيمِ على حسَبِ مَراتبِ غُلوِّهم في الكُفرِ. وفيه تَهديدٌ لعُظماءِ المُشرِكينَ، مثلِ أبي جهْلٍ وأُميَّةَ بنِ خلَفٍ ونُظرائِهم[(١)].

- وذِكْرُ صِفَةِ الرَّحمنِ هنا في قولِه: ﴿أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا﴾؛ لتفظيعِ عُتوِّهم؛ لأنَّ شديدَ الرَّحمةِ بالخلْقِ حقيقٌ بالشُّكرِ له والإحسانِ، لا بالكُفرِ به والطُّغيانِ[(٢)].

- وفي الكلامِ حذْفٌ، تَقديرُه: فيُلْقيه في أشدِّ العذابِ، أو فيبدَأُ بعذابِه، ثمَّ بمَن دونَه، إلى آخرِهم عذابًا[(٣)].

٥- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا﴾

- عَطْفُ هذه الجُمَلِ: ﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ﴾، ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾، ﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ﴾ بأداةِ البُعدِ مَقرونةً بنونِ العَظَمةِ؛ لِبُعدِ مَراتِبِها، وتصاعُدِها وترقِّيها؛ تهويلًا للمَقامِ، وتعظيمًا للأمرِ؛ لاستبعادِهم له، على أنَّه يمكِنُ أن تكونَ الحُروفُ الثَّلاثةُ للتَّرتيبِ الزَّمانيِّ، وهو في الأوَّلَينِ واضِحٌ، وأمَّا في الثَّالثِ فلأنَّ العِلمَ كِنايةٌ عن الإصلاءِ؛ لأنَّ مَن عَلِمَ ذَنبَ عَدُوِّه -وهو قادِرٌ- عَذَّبه، فكأنَّه قيل: لَنُصلِيَنَّ كُلًّا منهم النَّارَ على حَسَبِ استِحقاقِه؛ لأنَّا أعلَمُ بأولويَّتِه لذلك[(٤)].

٦- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٧-١٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٦).

- في قولِه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ افتنانٌ، وهو الإتيانُ في الكلامِ بمُتضادَّينِ، أو مُختلِفينِ، أو مُتَّفقينِ، والآيةُ جمعَتْ بينَ المُتضادَّينِ؛ حيث جمعَتْ بين الوعدِ والوعيدِ، وبينَ التَّبشيرِ والتَّحذيرِ، وما يلزَمُ مِن هذينِ مِن المدْحِ للمُختصِّينَ بالبشارةِ، والذَّمِّ لأهْلِ النِّذارةِ[١].

- قولُه: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ فيه ذِكْرُ فعْلِ (نَذَر) هنا دونَ غيرِه؛ للإشعارِ بالتَّحقيرِ، أي: نترُكُهم في النَّارِ لا نعبَأُ بهم؛ لأنَّ في فعْلِ التَّركِ معنى الإهمالِ[٢].

- والتَّعبيرُ بقولِه: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، والأصلُ: ونَذَرُكم أيُّها الظَّالمونَ[٣].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٥٠).

الآيات (٧٢-٧٦)

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٢﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّقَامًا﴾: أي: مَنزِلًا، وأصلُ (قوم): يدلُّ على الثَّباتِ[١].

﴿نَدِيًّا﴾: أي مَجلِسًا، والنَّدِيُّ والنَّادي: مجتمَعُ القومِ ومجلسُهم، فإذا تفرَّقوا فليسَ بنَدِيٍّ، يقال: نَدَوْتُ القوم، أَنْدُوهم، نَدْوًا: إذا جمعتَهم، وأصلُ (ندي) هنا: يدُلُّ على تَجَمُّعٍ[٢].

﴿قَرْنٍ﴾: أي: قومٍ وأُمَّة مِن الناسِ مُقترنِينَ في زمَنٍ واحدٍ، ويُطلَقُ القرنُ كذلك على الزَّمانِ، وأهلِ الزمانِ، وأهلِ مُدَّةٍ كان فيها نبيٌّ، أو كان فيها طَبقةٌ مِن أهلِ العِلمِ، قلَّت السِّنون أو كثُرتْ؛ وقيل: مُدَّتُه ثمانونَ سَنةً، وقيل غيرُ ذلك، وأصلُ (قرن) هنا: يدلُّ على جمْعِ شيءٍ إلى شيءٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١١)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٥)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) =

﴿أَثَٰثًا﴾: الأثاثُ: مَتاعُ البيتِ، ويُقالُ للمالِ كلِّه إذا كثُر: أثاثٌ، وأصلُ (أثَّ): يدلُّ على كَثرةٍ وتَكاثُفٍ[١].

﴿وَرِءۡيًا﴾: أي: مَنظرًا وشكلًا، وهو مِن رؤيةِ العينِ، وأصلُ (رَأَى): يدلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرةٍ[٢].

﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾: أي: يُمهِلْ، ويُمْلِ، ويَمُدَّ، وأصلُ (مدد): يدلُّ على جَرِّ شيءٍ فِي طُولٍ، واتِّصالِ شَيءٍ بشَيءٍ في استِطالةٍ[٣].

﴿مَّرَدًّا﴾: أي: مَرجِعًا وعاقِبةً، وأصلُ (ردد): يدلُّ على رَجعِ الشَّيءِ[٤].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن موقفِ الكافرينَ عندَ سماعِهم لآياتِ الله وما يحتجُّون به على المؤمنينَ، فيقولُ: وإذا تُتلى على النَّاسِ آياتُنا الواضِحاتُ، قال الكُفَّارُ للمُؤمِنينَ: أيُّ الفريقينِ منَّا ومنكم أفضَلُ مَنزِلًا وعيشًا ومتاعًا، وأحسَنُ مَجلِسًا

= للكفوي (ص: ٧٢٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١٠، ٦١٣)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٦٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٠٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

في الدُّنيا؟ فكيف نكونُ على الباطِلِ وأنتم على الحَقِّ، ونحن أفضَلُ منكم في ذلك؟!

ثمَّ يرُدُّ الله تعالى على هؤلاءِ الكافرينَ المغرورينَ، فيقول: وما أكثَرَ ما أهلَكْنا قبلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ مِن الأمَمِ، ممنْ كانوا أحسَنَ متاعًا منهم، وأجمَلَ منظرًا وصُوَرًا! قل لهم -يا محمَّدُ-: مَن كان ضالًّا عن الحَقِّ غيرَ مُتَّبِعٍ طَريقَ الهُدى، فالله يُمهِلُه ويُملي له في ضَلالِه فيَزِيدُه من النِّعَم والعُمُرِ، حتى إذا رأى هؤلاء الكافرون ما توعَّدهم الله به: إمَّا العذابَ العاجِلَ في الدُّنيا، وإمَّا قيامَ السَّاعةِ؛ فسيَعلَمُون حينئذٍ مَن هو شَرٌّ مَكانًا ومُستقَرًّا، وأضعَفُ قُوَّةً وجُندًا وناصِرًا.

ثمَّ يبينُ الله تعالى حالَ أهلِ الهدايةِ بعدَ أن بيَّن حالَ أهلِ الضلالةِ، فيقولُ: ويزيدُ اللهُ الذين اهتَدَوا لدينِه يقينًا وإيمانًا، وعلمًا نافعًا، وتوفيقًا للعمل الصَّالح. والأقوالُ الأعمالُ الصَّالحاتُ الباقياتُ التي لا زوالَ لثوابِها خَيرٌ ثوابًا عند اللهِ في الآخرةِ، وخَيرٌ مَرجِعًا وعاقبةً.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ٧٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا أقام الحُجَّةَ على مُنكري البَعثِ، وأتبَعَه بما يكونُ يومَ القيامةِ؛ أخبَرَ عنهم أنَّهم عارضوا تلك الحُجَّةَ الدَّامغةَ بحُسنِ شارتِهم في الدُّنيا، وذلك عندَهم يدُلُّ على كرامتِهم على اللهِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٠).

وأيضًا فإنَّ هذا عَطفٌ على قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]، وهذا صِنفٌ آخَرُ مِن غُرورِ المُشرِكينَ بالدُّنيا؛ فقد أناطوا الدلالةَ على السَّعادةِ بأحوالِ طِيبِ العَيشِ في الدُّنيا، ويَرَونَ أنفُسَهم أسعَدَ مِن المؤمِنينَ(١).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾.

أي: وإذا تُتلى على النَّاسِ آياتُ القُرآنِ، والحالُ أنَّها دلالاتٌ واضِحاتٌ لا مِريةَ فيها، قال الكافِرونَ للمُؤمِنينَ(٢) محتَجِّينَ على بُطلانِها، وكونِهم على الحَقِّ، مُفتَخرينَ عليهم ومتعَزِّزينَ بالدُّنيا: أيُّ الفريقينِ خَيرٌ مَنزِلًا، وأفضَلُ مَسكنًا وعَيشًا ومتاعًا، وأحسَنُ مجلسًا ومجْمَعًا، وأعمَرُ وأكثَرُ غِشيانًا ورُودًا؟ نحن بما لنا من الاتِّساعِ، أم أنتم بما لكم من خُشونةِ العَيشِ ورَثاثةِ الحالِ؟! فكيف نكونُ على الباطِلِ وأنتم على الحَقِّ، ونحن أفضَلُ منكم في ذلك(٣)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٣).

(٢) قال الشنقيطي: (لا خلافَ أنَّ مَقصودَهم بالاستفهامِ المذكورِ أنهم -أي: كفَّار قريش- خيرٌ مَقامًا وأحسَنُ نَدِيًّا من أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ ذلك هو دليلُهم على أنَّهم على الحَقِّ، وأنَّهم أكرَمُ على الله من المُسلِمينَ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٨٣، ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٠٧، ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٧-٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٣، ٤٨٦).

قال الشنقيطي أيضًا: (الظَّاهِرُ فيه أنَّ وَجهَ ذِكْرِهم للمَقامِ والنَّدِيِّ: أنَّ المَقامَ: هو محلُّ السُّكنى الخاصُّ لكُلِّ واحدٍ منهم، والنَّدِيُّ: محَلُّ اجتِماعِ بَعضِهم ببَعضٍ، فإذا كان كلٌّ منهما للكُفَّارِ أحسَنَ مِن نظيرِه عند المُسلِمينَ، دَلَّ ذلك على أنَّ نَصيبَهم في الدُّنيا أوفَرُ مِن نَصيبِ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذلك الوقتِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٨٦).

وقال البقاعي: (يجعلون ذلك الامتحانَ بالإنعامِ والإحسانِ دليلًا على رضا الرحمنِ، معَ =

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾.

أي: وأهلَكْنا قبل كفَّارِ قُرَيشٍ كثيرًا من كفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ، وكانوا أحسَنَ منهم في أمتعةِ مساكِنِهم، وأجمَلَ في مَنظَرِهم وصُوَرِهم، ومع ذلك أهلَكَهم اللهُ بسَبَبِ كُفرِهم؛ فلْيَخَفْ هؤلاء المُشرِكونَ نِقمةَ اللهِ بالإهلاكِ، كسُنَّةِ مَن قَبلَهم مِن الكُفَّارِ(١).

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾.

= التكذيبِ والكفرانِ، ويغفلون عن أنَّ في ذلك -مع التكذيبِ بالبعثِ- تكذيبًا مما يشاهدونه منا مِن القدرةِ على العذابِ؛ بإحلالِ النقمِ، وسلبِ النعمِ، ولو شِئْنا لأهلكناهم، وسلَبْنا جميعَ ما يفتخرونَ به). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٢٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٩٣)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٤، ٤٨٥).

قال ابنُ كثير: (منهم من قال في الأثاثِ: هو المالُ. ومنهم من قال: المتاعُ. ومنهم من قال: الثِّيابُ. والرِّئْيُ: المنظَرُ، كما قال ابنُ عباس، ومجاهد، وغيرُ واحد. وقال الحسَنُ البصري: يعني: الصُّوَرَ. وكذا قال مالك: ﴿أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾: أكثَرُ أموالًا وأحسَنُ صُوَرًا. والكُلُّ مُتقارِبٌ صَحيحٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٧-٢٥٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى دليلَ الكافرينَ الباطلَ الدَّالَّ على شِدَّةِ عِنادِهم، وقُوَّةِ ضلالِهم؛ أخبَرَ هنا أنَّ مَن كان في الضَّلالةِ، بأن رَضِيَها لنَفسِه، وسَعى فيها، فإنَّ اللهَ يَمُدُّه منها، ويزيدُه فيها حبًّا؛ عقوبةً له على اختيارِها على الهدى[١].

وأيضًا فإنَّ هذا جوابُ قَولِ الكافرينَ: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]، لقَّنَ الله رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كَشفَ مُغالطتِهم أو شُبهتِهم، فأعلَمَهم بأنَّ ما هم فيه من نعمةِ الدُّنيا إنَّما هو إمهالٌ مِن اللهِ إيَّاهم؛ لأنَّ ملاذَ الكافِرِ استدراجٌ، فمعيارُ التَّفرقةِ بين النِّعمةِ النَّاشئةِ عن رضا الله تعالى على عبدِه، وبين النِّعمةِ التي هي استدراجٌ لِمن كفَرَ به، هو النَّظَرُ إلى حالِ من هو في نعمةٍ، بين حالِ هُدًى، وحالِ ضلالٍ[٢].

وأيضًا لمَّا بيَّنَ عاقبةَ أمْرِ الأُمَمِ المُهلَكةِ، معَ ما كان لهم مِنَ التَّمتُّعِ بفُنونِ الحُظوظِ العاجلةِ؛ أمَرَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُجيبَ هؤلاء المُفتخِرين بما لهم مِن الحُظوظِ ببَيانِ مآلِ أمْرِ الفريقينِ[٣].

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: من كان مُنغَمِسًا في الضَّلالِ منَّا ومنكم، فلْيُمهِلْه اللهُ في ضلالِه، ويَزِدْه مِن النِّعَمِ والعُمُرِ؛ ليطولَ اغترارُه، ويزدادَ ضلالُه، فيكون ذلك أشَدَّ في عقوبتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٤٩)، =

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾.

أي: مَن كان في الضَّلالةِ فلْيَمدُدْ له الرَّحمنُ في ضلالتِه إلى أن يرى الضالُّونَ ما وعَدَ اللهُ أن يأتيَهم به: إمَّا بالعذابِ العاجِلِ، وإمَّا بقيامِ السَّاعةِ، فيَصيرونَ إلى النَّارِ[1].

﴿فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾.

أي: فسيَعلَمُ الكُفَّارُ حين يَرَونَ ذلك مَن هو شَرٌّ مَسكَنًا، ومَن هو أضعَفُ

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٨-٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٧ - ٤٨٩).

قال الشنقيطي: (في معنَى هذه الآيةِ الكريمةِ وجهانِ مِن التَّفسيرِ معروفانِ عندَ العلماءِ، وكلاهما يشهدُ له قرآنٌ:

الأوَّلُ: أنَّ اللَّهَ جَلَّ وعلا أمَر نَبيَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم في هذه الآيةِ الكريمةِ أن يقولَ هذه الكلماتِ كدعاءِ المباهلةِ بينَه وبينَ المشركينَ، وإيضاحُ معناه: ﴿قُلۡ﴾ يا نبيَّ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم لهؤلاءِ المشرِكينَ الَّذين ادَّعَوْا أنَّهم خيرٌ منكم، وأنَّ الدَّليلَ على ذلك أنَّهم خيرٌ منكم مقامًا وأَحْسَنُ منكم نَدِيًّا: ﴿مَن كَانَ﴾ منَّا ومنكم ﴿فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ -أي: الكفرِ والضَّلالِ عن طريقِ الحقِّ- ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾، أيْ: فأمهلَه الرَّحمنُ إمهالًا فيما هو فيه حتَّى يستدرِجَه بالإمهالِ، ويموتَ على ذلك، ولا يرجعَ عنه، بل يستمِرَّ على ذلك حتَّى يَرَى ما يُوعِدُه اللَّهُ، ... وعلى ذلك التَّفسيرِ فصيغةُ الطَّلَبِ المدلولُ عليها باللَّامِ في قولِه: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾ على بابِها، وعليه فهي لامُ الدُّعاءِ بالإمهالِ في الضَّلالِ على الضَّالِّ مِن الفريقينِ، حتَّى يَرى ما يُوعِدُه مِن الشَّرِّ وهو على أقبحِ حالٍ مِن الكفرِ والضَّلالِ، ...

الوجهُ الثَّاني: أنَّ صيغَةَ الطَّلَبِ في قولِه: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾، يُرادُ بها الإخبارُ عن سُنَّةِ اللَّهِ في الضَّالِّينَ، وعليه فالمعنَى: أنَّ اللَّهَ أجرَى العادةَ بأنَّه يُمْهِلُ الضَّالَّ، ويُمْلي له فيستدْرِجُه بذلك، حتَّى يرَى ما يُوعِدُه، وهو في غفلةٍ وكفرٍ وضلالٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٨).

ناصِرًا: هم أم المؤمِنونَ، وسيتبيَّنُ لهم خِلافُ ما كانوا يظنُّونَ، وبُطلانُ ما كانوا يدَّعونَ[١].

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدّٗا ﴿٧٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إمدادَ الضَّالِّ في ضلالتِه، وارتباكَه في الافتخارِ بنِعَمِ الدُّنيا؛ عَقَّبَ ذلك بزيادةِ هُدًى للمُهتدي، وبذكرِ الباقياتِ التي هي بدلٌ مِن تنعُّمِهم في الدُّنيا الذي يضمَحِلُّ ولا يَثبُتُ[٢].

وأيضًا لَمَّا أخْبَرَ سبحانَه عن حالِ أهلِ الضَّلالةِ، أرادَ أنْ يُبيِّنَ حالَ أهلِ الهدايةِ، فقال[٣]:

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى ﴾.

أي: ويزيدُ الله المهتدينَ يقينًا وإيمانًا، وعلمًا نافعًا وتوفيقًا للعمل الصَّالح، وثباتًا على الحَقِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٨).
قال الشنقيطي: (قولُه: ﴿شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾ في مقابلةِ قَولِهم: ﴿خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾؛ لأنَّ مَقامَهم هو مكانُهم ومَسكَنُهم، والنَّدِيُّ: المجلِسُ الجامِعُ لوجوهِ قَومِهم وأعوانِهم وأنصارِهم، والجندُ هم الأنصارُ والأعوانُ، فالمقابلةُ المذكورةُ ظاهِرةٌ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٨٨).
ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٩).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧].

﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدّٗا﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا ذكر الله تعالى أنَّ الظَّالمينَ جَعَلوا أحوالَ الدُّنيا من المالِ والولَدِ، وحُسنِ المقامِ ونحو ذلك، علامةً لحُسنِ حالِ صاحِبِها؛ أخبَرَ هنا أنَّ الأمرَ ليس كما زعموا، بل العمَلُ الذي هو عنوانُ السَّعادةِ، ومَنشورُ الفلاحِ، هو العمَلُ بما يحِبُّه اللهُ ويرضاه[(١)].

﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدّٗا﴾.

أي: وأعمالُ الخيرِ الصَّالحةُ -التي لا زوالَ لثوابِها مِن أقوالٍ وأفعالٍ- أفضَلُ جزاءً عندَ اللهِ لأهلِ طاعتِه، وهي خيرٌ مَرجِعًا وعاقبةً لصاحبِها في الآخرةِ، مِمَّا يفتَخِرُ به الكُفَّارُ على المُؤمِنينَ مِن زينةِ الحياةِ الدُّنيا الفانيةِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف: ٤٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، والله أكبَرُ مِن الباقياتِ الصَّالحاتِ))[(٣)].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٣، ٢٨١، ٦١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦١ - ١٦٤، ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في ((التفسير)) (١٨/ ٣٤).
صحَّحه الألباني بشواهده في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٢٦٤).

ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۞ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾ فيه أنَّ الاستدلالَ على خيرِ الآخرةِ بخيرِ الدُّنيا مِن أفسَدِ الأدلَّةِ، وأنَّه مِن طُرُقِ الكُفَّارِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ فيه تنبيهٌ للمُسلِمينَ ألَّا يغتَرُّوا بإنعامِ اللهِ على الضُّلَّالِ[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ۞ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه يَمُدُّ للظالمينَ في ضلالِهم، ذكَرَ أنَّه يَزيدُ المهتدينَ هدايةً مِن فَضلِه عليهم ورحمتِه، والهدى يَشمَلُ العِلمَ النَّافِعَ، والعمَلَ الصَّالِحَ؛ فكُلُّ من سلك طريقًا في العلمِ والإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، زاده الله منه، وسَهَّله عليه ويسَّرَه له، ووهب له أمورًا أُخَرَ لا تدخُلُ تحت كَسبِه[٣].

٤- مِن الطرقِ التي تعينُ على حفظِ العلمِ وضبطِه: أن يهتديَ الإنسانُ بعلمِه، قال الله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾، فكُلَّما عَمِلَ الإنسانُ بعِلمِه زاده اللهُ حِفظًا وفَهمًا؛ لعُمومِ الآيةِ[٤]. وقد يُيَسِّرُ الله لطالب العِلمِ عُلومًا أُخَرَ ينتَفِعُ بها، وتكونُ مُوصِلةً له إلى الجنَّةِ، كما قيل: مَن عَمِل بما عَلِم، أورثَه اللهُ عِلمَ ما لم يعلَمْ، وكما قيل: ثوابُ الحَسَنةِ الحَسَنةُ بعدها، وقد دَلَّت هذه الآية على ذلك، وكذلك قَولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[٥] [محمد: ١٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٦/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٩٧). ويُنظر أيضًا: ((جامع الرسائل)) =

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ والقَدَريَّةِ فيما يزعمونَ مِن أنَّ أفعالَ العبادِ لا صنعَ لله فيها بتةً؛ فإضافةُ أفعالِ العبادِ إليهم لا تدفعُ فعلَ الله بهم، وإرادتَه فيهم[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ حُجَّةٌ على المُرجِئةِ في زيادةِ الإيمانِ[٢]، ففيه دَليلٌ على زيادةِ الإيمانِ ونَقصِه، كما قاله السَّلَفُ الصَّالِحُ، ويدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٣] [الأنفال: ٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ مِن ﴿ءَايَٰتُنَا﴾؛ لأنَّ آياتِه تعالى لا تكونُ إلَّا بهذا الوصفِ دائمًا[٤].

- قولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه وضْعُ الموصولِ موضعَ الضَّميرِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم قالوا ما قالوا كافِرين بما يُتْلَى عليهم، رادِّينَ له، أو قال الَّذين مَرَدوا

= لابن تيمية (١/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٧٦) و(٢/ ٢٠٤) و(٣/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٦).

منهم على الكُفرِ، ومَرَنوا على العُتوِّ والعِنادِ[١].

- والاستفهامُ في قولِهم: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾ تقريريٌّ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾ خِطابٌ مِن اللهِ لرسولِه، وهذه الجُملةُ مُعترِضةٌ بين حكايةِ قولِهم، وبينَ تلْقينِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما يُجيبُهم به عن قولِهم، وموقِعُها التَّهديدُ، وما بعدَها هو الجوابُ[٣].

- و(كَمْ) مفعولُ ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾، و﴿مِّن﴾ تَبيينٌ لإبهامِها، أي: كثيرًا مِن القُرونِ أهلَكْنا[٤]؛ فذكَرَ تعالى كثرةَ ما أهلَكَ مِن القُرونِ ممَّن كان أحسَنَ حالًا منهم في الدُّنيا، ففيه مِن التَّهديدِ والوعيدِ ما لا يَخْفَى؛ كأنَّه قيل: فلْيَنْتظِرْ هؤلاءِ أيضًا مثلَ ذلك[٥].

- قولُه: ﴿هُمۡ أَحۡسَنُ﴾ جُمِعَ الضَّميرُ؛ لأنَّ القرْنَ مُشتمِلٌ على أفرادٍ كثيرةٍ، فرُوعِيَ معناهُ[٦].

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ ...﴾ فيه وصْفُهم بالتَّمكُّنِ في الضلالةِ؛ لذمِّهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٠).

والإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ، أي: مَنْ كان مُستقِرًّا في الضَّلالةِ، مغمورًا بالجهلِ والغَفلةِ عن عواقبِ الأُمورِ...[١].

- قولُه: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ إخراجُ الفعْلِ ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ على صِيغَةِ الأمْرِ؛ للإيذانِ بأنَّ ذلك ممَّا يَنْبغي أنْ يُفْعَلَ بمُوجِبِ الحِكمةِ؛ لقطْعِ المعاذيرِ، كما يُنْبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، أو للاستدراجِ، كما ينطِقُ به قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقيل: المُرادُ به: الدُّعاءُ بالمدِّ والتَّنفيسِ، وعلى اعتبارِ الاستقرارِ في الضَّلالِ؛ لأنَّ المدَّ لا يكونُ إلَّا للمُصِرِّين عليها؛ إذ رُبَّ ضالٍّ يَهْديه اللهُ عَزَّ وجَلَّ[٢].

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرَّحمانيَّةِ في قولِه: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾، قيل: لأنَّ المدَّ من أحكامِ الرَّحمةِ الدُّنيويَّةِ[٣]، ولأنَّ اللهَ تعالى إذا أراد العِقابَ يأتي به على وَجهِ الرَّحمةِ والنِّعمةِ؛ فيكونُ كَدَرًا بعدَ الصَّفاءِ، وألَمًا بعد الرَّاحةِ، وشِدَّةً بعد الرَّخاءِ؛ فهذا أقوى أثرًا. والحاصِلُ: لا يُتصَوَّرُ وقوعُ المدِّ المذكورِ إلَّا مِن الرَّحمنِ؛ لأنَّه أصلُه ومَنشؤُه[٤].

- و﴿مَدًّا﴾ مفعولٌ مُطلقٌ مُؤكِّدٌ لعامِلِه، أي: فلْيمدُدْ له المدَّ الشَّديدَ، فسَيَنْتهي ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧- ٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٧- ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((روح البيان)) للخلوتي (٥/ ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٦).

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ جَمْعُ الضَّميرِ في الفعلينِ -﴿رَأَوۡاْ﴾ ﴿يُوعَدُونَ﴾- باعتبارِ معنى (مَنْ)، كما أنَّ الإفرادَ في الضَّميرينِ الأوَّلينِ -﴿مَن كَانَ﴾ ﴿لَهُۥ﴾- باعتبارِ لفظِها[١].

- قولُه: ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ حرْفُ الاستقبالِ (السِّينُ)؛ لتَوكيدِ حُصولِ العلْمِ لهم حينئذٍ، وليس للدَّلالةِ على الاستقبالِ؛ لأنَّ الاستقبالَ اسْتُفِيدَ من الغايةِ[٢].

- قولُه: ﴿إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ تَفصيلٌ للموعودِ؛ فإنَّه إمَّا العذابُ في الدُّنيا، وهو غلبةُ المُسلِمين عليهم، وتَعذيبُهم إيَّاهم قتْلًا وأسرًا، وإمَّا يومَ القيامةِ وما يَنالُهم فيه من الخزْيِ والنَّكالِ[٣].

- قولُه: ﴿شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾ مُقابِلُ قولِهم: ﴿خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ [مريم: ٧٣]؛ فالمكانُ يُرادِفُ المقامَ، والجُندُ: الأعوانُ؛ لأنَّ النَّدِيَّ أُريدَ به أهْلُه؛ فقُوبِلَ (أَحْسَنُ نَدِيًّا) بـ (أَضْعَفُ جُنْدًا)[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدّٗا﴾

- قولُه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى﴾ كلامٌ مُستأنفٌ، سِيقَ لبَيانِ حالِ المُهتدينَ إثْرَ بَيانِ حالِ الضَّالِّينَ[٥]. وقيل: عطْفٌ على الشَّرطيَّةِ المحكيةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨).

بعدَ القولِ، كأنَّه لمَّا بيَّنَ أنَّ إمهالَ الكافرِ وتَمتيعَه بالحياةِ الدُّنيا ليس لفضْلِه، أراد أنْ يُبيِّنَ أنَّ قُصورَ حظِّ المُؤمنِ منها ليس لِنَقْصِه، بل لأنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أراد به ما هو خيرٌ له، وعوَّضه منه[١]. وقيل: عطْفٌ على ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾؛ لِما تضمَّنَه ذلك من الإمهالِ المُفضي إلى الاستمرارِ في الضَّلالِ؛ فالمعنى على الاحتباكِ[٢]، أي: فلْيمدُدْ له الرَّحمنُ مَدًّا، فيَزدَدْ ضلالًا، ويمُدَّ للَّذين اهْتَدوا، فيَزْدادوا هُدًى[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾ كلامٌ مُستأنفٌ واردٌ من جِهَتِه تعالى؛ لبَيانِ فضْلِ أعمالِ المُهتدِينَ[٤]. وقيل: عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾، وهو ارتقاءٌ من بِشارتِهم بالنَّجاةِ إلى بشارتِهم برفْعِ الدَّرجاتِ[٥].

- و﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أيضًا صِفتانِ لمَحذوفٍ معلومٍ من المقامِ، أي: الأعمالُ الباقي نَعيمُها وخيرُها، وكان مُقْتضَى الظَّاهرِ في تَرتيبِ الوصفينِ: أنْ يُقدَّمَ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ على ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ﴾؛ لأنَّهما وإنْ كانا وصفينِ لموصوفٍ مَحذوفٍ، إلَّا أنَّ أعرَفَهما في وَصفيَّةِ ذلك المحذوفِ هو الصَّالحاتُ؛ لأنَّه قد شاعَ أنْ يُقالَ: الأعمالُ الصَّالحاتُ، ولا يُقال: الأعمالُ الباقياتُ، ولأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨).

(٢) الاحْتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَعَ الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ -كما هنا في هذِه الآيةِ- وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٧).

بقاءَها مُترتِّبٌ على صلاحِها، فلا جرَمَ أنَّ (الصَّالحاتِ) وصفٌ قام مَقامَ الموصوفِ، وأغنى عنه كثيرًا في الكلامِ، حتَّى صار لفظُ (الصَّالحات) بمنزلةِ الاسمِ الدَّالِّ على عمَلِ خيرٍ، وخُولِف مقتضَى الظَّاهرِ هنا، فقُدِّم (الباقياتُ) للتَّنبيهِ على أنَّ ما ذُكِر قبلَه إنَّما كان مفصولًا لأنَّه ليس بباقٍ، وهو المالُ والبنونَ، كقولِه تعالَى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، فكان هذا التَّقديمُ قاضيًا لحقِّ الإيجازِ لإغنائِه عن كلامٍ محذوفٍ، تقديرُه: أنَّ ذلك زائلٌ أو ما هو بباقٍ والباقياتُ مِن الصَّالحاتِ خيرٌ منه، فكان قولُه: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الْكَهْف: ٤٥] مفيدًا للزَّوالِ بطريقةِ التَّمثيلِ وهو مِن دلالةِ التَّضمُّنِ، وكان قولُه: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ﴾ مُفيدًا زوالَ غيرِها بطريقةِ الالتزامِ، فحصَل دلالتانِ غيرُ مطابقتيْنِ وهما أوقعُ في صناعةِ البلاغةِ، وحَصَل بثانِيَتِهما تأكيدٌ لمُفادِ الأولَى فجاءَ كلامًا مُؤكَّدًا مُوجَزًا[(١)].

- قولُه: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ فيه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضَميرِه؛ لتَشريفِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾، إنْ قيل: كيف قيلَ: ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾، كأنَّ لمُفاخراتِهم ثوابًا حتَّى يُجْعَلَ ثوابُ الصَّالحاتِ خيرًا منه؟!

أُجِيبَ بأنَّه: كأنَّه قيل: ثوابُهم النَّارُ، ثمَّ بنى عليه ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾؛ ففيه ضَرْبٌ من التَّهكُّمِ الَّذي هو أغيظُ للمُتَهددِ مِن أنْ يُقالَ له: عِقابُك النَّارُ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٣) و(١٦/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨).

فإنْ قيل: فما وجْهُ التَّفضيلِ في الخيرِ، كأنَّ لمَفاخرِهم شركًا فيه؟

قيل: هذا من وجيزِ كلامِهم، يقولونَ: الصَّيفُ أحرُّ من الشِّتاءِ، أي: أبلَغُ من الشِّتاءِ في برْدِه، وإمَّا لمُجرَّدِ الزِّيادةِ. وقيل: إنَّ اسمَ التَّفضيلِ ذُكِرَ على سَبيلِ المُشاكَلةِ[(١)] لكلامِهم السَّابقِ[(٢)]. وأيضًا: فإنَّ صِيغةَ التَّفضيلِ قد تُطلَقُ في القُرآنِ واللُّغةِ ويُرادُ بها مُجرَّدُ الاتِّصافِ، لا تَفضيلُ شيءٍ على شيءٍ[(٣)].

- وفيه تَكريرُ الخيرِ؛ لمَزيدِ الاعتناءِ ببَيانِ الخيريَّةِ، وتأكيدٍ لها[(٤)].

---

(١) المُشاكَلة: لغةً: هي المُوافقةُ والمضاهاة والمُشابَهة. وفي اصطلاح البلاغيِّين هي: ذِكرُ الشيء بلفظِ غيرِه؛ لوُقوعِه في صُحبتِه تَحقيقًا أو تقديرًا؛ فمثالُ التَّحقيقي قولُه عز وجلَّ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]؛ إذ الجزاءُ على السيِّئةِ ليس بسيِّئةٍ في الحقيقةِ، لكنَّه سُمِّيَ سَيِّئةً للمشاكلةِ اللفظيَّة. ومثالُ التقديريِّ قولُه تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]، فـ﴿صِبۡغَةَ﴾ مصدر مؤكِّد لـ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، والمعنى: تطهيرُ الله؛ لأنَّ الإيمانَ يُطهِّر النفوسَ، وأصل ذلك: أنَّ النصارى كانوا يَغمِسون أولادَهم في ماءٍ أصفرَ يُسمُّونه المعموديَّة، ويقولون: إنَّه تطهيرٌ لهم، فعبَّر عن الإيمانِ باللهِ بصِبغةِ اللهِ؛ للمشاكلةِ بهذه القرينةِ الحالية. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٧٣٧)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٢- ٣٢٣)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٢٤- ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨).

وقال الشنِّقيطي: (ويَظهَرُ لي في الآيةِ جَوابٌ آخَرُ أقرَبُ مِن هذا، وهو أنَّا قَدَّمْنا أنَّ القُرآنَ والسُّنَّةَ الصَّحيحةَ دلَّا على أنَّ الكافِرَ مُجازًى بعَمَلِه الصَّالحِ في الدُّنيا؛ فإذا بَرَّ والِدَيه، ونَفَّس عن المكروبِ، وقَرَى الضَّيفَ، ووصَلَ الرَّحِمَ -مَثَلًا- يَبتغي بذلك وَجْهَ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ يُثيبُه في الدُّنيا، كما قدَّمْنا دَلالةَ الآياتِ عليه، وحديثَ أنسٍ عندَ مُسلِمٍ [٢٨٠٨]، فثوابُه هذا الرَّاجِعُ إليه مِن عَمَلِه في الدُّنيا، هو الذي فَضَّلَ اللهُ عليه في الآيةِ ثوابَ المؤمِنينَ، وهذا واضِحٌ لا إشكالَ فيه. والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨).

الآيات (٧٧-٨٤)

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: أي: تُغويهم إغواءً، وتُزعِجُهم إزعاجًا، وتحرِّكهم، وأصلُ (أزز): يدُلُّ على التَّحريكِ والإزعاجِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن مقالةٍ أُخرَى مِن مقالاتِ الكفَّارِ الباطلةِ، ويردُّ على قائلِها أبلغَ ردٍّ، فيقول: انظُرْ مُتعَجِّبًا -يا مُحمَّدُ- إلى هذا الذي كفَرَ بآياتِ القُرآنِ، وقال: لأُعطَينَّ في الآخرةِ -إن كانت حقًّا- أموالًا وأولادًا.

ثمَّ يردُّ الله عليه، فيقول: أطَّلَع الغَيبَ فرأى أنَّ له مالًا ووَلَدًا، أم له عندَ اللهِ عَهدٌ بذلك؟! ليس الأمرُ كما يَزعُمُ ذلك الكافرُ، سنكتُبُ ما يقولُ مِن كَذِبٍ وافتراءٍ على اللهِ، ونَزيدُه في الآخرةِ عذابًا زائدًا؛ بسَبَبِ كَذِبِه وافترائِه، ونَسلُبُ مالَه وولَدَه في الدُّنيا بمَوتِه عن جميعِ ذلك، ويأتينا يومَ القيامةِ فَردًا وَحدَه، لا مالَ معه ولا ولَدَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن تعززِ المشركينَ بأصنامِهم، فيقول: واتخذَ المُشرِكونَ آلهةً يَعبُدونَها من دونِ الله؛ لينالوا بها العِزَّ، وتمنَعَهم من عذابِ اللهِ. ويردُّ عليهم، فيقولُ سبحانَه: ليس الأمرُ كما يَزعُمونَ؛ فستكفُرُ هذه الآلهةُ في الآخرةِ بعِبادةِ المشركينَ لها، وتكونُ بخلافِ ما ظنُّوا.

ثمَّ يُبيِّنُ الله عزَّ وجلَّ استحواذَ الشياطينِ على هؤلاء الكافرينَ، فيقولُ: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- أنَّا سلَّطْنا الشَّياطينَ على الكافرينَ؛ لتُغويَهم وتدفَعَهم إلى الكُفرِ والمعاصي دفعًا، فلا تستعجِلْ بطَلَبِ وُقوعِ العذابِ على هؤلاء الكافرينَ؛ إنما نؤخِّرُ تَعذيبَهم إلى أجَلٍ معدودٍ مَضبوطٍ، فإذا جاءَ الوقتُ المحدَّدُ لذلك أهلَكْناهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ الدَّلائِلَ على صِحَّةِ البَعثِ، ثمَّ أورد شُبهةَ المُنكِرينَ، وأجاب عنها؛ أورد عنهم الآنَ ما ذكَروه على سبيلِ الاستهزاءِ؛ طعنًا في القَولِ بالحَشرِ[1].

وأيضًا فهو تفريعٌ على قولِه: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦] وما اتَّصلَ به من الاعتراضِ والتَّفريعاتِ، والمُناسبةُ: أنَّ قائلَ هذا الكلامِ كان في غُرورٍ مثْلِ الغُرورِ الَّذي كان فيه أصحابُه، وهو غُرورُ إحالةِ البعثِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٨).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن خَبَّابِ بنِ الأرَتِّ رَضِيَ الله عنه، قال: (جئتُ العاصَ بنَ وائلٍ السَّهميَّ أتقاضاه حقًّا لي عندَه، فقال: لا أُعْطيك حتى تَكفُرَ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقلتُ: لا حتى تموتَ ثمَّ تُبعَثَ، قال: وإنِّي لميتٌ ثمَّ مَبعوثٌ؟! قلتُ: نعم، قال: إنَّ لي هناك مالًا وولدًا فأقضيكه! فنزلت هذه الآيةُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾)[١].

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾.

أي: انظُرْ مُتعَجِّبًا -يا محمَّدُ[٢]- إلى هذا الذي كفَرَ بآياتِ القُرآنِ، وقال: واللهِ ليعطينِّي اللهُ في الآخرةِ -على تقديرِ قيامِها- مالًا وأولادًا، مع كُفرِه باللهِ وتكذيبِه بآياتِه، ومِن جُملتِها آياتُ البعثِ بعدَ الموتِ[٣]؟!

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾.

أي: هل عَلِمَ هذا الكافِرُ -المتألِّي على اللهِ- عِلمَ الغَيبِ، فعَلِمَ أنَّ له في الآخرة مالًا وولدًا، أم له عهدٌ عند اللهِ بأنَّه سيعطيه ذلك[٤]؟!

---

(١) رواه البخاري (٤٧٣٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٩٥).

(٢) ممن اختار أنَّ الخطابَ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١٧).

وقيل: الخِطابُ لكُلِّ مَن يصلُحُ للخطابِ، فلم يُرَدْ به مُعَيَّنٌ. وممن قال بذلك: ابن عاشور. وجوَّز أن يكون خطابًا للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤١-٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٩).

قال السعدي: (هذه الآيةُ، وإن كانت نازلةً في كافرٍ مُعَيَّن، فإنَّها تشمَلُ كُلَّ كافرٍ زعَم أنَّه على الحَقِّ، وأنَّه مِن أهلِ الجنَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٠)، ((أضواء البيان)) =

﴿كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ٧٩﴾.

﴿كَلَّا﴾.

أي: ليس الأمرُ على ما قالَ هذا الكافرُ مِن أنَّه يُؤْتَى المالَ والولدَ؛ فهو مخطِئٌ فيما يقولُه ويتَمَنَّاه(١).

﴿سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ﴾.

= للشنقيطي (٣/ ٥٠٧).

ممن اختار المعنى المذكورَ: الزمخشري، والبيضاوي، وابنُ كثير، والعُليمي، والشوكاني، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٧).

قال الشنقيطي: (أظهرُ الأقوالِ عندي في معنى العَهدِ في قَولِه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ [مريم: ٧٨] أنَّ المعنى: أم أعطاه اللهُ عهدًا أنَّه سيفعَلُ له ذلك؛ بدَليلِ قَولِه تعالى في نظيرِه في سورة «البقرة»: ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ﴾ [البقرة: ٨٠]، وخيرُ ما يُفسَّرُ به القرآنُ: القُرآنُ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٥٠٧).

وقيل: اتخاذُ العهدِ معناه بالإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ. وممن اختاره: ابنُ جرير، ومكي، وابنُ عطية، والثعالبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢١)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٥٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠).

قال ابنُ جرير: (﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ [مريم: ٧٨] يقولُ: أم آمنَ باللهِ، وعَمِلَ بما أُمِرَ به، وانتهى عمَّا نهاه عنه، فكان له بذلك عند الله عهدًا أن يؤتيَه ما يقولُ مِن المالِ والولَدِ؟!). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢١).

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٨)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١٢).

وقال القرطبي: (﴿كَلَّا﴾ ردٌّ عليه، أي: لم يَكُنْ ذلك؛ لم يطَّلِعِ الغيبَ، ولم يتَّخِذْ عندَ الرَّحمنِ عهدًا). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٦). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣١٧).

أي: ستَكتُبُ الملائكةُ الحَفَظةُ بأمْرِنا ما يقولُ هذا الكافِرُ المفتري على اللهِ أنَّه سيُعطيه في الآخرةِ مالًا وولدًا، وسنُجازيه في الآخرةِ على كَذِبِه وكُفرِه[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

وقال سُبحانه: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۞ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۞ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۞ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩ - ١٢].

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾.

أي: ونزيدُ هذا الكافِرَ في الآخرةِ عذابًا زائدًا؛ بسَبَبِ قَولِه الكَذِبَ على رَبِّه[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۞ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ٨٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٧).

وقال البقاعي: (﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾ باستدراجِه بأسبابِه مِن كثرةِ النِّعَمِ، مِن الأموالِ والأولادِ المحَبَّبَةِ له في الدنيا، المعَذِّبةِ له فيها بالكَدحِ في جَمعِها، والمُخاصَمةِ عليها المُوجِبةِ له التَّمادي في الكُفرِ المُوجِبِ لعذابِ الآخرةِ؛ وإتيانِ بَعضِه في إثرِ بَعضٍ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٢٤٣).

أي: ونَسلُبُ مالَه وولَدَه في الدُّنيا بمَوتِه عن جميعِ ذلك، فيصيرُ ذلك إلينا دونَه، ويأتينا يومَ القيامةِ وَحدَه لا مالَ معه ولا ولَدَ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

وقال سُبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾.

أي: واتخذَ المُشرِكونَ أوثانًا يَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ؛ مِن أجلِ أن ينالوا بها العِزَّ، وتمنَعَهم مِن عذابِ اللهِ، وتُقرِّبَهم إليه، وتنصُرَهم، وتشفَعَ لهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٧، ٥٠٨).

وقيل: نحرِمُه ما تمنَّاهُ في الآخرةِ مِن مالٍ وولَدٍ، ونجعلُه لغيرِه مِن المسلمينَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٩).

﴿كَلَّا﴾.

أي: ليس الأمرُ كما ظنُّوا مِن أنَّ آلهتَهم تكونُ لهم عزًّا؛ فهي لا تستطيعُ أن تمنَعَهم من العذابِ، أو تنصُرَهم، أو تشفَعَ لهم، أو تقرِّبَهم إلى اللهِ(١).

كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

أي: ولكن ستَكفُرُ تلك المعبوداتُ يومَ القيامةِ بعبادةِ المُشرِكينَ لها، وتتبرَّأُ منهم، وتكونُ بخلافِ ما ظنُّوا فيهم، فتكونُ أعوانًا عليهم في خصومتِهم وتكذيبِهم والتبرؤِ منهم، ويَؤولُ بهم ذلك إلى الذلِّ والهوانِ(٢)!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ * وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٨٦، ٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٣، ٦٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٩، ٥١٠).

وقيل: المرادُ أنَّ العابدينَ هم الذين يكفرونَ بعبادتِهم شركاءَهم، وينكرونَها. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٩).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ [الفرقان: ١٧ - ١٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص: ٦٢-٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ حالَ الكُفَّارِ مع الأصنامِ في الآخرة؛ ذكَرَ بَعدَه حالَهم مع الشياطينِ في الدُّنيا؛ فإنَّهم يتولَّونَهم، وينقادونَ لهم، فقال[1]:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٣/ ١٤١).

أي: ألم تَرَ[١] -يا محمَّدُ- أنَّا سلَّطْنا الشَّياطينَ على الكافرينَ باللهِ، فتهيِّجُهم بالإغواءِ والتَّزيينِ إلى الكُفرِ والمعاصي، وتُزعِجُهم إليها إزعاجًا[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: فلا تَستعجِلْ -يا محمَّدُ- بطَلَبِ وُقوعِ الهلاكِ والعذابِ على أولئك الكافرينَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤، ٣٥].

---

(١) قال ابنُ عطية: (الرؤيةُ في الآيةِ رؤيةُ القلبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٥٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١١).

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾.

أي: إنَّما نَعُدُّ الأعوامَ والشُّهورَ والأيَّامَ، فنُمهِلُهم ونؤخِّرُ تَعذيبَهم إلى أجَلٍ معدودٍ مَضبوطٍ، فإذا جاءَ الوقتُ المحدَّدُ لذلك أهلَكْناهم(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ما عَلَّقَ العبدُ رجاءَه وتوكُّلَه بغيرِ اللهِ إلَّا خاب مِن تلك الجهةِ، ولا استنصرَ بغيرِ اللهِ إلَّا خُذِلَ؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ هذا من عُقوبةِ الكافرينَ أنَّهم لَمَّا لم يعتَصِموا باللهِ ولم يتمَسَّكوا بحبلِ اللهِ، بل أشركوا به، ووالَوا أعداءَه مِن الشياطينِ؛ سَلَّطهم عليهم، وقيَّضَهم لهم، فجُعِلَت الشياطينُ تؤزُّهم إلى المعاصي أزًّا، وتُزعِجُهم إلى الكُفرِ إزعاجًا، فيُوسوِسونَ لهم، ويُوحون

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١٢).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ في الجملة: ابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٤٧).

وقيل: المرادُ: ونحن نَعُدُّ أعمالَهم كلَّها ونُحصيها حتى أنفاسَهم؛ لنُجازيَهم على جميعِها، ونؤخِّرُ إهلاكَهم ليزدادوا إثمًا، ولم نَترُك تعجيلَ هلاكِهم لخيرٍ أردناه بهم. وممَّن اختار هذا المعنى: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٨).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وطاوس، ومقاتل، وأبو جعفر محمد بنُ علي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٤٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٥٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢٩).

إليهم، ويُزَيِّنونَ لهم الباطِلَ، ويقبِّحونَ لهم الحَقَّ، فيدخُلُ حُبُّ الباطِلِ في قلوبِهم ويتشَرَّبُها، فيسعَى فيه سعيَ المحِقِّ في حَقِّه، فينصُرُه بجُهدِه ويُحارِبُ عنه، ويجاهدُ أهلَ الحَقِّ في سبيلِ الباطِلِ، وهذا كلُّه جزاءً له على توليِّه مَن ولِيَه، وتوليِّه لعدُوِّه؛ جُعِلَ له عليه سلطانٌ، وإلَّا فلو آمَن بالله وتوكَّلَ عليه، لم يكُنْ له عليه سلطانٌ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾[1] [النحل: ٩٩-١٠٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ دلالةٌ على أن المُخْبِرَ عن خَبَرٍ يحصلُ في المستقبلِ لا يكون إلَّا بطريقينِ: إمَّا اطِّلاعُه على الغيبِ -وهو العلمُ بما سيكونُ-، وإمَّا أنْ يكونَ قد اتَّخَذَ عندَ الرحمنِ عهدًا -واللهُ مُوْفٍ بعهدِه-؛ فالأولُ عِلْمٌ بالخبرِ، والثاني عِلْمٌ بالأمرِ، الأولُ عِلْمٌ بالكلماتِ الكونيةِ، والثاني عِلْمٌ بالكلماتِ الدينيةِ[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا * كَلَّا﴾ في هذه الآيةِ الكَريمةِ رَدٌّ على العاصِ بنِ وائلٍ السَّهميِّ قَولَه: إنَّه يؤتى يومَ القيامةِ مالًا وولدًا، بالدَّليلِ المعروفِ عندَ الأصوليِّينَ بـ (السَّبرِ والتَّقسيمِ)[3]، وضابِطُ هذا الدَّليلِ العظيمِ أنَّه مُتركِّبٌ مِن أصلَينِ:

أحدُهما: حَصرُ أوصافِ المحَلِّ بطَريقٍ مِن طُرُقِ الحَصرِ، وهو المعبَّرُ عنه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٣٢).

(٣) ويُعرَفُ عندَ الجدَليِّينَ بـ (التَّقسيمِ والتَّرديدِ)، وعندَ المنطقيِّينَ بـ (الشَّرطيِّ المنفصِلِ).

بالتَّقسيمِ عند الأصوليِّينَ[١].

والثَّاني: هو اختيارُ تلك الأوصافِ المحصورةِ، وإبطالُ ما هو باطِلٌ منها، وإبقاءُ ما هو صحيحٌ منها، وهذا الأخيرُ هو المعبَّرُ عنه عندَ الأصوليِّينَ بـ (السَّبرِ)[٢]، والتَّقسيمُ الصَّحيحُ في هذه الآيةِ الكريمةِ يحصُرُ أوصافَ المحَلِّ في ثلاثةٍ، والسَّبرُ الصَّحيحُ يُبطِلُ اثنينِ منها ويصَحِّحُ الثالِثَ، وبذلك يَتِمُّ إلقامُ العاصِ بنِ وائلٍ الحَجَرَ في دَعواه أنَّه يُؤتى يومَ القيامةِ مالًا وولدًا.

أمَّا وَجهُ حَصرِ أوصافِ المحَلِّ في ثلاثةٍ، فهو أنَّا نَقولُ: قولُك إنَّك تُؤتَى مالًا وولدًا يومَ القيامةِ لا يخلو مُستَنَدُك فيه مِن واحدٍ مِن ثلاثةِ أشياءَ:

الأوَّلُ: أن تكونَ اطَّلَعتَ على الغَيبِ، وعَلِمتَ أنَّ إيتاءَك المالَ والولَدَ يومَ القيامةِ ممَّا كَتَبه اللهُ في اللَّوحِ المحفوظِ.

والثَّاني: أن يكونَ اللهُ أعطاك عَهدًا بذلك، فإنَّه إن أعطاك عَهدًا لن يُخلِفَه.

الثالث: أن تكونَ قُلتَ ذلك افتراءً على اللهِ مِن غَيرِ عَهدٍ، ولا اطِّلاعِ غَيبٍ.

وقد ذكَر تعالى القِسمَينِ الأوَّلَينِ في قَولِه: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ مُبطِلًا لهما بأداةِ الإنكارِ، ولا شَكَّ أنَّ كِلا هَذينِ القِسمَينِ باطِلٌ؛ لأنَّ العاصِ المذكورَ لم يطَّلِعِ الغَيبَ، ولم يتَّخِذْ عند الرَّحمنِ عَهدًا؛ فتعَيَّنَ القِسمُ الثَّالِثُ، وهو أنَّه قال ذلك افتراءً على اللهِ، وقد أشار تعالى إلى هذا القِسمِ الذي هو الواقِعُ بحَرفِ الزَّجرِ والرَّدعِ، وهو قَولُه: ﴿كَلَّا﴾، أي: ليس الأمرُ كذلك، لم يطَّلِعِ الغَيبَ، ولم يتَّخِذْ عندَ الرَّحمنِ عَهدًا، بل قال ذلك افتراءً على اللهِ؛ لأنَّه

(١) ويُعرَفُ عندَ الجَدليِّينَ بـ (التَّقسيمِ) أيضًا، وعندَ المنطقيِّينَ بـ (الشَّرطيِّ المنفصِلِ).

(٢) ويُعرفُ عندَ الجَدليِّينَ: بـ (التَّرديدِ)، وعندَ المنطقيِّينَ بـ (الاستثناءِ في الشَّرطيِّ المنفصِلِ).

لو كان أحَدُهما حاصِلًا لم يَستوجِبِ الرَّدعَ عن مقالتِه كما ترى[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾ فيه سؤالٌ: لم قال: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ﴾ بسينِ التَّسويفِ، وهو كما قاله، كُتِبَ مِن غيرِ تأخيرٍ؛ قال تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨]؟

الجوابُ فيه مِن أوجهٍ:

الأول: سيظهرُ له، ويعلَمُ أنَّا كتَبْنا.

الثاني: أنَّ المتوعِّدَ يقولُ للجاني: سوف أنتَقِمُ منك، وإن كان في الحالِ في الانتقامِ، ويكونُ غَرَضُه من هذا الكلام محضَ التهديدِ، فكذا هاهنا[٢].

الثالث: سَننتقِمُ منه انتقامَ مَن كتَبَ جريمةَ العدُوِّ وحفِظَها عليه، يعني: أنَّه لا يُخِلُّ بالانتصارِ، وإنْ تطاولَ به الزَّمانُ واستأخَرَ[٣].

الرابع: لتحقيقِ أنَّ ذلك واقعٌ لا مَحالةَ، كقولِه تعالى: ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓ﴾[٤] [يوسف: ٩٨].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾ الاتخاذُ: جعْلُ الشَّخصِ الشَّيءَ لنَفسِه، فجُعِلَ الاتخاذُ هنا الاعتقادَ والعبادةَ. وفي فِعلِ الاتخاذِ إيماءٌ إلى أنَّ عقيدتَهم في تلك الآلهةِ شَيءٌ مُصطلحٌ عليه، مختلقٌ لم

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٩١، ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٢).

يأمر اللهُ به، كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾[١] [الصافات: ٩٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الحَقَّ يقتضي أن يتَّخِذوا اللهَ إلهًا؛ إذ بذلك تقرَّر الاعتِقادُ الحَقُّ مِن مبدأِ الخليقةِ، وعليه دَلَّت العُقولُ الرَّاجِحةُ[٢].

٦- في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ في إرسالِ الشَّياطينِ، وهو دليلٌ على أنَّ الشَّيطانَ مخلوقٌ نِقمةً لِمَن حَقَّتْ عليه كلمةُ ربِّه؛ يُزعجُه إلى معاصيه وإلى الكُفرِ، بإرسالِ ربِّه عليه[٣].

٧- الإرسالُ في قولِه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ إرسالٌ كونيٌّ قَدَرِيٌّ، كإرسالِ الرِّياحِ، وليس بإرسالٍ دينيٍّ شرعيٍّ؛ فهو إرسالُ تسليطٍ، بخلافِ قولِه في المؤمنين: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]، فهذا السلطانُ المَنْفِيُّ عنه على المؤمنينَ هو الذي أرسلَ به جُندَه على الكافرينَ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٢).

- قولُه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ الاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ مُستعملٌ في التَّعجيبِ من كُفرِ هذا الكافرِ، والمقصودُ مِن الاستفهامِ: لفتُ الذِّهنِ إلى معرفةِ هذه القصَّةِ، أو إلى تذكُّرِها إنْ كان عالمًا بها، وعبَّرَ عنه بالموصولِ؛ لِما في الصِّلةِ من منشَأِ العجَبِ، ولا سيَّما قَولِه: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[1]؛ فالهمزةُ للتَّعجيبِ من حالِه، والإيذانِ بأنَّها من الغرابةِ والشَّناعةِ بحيث يجِبُ أنْ تُرى، ويُقضَى منها العجَبُ، والفاءُ للعطفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيه المقامُ، أي: أنظَرْتَ فرأيتَ الَّذي كفَرَ بآياتِنا الباهرةِ الَّتي حقُّها أنْ يؤمِنَ بها كلُّ مَن يُشاهِدُها[2]؟!

وقيل: لمَّا كانتِ الرُّؤيةُ أقْوَى سنَدِ الإخبارِ، اسْتُعْمِلَ (أَرَأَيْتَ) بمعنى الإخبارِ، والفاءُ للتَّعقيبِ، والمعنى: أخبِرْ بقصَّةِ هذا الكافرِ عقِبَ حديثِ أولئك[3].

٢- قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾

- قولُه: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ ردٌّ لكلمتِه الشَّنعاءِ، وإظهارٌ لبُطلانِها إثرَ ما أُشيرَ إليه بالتَّعجيبِ منها[4]، ولاختيارِ هذه الكلمةِ شأنٌ، والمعنى: أوَ قدْ بلَغَ من عظَمةِ شأنِه أنِ ارْتَقى إلى علْمِ الغيبِ الَّذي توحَّدَ به الواحدُ القهَّارُ[5]؟!

- أيضًا قولُه: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ جوابٌ لكلامِه على طريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ، بحمْلِ كلامِه على ظاهرِ عبارتِه من الوعْدِ بقضاءِ الدَّينِ من المالِ الَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٠).

سيجِدُه حينَ يُبْعَثُ؛ فالاستفهامُ في قولِه: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ إنكاريٌّ وتَعجيبيٌّ. و(اطَّلع): افتَعَلَ مِن طلَعَ؛ للمُبالغةِ في حُصولِ فعْلِ الطُّلوعِ وهو الارتقاءُ، ولذلك يقال لمكانِ الطُّلوعِ: مَطْلعٌ بالتَّخفيفِ، ومُطَّلعٌ بالتَّشديدِ[١].

- قولُه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ اخْتِيرَ هنا مِن أسمائِه الرَّحمنُ؛ لأنَّ استحضارَ مَدلولِه أجدَرُ في وفائِه بما عهِدَ به مِن النِّعمةِ المزعومةِ لهذا الكافرِ[٢]، ولأنَّ في ذكْرِ هذا الاسمِ تورُّكًا على المُشرِكين الَّذين قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[٣] [الفرقان: ٦٠].

- وفي قولِه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ فمُتعلِّقُ العهدِ محذوفٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، تَقديرُه: بأنْ يُعطِيَه مالًا وولدًا[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ في هذه الآيةِ والَّتي بعْدَها إيجازٌ؛ لأنَّه لو حُكِيَ كلامُه لطال[٥].

- في قولِه: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ جُرِّدَ الفعْلُ هاهنا لمعنى الوعيدِ، وأُكِّدَ بالمصدرِ ﴿مَدًّا﴾؛ دَلالةً على فرْطِ غضَبِه عليه[٦].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾

- قولُه: ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ كِنايةٌ عن لازِمِه، وهو الهلاكُ، والمقصودُ: تذكيرُه بالموتِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٩-١٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٦٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٦٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٠).

أو تَهديدُه بقُرْبِ هلاكِه[١]، وفيه بِشارةٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ونِكايةٌ وكَمَدٌ للعاصِ بنِ وائلٍ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ﴾؛ فضميرُ (اتَّخَذُوا) عائدٌ إلى الَّذين أشْرَكوا؛ لأنَّ الكلامَ جرَى على بعضٍ منهم[٣].

- قولُه: ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ أجْرَى على الآلهةِ ضَميرَ العاقلِ؛ لأنَّ المُشرِكين الَّذين اتَّخَذوهم توهَّمُوهم عُقلاءَ مُدبِّرينَ. وأخبَرَ عنها بالمصدرِ ﴿عِزًّا﴾؛ لتَصويرِ اعتقادِ المُشرِكين في آلهتِهم أنَّهم نفْسُ العِزِّ، أي: أنَّ مُجرَّدَ الانتماءِ لها يُكسِبُهم عِزًّا[٤].

٦- قوله تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾

- قولُه: ﴿كَلَّا﴾ ردْعٌ لهم عن ذلك الاعتقادِ الباطلِ، وإنكارٌ لوُقوعِ ما عَلَّقوا به أطماعَهم الفارغةَ[٥].

- الواوُ في قولِه: ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ ﴿وَيَكُونُونَ﴾ إمَّا أنْ ترجِعَ إلى ﴿ءَالِهَةً﴾، ويكونُ قولُه: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ في مُقابلةِ ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾، والمُرادُ: ضِدُّ العِزِّ، وهو الذُّلُّ والهوانُ، أي: يكونونَ عليهم ضِدًّا لِما قصَدوه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٦٣-١٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٠).

وأرادوهُ، كأنَّه قيل: ويكونونَ عليهم ذُلًّا، لا لهم عِزًّا، أو يكونونَ عليهم عونًا. ومعنى كونِ الآلهةِ عونًا عليهم: أنَّهم وَقودُ النَّارِ وحصَبُ جهنَّمَ، ولأنَّهم عُذِّبوا بسبَبِ عبادتِها، وإنْ رجعَتِ الواوُ في ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ و(يَكُونُونَ) إلى المُشرِكين؛ فالمعنى: ويكونونَ عليهم -أي: أعدائِهم- ضِدًّا، أي: كَفرةً بهم بعدَ أنْ كانوا يَعْبُدونها[1]، ويكونُ حرفُ الاستقبالِ للحُصولِ قريبًا، أي: سيكفُرُ المُشرِكون بعبادةِ الأصنامِ ويَدْخلون في الإسلامِ، ويكونونَ ضِدًّا على الأصنامِ؛ يَهْدِمون هياكِلَها ويلْعَنونها، فهو بِشارةٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ دِينَه سَيظهَرُ على دِينِ الكُفرِ. وفي هذه المُقابَلةِ طِباقٌ مرَّتينِ[2].

- قَولُه: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، وحَّد ﴿ضِدًّا﴾، وإن كان خبرًا عن جَمعٍ، ولم يقُلْ: (أضدادًا)؛ ووجهُ ذلك: أنَّ لفظَ (الضِّدِّ) هو مصدرٌ في الأصلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١-٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٤).

والطِّباق: هو الجمعُ بينَ مُتضادَّينِ معَ مراعاةِ التقابُلِ، كالبياضِ والسوادِ، والليلِ والنهارِ، وهو قسمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِن الطباقِ اللفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَق بينَ الضَّحكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥-١٦]؛ معناه: ربُّنا يعلمُ إنَّا لصادقونَ. ومنه: طباق ظاهرٌ، وهو ما كان وجهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خَفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّديَّةُ في الصورةِ متوهَّمةٌ، فتبدو المطابقةُ خفيَّةً؛ لتعلُّقِ أحدِ الركنين بما يقابلُ الآخَرَ تعلُّقَ السببيةِ أو اللزومِ، كقولِه تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النارِ يستلزمُ الإحراقَ المضادَّ للإغراقِ، ومنه: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القصاصِ: القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أملحِ الطِّباقِ وأخفاه. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

والمصادرُ مُوَحَّدةٌ مُذكَّرةٌ. أو وحَّدَه إشارةً إلى اتِّفاقِ كَلمتِهم، بحيثُ إنَّهم لِفَرطِ تضامُنِهم وتوافُقِهم كشيءٍ واحدٍ. وقيل: هو مفردٌ في معنى الجمعِ[(١)].

٧- قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ لجوابِ سُؤالٍ يَجيشُ في نفْسِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ من إيغالِ الكافرينَ في الضَّلالِ: جماعتِهم وآحادِهم، وما جرَّهُ إليهم مِن سُوءِ المصيرِ، ابتداءً مِن قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾، وما تخلَّلَ ذلك مِن ذكْرِ إمهالِ اللهِ إيَّاهم في الدُّنيا، وما أعَدَّ لهم مِن العذابِ في الآخرةِ، وهي مُعترِضةٌ بينَ جُملةِ ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ [مريم: ٨١] وجُملةِ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [مريم: ٨٥]. وأيضًا هي كالتَّذييلِ لتلك الآياتِ والتَّقريرِ لمضمونِها؛ لأنَّها تَستخلِصُ أحوالَهم، وتتضمَّنُ تَسليةَ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن إمهالِهم، وعدَمِ تَعجيلِ عقابِهم[(٢)].

- والمُرادُ بقولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا...﴾ تَعجيبُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعدَ الآياتِ الَّتي ذُكِرَ فيها العُتاةُ والمَردةُ من الكُفَّارِ، وأقاويلُهم، ومُعاندتُهم للرُّسلِ، واستهزاؤُهم بالدِّينِ: مِن تَماديهم في الغيِّ، وإفراطِهم في العنادِ، وتَصميمِهم على الكُفرِ، واجتماعِهم على دفْعِ الحقِّ بعدَ وُضوحِه، وانتفاءِ الشَّكِّ عنه، وانهماكِهم لذلك في اتِّباعِ الشَّياطينِ وما تُسَوِّلُ لهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٧).

وفيه تَنبيهٌ على أنَّ جميعَ ذلك منهم بإضلالِ الشَّياطينِ وإغوائِهم، لا لأنَّ له مُسوِّغًا ما في الجُملةِ[١]؛ فقولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهامٌ تَعجيبيٌّ، ومثْلُه شائعٌ في كلامِ العربِ؛ يَجْعلون الاستفهامَ على نفْيِ فعْلٍ، والمُرادُ حُصولُ ضِدِّه بحَثِّ المُخاطَبِ على الاهتمامِ بتحصيلِه، أي: كيف لم تَرَ ذلك. ونُزِّلَ إرسالُ الشَّياطينِ على الكافرين -لاتِّضاحِ آثارِه- مَنزلةَ الشَّيءِ المَرئيِّ المُشاهَدِ؛ فوقَعَ التَّعجيبُ مِن مَرآهُ بقولِه: أَلَمْ تَرَ ذلك[٢].

- قولُه: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ إمَّا حالٌ مُقدَّرةٌ مِن ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، أو استئنافٌ وقَعَ جَوابًا عمَّا نشَأَ من صدْرِ الكلامِ؛ كأنَّه قيل: ماذا يفعَلُ الشَّياطينُ بهم حينئذٍ؟ فقيل: تؤُزُّهم، أي: تُغْريهم، وتُهيِّجُهم على المعاصي تَهييجًا شديدًا بأنواعِ الوساوسِ والتَّسويلاتِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ شبَّهَ اضطرابَ اعتقادِهم، وتناقُضَ أقوالِهم، واختلاقَ أكاذيبِهم: بالغَليانِ في صُعودٍ وانخفاضٍ، وفرقعةٍ وسُكونٍ[٤].

- وإرسالُ الشَّياطينِ عليهم: تَسخيرُهم لها، وعدَمُ انتفاعِهم بالإرشادِ النَّبويِّ المُنقِذِ من حبائلِها، وذلك لكُفرِهم وإعراضِهم عنِ استماعِ مواعظِ الوحيِ. وللإشارةِ إلى هذا المعنى عَدَلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وجعَلَ ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ حالًا مُقيِّدًا للإرسالِ؛ لأنَّ الشَّياطينَ مُرسَلةٌ على جميعِ النَّاسِ، ولكنَّ اللهَ يحفَظُ المُؤمِنين من كيدِ الشَّياطينِ على حسَبِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٥-١٦٦).

قُوَّةِ الإيمانِ، وصلاحِ العملِ. وفرَّعَ على هذا الاستئنافِ وهذه التَّسليةِ قولَه: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ الفاءُ في قولِه: ﴿ فَلَا ﴾؛ للإشعارِ بكونِ ما قبْلَها مَظنَّةً لوُقوعِ المَنهيِّ عنه، مُحوِجةً إلى النَّهيِ[٢].

- وعبَّرَ بـ ﴿تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ مُعدًّى بحرفِ الاستعلاءِ (على)؛ إكرامًا للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بأنْ نُزِّلَ منزلةَ الَّذي هلاكُهم بيَدِه، فنُهِيَ عن تَعجيلِه بهلاكِهم. وذلك إشارةٌ إلى قَبولِ دُعائِه عندَ ربِّه، فلو دعا عليهم بالهلاكِ لَأهلَكَهم اللهُ؛ كيْلَا يرُدَّ دعوةَ نَبيِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ تعليلٌ لمُوجبِ النَّهيِ ببَيانِ اقترابِ هلاكِهم[٤]، وأفادتْ جُملةُ ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ تعليلَ النَّهيِ عن التَّعجيلِ عليهم؛ لأنَّ (إنَّما) مُركَّبةٌ من (إنَّ) و(ما)، و(إنَّ) تفيدُ التَّعليلَ. وفي هذا إنذارٌ باقترابِ استئصالِهم[٥].

- و﴿إِنَّمَا ﴾ للقصْرِ، أي: ما نحنُ إلَّا نعُدُّ لهم، وهو قصْرُ موصوفٍ على صِفَةٍ قصْرًا إضافيًّا، أي: نعُدُّ لهم، ولسْنا بناسينَ لهم كما يظنُّون، أو لسْنا بتاركِينهم من العذابِ، بل نُؤخِّرُهم إلى يومٍ موعودٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٥-١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾، وقال في سُورةِ (الأحقافِ): ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ ولعلَّ سبَبَ الاختلافِ بينَ هذه الآيةِ وبينَ ما في سُورةِ (الأحقافِ): أنَّ المُرادَ هنا استعجالُ الاستئصالِ والإهلاكِ، وهو مُقدَّرٌ كونُه على يَدِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فلذلك قيل هنا: ﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾، أي: انتظِرْ يومَهم الموعودَ، وهو يومُ بدرٍ؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴾، أي: نُنْظِرُهم ونُؤجِّلُهم، وأنَّ العذابَ المقصودَ في سُورةِ (الأحقافِ) هو عذابُ الآخرةِ؛ لوُقوعِه في خلالِ الوعيدِ لهم بعذابِ النَّارِ؛ لقولِه هنالك: ﴿ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ * فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ ﴾[1] [الأحقاف: ٣٤، ٣٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٦).

الآيات (٨٥-٩٥)

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا
يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾
لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ
ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ
مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ
ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَفْدًا﴾: أي: رُكبانًا، واحِدُهم وافِدٌ، فالوافدُ في الغالبِ يكونُ راكِبًا، يُقالُ: وَفَدتُ على فُلانٍ: إذا قَدِمتَ عليه، وأصلُ (وفد): يدُلُّ على إشرافٍ وطُلوعٍ[(١)].

﴿وِرْدًا﴾: أي: مُشاةً عِطاشًا، وأصلُه: الورودُ على الماءِ، والواردُ على الماءِ يكونُ عطشانَ، وأصلُ (ورد): يدلُّ على المُوافاةِ إلى الشَّيءِ[(٢)].

﴿إِدًّا﴾: أي: عَظيمًا مُنكَرًا، وأصلُ (أدد): يدُلُّ على عِظَمِ الشَّيءِ وشِدَّتِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٩٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٦).

﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾: أي: يتشَقَّقْنَ ويَتصدَّعْنَ، وأصلُ (فطر): يدلُّ على فَتحِ شَيءٍ، وإبرازِه[١].

﴿وَتَخِرُّ﴾: أي: تَسقُطُ، وأصلُ (خرر): يدلُّ على اضطرابٍ، وسُقوطٍ مع صَوتٍ[٢].

﴿هَدًّا﴾: الهَدُّ: الهدمُ له وقعٌ، وسُقوطُ شَيءٍ ثَقيلٍ، وأصلُ (هدد): يدُلُّ على كَسرٍ وهَدمٍ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله سبحانَه عاقبةَ المتقينَ، وعاقبةَ المجرمينَ يومَ القيامةِ، فيقول: اذكُرْ -يا مُحمَّدُ- يومَ نَجمَعُ المتَّقينَ إلى الرَّحمنِ وإلى دارِ كرامتِه راكبينَ مُكَرَّمينَ، ونسوقُ الكافرينَ إلى النَّارِ مُشاةً عِطاشًا، لا يملِكُ هؤلاء الكُفَّارُ الشَّفاعةَ لأنفُسِهم ولا لأحدٍ، إنَّما يَملِكُها مَنِ اتخَذَ عند الرَّحمنِ عَهدًا بذلك، وهم المؤمِنونَ باللهِ ورُسُلِه.

ثمَّ يحكي الله تعالى أقوالًا أخرى، مِن أقوالِ الكافرينَ الباطلةِ، فيقولُ: وقال هؤلاء الكُفَّارُ: اتخذَ الرَّحمنُ ولَدًا! لقد جِئتمُ شَيئًا عظيمًا مُنكرًا، تكاد السَّمواتُ يتشقَّقْنَ مِن فظاعةِ ذلكم القَولِ، وتتصَدَّعُ الأرضُ، وتَسقُطُ الجبالُ سُقوطًا سريعًا فتتَفتَّتْ؛ غضبًا لله وإجلالًا له سُبحانَه؛ لِنسبَتِهم إليه الولدَ -تعالى اللهُ عن ذلك

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦، ٣٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٤).

عُلُوًّا كبيرًا- وما يصِحُّ للرَّحمنِ ولا يليقُ بعَظَمتِه أن يتَّخِذَ ولَدًا، فما مِن أحدٍ مِن أهلِ السَّمواتِ، ومِن أهل الأرضِ، إلَّا سيأتي الرَّحمنَ يومَ القيامةِ ذَليلًا خاضِعًا مُقِرًّا له بالعبوديَّةِ، لقد أحصى اللهُ سُبحانه وتعالى خَلْقَه كُلَّهم، وعَلِمَ عَدَدَهم، فلا يخفَى عليه أحَدٌ منهم، وسوف يأتي كُلُّ فَردٍ مِن الخَلقِ رَبَّه يومَ القيامةِ وَحدَه، لا مالَ له ولا ولَدَ معه ولا نصيرَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾.

أي: اذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ القيامةِ حين نجمعُ الذين اتَّقَوا اللهَ بامتثالِ ما أمرَ، واجتنابِ ما نهى، فنقودُهم إلى الرَّحمنِ راكبينَ في رِفعةٍ وعلوٍّ، فيَقدَمونَ إلى جنَّتِه، ومحَلِّ ضِيافتِه، ودارِ كرامتِه ورِضوانِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣].

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما يدُلُّ على كرامةِ أوليائِه؛ أتبَعَه ما يدُلُّ على إهانةِ أعدائِه، فقال[2]:

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥١)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٧).

أي: ونسوقُ الكُفَّارَ والعُصاةَ إلى جَهنَّمَ عِطاشًا مُشاةً؛ إذلالًا لهم[١].

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا كان يومُ القيامةِ أذَّنَ مُؤذِّنٌ: تتبَعُ كُلُّ أمَّةٍ ما كانت تعبُدُ، فلا يبقَى مَن كان يعبُدُ غيرَ اللهِ، مِن الأصنامِ والأنصابِ إلَّا يتساقطونَ في النَّارِ، حتى إذا لم يبقَ إلَّا مَن كان يعبُدُ اللهَ، بَرٌّ أو فاجِرٌ وغُبَّراتُ[٢] أهلِ الكِتابِ، فيُدعَى اليهودُ فيُقالُ لهم: مَن كنتم تعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ عزيرَ ابنَ اللهِ! فيُقالُ لهم: كذبتُم؛ ما اتخذَ اللهُ مِن صاحبةٍ ولا ولدٍ، فماذا تَبغونَ؟ فقالوا: عَطِشْنا رَبَّنا فاسْقِنا، فيُشارُ ألا تَرِدونَ؟ فيُحشَرونَ إلى النَّارِ كأنَّها سرابٌ يَحطِمُ[٣] بَعضُها بعضًا، فيتَساقَطونَ في النَّارِ، ثم يُدعَى النَّصارى، فيُقالُ لهم: مَن كنتُم تعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ المسيحَ ابنَ الله! فيُقالُ لهم: كذبتُم، ما اتخذَ اللهُ مِن صاحبةٍ ولا ولدٍ، فيُقالُ لهم: ماذا تبغونَ؟ فكذلك مِثل الأوَّلِ...))[٤].

﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾.

أي: ليس للكافرينَ مِن الشَّفاعةِ شَيءٌ يومَ القيامةِ، فلا يَشفَعونَ لأحَدٍ، ولا يستَحِقُّونَ أن يشفَعَ لهم أحدٌ، لكنْ من كان مؤمِنًا بالله موحِّدًا ومطيعًا له؛ فإنَّه يشفعُ لِغَيرِه، وينتَفِعُ بشَفاعةِ غَيرِه له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥٢، ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٦٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠).

(٢) غُبَّراتُ: أي: بقايا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٦١).

(٣) يحطِمُ بَعضُها بَعضًا: أي: يَكسِرُ؛ لشِدَّةِ اتِّقادِها، وتلاطُمِ أمواجِ لهَبِها. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٨٢).

(٤) رواه البخاري (٤٥٨١) واللفظ له، ومسلم (١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٢، ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥٣، ١٥٤)، =

كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وقال سُبحانه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قَرَّر تعالى في هذه السورةِ الشَّريفةِ عُبوديَّةَ عيسى عليه السَّلامُ، وذكَرَ خَلْقَه مِن مريمَ بلا أبٍ؛ شرَع في مقامِ الإنكارِ على من زعمَ أنَّ له ولدًا، تعالى وتقَدَّسَ وتنَزَّه عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا[(١)].

وأيضًا لما ردَّ الله تعالى على عبدةِ الأوثانِ؛ عاد إلى الردِّ على مَن أثبتَ له ولدًا[(٢)].

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾.

أي: وقال هؤلاء الكافِرونَ: اتَّخذَ الرَّحمنُ ولدًا له[(٣)]!

= ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٨، ١٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١٥ - ٥١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٩). =

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾.

أي: لقد قلتُم قولًا عَظيمًا مُنكَرًا، بافترائِكم على اللهِ أنَّ له ولدًا[١].

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

وقال سُبحانه: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٤-٥].

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾.

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾.

أي: تكاد السَّمواتُ على عَظَمتِها وإحكامِها تتشَقَّقُ قِطَعًا عند سماعِها ذلك القَولَ العَظيمَ المنكَرَ؛ إعظامًا للرَّبِّ، وإجلالًا له سُبحانَه[٢].

﴿وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ﴾.

أي: وتكادُ الأرضُ تتصَدَّعُ؛ تعظيمًا لله سُبحانَه[٣].

﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾.

= قال السعدي: (كقَولِ النَّصارى: المسيحُ ابنُ اللهِ، واليهودِ: عزيرٌ ابنُ اللهِ، والمُشركين: الملائِكةُ بناتُ الله -تعالى اللهُ عن قَولِهم عُلُوًّا كَبيرًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٥).

قال الواحدي: (﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ عظيمًا، في قولِ الجميعِ). ((الوسيط)) (٣/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

أي: وتكادُ الجِبالُ على صلابتِها تسقُطُ سَريعًا، فتندَكُّ وتتفَتَّتُ[(١)].

﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾.

أي: من أجلِ أنَّ المُشرِكينَ نَسَبوا للرَّحمنِ ولَدًا[(٢)].

﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾.

أي: وما يصِحُّ ولا يليقُ بالرَّحمنِ أن يتَّخِذَ ولَدًا؛ فلا مِثلَ له مِن خَلقِه، ولا احتياجَ له إليهم؛ فجميعُ الخلائقِ عَبيدٌ له، وهو الغنيُّ الحميدُ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقال سُبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ﴾ [مريم: ٣٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

وعنِ ابنِ عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ: كَذَّبني ابنُ آدَمَ، ولم يكنْ له ذلك، وشتَمَني، ولم يكنْ له ذلك! فأمَّا تكذيبُه إيَّاي فزَعَم أنِّي لا أقدِرُ أن أُعيدَه كما كان، وأمَّا شَتمُه إيَّاي فقولُه: لي ولدٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٩، ٦٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٠، ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

فسُبحاني أن أتخِذَ صاحِبةً أو ولدًا!))[١].

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ٩٣﴾.

أي: ما مِن أحدٍ مِن أهلِ السَّمواتِ ومَن أهلِ الأرضِ إلَّا سيأتي إلى الرَّحمنِ يومَ القيامةِ ذَليلًا خاضِعًا، مقِرًّا له بعبوديَّتِه، فكيف يكونُ أحدٌ مِن خَلقِه ولدًا له، والحالُ أنَّ الجميعَ مِلكُه وعَبيدُه، يتصَرَّفُ فيهم كما يشاءُ؟ أمَّا هم فليس لهم من المُلكِ والتصَرُّفِ شيءٌ[٢]!

﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤﴾.

أي: لقد أحصى الرَّحمنُ عَدَدَ خَلْقِه كُلِّهم؛ ذَكَرِهم وأُنثاهم، وصَغيرِهم وكبيرِهم، فلا يخفَى عليه أحَدٌ منهم[٣].

﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾.

أي: وكُلُّ واحدٍ مِن الخلائِقِ سيأتي إلى اللهِ يومَ القيامةِ بعدَ بَعثِه مِن الموتِ وَحيدًا، لا أولادَ معه، ولا مالَ له، ولا أنصارَ، ليس معه إلا عَمَلُه، فيقضي اللهُ فيه بحُكمِه، ويُجازيه، ويوَفِّيه حسابَه، فكيف يُتصوَّرُ في بالٍ أو يَقَعُ في خيالٍ أن يكونَ شَيءٌ مِن خَلْقِه وعَبيدِه له ولدًا، أو معه شريكًا[٤]؟!

---

(١) رواه البخاري (٤٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٤). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ رَدٌّ على مَن يقولُ: إنَّ اللهَ -جلَّ جلالُه- بنَفسِه في كلِّ مكانٍ، ولو كان -جَلَّ وتعالى- كذلك، ما كان لِحَشْرِهم إليه معنًى؛ إذ هو معهم حيثُ يكونونَ[١]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ يدُلُّ على أنَّهم يُساقُونَ إلى النَّارِ بإهانةٍ واستخفافٍ، كأنَّهم نَعَمٌ عطاشٌ تُساقُ إلى الماءِ[٢]!

٣- نسبةُ الولدِ إلى الله مسبَّةٌ له تبارَك وتعالَى؛ لذا أخبَرَ الله تعالى أنَّه: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ وما ذاك إلا لتضَمُّنِه شَتْمَ الربِّ تبارك وتعالى؛ والتنَقُّصَ به، ونسبةَ ما يمنعُ كمالَ رُبُوبيَّتِه وقُدرتِه وغناه إليه[٣].

٤- العبوديَّةُ نوعانِ: عامَّةٌ وخاصَّةٌ؛ فالعبوديَّةُ العامَّةُ عبوديَّةُ أهلِ السَّمواتِ والأرضِ كُلِّهم لله؛ بَرِّهم وفاجِرِهم، مؤمِنِهم وكافِرِهم، فهذه عبوديَّةُ القَهرِ والمِلك؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ

= قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ إبطالُ ما لأجْلِه قالوا: اتَّخَذَ اللهُ ولدًا؛ لأنَّهم زَعَموا ذلك مُوجِبَ عِبادتِهم للمَلائكةِ والجِنِّ؛ لِيَكونوا شُفَعاءَهم عندَ الله، فأيأَسَهم اللهُ مِن ذلك بأنَّ كُلَّ واحدٍ يأتي يومَ القيامةِ مُفرَدًا لا نَصيرَ له). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٤).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٥٣).

ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣] فهذا يدخُلُ فيه مؤمِنُهم وكافِرُهم. وقال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [الفرقان: ١٧] فسَمَّاهم عبادَه مع ضلالِهم، لكنَّها تسميةٌ مُقيَّدةٌ بالإشارةِ، وأمَّا المُطلقةُ فلم تجئْ إلَّا لأهلِ النَّوعِ الثاني الآتي.

وأمَّا النوع الثاني: فعبوديَّةُ الطَّاعةِ والمحبَّة، واتباع الأوامِرِ؛ قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨]، وقال: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۞ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧-١٨]، وقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾[الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى عن إبليسَ: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، فقال تعالى عنهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾[(١)] [الحجر: ٤٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴾، لَمَّا كان مِن العبيدِ مَن يعصَى على سيدِه، عبَّر بالإتيانِ في قولِه: ﴿ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، أي: منقادٌ له طوعًا أو كرهًا، في كلِّ حالةٍ، وكلِّ وقتٍ، ﴿عَبۡدًا﴾: مُسخَّرًا مقهورًا خائفًا راجيًا، فكيف يكونُ العبدُ ابنًا أو شريكًا؟! فدلَّت الآيةُ على التنافي بينَ العبوديةِ والولِديَّةِ؛ فلا يجتمعانِ في حالٍ واحدةٍ؛ فهي مِن الدَّليلِ على أنَّ مَن مَلَكَ ابنَه عَتَق عليه؛ لأنَّ الولدَ لا يكونُ عبدًا لأبيه في حُكْمِ هذه الآيةِ[(٢)]؛ فالولادةُ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٩).

والمِلكُ لا يجتَمِعانِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ﴾ منصوبٌ على الظَّرفيَّةِ بفعْلٍ مُؤخَّرٍ قد حُذِفَ؛ للإشعارِ بضيقِ العبارةِ عن حصْرِه وشرْحِه؛ لكَمالِ فَظاعةِ ما يقَعُ فيه من الطَّامَّةِ التَّامَّةِ، والدَّواهي العامَّةِ. وقيل: منصوبٌ على المفعوليَّةِ بمُضمرٍ مُقدَّمٍ خُوطِبَ به النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: اذكُرْ لهم بطريقِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ يومَ نحشُرُ... إلخ. وقيل: على الظَّرفيَّةِ لقولِه تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾. والَّذي يَقْتضيه مقامُ التَّهويلِ، وتَسْتدعيه جزالةُ التَّنزيلِ: أنْ يَنتصِبَ بأحدِ الوجهينِ الأوَّلينِ، ويكونَ هذا استئنافًا مُبيِّنًا لبعضِ ما فيه من الأُمورِ الدَّالَّةِ على هولِه[٢]. وقيل: الظَّرفُ وما أُضِيفَ الظَّرفُ إليه: إدماجٌ بُيِّنَت به كرامةُ المُؤمِنين، وإهانةُ الكافرينَ[٣].

- وعُدِّيَ ﴿نَحْشُرُ﴾ بـ ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تَعظيمًا لهم وتَشريفًا. وذكَرَ صِفَةَ الرَّحمانيَّةِ ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الَّتي خصَّهم بها كرامةً؛ إذ لفْظُ (الحشرِ) فيه: جمْعٌ مِن أماكنَ مُتفرِّقةٍ، وأقطارٍ شاسعةٍ على سَبيلِ القهْرِ، فجاءت لفظةُ (الرَّحمن) مُؤذنةً بأنَّهم يُحْشرون إلى مَن يرحَمُهم، ولفظُ (السَّوقِ) فيه إزعاجٌ، وعُدِّيَ بـ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾؛ تَفظيعًا لهم، وتَبشيعًا لحالِ مَقرِّهم. ولفظةُ (الوفدِ) مُشعِرةٌ

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨١-٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٧).

بالإكرامِ والتَّبجيلِ[١]؛ فذُكِرَ المُتَّقونَ بلفظِ التَّبجيلِ، وهو أنَّهم يُجْمَعون إلى ربِّهم الَّذي غمَرَهم برحْمتِه، وخَصَّهم برضوانِه وكرامتِه، كما يفِدُ الوفَّادُ على المُلوكِ، مُنتظرينَ للكرامةِ عندَهم، وذُكِرَ الكافرونَ بأنَّهم يُساقونَ إلى النَّارِ بإهانةٍ واستخفافٍ، كأنَّهم نَعَمٌ عِطاشٌ تُساقُ إلى الماءِ[٢].

- وقولُه: ﴿وِرْدًا﴾ حالٌ قُصِدَ منها التَّشبيهُ؛ فلذلك جاءت جامدةً؛ لأنَّ معنى التَّشبيهِ يجعَلُها كالمُشتَقِّ؛ حيث شَبَّههم بالأنعامِ الَّتي تُساقُ قُدَّامَ رُعاتِها، يجعلونَها أمامَهم؛ لِتَرْهَبَ زجْرَهم وسِياطَهم، فلا تتفلَّتْ عليهم[٣].

- ولما كان مَن يرِدُ الماءَ لا يردُه إلَّا لعطشٍ، أُطلِق الوردُ على العطاشِ؛ تسميةً للشيءِ بسببِه[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ [مريم: ٦٦]، أو على جُملةِ ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ [مريم: ٨١]؛ إتمامًا لحكايةِ أقوالِهم، وهو القولُ بأنَّ للهِ ولدًا، وهو قولُ المُشرِكين: الملائكةُ بناتُ اللهِ؛ فصريحُ الكلامِ رَدٌّ على المُشرِكين، وكِنايتُه تعريضٌ بالنَّصارى الَّذين شابَهوا المُشرِكين في نِسبةِ الولدِ إلى اللهِ؛ فهو تَكملةٌ للإبطالِ الَّذي في قولِه تعالى آنفًا: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥ ...﴾ إلخ. والضَّميرُ عائدٌ إلى المُشرِكين، فيُفْهَمُ منه: أنَّ المقصودَ من حكايةِ قولِهم ليس مُجرَّدَ الإخبارِ عنهم، أو تعليمَ دينِهم، ولكنْ تفظيعُ قولِهم وتَشنيعُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢-٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٩).

- وفي تكرُّرِ اسمِ (الرَّحمنِ) في هذه الآياتِ أربَعَ مرَّاتٍ في قولِه: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾، وقولِه: ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾، وقولِه: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾، وقولِه: ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾: إيماءٌ إلى أنَّ وَصْفَ الرَّحمنِ الثَّابتَ للهِ، والَّذي لا يُنْكِرُ المُشرِكون ثُبوتَ حقيقتِه للهِ، وإنْ أنْكَروا لفظَهُ، يُنافي ادِّعاءَ الولدِ له؛ لأنَّ (الرَّحمنَ) وصْفٌ يدُلُّ على عُمومِ الرَّحمةِ وتكثُّرِها. ومعنى ذلك: أنَّها شامِلةٌ لكلِّ موجودٍ؛ فذلك يَقْتضي أنَّ كلَّ موجودٍ مُفتقِرٌ إلى رحمةِ اللهِ تعالى، ولا يتقوَّمُ ذلك إلَّا بتحقُّقِ العُبوديَّةِ فيه؛ لأنَّه لو كان بعضُ الموجوداتِ ابنًا للهِ تعالى، لاسْتَغنَى عن رَحمتِه؛ لأنَّه يكونُ بالبُنوَّةِ مُساويًا له في الإلهيَّةِ المُقتضيةِ الغِنى المُطلَقَ، ولأنَّ اتِّخاذَ الابنِ يتطلَّبُ به مُتَّخِذُه بِرَّ الابنِ به ورَحمتَه له، وذلك يُنافي كونَ اللهِ مُفيضَ كلِّ رحمةٍ؛ فذِكْرُ هذا الوصفِ عندَ قولِه: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾، وقولِه: ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾: تَسجيلٌ لغَباوتِهم، وذِكرُه عندَ قولِه: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾: إيماءٌ إلى دليلِ عدَمِ لياقةِ اتِّخاذِ الابنِ باللهِ، وذِكرُه عندَ قولِه: ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾: استدلالٌ على احتياجِ جميعِ الموجوداتِ إليه، وإقرارِها له بملْكِه إيَّاها[1]. وقيل: لاختيارِ هذا الاسمِ في هذه السُّورةِ شأنٌ؛ ولعلَّه لأنَّ مَساقَ هذا الكلامِ فيها لتَعدادِ نِعَمِه الجِسامِ، وشرْحِ حالِ الشَّاكرين لها، والكافرينَ بها[2]. وأيضًا في اختصاصِ (الرَّحمنِ) وتكريرِه مرَّاتٍ من الفائدةِ: أنَّه هو الرَّحمنُ وحْدَه، لا يَستحِقُّ هذا الاسمَ غيرُه، من قِبَلِ أنَّ أُصولَ النِّعمِ وفُروعَها منه؛ فمَن أضاف إليه ولدًا، فقد جعَلَه كبعضِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠).

خلْقِه، وأخرَجَه بذلك عن استحقاقِ اسمِ الرَّحمنِ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ لبَيانِ ما اقتضَتْه جُملةُ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ من التَّشنيعِ والتَّفظيعِ[٢]. وهو رَدٌّ لمقالتِهم الباطلةِ، وتَهويلٌ لأمْرِها بطريقِ الالتفاتِ المنْبِئِ عن كَمالِ السَّخطِ، وشدَّةِ الغضبِ، المُفصِحِ عن غايةِ التَّشنيعِ والتَّقبيحِ، وتَسجيلٌ عليهم بنهايةِ الوقاحةِ والجهلِ والجراءةِ[٣].

- وإنَّما قيل: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ وهو خِطابٌ للحاضِرِ، بعدَ قَولِه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ وهو خِطابٌ للغائِبِ؛ لفائدةٍ حَسَنةٍ، وهي زيادةُ التَّسجيلِ عليهم بالجَراءةِ على الله تعالى، والتعَرُّضِ لسَخَطِه، وتنبيهٌ لهم على عِظَمِ ما قالوه، كأنَّه يُخاطِبُ قَومًا حاضِرينَ بينَ يديه مُنكِرًا عليهم، ومُوَبِّخًا لهم[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾

- قولُه: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ ...﴾ إلخ صِفَةٌ لـ ﴿إِدًّا﴾، أو استئنافٌ ببَيانِ عظيمِ شأْنِه في الشِّدَّةِ والهولِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر)) لابن الأثير (٢/ ٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٢).

- وفي قولِه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ جمَعَ بينَ ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾ وبينَ ﴿وَتَنشَقُّ﴾ تَفنُّنًا في استعمالِ المُترادفِ؛ لدفْعِ ثقَلِ تكريرِ اللَّفظِ. والكلامُ جارٍ على المُبالغةِ في التَّهويلِ مِن فظاعةِ هذا القولِ، بحيثُ إنَّه يبلُغُ إلى الجماداتِ العظيمةِ، فيُغيِّرُ كيانَها[(١)].

٥- قوله تعالى: ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾

- قولُه: ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ فيه تأكيدُ ما أُفِيدَ من قولِه: ﴿مِنۡهُ﴾، وزيادةُ بَيانٍ لمعادِ الضَّميرِ المجرورِ في قولِه: ﴿مِنۡهُ﴾؛ اعتناءً ببَيانِه[(٢)].

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾

- لعلَّ تَرتيبَ الحُكمِ بصِفَةِ الرَّحمانيَّةِ، ووضْعَ (الرَّحمنِ) موضِعَ الضَّميرِ؛ للإشعارِ بأنَّ كلَّ ما عداهُ نِعمةٌ ومُنْعَمٌ عليه، فلا يُجانِسُ مَن هو مبدَأُ النِّعمِ كلِّها، ومُولي أُصولِها وفُروعِها؛ فكيف يُمكِنُ أنْ يتَّخِذَه ولدًا؟! ثمَّ صرَّحَ به في قولِه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ...﴾[(٣)].

٧- قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾

- جُملةُ: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾، مُستأنفةٌ ابتدائيَّةٌ؛ لتَهديدِ القائلينَ هذه المقالةَ، فضمائرُ الجمْعِ عائدةٌ إلى ما عاد إليه ضميرُ ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ وما بعدَه، أي: لقد علِمَ اللهُ كلَّ مَن قال ذلك وعَدَّهم؛ فلا يَنفلِتُ أحدٌ منهم من عقابِه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٠-١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٤).

- إنْ قيل: ما فائدةُ ذِكْرِ العدِّ بعدَ الإحصاءِ، مع أنَّ الإحصاءَ هو العدُّ أو الحصرُ، والحصرُ لا يكونُ إلَّا بعدَ معرفةِ العددِ؟

والجوابُ: له معنًى ثالثٌ وهو العلمُ، كقولِه تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، أي: علِمَ عدَدَ كلِّ شَيءٍ، فالمعنى هنا: لقد علِمَهم، وعَدَّهم عَدًّا[١].

٨- قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾

- قولُه: ﴿ءَاتِيهِ﴾ في صِيغَةِ الفاعلِ من الدَّلالةِ على إتيانِهم ما ليس في صِيغَةِ المُضارعِ لو قيل: يأْتِيه، فإذا كان شأنُه تعالى وشأنُهم كما ذُكِرَ؛ فأنَّى يُتَوهَّمُ احتمالُ أنْ يتَّخِذَ شيئًا منهم ولدًا[٢]؟! وفي ذلك تَعريضٌ بأنَّهم آتونَ لِما يَكْرهون مِن العذابِ والإهانةِ إتيانَ الأعزلِ إلى مَن يتمكَّنُ من الانتقامِ منه[٣].

- وأفردَ سُبحانَه ﴿ءَاتِيهِ﴾ لَمَّا كان المقصودُ الإشارةَ إلى أنَّهم وإنْ أتَوه جميعًا؛ فكلُّ واحدٍ منهم منفردٌ عن كلِّ فريقٍ مِن صاحبٍ أو قريبٍ أو رفيقٍ، بل هو وَحدَه منفردٌ، فكأنَّه إنما أتاه وَحدَه -وإنْ أتاه مع غيرِه- لانقطاعِ تبعيَّتِه للغيرِ، وانفرادِه بشأنِ نفْسِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢١٥).

الآيات (٩٦-٩٨)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ٩٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وُدّٗا﴾: أي: محبَّةً، والوُدُّ: محبَّةُ الشيءِ، وتمنِّي كونِه، وأصلُ (ودد): يدلُّ على محبَّةٍ[١].

﴿لُّدّٗا﴾: اللُّدُّ: جمعُ أَلَدَّ، وهو الخَصِمُ الجَدِلُ، شَدِيدُ الخُصومةِ، وأصلُ (لدد): يدُلُّ على خِصامٍ[٢].

﴿تُحِسُّ﴾: أي: ترَى، وتجِدُ، وتعلمُ، والإحساسُ: العلمُ بإحدَى الحواسِّ، وأَحْسَسْتُه: أدركتُه بحاسَّتي[٣].

﴿رِكۡزَۢا﴾: أي: صَوتًا خَفِيًّا لا يُفهَمُ، وأصلُ (ركز): يدلُّ على صوتٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٤).
قال القاضي عياض: (اللددُ مَأْخوذٌ مِن لَديدَي الوادي، وهما جانِباه؛ لأَنَّه كلَّما أخذْتَ عليه جانبًا مِن المحجةِ أَخَذ في جانبٍ آخرَ). ((مشارق الأنوار)) (١/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٣٥) (١٥/ ٦٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٠)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٨)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يختمُ الله عزَّ وجلَّ السورةَ ببيانِ ما أعدَّه لعبادِه المؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ سيجعَلُ لهم الرَّحمنُ محبَّةً في قُلوبِ عبادِه.

ثمَّ يُبيِّنُ الحكمةَ التي مِن أجلِها يسَّر القرآنَ، فيقولُ: فإنَّما يسَّرْنا هذا القرآنَ بلِسانِك العربيِّ -يا محمَّدُ- لتبَشِّرَ به المتَّقينَ بأنَّ لهم الجنَّةَ في الآخرةِ، والكرامةَ في الدُّنيا، وتخوِّفَ به المكَذِّبينَ شَديدي الخُصومةِ بالباطِلِ.

ثمَّ يختمُ ببيانِ سُنَّتِه في الظالمينَ، فيقولُ: وأهلَكْنا كثيرًا من الأُمَمِ السَّابقةِ قبلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ؛ بسَبَبِ كُفرِهم باللهِ وتكذيبِهم رُسُلَه، فهل ترَى منهم أحدًا، أو تَسمَعُ لهم صوتًا خفيًّا، كلا؛ فقد هَلَكوا، فكذلك الكُفَّارُ مِن قَومِك نُهلِكُهم كما أهلَكْنا مَن قَبلَهم إنْ لم يُبادِروا بالتَّوبةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لمَّا فُصِّلتْ قبائحُ أحوالِ الكفرةِ؛ عُقِّبَ ذلك بذكْرِ مَحاسنِ أحوالِ المُؤمِنين[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا رَدَّ على أصنافِ الكَفَرةِ، وبالَغ في شَرحِ أحوالِهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ ختَمَ السُّورةَ بذِكرِ أحوالِ المؤمنينَ، فقال[2]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٧).

أي: إنَّ الذين آمنوا باللهِ ورُسُلِه وبما جاؤوا به مِن عندِ اللهِ، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ[١]: يُحبُّهم اللهُ، ويجعلُ لهم في الدُّنيا محبَّةً في قلوبِ عِبادِه[٢].

---

(١) قال ابن كثير: (هي الأعمالُ التي ترضي اللهَ عَزَّ وجَلَّ؛ لمتابعتِها الشَّريعةَ المحمَّديَّةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

قال الشوكاني: (﴿وُدًّا﴾ أي: حُبًّا في قلوبِ عبادِه، يجعلُه لهم مِن دونِ أنْ يَطْلُبوه بالأسبابِ الَّتي تُوجِبُ ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١٧).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالودِّ: المحبةُ في قلوبِ العبادِ: القرطبي، وابنُ جُزي، وابنُ رجبٍ، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٦)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١٧).

وممن قال مِن السلف: إنها محبةٌ في قلوبِ الناسِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٢).

وذكَر ابنُ جرير، وابنُ كثير، والقاسمي أنها محبةٌ في قلوبِ عبادِه المؤمنين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١١٥).

وممن قال بنحوِ ذلك مِن السلفِ: ابن عباس -في رواية- ومجاهدٌ، وقتادةُ، وهرم بنُ حيان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٢، ٦٤٣).

قال ابنُ عطية: (وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ ذهَب أكثرُ المفسِّرينَ إلى أنَّ هذا هو القبولُ الذي يضعُه الله لمن يحبُّ مِن عبادِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤).

وذهَب ابنُ تيميةَ إلى أنَّ المرادَ أنَّ الله يحبُّهم؛ ويحببُهم إلى عبادِه. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٣٢).

وممن قال بذلك مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ -في رواية-، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٣).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ السياقَ يقتضي وقوعَ تلك المحبةِ في الآخرةِ، فيجعلُ الله للمؤمنين محبةً لبعضِهم بعضًا، وتحبُّهم الملائكةُ.

قال ابنُ عاشور: (يقتضي اتِّصالُ الآياتِ بَعضِها ببعضٍ في المعاني أنَّ هذه الآيةَ وَصفٌ لحالِ =

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبدًا دعا جبريلَ فقال: إنِّي أحبُّ فلانًا فأحِبَّه، فيُحِبُّه جبريلُ، ثمَّ ينادي في السَّماءِ فيقولُ: إنَّ اللهَ يحبُّ فلانًا فأحِبُّوه، فيُحِبُّه أهلُ السَّماءِ، ثمَّ يُوضَعُ له القَبولُ في الأرضِ، وإذا أبغَضَ عبدًا دعا جبريلَ فيقولُ: إنِّي أُبغِضُ فُلانًا فأبغِضْه، فيُبغِضُه جِبريلُ، ثمَّ ينادي في أهلِ السَّماءِ: إنَّ اللهَ يُبغِضُ فُلانًا فأبغِضوه، فيُبغِضونَه، ثمَّ تُوضَعُ له البَغضاءُ في الأرضِ))[1].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا احتَوَت السُّورةُ على عِبَرٍ وقَصَصٍ وبِشاراتٍ ونُذُرٍ، جاء هنا في التَّنويهِ بالقُرآنِ، وبَيانِ بعضِ ما في تنزيلِه مِن الحِكَمِ[2].

وأيضًا لَمَّا كان إنزالُ هذا القَولِ الثَّقيلِ ثمَّ تَيسيرُه حِفظًا وعَمَلًا- سَببًا لِما جُعِل لأهلِ الطَّاعةِ في الدُّنيا مِنَ الوُدِّ، بما لهم مِنَ التحَلِّي والتزَيُّنِ بالصَّالحاتِ، والتخَلِّي والتصَوُّنِ مِنَ السيِّئاتِ؛ الدَّالِّ على ما لهم عندَ مَولاهم مِن عَظيمِ العِزِّ والقُربِ؛ قال[3]:

= المؤمِنينَ يومَ القيامةِ بضِدِّ حالِ المُشرِكينَ؛ فيكونُ حالُ إتيانِهم غيرَ حالِ انفرادٍ، بل حالُ تأنُّسِ بَعضِهم ببَعضٍ... وأنَّهم يكونون يومَئذٍ بمَقامِ المودَّةِ والتَّبجيل. فالمعنى: سيَجعَلُ لهم الرَّحمنُ أوِدَّاءَ مِن الملائكةِ، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١]، ويجعَلُ بين أنفُسِهم مودَّةً، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وإيثارُ المصدرِ؛ ليفيَ بعِدَّةِ متعَلِّقاتٍ بالوُدِّ. ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٤- ١٧٥).

(١) رواه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٥١).

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: فإنَّما يسَّرْنا القرآنَ بلُغتِك العربيَّةِ -يا محمَّدُ- وسهَّلْنا قراءةَ ألفاظِه، وفَهْمَ معانيه؛ لتبشِّرَ بالقرآنِ الذين يمتَثِلونَ الأوامِرَ، ويجتَنِبونَ النَّواهيَ بأنَّ لهم الجنَّةَ في الآخرةِ، والعزَّ في الدُّنيا[1].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾.

أي: وتُنذِرَ بالقُرآنِ -يا محمَّدُ- قَومَك الشَّدِيدي المخاصَمةِ والمجادلةِ بالباطِلِ لرَدِّ الحَقِّ، فتُحَذِّرَهم من وُقوعِ الهَلاكِ والعذابِ عليهم[2].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (اللُّدُّ: جَمعُ الألَدِّ، وهو الأعوَجُ في المناظَرةِ، الذي يَروغُ عن الحَقِّ). ((الجواب الصحيح)) (٢/ ٧٠).

وقال البقاعي: (الألَدُّ: هو الذي يَتمادى في غَيِّه، ولا يَرجِعُ لدَليلٍ، ويرَكبُ في عنادِ الحَقِّ ما يَقدِرُ عليه مِنَ الشَّرِّ، ولا يكونُ هذا إلَّا ممَّن يحتَقِرُ مَن يخاصِمُه، ويريدُ أن يجعَلَ الحَقَّ باطِلًا؛ تكبُّرًا عن قَبولِه). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٢٥٢).

لمَّا ذُكِروا بالعنادِ والمُكابَرةِ؛ أُتبِعَ بالتَّعريضِ بتَهديدِهم على ذلك، بتَذكيرِهم بالأُمَمِ الَّتي استأصَلَها اللهُ لجَبروتِها وتَعنُّتِها؛ لتكونَ لهم قياسًا ومثَلًا[1]، فقال تعالى:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾.

أي: وأهلَكْنا كثيرًا مِن الأُمَمِ الماضيةِ قبلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ؛ بسَبَبِ كُفرِهم باللهِ، وتكذيبِهم رُسُلَه، ورُكوبِهم معاصيَه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾[ق: ٣٦].

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾.

أي: فهل ترَى -يا محمَّدُ- أو تشعُرُ بشَخصٍ واحدٍ مِن تلك الأُمَمِ الماضيةِ التي أهلَكْناها[3]؟!

كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾[الحاقة: ٨].

﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾.

أي: أو هل تَسمَعُ لهم صَوتًا خَفِيًّا؟! كلا؛ فقد بادوا وهَلَكوا، وبَقِيَت أخبارُهم عِبرةً للمُعتَبِرينَ، ولم يبقَ منهم عينٌ ولا أثَرٌ، قد خلَت منهم دورُهم، وانتقلوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١٨).

إلى دارٍ لا ينفَعُهم فيها إلَّا الإيمانُ والعَمَلُ الصالحُ، فكذلك هؤلاء المُشرِكونَ -يا محمَّدُ- صائرونَ إلى ما صار إليه أولئك، إن لم يبادِروا بالتَّوبةِ قَبلَ وُقوعِ الهلاكِ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ هذا مِن نِعَمِه تعالى على عبادِه الذين جمعوا بينَ الإيمانِ والعَمَلِ الصالح: أنْ وَعَدَهم أنَّه يجعَلُ لهم وُدًّا، أي: محبَّةً ووِدادًا في قلوبِ أوليائِه، وأهلِ السَّماءِ والأرضِ، وإذا كان لهم في القلوبِ وُدٌّ تيسَّرَ لهم كثيرٌ مِن أمورهم، وحصَل لهم مِن الخيراتِ والدَّعواتِ والإرشادِ والقَبولِ والإمامةِ ما حصل، وإنَّما جعل اللهُ لهم وُدًّا؛ لأنَّهم وَدُّوه، فودَّدَهم إلى أوليائِه وأحبابِه[٢].

٢- ختَم الله تعالى السورةَ بموعظةٍ بليغةٍ، فقال: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ لأنَّهم إذا تأمَّلوا وعَلِموا أنَّه لا بدَّ مِن زوالِ الدُّنيا، والانتهاءِ إلى الموتِ؛ خافوا ذلك وخافوا أيضًا سُوءَ العاقبةِ في الآخرةِ، فكانوا فيها إلى الحَذَرِ مِن المعاصي أقرَبَ، ثمَّ أكَّدَ تعالى ذلك فقال: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾؛ لأنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إذا لم يُحِسَّ منهم أحدًا برؤيةٍ أو إدراكٍ أو وجدانٍ، ولا يسمعُ لهم ركزًا -وهو الصَّوتُ الخَفِيُّ- دَلَّ ذلك على انقراضِهم وفنائِهم بالكُليَّةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٧، ٦٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ لَمَّا ذكرَ تعالى أنه يبشِّرُ بالقرآنِ المتَّقينَ، ذكَرَ في مقابلتِه مَن هو في مخالفةِ التَّقوى أبلغُ، وأبلَغُهم الألَدُّ الذي يتمَسَّكُ بالباطِلِ، ويجادِلُ فيه ويتشَدَّدُ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾

- التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرَّحمانيةِ في قولِه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾؛ لِما أنَّ الموعودَ مِن آثارِها[٢].

- قولُه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ السِّينُ: إمَّا لأنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ، وكان المُؤمِنون حينئذٍ مَمْقوتينَ بين الكفرةِ، فوعَدَهم اللهُ تعالى ذلك إذا ظهَرَ الإسلامُ وفشا. وإمَّا أنْ يكونَ ذلك يومَ القيامةِ؛ يُحبِّبُهم إلى خلْقِه بما يُعْرَضُ من حَسناتِهم، ويُنْشَرُ من دِيوانِ أعمالِهم[٣]. ولعلَّ إفرادَ هذا بالوعدِ مِن بينِ ما سيُؤْتَون يومَ القيامةِ من الكراماتِ السَّنيَّةِ؛ لِما أنَّ الكفرةَ سيقَعُ بينهم يومئذٍ تباغضٌ وتضادٌّ وتقاطعٌ وتلاعُنٌ[٤]. واحتملَ أنْ يكونَ ذلك الوُدُّ في الدُّنيا على الإطلاقِ. وقيل: في الكلامِ حذْفٌ، والتَّقديرُ: سيُدْخِلُهم دارَ كرامتِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٤).

ويجعَلُ لهم وُدًّا بسبَبِ نزْعِ الغِلِّ من صُدورِهم، بخلافِ الكُفَّارِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ إيذانٌ بانتهاءِ السُّورةِ؛ فإنَّ شأْنَ الإتيانِ بكلامٍ جامعٍ بعدَ أفنانِ الحديثِ: أنْ يُؤذِنَ بأنَّ المُتكلِّمَ سيَطْوي بِساطَه. وذلك شأنُ التَّذييلاتِ والخواتمِ، وهي ما يُؤذِنُ بانتهاءِ الكلامِ؛ فلمَّا احتوَتِ السُّورةُ على عِبَرٍ وقصَصٍ، وبشاراتٍ ونُذرٍ، جاء هنا في التَّنويهِ بالقُرآنِ، وبَيانِ بعضِ ما في تَنزيلِه مِن الحِكَمِ؛ فيجوزُ جعْلُ الفاءِ فَصيحةً[٢] مُؤذِنةً بكلامٍ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه المذكورُ، كأنَّه قيل: بلِّغْ ما أنزَلْنا إليك، ولو كرِهَ المُشرِكون ما فيه مِن إبطالِ دِينِهم، وإنذارِهم بسُوءِ العاقبةِ؛ فما أنزلناهُ إليك إلَّا للبشارةِ والنِّذارةِ، ولا تعبَأْ بما يحصُلُ معَ ذلك مِن الغيظِ أو الحقْدِ. ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ للتَّفريعِ على وعيدِ الكافرينَ بقولِه: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٤، ٩٥]، ووعْدِ المُؤمِنين بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، والمُفرَّعُ هو مضمونُ ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ...﴾ إلخ ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ...﴾ إلخ، أي: ذلك أثَرُ الإعراضِ عمَّا جئْتَ به مِن النِّذارةِ، وأثَرُ الإقبالِ على ما جئْتَ به مِن البشارةِ ممَّا يسَّرناهُ بلسانِك؛ فإنَّا ما أنزلناهُ عليك إلَّا لذلك[٣]. أو الفاءُ لتعليلِ أمرٍ يَنساقُ إليه النَّظمُ الكريمُ؛ كأنَّه قيل بعدَ إيحاءِ السُّورةِ الكريمةِ: بلِّغْ هذا المُنزَّلَ، أو بشِّرْ به وأنذِرْ؛ فإنَّما يسَّرناهُ بلسانِك العربيِّ المُبينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٠٤).

(٢) الفاءُ الفصيحةُ: هي الدالةُ على محذوفٍ قبلَها، هو سببٌ لما بعدَها، سُمِّيتْ فصيحةً؛ لإفصاحِها عما قبلَها. وقيل: لأنَّها تدلُّ على فصاحةِ المتكلِّمِ بها. يُنظر: ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (١/ ٥٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٥-١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٤).

- وضَميرُ الغائبِ في ﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾ عائدٌ إلى القُرآنِ بدلالةِ السِّياقِ، وبذلك عُلِمَ أنَّ التَّيسيرَ تَسهيلُ قِراءةِ القُرآنِ، وهذا إدماجٌ للثَّناءِ على القُرآنِ بأنَّه مُيسَّرٌ للقراءةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1] [القمر: ١٧].

- وفي قولِه: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ حُسْنُ مُقابلةِ المُتَّقينَ بقومٍ لُدٍّ؛ لأنَّ التَّقوَى امْتِثالٌ وطاعةٌ، والشِّركَ عصيانٌ ولَدَدٌ. وفيه تَعريضٌ بأنَّ كُفْرَهم عن عنادٍ، وهم يَعْلمونَ أنَّ ما جاء به محمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو الحقُّ، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. وإيقاعُ لفْظِ (القومِ) عليهم؛ للإشارةِ إلى أنَّ اللَّددَ شأْنُهم، وهو الصِّفةُ الَّتي تقوَّمَت منها قوميَّتُهم[2].

- وعبَّرَ عن الكُفَّارِ بـ(قومٍ لُدٍّ)؛ ذمًّا لهم بأنَّهم أهْلُ إيغالٍ في المِراءِ والمُكابَرةِ، أي: أهْلُ تَصميمٍ على باطلِهم[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ الجُملةُ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: ٩٧] باعتبارِ ما تضمَّنَته من بِشارةِ المُؤمِنينَ ونِذارةِ المُعاندينَ؛ لأنَّ في التَّعريضِ بالوعيدِ لهم نِذارةً لهم، وبِشارةً للمُؤمِنين باقترابِ إراحتِهم من ضَرِّهم[4]. وقيل: الجُملةُ استئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه، أي: هل تشعُرُ بأحدٍ منهم[5]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٤).

- وفي قولِه: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا... ﴾ تخويفٌ لهم وإنذارٌ بالهلاكِ، وتَجْريءٌ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على إنذارِهم[١].

- قولُه: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ معناه النَّفيُ، أي: لا تُحِسُّ[٢].

- قولُه: ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ كِنايةٌ عن اضمحلالِهم، كُنِّيَ باضمحلالِ لوازمِ الوُجودِ عنِ اضمحلالِ وُجودِهم[٣].

- وممَّا انطوَتْ عليه خواتيمُ سُورةِ مريمَ من فُنونِ البلاغةِ: التَّكرارُ؛ فقد تكرَّرَ ذكْرُ (الرَّحمنِ) سِتَّ عشْرةَ مرَّةً في السُّورةِ، مُعظمُها في خواتيمِها، والفائدةُ فيه: أنَّه هو الرَّحمنُ وحْدَه، لا يَستحِقُّ هذا الاسمَ غيرُه، وخلَقَ لهم جميعَ مُتطلباتِهم الَّتي بها قوامُ مَعايشِهم، فهلِ اعتبَرَ الإنسانُ، أم لا يزالُ الغطاءُ مَسدولًا على عينيْه، والوَقْرُ يَغْشى أُذنيه؟! فمَن أضاف إليه ولدًا جعَلَه كالأَناسيِّ المخلوقةِ، وأخرَجَه بذلك عن استحقاقِ هذا الاسمِ الجديرِ به وحْدَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٥٨).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسِيرُ

سُورَةِ طه

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ طه

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (طه)[١]، ومما يدلُّ على ذلك:

١- عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قَالَ: (بني إسرائيلَ[٢]، والكهفُ، ومريمُ، وطه، والأنبياءُ: هنَّ مِن العِتاقِ[٣] الأُوَلِ، وهنَّ مِن تِلادي[٤])[٥].

٢- عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: (خرج عمرُ متقلِّدًا بالسَّيفِ، فقيل لهُ: إنَّ خَتَنَك[٦] وأختَكَ قد صبَوَا[٧]، فأتاهما عمرُ وعندهما رجلٌ من المهاجِرينَ يقالُ لهُ: خبَّابٌ، وكانوا يقرؤونَ «طه»، فقال: أعطوني الذي عندَكم فأقرأَه، وكان عمرُ يقرأُ الكتبَ، فقالت لهُ أختُه: إنَّك رِجْسٌ[٨]، ولا يمَسُّه إلَّا المطَهَّرونَ، فقُمْ واغتَسِلْ أو توضَّأْ، فقام عمرُ فتوضَّأَ ثمَّ أخذ الكِتابَ فقرأَ «طه»)[٩].

---

(١) سُمِّيت هذه السورةُ بـ (طه)؛ لافتتاحِ السورةِ به. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١١).

(٢) (قال: بني إسرائيل) فيه حذفُ المضافِ، وإبقاءُ المضافِ إليه على حالِه، أي: سورةُ بني إسرائيلَ (والكهفُ) بالرفعِ، أي: والثاني الكهفُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٤٠).

(٣) العِتاق: جمعُ عتيقٍ، وهو القديمُ، أو: هو كلُّ ما بلَغ الغايةَ في الجودةِ، والمرادُ بقولِه: (العِتَاق الأُوَل): السُّوَر الَّتِي أُنْزِلت أوَّلًا بِمَكَّةَ، وأنَّها مِنْ أوَّلِ ما تَعلَّمه مِنَ القرآنِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٧٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٨٨).

(٤) تِلادي: أي: مما حُفِظ قديمًا، والتلادُ: قديمُ المِلكِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٨٨).

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٣٩).

(٦) الخَتَنُ: الصِّهْرُ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٧/ ١٣٣).

(٧) صبَوَا: أي تركَا دِينَك. يقال: صَبَأَ الرَّجُلُ: إذا خرجَ مِن دينٍ إلى دينٍ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٧٢).

(٨) الرِّجْسُ: النَّتْنُ والقَذَرُ وكُلُّ شَيءٍ يُستَقذَرُ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٩).

(٩) أخرجه الدارقطني (١/ ١٢٣)، والحاكم (٦٨٩٧)، والبيهقي (٤٢٠). =

فضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

أنَّها مِن السُّوَرِ المتقدِّمِ نزولُها، ومِن قديمِ ما حفِظ الصَّحابةُ وتعلَّموه[١]:

كما في أثرِ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ الله عنه المتقدِّمِ قريبًا.

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ (طه) مكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِي الإجماعُ على ذلك[٣].

مقاصِدُ السورةِ:

من أهمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

رعايةُ اللهِ للمُختارينَ لحَملِ الدعوةِ مِن الرسُلِ وأتباعِهم[٤].

= وقال البيهقي: (له شواهدُ كثيرةٌ)، وجوَّده الزيلعي في ((نصب الراية)) (١/ ١٩٩)، وقال العيني: (إسنادُه صحيحٌ متصلٌ). ((عمدة القاري)) (٣/ ٣٨٧).

(١) قال البقاعي: (ومِن أعظَمِ فَضائِلِها: أنَّ قِراءةَ أوَّلِها كانت سببًا لإسلامِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ الله عنه، وهو الفاروقُ الذي كان إسلامُه فتحًا أيَّد اللهُ به هذا الدِّينَ، ففرَّق به بينَ الحَقِّ والباطِلِ، فعزَّ به المسلِمون، فرَغِب في الإسلامِ بسَبَبِ ذلك مَن وفَّقَه اللهُ له، وذلك هو عَينُ مَقصودِها). ((مصاعد النظر)) (٢/ ٢٧٩).

(٢) وقيل: مكيةٌ إلا آيتينِ، هما: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ...﴾ [طه: ١٣٠]، و﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ ...﴾ [طه: ١٣١] فمَدنِيَّتانِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧١).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبي، وأبو حيان، والفيروزابادي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٥٥).

موضوعاتُ السُّورةِ:

من أهمِّ موضوعات هذه السُّورةِ:

١- التَّنويهُ بعَظَمةِ القُرآنِ الكريمِ وأنَّه منزلٌ مِن الله تعالى.

٢- تفصيلُ الكلامِ عن قصةِ موسَى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإرسالِه إلى فرعونَ، وما جرَى بينَهما مِن حوارٍ، وأمرِ السحرةِ وما آلَ إليه أمرُهم، وما فعَله بنو إسرائيلَ في غَيبةِ موسَى عنهم، وإضلالِ السامريِّ لهم.

٣- ذِكرُ جَزاءِ المُعرِضينَ عن القرآنِ الكريمِ، وذِكرُ شَيءٍ مِن مشاهِدِ يومِ القيامةِ.

٤- بيان مَنزِلةِ القرآنِ، وأنه نزل عربيًّا، وأنَّ الله تعالى صرَّف فيه مِن الوعيدِ.

٥- ذكرُ قصَّةِ خَلقِ آدَمَ.

٦- أمرُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدةِ أمورٍ؛ منها: الصبرُ، والإكثارُ مِن ذكرِ الله، وعدمُ التطلُّعِ إلى زهرةِ الحياةِ الدنيا، وأمرُ أهلِه بالصلاةِ.

٧- الردُّ على مزاعمِ المشركين، وتهديدُهم بسوءِ العاقبةِ إذا ما استمرُّوا على ضلالِهم.

الآيات (١-٨)

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلثَّرَىٰ﴾: أي: التُّرابِ النَّديِّ الرَّطْبِ المُبتلِّ، وهو الذي تحت الظاهِرِ مِن وَجهِ الأرضِ، وأصلُه خِلافُ اليَبَسِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ * إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ﴾: في نصبه أوجهٌ:

أحدُها: أنْ يكونَ مَفعولًا مِن أجلِه، والعامِلُ فيه ﴿أَنزَلۡنَا﴾، وكذلك ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ علةٌ له أيضًا، ولا مانِعَ مِن أنْ يعلَّلَ الفِعلُ بعِلَّتينِ فأكثرَ، ووجبَ مجيءُ الأوَّلِ ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ مع اللامِ لاختلافِ الفاعِلِ؛ ففاعِلُ الإنزالِ الله سُبحانَه، وفاعِلُ ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، ففاتَتْه شريطةُ الانتصابِ، أما الثَّاني ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ فاستكمَلَ شُروطَ النَّصبِ على المفعولِ لأجلِه. والاستِثناءُ مُفرَّغٌ.

الثاني: أنْ يكونَ منصوبًا على الاستثناءِ المُنقَطِع، أي: ما أنزَلْناه لشَقائِك، لكنْ أنزَلْناه تذكِرةً.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٥).

الثالث: أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعلٍ مُقَدَّرٍ، أي: لكنْ ذَكَّرْنا به تَذْكِرةً.

الرابع: أنَّه مصدرٌ في موضِعِ الحالِ مِن الكافِ في ﴿عَلَيْكَ﴾، أو من ﴿الْقُرْآنَ﴾، والاستثناءُ مُفرَّغ، أي: إلَّا مُذَكِّرًا[1].

المَعنى الإجماليُّ:

ابتدأت السورةُ بالحُروفِ المقطَّعةِ، وقد سبق الكلامُ عنها في أوَّلِ سُورةِ (مريمَ)، ثمَّ قال تعالى: ما أنزَلْنا عليك -يا مُحمَّدُ- القرآنَ ليكونَ سَببًا في شقائِك، لكِنْ أنزَلْناه عظةً لمن يخشى الله ويخافُ عِقابَه.

ثمَّ بيَّن الله تعالى مصدرَ هذا القرآنِ، فقال: وقد نُزِّلَ هذا القرآنَ تنزيلًا مِن الله الذي خلَقَ الأرضَ والسَّمواتِ العُلا؛ الرَّحمنُ على العَرشِ ارتفَعَ وعلا، على ما يليقُ بجَلالِه وعَظَمتِه.

ثم أكَّد سبحانَه شمولَ ملكِه، وعمومَ قدرتِه، فقال: له ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ وما بينهما وما تحتَ الأرضِ، وإنْ تجهَرْ -يا مُحمَّدُ- بالقَولِ أو تُخفِه؛ فإنَّ اللهَ لا يَخفى عليه شيءٌ، فهو يعلَمُ السِّرَّ وما هو أخفَى مِن السِّرِّ ممَّا لم يخطُرْ على قُلوبِ العبادِ، فيعلَمُ أنه سيخطرُ ببالِهم.

ثمَّ أثنَى الله سبحانَه على ذاتِه بما هو أهلٌ له، فقال: اللهُ لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا هو، له وَحْدَه الأسماءُ الكاملةُ في الحُسنِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿طه ۝١﴾.

---

(١) يُنظر: ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٨٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٨)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٥)، ((المجتبى)) للخراط (٢/ ٦٨٤).

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المقطَّعةِ في أوَّلِ تفسيرِ سُورةِ (مريمَ)[(١)].

(١) ويُنظر ما تقدم من ((التفسير المحرَّر)) (١/ ٦٤).

والقولُ بأنَّ ﴿طه﴾ مِن الحروفِ المقطعةِ، استظهَره أبو حيان، وممَّن اختاره: ابن القيم، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشورٍ، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٠٩)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ١٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣).

قال الشنقيطي: (أظهرُ الأقوالِ فيه عندي أنَّه مِن الحروفِ المقطَّعةِ في أوائلِ السُّوَرِ، ويدُلُّ لذلك أنَّ الطَّاءَ والهاءَ المذكورتَيْنِ في فاتحةِ هذه السُّورَةِ، جاءَتا في مواضعَ أُخَرَ لا نزاعَ فيها في أنَّهما مِن الحروفِ المقطَّعةِ، أمَّا الطَّاءُ ففي فاتحةِ «الشُّعراءِ» ﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء: ١]، وفاتحةِ «النَّمْلِ» ﴿طسٓ﴾ [النمل: ١]، وفاتحةِ «القصصِ»، وأمَّا الهاءُ ففي فاتحةِ «مريم» في قولِه تعالَى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]). ((أضواء البيان)) (٤/ ٣).

ونسب الواحديُّ إلى أكثر المفسِّرينَ أنَّ معنى: ﴿طه﴾ أي: يا رجُلُ، يريدُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٩٩).

قال الواحدي: (وهو قولُ الحسنِ، وعكرمةَ، وسعيدِ بن جُبيرٍ، وقتادةَ، والضحَّاكِ، ومجاهدٍ، وابنِ عباس في روايةِ عطاء، والكلبي، غيرَ أنَّ بعضَهم يقولُ: هي بلسانِ الحبشةِ، وبالنَّبَطيَّة، والسُّريانيةِ). ((الوسيط)) (٣/ ١٩٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧١).

وقال الشوكاني بعدَ أن ذكَر كلامَ الواحدي: (وإذا تقرَّرَ أنَّها لهذا المعنَى في لغةٍ مِن لغاتِ العربِ كانت ظاهرةَ المعنَى، واضحةَ الدَّلالةِ، خارجةً عن فواتحِ السُّورِ الَّتي قدَّمْنا بيانَ كونِها مِن المتشابِه...، وهكذا إذا كانت لهذا المعنَى في لغةٍ مِن لغاتِ العجمِ، واستعملَتْها العربُ في كلامِها في ذلك المعنَى كسائرِ الكلماتِ العجمِيَّةِ الَّتي استعمَلَتْها العربُ الموجودَةِ في الكتابِ العزيزِ، فإنَّها صارَتْ بذلك الاستعمالِ مِن لغةِ العربِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢٠).

وقال ابنُ عاشور: (لا التفاتَ إلى قَولِ من زعموا أنَّه من أسماء النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٣). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٨/ ٥٤).

قال ابنُ عثيمين: (وهذا لا يَصِحُّ نَظَرًا ولا أثَرًا؛ أمَّا عدَمُ صِحَّتِه أثَرًا فلِعَدمِ النَّقلِ؛ فإنَّه لم يأتِ حديثٌ صحيحٌ ولا ضَعيفٌ أنَّ مِن أسماءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «طه» أبدًا. =

﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢﴾.

أي: ما أنزَلْنا عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- ليكونَ سَببًا في جلْبِ شَيءٍ من الشَّقاءِ لك[1].

﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣﴾.

أي: إنَّما أنزَلْنا عليك القُرآنَ -يا مُحمَّدُ- تذكيرًا وعظةً لِمن يخشَى اللهَ، ويخافُ عذابَه[2].

= وأمَّا النظَرُ: فلأنَّ «طه» مركَّبٌ مِن حرفينِ مُهمَلينِ هِجائيَّينِ، والحروفُ الهجائيَّةُ ليس لها معنًى، ومِن المعلومِ أنَّ أسماءَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم كُلُّها تحمِلُ معانيَ؛ فليس له اسمٌ صلَّى الله عليه وسلَّم هو علَمٌ مَحضٌ، بل أسماءُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلم كلُّها أعلامٌ وألقابٌ). ((شرح نظم الورقات)) (ص: ١٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٤).

قال ابنُ جُزي: (قيل: إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قام في الصلاةِ حتى تورَّمت قدماه، فنزلت الآيةُ تخفيفًا عنه، فالشَّقاءُ على هذا إفراطُ التَّعَب في العبادة، وقيل: المرادُ به التأسُّفُ على كُفرِ الكُفَّار، واللَّفظُ عامٌّ في ذلك كلِّه، والمعنى أنَّه نفى عنه جميعَ أنواعِ الشَّقاءِ في الدنيا والآخرة؛ لأنَّه أنزل عليه القرآنَ الذي هو سَبَبُ السعادةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩)، تفسير السمعاني (٣/ ٣١٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٥).

قال السعدي: (إلَّا ليتذكرَ به مَن يخشَى الله تعالى، فيتذكرَ ما فيه مِن الترغيبِ إلى أجلِّ المطالبِ، فيعملَ بذلك، ومِن الترهيبِ عن الشقاءِ والخسرانِ، فيرهبَ منه، ويتذكرَ به الأحكامَ الحسنةَ الشرعيةَ المفصَّلةَ، التي كان مستقرًّا في عقلِه حسنُها مجملًا، فوافَق التفصيلُ ما يجدُه في فطرتِه وعقلِه... والتذكرةُ لشيءٍ كان موجودًا، إلَّا أنَّ صاحبَه غافلٌ عنه، أو غيرُ مستحضِرٍ لتفصيلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

وقال ابن عاشور: (التذكرةُ: خُطورُ المنسيِّ بالذِّهنِ، فإنَّ التَّوحيدَ مستَقِرٌّ في الفطرةِ والإشراكَ =

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال سُبحانه: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ [الأعلى: ٩، ١٠].

﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ٤﴾.

أي: نزل هذا القرآنُ تنزيلًا مِنَ الله الذي خلقَ الأرضَ المُنخَفضةَ والسَّمواتِ العاليةَ الرَّفيعةَ[١].

كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢].

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّه الخالقُ المدبِّرُ الآمِرُ الناهي؛ أخبَرَ عن عظمته وكبريائِه[٢]، فقال تعالى:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾.

أي: الرَّحمنُ علا وارتفَعَ على عَرشِه، كما يليقُ بجَلالِه[٣].

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦﴾.

= منافٍ لها، فالدَّعوةُ إلى الإسلامِ تذكيرٌ لما في الفطرةِ أو تذكيرٌ لملَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٥).

وقال ابن عطية: (و﴿يَخۡشَىٰ﴾ يتضمَّنُ الإيمانَ والعملَ الصالحَ؛ إذ الخشيةُ باعثةٌ على ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٢، ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا شرح اللهُ تعالى مُلكَه بقَولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، والمُلكُ لا ينتَظِمُ إلَّا بالقدرةِ والعِلمِ؛ لا جرم عَقَّبَه بالقدرةِ ثمَّ بالعلمِ[١]، فالقدرةُ لما كانت تابعةً للإرادةِ، وهي لا تنفَكُّ عن العلمِ؛ عقَّب ذلك بإحاطةِ علمِه تعالى بجلياتِ الأمورِ وخفياتِها على سواءٍ[٢]، فقال:

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦﴾.

أي: لله وَحْدَه مُلكُ جَميعِ ما في السَّمواتِ، وجميعِ ما في الأرضِ، وما بينَهما وما تحتَ التُّرابِ ممَّا في باطِنِ الأرضِ مِن المخلوقاتِ، وهو المتصَرِّفُ فيهم بتدبيرِه ومشيئتِه وَحْدَه[٣].

﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى أولًا إنشاءَ السَّمواتِ والأرضِ، وذكَرَ أنَّ جميعَ ذلك وما فيهما مُلكُه؛ ذكَرَ تعالى صِفةَ العِلمِ، وأنَّ عِلمَه لا يغيبُ عنه شَيءٌ[٤]، فالآيةُ بَيانٌ لإحاطةِ عِلْمِه تعالَى بجميعِ الأشياءِ إثْرَ بَيانِ سَعَةِ سَلْطنتِه، وشُمولِ قُدرتِه لجميعِ الكائناتِ[٥].

وأيضًا لمَّا كان المُلكُ لا ينتظمُ غايةَ الانتظامِ إلَّا بإحاطة العلم، وكان المَلكُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢١، ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥).

من الآدميين قد لا يعلمُ أحوالَ أقصى ملكِه كما يعلمُ أحوالَ أدناه، لاسيما إذا كان واسعًا، ولذلك يختلُّ بعضُ أمرِه؛ أعلَمَ أنَّه سُبحانَه بخلافِ ذلك، فقال حثًّا على مراقبتِه، والإخلاصِ له[١]:

﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧ ﴾.

أي: وإنْ تجهَرْ بقَولِك -يا مُحمَّدُ[٢]- أو تُسِرَّه، فكُلٌّ سَواءٌ في عِلمِ اللهِ؛ فإنَّه يعلَمُ ما تُسِرُّه النفوسُ، ويعلَمُ ما هو أخفى من السِّرِّ ممَّا لم يخطُرْ على قلوبِ العبادِ، يعلَمُ أنه سيخطرُ ببالِهم كذا وكذا، في وقتِ كذا وكذا[٣].

كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الفرقان: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٦٩).

(٢) وممن ذهب إلى أنَّ الخطابَ للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢).

قال ابن عاشور: (الخطابُ في قولِه ﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ﴾ يجوز أنْ يكون خطابًا للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وهو يعمُّ غيرَه، ويجوزُ أنْ يكونَ لغيرِ مُعَيَّنٍ ليعُمَّ كُلَّ مخاطَبٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢، ١٦، ١٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١١١)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، والضحاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤، ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٥).

وذكر ابنُ الجوزيِّ أقوالًا أخرى، منها: أنَّ السرَّ: ما حدَّثتَ به نفسَك، ﴿وَأَخۡفَى﴾: ما لم تلفِظْ به. ونسَبه لسعيدِ بنِ جُبيرٍ. ومنها: أنَّ السرَّ: العملُ الذي يُسِرُّه الإنسانُ مِن الناسِ، وأخفَى منه: الوسوسةُ. ونسَبه لمجاهدٍ. ومنها: أنَّ المرادَ: يعلمُ إسرارَ عبادِه، وقد أخفَى سرَّه عنهم فلا يُعْلَمُ. ونسَبه لزيدِ بنِ أسلمَ، وابنِه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٥١).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما كان مَن هو بهذه الأوصافِ مِن تمامِ العِلمِ والقُدرةِ رُبَّما ظُنَّ أنَّ له منازعًا؛ نفَى ذلك مُعْلِمًا أنَّ هذا الظَّنَّ باطِلٌ قطعًا لا شُبهةَ له[١].

وأيضًا لَمَّا قرَّرَ كَمالَه المطلَقَ بعُمومِ خَلقِه، وعُمومِ أمْرِه ونهيِه، وعُمومِ رَحمتِه، وسَعةِ عَظَمتِه وعُلُوِّه على عَرشِه، وعُمومِ مُلكِه، وعُمومِ عِلمِه؛ نتَج مِن ذلك أنَّه المستحِقُّ للعبادةِ، وأنَّ عبادتَه هي الحَقُّ التي يُوجِبُها الشَّرعُ والعَقلُ والفِطرةُ، وعبادةُ غيرِه باطِلةٌ، فقال[٢]:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: اللهُ لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا هو، ولا يستحِقُّ العبادةَ غيرُه؛ فأخلِصوا له العبادةَ وَحْدَه[٣].

﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

أي: لله وَحْدَه الأسماءُ الكثيرةُ الكامِلةُ في حُسنِها، الدَّالَّةُ على صِفاتِ كَمالِه سُبحانَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٢). =

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ فليس المقصودُ بالوحيِ، وإنزالِ القُرآنِ عليك، وشَرعِ الشَّريعةِ: أنْ تشقَى بذلك، ويكونَ في الشَّريعةِ تكليفٌ يشُقُّ على المكَلَّفينَ، وتعجزُ عنه قوى العامِلينَ، وإنما الوحيُ والقرآنُ والشَّرعُ، شَرَعه الرحيمُ الرَّحمنُ، وجعله موصِلًا للسَّعادةِ والفلاحِ والفوزِ، وسهَّله غايةَ التَّسهيلِ، ويسَّرَ كُلَّ طُرقِه وأبوابِه، وجعلَه غِذاءً للقلوب والأرواحِ،

= قال السَّعدي: (مِن حُسنِها أنَّها كلَّها أسماءٌ دالَّةٌ على المدحِ، فليس فيها اسمٌ لا يدُلُّ على المدحِ والحَمدِ، ومن حُسنِها أنَّها ليست أعلامًا مَحضةً، وإنَّما هي أسماءٌ وأوصافٌ، ومن حُسنِها أنَّها دالَّةٌ على الصِّفاتِ الكاملةِ، وأنَّ له مِن كُلِّ صِفةٍ أكمَلَها وأعمَّها وأجَلَّها، ومن حُسنِها أنَّه أمر العبادَ أنْ يَدعُوه بها؛ لأنَّها وسيلةٌ مُقَرِّبةٌ إليه، يحِبُّها، ويحِبُّ مَن يُحبُّها، ويحِبُّ من يحفَظُها، ويحِبُّ من يبحَثُ عن معانيها، ويتعَبَّدُ له بها؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

وقال ابنُ عاشور: (قولُه: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾... أي: لا لغَيرِه؛ لأنَّ غيرَه إمَّا أنْ يكون اسمُه مُجرَّدًا من المعاني المدلولةِ للأسماءِ، مثلَ الأصنامِ، وإمَّا أنْ تكون حقائِقُها فيه غيرَ بالغةٍ مُنتهى كَمالِ حَقيقتِها، كاتِّصافِ البَشَرِ بالرَّحمةِ والمُلكِ، وإمَّا أنْ يكونَ الاتِّصافُ بها كَذِبًا لا حَقيقةً، كاتِّصافِ البَشَرِ بالكِبرِ؛ إذ ليس أهلًا للكِبرِ والجَبَروتِ والعِزَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٢).

وراحةً للأبدان، فتلَقَّتْه الفِطَرُ السَّليمةُ والعقولُ المستقيمةُ بالقَبولِ والإذعانِ؛ لعِلمِها بما احتوى عليه مِن الخيرِ في الدُّنيا والآخرةِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[١].

٢- آياتُ اللهِ الإيمانيةُ القرآنيةُ إنما يَنتَفِعُ بها أهلُ التَّقوى والخشيةِ والإنابةِ ومَن كان قَصدُه اتِّباعَ رضوانِه؛ وأنها يَتذَكَّرُ بها مَن يخشاه سُبحانَه، قال تعالى: ﴿طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[٢].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ فيه حَثٌّ على مُراقَبةِ الله تعالى، والإخلاصِ له[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ جَمَعَ الله لنبيِّه سُبحانَه بينَ إنزالِ القرآنِ عليه وبين نَفْيِ الشَّقاءِ عنه، كما قال في آخِرِها- في حقِّ أتباعِه: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]؛ فالهُدى والفَضلُ والنِّعمةُ والرَّحمةُ مُتلازِماتٌ لا يَنْفَكُّ بعضُها عن بعضٍ، كما أنَّ الضَّلالَ والشَّقاءَ متلازمانِ لا يَنفَكُّ أحدُهما عن الآخَرِ[٤].

٢- كثيرًا ما يُقرَنُ بينَ الخلقِ والأمرِ، كما في قوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ وقَولِه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ وقَولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ وذلك أنَّه الخالقُ الآمرُ الناهي، فكما أنَّه لا خالقَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).
(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣١).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٦٩).
(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٤).

سواه، فليس على الخلقِ إلزامٌ ولا أمرٌ ولا نهيٌ إلَّا مِن خالقِهم، وأيضًا فإنَّ خلقَه للخلقِ فيه التدبيرُ القدريُّ الكونيُّ، وأمرَه فيه التدبيرُ الشرعيُّ الدينيُّ، فكما أنَّ الخلقَ لا يخرجُ عن الحكمةِ، فلم يخلقْ شيئًا عبثًا، فكذلك لا يأمرُ ولا ينهَى إلا بما هو عدلٌ وحكمةٌ وإحسانٌ(١).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ فائِدةُ وَصفِ السَّمواتِ بالعُلا: الدَّلالةُ على عِظَمِ قُدرةِ مَن يخلُقُ مِثلَها في عُلُوِّها، وبُعدِ مُرتقاها(٢)؛ إذ لا يُمكِنُ وُجودُ مثْلِها في عُلوِّها مِن غيرِه تعالى(٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ في ذِكرِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه مع عُلُوِّه وعظمَتِه مَوصوفٌ بالرَّحمةِ(٤).

٥- لما كان خطابُ الناسِ لا يتأتَّى إلا بالجهرِ بالكلام، جاء الشرطُ بالجهرِ، فقال: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾، وعلَّق على الجهرِ علمَه بالسرِّ، فقال: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾؛ لأنَّ علمَه بالسرِّ يتضمَّنُ علمَه بالجهرِ، أي: إذا كان يعلمُ السرَّ فأحرَى أنْ يعلمَ الجهرَ، والسِّرُّ مقابِلٌ للجهرِ، كما قال: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾(٥) [الأنعام: ٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ؛ لتَسليتِه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٣).

صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا كان يَعْتريه من جِهَةِ المُشرِكين من التَّعبِ؛ فإنَّ الشَّقاءَ شائعٌ في ذلك المَعنى، ولعلَّه عبَّرَ بـ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ بدلًا من (لِتَتْعَبَ)؛ للإشْعارِ بأنَّه أُنزِلَ عليه لِيسعَدَ. وقيل: إنَّه رَدٌّ وتكذيبٌ للكَفرةِ؛ فإنَّهم لمَّا رأَوا كثرةَ عبادتِه، قالوا: إنَّك لَتَشقَى بترْكِ دِينِنا، وإنَّ القُرآنَ أُنزِلَ عليك لِتَشقى به؛ ففيه تَعريضٌ بأنَّهمُ الأشقياءُ[١].

- قولُه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ وُقوعُ فِعْلِ ﴿أَنزَلۡنَا﴾ في سياقِ النَّفيِ يَقْتضي عُمومَ مَدْلولِه، وعُمومُ الفعْلِ يَستلزِمُ عُمومَ مُتعلِّقاتِه مِن مفعولٍ ومَجرورٍ؛ فيعُمُّ نفْيَ جميعِ كلِّ إنزالٍ للقُرآنِ فيه شَقاءٌ له، ونفْيَ كلِّ شَقاءٍ يتعلَّقُ بذلك الإنزالِ، أي: جميعِ أنواعِ الشَّقاءِ؛ فلا يكونُ إنزالُ القُرآنِ سببًا في شَيءٍ من الشَّقاءِ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾

- قولُه: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ خُصَّ مَن يَخْشى مع عُمومِ التَّذكرةِ والتَّبليغِ؛ لأنَّهم المُنتفِعون بها[٣]، وفيه: تَنويهٌ بشأْنِ المُؤمِنين الَّذين آمنوا بأنَّهم كانوا من أهْلِ الخشيةِ، ولولا ذلك لَمَا تَذكَّروا بالقُرآنِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾

- قولُه: ﴿تَنزِيلٗا﴾ حالٌ ثانيةٌ، والمقصودُ منها التَّنويهُ بالقُرآنِ، والعِنايةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٤-١٨٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٤).

به؛ لِيَنتقِلَ مِن ذلك إلى الكِنايةِ بأنَّ الَّذي أنزَلَه عليك بهذه المَثابةِ لا يَترُكُ نصْرَك وتأْييدَك[١]. وفي قولِه: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ تَفخيمٌ وتعظيمٌ لشأْنِ القُرآنِ؛ إذ هو منسوبٌ تَنزيلُه إلى مَن هذه أفعالُه وصِفاتُه، وتَحقيرٌ لمَعبوداتِهم، وتَحريضٌ للنُّفوسِ على الفِكْرِ والنَّظرِ[٢]، فإنَّه تعظُمُ الرِّسالةُ بتعظيمِ حالِ المُرسِلِ؛ ليكونَ المُرسَلُ إليه أقرَبَ إلى الامتِثالِ[٣].

- أشار بالمصدَرِ الجاري على غيرِ الفِعْلِ في قولِه: ﴿تَنزِيلًا﴾، إلى أنَّه يتمهَّلُ عليهم ترفُّقًا بهم، ولا يُنزِلُ هذا القُرآنَ إلَّا تدريجًا؛ إزالةً لشُبَهِهم، وشرْحًا لصُدورِهم، وتَسكينًا لنُفوسِهم، ومَدًّا لمُدَّةِ البركةِ فيهم بتَردُّدِ الملائكةِ الكِرامِ إليهم، كما أنَّه لم يُهْلِكْهم بمَعاصيهم؛ اكتفاءً ببيِّنةِ ما في الصُّحفِ الأُولى، بل أرسَلَ إليهم رسولًا[٤].

- وفي قولِه: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ الْتِفاتٌ؛ إذ فيها الخُروجُ من ضَميرِ التَّكلُّمِ -وهو في ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾- إلى الغَيبةِ، وفيه عادةُ التَّفنُّنِ في الكلامِ، وهو ممَّا يَحسُنُ؛ إذ لا يَبْقَى على نظامٍ واحدٍ، وجَريانُ هذه الصِّفاتِ على لفْظِ الغَيبةِ والتَّفخيمِ بإسنادِ الإنزالِ إلى ضَميرِ الواحدِ المُعظِّمِ نفْسَه، ثمَّ إسنادُه إلى مَن اخْتُصَّ بصفاتِ العظمةِ الَّتي لم يُشارِكْه فيها أحدٌ، فحصَلَ التَّعظيمُ من الوجهينِ؛ فهو مَسوقٌ لتَعظيمِ شأْنِ المُنزِّلِ عَزَّ وجَلَّ المُستَتْبِعِ لتَعظيمِ شأْنِ المُنزَّلِ، الدَّاعي إلى تَربيةِ المَهابةِ، وإدخالِ الرَّوعةِ المُؤدِّيةِ إلى استنزالِ المُتمرِّدينَ عن رُتْبةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٧-٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٦٧).

العُتوِّ والطُّغيانِ، واستمالتِهم نحوَ الخشيةِ المُفْضِيةِ إلى التَّذكرةِ والإيمانِ[١].

- والعُدولُ عن اسمِ الجَلالةِ أو عن ضَميرِه إلى الموصوليَّةِ ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ﴾؛ لِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ من تحتُّمِ إفرادِه بالعبادةِ؛ لأنَّه خالقُ المُخاطَبين بالقُرآنِ وغيرِهم ممَّا هو أعظَمُ منهم خلْقًا[٢].

- وتَخصيصُ خلْقِه السَّمواتِ والأرضَ بالذِّكرِ -مع أنَّ المُرادَ خلْقُهما بجميعِ ما يتعلَّقُ بهما-؛ لأصالتِهما، واستتباعِهما لِمَا عداهما. وتَقديمُ الأرضِ؛ لكونِها أقرَبَ إلى الحسِّ، وأظهَرَ عنده من السَّمواتِ العُلى[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ فيه وصْفُه بالرَّحمانيَّةِ بعدَ وصْفِه بخالِقيَّةِ السَّمواتِ والأرضِ؛ للإشعارِ بأنَّ خلْقَهما من آثارِ رحْمتِه تعالى، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ تَنزيلَ القُرآنِ أيضًا مِن أحكامِ رَحمتِه تعالى، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[٤] [الرحمن: ١-٢]. وأيضًا اختِيرَ وصْفُ (الرَّحمن) لتَعليمِ النَّاسِ به؛ لأنَّ المُشرِكين أنْكَروا تَسميتَه تعالى الرَّحمنَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]. وفي ذِكْرِه هنا، وكثرةِ التَّذكيرِ به في القُرآنِ: بعْثٌ على إفرادِه بالعبادةِ؛ شُكْرًا على إحسانِه بالرَّحمةِ البالغةِ[٥].

- و﴿عَلَى﴾ مُتعلِّقةٌ بـ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾؛ قُدِّمَت عليه لمُراعاةِ الفواصلِ[٦]؛ ولإفادةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥).

الحصرِ والتخصيصِ، وبيانِ أنَّه سُبحانَه وتعالى لم يستوِ على شيءٍ سوى العَرشِ[١].

- واختيارُ اسمِ (الرَّحمن) هنا دونَ (الرَّحيم)؛ لِمَا في وزْنِ (فَعْلان) من سَعَةِ هذا الوصْفِ، وثُبوتِ جَميعِ معناهُ الموصوفِ به؛ ولهذا يَقْرِنُ استواءَه على العرْشِ بهذا الاسمِ كثيرًا؛ فاستوى على عَرْشِه باسْمِ الرَّحمنِ؛ لأنَّ العرْشَ مُحيطٌ بالمخلوقاتِ قد وسِعَها، والرَّحمةُ مُحيطةٌ بالخلْقِ واسعةٌ لهم؛ فاسْتَوى على أوسَعِ المخلوقاتِ بأوسَعِ الصِّفاتِ؛ فلذلِكَ وسِعَت رَحمتُه كلَّ شَيءٍ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٢] [الأعراف: ١٥٦].

٥- قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾

- تَقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ للقصْرِ؛ رَدًّا على زعْمِ المُشرِكين أنَّ لآلهتِهم تَصرُّفاتٍ في الأرضِ، وأنَّ للجنِّ اطِّلاعًا على الغيبِ، ولتَقريرِ الرَّدِّ ذُكِرَتْ أنحاءُ الكائناتِ؛ وهي السَّمواتُ والأرضُ، وما بينهما، وما تحْتَ الثَّرى[٣].

- وذِكرُ ما تحْتَ الثَّرى مع دُخولِه تحتَ ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لزِيادةِ التَّقريرِ[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لدَلالةِ هذه الجُملةِ على سَعَةِ عِلْمِه تعالى، كما دلَّتِ الجُملةُ المعطوفُ عليها على عَظِيمِ سُلْطانِه وقُدرتِه، وأصْلُ النَّظمِ: ويعلَمُ

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥).

السِّرَّ وأخْفى إنْ تَجهَرْ بالقولِ؛ فموقِعُ قولِه: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ مَوقِعُ الاعتراضِ بين جُملةِ ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ وجُملةِ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ فَصِيغَ النَّظمُ في قالِبِ الشَّرطِ والجَزاءِ؛ زِيادةً في تَحقيقِ حُصولِه على طَريقةِ ما يُسمَّى بالمذهبِ الكلاميِّ، وهو سَوقُ الخبرِ في صِيغَةِ الدَّليلِ على وُقوعِه؛ تَحقيقًا له[١].

- وطابَقَ الجَزاءُ الشَّرطَ؛ لأنَّ معناهُ: وإنْ تجهَرْ بذِكْرِ اللهِ من دُعاءٍ أو غيرِه، فاعْلَمْ أنَّه غَنِيٌّ عن جَهْرِك؛ فإمَّا أنْ يكونَ نهْيًا عن الجَهْرِ، كقولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وإمَّا تعليمًا للعِبادِ أنَّ الجَهْرَ ليس لإسماعِ اللهِ، وإنَّما هو لغرضٍ آخرَ[٢].

- واختِيرَ في إثباتِ سَعَةِ عِلْمِ اللهِ تعالى خُصوصُ عِلْمِه بالمسموعاتِ؛ لأنَّ السِّرَّ أخْفى الأشياءِ عن عِلْمِ النَّاسِ في العادةِ، و(أَخْفَى) اسمُ تَفضيلٍ، وحُذِفَ المُفضَّلُ عليه؛ لدَلالةِ المَقامِ عليه، أي: وأخْفى منَ السِّرِّ[٣]، وتَنكيرُه؛ للمُبالغةِ في الخَفاءِ[٤].

٧- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ أنَّ ما ذُكِرَ من صِفاتِ الكَمالِ مَوصوفُها ذلك المعبودُ بالحقِّ، أي: ذلك المَنْعوتُ بما ذُكِرَ منَ النُّعوتِ الجليلةِ اللهُ عَزَّ وجَلَّ. وقولُه تعالَى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تَحقيقٌ للحقِّ، وتَصريحٌ بما تضمَّنَه ما قبْلَه مِن اختصاصِ الأُلوهيَّةِ به سُبحانه؛ فإنَّ ما أُسنِدَ إليه تعالى مِن خلْقِ جميعِ الموجوداتِ، والرَّحمانيَّةِ، والمالكيَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٨-١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٠- ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥).

للكلِّ، والعلْمِ الشَّاملِ: ممَّا يَقْتضيه اقتضاءً بَيِّنًا[١].

- وهو تَذييلٌ لِمَا قبْلَه؛ لأنَّ ما قبْلَه تضمَّنَ صِفاتٍ من فِعْلِ اللهِ تعالى، ومن خلْقِه، ومِن عَظَمَتِه؛ فجاء هذا التَّذييلُ بما يَجمَعُ صِفاتِه[٢].

- وقولُه: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بَيانٌ لكونِ ما ذُكِرَ من الخالقيَّةِ والرَّحمانيةِ والمالكيَّةِ والعالِميَّةِ أسماءَه وصِفاتِه، من غيرِ تعدُّدٍ في ذاتِه تعالى[٣].

- وتَقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ للاختصاصِ، أي: لا لغيرِه. ووصْفُ الأسماءِ بالحُسْنى؛ لأنَّها دالَّةٌ على حقائقَ كاملةٍ بالنِّسبةِ إلى المُسمَّى بها، تعالى وتقدَّسَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٢).

الآيات (٩-١٦)

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ءَانَسْتُ﴾: أي: أبصَرتُ، والإيناسُ: الرُّؤيةُ، والعِلمُ، والإحساسُ بالشَّيءِ[١].

﴿بِقَبَسٍ﴾: أي: بشُعلةٍ مِن النَّارِ، مِن قَولِهم: قَبَسْتُه نارًا: إذا جِئتَه بها[٢].

﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾: طُوى هو اسمُ الوادي، أو مصدرٌ، كقولِك: ناديتُ طُوى، أي: مرَّتين، أي: قُدِّس مرتين، والمقدَّس: المطهَّر، وأصلُ (قدس): طُهْرٌ[٣].

﴿فَتَرْدَىٰ﴾: أي: تَهلِكَ، والرَّدَى: الموتُ والهلاكُ، وأصلُ (ردي): يدُلُّ على رَميٍ وتَرامٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٠، ٢٧٧، ٣٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٨)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا قصةَ موسَى عليه السلامُ بشيءٍ مِن التفصيلِ: وهل أتاك -يا مُحمَّدُ- خبَرُ موسى حين رأى نارًا مُوقَدةً في ليلةٍ مُظلِمةٍ، فقال لأهلِه: انتَظِروا لقد أبصرتُ نارًا، لعلِّي أجيئُكم منها بشُعلةٍ تَستَدفِئونَ بها، أو أجِدُ عندها هاديًا يدُلُّنا على الطَّريقِ.

فلمَّا أتى موسى تلك النَّارَ ناداه الله: يا موسى، إنِّي أنا ربُّك، فاخلَعْ نَعلَيك؛ لأنَّك بوادي «طُوًى» المطَهَّرِ المُبارَكِ، وإنِّي اخترتُك -يا موسى- لرسالتي وكلامي، فاستَمِعْ لِما يُوحَى إليك مِنِّي، إنَّني أنا اللهُ لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا أنا، لا شريكَ لي؛ فاعبُدني وحدي، وأقِمِ الصَّلاةَ لتَذكُرَني فيها.

ثمَّ بيَّن سبحانه أنَّ الساعةَ آتيةٌ، وحذَّر مِن عدمِ الاستعدادِ لها فقال: إنَّ القيامةَ آتيةٌ لا بُدَّ مِن وُقوعِها، أكادُ أُخفيها مِن نَفسي، فلا يَعلَمُها أحَدٌ. تقومُ السَّاعةُ لكي تُجزى كلُّ نفسٍ بما عَمِلَت في الدُّنيا من خيرٍ أو شَرٍّ، فلا يَصرِفَنَّك -يا موسى- عن الإيمانِ بها والاستعدادِ لها مَن لا يصَدِّقُ بوُقوعِها، ولا يعمَلُ لها، واتَّبَعَ شهواتِه؛ فتَهلِكَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما عظَّمَ الله تعالى حال القرآنِ وحال الرسولِ فيما كلَّفه؛ أتبع ذلك بما يقَوِّي قَلبَ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم مِن ذِكرِ أحوال الأنبياءِ عليهم السَّلامُ؛ تقويةً

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩).

لقَلبِه في الإبلاغِ، وبدأ بموسى -عليه السلام- لأنَّ المِحنةَ والفِتنةَ الحاصلة له كانت أعظَمَ؛ ليُسَلِّيَ قَلبَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بذلك، ويصَبِّرَه على تحمُّلِ المكارهِ[١].

﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ ﴾.

أي: وهل أتاك[٢] -يا مُحمَّدُ- خبَرُ موسى[٣]؟

﴿ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠ ﴾.

﴿ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا ﴾.

أي: حين رأى نارًا -وهو مسافِرٌ مِن مَدينَ إلى مِصرَ في ليلةٍ مُظْلِمةٍ باردةٍ- فقال لزوجتِه ووَلَدِه: أقيموا أنتم في مكانِكم، فقد أبصرتُ نارًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٣). وقال أبو السعودِ: (وأمَّا ما قيل من أنَّ ذلك لترغيبِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم في الائتِساءِ بموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في تحمُّلِ أعباءِ النُبُوَّةِ، والصَّبرِ على مقاساةِ الخُطوبِ في تبليغِ أحكامِ الرِّسالةِ: فيأباه أنَّ مَساقَ النَّظمِ الكريمِ لصَرفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن اقتِحامِ المشاقِّ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦).

(٢) قال الشربيني: (هذا محتمِلٌ لأن يكونَ هذا أوَّلَ ما أُخبِرَ به مِن أمرِ موسى فقال: ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ ﴾ أي: لم يأتِك إلى الآن فتنبَّه له، وهذا قولُ الكلبيِّ، ومحتملٌ أنْ يكونَ قد أتاه ذلك في الزمانِ المتقدِّمِ، فكأنَّه قال: أليس قد أتاك؟ وهذا قولُ مقاتلٍ والضحاكِ عن ابنِ عباسٍ). ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨، ٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٤). =

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾.

أي: وأنا ذاهبٌ إليها رجاءَ أنْ أجلِبَ منها شعلةً تَستَدفِئونَ بها[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾.

أي: أو رجاءَ أنْ ألقَى عندَ تلك النَّارِ ما يَهديني الطريقَ الذي ضَلَلْناه[(٢)].

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١﴾.

أي: فلما أتَى موسى إلى النَّارِ ناداه اللهُ، فقال: يا موسى[(٣)]!

= قال ابن عاشور: (والأهلُ: الزوجُ والأولادُ، وكانوا معه بقرينةِ الجمعِ في قولِه: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٤).

قال ابنُ جرير: (قوله: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه: ١٠] دلالةٌ تدلُّ على الطريقِ الذي أضلَلْناه؛ إمَّا مِن خبرِ هادٍ يهدينا إليه، وإمَّا مِن بيانٍ وعلمٍ نتبيَّنُه به ونَعرِفُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣). =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النمل: ٨، ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

وقال عز وجل: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٢﴾.

أي: إني أنا ربُّك الذي يكَلِّمُك ويخاطِبُك -يا موسى- فاخلَعْ نَعلَيك؛ لأنَّك بالوادي المُطَهَّرِ المبارَك المُسمَّى طُوًى[1].

= قال السعدي: (﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النَّارَ التي آنسَها من بعيدٍ، وكانت -في الحقيقة- نورًا، وهي نارٌ تَحرِق وتُشرِق، ويدلُّ على ذلك قولُه صَلَّى الله عليه وسَلَّم: «حِجابُه النورُ أو النَّارُ، لو كَشَفَه لأحرَقَت سُبُحاتُ وَجهِه ما انتهى إليه بصُرُه»). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥، ٢٦، ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٦-٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

قال الواحدي عن ﴿طُوًى﴾: (قال ابنُ عبَّاس: هو اسمُ الوادي. وهو قَولُ جميعِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٤/ ٣٦٩).

وقال ابنُ جرير: (أمَرَه الله -تعالى ذِكرُه- بخَلعِ نَعلَيه ليباشِرَ بقَدَميه بركةَ الوادي؛ إذ كان واديًا مُقَدَّسًا، وإنما قلنا: ذلك أولى التأويلينِ بالصوابِ؛ لأنَّه لا دلالةَ في ظاهِرِ التنزيلِ على أنَّه أُمِرَ بخلعِهما مِن أجلِ أنهما مِن جِلدِ حِمارٍ، ولا لنجاسَتِهما! ولا خبَرَ بذلك عمَّن يلزَمُ بقَولِه الحُجَّة، وإنَّ في قَولِه ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ بعَقِبِه دَليلًا واضِحًا على أنَّه إنما أمَرَه بخَلْعِهما لِما ذَكَرْنا). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥).

وقال ابنُ عطية: (تحتملُ الآيةُ معنى آخرَ هو الأليقُ بها عندي، وذلك أنَّ الله تعالى أمره أنْ يتواضعَ لعظمِ الحالِ التي حصَل فيها، والعرفُ عندَ الملوكِ أنْ تُخلعَ النعلانِ، ويبلغَ الإنسانُ إلى غايةِ تواضعِه، فكأنَّ موسى عليه السلام أُمِر بذلك على هذا الوجهِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩).

وقال ابنُ كثير: (قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وأبو ذرٍّ، وأبو أيوبَ، وغيرُ واحدٍ مِن السلفِ: كانتا =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥، ١٦].

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾.

أي: وأنا اخترتُك -يا موسى- مِن بينِ النَّاسِ للنبُوَّةِ والرِّسالةِ، وسَماعِ كلامي مُباشَرةً[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾.

أي: فأنصِتْ -يا موسى- مُلقيًا سَمْعَك ومُعمِلًا قَلْبَك لوعْيِ ما أُوحِيه إليك الآنَ مِن كلامي[2].

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾.

= مِن جِلدِ حمارٍ غيرِ ذَكيٍّ. وقيل: إنما أمَرَه بخلعِ نعليه تعظيمًا للبقعةِ. قال سعيدُ بنُ جبيرٍ: كما يُؤمَرُ الرجلُ أنْ يخلعَ نعلَيهِ إذا أراد أنْ يدخُلَ الكعبةَ. وقيل: ليطأَ الأرضَ المقدَّسة بقدميه حافيًا غير مُنتَعِلٍ. وقيل غير ذلك، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

أي: إنَّني أنا اللهُ الذي لا معبودَ بحقٍّ غيري، ولا يستحقُّ العبادةَ أحدٌ سِواي[١].

﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾.

أي: فأخلِصْ لي وَحْدي جميعَ أنواعِ العبادةِ -يا موسى- وقُمْ بعبادتي دونَ أنْ تُشرِكَ بي شيئًا[٢].

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

أي: وأقِمِ الصَّلاةَ -يا موسى- لأجلِ أنْ تذكُرَني فيها، متى ما ذكرْتَ أنَّ عليك صلاةً[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠١).

وقال ابن عاشور: (الذكرُ يجوزُ أنْ يكونَ بمعنى التذكرِ بالعقلِ، ويجوزُ أنْ يكونَ الذكرُ باللسانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠١).

قال ابن الجوزي: (﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أقمِ الصلاةَ متى ذكرتَ أنَّ عليكَ صلاةً، سواء كنتَ في وقتِها أو لم تكنْ، هذا قولُ الأكثرينَ.

والثاني: أقمِ الصلاةَ لتَذْكُرَني فيها، قاله مجاهدٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٥٤).

ونسَب القولَ الأوَّل أيضًا ابنُ عبدِ البرِّ إلى أكثرِ أهلِ العلمِ، ونسَبه الواحدي إلى عامةِ المفسرينَ. يُنظر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (١/ ٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٠٢).

ويشهدُ لمعناه حديثُ أنس أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا رَقَد أحَدُكم عن الصَّلاةِ، أو غَفَل عنها، فلْيُصَلِّها إذا ذكَرَها؛ فإنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾)) أخرجه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤) واللفظ له.

وممن اختار القولَ الثاني: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ قتيبةَ، وابنُ جريرٍ، وابنُ رجب، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ١٣٣)، ((تفسير =

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لمَّا ذكر الله تعالى الأمرَ بالعبادةِ، وإقامةِ الصلاةِ؛ ذكَرَ الحامِلَ على ذلك وهو: البَعثُ والمعادُ للجَزاءِ[1]، فعَلَّل الأمرَ بالعبادةِ بأنَّه لم يخلُقِ الخَلقَ سُدًى، بل لا بُدَّ مِن إماتتِهم ثمَّ بَعْثِهم؛ لإظهارِ العَظَمةِ، ونَصبِ مَوازينِ العَدلِ[2].

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾.

أي: إنَّ السَّاعةَ التي يُبعَثُ فيها الخلائِقُ مِن قُبورِهم لموقِفِ القيامةِ آتيةٌ لا محالةَ، وأكاد أستُرُها مِن نفسي، فلا يمكِنُ لأحدٍ أنْ يطَّلِعَ عليها[3].

= القاسمي)) (٧/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

قال ابن القيم: (قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾. قيل: المصدرُ مضافٌ إلى الفاعلِ، أي: لأذكرَك بها، وقيل: مضافٌ إلى المذكورِ، أي: لتذكروني بها. واللامُ على هذا لامُ التعليلِ.

وقيل: هي اللامُ الوقتيةُ، أي: أقمِ الصلاةَ عندَ ذكري، كقولِه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]... والأظهرُ أنَّها لامُ التعليلِ، أي: أقمِ الصلاةَ لأجلِ ذكري. ويلزمُ مِن هذا أنْ تكونَ إقامتُها عندَ ذكرِه، وإذا ذكَر العبدُ ربَّه، فذكرُ الله تعالى سابقٌ على ذكرِه، فإنَّه لما ذكرَه ألهَمه ذكرَه، فالمعاني الثلاثةُ حقٌّ). ((الوابل الصيب)) (ص: ٧٤).

وقال الجصاص بعد أنْ ذكر أنَّ المعاني التي ذكرها المفسرون غير متنافية: (فكأنَّه قال: أقِمْ الصَّلاةَ إذا ذكرْتَ الصَّلاةَ المنسِيَّةَ؛ لتذكُرَني فيها بالتَّسبيحِ والتَّعظيمِ؛ لأنْ أذكُرَكَ بالثَّناءِ والمدحِ؛ فيكونُ جميعُ هذه المعاني مرادةً بالآيةِ). ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٤، ٣٧)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١٠/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣). =

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾.

أي: إنَّ السَّاعةَ آتيةٌ؛ لتنالَ كلُّ نفسٍ جزاءَ ما تعمَلُه في الدُّنيا مِن خيرٍ وشرٍّ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة: ٧- ٨].

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

أي: فلا يَصرِفنَّكَ -يا موسى- عن الإيمانِ بالسَّاعةِ، والاستعدادِ لها مَنْ لا يُقِرُّ بقيامِها، ولا يُصدِّقُ بها، فلا يرجو ثوابًا، ولا يخافُ عقابًا، واتَّبَعَ شَهَواتِه، وخالَفَ أمْرَ اللهِ ونَهْيَه؛ فتَهلِكَ[2].

= قال ابنُ عطية: (الساعةُ في هذه الآيةِ القيامةُ، بلا خلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩، ٤٠).
وممن ذهب إلى أنَّ معنى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي: مِن نفسي: ابنُ قتيبةَ، وابنُ جريرٍ، وابنُ تيميةَ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة. وقد نسبه الواحديُّ إلى أكثر المفسِّرينَ، فقال: (قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قال أكثرُ المفسرينَ: «أُخفيها من نفسي»، وهذا قولُ سعيدِ ابنِ جُبيرٍ، ومجاهدٍ، وعطاءِ بنِ السائبِ. وهذا التفسيرُ موافقٌ لما رُويَ: أنَّ في مصحف أُبَيٍّ: «أكادُ أُخفيها مِن نفسي، فكيفَ يعلَمُها مخلوقٌ»، وفي بعضِ القراءاتِ: «أكادُ أُخفيها مِن نفسي، فكيفَ أُظهِرُكم عليها»). ((البسيط)) (١٤/ ٣٧٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٧).
وقال الواحدي: (على هذا معنى الآيةِ: إنَّ الله تعالى بالغَ في إخفاء الساعة، فذكَرَه بأبلغِ ما تعرِفُه العَرَبُ في مثلِه... والمعنى: أنه لم يُطلِعْ على وقتِ قيامِ الساعة ملكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا، حتى لو جاز أنْ يُخفِيَه عن نفسه أخفاها. قال ابنُ الأنباري: والمعنى في إخفائِها التهويلُ والتخويفُ؛ لأنَّ النَّاسَ إذا لم يعلموا متى تقومُ الساعةُ كانوا على حَذَرٍ منها كلَّ وقتٍ. هذا معنى قولِ المفسرينَ في هذه الآيةِ. و«كاد» -على قولِهم- للمُقاربةِ). ((البسيط)) (١٤/ ٣٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي: أقِمِ الصَّلاةَ لأجلِ أنْ تذكُرَني؛ فالصَّلاةُ تُذكِّرُ العبدَ بخالِقِه؛ إذ يستشعِرُ أنَّه واقفٌ بين يَدَي الله لمناجاته، ففي هذا الكلامِ إيماءٌ إلى حِكمةِ مَشروعيَّةِ الصَّلاةِ، وبضَميمتِه إلى قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] يظهر أنَّ التقوى مِن حكمةِ مَشروعيَّةِ الصَّلاةِ؛ لأنَّ المكَلَّفَ إذا ذكَرَ أمرَ اللهِ ونَهْيَه، فعَلَ ما أمَرَه، واجتنَبَ ما نهاه عنه، والله عَرَّف موسى حِكمةَ الصَّلاةِ مجملةً، وعَرَّفَها مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم مُفَصَّلةً(١).

٢- قوله تعالى: ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ أي: أقم الصلاةَ لأجلِ ذكرك إياي؛ لأنَّ ذكرَه تعالى أجلُّ المقاصدِ، وهو عبوديةُ القلبِ، وبه سعادتُه، فالقلبُ المعطلُ عن ذكرِ الله، معطلٌ عن كلِّ خيرٍ، وقد خرِب كلَّ الخرابِ، فشرَع الله للعبادِ أنواعَ العباداتِ، التي المقصودُ منها إقامةُ ذكرِه، وخصوصًا الصلاةَ. قال الله تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ

= قال ابن عطية: (هذا الخطابُ كلُّه لموسى عليه السلامُ وكذلك ما بعدَه، وقال النقَّاش: «الخطابُ بـ ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ لمحمد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ»، وهذا بعيد). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠).

وممَّن نصَّ على أنَّ الخطاب هنا لموسى عليه السَّلام: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الخطاب لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: مقاتلُ بنُ سليمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤).

وقال ابنُ كثير: (المرادُ بهذا الخطابِ آحادُ المكَلَّفين، أي: لا تتَّبعوا سبيلَ مَن كَذَّب بالساعةِ، وأقبَل على ملاذِّه في دنياه، وعصَى مولاه، واتَّبعَ هواه، فمَن وافَقَهم على ذلك فقد خاب وخَسِر). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠١).

وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أي: ما فيها مِن ذكرِ الله أكبرُ مِن نهيها عن الفحشاءِ والمنكرِ، وهذا النوعُ يُقال له: توحيدُ الألوهية، وتوحيدُ العبادةِ، فالألوهيةُ وصفُه تعالى، والعبوديةُ وصفُ عبدِه(١).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ فيه تنبيهٌ وإشارةٌ إلى التَّحذيرِ عن كُلِّ داعٍ إلى باطِلٍ، يصُدُّ عن الإيمانِ الواجِبِ، أو عن كَمالِه، أو يُوقِعُ الشُّبهةَ في القَلبِ، وعن النَّظَرِ في الكُتُبِ المُشتَمِلةِ على ذلك(٢).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن ترَكَ المراقبةَ لَحظةً حاد عن الدَّليلِ، ومن حاد عن الدَّليلِ هلك(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى عن موسى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ كان مطلَبُه النَّورَ الحِسيَّ، والهدايةَ الحِسيَّةَ، فوجَدَ ثَمَّ النُّورَ المعنويَّ؛ نورَ الوَحيِ الذي تستنيرُ به الأرواحُ والقُلوبُ، والهدايةَ الحقيقيَّةَ؛ هدايةَ الصِّراطِ المستقيمِ، المُوصِلةَ إلى جنَّاتِ النَّعيمِ، فحصل له أمرٌ لم يكُنْ في حِسابِه، ولا خطَرَ ببالِه(٤).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ يُستدَلُّ به على استِحبابِ المشيِ حافيًا في البِقاعِ الشَّريفةِ(٥)، وذلك بناء على أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٦).

الأمرَ بالخلعِ كان تعظيمًا للبقعةِ.

٣- في قَولِه تعالى -عن موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ دليلٌ على أنَّ طَلَبَ النَّارِ مباحٌ، ولا يكونُ في عِدَادِ المسألةِ المذمومةِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ حُجةٌ على مَن يقولُ بخَلْقِ القرآنِ، ويزعمُ أنَّ اللهَ لا يجوزُ عليه الكلامُ! فيقالُ له: مَن نادَى موسى بهذا النداءِ؟ فإنْ قال: لم يناده ربُّه، إنَّما ناداه بعضُ ملائكتِه، قيل: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠﴾ راجِعٌ على مَن؟ فإنْ قال: على المَلَك، كَفَرَ حيثُ جعلَه ربَّ موسى -ولنْ يقولَه إنْ شاء الله- وإنْ قال: هو راجعٌ على الله -جلَّ اللهُ- قيل له: أفيجوزُ أنْ يكونَ ذلك راجعًا عليه، والنداءُ مِن غيرِه؟ فإنْ قال: لا يجوزُ، إنَّه محالٌ، أقرَّ بأنَّ اللهَ متكلمٌ وأنَّ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ وكلَّ ما بعدَه مِن: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ مِن الابتداءِ والجوابِ لموسى، هو كلامُه سُبحانَه، وكلامُه لا يكونُ مخلوقًا؛ لأنَّه صفةٌ مِن صفاتِه، ولا يجوزُ عندنا -وعنده وعند مَن يؤمنُ به- أنْ يكونَ شيءٌ مِن صفاتِه مخلوقًا، ولو كان: «نودِيَ يا موسى، إنه هو ربُّك، وهو اختارك، أنَّه لا إله إلا هو فاعبده، وأقِمِ الصلاةَ لذِكْرِه» وكلُّ ما بعده على هذا المعنى؛ لكان قولُه حينئذٍ أوجهَ في المخلوقِ في حقِّ الكلامِ -وإنْ كان خطأً مِن كلِّ جهةٍ- فهذا وما يشاكلُه في القرآنِ واضحٌ بلا شبهةٍ: أنَّ اللهَ متكلِّمٌ ناطقٌ، وإذا كان متكلمًا ناطقًا، فما خَرَجَ منه مِن كلامِه كان غيرَ مخلوقٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨٢).

٥- قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ دليلٌ على تكليمٍ سَمِعَه موسى، والمعنى المجَرَّدُ لا يُسمَعُ بالضرورةِ، ومن قال إنه يُسمَعُ فهو مكابِرٌ، ودليلٌ على أنَّه ناداه، والنداءُ لا يكونُ إلا صوتًا مَسموعًا، ولا يُعقَلُ في لغة العربِ لَفظُ النداءِ بغَيرِ صَوتٍ مَسموعٍ[١]، وأيضًا فالله تعالى أمَر بالاستماعِ إلى ما يُوحَى، والاستماعُ عندَ العربِ لا يكونُ إلَّا إلى صوتٍ وحرفٍ، ولا يكونُ الاستماعُ إلى الصفةِ القائمةِ بالذاتِ؛ لأنَّ ذلك لا يُعقلُ، ألا ترَى أنَّه لو قال: استمِعْ إلى بصرِ الله وسمعِه وحياتِه وقدرتِه؛ لكان ذلك محالًا مِن الكلامِ، وهي صفاتٌ قائمةٌ بالذَّاتِ، وأيضًا فإنَّ الله أخبَر عمَّا أمَره بالاستماعِ إليه، فقال: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ فجمَع بالآيةِ بينَ الإخبارِ بأنَّه لا إلهَ إلَّا هو، وأنَّ الساعةَ آتيةٌ، وأنَّه يُخفيها وتُجزى كلُّ نفسٍ بما تسعَى، وبينَ أمرِه له بالعبادةِ، وإقامةِ الصلاةِ لذكرِه، وهذه معانٍ مختلفةٌ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ دليلٌ على أنَّ كلامَ اللهِ حروفٌ؛ فإنَّ هذه الكَلِماتِ حروفٌ، وهي كلامُ اللهِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ دلالةٌ على أنَّ موسى سَمِعَ كلامَ اللهِ مِن اللهِ بلا واسِطةٍ[٤].

٨- في قولِه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ وقَعَ الإخبارُ عن ضَميرِ المُتكلِّمِ باسْمِه العَلَمِ،

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((الانتصار)) للعمراني (٢/ ٥٩٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٥٥٨).

الدَّالِّ على الذَّاتِ، المُستحقِّ لجَميعِ المَحامدِ، وذلك أوَّلُ ما يجِبُ عِلْمُه من شُؤونِ الإلهيَّةِ؛ وهو أنْ يعلَمَ الاسمَ الَّذي جعَلَه اللهُ علَمًا عليه؛ لأنَّ ذلك هو الأصْلُ لجميعِ ما سيُخاطَبُ به من الأحكامِ المُبلَّغةِ عن ربِّهم(١).

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ استَدَلَّ بعُمومِ هذه الآيةِ مَن قال: تُقضى الصَّلاةُ في الأوقاتِ المكروهةِ، وأنَّه لا تؤخَّرُ إلى مِثلِ وَقتِها في الغَدِ(٢). وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ النُبُوَّةَ لا تحصُلُ بالاستِحقاقِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ يدلُّ على أنَّ ذلك المنصِبَ العليَّ إنَّما حصل؛ لأنَّ الله تعالى اختاره له ابتداءً، لا أنَّه استحَقَّه على الله تعالى(٣).

١١- قال الله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ قال سفيانُ بنُ عُيَينةَ: (أوَّلُ العِلمِ الاستِماعُ، ثمَّ الفَهمُ، ثمَّ الحِفظُ، ثمَّ العَمَلُ، ثمَّ النَّشرُ)(٤)، فإذا استمع العبدُ إلى كتابِ الله تعالى وسنَّةِ نَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بنيَّةٍ صادِقةٍ على ما يحِبُّ الله، أفهَمَه كما يحِبُّ، وجعَلَ له في قلبِه نورًا(٥).

١٢- اللهُ تعالى يَذْكُرُ نفسَه أحيانًا بصيغةِ العَظَمةِ، مثل قَولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١]، ومِثل قَولِه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٩).

(٤) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٧/ ٢٧٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٣/ ٢٨٤)، وابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (١/ ٤٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٧٦).

ومثل قَولِه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢]، وأحيانًا يَذْكُرُ نفسَه بصيغةِ الواحدِ، مثلُ: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾، ووجهُ ذلك: أنه واحِدٌ عظيمٌ، فباعتبارِ الصِّفةِ يأتي ضميرُ العَظَمةِ، وباعتبارِ الوحدانيَّةِ يأتي ضميرُ الواحدِ[١].

١٣- قولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ ذُكِرَ الاسمُ العَلَمُ؛ لأنَّ هذا مقامُه؛ إذ الأنسَبُ للملطوفِ به -بعد التعرُّفِ إليه بالإكرامِ- الإقامةُ في مقامِ الجَلالِ والجَمالِ[٢].

١٤- قولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ ذُكِرَ فيه الإيمانُ به تعالى، وعبادتُه، والإيمانُ باليومِ الآخِرِ؛ لأنَّ هذه الأمورَ الثَّلاثةَ أصولُ الإيمانِ، ورُكنُ الدِّينِ، وإذا تمَّت تمَّ أمرُ الدين، ونقصُه أو فَقدُه بنَقصِها، أو نقصِ شَيءٍ منها[٣].

١٥- قولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ أوَّلَ ما يتعارَفُ به المتلاقُونَ أنْ يَعرِفوا أسماءَهم، فأشار اللهُ إلى أنَّه عالمٌ باسمِ كليمِه، وعَلَّمَ كليمَه اسمَه، وهو اللهُ[٤].

١٦- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ هذا أوَّلُ واجبٍ على المكَلَّفينَ: أنْ يَعلَموا أنَّه لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَه لا شريكَ له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير جزء عم)) لابن عثيمين (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٧).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتَقريرِ أمْرِ التَّوحيدِ الَّذي إليه يَنْتهي مَساقُ الحديثِ، وبَيانِ أنَّه أمْرٌ مُستمِرٌّ فيما بينَ الأنبياءِ كابرًا عن كابرٍ[١]، وهو تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ الَّذين كذَّبوه سيكونُ جَزاؤُهم جَزاءَ مَن سلَفَهم مِنَ المُكذِّبينَ[٢].

- قولُه: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ ...﴾ استفهامُ تَقريرٍ يحُثُّ على الإصغاءِ لِمَا يُلْقَى إليه وعلى التَّأسِّي، وأُوثِرَ حرْفُ (هل) في هذا المقامِ؛ لِمَا فيه مِن معنى التَّحقيقِ؛ لأنَّ (هل) في الاستفهامِ مثْلُ (قد) في الإخبارِ[٣]. والمقصودُ منه تقريرُ الجوابِ في قلبِ محمدٍ عليه السلامُ، وهذه الصيغةُ أبلغُ في ذلك، كما يقول المرءُ لصاحبِه: هل بلغك خبرُ كذا؟ فيتطلَّع السامعُ إلى معرفةِ ما يرمي إليه[٤]. وقيل: إنَّه استفهامٌ معناه النَّفيُ، أي: ما أخبَرْناك قبْلَ هذه السُّورةِ بقصَّةِ مُوسى، ونحن الآن قاصُّونَ قِصَّتَه لِتَتسلَّى وتَتأسَّى[٥].

- وفيه مُناسَبَةٌ حسَنةٌ؛ حيث قال عَزَّ وجَلَّ هنا حكايةً عن قولِ موسى عليه السلامُ لأهْلِه: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، وقال في آيةِ سورة (النمل): ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: ٧]، وقال في (القَصصِ): ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]. وأيضًا قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۞ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٤).

فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ ﴾، إلى قولِه: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١١-١٧]، وفي السُّورةِ الثَّانيةِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ * وَأَلۡقِ عَصَاكَ﴾ [النمل: ٨-١٠]، وكذلك جاء في سُورةِ (القصص): ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ [القصص: ٣٠، ٣١]؛ ووجهُ هذا الاختِلافِ على وجْهِ العُمومِ: أنَّ اللهَ تعالى لم يُخبِرْ أنَّه خاطَبَ مُوسى عليه السَّلامُ باللُّغةِ العربيةِ بألفاظٍ إذا عدَلَ عنها إلى غيرِها ممَّا يُخالِفُ معناها، كان اختلافًا في القُرآنِ فيه، بل مَعلومٌ أنَّ الخِطابَ كان بغيرِ هذه اللُّغةِ[1]، وأنَّ قولَ مُوسى عليه السَّلامُ لم تُرَدْ حِكايتُه إلَّا بالمعنى؛ لاختِلافِ اللِّسانينِ، والتَّرادُفُ فيما بين اللُّغتينِ في كُلِّ لفَظتينِ -يُرادُ بهما معنًى واحدٌ- غيرُ مُطَّرِدٍ؛ وعليه فلا إشكالَ في أنَّ المعنى قد يتوقَّفُ حُصولُه على الكَمالِ على تَعبيرينِ أو أكثَرَ، لا سيَّما مع ما في اللِّسانِ العربيِّ من الاشتراكِ، والعُمومِ والخُصوصِ، والإطلاقِ والتَّقييدِ، وغيرِ ذلك من عوارضِ الألفاظِ، فلا يُنْكَرُ اختِلافُ التَّعبيرِ عنِ المعنى الواحدِ بألفاظٍ وعباراتٍ مُختلفةٍ، بل لو كان المَحْكيُّ قولًا عربيًّا وحُكِيَ بالمعنى، لَمَا اسْتُنْكِرَ اختِلافُ العبارةِ؛ فكيف مع اختِلافِ اللِّسانينِ[2]؟!

وأيضًا أنَّه تعالى أخبَرَ في بعضِ السُّورِ ببعضِ ما جرَى، وفي الأُخرى بأكثرَ ممَّا أخبَرَ به في الَّتي قبْلَها، وليس يدفَعُ بعضُها بعضًا؛ فأمَّا قولُه تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٩١).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٣٧).

ءَانِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه: ١٠]، فهو معنى قولِه: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ [النمل: ٧]؛ لأنَّ الخبرَ الَّذي يأْتيهم به هو أنْ يجدَ على النَّارِ مَن يَهْديه، ويُخبِرُه أنَّ الطَّريقَ ما هو عليه أو غيرُه، ووُجودُ الهُدى، وأنْ يُخبِرَ بخَبرِ اهتدائِه في طَريقِه أو غيرِه؛ شَيءٌ واحدٌ لا اختلافَ فيه. وأمَّا قولُه عَزَّ وجَلَّ: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ [طه: ١١، ١٢]، فهو ممَّا جَرى، ولم يُخبِرِ اللهُ تعالى به في سائرِ السُّورِ، فأخبَر به في هذه[١].

- وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّ قولَه تبارك وتعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه: ٩-١٠]، وفي (النَّملِ): ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [النمل: ٧]، وفي (القصصِ): ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص: ٢٩]، فهذه الآياتُ تَشتمِلُ على ذِكْرِ رُؤيةِ مُوسى النَّارَ، وأمْرِه أهْلَه بالمُكْثِ، وإخبارِه إيَّاهم أنَّه آنَسَ نارًا، وإطْماعِهم أنْ يأتِيَهم بنارٍ يَصْطلون بها، أو بخبرٍ يَهْتدون به إلى الطَّريقِ الَّتي ضَلُّوا عنها، لكنَّه نقَصَ في النَّملِ ذكْرَ رُؤيتِه النَّارَ، وأمْرَه أهْلَه بالمُكْثِ؛ اكتفاءً بما تقدَّمَ، وزاد في القصصِ قَضاءَ مُوسى الأجَلَ المضروبَ، وسَيْرَه بأهْلِه إلى مصرَ؛ لأنَّ الشَّيءَ قد يُجْمَلُ ثمَّ يُفصَّلُ، وقد يُفصَّلُ ثمَّ يُجْمَلُ، وفي سُورةِ (طه) فَصَّلَ، وأجْمَلَ في (النَّملِ)، ثمَّ فصَّلَ في (القصصِ)، وبالَغَ فيه[٢].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٩١-٨٩٢).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٣-١٧٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٢).

- وفيه أيضًا: قولُه هنا: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، أي: مَن يُخبِرُني بالطَّريقِ، فيَهْديني إليه، وإنَّما أخَّرَ ذِكْرَ المُخبِرِ فيهما، وقدَّمَه فيهما مرَّاتٍ؛ لفواصلِ الآيِ في السُّورِ جميعًا[١].

- وأمَّا تَكريرُ (لَعَلَّ) في (القصصِ) لفظًا، وفي (طه) و(النمل) معنًى؛ لأنَّ (أو) في قولِه: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ نائبٌ عن (لعلِّي)، و(سآتِيكُم) يَتضمَّنُ معنى (لعلِّي)[٢].

- وأمَّا تَكرارُ: ﴿أَوۡ ءَاتِيكُم﴾ [النمل: ٧] في سُورةِ (النَّملِ)، فليس فيه إلَّا تَكرارُ ما يُحرِزُ التَّأكيدَ، وتأكيدُ ما هو خبرٌ ليس أمْرًا ولا نهيًا إنَّما ثَمرتُه وفائدتُه صِدْقُ الإخبارِ، وذلك حاصِلٌ هنا سواءٌ تأكَّدَ أو لم يتأكَّدْ، وإذا كان الكلامُ على ما قُلْنا، والصِّدقُ حاصلٌ على كلِّ حالٍ؛ فلا يُنْكَرُ إذا حُكِيَ بمعناه. أو يُؤكَّدُ مرَّةً، ولا يُؤكَّدُ أُخرَى؛ إذ لا زِيادةَ للتَّأكيدِ فيه سِوى الجرْيِ على مُرتكباتِ العرَبِ في مثْلِه[٣]. وتَخصيصُ كُلِّ سُورةٍ من هذه السُّورِ بما ورَدَ فيها؛ لأنَّ فواصلَ هذه السُّوَرِ ومَقاطِعَ آيِها مُناسِبةٌ للواردِ فيها؛ فسُورةُ (طه) مقاطِعُ آيِها لازمةٌ الألِفَ المقصورةَ، وعلى ذلك آيُ السُّورِ كلِّها، وأمَّا النَّملُ والقصصُ فجاءتْ مقاطِعُ آياتِ هذه القِصَّةِ بالنُّونِ الواقعِ قبْلَها الياءُ والواوُ السَّاكنتانِ، بحسَبِ ما تقدَّمَهما مِن حَركتيِ الضَّمَّةِ والكسرةِ.

وأيضًا في سُورةُ (النَّملِ) أوجَزَ في هذا المقصَدِ، وأمَّا سُورةُ (القصصِ) فإنَّ خبَرَ مُوسى عليه السَّلامُ فيها يكادُ يَستغرِقُ آيَها كلَّها، فناسَبه طولُ الواردِ فيها ممَّا

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٣٤).

فيه الكلامُ، وذلك غيرُ خافٍ. وتأمَّلِ الواردَ في سُورةِ (طه)؛ من قولِه تعالى مُخبِرًا عن نَبيِّه مُوسى عليه السَّلامُ مِن قولِه: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾، ومُناسَبةَ ذلك لِما بُنِيَتْ عليه سُورةُ (طه) من تأنيسِ نَبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم، وافتتاحَها بقولِه تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ٢]؛ يَلُحْ لك التَّلاؤمُ والتَّناسُبُ، وقد وضَحَ أنَّ كلَّ ما في كلِّ سُورةٍ من السُّورِ الثَّلاثِ مِن هذه القصَّةِ لا يُلائِمُ غيرَها، وأنَّ كلَّ قصَّةٍ منها لا يَحسُنُ وُقوعُها في موضعِ الآخرِ؛ لعدَمِ المُناسَبةِ وبُعْدِ التَّلاؤُمِ(١).

والحاصِلُ: أنَّ قولَ مُوسى عليه السَّلامُ وسُؤالاتِه في هذه السُّورِ الثَّلاثِ قد يَرِدُ في سُورةٍ منها بَعضُ ذلك ممَّا ليس في الأُخرى، ولم يَتعارضْ شَيءٌ من ذلك. ووجْهُ اختصاصِ كلِّ سُورةٍ بما ورَدَ فيها: أنَّ الواردَ في كلِّ سُورةٍ مُناسِبٌ للسِّياقِ ولِمَا بُنِيَتْ عليه السُّورةُ؛ فسورة طه بُنِيتْ على التَّأنيسِ والبشارةِ لنَبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم، من لَدُنِ افتتاحِها إلى خِتامِها. وأمَّا سُورةُ الشُّعراءِ وسُورةُ القَصصِ فإنَّما بِناؤُهما على قَصصِ مُوسى عليه السَّلامُ، ولَمَّا كانتْ سُورةُ الشُّعراءِ مذْكورًا فيها قَصصُ الرُّسلِ مع أُمَمِهم ابتداءً واختتامًا -فيما يخُصُّ حالِ الرِّسالةِ، إلى أخْذِ كلِّ طائفةٍ بما أُخِذَت به- خُصَّتْ من قَصصِ مُوسى عليه السَّلامُ بما يُلائِمُ دُعاءً ومُحاورةً، إلى أخْذِ فِرْعونَ وملَئِه. ولَمَّا كان قولُه تعالى في سُورةِ القصصِ: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ [القصص: ٣] تأنيسًا وتَنبيهًا لنَبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم، وفي آخِرِ السُّورةِ: الإفصاحُ من هذا التَّأنيسِ برُجوعِه إلى مكَّةَ بعْدَ أنْ أُخرِجَ عنها عليه السَّلامُ مُهاجِرًا لأجْلِ قومِه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]؛ ناسَبَ ذلك مِن

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٣٤-٣٣٥).

قَصصِ مُوسى عليه السَّلامُ خُروجُه إلى مَدْينَ ورُجوعُه إلى مِصْرَ؛ فتَناسَبَ هذا أكمَلَ مُناسَبةٍ في السُّورِ الثَّلاثِ، وإذا اعْتُبِرَ ذلك عُلِمَ أنَّه لا يُناسِبُ كلَّ سُورةٍ من الثَّلاثِ إلَّا ما خُصَّتْ به[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾

- قولُه: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ خَصَّ هذا الظَّرفَ بالذِّكرِ؛ لأنَّه يَزيدُ تَشويقًا إلى استعلامِ كُنْهِ الخبرِ؛ لأنَّ رُؤيةَ النَّارِ تَحتمِلُ أحوالًا كثيرةً. ورُؤيةُ النَّارِ تدُلُّ على أنَّ ذلك كان بِلَيلٍ، وأنَّه كان بحاجةٍ إلى النَّارِ، ولذلك فُرِّعَ عليه: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾[٢].

- وجُملةُ: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ تَعليلٌ للأمْرِ أو المأمورِ به من المُكْثِ[٣]، وأكَّدَ الخبرَ بـ (إنَّ)؛ لقصْدِ الاهتمامِ به بِشارةً لأهْلِه؛ إذ كانوا في الظُّلمةِ[٤].

- وعبَّرَ بحرْفِ الاستعلاءِ في قولِه: ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ إمَّا لأنَّ أهْلَ النَّارِ يَسْتعلون المكانَ القريبَ منها، أو لأنَّ المُصْطلينَ بها والمُسْتمتعينَ إذا تَكنَّفوها قِيامًا وقُعودًا، كانوا مُشرِفين عليها[٥].

- قولُه: ﴿هُدًى﴾، أي: هاديًا يدُلُّني على الطَّريقِ، على أنَّه مَصدرٌ؛ سُمِّيَ به

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٥).

الفاعلُ مُبالَغةً[١].

- وفي هذه الآيةِ ما يُعرَفُ بالإبهامِ[٢]، وهو ضِدُّ الإيجازِ وضِدُّ الإطنابِ؛ فقد قال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾، ولم يَبُتَّ في الأمْرِ؛ لئلَّا يَعِدَ ما ليس بمُستيقنٍ من الوفاءِ به، ثمَّ قال: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾، وهذا يَحْتوي على معنًى آخرَ ثَمَّ يتشعَّبُ، فالهِدايةُ هي المعنى الرَّئيسُ، ثمَّ إنَّ الهِدايةَ قد تكونُ بالنَّارِ نفْسِها بخاصَّةِ الإضاءةِ الكامنةِ فيها، وإمَّا بواسطةِ القومِ الَّذين يَقومون بإيقادِها، ويُفْهَمُ من هذا ضِمْنًا أنَّه ضَلَّ مع أهْلِه الَّذين يُرافِقونه[٣].

- وقال هنا: ﴿بِقَبَسٍ﴾، وفي القصصِ قال: ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]، وفي النَّملِ قال: ﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ [النمل: ٧]، وهذا مِن التَّفنُّنِ في العِبارةِ؛ فهي في السُّورِ الثَّلاثِ عِبارةٌ عن معنًى واحدٍ؛ وذلِك أنَّ الجَذوةَ من النَّارِ: خَشبةٌ في رأْسِها قَبسٌ، به شِهابٌ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾

- بُنِيَ فِعْلُ النِّداءِ للمجهولِ ﴿نُودِيَ﴾؛ زِيادةً في التَّشويقِ إلى استطلاعِ القصَّةِ؛ فإبهامُ المُنادي يُشوِّقُ سامِعَ الآيةِ إلى مَعرفتِه، فإذا فاجأَهُ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، عَلِمَ أنَّ المُنادِيَ هو اللهُ تعالى؛ فتمكَّنَ في النَّفسِ كَمالَ التَّمكُّنِ، ولأنَّه أدخَلُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦).

(٢) الإبهامُ: هو أنْ يأتِيَ المُتكلِّمُ إلى المعنى الواحدِ الَّذي يُمكِنُه الدَّلالةُ عليه باللَّفظِ القليلِ، فيدُلُّ عليه باللَّفظِ الكثيرِ، لا لقصْدِ إفهامِ البليدِ، وسَماعِ البعيدِ، ولا للتَّقريرِ والتَّوكيدِ، بل للإتيانِ بمعنًى يتشعَّبُ إلى عِدَّةِ أُمورٍ، كلُّ واحدٍ منها مُستقِلُّ المفهوميَّةِ. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٤).

في تَصويرِ تلك الحالةِ بأنَّ مُوسى ناداهُ مُنادٍ غيرُ معلومٍ له؛ فحُكِيَ نِداؤُه بالفعْلِ المَبْنيِّ للمجهولِ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾

- قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ بَيانٌ لجُملةِ: ﴿نُودِيَ﴾. وتأكيدُ الخَبرِ بحرْفِ (إنَّ)؛ لتحقيقِه لأجلِ غرابتِه. وتَكرارُ الضَّميرِ في ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾؛ لتَوكيدِ الدَّلالةِ، وتَحقيقِ المعرفةِ، وإماطةِ الشُّبهةِ[٢].

- والإخبارُ عن ضَميرِ المُتكلِّمِ بأنَّه ربُّ المُخاطَبِ ﴿رَبُّكَ﴾؛ لتَسكينِ رَوعةِ نفْسِه من خِطابٍ لا يَرى مُخاطِبَه؛ فإنَّ شأْنَ الرَّبِّ الرِّفقُ بالمَربوبِ[٣].

- والفاءُ في ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ لتَرتيبِ الأمْرِ على ما قبْلَها؛ فإنَّ رُبوبيَّتَه تعالى له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من مُوجباتِ الأمْرِ ودَواعيه[٤]، وإنَّما أمَرَه اللهُ بخلْعِ نعلَيْه؛ تَعظيمًا منه لذلك المكانِ الَّذي سيَسمَعُ فيه الكلامَ الإلهيَّ[٥]، أو لعِظَمِ الحالِ الَّتي حصَلَ فيها، كما يُخلَعُ عندَ المُلوكِ غايةً في التَّواضُعِ[٦].

- قولُه: ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ تَعليلٌ لوُجوبِ الخَلْعِ المأمورِ به، وبَيانٌ لسبَبِ وُرودِ الأمْرِ بذلك من شَرفِ البُقعةِ وقُدْسِها[٧]. وفيه التَّعبيرُ بحرْفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٦-١٩٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧).

التَّوكيدِ (إنَّ) المُفيدِ التَّعليلَ، كما هو شأْنُه في كلِّ مقامٍ لا يَقْتضي التَّأكيدَ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ فيه الإخبارُ عنِ اختيارِ اللهِ تعالى مُوسى عن طريقِ الخبرِ الفعليِّ ﴿ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ المُفيدِ تَقويةَ الحُكْمِ؛ لأنَّ المقامَ ليس مقامَ إفادةِ الحَصرِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ فرْعٌ على الإخبارِ باختيارِه أنْ أُمِرَ بالاستماعِ للوحيِ؛ لأنَّه أثَرُ الاختيارِ؛ إذ لا معنى للاختيارِ إلَّا اختيارُه لِتَلقِّي ما سيُوحِي اللهُ[٣].

- وحَذْفُ الفاعلِ في ﴿يُوحَىٰٓ﴾ للعِلْمِ به، ويُحسِّنُه كونُه فاصلةً؛ فلو كان مَبْنِيًّا للفاعلِ لم يكُنْ فاصلةً[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ بَدلٌ من ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ دالٌّ على أنَّه مَقصورٌ على تَقريرِ التَّوحيدِ الَّذي هو مُنْتهَى العِلْمِ والأمْرِ بالعبادةِ الَّتي هي كَمالُ العملِ[٥]؛ فهو تَبيينٌ وتَفسيرٌ للإبهامِ في قولِه: ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾[٦].

- وتأكيدُ الجُملةِ بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾؛ لدفْعِ الشَّكِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٧).

عن مُوسى؛ نُزِّلَ مَنزلةَ الشَّاكِّ لأنَّ غَرابةَ الخبرِ تُعرِّضُ السَّامعَ للشَّكِّ فيه. وتَوسيطُ ضَميرِ الفصْلِ بقولِه: ﴿أَنَا﴾؛ لزِيادةِ تَقويةِ الخبرِ[١].

- قولُه: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ لتَرتيبِ المأْمورِ به على ما قبْلَها؛ فإنَّ اختصاصَ الأُلوهيَّةِ به سُبحانه وتعالى من مُوجِباتِ تَخصيصِ العِبادةِ به عَزَّ وجَلَّ[٢].

- وخُصَّتِ الصَّلاةُ بالذِّكرِ، وأُفْرِدَتْ بالأمْرِ معَ اندراجِها في الأمْرِ بالعبادةِ؛ لفضْلِها وعُلوِّها على سائرِ العباداتِ بما نِيطَتْ به من ذِكْرِ المعبودِ سُبحانه، وشُغْلِ القلْبِ واللِّسانِ بذِكْرِه[٣]، أو لأنَّ الصَّلاةَ تجمَعُ أحوالَ العبادةِ[٤]، وتتضمَّنُ عبوديَّةَ القلبِ واللسانِ والجوارِحِ[٥].

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ لابتداءِ إعلامٍ بأصْلٍ ثانٍ مِن أُصولِ الدِّينِ بعْدَ أصْلِ التَّوحيدِ، وهو إثباتُ الجَزاءِ[٦].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ...﴾ تَعليلٌ لوُجوبِ العبادةِ، وإقامةِ الصَّلاةِ، أي: كائنةٌ لا مَحالةَ، وإنَّما عُبِّرَ عن ذلك بالإتيانِ؛ تَحقيقًا لحُصولِها بإبرازِها في مَعرِضِ أمْرٍ مُحقَّقٍ مُتوجِّهٍ نحوَ المُخاطَبينَ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠١).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨).

- وجُملةُ: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ مُعترِضةٌ بينَ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ وعِلَّتِها ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾، مُؤكِّدةٌ لمعنى الإخفاءِ[1]. وقيل: وقَعَت (أكاد) زائدةً هنا بمَنزلةِ زِيادةِ (كان) في بعضِ المواضعِ؛ تأكيدًا للإخفاءِ[2].

- وفي قولِه: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ تَخصيصُ السَّعيِ في مَعرِضِ الغايةِ لإتيانِها، مع أنَّه لجَزاءِ كلِّ نفْسٍ بما صدَرَ عنها، سواءٌ كان سَعيًا فيما ذُكِرَ، أو تقاعُدًا عنه بالمرَّةِ، أو سعيًا في تَحصيلِ ما يُضادُّه: للإيذانِ بأنَّ المُرادَ بالذَّاتِ من إتيانِها هو الإثابةُ بالعبادةِ، وأمَّا العِقابُ بترْكِها فمِن مُقتَضَياتِ سُوءِ اختيارِ العُصاةِ، وبأنَّ المأمورَ به في قُوَّةِ الوُجوبِ، والسَّاعةَ في شِدَّةِ الهولِ والفظاعةِ، بحيث يُوجِبانِ على كلِّ نفْسٍ أنْ تَسْعَى في الامتثالِ بالأمْرِ، وتَجِدَّ في تَحصيلِ ما يُنجِّيها من الطَّاعاتِ، وحينئذٍ تَحترِزُ عن اقترافِ ما يُرْدِيها من المعاصي[3].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، وفي سُورةِ غافرٍ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [غافر: ٥٩]، فخَصَّصَ آيةَ (طه) بقولِه في وصْفِ السَّاعةِ: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ ووصَفَها في سُورةِ (غافرٍ) بقولِه: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

ووجْهُه: أنَّ آيةَ (طه) خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم -على قولٍ في التفسيرِ-، يتضمَّنُ تأْنيسَهُ وتَسليتَه عن حالِ كفَّارِ قُريشٍ في توقُّفِهم عن الإيمانِ، وجاء قولُه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]؛ تعريفًا بعَظيمِ خَفاءِ أمْرِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨).

السَّاعةِ، حتَّى كأنَّ أمْرَها لم يُخْبَرْ عنه، ولا وقَعَ تعريفٌ بشَيءٍ منه، وذلك إعلامٌ بوصْفِ وحالِ مَن قدْ تقرَّرَ بوُقوعِها يَقينُه، وانْطوى على عِلْمِ كِيانِها إيمانُه، ولَمَّا كان هذا الخطابُ والتَّعريفُ لِمَن جَرى ذِكْرُه مِن تَنزُّهِه صلَّى الله عليه وسلَّم عن الارتيابِ في أمْرِ السَّاعةِ؛ لم يَحْتَجْ إلى نفْيِ الرَّيبِ؛ إذ مقامُ النُّبوَّةِ في الإيمانِ بها المقامُ الَّذي لا يُدانى، فلم يكُنْ نفْيُ الارتيابِ ليُلائِمَ ولا يُناسِبَ. أمَّا آيةُ غافرٍ، فأكثرُ الخِطابِ فيها لقُريشٍ وسائرِ كُفَّارِ العربِ، وهم المُجادِلونَ في أمْرِ السَّاعةِ، والجاهِلونَ بكِيانِها، فذَكَر فيها نَفْيَ الرَّيبِ -الَّذي هو صِفَتُهم- وأُتْبِعَ بتأْكيدِ الإخبارِ بدُخولِ اللَّامِ ونفْيِ الرَّيبِ في ذلك، وذلك أوضَحُ شَيءٍ في المُناسَبةِ؛ فكلٌّ من الآيتينِ واردٌ على أتَمِّ مُناسَبةٍ، ولا يُمكِنُ أنْ يقَعَ عكسُ الواردِ في السُّورتَينِ[(١)].

- ومن المُناسَبةِ أيضًا قولُه هنا: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾، وفي (الحجِّ): ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ [الحج: ٧] بحذْفِ لامِ التَّأكيدِ، وقاله في (غافرٍ) بإثباتِها: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ﴾ [غافر: ٥٩]؛ لأنَّها إنَّما تُزادُ لتأْكيدِ الخبرِ، وتأكيدُه إنَّما يُحتاجُ إليه إذا كان المُخبَرُ بهِ شاكًّا في الخبرِ، والمُخاطَبون في (غافرٍ) هم الكفَّارُ، فأُكِّدَ فيها باللَّامِ بخلافِ تَيْنكَ[(٢)].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ فرَّعَ على كونِها آتيةً، وأنَّها مُخفاةٌ التَّحذيرَ مِن أنْ يَصُدَّه عن الإيمانِ بها قومٌ لا يُؤمِنون بوُقوعِها اغترارًا بتأخُّرِ ظُهورِها؛ فالتَّفريعُ على قولِه: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أوقَعُ؛ لأنَّ ذلك الإخفاءَ هو الَّذي يُشَبِّهُ به الَّذين أنْكَروا البعثَ على النَّاسِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٣٥-٣٣٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٠-٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٣).

- وقولُه: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ صِيغَ نهْيُ مُوسى عليه السَّلامُ عن الصَّدِّ عنها في صِيغَةِ نهْيِ مَن لا يُؤمِنُ بالسَّاعةِ عن أنْ يَصُدَّ مُوسى عن الإيمانِ بها؛ مُبالغةً في نهْيِ مُوسى عن أدْنَى شَيءٍ يحولُ بينَه وبينَ الإيمانِ بالسَّاعةِ؛ لأنَّه لمَّا وجَّهَ الكلامَ إليه، وكان النَّهيُ نهْيَ غيرِ المُؤمنِ عن أنْ يَصُدَّ مُوسى، عُلِمَ أنَّ المُرادَ نهْيُ مُوسى عن مُلابَسةِ صَدِّ الكافرِ عن الإيمانِ بالسَّاعةِ، أي: لا تكُنْ لَيِّنَ الشَّكيمةِ لمَن يصُدُّك، ولا تُصْغِ إليه؛ فيكونَ لِينُك له مُجَرِّئًا إيَّاه على أنْ يصُدَّك؛ فوقَعَ النَّهيُ عن المُسبَّبِ، والمُرادُ النَّهيُ عن السَّببِ، وهذا الأسلوبُ مِن قَبِيلِ قولِهم: (لا أعرِفَنَّك تفعَلُ كذا)، و: (لا أَرَيَنَّك هاهنا)[١].

- وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنْهَا﴾ على قولِه تعالى: ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[٢].

- وزِيادةُ ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾؛ للإيماءِ بالصِّلةِ إلى تَعليلِ الصَّدِّ، أي: لا داعِيَ لهم للصَّدِّ عن الإيمانِ بالسَّاعةِ إلَّا اتِّباعُ الهوى، دونَ دليلٍ ولا شُبْهةٍ[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ فرَّعَ على النَّهيِ أنَّه إنْ صُدَّ عن الإيمانِ بالسَّاعةِ هلَكَ، والتَّفريعُ ناشِئٌ عنِ ارتكابِ المَنْهيِّ لا على النَّهيِ؛ ولذلك جِيءَ بالتَّفريعِ بالفاءِ، ولم يقَعْ بالجزاءِ المجزومِ[٤].

- ومِن لطائفِ البلاغةِ في هذه الآياتِ: أنَّه سُبحانه وتعالى كلَّما خاطَبَ كَلِيمَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عليه السَّلامُ في مقام القُدسِ بخِطابٍ، رتَّبَ عليه بالفاءِ حُكْمًا؛ قال أوَّلًا: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، فعقَّبَه بقولِه: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾، نبَّهَ به على تَعظيمِ البُقعةِ، وعلى ألَّا يطَأَها إلَّا حافيًا. وثانيًا: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾، فعقَّبَه بقولِه: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، أي: اخترْتُك لذلك المَنصبِ العالي ابتداءً، لا أنَّه استحقاقٌ منك على اللهِ، فتأهَّبْ له، واجعَلْ نفْسَك وعقْلَك مَصروفًا إليه، فقولُه: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ يُفيدُ نِهايةَ اللُّطفِ والرَّحمةِ، وقولُه: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ﴾ غايةَ الهَيبةِ والرَّهبةِ. وثالثًا: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾، الفاءُ دلَّتْ على أنَّ إلَهيَّتَه هي الَّتي ألْزَمَتِ العِبادةَ. ورابعًا: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۞ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا﴾، رتَّبَ نهْيَ المُخاطَبِ عمَّا يصُدُّه عن الآياتِ على مَجيءِ السَّاعةِ، فقولُه: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ تَخليةٌ. والثَّلاثةُ الأُخرى تَحليةٌ[1]. وقد جاء خِطابُ اللهِ تعالى لمُوسى عليه السَّلامُ بطريقةِ الاستدلالِ على كلِّ حُكْمٍ وأمْرٍ أو نَهْيٍ؛ فابْتُدِئَ بالإعلامِ بأنَّ الَّذي يُكلِّمُه هو اللهُ، وأنَّه لا إلهَ إلَّا هو، ثمَّ فرَّعَ عليه الأمْرَ في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾، ثمَّ عقَّبَ بإثباتِ السَّاعةِ، وعلَّلَ بأنَّها ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾، ثمَّ فرَّعَ عليه النَّهيَ عن أنْ يصُدَّه عنها مَن لا يُؤمِنُ بها، ثمَّ فرَّعَ على النَّهيِ أنَّه إنِ ارتكَبَ ما نُهِيَ عنه، هلَكَ وخسِرَ[2].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٤٢-١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٤).

الآيات (١٧-٢٢)

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَتَوَكَّؤُاْ﴾: أي: أعتَمِدُ عليها، والتوكُّؤُ: التحاملُ على العصا في المشْيِ، وأصلُ (وكا): يَدُلُّ على شدِّ شَيءٍ وشِدَّةٍ، ومنه: تَوَكَّأْتُ على كذا، أي اتَّكَأْتُ؛ لأنَّه يتَشَدَّدُ به ويَتَقَوَّى به[1].

﴿وَأَهُشُّ﴾: أي: أضرِبُ بها الشَّجرَ؛ لِيَسقُطَ وَرَقُه فترعاه الغَنَمُ، والهَشُّ: يقارِبُ الهزَّ في التَّحريكِ[2].

﴿مَـَٔارِبُ﴾: أي: حاجاتٌ، واحِدُها: مَأرُبةٌ ومأرَبةٌ ومأْرِبةٌ، وأصلُ (أرب) هنا: الحاجةُ[3].

﴿سِيرَتَهَا﴾: أي: هَيئتَها، وحالتَها التي كانت عليها مِن كَونِها عُودًا، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣))، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢٧).

(سير): يدُلُّ على مُضِيٍّ وجَرَيانٍ[١].

﴿جَنَاحِكَ﴾: أي: جَنْبِك تَحتَ العضُدِ، وأصلُ (جنح): يدلُّ على المَيلِ، وسُمِّيَ الجناحانِ جَناحَينِ؛ لِمَيلِهما في الشِّقَّينِ[٢].

﴿سُوٓءٍ﴾: أي: آفَةٍ أو بَرَصٍ، والسُّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ، وأصلُ (سوء): يدلُّ على قُبحٍ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى لِموسى عليه السلامُ: وما هذه التي في يمينِك يا موسى؟ قال موسى: هي عصايَ أعتَمِدُ عليها في المَشيِ، وأضرِبُ بها الشَّجَرَ؛ لِتَرعى غَنَمي ما يسقُطُ مِن وَرَقِه، ولي فيها منافِعُ أخرى.

قال اللهُ لموسى: ألقِ عصاك. فألقاها موسى على الأرضِ، فانقَلَبَت بإذنِ اللهِ حَيَّةً تسعى بسُرعةٍ وخِفَّةٍ، فقال اللهُ لِموسى: خُذِ الحيَّةَ ولا تَخَفْ منها، سوف نعيدُها إلى حالتِها وهيئتِها الأُولى عصًا كما كانت، وأدخِلْ يَدَك في جَيبِك واضمُمْها إلى جَنبِك تحتَ العَضُدِ، تخرُجْ بَيضاءَ كالثَّلجِ مِن غَيرِ عَيبٍ ومَرَضٍ كبَرَصٍ، علامةً أخرى لك؛ فعَلْنا ذلك لكي نُرِيَك -يا موسى- مِن أدِلَّتِنا الكبرى

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٨) و(٣/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠٣، ٥١٩).

الدَّالَّةِ على قُدرَتِنا، وصِحَّةِ رِسالتِك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ الله لموسى أصلَ الإيمانِ؛ أراد أنْ يبيِّنَ له ويُريَه من آياتِه ما يَطمئِنُّ به قلبُه، وتقَرُّ به عينُه، ويَقوَى إيمانُه، بتأييدِ اللهِ له على عَدُوِّه، فقال[١]:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

أي: قال الله: وما تلك التي تمسِكُها بيَدِك اليُمنى يا موسى[٢]؟

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾.

أي: قال موسى: هي عصايَ، أعتَمِدُ عليها في حالِ قيامي، وحينَ أمشي[٣].

﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾.

أي: وأضرِبُ بها الشَّجرَ؛ لِيَسقُطَ ورَقُه، فتَرْعاه غَنَمي[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٩٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

قال ابنُ كثير: (قال عبد الرحمن بن القاسم، عن الإمام مالك: والهشُّ: أنْ يضَعَ الرجُلُ المِحجَنَ =

﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾.

أي: ولي في عَصاي هذه حوائِجُ أخرى، فأنتَفِعُ بها أيضًا في غيرِ الاتِّكاءِ عليها، والهشِّ بها[١].

﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩﴾.

أي: قال الله: ألقِ عَصاك التي بيَدِك اليُمنى يا موسى[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾ [النمل: ١٠].

﴿فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠﴾.

أي: فألقَى موسى عصاه دونَ تردُّدٍ، فتحوَّلَتْ فورًا بأمرِ اللهِ إلى حيَّةٍ حَقيقيَّةٍ عظيمةٍ، تتحرَّكُ بسُرعةٍ وخِفَّةٍ[٣]!

﴿قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١﴾.

= [أي: العصا المعوجَّةَ] في الغُصنِ، ثمَّ يحرِّكَه حتى يسقُطَ وَرَقُه وثَمَرُه، ولا يُكسَرُ العودُ؛ فهذا الهشُّ، ولا يُخبَط [أي: لا يُضرَبُ ضربًا شديدًا]. وكذا قال ميمونُ بنُ مهرانَ أيضًا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

وقد تَعَرَّض قومٌ لتَعدادِ منافعِ العَصا -بل ألَّف في ذلك بعضُ المتأخرينَ- فذكَروا مِن ذلك أشياءَ: منها ركزُها سترةً للصلاةِ، وسوقُ الدابةِ بها، والاعتمادُ عليها في المشيِ، وأنَّها تُؤَمِّنُ العثرَةَ، ويُلْقَى عليها الكساءُ فتقي الحرَّ، وتُدْني ما بَعُد، ويُقرعُ بها الأبوابُ، وتقي مِن عَقُورِ الكلابِ إلى غيرِ ذلك. يُنظر ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾.

أي: قال الله لموسى: خُذِ الحيَّةَ، ولا تخَفْ منها؛ فلن تَضُرَّك[١].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأٓمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

أي: سنردُّ الحيَّةَ إلى هيئتِها وطبيعتِها الأُولَى، فتعودُ عصًا كما كانت[٢].

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾.

أي: وأدخِلْ يَدَك في جَيبِك -وهو فَتحةُ القَميصِ التي يَبرُزُ منها العُنُقُ[٣]- وألصِقْها بجَنبِك تحتَ عضُدِك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

قال ابنُ تيميةَ: (هو أمرٌ مقرونٌ بخبرِه بما يزيلُ الخوفَ). ((منهاج السنة النبوية)) (٨/ ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٧).

قال السعدي: (فامتثَل موسى أمرَ الله إيمانًا به وتسليمًا، فأخَذها، فعادَتْ عصاه التي كان يعرفُها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٧)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٨).

والعَضُدُ هو ما بين المرَفِق إلى الكَتِف. يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤٨)، ((المفردات)) للراغب الأصفهاني (ص: ٥٧١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [النمل: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢].

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾.

أي: تخرُجْ يَدُك بعدَ أنْ تضَعَها تحتَ عَضُدِك ساطعةَ البَياضِ، كالثَّلجِ مِن غَيرِ عَيبٍ ومَرَضٍ، كبَرَصٍ أو بَهقٍ وغيرِه، والحالُ أنَّها علامةٌ أخرى تدلُّ على نبوَّتِك معَ آيةِ العصا التي تحوَّلتْ حيَّةً[١].

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾.

أي: فعَلْنا ذلك؛ لنُريَك مِن أدِلَّتِنا الكُبرى[٢] الدَّالَّةِ على عَظيمِ قُدرتِنا، وصِحَّةِ رِسالتِك، فيَطمَئِنَّ قَلبُك، وتَثِقَ بوَعدِ اللهِ بحِفظِك ونَصرِك، وتكونَ حُجَّةً لمن أُرسِلتَ إليهم[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ إذا قيل: ما وَجهُ استِخبارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠، ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٨).

قال ابنُ جرير: (ثم ردَّها، فخَرَجت كما كانت على لونِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٨).

(٢) قال ابنُ عطية: (قوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ يحتملُ أنْ يريدَ وصفَ الآياتِ بالكبرِ... ويحتمل أنْ يريدَ تخصيصَ هاتين الآيتين؛ فإنهما أكبرُ الآياتِ، كأنَّه قال: لنريكَ الكبرى، فهما معنيانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٩).

اللهِ مُوسى عمَّا في يَدِه؟ ألم يكُنْ عالِمًا بأنَّ الذي في يَدِه عصًا؟

فالجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّه إنَّما قال ذلك عزَّ ذِكرُه له؛ إذ أراد أنْ يحوِّلَها حَيَّةً تسعى، وهي خَشَبةٌ، فنَبَّهَه عليها وقرَّره بأنَّها خَشَبةٌ يتوكَّأُ عليها، ويَهُشُّ بها على غَنَمِه؛ لِيُعرِّفَه قُدرتَه على ما يشاءُ، وعِظَمَ سُلطانِه، ونفاذَ أمرِه فيما أحَبَّ، بتحويلِه إيَّاها حيَّةً تسعى؛ إذ أراد ذلك به ليجعَلَ ذلك لموسى آيةً مع سائرِ آياتِه إلى فِرعَونَ وقَومِه[١].

الثَّاني: إنَّما قال له ذلك على سَبيلِ الإيناسِ له؛ لإزالةِ الوَحشةِ عن موسى؛ لأنَّ موسى كان خائِفًا مُستَوحِشًا، كرجُلٍ دخل على مَلِكٍ وهو خائفٌ، فسأله عن شَيءٍ، فتزولُ بعضُ الوَحشةِ عنه بذلك، ويَستأنِسُ بسُؤالِه.

الثَّالثُ: إنَّما قال له ذلك على وَجهِ التَّقريرِ، أي: أمَّا هذه التي في يمينِك عصاك التي تَعرِفُها، فسترَى ما نصنَعُ بها الآنَ، ولكيلا يخافَ إذا صارتْ ثُعبانًا[٢].

الرَّابِعُ: إقامةُ البَيِّنةِ لديه بما يكونُ دَليلًا على السَّاعةِ مِن سُرعةِ القُدرةِ على إيجادِ ما لم يكُنْ، بقَلبِ العصا حيَّةً بعدَ تحقُّقِ أنَّها عصاه بقُرْبِ النَّظَرِ إليها عندَ السُّؤالِ عنها؛ ليزدادَ بذلك ثباتًا، ويُثَبِّتَ مَن يُرسَلُ إليهم[٣].

٢- قال الله تعالى عن موسى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ مِن أدَبِ موسى عليه السَّلامُ أنَّ الله لَمَّا سأله عمَّا في يمينِه، وكان السؤالُ محتَمِلًا عن السُّؤالِ عن عَينِها أو مَنفَعتِها، أجابه بعينِها ومَنفَعتِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ فيه الزيادةُ في الجوابِ على ما في السُّؤالِ[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ * فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ وحِكمةُ انقلابِها وقْتَ مُناجاتِه: تأْنيسُه بهذا المُعجِزِ الهائلِ؛ لئلَّا يفزعَ منها إذا ألقاها عند فِرعَونَ؛ إذ قد جَرَت له بذلك عادةٌ، وتَدريبُه في تلقِّي تكاليفِ النُّبوَّةِ، ومَشاقِّ الرِّسالةِ[٢]، وكذلك تَثبيتُ مُوسى، ودفْعُ الشَّكِّ عن أنْ يتطرَّقَه لو أمَرَه بذلك دونَ تَجرِبةٍ؛ لأنَّ مَشاهِدَ الخوارقِ تُسارِعُ النَّفْسُ بادئَ ذِي بَدْءٍ إلى تأويلِها[٣].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، إن قيل: إنما كانت العصا واحدةً، وكان إلقاؤُها مرةً، فما وجهُ اختلافِ الأخبارِ عنها؛ فإنَّه يقولُ في (الأعرافِ): ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧] وهاهنا: ﴿حَيَّةٌ﴾ وفي مكانٍ آخرَ: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠] ليست بالعظيمةِ، والثعبانُ أعظمُ الحيَّاتِ؟

فالجواب: أمَّا الحيَّةُ فاسْمُ جنْسٍ يقَعُ على الذَّكرِ والأُنثى، والصَّغيرِ والكبيرِ. وأمَّا الثُّعبانُ والجانُّ فبينهما تَنافٍ؛ لأنَّ الثُّعبانَ العظيمَ من الحيَّاتِ، والجانُّ: الدَّقيقُ. وفي ذلك وجْهانِ:

أحدُهما: أنَّها كانت وقْتَ انقلابِها حيَّةً تنقلِبُ حيَّةً صَفراءَ دقيقةً، ثمَّ تتورَّمُ ويَتزايدُ جِرْمُها حتَّى تصيرَ ثُعبانًا، فأُرِيدَ بالجانِّ أوَّلُ حالِها، وبالثُّعبانِ مآلُها.

الثَّاني: أنَّها كانت في شخْصِ الثُّعبانِ، وسُرعةِ حَركةِ الجانِّ. والدَّليلُ عليه

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٤).

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾[١] [النمل: ١٠].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ فيه سؤالٌ: لَمَّا نُودِي موسى، وخُصَّ بتلك الكراماتِ العظيمةِ، وعَلِمَ أنَّه مبعوثٌ مِن عندِ الله تعالى إلى الخَلقِ، فلمَ خاف؟

الجوابُ: أنَّ ذلك الخَوفَ كان مِن نفرةِ الطَّبعِ؛ لأنَّه -عليه السَّلامُ- ما شاهد مِثلَ ذلك قط، وأيضًا فهذه الأشياءُ معلومةٌ بدلائِلِ العُقولِ، وعند الفَزَعِ الشديدِ قد يَذهَلُ الإنسانُ عنه، وقيل أيضًا: إنَّ ذلك الخوفَ مِن أقوى الدَّلائِلِ على صِدقِه في النبوَّةِ؛ لأنَّ السَّاحِرَ يعلَمُ أنَّ الذي أتَى به تمويهٌ، فلا يخافُه البتَّةَ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ دليلٌ على أنَّ أنْفُسَ البشرِ مجبولةٌ على الخَوفِ مِن المؤْذِياتِ؛ وأنَّ الخوفَ اللَّاحقَ بها عندَ رؤيتِها لها لا يَحُطُّ مِن دَرجةِ التوكُّلِ شيئًا[٣].

٨- قال تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ وفي إعادتِها إلى ما كانت عليهِ: عِدَةٌ كَريمةٌ بإظهارِ مُعجزةٍ أُخرَى على يَدِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإيذانٌ بكونِها مُسَخَّرةً له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ ليكونَ على طُمَأْنينةٍ مِن أمْرِه، ولا يَعتريه شائبةُ تَزَلْزُلٍ عندَ مُحاجَّةِ فِرْعونَ[٤]؛ فالغرَضُ مِن إظهارِ ذلك لمُوسى: أنْ يَعرِفَ أنَّ العصا تطبَّعَت بالانقلابِ حيَّةً، فيتذكَّرَ ذلك عندَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١).

مُناظَرةِ السَّحرةِ؛ لئلَّا يحتاجَ حينئذٍ إلى وحْيٍ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ...﴾ الجُملةُ معطوفةٌ على الجُمَلِ قبْلَها، انتقالًا إلى مُحاورةٍ أرادَ اللهُ منها أنْ يُرِيَ مُوسى كيفيَّةَ الاستدلالِ على المُرسَلِ إليهم بالمُعجزةِ العظيمةِ[٢].

- والاستفهامُ مستعملٌ في تحقيقِ حقيقةِ المسؤولِ عنه، والتَّنبيهِ إلى أهمِّيَّتِه، وظاهِرُه أنَّه سُؤالٌ عن شيءٍ أُشِير إليه[٣].

- وتكريرُ النِّداءِ ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾؛ لزِيادةِ التَّأنيسِ والتَّنبيهِ[٤].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، إلى قولِه: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٧-٢١]، فذكَرَ العَصا وسُؤالَه وتَقريرَه على ما وُصِفَ مِن حالِها، فهو ممَّا جرى، ولم يُخبِرِ اللهُ تعالى به في سائرِ السُّورِ، وأخبَرَ به في هذه السُّورةِ.

ووجْهُه: أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ في بعْضِ السُّورِ ببعْضِ ما جَرَى، وفي الأُخرى بأكثَرَ ممَّا أخبَرَ به في الَّتي قبْلَها، وليس يدفَعُ بعْضُها بعضًا[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٠٥، ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠).

(٥) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٩١).

مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾

- قولُه: ﴿عَصَايَ﴾ نسَبَها إلى نفْسِه؛ تَحقيقًا لوجْهِ كونِها بيَمينِه، وتَمهيدًا لِما يعقُبُه من الأفاعيلِ المَنسوبةِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

- في قولِه: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ فنُّ الإطنابِ بذِكْرِ المُسنَدِ إليه ﴿هِيَ﴾، حيث كان الإيجازُ يَقْتضي أنْ يقولَ: (عَصَايَ)؛ فلمَّا قال: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ كان الأسلوبُ أُسلوبَ كلامِ مَن يتعجَّبُ من الاحتياجِ إلى الإخبارِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ ذكَرَ على التَّفصيلِ والإجمالِ المنافِعَ المُتعلِّقةَ بالعصا؛ كأنَّه أحَسَّ بما يعقُبُ هذا السُّؤالَ من أمْرٍ عظيمٍ يُحدِثُه اللهُ تعالى، فقال: ما هي إلَّا عصًا، لا تنفَعُ إلَّا منافِعَ بناتِ جنْسِها، وكما تنفَعُ العيدانُ؛ ليكونَ جوابُه مُطابِقًا للغرضِ الَّذي فهِمَه من فَحوى كلامِ ربِّه[٣]. وقيل: الحِكمةُ من زِيادةِ مُوسى عليه السَّلامُ في الجوابِ: رَغبتُه في مُطاوَلةِ مُناجاتِه لرَبِّه تعالى، وازديادِ لَذاذتِه، وتَعدادِه نِعَمَه تعالى عليه بما جعَلَ له فيها منَ المنافعِ[٤]، وقيل: لأنَّه سُئِلَ سُؤالًا ثانيًا: ما تصنَعُ بها؟ فأجاب بذلك. أو ذكَرَ ذلك؛ خوفًا مِن أنْ يُؤمَرَ بإلقائِها، كما أُمِرَ بإلقاءِ النَّعلينِ، أو لئلَّا يُنسَبَ إلى التَّعبِ في حمْلِها[٥].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ...﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٢).

بـ (التَّلفيفِ)؛ وهو أنْ يسأَلَ السَّائلُ عن حُكْمٍ هو نوعٌ من أنواعِ جنْسٍ تَدْعو الحاجةُ إلى بَيانِها كلِّها أو أكثَرِها، فيَعدِلَ المسؤولُ عن الجوابِ الخاصِّ عمَّا سُئِلَ عنه من تَبيينِ ذلك النَّوعِ، ويُجِيبَ بجوابٍ عامٍّ يَتضمَّنُ الإبانةَ على الحُكْمِ المسؤولِ عنه، وعن غيرِه بدُعاءِ الحاجةِ إلى بَيانِه؛ فقولُ مُوسى عليه السَّلامُ جوابًا عن سُؤالِ اللهِ تعالى له: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾، هو الجوابُ الحقيقيُّ للسُّؤالِ، ثمَّ قال: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾؛ فأجاب عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه توهَّمَ أنْ يُقالَ له: وما تفعَلُ بها؟ فقال مُعَدِّدًا منافِعَها[١].

- وقدَّمَ في الجوابِ مَصلحةَ نفْسِه في قولِه: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾، ثمَّ ثنَّى بمَصلحةِ رعيَّتِه في قولِه: ﴿وَأَهُشُّ﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ الظَّاهرُ أنَّه حِكايةٌ لقولِ مُوسى بمُماثِلِه؛ فيكونُ إيجازًا بعْدَ الإطنابِ، ويجوزُ أنْ يكونَ حِكايةً لقولِ مُوسى بحاصلِ معناهُ، أي: عَدَّ مَنافِعَ أُخرى؛ فالإيجازُ من نظْمِ القُرآنِ لا مِن كلامِ مُوسى عليه السَّلامُ[٣]. ولم يقُلْ: (أُخَر)؛ رعْيًا للفواصلِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ يَنساقُ إليه الذِّهنُ؛ كأنَّه قيلَ: فماذا قال عَزَّ وجَلَّ؟ فقيل: قال...[٥].

- في قولِه: ﴿قَالَ أَلْقِهَا﴾ الْتِفاتٌ منَ التَّكلُّمِ الَّذي في قولِه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ إلى

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٦-٢٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠).

الغَيبةِ، ودعا إلى هذا الالْتِفاتِ: وُقوعُ هذا الكلامِ حِوارًا مع قولِ مُوسى: ﴿هِيَ عَصَايَ ...﴾ إلخ[١].

- وتَكريرُ النِّداءِ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾؛ لتأكيدِ التَّنبيهِ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ وصَفَ الحيَّةَ بـ﴿تَسْعَىٰ﴾؛ لإظهارِ أنَّ الحياةَ فيها كانت كاملةً بالمشيِ الشَّديدِ[٣]، وأيضًا في وصْفِها بأنَّها تَسعَى إزالةٌ لوهمٍ يُمكن وجودُه، وهو أنْ يُظَنَّ أنَّها تخييلٌ لا حقيقةٌ؛ فكونُها تَسعَى يُزيلُ هذا الوَهمَ[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾

- جاء فِعْلُ ﴿قَالَ خُذْهَا﴾ بدُونِ عطْفٍ؛ لوُقوعهِ في سِياقِ المُحاوَرةِ[٥].

- وفي عطْفِ النَّهيِ ﴿وَلَا تَخَفْ﴾، على الأمْرِ ﴿خُذْهَا﴾: إشعارٌ بأنَّ عدَمَ النَّهيِ عنه مَقصودٌ لذاتِه، لا لِتَحقيقِ المأمورِ به فقط[٦].

- وقَولُه: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ دليلٌ على اختصارِ الكلامِ؛ لأنَّ ذِكْرَ الخَوفِ لم يتقَدَّمْ في اللَّفظِ، فدلَّ قولُه: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ على أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا رأى عصاه تحوَّلَتْ حيَّةً خاف منها[٧].

- وقولُه: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتَعليلِ الامتثالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠).

(٧) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٨٦).

بالأمْرِ والنَّهيِ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ﴾

- والجَناحُ في قولِه: ﴿جَنَاحِكَ﴾ هو العضُدُ وما تحتَه إلى الإبْطِ، أُطْلِقَ عليه ذلك تَشبيهًا بجَناحِ الطَّائرِ[٢]، وفي الكلامِ إيجازٌ بالحذْفِ؛ إذ لا يترتَّبُ الخُروجُ على الضَّمِّ، وإنَّما يترتَّبُ على الإخراجِ، والتَّقديرُ: واضمُمْ يَدَكَ إلى جَناحِك تَنضَمَّ، وأخرِجْها تَخرُجْ؛ فحذَفَ من الأوَّلِ وأبقى مُقابِلَه، ومن الثَّاني وأبْقى مُقابِلَه وهو ﴿وَٱضۡمُمۡ﴾؛ لأنَّه بمعنى (أدخِلْ)، كما بُيِّنَ في الآيةِ الأُخرى[٣].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث جُعِلَ الجَناحُ -وهو اليَدُ- هنا مَضمومًا إليه في قولِه: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾؛ وفي سورة (القصص) مَضمومًا في قولِه: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ [القصص: ٣٢]؛ لأنَّ المُرادَ بالجَناحِ المضمومِ هو اليَدُ اليُمْنى، وبالمَضمومِ إليه اليدُ اليُسرى، وكلُّ واحدةٍ مِن يُمْنى اليدين ويُسراهما جَناحٌ[٤].

- قولُه: ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ فيه احتراسٌ؛ لأنَّه لو اقتصَرَ على قولِه: ﴿بَيۡضَآءَ﴾، لأوهَمَ أنَّ ذلك من برَصٍ أو بَهَقٍ؛ فقولُه: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ كِنايةٌ عن البرصِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٢١، ٣٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٨٥).

٧- قولُه تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾

- فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ كأنَّه قِيلَ: فعلْنا ما فعلْنا من الأمْرِ والإظهارِ؛ لنُرِيَك بذلك بعضَ آياتِنا الكُبْرى[١].

- وقولُه: ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ حالٌ من ﴿ٱلْكُبْرَى﴾؛ قُدِّمَت عليها وإنْ كان ذو الحالِ مَعرِفةً؛ مُراعاةً للفواصلِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٦١).

الآيات (٢٤-٣٦)

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱشْرَحْ﴾: أي: وسِّع ونوِّرْ، وأصلُ (شرح): يدلُّ على الفَتحِ والبَيانِ[١].

﴿وَزِيرًا﴾: أي: عَونًا، ومُؤازِرًا، ومُؤيِّدًا، وأصلُ الوِزارةِ مِن الوِزْرِ، كأنَّ الوَزيرَ يحمِلُ عَن السُّلطانِ الثِّقلَ والشُّغلَ، وأصلُ (وزر): يدلُّ على الثِّقلِ في الشَّيءِ[٢].

﴿أَزْرِى﴾: أي: ظَهْري، ومنه يُقالُ: آزَرْتُ فلانًا على الأمرِ، أي: قوَّيتُه عليه، وكنتُ له فيه ظَهيرًا، وأصلُ الأزْرِ: القوَّةُ والشِّدةُ[٣].

﴿سُؤْلَكَ﴾: أي: أُمنيتَك وطَلِبَتَك، والسُّؤْلُ: الحاجةُ التي تحرِصُ النَّفسُ عليها[٤].

المَعنى الإجماليُّ:

يبينُ الله تعالى لموسى عليه السلامُ المقصود مِن تأييدِه بهاتين المعجزتين،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

فيقولُ آمرًا له: اذهبْ -يا موسَى- إلى فِرعَونَ؛ إنَّه قد تجاوَزَ قَدْرَه وتمرَّد على رَبِّه، فادْعُه إلى توحيدِ اللهِ وعبادتِه.

فسأل موسى عليه السلامُ المعونةَ مِن الله، ودعا قائلًا: ربِّ وسِّعْ لي صَدري، وسَهِّلْ لي القيامَ بشأنِ الرِّسالةِ، وأطلِقِ الانحِباسَ الشَّديدَ الذي في لساني؛ لِيُبينَ بفَصيحِ المَنطِقِ فيَفهَم النَّاسُ كلامي، واجعَلْ لي مُعينًا مِن أهلي: هارونَ أخي، قَوِّني به وشُدَّ به ظَهري، وأشرِكْه معي في النُبُوَّةِ وتبليغِ الرِّسالةِ؛ كي نصلِّيَ لك، ونُنَزِّهَك بالتَّسبيحِ كَثيرًا، ونَذكُرَك كثيرًا فنَحمَدَك ونُثني عليك؛ إنَّك كنتَ بنا بَصيرًا، لا يخفَى عليك شَيءٌ مِن أفعالِنا، فأجاب الله تعالى دعاءَه وقال له: قد أعطيتُك كُلَّ ما سألتَ يا موسى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لمَّا أظهَر اللهُ تعالى لموسى -عليه السَّلامُ- الآيتينِ، فعَلِمَ بذلك أنَّه مؤيَّدٌ مِن الله تعالى؛ أمَرَه اللهُ بالأمرِ العَظيمِ الذي مِن شأنِه أنْ يُدخِلَ الرَّوعَ في نفسِ المأمورِ به، وهو مواجهةُ أعظَمِ ملوكِ الأرضِ يَومَئذٍ بالموعِظةِ، ومكاشَفتُه بفَسادِ حالِه[1].

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤﴾.

أي: اذهبْ -يا موسى- إلى فِرعونَ مَلِكِ مِصرَ، فادعُه إلى توحيدِ الله وطاعتِه، وإرسالِ بني إسرائيلَ معك، وعَدَمِ تَعذيبِهم؛ لأنَّه تجاوَزَ حدَّه، فادَّعى الربوبيَّةَ، وتمرَّدَ على ربِّه، وعلا في الأرضِ، وأفسَد فيها[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٠).

كما قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٧ - ١٩].

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾.

أي: قال موسى: يا ربِّ وسِّعْ لي صدري؛ لأعِيَ ما تُوحيه إليَّ، وأتجرَّأَ على مخاطبةِ فِرعَونَ، وأتحمَّلَ أذاه ووعيدَه، فلا يضيقَ صدري(١).

﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾.

أي: وسَهِّلْ عليَّ -يا ربِّ- القيامَ بشأنِ الرِّسالةِ، ودَعوةِ فِرعَونَ، واجعَلْ ما تُكَلِّفُني به مِن الطاعاتِ، وما يعتَريني مِن الشَّدائدِ في سبيلِك هيِّنًا عليَّ(٢).

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾.

أي: وأطلِق الانحِباسَ الشَّديدَ الذي في لِساني؛ كي ينطَلِقَ، ويسْهُلَ عليَّ الكلامُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢، ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٠، ٢١١).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٢).

قال السعدي: (وكان في لسانِه ثقلٌ لا يكادُ يُفهَمُ عنه الكلامُ، كما قال المفسِّرونَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

قال ابنُ كثيرٍ: (ما سأل أنْ يزولَ ذلك بالكليَّة، بل بحيثُ يزولُ العِيُّ، ويحصُلُ لهم فَهمُ ما يُريدُ منه، وهو قَدرُ الحاجةِ. ولو سأل الجميعَ لزال، ولكنَّ الأنبياءَ لا يسألون إلا بحَسَبِ الحاجةِ، ولهذا بَقِيَتْ بقيَّةٌ، قال اللهُ تعالى إخبارًا عن فِرعَونَ أنَّه قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] أي: يُفصِحُ بالكلام. وقال الحسنُ البصري: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ قال: حلَّ عقدةً واحدةً، ولو سأل أكثَرَ مِن ذلك أُعطي). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٢).

﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾.

أي: فيفهَمَ النَّاسُ قولي حينَ أُخاطِبُهم[١].

﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾﴾.

أي: واجعَلْ لي مُعينًا مِن أهلِ بيتي أعتَمِدُ عليه، فيَحمِلُ عني بعضَ ثِقَلِ أمرِ الدَّعوةِ والرِّسالةِ، ويساعِدُني على ما كلَّفتَني به[٢].

﴿هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾.

أي: اجعَلْ هارونَ أخي وزيري[٣].

كما قال تعالى حاكيًا قولَ موسى: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿أَشْدُدْ﴾ بهمزةٍ مفتوحةٍ مقطوعةٍ، ﴿وَأُشْرِكْهُ﴾ بضَمِّ الهمزةِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٨٩)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٦٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

على وجهِ الإخبارِ، فأخبَرَ موسى عليه السلامُ بذلك عن نفسِه، فالمعنى: إن فعلتَ ذلك أَشدُدْ به أزري، وأُشرِكْه في أمري[١].

٢- قراءةُ ﴿ٱشۡدُدۡ﴾ بوَصلِ الألفِ، ﴿وَأَشۡرِكۡهُ﴾ بفتحِ الهمزةِ، أتَى بالكلامِ على طريقِ الدُّعاءِ، أي: اللهُمَّ اشدُدْ به أزري، وأَشرِكْه في أمري[٢].

﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١﴾.

أي: قَوِّ بهارونَ ظَهري، وأعِنِّي به[٣].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥].

﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾.

أي: واجمَعْ بيني وبينه في النبُوَّةِ، وتبليغِ الرِّسالةِ، فاجعَلْه نبيًّا مِثلَ ما جعلْتَني نبيًّا، وأرسِلْه معي إلى فِرعَونَ[٤].

﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣﴾.

---

(١) قرأ بها ابنُ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٠)، ((البدور الزاهرة)) لعبد الفتاح القاضي (ص: ٢٠٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٤١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٥٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٠)، ((البدور الزاهرة)) لعبد الفتاح القاضي (ص: ٢٠٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٤١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

أي: اجعَلْ هارونَ أخي عضُدًا لي؛ مِن أجلِ أنْ نتعاوَنَ معًا على عبادتِك، فنصلِّيَ لك، ونعظِّمَك بالتَّسبيحِ لك كثيرًا، تنزيهًا عمَّا لا يليقُ بك[١].

﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

أي: ونذكُرَك ذِكرًا كثيرًا فنُثنيَ عليك ونحمَدَك على نِعَمِك، ونَصِفَك بما يليقُ بك من صِفاتِ كمالِك[٢].

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

أي: إنَّك كنتَ بنا مُبصِرًا، لا يخفَى عليك شَيءٌ مِن أمْرِنا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

قال القرطبي: (قيل: معنى ﴿نُسَبِّحَكَ﴾: نصلِّيَ لك. ويحتمَلُ أنْ يكونَ التَّسبيحُ باللِّسانِ، أي: ننزِّهَك عما لا يليقُ بجلالك). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٤).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالتسبيحِ: الصلاةُ: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، والثعلبي، والسمعاني، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٩٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٢٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٥٧).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالتسبيحِ: التَّسبيحُ باللِّسانِ: أبو حيان، والنيسابوري، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٢٤).

وممن جمَع بينَ المعنيينِ السابقينِ: النَّسَفي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٦٣).

وذهَب البقاعيُّ إلى ما هو أعمُّ مِن ذلك، فقال: (﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ﴾ أي: بالقولِ، والفعلِ؛ بالصلاةِ وغيرِها). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦).

قال ابنُ كثيرٍ: (قولُه: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي: في اصطفائِك لنا، وإعطائِك إيَّانا النبوةَ، =

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: قال الله: قد أُعطيتَ كلَّ ما طَلَبْتَه -يا موسى- مِن شَرحِ صَدرِك، وتيسيرِ أمرِك، وحَلِّ عُقدةٍ مِن لسانِك، وجَعْلِ أخيك هارونَ وزيرًا لك، وإشراكِه في الرِّسالةِ معك[1].

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٣ - ٣٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- سأل موسى عليه السلامُ ربَّه المعونةَ، وتيسيرَ الأسبابِ، التي هي من تمامِ الدعوةِ، فقال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ أي: وسِّعْه وأفسِحْه؛ لأتحمَّلَ الأذى القوليَّ والفِعليَّ، ولا يتكَدَّرَ قلبي بذلك، ولا يضيقَ صدري؛ فإنَّ الصَّدرَ إذا ضاق لم يصلُحْ صاحِبُه لهدايةِ الخَلقِ ودَعوتِهم. وقال: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾ ومِن تيسيرِ الأمرِ أنْ يُيسرَ للداعي أنْ يأتيَ جميعَ الأمورِ مِن أبوابِها، ويخاطِبَ كلَّ أحدٍ بما يناسبُ له، ويدعوه بأقربِ الطرقِ الموصلةِ إلى قَبولِ قولِه[2].

= وبعثتِك لنا إلى عدوِّك فرعونَ، فلك الحمدُ على ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٣).

وقال السعدي: (﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ تعلمُ حالَنا، وضعَفنا، وعجزَنا، وافتقارَنا إليك في كلِّ الأمورِ، وأنت أبصرُ بنا مِن أنفسِنا وأرحمُ، فمُنَّ علينا بما سألناك، وأجِبْ لنا فيما دعوناك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

٢- الاستعانةُ إذا كانت بأُولي القُربى من أهلِ النَّسَبِ أو التَّربيةِ أو الاصطناعِ القديمِ للدَّولةِ، كانت أكمَلَ؛ لِما يقعُ في ذلك من مجانسةِ خُلُقِهم لخُلُقِه، فتَتِمَّ المُشاكَلةُ في الاستعانةِ؛ قال تعالى ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي * وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾[1].

٣- قولُ الله تعالى حكايةً عن موسى: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾ في ختمِ الأدعيةِ بهذه الآيةِ فيه فوائدُ:

منها: تفويضُه إلى الله تعالى بأنَّه أعلَمُ بما فيه صلاحُهم، وأنَّه ما سأل سؤالَه إلَّا بحَسَبِ ما بلَغَ إليه عِلمُه[2]، وفيه من حسن الأدب ما لا يخفى.

ومنها: أنَّه عرَض فقرَه واحتياجَه على علمِه سبحانَه، وأنَّه مفتقرٌ إلى التعاونِ والتعاضدِ، ولهذا سأَل ما سأَل.

ومنها: أنَّه أعلمُ بأحوالِ أخيه: هل يصلحُ لوزارتِه أم لا، وأنَّ وزارتَه هل تصيرُ سببًا لكثرةِ التسبيحِ والذكرِ.

وحينَ راعَى مِن دقائقِ الأدبِ، وأنواعِ حسنِ الطلبِ ما يجبُ رعايتُه، فلا جرمَ أجاب الله تعالى مطالبَه، وأنجحَ مآربَه، قائلًا: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ هذا سؤالٌ مِن موسى عليه السَّلامُ لربِّه عزَّ وجل: أنْ يَشرَحَ له صَدْرَه فيما بعَثَه به؛ فإنَّه قد أمَرَه بأمرٍ عظيمٍ، وخَطْبٍ جسيمٍ؛ بعَثَه إلى أعظَمِ مَلِكٍ على وَجهِ الأرض إذ ذاك، وأجبَرِهم وأشَدِّهم كُفرًا،

(١) يُنظر: ((تاريخ ابن خلدون)) (١/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٥٣٩).

وأكثَرِهم جُنودًا، وأعمَرِهم مُلكًا، وأطغاهم وأبلَغِهم تمَرُّدًا، بلغَ مِن أمرِه أنِ ادَّعى أنَّه لا يَعرِفُ اللهَ، ولا يعلَمُ لرعاياه إلهًا غيرَه! هذا وقد مكث موسى في دارِه مُدَّةً وليدًا عندَهم في حِجرِ فِرعَونَ على فراشِه، ثمَّ قَتَل منهم نَفسًا فخافهم أنْ يقتُلوه، فهرب منهم هذه المدَّةَ بكَمالِها، ثمَّ بعد هذا بعَثَه رَبُّه عزَّ وجَلَّ إليهم نذيرًا يدعوهم إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ أنْ يَعبُدوه وَحْدَه لا شَريكَ له[١].

٢- قولُ الله تعالى حكايةً عن نبيِّه موسى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ فيه أنَّ فصاحةَ لسانِ الدَّاعيةِ إلى الدِّينِ، والواعِظِ المُنذِرِ؛ تُعينُ على تدبُّرِ ما يقولُ، وفِقهِه[٢].

٣- قال الله تعالى حِكايةً عن موسى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ لَمَّا أفهَمَ سُؤالُه هذا أنَّ له فيه أغراضًا، أشار إلى أنَّها ليست مَقصودةً له لأمرٍ يَعودُ على نفسِه، بذِكرِ العلَّةِ الحَقيقيَّةِ، فقال: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ﴾... فأفصحَ عن أنَّ المرادَ بالمعاضَدةِ إنَّما هو لتمهيدِ الطَّريقِ إلى اللهِ سُبحانَه[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾ طلبُ موسى الوزيرَ إمَّا أنْ يكونَ لأنَّه خاف من نفسِه العَجزَ عن القيامِ بذلك الأمرِ، فطلبَ المُعينَ، أو لأنَّه رأى أنَّ للتعاونِ على الدِّينِ، والتظاهُرِ عليه مع مخالصةِ الوُدِّ، وزَوالِ التُّهمةِ؛ مَزِيَّةً عَظيمةً في أمرِ الدُّعاءِ إلى اللهِ؛ ولذلك قال عيسى بنُ مريمَ: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾[٤] [آل عمران: ٥٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٤٤).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۞ هَٰرُونَ أَخِي﴾ سأل أنْ يكونَ مِن أهلِه؛ لأنَّه من بابِ البِرِّ، وأحَقُّ ببِرِّ الإنسانِ قَرابتُه[١]، ولأنَّه به أوثَقُ؛ لكونِه عليه أشفَقَ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تخلُّصٌ إلى ما هو المقصودُ مِن تَمهيدِ المُقدِّماتِ السَّالفةِ، فُصِلَ عمَّا قبْلَه مِن الأوامرِ؛ إيذانًا بأصالتِه[٣].

- وخَصَّ فِرعَونَ بالذِّكرِ -مع أنَّ موسى عليه السلامُ كان مبعوثًا إلى الكُلِّ- لأنَّه ادَّعى الإلهيَّةَ وتكبَّر، وكان مَتبوعًا؛ فكان ذِكرُه أولى[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ أو لوُجوبِ المأمورِ به، وإنَّما صلَحَتْ للتَّعليلِ؛ لأنَّ المُرادَ ذَهابٌ خاصٌّ، وهو إبلاغُ ما أمَرَ اللهُ بإبلاغِه إليه؛ مِن تَغييرِه عمَّا هو عليه من عِبادةِ غيرِ اللهِ[٥].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قال هنا: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، وقال في (الشُّعراءِ): ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠-١١]، وقال في (القَصصِ): ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢]؛ ففي الآيةِ الأُولى ذكَرَ فِرعونَ وحْدَه؛ لأنَّ قومَه تبَعٌ له، وكأنَّهم مذكورونَ معه، وفي الآيةِ الثَّانيةِ ذكَرَ قومَ فِرعونَ من دُونِه، ومعلومٌ أنَّه منهم، ومُخاطَبٌ بمثْلِ خِطابِهم، فإذا اتَّقَوا وآمَنُوا، كان فِرعَونُ وحْدَه لا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٠).

يَقدِرُ على مُخالَفَتِهم، فترَك ذِكْرَه؛ لأنَّه في هذه الحالةِ في حُكْمِ التَّابعِ لهم، وخِطابُهم خِطابُه. أمَّا الموضعِ الثَّالثُ فإنَّ الحِكايةَ أتَتْ على فِرعونَ وملَئِه، فبيَّنَت ما انطوَتْ عليه الآياتُ قبْلُ مِنْ ذكْرِ بعضٍ، والاكتفاءِ به عن بعضٍ، وهذا كما قال في موضعٍ لمُوسى وحْدَه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٢٤]، وفي موضعٍ: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]؛ لأنَّ هارونَ تابعٌ له، وداخِلٌ في حُكْمِه، وأبانَ ذلك في موضعٍ، فقال: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، وقال في (طه): ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[(١)] [طه: ٤٧].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ يَنساقُ إليه الذِّهْنُ؛ كأنَّه قيل: فماذا قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حين أُمِرَ بهذا الأمْرِ الخطيرِ، والخَطْبِ العسيرِ؟ فقيل: قال مُستعِينًا بربِّه عَزَّ وجَلَّ:...[(٢)].

- وحُكِيَ جَوابُ مُوسى عن كلامِ الرَّبِّ بفعْلِ القولِ غيرَ معطوفٍ؛ جرْيًا على طَريقةِ المُحاوَراتِ[(٣)].

- وفائدةُ لفظةِ ﴿لِى﴾ في قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ مع أنَّ الكلامَ بدُونِه مُستتِبٌّ: أنَّه قد أُبْهِمَ الكلامُ أوَّلًا، فقيل: (اشرَحْ لي ويسِّرْ لي)؛ فعُلِمَ أنَّ ثَمَّ مَشروحًا ومُيسَّرًا، ثُم بُيِّنَ ورُفِعَ الإبهامُ بذِكْرِهما؛ فكان آكَدَ لطلَبِ الشَّرحِ والتَّيسيرِ لصَدْرِه وأمْرِه من أنْ يقولَ: (اشرَحْ صَدْري، ويسِّرْ أمْري) على الإيضاحِ السَّاذجِ؛ لأنَّه تكريرٌ للمعنى الواحدِ من طَريقي

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٩٥-٨٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٠).

الإجمالِ والتَّفصيلِ[١]. وأيضًا زيادةُ ﴿لِي﴾ بعدَ ﴿ٱشۡرَحۡ﴾ وبعدَ (يَسِّرْ) إطنابٌ؛ لأنَّ الكلامَ مفيدٌ بدُونِه، ولكن سلَك الإطنابَ لِمَا تُفيدُه اللامُ مِن معنى العِلَّةِ، أي: اشرحْ صدري لأجْلي، ويَسِّرْ أمْري لأجلي، وهي اللامُ المُلقَّبَةُ (لامَ التَّبيينِ)، التي تُفيدُ تقويةَ البيانِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿صَدۡرِي﴾ و﴿أَمۡرِي﴾ واضحٌ أنَّ الشرحَ والتيسير متعلِّقان بِه؛ فكان قولُه: ﴿لِي﴾ فيهما زيادةَ بيانٍ، وهو هنا ضربٌ مِن الإلحاحِ[٢]. أو تكونُ فائدتُها الاعترافَ بأنَّ مَنفعةَ شرْحِ الصَّدرِ، وتَيسيرِ الأمْرِ راجعةٌ إليه، وعائدةٌ عليه؛ فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لا يَنتفِعُ بإرسالِه، ولا يَستعينُ بشرْحِ صَدْرِه، تعالى وتقدَّسَ[٣].

- وتَقديمُ هذا المجرورِ على مُتعلَّقِه في قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾؛ لِيحصُلَ الإجمالُ ثُمَّ التَّفصيلُ؛ فيُفيدَ مُفادَ التَّأكيدِ من أجْلِ تكرُّرِ الإسنادِ[٤]. وأيضًا في تَقديمِ ﴿لِي﴾ وتَكريرِها: إظهارُ مَزيدِ اعتناءٍ بشأْنِ كلٍّ مِن المطلوبَيْنِ، وفضْلُ اهْتمامٍ باستدعاءِ حُصولِهما له، واختصاصِهما به[٥].

- وإضافةُ (أمْرٍ) إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ في قولِه: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾؛ لإفادةِ مَزيدِ اختصاصِه به، وهو أمْرُ الرِّسالةِ[٦].

ومن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّ قولَه هنا: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ طلَبُ أمانٍ له مِن أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٧-٣٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١١).

يُقتَلَ بمَن قتَلَه، وهذا معنى قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدۡرِي﴾ [الشعراء: ١٢-١٣]؛ لأنَّهم لو صَدَّقوه لَمَا خاف أنْ يَقْتُلوه. وكذلك قولُه في السُّورةِ الثَّالثةِ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]، وقولُه: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٦]، مُشتمِلٌ على ذلك وغيرِه؛ لأنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ إذا يَسَّرَ له أمْرَه، لم يخَفِ القتْلَ[(١)].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي * يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾

- تَنكيرُ ﴿عُقۡدَةٗ﴾ في قولِه: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ﴾ للتَّعظيمِ، أي: عُقدةً شَديدةً. وعدَلَ عن أنْ يقولَ: (عُقدةَ لِساني) بالإضافةِ؛ ليَتأتَّى التَّنكيرُ المُشعِرُ بأنَّها عُقدةٌ شَديدةٌ[(٢)]. أو لأنَّه طلَبَ حَلَّ بعْضِها إرادةَ أنْ يُفْهَمَ عنه فَهمًا جيِّدًا، ولم يطلُبِ الفصاحةَ الكاملةَ؛ كأنَّه قيل: عُقدةً من عُقَدِ لِساني[(٣)].

- في قولِه: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ شَبَّه حُبْسَةَ اللِّسانِ بالعُقْدةِ في الحبْلِ أو الخيطِ ونحْوِهما؛ لأنَّها تمنَعُ سُرعةَ استعمالِه[(٤)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي * يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾، فهو معنى قولِه: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ١٣]، وكذلك في سُورةِ (القَصصِ): ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]، فطلَبَ أنْ يَحُلَّ عُقدةً

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٩٣-٨٩٤)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) (١/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١١).

مِن عُقَدِ لِسانِه، وأنْ يُؤيَّدَ بأخيه، فأُجِيبَ إليهما. وسائرُ ما ذُكِرَ في سُورةٍ ولم يُذْكَرْ في أُخرى ليس من الاختلافِ الَّذي يُعابُ(١).

وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّه صَرَّحَ بالعُقْدةِ هنا؛ لأنَّها السَّابقةُ، وفي (الشُّعراءِ): ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشعراء: ١٣]، فكَنَّى عن العُقدةِ بما يقرُبُ من الصَّريحِ، وفي (القَصصِ) قال: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، فكنَّى عن العُقدةِ كِنايةً مُبْهَمَةً؛ لأنَّ الأوَّلَ يدُلُّ على ذلك(٢).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَـٰرُونَ أَخِي﴾ خَصَّ هارونَ عليه السَّلامُ؛ لفرْطِ ثِقَتِه به، ولأنَّه كان فَصِيحَ اللِّسانِ مِقْوالًا؛ فكونُه من أهْلِه مَظِنَّةَ النُّصحِ له، وكونُه أخاهُ أقْوى في المُناصَحةِ، وكونُه الأخَ الخاصَّ؛ لأنَّه معلومٌ عنده بأصالةِ الرَّأيِ(٣).

- وقَدَّمَ ﴿وَزِيرًا﴾ على ﴿هَـٰرُونَ﴾؛ اعتناءً بشأْنِ الوِزارةِ(٤)، وبيانًا لاهتمامِه بالإعانةِ، كما يقتضيه الحالُ(٥).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَـٰرُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩، ٣٠]، فصَرَّحَ بالوزيرِ؛ لأنَّه الأوَّلُ في الذِّكرِ، وكَنَّى عنه في (الشُّعراءِ)،

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٩٤-٨٩٥).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٣-٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٤).

حيث قال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ١٣]، أي: ليكونَ لي وزيرًا، وفي (القصصِ): ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ [القصص: ٣٤]، أي: اجعَلْه لي وزيرًا، فكنَّى عنه بقولِه: ﴿رِدْءًا﴾؛ لبَيانِ الأوَّلِ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ كلاهما على صِيغَةِ الدُّعاءِ، وفُصِلَ الأوَّلُ عن الدُّعاءِ السَّابقِ -أي: لم يُعْطَفْ عليه-؛ لكَمالِ الاتِّصالِ بينهما؛ فإنَّ شَدَّ الأزْرِ عبارةٌ عن جَعْلِه وزيرًا، وأمَّا الإشراكُ في الأمْرِ فحيث كان من أحكامِ الوزارةِ توسَّطَ بينهما العاطِفُ[٢].

- قولُه: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ المرادُ بالأزرِ الظَّهرُ؛ ليُناسِبَ الشدَّ؛ فيَكونَ الكلامُ تَمثيلًا لهَيئةِ المُعينِ والمُعانِ بهَيئةِ مَشدودِ الظَّهرِ بحزامٍ ونحْوِه وشادِّه[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ قَدَّمَ التَّسبيحَ؛ لأنَّه تَنزيهُه تعالى في ذاتِه وصفاتِه، وبَراءتُه عن النَّقائصِ، ومَحلُّ ذلك القلْبُ، والذِّكْرُ والثَّناءُ على اللهِ بصفاتِ الكَمالِ، ومَحلُّه اللِّسانُ؛ فلذلك قَدَّمَ ما مَحلُّه القلْبُ على ما مَحلُّه اللِّسانُ[٤]، أو لأنَّ التسبيحَ لما كان ذكرًا خاصًّا؛ لكونِه بالتنزيهِ الذي أعلاه التوحيدُ؛ أتبعَه العامَّ فقال: ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾[٥]، وهذان الوجهانِ بناءً على تفسيرِ التسبيحِ بالتنزيهِ.

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٥).

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ تَعليلٌ لسُؤالِه شرْحَ صدْرِه وما بعْدَه[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾

- في تَكرارِ النِّداءِ ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾: تَشريفٌ له عليه السَّلامُ بشرَفِ الخِطابِ إثْرَ تَشريفِه بشرَفِ قَبولِ الدُّعاءِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤).

الآيات (٣٧-٤١)

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلتَّابُوتِ﴾: أي: الصُّندوقِ، قيل: وزنُه فَعْلوتٌ من التَّوْبِ، فإنَّه لا يزالُ يَرجِعُ إليه ما يخرُجُ منه[(١)].

﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾: أي: شاطِئِ البَحرِ، قيل: أصلُه من: سَحَلَ الحديدَ، أي: بَرَدَه وقَشَرَه؛ لأنَّ الماءَ يفعلُ به ذلك، فقيل: أصلُه أنْ يكونَ مَسْحولًا، لكن جاء على لفظِ الفاعلِ، وقيل: بل هو على بابِه، وتُصوِّر منه أنَّه يَسْحَلُ الماءَ، أي: يُفرِّقه ويُضيِّعه[(٢)].

﴿يَكْفُلُهُۥ﴾: أي: يَضُمُّه، والكَفالةُ: الضَّمانُ، وأصلُه يدُلُّ على تَضَمُّنِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ[(٣)].

﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾: أي: تطيبَ نَفسُها، قيل: أصلُه من القُرِّ، أي: البَردِ، فَقَرَّتْ عينُه،

---

(١) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٣)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٧).

قيل: معناه بَرَدَت فصحَّت، وقيل: هو من القَرارِ، والمعنى: أعطاه اللهُ ما تَسكُنُ به عينُه، فلا يطمَحُ إلى غيرِه[١].

﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾: أي: اختبَرناك اختبارًا، والفتنةُ في الأصْلِ: الاختِبارُ والابتِلاءُ والامتِحانُ، مأخوذةٌ من الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهَبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه مِن رداءتِه[٢].

﴿قَدَرٍ﴾: أي: ميقاتٍ ووَقتٍ ومِقدارٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مبلغِ الشَّيءِ وكُنهِه ونهايتِه[٣].

﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ﴾: أي: اصطفيتُك، واختَرتُك، والاصطِناعُ: المبالغةُ في إصلاحِ الشَّيءِ[٤].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مذكِّرًا موسى عليه السلامُ ببعضِ مِنَنِه عليه: ولقد أنعَمْنا عليك يا موسى -قبلَ هذه المرَّةِ- بنِعمةٍ أُخرى، حين كنتَ رَضيعًا، إذ ألهَمْنا أمَّك ما ألهمْناها مِن أمرٍ عظيمٍ يتعلَّقُ بنجاتِك، وهو أنْ تضَعَك في الصُّندوقِ،

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٣، ٧٣٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢ - ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣١).

ثمَّ تَقذِفَك في النِّيلِ، وبأمرِنا وقدرتِنا يُلقيك النِّيلُ على الشَّاطِئِ، فيأخُذُك فِرعَونُ الذي هو عدوِّي وعَدُوُّك، وأحببتُك، ووضعْتُ لك القَبولَ بينَ النَّاسِ، فصِرتَ بذلك مَحبوبًا بينهم، ولِتُرَبَّى على عيني وفي حِفظي.

ومِن مظاهِرِ هذه العنايةِ والحِفظِ والمنَّةِ عليك ما يجِبُ تذكُّرُه، وذلك حينَ كانت أختُك تمشي تتَّبِعُك ثمَّ تقولُ لِمَن أخذوك: هل أدلُّكم على مَن يكفُلُه، ويُرضِعُه لكم؟ فرَدَدْناك إلى أمِّك بعدما صِرْتَ في يدِ فِرعَونَ؛ كي تطيبَ نَفسُها بسَلامتِك، ولا تحزَنَ على فَقْدِك، وقتَلْتَ الرَّجُلَ القِبطيَّ خطأً، فنجَّيناك مِن الغمِّ، واختَبرناك اختبارًا بإيقاعِك في المحنِ، وتخليصِك منها، فخرَجْتَ خائِفًا إلى أهلِ «مَدْينَ»، فمَكَثْتَ سِنينَ فيهم، ثمَّ جِئْتَ إلى الوادِ المقَدَّسِ في الموعدِ الذي قدَّرناه لِمَنحِك النبوَّةَ، مجيئًا مُوافِقًا لقَدَرِ اللهِ وإرادتِه، وأنعَمْتُ عليك -يا مُوسى- بهذه النِّعَمِ الكثيرةِ؛ لتكونَ لي حبيبًا مختَصًّا، ورسولًا لتبليغِ رِسالتي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى مِنَّتَه على موسى -عليه السَّلامُ- في الدينِ والوَحيِ، والرِّسالةِ وإجابةِ سُؤالِه؛ ذكَرَ نِعمَتَه عليه وقتَ التَّربيةِ، والتنَقُّلاتِ في أطوارِه[1].

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: ولقد أحسنَّا إليك -يا موسى- وأنْعَمْنا عليك قبلَ هذه المرَّة -أي: قبلَ نِعمةِ الوحيِ والرِّسالةِ وإجابةِ الدُّعاءِ- مرَّةً أخرى، وأنت طفلٌ صغيرٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: وذلك قد وقع حينَ ألهَمْنا أمَّك في شأنِك ما يُلْهَمُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾.

أي: فأوحَينا إليها أنْ ألْقِ ابنَك موسى في الصُّندوقِ(٢).

﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾.

أي: فاطرَحيه وهو في الصُّندوقِ في نهرِ النِّيلِ(٣).

= (١١/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨).

قال الواحدي: (﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾، قال المفسرونَ: وَحْي إلهامٍ). ((البسيط)) (١٤/ ٣٩٣).

وقال ابن عاشور: (الوحيُ هنا: وحيُ الإلهامِ الصادقِ. وهو إيقاعُ معنًى في النفسِ يتَلَجُ له نفسُ المُلقَى إليه، بحيثُ يجزمُ بنجاحِه فيه، وذلك مِن توفيقِ الله تعالى. وقد يكونُ بطريقِ الرُّؤيا الصالحةِ التي يُقذَفُ في نفسِ الرَّائي أنها صِدقٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦، ٥٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨).

قال الشنقيطي: (الضميرُ في قوله: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ راجعٌ إلى موسى بلا خلافٍ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٤)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾.

أي: فلْيُلقِ[(١)] نهرُ النِّيلِ موسى وهو في داخِلِ الصُّندوقِ بالشَّاطئِ[(٢)].

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾.

أي: وحينئذٍ يأخُذُ موسى فِرعَونُ الذي هو عدوٌّ لي وعدوٌّ لموسى[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.

أي: أحبَبْتُكَ وجعلتُك محبوبًا لكلِّ من يراك، ووضعتُ لك القَبولَ بينَ النَّاسِ[(٤)].

= (١١/ ١٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨، ٩).

قال الرازي: (اليمُّ هو البحرُ، والمرادُ به هاهنا نيلُ مِصرَ في قولِ الجميعِ، واليمُّ: اسمٌ يقع على البحرِ وعلى النَّهرِ العظيمِ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٤٧).

(١) قال الشنقيطي: (صيغةُ الأمرِ في قولِه: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ فيها وجهانِ معروفانِ عند العُلَماءِ: أحدُهما: أنَّ صيغةَ الأمر معناها الخبَرُ؛ قال أبو حيان في «البحر المحيط»: ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾: أمرٌ معناه الخبَرُ، وجاء بصيغةِ الأمر مُبالغةً؛ إذ الأمرُ أقطَعُ الأفعالِ وأوجَبُها.

الوجهُ الثاني: أنَّ صيغةَ الأمرِ في قَولِه: ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ أريدَ بها الأمرُ الكونيُّ القَدَريُّ، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فالبَحرُ لا بدَّ أنْ يُلقيَه بالسَّاحِلِ؛ لأنَّ اللهَ أمَرَه بذلك كَونًا وقَدَرًا). ((أضواء البيان)) (٤/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨، ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٧، ٣٩٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٧).

قال الواحدي: (قال في روايةِ سعيدِ بنِ جُبَير: «ألقى عليه منها [أي: امرأةِ فرعونَ] محبَّةً لم يُلقَ =

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾.

أي: ولتُغذَّى وتُربَّى في قصر فِرعَون على ما أُريدُ بمرأًى منِّي، وتحت حِفْظي ورعايتي[(١)].

= منها على أحدٍ مِن البشَرِ» وهذا كلامُ المفَسِّرينَ، فأمَّا ظاهِرُ اللَّفظِ فإنَّه يقتضي أنَّ الله تعالى أحبَّه، وحُبُّ الله تعالى إيَّاه أعظَمُ نِعمةٍ وأجملُ إحسانٍ). ((البسيط)) (١٤/ ٣٩٧).

وقال ابنُ عثيمين: (فقولُه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾: اختلفَ المفَسِّرونَ في معناها؛ فمِنهم من قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾، يعني: أنِّي أحبَبْتُك. ومنهم مَن قال: ألقيتُ عليك محبَّةً مِنَ النَّاسِ، والإلقاءُ مِنَ اللهِ، أي: أنَّ من رآك أحبَّك، وشاهِدُ هذا أنَّ امرأةَ فِرعَونَ لَمَّا رأتْه أحبَّتْه وقالت: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

ولو قال قائلٌ: أيمكِنُكم أن تَحمِلوا الآيةَ على المعنَيَينِ؟ لقُلْنا: نعمْ، بناءً على القاعدةِ، وهي: أنَّ الآيةَ إذا كانت تَحمِلُ مَعنيَينِ لا مُنافاةَ بينهما، فإنَّها تُحمَلُ عليهما جميعًا؛ فموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ محبوبٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، ومحبوبٌ مِن النَّاسِ، إذا رآه الناسُ أحبُّوه، والواقِعُ أنَّ المعنَيَينِ متلازمانِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى إذا أحبَّ عبدًا ألقى في قُلوبِ العبادِ محبَّتَه، ويُروى عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: أحَبَّه اللهُ، وحَبَّبه إلى خَلقِه). ((شرح العقيدة الواسطية)) (١/ ٣١٩).

وقال الثعلبي: (قولُه سبحانه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ قال ابنُ عباسٍ: أحبَّه وحبَّبه إلى خلقِه). ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٢٤٤).

وقال البقاعي: (... لتكونَ أهلًا لما أريدُك له). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٢٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

قال ابنُ عاشور: (قرأه الجُمهورُ بكَسرِ اللَّامِ، على أنَّها لامُ كي، وبنَصبِ فِعلِ «لِتُصنَعَ»، وقرأه أبو جعفرٍ بسكونِ اللَّامِ، على أنَّها لامُ الأمرِ، وبجَزمِ الفِعلِ على أنَّه أمرٌ تكوينيٌّ، أي: وقلنا: لِتُصنَعْ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٨). ويُنظر: ((الدر المصون)) للحلبي (٨/ ٣٦).

وقال الشوكاني: (قيل: واللامُ مُتعَلِّقةٌ بمحذوفٍ، أي: فعَلْتُ ذلك لِتُصنَعَ. وقيل: متعلِّقةٌ بـ «ألقيتُ». وقيل: متعلقةٌ بما بعده، أي: ولِتُصنَعَ على عيني قدَّرْنا مشيَ أُختِك). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٣١).

قال ابنُ عثيمين: (ظاهِرُ الكلامِ: أنَّ تربيةَ موسى تكونُ على عَينِ اللهِ يرعاه ويكلؤُه بها. وهذا معنى قَولِ بَعضِ السَّلَفِ: «بمرأًى منِّي»؛ فإنَّ الله تعالى إذا كان يكلؤُه بعَينِه لزم من ذلك أنْ =

﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ﴾.

أي: حينَ[1] كانت أختُك تمشي لِتتَّبِعَك حتى وجدَتْك في أيدي آلِ فِرعَونَ يَطلُبونَ لك مُرضِعًا فتَقولُ لهم: هل أدلُّكم على من يضُمُّ هذا الطِّفلَ إليه، ويقومُ بمَصالحِه وخِدمتِه، فيُرضِعُه ويُرَبِّيه ويحفَظُه[2]؟

كما قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص: ١٠ - ١٢].

﴿ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾.

= يراه، ولازِمُ المعنى الصَّحيحِ جُزءٌ منه، كما هو معلومٌ مِن دَلالةِ اللَّفظِ؛ حيث تكونُ بالمطابقةِ والتضَمُّنِ والالتزامِ). ((القواعد المثلى)) (ص: ٦٧) بتصرف.

(١) قال الشنقيطي: (اختُلِف في العاملِ الناصبِ للظرفِ الذي هو «إذ» من قولِه: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ ﴾ فقيل: هو «ألقيت» أي: ألقيتُ عليك محبةً مني حينَ تمشي أختُك. وقيل: هو «تصنع» أي «تصنع على عيني» حينَ تمشي أختُك. وقيل: هو بدلٌ مِن «إذ» في قولِه: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ ﴾ [طه: ٣٨]. قال الزمخشري: فإن قلتَ: كيف يصحُّ البدلُ، والوقتان مختلفان متباعدان؟ قلتُ: كما يصحُّ وإن اتَّسَع الوقتُ، وتباعَد طرفاه أنْ يقولَ لك الرجلُ: لقيتُ فلانًا سنةَ كذا. فتقولُ: وأنا لقيتُه إذ ذاك. وربما لقِيه هو في أوَّلِها، وأنت في آخرِها). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٠).

وقال ابنُ عطية: (العاملُ في ﴿ إِذْ ﴾ فعلٌ مضمرٌ تقديرُه ومَنَنَّا إذْ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠، ٦١، ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٨).

أي: فرَدَدْناك إلى أمِّك بعدَما صرتَ في أيدي آلِ فِرعَون؛ لكي تفرَحَ بلُقياك وسَلامتِك، ولا تحزَنَ على فَقدِك وفِراقِك[(١)].

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾.

أي: وقتلتَ الرجُلَ القبطيَّ من آلِ فِرعَونَ حينَ استغاثَك الإسرائيليُّ عليه، وكانَ قتلُه له خطأً[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾.

أي: فنجَّيناك من غمِّك لَمَّا أراد آلُ فِرعَون قَتْلَك اقتصاصًا للقبطيِّ، ففَرَرتَ منهم خائفًا إلى مَدْينَ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠، ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١، ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٠).

﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾.

أي: واختَبرناك اختبارًا بإيقاعِك في المحنِ، وتخليصِك منها[١].

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾.

أي: فلمَّا خرجتَ من مصرَ خائفًا إلى مَدْينَ أقمتَ سنينَ كثيرةً عندَ أهلِها[٢].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٠١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٢٩٥).

وقال الشوكاني: (﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ الفتنةُ تكونُ بمعنَى المحنةِ، وبمعنَى الأمرِ الشَّاقِّ، وكُلِّ ما يبتلَى به الإنسانُ، والفتونُ يجوزُ أنْ يكونَ مصدرًا... أي: ابتليناكَ ابتلاءً، واختبرناكَ اختبارًا، ويجوزُ أَنْ يكونَ جمعَ فِتْنَةٍ... أيْ: خَلَّصناكَ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ مِمَّا وَقَعْتَ فيه مِنَ المحَنِ الَّتي سَبَق ذكرُها قبلَ أنْ يصطفيَه اللَّهُ لرسالَتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٣٢). ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣).

وممَّن اختار أنَّ قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ يعني: اختبرناك وامتحنَّاك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، وابنُ القيم، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣، ٧٠، ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

قال ابنُ عطية: (وقالت فِرقةٌ: معناه: اختبرناك. وعلى هذا التأويلِ لا يُرادُ إلَّا ما اختُبِرَ به موسى بعد بلوغِه وتكليفِه، وما كان قبل ذلك فلا يدخُلُ في اختبارِ موسى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: خلَّصناك من المحَنِ تخليصًا: ابنُ عطية -ونسَبه لجمهورِ المفسرينَ-، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٨).

قال ابنُ عباسٍ فِي روايةِ سعيد بن جبير، ومجاهدٌ فِي روايةِ ابنِ أبي نَجِيحٍ: (الفُتونُ وقوعُه في محنةٍ بعدَ محنةٍ، خلَّصه اللهُ منها). يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٠٦).

وقال ابنُ القيمِ: (لفظُ الفِتنةِ في كتابِ الله تعالى يُراد بها الامتِحانُ الذي لم يُفتَتَنْ صاحِبُه، بل خَلَص مِن الافتِتانِ، ويُرادُ بها الامتحانُ الذي حصَلَ معه افتِتانٌ؛ فمِنَ الأوَّلِ: قَولُه تعالى لموسى عليه السَّلامُ: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]). ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

كما قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢١-٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٧ - ٢٩].

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾.

أي: ثم حَضَرتَ الآن -يا موسى- إلى الوادِ المقَدَّسِ في الوقتِ المحدَّدِ الذي قدَّرتُه، وأردتُ فيه منْحَك النبوَّةَ، وتكليفَك بإبلاغِ الرِّسالةِ إلى فِرعَونَ، بلا تقدُّمٍ ولا تأخُّرٍ[1].

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾.

أي: واصطفيتُك وأنعمتُ عليك بالنِّعَم الكثيرةِ؛ لأجل أنْ تكونَ لي حبيبًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣).

قال الواحدي: (يعني: على رأسِ أربعينَ سنةً، وهو القَدرُ الذي يُوحَى فيه إلى الأنبياءِ، هذا قولُ المفسِّرينَ، والمعنى: على الوعدِ الذي وعَدَه الله وقَدَّره في عِلمِه أنْ يوحى إليه بالرِّسالةِ، وهو أربعون سنة). ((الوسيط)) (٣/ ٢٠٧).

وقال السعدي: (﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: جئتَ مجيئًا قد مضى به القدرُ، وعلمه الله وأراده في هذا الوقتِ وهذا الزمانِ وهذا المكانِ، ليس مجيئُك اتفاقًا من غيرِ قصدٍ ولا تدبيرٍ منا، وهذا يدلُّ على كمالِ اعتناءِ الله بكليمِه موسى عليه السلام). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

مختَصًّا، ورسولًا لتبليغ رسالتي[١].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ قال تعالى: ﴿مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ مع أنَّه تعالى ذكَرَ مِننًا كثيرة؟

الجوابُ: أنَّه لم يَعنِ بـ ﴿مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ مرةً واحدةً مِن المِنَنِ؛ لأنَّ ذلك قد يُقالُ في القليلِ والكثيرِ[٢].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥ﴾ أصلٌ في الحضانةِ[٣].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗا﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ الله تعالى عدَّد أنواعَ مِنَنِه على موسى عليه السَّلامُ في هذا المقامِ، فكيف يليقُ بهذا الموضِعِ قَولُه: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗا﴾؟

والجوابُ مِن وُجوهٍ، منها:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ الفِتنةَ تَشديدُ المحنةِ، ولَمَّا كان التَّشديدُ في المحنةِ مِمَّا يُوجِبُ كثرةَ الثوابِ، لاجرمَ عدَّه اللهُ تعالى من جملةِ النِّعَمِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

قال ابن تيمية: (لفظُ النفسِ في حقِّ الله تعالى ليس إلا الذَّاتَ والحقيقةَ؛ فقَولُه: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ كالتأكيدِ الدَّالِّ على مزيدِ المبالغةِ؛ فإنَّ الإنسان إذا قال: جعلت هذه الدارَ لنفسي وعَمَرتُها لنفسي؛ فُهِمَ منه المبالغةُ). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٧/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٦).

الوجهُ الثاني: أنَّ ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗا﴾ أي: خَلَّصناك تخليصًا، مِن قَولِهم: فتَنْتُ الذَّهَبَ مِن الفِضَّةِ: إذا أردْتَ تخليصَه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَقريرِ ما قبْلَه، وزيادةِ تَوطينِ نفْسِ مُوسى عليه السَّلامُ بالقَبولِ، ببَيانِ أنَّه تعالى حيثُ أنعَمَ عليه بتلك النِّعمِ التَّامَّةِ من غيرِ سابقةِ دُعاءٍ منه وطلَبٍ، فلأَنْ يُنعِمَ عليه بمثْلِها وهو طالبٌ له وداعٍ أَوْلى وأحْرى[٢]. وقيل: إنَّها معطوفةٌ على جُملةِ ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]؛ لأنَّ جُملةَ ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ﴾ تتضمَّنُ مِنَّةً عليه، فعُطِفَ عليها تَذكيرٌ بمِنَّةٍ عليه أُخرى في وقْتِ ازديادِه؛ ليَعلَمَ أنَّه لمَّا كان بمَحلِّ العنايةِ من رَبِّه من أوَّلِ أوقاتِ وُجودِه؛ فهذا طَمأنةٌ لفُؤادِه، وشَرْحٌ لصَدْرِه؛ ليَعلَمَ أنَّه سيكونُ مُؤيَّدًا في سائرِ أحوالِه المُستقبَلةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ﴾ تَصديرُه بالقسَمِ؛ لكَمالِ الاعتناءِ، أي: وباللهِ لقد أنعَمْنا[٤]، وتأكيدُ الخبرِ بلامِ القسَمِ و(قد)؛ لتَحقيقِ الخبرِ[٥].

- وقولُه: ﴿مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ إجمالٌ يُفسِّرُه قولُه: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ...﴾[٦].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ هذا كَلامٌ مُجمَلٌ؛ فائدتُه: الإشارةُ إلى أنَّه ليس كلُّ الأُمورِ ممَّا يُوحَى إلى النِّساءِ، كالنُّبوَّةِ ونحْوِها، أو

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٤٩-٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٩).

التَّعظيمُ والتَّفخيمُ أوَّلًا، كما في قولِه تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [النجم: ٥٤]، والبَيانُ ثانيًا بقولِه: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾(١).

- والتَّعبيرُ بالموصولِ ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ مُفيدٌ أهميَّةَ ما أُوحِيَ إليها، ومُفِيدٌ تأكيدَ كونِه إلهامًا من قِبَلِ الحقِّ(٢).

- وفيه تَفسيرٌ بعْدَ الإبهامِ(٣)، وهذا النَّوعُ يُؤْتَى به لتَفخيمِ أمْرِ المُبْهَمِ وإعظامِه، وذلك في قولِه تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾؛ ففي الآيةِ أبهَمَ الكلامَ، وأتى به مُجْملًا؛ ليتعلَّقَ الذِّهنُ، ويتطلَّعَ ما عسى أنْ يكونَ السُّؤالُ؟ وما هي المِنَّةُ الأُخرى؟ وما عسى أنْ يَرْدَفَها من مِنَنٍ وآلاءٍ، فيأتي قولُه بعْدَ ذلك مُفسِّرًا ما أُبْهِمَ، فيقولُ: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ * أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾(٤).

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٦).

(٣) التفسيرُ بعدَ الإبهامِ: هو ذِكرُ الشيءِ الذي يقعُ عليه مُحتملاتٌ كثيرةٌ (المُبْهَم)، ثم يُفسَّرُ ويُوضَّحُ بإيقاعِه على واحدٍ منها، وهو كالتفصيلِ بعدَ الإجمالِ. وقريبٌ منه: الإيضاحُ بعدَ الإبهامِ، وهو أنْ يَذكُرَ المتكلِّمُ كلامًا في ظاهرِه لبسٌ، ثمَّ يوضِّحُه في بقيةِ كلامِه. وهذا النوعُ لا يُعمَدُ إلى استعمالِه إلا لضربٍ من المبالغةِ؛ لتفخيمِ أمرٍ مُبهَمٍ وإعظامِه؛ لأنه هو الذي يَطرُقُ السَّمعَ أولًا، كقولِه تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]، ففسَّر ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ بقولِه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾، وفي إبهامِه أولًا وتفسيرِه بعدَ ذلك: تفخيمٌ للأمرِ، وتعظيمٌ لشأنِه؛ فإنَّه لو قال: (وقضينا إليه أنَّ دابر هؤلاء مقطوع)، لما كان بهذه المكانة من الفخامة؛ فإنَّ الإبهامَ أولًا يُوقِعُ السامعَ في حَيرةٍ وتفكُّرٍ، واستعظامٍ لِمَا قرَع سَمْعَه، وتشوُّفٍ إلى معرفتِه، والاطلاعِ على كنهِه. يُنظر: ((المثل السائر)) لابن الأثير (٢/ ١٥٧-١٦٢)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٥٩-٥٦١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ١٩٠- ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٩٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾.

- قد أُبْهِمَ ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾، ثمَّ فُسِّرَ بالأمْرِ بقذْفِه في التَّابوتِ وقذْفِه في البحرِ؛ أُبْهِمَ أوَّلًا؛ تَهويلًا له وتَفخيمًا لشأْنِه، ثمَّ فُسِّرَ؛ ليكونَ أقَرَّ عندَ النَّفسِ[١].

- وقولُه: ﴿فَلۡيُلۡقِهِ﴾ قِيلَ: أمْرٌ معناهُ الخبَرُ، وجاء بصِيغَةِ الأمْرِ مُبالَغةً؛ إذ الأمْرُ أقطَعُ الأفعالِ وأوجَبُها. وقيل: إنَّما ذكَرَهُ بلفظِ الأمْرِ لِسَابِقِ عِلْمِه بوُقوعِ المُخبَرِ به على ما أخبَرَ به، فكأنَّ البحرَ مأمورٌ مُمتثِلٌ للأمْرِ. أو فيه معنى المُجازاةِ، أي: اقْذفيهِ يُلْقِه الْيَمُّ[٢].

- في قولِه: ﴿يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥ﴾ كرَّرَ ﴿عَدُوّٞ﴾؛ للمُبالَغةِ والتَّصريحِ بالأمْرِ، والإشعارِ بأنَّ عَداوتَه له مع تحقُّقِها لا تُؤثِّرُ فيه ولا تضُرُّه، بل تُؤدِّي إلى المحبَّةِ. وقيل: إنَّ الأوَّلَ العدُوُّ باعتبارِ الواقعِ، والثَّاني باعتبارِ المُتوقَّعِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾ نكَّرَ المحبَّةَ وأسْنَدَها إليه سُبحانَه؛ لأمْرينِ؛ الأوَّلِ: ما في التَّنكيرِ من الفَخامةِ الذَّاتيَّةِ، كأنَّها مَحبَّةٌ تَعْلو على الحُبِّ المُتعارَفِ المُتبادَلِ بين المخلوقاتِ. الثَّاني: ما في إسنادِها إليه من الفَخامةِ الإضافيَّةِ، أي: مَحبَّةً عظيمةً مِنِّي، وقد زرعْتُها في القُلوبِ، وركزْتُها في السَّرائرِ ومُنطوياتِ الضَّمائرِ؛ فسُبحانَ المُتكلِّمِ بهذا الكلامِ[٤]!

- والتعبيرُ بالإلقاءِ في قولِه: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾، يعني خَلْقَ المحبَّةِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٩٣-١٩٤).

قلبِ المحبِّ بدونِ سببٍ عاديٍّ حتَّى كأنَّه وضعٌ باليدِ لا مُقتَضٍ له في العادةِ[١].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قال هنا: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ فأُفْرِدَتِ العينُ، خلافًا للجمْعِ في مِثْلِ قولِه تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

ووجْهُه: أنَّ قولَه سُبحانَه: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ مُضافٌ إلى ضَميرِ جَمْعٍ، والمُرادُ به اللهُ وحْدَه بلا نزاعٍ، ومِثْلُ هذا كثيرٌ في القُرآنِ؛ يُسمِّي الرَّبُّ نفْسَه مِن الأسماءِ المُضمرَةِ بصِيغَةِ الجَمْعِ على سَبيلِ التَّعظيمِ لنفْسِه، كقولِه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، وقولِه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فلَمَّا كان المُضافُ إليه لفْظُه لَفْظُ الجَمْعِ، جاء المُضافُ كذلك، فقيل: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، أمَّا في قِصَّةِ مُوسى فإنَّه لمَّا أَفْرَدَ المُضافَ إليه أَفْرَدَ المُضافَ؛ فقيل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[٢].

وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّ الإفرادَ هنا سَبَبُهُ الاختصاصُ الَّذي خُصَّ به مُوسى في قولِه تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾، فاقْتَضى هذا الاختصاصُ الاختصاصَ الآخرَ في قولِه: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾؛ فإنَّ هذه الإضافةَ إضافةُ تَخصيصٍ، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وقولُه سُبحانَه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]، فليس فيه مِن الاختصاصِ ما في صُنْعِ مُوسى على عَينِه سُبحانه وتعالى، واصْطناعِه إيَّاهُ لنفْسِه، وما يُسْنِدُهُ سُبحانَه إلى نفْسِه بصِيغَةِ ضَميرِ الجَمْعِ قد يُرِيدُ به ملائكتَه، كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]، وقولِه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٣] ونظائرِه؛ فتأمَّلْهُ[٣].

- ومن المُناسبةِ أيضًا في قولِه تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ عُدِّيَ الفِعْلُ بـ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٦).

(على)، خِلافًا للتَّعديةِ بالباءِ في مِثْلِ قولِه تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقولِه سُبحانَه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧].

ووجْهُه: أنَّ الآيةَ الأُولى وردتْ في إظهارِ أَمْرٍ كان خَفِيًّا؛ وإبْداءِ ما كان مَكْتومًا؛ فإنَّ الأطفالَ إذ ذاك كانوا يُغْذَونَ، ويُصنعونَ سِرًّا، فلمَّا أراد أنْ يُصْنَعَ مُوسى عليه السَّلامُ ويُغْذَى ويُرَبَّى على حالِ أمْنٍ وظُهورٍ، لا تحْتَ خَوفٍ واستسرارٍ، دخلَتْ (على) في اللَّفظِ؛ تَنبيهًا على المعنى؛ لأنَّها تُعْطِي الاستعلاءَ -والاستعلاءُ: ظُهورٌ وإبْداءٌ-، فكأنَّه يقولُ سُبحانَه وتعالى: (ولِتُصْنَعَ على أمْنٍ، لا تحتَ خوفٍ)، وذِكْرُ العينِ لِتَضَمُّنِها معنى الرِّعايةِ والكِلاءةِ، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقولُه سُبحانَه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]، فإنَّه إنَّما يُرِيدُ: برِعايةٍ مِنَّا وحِفْظٍ، ولا يريدُ إبْداءَ شَيءٍ، ولا إظْهارَه بعْدَ كَتْمٍ، فلم يُحْتَجْ في الكلامِ إلى معنى (على) بخلافِ ما تقَدَّمَ[(١)].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكِ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكِ إِلَىٰٓ أُمِّكِ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾

- قولُه: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكِ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ عبَّرَ بصِيغَةِ المُضارعِ في الفعلينِ؛ لحِكايةِ الحالِ الماضيةِ[(٢)]، والاستفهامُ في ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ للعرْضِ[(٣)].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَرَجَعْنَٰكِ إِلَىٰٓ أُمِّكِ﴾ فَصيحةٌ مُعرِبةٌ عن مَحذوفٍ قبْلَها يُعطَفُ عليه ما بعْدَها، أي: فقالوا: دُلِّينا عليها، فجاءت بأُمِّك، فرَجعْناك إليها[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦).

- قولُه: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ عطَفَ نفْيَ الحُزنِ على قُرَّةِ العينِ؛ لتَوزيعِ المِنَّةِ؛ لأنَّ قُرَّةَ عَينِها برُجوعِه إليها، وانتفاءَ حُزْنِها بتَحقُّقِ سَلامتِه من الهَلاكِ ومن الغَرقِ، وبُوصولِه إلى أحسَنِ مأوًى. وتَقديمُ قُرَّةِ العينِ على انتفاءِ الحُزْنِ، مع أنَّها أخَصُّ فيُغْني ذِكْرُها عن ذِكْرِ انتفاءِ الحُزْنِ؛ رُوعِيَ فيه مُناسبةُ تَعقيبِ ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ بما فيه من الحِكمةِ، ثمَّ أكمَلَ بذِكْرِ الحِكمةِ في مَشْيِ أُخْتِه، فتقولُ: هل أدُلُّكم على مَن يَكفُلُه في بَيتِها؟ كما كانتِ العادةُ في ذلك الوقتِ[١].

- وجُملةُ: ﴿وَقَتَلْتَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾؛ لأنَّ المذكورَ في جُملةِ ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ مِنَّةٌ أُخرى ثالثةٌ، وقُدِّمَ ذِكْرُ قتْلِه النَّفسَ على ذِكْرِ الإنجاءِ من الغَمِّ؛ لتَعظيمِ المِنَّةِ، حيث افتُتِحَتِ القصَّةُ بذِكْرِ جِنايةٍ عظيمةِ التَّبِعَةِ، وهي قتْلُ النَّفسِ؛ ليكونَ لقولِه: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ﴾ موقعٌ عظيمٌ منَ المِنَّةِ؛ إذ أنجاهُ من عُقوبةٍ لا يَنْجو مِن مثْلِها مثْلُه[٢].

- قولُه: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ إجمالٌ لِمَا نالهُ في سفَرِه من الهجرةِ عنِ الوطنِ، ومُفارَقةِ الأحبابِ، والمَشْيِ راجلًا على حذَرٍ، وفَقْدِ الزَّادِ، وأجْرِ نفْسِه، إلى غيرِ ذلك. أوْ له ولِمَا سبَقَ ذِكْرُه[٣]، وفي الكلامِ إيجازٌ بالحذْفِ، والتَّقديرُ: وفتنَّاكَ فُتونًا، فخرجْتَ خائفًا إلى أهْلِ مَدْينَ، فلبِثْتَ سِنينَ...[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿فُتُونًا﴾ مفعولٌ مُطلَقٌ -على أحدِ القولينِ- لتأكيدِ عامِلِه، وهو قولُه: (فَتَنَّاكَ)، وتَنكيرُه للتَّعظيمِ، أي: فُتونًا قوِيًّا عظيمًا. والتَّنوينُ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢١٩-٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٣).

﴿فُنُونًا﴾ للتَّقليلِ -فيما يظهرُ- وتكونُ جُملةُ ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ كالاستدراكِ على قولِه: ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾، أي: نجَّيناك وحصَلَ لك خوفٌ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ فيه كِنايةٌ عن العِنايةِ بتَدبيرِ إجراءِ أحوالِه على ما يُسفِرُ عن عاقِبَةِ الخيرِ[٢].

- وفي كَلمةِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ إيذانٌ بأنَّ مَجيئَه عليه السَّلامُ كان بعْدَ اللَّتَيَّا والَّتي[٣]؛ من ضَلالِ الطَّريقِ، وتفرُّقِ الغنَمِ في اللَّيلةِ المُظْلمةِ الشَّاتيةِ، وغيرِ ذلك[٤].

- و﴿عَلَىٰ﴾ للاستعلاءِ، بمعنى التَّمكُّنِ؛ جعَلَ مَجيئَه في الوقْتِ الصَّالحِ للخيرِ بمَنزِلَةِ المُسْتعلي على ذلك الوقْتِ المُتمكِّنِ منه[٥].

- وقولُه: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تَشريفٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتَنبيهٌ على انتهاءِ الحكايةِ الَّتي هي تَفصيلُ المرَّةِ الأُخرى الَّتي وقعَتْ قبْلَ المرَّةِ المَحْكيَّةِ أوَّلًا[٦].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ خُتِمَ الامتنانُ بما هو كالفذلكة، وذلك جُملةُ ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ الَّذي هو بمَنزِلَةِ رَدِّ العجُزِ على الصَّدرِ[٧] على قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٠-٢٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٢٢).

(٣) بعْدَ اللَّتَيَّا والَّتي: أي: بعدَ جَهدٍ وشِدَّةٍ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٤٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦).

(٧) رَدُّ العَجُز على الصَّدر -ويُعرَف أيضًا بـ(التصديرِ)-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعينِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظينِ المُكرَّرينِ، أو المتجانسَينِ، أو المُلحقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّل: أنْ يُوافِقَ =

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ۞ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ ...﴾ الآيةَ، وهو تخلُّصٌ بَديعٌ إلى الغرَضِ المقصودِ، وهو الخِطابُ بأعمالِ الرِّسالةِ، المُبتدأُ من قولِه: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]، ومن قولِه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[1] [طه: ٢٤].

- والعُدولُ في ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ عن نُونِ العَظمةِ الواقعةِ في قولِه: ﴿وَفَتَنَّٰكَ﴾ ونَظيرَيه السَّابقينِ: تَمهيدٌ لإفرادِ لفْظِ (النَّفسِ) اللَّائقِ بالمَقامِ؛ فإنَّه أدخَلُ في تَحقيقِ معنى الاصطناعِ والاستخلاصِ، أي: اصْطفيتُك برِسالاتي وبِكَلامِي[2].

= آخِرُ الفاصلةِ آخِرَ كَلمةٍ في الصَّدرِ، كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه، كقولِه: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثالث: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلماتِه، كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة (٢/ ٥١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧).

الآيات (٤٢ - ٥٥)

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا
لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾
قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا
بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ
أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا
ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي
فِي كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا
وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ تَنِيَا ﴾: أي: تَفتُرا، وتُقَصِّرا، وتَضعُفا، وأصلُ (وني): يدُلُّ على ضَعْفٍ[1].

﴿ يَفْرُطَ ﴾: أي: يبادِرَ ويَعجَلَ، والفَرَطُ: التقَدُّمُ والسَّبقُ، وأصلُه يدُلُّ على إزالةِ شَيءٍ مِن مكانِه، وتَنحيتِه عنه[2].

﴿ يَطْغَىٰ ﴾: أي: يستعصي ويتَعَدَّى، وأصلُ الطُّغيانِ: مجاوزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

﴿بَالُ﴾: أي: حالُ وشَأنُ، والبالُ: الحالةُ التي يُكتَرَثُ لها[١].

﴿مَهْدًا﴾: أي: فِراشًا قَرارًا ثابِتَةً، والمهدُ والمِهادُ: المكانُ المُمَهَّدُ الموطَّأُ، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على توطئةٍ، وتسهيلٍ للشَّيءِ[٢].

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾: أي: سهَّل لكم طرُقًا داخِلةً في الأرض مُتَخَلِّلةً فيها. والسَّلْكُ: إدخالُ الشَّيءِ في الشَّيءِ، والنُّفوذُ فيه، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على امتدادِ شَيءٍ[٣].

﴿أَزْوَاجًا﴾: أي: أنواعًا وأصنافًا، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[٤].

﴿نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾: أي: مختَلِفِ الألوانِ والطُّعومِ والأنواعِ، وشتَّى جمعُ شتيتٍ، والشَّتيتُ: المتفرِّقُ، وأصلُ (شتت): يدُلُّ على تفَرُّقٍ وتزَيُّلٍ[٥].

﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾: أي: لأصحابِ العُقولِ. وواحِدُ النُّهى نُهيَةٌ؛ سمِّيَ بذلك لأنَّه يُنتهَى به عن القَبائِحِ، وأصلُه يدُلُّ على الحَبسِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٥، ٤٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣).

(٦) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٢٢).

﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾: أي: مرةً أُخرَى، قيل: هو مِن تار الجرحُ: الْتَأم. وقيل: الفعلُ منها: أترت، أي: أعدتُ، تارةً، وتارتينِ، وتِيَرًا[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾

قَولُه: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ في هذه الآيةِ وَجهانِ: أحدُهما: أن يكونَ ﴿كُلَّ﴾ مفعولًا أولَ، و﴿خَلْقَهُۥ﴾ مَفعولًا ثانيًا، على معنى: أعطى كلَّ شيءٍ صورتَه وشكلَه الذي يطابقُ المنفعةَ المنوطةَ به، أو أعطى كلَّ حيوانٍ نظيرَه في الخَلْق والصُّورةِ، ولم يزاوِجْ شيءٌ منها غيرَ جنسِه، ولا ما هو مخالِفٌ لخَلْقِه. والثاني: أن يكونَ ﴿كُلَّ﴾ مَفعولًا ثانيًا مُقَدَّمًا، و﴿خَلْقَهُۥ﴾ مَفعولًا أوَّلَ مُؤخَّرًا، والمعنى: أعطى خليقتَه كلَّ شيءٍ يحتاجونَ إليه ويَرتفِقونَ به[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مبينًا ما كلَّف به موسَى وهارونَ عليهما السلامُ: اذهَبْ -يا موسى- أنت وأخوك هارونُ بأدلَّتي ومُعجِزاتي الدالَّةِ على صِدقِكما، ولا تَضْعُفا عن ذِكري، بل داوما عليه. اذهبَا معًا إلى فِرعَونَ؛ لأنَّه قد جاوز الحَدَّ في الكُفرِ والظُّلمِ والعِصيانِ، فقُولا له قَولًا لَطيفًا لا غلظةَ فيه؛ وأنتما ترجوانِ أن يتذكَّرَ أو يخافَ حلولَ العذابِ فيطيعَ ربَّه.

ثمَّ يحكي الله تعالى ما قاله موسَى وهارونُ عندما كلَّفهما بما كلَّفهما به،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٣٧)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٨٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٦).

فيقولُ تعالى: قال موسى وهارونُ: ربَّنا إنَّنا نخافُ أن يُعاجِلَنا بالعُقوبةِ، أو أن يتمَرَّدَ على الحَقِّ فلا يقبَلَه.

قال الله لِموسى وهارونَ مثبتًا لهما: لا تخافَا مِن فِرعَونَ؛ فإنَّني معكما بالنَّصرِ والإعانةِ والحِفظِ، أسمَعُ وأرى.

ثمَّ بيَّن الله تعالى لهما طريقةَ دعوةِ فرعونَ، فقال: فاذهبَا إليه وقولَا له: إنَّنا رسولانِ إليك من رَبِّك، فأطلِقْ بني إسرائيلَ ولا تُعَذِّبْهم، قد أتيناك بمُعجزةٍ مِن رَبِّك تدُلُّ على صِدقِنا، والسَّلامةُ مِن عذابِ اللهِ تعالى لِمَن اتَّبَع هُداه. إنَّ الله قد أوحَى إلينا أنَّ عذابَه على مَن كذَّب، وأعرَضَ عن اتِّباعِ الحَقِّ.

ثمَّ ذكَر الله تعالى جانبًا مِن الحوارِ الذي دارَ بينَهما وبينَ فرعونَ، فقال تعالى: قال فِرعَونُ لهما: فمَن ربُّكما يا موسى؟ قال له موسى: ربُّنا الذي أعطى كلَّ مخلوقٍ صورتَه وشكلَه اللَّائِقَ به، وأعطاهم كلَّ ما يَحتاجونَه، ثمَّ هدى كلَّ مخلوقٍ إلى الانتِفاعِ بما خلَقَه الله له. قال فِرعَونُ لِموسى: فما شأنُ القُرونِ الماضيةِ، الذين لم يؤمِنْ أهلُها باللهِ؟ قال موسى لِفرعَونَ: عِلْمُ تلك القرونِ الماضيةِ وأعمالُ أهلِها كُلُّها مكتوبةٌ عند ربِّي في اللَّوحِ المحفوظِ، ولا عِلْمَ لي بهم، لا يخطئُ رَبِّي في أفعالِه وأحكامِه وتدبيرِ خَلقِه، ولا ينسى شيئًا مِن أعمالِ عبادِه، ولا يتركُ ما هو حكمةٌ وصوابٌ.

هو الذي جعل لكم الأرضَ مُمهَّدةً تَسكُنونَ عليها، وميسَّرةً للانتِفاعِ بها، وجعلَ لكم فيها طرُقًا كثيرةً، وأنزلَ مِن السَّماءِ مَطَرًا، فأخرجَ به أنواعًا مختلفةً مِن النَّباتِ.

كُلُوا -أيُّها النَّاسُ- من طيِّباتِ ما أنبَتْنا لكم، وارعَوا فيها بَهائِمَكم، إنَّ في كلِّ ما ذُكِرَ لَعلاماتٍ لذوي العُقولِ على قُدرةِ الله ورحمتِه واستحقاقِه للعبادةِ.

مِن هذه الأرضِ خَلَقْنا أباكم آدَمَ، الذي هو أصلُكم، وإليها تعودونَ بعدَ مَوتِكم، ومِنها تُبعَثونَ للحِسابِ والجزاءِ يومَ القيامةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

لَمَّا عَدَّد اللهُ سُبحانَه وتعالى على موسى -عليه السَّلامُ- المِنَنَ الثَّمانيةَ[١] في مقابلةِ الالتماساتِ الثمانيةِ، رَتَّب على ذِكرِ ذلك أمرًا ونهيًا[٢].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى أمَرَ موسى -عليه السَّلامُ- بالذَّهابِ إلى فِرعَونَ، فلمَّا دعا ربَّه وطلب منه أشياءَ، كان فيها أن يُشرِكَ أخاه هارونَ، فذَكَرَ اللهُ أنَّه آتاه سُؤلَه، وكان منه إشراكُ أخيه، فأمَرَه هنا وأخاه بالذَّهابِ[٣].

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي ﴾.

أي: اذهَبْ أنت وأخوك هارونُ إلى فِرعَونَ بأدلَّتي وحُجَجي ومُعجِزاتي

---

(١) قال الرازي: (المِنَّةُ الأولَى: قولُه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ * أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾...
المِنَّةُ الثَّانيةُ: قولُه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾...
المِنَّةُ الثَّالثةُ: قولُه: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾...
المِنَّةُ الرَّابعةُ: قولُه: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾...
والمِنَّةُ الخامسةُ: قولُه: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾...
المِنَّةُ السَّادسةُ: قولُه: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾...
المِنَّةُ السَّابعةُ: قولُه تعالَى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾...
المِنَّةُ الثَّامنةُ: قولُه تعالَى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥١-٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٦).

الدالَّةِ على صِدقِكما[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ [الفرقان: ٣٥، ٣٦].

﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾.

أي: ولا تَضعُفا، ولا تَفتُرا عن ذِكري، بل لازِماه واستَمِرَّا عليه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٢، ٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

قال أبو السعود: (أي: بمُعجِزاتي التي أريتُكَها من اليدِ والعصا؛ فإنَّهما وإن كانتا اثنتينِ لكِنْ في كلٍّ منهما آياتٌ شتَّى، كما في قَولِه تعالى: ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [آل عمران: ٩٧]؛ فإنَّ انقلابَ العصا حيوانًا آيةٌ، وكَونَها ثعبانًا عَظيمًا لا يُقادَرُ قَدرُه آيةٌ أخرى، وسُرعةَ حَركتِه مع عِظَمِ جِرْمِه آيةٌ أخرى، وكَونَه مع ذلك مُسَخَّرًا له عليه السَّلامُ... آيةٌ أخرى، ثمَّ انقِلابَها عصًا آيةٌ أخرى، وكذلك اليَدُ؛ فإنَّ بياضَها في نفسِه آيةٌ، وشُعاعَها آيةٌ، ثمَّ رُجوعَها إلى حالتِها الأولى آيةٌ أخرى). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧).

وقال الشنقيطي: (قال بَعضُ أهلِ العِلمِ: المرادُ بالآياتِ في قَولِه هنا: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ الآياتُ التِّسعُ المذكورةُ في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وقَولِه: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ ﴾ [النمل: ١٢]، والآياتُ التِّسعُ المذكورةُ هي: العصا، واليدُ البيضاءُ ... إلى آخِرِها). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٩-٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤).

وممن اختار المعنى المذكورَ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر المصادر السابقة.

قال ابنُ كثير: (والمرادُ أنهما لا يفتُرانِ في ذكرِ الله، بلْ يذكرانِ الله في حالِ مواجهةِ فِرعَونَ، ليكونَ ذكرُ الله عونًا لهما عليه، وقوةً لهما، وسلطانًا كاسرًا له). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٤).

وقال الرسعني: (﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي: لا تَفْتُرا... المعنى: لا تنسياني، وليكنْ دأبُكما وشعارُكما ذِكْري. وقيل: المعنى: لا تَنِيَا في تبليغِ رسالتي، وهو يدخلُ في القولِ الأوَّلِ؛ لأنَّ تبليغَ الرسالةِ =

﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣﴾.

أي: اذهَبا إلى فِرعَونَ؛ لأنه تمرَّدَ وتجاوَزَ الحَدَّ في الكفرِ والعِصيانِ، والتكَبُّرِ والعُدوانِ[1].

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾.

أي: فقُولا له عندَ دعوتِه إلى الله قولًا رقيقًا لطيفًا، لا غِلظةَ فيه، ولا تنفيرَ[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ [النازعات: ١٧ - ١٩].

﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾.

أي: اذهَبا إلى فِرعَونَ وأنتما تَرجُوانِ[3] بقَولِكما اللَّيِّنِ أن يتذكَّرَ ما هو غافِلٌ

= مِن جملةِ ذِكرِ الله تعالى). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥١٠).

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٤، ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥).

قال السعدي: (وقد فُسِّر القولُ اللَّيِّنُ في قولِه: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩] فإنَّ في هذا الكلامِ مِن لطفِ القول، وسهولتِه، وعدمِ بشاعته ما لا يخفَى على المتأمِّلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةِ أبي صالحٍ عنه، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦٠).

وقيل غير ذلك في تفسيرِ القولِ اللينِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦٠).

(٣) قال الشنقيطي: («لعلَّ» في القرآنِ بمعنى التعليلِ، إلا التي في سورةِ «الشعراء»: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩] فهي بمعنى كأنَّكم... وقال بعضُ أهلِ العلمِ: =

عنه مِن التَّوحيدِ الموافِقِ لِما في فطرتِه مِن العِلمِ الذي يَعرِفُ به رَبَّه، ويَعرِفُ إنعامَه عليه وإحسانَه إليه، وافتقارَه إليه، فيَدعُوَه ذلك إلى الإيمانِ باللهِ والرُّجوعِ

= ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ معناه على رجائِكما وطمعِكما، فالترجِّي، والتوقعُ المدلولُ عليه بـ «لعلَّ» راجعٌ إلى جهةِ البشرِ. وعزا القرطبيُّ هذا القولَ لكبراءِ النحويينَ، كسيبويه، وغيرِه). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦).

وقال الرسعني: (وقال الفراءُ وكثيرٌ مِن المفسرينَ والنَّحْويينَ: «لعله» بمعنى: لكي). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥١٢).

وممَّن قال بأنَّ لعلَّ هنا تعني الرَّجاءَ الصَّادر من موسى وهارون: الواحدي، وابنُ عطية، والقرطبي وأبو حيان، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٠- ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١/ ١٥٦).

قال ابن عاشور: (الترجِّي المستفادُ مِن «لَعَلَّ» إما تمثيلٌ لشأنِ الله في دعوةِ فِرعَون بشأنِ الراجي، وإما أن يكون إعلامًا لموسى وفِرعَونَ بأن يرجوا ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٥).

قال ابنُ القَيِّم: (التَّعليلُ بـ «لعلَّ»، وهي في كلامِ اللهِ سُبحانَه وتعالى للتَّعليلِ مجَرَّدةً عن معنى الترجِّي؛ فإنَّها إنَّما يقارنُها معنى الترجِّي إذا كانت مِنَ المخلوقِ، وأمَّا في حَقِّ مَن لا يصِحُّ عليه الترجِّي؛ فهي للتَّعليلِ المحضِ، كقَولِه تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾...، ومنه قَولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، وقَولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، وقَولُه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾؛ فـ «لعَلَّ» في هذا كُلِّه قد أُخلِصَت للتَّعليلِ، والرَّجاءُ الذي فيها متعَلِّقٌ بالمُخاطَبينَ). ((شفاء العليل)) (ص: ١٩٦).

قال ابنُ جرير: (قولُه: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ اختُلِفَ في معنى قَولِه: ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ في هذا الموضِعِ، فقال بعضُهم: معناها هاهنا الاستفهامُ، كأنَّهم وجَّهوا معنى الكلامِ إلى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ فانظُرا هل يتذكَّرُ ويُراجِعُ، أو يخشى اللهَ فيرتَدِعَ عن طُغيانِه... وقال آخرون: معنى «لعل» هاهنا «كي»، ووجَّهوا معنى الكلامِ إلى ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ فادعُواه وعِظاه ليتذَكَّرَ أو يخشى، كما يقولُ القائِلُ: اعمَلْ عَمَلَك؛ لعلَّك تأخذُ أجرَك، بمعنى: لتأخُذَ أجرَك، وافرُغْ مِن عَمَلِك لعلَّنا نتغَدَّى، بمعنى: لنتغَدَّى، أو حتى نتغَدَّى، ولكلا هذين القولينِ وجهٌ حَسَنٌ، ومذهبٌ صَحيحٌ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٥). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠١).

عن ضلالِه؛ أو يخشى حُلولَ العَذابِ فيَترُكَ طغيانَه، ويُطيعَ ربَّه[١].

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ٤٥﴾.

أي: قال موسى وهارونُ: ربَّنا إنَّنا نخافُ مِن فِرعونَ أن يعجِّلَ بعُقوبتِنا قبلَ أن نَدعُوَه إلى ما أمَرْتَنا به، أو أن يتكبَّرَ ويتمرَّدَ على طاعتِك[٢].

﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ﴾.

أي: قال اللهُ لهما: لا تخافَا مِن فِرعَونَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٦).

وقال ابنُ كثير: (التَّذكُّرُ: الرُّجوعُ عن المحذورِ، والخشيةُ: تحصيلُ الطَّاعةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٥).

وقال الشوكاني: (والتذكيرُ: النَّظَرُ فيما بَلَّغاهُ مِن الذكرِ، وإمعانُ الفكرِ فيه حتَّى يكونَ ذلك سببًا في الإجابةِ، والخشيةُ هي خشيةُ عقابِ اللَّهِ الموعودِ به على لسانِهما. وكلمةُ «أو» لمنعِ الخلُوِّ دونَ الجمعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٣٣).

قال البقاعي: (﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ ما مرَّ له من تطويرِ الله له في أطوارٍ مختلفةٍ، وحمله فيما يكرهُ على ما لم يقدِرْ على الخلاصِ منه بحيلةٍ، فيعلمُ بذلك أنَّ الله ربُّه، وأنَّه قادرٌ على ما يريدُ منه، فيرجع عن غيِّه فيؤمن ﴿أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ أي: أو يصلُ إلى حالِ مَن يخافُ عاقبةَ قولِكما لتوهُّمِ الصدقِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٢٩٠).

وقال ابنُ عاشور: (أي: لعلَّه ينظرُ نظرَ المتبصرِ فيعرف الحقَّ، أو يخشَى حلولَ العقابِ به فيطيعُ عن خشيةٍ لا عن تبصُّرٍ...، فالتذكُّر: أن يعرفَ أنه على الباطلِ، والخشية: أن يترددَ في ذلك فيخشى أن يكونَ على الباطلِ، فيحتاطُ لنفسِه بالأخذِ بما دعاه إليه موسَى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

أي: إنَّني معكما بالنَّصرِ والإعانةِ والحِفظِ والتَّأييدِ، أسمَعُ كلامَكما وكلامَ فِرعَونَ، وأراكم وأرى أفعالَكم وأحوالَكم جميعًا؛ فاطمَئِنَّا ولا تخافا منه[1].

﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧﴾.

﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾.

أي: فاذهَبا إلى فِرعَونَ فقولا له: إنَّا رَسولانِ إليك مِن رَبِّك الذي خلَقَك وربَّاك[2].

كما قال تعالى: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦، ١٧].

﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡ﴾.

أي: فأطلِقْ بني إسرائيلَ لِيذهَبوا معنا، ولا تُعَذِّبْهم باستعبادِهم، وتَذبيحِهم، وتكليفِهم الأعمالَ الشاقَّةَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٦)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٧، ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٣٥).

وممن اختار المعنى المذكورَ في قولِه: ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡ﴾: ابنُ عطيةَ، والرسعني، وابنُ جُزي، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر المصادر السابقة. =

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾.

أي: قد أتيناك بمعجزةٍ من ربِّك تدلُّ على صِدقِنا[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٠ - ٣٣].

﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾.

أي: والسَّلامةُ مِن سَخَطِ الله وعذابِه في الدُّنيا والآخرةِ لِمن اتَّبَعَ هدى اللهِ

= قال الشنقيطي: (العذابُ الَّذي نهَى اللَّهُ فرعونَ أنْ يفعلَه ببني إسرائيلَ: هو المذكورُ في سورةِ «البقرةِ» في قولِه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]، وفي سورةِ «إبراهيمَ» في قولِه تعالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]، وفي سورةِ «الأعرافِ» في قولِه تعالَى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١]، وفي سورةِ «الدُّخانِ» في قولِه: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣٠-٣١]، وفي سورةِ «الشُّعراءِ» في قولِه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦).

وممن اقتصر في تفسيرِ العذابِ على السخرةِ والأعمالِ الشاقةِ: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والقرطبي، والعليمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

قال الشنقيطي: (قولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ يرادُ به جنسُ الآيةِ الصَّادِقُ بالعصا واليد وغيرِهما؛ لدَلالةِ آياتٍ أُخَرَ على ذلك). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٧).

الَّذي شرَعَه لعبادِه[١].

﴿ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨ ﴾.

أي: إنَّا قد أوحَى اللهُ إلينا أنَّ عذابَه في الدُّنيا والآخرةِ[٢] على من كذَّب بالحَقِّ، فلم يؤمِنْ باللهِ وما جاءَتْ به رسُلُه، وأعرَض عن اتِّباعِ الحَقِّ، وطاعةِ اللهِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۞ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۞ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١٤-١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۞ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۞ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۞ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ۞ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴾ [القيامة: ٣١ - ٣٥].

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩ ﴾.

أي: فلمَّا أتَى موسَى وهارونُ إلى فِرعَونَ، وكلَّماه بما أمَرَهما الله، قال فِرعَونُ: فمَنْ ربُّكما الذي تعبُدانِه -يا موسى- وتَزعُمانِ أنَّه أرسَلَكما إليَّ[٤]؟

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣].

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠ ﴾.

أي: قال موسى: ربُّنا الذي أعطى كلَّ مخلوقٍ صُورتَه التي تمَيِّزُه، وشَكلَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

(٢) قال القرطبي: (يعني الهلاكَ والدَّمارَ في الدنيا، والخلودَ في جهنَّمَ في الآخرة). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٨).

الذي يناسِبُه، وأعطى كلَّ ذكَرٍ وأنثَى الشَّكلَ المُناسِبَ له من جِنسِه في المناكحةِ، والأُلفةِ والاجتِماعِ، وأعطاهم كلَّ ما يحتاجونَه، ثمَّ هدى كلَّ مخلوقٍ إلى تحصيلِ مَنافِعِه، والحَذَرِ مِن مضارِّه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٦، ٧٨، ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٧، ٢٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٩، ٢٠).

قال الماوَردي: (قَولُه تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فيه ثلاثةُ تأويلاتٍ:

أحدُها: أعطى كُلَّ شَيءٍ زَوجَه مِن جِنسِه، ثمَّ هداه لِنِكاحِه. قاله ابنُ عبَّاسٍ والسُّدِّي.

الثَّاني: أعطى كلَّ شَيءٍ صُورتَه، ثمَّ هداه إلى معيشتِه ومَطعَمِه ومَشرَبِه. قاله مجاهِدٌ...

الثَّالثُ: أعطى كُلًّا ما يُصلِحُه، ثمَّ هداه له. قاله قتادةُ.

ويحتَمِلُ رابعًا: أعطى كلَّ شَيءٍ ما ألهَمَه مِن عِلمٍ أو صناعةٍ، وهداه إلى مَعرفتِه). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٠٦).

وقال الرسعني: (وقد رُوي عن ابنِ عبَّاسٍ معنيان:

أحدُهما: أعطى كلَّ حَيوانٍ شَكْلَه وصُورتَه؛ فأعطى الرَّجُلَ المرأةَ، وأعطى البَعيرَ النَّاقةَ، وأمثالُ ذلك.

والثاني: أعطى كلَّ نوعٍ مِن أنواعِ الحيوانِ صُورةً مختَصَّةً به مُغايِرةً لسائِرِ أنواعِ الحيوانِ؛ فصورةُ الآدميِّ ليست كصورةِ الفَرَس، وليست كصورةِ الجَمَل، ونحوُ ذلك). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥١٤).

قال ابن جزي: (﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ المعنى: أنَّ الله أعطَى خلقَه كلَّ شيءٍ يحتاجونَ إليه، فـ﴿خَلۡقَهُۥ﴾ على هذا بمعنى المخلوقينَ، وإعرابُه مفعولٌ أولُ، و﴿كُلَّ شَىۡءٍ﴾ مفعولٌ ثانٍ. وقيل: المعنى أعطَى كلَّ شيءٍ خلقتَه وصورتَه، أي: أكملَ ذلك وأتقنَه، فالخلقُ على هذا بمعنى الخِلقةِ، وإعرابُه مفعولٌ ثانٍ، و﴿كُلَّ شَىۡءٍ﴾ مفعولٌ أولُ. والمعنى الأولُ أحسنُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨).

وقال ابنُ القَيِّم: (أي: أعطى كلَّ شَيءٍ صُورتَه التي لا يَشتَبِهُ فيها بغيرِه، وأعطى كلَّ عُضوٍ شَكلَه وهَيئتَه، وأعطى كُلَّ موجودٍ خَلْقَه المختَصَّ به، ثمَّ هداه إلى ما خَلَقَه له من الأعمالِ، وهذه هدايةُ الحيوانِ المتحَرِّك بإرادتِه إلى جَلبِ ما ينفَعُه، ودَفعِ ما يضُرُّه، وهدايةُ الجَمادِ المسَخَّر لما =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

وقال سُبحانه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا استدَلَّ موسى عليه السَّلامُ بالدَّلالةِ القاطِعةِ على إثباتِ الصَّانعِ؛ قدحَ فِرعَونُ في تلك الدَّلالةِ بقَولِه: إن كان الأمرُ في قُوَّةِ هذه الدَّلالةِ على ما ذكَرْتَ، وجبَ على أهلِ القُرونِ الماضيةِ ألَّا يكونوا غافِلينَ عنها، فعارَضَ الحُجَّةَ بالتَّقليدِ(١).

= خُلِقَ له، فله هدايةٌ تليقُ به كما أنَّ لكُلِّ نَوعٍ مِن الحيوانِ هِدايةً تليقُ به، وإن اختَلَفَت أنواعُها وصُوَرُها، وكذلك كُلُّ عُضوٍ له هِدايةٌ تَليقُ به؛ فهدى الرِّجلينِ للمَشي، واليدينِ للبَطشِ والعَمَل، واللِّسانَ للكلام، والأُذُنَ للاستِماعِ، والعينَ لِكَشفِ المرئيَّات، وكلَّ عُضوٍ لما خُلِق له، وهدى الزَّوجينِ مِن كُلِّ حَيوانٍ إلى الازدواجِ والتناسُلِ وتربيةِ الولد، وهدى الولدَ إلى التقامِ الثَّديِ عند وَضعِه، وطَلَبِه، ومراتِبُ هدايتِه سُبحانَه لا يُحصيها إلَّا هو، فتباركَ اللهُ رَبُّ العالمينَ!). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٣٥).

قال ابنُ الجوزي: وفي قَولِه: (﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: هدى كيف يأتي الذَّكَرُ الأُنثى. رواه الضحَّاكُ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال ابنُ جُبَير.

والثاني: هدى للمَنكَحِ والمَطعَمِ والمَسكَنِ. رواه ابنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ.

والثالثُ: هدى كلَّ شَيءٍ إلى معيشتِه. قاله مجاهِدٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦١).

وقال الشنقيطي: (لا مانعَ من شمولِ الآيةِ الكريمةِ لجميعِ الأقوالِ المذكورة؛ لأنَّه لا شكَّ أنَّ الله أعطى الخلائقَ كلَّ شيءٍ يحتاجون إليه في الدنيا، ثم هداهم إلى طريقِ الانتفاعِ به. ولا شكَّ أنه أعطى كلَّ صنفٍ شكلَه وصورتَه المناسبةَ له، وأعطَى كلَّ ذكرٍ وأنثى الشكلَ المناسبَ له من جنسِه في المناكحةِ، والألفةِ، والاجتماعِ. وأعطَى كلَّ عضوٍ شكلَه الملائمَ للمنفعةِ المنوطةِ به، فسبحانه جلَّ وعلا! ما أعظمَ شأنَه وأكملَ قدرتَه!). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٩).

وأيضًا فإنَّ موسَى عليه السلامُ هدَّد بالعذابِ أوَّلًا في قَولِه: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨]، فقال فِرعَون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ فإنَّها كذَّبتْ، ثمَّ إنَّهم ما عُذِّبوا[١]؟

وأيضًا لمَّا أجابَهُ مُوسى بجوابٍ مُسْكِتٍ، ولم يقدِرْ فِرعونُ على مُعارضَتِه فيه؛ انتقَلَ إلى سُؤالٍ آخرَ، وهو: ما حالُ مَن هلَكَ من القُرونِ؟ وذلك على سَبيلِ الرَّوغانِ عن الاعترافِ بما قال مُوسى عليه السَّلامُ، وما أجابَه به، والحَيدةِ، والمُغالَطةِ[٢].

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١﴾.

أي: قال فِرعَونُ: فما شأنُ القُرونِ الماضيةِ مِن قَبلِنا، الذين لم يؤمِنْ أهلُها باللهِ، وعَبَدوا غَيرَه؟ فلو كان ما تقولُه حَقًّا، لم يخْفَ على القُرونِ الأُولى ولم يُهمِلوه[٣].

﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢﴾.

﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖ﴾.

أي: قال له موسى: عِلمُ القُرونِ الماضيةِ وأعمالُ أهلِها كُلُّها مكتوبةٌ عندَ رَبِّي في اللَّوحِ المحفوظِ[٤]، فهم إنْ لم يُؤمِنوا باللهِ ويَعبُدوه وَحدَه، فسيُجازيهم على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٨).

وقال السعدي: (أي: ما شأنُهم، وما خبَرُهم؟! وكيف وصلَت بهم الحالُ وقد سبقونا إلى الإنكارِ والكُفرِ والظُّلمِ والعِناد؟ ولنا فيهم أُسوةٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

(٤) ممن اختار أنَّ الكتابَ هنا المرادُ به: اللوحُ المحفوظُ: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، =

ذلك ولا علمَ لي بهم[١].

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾.

أي: لا يَشِذُّ عن عِلمِ رَبِّي شَيءٌ، ولا يفوتُه صَغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا ينسَى شيئًا، فلا يُخطئُ في أفعالِه وتدبيرِ خَلقِه[٢]، ولا ينسى شيئًا مِن أعمالِ عبادِه وأحوالِهم وأخبارِهم، ولا يَترُكُ فِعلَ ما هو حِكمةٌ وصَوابٌ[٣].

= والثعلبي، والواحدي، والبغوي، والثعالبي، والقرطبي، والعليمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٢٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧).

وقال ابنُ عطية: (وقوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ يريدُ في اللوحِ المحفوظِ، أو فيما كتَبه الملائكةُ مِن أحوالِ البشرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وهو اللَّوحُ المحفوظُ وكِتابُ الأعمالِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٨).

وقال ابن القيم: (﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي: أعمالُ تلك القُرونِ وكُفرُهم وشِركُهم معلومٌ لرَبِّي، قد أحصاه وحَفِظَه وأودَعَه في كتابٍ، فيُجازيهم عليه يومَ القيامةِ، ولم يُودِعْه في كتابٍ خَشيةَ النِّسيانِ والضَّلالِ؛ فإنَّه سُبحانَه لا يَضِلُّ ولا ينسى، وعلى هذا فالكِتابُ هاهنا كتابُ الأعمالِ، وقال الكلبي: «يعني به اللَّوحَ المحفوظَ»، وعلى هذا فهو كتابُ القَدَرِ السَّابق، والمعنى على هذا أنَّه سبحانَه قد عَلِمَ أعمالَهم وكَتَبَها عنده قبل أن يَعمَلوها، فيكونُ هذا من تمامِ قَولِه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فتَأمَّلْه). ((شفاء العليل)) (ص: ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧).

(٢) قال ابن جرير: (فإن كان عَذَّب تلك القرونَ في عاجلٍ، وعَجَّل هلاكَها؛ فالصَّوابُ ما فعَلَ، وإن كان أخَّرَ عِقابَها إلى القيامةِ، فالحَقُّ ما فَعَل؛ هو أعلَمُ بما يَفعَلُ، لا يُخطِئُ رَبِّي). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٣، ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾.

أي: اللهُ الذي جعَل لكم الأرضَ مُمهَّدةً تَسكُنونَ عليها، وتستَقِرُّونَ بها، وتَمشونَ وتُسافِرونَ على ظَهرِها، وتتمكَّنونَ مِن زَرعِها وغَرسِها، والبناءِ عليها وغيرِ ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢١).

قيل: هذه الآيةُ معترضةٌ في أثناء قِصَّة موسى، وليست من كلامِه، وممن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ القيمِ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٥).

قال الشنقيطي: (والتَّحقيقُ أنَّه يَتَعَيَّنُ كونُه خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ [أي: هو الَّذِي جَعَل لكم الأرضَ]؛ لأنَّه كلامٌ مستأْنفٌ مِن كلامِ اللَّهِ. ولا يصِحُّ تَعَلُّقُه بقولِ مُوسَى ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ يُعَيِّنُ أنَّه مِن كلامِ اللَّهِ، كما نبَّهَ عليه أبو حَيَّانَ في «البحرِ»، والعلمُ عندَ اللَّهِ تعالَى). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٣).

وقيل: بل كلامُ موسى مستمِرٌّ إلى قَولِه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾. وممن ذهب إلى هذا القول: الواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٩).

وقيل: يحتملُ أنْ يكونَ ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ مِن كلامِ موسَى حكايةً عن اللَّهِ تعالَى على تقديرِ: يقولُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩).

وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦﴾ [النبأ: ٦].

﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾.

أي: وجعل اللهُ لأجْلِكم في الأرضِ بينَ أوديَتِها وجِبالِها طُرُقًا كثيرةً تَمشونَ فيها[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا ذَكَر مِنَّةَ خَلْقِ الأرضِ؛ شَفَعها بمِنَّةِ إخراجِ النَّباتِ منها بما ينزِلُ عليها مِن السَّماءِ مِن ماءٍ[٢]، فقال تعالى:

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾.

أي: وأنزل اللهُ من السَّماءِ مَطرًا[٣].

﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾.

أي: فأخرَجْنا بسَبَبِ المطَرِ أصنافًا من النَّباتاتِ المختلفةِ الألوانِ، والأشكالِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧).

والرَّوائِحِ، والطُّعومِ، والمنافِعِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال سُبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾.

أي: كلُوا -أيُّها النَّاسُ- مِن طَيِّبِ ما أنبَتْنا لكم من الأرضِ مِن الحُبوبِ والثِّمارِ، وارعَوا فيها إبِلَكم وبَقَرَكم وغنَمَكم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير الجلالين)) =

كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة: ٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾.

أي: إنَّ في ذلك[١] لعَلاماتٍ لأُولي العُقولِ تدُلُّهم على وحدانيَّةِ اللهِ، وقُدرتِه، ورَحمتِه، وأنَّه المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحدَه لا شريكَ له[٢].

كما قال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٤].

= (ص: ٤١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣).

(١) قال أبو حيان: (وأشار بقولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ للآياتِ السَّابقةِ مِن جَعلِ الأرضِ مَهدًا، وسَلْكِ سُبُلِها، وإنزالِ الماءِ، وإخراجِ النباتِ). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٤). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤).

﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه منافِعَ الأرضِ والسَّماءِ؛ بيَّنَ أنَّها غيرُ مَطلوبةٍ لِذاتِها، بل هي مطلوبةٌ لِكَونِها وسائِلَ إلى منافِعِ الآخرةِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ كَرَمَ الأرضِ، وحُسْنَ شُكرِها؛ لِما يُنزِلُه الله عليها مِنَ المطرِ، وأنَّها بإذنِ رَبِّها تُخرِجُ النَّباتَ المختَلِفَ الأنواعِ؛ أخبَرَ أنَّه خلَقَنا منها(٢)، فقال:

﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾.

أي: مِن تُرابِ الأرضِ خَلَقْنا -أيُّها النَّاسُ- أباكم آدَمَ الذي هو أصلُكم، وأنتم ذريَّتُه(٣).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧-٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤).

قال الشنقيطي: (التحقيقُ أن معنى خلْقِه تعالى النَّاسَ من ترابٍ أنَّه خلق أباهم آدَمَ منها... وما يزعُمُه بعضُ أهلِ العلم من أنَّ معنى خَلْقِهم من ترابٍ أنَّ النطفةَ إذا وقَعَت في الرَّحِمِ انطلق المَلَك الموكَّلُ بالرَّحِمِ فأخذ من ترابِ المكانِ الذي يُدفَنُ فيه فيَذُرُّه على النطفةِ، فيَخلُقُ اللهُ النَّسَمةَ مِن النطفةِ والترابِ معًا؛ فهو خلافُ التحقيقِ؛ لأنَّ القرآن يدُلُّ على أنَّ مرحلةَ النطفةِ بعدَ مرحلةِ الترابِ بمُهلةٍ... وكذلك ما يزعُمُه بعضُ المفَسِّرينَ مِن أنَّ معنى خَلقِهم من ترابٍ أنَّ المرادَ أنَّهم خُلِقوا من الأغذيةِ التي تتولَّدُ من الأرضِ؛ فهو ظاهِرُ السُّقوطِ كما ترى). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٤-٢٥).

وقال سُبحانَه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ﴾ [الحج: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠].

وقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ * ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴾ [السجدة: ٧- ٨].

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾.

أي: وفي الأرضِ نُعيدُكم بعدَ مَوتِكم، وتَصيرونَ تُرابًا في قُبورِكم، كما كنتُم قبل إنشائِنا لكم بشرًا سَوِيًّا[(١)].

﴿وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾.

أي: ومِن الأرضِ نَبعَثُكم أحياءً مرَّةً أُخرَى، كما كنتُم قَبلَ مَماتِكم أحياءً، فنُنشِئُكم منها كما أنشَأناكم أوَّلَ مَرَّةٍ، فتَخرُجونَ منها يومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴾[الأعراف: ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴾[الروم: ٢٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ * إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧).

وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۞ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾[ق: ٤٢ - ٤٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۞ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكرِ لا بُدَّ أنْ يكونَ بالحِكمةِ والرِّفقِ واللِّينِ[١]، وأنَّه يستحبُّ إلانةُ القَولِ للظَّالمِ عند وَعظِه؛ لعلَّه يَرجِعُ[٢]، فإذا كان موسى أُمِرَ بأن يقولَ لِفرعونَ قولًا لَيِّنًا، فمَن دونَه أحرى بأن يَقتَدِيَ بذلك في خطابِه، وأمْرِه بالمعروفِ في كلامِه. وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[البقرة: ٨٣][٣]، والدعوةُ إلى اللهِ كذلك يجِبُ أن تكونَ بالرِّفقِ واللِّينِ، لا بالقَسوةِ والشِّدَّةِ والعُنفِ[٤].

٢- قال الله تعالى لموسى وهارونَ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ هذه الآيةُ فيها عِبرةٌ عظيمةٌ، وهي أنَّ فِرعَونَ في غايةِ العُتُوِّ والاستكبارِ، وموسى صَفوةُ اللهِ مِن خَلقِه إذ ذاك، ومع هذا أُمِرَ ألَّا يُخاطِبَ فِرعَونَ إلَّا بالملاطفةِ واللِّينِ، كما قال يزيدُ الرقاشيُّ عند قولِه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: (يا من يتحَبَّبُ إلى مَن يُعاديه، فكيف بمن يتولَّاه ويُناديه؟!)[٥]. وقرأ رجلٌ عندَ يحيى بنِ معاذٍ هذه الآيةَ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، فبكَى يحيى، وقال: (إلهي هذا رِفقُك بمن يقولُ: أنا

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم:١١٠).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٠).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٤).

الإلهُ، فكيف رفقُك بمن يقولُ: أنت الإلهُ؟!)[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ إرشادٌ إلى أنَّ الذي معه اللهُ لا يخافُ، وأنه لا بُدَّ أنْ يكونَ مَنصورًا[٢].

٤- إذا استحضَر العبدُ اطِّلاعَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ عليه في حالِ العَمَلِ له، وتحمُّلِ المشاقِّ لأجلِه؛ وتيقَّنَ أنَّ البلاءَ بِعَينِ مَن يحبُّه، هان عليه الألمُ؛ كما أشار الله تعالى إلى ذلك بقولِه لموسى وهارونَ عليهما السَّلامُ: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وقولِه لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾[٣] [الطور: ٤٨].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّ المحِقَّ يجِبُ عليه استِماعُ كَلامِ المُبطِلِ، والجوابُ عنه مِن غيرِ إيذاءٍ ولا إيحاشٍ، كما فعَلَ موسى عليه السَّلامُ بِفرعَونَ هاهنا، وكما أمَرَ الله تعالى رسولَه في قَولِه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[٤] [التوبة: ٦].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ والفائدةُ في إرسالِهما، والمُبالَغةِ عليهما في الاجتهادِ، مع عِلْمِه بأنَّه لا يُؤمِنُ: إلْزامُ الحُجَّةِ وقطْعُ المَعذرةِ[٥]،

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨).

وإظهارُ ما حدَثَ في تَضاعيفِ ذلك من الآياتِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ دليلٌ على المنعِ مِن فِعْلِ ما يؤدِّي إلى الحرامِ، ولو كان جائزًا في نفْسِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ موسى وهارون -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنْ يُلِينَا القولَ لأعظمِ أعدائِه، وأشدِّهم كُفرًا، وأعتاهم عليه؛ لئلَّا يكونَ إغلاظُ القولِ له -معَ أنَّه حقيقٌ به- ذريعةً إلى تنفيرِه، وعَدَمِ صبرِه لقيامِ الحُجَّةِ، فنهاهما عن الجائِزِ؛ لئلَّا يترتبَ عليه ما هو أكرهُ إليه تعالى[٢]. وقيل: إنَّه أُمِر باللينِ معَ هذا الكافرِ الجاحدِ؛ لأنَّه عليه السلامُ كان قد ربَّاه فِرعَونُ، فأمَره أن يخاطبَه بالرفقِ؛ رعايةً لتلك الحقوقِ، وهذا تنبيهٌ على نهايةِ تعظيمِ حقِّ الأبوينِ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ التذكُّرُ سببُ الخشيةِ؛ والخشيةُ حاصلةٌ عن التذكُّرِ، فذَكَر التذكُّرَ الذي هو السببُ؛ وذَكَر الخشيةَ التي هي النتيجةُ -وإنْ كان أحدُهما مستلزِمًا للآخر- كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧]، وكما قال أهلُ النارِ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فكلٌّ مِن النوعينِ يحصلُ به النجاةُ؛ لأنَّه مستلزِمٌ للآخرِ[٤].

٤- قال الله تعالى لموسى وهارونَ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٨١).

وَأَرَىٰ﴾ وليس المرادُ منه النهيَ عن الخوفِ؛ لأنَّه من حيثُ كونُه أمرًا طبيعيًّا لا مدخلَ للاختيارِ فيه، لا يدخلُ تحت التكليف ثبوتًا وانتفاءً، بل المرادُ به التسلِّي بوعدِ الحفظِ والنصرةِ، كما يدلُّ عليه قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ بكمالِ الحفظِ والنُّصرةِ[1]، فالخوفُ الطبيعيُّ مِن الخلقِ، لا ينافي الإيمانَ، ولا يُزيلُه[2]، والخوفُ من الأعداءِ سُنَّةُ اللهِ في أنبيائِه وأوليائِه معَ معرفتِهم به، وثِقَتِهم[3].

٥- المعيَّةُ نوعانِ: مَعيَّةٌ عامَّةٌ تقتضي الإحاطةَ بالخَلقِ عِلمًا وقُدرةً، وسَمعًا وبَصَرًا، وسُلطانًا وتدبيرًا، وغيرَ ذلك مِن معاني رُبوبيَّتِه، كقَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقَولِه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

ومعيَّةٌ خاصَّةٌ قد خُصَّت بشَخصٍ أو وَصفٍ، فهي تقتضي -مع ما سبَقَ- النَّصرَ والتأييدَ، والتَّوفيقَ والتَّسديدَ.

مِثالُ المَخصوصةِ بشَخصٍ: قَولُه تعالى لموسى وهارونَ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وقَولُه عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

ومثالُ المخصوصةِ بوَصفٍ: قَولُه تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وأمثالُها في القرآنِ كثيرةٌ[4].

---

(١) يُنظر: ((روح البيان)) للخلوتي الحنفي (٥/ ٣٩١).
والقاعدةُ: أنَّه إذا كان متعلَّقُ الخطابِ مقدورًا حُمِل عليه، وإن كان غيرَ مقدورٍ صُرف الخطاب لثمرته أو سببه. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٩٧).

٦- قولُه تعالى: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ جملةٌ استئنافيةٌ لبيانِ مُقتضَى هذه المعيَّةِ الخاصَّةِ ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ وهو السَّمعُ والرؤيةُ، وهذا سَمْعٌ ورؤيةٌ خاصَّانِ يقتضيانِ النَّصرَ والتأييدَ والحمايةَ مِن فِرعَونَ الذي قالا عنه: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾[1]. ولو قال قائلٌ: كيفَ يسمعُ، وكيفَ يرَى؟

فالجوابُ: السمعُ والبصرُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والجهميَّةِ في تأويلِهم صِفَتَي السَّمعِ والبَصَرِ إلى العِلْمِ والإحاطةِ؛ إذْ لو كان معنى السَّمعِ والبَصرِ معنى العِلْمِ والإحاطةِ، لاقتصرَ -واللهُ أعلمُ- على: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ ولم يقُلْ: ﴿أَسۡمَعُ﴾، كما قال في سورةِ (المجادلةِ): ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ﴾ [المجادلة: ٧]، فلمَّا قال: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ بعد تمامِ المعنى الذي يشيرونَ إليه، أزال كلَّ ريبٍ، وكشَفَ كلَّ غُمةٍ عن أنَّه يَسمَعُ بسَمعٍ، ويرى ببَصرٍ غيرِ مخلوقَينِ[3].

٨- قال تعالى: ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ * إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فتأمَّلْ حُسنَ سِياقِ هذه الجُمَلِ، وترتيبَ هذا الخِطابِ، ولُطفَ هذا القَولِ اللَّيِّنِ الذي سلَبَ القُلوبَ حُسنُه وحلاوتُه، مع جلالتِه وعَظَمتِه؛ كيف ابتدأ الخِطابَ بقَولِه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ وفي ضِمنِ ذلك: إنَّا لم نأتِك لِنُنازِعَك

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣١٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٨٨).

مُلكَك، ولا لِنَشرَكَك فيه، بل نحن عبدانِ مأموران مُرسَلانِ مِن رَبِّك إليك. وفي إضافةِ اسمِ الرَّبِّ إليه هنا دونَ إضافتِه إليهما استِدعاءٌ لِسَمعِه وطاعتِه وقَبولِه، كما يقولُ الرَّسولُ للرَّجُلِ مِن عِندِ مَولاه: أنا رَسولُ مَولاك إليك وأستاذِك، وإن كان أستاذَهما معًا، ولكن ينبِّهُه بإضافتِه إليه على السَّمعِ والطَّاعةِ له.

ثمَّ إنَّهما طَلَبا منه أن يُرسِلَ معهما بني إسرائيلَ، ويُخَلِّيَ بينهم وبينهما ولا يُعَذِّبَهم، ومن طلَبَ مِن غَيرِه تَركَ العُدوانِ والظُّلمِ وتَعذيبِ مَن لا يَستَحِقُّ العذابَ، فلم يَطلُبْ منه شَطَطًا، ولم يُرهِقْه من أمرِه عُسرًا، بل طلبَ منه غايةَ النَّصَفِ.

ثمَّ أخبرَه بعد الطَّلَبِ بثلاثةِ إخباراتٍ: أحَدُها: قَولُه تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ فقد بَرِئْنا مِن عُهدةِ نِسبَتِك لنا إلى التقَوُّلِ والافتراءِ، بما جئناك به مِنَ البُرهانِ والدَّلالةِ الواضِحةِ، فقد قامت الحُجَّةُ، ثمَّ بعدَ ذلك للمُرسَلِ إليه حالتانِ: إمَّا أن يَسمَعَ ويُطيعَ فيكونَ مِن أهلِ الهُدى، والسَّلامُ على مَن اتَّبَع الهُدى، وإمَّا أن يُكَذِّبَ ويتولَّى، فالعذابُ على مَن كذَّب وتولَّى؛ فجَمَعَت الآيةُ طَلَبَ الإنصافِ، وإقامةَ الحُجَّةِ، وبيانَ ما يَستحِقُّ السَّامِعُ المطيعُ، وما يَستَحِقُّه المكَذِّبُ المتولِّي؛ بألطَفِ خطابٍ، وأليقِ قَولٍ، وأبلغِ ترغيبٍ وترهيبٍ[1].

٩- قال الله تعالى حِكايةً عن موسى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ إن قيل: ما الحِكمةُ في تسليمِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم على مَن اتَّبَع الهُدَى في كتابِه إلى هِرَقلَ بلَفظِ النَّكِرةِ، ((سلامٌ على من اتَّبَعَ الهُدى))، وتسليمِ موسى عليهم هنا بلَفظِ المعرِفةِ؟

فالجوابُ عنه: أنَّ تَسليمَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم تسليمٌ ابتدائيٌّ؛ ولهذا

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٧٠).

صدَّرَ به الكتابَ، حيث قال: ((مِن محمَّدٍ رَسولِ اللهِ إلى هِرَقلَ عَظيمِ الرُّومِ، سلامٌ على من اتَّبع الهُدى))[١]؛ وتختصُّ النكرةُ بابتداءِ المكاتبةِ والمعرفةُ بآخرِها[٢]، وأمَّا قَولُ موسى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ فليس بسلامِ تحيَّةٍ؛ فإنَّه لم يبتدِئْ به فِرعَونَ، بل هو خبَرٌ محضٌ؛ فإنَّ مَن اتَّبع الهدَى له السَّلامُ المُطلَقُ دونَ مَن خالفَه؛ فإنَّه قال له: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ * إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٧، ٤٨]؛ أفلا ترَى أنَّ هذا ليس بتحيَّةٍ في ابتداءِ الكلامِ ولا خاتمتِه، وإنَّما وقع متوسِّطًا بينَ الكلامَينِ إخبارًا مَحضًا عن وقوعِ السَّلامةِ وحُلولِها على مَن اتَّبَع الهُدى؛ ففيه استدعاءٌ لِفِرعَونَ، وترغيبٌ له بما جُبِلت النُّفوسُ على حُبِّه وإيثارِه مِنَ السَّلامةِ، وأنَّه إنِ اتَّبَع الهُدى الذي جاءَه به، فهو من أهلِ السَّلامِ. والله تعالى أعلَمُ[٣].

١٠- لا يجوزُ السلامُ على المُسْلِم بلفظ: «السلامُ على مَنِ اتَّبَعَ الهدَى»؛ وذلك لأنَّه ما صَدَر مِن موسَى عليه السلامُ إلَّا في سَلامِ الكفَّارِ، كما في قولِه لفرعونَ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾، وكذلك ما صدَر مِن النبيِّ صلَّى الله

(١) أخرجه مطولًا البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) واللَّفظُ له، مِن حديثِ أبي سفيانَ، رضي الله عنه.

(٢) والحكمة في ذلك هو أنَّ السَّلامَ دُعاءٌ وطَلَبٌ، وهم في ألفاظِ الدُّعاءِ والطَّلَبِ إنَّما يأتونَ بالنَّكِرةِ إمَّا مَرفوعةً على الابتداءِ، أو منصوبةً على المصدَرِ؛ فمِنَ الأوَّلِ: وَيلٌ له. ومِن الثاني: خيبةً له، وهذا في الدُّعاءِ عليه. وفي الدُّعاءِ له: سَقيًا وكرامةً ومَسَرَّةً؛ فجاء (سلامٌ عليكم) بلفظِ النَّكِرةِ كما جاء سائِرُ ألفاظِ الدُّعاءِ، وسِرُّ ذلك أنَّ هذه الألفاظَ جرت مجرى النُّطقِ بالفِعلِ؛ ألا ترى أنَّ (سَقيًا) جرى مجرى: (سقاك اللهُ)، وكذلك (سلامٌ عليك) جارٍ مجرى: (سلَّمك اللهُ)، والفِعلُ نَكِرةٌ؛ فأحبُّوا أن يجعلوا اللَّفظَ الذي هو جارٍ مَجراه وكالبَدلِ منه: نَكِرةً مِثلَه. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٦٩-١٧٠).

عليه وسلَّم إلَّا في سَلامِ الكفارِ[١].

١١- قولُه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ فيه من تَرغيبِه في اتِّباعِهما على أَلْطَفِ وجْهٍ ما لا يَخْفى[٢]. وكذلك قولُه: ﴿أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فيه من التَّلطيفِ في الوعيدِ -حيث لم يُصرَّحْ بحُلولِ العذابِ به- ما لا مَزِيدَ عليه[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: (هذه أرجَى آيةٍ للمُوحِّدينَ؛ لأنَّهم لم يكَذِّبوا، ولم يتولَّوا)[٤].

١٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ فيه دليلٌ على مَنعِ السَّلامِ على الكافِرِ، وأنَّه إذا احتيجَ إليه في خِطابٍ أو كتابٍ يُؤتى بهذه الصِّفةِ[٥].

١٤- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ هذا مِن أقوى الدَّلائِلِ على أنَّ عِقابَ المؤمِنِ لا يدومُ؛ ذلك لأنَّ الألفَ واللَّامَ في قَولِه: ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ تفيدُ الاستِغراقَ، أو تفيدُ الماهيَّةَ، وعلى التَّقديرَينِ يقتضي انحصارَ هذا الجِنسِ فيمن كذَّب وتولَّى، فوجَبَ في غير المكَذِّبِ المتولِّي ألَّا يَحصُلَ هذا الجِنسُ أصلًا[٦].

١٥- قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ مع أنَّ فِرعَون كان شديدَ القُوَّةِ، عَظيمَ الغَلَبةِ، كثيرَ العَسكَرِ؛ لكِنْ لَمَّا دعاه موسى عليه السَّلامُ إلى اللهِ

---

(١) يُنظر: ((الكنز الثمين في سؤالات ابن سنيد لابن عثيمين)) (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٤).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٦-١٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٥).

تعالى لم يَشتَغِلْ معه بالبَطشِ والإيذاءِ، بل خرج معه في المناظَرةِ؛ وذلك لأنَّه لو شَرَع أوَّلًا في الإيذاءِ لَنُسِبَ إلى الجهلِ والسَّفاهةِ؛ فاستنكفَ مِن ذلك وشرَعَ أولًا في المناظَرةِ؛ وذلك يدُلُّ على أنَّ السَّفاهةَ مِن غيرِ الحُجَّةِ شَيءٌ ما كان يرتضيه فِرعَونُ مع كمالِ جَهلِه وكُفرِه؛ فكيف يليقُ ذلك بمن يدَّعي الإسلامَ والعِلمَ[1]؟!

١٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّه يجوزُ حِكايةُ كَلامِ المُبطِلِ؛ لأنَّه تعالى حكى كلامَ فِرعَونَ في إنكارِه الإلهَ، وحكى شُبُهاتِ مُنكري النبُوَّةِ، وشُبُهاتِ مُنكري الحَشرِ، إلَّا أنَّه يجِبُ أنَّك متى أوردْتَ السُّؤالَ، فاقرِنْه بالجوابِ؛ لئلَّا يبقَى الشَّكُّ، كما فعَلَ اللهُ تعالى في هذه المواضِعِ[2].

١٧- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ خُصَّ موسى بالذِّكرِ، قيل: لأنَّه في وَقتِ الكلامِ إنَّما يتكلَّمُ واحِدٌ، فإذا انقطع وازَرَه الآخَرُ وأيَّدَه؛ فموسى وهارونُ جميعًا بلَّغا الرِّسالةَ، وإن كان هارونُ ساكِتًا، فصار لنا في هذا البِناءِ فائِدةُ عِلمٍ: أنَّ الاثنينِ إذا قُلِّدا أمرًا فقام به أحدُهما، والآخَرُ شَخصُه هناك موجودٌ، مُستغنًى عنه في وقتٍ دونَ وَقتٍ: أنَّهما أدَّيا الأمرَ الذي قُلِّدا، وقاما به واستوجَبا الثَّوابَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، وقال: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾، وقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ﴾ فأمرَهما جميعًا بالذَّهابِ وبالقَولِ، ثمَّ أعلَمَنا في وقتِ الخِطابِ بقَولِه: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ أنَّه كان حاضِرًا مع موسى[3].

١٨- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ جمع جلَّ وعلا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٤).

في هذه الآيةِ بين الخَلقِ والهِدايةِ، وهو سُبحانَه في القرآنِ كثيرًا ما يجمَعُ بينهما، كقَولِه في أوَّلِ سورةٍ أنزَلَها على رَسولِه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١-٥]، وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، وقوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ [البلد: ٨-١١]، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢، ٣]، وقوله: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ ...﴾ [النمل: ٦٠] الآيات، ثم قال: ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [النمل: ٦٣] فالخَلقُ إعطاءُ الوجودِ العينيِّ الخارجيِّ، والهُدى إعطاءُ الوجودِ العلميِّ الذِّهنيِّ؛ فهذا خَلقُه، وهذا هُداه وتَعليمُه[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ دَلالةٌ على تمامِ عنايةِ الخالقِ سُبحانَه بخَلْقِه، وهدايتِه العامَّةِ[٢]، فهذه هي الهدايةُ العامةُ المشاهَدةُ في جميعِ المخلوقاتِ، فكلُّ مخلوقٍ تجدُه يسعَى لما خُلِق له مِن المنافعِ، وفي دفعِ المضارِّ عنه[٣].

٢٠- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖ﴾ هذا أحسَنُ استنباطٍ لكتابةِ الحَديثِ والعِلمِ[٤]، قال أبو المليحِ[٥]: (يَعيبونَ علينا الكتابَ، واللَّهُ يقولُ:

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٦٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٧).

(٥) أبو المَلِيحِ: هو الحسنُ بنُ عُمرَ الرَّقِّيُّ، الإمامُ، المحدِّثُ، وَثَّقه أحمدُ بنُ حنبلٍ، وأبو زُرْعَةَ، =

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾)[١].

٢١- قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۞ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ في ذلك إشارةٌ إلى تبكيتِ اليَهودِ بأنَّ ثُبوتَ النبُوَّةِ إن كان يتوقَّفُ على أن يخبرَ النبيُّ عن كلِّ ما يُسأَلُ عنه، لَزِمَ أن يتوقَّفوا في نبُوَّةِ نَبيِّهم عليه السَّلامُ؛ لأنَّه لم يُخبِرْ فِرعَونَ عما سألَه عنه مِن أمرِ القُرونِ[٢].

٢٢- قال الله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ لِكمالِ عِلمِه وحِفظِه[٣]، فهو يَصِفُ علمَه تعالى بأنَّه بكُلِّ شَيءٍ مُحيطٌ، وأنَّه لا ينسى شيئًا، تبارك وتعالى وتقَدَّس، فإنَّ عِلمَ المخلوقِ يَعتريه نُقصانانِ: أحدُهما: عدَمُ الإحاطةِ بالشَّيءِ، والآخَرُ: نسيانُه بعد عِلمِه، فنَزَّه نفسَه عن ذلك[٤].

٢٣- قال الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ لذلك كان بنو آدمَ كالأرضِ تمامًا: فيهم الحَزْنُ الصُّلْبُ الشَّديدُ، وفيهم السَّهْلُ، وفيهم ما بينَ ذلك، وفيهم الأبيضُ، وفيهم الأحمرُ، وفيهم الأسودُ؛ لأنَّ الأراضيَ تختَلِفُ هكذا[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ بَيانٌ لجُملةِ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]. أو هي استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ

= توفِّي سنةَ إحدَى وثمانينَ ومائةٍ. يُنظر: ((تهذيب الكمال)) للمزي (٦/ ٢٨٠)، ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٨/ ١٩٤).

(١) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٦).

لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١] يُؤذِنُ بأنَّه اختارَهُ وأعَدَّهُ لأمْرٍ عظيمٍ[١].

- والباءُ في ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾ للمُصاحَبةِ؛ لقصْدِ تَطمينِ مُوسى بأنَّه سيكونُ مُصاحِبًا لآياتِ اللهِ[٢]؛ فالمُرادُ ذَهابُهما إلى فرْعونَ مُتلبِّسينَ بالآياتِ، مُتمسِّكينَ بها في إجْراءِ أحكامِ الرِّسالةِ، وإكْمالِ أمْرِ الدَّعوةِ، لا مُجرَّدُ إذْهابِها، وإيصالِها إليه[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ لمَّا حذَفَ مَن يُذْهَبُ إليه في قولِه: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾، نَصَّ عليه في هذا الأمْرِ الثَّاني، فقِيلَ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾[٤].

وقيل: قولُه: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ كُلُّ واحدٍ منهما مأمورًا بالذَّهابِ على الانفرادِ، فقيل مَرَّةً أُخرى: ﴿ٱذْهَبَآ﴾؛ ليعرفا أنَّ المرادَ منه أن يشتغِلا بذلك جميعًا، لا أن ينفرِدَ به هارونُ دونَ موسى. وقيل: إنَّ قَولَه: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ أمرٌ بالذَّهابِ إلى كُلِّ النَّاسِ مِن بني إسرائيلَ وقَومِ فِرعَونَ، ثمَّ إنَّ قَولَه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أمرٌ بالذَّهابِ إلى فِرعَونَ وَحدَه[٥].

- وجمَعَهما في صِيغَةِ أمْرِ الحاضرِ مع غَيبةِ هارونَ إذ ذاك؛ للتَّغليبِ[٦].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بأنْ يَذْهبا إليه؛ فعُلِمَ أنَّه لقصْدِ كَفِّه عن طُغيانِه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ لترتيبِ ما بعْدَها على طُغيانِه؛ فإنَّ تَلْيِينَ القولِ ممَّا يَكسِرُ سَوْرةَ عِنادِ العُتاةِ، ويُلِينُ عَريكةَ الطُّغاةِ[١].

- قولُه: ﴿قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ شبَّهَ الكلامَ المُشتمِلَ على المعاني الحَسنةِ بالشَّيءِ اللَّيِّنِ[٢].

- قولُه: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ فيه تَقديمُ التَّذكُّرِ على الخَشيةِ؛ لأنَّ التَّذكُّرَ للمُتحقِّقِ، والخَشيةَ للمُتوهِّمِ؛ فقدَّمَ الأوَّلَ، أي: إنْ لم يَتحقَّقْ صِدْقُكما ولم يَتذكَّرْ؛ فلا أقَلَّ مِن أنْ يَتوهَّمَه فيَخْشى[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾

- قولُه: ﴿قَالَا رَبَّنَآ﴾ أُسْنِدَ القولُ إليهما، مع أنَّ القائلَ حقيقةً هو مُوسى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، بطَريقِ التَّغليبِ؛ إيذانًا بأصالتِه في كلِّ قوْلٍ وفِعْلٍ، وتَبعيَّةِ هارونَ عليه السَّلامُ له في كلِّ ما يأْتي ويذَرُ[٤].

- ولم يَذْكُرا مُتعلِّقَ ﴿يَطۡغَىٰ﴾ -وهو (عليك)- بمعنى القولِ فيك بما لا يَنْبغي، وذكَرَا مُتعلِّقَ ﴿يَفۡرُطَ﴾ -وهو ﴿عَلَيۡنَآ﴾-؛ لأنَّ مَعَرَّتَه عائدةٌ إليهما؛ إجْلالًا للهِ تعالى، وتَهيُّبًا من عِزَّتِه، واستزادةً لِرَأفَتِه، واستِنْزالًا لرَحمتِه؛ فقولُه: ﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾، أي: يقولَ فيك ما لا يَنْبغي، وفي المَجِيءِ به هكذا على الإطلاقِ، وعلى سَبيلِ الرَّمزِ: بابٌ من حُسْنِ الأدبِ، وتَحاشٍ عن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨).

التَّفوُّهِ بالعظيمةِ. وقيل: حُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿يَطۡغَىٰ﴾؛ لدَلالةِ نَظيرِه عليه، وهو قولُه: ﴿عَلَيۡنَآ﴾، وأُوثِرَ بالحذْفِ؛ لِرعايةِ الفواصلِ. والتَّقديرُ: أو أنْ يَطْغى علينا. وإظْهارُ كَلمةِ (أنْ) مع سَدادِ المعنى بدُونِها؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بالأمْرِ، والإشعارِ بتَحقُّقِ الخوفِ من كلٍّ منهما[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على السُّؤالِ النَّاشىءِ من النَّظْمِ الكريمِ، ولعلَّ إسنادَ الفِعْلِ إلى ضَميرِ الغَيبةِ؛ للإشعارِ بانتقالِ الكلامِ من مَساقٍ إلى آخَرَ[٢].

- وقولُه: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ نهْيٌ مُكَنًّى به عن نفْيِ وُقوعِ المَنْهيِّ عنه[٣].

- وقولُه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن الخوفِ الَّذي هو في مَعنى النَّفيِ، ومَزيدُ تَسليةٍ لهما[٤].

- ونُزِّلَ فِعْلَا ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ مَنزِلةَ اللَّازمينِ؛ إذ لا غرَضَ لِبَيانِ مَفْعولِهما، بل المقصودُ: إنِّي لا يَخْفى عليَّ شَيءٌ، وفرَّعَ عليه إعادةَ الأمْرِ بالذَّهابِ إلى فِرْعونَ ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ ...﴾[٥].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٧- ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٨).

قَدْ جِئْنَاكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾

- قولُه: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ ... ﴾ أُمِرَا بإتيانِه الَّذي هو عبارةٌ عن الوُصولِ إليه بعْدَما أُمِرَا بالذَّهابِ؛ فلا تَكْرارَ، وهو عطْفٌ على ﴿لَا تَخَافَآ﴾ باعتبارِ تَعليلِه بما بعْدَه. أُمِرَا بـ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾؛ تَحقيقًا للحقِّ من أوَّلِ الأمْرِ؛ ليَعرِفَ الطَّاغيةُ شأْنَهما، ويَبْني جَوابَه عليه، وكذا التَّعرُّضُ لرُبوبيَّتِه تعالى له[1].

- قولُه: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أمَرَهما أنْ يُخاطِباهُ بقولِهما: ﴿رَبِّكَ﴾؛ تَحقيرًا له، وإعلامًا أنَّه مَربوبٌ مَملوكٌ؛ إذ كان هو يَدَّعي الرُّبوبيَّةَ[2]، أو خَصَّا الرَّبَّ بالإضافةِ إلى ضَميرِ فِرْعونَ قَصْدًا لأقْصى الدَّعوةِ؛ لأنَّ كونَ اللهِ ربَّهما معلومٌ من قولِهما: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، وكونُه ربَّ النَّاسِ معلومٌ بالأحْرى؛ لأنَّ فِرعونَ علَّمَهم أنَّه هو الرَّبُّ[3].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، وقال في سُورةِ (الشُّعراءِ): ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]. ووجْهُه: أنَّ الرَّسولَ سُمِّيَ به، فحيثُ وحَّدَه حُمِلَ على المصدرِ، وحيث ثَنَّى حُمِلَ على الاسمِ. ويجوزُ أنْ يُقالَ: حيث وحَّدَ حُمِلَ على الرِّسالةِ؛ لأنَّهما أُرْسِلَا لشَيءٍ واحدٍ، وحيث ثَنَّى حُمِلَ على الشَّخصينِ[4].

- والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها؛ فإنَّ كونَهما رسولَيْ ربِّهِ ممَّا يُوجِبُ إرسالَهم معهما. أو لأنَّ المُرسَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨-١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٩).

(٤) ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٥).

منَ اللهِ تجِبُ طاعتُه. وقيل: أدخَلَ فاءَ التَّفريعِ على طلَبِ إطلاقِ بني إسرائيلَ؛ لأنَّه جعَلَ طلَبَ إطلاقِهم كالمُستقِرِّ المعلومِ عندَ فِرْعونَ؛ إمَّا لأنَّه سبَقَتْ إشاعةُ عَزْمِهما على الحُضورِ عندَ فِرعونَ لذلك المطلَبِ، وإمَّا لأنَّه جعَلَه -لأهميَّتِه- كالمُقرَّرِ[١].

- وجُملةُ: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ جاريةٌ من الجُملةِ الأُولى -وهي ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾- مَجْرى البَيانِ والتَّفسيرِ؛ لأنَّ دَعوى الرِّسالةِ لا تثبُتُ إلَّا بِبَيِّنَتِها الَّتي هي المَجِيءُ بالآيةِ. أو تَقريرٌ لِمَا تَضمَّنَه الكلامُ السَّابقُ من دَعوى الرِّسالةِ، وتَعليلٌ لوُجوبِ الإرسالِ؛ فإنَّ مَجِيئَهما بالآيةِ من جِهَتِه تعالى ممَّا يُحقِّقُ رِسالتَهما ويُقرِّرُها، ويُوجِبُ الامتثالَ بأمْرِهما[٢].

- إنَّما وحَّدَ قولَه: ﴿بِآيَةٍ﴾ ولم يُثَنِّ، ومعه آيتانِ؛ لأنَّ المُرادَ في هذا الموضعِ تَثبيتُ الدَّعوى ببُرْهانِها، فكأنَّه قال: قد جِئْناك بمُعْجِزةٍ وبُرْهانٍ وحُجَّةٍ على ما ادَّعيناهُ من الرِّسالةِ[٣]، فمعنى الآيةِ الإشارةُ إلى جنسِ الآياتِ، كأنَّه قال: قد جئناك ببيانٍ مِن عندِ الله. ثم يجوزُ أن يكونَ ذلك حجةً واحدة أو حججًا كثيرة[٤].

- قولُه: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ فيه إظهارُ اسمِ الرَّبِّ في مَوضِعِ الإضمارِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِ المُخاطَبِ؛ لتأكيدِ ما ذُكِرَ من التَّقريرِ والتَّعليلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٦-٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٦-٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩).

- وفي قولِه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ عُبِّر بـ(عَلَى) للتَّمكُّنِ، أي: سَلامةُ مَن اتَّبَع الهُدى ثابتةٌ لهم دونَ رَيبٍ، وهذا احتراسٌ ومُقدِّمةٌ للإنذارِ الَّذي في قولِه: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ فقولُه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ تَعريضٌ بأنْ يَطلُبَ فِرعونُ الهُدى الَّذي جاء به مُوسى عليه السَّلامُ[1]؛ ففيه إشارةٌ إلى التَّعريضِ؛ فاللَّامُ للجنْسِ، كأنَّه قال: جِنْسُ السَّلامِ على مَن اتَّبَعَ الهُدى؛ ففيه تَعريضٌ بأنَّ ضِدَّه عليكم[2].

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ لعلَّ تَغييرَ النَّظمِ والتَّصريحَ بالوعيدِ والتَّوكيد فيه؛ لأنَّ التَّهديدَ في أوَّلِ الأمْرِ أهَمُّ وأنجَعُ، وبالواقعِ أَلْيَقُ[3]، وفيه تَعريضٌ لإنذارِه على التَّكذيبِ قبْلَ حُصولِه منه؛ ليُبَلِّغَ الرِّسالةَ على أتَمِّ وجْهٍ قبْلَ ظُهورِ رأْيِ فِرعونَ في ذلك؛ حتَّى لا يُجابِهَه بعْدَ ظُهورِ رأْيِه بتَصريحِ تَوجيهِ الإنذارِ إليه[4].

- وبُنِيَ ﴿أُوحِيَ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فاعِلُه، ولم يُذْكَرِ المُوحِي؛ لأنَّ فِرعونَ كانت له بادرةٌ[5]؛ فرُبَّما صدَرَ منه في حَقِّ المُوحِي ما لا يَلِيقُ به[6].

- ولمَّا دَلَّ قولُه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ على التَّوبيخِ لِمَكانِ التَّعريضِ، كان قولُه: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ﴾ استِئنافًا مُنْطويًا على تَعليلِ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٠).

(٥) البادِرةُ: الحِدَّةُ. يُقالُ: بَدَرَت منه بوادِرُ غَضَبٍ، أي: سَقَطاتٌ وخَطَأٌ عندما احتَدَّ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٩).

المفهومِ المقصودِ في الإيرادِ؛ كأنَّه قِيلَ: العذابُ على مَن كذَّبَ وتولَّى؛ لأنَّ اللهَ تعالى أوْحَى إلينا ذلك[١].

- وإطْلاقُ السَّلامِ والعذابِ دونَ تَقييدٍ بالدُّنيا أو الآخرةِ: تَعميمٌ للبِشارةِ والنِّذارةِ[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾

- في الكلامِ إيجازٌ بالحذْفِ، تَقديرُه: فأَتَيَا فِرعونَ، وقالا له ما أمَرَهما اللهُ أنْ يُبلِّغاهُ، فقال:...، وإنَّما طُوِيَ ذِكْرُه للإيجازِ، والإشعارِ بأنَّهما كما أُمِرَا بذلك سارَعَا إلى الامتثالِ به من غيرِ تَلعثُمٍ، وبأنَّ ذلك منَ الظُّهورِ بحيثُ لا حاجةَ إلى التَّصريحِ به[٣].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؛ لتَرتيبِ السُّؤالِ على ما سبَقَ مِن كونِهما رسولَيْ ربِّهما، أي: إذا كُنْتُما رسولَيْ ربِّكما، فأخْبِرَا مَن ربُّكما الَّذي أرسلَكُما[٤].

- وجاء خِطابُه في قولِه: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ للاثنينِ، ووجَّهَ النِّداءَ إلى أحدِهما، وهو مُوسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّه الأصْلُ في النُّبوَّةِ، وهارونُ وَزيرُه وتابِعُه[٥]، .....

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣١).

ولأنَّه صاحبُ الرِّسالةِ والكلامِ والآيةِ[١]، أو لأنَّ المُجاوَبةَ إنَّما تكونُ من الواحدِ، وإنْ كان الخِطابُ بالجماعةِ لا من الجَميعِ[٢].

- وفي قولِ فِرعونَ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ لم يُضِفِ الرَّبَّ إلى نفْسِه ولو بطَريقِ حِكايةِ ما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ لِغايةِ عُتوِّهِ ونِهايةِ طُغيانِه، بل أضافَه إليهما؛ لِمَا أنَّ المُرسِلَ لا بُدَّ أنْ يكونَ ربًّا للرَّسولِ، أو لأنَّهما قد صرَّحَا برُبوبيَّتِه تعالى للكلِّ، بأنْ قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] كما وقَعَ في سُورةِ (الشُّعراءِ)[٣]. وقيل: أعرَضَ عنِ الاعترافِ بالمَرْبوبيَّةِ ولو بحِكايةِ قولِهما؛ لئلَّا يقَعَ ذلك في سمْعِ أتْباعِه وقومِه، فيَحسِبوا أنَّه مُتردِّدٌ في مَعرفةِ ربِّه، أو أنَّه اعترَفَ بأنَّ له ربًّا[٤]. أو: لم يقُلْ: رَبِّي؛ حَيدةً عن سواءِ النَّظرِ، وصرفًا للكلامِ على الوجهِ الموضِّحِ لخِزيِه[٥].

٩- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾

- جَوابُ مُوسى عليه السَّلامُ بقولِه: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ سلَكَ فيه طَريقَ الإرشادِ والأُسلوبِ الحكيمِ، حيث كان الظَّاهرُ أنْ يقولَ: (ربُّ العالمينَ)؛ فما أخصَرَه وما أجمَعَه! وما أبْيَنَه لمَن ألْقَى الذِّهنَ، ونظَرَ بعَينِ الإنصافِ، وكان طالِبًا للحقِّ؛ فهو جَوابٌ في غايةِ البَلاغةِ؛ لاختصارِه،

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٢).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩٤).

وإعرابِه عن الموجوداتِ بأسْرِها على مَراتبِها، ودَلالتِه على أنَّ الغَنِيَّ القادرَ بالذَّاتِ، المُنعِمَ على الإطلاقِ هو اللهُ تعالى، وأنَّ جميعَ ما عداهُ مُفتقِرٌ إليه، مُنْعَمٌ عليه في حَدِّ ذاتِه وصِفاتِه وأفعالِه؛ ولذلك بُهِتَ الَّذي كفَرَ، فلم يَرَ إلَّا صَرْفَ الكلامِ عنه[١]. وأيضًا أجاب مُوسى عليه السَّلامُ بإثباتِ الرُّبوبيَّةِ للهِ لجَميعِ الموجوداتِ، وفِرعونُ من جُملتِها، فهو داخلٌ في عُمومِها[٢]، ولقد ساق عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جَوابَه على نمَطٍ رائقٍ، وأُسلوبٍ لائقٍ، وضَمَّنَه أنَّ إرسالَه تعالى إلى الطَّاغيةِ من جُملةِ هِداياتِه تعالى إيَّاهُ، بعْدَ أنْ هَداهُ إلى الحقِّ بالهداياتِ التَّكوينيَّةِ؛ حيث ركَّبَ فيه العقْلَ، وسائرَ المشاعرِ، والآلاتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ[٣].

- ولم يُريدَا بضَميرِ المُتكلِّمِ ﴿رَبُّنَا﴾ أنفُسَهما فقط، حسْبَما أرادَ اللَّعينُ، بل جميعَ المخلوقاتِ؛ تَحقيقًا للحقِّ، ورَدًّا عليه، كما يُفْصِحُ عنه ما في حَيِّزِ الصِّلَةِ، أي: هو ربُّنا الَّذي أعْطَى كلَّ شَيءٍ مِن الأشياءِ خَلْقَه[٤].

- قولُه: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ لمَّا كان الخلْقُ مُتقدِّمًا على الهدايةِ وُسِّطَ بينهما كَلِمةُ التَّراخي (ثُمَّ)[٥]، وفيه إيجازٌ بليغٌ؛ لأنَّه حذَفَ جُمَلًا لا يقَعُ عليها الحصْرُ؛ لأنَّه ليس بالمُتاحِ إحصاءُ المخلوقاتِ الحيَّةِ وغيرِ الحيَّةِ، العاقلةِ وغيرِ العاقلةِ الَّتي خلَقَها اللهُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٠١).

١٠- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾

- إيثارُ كَلِمةِ (البال) هنا من دَقيقِ الخصائصِ البلاغيَّةِ؛ أراد فِرعونُ أنْ يُحاجَّ مُوسى بما حصَل للقُرونِ الماضيةِ الَّذين كانوا على مِلَّةِ فِرعونَ، أي: ما حالُهم؛ أفتزْعُمُ أنَّهم اتَّفَقوا على ضَلالةٍ؟! وهذه طبيعةُ مَن لا يَجِدُ حُجَّةً، فيَعمِدُ إلى التَّشغيبِ بتَخييلِ استبعادِ كَلامِ خَصْمِه. ويجوزُ أنَّ فِرعونَ أراد التَّشغيبَ على مُوسى حين نهَضَتْ حُجَّتُه بأنْ يَنقِلَه إلى الحديثِ عن حالِ القُرونِ الأُولى: هل هم في عذابٍ؟ بمُناسَبةِ قولِ مُوسى: ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨]، فإذا قال: إنَّهم في عذابٍ، ثارتْ ثائرةُ أبنائِهم، فصاروا أعداءً لمُوسى، وإذا قال: هم في سَلامٍ، نهَضَتْ حُجَّةُ فِرعونَ؛ لأنَّه مُتابِعٌ لِدينِهم، ولأنَّ مُوسى لمَّا أعلَمَه برَبِّه، وكان ذلك مُشعِرًا بالخلْقِ الأوَّلِ؛ خطَرَ ببالِ فِرعونَ أنْ يسألَه عن الاعتقادِ في مَصيرِ النَّاسِ بعدَ الفَناءِ، فسأَلَ: ما بالُ القُرونِ الأُولى؟ ما شأْنُهم؟ وما الخبَرُ عنهم؟ وهو سُؤالُ تَعجيزٍ وتَشغيبٍ[(١)].

١١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾

- قولُه: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ فيه إظهارُ ﴿رَبِّي﴾ في مَوقعِ الإضمارِ؛ للتَّلذُّذِ بذِكْرِه، ولزِيادةِ التَّقريرِ والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكْمِ؛ فإنَّ الرُّبوبيَّةَ ممَّا يَقْتضي عدَمَ الضَّلالِ والنِّسيانِ حتْمًا[(٢)].

- والغرَضُ من قولِه: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾ التَّوكيدُ بأنَّ أسرارَها مَعلومةٌ له، لا يَزولُ شَيءٌ منها، ويتأكَّدُ هذا بقولِه: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٣-٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٢).

- وقولُه: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ فيه تعريضٌ بفرعونَ يستلزمُ إبطالَ دعواه الربوبيةَ[١].

١٢- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ على عادةِ القُرآنِ مِن تفنُّنِ الأغراضِ؛ لتَجديدِ نَشاطِ الأذهانِ. وتَعريفُ جُزأَيِ الجُملةِ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ يُفيدُ الحصْرَ، أي: الجاعِلُ الأرضَ مِهادًا؛ فكيف تَعْبُدون غيرَه؟! وهذا قصْرٌ حَقيقيٌّ، غيرُ مَقصودٍ به الرَّدُّ على المُشرِكين، ولكنَّه تَذكيرٌ بالنِّعمةِ، وتَعريضٌ بأنَّ غيرَه ليس حَقيقًا بالإلهيَّةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ انتقَلَ من لفْظِ الغَيبةِ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ إلى لفْظِ المُتكلِّمِ المُطاعِ؛ للافتنانِ، وللتَّنبيهِ على ظُهورِ ما فيهِ منَ الدَّلالةِ عَلى كَمالِ القُدرةِ والحِكمةِ، والإيذانِ بأنَّه مُطاعٌ تَنقادُ الأشياءُ المُختلِفةُ لأمْرِه، وتُذعِنُ الأجناسُ المُتفاوِتةُ لمَشيئتِه، لا يَمتنِعُ شَيءٌ على إرادتِه[٣]. وفي هذا الالْتِفاتِ تَخصيصٌ أيضًا بأنَّا نحن نقْدِرُ على مثْلِ هذا، ولا نَدخُلُ تحتَ قُدرةِ أحَدٍ[٤]. وأيضًا هذا الالتفاتُ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ بصِيغةِ التعظيمِ يدلُّ على تَعظيمِ شأنِ إنباتِ النباتِ؛ لأنَّه لو لم يَنزِلِ الماءُ، ولم يَنبُتْ شيءٌ، لهَلَكَ الناسُ جُوعًا وعطشًا؛ فهو يدلُّ على عَظمتِه جلَّ وعلا، وشِدَّةِ احتياجِ الخَلقِ إليه، ولُزومِ طاعتِهم له جلَّ وعلا[٥]. وحسَّنَ هذا الالْتِفاتَ: أنَّه بعْدَ أنْ حَجَّ المُشرِكينَ بحُجَّةِ

---

(١) يُنظر: ((حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي)) (٦/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٨-٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٣).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٢).

انفِرادِه بخلْقِ الأرضِ، وتَسخيرِ السَّماءِ ممَّا لا سَبيلَ بهم إلى نُكرانِه؛ ارْتَقَى إلى صِيغَةِ المُتكلِّمِ المُطاعِ؛ فإنَّ الَّذي خلَقَ الأرضَ، وسخَّرَ السَّماءَ حَقيقٌ بأنْ تُطِيعَه القُوى والعناصِرُ، فهو يُخرِجُ النَّباتَ من الأرضِ بسبَبِ ماءِ السَّماءِ، فكان تَسخيرُ النَّباتِ أثَرًا لتَسخيرِ أصْلِ تكوينِه من ماءِ السَّماءِ وتُرابِ الأرضِ[(١)].

- قولُه: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ كِنايةٌ عن كثْرَتِها في جِهاتِ الأرضِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ لمَّا ذكَرَ مِنَّةَ خلْقِ الأرضِ، شفَعَها بمِنَّةِ إخراجِ النَّباتِ منها بما يُنزِلُ عليها من السَّماءِ من ماءٍ. وتلك مِنَّةٌ تُنْبِئُ عن خلْقِ السَّمواتِ؛ حيث أجْرى ذِكْرَها لقصْدِ ذلك التَّذكيرِ؛ ولذا لم يقُلْ: وصبَبْنا الماءَ على الأرضِ، كما في آيةِ: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٥، ٢٦]. وهذا إدماجٌ بَليغٌ[(٣)].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾، وقال في سُورةِ الزُّخرفِ: ﴿وَجَعَلَ﴾ [الزخرف: ١٠]. ووجْهُه: أنَّ لفْظَ السُّلوكِ مع السَّبيلِ أكثرُ استعمالًا، فخُصَّت به سُورةُ (طه)، وخُصَّت سُورةُ الزُّخرفِ بـ(جَعَل)؛ ازدواجًا للكلامِ، ومُوافقةً لِمَا قبْلَها وما بعْدَها[(٤)].

١٣- قولُه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ مقولُ قَولٍ مَحذوفٍ هو حالٌ من ضَميرِ ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾، والتَّقديرُ: قائلينَ: كُلوا وارْعَوا أنعامَكم، والأمْرُ للإباحةِ، مُرادٌ به المِنَّةُ، والتَّقديرُ: كُلوا منها، وارْعَوا أنعامَكم منها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٥).

وهذا مِن مُقابَلةِ الجمْعِ -في قولِه: ﴿نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾- بالجمْعِ؛ لقصْدِ التَّوزيعِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ مُؤكِّدةٌ للاستدلالِ. وتأكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ)؛ لتَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزِلَةَ المُنكرينَ؛ لأنَّهم لم يَنْظروا في دَلالةِ تلك المخلوقاتِ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وهم يَحْسبون أنفُسَهم من أُولي النُّهى[٢].

- واسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ من شُؤونِه تعالى وأفعالِه، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتْبتِه، وبُعْدِ مَنزلتِه في الكَمالِ[٣].

- وتَنكيرُ ﴿لَآيَاتٍ﴾؛ للتَّفخيمِ كمًّا وكَيفًا، أي: لآياتٍ كثيرةً جَليلةً، واضحةَ الدَّلالةِ على شُؤونِ اللهِ تعالى في ذاتِهِ وصِفاتِه وأفعالِه، وعلى صِحَّةِ نُبوَّةِ مُوسى وهارونَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ. وتَخصيصُ كونِها آياتٍ بأُولي النُّهَى -مع أنَّها آياتٌ للعالمينَ- باعتبارِ أنَّهم المُنتفِعونَ بها[٤].

١٤- قولُه تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ مُستأنفٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وهذا إدماجٌ[٥] للتَّذكيرِ بالخلْقِ الأوَّلِ؛ ليكونَ دَليلًا على إمكانِ الخلْقِ الثَّاني بعْدَ الموتِ[٦].

- وقُدِّمَتِ المجروراتُ الثَّلاثةُ -﴿مِنْهَا﴾ ﴿وَفِيهَا﴾ ﴿وَمِنْهَا﴾- على مُتعلِّقاتِها؛ فأمَّا المجرورُ الأوَّلُ والمجرورُ الثَّالثُ فَلِلاهتمامِ بكونِ الأرضِ مبدَأَ الخلْقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدم تعريفُه (ص: ٢١٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٠).

الأوَّلِ، والخلْقِ الثَّاني. وأمَّا تَقديمُ ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ فَلِلْمُزاوجةِ[١] مع نَظيرَيْه[٢].

- قولُه: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ إيثارُ كَلِمةِ (في) على كَلمةِ (إلى)؛ للدَّلالةِ على الاستقرارِ المَديدِ فيها[٣].

- قولُه: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ إخراجَ الأجسادِ من الأرضِ بإعادةِ خلْقِها كما خُلِقَت في المرَّةِ الأُولى[٤].

- والآيةُ كالتَّتميمِ للآيةِ الأُولى، والتَّكميلِ للمنافِعِ المنوطةِ بالأرضِ[٥]؛

---

(١) المُزاوجَةُ لُغةً: مصدرُ: زاوَجَ بين الشَّيئينِ؛ قرَنَ بينهما.
واصطلاحًا: أنْ يُجمَعَ بين الشَّرطِ والجزاءِ في ترتُّبِ لازمٍ من اللَّوازمِ عليهما معًا، نحوُ قولِ الشاعرِ:
إذا ما بَدَتْ فازدادَ منهما جمالُها نظَرْتُ لها فازداد مِنِّي غرامُها
فقد زاوَجَ بين معنيينِ؛ هما: بُدُوُّها وظُهورُها ونظَرُه لها في الشَّرطِ والجزاءِ، في أنْ رتَّبَ عليهما لُزومَ شَيءٍ، وهو ازديادُ الجمالِ وازديادُ الغرامِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٢٣)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٢٥)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤١).

(٥) التَّتميم: من أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التتميمِ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العزةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها.
والتكميلُ هو الاحتراسُ، والفَرقُ بينه وبين التَّتميم: أنَّ الاحتراسَ يجبُ أنْ يكونَ لرَفْعِ إيهامٍ =

دلَّتِ الأُولى على بَيانِ مَرافِقِهم وأصنافِ انتفاعِهم، وهذه على أنَّها أصْلُهم، وفيها تقلُّبُهم أحياءً وأمواتًا[١].

= خِلافِ المقصودِ، وأمَّا التتميم فإنَّه يكونُ في كلامٍ لا يُوهِمُ خِلافَ المقصودِ؛ فالنِّسبةُ بينهما -إذن- هي التباينُ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠ - ٢٤١).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١/ ١٨٦).

الآيات (٥٦-٦٤)

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُوًى﴾: أي: وسَطًا، وهو مِن الاستواءِ؛ لأنَّ المسافةَ مِن الوسَطِ إلى الطَّرفينِ لا تفاوُتَ فيها، بل هي مُستويةٌ، وأصلُ (سوي): يدلُّ على استِقامةٍ، واعتِدالٍ بين شيئَينِ[(١)].

﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾: يومُ عيدٍ لهم، وأصلُ (زين): يدُلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[(٢)].

﴿كَيْدَهُۥ﴾: أي حِيَلَه ومَكْرَه، والكَيدُ: ضَربٌ مِن الاحتيالِ، وقد يكونُ مَذمومًا وممدوحًا، وإن كان يُستعمَلُ في المذمومِ أكثَرَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠، ٤٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٣)، =

﴿فَيُسْحِتَكُم﴾: أي: يُهلِكَكم ويَستَأْصِلَكم، وأصلُ (سحت): القِشرُ الذي يُستأصَلُ[١].

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾: أي: أخفَوا كلامَهم، والإسرارُ: خِلافُ الإعلانِ، والنَّجوى: المناجاةُ، وأصلُ (نجو): يدُلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ[٢].

﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾: قيل: أي: بجَماعتِكم الأشراف، والعَرَبُ تقولُ للرَّجُلِ الفاضِلِ: هذا طَريقةُ قَومِه؛ فإنَّ الطريقةَ اسمٌ للأفاضِلِ على معنى أنَّهم الذين يُقتَدى بهم ويُتَّبَعُ آثارُهم، وقيل: أراد سُنَّتَكم ودِينَكم، والمثلَى تأنيثُ الأمثلِ، وهو الأفضلُ[٣].

﴿ٱسْتَعْلَىٰ﴾: أي: غلَبَ وأفلَحَ، وأصْلُ (علو): يدُلُّ على السُّموِّ والارتفاعِ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٧) و(٥/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢١).

﴿إِنْ﴾ مُخفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلةِ مُهمَلةٌ، ﴿هَٰذَٰنِ﴾ مبتدأٌ مرفوعٌ بالألفِ، ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ خبرُ المبتدأِ، و(اللامُ) هي الفارِقةُ بينَ إنِ النَّافيةِ والمخَفَّفةِ. وقال الكوفيُّونَ: ﴿إِنْ﴾ نافيةٌ بمعنى (ما)، واللامُ في ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ بمعنى (إلَّا)، أي: ما هذان إلَّا ساحرانِ. وقيل: ﴿إِنْ﴾ مُخَفَّفةٌ عامِلةٌ، واسمُها ضميرُ الشَّأنِ محذوفٌ، ﴿هَٰذَٰنِ﴾ مبتدأٌ مرفوعٌ، ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ (اللامُ) لامُ الابتِداءِ، (ساحرانِ) خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: هما. وجملةُ (هما ساحرانِ) في محلِّ رفعٍ خبَرُ المبتدأِ (هذان)، وجملةُ (هذان لَهُما ساحِرانِ) في محلِّ رَفعٍ خبَرُ (إن) المخفَّفةِ.

وفي قراءةٍ: بتَشديدِ (إنَّ)[1]، وفي تخريجِها وجوهٌ عِدَّةٌ أجوَدُها وأرجَحُها: أنَّها (إنَّ) النَّاصبةُ، (هذان) اسم (إنَّ) منصوبٌ بها، واللامُ لامُ الابتداءِ المُزحلَقةُ، و (ساحرانِ) خبرُ (إنَّ) مرفوعٌ. ومجيءُ اسمِ الإشارةِ بالألفِ هنا مع أنَّه منصوبٌ: جارٍ على لغةِ بعضِ العَرَبِ مِن إجراءِ المثنَّى بالألفِ مُطلَقًا؛ يجعَلونَ المثنَّى كالمقصورِ، فيُثبِتونَ ألفًا في جميعِ أحوالِه، ويُقَدِّرونَ إعرابَه بالحَركاتِ. وقيل: إنَّ ﴿هَٰذَٰنِ﴾ مبنيٌّ؛ لتضَمُّنِه معنى الإشارةِ كمُفرَدِه وجَمعِه. وقيل غيرُ ذلك[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا مدَى تعنُّتِ فرعونَ، واستكبارِه عن قَبولِ الحقِّ: ولقد أَرينا فِرعَونَ جميعَ أدِلَّتِنا وحُجَجِنا الدالَّةِ على صِدْقِ رسالةِ موسى، فكذَّب بها

---

(١) قرأ ﴿إِنْ﴾ بالتخفيفِ ابنُ كثيرٍ وحفصٌ عن عاصمٍ، وقرأها الباقون بتشديدِ النونِ: ﴿إِنَّ﴾. يُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٤٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((أمالي ابن الحاجب)) (١/ ١٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٣)، ((حاشية الصبان)) (١/ ١١٩)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٣٣)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٦/ ٣٨٥).

فِرعَونُ وامتنَعَ عن قَبولِ الحَقِّ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى ما قاله فرعونُ لموسى عليه السلامُ على سبيلِ التهديدِ والوعيدِ، فيقول: قال فِرعَونُ: هل جِئتَنا -يا موسى- لِتُخرِجَنا مِن ديارِنا بسِحرِك هذا؟ فلَنأتينَّك بسِحرٍ مِثلِ سِحرِك، فاجعَلْ بيننا وبينك مَوعِدًا مُحدَّدًا لا نُخلِفُه نحن ولا أنت، في مكانٍ وَسَطٍ بيننا. قال موسى لِفِرعَونَ: مَوعِدُكم للاجتِماعِ يومُ الزينةِ، حين يتزيَّنُ النَّاسُ ويَجتَمِعونَ في المكان المعتاد لذلك، وأن يساقَ الناسُ للحضورِ في وَقتَ الضُّحَى.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى ما كان مِن فرعونَ بعدَ تحديدِ الموعدِ، فيقولُ: فتولَّى فِرعَونُ، فجمَعَ سَحَرتَه، ثمَّ جاء بعد ذلك لموعدِ الاجتِماعِ بموسى.

ويخبرُ الله تعالى عمَّا دارَ بينَ موسَى عليه السلامُ والسحرةِ، فيقول تعالى: قال موسى للسَّحَرةِ يَعِظُهم: ويلَكم! لا تختَلِقوا على اللهِ الكَذِبَ فيُهلِكَكم ويَستأصِلَكم بعَذابٍ مِن عِندِه، وقد خَسِرَ مَن اختلقَ على اللهِ كَذِبًا.

فاختلَفَ السَّحرةُ، وتحادَثوا سِرًّا فيما بينهم، قالوا: ما موسى وهارونُ إلَّا ساحرانِ، يُريدانِ أن يُخرِجاكم من أرضِ مِصرَ بسِحرِهما، ويَذهَبَا بدينِكم وشريعتِكم، فأحكِموا سِحرَكم، واعزِموا على كيدِ موسى مِن غَيرِ اختِلافٍ بينكم، ثمَّ ائتُوا صفًّا واحِدًا، وقد ظَفِرَ بمَطلوبِه اليومَ مَن علا على صاحِبِه، فغَلَبه وقَهَرَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا ﴾.

أي: ولقد أرَيْنا فِرعَونَ جميعَ مُعجِزاتِنا الدالَّةِ على نبوَّةِ موسى، وصِحَّةِ ما

يدعو إليه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّٰحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٤٦-٥٠].

﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾.

أي: فكذَّب فِرعَونُ بآياتِ اللهِ، ولم يَقبَلْ ما جاء به موسى وهارونُ مِن تَوحيدِ اللهِ وطاعتِه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ * كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١، ٤٢].

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: قال فِرعَونُ: هل جِئتَنا لِتُخرِجَنا مِن دُورِنا ومَنازِلِنا في مِصرَ، وتستوليَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩).

قال الشنقيطي: (المرادُ بـ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ المعهودةِ لموسى كلِّها هي التِّسعُ المذكورةُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ الآية [الإسراء: ١٠١]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ الآية [النمل: ١٢]). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦).

عليها بسِحرِك يا موسى[١]؟

كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۞ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٧٦ - ٧٨].

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾.

أي: لكنَّ مرادَكَ هذا لن يتحَقَّقَ يا موسى؛ فلَنُعارِضَنَّك بسِحرٍ مِثلِ سِحرِك، بواسِطةِ سَحَرتِنا الذين نُحضِرُهم إلينا[٢].

﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ ﴾.

أي: فحدِّدْ بيننا وبينك وَقتًا معيَّنًا ومَكانًا محدَّدًا نجتَمِعُ فيه، فننظُرُ أيُّنا يغلِبُ الآخَرَ، ولا نَقعُدُ نحن ولا أنت عن إتيانِ ذلك الموعِدِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١١، ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣١).

قال الجمل: (وقوله: ﴿مَوْعِدًا﴾ يجوزُ أن يكونَ زمانًا، ويرجِّحُه قولُه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾. والمعنى: عيِّنْ لنا وقتَ اجتماعٍ؛ ولذلك أجابهم بقَولِه: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾، ويجوزُ أن يكونَ مكانًا، والمعنى: بيِّنْ لنا مكانًا معلومًا نَعرِفُه نحن وأنت، فنأتيَه، وهذا يؤيِّدُه قولُه: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾، ويجوزُ أن يكونَ مَصدرًا، ويؤيِّدُ هذا قولُه: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾؛ لأنَّ المواعَدةَ =

﴿مَكَانًا سُوًى﴾.

أي: في مكانٍ وَسَطٍ[١].

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾.

أي: قال موسى: مَوعِدُكم هو اليَومُ المخصَّصُ لاجتِماعِ النَّاسِ فيه، وتَزَيُّنِهم وتفرُّغِهم مِن أعمالِهم، في المكانِ المعتادِ لذلك[٢].

﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾.

= تُوصَفُ بالخُلْفِ وعَدَمِه). ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٣/ ١٠٣، ١٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠١-٣٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨).

قيل: المعنى: في مكانٍ وسَطٍ بينَنا وبينَك. وممن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والزجَّاج، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠١-٣٠٢).

وقيل: المرادُ: في مكانٍ وسَطَ البلدِ؛ ليتمكَّنَ جميعُ النَّاسِ من الحضور. وممن قال بذلك: الشنقيطي. قال الشنقيطي: (أصح الأقوالِ في قولِه: ﴿سُوًى﴾ على قراءةِ الكسرِ والضمِّ: أنَّه مكانٌ وسَطٌ تستوي أطرافُ البلدِ فيه؛ لتوسُّطِها بينها، فلم يكنْ أقرَبَ للشَّرقِ مِن الغَربِ، ولا للجنوبِ مِن الشَّمالِ، وهذا هو معنى قولِ المفسِّرينَ: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أي: نصَفًا وعَدلًا؛ ليتمَكَّنَ جميعُ النَّاسِ أن يحضُروا). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

قال البقاعي: (أي: عيدُكم الذي اعتَدْتُم الاجتِماعَ فيه في المكانِ الذي اعتَدتُموه، فآثَرَ هنا ذِكرَ الزَّمانِ وإن كان يتضمَّنُ المكانَ؛ لِما فيه من عادةِ الجَمعِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٠٢).

وقال الشنقيطي: (أقوالُ أهلِ العلم في يومِ الزينةِ راجعةٌ إلى أنَّه يومٌ معروف لهم، يجتَمِعونَ فيه ويتزَيَّنونَ. سواءٌ قلنا: إنَّه يومُ عيدٍ لهم، أو يومُ عاشوراءَ، أو يومُ النيروز، أو يومٌ كانوا يتَّخِذونَ فيه سوقًا ويتزَيَّنون فيه بأنواعِ الزينةِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٩).

أي: وأن يُساقَ جَميعُ النَّاسِ مِن كلِّ ناحيةٍ لِحُضورِ اجتِماعِنا في وقتِ الضُّحَى[(١)].

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ٦٠ ﴾.

أي: فتولَّى فِرعَونُ[(٢)]، وشرَعَ يجمَعُ السَّحَرةَ مِن المدائِنِ، ثمَّ جاء لموعِدِ يومِ الزِّينةِ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ [يونس: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ * فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ * فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦ - ٤٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

قال ابنُ عاشور: (فقوله: ﴿يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ تعيينٌ للوَقتِ، وقوله: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ تعيينٌ للمكانِ، وقوله: ﴿ضُحًى﴾ تقييدٌ لمطلقِ الوَقتِ. والضُّحى: وقتُ ابتداء حرارة الشَّمسِ بعد طلوعِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٦).

(٢) قيل: المعنى: انصرف ليجمَعَ السَّحرةَ ويهيئَ ما يريدُ من الكيد. وممَّن قال بذلك: ابن كثير، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٧).

وقيل: المعنى: فأدبر فِرعَونُ مُعرِضًا عمَّا أتاه به من الحَقِّ. وممن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٣).

وجَمَع البقاعي بين المعنيينِ فقال: (﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾ عن موسى إلى تهيئةِ ما يريدُ مِن الكيدِ، بعد تولِّيه عن الانقيادِ لأمرِ اللهِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٧، ٢٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٢).

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ٦١﴾.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖ﴾.

أي: قال موسى للسَّحَرةِ[1]: ويلَكم! لا تختَلِقوا كَذبًا على اللهِ[2]؛ فيَستأصِلَكم بهلاكٍ وعذابٍ مِن عِندِه[3].

﴿وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾.

أي: وقد فات ما رجاه وطَلَبه وأمَّلَه مِن وراءِ كَذِبِه على اللهِ: مَن فَعَل ذلك[4].

---

(١) ممن نصَّ على أنَّ الخطابَ كان للسحرةِ: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والبغوي، وابنُ عطيةَ، وابنُ الجوزي، والرسعني، والنسفي، والخازنُ، والعُليمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦٣)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٠).

وقيل: الخطابُ لفرعونَ ومَن معَه مِن السحرةِ. وممن اختاره القرطبي، والمظهري. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١٤)، ((التفسير المظهري)) (٦/ ١٤٨).

قال البقاعي: ﴿قَالَ لَهُم﴾ أي: لأهلِ الكيدِ، وهم السحرةُ وغيرُهم). ((نظم الدرر)) (١/ ١٧).

(٢) قيل: المراد: أي: لا تخَيِّلوا للنَّاسِ بأعمالِكم إيجادَ أشياءَ لا حقائِقَ لها، وأنَّها مخلوقةٌ وليست مخلوقةً؛ فتكونوا قد كذبتُم على الله. وممن قال بذلك: ابن كثير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٣١).

وقيل: المعنى: لا تَدْعُوا آياتِه ومعجزاتِه سِحرًا. وممن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والبيضاوي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٠).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾

أي: فلمَّا سَمِعَ السَّحَرةُ كلامَ موسى اختَلَفوا[1]، وتجاذَبوا الحديثَ سِرًّا فيما بينَهم، وبالَغوا في إخفائِه مِن فِرعَونَ[2].

---

(١) وممن اختار أنَّ التنازُعَ وقَع بينَ السحرةِ: ابنُ جريرٍ، والزجَّاجُ، والواحدي، والسمرقندي، وابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٠).

قال الرازي: (قال بعضُهم: دخَل في التنازعِ فرعونُ وقومُه، ومنهم مَن يقولُ: بل هم السحرةُ وحدَهم، والكلامُ محتملٌ، وليس في الظاهرِ ما يدلُّ على الترجيحِ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٥، ٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠٤).

وقال ابن كثير: (﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ قيل: معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقائلٌ يقولُ: ليس هذا بكلامِ ساحرٍ، إنما هذا كلام نبيٍّ. وقائلٌ يقول: بل هو ساحرٌ. وقيل غير ذلك، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠١).

قال القرطبي: (﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ قال قتادةُ: قالوا: إن كان ما جاء به سحرًا فسنغلبُه، وإن كان مِن عندِ الله فسيكون له أمرٌ، وهذا الذي أسرُّوه. وقيل: الذي أسرُّوا قولُهم: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣] الآيات، قاله السديُّ ومقاتلٌ. وقيل: الذي أسرُّوا قولُهم: إن غلَبَنا اتَّبَعْناه، قاله الكلبيُّ، دليلُه ما ظهر مِن عاقبةِ أمرِهم. وقيل: كان سرُّهم أن قالوا حين قال لهم موسَى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه: ٦١]: ما هذا بقولِ ساحرٍ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١٥).

﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما أسَرُّوه مِن النَّجوَى؛ حكَى عنهم ما أظهَروه، ومجموعُه يدُلُّ على التَّنفيرِ عن موسى -عليه السَّلامُ- ومتابعةِ دينِه[1].

﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾.

أي: قال السَّحرةُ: ما موسى وهارونُ إلَّا ساحرانِ[2].

﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا ﴾.

أي: يريدُ موسى وهارونُ أن يُخرِجاكم مِن وطَنِكم؛ أرضِ مِصرَ، بالاستيلاءِ عليها بسِحرِهما الذي أظهراه[3].

﴿ وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾.

ويَذْهبا بدينِكم وشريعتِكم ومذهبِكم الذي هو أفضلُ المذاهبِ، بإظهارِ مذهبِهما، وإعلاءِ دينِهما[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((الجُمَل في النحو)) للخليل بن أحمد (ص: ١٥٩، ١٦٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤١).

قال ابنُ كثير: (يُرِيدانِ في هذا اليومِ أنْ يَغْلِباكم وقومَكم ويَسْتوليا على النَّاسِ، وتتبَعَهما العامَّةُ، ويُقاتِلا فرعونَ وجنودَه، فينتَصِرا عليه ويُخْرِجاكم مِن أرضِكم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٣٦).

قال ابنُ الجوزي: (وفي الطريقةِ قولانِ: =

= أحدُهما: بدينِكم المُستقيمِ. رواه الضَّحَّاكُ عن ابنِ عبَّاسٍ. وقال أبو عُبيدةَ: بسُنَّتِكم ودينِكم وما أنتم عليه، يقالُ: فلانٌ حَسَنُ الطَّريقةِ.

والثاني: بأمثَلِكم. رواه ابنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ. وقال مجاهِدٌ: بأُولي العَقلِ، والأشرافِ، والأسنانِ. وقال الشعبيُّ: يَصرِفانِ وُجوهَ النَّاسِ إليهما. قال الفرَّاءُ: الطريقةُ: الرِّجالُ الأشرافُ، تقولُ العرَبُ للقَومِ الأشرافِ: هؤلاء طريقةُ قَومِهم، وطرائِقُ قَومِهم... وقال الزجَّاجُ: ومعنى المُثلى والأمثَلُ: ذو الفَضلِ الذي به يَستحِقُّ أن يُقالَ: هذا أمثَلُ قَومِه، قال: والذي عندي أنَّ في الكلامِ مَحذوفًا، والمعنى: يذهبَا بأهلِ طَريقتِكم المُثلى، وقَولُ العَرَبِ: هذا طريقةُ قَومِه، أي: صاحِبُ طَريقتِهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦٥).

وممن اختار في الجملةِ أنَّ الطريقةَ تعني الدينَ والشريعةَ والمذهبَ والسنةَ والعادةَ: الكسائي -كما في ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٥٢)-، وأبو عبيدة، والسمعاني، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والعُليمي، والألوسي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٥).

وممن اختار أنَّ الطريقةَ تعني الرجالَ الأشرافَ: الفرَّاءُ، وابنُ قتيبةَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقندي، ومكي، والواحدي، والمحلي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٨٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٠٤)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٦٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤١١).

قال الواحدي: (والمعنى: أنْ يَغلِبا بسِحرِهما، فتَمْثُلَ إليهما السَّادةُ والأشرافُ منكم. وقال قتادة: «طريقتُكم المثلى يومَئذٍ بنو إسرائيل كانوا أكثَرَ القَومِ عددًا وأموالًا، فقالوا: إنَّما يريد أن يذهَبَا بهما لأنفُسِهم». فجعل قتادةُ هؤلاء الأفاضِلَ من بني إسرائيلَ. وهذا قولُ ابن عباس في رواية الوالبي: «هم بنو إسرائيل». هذا الذي ذكَرْنا قولُ المفَسِّرين، وأهلِ التأويلِ، وعلى هذا مقاتِلٌ والكلبيُّ). ((البسيط)) (١٤/ ٤٥٢).

وقال الزجَّاجُ: (والذي عندي -والله أعلم- أنَّ في الكلام محذوفًا يدُلُّ عليه ما بَقِي. إنَّما المعنى: يذهبا بأهلِ طَريقتِكم المُثْلى). ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٦٤). =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا۟﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿فَاجْمَعُوا﴾ مِن الجَمعِ. أي: فاجمَعوا سِحرَكم، فلا تَدَعوا مِن كَيدِكم شيئًا إلَّا جِئتُم به[(١)].

٢- قراءةُ ﴿فَأَجْمِعُوا۟﴾ من العَزمِ والإحكامِ. أي: فأحكِموا سِحرَكم واعزِمُوا كلُّكم على كَيدِ عَدُوِّكم[(٢)].

﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾.

أي: قال السَّحَرةُ بعضُهم لبعضٍ[(٣)]: فاجتَهِدوا في إحكامِ سحرِكم، واعزِموا

= وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ طريقةُ السِّحرِ: ابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

وقال البقاعي: (﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ هذه السِّحريةِ التي تَعِبتُم في تمهيدِها، وأفنى فيها أسلافُكم أعمارَهم، حتى بلغ أمرُها الغايةَ؛ وبدينِكم الذي به قِوامُكم). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٠٥).

وقيل: المرادُ بالطريقةِ: السيرة والمملكةُ والحالُ التي عليها. وممن اختاره ابنُ عطيةَ، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥١).

(١) قرأ بها أبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٤٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٥١-١٥٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٥٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٤٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٥١-١٥٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٥٦).

(٣) قال أبو حيان: (قيل: هو مِن كلامِ فرعونَ، والظاهرُ أنَّه مِن كلامِ السحرةِ بعضِهم لبعضٍ). =

كُلُّكم على كيدِ موسى، ثمَّ احضُروا مُجتَمِعينَ في صَفٍّ[١].

﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾.

أي: وقد فاز اليومَ بمَطلوبِه مَن غلَبَ خَصْمَه، وقَهَره[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوًى﴾ هذا كلامُ فِرعَونَ الذي زَوَّقه وصَنَّعه ونَمَّقه، فأوقف به قَومَه عن السَّعادةِ، واستمَرَّ يقودُهم بأمثالِه، حتى أورَدَهم البَحرَ فأغرَقَهم، ثمَّ في غمراتِ النَّارِ أحرَقَهم؛ فعلى الكَيِّسِ الفَطِنِ أن ينقُدَ الأقوالَ والأفعالَ، والخواطِرَ والأحوالَ، ويَعرِضَها على محَكِّ الشَّرعِ: الكتابِ والسُّنَّةِ، فما وافَقَ لَزِمَه، وما لا تركَه[٣].

= ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥١). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٠٤ - ١٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٧).

قال السعدي: (﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗا﴾ ليكون أمكن لعملِكم، وأهيبَ لكم في القلوبِ، ولئلا يتركَ بعضُكم بعضَ مقدوره من العملِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦).

قيل: الصَّفُّ هنا مرادٌ به الجِنسُ لا الواحِدةُ، أي: ثمَّ ائتوا صفوفًا. وممن قال بذلك: ابن جرير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٧).

وقيل: المعنى: اجتَمِعوا كلُّكم صفًّا واحدًا، وألقُوا ما في أيديكم دفعةً واحدةً. وممن ذهب إلى ذلك: ابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٧).

قال ابن كثير: (﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ أي: مِنَّا ومنه، أما نحن فقد وعَدَنا هذا المَلِكُ العطاءَ الجزيلَ، وأما هو فينالُ الرِّياسةَ العظيمةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠٢).

٢- موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جُمِع له السَّحَرةُ المَهَرةُ الذين وَضَعوا العِصِيَّ والحِبالَ، فكانت هذه العِصِيُّ والحِبالُ يُخَيَّلُ إلى النَّاسِ أنَّها حيَّاتٌ تسعى، حتى موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع إيمانِه وقُوَّتِه أوجس في نفسِه خِيفةً! لكنَّه قال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ هذه الكَلِمةُ أثَّرت تأثيرًا عظيمًا ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، وإذا حصل النِّزاعُ حَصَل الفَشَلُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. تنازعوا أمرَهم بينهم، وأخيرًا آمَنَ السَّحَرةُ! فكَلِمةُ الحَقِّ تؤثِّرُ إذا صدرت من إنسانٍ مُخلِصٍ، لا يريدُ أن يَفرِضَ قَولَه على غيرِه، إنَّما يريدُ أن يهديَ غَيرَه للحَقِّ الذي هو مرادُ الجميعِ؛ فإنَّه سيُؤَثِّرُ بإذنِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ ولهذا لا تَحقِرَنَّ كَلِمةَ الحَقِّ، ولا تَقُلْ: إنَّها لا تنفَعُ؛ فما من قلبٍ مِن قلوبِ بني آدَمَ إلَّا وهو بين إِصبَعينِ مِن أصابعِ الرَّحمنِ يُقَلِّبُه كيف يشاءُ[(١)].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى حِكايةً عن فِرعَونَ: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾ زعم أنَّ هذه الآياتِ التي أراه إيَّاها موسى سِحرٌ وتمويهٌ، المقصودُ منها إخراجُهم مِن أرضِهم، والاستيلاءُ عليها؛ ليكونَ كلامُه مُؤَثِّرًا في قلوبِ قَومِه؛ فإنَّ الطِّباعَ تَميلُ إلى أوطانِها، ويَصعُبُ عليها الخروجُ منها ومُفارقتُها، فأخبَرَهم أنَّ موسى هذا قَصدُه؛ لِيُبغِضوه ويَسْعَوا في محاربتِه[(٢)].

٢- قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ إنما واعَدَهم ذلك اليومَ لِيَكونَ عُلُوُّ كلمةِ الله، وظُهورُ دينِه، وكَبتُ الكافِرِ، وزهوقُ الباطِلِ:

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٧/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

على رؤوسِ الأشهادِ، وفي المَجمَعِ الغاصِّ[١]؛ لِتَقوى رغبةُ مَن رَغِبَ في الحَقِّ، ويَكِلَّ حَدُّ المُبطِلينَ وأشياعِهم، ويَكثُرَ المحَدِّثُ بذلك الأمرِ العَلَمِ في كلِّ بَدْوٍ وحَضَرٍ، ويَشيعَ في جَمعِ أهلِ الوَبَرِ والمَدَرِ[٢]؛ لأنَّ يوم الزينةِ ووقتَ الضحى يحصلُ فيه مِن كثرةِ الاجتماعِ، ورؤيةِ الأشياءِ على حقائقِها، ما لا يحصلُ في غيره، فيكون أظهرَ وأجلَى، وأبينَ وأوضحَ[٣].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ﴾ الخِطابُ بقَولِه: ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾ يجوزُ أن يكونَ أراد به حقيقةَ الدُّعاءِ، فيكونَ غيرَ جارٍ على ما أُمِرَ به من إلانةِ القَولِ لفِرعَونَ؛ إمَّا لأنَّ الخِطابَ بذلك لم يكُنْ مُواجِهًا به فِرعَونَ، بل واجهَ به السَّحَرةَ خاصَّةً، الذين اقتضاهم قَولُه تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾، أي: قال موسى لأهلِ كيدِ فِرعَونَ. وإمَّا لأنَّه لمَّا رأى أنَّ إلانةَ القَولِ له غيرُ نافعةٍ؛ إذ لم يَزَل على تَصميمِه على الكُفرِ: أغلظَ القَولُ زَجرًا له بأمرٍ خاصٍّ مِن اللهِ في تلك السَّاعةِ؛ تقييدًا لمُطلَقِ الأمرِ بإلانةِ القَولِ. وإما لأنَّه لما رأَى تمويهَهم على الحاضرينَ أنَّ سحرَهم معجزةٌ لهم مِن آلهتِهم ومِن فِرعَونَ ربِّهم الأعلَى وقالوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] رأَى واجبًا عليه تغييرَ المنكرِ بلسانِه بأقصَى ما يستطيعُ؛ لأنَّ ذلك التغييرَ هو المناسبُ لمقامِ الرسالةِ.

ويجوزُ أن تكونَ كلمةُ ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾ مُستعمَلةٌ في التعجُّبِ من حالٍ غَريبةٍ، أي: أعجَبُ منكم وأحَذِّرُكم؛ فحُكِي تَعجُّبُ موسى باللَّفظِ العَربيِّ الدَّالِّ على العَجَبِ الشَّديدِ[٤].

---

(١) الغاصِّ: المُمتَلِئ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٨-٢٤٩).

٤- ضَمِنَ سُبحانَه أنَّه لا بُدَّ أن يخيبَ أهلُ الافتراءِ وأنَّه لا يهديهم، وأنَّه يستأصِلُهم بعذابِه؛ قال تعالى إخبارًا عن كليمِه موسى أنَّه قال: ﴿وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾[1]، ففيه دَلالةٌ على عِظَمِ الافتراءِ، وأنَّه يترتَّبُ عليه هَلاكُ الاستئصالِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ هذه الجُملةُ بينَ الجُمَلِ الَّتي حكَتْ مُحاورةَ مُوسى وفِرعَونَ، وقعَتْ هذه كالمُقدِّمةِ لإعادةِ سَوقِ ما جَرى بين مُوسى وفِرعونَ من المُحاورةِ؛ فيجوزُ أنْ تكونَ مَعطوفةً على جُملةِ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]؛ باعتبارِ ما يُقدَّرُ قبْلَ المعطوفِ عليها مِن كلامٍ حُذِفَ اختصارًا، تقديرُه: فأَتَياهُ، فقالا ما أمَرْناهما أنْ يقولاهُ، قال: فمَن ربُّكما... إلخ. ويجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُعترِضةً بينَ ما قبْلَها، والواوُ اعتراضيَّةٌ[3].

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ فيه التَصديرُ بالقسَمِ؛ لإبرازِ كَمالِ العنايةِ بمَضمونِها. وإسنادُ الإراءةِ إلى نُونِ العظمةِ؛ لتَهويلِ أمْرِ الآياتِ، وتَفخيمِ شأْنِها، وإظهارِ كَمالِ شَناعةِ اللَّعينِ وتَماديهِ في المُكابَرةِ والعنادِ[4]. وفيه تأكيدُ الكلامِ بلامِ القسَمِ، و(قد) مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن تصلُّبِ فِرعونَ في عنادٍ. وتأكيدُ الآياتِ بأداةِ التَّوكيدِ ﴿كُلَّهَا﴾؛ لزِيادةِ التَّعجيبِ مِن عِنادِه[5].

- وقولُه: ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ ليس عامًّا؛ إذ لم يُرِهِ تعالى جميعَ الآياتِ،

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤١-٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٢).

وإنَّما المعنى: آياتِنا الَّتي رآها؛ فكانتِ الإضافةُ تُفِيدُ ما تُفِيدُه الألِفُ واللَّامُ من العهْدِ. وإنَّما رأى العصَا واليدَ، وغيرَ ذلك ممَّا رآهُ، فجاء التَّوكيدُ بالنِّسبةِ لهذه الآياتِ المعهودةِ[١]. وقيل: المعنى: آياتٍ بكَمالِها. وأضافَ الآياتِ إليه على حسَبِ التَّشريفِ، كأنَّه قال: آياتٍ لنا[٢]، وقيل غير ذلك[٣].

- وأُجْمِلَتِ الآياتُ وعُمِّمَت فلم تُفصَّلْ؛ لأنَّ المقصودَ هنا بَيانُ شِدَّةِ تصلُّبِه في كُفْرِه، بخلافِ آيةِ سُورةِ (الأعرافِ) الَّتي قُصِدَ منها بَيانُ تعاقُبِ الآياتِ ونُصْرَتِها[٤].

- قولُه: ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾، أي: فكذَّبَها جميعًا، وأَبَى أنْ يقبَلَ شيئًا منها. وقيل: فكذَّبَ الآياتِ، وأَبى قَبولَ الحقِّ؛ فحُذِفَ مفعولُه إمَّا بواسطةِ القرينةِ الظَّاهرةِ أو المعنويَّةِ؛ فعلى المعنى الأوَّلِ: (أبى): تَتميمٌ، وعلى الثَّاني: تَكميلٌ؛ لأنَّ الحقَّ أعمُّ من المُعجِزاتِ[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لكَيفيَّةِ تَكذيبِه وإبائِه، والهمزةُ في ﴿أَجِئْتَنَا﴾ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِه، وادِّعاءِ أنَّه أمْرٌ مُحالٌ[٦]؛ ولذلك فُرِّعَ عليه القسَمُ على أنْ يأْتِيَه بسِحْرٍ مثْلِه، والقسَمُ من أساليبِ إظهارِ الغضَبِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٨٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٥).

- قولُه: ﴿بِسِحْرِكَ﴾ تَعلُّلٌ وتَحيُّرٌ؛ وإلَّا فكيف يَخْفَى عليه أنَّ ساحرًا لا يقدِرُ أنْ يُخرِجَ مَلِكًا مثْلَه من أرْضِه، ويَغْلِبَه على مُلْكِه بالسِّحرِ[١]؟ وإضافَتُه السِّحرَ إلى ضَميرِ مُوسى قصَدَ منها تَحقيرَ شأْنِ هذا الَّذي سمَّاهُ سِحْرًا[٢].

- وإنَّما جعَلَ فِرعونُ العِلَّةَ في مَجِيءِ مُوسى إليه أنَّها قصْدُه أنْ يُخرِجَهم من أرْضِهم، قياسًا منه على الَّذين يَقومون بدَعوةٍ ضِدَّ المُلوكِ؛ أنَّهم إنَّما يَبْغُون بذلك إزالَتَهم عن المُلْكِ، وحُلولَهم مَحلَّهم؛ فضَميرُ المُتكلِّمِ المُشارِكِ مُستعمَلٌ في التَّعظيمِ، لا في المُشارَكةِ؛ لأنَّ مُوسى لم يَصدُرْ عنه ما يُشَمُّ منه إخراجُهم من أرْضِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ ضَميرُ المُتكلِّمِ المُشارِكِ مُستعمَلًا في الجماعةِ تَغليبًا، ونزَّلَ فِرعونُ نفْسَه واحدًا منها[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾

- قولُه: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ الفاءُ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها، واللَّامُ جوابُ قسَمٍ مَحذوفٍ[٤]، وأسنَدَ الإتيانَ ﴿بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ إلى ضَميرِ نفْسِه؛ تَعظيمًا لشأْنِه[٥].

- قولُه: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ تَقديمُ ضَميرِه على ضَميرِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتوسيطُ كَلمةِ النَّفيِ بينهما

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٤).

في قولِه: ﴿نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ﴾؛ للإيذانِ بمُسارَعتِه إلى عدَمِ الإخلافِ، وأنَّ عدَمَ إخلافِه لا يُوجِبُ إخلافَه عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ؛ ولذلكَ أُكِّدَ النَّفيُ بتَكريرِ حرْفِه[1].

- قولُه: ﴿مَوۡعِدًا﴾ الموعِدُ هنا يجوزُ أنْ يُرادَ به المصدرُ المِيميُّ، أي: الوعدُ، وأنْ يُرادَ به مكانُ الوعْدِ، وهذا إيجازٌ في الكلامِ[2].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾

- إن قيل: كيف طابَقَ جوابُ موسى: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾، -ولا بُدَّ مِن أنْ تجعَلَه زمانًا- قولَ فرعونَ: ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدًا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾؛ والسُّؤالُ واقِعٌ عن المكانِ لا عن الزَّمانِ، **فالجوابُ**: لأنَّه مُطابِقٌ معنًى وإنْ لم يُطابِقْ لفْظًا؛ لأنَّهم لا بُدَّ لهم مِن أنْ يَجتمِعوا يومَ الزِّينةِ في مكانٍ بعَينِه، مُشتهَرٌ باجتماعِهم فيه في ذلك اليومِ، فبذِكْرِ الزَّمانِ عُلِمَ المكانُ؛ فتَعيينُ الموعِدِ غيرِ المُخْلَفِ يَقْتضي تَعيينَ زمانِه لا مَحالةَ؛ إذ لا يُتصوَّرُ الإخلافُ إلَّا إذا كان للوعدِ وقْتٌ مُعيَّنٌ، ومكانٌ مُعيَّنٌ، فمِن ثَمَّ طابَقَه جوابُ مُوسى بقولِه: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾؛ فقولُه: ﴿يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ تَعيينٌ للوقْتِ، وقولُه: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ تَعيينٌ للمكانِ، وقولُه: ﴿ضُحًى﴾ تَقييدٌ لمُطلَقِ الوقْتِ[3].

- قولُه: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ بناه للمَفعولِ؛ لأنَّ القَصدَ الجَمعُ، لا كونُه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٦).

مُعَيَّنٍ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ في تَفريعِ التَّولِّي وجمْعِ الكيدِ على تَعيينِ مُوسى للموعِدِ: إشارةٌ إلى أنَّ فِرعونَ بادَرَ بالاستعدادِ لهذا الموعِدِ، ولم يُضِعِ الوقْتَ للتَّهيئةِ له[٢].

- قولُه: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ (ثُمَّ) للمُهلةِ الحقيقيَّةِ والرُّتبيَّةِ معًا؛ لأنَّ حُضورَه للموعِدِ كان بعْدَ مُضِيِّ مُهْلةِ الاستعدادِ، ولأنَّ ذلك الحُضورَ بعْدَ جمْعِ كيدِه أهَمُّ من جمْعِ الكيدِ؛ لأنَّ فيه ظُهورَ أثرِ ما أعَدَّه[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على السُّؤالِ، يَقْضي بأنَّ المُترقَّبَ من أحوالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينئذٍ، والمُحتاجَ إلى السُّؤالِ والبَيانِ، ليس إلَّا ما صدَرَ عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من الكلامِ، وأمَّا إتيانُه أوَّلًا فأمرٌ مُحقَّقٌ غَنِيٌّ عن التَّصريحِ بهِ، كأنَّهُ قِيلَ: فماذا صنَعَ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عندَ إتيانِ فِرعونَ بما جمَعَهُ من السَّحرةِ؟ فقيل: قال لهم بطَريقِ النَّصيحةِ: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾[٤].

- قولُه: ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ ﴾ الافتراءُ: اختِلاقُ الكذِبِ، والجمْعُ بينَه وبينَ ﴿كَذِبًا ﴾؛ للتَّأكيدِ[٥].

- جُملةُ: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَها، وهي

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٩).

مَسوقةٌ مَساقَ التَّعليلِ للنَّهيِ؛ بعْدَ أنْ وعَظَهم، فنهاهُمْ عن الكذِبِ على اللهِ، وأنذَرَهم عذابَه؛ ضرَبَ لهم مثَلًا بالأُمَمِ البائدةِ الَّذين افْتَرَوا الكذِبَ على اللهِ، فلم يَنْجَحوا فيما افتَرَوا لأجْلِه. و(مَن) الموصولةُ للعُمومِ[١].

٧- قولُه تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ جعْلُ النَّجْوى مَعمولًا لـ ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ يُفيدُ المُبالَغةَ في الكِتْمانِ؛ كأنَّه قيل: أسَرُّوا سِرَّهم. وزادَهُ مُبالَغةً قولُه: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ المُقْتضي أنَّ النَّجْوى بين طائفةٍ خاصَّةٍ لا يَشترِكُ معهم فيها غيرُهم[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾

- نَسَبوا السِّحرَ أيضًا لهارونَ؛ لَمَّا كان مُشترِكًا معه في الرِّسالةِ، وسالِكًا طَريقتَه، وعلَّقُوا الحُكْمَ على الإرادةِ -وهم لا اطِّلاعَ لهم عليها-؛ تَنقيصًا لهما، وحَطًّا من قدْرِهما، وقد كان ظهَرَ لهم من أمْرِ اليَدِ والعصا ما يدُلُّ على صِدْقِهما[٣].

٩- قولُه تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾

- قولُه: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ تَصريحٌ بالمطلوبِ إثْرَ تَمهيدِ المُقدِّماتِ[٤].

- وأُطْلِقَ الجمْعُ على التَّعاضُدِ والتَّعاوُنِ -على قراءةِ ﴿فَاجْمَعُوا﴾ بهمزةِ وصلٍ وفتحِ الميمِ-؛ تَشبيهًا للشَّيءِ المُختلِفِ بالمُتفرِّقِ، وهو مُقابِلُ قولِه: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾. وسَمَّوا عمَلَهم كيدًا؛ لأنَّهم تَواطؤوا على أنْ يُظْهِروا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦).

للعامَّةِ أنَّ ما جاء به مُوسى ليس بعَجيبٍ، فهم يأْتون بمثْلِه أو أشَدَّ منه؛ ليَصْرِفوا النَّاسَ عن سَماعِ دَعوتِه، فيَكيدوا له بإبطالِ خصِّيصيَّةِ ما أتى به[1].

- قولُه: ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ من قِبَلِهم مُؤكِّدٌ لِمَا قبْلَه من الأمرينِ؛ فهو تَذييلٌ للكلامِ يجمَعُ ما قَصَدوه مِن تآمُرِهم، بأنَّ الفلاحَ يكونُ لمَن غلَبَ وظهَرَ في ذلك الجمْعِ. فـ﴿ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ مُبالَغةٌ في عَلا، أي: علا صاحِبَه وقهَرَه، فالسِّينُ والتَّاءُ للتَّأكيدِ مثْلُ استأْخَرَ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٧).

الآيات (٦٥-٧٦)

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ
وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ
حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ
لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي
جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ٧١ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ
وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا
خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ
لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ
٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُخَيَّلُ﴾: أي: يُشَبَّهُ ويُظَنُّ، وأصلُ (خيل): يدُلُّ على حركةٍ في تلوُّنٍ[١].

﴿فَأَوۡجَسَ﴾: أي: أضمرَ وأحَسَّ، والوَجْسُ: الصَّوتُ الخفيُّ، وأصلُه يدُلُّ على إحساسٍ بِشَيءٍ، وتَسَمُّعٍ له[٢].

﴿خِيفَةٗ﴾: أي: خَوفًا، والخَوفُ: توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مَظنونةٍ أو معلومةٍ، وأصلُه يدُلُّ على الذُّعرِ والفَزَعِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٠)، ((غريب =

﴿ثَقِفُوا﴾: أي: تَلْتَهِمْ وتَبتَلِعْ، يقال: لَقِفتُ الشَّيءَ ألقَفُه، وتَلقَّفتُه: أي: تَناوَلتُه بسُرعةٍ[١].

﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾: أي: مخالفًا في قَطعِ ذلك منكم؛ يَدِه اليُمنى ورِجلِه اليُسرى، يخالِفُ بينَ قَطعِهما[٢].

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾: أي: لأجعَلَنَّكم مُثلةً، ولأقتُلَنَّكم، والصَّلبُ: تعليقُ الإنسانِ للقَتلِ، قيل: هو شدُّ صُلْبِه على خَشَبٍ[٣].

﴿نُّؤْثِرَكَ﴾: أي: نختارَك، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على تَقديمِ الشَّيءِ[٤].

﴿تَزَكَّىٰ﴾: أي: تطهَّرَ مِن الشِّركِ والفواحِشِ، وأصلُ (زكي): يدلُّ على نماءٍ وزيادةٍ[٥].

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبرُ اللهُ تعالى عمَّا جرَى بينَ موسَى عليه السلامُ والسحرةِ، وأنَّ السَّحَرةَ قالوا لِموسَى عليه السَّلامُ: إمَّا أن تُلقِيَ عَصاك أوَّلًا، وإمَّا أن نبدأَ فنُلقِيَ حِبالَنا وعِصِيَّنا قَبلَك. قال لهم موسى: بل ألقُوا أنتم. فألقَوا حبالَهم وعِصِيَّهم، فخُيِّلَ لموسى مِن قُوَّةِ سِحرِهم أنَّها حَيَّاتٌ تتحرَّكُ! فشعَرَ موسى في نفسِه بالخَوفِ، فقال الله لموسى: لا تَخَفْ؛ فإنَّك أنت الأعلى المنتَصِرُ على هؤلاء السَّحَرةِ، وعلى فِرعَونَ وجُندِه، وألقِ عَصاك التي في يمينِك تَبتَلِعْ حِبالَهم وعِصِيَّهم؛ فإنَّ الذي عَمِلوه مَكرُ ساحِرٍ وتخييلُ سِحْرٍ، ولا يظفَرُ السَّاحِرُ بمَطلوبِه أينما كان.

فألقى موسى عَصاه، فابتلَعَت عِصِيَّ السَّحَرةِ وحِبالَهم، وظهَرَ الحقُّ وقامت الحُجَّةُ عليهم. فألقى السَّحَرةُ أنفُسَهم على الأرضِ ساجدينَ، وقالوا: آمَنَّا برَبِّ هارونَ وموسى.

ثم بيَّن الله تعالى موقفَ فرعونَ مِن السحرةِ، واتهامَه لهم، ثم تهديدَهم، فقال تعالى: قال فِرعَونُ للسَّحَرةِ: أصدَّقتُم بموسى واتَّبَعتُموه، وأقرَرْتُم له بالنبُوَّةِ قبل أن آذَنَ لكم بذلك؟ إنَّ موسى لَعظيمُكم ورئيسُكم الذي عَلَّمكم السِّحرَ، لأُقطِّعنَّ مِن كُلِّ واحدٍ منكم يدَه اليُمنى مع رِجلِه اليُسرى أو العكس، ولأُصلِّبَنَّكم على جذوعِ النَّخلِ، ولتعلَمُنَّ -أيُّها السَّحَرةُ- مَن هو أشَدُّ عذابًا وأدوَمُ له!

ثمَّ ذكَر الله تعالى موقفَ السحرةِ مِن تهديدِ فرعونَ لهم، فقال تعالى: قال السَّحَرةُ لفِرعَونَ: لن نُفَضِّلَك على ما جاءنا مِن البيِّناتِ الدَّالَّةِ على صِدقِ موسى، ولن نُفَضِّلَك على اللهِ الذي خلَقَنا، فافعَلْ ما أنت فاعِلٌ بنا، إنَّما ينفُذُ أمرُك في هذه الحياةِ الدُّنيا، وعذابُك فيها ما هو إلَّا عذابٌ مُنتَهٍ بانتهائِها، إنَّا آمَنَّا برَبِّنا وصدَّقْنا رَسولَه؛ لِيَغفِرَ لنا ذُنوبَنا مِن الكُفرِ والمعاصي، وما أكرَهْتَنا عليه مِن

عَمَلِ السِّحرِ في مُعارضةِ موسى. واللهُ خيرٌ لنا مِنك -يا فِرعَونُ- وأجرُه خَيرٌ لنا مِن أجرِك، وهو أدوَمُ عذابًا لِمَن عصاه، وخالَف أمْرَه.

إنَّه مَن يأتِ رَبَّه كافرًا به، فإنَّ له نارَ جهنَّمَ يُعَذَّبُ بها، لا يموتُ فيها فيَستريحَ، ولا يحيا حياةً يتلذَّذُ بها، ومَن يأتِ رَبَّه مُؤمِنًا به قد عَمِلَ الأعمالَ الصَّالحةَ، فله المنازِلُ العاليةُ؛ وهي جنَّاتُ إقامةٍ دائمةٍ، تجري مِن تحتِ أشجارِها وغُرَفِها الأنهارُ، ماكثينَ فيها أبدًا، وذلك النَّعيمُ المقيمُ ثَوابٌ مِن الله لِمَن طهَّر نَفسَه مِن الشِّركِ والمعاصي، ونمَّاها بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥﴾.

أي: فأجمَعَ السَّحَرةُ كَيدَهم، وجاؤوا صَفًّا، وقالوا: يا موسى اختَرْ، فإمَّا أن ترميَ عَصاك قَبْلَنا، وإمَّا أن نرميَ حِبالَنا وعِصِيَّنا قَبلَك[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥].

﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾.

﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْ﴾.

أي: قال لهم موسى: بل ألقُوا أنتم أوَّلًا ما تريدونَ إلقاءَه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٠٧، ١٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٣).
قال السعدي: (خيَّروه موهمينَ أنَّهم على جَزمٍ مِن ظُهورِهم عليه بأيِّ حالةٍ كانت) ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٢)، ((أضواء البيان)) =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۞ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٣، ٤٤].

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

أي: فألقَى السَّحرةُ ما معهم فإذا حبالُهم وعِصِيُّهم يُشَبَّهُ لموسى بسَبَبِ سِحرِهم أنَّها تتحرَّكُ[1]!

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: فوجَدَ موسى في نفسِه خوفًا[2].

= للشنقيطي (٤/ ٣٣، ٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٠٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٨).

قال الشنقيطي: (اختلف العُلَماءُ في السِّحرِ: هل هو حقيقةٌ أو هو تخييلٌ لا حقيقةَ له؟ والتحقيقُ أنَّ منه ما هو حقيقةٌ، ومنه ما هو تخييلٌ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١، ٥٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٢، ٤٤٣).

قال ابنُ عطيَّةَ: (وقولُه تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ﴾ عبارةٌ عما يعتري نَفسَ الإنسانِ إذا وقع ظَنُّه في أمرٍ على شَيءٍ يَسوءُه، وظاهِرُ الأمرِ كُلِّه الصَّلاحُ، فهذا الفِعلُ مِن أفعالِ النَّفسِ يُسمَّى الوجيسَ، وعَبَّر المفسِّرون عن «أَوْجَسَ» بـ «أضمَرَ»، وهذه العبارةُ أعَمُّ مِن الوَجيسِ بكثيرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١).

قال ابنُ الجوزي: (في خَوفِه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّه خوفُ الطَّبعِ البَشَريِّ.

والثاني: أنَّه لَمَّا رأى سِحْرَهم مِن جِنسِ ما أراهم في العصا، خاف أن يلتَبِسَ على النَّاسِ أمرُه ولا يؤمِنوا، فقيل له: لا تخَفْ؛ إنَّك أنت الأعلى عليهم بالظَّفَرِ والغَلَبةِ، وهذا أصحُّ مِنَ الأوَّلِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦٧). =

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: قُلْنا لموسى تثبيتًا وتَطمينًا: لا تخفْ؛ إنَّك أنت الغالِبُ القاهِرُ، المنتَصِرُ على فِرعَونَ وسَحَرتِه وجُندِه[1].

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾.

أي: وألقِ عصاك التي في يمينِك تبتَلِعْ بقُوَّةٍ وسُرعةٍ حِبالَهم وعِصِيَّهم التي خَيَّلوا إلى النَّاسِ بسِحرِهم أنها حيَّاتٌ تتحَرَّكُ[2].

﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖ﴾.

أي: إنَّ الذي صَنَعه هؤلاء السَّحرةُ حِيلةٌ من ساحِرٍ[3].

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

أي: ولا يظفَرُ السَّاحِرُ بمَطلوبِه أينما تَوجَّه، لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ فكَيدُه

= وممَّن قال بنحوِ القولِ الثاني: ابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٢).

وقال ابن عاشور: (وإنما خاف موسى مِن أن يَظهرَ أمرُ السَّحرةِ فيُساويَ ما يَظهَرُ على يديه مِن انقلابِ عصاه ثُعبانًا؛ لأنَّه يكونُ قد ساواهم في عملِهم، ويكونون قد فاقوه بالكثرةِ، أو خشِيَ أن يكونَ اللهُ أراد استدراجَ السَّحَرةِ مُدَّةً، فيُمليَ لهم بظُهورِ غَلَبِهم عليه ومَدِّه لِما تكونُ له العاقِبةُ، فخَشِيَ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٩).

وذكَر الرازي في سببِ هذا الخوفِ أوجهًا أُخرَى. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٨).

ليس بمُثمِرٍ له ولا ناجِحٍ[(١)].

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: فألقَى موسى عصاه، وابتلَعَت عِصِيَّ السَّحَرةِ وحِبالَهم، فعَلِموا عِلمَ اليَقينِ أنَّ هذا الأمرَ ليس مِن قَبيلِ السِّحرِ والحِيَلِ، وأنَّه حَقٌّ لا مِريةَ فيه، ومُعجزةٌ مِن الإلهِ الحَقِّ الذي يقولُ للشَّيءِ كُن فيكونُ، فحينَها وقَعَ السَّحَرةُ على الأرضِ ساجِدينَ لله قائلينَ: آمَنَّا باللهِ رَبِّ هارونَ وموسى[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ * فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ * وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧-١٢٢].

﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾.

أي: قال فِرعَونُ للسَّحَرةِ: أصدَّقتُم بموسى، وأقرَرْتُم له بالنبُوَّةِ قبلَ أن أسمَحَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ١٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٩، ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٢).

قال القرطبي: (لِمَا رأوا من عظيمِ الأمرِ، وخرقِ العادةِ في العصا، فإنها ابتلعت جميعَ ما احتالوا به مِن الحبالِ والعصيِّ... ثم عادت عصا، لا يعلمُ أحدٌ أين ذهبتِ الحبالُ والعصيُّ إلا الله تعالى!). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٤).

لكم بالإيمانِ بما يدعوكم إليه؟! فهذا سوءُ أدبٍ منكم، وتجرُّؤٌ عليَّ[(١)]!!

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾.

أي: إنَّ موسى لَعظيمُكم ورئيسُكم الكبيرُ الَّذي علَّمَكم السِّحرَ، واتَّفقتُم معه على أن يَغلِبَكم؛ مكيدةً لي ولِقَومي[(٢)]!

كما قال تعالى حاكيًا قولَ فِرعَونَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣].

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾.

أي: قال فِرعَونُ للسَّحَرةِ مُقْسِمًا: لأقطِّعَنَّ مِن كلِّ ساحرٍ منكم يَدَه ورِجلَه مِن جِهَتينِ مُختَلِفَتينِ. أي: يقطَعُ يمنى اليدينِ ويُسرى الرِّجلَينِ، أو يُسرى اليَدَينِ، ويُمنى الرِّجلينِ[(٣)].

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾.

أي: ولأُصلِّبنَّكم على جُذوعِ النَّخلِ؛ تبشيعًا لقَتلِكم، ورَدعًا لأمثالِكم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٠٦)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ١٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣١٢).

﴿وَلَنَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

أي: ولتَعلَمُنَّ -أيُّها السَّحرةُ- مَن هو أشَدُّ عذابًا، وأدوَمُ عِقابًا[1]!

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: قال السَّحَرةُ بعد إيمانِهم: لن نُقَدِّمَك -يا فِرعَونُ- على الحَقِّ، فلن نتَّبِعَك ونختارَ دينك؛ طَلَبًا لما وعَدْتَنا مِن الأجرِ، أو السلامةِ مِما توعدْتَنا مِن العذابِ، ونكَذِّبَ لأجْلِك موسى بعدَ أن رأَينا المعجزاتِ الواضِحةَ الدَّالَّةَ على نبوتِه، وصِحَّةِ ما يدعو إليه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩).

قيل: المراد: يعني أنا، أو موسى أشدُّ عذابًا وأبقى. وممَّن اختار ذلك: يحيى بن سلام، وابن جرير. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٦).

وقيلَ: المرادُ: أنا أم رَبُّ موسى أشدُّ عذابًا وأبقى. وممن اختار ذلك: القرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩).

قال الشِّنقيطيُّ: (قَولُه في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ قال بعضُ أهل العلم: ﴿وَلَنَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ﴾: يعني: أنا أم رَبُّ موسى ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾. واقتصرَ على هذا القرطبيُّ. وعليه ففِرعَونُ يدَّعي أنَّ عَذابَه أشدُّ وأبقى مِن عذابِ الله! وهذا كقولِه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وقَولِه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وقَولِه: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾. وقال بعضُهم: ﴿وَلَنَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ﴾: أنا أمْ موسى أشَدُّ عذابًا وأبقى. وعلى هذا فهو كالتهَكُّم بموسى لاستضعافِه له، وأنَّه لا يَقدرُ على أن يُعَذِّبَ مَن لم يُطِعْه، كقَولِه: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾. واللهُ جلَّ وعلا أعلَمُ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٥).

﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾.

أي: ولن نُؤثِرَك على اللهِ الذي خلَقَنا، وأنشَأَنا من العَدَمِ، وابتدأَ خَلْقَنا مِن طينٍ؛ فهو المستَحِقُّ للعبادةِ والخُضوعِ لا أنت(١).

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾.

أي: فاصنَعْ ما شِئتَ أن تَصنَعَه بنا، وافعَلْ ما بدا لك؛ فلن نَرجِعَ عن إيمانِنا باللهِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٣٥).

قال الشنقيطي: (الواوُ في قوله: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ عاطفةٌ على ﴿مَا﴾ مِن قَولِه: ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: لن نختارَك على ما جاءنا مِن البيِّناتِ، ولا على الذي فَطَرنا أي: خلَقَنا وأبرَزَنا من العَدَمِ إلى الوجود. وقيل: هي واو القَسَم، والمقسَمُ عليه محذوفٌ دَلَّ عليه ما قبله، أي: والذي فَطَرَنا لا نُؤثِرُك على ما جاءنا من البيِّناتِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٦٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤).

وممن اختار أنَّ الواوَ عاطفةٌ: الفراء، والأخفش، وابن جرير، والزجاج، والواحدي، وابن كثير، وأبو السعود، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٨٧)، ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٦٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٥).

وجوَّز احتمالَ كونِها واوَ قَسَمٍ، من هؤلاء المفسرين: الفراءُ، وابنُ جرير، والزجاجُ، وابنُ كثير.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٥).

قال ابنُ عطيةَ: (هؤلاء السَّحَرةُ اختَلَف النَّاسُ: هل نفَذَ فيهم وعيدُ فِرعونَ؟ فقالت طائفةٌ: =

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم قال: ((ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ بهنَّ حَلاوةَ الإيمانِ: مَن كان اللهُ ورَسولُه أحَبَّ إليه مِمَّا سواهما، وأن يحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلَّا لله، وأن يَكرَهَ أن يَعودَ في الكُفرِ بعد أن أنقَذَه اللهُ منه، كما يكرَهُ أن يُقذَفَ في النَّارِ))[1].

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾.

أي: إنما ينفُذُ أمرُك، وتتسلَّطُ علينا، وتَقدِرُ على تعذيبِنا في هذه الحياةِ الدُّنيا الفانيةِ، وعذابُك فيها ينقضي ويَزولُ، ولا يضُرُّنا، ولا قَضاءَ لك ولا سُلطانَ علينا في الحياةِ الآخرةِ الباقيةِ التي نرجو فيها مِن رَبِّنا الجزاءَ الخالِدَ[2].

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾.

أي: إنَّا آمَنَّا بربِّنا وأقرَرْنا بتوحيدِه؛ لِيَغفِرَ لنا ذُنوبَنا من الكُفرِ والمعاصي، فيَستُرَها

= صلَبَهم على الجذوعِ كما قال، فأصبحَ القَومُ سَحَرةً، وأمسَوا شُهَداءَ بلُطفِ اللهِ لهم وبرَحمتِه! وقالت فرقةٌ: إنَّ فِرعونَ لم يفعَلْ ذلك، وقد كان الله تعالى وعد موسى أنَّه ومن معه الغالبونَ. وهذا كلُّه مُحتَمَلٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣).

وممَّن رأى أنهم قُتِلوا: ابن كثير، فقال: (الظاهِرُ أنَّ فِرعونَ -لعَنَه الله- صمَّم على ذلك، وفعَلَه بهم، رَحِمَهم الله؛ ولهذا قال ابنُ عباس وغيرُه مِن السلفِ: أصبحوا سحَرةً، وأمسَوا شُهَداءَ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٥).

وممَّن رأى أنهم لم يُقتَلوا: الشنقيطي، فقال بعدَ أن ذكَر القولينِ: (وأظهرهما عندي: أنَّه لم يقتُلْهم، وأنَّ اللهَ عصمهم منه لأجلِ إيمانهم الراسِخِ بالله تعالى؛ لأنَّ الله يقول لموسى وهارون: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]، والعِلمُ عند الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٤/ ٦٥).

(١) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٦، ١١٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٧).

علينا، ويتجاوَزَ عن مؤاخَذتِنا بها، ويَغفِرَ لنا ما أكرَهْتَنا عليه من العَمَلِ بالسحر، ومن ذلك معارضةُ مُعجزاتِ موسى به[١].

﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾.

أي: واللهُ خَيرٌ لنا منك، وأجرُه خَيرٌ لنا مِن أجرِك، وهو أدوَمُ ثوابًا للطائعينَ، وأدوَمُ عَذابًا للكافرينَ، وهو الحيُّ الذي لا يموتُ، ولا يزولُ مُلكُه، أما أنت ففانٍ هالكٌ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۞ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ [النحل: ٩٥، ٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤﴾.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾.

أي: إنَّه من يَمُتْ ويُلاقِ رَبَّه يومَ القيامةِ لِيُجازِيَه بعَمَلِه، والحالُ أنَّه كافِرٌ باللهِ؛ فإنَّ جزاءَه جهنَّمُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٥، ٢٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٧، ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٨).

قال ابن عطية: (قالت فِرقةٌ: هذه الآيةُ بجُملتِها من كلامِ السَّحَرةِ لِفرعَونَ على جهةِ الموعظةِ له والبيانِ فيما فعلوه، وقالت فرقة: بل هي مِن كلامِ الله تعالى لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ =

﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

أي: لا يموتُ الكافِرُ في جهنَّمَ فيَستريحَ من العذابِ، ولا يحيا حياةً هَنِيَّةً يتلَذَّذُ بها وينتَفِعُ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِي يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٢، ١٣].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أمَّا أهلُ النَّارِ الذين هم أهلُها، فإنَّهم لا يموتونَ فيها ولا يَحيَونَ، ولكِنْ ناسٌ أصابَتْهم النَّارُ بذُنوبِهم -أو قال: بخطاياهم- فأماتهم إماتةً، حتى إذا كانوا

= تنبيهًا على قبحِ ما فعَل فِرعَونُ، وحُسنِ ما فعل السَّحَرةُ، وتحذيرًا قد ضُمِّنَت القِصَّةُ المذكورةُ مِثالَه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٤).

وممن ذهَب إلى الرأيِ الأوَّلِ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٥).

وممن ذهَب إلى الرأيِ الثاني: الواحدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٨).

قال القرطبي: (مَن قال: هذا مِن قولِ السَّحرة قال: لعلَّ السحرةَ سمعوه مِن موسَى أو مِن بني إسرائيلَ إذ كان فيهم بمصرَ أقوامٌ، وكان فيهم أيضًا المؤمنُ مِن آلِ فِرعَون. قلتُ: ويحتملُ أن يكونَ ذلك إلهامًا مِن الله لهم أنطَقهم بذلك لما آمنوا، والله أعلم). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٨).

قال ابنُ عطية: (قولُه: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ مختَصٌّ بالكافِرِ؛ فإنَّه مُعَذَّبٌ عذابًا ينتهي به إلى الموتِ، ثمَّ لا يُجهَزُ عليه فيستريحَ، بل يعادُ جِلْدُه، ويجَدَّدُ عذابُه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣).

فَحمًا، أذِنَ بالشَّفاعةِ، فجيءَ بهم ضبائِرَ ضبائِرَ[١]، فبُثُّوا[٢] على أنهارِ الجَنَّةِ، ثم قيلَ: يا أهلَ الجَنَّةِ، أفيضوا عليهم، فيَنبُتونَ نباتَ الحِبَّةِ[٣] تكونُ في حَميلِ السَّيلِ[٤]))[٥].

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: ومَن يَمُت ويلاقِ رَبَّه يومَ القيامةِ، والحالُ أنَّه مُؤمِنٌ باللهِ وَحدَه لا شريكَ له، وقد عَمِلَ الأعمالَ الصَّالحاتِ؛ فأولئك لهم عندَ اللهِ الدَّرَجاتُ العاليةُ[٦].

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: وتلك الدَّرَجاتُ العُلا هي بساتينُ إقامةٍ تجري مِن تحتِ أشجارِها وغُرَفِها الأنهارُ، ماكِثينَ فيها أبدًا[٧].

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

أي: وذلك الثَّوابُ هو جزاءُ من طهَّر نَفسَه مِن الكُفرِ، والشِّركِ، والمعاصي،

---

(١) الضبائرُ هم الجماعاتُ في تفرقةٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٧١).

(٢) فبُثُّوا أي: فرِّقوا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٣٨).

(٣) الحِبَّةُ: هي بزرُ البقولِ والعشبِ تنبتُ في البراري، وجوانبِ السُّيولِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٣).

(٤) حميل السَّيلِ: هو ما يجيءُ به السيلُ مِن طينٍ وغيره. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٠٨).

(٥) رواه مسلم (١٨٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٧).

ونمَّاها بالإيمانِ، والعَمَلِ الصَّالحِ[١].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ في هذا الكلامِ مِن السَّحَرةِ دليلٌ على أنَّه ينبغي للعاقِلِ أن يوازِنَ بينَ لذَّاتِ الدُّنيا ولذَّاتِ الآخرةِ، وبينَ عذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ أظهَرَ السَّحَرةُ استخفافَهم بوعيدِ فِرعَون وبتَعذيبِهِ؛ إذ أصبَحوا أهلَ إيمانٍ ويَقينٍ، وكذلك شأنُ المؤمِنينَ بالرُّسُلِ إذا أشرَقَت عليهم أنوارُ الرِّسالةِ؛ فسُرعانَ ما يكونُ انقلابُهم عن جَهالةِ الكُفرِ وقَساوتِه، إلى حِكمةِ الإيمانِ وثَباتِه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ بيانُ أنَّ الإيمانَ واليقينَ إذا دَخَلَا القلبَ لا يفتنُه شيءٌ؛ فالسَّحَرةُ -جنودُ فِرعَون- كانوا في أوَّلِ النَّهارِ سَحَرةً كَفَرةً، وفي آخرِ النَّهارِ مُؤمِنينَ بَرَرةً؛ يتَحَدَّونَ فِرعَون؛ لِمَا دَخَلَ في قَلبِهم مِن الإيمانِ[٤].

٤- الإيمانُ مُكَفِّرٌ للسيِّئاتِ، والتوبةُ تجُبُّ ما قبلَها؛ قال تعالى حكايةً عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٣٣٨).

سحرةِ فرعونَ: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾[١].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال هذا النبيُّ الكريمُ للسَّحَرةِ ﴿أَلۡقُواْۖ﴾ أي: ألقُوا حبالَكم وعِصِيَّكم، يعني: اعملوا السِّحرَ، وعارِضوا به مُعجِزةَ اللهِ التي أيَّدَ بها رسولَه، وهذا أمرٌ مُنكَرٌ؟

والجوابُ: هو أنَّ قَصدَ موسى بذلك قَصدٌ حَسَنٌ يَستَوجِبُه المقامُ؛ لأنَّ إلقاءَهم قَبلَه يستلزِمُ إبرازَ ما معهم من مكايِدِ السِّحرِ، واستِنفادَ أقصى طُرُقِهم ومجهودِهم، فإذا فعلوا ذلك كان في إلقائِه عصاه بعدَ ذلك، وابتلاعِها لجَميعِ ما ألقَوا؛ من إظهارِ الحَقِّ وإبطالِ الباطِلِ ما لا جِدالَ بَعدَه في الحَقِّ لأدنى عاقِلٍ؛ ولأجل هذا قال لهم: ﴿أَلۡقُواْۖ﴾، فلو ألقَى قَبلَهم، وألقَوا بَعدَه، لم يحصُلْ ما ذكَرْنا، والعِلمُ عندَ الله تعالى[٢].

٢- قال موسى عليه السَّلامُ للسَّحَرةِ: ﴿أَلۡقُواْۖ﴾ أي: أنتم أولًا قبلي، والحِكمةُ في هذا -والله أعلَمُ- ليرى النَّاسُ صَنيعَهم ويتأمَّلوه، فإذا فُرِغَ مِن بَهرَجِهم ومِحالِهم، جاءهم الحقُّ الواضِحُ الجَلِيُّ بعد تطَلُّبٍ له والانتظارِ منهم لمجيئِه؛ فيكونُ أوقَعَ في النُّفوسِ، وكذا كان[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ ما يُوهِمُه السَّحَرةُ مِن تغييرِ خَلقِ الصُّورِ تَخييلٌ لا حقيقةٌ؛ فالسِّحرُ لا يؤثِّرُ في قلبِ الأعيانِ، فلا يجعَلُ الحديدَ خَشَبًا، ونحو ذلك، ومَن زعم أنَّ السَّحَرةَ يَقدِرونَ على تغييرِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦).

الصُّوَرِ وتحويلِها عمَّا خلَقَها اللهُ إلى غيرِها: فقد كَفَر؛ لِمُساواتهم بأفعالِهم رَبَّ العالَمينَ، لكِنْ مع ذلك فلِلسِّحرِ حقيقةٌ؛ فإنَّه يؤثِّرُ: يُمرِضُ الإنسانَ، وربَّما يُفسِدُ فِكرَه، وربَّما يَلحَقُه جنونٌ... إلى غيرِ ذلك، خِلافًا للمُعتَزلةِ الذين قالوا: إنَّ السِّحرَ يقعُ تَخَيُّلًا وليس حقيقةً[(١)].

٤- إنْ قيلَ: قَولُه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ﴾، وقَولُه: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦] الدَّالانِ على أنَّ سِحرَ سَحَرةِ فِرعَونَ خَيالٌ لا حَقيقةَ له: قد يُظَنُّ تعارُضُهما مع قَولِه: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ١١٦]؛ لأنَّ وَصْفَ سِحرِهم بالعِظَمِ قد يُتوَهَّمُ منه أنَّه غيرُ خيالٍ.

فالذي يظهَرُ في الجوابِ -واللهُ أعلمُ- أنَّهم أخَذوا كثيرًا مِن الحِبالِ والعِصِيِّ، وخَيَّلوا بسِحرِهم لأعيُنِ النَّاسِ أنَّ الحِبالَ والعِصِيَّ تسعى وهي كثيرةٌ، فظَنَّ النَّاظِرونَ أنَّ الأرضَ مُلِئَت حيَّاتٍ تسعى؛ لِكَثرةِ ما ألقَوا من الحِبالِ والعِصِيِّ، فخافوا مِن كَثرتِها، وبتَخييلِ سَعيِ ذلك العددِ الكثيرِ وُصِفَ سِحرُهم بالعِظَمِ، وهذا ظاهِرٌ لا إشكالَ فيه[(٢)].

٥- قال الله عز وجل: ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾، قولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمة: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ...﴾ يعمُّ نفيَ جميعِ أنواعِ الفلاحِ عن الساحرِ، وأكَّد ذلك بالتعميمِ في الأمكنةِ بقولِه: ﴿حَيۡثُ أَتَىٰ﴾، وذلك دليلٌ على كفرِه؛ لأنَّ الفلاحَ لا يُنفَى بالكليةِ نفيًا عامًّا إلَّا عمَّن لا خيرَ فيه، وهو الكافرُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٨٩)، ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٩).

٦- قال الله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ قال الأصبهانيُّ: (سبحانَ اللهِ، ما أعظَمَ شَأنَهم! ألقَوا حِبالَهم وعِصِيَّهم للكُفرِ والجُحودِ، ثمَّ ألقَوا رؤوسَهم بعد ساعةٍ للشُّكرِ والسُّجودِ، فما أعظَمَ الفَرقَ بينَ الإلقاءينِ)[١]!!

٧- قولُ فرعونَ فيما حكاه الله تعالى عنه: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ دليلٌ على وَهنِ أمرِه؛ لأنَّه إنَّما جعَل ذنبَهم مفارقةَ الإذنِ، ولم يجعَلْه نفسَ الإيمانِ إلَّا بشرطٍ[٢].

٨- قال تعالى حكايةً لقولِ فرعونَ للسحرةِ: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، فهَدَّدَهُم فرعونُ مُقسِمًا على أنَّه يقطعُ أيديَهم وأرجلَهم مِن خلافٍ؛ لأنَّه أشدُّ على الإنسانِ مِن قطعِهما مِن جهةٍ واحدةٍ؛ لأنَّه إن كان قطعُهما مِن جهةٍ واحدةٍ يبقَى عندَه شِقٌّ كاملٌ صحيحٌ، بخلافِ قَطْعِهما مِن خلافٍ. فالجنبُ الأيمنُ يَضْعُفُ بقطعِ اليدِ، والأيسرُ يَضْعُفُ بقطعِ الرِّجلِ كما هو معلومٌ. وأنَّه يُصَلِّبُهم في جذوعِ النَّخلِ، وجذعُ النَّخلةِ هو أخشنُ جِذعٍ مِن جذوعِ الشَّجرِ، والتَّصليبُ عليه أشدُّ مِن التَّصليبِ على غيرِه مِن الجذوعِ كما هو مَعروفٌ[٣].

٩- هنا سؤالٌ معروفٌ، وهو أن يُقالَ: قولُهم: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ يدُلُّ على أنَّه أكرهَهم عليه، مع أنَّه قد يُفهَمُ من آياتٍ أُخَرَ أنَّهم فعلوه طائعينَ غيرَ مُكرَهينَ، كقولِهم: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾، وكذلك قولُه عنهم في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٣).

(الشُّعَراء): ﴿قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢]، وقولُه في (الأعراف): ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤] فتلك الآياتُ يُفهَمُ منها أنَّهم غيرُ مُكرَهينَ.

وللعُلَماءِ عن هذا السُّؤالِ أجوبةٌ مَعروفةٌ:

منها: أنَّه أكرَههم على الشُّخوصِ من أماكِنِهم؛ لِيُعارِضوا موسى بسِحرِهم، فلمَّا أُكرِهوا على القُدومِ وأُمِروا بالسِّحرِ أتَوه طائِعينَ، فإكراهُهم بالنِّسبةِ إلى أوَّلِ الأمرِ، وطَوعُهم بالنِّسبةِ إلى آخِرِ الأمرِ، فانفَكَّت الجِهةُ، وبذلك ينتفي التعارُضُ، ويدُلُّ لهذا قَولُه: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦]، وقَولُه: ﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١].

ومنها: أنَّه كان يُكرِهُهم على تعليمِ أولادِهم السِّحرَ في حالِ صِغَرِهم، وأنَّ ذلك هو مرادُهم بإكراهِهم على السِّحرِ، ولا ينافي ذلك أنَّهم فعَلوا ما فعلوا من السِّحرِ بعد تعلُّمِهم وكِبَرِهم طائِعينَ(١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ دليلٌ على أنَّ المجرمَ في القرآنِ واقعٌ على الكافِرِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ ناشِئٍ من حِكايةِ ما جَرَى بينَ السَّحرةِ مِن المُقاوَلةِ؛ كأنَّه قيلَ:

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٩١).

فماذا فعَلُوا بعْدَما قالوا فيما بينَهم ما قالوا؟ فقِيلَ: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾. وإنَّما لم يتعرَّضْ لإجماعِهم؛ وإتيانِهم بطَريقِ الاصطفافِ؛ إشعارًا بظُهورِ أمْرِهما وغِناهما عن البَيانِ[١]؛ ففيه إيجازٌ بالحذْفِ، تَقديرُه: فجَاؤوا مُصطفِّينَ إلى مكانِ الموعدِ، وبيَدِ كلِّ واحدٍ منهم عصًا وحبْلٌ، وجاء مُوسى وأخوه ومعه عصاهُ، فوقفوا، وقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ ...﴾ وذَكَروا الإلقاءَ؛ لأنَّهم عَلِموا أنَّ آيةَ مُوسى في إلقاءِ العصا. قيل: خيَّرُوه ثِقَةً منهم بالغَلبِ لمُوسى، وكانوا يَعْتَقِدون أنَّ أحدًا لا يُقاوِمُهم في السِّحرِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْ﴾ استئنافٌ ناشِئٌ من حِكايةِ تَخييرِ السَّحرةِ إيَّاهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، كأنَّه قيلَ: فماذَا قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؟ فقيلَ: ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْ﴾[٣].

- وفيه إيجازٌ بالحذْفِ، تَقديرُه: فألْقَوا، فإذَا...؛ فالفاءُ فَصيحةٌ مُعرِبةٌ عن مُسارَعتِهم إلى الإلقاءِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾[٤] [الشعراء: ٦٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ هذا الخوفُ على ما هو طَبْعُ البَشرِ، وللنظرِ إلى الطَّبعِ عبَّرَ بالنَّفْسِ لا القَلبِ مثلًا[٥]، وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠٧).

- وزيادةُ ﴿فِي نَفۡسِهِۦ﴾ هنا؛ للإشارةِ إلى أنَّها خِيفَةُ تَفكُّرٍ، لم يظهَرْ أثَرُها على مَلامِحِه[١].

- وتأخيرُ الفاعلِ ﴿مُوسَىٰ﴾؛ لمُراعاةِ الفواصلِ، معَ ما فيه مِن التَّشويقِ إلى المؤخَّرِ، والاهتمامِ بالمُقدَّمِ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ، وتَقريرٌ لِغَلبتِه وقهْرِه، وقدِ اشتملَتْ هذه الآيةُ على عِدَّةِ مُؤكِّداتٍ:

أ- الاستئنافُ، وهو قولُه تعالى: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، ولم يقُلْ: لأنَّك أنت الأعْلَى؛ فكان ذلك أبلَغَ في إيقانِ مُوسى عليه السَّلامُ بالغَلبةِ والاستعلاءِ، وأثبَتَ ذلك في قَرارةِ نفْسِه بما لا يدَعُ أيَّ مجالٍ للشَّكِّ.

ب- (إِنَّ) المُشدَّدةُ، الَّتي من شأْنِها الإثباتُ لِمَا يأْتي بعْدَها، وتأْكيدُه.

ج- تَكريرُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾.

د- لامُ التَّعريفِ في قولِه: ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، أي: دونَ غيرِك.

هـ- لفْظُ (العُلُو) الدَّالِّ على أنَّ الغَلبةَ ثابتةٌ له من جِهَةِ العُلوِّ، وعبَّرَ بـ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ على وزْنِ (الأفْعَل) الَّذي من شأْنِه التَّفضيلُ، ولم يقُل: العالي؛ فهو أعْلى من كلِّ عَالٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢١٥).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ فيه ما يُعْرَفُ بالإبهامِ؛ حيثُ أُبْهِمَ ما في يَمينِ مُوسى ولم يقُل: (وألْقِ عصاكَ)؛ لأمرينِ مُتضادَّينِ؛ أوَّلِهما: استصغارُ أمْرِها، أي: لا تُبالِ بكثْرةِ حِبالِهم وعِصِيِّهم، وألْقِ العُوَيدَ الفرْدَ الصَّغيرَ الجِرْمِ الَّذي بيَدِك؛ فإنَّه بقُدْرةِ اللهِ تعالى يتلقَّفُها على وَحْدتِه وكَثرتِها، وصِغَرِه وعِظَمِها. وثانيهما: تَعظيمُ أمْرِها، أي: لا تعبَأْ بهذه الأجرامِ الكبيرةِ الكثيرةِ؛ فإنَّ في يَمينِك شيئًا هو أعظَمُ منها كلِّها؛ فألْقِها، تمْحَقْها وتُطِحْ بها بإذنِ اللهِ. وفيه نُكتةٌ أُخرى، وهي: أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ أوَّلَ ما عَلِمَ أنَّ العصا آيةٌ مِن اللهِ تعالى عندَما سأَلَه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]، ثمَّ أظهَرَ له تعالى آيتَها، فلمَّا دخَلَ وقْتُ الحاجةِ إلى ظُهورِ الآيةِ منها، قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾؛ لِيَتيقَّظَ بهذه الصِّيغَةِ للوقْتِ الَّذي قال اللهُ تعالى له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾، وقد أظهَرَ له آيتَها؛ فيكونُ ذلك تَنبيهًا له وتأْنيسًا؛ حيث خُوطِبَ بما عهِدَ أنْ يُخاطَبَ به في وقْتِ ظُهورِ آيتِها، وذلك مَقامٌ يُناسِبُ التَّأْنيسَ والتَّثبيتَ في موقفٍ يُزايِلُ الوَقارُ أشدَّ النُّفوسِ قوَّةً ورِباطةً؛ فعَبَّر عنِ العصا بـ(ما) الموصولةِ تَذكيرًا له بيَومِ التَّكليمِ؛ إذ قال له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]؛ ليحصل له الاطمئنانُ بأنَّها صائرةٌ إلى الحالةِ التي صارتْ إليها يَومئذٍ، ولذلك لم يقل له: وألق عصاك[(١)].

- والجُملةُ الأمْرِيَّةُ ﴿وَأَلْقِ﴾ مَعطوفةٌ على النَّهيِ، مُتمِّمةٌ بما في حَيِّزِها لتَعليلِ مُوجِبِه ببَيانِ كيفيَّةِ غلَبَتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وعُلوِّه؛ فإنَّ ابتلاعَ عصاهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧-٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢١٦).

لأباطيلِهم -الَّتي منها أوجَسَ في نفْسِه ما أوجَسَ- ممَّا يقلعُ مادَّتَه بالكُلِّيَّةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿تَلْقَفْ﴾ حمْلٌ على معْنى (ما) لا على لفْظِها؛ إذ أُطْلِقَتْ (ما) على العصا، والعصا مُؤنَّثةٌ، ولو حُمِلَ على اللَّفظِ لكان (يَلْقَف) بالياءِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ التَّعبيرُ عنها بـ﴿مَا صَنَعُوٓاْ﴾؛ للتَّحقيرِ، والإيذانِ بالتَّمويهِ والتَّزويرِ[٣].

- وقولُه: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ...﴾ تَعليلٌ لقولِه: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾، وقولُه: ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾، أي: كيدُ جنْسِ السَّاحرِ. وعدَمُ التَّعرُّضِ لشأْنِ العصا، وكونِها مُعجِزةً إلهيَّةً، مع ما في ذلك من تَقويةِ التَّعليلِ؛ للإيذانِ بظُهورِ أمْرِها[٤].

- وتَنكيرُ ﴿سَٰحِرٍ﴾؛ للتَّوسُّلِ به إلى تَنكيرِ ما أُضِيفَ إليه للتَّحقيرِ[٥]. ونكَّرَ أوَّلًا في قولِه: ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾، وعرَّفَ ثانيًا في قولِه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾؛ لأنَّه نكَّرَ من أجْلِ تَنكيرِ المُضافِ، لا من أجْلِ تَنكيرِه في نفْسِه، كأنَّه قيل: إنَّ ما صَنَعوا كيدٌ سِحْرِيٌّ، وفي سَعْيٍ دُنيويٍّ[٦].

- وجُملةُ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ من تَمامِ الجُملةِ الَّتي قبْلَها؛ فهي مَعطوفةٌ عليها، وتَعريفُ السَّاحرِ تَعريفَ الجِنْسِ؛ لقصْدِ الجِنْسِ المعروفِ، أي: لا يُفلِحُ بها كلُّ ساحرٍ. واخْتِيرَ فِعْلُ (أتى) دونَ نحوِ: حيثُ كان، أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٧).

حيثُ حَلَّ؛ لمُراعَاةِ كونِ مُعظَمِ أولئك السَّحرةِ مَجْلوبونَ من جِهاتِ مصْرَ، وللرِّعايةِ على فواصلِ الآياتِ الواقعةِ على حرْفِ الألِفِ المقصورةِ. وتَعميمُ ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ لعُمومِ الأمكنةِ الَّتي يَحضُرُها، أي: بسِحْرِه. وتَعليقُ الحُكْمِ بوصْفِ السَّاحرِ يَقْتضي أنَّ نفْيَ الفلاحِ عن السَّاحرِ في أُمورِ السِّحرِ، لا في تِجارةٍ أو غيرِها. وهذا تأكيدٌ للعُمومِ المُستفادِ من وُقوعِ النَّكرةِ في سِياقِ النَّفيِ؛ لأنَّ عُمومَ الأشياءِ يَستلزِمُ عُمومَ الأمكنةِ الَّتي تقَعُ فيها[1].

- ووحَّدَ ﴿سَحِرٍ﴾ ولم يَجْمَعْ؛ لأنَّ القصْدَ في هذا الكلامِ إلى معنى الجنسيَّةِ، لا إلى معنى العدَدِ، فلو جمَعَ، لَخُيِّلَ أنَّ المقصودَ هو العددُ؛ ألَا ترَى إلى قولِه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾، أي: هذا الجِنْسُ[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾

- الفاءُ في ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ فَصيحةٌ مُعْرِبَةٌ عن مَحذوفينِ يَنساقُ إليهما النَّظمُ الكريمُ، غَنِيَّينِ عن التَّصريحِ بهما؛ لعدَمِ احتمالِ تَردُّدِ مُوسى عليه السَّلامُ في الامتثالِ بالأمْرِ، واستحالةِ عدَمِ وُقوعِ اللَّقْفِ الموعودِ، أي: فألقاه عليه السلامُ، فوقَع ما وقَع مِن اللَّقْفِ ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾[3].

- قولُه: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ ولم يأْتِ (فسَجَدوا)؛ كأنَّه جاءهم أمْرٌ وأزعَجَهم وأخَذَهم، فصنَعَ بهم ذلك، وهو عبارةٌ عن سُرعةِ ما تأثَّروا لذلك الخارقِ العظيمِ، فلم يَتَمالكوا أنْ وَقَعوا ساجدينَ[4]. أو أُسْنِدَ الفِعْلُ إلى المجهولِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٠-٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٧).

لأنَّهم لا مُلْقِيَ لهم إلَّا أنفُسُهم، فكأنَّه قيل: فألْقَوا أنفُسَهم سُجَّدًا[١].

- في قولِه: ﴿فَأُلْقِيَ﴾ فَنُّ التَّكريرِ؛ فقد تكرَّرَ لفْظُ الإلقاءِ، ولكنَّه تكرُّرٌ لم يطَّرِدْ على وَتيرةٍ واحدةٍ، وإنَّما هو لفظٌ واحدٌ في مَعنيينِ مُتضادَّينِ مُتناقضَينِ، نقَلَ بهما سُبحانه عِبادَه من غايةِ الكُفْرِ والعنادِ، إلى نِهايةِ الإيمانِ والسَّدادِ[٢].

- وتَعبيرُهم عن الرَّبِّ بطَريقِ الإضافةِ إلى هارونَ ومُوسى؛ لأنَّ اللهَ لم يكُنْ يُعْرَفُ بينهم يومئذٍ إلَّا بهذه النِّسبةِ؛ لأنَّ لهم أربابًا يَعْبُدونها ويَعْبُدها فِرعونُ[٣].

- وقُدِّمَ مُوسى في (الأعرافِ) وأُخِّرَ هارونُ؛ لأجْلِ الفواصلِ، ولكونِ مُوسى هو المنسوبَ إليه العصا الَّتي ظهَرَ فيها ما ظهَرَ مِن الإعجازِ، وأُخِّرَ مُوسى في سورة (طه)؛ لأجْلِ الفواصلِ أيضًا. ويحتمِلُ أنْ يكونَ القولانِ من قائلَينِ: نطقَتْ طائفةٌ بقولِهم: رَبِّ مُوسى وهارونَ، وطائفةٌ بقولِهم: ربِّ هارونَ ومُوسى، ولمَّا اشْتَرَكوا في المعنى صَحَّ نِسبةُ كلٍّ من القولينِ إلى الجميعِ. وقيل: قُدِّمَ هارونُ هنا؛ لأنَّه كان أكبَرَ سِنًّا من مُوسى. وقيل: لأنَّ فِرعونَ كان قد ربَّى مُوسى، فبدَؤوا بهارونَ؛ ليَزولَ تَمويهُ فِرعونَ أنَّه ربَّى مُوسى، فيقول: أنا رَبَّيْتُه. وقالوا: ربِّ هارونَ ومُوسى، ولم يَكْتَفوا بقولِهم: بربِّ العالمينَ؛ للنَّصِّ على أنَّهم آمنوا بربِّ هذينِ، وكان فيما قبْلُ يزعُمُ أنَّه ربُّ العالمينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٧-٣٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨-٢٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٣).

- وتَقديمُ هارونَ على مُوسى هنا، وتَقديمُ مُوسى على هارونَ في قولِه تعالى في سُورةِ (الأعراف): ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]، لا دَلالةَ فيه على تَفضيلٍ ولا غيرِه؛ لأنَّ الواوَ العاطفةَ لا تُفِيدُ أكثَرَ مِن مُطلَقِ الجمْعِ في الحُكمِ المعطوفِ فيه، فهم عَرَّفوا اللهَ بأنَّه رَبُّ هذينِ الرَّجُلينِ، فحُكِيَ كلامُهم بما يدُلُّ على ذلك؛ ألَا ترى أنَّه حُكِيَ في سُورةِ (الأعرافِ) قولُ السَّحرةِ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١]، ولم يُحْكَ ذلك هنا؛ لأنَّ حِكايةَ الأخبارِ لا تَقْتضي الإحاطةَ بجميعِ المَحْكيِّ، وإنَّما المقصودُ موضِعُ العِبْرةِ في ذلك المقامِ بحسَبِ الحاجةِ[(١)].

٧- قولُه تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾، قولُه: ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾ ترقٍّ في موجبِ التوبيخِ، أي: لم يكْفِكم أنَّكم آمنتُم بغيري حتَّى فعلتُم ذلك عن غيرِ استئذانٍ، وفصلُها عمَّا قبلَها؛ لأنَّها تعدادٌ للتوبيخِ[(٢)].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾ لتَضمينِ الفِعْلِ معنى الاتِّباعِ[(٣)].

- وفيه استكبارٌ باقْتدارِه وقهْرِه، وما ألِفَه من تَعذيبِ النَّاسِ بأنواعِ العذابِ، وتَوضيعٌ لمُوسى عليه السَّلامُ، واستضعافٌ مع الهُزْءِ به. وإمَّا لإراءةِ أنَّ إيمانَهم لم يكُنْ عن مُشاهَدةِ المُعجِزةِ، ومُعايَنةِ البُرهانِ، بل كان عن خَوفٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩).

من قِبَلِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حيث رَأَوا ابتلاعَ عصاهُ لحِبالِهم وعِصِيِّهم، فخافوا على أنفُسِهم أيضًا[١].

- قولُه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ التَّصليبُ: مُبالَغةٌ في الصَّلْبِ، عدَلَ عن حرْفِ الاستعلاءِ (على) إلى حرْفِ الظَّرفيَّةِ (في)؛ تَشبيهًا لشِدَّةِ تمكُّنِ المصلوبِ من الجذْعِ بتمكُّنِ الشَّيءِ الواقعِ في وِعائِه؛ فتَعديةُ فِعْلِ ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ بحرْفِ (في) مع أنَّ الصَّلْبَ يكونُ فوقَ الجذْعِ لا داخِلَه؛ ليدُلَّ على أنَّه صَلْبٌ مُتمكِّنٌ يُشْبِهُ حُصولَ المظروفِ في الظَّرفِ، وأيضًا لما كانت الجذوعُ تضمُّهم كما يضمُّ الوعاءُ ما فيه؛ قيل: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ فيه تَوهينٌ له، واستصغارٌ لِمَا هدَّدَهم به، وعدَمُ اكتراثٍ بقولِه. وفي نِسْبةِ المَجِيءِ إليهم -وإنْ كانتِ البيِّناتُ جاءت لهم ولغيرِهم-؛ لأنَّهم كانوا أعرَفَ بالسِّحرِ من غيرِهم، وقد عَلِموا أنَّ ما جاء به مُوسى ليس بسِحْرٍ؛ فكانوا على جَلِيَّةٍ من العِلْمِ بالمُعجِزِ، وغيرُهم يُقلِّدُهم في ذلك، وأيضًا فكانوا هم الَّذين حصَلَ لهم النَّفعُ بها، فكانت بيِّناتٍ واضحةً في حَقِّهم[٣].

- قولُه: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ التَّفضيلُ بينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٦٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٩).

فِرعونَ وما جاءهم من البيِّناتِ مُقْتَضٍ حذْفَ مُضافٍ يُناسِبُ المُقابَلةَ بالبيِّناتِ، أي: لن نُؤثِرَ طاعتَك أو دِينَك على ما جاءنا من البيِّناتِ الدَّالَّةِ على وُجوبِ طاعةِ اللهِ تعالى، وبذلك يَلْتَئِمُ عطْفُ ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾، أي: لا نُؤثِرُك في الرُّبوبيَّةِ على الَّذي فطَرَنا. وَجِيءَ بالموصولِ ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾؛ للإيماءِ إلى التَّعليلِ؛ لأنَّ الفاطِرَ هو المُستحِقُّ بالإيثارِ[1].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ عطْفٌ على ﴿مَا جَآءَنَا﴾، أي: وعلى الَّذي فطَرَنا. وتأخيرُه؛ لأنَّ ما في ضِمْنِه آيةٌ عقْليَّةٌ نظريَّةٌ، وما شاهدوهُ آيةٌ حِسِّيَّةٌ ظاهرةٌ، ولمَّا لاحَتْ لهم حُجَّةُ اللهِ في المُعجِزةِ بَدَؤوا بها، ثمَّ تَرَقَّوا إلى القادرِ على خرْقِ العادةِ، وهو اللهُ تعالى. وإيرادُه تعالى بعُنوانِ فاطِرِيَّتِه تعالى لهم؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الحُكْمِ؛ فإنَّ خالِقِيَّتَه تعالى لهم وكونَ فِرعونَ من جُملةِ مخلوقاتِه، ممَّا يُوجِبُ عدَمَ إيثارِهم له عليه سُبحانَه وتعالى، وهذا جوابٌ منهم لتَوبيخِ فِرعونَ بقولِه: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؛ فذَكَروا وصْفَ الاختراعِ، وهو قولُهم: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾؛ تَبْيينًا لعجْزِ فِرعونَ، وتَكذيبِه في ادِّعاءِ رُبوبيَّتِه وإلاهيَّتِه، وهو عاجِزٌ عن صرْفِ ذُبابةٍ، فضْلًا عنِ اختراعِها[2].

وأيضًا أُخِّرَ ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ عن ﴿مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ لأنَّ البيِّناتِ دليلٌ على أنَّ الَّذي خلَقَهم أراد منهم الإيمانَ بمُوسى، ونبْذَ عِبادةِ غيرِ اللهِ، ولأنَّ فيه تَعريضًا بدَعوةِ فِرعون للإيمانِ باللهِ[3].

- وصِيغَةُ الأمْرِ في قولِه: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ مُستعمَلةٌ في التَّسويةِ؛ لأن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٦- ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩- ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٦).

﴿مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ تصدق على ما توعدهم به مِن تَقطيعِ الأيدي والأرجُلِ والصَّلْبِ، أي: سواءٌ علينا ذلك: بعْضُه، أو كلُّه، أو عدَمُ وُقوعِه، فلا نطلُبُ منك خَلاصًا منه جَزاءَ طاعتِك، فافْعَلْ ما أنت فاعِلٌ[(١)].

- وقولُه: ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ تَمهيدٌ لِمَا بعْدَه[(٢)]، وهو أيضًا مع ما بعْدَه تَعليلٌ لعدَمِ المُبالاةِ المُستفادِ ممَّا سبَقَ من الأمْرِ بالقضاءِ، أي: إنَّما تصنَعُ ما تهواهُ، أو تحكُمُ بما تراهُ في هذه الحياةِ الدُّنيا فحسْبُ، وما لنا من رَغبةٍ في عذْبِها، ولا رَهْبةٍ من عذابِها[(٣)].

- والقصْرُ المُستفادُ من (إنَّما) قصْرُ مَوصوفٍ على صِفَةٍ، أي: إنَّك مقصورٌ على القضاءِ في هذه الحياةِ الدُّنيا، لا يَتجاوَزُه إلى القضاءِ في الآخرةِ؛ فهو قصْرٌ حَقيقيٌّ[(٤)].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾

- جُملةُ: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا ...﴾ في مَحلِّ العِلَّةِ لِمَا تضمَّنَه كلامُهم[(٥)].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ خَصُّوا السِّحرَ بالذِّكْرِ مع اندراجِه في خَطاياهم؛ إظهارًا لغايةِ نُفْرَتِهم عنه، ورَغْبتِهم في مَغْفرتِه. وذِكْرُ الإكراهِ؛ للإيذانِ بأنَّه ممَّا يجِبُ أنْ يُفرَدَ بالاستغفارِ منه مع صُدورِه عنهم بالإكراهِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٦- ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وفيه نوعُ اعتذارٍ لاستجلابِ المَغْفرةِ[١].

- وجُملةُ: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ في موضعِ الحالِ، أو مُعترِضةٌ في آخرِ الكلامِ؛ للتَّذييلِ[٢].

١٠- قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾

- فيه تَقديمُ ذِكْرِ حالِ المُجْرِمِ؛ للمُسارَعةِ إلى بَيانِ أَشَدِّيَّةِ عَذابِه ودوامِه؛ ردًّا على ما ادَّعاهُ فِرعونُ بقولِه: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾[٣].

- قولُهم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ...﴾ إلى آخرِ الشَّرطيتينِ تَعليلٌ من جِهَتِهم؛ لكونِه تعالى خيرًا وأبقَى، وتَحقيقٌ له، وإبطالٌ لِمَا ادَّعاهُ فِرعونُ، وتَصديرُهما بضَميرِ الشَّأنِ في ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ للتَّنبيهِ على فَخامةِ مَضمونِهما؛ لأنَّ مناطَ وضْعِ الضَّميرِ مَوضِعَه ادِّعاءُ شُهْرَتِه المُغْنيةِ عن ذِكْرِه، مع ما فيه من زِيادةِ التَّقريرِ؛ فإنَّ الضَّميرَ لا يُفْهَمُ منه من أوَّلِ الأمْرِ إلَّا شأْنٌ مُبْهَمٌ له خطَرٌ، فيَبْقى الذِّهنُ مُترَقِّبًا لِمَا يعقُبُه، فيَتمكَّنُ عندَ وُرودِه له فضْلَ تَمكُّنٍ؛ كأنَّه قيل: إنَّ الشَّأنَ الخطيرَ هذا، أي: قولَه تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا﴾ بأنْ مات على الكُفْرِ والمعاصي، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيَنْتهي عذابُه، وهذا تَحقيقٌ لكونِ عَذابِه أبْقَى، ﴿وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ حياةً يَنتفِعُ بها[٤].

١١- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى (مَنْ)، والجمْعُ باعتبارِ معناها، كما أنَّ الإفرادَ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفِعْلينِ السَّابقينِ باعتبارِ لفْظِها. وما في (أولئك) من معنى البُعْدِ؛ للإشعارِ بعُلوِّ دَرجتِهم، وبُعْدِ مَنزلتِهم، أي: فأولئك المُؤمِنون العامِلون للصَّالحاتِ[١]، وللتَّنبيهِ كذلك على أنَّهم أحرياءُ بما يُذْكَرُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ من أجْلِ ما سبَقَ اسمَ الإشارةِ[٢].

١٢- قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (ذَلِكَ) إشارةٌ إلى ما أُتيحَ لهم من الفوزِ بما ذُكِرَ من الدَّرجاتِ العُلى، وما فيه من معنى البُعدِ للتَّفخيمِ. وقولُه: ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ تَحقيقٌ لكونِ ثوابِه تعالى أبْقَى[٣].

- والآياتُ الثَّلاثُ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ...﴾، إلى قولِه: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ -على القولِ بأنَّها خبرٌ منَ اللهِ-، هي جُمَلٌ مُعترِضةٌ بين حِكايةِ قِصَّةِ السَّحرةِ، وبين ذِكْرِ قِصَّةِ خُروجِ بني إسرائيلَ، ساقَها اللهُ؛ موعظةً وتأييدًا لِمَقالةِ المُؤمِنين من قومِ فِرعونَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٨).

الآيات (٧٧-٧٩)

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَسْرِ﴾: أي: سِرْ بِهم لَيلًا، والسُّرَى: سَيرُ اللَّيلِ، وأصلُ (سير): يدُلُّ على مُضِيٍّ وجَرَيانٍ[١].

﴿يَبَسًا﴾: أي: يابِسًا، واليَبَسُ: المكانُ يكونُ فيه ماءٌ فيَذهَبُ، وأصلُ (يبس): يدُلُّ على جَفافٍ[٢].

﴿دَرَكًا﴾: أي: تَبِعةً أو لَحاقًا، وأصلُ (درك): لحوقُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، ووُصولُه إليه[٣].

﴿فَغَشِيَهُم﴾: أي: أصابَهم وغطَّاهُم، والغِشاوةُ: الغِطاءُ والسَّاتِرُ، مِن غَشِيَ الشَّيءَ، أي: غطَّاه وستَرَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((تفسير =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ولقد أوحَينا إلى موسى أن يَخرُجَ ليلًا ببني إسرائيلَ مِن أرضِ «مصرَ»، فيتَّخِذَ لهم في البَحرِ طريقًا يابسًا، غيرَ خائفٍ مِن فِرعَونَ وجُنودِه أن يَلحَقوهم، ولا من البَحرِ أن يغرَقَ فيه.

ولَمَّا عَلِمَ فِرعونُ بخُروجِ موسى وبني إسرائيلَ مِن مِصرَ، أتبَعَهم بجُنودِه، فأصاب فِرعَونَ وجُندَه مِن البَحرِ شَيءٌ عظيمٌ لا يعلَمُ كُنهَه إلَّا اللهُ تعالى، فغَرِقوا جميعًا ونجا موسى وقَومُه، وأضلَّ فِرعَونُ قَومَه عن طَريقِ الحقِّ بما زيَّنه لهم من الكُفرِ والتَّكذيبِ، ولم يسلُكْ بهم طريقَ الهدايةِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله سُبحانَه استكبارَ فِرعَونَ المُدعَّى في قَولِه ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾، وختَمَه سُبحانَه بأنَّه يُهلِكُ العاصيَ كائنًا مَن كان، ويُنجِّي الطائِعَ؛ أتبعَ ذلك شاهدًا مَحسوسًا عليه، كفيلًا ببيانِ أنَّه لم يُغنِ عن فِرعَونَ شَيءٌ مِن قُوَّتِه ولا استِكبارِه، فقال[1]:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾.

أي: ولقد أوحَينا إلى موسى أنْ سِرْ ليلًا من أرضِ مِصرَ مع قَومِك بني

= القرطبي)) (١١/ ٢٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣١٦).

إسرائيلَ؛ لِتُخرِجَهم من قَبضةِ فِرعَونَ الذي امتنعَ مِن إرسالِهم، وأبى قَبولَ الحقِّ الذي جاءَه مِن عندِ ربِّه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣].

﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾.

أي: فاتَّخِذْ -يا موسى- لبني إسرائيلَ طَريقًا في البَحرِ يابسًا، لا ماءَ فيه ولا طينَ[2].

﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾.

أي: لا تخافُ -يا موسى- أن يُدرِكَكم فِرعَونُ وجُندُه، فينالَكم بسوءٍ، ولا تخشى الغرَقَ في البَحرِ[3].

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٩).

قال البقاعي: (﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ﴾ أي: اعمَلْ بضربِ البحرِ بعصاك، ولذلك سمَّاه ضربًا. ولما كان ضربُ البحرِ بالعصا سببًا لوجودِ الطريقِ الموصوفة، أوقَع الفعل عليها فقال: ﴿طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣١٦-٣١٧).

وقال ابن عاشور: (الضربُ: هنا بمعنى الجعلِ كقولهم: ضرب الذهبَ دنانيرَ. وفي الحديث: «واضربوا لي معكم بسهمٍ»، وليس هو كقولِه: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣]؛ لأنَّ الضربَ هنالك متعدٍّ إلى البحرِ وهنا نصب طريقًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧١).

أي: فلَحِقَ فِرعَونُ ومعه جنودُه موسى ومَن معه حين قَطَعوا البَحرَ، فأصاب فِرعَونَ وجُندَه مِن البَحرِ شَيءٌ عظيمٌ يفوقُ الوَصفَ، فغَرِقوا جميعًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًا﴾ [يونس: ٩٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ۞ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۞ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٤ - ٦٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾.

أي: وصَرَف فِرعَونُ قَومَه القِبطَ عن طَريقِ الحقِّ، ولم يهْدِهم إليه، فلم يُحصِّلوا الخيرَ والنَّجاةَ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾، فيه سؤالٌ: ما الحكمةُ في أن يسري بهم ليلًا؟

والجوابُ أنَّ ذلك لوجوهٍ:

الوجه الأول: أن يكون اجتماعُهم لا بمشهدٍ من العدوِّ، فلا يمنعُهم عن استكمالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٧٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧١، ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٣).

مرادِهم في ذلك.

الوجه الثاني: ليكونَ عائقًا عن طلبِ فِرعَون ومتَّبِعيه.

الوجه الثالث: ليكونَ إذا تقارَب العسكرانِ، لا يرَى عسكرُ موسى عسكرَ فِرعَون، فلا يهابوهم[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ موسى -عليه السَّلامُ- في تلك الحالةِ كَثُرَ مُستجيبوه، فأراد اللهُ تعالى تمييزَهم من طائفةِ فِرعَونَ وخلاصَهم، فأوحى إليه أن يسريَ بهم ليلًا[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ افتتاحُ الجُملةِ بالقسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قد)؛ للاهتمامِ بالقِصَّةِ؛ لِيُلْقِيَ السَّامعونَ إليها أذهانَهم. وتَغييرُ الأسلوبِ في ابتداءِ هذه الجُملةِ مُؤذنٌ بأنَّ قِصَصًا طُوِيَت بين ذِكْرِ القِصَّتَينِ؛ فلوِ اقْتُصِرَ على حرْفِ العطْفِ، لَتُوهِّمَ أنَّ حِكايةَ القصَّةِ الأُولى لم تزَلْ مُتَّصلةً، فيُتَوَهَّمُ أنَّ الأمْرَ بالخُروجِ وقَعَ مُواليًا لانتهاءِ مَحْضرِ السَّحرةِ، مع أنَّ بينَ ذلك قِصَصًا كثيرةً ذُكِرَت في سُورةِ (الأعرافِ) وغيرِها؛ فجُملةُ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ ابتدائيَّةٌ، والواوُ عاطفةٌ قِصَّةً على قِصَّةٍ، وليست عاطفةً بعْضَ أجزاءِ قِصَّةٍ على بعْضٍ آخرَ[٣].

- قولُه: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ فيه التَّعبيرُ عنهم بعُنوانِ كونِهم عِبادًا له تعالى؛ لتَشريفِهم، وتَقريبِهم، ولإظهارِ المَرْحمةِ والاعتناءِ بأمْرِهم، والتَّنبيهِ على

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٩- ٢٧٠).

غايةِ قُبْحِ صَنِيعِ فِرعونَ بهم؛ حيث استعْبَدَهم وهم عِبادُه عَزَّ وجَلَّ، وفعَلَ بهم من فُنونِ الظُّلمِ ما فعَلَ، والإيماءِ إلى تَخليصِهم من استعبادِ القبْطِ[١].

- وقولُه: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾ وعْدٌ لمُوسى، وقدِ اقْتُصِرَ على وعْدِه دونَ بَقِيَّةِ قومِه؛ لأنَّه قُدوتُهم، فإذا لم يَخَفْ هو تَشَجَّعوا، وقوِيَ يَقينُهم، فهو خَبرٌ مُرادٌ به البُشرى[٢].

- وتَقديمُ نفْيِ الخوفِ المذكورِ؛ للمُسارَعةِ إلى إزاحةِ ما كانوا عليه مِن الخوفِ العظيمِ، حيث قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾[٣] [الشعراء: ٦١].

- وفي قولِه: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ حُذِفَ مفعولُه؛ لإفادةِ العُمومِ، أي: لا تَخْشى شيئًا، وهو عامٌّ مُرادٌ به الخُصوصُ، أي: لا تَخْشى شيئًا ممَّا يُخْشى من العدُوِّ ولا من الغرَقِ[٤].

- قَولُه: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ أي: لا تخافُ إدراكَ فِرعَونَ، ولا تخشى غرَقًا في البحر، وإلَّا فالخَوفُ والخَشيةُ مُترادِفانِ، وغايَرَ بينهما لفظًا؛ رعايةً للبلاغةِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾

- قولُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ الفاءُ فَصيحةٌ، مُعرِبةٌ عن مُضمَرٍ قد طُوِيَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣١- ٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧١).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٦).

ذِكْرُه؛ ثِقَةً بغايةِ ظُهورِه، وإيذانًا بكَمالِ مُسارَعةِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى الامتثالِ بالأمْرِ، أي: ففعَلَ ما أُمِرَ بهِ؛ مِن الإسراءِ بهم، وضَرْبِ الطَّريقِ وسُلوكِه، فأتبَعَهم فِرعونُ بجُنودِه بَرًّا وبحْرًا[1].

- قولُه: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ فيه إبهامٌ، أي: علاهم وغمَرَهم من الأمْرِ الهائلِ الَّذي ليس في طَوقِهم احتمالُه، ما لا يُمْكِنُ إدراكُ كُنْهِه، ولا سَبْرِ غَورِه، وهو مِن جوامعِ الكَلمِ الَّتي يَقِلُّ لَفْظُها، ويتشعَّبُ القولُ في مَعناها، حيثُ أوجزَ فهَوَّلَ بقولِه: ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾، أي: أمرٌ لا تَحتمِلُ العقولُ وصْفَه حقَّ وصْفِه، ومِن المعلومِ أنَّهم غَشِيَهم غاشٍ؛ فتعيَّن أنَّ المقصودَ منه التهويلُ، أي: بلَغَ من هولِ ذلك الغرقِ أنَّه لا يُستطاعُ وصفُه؛ فالتعبيرُ بالاسمِ المُبهَم الذي هو الموصولُ يدلُّ على تعظيمِ الأمرِ، وتَفخيمِ شأنِه[2].

- وكرَّر فِعل (غَشي) على معنى التعظيمِ والمعرفةِ بالأمرِ[3].

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تَقريرٌ لإضلالِه، وتأكيدٌ له؛ فعطْفُ ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ على ﴿وَأَضَلَّ﴾ إمَّا من عطْفِ الأعَمِّ على الأخصِّ؛ لأنَّ عدَمَ الهُدى يصدُقُ بترْكِ الإرشادِ من دونِ إضلالٍ، وإمَّا أنْ يكونَ تأكيدًا لَفظيًّا بالمُرادِفِ، مُؤكِّدًا لنفْيِ الهُدى عن فِرعونَ لقومِه؛ فيكونَ قولُه: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تأكيدًا لـ (أَضَلَّ)

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٩).

بالمُرادِفِ؛ إذ رُبَّ مُضِلٍّ قد يُرشِدُ مَن يُضِلُّه إلى بَعضِ مَطالِبِه، أو يهديه بعْدَ إضلالِه. وفيه نوعُ تَهكُّمٍ به في قولِه: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، أي: في قولِه: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تلميحٌ إلى قِصَّةِ قولِه المحكيِّ في سُورة (غافِر)، وما هنا في سُورةِ (طه) مِن قولِه: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٣]، أي: هي هُدًى؛ فإنَّ نفْيَ الهِدايةِ عن شخْصٍ مُشْعِرٌ بكونِه ممَّن يُتصوَّرُ منه الهدايةُ في الجُملةِ، وذلك إنَّما يُتصوَّرُ في حَقِّه بطَريقِ التَّهكُّمِ[(١)]. وقيل: لَمَّا كان إثباتُ الفِعلِ لا يُفيدُ العُمومَ، نفَى ضِدَّه؛ ليُفيدَه، مع كونِه أوكدَ وأوقعَ في النفْسِ وأروعَ لها، فقال: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي: ما وقَع منه شيءٌ من الهدايةِ، لا لنَفْسِه ولا لأحدٍ مِن قومه[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٢-٢٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣١٨).

الآيات (٨٠-٨٢)

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمَنَّ﴾: المنُّ: شيءٌ حُلوٌ كان يسقُطُ على شَجَرِهم، فيجتَنونَه فيأكلونَه، وقيل: المنُّ مصدرٌ يَعُمُّ جميعَ ما مَنَّ اللَّه به على عبادِه مِن غيرِ تَعَبٍ ولا زَرْعٍ، وأصلُ (منن): اصطِناعُ خَيْرٍ[(١)].

﴿وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾: السَّلْوَى: طائِرٌ يُشبِهُ السُّمانَى، لا واحِدَ له مِن لفظِه، واشتقاقُ السَّلوى من السَّلوةِ؛ لأنَّه لطِيبِه يُسلِّي عن غَيرِه[(٢)].

﴿فَيَحِلَّ﴾: أي: يجِبَ، ويلزمَ، مِن: حَلَّ الدَّينُ يَحِلُّ -بكسرِ الحاءِ-؛ إذا وَجَب أداؤُه، وأصلُ (حلل): فتحُ الشَّيءِ[(٣)].

﴿هَوَىٰ﴾: أي: هلَك، وصار إلى الهاويةِ، يُقالُ: هَوَتْ أُمُّه: أي: سقَط سُقوطًا لا نهوضَ بعدَه، وأصلُه أنْ يسقُطَ مِن جبلٍ أو نحوِه، فيَهوِيَ إلى الأرضِ فيَهلِكَ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٨).

وأصلُ (هوي): يدُلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مذكِّرًا بنى إسرائيلَ بنِعَمِه عليهم: يا بني إسرائيلَ قد أنجَيناكم مِن عَدُوِّكم فِرعَونَ، وواعدْناكم جانِبَ جبَلِ الطُّورِ الأيمَنَ؛ لإنزالِ التَّوراةِ عليكم، ونزَّلْنا عليكم الرِّزقَ الطيِّبَ الذي تحصُلونَ عليه بلا كُلفةٍ. كُلُوا مِن رِزقِنا الطَّيِّبِ، ولا تعتَدُوا فيه بالجُحودِ وتَركِ الشُّكرِ؛ فيَحِقَّ عليكم غَضَبي، ومَن يَحِقَّ عليه غَضَبي فقد هلك وخَسِرَ. وإنِّي لَغفَّارٌ لِمَن تاب مِن ذَنبِه وكُفرِه، وآمَنَ بي وعَمِلَ الأعمالَ الصَّالحةَ، ثمَّ اهتدى إلى الحَقِّ واستقامَ عليه حتَّى مَماتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠ ﴾.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ ﴾.

أي: قال الله تعالى: يا بني إسرائيلَ[٢] قد أنجيناكم مِن عَدُوِّكم فِرعَونَ، فأغرقناه وجُنودَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٦).

(٢) قيل: الخطابُ لبني إسرائيلَ بعدَ إنجائِهم مِن البحرِ، وإهلاكِ فرعونَ، على إضمارِ: (قلنا)، وقيل: الخطابُ لليهودِ المعاصرينَ لنبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ النعمةَ على الآباءِ معدودةٌ مِن النعمِ على الأبناءِ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير القنوجي)) (٨/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣٠، ٣١].

﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾.

أي: وواعَدْناكم جانِبَ جَبَلِ الطُّورِ الأيمنَ[(١)] لإنزالِ التَّوراةِ؛ لتهتَدوا بها[(٢)].

---

(١) قال ابنُ جزي: (والطورُ هو الجبلُ، واختُلِف هل هذا الطورُ هو الذي رأى فيه موسى النارَ في أولِ نبوتِه، أو هو غيرُه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١).

وقال الرازي: (قال المفسِّرون: ليس للجبلِ يمينٌ ولا يسارٌ، بل المرادُ أنَّ طورَ سيناءَ عن يمينِ مَن انطلَق مِن مصرَ إلى الشامِ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨٣).

وقال ابن عطية: (وقوله ﴿ٱلْأَيْمَنَ﴾ إمَّا أن يريدَ اليُمنَ، وإما أن يريدَ اليمينَ بالإضافةِ إلى ذي يمينِ إنسانٍ أو غيرِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦).

وقال ابنُ عاشور: (وجانِبُ الطورِ: سَفحُه. ووصفُه بالأيمنِ باعتِبارِ جِهةِ الشَّخصِ المُستَقبِلِ مَشرِقَ الشَّمسِ، وإلَّا فليس للجَبَلِ يمينٌ وشِمالٌ مُعَيَّنانِ، وإنما تُعرَفُ بمعرفةِ أصلِ الجِهاتِ، وهو مَطلعُ الشَّمسِ، فهو الجانِبُ القِبليُّ باصطلاحِنا. وجَعَل محَلَّ المواعَدةِ الجانِبَ القِبليَّ وليس هو من الجانِبِ الغربيِّ الذي في سورة «القَصَص»: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وقال فيها: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤] فهو جانبٌ غربيٌّ، أي: من جهةِ مَغربِ الشَّمسِ مِن الجبَلِ، وهو الذي آنس موسى منه نارًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٣-٢٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٤).

قيل: كانت المواعدةُ لموسى. وممَّن قال بذلك: الواحدي، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾.

أي: ونزَّلْنا عليكم(١) -يا بني إسرائيلَ- رِزقًا طيِّبًا سَهلًا، تحصُلونَ عليه بلا كُلفةٍ، ولا مَشقَّةٍ(٢).

= وقال القرطبي: (تقديرُ الآيةِ: وواعَدْناكم إتيانَ جانبِ الطورِ، ثم حذفَ المضافَ. قال النحاسُ: أي: أمرْنا موسى أن يأمرَكم بالخروجِ معه ليكلمَه بحضرتِكم فتسمعوا الكلامَ. وقيل: وعد موسى بعدَ إغراقِ فِرعَونَ أن يأتيَ جانبَ الطورِ الأيمنَ فيؤتيه التوراةَ، فالوعدُ كان لموسى، ولكن خُوطِبوا به؛ لأنَّ الوعدَ كان لأجلِهم). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٠).

وممن قال بأنَّ المواعدةَ كانت لبني إسرائيلَ جميعًا: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣١٩).

وقيل: المواعدةُ كانت لموسى ومَن اختارهم لميقاتِ رَبِّه. وممَّن ذهب إلى ذلك: الزمخشري، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٤-٢٧٥).

(١) قيل: نزولُ المنِّ والسلوى المذكورُ هنا كان في التِّيهِ. وممَّن قال بذلك: الواحدي، والقرطبي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠).

قال الواحدي: (﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ يعني في التِّيهِ، وهذا مخاطبتُه لمن كان فِي عصرِ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم من اليهودِ). ((الوسيط)) (٣/ ٢١٦).

وقال أبو حيان: (الظاهِرُ أنَّ الخِطابَ لِمن نجا معَ موسى بعدَ إغراقِ فِرعَونَ. وقيل: لمعاصري الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم اعتراضًا في أثناءِ قِصَّةِ موسى؛ توبيخًا لهم إذ لم يصبِرْ سَلَفُهم على أداءِ شُكرِ نِعَمِ الله، فهو على حذفِ مُضافٍ، أي: أنجينا آباءَكم مِن تعذيبِ آلِ فِرعَون). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٣-٣٦٤).

وقيل: نزولُ المنِّ والسلوَى كان في المواعدةِ لإنزالِ التوراةِ. وممن قال بذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠).

قال الشِّنقيطي: (أكثَرُ العُلَماءِ على أنَّ المَنَّ: التُّرَنْجَبينُ، وهو شيءٌ ينزِلُ من السَّماءِ كنُزولِ =

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ٨١﴾.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾.

أي: وقُلْنا لبني إسرائيلَ: كُلُوا من الطَّعامِ الحَلالِ اللَّذيذِ الذي رزَقْناكم[1].

﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ قراءتانِ:

١- ﴿فَيَحُلَّ﴾ ﴿يَحْلُلْ﴾ بضمِّ الحاءِ فيهما، مِن حَلَّ يَحُلُّ، أي: نَزَل[2].

٢- ﴿فَيَحِلَّ﴾ ﴿يَحِلِلْ﴾ بكسر الحاء فيهما، مِنْ حَلَّ عليه كذا يَحِلُّ، أي:

= الندى ثم يتجَمَّدُ، وهو يشبهُ العَسَل الأبيض. والسَّلوى: طائر يُشبِهُ السُّمَانى. وقيل: هو السُّمانى. وهذا قولُ الجمهورِ في المنِّ والسَّلوى... والأظهَرُ عندي في المَنِّ: أنَّه اسمٌ جامِعٌ لِما يمُنُّ الله به على عبدِه مِن غَيرِ كَدٍّ ولا تعَبٍ، فيدخُلُ فيه التُّرَنْجَبينُ الذي منَّ الله به على بني إسرائيلَ في التِّيهِ، ويَشملُ غيرَ ذلك مما يماثِلُه، ويدُلُّ على هذا قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم الثابِتُ في الصَّحيحينِ: «الكَمْأةُ مِن المَنِّ» والأظهَرُ عندي في السلوى: أنَّه طائِرٌ سواءٌ قلنا: إنَّه السُّمانى، أو طائِرٌ يُشبِهُه؛ لإطباقِ جمهورِ العُلَماءِ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ على ذلك). ((أضواء البيان)) (٤/ ٧٤، ٧٥).

ويُنظر ما تقدَّم مِن تفسيرِ المنِّ والسلوَى في سورةِ البقرةِ آية رقم (٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٥).

(٢) قرَأ بها الكسائيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢١). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٥٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٨٦).

وَجَب[١].

﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾.

أي: ولا تتجاوَزوا الحدَّ فيما رَزَقْناكم -ومِن ذلك أن تَكفُروا هذه النِّعمةَ، وتَترُكوا شُكري، وتستَعينوا برِزْقي على معصيتي، وتمْنَعوا الحقوقَ الواجبةَ عليكم- فيَجِبَ عليكم حينئذٍ غَضَبي، وتلزمَكم عُقوبتي[٢].

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾.

أي: ومن يجِبْ عليه غضبي فقد هلك وشَقِيَ[٣].

﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حَذَّرَ الله تعالى من الطُّغيانِ فيما رَزَق، وحَذَّر مِن حُلولِ غَضَبِه؛ فتَحَ بابَ

---

(١) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢١). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٥٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٥).

قال الرازي: (في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ وجوه:

أحدُها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تطغَوا، أي: لا يظلِمْ بعضُكم بعضًا فيأخُذَه من صاحبه.

وثانيها: قال مقاتل والضحاك: لا تظلموا فيه أنفُسَكم بأن تتجاوزوا حدَّ الإباحة.

وثالثها: قال الكلبي: لا تكفُروا النِّعمةَ، أي: لا تستعينوا بنعمتي على مخالفتي، ولا تُعرِضوا عن الشُّكرِ، ولا تَعدِلوا عن الحلالِ إلى الحرامِ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٦).

الرَّجاءِ للتَّائبينَ، وهي قولُه[١]:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾.

أي: وإنِّي لكثيرُ المغفرةِ لِمن رجَعَ عمَّا كان فيه من كُفرٍ أو شِركٍ، أو نفاقٍ أو مَعصيةٍ، وآمَنَ بكلِّ ما يجِبُ الإيمانُ به، وأخلَصَ لله في عبادتِه، وعَمِلَ الأعمالَ الصَّالِحةَ تَصديقًا لإيمانِه، ثمَّ[٢] لَزِمَ ذلك فثَبَت على التَّوبة، وأقام على الإيمانِ، واستمرَّ على القيامِ بالأعمالِ الصَّالحةِ حتى مماتِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وعن سُفيانَ بنِ عَبدِ اللهِ الثَّقفيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، قلْ لي في الإسلامِ قولًا لا أسألُ عنه أحدًا بَعدَك، قال: قل: آمَنتُ باللهِ، فاستَقِمْ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٥).

(٢) قال ابنُ كثير: («ثمَّ» هاهنا لترتيبِ الخبرِ على الخبرِ، كقَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٦-٧٧).

(٤) رواه مسلم (٣٨).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ فيه أنَّ من تاب من الكُفرِ والبِدعةِ والفُسوقِ، وآمن باللهِ ومَلائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخِرِ، وعَمِلَ صالِحًا من أعمالِ القَلبِ والبَدَنِ، وأقوالِ اللِّسانِ، وسلَك الصِّراطَ المستقيمَ، وتابَعَ الرَّسولَ الكريمَ، واقتدى بالدِّينِ القويمِ؛ فهذا يَغفِرُ اللهُ أوزارَه، ويعفو عما تقَدَّمَ مِن ذَنبِه وإصرارِه؛ لأنَّه أتَى بالسَّبَبِ الأكبَرِ للمَغفرةِ والرَّحمةِ، بل الأسبابُ كلُّها منحصرةٌ في هذه الأشياءِ؛ فإنَّ التوبةَ تجبُّ ما قبلَها، والإيمانَ والإسلامَ يهدمُ ما قبلَه، والعملَ الصالحَ -الذي هو الحسناتُ- يُذهِبُ السيئاتِ، وسلوكُ طرقِ الهدايةِ بجميعِ أنواعِها؛ مِن تعلُّمِ عِلمٍ، وتدبُّرِ آيةٍ أو حديثٍ، حتى يتبينَ له معنى مِن المعاني يهتدي به، ودعوةٍ إلى دينِ الحقِّ، وردِّ بدعةٍ أو كفرٍ أو ضلالةٍ، وجهادٍ، وهجرةٍ، وغيرِ ذلك مِن جزئياتِ الهدايةِ، كلُّها مكفراتٌ للذنوبِ، محصِّلاتٌ لغايةِ المطلوبِ[(١)].

٢- مِن أعجبِ ما ظاهرُه الرجاءُ، وهو شديدُ التخويفِ، قولُه تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾؛ فإنه علَّق المغفرةَ على أربعةِ شروطٍ، يصعبُ تصحيحُها[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ مَن تاب وآمنَ وعَمِلَ صالِحًا، فلا بُدَّ أن يكونَ مُهتَدِيًا، فما معنى قَولِه: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ بعد ذِكرِ هذه الأشياءِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((مختصر منهاج القاصدين)) لأبي العباس ابن قدامة (ص: ٣٠٨).

الجوابُ مِن وجوهٍ؛ منها:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ المرادَ منه الاستمرارُ على تلك الطَّريقةِ؛ إذ المهتدي في الحالِ لا يكفيه ذلك في الفَوزِ بالنَّجاةِ حتى يستَمِرَّ عليه في المُستقبَلِ، ويموتَ عليه. ويؤكِّدُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

الوجهُ الثاني: أنَّ المرادَ مِن قَولِه: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي: عَلِمَ أنَّ ذلك بهدايةِ اللهِ وتوفيقِه، وبَقِيَ مُستعينًا باللهِ في إدامةِ ذلك مِن غَيرِ تَقصيرٍ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾

- رُتِّبَ ذِكْرُ هذه النِّعمِ تَرتيبًا حَسنًا، حيث قُدِّمَت عليها النِّعمةُ العظيمةُ، وهي خَلاصُهم مِن استعبادِ الكَفرةِ؛ فبدَأَ بإزالةِ ما كانوا فيه مِن الضَّررِ مِن الإذلالِ والخراجِ والذَّبْحِ، وهي آكَدُ أنْ تكونَ مُقدَّمةً على المَنفعةِ الدُّنيويَّةِ؛ لأنَّ إزالةَ الضَّررِ أعظَمُ في النِّعمةِ من إيصالِ تلك المنفعةِ، ثمَّ أعقَبَ ذلك بذِكْرِ المنفعةِ الدِّينيَّةِ، وهي قولُه: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾؛ إذ أنزَلَ على نَبيِّهم مُوسى كِتابًا فيه بَيانُ دِينِهم وشرْحُ شَريعتِهم، ثمَّ ذكَرَ المنفعةَ الدُّنيويَّةَ، وهي قولُه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾[(٢)].

- قولُه: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ عَدَّى المُواعدةَ إليهم؛ لأنَّها لَابَسَتْهم واتَّصلَتْ بهم، حيث كانت لنَبيِّهم ونُقبائِهم، وإليهم رجعَتْ منافِعُها الَّتي قام

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٣).

بها دِينُهم وشرْعُهم، وفيما أفاض عليهم من سائِرِ نِعَمِه وأرزاقِه، وإيفاءً لمقامِ الامتنانِ حَقَّه[١].

٢- قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾

- قولُه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لبَيانِ إباحةِ ما ذُكِرَ لهم، وإتْمامًا للنِّعمةِ عليهم[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾

- جُملةُ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ﴾ إلى آخرِها، استطرادٌ بعْدَ التَّحذيرِ مِن الطُّغيانِ في النِّعمةِ، بالإرشادِ إلى ما يُتدارَكُ به الطُّغيانُ إنْ وقَعَ بالتَّوبةِ، والعمَلِ الصَّالحِ[٣].

- وقولُه: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي في الرُّتبةِ، واستُعملَتْ للدَّلالةِ على التَّبايُنِ بين الشَّيئينِ في المنزلةِ، كما كانت للتَّبايُنِ بين الوقْتينِ في الحُدوثِ؛ فمَنزِلَةُ الاستِقامةِ على الخيرِ مُباينَةٌ لمَنزِلَةِ الخيرِ نفْسِه؛ لأنَّها أعلَى منها وأفضَلُ؛ فلَمَّا كانتْ رُتبةُ الاستمرارِ على الاستقامةِ في غايةِ العُلوِّ، عبَّر عنها بأداةِ التراخِي فقال: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٤- ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٦).

الآيات (٨٢-٨٩)

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾: أي: بالقربِ مني، وموالُونَ لي في الوُصولِ، ويأتونَ خَلْفي، والأَثَرُ: ما يترُكُه الماشي على الأرضِ مِن عَلاماتِ قَدَمٍ أو حافِرٍ أو خُفٍّ، وأصلُ (أثر): يدلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي[١].

﴿وَعَجِلۡتُ﴾: العَجَلَةُ: طَلَبُ الشَّيءِ، وتحرِّيه قبل أوانِه، وهي خلافُ البُطءِ. وأصلُه: يدلُّ على إسراعٍ[٢].

﴿بِمَلۡكِنَا﴾: أي: بِطاقَتِنا، واختيارِنا، وقُدرتِنا، وأصلُ (ملك): يدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٤، ٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

﴿أَوْزَارًا﴾: أَي: أثقالًا وأحمالًا، والوِزْرُ: الثِّقلُ، ويُعبَّرُ به أيضًا عن الإثمِ، وأصلُ (وزر) هنا: الثقلُ في الشيءِ[(١)].

﴿زِينَةِ الْقَوْمِ﴾: أي: حُلِيِّ آلِ فِرعَونَ، وأصلُ (زين): يدُلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[(٢)].

﴿خُوَارٌ﴾: الخُوارُ: صَوتُ البَقَرِ، وأصلُ (خور): يدُلُّ على صَوْتٍ[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن فتنةِ قومِ موسَى عليه السلامُ، وإضلالِ السامريِّ لهم، بعدَ أنْ ذهَب موسَى عليه السلامُ لمناجاةِ ربِّه، فيقول تعالى: وأيُّ شَيءٍ أعجَلَك عن قَومِك -يا موسى- فسبقتَهم إلى الطُّورِ؟ قال: إنَّهم خلفي سوف يَلحَقونَ بي، وسبقتُهم إليك -يا ربِّي- مُسارعةً في رِضاك! قال الله لموسى: فإنَّا قد ابتَلَينا قَومَك بعدَ فِراقِك لهم بعبادةِ العِجلِ، وأَضَلَّهم السَّامريُّ، الذي أخرجَ لهم العِجلَ، ودعاهم إلى عبادتِه فأطاعوه.

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن رجوعِ موسَى عليه السلام إلى قومِه، وما قاله لهم، فيقول تعالى: فرجَعَ موسى إلى قَومِه غَضبانَ عليهم حزينًا، وقال لهم: يا قومِ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٢، ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥).

ألم يَعِدْكم ربُّكم وعدًا حَسَنًا، كإنزالِ التَّوراةِ، والنَّصرِ على أعدائِكم، وغيرِ ذلك؟! أفطال عليكم العَهدُ واستبطأتُم الوَعدَ؟! بل أردتُم بفِعلِكم هذا أن يَحِلَّ عليكم غَضَبٌ مِن رَبِّكم، فعَبدتُم العِجلَ، وتركتُم الالتزامَ بأوامري!

ثمَّ يحكي الله سبحانَه عمَّا اعتذروا به مِن اعتذاراتٍ واهيةٍ، وتبريراتٍ سخيفةٍ، فيقول تعالى: قالوا: يا موسى، ما أخلَفْنا مَوعِدَك باختيارِنا، ولكنَّا حُمِّلْنا أثقالًا مِن حُلِيِّ قَومِ فِرعَونَ، فألقَيناها في النَّارِ، فكذلك ألقى السَّامريُّ ما كان في يَدِه، فأخرَجَ السَّامريُّ لبني إسرائيلَ مِن الحُلِيِّ عِجلًا جَسَدًا يخورُ خُوارَ البَقَرِ، فقال السَّامِريُّ والمفتونونَ به منهم: هذا هو إلهُكم وإلهُ موسى، نَسِيَه موسى وغَفَل عنه هنا. أفلا يرى الذين عَبَدوا العِجلَ أنَّه لا يُكَلِّمُهم، ولا يرُدُّ عليهم جَوابًا، ولا يَقدِرُ على دَفعِ ضَرٍّ عنهم، أو جَلبِ نَفعٍ لهم؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾.

أي: وأيُّ شَيءٍ حَمَلَك -يا موسى- على أن تَسبِقَ قَومَك إلى الطُّورِ، ولم تَصبِرْ حتى تقْدَمَ معهم[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١).

قال ابن عاشور: (الذي يُؤخَذُ مِن كَلامِ المفَسِّرينَ وتُشيرُ إليه الآيةُ: أنَّ موسى تعجَّلَ مُفارقةَ قَومِه ليحضُرَ إلى المناجاةِ قبلَ الإبَّانِ الذي عَيَّنَه الله له؛ اجتهادًا منه، ورغبةً في تلقِّي الشريعةِ حَسَبما وعده الله قبل أن يحيطَ بنو إسرائيلَ بجَبَلِ الطورِ، ولم يراعِ في ذلك إلا السَّبقَ إلى ما فيه خيرٌ لِنَفسِه ولقومِه، فلامه الله على أن غَفَل عن مراعاةِ ما يحفُّ بذلك من ابتعادِه عن قَومِه قبل أن يوصِيَهم الله بالمحافظةِ على العَهدِ، ويحَذِّرَهم مكرَ مَن يتوسَّمُ فيه مَكرًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٧).

﴿قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾.

أي: قال موسى: هم قادِمونَ مِن ورائي، وسيلحَقونَ بي[(١)].

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾.

أي: وسبقتُ قومي إلى الطورِ -يا ربِّ- مسارعةً في طَلَبِ رِضاك[(٢)].

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾.

أي: قال الله لموسى: فإنَّا قد ابتَلَينا قَومَك مِن بَعدِ فِراقِك لهم بعبادةِ العِجلِ[(٣)]!

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١).

وقال ابنُ عاشور: (قولُه هنا: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ يدُلُّ على أنَّهم كانوا سائرينَ خَلفَه، وأنَّه سَبَقَهم إلى المناجاةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١).

قال ابن عطية: (أعلَمه الله تعالى أنَّه قد فتَن بني إسرائيلَ، أي: اختبرهم بما صنَعه السامريُّ. ويحتملُ أن يريدَ: ألقيناهم في فتنةٍ، أي: في ميلٍ مع الشهواتِ، ووقوعٍ في اختلافِ كلمةٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧).

وقال ابن عاشور: (إسنادُ الفَتنِ إلى الله تعالى باعتبارِ أنَّه مُقَدِّرُه وخالقُ أسبابِه البعيدةِ. وأما إسنادُه الحقيقي فهو الذي في قولِه: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾؛ لأنه السَّبَبُ المباشِرُ لضَلالِهم المسَبِّبِ لفِتنتِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٩).

أي: وأضلَّ قومَك السَّامريُّ[(١)] الذي أخرجَ لهم العِجلَ، ودعاهم إلى عبادتِه فأطاعوه[(٢)].

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦﴾.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾.

أي: فانصرفَ موسى من الطُّورِ إلى قَومِه بني إسرائيلَ في حالِ غَضَبٍ شَديدٍ منهم، وحُزنٍ على ما أحدَثوه مِن ضَلالٍ وكُفرٍ في غيابِه[(٣)].

---

(١) السامري هو الرجلُ الذي كان سببًا في ضلالِ بنى إسرائيلَ، قيل: كان مِن بني إسرائيلَ، وقيل: لم يكنْ منهم، وقد اختُلف في اسمِه، وفي سببِ تسميتِه بالسامريِّ، وذُكِرتْ في نشأتِه قصةٌ، قال القاسمي: (وقد قال بالظنِّ مَن ادَّعَى تسميتَه، أو حاوَل تعيينَه). يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٤٣)، (٤/ ٦١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٩-٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١).

وممَّن فسَّر الأسَفَ هنا بالحزنِ: ابنُ جريرٍ، والسمعاني، والبغوي، وابنُ عطيةَ، والخازنُ، والفيروزابادي، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢١٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ١٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨١).

ونسَب الرازي للأكثرينَ أن المعنى: حُزْنًا وجَزَعًا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨٧).

قال ابنُ عطية: (رجَع موسى إلى قومِه غَضبانَ أسِفًا عليهم؛ مِن حيثُ له قُدرةٌ على تغييرِ مُنكَرِهم. أسِفًا، أي: حَزينًا؛ مِن حيثُ عَلِمَ أنَّه موضِعُ عُقوبةٍ لا يَدَ له بدَفعِها، والأسَفُ في كلامِ العَرَبِ متى كان مِن ذي قُدرةٍ على مَن دُونَه، فهو غَضَبٌ، ومتى كان من الأقَلِّ على الأقوى فهو حُزنٌ، =

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًا﴾.

أي: قال موسى: يا قومِ، ألم يَعِدْكم رَبُّكم وَعدًا حَسَنًا بحُصولِ الخَيرِ لكم في الدُّنيا والآخرةِ، كإنزالِ التَّوراةِ، والنَّصرِ على أعدائِكم، وغيرِ ذلك مِن أياديه عِندَكم، ووَعَدَكم مَغفِرةَ ذُنوبِكم، ودُخولَ الجَنَّةِ إن أطعتُموه[1]؟

﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾.

أي: فهل طال عليكم انتِظارُ ما وعَدَكم اللهُ، ونَسِيتُم نِعَمَه عليكم؟! فإنَّ زَمَنَ ذلك لم يَبعُدْ حتَّى تيأسوا مِن الوفاءِ، وتَكفُروا وتَعبُدوا غيرَه، وتكونَ لكم شُبهةُ

= وتأمَّلْ ذلك فهو مطَّرِدٌ إن شاء اللهُ عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، والسُّدِّي، وقتادةُ، ومجاهدٌ، والحسنُ، ومالكُ بنُ دينارٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٥٦٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٥٦).

وقيل: الأَسَفُ هنا هو شِدَّةُ الغَضَبِ. وممَّن اختار ذلك: الرسعني، والقرطبي، وابنُ كثير، والعليمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٧٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: أبو الدرداءِ، فقال: الأسفُ منزلةٌ وراءَ الغضبِ أشدُّ مِن ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥٠).

قال الواحدي: (والقولانِ مُتقارِبانِ؛ لأنَّ الغَضَبَ مِن الحُزنِ، والحُزنَ مِنَ الغَضَبِ؛ فإذا جاءك ما تكرهُ ممَّن هو دونَك غَضِبتَ، وإذا جاءك ممَّن هو فوقك حَزِنتَ، يُسمَّى أحدُهما: حُزنًا، والآخَرُ: غَضَبًا، وأصلُهما أن يُصيبَك ما تكرهُ). ((البسيط)) (٩/ ٣٦٦).

وقال الراغب: (الأَسَفُ: الحزن والغضب معًا، وقد يقال لكل واحدٍ منهما على الانفراد). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٢).

عُذرٍ في الإعراضِ عن عبادةِ اللهِ[١].

﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾.

أي: بل[٢] أردتُم أن يجِبَ عليكم غضَبٌ مِنَ الله، فتَستَحِقُّوه؛ لِتَركِكم اتِّباعي إلى الطُّورِ، وعُكوفِكم على عبادةِ العِجلِ مِن بَعدِي[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٢، ٢٨٣).

وممَّن قال بالمعنى المذكور هنا لطولِ العهد في الجملةِ: ابنُ كثير، والألوسي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٢).

وقيل: المراد: أَفَطَالَت عليكم مدة مفارقتي إياكم؟ وممَّن قال بذلك: الواحدي، والزمخشري، وابن الجوزي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧١).

قال السعدي: (أي: المدة، فتطاولتُم غَيبتي وهي مدةٌ قصيرة؟ هذا قولُ كثيرٍ مِن المفسِّرينَ، ويحتملُ أن معناه: أفطال عليكم عَهدُ النُبُوَّة والرسالة، فلم يكن لكم بالنُبُوَّة عِلمٌ ولا أَثَرٌ، واندرست آثارُها، فلم تَقِفوا منها على خبرٍ، فانمحت آثارُها لبُعدِ العَهدِ بها، فعبدتُم غيرَ الله؛ لغلبة الجَهلِ، وعَدَمِ العلم بآثار الرسالة؟ أي: ليس الأمرُ كذلك، بل النبوةُ بين أظهُرِكم، والعِلمُ قائِمٌ، والعُذرُ غيرُ مَقبولٍ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١).

(٢) ممن قال بأن «أم» هاهنا بمعنى «بل»، وهي للإضرابِ عن الكلامِ الأوَّلِ، وعدولٌ إلى الثاني: ابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٣).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١).

وقال الشنقيطي: (قوله: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال بعضُ العلماءِ: «أم» هنا هي المنقطعةُ، والمعنى: بل أردتُم أن يحلَّ عليكم غضبٌ مِن ربِّكم، ومعنى إرادتهم حلولَ الغضبِ: أنهم فعلوا ما يستوجبُ غضبَ ربِّهم بإرادتِهم. فكأنهم أرادوا الغضبَ لمَّا أرادوا سببَه، وهو الكفرُ بعبادةِ العجلِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨١).

﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧﴾.

﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾.

أي: قال بنو إسرائيلَ لِموسى: ما أخلَفْنا ما عَهِدتَ إلينا بإرادتِنا واختيارِنا، ولم نكنْ نَملِكُ أمْرَنا[1].

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا﴾.

أي: ولكِنَّا حُمِّلْنا[2] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٢-١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٤).
قال ابنُ جرير: (اختَلَفَ أيضًا أهلُ التأويلِ في تأويلِه، فقال بعضُهم: معناه: ما أخلَفْنا مَوعِدَك بأمْرِنا... وقال آخرون: معناه: بطاقتِنا... وقال آخرون: معناه: ما أخلَفْنا مَوعِدَك بهَوانا، ولكِنَّا لم نملِكْ أنفُسَنا... وكل هذه الأقوال الثلاثةِ في ذلك متقارباتُ المعنى؛ لأنَّ مَن لم يَملِكْ نَفسَه لِغَلَبةِ هواه على ما أُمِرَ، فإنَّه لا يمتَنِعُ في اللغةِ أن يقولَ: فعَلَ فلانٌ هذا الأمرَ وهو لا يملِكُ نَفسَه وفِعلَه، وهو لا يضبِطُها وفِعلَه، وهو لا يطيقُ تَرْكَه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٣-١٣٥).
وقال الشنقيطي: (المعنى: ما أخلفنا موعدَك بأن ملكنا أمرَنا، فلو ملكنا أمرَنا ما أخلفنا موعدَك. وهو اعتذارٌ منهم بأنهم ما أخلفوا الموعدَ باختيارِهم، ولكنهم مغلوبون على أمرِهم مِن جهةِ السامريِّ وكيدِه! وهو اعتذارٌ باردٌ ساقطٌ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٨١).

(٢) قال الأزهري: (قرأ أبو عمرو وأبو بكرٍ عن عاصمٍ وحمزةَ والكسائي: ﴿حَمَلْنَا﴾ مفتوحةَ الحاءِ والميمَ خفيفةً. وقرأ الباقون: ﴿حُمِّلْنَآ﴾ بضمِّ الحاءِ وتشديدِ الميمِ... قال أبو منصورٍ: هما -كما قال أبو عمرو- سواء في مرجعِ المعنى إليه). ((معاني القراءات)) (٢/ ١٥٧، ١٥٨).
وذكَر ابنُ جريرٍ أنَّه على قراءةِ: ﴿حُمِّلْنَآ﴾ بضمِّ الحاءِ وتشديدِ الميمِ، فالمعنى أنَّ موسى يحمِّلُهم ذلك. وعلى قراءةِ ﴿حَمَلْنَا﴾ بتخفيفِ الحاءِ والميمِ وفتحِهما، بمعنى أنهم حملوا ذلك مِن غيرِ أن يكلفَهم حملَه أحدٌ، ثم قال: (والقولُ عندي في تأويل ذلك أنَّهما قراءتان مشهورتانِ متقاربتا المعنَى؛ لأنَّ القومَ حملوا، وأنَّ موسَى قد أمرهم بحملِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٧-١٣٨).

مِن حُلِيِّ آلِ فِرعَون، فألقَيناها في النَّارِ[١].

﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

أي: فكما قَذَفْنا نحن تلك الأثقالَ مِن الحُلِيِّ، ألقَى السَّامِريُّ أيضًا ما كان في يَدِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨٣).
قال ابن جُزَي: (وزينةُ القَومِ هي: حُلِيُّ القِبطِ قَومِ فِرعَونَ، كان بنو إسرائيلَ قد استعاروه منهم قبلَ هلاكِهم. وقيل: أخذوه بعد هلاكِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢).
وقال القرطبي: (وسُمِّيَت أوزارًا بسَبَبِ أنَّها كانت آثامًا، أي: لم يحِلَّ لهم أخذُها ولم تحِلَّ لهم الغنائِمُ، وأيضًا فالأوزارُ هي الأثقالُ في اللغةِ. ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ أي: ثَقُل علينا حَملُ ما كان معنا من الحُليِّ فقَذَفناه في النَّارِ لِيَذوبَ، أي: طرَحْناه فيها. وقيل: طرَحْناه إلى السامريِّ لترجِعَ فترى فيها رأيَك). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٥).
وقال ابنُ كثير: (﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ أي: ألقَيناها عنَّا... وحاصِلُ ما اعتذر به هؤلاء الجَهَلةُ أنَّهم تورَّعوا عن زينةِ القِبطِ فألقَوها عنهم، وعَبَدوا العِجلَ! فتورَّعوا عن الحقيرِ وفعلوا الأمرَ الكبيرَ!). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠-٣١١).
وقال الشنقيطي: (أظهَرُ الأقوالِ عندي في ذلك: هو أنَّهم جعلوا جميعَ الحُلِيِّ في النارِ ليذوبَ فيصيرَ قطعةً واحدة؛ لأنَّ ذلك أسهَلُ لحِفظِه حتى يرى نبيُّ الله موسى فيه رأيَه، والسَّامريُّ يريدُ تدبيرَ خطَّةٍ لم يطَّلِعوا عليها). ((أضواء البيان)) (٤/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٦).
قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنَّه ألقَى حُلِيًّا كما ألقَوا. والثاني: ألقَى ما كان مِن ترابِ حافِرِ فَرَسِ جبريلَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧٢).
ويُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٧٩).
وممن قال بالقولِ الأوَّلِ: الزجَّاج، والواحدي، والخازنُ، والعليمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٥). =

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

أي: فأخرَجَ السَّامِريُّ لبني إسرائيلَ مِن الحُلِيِّ التي قَذَفوها في النَّارِ عِجلًا جسدًا، له صوتُ البَقَرِ(١).

= وممن قال بالقولِ الثاني: ابنُ جريرٍ، والزمخشري، والرسعني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١).

قال ابنُ جُزَي: (كان السَّامِريُّ قد رأى جبريلَ عليه السَّلامُ، فأخذ مِن وَطءِ فَرَسِه قَبضةً مِن تُرابٍ، وألقى اللهُ في نَفسِه أنَّه إذا جعَلَها على شَيءٍ مواتٍ صار حيوانًا، فألقاها على العِجلِ فخار العِجلُ، أي: صاح صِياحَ العُجولِ، فالمعنى: أنَّهم قالوا: كما ألقَينا الحُلِيَّ في الحُفرةِ ألقى السَّامريُّ قَبضةَ التُّرابِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٢١٨، ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٦).

وممن اختار أنَّ العجلَ لم تكُنْ له روحٌ: ابنُ الأنباري -كما حكاه عنه ابنُ الجوزي- واختاره أيضًا: السجستاني، والزجاج، وابنُ الجوزي، وابنُ عطية، وابنُ تيمية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٢١٨، ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٦).

قال ابنُ الجوزي: (قال ابنُ الأنباري: ذِكرُ الجسَدِ دَلالةٌ على عدَمِ الرُّوحِ منه، وأنَّ شَخصَه شَخصُ مِثالٍ وصورةٍ، غيرُ مُنضَمٍّ إليهما روحٌ ولا نَفْسٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٥٥).

وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، فقد قال: (فلمَّا ألقاها فيه خار كما يخورُ العجلُ الحقيقيُّ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ١٤٧).

وقال ابنُ تيمية: (ليس المرادُ مِن العجلِ أن له بدنًا مثل بدَنِ الآدميين، ولا بدنًا كأبدانِ البَقرِ؛ فإنَّ العجلَ لم يكنْ كذلك... والمقصودُ: أنَّ ما أخرجَه كان جسَدًا مُصمَتًا لا رُوحَ فيه حتى تَبيَّن نَقصُه، وأنَّه كان مَسلوبَ الحياةِ والحَركةِ). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ٢١٨، ٢١٩).

وقال ابن عاشور: (والجَسَدُ: الجسمُ ذو الأعضاءِ، سواءٌ كان حيًّا أم لا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [ص: ٣٤]. قيل: هو شِقُّ طِفلٍ ولدَتْه إحدى نسائِه، كما ورد في الحديثِ. قال =

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾.

أي: فقالوا[1]: هذا العِجلُ هو معبودُكم ومعبودُ موسى الذي غَفَل عنه موسى

= الزجاجُ: الجسدُ هو الذي لا يعقلُ ولا يميزُ، إنما هو الجثةُ، أي: أخرج لهم صورةَ عجلٍ مجسدةً بشكلِه وقوائمِه وجوانبِه، وليس مجردَ صورةٍ منقوشةٍ على طبقٍ مِن فضةٍ أو ذهبٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٦).

قال ابن الجوزي: (وكان مجاهدٌ يقولُ: خوارُه حفيفُ الريحِ فيه. وهذا يدلُّ على أنَّه لم يكنْ فيه روحٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٥٥).

وذهب الواحدي والشنقيطي إلى أنَّ العجلَ صار جسدًا ذا لحم ودمٍ، وعزاه الواحدي إلى أكثرِ أهلِ التفسيرِ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٩).

قال السمعاني: (واخْتلفُوا في الخوارِ: فالأكثرونَ أنَّه صَوتُ عجلٍ حَيٍّ، وهو قولُ ابنِ عَبَّاسٍ، والحسنِ، وقتادةَ، وجماعةٍ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٤٩).

وقال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: جعَلَ الله بقدرتِه ذلك الحليَّ المصوغَ جَسدًا مِن لحمٍ ودمٍ، وهذا هو ظاهِرُ قَولِه ﴿عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾. وقال بعضُ العلماءِ: لم تكنْ تلك الصورةُ لحمًا ولا دمًا، ولكن إذا دخلَتْ فيها الرِّيحُ صَوَّتَت كخُوار العِجلِ. والأوَّلُ أقرب لظاهِرِ الآية، والله تعالى قادرٌ على أن يجعَلَ الجَمادَ لَحمًا ودَمًا، كما جعل آدَمَ لحمًا ودمًا، وكان طينًا). ((أضواء البيان)) (٤/ ٧٩).

(١) قيل: الضميرُ في (قالوا) يعودُ إلى السامري ومَن تابَعه ووافَقه ممن افتتَن بالعجلِ. وممن اختاره الواحدي، والرسعني، والقرطبي، والخازنُ، والعليمي، والشوكاني، يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٩).

وقيل: الضميرُ يعودُ إلى قومِ موسى الذين عبدوا العجلَ، وافتتنوا به. وممن اختاره: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١١).

هاهنا، وذهبَ إلى الجبلِ ليطلُبَه[١]!

قالَ اللَّهُ تعالَى رَدًّا عليهم، وتقريعًا لهم، وبيانًا لفضيحَتِهم، وسَخافةِ عقولِهم فيما ذَهَبوا إليه[٢]:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾.

أي: أفلا يرى الذين عبدوا العِجلَ أنَّه لا يكَلِّمُهم، ولا يرُدُّ عليهم إنْ كَلَّموه[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٠، ١٤٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٣)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٤٢).

وممن ذهَب إلى أنَّ الضميرَ في (نَسِيَ) يعودُ إلى موسى: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والرازي، والقرطبي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٤٢).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، ومجاهدٌ، والسُّدِّي، وابنُ زيدٍ، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤١).

وعزا الرازي القولَ بأنَّ معنَى الآيةِ: أنَّ هذا إلهُكم وإلهُ مُوسَى، فنَسِي مُوسى أنَّ هذا هو الإلهُ، فذَهَب يطلُبُه في موضعٍ آخَرَ- إلى الأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٠).

وقيل: المعنى: فنسِي موسى أن يخبرَكم أنَّ هذا إلهُه. وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧٢).

وقيل: الضميرُ يعودُ إلى السامري. واستظْهَر هذا القولَ أبو حيان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٣)، ((مدارج =

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

أي: وأنَّه لا يَقدِرُ على ضَرِّهم بشَيءٍ، ولا على نَفعِهم بشَيءٍ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ؟ فكيف يكونُ إلهًا مَن تلك صِفاتُه[(١)]؟!

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قولُه تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ يحتمِلُ أنَّ الله تعالى أراد بسُؤالِ موسى عليه السلامُ عن سبَبِ العجلةِ -وهو أعلَمُ-: أنْ يُعلِّمَ مُوسى أدَبَ السَّفرِ، وهو أنَّه يَنْبغي تأخيرُ رئيسِ القومِ عنهم في المَسيرِ؛ ليكونَ نظَرُه مُحيطًا بطائفتِه، ونافِذًا فيهم، ومُهيمِنًا عليهم. وهذا المعنى لا يحصُلُ في تقدُّمِه عليهم، ألَا تَرى اللهَ عَزَّ وجَلَّ كيف علَّمَ هذا الأدبَ لُوطًا، فقال: ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥]، فأمَرَه أنْ يكونَ أخِيرَهم. على أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ إنَّما أغفَلَ هذا الأمْرَ؛ مُبادَرةً إلى رِضَا اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ومُسارَعةً إلى الميعادِ، وذلك شأْنُ الموعودِ بما يسُرُّه؛ يَوَدُّ لو رُكِّبَ إليه أجنحةُ الطَّيرِ، ولا أسَرَّ من مُواعدةِ اللهِ تعالى له صلَّى الله عليه وسلَّم[(٢)]. وممَّا أفادَهُ السُّؤالُ أيضًا: تَعريفُ المسؤولِ بما يَجهَلُه من أُمورٍ، وقد أراد سُبحانَه تَعريفَه بفِتْنةِ قومِه؛ ووُقوعِهم في عِبادةِ العجْلِ[(٣)].

= السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٣)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((حاشية ابن المنير على الكشاف)) (١/ ١٥٥١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) (٦/ ٢٣٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لَمَّا استدعى الله تعالى موسى عليه السَّلامُ لِمُناجاتِه وكلامِه؛ أسرَعَ إليه، فقال له ربُّه: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ فدَلَّ على أنَّ المسارعةَ إلى مناجاةِ اللهِ تُوجِبُ رِضاه، وهذا دليلٌ حَسَنٌ على فَضلِ الصَّلاةِ في أوَّلِ أوقاتِها[١]، وكذلك المبادرةُ إلى أعمالِ البرِّ.

٢- قَولُ موسى عليه السلام فيما يحكيه الله عنه: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾، فيه سؤالٌ: أنه قال: ﴿وَعَجِلۡتُ﴾ والعجلةُ مذمومةٌ؟

والجواب: أنَّها ممدوحةٌ إذا كانت في الدينِ؛ قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾[٢] [آل عمران: ١٣٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾، فيه سؤال: كيف كان رجوعُ قومِ موسى وهم مِن العقلاءِ المكلَّفين عن الدينِ الحقِّ دفعةً واحدةً إلى عبادة عجلٍ يُعرفُ فسادُها بالضرورةِ؟

والجوابُ من أوجهٍ:

الوجه الأول: أنَّ هذا غيرُ ممتنعٍ في حقِّ البُلْهِ مِن الناس[٣].

الوجه الثاني: أنهم اغتروا بما موَّه لهم مِن أنَّه إلههم المنشودُ مِن كثرةِ ما سمعوا مِن رسولِهم أنَّ الله معهم أو أمامهم، ومما جاش في خواطرِهم مِن الطمعِ في رؤيتِه تعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٤).

الوجه الثالث: أنَّه لما رأوا ما صاغه السامريُّ في صورةِ معبودٍ كانوا قد عرفوه من قبلُ، ورأوه يزيدُ عليه بأنَّ له خوارًا، رسَخ في أوهامِهم الفاسدةِ أنَّ ذلك هو الإلهُ الحقيقيُّ؛ لأنَّهم رأوه مِن ذهبٍ أو فضةٍ، فتوهموا أنَّه أفضلُ مِن العجلِ الذي عرفوه مِن قبلُ[(١)].

الوجه الرابع: أنَّ الاستعبادَ الطويلَ، والذلَّ الطويل في ظلِّ الفِرعَونية الوثنيةِ، كان قد أفسد طبيعةَ القومِ، وأضعَف استعدادَهم لاحتمالِ التكاليفِ والصبرِ عليها، والوفاءِ بالعهدِ والثباتِ عليه، وترَك في كِيانِهم النفسيِّ خلخلةً واستعدادًا للانقيادِ والتقليدِ المريح، فما يكادُ موسى يتركُهم في رعايةِ هارونَ، ويبعدُ عنهم قليلًا، حتى تتخلخلَ عقيدتُهم كلُّها، وتنهارَ أمامَ أولِ اختبارٍ.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ جعَلَ امتناعَ صِفةِ الكَلامِ والتَّكليمِ، وعَدَمَ مِلكِ الضَّرِّ والنَّفعِ دَليلًا على عَدَمِ الإلهيَّةِ، وهذا دليلٌ عقليٌّ سَمعيٌّ على أنَّ الإلهَ لا بُدَّ أن يُكَلِّمَ ويتكَلَّمَ، ويَملِكَ لعابِدِه الضَّرَّ والنَّفعَ، وإلَّا لم يكن إلهًا[(٢)]، فالإلهُ لا بدَّ أن يكونَ موصوفًا بهذه الصفاتِ[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ سُؤالٌ عن سبَبِ العَجلةِ، وأجاب بقولِه: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ تضمَّنَ تأخُّرَ قومِه عنه، فأجاب مُشيرًا إليهم -لقُربِهم منه- أنَّهم على أثَرِه، جائينَ للموعدِ، وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٩١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٠).

على ما كان عهِدَ إليهم أنْ يَجِيئوا للموعدِ. ثمَّ ذكَرَ السَّببَ الَّذي حمَلَه على العجلةِ، وهو ما تضمَّنَه قولُه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، من طلَبِه رِضَا اللهِ تعالى في السَّبقِ إلى ما وعَدَهُ ربُّه[١].

- شَبَّه الجائِيَ المُوالِيَ بالَّذي يَمْشي على علاماتِ أقدامِ مَن مَشى قبْلَه قبْلَ أنْ يتغيَّرَ ذلك الأثَرُ بأقدامٍ أُخرى، ووجْهُ الشَّبهِ: هو مُوالاتُه، وأنَّه لم يَسْبِقْه غيرُه. والمعنى: هم أولاءِ سائرونَ على مواقعِ أقْدامي، أي: مُوالونَ لي في الوُصولِ[٢].

- وزِيادةُ ﴿رَبِّ﴾ في قولِه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾؛ لمَزيدِ الضَّراعةِ والابتهالِ؛ رغبةً في قَبولِ العُذْرِ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ استئنافٌ مَبْنِيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ من حِكايةِ اعتذارِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهو السِّرُّ في وُرودِه على صِيغَةِ الغائبِ ﴿قَالَ﴾، لا أنَّه الْتِفاتٌ منَ التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ؛ لأنَّ المُقدَّرَ فيما سبَقَ من الموضعينِ على صِيغَةِ التَّكلُّمِ؛ كأنَّه قِيلَ من جِهَةِ السَّامعينَ: فماذا قال له ربُّه حينئذٍ؟ فقيل: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾[٤].

- والفاءُ في ﴿فَإِنَّا﴾ لتَرتيبِ الإخبارِ بما ذُكِرَ من الابتلاءِ على إخبارِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعَجَلتِه؛ لِمَا بينهما من المُناسَبةِ المُصحِّحةِ للانتقالِ مِن أحدِهما إلى الآخرِ، من حيث إنَّ مَدارَ الابتلاءِ المذكورِ عجَلةُ القومِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٣- ٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٤).

- وقولُه: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ فيه ضَرْبٌ من المَلامِ على التَّعجُّلِ بأنَّه تسبَّبَ عليه حُدوثُ فِتْنةٍ في قومِه؛ لِيُعْلِمَه ألَّا يَتجاوزَ ما وُقِّتَ له، ولو كان لرَغبةٍ في الازديادِ مِن الخيرِ[١].

٣- قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾

- قولُه: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ ...﴾ استئنافٌ مَبْنِيٌّ على سُؤالٍ ناشئٍ من حِكايةِ رُجوعِه كذلك؛ كأنَّه قِيلَ: فماذا فعَلَ بهم؟ فقيل: قال...[٢].

- وافتتاحُ الخِطابِ بـ﴿يَـٰقَوْمِ﴾ تَمهيدٌ للَّومِ؛ لأنَّ انجرارَ الأذى للرَّجلِ مِن قومِه أحَقُّ في تَوجيهِ المَلامِ عليهم، وذلك قولُه: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾[٣].

- قولُه: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ﴾ همزةُ الاستفهامِ لإنكارِ عدَمِ الوعدِ ونفْيِه، وتَقريرِ وُجودِه على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه، أي: وعَدَكم بحيثُ لا سَبيلَ لكم إلى إنكارِه[٤]؛ فالاستفهامُ في ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ إنكاريٌّ؛ نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن زعَمَ أنَّ اللهَ لم يَعِدْهم وعْدًا حَسنًا؛ لأنَّهم أجْرَوا أعمالَهم على حالِ مَن يزعُمُ ذلك، فأنكَرَ عليهم زعْمَهم. ويجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ تَقريريًّا، وشأْنُه أنْ يكونَ على فرْضِ النَّفيِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٢).

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ مُفرَّعٌ على قولِه: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾، وهو استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: أوعَدَكُم ذلك، فطال زمانُ الإنجازِ، فأخطأْتُم بسببِه[1]؟!

- قولُه: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ (أم) للإضرابِ الإبطاليِّ، والاستفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) إنكاريٌّ أيضًا؛ إذِ التَّقديرُ: بل أردْتُم أنْ يَحِلَّ عليكم غضَبٌ؛ فلا يكونُ كُفْرُكم إذنْ إلَّا إلقاءً بأنْفُسِكم في غضَبِ اللهِ، كحالِ مَن يُحِبُّ أنْ يَحِلَّ عليه غضَبٌ من اللهِ[2].

- قولُه: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾، أي: وَعْدَكم إيَّايَ بالثَّباتِ على ما أمرْتُكم به، إلى أنْ أرجِعَ مِن الميقاتِ، على إضافةِ المصدرِ إلى مَفعولِه؛ للقصْدِ إلى زِيادةِ تَقبيحِ حالِهم؛ فإنَّ إخلافَهم الوعدَ الجارِيَ فيما بينَهم وبينَه عليهِ السَّلامُ منْ حيثُ إضافتُه إليه عليه السَّلامُ: أشنَعُ منه مِن حيث إضافتُه إليهم. والفاءُ لتَرتيبِ ما بعْدَها على كلِّ واحدٍ من شِقَّي التَّرديدِ على سَبيلِ البدلِ؛ كأنَّه قيل: أنَسيتُمُ الوعْدَ بطُولِ العهْدِ، فأخلَفْتُموه خطَأً، أمْ أردتُمْ حُلولَ الغضبِ عليكم، فأخلَفْتُموه عَمْدًا[3]؟!

٤- قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾

- وقعَتْ جُملةُ ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ غيرَ مَعطوفةٍ؛ لأنَّها جرَتْ في المُحاوَرةِ جوابًا عن كلامِ مُوسى عليه السَّلامُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٣).

- قولُه: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ﴾، أي: وعْدَنا إيَّاكَ الثَّابِتَ على ما أمرْتَنا به، وإيثارُه على أنْ يُقالَ: (مَوعدَنا) على إضافةِ المصدرِ إلى فاعِلِه؛ للقصْدِ إلى زِيادةِ تَقبيحِ حالِهم[١].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ ...﴾ استدراكٌ عمَّا سبَقَ، واعتذارٌ عمَّا فَعَلوا ببَيانِ منشَأِ الخطَأِ[٢]، والاستدراكُ راجِعٌ إلى ما أفادهُ نفْيُ أنْ يكونَ إخلافُهم العهْدَ عن قصْدٍ للضَّلالِ، والجُملةُ الواقعةُ بعْدَه وقعَتْ بإيجازٍ عن حُصولِ المقصودِ من التَّنصُّلِ من تَبِعَةِ نَكْثِ العهْدِ. ومَحلُّ الاستدراكِ هو قولُه: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾، وما قبْلَه تَمهيدٌ له؛ فعُطِفَتِ الجُمَلُ قبْلَه بحرْفِ الفاءِ، واعْتَذروا بأنَّهم غُلِبوا على رأْيِهم بتَضليلِ السَّامريِّ؛ فأُدْمِجَتْ في هذا الاعتذارِ الإشارةُ إلى قضيَّةِ صَوغِ العجْلِ الَّذي عَبَدوه[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾ فيه تأخيرُ المفعولِ ﴿عِجۡلٗا﴾ -مع كونِه مَفعولًا صَريحًا- عن الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُمۡ﴾؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، مع ما فيه من نَوعِ طُولٍ يُخِلُّ تَقديمُه بتجاوُبِ أطرافِ النَّظمِ الكريمِ[٤].

- على القولِ بأنَّ الذي نَسِيَ هو السامريُّ فتَفريعُ ﴿فَنَسِيَ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٦).

تَفريعًا على ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ﴾ تَفريعَ عِلَّةٍ على مَعلولٍ؛ فالضَّميرُ عائدٌ إلى السَّامريِّ، أي: قال السَّامريُّ ذلك؛ لأنَّه نَسِيَ ما كان تلقَّاهُ من هَدْيٍ. أو تَفريعَ مَعلولٍ على عِلَّةٍ، أي: قال ذلك، فكان قولُه سببًا في نِسيانِه ما كان عليه مِن هَدْيٍ؛ إذ طبَعَ اللهُ على قلْبِه بقولِه ذلك، فحرَمَه التَّوفيقَ من بعْدُ[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ فيه الإتيانُ بهَمزةِ الإنكارِ داخِلةً على الفاءِ العاطفةِ، وهما يَستدعيانِ العطفَ على مُقدَّرٍ يَقْتضيه المَقامُ، وهو فِعلٌ يَصلُحُ أنْ يكونَ مَعطوفًا عليه لِمَا بعدَ الفاءِ، والتقديرُ: أَحُرِموا العَقلَ الهادي؛ فلا يَتفكَّرونَ، ولا يَنظُرونَ بنَظرِ البَصيرةِ أنَّ هذا المُتَّخذَ مِن هذه الأجرامِ لا يَصلُحُ للإلهيةِ، أم عَمُوا وصَمُّوا فلا يَهتدون إلى أنَّ الإلهَ ينبغي أنْ يكونَ سامعًا لدعاءِ عابدِه، عالِمًا بأفعالِه، دافعًا عنه المضارَّ، مُثيبًا ومعاقبًا؟! وهو إنكارٌ وتَقبيحٌ من جِهَتِه تعالى لحالِ الضَّالِّينَ والمُضلِّينَ جميعًا، وتَسفيهٌ لهم فيما أقْدَموا عليه مِن المُنكَرِ الَّذي لا يَشْتَبِهُ بُطلانُه واستحالتُه على أحدٍ، وهو اتِّخاذُه إلهًا[2].

- وقيل: الرؤيةُ هنا في قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا...﴾ بصريَّةٌ مُكنى بها، أو مُستعمَلةٌ في مُطلَقِ الإدراكِ، فآلتْ إلى معنى الاعتقادِ والعِلمِ، ولا سيَّما بالنِّسبةِ لجُملةِ ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾؛ فإنَّ ذلك لا يُرَى بالبصرِ، بخلافِ ﴿أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾. والاستفهامُ في قولِه أيضًا: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾ إنكاريٌّ؛ نُزِّلُوا مَنزِلةَ مَن لا يَرى العِجْلَ؛ لعدَمِ جَرْيِهم على مُوجِبِ البَصرِ؛ فأَنكَر عليهم عدَمَ رُؤيتِهم ذلك معَ ظُهورِه، أي: كيف يدَّعونَ الإلهيَّةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٢٢٩))، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٦).

للعِجْلِ، وهم يَرونَ أنَّه لا يَتكلَّمُ، ولا يَستطيعُ نفْعًا ولا ضَرًّا[١]؟!

- قولُه: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ قَدَّمَ الضَّرَّ على النَّفعِ؛ قطْعًا لعُذْرِهم في اعتقادِ إلهيَّتِه؛ لأنَّ عُذْرَ الخائفِ من الضَّرِّ أقْوى من عُذْرِ الرَّاغبِ في النَّفعِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٨٩).

الآيات (٩٠-٩٤)

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَن نَّبْرَحَ﴾: أي: لن نَزالَ، وأصلُ (برح): يدلُّ على زوالٍ وبُروزٍ وانكشافٍ[1].

﴿عَٰكِفِينَ﴾: أي: مُقيمينَ، والعُكوفُ: الإقبالُ على الشَّيءِ، ومُلازمتُه على سَبيلِ التَّعظيمِ له، وأصلُ (عكف): يدُلُّ على حَبسٍ[2].

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾: أي: لم تُرْاعِ وتحفَظْ، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا موقفَ هارونَ عليه السلامُ، مِن هؤلاءِ الجاهلينَ الذين عبَدوا العجلَ: ولقد قال هارونُ لبني إسرائيلَ مِن قَبلِ رُجوعِ موسى إليهم: يا قَومِ، إنَّما اختُبِرتُم بهذا العِجلِ؛ ليظهَرَ المؤمِنُ منكم مِن الكافِرِ، وإنَّ رَبَّكم الرَّحمنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢).

لا غَيرُه؛ فاتَّبِعوني فيما أدعوكم إليه مِن عبادةِ اللهِ، وأطيعوني فيما أمَرتُكم به. قال عَبَدةُ العِجلِ: لن نزالَ مُقيمينَ على عبادةِ العِجلِ حتى يرجِعَ إلينا موسى.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى ما قاله موسَى لأخيه هارونَ، وما فعَله به، لَمَّا رجَع ورأَى ما حدَثَ، فيقولُ تعالى: قال موسى لأخيه هارونَ: أيُّ شيءٍ مَنعَك مِن اتِّباعي حين رأيتَهم ضلُّوا عن طَريقِ الحَقِّ، أفعَصيتَ أمري؟ ثم أخَذَ موسى بلحيةِ هارونَ ورأسِه يجرُّه إليه، فقال له هارونُ مُستَعطِفًا: يا ابنَ أمِّي، لا تُمسِكْ بلِحيَتي ولا بشَعرِ رأسي، إنِّي خِفتُ إن تركْتُهم ولحِقْتُ بك أن تقولَ لي: فرَّقتَ بينَ بني إسرائيلَ، ولم تحفَظْ وصِيَّتي بحُسنِ رِعايتِهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾.

أي: ولقد قال هارونُ لِعَبَدةِ العِجلِ مِن قَومِه، ناصحًا لهم مِن قَبلِ رُجوعِ موسى إليهم: يا قومِ، إنَّما اختبَرَكم اللهُ وابتلاكم بهذا العِجلِ؛ ليَظهرَ مَن يَثبُتُ منكم على إيمانِه بالله، ومَن يُفتَنُ بالعِجلِ فيَكفُرُ[1].

﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾.

أي: وإنَّ رَبَّكم الرَّحمنُ الذي يَرحَمُكم، ويُنعِمُ عليكم بالنِّعَمِ الظاهرةِ والباطنةِ، لا العِجلُ الذي تَعبُدونَه؛ فاتَّبِعوني على ما آمُرُكم به مِن عِبادةِ الله، وتَرْكِ عبادةِ العِجلِ، وأطيعوني فيما أمَرتُكم به مِن طاعةِ الله، وإخلاصِ العبادةِ له، ولا تُطيعوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨٧).

السَّامِريَّ[١].

﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١﴾.

أي: قال عَبَدةُ العِجلِ: سنظَلُّ مُقيمينَ على عبادةِ العِجلِ، حتى يأتيَ إلينا موسى من الطُّورِ، فنسمَعَ كلامَه في شأنِ العِجلِ، أو ننظُرَ صنيعَه فيه[٢].

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣﴾.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾.

أي: قال موسى لأخيه لائمًا له لَمَّا رجَعَ إلى قَومِه، فرأى ما حَدَث فيهم مِن الخَطبِ العَظيمِ: يا هارونُ، أيُّ شَيءٍ مَنَعَك حين رأيتَ بني إسرائيلَ قد أخطؤوا طريقَ الحَقِّ بعبادتِهم العِجلَ وكَفَروا باللهِ: أن تلحَقَ بي[٣]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٦، ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

قال ابنُ عطية: (وقولُه تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ بمعنى: ما منَعك أن تتَّبِعَني). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٠)، ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨٩، ٩٠).

وممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾: أي: أنْ تتَّبعني وتلحقَ بي: ابنُ جريرٍ، والواحدي، وابنُ كثيرٍ. يُنظر المصادر السابقة.

قال ابنُ كثيرٍ: (﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: فتُخبرني بهذا الأمرِ أولَ ما وقَع). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢).

ويُنظر أيضًا: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

وقال الألوسي: (كان موسى عليه السَّلامُ رأى أنَّ مُفارقةَ هارونَ لهم، وخُروجَه من بينِهم بعد تلك النَّصائحِ القَوليَّةِ: أزجَرُ لهم مِنَ الاقتصارِ على النَّصائحِ؛ لِما أنَّ ذلك أدَلُّ على الغضَبِ، وأشَدُّ في الإنكارِ، لا سيَّما وقد كان عليه السَّلامُ رئيسًا عليهم محبوبًا لديهم، وموسى يعلَمُ =

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾.

أي: هل عَصَيتَ -يا هارونُ- أمري لك بأن تَخلُفَني في قومي، وأن تُصلِحَ، ولا تتَّبِعَ سَبيلَ المُفسِدينَ(١)؟

كما قال الله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةًۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾.

أي: ثمَّ أخَذ موسى بلِحيةِ أخيه هارونَ ورأسِه يجُرُّه إليه، فقال هارونُ

= ذلك، ومُفارقةُ الرَّئيسِ المحبوبِ كراهةً لأمرٍ: تَشُقُّ جِدًّا على النُّفوسِ، وتستدعي تَرْكَ ذلك الأمرِ المكروهِ له الذي يوجِبُ مُفارقتَه، وهذا ظاهِرٌ لا غُبارَ عليه عند من أنصَفَ). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٦٠).

وقال ابنُ الجوزي في بيانِ أقوالِ المفسِّرينَ في قولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾: (وفي المعنى ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: تسيرُ ورائي بمن معك من المؤمِنينَ وتفارِقُهم. رواه سعيدُ بنُ جُبير عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثاني: أن تُناجِزَهم القِتالَ. رواه أبو صالحٍ عن ابن عبَّاسٍ.

والثالث: في الإنكارِ عليهم. قاله مقاتِلٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩١).

وقيل: المرادُ: أنَّ مقامَك بينهم وقد عبدوا غيرَ الله تعالى عصيانٌ منك لي. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٧).

مُستَعطِفًا أخاه: يا ابنَ أمَّ، لا تأخُذْ بلِحيتي، ولا بشَعرِ رأسي[١].

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

أي: إنِّي خَشِيتُ أن تقولَ لي إن لحقتُ بك: فَرَّقْتَ بينَ جماعةِ بني إسرائيلَ[٢].

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

أي: وخَشِيتُ أن تقولَ: ولم تحفَظْ وصِيَّتي وتعمَلْ بها، ولم تراعِ ما أمَرْتُك به حين استخلَفْتُك على قَومي[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

قيل: المعنى: إن لحقتُ بكَ مع الذين لم يعبدوا العجلَ أن تقولَ لي: فرقتَ بين بني إسرائيل بأن جئتَ ببعضِهم، وتركتَ بعضهم. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٦).

قال القرطبي: (أي: خشيتُ أن أخرُجَ وأترُكَهم وقد أمرتَني أن أخرُجَ معهم؛ فلو خرجتُ لاتَّبَعني قومٌ ويتخَلَّف مع العِجلِ قومٌ، وربما أدَّى الأمرُ إلى سَفكِ الدماء، وخَشيتُ إن زجَرتُهم أن يقعَ قِتالٌ فتلومَني على ذلك). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩).

وقيل: المعنى: إنِّي خَشِيتُ إن لَحِقتُ بك لأخبِرَك بهذا الخَطبِ الذي وقع أن تقولَ لي: لم تركْتَهم وحدَهم وليس عندهم راعٍ ولا خليفةٌ؛ فإنَّ هذا يفَرِّقُهم ويشَتِّتُ شَملَهم. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩١).

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ فيه أنَّ حِفظَ الأصلِ الأصيلِ للشَّريعةِ أهَمُّ مِن حِفظِ الأصولِ المتفرِّعةِ عليه؛ لأنَّ مَصلحةَ صَلاحِ الاعتقادِ هي أمُّ المصالحِ التي بها صَلاحُ الاجتِماعِ؛ ولذلك لم يكُنْ موسى خافيًا عليه أنَّ هارونَ كان مِن واجِبِه أن يترُكَهم وضَلالَهم، وأن يلتَحِقَ بأخيه مع عِلمِه بما يُفضي إلى ذلك مِن الاختِلافِ بينهم؛ فإنَّ حُرمةَ الشَّريعةِ بحِفظِ أُصولِها، وعَدَمِ التَّساهُلِ فيها، وبحُرمةِ الشَّريعةِ يبقَى نفوذُها في الأمَّةِ، والعَمَلُ بها[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴾ هاهنا دقيقةٌ وهي أنَّ الرافضةَ تمسَّكوا بقولِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام لعليٍّ: ((أنت مني بمنزلةِ هارونَ مِن موسَى))[2]، ثم إنَّ هارونَ ما منَعته التقيةُ في مثلِ هذا الجمعِ، بل صعِد المنبرَ، وصرَّح بالحقِّ، ودعا الناسَ إلى متابعةِ نفسِه، والمنعِ مِن متابعة غيرِه، فلو كانت أمةُ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم على الخطأِ، لكان يجبُ على عليٍّ رضي الله عنه أن يفعلَ ما فعَله هارونُ عليه السلام، وأن يَصعدَ على المنبرِ مِن غيرِ تقيةٍ وخوفٍ، وأن يقولَ: فاتبعوني، وأطيعوا أمري. فلمَّا لم يفعَلْ ذلك، علِمْنا أنَّ الأمةَ كانوا على الصوابِ[3].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٣-٢٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) واللفظ له، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩١-٩٢).

﴿رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾، سلَك هارونُ عليه السلامُ في هذا الوعظِ أحسنَ الوجوهِ؛ لأنَّه زجَرهم عن الباطلِ أولًا بقولِه: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾، ثم دعاهم إلى معرفةِ الله تعالى ثانيًا بقولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ثم دعاهم ثالثًا إلى معرفةِ النبوةِ بقولِه: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾، ثم دعاهم إلى الشرائعِ رابعًا بقولِه: ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾، وهذا هو الترتيبُ الجيدُ؛ لأنَّه لا بدَّ قبلَ كلِّ شيءٍ مِن إماطةِ الأذَى عن الطريقِ، وهو إزالةُ الشبهاتِ في حالِ وجودِها، وكونِ الانحرافِ بسببِها، ثم معرفةُ الله تعالى هي الأصلُ، ثم النبوةُ، ثم الشريعةُ، فثبَت أنَّ هذا الترتيبَ على أحسنِ الوُجوهِ[(١)].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾، ذكَرَ وَصفَ (الرَّحمةِ)؛ تنبيهًا على أنَّهم متى تابوا قَبِلَهم، وتذكيرًا لتَخليصِهم مِن فِرعَونَ زمانَ لم يوجَدِ العِجلُ[(٢)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ (لن) لا تَقتَضي التأبيدَ -كما زعم الزَّمخشريُّ- إذ لو كان مِن مَوضوعِها التأبيدُ، لَما جازت التَّغيِيَةُ بـ (حتى)؛ لأنَّ التَّغيِيَةَ لا تكونُ إلَّا حيثُ يكونُ الشَّيءُ مُحتَمِلًا، فيزيلُ ذلك الاحتِمالَ بالتَّغيِيةِ[(٣)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ * أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ دَلالةٌ على أنَّ كلَّ نهيٍ ففيه طلبٌ واستِدعاءٌ لِمَا يقصِدُه النَّاهي، فهو أمرٌ؛ فالأمرُ يتناولُ هذا وهذا، فالأمرُ أصلٌ، والنهيُ فرعٌ؛ فإنَّ النهيَ نوعٌ مِن الأمرِ؛ إذ الأمرُ هو الطلبُ والاستدعاءُ والاقتضاءُ، وهذا يدخلُ فيه طلبُ الفعلِ، وطلبُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

التركِ، لكن خُصَّ النهيُ باسمٍ خاصٍّ؛ فإنَّ موسى قال لأخيه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾، وموسى قال له: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وهذا نهيٌ، وهو لامَه على أنَّه لم يَتَّبِعْه، وقال: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾، وعُبَّادُ العِجْلِ كانوا مُفسِدينَ، وقد جَعَلَ هذا كلَّه أمرًا(١).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدلُّ على اقتضاءِ الأمرِ للوجوبِ؛ لأنَّه أطلَق اسمَ المعصيةِ على عدمِ امتثالِ الأمرِ(٢)، فتاركُ المأمورِ به عاصٍ، والعاصي مستحقٌّ للعقابِ(٣).

٧- إعفاءُ اللِّحيةِ هو مِن هَديِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ففي قَولِه تعالى عن هارونَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ﴾ دَليلٌ على أنَّ لهارونَ لِحْيَةً يمكنُ الإمساكُ بها(٤)، وهذه الآيةُ الكريمةُ بضميمةِ آيةِ (الأنعام) إليها تدلُّ على لزومِ إعفاءِ اللحيةِ، فهي دليلٌ قرآنيٌّ على إعفاءِ اللحيةِ وعدمِ حلقِها. وآيةُ الأنعامِ المذكورةُ هي قولُه تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ...﴾ الآية [الأنعام: ٨٤]. ثم إنَّه تعالى قال بعدَ أن عدَّ الأنبياءَ الكرامَ المذكورين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، فدلَّ ذلك على أنَّ هارونَ من الأنبياءِ الذين أُمِر نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم بالاقتداءِ بهم، وأمرُه صلَّى الله عليه وسلَّم بذلك أمرٌ لنا؛ لأنَّ أمرَ القدوةِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٧٣)، (٢٠/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١١/ ١٢٦).

أمرٌ لأتباعِه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ ﴾ جُملةٌ قَسَميةٌ مُؤكِّدةٌ لِمَا قبْلَها من الإنكارِ والتَّشنيعِ، ببَيانِ عُتوِّهم واستعصائِهم على الرَّسولِ إثْرَ بَيانِ مُكابَرَتِهم لقضيَّةِ العُقولِ[٢].

- وافتتاحُ خِطابه بـ﴿يَٰقَوْمِ ﴾ تَمهيدٌ لمَقامِ النَّصيحةِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ القصْرُ المُستفادُ من كَلمةِ ﴿إِنَّمَا ﴾ إلى نفْسِ الفِعْلِ، على معنى: إنَّما فُعِلَ بكمُ الفِتْنةُ، لا الإرشادُ إلى الحقِّ[٤].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ إرشادٌ لهم إلى الحقِّ إثْرَ زجْرِهم عن الباطلِ. والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ والرَّحمةِ؛ للاعتناءِ باستمالَتِهم إلى الحقِّ، وفي ذلك تذكيرٌ لتخليصِهم مِن فرعونَ زمانَ لم يُوجَدِ العجلُ. وكذا -على ما قيل- تنبيهٌ على أنَّهم متى تابوا قَبِلهم[٥].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱتَّبِعُونِى ﴾ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها من مَضمونِ الجُملتينِ، أي: إذا كان الأمْرُ كذلك، فاتَّبِعوني في الثَّباتِ على الدِّينِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٥٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٧).

- قولُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فيه توكيدٌ بـ (إنَّ)، والحصْرُ بتَعريفِ طرفَيِ الجُملةِ، أي: إنَّ ربَّكم المُستحِقَّ للعبادةِ هو الرَّحمنُ لا غيرُ[١].

- وفي إيثارِ المُضارعِ في قولِه: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾، وعطْفِ ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ﴾ عليه؛ للدَّلالةِ على استحضارِ تلك الحالةِ الفظيعةِ في ذِهْنِ السَّامعِ، واستدعاءِ الأفكارِ عليهم[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ ﴿عَلَيۡهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿عَٰكِفِينَ﴾؛ قُدِّمَ على مُتعلَّقِه لتَقويةِ الحُكْمِ، أو أرادوا: لنْ نبرَحَ نخُصُّه بالعُكوفِ، لا نعكُفُ على غيرِه؛ فيكونُ التَّقديمُ للاختصاصِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ من حِكايةِ جَوابِهم لهارونَ عليه السَّلامُ؛ كأنَّه قيلَ: فماذَا قال مُوسى لهارونَ عليهما السَّلامُ حين سمِعَ جوابَهم له؟ وهل رَضِيَ بسُكوتِه بعْدَما شاهَدَ منهم ما شاهَدَ؟ فقِيلَ: قال له وهو مُغتاظٌ قد أخَذَ بلِحْيَتِه ورأْسِه...[٤].

- وفيه إيجازٌ بالحذْفِ، تَقديرُه: فرجَعَ مُوسى، ووجَدَهم عاكِفينَ على عِبادةِ العِجْلِ، قال: يا هارونُ...[٥].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ إنكاريٌّ، أي: لا مانِعَ لك من اللَّحاقِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٥٩).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٢٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٧٤).

بي؛ لأنَّه أقامَهُ خليفةً عنه فيهم، فلمَّا لم يَمْتَثِلوا أمْرَه، كان عليه أنْ يرُدَّ الخِلافةَ إلى مَنِ استخلَفَه[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ الاستفهامُ للإنكارِ التَّوبيخيِّ، والفاءُ في ﴿أَفَعَصَيْتَ﴾ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المَقامُ، أي: ألَمْ تتَّبِعني؟ أو أخالَفْتَني فعصَيْتَ أمْري[٢]؟

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ مُفرَّعٌ على الإنكارِ، فهو إنكارٌ ثانٍ على مُخالَفةِ أمْرِه، مَشوبٌ بتَقريرٍ للتَّهديدِ[٣].

- و(لَا) في قولِه: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ زائدةٌ؛ للتَّوكيدِ، أي: ما مَنعَكَ أنْ تَتَّبِعني؛ فزِيادةُ لَفظةِ (لا) لتوكيدِ الكلامِ وتَقويتِه أسلوبٌ مِن أساليبِ اللُّغةِ العربيَّةِ، وهو أغلبُ في النفيِ وما يُشبِهُه، كالمنعِ هنا في قولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾

- قولُه: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ عدَلَ عن (يا أخِي) -وإنْ كان شقيقَه- إلى (ابنَ أُمَّ) فخَصَّ الأُمَّ بالإضافةِ؛ استِعظامًا لحَقِّها، واستِعْطافًا وتَرقيقًا لقَلْبِه؛ فذِكْرُ الأُمِّ هاهنا أَرَقُّ وأبلغُ، وهو تَذكيرٌ بأقْوى أواصرِ الأُخوَّةِ، وهي آصِرَةُ الوِلادةِ من بطْنٍ واحدٍ، والرَّضاعُ من لِبانٍ واحدٍ، ولأنَّ الأمَّ يَسوءُها ما يَسوءُه، وهي أرقُّ مِن الأبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٢).

- وعطَفَ الرَّأسَ على اللِّحْيةِ؛ لأنَّ أخْذَه مِن لِحيَتِه أشَدُّ ألَمًا، وأنْكَى في الإذلالِ[١].

- قولُه: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ استئنافٌ سِيقَ لتَعليلِ مُوجِبِ النَّهيِ، ببَيانِ الدَّاعي إلى ترْكِ المُقاتَلةِ، وتَحقيقِ أنَّه غيرُ عاصٍ لأمْرِه، بل مُمْتَثِلٌ به[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٨).

الآيات (٩٥-٩٨)

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَطْبُكَ﴾: أي: أمرُك وشَأنُك، والخَطبُ: الأمرُ يقَعُ؛ وإنَّما سُمِّيَ بذلك لِما يقَعُ فيه من التخاطُبِ والمُراجَعةِ[(١)].

﴿بَصُرْتُ﴾: أي: رأيتُ وعلِمتُ، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على العِلمِ بالشَّيءِ[(٢)].

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾: أي: قَذَفتُها، وألقَيْتُها، وأصلُ النَّبذِ: طَرْحُ الشَّيءِ وإلقاؤُه[(٣)].

﴿سَوَّلَتْ﴾: أي: زَيَّنَتْ، والتَّسْويلُ: تزيينُ النَّفسِ لِما تَحرِصُ عليه، وتصويرُ القَبيحِ منه بصورةِ الحَسَنِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٩)، ((غريب =

﴿لَا مِسَاسَ﴾: أي: لا تَمسُّ النَّاسَ ولا يمَسُّونَك، أو كنايةٌ عن الطَّردِ والوَحدةِ، وأصلُ (مسَّ): جَسُّ الشَّيءِ باليَدِ[1].

﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾: أي: دُمتَ وأقَمْتَ عليه، يُقَال: ظلَّ يفعَلُ كذا: إذا فعَلَه نَهارًا[2].

﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾: أي: لَنَقذِفَنَّه ولَنُذرِّيَنَّه، يقال: نَسَفت الريحُ الشَّيءَ: إذا اقتَلَعَتْه وأزالَتْه، وأصلُ (نسف): يدُلُّ على كشفِ شيءٍ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن موسَى عليه السلامُ أنَّه بعدَ أن انتهَى مِن سماعِ اعتذارِ أخيه هارونَ، اتَّجهَ إلى السَّامِريِّ أصلِ الفتنةِ، فسأَله موبخًا له: فما شأْنُكَ يا سامِريُّ، وما الذي حَمَلك على ما صَنعْتَ؟ قال السَّامريُّ: رأيتُ ما لم يرَ بنو إسرائيلَ، وعلمْتُ ما لم يَعْلَموا، فأخذتُ بكَفِّي ترابًا مِن أثَرِ حافِرِ فَرَسِ جِبريلَ، فألقيتُه على الحُلِيِّ الذي صَنَعتُ منه العِجلَ، فكان عِجلًا جَسَدًا له خُوارٌ، وكذلك زيَّنَت لي نَفسي.

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٥).

قال موسى للسَّامريِّ: فاذهَبْ، فإنَّ لك مدَّةَ حياتِك الدُّنيا أن تعيشَ منبوذًا قائلًا لكلِّ أحَدٍ: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ؛ عقوبةً لك على إضلالِك بني إسرائيلَ، وإنَّ لك مَوعِدًا لعذابِك لن يُخْلِفَك اللهُ إيَّاه، وانظُرْ إلى مَعبودِك الذي أقمْتَ على عبادتِه، لنُحَرِّقنَّه في النَّارِ، ثم لَنُفرِّقَنَّ أجزاءَه في البَحرِ تفريقًا لا يبقَى معه شَيءٌ منه. إنَّما إلهُكم هو اللهُ الذي لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا هو، وَسِعَ عِلمُه كُلَّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾.

أي: قال موسى: فما شأنُكَ -يا سامِريُّ-، وما الذي حَمَلك على ما صَنعْتَ[1]؟!

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾.

أي: قال السَّامريُّ لموسى: رأيتُ ما لم يرَ بنو إسرائيلَ، وعلمْتُ ما لم يَعْلَموا[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٥).

قال ابن عطية: (يحتمل أن يرادَ مِن البصيرةِ، ويحتَملُ أن يُرادَ مِن البَصَر). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦١).

وممن فسر ﴿بَصُرْتُ﴾ بالعلم: مقاتل بن سليمان، وأبو عبيدة، وابن جرير، والزجاج، ومكي، والواحدي، والزمخشري، والعُليمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٠)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٧٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٦٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٤)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٣٢٠). =

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾.

أي: فأخذتُ بكَفِّي ترابًا من أثَرِ حافِرِ فَرَسِ جِبريلَ(١)!

= ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٥).

وممن فسَّره بالرؤية: السمعاني، وابنُ جزي، والقرطبي، وابن كثير، وأبو السعود، وهو ظاهرُ كلامِ السعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

وممن جمع بين المعنيين السابقين: السمرقندي، والقنوجي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير القنوجي)) (٨/ ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٩ - ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٥).

قال الواحدي: (قال ابنُ عباسٍ وجميعُ المفسِّرين: يريدُ أثَرَ فَرَسِ جبريلَ). ((البسيط)) (١٤/ ٥٠٧).

وقال الرازي: (عامَّةُ المفَسِّرين قالوا: المرادُ بالرَّسولِ: جِبريلُ عليه السَّلامُ، وأراد بأثَرِه: التُّرابَ الذي أخذَه من مَوضِعِ حافِرِ دابَّتِه). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٥).

وقال الألوسي عن هذا القول: (ما ذُكِرَ مِن تفسيرِ الآيةِ هو المأثورُ عن الصَّحابةِ والتَّابِعينَ رَضِيَ الله تعالى عنهم، وتَبِعَهم جُلُّ أجِلَّةِ المفَسِّرينَ). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٦٣).

قال ابنُ كثير: (أخذ [أي: السَّامريُّ] ما كان استعاروه من الحُلِيِّ، فصاغ منه عِجلًا، وألقى فيه قَبضةً من الترابِ كان أخَذَها مِن أثرِ فَرَسِ جبريلَ حين رآه يومَ أغرَقَ اللهُ فِرعَونَ على يديه، فلمَّا ألقاها فيه خار كما يخورُ العِجلُ الحقيقيُّ، ويقال: إنَّه استحال عِجلًا جَسَدًا، أي: لحمًا ودمًا، حَيًّا يخورُ. قاله قتادةُ وغيرُه. وقيل: بل كانت الرِّيحُ إذا دخَلَت مِن دُبُرِه خرَجَت مِن فَمِه، فيخورُ كما تخورُ البَقَرةُ، فيرقُصونَ حَولَه ويَفرَحونَ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ١٤٧).

والقولُ الثاني في الآيةِ: أنَّ المرادَ بالرَّسولِ: موسى، وأنَّ أثَرَه: شَريعتُه التي شرَعَها، وسُنَّتُه التي سَنَّها، وأنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾، أي: طَرَحتُ شَريعةَ موسى، ونبَذْتُ سُنَّتَه، ثمَّ اتَّخذْتُ العِجلَ جَسَدًا له خُوارٌ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٢٣).

وهذا القول الثاني ذكَره أبو مسلم الأصبهاني، ورجَّحه الرازي، ومال إليه ابنُ عاشورٍ، واختاره المراغي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٥، ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٦)، ((تفسير المراغي)) (١٦/ ١٤٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٤٤). =

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾.

أي: فألقيتُ قَبضةَ التُّرابِ[(١)]، .....

= قال ابن عاشور: (قال جمهورُ المفسِّرينَ: المرادُ بِالرَّسولِ جبريلُ، ورَوَوْا قِصَّةً قالوا: إنَّ السَّامِرِيَّ فَتَنَه اللَّهُ، فأراه اللَّهُ جبريلَ راكِبًا فَرَسًا فَوَطِئَ حافِرُ الفرسِ مكانًا فإذا هو مُخْضَرٌّ بِالنَّباتِ. فعلِم السَّامِرِيُّ أنَّ أثرَ جبريلَ إذا أُلقي في جمادٍ صارَ حَيًّا، فأخذَ قبضةً من ذلك التُّرابِ وصَنَع عجلًا وألقى القبضة عليه فصارَ جسدًا، أي حَيًّا، له خوارٌ كخوارِ العجلِ، فعَبَّر عن ذلك الإلقاءِ بالنَّبْذ. وهذا الَّذي ذكروه لا يوجدُ في كُتُبِ الإسرائيليِّينَ، ولا ورَدَ به أثرٌ مِن السُّنةِ، وإنَّما هي أقوالٌ لبعضِ السَّلَفِ، ولَعَلَّها تَسَرَّبَتْ لِلنَّاسِ مِنْ رواياتِ الْقَصَّاصينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٦).

وقال الماتريدي: (عامَّةُ أهلِ التأويلِ... يقولون: إنَّه قَبَض قَبضةً مِن ترابٍ مِن أثرِ فَرسِ جبريلَ فنَبذَها، وليس في الآيةِ ذِكرُ التُّرابِ ولا ذِكرُ الفَرَسِ، ولا أنَّ ذلك الرَّسولَ جبريلُ أو غيرُه، ويُشبِهُ أن يكونَ الذي قبَضَه هو ترابٌ مِن أثرِ الفَرَسِ، على ما قاله أهلُ التأويلِ، وقد ذُكِرَ في حرفِ أُبَيٍّ: (فقبضتُ قَبضةً مِن أثَرِ فَرَسِ الرَّسولِ)، فإنْ ثبت ما قالوا وإلَّا لم نَزِدْ على ما ذُكِرَ في الكتابِ مِن هذه الأنباءِ والقِصَصِ التي كانت في كتُبِهم، فذُكِرَت في القرآنِ؛ لِيَحتجَّ بها رسولُ الله على أولئك؛ لِيَعرِفوا أنَّه إنما عَرَفَ بالله تعالى، فلو زِيدَ أو نُقِصَ عمَّا في كُتُبِهم لذهب موضِعُ الاحتجاجِ عليهم، بل يُوجِبُ ذلك شِبْهَ الكذِبِ عليهم؛ لذلك وجَبَ حِفظُ ما حُكي في الكتابِ مِن الأنباءِ والأخبارِ مِن غيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ؛ مخافةَ الكَذِبِ، إلَّا إن ثبت شيءٌ يُذكَرُ عن رَسولِ الله أنَّه كان؛ فعند ذلك يُقالُ، وإلَّا فالكَفُّ أَولى؛ لِما ذكَرْناه). ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٣٠٣-٣٠٤).

(١) والمعنى: فنبذتُها على العِجلِ. وممن قال بذلك: ابن أبي زمنين، والقرطبي، والعُليمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٠)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٤).

قال الشنقيطي: (﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ يعني: من أثَرِ حافرِ فَرَسِ الرَّسولِ، يعني: جبريلَ. ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: على العِجْلِ، فجعله اللهُ جَسَدًا له خُوارٌ، فلما ألقى السَّامريُّ ذلك الترابَ على العِجلِ صار ذلك العِجلُ المصوغُ مِن الحُليِّ جَسدًا له خُوارٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٦٤).

وقال ابن جزي: (﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: ألقَيتُها على الحُليِّ فصار عِجلًا، أو على العِجلِ فصار له =

فكان منها ما تَراه[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾.

أي: وكذلك[٢] زيَّنَتْ وحسَّنَت لي نفسي[٣].

= خُوارٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٦).

قال الشنقيطي: (وأظهَرُ الأقوالِ عندي في ذلك: هو أنَّهم جعلوا جميعَ الحُلِيِّ في النارِ ليذوبَ فيصيرَ قطعةً واحدة؛ لأنَّ ذلك أسهَلُ لحِفظِه حتى يرى نبيُّ الله موسى فيه رأيَه، والسَّامريُّ يريدُ تدبيرَ خطَّةٍ لم يطَّلِعوا عليها، وذلك أنَّه لَمَّا جاء جبريلُ ليذهَبَ بموسى إلى الميقاتِ وكان على فَرَسٍ، أخذَ السَّامريُّ ترابًا مَسَّه حافِرُ تلك الفَرَس، ويزعمون في القِصَّةِ أنَّه عاين موضِعَ أثَرِها يَنبُتُ فيه النباتُ، فتفرَّسَ أنَّ الله جعل فيها خاصيَّةَ الحياة، فأخَذ تلك القبضةَ مِن الترابِ واحتفَظ بها، فلمَّا أرادوا أن يَطرَحوا الحُلِيَّ في النَّارِ لِيَجعَلوه قِطعةً واحدةً، أو لغيرِ ذلك مِن الأسبابِ، وجَعَلوه فيها؛ ألقَى السامريُّ عليه تلك القَبضةَ مِن الترابِ المذكورةَ، وقال له: كنْ عِجْلًا جسدًا له خوارٌ، فجعَلَه الله عِجلًا جسدًا له خوارٌ، فقال لهم: هذا العِجلُ هو إلهُكم وإلهُ موسى، كما يشيرُ إلى ذلك قولُه تعالى عن موسى: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۞ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾). ((أضواء البيان)) (٤/ ٨٣).

(٢) قال ابن جرير: (﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ [طه: ٩٦] يقولُ: وكما فعلتُ مِن إلقائي القبضةَ التي قبضتُ مِن أثرِ الفرسِ على الحليةِ التي أُوقِد عليها حتى انسَبَكت فصارتْ عجلًا جسدًا له خوارٌ ﴿سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ يقولُ: زيَّنت لي نفسي أنَّه يكونُ ذلك كذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٢).

وقال البقاعي: (﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي وكما سوَّلت لي نفسي أخذَ أثرِه ﴿سَوَّلَتۡ﴾ أي: حسَّنت وزيَّنت ﴿لِي نَفۡسِي﴾ نبذَها في الحلي فنبذْتُها، فكان منها ما كان، ولم يدْعُني إلى ذلك داعٍ، ولا حملني عليه حاملٌ غير التسويلِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾.

أي: قال موسى للسَّامريِّ: فلأنَّك أخذْتَ ومَسِستَ ما لم ينبغِ لك أخْذُه ومَسُّه مِن أثَرِ الرَّسولِ، فاخرجْ مِن بَينِنا وتباعَدْ منَّا؛ فإنَّ لك مدَّةَ حياتِك الدُّنيا أن تقولَ: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ، فلا يمسُّك ولا يخالِطُك ولا يقربُك أحدٌ من النَّاسِ، ولا تمسُّ ولا تخالطُ ولا تقربُ أحدًا منهم؛ عقوبةً لك على إضلالِك بني إسرائيلَ[(١)].

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٣، ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٧، ٢٩٨).

قال الواحدي: (الصَّحيحُ ما ذُكِرَ في التفسيرِ مِن وجهٍ آخَرَ: أنَّه جعَل يهيمُ في البريَّة مع الوحوشِ والسِّباعِ لا يَمَسُّ أحدًا ولا يمَسُّه أحدٌ، عاقَبَه الله بذلك، وكان إذا لقي أحدًا يقول: لا مِساسَ، أي: لا تقرَبْني ولا تمَسَّني، وصار ذلك عقوبةً له). ((البسيط)) (١٤/ ٥١١).

وقال البقاعي: (مُنع من مخالطةِ الناسِ منعًا كليًّا؛ فلا يتَّصِلُ بأحدٍ، ولا يتَّصِلُ به أحدٌ، بل يكونُ وحيدًا طريدًا ما دام حيًّا). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٣٦).

وقال ابنُ عاشور: (لم يزدْ موسَى في عقابِ السامريِّ على أن خلَعَه مِن الأمَّة، إمَّا لأنَّه لم يكُنْ مِن أنفُسِهم، فلم يكُنْ بالذي تجري عليه أحكامُ الشَّريعةِ، وإمَّا لأنَّ موسى أُعلِمَ بأنَّ السَّامريَّ لا يُرجَى صلاحُه، فيكونُ ممَّن حَقَّت عليه كَلِمةُ العذابِ... فجعل حَظَّه في حياتِه أن يقولَ: لا مِساسَ، أي: سلَبَه الله الأُنسَ الذي في طَبعِ الإنسانِ، فعَوَّضه به هَوَسًا ووِسواسًا وتوحُّشًا، فأصبَح متباعِدًا عن مخالطةِ النَّاسِ، عائشًا وحدَه، لا يترُكُ أحدًا يقتَرِبُ منه، فإذا لَقِيه إنسانٌ قال له: لا مِساسَ، يخشَى أن يمَسَّه، أي: لا تمسُّني ولا أَمَسُّك، أو أراد: لا اقترابَ مني؛ فإن المسَّ يُطلَقُ على الاقترابِ، كَقولِه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٦٤]، وهذا أنسَبُ بصيغةِ المفاعَلةِ، أي: لا مُقاربةَ بيننا، فكان يقولُ ذلك، وهذه حالةٌ فظيعةٌ أصبح بها سُخريةً!). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٧-٢٩٨).

أي: وإنَّ لك -يا سامريُّ- وعدًا لِعَذابِك لن يُخلِفَكه اللهُ[(١)].

﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾.

أي: وانظُرْ -يا سامِريُّ- إلى مَعبودِك العِجلِ الذي بَقِيتَ مُلازِمًا لعبادتِه، واللهِ لَنُحَرِّقَنَّه في النَّارِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٤، ١٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٩، ٣٠٠).

قال الشنقيطي: (على أنَّ التحريقَ معناه التحريقُ بالنارِ -كما قاله جماعةٌ مِن العلماءِ- فيظهرُ أنَّ العجلَ صار جسدًا لحمًا ودمًا؛ لأنَّ اللحمَ والدمَ إذا أُحرِق بالنارِ يبسَ، وأمكَن دقُّه ونسفُه في البحرِ؛ لأنَّ الذهبَ والفضةَ لا يمكنُ دقُّهما ونسفُهما في البحرِ، وأمَّا على أنَّ المعنى ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾: نبردنَّه بالمباردِ كما تشهدُ له القراءةُ الأُخرى: ﴿لَنَحْرُقَنَّهُ﴾ فعلى هذا المعنى فالأليقُ أن يكون بقِي ذهبًا وفضةً إلا أنَّه يصوِّت صَوْتَ البَقَر إذا دخلتِ الريحُ في داخلِه). ((العذب النمير)) (٤/ ١٦٦). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٩٩).

قال أبو حيان: (وذكر أبو عليٍّ أنَّ التَّشديدَ قد يكونُ مُبالغةً في «حَرَقَ»: إذا بُرِدَ بالمِبْرَدِ. وفي مُصحَفِ أُبَيٍّ وعبدِ اللهِ: «لَنَذْبَحَنَّهُ ثُمَّ لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ» وتوافِقُ هذه القراءةُ مَن روى أنَّه صار لحمًا ودمًا ذا رُوحٍ، ويترتَّبُ الإحراقُ بالنَّارِ على هذا، وأمَّا إذا كان جمادًا مَصوغًا مِن الحُليِّ فيترتَّبُ بَرْدُه لا إحراقُه، إلَّا إن عُنيَ به إذابتُه). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٠).

قال ابنُ جُزي: (والصَّحيحُ أنَّ المقصودُ بإحراقِه بالنَّارِ: إذابتُه وإفسادُ صُورتِه، فيَصِحُّ حَملُ قراءةِ الجماعةِ على ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤).

وقال الزجاج: (قوله: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾... إذا شَدَّدَ [أي: الراء] فالمعنى: نُحرقُه مرةً بعدَ مرةٍ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٣٧٥).

وقال السعدي: (كان قد أُشرِبَ العِجلُ في قلوبِ بني إسرائيلَ، فأراد موسى عليه السَّلامُ إتلافَه وهم ينظُرونَ، على وَجهٍ لا تُمكِنُ إعادتُه بالإحراقِ والسَّحقِ وذَرْيِه في اليَمِّ ونَسفِه؛ ليزولَ ما في قلوبِهم مِن حُبِّه، كما زال شَخصُه، ولأنَّ في إبقائِه مِحنةً؛ لأنَّ في النُّفوسِ أقوى داعٍ إلى الباطِلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾.

أي: ثم لَنُفرِّقَنَّ أجزاءَه في البَحرِ تفريقًا لا يبقَى معه شَيءٌ منه[١].

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا فَرَغ موسى عليه السَّلامُ مِن إبطالِ ما عَمِلَه السَّامريُّ؛ عاد إلى بيانِ الدِّينِ الحَقِّ[٢].

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: إنَّما معبودُكم اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحدَه، الذي لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا هو[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

أي: أحاط اللهُ بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا، فلا يخفَى عليه شَيءٌ، ولا يَضيقُ عليه عِلمُ جَميعِ ذلك[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٧)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٦٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

هذه الآيةُ أصلٌ في نَفيِ أهلِ البِدَعِ والمعاصي، وهِجرانِهم، وألَّا يُخالَطوا[١].

٢- مَرتبةُ تغييرِ المنكَرِ باليَدِ سَنَّها أبو الأنبياءِ إبراهيمُ، حين راغ على تلك الأوثانِ ضَربًا باليَمينِ حتى جعَلَها جُذاذًا وحَطَّمها تحطيمًا، وتَبِعَه فيها موسى حينما قال للسَّامريِّ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾، وتَبِعَهما خِتامُهم وأفضَلُهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، فحَطَّم أوثانَ العَرَبِ المحيطةَ بمكَّةَ، وأرسلَ أصحابَه يَهدِمونَها في كلِّ حيٍّ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ قد يستدل به على جواز إتلاف الحيوان إذا كانت المصلحة تقتضي ذلك، ومنه قتلُ البهيمةِ المفعولِ بها[٣]، وهذا على اعتبارِ أنَّ العجلَ كان حقيقيًّا.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ استئنافٌ وقَعَ جوابًا عمَّا نشَأَ من حِكايةِ ما سلَفَ مِن اعتذارِ القومِ بإسنادِ الفسادِ إلى السَّامريِّ، واعتذارِ هارونَ عليه السَّلامُ؛ كأنَّه قِيلَ: فماذا صنَعَ مُوسى عليه السَّلامُ بعْدَ سَماعِ ما حُكِيَ من الاعتذارينِ واستقرارِ أصْلِ الفِتْنةِ على السَّامريِّ؟ فقيل: قال مُوبِّخًا له: هذا شأْنُهم، فما خطْبُك[٤]؟

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي)) (١/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٨).

ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾

- قولُه: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ﴾ الرَّسولُ هو جِبريلُ عليه السَّلامُ -على أحدِ القولين في التفسيرِ-، ولعلَّه لم يُسَمِّه؛ لأنَّه لم يعرِفْه إلا بهذا العنوانِ، أو لأنَّ ذِكْرَه بعُنوانِ الرِّسالةِ فيه إشعارٌ بوُقوفِه على ما لم يَقِفْ عليه القومُ من الأسرارِ الإلهيَّةِ؛ تأكيدًا لِمَا صَدَّرَ به مَقالتَه. أو أرادَ أنْ يُنبِّهَ على وقْتِ أخْذِ ما أخَذَ[1].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ (كذلك) إشارةٌ إلى مَصدرِ الفِعْلِ المذكورِ بعْدَه، ومَحلُّ (كذلك) في الأصلِ النَّصْبُ، على أنَّه مَصدرٌ تَشبيهيٌّ، أي: نَعتٌ لمصدرٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: سوَّلَتْ لي نفْسي تَسويلًا كائنًا مثْلَ ذلك التَّسويلِ؛ فقُدِّمَ على الفِعْلِ لإفادةِ القصْرِ، واعتُبِرَتِ الكافُ مُقْحَمةً؛ لإفادةِ تأكيدِ ما أفادهُ اسمُ الإشارةِ من الفَخامةِ؛ فصار نفْسَ المَصدرِ المُؤكِّدِ لا نَعتًا له، أي: ذلك التَّزيينَ البديعَ زَيَّنَت لي نفْسي ما فعَلْتُه، لا تَزيينًا أدْنى منه؛ ولذلك فعلْتُه[2].

- والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ تَشبيهُ الشَّيءِ بنفْسِه، أي: كذلك التَّسويل سوَّلَت لي نفْسي، أي: تَسويلًا لا يقبَلُ التَّعريفَ بأكثَرَ من ذلك[3].

- وفي هذه الآياتِ إيجازٌ واضحٌ جِدًّا؛ لأنَّ تَسَلْسُلَ الحوادثِ يَقْتضي تَقديرَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٧).

جُمَلٍ لا بُدَّ منها، وقد ورَدَ الحذْفُ في قولِه تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾؛ فقد حُذِفَ المُضافُ مُكرَّرًا هنا، والتَّقديرُ: من أثَرِ حافِرِ فرَسِ الرَّسولِ(١).

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ دخلَتِ الفاءُ للتَّعقيبِ إثْرَ المُحاوَرةِ، وطَرْدِه بلا مُهلةٍ زمانيَّةٍ. وعبَّرَ بالمُماسَّةِ عن المُخالَطةِ؛ لأنَّها أدنَى أسبابِ المُخالَطةِ، فنبَّهَ بالأدنَى على الأعلَى(٢).

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ...﴾ تعليلٌ لمُوجِبِ الأمْرِ(٣).

- وفي قولِه: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ جعَلَ الاستدلالَ بالنَّظرِ إشارةً إلى أنَّه دليلٌ بيِّنٌ، لا يَحتاجُ المُستدِلُّ به إلى أكثَرَ من المُشاهَدةِ؛ فإنَّ دَلالةَ المحسوساتِ أوضَحُ مِن دَلالةِ المعقولاتِ. وأُضِيفَ الإلهُ إلى ضَميرِ السَّامريِّ في قولِه: ﴿إِلَٰهِكَ﴾؛ تَهكُّمًا بالسَّامريِّ وتَحقيرًا له، ووصَفَ ذلك الإلهَ المزعومَ بطَريقِ الموصوليَّةِ ﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾؛ لِمَا تدُلُّ عليه الصِّلةُ مِن التَّنبيهِ على الضَّلالِ والخطَأِ، أي: الَّذي لا يَستحِقُّ أنْ يُعْكَفَ عليه(٤).

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٩).

- وتَقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾؛ للتَّخصيصِ، أي: الَّذي اخترْتَه للعِبادةِ دونَ غيرِه، أي: دونَ اللهِ تعالى[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ (ثُمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ نَسْفَ العِجْلِ أشَدُّ في إعدامِه من تَحريقِه وأذَلُّ له. وأُكِّدَ (نَنْسِفنَّه) بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿نَسْفًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّه لا يَتردَّدُ في ذلك، ولا يَخْشَى غضَبَه، كما يَزْعمون أنَّه إلَهٌ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ...﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتَحقيقِ الحقِّ إثْرَ إبطالِ الباطلِ، بتَلوينِ الخِطابِ وتَوجيهِه إلى الكلِّ، أي: إنَّما مَعبودُكم المُستحِقُّ للعِبادةِ اللهُ[٣].

- وهذه الجُملةُ من حِكايةِ كَلامِ مُوسى عليه السَّلامُ؛ فمَوقِعُها موقِعُ التَّذييلِ لوعْظِه، وقدِ الْتَفَتَ من خِطابِ السَّامريِّ إلى خِطابِ الأُمَّةِ؛ إعراضًا عن خِطابِه؛ تَحقيرًا له، وقصْدًا لتَنبيهِهم على خطَئِهم، وتَعليمِهم صِفاتِ الإلهِ الحقِّ. واقتصَرَ منها على الوَحدانيَّةِ، وعُمومِ العِلْمِ؛ لأنَّ الوحدانيَّةَ تجمَعُ جَميعَ الصِّفاتِ، وأمَّا عُمومُ العِلْمِ فهو إشارةٌ إلى عِلْمِ اللهِ تعالى بجَميعِ الكائناتِ الشَّاملةِ لأعمالِهم؛ ليَرقُبُوه في خاصَّتِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٠- ٣٠١).

- قولُه: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أفاد لفْظُ (كل) العُمومَ؛ فالمعنى: وسِعَ عِلْمُه كلَّ شَيءٍ، بحيثُ لا يَضِيقُ عِلْمُه عن شَيءٍ، أي: لا يَقْصُرُ عنِ الاطِّلاعِ على أخْفى الأشياءِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠١).

الآيات (٩٩-١٠٤)

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زُرْقًا﴾: قيل: أي: زُرقَ العُيونِ، وقيل: بِيضَ العيونِ مِن العمَى، قد ذهَب السَّوادُ والنَّاظِرُ، وأصلُ الزُّرقةِ: يدُلُّ على لَونٍ[1].

﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾: أي: يتَسارُّونَ، ويتهامَسونَ بينَهم، وأصلُ (خفت): يدلُّ على إسرارٍ وكِتمانٍ[2].

﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾: أي: أعدَلُهم رَأيًا، أو عَمَلًا وقَولًا، يُقالُ: فلانٌ أمثَلُ بني فلانٍ: أي: أدناهم للخَيرِ، أي: إنَّه مُماثِلٌ لأهلِ الصَّلاحِ والخَيرِ، وهؤلاءِ أماثِلُ القَومِ، أي: خيارُهم. وأصلُ (مثل): يدُلُّ على نظيرِ الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: كما قَصَصْنا عليك -يا مُحمَّدُ- قصَّةَ موسى وفِرعَونَ وقَومِهما، كذلك نقُصُّ عليك أنباءَ السَّابقينَ لك، وقد آتيناك مِن عِندِنا هذا القُرآنَ العَظيمَ.

ثمَّ بيَّن تعالى عاقبةَ مَن يعرضُ عن هذا القرآنِ، فقال: مَن أعرَضَ عنه فلم يؤمِنْ به ولم يعمَلْ بما فيه، فإنَّه يأتي رَبَّه يومَ القيامةِ يحمِلُ إثمًا عظيمًا، خالدينَ في جزاء هذا الإثمِ في النارِ، وبِئسَ ذلك الحِملُ الثَّقيلُ يومَ القيامةِ.

ثمَّ بيَّن سبحانَه أحوالَ المجرمينَ عندَ الحشرِ، فقال: يومَ يَنفُخُ الملَكُ في «القَرنِ» فتُبعَثونَ بأمرِ اللهِ، ونحشُرُ الكافرينَ ذلك اليومَ وهم زُرقٌ. يتهامَسونَ بينهم، يقولُ بَعضُهم لبعضٍ: ما لَبِثتُم في الحياةِ الدُّنيا إلَّا عَشَرةَ أيَّامٍ فحَسْبُ. نحن أعلَمُ بما يقولونَ ويُسِرُّونَ حين يقولُ أعلَمُهم وأعدَلُهم قَولًا: ما لبثتُم في الدُّنيا إلَّا يومًا واحدًا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما بدأت السورةُ بالحديثِ عن القرآنِ، وأنَّه لم ينزلْ على الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم ليشقَى به أو بسببِه. وكان مِن القرآنِ قصةُ موسَى عليه السلام وما يبدو فيها مِن رعايةِ الله وعنايتِه بموسَى وأخيه وقومِه- أعقَب السياقَ على القصةِ بالعودةِ إلى القرآنِ ووظيفتِه، وعاقبةِ مَن يُعرِض عنه.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَ﴾.

أي: كما قَصَصْنا عليك -يا مُحمَّدُ- قصَّةَ موسى وفِرعَونَ وقَومِه، وأخبارَ بني

إسرائيلَ مع موسى؛ كذلك[١] نقصُّ عليك مِن[٢] الأخبارِ الماضيةِ التي سَبَقَت مِن قَبلِك، فلم تُشاهِدْها[٣].

كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[هود: ١٢٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر: ٧٨].

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾.

أي: وقد أعْطَيْناك -يا محمَّدُ- مِن عِندِنا عطيَّةً نَفيسةً، وهي القرآنُ الكريمُ[٤].

---

(١) قال ابن كثير: (يقولُ تعالى لنبيه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: كما قصصنا عليك خبرَ موسَى، وما جرَى له مع فرعونَ وجنودِه على الجليةِ والأمرِ الواقعِ، كذلك نقصُّ عليك الأخبارَ الماضيةَ، كما وقعتْ مِن غيرِ زيادةٍ ولا نقصٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٥).
وقال البقاعي: (كأنَّه قيل: هل يعادُ شيءٌ مِن القصصِ على هذا الأسلوبِ البديعِ والمثالِ الرفيعِ؟ فقيل: نَعم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: مثلَ هذا القصِّ العالي، في هذا النظمِ العزيزِ الغالي، لقصةِ موسى ومَن ذُكر معه). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٣٩).

(٢) قال الشنقيطي: (الظاهِرُ أنَّ «مِن» في قولِه ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ للتبعيض، ويُفهَمُ مِن ذلك أنَّ بَعضَهم لم يُقصَصْ عليه خَبَرُه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٣، ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٢)، ((أضواء =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ١٠٠﴾.

أي: مَن أعرَضَ عن القُرآنِ، فلم يؤمِنْ به، ولم يَعمَلْ بما فيه؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ وهو يحمِلُ إثمًا عظيمًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلًا ١٠١﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾.

أي: ماكِثينَ في جزاءِ هذا الوزرِ؛ في النَّارِ، لا يَخرُجونَ منها(٢).

= البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٥).
قال الشِّنقيطي: (قد دلَّت آياتٌ كثيرةٌ مِن كتابِ الله على أنَّ المجرمينَ يأتونَ يوم القيامة يحمِلونَ أوزارَهم، أي: أثقالَ ذنوبِهم على ظهورِهم... المرادُ بذلك الوِزرِ المحمولِ: أثقالُ ذُنوبِهم وكُفرِهم، يأتونَ يومَ القيامة يحملونَها، سواءٌ أقُلْنا: إنَّ أعمالَهم السيئةَ تتجَسَّمُ في أقبحِ صورةٍ وأنتَنِها، أو غيرَ ذلك). ((أضواء البيان)) (٤/ ٩٥، ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٥). =

﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾.

أي: وبِئسَ للمُعرِضينَ عن القُرآنِ حِملُهم الثَّقيلُ مِن الآثامِ يومَ القيامةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾.

أي: وذلك يومَ يُنفَخُ في القَرْنِ بأمرِ الله، فيُحيي سبحانَه الموتَى بتلك النَّفخةِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن

= قال بعضُ المفسرين: المعنى: خالدين في جزاءِ الوزرِ. وقال آخرون: في عذابِ الوزرِ. وقال آخرون: عقوبةِ الوزرِ. والمعاني المذكورةُ متقاربةٌ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧٥)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٤).

وقال ابنُ جرير: (خالِدونَ في أوزارِهم، والمعنى: أنهم خالدونَ في النَّارِ بأوزارهم، ولكِنْ لما كان معلومًا المرادُ مِن الكلامِ، اكتفى بما ذُكِرَ عمَّا لم يُذكَرْ). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٩).

وقال السعدي: (﴿خَـٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي: في وِزرِهم؛ لأنَّ العذابَ هو نفسُ الأعمالِ، تنقَلِبُ عذابًا على أصحابِها، بحَسَبِ صِغَرِها وكِبَرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢-٥١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٦).

وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وساءَ ذلك الحملُ والثقلُ مِن الإثمِ يومَ القيامةِ حملًا، وحقَّ لهم أن يسوءَهم ذلك، وقد أوردهم مهلكةً لا منجَى منها). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣).

شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((كيف أنعَمُ وقد الْتقمَ صاحبُ القَرنِ القَرنَ، وحنَى جَبهَتَه، وأصْغَى سَمعَه، ينتَظِرُ أن يُؤمَرَ أن يَنفُخَ فينفُخَ، قال المُسلِمونَ: فكيف نقولُ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: قولوا: حَسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، توكَّلْنا على اللهِ ربِّنا)) وربَّما قال سُفيانُ: على اللهِ توكَّلْنا[1].

﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٤٣) واللفظ له، وأحمد (١١٠٣٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

حسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٤٣).

ويشهدُ له ما أخرجه أحمد (٣٠٠٨)، والطبراني (١٢/ ١٢٨) (١٢٦٧١)، والحاكم (٨٦٧٧) من حديثِ ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما.

جوَّده ابنُ كثير في ((التفسير)) (٢/ ١٤٨)، والشوكاني في ((تفسيره)) (١/ ٥٩٨)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٥٩٢)، ويُنظر شواهد الحديث الأخرى في ((السلسلة الصحيحة)) للألباني (١٠٧٩).

تنبيهٌ: قال ابنُ حَجَر: (اشتَهَر أنَّ صاحِبَ الصورِ إسرافيلُ عليه السَّلامُ، ونقل فيه الحليمي الإجماعَ... وجاء أنَّ الذي ينفُخُ في الصورِ غَيرُه... فإن ثبَت حُمِلَ على أنَّهما جميعًا يَنفُخانِ، ويؤيِّدُه ما أخرجَه هنَّاد بن السري في كتابِ الزهدِ بسَنَدٍ صَحيحٍ لكِنَّه موقوفٌ على عبد الرَّحمنِ ابن أبي عَمرةَ قال: «ما مِن صَباحٍ إلَّا ومَلَكانِ مُوَكَّلانِ بالصُّورِ»، ومن طريقِ عبدِ اللهِ بنِ ضَمرةَ مِثلُه، وزاد: «ينتظرانِ متى يَنفُخانِ»، ونحوُه عند أحمدَ مِن طريق سُلَيمانَ التيمي عن أبي هريرةَ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أو عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «النَّافِخانِ في السَّماءِ الثانيةِ رأسُ أحَدِهما بالمَشرِقِ ورِجلاه بالمَغرِب -أو قال بالعكس- ينتَظِرانِ متى يُؤمَرانِ أن يَنفُخَا في الصُّورِ فيَنفُخا»، ورجالُه ثِقاتٌ، وأخرجه الحاكمُ من حديث عبدِ الله بن عمرٍو بغيرِ شَكٍّ، ولابن ماجه والبزَّار من حديثِ أبي سعيدٍ رَفَعَه: «إنَّ صاحِبَي الصورِ بأيديهما قَرنانِ يُلاحِظانِ النَّظَرَ متى يؤمَرانِ»). ((فتح الباري)) (١١/ ٣٦٨، ٣٦٩).

أي: ونحشُرُ الكافِرينَ والمُشرِكينَ[١] يومَ القيامةِ زُرقًا[٢].

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣﴾.

أي: يتهامَسُ المُجرِمونَ بينهم، يقولُ بَعضُهم لبعضٍ سِرًّا: ما لَبِثتُم في الدُّنيا إلَّا عَشَرةَ أيَّامٍ فحَسْبُ[٣]!

---

(١) قيل: يُحشرونَ لموقفِ القيامةِ، وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٥). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ١٦).

وقيل: يُحشرونَ إلى النَّارِ، وممن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، ويحيي بنُ سلَّام. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤١)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٤).

قيل في معنى ﴿زُرۡقٗا﴾: أي زُرقَ العُيونِ، وممن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٥).

وقيل: المراد: زُرقةُ ألوانِهم، وممن قال بذلك: السعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٤).

قال السعدي: (المجرمون يحشرون زرقًا ألوانُهم مِن الخوف والقلقِ والعطشِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣).

وقال ابن عاشور: (والزرقُ: جمع أزرقَ، وهو الذي لونُه الزرقةُ... وهو في جلدِ الإنسانِ قبيحُ المنظرِ؛ لأنَّه يشبهُ لونَ ما أصابَه حرقُ نارٍ. وظاهرُ الكلام أنَّ الزرقةَ لونُ أجسادِهم، فيكونُ بمنزلةِ قولِه: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ [آل عمران: ١٠٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٤).

وقال ابنُ جرير: (فقيل: عنى بالزُّرقِ في هذا الموضعِ: ما يظهَرُ في أعيُنِهم مِن شِدَّةِ العَطَشِ الذي يكونُ بهم عند الحَشرِ، لرأيِ العَينِ، مِن الزُّرقِ. وقيل: أريدَ بذلك أنهم يُحشَرونَ عُميًا، كالذي قال الله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا﴾ [الإسراء: ٩٧]). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦١). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن =

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾.

أي: نحنُ أعلَمُ منهم بما يقولُ بَعضُهم لبعضٍ، ونَسمَعُ تناجيَهم، لا يخفَى علينا منه شيءٌ[1].

= كثير)) (٥/ ٣١٥، ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣).

ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: في الدنيا: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. تُنظر: المصادر السابقة.

وممن اختاره أيضًا: البغوي، والزمخشري، وابنُ جزي، وابنُ القيِّمِ، والبقاعي، والعليمي، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٧).

قال البيضاوي: (يَستقصِرونَ مُدَّةَ لُبثِهم فيها؛ لزوالِها، أو لاستِطالتِهم مُدَّةَ الآخرةِ، أو لتأسُّفِهم عليها لَمَّا عاينوا الشَّدائدَ، وعَلِموا أنَّهم استحَقُّوها على إضاعتِها في قضاءِ الأوطارِ، واتِّباعِ الشَّهَواتِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٨). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٧٠).

وقيل: المرادُ بقولِه تعالى: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: في القبورِ. وممن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمرقندي، وأبو السعودِ، والألوسي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤١)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٥).

قال الألوسي: (ومرادُهم مِن هذا القَولِ استِقصارُ المدَّةِ، وسُرعةُ انقِضائِها، والتَّنديمُ على ما كانوا يزعُمونَ؛ حيثُ تبيَّن الأمرُ على خلافِ ما كانوا عليه مِن إنكارِ البَعثِ وعَدِّه من قبيلِ المُحالاتِ، كأنَّهم قالوا: قد بُعِثتُم وما لَبِثتُم في القبرِ إلَّا مُدَّةً يسيرةً، وقد كنتُم تَزعُمونَ أنَّكم لن تقوموا منه أبدًا). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٧٠). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣).

﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

أي: حينَ يَقولُ أعقَلُهم، وأعلَمُهم، وأعدَلُهم قَولًا، وأقرَبُهم إلى التَّقديرِ: ما لَبِثتُم في الدُّنيا إلَّا يومًا واحِدًا[1]!

كما قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- يجِبُ على الأمَّةِ تلَقِّي القرآنِ بالقَبولِ والتَّسليمِ، والانقيادِ والتَّعظيمِ، وأن يُهتدَى بنُورِه إلى الصِّراطِ المُستَقيمِ، وأن يُقبِلوا عليه بالتعَلُّمِ والتَّعليمِ. وأمَّا مُقابلَتُه بالإعراضِ، أو ما هو أعظمُ منه مِن الإنكارِ؛ فإنَّه كُفرٌ لهذه النِّعمةِ، ومَن فعَلَ ذلك فهو مُستَحِقٌّ للعقوبةِ؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا * مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣).

وقال الشوكاني: (نسبةُ هذا القَولِ إلى أمثَلِهم؛ لِكَونِه أدَلَّ على شِدَّةِ الهَولِ، لا لِكَونِه أقرَبَ إلى الصِّدقِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٦).

وقال السعدي: (والمقصودُ مِن هذا الندمُ العظيمُ، كيف ضيَّعوا الأوقاتَ القصيرةَ، وقطعوها ساهينَ لاهينَ، معرضينَ عما ينفعُهم، مقبلين على ما يضرُّهم، فها قد حضر الجزاءُ، وحقَّ الوعيدُ، فلم يبقَ إلا الندمُ، والدعاءُ بالويلِ والثبورِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۞ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٣-١١٤]، وقال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَـٰغٌۢ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ فهذه الآيات فيها كفايةٌ في قِصَرِ الأمَلِ، وهو العلمُ بقُرْبِ الرَّحيلِ، وسُرعةِ انقضاءِ مُدَّةِ الحياةِ، وهو مِن أنفعِ الأمورِ للقَلبِ؛ فإنَّه يَبعَثُه على مُغَافَصةِ[1] الأيَّامِ، وانتهازِ الفُرَصِ التي تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ، ومبادرةِ طَيِّ صحائفِ الأعمالِ، ويُثيرُ ساكنَ عَزَماتِه إلى دارِ البقاءِ، ويَحُثُّه على قضاءِ جَهازِ سَفرِه، وتدارُكِ الفارطِ، ويُزَهِّدُه في الدنيا، ويُرَغِّبُه في الآخرةِ، فيقومُ بقَلبِه إذا داوَمَ مُطالعةَ قِصَرِ الأمَلِ شاهِدٌ مِن شواهِدِ اليَقينِ، يريدُ فَناءَ الدُّنيا، وسُرعةَ انقضائِها، وقِلَّةَ ما بَقِيَ منها، وأنَّها قد ترحَّلَت مُدبِرةً، وأنَّها لم يبقَ منها إلَّا كما بَقِيَ مِن يومٍ صارت شَمسُه على رُؤوسِ الجبالِ، ويُريه بقاءَ الآخرةِ ودوامَها، وأنَّها قد ترحَّلَت مُقبِلةً، وقد جاء أشراطُها وعلاماتُها، وأنَّه مِن لقائِها كمُسافرٍ خَرَجَ صاحِبُه يتلَقَّاه، فكُلٌّ منهما يسيرُ إلى الآخَرِ، فيُوشِكُ أن يلتَقِيَا سريعًا[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ في تسميةِ القرآنِ بالذِّكرِ وُجوهٌ:

أحدُها: أنه كتابٌ فيه ذِكرُ ما يحتاجُ إليه النَّاسُ مِن أمرِ دينِهم ودنياهم.

---

(١) مُغافَصَة، أي: مُغالَبة. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٨).

وثانيها: أنَّه يذكِّرُ أنواعَ آلاءِ الله تعالى ونعمائِه، ففيه التذكيرُ والمواعِظُ.

وثالثها: فيه الذِّكرُ والشَّرَفُ لك ولِقَومِك على ما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾[1] [الزخرف: ٤٤].

٢- في قَولِ الله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ۞ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ إنْ قيل: إمَّا أن يُقالَ: إنَّهم نَسُوا قَدْرَ لُبثِهم في الدُّنيا، أو ما نَسُوا ذلك؛ والأوَّلُ غيرُ جائزٍ؛ إذ لو جاز ذلك لجاز أن يبقَى الإنسانُ خمسين سَنةً في بلدٍ ثمَّ ينساه. والثَّاني غيرُ جائزٍ؛ لأنَّه كَذِبٌ، وهذا الكَذِبُ لا فائدةَ فيه؟

والجوابُ فيه وجوهٌ:

الوجهُ الأوَّلُ: لعَلَّهم إذا حُشِروا في أوَّلِ الأمرِ وعاينوا تلك الأهوالَ؛ فلشِدَّةِ وَقْعِها عليهم ذَهَلوا عن مِقدارِ عُمُرِهم في الدُّنيا، وما ذكَروا إلَّا القليلَ، والإنسانُ عندَ الهولِ الشَّديدِ قد يَذهَلُ عن أظهرِ الأشياءِ، وتمامُ تقريرِه مذكورٌ في سورةِ الأنعام في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّهم عالِمونَ بمِقدارِ عُمُرِهم في الدُّنيا إلَّا أنَّهم لَمَّا قابلوا أعمارَهم في الدُّنيا بأعمارِ الآخرةِ وَجدوها في نهايةِ القِلَّةِ، فقال بعضُهم: ما لَبِثْنا في الدُّنيا إلَّا عَشَرةَ أيامٍ! وقال أعقَلُهم: بل ما لَبِثْنا إلَّا يومًا واحدًا، أي: قَدْرُ لُبثِنا في الدُّنيا بالقياسِ إلى قَدْرِ لُبثِنا في الآخِرةِ كعَشَرةِ أيامٍ، بل كاليَومِ الواحِدِ، بل كالعَدَمِ! وإنَّما خُصَّ العَشَرةُ والواحِدُ بالذِّكرِ؛ لأنَّ القليلَ في أمثالِ هذه المواضِعِ لا يُعبَّرُ عنه إلَّا بالعَشَرةِ والواحِدِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٧).

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّهم لَمَّا عايَنوا الشَّدائدَ تذكَّروا أيامَ النِّعمةِ والسُّرورِ، وتأسَّفوا عليها، فوصَفوها بالقِصَرِ؛ لأنَّ أيامَ السُّرورِ قِصارٌ.

الوَجهُ الرَّابِعُ: أنَّ أيامَ الدُّنيا قد انقَضَت، وأيَّامُ الآخرةِ مُستَقبَلةٌ، والذَّاهِبُ وإن طالت مُدَّتُه قليلٌ بالقياسِ إلى الآتي وإن قَصُرت مدتُه، فكيف والأمرُ بالعَكسِ؟! ولهذه الوجوهِ رجَّح اللهُ تعالى قَولَ مَن بالغَ في التَّقليلِ، فقال: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[1].

٣- إذا ذُكِرَ العددُ دونَ مَعدودِه المُذَكَّرِ، جاز فيه الوَجهانِ؛ حذفُ التاءِ، وذِكرُها، وعلى هذا جاء قَولُه تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾، فالعَشْرُ هنا أيامٌ؛ بدَليلِ ما بَعدَها: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ تَذييليَّةٌ؛ خُوطِبَ بها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بطَريقِ الوعْدِ الجميلِ بتَنزيلِ أمثالِ ما مَرَّ من أنباءِ الأُمَمِ السَّالفةِ. و(ذلك) إشارةٌ إلى اقتصاصِ حَديثِ مُوسى عليه السَّلامُ، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتْبتِه، وبُعدِ مَنزلتِه في الفضْلِ[3].

- وفي قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ تَشبيهٌ، والتَّقديرُ: مثْلَ هذا القَصصِ نقَصُّ عليك من أنباءِ القُرونِ الماضيةِ؛ فالتَّشبيهُ راجِعٌ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٩)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٢).

تَشبيهِها بنفْسِها؛ كِنايةً عن كونِها إذا أُرِيدَ تَشبيهُها وتَقريبُها بما هو أعرَفُ منها في بابِها، لم يجِدْ مُرِيدُ ذلك طَريقًا لنفْسِه في التَّشبيهِ إلَّا أنْ يُشبِّهَها بنفْسِها؛ لأنَّها لا يَفوقُها غيرُها في بابِها حتَّى تُقرَّبَ به[١].

- والمُرادُ بقولِه: ﴿نَقُصُّ﴾: قَصَصْنا، وإنَّما صِيغَ المُضارِعُ؛ لاستحضارِ الحالةِ الحَسنةِ في ذلك القَصصِ[٢].

- وتَقديمُ ﴿عَلَيْكَ﴾ على قولِه: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[٣].

- قولُه: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ توكيدٌ لمعنى ﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾، وتَنويهٌ بشأْنِ القُرآنِ بأنَّه عطيَّةٌ كانت مَخزونةً عندَ اللهِ، فخَصَّ بها خيرَ عِبادِه[٤].

- ونُكِّرَ ﴿ذِكْرًا﴾ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ[٥].

- وتأخيرُه عن الجارِّ والمجرورِ -﴿مِن لَّدُنَّا﴾-؛ لِمَا أنَّ مَرجِعَ الإفادةِ في الجُملةِ كونُ المُؤْتَى من لدُنْه تعالى ذِكْرًا عَظيمًا، وقُرآنًا كريمًا جامِعًا لكلِّ كَمالٍ، لا كونُ ذلك الذِّكْرِ مُؤْتًى من لدُنْه عَزَّ وجَلَّ، مع ما فيه مِن نَوعِ طُولٍ بما بعْدَه مِن الصِّفةِ، فتَقديمُه يَذهَبُ برَونقِ النَّظمِ الكريمِ[٦].

٢- قوله تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٠- ٤١).

- قولُه: ﴿فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرٗا﴾ يُريدُ بالوزْرِ: العُقوبةَ الثَّقيلةَ الباهظةَ، سمَّاها وِزْرًا؛ تَشبيهًا في ثقَلِها على المُعاقَبِ، وصُعوبةِ احتمالِها؛ بالحِمْلِ الَّذي يُثقِلُ الحامِلَ، وينقُضُ ظَهْرَه. أو لأنَّها جَزاءُ الوِزْرِ، وهو الإثْمُ[١]، فعبَّرَ عن العُقوبةِ بالوِزرِ؛ لأنَّه سَبَبُها[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾

- جمَعَ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ على المعنى؛ لِمَا أنَّ الخُلودَ في النَّارِ ممَّا يَتحقَّقُ حالَ اجتماعِ أهْلِها[٣].

- قولُه: ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ المَخصوصُ بالذَّمِّ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ الوزْرِ السَّابقِ عليه، تَقديرُه: ساء حِمْلًا وِزْرُهم. واللَّامُ في قولِه: ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ﴾ لامُ التَّبيينِ. وهي مُبيِّنةٌ للمفعولِ في المعنى؛ لأنَّ أصْلَ الكلامِ: ساءَهُم الحِمْلُ؛ فَجِيءَ باللَّامِ لزِيادةِ تَبْيينِ تعلُّقِ الذَّمِّ بحمْلِه، فاللَّامُ لبَيانِ الَّذين تعلَّقَ بهم سُوءُ الحمْلِ[٤].

- وإعادةُ يومِ القيامةِ؛ لزِيادةِ التَّقريرِ، وتَهويلِ الأمْرِ[٥]، فإنهم لَمَّا كانوا مُنكِرينَ لِيَومِ القيامةِ، صرَّحَ بذِكرِه ثانيًا مع قُربِ العَهدِ، قارِعًا لأسماعِهم به،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٦- ٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤١).

مُجريًا له إجراءَ ما هو به جَديرٌ مِن أنَّه مُتحَقِّقٌ، لا مِريةَ فيه[١].

٤- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ بدَلٌ من ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ في قولِه: ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾، وهو اعتراضٌ بينَ جُملةِ ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩] وما تَبِعَها، وبين جُملةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣]؛ تخلُّصٌ لذِكْرِ البَعْثِ، والتَّذكيرِ به، والنِّذارةِ بما يحصُلُ للمُجْرِمين يومئذٍ[٢].

- قولُه: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يومَ إذ يُنْفَخُ في الصُّورِ، وذِكْرُه صَريحًا مع تَعيُّنِ أنَّ الحشْرَ لا يكونُ إلَّا يومئذٍ؛ للتَّهويلِ[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾

- قولُه: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿يَتَخَـٰفَتُونَ﴾[٤]، والتَّقديرُ: إنْ لبِثْتُم إلَّا عشَرةَ أيَّامٍ، وحسَّنَ الحذفَ هنا كونُ ذلك فاصِلَةَ رأْسِ آيةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٣- ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٣).

الآيات (١٠٥-١١٠)

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَنسِفُهَا﴾: أي: يَقلَعُها مِن أُصولِها، ويُقالُ: يُذريها ويُطَيِّرُها، يُقالُ: نَسَفَت الريحُ الشَّيءَ: أي: اقتلَعَتْه وأزالَتْه[(١)].

﴿قَاعًا﴾: أي: سهلةً مُستويةً، والقاعُ والقِيعُ: المستوي مِن الأرضِ، والموضعُ المنكشفُ، وأصلُ (قوع): يدلُّ على تبسُّطٍ في مكانٍ[(٢)].

﴿صَفْصَفًا﴾: أي: خاليةً، مَلساءَ، لا نباتَ فيها، ولا بِناءَ ولا ارتفاعَ ولا انْحِدارَ، والصَّفْصَفُ: المستوي مِن الأرضِ، كأنَّه على صفٍّ واحدٍ، وأصلُ (صفف): يدلُّ على استواءٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٧)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١٠٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥) و(٥/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٩١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٧)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١٠٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥) و(٥/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٣).

﴿عِوَجًا﴾: أي: هبوطًا أو مَيلًا، وأصل (عوج): يدلُّ على مَيلٍ في الشَّيءِ[١].

﴿أَمْتًا﴾: أي: ارتفاعًا، والأمتُ: المكانُ المُرتَفِعُ، وأصلُ الأمتِ: أن يَغلُظَ مكانٌ، ويَرِقَّ مكانٌ[٢].

﴿هَمْسًا﴾: أي: صَوتًا خَفيفًا، وقيل: هو الوَطءُ الخَفيُّ؛ وطءُ الأقدامِ، وأصلُ (همس): يدُلُّ على خَفاءِ صَوتٍ وحِسٍّ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا أحوالَ الجبالِ، وأحوالَ الناسِ يومَ القيامةِ: ويسألُك -يا محمَّدُ- قَومُك عن مصيرِ الجِبالِ يَومَ القيامةِ، فقُلْ لهم: يُزيلُها ربِّي عن أماكِنِها فيَجعَلُها هباءً مُنبَثًّا، فيترُكُ مواضِعَ الجبالِ حينئذٍ مُستويةً مَلساءَ، لا نباتَ فيها ولا بناءَ. لا يرى النَّاظِرُ إليها مَيْلًا ولا ارتِفاعًا ولا انخِفاضًا.

في ذلك اليومِ يَتبَعُ النَّاسُ صَوتَ الدَّاعي إلى مَوقِفِ القيامةِ، لا يَنحَرِفونَ عنه ولا يَزيغونَ. وسَكَنَت الأصواتُ؛ خُضوعًا للرَّحمنِ وخَوفًا، فلا تسمَعُ منها إلَّا صوتًا خفيًّا. في ذلك اليومِ لا تنفعُ الشَّفاعةُ أحدًا من الخَلقِ، إلَّا مَن أَذِنَ له الرَّحمنُ أن يَشفَعَ أو يُشفَعَ له، ورَضِيَ اللهُ قَولَ الشافعِ والمشفوعِ له، يعلَمُ اللهُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

ما يَستَقبِلُه النَّاسُ مِن أمرِ القيامةِ، وما خَلْفَهم مِن أمرِ الدُّنيا، وهم لا يحيطُون بما بينَ أيديهم، ولا بما خلفَهم عِلمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن بعضِ ما سبق، ثمَّ عن بعضِ ما يأتي من أحوالِ المُعرِضينَ عن هذا الذِّكرِ فيما يُنتِجُه لهم إعراضُهم عنه، وختَم ذلك باستقصارِهم مُدَّةَ لُبثِهم في هذه الدَّارِ؛ أخبَرَ عن بعضِ أحوالِهم في الإعراضِ، فقال[1]:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾.

أي: ويسألُك قَومُك عن الجِبالِ -يا محمَّدُ- ما حالُها يومَ القيامةِ[2]؟!

﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾.

أي: فقُلْ لهم: يُزيلُ اللهُ الجبالَ يومَ القيامةِ مِن أماكِنِها، ويَدُكُّها دكًّا، ويُفَتِّتُها ثمَّ يُطَيِّرُها في الهواءِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ١٠].

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٧).

أي: فيَترُكُ اللهُ مواضِعَ الجبالِ أرضًا سهلةً مُستويةً، لا نباتَ فيها ولا بناءَ ولا ارتفاعَ[(١)].

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ١٠٧﴾.

أي: لا ترى -أيُّها النَّاظِرُ- في الأرضِ يوم القيامةِ مَيلًا عن الاستواءِ؛ لا ارتفاعًا ولا انخفاضًا، ولو كان ذلك يسيرًا[(٢)].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ١٠٨﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾.

أي: في ذلك اليومِ الذي تقَعُ فيه تلك الأحوالُ والأهوالُ يتَّبِعُ النَّاسُ -حين يَخرُجونَ مِن قُبورِهم- صوتَ المَلَكِ الذي يدعوهم جميعًا بلا استثناءٍ إلى مَوقِفِ القيامةِ، فيَقصِدونَه مِن كُلِّ ناحيةٍ، لا يَنحَرِفونَ ولا يَزيغونَ عنه، بل يتوجَّهونَ صَوبَ ناحيتِه وصَوتِه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٧). وذهَب القرطبي وابنُ كثيرٍ إلى أنَّ المعنى واحدٌ في القاعِ والصفصفِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٤، ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٦، ٢٤٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٠).

أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۞ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦ - ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۞ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۞ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۞ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤١ - ٤٤].

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

أي: وسكَنَت أصواتُ الخلائِقِ يومَ القيامةِ للرَّحمنِ خُضوعًا له وخَوفًا وهَيبةً منه، مُنتَظِرينَ لحُكمِه، فلا تَسمَعُ لهم -أيُّها السَّامِعُ[1]- إلَّا صَوتًا خَفيضًا لوطءِ أقدامِهم، أو لحديثِهم الخافِتِ[2].

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

أي: في يَومِ القيامةِ لا تَنفَعُ الشَّفاعةُ أحدًا مِن الناسِ لا الشَّافِعَ ولا المشفوعَ له، إلَّا شفاعةَ مَن أذِنَ له الرَّحمنُ أن يَشفَعَ أو يُشفَعَ له، ورَضِيَ اللهُ قَولَ الشَّافِعِ والمشفوعِ له[3].

---

(١) قال ابن عاشور: (الخطابُ بقولِه: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ وقولِه: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ خطابٌ لغيرِ معينٍ، أي: لا يرى الرائي، ولا يسمعُ السامعُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٧، ١٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٤، ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٨٧ - ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٠). =

= ممن اختار أنَّ الإذنَ والرضا للشافعِ: ابن جرير، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٠).

قال ابنُ عاشور: (واستثناءُ ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مِن عمومِ الشَّفاعةِ باعتبارِ أنَّ الشَّفاعةَ تقْتَضي شافعًا؛ لأنَّ المصدرَ فيه معنَى الفعلِ، فيقْتَضي فاعلًا، أي: إلَّا أنْ يشفَعَ مَن أذِن له الرحمنُ في أنْ يشفَعَ... وقولُه ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ عائدٌ إلى ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وهو الشَّافعُ). ((تفسير ابن عاشور (١٦/ ٣١٠).

وممن اختار أنَّ الإذنَ ورضا القول للمشفوعِ له: الواحدي، وابن الجوزي، والرازي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠١).

وذكر الرازي ثلاثة أوجه في ترجيح هذا القولِ، ومنها: (أنَّ مِن المعلومِ بالضَّرورةِ أنَّ درجةَ الشَّافعِ درجةٌ عظيمةٌ؛ فهي لا تحصُلُ إلَّا لمَنْ أذِنَ اللَّه له فيها وكان عندَ اللَّه مَرْضِيًّا، فلو حَمَلْنا الآيةَ على ذلك صارَتْ جاريةً مجرَى إيضاحِ الواضحاتِ، أمَّا لو حَمَلْنا الآيةَ على المشفوعِ له لم يَكُنْ ذلك إيضاحَ الواضحاتِ؛ فكان ذلك أولَى). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠١).

وممن اختار أن الإذن للشافع، ورضا القول للمشفوع له: ابن الجوزي، وابن القيم، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٢١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٢٧).

قال ابن القيم: (وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ فأخبر اللهُ تعالى أنه لا يحصُلُ يومئذٍ شفاعةٌ تَنفَعُ إلَّا بعدَ أن يرضَى اللهُ سُبحانَه قولَ المَشفوعِ له، ويأذَنَ للشَّافعِ فيه ... فإنَّه سبحانه علَّقها بأمرين: رضاه عن المشفوعِ له، وإذنِه للشافعِ، فما لم يوجدْ مجموعُ الأمرينِ لم تُوجدِ الشفاعةُ). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٢٢٠).

وممَّن جمَع بين المعاني السَّابقةِ: ابنُ تيميَّةَ، فقال: (الشَّفاعةُ مَصدرٌ لا بدَّ لها من شافعٍ ومَشفوعٍ له. والشَّفاعةُ: تعُمُّ شَفاعةَ كُلِّ شافعٍ، وكُلَّ شفاعةٍ لِمَشفوعٍ له؛ فإذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ نفى النوعينِ: شفاعةَ الشُّفَعاءِ، والشَّفاعةَ للمُذنبينَ؛ فقَولُه: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يتناولُ النَّوعينِ: مَن أذِنَ له الرَّحمنُ ورَضِيَ له قَولًا مِن الشُّفعاءِ، ومَن أذِنَ له الرحمنُ ورَضِيَ له قولًا من المشفوعِ له، وهي تنفعُ المشفوعَ له فتُخَلِّصُه من العذابِ، وتنفَعُ الشَّافِعَ فتُقبَلُ منه ويُكرَمُ بقَبولِها ويثابُ عليها، والشَّفاعةُ يومَئذٍ لا تنفَعُ لا شافِعًا ولا مشفوعًا له ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]؛ فهذا الصِّنفُ المأذونُ لهم المرضِيُّ قولُهم: هم الذين يحصُلُ لهم نَفعُ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال سُبحانه: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ [النبأ: ٣٨].

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾.

أي: يعلَمُ الله ما يَستَقبِلُه الخلائِقُ[(١)] ممَّا يكونُ في الآخرةِ، ويعلَمُ ما مضَى وراءَهم مِن أمورِ الدُّنيا وأعمالِهم فيها[(٢)].

= الشَّفاعةِ، وهذا مُوافِقٌ لسائرِ الآياتِ). ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٩٢).

(١) ممن اختار أنَّ الضميرَ في قولِه: ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾ و﴿خَلۡفَهُمۡ﴾ يعودُ إلى الخلائِقِ: ابنُ كثيرٍ، والبقاعي، والشربيني، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٤٨)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٧).

وقيل: الضميرُ يعودُ إلى الذين يتَّبعون الدَّاعي. وممن اختاره: ابنُ جريرٍ، وابنُ الجوزي، والرازي. يُنظر ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٧).

قال الرازي: (ذكروا في قولَه تعالَى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ وجوهًا:

أحدُها: قال الكلبيُّ: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مِن أمرِ الآخرةِ ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ مِن أمرِ الدُّنيا.

وثانيها: قال مجاهدٌ: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مَن أمرِ الدُّنيا والأعمالِ، ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ مِن أمرِ الآخرةِ والثَّوابِ والعقابِ. =

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾.

أي: وهم لا يحيطُون[١] بما بينَ أيديهم، ولا بما خلفَهم علمًا[٢].

= وثالثُها: قال الضَّحَّاكُ: يعلمُ ما مضَى وما بَقِي، ومتى تكونُ القيامةُ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٢).

وقيل: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾: هو كلُّ ما يعلمونَه ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾: هو كلُّ ما غابَ عنهم علمُه. وذهَب إليه البقاعي في ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٤٨).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾: الأعمالُ الظاهرةُ، وبقولِه: ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾: السرائرُ. وذهب إليه ابن عاشور في ((تفسيره)) (١٦/ ٣١١).

(١) قال السمعاني: (الإحاطةُ بالشَّيءِ: هي العلمُ بالشَّيءِ مِن كلِّ جهةٍ يجوزُ أن يُعلمَ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٨٨).

قال ابنُ القيِّم: (وقد اختُلِف في تفسيرِ الضَّميرِ في ﴿بِهِۦ﴾ فقيل: هو اللهُ سُبحانَه، أي: ولا يُحيطونَ باللهِ عِلمًا. وقيل: هو ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ فعلى الأوَّلِ يَرجِعُ إلى العالِمِ، وعلى الثَّاني يرجِعُ إلى المعلومِ، وهذا القَولُ يَستلزِمُ الأوَّلَ مِن غيرِ عَكسٍ؛ لأنَّهم إذا لم يُحيطوا ببَعضِ مَعلوماتِه المتعَلِّقةِ بهم فألَّا يُحيطوا عِلمًا به سُبحانه أَولى). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٧٢).

وممن اختار أنَّ الضمير يعودُ إلى (مَا) في قولِه: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾: الواحدي، والرازي، والرسعني، وابنُ تيمية. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٣٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٨٨).

وذكر الرازي أن هذا القول أولى (لوجهين: أحدُهما: أنَّ الضَّميرَ يجبُ عودُه إلى أقربِ المذكوراتِ، والأقربُ هاهنا قولُه: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾. وثانيهما: أنَّه تعالَى أوْرَد ذلك موردَ الزَّجرِ لِيُعْلَمَ أنَّ سائرَ ما يُقْدِمونَ عليه وما يستحِقُّونَ به المجازاةَ معلومٌ للَّه تعالَى). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٢).

وقال ابن تيمة: (الراجحُ... أن الضميرَ عائدٌ إلى ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾، وإذا لم يحيطوا بهذا علمًا وهو بعض مخلوقاتِ الرَّبِّ فألَّا يحيطوا علمًا بالخالق أولى وأحرى! قال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وقال: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٩]). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٨٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سُبحانه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- بيَّنَ الله تعالى الأحوالَ التي تصيرُ إليها الجِبالُ يومَ القيامةِ في آياتٍ مِن كتابِه، فبَيَّنَ أنَّه ينزِعُها مِن أماكِنِها، ويحمِلُها فيدُكُّها دكًّا، وذلك في قَولِه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۞ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٣- ١٤]، ثمَّ بيَّنَ أنَّه يُسَيِّرُها في الهواءِ بينَ السَّماءِ والأرضِ، وذلك في قَولِه: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]... ثمَّ بيَّنَ أنَّه يُفتِّتُها ويَدقُّها، كقَولِه: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥]... ثمَّ بيَّنَ أنَّه يصَيِّرُها كالرَّملِ المتهايلِ، وكالعِهنِ المنفوشِ، وذلك في قَولِه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، وقولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۞ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨، ٩]... ثمَّ بيَّنَ أنَّها تَصيرُ كالهباءِ المنبَثِّ في قَولِه: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۞ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥- ٦]، ثمَّ بيَّنَ أنَّها تصيرُ سرابًا، وذلك في قولِه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ

= وممن اختار أنَّ الضميرَ في ﴿بِهِۦ﴾ يرجعُ إلى الله: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جريرٍ، والسمعاني، والقرطبيُّ، وابنُ جُزي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٧٣).

سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]... وبيَّنَ أنَّه يَنسِفُها نسفًا في قولِه هنا: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾[١].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ هذه الآيةُ مِن أقوى الدَّلائِلِ على ثُبوتِ الشَّفاعةِ في حَقِّ الفُسَّاقِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ يكفي في صدقِه أن يكونَ الله تعالى قد رضي له قولًا واحدًا من أقوالِه، والفاسقُ قد ارتضى اللهُ تعالى قولًا واحدًا مِن أقوالِه وهو: شهادةُ أن لا إله إلا الله، فوجَب أن تكونَ الشفاعةُ نافعةً له؛ لأنَّ الاستثناءَ مِن النفيِ إثباتٌ، وذلك بناءً على أنَّ الآيةَ محمولةٌ على المشفوعِ له[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ دليلٌ على أنَّ الشفاعةَ مأذونٌ فيها لخصوصٍ مِن النَّاسِ، وأنَّ غيرَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَشفَعُ فيُشَفَّعُ، وإنْ كانت الشَّفاعةُ العُظمى له[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أخبر اللهُ تعالى أنه لا يحصُلُ يومئذٍ شفاعةٌ تَنفَعُ إلَّا بعد أن يرضى اللهُ -سُبحانَه- قَولَ المَشفوعِ له، ويأذَنَ للشَّافِعِ فيه، على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ، فأمَّا المشركُ فإنَّه لا يَرتَضيه ولا يرضَى قولَه، فلا يَأذَنُ للشُّفَعاءِ أنْ يَشفَعوا فيه؛ فإنَّه سُبحانَه علَّقَها بأمرَينِ: رِضاه عن المشفوعِ له، وإذْنِه للشَّافعِ، فما لم يُوجَدْ مجموعُ الأمرينِ لم تُوجَدِ الشَّفاعةُ[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فيه إثباتُ عِلْمِ الله تعالى؛

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٢٢١).

وأنَّه عامٌّ في الماضي والحاضرِ والمُستقبَلِ، وفيه ردٌّ على القدريَّةِ الغُلاةِ؛ فإثباتُ عُمومِ العِلْمِ يَرُدُّ عليهم؛ لأنَّ القَدَريَّةَ الغُلاةَ أنكروا عِلْمَ اللهِ بأفعالِ خَلقِه إلَّا إذا وَقَعَت[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ دلالةٌ على نفيِ الإحاطةِ بالله عِلمًا -وذلك بناءً على أنَّ الضميرَ يرجِعُ إلى الله- وهذا شاملٌ للإحاطةِ بذاتِه وصفاتِه، فلا يَعلَمُ حقيقةَ ذاتِه وكُنْهَها إلَّا هو سُبحانه وتعالى، وكذلك صِفاتُه، فاللهُ تعالى أجَلُّ وأعظَمُ مِن أن تُحيطَ به الأفكارُ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾

- قولُه: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ الفاءُ للمُسارَعةِ إلى إلْزامِ السَّائلينَ[٣]، لأنَّ مقصودَهم مِن هذا السؤالِ الطعنُ في الحشرِ والنشرِ، فلا جَرَمَ أمَره بالجوابِ مقرونًا بفاءِ التعقيبِ[٤]. وأكَّدَ يَنْسِفُها بـ ﴿نَسْفًا﴾؛ لإثباتِ أنَّه حقيقةٌ لا استعارةٌ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ فجَميعُ ما جاء في القُرآنِ من السُّؤالِ أُجيبَ عنه بـ «قُلْ» بلا فاءٍ، إلَّا في قولِه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾، فإنَّهُ أُجيبَ بالفاءِ. قيل: وجْهُه: أنَّ الأجوبةَ في الجميعِ كانتْ بعدَ السُّؤالِ، وهنا قبْلَ

(١) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (٣/ ٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٧٦)، (٥/ ١٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٧).

وُقُوعِ السُّؤالِ؛ فكأنَّهُ قيل: إنْ سُئِلْتَ عنِ الجِبالِ، فَقُلْ: يَنْسِفُها رَبِّي[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ لمَعنى ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾؛ لزِيادةِ تَصويرِ حالةٍ، فيَزِيدُ تَهويلُها[٢]، وقيل: استئنافٌ مُبيِّنٌ للحالينِ[٣].

- وفيه تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيهَا﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿عِوَجًا﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، مع ما فيه من طُولٍ رُبَّما يُخِلُّ تَقديمُه بتجاوُبِ أطرافِ النَّظمِ الكريمِ[٤].

- وفيه ما يُعْرَفُ بـ«التَّنكيتِ»، وهو أنْ يخُصَّ المُتكلِّمُ شيئًا بالذِّكرِ دونَ غيرِه، ممَّا يسُدُّ مَسدَّه وما يَقْتضيهِ ظاهِرُ الكلامِ؛ لأجْلِ نُكْتةٍ في المذكورِ تُرجِّحُ مَجِيئَه على سِواهُ[٥]؛ فاختِيارُ (العِوَجِ) بالكَسْرِ في هذه الآيةِ له مَوضعٌ حسَنٌ بَديعٌ في استواءِ الأرضِ، ووصْفِها بالمَلاسةِ، وانتفاءِ الاعوجاجِ عنها على أبلَغِ وجْهٍ؛ وذلك أنَّه لو عُمِدَ إلى قطْعةٍ مِن الأرضِ، فسُوِّيَت وبُولِغَ في تَسويتِها على عَينِ مَن سوَّاها وعلى عُيونِ البُصراءِ بالأراضي، واتَّفقوا بالإجماعِ على أنَّه لم يبْقَ فيها اعوجاجٌ قطُّ، ثمَّ عمَدَ أهْلُ التَّخصُّصِ بالمقاييسِ المَبْنيَّةِ على العِلْمِ الدَّقيقِ: لَعُثِرَ فيها على عِوَجٍ في غيرِ مَوضعٍ، لا يُدْرَكُ ذلك بحاسَّةِ البصرِ، ولكن بالقياسِ الهندسيِّ الَّذي لا يَضِلُّ ولا يَعزُبُ عنه القليلُ النَّادِرُ؛

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٨٣ - ٨٤)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ١٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٢).

(٥) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٢/ ٥٥).

فنَفَى اللهُ سُبحانه ذلك العِوَجَ الَّذي دَقَّ ولطُفَ عن الإدراكِ والفَهْمِ، اللَّهُمَّ إلَّا بالقياسِ الَّذي يَعرِفُه صاحِبُ التَّقديرِ والهندسةِ، وذلك الاعوجاجُ لمَّا لم يُدْرَكْ إلَّا بالقياسِ دونَ الإحساسِ، ولَحِقَ بالمعاني، وسَمَا عن الأعيانِ؛ فقيل فيه: (عِوَج) بالكسْرِ[(١)].

٣- قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾

- قولُه: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ ﴾ قدَّمَ الظَّرفَ ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ على عامِلِه ﴿يَتَّبِعُونَ ﴾؛ للاهتمامِ بذلك اليومِ، وليكونَ تَقديمُه قائمًا مَقامَ العطْفِ في الوصْلِ، أي: يتَّبِعون الدَّاعِيَ يومَ يَنسِفُ ربُّكَ الجِبالَ[(٢)].

- وبينَ قولِه: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا ﴾ [طه: ١٠٧] وقولِه: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ مُراعاةُ النَّظيرِ[(٣)]؛ فكما جعَلَ اللهُ الأرضَ يومئذٍ غيرَ مُعوجَّةٍ ولا ناتئةٍ، كما قال: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]، كذلك جعَلَ سَيْرَ النَّاسِ عليها لا عِوَجَ فيه ولا مُراوغةَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٣- ٣٨٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٨- ٣٠٩).

(٣) مراعاة النَّظير: عبارةٌ عن الجمعِ بينَ المتشابِهات، أو الجَمعِ بينَ أمْرينِ أو أُمورٍ مُتناسِبةٍ، لا على جِهةِ التَّضادِّ، وذلك إمَّا بينَ اثنينِ، كقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، وإمَّا بين أكثرَ، كقولِه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦]. ويُلحَقُ بمراعاةِ النَّظيرِ: ما بُنِي على المناسَبةِ في المعنى بينَ طَرفي الكلامِ، وما بُني على المناسَبةِ في اللفظِ باعتِبارِ معنًى له غَيرِ المعنى المَقصودِ في العِبارةِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٤)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٠٤)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٨- ٣٠٩).

٤- قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾

- جُملةُ: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ مُستأنَفةٌ بيانيَّةٌ لجوابِ سُؤالِ مَن قدْ يسأَلُ بَيانَ ما يُوجِبُ رِضَا اللهِ عن العبْدِ الَّذي يأْذَنُ بالشَّفاعةِ فيه؛ فبيَّنَ بَيانًا إجماليًّا بأنَّ الإذْنَ بذلك يَجْري على ما يَقْتضيه عِلْمُ اللهِ بسائرِ العبيدِ، وبأعمالِهم الظَّاهرةِ، فعبَّرَ عن الأعمالِ الظَّاهرةِ بـ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾؛ لأنَّ شأْنَ ما بينَ الأيدي أنْ يكونَ واضِحًا، وعبَّرَ عن السَّرائرِ بـ ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾؛ لأنَّ شأْنَ ما يُجْعَلُ خلْفَ المَرْءِ أنْ يكونَ مَحجوبًا؛ فهو كِنايةٌ عن الظَّاهراتِ والخَفيَّاتِ[1]، على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

- وجُملةُ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ تَذييلٌ؛ للتَّعليمِ بعظَمَةِ عِلْمِ اللهِ تعالى، وضآلَةِ عِلْمِ البشَرِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١١-١١٤)

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَعَنَتِ﴾: أي: ذَلَّتْ واستَسلَمَت، وأصلُه: يدُلُّ على خُضوعٍ وذُلٍّ[(١)].

﴿ٱلْقَيُّومِ﴾: أي: القائمِ بنفسِه؛ فلا يحتاجُ إلى مَن يُقيمُه بوجهٍ مِن الوجوهِ، المقيمِ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ؛ فلا قيامَ لغيرِه إلا بإقامتِه، وأصلُ (قوم): يدلُّ على انتِصابٍ وعَزمٍ[(٢)].

﴿خَابَ﴾: أي: خَسِرَ وفَاتَه الظَّفَرُ، وأصلُ (خيب): يدُلُّ على عَدَمِ فائدةٍ، وحِرمانٍ[(٣)].

﴿هَضْمًا﴾: أي: نَقصًا وظُلمًا، وأصْلُ (هضم): يدُلُّ على كَسرٍ وضَغْطٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٦، ١٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٩٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٢)، ((تذكرة =

﴿وَصَرَّفْنَا﴾: أَيْ: نَوَّعْنا، وبَيَّنَّا، والصَّرفُ: ردُّ الشَّيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، وأصلُه: يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: وخَضَعَت وجوهُ الخلائِقِ وذلَّت لخالِقِها، ذي الحياةِ الكاملةِ، الذي لا يَموتُ، القائِمِ على تدبيرِ كلِّ شيءٍ، المُستغني عمَّن سِواه. وقد خَسِرَ يومَ القيامةِ مَن أشرَكَ مع اللهِ أحدًا مِن خَلقِه، أو عَمِلَ بمَعصيتِه.

ثمَّ يبشِّرُ الله تعالى عبادَه المؤمنينَ، فيقولُ: ومَن يعمَلْ مِن صالحاتِ الأعمالِ وهو مؤمِنٌ برَبِّه، فلا يخافُ ظُلمًا بزيادةِ سَيِّئاتِه، ولا هَضمًا بنَقصِ حَسَناتِه.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى اختصاصَ هذا الكتابِ بكونِه عربيًّا، ويبيِّنُ بعضَ الحكمِ مِن إنزالِه، فيقول: وكذلك أنزَلْنا هذا القُرآنَ باللِّسانِ العَرَبيِّ؛ لتُفهَمَ معانيه، وفصَّلنا فيه وكرَّرْنا أنواعًا مِن الوَعيدِ؛ رجاءَ أن يتَّقوا رَبَّهم، أو يُحدِثَ لهم هذا القرآنُ تَذكِرةً.

ثمَّ يقولُ تعالى مثنيًا على ذاتِه: فتنزَّه اللهُ -سبحانَه- وارتفَعَ وتقدَّسَ عن كُلِّ نَقصٍ، المَلِكُ الذي قهَرَ سلطانُه كلَّ ملكٍ وجبَّارٍ، وله وَحدَه الأمرُ والنَّهيُ، وهو الحَقُّ المطلقُ مِن كلِّ وجهٍ وبكلِّ اعتبارٍ.

ثمَّ ينهَى نبيَّه عن التعجُّلِ بقراءةِ القرآنِ، ويأمرُه بسؤالِ المزيدِ مِن العلمِ، فيقولُ: ولا تعجَلْ -يا محمَّدُ- بمُسابقةِ جِبريلَ في تَلَقِّي القُرآنِ قبل أن يَفْرُغَ منه،

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

والفرقُ بين الظلمِ والهضمِ أنَّ الظلمَ المنعُ مِن الحقِّ كلِّه، والهضمُ المنعُ مِن بعضِه، والهضمُ ظلمٌ وإن افترقا مِن وجهٍ. ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٠).

وقُلْ: ربِّ زِدْني عِلمًا إلى ما عَلَّمتَني.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾.

أي: وخضَعت وذلَّت واستسلَمَت وجوهُ الخلائِقِ يومَ القيامةِ للهِ ذي الحياةِ الكامِلةِ -الذي لا يموتُ ولا ينامُ-، القائِمِ بنفسِه، المقيمِ لغيرِه[1].

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

أي: وقد خَسِر مَن أتَى يومَ القيامةِ وهو يحمِلُ شِركًا أو كُفرًا بالله، أو عمَلًا بمَعصيتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧١)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠١، ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٨).

قال ابنُ عطية: (الظُّلمُ يعُمُّ الشركَ والمعاصيَ، وخَيبةُ كلِّ حاملٍ بقَدرِ ما حَمَل من الظُّلمِ، فخيبةُ المُشرِك على الإطلاقِ، وخيبةُ العاصي مُقَيَّدةٌ بوقتٍ وحَدٍّ في العقوبةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠١).

((إنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ))[١].

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا شرَحَ الله تعالى أحوالَ يومِ القيامةِ، ختَمَ الكلامَ فيها بشَرحِ أحوالِ المؤمنينَ، فقال[٢]:

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢﴾.

أي: ومَن يعمَلْ مِن[٣] صالحاتِ الأعمالِ وهو مُؤمِنٌ باللهِ وبِوَعدِه ووَعيدِه، غيرُ مُشركٍ به؛ فلا يخافُ ظُلمًا بأن يُزادَ في سيئاتِه، ولا هَضمًا بأن يُنقَصَ من حَسَناتِه[٤].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ١١٣﴾.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٣).

(٣) قال القرطبي: (﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للتبعيض، أي: شيئًا مِن الصالحاتِ. وقيل: للجِنسِ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٩، ٤٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٨)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾.

أي: وكذلك[١] أنزَلْنا القرآنَ بلُغةِ العَرَبِ واضِحًا؛ لتُفهَمَ معانيه[٢].

﴿وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ ﴾.

أي: وكرَّرنا في القُرآنِ آياتِ التَّخويفِ والتَّهديدِ بأساليبَ مُتَنوِّعةٍ[٣].

﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴾.

أي: أنزَلْنا القرآنَ عربيًّا وصرَّفْنا فيه الوعيدَ للنَّاسِ؛ ليتَّقوا اللهَ أو لِيَتَذكَّروا[٤].

---

(١) قال الواحديُّ: (قولُه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي: وكما بيَّنَّا في هذه السورةِ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ أنزلنا هذا الكتابَ ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ ﴾ أي: بيَّنا فيه ضروبَ الوعيدِ وما فيه العقابُ). ((البسيط)) (١٤/ ٥٣٨).

وقال الزمخشري: (﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ عطفٌ على ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ ﴾ أي: ومثلَ ذلك الإنزالِ، وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآياتِ المضمنةَ للوعيدِ أنزلنا القرآنَ كلَّه على هذه الوتيرةِ، مكررين فيه آياتِ الوعيدِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

قال الخازن: (يدخلُ تحتَ الوعيدِ بيانُ الفرائضِ والمحارمِ؛ لأنَّ الوعيدَ بهما يتعلَّقُ، فتكريرُه وتصريفُه يقتضي بيانَ الأحكامِ). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢١٣).

وقال السعدي: (﴿وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ ﴾ أي: نوَّعناها أنواعًا كثيرةً؛ تارةً بذكرِ أسمائِه الدالةِ على العدلِ والانتقامِ، وتارةً بذكرِ المثلاتِ التي أحلَّها بالأممِ السابقةِ، وأمر أن تعتبرَ بها الأممُ اللاحقةُ، وتارةً بذكرِ آثارِ الذنوبِ، وما تكسبُه مِن العيوبِ، وتارةً بذكرِ أهوالِ القيامةِ، وما فيها مِن المزعجاتِ والمقلقاتِ، وتارةً بذكرِ جهنمَ وما فيها مِن أنوعِ العقابِ وأصنافِ العذابِ، كلُّ هذا رحمةٌ بالعبادِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤). =

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عظَّمَ الله تعالى أمْرَ القرآنِ؛ أردَفَه بأن عظَّمَ نَفسَه؛ تنبيهًا على ما يلزَمُ خَلْقَه مِن تَعظيمِه، فقال[1]:

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: فتعاظَمَ اللهُ المستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه، وارتفَعَ على جميعِ خَلْقِه، وتنزَّه وتقدَّسَ عن النَّقائِصِ، المَلِكُ الذي قهَرَ سلطانُه كلَّ ملكٍ وجبَّارٍ، وله وَحدَه الأمرُ والنَّهيُ، وهو الحَقُّ المطلقُ مِن كلِّ وجهٍ وبكلِّ اعتبارٍ، فذاتُه الحقُّ، وقولُه الحقُّ، ووعدُه الحقُّ، وأمرُه الحقُّ، وأفعالُه كلُّها حقٌّ، وجزاؤُه المستلزمُ لشرعِه ودينِه ولليومِ الآخرِ حقٌّ[2].

= قال ابنُ كثير: (﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ أي: يَتْرُكونَ المآثمَ والمحارِمَ والفواحشَ، ﴿أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ وهو إيجادُ الطَّاعةِ وفعلُ القرباتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٩).

وقال السمعاني: (وقولُه: ﴿أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ أي: يحدِثُ لهم القرآنُ اعْتِبارًا؛ فيعتبرونَ به. وقالَ بعضُهم: يحدِثُ لهم الوعيدُ ذكرَ العذابِ؛ فينزجرونَ عن المعاصي. وقال بعضُهم: أو يحدِثُ لهم ذكرًا أي: شرفًا لإيمانِهم بِه). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

قال ابن القيم: (فكما أنَّ ذاتَه الحَقُّ، فقَولُه الحَقُّ، ووعدُه الحقُّ، وأمرُه الحقُّ، وأفعالُه كُلُّها حَقٌّ، وجزاؤُه المستلزِمُ لِشَرعِه ودينِه ولليومِ الآخِرِ حَقٌّ، فمن أنكر شيئًا من ذلك فما وصف اللهَ بأنَّه الحقُّ المطلَقُ مِن كُلِّ وَجهٍ وبكُلِّ اعتبارٍ؛ فكونُه حقًّا يستلزِمُ شَرعَه ودينَه وثوابَه وعقابَه، فكيف يُظَنُّ بالمَلِك الحقِّ أن يخلُقَ خَلقَه عبثًا، وأن يترُكَهم سُدًى لا يأمُرُهم ولا ينهاهم، ولا يثيبُهم ولا يعاقِبُهم؟!). ((بدائع الفوائد)) (٤/ ١٦٥).

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقال سُبحانَه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حريصًا على صلاحِ الأُمَّةِ شَديدَ الاهتمامِ بنجاتِهم، لا جَرَمَ خَطَرتْ بقلبِه الشَّريفِ عَقِبَ سماعِ تلكَ الآياتِ رغبةٌ أو طِلبَةٌ في الإكثارِ مِن نُزولِ القرآنِ وفي التَّعجيلِ به؛ إسراعًا بعظَةِ النَّاسِ وصلاحِهم؛ فَعَلَّمه اللَّهُ أنْ يَكِلَ الأمرَ إليه؛ فإنَّه أعلمُ بحيثُ يُناسِبُ حالَ الأُمَّةِ العامَّ[١].

وأيضًا لمَّا ذَكَر القرآنَ وإنزالَه قال على سبيلِ الاستطرادِ طالِبًا منه التَّأنِّيَ في تَحَفُّظِ القرآنِ[٢]:

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾.

أي: ولا تُبادِرْ -يا محمَّدُ- بتلاوةِ وحفظِ ما يَقرَؤُه عليك جبريلُ مِن قَبلِ أن يَنتهيَ مِن تلاوتِه عليك، بل استَمِعْ له حتى يفرُغَ مِن قِراءتِه؛ فإنَّ اللهَ قد ضَمِنَ لك جمعَه في صَدرِك، وقراءتَك إيَّاه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٠).

وممن اختار المعنى المذكور: ابن تيمية، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال السمعاني: (المشهورُ ما ذكَره ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه، أنَّ النَّبيَّ كان إذا نزَل عليه جبريلُ بالقرآنِ، =

كما قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾. [القيامة: ١٦ - ١٩].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا نزَلَ عليه الوحيُ حَرَّك به لسانَه، يريدُ أن يحفَظَه، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦]))[(١)].

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: يا رَبِّ، زِدْني عِلمًا إلى ما عَلَّمْتَني مِنَ الوَحيِ[(٢)].

عن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ الله عنها، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان يقولُ إذا صلَّى الصُّبحَ حينَ يُسلِّمُ: ((اللهُمَّ، إني أسألُك عِلمًا نافِعًا، ورِزقًا طَيِّبًا، وعَمَلًا مُتَقبَّلًا))[(٣)].

= تلا أوَّلَ الآيةِ قبلَ أنْ يفرُغَ جبريلُ مِن الإبلاغِ مخافَةَ التفلُّتِ منه والنِّسيانِ؛ فأنزلَ الله تعالَى هذه الآيةَ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٥٧).

وقيل: المعنى: ولا تعجَلْ -يا محمَّدُ- بالقرآنِ فتُقرِئَه أصحابَك من قبل أن يُوحى إليك بيانُ معانيه. وممن ذهب إلى ذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٩).

(١) رواه البخاري (٤٩٨٢)، ومسلم (٣٠١٦) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٦)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٧٧).

قال ابن كثير: (قال ابنُ عيينةَ رحمه الله: ولم يزَلْ صلَّى الله عليه وسلَّم في زيادةٍ مِن العِلمِ حتى توفَّاه الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٩).

(٣) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٩٩٣٠)، وابن ماجه (٩٢٥) واللفظ له، وأحمد (٢٦٦٠٢).

حسَّنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٣٢٩)، وقال: وله شاهد. وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٢/ ٣٥٠): رجاله ثقات لولا جهالةُ مولى أم سلمة. وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٩٢٥).

وأخرجه الطبراني في ((المعجم الصغير)) (٧٣٥)، والإسماعيلي في ((المعجم)) (٢٥٥)، =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾ يؤخَذُ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ الأدَبُ في تلقِّي العِلمِ، وأنَّ المُستَمِعَ للعِلمِ ينبغي له أن يتأنَّى ويَصبِرَ حتى يَفرُغَ المُملي والمعَلِّمُ مِن كلامِه المتَّصِلِ بعضُه ببعضٍ، فإذا فرَغ منه سألَ إن كان عندَه سؤالٌ، ولا يُبادِرَ بالسُّؤالِ وقَطعِ كَلامِ مُلقِي العِلمِ؛ فإنَّه سبَبٌ للحِرمانِ، وكذلك المسؤولُ ينبغي له أن يستمليَ سُؤالَ السائِلِ، ويَعرِفَ المَقصودَ منه قبلَ الجَوابِ؛ فإنَّ ذلك سَبَبٌ لإصابةِ الصَّوابِ[١].

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ أدبُ طالب العلمِ، وأنه ينبغي له أن يتأنَّى في تدبرِه وتأملِه للعلمِ، ولا يستعجلَ بالحكمِ على الأشياءِ ولا يُعجَبَ بنفسِه، ويسألَ ربَّه العلمَ النافعَ والتسهيلَ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ أمَرَ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يسألَه زيادةَ العِلمِ؛ فإنَّ العِلمَ خَيرٌ، وكَثرةُ الخيرِ مَطلوبةٌ، وهي مِنَ الله، والطَّريقُ إليها الاجتِهادُ والشَّوقُ للعِلمِ، وسؤالُ اللهِ والاستعانةُ به، والافتِقارُ إليه في كُلِّ وَقتٍ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا

= وأبو نعيم في ((تاريخ أصبهان)) (١/ ٤٦٤) من طريق آخر عن أم سلمة رضي الله عنها.
وثَّق رجالَه الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ١١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحيم الملك العلام)) للسعدي (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

هَضْمًا ﴾ هذا مما يدلُّ على أنَّ اللهَ قادرٌ على الظلمِ؛ ولكنْ لا يفعلُه فضلًا منه وجودًا وكرمًا وإحسانًا إلى عباده[١]، لأنَّه لو كان الظلمُ مستحيلًا، لا يمكنُ وجودُه؛ لم يكن لِعَدَمِ الخوفِ منه معنًى، ولا للأمْنِ مِن وقوعِه فائدةٌ[٢].

٢- لما كان الإنسانُ محلَّ العجزِ وإن اجتَهد، قال الله تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي: التي أمره الله بها بحسبِ استطاعتِه؛ لأنَّه لن يقدُرَ اللهَ أحدٌ حقَّ قدرِه، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلَبه[٣].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ إنَّما وصَفَ مُلكَه بالحَقِّ؛ لأنَّ مُلكَه لا يزولُ ولا يتغَيَّرُ، وليس بمستفادٍ مِن قِبَلِ الغَيرِ، ولا غيرُه أولى به؛ ولهذا وُصِفَ بذلك[٤].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ في هذا دليلٌ على أنَّ التأنِّيَ في العِلمِ بالتَّدبُّرِ وبإلقاءِ السَّمعِ أنفَعُ مِن الاستعجالِ المُتعِبِ للبالِ، المكَدِّرِ للحالِ، وأعوَنُ على الحِفظِ، فمن وعى شيئًا حقَّ الوعيِ حَفِظَه غايةَ الحِفظِ[٥].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ لَمَّا كانت عجَلَتُه صلَّى الله عليه وسلَّم على تلقُّفِ الوَحيِ، ومبادرتُه إليه تدُلُّ على محبَّتِه التامَّةِ للعِلمِ، وحِرصِه عليه؛ أمَرَه الله تعالى أن

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٥).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٤).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥٣).

يسألَه زِيادةَ العِلمِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ دليلٌ على فَضْلِ العِلْمِ، فلم يَقُلْ -سُبحانَه- لِنَبيِّه: «وقلْ ربِّ زدني مالًا»، بل قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾[٢]، فكفى بهذا شرفًا للعلم أنْ أمَرَ نبيَّه أن يسألَه المزيدَ منه[٣]. وقد قيل: (ما أمَر اللهُ رَسولَه بطَلَبِ الزِّيادةِ في شَيءٍ إلَّا في العِلمِ)[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾، العِلْمُ الذي أمَرَه سُبحانَه باستزادتِه، هو عِلْمُ الوَحيِ، لا عِلْمُ الكَلامِ والفَلسَفةِ والمَنطِقِ[٥]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾

- قولُه: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾ خَصَّ الوُجوهَ؛ لشَرفِها، ولأنَّ آثارَ الذُّلِّ إنَّما تظهَرُ في أوَّلِ الوُجوهِ[٦].

- والألِفُ واللَّامُ في ﴿ٱلۡوُجُوهُ﴾ ظاهِرُها يَقْتضي العُمومَ، أي: خضَعَ جميعُ النَّاسِ إجْلالًا للهِ تعالى. فتكونُ جملةُ ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾ احْتِراسًا؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٢).

لبَيانِ اختلافِ عاقبةِ عَناءِ الوُجوهِ؛ فمَن حمَلَ ظُلمًا فقد خابَ يومئذٍ واستمَرَّ عَناؤه، ومَن عمِلَ صالِحًا عاد عليه ذلك الخوفُ بالأمْنِ والفرَحِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ التعريفُ في الوجوهِ عِوضًا عن المضافِ إليه، ويُرادَ بها: وُجوهُ المُجْرِمين؛ فتكونُ اللَّامُ بدَلَ الإضافةِ، ويُؤيِّدُه قولُه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، وعلى هذا تكونُ جملةُ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ جُملةً مُعترِضةً تُفِيدُ التَّعليلَ، والمعنى: إذ قد خاب كلُّ مَن حمَلَ ظُلْمًا، ويَحتمِلُ الحالَ والاستِئنافَ لبيانِ ما لأجْلِه عنَتْ وُجوهُهم[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ صِيغَتْ هذه الجُملةُ في صِيغَةِ الشَّرطِ؛ تَحقيقًا للوعْدِ، وقولُه: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ بصِيغَةِ المرفوعِ بإثباتِ ألِفٍ بعدَ الخاءِ، على أنَّ الجُملةَ استئنافٌ غيرُ مَقصودٍ بها الجَزاءُ؛ كأنَّ انتفاءَ خوفِه أمْرٌ مُقرَّرٌ؛ لأنَّه مُؤمِنٌ ويَعمَلُ الصَّالحاتِ[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾، والغرَضُ واحدٌ، وهو التَّنويهُ بالقُرآنِ؛ فابْتُدِئَ بالتَّنويهِ به جُزئيًّا بالتَّنويهِ بقَصصِه، ثمَّ عُطِفَ عليه التَّنويهُ به كُلِّيًّا على طَريقةٍ تُشبِهُ التَّذييلَ لِمَا في قولِه: ﴿أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ مِن معنَى عُمومِ ما فيه[3].

- قولُه: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾، أي: القُرآنَ كلَّه، وإضمارُه من غيرِ سَبْقِ ذِكْرِه؛ للإيذانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٢- ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣١٤).

بنَباهةِ شأْنِه، وكونِه مَركوزًا في العُقولِ، حاضرًا في الأذهانِ[١].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ التَّنكيرُ يُفِيدُ الكَمالَ، أي: أكمَلَ ما يُقْرَأُ. و﴿عَرَبِيًّا﴾ صِفَةُ ﴿قُرْءَانًا﴾، وهذا وصْفٌ يُفِيدُ المدْحَ؛ لأنَّ اللُّغةَ العربيةَ أبلَغُ اللُّغاتِ، وأحسَنُها فَصاحةً وانْسِجامًا. وفيه تَعريضٌ بالامتنانِ على العرَبِ، وتَحميقٌ للمُشرِكين منهم حيث أعْرَضوا عنه، وكذَّبوا به[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ لم يَذكُرِ الوعْدَ؛ لأنَّ الآيةَ سِيقَتْ مَساقَ التَّهديدِ، ولمُناسَبةِ قولِه قبْلَه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[٣].

- وفي قولِه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أسنَدَ ترَجِّيَ التَّقوى إليهم، وترَجِّيَ إحداثِ الذِّكْرِ للقُرآنِ؛ لأنَّ التَّقوى عبارةٌ عن انتفاءِ فعْلِ القبيحِ، وذلك استمرارٌ على العدَمِ الأصليِّ، فلم يُسْنَدْ للقُرآنِ، وأُسْنِدَ إحداثُ الذِّكْرِ إلى القُرآنِ؛ لأنَّه أمْرٌ حدَثَ بعْدَ أنْ لم يكُنْ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾

- جُملةُ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ مُعترِضةٌ بين جُملةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾، وبينَ جُملةِ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾، وهذا إنشاءُ ثَناءٍ على اللهِ مُنزِّلِ القُرآنِ، وعلى مِنَّةِ هذا القُرآنِ، وتلْقينٌ لشُكْرِه على ما بيَّنَ لعِبادِه من وسائلِ الإصلاحِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٥).

وحَمْلِهم عليه بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، وتَوجيهِه إليهم بأبلَغِ كلامٍ، وأحسَنِ أُسلوبٍ؛ فهو مُفرَّعٌ على ما تقدَّمَ من قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ إلى آخِرِها. والتَّفريعُ بالفاءِ في ﴿فَتَعَٰلَى ...﴾ مُؤذِنٌ بأنَّ ذلك الإنزالَ والتَّصريفَ، ووسائلَ الإصلاحِ، كلُّ ذلك ناشِئٌ عن جَميلِ آثارٍ، يُشْعِرُ جميعُها بعُلوِّه وعظَمَتِه، وأنَّه المَلِكُ الحقُّ المُدبِّرُ لأُمورِ مملوكاتِه على أتَمِّ وُجوهِ الكَمالِ، وأنْفَذِ طُرقِ السِّياسةِ. وفي تَفريعِ ذلك على إنزالِ القُرآنِ إشارةٌ أيضًا إلى أنَّ القُرآنَ قانونُ ذلك المَلِكِ، وأنَّ ما جاء به هو السِّياسةُ الكاملةُ الضَّامِنةُ صَلاحَ أحوالِ مُتَّبِعيه في الدُّنيا والآخرةِ[١].

- والجمْعُ بين اسمِ الجَلالةِ (الله) واسْمِه (الملِك): إشارةٌ إلى أنَّ إعْظامَه وإجلالَه مُستحقَّانِ لِذاتِه بالاسمِ الجامِعِ لصفاتِ الكَمالِ، وهو الدَّالُّ على انحصارِ الإلهيَّةِ وكَمالِها، ثمَّ أُتْبِعَ بـ ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ تَصرُّفاتِه واضحةُ الدَّلالةِ على أنَّ مُلْكَه مُلْكٌ حَقٌّ، لا تصرُّفَ فيه إلَّا بما هو مُقْتضى الحكمةِ[٢].

- و﴿ٱلْحَقُّ﴾: الَّذي ليس في مُلْكِه شائبةُ عجْزٍ، ولا خُضوعٍ لغَيرِه. وفيه تَعريضٌ بأنَّ مُلْكَ غيرِه زائفٌ، وأنَّ مُلْكَ غيرِه من المُتسمِّينَ بالمُلوكِ لا يَخْلو من نقْصٍ، كما قال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[٣] [الفرقان: ٢٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٥- ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١٥-١٢٢)

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَهِدْنَآ﴾: أي: أمَرْنا ووصَّيْنا، والعَهْدُ: حفظُ الشيءِ، ومراعاتُه حالًا بعدَ حالٍ، وأصلُ (عهد): يدلُّ الاحتفاظُ بِالشَّيءِ[(١)].

﴿عَزْمًا﴾: أي: صَبرًا وتَصميمًا وثباتًا، والعَزمُ والعَزيمةُ: عَقدُ القَلبِ على إمضاءِ الأمرِ، وأصلُ (عزم): يدُلُّ على القَطعِ[(٢)].

﴿تَضْحَىٰ﴾: أي: تَبرُزُ للشَّمسِ فتَجِدُ الحَرَّ، والضُّحَى: انبساطُ الشَّمسِ، وامتِدادُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٨).

النَّهارِ، وأصلُ (ضحي): يدُلُّ على بروزِ الشَّيءِ[١].

﴿ فَوَسْوَسَ ﴾: فألقَى وحَدَّثَ، والوَسوَسةُ: الخَطْرةُ الرَّديئةُ، من الوَسواسِ، وهو صَوتُ الحُلِيِّ، والهَمسُ الخفيُّ، وحَديثُ النَّفسِ، وأصلُ (وسوس): صَوتٌ غَيرُ رَفيعٍ[٢].

﴿يَبْلَىٰ ﴾: أي: يَزُولُ أوَ يَضعُفُ، يقال: بَلِيَ الثوبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلُق[٣].

﴿وَطَفِقَا ﴾: أي: جَعَلا وأقْبَلا، يُقال: طَفِقَ يفعَلُ كذا، أي: ظلَّ يفعَلُ[٤].

﴿يَخْصِفَانِ ﴾: أي: يَرقَعانِ ويُلزِقانِ الوَرَقَ بَعضَه ببَعضٍ، وأصلُ (خصف): يدُلُّ على اجتِماعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٥].

﴿فَغَوَىٰ ﴾: أي: جَهِلَ وضَلَّ، وأصلُ (غوي): يدلُّ على خِلافِ الرُّشدِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٤).

﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾: أي: اصطَفاه واختارَه، والاجتِباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطِفاءِ، وأصْلُ (جبي): يدلُّ على جَمعِ الشَّيءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصةِ آدمَ عليه السلامُ، فيقولُ: ولقد وصَّينا آدَمَ مِن قَبلُ ألَّا يأكُلَ مِن الشَّجَرةِ، وألَّا يُطيعَ الشَّيطانَ، فوسوسَ إليه الشَّيطانُ فأطاعَه، ونَسِيَ الوصيَّةَ، ولم نجِدْ له قُوَّةً في العَزمِ يحفَظُ بها ما أُمِرَ به.

واذكُرْ -يا محمَّدُ- إذ قُلْنا للمَلائكةِ: اسجُدوا لآدَمَ سُجودَ تحيَّةٍ وإكرامٍ، فأطاعوا وسجَدوا، لكِنَّ إبليسَ امتَنَعَ مِن السُّجودِ. فقُلْنا: يا آدَمُ، إنَّ إبليسَ هذا عَدُوٌّ لك ولِزَوجِك، فاحذَرا من أن تُطيعاه، فيُخرِجَكما من الجنَّةِ، فتَشقى إذا أُخرِجْتَ منها. إنَّ لك -يا آدَمُ- في هذه الجنَّةِ ألَّا تَجوعَ ولا تعرى، وألَّا تَعطَشَ ولا يصيبَك حَرُّ الشَّمسِ. فوسوسَ الشيطانُ لآدَمَ وقال له: هل أدُلُّك على شَجَرةٍ إن أكَلْتَ منها خُلِّدتَ فلَمْ تَمُتْ، وكان لك مُلكٌ لا ينقضي ولا ينقَطِعُ؟

فأكلَ آدمُ وحوَّاءُ مِن الشَّجَرةِ التي نهاهما اللهُ عنها، فانكشَفَت لهما عوْراتُهما، وقد كانت مَستورةً عن أعيُنِهما، فأخذا يُلصِقانِ عليهما مِن وَرَقِ أشجارِ الجَنَّةِ؛ ليَستُرا ما انكشَفَ مِن عَوْراتِهما، وخالف آدَمُ أمْرَ رَبِّه فأخطأَ طَريقَ الصَّوابِ بالأكلِ مِن الشَّجَرةِ التي نهاه اللهُ عن الاقترابِ منها. ثمَّ اصطفى اللهُ آدَمَ، بعدَ مَعصيتِه، فتابَ عليه منها، وهداه للتوبةِ، ووفَّقه لها، وثبَّته عليها.

وقال تعالى لآدَمَ -ومعه زوجُه حواءُ- وإبليسَ: اهبِطَا مِن الجنَّةِ إلى الأرضِ جَميعًا بعضُكم عدُوٌّ لبَعضٍ، فإنْ يأتِكم منِّي رسولٌ أُرسِلُه إليكم، وكِتابٌ أُنزِلُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩، ٥٢).

عليكم، فمَن اتَّبَع رسُلي، وعَمِلَ بكُتُبي؛ اهتَدى، وسعِد في الدُّنيا والآخرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: ٩٩] ثم إنَّه عظَّم أمرَ القرآنِ، وبالَغ فيه؛ ذكَر هذه القصةَ إنجازًا للوعدِ[١].

وأيضًا فإنه لما كانت قصةُ موسَى عليه السلام مع فرعونَ ومع قومِه ذاتَ عبرةٍ للمكذبين والمعاندين الذين كذَّبوا النبي صلَّى الله عليه وسلَّم وعاندوه، وذلك المقصودُ من قصصِها، فكأن النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم استحبَّ الزيادةَ مِن هذه القصصِ ذاتِ العبرةِ رجاءَ أنَّ قومَه يُفيقون مِن ضلالتِهم؛ أُعقِبتْ تلك القصةُ بقصةِ آدمَ عليه السلام وما عرض له به الشيطانُ، تحقيقًا لفائدةِ قولِه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[٢] [طه: ١١٤].

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾.

أي: ولقَدْ وصَّيْنا آدَمَ -وهو في الجنَّةِ- بألَّا يأكُلَ مِن الشَّجَرةِ ولا يَقرَبَها، وحَذَّرْناه مِن طاعةِ الشَّيطانِ، مِن قبلُ[٣]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٨).

(٣) قال الرازي: (وفي قولِه تعالَى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ وجوهٌ:

أحدُها: مِن قبلِ هؤلاءِ الَّذين صَرَّفْنا لهم الوعيدَ في القرآنِ.

وثانيها: قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: مِن قبلِ أنْ يأكُلَ مِن الشَّجرةِ عَهِدْنا إليه ألَّا يأكُلَ منها.

وثالثُها: أي: مِن قبلِ محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم والقرآنِ. وهو قولُ الحسنِ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٥).

=

فنَسِيَ[(١)] وصيَّتي، فلمَّا وسْوَس له الشَّيطانُ أطاعه، وأكَلَ من الشجرةِ[(٢)].

= ممن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٢).

وممن اختار القولَ الثاني: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥١).

وقيل: معنى ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: مِن قبلِ هذا الزمانِ. وممن اختاره: العُليمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٥٠).

وقال ابن عاشور: (قَولُه: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ حُذِفَ ما أُضيفَ إليه ﴿قَبۡلُ﴾. وتقديرُه: مِن قبلِ إرسالِ موسى، أو مِن قبلِ ما ذُكر... والذي ذُكر: إمَّا عهدُ موسى الذي في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]؛ وقولِه: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ [طه: ١٦]، وإمَّا عهدُ الله لبني إسرائيلَ الذي ذكرهم به موسى عليه السلام لما رجع إليهم غضبانَ أسفًا، وهو ما في قولِه: ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ الآية [طه: ٨٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٩).

(١) قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ فيه للعلماء وجهان معروفان:

أحدُهما: أنَّ المرادَ بالنِّسيانِ التَّركُ، فلا ينافي كونَ التَّركِ عَمدًا. والعربُ تطلِقُ النِّسيانَ وتُريدُ به التركَ ولو عمدًا... والوجه الثاني: هو أن المرادَ بالنِّسيانِ في الآية: النسيانُ الذي هو ضِدُّ الذكر؛ لأنَّ إبليسَ لَمَّا أقسم له باللهِ أنَّه له ناصِحٌ فيما دعاه إليه مِن الأكلِ مِن الشَّجَرةِ التي نهاه ربُّه عنها، غَرَّه وخَدَعه بذلك، حتى أنساه العَهدَ المذكورَ. أما على القول الأوَّلِ فلا إشكالَ في قَولِه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، وأمَّا على الثاني ففيه إشكال معروف؛ لأنَّ النَّاسيَ معذورٌ، فكيف يقالُ فيه ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟

وأظهَرُ أوجُهِ الجوابِ عندي عن ذلك: أنَّ آدَمَ لم يكن معذورًا بالنِّسيانِ، وقد بيَّنتُ في كتابي «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» الأدلَّةَ الدالَّةَ على أنَّ العُذرَ بالنِّسيانِ والخطأ والإكراهِ من خصائِصِ هذه الأمَّةِ، كقوله هنا ﴿فَنَسِيَ﴾ مع قَولِه ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ فأسنَد إليه النِّسيانَ والعصيانَ؛ فدَلَّ على أنَّه غيرُ معذور بالنِّسيانِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٠٣-١٠٤).

واختار في ((العذب النمير)) (٤/ ٢٨٢) أنَّ أصحَّ التفسيرين هو أن معناه: التركُ عمدًا.

ونسَب القرطبي هذا القولَ، أي أنَّ المرادَ بالنسيانِ: التركُ -أي: تركُ الأمرِ والعهدِ- إلى مُجاهِدٍ وأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

أي: ولم نجِدْ لآدَمَ عَزمَ قلبٍ على حِفظِ وصِيَّتي، وصَبرًا على الوَفاءِ بعَهدي، وجَزمًا على تَركِ مُخالَفتي[1].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حين قُلْنا للمَلائِكةِ: اسجُدوا لآدَمَ؛ طاعةً لي، وتكريمًا له، فسَجَدوا كلُّهم إلَّا إبليسَ امتنَعَ أن يكونَ مع السَّاجِدينَ لآدَمَ[2].

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾.

أي: فقُلنا: يا آدَمُ، إنَّ هذا الذي عصاني ولم يسجُدْ لك، عدُوٌّ لك ولِزَوجِك حوَّاءَ[3].

= (١١/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٣، ١٠٤).

قال ابنُ جرير: (يقول تعالى ذكره: وإن يضيِّعْ يا محمدُ هؤلاء الذين نصرِّفُ لهم في هذا القرآنِ مِن الوعيدِ عهدي، ويخالفوا أمري، ويتركوا طاعتي، ويتَّبعوا أمرَ عدوِّهم إبليسَ، ويطيعوه في خلافِ أمري، فقديمًا ما فعَل ذلك أبوهم آدمُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٦).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذكره معلمًا نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم، ما كان مِن تضييعِ آدمَ عهدَه، ومعرِّفَه بذلك أنَّ ولدَه لن يعدوا أن يكونوا في ذلك على منهاجِه، إلا مَن عصَمه الله منهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٠).

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾.

أي: فاحذَرا أن تُطيعا عَدُوَّكما إبليسَ، فيتسَبَّبَ في إخراجِكما من الجنَّةِ، فتتعَبَ -يا آدَمُ- في طَلَبِ الرِّزقِ والكِسوةِ والسَّكَنِ؛ الذي تحصُلُ عليه في الجنَّةِ بلا مشقَّةٍ[١].

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى علَّل شقاوة آدمَ على تقديرِ الإخراجِ بوصفِها بما لا يوجدُ في غيرِها من الأقطابِ التي يدورُ علها كفافُ الإنسانِ، وهي الشبعُ والريُّ والكسوةُ والكنُّ[٢].

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾.

أي: إنَّ لك -يا آدَمُ- ألَّا تَجوعَ في الجنَّةِ، ولا تعرَى عن اللِّباسِ[٣].

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾.

أي: وأنَّك لا تَعطَشُ في الجنَّةِ، ولا تَبرُزُ للشَّمسِ، فيُؤذيَك حَرُّها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٧).

قال الشنقيطي: (قولُه: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي: لا تصيرُ بارزًا للشمسِ، ليس لك ما تستكِنُّ فيه مِن حرِّها). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٠٧).

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾.

أي: فألقى إبليسُ إلى آدَمَ وسوسته، وكلَّمه كلامًا خفيًّا[1].

كما قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ * فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: ٢٠ - ٢٢].

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾.

أي: قال إبليسُ: يا آدَمُ، هل أدلُّك على شَجَرةٍ إن أكَلْتَ منها تُخلَّدْ في الجنَّةِ فلا تمُتْ، ويكُنْ لك مُلكٌ لا يَفنى ولا ينقَطِعُ[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾.

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾.

أي: فأكَلَ آدَمُ وحَوَّاءُ من الشَّجرةِ التي نهاهما اللهُ عنها، فظَهَرت لهما عوراتُهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير القنوجي)) (٨/ ٢٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١١).

بعدما كانت مستورةً عن أعيُنِهما[١].

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

أي: وأخَذَ آدَمُ وحَوَّاءُ يُلصِقانِ عليهما مِن وَرَقِ أشجارِ الجنَّةِ؛ لِيَستُرا به عوراتِهما[٢].

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

أي: وخالَف آدَمُ وصِيَّةَ رَبِّه، فأكَل مِن الشَّجَرةِ التي نهاه اللهُ عن الأكلِ منها، فأخطأَ طَريقَ الصَّوابِ، ولم يحصُلْ على ما وعَدَه الشَّيطانُ[٣].

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

أي: ثم اصطَفَى الله تعالى آدَمَ بعدَ مَعصيتِه، فتابَ عليها منها، وهداه للتوبةِ، ووفَّقه لها، وثبَّته عليها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١٣).

قال الشنقيطي: (الفاءُ في قَولِه ﴿فَأَكَلَا﴾ تدُلُّ على أنَّ سَبَبَ أكلِهما هو وسوسةُ الشَّيطانِ المذكورةُ قَبلَه في قَولِه: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: فأكلا منها بسبَبِ تلك الوسوسةِ. وكذلك الفاءُ في قوله: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ تدُلُّ على أنَّ سَبَبَ ذلك هو أكلُهما من الشَّجَرةِ المذكورةِ، فكانت وسوسةُ الشيطانِ سَببًا للأكلِ مِن تلك الشَّجَرةِ، وكان الأكلُ منها سببًا لبدُوِّ سَوءاتِهما). ((أضواء البيان)) (٤/ ١١٢-١١٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٥).

كما قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾.

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا﴾.

أي: قال اللهُ لآدَمَ -ومعه زوجُه حواءُ التي هي تبَعٌ له- وإبليسَ: اهبِطا من الجنَّةِ إلى الأرضِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٠).

وممَّن اختار القولَ المذكورَ، وهو أنَّ الخطابَ لآدمَ وإبليسَ، وأمَّا حواءُ فهي تبَعٌ لآدمَ: القرطبي، وابن القيم، وابن كثير، والبقاعي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ القيم: (والذي يوضِّحُ أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا﴾ لآدمَ وإبليسَ: أنَّ الله سُبحانَه لَمَّا ذكر المعصيةَ أفرد بها آدَمَ دونَ زَوجِه، فقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ * قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا﴾، وهذا يدُلُّ على أنَّ المخاطَبَ بالإهباطِ هو آدَمُ ومَنْ زَيَّنَ له المَعصيةَ، ودخلتِ الزَّوجةُ تَبَعًا؛ فإن المقصودَ إخبارُ الله تعالى للثَّقَلينِ بما جرى على أبوَيهما مِن شُؤمِ المعصيةِ ومخالفةِ الأمرِ؛ فذِكرُ أبَوَيهما أبلغُ في حُصولِ هذا المعنى مِن ذِكرِ أبَوَي الإنسِ فقط. وقد أخبَرَ سُبحانَه عن الزَّوجةِ بأنَّها أكلت مع آدمَ، وأخبَرَ أنَّه أهبَطَه وأخرجه من الجنَّةِ بتلك الأَكلةِ، فعُلِم أنَّ حُكمَ الزَّوجةِ كذلك، وأنَّها صارت إلى ما صار إليه آدَمُ، وكان تجريدُ العنايةِ إلى ذِكرِ حالِ أبَوَي الثَّقَلينِ أَولى مِن تجريدِه إلى ذِكْرِ أبي الإنسِ وأُمِّهم. فتأمَّلْه). ((حادي الأرواح)) (ص: ٣٠). ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٦).

وقيل: الخطابُ لآدَمَ وحَوَّاء. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والعُليمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٠).

قال ابنُ كثير: (وقد ذَكَر المفسِّرونَ الأماكنَ الَّتي هَبَط فيها كلٌّ مِنهم، ويرجِعُ حاصلُ تلكَ الأخبارِ إلى الإسرائيليَّاتِ، واللَّهُ أعلمُ بصِحَّتِها. ولو كان في تعيينِ تلك البقاعِ فائدةٌ تعودُ على المكلَّفينَ =

﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾.

أي: تقَعُ العداوةُ بينكم؛ فآدمُ وذريَّتُه من جهةٍ، وإبليسُ وذُرِّيتُه مِن جِهةٍ أخرى[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾.

أي: فإنْ يأتِكم -يا بني آدَمَ- مِن عندي رسولٌ أرسِلُه إليكم، وكِتابٌ أُنزِلُه عليكم؛ فمَن اتَّبَعَ رُسُلي وعَمِلَ بكُتُبي، اهتَدى، وسعِد في الدُّنيا والآخرةِ[2].

= في أمرِ دينِهم، أو دُنْياهم، لذَكَرها اللَّهُ تعالَى في كتابِه أو رسولُه صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٠-٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٣٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).

ممن عمَّم فجعَل نفيَ الضلالِ والشقاءِ كليهما في الدُّنيا والآخرةِ، أي: فلا يضِلُّ في الدنيا والآخرةِ، ولا يشقَى فيهما: ابنُ تيمية، وابنُ القيم، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٣٥)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٥).

قال ابن عثيمين: (نَفْيُ الضلالِ والشقاءِ عنهم يتضمَّنُ كمالَ الهدايةِ والسعادةِ في الدنيا والآخرةِ). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٢٦٨).

وممن ذهَب إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ معناه: فلا يضِلُّ في الدنيا، ولا يشقَى في الآخرةِ: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والسمعاني، وابنُ عطية، وابن جزي، والعُليمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٠-١٩١)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- رغَّب الله تعالى آدمَ عليه السلام في دوامِ الراحةِ وانتظامِ المعيشةِ بقولِه: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ وآدمُ عليه السلام مع كمالِ عقلِه وعلمِه بأنَّ الله تعالى مولاه وناصرُه ومربِّيه، أعلمه بأنَّ إبليسَ عدوُّه؛ حيثُ امتنعَ مِن السجودِ له، وعرَّض نفسه للَّعْنةِ بسببِ عداوتِه، فكيف قبِل في الواقعةِ الواحدةِ والمقصودِ الواحد قولَ إبليسَ، مع علمِه بكمالِ عداوتِه له، وأعرضَ عن قولِ الله تعالى؟! ومَن تأمَّل في هذا البابِ، طال تعجبُه، وعرَف آخرَ الأمرِ أنَّ هذه القصةَ كالتنبيهِ على أنَّه لا دافعَ لقضاءِ الله، ولا مانعَ منه، والدليلُ وإن كان في غايةِ الظهورِ، ونهايةِ القوةِ؛ فإنَّه لا يحصلُ النفعُ به إلَّا إذا قضَى الله تعالى ذلك وقدَّره[1].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ فتَمَّت النِّعمةُ عليه وعلى ذرِّيَّتِه، ووجَبَ عليهم القيامُ بها والاعترافُ، وأن يكونوا على حَذَرٍ مِن هذا العدُوِّ المرابطِ الملازِمِ لهم، ليلًا ونهارًا؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2] [الأعراف: ٢٧].

٣- قد يكونُ الإنسانُ بَعْدَ الذَّنبِ أعلى مقامًا منه قَبلَ الذَّنبِ؛ لأنه قَبْلَ الذنبِ

= (٢/ ١٦)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

قد يكون مُستمرِئًا للحالِ التي كان عليها، وماشيًا على ما هو عليه، معتقدًا أنه كاملٌ، وأنْ ليس عليه ذنوبٌ، فإذا أذنبَ وأحسَّ بذنبه رجعَ إلى الله وأنابَ إليه، وأخْبَتَ إليه، فيزدادُ إيمانًا، ويزدادُ مقامًا، فيرتَفِعُ مقامُه عند الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى في آدَمَ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾، فجَعَلَ سبحانه الاجتباءَ بعد هذه المعصيةِ ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾، وهذا كثيرًا ما يقعُ: إذا أذنبَ الإنسانُ عَرَفَ قَدْرَ نفسِه، وأنه محتاجٌ إلى الله، ورجعَ إلى الله، وأحسَّ بالخطيئةِ، وأكثرَ مِن الاستغفارِ، وصار مقامُه بَعْدَ الذنبِ أعلى مِن مقامِه قَبْلَ الذَّنبِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ في هذه الآيةِ وِصايةُ اللهِ آدَمَ وذُرِّيتَه باتِّباعِ رُسُلِ الله والوَحيِ الإلهيِّ، وبذلك يُعلَمُ أنَّ طَلَبَ الهدى مركوزٌ في الجبلَّةِ البَشَريَّةِ[٢].

٥- قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ فضَمِن سُبحانَه لِمن اتَّبع هداه -وهو كلامُه- الهُدى في الدُّنيا والآخرةِ، والسَّعادةَ في الدُّنيا والآخرةِ، فهاهنا أمرانِ: طريقةٌ وغايةٌ؛ فالطريقةُ: الهُدى، والغايةُ: السَّعادةُ والفلاحُ؛ فمَن لم يسلُكْ هذه الطَّريقةَ لم يَصِلْ إلى هذه الغايةِ[٣].

٦- عن ابن عباس، قال: (تضمَّن الله لِمَن قرأ القُرآنَ، واتَّبع ما فيه ألَّا يَضِلَّ في الدُّنيا، ولا يشقَى في الآخرةِ)، ثم تلا هذه الآيةَ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (٣/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٩).

٧- قال ابنُ الجوزي: (تأمَّلت قولَه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣]: قال المفسرون: ﴿هُدَاىَ﴾: رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وكتابي. فوجدتُه على الحقيقةِ: أنَّ كلَّ مَن اتَّبع القرآنَ والسنةَ، وعمِل بما فيهما، فقد سلِم مِن الضلالِ بلا شكٍّ، وارتَفع في حقِّه شقاءُ الآخرةِ بلا شكٍّ، إذا مات على ذلك)[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ إنَّما عطَفَ قِصَّةَ آدَمَ على قَولِه: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ [طه: ١١٣]؛ للدَّلالةِ على أنَّ أساسَ بني آدَمَ على العِصيانِ، وعِرقَهم راسِخٌ بالنِّسيانِ[٢].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ قَولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ يدُلُّ على أنَّ أبانا آدَمَ عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ ليس من الرسُلِ الذين قال اللهُ فيهم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وهم: نوحٌ، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى، ومحمَّدٌ، صلَّى الله عليهم وسلَّم[٣]، على الأشهرِ في تحديدِ أُولي العزمِ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ بيانُ أنَّ أولَ نَقْصٍ دَخَلَ على أبي البَشَرِ، وسَرَى إلى أولادِه، أنَّه كان مِن عَدَمِ العِلمِ

---

(١) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٦).

وأيضًا فإنَّ آدمَ عليه السلامُ نبيٌّ، وليس برسولٍ، فأوَّلُ الرسلِ هو نوحٌ عليه السلامُ. يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((معارج القبول)) للحكمي (٢/ ٦٨٠).

والعَزْمِ[١]، وذلك على أحدِ القولينِ في تفسيرِ النسيانِ.

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ قال تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ مع أن المُخرجَ لهما من الجنَّةِ هو اللهُ تعالى؟

الجواب: أنَّه لما كان بوَسوَستِه هو الذي فعَلَ ما ترتَّبَ عليه الخروجُ، صَحَّ ذلك[٢]. وفيه وجهٌ آخر: أنَّه أسنَدَ الإخراجَ إلى إبليسَ؛ لزيادةِ التَّحذيرِ، والإبلاغِ في التَّنفيرِ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ جمعَ تعالى لآدَمَ -عليه السَّلامُ- في هذا الخبَرِ أصولَ كَفافِ الإنسانِ في مَعيشتِه؛ إيماءً إلى أنَّ الاستكفاءَ منها سيكونُ غايةَ سَعيِ الإنسانِ في حياتِه المُستَقبلَة؛ لأنَّ الأحوالَ التي تُصاحِبُ التَّكوينَ تكونُ إشعارًا بخصائِصِ المُكَوَّن في مُقَوِّماتِه، كما ورَد في حديثِ الإسراءِ مِن تَوفيقِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لاختيارِ اللَّبَنِ على الخَمرِ، فقيلَ له: ((لو اخترْتَ الخَمرَ، لَغَوتْ أُمَّتُك))[٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أعلَمَنا في هذه الآيةِ أنَّ النَّفَقةَ التي تجِبُ للمرأةِ على زَوجِها هذه الأربعةُ: الطعامُ، والشَّرابُ، والكِسوةُ، والمَسكَنُ، فإذا أعطاها هذه الأربعةَ، فقد خرج إليها مِن نَفَقتِها، فإن

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٢).

والحديث أخرجه البخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تفَضَّلَ بعد ذلك فهو مأجورٌ، فأمَّا هذه الأربعةُ فلا بدَّ لها منها؛ لأنَّ بها إقامةَ المُهجةِ[١].

٧- قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ إن قيل: ليست في الجنةِ شمسٌ، فكيف يستقيمُ هذا الكلام؟

والجوابُ: أنَّه مستقيمٌ؛ لأنَّ أهلَ الجنةِ في ظلٍّ ممدودٍ، فلا يصيبُهم أذَى الشمسِ مثل ما يصيبُهم في الدُّنيا[٢].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ اقتِصارُ الشَّيطانِ على التَّسويلِ لآدَمَ، وهو يريدُ أن يأكُلَ آدَمُ وحَوَّاءُ؛ لعِلمِه بأنَّ اقتِداءَ المرأةِ بزَوجِها مركوزٌ في الجبِلَّةِ[٣].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّه إنما وسوسَ إليه الشَّيطانُ مُخاطبةً، لا أنه أوقَعَ ذلك في نَفسِه بلا مُقاوَلةٍ، فمَن ادَّعى على الظَّاهِرِ تأويلًا، ولم يُقِمْ عليه دليلًا، لم يجِبْ قَبولُ قَولِه؛ ويدلُّ أيضًا على أنَّ الوسوسةَ قد تكونُ كلامًا مَسموعًا أو صَوتًا[٤].

١٠- وفي وسوسةِ الشَّيطانِ إلى آدَمَ إشكالٌ معروفٌ، وهو أنْ يُقالَ: إبليسُ قد أُخرِجَ من الجنة صاغرًا مذمومًا مدحورًا، فكيف أمكنه الرجوعُ إلى الجنَّةِ حتى وسوسَ لآدمَ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٣).

والجوابُ: أنَّه لا إشكالَ في ذلك؛ لإمكانِ أن يَقِفَ إبليسُ خارجَ الجنَّةِ قَريبًا مِن طرفِها بحيث يسمعُ آدَمُ كلامَه وهو في الجنَّةِ، وإمكانِ أن يُدخِلَه الله إيَّاها لامتحانِ آدَمَ وزَوجِه، لا لكرامةِ إبليسَ، فلا مُحالَ عقلًا في شيءٍ من ذلك. والقرآنُ قد جاء بأنَّ إبليس كلَّمَ آدَمَ، وحَلَف له حتى غرَّه وزوجَه بذلك[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ﴾ ساق إبليسُ لآدَمَ -عليه السَّلامُ- الغِشَّ مساقَ العَرضِ؛ إبعادًا لِنَفسِه من التُّهمةِ والغَرَض، وشوَّقه إليه بِقَولِه: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ﴾؛ فإنَّ النَّفسَ شَديدةُ الطَّلَبِ لعِلمِ ما تجهَلُه[٢].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ﴾ قد أفصَحَت هذه الآيةُ عن استِقرارِ محبَّةِ الحياةِ في جِبِلَّةِ البَشَرِ[٣].

١٣- قولُه: ﴿فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ فيه جمْعُ السَّوءاتِ مع أنَّهما سَوأتانِ فقط، ولهذا أَوجهٌ:

الأوَّل: أنَّ آدَمَ وحواءَ كلُّ واحدٍ منهما له سَوءتانِ: القُبُل، والدُّبُر؛ فهي أربعٌ؛ فكلٌّ منهما يرَى قُبُلَ نفْسِه وقُبُلَ الآخَرِ، ودُبُرَه، وعلى هذا فلا إشكالَ في الجمع.

الثاني: أنَّ المُثنَّى إذا أُضيفَ إليه شَيئانِ هما جُزآه جازَ في ذلك المضافِ الجَمْعُ، والتثنيةُ، والإفرادُ، وأفصحُها الجَمعُ، فالإفرادُ، فالتثنيةُ؛ فإنْ فُرِّقَ المثنَّى المضافُ إليه فالمختارُ في المضافِ الإفرادُ، نحو: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١١).

وقال أثناءَ إيرادِ هذا الإشكالِ: (والمفسِّرون يذكرونَ في ذلك قصَّةَ الحيَّةِ، وأنَّه دخَل فيها فأدخلَتْه الجنَّةَ، والملائكةُ الموكَّلونَ بها لا يشعرونَ بذلك! وكلُّ ذلك مِن الإسرائيلياتِ).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٦).

ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]، ومثالُ جمْعِ المُثنَّى المضافِ المذكورِ الذي هو الأفصحُ قولُه تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

الثالث: أنَّ أقلَّ الجَمْعِ اثنانِ(١).

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، وإثباتُ العِصيانِ لآدَمَ دُونَ زَوجِه يدُلُّ على أنَّ آدَمَ كان قُدوةً لِزَوجِه، فلمَّا أكَلَ مِن الشَّجَرةِ تَبِعَتْه زوجُه، وفي هذا المعنى قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾(٢) [التحريم: ٦].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ فيه سؤالٌ: هل يجوزُ أن يقالَ: كان آدَمُ عاصيًا، غاويًا، أخذًا من ذلك؟

الجوابُ: لا؛ إذْ لا يلزَمُ مِن جوازِ إطلاقِ الفِعلِ جوازُ إطلاقِ اسمِ الفاعِلِ، فيجوزُ أن يُقالَ: (تبارك اللهُ)، دون (مُتبارِك)، ويجوزُ أن يقال: (تاب اللهُ على آدم) دون (تائب)(٣).

١٦- إنَّ الأنبياءَ صلوات الله وسلامه عليهم لم يقعْ منهم ما يُزري بمراتبِهم العليةِ، ومناصبِهم الساميةِ، ولا يستوجبُ خطأً منهم، ولا نقصًا فيهم صلواتُ الله وسلامُه عليهم -ولو فرضنا أنَّه وقَع منهم بعضُ الذنوب-؛ لأنهم يتداركون ما وقَع منهم بالتوبةِ، والإخلاصِ، وصدقِ الإنابةِ إلى الله حتى ينالوا بذلك أعلَى درجاتِهم، فتكونَ بذلك درجاتُهم أعلَى مِن درجةِ مَن لم يرتكِبْ شيئًا مِن ذلك. ومما يوضِّحُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۞ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١٥-١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٨).

وَهَدَىٰ﴾، فانظرْ أيَّ أثرٍ يبقَى للعصيانِ والغيِّ بعدَ توبةِ الله عليه، واجتبائِه أي: اصطفائِه إيَّاه، وهدايتِه له، ولا شكَّ أنَّ بعضَ الزلاتِ ينالُ صاحبُها بالتوبةِ منها درجةً أعلى مِن درجتِه قبلَ ارتكابِ تلك الزلةِ(١).

١٧- قال تعالى: ﴿ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا﴾ والإهباطُ تارةً يَذكُرُه بلَفظِ الجَمعِ، وتارةً بلَفظِ التَّثنيةِ، وتارةً بلَفظِ الإفرادِ، كقَولِه في سورةِ الأعرافِ: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، وكذلك في سورة ص، وهذا لإبليسَ وَحدَه، وحيث ورد بصيغةِ الجَمعِ فهو لآدَمَ وزَوجِه وإبليسَ؛ إذ مدارُ القِصَّةِ عليهم، وحيث ورد بلَفظِ التَّثنيةِ فإمَّا أن يكونَ لآدَمَ وزَوجِه؛ إذ هما اللَّذانِ باشرَا الأكلَ مِن الشَّجَرةِ وأقدَمَا على المعصيةِ، وإمَّا أن يكونَ لآدَمَ وإبليسَ؛ إذ هما أبَوَا الثَّقَلينِ وأصلَا الذُّرِّيةِ؛ فذَكَر حالَهما ومآلَ أمرِهما؛ ليكونَ عِظةً وعِبرةً لأولادِهما(٢).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ بيانُ أنَّ ثوابَ المُتَّبِعِينَ لهداه أنَّهم لا يَضِلُّون ولا يَشقَونَ، ونفيُ الضَّلالِ والشقاءِ عنهم يتضَمَّنُ كمالَ الهدايةِ والسعادةِ في الدُّنيا والآخرةِ(٣)، فالهُدى والسعادةُ مُتلازِمانِ، والضَّلالُ والشَّقاءُ مُتلازِمانِ، وكثيرًا ما يَقْرِن سُبحانَه في القُرآنِ بين الضَّلالِ والشَّقاءِ، وبين الهُدى والفلاحِ، وقد جَمَعَ سبحانَه بين الأمورِ الأربعةِ في قَولِه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ فهذا الهدى والسَّعادةُ، ثمَّ قال سُبحانَه: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٢٦٨).

كُنتُ بَصِيرًا ۞ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦] فذَكَرَ الضَّلالَ والشَّقاءَ[١].

١٩- قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ فلمَّا كَسَره سُبحانَه بإهباطِه مِن الجنَّةِ، جَبَرَه وذريَّتَه بهذا العَهدِ الذي عَهِدَه إليهم[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾

- افتتاحُ الجُملةِ بحرْفِ التَّحقيقِ ولامِ القسَمِ ﴿وَلَقَدْ﴾ لمُجرَّدِ الاهتمامِ بالقصَّةِ؛ تَنبيهًا على قصْدِ التَّنظيرِ بين القصَّتينِ في التَّفريطِ في العهْدِ؛ لأنَّ في القصَّةِ الأُولى تَفريطَ بني إسرائيلَ في عهْدِ الله، كما قال فيها: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ ﴾ [طه: ٨٦]، وفي قصَّةِ آدمَ تَفريطًا في العهْدِ أيضًا[٣].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ فالمعهودُ مَحذوفٌ يدُلُّ عليه ما بعْدَه، واللَّامُ جوابُ قسَمٍ مَحذوفٍ، أيْ: وأُقسِمُ لقد أمَرْناهُ ووصَّيناهُ[٤].

- قولُه: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ إنْ كان من الوُجودِ العِلْميِّ، فـ﴿لَهُۥ عَزْمًا ﴾ مفعولَاهُ؛ قُدِّمَ الثَّاني على الأوَّلِ لكونِه ظرْفًا، وإنْ كان من الوُجودِ المُقابِلِ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧).
(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٤).

للعدَمِ -وهو الأنسبُ؛ لأنَّ مَصبَّ الفائدةِ هو المفعولُ، وليس في الإخبارِ بكونِ العزْمِ المعدومِ له مَزيدُ مَزيَّةٍ- فـ﴿لَهُۥ﴾ مُتعلِّقٌ به؛ قُدِّمَ على مفعولِه للاهتمامِ بالمُقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، أو بمَحذوفٍ هو حالٌ من مفعولِه المُنكَّرِ؛ كأنَّه قيل: ولم نُصادِفْ له عزْمًا[١].

- واستُعمِلَ نفْيُ وِجْدانِ العزْمِ عندَ آدمَ عليه السَّلامُ في مَعْنى عدَمِ وُجودِ العزْمِ من صِفَتِه فيما عُهِدَ إليه؛ تَمثيلًا لحالِ طلَبِ حُصولِه عنده بحالِ الباحثِ على عزْمِه، فلم يجِدْه عنده بعْدَ البحثِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، أي: واذكُرْ إذ قُلْنا، وتَعليقُ الذِّكْرِ بالوقتِ، مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما وقَعَ فيه من الحوادثِ؛ للمُبالَغةِ في إيجابِ ذِكْرِها؛ فإنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ على تَفاصيلِ الأُمورِ الواقعةِ فيه؛ فالأمْرُ بذِكْرِه أمْرٌ بذِكْرِ تَفاصيلِ ما وقَعَ فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ[٣]، ولأنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ على أعيانِ الحوادثِ، فإذا ذُكِرَ صارت الحوادثُ كأنَّها مَوجودةٌ في ذِهْنِ المُخاطَبِ بوُجوداتِها العينيَّةِ، أي: اذكُرْ ما وقَعَ في ذلك الوقتِ مِنَّا ومنه؛ حتَّى يَتبيَّنَ لك نِسيانُه وفُقدانُ عزْمِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٩).

(٣) الطَّريق البُرهاني: قياسٌ استثنائيٌّ، يُستدلُّ فيه بنَفْي اللازمِ البيِّنِ انتفاؤُه على نَفْيِ الملزومِ، كما يُقال: هل زيدٌ في البلدِ؟ فتقول: لا؛ إذ لو كان فيها لحَضَرَ مَجلِسَنا، فيُستدلُّ بعدمِ الحُضورِ على عدمِ كونِه في البَلدِ. أو: هو ما يلزمُ مِن نفْيِ مِثلِ مِثلِه نفيُ مثلِه. يُنظر: ((حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع)) (١/ ٤٥٢)، ((التقرير والتحبير)) لابن أمير الحاج (٢/ ٢٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥).

- وجُملةُ: ﴿أَبَىٰٓ﴾ مُستأنَفةٌ، وقعَتْ جَوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ عن الإخبارِ بعدَمِ سُجودِه؛ كأنَّه قِيلَ: ما بالُه لم يَسجُدْ؟ فقِيلَ: أبى واستكبَرَ. ومَفعولُ ﴿أَبَىٰٓ﴾ إمَّا مَحذوفٌ، أي: أبى السُّجودَ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، أو غيرُ مَنْويٍّ رأسًا بتَنزيلِه مَنزِلَةَ اللَّازمِ، أي: فعَلَ الإباءَ وأظْهَره[1].

٣- قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ الفاءُ في قولِه: ﴿فَقُلْنَا﴾ لتَرتيبِ مُوجبِ النَّهيِ على عَداوتِه لهما، أو على الإخبارِ بها[2].

- و﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى الشَّيطانِ؛ إشارةً مُرادًا منها التَّحقيرُ[3].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]؛ فعبَّرَ عنه باسْمِه. وقولُه: ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾، هو كقولِه في (الأعرافِ): ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]؛ فذُكِرَتْ عَداوتُه لهما جُملةً هنالك، وذُكِرَت تَفصيلًا هنا، فابْتُدِئَ في ذِكْرِ مُتعلِّقِ عَداوتِه بآدمَ؛ لأنَّ آدمَ هو منشَأُ عَداوةِ الشَّيطانِ لحسَدِه، ثمَّ أُتْبِعَ بذِكْرِ زوجِه؛ لأنَّ عَداوتَه إيَّاها تبَعٌ لعَداوتِه آدمَ زوجَها، وكانت عَداوتُه مُتعلِّقةً بكلَيهما؛ لاتِّحادِ عِلَّةِ العَداوةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٢١).

- قولُه: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ تَفريعٌ على الإخبارِ بعَداوةِ إبْليسَ له ولزوجِه، بأنْ نُهِيَا نهْيَ تَحذيرٍ عن أنْ يتسبَّبَ إبليسُ في خُروجِهما من الجنَّةِ؛ لأنَّ العَدُوَّ لا يَروقُه صَلاحُ حالِ عدُوِّه. ووقَعَ النَّهيُ في صُورةِ نهْيٍ عن عمَلٍ هو من أعمالِ الشَّيطانِ لا من أعمالِ آدمَ؛ كِنايةً عن نهْيِ آدمَ عن التَّأثُّرِ بوَسائلِ إخراجِهما من الجنَّةِ[1].

- وإنَّما أُسْنِدَ إلى آدمَ وحْدَه فِعْلُ الشَّقاءِ دونَ حوَّاءَ بعْدَ إشراكِهما في الخُروجِ؛ لأنَّ في ضِمْنِ شَقاءِ الرَّجلِ -وهو قَيِّمُ أهْلِه وأميرُهم- شَقاءَهم، كما أنَّ في ضِمْنِ سَعادتِه سعادتَهم؛ فاخْتُصِرَ الكلامُ بإسنادِه إليه دونَها، مع المُحافَظةِ على الفاصلةِ. أو أُرِيدَ بالشَّقاءِ التَّعبُ في طلَبِ القوتِ، وذلك مُتعلِّقٌ بالرَّجلِ، وهو راجعٌ إليه[2]؛ لِيُعلِمَنا أنَّ نَفَقةَ الزَّوجةِ على الزَّوجِ[3]، وأنَّ عليه التَّكَفُّلَ بأمْرِها، وهو القائِمُ عليها، فجرى اللفظُ بتَوحيدِه مِن هذه الجِهةِ[4].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾

- وجْهُ إفرادِه عليه السَّلامُ بما ذُكِرَ: أنَّ حواءَ تابعةٌ له في ذلك[5].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ تَعليلٌ للشَّقاءِ المُترتِّبِ على الخُروجِ من الجنَّةِ المَنْهيِّ عنه؛ لأنَّه لمَّا كان مُمَتَّعًا في الجنَّةِ برَفاهيةِ العيشِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩١ - ٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥- ٤٦).

من مأكْلٍ ومَلْبَسٍ، ومَشْربٍ واعتدالِ جَوٍّ مُناسبٍ للمزاجِ: كان الخُروجُ منها مُقتضِيًا فُقدانَ ذلك[١].

- والعُدولُ عن التَّصريحِ بأنَّ له عليه السَّلامُ فيها تَنعُّمًا بفُنونِ النِّعمِ، مع أنَّ فيه من التَّرغيبِ في البقاءِ فيها ما لا يَخْفى، إلى ما ذُكِرَ من نفْيِ نَقائِضِها الَّتي هي الجوعُ والعطشُ، والعُرْي والضُّحِيُّ: لتَذكيرِ تلك الأُمورِ المُنْكَرةِ، والتَّنبيهِ على ما فيها من أنواعِ الشِّقوةِ الَّتي حَذَّرَه عنها؛ ليُبالِغَ في التَّحامي عن السَّببِ المُؤدِّي إليها، على أنَّ التَّرغيبَ قد حصَلَ بما سُوِّغَ له من التَّمتُّعِ بجَميعِ ما فيها، سِوى ما استُثنِيَ من الشَّجرةِ حسَبَما نطَقَ به قولُه تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، وقد طُوِيَ ذِكْرُه هَاهُنا اكتفاءً بما ذُكِرَ في مَوضعٍ آخرَ، واقتُصرَ على ما ذُكِرَ منَ التَّرغيبِ المُتضمِّنِ التَّرهيبَ[٢].

- وفيه فَنٌّ بَديعٌ يُسمَّى قطْعَ النَّظيرِ عن النَّظيرِ؛ ففي الآيةِ فُصِلَ الظَّمأُ عن الجوعِ في الذِّكْرِ مع تَجانُسِهما وتَقارُنِهما في الذِّكْرِ عادةً، وكذا حالُ العُرْيِ والضَّحْوِ المُتجانسَينِ؛ لتَوفيةِ مَقامِ الامتنانِ حَقَّه، بالإشارةِ إلى أنَّ نفْيَ كلِّ واحدٍ مِن تلك الأُمورِ نِعْمةٌ على حِيالِها، ولو جُمِعَ بين الجوعِ والظَّمأِ لرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ نفْيَهما نِعْمةٌ واحدةٌ، وكذا الحالُ في الجمْعِ بين العُرْيِ والضَّحْوِ على مِنهاجِ قصَّةِ البقرةِ، ولزيادةِ التَّقريرِ بالتَّنبيهِ على أنَّ نفْيَ كلِّ واحدٍ من الأُمورِ المذكورةِ مَقصودةٌ بالذَّاتِ، مَذكورةٌ بالأصالةِ، لا أنَّ نفْيَ بعْضِها

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥- ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥- ٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩٠).

مَذكورةٌ بطَّريقِ التَّبعيةِ لنفْيِ بعْضٍ آخَرَ، كما عسى يُتوهَّمُ لو جُمِعَ بين كلٍّ منَ المُتجانسَينِ[(١)].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ مُقابَلةٌ مَعنويَّة حسَنَةٌ؛ فالجوعُ خُلوُّ الباطِنِ، والتعرِّي خُلوُّ الظاهِرِ، فهما مُتناسِبانِ في المَعنى، والظمأُ إحراقُ الباطِنِ، فهو مُوجِبٌ لحرارةِ الباطنِ، والضَّحوُ إحراقُ الظاهِرِ؛ فهو مُوجِبٌ لحرارةِ الظَّاهِرِ، فقابَلَ الخُلوَّ بالخلوِّ، والإحراقَ بالإحراقِ، واقتَضَتِ الآيةُ نفيَ جميعِ الآفاتِ ظاهِرًا وباطِنًا[(٢)].

- وأُكِّدَتِ الجُملةُ بـ(إنَّ) في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ﴾ المكسورةِ، و(أنَّ) المفتوحةِ في قولِه: ﴿وَأَنَّكَ﴾[(٣)].

٥- قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَوَسْوَسَ﴾ لتَعقيبِ مَضمونِ جُملتِها على مَضمونِ الَّتي قبْلَها، وهو تَعقيبٌ نِسْبيٌّ بما يُناسِبُ مُدَّةَ تقلُّبٍ في خلالِها بخَيراتِ الجنَّةِ، حتَّى حسَدَه الشَّيطانُ، واشتَدَّ حسَدُه[(٤)].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث عُدِّيَ فعْلُ (وسوَسَ) هنا بحرْفِ (إلى)، وباللَّامِ في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٠]؛ وذلك باعتبارِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥- ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٢- ٣٢٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٥).

كيفيَّةِ تَعليقِ المجرورِ بذلك الفِعْلِ في قصْدِ المُتكلِّم، فإنَّه فِعْلٌ قاصرٌ، لا غِنَى له عن التَّعديةِ بالحرفِ؛ فتَعديتُه بحرْفِ (إلى) هنا باعتبارِ انتهاءِ الوَسوسةِ إلى آدمَ، وبُلوغِها إيَّاهُ، وتَعديتُه باللَّامِ في (الأعرافِ) باعتبارِ أنَّ الوَسوسةَ كانتْ لأجْلِهما[١]، وأيضًا كأنَّه عبَّر بـ (إلى)؛ لأنَّ المقامَ لبَيانِ سُرعةِ قَبولِ هذا النَّوعِ للنَّقائصِ وإنْ أتَتْه مِن بَعدُ، أو لأنَّه ما أنهَى إليه ذلك إلَّا بواسطةِ زَوجِه؛ لذلك عَدَّى الفِعلَ عند ذِكرِهما باللَّامِ[٢].

- وقال: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ولم يقلْ: (فيه)؛ لأنَّ المعنى أنَّه ألقَى إليه ذلك، وأوصَله إليه، فدخَل في قلبِه[٣].

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ ...﴾ إمَّا بدَلٌ من (وَسْوَسَ)، أو استئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ منه؛ كأنَّه قيلَ: فماذا قال في وَسوسَتِه؟ فقيل: قال...[٤]، أو بَيانٌ لجُملةِ ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾[٥].

- وقولُه: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ ﴾ استفهامٌ مُستعمَلٌ في العرْضِ[٦]، وجاء على سَبيلِ الاستفهامِ الَّذي يُشعِرُ بالنُّصحِ، ويُؤثِرُ قَبولَ مَن يُخاطِبُه[٧].

- في قولِه: ﴿شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾ سمَّاها هنا شجرةَ الخُلْدِ بالإجمالِ؛ للتَّشويقِ إلى تَعيينِها حتَّى يُقبِلَ عليها، ثمَّ عيَّنَها له عَقِبَ ذلك، بما أنبَأَ به قولُه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩١).

تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾[(١)]، وأضافَ الشَّجرةَ إلى الخُلدِ، وهو الخُلودُ؛ لأنَّ مَن أكَلَ منها خُلِّدَ بزَعْمِه[(٢)].

- في (الأعرافِ): ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٠] الآيةَ، وهنا ﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾، والجمْعُ بينهما: أنَّ قولَه: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾ يكونُ سابِقًا على قولِه: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا﴾؛ لمَّا رأى إصغاءَه ومَيْلَه إلى ما عرَضَ عليه، انتقَلَ إلى الإخبارِ والحصْرِ[(٣)].

٦- قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ للتَّفريعِ على ما قبْلَه، ويُوجَدُ جُملةٌ مَحذوفةٌ دَلَّ عليها العرْضُ، أي: فعمِلَ آدمُ بوَسوسةِ الشَّيطانِ، فأكَلَ من الشَّجرةِ، وأكَلَت حوَّاءُ معه[(٤)].

٧- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بين جُملةِ ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ﴾، وجُملةِ ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾؛ لأنَّ الاجتباءَ والتَّوبةَ على آدمَ كانا بعْدَ أنْ عُوقِبَ وزوجُه بالخُروجِ من الجنَّةِ، كما في سُورةِ (البقرةِ)، وهو المُناسِبُ لتَرتُّبِ الإخراجِ منَ الجنَّةِ على المعصيةِ دونَ أنْ يترتَّبَ على التَّوبةِ. وفائدةُ هذا الاعتراضِ: التَّعجيلُ ببَيانِ مآلِ آدمَ إلى صَلاحٍ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٢٧).

- وفي التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه السَّلامُ في قولِه: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾: مَزيدُ تَشريفٍ له عليه السَّلامُ[١]، وإفرادُه عليه السَّلامُ بالاجتباءِ، وقَبولِ التَّوبةِ؛ لأنَّ حوَّاءَ تابِعةٌ له في ذلك[٢].

٨- قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ، مَبْنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ من الإخبارِ بأنَّه تعالى قَبِلَ توبتَه وهداهُ؛ كأنَّه قيل: فماذا أمَرَهُ تعالى بعْدَ ذلك[٣]؟

- قولُه: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا﴾ لمَّا كان آدمُ وحوَّاءُ عليهما السَّلامُ أصلَيِ البشرِ، والسَّببينِ اللَّذينِ منهما نشَؤُوا وتفرَّعُوا: جُعِلَا كأنَّهما البشَرُ في أنفُسِهما، فخُوطِبا مُخاطبَتَهم. ولمَّا كانا أصلَيِ الذُّرِّيةِ خاطَبَهما مُخاطبَتَهم، فقال: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾، ويُؤيِّدُه قولُه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾، وذلك على القولِ بأنَّ الخِطابَ لآدَمَ وحوَّاءَ. وأما على القولِ بأنَّ الخِطابَ لآدَمَ وإبليسَ، فقد خُوطِبَا بضَميرِ الجمْعِ في قولِه: ﴿بَعۡضُكُمۡ﴾؛ لأنَّه أُرِيدَ عداوةُ نَسلَيْهما؛ فإنَّهما أصلانِ لنوعينِ: نوعِ الإنسانِ، ونوعِ الشَّيطانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٨).

- وتَفريعُ جُملةِ ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ على الأمْرِ بالهُبوطِ من الجنَّةِ إلى الدُّنيا: إنباءٌ بأنَّهم يَستقبِلونَ في هذه الدُّنيا سِيرةً غيرَ الَّتي كانوا عليها في الجنَّةِ؛ لأنَّهم أُودِعوا في عالَمٍ خليطٍ خيرُه بشَرِّه، وحَقائِقُه بأوهامِه، بعْدَ أنْ كانوا في عالَمِ الحقائقِ المَحْضةِ، والخيرِ الخالِصِ، وفي هذا: إنباءٌ بطَورٍ طرَأَ على أصْلِ الإنسانِ في جِبلَّتِه كان مُعَدًّا له من أصْلِ تَركيبِه[1].

- وفي قولِه: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ وُضِعَ الظَّاهرُ مَوضِعَ المُضمرِ -حيث لم يقُلْ: (فمَنِ اتَّبَعه)- مع الإضافةِ إلى ضَميرِه تعالى؛ لتَشريفِه، والمُبالَغةِ في إيجابِ اتِّباعِه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٧).

الآيات (١٢٤-١٢٧)

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ضَنكًا﴾: أي: ضَيِّقةً، والضَّنكُ مِن المنازِلِ والأماكِنِ والمعايشِ: الشَّديدُ، وأصلُ (ضنك): يدلُّ على ضيقٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا سوءَ عاقبةِ من أعرضَ عن ذكرِه وطاعتِه: ومَن أعرَضَ عن كِتابي فلم يتدَبَّرْه ولم يَعمَلْ بما فيه؛ فإنَّ له مَعيشةً ضَيِّقةً شاقَّةً في حياتِه وبعد مماتِه وفي الآخِرةِ، ونحشُرُه يومَ القيامةِ أعمى.

قال هذا المُعرِضُ عن ذِكرِ الله: ربِّ، لِمَ حَشَرْتَني أعمى، وقد كنتُ بَصيرًا في الدُّنيا؟ قال اللهُ تعالى له: كذلك أتَتْك آياتي البيِّناتُ، فأعرَضْتَ عنها، ولم تؤمِنْ بها، وكما تركتَها في الدُّنيا فكذلك اليومَ تُترَكُ في النَّارِ، وهكذا نُعاقِبُ مَن أسرَفَ على نَفسِه فعَصى رَبَّه، ولم يؤمِنْ بآياتِه، ولَعذابُ الآخرةِ المُعَدُّ لهم أشَدُّ ألَمًا وأدوَمُ وأثبَتُ بلا انقِطاعٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وعد اللهُ تعالى من يتَّبِعُ الهدى، أتبَعَه بالوعيدِ فيمن أعرَضَ، فقال[١]:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾.

أي: ومَن أعرَضَ عن كتابي[٢] فلم يتدَبَّرْه ولم يعمَلْ بما فيه؛ فإنَّ له معيشةً ضَيِّقةً مُدَّةَ حياتِه في الدُّنيا، وبعدَ مَوتِه في البَرزَخِ، وفي معادِه في الآخرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٠).

(٢) قال ابن القيم: (﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي: عن الذِّكرِ الذي أنزلْتُه، فالذِّكرُ هنا مصدرٌ مُضافٌ إلى الفاعِلِ كقيامي وقراءتي، لا إلى المفعولِ، وليس المعنى: ومن أعرض عن أن يذكُرَني، بل هذا لازِمُ المعنى ومقتضاه مِن وجهٍ آخَرَ...، وأحسنُ مِن هذا الوجهِ أن يقالَ: الذِّكرُ هنا مضافٌ إضافةَ الأسماءِ لا إضافةَ المصادِرِ إلى معمولاتِها، والمعنى: ومن أعرض عن كتابي ولم يتَّبِعْه؛ فإنَّ القرآنَ يُسَمَّى ذِكرًا). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٤٢-٤٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٠٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٦٨)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٦، ١٢٧).

وممَّن اختار أنَّ المعيشةَ الضنكَ عامةٌ: في الدُّنيا والقبرِ وفي الآخرةِ: ابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّمِ، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ القيِّم: (المعيشةُ الضَّنكُ في الدُّنيا وفي البرزخِ، والعذابُ في الآخرةِ؛ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]. وفُسِّرَت المعيشةُ الضَّنكُ بعَذابِ القَبرِ، ولا رَيبَ أنَّه من المعيشةِ الضَّنكِ، والآيةُ تتناولُ ما هو أعَمُّ منه، وإن كانت نكرةً في سياق الإثباتِ، فإنَّ عُمومَها من حيثُ المعنى؛ فإنَّه سُبحانَه رَتَّبَ المعيشة الضَّنكَ على الإعراضِ عن ذِكرِه، فالمُعرِضُ عنه له من ضَنكِ المعيشةِ بحَسَبِ إعراضِه... فالمعيشةُ الضَّنكُ لازمةٌ لِمَن أعرض عن ذِكرِ الله الذي أنزَلَه على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم في دنياه، وفي البرزخِ، ويومَ معادِه). ((الجواب الكافي)) (ص: ١٢٠).

وممن فسَّرها بعذابِ القبرِ: ابنُ جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٩).

وممن قال بهذا القول مِن السلفِ: أبو سعيدٍ الخدري، وأبو هريرة، وعبدُ الله بنُ مسعودٍ، وأبو =

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾.

أي: ونحشُرُ المُعرِضَ عن ذِكري يومَ القيامةِ أعمى لا يُبصِرُ[(١)].

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾.

أي: قال: يا رَبِّ، لماذا حَشَرتَني أعمى، وقد كنتُ في الدُّنيا مُبصِرًا، وما الذي صيَّرني إلى ذلك[(٢)]؟!

= صالح، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨٠).

وممن فَسَّرَها بضنك المعيشةِ في الدنيا: ابنُ كثير، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٥٢)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٧).

وممَّن قصَرَ معنى العمى هنا على عمى البَصَرِ على حقيقتِه: ابنُ القيم، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: ابنُ عبَّاس، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨١).

ومِن المفسرينَ من عَمَّم المعنى ليشمَلَ عمى البَصَرِ والبصيرة، ومنهم: ابنُ جرير، فقال: (الصوابُ من القَولِ في ذلك ما قال الله تعالى ذِكرُه، وهو أنَّه يُحشَرُ أعمى عن الحُجَّةِ ورؤية الشيءِ، كما أخبر جلَّ ثناؤه، فعَمَّ ولم يُخَصِّص). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠١).

قال الواحدي: (قيل في التفسيرِ: أعمَى البصرِ. وقيل: أعمَى عن الحجةِ. يعني أنَّه لا حجةَ له يهتدي إليها، والأعمَى إذا أُطلِق كان الظاهرُ عمَى البصرِ). ((الوسيط)) (٣/ ٢٢٦).

وقال الشنقيطي: (اعلمْ أنَّ في هذه الآيةِ الكريمةِ قرينةً دالةً على... أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿أَعْمَىٰ﴾ أي: أعمَى البصرِ لا يرى شيئًا. والقرينةُ المذكورةُ هي قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾، فصرَّح بأنَّ عماه هو العمَى المقابلُ للبصرِ، وهو بصرُ العينِ؛ لأنَّ الكافرَ كان في الدنيا أعمَى القلبِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٢٧). ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٤-٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾.

أي: قال اللهُ له: كذلك[1] جاءتك آياتُ كتابي فترَكْتَ الإيمانَ بها وتدبُّرَها، وأعرضتَ عن العَمَلِ بها[2].

كما قال تعالى: ﴿... وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٥ - ٥٩].

﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾.

أي: فكما تركتَ آياتي في الدُّنيا ولم تعمَلْ بها، فكذلك يومَ القيامة تُترَكُ في العذابِ[3].

---

(١) أي: مِثلَ ذلك فَعلْتَ أنت، ثُمَّ فَسَّره بِقَولِه: ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾. وممَّن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والرسعني، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٢).
وقال ابن جرير: (عنى بقَولِه ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ﴾ هكذا أتَتْك). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٩)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٤٦، ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).
قال ابنُ كثيرٍ: (أي: لَمَّا أعرضْتَ عن آياتِ الله، وعامَلْتَها معاملةَ مَن لم يذكُرْها، بعد بلاغِها إليك تناسَيْتَها وأعرَضْتَ عنها وأغفَلْتَها، كذلك نعامِلُك اليوم معاملةَ مَن ينساك... فإنَّ الجزاءَ مِن =

كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾.

أي: ومِثلَ ذلك الجزاءِ الشَّديدِ لِمن أعرَضَ عن ذِكري، نجزي كُلَّ مَن جاوزَ الحَدَّ، فعصى رَبَّه ولم يؤمِنْ بآياتِه[١].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

أي: وللعذابُ الواقِعُ في الآخرةِ أشدُّ ألَمًا[٢]، وأدوَمُ على أصحابِه بلا انقِطاعٍ[٣].

= جنسِ العمل). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).

(٢) قيل: المرادُ: ولعذابُ الآخرة أشَدُّ مِن عذابِ الدُّنيا. وممن اختاره: ابنُ كثيرٍ، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).

وقيل: المرادُ: ولعذابٌ في الآخرةِ أشدُّ لهم مما وعدتُهم في القبرِ مِن المعيشةِ الضنكِ. وممن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٤).

قيل: المرادُ: ولعذابُ الآخرة أشَدُّ مما يعذبهم به في الدنيا والقبر. وممن اختاره: البغوي، والعليمي والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٠).

وقيل: ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ من المعيشة الضَّنْك والمحشر على العَمى. وممن اختاره: الرسعني، وابن جزي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).

قال الرازي: (بَيَّنَ... أَنَّ عذابَ الآخرةِ أشدُّ وأبقَى؛ أَمَّا الأشدُّ فلعِظَمِه، وأمَّا الأبقَى فلأنَّه غيرُ =

كما قال تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أصلُ الضَّنكِ في اللُّغةِ: الضِّيقُ والشِّدَّةُ، فهذه المعيشةُ الضَّنكُ في مقابلةِ التَّوسيعِ على النَّفسِ والبَدَنِ بالشَّهَواتِ واللَّذَّاتِ والرَّاحةِ؛ فإنَّ النَّفسَ كُلَّما وَسَّعْتَ عليها ضَيَّقْتَ على القَلبِ، حتى تصيرَ معيشةً ضنكًا، وكلَّما ضَيَّقْتَ عليها وسَّعْتَ على القَلبِ حتى ينشَرِحَ وينفَسِحَ، فضَنكُ المعيشةِ في الدنيا بموجِبِ التقوى سَعَتُها في البرزخِ والآخرةِ، وسَعَةُ المعيشةِ في الدنيا بحُكمِ الهوى ضَنكُها في البَرزخِ والآخرةِ؛ فآثِرْ أحسَنَ المعيشتَينِ وأطيبَهما وأدوَمَهما، وأشْقِ البَدَنَ بنَعيمِ الرُّوحِ، ولا تُشْقِ الروحَ بنعيمِ البَدَنِ؛ فإنَّ نَعيمَ الرُّوحِ وشقاءَها أعظَمُ وأدوَمُ، ونعيمُ البَدَنِ وشَقاؤه أقصَرُ وأهوَنُ، واللهُ المستعانُ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ تضَمَّنَت هذه الآيةُ أنَّ مَن أعرَضَ عن الهُدى المُنَزَّلِ -وإنْ لم يُكَذِّبْ به- فإنَّه يكونُ يومَ القيامةِ في العذابِ المُهينِ، وأنَّ معيشتَه تكون ضَنْكًا في هذه الحياةِ وفي البَرزخِ والآخرةِ، وهي المضنوكةُ النَّكِدَةُ المحشوَّةُ بأنواعِ الهُمومِ والغُمومِ والأحزانِ، كما أنَّ الحياةَ الطيِّبةَ هي لِمَن آمنَ وعَمِلَ

= مُنْقَطِعٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٢).

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٦٨-١٦٩).

صالِحًا[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ عَبَّر سُبحانَه عن الإعراضِ عن الهدى المُنَزَّلِ بـ «الإعراضِ عن ذِكْرِه»؛ لأنَّ فيما أنزلَه مِن الهُدى تذكيرًا للإنسانِ، وإنذارًا له وتخويفًا[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ يَشْمَلُ الكافرَ -وله منها حقُّ الوعيدِ- ويَشملُ المؤمِنَ المرتكِبَ الكبيرة -وله نصيبٌ مِن ضَنْكِ العيشِ بقَدْرِ إعراضِه عن الذِّكْرِ- ومذهَبُ أهلِ السُّنَّة أنَّ الشَّخْصَ الواحِدَ تَجتَمِعُ فيه الحَسَناتُ والسيِّئاتُ، فيسْتَحِقُّ الثَّوابَ والعِقابَ جَميعًا[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ فسَّرَها غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ بعذابِ القَبرِ، وجَعَلوا هذه الآية أحَدَ الأدلَّةِ الدالَّةِ على عذابِ القَبرِ؛ ولهذا قال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي: تُترَكُ في العذابِ، كما تَرَكتَ العمَلَ بآياتِنا، فذَكَر عذابَ البَرزخِ وعذابَ دار البوارِ، ونظيرُه قَولُه تعالى في حَقِّ آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ فهذا في البرزخِ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] فهذا في القيامةِ الكُبرى، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((شرح مقدمة التفسير)) لابن عثيمين (ص: ٣٦).

(٣) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ١٨٩).

عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فقول الملائكة: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ المرادُ به: عذابُ البرزخِ الذي أوَّلُه يومُ القَبضِ والموتِ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠] فهذه الإذاقةُ هي في البرزخِ وأولها حينَ الوفاةِ؛ فإنَّه معطوفٌ على قَولِه: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾، وهو من القَولِ المحذوفِ مَقولُه؛ لِدَلالةِ الكلامِ عليه كنظائِرِه، وكلاهما واقِعٌ وَقتَ الوفاةِ(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّنا نرى من المُعرِضينَ عن الإيمانِ من يكون في أخصَبِ عيشةٍ؟!

والجواب: أنَّ المعرضَ عن الإيمانِ وإن تنعَّم في الدنيا بأصنافِ النِّعم، ففي قلبِه مِن الوحشةِ والذلِّ والحسراتِ التي تقطعُ القلوبَ، والأماني الباطلةِ والعذابِ الحاضرِ ما فيه، وإنما يواريه عنه سكراتُ الشهواتِ، والعشقُ وحبُّ الدنيا والرياسةِ، وإن لم ينضمَّ إلى ذلك سكرُ الخمرِ، فسكرُ هذه الأمورِ أعظمُ مِن سكرِ الخمرِ، فإنه يفيقُ صاحبُه ويصحو، وسكرُ الهوى وحبِّ الدنيا لا يصحو صاحبُه إلا إذا كان صاحبُه في عسكرِ الأمواتِ، فالمعيشةُ الضنكُ لازمةٌ لمن أعرضَ عن ذكرِ الله الذي أنزله على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم في دُنياه وفي البرزخِ ويومَ معادِه(٢).

٥- نسيانُ ما أُمر المرء بحفظِه مذمومٌ، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢٠). ويُنظر أيضًا: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٩).

وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾، وهذا النسيانُ وإن كان متضمنًا لتركِ العملِ بها مع حفظِها، فإذا نُسِيت الآياتُ بالكليةِ حتى لا يعرفَ ما فيها كان ذلك أبلغَ في تركِ العملِ بها؛ فكان هذا مذمومًا[١].

٦- قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ ليس داخلًا في هذا الوعيدِ الخاصِّ نسيانُ لفظِ القرآنِ مع فهمِ معناه، والقيامِ بمقتضاه، وإن كان الإعراضُ عن تلاوةِ القرآنِ، وتعريضُه للنسيانِ، وعدمُ الاعتناءِ به؛ فيه تهاونٌ كبيرٌ، وتفريطٌ شديدٌ[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ﴾ يؤكِّدُ القَولَ أنَّ السَّرَفَ هو: مجاوزةُ الحَدِّ في الفِعلِ كلِّه، لا في الإنفاقِ وَحدَه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۞ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾

- قولُه: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ... ﴾ مُستأنَفٌ استئنافًا ابتدائيًّا[٤].

- وجُملةُ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا ﴾ واقِعةٌ في طَريقِ المُحاوَرةِ؛ فلذلك فُصِلَت عن الَّتي قبْلَها، ولم تُعْطَفْ عليها[٥].

- وفيه ثلاثةُ احتباكاتٍ[٦]؛ فتَقديرُ الأوَّلِ: ونحشُرُه يومَ القِيامة أعمَى ونَنساهُ.

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٤)، ((فضائل القرآن)) لابن كثير (ص: ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) تقدم تعريف الاحتباك (ص: ٢٦٤).

وتَقديرُ الثَّاني والثَّالثِ: قال: كذلك أتَتْك آياتُنا، فنَسِيتَها وعَمِيتَ عنها؛ فكذلك اليومَ تُنْسى وتُحشَرُ أعْمى[(١)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾

- جُملةُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ تَذييلٌ؛ يجوزُ أنْ تكونَ من حِكايةِ ما يُخاطِبُ اللهُ به مَن يُحْشَرُ يومَ القيامةِ أعمى؛ قُصِدَ منها التَّوبيخُ له والتَّنكيلُ؛ فالواوُ عاطفةٌ الجُملةَ على الَّتي قبْلَها. ويجوزُ أنْ تكونَ تَذييلًا للقصَّةِ، وليست من الخِطابِ المُخاطَبِ به مَن يُحْشَرُ يومَ القيامةِ أعْمى؛ قُصِدَ منها موعظةُ السَّامعينَ؛ ليَحْذَروا مِن أنْ يَصيروا إلى مثْلِ ذلك المصيرِ، فالواوُ اعتراضيَّةٌ؛ لأنَّ التَّذييلَ اعتراضٌ في آخرِ الكلامِ، والواوُ الاعتراضيَّةُ راجعةٌ إلى الواوِ العاطفةِ، إلَّا أنَّها عاطفةٌ مجموعَ كلامٍ على مَجموعِ كلامٍ آخرَ، لا على بعْضِ الكلامِ المعطوفِ عليه[(٢)].

- قولُه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ تَذييلًا للقصَّةِ، وليس من حِكايةِ خِطابِ اللهِ للَّذي حشَرَه يومَ القيامةِ أعْمَى؛ فالمُرادُ بعذابِ الآخرةِ مُقابِلُ عذابِ الدُّنيا المُفادِ من قولِه: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ [طه: ١٢٤] الآيةَ -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-، والواوُ اعتراضيَّةٌ. ويجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ من حِكايةِ خِطابِ اللهِ للَّذي يَحشُرُه أعْمى؛ فالمُرادُ بعذابِ الآخرةِ: العذابُ الَّذي وقَعَ فيه المُخاطَبُ، أي: أشدُّ من عَذابِ الدُّنيا -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-، وأبْقى منه؛ لأنَّه أطوَلُ مُدَّةً[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٢٨-١٣٠)

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾: أي: يُبَيِّنْ لهم، أو يَتَبَيَّنْ لهم، وأصلُ (هدي) هنا: التَّقدُّمُ للإرشادِ[١].

﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾: أي: أصحابِ العقولِ، والنُّهَى جمعٌ، مفردُه نُهْيَةٌ، وسُمِّي العقلُ بذلك؛ لأنَّه يَنهَى عن قبيحِ الفعلِ، وأصلُ (نهي): يدُلُّ على غايةٍ وبلوغٍ[٢].

﴿لِزَامًا ﴾: أي: ملازمًا لا يفارقُ، أو: لازمًا، أو: حتمًا واقعًا، واللِّزامُ مصدرُ لازَمَ، وأصلُ (لَزِمَ): يَدُلُّ على مُصاحبةِ الشَّيءِ بالشَّيءِ دائمًا[٣].

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾: أصلُ الأجَلِ: غايةُ الوَقتِ، والمُدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٤).

ومُسَمًّى أَي: مُثبَتٌ مُعَيَّنٌ[(١)].

﴿ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ﴾: أي: ساعاتِه، وأصلُ (أني) هنا: ساعةٌ مِن الزَّمانِ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾

قولُه تعالى: ﴿وَأَجَلٞ﴾ مَرفوعٌ بالعَطفِ على ﴿كَلِمَةٞ﴾ أي: ولولا كَلِمةٌ وأجَلٌ مُسمًّى لكان الأخذُ العاجِلُ لِزامًا لهم. وقيل: مَرفوعٌ عطفًا على الضَّميرِ المُستَترِ في (كان) العائدِ على الأخذِ العاجلِ المدلولِ عليه بالسِّياقِ، وقام الفَصلُ بـ (لِزَامًا) مَقامَ التأكيدِ. والتقديرُ: ولولا كَلِمةٌ سَبقَت مِن ربِّك، لكان الأخذُ العاجِلُ وأجَلٌ مُسَمًّى لازِمَين لهم[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى موبخًا هؤلاء الذين لم ينتفِعوا بآياتِه: أفلَمْ يتبَيَّنْ لِمُشرِكي العَرَبِ -يا محمَّدُ- كَثرةُ مَن أهلَكْنا مِن الأمَمِ المكَذِّبةِ قَبْلَهم، وهم يمشونَ في ديارِهم، ويَرَون آثارَ هلاكِهم بسَبَبِ كُفرِهم؟! إنَّ في إهلاكِ تلك الأمَمِ المكذِّبةِ لَعِبَرًا وعظاتٍ لأهلِ العُقولِ الواعيةِ، ولولا تقديرُ اللهِ تأخيرَ عذابِهم إلى وقتٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩، ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١) و(٥/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٦٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ١٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٨٨).

مقدَّرٍ، لحاقَ بهم الهلاكُ العاجِلُ.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالمداومةِ على الصبرِ، والإكثارِ مِن ذكرِه، فيقول: فاصبِرْ على ما يقولُه المكَذِّبونَ بك مِن كُفَّارِ قَومِك، وسبِّحْ بحَمدِ رَبِّك قَبلَ طُلوعِ الشَّمسِ بأن تصلِّيَ صَلاةَ الفَجرِ، وقبلَ غروبِها بأن تصلِّيَ صلاةَ العَصرِ، ومِن ساعاتِ اللَّيلِ فَصَلِّ، وأطرافَ النَّهارِ؛ كي تَرْضى بما تُثابُ عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما بيَّنَ الله تعالى أنَّ من أعرَضَ عن ذِكرِه كيف يُحشَرُ يوم القيامة، أتبَعَه بما يَعتَبِرُ به المكَلَّفُ من الأحوالِ الواقعةِ في الدنيا بمن كَذَّبَ الرسُلَ[1].

وأيضًا لما كان ما مضَى من هذه السورةِ وما قبلَها مِن ذكرِ مصارعِ الأقدمينَ، وأحاديثِ المكذبينَ، بسببِ العصيانِ على الرسلِ، سببًا عظيمًا للاستبصارِ والبيانِ، كانوا أهلًا لأن يُنكِرَ عليهم لزومَهم لعماهم؛ فقال تعالى[2]:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾.

أي: أفلَمْ يتبَيَّنْ لِمُشرِكي العَرَبِ كثرةُ من أهلَكْنا قبلهم من الأُمَمِ الماضيةِ، وهم يسيرونَ في مساكِنِهم إذا سافروا، ويَرَونَ آثارَ هَلاكِهم بسَبَبِ كُفرِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٤).

أفلا يخافونَ أنْ نُهلِكَهم مِثْلَهم، إن لم يؤمِنوا ويُذعِنوا للحَقِّ الذي جاءَهم[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾.

أي: إنَّ في إهلاكِ الأمَمِ المكذِّبةِ لَدلالاتٍ وعِظاتٍ لِذَوي العُقولِ الصَّحيحةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٦، ٣٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٥).

قال ابنُ عاشور: (والمرادُ بالقرونِ: عادٌ وثمود؛ فقد كان العربُ يمرُّون بمساكِنِ عادٍ في رِحْلاتِهم إلى اليَمَنِ ونجران وما جاورها، وبمساكِنِ ثمودَ في رحلاتِهم إلى الشَّامِ، وقد مرَّ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم والمسلمون بديارِ ثمودَ في مسيرِهم إلى تبوكَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٥).

قال ابن القيم: (فأيُّ دَلالةٍ أعظَمُ مِن رَجُلٍ يَخرُجُ وَحدَه لا عُدَّةَ له ولا عَدَدَ ولا مالَ، فيدعو الأمَّةَ العظيمةَ إلى توحيدِ الله والإيمانِ به وطاعته، ويحَذِّرُهم من بأسِه ونِقمَتِه؛ فتتَّفِق كَلِمتُهم أو أكثَرِهم على تكذيبِه ومعاداتِه، فيُذَكِّرُهم أنواعَ العقوباتِ الخارجةِ عن قُدرةِ البَشَرِ، فيُغرِقُ المكَذِّبينَ كُلَّهم تارة، ويخسِفُ بغَيرِهم الأرضَ تارةً، ويُهلِكُ آخرينَ بالرِّيحِ، وآخرينَ بالصَّيحةِ، وآخرينَ بالمسخِ، وآخرينَ بالصَّواعِقِ، وآخرينَ بأنواعِ العقوباتِ، وينجو داعيهم ومَن معه، والهالِكونُ أضعافُ أضعافِ أضعافِهم عددًا وقُوَّةً ومَنعةً وأموالًا؟!). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٣٠٢).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٥١].

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا هَدَّدَهم الله تعالى بإهلاكِ الماضين، ذكرَ سَبَبَ التأخيرِ عنهم[(١)].

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾.

أي: ولولا تَقديرُ الله تأخيرَ العذابِ إلى وَقتٍ مُقَدَّرٍ[(٢)]؛ للزِمَهم الهلاكُ عاجِلًا[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴾ [الفرقان: ٧٧].

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ الله تعالى نبيَّه بأنَّه لا يُهلِكُ أحدًا قبلَ استيفاءِ أجَلِه؛ أمَرَه بالصبر على ما يقولونَ، فرَغَّبَه تعالى في الصبرِ، وبعَثه على الإدامةِ على الدعاءِ إلى الله تعالى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٩١).

(٢) قال ابنُ تيمية: (قوله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أي: إنَّ عذابَهم له أجلٌ مسمًّى: إمَّا يوم القيامةِ، وإمَّا في الدنيا كيومِ بدرٍ، وإما عَقِبَ الموتِ، وقد ذُكِر في الآيةِ الأقوالُ الثلاثةِ. فلولا كلمةٌ سبقَت مِن ربِّك إلى أجلٍ مسمًّى، لكان العذابُ لزامًا، أي: لازمًا لهم؛ فإن المقتضي له قائمٌ تامٌّ، وهو كفرُهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٩٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٦، ٣٣٧).

وإبلاغِ ما حُمِّلَ مِن الرسالةِ، وألَّا يكونَ ما يُقدِمونَ عليه صارفًا له عن ذلك[١].

﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يقولُ كُفَّارُ قَومِك مِن تكذيبِك، والاستهزاءِ بك، وإيذائِك، كقولهم: هو ساحِرٌ ومجنونٌ؛ فلا تستعجِلْ لهم العذابَ، ولا تحفِلْ بهم؛ فإنَّ لعذابِهم وَقتًا مضروبًا لا يُتقَدَّمُ عنه، ولا يُتأخَّرُ[٢].

﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا ﴾.

أي: ونزِّه -يا محمَّدُ- ربَّك عن كلِّ نَقصٍ، حامدًا له بإثباتِ كُلِّ كَمالٍ مع محبَّتِه وتَعظيمِه سُبحانَه، وذلك بأن تصلِّيَ له وَحدَه قَبلَ طُلوعِ الشَّمسِ: صلاةَ الفَجرِ، وقبل غُروبِها، صلاةَ العَصرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٨)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٨٩ - ٢٩٣) و(٦/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٥)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٧).

وممن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالتسبيحِ قبلَ طلوعِ الشمسِ: صلاةُ الصبح، وبالتسبيحِ قبلَ غروبِ الشمسِ: صلاةُ العصرِ: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ تيمية، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٨)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٠).

قال القرطبي: (قال أكثرُ المتأوِّلينَ: هذا إشارةٌ إلى الصلواتِ الخَمسِ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦١).

وقال الشوكاني: (ولو قيل: ليس في الآيةِ إشارةٌ إلى الصلاةِ، بل المرادُ التسبيحُ في هذه الأوقاتِ، أي: قول القائلِ: سبحانَ الله، لم يكن ذلك بعيدًا مِن الصوابِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٥).

=

كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

وعن جريرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنه قال: ((كنَّا عند النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذ نظَرَ إلى القَمَرِ ليلة البَدرِ فقال: أمَا إنَّكم ستَرَونَ رَبَّكم كما تَرَونَ هذا، لا تضامُّونَ[1] .....

= وقال ابن تيمية: (قولُه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قد فسَّرَها كثيرٌ من المفَسِّرينَ أي: فصَلِّ بحَمدِ رَبِّك والثناء عليه، لم يذكُرِ ابن الجوزيِّ غيرَ هذا القول، قال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صَلِّ له بالحمدِ والثناءِ عليه. وتفسيرُ التسبيحِ بالصلاةِ فيها أحاديثُ صحيحةٌ وآثار كثيرة، مثل حديثِ جرير...

وأمَّا قولُه: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾... أي بحمدِ ربِّك وشكرِ ربِّك وطاعةِ ربِّك وعبادة ربِّك، أي: بذكرك ربَّك وشكرِك ربَّك وطاعتِك ربَّك وعبادتِك ربَّك، ولا ريبَ أنَّ حمدَ الربِّ والثناءَ عليه ركنٌ في الصلاةِ؛ فإنها لا تتمُّ إلا بالفاتحةِ التي نصفُها الأولُ حمدٌ لله وثناءٌ عليه وتحميدٌ له، وقد شُرع قبل ذلك الاستفتاحُ، وشُرع الحمدُ عند الرفعِ مِن الركوعِ، وهو متضمِّنٌ لحمدِ الله تعالى). ((جامع المسائل)) (٣/ ٢٨٩).

وقال ابن تيمة أيضًا: (وقد قيل: إنَّ الصلاةَ إنما سمِّيت تسبيحًا؛ لاشتمالِها على القيامِ والقراءةِ، وتسمَّى ركعةً وسجدةً؛ لاشتمالِها على الركعةِ والسجدةِ... والمصلِّي إذا حمِد ربَّه في القيامِ، أو في القيامِ والقعودِ، وسبَّح في الركوعِ والسجودِ، فقد جمَع التسبيحَ والحمدَ، فسبَّح بحمدِ الله. فالصلاةُ تسبيحٌ بحمدِ ربِّه، كما بيَّن النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ذلك). ((جامع المسائل)) (٣/ ٢٩٣).

وقال أيضًا: (فـ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ هي صلاةُ الفجرِ، و﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ هي العصرُ، وكذلك فسَّرها النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((جامع المسائل)) (٦/ ٣٤٤).

وقال ابن رجب: (صلاةُ الصُّبحِ وصَلاةُ العَصرِ يدخُلُ في التسبيحِ قبلَ طلوعِ الشَّمسِ وقبلَ غروبِها). ((فتح الباري)) (٤/ ١٧٧).

(١) لا تضامون: يُروَى بالتشديدِ والتخفيفِ، فبالتشديدِ معناه: لا ينضمُّ بعضُكم إلى بعضٍ وتزدحمونَ وقتَ النظرِ إليه، وبالتخفيفِ معناه: لا ينالُكم ضيمٌ (أي: ظلم) في رؤيتِه، فيراه بعضُكم دونَ =

-أو لا تضاهون[(١)]- في رؤيتِه، فإن استطعتُم ألَّا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوعِ الشَّمسِ وقبل غُروبِها، فافعَلوا)) ثم قال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[(٢)].

﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾.

أي: ومِن ساعاتِ اللَّيلِ فَصَلِّ -يا محمَّدُ[(٣)].

= بعضٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٠١).

(١) تضاهون: لا يشتبِهُ عليكم، ولا ترتابون فيه فيعارِض بعضُكم بعضًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٤٤٦).

(٢) رواه البخاري (٥٧٣) واللفظ له، ومسلم (٦٣٣).

قال ابن رجب: (وقد أدرج أكثرُ الرواةِ القراءةَ في الحديثِ، وبيَّن بعضُهم: أنَّ جريرًا هو الذي قرأ ذلك). ((فتح الباري)) (٤/ ١٧٧).

وقال أيضًا: (وقد قيل: إنَّ هذه الكلمة مُدرَجةٌ، وإنما القارئ هو جريرُ بن عبد الله البَجَلي. وقد خرجَّه مسلم في «صحيحه» عن أبي خيثمةَ، عن مروانَ بنِ معاويةَ -فذكر الحديثَ، وقال في آخرِه: ثم قرأ جرير: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]. وكذا رواه عمرُو بنُ زرارةَ وغيرُه، عن مروانَ بنِ معاويةَ، وأدرجه عنه آخرون). ((فتح الباري)) (٤/ ٣٢٥-٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٨)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٦).

قال ابن تيمية: (﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾ مُطلَقٌ في آناءِ اللَّيلِ يتناولُ المغربَ والعِشاءَ). ((جامع المسائل)) (٦/ ٣٤٥).

وقال ابن رجب: (وأما التسبيحُ من آناء الليل فيدخلُ فيه صلاة المغربِ وصلاةُ العشاء). ((فتح الباري)) (٤/ ١٧٧).

وقيل: المراد: صلاة المغرب والعشاء. وممن قال بذلك: مقاتل بن سليمان، ومكي، والواحدي، والبغوي، والبيضاوي، والخازن، والعُليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٦)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٦٦). =

كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۞ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩، ٤٠].

﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾.

أي: وصلِّ -يا محمَّد- في أطرافِ النَّهارِ؛ كي ترضى بما يعطيك ربُّك مِن الثوابِ العاجِلِ والآجِلِ، ويطمَئِنَّ قَلْبُك وتقَرَّ عَينُك بعبادةِ رَبِّك، وتتسلَّى بها عن أذيَّتِهم، ويَهونَ عليك الصَّبرُ(١).

= وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١١).

وحملها ابنُ جرير على صلاةِ العشاءِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١١).

وحملها ابنُ كثيرٍ على قيامِ الليلِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٦).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٩-٢١٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٩).

قيل: المرادُ بذلك: صلاة الظهر. وممن قال به: الواحدي، والسمعاني، والبغوي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٠).

وممن قال بهذا القول من السلف: قتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١١).

وقيل: المراد بأطراف النهار: صلاةُ الظهر والمغرب. وممن قال بذلك: ابن جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦١).

قال ابن جرير: (وقيل: أطراف النهار، والمراد بذلك الصلاتان اللتان ذكرنا؛ لأنَّ صلاةَ الظُّهرِ في آخر طَرَفِ النهار الأول، وفي أوَّلِ طَرَفِ النهار الآخِر، فهي في طرفَينِ منه، والطرف الثالث: غروبُ الشمس، وعند ذلك تصلَّى المغربُ، فلذلك قيل أطراف). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٩).

وذهب ابن رجب إلى أنه يدخلُ في أطراف النَّهارِ صلاةُ الفَجرِ وصلاة العصر، وربما دخلت فيه صلاةُ الظهر؛ لأنَّها في أول طرف النهار الآخر. يُنظر: ((فتح الباري)) (٤/ ١٧٧، ١٧٨).

وقال القرطبي: (وقالت فرقةٌ: المرادُ بالآية صلاة التطوُّع، قاله الحسنُ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٠). =

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ تبارك وتعالى يقولُ لأهلِ الجَنَّةِ: يا أهلَ الجَنَّةِ، فيقولون: لبَّيك ربَّنا وسَعدَيك[1]، فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا من خَلقِك؟! فيقولُ: أنا أُعطيكم أفضَلَ مِن ذلك، قالوا: يا رَبِّ، وأيُّ شَيءٍ أفضَلُ مِن ذلك؟! فيقولُ: أحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بعده أبدًا))[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ فيه أنَّه ما كُلُّ أحدٍ ينتَفِعُ بالآياتِ، إنما ينتَفِعُ بها أولو النُّهى، أي: العقولِ السليمةِ، والفِطَرِ المُستقيمة، والألبابِ التي تَزجُرُ أصحابَها عمَّا لا ينبغي[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أمَرَ تعالى عَقيبَ الصَّبرِ

= وقال ابنُ عاشور: (وقرأ الجمهورُ: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ -بفتح التاء- بصيغة البناء للفاعل، أي: رجاءً لك أن تنالَ مِن الثوابِ عند الله ما ترضى به نفسُك. ويجوز أن يكون المعنى: لعلَّ في ذلك المقدارِ الواجِبِ من الصلواتِ ما ترضى به نفسُك دونَ زيادةٍ في الواجِبِ؛ رفقًا بك وبأمتك، ويبيِّنُه قَولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: «وجُعِلَت قرَّةُ عيني في الصَّلاةِ». وقرأ الكسائي، وشعبة عن عاصم: ﴿تُرْضَى﴾ -بضَمِّ التاء- أي: يُرضِيك ربُّك. وهو محتَمِلٌ للمعنيينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٩).

(١) لبَّيك وسَعْديك: أي: لُزومًا لطاعتِك بعد لُزومٍ، وإسعادًا لأمرِك بعد إسعادٍ. ولبَّيك: مأخوذٌ مِن: لَبَّ بالمكانِ وألَبَّ، أي: أقام به. وأصلُ الإسعادِ والمُساعَدةِ: مُتابعةُ العبدِ أمرَ رَبِّه. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٢/ ٤٣).

(٢) رواه البخاري (٦٥٤٩) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).

بالتَّسبيحِ؛ لأنَّ ذِكرَ اللهِ تعالى يفيدُ السَّلوةَ والرَّاحةَ؛ إذ لا راحةَ للمُؤمِنينَ دونَ لقاءِ الله تعالى[١]، على أحدِ القولينِ في المرادِ بالتسبيحِ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ حُجَّةٌ على القَدَريَّةِ والمُعتزلةِ في ذِكْرِ سابقِ الكَلِمةِ، وهو -واللهُ أعلمُ- نظيرُ قَولِهِ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] في معنى السَّبْقِ[٢].

٢- تَسبيحُ اللهِ تعالى كثيرًا ما يُقرَنُ بتَحميدِه؛ فإنَّ الله تعالى يَذكُرُ في غيرِ مَوضِعٍ التَّسبيحَ بحَمدِه، كقَولِه جَلَّ وعلا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، وقَولِه: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧]، وقَولِه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨]. والتَّسبيحُ والتَّحميدُ يَجمَعُ النفيَ والإثباتَ، وهو نفيُ المعائِبِ، وإثباتُ المحامِدِ؛ وذلك يتضَمَّنُ التعظيمَ؛ فالتسبيحُ يتضَمَّنُ التنزيهَ المُستَلزِمَ للتَّعظيمِ، والحمدُ يتضَمَّنُ إثباتَ المحامِدِ المتضَمِّنَ لِنَفي نقائِصِها[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أفاد بذِكرِ الجارِّ في (الآناءِ) التبعيضَ؛ لأنَّ الليلَ محَلُّ الراحةِ، ونَزعُه من الأطرافِ لتيسُّرِ استغراقِها بالذِّكرِ؛ لأنَّ النَّهارَ مَوضِعُ النشاطِ واليَقَظةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية)) (٣/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٨).

٤- قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ وجهُ الاهتمامِ بآناءِ اللَّيلِ: أنَّ اللَّيلَ وقتٌ تَميلُ فيه النُّفوسُ إلى الدَّعَةِ، فيُخشى أن يُتساهَلَ في أداءِ الصَّلاةِ فيه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾

- قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَقريرِ ما قبْلَه مِن قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ الآيةَ، والهمزةُ للإنكارِ التَّوبيخيِّ، والفاءُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ. واستعمالُ الهدايةِ باللَّامِ؛ إمَّا لتَنزيلِها مَنزِلةَ اللَّازمِ، فلا حاجةَ إلى المفعولِ، أو لأنَّها بمعنى التَّبيينِ، والمفعولُ مَحذوفٌ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ تَعليلٌ للإنكارِ، وتَقريرٌ للهدايةِ مع عدَمِ اهتدائِهم، وذلك إشارةٌ إلى مَضمونِ قولِه تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ إلخ، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإشعارِ ببُعْدِ مَنزلتِه وعُلوِّ شأْنِه في بابِه[٣].

- وحرْفُ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بالخبرِ، وللإيذانِ بالتَّعليلِ. وفي هذا تَعريضٌ بالَّذين لم يَهْتَدوا بتلك الآياتِ بأنَّهم عَديمو العُقولِ، كقولِه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[٤] [الفرقان: ٤٤].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٥).

بالفاءِ مِن غيرِ (مِن)، وفي (السَّجدةِ): ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [السجدة: ٢٦] بالواوِ وبعْدَه (مِن). ووجْهُه: أنَّ الفاءَ للتَّعقيبِ والاتِّصالِ بالأوَّلِ، فطال الكلامُ، فحسُنَ حذْفُ (مِن). والواوُ تدُلُّ على الاستئنافِ، وإثباتُ (مِن) مُسْتثقَلٌ[1].

وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّ قولَه في الآيةِ الأُولى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ كلامٌ لم يَتقدَّمْه ما يكونُ هذا معطوفًا عليه، وإنَّما هو كلامٌ مُستأنفٌ مُبتدأٌ، فما تقدَّمَ قبْلَه من قولِه تعالى إخبارًا عمَّن أعرَضَ عمَّا جاءت به الرُّسلُ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] إلى قولِه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، هذا إخبارٌ عن جَزاءِ مَن أعرَضَ ولم يُؤمِنْ، ثمَّ ورَدَ ما بعْدُ مُسْتأنَفًا واردًا مَورِدَ ما يَرِدُ من الكلامِ الْتِفاتًا، ثمَّ ابتدَأَ تَوبيخَهم وتذكيرَهم، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، وإذا كان قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ مُبتدأً مُستأنَفًا، فالموضعُ للفاءِ، ومثله ما أتى ممَّا الوجْهُ فيه الاستئنافُ، ولم يُقْصَدْ عطْفُه على ما قبْلَه، وإنَّما ارتباطُه بما تقدَّمَه من جِهَةِ المعنى، ولا مدخَلَ فيه للعطفِ، مع أنَّ الالْتِحامَ حاصلٌ من وجْهٍ كما بيَّنَّا.

وأمَّا آيةُ (السَّجدةِ) فالْواوُ فيها عاطفةٌ على مُقدَّرٍ؛ لمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢]، كأنْ قد قِيلَ: أفلَا تذكَّروا ولم يُعرِضوا ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [السجدة: ٢٦]، أولَمْ يُبيِّنْ لهم إهلاكُ مَن تقدَّمَهم منَ القُرونِ.

وأمَّا زِيادةُ (مِن) في قولِه في آيةِ (السَّجدةِ): ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ [السجدة: ٢٦]،

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٦).

فإنَّها مقصودٌ فيها استغراقُ عُمومٍ لمُناسَبةِ ما تقدَّمَ هذه الآيةَ مِن حصْرِ التَّقسيمِ في قولِه: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]، وأُعْقِبَت به، ممَّا يُفْهِمُه قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]؛ إذ ليس هنا الواردُ كالواردِ في سُورةِ (طه) من قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]، فهذا يُشعِرُ بخُصوصٍ يُناسِبُه سُقوطُ (مِن) الاستغراقيَّةِ، وما في آيةِ (السَّجدةِ) يُشعِرُ بعُمومٍ واستغراقٍ تُناسِبُه (مِن) في قولِه: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ ويَجِبُ[(١)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ سِيقَ لبَيانِ حِكْمةِ عدَمِ وُقوعِ ما يُشْعِرُ به قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الآيةَ، مِن أنْ يُصيبَهم مثْلُ ما أصاب القُرونَ المُهلَكةَ. وفي التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه السَّلامُ: تَلويحٌ بأنَّ ذلك التَّأخيرَ لتَشريفِه عليه السَّلامُ، كما يُنْبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣][(٢)].

- و(اللِّزامُ) إمَّا مصْدرُ (لازَمَ)؛ وُصِفَ به لقصْدِ المُبالَغةِ في قُوَّةِ المعنى؛ كأنَّه حاصِلٌ من عِدَّةِ ناسٍ، وإمَّا (فِعال) بمعنى (مُفعِل)، أي: مُلْزِم، كأنَّه آلةُ اللُّزومِ؛ لفرْطِ لُزومِه[(٣)].

- قولُه: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معطوفٌ على ﴿كَلِمَةٌ﴾، وفصْلُه عمَّا عُطِفَ عليه؛

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٤٢-٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٦).

للمُسارَعةِ إلى بَيانِ جَوابِ (لولا)، وللإشعارِ باستقلالِ كلٍّ منهما بنفْيِ لُزومِ العذابِ، ومُراعاةِ فواصلِ الآيِ الكريمةِ[١].

- وفي الآيةِ تَقديمٌ وتأخيرٌ، أي: ولولا كلمةٌ سبَقَتْ من ربِّك وأجَلٌ مُسمًّى، لكان العذابُ لِزامًا، أي: لازِمًا لهم كما لزِمَ الأُمَمَ الَّتي قبْلَهم[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ﴾ المُرادُ به المغربُ والعشاءُ -على أحدِ الأقوالِ- وتَقديمُ الوقْتِ فيهما؛ لاختصاصِهما بمَزيدِ الفضْلِ؛ فإنَّ القلْبَ فيهما أجمَعُ، والنَّفسَ إلى الاستراحةِ أميَلُ، فتكونُ العِبادةُ فيهما أشَقَّ[٣].

- قولُه: ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ قيل: هو تَكريرٌ لصَلاتيِ الصُّبحِ والمغربِ إرادةَ الاختصاصِ، ومَجيئُه بلفْظِ الجمْعِ لأمْنِ الإلباسِ. وقيل: هو أمْرٌ بصَلاةِ الظُّهرِ؛ فإنَّه نِهايةُ النِّصفِ الأوَّلِ من النَّهارِ وبِدايةُ النِّصفِ الآخرِ، وجمْعُه باعتبارِ النِّصفينِ، أو لأنَّ النَّهارَ جنْسٌ، أو بالتَّطوُّعِ في أجزاءِ النَّهارِ[٤]. وقيل: هو تكريرٌ لصَلاتَيِ الصُّبحِ والعَصرِ؛ إعلامًا بمزيد فَضلِهما[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٦- ٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٦- ٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٧).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠]، وفي سُورةِ (ق): ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾ [ق: ٣٩]، فقال في الأُولى: ﴿وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا﴾ وفي الثَّانيةِ: ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾، وفي سُورةِ الطُّورِ: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩]، وذلك لرَعْيِ الفواصلِ ومَقاطعِ الآيِ؛ فقد تقدَّمَ قبْلَ آيةِ (ق) من قولِه: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴾ [ق: ٣٨]، فناسَبَ هذا قولُه: ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾، وأمَّا آيةُ (طه) فقدِ اكتنَفَها آيٌ، مَقاطِعُها الألِفُ المفتوحُ ما قبْلَها نُطْقًا وتقديرًا، فجاء ذلك على ما يجِبُ في السُّورتينِ.

أمَّا قولُه تعالى في السُّورتينِ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾ [طه: ١٣٠] [ق: ٣٩]، بناءً على المُتقدِّمِ فيهما من قولِه تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ [الطور: ٤٨] واتِّصالِه به، فَبيِّنُ الوُضوحِ؛ لأنَّ المُرادَ أمْرُه عليه السَّلامُ بالصَّبرِ على أذاهمْ في قولِهم: كاهنٌ، ومجنونٌ، وساحرٌ، إلى غيرِ ذلك ممَّا نزَّهَ اللهُ نَبيَّه عليه السَّلامُ منه، فأُمِرَ بالصَّبرِ على ذلك، وأُمِرَ أنْ يَستعينَ بصبْرِه وصَلاتِه، كما قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]، وهو المُرادُ أيضًا هنا، وعن الصَّلاةِ عبَّرَ بالتَّسبيحِ -في قولِ أكثرِ المُفسِّرينَ-، وإنْ أُريدَ بالتَّسبيحِ معنى التَّنزيهِ بالذِّكرِ المعروفِ، فذلك أيضًا بَيِّنٌ، والمعنى مُتعارَفٌ، ويكونُ مأمورًا بالصَّبرِ والذِّكرِ والتَّنزيهِ، فالالْتِحامُ بيِّنٌ(١).

- ومن المُناسَبةِ أيضًا قولُه هنا: ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾، وفي سُورةِ (هودٍ)

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٤٣-٣٤٤).

قال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ [هود: ١١٤]؛ قيل: جاءتِ التَّثنيةُ على الأصْلِ، والجمْعُ لأمْنِ اللَّبسِ؛ إذ النَّهارُ ليس له إلَّا طَرفانِ. وقيل: هو على حَقيقةِ الجمْعِ؛ الفجْرُ: الطَّرفُ الأوَّلُ، والظُّهرُ والعصرُ من الطَّرفِ الثَّاني، والطَّرفُ الثَّالثُ: المغرِبُ والعشاءُ. وقيل: النَّهارُ له أربعةُ أطرافٍ: عندَ طُلوعِ الشَّمسِ، وعندَ غُروبِها، وعندَ زَوالِ الشَّمسِ، وعندَ وُقوفِها للزَّوالِ. وقيل: الظُّهرُ في آخرِ طرَفِ النَّهارِ الأوَّلِ، وأوَّلِ طرَفِ النَّهارِ الآخِرِ، فهي في طَرفينِ منه، والطَّرفُ الثَّالثُ: غُروبُ الشَّمسِ، وهو وقْتُ المغربِ. وقيل: يُجْعَلُ النَّهارُ للجنْسِ، فلكلِّ يومٍ طرَفٌ، فيتكرَّرُ بتَكرُّرِه. وقيل: المُرادُ بالأطرافِ السَّاعاتُ؛ لأنَّ الطَّرفَ آخِرُ الشَّيءِ[1]. وقيل: إنَّه إنَّما جُمِع؛ لأنَّه يتكَرَّرُ في كلِّ نهارٍ ويعودُ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٤).

الآيات (١٢١-١٢٥)

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾: أي: لا تُطِلْ نظرَ عينَيْك، ومدُّ العينينِ هو تطويلُ النظرِ، وأصلُ المَدِّ: الجرُّ، ومنه: المُدَّةُ للوقتِ الممتدِّ[1].

﴿أَزْوَٰجًا﴾: أي: أصنافًا، وقيل: أشباهًا وأقرانًا، وأصلُ (زوج): يَدُلُّ على مُقارنةِ شيءٍ لشيءٍ[2].

﴿زَهْرَةَ﴾: أي: بَهْجَةَ وبُهرُجَ وزينةَ، وأصلُ (زهر): يدُلُّ على حُسنٍ وضِياءٍ وصَفاءٍ[3].

﴿بَيِّنَةُ﴾: أي: بيانُ وبرهانُ، والبيِّنةُ: الدلالةُ الواضحةُ؛ يُقال: بان الشيءُ وأبان،

---

(١) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٦١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٥١)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٣).

إذا اتَّضح وانكَشف[١].

﴿ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾: أي: التوراةِ والإنجيلِ والكُتُبِ المتقَدِّمةِ، وأصلُ (صحف): يدُلُّ على انبِساطٍ في شَيءٍ وسَعَةٍ[٢].

﴿نَّذِلَّ﴾: الذِّلَّةُ: الصَّغارُ، وأصلُ الذُّلِّ: الخُضوعُ والاستكانةُ[٣].

﴿وَنَخْزَىٰ﴾: أي: نَهلِك ونَبعَد، والخِزيُ: النَّكالُ والفَضيحةُ، وأصلُه: يدُلُّ على الإبعادِ[٤].

﴿ٱلسَّوِيِّ﴾: أي: المستقيمِ المستوي، والسَّوِيُّ يقال فيما يُصانُ عن الإفراطِ والتَّفريطِ من حيثُ القدرُ، والكيفيَّةُ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ، واعتدالٍ بينَ شيئينِ[٥].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥، ٤٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٤).

قَولُه: ﴿زَهۡرَةَ﴾ منصوبٌ، وفي نَصبِه أوجُهٌ:

أحَدُها: أنَّه مفعولٌ به ثانٍ بتضمينِ ﴿مَتَّعۡنَا﴾ معنى (أعطينا)، و﴿أَزۡوَٰجًا﴾ هو المفعولُ به الأوَّلُ.

الثاني: أنَّه منصوبٌ على الحالِ مِن ﴿مَا﴾ الموصولةِ.

الثالثُ: أنَّه حالٌ من الهاء في ﴿بِهِۦ﴾.

الرَّابعُ: أنَّه منصوبٌ على الذَّمِّ. وقيل غيرُ ذلك[1].

المَعنى الإجماليُّ:

ينهَى الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عن الإعجابِ بالدنيا وزينتِها، فيقولُ: ولا تنظُرْ -يا محمَّدُ- إلى ما مَتَّعْنا به هؤلاء المُشرِكينَ مِن أنواعِ المُتَعِ والمَباهِجِ؛ فإنَّها زينةٌ زائِلةٌ في هذه الحياةِ الدُّنيا، مَتَّعناهم بها؛ لنبتَلِيَهم بها، ورِزقُ رَبِّك وثوابُه خَيرٌ لك مِن زينةِ الدُّنيا وأدوَمُ.

وأْمُرْ -يا محمَّدُ- أهلَك بالصَّلاةِ، واصطَبِرْ على أدائِها، لا نسألُك رِزقًا، نحن نَرزُقُك ونعطيك، والعاقِبةُ الصَّالحةُ في الدُّنيا والآخرةِ لأهلِ التَّقوى.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى بعضَ الشبهاتِ التي أثارها المشركون حولَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويُبيِّنَ بطلانَها فيقولُ: وقال المُشرِكونَ: هلَّا يأتينا محمَّدٌ بمُعجِزةٍ مِن رَبِّه تدلُّ على صِدقِه. أولَمْ يأتِهم هذا القرآنُ المصدِّقُ لِما في الكُتُبِ السَّابِقةِ مِن الحقِّ؟!

ولو أنَّا أهلَكْنا هؤلاء المُشرِكينَ بعذابٍ مِن قَبلِ أن نُرسِلَ إليهم رسولًا وننزِّلَ

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٨٠)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٦٨)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩٠٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ١٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٩١).

عليهم كِتابًا، لقالوا: ربَّنا، هلَّا أرسَلْتَ إلينا رسولًا مِن عِندِك فنُصَدِّقَه ونتَّبِعَ آياتِك مِن قَبلِ أن نَذِلَّ ونَخزى بعَذابِك.

ثمَّ يأمرُ الله رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يهدِّدَهم بسوءِ العاقبةِ، إذا ما استمرُّوا في طغيانِهم، ويقولُ له: قل لهؤلاء المشركينَ بالله: كلٌّ مِنَّا ومنكم مُنتَظِرٌ دوائِرَ الزمانِ بالآخَرِ، ولِمَن يكونُ النَّصرُ والفَلاحُ، فستَعلَمون -أيُّها المُشرِكونَ: مَن أهلُ الطَّريقِ المُستقيمِ، ومَن المهتدي للحَقِّ منَّا ومنكم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى أعقَبَ أمرَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على ما يقولونَه بنَهيِه عن الإعجابِ بما يُنَعَّمُ به مَن تنعَّمَ مِن المشركينَ بأموالٍ وبنينَ في حينِ كُفرِهم باللهِ، بأنَّ ذلك لحِكَمٍ يَعلَمُها الله تعالى، منها إقامةُ الحُجَّةِ عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[1] [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

أي: ولا تُطِلِ النَّظَرَ[2] -يا محمَّدُ- بإعجابٍ ورَغبةٍ وتمنٍّ إلى ما أعطَيناه للأغنياءِ المُترَفينَ من هؤلاءِ المُعرِضينَ عن آياتِ رَبِّهم من نِعَمٍ ومَباهِجَ زائلةٍ، يتمتَّعونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٩-٣٤٠).

(٢) قال الزمخشري: (مدُّ النظرِ: تطويلُه، وأن لا يكادَ يردُّه؛ استحسانًا للمنظورِ إليه وإعجابًا به، وتمنيًا أن يكونَ له). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٧، ٩٨).

بها مِن زينةِ الدُّنيا الفانيةِ؛ فإنَّما جعلناها لهم لنبتَلِيَهم ونختَبِرَهم بذلك[١].

عن عُمَرَ رَضِيَ الله عنه، أنَّه قال: ((ادعُ اللهَ يا رسولَ اللهِ أن يوسِّعَ على أمَّتِك؛ فقد وسَّعَ على فارسَ والرُّومِ، وهم لا يَعبُدونَ الله. فاستوى جالسًا، ثمَّ قال: أفي شكٍّ أنت يا ابنَ الخطَّابِ؟! أولئك قومٌ عُجِّلَتْ لهم طيِّباتُهم في الحياةِ الدُّنيا))[٢].

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

أي: وثوابُ الله لك -يا محمَّدُ- في الآخرةِ خَيرٌ مِن زينةِ الدُّنيا وأدوَمُ؛ لأنَّه ثوابٌ لا ينقَطِعُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).
وممن اختار أنَّ الفتنةَ في قولِه تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ تعني الابتلاءَ والاختبارَ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جريرٍ، والرسعني، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٣)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).
وقيل: المرادُ بقولِه سبحانه: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾: أي: ليكونَ ذلك فتنةً لهم، وزيادةً في طغيانِهم وكفرِهم. وممن قال بذلك في الجملة: البغوي، والمحلي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤١٩).
وقال الشوكاني: (لِنَجعلَ ذلك فِتنةً لهم وضَلالةً؛ ابتلاءً منَّا لهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٥).
وقال ابنُ عاشور: (ذَكَرَ الأزواجَ هنا لدَلالتِه على العائلاتِ والبيوتِ، أي: إلى ما متَّعْناهم وأزواجَهم به من المُتَع؛ فكُلُّ زوجٍ مُمَتَّعٌ بمتعةٍ في زوجِه ممَّا يَحسُنُ في نَظَرِ كُلٍّ مِن محاسِنِ قَرينِه، وما يقارِنُ ذلك من محاسِنَ مُشتَرَكةٍ بين الزوجينِ، كالبنينَ والرِّياشِ، والمنازِلِ والخَدَمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٠).

(٢) رواه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير القنوجي)) (٨/ ٢٩٦).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٥، ٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٤، ٥].

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا أمر الله تعالى بتزكيةِ النَّفسِ؛ أتبَعَه الإعلامَ بأنَّ منها تزكيةَ الغَيرِ؛ لأنَّ ذلك أدَلُّ على الإخلاصِ، وأجدَرُ بالخلاصِ، فقال[1]:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

أي: وأْمُرْ -يا محمَّدُ- أهلَك بإقامةِ الصَّلاةِ، وحُثَّهم على المحافظةِ عليها، واصبِرْ على القيامِ بها، وأدائِها في أوقاتِها بحُدودِها وأركانِها، وآدابِها وخُشوعِها[2].

كما قال تعالى عن إسماعيلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مُرُوا أولادَكم بالصَّلاةِ وهم أبناءُ سَبعِ سِنينَ، واضرِبوهم

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٧).

قال القرطبي: (هذا الخطابُ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويدخُلُ في عمومه جميعُ أمته، وأهلُ بيتِه على التخصيصِ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٣).

عليها وهم أبناءُ عَشرٍ))[١].

﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾.

أي: لا نُكَلِّفُك -يا محمَّدُ- رِزقًا، بل نكَلِّفُك بإقامةِ الصَّلاةِ وقد تكَفَّلْنا برِزْقِك ورِزقِ جَميعِ الخَلقِ؛ فلا تَنشَغِلْ بطَلَبِ الرِّزقِ عن أداءِ الصَّلاةِ[٢].

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم قال: ((إنَّ الله تعالى يقولُ: يا ابنَ آدَمَ، تفَرَّغْ لعبادتي أملأْ صَدْرَك غِنًى، وأسُدَّ فَقْرَك، وإلَّا تفعَلْ ملأتُ يديك شُغلًا، ولم أسُدَّ فَقْرَك))[٣].

وعن زيدِ بنِ ثابتٍ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((مَن كانت الدُّنيا هَمَّه، فرَّق اللَّهُ عليه أمرَه، وجَعَل فقرَه بينَ عينَيْه، ولم يأْتِهِ مِن الدُّنيا إلَّا ما كُتِب له. ومَن كانت الآخرةُ نيَّتَه، جَمَع له أمرَه، وجَعَل

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥) واللفظ له، وأحمد (٦٦٨٩).
صحَّحه ابن القطَّان في ((أحكام النظر)) (٢٧٥)، وحسَّن إسناده النووي في ((المجموع)) (٣/ ١٠)، وصححه ابن الملقن في ((البدر المنير)) (٣/ ٢٣٨) وذكر أن له طرقًا (١٠/ ١٦٦)، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٨٤)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٩٥)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ١٦٦) و(١١/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٦٦) واللفظ له، وابن ماجه (٤١٠٧)، وأحمد (٨٦٩٦).
قال الترمذي: حسن غريب. وأخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٣٩٣)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٦/ ٢٨٤)، وصحح الحديث الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤١٠٧).

غِناهُ في قلبِه، وأتَتْه الدُّنيا وهي راغمةٌ))[١].

﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

أي: والعاقبةُ المحمودةُ في الدُّنيا والآخرةِ لأهلِ التَّقوى[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ سبحانه بعد الوصيَّةِ بالصَّلاةِ، حكى عن المُشرِكينَ شُبهَتَهم، فكأنَّه من تمامِ قَولِه: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[٣] [طه: ١٣٠].

وأيضًا فإنَّه رجوعٌ إلى التَّنويهِ بشأنِ القُرآنِ، وبأنَّه أعظَمُ المعجِزاتِ، وهو الغَرَضُ الذي انتَقَل منه إلى أغراضٍ مُناسِبةٍ مِن قَولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]، والمناسَبةُ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥) واللفظ له، وأحمد (٢١٥٩٠) مطولًا.
ذكَر ثبوتَه ابنُ عبد البر في ((التمهيد)) (٢١/ ٢٧٦)، ووثق رواته المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٥٦)، وجوَّد إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٤/ ٢٧١)، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٦).

في الانتِقالِ هو ما تضَمَّنه قَولُه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه: ١٣٠]؛ فجيءَ هنا بشُنْعٍ مِن أقوالِهم التي أمَرَ اللهُ رَسولَه بأن يَصبِرَ عليها؛ فمِن أقوالِهم التي يَقصِدونَ منها التعَنُّتَ والمكابَرةَ أن قالوا: لولا يأتينا بآيةٍ مِن عندِ رَبِّه فنُؤمِنَ برِسالتِه(١).

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ ﴾.

أي: وقال المُشرِكونَ: هلَّا يأتينا محمَّدٌ بمُعجِزةٍ مِن رَبِّه، كمعجزاتِ الأنبياءِ مِن قَبْلِه(٢)؟

﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٠).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ ﴾ يريد كفَّارَ مكةَ، أي: لولا يأتينا محمَّدٌ بآيةٍ تُوجِبُ العلمَ الضروريَّ، أو بآيةٍ ظاهرةٍ كالنَّاقةِ والعصا. أو هلَّا يأتينا بالآياتِ التي نقتَرِحُها نحن كما أتى الأنبياءُ مِن قبله). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٤).

وممن قال بأنَّ المرادَ: معجزاتُ الأنبياءِ: ابنُ جرير، والبقاعي، واستظهره الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الآياتُ التي يقترحونها: الزجاج، والسمعاني، والبغوي، وأبو حيان، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٧).

قال أبو حيان: (﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ ﴾ هذه عادتُهم في اقتراحِ الآياتِ، كأنَّهم جعلوا ما ظهَرَ مِن الآياتِ ليس بآياتٍ، فاقتَرَحوا هم ما يختارونَ؛ على دَيدنِهم في التعنُّتِ!). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠١).

مُناسَبتُها لما قَبلَها:

لَمَّا تضَمَّنَ قَولُهم السَّابِقُ أنَّهم لم يَعُدُّوا شيئًا من هذه البيِّناتِ -التي أدلَى بها على مَن تقَدَّمَه- آيةً؛ مكابرةً- استحَقُّوا الإنكارَ، فقال[1]:

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾.

أي: أولَمْ يأتِ المشركينَ الذين يَطلُبونَ الآياتِ، القرآنُ الذي يخبِرُهم بما في كتُبِ الأنبياءِ السَّابِقينَ، كالبِشارةِ بمحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، الذي جاء مصَدِّقًا لها، ومطابقًا لأخبارِها، ومِن ذلك أخبارُ الأُمَمِ الذين سألوا أنبياءَهم الآياتِ، فلم يؤمِنوا بها فأهلَكْناهم؟ فماذا يُؤمِّنُ هؤلاء المُشرِكينَ إن أتَتْهم آيةٌ أن يكونَ حالُهم كحالِ أولئك فيَهلِكوا مِثلَهم[2]؟

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٠).

قال القرطبي: (قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ يريدُ التوراةَ والإنجيلَ والكُتُبَ المتقَدِّمةَ، وذلك أعظَمُ آيةٍ؛ إذ أخبَرَ بما فيها... وقيل: أولَمْ تأتهم الآيةُ الدالَّةُ على نُبُوَّتِه بما وجَدوه في الكتُبِ المتقَدِّمة من البشارةِ. وقيل: أولم يأتِهم إهلاكُنا الأُمَمَ الذين كَفَروا واقترحوا الآياتِ، فما يُؤَمِّنُهم إن أتَتْهم الآياتُ أن يكونَ حالُهم حالَ أولئك؟!). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٤).

وقال ابن عاشور: (وهذه البيِّنةُ هي محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم وكتابُه القرآن؛ لأنَّ الرَّسولَ موعودٌ به في الكُتُبِ السَّالفة، ولأنَّ في القرآنِ تصديقًا لِما في تلك الكُتُبِ مِن أخبارِ الأنبياء، ومن المواعِظِ وأصولِ التَّشريعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٥).

ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۞ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما من الأنبياءِ نبيٌّ إلَّا أُعطِيَ ما مِثلُه آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُ وَحيًا أوحاه اللهُ إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثَرَهم تابِعًا يومَ القيامةِ))[(١)].

﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا تَبيَّنَ بما سبق أنَّ المُشرِكينَ يَطعَنونَ بما لا شُبهةَ لهم فيه أصلًا؛ أتبعه ما كان لهم فيه نوعُ شُبهةٍ لو وقَعَ، فقال[(٢)]:

﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.

أي: ولو أنَّا أهلَكْنا هؤلاء المُشرِكينَ المُكَذِّبينَ بالقرآنِ بعَذابٍ مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ عليهم، وإرسالِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم إليهم؛ لقالوا يومَ القيامةِ محتَجِّينَ على اللهِ: رَبَّنا، هلَّا أرسَلْتَ إلينا رسولًا فنُؤمِنَ ونَعمَلَ بما جاء به مِن آياتِ كِتابِك[(٣)]!

---

(١) رواه البخاري (٤٩٨١) واللفظ له، ومسلم (١٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾.

أي: مِن قَبلِ أن نَذِلَّ بالعذابِ، ونَخزَى في النَّارِ[١].

كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَلِمَ الله تعالى أنَّ إيمانَ هؤلاء المشركينَ كالمُمتَنِعِ، وجدالَهم لا ينقَطِعُ، بل إنْ جاءهم الهُدى طعنوا فيه، وإنْ عُذِّبوا قبله تظَلَّموا، كان كأنَّه قيل: فما الذي أفعَلُ معهم؟ فقال[٢]:

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟﴾.

أي: قُلْ لهم -يا محمَّدُ: كلٌّ منا ومنكم مُنتَظِرٌ دوائِرَ الزَّمانِ بالآخَرِ، ولِمَن يكون النَّصرُ؛ فداوِموا على انتظارِكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

= (١١/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٧).

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾.

أي: فستَعلَمونَ -أيُّها المُشرِكونَ- مَن هم أهلُ الطَّريقِ المُستَقيمِ المُعتَدِلِ الذي لا اعوِجاجَ فيه أنحن أم أنتم، وستَعلَمونَ مَن كان مُهتَديًا إلى الحَقِّ، ومَنِ الحائِدُ عنه(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فيه النَّهيُ عن التشَوُّفِ إلى ما في أيدي النَّاسِ(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ فيه أنَّه ينبغي للمُوَفَّقِ ألَّا ينظُرَ إلى زينةِ الدُّنيا نَظرةَ المُعجَبِ المَفتونِ، وأن يقنَعَ برِزقِ رَبِّه، وأن يتعَوَّضَ ممَّا مُنِعَ منه من الدُّنيا بزادِ التقوى الذي هو عبادةُ اللهِ، واللَّهَجُ بذِكرِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٧).

قيل: المرادُ: ستعلمون ذلك يومَ القيامةِ. وممن قال به: ابنُ جرير، والواحدي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٢).

وقيل: المرادُ: إذا وقع النَّصرُ. وممن قال به: القرطبي، وابن عجيبة، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٧١).

قال البقاعي: (ولقد عَلِموا يقينًا ذلك يومَ فَتحِ مكة المشَرَّفة، واشتد اغتباطُهم بالإسلام). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٧٧).

وجمع الشنقيطيُّ بين القولينِ السَّابقينِ، فقال: (والمعنى: سيتَّضِحُ لكم أنَّا مُهتَدونَ، وأنَّا على صراطٍ مُستقيمٍ، وأنَّكم على ضلالٍ وباطلٍ، وهذا يظهَرُ لهم يومَ القيامةِ إذا عايَنوا الحقيقةَ، ويظهَرُ لهم في الدُّنيا؛ لِما يرَونَه من نَصرِ اللهِ لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٧-١٧٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحيم الملك العلام)) للسعدي (ص: ٢١١).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ لقد شَدَّدَ المتَّقونَ في وجوبِ غَضِّ البَصَرِ عن أبنيةِ الظَّلَمةِ وعُدَدِ الفَسَقةِ في اللِّباسِ والمركوبِ وغيرِ ذلك؛ لأنَّهم اتَّخَذوا هذه الأشياءَ لِعُيونَ النظَّارةِ؛ فالنَّاظِرُ إليها مُحَصِّلٌ لغَرَضِهم،؛ وكالمقَوِّي لهم على اتخاذِها[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لا تنظُرْ إلى أهلِ الدنيا، وما مُتِّعُوا به مِن النعيمِ، ومِن المراكبِ، والملابسِ، والمساكنِ.. وغير ذلك؛ فكلُّ هذا زهرةُ الدنيا، والزهرةُ آخرُ مآلِها الذُّبولُ واليَبَسُ والزَّوالُ، وهي أسرعُ أوراقِ الشجرةِ ذُبولًا وزوالًا؛ ولهذا قال: ﴿زَهْرَةَ﴾، وهي زهرةٌ حسنةٌ في رونقِها وجمالها وريحِها -إنْ كانت ذاتَ ريحٍ- لكنها سريعةُ الذُّبول، وهكذا الدنيا؛ زهرةٌ تَذْبُلُ سريعًا، نسأل الله أن يجعل لنا حظًّا ونصيبًا في الآخرةِ[٢].

٥- مجالسةُ المساكينِ تُوجِبُ رضا من يجالِسُهم برِزقِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وتُعظِّمُ عنده نِعمةَ الله عزَّ وجَلَّ عليه بنَظَرِه في الدُّنيا إلى مَن دُونَه، ومجالسةُ الأغنياءِ تُوجِبُ التسَخُّطَ بالرِّزقِ، ومدَّ العَينِ إلى زينَتِهم وما هم فيه، وقد نهى الله عزَّ وجَلَّ نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عن ذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[٣].

٦- قال أُبَيُّ بنُ كَعبٍ رَضِيَ الله عنه في هذه الآيةِ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ...﴾: (فمَن لم يتَعزَّ بعزاءِ اللهِ تقَطَّعَت نفسُه حَسَراتٍ على

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٦٣).

الدُّنيا، ومَن يُتبِعْ بَصرَه ما في أيدي النَّاسِ يَطُلْ حُزنُه، ولا يَشْفِ غَيظَه، ومَن لم يَرَ للهِ عليه نِعمةً إلَّا في مَطعَمِه ومَشرَبِه، نَقَص عِلمُه، وحَضَر عذابُه)[١].

٧- عن هشامِ بنِ عروةَ، قال: (كان عُروةُ إذا رأَى ما عندَ السَّلاطينِ دَخَل دارَه، فقالَ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، ثُمَّ يُنادي: الصَّلاةَ الصَّلاةَ، يرحَمُكمُ اللَّهُ)[٢].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ في هذه الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ العَبدَ إذا رأى مِن نَفسِه طُموحًا إلى زينةِ الدُّنيا، وإقبالًا عليها، أن يذكِّرَها ما أمامَها مِن رِزقِ رَبِّه، وأن يوازِنَ بين هذا وهذا[٣].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ فيه أنَّه يجِبُ على الإنسانِ أمرُ أهلِه مِن زَوجةٍ ووَلَدٍ وسائرِ عِيالِه بالتقوى والطَّاعةِ، خُصوصًا الصَّلاةَ[٤].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ المراد: كما تأمُرُهم فحافظْ عليها فِعلًا؛ فإنَّ الوَعظَ بلِسانِ الفِعلِ أتَمُّ منه بلسانِ القَولِ[٥].

١١- قال الله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي: رزقُك علينا قد تكفَّلْنا به، كما تكفَّلْنا بأرزاقِ الخلائقِ كلِّهم، فكيف بمن قام بأمرِنا، واشتغَل بذكرِنا؟! ورزقُ الله عامٌّ للمتقي وغيرِه، فينبغي الاهتمامُ بما يجلبُ السعادةَ الأبديةَ، وهو: التقوَى؛ ولهذا

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٥).

قال: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾ في الدُّنيا والآخرةِ ﴿لِلتَّقۡوَىٰ﴾ التي هي فعلُ المأمورِ وتركُ المنهيِّ، فمَن قام بها، كان له العاقبةُ، كما قال تعالى ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[1] [الأعراف: ١٢٨].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ فيه أنَّ النَّظَرَ غَيرَ الممدودِ مَعفُوٌّ عنه، وذلك كما إذا نظَرَ الإنسانُ إلى شيءٍ مَرَّةً ثمَّ غَضَّ[2].

٢- الصلاةُ جالبةٌ للرزقِ[3]، وفي قولِه تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّها تجلِبُ الرزقَ، وإيضاحُ ذلك: أنَّ العبد إذا قام بين يَدَي رَبِّه يناجيه، ويتلو كتابَه، هان عليه كلُّ ما في الدُّنيا؛ رغبةً فيما عندَ اللهِ ورَهبةً منه، فيتباعَدُ عن كلِّ ما لا يُرضي اللهَ، فيَرزُقُه اللهُ ويهديه[4]، فقولُه: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ﴾ يعني: إذا أقمتَ الصلاةَ أتاك الرزقُ مِن حيثُ لا تحتسبُ[5]. وكان بكرُ بنُ عبدِ الله المُزَنيُّ إذا أصاب أهلَه خَصاصةٌ يقولُ: قوموا فصلُّوا، ثم يقولُ: بهذا أمَر الله رسولَه، ويتلو هذه الآيةَ[6].

٣- قول الله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الأمرَ بها، إنما هو لفلاحِ المأمورِ ومنفعتِه، ولا يعودُ على الآمرِ بها نفعٌ ما؛ لتعاليه وتنزهِه بقولِه: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ﴾ أي: لا نسألُك مالًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٢٦٧).

بل نكلفُك عملًا ببدنِك، نؤتيك عليه أجرًا عظيمًا، وثوابًا جزيلًا[١].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ التقوى هي مِلاكُ الأمرِ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ...﴾ قالوهُ تَعنُّتًا وعِنادًا، فألْزَمَهم بإتيانِه بالقُرآنِ الَّذي هو أُمُّ المُعجِزاتِ، وأعْظمُها وأبقاها؛ لأنَّ حَقيقةَ المُعجِزةِ اختصاصُ مُدَّعِي النُّبوَّةِ بنَوعٍ من العِلْمِ أو العمَلِ على وجْهٍ خارقٍ للعادةِ، ولا شكَّ أنَّ العِلْمَ أصْلُ العمَلِ، وأعْلى منه قدْرًا، وأبقى أثرًا، فكذا ما كان من هذا القَبيلِ، ونَبَّهَهم أيضًا على وجْهٍ أبينَ من وُجوهِ الإعجازِ المُختصَّةِ بهذا البابِ، فقال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ من التَّوراةِ والإنجيلِ وسائرِ الكُتبِ السَّماويَّةِ؛ فإنَّ اشتمالَها على زُبدةِ ما فيها من العقائدِ والأحكامِ الكُلِّيَّةِ، مع أنَّ الآتِيَ بها أُمِّيٌّ لم يَرَها، ولم يتعلَّمْ ممَّن عَلِمَها: إعجازٌ بَيِّنٌ، وفيه إشعارٌ بأنَّه -كما يدُلُّ على نُبوَّتِه- بُرهانٌ لِمَا تقدَّمَه من الكُتبِ من حيث إنَّه مُعجِزٌ، وتلك ليست كذلك، بل هي مُفتقِرةٌ إلى ما يَشهَدُ على صِحَّتِها[٣].

٦- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ دلَّ ذلك على أنَّ المقتضيَ لِعَذابِهم قائمٌ، ولكِنَّ شَرطَ العذابِ هو بلوغُ الرِّسالةِ؛ ولهذا قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[٤] [النساء: ١٦٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٦٧-١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٣١٤).

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الله لا يُؤاخِذُ أهلَ الفترةِ على الإشراكِ حتى يبعثَ إليهم رسولًا[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾

- وقولُه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ﴾ أقْوى من (لا تنظُرْ)؛ لأنَّ مَدَّ البصرِ يَقْتضي الإدامةَ والاستحسانَ، بخِلافِ النَّظرِ، فإنَّه قد لا يكونُ ذلك معه، والعينُ لا تُمَدُّ، فهو على حذْفِ مُضافٍ، أي: لا تمُدَّنَّ نظَرَ عينَيْك[٢].

- قولُه: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿مَتَّعْنَا﴾؛ جِيءَ به للتَّنفيرِ عنه ببَيانِ سُوءِ عاقبتِه مآلًا، إثْرَ إظْهارِ بَهجتِه حالًا[٣].

- وجُملةُ: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ إلى آخرِه، يُفيدُ أنَّ ما يَبْدو للنَّاظرِ مِن حُسْنِ هيئتِهم مَشوبٌ ومُبطَّنٌ بفِتْنةٍ في النَّفسِ، وشَقاءٍ في العيشِ، وعِقابٍ عليه في الآخرةِ؛ فذُيِّلَ بأنَّ الرِّزقَ المُيسَّرَ من اللهِ للمُؤمِنينَ خيرٌ من ذلك وأبْقى في الدُّنيا، ومَنفعتُه باقيةٌ في الآخرةِ لِمَا يُقارِنُه في الدُّنيا من الشُّكرِ؛ فالإضافةُ في (رِزْقُ رَبِّكَ) إضافةُ تَشريفٍ، وإلَّا فإنَّ الرِّزقَ كلَّه من اللهِ، ولكنَّ رِزْقَ الكافرينَ لَمَّا خالَطَه وحَفَّ به حالُ أصحابِه من غضَبِ اللهِ عليهم، ولِمَا فيه من التَّبِعَةِ على أصحابِه في الدُّنيا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥١).

والآخرةِ لكُفْرانِهم النِّعمةَ: جُعِلَ كالمَنكورِ انتسابُه إلى اللهِ، وجُعِلَ رِزْقُ اللهِ هو السَّالِمَ من مُلابَسةِ الكُفْرانِ، ومن تَبِعاتِ ذلك السَّيِّئةِ؛ فتَفضيلُ الخَيريَّةِ جاء مُجْمَلًا يظهَرُ بالتَّدبُّرِ(١).

٢- قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ ذِكْرُ الأهْلِ هنا مُقابِلٌ لذِكْرِ الأزواجِ في قولِه: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١]؛ فإنَّ مِن أهْلِ الرَّجلِ أزواجَه، أي: مُتْعَتُك ومُتْعَةُ أهْلِك الصَّلاةُ؛ فلا تَلْتَفِتوا إلى زَخارفِ الدُّنيا. وأهْلُ الرَّجلِ يَكونونَ أمثَلَ مَن يَنْتَمون إليه(٢).

- وقولُه: ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ أبلغُ مِن الأمرِ بالصَّبرِ بأن يُقالَ مثلًا: (اصبِرْ)؛ لأنَّ الألفاظَ أدلَّةٌ على المعاني، فإذا زيدَتْ في الألفاظِ وَجَب زيادةُ المعاني ضرورةً(٣).

- وجُملةُ: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ مُعترِضةٌ بين الَّتي قبْلَها وبين جُملةِ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، جُعِلَت تَمهيدًا لِهَاتِه الأخيرةِ(٤).

- وجُملةُ: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، أي: إنَّ رِزْقَ ربِّك خيرٌ، وهو مَسوقٌ إليك. والمقصودُ من هذا الخِطابِ ابتداءً هو النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويَشمَلُ أهْلَه والمُؤمِنين؛ لأنَّ المُعلَّلَ به هذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤١- ٣٤٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٤٢).
(٣) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٣).

الجُملةُ مُشترِكٌ في حُكْمِه جميعُ المُسلِمين[١].

- قولُه: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾، أي: لأهْلِ التَّقوى، على حذْفِ المُضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه مُقامَه؛ تَنبيهًا على أنَّ مَلاكَ الأمْرِ هو التَّقوى[٢].

- وجُملةُ: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ تَذييلٌ؛ لِمَا فيها من معنى العُمومِ، أي: لا تكونُ العاقبةُ إلَّا للتَّقوى؛ فهذه الجُملةُ أُرْسِلَت مَجْرى المثَلِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ في إيرادِه بعُنوانِ كونِه ﴿بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ من التَّوراةِ والإنجيلِ وسائرِ الكُتبِ السَّماويَّةِ ما لا يَخْفى من تَنويهِ شأْنِه، وإنارةِ بُرهانِه، ومَزيدُ تَقريرٍ وتَحقيقٍ لإتيانِه[٤].

- وإسنادُ الإتيانِ إليه مع جعْلِهم إيَّاهُ مأْتيًّا به؛ للتَّنبيهِ على أصالتِه فيه، مع ما فيه من المُناسَبةِ للبيِّنةِ. والهمزةُ في ﴿أَوَلَمۡ﴾ لإنكارِ الوُقوعِ، والواوُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ؛ كأنَّه قِيلَ: ألَمْ تأْتِهم سائرُ الآياتِ؟ ولم تأْتِهم خاصَّةً بيِّنةُ ما في الصُّحفِ الأُولى؛ تَقريرًا لإتيانِه، وإيذانًا بأنَّه من الوُضوحِ بحيث لا يتأَتَّى منهم إنكارُه أصْلًا، وإنِ اجْتَرؤوا على إنكارِ سائرِ الآياتِ مُكابَرةً وعِنادًا[٥].

- وفي هذا الاستفهامِ تَوبيخٌ لهم وإنكارٌ؛ أنكَرَ به نفْيَ إتيانِ آيةٍ لهم، الَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اقتضاهُ تَحضيضُهم على الإتيانِ بآيةٍ[١].

- ووجْهُ اختيارِ (الصُّحف) هنا على (الكُتب): أنَّ في كلِّ صَحيفةٍ من الكُتبِ عِلْمًا، وأنَّ جَميعَه حَواهُ القُرآنُ؛ فكان كلُّ جُزءٍ من القُرآنِ آيةً ودَليلًا[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾

- جُملةٌ مُستأنَفةٌ سِيقَتْ لتَقريرِ ما قبْلَها، من كونِ القُرآنِ آيةً بَيِّنةً لا يُمكِنُ إنكارُها، ببَيانِ أنَّهم يَعترِفونَ بها يومَ القيامةِ[٣]. أو معطوفةٌ على جُملةِ: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾[٤] [طه: ١٣٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ جوابٌ عن قولِهم: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ [طه: ١٣٣]، وما بينهما اعتراضٌ[٥]، وصِيغَةُ الأمْرِ فيه ﴿قُلْ﴾ مُستعمَلةٌ في الإنذارِ، ويُسمَّى المُتارَكةَ، أي: نَتْرُكُكم وتَربُّصَكم؛ لأنَّا مُؤمِنونَ بسُوءِ مَصيرِكم[٦].

- وأُفْرِدَ الخبرُ -وهو ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾- حمْلًا على لفْظِ ﴿كُلٌّ﴾، كقولِه: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[٧] [الإسراء: ٨٤].

- قولُه: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ جمَعَ بين هذين،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٤٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٢).

مع أنَّ أحدهما يُغْني عن الآخرِ؛ إذ المُرادُ بالأوَّلِ: السَّالِكون لِزامًا، وبالثَّاني: الواصِلونَ. أو بالأوَّلِ: الَّذين ما زالوا على الصِّراطِ المُستقيمِ، وبالثَّاني: الَّذين لم يَكونوا على الصِّراطِ المُستقيمِ، ثمَّ صاروا عليه. أو بالأوَّلِ: أهْلُ دِينِ الحقِّ في الدُّنيا، وبالثَّاني: المُهتَدونَ إلى طَريقِ الجنَّةِ في العُقْبى؛ فكأنَّه قِيلَ: ستَعْلمون مَن النَّاجي في الدُّنيا، والفائزُ في الآخرةِ[١].

- وفيه تَعريضٌ بأنَّ المُؤمِنينَ هم أصحابُ الصِّراطِ المُستقيمِ المُهتَدونَ؛ لأنَّ مِثْلَ هذا الكلامِ لا يَقولُه في مَقامِ المُحاجَّةِ والمُتارَكةِ إلَّا المُوقِنُ بأنَّه المُحِقُّ[٢].

- وقد جاءت خاتِمةُ هذه السُّورةِ كأبلَغِ خواتمِ الكلامِ؛ لإيذانِها بانتهاءِ المُحاجَّةِ وانطواءِ بِساطِ المُقارَعةِ. ومن مَحاسِنِها: أنَّ فيها شَبيهَ رَدِّ العجُزِ على الصَّدرِ؛ لأنَّها تنظُرُ إلى فاتحةِ السُّورةِ، وهي قولُه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۞ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٢- ٣]؛ لأنَّ الخاتِمةَ تدُلُّ على أنَّه قد بلَّغَ كلَّ ما بُعِثَ به من الإرشادِ والاستدلالِ، فإذا لم يَهْتَدوا به، فكَفاهُ -انثلاجَ صَدْرِه- أنَّه أدَّى الرِّسالةَ والتَّذكرةَ، فلم يَكونوا من أهْلِ الخشيةِ؛ فترَكَهم وضَلالَهم حتَّى يتبيَّنَ لهم أنَّه الحقُّ[٣].

والآية معناها أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ومَن اتبعه هم السعداءُ الأغنياءُ الراضون في الدُّنيا والآخرةِ، وهو عينُ قولِه تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾؛ فقد انطبق الآخرُ على الأوَّلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٧٧).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ السادسَ عشرَ

ويليه المجلدُ السابعَ عشر

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الأنبياءِ

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ مَريمَ ٧
أسماءُ السُّورةِ: ٧
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ٨
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ: ٨
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٨
موضوعاتُ السُّورةِ: ٨
الآيات (١-٦) ١٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٠
المَعنى الإجماليُّ: ١١
تَفسيرُ الآياتِ: ١٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٩
بلاغةُ الآياتِ: ٢٢
الآيات (٧-١١) ٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٩
المَعنى الإجماليُّ: ٣٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٣١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٧
بلاغةُ الآياتِ: ٤٠

الآيات (١٢-١٥) ٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٨
المَعنى الإجماليُّ: ٤٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٣
بلاغةُ الآياتِ: ٥٥
الآيات (١٦-٢١) ٦٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٠
المَعنى الإجماليُّ: ٦١
تَفسيرُ الآياتِ: ٦١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٠
بلاغةُ الآياتِ: ٧٤
الآيات (٢٢-٢٦) ٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٧٩
المَعنى الإجماليُّ: ٨١
تَفسيرُ الآياتِ: ٨١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٨٧
الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٨٨
بلاغةُ الآياتِ: ٩١
الآيات (٢٧-٣٦) ٩٦

غَريبُ الكَلِماتِ: ٩٦
مُشكِلُ الإعرابِ: ٩٧
المَعنى الإجماليُّ: ٩٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٩٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١١٠
بلاغةُ الآياتِ: ١١٦
الآيات (٣٧-٤٠) ١٢٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٢٥
المَعنى الإجماليُّ: ١٢٥
تَفسيرُ الآياتِ: ١٢٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٣٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٣٣
بلاغةُ الآياتِ: ١٣٤
الآيات (٤١-٥٠) ١٣٩
غريبُ الكَلِماتِ: ١٣٩
المَعنى الإجماليُّ: ١٤٠
تَفسيرُ الآياتِ: ١٤١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٥٦
بلاغة الآيات: ١٦٣

الآيات (٥١-٥٨) ١٧٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٧٦
المَعنى الإجماليُّ: ١٧٦
تَفسيرُ الآياتِ: ١٧٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٨٨
بلاغةُ الآياتِ: ١٩٣
الآيات (٥٩-٦٣) ١٩٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٩٨
المَعنى الإجماليُّ: ١٩٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٠٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٠٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٠٩
بلاغةُ الآياتِ: ٢١٠
الآيتان (٦٤-٦٥) ٢١٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢١٦
المَعنى الإجماليُّ: ٢١٧
تَفسيرُ الآيتينِ: ٢١٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٢٣
الفَوائِدُ العِلميَّة واللَّطائِفُ: ٢٢٣
بلاغةُ الآيتينِ: ٢٢٥

الآيات (٦٦-٧٢) ٢٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٢٩
المَعنى الإجماليُّ: ٢٣٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٣١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٤٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٤١
بلاغةُ الآياتِ: ٢٤٣
الآيات (٧٣-٧٦) ٢٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٥٠
المَعنى الإجماليُّ: ٢٥١
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٥٢
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٢٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٦٠
بلاغةُ الآياتِ: ٢٦٠
الآيات (٧٧-٨٤) ٢٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٦٧
المَعنى الإجماليُّ: ٢٦٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٦٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٧٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٧٧
بلاغةُ الآياتِ: ٢٨٠

الآيات (٨٥-٩٥) ٢٨٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٨٩
المَعنى الإجماليُّ: ٢٩٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٩١
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٩٧
بلاغةُ الآياتِ: ٢٩٩
الآيات (٩٦-٩٨) ٣٠٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٠٥
المَعنى الإجماليُّ: ٣٠٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٠٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣١٢
بلاغةُ الآياتِ: ٣١٢
سورةُ طه ٣١٩
أسماءُ السُّورةِ: ٣١٩
فضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ٣٢٠
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٣٢٠
مقاصِدُ السورةِ: ٣٢٠
موضوعاتُ السُّورةِ: ٣٢١
الآيات (١-٨) ٣٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٢٢

مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٢٢
المَعنى الإجماليُّ: ٣٢٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٢٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٣٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٣١
بلاغةُ الآياتِ: ٣٣٢
الآيات (٩-١٦) ٣٣٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٣٩
المَعنى الإجماليُّ: ٣٤٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٤٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٤٩
بلاغةُ الآياتِ: ٣٥٤
الآيات (١٧-٢٣) ٣٦٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٦٨
المَعنى الإجماليُّ: ٣٦٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٧٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٧٣
بلاغةُ الآياتِ: ٣٧٧
الآيات (٢٤-٣٦) ٣٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٨٣

المَعنى الإجماليُّ: ٣٨٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٨٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٨٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٩٠
بلاغةُ الآياتِ: ٣٩٢
الآيات (٣٧-٤١) ٣٩٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٩٩
المَعنى الإجماليُّ: ٤٠٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٠١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٠٩
بلاغةُ الآياتِ: ٤١٠
الآيات (٤٢ - ٥٥) ٤١٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤١٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٢٠
المَعنى الإجماليُّ: ٤٢٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٢٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٤٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٤١
بلاغةُ الآياتِ: ٤٥٠
الآيات (٥٦-٦٤) ٤٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٦٦

مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٦٧
المَعنى الإجماليُّ: ٤٦٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٦٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٧٩
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٨٠
بلاغةُ الآياتِ: ٤٨٢
الآيات (٦٥-٧٦) ٤٨٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٨٩
المَعنى الإجماليُّ: ٤٩١
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٩٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٠٣
الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٠٤
بلاغةُ الآياتِ: ٥٠٧
الآيات (٧٧-٧٩) ٥٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٢٠
المَعنى الإجماليُّ: ٥٢١
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٢٣
بلاغةُ الآياتِ: ٥٢٤
الآيات (٨٠-٨٢) ٥٢٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٢٨

المَعنى الإجماليُّ: ٥٢٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٢٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٣٥
بلاغةُ الآياتِ: ٥٣٦
الآيات (٨٣-٨٩) ٥٣٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٣٨
المَعنى الإجماليُّ: ٥٣٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٤٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٥١
بلاغةُ الآياتِ: ٥٥٢
الآيات (٩٠-٩٤) ٥٥٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٥٩
المَعنى الإجماليُّ: ٥٥٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٦٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٦٤
بلاغةُ الآياتِ: ٥٦٧
الآيات (٩٥-٩٨) ٥٧١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٧١

المَعنى الإجماليُّ: ٥٧٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٧٩
بلاغةُ الآياتِ: ٥٨٠
الآيات (٩٩-١٠٤) ٥٨٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٨٥
المَعنى الإجماليُّ: ٥٨٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٨٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٩٤
بلاغةُ الآياتِ: ٥٩٦
الآيات (١٠٥-١١٠) ٦٠٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٠٠
المَعنى الإجماليُّ: ٦٠١
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٠٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٠٨
بلاغةُ الآياتِ: ٦١٠
الآيات (١١١-١١٤) ٦١٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦١٤
المَعنى الإجماليُّ: ٦١٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٦١٦

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٢٢
بلاغةُ الآياتِ: ٦٢٤
الآيات (١١٥-١٢٣) ٦٢٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٢٨
المَعنى الإجماليُّ: ٦٣٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٣١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٤١
بلاغةُ الآياتِ: ٦٤٧
الآيات (١٢٤-١٢٧) ٦٥٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٥٧
المَعنى الإجماليُّ: ٦٥٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٥٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٦٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٦٣
بلاغةُ الآياتِ: ٦٦٥
الآيات (١٢٨-١٣٠) ٦٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٦٧
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦٦٨
المَعنى الإجماليُّ: ٦٦٨

تَفسيرُ الآياتِ: ٦٦٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٧٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٧٧
بلاغةُ الآياتِ: ٦٧٨
الآيات (١٣١-١٣٥) ٦٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٨٤
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦٨٥
المَعنى الإجماليُّ: ٦٨٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٨٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٩٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٩٩
بلاغةُ الآياتِ: ٧٠١
الفهرس ٧٠٩

٣٥ ر.س

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الأنبياء

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السابع عشر

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الأنبياء)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر: المجلد السابع عشر: سورة الأنبياء/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٠هـ

٤٠٠ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٤-٧٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير ٢- القرآن – سورة الأنبياء أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٠/٩٥٠٤

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٩٥٠٤

ردمك: ٤-٧٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الأنبياء)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر – قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الساع عشر

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ الأَنْبياءِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الأنْبياءِ

أسماءُ السُّورة:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الأنبياءِ)[١].

فعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضي اللهُ عنه، أنَّه قال: (سورةُ «بني إسرائيلَ» و«الكَهفِ» و«مَريمَ» و«طه» و«الأنبياءِ»: هُنَّ مِن العِتاقِ الأُوَلِ[٢]، وهُنَّ مِن تِلادي[٣])[٤].

فَضائِلُ السُّورة وخَصائِصُها:

أنَّها مِن السُّوَرِ المتقدِّمِ نزولُها، ومِن قديمِ ما حفِظ الصَّحابةُ وتعلَّموه:

كما دلَّ عليه أثرُ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضي اللهُ عنه المتقدِّمُ.

---

(١) سُمِّيَت هذه السورةُ سورةَ الأنبياءِ؛ لاشتِمالِها على قَصَصِهم. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٧).

قال الطِّيبي: (هذه السورةُ مِن مفتتحِها واردةٌ في أمرِ النبوةِ وما يتَّصِلُ بها، ومِن ثَمَّ سُمِّيتْ بسورةِ الأنبياءِ). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٠٧).

وقال ابن تيمية: (سورةُ «الأنبياءِ» سورةُ «الذِّكرِ»، وسورةُ الأنبياءِ الَّذين عليهم نزل الذِّكرُ، افْتَتَحها بقولِه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ الآيةَ [الأنبياء: ٢]، وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وقوله: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٦٥).

(٢) العِتاق: جمعُ عتيقٍ، وهو القديمُ، أو: هو كلُّ ما بلَغ الغايةَ في الجودةِ، والمرادُ بقولِه: (العِتَاق الأُوَل): السُّوَر الَّتِي أُنْزِلت أوَّلًا بِمَكَّةَ، وأنَّها مِنْ أوَّلِ ما تَعلَّمه مِنَ القرآنِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٧٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٨٨).

(٣) تِلادي: أي: مما حُفِظ قديمًا، والتِّلادُ: قديمُ المِلكِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٨٨).

(٤) رواه البخاري (٤٧٣٩).

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الأنبياءِ مَكِّيَّةٌ[١]، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غَيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورة:

من أهَمِّ مقاصِدِ السُّورة:

١- بَيانُ مَعالِمِ التَّوحيدِ، وإقامةُ الأدلةِ عليه، وما لقِي الأنبياءُ في سبيلِ الدعوةِ إليه[٣].

٢- إثباتُ المعادِ، وبيانُ الأدلَّةِ على وُقوعِه[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

من أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- الإنذارُ بالبَعثِ، وتحقيقُ وُقوعِه.

٢- ذِكرُ عَدَدٍ مِن الشُّبُهاتِ التي أثارها المُشرِكونَ حولَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ودَعوتِه، والرَّدُّ عليها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٦/ ٢٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٠).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، وأبو حيان، ومجدُ الدين الفيروزابادي، والبِقَاعيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٢٨٥).

وقيل: السورةُ مكيةٌ، ويُستثني منها: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ ...﴾ الآيةَ [الأنبياء: ٤٤]، فهي مدنيَّةٌ. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((زهرة التفاسير)) لأبي زهرة (٩/ ٤٨٢٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبِقَاعي (١٢/ ٣٧٨).

٣- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا قاله المُشرِكونَ في شأنِه.

٤- التَّذكيرُ بما أصاب الأُمَمَ السَّالِفةَ مِن جرَّاءِ تَكذيبِهم رُسُلَهم.

٥- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعلى شُمولِ قُدرتِه.

٦- ذِكْرُ أخبارِ بَعضِ الأنبياءِ، ومنهم موسى وهارونُ، وإبراهيمُ ولُوطٌ، وإسحاقُ ويَعقوبُ، ونوحٌ، وأيُّوبُ، وداودُ، وسُلَيمانُ، وإسماعيلُ، وإدريسُ، ويُونُسُ، وزكريَّا -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٧- تعقيبُ أخبارِ الأنبياءِ بالمقصودِ الأساسيِّ مِن رِسالتِهم، وهو دَعوةُ النَّاسِ جميعًا إلى إخلاصِ العبادةِ لله.

٨- ذِكرُ بَعضِ أشراطِ السَّاعةِ، وشَيءٍ من أهوالِها، وأحوالِ النَّاسِ فيها.

٩- خُتِمَت السُّورةُ بالحَديثِ عن سُنَّةٍ مِن سُنَنِ اللهِ التي لا تتخَلَّفُ، وهي أنَّ العاقِبةَ للمُؤمِنينَ؛ والحديثِ عن رِسالةِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعن مَوقِفِه من أعدائِه.

الآيات (١-٥)

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٣ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٤ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّحۡدَثٍ﴾: أي: مُجَدَّدٍ إنزالُه، والمُحدَثُ: ما أُوجِدَ بعدَ أنْ لم يكُنْ، وذلك إمَّا في ذاتِه، أو إحداثِه عندَ مَن حَصَلَ عندَه، وأصلُ (حدث): يدلُّ على كَونِ الشَّيءِ لم يكُنْ[١].

﴿لَاهِيَةٗ﴾: أي: غافِلةً وساهيةً، وأصل (لهو): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ[٢].

﴿ٱلنَّجۡوَى﴾: أي: السِّرارَ والمُناجاةَ، وأصلُ (نجو) هنا: يدلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ[٣].

﴿أَضۡغَٰثُ﴾: أي: أخلاطُ، وأضغاثُ الأحلامِ: هي ما لا تأويلَ له مِنَ الرُّؤيا، كأنَّه جماعاتٌ تُجمَعُ مِن الرُّؤيا كما يُجمَعُ الحَشيشُ، وأصلُ (ضغث): يدُلُّ على التباسِ الشَّيءِ بَعضِه ببَعضٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣١٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٧)، =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾

في محلِّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أوجهٌ، منها:

الوجهُ الأول: الرفعُ، وذلك على أنَّه بدلٌ مِن واوِ (أَسَرُّوا). أو أن يكونَ (الذين) مبتدأً، و(أَسَرُّوا) جملةَ الخبرِ، قُدِّمَتْ على المبتدأ. أو أنَّه خبرُ مبتدأٍ مضمَرٍ، تقديرُه: هم الذين ظلموا.

الوجهُ الثاني: النَّصبُ على الذمِّ. أو على إضمارِ (أعني). وقيل غير ذلك.

قولُه: ﴿هَلْ هَٰذَآ﴾ جملةٌ في محلِّ نصبٍ بدَلٌ من ﴿ٱلنَّجْوَى﴾؛ لأنَّه في الواقِعِ هو الكلامُ الذي تناجَوا به. أو في محلِّ نصبٍ بإضمار القَولِ. أو في محلِّ نصبٍ على أنها محكيَّةٌ بالنجوى؛ لأنَّها في معنى القَولِ، أو لا محلَّ لها تفسيريَّةٌ للنَّجوى[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: قَرُبَ وَقتُ حِسابِ النَّاسِ على ما قدَّموا مِن عَمَلٍ، والحالُ أنَّهم لاهُونَ غافِلونَ مُعرِضونَ عن هذا الإنذارِ؛ وذلك أنَّهم ما مِن شَيءٍ يُستحدَثُ نُزولُه مِن القُرآنِ إلَّا كان سَماعُهم له سَماعَ لَعِبٍ واستِهزاءٍ، وقلوبُهم غافِلةٌ عن القُرآنِ الكريمِ، مَشغولةٌ بالدُّنيا وشَهواتِها. وأسَرَّ مُشرِكو قُريشٍ المناجاةَ فيما بينهم، قائلًا بعضُهم لبعضٍ: هل هذا الذي يَزعُمُ أنَّه رَسولٌ مِن اللهِ إليكم إلَّا

= ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٥).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكِّي (٢/ ٤٧٧)، ((الدر المصون)) للسمين (٨/ ١٣٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لصافي (١٧/ ٤).

بَشَرٌ مِثلُكم، وما القُرآنُ الذي جاء به إلَّا سِحرٌ، فكيف تجيئونَ إليه وتتَّبِعونَه مع عِلمِكم وإدراكِكم أنَّه سِحرٌ؟!

فردَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الكُفَّارِ المكَذِّبينَ، فقال: ربِّي يعلَمُ كلَّ قَولٍ في السَّماءِ والأرضِ، ويعلَمُ ما أسرَرْتُموه وما أعلَنتُموه، وهو السَّميعُ العَليمُ.

بل جحَدَ الكُفَّارُ القُرآنَ، وقالوا: إنَّه أخلاطُ أحلامٍ لا حَقيقةَ لها، بل هو اختِلاقٌ وكَذِبٌ مفترًى، بل إنَّ مُحمَّدًا شاعرٌ، جاءَكم بشِعرٍ، فلْيَجِئْنا بمُعجِزةٍ مَحسوسةٍ -كناقةِ صالحٍ، وعصا موسى- إنْ أراد منَّا أن نُصَدِّقَه ونؤمِنَ به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾.

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾.

أي: قَرُبَ[1] وقتُ حِسابِ النَّاسِ[2] يومَ القيامةِ على أعمالِهم التي عَمِلوها

(١) قال الواحدي: (معنى الاقترابِ هاهنا: قِصَرُ المدَّةِ التي بينَهم وبينَ الحسابِ). ((البسيط)) (١٥/ ٧).

(٢) ممن اختار أنَّ المرادَ بالنَّاسِ: العمومُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ جزي، وابنُ كثير، والبقاعي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٨). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٨).

قال ابن عطية: (وقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ عامٌّ في جميعِ الناسِ، وإن كان المشارُ إليه في ذلك الوقتِ كفارَ قريشٍ، ويدلُّ على ذلك ما بعدُ مِن الآياتِ. وقولُه: ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ يريدُ: الكفارَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٣).

وقيل: المرادُ بالناسِ: كُفَّارُ مَكَّةَ. وممن اختار هذا القولَ: الواحدي، وأبو حيان. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص ٧١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٦). =

في دُنياهم[١].

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم[٢] في غفلةٍ في الدُّنيا عن اقترابِ حِسابِهم، وعمَّا يَفعَلُ اللهُ بهم في ذلك اليومِ، وقد أعرَضوا عن التفكُّرِ في الآخرةِ، وما ينتظرُهم فيها مِن الحسابِ، ولم يستعِدُّوا لها بالأعمالِ الصَّالحةِ[٣]!

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ سُبحانَه عن غَفلةِ الكافرينَ وإعراضِهم، عَلَّلَ ذلك بقَولِه[٤]:

= وقيل: المرادُ بالناسِ: المشركونَ مطلقًا، دونَ المؤمنينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٦٧). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٨).

قال ابن عاشور: (والمرادُ بالنَّاسِ المشركونَ؛ لأنَّهم المقصودُ بهذا الكلامِ كما يَدُلُّ عليه ما بعدَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٨).

قال السعدي: (وفي معنى قولِه: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قولان: أحدُهما: أنَّ هذه الأمَّةَ هي آخِرُ الأُمَمِ، ورسولُها آخِرُ الرسُلِ، وعلى أمَّتِه تقومُ الساعةُ، فقد قَرُب الحسابُ منها بالنسبةِ لِما قبلَها من الأمَمِ...

والقولُ الثاني: أنَّ المرادَ بقُربِ الحِسابِ: الموتُ، وأنَّ مَن مات قامَت قيامتُه، ودخَل في دارِ الجزاءِ على الأعمالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٨).

(٢) قال ابنُ عطيةَ: (قولُه: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ يريدُ الكُفَّارَ، ويتَّجِهُ من هذه الألفاظِ على العُصاةِ من المؤمنينَ قِسطُهم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٩٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٢).

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾.

أي: ما يأتيهم[١] مِن وَحيٍ من اللهِ حَديثِ النُّزولِ[٢] -لِتَذكيرِهم ومَوعِظتِهم- إلَّا استَمَعوه سَماعَ لَعِبٍ واستِهزاءٍ به، فلا يَعتَبِرونَ، ولا يتَّعظُونَ به[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم: ٥٩ - ٦١].

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: غارِقةً قُلوبُهم في اللَّهوِ والغَفلةِ عن القرآنِ، مُتشاغِلةً بدُنياها وشَهَواتِها عن التأمُّلِ والتفَهُّمِ لِمَعانيه، فلا يتدَبَّرونَ حِكَمَه، ولا يتفَكَّرونَ فيما أودَعَ اللهُ فيه مِن الحُجَجِ والبراهينِ[٤].

---

(١) قال ابن كثير: (والخطابُ مع قُرَيشٍ ومَن شابَهَهم مِن الكفَّارِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢).

(٢) قال ابن تيميَّة: (لَمَّا قالَ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ عُلِم أنَّ الذِّكْرَ منه مُحْدَثٌ ومنه ما ليسَ بِمُحْدَثٍ؛ لأنَّ النَّكرةَ إذا وُصِفَتْ مُيِّز بها بينَ الموصوفِ وغيرِه، كما لو قالَ: ما يأتيني مِن رجلٍ مسلمٍ إلَّا أكْرَمتُه، وما آكُلُ إلَّا طعامًا حلالًا ونحوَ ذلك، ويُعلَمُ أنَّ المحدَثَ في الآيةِ ليسَ هو المخلوقَ الَّذي يقولُه الجهميُّ، ولكنَّه الَّذي أُنزِل جديدًا، فإنَّ الله كان يُنَزِّلُ القرآنَ شيئًا بعدَ شيءٍ، فالمنزَّلُ أوَّلًا هو قديمٌ بالنِّسبةِ إلى المنزَّلِ آخِرًا. وكلُّ ما تقدَّم على غيرِه فهو قديمٌ في لُغةِ العربِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٢/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٢/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٢).

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

أي: وبالَغَ مُشرِكو قُرَيشٍ في إخفاءِ المناجاةِ[1] فيما بيْنهم، فقال بعضُهم لِبَعضٍ: هل هذا الذي يَزعُمُ أنَّه رَسولٌ من اللهِ إليكم إلَّا إنسانٌ مِثلُكم في صُوَرِكم وخَلْقِكم، واحتياجِه للطعامِ والشَّرابِ وغَيرِ ذلك[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

أي: أفتَقبَلونَ مِن محمَّدٍ القُرآنَ، وتصَدِّقونَ به وتتَّبِعونَه، وأنتم تَعلَمونَ وتُدرِكونَ أنَّه سِحرٌ[3]؟!

---

(١) وممَّن ذهَب إلى أنَّ الإسرارَ هنا بمعنى الإخفاءِ: تاج القراء الكرماني، وابنُ عطية، والرسعني، وابنُ كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((غرائب التفسير)) للكرماني (٢/ ٧٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٣).

قال الرسعني: (والصَّحيحُ عندي: ما هو المتبادِرُ إلى الأفهامِ. فإن قيل: النَّجوى لا تكونُ إلَّا خُفْيةً، فما معنى قوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾؟ قُلتُ: المبالغةُ في إخفاءِ ما تناجَوا به. فإنْ قيلَ: ما الذي حمَلَهم على المبالغةِ في إخفائِه، وهم أشَدُّ شَكيمةً وأحدُّ شَوكةً؟ قلتُ: حمَلَهم عليه الخَوفُ مِن نَقضِ ما أبرَموه من المكايدِ لهَدمِ الإسلامِ، وإطفاءِ نورِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، على تقديرِ اطِّلاعِه عليه، على ما أُلِفَ وعُرِفَ من شأنِ ذوي الشَّأنِ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٩٠).

وقيل: الإسرارُ هنا بمعنى الإظهارِ، فهو مِن الأضدادِ. وممن ذهب إلى ذلك: أبو عبيدةَ، وابنُ جريرٍ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤). =

كما قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۞ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٧، ٤٨].

﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لما أورَدَ هذا الكلامَ عَقِيبَ ما حكَى عن الكافرينَ؛ وجَب أن يكونَ كالجوابِ لِما قالوه، فكأنَّه قال: إنَّكم وإنْ أخفيتُم قَولَكم وطَعْنَكم، فإنَّ ربِّي عالمٌ بذلك، وإنَّه مِن وَراءِ عقوبتِه، فتُوعِّدوا بذلك؛ لكي لا يعودوا إلى مِثلِه[1].

وأيضًا لَمَّا كان اللهُ تعالى لا يُقِرُّ مَن كَذَبَ عليه، فضلًا عن أن يصَدِّقَه ويؤيِّدَه، ولا يخفَى عليه كيدٌ حتى يلزَمَ منه نَقصُ ما أرادَه؛ قال دالًّا لهم على صِدقِه، منبِّهًا على مَوضِعِ الحجَّةِ في أمرِه[2]:

﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ: ﴿ قَالَ ﴾ على الخبَرِ، أي: أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أجاب

= وقال ابن عاشور: (يجوزُ أن يُرادَ بالإتيانِ هنا حُضورُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِسَماعِ دَعوتِه، فجعلوه إتيانًا؛ لأنَّ غالِبَ حُضورِ المجالِسِ أن يكونَ بإتيانٍ إليها، وجعلوا كلامَه سِحرًا، فنَهَوا مَن ناجَوهم عن الاستِماعِ إليه. وهذا كقَولِه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٤).

الكُفَّارَ بهذا القَولِ[١].

٢- قراءةُ: ﴿قُلْ﴾ على الأمرِ، أي: أنَّ اللهَ أمرَ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُجيبَ الكُفَّارَ بهذا القَولِ[٢].

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: قال محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للكفَّارِ الذين يكذِّبونَه: ربِّي يعلَمُ كلَّ قولٍ في السَّماءِ والأرضِ سِرًّا كان أو جَهرًا، لا يخفَى عليه شَيءٌ ممَّا يُقالُ فيهما، وهو الذي أنزَل هذا القُرآنَ المُشتَمِلَ على خبَرِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، الذي لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتيَ بمِثلِه إلَّا الذي يعلَمُ السرَّ في السَّمواتِ والأرضِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٤ - ٦].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو السَّميعُ لكلِّ قولٍ في السَّماءِ والأرضِ، العليمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن

---

(١) قرأ بها حفصٌ عن عاصمٍ، وحمزةُ، والكسائيُّ، وخَلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٣). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٦٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٦٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٣). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٦٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٥).

ذلك عِلمُه بأحوالِنا وما في قُلوبنا، وبالصَّادِقِ والكاذِبِ منَّا[١].

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكر اللهُ تعالى عن الكافرينَ أنَّهم قالوا: إنَّ ما أتَى به سِحرٌ؛ ذكَرَ اضطرابَهم في مقالاتِهم، فذكَر أنَّهم أضرَبوا عن نسبةِ السِّحرِ إليه، وقالوا: ما يأتي به إنَّما هو ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾، ثمَّ أضرَبوا عن هذا فقالوا: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، أي: اختَلَقَه وليس مِن عندِ الله، ثمَّ أضرَبوا عن هذا فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾، وهكذا المبطِلُ لا يَثبُتُ على قَولٍ، بل يبقى متحَيِّرًا[٢].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان وَصْفُهم له بأنَّه سِحرٌ مِمَّا يَهولُ السَّامِعَ، ويَعلَمُ منه أنَّه مُعجِزٌ، فرُبَّما أدَّى إلى الاستِبصارِ في أمرِه؛ أخبَرَ أنَّهم نزَلوا به عن رُتبةِ السِّحرِ على سَبيلِ الإضرابِ، فقال[٣]:

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾.

أي: بل[٤] قال الكافِرونَ: القرآنُ أشياءُ مُختَلِطةٌ رآها محمَّدٌ في منامِه ولا حقيقةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٦).

(٤) قيل: (بل) هنا للإضرابِ الانتقاليِّ وليس الإبطاليَّ؛ فمرةً يقولونَ كذا، ومرةً يقولونَ كذا، متحيرينَ لا يستقِرُّونَ على رأيٍ. وممن قال بذلك: الواحدي، والقرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٥). =

لها، بل هو كذِبٌ افتراه محمَّدٌ مِن قِبَلِ نفْسِه، بل محمَّدٌ شاعِرٌ جاءكم بشِعرٍ، وزعم أنَّه مِن عندِ ربِّه[١]!

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

أي: قال الكافرونَ: فَلْيَأْتِنَا محمَّدٌ بمُعجِزةٍ حِسِّيَّةٍ تدُلُّ على صِدقِه، كما أيَّدَ اللهُ رُسُلَه السَّابقينَ بالمُعجِزاتِ؛ كناقةِ صالحٍ، وعصا موسى، ومعجزاتِ عيسى، وغيرِ ذلك من المعجزاتِ التي لا يَقدِرُ عليها إلَّا اللهُ، ولا يأتي بها إلَّا الأنبياءُ والرُّسُلُ عليهم السَّلامُ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ ذكَرَ تعالى هذا الاقترابَ؛ لِما فيه مِن المصلحةِ للمُكَلَّفينَ، فيكونُ أقرَبَ إلى تلافي الذُّنوبِ، والتحَرُّزِ عنها خوفًا من ذلك[٣]، فمَن عَلِمَ اقترابَ الساعةِ قَصُرَ أمَلُه، وطابت نفسُه بالتَّوبةِ، ولم يركَنْ إلى الدُّنيا، فكأنَّ ما كان لم يكُنْ إذا ذهب، وكلُّ آتٍ قَريبٌ، والموتُ لا محالةَ آتٍ، وموتُ كلِّ إنسانٍ قِيامُ ساعتِه، والقيامةُ أيضًا قريبةٌ بالإضافةِ إلى ما مضَى من الزَّمانِ، فما بقِي مِن الدُّنيا أقلُّ مِمَّا مضَى[٤].

= وقيل: بل قال بعضُهم بكذا، وقال بعضهم بكذا، فكلُّ فريقٍ منهم يقولُ بشيءٍ من ذلك. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن جرير، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٥، ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٧).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ ذلك ذَمٌّ للكُفَّارِ، وزَجرٌ لِغَيرِهم عن مِثلِه؛ لأنَّ الانتفاعَ بما يُسمَعُ لا يكونُ إلَّا بما يَرجِعُ إلى القَلبِ مِن تدَبُّرٍ وتفَكُّرٍ، وإذا كانوا عندَ استماعِه لاعبينَ حَصَلوا على مجَرَّدِ الاستِماعِ الذي قد تُشارِكُ البهيمةُ فيه الإنسانَ[1]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ إن قيل: ما وجهُ وصفِه بالاقتراب وقد مضَى لهذا الوعيدِ مئاتُ السنينَ ولم يقَعْ؟

فالجوابُ عنه بعدةِ أجوبةٍ:

أحدها: لقلةِ ما بقيَ بالإضافةِ إلى ما مضَى.

الثاني: لأنَّه آتٍ، وكلُّ آتٍ قريبٌ، وإنْ طالَتْ مُدَّتُه.

الثالث: أنَّه قريبٌ عندَ الله، وإن كان بعيدًا بالنسبةِ إلى غيرِه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[2] [المعارج:٦، ٧].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ لم يعَيِّنِ الوقتَ؛ لأجْلِ أنَّ كِتمانَه أصلَحُ، كما أنَّ كِتمانَ وَقتِ المَوتِ أصلَحُ[3].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ الفائِدةُ في تَسميةِ يَومِ القيامةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٩).

بـ(يوم الحساب): أنَّ الحِسابَ هو الكاشِفُ عن حالِ المرءِ؛ فالخَوفُ مِن ذِكرِه أعظَمُ[١].

٤- قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ استدلَّ المعتزلةُ بوَصْفِ الذِّكْرِ بكونِه مُحْدَثًا على أَنَّ القرآنَ مُحْدَثٌ أي: مخلوقٌ؛ لأَنَّ الذِّكْرَ هنا هو القرآنُ.

والجواب: أنَّ المرادَ محدَثٌ تنزيلُه، والحدوثُ في لغةِ العربِ العامَّةِ ليس هو الحدوثَ في اصطلاحِ أهلِ الكلامِ؛ فإنَّ العربَ يُسمُّون ما تجدَّد حادِثًا[٢].

٥- وفي قولِه: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ أخبَرَ عنهم بخَبرينِ ظاهِرُهما التَّنافي؛ لأنَّ الغفلةَ عن الشَّيءِ والإعراضَ عنه مُتنافيانِ، لكنْ يُجْمَعُ بينَهما باختلافِ حالينِ: أخبَرَ عنهم أوَّلًا أنَّهم لا يتفكَّرونَ في عاقبةٍ، بل هم غافِلونَ عمَّا يَؤولُ إليه أمْرُهم، ثمَّ أخبَرَ عنهم ثانيًا أنَّهم إذا نُبِّهوا من سِنَةِ الغفلةِ، وذُكِّروا بما يَؤولُ إليه أمْرُ المُحسِنِ والمُسيءِ، أعْرَضوا عنه، ولم يُبالوا بذلك[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ لَمَّا كان المُشرِكونَ يَصِفونَ القُرآنَ بجَميعِ هذه الأوصافِ جُملةً، يقولونَ لكُلِّ شَخصٍ ما رأَوه أنسَبَ له منها؛ نَبَّه اللهُ سُبحانَه كلَّ مَن له لُبٌّ على بُطلانِها كُلِّها بتناقُضِها بحَرفِ الإضرابِ؛ إشارةً إلى أنَّه كان يجِبُ على مَن قالها على قِلَّةِ عَقْلِه وعَدَمِ حَيائِه ألَّا يَنتَقِلَ إلى قَولٍ منها إلَّا بعد الإعراضِ عن الذي قَبلَه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٦٧). ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (١/ ٣٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٧).

وأنَّه مِمَّا يُضرَبُ عنه؛ لِكَونِه غَلَطًا، ما قيل إلَّا عن سَبْقِ لِسانٍ وعَدَمِ تأمُّلٍ؛ سَترًا لعِنادِه، وتَدليسًا لِفُجورِه! ولو فعل ذلك لكانت جَديرةً بانكشافِ بُطلانِها بمُجَرَّدِ الانتِقالِ، فكيف عند اجتِماعِها؟ ولَمَّا كانت نِسبتُه إلى الشِّعرِ أضعَفَها شأنًا، وأوضَحَها بُطلانًا؛ لم يحتَجْ إلى إضرابٍ عنه[1].

٧- في قولِهم: ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ دَلالةٌ على مَعرفتِهم بإتيانِ الرُّسلِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ أُسلوبٌ بديعٌ في الافتتاحِ؛ لِمَا فيه من غَرابةِ الأسلوبِ، وإدخالِ الرَّوعِ على المُنذَرينَ؛ فإنَّ المُرادَ بالنَّاسِ مُشْرِكو مكَّةَ -على قولٍ في التفسيرِ-، و﴿ٱقۡتَرَبَ﴾ فيه مُبالَغةٌ في القُرْبِ، فصِيغَةُ الافتعالِ الموضوعةُ للمُطاوَعةِ مُستعمَلةٌ في تَحقُّقِ الفعلِ، أي: اشتَدَّ قُرْبُ وُقوعِه بهم[3].

- وفي قولِه: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ أسنَدَ الاقترابَ إلى الحسابِ لا إلى السَّاعةِ، مع استتباعِها له ولسائرِ ما فيها من الأحوالِ والأهوالِ الفظيعةِ؛ لانسياقِ الكلامِ إلى بَيانِ غفْلتِهم عنه، وإعراضِهم عمَّا يُذكِّرُهم ذلك. واللَّامُ في ﴿لِلنَّاسِ﴾ مُتعلِّقةٌ بالفعْلِ، وتَقديمُها على الفاعلِ؛ للمُسارَعةِ إلى إدخالِ الرَّوعةِ؛ فإنَّ نِسْبةَ الاقترابِ إليهم مِن أوَّلِ الأمْرِ ممَّا يَسوؤُهم ويُورِثُهم رَهْبةً وانزِعاجًا من المُقترِبِ. وفي إسنادِ الاقترابِ المُنْبِئِ عن التَّوجُّهِ نحْوَهم إلى

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٦-٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨).

الحسابِ -مع إمكانِ العكْسِ بأنْ يُعتبرَ التَّوجُّهُ والإقبالُ من جِهَتِهم نحْوَه- من تَفخيمِ شأْنِه، وتَهويلِ أمْرِه ما لا يَخْفى؛ لِمَا فيه من تَصويرِه بصُورةِ شَيءٍ مُقبِلٍ عليهم، لا يَزالُ يُطالِبُهم ويُصيبُهم لا مَحالةَ[١].

- قولُه: ﴿لِلنَّاسِ﴾ المُرادُ به المُشرِكونَ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ فيكونُ هذا من إطلاقِ اسمِ الجنْسِ على بعْضِه للدَّليلِ القائمِ، وهو ما يَتْلوه من صِفاتِ المُشرِكين[٢].

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿حِسَابُهُمْ﴾ عائدٌ إلى النَّاسِ؛ فصار قولُه: ﴿لِلنَّاسِ﴾ مُساوِيًا للضَّميرِ الَّذي أُضِيفَ إليه (حِساب)، فكأنَّه قيل: اقترَبَ حِسابٌ للنَّاسِ لهم؛ فكان تأْكيدًا لفظيًّا، وأصْلُ النَّظمِ: اقترَبَ للنَّاسِ الحسابُ. وإنَّما نُظِمَ التَّركيبُ على هذا النَّظمِ بأنْ قُدِّمَ ما يدُلُّ على المُضافِ إليه، وعُرِّفَ النَّاسُ تَعريفَ الجنْسِ؛ ليَحصُلَ ضَرْبٌ من الإبهامِ، ثمَّ يقَعَ بعْدَه التَّبيينُ. ولِمَا في تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ من الاهتمامِ بأنَّ الاقترابَ للنَّاسِ؛ لِيَعْلمَ السَّامِعُ أنَّ المُرادَ تَهديدُ المُشرِكينَ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ لأنَّهم الَّذين يُكنى عنهم بالنَّاسِ كثيرًا في القُرآنِ، وعند التَّقديمِ احتِيجَ إلى تَقديرِ مُضافٍ، فصار مثْلَ: اقترَبَ حِسابٌ للنَّاسِ الحساب، وحُذِفَ المُضافُ؛ لدَلالةِ مُفسِّرِه عليه، ولمَّا كان الحِسابُ حِسابَ النَّاسِ المذكورينَ، جِيءَ بضَميرِ النَّاسِ؛ ليَعودَ إلى لفْظِ النَّاسِ، فيَحْصُلَ تأكيدٌ آخرُ، وهذا نمَطٌ بديعٌ من نسْجِ الكلامِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٢٨٢، ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩، ١٠).

- ودلَّتْ (في) في قولِه: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ على الظَّرفيَّةِ الَّتي هي شِدَّةُ تَمكُّنِ الوصْفِ منهم، أي: وهم غافِلونَ أشَدَّ الغَفْلةِ، حتَّى كأنَّهم مُنْغمِسون فيها، أو مَظْروفونَ في مُحيطِها؛ ذلك أنَّ غفْلَتَهم عن يومِ الحسابِ مُتأصِّلةٌ فيهم؛ بسَببِ سابِقِ كُفْرِهم[١].

٢- قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾

- جُملةُ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم ...﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾؛ لبَيانِ تَمكُّنِ الغَفْلةِ منهم وإعراضِهم، بأنَّهم إذا سَمِعوا في القُرآنِ تَذكيرًا لهم بالنَّظرِ والاستِدلالِ، اشْتَغلوا عنه باللَّعبِ واللَّهوِ، فلمْ يَفْقهوا معانِيَه، وكان حَظُّهم منه سَماعَ ألْفاظِه[٢].

- والذِّكرُ: القُرآنُ؛ أُطْلِقَ عليه اسْمُ الذِّكرِ الَّذي هو مصدرٌ؛ لإفادةِ قُوَّةِ وصْفِه بالتَّذكيرِ[٣].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ لابتداءِ الغايةِ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿يَأْتِيهِم﴾، أو بمَحذوفٍ هو صِفَةٌ لـ ﴿ذِكْرٍ﴾، وفي ذلك دَلالةٌ على فضْلِه وشَرفِه، وكَمالِ شَناعةِ ما فَعَلوا به. والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ؛ لتَشديدِ التَّشنيعِ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾، وقال في (الشُّعراءِ): ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥]، فخُصَّتْ هذه السُّورة بقولِه: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ بالإضافةِ؛ ووجْهُه: أنَّ هذينِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٤).

الاسمينِ العَظيمينِ -(الرَّب) و(الرَّحمن)- توارَدَا في الكتابِ العزيزِ كثيرًا، ثمَّ إنَّ اسْمَه سُبحانه (الرَّحمنَ) يَغلِبُ وُرودُه حيث يُرادُ الإشارةُ إلى العفْوِ والإحسانِ والرِّفقِ بالعبادِ والتَّلطُّفِ والتَّأنيسِ. وأمَّا اسْمُه (الرَّبُّ) فيَعُمُّ وُرودُه طَرفَيِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ أمَّا التَّرغيبُ فبَيِّنٌ، وأمَّا التَّرهيبُ فحيث يَرِدُ معنى مِلْكيَّتِه سُبحانه لهم، وانفرادِه بإيجادِهم، وإدرارِ أرزاقِهم، وبَيانِ انفرادِه تعالى بذلك وهم على كُفرِهم. ولمَّا تقدَّمَ قبْلَ آيةِ (الأنبياءِ) مِن الأخبارِ ما طَيُّه وعيدٌ وترهيبٌ معَ تَلطُّفِه سُبحانه بهم بتَذكيرِهم، لم يكُنْ لِيُناسِبَ ذلك وُرودُ اسْمِه (الرَّحمنِ). أمَّا آيةُ (الشُّعراءِ) فمَبْنيَّةٌ على تأْنيسِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإعلامِه أنَّ توقُّفَ قومِه عن الإيمانِ إنَّما هو بقُدرتِه تعالى عليهم، ولو شاء لأراهم آيةً تُبْهِرُهم، ثمَّ رجَعَ الكلامُ إلى تَعنيفِ المُكذِّبينَ، فلمَّا كان بِناءُ الآيةِ على التَّأنيسِ والتَّلطُّفِ بِنَبيِّنا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإعلامِه بأنَّ تأْخيرَ العذابِ عنهم إنَّما هو إبقاءٌ منه تعالى؛ ليَسْتجيبَ مَن قُدِّرَ له الإيمانُ منهم، فأشار إلى هذا، وناسبَهُ اسْمُه (الرَّحمنُ)؛ فوضَحَ وُرودُ كلٍّ من الآيتينِ في مَوضعِه على يُناسِبُ[1]. وقيل غيرُ ذلك[2].

- قولُه: ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ فيه كِنايةٌ عن عدَمِ انتفاعِهم بالذِّكْرِ كلَّما جاءهم، بحيث لا يَزالونَ بحاجةٍ إلى إعادةِ التَّذكيرِ وإحداثِه، مع قطْعِ مَعذرتِهم؛ لأنَّه لو كانوا سَمِعوا ذِكْرًا واحدًا، فلم يَعْبؤوا به، لَانتَحَلوا لأنفُسِهم عُذرًا أنَّهم كانوا ساعتَئِذٍ في غَفلةٍ، فلمَّا تكرَّرَ حَدثانُ إتيانِهِ تبيَّنَ لكلِّ مُنصِفٍ أنَّهم مُعرِضون

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٦، ١٧٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٧٢).

عنه صَدًّا[١].

- وجُملةُ: ﴿ٱسۡتَمَعُوهُ﴾ حالٌ من ضَميرِ النَّصبِ في ﴿يَأۡتِيهِم﴾، وجُملةُ ﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ حالٌ لازمةٌ من ضَميرِ الرَّفعِ في ﴿ٱسۡتَمَعُوهُ﴾ مُقيِّدةٌ لجُملةِ ﴿ٱسۡتَمَعُوهُ﴾؛ لأنَّ جُملةَ ﴿ٱسۡتَمَعُوهُ﴾ حالٌ باعتبارِ أنَّها مُقيَّدةٌ بحالٍ أُخرى هي المقصودةُ من التَّقييدِ، وإلَّا لصارَ الكلامُ ثَناءً عليهم. وفائدةُ هذا التَّرتيبِ بين الجُملتينِ الحاليَّتينِ: الزِّيادةُ لقطْعِ مَعذرتِهم المُستفادِ من قولِه: ﴿مُّحۡدَثٍ﴾[٢].

- وقوله: ﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ ذُكِرَ (اللَّعِبُ) مُقَدَّمًا على (اللَّهوِ) في قوله: ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ﴾ كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ [مُحمَّد: ٣٦]؛ تنبيهًا على أنَّ اشتِغالَهم باللَّعِبِ -الذي معناه السُّخريةُ والاستِهزاءُ- معلَّلٌ باللَّهوِ، الذي معناه الذُّهولُ والغَفلةُ؛ فإنَّهم أقدَموا على اللَّعِبِ لِلَهْوِهم وُذهولِهم عن الحقِّ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ﴾ احتراسٌ لجُملةِ ﴿ٱسۡتَمَعُوهُ﴾، أي: استماعًا لا وعْيَ معه[٤]، وأفاد قولُه: ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ﴾ أنَّهم ذاهِلونَ غافِلونَ عن ذلك؛ فنَفى آخِرُ الكلامِ ما أثبَتَهُ أوَّلًا على سَبيلِ التَّوكيدِ؛ ليُؤْذِنَ بأنَّهم لمَّا لم يَنْتفِعوا بذلك الاستِماعِ والتَّفطُّنِ، حيث اسْتَهزؤوا بالذِّكْرِ، كأنَّهم لم يَفْطَنوا أصْلًا، وثَبَتوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢).

على رأْسِ غَفلتِهم[١].

- قولُه: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ...﴾ كَلامٌ مُستأْنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ جِناياتِهم خاصَّةً إثْرَ حِكايةِ جِناياتِهم المُعتادةِ[٢]، ويجوزُ أنْ تكونَ عطْفًا على جُملةِ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾؛ لأنَّ كِلْتا الجُملتينِ مَسوقةٌ لذِكْرِ أحوالِ تلقِّي المُشركينَ لدَعوةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتَّكذيبِ والبُهتانِ والتَّآمُرِ على رفْضِها[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ عبَّرَ بقولِه: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾، مع أنَّ النَّجوى الَّتي هي التَّناجي لا تكونُ إلَّا خُفْيةً ومُسارَّةً؛ وذلك لأنَّهم بالَغوا في إخفاءِ المُسارَّةِ، أو جَعَلوها بحيث لا يَفْطَنُ أحدٌ لتَناجِيهم، ولا يعلَمُ أنَّهم مُتناجُونَ. وعلى وجهِ إبدالِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من واوِ ﴿وَأَسَرُّواْ﴾؛ فيكونُ ذلك إشْعارًا بأنَّهم المَوسومونَ بالظُّلمِ الفاحشِ فيما أسَرُّوا به، ولزيادةِ تَقريرِ أنَّهم المقصودُ من النَّجوى، ولِمَا في الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من الإيماءِ إلى سبَبِ تَناجيهم بما ذُكِرَ، وأنَّ سبَبَ ذلك كُفْرُهم وظُلْمُهم أنفُسَهم، وللنِّداءِ على قُبْحِ ما هم مُتَّصِفون به. وعلى وجْهِ أنَّه مُبتدأٌ خبَرُه ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ فيكونُ قُدِّمَ عليه اهْتِمامًا به، أي: وهؤلاء أسَرُّوا النَّجوى؛ فوضَعَ المُظْهَرَ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ تَسجيلًا على فِعْلِهم بأنَّه ظُلْمٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣).

- قولُه: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ مفعولٌ لقولٍ مُضْمَرٍ هو جوابٌ عن سُؤالٍ نشَأَ عمَّا قبْلَه؛ كأنَّه قِيلَ: ماذا قالوا في نَجْواهم؟ فقيل: قالوا: ﴿هَلۡ هَٰذَآ ...﴾[1]، وهو استفهامٌ معناهُ التَّعجُّبُ والإنكارُ يَقْتضي أنَّهم خاطَبوا مَن قارَبَ أنْ يُصدِّقَ بنُبوَّةِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: فكيفَ تُؤمِنون بنُبوَّتِه وهو أحدٌ منكم؟! وإنكارُهم وتَعجُّبُهم مِن حيثُ كانوا يَرَون أنَّ اللهَ لا يُرسِلُ إلَّا مَلَكًا[2].

- قولُه: ﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ﴾ استفهامٌ معناه الإنكارُ والتَّوبيخُ، والفاءُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المَقامُ[3].

- قولُه: ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ أي: تأْتونَ السِّحرَ وبصَرُكم سليمٌ، وأرادوا به العِلْمَ البَديهيَّ، فعبَّروا عنه بالبصَرِ؛ لأنَّ المُبْصَراتِ لا يَحتاجُ إدراكُها إلى تَفكيرٍ[4]. وهذه الجُملةُ حالٌ من فاعلِ (تَأْتُونَ)، مُقرِّرةٌ للإنكارِ، ومُؤكِّدةٌ للاستبعادِ[5].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

- في قولِه: ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ لم يقُلْ: (يَعلَمُ السِّرَّ) مُوافقةً لقولِه: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾، وإنَّما أُوثِرَ القولُ المُنتظِمُ للسِّرِّ والجهْرِ على السِّرِّ؛ لإثباتِ عِلْمِه تعالى بالسِّرِّ على النَّهجِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٤).

البُرهانيِّ، مع ما فيه مِن الإيذانِ بأنَّ عِلْمَه تعالى بالسِّرِّ والجهْرِ على وَتيرةٍ واحدةٍ، لا تفاوُتَ بينهما بالجَلاءِ والخفاءِ قطْعًا كما في عُلومِ الخلْقِ، ولأنَّ القولَ عامٌّ يَشمَلُ السِّرَّ والجهْرَ، فكانَ في الإخبارِ بعلمِه القولَ عِلمُ السِّرِّ وزيادةٌ، وكان آكَدَ في الاطِّلاعِ على نَجواهُم مِن أنْ يقولَ: (يعلَمُ سِرَّهم)، ثمَّ بيَّنَ ذلك بأنَّه السَّميعُ العليمُ؛ فكيف تَخْفى عليه خافيةٌ؟! وقد تُرِكَ هذا الآكَدُ في سُورةِ (الفُرقانِ) في قولِه: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفرقان: ٦]؛ لأنَّه ليس بواجبٍ أنْ يَجِيءَ بالآكَدِ في كلِّ مَوضِعٍ، ولكنْ يَجِيءُ بالوكيدِ تارَةً وبالآكَدِ أُخْرى، كما يَجِيءُ بالحسَنِ في مَوضعٍ وبالأحْسنِ في غيرِه؛ لِيَفْتَنَّ في الكلامِ افْتِنانًا، وتُجْمَعَ الغايةُ وما دُونَها، على أنَّ أُسلوبَ تلك الآيةِ خِلافُ أُسلوبِ هذه، مِن قِبَلِ أنَّه قدَّمَ هاهنا أنَّهم أسَرُّوا النَّجوى، فكأنَّه أراد أنْ يقولَ: إنَّ ربِّي يَعلَمُ ما أسَرُّوهُ، فوضَعَ القولَ مَوضِعَ ذلك للمُبالَغةِ، وهناك في (الفُرقانِ) قصَدَ وصْفَ ذاتِه بأنْ أنزَلَه الَّذي يعلَمُ السِّرَّ في السَّمواتِ والأرضِ، فهو كقولِه: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾[1] [سبأ: ٣]. وقيل: لم يقُل: (يعلمُ السِّرَّ)؛ لمراعاةِ العِلمِ بأنَّ الذي قالوه مِن قَبيلِ السِّرِّ، وأنَّ إثباتَ عِلمِه بكلِّ قَولٍ يقتضي إثباتَ عِلمِه بالسِّرِّ وغَيرِه، بناءً على متعارَفِ النَّاسِ، وأمَّا قَولُه في سورة (الفرقان): ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفرقان: ٦] فلم يتقَدَّمْ قَبلَه ذِكرٌ للإسرارِ، وكان قَولُ الذين كفروا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ [الفرقان: ٤] صادِرًا منهم تارةً جهرًا وتارةً سِرًّا، فأعلمهم اللهُ باطِّلاعِه على سِرِّهم، ويُعلَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥).

منه أنَّه مطَّلِعٌ على جَهرِهم بطريقةِ الفَحوى[١].

- و(أل) في ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ للاستغراقِ، أي: يَعلَمُ كلَّ قولٍ في السَّماءِ والأرضِ من جَهْرٍ أو سِرٍّ؛ وبذلك كان هذا تَذييلًا[٢].

- وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه، مُتضمِّنٌ للوعيدِ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ جوابُ شَرْطٍ مَحذوفٍ، يُفصِحُ عنه السِّياقُ؛ كأنَّه قيلَ: وإنْ لم يكُنْ كما قُلْنا، بل كان رَسولًا مِنَ اللهِ تعالى، فلْيأتِنا بآيةٍ. ودخلَتْ لامُ الأمْرِ على فِعْلِ الغائبِ؛ لمَعْنى إبلاغِ الأمْرِ إليه، أي: فقُولوا له: ائتِنَا بآيةٍ[٤].

- والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ في مَوضعِ الحالِ من ضَميرِ ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾، أي: حالةُ كونِ هذا البشَرِ حين يأْتي بالآيةِ يُشبِهُ رِسالتُه رِسالةَ الأوَّلينَ، والمُشبَّهُ ذاتٌ والمُشبَّهُ به معنى الرِّسالةِ، وذلك واسعٌ في كَلامِ العربِ، وصِحَّةُ التشبيهِ مِن حيثُ إنَّ الإرسالَ يَتضمَّنُ الإتيانَ بالآيةِ. ويجوزُ أنْ يُحمَلَ النَّظمُ الكريمُ على أنَّه أُريدَ كلُّ واحدٍ من الإتيانِ والإرسالِ في كلِّ واحدٍ من طَرفَيِ التَّشبيهِ، لكنَّه تُرِكَ في جانبِ المُشبَّهِ ذِكْرُ الإرسالِ، وتُرِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في جانبِ المُشبَّهِ به ذِكْرُ الإتيانِ؛ اكتفاءً بما ذُكِرَ في كلِّ مَوطنٍ عمَّا تُرِكَ في الموطنِ الآخَرِ[١].

- وقيل: التعبيرُ في حقِّه بالإتيانِ، والعدولُ عن الظاهرِ فيما بعدَه إيماءٌ إلى أنَّ ما أتَى به مِن عندِه، وما أتَى به الأوَّلونَ مِن الله؛ ففيه تعريضٌ مناسبٌ لِما قبلَه مِن الافتراءِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٣، ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٦/ ٢٤٢).

الآيات (٦-١٠)

﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى: ما آمَنَ قبلَ كُفَّارِ مكَّةَ مِن أهلِ قَريةٍ اقتَرَحوا على رسُلِهم الآياتِ، ثمَّ كذَّبوا بها لَما جاءتهم، فأهلَكْناهم، أفيُؤمِنُ كُفَّارُ مكَّةَ إذا تحقَّقَت المُعجِزاتُ التي طَلَبوها؟

ثمَّ أجابَ اللهُ عن استِنكارِهم أن يكونَ الرَّسولُ بَشَرًا مِثلَهم، بأنَّ هذا هو العَهدُ دائِمًا مع الرُّسُلِ السَّابِقينَ، فقال: وما أرسَلْنا قَبلَك -يا محمَّدُ- إلَّا رِجالًا مِن البشَرِ لا مِن الملائكةِ، نُوحي إليهم. فاسألوا -يا كُفَّارَ مكَّةَ- أهلَ العِلمِ بالكُتُبِ المنَزَّلةِ السَّابِقةِ، إنْ كنتُم لا تعلَمونَ ذلك.

ثمَّ أكَّد الله تعالى حقيقةَ كونِ الرُّسلِ مِن البشرِ، فقال: وما جعَلْنا أولئك المُرسَلينَ قَبلَك أجسادًا لا يأكُلونَ الطَّعامَ، وما كانوا خالدينَ لا يموتونَ! ثمَّ صَدَقْنا الأنبياءَ وأتباعَهم ما وعَدْناهم به مِن النَّصرِ والنَّجاةِ، وإهلاكِ أعدائِهم المُسرِفينَ على أنفُسِهم بالكفرِ بالله وتكذيبِ رسلِه.

ثم بيَّن الله سبحانه أنَّ ما أنزَله على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم هو خيرُ الآياتِ، فقال: لقد أنزَلْنا إليكم هذا القُرآنَ فيه تذكيرٌ لكم بما فيه صلاحُكم، وفيه عزُّكم وشَرَفُكم في الدُّنيا والآخرةِ إنْ عَمِلتُم بما فيه، أفلا تَعقِلونَ أنَّ في القُرآنِ هدايتَكم لِما فيه صلاحُكم، وأنَّ فيه شَرَفَكم وعِزَّكم فتُؤمِنوا به وتتدبَّروه؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى أجاب عن قَولِ الكافرينَ: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ﴾ بِقَولِه[1]:

﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦ ﴾.

أي: ما آمنَ قَبلَ كفَّارِ قُرَيشٍ أهلُ القُرى مِن الأُمَمِ الماضيةِ الذين اقتَرَحوا على رسُلِهم الآياتِ ثمَّ كذَّبوا بها لَمَّا جاءتْهم، فأهلَكْنا تلك القُرى وجميعَ أهلِها، أفيُؤمِنُ كفَّارُ قُرَيشٍ إذا أتَتْهم مُعجِزةٌ ممَّا يَقتَرِحونَ[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى أجاب عن سؤالِ الكافرينَ الأوَّلِ، وهو قولُهم: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [الأنبياء: ٣]، بقَولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٨، ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)). ((ص: ٥١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧، ١٨).

فبيَّنَ أن هذه عادةُ الله تعالى في الرسُلِ مِن قَبلِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولم يمنَعْ ذلك من كونِهم رسلًا؛ للآياتِ التي أتَوْا بها، فإذا صَحَّ ذلك فيهم، فقد أتَى محمَّدٌ بمثلِ آياتِهم، فلا مقالَ عليه في كونِه بَشَرًا[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أوَّلًا أنَّ الآياتِ تكونُ سَبَبًا للهلاكِ، فلا فائدةَ في الإجابةِ إلى ما اقترَحه الكافِرونَ منها بعد بُطلانِ ما قَدَحوا به في القُرآنِ؛ بيَّن ثانيًا بُطلانَ ما قَدَحوا به في الرَّسولِ بكَونِه بَشَرًا، بأنَّ الرُّسُلَ الذين كانوا مِن قَبلِه كانوا -بإقرارِهم- مِن جِنسِه، فما لهم أن يُنكِروا رِسالَتَه وهو مِثلُهم؟! بل عليهم أن يَعتَرِفوا له عندما أظهَرَ مِن المُعجِزِ كما اعتَرَفوا لأولئك[2].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

أي: وما أرسَلْنا قبلك -يا محمَّدُ- من الأنبياءِ لأُمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا رِجالًا مِن البَشَرِ مِثلَهم، لا مِن الملائكةِ، فنُوحي إليهم ما نريدُ، فلماذا أنكَروا إرسالَنا لك إليهم، وأنت رجلٌ كسائِرِ الرسُلِ الذين أُرسِلوا قَبْلَك إلى أُمَمِهم[3]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩].

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: فاسألوا أهلَ العِلمِ بالكُتُبِ المنزَّلةِ مِن قبْلُ إنْ كنتُم لا تعلمونَ أنَّ كلَّ الأنبياءِ مِنَ البَشَرِ؛ لِيُخبِروكم بما يَعلَمونَه مِن كَونِ جَميعِ الأنبياءِ بَشَرًا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٩،٣٩٠).

لا ملائكةً[١].

﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم على سُنَّةِ مَن مضَى مِنَ الرُّسُلِ في كَونِه رَجُلًا؛ بيَّن أنَّه على سُنَّتِهم في جميعِ الأوصافِ التي حكَمَ بها على البَشَرِ مِنَ العَيشِ والمَوتِ، فقال[٢]:

﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾.

أي: وما جعَلْنا الأنبياءَ أجسادًا لا يأكُلونَ الطَّعامَ، بل كانوا بشرًا مِثلَك يأكلونَ الطَّعامَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ١١)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣٦٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨).

قال القرطبي: (وسماهم أهلَ الذكرِ؛ لأنهم كانوا يذكُرونَ خبَرَ الأنبياء ممَّا لم تعرِفْه العرب، وكان كفَّارُ قُريش يراجِعونَ أهلَ الكتابِ في أمرِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٩٠، ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٤).

وقال ابن عاشور: (الجسدُ: الجسمُ الذي لا حياةَ فيه، وهو يُرادفُ الجثةَ... وهذا ردٌّ لما يقولونَه: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧] مع قولِهم هنا: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩).

وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾.

أي: وما كان الأنبياءُ السَّابقونَ خالدينَ في الدُّنيا لا يموتونَ، بل كانوا بشرًا عاشُوا ثمَّ ماتوا، وإنَّما تميَّزوا عن النَّاس بما يأتيهم عن الله سُبحانَه مِن الوحيِ[(١)].

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾.

أي: ثمَّ صدَقْنَا رسُلَنا ما وعَدْناهم من إهلاكِ أعدائِهم الكافرينَ المكَذِّبينَ، ونَصْرِهم عليهم، فأنجَينا أولئك الرسُلَ وأتباعَهم الذين آمَنوا بهم مِن أممِهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

أي: وأهلَكْنا جميعَ الذين أسرَفوا على أنفُسِهم بالكُفرِ باللهِ، والإصرارِ على تكذيبِ رُسُلِ الله، فأبَدْناهم، ومحَوْنا ذِكْرَهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٧).=

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعدَ أن حَقَّق اللهُ رسالتَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ببَيانِ أنَّه كسائِرِ الرُّسُلِ الكِرامِ، شَرَع يحَقِّقُ فَضلَ القُرآنِ الكريمِ ويُبَيِّنُ نَفْعَه للنَّاسِ، بعد أن ذَكَر في صَدرِ السُّورةِ إعراضَ النَّاسِ عمَّا يأتيهم مِن آياتِه، واضطرابَهم في شأنِه[1].

وأيضًا لَمَّا تَوَعَّدَهم في الآيةِ السابقةِ؛ أعقبَ ذلك بوعدِه بنعمتِه عليهم، فقالَ[2]:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾.

أي: لقد أنزَلْنا إليكم قرآنًا فيه تذكيرٌ لكم بما فيه صلاحُكم، وفيه شَرَفُكم وعِزُّكم[3].

= قال ابن عطية: (المُسرِفونَ: الكُفَّارُ المُفرِطونَ في غَيِّهم وكُفرِهم، وكُلُّ مَن ترك الإيمانَ: مُفْرِطٌ مُسرِفٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٧/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢، ٢٣).

وممن اختار أنَّ الذِّكرَ هنا بمعنى الشَّرَف: ابنُ جرير، والسمرقندي، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن اختاره أيضًا: مقاتل بن سليمان، ويحيى بن سلام، والفراء، وابن قتيبة، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن جزي، والخازن، والثعالبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٠١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٠٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن جزي)) =

= (٢/ ١٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٢).

ونسَبه الرسعني للأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٩٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨٦).

قال السعدي: (﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: شرفُكم وفخرُكم وارتفاعُكم، إن تذكَّرْتُم به ما فيه مِن الأخبارِ الصادقةِ فاعتقدتموها، وامتثَلْتُم ما فيه مِن الأوامرِ، واجتَنَبْتُم ما فيه مِن النواهي، ارتفَع قدرُكم، وعظُم أمرُكم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٢).

وقال ابن عاشور: (ومجيئُه بِلُغَتِهم، وفي قومِهم، وبواسِطةِ واحِدٍ منهم، سُمْعَةٌ عظيمةٌ لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢).

وقيل: المرادُ: فيه تذْكِرةٌ لكم بما تلقونَه مِن رحمةٍ أو عذابٍ. قاله الزجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٨٥).

قال أبو السعود بعد أن ذكَر القولَ بأنَّ ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ معناه: موعظتُكم: (وهو الأنسبُ بسباقِ النظمِ الكريمِ وسياقِه؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إنكارٌ توبيخيٌّ فيه بعثٌ لهم على التدبرِ في أمرِ الكتابِ، والتأمُّلِ فيما في تضاعيفِه مِن فنونِ المواعظِ والزواجرِ التي مِن جملتِها القوارعُ السابقةُ واللاحقةُ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨).

وذكَر ابنُ عاشورٍ أنَّ الذِّكرَ يُطلَقُ على التَّذكيرِ بما فيه الصَّلاحُ، ويُطلقُ على السُّمعةِ والصِّيتِ. وأنَّه يصِحُّ هنا قَصدُ هذين المَعنيَينِ معًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢، ٢٣).

وقال العُليمي: (﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾: شرفُكم وما تحتاجونَ إليه مِن مصالحِ دينِكم ودنياكم). ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٤٤).

وقال البقاعي: (﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ طَوالَ الدَّهرِ بالخَيرِ إن أطعتُمْ، والشَّرِّ إن عصَيتُم، وبه شَرَفُكم على سائِرِ الأُمَمِ بشَرَفِ ما فيه مِن مكارِمِ الأخلاقِ التي كنتم تتفاخَرونَ بها، وبشَرَفِ نبيِّكم الذي تقولونَ عليه الأباطيلَ، وتُكثِرونَ فيه القالَ والقِيلَ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٩٣).

وقال الرازي: (﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ: أحدُها: ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ شَرَفُكم وصِيتُكم... وثانيها: المرادُ: فيه تذكرةٌ لكم؛ لتَحْذَروا ما لا يَحِلُّ، وتَرغبوا فيما يجبُ، ويكونُ المرادُ بالذِّكرِ الوعدَ والوعيدَ... وثالثُها: المرادُ: ذكرُ دينِكم، ما يلزمُ وما لا يلزمُ؛ لتَفوزوا بالجنَّةِ إذا تَمَسَّكْتُم به. وكلُّ ذلك مُحتملٌ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٣). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٥)، =

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

أي: أفلا تَعقِلونَ أنَّ في القُرآنِ شَرَفَكم، وهدايتَكم إلى ما فيه صلاحُكم، فتُؤمِنوا به، وتتدبَّروه وتَعمَلوا بما فيه[(١)]؟

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ عامٌّ في كلِّ مَسألةٍ مِن مَسائِلِ الدِّينِ -أصولِه وفُروعِه- إذا لم يكُنْ عندَ الإنسانِ عِلمٌ منها أن يسألَ مَن يَعلَمُها؛ ففيه الأمرُ بالتعَلُّمِ والسؤالِ لأهلِ العِلمِ، ولم يؤمَرْ بسُؤالِهم إلَّا لأنَّه يجِبُ عليهم التعليمُ والإجابةُ عمَّا عَلِموه[(٢)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ في تخصيصِ السُّؤالِ بأهلِ الذِّكرِ والعِلمِ نَهيٌ عن سؤالِ المعروفِ بالجَهلِ وعَدَمِ العلمِ، ونهيٌ له أن يتصَدَّى لذلك[(٣)].

= ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٣٩).

قال القرطبي: (المرادُ بالذِّكرِ هنا: الشَّرَفُ، أَي: فِيهِ شرفُكم؛ مثل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]... وقالَ مجاهدٌ: ﴿فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ أي: حديثُكم. وقِيل: مكارِمُ أخلاقِكم، ومحاسِنُ أعمالِكم. وقال سهلُ بنُ عبدِ اللهِ: العملُ بما فيه حياتُكم. قُلْتُ: وهذه الأقوالُ بمعنًى، والأوَّلُ يَعُمُّها؛ إذْ هي شَرَفٌ كلُّها، والكتابُ شرفٌ لنبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه معجزتُه، وهو شَرَفٌ لنا إنْ عمِلْنا بما فيه). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسر السعدي)) (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذه الآيةُ مِصداقُها ما وقع للمُؤمِنينَ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فالذين تذَكَّروا بالقُرآنِ مِن الصَّحابةِ فمَن بَعدَهم حصل لهم مِن الرِّفعةِ والعُلُوِّ الباهِرِ، والصِّيتِ العَظيمِ، والشَّرَفِ على الملوكِ- ما هو أمرٌ معلومٌ لكلِّ أحَدٍ، كما أنَّه معلومٌ ما حصل لِمَن لم يرفَعْ بهذا القرآنِ رأسًا، ولم يهتدِ به ويتزَكَّ به، مِن المقتِ والضَّعَةِ، والتَّدسِيةِ والشَّقاوة؛ فلا سبيلَ إلى سَعادةِ الدُّنيا والآخرةِ إلَّا بالتذَكُّرِ بهذا الكِتابِ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ إنَّما أمسَك اللهُ الآياتِ الخوارِقَ عن مُشرِكي مكَّةَ؛ لأنَّه أراد استبقاءَهم؛ ليكونَ منهم مؤمِنونَ، وتكونَ ذرِّيَّاتُهم حملةَ هذا الدِّينِ في العالَمِ، ولو أُرسِلَت عليهم الآياتُ البَيِّنةُ لكانت سُنَّةُ الله أن يَعقُبَها عذابُ الاستئصالِ للَّذينَ لا يُؤمِنونَ بها[(٢)].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ النِّساءَ ليس منهنَّ نبيَّةٌ، لا مريمَ ولا غيرَها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ حجَّةٌ في تثبيتِ خَبَرِ الواحِدِ؛ لأنَّ كلَّ واحِدٍ مِن المسؤولينَ مُخْبِرٌ عن ذلك على الانفرادِ، والحجَّةُ لازمةٌ على المُخْبَرِ بقَولِه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسر السعدي)) (ص:٥١٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٠٦).

٤- ما يُطلَبُ فيه الجَزمُ يُكتَفَى فيه بالجَزمِ، سواءٌ عن طريقِ الدَّليلِ أو عن طريقِ التَّقليدِ؛ فالإيمانُ باللهِ ومَلائِكَتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ، هذا ممَّا يجِبُ فيه الجَزمُ، ولكِنَّ العامِّيَّ لا يُدرِكُ ذلك بدَليلِه، ومع ذلك نُصَحِّحُ إيمانَه، ونقولُ: إنَّه مُؤمِنٌ، وإن كان لا يُدرِكُ ذلك بدَليلِه، والدَّليلُ قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ فإنَّ اللهَ تعالى أحال على سُؤالِ أهلِ العِلْمِ في مسألةٍ مِن مسائِلِ الدِّينِ التي يجبُ فيها الجَزمُ، وواضِحٌ أنَّنا نسألُهم لنأخُذَ بقَولِهم، ومعلومٌ أنَّ الإيمانَ بأنَّ الرسُلَ رِجالٌ هو مِن العَقيدةِ، ومعَ ذلك أحالَنا اللهُ فيه إلى أهلِ العِلْمِ[1]، ولأنَّ العامِّيَّ لا يتمَكَّنُ مِن مَعرفةِ الحَقِّ بأدلَّتِه، فإذا تعذَّرَ عليه مَعرِفةُ الحَقِّ بنَفْسِه، لم يبقَ إلَّا التقليدُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[2] [التغابن: ١٦].

٥- قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ فأُمِروا أن يَسْألوا أهلَ الكتابِ؛ إمَّا للإلْزامِ؛ فإنَّ المُشرِكينَ كانوا يُشاوِرونَهم في أمْرِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ويَثِقونَ بقولِهم، أو لأنَّ إخبارَ الجَمِّ الغفيرِ يُوجِبُ العِلْمَ، وإنْ كانوا كُفَّارًا؛ ففيه مِنَ الدَّلالةِ على كَمالِ وُضوحِ الأمْرِ، وقُوَّةِ شأْنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما لا يَخْفَى[3].

٦- لله تعالى حِكَمٌ في إبقاءِ أهلِ الكِتابَينِ بينَ أظهُرِنا؛ فإنَّهم مع كُفرِهم شاهِدونَ بأصلِ النبُوَّاتِ، والتوحيدِ، واليومِ الآخِرِ، والجنَّةِ والنَّارِ، وفي كُتُبِهم من البِشاراتِ بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وذِكرِ نُعوتِه وصفاتِه وصفاتِ أُمَّتِه-

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١١/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٧).

ما هو مِن آياتِ نبُوَّتِه وبراهينِ رِسالتِه، وما يشهَدُ بصِدقِ الأوَّلِ والآخِرِ، وهذه الحِكمةُ تختَصُّ بأهلِ الكِتابِ دونَ عَبَدةِ الأوثانِ؛ فبقاؤُهم مِن أقوَى الحُجَجِ على مُنكِرِ النبُوَّاتِ والمعادِ والتوحيدِ، وقد قال تعالى لمنكري ذلك: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ذكَرَ هذا عَقِبَ قَولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: سلُوا أهلَ الكِتابِ: هل أرسَلْنا قبل محمَّدٍ رِجالًا يُوحَى إليهم، أمْ كان محمَّدٌ بِدْعًا من الرسُلِ لم يتقَدَّمْه رسولٌ، حتى يكون إرسالُه أمرًا مُنكَرًا لم يَطرُقِ العالَمَ رَسولٌ قبلَه[1]؟!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذه الآيةُ ترشِدُنا إلى أن نَرجِعَ في كلِّ شَيءٍ إلى أهلِه الذين هم أهلُ الذِّكْرِ به[2].

٨- التقليدُ لا يُذَمُّ مُطلقًا، بل إنَّ التقليدَ في مَوضِعِه هو الواجبُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

٩- الاجتهادُ واجبٌ على مَن كان قادرًا عليه؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، والقادِرُ على الاجتهادِ يُمكِنُه مَعرِفةُ الحَقِّ بنَفسِه[4].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ هذه سيرتُه تعالى مع أنبيائِه، فكذلك يَصدُقُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه ما وعَدَهم به من

(١) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٧/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٦/ ٤٢٦).

النَّصرِ وظُهورِ الكَلِمةِ؛ فهذه عِدَةٌ للمُؤمِنينَ، ووعيدٌ للكافرينَ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ كَلامٌ مُستأنفٌ مَسوقٌ لتكذيبِهم فيما تُنْبِئُ عنه خاتِمةُ مقالِهم مِن الوعْدِ الضِّمنيِّ بالإيمانِ، وبَيانِ أنَّهم في اقتِراحِ تلك الآياتِ كالباحثِ عن حَتْفِه بظِلْفِه[٢]، وأنَّ في تَرْكِ الإجابةِ إليه إبقاءً عليهم. ومُتعلَّقُ ﴿ءَامَنَتۡ﴾ مَحذوفٌ دَلَّ عليه السِّياقُ، أي: ما آمنَتْ بالآياتِ قرْيةٌ. و(مِن) في قولِه: ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ مَزيدةٌ؛ لتأْكيدِ العُمومِ، ولتأْكيدِ النَّفيِ المُستفادِ مِن حرْفِ (ما) في ﴿مَآ ءَامَنَتۡ﴾[٣].

- ولفظةُ: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ وردَتْ مُستطردةً؛ للتَّعريضِ بالوعيدِ بأنَّ المُشرِكينَ أيضًا يترقَّبونَ الإهلاكَ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث ذُكِرَتِ القريةُ هنا مُرادًا بها أهْلُها؛ ليُبْنَى عليها الوصْفُ بإهلاكِها؛ لأنَّ الإهلاكَ أصاب أهْلَ القُرى وقُراهم؛ فلذلك قيلَ: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ دون (أهْلَكْناهم) كما في قولِه: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾[٥] [الكهف: ٥٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١١).

(٢) أي: السَّاعي إلى مَوتِه بقَدَمِه. وهو مَثَلٌ يُضرَبُ في طَلَبِ الشَّيءِ يُؤدِّي صاحِبَه إلى تَلَفِ نَفْسِه. والظِّلْفُ: للبَقَرةِ والشَّاةِ والظَّبيِ وشِبهِها بمنزلةِ القَدَمِ لنا، وهو مُستعارٌ هنا للإنسان. يُنظر: ((الأمثال)) للهاشمي (١/ ١٩٣)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٤/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٥، ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٨).

- والهمزةُ في قولِه: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لإنكارِ الوُقوعِ، والفاءُ للعطْفِ: إمَّا على مُقدَّرٍ دخلَتْه الهمزةُ؛ فأفادَتْ إنكارَ وُقوعِ إيمانِهم ونَفْيَه عَقِيبَ عدَمِ إيمانِ الأوَّلينَ، أي: إنَّه لم تُؤْمِنْ أُمَّةٌ مِن الأُمَمِ المُهلَكةِ عندَ إعطاءِ ما اقترَحوهُ مِن الآياتِ؛ أفهؤلاءِ يُؤمِنونَ لو أُجِيبُوا إلى ما سَأَلوا، وأُعْطوا ما اقترَحوا، مع كونِهم أعْتى منهم وأطْغَى؟! وإمَّا على ﴿مَآءَامَنَتْ﴾ على أنَّ الفاءَ مُتقدِّمةٌ على الهمزةِ في الاعتبارِ، مُفيدةٌ لترتيبِ إنكارِ وُقوعِ إيمانِهم على عدَمِ إيمانِ الأوَّلينَ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ...﴾ جَوابٌ لقولِهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، مُتضمِّنٌ لرَدِّ ما دَسُّوا تحتَ قولِهم: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ مِن التَّعرُّضِ بعدَمِ كونِه عليه السَّلامُ مثْلَ أولئك الرُّسلِ صَلواتُ اللهِ تعالَى عليهم أجمعينَ؛ ولذلك قُدِّمَ عليه جَوابُ قولِهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾، ولأنَّهم قالوا ذلك بطَريقِ التَّعجيزِ؛ فلا بُدَّ من المُسارَعةِ إلى رَدِّهِ وإبطالِه، ولأنَّ في هذا الجوابِ نَوعَ بسْطٍ يُخِلُّ تَقديمُه بتَجاوُبِ أطْرافِ النَّظمِ الكريمِ[2].

- قولُه: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لكَيفيَّةِ الإرسالِ، وصِيغةُ المُضارعِ لِحكايةِ الحالِ الماضيةِ المُستمِرَّةِ، وحُذِفَ المفعولُ؛ لعدَمِ القصْدِ إلى خُصوصِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٦).

- قولُه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بينَ الجُمَلِ المُتعاطِفَةِ. وتَوجيهُ الخِطابِ لهم بعْدَ أُسلوبِ الغَيبةِ الْتِفاتٌ، ونُكتَتُه: أنَّ الكلامَ لمَّا كان في بَيانِ الحقائقِ الواقعةِ؛ أعرَضَ عنهم في تَقريرِه، وجُعِلَ مِن الكلامِ المُوجَّهِ إلى كلِّ سامعٍ، وجُعِلوا فيه مُعبَّرًا عنهم بضَمائرِ الغَيبةِ، ولمَّا أُرِيدَ تَجْهيلُهم وإلْجاؤُهم إلى الحُجَّةِ عليهم غُيِّرَ الكلامُ إلى الخِطابِ؛ تَسجيلًا عليهم، وتَقريعًا لهم بتَجهيلِهم[1]؛ ففي قولِه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ تلْوينٌ للخِطابِ وتَوجيهٌ له إلى الكَفرةِ؛ لتَبكيتِهم واستِنْزالِهم عن رُتْبةِ الاستبعادِ والنَّكيرِ إثْرَ تَحقيقِ الحقِّ على طَريقةِ الخِطابِ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه الحَقيقُ بالخطابِ في أمْثالِ تلك الحقائقِ الأنيقةِ، والفاءُ في ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ﴾ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها[2].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ جَوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ؛ ثِقَةً بدَلالةِ المذكورِ عليهِ، أي: إنْ كُنْتُم لا تَعْلَمونَ ما ذُكِرَ، فاسْألوا -أيُّها الجَهلةُ- أهلَ الكتابِ الواقفينَ على أحوالِ الرُّسلِ السَّالفةِ عليهم الصَّلواتُ؛ لِتَزولَ شُبْهتُكم[3].

- وأمْرُهم أنْ يَسْألوا أهْلَ الذِّكْرِ فيه تَعريضٌ بجَهْلِهم، وفضْحُ خَطَئِهم[4].

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾

- في قولِه: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا﴾ وحَّدَ الجسَدَ؛ لإرادةِ الجنْسِ. وقيل: بتَقديرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨، ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨).

المُضافِ، أي: ذَوِي جسَدٍ[١]، وذِكْرُه يُفِيدُ التَّهكُّمَ بالمُشرِكينَ؛ لأنَّهم لمَّا قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧]، وسَأَلوا أنْ يأتِيَ بما أُرْسِلَ به الأوَّلونَ، كان مُقْتَضَى أقوالِهم أنَّ الرُّسلَ الأوَّلينَ كانوا في صُوَرِ الآدميِّينَ، لكنَّهم لا يأْكُلون الطَّعامَ -وأكْلُ الطَّعامِ مِن لَوازمِ الحياةِ- فلَزِمَهم لمَّا قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ أنْ يَكونوا قائلينَ بأنَّ شأْنَ الرُّسلِ أنْ يكونوا أجسادًا بلا أرواحٍ، وهذا من السَّخافةِ بمَكانةٍ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ تأكيدٌ وتَقريرٌ لِمَا قبْلَه؛ فإنَّ التَّعيُّشَ بالطَّعامِ مِن تَوابعِ التَّحليلِ المُؤدِّي إلى الفَناءِ[٣]، وهو زِيادةُ استدلالٍ لتَحقيقِ بشَرِيَّتِهم؛ استدلالًا بما هو واقِعٌ مِن عدَمِ كَفاءةِ أولئك الرُّسلِ كما هو معلومٌ بالمُشاهَدةِ لقطْعِ مَعاذيرِ الضَّالِّينَ، فإنْ زَعَموا أنْ قد كان الرُّسلُ الأوَّلونَ مُخالِفينَ للبشَرِ؛ فماذا يَصْنعون في لَحَاقِ الفَناءِ إيَّاهم؟ فهذا وجْهُ زِيادةِ ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾[٤].

- وأُتِيَ في نفْيِ الخُلودِ عنهم بصِيغَةِ (ما كانوا)؛ تَحقيقًا لِتَمكُّنِ عدَمِ الخُلودِ منهم[٥]. وفي إيثارِ(مَا كَانُوا) على (ما جَعَلْناهم) تَنبيهٌ على أنَّ عدَمَ الخُلودِ مُقْتضى جِبِلَّتِهم الَّتي أُشِيرَ إليها بقولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ...﴾، لا بالجَعْلِ المُستأنَفِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور))، (١٧/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩، ٢٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٧).

٤- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ الكلامُ مَسوقٌ مَساقَ التَّنويهِ بالرُّسلِ الأوَّلينَ، وهو تَعريضٌ بوَعيدِ الَّذين قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾، وفي هذا تَقريعٌ للمُشرِكينَ، أي: إنْ كان أعجَبَكم ما أتَى به الأوَّلونَ، فسألْتُم مِن رَسولِكم مثْلَه، فإنَّ حالَكم كحالِ الَّذين أُرْسِلوا إليهم، فترَقَّبوا مثْلَ ما نزَلَ بهم، ويترقَّبُ رسولُكم مثْلَ ما لقِيَ سلَفُه[١].

- وقولُه: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ ...﴾ عطْفٌ على ما يُفْهَمُ من حِكايةِ وَحْيِه تعالى إليهم على الاستمرارِ التَّجدُّديِّ؛ كأنَّه قيل: أوحَيْنا إليهم ما أوحَيْنا، ثمَّ صَدَقْناهم في الوعْدِ الَّذي وعَدْناهم في تَضاعيفِ الوحْيِ بإهلاكِ أعدائِهم[٢]. أو مَعطوفةٌ على الجُمَلِ السَّابقةِ، و(ثُمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ، والمعنى: وأهَمُّ ممَّا ذُكِرَ أنَّا صَدَقْناهم الوعْدَ، فأنْجَيناهم وأهلَكْنا الَّذين كذَّبُوهم. ومَضمونُ هذا أهَمُّ في الغرضينِ: التَّبشيرِ والإنذارِ؛ فالتَّبشيرُ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ بأنَّ اللهَ صادِقُه وعْدَه من النَّصرِ، والإنذارُ لمَن ماثَلَ أقوامَ الرُّسلِ الأوَّلينَ[٣]. وقيل: أشارَ بأداةِ التَّراخِي (ثُمَّ) إلى أنَّهم طالَ بلاؤُهم بهم، وصبرُهم عليهم، ثم أحلَّ بهم سطوتَه، وأراهم عظَمتَه[٤].

- والإتيانُ بصِيغةِ المُستقبَلِ في قولِه: ﴿نَّشَآءُ﴾ احتباكٌ[٥]، والتَّقديرُ: فأنْجَيْناهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٩٨).

(٥) الاحْتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

ومَن شِئْنَا، ونُنَجِّي رَسولَنا ومَن نشاءُ منكم، وهو تأْميلٌ لهم أنْ يُؤْمِنوا؛ لأنَّ مِن المُكذِّبينَ يومَ نُزولِ هذه الآيةِ مَن آمَنوا فيما بعْدُ إلى يومِ فتْحِ مكَّةَ. وهذا من لُطْفِ اللهِ بعِبادِه في تَرغيبِهم في الإيمانِ، ولم يَقُلْ: (ونُهْلِكُ المُسرِفينَ)، بل عاد إلى صِيغَةِ المُضِيِّ الَّذي هو حِكايةٌ لِما حَلَّ بالأُمَمِ السَّالفةِ، وبقِيَ المقصودُ مِن ذِكْرِ الَّذين أُهْلِكوا، وهو التَّعريضُ بالتَّهديدِ والتَّحذيرِ أنْ يُصِيبَهم مثْلُ ما أصابَ أولئك مع عدَمِ التَّصريحِ بالوعيدِ[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَحقيقِ حَقِّيَّةِ القُرآنِ العظيمِ، وبَيانِ عُلوِّ رُتْبتِه، إثْرَ تَحقيقِ رِسالتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقد صُدِّرَ بالتَّوكيدِ القسَميِّ؛ إظهارًا لمَزيدِ الاعتناءِ بمَضمونِه، وإيذانًا بكونِ المُخاطَبينَ في أقْصَى مَراتبِ النَّكيرِ[2]. وقيل: استئنافُ جَوابٍ عن قولِهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾، بإيقاظِهم إلى أنَّ الآيةَ الَّتي جاءتْهم هي أعْظَمُ مِن الآياتِ الَّتي أُرْسِلَ بها الأوَّلونَ، وتجْهيلًا لألْبابِهم، ولقصْدِ هذا الإيقاظِ صُدِّرتِ الجُملةُ بما يُفيدُ التَّحقيقَ من لامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ ﴿لَقَدْ﴾، وجَعْلِ إنزالِ الكتابِ إليهم، كما اقتضَتْه تَعْديةُ فِعْلِ ﴿أَنزَلْنَآ﴾ بحرْفِ (إلى) شأْنَ تَعديةِ فِعْلِ الإنزالِ أنْ يكونَ المجرورُ بـ (إلى) هو المُنزَّلُ إليه؛ فجَعْلُ الإنزالِ إليهم؛ لكونِهم بمَنزلةِ مَن أُنْزِلَ إليه؛ نظَرًا إلى أنَّ الإنزالَ كان لأجْلِهم ودَعوتِهم، وذلك أبلَغُ مِن أنْ يُقالَ: (لقد أنزَلْنا لكم)[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١، ٢٢).

- وقولُه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ فيه تَحريضٌ، ثمَّ أكَّدَ التَّحريضَ بقولِه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وحرَّكَهم بذلك إلى النَّظرِ[١].

- ونَكَّرَ ﴿كِتَٰبًا﴾ للتَّعظيمِ؛ إيماءً إلى أنَّه جمَعَ خَصلتينِ عَظيمتينِ: كونَه كِتابَ هُدًى، وكونَه آيةً ومُعجزةً للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لا يَستطيعُ أحَدٌ أنْ يأتِيَ بمثْلِه أو مُدانِيه[٢].

- وجُملةُ: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ صِفَةٌ لـ﴿كِتَٰبًا﴾ مُؤكِّدةٌ لِما أفادَهُ التَّنكيرُ التَّفخيميُّ من كونِه جليلَ المِقدارِ، بأنَّه جَميلُ الآثارِ، مُستجلِبٌ لهم منافعَ جليلةً، أي: فيه شرَفُكم وَصِيتُكم[٣].

- وقولُه: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ الذِّكْرُ يُطْلَقُ على التَّذكيرِ بما فيه الصَّلاحُ، ويُطْلَقُ على السُّمعةِ والصِّيتِ. وقد أُوثِرَ هذا المصدَرُ هنا، وجُعِلَ مُعرَّفًا بالإضافةِ إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ؛ ليكونَ كَلامًا مُوجَّهًا، فيَصِحَّ قصْدُ المَعنيينِ معًا من كَلمةِ (الذِّكْرِ) بأنَّ مَجِيءَ القُرآنِ مُشتمِلًا على أعظَمِ الهُدى؛ هو تَذكيرٌ لهم بما به نِهايةُ إصلاحِهم، ومَجيئُه بلُغَتِهم، وفي قومِهم، وبواسطةِ واحدٍ منهم؛ سُمْعةٌ عظيمةٌ لهم، وعلى المعنيينِ يكونُ لتَفريعِ قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أحسَنُ مَوقعٍ؛ لأنَّ الاستفهامَ الإنكاريَّ لنفْيِ عَقْلِهم مُتَّجِهٌ على كِلا المعنيينِ؛ فإنَّ مَن جاءهُ ما به هدْيُه، فلم يَهتَدِ، يُنْكَرُ عليه سُوءُ عقْلِه، ومَن جاءهُ ما به مَجْدُه وسُمْعَتُه، فلم يَعبَأْ به، يُنْكَرُ عليه سُوءُ قَدْرِه للأمورِ حَقَّ قدْرِها، كما يكونُ الفضْلُ في مثْلِه مُضاعَفًا. وأيضًا فهو مُتفرِّعٌ على الإقناعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨).

بإنزالِ القُرآنِ آيةً تفوقُ الآياتِ الَّتي سَأَلوا مثْلَها، وهو المُفادُ من الاستئنافِ، ومِن تأْكيدِ الجُملةِ بالقسَمِ وحرْفِ التحقيقِ (قد)[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢).

الآيات (١١-١٨)

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَصَمْنَا﴾: أي: أهلَكْنا وكَسرْنا، وأصلُ القَصْمِ: الكَسرُ[١].

﴿يَرْكُضُونَ﴾: أي: يَفِرُّونَ، ويَهرُبونَ مُسرِعينَ، وأصلُ (ركض): يدُلُّ على تَحريكِ الرِّجلَينِ[٢].

﴿مَآ أُتْرِفْتُمْ﴾: أي: نُعِّمْتُم وبَقيتُم في المُلكِ، وأصلُ (ترف): يدلُّ على توسُّعٍ في النِّعمةِ[٣].

﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾: الويلُ: الهلاكُ والعذابُ، ويُطلَقُ كذلك على حُلولِ الشرِّ، وقد يُستعمَلُ في التَّحسُّرِ. وقيلَ: الوَيلُ: وادٍ في جَهَنَّمَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٨/ ٣٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، =

﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾: أي: دُعاؤُهم، وقولُهم، وكلامُهم؛ فالدَّعوى تُطلَقُ على: الادِّعاءِ والدُّعاءِ والقَولِ كذلِك، وأصلُ (دعو): أنْ يُمِيلَ الشَّخصُ الشَّيءَ إليه بصَوتٍ وكَلامٍ يكونُ منه[١].

﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾: أي: هالكينَ لم تبقَ منهم بقيَّةٌ، وأصلُ (حصد): يدُلُّ على قَطعِ الشَّيءِ، وأصلُ (خمد): يَدُلُّ على سُكونِ الحركةِ[٢].

﴿لَّدُنَّآ﴾: أي: عندِنا، وقيل: (لَدُنْ) أخصُّ مِن (عند) وأبلغُ[٣].

﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾: أي: يُذهِبُه، ويُبطِلُه، وأصلُ هذا إصابةُ الرأسِ والدِّماغِ بالضَّربِ، وهو مَقتَلٌ[٤].

= ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٤).

قال الراغب: (ومَن قال: «ويلٌ»: وادٍ في جهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ «ويلًا» في اللغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد مَن قال الله تعالى ذلك فيه فقد استحقَّ مقرًّا مِن النَّارِ، وثبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٧، ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧١، ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٨)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٦).

﴿زَاهِقٌ﴾: أي: زائلٌ، ذاهِبٌ، هَالِكٌ، وأصلُ (زهق): يدُلُّ على مُضِيٍّ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وكثيرٌ من القرَى كان أهلُها ظالِمينَ لكُفرِهم باللهِ وبما جاءَتْهم به رسُلُهم، فأهلَكْناهم، وأوجَدْنا بَعدَهم قومًا آخرينَ سِواهم، فلمَّا رأى هؤلاء الظَّالِمونَ عَذابَنا نازِلًا بهم، وشاهَدوا بوادِرَه؛ إذا هم يُسرِعونَ هاربينَ مِن قَريتِهم. فنُودوا في هذه الحالِ: لا تَهرَبوا وارجِعوا إلى النِّعَمِ التي كُنتم فيها ومَساكِنِكم المشيَّدةِ؛ لعلَّكم تُسأَلونَ. فقالوا مُعتَرِفين بجُرمِهم: يا وَيْلَنا! إنَّا ظَلَمْنا أنفُسَنا بكُفرِنا بالله، وتَكذيبِنا رُسُلَه. فما زالت تلك المقالةُ -وهي الدُّعاءُ على أنفُسِهم بالويلِ والهلاكِ، والاعترافُ بالظُّلمِ- دَعوَتَهم يرَدِّدونَها حين نزلَ بهم العذابُ، حتى جَعَلْناهم موتى كالزَّرعِ المحصودِ، خامِدينَ لا حياةَ فيهم؛ فاحذَروا -أيُّها المُخاطَبونَ- أن تستَمِرُّوا على تكذيبِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيَحِلَّ بكم ما حَلَّ بالأُمَمِ قَبْلَكم!

ثمَّ ذكَر الله سبحانَه ما يدُلُّ على قدرتِه ووحدانيَّتِه، فقال: وما خلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بينهما عَبَثًا وباطِلًا، بل لإقامةِ الحُجَّةِ عليكم، ولِتَعتَبِروا بذلك كُلِّه، فتَعلَموا أنَّ الذي خلَقَ ذلك لا تَصلُحُ العبادةُ إلَّا له.

لو أرَدْنا -على سبيلِ الفرضِ المحالِ- أن نتَّخِذَ زوجةً وولدًا، لاتَّخَذْناه مِن عِندِنا لا مِن عِندِكم، إنْ كُنَّا فاعلينَ ذلك، ولكِنْ لا يليقُ بنا فِعلُه ولا ينبغي.

بل نُلقي بحُجَجِ القرآنِ على الباطِلِ، فيَدحَضُه فإذا هو ذاهِبٌ مُضمَحِلٌّ. ولكم العذابُ والهَلاكُ -أيُّها المُشرِكونَ- بسببِ كذبِكم وافترائِكم على الله تعالى.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٣).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا رَدَّ اللَّهُ تعالَى عليهم ما قالوه؛ بالَغ تعالى في زَجْرِهم بذِكرِ ما أهلَك مِن القُرَى[1]، فقال:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾.

أي: وكثيرٌ مِن القُرى الماضيةِ أهلَكْناها وأهلَها المُشرِكينَ؛ لكُفرِهم باللهِ، وتكذيبِهم رُسُلَه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

أي: وأوجَدْنا بعدَ إهلاكِهم أُمَّةً أُخرَى سِواهم[3].

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٧، ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥).

أي: فلمَّا رأَى هؤلاءِ الظَّالِمونَ عَذابَنا نازلًا بهم ووجَدوا مسَّه، إذا هم يَهرُبونَ مِن قَريتِهم مُسرعينَ(١).

﴿لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ١٣﴾.

أي: لا تَرْكُضوا هاربينَ مِن العذابِ، وارجِعوا إلى النِّعَمِ التي كُنتم فيها وبُيوتِكم التي سَكَنْتُم فيها؛ لعلَّكم تُسألُونَ(٢).

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٩٤، ٣٩٥).

قال البقاعي: (﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ أي: أدرك أهلُها بحواسِّهم). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥).

قال أبو السعود: (قيل لهم بلِسانِ الحال أو بلِسانِ المقالِ مِن الملَكِ أو ممَّن ثمَّةَ من المؤمنينَ بطريق الاستهزاءِ والتوبيخِ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨).

وفي معنى ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾ أقوالٌ:

فقيل: المعنى: لعلَّكم تُسألونَ شَيئًا من دنياكم؛ استهزاءً بهم. وممن قال بهذا المعنى: يحيى بنُ سلَّامٍ، والواحدي، والسمعاني، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والخازنُ، والعليمي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٠١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٤٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٦).

وقيل: المعنى: لعلَّكم تُسألون عمَّا كنتم فيه مِن أداءِ شُكرِ النِّعمةِ. وممن قال بذلك: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥).

وقيل: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾ أي: تُقصَدونَ للسُّؤالِ والتشاوُرِ والتدبير في المهمَّات، وهذا على طريقةِ التهَكُّم بهم والتوبيخِ لهم. وممن قال بذلك: الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٣).

أي: قال أولئك الكفَّارُ حينَ نزَل بهم العَذابُ مُعترِفينَ بذُنوبِهم نادِمينَ: يا وَيْلَنا! إنَّا كنَّا ظالمينَ لأنفُسِنا بكُفرِنا بالله، وتكذيبِنا رُسُلَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۞ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤، ٥].

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: فما زال الكفَّارُ حينَ نزَل بهم العذابُ يُكَرِّرونَ قَولَهم: يا وَيلَنا إنَّا كُنَّا ظالِمينَ، حتى أهلَكْناهم واستَأصَلْناهم، فجَعَلْناهم موتَى كالزَّرعِ الذي استُؤصِلَ، قد خَمَدت منهم الحَرَكاتُ، وسَكَنَت منهم الأصواتُ كما تُخمَدُ النَّارُ فتُطفَأُ؛ فاحذَروا -أيُّها المُخاطَبونَ- أن تَستَمِرُّوا على تكذيبِ رَسولِكم فيَحِلَّ بكم مِثلُ ما حلَّ بأولئك القَومِ[2].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

في تعلُّقِ هذه الآيةِ بما قبلَها وجهان:

الأولُ: أنه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى إهلاكَ أهلِ القَريةِ لأجْلِ تَكذيبِهم؛ أتبَعَه بما يدُلُّ على أنَّه فَعَل ذلك عَدلًا منه، ومجازاةً على ما فَعَلوا.

الثاني: أنَّ الغَرَضَ منه تقريرُ نبُوَّةِ محمَّدٍ صَلَّى الله عليه وسلم، والردُّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨).

مُنكِريه؛ لأنَّه أظهَرَ المُعجِزةَ عليه، فإنْ كان محمَّدٌ كاذِبًا كان إظهارُ المعجزةِ عليه مِن بابِ اللَّعِبِ، وذلك منفيٌّ عنه، وإنْ كان صادِقًا فهو المطلوبُ، وحينئذ يفسُدُ كُلُّ ما ذَكَروه مِن المطاعِنِ[١].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦﴾.

أي: وما خلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بينَهما مِن المخلوقاتِ عَبَثًا وباطِلًا، بل خلَقْناها ليتفَكَّرَ النَّاسُ فيها، فيَستَدِلُّوا بها على عَظيمِ صِفاتِ خالِقِها، واستِحقاقِه للعبادةِ، فيَعلَموا أنَّ الذي دَبَّرَها وخَلَقَها لا يُشبِهُه شَيءٌ، وأنَّه لا تكونُ الألوهيَّةُ إلَّا له، ولا تصلُحُ العبادةُ لِشَيءٍ سِواه، وأنَّ القادِرَ على خَلقِها مع سَعَتِها وعِظَمِها قادِرٌ على إعادةِ الأجسادِ بعدَ مَوتِها؛ ليجازيَ المُحسِنَ بإحسانِه، والمُسيءَ بإساءتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨- ٣٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٤، ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠).

﴿ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا نفَى عن نَفْسِه اللَّعِبَ؛ أتبَعَه دَليلَه، فقال تعالى[1]:

﴿ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧ ﴾.

أي: لو أرَدْنا -على سَبيلِ الفَرضِ والتَّقديرِ المُحالِ- أن نتَّخِذَ زوجةً وولدًا، لاتَّخَذْنا ذلك مِن عِندِنا، إنْ كُنَّا فاعلينَ ذلك، ولكِنْ لا يليقُ بنا فِعلُه ولا ينبغي[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٠٥)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠).

قال الماوردي: (قوله تعالى: ﴿ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا ﴾ فيه ثلاثةُ تأويلاتٍ: أحدُها: ولدًا، قاله الحسنُ. الثاني: أنَّ اللهوَ النساءُ، قاله مجاهدٌ. وقال قتادةُ: اللهوُ بلغةِ أهلِ اليمنِ: المرأةُ. قال ابنُ جريج: لأنَّهم قالوا: مريمُ صاحبتُه، وعيسى ولدُه! الثالث: أنَّه اللهوُ الذي هو داعي الهوى، ونازعُ الشهوةِ). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٤٠).

وممن اختار أنَّ المرادَ باللهوِ الولدُ: مقاتلُ بنُ سليمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣).

وممن قال مِن السلفِ بهذا القولِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه، وعكرمةُ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨٧).

وقال ابن جزي: (و﴿مِن لَّدُنَّآ ﴾: أي: مِن الملائكةِ، فالمعنَى على هذا: لو أرَدْنا أن نتَّخِذَ ولدًا لاتَّخَذْناه مِن الملائكةِ، لا مِن بني آدمَ، فهو ردٌّ على مَن قال: إنَّ المسيحَ ابنُ الله، وعُزَيرًا ابنُ الله). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩).

وممن اختار أنَّ المرادَ باللهوِ النساءُ: الواحدي، والسمعاني، والبغوي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٥).

وقال البغوي: (وهو في المرأةِ أظهرُ؛ لأنَّ الوطءَ يُسمَّى لهوًا في اللغةِ، والمرأةُ محلُّ الوطءِ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٥). =

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾.

أي: ولكِنَّنا نُلقي بحُجَجِ القرآنِ على الباطِلِ، فيَذهَبُ ويَضمَحِلُّ، فلا نعمَلُ عَمَلًا يكونُ باطِلًا ولَعِبًا ولَهوًا[1].

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۞ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٨- ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا

= وممن جمَع بينَ القولينِ: ابنُ قتيبةَ، وابنُ جريرٍ، والعُليمي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٤٦).

وذكر ابنُ كثيرٍ أنَّ القولينِ متلازمانِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥).

قال ابن قتيبة: (قال قتادة والحَسَنُ: اللَّهوُ: المرأةُ، وقال ابنُ عبَّاسٍ: هو الولَدُ. والتفسيرانِ مُتقاربان؛ لأنَّ امرأةَ الرجُلِ لَهوُه، وولَدَه لَهوُه... وتأويل الآية: أنَّ النَّصارى لَمَّا قالت في المَسيحِ وأمِّه ما قالت؛ قال الله جلَّ وعزَّ: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾، أي: صاحِبةً وولَدًا، كما يقولونَ، لاتَّخَذْنا ذلك من لدُنَّا). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٠٤). واستحسنه الواحديُّ في ((الوسيط)) (٣/ ٢٣٢).

وقال ابن تيميَّة: (أي: لاتخَذْنا ذلك عندَنا لا عِندَكم؛ لأنَّ زوجةَ الرجُلِ وولدَه يكونانِ عندَه بحَضرتِه، لا عندَ غيرِه). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ٤٠٥).

وممن قال به من السَّلَفِ: ابنُ جُريجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٩).

وقيل: المعنى: لو أرَدْنا أن نَتَّخِذَ ما يُتَلهَّى به ويُلعَبُ. وممن اختاره: البيضاوي، والطِّيبي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٩٩، ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣، ٣٤).

ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

أي: ولكم العَذابُ والهَلاكُ -أيُّها المُشرِكونَ- بسَبَبِ ما تكذِبونَ وتفترونَ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ عَقَّب به ذِكرَ القَومِ المُهلَكينَ، والمقصودُ مِن ذلك إيقاظُ العُقولِ إلى الاستِدلالِ بما في خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ وما بينهما مِن دقائِقِ المُناسَباتِ، وإعطاءِ كُلِّ مَخلوقٍ ما به قِوامُه، فإذا كانت تلك سُنَّةَ الله في خَلقِ العوالِمِ ظَرفِها ومَظروفِها، استُدِلَّ بذلك على أنَّ تلك السُّنَّةَ لا تتخلَّفُ في ترتُّبِ المسَبَّباتِ على أسبابِها فيما يأتيه جِنسُ المكَلَّفينَ مِن الأعمالِ، فإذا ما لاحَ لهم تخَلُّفُ سَبَبٍ عن سَبَبِه، أيقَنوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠).

قال ابن جرير: (ولكُمُ الوَيلُ مِن وَصفِكم ربَّكم بغيرِ صِفَتِه، وقيلِكم: إنَّه اتخَذَ زَوجةً وولَدًا، وفِريَتِكم عليه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهلُ التأويل، إلَّا أنَّ بَعضَهم قال: معنى ﴿تَصِفُونَ﴾: تَكذِبونَ. وقال آخرون: معنى ذلك: تُشرِكون. وذلك وإن اختَلَفت به الألفاظُ فمُتَّفِقةٌ معانيه؛ لأنَّ مَن وصف اللهَ تعالى بأنَّ له صاحبةً، فقد كذبَ في وصفِه إيَّاه بذلك، وأشرَكَ به، ووصَفَه بغير صِفَتِه. غيرَ أنَّ أَولى العبارات أن يعبَّرَ بها عن معاني القرآنِ أقرَبُها إلى فَهمِ سامعيه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤١).

وقال البِقَاعي: (﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: مِن وَصْفِكم لكُلِّ شَيءٍ بما تهوى أنفسُكم، من غيرِ إذنٍ مِنَّا لكم؛ لأنَّكم لا تَقِفونَ على حقائِقِ الأمور، فإن وصفتُم القرآنَ بشَيءٍ مِمَّا تقدَّمَ، ثمَّ قَذَفْنا عليه بما يبَيِّنُ بُطلانَه، بانَ لكلِّ عاقلٍ أنَّه يجِبُ عليكم أن تُنادِمُوا الويلَ بمَيلِكم كلَّ المَيلِ، وإنْ وَصفتُم اللهَ أو الدنيا أو غيرهما، فكذلك إنما أنتم متعَلِّقونَ بقُشورٍ وظواهِرَ لا يرضاها إلَّا بعيدٌ عن العقلِ، مَحجوبٌ عن الإدراكِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٠٠).

أنَّه تخَلُّفٌ مُؤَقَّتٌ، فإذا عَلَّمَهم اللهُ على لسانِ شرائِعِه بأنَّه ادَّخَر الجَزاءَ الكامِلَ على الأعمالِ إلى يومٍ آخِرٍ؛ آمَنوا به، وإذا عَلَّمهم أنَّهم لا يفوتونَ ذلك بالموتِ، بل إنَّ لهم حياةً آخِرةً، وأنَّ اللهَ باعِثُهم بعد الموتِ؛ أيقنوا بها، وإذا عَلَّمَهم أنَّه رُبَّما عَجَّلَ لهم بعضَ الجزاءِ في الحياةِ الدُّنيا؛ أيقَنوا به؛ ولذلك كَثُرَ تَعقيبُ ذِكرِ نِظامِ خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ بذِكرِ الجَزاءِ الآجِلِ والبَعثِ، وإهلاكِ بَعضِ الأُمَمِ الظَّالِمةِ، أو تعقيبُ ذِكرِ البَعثِ والجزاءِ الآجِلِ والعاجِلِ بذِكرِ نِظامِ خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ[(١)].

٢- ينبغي للإنسانِ أنْ يَعرِفَ شُبَهَ المُخالِفينَ -التي يَدَّعونَها حُجَجًا- لِيَنقَضَّ عليهم منها فيُبطِلَها؛ قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[(٢)].

٣- قال بَعضُ أهلِ العِلمِ: (كيف لا يَخشَى الكَذِبَ على اللهِ ورَسولِه مَن يَحمِلُ كَلامَه على التَّأويلاتِ المُستَنكَرةِ والمجازاتِ المُستكرَهةِ التي هي بالألغازِ والأحاجيِّ أَولى منها بالبَيانِ والهِدايةِ؟! وهل يأمَنُ على نَفْسِه أن يكونَ مِمَّن قال اللهُ فيهم: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾؟!). قال الحَسَنُ: (هي واللهِ لكُلِّ واصِفٍ كَذِبًا إلى يَومِ القيامةِ)[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۞ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ سُمِّيَ ذلك القَولُ (دعوى)؛ لأنَّ المقصودَ منه هو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٤/ ١٩١).

الدُّعاءُ على أنفُسِهم بالوَيلِ، والدُّعاءُ يُسمَّى دَعوى، كما في قَولِه تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾[1] [يونس: ١٠].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يَنصِبُ (جعَلَ) ثلاثةَ مَفاعِيلَ؟

الجوابُ: أنَّ حُكمَ الاثنينِ الآخَرينِ ﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ حُكمُ الواحِدِ، فـ ﴿خَٰمِدِينَ ﴾ مع ﴿حَصِيدًا ﴾ في حَيِّزِ المَفعولِ الثَّاني للجَعْلِ، والمعنى: جعَلْناهم جامِعِينَ لهذينِ الوَصفَينِ، والمرادُ أنَّهم أُهلِكوا بذلك العَذابِ حتى لم يبقَ لهم حِسٌّ ولا حَرَكةٌ، وجَفُّوا كما يجِفُّ الحَصيدُ، وخَمَدوا كما تَخمُدُ النَّارُ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ دَلالةٌ على كَمالِ حِكمتِه سُبحانه وتعالى[3].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ فيه أنَّه تعالى تكَفَّل بإحقاقِ الحَقِّ وإبطالِ الباطِلِ، وأنَّ كُلَّ باطِلٍ قيلَ وجُودِلَ به، فإنَّ اللهَ يُنزِلُ مِن الحَقِّ والعِلمِ والبيانِ ما يَدمَغُه، فيَضمَحِلُّ ويتبيَّنُ لكُلِّ أحَدٍ بُطلانُه، وهذا عامٌّ في جميعِ المسائِلِ الدِّينيَّةِ؛ لا يُورِدُ مُبطِلٌ شُبهةً عَقليَّةً ولا نقليَّةً في إحقاقِ باطِلٍ أو رَدِّ حَقٍّ، إلَّا وفي أدِلَّةِ اللهِ مِن القواطِعِ العَقليَّةِ والنَّقليَّةِ ما يُذهِبُ ذلك القَولَ الباطِلَ ويَقمَعُه، فإذا هو مُتَبيِّنٌ بُطلانُه لكُلِّ أحَدٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٥٢٠).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا ...﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ [الأنبياء: ٦]، أو على قولِه: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، وهو تَعريضٌ بالتَّهديدِ، وفيه تَعريضٌ بنصْرِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعريضٌ بإنذارِ المُشرِكينَ بالانقراضِ بقاعدةِ قياسِ المُساواةِ[١]، وأنَّ اللهَ يُنشِئُ بعْدَهم أُمَّةً مُؤمِنةً[٢]. أو استئنافٌ مَسوقٌ للتَّمثيلِ بالأُمَمِ الَّتي هلَكَتْ قبْلَهم[٣].

- وفيه نوعُ تَفصيلٍ لإجمالِ قولِه تعالى: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، وبَيانٌ لكَيفيَّةِ إهلاكِهم وسبَبِه، وتَنبيهٌ على كثرَتِهم[٤].

- و(كمْ) في قولِه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ تَقْتضي التَّكثيرَ، وفي لفْظِ القصْمِ الَّذي هو عبارةٌ عن أفظَعِ الكسْرِ بإبانةِ أجزاءِ المكسورةِ، وإزالةِ تأْليفِها بالكُلِّيَّةِ، مِن الدَّلالةِ على قُوَّةِ الغضبِ وشدَّةِ السَّخَطِ ما لا يَخْفى[٥]. وفي (كم) الدَّالَّةِ على كثرةِ العدَدِ إيماءٌ إلى أنَّ هذه الكثرةَ تَستلزِمُ عدَمَ تخلُّفِ إهلاكِ هذه القُرى،

---

(١) قياسُ المساواةِ، نحو: (أ) مساوٍ (ب)، و(ب) مساوٍ لـ (ج)، فيلزم: (أ) مساوٍ لـ (ج)، بواسطةِ مقدمةٍ أجنبيةٍ، وهو: كلُّ ما هو مساوٍ لـ (ب) مساوٍ لـ (ج). يُنظر: ((أصول الفقه)) لابن مفلح (١/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣، ٢٤).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨).

وبَضميمةِ وَصْفِ تلك الأُمَمِ بالظُّلْمِ، أي: الشِّرْكِ، إيماءٌ إلى سبَبِ الإهلاكِ؛ فحصَلَ منه ومِن اسْمِ الكثرةِ معنى العُمومِ، فيَعلَمُ المُشرِكونَ التَّهديدَ بأنَّ ذلك حالٌّ بهم لا مَحالةَ بحُكمِ العُمومِ، وأنَّ هذا ليس مُرادًا به قريةٌ مُعيَّنةٌ[١].

- قولُه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ المرادُ: أهلُها؛ إذْ لا تُوصَفُ القريةُ بالظُّلْمِ، كَقَوْلِهِ: ﴿مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾[٢] [النساء: ٧٥].

- قولُه: ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ فيه تَنبيهٌ على استئصالِ الأوَّلينَ، وقطْعِ دابِرِهم بالكُلِّيَّةِ، وهو السِّرُّ في تَقديمِ حِكايةِ إنشاءِ هؤلاء على حِكايةِ مبادئِ إهْلاكِ أولئك بقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ ...﴾، فضميرُ الجمعِ فِي ﴿أَحَسُّواْ﴾ عائدٌ على (أهلِ) المحذوفِ مِن قولِه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾، ولا يعودُ على قولِه: ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾؛ إذ لا ذنبَ لهم يَقتضي ما تضمَّنه هذا الكلامُ[٣].

- قولُه: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بين جُملةِ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ و﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ إلخ، فجُملةُ ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ إلخ، تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾

- قولُه: ﴿مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ الرَّكضُ: ضَرْبُ الدَّابَّةِ بالرِّجْلِ، ويجوزُ أنْ يَرْكبوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥).

دوابَّهم يَرْكُضونها هاربينَ مُنهزِمينَ مِن قَريتِهم لمَّا أدرَكَتْهم مُقدِّمةُ العذابِ، ويجوزُ أنْ يُشَبَّهوا في سُرعةِ عَدْوِهم على أرجُلِهم بالرَّاكبينَ الرَّاكضينَ لدوابِّهم، فقيل لهم: ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾، والقولُ مَحذوفٌ، فهو على إرادةِ القولِ، أي: قيل لهم استهزاءً: ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾؛ إمَّا بلسانِ الحالِ، أو المقالِ[١].

- وحَرْفُ (مِن) في قولِه: ﴿مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ للابتداءِ، أي: خارجينَ منها، ويجوزُ أنْ يكونَ للتَّعليلِ، أي: من البأْسِ الَّذي أحسُّوا به؛ فلا بُدَّ من تَقديرِ مُضافٍ، أي: مِن بأْسِنا[٢].

- وفي دُخولِ (إذا) الفُجائيَّةِ في جوابِ (لمَّا): دَلالةٌ على أنَّهم ابْتَدَروا الهُروبَ من شِدَّةِ الإحساسِ بالبأْسِ؛ تَصويرًا لشِدَّةِ الفزَعِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾

- وجُملةُ: ﴿لَا تَرْكُضُواْ ...﴾ مُعترِضةٌ بين ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ و﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، وهي خِطابٌ للرَّاكضينَ بتَخيُّلِ كونِهم الحاضرينَ المُشاهِدينَ في وقْتِ حكايةِ قِصَّتِهم، تَهيئةً وتأهيلًا لِما اقْتَضى اجتلابَ حَرْفِ المُفاجأةِ. والكلامُ تَهكُّمٌ بهم[٤].

- ولَمَّا كان التَّأسيفُ إنَّما هو على العَيشِ الرَّافِهِ، لا على كَونِه مِن مُعطٍ مُعَيَّنٍ، بُنِيَ للمفعولِ قَولُه: ﴿أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾. ويجوزُ أن يكونَ بُنِيَ للمفعولِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إشارةً إلى غَفْلَتِهم عن العِلمِ لِمَن أترَفَهم، أو إلى أنَّهم كانوا يَنسُبونَ نِعمَتَهم إلى قُواهم، ولو عَدُّوها منَ اللهِ لشَكَروه فنفَعَهم[١].

- قولُه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: ارْجِعوا إلى نَعيمِكم ومَساكِنِكم لعلَّكم تُسْألون غدًا عمَّا جَرى عليكم؛ ففيه تَوبيخٌ وتَهكُّمٌ بهم، أو: يَسْألُكم الوافدونَ نوالَكم، إمَّا لأنَّهم كانوا أسخياءَ يُنفقونَ أموالَهم رئاءَ الناسِ وطلبَ الثناءِ، أو كانوا بُخلاءَ، فقيل لهم ذلك تَهكُّمًا إلى تَهكُّمٍ، وتَوبيخًا إلى تَوبيخٍ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ إنْ جُعِلَتْ جُملةُ ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ مُعترِضةً، تكونُ جُملةُ ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ﴾ مُستأنفةً استئنافًا بَيانيًّا عن ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾؛ كأنَّ سائِلًا سأَلَ عمَّا يقولونَه حين يُسْرِعونَ هاربينَ؛ لأنَّ شأْنَ الهاربِ الفزِعِ أنْ تَصدُرَ منه أقوالٌ تدُلُّ على الفزَعِ أو النَّدمِ عن الأسبابِ الَّتي أحلَّتْ به المخاوِفَ، فيُجابُ بأنَّهم أيْقَنوا حينَ يرَونَ العذابَ أنَّهم كانوا ظالِمينَ. وإنْ جُعِلَتْ جُملةُ ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ مقولَ قولٍ مَحذوفٍ، كانت جُملةُ ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ جوابًا لقولِ مَن قال لهم: ﴿لَا تَرْكُضُواْ ...﴾[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ كِنايةٌ عن مَوتِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٩)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٠٥).

- وفي قولِه: ﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ تَشبيهٌ بليغٌ؛ فقد شبَّهَهم بعْدَ حُلولِ العذابِ بهم بالحصيدِ أوَّلًا، وهو الزَّرعُ المحصودُ، ووجْهُ الشَّبهِ بين المُشبَّهِ والمُشبَّهِ به هو الاستئصالُ من المنابتِ، ثمَّ شبَّهَهم ثانيًا بالنَّارِ المُنطفِئةِ ولم يبْقَ منها إلَّا جمْرٌ مُنطفِئٌ لا نفْعَ فيه، ولا قابليَّةَ لشَيءٍ من النَّفعِ منه، فلا تُرى إلَّا أشْلاءٌ مُتناثِرةٌ وأجزاءٌ مُتفرِّقةٌ قد تَمدَّدتْ، وقد رانَ عليها البِلَى[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ إشارةٌ إجماليَّةٌ إلى أنَّ تكوينَ العالَمِ وإبداعَ بني آدَمَ مُؤسَّسٌ على قواعدِ الحِكَمِ البالغةِ المُسْتتبِعةِ للغاياتِ الجليلةِ، وتَنبيهٌ على أنَّ ما حُكِيَ من العذابِ الهائلِ والعقابِ النَّازلِ بأهْلِ القُرى مِن مُقتضياتِ تلك الحِكَمِ ومُتفرِّعاتِها حسَبَ اقتضاءِ أعمالِهم إيَّاهُ، وأنَّ للمُخاطَبينَ المُقتدينَ بآثارِهم ذَنوبًا مثْلَ ذَنوبِهم[٢].

- وتَخصيصُ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بالذِّكْرِ يدُلُّ على الاهتمامِ به؛ لأنَّ أشرَفَه هو نوعُ الإنسانِ المقصودِ بالعِبْرةِ والاستدلالِ، وهو مَناطُ التَّكليفِ[٣].

- وعبَّرَ بقولِه: ﴿لَٰعِبِينَ﴾ لبَيانِ كَمالِ تَنزُّهِه تعالى عن الخلْقِ الخالي عن الحِكْمةِ، بتَصويرِه بصُورةِ ما لا يَرتابُ أحدٌ في استحالةِ صُدورِه عنه سُبحانه[٤].

٧- قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨، ٢٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٩).

- قولُه: ﴿ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا ﴾ جُملةٌ مُستأْنَفةٌ مُقرِّرةٌ لمعنى جُملةِ ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ تَقريرًا بالاستدلالِ على مَضمونِ الجُملةِ، وتَعليلًا لنفْيِ أنْ يكونَ خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ لَعِبًا[1].

- وقولُه: ﴿ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا ﴾ عَقِيبَ قولِه: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ من بابِ وضْعِ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضْمرِ من غيرِ لفْظِه السَّابقِ؛ لأنَّ اللَّهْوَ: ما يُتلهَّى به ويُلْعَبُ[2]، وهذا على قولٍ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ في إضافةِ (لَدُنْ) إلى ضَميرِ الجَلالةِ دَلالةٌ على الرِّفْعةِ والتَّفضيلِ[3].

- قولُه: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ فيه مَحذوفٌ؛ ثِقةً بدَلالةِ ما قبْلَه عليه، أي: إنْ كُنَّا فاعلينَ لاتَّخذناه. وإنْ جُعِلَتْ (إنْ) شَرطيَّةً كان تَكريرًا للتَّلازُمِ، وإنْ جُعِلَتْ (إنْ) حَرْفَ نفْيٍ كانت الجُملةُ مُستأْنفةً؛ بَيانًا لتَقريرِ الامتناعِ المُستفادِ مِن (لو)، أي: ما كنَّا فاعلينَ لَهْوًا[4].

٨- قولُه تعالى: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ ﴾ (بل) للإضرابِ عن اتِّخاذِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣).

اللَّهوِ، وعن أنْ يكونَ الخلْقُ لَعِبًا، إضرابَ إبطالٍ وارتقاءٍ[١]. أو إضرابٌ عن إرادتِه، وتَخصيصُ شأْنِه هذا مِن بينِ سائرِ شُؤونه تعالى بالذِّكْرِ؛ للتَّخلُّصِ إلى ما سيأْتي من الوعيدِ[٢].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ في (إذا) الفُجائيَّةِ والجُملةِ الاسميَّةِ، من الدَّلالةِ على كَمالِ المُسارَعةِ في الذَّهابِ والبُطلانِ ما لا يَخْفى؛ فكأنَّه زاهِقٌ من الأصْلِ[٣]. أو دَلَّ على سُرعةِ مَحْقِ الحقِّ الباطلَ عندَ وُرودِه؛ لأنَّ للحقِّ صَولةً، فهو سريعُ المفعولِ إذا وَرَد ووَضَحَ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤).

الآيات (١٩-٢٢)

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾: أي: لا يَعْيَونَ، ولا يَنقَطِعونَ عن العِبادةِ، والحَسِيرُ: المنقَطِعُ إعياءً أو كَلالًا، وأصلُ (حسر): يدُلُّ على كَشفِ الشَّيءِ[1].

﴿يَفۡتُرُونَ﴾: أي: يَضعُفونَ ويَسأَمونَ، والفُتورُ: سكونٌ بعدَ حِدَّةٍ، ولينٌ بعدَ شِدَّةٍ، وأصلُ (فتر): يدُلُّ على ضَعفٍ في الشَّيءِ[2].

﴿يُنشِرُونَ﴾: أي: يُحيُونَ الموتى، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشعُّبِه[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾

قَولُه: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾: بالرَّفعِ صفةٌ للنكرةِ قبلَها ﴿ءَالِهَةٌ﴾. و﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤).

(غَيْر) ولا يَصحُّ الاستثناءُ بالنَّصبِ؛ لأنَّ المعنى حينئذٍ يصيرُ: (لو كان فيهما آلهةٌ ليس اللهُ فيهم، لفسَدتا)، وذلك يقتضي أنَّه لو كان فيهما آلهةٌ فيهم الله لم تفسُدا، وهذا ظاهِرُ الفَسادِ، وكذلك لا يصحُّ أن يُعرَبَ بدلًا مِن ﴿ءَالِهَةً﴾؛ لأنَّه لم يصِحَّ الاستثناءُ، فلا تصحُّ البدليَّةُ. وقيل: (إلَّا) هنا اسمٌ مبنيٌّ بمعنى «غير»، صِفةٌ لـ ﴿ءَالِهَةً﴾، انتقل إعرابُها وظهرَ فيما بعدَها ﴿ٱللَّهُ﴾، وعليه فـ ﴿ٱللَّهُ﴾ مُضافٌ إليه مجرورٌ بكسرةٍ مُقدَّرةٍ على آخرِه منَعَ مِن ظهورها اشتغالُ المحلِّ بحركةِ إعرابِ ﴿إِلَّا﴾ الظاهرِ فيه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ الله تعالى: وللهِ سُبحانَه مُلكُ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ. والذين عندَه من الملائكةِ لا يتكبَّرونَ عن عِبادتِه ولا يَنقَطِعونَ عنها، يذكُرونَ اللهَ ويُنَزِّهونَه دائمًا، لا يَضْعُفونَ ولا يَسأَمونَ.

ثمَّ ذكَر الله تعالى الأدلةَ على وحدانيَّتِه، واستحالةِ أن يكونَ له شركاءُ في ألوهيتِه، فقال: أتَّخَذَ هؤلاء المشركونَ آلهةً مِن الأرضِ يُحيون الموتَى؟ كلا، لا يَقْدِرون على ذلك، فكيفَ عبَدوهم معَ اللهِ؟! لو كان في السَّمَواتِ والأرضِ آلهةٌ غيرُ اللهِ سُبحانَه وتعالى، لاختلَّ نظامُهما. فتنزَّه اللهُ رَبُّ العَرشِ، وتقدَّس عَمَّا يَصِفُه الجاحِدونَ الكافِرونَ، من الكَذِبِ والافتراءِ.

لا يُسألُ عن قَضائِه في خَلقِه، ولا أحدَ يَقدِرُ أن يُمانِعَه أو يُعارِضَه سُبحانَه، وجميعُ خَلقِه يُسأَلونَ عن أفعالِهم وأقوالِهم.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (١/ ١٢٣)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩١٤)، ((الجنى الداني في حروف المعاني)) للمرادي (ص: ٨٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ١٤٢)، ((حاشية الصبان)) (٢/ ٢٢٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٧/ ١٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا نفَى اللَّعِبَ عن نَفْسِه، ونفيُ اللَّعِبِ لا يَصِحُّ إلَّا بنفيِ الحاجةِ، ونفيُ الحاجةِ لا يَصِحُّ إلا بالقُدرةِ التامَّةِ؛ لا جرَمَ عَقَّب تلك الآيةَ بقَولِه: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لدَلالةِ ذلك على كَمالِ المُلكِ والقُدرةِ[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى كلامَ الطَّاعِنينَ في النبُوَّاتِ، وأجاب عنها، وبيَّنَ أنَّ غَرَضَهم مِن تلك المطاعِنِ التمَرُّدُ وعَدَمُ الانقيادِ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّه تعالى مُنَزَّهٌ عن طاعتِهم؛ لأنَّه هو المالِكُ لجميعِ المُحْدَثاتِ والمخلوقاتِ، ولأجْلِ أنَّ الملائِكةَ مع جلالَتِهم مُطيعونَ له، خائِفونَ منه، فالبَشَرُ مع نهايةِ الضَّعفِ أَولى أن يُطيعوه[2].

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ولله وَحدَه مُلكُ مَن في السَّمواتِ والأرضِ مِن الخَلقِ، وكُلُّهم عَبيدٌ له[3].

﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾.

أي: ومَن عِندَه مِنَ الملائِكةِ لا يتكَبَّرونَ عن عبادتِه وطاعتِه والتذَلُّلِ له، ولا يتعَبونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مِلكًا وخَلقًا، فكيف يجوزُ أن يُشرَكَ به ما هو عَبدُه وخَلْقُه؟!). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٧).

من عبادتِه، ولا يَنقَطِعونَ عنها[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾.

أي: يُسبِّحونَ اللهَ ليلًا ونهارًا، لا يَضعُفُ نَشاطُهم عن تَسبيحِه في كلِّ وَقتٍ[٢].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ الله تعالى كمالَ اقتدارِه وعَظَمتِه، وخضوعَ كُلِّ شَيءٍ له؛ أنكَرَ على المُشرِكينَ الَّذينَ اتَّخَذوا مِن دونِ اللهِ آلِهةً مِن الأرضِ في غايةِ العَجزِ وعَدَمِ القُدرةِ[٣].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١﴾.

أي: هل اتَّخَذ أولئك المُشرِكونَ مَعبوداتٍ مِن الأرضِ يُحْيونَ الأمواتَ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠).

قال أبو حيَّان: (هم الملائكةُ بإجماعِ الأمَّةِ، وصَفَهم بتسبيحٍ دائمٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٧).

وقال البِقَاعي: (﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي: يُنزِّهونَ المُستَحِقَّ للتنزيه بأنواعِ التَّنزيهِ مِن الأقوالِ والأفعالِ التي هي عبادةٌ، فهي مُقتَضيةٌ مع نفيِ النَّقائِصِ إثباتَ الكَمالِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٥٢١).

كلا، لا يَقدِرونَ على ذلك، فكيف جَعَلوهم لله أندادًا، وعَبَدوهم معه[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٣].

﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾.

﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

أي: لو كان في السَّمَواتِ والأرضِ مَعبوداتٌ تَستَحِقُّ العبادةَ غيرُ اللهِ، لَخَرِبَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، واختلَّ نظامُهما، وبطَل الانتفاعُ بما فيهما، وهلَك ما فيهما مِن الخَلقِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

أي: فتنزَّه اللهُ ربُّ العَرشِ وتعالى عمَّا يَصِفُه به الواصِفونَ مِن صِفاتِ النَّقصِ، ويَكذِبونَ عليه، كادِّعائِهم أنَّ له ولدًا وشَريكًا[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٨، ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

قال القرطبي: (﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نزَّه نفْسَه، وأمَر العبادَ أن ينزِّهوه عن أن يكونَ له شريكٌ أو ولدٌ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٩).

كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢].

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: لا سائلَ يَسألُ الله تعالى عمَّا يفعلُ، فيقولُ له: لِمَ فعَلْتَ؟ ولِمَ لَمْ تفعَلْ؟ ولا أحدَ يَقدِرُ أن يُمانِعَه أو يُعارِضَه سُبحانَه بقَولٍ أو بفِعلٍ فيما يشاءُ فِعلَه بخَلقِه، وأمَّا خَلقُه فيَسألُهم عن أفعالِهم وأقوالِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

قال ابنُ تيميَّةَ: (بيَّن سُبحانه أنَّه يفعَلُ ما يشاءُ فلا أحَدَ يُمكِنُه أن يُعارِضَه إذا شاء شيئًا، بل هو قادِرٌ على فِعلِ ما يشاءُ، بخلاف المخلوقِ الذي يشاءُ أشياءَ كثيرةً ولا يُمكِنُه أن يفعَلَها؛ ولهذا قال النبيُّ صَلَّى الله عليه وسلَّم في الحديثِ الصحيحِ: «لا يقولَنَّ أحدُكم: اللهُمَّ اغفِرْ لي إنْ شِئتَ، اللهمَّ ارحَمْني إنْ شئتَ؛ فإنَّ الله لا مُكرِهَ له، ولكِنْ لِيَعزِمِ المسألةَ» [البخاري «٦٣٣٩»، ومسلم «٢٦٧٩»]). ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٢٢٥).

وقال ابنُ القيِّمِ: (﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾؛ لكَمالِ حِكمَتِه وعِلْمِه، ووَضْعِه الأشياءَ مواضِعَها، وأنَّه ليس في أفعالِه خَلَلٌ ولا عَبَثٌ ولا فَسادٌ يُسألُ عنه كما يُسألُ المخلوقُ، وهو الفَعَّالُ لِما يريدُ، ولكِنْ لا يُريدُ أن يفعَلَ إلَّا ما هو خَيرٌ ومَصلحةٌ، ورَحمةٌ وحِكمةٌ، فلا يَفعَلُ الشَّرَّ ولا الفسادَ ولا الجَورَ، ولا خِلافَ مُقتضَى حِكمَتِه؛ لكَمالِ أسمائِه وصِفاتِه). ((طريق الهجرتين)) (ص: ٤١٤).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: إنَّ الله تعالى لا يُسألُ عمَّا يَحكُمُ في عبادِه مِن إعزازٍ وإذلالٍ، وهُدًى وضَلالٍ، وإسعادٍ وإشقاءٍ؛ لأنَّه الرَّبُّ مالِكُ الأعيانِ، والخَلقُ يُسألونَ سُؤالَ توبيخٍ؛ يقال لهم يومَ القيامةِ: لِمَ فَعلتُم كذا وكذا؛ لأنَّهم العبيدُ، وواجِبٌ عليهم امتِثالُ أمرِ مَولاهم، واللهُ تعالى ليس فوقَه أحدٌ يقولُ له لِشَيءٍ فَعَله: لِمَ فعَلْتَه؟!). ((البسيط)) (١٥/ ٥٠).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ فكُلُّ المكَلَّفينَ في السَّماءِ والأرضِ هم عَبيدُ اللهِ تعالى، وهو الخالِقُ لهم، والمُنعِمُ عليهم بأصنافِ النِّعَمِ، فيَجِبُ على الكُلِّ طاعَتُه، والانقيادُ لحُكمِه[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ أي: أنَّهم مُستَغرِقونَ في العبادةِ والتَّسبيحِ في جميعِ أوقاتِهم؛ فليس في أوقاتِهم وَقتٌ فارغٌ ولا خالٍ منها، وهم على كَثرتِهم بهذه الصِّفةِ، وفي هذا مِن بيانِ عَظَمةِ اللهِ تعالى، وجَلالةِ سُلطانِه، وكَمالِ عِلمِه وحِكمَتِه ما يُوجِبُ ألَّا يُعبَدَ إلَّا هو، ولا تُصرَفَ العبادةُ لِغَيرِه[٢].

٣- قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ فعُلِمَ بذلك أنَّه لا صلاحَ للعالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ مَعًا حتى تكونَ حَرَكاتُ أهلِها كُلُّها للهِ، وحَرَكاتُ الجَسَدِ تابِعةٌ لحركةِ القَلبِ وإرادتِه؛ فإن كانت حركَتُه وإرادتُه لله وحْدَه، فقد صلَحَ وصَلَحت حَرَكاتُ الجَسَدِ كُلِّه، وإن كانت حركةُ القَلبِ وإراداتُه لغيرِ الله تعالى، فسَدَ وفسَدَت حَرَكاتُ الجَسَدِ بحَسَبِ فَسادِ حركةِ القلبِ[٣]، فكما أنَّ السَّمَواتِ والأرضَ لو كان فيهما إلهٌ غَيرُه سُبحانَه لفَسَدتا، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحِكَم)) لابن رجب (١/ ٢١٢).

كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، فكذلك القَلبُ: إذا كان فيه مَعبودٌ غيرُ اللهِ فَسَد فَسادًا لا يُرجى صَلاحُه إلَّا بأن يُخرِجَ ذلك المعبودَ مِن قَلبِه، ويكونَ اللهُ وحْدَه إلهَه ومَعبودَه الذي يُحِبُّه ويَرجوه ويَخافُه، ويتوكَّلُ عليه ويُنيبُ إليه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن أدِلَّةِ عُلُوِّ اللهِ على خَلْقِه التَّصريحُ باختِصاصِ بَعضِ المخلوقاتِ بأنَّها عِندَه، وأنَّ بعضَها أقرَبُ إليه مِن بَعضٍ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾، ففرَّق بينَ مَن له عمومًا، ومَن عندَه مِن مماليكِه وعَبيدِه خُصوصًا، وفيه ردٌّ على الجَهميَّةِ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ فإنْ قيل: كيفَ أنكَرَ عليهم اتخاذَ آلهةٍ تُنشِرُ، وما كانوا يدَّعونَ ذلك لآلهَتِهم؟

والجوابُ: أنَّ الأمرَ وإن كان كما ذُكِرَ، إلَّا أنَّهم بادِّعائِهم لها الإلهيَّةَ، يَلزَمُهم أن يَدَّعوا لها الإنشارَ؛ لأنَّه لا يَستَحِقُّ هذا الاسمَ إلَّا القادِرُ على كُلِّ مَقدورٍ، والإنشارُ مِن جُملةِ المَقدوراتِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ دَلالةٌ على أنَّ عِلْمَ اللهِ تعالى يتعلَّقُ أيضًا بالمُستَحيلِ؛ فهذا خبَرٌ يخبِرُ اللهُ فيه أنَّه لو كان في السَّماءِ والأرضِ آلهةٌ إلَّا اللهُ لفَسَدتا، وهذا خَبَرٌ عن شيءٍ مُستَحيلٍ[٤].

٤- نبَّه الله سبحانَه خَلْقَه على أنَّه واحدٌ باتِّساقِ أفعالِه وتَرتيبِها، وأنَّه تعالى

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٦، ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ١٩٨).

لا شريكَ له فيها، بقَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[١]، فإنَّ كُلَّ إلهٍ كان يَطلُبُ مُغالَبَةَ الآخرِ، والعُلُوَّ عليه، وتفرُّدَه دونَه بإلهيَّتِه؛ إذ الشَّرِكةُ نَقصٌ في كَمالِ الإلهيَّةِ، والإلهُ لا يرضَى لنَفسِه أن يكونَ إلهًا ناقِصًا، فإنْ قهَرَ أحدُهما الآخَرَ كان هو الإلهَ وحْدَه، والمقهورُ ليس بإلهٍ، وإنْ لم يقهَرْ أحَدُهما الآخَرَ، لَزِمَ عَجزُ كُلٍّ منهما، ولم يكنْ تامَّ الإلهيَّةِ، فيَجِبُ أن يكونَ فوقَهما إلهٌ قاهِرٌ لهما، حاكِمٌ عليهما، وإلَّا ذهب كُلٌّ منهما بما خلَقَ، وطلَبَ كُلٌّ منهما العلوَّ على الآخَرِ، وفي ذلك فسادُ أمرِ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيها[٢]؛ فلا يَصلُحُ الوجودُ إلَّا على إلهٍ واحدٍ، كما أنَّه لم يُوجَدْ إلَّا برَبٍّ واحدٍ؛ ولهذا قال سُبحانَه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ أي: في السَّمَواتِ والأرضِ ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ في ذاتِهما، وفسَدَ مَن فيهما مِن المخلوقاتِ. بيانُ ذلك: أنَّ العالَمَ العُلويَّ والسُّفليَّ -على ما يُرى- في أكمَلِ ما يكونُ مِن الصَّلاحِ والانتِظامِ الذي ما فيه خَلَلٌ ولا عَيبٌ، ولا مُمانعةٌ ولا مُعارضةٌ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ مُدَبِّرَه واحِدٌ، ورَبَّه واحِدٌ، وإلهَه واحِدٌ -سُبحانَه وبِحَمدِه[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ التَّعليقَ بالشَّرطِ لا يَدُلُّ على إمكانِ المَشروطِ، بل قد يكونُ مُستَحيلًا غايةَ الاستِحالةِ، كما في الآيةِ[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ فيه سؤالٌ: لِقائلٍ أن

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤). وتُنظر: قاعدة (الشرطُ لا يقتضي جوازَ الوقوعِ) في ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٦٣٩).

يقولَ: إنَّ قولَه: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ وإن كان متأكِّدًا بقولِه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، وبقولِه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] إلَّا أنَّه يُناقِضُه -ظاهِرًا- قولُه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]!

والجوابُ عن هذا مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّل -وهو أوجَهُها؛ لدَلالةِ القُرآنِ عليه- هو: أنَّ السُّؤالَ قِسمانِ: سؤالُ تَوبيخٍ وتقريعٍ، وأداتُه غالبًا: (لِمَ)، وسؤالُ استخبارٍ واستعلامٍ، وأداتُه غالبًا: (هَل)، فالـمُثبَتُ هو سؤالُ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والمنفيُّ هو سُؤالُ الاستخبارِ والاستعلامِ. وجهُ دلالةِ القرآنِ على هذا: أنَّ سؤالَه لهم المنصوصَ في كُلِّه توبيخٌ وتقريعٌ، كقولِه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٤، ٢٥]، وقولِه: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]، وكقولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ.

الثاني: أنَّ في القيامةِ مواقِفَ مُتعدِّدةً؛ ففي بعضِها يُسألونَ، وفي بعضها لا يُسألونَ.

الثالث: أنَّ إثباتَ السُّؤالِ مَحمولٌ على السُّؤالِ عَنِ التَّوحيدِ، وتَصديقِ الرُّسلِ، وعدمَ السُّؤالِ مَحمولٌ على ما يستلزِمُه الإقرارُ بالنُّبوَّاتِ مِن شرائعِ الدِّينِ وفُروعِه[(١)]. وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

٧- قال الله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ بيَّنَ بهذا أنَّ مَن يُسأَلُ غَدًا عن أعمالِه -كالمَسيحِ، والمَلائِكةِ- لا يَصلُحُ للإلهيَّةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٠، ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٩).

٨- قَولُه تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ فيه دليلٌ ظاهرٌ على القدريَّةِ في مسألةِ القَدَرِ[١]، فعن أبي الأسودِ الدِّيليِّ، قال: (قال لي عِمْرانُ بنُ الحُصَينِ: أرأيتَ ما يعملُ النَّاسُ اليومَ ويَكْدَحونَ فيه، أشيءٌ قُضيَ عليهم، ومضَى عليهم مِن قَدَرِ ما سَبَق؟ أو فيما يُستقبَلونَ به مِمَّا أتاهم به نَبِيُّهم، وثَبَتت الحجَّةُ عليهم؟ فقُلْتُ: بل شيءٌ قُضِي عليهم، ومضَى عليهم. قال: فقال: أفلا يكونُ ظلمًا؟ قال: ففزِعْتُ مِن ذلك فَزَعًا شديدًا، وقلتُ: كلُّ شيءٍ خَلْقُ اللهِ ومِلْكُ يدِه، فلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ. فقال لي: يرحمُك اللهُ، إنِّي لم أُرِدْ بما سألْتُك إلاَّ لِأَحْزِرَ[٢] عقلَك)[٣]. وقال ابنُ جُرَيجٍ في هذه الآيةِ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾: (المعنى: لا يَسألُه الخَلقُ عن قَضائِه في خَلْقِه، وهو يسألُ الخَلقَ عن عَمَلِهم؛ لأنَّهم عَبيدٌ)[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، وإخبارٌ بأنَّ جميعَ العالَمِ ملْكُه[٥]، أو عطْفٌ على جُملةِ ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ [الأنبياء: ١٧]، مُبيِّنةٌ أنَّ كلَّ مَن في السَّمواتِ والأرضِ عِبادٌ للهِ تعالى، مَخلوقونَ لقَبولِ تَكليفِه، والقيامِ بما خُلِقوا لأجْلِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥١).

(٢) لأَحزِرَ: أي: لأمتَحِنَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٩٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥).

- وتَقديمُ المجرورِ في ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ للاختصاصِ، أي: له مَن في السَّمواتِ والأرضِ لا لِغَيرِه، وهو قَصْرُ إفرادٍ[١]؛ رَدًّا على المُشرِكينَ الَّذين جَعَلوا للهِ شُركاءَ في الإلهيَّةِ. و﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يَعُمُّ العُقلاءَ وغيرَهم، وغلَّبَ اسمَ الموصولِ الغالبَ في العُقلاءِ؛ لأنَّهم المقصودُ الأوَّلُ[٢].

- وجمَعَ السَّماءَ هنا؛ لاقتضاءِ تَعميمِ المُلْكِ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ يعني: الملائكةَ، وخَصَّهم بالذِّكْرِ؛ لامتيازِهم بفضيلةِ القُرْبِ منه[٤]، وهو مَعطوفٌ على ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فيكونُ مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ للاهتمامِ به. أو المُرادُ به نوعٌ مِن الملائكةِ مُتعالٍ عن التَّبوُّؤِ في السَّماءِ والأرضِ، أو لأنَّه أعَمُّ منه من وَجْهٍ، أو مُبتدأٌ خبَرُه ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾[٥].

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ: في اصطِلاح البلاغيِّين هو: تَخصيصُ شيءٍ بشيء وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأول: مَقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. وينقسمُ إلى قَصرٍ حقيقي، وقَصرٍ إضافي، وادِّعائي، وقَصْرِ قَلْب. ويَنقسمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثَلاثةِ أقسامٍ: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فقصرُ الإفرادِ: يُخاطَب به مَن يَعتقدُ الشركةَ، نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقدُ اشتراكَ اللهِ والأصنامِ في الأُلوهية، ومنه الآيةُ المذكورةُ هنا كذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥، ٣٦).

- وفيه تَعريضٌ بالَّذينَ يَستكبِرونَ عن عِبادةِ اللهِ، ويَعْبُدونَ الأصنامَ، وهم المُشرِكونَ[١].

- قولُه: ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ فيه قُوَّةُ اللَّفظِ لقُوَّةِ المعنى، وهو نقْلُ اللَّفظِ من وزْنٍ إلى وزْنٍ آخرَ أكثَرَ منه؛ لِيَتضمَّنَ من المعنى الدَّالِّ عليه أكثَرَ ممَّا تضمَّنَه أوَّلًا، وهذا الضَّرْبُ مِن الزِّيادةِ في الألفاظِ لا يُستعمَلُ إلَّا في مَقامِ المُبالَغةِ، وهو هنا في قولِه: ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾؛ فقد عدَلَ عن الثُّلاثيِّ وهو (حَسَرَ) إلى السُّداسيِّ وهو (اسْتحسَرَ)، وقد كان ظاهِرُ الكلامِ أنْ يُقالَ: (يَحْسِرون)، أي: يَكِلُّون ويَتْعبونَ؛ لأنَّ أقلَّ مَلَلٍ منهم أو كَلالٍ إزاءَ الملائكةِ وإزاءَ عِبادَتِهم للهِ سُبحانه لا يُتصوَّرُ منهم، ولكنَّه عدَلَ عن ذلك؛ للتنبيهِ على أنَّ عباداتِهم بثِقَلِها ودوامِها حقيقةٌ بأن يُستَحسَرَ منها، ومعَ ذلك لا يَستحسرونَ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ استئنافٌ وقَعَ جوابًا لسُؤالٍ نشَأَ ممَّا قبْلَه؛ كأنَّه قِيلَ: ماذا يَصْنعونَ في عِباداتِهم أو كيف يَعْبُدون؟ فقيل: ﴿يُسَبِّحُونَ ...﴾ إلخ[٣]. أو هو بَيانٌ لجُملةِ ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾؛ لأنَّ مَن لا يتعَبُ مِن عمَلٍ لا يَترُكُه، فهو يُواظِبُ عليه ولا يَعْيا منه[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٠، ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٦).

- قولُه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً ﴾ حِكايةٌ لجِنايةٍ أُخْرى من جِناياتِهم بطَريقِ الإضرابِ والانتقالِ مِن فَنٍّ إلى فنٍّ آخَرَ من التَّوبيخِ، ومعنى الهمزةِ في (أَمْ) المُنقطعةِ إنكارُ الواقعِ[١]، وهذا الانتقالُ وقَعَ اعتراضًا بين جُملةِ ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ وجُملةِ ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ ﴾[٢].

- وضَميرُ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ عائدٌ إلى المُشرِكينَ المُتبادرينَ مِن المقامِ في مثْلِ هذه الضَّمائرِ، ويجوزُ جَعْلُه الْتِفاتًا عن ضَميرِ ﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ويجوزُ أنْ يكونَ مُتناسِقًا مع ضَمائرِ ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ ﴾ [الأنبياء: ٥] وما بعْدَه[٣].

- وفيه بابٌ من التَّهكُّمِ بهم والتَّوبيخِ والتَّجهيلِ، وإشعارٌ بأنَّ ما استَبْعدوهُ من اللهِ لا يصِحُّ استبعادُه؛ لأنَّ الإلهيَّةَ لمَّا صحَّتْ صَحَّ معها الاقتِدارُ على الإبداءِ والإعادةِ[٤].

- والمُرادُ بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ هو التَّحقيرُ لا التَّخصيصُ، ووَصْفُ الآلهةِ بأنَّها مِن الأرضِ فيه تَهكُّمٌ بالمُشرِكينَ، وإظهارٌ لضَعْفِ رأْيِهم، أي: جَعَلوا لأنفُسِهم آلِهةً مِن عالَمِ الأرضِ، أو مأْخوذةً مِن أجزاءِ الأرضِ؛ تَعريضًا بأنَّ ما كان مثْلَ ذلك لا يَستحِقُّ أنْ يكونَ مَعبودًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٨/ ٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٧).

- وقولُه أيضًا: ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه مُقابَلةٌ لقولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥٓ﴾؛ لأنَّ المُرادَ أهْلُ السَّماءِ[١].

- قولُه: ﴿هُمۡ يُنشِرُونَ﴾ النُّكتةُ في ذِكْرِ الضَّميرِ (هم): إفادةُ معنى الخُصوصيَّةِ، وهو الَّذي يَدورُ عليه الإنكارُ والتَّجهيلُ والتَّشنيعُ، ومعنى التَّخصيصِ في تَقديمِ الضَّميرِ: التَّنبيهُ على كَمالِ مُبايَنةِ حالِهم للإنشارِ المُوجبةِ لمَزيدِ الإنكارِ. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ ذلك مِن مُسْتتبعاتِ ادِّعائِهم الباطلَ؛ لأنَّ الأُلوهيَّةَ مُقْتضيةٌ للاستقلالِ بالإبداءِ والإعادةِ، فحيث ادَّعَوا للأصنامِ الإلهيَّةَ، فكأنَّهم ادَّعَوا لها الاستقلالَ بالإنشارِ[٢]. وقيل: ﴿هُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿هُمۡ يُنشِرُونَ﴾ للدَّلالةِ على قُوَّةِ أمْرِهم فيما أُسْنِدَ إليهم، لا على الاختصاصِ[٣]. وقيل: فائدةُ قولِه: ﴿هُمۡ﴾ الإيذانُ بأنَّهم لم يَدَّعُوا لها الإنشارَ، وأنَّ قولَه: ﴿هُمۡ يُنشِرُونَ﴾ استئنافُ إلْزامٍ لهم، وكأنَّه قال: اتَّخَذوا آلهةً مع اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فهمْ إذنْ يُحْيونَ الموتى ضَرورةَ كونِهم آلِهةً[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ جُملةٌ مُبيِّنةٌ للإنكارِ الَّذي في قولِه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً﴾؛ ولذلك فُصِلَتْ ولم تُعْطَفْ. وهذه الآيةُ استدلالٌ على استحالةِ وُجودِ آلهةٍ غيرِ اللهِ بعْدَ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، فهي مَسوقةٌ لإثباتِ الوَحدانيَّةِ لا لإثباتِ وُجودِ الخالقِ؛ إذ لا نِزاعَ فيه عندَ المُخاطَبينَ، ولا لإثباتِ انفرادِه بالخلْقِ؛ إذ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ١٠٩).

لا نِزاعَ فيه كذلك، ولكنَّها مُنتظِمةٌ على ما يُناسِبُ اعتقادَهم الباطِلَ؛ لكَشْفِ خطَئِهم، وإعلانِ باطِلِهم[١].

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿فِيهِمَآ﴾ عائدٌ على السَّماءِ والأرضِ، وهما كِنايةٌ عن العالَمِ[٢].

- قولُه: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها مِن ثُبوتِ الوَحدانيَّةِ بالبُرهانِ، وإيرادُ لفْظِ الجَلالةِ في مَوضِعِ الإضمارِ؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الحُكْمِ؛ فإنَّ الأُلوهيَّةَ مَناطٌ لجميعِ صِفاتِ كَمالِه الَّتي من جُملتِها تَنزُّهُه تعالى عمَّا لا يَلِيقُ به، ولِتَربيةِ المَهابةِ وإدخالِ الرَّوعةِ. وقولُه: ﴿رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ﴾ صِفةٌ للاسمِ الجليلِ مُؤكِّدةٌ لتَنزُّهِه عزَّ وجلَّ، وللتَّذكيرِ بأنَّه انفرَدَ بخلْقِ السَّمواتِ، وهو شَيءٌ لا يُنازِعونَ فيه، بلْ هو خالِقُ ما هو أعظَمُ من السَّمواتِ وحاوِيها، وهو العرْشُ؛ تَعريضًا بهم بإلْزامِهم لازِمَ قَولِهم بانفرادِهِ بالخلْقِ أنْ يَلزَمَ انتفاءُ الشُّركاءِ له فيما دونَ ذلك[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ استئنافٌ ببَيانِ أنَّه تعالى لقُوَّةِ عَظمتِه وعِزَّةِ سُلطانِه القاهرِ، بحيث ليس لأحدٍ من مَخلوقاتِه أنْ يُناقِشَه ويَسألَه عمَّا يَفعَلُ مِن أفعالِه، إثْرَ بَيانِ أنْ ليس له شَريكٌ في الإلهيَّةِ[٤]. وفيه إبطالٌ لإلهيَّةِ المُقرَّبينَ الَّتي زعَمَها المُشرِكونَ الَّذين عَبَدوا الملائكةَ وزَعَموهم بَناتِ اللهِ تعالى، بطريقةِ انتفاءِ خاصيَّةِ الإلهِ الحقِّ عنهم؛ إذ هم يُسْألونَ عمَّا يَفْعلون،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٨، ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٢).

وشأْنُ الإلهِ ألَّا يُسألَ[١].

- وجُملةُ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ تَمهيدٌ لجُملةِ ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾، على أنَّ تَقديمَه على جُملةِ ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ اقتضَتْهُ مُناسبةُ الحديثِ عن تَنزيهِه تعالى على الشُّركاءِ؛ فكان انتقالًا بَديعًا بالرُّجوعِ إلى بَقيَّةِ أحوالِ المُقرَّبينَ. وأيضًا في قولِه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ كِنايةٌ عن جَريانِ أفعالِ اللهِ تعالى على مُقْتضى الحِكْمةِ، بحيث إنَّها لا مَجالَ فيها لانتقادِ مُنتقِدٍ[٢].

- وجاء في قولِه: ﴿عَمَّا يَفْعَلُ﴾ بالتَّعبيرِ بـ﴿يَفْعَلُ﴾؛ إذ الفِعلُ جامِعٌ لصِفاتِ الأفعالِ، مُندرِجٌ تحتَهُ كلُّ ما يَصدُرُ عنه مِن خَلْقٍ ورَزْقٍ، ونَفْعٍ وضَرٍّ، وغيرِ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ وَعيدٌ للكَفرةِ[٤]، وفيه: كِنايةٌ عن العُبوديَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٤٥، ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٤٦).

الآيات (٢٤-٢٩)

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُشۡفِقُونَ﴾: أي: خائِفونَ حَذِرونَ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: أمِ اتَّخَذ هؤلاء المُشرِكونَ مِن دون اللهِ آلِهةً؟ قل -يا مُحمَّدُ- لهم: هاتوا ما لديكم مِنَ البُرهانِ على صِحَّةِ ما تَزعُمونَهم آلِهةً؛ فليس في القرآنِ الذي جئتُ به ولا في الكُتُبِ السَّابِقةِ دَليلٌ على ما ذهَبتُم إليه، بل أكثَرُ هؤلاء المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ الحَقَّ الذي أنزَلَه الله، فهم مُعرِضونَ عنه مُنكِرونَ له.

وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا محمَّدُ- مِن رَسولٍ إلَّا نوحي إليه أنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، فأخْلِصوا العبادةَ له وحْدَه.

وقال المُشرِكونَ: اتَّخَذَ الرَّحمنُ الملائِكةَ بناتٍ له! تنزَّه اللهُ عن ذلك؛ فالملائِكةُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

عبادُ اللهِ مُقَرَّبونَ عندَه، لا يتكَلَّمونَ إلَّا بما يأمُرُهم الله بقولِه، ويَعمَلونَ بما يأمرُهم به، ويُطيعونَه ولا يُخالِفونَه، وما مِن قولٍ أو فعلٍ لاحِقٍ أو سابِقٍ من أعمالِ الملائكةِ إلَّا يَعلَمُه اللهُ سُبحانَه وتعالى، ويُحصيه عليهم، ولا يتقَدَّمونَ بالشَّفاعةِ إلَّا لِمَن ارتضى اللهُ شفاعَتَهم له، وهم مِن خَوفِ اللهِ حَذِرونَ مِن مُخالفةِ أمْرِه ونَهْيِه. ومَن يدَّعِ مِن الملائِكةِ -على سبيلِ الفَرضِ- أنَّه إلهٌ مِن دونِ اللهِ، فجَزاؤه جهنَّمُ، مِثلَ ذلك الجزاءِ نجزي كُلَّ ظالمٍ مُشرِكٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾.

أي: أم[1] اتَّخَذ هؤلاء المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ مَعبوداتٍ يَزعُمونَ أنَّها تنفَعُ وتضُرُّ وتخلُقُ وتُحيي وتُميتُ[2]؟

﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهم: هاتوا دليلَكم على صِحَّةِ ما تَزعُمونَ أنَّ مع اللهِ

---

(١) قيل: (أم) هنا بمعنى (هل). وممن قال بذلك: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٩).
وقيل: بمعنى (بل). وممن قال بذلك: ابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٥).
وقيل: في هذه الجملةِ محذوفٌ تقديرُه: أرَجَعوا عن ضلالِهم لَمَّا بان لهم غيُّهم فيه، فوَحَّدوا اللهَ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ ...﴾؟ قاله البِقَاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٥).

آلِهةً أُخرى[١].

﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِي﴾.

أي: هذا القُرآنُ الذي أُنزِلَ علَيَّ، وهذه كتُبُ الأنبياءِ المتقَدِّمةُ -كالتَّوراةِ، والإنجيلِ- على خِلافِ ما تَزعُمونَ، فهل وجدْتُم في شَيءٍ منها اتخاذَ آلهةٍ مع اللهِ؟! أم كُلُّها ناطِقةٌ بالتَّوحيدِ آمِرةٌ به[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

مُناسَبتُها لما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه وتعالى دليلَ التَّوحيدِ وطالَبَهم بالدَّلالةِ على ما ادَّعَوه، وبَيَّنَ أنَّه لا دليلَ لهم البتَّةَ عليه لا مِن جِهةِ العَقلِ ولا مِن جِهةِ السَّمعِ؛ ذكَرَ بَعدَه أنَّ وُقوعَهم في هذا المذهَبِ الباطِلِ ليس لأجْلِ دَليلٍ ساقهم إليه، بل ذلك لأنَّ عِندَهم ما هو أصلُ الشَّرِّ والفسادِ كُلِّه، وهو عَدَمُ العِلمِ، ثمَّ ترَتَّبَ على عَدَمِ العِلمِ الإعراضُ عن استِماعِ الحَقِّ وطَلَبِه[٣].

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

قال السعدي: (ولن يَجِدوا لذلك سبيلًا، بل قد قامت الأدلَّةُ القطعيَّةُ على بطلانِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٣٤).

أي: بل أكثَرُ هؤلاء المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ الحَقَّ الذي أنزَلَه الله؛ فهم مُعرِضونَ عنه، فلا يتفَكَّرونَ فيه، ولا يُؤمِنونَ به ويتَّبِعونَه(١).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾.

أي: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا مُحمَّدُ- مِن رَسولٍ إلى أمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا نُوحي إليه أنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا أنا، فوحِّدوني، وأخْلِصُوا العِبادةَ لي(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

قيل: الإعراضُ هنا مسبَّبٌ عن انتفاءِ العلمِ، فلمَّا فقدوا التمييزَ بينَ الحقِّ والباطلِ أعرضوا عن الحقِّ. وهذا المعنى هو ظاهرُ كلامِ ابنِ جريرٍ، وهو قولُ ابنِ تيميَّةَ، واستظهره أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٩)، ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٢٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٢).

وقيل بعكس ذلك؛ أنَّ الإعراضَ هنا كان سببًا في انتفاءِ العلمِ، أي: لا يعلمون؛ لأنَّهم مُعرِضونَ. وممَّن قال بذلك: ابن عطية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

قال البقاعي: (ولَمَّا كانوا لا يَجِدونَ شُبهةً لذلك فضلًا عن حُجَّةٍ، اقتضى الحالُ الإعراضَ عنهم غَضَبًا، فكان كأنَّه قيل: لا يَجِدونَ لِشَيءٍ من ذلك بُرهانًا، ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ أي: هؤلاء المدعُوِّينَ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾، بل هم جَهَلَةٌ، والجَهلُ أصلُ الشَّرِّ والفسادِ؛ فهم يكفُرونَ تَقليدًا، ﴿فَهُم﴾ أي: فتسَبَّبَ عن جَهلِهم ما افتَتَحْنا به السورةَ مِن أنَّهم ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ عن ذِكرِكِ وذِكرِ مَن قَبلَك؛ غفلةً منهم عما يُرادُ بهم، وفعلًا باللَّعِبِ فِعْلَ القاصِرِ عن درجةِ العَقلِ، وبعضُهم معانِدٌ مع علمِه الحَقَّ، وبعضُهم يعلَمُ فيفهَمُ، كما أفهَمَه التقييدُ بالأكثَرِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٠٦، ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٠).

قال ابن عطية: (هذه عَقيدةٌ لم تختَلِفْ فيها النُبُوَّاتُ، وإنَّما اختلفت في الأحكامِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٩).

ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ سُبحانَه وتعالى بالدَّلائِلِ الباهرةِ كَونَه مُنَزَّهًا عن الشَّريكِ والضِّدِّ والنِّدِّ؛ أردَفَ ذلك ببراءتِه عن اتِّخاذِ الوَلَدِ[1].

وأيضًا لَمَّا نفَى اللهُ تعالى مُطلَقَ الشَّريكِ عَقلًا ونَقلًا، فانتفَى بذلك كلُّ فَردٍ يُطلَقُ عليه هذا الاسمُ؛ عَجِبَ تعالى مِن ادِّعاءِ المُشرِكينَ الشَّرِكةَ المقيَّدةَ بالوَلَدِ[2].

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾.

أي: وقال المُشرِكونَ: اتخذَ الرَّحمنُ الملائِكةَ بناتٍ له[3]!

﴿سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾.

أي: تنزيهًا لله أن تكونَ الملائِكةُ بَناتٍ له؛ فليس الأمرُ كما وَصَفوا، بل

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٧، ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

قال الشوكاني: (يصِحُّ حَملُ الآيةِ على كلِّ من جعل لله ولدًا، وقد قالت اليهودُ: عزيرٌ ابنُ الله، وقالت النصارى: المسيحُ ابنُ الله، وقالت طائفةٌ من العرب: الملائكةُ بناتُ الله). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٧، ٤٧٨).

الملائِكةُ عِبادٌ لله، خاضِعونَ له، مُشَرَّفونَ مُقرَّبونَ عندَه[١].

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾.

أي: لا يتكَلَّمونَ إلَّا بما يأمُرُهم اللهُ بقَولِه، ولا يقولونَ شيئًا لم يأذَنْ لهم به[٢].

﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: والملائِكةُ يَعمَلونَ بما يأمُرُهم اللهُ به، ويطيعونَه ولا يُخالِفونَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

أنَّ اللهَ سُبحانَه ذكَرَ ما يجري مَجرى السَّبَبِ لطاعةِ الملائكةِ، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، والمعنى: أنَّهم لَمَّا عَلِموا كَوْنَه سُبحانَه عالِمًا بجَميعِ المعلوماتِ، عَلِموا كَوْنَه عالِمًا بظَواهِرِهم هم وبواطِنِهم، فكان ذلك داعيًا لهم إلى نهايةِ الخُضوعِ، وكَمالِ العُبوديَّةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٣٥).

﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾.

أي: يعلَمُ اللهُ ما سيَعمَلُه الملائِكةُ مِن أقوالٍ وأفعالٍ فيما يَستَقبِلونَه، ويَعلَمُ ما مضى مِمَّا عَمِلوه؛ فلا خُروجَ لهم عن عِلمِه، كما لا خُروجَ لهم عن أمْرِه وتَدبيرِه[(١)].

﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾.

أي: ولا يَشفَعُ الملائِكةُ[(٢)] إلَّا لِمَن ارتَضى اللهُ الشَّفاعةَ له[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

قال ابن عثيمين: (قال تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ أي: المستقبلَ ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ أي: الماضيَ. وقد قيل بعكسِ هذا القولِ، ولكنَّه بعيدٌ؛ فاللفظُ لا يساعدُ عليه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٣).

قال ابن عاشور: (قيلَ: المستقبلُ هو ما بينَ الأيدي، والماضي هو الخلفُ، وقيلَ: عكسُ ذلك، وهما استعمالانِ مبنِيَّانِ على اختلافِ الاعتبارِ في تمثيلِ ما بينَ الأيدي والخلفِ، لأنَّ ما بينَ أيدي المرءِ هو أمامَه، فهو يستقبِلُه ويُشاهِدُه ويسعَى للوصولِ إليه، وما خلفَه هو ما وراءَ ظهرِه، فهو قد تَخَلَّف عنه وانقَطَع ولا يُشاهِدُه، وقد تجاوَزه ولا يتَّصِلُ به بعدُ. وقيلَ: أمورُ الدُّنيا وأمورُ الآخرةِ، وهو فرعٌ مِن الماضي والمستقبلِ. وقيلَ: المحسوساتُ والمعقولاتُ. وأيًّا ما كانَ ... المقصودُ عمومُ العلمِ بسائرِ الكائناتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢).

(٢) قال القرطبي: (والملائِكةُ يَشفَعونَ غَدًا في الآخرةِ، كما في صحيحِ مُسلمٍ وغَيرِه، وفي الدُّنيا أيضًا؛ فإنَّهم يَستَغفِرونَ للمؤمنينَ ولِمَن في الأرض، كما نصَّ عليه التنزيلُ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨١).

وقال ابن جُزَي: (يحتمِلُ أن تكونَ هذه الشَّفاعةُ في الآخرةِ، أو في الدنيا وهي استغفارُهم لِمَن في الأرضِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥١).

يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦].

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾.

أي: والملائِكةُ لأجْلِ خَوفِهم مِن اللهِ حَذِرونَ مِن أن يعصُوه، فيَحِلَّ بهم غَضَبُه وعِقابُه(١).

كما قال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠].

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعد أن وصَفَ اللهُ تعالى كرامةَ الملائِكةِ عليه وأثنَى عليهم، وأضاف إليهم تلك الأفعالَ السَّنِيَّةَ؛ فجاء بالوَعيدِ الشَّديدِ، وأنذر بعذابِ جَهنَّمَ مَن ادَّعى منهم أنَّه إلهٌ(٢).

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾.

أي: ومَن يَقُلْ مِن الملائِكةِ -على سَبيلِ الفَرضِ: إنِّي إلهٌ معبودٌ من دونِ اللهِ؛ فسنُعاقِبُه بإدخالِه جهنَّمَ(٣).

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: كما نجزي مَن قال مِن الملائكةِ: إنِّي إلهٌ مِن دونِ اللهِ -على فرضِ وقوعِه-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥١، ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٢).

نَجزي أيضًا كلَّ من ظلَمَ نفسَه بوَضْعِه العبادةَ في غيرِ مَوضِعها، فأشرك باللهِ وعبَدَ غَيرَه[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- لا يَنْبغي لعاقلٍ أنْ يتعرَّضَ لعلمِ ما لم يُعلِمْنا اللهُ ورسولُه، ويتضِحْ معقولُه ومنقولُه، وإلى ذلك الإشارةُ بقولِه تعالَى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾[٢].

٢- في قولِه تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أنَّ كمالَ المخلوقِ في تحقيقِ عبوديتِه لله تعالى، وكلَّما ازداد العبدُ تحقيقًا للعبوديةِ ازداد كمالُه، وعلَتْ درجتُه، ومَن توهَّم أنَّ المخلوقَ يخرجُ عن العبوديةِ بوجهٍ مِن الوجوهِ، وأنَّ الخروجَ عنها أكملُ؛ فهو مِن أجهلِ الخلقِ وأضلِّهم[٣].

٣- قال الله تعالى عن الملائِكةِ: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ والصَّادِرُ عنهم إمَّا قولٌ وإمَّا عملٌ؛ فالقَولُ لا يَسبِقونَه به، بل لا يقولونَ حتى يقولَ، ولا يَشفَعونَ إلَّا لِمَن ارتضَى، وعلينا أن نكونَ معه ومع رسُلِه هكذا؛ فلا نقولُ في الدِّينِ حتى يقولَ، ولا نتقَدَّمُ بين يَدَيِ اللهِ ورَسولِه، ولا نَعبُدُه إلَّا بما أمرَ، وأعلَى مِن هذا ألَّا نعمَلَ إلَّا بما أمَرَ، فلا تكونُ أعمالُنا إلَّا واجِبةً أو مُستَحَبَّةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((إيثار الحق على الخلق)) لابن الوزير (ص: ١١).

(٣) يُنظر: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز الحنفي (ص: ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٦٩).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ هذه الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ كُتُبَ اللهِ لا تَخْلو مِن البراهينِ المحتاجِ اليها في أمرِ الدِّينِ، فلا يجوزُ خُلُوُّ كتبِ الله تعالى وسننِ أنبيائِه عن أمرٍ كبيرٍ مِن مهمَّاتِ الدينِ العقليةِ، وكذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]؛ فثبَت أنَّ ما خلَتْ عنه كتبُ الله تعالى فليس مِن مهمَّاتِ الدينِ، وأنَّ زيادتَه في الدينِ محرَّمةٌ[١].

٢- أكثَرُ إعراضِ الخَلقِ عن الحَقِّ مِن عَدَمِ مَعرفةِ الحَقِّ، كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[٢]. وذلك على أحدِ القولين في معنَى الآيةِ.

٣- في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ أنَّ المقصودَ الأعظمَ مِن بعثتِه صلَّى الله عليه وسلَّم -بل مِن بعثةِ الرسلِ مِن قبلِه- هو أن يُعبَدَ اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، بل هذا هو المقصودُ مِن خَلقِ الخلقِ وإيجادِهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣] [الذاريات: ٥٦].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ أنَّ دينَ الأنبياءِ واحدٌ، وهنا سؤالٌ عن الجمعِ معَ قولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((إيثار الحق على الخلق)) لابن الوزير (ص:١١، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((الحكم الجديرة بالإذاعة)) لابن رجب (ص: ١٢).

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؟

الجواب: أنَّ الشِّرعةَ العمليةَ تختلفُ باختلافِ الأممِ أو الأماكنِ والأزمنةِ، وأمَّا أصلُ الدِّينِ فواحدٌ، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[(١)] [الشورى: ١٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ في هذه الآيةِ إظهارٌ لعِنايةِ اللهِ تعالى بإزالةِ الشِّركِ مِن نُفوسِ البَشَرِ وقَطعِ دابِرِه؛ إصلاحًا لِعُقولِهم بأن يُزالَ منها أفظَعُ خَطَلٍ، وأسخَفُ رأيٍ، ولم تَقطَعْ دابِرَ الشِّركِ شَريعةٌ كما قَطَعه الإسلامُ[(٢)].

٦- قولُه تعالى: ﴿أَنَا۠﴾ في قولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ وقولُه تعالى: ﴿هُوَ﴾ في قولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٢] كلاهما ضميرُ رفعٍ منفصلٍ، وكما أنَّ الذاكرَ لا يجعلُ «أنا» اسمًا لله؛ فلا يجوزُ أن يجعلَ «هو» اسمًا لله! وبهذا نعرفُ بطلانَ ذكرِ الصوفيةِ الذين يذكرونَ الله بلفظِ: «هو، هو»، ويرونَ أنَّ هذا الذكرَ أفضلُ الأذكارِ! وهو ذكرٌ باطلٌ[(٣)].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ المِلكيةَ والوِلادةَ لا يجتمعانِ[(٤)]، وقد جرَت العادةُ في القرآنِ بأنَّ الله يرُدُّ على الكفرةِ في ادِّعاءِ الولدِ بأنَّه مالكُ كلِّ شيءٍ، وأنَّ الخلقَ عبيدُه؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٩).

العبدَ لا يمكنُ أن يكونَ ولدًا! ومِن هذه الآياتِ القرآنيةِ أخَذ العلماءُ أنَّ الإنسانَ إذا ملَك ولدَه -بأنْ تزوَّج أَمَةً لغيرِه، وكان ولدُه رقيقًا واشتراه- أنَّه يعتقُ عليه بنفْسِ الملكِ، ولا يمكنُ أن يملكَه؛ لأنَّ الملكيةَ والولديةَ متنافيانِ[١].

٨- في قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ أنَّ إبليسَ اللعينَ لمَّا كان قد عصَى اللهَ ما أمَره؛ دلَّ على أنَّه ليس مِن العبادِ المكرَمينَ، الذين هم الملائكةُ[٢].

٩- تكاليفُ الشريعةِ بعضُها مبنيَّةٌ على النصوصِ، وبعضُها على الاستنباطِ، أما تكاليفُ الملائكةِ فمبنيَّةٌ على النصوصِ؛ قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾[٣].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ دليلٌ على كمالِ طاعةِ الملائكةِ وانقيادِهم[٤].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ الملائِكةَ معصومونَ؛ لأنَّه قال: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[٥].

١٢- الملائكةُ لا يفعلونَ ما يكونُ مِن جنسِ المباحاتِ والمنهيَّاتِ! بل لا يفعلونَ إلَّا ما هو مِن الطاعاتِ؛ قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((الحبائك في أخبار الملائك)) للسيوطي (ص: ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٣٦).

(٦) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٤٥٩).

١٣- في قولِه تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ أنَّ الملائكةَ موكَّلونَ بأعمالٍ يقومونَ بها، كما أمَر الله تعالى بها[١].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ هذه الآيةُ مِن أدِلَّةِ إثباتِ الشَّفاعةِ، وأنَّ الملائِكةَ يَشفَعونَ[٢].

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ بيَّنَ أنَّهم لا يَشفَعونَ إلَّا لِمَن ارتضَى الربُّ، فعُلِمَ أنَّه لا بُدَّ أن يُؤْذَنَ لهم فيمَن يَشفَعونَ فيه، وأنَّهم لا يُؤذَنُ لهم إذْنٌ مُطلَقٌ[٣].

١٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، وكذا قولُه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]- لا يردُ عليه شفاعةُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في أبي طالبٍ؛ لأنَّها ليست شفاعةً في خروجِه مِن النارِ؛ بل هي شفاعةٌ في تخفيفِ العذابِ عنه[٤].

١٧- في قولِه تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ أنَّ الخوفَ ليس موقوفًا على ظنِّ الخائفِ أنَّ الله يعذِّبُه في الآخرةِ، ولا على تجويزِه لذلك؛ فإنَّ الملائكةَ والأنبياءَ قد أمِنوا مِن الموتِ على الكفرِ؛ وهم مع ذلك أخوفُ الخلقِ لله[٥].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا

---

(١) يُنظر: ((التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية)) للفوزان (ص: ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٤).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الطحاوية)) للبراك (ص: ١٥٧).

(٥) يُنظر: ((العواصم والقواصم)) لابن الوزير (٢/ ٢٧٣).

يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ذَكَرَ هذا الوعيدَ في الملائكةِ وخَصَّهم بالذِّكرِ؛ تَنبيهًا على أنَّ دعوى الإلهيَّةِ لا تجوزُ لأحدٍ مِن المخلوقينَ: لا ملَكٍ ولا غَيرِه، وأنَّه لو قُدِّرَ وقوعُ ذلك مِن مَلَكٍ مِن الملائكةِ، لكان جزاؤه جهنَّمَ، فكيف مَن دُونَهم[1]؟!

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ هذه الآياتُ تدُلُّ على كَونِ الملائِكةِ مُكَلَّفينَ، مِن حَيثُ قال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾، ومن حيثُ الوَعيدُ[2].

٢٠- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ هذا دَليلٌ على أنَّ الملائِكةَ وإن أُكرِموا بالعِصمةِ، فهم مُتَعَبَّدونَ، وليسوا مُضْطَرِّينَ إلى العبادةِ[3].

٢١- قَولُه تعالى في هذه الآيةِ الكَريمةِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ دليلٌ قاطِعٌ على أنَّ حُقوقَ الله الخالِصةَ له مِن جَميعِ أنواعِ

---

(١) يُنظر: ((الاستغاثة)) لابن تيمية (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٣٦).

قال السفاريني: (الكتابُ والسُّنةُ ظاهرُهما تكليفُ الملائكةِ). ((لوامع الأنوار البهية)) (٢/ ٤١٠).

وقال الأشقر: (إنَّ الملائِكةَ لَيسُوا بمُكلَّفينَ بالتَّكاليفِ نَفْسِها التي كُلِّفَ بها أبناءُ آدَمَ، أمَّا القَولُ بعَدَمِ تكليفِهم مُطلَقًا، فهو قولٌ مَردودٌ؛ فهم مأمورونَ بالعبادةِ والطَّاعةِ). ((عالم الملائكة الأبرار)) (ص: ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٢).

العبادةِ لا يجوزُ أن يُصرَفَ شَيءٌ منها لأحَدٍ، ولو مَلَكًا مُقَرَّبًا، أو نبيًّا مُرسَلًا[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾ كرَّرَه استعظامًا لكُفْرِهم، واستفظاعًا لأمْرِهم، وتَبكيتًا وإظهارًا لجَهْلِهم، أو ضَمًّا لإنكارِ ما يكونُ لهم سَندًا من النَّقلِ إلى إنكارِ ما يكونُ لهم دليلًا منَ العقلِ، على معنى: أوجَدوا آلِهةً يُنشِرونَ الموتى، فاتَّخَذوهم آلهةً لمَّا وَجَدوا فيهم من خواصِّ الأُلوهيَّةِ، أو وَجَدوا في الكُتبِ الإلهيَّةِ الأمْرَ بإشراكِهم، فاتَّخَذوهم مُتابعةً للأمرِ؟! ويُعضِّدُ ذلك أنَّه رَتَّبَ على الأوَّلِ ما يدُلُّ على فَسادِهِ عَقْلًا، وعلى الثَّاني ما يدُلُّ على فَسادِه نَقْلًا[٢].

- وهو تأكيدٌ لجُملةِ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنبياء: ٢١]؛ أكَّدَ ذلك الإضرابَ الانتقاليَّ بمثْلِه؛ استعظامًا لِفَظاعتِه، وليُبْنى عليه استدلالٌ آخَرُ[٣]. وزاد في هذا التَّوبيخِ قولَه: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ فكأنَّه وبَّخَهم على قَصْدِ الكُفْرِ باللهِ عَزَّ وجَلَّ، ثمَّ دعاهمْ إلى الإتيانِ بالحُجَّةِ على ما اتَّخَذوا، ولا حُجَّةَ تقومُ على أنَّ للهِ تعالى شَريكًا؛ لا من جِهَةِ العقْلِ، ولا مِن جِهَةِ النَّقلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢١).

- قولُه: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾، أي: قُلْ لهم بطَريقِ التَّبكيتِ وإلْقامِ الحجَرِ. وفي إضافةِ البُرهانِ إلى ضَميرِهم -إشعارًا بأنَّ لهم بُرهانًا- ضَرْبٌ من التَّهكُّمِ بهم[١].

- قولُه: ﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ فيه تَبكيتٌ لهم مُتضمِّنٌ لإثباتِ نَقيضِ مُدَّعاهم[٢]. والإشارةُ في قولِه: ﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ إلى مُقدَّرٍ في الذِّهْنِ يُفسِّرُه الخبَرُ. والمقصودُ من الإشارةِ تَمييزُه وإعلانُه بحيث لا يَستطيعُ المُخاطَبُ المُغالَطةَ فيه ولا في مَضمونِه[٣].

- قولُه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ إضْرابٌ من جِهَتِه تعالى غيرُ داخِلٍ في الكلامِ المُلقَّنِ، وانتقالٌ من الأمْرِ بتَبكيتِهم بمُطالَبةِ البُرهانِ إلى بَيانِ أنَّه لا يَنجَحُ فيهم المُحاجَّةُ بإظهارِ حَقِّيَّةِ الحقِّ، وبُطلانِ الباطلِ. وإنَّما أسنَدَ هذا الحُكْمَ إلى أكثرِهم لا لجَميعِهم؛ تَسجيلًا عليهم بأنَّ قليلًا منهم يَعْلمون الحقَّ ويَجْحَدونه، أو إيماءً إلى أنَّ قليلًا منهم تهيَّأَت نُفوسُهم لقَبولِ الحقِّ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ الجُملةُ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِما أُجْمِلَ فيما قبْلَه، مِن كونِ التَّوحيدِ ممَّا نطقَتْ به الكُتبُ الإلهيَّةُ، وأجْمَعَتْ عليه الرُّسلُ عليهم السَّلامُ. وصِيغَةُ المُضارِعِ ﴿نُوحِىٓ﴾ لحِكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ استحضارًا لصُورةِ الوحيِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٣).

- وحَرْفُ (مِن) في قولِه: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ مَزيدٌ؛ لتَوكيدِ النَّفيِ[١].

- وفي قولِه: ﴿إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فرَّعَ فيما أُوحِيَ إليهم أمْرَه إيَّاهم بعِبادتِه على الإعلانِ بأنَّه لا إلهَ غيرُه؛ فكان استحقاقُ العِبادةِ خاصًّا به تعالى[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ حِكايةٌ لجِنايةِ فَريقٍ من المُشرِكينَ؛ جِيءَ بها لإظهارِ بُطلانِها، وبَيانِ تَنزُّهِه تعالى عن ذلك إثْرَ بَيانِ تَنزُّهِه سُبحانه عن الشُّركاءِ على الإطلاقِ. والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرَّحمانيَّةِ المُنْبئةِ عن كونِ جَميعِ ما سِواهُ تعالى مَرْبوبًا له تعالى نِعمةً أو مُنْعَمًا عليه؛ لإبرازِ كَمالِ شَناعةِ مَقالتِهم الباطلةِ[٣].

- قولُه: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ فيه إضرابٌ وإبطالٌ لِما قالوهُ[٤]، وأعقَبَ حَرْفَ الإضرابِ عن قولِهم بالإخبارِ بأنَّهم عِبادٌ دونَ ذِكْرِ المُبتدأِ؛ للعِلْمِ به. والتَّقديرُ: بلِ الملائكةُ عِبادٌ مُكْرَمونَ[٥].

- وفي قولِه: ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ تَنبيهٌ على منشَأِ غلَطِ القومِ[٦].

٤- قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٣).

- قولُه: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ صِفَةٌ أُخْرى لـ﴿عِبَادٌ﴾، مُنْبِئَةٌ عن كَمالِ طاعتِهم وانقيادِهم لأمْرِه تعالى؛ وأصْلُه: لا يَسبِقُ قولُهم قولَه تعالى؛ فأسنَدَ السَّبقَ إليهم مَنسوبًا إليه تعالى، تَنزيلًا لسَبْقِ قولِهم قولَه تعالى مَنزلةَ سَبْقِهم إيَّاهُ تعالى؛ لمَزيدِ تَنزيهِهم عن ذلك، وللتَّنبيهِ على غايةِ استهجانِ السَّبقِ المُعرَّضِ به للَّذينَ يَقولون ما لا يَقولُه اللهُ تعالى. وجعَلَ القولَ مَحَلًّا للسَّبقِ وأداةً له، ثُمَّ أُنيبَت (أل) عن الإضافةِ في قولِه: ﴿بِٱلْقَوْلِ﴾؛ للاختصارِ والتَّجافي عنِ التَّكرارِ، وفيه مَزيدُ استهجانٍ للسَّبْقِ، وإشعارٌ بأنَّ مَن سبَقَ قولُه قولَه تعالى، فقد تَصدَّى لِمُغالَبتِه تعالى في السَّبقِ، فسبَقَه فغلَبَه والعياذُ باللهِ تعالى، وزِيادةُ تَنزيهٍ لهم عمَّا نُفِيَ عنهم ببَيانِ أنَّ ذلك عندَهم بمَنزلةِ الغَلبةِ بعْدَ المُغالَبةِ، فأنَّى يُتوهَّمُ صُدورُه عنهم[1]؟!

- وأيضًا نفْيُ السَّبْقِ في قولِه: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ كِنايةٌ عنِ التَّعظيمِ والتَّوقيرِ[2].

- قولُه: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ بَيانٌ لتَبعيَّتِهم له تعالى في الأعمالِ إثْرَ بَيانِ تَبعيَّتِهم له تعالى في الأقوالِ؛ فالقصْرُ المُستفادُ من تَقديمِ الجارِّ ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ مُعْتبَرٌ بالنِّسبةِ إلى غيرِ أمْرِه، لا إلى أمْرِ غيرِه[3].

٥- قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ استئنافٌ وقَعَ تَعليلًا لِما قبْلَه، وتَمهيدًا

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٣، ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٣، ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥١).

لِما بعْدَه؛ فإنَّهم لإحاطتِهم بذلك يَضْبِطون أنفُسَهم، ويُراقِبون أحوالَهم[١].

- قولُه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ فيه تَخصيصٌ لبعْضِ ما شمَلَه ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ بالذِّكْرِ؛ اهتمامًا بشأْنِه؛ لأنَّه ممَّا كَفَروا بسبَبِه؛ إذ جَعَلوا الآلِهةَ شُفعاءَ لهم عندَ اللهِ[٢].

- قولُه: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ فيه تَقريرٌ لِزيادةِ تَعظيمِهم رَبَّهم، أي: هم يُعظِّمونَه تَعظيمَ مَن يَخافُ بَطْشَتَه، ويَحذرُ مُخالَفةَ أمْرِه. و(مِن) في قولِه: ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ للتَّعليلِ، أي: وهمْ لأجْلِ خَشْيَتِه، أي: خَشْيَتِهم إيَّاه[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ تَتميمٌ في غايةِ الحُسْنِ لضَبْطِ أنفُسِهم، ورِعايةِ أحوالِهم كلِّها سابِقِها ولاحِقِها[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه مُفاجأةُ مَنِ ادَّعَى منهم أنَّه إلهٌ بالوعيدِ الشَّديدِ، وإنذارِه بعَذابِ جهنَّمَ، وذلك على سَبيلِ العرْضِ والتَّمثيلِ؛ وقُصِدَ بذلك تَفظيعُ أمْرِ الشِّرْكِ، وتَعظيمُ شأْنِ التَّوحيدِ[٥]، وفيه تَهديدُ المُشرِكينَ بتَهديدِ مُدَّعِي الرُّبوبيَّةِ[٦]. وفيه تَعريضٌ بالَّذين ادَّعَوا لهم الإلهيَّةَ بأنَّهم ادَّعَوا لهم ما لا يَرْضَونه ولا يَقولونَه، وأنَّهم ادَّعَوا ما يُوجِبُ لقائلِه نارَ جهنَّمَ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٢).

- وعدَلَ عن (إنْ) الشَّرطيَّةِ إلى (مَن) الشَّرطيةِ؛ للدَّلالةِ على العُمومِ معَ الإيجازِ، وأُدْخِلَ اسمُ الإشارةِ (ذلك) في جَوابِ الشَّرطِ؛ لتَحقيقِ التَّعليقِ بنِسْبَتِه الشَّرطَ لأداتِه؛ للدَّلالةِ على جَدارةِ مَضمونِ الجزاءِ بمَن ثبَتَ له مَضمونُ الشَّرْطِ[1].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (كذلك) مَصدرٌ تَشبيهيٌّ مُؤكِّدٌ لمَضمونِ ما قبْلَه، والقصْرُ المُستفادُ مِن التَّقديمِ مُعتبَرٌ بالنِّسبةِ إلى النُّقصانِ دونَ الزِّيادةِ، أي: لا جَزاءً أنقَصَ منه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٤).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَتْقًا﴾: أي: مُصْمَتتيْنِ، أو: مُنسَدَّتَينِ مُلتَئِمَتَينِ، والرتقُ: الضَّمُّ والالتِحامُ[١].

﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾: أي: صَدَعْناهما، وفَرَجْناهما، والفَتقُ: الفَصلُ بين المتَّصِلَينِ، وهو ضِدُّ الرَّتقِ، وأصلُ (فتق): يدُلُّ على فَتحٍ في شَيءٍ[٢].

﴿رَوَٰسِيَ﴾: أي: جبالًا ثوابِتَ، والرَّواسي: جمعُ راسيةٍ، وهي الثابتةُ، وأصلُ (رسي): يدُلُّ على ثباتٍ[٣].

﴿تَمِيدَ﴾: أي: تميلَ وتتحَرَّكَ، وأصلُ (ميد): يدُلُّ على حَرَكةٍ في شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٧١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

﴿فِجَاجًا﴾: أي: مَسالِكَ وطُرُقًا، ومفردُه: فَجٌّ، وكلُّ فَتحٍ بينَ جَبَلينِ أو شَيئَينِ فهو فجٌّ، ويُستعمَلُ في الطَّريقِ الواسعِ، وأصلُ (فجج): يدُلُّ على تفتُّحٍ وانفِراجٍ[١].

﴿سُبُلًا﴾: أي: طُرُقًا، جمعُ سبيلٍ، وسُمِّي الطَّريقُ بذلك؛ لامتِدادِه، والسَّبيلُ: الطَّريقُ الذي فيه سهولةٌ، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على امتِدادِ شيءٍ[٢].

﴿فَلَكٍ﴾: الفَلَكُ: مَدارُ النُّجومِ الذي يضُمُّها، وأصلُ (فلك): يدُلُّ على استدارةٍ في شَيءٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: أولَمْ يعلَمْ هؤلاء الذين كَفَروا أنَّ السَّمَواتِ كانت مُصمَتةً لا تُمطِرُ، والأرضَ مُصمَتةً لا تُنبِتُ، فصَدَعْنا السَّماءَ فأمطَرَت، وشقَقْنا الأرضَ فأنبَتَت، وخلَقْنا من الماءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ. أفلا يؤمِنُ هؤلاء الجاحِدونَ فيُصَدِّقوا بما يُشاهِدونَه، ويُقِرُّوا باستِحقاقِ اللهِ وحْدَه للعبادةِ؟

وجعَلْنا في الأرضِ جِبالًا تُثَبِّتُها حتى لا تَضْطَرِبَ، وجعَلْنا فيها طُرُقًا واسِعةً؛

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٦١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٥، ٦٢)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٩٥).
قال الواحدي: (وقولُه تعالى: ﴿سُبُلًا﴾ تفسيرٌ للفِجاجِ، وبيانٌ له. وفائِدتُه أنَّ الفَجَّ في موضوعِ اللُّغةِ يجوزُ أنَّه لا يكونُ طريقًا نافذًا مَسلوكًا، فلمَّا ذَكَر الفِجاجَ بيَّن أنَّه جعَلَها سُبُلًا نافِذةً مَسلوكةً). ((البسيط)) (١٥/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

ليهتديَ الخَلقُ إلى السَّيرِ في الأرضِ والتنقُّلِ في البلدانِ؛ لتحصيلِ مَعايِشِهم، وليهتدوا إلى دلائلِ وحدانيَّةِ خالِقِهم وقدرتِه، وجعَلْنا السَّماءَ سَقفًا محفوظًا مِن السقوطِ عليهم، ومحفوظًا من الشَّياطينِ. والكُفَّارُ عن الاعتبارِ بآياتِ السَّماءِ غافِلونَ لاهونَ عن التَّفكُّرِ فيها.

واللهُ تعالى هو الذي خلق اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقَمَرَ، ولكلٍّ منها فلَكٌ يجري فيه ويَسبَحُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾.

أي: أولَمْ يَنظُرِ الكُفَّارُ فيَعلَموا أنَّ السَّماءَ كانت مُصْمَتةً لا تُمطِرُ، والأرضَ كانت مُصمَتةً لا تُنبِتُ، فصَدَعْنا السَّماءَ فأمطَرَت، وشقَقْنا الأرضَ فأنبَتَتْ[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤١).

قال الشنقيطي: (اعلمْ أنَّ العُلَماءَ اختلفوا في المرادِ بالرَّتقِ والفَتقِ في هذه الآيةِ على خمسةِ أقوالٍ، بعضُها في غايةِ السُّقوطِ، وواحِدٌ منها تدُلُّ له قرائِنُ مِن القرآنِ العظيمِ... وهو كونُهما كانتا رتقًا بمعنى أنَّ السَّماءَ لا ينزِلُ منها مطَرٌ، والأرضَ لا تُنبِتُ شَيئًا، ففَتَق اللهُ السَّماءَ بالمطَرِ، والأرضَ بالنَّباتِ، وقد دَلَّت عليه قرائِنُ مِن كتابِ الله تعالى:

الأولى: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ يدُلُّ على أنَّهم رأَوا ذلك؛ لأنَّ الأظهَرَ في «رأى» أنَّها بَصَريَّةٌ، والذي يَرَونه بأبصارِهم هو أنَّ السَّماءَ تكونُ لا ينزِلُ منها مطَرٌ، والأرضَ مَيِّتةٌ هامِدةٌ لا نباتَ فيها، فيُشاهِدونَ بأبصارِهم إنزالَ اللهِ المطَرَ، وإنباتَه به أنواعَ النَّباتِ.

القرينةُ الثَّانيةُ: أنَّه أتبَعَ ذلك بقَولِه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾، والظَّاهِرُ =

= اتِّصالُ هذا الكلامِ بما قَبلَه، أي: وجعَلْنا من الماءِ الذي أنزَلْناه بفَتْقِنا السَّماءَ، وأنبَتْنا به أنواعَ النَّباتِ بفَتْقِنا الأرضَ: كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ.

القرينةُ الثَّالثةُ: أنَّ هذا المعنى جاء مُوضَّحًا في آياتٍ أُخَرَ مِن كتابِ اللهِ تعالى؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ [الطارق: ١١، ١٢]؛ لأنَّ المرادَ بالرَّجْعِ نُزولُ المطَرِ منها تارةً بعد أخرى، والمرادَ بالصَّدعِ انشقاقُ الأرضِ عن النَّباتِ، وكقَولِه تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا﴾ [عبس: ٢٤ - ٢٦] الآية). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٤٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٨).

ونسب الألوسي هذا القول إلى أكثر المفسرين. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٥).

قال الألوسي: (والمرادُ بالسَّمَواتِ جِهةُ العُلُوِّ أو سماءُ الدُّنيا، والجَمعُ باعتبارِ الآفاقِ، أو من بابِ: «ثَوبٌ أخلاقٌ». وقيل: هو على ظاهِرِه، ولكُلٍّ مِن السَّمَواتِ مَدخَلٌ في المطَرِ). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٥).

وقال الرسعني: (إن قيل: متى رأوهما رَتْقًا حتى قرَّرهم بذلك؟ قلتُ: قد رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّ معناه: كانت السَّماءُ رَتْقًا لا تُمطِرُ، وكانت الأرضُ رَتْقًا لا تُنبِتُ، فَفَتَقْنا هذه بالمطَرِ، وهذه بالنَّباتِ. وهذا قَولُ عطاءٍ، وعِكرمةَ، والضَّحَّاكِ، ومجاهِدٍ في روايةٍ عنه. وهذا ممَّا رأَوه وشاهَدوه. فإنْ قيل: فما نصنَعُ بما رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ، والحسَنِ، وسَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وقتادةَ: أنَّ المعنى: كانتا رتقًا مُلتصقتَينِ، ففتَقَهما اللهُ عزَّ وجَلَّ... وهذا شيءٌ لم يَرَوه، فما وجهُ تقريرِهم به؟ قلتُ: الرؤيةُ هاهنا بمعنى: العِلمِ.

فإنْ قيل: مِن أين عَلِموا ذلك؟ قلتُ: بما قَصَّ عليهم في القُرآنِ الذي هو مُعجِزٌ في نفْسِه، وجائِزٌ أن يكونَ العِلمُ بذلك ممَّا تناقَلوه وبَقِيَ في أيديهم مِنَ الشَّريعةِ الحنيفيَّةِ، أو مِمَّا سَمِعوه ووَعَوه من أهلِ الكتابِ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٠٩).

قال ابن عاشور: (والرَّتقُ يحتَمِلُ أن يرادَ به معانٍ تَنشأُ على محتَمَلاتِها معانٍ في الفَتْقِ؛ فإن اعتبَرْنا الرُّؤيةَ بصريةً فالرَّتقُ المشاهَدُ هو ما يُشاهِدُه الرَّائي من عدمِ تخَلُّلِ شَيءٍ بين أجزاءِ السَّمَواتِ وبين أجزاءِ الأرضِ، والفَتقُ هو ما يُشاهِدُه الرَّائي من ضِدِّ ذلك حين يرى المطَرَ نازِلًا من السَّماءِ، ويرى البَرْقَ يَلمَعُ منها، والصَّواعِقَ تَسقُطُ منها، فذلك فَتْقُها، وحين يرى انشِقاقَ الأرضِ بماءِ المطَرِ، وانبثاقَ النَّباتِ والشَّجرِ منها بعد جَفافِها، وكُلُّ ذلك مُشاهَدٌ مَرئيٌّ دالٌّ على تصَرُّفِ الخالقِ... وإن اعتبَرْنا الرُّؤيةَ علميَّةً احتَمَل أن يُرادَ بالرَّتقِ مِثلُ ما أُريدَ به على اعتبارِ كونِ الرُّؤيةِ بَصَريَّةً... =

كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [عبس: ٢٤ - ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۞ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١، ١٢].

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾.

أي: وخَلَقْنا من الماءِ كُلَّ شَيءٍ فيه حياةٌ[١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي إذا رأيتُك طابَتْ نَفسي، وقرَّتْ عيني، فأنبِئْني عن كُلِّ شَيءٍ، فقال: كُلُّ شَيءٍ خُلِقَ مِن ماءٍ))[٢].

= واحتَمَل أن يرادَ بالرَّتقِ معانٍ غيرُ مُشاهدةٍ، ولكِنَّها ممَّا ينبغي طلَبُ العِلمِ به؛ لِما فيه من الدَّلائِلِ على عِظَمِ القُدرةِ وعلى الوحدانيَّةِ، فيَحتَمِلُ أن يرادَ بالرَّتقِ والفَتقِ حقيقتاهما، أي: الاتِّصالُ والانفِصالُ. ثمَّ هذا الاحتِمالُ يجوزُ أن يكونَ على معنى الجُملةِ، أي: كانت السَّمَواتُ والأرضُ رَتقًا واحِدًا، أي: كانتا كُتلةً واحِدةً، ثمَّ انفَصَلت السَّمَواتُ عن الأرضِ... ويجوزُ على هذا الاحتِمالِ أن يكونَ الرَّتقُ والفَتقُ على التَّوزيعِ، أي: كانت السَّمَواتُ رَتقًا في حَدِّ ذاتِها، وكانت الأرضُ رَتقًا في حَدِّ ذاتِها، ثمَّ فتق اللهُ السَّمَواتِ، وفتَق اللهُ الأرضَ).

إلى أن قال: (والظَّاهِرُ أنَّ الآيةَ تَشمَلُ جميعَ ما يتحقَّقُ فيه معاني الرَّتقِ والفَتقِ؛ إذ لا مانِعَ مِن اعتبارِ معنًى عامٍّ يجمَعُها جميعًا، فتكونُ الآيةُ قد اشتمَلَت على عِبرةٍ تَعُمُّ كُلَّ النَّاسِ، وعلى عِبرةٍ خاصَّةٍ بأهلِ النَّظَرِ والعِلمِ، فتكونُ مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ العِلميَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٣- ٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٩)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٣، ٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٢).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٣٢)، وابن حبان (٢٥٥٩)، والحاكم (٧٢٧٨).

صَحَّح إسنادَه الحاكِمُ، وقال ابن كثير في ((التفسير)) (٥/ ٣٤٠): إسنادُه على شرطِ الصَّحيحَينِ، إلَّا أنَّ أبا ميمونةَ مِن رجال السُّنَن. وقال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ١٩): رجالُه رجالُ الصَّحيحِ خلا أبا ميمونةَ، وهو ثقة. ووثَّقَ رواتَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) =

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: أفلا يُؤمِنُ الذين كفَروا بما يُشاهِدونَه، فيَستَدِلُّوا به على وُجودِ الصَّانِعِ الفاعِلِ، المختارِ القادِرِ، ويُقِرُّوا باستحقاقِه وَحْدَه للعبادةِ، ولا يُشرِكوا به شَيئًا[1]؟

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعدَ أن ذكَرَ اللهُ تعالى دليلَينِ مِن دلائِلِ التَّوحيدِ، وهي مِنَ الأدِلَّةِ السَّماويَّةِ والأرضيَّةِ؛ ذكَرَ هنا دليلًا آخَرَ مِن الدَّلائِلِ الأرضيَّةِ، فقال[2]:

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾.

أي: وجعَلْنا في الأرضِ جِبالًا ثابِتةً؛ لئلَّا تضطَرِبَ الأرضُ بهم[3].

كما قال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ [النمل: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧].

= (٥/ ٤٨١)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حَجَرٍ في ((فتح الباري)) (٥/ ٣٦)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٥/ ٧٢)، والألباني في ((إرواء الغليل)) (١/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: أولَمْ يَرَ هؤلاء الكفَّارُ أيضًا مِن حُجَجِنا عليهم وعلى جميعِ خَلْقِنا: أنَّا جعَلْنا في الأرضِ جِبالًا راسيةً؟). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦١).

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

أي: وجعَلْنا فيها[١] طُرُقًا واسِعةً سَهلةً؛ لِيَهتَدوا إلى السَّيرِ في الأرضِ، والوصولِ إلى مطالبِهم مِن البلدانِ، ولِيَهتَدوا إلى ما فيها مِن دلائِلِ وحدانيَّةِ خالِقِها وقُدرَتِه، وتفرُّدِه بأوصافِ الكَمالِ[٢].

---

(١) قيل: الضَّميرُ في ﴿فِيهَا﴾ يعودُ على الأرضِ، فيدخُلُ فيها الجِبالُ وغَيرُها. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، واختاره ابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٠).

وقيل: الضميرُ يعودُ على الجبالِ. وممَّن قال بذلك: القرطبي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

قال الماوردي: (﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فيه وجهان: أحدُهما: سُبُلُ الاعتبارِ؛ لِيَهتَدوا بالاعتبارِ بها إلى دينِهم. الثاني: مَسالِك لِيَهتَدوا بها إلى طُرُقِ بلادِهم). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٤٥).

وممن اختار الوجهَ الثاني: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطية، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٥).

وقال ابن عاشور: (وَجُمْلَةُ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ مُستأنفةٌ إنشاءً؛ رَجاءَ اهتداءِ المشركينَ إلى وحدانِيَّةِ اللَّهِ؛ فإنَّ هذه الدَّلائِلَ مُشاهَدةٌ لهم، واضحةُ الدَّلَالةِ. ويجوزُ أن يُرادَ بالاهتداءِ: الاهتداءُ في السَّيْرِ، أي جعَلْنا سُبُلًا واضحةً، غيرَ محجوبَةٍ بالضِّيقِ؛ إرادةَ اهتدائِهم في سَيرِهم، فتكونُ هذه مِنَّةً أُخرَى، وهو تدبيرُ اللَّهِ الأشياءَ على نحوٍ ما يلائِمُ الإنسانَ وَيُصْلِحُ أحوالَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٧).

وممن جمَع بينَ القولينِ: البقاعي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

قال البقاعي: (﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى منافعِهم في ديارِهم وغيرِها، وإلى ما فيها مِن دلائِلِ الوَحدانيَّةِ وغيرِها، فيَعلَموا أنَّ وُجودَها لو كان بالطبيعةِ كانت على نَمطٍ واحدٍ مُساويةً للأرضِ، مُتساويةً في الوَصفِ، وأنَّ كَونَها على غيرِ ذلك دالٌّ على أنَّ صانِعَها قادِرٌ مُختارٌ، مُتفَرِّدٌ بأوصافِ الكَمالِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤١٤).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا دَلَّهم اللهُ تعالى بالسَّمَواتِ والأرضِ على عَظَمتِه، ثم فصَّلَ بَعضَ ما في الأرضِ لِمُلابستِهم له، وخَصَّ الجبالَ؛ لِكَثرتِها في بلادِهم- أتبَعَه السَّماءَ[1]، فقال:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾.

أي: وجعَلْنا السَّماءَ سَقفًا للأرضِ مَحفوظًا من السُّقوطِ عليهم، ومحفوظًا من الشَّياطينِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤١٤، ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).
ممن اختار أنَّ معنى ﴿مَّحْفُوظًا﴾ أي: مِن الوقوعِ والسقوطِ على الأرضِ: السمعانيُّ، والبغوي، والرازي، والقرطبي، والخازن، والعُليمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٤).
وممن اختار أنَّ معنى ﴿مَّحْفُوظًا﴾ أي: بالنُّجومِ مِن الشَّياطينِ: الفراءُ، وابنُ جرير، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

أي: وهم عن آياتِ السَّماءِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ وكَمالِ قُدرَتِه وحِكمَتِه وصِفاتِه، واستِحقاقِه للعبادةِ وَحْدَه- مُعرِضُون عن التفكُّرِ والتدبُّرِ فيها[1].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، فصَّل تلك الآياتِ هاهنا[2]، فقال:

= وممن جمع بين المعنيين السابقين: ابنُ جزي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

قال ابن عطية: (والحفظُ هنا عامٌّ في الحفظِ مِن الشياطينِ ومِن الرمي وغيرِ ذلك مِن الآفاتِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤١٥، ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٨، ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٠).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الذي خلَقَ اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقَمَرَ، وفيها دَلالاتٌ على عَظيمِ سُلطانِه، وأنَّ العبادةَ له دونَ كُلِّ ما سواه، ولِينتَفِعَ النَّاسُ بها في شُؤونِ دينِهم ودُنياهم(١).

كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

﴿كُلّٞ فِى فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾.

أي: كلٌّ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ والقَمَرِ في فلَكٍ دائرٍ، يجْرونَ بسُرعةٍ كالسَّابِحِ في الماءِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ * وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِى لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ * وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤١).
قال ابن تيميَّة: (الأفلاكُ مُستديرةٌ، كما أخبَرَ اللهُ ورَسولُه، وكما ذكَرَ ذلك علماءُ المُسلِمينَ وغَيرُهم. فذكر أبو الحُسينِ ابن المنادي، وأبو محمد بن حزم، وأبو الفرج بن الجوزي، وغَيرُهم: إجماعَ المُسلِمينَ على أنَّ الأفلاكَ مُستَديرةٌ. وقال ابنُ عبَّاسٍ في قوله: ﴿كُلّٞ فِى فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ قال: في فَلَكةٍ مِثلِ فَلَكةِ المِغزَلِ، والفَلَكُ في لغةِ العَرَبِ: الشَّيءُ المستديرُ). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٥٩٥).

كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۞ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وكذلك قَولُه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ دلَّ على خَلقِ جَميعِ ما فيه حياةٌ وما يَدِبُّ مِن ماءٍ، وأنَّ الماءَ مادَّةُ جَميعِ الحيواناتِ؛ فعُلِمَ بذلك أنَّ أصلَ جَميعِها الماءُ المُطلَقُ، ولا ينافي هذا قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، وقَولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((خُلِقَت الملائِكةُ مِن نورٍ))[١]؛ فإنَّ حَديثَ أبي هريرةٍ ((كُلُّ شَيءٍ خُلِقَ مِن ماءٍ))[٢] دَلَّ على أنَّ أصلَ النُّورِ والنَّارِ الماءُ، كما أنَّ أصلَ التُّرابِ الذي خُلِقَ منه آدَمُ الماءُ؛ فإنَّ آدَمَ خُلِقَ مِن طينٍ، والطينُ تُرابٌ مُختَلِطٌ بماءٍ، أو التُّرابُ خُلِقَ مِن الماءِ، كما جاء عن ابنِ عَبَّاسٍ وغَيرِه[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه عِبرةٌ للنَّاسِ في أكثَرِ أحوالِه، وهو عِبرةٌ للمُتأمِّلينَ في دقائِقِه في تكوينِ الحيوانِ مِن الرُّطوباتِ، وهي تكوينُ التَّناسُلِ، وتكوينُ جَميعِ الحَيوانِ؛ فإنَّه لا يتكَوَّنُ إلَّا مِن الرُّطوبةِ، ولا يعيشُ إلَّا مُلابِسًا لها، فإذا انعَدَمت منه الرُّطوبةُ فقَدَ الحياةَ؛ ولذلك كان استِمرارُ الحُمَّى مُفضِيًا إلى الهُزالِ ثمَّ إلى الموتِ[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ١١١).

(٣) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٣، ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ... ﴾ استفهامُ تَوبيخٍ لمَن ادَّعَى معَ اللهِ آلِهةً، ودَلالةٌ على تَنزيهِه عنِ الشَّريكِ، وتَوكيدٌ لِما تقدَّمَ مِن أدلَّةِ التَّوحيدِ، ورَدٌّ على عَبدةِ الأوثانِ[١]. أو همزةُ الاستفهامِ للإنكارِ على إهمالِهم للنَّظرِ، والواوُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ[٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ تَقريريًّا[٣].

- قولُه: ﴿كَانَتَا رَتْقًا ﴾ وإنَّما قيل: ﴿كَانَتَا ﴾ دونَ (كُنَّ)؛ لأنَّ المُرادَ جماعةُ السَّمواتِ وجماعةُ الأرضِ[٤]. والإخبارُ عن السمَّواتِ والأرضِ بأنَّهما رَتْقٌ إخبارٌ بالمصدَرِ؛ للمُبالَغةِ في حُصولِ الصِّفَةِ، وإنَّما لم يقُلْ نحوَ: (فصارَتَا فَتْقًا)؛ لأنَّ الرَّتْقَ مُتمكِّنٌ منهما أشدَّ تَمكُّنٍ؛ لِيَستدِلَّ به على عَظيمِ القُدرةِ في فَتْقِهما، ولدَلالةِ الفِعْلِ على حَدثانِ الفَتْقِ؛ إيماءً إلى حُدوثِ الموجوداتِ كلِّها، وأنْ ليس منها أزلِيٌّ[٥]. وقيل: لم يقل (كانتا رتقين)؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ رتقٌ، كقولِه: ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ [الأنبياء: ٨]؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ جسدٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٣٧).

- وفي قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ -على القولِ بأنَّ (جَعَلْنَا) بمعنى (صَيَّرنا)- قدَّمَ المفعولَ الثَّاني ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾؛ للاهتمامِ به، لا لمُجرَّدِ أنَّ المفعولينِ في الأصْلِ مُبتدأٌ وخَبرٌ[١].

- قولُه: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ فُرِّعَ على ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾؛ إنكارًا عليهم عدَمَ إيمانِهم بوَحدانيَّةِ اللهِ[٢].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ استفهامُ إنكارٍ لعدَمِ إيمانِهم باللهِ وحْدَه، وفيه معنى التَّعجُّبِ مِن ضَعْفِ عُقولِهم، والفاءُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَستدعيهِ الإنكارُ السَّابقُ، أي: أيَعْلَمون ذلك، فلا يُؤمِنون[٣]؟!

٢- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا ...﴾ فيه تَكريرُ الفِعْلِ (جَعَلَ)؛ لاختلافِ المَجْعولينِ، ولتَوفيةِ مَقامِ الامتنانِ حَقَّه[٤].

- قولُه: ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾ في الفِجاجِ معنى الوصْفِ، وإنَّما قُدِّمَت على (السُّبلِ) ولم تُؤخَّرْ كما في قولِه: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٢٠]؛ للإعلامِ بأنَّه جعَلَ فيها طُرقًا واسعةً، فهو بَيانٌ لِما أُبْهِمَ هناك، ولِيَصيرَ حالًا؛ فيُفِيدَ أنَّه تعالى حين خلَقَها خلَقَها كذلك، أو ليُبْدِلَ منها ﴿سُبُلًا﴾، فيَدُلَّ ضِمْنًا على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٥).

أنَّه تعالى خلَقَها ووسَّعَها للسَّابِلةِ، مع ما فيه من التَّوكيدِ[١]. فإنْ قِيلَ: لم قُدِّمَ هاهنا، وأُخِّرَ هناك؟ فالجوابُ: أنَّ الآيةَ في سُورةِ (نُوحٍ) واردةٌ لبَيانِ الامتنانِ على سَبيلِ الإجمالِ، وهذه الآيةُ في سُورةِ (الأنبياءِ) واردةٌ لِبَيانِ الاعتبارِ، والبَعْثِ على إمعانِ النَّظرِ فيه، وذلك يَقْتضي التَّفصيلَ، ومِن ثَمَّ عقَّبَ قولَه: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ بهذه[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ لمَّا ذكَرَ الاعتبارَ بخلْقِ الأرضِ وما فيها، ناسَبَ -بحُكْمِ الطِّباقِ- ذِكْرُ خَلْقِ السَّماءِ عَقِبَه، إلَّا أنَّ حالةَ خلْقِ الأرضِ فيها منافعُ للنَّاسِ؛ فعقَّبَ ذِكْرَها بالامتنانِ بقولِه تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾، وبقولِه تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾. وأمَّا حالُ خلْقِ السَّماءِ فلا تَظهَرُ فيه مَنفعةٌ، فلم يُذْكَرْ بعْدَه امتنانٌ، ولكنَّه ذكَرَ إعراضَهم عن التَّدبُّرِ في آياتِ خَلْقِ السَّماءِ الدَّالَّةِ على الحِكْمةِ البالِغَةِ، فعَقَّبَ بقولِه تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، فأدمَجَ في خِلالِ ذلك مِنَّةً، وهي حِفْظُ السَّماءِ مِن أنْ تقَعَ بعْضُ الأجرامِ الكائنةِ فيها، أو بعْضُ أجزائِها على الأرضِ، فتُهْلِكَ النَّاسَ، أو تُفسِدَ الأرضَ، فتُعَطِّلَ مَنافِعَها، فذلك إدماجٌ للمِنَّةِ في خِلالِ الغرَضِ المقصودِ الَّذي لا مَندوحةَ عن العِبْرةِ به[٣].

- وأطلَقَ السَّقفَ على السَّماءِ في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٤- قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾ بيانٌ لبعْضِ تلك الآياتِ الَّتي هم عنها مُعرِضونَ بطَريقِ الالْتِفاتِ -حيث الْتَفَت مِن ضَميرِ المُتكلِّمِ إلى ضَميرِ الغائبِ- المُوجِبِ لتأْكيدِ الاعتناءِ بفَحْوى الكلامِ[١].

- وسِيقَتْ هذه الآيةُ في مَعرِضِ المِنَّةِ بصَوغِها في صِيغَةِ الجُملةِ الاسميَّةِ المُعرَّفةِ الجُزأينِ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ... ﴾؛ لإفادةِ القصْرِ، وهو قَصْرُ إفرادٍ إضافيٌّ، بتَنزيلِ المُخاطَبينَ من المُشرِكينَ مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ أصنامَهم مُشارِكةٌ للهِ في خَلْقِ تلك الأشياءِ[٢].

- ولكَونِ المِنَّةِ والعِبْرةِ في إيجادِ نَفْسِ اللَّيلِ والنَّهارِ، ونَفْسِ الشَّمسِ والقمَرِ، لا في إيجادِها على حالةٍ خاصَّةٍ؛ جِيءَ هنا بفِعْلِ (الخَلْقِ) لا بفِعْلِ (الجَعْلِ)[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾ مُناسَبةٌ قويَّةٌ لذِكْرِ خَلْقِ الشَّمسِ عَقِبَ ذِكْرِ خلْقِ النَّهارِ؛ للتَّنبيهِ على مَنشَأِ خَلْقِ النَّهارِ؛ فخَلْقُ النَّهارِ نَتيجةٌ لخَلْقِ الشَّمسِ وتوجُّهِ أشعَّتِها إلى النِّصْفِ المُقابِلِ للأشعَّةِ من الكُرَةِ الأرضيَّةِ، فخَلْقُ النَّهارِ تبَعٌ لخلْقِ الشَّمسِ وخَلْقِ الأرضِ، ومُقابلةِ الأرضِ لأشعَّةِ الشَّمسِ. وأمَّا ذِكْرُ خَلْقِ القَمرِ فلِمُناسَبةِ خَلْقِ الشَّمسِ، وللتَّذكيرِ بمِنَّةِ إيجادِ ما يُنيرُ على النَّاسِ بعْضَ النُّورِ في بعضِ أوقاتِ الظُّلمةِ. وكلُّ ذلك من المِنَنِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٥، ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٩، ٦٠).

- وجُملةُ: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّه لمَّا ذكَرَ الأشياءَ المُتضادَّةَ بالحقائقِ أو بالأوقاتِ؛ ذِكْرًا مُجْمَلًا في بعضِها الَّذي هو آياتُ السَّماءِ، ومُفصَّلًا في بعْضٍ آخرَ، وهو الشَّمسُ والقمرُ، كان المَقامُ مُثيرًا في نُفوسِ السَّامِعينَ سُؤالًا عن كيفيَّةِ سَيْرِها، وكيف لا يقَعُ لها اصطدامٌ أو يقَعُ منها تخلُّفٌ عن الظُّهورِ في وقْتِه المعلومِ؟ فأُجِيبَ بأنَّ كلَّ المذكوراتِ له فَضاءٌ يَسيرُ فيه، لا يُلاقي فضاءَ سَيْرِ غيرِه[1].

- قولُه تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ فيه مُحسِّنٌ بَديعيٌّ؛ فإنَّ حُروفَه تُقْرَأُ مِن آخِرِها على التَّرتيبِ كما تُقْرَأُ مِن أوَّلِها، مع خِفَّةِ التَّركيبِ، ووفْرَةِ الفائدةِ، وجَريانِه مَجْرى المثَلِ، مِن غيرِ تَنافُرٍ ولا غَرابةٍ[2].

- وفي قولِه: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ جاء بواوِ الجمْعِ العاقلِ؛ فأمَّا الجمْعُ فقيل: هناك معطوفٌ مَحذوفٌ وهو (والنُّجومُ)، ولذلك عاد الضَّميرُ مَجموعًا، ولو لم يكُنْ ثَمَّ معطوفٌ مَحذوفٌ، لكان (يَسْبَحَانِ) مُثنًّى، وحسَّنَ ذلك كونُه جاء فاصِلةَ رأْسَ آيةٍ، وأمَّا كونُه ضَميرَ مَن يَعقِلُ، ولم يكُنِ التَّركيبُ (يَسْبَحْنَ)؛ لأنَّه لمَّا كانتِ السِّباحةُ من أفعالِ الآدميِّينَ، جاء ما أُسْنِدَ إليهما مَجموعًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٦١).

وهذا النَّوع يُسمَّى في البلاغةِ (القَلب)، وهو في الكلامِ بحيثُ إذا قُلِبت حروفُه لم تتغيَّر قراءتُه، ولا بُدَّ مع ذلك أنْ يكونَ جيِّدَ السَّبكِ، مُنسجِمَ المعنى، ويُسمَّى أيضًا: ما يُقرأُ مِن الجِهتَينِ، العكس، والمقلوبُ المستوي، وما لا يَستحيلُ بالانعكاسِ، وهو مِن أنواع البديع، ومنه في الشِّعر قولُ القائل:

مَـوَدَّتُـه تـدومُ لـكُـلِّ هَـولٍ ... وهَـلْ كُـلُّ مَـوَدَّتُـه تـدومُ

يُنظر: ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٦٧٧).

جمعَ مَن يَعقِلُ، كقولِه: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[١] [يوسف: ٤]. أو ضَميرُ ﴿يَسْبَحُونَ﴾ عائدٌ إلى عُمومِ آياتِ السَّماءِ وخُصوصِ الشَّمسِ والقمرِ، وأُجْرِيَ عليها ضَميرُ جماعةِ الذُّكورِ باعتبارِ تَذكيرِ أسماءِ بعْضِها، مثْلُ القمَرِ والكوكبِ[٢]. أو جاء الجمْعُ باعتبارِ المَطالِعِ[٣].

- فإنْ قِيلَ: لكلِّ واحدٍ من القَمرينِ فَلَكٌ على حِدَةٍ؛ فكيف قِيلَ: جَميعُهم يَسْبَحُونَ في فَلَكٍ؟ قيل: اكْتَفى بما يدُلُّ على الجِنْسِ اختصارًا، ولأنَّ الغرَضَ الدَّلالةُ على الجِنْسِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٠).

الآيات (٣٤-٤٠)

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مِنْ عَجَلٍ﴾: أي: عَجُولًا، والعَجَلةُ: طَلَبُ الشَّيءِ وتَحرِّيه قبلَ أوانِه، وأصلُ (عجل): يدُلُّ على الإسراعِ[1].

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾: أي: تَغشاهم فجأةً، وأصلُ (بهت): يدلُّ على الدَّهَشِ والحَيرةِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى أنَّ مصيرَ جميعِ البشرِ إلى الموتِ، فيَقولُ تعالى: وما جَعَلْنا لبشَرٍ مِن قَبلِك -يا محمَّدُ- دوامَ البَقاءِ في الدُّنيا، أفإنْ مِتَّ فهم يُخَلَّدونَ فيها؟! كلَّا، لا يكونُ هذا. كلُّ نَفسٍ ذائِقةُ الموتِ لا محالةَ، ونختَبِرُكم -أيُّها النَّاسُ-

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

بالشِّدَّةِ والمِحَنِ تارةً، وبالرَّخاءِ والنِّعَمِ تارةً أخرى؛ فِتنةً لكم، ثمَّ إلينا تُرجَعونَ للحِسابِ والجَزاءِ.

ثمَّ يذكرُ الله سبحانَه جانبًا مِن سفاهاتِ الكفار تجاهَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: وإذا رآك الكُفَّارُ -يا محمَّدُ- يَستَهزِئونَ بك، ويقولونَ لائمين إيَّاك؛ لكُفرِك بآلهتِهم: أهذا الذي يَسُبُّ آلهتَكم؟ وكفروا بذِكرِ الرَّحمنِ، فهم أحقُّ بالاستِنكارِ واللَّومِ!

ثمَّ بيَّن اللهُ تعالى ما جُبِل عليه الإنسانُ مِن تسرُّعٍ، فقال: خُلِق الإنسانُ عَجولًا، سأُريكم -أيُّها المُستَعجِلونَ بالعذابِ- آياتِ عَذابي وانتِقامي، فلا تَستَعجِلوا ربَّكم بالعَذابِ.

ويقولُ هؤلاء الكُفَّارُ مُستعجلينَ العَذابَ مُستَهزئينَ: متى يأتينا عَذابُ اللهِ -يا محمَّدُ- إنْ كنتَ أنت ومَنِ اتَّبَعَك مِنَ الصَّادقينَ؟

لو يَعلَمُ هؤلاء الكُفَّارُ ما يُلاقونَه مِن العَذابِ عندما لا يَستَطيعونَ أن يَدفَعوا عن وُجوهِهم وظُهورِهم النَّارَ؛ لَمَا استعجَلوا العذابَ. ولا ناصِرَ لهم يدفَعُ عنهم عَذابَ اللهِ، بل تأتيهم النَّارُ فَجأةً، فيتحيَّرونَ عند ذلك، ويخافونَ خَوفًا عظيمًا، ولا يَستطيعونَ دَفعَ النَّارِ عن أنفُسِهم، ولا يُمهَلونَ لاستدراكِ تَوبةٍ واعتذارٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا استدَلَّ اللهُ تعالى بستَّةِ أنواعٍ مِن الدلائلِ[1] التي تُعَدُّ مِن أصولِ النِّعَمِ

(١) وهذه الأنواعُ الستةُ مِن الدلائلِ هي: =

الدُّنيويَّةِ؛ أتبَعها بما نبَّه به على أنَّ هذه الدُّنيا جعَلَها كذلك، لا لتبقَى وتدومَ، أو يبقَى فيها مَن خُلِقَت الدُّنيا له، بل خلَقَها سُبحانه وتعالى للابتلاءِ والامتحانِ، ولكي يُتوصَّلَ بها إلى الآخرةِ التي هي دارُ الخُلودِ(١).

وأيضًا فبعدَ أن ذكَر سبحانَه الأدلةَ على وجودِ الخالقِ الواحدِ القادرِ، بما يَرَوْن مِن الآياتِ الكونيةِ- أردَفَ ذلك ببيانِ أنَّ هذه الدُّنيا ما خُلِقت للخلودِ والدوامِ، ولا خُلِق مَن فيها للبقاءِ، بل خُلِقت للابتلاءِ والامتحانِ، ولتكونَ وسيلةً إلى الآخرةِ التي هى دارُ الخلودِ، فلا تَشْمَتوا إذا ماتَ محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، فما هذا بسبيلِه وحْدَه، بل هذا سُنَّةُ اللهِ فى الخلْقِ أجمعينَ(٢).

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾.

أي: وما خلَّدْنا -يا محمَّدُ- أحدًا مِن البَشَرِ قَبْلَك في الدُّنيا؛ فنُخَلِّدَك فيها، ولا بُدَّ لك مِن أن تموتَ فيها كما مات مَن قَبْلَك(٣).

= النوعُ الأولُ: قولُه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾.

النَّوعُ الثَّاني: قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

النَّوعُ الثَّالثُ: قولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾.

النَّوعُ الرَّابعُ: قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

النَّوعُ الخامسُ: قولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾.

النَّوعُ السَّادسُ: قولُه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٣٦- ١٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٧/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٥).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ أي: دوامَ البَقاءِ في الدُّنيا، نزَلت حينَ قالوا: نتربَّصُ بمحمَّدٍ رَيْبَ المَنُونِ. وذلك أنَّ المشركينَ كانوا يَدفَعونَ نبُوَّتَه، ويقولون: =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾.

أي: فهل إذا متَّ -يا محمَّدُ- سيُخَلَّدُ المُشرِكونَ في الدُّنيا مِن بَعدِك؟! كلَّا، بل سيموتونَ(١).

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

أي: كلُّ نَفسٍ مخلوقةٍ لا بدَّ أن تذوقَ ألمَ مُفارَقةِ جَسَدِها(٢).

= ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾، ولعلَّه يموتُ كما مات شاعرُ بني فلانٍ، فقال الله تعالى: قد مات الأنبياءُ مِن قَبلِك، وتولَّى اللهُ دينَه بالنصرِ والحِياطةِ، فهكذا نحفَظُ دينَك وشَرْعَك). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٤).

قال ابنُ القيمِ: (الصَّوابُ أن يُقال: موتُ النُّفوسِ هو مفارقتُها لأجسادِها، وخروجُها منها، فإنْ أُريدَ بموتِها هذا القدْرُ فهي ذائقةُ الموتِ، وإنْ أُريدَ أنَّها تعدمُ وتضمحلُّ وتصيرُ عدمًا مَحْضًا فهي لا تموتُ بهذا الاعتبارِ، بل هي باقيةٌ بعدَ خلقِها في نعيمٍ أو في عذابٍ). ((الروح)) (ص: ٣٤).

وقال ابنُ رجب: (النَّفسُ يُرادُ بها مجموعُ الرُّوحِ والبَدَنِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧- ٨]، وقَولِه سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، وقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]... وقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «ما مِن نَفسٍ مَنفوسةٍ اليَومَ، يأتي عليها مئةُ سَنَةٍ وهي حَيَّةٌ يومَئذٍ»... والمرادُ: مَوتُ الأحياءِ الموجودينَ في يَومِه ذلك، ومفارقةُ أرواحِهم لأبدانِهم قبل المئةِ سَنةٍ، ليس المرادُ عَدَمَ أرواحِهم واضمِحلالَها، فكذلك قَولُه سُبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، إنَّما المرادُ كُلُّ مخلوقٍ فيه حياةٌ =

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

أي: ونختَبِرُكم -أيُّها النَّاسُ- بالمصائِبِ والشِّدَّةِ تارةً، وبالرَّخاءِ والنِّعَمِ تارةً أخرى؛ فِتنةً لكم لِنَنظرَ صَبْرَكم وشُكرَكم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الأعراف: ١٦٨].

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإلينا -أيُّها النَّاسُ- تُرَدُّونَ لا إلى غَيرِنا، فنُجازيكم بحَسَبِ أعمالِكم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الكُفَّارُ يَغُمُّهم ذِكرُ آلهتِهم بسُوءٍ؛ شَرَعوا في الاستهزاءِ، وتَنقيصِ مَن

= فإنَّه يذوقُ الموتَ، وتفارِقُ رُوحُه بَدَنَه، [فإن أراد مَن قال: إنَّ النَّفسَ والرُّوحَ تَموتُ، أنَّها تذوقُ ألَمَ مُفارقةِ الجَسَدِ، فهو حقٌّ]). ((أهوال القبور)) (ص: ١٢٦).

وقال ابنُ عطيةَ: (وقولُه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ عمومٌ يُرادُ به الخصوصُ، والمرادُ كلُّ نفسٍ مخلوقةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٧)، ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٣٧)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٢)، ((اختيار الأولى)) لابن رجب (ص: ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦).

يَذْكُرُهم على سبيلِ المُقابَلةِ[١].

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾.

أي: وإذا رآك -يا محمَّدُ- كفَّارُ قُرَيشٍ، يَستَهزِئونَ ويَستَخِفُّونَ بك[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾.

أي: يقولونَ إذا رأَوُا الرَّسولَ -استِنكارًا-: أهذا هو الذي يَعيبُ أصنامَكم التي تَعبُدونَها[٣]؟

﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: وهؤلاء المُستَهزِئونَ بالرَّسولِ يَكفُرونَ بذِكرِ الرَّحمنِ[٤] الذي يُنعِمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٨).

(٤) قيل: معنى ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾: أي أنَّهم كافِرونَ باللَّهِ وما يجبُ أن يُذكَرَ به مِن الوحدانيَّةِ. وممن اختار هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سليمان، والزمخشري، والنسفي، والعُليمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٩).

وقيل: المعنى: الذِّكرُ الذي يستَحِقُّه الرحمنُ مِن المدحِ والثناءِ مما هو أهلٌ له. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٠)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٤٣١). =

عليهم[١]!

﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الكافِرونَ يَستَعجِلونَ عَذابَ اللهِ وآياتِه المُلجِئةَ إلى الإقرارِ والعِلمِ، نهاهم تعالى عن الاستِعجالِ[٢].

= قيل: المرادُ بالذِّكرِ هنا: الذِّكرُ الواردُ مِن الرَّحمنِ، وهو: القرآنُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: القرطبي، وأبو حيان، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٦).

قال ابنُ عاشور: (ومعنَى كُفرِهم بِذكرِ الرحمنِ: إنكارُهم أنْ يكونَ القرآنُ آيةً دالَّةً على صِدْقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، فقالوا: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]. وأيضًا كُفرُهم بما جاءَ به القرآنُ مِن إثباتِ البعثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٦).

وقيل: معنى كُفرِهم بذِكرِ الرَّحمنِ هو أنَّهم قالوا: ما نعرِفُ الرحمنَ، فكفروا بالرحمنِ، أي: بتسميتِه بهذا الاسمِ. وممن اختار هذا القولَ: السمعانيُّ، وابنُ الجوزي، والرسعني، والشربيني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٠٤).

قال الشِّنقيطي: (قال بعضُ أهلِ العِلمِ: معنى كُفرِهم بذِكرِ الرَّحمنِ: هو الموضَّحُ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقولِهم: ما نَعرِفُ الرَّحمنَ إلَّا رحمنَ اليمامةِ، يعنون مسيلِمةَ الكَذَّابَ. وقد بيَّن ابنُ جريرٍ الطبريُّ وغيرُه أنَّ إنكارَهم لمعرفتِهم الرَّحمنَ تجاهُلٌ منهم ومُعاندةٌ، مع أنَّهم يعرفونَ أنَّ الرَّحمنَ مِن أسماءِ الله تعالى. قال: وقال بعض شعراء الجاهليَّةِ الجهلاء:

ألَا ضربَت تلك الفتاةُ هجينَها ... ألا قطَعَ الرَّحمنُ رَبِّي يَمينَها). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ المُستَهزِئينَ بالرَّسولِ صلواتُ الله وسلامُه عليه، وقَع في النُّفوسِ سُرعةُ الانتِقامِ منهم واستعجَلَت، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنَّه تعالى يُملي للظَّالمِ حتى إذا أخذَه لم يُفلِتْه، يُؤجِّلُ ثمَّ يُعَجِّلُ، ويُنظِرُ ثمَّ لا يُؤخِّرُ؛ ولهذا قال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ أي: نَقْمي وحُكمي واقتِداري على مَن عَصاني، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[1].

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾.

أي: طُبِع الإنسانُ ورُكِّبَ على العَجَلةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٠).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ: القرطبيُّ، والبقاعي، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٠).

وممن نصَّ على أنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا: الجنسُ: ابنُ عطيةَ، والرسعني، وابنُ جزي، والعُليمي، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٠).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ: آدمُ، وعلى هذا القولِ فمعنى الكلامِ: أنَّه خُلِق عجولًا -ونسَبه ابنُ الجوزي للأكثرينَ- ولمَّا طُبع آدمُ على هذا المعنى، وُجِد في أولادِه، وأوْرَثهم العَجَلَ. وقيلَ: غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩١).

قال الشوكاني: (﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: جُعِل لِفَرطِ استِعجالِه كأنَّه مخلوقٌ مِن العَجَلِ. قال الفرَّاءُ: كأنَّه يقولُ: بِنْيتُه وخِلقتُه من العَجَلةِ وعلى العَجَلةِ. وقال الزجَّاجُ: خوطِبَت العرَبُ بما تَعقِلُ، والعَرَبُ تقولُ للذي يَكثُرُ منه الشَّيءُ: خُلِقْتَ منه! كما تقولُ: أنتَ مِن لَعِبٍ، وخُلِقْتَ مِن لَعِبٍ؛ تريدُ المُبالغةَ في وَصفِه بذلك، ويدُلُّ على هذا المعنى قَولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨١). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء =

كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

أي: سأُريكم -أيُّها المُستَعجِلونَ رَبَّهم بالعَذابِ- آياتِ عَذابي وانتِقامي، وحُكمي وقُدرَتي على مَن كَفَرَ بي وعصاني؛ فلا تَستَعجِلوا ربَّكم بالعذابِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الصافات: ١٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات: ٥٩].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: ويقولُ هؤلاء المُستَعجِلونَ رَبَّهم بالآياتِ والعَذابِ لمحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُؤمِنينَ به: متى يأتينا عَذابُ اللهِ إنْ كُنتُم صادقينَ فيما تَعِدونَنا به منَ العذابِ[2]؟

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا

= (٢/ ٢٠٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣).

وممن قال بهذا المعنى المذكور في الجملةِ: ابنُ كثير، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الرسعني: (﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ قال المفسِّرونَ: هو ما أصابَهم مِن القتلِ والأَسْرِ يومَ بدرٍ. قال ابنُ السائب: المعنى: إنَّكم تسافرونَ، فتَرَون آثارَ الهلاكِ في الماضينَ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣).

هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾.

أي: لو يتيقَّنُ الكُفَّارُ المُستَعجِلونَ العَذابَ ماذا لهم من البَلاءِ حين تَلفحُ وجوهَهم النَّارُ، فلا يَستَطيعونَ في ذلك الوَقتِ أن يَكُفُّوا بأنفُسِهم النَّارَ عن وُجوهِهم ولا عن ظُهورِهم، ولا يَجِدونَ لهم ناصِرًا ينصُرُهم، ويُنجِيهم مِن عَذابِ اللهِ؛ لَما استعجَلوا العذابَ، ولَتابوا وآمَنوا باللهِ(١).

كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقال سُبحانَه: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥١، ١٥٢).
وقال الشنقيطي: (معنى الآية الكريمة: لو يعلَمُ الكُفَّارُ الوَقتَ الذي يَسألَونَ عنه بقَولِهم: متى هذا الوعدُ؟ وهو وَقتٌ صعبٌ شَديدٌ، تحيطُ بهم فيه النَّارُ مِن وراءَ وقُدَّامَ، فلا يَقدِرونَ على مَنْعِها ودَفْعِها عن أنفُسِهم، ولا يَجِدونَ ناصِرًا ينصُرُهم؛ لَما كانوا بتلك الصِّفةِ مِن الكفر والاستِهزاءِ والاستِعجالِ، ولكِنَّ جَهْلَهم بذلك هو الذي هوَّنَه عليهم). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٥١).
وقيل: الضَّميرُ في ﴿يَكُفُّونَ﴾ عائدٌ إلى ملائكةِ العَذابِ، ومعنى الكَفِّ على هذا الوجهِ: الإمساكُ، أي: حين لا يُمسِكُ الملائكةُ اللَّفْحَ بالنَّارِ عن وجوهِ المُشرِكينَ، وتكونُ هذه الآيةُ في معنى قَولِه تعالى في سورة [الأنفال: ٥٠]: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾؛ فإنَّ ذلك ضَربٌ بسياطٍ مِن نارٍ، ويكونُ ما هنا إنذارًا بما سيَلقَونَه يومَ بَدرٍ، كما أنَّ آيةَ الأنفالِ حِكايةٌ لِما لَقُوه يومَ بدرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٠).
قال الشوكاني: (وجوابُ «لَوْ» محذوفٌ، والتَّقديرُ: لو عَلِموا الوقتَ الذي لا يَكُفُّونَ عن وجوهِهم النَّارَ ولا عن ظُهورِهم ولا هم يُنصَرونَ، لَما استَعجَلوا الوعيدَ. وقال الزَّجَّاجُ في تقديرِ الجوابِ: لعَلِموا صِدقَ الوَعدِ. وقيل: لو عَلِموه ما أقاموا على الكُفرِ. وقال الكِسائي: هو تنبيهٌ على تحقيقِ وقوعِ السَّاعةِ، أي: لو عَلِموه عِلمَ يقينٍ لعَلِموا أنَّ السَّاعةَ آتيةٌ، ويدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٢). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٩٢).

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ [الزمر: ١٦].

﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٤٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى شِدَّةَ هذا العذابِ؛ بيَّنَ أنَّ وَقتَ مَجيئِه غيرُ مَعلومٍ لهم[(١)]، فقال:

﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾.

أي: بل تأتيهم النَّارُ فجأةً، فتصيبُهم بالذُّعْرِ والخوفِ والحيرةِ فلا يَدرونَ ما يصنعونَ[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٢٠١ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠١- ٢٠٢].

﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾.

أي: فلا يَستَطيعونَ دَفْعَ النَّارِ عن أنفُسِهم حين تبغَتُهم، ولا هم يُمهَلونَ فيُؤخَّرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤).

ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم﴾ أي: النارُ: ابنُ جرير، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: الساعةُ. وممن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٣).

عنهم العَذابُ لِيَتوبُوا[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ يُفهَمُ منه أنَّه لا ينبغي للإنسانِ أن يَفرحَ بمَوتِ أحَدٍ؛ لأجلِ أمرٍ دُنيويٍّ يَنالُه بسَبَبِ مَوتِه؛ لأنَّه هو ليس مخلَّدًا بَعدَه، وفي معناه قولُ القائلِ:

تمنَّى رجالٌ أنْ أمــوتَ وإنْ أمُتْ ... فتلك ســبيلٌ لســتُ فيها بأوحَدِ
فقُلْ لِلَّذي يبغــي خِلافَ الَّذي مضَى ... تَهيَّأْ لأخــرَى مِثْلِها فــكأنْ قَدِ[٢]

٢- ممَّا يُعينُ على الزُّهدِ أن يتأمَّلَ الإنسانُ في هذه الحياةِ الدُّنيا، وأنَّها دارُ مَمَرٍّ، وليست دارَ مَقَرٍّ، وأنَّها لم تَبْقَ لأحدٍ مِن قَبْلِك، وما لم يَبقَ لأحدٍ مِن قبلِك لن يبقَى لك؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ يعني: لن يخَلَّدَ أحدٌ في هذه الدُّنيا، وكذلك يعلَمُ أنَّ هذه الدنيا دارُ تَنغيصٍ وكَدَرٍ، فما سُرَّ بها الإنسانُ يومًا إلَّا ساءَه الأمرُ في اليومِ الثَّاني، فإذا عَلِمَ حَقيقةَ الدُّنيا فإنَّه بعَقلِه وإيمانِه سوف يزهَدُ بها، ولا يُؤْثِرُها على الآخرةِ؛ قال الله تعالى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ * إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[٣] [الأعلى: ١٦- ١٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٦).
والبيت الأول في ((ديوان الشافعي)) (٦٨)، ونُسِب البيتانِ للشافعيِّ، ونُسِبا لغيرِه أيضًا معَ بعضِ الاختلافاتِ. يُنظر: ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (٣/ ١٣١)، ((البصائر والذخائر)) للتوحيدي (٨/ ٦٤)، ((بغية الطلب)) لابن العديم (٤/ ١٦٢٦)، ((حياة الحيوان)) للدميري (١/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٧٨٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ الابتِلاءُ لا يتحَقَّقُ إلَّا معَ التَّكليفِ؛ فالآيةُ دالَّةٌ على حُصولِ التَّكليفِ، وتدُلُّ على أنَّه سُبحانَه وتعالى لم يقتَصِرْ بالمكَلَّفِ على ما أمَرَ ونهَى، وإن كان فيه صعوبةٌ، بل ابتلاه بأمرينِ: أحدُهما: ما سمَّاه خَيرًا، وهو نِعَمُ الدُّنيا مِن الصِّحَّةِ واللَّذَّةِ، والسُّرورِ والتَّمكينِ مِن المراداتِ. والثَّاني: ما سمَّاه شَرًّا، وهو المضارُّ الدُّنيويَّةُ مِن الفَقرِ والآلامِ، وسائِرِ الشَّدائِدِ النَّازلةِ بالمُكَلَّفينَ، فبَيَّنَ تعالى أنَّ العَبدَ مع التَّكليفِ يتَرَدَّدُ بينَ هاتينِ الحالَتينِ؛ لكي يَشكُرَ على المِنَحِ، ويَصبِرَ في المِحَنِ، فيَعظُمَ ثَوابُه إذا قام بما يَلزَمُ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ اسْتُدِلَّ به على أنَّ الخَضِرَ عليه السَّلامُ مات، وليسَ بحيٍّ إلى الآن؛ لأنَّه بشرٌ، سواءٌ كان وليًّا، أو نبيًّا، أو رسولًا[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ في الآيةِ إيماءٌ إلى أنَّ الذين لم يُقَدِّرِ اللهُ لهم الإسلامَ مِمَّن قالوا ذلك القَولَ، سيَموتونَ قَبلَ مَوتِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فلا يَشمَتونَ به؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَمُتْ حتى أهلَكَ اللهُ رُؤوسَ الذين عانَدوه، وهدَى بقِيَّتَهم إلى الإسلامِ[٣].

٣- قَولُ القائِلِ: «أدامَ اللهُ أيَّامَك» هو مِن الاعتداء في الدُّعاءِ؛ لأنَّ دوامَ الأيَّام

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٣).

مُحالٌ، مُنافٍ لِقَولِ الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾، وقَولِه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[١] [الرحمن: ٢٦- ٢٧].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ عُبِّرَ بقولِه: ﴿ذَآئِقَةُ﴾؛ لأنَّ الموتَ له مَذاقٌ مُرٌّ يكرَهُه كلُّ إنسانٍ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ مِن هذه الحياةِ الدُّنيا الابتلاءُ، والتَّعريضُ للثَّوابِ والعِقابِ[٣].

٦- قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فقولُه: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فيه إثْباتٌ للبعْثِ، فجمَعَتْ هذه الآيةُ الموتَ والحياةَ والنَّشرَ[٤].

٧- أصلُ الفِتنةِ: الابتِلاءُ والامتِحانُ والاختِبارُ، ويكونُ تارةً بما يسوءُ، وتارةً بما يَسُرُّ، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[٥].

٨- اللهُ سُبحانه وتعالى كما هو خالِقُ الخَلقِ؛ فهو خالِقُ ما به غِناهم وفَقْرُهم، فخلَقَ الغِنى والفَقرَ لِيَبتليَ بهما عبادَه أيُّهم أحسَنُ عَمَلًا، وجعَلَهما سَبَبًا للطَّاعةِ والمعصيةِ، والثوابِ والعِقابِ؛ قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٥).

(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ٣٤).

تُرْجَعُونَ﴾، فأخبَر سبحانَه أنَّ الغِنَى والفقرَ مَطِيَّتا الابتلاءِ والامتحانِ[١].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ في ذِكرِ اسمِه (الرَّحمنِ) هنا بيانٌ لِقَباحةِ حالِ الكافرينَ، وأنَّهم كيف قابَلوا الرَّحمنَ مُسدِيَ النِّعَمِ كُلِّها، ودافِعَ النِّقَمِ، الذي ما بالعبادِ مِن نِعمةٍ إلَّا منه، ولا يَدفَعُ السُّوءَ إلَّا هو- بالكُفرِ والشِّركِ[٢]؟!

١٠- إذا كان في المخلوقِ خُلُقٌ كبيرٌ مِن شَيءٍ مُعَيَّنٍ نُسِبَ إليه؛ لهذا قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ مع أنَّه خُلِقَ مِن تُرابٍ، لكِنْ لَمَّا كانت طبيعتُه العَجَلةَ، صار كأنَّه ناشئٌ منها، كأنَّها عُنصرُ وُجودِه[٣]!

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ فيه سؤالٌ: القَومُ استَعجَلوا الوعيدَ على وَجهِ التَّكذيبِ، ومَن هذا حالُه لا يكونُ مُستَعجِلًا على الحقيقةِ! الجوابُ: أنَّ استِعجالَهم على هذا الوَجهِ أدخَلُ في الذَّمِّ؛ لأنَّه إذا ذُمَّ المرءُ على استِعجالِ الأمرِ المعلومِ، فبِأنْ يُذَمَّ على استِعجالِ ما لا يكونُ مَعلومًا له، كان أَولى، وأيضًا فإنَّ استِعجالَهم بما توعَّدَهم مِن عِقابِ الآخرةِ أو هَلاكِ الدُّنيا يتضَمَّنُ استِعجالَ الموتِ، وهم عالِمونَ بذلك، فكانوا مُستَعجِلينَ في الحقيقةِ[٤].

١٢- لا إشكالَ في قَولِه تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ مع قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، فلا يُقالُ: كيف يقولُ: إنَّ الإنسانَ خُلِق من العَجَلِ، وجُبِلَ

---

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٢/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٥).

عليه، ثمَّ ينهاه عمَّا خُلِقَ منه وجُبِلَ عليه؛ لأنَّه تكليفٌ بمُحالٍ؟! لأنَّا نقولُ: نعم، هو جُبِل على العَجَلِ، ولكِنْ في استطاعتِه أن يُلزِمَ نَفسَه بالتَّأنِّي، كما أنَّه جُبِل على حُبِّ الشَّهواتِ مع أنَّه في استطاعتِه أن يُلزِمَ نَفسَه بالكَفِّ عنها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1] [النازعات: ٤٠، ٤١].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً ﴾ لم يُعلِمِ المكَلَّفينَ وقتَ الموتِ والقيامةِ؛ لِما فيه مِن المصلحةِ؛ لأنَّ المرءَ مع كِتمانِ ذلك أشَدُّ حَذرًا، وأقرَبُ إلى التَّلافي[2].

١٤- قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ فيه تَنبيهٌ لهم إلى أنَّهم أُنْظِروا زمَنًا طويلًا لعلَّهم يُقلِعون عن ضَلالِهم[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾

- في قولِه: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ طَريقةُ القولِ بالمُوجَبِ[4]،

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي(٤/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٢).

(٤) القولُ بالموجَبِ في اصطلاحِ الأصوليين: هو تسليمُ ما جعَله المستدلُّ موجِبًا لعِلَّته مع استبقاءِ الخِلافِ، ومعنى ذلك: أن يسلِّمَ الخصمُ الدليلَ الذى استدلَّ به المستدلُّ، إلَّا أنَّه يقولُ: هذا الدليلُ ليس فى محلِّ النزاعِ، إنَّما هو في غيرِه؛ فيبقَى الخلافُ بينهما، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ فإنَّ الله سلَّم لهم أنَّ الأعزَّ قادرٌ على إخراجِ الأعزِّ، ولكن صرَّح بأنَّ ذلك لا ينفعُهم؛ لأنَّهم الأذل. يُنظر: ((تشنيف المسامع بجمع الجوامع)) للزركشي =

أي: إنَّك تَموتُ كما قالوا، ولكنَّهم لا يرَونَ ذلك وهم بحالِ مَن يَزْعمون أنَّهم مُخلَّدون، فأَيْقنوا بأنَّهم يتربَّصونَ بك رَيْبَ المَنونِ من فرَطِ غُرورِهم؛ فالتَّفريعُ بقولِه: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ كان على ما في الجُملةِ الأُولى من القولِ بالمُوجَبِ، أي: ما هم بخالدينَ حتَّى يُوقِنوا أنَّهم يرَونَ موتَك. وفي الإنكارِ الَّذي هو في مَعنى النَّفيِ: إنذارٌ لهم بأنَّهم لا يَرى موتَه منهم أحدٌ. والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ؛ لمَّا كان تَمنِّيهم موتَه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتربُّصُهم به رَيْبَ المَنونِ يَقْتضي أنَّ الَّذين تَمنَّوا ذلك وتربَّصوا به كأنَّهم واثِقونَ بأنَّهم يَموتونَ بعْدَه، فتَتِمُّ شَماتَتُهم، أو كأنَّهم لا يَموتونَ أبدًا، فلا يَشمَتْ بهم أحدٌ؛ وُجِّهَ إليهم استفهامُ الإنكارِ على طَريقةِ التَّعريضِ بتَنزيلِهم مَنزِلةَ مَن يزعُمُ أنَّهم خالِدونَ، والمرادُ إنكارُ شَماتَتِهم بمَوتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّ الشَّماتةَ بما يَعْتريه أيضًا ممَّا لا يَنْبغي أنْ تَصدُرَ عن العاقلِ، كأنَّه قيل: أفإنْ مِتَّ فهم الخالِدونَ حتَّى يَشْمتوا بمَوتِك[1]؟!

- قولُه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ تَذييلٌ؛ فإنَّ معنى الآيةِ مُستوفًى في الإخبارِ بأنَّه سُبحانه لم

= (٤/ ٣٦١)، ((البحر المحيط)) للزركشي (٥/ ٢٩٧)، ((غايه الوصول شرح لب الأصول)) لزكريا الأنصاري (ص: ١٣١)، ((المنهاج)) للباجي (ص: ١٧٣)، ((شرح مراقي السعود)) للشنقيطي (٢/ ٥٣٥).

وقال بهاء الدين السبكي: (مِن البديعِ المعنوي ما يسمَّى القولَ بالموجبِ، وهو قريبٌ مِن القولِ بالموجبِ المذكورِ في الأصولِ والجدلِ، وهو تسليمُ الدليلِ مع بقاءِ النِّزاعِ). ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) (٢/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٢، ٦٣).

يَجعَلْ لبَشرٍ قبْلَ نَبيِّه الخُلْدَ، ثمَّ ذَيَّلَ ذلك الإخبارَ بما أخرَجَه مُخْرَجَ تَجاهُلِ العارفِ[١]، وهو قولُه: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾، ثمَّ ذيَّلَ هذا التَّذييلَ بما أخرَجه مُخْرَجَ المثَلِ السَّائرِ، حيث قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للتَّدليلِ على عدَمِ الخُلودِ[٣]؛ فمَضمونُ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ مُؤكِّدٌ لمَضمونِ ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، ووجْهُ إعادتِها اختلافُ القصْدِ؛ فإنَّ الأُولى للرَّدِّ على المُشرِكينَ، وهذه لتَعليمِ المُؤمِنين[٤].

- قولُه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الخِطابُ إمَّا للنَّاسِ كافَّةً بطَريقِ التَّلوينِ، أو للكَفرةِ بطَريقِ الالْتِفاتِ[٥].

- وتَقديمُ المَجْرورِ في ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ، وإفادةِ تَقوِّي الخبَرِ، وليست للقصْرِ[٦]. وقَدَّم الشَّرَّ؛ لأنَّ الابتلاءَ به أكثرُ، ولأنَّ العربَ

---

(١) تَجاهُل العارِف: له عِدَّةُ تعريفاتٍ، وتَرجِعُ كلُّها إلى: سَوْق المعلومِ مَساقَ غيرِه لنُكتةٍ؛ فمِن تعريفاتِه أنَّه: سؤالُ المتكلِّم عمَّا يَعلمُه حقيقةً تجاهلًا؛ لنُكتةٍ بلاغيَّة. ومنها أنَّه: إخراجُ ما يَعرِفُ صِحَّتَه مَخرجَ ما يَشُكُّ فيه؛ ليَزيدَ بذلك تأكيدًا. وقيل: هو إخراجُ الكلامِ مخرجَ الشكِّ في اللفظِ دون الحقيقةِ؛ لضربٍ مِن المسامحةِ وحسْم العنادِ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٥).

تُقدِّمُ الأقلَّ والأردأَ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتَقريرِ مَوقِفِهم من النَّبيِّ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- والقصْرُ المُستفادُ من قولِه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ هو قَصْرُ مُعامَلتِهم معه عليه السَّلامُ على اتِّخاذِهم إيَّاهُ هُزوًا، لا على معنى قَصْرِ اتِّخاذِهم على كونِه هُزوًا؛ كأنَّه قيل: ما يَفْعلون بك إلَّا اتِّخاذَك هُزوًا[٣].

- وفيه إخبارٌ بالمصدرِ ﴿هُزُوًا﴾؛ للمُبالَغةِ، أو هو مَصدرٌ بمعنى المفعولِ[٤].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾، وقال في سُورةِ (الفُرقانِ): ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الفرقان: ٤١]، فأظهَرَ الفاعِلينَ في: ﴿رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وأضْمَرَهم في سُورةِ (الفُرقانِ)؛ ووجْهُه: أنَّ آيةَ سورةِ (الأنبياءِ) ليس في الآيةِ التي تقدَّمَتْها ذِكرُ الكفَّارِ؛ فصرَّح باسمِهم، وأما في سورةِ (الفرقان) فقد سَبَق ذكرُ الكفَّار، فخُصَّ الإظهارُ بآيةِ سورةِ (الأنبياءِ)، والكنايةُ بآيةِ سورةِ (الفرقان)[٥].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا قولُه: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٥، ٦٦).

(٥) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٠). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٠١، ٩٠٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٨)، (ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٤٦، ٣٤٧).

ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾، وفي سُورةِ (الفرقانِ): ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾ [الفرقان: ٤١- ٤٢]، فاختلَفَ التَّعقيبُ في الآيتينِ؛ ووجْهُه: أنَّه لمَّا تقدَّمَ في سُورةِ (الأنبياءِ) قولُه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١]، وقولُه: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقولُه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الأنبياء: ٢٤]؛ فتكرَّرَ ذِكْرُ مُرتكَبِهم في اتِّخاذِهم مَعبوداتٍ لا تُغْني عنهم، ناسَبَهُ قولُهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: ٣٦]. أمَّا آيةُ (الفُرْقانِ) فقد تقدَّمَها قولُه: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، فأنْكَروا كونَ الرَّسولِ منَ البشَرِ؛ فجَرى مع ذلك وناسَبَهُ قولُهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]؛ تَعجُّبًا واستبعادًا أنْ يكونَ الرُّسلُ منَ البشَرِ، وقد رَدَّ ذلك عليهم بقولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]؛ فوضَحَ التَّناسُبُ فيها[(١)].

- قولُه: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ استفهامٌ فيه إنْكارٌ وتعجيبٌ[(٢)]، واسمُ الإشارةِ (هذا) مُسْتعمَلٌ في التَّحقيرِ بقَرينةِ الاستهزاءِ[(٣)].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ جُملةٌ مُبيِّنةٌ لجُملةِ: ﴿إِن

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٤٧).

(٢) قال الشنقيطي بعد أن ذكَر القولَ بأنَّ الاستفهامَ للإنكارِ والتعجيبِ: (والذي يظهرُ لي أنهم يريدون بالاستفهامِ المذكورِ التحقيرَ بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، كما تدلُّ عليه قرينةُ قولِه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾. وقد تقرَّر في فنِّ المعاني أنَّ مِن الأغراضِ التي تؤدَّى بالاستفهامِ التحقيرَ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٦).

يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ فهي في معنى قَولٍ مَحذوفٍ دَلَّ عليه ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ لأنَّ الاستهزاءَ يكونُ بالكلامِ(١).

- وضَميرُ الفصْلِ في قولِه: ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ يجوزُ أنْ يُفيدَ الحصْرَ، أي: هم كافِرونَ بالقُرآنِ دونَ غَيرِهم ممَّن أسلَمَ مِن أهْلِ مكَّةَ وغَيرِهم منَ العرَبِ؛ لإفادةِ أنَّ هؤلاء باقونَ على كُفْرِهم مع توفُّرِ الآياتِ والنُّذُرِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الفصْلُ لمُجرَّدِ التَّأكيدِ؛ تَحقيقًا لدَوامِ كُفْرِهم مع ظُهورِ ما شأْنُه أنْ يُقلِعَهم عن الكُفْرِ(٢).

- وفي تَكريرِ (هم) وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ -﴿بِذِكْرِ﴾- على عامِلِه: شأْنٌ في الإنكارِ، وتَوبيخٌ عظيمٌ(٣).

- وفيه إيجازٌ بالحذْفِ، وذلك في حِذْفِ مَفعولِ ﴿يَذْكُرُ﴾، والذِّكْرُ يكونُ بالخيرِ والشَّرِّ؛ فإذا دلَّتِ الحالُ على أحَدِهما، أُطْلِقَ ولم يُقيَّدْ، كقولِك للرَّجلِ: سمِعْتُ فُلانًا يذكُرُك؛ فإنْ كان الذَّاكِرُ صَديقًا فهو ثَناءٌ، وإنْ كان عدُوًّا فذَمٌّ. ومِن جِهَةٍ ثانيةٍ لم يَقُولوا: أهذا الَّذي يَذكُرُ آلِهَتَكم بكلِّ سُوءٍ؛ لأنَّهم استَفْظعوا حِكايةَ ما يقولُه النَّبيُّ مِن القدْحِ في آلِهَتِهم، رمْيًا بأنَّها لا تَسمَعُ ولا تُبْصِرُ، ولا تَنفَعُ ولا تضُرُّ، وحاشَوْها مِن نَقْلِ ذَمِّها تَفصيلًا وتَصريحًا، فنَقَلوه إجْمالًا وتلْميحًا، بلْ أوْمَؤوا إليه بالإشارةِ المذكورةِ، فسُبحانَ مَن أضَلَّهم حتَّى تأدَّبُوا مع الأوثانِ، وأساؤوا الأدَبَ على الرَّحمنِ(٤)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - مع حاشية ابن المنير)) (٣/ ١١٦)، ((تفسير البيضاوي)) =

٤- قولُه تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ قدَّمَ أوَّلًا ذَمَّ الإنسانَ على إفراطِ العَجلةِ وأنَّه مَطبوعٌ عليها، ثمَّ نهاهُم وزجَرَهم، كأنَّه قال: ليس ببِدْعٍ ولا يَبعُدُ منكم أنْ تَستعجِلوا؛ فإنَّكم مَجْبولون على ذلك، وهو طبْعُكم وسَجِيَّتُكم[١].

- قولُه: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ يُرادُ بالإنسانِ هنا اسْمُ الجنْسِ؛ جُعِلَ لفَرْطِ استعجالِه وقِلَّةِ صَبْرِه كأنَّه مَخلوقٌ منه؛ تَنزيلًا لِما طُبِعَ عليه من الأخلاقِ مَنزِلةَ ما طُبِعَ منه من الأركانِ؛ إيذانًا بغايةِ لُزومِه له وعدَمِ انفكاكِه عنه[٢]، وكأنَّه سبحانه نبَّه بهذا على أنَّ تركَ الاستعجالِ حالةٌ شريفةٌ عاليةٌ مرغوبٌ فيها؛ لأنَّ العائقَ كلَّما كان أشدَّ، كانت القدرةُ على مخالفتِه أكملَ[٣].

- وجُملةُ: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ مُعترِضةٌ بين جُملةِ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ وبين جُملةِ ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي ﴾، جُعِلَتْ مُقدِّمةً لجُملةِ ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي ﴾[٤]، وهي مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ للرَّدِّ على استعجالِهم العذابَ[٥].

- قولُه: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي ﴾ مُعترِضةٌ بينَ جُملةِ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ [الأنبياء: ٣٦] وبين جُملةِ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا

= (٤/ ٥١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٧).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٠٩).

ٱلْوَعْدُ﴾ [الأنبياء: ٣٨]؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الأنبياء: ٣٦] يُثِيرُ في نُفوسِ المُسلِمينَ تَساؤُلًا عن مَدى إمهالِ المُشرِكينَ، فكان قولُه تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ استئنافًا بَيانيًّا جاء مُعترِضًا بينَ الجُمَلِ الَّتي تَحْكي أقوالَ المُشرِكينَ وما تفرَّعَ عليها(١).

- قولُه: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ فيه تَلْوينٌ للخِطابِ وصَرْفٌ له عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى المُستعجِلينَ بطَريقِ التَّهديدِ والوعيدِ(٢).

- قولُه: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ تفريعٌ على قوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾؛ فتَفرَّع على هذا الوعدِ نهيٌ عن طَلبِ التعجيلِ(٣).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الواوُ استئنافيَّةٌ، والجُملةُ مُستأنفةٌ مَسوقةٌ لإيرادِ نمَطٍ مِن استعجالِهم المذمومِ(٤).

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ قالوهُ استِعجالًا لمَجيئِه بطَريقِ الاستهزاءِ والإنكارِ، واستبطاءً منهم للموعودِ(٥).

- وفي قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ حُذِفَ جَوابُ الشَّرطِ؛ ثِقَةً بدَلالةِ ما قبلَه عليه؛ كأنَّه قِيلَ: فلْيأتِنا بسُرعةٍ إنْ كنتُمْ صادِقينَ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٧).

٦- قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ شِدَّةِ هَوْلِ ما يَستعجِلونَه، وفَظاعةِ ما فيه من العذابِ. وإيثارُ صِيغَةِ المُضارِعِ في الشَّرطِ -وإنْ كان المعنى على المُضِيِّ- لإفادةِ استمرارِ عدَمِ العِلْمِ. ووضْعُ الموصولِ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ للتَّنبيهِ بما في حَيِّزِ الصِّلةِ على عِلَّةِ استعجالِهم[(١)].

- وحُذِفَ جوابُ (لو) في ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ونُكتَتُه: تَهويلُ جِنْسِه، فتَذهَبُ نَفْسُ السَّامِعِ كلَّ مَذْهَبٍ[(٢)].

- وضَميرُ ﴿يَكُفُّونَ﴾ قيل: إذا كان عائِدًا إلى الملائكةِ، أي: حين لا يُمسِكُ الملائكةُ اللَّفحَ بالنَّارِ عن وُجوهِ المُشرِكينَ، فذِكْرُ الوُجوهِ والأدبارِ للتَّنكيلِ بهم وتَخويفِهم؛ لأنَّ الوُجوهَ أعَزُّ الأعضاءِ على النَّاسِ، ولأنَّ الأدبارَ يأْنَفُ النَّاسُ مِن ضَرْبِها؛ لأنَّ ضربَها إهانةٌ وخِزْيٌ. وإذا كان الضَّميرُ عائدًا إلى الَّذين كَفَروا، أي: حين لا يَستطيعونَ أنْ يدفَعوا النَّارَ عن وُجوهِهم بأيديهم ولا عن ظُهورِهم. فذِكْرُ الظُّهورِ بعْدَ ذِكْرِ الوُجوهِ على هذا الاحتمالِ احتراسٌ لدَفْعِ تَوهُّمِ أنَّهم قد يَكفُّونَها عنْ ظُهورِهم إنْ لم تَشتغِلْ أيديهم بكَفِّها عن وُجوهِهم[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ خَصَّ الوجوهَ والظُّهورَ بالذِّكرِ بمعنى القُدَّامِ والخلْفِ؛ لكونِهما أشهَرَ الجوانبِ، واستلزامِ الإحاطةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٠، ٧١).

بهما الإحاطةَ بالكلِّ، بحيث لا يَقدِرون على دَفْعِها بأنفُسِهم من جانبٍ من جَوانبِهم[١]. وقيل: لأنَّ مسَّ العذابِ لهما أعظمُ موقعًا، ولكثرةِ ما يُستعملُ ذكرُهما في دفعِ المضرةِ عن النفْسِ[٢].

- قولُه: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ مفعولُ ﴿يَعْلَمُ﴾، وهو عبارةٌ عن الوقْتِ الموعودِ الَّذي كانوا يَستعجِلونَه، وإضافتُه إلى الجُملةِ الجاريةِ مَجرى الصِّفةِ الَّتي حَقُّها أنْ تكونَ مَعلومةَ الانتسابِ إلى الموصوفِ عندَ المُخاطَبِ أيضًا مع إنكارِ الكَفرةِ لذلك؛ للإيذانِ بأنَّه مِنَ الظُّهورِ بحيثُ لا حاجةَ له إلى الإخبارِ به، وإنَّما حَقُّه الانتظامُ في سِلْكِ المُسلَّماتِ المفروغِ عنها. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿يَعْلَمُ﴾ مَتروكَ المفعولِ مُنَزَّلًا مَنزِلَةَ اللَّازمِ، أي: لو كان لهم عِلْمٌ لَما فَعَلوهُ. وقولُه تعالى: ﴿حِينَ ...﴾ إلخ، استئنافٌ مُقرِّرٌ لجَهْلِهم، ومَبيِّنٌ لاستمرارِه إلى ذلك الوقْتِ؛ كأنَّه قِيلَ: حين يَرَونَ ما يرَوْن يَعْلمون حَقيقةَ الحالِ. أو أنْ يكونَ مفعولُ ﴿يَعْلَمُ﴾ محذوفًا؛ لدَلالةِ ما قبْلَه، أي: لو يَعلَمُ الَّذين كَفَروا مَجِيءَ الموعودِ الَّذي سَأَلوا عنه واسْتَبطؤوهُ[٣].

٧- قوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ استدراكٌ مُقدَّرٌ قبْلَه نَفْيٌ؛ تَقديرُه: إنَّ الآياتِ لا تأْتي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥١، ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٨).

بحسَبِ اقتراحِهم[١].

- و(بَل) في قولِه: ﴿ بَلۡ تَأۡتِيهِم ﴾ للإضرابِ الانتقاليِّ مِن تَهويلِ ما أُعِدَّ لهم، إلى التَّهديدِ بأنَّ ذلك يَحُلُّ بهم بَغْتةً وفجأَةً، وهو أشَدُّ على النُّفوسِ؛ لعَدمِ التَّهيُّؤِ له، والتَّوطُّنِ عليه[٢].

- قولُه: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾ مُفرَّعٌ على قولِه: ﴿فَتَبۡهَتُهُمۡ ﴾؛ فالبَهتُ: الغَلبُ المفاجِئُ المُعْجِز عن المُدافَعةِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٧٢).

الآيات (٤١-٤٧)

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَحَاقَ﴾: أي: أحاطَ، ونزَلَ، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[(١)].

﴿يَكْلَؤُكُم﴾: أي: يَحفَظُكم، ويَحرُسُكم، والكِلاءةُ: حِفْظ الشَّيءِ وتَبقيتُه، وأصلُ (كلأ): يدُلُّ على مُراقَبةٍ ونَظَرٍ[(٢)].

﴿يُصْحَبُونَ﴾: أي: يُجارُونَ، ويُنصَرونَ؛ لأنَّ المُجيرَ صاحِبٌ لجارِه. والعربُ تقولُ: صَحِبَك اللهُ، أي: حَفِظك اللهُ وأجارَك، وأصلُ (صحب): يدُلُّ على مُقارنةِ شَيءٍ، ومُقاربتِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٥)، =

﴿أَطْرَافِهَآ﴾: أي: جَوانبِها، ونَواحيها، وأصلُ (طرف): يدُلُّ على حَدِّ الشَّيءِ وحَرْفِه[١].

﴿ٱلصُّمُّ﴾: جمعُ الأصمِّ، والصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّة السَّمع، وبه يُوصَف مَن لا يُصغِي إلى الحقِّ ولا يَقبلُه، وأصلُه: الصَّلابةُ، وقيل: السَّدُّ[٢].

﴿نَفْحَةٌ﴾: أي: أدنَى شَيءٍ، والنَّفحةُ: الدَّفعةُ اليَسيرةُ مِن الشَّيءِ دُونَ مُعظَمِه، والنَّصيبُ والحَظُّ، مِن قَولِهم: نفح فلانٌ لفُلانٍ مِن عَطائِه: إذا أعطاه قَسمًا أو نصيبًا، وأصلُ (نفح): يدُلُّ على اندِفاعِ الشَّيءِ[٣].

﴿خَرْدَلٍ﴾: الخَردَلُ: حُبوبٌ دَقيقةٌ كحَبِّ السِّمسِمِ، هي بُزورُ شَجَرٍ يُسَمَّى عند العَرَبِ الخَرْدَلَ. ويُضرَبُ به المَثَلُ في الصِّغَرِ والحَقارةِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مُسلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابَه مِن هؤلاءِ المشركينَ: ولقد استُهزِئَ برُسُلٍ مِن قَبلِك -يا مُحمَّدُ- فنزل بالذين كانوا

= ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٦)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ٢١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٨)، ((الغريبين)) للهروي (٥/ ١٦٩٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٢٠٣)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٩٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٦).

يَستَهزِئونَ العذابُ الذي كانوا يَستَهزِئونَ به في الدُّنيا، ويُكَذِّبونَ بوُقوعِه.

قل -يا مُحمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: مَن يَحفَظُكم ويَحرُسُكم في لَيلِكم أو نَهارِكم مِن الرَّحمنِ؟! بل هم عن ذِكرِ ربِّهم لاهُونَ غافِلونَ!

ألهؤلاءِ الكُفَّارِ آلِهةٌ تَمنَعُهم مِن عذابِنا؟ إنَّ آلِهتَهم لا يَستَطيعونَ أن يَنصُروا أنفُسَهم، فكيف يَنصُرونَ عابدِيهم؟! وليس لتلكَ الآلهةِ مُجيرٌ يُجيرُهم مِنَّا.

لقد اغتَرَّ الكُفَّارُ وآباؤُهم بالإمهالِ؛ لِمَا رأَوْهُ مِنَ الأموالِ والبَنينَ وطُولِ الأعمارِ، فظَنُّوا أنَّها لا تَزولُ عنهم، واغتَرُّوا بإمهالِ اللهِ لهم، فحمَلَهم ذلك على الكُفرِ والطُّغيانِ. أفلا يرى هؤلاء الكُفَّارُ أنَّا ننصُرُ المُسلِمينَ، ونفتَحُ لهم ديارَ المُشرِكينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، فنَنقُصُ دارَ الكُفَّارِ، ونَزيدُ في دارِ الإسلامِ؟ أفلا يعتَبِرونَ بذلك فيخافونَ ظُهورَهم على أرضِهم، وقَهرِهم إيَّاهم. أفكُفَّارُ مكَّةَ هم المُنتَصِرونَ عليك -يا محمَّدُ- وعلى أتباعِك من المؤمنينَ؟! بل هم المَغلوبونَ!

قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ: ما أُخَوِّفُكم مِن العَذابِ إلَّا بوَحيٍ مِن اللهِ، وهو القُرآنُ. ولكِنَّ الكُفَّارَ لا يَسمَعونَ إلى القُرآنِ، فلا ينتَفِعونَ به، كأنَّهم صُمٌّ حين يُخوَّفونَ بآياتِه.

ولو أصاب الكُفَّارَ أقَلُّ شَيءٍ مِن عَذابِ اللهِ ليقولُنَّ نادمينَ مُتحَسِّرينَ: يا وَيْلَنا إنَّا كُنَّا ظالِمينَ لأنفُسِنا بعِبادتِنا غيرَ اللهِ!

ويضَعُ اللهُ الموازينَ العادِلةَ في يومِ القيامةِ؛ لِوَزنِ أعمالِ العِبادِ عند الحسابِ، ولا يَظلِمُ نَفسًا شيئًا، وإن كان هذا العمَلُ مِن خيرٍ أو شَرٍّ قدْرَ ذَرَّةٍ جاء الله بها لتُوزَنَ في الميزانِ، وكفى بالله مُحصِيًا أعمالَ عِبادِه، ومُجازيًا لهم عليها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقدَّمَ قولُ الله تعالى: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ سَلَّاه تعالى بأنَّ مَن تقَدَّمَه مِن الرُّسُلِ وقَعَ مِن أُمَمِهم الاستهزاءُ بهم، وأنَّ ثَمَرةَ استِهزائِهم جَنَوها هلاكًا وعِقابًا في الدُّنيا والآخرةِ، فكذلك حالُ هؤلاء المُستَهزِئينَ[١].

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

أي: ولقد استهزأَ كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ برُسُلِهم الذين أرسَلْناهم مِن قَبلِك -يا مُحمَّدُ- فاصبِرْ على استِهزاءِ الكافرينَ كما صبَرَ عليه غَيرُك مِن الرُّسُلِ[٢].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أي: فنزلَ وأحاط بالكافِرينَ الذين سَخِروا مِنَ الرُّسُلِ العذابُ الذي كانوا يَستَهزِئونَ به في الدُّنيا، ويُكَذِّبونَ بوُقوعِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا سَلَّى الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على استهزاءِ الكافرينَ بالوعيدِ، أمَرَ أن يُذَكِّرَهم بأنَّ غُرورَهم بالإمهالِ مِن قِبَلِ اللهِ رَحمةٌ منه بهم، كشأنِه في الرَّحمةِ بمَخلوقاتِه، بأنَّهم إذا نزَلَ بهم عذابُه لا يَجِدونَ حافِظًا لهم مِنَ العذابِ غَيْرَه، ولا تَمنَعُهم منه آلهتُهم[(١)].

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: مَن يَحرُسُكم ويَحفَظُكم باللَّيلِ والنَّهارِ مِن الرَّحمنِ[(٢)]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٤١) و(٣٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٣، ١٥٤).

قيل: قَولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يعني: بَدَلًا من الرَّحمنِ، وذلك كقولِه تعالَى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي: لجَعلْنا بَدَلًا منكم. فمعنى الآيةِ على ذلك: مَن يحفَظُكم ويحرُسُكم ويمنَعُ عنكم العذابَ غيرُ الرحمن؟ وممن اختار هذا المعنى: ابنُ تيميَّة، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٤٤١) و(٣٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤).

وقيل: المعنى: مَن يحفَظُكم مِن بأسِ الرحمنِ وعذابِه إن أراد أن يُنزِلَه بكم؟ وممن اختار =

﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

أي: بل الكُفَّارُ مُعرِضونَ عن ذكرِ ربِّهم[(١)]؛ .....

= هذا المعنى: مقاتل بنُ سليمان، وابن جرير، والزجاج، والسمعاني، والزمخشري، والرسعني، والقرطبي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٣، ١٥٤).

(١) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ذِكْرِ رَبِّهِم﴾ القرآنُ: مقاتلُ بنُ سليمان، ويحيى بنُ سلام، والواحدي، والبغوي، وابنُ الجوزي -وكلاهما زاد: مواعظ الله-، والرسعني، والقرطبي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٥٨).

قال ابن جرير: (بل هم عن ذكرِ مواعظِ ربِّهم، وحُججِه التي احتجَّ بها عليهم معرضونَ، لا يتدبَّرونَ ذلك، فلا يعتبرونَ به؛ جهلًا منهم وسفهًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٩).

وممن اختار أنَّ المعنى: لا يُخطِرون ذِكرَه تعالى ببالِهم، فضلًا أن يخافوا بأسَه: الزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٩٦).

قال النسفي: (المعنى: أنَّه أمَرَ رَسولَه بسؤالِهم عن الكالئِ [أي: في قَولِه: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾]، ثمَّ بيَّن أنَّهم لا يَصلُحونَ لذلك؛ لإعراضِهم عن ذِكرِ مَن يَكلَؤُهم). ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٠٥).

وقال ابنُ جُزَي: (إذا سُئِلوا عن ذلك السُّؤالِ [﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾] لم يجيبوا عنه؛ لأنَّهم تقومُ عليهم الحُجَّةُ إن أجابوا، ولكِنَّهم يُعرِضونَ عن ذِكرِ اللهِ، أي: عن الجَوابِ الذي فيه ذِكرُ اللهِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣).

وقال الرازي: (﴿ذِكْرِ رَبِّهِم﴾... هو الدَّلائلُ العَقليَّةُ والنَّقليَّةُ، ولطائفُ القرآنِ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٧).

وقال ابن كثير: (قولُه تعالَى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: لا يَعترفونَ بنِعَمِه =

جهلًا منهم، وسفهًا[١].

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾.

أي: ألهؤلاءِ الكُفَّارِ آلِهةٌ غيرُنا تَحفَظُهم مِن عَذابِنا إن أنزَلْناه بهم[٢]؟

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: لا تَقدِرُ آلهتُهم المزعومةُ أن تَنصُرَ أنفُسَها لِضَعفِها، فكيف تنصُرُ عابديها، وتمنَعُهم مِن عذابِنا[٣]؟!

= عليهم، وإحسانِه إليهم، بل يُعرِضونَ عن آياتِه وآلائِه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤).

قال ابنُ عطية: (في آخِرِ الكلامِ تَقديرُ مَحذوفٍ، كأنه قال: ليس لهم مانِعٌ ولا كالئٌ، وعلى هذا النفيِ تركَّبَت «بل» في قَولِه: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾... والمعنى: أيظنُّونَ أنَّ آلِهَتَهم التي هي بهذه الصِّفةِ تَمنَعُهم مِن دُونِنا؟! بل ما يمنَعُهم أحَدٌ إلَّا نحن). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٤).

وقال ابنُ جزي: (قولُه: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ بمعنى أنَّهم إذا سُئِلوا عن ذلك السُّؤالِ [أي: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾] لم يجيبُوا عنه؛ لأنَّهم تقومُ عليهم الحُجَّةُ إن أجابوا، ولكِنَّهم يُعرِضونَ عن ذِكرِ الله، أي: عن الجَوابِ الذي فيه ذِكرُ الله. وقال الزمخشريُّ: معنى الإضرابِ هنا أنَّهم مُعرِضونَ عن ذِكرِه، فضلًا عن أن يخافُوا بأسَه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤).

كما قال تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾.

أي: وليس لتلكَ الآلهةِ مُجيرٌ يُجيرُهم مِنَّا(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٣/ ٤٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٦).

قال ابن الجوزي: (﴿وَلَا هُم﴾ في المشارِ إليهم قولان: أحدُهما: أنَّهم الكفار، وهو قولُ ابنِ عبَّاس. والثاني: أنَّهم الأصنامُ، قاله قتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٢).

وممن اختار الأولَ: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جريرٍ، والواحدي، وابن جزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٨٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣).

وممن اختار الثاني: الرسعني، وأبو حيانَ، والشوكاني، والألوسي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٦).

وممن اختار أنَّ معنى ﴿يُصْحَبُونَ ﴾: يُجارونَ: ابنُ جرير، والواحدي، والسمعاني، والعليمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس في روايةٍ عنه، والحسنُ، والكلبي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٠).

وقال مجاهدٌ: يُمنعون. يُنظر: ((تفسير سفيان الثوري)) (ص: ١٩٩).

قال الشنقيطي: (وقولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أي: يُجارُونَ... وأغلبُ أقوالِ العُلماءِ في الآيةِ راجعةٌ إلى ما ذكَرْنا؛ كقولِ بعضِهم: ﴿يُصْحَبُونَ ﴾ يُمنَعونَ. وقَولِ بَعضِهم: يُنصَرونَ. وقولِ بعضِهم: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أي: لا يصحَبُهم اللهُ بخيرٍ، ولا يجعَلُ الرَّحمةَ صاحبًا لهم. والعلمُ عندَ اللهِ تعالى). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٥٦). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٦].

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾.

أي: ولكنَّ الذي أوجبَ استِمرارَهم على كُفرِهم وشِركِهم هو أنَّنا متَّعْنا مُشرِكي قُرَيشٍ وآباءَهم مِن قَبلِهم بالنِّعَمِ، وأطَلْنا أعمارَهم، فظَنُّوا أنَّها لا تَزولُ عنهم، فقَسَت قلوبُهم، واغتَرُّوا بإمهالِ اللهِ لهم، وأعرَضوا عن تدبُّرِ حُجَجِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فحمَلَهم ذلك على الطُّغيانِ، والاستِمرارِ على باطِلِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٦).
قال ابن عاشور: (قد استقريتُ أنَّ القرآنَ إذا ذُكرتْ فيه هذه الإشارةُ [يعني: هؤلاء] دونَ وجودِ مشارٍ إليه في الكلامِ فهو يعني بها كفَّارَ قريشٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٦).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٩، ٣٠].

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾.

أي: أوَلم يرَ الكُفَّارُ أنَّا ننصُرُ المُسلِمينَ، ونفتَحُ لهم ديارَ المُشرِكينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، فنَنقُصُ دارَ الكُفَّارِ، ونَزيدُ في دارِ الإسلامِ؟ أفلا يعتَبِرونَ بذلك فيخافونَ ظُهورَهم على أرضِهم، وقَهرِهم إيَّاهم[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٧).

وممن اختار القولَ المذكورَ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والرسعني، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، والخازن، وابن جزي، والمحلي، وأبو السعود، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٠٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٤).

قال السمعاني: (﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ الأكثرونَ: أنَّ هذا هو ظهورُ النَّبيِّ، وفتحُه ديارَ الشِّركِ أرضًا أرضًا، وبلدةً بَلْدَةً، والدَّليلُ على صحةِ هذا التأويلِ أنَّه قال: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ أي: ليست الغلبةُ لهم؛ إنَّما الغلبةُ لي ولرسولي). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٢).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس في رواية عنه، والضحاك، والحسن. يُنظر: =

= ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠١).

قال ابنُ عطية: (وهذا... القَولُ لا يتأتَّى إلَّا بأن نقَدِّرَ نزولَ هذه الآيةِ بالمدينةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٩).

وقال الألوسي: (والآيةُ... مدنيةٌ، وهي نازلةٌ بعدَ فرضِ الجهادِ، فلا يَرِدُ أنَّ السورةَ مكِّيَّةٌ، والجهادُ فُرِض بعدَها حتى يقالَ: إنَّ ذلك إخبارٌ عن المستقبَلِ). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٥١).

وقال الشنقيطي: (في معنى إتيانِ اللهِ الأرضَ يَنقُصُها مِن أطرافِها في هذه الآيةِ الكريمةِ أقوالٌ مَعروفةٌ للعُلَماءِ، وبَعضُها تدُلُّ له قرينةٌ قرآنيَّةٌ، وأمَّا القولُ الذي دَلَّت عليه القرينةُ القُرآنيَّةُ فهو أنَّ معنى ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ أي: نَنقُصُ أرضَ الكُفرِ ودارَ الحَربِ، ونحذِفُ أطرافَها بتسليطِ المُسلِمينَ عليها، وإظهارِهم على أهلِها، ورَدِّها دارَ إسلامٍ، والقرينةُ الدَّالَّةُ على هذا المعنى هي قَولُه بعده: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، والاستِفهامُ لإنكارِ غلَبتِهم. وقيل: لِتَقريرِهم بأنَّهم مغلوبون لا غالبون، فقَولُه: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ نَقْصَ الأرضِ مِن أطرافِها سَبَبٌ لغَلَبةِ المُسلِمينَ للكُفَّارِ، وذلك إنَّما يحصُلُ بالمعنى المذكورِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٥٧).

وقال البقاعي: (﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أي: يَعلَمونَ عِلمًا هو في وضوحِه مِثلَ الرُّؤيةِ بالبَصَرِ... ﴿نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ أي: التي أهلُها كُفَّارٌ إتيانَ غَلَبةٍ لهم بتَسليطِ أوليائِنا عليهم؟!). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٢٦).

وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذِكرُه: أفلا يرى هؤلاء المُشرِكون بالله، السَّائلونَ محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم الآياتِ، المُستعجِلوه بالعَذابِ: أنَّا نأتي الأرضَ نُخرِّبُها من نواحيها بقَهْرِنا أهلَها وغَلَبَتِناهم، وإجلائِهم عنها وقَتْلِهم بالسُّيوفِ؛ فيَعتَبِروا بذلك ويتَّعِظوا به، ويحذَروا مِنَّا أن نُنزِلَ مِن بأسِنا بهم نحوَ الذي قد أنزَلْنا بمن فعَلْنا ذلك به مِن أهل الأطرافِ؟!). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨١).

ويُنظر كلامُ ابنِ كثيرٍ في نظير هذه الآيةِ من سورةِ الرعدِ (آية ٤١)، حيث اختار أنَّ المرادَ هو ظهورُ الإسلامِ على الشركِ قريةً بعدَ قريةٍ. ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٣).

وقال في آيةِ سورةِ الأنبياءِ: (﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الأنبياء: ٤٤] اختلَف المفسِّرونَ في معناه... وأحسنُ ما فُسِّر بقولِه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف:٢٧]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٥). قال الشِّنقيطيُّ تعليقًا على كلامِ ابنِ كثيرٍ: (ما ذكره ابنُ كثيرٍ صَوابٌ، واستقراءُ القُرآنِ العَظيمِ يدُلُّ عليه، وعليه فالمعنى: أفلا يرى كُفَّارُ مكَّةَ ومَن سار سَيرَهم في تكذيبِك -يا نبيَّ اللهِ- والكُفرِ بما جِئتَ به: =

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

أي: أفكُفَّارُ مكَّةَ هم المُنتَصِرونَ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأتباعِه المُؤمِنينَ؟! بل المُشرِكونَ هم المغلوبونَ الأخسَرونَ الأذَلُّونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۞ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤، ٤٥].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كَرَّر في القُرآنِ الأدِلَّةَ، وبالَغَ في التَّنبيهِ عليها على ما تقَدَّمَ؛ أتبَعَه بقَولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ أي: بالقُرآنِ الذي هو كلامُ رَبِّكم؛ فلا تظُنُّوا أنَّ ذلك مِن قِبَلي، بل اللهُ آتيكم به، وأمَرَني بإنذارِكم(٢).

= أنَّا نأتي الأرضَ نَنقُصُها من أطرافِها، أي: بإهلاكِ الذين كذَّبوا الرُّسُلَ، كما أهلَكْنا قَومَ صالحٍ وقَومَ لوطٍ، وهم يمُرُّونَ بديارِهم، وكما أهلَكْنا قومَ هودٍ، وجعَلْنا سبأً أحاديثَ ومَزَّقْناهم كُلَّ مُمَزَّقٍ؟!). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٥٧، ١٥٨).

وممن قال مِن السلفِ: إنَّ المرادَ هو خرابُ القُرى: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في رواية عنه، وابنُ جريجٍ -وزاد وهلاك الناسِ-، وعكرمةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٦).

وذهب السعدي إلى أنَّ المرادَ بنقصِ الأرضِ مِن أطرافِها: مَوتُ أهلِها شَيئًا فشيئًا، حتى يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، وعكرمةُ في روايةٍ عنه، وعطاءٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٥٠١).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ المراد: نقصانُ عددِ المشركينَ بدُخولِ كثيرٍ منهم في الإسلامِ مِن أهلِ مكَّةَ وغَيرِهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٦، ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٨).

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنَّما أُخَوِّفُكم عذابَ اللهِ بالقُرآنِ الذي يُنزِلُه اللهُ عليَّ، ولا أُحَذِّرُكم مِن قِبَلِ نَفسي(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ بتاءٍ مَضمومةٍ، وكسرِ الميمِ، بالخطابِ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، و(الصُّمَّ) بالفَتحِ على أنَّه مفعولٌ به لـ(تُسْمِعُ)، أي: أنت -يا محمَّدُ- لا تقدِرُ أن تُسمِعَ الصُّمَّ، وهم الكافِرونَ(٢).

٢- قراءةُ ﴿يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ﴾ بياءٍ مفتوحةٍ، وفَتحِ الميمِ، و(الصُّمُّ) بالرَّفعِ على أنَّه فاعِلُ (يَسْمَعُ)، أي: أنَّ الكافرينَ تَرَكوا استِماعَ ما يجِبُ عليهم استِماعُه وقَبولُه، وفيه معنى الذَّمِّ لِمن كان قادرًا على سَماعِ الحَقِّ فتَرَكَ استِماعَه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤).

(٢) قرأ بها ابنُ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٦٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٦٧).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٣، ٣٢٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٦٨)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١١١).

﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

أي: ولا يُصغي الكُفَّارُ إلى القُرآنِ، كأنَّهم صُمٌّ لا ينتَفِعونَ به حين يُخوَّفونَ بآياتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءًۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۞ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠، ٨١].

﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٤٦﴾.

أي: ولَئِنْ أصاب الكافرينَ المُستَعجِلينَ بالعذابِ أقَلُّ شَيءٍ مِن عذابِ رَبِّك -يا مُحمَّدُ- ليقولُنَّ نادمينَ مُتحَسِّرينَ: يا ويلَنا إنَّا كُنَّا ظالِمينَ لأنفُسِنا بعِبادتِنا غيرَ اللهِ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٩).

ذهب ابنُ عطيةَ وأبو حيان والعليمي إلى أنَّ هذه النفحةَ مِن العذابِ في الدنيا. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٥٩).

وهذا القولُ ذكَر الألوسي أنَّه قيل بناءً على ما رُوي عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما مِن تفسيرِ النفحةِ بالجوعِ الذي نزَل بمكةَ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٥٢). =

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أي: ونُقيمُ الموازينَ العادِلةَ في يومِ القيامةِ؛ لِوَزنِ أعمالِ العِبادِ عند حِسابِهم[1].

= واستظهر الألوسي أنَّ هذا المسَّ يكونُ يومَ القيامة. وذكَر ابنُ عاشور أنَّ هذه النفحةَ مِن العذاب هي أولُ العذابِ في الآخرةِ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٩).

وقال ابنُ كثير: (ولئن مَسَّ هؤلاءِ المكذِّبينَ أدنَى شيءٍ مِن عَذابِ اللَّهِ، ليعترِفُنَّ بذُنوبِهم، وأنَّهم كانوا ظالمينَ أنفسَهم في الدُّنيا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٥).

قال الطِّيبي: (والذي يدلُّ على أنَّ قولَه: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾ متعلِّقٌ بأحوالِ القيامةِ: إيقاعُ قولِه تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حالًا من الضميرِ في ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بتقديرِ: نحنُ نضعُ، خاليًا عن الضميرِ، على منوالِ: جئتُكَ والشمسُ طالعةٌ). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٠، ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٨، ١٦٠).

قال الشنقيطي: (اختلفوا في كيفيَّةِ هذا الوَزنِ على ثلاثةِ أقوالٍ لا يُكَذِّبُ بَعضُها بَعضًا، وقال بعضُ العُلَماءِ: لا مانِعَ مِن أن يقعَ جميعُها، فذهب أكثَرُ المفَسِّرين إلى أنَّ الموزونَ هو صحائِفُ الأعمالِ؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ له كتابٌ وصحائِفُ فيها عَمَلُه... وذهبت جماعةٌ من العُلماءِ، ورواه غيرُ واحدٍ عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ الموزونَ نفسُ الأعمالِ، وأنَّ الله يُحَوِّلُ الأعمالَ الحَسَنةَ إلى أجرامٍ حَسَنةٍ مُضيئةٍ نَيِّرةٍ... وقال بعضُ أهل العِلمِ: إنَّ ما يُوزَنُ أصحابُ الأعمالِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٧٢-٧٤).

وقال أيضًا: (الأحاديثُ النَّبويَّةُ، وظواهِرُ القرآنِ العَظيمةُ، وسائِرُ المُسلِمينَ -إلَّا مَن شَذَّ- كُلُّها مُتَّفِقةٌ على أنَّه ميزانٌ حَقيقيٌّ له لِسانٌ وكِفَّتانِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٧٩).

وقال ابن أبي العز: (ثَبَت وزنُ الأعمالِ والعاملِ وصحائِفِ الأعمالِ، وثَبَت أنَّ الميزانَ له =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾.

أي: فلا يَظلِمُ اللهُ نفْسًا يومَ القيامةِ بالنَّقصِ مِن حَسَناتِها، أو بمُعاقَبتِها بغيرِ ذَنبِها، أو بالزِّيادةِ في سَيِّئاتِها[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ سيُخَلِّصُ رَجُلًا مِن أُمَّتي على رُؤوسِ الخلائِقِ يومَ القيامةِ، فيَنشُرُ عليه تِسعةً وتِسعينَ سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ مِثلُ مَدِّ البَصرِ[2]، ثمَّ يقولُ: أتُنكِرُ مِن هذا شيئًا؟ أظلَمَك كَتَبَتي الحافِظونَ؟ فيقولُ: لا يا رَبِّ، فيقولُ:

= كِفَّتانِ. واللهُ تعالى أعلمُ بما وراءَ ذلك مِن الكيفيَّاتِ). ((شرح الطحاوية)) (٢/ ٦١٣).

وقال الشنقيطي: (اللَّامُ في قَولِه: ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيها أوجهٌ مَعروفةٌ عند العلماء: منها: أنَّها للتَّوقيتِ، أي: الدَّلالةِ على الوَقتِ... ومنها: أنَّها لامُ «كي»، أي: نَضعُ الموازينَ القِسطَ؛ لأجْلِ يومِ القيامةِ، أي: لحِسابِ النَّاسِ فيه حِسابًا في غايةِ العدالةِ والإنصافِ. ومنها: أنَّها بمعنى «في»، أي: نضعُ الموازينَ القِسطَ في يومِ القيامةِ. والكوفيونَ يقولونَ: إنَّ اللامَ تأتي بمعنى في، ويقولونَ: إنَّ مِن ذلك قَولَه تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: في يومِ القيامةِ، وقَولَه تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي: في وَقتِها، ووافقهم في ذلك ابنُ قُتيبةَ من المتقَدِّمين، وابنُ مالكٍ من المتأخِّرين). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٥)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (١/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤).

(٢) مَدِّ البَصَرِ: أي: مِقدار ما يمتَدُّ إليه بصَرُ الإنسانِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٣١).

أفلَك عُذرٌ؟ فيقولُ: لا يا رَبِّ، فيقولُ: بلى، إنَّ لك عندنا حَسَنةً، فإنَّه لا ظُلمَ عليك اليومَ، فتُخرَجُ بطاقةٌ فيها: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا عَبدُه ورَسولُه، فيقولُ: احضُرْ وَزْنَك، فيقولُ: يا رَبِّ، ما هذه البِطاقةُ مع هذه السِّجِلَّات؟! فقال: إنَّك لا تُظلَمُ، فتُوضَعُ السِّجِلاتُ في كفَّةٍ، والبِطاقةُ في كفَّةٍ، فطاشت[1] السِّجِلاتُ، وثَقُلَت البطاقةُ؛ فلا يَثقُلُ مع اسمِ اللهِ شَيءٌ))[2].

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾.

أي: وإن كان الَّذي للعبدِ مِن عملِ الحسناتِ، أو عليه مِن السَّيِّئاتِ وَزنَ حَبَّةٍ مِن خَردلٍ، جِئْنا بها لِتُوزنَ في الميزانِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

---

(١) فطاشَت: أي: خَفَّت. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٣٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٥٠)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٢/ ٢١٣) (٦٩٩٤)، والحاكم (١/ ٤٦).

قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريب. وصحَّحه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١٣٥): وهو كما قالا. وقال أحمد شاكر في ((تحقيق المسند)) (١١/ ١٧٦): إسناده صحيح.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤).

أي: وكفَى بنا عالِمينَ بأعمالِ العِبادِ، حافِظينَ لها، مُثبِتينَ لها في الكِتابِ، عالِمينَ بمقاديرِها ومقاديرِ ثوابِها وعِقابِها واستِحقاقِها، مُوصِلينَ للعامِلينَ جَزاءَها، ولن نَظلِمَهم شيئًا؛ فليس في الحِسابِ أحدٌ مِثلُنا[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾، أي: الأصمُّ لا يَسمَعُ صَوتًا؛ لأنَّ سَمْعَه قد فسَدَ وتعَطَّل، وشَرْطُ السَّماعِ معَ الصَّوتِ أن يُوجَدَ محَلٌّ قابِلٌ لذلك، كذلك الوَحيُ سَبَبٌ لحياةِ القُلوبِ والأرواحِ، وللفِقهِ عن اللهِ، ولكِنْ إذا كان القَلبُ غَيرَ قابِلٍ لسَماعِ الهُدى، كان بالنِّسبةِ للهُدى والإيمانِ بمَنزلةِ الأصَمِّ بالنِّسبةِ إلى الأصواتِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ في ذلك تبشيرٌ للمؤمنينَ بما يفتحُ الله عليهم[٣].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إنْ قيل: الميزانُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٧).
قال ابنُ عاشور: (التقدير: وكفى النَّاسَ نحنُ في حالِ حِسابِهم. ومعنى: كفاهم نحن حاسِبينَ: أنَّهم لا يتطَلَّعونَ إلى حاسِبٍ آخَرَ يَعدِلُ مِثلَنا. وهذا تأمينٌ للنَّاسِ مِن أن يُجازَى أحَدٌ منهم بما لا يَستَحِقُّه، وفي ذلك تحذيرٌ مِن العذابِ، وترغيبٌ في الثوابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٤).

واحِدٌ[١]، فما وجهُ الجَمعِ؟

فالجوابُ مِن أوجهٍ:

الأول: أنَّه ميزانٌ واحدٌ، وأُطْلِق عليه اسمُ الجمعِ تفخيمًا له، فالعَربُ قد تُوقِعُ لفظَ الجَمعِ على الواحِدِ تفخيمًا له. وتُطْلِقُ الجمعَ، وتريدُ المفردَ كعكسِه.

الثاني: أنَّه إنَّما جُمِع باعتبارِ تَعَدُّدِ الأعمالِ الموزونةِ فيه وكثرتِها، وكثرةِ الأشخاصِ العاملينَ، الموزونةِ أعمالُهم.

الثالث: أنَّ الموازينَ جمعُ موزونٍ، والموزونُ هو الحسناتُ والسيئاتُ، وجمعُ (الموزونِ) على (موازينَ) جمعٌ قياسيٌّ مُطَّرِدٌ، وعلى هذا فلا سؤالَ ولا إشكالَ.

الرابع: أنَّه يُنصَبُ لكُلِّ عبدٍ مِيزانٌ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ دَلالةٌ على إثباتِ الوَزنِ يومَ القيامةِ[٣]، وأنَّ وجودَ الموازينِ حَقيقةٌ، وقد جاءت الأحاديثُ الكثيرةُ بالأسانيدِ الصَّحيحةِ في هذا البابِ[٤].

---

(١) قال ابنُ كثير: (الأكثَرُ على أنَّه إنَّما هو ميزانٌ واحِدٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٥). ويُنظر: ((تفسير القنوجي)) (٨/ ٣٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٩).
وفي الحديث: ((كلِمتانِ خفيفتانِ على اللِّسانِ، ثَقيلتانِ في الميزانِ)). أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤)، مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧٦)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٤٩٩).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٩).

٤- إن قيل: قَولُ الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، ظاهرُه يناقض قولَه تعالى في الكفارِ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]؟

والجوابُ على ذلك مِن وجهينِ:

الأوَّل: أنَّه ليس هذا على أن لا توزنَ أعمالُ الكفارِ، بل تُوزنُ لكنَّ أعمالَهم شَائِلَةٌ[١]، وموازينَهم خفافٌ، قد نَصَّ الله تعالَى على ذلك فقال: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، فأَخبَر عزَّ وجلَّ أَنَّ هؤلاءِ المكذِّبين بآياتِه خفَّت موازينُهم، والمكذِّبون بآيَاتِ الله عزَّ وَجلَّ كفارٌ بلا شكٍّ[٢]، فمعنَى الآيةِ: لا نُثقِّلُ مَوازينَهم يومَ القيامةِ؛ لأنَّه ليس لهم حَسَناتٌ[٣].

الثاني: أنَّ معنى الآيةِ: لا يُعتَدُّ بهم، ولا يكونُ لهم عندَ الله قَدْرٌ ومَنزِلةٌ[٤]، فلا يُكرِمُهم ولا يُعظِّمُهم[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ تَسليةٌ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن استهزائِهم به عليه

---

(١) شائِلةٌ: أي: خَفيفةٌ، مِن قَولِهم: شال الميزانُ: إذا خَفَّت إحدى كِفَّتَيه فارتفَعَت. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (٤/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٩)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٠٧).

الصَّلاةُ والسَّلامُ في ضِمْنِ الاستعجالِ، وعِدَةٌ ضِمْنيةٌ بأنَّه يُصيبُهم مثْلُ ما أصاب المُتسهزئينَ بالرُّسلِ السَّالفةِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

- قولُه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فيه التَّصديرُ بالقسَمِ؛ لِزيادةِ تَحقيقِ مَضمونِه. وتَنوينُ الرُّسلِ للتَّفخيمِ والتَّكثيرِ[٢].

- قولُه: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ قُدِّمَ قولُه: ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم﴾ على فاعلِهِ الَّذي هو قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ للمُسارَعةِ إلى بَيانِ لُحوقِ الشَّرِّ بهم[٣].

- و﴿مَّا﴾ في قولِه: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ إمَّا موصولةٌ مُفيدةٌ للتَّهويلِ، والضَّميرُ المجرورُ عائدٌ إليها، والجارُّ مُتعلِّقٌ بالفِعْلِ، وتَقديمُه عليه لرِعايةِ الفواصلِ، أي: فأحاطَ بهم الذي كانوا يَستهزئونَ به حيثُ أُهْلِكوا لأجْلِه. وإمَّا مَصدريَّةٌ؛ فالضَّميرُ المجرورُ راجعٌ حينئذٍ إلى جِنْسِ الرَّسولِ المدلولِ عليه بالجَمْعِ، ولعلَّ إيثارَه على الجمْعِ للتَّنبيهِ على أنَّه يَحِيقُ بهم جَزاءُ استهزائِهم بكلِّ واحدٍ واحدٍ منهم عليهم السَّلامُ، لا جزاءُ استهزائِهم بكلِّهم من حيثُ هو كلٌّ فقطْ، أي: فنزَلَ بهم جَزاءُ استهزائِهم -على وَضْعِ السَّببِ مَوضِعَ المسبَّبِ؛ إيذانًا بكَمالِ المُلابَسةِ بينهما-، أو عينُ استهزائِهم إنْ أُرِيدَ بذلك العذابُ الأُخرويُّ، بِناءً على تَجسُّمِ الأعمالِ يومَ القيامةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾

- الاستفهامُ في قولِه: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ استفهامُ تَقريعٍ وتَبْكيتٍ وتَوبيخٍ، أي: لا يَكْلَؤُهم منه أحدٌ؛ فكيف تَجْهَلون ذلك؟! تَنبيهًا لهم إذا نَسُوا نِعَمَه[١].

- وذِكْرُ اللَّيلِ والنَّهارِ لاستيعابِ الأزمنةِ؛ كأنَّه قيل: مَن يَكْلَؤُكم في جَميعِ الأوقاتِ[٢]؟ وقيل: إنما ذُكِر اللَّيلُ والنَّهارُ؛ لأنَّ لكُلِّ واحدٍ مِن الوَقتَينِ آفاتٍ تختَصُّ به[٣]، وتَقديمُ اللَّيلِ؛ لِمَا أنَّ الدَّواهِيَ أكثَرُ فيه وُقوعًا، وأشدُّ وَقْعًا[٤].

- وفي لَفْظِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تَنبيهٌ على أنْ لا كالِئَ غيرُ رَحمتِه العامَّةِ[٥]. وقيل: خَصَّ هاهنا اسمَ (الرَّحمنِ) بالذِّكرِ؛ تلقينًا للجَوابِ، حتى يقولَ العاقِلُ: أنت الكالئُ يا إلهَنا لكلِّ الخلائِقِ برَحمتِك[٦].

- قولُه: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ فيه إضرابٌ بـ (بَلْ)، وهو ارتقاءٌ مِن التَّقريعِ المَجْعولِ للإصلاحِ إلى التَّأْييسِ مِن صَلاحِهم بأنَّهم عن ذِكْرِ ربِّهم مُعرِضونَ. وفي تَعليقِ الإعراضِ بذِكْرِه تعالى، وإيرادِ اسمِ الرَّبِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٦).

المُضافِ إلى ضَميرِهم المُنبئِ عن كَونِهم تحتَ مَلكوتِه وتَدبيرِه وتَربيتِه تعالى: دَلالةٌ على كَونِهم في الغايةِ القاصيةِ مِنَ الضَّلالةِ والغَيِّ[١].

- قولُه: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ فيه الْتِفاتٌ؛ حيث أعرَضَ عنهم من طَريقِ الخطابِ إلى طَريقِ الغَيبةِ؛ لأنَّ ما وُجِّهَ إليهم مِن إنكارِ أنْ يَكلأَهم أحدٌ مِن عَذابِ اللهِ جعَلَهم أحرياءَ بالإعراضِ عنهم[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ (أَمْ) مُنقطِعةٌ وما فيها من مَعْنى (بلْ) للإضرابِ، والانتقالِ عمَّا قبْلَه إلى تَوبيخِهم باعتمادِهم على آلهتِهم، وإسنادِهم الحِفْظَ إليها، والهمزةُ لإنكارِ أنْ يكونَ لهم آلِهَةٌ تَقدِرُ على ذلك. وفي تَوجيهِ الإنكارِ والنَّفيِ إلى وُجودِ الآلهةِ الموصوفةِ بما ذُكِرَ منَ المنْعِ: دَلالةٌ على سُقوطِها عن مَرْتبةِ الوُجودِ فضْلًا عن رُتْبةِ المنْعِ[٣]. وإنَّما خُولِفَ في هذا الإضرابِ بأنْ أتى بـ(أَمْ) المُتضمِّنةِ للهمزةِ و(بَلْ)؛ ليُؤْذِنَ بالاهتمامِ، وأنَّ الجُملةَ مُستطردةٌ بينَ الإضرابينِ بـ(بَلْ)[٤].

- قولُه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه من الإنكارِ، ومُوضِّحٌ لبُطلانِ اعتقادِهم[٥]. وضَميرُ ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٩).

عائدٌ إلى ﴿ءَالِهَةٌ﴾، أُجْرِيَ عليهم ضَميرُ العُقلاءِ؛ مُجاراةً لِمَا يُجْرِيه العرَبُ في كَلامِهم[١].

٤- قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ فيه تَقريعٌ على إحالتِهم نصْرَ المُسلِمينَ، وعَدِّهم تأْخيرَ الوعْدِ به دَليلًا على تَكذيبِ وُقوعِه حتَّى قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨]؛ تَهكُّمًا وتَكذيبًا[٢].

- ولمَّا أنذَرَهم بما سيَحُلُّ بهم في قولِه تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩- ٤١]، فرَّعَ على ذلك كلِّه بقولِه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ ...﴾ استفهامًا تَعجُّبيًّا مِن عدَمِ اهتدائِهم إلى أماراتِ اقتِرانِ الوعْدِ بالموعودِ، استِدلالًا على قُرْبِه بحُصولِ أماراتِه[٣]. وقيل: الفاءُ في ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ لعطْفِ الجُملةِ على مُقدَّرٍ، وفي ﴿أَفَهُمُ﴾ على المذكورِ، والهمزةُ الثَّانيةُ مُكرَّرةٌ مُقْحمةٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ لتَأْكيدِ التَّقريرِ على سَبيلِ التَّعكيسِ، أي: أفلا يَنظُرون كيف نَغلِبُهم ونَنقُصُ من أطْرافِ أرْضِهم، فهم الغالِبونَ أمْ نحنُ[٤]؟!

- وفائدةُ قولِه: ﴿نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ تَصويرُ ما كان اللهُ يُجْرِيه على أيدي المُسلِمينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٥٢).

وأنَّ عساكِرَهم وسراياهم كانت تَغْزو أرضَ المُشرِكينَ وتأْتيها غالِبةً عليها، ناقِصةً مِن أطْرافِها[١].

- وأسنَدَ سُبحانه الضَّميرَ إلى نفْسِه ﴿نَأْتِي﴾؛ تَعظيمًا للمُسلِمين الَّذين أجْرَى على أيديهم الانتصارَ العظيمَ، وافتتاحَ البلادِ والأمصارِ؛ فأصْلُه: تأْتي جُيوشُ المُسلِمين، ولكنَّه أسنَدَ الإتيانَ إلى نفْسِه؛ تَنويهًا بقدْرِ المُجاهِدين، وتَعظيمًا لِما أتَوا به من جلائلِ الأعمالِ، وناهِيكَ بمَن يَعمَلُ عمَلًا يَنسِبُه اللهُ إلى نفْسِه[٢].

- قولُه: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ هذه الجُملةُ مُفرَّعةٌ على جُملةِ التَّعجُّبِ من عدَمِ اهتدائِهم إلى هذه الحالةِ. والاستفهامُ إنكاريٌّ، أي: فكيف يَحْسَبون أنَّهم غَلَبوا المُسلِمين، وتمكَّنوا مِن الحُجَّةِ عليهم؟! أو كأنَّه قِيلَ: أبَعْدَ ظُهورِ ما ذُكِرَ ورُؤيتِهم له يُتَوهَّمُ غلَبتُهم؟! وفيه تَقريعٌ وتوبيخٌ؛ حيث لم يَعْتَبِروا بما يَجْري عليهم[٣].

- واختيارُ الجُملةِ الاسميَّةِ ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ دونَ الفعليَّةِ؛ لدَلالةِ الاسميَّةِ بتَعريفِ جُزأَيها على القصْرِ، أي: ما هم الغالِبونَ، بلِ المُسلِمون الغالِبونَ؛ إذ لو كان المُشرِكون الغالبينَ لَمَا كان عدَدُهم في تَناقُصٍ، ولَمَا خلَتْ بلْدتُهم من عدَدِ كثيرٍ منهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٧).

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ استئنافٌ ابتِدائيٌّ، مقصودٌ منه الإتيانُ على جَميعِ ما تقدَّمَ مِن استعجالِهم بالوعْدِ، تَهكُّمًا بقولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾[1] [الأنبياء: ٣٨]. وقد عُقِّبَ به أمْرُ اللهِ رسولَه أنْ يُخاطِبَهم بتَعريفِ كُنْهِ دَعوتِه، وهي قَصْرُه على الإنذارِ بما سيَحُلُّ بهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ إنذارًا مِن طَريقِ الوحيِ المُنزَّلِ عليه مِن اللهِ تعالى وهو القُرآنُ؛ فالكلامُ قصْرُ مَوصوفٍ على صِفةٍ، وقَصْرُه على المُتعلِّقِ بتلك الصِّفةِ تبَعًا لمُتعلِّقِه؛ فهو قائمٌ مَقامَ قَصْرينِ[2].

- ولمَّا أُرِيدَ أنْ ينتقلَ مِن عذابِ الاستئصالِ إلى عَذابِ النَّارِ، وهو قولُه: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ...﴾ الآيةَ، وُسِّطَ بينهما ما هو مُهِمٌّ بشأْنِه مِن حديثِ الوحيِ، وهو قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾ تَوكيدًا؛ لِيُتَخلَّصَ منه إليه[3].

- وقولُه: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ إمَّا تتمَّةُ الكلامِ المُلقَّنِ، تَذييلٌ له بطَريقِ الاعتراضِ، قد أُمِرَ عليه السَّلامُ بأنْ يقولَه لهم؛ تَوبيخًا وتَقريعًا وتَسجيلًا عليهم بكَمالِ الجَهلِ والعِنادِ، واللَّامُ في ﴿ٱلصُّمُّ﴾ للجِنْسِ المُنتظِمِ للمُخاطَبينَ انتظامًا أوَّلِيًّا أو للعهْدِ. وإمَّا مِن جِهَتِه تعالى؛ كأنَّه قِيلَ: قُلْ لَهُم ذلك وأنت بمَعزِلٍ مِن إسماعِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٨).

- قولُه: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾؛ قال: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ مع أنَّ الصُّمَّ لا يَسْمَعون دُعاءَ المُبشِّرِ، كما لا يَسْمعونَ دُعاءَ المُنذِرِ؛ إذِ اللَّامُ في ﴿ٱلصُّمُّ﴾ إشارةٌ إلى هؤلاء المُنذَرينَ كائنةٌ للعهْدِ لا للجِنْسِ -على قولٍ-، والأصْلُ: (ولا يَسْمعون إذا ما يُنْذَرونَ)؛ فوضَعَ الظَّاهِرَ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ للدَّلالةِ على تَصامِّهم وسَدِّهم أسماعَهم إذا أُنْذِروا، أي: هم على هذه الصِّفةِ مِن الجُرأةِ والجَسارةِ على التَّصامِّ مِن آياتِ الإنذارِ[(١)].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلصُّمُّ﴾ للاستغراقِ -على القولِ بأنَّ اللامَ للجنسِ-، ودخَلَ في عُمومِه المُشرِكونَ المُعرِضون عن القُرآنِ، وهم المقصودُ مِن سَوقِ التَّذييلِ؛ ليَكونَ دُخولُهم في الحُكْمِ بطَريقةِ الاستدلالِ بالعُمومِ على الخُصوصِ، وتَقييدُ عدَمِ السَّماعِ بوقْتِ الإعراضِ عندَ سَماعِ الإنذارِ لتَفظيعِ إعراضِهم عنِ الإنذارِ؛ لأنَّه إعراضٌ يُفْضي بهم إلى الهَلاكِ، فهو أفظَعُ من عدَمِ سَماعِ البِشارةِ أو التَّحديثِ، ولأنَّ التَّذييلَ مَسوقٌ عَقِبَ إنذاراتٍ كثيرةٍ. واخْتِيرَ لفْظُ الدُّعاءِ؛ لأنَّه المُطابِقُ للغرَضِ؛ إذ كان النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ داعيًا كما قال: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾[(٢)] [يوسف: ١٠٨].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، وفي سُورةِ (النَّملِ) و(الرُّومِ) قال: ﴿لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]، [الروم: ٥٢]؛ فخُتِمَتِ الأُولى بقولِه: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾، وخُتِمَتْ آيتَا (النَّملِ) و(الرُّومِ) بقولِه: ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٨، ٧٩).

مُدۡبِرِينَ ﴾؛ ووجْهُه: أنَّ آيةَ (الأنبياءِ) قد تقدَّمَها أمْرُ النَّبيِّ عليه السَّلام بخِطابِ حاضِريه، وإنْذارِهم بما أُوحِيَ إليه، وإعلامِهم بأنَّ إنْذارَه إيَّاهم لا يُجْدي عليهم؛ تَسليةً له عليه السَّلامُ، وإعْلامًا بما سبَقَ لهم أزَلًا، فقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِ﴾، ثمَّ قال لهم: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥]؛ فأعْلَمَهم بإعلامِ اللهِ تعالى بأنَّهم صُمُّوا عن سَماعِه، ومُنِعوا ثَمرتَه من الإجابةِ لِمَا سبَقَ عليهم، فقيل: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾، أي: أنَّهم وقْتَ إنْذارِهم مَمنوعونَ عن السَّمعِ، كما ورَدَ قبْلَ آيتي (النَّملِ) و(الرُّومِ) قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الروم: ٥٢]؛ إلْحاقًا لحالِ المُخاطَبينَ بهم في عدَمِ الجَدْوى عليهم، ناسَبَ ذلك قولُه: ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾؛ فوضَحَ التَّناسُبُ في نِظامِ هذه الآياتِ، وأنَّ العكْسَ لا يُناسِبُ[(١)].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بَيانٌ لسُرعةِ تأثُّرِهم من مَجِيءِ نفْسِ العذابِ إثْرَ بَيانِ عدَمِ تأثُّرِهم من مَجِيءِ خبَرِه على نهْجِ التَّوكيدِ القَسَميِّ[(٢)]، وأكَّدَ الشَّرطَ بلامِ القسَمِ؛ لتَحقيقِ وُقوعِ الجَزاءِ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ في المَسِّ والنَّفحةِ ثلاثُ مُبالَغاتٍ؛ الأُولى: ذِكْرُ المَسِّ وإسنادُه إلى النَّفحةِ دونَ فِعْلٍ آخَرَ، والمَسُّ أقَلُّ شَيءٍ، بل هو شَيءٌ رَقيقٌ جِدًّا؛ فكيف إذا انثالَ[(٤)] عليهم؟! الثَّانيةُ: ما في النَّفحةِ من معنى القِلَّةِ والنَّزارةِ، وتَنكيرُها. الثَّالثةُ: بِناءُ المرَّةِ مِن النَّفحِ،

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٤٧، ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٩).

(٤) انثال: أي: صُبَّ واستُفرِغَ. يُنظر: ((مشارق الأنوار على صحاح الآثار)) للقاضي عياض (٢/ ٤).

فمصدَرُ المرَّةِ يأْتي على (فَعْلَةٍ)، أي: نَفحةٌ واحدةٌ لا ثانِيَ لها تَكْفي لتَشتيتِ أمْرِهم، وتَوهينِ كِيانِهم، وتَصدُّعِ صُفوفِهم؛ فكيف إذا عُزِّزَت بثانيةٍ أو ثالثةٍ[١]؟!

٧- قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ الواوُ عاطفةً هذه الجُملةَ على جُملةِ: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ﴾؛ لِمُناسَبةِ قولِهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، ولبَيانِ أنَّهم مُجازونَ على جَميعِ ما أسْلَفوهُ من الكُفْرِ وتَكذيبِ الرَّسولِ، بَيانًا بطَريقِ ذِكْرِ العُمومِ بعْدَ الخُصوصِ في المُجازينَ، فشابَهَ التَّذييلَ؛ من أجْلِ عُمومِ قولِه تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، وفي المُجازَى عليه؛ من أجْلِ قولِه: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾. ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ للحالِ مِن ﴿رَبِّكَ﴾ في ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، وتكونَ نونُ المُتكلِّمِ المُعظِّمِ الْتِفاتًا لمُناسَبةِ الجزاءِ للأعمالِ؛ ولذلك فرَّعَ عليه قولَه تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾[٢].

- في قولِه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ وُصِفَتِ الموازينُ بالقِسْطِ مُبالَغةً، كأنَّها في أنفُسِها قِسْطٌ. أو على حَذْفِ المُضافِ، أي: ذواتِ القِسْطِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مَفعولًا لأجْلِه، أي: لأجْلِ القِسْطِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٠، ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٤).

- قولُه: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ فُرِّعَ على وَضْعِ الموازينِ تَفريعَ العِلَّةِ على المعلولِ، أو المعلولِ على العِلَّةِ. والظُّلمُ: ضِدُّ العدْلِ، ولذلك فُرِّعَ نَفْيُه على إثباتِ وَضْعِ العدْلِ. ووُقوعُ لفظةِ ﴿شَيْـًٔا﴾ في سِياقِ النَّفيِ دَلَّ على تأْكيدِ العُمومِ، أي: شيئًا مِن الظُّلمِ، ووُقوعُه في سِياقِ النَّفيِ دَلَّ على تأْكيدِ العُمومِ مِن فِعْلِ ﴿تُظْلَمُ﴾ الواقعِ أيضًا في سِياقِ النَّفيِ، أي: لا تُظْلَمُ بنَقْصٍ من خيرٍ اسْتحقَّتْه، ولا بزيادةِ شَيءٍ لم تَستحِقَّه. وهذه الجُملةُ كلمةٌ جامعةٌ لمَعانٍ عِدَّةٍ مع إيجازِ لفْظِها؛ فنُفِيَ جِنْسُ الظُّلمِ، ونُفِيَ عن كلِّ نفْسٍ، فأفاد أنْ لا بَقاءَ لظُلْمٍ بدونِ جَزاءٍ[١].

- قولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ فيه توعُّدٌ، وهو إشارةٌ إلى ضَبْطِ أعمالِهم مِن الحسابِ، وهو العَدُّ والإحصاءُ. وقيل: هو كِنايةٌ عن المُجازاةِ[٢].

- وضَميرُ الجمْعِ في قولِه: ﴿حَٰسِبِينَ﴾ مُراعًى فيه ضَميرُ العَظمةِ من قولِه تعالى: ﴿بِنَا﴾، والباءُ مَزيدةٌ للتَّوكيدِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٧).

الآيات (٤٨-٥٠)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: ولقد آتَينا موسى وهارونَ ما يُفرَقُ به بينَ الحَقِّ والباطِلِ، والتوراةَ مُضيئةً طَريقَ الحَقِّ، مُبَصِّرةً لِمن اتَّبَعَها؛ وتذكيرًا ومَوعِظةً للمُتَّقينَ، الذين يخافُونَ رَبَّهم في غَيبِهم وخَلَواتِهم، وهم من القيامةِ خائِفونَ وَجِلونَ.

وهذا القُرآنُ ذِكْرٌ لِمن تذكَّرَ به، وعَمِلَ بأوامِرِه واجتَنَب نواهيَه، كثيرُ الخَيرِ، عَظيمُ النَّفعِ، أنزَلْناه على مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أفتُنكِرونَه وهو في غايةِ الظُّهورِ والبَيانِ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله سُبحانَه لَمَّا تكَلَّم في دلائِلِ التوحيدِ والنُبُوَّةِ والمعادِ؛ شرع في قَصَصِ الأنبياءِ عليهم السلامُ؛ تسليةً للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما ينالُه مِن قَومِه، وتقويةً لقَلبِه على أداءِ الرِّسالةِ، والصَّبرِ على كُلِّ عارضٍ دونَها[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما أتى به رَسولُه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الذِّكرِ، وحالَ مُشرِكي العَرَبِ معه، وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾؛ أتبَعَه بأنَّه عادةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٥٠).

اللهِ في أنبيائِه، فذكَرَ ما آتى موسى وهارونَ؛ إشارةً إلى قِصَّتِهما مع قَومِهما، مع ما أُوتوا مِنَ الفُرقانِ والضِّياءِ والذِّكرِ[(١)].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾.

أي: ولقد آتَينا موسى وهارونَ ما يُفرَقُ به بينَ الحَقِّ والباطِلِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٧، ٢٨٨)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٧٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٨).

وقَولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: التوراةُ التي فَرَق بها بين الحلالِ والحرام. والثاني: البرهانُ الذي فَرَق به بينَ حقِّ موسى وباطِلِ فرعونَ.

والثالث: النَّصرُ والنَّجاةُ لموسى، وإهلاكُ فرعونَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالفرقانِ هنا: التوراةُ: مقاتل بن سليمان، والزجاج، وابن أبي زمنين، والبغوي، والزمخشري، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٣).

وممن قال: الفُرقانُ: نَصرُ الله لموسى وهارونَ على فِرعَونَ وقَومِه: السمرقندي، وابن القيم. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٢٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ السائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٣).

قال ابنُ جرير: (قال ابنُ زيد في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ قال: الفرقانُ: الحَقُّ آتاه الله موسى وهارونَ، فَرَق بينهما وبين فِرعَونَ، فقضى بينهم بالحَقِّ. وقرأ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَـانِ﴾ [الأنفال: ٤١] قال: يومَ بدرٍ. وهذا القولُ الذي قاله ابنُ زيد في ذلك أشبَهُ بظاهرِ التَّنزيلِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (الفُرقانُ: ما يُفرَقُ به بين الحَقِّ والباطِلِ مِن كلامٍ أو فعلٍ... فيجوزُ أن =

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ * وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ * وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾ [الصافات: ١١٤ - ١١٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[البقرة: ٥٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[غافر: ٢٣].

﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

أي: وآتينا موسى وهارونَ التَّوراةَ نورًا في القَلبِ، مُضيئةً طَريقَ الحَقِّ، مُبَصِّرةً لِمن اتَّبَعَها أحكامَ دينِهم، وهي تذكيرٌ ومَوعِظةٌ للمُتَّقينَ الذين يمتَثِلونَ أوامِرَ اللهِ، ويجتَنِبونَ نواهيَه(١).

= يرادَ بالفُرقانِ: التَّوراةُ... ويجوزُ أن يُرادَ بالفُرقانِ المُعجِزاتُ الفارِقةُ بين المُعجِزةِ والسِّحرِ... ويجوزُ أن يرادَ به الشَّريعةُ الفارِقةُ بين العَدلِ والجَورِ... وعلى الاحتمالاتِ المذكورةِ تجيءُ احتمالاتٌ في قَولِه تعالى الآتي: ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وليس يلزَمُ أن تكونَ بَعضُ هذه الصفاتِ قَسيمًا لبعضٍ، بل هي صِفاتٌ مُتداخِلةٌ؛ فمجموعُ ما أوتِيَه موسى وهارونُ تتحَقَّقُ فيه هذه الصِّفاتُ الثَّلاثُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٨، ٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٩).

قال السَّعدي: (﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يتذكَّرونَ به ما ينفَعُهم وما يَضُرُّهم، ويُتذَكَّرُ به الخَيرُ والشَّرُّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥).

وقال ابنُ عاشور: (لأنَّه يُذَكِّرُهم بما يَجهَلونَ، وبما يَذهَلونَ عنه مِمَّا عَلِموه، ويجَدِّدُ في نفوسِهم مُراقبةَ رَبِّهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٩،٩٠).

وقال البقاعي: (﴿وَذِكْرًا ﴾ أي: وَعْظًا وشرفًا). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٣١).

قال السمعاني: (وقَولُه: ﴿وَضِيَآءً ﴾... هو صفةٌ أُخرَى للتوراةِ، إذا حَمَلْنا الفرقانَ على التَّوراةِ، وإنْ حَمَلْناه على البُرهانِ، فمعناه: أعطَيناه البرهانَ، وأعطيناه التَّوراةَ الَّتي هي ضِياءٌ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٥).

﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى التَّقوى؛ ذكَرَ ما أنتجَتْه، وهو: خشيةُ اللهِ، والإشفاقُ مِن عذابِ يَومِ القيامةِ[١].

﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

أي: آتيناهما التَّوراةَ ضِياءً وذِكرًا للمُتَّقينَ الذين يَخافونَ رَبَّهم في غَيبِهم وخَلَواتِهم حيثُ لا يَطَّلِعُ عليهم أحدٌ مِن النَّاسِ، فيَترُكونَ المُحَرَّماتِ، ويقومونَ بالواجِباتِ، مُخلِصينَ لله، خائِفينَ مِن عذابِه[٢].

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾.

أي: وهم مِن يومِ القيامةِ وأهوالِه خائِفونَ حَذِرونَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٠).

قال السعدي: (﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ أي: خائفونَ وجِلون؛ لكمالِ معرفتِهم بربِّهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥).

وقال الرسعني: (﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ أي: مِن أهوالِها وعذابِها خائفونَ قلِقونَ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٢٤).

قال ابنُ جرير: (﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ الَّتي تقومُ فيها القيامةُ ﴿مُشۡفِقُونَ﴾، حَذِرونَ أنْ تقومَ عليهم، فيَرِدوا على رَبِّهم قد فَرَّطوا في الواجبِ عليهم لِلَّهِ، فيعاقِبَهم مِن العقوبةِ بما لا قِبَلَ لهم به). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٩).

﴿ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ فُرقانَ موسى عليه السَّلامُ، وكان العَرَبُ يُشاهِدونَ إظهارَ اليهودِ للتمَسُّكِ به والمُقاتَلةِ على ذلك والاغتِباطِ؛ حَثَّهم على كتابِهم الذي هو أشرَفُ منه، فقال[1]:

﴿ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾.

أي: وهذا القرآنُ ذِكرٌ يتذَكَّرُ ويتَّعِظُ به المُؤمِنونَ، كثيرُ الخيراتِ في الدنيا والآخِرةِ، أنزَلْناه كما أنزَلْنا التوراةَ إلى موسى وهارون ذِكرًا للمُتَّقينَ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٠، ٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦١).

وقال ابن عاشور: (وَصْفُ القرآنِ بالمباركِ يعُمُّ نواحيَ الخيرِ كُلَّها؛ لأنَّ البَرَكةَ زيادةُ الخير؛ فالقرآنُ كُلُّه خيرٌ مِن جهة بلاغةِ ألفاظِه وحُسنِها، وسُرعةِ حِفظِه، وسهولةِ تلاوتِه، وهو أيضًا خَيرٌ لِما اشتمَلَ عليه من أفنانِ الكلامِ والحِكمةِ والشريعةِ واللَّطائِفِ البلاغية، وهو في ذلك كلِّه آيةٌ على صِدقِ الذي جاء به؛ لأنَّ البَشَرَ عَجَزوا عن الإتيانِ بمِثلِه، وتحدَّاهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلك فما استطاعوا، وبذلك اهتَدَت به أممٌ كثيرةٌ في جميعِ الأزمانِ، وانتفَعَ به مَن آمَنوا به، وفريقٌ مِمَّن حُرِموا الإيمانَ، فكان وصفُه بأنَّه مباركٌ وافيًا على وَصفِ كتابِ موسى عليه السَّلامُ بأنَّه فُرقانٌ وضياءٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٠، ٩١).

﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

أي: أفأنتم للقُرآنِ مُنكِرونَ نُزولَه من عندِ اللهِ وهو في غايةِ الظُّهورِ؟ وكيف تُنكِرونَ كَونَه مُنَزَّلًا مِن عِندِه سُبحانَه مع اعترافِكم بأنَّ التَّوراةَ مُنَزَّلةٌ مِن عندِه[1]؟!

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- خَشيةُ اللَّهِ في الغَيبِ والشَّهادةِ المعنيُّ بها أنَّ العَبدَ يخشى اللَّهَ سرًّا وإعلانًا، وظاهِرًا وباطِنًا، فإنَّ أكثَرَ النَّاسِ يرى أنَّه يخشى اللهَ في العلانيةِ وفي الشَّهادةِ، ولكِنَّ الشَّأنَ في خَشيتِه اللهَ في الغَيبِ إذا غاب عن أعيُنِ النَّاسِ، وقد مدح اللهُ مَن يخافُه بالغَيبِ؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾، وقال: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [المائدة: ٩٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾[2] [الملك: ١٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ فوصَفَ القُرآنَ بوَصفَينِ جَليلَينِ:

الأوَّلُ: كَونُه ذِكرًا يُتذَكَّرُ به جميعُ المطالِبِ؛ مِن مَعرِفةِ اللهِ بأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، ومِن صفاتِ الرُّسُلِ والأولياءِ وأحوالِهم، ومِن أحكامِ الشَّرعِ مِن العِباداتِ والمُعامَلاتِ وغَيرِها، ومِن أحكامِ الجَزاءِ والجَنَّةِ والنَّارِ، فيُتذَكَّرُ به المسائِلُ والدَّلائِلُ العَقليَّةُ والنَّقليَّةُ، وسَمَّاه ذِكرًا؛ لأنَّه يَذكُرُ ما رَكَزَه اللهُ في العُقولِ والفِطَرِ؛ من التَّصديقِ بالأخبارِ الصَّادِقةِ، والأمرِ بالحَسَنِ عَقلًا، والنَّهيِ عن القَبيحِ عَقلًا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٢).

والثَّاني: كَونُه مُبارَكًا وهذا يقتضي كَثرةَ خَيراتِه، ونماءَها وزيادتَها، ولا شَيءَ أعظَمُ بَركةً مِن هذا القرآنِ؛ فإنَّ كُلَّ خَيرٍ ونِعمةٍ، وزيادةٍ دينيَّةٍ أو دُنيويَّةٍ أو أُخرويَّةٍ؛ فإنَّها بسَبَبِه وأثَرٌ عن العَمَلِ به، فإذا كان ذِكرًا مُبارَكًا، وجَبَ تَلقِّيه بالقَبولِ والانقيادِ والتَّسليمِ، وشُكرِ اللهِ على هذه المِنحةِ الجَليلةِ، والقيامِ بها، واستِخراجِ بَركتِه بتعَلُّمِ ألفاظِه ومَعانيه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

وصَفَ اللهُ تعالى شَريعةَ موسى عليه السَّلامُ بأنَّها ضِياءٌ، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾، والضِّياءُ: هو النُّورُ الذي يَحصُلُ فيه نَوعُ حَرارةٍ وإحراقٍ، كضياءِ الشَّمسِ، بخلافِ القَمَرِ؛ فإنَّه نورٌ مَحضٌ فيه إشراقٌ بغيرِ إحراقٍ؛ قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وإن كان قد ذَكَر أنَّ في التَّوراةِ نورًا، كما قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، ولكِنَّ الغالِبَ على شَريعتِهم الضِّياءُ؛ لِما فيها مِن الآصارِ والأغلالِ والأثقالِ، ووصفَ شَريعةَ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّها نورٌ؛ لِما فيها مِن الحنيفيَّةِ السَّمحةِ؛ قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[2] [المائدة: ١٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]؛ لإقامةِ الحُجَّةِ على المشركينَ بالدلائلِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٤).

العقليَّةِ والإقناعيَّةِ والزَّجريَّةِ، ثُمَّ بدلائلِ شواهدِ التاريخِ وأحوالِ الأُممِ السابقةِ، الشاهدةِ بتَنظيرِ ما أُوتِيَه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما أُوتِيَه سَلَفُه مِن الرُّسُلِ والأنبياءِ، وأنَّه ما كان بِدْعًا مِن الرُّسل في دَعوتِه إلى التوحيدِ، تلك الدعوة التي كَذَّبه المشرِكونَ لأجْلِها، مع ما تَخلَّل ذلك من ذِكر عِنادِ الأقوامِ، وثَباتِ الأقدامِ، والتأييدِ مِن الملك العَلَّامِ، وفي ذلك تَسليةٌ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما يُلاقيه مِن قومِه بأنَّ تِلكَ سُنَّةُ الرُّسلِ السابِقينَ[1].

- وفيه أيضًا نوعُ تَفصيلٍ لِمَا أُجمِلَ، وإشارةٌ إلى كيفيَّةِ إنجاءِ الرُّسلِ وإهلاكِ أعدائِهم؛ ففي سَوقِ أخبارِ هؤلاءِ الرُّسُلِ والأنبياءِ تَفصيلٌ لِمَا بُنِيتْ عليه السُّورة مِن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾، ثم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ثم قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، واتِّصالُها بجَميعِ ذلك اتِّصالٌ مُحكَمٌ؛ ولذلك أُعقبتْ بقولِه تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[2] [الأنبياء: ٥٠].

- وافتتاحُ القِصةِ بلامِ القسَمِ في ﴿وَلَقَدۡ﴾؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بمَضمونِه، ولتَنزيلِ المُشرِكينَ في جَهْلِ بعْضِهم بذلك، وذُهولِ بعْضِهم عنه، وتَناسي بعْضِهم إيَّاهُ؛ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ تلك القِصَّةَ[3].

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ ابْتُدِئَ بذِكْرِ مُوسى وأخيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٧، ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

معَ قَومِهما؛ لأنَّ أخبارَ ذلك مَسطورةٌ في كِتابٍ مَوجودٍ عندَ أهْلِه يَعرِفُهم العرَبُ، ولأنَّ أثَرَ إتْيانِ مُوسى عليه السَّلامُ بالشَّريعةِ هو أوسَعُ أثَرٍ لإقامةِ نِظامِ أُمَّةٍ يَلِي عَظَمةَ شَريعةِ الإسلامِ(١).

- والإخبارُ عن الفُرقانِ بإسنادِ إيتائِه إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه لم يَعْدُ كونَه إيتاءً من اللهِ تعالى ووحْيًا كما أُوتِيَ محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ القُرآنَ؛ فكيف يُنكِرونَ إيتاءَ القُرآنِ وهم يَعْلمون أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ ما جاء إلَّا بمثْلِه؟! وفيه تَنبيهٌ على جَلالةِ ذلك المُؤْتى(٢).

- قولُه: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ فيه للتَّقويةِ؛ فيكونَ المجرورُ باللَّامِ في مَعْنى المفعولِ، أي: الَّذين اتَّصَفوا بتَقْوى اللهِ؛ لأنَّه يُذكِّرُهم بما يَجْهَلون، وبما يَذْهَلون عنه ممَّا عَلِمُوه، ويُجدِّدُ في نُفوسِهم مُراقبةَ ربِّهم، ويجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ للعِلَّةِ، أي: ذِكْرٌ لأجْلِ المُتَّقينَ، أي: كِتابٌ يَنتفِعُ بما فيه المُتَّقونَ دونَ غَيرِهم مِن الضَّالِّينَ(٣). وخَصَّ المتَّقينَ بالذِّكرِ؛ لأنَّهم المُنتَفِعونَ بذلك عِلمًا وعَمَلًا(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ احتمَلَ أنْ يكونَ استئنافَ إخبارٍ عنهم، وأنْ يكونَ مَعطوفًا على صِلَةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وتكونَ الصِّلةُ الأُولى مُشعِرةً بالتَّجدُّدِ دائمًا؛ كأنَّها حالَتُهم فيما يتعلَّقُ بالدُّنيا، والصِّلةُ الثَّانيةُ مِن مُبتدأٍ وخبَرٍ عنه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٩، ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥).

بالاسمِ المُشعِرِ بثُبوتِ الوصْفِ كأنَّها حالَتُهم فيما يتعلَّقُ بالآخرةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ قُدِّمَ الجارُّ لمُراعاةِ الفواصلِ. وتَخصيصُ إشفاقِهم منها بالذِّكْرِ بعْدَ وَصْفِهم بالخشيةِ على الإطلاقِ؛ للإيذانِ بكونِها مُعظمَ المَخُوفاتِ، وللتَّنصيصِ على اتِّصافِهم بضِدِّ ما اتَّصفَ به المُستعجِلونَ. وإيثارُ الجُملةِ الاسميَّةِ للدَّلالةِ على ثَباتِ الإشفاقِ ودَوامِه[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ عَدَلَ عَنِ الخِطابِ بالجُمْلةِ الفِعليَّةِ -كما هو مُقْتضى السِّياقِ- إلى الخِطابِ بالجُملةِ الاسميَّةِ، وإنَّما يُعْدَلُ عن أحَدِ الخِطابينِ وإنْ كان السِّياقُ يَقْتضيه؛ لضَرْبٍ من التَّأكيدِ والمُبالَغةِ، وقد جِيءَ بها هنا تَنويهًا بالخاصِّ بعْدَ العامِّ، فالخشيةُ مِن اللهِ مُلازِمةٌ لهم، ولكنَّها مِن السَّاعةِ أكثَرُ مُلازَمةً، وأشَدُّ امْتِلاكًا لقُلوبِهم، وأسْرًا لجَوارِحِهم، ما يَرِيمونَ عن تَذكُّرِها وتَفادي كلِّ ذنْبٍ؛ خَشيةَ مُواجهتِها بما هم فيه، وأمْرٌ ثانٍ هو الدَّيمومةُ والاستمرارُ اللَّذانِ تُفِيدُهما الجُملةُ الاسميَّةُ أكثَرَ ممَّا تُفِيدُهما الجُملةُ الفِعْليَّةُ الَّتي تتوزَّعُ على الأزمنةِ[٣].

- وفيه تَعريضٌ بالَّذين لم يَهْتَدُوا بكِتابِ اللهِ تعالى، بدَلالةِ مَفهومِ المُخالَفةِ لقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾؛ فمَن لم يَهْتَدِ بكتابِ اللهِ فليس هو مِن الَّذين يَخْشَون ربَّهم بالغيبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٠).

٣- قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ اسمُ الإشارةِ يُشِيرُ إلى القُرآنِ؛ لأنَّ حُضورَه في الأذهانِ وفي التِّلاوةِ بمَنزِلَةِ حُضورِ ذاتِه[١].

- قولُه: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ زادَهُ تَشريفًا بإسنادِ إنزالِه إلى ضَميرِ الجَلالةِ[٢]. وفيه تَسليةٌ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ أنكَرَ ذلك المُشرِكون كما أنكَرَ أسلافُ اليهودِ ما أنزَلَ اللهُ على مُوسى عليه السَّلامُ[٣].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ استفهامُ إنكارٍ لإنكارِهم بعْدَ ظُهورِ كونِ إنزالِه كإيتاءِ التَّوراةِ؛ كأنَّه قيل: أبَعْدَ أنْ علِمْتُم أنَّ شأْنَه كشأْنِ التَّوراةِ في الإيتاءِ والإيحاءِ أنتم مُنكِرون لكونِه مُنزَّلًا مِن عندنا[٤]؟! ففيه تَوبيخٌ وتعجُّبٌ مِن إنكارِهم صِدْقَ هذا الكتابِ، ومِن استمرارِهم على ذلك الإنكارِ[٥].

- قولُه: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لكونِ إنْكارِهم صِدْقَه حاصِلًا منهم في حالِ الخِطابِ، جِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ لِيَتأتَّى جَعْلُ المُسنَدِ اسْمًا دالًّا على الاتِّصافِ في زمَنِ الحالِ، وجَعْلُ الجُملةِ دالَّةً على الثَّباتِ في الوصْفِ؛ وَفاءً بحَقِّ بَلاغةِ النَّظمِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩١).

الآيات (٥١-٦١)

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ
كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ
بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ
لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ
إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى
يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رُشْدَهُۥ﴾: أي: هُداه، والرُّشْدُ والرَّشَدُ: خِلافُ الغَيِّ، يُستعمَلُ استعمالَ الهدايةِ، وأصلُ (رشد): يدُلُّ على استقامةِ الطَّريقِ[(١)].

﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾: جمعُ تِمثالٍ، وهي الأصنامُ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[(٢)].

﴿عَٰكِفُونَ﴾: أي: مُقيمونَ، يُقال: عكَف على كذا: إذا أقام عليه، وأصلُ (عكف): يدُلُّ على مُقابلةٍ وحَبسٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٣، ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢، ٢٩٦).

﴿فَطَرَهُنَّ﴾: أي: خَلَقهنَّ، وابتدأَهنَّ، وأصلُ الفَطْرِ: فتْحُ الشَّيءِ، وإبرازُه[١].

﴿لَأَكِيدَنَّ﴾: أي: لأمكُرَنَّ، والكَيدُ: ضَربٌ مِن الاحتيالِ، وقد يكونُ مَذمومًا ومَمدوحًا، وإن كان يُستعمَلُ في المذمومِ أكثَرَ، وأصلُ (مكر): يدُلُّ على مُعالجةٍ لِشَيءٍ بشِدَّةٍ[٢].

﴿جُذَٰذًا﴾: أي: فُتاتًا وحُطامًا، والجَذُّ: كَسرُ الشَّيءِ وتَفتيتُه، وأصلُه يدُلُّ على كَسرٍ وقَطعٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ولقد آتَينا إبراهيمَ هُداه مِن قَبلِ موسى وهارونَ، وكنَّا عالِمينَ أنَّه أهلٌ لذلك الهُدى، إذْ قال لأبيه وقَومِه: ما هذه الأصنامُ التي صَنَعتُموها ونحتُّمُوها بأيديكم، ثمَّ أنتم مُقيمونَ على عِبادتِها؟! قالوا لإبراهيمَ: وجَدْنا آباءَنا عابدينَ لها، ونحن نَعبُدُها اقتداءً بهم. قال لهم إبراهيمُ: لقد كنتُم أنتم وآباؤُكم في عبادتِكم لهذه الأصنامِ في بُعْدٍ واضحٍ بيِّنٍ عن الحَقِّ. قالوا: أجِئتَنا بالحَقِّ والجِدِّ، أم كلامُك لنا كلامُ لاعبٍ مُستَهزِئٍ؟ قال لهم إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: بل ربُّكم الذي أدعوكم إلى عبادتِه هو ربُّ السَّمواتِ والأرضِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٠).

الذي خلَقَهنَّ وأبدَعَهنَّ، وأنا على ذلك مِن الشَّاهدينَ، وتاللهِ لأمكُرَنَّ بأصنامِكم وأُكَسِّرُها بعد أن تَنصَرِفوا عنها.

فحطَّم إبراهيمُ الأصنامَ وجعَلَها قِطَعًا صغيرةً إلَّا صَنَمًا كَبيرًا لهم لم يُكَسِّرْه؛ لعَلَّ عابِديه يسألونَه عمَّن كَسَّرَ أصنامَهم؛ فيتبَيَّنَ عَجزُه، وتقومَ الحُجَّةُ عليهم. ولَمَّا رأَوا أصنامَهم مُحطَّمةً مُهانةً، قالوا: مَن فعَلَ هذا بآلهَتِنا، إنَّه لظالمٌ بصَنيعِه واجترائِه على آلهتِنا؟! قال الذين سَمِعوا إبراهيمَ يَحلِفُ بأنَّه سيكيدُ أصنامَهم: سَمِعْنا فتًى يقالُ له إبراهيمُ، يَذكُرُ أصنامَنا بالعَيبِ والنَّقصِ والذَّمِّ. قال قَومُ إبراهيمَ بَعضُهم لبعضٍ: فَأْتُوا بإبراهيمَ على مرأًى من النَّاسِ؛ كي يَشهَدوا عُقوبتَنا له.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أُعقِبَت قِصَّةُ موسى وهارونَ بقِصَّةِ إبراهيمَ فيما أُوحيَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن مقاومةِ الشِّركِ ووُضوحِ الحُجَّةِ على بُطلانِه؛ لأنَّ إبراهيمَ كان هو المثَلَ الأوَّلَ قبل مجيءِ الإسلامِ في مُقاوَمةِ الشِّركِ؛ إذ قاوَمَه بالحُجَّةِ وبالقُوَّةِ وبإعلانِ التوحيدِ، فكانت قِصَّةُ إبراهيمَ مع قَومِه شاهِدًا على بُطلانِ الشِّركِ الذي كان مُماثِلًا لحالِ المُشركِينَ بمكَّةَ الذين جاء محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِقَطعِ دابِرِه[1].

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: ولقد آتَينا إبراهيمَ هُداه مِن قَبلُ[2]، ووفَّقْناه للحَقِّ، وأنقَذْناه مِن بينِ قَومِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٢).

(٢) قيل: المرادُ: من قبلِ موسى وهارون. وممن اختاره: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطية، والسمين الحلبي، والعُليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٦)، =

وأهلِ بَيتِه، مِن عِبادةِ الأوثانِ[(١)].

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾.

أي: وآتَيناه رُشدًا عَظيمًا على عِلمٍ مِنَّا بأنَّه أهلٌ لذلك الرُّشدِ[(٢)].

= ((الدر المصون)) (٨/ ١٦٧) للسمين الحلبي، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٦٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٩٩).

وممن قال بهذا القول من السلفِ: الضحاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٤).

وممن خصَّ ذلك بالتوراةِ، أي: مِن قبلِ نزولِ التوراةِ، وإيتائِهما موسى وهارونَ عليهما السلامُ: ابنُ القيِّمِ، والشوكاني. يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٢، ٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٣).

وقيل: المرادُ: من قَبلِ النبُوَّةِ. وممن ذهب إليه: القرطبي، ونسَبه إلى أكثرِ أهلِ التفسيرِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦).

وقيل: معنى ﴿مِن قَبۡلُ﴾: أي: مِن قبلِ البلوغِ، وهو صغيرٌ. وممن ذهب إلى ذلك: البغوي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٧، ٣٤٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٢، ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥).

قال ابن عطية: (الرُّشدُ عامٌّ في هدايتِه إلى رَفضِ الأصنامِ، وفي هدايتِه في أمرِ الكوكَبِ والشَّمسِ والقمَرِ، وغيرِ ذلك من النبُوَّةِ فما دونَها، وقال بعضُهم: معناه وُفِّق للخيرِ صَغيرًا. وهذا كُلُّه متقاربٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٣).

قال ابن عاشور: (وهذا العِلمُ الإلهيُّ مُتعَلِّقٌ بالنفسيَّةِ العظيمةِ التي كان بها محَلَّ ثَناءِ اللهِ تعالى عليه في مواضِعَ كَثيرةٍ مِن قرآنِه، أي: عَلِمَ مِن سَريرتِه صِفاتٍ قد رَضِيَها وأحمَدَها، فاستأهَلَ بها اتخاذَه خَليلًا، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٣).

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

أي: إذ[١] قال إبراهيمُ لأبيه آزَرَ وقَومِه المُشرِكينَ: ما هذه الأصنامُ التي أنتم مُقيمونَ على عِبادتِها، والحالُ أنَّكم مثَّلْتُموها ونحتُّمُوها بأيديكم على صُوَرِ بَعضِ المخلوقاتِ، فكيف تعبُدونَ ما تَنحِتونَ[٢]؟!

كما قال تعالى عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٨٥ - ٨٧].

﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

أي: قال المُشرِكونَ لإبراهيمَ: وجَدْنا آباءَنا يَعبُدونَ هذه الأوثانَ؛ فنحن نعبُدُها مِثلَهم[٣]!

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ: لقد كنتُم أنتم وآباؤُكم جميعًا في ذهابٍ عن سبيلِ الحَقِّ واضحٍ بيِّنٍ؛ بعِبادتِكم جماداتٍ لا تنفَعُ ولا تضُرُّ[٤]!

---

(١) قال الزمخشري: (﴿ إِذْ ﴾ إمَّا أن يتعلَّقَ بـ﴿ءَاتَيْنَآ ﴾، أو بـ﴿رُشْدَهُۥ ﴾، أو بمحذوفٍ، أي: اذكُرْ مِن أوقاتِ رُشدِه هذا الوقتَ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢١).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ قيل: المعنى أي: اذكرْ حينَ قال لأبيه، فيكونُ الكلامُ قد تمَّ عندَ قولِه: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾. وقيل: المعنى ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ * إِذْ قَالَ ﴾ فيكونُ الكلامُ متَّصِلًا، ولا يُوقَفُ على قولِه: ﴿عَٰلِمِينَ ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥﴾.

أي: قال قَومُ إبراهيمَ: أجِئْتَنا -يا إبراهيمُ- بالحَقِّ المُطابِقِ للواقِعِ فيما تقولُ، أمْ أنَّ كلامَك كلامُ مازحٍ هازلٍ مُستَهزِئٍ[1]؟

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦﴾.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: بل جِئتُكم بالحَقِّ لا باللَّعِبِ؛ فرَبُّكم رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ الذي أوجَدَهنَّ وأبدَعَهنَّ وما فيهنَّ مِن جَميعِ المخلوقاتِ[2].

﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: وأنا على ذلك الأمرِ البيِّنِ مِن الشَّاهِدينَ بعِلمٍ وحُجَّةٍ[3].

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّن إبراهيمُ عليه السَّلامُ أنَّ أصنامَ قَومِه ليس لها من التَّدبيرِ شَيءٌ، أراد أن يُريَهم بالفِعلِ عَجْزَها، وعَدَمَ انتِصارِها، ولِيَكيدَ كيدًا يَحصُلُ به إقرارُهم بذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٣٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٦، ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥).

وأيضًا فإنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ انتقَلَ مِن تغييرِ المُنكَرِ بالقَولِ إلى تغييرِه باليدِ[١].

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: قال إبراهيمُ: ووالله لأحتالَنَّ على أصنامِكم فأُلحِقُ بها الضَّرَرَ بعد أن تَنصَرِفوا عنها[٢].

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: فكسَّر إبراهيمُ الأصنامَ، وجعَلَها قِطَعًا مُهَشَّمةً إلَّا صَنَمًا كَبيرًا عِندَهم لم يُكَسِّرْه؛ لعَلَّ عابِديه يسألونَه عمَّن كَسَّرَ أصنامَهم، فيتبيَّنَ لهم عجْزُه[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٣، ٢٩٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٤، ٢٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٨).

وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ في قولِه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ عائدٌ على كبيرِ الأصنامِ: ابنُ جُزي، والعُليمي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٨).

قال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ذكروا أنَّه وضع القَدُومَ في يدِ كبيرِهم؛ لعَلَّهم يعتَقِدونَ أنَّه هو الذي غار لنفْسِه، وأنِفَ أن تُعبَدَ معه هذه الأصنامُ الصِّغارُ، فكَسَّرَها). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٩).

وقيل: المعنَى: لعلَّهم يَرْجِعونَ إليه كما يُرْجَعُ إلى العالِمِ في حلِّ المشكلاتِ، فيقولونَ: ما لهؤُلاءِ مكسورَةً وما لَكَ صَحيحًا والفأسُ على عاتِقِك؟

وقيل: بل إنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قال ذلك معَ علمِه أنَّهم لا يرجعونَ إلى هذا الكبيرِ؛ استهزاءً بهم. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٥٤).

وقيل: الضميرُ عائدٌ على إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسلامُ. وممن اختاره: الواحدي، وابنُ عطية، والرسعني، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٨)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الصافات: ٩٠ - ٩٣].

﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

أي: فلمَّا رأى المُشرِكونَ حُطامَ أصنامِهم قالوا: مَن فعَلَ هذا بآلهتِنا؟ إنَّه لَمِنَ الظَّالمينَ بصَنيعِه هذا؛ حيثُ فعَل بها ما لا ينبغي له فِعلُه، ووضَعَ الإهانةَ في غيرِ مَوضِعِها؛ فإنَّ الآلهةَ حَقُّها الإكرامُ، لا الإهانةُ والانتِقامُ[(١)]!!

﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: قالوا[(٢)]: سَمِعْنا شابًّا يذكُرُ أصنامَنا بالعَيبِ والنَّقصِ والذَّمِّ يُسَمَّى إبراهيمَ، ومَنْ هذا شأنُه لا بدَّ أن يكونَ هو الذي كَسَّرَها[(٣)].

= عطية)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٨).

وقال الرسعني في بيان المعنى بناء على ذلك: (لعلَّهم يرجعونَ إلى دينِه حينَ تقومُ عليهم الحُجَّةُ إذا علِموا عجزَ آلهتِهم وجهلِها). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٢٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٢).

وقال الشوكاني: (أيْ: إلى إبراهيم يَرجِعونَ فيُحاجُّهم بما سيأتي فيَحُجُّهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٨).

وذلك لأنَّه غَلَب على ظنِّه أنَّهم لا يَرجِعونَ إلَّا إليه؛ لِمَا تَسامَعوه مِن إنكارِه لدينِهم، وسَبِّه لآلِهَتِهم. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

(٢) قال ابن جرير: (قال الذين سمِعوه يقولُ: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ...﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٩).

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ٦١﴾.

أي: قال قَومُ إبراهيمَ بَعضُهم لبَعضٍ: فأحضِروا إبراهيمَ على مرأًى مِن النَّاسِ؛ لعلَّهم يَشهَدونَ عُقوبَتَنا له[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ فيه أنَّ الباطِلَ لا يصيرُ حَقًّا بكَثرةِ المُتمَسِّكينَ به[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

ممن اختار أنَّ المعنى: يَشْهَدون ما يُصنَعُ به ويحضرونَ عقابَه في الجملة: ابنُ جرير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

وممن قال بهذا القول من السلفِ: ابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٩).

وقيل: المعنى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾ عليه بما نُسِب إليه؛ ليكون ذلك حُجَّةً عليه. وممن اختار هذا القولَ في الجملةِ: الرسعني، والقرطبي، والخازن، والبقاعي، والعليمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٤٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٠).

وممن قال بنحو هذا القولِ من السلفِ: الحسن، والسُّدِّي، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٩)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٥١).

قال ابنُ عطيةَ: (وقولُه: ﴿يَشۡهَدُونَ﴾ يحتملُ أن يُرادَ به الشهادةُ عليه، يُريدونَ بفعلِه أو بقولِه: ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٧]. ويحتمِلُ أنْ يُريدَ به المشاهدةَ، أي: يشاهدونَ عقوبتَه أو غلبتَه المؤديةَ إلى عقوبتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٧).

قال الرازي: (وفيه قولٌ ثالثٌ: وهو قولُ مُقاتِلٍ والكلبيِّ، أنَّ المرادَ مجموعُ الوجهينِ، فيَشهَدونَ عليه بفعلِه، ويَشهَدونَ عقابَه). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٥٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٣/ ٥١٩).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ فِعْلَه سُبحانَه وتعالى باختيارٍ وحِكمةٍ، وأنَّه عالِمٌ بالجُزئيَّاتِ[١].

٢- العُكوفُ والمجاورةُ عند شَجَرةٍ أو حَجَرٍ؛ تِمثالٍ أو غيرِ تِمثالٍ، أو العُكوفُ والمجاورةُ عند قبرِ نَبيٍّ أو غيرِ نبيٍّ، أو مَقامِ نبيٍّ أو غيرِ نَبيٍّ- ليس هذا مِن دينِ المُسلِمينَ، بل هو مِن جِنسِ دِينِ المُشرِكينَ الذين أخبَرَ الله عنهم بما ذكَرَه في كتابه؛ حيث قال جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ * قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

٣- قال تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ، مُعاتِبًا لأهلِ الكُفرِ، وذامًّا لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ * قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾، وقال حكايةً عن أهلِ النَّارِ: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، ومِثلُ هذا في القرآنِ كَثيرٌ مِن ذَمِّ تقليدِ الآباءِ والرُّؤساءِ، وقد احتَجَّ العُلَماءُ بهذه الآياتِ في إبطالِ التقليدِ، ولم يمنَعْهم كُفرُ أولئك مِن الاحتجاجِ بها؛ لأنَّ التَّشبيهَ لم يقَعْ مِن جِهةِ كُفرِ أحدِهما، وإيمانِ الآخَرِ، وإنَّما وقع التَّشبيهُ بينَ المقَلِّدينَ بغيرِ حُجَّةٍ للمُقَلِّدِ، كما لو قَلَّد رجلًا فكَفَر، وقلَّدَ آخَرَ فأذنَبَ، وقلَّدَ آخَرَ في مسألةٍ فأخطأ وَجْهَها- كان كُلُّ واحدٍ مَلومًا على التَّقليدِ بغيرِ حُجَّةٍ؛ لأنَّ كُلَّ ذلك تقليدٌ يُشبِهُ بَعضُه بعضًا، وإن اختَلَفت الآثامُ فيه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٣٢).

٤- قال الله تعالى حِكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ فإبراهيمُ عليه السَّلامُ إنَّما قيَّدَ كَيْدَه بما بعدَ انصرافِ المُخاطَبينَ؛ إشارةً إلى أنَّه يُلحِقُ الضُّرَّ بالأصنامِ في أوَّلِ وَقتِ التمَكُّنِ منها، وهذا مِن عَزْمِه عليه السَّلامُ؛ لأنَّ المُبادرةَ في تغييرِ المُنكَرِ مع كَونِه باليَدِ مقامُ عَزمٍ، وهو لا يتمَكَّنُ من ذلك مع حضورِ عَبَدةِ الأصنامِ، فلو حاول كَسْرَها بحَضرَتِهم، لكان عمَلُه باطِلًا، والمقصودُ مِن تَغييرِ المُنكَرِ: إزالتُه بقَدرِ الإمكانِ؛ ولذلك فإزالتُه باليَدِ لا تكونُ إلَّا مع المُكْنةِ[(١)].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: فإذا رجَعوا إلى الصَّنَمِ بمُكابَرتِهم لعُقولِهم، ورُسوخِ الإشراكِ في أعراقِهم، فأيُّ فائدةٍ دِينيَّةٍ في رُجوعِهم إليه حتى يجعلَه إبراهيمُ صَلَواتُ اللهِ عليه غَرَضًا؟

الجوابُ: أنَّهم إذا رجَعوا إليه تبَيَّنَ أنَّه عاجِزٌ لا ينفَعُ ولا يَضُرُّ، وظهر أنَّهم في عبادتِه على أمرٍ عظيمٍ[(٢)].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ هذا احتِرازٌ عَجيبٌ؛ فإنَّ كلَّ مَمقوتٍ عند الله لا يُطلَقُ عليه ألفاظُ التَّعظيمِ إلَّا على وجهِ إضافتِه لأصحابِه، كما كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا كتب إلى ملوكِ الأرضِ المُشرِكينَ يقولُ: ((إلى عظيمِ فارس))[(٣)]، ((إلى عظيمِ الرومِ))[(٤)] ونحو ذلك، ولم يقُلْ: (إلى العظيمِ)،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر ما أخرجه ابن جرير في ((تاريخ الأمم والملوك)) (١٢/ ٣٨).
وحسَّنه الألباني في ((فقه السيرة)) (٣٥٨).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه.

فهنا قال تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ ولمْ يقُل: (كبيرًا من أصنامِهم)، فهذا ينبغي التنبيهُ له، والاحترازُ من تَعظيمِ ما حَقَّره الله إلَّا إذا أضيفَ إلى مَن عَظَّمه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ...﴾ فيه تأْكيدُ الخبَرِ عنه بلامِ القسَمِ؛ لتَنزيلِ العرَبِ في مُخالَفتِهم لشَريعةِ أبيهم إبراهيمَ مَنزِلةَ المُنكِرِ لكونِ إبراهيمَ أُوتِيَ رُشْدًا وهَدْيًا[٢].

- قولُه: ﴿رُشْدَهُۥ﴾ فيه تَنبيهٌ على تَفخيمِ ذلك الرُّشدِ الَّذي أُوتِيَهُ؛ فالإضافةُ على معنى اللَّامِ المُفيدةِ للاختصاصِ، فكأنَّه انفرَدَ به بينَ قومِه، وزادهُ تَنويهًا وتَفخيمًا تَذييلُه بالجُملةِ المُعترِضةِ، وهي قولُه تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[٣].

- قولُه: ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: مِن قبْلِ إيتاءِ مُوسى وهارونَ التَّوراةَ -على قولٍ في التفسيرِ-، وتَقديمُ ذِكْرِ إيتاءِ التَّوراةِ؛ لِمَا بيْنه وبينَ إنْزالِ القُرآنِ مِنَ الشَّبهِ التَّامِّ[٤]، أو للتَّنبيهِ على أنَّه ما وقَعَ الابتداء بإيتاءِ الذِّكْرِ مُوسى وهارونَ إلَّا لأنَّ شَريعتَهما لم تزَلْ مَعروفةً مَدروسةً[٥]. وكان مِن حَقِّ الظَّاهرِ تَقدُّمُ نُوحٍ على إبراهيمَ، وتقدُّمُ إبراهيمَ على مُوسى، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم، لكنْ المُناسَبةُ استدعَتْ تقدُّمَ مُوسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّ حالَه أشبَهُ بحالِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٢، ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٣).

النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن حيثُ إيتاءُ الكتابِ، وكثْرةُ الدَّلائلِ القاهرةِ، ومُقاساةُ الشِّدَّةِ، وثِقَلُ أعْباءِ النُّبوَّةِ والدَّعوةِ، وكثرةُ التَّوابعِ والأُمَّةِ، وأنَّ حالَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أقرَبُ إليه مِن حالِ نُوحٍ عليه السَّلام، فقد رُوعِيَ في تأخُّرِهم تلك اللَّطيفةُ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ فيه حُسْنُ تَرتيبٍ؛ حيث بدَأَ أوَّلًا بذِكْرِ أبيه؛ لأنَّه الأهمُّ عندَه في النَّصيحةِ، وإنقاذِهِ مِن الضَّلالِ، ثمَّ عطَفَ عليه قومَهُ[٢].

- الاستفهامُ في قولِه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ...﴾ يتسلَّطُ على الوصْفِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، فكأنَّه قال: ما عِبادتُكم هذه التَّماثيلَ؟ ولكنَّه صِيغَ بأُسلوبِ تَوجُّهِ الاستفهامِ إلى ذاتِ التَّماثيلِ لإبهامِ السُّؤالِ عن كُنْهِ التَّماثيلِ في بادئِ الكلامِ؛ إيماءً إلى عدَمِ المُلاءَمةِ بينَ حَقيقتِها المُعبَّرِ عنها بالتَّماثيلِ، وبينَ وَصْفِها بالمَعْبوديَّةِ المُعبَّرِ عنه بعُكوفِهم عليها. وهذا من تَجاهُلِ العارفِ، استعمَلَهُ تَمهيدًا لتَخْطئتِهم بعْدَ أنْ يَسمَعَ جوابَهم. والإشارةُ بـ﴿هَٰذِهِ﴾ إلى التَّماثيلِ؛ لزِيادةِ كَشْفِ معناها الدَّالِّ على انحطاطِها عن رُتْبةِ الأُلوهيَّةِ، والتَّعبيرُ عنها بالتَّماثيلِ يَسلُبُ عنها الاستقلالَ الذَّاتِيَّ[٣]، ففي قولِه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ تحقيرٌ لها، وتصغيرٌ لشأنِها، وتجاهلٌ بها، معَ علمِه بها،

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٤).

وبتعظيمِهم لها[١].

- قولُه: ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ في خِطابِه لهم بقولِه: ﴿أَنتُمْ﴾ استهانةٌ بهم، وتَوقيفٌ على سُوءِ صَنيعِهم[٢].

- وكما نسَبَ التَّماثيلَ إلى الإفراطِ في الحَقارةِ، نسَبَهُم إلى الإفراطِ في العُكوفِ لها؛ حيثُ قال: ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ بالضَّميرِ المرفوعِ، وبِناءِ الخبَرِ عليه المُفيدِ لتَقوِّي الحُكْمِ، وتَخصيصِ العُكوفِ بالذِّكرِ[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ جَعْلُ العُكوفِ مُسْندًا إلى ضَميرِهم مُؤْذِنٌ بأنَّ إبراهيمَ لم يكُنْ مِن قبْلُ مُشارِكًا لهم في ذلك؛ فيُعْلَمُ منه أنَّه في مَقامِ الرَّدِّ عليهم؛ ذلك أنَّ الإتيانَ بالجُملةِ الاسميَّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ فيه معنى العِبادةِ؛ فلذلك عُدِّيَ باللَّامِ لإفادةِ مُلازَمةِ عِبادتِها[٤]؛ فعدَلَ عن (على) الَّتي يَتعدَّى فِعْلُ العُكوفِ بها، ولكنَّه لم يَقصِدِ التَّعديةَ، ولو قصَدَ التَّعديةَ لقال: (عليها)، ولكنَّه عدَلَ عنها إلى اللَّامِ؛ لأنَّه قصَدَ مِن العُكوفِ معنى العِبادةِ، فمَقامُ المُبالَغةِ اقْتَضى أنْ يُتْرَكَ ﴿عَٰكِفُونَ﴾ على إطلاقِه، سواءٌ كان المُتعلِّقُ مَفْعولًا بواسطةٍ أو بغيرِ واسطةٍ[٥]. فاللامُ للاختصاصِ، لا للتعديةِ[٦].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٢٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٠٨).

- فيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾، وقال في سُورةِ (الشُّعراءِ): ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]؛ فاختُصَّتْ سُورةُ الشُّعراءِ بقولِه: ﴿بَلْ﴾، ولم يأْتِ في سُورةِ (الأنبياءِ)؛ ووجْهُه: أنَّ آيةَ الأنبياءِ وقَعَ السُّؤالُ فيها على وَجْهٍ لا يَقْتضي (بل) في الجوابِ؛ لأنَّه قال: ما هذه الأصنامُ الَّتي نَحتُّموها تَماثيلَ وعكَفْتُم عليها؟! فكأنَّه سَفَّه آراءَهم، وقال لهم: لِمَ تَفْعلونَ ذلك، وتَعْبُدون ما تَنحِتون؟! فقالوا: وجَدْنا آباءَنا لها عابِدينَ، فاقْتَدينا بهم. وأمَّا في سُورةِ (الشُّعراءِ) فقد تَقدَّمَ سُؤالٌ أضْرَبوا عنه، ونَفَوا ما تَضمَّنَه؛ لأنَّه قال: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣]، فقالوا مُضْرِبينَ عن هذه الأشياءِ الَّتي وُبِّخوا عليها؛ من عِبادتِهم ما لا يَسمَعُ ولا يَنفَعُ ولا يَضُرُّ، وما يَعْلمون أنَّه جَمادٌ لا حياةَ فيه، ولا نَفْعَ ولا ضَررَ عنده، وكأنَّهم قالوا: لا، ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]، فلأنَّ السُّؤالَ هنا يَقْتضي في جَوابِهم أنْ يَنْفُوا ما نفاهُ إبراهيمُ عليه السَّلامُ، أضْرَبوا عنه إضرابَ مَن يَنْفي الأوَّلَ، ويُثبِتُ الثَّانِيَ، فاختِصاصُ المكانِ بـ (بل) لهذا[(١)]. وقيل غير ذلك[(٢)].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أبطَلَ عليه السَّلامُ جَوابَهم على طَريقةِ التَّوكيدِ القَسَميِّ ﴿لَقَدْ﴾[(٣)].

- وفي اجْتلابِ فِعْلِ الكونِ ﴿كُنتُمْ﴾ وحَرْفِ الظَّرفيَّةِ (في): إيماءٌ إلى تَمكُّنِهم مِن الضَّلالِ، وانغماسِهم فيه؛ لإفادةِ أنَّه ضَلالٌ بَواحٌ لا شُبْهةَ فيه،

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٠٣، ٩٠٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٤٨، ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٢).

وأكَّدَ ذلك بوَصْفِه بـ ﴿مُّبِينٍ﴾، فلمَّا ذَكَروا له آباءَهم شرَّكَهم في التَّخطئةِ بدُونِ هوادةٍ بعطْفِ الآباءِ عليهم في ذلك؛ ليَعْلَموا أنَّهم لا عُذْرَ لهم في اتِّباعِ آبائِهم، ولا عُذْرَ لآبائِهم في سَنِّ ذلك لهم؛ لمُنافَاةِ حَقيقةِ تلك الأصنامِ لحَقيقةِ الأُلوهيَّةِ، واسْتِحقاقِ العِبادةِ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾

- الاستفهامُ في قولِه: ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ ...﴾ استفهامٌ تَعجُّبيٌّ[٢].

- وفي قولِهم: ﴿أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ أضْرَبوا عن ذلك، وجاؤوا بـ(أَمْ) المُتضمِّنةِ لمَعْنى (بل) الإضرابيَّةِ، والهمزةُ للتَّقريرِ، فأضْرَبوا بـ (بل) عمَّا أثْبَتوا له، وقرَّرُوا بالهمزةِ خِلافَه على سَبيلِ التَّوكيدِ والبَتِّ والقطْعِ؛ وذلك أنَّهم قَطَعوا أنَّه لاعِبٌ وليس بمُحِقٍّ الْبتَّةَ؛ لأنَّ إدخالَهم إيَّاه في زُمرةِ اللَّاعبينَ، أي: أنت غَريقٌ في اللَّعِبِ، داخِلٌ في زُمرةِ الَّذين قُصارى أمْرِهم في إثباتِ الدَّعاوى اللَّعِبُ واللَّهوُ، على سَبيلِ الكِنايةِ الإيمائيَّةِ[٣].

- وجاءت جُملةُ ﴿أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ اسميَّةً؛ لكونِها أثبَتَ، كأنَّهم حَكَموا عليه بأنَّه لاعِبٌ هازِلٌ في مَقالتِه لهم، ولكونِها فاصِلةً[٤]؛ فخُولِفَ بينَ الجُملتينِ في الآيةِ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾؛ لمُلاحَظةِ تَجدُّدٍ في إحداهما، فبرَزَتْ في صُورةِ الفِعْليَّةِ، وثَباتٍ في الأُخرى، فبرَزَتْ في صُورةِ الاسميَّةِ، والمعنى: أحْدَثْتَ عندنا الإتيانَ بالحقِّ -وهو التَّوحيدُ- فيما نَسْمَعُه

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٣).

منك، أمْ أنت على ما كنْتَ عليه مِن اللَّعبِ منذُ أيَّامِ الصِّبا؟! وأرادوا بالتَّجدُّدِ في الجُملةِ الأُولى: أنَّ التَّوحيدَ أمْرٌ مُحْدَثٌ مُخترَعٌ، وبالثَّباتِ في الثَّانيةِ: أنَّه على عادتِهم المُستمِرَّةِ مِن اللَّعبِ؛ تَحقيرًا له[١].

- وفي قولِهم: ﴿مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ عُدِلَ عن الإخبارِ عنه بوَصْفِ (لاعِبٍ)، إلى الإخبارِ بأنَّه من زُمرةِ اللَّاعبينَ؛ مُبالَغةً في توغُّلِ كلامِه ذلك في بابِ المزحِ، بحيث يكونُ قائِلُه مُتمكِّنًا في اللَّعبِ، ومَعْدودًا من الفريقِ الموصوفِ باللَّعبِ[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ إضْرابٌ عمَّا بَنَوا عليه مَقالَهم مِن اعتقادِ كونِها أرْبابًا لهم؛ كأنَّه قِيلَ: ليس الأمْرُ كذلك، ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾. وقيل: إضْرابٌ عن كونِه لاعِبًا بإقامةِ البُرهانِ على ما ادَّعاهُ[٣]. وقيل: هذا الجوابُ وارِدٌ على الأُسلوبِ الحكيمِ[٤]، وكان مِن الظَّاهرِ أنْ يُجيبَهم بقولِه: (بلْ أنا مِن المُحقِّينَ ولسْتُ منَ اللَّاعبينَ)؛ فجاء بقولِه: ﴿بَل رَّبُّكُمْ ...﴾ الآيةَ؛ لِيُنَبِّهَ به على أنَّ إبطالي

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٢٧، ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٣).

(٤) لكن نفَى ابنُ عاشورٍ أن يكونَ واردًا على طريقةِ الأسلوبِ الحكيم، فقال: (...كان جوابُ إبراهيمَ إبطالًا لقولِهم: ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ معَ مستندِ الإبطالِ بإقامةِ الدَّليلِ على أنَّه جاءَهم بالحقِّ، وليس فيه طريقةُ الأسلوبِ الحكيمِ كما ظنَّه الطِّيبيُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٦).

لِمَا أنتم عاكِفونَ عليه، وتَضْليلي إيَّاكم ممَّا لا حاجةَ فيه -لوُضوحِه- إلى الدَّليلِ، ولكنِ انْظُروا إلى هذه العظيمةِ، وهي أنَّكم تَتْرُكونَ عِبادةَ خالِقِكم، ومالِكِ أمْرِكم، ورازِقِكم، ومالِكِ العالَمينَ، والَّذي فطَرَ ما أنتم لها عاكِفونَ، وتَشْتغِلون بعِبادتِها دونَه، فأيُّ باطلٍ أظهَرُ مِن ذلك؟ وأيُّ ضَلالٍ أبيَنُ مِن هذا؟ ثمَّ ذيَّلَ الجوابَ بما هو مُقابِلٌ لقولِهم، وهو قولُه: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ مِن حيثُ الأسلوبُ، وهي الكِنايةُ، ومِن حيثُ التَّركيبُ، وهو بِناءُ الخبرِ على الضَّميرِ، أي: لسْتُ مِن اللَّاعبينَ في الدَّعاوى، بلْ أنا مِن القائمينَ فيها بالبَراهينِ القاطعةِ، والحُجَجِ السَّاطعةِ، كالشَّاهدِ الَّذي تُقْطَعُ به الدَّعاوى[1].

- وضَميرُ (هنَّ) للسَّمواتِ والأرضِ، وصَفَه تعالى بإيجادِهنَّ إثْرَ وَصْفِه تعالى برُبوبيَّتِه تعالى لهُنَّ؛ تَحقيقًا للحقِّ، وتَنبيهًا على أنَّ ما لا يكونُ كذلك بمَعزِلٍ مِن الرُّبوبيَّةِ. ورُجوعُ الضَّميرِ إلى التَّماثيلِ أدْخَلُ في تَضليلِهم، وأظْهَرُ في إلْزامِ الحُجَّةِ عليهم؛ لِمَا فيه مِن التَّصريحِ المُغْني عنِ التَّأمُّلِ في كونِ ما يَعبُدونه مِن جُملةِ المخلوقاتِ[2].

٧- قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾

- بادَرَهُم أوَّلًا بالقولِ المُنبِّهِ على دَلالةِ العقْلِ، فلم يَنتفِعوا بالقولِ، فانتقَلَ إلى القولِ الدَّالِّ على الفِعْلِ الَّذي مآلُه إلى الدَّلالةِ التَّامَّةِ على عدَمِ الفائدةِ في عبارةِ ما يَتسلَّطُ عليه بالكسْرِ والتَّقطيعِ، وهو لا يَدفَعُ، ولا يَضُرُّ ولا يَنفَعُ، ولا يَشعُرُ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٣).

بما ورَدَ عليه من فَكِّ أجزائِه، فقال: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾[١].

- قولُه: ﴿ وَتَٱللَّهِ ﴾ القسَمُ بالتَّاءِ فيه زِيادةُ معنًى عن القسَمِ بالواوِ، وهو التَّعجُّبُ؛ فالتَّاءُ تَختصُّ بقسَمٍ على أمْرٍ مُتعجَّبٍ منه، وتَختَصُّ باسْمِ الجَلالةِ؛ كأنَّه تَعجَّبَ مِن تَسهُّلِ الكيدِ على يَدِهِ وتأتِّيه؛ لأنَّ ذلك كان أمْرًا مَقنوطًا منه؛ لصُعوبتِه وتَعذُّرِه[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ في الكلامِ إيجازٌ بالحذْفِ، تَقديرُه: فتَولَّوا إلى عِيدِهم، فأتَى إبراهيمُ الأصنامَ، فجعَلَهم جُذاذًا[٣].

- وأتَى بضَميرِ مَن يَعقِلُ في قولِه: ﴿فَجَعَلَهُمْ ﴾؛ إذ كانت تُعْبَدُ[٤]. وكذلك أُجْرِيَ على الأصنامِ ضَميرُ جمْعِ العُقلاءِ؛ مُحاكاةً لمَعنى كلامِ إبراهيمَ؛ لأنَّ قَومَه يَحْسَبون الأصنامَ عُقلاءَ[٥].

- قولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ فيه استهزاءٌ بهم، واستجهالٌ لهم[٦].

٩- قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٦).

تَقديرُه: فلمَّا رَجَعوا مِن عِيدِهم إلى آلهتِهم، ورَأَوا ما فُعِلَ بها، اسْتَفْهموا على سَبيلِ البحثِ والإنكارِ، فقالوا: مَن فعَلَ هذا[١]؟!

- قولُهم: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ استفهامٌ على طَريقةِ الإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّشنيعِ، وإنَّما عَبَّروا عنها بما ذُكِرَ، ولم يُشِيروا إليها بـ(هؤلاء) وهي بينَ أيدِيهم؛ مُبالَغةً في التَّشنيعِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه[٣].

- وفيه مُبالَغاتٌ؛ حيث دَلَّ إيقاعُ ﴿فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ صِلَةً للموصولِ على تَحقيقِ الخبَرِ، أي: هذا الفِعْلُ الشَّنيعُ الفظيعُ لا يَفْعَلُه إلَّا ظالمٌ، ودَلَّ (إنَّ) واللَّامُ في الخبَرِ على مَزيدِ التَّأكيدِ، ودَلَّ اللَّامُ الاستغراقيُّ في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنَّه عريقٌ فيه، وهذه المُبالَغاتُ إنَّما ذَهَبوا إليها لاعتقادِهم أنَّها آلِهةٌ حَقيقةً يجِبُ تَوقيرُهم وإعظامُهم[٤].

١٠- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ فيه حَذْفُ مُتعلِّقِ (يَذكُرُ)؛ لدَلالةِ القرينةِ عليه، أي: يذكُرُهم بتَوعُّدٍ[٥].

- وفي قولِهم: ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المُنتصبينَ للبحْثِ في القضيةِ لم يَكونوا يَعرِفونَ إبراهيمَ، أو أنَّ الشُّهداءَ أرادوا تَحقيرَه بأنَّه مَجهولٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٩).

لا يُعْرَفُ، وإنَّما يُدْعى أو يُسمَّى إبراهيمَ[١].

١١- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ فيه الإتيانُ بحَرفِ الاستعلاءِ (على)؛ لتَمكُّنِ البصَرِ فيه، حتَّى كأنَّ المَرْئِيَّ مَظروفٌ في الأعيُنِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٣٣).

الآيات (٦٢-٧٠)

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ ﴾: أي: رجَعوا عن الاعترافِ بالحقِّ إلى الباطلِ، وعادوا إلى جهلِهم وعِنادِهم، يُقال: نُكِس المريضُ: إذا خرَج عن مَرضِه، ثمَّ عاد إلى مثلِه، وأصلُ (نكس): يدُلُّ على قَلْبِ الشَّيءِ[1].

﴿ أُفّٖ ﴾: هو اسمُ فِعلٍ يُنبئُ عن التضَجُّرِ والاستِثقالِ، أو: صوتٌ يُنبئُ عن ذلك، والأُفُّ: الرَّديءُ مِن الكلامِ، وكلُّ ما غَلُظ منه وقَبُح، وأصلُ (أفف): يَدلُّ على تَكَرُّهِ الشَّيءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: جيءَ بإبراهيمَ عليه السَّلامُ، وسألَه قومُه مُنكِرينَ عليه: أأنت

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٠).

الذي كسَّرْتَ آلهتَنا يا إبراهيمُ؟ فقال: بل الذي كسَّرها هذا الصَّنَمُ الكبيرُ، فاسألوا آلهَتَكم عن ذلك إن كانت تتكَلَّمُ! فرَجَعوا إلى أنفُسِهم، فقال بعضُهم لِبَعضٍ: إنَّكم أنتم الظَّالِمونَ. ثمَّ عادوا إلى جهلِهم وعِنادِهم فانقَلَبوا إلى الباطِلِ والانتصارِ لأصنامِهم، فقالوا: كيف نسألُها، وقد عَلِمْتَ أنَّها لا تَنطِقُ؟

قال إبراهيمُ مُوَبِّخًا لِقَومِه محقِّرًا لشأنِ الأصنامِ: كيف تَعبُدونَ أصنامًا لا تنفَعُ عابِديها ولا تَضُرُّهم؟! قُبحًا لكم ولآلهَتِكم التي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ تعالى، أفلا تَعقِلونَ فتُدرِكونَ سُوءَ ما أنتم عليه؟ فقالوا: حَرِّقوا إبراهيمَ بالنَّارِ؛ غضَبًا لآلهتِكم إن كنتُم ناصرينَ لها. فأشْعَلوا نارًا عظيمةً وألقَوه فيها، فقال الله تعالى للنَّارِ: كوني بَردًا وسَلامًا على إبراهيمَ. فلم يَنَلْه فيها أذًى، ولم يُصِبْه مكروهٌ. وأراد القَومُ بإبراهيمَ كيدًا فأبطل اللهُ كَيدَهم، وجعَلَهم المغلوبينَ الأسفَلينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢ ﴾.

أي: فلمَّا أُحضِرَ إبراهيمُ قال له قَومُه: أأنت الذي حطَّمتَ أصنامَنا التي نَعبُدُها يا إبراهيمُ[1]؟

﴿ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه[2]: بل الذي فعَل ذلك هذا الصَّنمُ الكبيرُ، فاسألوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

(٢) قال السعدي: (وهذا الكلامُ مِن إبراهيمَ المَقصِدُ منه إلزامُ الخَصمِ وإقامةُ الحُجَّةِ عليه؛ ولهذا قال: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ وأراد الأصنامَ المكَسَّرةَ اسألُوها لمَ كُسِّرَت؟ والصَّنَمَ الذي لم يُكسَّرْ، اسألُوه: لأيِّ شَيءٍ كَسَّرَها؟). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦). =

الأصنامَ المكَسَّرةَ والصَّنمَ الكبيرَ الذي لم يُكَسَّرْ؛ لِيُخبِروكم بمن حطَّمَها إن كانوا يَستطيعونَ الكلامَ[(١)]!

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((لم يَكذِبْ إبراهيمُ النبيُّ عليه السَّلامُ قَطُّ إلَّا ثَلاثَ كَذِباتٍ[(٢)]: ثِنتينِ في ذاتِ اللهِ؛ قَولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقولُه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾

= وقال ابنُ الجوزي: (اختلف العُلَماءُ في وجهِ هذا القولِ مِن إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ على قولينِ: أحدهما: أنَّه وإن كان في صورةِ الكَذِبِ إلَّا أنَّ المرادَ به التَّنبيهُ على أنَّ مَن لا قُدرةَ له لا يَصلُحُ أن يكونَ إلهًا...، ومِثلُ هذا لا تُسَمِّيه العَرَبُ كَذِبًا. والثاني: أنَّه من معاريضِ الكلامِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠١).

(٢) قال ابن تيميَّة: (الكَذِبُ على الشَّخصِ حرامٌ كُلُّه، سواءٌ كان الرجلُ مُسلِمًا أو كافرًا، برًّا أو فاجرًا ... ولكنْ تُباح عند الحاجةِ الشَّرعيةِ المعاريضُ، وقد تُسمَّى كَذِبًا؛ لأنَّ الكلامَ يعني به المتكَلِّمُ معنًى، وذلك المعنى يريدُ أن يفهمَه المُخاطَب، فإذا لم يكنْ على ما يَعنيه فهو الكَذِبُ المحضُ، وإن كان على ما يعنيه ولكِنْ ليس على ما يفهَمُه المخاطَبُ، فهذه المعاريضُ، وهي كَذِبٌ باعتبارِ الإفهامِ، وإن لم تكنْ كَذِبًا باعتبار الغايةِ السَّائغةِ، ومنه قولُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم: «لم يَكذِبْ إبراهيمُ إلَّا ثلاثَ كَذِباتٍ كُلُّهنَّ في ذاتِ الله...» وهذه الثلاثةُ مَعاريضُ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٢٢٣).

وقال ابنُ القيم: (الكلامُ له نِسبتانِ: نِسبةٌ إلى المتكَلِّم وقَصدِه وإرادتِه، ونِسبةٌ إلى السَّامعِ وإفهامِ المتكَلِّم إيَّاه مَضمونَه؛ فإذا أخبَرَ المتكَلِّمُ بخبرٍ مُطابِقٍ للواقعِ، وقَصَد إفهامَ المخاطَبِ؛ فهو صِدقٌ مِن الجِهَتينِ، وإن قَصَد خلافَ الواقعِ، وقَصَد مع ذلك إفهامَ المخاطَبِ خِلافَ ما قَصَد، بل معنًى ثالثًا لا هو الواقِعُ ولا هو المرادُ؛ فهو كَذِبٌ مِن الجِهَتينِ بالنِّسبتَينِ معًا، وإن قَصَد معنًى مطابِقًا صَحيحًا، وقَصَد مع ذلك التَّعميةَ على المخاطَبِ، وإفهامَه خِلافَ ما قَصَده؛ فهو صِدقٌ بالنِّسبةِ إلى قَصْدِه، كَذِبٌ بالنِّسبةِ إلى إفهامِه، ومن هذا البابِ التَّوريةُ والمعاريضُ، وبهذا أَطلَقَ عليها إبراهيمُ الخَليلُ عليه السَّلامُ اسمَ الكَذِبِ، مع أنَّه الصَّادِقُ في خبَرِه، ولم يُخبِرْ إلَّا صِدقًا؛ فتأمَّلْ هذا الموضِعَ الذي أَشكَلَ على النَّاسِ). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٣٦).

[الأنبياء: ٦٣]، وواحِدةً في شأنِ سارةَ...)) الحديثَ[(١)].

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤﴾.

أي: فرَجَعوا إلى أنفسِهم[(٢)]، فقال بعضُهم لِبَعضٍ: إنَّكم أنتم الظَّالِمونَ[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) واللفظ له.

(٢) قال ابن جزي: (﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: رجَعوا إليها بالفكرةِ والنظرِ، أو رجَعوا إليها بالملامةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥).

وقال الشوكاني: (﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: رَجَع بعضُهم إلى بعضٍ رجوعَ المنقطِعِ عن حُجَّتِه، المُتفطِّنِ لصحَّةِ حُجَّةِ خَصمِه المراجِعِ لعقلِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

قيل المعنى: إنَّكم أنتم الظالمونَ بعبادتِكم من لا ينطِقُ، ولا يدفَعُ عن نفسِه شيئًا. وممن ذهب إلى هذا المعنى في الجملة: السمعاني، والبغوي، والنسفي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

قال الرسعني: (﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: الواضِعونَ العِبادةَ في غيرِ مَوضِعِها؛ حيث عبدتُم جَمادًا لا يَعقِلُ، ولا يَنفَعُ ولا يَدفَعُ. وهذا قَولُ ابنِ عبَّاسٍ وعامَّةِ المفَسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٣٥).

وقيل المعنى: فرجعوا إلى أنفُسِهم بالملامةِ في عَدَمِ احترازِهم وحراستِهم لآلهتِهم، فقالوا: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: في تركِكم لها مهملةً لا حافظَ عندَها. قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٠).

وممن ذهَب إلى هذا القولِ مِن السلفِ: وهبُ بنُ مُنبِّهٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٩).

وممن جمَع بينَ المعنيينِ السابقينِ: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٤١).

وقيل المعنى: رجعوا إلى فِكرِهم وعقولِهم فقالوا: إنَّكم تظلِمونَ إبراهيمَ بسُؤالِكم إيَّاه عمَّن كسَّر الأصنامَ، وهذه الأصنامُ حاضرةٌ فلْنَسألْها هي عمَّن كسَّرها. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن جرير، والواحدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٣).

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾.

أي: ثم عادُوا إِلَى جهلِهم وعِنادِهم، ورَجَعوا عن الاعترافِ بالحقِّ إلى الباطلِ، وإلى المكابرةِ والانتصارِ للأصنامِ، فقالوا: أنت تعلمُ أَنَّ هؤلاءِ الأصنامَ لا تنطِقُ، فكيف تأمرُنا بسؤالِهم، ما تريدُ إِلَّا التَّنَصُّلَ مِن جَريمَتِك[1]!

﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ظَهَرت الحُجَّةُ عليهم، أخَذَ يُقَرِّعُهم ويوَبِّخُهم بعبادةِ ما لا ينفَعُ ولا يَضُرُّ، ثمَّ أبدى لهم التضَجُّرَ منهم ومِن مَعبوداتِهم[2].

﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٤).

ممن قال: إنَّ معنى ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: ثمَّ غُلِبوا في الحُجَّةِ، فاحتَجُّوا على إبراهيمَ بما هو حُجَّةٌ له عليهم، وقالوا: كيف تأمُرُنا أن نسألَها وأنت تعلَمُ أنَّها لا تَنطِقُ؟! وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ، ومكي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٧٧٢).

ونحوُ القولِ السابقِ قولُ مَن قال: إنَّ المرادَ: انقلبوا إلى المجادلةِ بعدَ ما استقاموا بالمراجعةِ، فشبَّه عودَهم إلى الباطلِ بصيرورةِ أسفلِ الشيءِ أعلاه. وممن اختار هذا القولَ: البيضاويُّ، وابن جزي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٥).

وقيل: المعنى: أدركَتْهم حَيرةُ سُوءٍ، فأطرقوا برُؤوسِهم في الأرضِ. وممن قال بذلك المعنى في الجملة: الثعلبي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٠).

وممن قال مِن السلفِ أنَّ المعنى أنَّه أدركَتْهم حيرةٌ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٩).

أي: قال إبراهيمُ مُوَبِّخًا لِقَومِه ومُنكِرًا عليهم: أفتَعبُدونَ أصنامًا لا تنفَعُكم شيئًا فتَرجونَها، ولا تَضُرُّكم شيئًا فتَخشَونَها؟ وقد عَلِمتُم أنَّها لم تمنَعْ نَفسَها مِمَّن أرادها بسوءٍ، ولا تقدِرُ أن تنطِقَ إن سُئِلَت عمَّن يأتيها بسوءٍ فتُخبِرَ به، فلمَ تَعبُدونَ ما كان هكذا[1]؟!

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: قُبْحًا لكم ولأصنامِكم، وما أخسَّكم أنتم وما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ[2]!

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: أفليست لكم عُقولٌ تُدرِكونَ بها قُبحَ ما تفعَلونَ مِن عبادتِكم أصنامًا لا تنفَعُ ولا تضُرُّ، ولا تستَحِقُّ العبادةَ؛ فتَتركوا عبادتَها، وتَعبُدوا اللهَ الذي بِيَدِه النَّفعُ والضُّرُّ[3]؟!

﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٤٢، ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧).

قال السمعاني: (معناه: لا ينفعُكم إن عبدتموه، ولا يضرُّكم إن تركتُم عبادتَه). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٩).

قال الشوكاني: (في هذا تحقيرٌ لهم ولمعبوداتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٩٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نَبَّه إبراهيمُ عليه السَّلامُ قَومَه على قَبيحِ مُرتَكَبِهم، وغَلَبَهم بإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، لَاذُوا بالإيذاءِ له، والغَضَبِ لآلهتِهم، واختاروا أشَدَّ العذابِ، وهو الإحراقُ بالنَّارِ[(١)].

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾.

أي: قال المُشرِكونَ: حَرِّقوا إبراهيمَ بالنَّارِ؛ انتِقامًا لأصنامِكم المحطَّمةِ إنْ كنتُم لها ناصرينَ[(٢)].

﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾.

أي: فأوقَدوا له نارًا لِيَحرِقوه، فلمَّا ألقَوا إبراهيمَ فيها قُلْنا لها: يا نارُ، كوني بردًا وسلامًا على إبراهيمَ. فأنجاه اللهُ منها، لم يَنَلْه فيها أذًى، ولا أحسَّ بمكروهٍ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ((﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيمُ عليه السَّلامُ حينَ أُلقِي في النَّارِ، وقالها مُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم حينَ قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٢، ١٦٣).

ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]))[١].

وعن أُمِّ شَرِيكٍ رَضِيَ اللَّهُ عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أمَر بقتلِ الوَزَغِ[٢]، وقال: كان يَنفُخُ[٣] على إبراهيمَ عليه السَّلامُ))[٤].

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾.

أي: وأراد المُشرِكونَ أن يَكيدوا بإبراهيمَ[٥] فخاب سَعيُهم، ولم يحصُلْ لهم مُرادُهم، وجعَلَهم اللهُ هم المغلوبينَ الهالكينَ[٦].

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

(٢) الوَزَغُ: جمعُ الوَزَغةِ: نوعٌ من السَّحالي الصَّغيرةِ، وهي التي يُقالُ لها: سامُّ أبرَصَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٨١)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لأحمد مختار عمر (١/ ١٩٠).

(٣) كان ينفُخُ: أي: النارَ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٣٥٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٥٩).

(٥) قيل: المرادُ بذلك: ما سبَق مِن إلقائِهم له في النَّارِ، حيثُ عزَموا على إحراقِه. وممن قال بذلك: السعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٧)، ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦٣).

وقيل: المراد: أرادوا به مكرًا آخَرَ بعد خروجِه من النار. وممن قال بذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٣).

وقال الشنقيطي: (وجعْلُه تعالى إيَّاهم الأخسرينَ، أي: الذين هم أكثَرُ خُسرانًا؛ لِبُطلانِ كَيدِهم، وسلامتِه مِن نارِهم. وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضًا في سورة «الصافات» في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾، وكونُهم الأسفلينَ واضِحٌ؛ لعُلُوِّه عليهم، وسلامتِه مِن شَرِّهم، وكونُهم الأخسرينَ؛ لأنَّهم خَسِروا الدُّنيا والآخرةَ، ذلك هو الخُسرانُ المبينُ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦٣).

ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٧، ٩٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُلقيَ في النَّارِ، والنَّارُ حارَّةٌ مُهلِكةٌ، فقال اللهُ لها: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، فكانت بَردًا وسلامًا عليه، فلم يَهلِكْ بها، ولم تَضُرَّه، فكانت بردًا وسلامًا على إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وبهذا نَعرِفُ أنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أن يعتَمِدَ على الأسبابِ الحِسِّيَّةِ الظَّاهِرةِ، بل يعتَمِدُ على اللهِ عزَّ وجَلَّ، ويفعَلُ الأسبابَ التي أذِنَ اللهُ تعالى فيها[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى إخبارًا عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ حُجَّةٌ على الجَهميَّةِ والمُعتزِلةِ الذين يَنفُونَ الكلامَ عن اللهِ جَلَّ وعلا، فيَصِفونَه بما وصَفَ به المُشرِكونَ آلهَتَهم، فقد قالوا لإبراهيمَ -كما حكَى الله تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾. أفيَجوزُ أن يكونَ إلهُ إبراهيمَ وآلهَتُهم بصِفةٍ واحدةٍ؛ لا يَنطِقُ ذاك ولا هؤلاء؟! أليس كان عجْزُ آلهتِهم عن الكلامِ نَقصًا فيها، وأحَدَ علاماتِ تحَقُّقِ بطلانِ الإلهيَّةِ عنها؟! فأُرَى هؤلاءِ المبتدعةَ لا يَرَونَ إلَّا أن يَصِفوه بصِفةِ المَواتِ، وهذا هو التَّعطيلُ بعَينِه، نعوذُ باللهِ منه[٢]!!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ أصلٌ في استِعمالِ المعاريضِ[٣]، واحتجَّ العلماءُ بمِثلِه على جوازِ التَّعريضِ للمَظلومِ، وهو أنْ يعنيَ

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٥/ ٥٦٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٩).

بكلامِه ما يحتَمِلُه اللَّفظُ، وإنْ لم يفهَمْه المُخاطَبُ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ في تَجويزِ أنْ يكونَ كَبيرُهم هذا الَّذي حطَّمَهم إخطارُ دليلِ انتفاءِ تعدُّدِ الآلهةِ؛ لأنَّه أوْهَمَهم أنَّ كَبيرَهم غَضِبَ مِن مُشارَكةِ تلك الأصنامِ له في المَعْبوديَّةِ، وذلك تدرُّجٌ إلى دليلِ الوَحدانيَّةِ، فإبراهيمُ في إنكارِه أنْ يكونَ هو الفاعِلَ أراد إلْزامَهم الحُجَّةَ على انتفاءِ أُلوهيَّةِ الصَّنمِ العظيمِ، وانتفاءِ أُلوهيَّةِ الأصنامِ المُحطَّمةِ بطَريقِ الأولَى، على نِيَّةِ أنْ يَكُرَّ على ذلك كلِّه بالإبطالِ، ويُوقِنَهم بأنَّه الَّذي حطَّمَ الأصنامَ، وأنَّها لو كانت آلِهةً لَدفعَتْ عن أنفُسِها، ولو كان كَبيرُهم كَبيرَ الآلهةِ لَدفَعَ عنها[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۞ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لَمَّا غَلَب إبراهيمُ عليه السَّلامُ قومَه بالحُجَّةِ القاهرةِ، لم يجِدوا مَخْلَصًا إلَّا بإهلاكِه، وكذلك المُبطِلُ إذا قَرَعَت باطِلَه حُجَّةُ فَسادِه، غَضِبَ على المحِقِّ، ولم يَبقَ له مَفزَعٌ إلَّا مُناصَبتُه والتشفِّي منه، كما فعل المُشرِكونَ من قريشٍ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين عَجَزوا عن المعارَضةِ[٣]، وقد جرتِ العادةُ بأنَّ المبطلَ إذا أُفْحِم بالدليلِ لجأ إلى ما عندَه مِن القوةِ؛ ليستعملَها ضدَّ الحقِّ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ اختار قَومُ إبراهيمَ أن يكونَ إهلاكُه عليه السَّلامُ بالإحراقِ؛ لأنَّ النَّارَ أهوَلُ ما يُعاقَبُ به وأفظَعُه[٥]،

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٥).

وهي سَبَبٌ للإعدامِ المحضِ، والإتلافِ بالكُلِّيَّةِ[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أمْرُ النَّارِ بأمْرِه الكَونيِّ القَدَريِّ أن تكونَ بَردًا وسَلامًا على إبراهيمَ يدُلُّ على أنَّه أنجاه مِن تلك النَّارِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿كُونِي بَرْدًا﴾ يدُلُّ على سلامتِه مِن حَرِّها، وقَولَه: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ يدُلُّ على سَلامتِه مِن شَرِّ بَردِها الذي انقلَبَت الحرارةُ إليه، وجاء مُصَرَّحًا به في قولِه تعالَى: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[٢] [العنكبوت: ٢٤].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، لما كان المرادُ اختصاصَ إبراهيمَ عليه السلامُ بهذا، قيَّده به[٣]. وعن أبي العاليةِ: (ولو لم يقُلْ: ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لكان بردُها باقيًا إلى الأبدِ)[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوٓاْ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ قولِهم؛ كأنَّه قيلَ: فمَاذا فَعلُوا به عليهِ السَّلامُ بعدَ ذلكَ، هل أتَوا بهِ أو لا؟ فقيلَ: أتَوا به، ثمَّ قالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، اقتصارًا على حِكايةِ مُخاطبَتِهم إيَّاهُ عليه السَّلامُ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إتيانَهم به، ومُسارعتَهم إلى ذلك أمْرٌ مُحقَّقٌ، غَنِيٌّ عن البَيانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٠).

- والاستفهامُ في قولِهم: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ﴾ استفهامُ تقريرٍ، أي: فما الذي جرَّأك، وما الذي أوجَبَ لك الإقدامَ على هذا الأمرِ[(١)]؟

- وقيل: في الآية فَنٌّ طريفٌ يُسمَّى تَجاهُلَ العارِفِ، فهي مِن التَّجاهُلِ المُوجَبِ الجاري مَجرَى التَّقريرِ[(٢)].

٢- قولُه: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ هذا من مَعاريضِ الكلامِ الحَسنةِ، والقولُ فيه أنَّ قَصْدَ إبراهيمَ صَلواتُ اللهِ عليه لم يكُنْ إلى أنْ يَنسِبَ الفِعْلَ الصَّادِرَ عنه إلى الصَّنمِ، وإنَّما قصَدَ تَقريرَهُ لنفْسِه، وإثْباتَه لها على أُسلوبٍ تَعريضيٍّ، يَبلُغُ فيه غرَضَه مِن إلْزامِهم الحُجَّةَ وتَبكيتِهم؛ استهزاءً بهم، وإثباتًا للقادِرِ. أو أنَّ الأصنامَ غاظَتْه حين أبصَرَها مُصْطفَّةً مُرتَّبةً، وكان غَيظُ كَبيرِها أكبَرَ وأشدَّ؛ لِمَا رأى مِن زِيادةِ تَعظيمِهم له، فأسنَدَ الفِعْلَ إليه؛ لأنَّه هو الَّذي تَسبَّبَ لاستهانتِه بها، وحَطمِه لها، والفِعْلُ كما يُسنَدُ إلى مُباشِرِه يُسنَدُ إلى الحامِلِ عليه. ويجوزُ أنْ يكونَ حِكايةً لِمَا يَقودُ إلى تَجويزِه مَذْهبَهم، كأنَّه قال لهم: ما تُنكِرون أنْ يفعَلَهُ كبيرُهم؛ فإنَّ مِن حَقِّ مَن يُعبَدُ ويُدْعى إلهًا أنْ يَقدِرَ على هذا وأشدَّ منه[(٣)].

- وقيل: (بل) في ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ تَقْتضي نَفْيَ ما دَلَّ على كَلامِهم مِن استفهامِه، وقولُه: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ هذا الخبرُ مُسْتعمَلٌ في معنى التَّشكيكِ، أي: لعلَّه فعَلَه كَبيرُهم؛ إذ لم يَقصِدْ إبراهيمُ نِسْبةَ التَّحطيمِ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٧٥).

الصَّنمِ الأكبرِ؛ لأنَّه لم يَدَّعِ أنَّه شاهَدَ ذلك، ولكنَّه جاء بكلامٍ يُفِيدُ ظَنَّه بذلك، حيث لم يَبْقَ صَحيحًا مِن الأصنامِ إلَّا الكبيرُ(١).

- قولُه: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ تَعريضٌ؛ أراد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يُبيِّنَ لهم أنَّ مَن لا يَتكلَّمُ ولا يَعلَمُ ليس بمُستحِقٍّ للعِبادةِ، ولا يَصِحُّ في العَقْلِ أنْ يُطلَقَ عليه أنَّه إلَهٌ، فأخرَجَ الكلامَ مُخرَجَ التَّعريضِ لهم بما يُوقِعُهم في الاعترافِ بأنَّ الجَماداتِ الَّتي عبَدُوها ليست بآلهةٍ؛ لأنَّهم إذا قالوا: لا يَنطِقون، قال لهم: فكيف تَعبُدون مَن يَعجِزُ عن النُّطقِ، ويَقصُرُ عن أنْ يَعلَمَ بما يقَعُ عنده في المكانِ الَّذي هو فيه؟! فهذا الكلامُ مِن فَرْضِ الباطلِ مع الخَصمِ حتَّى تَلْزمَه الحُجَّةُ، ويَعترِفَ بالحقِّ؛ فإنَّ ذلك أقطَعُ لشُبهتِه، وأدفَعُ لمكابرتِه(٢).

- ولم يقُلْ عليه السَّلامُ: (إنْ كانوا يَسْمعون)، أو (يَعقِلون)، مع أنَّ السُّؤالَ مَوقوفٌ على السَّمعِ والعقْلِ أيضًا؛ لأنَّ نَتيجةَ السُّؤالِ هو الجوابُ، وعدَمَ نُطْقِهم أظهَرُ، وتَبكيتَهم بذلك أدخَلُ(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

- جُملةُ: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مُفيدةٌ للحصرِ، أي: أنتم ظالِمونَ لا إبراهيمُ(٤).

٤- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ تَمثيلٌ لِتَغيُّرِ رأْيِهم عن الصَّوابِ، كما قالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إلى مُعاودَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٠، ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٣).

الضَّلالِ بهَيئةِ مَن تغيَّرَت أحوالُهم من الانتصابِ على الأرجُلِ إلى الانتصابِ على الرُّؤوسِ مَنكوسينَ؛ فهو مِن تَمثيلِ المعقولِ بالمحسوسِ، والمقصودُ به التَّشنيعُ، وحَرْفُ (على) للاستعلاءِ، أي: عَلَتْ أجسادُهم فوقَ رُؤوسِهم. ويحتمِلُ أنْ يكونَ ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ كِنايةً عن تَطَأْطُؤِ رُؤوسِهم وتَنكيسِها إلى الأرضِ على سَبيلِ الخجَلِ والانكسارِ[١].

- قولُه: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ جَوابُ قسَمٍ مَحذوفٍ، معمولٌ لقولٍ مَحذوفٍ في مَوضعِ الحالِ، أي: قائلينَ: لقد علِمْتَ ما هؤلاء يَنطِقون[٢].

- جُملةُ: ﴿مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ تُفيدُ تَقوِّي الاتِّصافِ بانعدامِ النُّطقِ، وذلك بسبَبِ انعدامِ آلَتِهِ، وهي الألْسُنُ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾ فيه تَبكيتٌ لهم[٤]. والهمزةُ في قولِه: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ للاستفهامِ الإنكاريِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٣، ١٠٤).
لكن قال الشوكاني: (وهو ضعيفٌ، لأنَّه لم يَقُلْ: نكَسوا رؤوسَهم بفتحِ الكافِ، وإسنادِ الفعلِ إليهم، حتَّى يَصِحَّ هذا التفسيرُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٩). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٣٥).

٦- قوله تعالى: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

- التَّنوينُ في ﴿أُفٍّ﴾ يُسمَّى تَنوينَ التَّنكيرِ، والمُرادُ به التَّعظيمُ[١].

- وقولُه: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ في مَوضِعِ الإضمارِ؛ لمَزيدِ استقباحِ ما فَعَلوا[٢].

- وقولُه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفهامُ تَوبيخٍ وإنكارٍ[٣].

٧- قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ التَّحريقُ مُبالَغةٌ في الحَرْقِ، أي: حَرْقًا مُتلِفًا. وأسنَدَ قولَ الأمْرِ بإحراقِه إلى جَميعِهم؛ لأنَّهم قَبِلوا هذا القولَ[٤].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ فيه: تَحريضٌ وتَلهيبٌ لِحَميَّتِهم[٥].

٨- قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾

- جاءت جُملةُ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ مَفصولةً عمَّا قبْلَها؛ إمَّا لأنَّها وقعَتْ كالجوابِ عن قولِهم: ﴿حَرِّقُوهُ﴾، فأشبَهَتْ جُمَلَ المُحاوَرةِ، وإمَّا لأنَّها استئنافٌ عن سُؤالٍ يَنشَأُ عن قِصَّةِ التَّآمُرِ على الإحراقِ، وبذلك يَتعيَّنُ تَقديرُ جُملةٍ أُخرى، أي: فألْقَوه في النَّارِ، ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٠٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ذِكْرُ (سَلَامًا) بعْدَ ذِكْرِ البرْدِ كالاحتراسِ؛ لأنَّ البرْدَ مُؤْذٍ بدوامِهِ ربَّما إذا اشتَدَّ، فعَقَّبَ ذِكْرَه بذِكْرِ السَّلامِ لذلك. وإنَّما ذكَرَ ﴿بَرۡدٗا﴾، ثمَّ أتبَعَ بـ (سَلَامًا) ولم يَقتصِرْ على ﴿بَرۡدٗا﴾؛ لإظهارِ عَجيبِ صُنْعِ القُدرةِ؛ إذ صيَّرَ النَّارَ بَرْدًا[1].

- وقولُه: ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ فيه وضْعُ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ، حيث لم يقُلْ: (عليه)؛ كَرامةً لهذا المُسمَّى[2].

٩- قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا ...﴾ تَذييلٌ لِمَا سبَقَهُ[3].

- وتَعريفُ جُزأيِ الجُملةِ في قولِه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ يُفِيدُ القصْرَ، وهو قَصْرٌ للمُبالَغةِ؛ كأنَّ خَسارتَهم لا تُدانِيها خَسارةٌ، وكأنَّهم انفرَدوا بوَصْفِ الأخسرينَ؛ فلا يصدُقُ هذا الوصْفُ على غَيرِهم[4].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾، وقال في سُورةِ (الصَّافاتِ): ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨]، فجاء في مَوضِعٍ: ﴿ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾، وفي مَوضِعٍ: ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾؛ ووجْهُه: أنَّ في سُورةِ (الأنبياءِ) أخبَرَ فيها اللهُ تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧]، ثمَّ أخبَرَ عنِ الكُفَّارِ لَمَّا ألْقَوهُ في النَّارِ وأرادوا به كَيدًا ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾، والكيدُ: سَعْيٌ في مَضرَّةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٧).

لِتُوردَ على غَفلةٍ، فذكَرَ مُكايدةً بينهم وبينَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فكادَهُم ولم يَكِيدُوه، فخسِرَتْ تجارَتُهم، وعادت عليهم مُكايدَتُهم؛ لأنَّه كسَرَ أصنامَهم، ولم يَبْلُغوا مِن إحْراقِه مُرادَهم، فذَكَر ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾؛ لأنَّهم خَسِروا فيما عامَلَهم به وعامَلوهُ مِن المُكايَدةِ الَّتي أُضِيفَت إليهما. وأمَّا الآيةُ الَّتي في سُورةِ (الصَّافاتِ): فإنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ عن الكُفَّارِ فيها بما اقْتَضى مِن ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾؛ وهو أنَّه قال: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧]، فبَنَوا له بِناءً عاليًا، ورَفَعوهُ فوقَه ليَرْمُوا به مِن هناك إلى النَّارِ الَّتي أجَّجُوها، فلمَّا عَلَّوا ذلك البِناءَ وحَطُّوه منه إلى أسفَلَ، عادوا هم الأسفلينَ؛ لأنَّهم أُهْلِكوا في الدُّنيا، وسَفُلَ أمْرُهم في الأُخرى، واللهُ تعالى نجَّى نَبِيَّه عليه السَّلامُ، وأعلاهُ عليهم؛ فلذلك اخْتُصَّتْ هذه الآيةُ بقولِه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾[1] [الصافات: ٩٨].

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّ اللهَ تعالَى قد جعَلَ في الخُسرانِ المُبينِ مَن خَسِرَ الدُّنيا والآخرةَ، وأعْلَمَنا تعالى أنَّ الأخسرينَ لا يُقامُ لهم وَزْنٌ في القيامةِ؛ فلا أَدْوَنَ حالًا مِن هؤلاء. ولمَّا أراد قومُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ به الكيدَ، أَلْحَقَهم تعالى بهؤلاءِ عُقوبةً تُوافِقُ مُرتكَبَهم وسُوءَ انتحالِهم، والأخسرونَ هم الأسفلونَ، وهذا كان مَطلَبَ الكافرِ في الآخرةِ وتَمنِّيه لو بلَغَهُ إلْحاقَ مَن أضَلَّهُ مِن الجنِّ والإنسِ بهذا النَّمطِ؛ فالصِّفتانِ مِن الخُسرانِ والسَّفالةِ غايةُ حالةِ الكافرِ، ومَن كان مِن الأسفلينَ فقد خسِرَ خُسرانًا مُبينًا، فلا تضادَّ بين الصِّفتينِ سِوى أنَّ السُّفولَ لَاحِقٌ في ذاتِ المُسفلِ، والخُسرانَ حقيقةٌ في خارِجٍ عنه، فالسُّفولُ أبلَغُ، فَقُدِّمَ ما هو

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٠٥، ٩٠٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٨، ١٧٩)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٥٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٧٦).

لاحِقٌ خارجيٌّ، وأُخِّرَ ما لا يَتعدَّى ذاتَ المُتَّصفِ تَكمِلةً وتَتمَّةً؛ إذ هو أبلَغُ على ما يجِبُ وعلى ما قدَّمنا مِن رَعْيِ التَّرتيبِ، والتَّسفُّلُ (ضِدُّ) التَّعالي؛ فورَدَ كلٌّ على ما يجِبُ ويُناسِبُ[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٤٩،٣٥٠).

الآيات (٧١-٧٥)

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَافِلَةً﴾: أي: زيادةً وفَضلًا، وأصلُ (نفل): يدُلُّ على عَطاءٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: ونجَّينا إبراهيمَ ولوطًا وأخرَجْناهما إلى الأرضِ التي بارَكْنا فيها للعالَمينَ، ووهَبْنا لإبراهيمَ ابنَه إسحاقَ وحفيدَه يَعقوبَ زِيادةً على ذلك، وكلٌّ مِن إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ جعَلَه اللهُ صالحًا مُطيعًا له، وجعَلْنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ قُدوةً للنَّاسِ يَدْعونَهم بأمْرِنا إلى عِبادة اللهِ وطاعتِه، وأوحَينا إليهم فِعْلَ الخيراتِ مِن العَمَلِ، وإقامَ الصَّلاةِ، وإيتاءَ الزَّكاةِ، فامتَثَلوا لذلك، وكانوا مُنقادينَ مُطيعينَ لله وَحْدَه دون مَن سِواه.

وآتَينا لُوطًا النبُوَّةَ وفَصْلَ القَضاءِ بين الخُصومِ، وعِلمًا عَظيمًا بأمرِ اللهِ ودينِه، ونجَّيناه مِن أهلِ القَريةِ الذين كانوا يعملونَ الخبائثَ؛ إنَّهم كانوا أهلَ سَوءٍ وقُبحٍ، خارجينَ عن طاعةِ الله. وأدخَلْناه في رحمتِنا بإنجائِه ممَّا حلَّ بقَومِه، وبإدخالِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

الجنَّةَ في الآخِرةِ؛ لأنَّه كان من الطَّائعين الذين يَعمَلونَ بطاعةِ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

أي: ونجَّينا إبراهيمَ ولوطًا مِن أعدائِهما الكافِرينَ، فأخرَجْناهما إلى الأرضِ التي بارَكْنا فيها للعالَمينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى بعد ذِكرِه لإنعامِه على إبراهيمَ وعلى لوطٍ عليهما السَّلامُ بأن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٤٧، ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٨).

قال ابن جرير: (لا خِلافَ بين جميع أهل العِلمِ أنَّ هِجرةَ إبراهيمَ مِن العراقِ كانت إلى الشام، وبها كان مُقامُه أيام حياتِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٥).

ونسب الشنقيطي القول بأنها أرض الشام إلى الجمهور. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦٥).

وقيل: المراد بقوله: ﴿ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾: بيت المقدس. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥).

قال ابن عاشور: (والأرض: هي أرضُ فلسطين). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٨). وذكر ابنُ كثيرٍ أنَّ المرادَ: الأرضُ المقدسةُ مِن بلادِ الشامِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٣).

وقال القرطبي: (وقيل لها: مُباركةٌ؛ لكثرةِ خِصبِها وثمارِها وأنهارِها، ولأنَّها معادِنُ الأنبياءِ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٥).

وقال ابن عاشور: (وصَفَها الله بأنَّه باركها للعالَمينَ، أي: للنَّاسِ، يعني الساكنينَ بها؛ لأنَّ الله خلقها أرضَ خِصبٍ ورخاءِ عَيشٍ، وأرضَ أمنٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٨).

نجَّاهما إلى الأرضِ المباركةِ؛ أتبَعَه بذِكرِ غَيرِه مِن النِّعَمِ[١].

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾.

أي: وأعْطَينا إبراهيمَ ابنَه إسحاقَ، وأعْطَيناه حَفيدَه يَعقوبَ بنَ إسحاقَ زيادةً، وفَضلًا منَّا[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٥، ٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٥، ١٦٦).

وممن قال بأنَّ المرادَ بالنافلةِ: يعقوبُ عليه السلامُ: مقاتل بن سليمان، والزجاج، والسمرقندي، والواحدي، والسمعاني، والقرطبي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيم، واختاره النيسابوري، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣١٢)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٩١).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ أي: زيادةً؛ لأنَّه دعا في إسحاقَ، وزِيدَ يَعقوبَ مِن غَيرِ دعاءٍ، فكان ذلك نافِلةً، أي: زيادةً على ما سأل؛ إذ قال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٠]. ويُقالُ لوَلَدِ الوَلَدِ نافِلةٌ؛ لأنَّه زيادةٌ على الوَلَدِ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، وقتادةُ، وابنُ زيد، والحكمُ بنُ عُتَيْبَةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٣).

وممَّن قال بأنَّ كُلًّا من إسحاقَ ويَعقوبَ كان نافلةً لإبراهيمَ: ابن عطية -وهو الظاهرُ مِن اختيارِه-، والرازي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٨، ١٠٩).

قال الرازي: (لأنَّه تعالَى جَمَع بينَهما، ثُمَّ ذَكَر قولَه: ﴿نَافِلَةً ﴾، فإذا صَلُحَ أنْ يكونَ وصفًا لهما فهو أولَى). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٠).

وقال ابن عاشور: (النافلةُ: الزيادةُ غيرُ الموعودةِ؛ فإنَّ إبراهيمَ سأل ربَّه، فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٠]، أراد الوَلَدَ، فوُلِدَ له إسماعيلُ، ثمَّ وُلِدَ له إسحاقُ عن غيرِ =

كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٩].

﴿وَكُلًّا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴾.

أي: وكُلًّا من إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ جعَلْنا طائِعينَ لله، مُجتَنِبينَ محارِمَ اللهِ[1].

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ الله تعالى أنَّه أعطاهم رُتبةَ الصَّلاحِ في أنفُسِهم؛ ذكَرَ أنَّه أعطاهم

= مسألةٍ،كما في سورةِ «هودٍ»، فكان نافلةً، ووُلِدَ لإسحاقَ يعقوبُ، فكان أيضًا نافِلةً). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٨، ١٠٩).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: عطاءٌ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠١).

قال ابن جرير: (النافلةُ: الفَضلُ مِن الشَّيءِ يَصيرُ إلى الرجُلِ مِن أيِّ شَيءٍ كان ذلك، وكِلَا ولَدَيه إسحاقَ ويعقوبَ كان فضلًا من اللهِ، تفَضَّلَ به على إبراهيمَ، وهِبَةً منه له. وجائزٌ أن يكون عنى به أنَّه آتاهما إيَّاه جميعًا نافلةً منه له، وأن يكونَ عنى أنَّه آتاه نافلةً يَعقوبَ، ولا بُرهانَ يدُلُّ على أيِّ ذلك المرادُ مِن الكلامِ، فلا شيءَ أَولى أن يقالُ في ذلك مِمَّا قال الله: ووَهَبَ اللهُ لإبراهيمَ إسحاقَ ويَعقوبَ نافِلةً). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٧).

وقال الشنقيطي: (قَولُه: ﴿نَافِلَةٗ ﴾ فيه وجهانِ مِن الإعرابِ، فعلى قَولِ مَن قال: النَّافِلةُ: العَطِيَّةُ، فهو ما ناب عن المُطلَقِ مِن «وَهَبْنَا» أي: وهَبْنا له إسحاقَ ويَعقوبَ هِبةً. وعليه النَّافِلةُ: مَصدَرٌ جاء بصيغةِ اسمِ الفاعِلِ، كالعاقِبةِ والعافيةِ. وعلى أنَّ النافلةَ بمعنى الزِّيادةِ، فهو حالٌ مِن «يَعْقُوبَ» أي: وهبنا له يَعقوبَ في حالِ كَونِه زيادةً على إسحاقَ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٩).

رُتبةَ الإصلاحِ لِغَيرِهم، فقال مُعَظِّمًا لإمامتِهم[١]:

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾.

أي: وجعَلْنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ أئمَّةً يَقتَدي بهم النَّاسُ في طاعةِ اللهِ، ويَدْعونَ النَّاسَ بأمْرِنا[٢] إلى عبادةِ اللهِ، واتِّباعِ أمْرِه، واجتنابِ نَهْيِه[٣].

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾.

أي: وأوحَينا إلى إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ أن يفعَلوا هم وقَومُهم الطَّاعاتِ، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتُوا الزَّكاةَ[٤].

﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾.

أي: وكانوا لنا طائِعينَ بإخلاصٍ وذُلٍّ وخُضوعٍ وخُشوعٍ، يَفعَلونَ ما يأمُرونَ النَّاسَ به، ويجتَنِبونَ ما يَنهونَهم عنه[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٤٩).

(٢) قوله: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ قيل: معناه: بأمرِ الله إيَّاهم بذلك. وممن اختاره: ابنُ جرير، والرسعني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٧)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٤١).

وقيل: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي: بإذنِنا. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جُزي، وابنُ كثير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٠٥).

وقيل: معنى ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي: بما أنزَلْنا عليهم مِن الوحيِ. وممن قال بذلك: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٩١).

قال القرطبي: (ومعنى ﴿بِأَمْرِنَا﴾: أي: بما أنْزَلْنا عليهم مِن الوحيِ والأمرِ والنَّهيِ، فكأنَّه قال: يَهْدونَ بكتابِنا). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٠، ١١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) =

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله سُبحانَه بعد بيانِ ما أنعَمَ به على إبراهيمَ عليه السَّلامُ، أتبَعَه بذِكرِ نِعَمِه على لوطٍ عليه السَّلامُ لَمَّا جمَعَ بينَهما مِن قَبلُ(١).

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾.

أي: وآتَينا لوطًا النُبُوَّةَ، وآتيناه عِلمًا عَظيمًا في شريعتِه، وفَهمًا ومعرفةً بأمرِ دينِه، وما يقَعُ به الحُكمُ بين الخُصومِ(٢).

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾.

= (ص: ٥٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٢)، ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦٨).

ممن اختار أنَّ المرادَ بالحكمِ النبوةُ: السمرقندي، وابنُ أبي زمنين، والرسعني، والقرطبي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٨).

وممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿حُكْمًا﴾ أي: فصلَ القضاءِ بينَ الخصومِ: ابن جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن عطية، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٢٧).

قال القرطبي: (العلمُ: المعرفةُ بأمرِ الدِّينِ، وما يقعُ به الحكمُ بينَ الخصومِ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٦).

أي: ونجَّينا لوطًا مِن أهلِ القَريةِ[١] الذين كانوا يفعَلونَ الأفعالَ الشَّنيعةَ القبيحةَ؛ كالكُفرِ، وإتيانِ الذُّكورِ، وغيرِ ذلك، فأخرَجْناه منها، ولم يُصِبْه ما أصابَهم مِن العذابِ والهلاكِ[٢].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ﴾.

أي: وذلك لأنَّهم كانوا أصحابَ عملٍ سَيِّئٍ، خارجينَ عن طاعةِ الله[٣].

﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾.

أي: وأدخَلْنا لوطًا في رَحمَتِنا بإنجائِنا له مِن عذابِ قَومِه في الدُّنيا، وبإدخالِه

---

(١) قال الرازي: (قوله: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ المرادُ: أهلُ القريةِ؛ لأنَّهم هم الذين يعمَلونَ الخبائِثَ دونَ نَفْسِ القريةِ، ولأنَّ الهلاكَ بهم نزَل، فنجَّاه الله تعالى مِن ذلك). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٨).

قال الشنقيطي: (والخبائثُ التي كانت تعملُها جاءت موضَّحةً في آياتٍ مِن كتاب الله: منها: اللِّواطُ، وأنَّهم هم أوَّلُ مَن فعلَه مِن الناسِ، كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]. ومن الخبائث المذكورةِ: إتيانُهم المنكَرَ في ناديهم، وقَطْعُهم الطريقَ، كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. ومن أعظم خبائِثِهم: تكذيبُ نبيِّ الله لوطٍ، وتهديدُهم له بالإخراجِ مِن الوطَنِ، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٩).

الجنَّةَ في الآخِرةِ[١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((احتَجَّت النَّارُ والجَنَّةُ، فقالت هذه: يَدخُلُني الجبَّارونَ والمتكَبِّرون، وقالت هذه: يدخُلُني الضُّعَفاءُ والمساكينُ. فقال اللهُ عَزَّ وجَلَّ لهذه: أنتِ عذابي أعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ -وربما قال: أصيبُ بكِ مَن أشاءُ، وقال لهذه: أنتِ رحمتي أرحَمُ بكِ من أشاءُ، ولكُلِّ واحدةٍ منكما مِلؤُها))[٢].

﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: أدخَلْناه في رَحمتِنا؛ لأنَّه من الأنبياءِ الطَّائعينَ لله، العامِلينَ بوَحيِ اللهِ، المُستَقيمينَ على أمرِ اللهِ ونَهْيِه[٣].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ هذا مِن أكبَرِ نِعَمِ اللهِ على عَبدِه؛ أن يكونَ إمامًا يَهتدي به المُهتَدونَ، ويمشي خَلفَه السَّالِكونَ، وذلك لَمَّا صَبَروا وكانوا بآياتِ الله يُوقِنونَ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ فيه أنَّ مَن صلَحَ لِيَكونَ قُدوةً في دينِ اللهِ، فالهدايةُ مَحتومةٌ عليه، مأمورٌ هو بها مِن جهةِ الله، ليس له أن يُخِلَّ بها، ويتثاقَلَ عنها، وأوَّلُ ذلك أن يهتديَ بنَفْسِه؛ لأنَّ الانتِفاعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٩).

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

بهُداهُ أعَمُّ، والنُّفوسَ إلى الاقتداءِ بالمَهْدِيِّ أمْيَلُ[١]، وهذا الهَدْيُ هو تزكيةُ نُفوسِ النَّاسِ، وإصلاحُها، وبثُّ الإيمانِ، ويشمَلُ هذا شؤونَ الإيمانِ وشُعَبَه وآدابَه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا﴾ جمَع بينَ إبراهيمَ ولوطٍ عليهما السَّلامُ؛ لأنَّ في كونِ لوطٍ معه -مع ما كان بيْنَهما مِن القَرابةِ والشَّرِكةِ في النُبُوَّةِ- مَزيدَ إنعامٍ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ دَليلٌ على أنَّ الفِرارَ بالدِّينِ مِن دارِ الكُفرِ إلى بلَدٍ يتمَكَّنُ فيه الفارُّ بدينِه مِن إقامةِ دينِه- واجِبٌ، وهذا النَّوعُ من الهِجرةِ وُجوبُه باقٍ بلا خلافٍ بين العُلَماءِ في ذلك[٤].

٣- دلَّ القرآنُ العَظيمُ على بَركةِ الشَّامِ في خمسِ آياتٍ: قَولُه: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، وقَولُه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، والله تعالى إنَّما أورثَ بني إسرائيلَ أرضَ الشَّامِ. وقولُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، وقَولُه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، وقَولُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٥).

تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً﴾ [سبأ: ١٨] الآيةَ، فهذه خَمسُ آياتٍ نُصوصٌ(١).

٤- في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ دلالةٌ على أنَّ أفعالَ العبادِ حادثةٌ بمشيئةِ الله وقُدْرَتِه وخَلْقِه(٢).

٥- قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ هذه القِصَّةُ التي قَصَّ اللهُ مِن نَبَأِ إبراهيمَ وقَومِه: تَذكيرٌ منه بها قَومَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قُرَيشٍ أنَّهم قد سَلَكوا في عبادتِهم الأوثانَ، وأذاهم مُحمَّدًا على نَهْيِه عن عبادتِها، ودُعائِهم إلى عبادةِ اللهِ مُخلِصينَ له الدِّينَ- مَسْلَكَ أعداءِ أبيهم إبراهيمَ ومخالفَتِهم دينَه؛ وأنَّ مُحَمَّدًا في براءتِه مِن عبادتِها، وإخلاصِه العبادةَ لله، وفي دُعائِهم إلى البَراءةِ مِن الأصنامِ، وفي الصَّبرِ على ما يَلقَى منهم في ذلك- سالِكٌ مِنهاجَ أبيه إبراهيمَ، وأنَّه مُخرِجُه مِن بينِ أظهُرِهم كما أخرجَ إبراهيمَ مِن بينَ أظهُرِ قَومِه -حين تمادَوا في غَيِّهم- إلى مُهاجَرِه مِن أرضِ الشَّامِ؛ ومُسَلٍّ بذلك نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا يَلقَى مِن قَومِه مِن المكروهِ والأذى، ومُعْلِمُه أنَّه مُنَجِّيه منهم، كما نجَّى أباه إبراهيمَ مِن كَفَرةِ قَومِه(٣).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ﴾ في تسميةِ العملِ بالخبائثِ دليلٌ على أنَّ الأنجاسَ قد تكونُ فعلًا، وتكونُ ذاتيَّةً(٤).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٠، ٣١١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣١٠).

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الصَّلاحُ هو السَّبَبُ لدُخولِ العَبدِ برَحمةِ الله، كما أنَّ الفَسادَ سَبَبٌ لحرمانِه الرَّحمةَ والخَيرَ، وأعظَمُ النَّاسِ صَلاحًا الأنبياءُ عليهم السَّلامُ؛ ولهذا يَصِفُهم بالصَّلاحِ، وقال سليمانُ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1] [النمل: ١٩].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ ضُمِّن الفعلُ (نجَّيْناه) معنى (أخْرَجْناه) بنجاتِنا إلى الأرضِ؛ ولذلك تعدَّى (نجَّيناه) بـ (إلى). ويَحتمِلُ أن يكونَ (إلى) متعلقًا بمحذوفٍ، أي: منتهيًا إلى الأرضِ؛ فيكونَ في موضِعِ الحالِ، ولا تضمينَ في ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ على هذا[2].

٢- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾

- إعادةُ فِعْلِ (جعَلَ) في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (وأئمَّةً يَهْدون)، بعطْفِ ﴿أَئِمَّةٗ﴾ على ﴿صَٰلِحِينَ﴾؛ اهتمامًا بهذا الجَعْلِ الشَّريفِ، وهو جَعْلُهم هادينَ للنَّاسِ بعْدَ أنْ جعَلَهم صالحينَ في أنفُسِهم؛ فأُعِيدَ الفِعلُ ليكونَ له مَزيدُ استقرارٍ، ولأنَّ في إعادةِ الفِعْلِ إعادةَ ذِكْرِ المفعولِ الأوَّلِ، وفي تلك الإعادةِ مِن الاعتناءِ ما في الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ كما يَظهَرُ بالتأمُّلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٩).

- قولُه: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ مِن عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ دَلالةٌ على فَضْلِهما وإنافَتِهما، وتَنويهٌ بشأْنِهما؛ لأنَّ بالصَّلاةِ صَلاحَ النَّفْسِ؛ إذ الصَّلاةُ تَنْهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، وبالزَّكاةِ صَلاحَ المُجتمَعِ لكِفايةِ عَوَزِ المُعْوِزينَ[(١)]؛ ولأنَّ مَن كَمَّلَهما كما أُمِرَ، كان قائِمًا بدِينِه، ومَن ضَيَّعَهما كان لِمَا سِواهما أضْيَعَ، ولأنَّ الصَّلاةَ أفضَلُ الأعمالِ التي فيها حَقُّه، والزَّكاةَ أفضَلُ الأعمالِ التي فيها الإحسانُ لخَلقِه[(٢)].

- وحسُنَ هنا قولُه: ﴿وَإِقَامَ﴾ بغيرِ تاءٍ، دونَ قولِه: (وإقامة): أنَّه قابَلَ ﴿وَإِيتَآءَ﴾ وهو بغَيرِ تاءٍ؛ فتقَعُ المُوازَنةُ بين قولِه: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[(٣)].

- قولُه: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ خصَّهم بذِكْرِ ما كانوا مُتميِّزينَ به على بَقيَّةِ النَّاسِ مِن مُلازَمةِ العِبادةِ للهِ تعالى، كما دَلَّ عليه فِعْلُ الكونِ (كَانُوا) المُفيدُ تَمكُّنَ الوصْفِ، ودلَّتْ عليه الإشارةُ بتَقديمِ المجرورِ ﴿لَنَا﴾ إلى أنَّهم أفْرَدوا اللهَ بالعِبادةِ؛ فلم يَعْبُدوا غيرَه قطُّ[(٤)].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٥١]؛ ولأجْلِ البُعْدِ أُعِيدَ فِعْلُ الإيتاءِ؛ ليَظهَرَ عَطْفُه على ﴿ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٥١]، ولم يُعَدْ في قِصَّةِ نُوحٍ عَقِبَ هذه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٦).

وأُعْقِبَت قِصَّةُ إبراهيمَ بقِصَّةِ لُوطٍ للمُناسَبةِ، وخُصَّ لُوطٌ بالذِّكْرِ مِن بين الرُّسلِ؛ لأنَّ أحوالَهُ تابعةٌ لأحوالِ إبراهيمَ في مُقاوَمةِ أهْلِ الشِّرْكِ والفسادِ(١).

- وفي قولِه: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قَدَّمَ مفعولَ (آتَيْنا) وهو (لُوطًا) اهْتمامًا به؛ لِيُنبِّهَ على أنَّه مَحَلُّ العِنايةِ؛ إذ كان قد تأخَّرَ ذِكْرُ قِصَّتِه بعْدَ أنْ جَرَى ذِكْرُه تبَعًا لذِكْرِ إبراهيمَ؛ تَنبيهًا على أنَّه بُعِثَ بشَريعةٍ خاصَّةٍ، وإلى قومٍ غيرِ القومِ الَّذين بُعِث إليهم إبراهيمُ، وإلى أنَّه كان في مواطنَ غيرِ المواطِنِ الَّتي حَلَّ فيها إبراهيمُ(٢).

- قولُه: ﴿وَعِلْمًا﴾ التَّنوينُ فيه للتَّعظيمِ؛ لأنَّه في سِياقِ الامتنانِ(٣).

- في قولِه: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ عبَّرَ عنها بالواحدةِ، بالرَّغمِ مِن أنَّ قُراهم كانت سَبْعًا؛ لاتِّفاقِ أهْلِها على الفاحشةِ(٤). وقيل: أفرَدها؛ تنبيهًا على عمومِها بالقلعِ والقلبِ، وأنَّه كان في غايةِ السهولةِ والسرعةِ(٥).

- وإنَّما لم يَذكُرْ ما عليه قومُ لُوطٍ مِن الشِّركِ؛ استغناءً بذِكْرِ الفواحشِ الفظيعةِ الَّتي كانت لهم سُنَّةً؛ فإنَّها أثَرٌ مِن الشِّرْكِ(٦).

- قولُه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ تَعليلٌ لِمَا قبْلَه(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١١، ١١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٥٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٨).

الآيتان (٧٦-٧٧)

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْكَرْبِ﴾: أي: الغمِّ الشَّديدِ، وما حَلَّ بالمكذِّبينَ من الطُّوفانِ والغَرَقِ، وأصلُ (كرب): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: واذكُرْ -يا محمَّدُ- نوحًا حين نادى ربَّه مِن قَبلِ إبراهيمَ ولُوطٍ أن يَنصُرَه اللهُ على قَومِه، فاستجَبْنا له دُعاءَه، فنجَّيناه وأهلَه المؤمنينَ به مِن الغَمِّ الشَّديدِ، ونَصَرْناه مِن القَومِ الذين كذَّبوا بآياتِنا الدَّالَّةِ على صِدقِه، إنَّهم كانوا قومًا يُسيئُونَ بالشِّركِ، وتَكذيبِ الرَّسولِ، فأغرَقْناهم بالطُّوفانِ أجمعينَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى قِصَّةَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وهو أبو العَرَبِ، وتَنجِيَتَه مِن أعدائِه؛ ذكَرَ قِصَّةَ أبي العالَمِ الإنسيِّ كُلِّهم، وهو الأبُ الثَّاني بعدَ آدَمَ؛ لأنَّه ليس

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٦/ ٣١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٦).

أَحَدٌ إلَّا مِن نَسْلِه؛ مِن سام وحام ويافِث[١].

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- نوحًا حينَ دعا رَبَّه -مِن قَبلِ إبراهيمَ ولوطٍ- أن يَنصُرَه اللهُ على قَومِه الكافرينَ، وأن يُهلِكَهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧- ١١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾.

أي: فاستجَبْنا لنوحٍ دُعاءَه، فأغرَقْنا قَومَه الكافرينَ، ونجَّيناه معَ أهلِه المؤمِنينَ مِن الغَمِّ الشَّديدِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧).

قيل: المرادُ بالكربِ العظيمِ: الطوفانُ الذي أغرقَ قومَ نوحٍ. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٣).

وممن قال بنحو هذا القولِ مِن السلفِ: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٠).

قال ابن عاشور: (الكَربُ العَظيمُ: هو الطوفانُ. والكربُ: شِدَّةُ حُزنِ النَّفسِ بسَبَبِ خَوفٍ أو =

﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

أي: ونجَّينا نوحًا وحمَيناه مِن قَومِه الذين كذَّبوا بحُجَجِنا الدَّالَّةِ على رِسالتِه[١]، فلا ينالونَه بسوءٍ[٢].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: نصَرْنا نوحًا، وأهلَكْنا قَومَه؛ لأنَّهم كانوا قومًا يُسيئُونَ أعمالَهم بالشِّركِ والكُفرِ، وتَكذيبِ الرَّسولِ، ومَعصيةِ اللهِ، فأغرَقْناهم كُلَّهم؛ كبيرَهم وصَغيرَهم[٣].

= حُزنٍ. ووجهُ كَونِ الطوفانِ كَربًا عَظيمًا: أنَّه يَهولُ النَّاسَ عندَ ابتدائِه وعندَ مَدِّه، ولا يزال لاحِقًا بمواقِعِ هُروبِهم حتى يَعُمَّهم، فيَبقَوا زمنًا يذوقونَ آلامَ الخَوفِ فالغَرقِ، وهم يَغرَقونَ ويَطفُونَ حتى يموتوا بانحباسِ التنَفُّسِ، وفي ذلك كُلِّه كَربٌ مُتكَرِّرٌ؛ فلذلك وُصِفَ بالعَظيمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٣).

وقيل معنى قوله: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: مِن الشدَّةِ والتكذيبِ والأذَى. وممن قال بذلك: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٤).

وممَّن جمع بين القولين: الزمخشريُّ، والرسعني، والعليمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٤٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٧٥).

وممن قال مِن السلفِ: إن المرادُ بالكربِ العظيمِ: الغرقُ وتكذيبُ قومِه: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٢٧).

وقال مقاتلُ بنُ سليمان: (﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يعني: كذَّبوا بنزولِ العذابِ عليهم في الدُّنيا). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٤).

كما قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الذاريات: ٤٦].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أنَّ النَّجاةَ مِن الشَّرِّ لا تستلزمُ حصولَه! بل تستلزمُ انعقادَ سببِه، فمَن طلَبه أعداؤُه ليُهلِكوه ولم يتمكَّنوا منه؛ يُقالُ فيه: «نجَّاه الله منهم»؛ ومعلومٌ أنَّ نوحًا لم يغرَقْ ثمَّ خُلِّص! بل نُجِّي مِن الغرقِ الذي أهلَك الله به غيرَه[١].

٢- مِن الأدلةِ على وجودِ الله: الحِسُّ، ومِن ذلك ما يُشاهَدُ ويُسمَعُ مِن إجابةِ الدَّاعينَ، وغَوْثِ المكْروبينَ؛ ما يدلُّ دلالةً حِسِّيَّةً قاطعةً على وجودِه تعالى، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ ﴾، وما زالتْ إجابةُ الدَّاعينَ أمرًا مشهودًا إلى يومِنا هذا لمَن صدَق اللُّجوءَ إلى الله تعالى، وأتَى بشرائطِ الإجابةِ[٢].

٣- في قولِه تعالى: ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ سؤالٌ؛ أنَّ الآيةَ الكريمةَ ذُكِر فيها أنَّ نوحًا وأهلَ بيتِه قد نَجَوْا مِن الفيضانِ، ولكنْ في قولِه تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ﴾ إلى قولِه: ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣] فيه أنَّ أحدَ أولادِ نوحٍ قد غرِقَ؟

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٨٢).

الجواب: أنَّه لا تناقضَ؛ لأنَّ ابنَ نوحٍ لم يكُنْ مِن أهلِه، كما قال تعالى لنوحٍ لمَّا سألَه عن ابنِه: ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[١] [هود: ٤٦].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أنَّ الانتقامَ يُسمَّى نصرةً وانتصارًا[٢].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ عُطِفَ ﴿وَنُوحًا﴾ على (لُوطًا)، أي: آتينَا نُوحًا حُكْمًا وعِلْمًا؛ فحُذِفَ المفعولُ الثَّاني لـ (آتينَا)؛ لدَلالةِ ما قبْلَه عليه، أي: آتيناهُ النُّبوَّةَ حينَ نادانَا[٣].

- قولُه: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ فائدةُ ذِكْرِ هذه القَبْلِيَّةِ التَّنبيهُ على أنَّ نَصْرَ اللهِ أولياءَه سُنَّتُه المُرادةُ له؛ تَعريضًا بالتَّهديدِ للمُشرِكين المُعانِدين؛ لِيتذكَّروا أنَّه لم تَشُذَّ عن نَصْرِ اللهِ رُسَلَه شاذَّةٌ ولا فاذَّةٌ[٤].

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فيه وَصْفُ الكرْبِ بالعظيمِ؛ تَهويلًا[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَنَصَرْنَـٰهُ﴾ في إسنادِ الانتِصارِ إليه تعالى تَهويلٌ لأمْرِ النَّصرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم)) للمطيري (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٨).

- قولُه: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ عُدِّيَ (نَصَرْنَاهُ) بحَرْفِ (مِن)؛ لِتَضمينِه معنى المَنْعِ والحِمايةِ، وهو أبلَغُ مِن تَعديَتِه بـ (على)؛ لأنَّه يدُلُّ على نَصْرٍ قَوِيٍّ تَحصُلُ به المَنَعةُ والحِمايةُ، فلا يَنالُهُ العدُوُّ بشَيءٍ. وأمَّا نَصْرُه عليه فلا يدُلُّ إلَّا على المُدافَعةِ والمَعونةِ. ووَصْفُ القومِ بالموصولِ؛ للإيماءِ إلى عِلَّةِ الغرَقِ الَّذي سيُذْكَرُ بعْدُ[1]. وقيل: لَمَّا كان جُلُّ نُصرَتِه النَّجاةَ، وكانت غَلَبةُ قَومِه بغيرِ يَدَيه بل بأمرٍ أجنبيٍّ منه؛ حَسُنَ أن يكونَ (نَصَرْنَاهُ مِنْ) ولا يتمَكَّنُ هنا (على) كما يتمَكَّنُ في أمرِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع قَومِه[2].

- قولُه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ تَعليلٌ لِمَا قبْلَه، وتَمهيدٌ لِمَا بعْدَه من قولِه تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ فإنَّ الإصرارَ على تَكذيبِ الحقِّ، والانهماكَ في الشَّرِّ والفسادِ ممَّا يُوجِبُ الإهلاكَ قطْعًا[3].

- وإضافةُ (قَومٍ) إلى (السَّوءِ) فيه إشارةٌ إلى أنَّهم عُرِفوا به[4].

- و﴿أَجْمَعِينَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ النَّصبِ في ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾؛ لإفادةِ أنَّه لم يَنْجُ مِن الغرَقِ أحَدٌ مِن القومِ ولو كان قَريبًا مِن نُوحٍ؛ فإنَّ اللهَ قد أغرَقَ ابنَ نُوحٍ. وفي هذا تَهديدٌ لقُريشٍ؛ لئلَّا يَتَّكِلوا على قَرابتِهم بمحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧٨-٨٠)

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡحَرۡثِ﴾: أي: الزَّرعِ، أو البُستانِ، وأصْلُ (حرث): يدُلُّ على إلقاءِ البَذرِ في الأرضِ، وتَهيئتِها للزَّرعِ[(١)].

﴿نَفَشَتۡ﴾: أي: رعَتْ لَيلًا، والنَّفشُ: الرَّعيُ باللَّيلِ، وأصلُ (نفش): يدُلُّ على انتشارٍ[(٢)].

﴿لَبُوسٖ﴾: أي: الدُّروعِ، سُمِّيت لَبُوسًا؛ لأنَّها تُلبَسُ، واللَّبوسُ عندَ العَرَبِ: السِّلاحُ كُلُّه، وأصلُ (لبس): يدُلُّ على مُخالَطةٍ ومُداخَلةٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠، ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦١)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٨٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((الغريبين)) للهروي (٥/ ١٦٧١). ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم =

﴿لِتُحْصِنَكُم﴾: أي: لِتَمنَعَكم وتَحمِيَكم، وأصلُ (حصن): يدلُّ على حِفظٍ وحِياطةٍ[١].

﴿بَأْسِكُمْ﴾: أي: حَرْبِكم، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضاهاها[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَوْلُه تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾

قولُه: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ مَنصوبٌ عطفًا على ﴿ٱلْجِبَالَ﴾، أو مَفعولٌ معه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- نبيَّ اللهِ داودَ وابنَه سُلَيمانَ، إذ يَحكُمانِ في شأنِ زَرعٍ عَدَت عليه غَنَمُ قومٍ آخرينَ، وانتَشَرَت فيه ليلًا فأتلَفَتْه، وكنَّا لحُكمِهم شاهِدينَ لا يخفَى علينا شيءٌ، فَفَهَّمْنا سُليمانَ تلك القضيَّةَ، وكُلًّا مِن داودَ وسليمانَ أعطَينا نُبُوَّةً وعِلمًا، وذلَّلْنا مع داودَ الجِبالَ والطَّيرَ يُسَبِّحنَ معه إذا سبَّحَ، وكُنَّا فاعلينَ ذلك. وعلَّمنا داودَ صِناعةَ الدُّروعِ؛ لتحميَ المحارِبينَ مِن وَقْعِ السِّلاحِ فيهم، فهل أنتم شاكِرونَ نِعمةَ الله عليكم حيثُ أجراها على يَدِ عَبدِه داودَ؟

= (ص: ٢٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٢٠) (١١/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((البسيط)) للواحدي ((١٥/ ١٤٣))، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٠٠)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ١٨٥).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان المقصودُ ذِكرَ نِعَمِ الله تعالى على داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ؛ ذكَرَ أوَّلًا النِّعمةَ المُشتَركةَ بيْنهما، ثمَّ ذكَرَ ما يختَصُّ به كُلُّ واحدٍ منهما مِنَ النِّعَمِ[١].

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ[٢]- خبَرَ داودَ وسُلَيمانَ حينَ يَحكُمانِ[٣] في شأنِ الزَّرعِ أو الغَرسِ[٤] الذي انتَشَرَت فيه غَنَمُ قَومٍ آخرينَ في اللَّيلِ، فَرَعَت في البُستانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٣).

(٢) ممَّن ذهب إلى هذا التقديرِ: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨).

قال ابن عطية: (ويحتَمِلُ عندي ويَقوَى أن يكونَ المعنى: وآتينا داودَ، عطفًا على قولِه تعالى: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، والمعنى على هذا التأويلِ مُتَّسِقٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٠). واختاره ابن عاشور في ((تفسيره)) (١٧/ ١١٥).

(٣) قال القرطبي: (لم يُرِدْ بقَولِه: ﴿إِذۡ يَحۡكُمَانِ﴾ الاجتِماعَ في الحُكمِ وإن جمَعَهما في القول؛ فإنَّ حُكمَينِ على حُكمٍ واحدٍ، لا يجوزُ، وإنَّما حكَمَ كُلُّ واحدٍ منهما على انفرادِه، وكان سليمانُ الفاهِمَ لها بتفهيمِ الله تعالى إيَّاه). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٧).

(٤) قال ابن جرير: (الحرثُ: إنما هو حَرثُ الأرضِ. وجائزٌ أن يكون ذلك كان زرعًا، وجائز أن يكون غرْسًا، وغيرُ ضائرٍ الَجهلُ بأي ذلك كان). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢١).

وقال ابن القيم: (الحَرثُ: هو البستان، وقد رويَ أنه كان بستانَ عِنَبٍ، وهو المسمَّى بالكَرْمِ). ((إعلام الموقعين)) (١/ ٢٤٥).

ونسَب الواحدي القولَ بأنَّ الحرثَ كان كَرْمًا قد نبَتَتْ عناقيدُه إلى أكثرِ المفسرينَ، وقال: =

وأكَلَت ما في أشجارِه[١].

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾.

أي: وكنا لحُكمِ داودَ وسُلَيمانَ والمُتحاكِمين إليهما عالِمينَ لا يخفَى علينا شيءٌ[٢].

= (وهو قولُ ابنِ مسعودٍ، ومسروقٍ ومَعْمَرٍ، وشُرَيحٍ، وابنِ عباسٍ في روايةِ عطاءٍ). ((البسيط)) (١٥/ ١٣٢).

ونسَب الرازي إلى أكثرِ المفسِّرينَ أنَّ الحرثَ هو الزَّرعُ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٤).

وقال البقاعي: (﴿يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾ الذي أنبَت الزرعَ، وهو مِن إطلاقِ اسمِ السببِ على المسبَّبِ، كالسماءِ على المطرِ والنبتِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٢٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٨).

قال ابن الجوزي: (وفي المشارِ إليه قولان: أحدُهما: داودُ وسليمانُ، فذكرهما بلَفظِ الجَمعِ؛ لأنَّ الاثنينِ جمعٌ، هذا قول الفرَّاء. والثاني: أنهم داود وسليمانُ والخصومُ، قاله أبو سليمان الدمشقي). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٢).

وممَّن قال بالقولِ الأوَّلِ: الفرَّاءُ، ويحيى بنُ سلام، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُليمي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٢٨)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٩٣).

وممَّن قال بالقول الثاني: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، ومكي، والزمخشري، وابنُ عطية، والبيضاوي، والنسفي، وابن جزي، وأبو حيان، والبقاعي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢١)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٧٨٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٥٤)، ((تفسير =

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

أي: ففهَّمْنا تلك القضيَّةَ سُلَيمانَ[1].

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

أي: وكلًّا مِن داودَ وسُلَيمانَ آتَينا نُبُوَّةً، وعِلمًا بدينِ اللهِ وأحكامِه[2].

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

= القاسمي)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٨).

قال ابنُ عطية: (وقوله تعالى: ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ يريدُ: داودَ وسليمانَ والخصمينِ؛ لأنَّ الحكمَ يُضافُ إلى جميعِهم، وإن اختَلفت جهاتُ الإضافةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٣). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٤).

وقال أبو حيان: (والضَّميرُ في ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ عائدٌ على الحاكمينِ والمحكومِ لهما وعليهما، وليس المصدرُ هنا مُضافًا إلى فاعلٍ ولا مفعولٍ، ولا هو عاملٌ في التَّقديرِ... وكأنَّ المعنَى: وكنَّا للحكمِ الَّذي صَدَر في هذه القضيَّةِ شاهِدينَ). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٨).

قال السعدي: (قضى فيه داودُ عليه السلامُ بأنَّ الغَنَمَ تكون لصاحِبِ الحرث؛ نظرًا إلى تفريطِ أصحابها، فعاقَبَهم بهذه العقوبةِ، وحكم فيها سُلَيمانُ بحُكمٍ مُوافِقٍ للصواب؛ بأنَّ أصحابَ الغَنَمِ يَدفَعونَ غَنَمَهم إلى صاحِبِ الحَرثِ فينتَفِعُ بدَرِّها وصوفِها، ويقومونَ على بستانِ صاحِبِ الحَرثِ حتى يعودَ إلى حاله الأولى، فإذا عاد إلى حالِه ترادَّا ورجع كلٌّ منهما بما له، وكان هذا من كمالِ فَهمِه وفِطنتِه عليه السَّلامُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: فهَّمْناه هذه القضيَّةَ، ولا يدُلُّ ذلك أنَّ داود لم يُفَهِّمْه اللهُ في غيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨). ويُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣١).

مناسبتُها لما قبلَها:

أنَّها شُروعٌ في بَيانِ ما يَختَصُّ بكلٍّ منهما مِن كَرامتِه تعالى، إثْرَ بَيانِ كَرامتِه العامَّةِ لهما(١).

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

أي: وذلَّلْنا مع داودَ الجِبالَ والطَّيرَ يُسَبِّحْنَ(٢) بمِثلِ تَسبيحِه إذا سَبَّحَ؛ مُعجِزةً له(٣)، وكنَّا فاعلينَ ذلك(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٩).

(٢) قال الشنقيطي: (التحقيقُ: أنَّ تَسبيحَ الجبالِ والطَّيرِ -مع داودَ- المذكورَ تسبيحٌ حَقيقيٌّ؛ لأنَّ الله جلَّ وعلا يجعَلُ لها إدراكاتٍ تُسَبِّحُ بها، يعلَمُها هو جلَّ وعلا، ونحن لا نعلمُها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٣) قال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾؛ وذلك لطِيبِ صَوتِه بتلاوةِ كتابِه الزَّبورِ، وكان إذا ترَنَّمَ به تقِفُ الطيرُ في الهواءِ، فتُجاوِبُه، وتَرُدُّ عليه الجِبالُ تأويبًا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣١).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ يقولُ: وكنَّا قد قَضَينا أنَّا فاعِلو ذلك، ومُسَخِّرو الجبالِ والطيرِ في أمِّ الكتابِ مع داودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٨).

وقال البقاعي: (أي: مِن شأنِنا الفِعلُ لأمثالِ هذه الأفاعيلِ، ولكُلِّ شَيءٍ نريدُه بما لنا مِنَ العَظَمةِ المحيطةِ؛ فلا تَستَكثِروا علينا أمرًا وإن كان عندكم عَجَبًا). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٥٦).

وقال الشنقيطيُّ: (والظَّاهِرُ أنَّ قَولَه: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ مُؤكِّدٌ لِقَولِه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾، والموجِبُ لهذا التأكيدِ أنَّ تسخيرَ الجبالِ وتَسبيحَها أمرٌ عَجَبٌ خارِقٌ للعادة، مَظِنَّةٌ لأن يُكَذِّبَ به الكَفَرةُ الجَهَلةُ!). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٣٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۞ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۞ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧ - ١٩].

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ قراءاتٌ:

١- قراءةُ ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ بتاءٍ مَضمومةٍ، على التأنيثِ، أي: لِتُحصِنكم هذه الصَّنعةُ(١).

٢- قراءةُ ﴿لِنُحْصِنَكُم﴾ بنونٍ مضمومةٍ، على أنَّ الله تعالى يخبِرُ عن نَفسِه، أي: لِنُحصِنكم نحنُ من بأسِكم بواسطةِ هذه الدُّروعِ(٢).

٣- قراءة ﴿لِيُحْصِنَكُم﴾ بياءٍ مَضمومةٍ، على التذكيرِ، أي: لِيُحصِنكم الله تعالى، أو: ليحصِنكم هذا اللَّبوسُ(٣).

---

(١) قرأ بها ابنُ عامر، وحفصٌ عن عاصمٍ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٤). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٩)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٥٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٦٨).

(٢) قرأ بها شعبةُ عن عاصمٍ، ورُويسٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٤). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٩)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٥٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٦٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٦٩).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٤). =

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾.

أي: وعلَّمْنا داودَ كيفيَّةَ صِناعةِ الدُّروعِ لكم؛ لِتَقيَكم في القتالِ مِن سلاحِ أعدائِكم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١].

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾.

أي: فهل أنتم -أيُّها النَّاسُ- شاكِرو اللهِ على تيسيرِه لكم نِعمةَ الدُّروعِ(٢)؟

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ في هذا تنبيهٌ على أنَّ العِلمَ أفضَلُ الكَمالاتِ وأعظَمُها؛ وذلك لأنَّ الله تعالى قَدَّمَ ذِكرَه هاهنا على سائِرِ النِّعَمِ الجليلةِ، مِثلُ: تَسخيرِ الجِبالِ والطيرِ، والريحِ والجِنِّ، وإذا كان العِلمُ مُقَدَّمًا على أمثالِ هذه الأشياءِ، فما ظَنُّك بغَيرِها(٣)؟!

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٥٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٦٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٦٩).

قال ابنُ جزي: (قُرِئ بالياءِ والتاءِ والنونِ، فالنونُ لله تعالى، والتاءُ للصنعةِ، والياءُ لداودَ أو للبوس). ((التسهيل)) (٢/ ٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٠).

قال السعدي: (علَّم الله داودَ عليه السَّلامُ صنعةَ الدُّروعِ، فهو أوَّلُ مَن صنَعَها وعُلِّمَها، وسَرَت صناعتُه إلى مَن بَعدَه، فألانَ اللهُ له الحديدَ، وعَلَّمَه كيف يَسرُدُها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ...﴾ دَلالةٌ على أنَّ العَمَلَ والمهنةَ ليستا نَقصًا؛ لأنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ كانوا يُمارِسونَها[١]، والآيةُ أصلٌ في اتِّخاذِ الصَّنائعِ والأسبابِ، وهو قَولُ أهل العُقولِ والألبابِ، لا قَولُ الجَهَلةِ الأغبياءِ القائلينَ بأنَّ ذلك إنما شُرِعَ للضُّعَفاءِ؛ فالسَّبَبُ سُنَّةُ الله في خَلقِه، فمَن طعَنَ في ذلك فقد طَعَن في الكِتابِ والسُّنَّة، ونَسَب مَن ذَكَرْنا إلى الضَّعفِ وعَدَمِ المنَّةِ، فالصَّنعةُ يَكُفُّ بها الإنسانُ نَفسَه عن النَّاسِ، ويَدفَعُ بها عن نَفسِه الضَّررَ والباسَ[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ استُدِلَّ به على جَوازِ الاجتِهادِ في الأحكامِ، ووُقوعِه للأنبياءِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أصلٌ في اختلافِ الاجتِهادِ، وفي العَمَلِ بالرَّاجِحِ، وفي مراتِبِ التَّرجيحِ[٤].

٣- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ إنْ قيل: فكيف نَقَض داودُ حُكمَه باجتهادِ سُلَيمانَ؟

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٨).

فالجوابُ عنه مِن وَجهَينِ؛ أحدُهما: يجوزُ أن يكونَ داودُ ذَكَر حُكمَه على الإطلاقِ، وكان ذلك منه على طَريقِ الفُتيا، فذَكَرَه لهم لِيُلزِمَهم إيَّاه، فلمَّا ظهر له ما هو أقوى في الاجتِهادِ منه عاد إليه.

الثَّاني: أنَّه يجوزُ أن يكونَ اللهُ أوحى بهذا الحُكمِ إلى سُلَيمانَ، فلَزِمَه ذلك، ولأجْلِ النَّصِّ الواردِ بالوَحيِ رأى أن يَنقُضَ اجتِهادَه؛ لأنَّ على الحاكِمِ أن ينقُضَ حُكمَه بالاجتهادِ إذا خالف نصًّا[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۞ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾ استدَلَّ به مَن قال برُجوعِ الحاكِمِ بعد قضائِه عن اجتِهادِه إلى أرجحَ منه[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۞ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًا﴾ هذا دليلٌ على أنَّ الحاكِمَ قد يُصيبُ الحَقَّ والصَّوابَ، وقد يُخطِئُ ذلك، وليس بمَلومٍ إذا أخطأ مع بَذْلِ اجتِهادِه[3].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۞ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًا﴾ فهذه القضيَّةُ التي تضَمَّنَتْها الآيةُ مَظهَرٌ مِن مظاهِرِ العَدلِ، ومَبالِغِ تَدقيقِ فِقهِ القَضاءِ، والجَمعِ بين المصالِحِ، والتفاضُلِ بينَ مراتِبِ الاجتهادِ، واختِلافِ طُرُقِ القَضاءِ بالحَقِّ مع كونِ الحَقِّ حاصِلًا للمُحِقِّ، فمَضمونُها أنَّها الفِقهُ في

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨).

الدِّينِ الذي جاء به المُرسَلونَ مِن قَبلُ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ النَّاسَ متفاوِتونَ في الأفهامِ، ولو كان الفَهمُ متماثلًا لَمَا خُصَّ به سُلَيمانُ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ دَلالةٌ على أهميَّةِ الفَهمِ، وأنَّ العلمَ ليس كلَّ شَيءٍ[٣].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۞ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فقد خَصَّ أحَدَ النبيَّينِ الكريمَينِ بالتَّفهيمِ مع ثنائِه على كُلٍّ منهما بأنَّه أُوتيَ عِلمًا وحُكمًا، فهكذا إذا خَصَّ اللهُ أحَدَ العالِمَينِ بعِلمِ أمرٍ وفَهِمَه لم يوجِبْ ذلك ذَمَّ مَن لم يحصُلْ له ذلك من العُلَماءِ، بل كلُّ مَنِ اتَّقى الله ما استطاعَ فهو مِن أولياءِ الله المتَّقينَ، وإن كان قد خَفِيَ عليه مِن الدِّينِ ما فَهِمَه غيرُه[٤]. فالعلماءُ المجتهدون؛ للمصيبِ منهم أجرانِ، وللآخَرِ أجرٌ واحدٌ، وكلٌّ منهم مطيعٌ لله بحسَبِ استطاعتِه؛ ولا يُكَلِّفُه اللهُ ما عجزَ عن عِلْمِه[٥].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أصلٌ في عُذرِ المُجتَهِدِ إذا أخطأ الاجتِهادَ، أو لم يهتَدِ إلى المُعارِضِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ في مَعرِضِ الثَّناءِ على داودَ وسُلَيمانَ عليهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٥، ١١٦).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية)) (٢/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٦/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٣/ ٢٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٣/ ٤١).

السَّلامُ[١].

١١- استُدلَّ بقولِ الله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾ على تَضمينِ أربابِ المَواشي ما أفسَدَت باللَّيلِ دُونَ النَّهارِ؛ لأنَّ النَّفْشَ لا يَكونُ إلَّا باللَّيلِ[٢].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ في موضِعَينِ مِن كتابِه؛ أحَدُهما: قَولُه تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، والثَّاني: قَولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، فتأمَّلْ قولَه: ﴿كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ في هذَينِ المَوضِعَينِ، المتضَمِّنَ للصُّنعِ العَجيبِ الخارِجِ عن العادةِ: كيف تَجِدُه كالدَّليلِ على ما أخبَرَ به، وأنَّه لا يَستَعصي على الفاعِلِ حَقيقةً، أي: شَأنُنا الفِعلُ، كما لا يَخفى الجَهرُ والإسرارُ بالقَولِ على مَن شَأنُه العِلمُ والخِبرةُ، ولا تَصعُبُ المَغفِرةُ على مَن شَأنُه أن يَغفِرَ الذُّنوبَ، ولا الرِّزقُ على مَن شَأنُه أن يَرزُقَ العِبادَ -سُبحانَه وبِحَمدِه[٣]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾ دَلالةٌ على أنَّ داودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان حَدَّادًا[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الاحتِرازاتِ ليست تَنقُصُ في التوكُّلِ؛ إذْ كان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣٣، ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٣٩٨).

اللهُ جلَّ وتعالى قد جَعَلَ الدِّرعَ صيانةً في الحُروبِ، وجعَلَها في النِّعَمِ التي طالب بشُكرِها، وإذا كان ذلك كذلك، فالمكاسِبُ كلُّها، وإعدادُ الأقواتِ غيرُ مؤثِّرةٍ في الثِّقةِ بالخالِقِ؛ ولا مَعدودةٍ في عِدَادِ خوفِ فَواتِ الرِّزقِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ فيه الإتيانُ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يَحۡكُمَانِ﴾ حِكايةً للحالِ الماضيةِ؛ لاستحضارِ صُورتِها[٢].

- وجُملةُ: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ للحُكْمِ، ومُفيدٌ لِمَزيدِ الاعتناءِ بشأْنِه[٣].

- وفيه مِن فُنونِ البَلاغةِ: ما يُعرَفُ بجَمْعِ المُختلِفِ والمُؤتلِفِ، وهو عبارةٌ عن إرادةِ المُتكلِّمِ التَّسويةَ بين مَمدوحينِ، فيأْتي بمَعانٍ مُؤتَلِفةٍ في مَدْحِهما، ثمَّ يَرومُ بعْدَ ذلك تَرجيحَ أحَدِهما على الآخرِ بزِيادةِ فَضْلٍ لا يَنقُصُ مَدْحَ الآخَرِ، فيأْتي لأجْلِ ذلك التَّرجيحِ بمَعانٍ تُخالِفُ معانِيَ التَّسويةِ؛ فهنا ساوَى أوَّلَ الآيةِ بين داودَ وسُليمانَ عليهما السَّلامُ في أهْلِيَّةِ الحُكْمِ، ثمَّ رجَّحَ آخِرَها سُليمانَ بقولِه: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾، فسوَّى في الحُكمِ والعِلمِ، وزاد في فَضْلِ سُليمانَ بالفَهمِ، وحصَلَ الالْتِفاتُ، فأَتى بما يقومُ مَقامَ تلك الزِّيادةِ الَّتي يُرجَّحُ بها سُليمانُ؛ لِتُرشِدَ إلى المُساواةِ في الفضْلِ، لِتكونَ فَضيلةُ السِّنِّ

(١) يُنظر: ((النُّكَتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وما يَستتبِعُها مِن وَفْرةِ التَّجارِبِ وحُنْكةِ الحياةِ قائمةً مَقامَ الزِّيادةِ الَّتي رُجِّحَ بها سُليمانُ في الحُكْمِ؛ فساوتِ الآيةُ الكريمةُ بيْن داودَ وسُليمانَ في التَّأهُّلِ للحُكْمِ، وشرَّكَت بيْنهما فيه، حيث قالت: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾، وأخبَرَتْ أنَّ اللهَ سُبحانَه فهَّمَ سُليمانَ إصابةَ الحُكْمِ، ففضَلَ أباهُ بذلك بعْدَ المُساواةِ، ثمَّ الْتَفَتْ سُبحانَه إلى مُراعاةِ حَقِّ الوالِدِ، فقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، فرَجَعا بذلك إلى المُساواةِ بعْدَ تَرجيحِ سُليمانَ؛ لِيُعلِّمَ الولَدَ بذلك بِرَّ الوالِدِ ويُعرِّفَه ما له عليه من الحقِّ، حتَّى إذا فكَّرَ النَّاظِرُ في هذا الكلامِ، وقال: مِن أين جاءتِ المُساواةُ في الحُكْمِ والعلمِ بعْدَ الإخبارِ بأنَّ سُليمانَ فَهِمَ مِن الحُكْمِ ما لم يَفْهَمْه أبوه؟ عَلِم أنَّ حَقَّ الأُبوَّةِ قام مَقامَ تلك الفضيلةِ، فحصَلَتِ المُساواةُ. وحصَلَ في هذا الكلامِ ضَرْبٌ آخَرُ من المحاسِنِ يُقالُ له: الالْتِفاتُ؛ وذلك في قولِه تعالى فيها: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾، وأدْمَجَ في هذا الالْتِفاتِ ضَرْبًا آخَرَ مِن المَحاسِنِ يُقالُ له: التَّنكيتُ؛ فإنَّ النُّكتةَ الَّتي مِن أجْلِها جُمِعَ الضَّميرُ الَّذي كان مِن حَقِّه أنْ يكونَ مُثَنًّى هي الإشارةُ إلى أنَّ هذا الحُكْمَ مُتَّبَعٌ يَجِبُ الاقتداءُ به؛ لأنَّه عَينُ الحقِّ ونَفْسُ العدْلِ، وكيف لا يكونُ كذلك وقد أخبَرَ سُبحانه أنَّه شاهِدٌ له؟! أي: هو مُراعًى بعَينِه عَزَّ وجَلَّ. ويجوزُ أنْ يكونَ جُمِعَ الضَّميرُ الَّذي أُضِيفَ إليه الحُكْمُ مِن أجْلِ أنَّ الحُكْمَ يَستلزِمُ حاكِمًا، ومَحكومًا له، ومَحكومًا عليه؛ فجُمِعَ الضَّميرُ لأجْلِ ذلك[1].

٢- قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٨)، ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (١/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٤٤- ٣٤٦).

ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

- صِيغَةُ التَّفهيمِ في قولِه: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ تُفِيدُ شِدَّةَ حُصولِ الفِعْلِ أكثَرَ مِن صِيغةِ الإفهامِ؛ فدَلَّ على أنَّ فَهْمَ سُليمانَ في القضيَّةِ كان أعمَقَ[١].

- قولُه: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ تَذييلٌ؛ للاحتراسِ لدَفْعِ توهُّمِ أنَّ حُكْمَ داودَ كان خطأً أو جَورًا، وإنَّما كان حُكْمُ سُليمانَ أصوبَ[٢].

- و(مع) ظَرْفٌ مُتعلِّقٌ بفِعْلِ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾، وقُدِّمَ على مُتعلَّقِه؛ للاهتمامِ به لإظهارِ كَرامةِ دَاودَ[٣].

- وقُدِّمَتِ الجِبالُ على الطَّيرِ؛ لأنَّ تَسخيرَها وتَسبيحَها أعجَبُ وأدَلُّ على القُدرةِ، وأدخَلُ في الإعجازِ؛ لأنَّها جَمادٌ والطَّيرَ حيوانٌ، إلَّا أنَّه غيرُ ناطقٍ[٤].

- قولُه: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لجُملةِ (سَخَّرْنَا)، أو حالٌ مُبيِّنةٌ، وذِكْرُها هنا استطرادٌ وإدماجٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٩).

والإدماجُ، لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيُقرن الغرضَ المسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدون خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: =

- وجُملةُ: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ تَذييليَّةٌ مُعترِضةٌ بين الإخبارِ عمَّا أُوتِيَهُ داودُ[١].

٣- قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ فيه فضْلُ هذه الصَّنعةِ؛ إذ أسنَدَ تَعليمَها إيَّاهُ إليه تعالى[٢].

- قولُه: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أمْرٌ وارِدٌ على صُورةِ الاستفهامِ؛ للمُبالَغةِ أو التَّقريعِ[٣]؛ فالاستفهامُ في قولِه: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ مُستعمَلٌ في استبطاءِ عدَمِ الشُّكرِ، ومُكَنًّى به عن الأمْرِ بالشُّكرِ، وكان العُدولُ عن إيلاءِ (هل) الاستفهاميَّةِ بجُملةٍ فِعْليَّةٍ إلى الجُملةِ الاسميَّةِ، مع أنَّ لـ(هل) مَزيدَ اختصاصٍ بالفِعْلِ، فلم يقُلْ: (فهلْ تَشكُرون)، وعدَلَ إلى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾؛ لِيَدُلَّ العُدولُ عنِ الفِعْليَّةِ إلى الاسميَّةِ على ما تَقْتضيهِ الاسميَّةُ من مَعنى الثَّباتِ والاستمرارِ، أي: فهلْ تَقرَّرَ شُكْرُكم وثبَتَ؛ لأنَّ تَقرُّرَ الشُّكرِ هو الشَّأنُ في مُقابَلةِ هذه النِّعمةِ[٤].

= ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٢).

الآيتانِ (٨١-٨٢)

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَاصِفَةَ﴾: أي: شَديدةَ الهُبوبِ، وأصلُ (عصف): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وسخَّرْنا لسُلَيمانَ الرِّيحَ شَديدةَ الهُبوبِ، تجري بأمْرِه إلى الأرضِ التي بارَكْنا فيها، وقد أحاط عِلمُنا بجَميعِ الأشياءِ، وسَخَّرنا لسُلَيمانَ مِن الشَّياطينِ شَياطينَ يغوصونَ في البَحرِ يَستَخرِجونَ له اللآلئَ والجواهِرَ، وكانوا يَعمَلونَ أعمالًا أخرى غيرَ الغَوصِ مما يريدُه منهم، وكُنَّا لهم حافظينَ، فلا يَقدِرونَ على الامتِناعِ مِمَّا يُريدُه منهم، ولا يتمَرَّدونَ على طاعتِه، ولا يتعَرَّضونَ له بسُوءٍ ولا لأحدٍ مِنَ النَّاسِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه النِّعَمَ التي خَصَّ داودَ عليه السَّلامُ بها، ذكَرَ بعدَه النِّعَمَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢١).

التي خَصَّ بها سُلَيمانَ عليه السَّلامُ[(١)].

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾.

أي: وسَخَّرْنا لسُلَيمانَ الرِّيحَ، والحالُ أنَّها شديدةُ الهُبوبِ[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞ﴾ [سبأ: ١٢].

﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾.

أي: تجري الريحُ بأمرِ سُلَيمانَ طائِعةً له، فتعودُ إلى الأرضِ التي بارك اللهُ فيها[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣١)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٤ - ٢٣٦).

والمرادُ بقولِه: ﴿ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ أرضُ الشامِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١١٠).

وقيل: المرادُ بها فلسطين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (١٥/ ١٤٥).

قال الشنقيطي: (والمرادُ بأنه بارك فيها: أنَّه أكثَرَ فيها البَرَكةَ والخَيرَ بالخِصبِ والأشجارِ والثِّمارِ والمياه، كما عليه جُمهورُ العُلَماءِ. وقال بعضُ العلماء: المرادُ بأنَّه بارك فيها أنَّه بعث الأنبياءَ منها. وقيل غيرُ ذلك. والعِلمُ عند الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٣/ ١١٠).

أي: وكُنَّا بجَميعِ الأشياءِ مِن أمرِ سُلَيمانَ وغَيرِه عالِمينَ، لا يخفَى علينا شَيءٌ، عالِمينَ بتَدبيرِه، ومِن ذلك أنَّنا وضَعْنا هذا التَّخصيصَ في المحَلِّ الذي يليقُ به مِن الأماكِنِ والأناسيِّ[١].

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لمَّا ذكَرَ تعالى تَسخيرَ الرِّيحِ له، وهي جِسْمٌ شَفَّافٌ لا يَعقِلُ، وهي لا تُدرَكُ بالبصَرِ؛ ذكَرَ تَسخيرَ الشَّياطينِ له، وهم أجسامٌ لَطيفةٌ تَعقِلُ، والجامِعُ بينهما أيضًا سُرعةُ الانتقالِ[٢].

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾.

أي: وسَخَّرنا لسُلَيمانَ مِن الشَّياطينِ مَن يغوصونَ له في البَحرِ؛ لِيَستخرِجوا اللآلِئَ والجواهِرَ وغيرَ ذلك[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾ [ص: ٣٧].

﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

أي: ويعمَلُ الشَّياطينُ لِسُلَيمانَ أعمالًا أخرى غيرَ الغَوصِ؛ كعملِ المحاريبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٦).

والتَّماثيلِ، والجِفانِ والقُدورِ الرَّاسياتِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٢- ١٣].

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾.

أي: وكُنَّا للشَّياطينِ الذين يَعمَلونَ لسُلَيمانَ حافِظينَ، فلا يتمَرَّدونَ على طاعتِه، أو يَزيغونَ عن أمْرِه، أو يُبَدِّلونَ أو يُغَيِّرونَ، أو يُوجَدُ منهم فَسادٌ فيما هم مُسَخَّرونَ فيه، ولا يُؤذُونَ نبيَّ اللهِ سُلَيمانَ، ولا يتعَرَّضونَ بسُوءٍ لأحدٍ مِنَ النَّاسِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- وصَفَ اللهُ تعالى الرِّيحَ المذكورةَ هنا في سورةِ (الأنبياء) بأنَّها عاصِفةٌ، أي: شَديدةُ الهُبوبِ، ووصَفَها في سورةِ (ص) بأنَّها تَجري بأمرِه رُخاءً، والعاصِفةُ غَيرُ التي تجري رُخاءً، فكيف يُجمَعُ بينهما؟

والجوابُ: من أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّها عاصِفةٌ في بَعضِ الأوقاتِ، ولَيِّنةٌ رُخاءٌ في بَعضِها؛ بحَسَبِ الحاجةِ، كأنْ تَعصِفَ ويشتَدَّ هُبوبُها في أوَّلِ الأمرِ، حتى تَرفَعَ البِساطَ الذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٦).

قال ابنُ جرير: (﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ يقولُ: وكُنَّا لأعمالِهم ولأعدادِهم حافِظينَ، لا يَؤُودُنا حِفظُ ذلك كُلِّه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٣).

عليه سُلَيمانُ وجُنودُه، فإذا ارتفَعَ سارت به رُخاءً حيث أصاب[١]، أو يكونَ ذلك باختِلافِ الأحوالِ؛ فإذا أراد سُلَيمانُ عليه السَّلامُ الإسراعَ في السَّيرِ سارت عاصِفةً، وإذا أراد اللِّينَ سارت رُخاءً، والمقامُ قَرينةٌ على أنَّ المرادَ المُواتاةُ لإرادةِ سُلَيمانَ، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾ المُشعِرُ باختِلافِ مَقصدِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ منها[٢].

الثَّاني: أنَّها كانت في نَفسِها رَخيَّةً طَيِّبةً كالنَّسيمِ، فإذا مَرَّت بكُرسِيِّه أبعَدَت به في مُدَّةٍ يَسيرةٍ، على ما قال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، فكان جَمعُها بينَ الأمرَينِ: أن تكونَ رُخاءً في نَفسِها، وعاصِفةً في عَمَلِها، مع طاعَتِها لسُلَيمانَ، وهُبوبِها على حَسَبِ ما يُريدُ ويَحتَكِمُ[٣].

الثَّالث: أنَّ الرُّخاءَ في البُداءةِ، والعصْفَ بعْدَ ذلك[٤].

الرَّابع: أنَّها كانت رخاءً في ذهابِه، وعاصفةً في رجوعِه إلى وطنِه؛ لأنَّ عادةَ المسافرينَ الإسراعُ في الرجوعِ[٥].

٢- قال الله تعالى هنا: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، وقال في سورةِ (ص): ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، والسُّؤالُ هو أنَّه هنا في سورةِ (الأنبياء) خَصَّ جَرْيَها به بكَونِه إلى الأرضِ التي بارك فيها للعالَمينَ، وفي سورةِ (ص) قال: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، وقَولُه: ﴿حَيْثُ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧).

أَصَابَ ﴾ يدُلُّ على التَّعميمِ في الأمكِنةِ التي يُريدُ الذَّهابَ إليها على الرِّيحِ؟

والجوابُ: أنَّ قولَه: ﴿حَيْثُ أَصَابَ ﴾ يدلُّ على أنَّها تجري بأمْرِه حَيثُ أراد مِن أقطارِ الأرضِ، وقولَه: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾؛ لأنَّ مَسْكَنَه فيها وهي الشَّامُ، فتَرُدُّه إلى الشَّامِ، وعليه فقولُه: ﴿حَيْثُ أَصَابَ ﴾ في حالةِ الذَّهابِ، وقولُه: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ في حالةِ الإيابِ إلى محَلِّ السُّكنى، فانفكَّت الجِهةُ؛ فزال الإشكالُ[1].

٣- في تَسخيرِ أكثَفِ الأجسامِ لدَاودَ وهو الحَجرُ؛ إذ أنطَقَهُ بالتَّسبيحِ، والحديدُ؛ إذ جعلَ في أصابعِه قُوةَ النَّارِ حتَّى لانَ له الحديدُ، وعَمِلَ منه الزَّرَدَ[2]، وتَسخيرِ ألْطَفِ الأجسامِ لسُليمانَ، وهو الرِّيحُ، والشَّياطينُ وهم من نارٍ، وكانوا يَغوصونَ في الماءِ، دليلٌ واضحٌ على باهِرِ قُدرتِه، وإظهارِ الضِّدِّ من الضِّدِّ، وإمكانِ إحياءِ العظْمِ الرَّميمِ، وجَعْلِ التُّرابِ الْيابِسِ حَيوانًا، فإذا أخبَرَ به الصَّادقُ وجَبَ قَبولُه واعتقادُ وُجودِه[3].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾

- قولُه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث عبَّرَ هنا باللَّامِ، وعبَّرَ بـ (مع) في قولِه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ ﴾؛ للدَّلالةِ على ما بين التَّسخيرينِ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٢) الزَّرَدَ: أي: الدُّروعَ المَزرودةَ المُتداخِلةَ حَلَقاتُها بعضُها في بعضٍ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٩).

مِن التَّفاوُتِ؛ فإنَّ تَسخيرَ ما سُخِّرَ له عليه السَّلامُ منَ الرِّيحِ وغيرِها، كان بطَريقِ الانقيادِ الكُلِّيِّ له، والامتثالِ بأمْرِه ونَهْيِه والمَقْهوريَّةِ تحْتَ مَلكوتِه، وأمَّا تَسخيرُ الجِبالِ والطَّيرِ لداودَ عليه السَّلامُ فلم يكُنْ بهذه المَثابةِ؛ بل بطَريقِ التَّبعيَّةِ له عليه السَّلامُ، والاقتداءِ به في عِبادةِ اللهِ عَزَّ وعَلا[١]. أو: أنَّه لَمَّا اشْتَرَكَ داودُ والجبالُ في التَّسبيحِ ناسَب ذِكْرُ (معَ) الدَّالَّةِ على الاصطحابِ، ولَمَّا كانت الرِّيحُ مُستخدَمةً لسُليمانَ أُضيفَتْ إليه بلامِ التَّمليكِ لأنَّها في طاعتِه وتحتَ أمرِه[٢].

- قولُه: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ في الختامِ؛ فإنَّه لَمَّا كانت هذه الاختصاصاتُ في غايةِ الغَرابةِ من المَعهودِ، أخبَرَ تعالى أنَّ عِلْمَه مُحيطٌ بالأشياءِ، يُجْرِيها على ما سبَقَ به عِلْمُه[٣].

- جُملةُ: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ جُملةٌ تَذييليَّةٌ مُعترِضةٌ بينَ الجُمَلِ المَسوقةِ لذِكْرِ عِنايةِ اللهِ بسُليمانَ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ﴾ جَمَع الضَّميرَ في ﴿يَغُوصُونَ﴾؛ حَمْلًا على معنى ﴿مَن﴾، وحسَّنَ ذلك تَقدُّمُ جَمْعٍ قبْلَه وهو ﴿ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٠).

- ودَلَّ الغَوصُ في قولِه: ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ على المُغاصِ فيه، وعلى ما يُغاصُ لاستخراجِه وهو الجَوهرُ؛ فلذلك لم يُذْكَرْ. وقولُه: ﴿لَهُۥ﴾ أي: لسُليمانَ؛ لأنَّ الغائصَ قد يَغوصُ لنفْسِه ولغَيرِه، فذكَرَ أنَّ الغوصَ ليس لأنفُسِهم، إنَّما هو لأجْلِ سُليمانَ وامتثالِهم أمْرَه[1].

- قولُه: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ تَذييلٌ لقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٨٧).

الآيتان (٨٢-٨٤)

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: واذكُرْ -يا محمَّدُ- عَبْدَنا أيوبَ إذ نادى ربَّه عزَّ وجَلَّ أنِّي قد أصابني الضُّرُّ، وأنت أرحَمُ الرَّاحمينَ، فاكشِفْه عنِّي. فاستجَبْنا له دُعاءَه، ورفَعْنا عنه الضُّرَّ والبلاءَ، ورَدَدْنا عليه ما فَقَده من أهلٍ ووَلدٍ مُضاعفًا؛ فَعَلْنا به ذلك رحمةً منَّا، وتذكيرًا للذين يَعبُدونَ اللهَ؛ لِيَكونَ قُدوةً لكُلِّ صابرٍ على البلاءِ، راجٍ رحمةَ رَبِّه.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ[(١)] -يا محمَّدُ- أيوبَ حين نادى ربَّه بأنِّي أصابني الضَّرَرُ والبلاءُ، وأنت أرحَمُ من يَرحَمُ، فارحَمْني بكَشفِ ضُرِّي[(٢)].

---

(١) وممَّن قال بأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ﴾ متعلقٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذكرْ: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٧).
وقال ابنُ عاشور: (عطفٌ على ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] أي: وآتينا أيوبَ حكمًا وعلمًا إذ نادى ربَّه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٣).

كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بلاءً؟ قال: الأنبياءُ، ثمَّ الصالحونَ، ثمَّ الأمثَلُ فالأمثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبتلى الرَّجُلُ على حَسَبِ دِينِه، فإنْ كان في دِينِه صَلابةٌ زيدَ في بلائِه، وإن كان في دِينِه رِقَّةٌ خُفِّفَ عنه، وما يزالُ البلاءُ بالعَبدِ حتى يمشيَ على ظَهرِ الأرضِ ليس عليه خَطيئةٌ))[1].

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾.

أي: فاستجَبْنا دُعاءَ أيوبَ، فأزَلْنا ما حلَّ به مِن ضَرَرٍ وبَلاءٍ[2].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أيوبَ نبيَّ اللهِ كان في بلائِه ثمانيَ عَشْرةَ سَنةً، فرَفَضه القريبُ والبعيدُ إلَّا رَجُلَينِ مِن إخوانِه كانا مِن أخَصِّ إخوانِه، كانا يَغدُوانِ إليه، ويَرُوحانِ إليه، فقال أحدُهما لصاحِبِه: أتعلَمُ، واللهِ لقد أذنَبَ أيوبُ ذنبًا ما أذنَبَه أحَدٌ! قال صاحِبُه:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٤٨١)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد (١٤٨١) واللفظ له.

قال الترمذي: (حسن صحيح)، وقال ابن القيم في ((طريق الهجرتين)) (١٩٣): (ثابت)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/ ٤٥)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٣٩٨): (حسن صحيح).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٧).

وما ذاك؟ قال: منذُ ثمانيَ عَشرةَ سَنةً لم يرحَمْه اللهُ فيكشِفَ عنه! فلمَّا راحا إليه لم يصبِرِ الرجُلُ حتى ذكَرَ ذلك له، فقال أيوبُ: لا أدري ما يقولُ، غيرَ أنَّ الله يعلَمُ أنِّي كُنتُ أمُرُّ على الرجُلَينِ يتنازَعانِ فيَذكُرانِ اللهَ[1]، فأرجِعُ إلى بيتي فأكَفِّرُ عنهما؛ كراهيةَ أن يُذكَرَ اللهُ إلَّا في حَقٍّ! قال: وكان يخرجُ إلى حاجتِه فإذا قضى حاجَتَه أمسكَتِ امرأتُه بيَدِه حتى يَبلُغَ، فلمَّا كان ذاتَ يومٍ أبطأ عليها، وأوحيَ إلى أيوبَ في مكانِه أن: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ [ص: ٤٢]، فاستبطأَتْه فلَقِيَتْه ينتَظِرُ، وأقبل عليها قد أذهَبَ اللهُ ما به من البلاءِ، وهو على أحسَنِ ما كان، فلمَّا رأَتْه قالت: أيْ بارَكَ اللهُ فيك، هل رأيتَ نبيَّ اللهِ هذا المُبتَلى؟ وواللهِ على ذلك ما رأيتُ أحدًا أشبَهَ به منك إذ كان صَحيحًا! قال: فإنِّي أنا هو! وكان له أندرانِ[2]: أندَرٌ للقَمحِ، وأندَرٌ للشَّعيرِ، فبَعَث اللهُ سحابتَينِ، فلمَّا كانت إحداهما على أندَرِ القَمحِ أفرَغَت فيه الذَّهَبَ حتى فاض، وأفرَغَت الأخرى على أندَرِ الشَّعيرِ الوَرِقَ حتى فاض))[3].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم قال: ((بينا

---

(١) فيَذكُرانِ اللهَ: أي: يحلِفانِ به، وقيل: فيذكران الله، أي: على وجهِ الاستغفارِ. يُنظر: ((الفائق في غريب الحديث)) للزمخشري (٢/ ١١١)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٣).

(٢) الأندَرُ: الموضِعُ الذي يُجمَعُ فيه الطَّعامُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/ ٢٠٠)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٤/ ١٩٤).

(٣) أخرجه البزار (٦٣٣٣)، وأبو يعلى (٣٦١٧) واللفظ له، وابن حبان (٢٨٩٨)، والحاكم (٤١١٥). صحَّحه ابنُ حبان، والحاكم وقال: (على شرطِ الشيخين)، وقال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (١/ ٢٠٨): (غريبٌ رفعُه جدًّا، والأشبهُ أن يكونَ موقوفًا)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/ ٢١١): (رجال البزار رجال الصحيح)، وصحَّح إسناده البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ١٤٢)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٤٨٥): (أصحُّ ما ورَد)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١٧).

أيوبُ يغتَسِلُ عُريانًا، فخَرَّ عليه جرادٌ[١] مِن ذَهَبٍ، فجعل أيوبُ يحتَثي[٢] في ثَوبِه، فناداه رَبُّه: يا أيوبُ، ألم أكُنْ أغنَيتُك عمَّا ترى؟ قال: بلى وعِزَّتِك، ولكِنْ لا غِنى بي عن بركَتِك))[٣].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾.

أي: وآتَينا أيوبَ أهلَه الذين فقَدَهم، ورَزَقْناه معهم آخرينَ مِثلَ عَدَدِهم زيادةً على ذلك[٤].

---

(١) الجراد: اسْمُ جنسٍ، واحِدُه جَرادَةٌ: وهو جِنسٌ من الحَشَراتِ؛ سُمِّيَ به لأنَّه يَجرِدُ الأرضَ فيأكُلُ كُلَّ ما عليها. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١/ ٣٣٣)، ((معجم متن اللغة)) (١/ ٥٠٣).

(٢) يَحتَثي: أي: يأخُذُ بيَدِه ويَرمي في ثوبه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١/ ٣٣٣).

(٣) رواه البخاري (٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٠١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩).

قال ابن الجوزيِّ: (قولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ يعني: أولادَه ومِثلَهم معهم، فيه أربعةُ أقوالٍ: أحدها: أنَّ الله تعالى أحيا له أهلَه بأعيانِهم، وآتاه مِثلَهم معهم في الدُّنيا، قاله ابنُ مسعودٍ، والحَسَنُ، وقتادةُ. وروى أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ: كانت امرأتُه ولَدَت له سبعةَ بنينَ وسَبْعَ بناتٍ، فنُشِروا له، ووَلَدت له امرأتُه سبعةَ بنين وسبعَ بنات. والثاني: أنَّهم كانوا قد غُيِّبوا عنه ولم يموتوا، فآتاه إيَّاهم في الدُّنيا ومِثلَهم معَهم في الآخرةِ، رواه هشامٌ عن الحسنِ. والثالث: آتاه اللهُ أجورَ أهلِه في الآخرةِ، وآتاه مِثلَهم في الدنيا، قاله نَوْفٌ، ومجاهدٌ. والرابع: آتاه أهلَه ومِثلَهم معَهم في الآخرةِ، حكاه الزجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٥ - ٣٦٧).

قال الزجَّاج: (أكثَرُ التفاسير أنَّ الله جلَّ ثناؤه أحيا مَن مات مِن بنيه وبناتِه، ورزقه مِثلَهم مِن الوَلَدِ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٤٠١).

وقال السَّمعاني: (قولُه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قال ابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ، والحسنُ: ردَّ إليه أهلَه وأولادَه بأعيانِهم، وهذا هو القَولُ المعروفُ، وظاهِرُ القرآنِ يدُلُّ عليه). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٠٠).

كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [ص: ٤٣].

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾.

أي: ردَدْنا لأيوبَ أهلَه ومِثلَهم معهم؛ رحمةً منَّا به(١).

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾.

أي: وتذكيرًا للذين يَعبُدونَ اللهَ؛ لِيَعتبِروا بقصةِ أيوبَ، ويَصبِروا كما صبَرَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى عن أيوبَ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ هذا من بابِ حُسْنِ الأدَبِ في السُّؤالِ والدُّعاءِ، فقولُ القائِلِ لِمَن يُعَظِّمُه ويَرغَبُ إليه: أنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٧).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ يقولُ: وتذكِرةً للعابدينَ رَبَّهم فعَلْنا ذلك به؛ لِيَعتَبِروا به ويعلَموا أنَّ الله قد يبتلي أولياءَه ومَن أحَبَّ مِن عبادِه في الدُّنيا بضُروبٍ مِنَ البلاءِ في نَفسِه وأهلِه ومالِه، مِن غَيرِ هوانٍ به عليه، ولكِنْ اختبارًا منه له؛ لِيَبلُغَ بصَبرِه عليه واحتِسابِه إيَّاه وحُسنِ يَقينِه، مَنزِلَتَه التي أعَدَّها له تبارك وتعالى مِنَ الكرامةِ عندَه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٧، ٣٦٨).

وقال ابنُ عاشور: (الذِّكرى: التذكيرُ بما هو مَظِنَّةٌ أن يُنسى أو يُغفَلَ عنه. وهو معطوفٌ على ﴿رَحْمَةً﴾ فهو مفعولٌ لأجلِه، أي: وتَنبيهًا للعابدينَ بأنَّ اللهَ لا يَترُكُ عِنايَتَه بهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٨).

جائِعٌ، أنا مريضٌ- حُسْنُ أدبٍ في السُّؤالِ، وإن كان في قَولِه: أطعِمْني وداوِني ونحوِ ذلك ممَّا هو بصيغةِ الطَّلَبِ- طَلَبٌ جازِمٌ مِن المَسؤولِ؛ فذاك فيه إظهارُ حالِه، وإخبارُه على وَجهِ الذُّلِّ والافتقارِ المتضَمِّنِ لسُؤالِ الحالِ، وهذا فيه الرَّغبةُ التامَّةُ والسؤالُ المحضُ بصيغةِ الطَّلَبِ[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ جَمَعَ أيوبُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في هذا الدُّعاءِ بينَ: حقيقةِ التَّوحيدِ، وإظهارِ الفَقرِ والفاقةِ إلى رَبِّه، ووجودِ طَعْمِ المحبةِ في المُتَمَلَّقِ له، والإقرارِ له بصِفةِ الرَّحمةِ، وأنَّه أرحَمُ الرَّاحمينَ، والتوسُّلِ إليه بصفاتِه سُبحانَه، وشِدَّةِ حاجتِه، وهو فَقرُه، ومتى وَجَدَ المُبتلَى هذا كُشِفَ عنه بَلواه[٢].

٣- قال العُلَماءُ: ولم يكُنْ قَولُ أيوبَ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ جَزَعًا؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤]، بل كان ذلك دُعاءً منه، والجَزَعُ في الشكوى إلى الخَلقِ لا إلى اللهِ تعالى، والدُّعاءُ لا يُنافي الرِّضا[٣]، ويَعقوبُ عليه السَّلامُ وعَدَ بالصَّبرِ الجَميلِ، فقال ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣]، والنبيُّ إذا وعَدَ لا يُخلِفُ، ثمَّ قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]؛ فالشَّكوى إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ لا تُنافي الصَّبرَ، وإنَّما ينافي الصَّبرَ شَكوى اللهِ[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّه تعالى فَعَل ذلك لكي يُتفكَّرَ فيه، فيكونَ داعيةً للعابدينَ في الصبرِ والاحتسابِ[٥]، فإنهم إذا ذكروا

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٧٦).

بلاءَ أيوبَ وصبرَه عليه ومحنتَه له، وهو أفضلُ أهلِ زمانِه، وطَّنوا أنفسَهم على الصبرِ على شدائدِ الدنيا نحوَ ما فعَل أيوبُ، فيكونُ هذا تنبيهًا لهم على إدامةِ العبادةِ، واحتمالِ الضررِ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أَلْطَفَ أيُّوبُ في السُّؤالِ؛ حيث ذكَرَ نفْسَه بما يُوجِبُ الرَّحمةَ، وذَكَرَ ربَّهُ بغايةِ الرَّحمةِ، ولم يُصرِّحْ بالمطلوبِ، ولم يُعيِّنِ الضُّرَّ الَّذي مَسَّه[(٢)].

٢- قَولُه تعالى هنا: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾، مع قَولِه تعالى في (ص): ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣]، فيه الدَّلالةُ الواضِحةُ على أنَّ أصحابَ العُقولِ السَّليمةِ مِن شَوائِبِ الاختِلالِ هم الذين يَعبُدونَ اللهَ وحْدَه ويُطيعونَه، وهذا يؤيِّدُ قولَ مَن قال مِن أهلِ العِلمِ: إنَّ مَن أوصى بشَيءٍ مِن مالِه لأعقَلِ النَّاسِ: أنَّ تلك الوَصيَّةَ تُصرَفُ لأتقَى النَّاسِ، وأشَدِّهم طاعةً لله تعالى؛ لأنَّهم هم أولو الألبابِ، أي: العُقولِ[(٣)].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

- التَّعبيرُ بالمَسِّ في قولِه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾ حِكايةٌ لِمَا سلَكَهُ أيُّوبُ في دُعائِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٧).

مِن الأدَبِ مع اللهِ؛ إذ جعَلَ ما حَلَّ به مِن الضُّرِّ كالمَسِّ الخفيفِ[١].

- الألِفُ واللَّامُ في ﴿ٱلضُّرُّ﴾ للجِنْسِ؛ فتعُمُّ الضُّرَّ في البدَنِ والأهْلِ والمالِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ لمَّا كان ثَناءُ أيُّوبَ تَعريضًا بالدُّعاءِ، فرَّعَ عليه قولَه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾، والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿فَٱسْتَجَبْنَا﴾ للمُبالَغةِ في الإجابةِ[٣].

- قولُه: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ﴾ الكشْفُ مُستعمَلٌ في الإزالةِ السَّريعةِ، وفيه تَشبيهٌ؛ شُبِّهَت إزالةُ الأمراضِ والأضرارِ المُتمكِّنةِ الَّتي يُعْتادُ أنَّها لا تَزولُ إلَّا بطُولٍ، بإزالةِ الغطاءِ عنِ الشَّيءِ في السُّرعةِ[٤].

- الموصولُ في قولِه: ﴿مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ مَقصودٌ منه الإبهامُ، ثمَّ تَفسيرُه بـ (مِنْ) البَيانيَّةِ؛ لقصْدِ تَهويلِ ذلك الضُّرِّ؛ لكثرةِ أنواعِه بحيث يَطولُ عَدُّها[٥].

- قولُه: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ وُصِفَتِ الرَّحمةُ بأنَّها من عندِ اللهِ؛ تَنويهًا بشأْنِها بذِكْرِ العِنديَّةِ الدَّالَّةِ على القُرْبِ المُرادِ به التَّفضيلُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٢٨).

- قولُه: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ فيه مِن العُمومِ بحيث صارتِ الجُملةُ تَذييلًا[١]، وخصَّ العابدينَ بالذكر؛ لأنَّهم يختصُّون بالانتفاعِ بذلك[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾، وقال في سُورةِ (ص): ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣]، فقال في الأُولى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾، وقال في الأُولى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ ووجْهُه: أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ في سُورةِ (الأنبياءِ) عن أيُّوبَ عليه السَّلامُ بأنَّه نادى ربَّه، وشكا إليه ما مَسَّه مِن الضُّرِّ؛ فكأنَّه لمَّا قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، قال: مَسَّني مِن عندك يا رَبِّ ما تَعلَمُ، وأنت الأكرَمُ الأرحَمُ، فقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ [الأنبياء: ٨٤]، أي: كما كان الضُّرُّ مِن عندنا، كان كشْفُه والرَّحمةُ مكانَه مِن عندنا.

وأمَّا قولُه هنا: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾، فالمعنى: فَعَلْنا به ما فَعلناهُ رَحمةً له مِنَّا، وتَذكِرةً لمَن عبَدَ اللهَ بعْدَه بإخلاصٍ منه، فلا يَحُولُ عن حَمْدِه وطاعتِه مع ما يُصَبُّ عليه من شَدائدِ الدُّنيا ومَصائبِها الَّتي يُنزِلُها اللهُ به، بلْ يثبُتُ معها على إدامةِ العبادةِ وإمدادِها بالزِّيادةِ، كما فعَلَه أيُّوبُ عليه السَّلامُ.

وأمَّا في سُورةِ (ص): فإنَّ اللهَ تعالى لمَّا أخبَرَ فيها عنه أنَّه قال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، وشَكا إلى اللهِ تعالى ما يَلحَقُه مِن أذى الشَّيطانِ بوَسوسَتِه إليه، أغاثَهُ اللهُ برَحمةٍ منه مُضافةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٧٦).

إليه، مُختصَّةٍ بإرادتهِ، فهذا فرْقُ ما بين قولِه: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الأنبياء: ٨٤] و﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ [ص: ٤٣]، وأيضًا لَمَّا بدَأَ القِصَّةَ بقولِه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا﴾، ختَمَ بقولِه: ﴿مِّنَّا﴾؛ لِيكونَ آخِرُ الآيةِ مُلائمًا لأوَّلِ الآيةِ.

وأمَّا قولُه: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣] فلِأنَّ أُولي الألبابِ أعَمُّ من العابدينَ، واستدفاعُ وَساوسِ الشَّيطانِ أعَمُّ من الاستشفاءِ للأبدانِ، فخَصَّ كلَّ آيةٍ بما اقتضاهُ صَدْرُ الكلامِ وتَعريضُ أيُّوبَ عليه السَّلامُ بالسُّؤالِ(١).

- وفيه وَجْهٌ آخرُ: أنَّه لمَّا ورَدَ في الأنبياءِ تلطُّفُ أيُّوبَ عليه السَّلامُ بقولِه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فلمَّا تلطَّفَ في سُؤالِه، ولم يُفصِحْ عليه السَّلامُ تلطُّفًا وتَضرُّعًا بعظيمِ ما أصابَهُ من البَلاءِ إفصاحَهُ في آيةِ (ص) بقولِه: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، فبُنِيَ كلٌّ من الآيتينِ على ما يُناسِبُه، فقيل جوابًا على عظيمِ تَضرُّعِه وتلطُّفِه في قولِه: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ ما يُلائِمُ لَطيفَ هذه الشَّكوى، وعلى قولِه: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ما يُناسِبُ إفصاحَه بهذه الْبَلوى، فقيل بِناءً على الأوَّلِ: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾، وقيل بِناءً على الثَّانيةِ: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢]، لمَّا وقَعَ ذِكْرُ الشَّيطانِ، وأنَّه السَّببُ في ذلك الامتحانِ، جُووِبَ باستعمالِ سبَبٍ فقيل له: اركُضْ برِجْلِك واغتسِلْ، وذلك يُذهِبُ عنك ما مسَّكَ به الشَّيطانُ. وحين لم يَذكُرْ عليه السَّلامُ واسطةً، جُووِبَ برَفْعِ ما به بغيرِ واسطةِ سبَبٍ، فقيل جوابًا لقولِه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾. وبُنِي على الأوَّلِ قولُه: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾؛ لتمكُّنِ (عندَ) فيما قصَد، وعلى الثاني: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾؛ إذ ليس موقعُها موقعَ ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾. ثم قيل في

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٠٧- ٩١١).

الأُولَى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ مناسبةً لما تقدَّم، وقيل في الثانيةِ: ﴿لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مناسبةً أيضًا؛ إذ اعتبارُ أولي الألبابِ يُورثُهم مقامَ العابدينَ، وهو أسنَى مقامٍ، وقد جرَى معَ (كل) مقامٍ ما يناسِبُه[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٥٠، ٣٥١).

الآيات (٨٥-٨٨)

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: أي: نُضَيِّقَ عليه، مِن قَولِهم: قَدَرْتُ على فُلانٍ: إذا ضَيَّقْتَ عليه، وقيل: نَقْدِرُ: بمعنى نُقَدِّرُ، والمعنى لن نُقَدِّرَ عليه ما قَدَّرْنا مِن كَونِه في بطنِ الحوتِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: واذكُرْ -يا محمَّدُ- إسماعيلَ وإدريسَ وذا الكِفْلِ، كُلُّ هؤلاء من الصَّابرينَ، فاستحَقُّوا الذِّكرَ بالثَّناءِ الجَميلِ، وأدخَلْناهم في رَحمَتِنا؛ إنَّهم من الصَّالحينَ الجامِعينَ لخِصالِ الخَيرِ.

واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- صاحِبَ الحُوتِ؛ يُونُسَ عليه السَّلامُ، إذ خرَجَ مِن قَومِه غاضِبًا عليهم؛ لعدَمِ إيمانِهم، فظَنَّ يُونُسُ أنَّنا لن نُعاقِبَه هذه العُقوبةَ، فنُضَيِّقَ عليه بحَبسِه في بَطنِ الحُوتِ، فنادى رَبَّه في الظُّلُماتِ تائبًا مُعترِفًا بظُلمِه، قائلًا: لا إلهَ إلَّا أنت سُبحانَك، إنِّي كنتُ مِن الظَّالِمينَ. فاستجَبْنا له دُعاءَه، وخلَّصْناه مِن الغَمِّ والشِّدَّةِ، وكما نجَّيْنا يونُسَ مِن غَمِّه حين دَعانا، كذلك نُنْجِي المؤمِنينَ مِن

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٧)، ((تفسير الطبري)) (١٦/ ٣٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/ ٧٧)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٣/ ٣٧٣).

كُرَبِهم وهمومِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى صبرَ أيوبَ عليه السَّلامُ وانقطاعَه إليه؛ أتبَعَه بذِكرِ هؤلاء؛ فإنَّهم كانوا أيضًا مِن الصَّابرينَ على الشَّدائِدِ والمِحَنِ والعبادةِ[1].

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- إسماعيلَ بنَ إبراهيمَ، وإدريسَ، وذا الكِفْلِ[2].

﴿كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٨، ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩).

اختَلَف العلماءُ في ذي الكِفْلِ، هل هو نبيٌّ أم لا؟ فذهب الواحديُّ والشوكاني -ونسَبه للجمهورِ- إلى أنَّه ليس نبيًّا. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٩٦).

وممن قال بذلك مِن السلفِ: أبو موسى الأشعري، ومجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٧١)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧).

وذهب الرازي، وابنُ كثير، والعُليمي، والسعدي إلى أنَّه نبيٌّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩).

قال ابن كثير: (وأمَّا ذو الكِفْلِ فالظَّاهرُ مِنَ السِّياقِ أنَّه ما قُرِنَ معَ الأَنبياءِ إلَّا وهو نَبِيٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٣).

وممن قال بذلك مِن السلفِ: الحسنُ، وعطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧).

وتوقَّفَ ابنُ جرير في ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٨).

ويُنظر في سببِ تسميتِه بذلك: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧).

أي: كلٌّ منهم مِن الصَّابرينَ على الابتلاءاتِ، وعلى فِعلِ الطَّاعاتِ، واجتنابِ السَّيِّئاتِ[١].

﴿ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦ ﴾.

﴿ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآ ﴾.

أي: وأدخَلْنا إسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفلِ في رَحمتِنا[٢].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((احتَجَّت النَّارُ والجَنَّةُ، فقالت هذه: يَدخُلُني الجبَّارونَ والمتكبِّرون، وقالت هذه: يدخُلُني الضُّعَفاءُ والمساكينُ، فقال اللهُ عَزَّ وجَلَّ لهذه: أنتِ عذابي أعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ -وربما قال: أصيبُ بكِ مَن أشاءُ، وقال لهذه: أنتِ رحمتي أرحَمُ بكِ من أشاءُ، ولكُلِّ واحدةٍ منكما مِلؤُها))[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٨).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿رَحۡمَتِنَآ﴾ هنا: الجنَّةُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: يحيى بنُ سلام، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٨).

وقيل: المرادُ بها: النبوةُ. وممن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، والعُليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٨٣).

وممن جمَع بينَ القولينِ السابقينِ، فقال: المرادُ بها: النُبُوَّةُ والجنَّةُ: الواحدي، والبغوي، والخازنُ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٤٠).

(٣) رواه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) واللفظ له.

﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: أدخَلْناهم في رَحمَتِنا؛ لأنَّهم مِنَ الكامِلينَ في الصَّلاحِ، الجامِعينَ لخِصالِ الخَيرِ، المُطِيعينَ لله[1].

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- يُونُسَ صاحِبَ الحُوتِ حينَ ذَهَب غاضِبًا على قَومِه مِن أجْلِ رَبِّه؛ لِكُفرِهم به، وعِصيانِهم له، بعدَما دعاهم إليه[2].

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾.

أي: فظَنَّ يُونُسُ أنَّنا لن نُعاقِبَه هذه العُقوبةَ، فنُضَيِّقَ عليه بحَبسِه في بَطنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٩٦).

قال السمعاني: (الصلاحُ اسمٌ يجمعُ جميعَ خِصالِ الخيرِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٠ - ٢٤٢).

قال الرازي: (لا خِلافَ في أنَّ ذا النُّونِ هو يونُسُ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ النونَ هو السَّمَكةُ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٧٨).

وقال ابن كثير: (يونُسُ بنُ مَتَّى عليه السَّلامُ بَعَثه الله إلى أهلِ قَريةِ «نِينَوى»، وهي قريةٌ مِن أرضِ المَوصِلِ، فدعاهم إلى اللهِ، فأبَوا عليه وتمادَوا على كُفرِهم؛ فخرج مِن بينِ أظهُرِهم مُغاضِبًا لهم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٦).

وقال ابنُ جُزي: (أدركَه ضَجَرٌ منهم، فخرج عنهم؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، ولا يَصِحُّ قَولُ مَن قال: مُغاضِبًا لرَبِّه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨).

الحُوتِ[١].

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فنادَى يونُسُ رَبَّه وهو في الظُّلُماتِ[٢] فقال: لا إلهَ إلَّا أنتَ، أُنَزِّهُك عن

---

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٠-٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٠).

قال الشنقيطي: (وقولُه: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ فيه وجهانِ مِن التَّفسيرِ لا يُكَذِّبُ أحدُهما الآخَرَ:

الأوَّلُ: أنَّ المعنى: لن نَقدِرَ عليه، أي: لن نضَيِّقَ عليه في بطنِ الحُوتِ، ومِن إطلاقِ «قَدَرَ» بمعنى «ضَيَّقَ» في القرآنِ قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] أي: ويضَيِّقُ الرِّزقَ على من يشاءُ...

الوجه الثاني: أنَّ معنى ﴿لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾: لن نَقضِيَ عليه ذلك، وعليه: فهو من القَدَرِ والقَضاءِ. «وقَدَرَ» بالتخفيفِ تأتي بمعنى «قَدَّرَ» المضَعَّفة، ومنه قَولُه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢] أي: قَدَّرَه الله). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٤٠).

وقال ابنُ عاشور: (وعندي فيه تأويلانِ آخرانِ، وهما: أنَّه ظَنَّ وهو في جَوفِ الحُوتِ أنَّ اللهَ غَيرُ مُخَلِّصِه في بَطنِ الحُوتِ؛ لأنَّه رأى ذلك مُستحيلًا عادةً، وعلى هذا يكونُ التَّعقيبُ بحَسَبِ الواقِعةِ، أي: ظَنَّ بعد أن ابتَلَعه الحوتُ، وأمَّا نداؤُه رَبَّه فذلك توبةٌ صدَرَت منه عن تقصيرِه أو عَجَلتِه، أو خَطأِ اجتهادِه؛ ولذلك قال: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ مبالغةً في اعترافِه بظُلمِ نَفسِه،... أو أنَّه ظَنَّ بحَسَبِ الأسبابِ المعتادةِ أنَّه يُهاجِرُ مِن دارِ قَومِه، ولم يظُنَّ أنَّ الله يَعوقُه عن ذلك؛ إذ لم يسبِقْ إليه وحيٌ مِنَ اللهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣١، ١٣٢).

(٢) قال ابن جرير: (لا شَكَّ أنَّه قد عنى بإحدى الظُّلُماتِ: بَطنَ الحوتِ، وبالأُخرَى: ظُلمةَ البحرِ، وفي الثالثةِ اختلافٌ، وجائزٌ أن تكون تلك الثالثةُ ظُلمةَ الليل، وجائِزٌ أن تكون كونَ الحوتِ في جوفِ حُوتٍ آخر. ولا دليلَ يدُلُّ على أيِّ ذلك مِن أيٍّ، فلا قَولَ في ذلك أولى بالحَقِّ مِن التَّسليمِ لظاهِرِ التنزيلِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٣، ٣٨٤).

وقال القرطبي: (يصِحُّ أن يُعبَّرَ بالظُّلُماتِ عن جوفِ الحُوتِ الأولِ فقط، كما قال: ﴿فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠] وفي كل جِهاتِه ظُلمةٌ، فجَمْعُها سائِغٌ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٣).

وقيل: المراد بالظُّلُمات: ظلمةُ الحوتِ والبَحرِ واللَّيلِ. نسبه الرسعني لأكثر المفسرين، وممن =

جَميعِ النَّقائِصِ والعُيوبِ، إنِّي كُنتُ ظالِمًا لِنَفسي بمَعصِيتِك حينَ خَرَجْتُ مِن قَومي[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ * فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٤].

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾.

أي: فأجَبْنا دُعاءَ يُونُسَ، ونَجَّيْناه مِن الغَمِّ والشِّدَّةِ التي وقَعَ فيها، فأخرَجْناه مِن بَطنِ الحُوتِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٥، ١٤٦].

= قال به: ابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٢).

وممن ذهب إلى هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، والضحاكُ، والحسنُ، وعمرُو بنُ ميمون، وابنُ جُرَيجٍ، ومحمدُ بنُ كعبٍ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٢).

قال القرطبي: (﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يريدُ فيما خالفَ فيه مِن تَرْكِ مُداومةِ قومِه والصَّبرِ عليهم. وقيل: في الخروجِ مِن غيرِ أن يُؤذَنَ له). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: وكما نجَّيْنا يونُسَ مِن غَمِّه حين دَعانا، كذلك نُنْجِي المؤمِنينَ مِن غُمومِهم وكُرَبِهم إذا دَعَونا بإخلاصٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((دَعوةُ ذي النُّونِ إذ دعا وهو في بَطنِ الحُوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فإنَّه لم يَدْعُ بها رجُلٌ مُسلِمٌ في شَيءٍ قَطُّ إلَّا استجابَ اللهُ له))(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دَعوةُ ذي النُّونِ فيها مِن كَمالِ التَّوحيدِ والتَّنزيهِ للرَّبِّ تعالى، واعترافِ العَبدِ بظُلمِه وذَنبِه، ما هو مِن أبلَغِ أدويةِ الكَربِ والهَمِّ والغَمِّ، وأبلَغِ الوسائِلِ إلى اللهِ سُبحانَه في قَضاءِ الحوائِجِ؛ فإنَّ التَّوحيدَ والتَّنزيهَ يتضَمَّنانِ إثباتَ كُلِّ كَمالٍ لله، وسَلْبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٤٩٢)، وأحمد (١٤٦٢).

حسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٤/ ٩٣)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٧١): (رجالُه رجالُ الصحيح غير إبراهيمَ بنِ محمد بن سعدِ بن أبي وقاصٍ، وهو ثقةٌ)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/ ٣٦)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٠٥).

كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ وتَمثيلٍ عنه- والاعتِرافَ بالظُّلمِ يتضَمَّنُ إيمانَ العَبدِ بالشَّرعِ والثَّوابِ والعِقابِ، ويُوجِبُ انكِسارَه ورُجوعَه إلى اللهِ، واستقالتَه عَثرَتَه، والاعترافَ بعُبوديَّتِه، وافتقارَه إلى رَبِّه، فهاهنا أربعةُ أمورٍ قد وقع التوسُّلُ بها: التَّوحيدُ، والتَّنزيهُ، والعُبوديَّةُ، والاعتِرافُ[١].

٢- في قَولِه تعالى عن يونُسَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ التَّهليلَ والتَّسبيحَ يَجْليانِ الغُمومَ، ويُنجِيانِ مِن الكرْبِ والمصائِبِ، فحقيقٌ على مَن آمَنَ بكتابِ اللهِ أنْ يجعَلَها ملجأً في شَدائِدِه، ومَطيَّةً في رَخائِه؛ ثِقةً بما وَعدَ اللهُ المؤمنينَ مِن إلحاقِهم بذي النُّونِ في ذلك؛ حيث يقولُ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ترغيبٌ للمُؤمِنينَ في الإيمانِ؛ بالثَّباتِ عليه، والازديادِ منه؛ إذْ عَلِموا نجاةَ المُؤمِنينَ السَّابِقينَ[٣]. وهو وَعدٌ وبِشارةٌ لكُلِّ مُؤمِنٍ وقَعَ في شِدَّةٍ وغَمٍّ أنَّ اللهَ تعالى سيُنجيه منها، ويَكشِفُ عنه ويخَفِّفُ؛ لإيمانِه، كما فعَل بيُونسَ عليه السَّلامُ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (المقدمة/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩).

جمَع هؤلاءِ الثَّلاثةَ في سِلكٍ واحدٍ؛ لاشتراكِهم في خَصيصةِ الصَّبرِ، كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، جرَى ذلك لمناسبةِ ذكرِ المثلِ الأشهرِ في الصبرِ، وهو أيوبُ عليه السلامُ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى عن يونُسَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعترافٌ بالذَّنبِ، وهو يتضَمَّنُ طَلَبَ المَغفِرةِ؛ فإنَّ الطَّالِبَ السَّائِلَ تارةً يَسأَلُ بصيغةِ الطَّلَبِ، وتارةً يَسأَلُ بصيغةِ الخَبَرِ: إمَّا بوَصفِ حالِه، وإمَّا بوَصفِ حالِ المَسؤولِ، وإمَّا بوَصفِ الحالَينِ؛ كقَولِ نُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، فهذا ليس صيغةَ طَلَبٍ، وإنَّما هو إخبارٌ عن اللهِ أنَّه إنْ لم يغفِرْ له ويرحَمْه خَسِرَ، ولكِنَّ هذا الخبَرَ يتضَمَّنُ سُؤالَ المَغفِرةِ، وكذلك قَولُ آدَمَ عليه السَّلامُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] هو مِن هذا البابِ، ومِن ذلك قَولُ موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤]؛ فإنَّ هذا وَصفٌ لحالِه بأنَّه فَقيرٌ إلى ما أنزَلَ اللهُ إليه مِنَ الخيرِ، وهو متضَمِّنٌ لِسُؤالِ اللهِ إنزالَ الخَيرِ إليه[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

- جُملةُ: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ استئنافٌ وقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ مِن الأمْرِ بذِكْرِهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٢).

٢- قوله تعالى: ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

- قَوْله: ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ﴾ أبلغ من قَوْله: (ورحمناهم)؛ لِأَن قَوْله: ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ﴾ يَقْتَضي أنَّهم غُمِروا بالرَّحْمَةِ، وقَولُه: (ورحمناهم) يَقْتَضِي أنَّه أصابَهم رحمتَه[١].

- جُملةُ: ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تَعليلٌ لإدخالِهم في الرَّحمةِ، وتَذييلٌ للكلامِ يُفِيدُ أنَّ تلك سُنَّةُ اللهِ مع جَميعِ الصَّالحينَ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

- قولُه: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ...﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ، أي: فكان ما كان مِن المُساهَمةِ والْتِقامِ الحوتِ، فنادَى... إلخ[٣].

- ولَفظةُ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جاءتْ جمْعًا؛ قيل: لشِدَّةِ تَكاثُفِها، فكأنَّها ظُلمةٌ مع ظُلمةٍ[٤]. وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

- وجُملةُ: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾ تَفسيريَّةٌ؛ لأنَّه سبَقَ قولُه: ﴿فَنَادَىٰ﴾[٥].

- قولُه: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مُبالَغةٌ في اعترافِه بظُلْمِ نَفْسِه؛ حيث أسنَدَ إليه فِعْلَ الكونِ الدَّالَّ على رُسوخِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٢).

الوَصْفِ، وجعَلَ الخبَرَ أنَّه واحدٌ مِن فَريقِ الظَّالمينَ، وهو أدَلُّ على أرْسخيَّةِ الوَصْفِ. وتَقْديمُه الاعترافَ بالتَّوحيدِ مع التَّسبيحِ كَنَّى به عن انفرادِ اللهِ تعالى بالتَّدبيرِ، وقُدرتِه على كلِّ شَيءٍ[١].

٤- قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

- السِّينُ والتَّاءُ في ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ للمُبالَغةِ في الإجابةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تَذييلٌ، والإشارةُ بـ (كَذَلِكَ) إلى الإنجاءِ الَّذي أنْجَى به يُونسَ، أي: مثْلَ ذلك الإنجاءِ نُنْجِي المُؤمِنينَ. وفي هذا تَعريضٌ للمُشرِكينَ من العرَبِ بأنَّ اللهَ مُنْجِي المُؤمِنينَ من الغَمِّ والنَّكدِ الَّذي يُلاقونَه من سُوءِ مُعامَلةِ المُشرِكين إيَّاهم في بِلادِهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٨٩-٩٠)

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَغَبٗا وَرَهَبٗا﴾: أي: راغِبينَ في الجنَّةِ، وخائِفينَ مِن النَّارِ، وأصلُ (رغب): يدُلُّ على طَلَبٍ لِشَيءٍ. وأصلُ (رهب): يدُلُّ على خَوفٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى: واذكُرْ -يا محمَّدُ- زكريَّا حين دعا رَبَّه قائِلًا: رَبِّ، لا تترُكْني وَحيدًا لا عَقِبَ لي، وهَبْ لي وارِثًا يقومُ بأمرِ الدِّينِ في النَّاسِ مِن بَعدي، وأنت خَيرُ الباقينَ وخَيرُ مَن يخلُفُني بخيرٍ. فاستجَبْنا له دُعاءَه، ووهَبْنا له ولَدًا اسمُه يَحيى، وجعَلْنا زوجَتَه وَلُودًا صالحةً للحَملِ والولادةِ؛ إنَّ زكريَّا وزَوجَه ويحيَى كانوا يُبادِرونَ إلى فِعلِ الطَّاعاتِ وكُلِّ خَيرٍ، ويَدْعُونَنا راغِبينَ فيما عِندَنا، خائِفينَ مِن عذابِنا، وكانوا لنا خاضِعينَ مُتواضِعينَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان حاصِلُ أمرِ يونُسَ عليه السَّلامُ أنَّه خَرَج مِن بَطنٍ لم يُعهَدِ الخُروجُ مِن مِثلِه، عَطَف عليه قِصَّةَ زكريَّا عليه السَّلامُ في هِبَتِه له ولَدًا مِن بَطنٍ لم يُعهَدِ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٥) (٢/ ٤٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١٨١).

الحَملُ مِن مِثلِه، في العُقمِ واليَأسِ[١].

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدًا﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- زكريَّا حينَ نادَى رَبَّه، فقال: رَبِّ، لا تترُكْني وَحيدًا بلا وَلَدٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ * إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبًا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٢ - ٦].

﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾.

أي: فارزُقْني وارِثًا مِن نَسلي يَقومُ بالدِّينِ مِن بَعدي، وأنت خيرُ الباقينَ بعدَ مَوتِ العبادِ، وخَيرُ مَن يخلُفُني بخَيرٍ، وأنا أعلمُ أنَّك لن تُضَيِّعَ دينَك، ولكِنْ لا تَقطَعْ فَضيلةَ القيامِ بأمرِ الدِّينِ وهِبةِ العِلمِ والحِكمةِ عَن عَقِبي[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٧، ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).
ونسب الماوردي هذا القولَ المذكورَ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٦٨، ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).
قال الرازي: (أمَّا قولُه: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ ففيه وجهانِ: أحدُهما: أنَّه عليه السَّلامُ إنَّما ذَكَره في جملةِ دعائِه على وجهِ الثَّناءِ على ربِّه؛ ليكشِفَ عن علمِه بأنَّ مآلَ الأمورِ إلى اللَّه تعالَى. والثَّاني: كأنَّه عليه السَّلامُ قالَ: إنْ لم ترزُقْني مَن يرثُني فلا أُبالي؛ فإنَّكَ خيرُ وارثٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٨٢).

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾.

أي: فاستَجَبْنا لزكريَّا دُعاءَه، ورَزَقْناه ولَدًا اسمُه يحيى[(١)].

كما قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾.

أي: وأصلَحْنا لزكريَّا امرأتَه العقيمَ، فجعَلْناها وَلودًا صالِحةً للحَملِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٨)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٦).

نسَب الواحدي القولَ بأنَّ المرادَ بإصلاحِ زوجِه أنَّها كانت عاقِرًا فجَعَلها اللَّهُ وَلودًا- نسبه إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١٧٩).

قال الشنقيطي: (فهذا الإصلاحُ هو كونُها صارت تَلِدُ بعد أن كانت عقيمًا. وقَولُ مَن قال: إنَّ إصلاحَها المذكورَ هو جَعلُها حَسَنةَ الخُلُقِ بعد أن كانت سَيِّئةَ الخُلُقِ: لا ينافي ما ذُكِرَ؛ لجوازِ أن يجمَعَ له بين الأمرينِ فيها، مع أنَّ كونَ الإصلاحِ هو جَعْلَها ولودًا بعد العُقمِ هو ظاهِرُ السِّياقِ، وهو قَولُ ابنِ عبَّاسٍ، وسعيدِ بنِ جُبيرٍ، ومجاهدٍ، وغَيرِهم. والقَولُ الثَّاني يُروى عن عطاءٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٦٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٢).

وممن اختار الجمعَ بين القولين السابقين: ابن جرير، والسمرقندي، والعُليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٤٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٢).

قال ابن جرير: (والصوابُ مِنَ القَولِ في ذلك أن يُقالَ: إنَّ اللهَ أصلَحَ لزكريَّا زَوجَه، كما =

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

أي: إنَّ زكريَّا وزَوجَه ويحيَى كانوا يُبادِرونَ إلى فِعلِ الطَّاعاتِ، وما يُقرِّبُهم إلينا(١).

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.

أي: وكانوا يَدْعُوننا(٢)؛ رَغبةً منهم في ثوابِ اللهِ ورَحمتِه، ورَهبةً مِن عذابِه وغَضَبِه(٣).

= أخبَرَ تعالى ذِكرُه، بأن جعَلَها وَلُودًا حَسَنةَ الخُلُقِ؛ لأنَّ كُلَّ ذلك من معاني إصلاحِه إيَّاها، ولم يَخْصُصِ اللهُ جلَّ ثناؤه بذلك بَعضًا دونَ بَعضٍ في كتابِه، ولا على لِسانِ رَسولِه، ولا وضَعَ على خصوصِ ذلك دَلالةً؛ فهو على العُمومِ ما لم يأتِ ما يَجِبُ التَّسليمُ له بأنَّ ذلك مرادٌ به بعضٌ دونَ بَعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

(٢) قيل: المرادُ بالدُّعاءِ هنا: المسألةُ. وممن ذهَب إلى هذا المعنى: القرطبي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٧).

وقيل: المراد بالدُّعاءِ في هذا الموضع: العبادةُ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٩).

قال ابنُ جرير: (وعنى بالدُّعاءِ في هذا الموضِعِ: العِبادةَ، كما قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٩).

وممن جمَع بينَ معنيَي الدُّعاءِ: ابنُ عُثيمين. فقال: (في هذه الآيةِ الكريمة وصَفَ اللهُ تعالى الخُلَّصَ من عبادِه بأنَّهم يَدْعُونَ الله تعالى رغَبًا ورَهَبًا مع الخُشوعِ له، والدُّعاءُ هنا شامِلٌ لدُعاء العبادةِ ودُعاءِ المسألة). ((شرح ثلاثة الأصول)) (ص: ٦٠).

وقال ابنُ عطية: (المعنى أنَّهم يَدْعون في وقتِ تعبُّدِهم، وهم بحالِ رغبةٍ ورجاءٍ، ورهبةٍ وخوفٍ في حالٍ واحدةٍ؛ لأنَّ الرغبةَ والرهبةَ متلازمان). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٧).

﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

أي: وكانوا لنا مُتواضِعينَ خاضِعينَ، مُتذَلِّلينَ لا يَستكبِرونَ عن عبادتِنا ودُعائِنا، قد انكَسَرت قلوبُهم لله، وسكَنَت عن الالتِفاتِ إلى غَيرِه[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ بَعدَما كانت عاقِرًا، لا يَصلُحُ رَحِمُها للوِلادةِ، فأصلَحَ اللهُ رَحِمَها للحَملِ؛ لأجْلِ نَبيِّه زكريَّا، وهذا من فوائِدِ الجَليسِ والقَرينِ الصَّالحِ؛ أنَّه مُبارَكٌ على قَرينِه[٢].

٢- قال تعالى: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ فهُم يَدْعونَ الله رغبةً فيما عندَه، وطَمَعًا في ثوابِه، معَ خوفِهم مِن عقابِه وآثارِ ذُنوبِهم، والمؤمِنُ ينبغي أن يسعى إلى الله تعالى بين الخَوفِ والرَّجاءِ، ويُغَلِّب الرَّجاءَ في جانِبِ الطَّاعةِ لِيَنشطَ عليها ويؤَمِّلَ قَبولَها، ويُغَلِّب الخَوفَ إذا هَمَّ بالمعصيةِ لِيَهرَبَ منها، وينجوَ مِن عِقابِها[٣].

٣- الدِّينُ كُلُّه رَغبةٌ ورَهبةٌ؛ فالمؤمِنُ هو الرَّاغِبُ الرَّاهِبُ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾، وفي الدُّعاءِ عند النَّومِ: ((اللهُمَّ أسلَمْتُ نَفسي إليك، ووجَّهتُ وَجهي إليك، وفوَّضت أمري إليك،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٠)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٠)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٦/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).
قال ابنُ القيِّم: (الخشوعُ في أصلِ اللُّغةِ: الانخِفاضُ، والذُّلُّ، والسُّكونُ... وأجمع العارِفونَ على أنَّ الخُشوعَ محَلُّه القلبُ، وثَمَرتُه على الجوارِحِ، وهي تُظهِرُه). ((مدارج السالكين)) (١/ ٥١٦، ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٦٠).

وألجأتُ ظَهري إليك؛ رَغبةً ورَهبةً إليك))[١]، فلا تجِدُ المؤمِنَ أبدًا إلَّا راغِبًا وراهِبًا، والرَّغبةُ والرَّهبةُ لا تقومُ إلَّا على ساقِ الصَّبرِ؛ فرَهبتُه تَحمِلُه على الصَّبرِ، ورَغبتُه تقودُه إلى الشُّكرِ[٢].

٤- مِن أنواعِ العِباداتِ التي يَظهَرُ فيها الذُّلُّ والخُشوعُ لله عزَّ وجَلَّ: الدُّعاءُ؛ قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾، فمِمَّا يَظهَرُ فيه الذُّلُّ مِنَ الدُّعاءِ: رَفْعُ اليَدينِ، وافتقارُ القَلبِ في الدُّعاءِ، وانكِسارُه لله عزَّ وجَلَّ، واستِشعارُه شِدَّةَ الفاقةِ إليه والحاجةِ، وإظهارُ الذُّلِّ باللِّسانِ في نَفسِ السُّؤالِ، والدُّعاءُ والإلحاحُ فيه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ يدُلُّ على أنَّ (الواو) لا تُفيدُ التَّرتيبَ؛ لأنَّ إصلاحَ الزَّوجِ مُقَدَّمٌ على هِبةِ الوَلَدِ، مع أنَّه تعالى أخَّرَه في اللَّفظِ[٤].

٢- كان أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِي اللهُ عنه يقولُ في خُطبتِه: (أمَّا بَعدُ، فإنِّي أُوصيكم بتَقوى اللهِ، وأن تُثْنوا عليه بما هو أهلُه، وأن تَخلِطوا الرَّغبةَ بالرَّهبةِ، وتَجمَعوا الإلحافَ بالمسألةِ؛ فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أثنى على زكريَّا وأهلِ بَيتِه، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٨٨) واللفظ له، ومسلم (٢٧١٠) من حديث البَراء بن عازبٍ رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٨٢).

لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾)[١].

٣- الصُّوفيَّةُ بَعضُهم أو كثيرٌ منهم يُبالِغونَ في تعظيمِ مَقامِ المحبَّةِ، ولا يُعَظِّمونَ مَقامَ الرَّجاءِ والخَوفِ، بل ربَّما استَنقَصوا مقامَ الرَّجاءِ والخَوفِ، وهذا من أغلاطِهم، كما يُروى عن بَعضِهم قَولُه: (أنا لا أعبدُ اللهَ حُبًّا ورَغبَةً في جنَّتِه، ولا خَوفًا مِن نارِه)! بمعنى: أنَّه لا يَعبُدُه إلَّا بدافِعِ الحبِّ فقط، وهذا غَلَطٌ؛ فالله تعالى أمَرَ بخَوفِه ورجائِه، وأثنى على أوليائِه بالخَوفِ والرَّجاءِ، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[٢].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

- جُملةُ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ: ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، وأطلَقَ الفَرْدَ على مَن لا ولَدَ له؛ تَشبيهًا له بالمُنفرِدِ الَّذي لا قَرينَ له، فشَبَّهَ مَن لا ولَدَ له بالفَرْدِ؛ لأنَّ الولَدَ يُصَيِّرُ أباهُ كالشَّفعِ؛ لأنَّه كجُزءٍ منه[٣].

- قولُه: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ ثَناءٌ لتَمهيدِ الإجابةِ، أي: أنت الوارِثُ الحقُّ؛ فاقْضِ عليَّ مِن صِفَتِك العَلِيَّةِ شيئًا، ودَلَّ ذِكْرُ ذلك على أنَّه سأَلَ الولَدَ لأجْلِ أنْ يَرِثَه كما في آيةِ سُورةِ (مَريمَ): ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم: ٦]، وحُذِفَت هاتِه الجُملةُ؛ لدَلالةِ المَحْكيِّ هنا عليها[٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٥٨) (٣٥٥٧٢)، وأبو نعيم في ((الحلية)) (١/ ٣٥)، والحاكم (٣٤٤٧) وصحَّح إسناده.

(٢) يُنظر: ((شرح كلمة الإخلاص)) لابن رجب (ص: ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ تَعليلٌ لِمَا فُصِّلَ مِن فُنونِ إحسانِه تعالى المُتعلِّقةِ بالأنبياءِ المَذْكورينَ، أي: كانوا يُبادِرونَ في وُجوهِ الخيراتِ مع ثَباتِهم واستقرارِهم في أصْلِ الخيرِ، وهو السِّرُّ في إيثارِ كَلمةِ (فِي) على كَلمةِ (إلى) المُشعِرةِ بخِلافِ المقصودِ، مِن كَونِهم خارِجينَ عن أصْلِ الخَيراتِ مُتوجِّهينَ إليها[١].

- وحَرْفُ التَّأكيدِ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ مُفِيدٌ مَعنى التَّعليلِ والتَّسبُّبِ، وأفاد فِعْلُ الكَونِ أنَّ ذلك كان دأْبَهم وهِجِّيراهم[٢].

- قولُه: ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ وَصْفٌ لمَصدرِ (يَدْعُونَنَا)؛ لبَيانِ نَوعِ الدُّعاءِ بما هو أعَمُّ في جِنْسِه، أو يُقدَّرُ مُضافٌ، أي: ذَوي رغَبٍ ورهَبٍ؛ فيكونُ مِن إقامةِ المُضافِ إليه مُقامَه، فأخَذَ إعرابَه[٣].

- وذكَرَ فِعْلَ الكَونِ أيضًا في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾؛ لإفادةِ أنَّ ذلك كان دأْبَهم وهِجِّيراهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))(١٧/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٩١-٩٤)

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ أي: اختَلَفوا، وتفرَّقوا، وأصلُ (قطع): يدُلُّ على صَرمٍ، وإبانةِ شيءٍ مِن شيءٍ[1].

﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾: أي: لاجحودَ لعملِه، ولا تضييعَ لجزائِه، وأصلُ (كفر): يدلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ، والسعيُ: المشيُ السريعُ، وأكثرُ ما يُستعمَلُ في الأفعالِ المحمودةِ[2].

مشكلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾

قَولُه: ﴿أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾: ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾ خبرُ لـ ﴿إِنَّ﴾، ونُصِبَ ﴿أُمَّةٗ﴾ على الحالِ من ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾، أو نُصِبَ على البدَلِ مِن ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾، فيكونُ قد فُصِلَ بالخبَرِ بين البَدَلِ والمُبدَلِ منه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٠٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري =

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- مَريمَ التي حَفِظَت فَرْجَها مِنَ الحَرامِ، فأرسلَ اللهُ إليها جِبريلَ عليه السَّلامُ، فنفخَ في جَيبِ قَميصِها، فوصَلَت النَّفخةُ إلى فَرجِها، فحَمَلت بعِيسى عليه السَّلامُ، وجعَلها الله هي وابنَها علامةً للناسِ تدلُّهم على قُدرتِه.

إنَّ مِلَّةَ الإسلامِ أيُّها الناسُ هي مِلَّتُكم الَّتي يَجِبُ أن تكونوا عليها لا تنحرِفونَ عنها، مِلَّةً واحِدَةً غيرَ مختلفةٍ. واللهُ سُبحانَه وتعالى ربُّكم فاعبُدوه -أيُّها النَّاسُ- وَحْدَه لا شَريكَ له. لكِنَّ النَّاسَ تفرَّقوا في الدِّينِ شِيَعًا وأحزابًا، وكُلُّهم راجِعونَ إلينا ومُحاسَبونَ على ما فَعَلوا. فمَن عَمِلَ مِن صالحِ الأعمالِ طاعةً لله وعبادةً له وهو مُؤمِنٌ، فلا يُضِيعُ اللهُ عَمَلَه ولا يُبطِلُه، بل يُثيبُه عليه يومَ القيامةِ، وإنَّا نكتُبُ أعمالَه الصَّالِحةَ كُلَّها، وسيَجِدُ ما عَمِلَه في كتابِه يومَ يُبعَثُ بعدَ مَوتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ أنَّه خَرَق العادةَ في إبداعِ يحيى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بينَ والِدَينِ لا يُولَدُ لِمِثلِهما، تلاه بإبداعِ ابنِ خالتِه عيسى عليه السَّلامُ الذي هو عَلَمٌ للسَّاعةِ، على حالٍ أغرَبَ مِن حالِه، فأخرَجَه مِن أُنثى بلا ذَكَرٍ[1]، فقال تعالى:

= (٢/ ٩٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ١٩٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٧٠).

قال ابن كثير: (هكذا قرن تعالى قِصَّةَ مَريمَ وابنِها عيسى عليه السَّلامُ بقِصَّةِ زكريَّا وابنِه يحيى =

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- مَريمَ التي حَفِظَت فَرْجَها من الحَرامِ، فأمَرْنا جبريلَ أن يَنفُخَ الرُّوحَ في جَيبِ درعِها[1]، فبَلَغَت النَّفخةُ فَرْجَها، فحَمَلت بعِيسى[2].

= عليهما السَّلامُ، فَيذكُرُ أوَّلًا قصَّةَ زكريا، ثمَّ يُتبِعُها بقِصةِ مَريمَ؛ لأنَّ تلك مُوَطِّئةٌ لهذه؛ فإنَّها إيجادُ وَلَدٍ مِن شيخٍ كبيرٍ قد طعَنَ في السِّنِّ، ومِن امرأةٍ عجوزٍ عاقرٍ لم تكن تَلِدُ في حالِ شَبابِها، ثم يذكُرُ قِصَّةَ مَريمَ، وهي أعجَبُ؛ فإنَّها إيجادُ وَلَدٍ مِن أنثى بلا ذكَرٍ، هكذا وقعَ في سورة «آل عمران»، وفي سورةِ «مريم»، وهاهنا ذكَرَ قِصَّةَ زكريا، ثم أتبَعَها بقِصَّةِ مَريمَ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧١).

(١) دِرْعُ المرأةِ: قميصُها. وجَيْبُ القَميصِ: طَوقُه الذي يَنفَتحُ على العُنُقِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٢٠٦)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٠، ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٦٢، ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

قال ابن تيميَّةَ: (ذكر المفَسِّرونَ أنَّ جِبريلَ نفَخَ في جَيبِ دِرعِها، والجَيبُ: هو الطَّوقُ الذي في العُنُقِ، ليس هو ما يسَمِّيه بعضُ العامَّةِ جَيبًا، وهو ما يكونُ في مُقَدَّمِ الثَّوبِ لوَضعِ الدَّراهِمِ ونَحوِها... وذكر أبو الفرج وغيرُه قولين: هل كانت النَّفخةُ في جَيبِ الدِّرعِ، أو في الفَرجِ؟ فإنَّ مَن قال بالأوَّلِ قال: في فَرْجِ دِرعِها، وإنَّ مَن قال هو مَخرَجُ الوَلَدِ قال: الهاءُ كنايةٌ عن غيرِ مذكورٍ؛ لأنَّه إنَّما نفَخَ في دِرعِها لا في فَرْجِها، وهذا ليس بشيءٍ، بل هو عدولٌ عن صريح القرآنِ. وهذا النَّقلُ إن كان ثابتًا لم يُناقِضِ القرآنَ، وإن لم يكن ثابتًا لم يُلتَفَتْ إليه؛ فإنَّ مَن نقَلَ أنَّ جِبريلَ نفَخَ في جَيبِ الدِّرعِ، فمُراده أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لم يكشِفْ بدَنَها، وكذلك جبريلُ كان إذا أتى النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وعائشةُ متجَرِّدةٌ لم ينظُرْ إليها متجَرِّدةً؛ فنفَخَ في جَيبِ الدِّرعِ فوصَلَت النَّفخةُ إلى فَرْجِها. والمقصودُ إنما هو النَّفخُ في الفَرجِ، كما أخبَرَ الله به في آيتينِ، وإلَّا فالنَّفخُ في الثَّوبِ فقط من غيرِ وُصولِ النَّفخِ إلى الفَرجِ مُخالِفٌ للقرآنِ، مع أنَّه لا تأثيرَ له في حصولِ الولَدِ، ولم يقُلْ ذلك أحَدٌ من أئمَّةِ المُسلِمينَ، ولا نقَلَه أحَدٌ عن عالمٍ مَعروفٍ مِن السَّلَفِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٢٦٢، ٢٦٣).

وقال السعدي: (أي: واذكُرْ مَريمَ -عليها السَّلامُ- مُثنيًا عليها، مُبَيِّنًا لِقَدْرِها، شاهِرًا لشَرَفِها، فقال: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ أي: حَفِظَتْه من الحرامِ وقِربانِه، بل ومِنَ الحَلالِ؛ فلم =

كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وجعَلْنا مَريمَ وابنَها عيسى عَلامةً عَظيمةً للنَّاسِ[١] تدُلُّهم على اللهِ، وعلى قُدرتِه وعَظيمِ سُلْطانِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

أي: إنَّ مِلَّةَ الإسلامِ[٣] .....

= تتزوَّجْ لاشتغالِها بالعبادةِ، واستغراقِ وَقتِها بالخِدمةِ لرَبِّها.

وحينَ جاءها جِبريلُ في صورةِ بَشَرٍ سَوِيٍّ تامِّ الخَلقِ والحُسنِ ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾، فجازاها اللهُ من جِنسِ عَمَلِها، ورَزَقَها ولدًا مِن غيرِ أبٍ. ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

(١) قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: للنَّاسِ في زمانِ مريمَ وعيسى. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩١)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٨١١).

وقيل: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: لِمَن عاصَرَهما مِن عالَمِي زمانِها فمَن بَعدَهم. وممن اختار ذلك: ابن عطية، وأبو حيان، وهو ظاهِرُ اختيارِ البقاعي، والسعدي. ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

(٣) ممن اختار المعنى المذكورَ، وأنَّ المرادَ بالإشارةِ في قوله: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾: ملةُ الإسلامِ: =

أيُّها الناسُ[(١)] هي مِلَّتُكم[(٢)] الَّتي يَجِبُ أن تُحافِظوا على حدودِها، وتُراعوا حقوقَها،

= الزمخشري، والرسعني، والنسفي، وأبو حيان، والعليمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٦٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٨٤).

وقال أبو حيان: (ويحتمِلُ أنْ تكونَ ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إشارَةً إلى الطَّريقةِ الَّتي كانَ عليها الأنبياءُ المذكورونَ مِن توحيدِ اللَّهِ تعالَى هي طريقَتُكم ومِلَّتُكم طريقةً واحدةً لا اختلافَ فيها في أُصولِ العقائدِ، بل ما جاءَ به الأنبياءُ مِن ذلك هو ما جاءَ به محمَّدٌ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٤).

وقيل: إنَّ ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إشارةٌ إلى الأنبياءِ والرسلِ عليهم السلامُ. وهو اختيارُ البقاعي، والسعدي، يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠)،

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٨٤، ٨٥).

(١) ممن اختار أنَّ الخطابَ للناسِ: ابن جرير، ومكي، والزمخشري، والألوسي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٢)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٨١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

وقيل: الخطابُ لأُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وهو ظاهرُ اختيارِ مقاتل بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٩٢).

وقيل: هو خطابٌ لمعاصري الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممن اختاره: أبو حيان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٤).

وقيل: هو خطابٌ للأنبياءِ عليهم السلامُ. قاله أبو سليمان الدمشقي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٦٦).

(٢) ممن اختار أنَّ المرادَ بالأمَّةِ: الملةُ والدِّينُ والشريعةُ في الجملةِ: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والسمرقندي، ومكي، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، والخازن، وأبو حيان، والنسفي، والألوسي ونسَبه للجمهورِ، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٤٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٨١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٤)، =

وأنْ تكونوا عليها، لا تنحرِفونَ عنها، مِلَّةً واحِدَةً، غيرَ مختلفةٍ[١].

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

أي: وأنا -لا غيري- مَنْ خلَقْتُكم وربَّيْتُكم بنِعَمي، فما دام أنَّ الرَّبَّ واحِدٌ والدِّينَ واحِدٌ، فأفرِدُوني بالعِبادةِ، ولا تُشرِكوا بي، ولا تختَلِفوا في ذلك[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ

= ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤١٩)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، والسُّدِّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٢)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧١).

قال الألوسي: (وقيل: إنَّ ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إشارةٌ إلى جماعةِ الأنبياءِ المذكورينَ عليهم السلامُ، والأُمَّةُ بمعنى الجماعةِ، أي: إنَّ هؤلاء جماعتُكم التي يلزمُكم الاقتداءُ بهم، مجتمعينَ على الحقِّ، غيرَ مختلفينَ. وفيه جهةُ حُسْنٍ، كما لا يخفَى، والأوَّلُ أحسنُ وعليه جمهورُ المفسرينَ، وهو المرويُّ عن ابنِ عباسٍ ومجاهدٍ وقتادةَ). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٨٥).

وممن اختار هذا القولَ: البقاعيُّ، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

قال السعدي: (﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: هؤلاءِ الرُّسلُ المذكورونَ هم أُمَّتُكم وأئِمَّتُكم الذين بهم تَأْتمُّون، وبهَدْيِهم تقتدونَ، كلُّهم على دينٍ واحدٍ، وصراطٍ واحدٍ، والربُّ أيضًا واحدٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٦).

عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١- ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((أنا أَولى النَّاسِ بعِيسى[١] ابنِ مَريمَ في الأُولى والآخرةِ. قالوا: كيفَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: الأنبياءُ إِخوةٌ مِن عَلَّاتٍ[٢]، وأمَّهاتُهم شَتَّى، ودينُهم واحِدٌ، فليس بيننا نبيٌّ))[٣].

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣﴾.

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾.

أي: وتفرَّق النَّاسُ[٤] في دينِهم الذي شرَعَه اللهُ لهم، فصاروا فيه فِرَقًا وأحزابًا

---

(١) أَولى النَّاسِ بعِيسى: أخصُّهم به، وأقربُهم إليه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٠٧).

(٢) أولادُ العَلَّاتِ: الذين أمهاتُهم مُختلفةٌ وأبوهم واحِدٌ؛ أراد أنَّ إيمانَهم واحدٌ، وشرائِعَهم مُختَلفةٌ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٩١).

(٣) رواه مسلم (٢٣٦٥).

(٤) ممن اختار أنَّ الضميرَ يرجعُ إلى الناسِ أو جميعِ الخلقِ: ابن جرير، والسمعاني، وابن كثير، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٦).

وقيل: المرادُ: المشركون؛ ذمَّهم الله تعالى؛ لمخالفتِهم الحقَّ، واتخاذِهم آلهةً مِن دونِ الله. وممن اختاره: القرطبي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤١).

قال الشوكاني: (والمقصودُ بالآيةِ المشركونَ، ذَمَّهم اللَّهُ بمخالفةِ الحقِّ واتِّخاذِهم آلهةً مِن دونِ اللَّهِ. وقيلَ: المرادُ جميعُ الخلقِ، وأنَّهم جَعلوا أمرَهم في أديانِهم قِطَعًا وتَقَسَّموه بينَهم؛ فهذا موحِّدٌ، وهذا يهودِيٌّ، وهذا نصرانيٌّ، وهذا مجوسِيٌّ، وهذا عابدُ وثنٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٣).

=

شَتَّى[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾.

أي: كُلُّ أولئك المتفرِّقينَ المُختَلِفينَ في دينِ اللهِ صائِرونَ إلينا يَومَ القيامةِ، فنحكُمُ بينهم ونُجازيهم على أعمالِهم؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤﴾.

= وقال ابن عاشور: (ويجوزُ أنْ تكونَ الضَّمائرُ عائدةً إلى أُمَمِ الرُّسلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤١).

وممن ذهب إلى ذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

وقيل: المرادُ: أهلُ الكتابِ. واختاره ابنُ أبي زمنين، وقصَره الرسعني على اليهودِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

قال الواحدي: (الصَّحيحُ أنَّ هذا إخبارٌ عن جميعِ مُخالفي شريعةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ يقولُ: اختَلَفوا في الدينِ فصاروا فيه فِرَقًا وأحزابًا. ويجوزُ أن يكونَ هذا الاختلافُ راجِعًا إلى اختلافِ أهلِ كُلِّ مِلَّةٍ، كاختلافِ اليَهودِ فيما بينَهم، واختلافِ النَّصارى، وهذا هو الظَّاهِرُ. ويجوز أن يرجِعَ إلى مخالفَتِهم دينَ الحَقِّ). ((البسيط)) (١٥/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾.

أي: فمَن يعمَلْ مِن[1] الأعمالِ الصَّالحةِ وهو مُؤمِنٌ باللهِ ورُسُلِه، والحالُ أنَّه مُوَحِّدٌ لله تعالى مُخلِصٌ له في عَمَلِه؛ فلن يجحَدَ اللهُ عَمَلَه ولن يُضِيعَه، بل يُثيبُه عليه يومَ القيامةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١].

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾.

أي: ونحن نكتُبُ أعمالَه الصَّالِحةَ كُلَّها، صَغيرَها وكَبيرَها، لا نَترُكُ منها شَيئًا، وما كتَبْناه غيرُ ضائعٍ، بل هو باقٍ لصاحِبِه؛ لِنُطلِعَه عليه يومَ الجَزاءِ، ونجازيَه على ما قدَّمَ[3].

---

(١) قال الواحدي: (قال صاحِبُ النظمِ [أبو علي الجُرْجاني]: «مِنْ» هاهنا للتَّبعيضِ، أي: ومَن يعمَلْ شَيئًا مِن الصالحات، أي: مِن أداءِ الفَرائضِ، وغيرِها مِن صِلةِ الرَّحِمِ، ونَصرِ المظلومِ، ومَعونةِ الضَّعيفِ، ونحو ذلك من أعمالِ البِرِّ). ((البسيط)) (١٥/ ٩٠).
وقال القرطبيُّ: («مِنْ» للتبعيضِ لا للجِنسِ؛ إذْ لا قُدرةَ للمُكَلَّفِ أن يأتيَ بجَميعِ الطَّاعاتِ كُلِّها، فَرضِها ونَفْلِها). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٧٩،٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨٠).
قال الواحدي: (المعنى: نأمُرُ الحَفَظةَ بأن يكتُبوا لذلك العامِلِ ما عَمِلَ مِن الخيرِ؛ لنُجازيَه به). ((البسيط)) (١٥/ ١٩١). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ فيه حَثٌّ على الاجتِماعِ، وتجنُّبِ الاختِلافِ[١]، ولا شَكَّ أنَّ تحزُّبَ المُسلِمينَ إلى أحزابٍ مُتَفَرِّقةٍ مُتناحِرةٍ مُخالِفٌ لِما تقتَضيه الشَّريعةُ الإسلاميَّةُ مِن الائتِلافِ والاتِّفاقِ، موافِقٌ لِما يريدُه الشَّيطانُ مِن التَّحريشِ بينَ المُسلِمينَ، وإيقاعِ العَداوةِ والبَغضاءِ، وصَدِّهم عن ذِكرِ اللهِ وعن الصَّلاةِ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾، وفي الآيةِ الأُخرى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[٢] [آل عمران: ١٠٥].

٢- المرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ ترغيبُ العبادِ في التمسُّكِ بطاعةِ الله تعالى[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ أنَّ مَن قذَف مريمَ -والعياذُ بالله- فإنَّه يُقتَلُ؛ لأنَّه حتى لو فرَضْنا أنَّه ليس مِن بابِ القَذفِ؛ فهو مِن بابِ تكذيبِ القرآنِ[٤].

= وقال السعدي: (﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي: مُثبِتونَ له في اللَّوحِ المحفوظِ، وفي الصُّحُفِ التي مع الحَفَظةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠، ٥٣١).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٦/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٤/ ٢٨١).

٢- في قولِه تعالى: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: دينًا واحدًا -وهو الإسلامُ- غيرَ مختلفٍ؛ فأبطَل ما سِوَى الإسلامِ مِن الأديانِ[(١)].

٣- قول الله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾، لما كان المقصودُ تعيينَ المرادِ مِن غيرِ لبسٍ، عدَل عن صيغةِ العظمةِ، فقال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ عبَّرَ عن مَريمَ عليها السَّلامُ بالموصولِ؛ دَلالةً على أنَّها قدِ اشتُهِرَتْ بمَضمونِ الصِّلةِ، وأيضًا لِمَا في الصِّلةِ مِن معنى تَسفيهِ اليهودِ الَّذين تَقوَّلوا عنها إفْكًا وزُورًا، ولِيُبْنَى على تلك الصِّلةِ ما تَفرَّعَ عليها مِن قولِه تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ الَّذي هو في حُكْمِ الصِّلةِ أيضًا، فكأنَّه قِيلَ: والَّتي نَفَخْنا فيها من رُوحِنا؛ لأنَّ كِلَا الأمْرينِ مُوجِبٌ ثَناءً[(٣)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، وقال في سُورةِ (التَّحريمِ): ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، ففي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٣/ ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٩٧، ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٨).

الأُولى ﴿فِيهَا﴾، وفي الثَّانيةِ ﴿فِيهِ﴾، فوقَعَ اختلافٌ في الضَّميرينِ مع اتِّحادِ المعنى؛ ووَجْهُه: أنَّه لمَّا كان القصْدُ في سُورةِ (الأنبياءِ) إلى الإخبارِ عن حالِ مَريمَ وابْنِها، وأنَّهما جُعِلَا آيةً للنَّاسِ، وكان النَّفخُ فيها ممَّا جعَلَها حامِلًا، والحامِلُ صِفَةٌ للجُملةِ؛ فلمَّا كان القصْدُ التَّعجُّبَ مِن حالَيْهما، وأنَّها بالنَّفخِ صارت حامِلًا، رُدَّ الضَّميرُ إلى جُمْلَتِها؛ إذ كان النَّفخُ في فَرْجِها نَفْخًا فيها، أوجَبَ القصْدُ إلى وَصْفِها بعْدَ النَّفخِ بصِفَةٍ تَرجِعُ إلى جُمْلَتِها دونَ بَعْضِها، كان قولُه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٩١] أَولى مِن قولِه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ [التحريم: ١٢]. وأمَّا قولُه في سُورةِ (التَّحريمِ): ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، فكان الكلامُ مقصورًا على ذكرِ إحصانِها، وتصديقِها بكلماتِ ربِّها، وكان النفخُ أَصاب فرجَها، وهو مذكَّر، فجاء اللَّفظُ على أصْلِه، والمعنى: نَفَخْنا في فَرْجِها، ولم يُسَقِ الكلامُ إلى ما سِيقَ إليه في سُورةِ (الأنبياءِ) مِن وَصْفِ حالِها بعْدَ النَّفخِ؛ فاخْتَلَفا لذلك[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- والظَّرفيَّةُ المُفادَةُ بـ (في) كَونُ مَريمَ ظَرْفًا لحُلولِ الرُّوحِ المنفوخِ فيها؛ إذ كانت وِعاءَهُ؛ ولذلك قيل: ﴿فِيهَا﴾ ولم يُقَلْ: (فِيهِ)؛ للإشارةِ إلى أنَّ الحَمْلَ الَّذي كُوِّنَ في رَحِمِها حَمْلٌ مِن غيرِ الطَّريقِ المُعتادِ، كأنَّه قِيلَ: فنفَخْنا في بَطْنِها، وذلك أعرَقُ في مُخالَفةِ العادةِ؛ لأنَّ خَرْقَ العادةِ تَقْوى دَلالتُه بمِقْدارِ ما يَضمحِلُّ فيه مِن الوسائلِ المُعتادةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩١٢، ٩١٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٩، ١٨٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٥١، ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٨).

- ومن المُناسَبةِ أيضًا: ذِكْرُ مَريمَ وابْنِها عليهما السَّلامُ في سُورةِ (الأنبياءِ)، وذِكْرُ مَريمَ فقطْ في سُورةِ (التَّحريمِ)؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ آيةَ (الأنبياءِ) ورَدَت معطوفةً على آياتٍ تَضمَّنْت ذِكْرَ جُملةٍ من الرُّسلِ، فلمَّا ذُكِر هؤلاء الرُّسلُ عليهم السَّلامُ بخَصائصَ ومِنَحٍ، ناسَبَ ذلك ذِكْرُ مَريمَ وابْنِها بما مُنِحَا عليهما السَّلامُ. وأمَّا آيةُ (التَّحريمِ) فمَقصودٌ فيها ذِكْرُ عَظيمتينِ جَليلتينِ يُبيَّنُ بهما حُكْمُ سَبقيَّةِ القَدَرِ بالإيمانِ والكُفْرِ، وهما قَضيَّةُ امرأتيْ نُوحٍ ولُوطٍ، وأنَّ انضواءَهما إلى هذينِ النَّبيَّينِ الكَريمينِ عليهما السَّلامُ انضواءُ الزَّوجيَّةِ الَّتي لا أقرَبَ منها، ومع ذلك لم يُغْنِيا عنهما مِن اللهِ شَيئًا، وقِصَّةُ امرأةِ فِرْعونَ، وقدِ انضوتْ إلى أكفَرِ كافرٍ، فلم يَضُرَّها كُفْرُه، ثمَّ ذُكِرَت مَريمُ عليها السَّلامُ؛ لِلالتقاءِ في الاختصاصِ وسَبقيَّةِ السَّعادةِ، ولم يَدْعُ داعٍ إلى ذِكْرِ ابْنِها، فلا وَجْهَ لذِكْرِه هنا، وأمَّا آيةُ (الأنبياءِ) فلِذِكْرِه هناك أوضَحُ حاملٍ؛ فجاء كلٌّ على ما يَجِبُ، ولا يُمكِنُ فيه عَكْسُ الواردِ[1].

- قولُه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ إضافةُ الرُّوحِ إلى اللهِ تعالى إضافةُ تَشريفٍ، حيث أسنَدَ النَّفخَ إليه تعالى لمَّا كان ذلك مِن جِبْريلَ بأْمِرِه تعالى تَشريفًا؛ فإنَّه رُوحٌ مَبعوثٌ مِن لَدُنِ اللهِ تعالى بدُونِ وَساطةِ التَّطوُّراتِ الحيوانيَّةِ للتَّكوينِ النَّسْليِّ[2].

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قَدَّمَها على الابنِ لَمَّا كان السِّياقُ في ذكرِها في قولِه: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، ولذلك قَدَّمَ الابنَ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٥١، ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٨، ١٣٩).

في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ وحسَّنَه تَقَدُّمُ موسَى في الآيةِ قبلَه[١].

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ عبَّرَ عنهما بـ﴿ءَايَةً﴾ بالإفرادِ؛ لأنَّ حالَهما لمَجموعِهما آيةٌ واحدةٌ؛ وهي وِلادتُها إيَّاهُ مِن غيرِ فَحْلٍ. وقيل: أُرِيدَ بالآيةِ الجِنْسُ الشَّاملُ لِمَا لكلِّ واحدٍ منهما مِن الآياتِ المُستقلَّةِ. وقيل: المعنى: وجعَلْناها آيةً، وابْنَها آيةً، فحُذِفَتِ الأُولى؛ لدَلالةِ الثَّانيةِ عليها[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ ابتداءُ كلامٍ مَحْكِيٍّ بقَولٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه السِّياقُ، والخِطابُ للأنبياءِ المَذْكورينَ في الآياتِ السَّابقةِ -على قولٍ في التفسير-، والتَّقديرُ: قائلينَ لهم: إنَّ هذه أُمَّتُكم... إلى آخِرِه، والتَّأكيدُ بـ ﴿إِنَّ﴾ على هذا الوَجْهِ؛ لمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخبَرِ؛ لِيتلقَّاهُ الأنبياءُ بقُوَّةِ عَزْمٍ، أو رُوعِيَ فيه حالُ الأُمَمِ الَّذين يَبلُغُهم ذلك. ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ استئنافًا، والخِطابُ لأُمَّةِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: إنَّ هذه المِلَّةَ -وهي الإسلامُ- هي مِلَّةٌ واحدةٌ لسائرِ الرُّسلِ، والتَّأكيدُ على هذا لِرَدِّ إنْكارِ مَن يُنكِرُ ذلك مِثْلُ المُشرِكينَ[٣].

- وتَعريفُ الإضافةِ في قولِه: ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ لِلاختصاصِ، أي: هذه المِلَّةُ

---

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٩).

قال ابنُ عاشورٍ: (ومِن لطائفِ هذا الْإفرادِ أنَّ بينَ مريمَ وابنِها حالَةً مشتركَةً هي آيةٌ واحدَةٌ، ثُمَّ في كلٍّ منهما آيةٌ أُخرَى مُسْتَقِلَّةٌ باختلافِ حالِ النَّاظرِ المتأملِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٩، ١٤٠).

مُتعيِّنةٌ لكم؛ فلا مَجالَ للانحرافِ عنها[١].

- قولُه: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ، أفادتِ التَّمييزَ والتَّشخيصَ لحالِ الشَّرائعِ الَّتي عليها الرُّسلُ، أو الَّتي دعا إليها محمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- وأفادَ قولُه: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ الحصْرَ، أي: أنا لا غَيري؛ بقَرينةِ السِّياقِ والعطْفِ على ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ إذ المعنى: وأنا ربُّكم ربًّا واحدًا، ولذلك فرَّعَ عليه الأمْرَ بعِبادتِه، أي: فاعْبُدونِ دونَ غَيري[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾، وقال في سُورةِ (المُؤمِنون): ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]؛ فوقَعَ اختلافٌ بين قولِه: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾، وقولِه: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ في الآيتينِ؛ ووَجْهُه: أنَّ سُورةَ (الأنبياءِ) لم يَرِدْ فيها ذِكْرُ لفْظِ التَّقوى في أمْرٍ ولا خبَرٍ مِن أوَّلِها إلى آخِرِها، ووردَ الأمْرُ بالعبادةِ في قولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وأمَّا سُورةُ (المُؤمِنون) فتكرَّرَ فيها ذِكْرُ التَّقوى في ثَلاثةِ مَواضِعَ؛ أوَّلُها: قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وفيما بعْدَ الآيةِ المُتكلَّمِ فيها: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٧]؛ فرُوعِيَ في الأُولى ما تَقدَّمَها، ونُوسِبَ بالثَّانيةِ ما اكْتَنَفَها. وأيضًا فإنَّ العِبادةَ مأْمورٌ بها ليَحصُلَ الاتِّقاءُ، فهي مُقدَّمةٌ في الطَّلبِ لتَحصيلِ ما يَتسبَّبُ عنها إذا كانت

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإجابةُ، وعلى ذلك ورَدَ دُعاءُ الخَلْقِ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]؛ فالاتِّصافُ بالتَّقوى ثانٍ عن الاتِّصافِ بالعِبادةِ، فقيل في (الأنبياءِ): ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وفي سُورةِ (المُؤمِنون): ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٨٧]، وكِلَاهما ذُكِرَ على مُقْتضى التَّرتيبِ[(١)]. وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ ضَمائرُ الغَيبةِ فيه عائدةٌ إلى مَفهومٍ مِن المَقامِ، وهم الَّذين مِن الشَّأْنِ التَّحدُّثُ عنهم في القُرآنِ المَكِّيِّ بمِثْلِ هذه المَذامِّ، وهم المُشرِكونَ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الضَّمائرُ عائدةً إلى أُمَمِ الرُّسلِ؛ فعلى أنَّ ضَمائرَ الخِطابِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الأنبياء: ٩٢] للرُّسلِ، يكونُ الكلامُ انتقالًا مِن الحِكايةِ عن الرُّسلِ إلى الحِكايةِ عن حالِ أُمَمِهم في حَياتِهم، أو الَّذين جاؤوا بعْدَهم مِثْلُ اليهودِ والنَّصارى؛ إذ نَقَضوا وَصايَا أنبيائِهم. وعلى أنَّ ضَمائرَ الخِطابِ لأُمَّةِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، تكونُ ضَمائرُ الغَيبةِ الْتِفاتًا؛ لمَّا كان هذا الفِعْلُ من أقبَحِ المُرتكَباتِ، عُدِلَ عن الخِطابِ إلى لَفظِ الغَيبةِ؛ كأنَّ هذا الفِعْلَ ما صَدَرَ مِن المُخاطَبِ؛ لأنَّ في الإخبارِ عنهم بذلك نَعْيًا عليهم ما أفْسَدوهُ، وكأنَّه يُخبِرُ غيرَهم ما صَدَرَ مِن قَبيحِ فِعْلِهم، ويقولُ: ألَا تَرى إلى ما ارتكَبَ هؤلاء في دِينِ اللهِ؛ جَعَلوا أمْرَ دِينِهم قِطعًا كما يَتوزَّعُ الجَماعةُ الشَّيءَ، لهذا نَصيبٌ، ولهذا

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٥٣، ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩١٤-٩٢٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٧٧، ٣٧٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢١، ٣٢٢).

نَصيبٌ؛ تَمثيلًا لاختِلافِهم[١].

- قولُه: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ فيه إسنادُ التَّقطُّعِ إليهم؛ لأنَّهم جَعَلوا أنفُسَهم فِرَقًا؛ فعَبَدوا آلِهةً مُتعدِّدةً، واتَّخذَت كلُّ قَبيلةٍ لنَفْسِها إلهًا مِن الأصنامِ مع اللهِ، فشَبَّه فِعْلَهم ذلك بالتَّقطُّعِ، وزِيادةُ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾؛ لإفادةِ أنَّهم تَعاونوا وتَظاهَروا على تَقطُّعِ أمْرِهم؛ فرُبَّ قَبيلةٍ اتَّخذَتْ صَنمًا لم تكُنْ تَعبُدُه قَبيلةٌ أُخْرى، ثمَّ سَوَّلوا لِجيرَتِهم وأحلافِهم أنْ يَعبُدوهُ، فألْحَقوه بآلِهَتِهم[٢]، وهذا على أنَّ المرادَ بهم المشركونَ.

- وجُملةُ: ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا لجَوابِ سُؤالٍ يَجيشُ في نَفْسِ سامِعِ قولِه تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾، وهو مَعرِفةُ عاقبةِ هذا التَّقطُّعِ. وفيه تَعريضٌ بالتَّهديدِ، ودَلَّ على ذلك التَّفريعُ في قولِه: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلى آخِرِه[٣].

- في قولِه: ﴿إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ أورَدَ اسمَ الفاعلِ؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ والتَّحقُّقِ[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ تَفصيلٌ للجزاءِ[٥]. وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ على الوعيدِ المُعرَّضِ به في قولِه تعالى: ﴿كُلٌّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٤، ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٢، ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، وهو تَفريعٌ بَديعٌ مِن بَيانِ صِفَةِ ما تُوعِّدوا به، وذلك من قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنبياء: ٩٧] الآياتِ. وقَدَّمَ وَعْدَ المُؤمِنين بجَزاءِ أعمالِهم الصَّالحةِ؛ اهتمامًا به، ولوُقوعِه عَقِبَ الوعيدِ؛ تَعجيلًا لِمَسرَّةِ المُؤمِنين قبْلَ أنْ يَسمَعوا قَوارِعَ تَفصيلِ الوعيدِ؛ فليس هو مَقصودًا مِن التَّفريعِ، ولكنَّه يُشبِهُ الاستطرادَ تَنويهًا بالمُؤمِنين، كما سيُعْتَنى بهم عَقِبَ تَفصيلِ وَعيدِ الكافرينَ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ...﴾ [الأنبياء: ١٠١] إلى آخِرِ السُّورة[١].

- قولُه: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ عبَّرَ عن ذلك بالكُفرانِ الَّذي هو سَتْرُ النِّعمةِ وجُحودُها؛ لِبَيانِ كَمالِ نَزاهِته تعالى عنه بتَصويرِه بصُورةِ ما يَستحيلُ صُدورُه عنه تعالى مِن القبائحِ، وإبرازِ الإثابةِ في مَعرِضِ الأُمورِ الواجبةِ عليه تعالى، ونَفَى نَفْيَ الجِنْسِ؛ للمُبالَغةِ في التَّنزيهِ، وعبَّرَ عن العمَلِ بالسَّعيِ؛ لإظهارِ الاعتدادِ به[٢].

- وأكَّدَ ذلك بـ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ مُؤكَّدًا بحَرْفِ التَّأكيدِ؛ للاهتمامِ به[٣].

- والكِتابةُ في ﴿كَٰتِبُونَ﴾ كِنايةٌ عن تَحقُّقِه، وعدَمِ إضاعتِه؛ لأنَّ الاعتناءَ بإيقاعِ الشَّيءِ يَستلزِمُ الحِفْظَ عن إهمالِه وعن إنكارِه، وذلك مع كونِ الكِتابةِ مُستعمَلةً في مَعناها الأصليِّ، كما جاءت بذلك الظَّواهرُ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٣، ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٣، ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٤).

الآيات (٩٥-١٠٠)

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَدَبٍ﴾: أي: مَكانٍ مُرتَفِعٍ مِن الأرضِ، وأصلُ (حدب): يَدُلُّ على ارتِفاعِ الشَّيءِ[(١)].

﴿يَنسِلُونَ﴾: أي: يُسرِعونَ؛ مِن النَّسَلانِ: وهو مُقارَبةُ الخَطْوِ مع الإسراعِ، وأصلُ (نسل): يَدُلُّ على انسِلالِ شَيءٍ بسُرعةٍ[(٢)].

﴿شَاخِصَةٌ﴾: أي: مُرتَفِعةُ الأجفانِ، لا تكادُ تَطرِفُ مِن هَولِ ما هم فيه، وأصلُ (شخص): يدُلُّ على ارتِفاعٍ في شَيءٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٥٤)، =

﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾: أي: حَطَبُها وما أُلقِيَ فيها، وكلُّ شَيءٍ أَلقيتَه في نارٍ فهو حصبٌ، وأصلُه مِن الحَصباءِ، وهي: الحَصى[(١)].

﴿وَرِدُونَ﴾: أي: داخِلونَ، وأصلُ (ورد): يَدُلُّ على الموافاةِ إلى الشَّيءِ[(٢)].

﴿زَفِيرٌ﴾: الزَّفيرُ: إخراجُ النَّفَسِ بقُوَّةٍ وشِدَّةٍ مِن الهَمِّ والكَربِ، وهو بمَنزلةِ ابتداءِ صَوتِ الحِمارِ بالنَّهيقِ، وأصلُ (زفر): يدلُّ على صَوتٍ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى: ومُمتَنِعٌ على قريةٍ أهلَكْناها بسَبَبِ كُفرِهم وظُلمِهم، أن يَرجِع أهلُها، حتى إذا فُتِحَ سَدُّ يأجوجَ ومأجوجَ، وأقبلوا مِن مُرتَفِعاتِ الأرضِ وانتَشَروا في جَنَباتِها مُسرِعينَ؛ دنا يومُ القيامةِ وبدَتْ أهوالُه، فإذا أبصارُ الكُفَّارِ مِن شِدَّةِ الفَزَعِ مَفتوحةٌ لا تَطْرِفُ، يقولونَ: يا وَيلَنا! قد كُنَّا لاهينَ غافلينَ عن هذا اليَومِ وعن الإعدادِ له، بل كُنَّا ظالِمينَ بكُفرِنا برَبِّنا.

إنَّكم -أيُّها الكُفَّارُ- وما كُنتُم تَعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ وَقودُ جَهنَّمَ وحَطَبُها، أنتم

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٥٥). ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٠)، ((تفسير الآلوسي)) (٤/ ١٨٨).

وهم فيها داخِلونَ. لو كان هؤلاءِ آلِهةً تَستَحِقُّ العبادةَ ما دخلوا نارَ جهنَّمَ معكم -أيُّها المُشرِكونَ. وكُلٌّ مِنَ الآلهةِ الباطِلةِ وعابِديها خالِدونَ في نارِ جَهنَّمَ. لهم فيها زَفيرٌ مِن شِدَّةِ عَذابِهم، وهم في النَّارِ لا يَسمَعونَ؛ مِن هَولِ عَذابِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

أي: ومُمتَنِعٌ على قَريةٍ أهلَكْناها أن يَرجِعَ أهلُها[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٥ - ٣٩٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٠٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٥).

قيل: المعنى: ممتَنِعٌ على قريةٍ أهلَكْناها أن يَرجِعَ أهلُها بعد مَوتِهم إلى الدُّنيا. وممن اختار هذا المعنى: الواحدي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

وممن ذهب إلى هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وعكرمةُ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٢).

وذهب ابنُ جرير والنحَّاس إلى أن المعنى: ومُمتَنِعٌ على أهل قرية أهلكناهم بالطَّبعِ على قُلوبِهم أنَّهم يتوبونَ ويَرجِعونَ عن كُفرِهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٥ - ٣٩٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٥٦، ٥٧).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢).

وإلى مِثلِ ذلك ذهب الزمخشريُّ، إلَّا أنه قدَّر المعنى: وممتَنِعٌ على قريةٍ عَزَمْنا على إهلاكِها أو قَدَّرْنا إهلاكَها أنَّهم يتوبون ويَرجِعونَ عن كُفرِهم إلى أن تقومَ القيامة، فحينئذٍ يتوبون حين لا تنفَعُ التوبة ويندَمونَ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٤).

وذهب الزجاجُ إلى أن المعنى: حرامٌ على قريةٍ أهلكناها أن نتقَبَّلَ منهم عملًا؛ لأنَّهم لا يَرجِعونَ، أي: لا يتوبونَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٠٥).

وقيل: المعنى: وممتَنِعٌ على الكَفَرةِ المُهلَكين في الدُّنيا بالموتِ أنَّهم لا يرجعونَ إلى الله، =

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٤].

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾.

أي: حتى إذا فُتِحَ السَّدُّ الذي حُبِسَ وراءَه قَبيلَتا يأجوجَ ومأجوجَ، فخَرَجوا منه[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٤ - ٩٩].

وعن زَينَبَ بنتِ جَحشٍ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

= بل هم راجِعونَ ومَبعوثونَ يوم القيامةِ. وهذا المعنى: جَوَّزه ابن عطية، وذهب إليه البقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

قال الواحدي: (معنى فَتحِهما: إخراجُهما عن السَّدِّ الذي جُعِلا وراءَه، وكأنَّهما قُيِّدا بذلك السَّدِّ، فإذا ارتفَعَ السَّدُّ انفَتَحا). ((الوسيط)) (٣/ ٢٥٢).

قال ابنُ كثير: (هم مِن نَسلِ نوحٍ مِن أولادِ يافثَ؛ أبي التُّركِ، والتُّركُ شِرذَمةٌ منهم، تُرِكوا مِن وراء السَّدِّ الذي بناه ذو القرنينِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢).

((دخَلَ عليها فَزِعًا يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويلٌ للعَرَبِ مِن شَرٍّ قد اقتَرَب، فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ[١] يأجوجَ ومأجوجَ مِثلُ هذه -وحَلَّقَ بإصبَعِه الإبهامِ والتي تليها- فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أنَهلِكُ وفينا الصَّالِحونَ؟! قال: نَعَم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ[٢]))[٣].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ قال: ((فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثلُ هذه -وعَقَد بيدِه تِسعينَ[٤]))[٥].

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾.

أي: ويأجوجُ ومأجوجُ عندَ خُروجِهم يُقْبِلونَ مِن كُلِّ مَكانٍ مُرتَفِعٍ، فيَمشُونَ مُسرِعينَ للإفسادِ في الأرضِ[٦].

عن النَّوَّاسِ بنِ سَمعانَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم

---

(١) الرَّدمُ: السَّدُّ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٢١).

(٢) الخَبَثُ: الفُسُوقُ والفُجورُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٣).

(٣) رواه البخاري (٣٣٤٦) واللفظ له، ومسلم (٢٨٨٠).

(٤) عَقدُ التِّسعينَ: مِن مُواضَعاتِ الحِسابِ، وهو أن تجعَلَ رأسَ الإصبَعِ السَّبابةِ في أصلِ الإبهامِ، وتضُمَّها حتى لا يَبِينَ بينهما إلَّا خَلَلٌ يَسيرٌ. يُنظر: ((النهاية)) الأثير (٢/ ٢١٦).

(٥) رواه البخاري (٣٣٤٧)، ومسلم (٢٨٨١) واللفظ له.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٥ - ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

قال الواحدي: (المعنى: وهم مِن كلِّ شيءٍ مِن الأرضِ يُسرِعونَ، يعني: أنَّهم يتفرَّقونَ في الأرضِ، فلا ترى أكَمةً إلَّا وقَومٌ منهم يَهبِطونَ منها مُسرِعينَ). ((الوسيط)) (٣/ ٢٥٢).

وقال السَّعدي: (ينفَتِحُ السَّدُّ عنهم، فيَخرُجونَ إلى النَّاسِ في هذه الحالةِ والوَصفِ الذي ذكره اللهُ مِن كُلِّ مكانٍ مُرتَفِعٍ، وهو الحَدَبِ، ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي: يُسرِعونَ. وفي هذا دَلالةٌ على كَثرَتِهم الباهرةِ، وإسراعِهم في الأرضِ؛ إمَّا بذواتِهم، وإمَّا بما خلَقَ اللهُ لهم من الأسبابِ التي تقرِّبُ لهم البعيدَ، وتُسَهِّلُ عليهم الصَّعبَ، وأنَّهم يَقهَرونَ النَّاسَ، ويَعلُونَ عليهم في الدُّنيا، وأنَّه لا يَدَ لأحَدٍ بقِتالِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

-في آخرِ حديثِ الدَّجّالِ الطويلِ: ((ويَبعَثُ اللهُ يأجوجَ ومأجوجَ، وهم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلونَ، فيمُرُّ أوائِلُهم على بُحَيرةِ طَبَريَّةَ، فيَشرَبونَ ما فيها، ويمُرُّ آخِرُهم فيَقولونَ: لقد كان بهذه مَرَّةً ماءٌ! ويُحصَرُ[١] نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه، حتى يكونَ رأسُ الثَّورِ لأحَدِهم خَيرًا مِن مئةِ دينارٍ لأحَدِكم اليومَ! فيَرغَبُ[٢] نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه، فيُرسِلُ اللهُ عليهم النَّغَفَ[٣] في رِقابِهم، فيُصبِحونَ فَرْسَى[٤] كمَوتِ نَفْسٍ واحدةٍ، ثمَّ يَهبِطُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه إلى الأرضِ، فلا يَجِدونَ في الأرضِ مَوضِعُ شِبرٍ إلاَّ ملأه زَهَمُهم[٥] ونَتْنُهم، فيَرغَبُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه إلى الله، فيُرسِلُ اللهُ طَيرًا كأعناقِ البُختِ[٦] فتَحمِلُهم فتَطرَحُهم حيثُ شاء الله، ثمَّ يُرسِلُ اللهُ مَطرًا لا يكُنُّ منه بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ[٧]، فيَغسِلُ الأرضَ حتى يترُكَها كالزَّلَفةِ[٨]، ثمَّ يُقالُ للأرضِ: أنبتي ثَمَرتَك، ورُدِّي بركَتَك، فيَومَئذٍ تأكُلُ العِصابةُ

---

(١) يُحصَرُ: أي: يُحبَسُ في جبلِ الطورِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا القاري (٨/ ٣٤٦٣).

(٢) فيَرغَبُ -أي: إلى الله- أي: يدعو. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٣).

(٣) النَّغَفُ: دودٌ يكونُ في أنوفِ الإبلِ والغَنَمِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٩).

(٤) فَرْسَى: أي: قَتْلَى. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٩).

(٥) زَهَمُهم: أي: رائحتُهم الكريهةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٩).

(٦) البُختِ: نَوعٌ من الإبلِ، أي: طيرًا أعناقُها في الطُّولِ والكِبَرِ كأعناقِ البُختِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٤).

(٧) بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ: المَدَرُ: جَمعُ مَدرةٍ، وهي: اللَّبِنةُ، والمرادُ به هنا البُيوتُ المُحكَمةُ المَبنيَّةُ مِن الأحجارِ والطُّوبِ واللَّبِن؛ كبُيوتِ المُدُنِ والقُرى. والوَبَرُ: شَعرُ الإبلِ، والمرادُ به هنا البُيوتُ غيرُ المُحكَمةِ؛ كبُيوتِ البوادي وأهلِ الخِيامِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١١٦)، ((الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم)) محمد الأمين الهَرري (٢٦/ ٢٥٩).

(٨) كالزَّلَفَةِ: أي: كالمِرْآةِ، شَبَّهَها بالمِرآةِ في صَفائِها ونَظافَتِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

مِن الرُّمَّانةِ، ويَستَظِلُّونَ بِقِحْفِها[١]، ويُبارَكُ في الرِّسْلِ[٢] حتى إنَّ اللِّقْحةَ[٣] مِن الإبلِ لَتَكفي الفِئامَ[٤] مِن النَّاسِ! واللِّقْحةَ مِن البَقَرِ لَتَكفي القبيلةَ مِن النَّاسِ! واللِّقْحةَ مِنَ الغَنَمِ لَتَكفي الفَخْذَ مِن النَّاسِ! فبينما هم كذلك إذ بَعَث اللهُ ريحًا طَيِّبةً، فتأخُذُهم تحتَ آباطِهم، فتَقبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤمِنٍ وكُلِّ مُسلِمٍ، ويبقَى شِرارُ النَّاسِ، يَتَهارجونَ[٥] فيها تهارُجَ الحُمُرِ، فعليهم تقومُ السَّاعةُ))[٦].

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾.

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: حتى إذا فُتِحت يأجوجُ ومأجوجُ اقتَرَبَ مَجيءُ يومِ القيامةِ الذي وعَدَ اللهُ بإتيانِه وأن يَبعَثَ فيه عِبادَه مِن قُبورِهم للحِسابِ والجَزاءِ[٧]؛ فإنَّه إذا وُجِدَت

---

(١) بِقِحْفِها: أي: بِقِشْرِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٢) الرِّسْلِ: أي: اللَّبَنِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٣) اللِّقْحَةَ: أي: النَّاقةَ الحَلُوب. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٤) الفِئامَ: أي: الجماعةَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٥) يَتهارَجونَ: أي: يُجامِعُ الرِّجالُ النِّساءَ عَلانِيَةً بحَضرةِ النَّاسِ، كما يفعَلُ الحَميرُ، ولا يكتَرِثونَ لذلك! وقيل: يَختَلِطونَ ويتخاصَمونَ ويتقاتَلونَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ١٩)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٦).

(٦) رواه مسلم (٢٩٣٧).

(٧) وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالوعَدِ الحَقِّ هنا: يومُ القيامة: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، وابنُ زيد، والربيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٠٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٦٧٨).

تلك الأهوالُ والفِتَنُ والمحَنُ الواقِعةُ في آخِرِ الزَّمانِ، فقد اقتَرَبت السَّاعةُ[١].

﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: فإذا أبصارُ الكُفَّارِ مَفتوحةٌ لا تَطرِفُ؛ مِن شِدَّةِ ما يَرَونَه مِن أهوالٍ وأمورٍ عِظامٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ [إبراهيم: ٤٢- ٤٣].

﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

قال ابنُ الجوزي: (فإن قيل: أين جوابُ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾؟ ففيه قولان: أحدُهما: أنَّه قَولُه تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ والواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ﴾ زائدةٌ، قاله الفَرَّاءُ. قال: ومِثلُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، وقولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ [الصافات: ١٠٣- ١٠٤] المعنى: ناديناه... والثاني: أنَّه قَولٌ مَحذوفٌ في قَولِه: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ فالمعنى: حتى إذا فُتِحت يأجوجُ ومأجوجُ واقتَرَب الوَعدُ، قالوا: يا ويلَنا. قال الزجَّاج: هذا قولُ البصريينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢١١)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٠٥).

وممن قال بالمعنى الأولِ: الفراءُ، وابنُ قتيبة، وابنُ جرير، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢١١)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٤).

وذهب ابنُ عطية، وابن جزي إلى أنَّ جوابَ ﴿إِذَا﴾ قَولُه: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٩). قال ابن عطية: (وهذا هو المعنى الذي قُصِد ذِكرُه؛ لأنَّه رُجوعُهم الذي كانوا يُكَذِّبونَ به وحَرُمَ عليهم امتِناعُه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧).

أي: يَقولونَ: يا وَيلنَا[١] قد كُنَّا في غَفلةٍ مِن هذا اليَومِ[٢].

﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

أي: بلْ كُنَّا ظالِمينَ لأنفُسِنا بكُفرِنا برَبِّنا، ومَعصِيَتِنا له، وإعراضِنا عن آياتِه، وعبادَتِنا غَيرَه[٣].

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

أي: يُقالُ لهم: إنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- وما تَعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ وَقودُ جَهنَّمَ، يُرمى بكم جميعًا في النَّارِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

وقال سُبحانه: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ

---

(١) قال البقاعي: (أي: حضَرنا الويلُ فهو نديمُنا، فلا مدعوَّ لنا غيرُه). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٨٢).
وقال ابن عاشور: (و ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ دعاءٌ على أنفسِهم مِن شدةِ ما لحِقَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥١، ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١١ - ٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٣، ٣٤٤)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧).
قال السعدي: (الحِكمةُ في دخولِ الأصنامِ النَّارَ -وهي جمادٌ لا تَعقِلُ، وليس عليها ذَنبٌ- بيانُ كَذِبِ مَن اتخَذَها آلِهةً، ولِيَزدادَ عَذابُهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٦).

إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾.

أي: أنتم -أيُّها المُشرِكونَ- داخِلونَ جَهنَّمَ مع آلهَتِكم التي كُنتُم تَعبُدونَها مِن دُونِ اللهِ[١].

﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩﴾.

﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَا﴾.

أي: لو كانت تلك الآلِهةُ المَعبودةُ مِن دُونِ اللهِ آلِهةً حَقًّا كما يَزعُمُ عابِدوها، لَمَا دخَلَ العابِدونَ والمَعبودونَ جَهنَّمَ، ولَمَنَعت تلك الآلهةُ عابِديها مِن دُخولِها[٢].

﴿وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: وكلٌّ مِنَ الآلهةِ الباطِلةِ وعابِديها في جهَنَّمَ ماكِثونَ[٣].

﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾.

﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ﴾.

أي: للمُشرِكينَ وآلهَتِهم[٤] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

(٤) قال ابن عطية: (الضَّميرُ في ﴿لَهُمۡ﴾ عائدٌ على من يَعقِلُ مِمَّن تُوُعِّدَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠١).

=

في جَهنَّمَ زَفيرٌ[(١)] مِن شِدَّةِ العَذابِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾[هود: ١٠٦].

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

أي: وهم في جَهنَّمَ صُمٌّ لا يَسمَعونَ شَيئًا[(٣)].

= وقال البقاعي: (﴿لَهُمْ﴾ أي: لِمَن فيه الحياةُ مِن المذكورينَ: العابدينَ مُطلَقًا، والمعبودينَ الرَّاضينَ كفِرعَونَ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٨٣).

وقال الزمخشري: (إذا كانوا هم وأصنامُهم في قَرَنٍ واحدٍ، جاز أن يقال: لهم زَفيرٌ، وإن لم يكُنِ الزَّافرونَ إلَّا هم دونَ الأصنامِ؛ للتَّغليبِ، ولِعَدَمِ الإلباسِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٦).

(١) قال ابن عطية: («الزفيرُ» صَوتُ المعَذَّبِ، وهو كنهيقِ الحَميرِ وشِبهُه، إلَّا أنَّه مِنَ الصَّدرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢١).

ممن اختار أنَّ المرادَ: أنَّهم لا يسمعونَ، فهم يُسلبونَ حاسَّةَ السمعِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ -في ظاهرِ كلامِه، والنسفي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٨، ٢٤٧).

قيل: لأنَّ في سَماعِ الأشياءِ رَوحًا وأُنسًا، فمَنَعَ اللهُ الكفَّارَ ذلك في النَّارِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٥).

وقيل: ليُمنَعوا راحةَ التَّأسِّي بالمُشارِكِ لهم في العذابِ؛ مُبالغةً في عذابِهم، ويكونُ هذا كقَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٩]؛ فإنَّهم حُرِموا هذا القَدْرَ مِن الرَّاحةِ، ولا شُبهةَ بأنَّ التأسِّيَ يُهَوِّنُ المُصيبةَ ويُخفِّفُها. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٧٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّهم لا يسمعونَ ما يَسُرُّهم: النحَّاس، ومكي بن أبي طالب. يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٥٨)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٨٢١). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ * وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ ﴾ فيه تحذيرٌ مِن اللهِ للنَّاسِ أن يُقيموا على الكُفرِ والمعاصي، وأنَّه قد قَرُب انفِتاحُ يأجوجَ ومأجوجَ[1]، وقد عدَّه المفسِّرونَ مِن الأشراطِ الصُّغرَى لقيامِ الساعةِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ينقسمُ التحريمُ إلى تحريمٍ كونيٍّ متعلِّقٍ بربوبيةِ الله وخَلقِه، وإلى تحريمٍ دينيٍّ متعلِّقٍ بإلهيتِه وشرعِه، أمَّا التحريمُ الكونيُّ فكقولِه تعالى: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾، وقولِه: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ ﴾ [القصص: ١٢]، وأمَّا التحريمُ الدينيُّ فكقولِه تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ ﴾ [المائدة: ٣]، وقولِه: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ ﴾[3] [النساء: ٢٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ جَميعَ المَعبوداتِ مع عابِديها في النَّارِ، وقد أشارت آياتٌ أُخَرُ إلى أنَّ بَعضَ المَعبودينَ -كعيسى والملائكةِ- لَيسوا مِن أهلِ النَّارِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا ... ﴾

= وقيل: المرادُ: لا يسمعُ بعضُهم زفيرَ بعضٍ؛ لشدةِ الهولِ، وفظاعةِ العذابِ. وممن اختاره: أبو السعودِ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ١٥٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٠، ٢٨٢).

[الزخرف: ٥٧] وقَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] وقَولِه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآيةَ [الإسراء: ٥٧]؟

الجوابُ مِن وَجهينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ هذه الآيةَ لم تتناوَلِ الملائِكةَ ولا عيسى؛ لتعبيره بـ (ما) الدَّالَّةِ على غيرِ العاقِلِ، وقد أشار تعالى إلى هذا الجَوابِ بقَولِه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]؛ لأنَّهم لو أنصَفوا لَمَا ادَّعَوا دُخولَ العُقَلاءِ في لَفظٍ لا يَتناوَلُهم لُغةً!

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الملائكةَ وعيسى نَصَّ اللهُ على إخراجِهم مِن هذا؛ دَفعًا للتوَهُّمِ ولهذه الحُجَّةِ الباطِلةِ بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[1] [الأنبياء: ١٠١].

٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، فإن قيل: لِمَ قُرِنوا بآلهَتِهم؟

فالجوابُ: لأنَّهم لا يَزالونَ لِمُقارَنتِهم في زيادةِ غَمٍّ وحَسرةٍ؛ حيث أصابَهم ما أصابَهم بسَبَبِهم، والنَّظَرُ إلى وَجهِ العَدُوِّ بابٌ مِن العَذابِ، ولأنَّهم قَدَّروا أنَّهم يَستَشفِعونَ بهم في الآخِرةِ، ويَستَنفِعونَ بشَفاعَتِهم، فإذا صادَفوا الأمرَ على عَكسِ ما قَدَّروا، لم يكُنْ شَيءٌ أبغَضَ إليهم مِنهم[2].

٤- قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٦).

لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ والحكمةُ في دخولِ الأصنامِ النارَ -وهي جمادٌ؛ لا تعقِلُ، وليس عليها ذنبٌ- بيانُ كذبِ مَن اتَّخذها آلهةً، وليزدادَ عذابُهم؛ فلهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾، ذكَر -جلَّ وعلا- في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ أهلَ النارِ لا يسمعونَ فيها، وبيَّن في غيرِ هذا الموضعِ أنَّهم لا يتكلمونَ، ولا يبصرونَ؛ كقولِه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقولِه: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، وقولِه: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥] معَ أنَّه -جلَّ وعلا- ذكَر في آياتٍ أُخرَ ما يدلُّ على أنَّهم يسمعونَ ويبصرونَ ويتكلمونَ؛ كقولِه تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقولِه: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢]، وقولِه: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف: ٥٣]؟

والجوابُ عن هذا مِنْ أوجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: كونُ المرادِ مِمَّا ذُكِر -مِن العمَى، والصممِ، والبكمِ- حقيقتَه، ويكونُ ذلك في مبدَأِ الأمرِ، ثُمَّ يَرُدُّ اللَّهُ تعالَى إليهم أبصارَهم ونُطْقَهم وسَمْعَهم، فيرونَ النَّارَ، ويسمعونَ زَفيرَها، وينطِقُونَ بما حَكَى اللَّهُ تعالَى عنهم في غيرِ موضِعٍ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّهم لا يرونَ شيئًا يَسُرُّهم، ولا يسمعونَ كذلك، ولا يَنْطِقونَ بِحُجَّةٍ، كما أنَّهم كانوا في الدُّنْيا لا يَسْتَبْصِرونَ، ولا يَنْطِقونَ بالحقِّ، ولا يَسْمَعونَه، فنُزِّلَ ما يَقولونَه ويَسْمَعونَه ويُبْصِرونَه منزلةَ العَدَمِ؛ لعَدَمِ الانتفاعِ به، والعربُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

في كلامِها تُطلِقُ الصممَ على السماعِ الذي لا فائدةَ فيه. وكذلك الكلامُ الذي لا فائدةَ فيه، والرُّؤيةُ التي لا فائدةَ فيها.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ اللَّهَ إذا قال لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وَقَع بهم ذاك العمَى والصَّممُ والبَكَمُ مِنْ شِدَّةِ الكربِ واليأْسِ مِنَ الفرجِ، قال تعالَى: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾[1] [النمل: ٨٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ إدْماجٌ للوعيدِ بعَذابِ الدُّنيا قبْلَ عَذابِ الآخرةِ[2].

- قولُه: ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ يحتمِلُ أنَّ المُرادَ رُجوعُهم عنِ الكُفْرِ، فيَتعيَّنُ أنَّ تكونَ (لا) في قولِه: ﴿لَا يَرۡجِعُونَ﴾ زائدةً للتَّوكيدِ، والمعنى: مُنِعَ على قَريةٍ قَدَّرْنا هَلاكَها أنْ يَرجِعوا عن ضَلالِهم. وهذا إعلامٌ بسُنَّةِ اللهِ تعالى في تَصرُّفِه في الأُمَمِ الخاليةِ، مَقصودٌ منه التَّعريضُ بتأْييسِ فَريقٍ مِن المُشرِكين مِن المصيرِ إلى الإيمانِ، وتَهديدُهم بالهَلاكِ. ويجوزُ أنْ يُرادَ رُجوعُهم إلى الآخرةِ بالبعْثِ، وهو المُناسِبُ لتَفريعِه على قولِه تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣]، فتكونَ (لا) نافيةً، والمعنى: مَمنوعٌ عدَمُ رُجوعِهم إلى الآخرةِ الَّذي يَزعُمونَه، أي: دَعْواهم باطِلةٌ، أي: فهمْ راجِعونَ إلينا، فمُجازَونَ على كُفْرِهم، فيكونُ إثباتًا للبَعْثِ بنَفْيِ ضِدِّه، وهو أبلَغُ مِن صَريحِ الإثباتِ؛ لأنَّه إثباتٌ بطَريقِ المُلازَمةِ، فكأنَّه إثباتُ الشَّيءِ بحُجَّةٍ،

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٨، ٢٤٧)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٥).

ويُفِيدُ تأْكيدًا لقولِه تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣].

ويحتملُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ تَعْليلًا، ويكونُ التَّقديرُ: وحَرامٌ على قَريةٍ أهْلَكناها العمَلُ الصَّالِحُ والسَّعيُ المَشكورُ غيرُ المَكفورِ؛ لأنَّهم لا يَرجِعونَ عن الكُفرِ[(١)].

٢- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيَّةٌ، والجُملةُ بعْدَها: ﴿إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ...﴾ كَلامٌ مُستأْنفٌ[(٢)]، والمُرادُ بفَتحِها: فَتْحُ سَدِّها، على حَذْفِ المُضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه مُقامَه[(٣)].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾

- في قولِه: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مُثِّلَت حالةُ الكافرينَ في ذلك الحينِ بأبلَغِ تَمثيلٍ وأشَدِّه وَقْعًا في نَفْسِ السَّامعِ؛ إذ جُعِلَت مُفرَّعةً على فَتْحِ يأْجوجَ ومأْجوجَ واقترابِ الوعْدِ الحقِّ؛ للإشارةِ إلى سُرعةِ حُصولِ تلك الحالةِ لهم، ثمَّ بتَصديرِ الجُملةِ بحَرْفِ المُفاجأةِ والمُجازاةِ الَّذي يُفِيدُ الحُصولَ دَفعةً بلا تَدرُّجٍ ولا مُهْلةٍ، ثمَّ بالإتيانِ بضَميرِ القِصَّةِ؛ لِيَحصُلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٤، ٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٩).

للسَّامع عِلْمٌ مُجمَلٌ يُفصِّلُه ما يُفسِّرُ ضَميرَ القِصَّةِ، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى آخِرِه[١].

- قولُه: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ، تَقديرُه: يقولونَ: يا وَيْلنا[٢].

- قولُهم: ﴿قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ دَلَّت (في) الظَّرفيَّةُ على تَمكُّنِ الغَفلةِ منهم، حتَّى كأنَّها مُحيطةٌ بهم إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ، أي: كانت لنا غَفلةٌ عَظيمةٌ، وهي غَفلةُ الإعراضِ عن أدِلَّةِ الجزاءِ والبَعْثِ[٣].

- قولُهم: ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ إضرابٌ إبطاليٌّ عمَّا قبْلَه مِن وَصْفِ أنفُسِهم بالغَفلةِ، أي: لم نكُنْ غافلينَ عنه؛ حيث نُبِّهنا عليه بالآياتِ والنُّذرِ، بل كنَّا ظالمينَ[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ جَوابٌ عن قولِهم: ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا ...﴾ [الأنبياء: ٩٧] إلى آخِرِه؛ فهي مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ على طَريقةِ المُحاوَراتِ، فالتَّقديرُ: يُقالُ لهم: إنَّكم وما تَعْبُدون من دونِ اللهِ حصَبُ جهنَّمَ...[٥]. وقيل: هي خِطابٌ لكُفَّارِ مكَّةَ، وتَصريحٌ بمآلِ أمْرِهم، مع كونِه مَعلومًا ممَّا سبَقَ على وَجْهِ الإجمالِ؛ مُبالَغةً في الإنذارِ، وإزاحةِ الاعتذارِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٥).

- قولُه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أكَّدَ الخَبَرَ بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لأنَّهم كانوا بحيث يُنكِرونَ ذلك[١].

- قولُه: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ استِئنافٌ، واللَّامُ عِوَضٌ مِن (على)؛ للدَّلالةِ على الاختصاصِ، وأنَّ وُرودَهم لأجْلِها. وقيل: بدَلٌ من ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[٢]. وهذه الجُمْلةُ ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، والمقصودُ منه: تَقريبُ الحصْبِ بهم في جهنَّمَ؛ لِمَا يدُلُّ عليه قولُه: ﴿وَٰرِدُونَ﴾ من الاتِّصافِ بوُرودِ النَّارِ في الحالِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ الْتِفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ اعتراضٌ؛ تَجهيلًا للكَفرةِ، واحتِجاجًا عليهم، وعُطِفَ قولُه: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ على قولِه: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾؛ تَوكيدًا لشُمولِ الأشخاصِ والأزمانِ على سَبيلِ الالْتِفاتِ[٥].

- قولُه: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ زِيادةٌ في نِكايتِهم بإظهارِ خَطَئِهم في عِبادتِهم تلك الأصنامَ بأنْ أُشْهِدوا إيرادَها النَّارَ، وقِيلَ لهم: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾، وذُيِّلَ ذلك بقولِه تعالى: ﴿وَكُلٌّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٠٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أي: هم وأصنامُهم[١].

٦- قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾

- على القولِ بأنَّ المُرادَ بـ (مَا تَعْبُدُونَ) الأصنامُ؛ فيكونُ قولُه: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ مع كونِه مِن أفْعالِ العَبَدةِ، أُضِيفَ إلى الكلِّ؛ للتَّغليبِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ للعَبَدةِ؛ لعدَمِ الإلباسِ[٢]. وقيل: لا تَغليبَ هاهنا، والمُرادُ مِن ضَميرِ ﴿وَهُمْ﴾: المُخاطَبونَ في قولِه: ﴿إِنَّكُمْ﴾، فالالْتِفاتُ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ[٣].

- وعَطْفُ جُملةِ ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ اقتضاهُ قولُه: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾؛ لأنَّ شَأْنَ الزَّفيرِ أنْ يُسمَعَ، فأخبَرَ اللهُ بأنَّهم مِن شِدَّةِ العذابِ يَفقِدونَ السَّمعَ بهذه المُناسَبةِ[٤]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٦، ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٣).

الآيات (١٠١-١٠٥)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾: أي: الجنَّةُ أو السَّعادةُ، تأنيثُ الأحسنِ، والحُسْنُ ضِدُّ القُبحِ، وهو عبارةٌ عن كلِّ مُبهجٍ مرغوبٍ فيه[١].

﴿حَسِيسَهَا﴾: أي: صَوْتَها وحَرَكَةَ تلَهُّبِها، والحَسيسُ والحسُّ: الحَرَكةُ والصَّوتُ تَسمَعُه مِنَ الشَّيءِ الذي يمُرُّ قريبًا منك، وأصلُه مِنَ الحِسِّ، وهو مُطلَقُ الصَّوتِ، أو الخَفِيُّ منه[٢].

﴿نَطۡوِي﴾: الطَّيُّ: ضِدُّ النَّشرِ، وهو ثَنْيُ الشَّيءِ، أو ردُّ بَعضِه على بَعضٍ، وأصلُ (طوي): يَدُلُّ على إدراجِ شَيءٍ حتى يُدرَجَ بَعضُه في بَعضٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن =

﴿ٱلسِّجِلِّ﴾: أي: الصَّحيفةِ التي فيها الكِتابُ، يعني: المكتوبَ، والسِّجِلُّ: اسمٌ مُشتَقٌّ مِن المُساجَلةِ، وهي: المُكاتَبةُ(١).

﴿ٱلزَّبُورِ﴾: أي: الكُتُبِ المُنَزَّلةِ مِن السَّماءِ، ويُطلَقُ الزَّبورُ على الكِتابِ المنزَّلِ على داودَ عليه السَّلامُ، وأصلُ (زبر): يدُلُّ على قِراءةٍ وكتابةٍ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى: إنَّ الذين سَبَق لهم في عِلْمِنا أنَّهم مِن أهلِ السَّعادةِ بدُخولِ الجَنَّةِ، أولئك عن النَّارِ مُبعَدونَ، فلا يَدخُلونَها ولا يَقرَبونَ منها، لا يَسمَعونَ صَوتَ لَهيبِها واحتراقِ الأجسادِ فيها؛ لِبُعدِهم عنها، وهم فيما تَشتَهيه نُفوسُهم مِن نَعيمِ الجنة ولَذَّاتِها مُقيمونَ إقامةً دائِمةً، لا يَحْزُنُهُمُ الفزعُ الأكبرُ والهَولُ العَظيمُ يومَ القيامةِ عِندَ النَّفخِ في الصُّورِ للحَشرِ، وتَستَقبِلُهم ملائِكةُ الرَّحمنِ تُبَشِّرُهم وتُهنِّئُهم، قائلينَ لهم: هذا يومُكم الذي وُعِدتُم فيه الكَرامةَ مِن اللهِ وجَزيلَ الثَّوابِ. يومَ نطوي السَّماءَ كما تُطْوَى الصَّحيفةُ على ما كُتِبَ فيها، كما قدَرْنا على إيجادِ الخلقِ أوَّلَ مرةٍ، كذلك نقدرُ على إعادتِهم، فنبعثُهم أحياءً مِن قبورِهم، ونحشُرُهم على مِثلِ هَيئَتِهم حينَ خَرَجوا مِن بُطونِ أُمَّهاتِهم؛ حُفاةً، عُراةً، غَيرَ مَختونينَ، وَعَدْناكم ذلك وَعدًا لا يتخَلَّفُ، إنَّا كُنَّا فاعلينَ ما نَعِدُ به.

= عاشور)) (١٧/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٣٣).

ولقَدْ كَتَبْنا في الكُتُبِ المنزَّلةِ بعدَ اللَّوحِ المحفوظِ الذي كتَب اللهُ فيه كلَّ ما هو كائنٌ: أنَّ الأرضَ يَرِثُها عِبادُ اللهِ الصَّالِحونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ عادةَ اللهِ تعالى أنَّه متى شَرَح عِقابَ الكُفَّارِ، أردَفَه بشَرحِ ثوابِ الأبرارِ؛ فلهذا السَّبَبِ ذَكَر هذه الآيةَ عَقِيبَ تلك[1]، فلمَّا بيَّن سبحانَه حالَ هؤلاءِ الأشقياءِ؛ شَرَع في بيانِ حالِ السُّعداءِ[2].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ الكافرينَ وحالَ مَعبوديهم بغايةِ الوَيلِ، كان مَوضِعُ السُّؤالِ عَمَّن عَبَدوهم مِنَ الصَّالحينَ؛ مِن نَبيٍّ أو مَلَكٍ وغَيرِهما مِن جَميعِ مَن عَبَدَه سُبحانَه لا يُشرِكُ به شَيئًا، فقال مُبَيِّنًا أنَّهم لَيسوا مُرادِينَ لِشَيءٍ مِن ذلك، على وَجهٍ يَعُمُّهم وغَيرَهم مِن الصَّالِحينَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾[3].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((آيةٌ في كِتابِ اللهِ لا يَسألُني النَّاسُ عنها، ولا أدري أعَرَفوها فلا يَسألوني عنها، أم جَهِلوها فلا يَسألوني عنها؟! قيل: وما هِيَ؟ قال: آيةٌ لَمَّا نَزَلَت: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨٤).

جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] شَقَّ ذلك على أهلِ مَكَّةَ، وقالوا: شَتَمَ مُحمَّدٌ آلهَتَنا، فقام ابنُ الزِّبَعْرَى فقال: ما شأنُكم؟ قالوا: شَتَم مُحمَّدٌ آلهَتَنا، قال: وما قال؟ قالوا: قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، قال: ادعُوه لي، فدُعِيَ مُحمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال ابنُ الزِّبَعْرَى: يا محمَّدُ، هذا شَيءٌ لآلهَتِنا خاصَّةً أم لكُلِّ مَن عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ؟ قال: بل لكُلِّ مَن عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فقال: خَصَمْناه ورَبِّ هذه البَنِيَّةِ! يا مُحمَّدُ، ألستَ تزعُمُ أنَّ عيسى عَبدٌ صالِحٌ، وعُزَيرًا عَبدٌ صالِحٌ، والملائِكةَ عِبادٌ صالِحونَ؟ قال: بلى، قال: فهذه النَّصارى يَعبُدونَ عيسى، وهذه اليَهودُ تَعبُدُ عُزَيرًا، وهذه بنو مُلَيحٍ تَعبُدُ المَلائِكةَ، قال: فضَجَّ أهلُ مَكَّةَ، فنَزَلَت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ -عيسى وعُزَيرٌ والملائِكةُ- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾. قال: ونَزَلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]، وهو الضَّجيجُ))[1].

---

(١) أخرجه الطحاويُّ في ((شرح مشكل الآثار)) (٩٨٦)، والطبراني (١٢/ ١٥٣) (١٢٧٣٩).
حَسَّنَه ابن حجر في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (٢/ ١٧٢)، وصحَّح إسنادَه ابنُ القيمِ في ((شفاء العليل)) (١/ ١٢٣).
قال ابنُ القيم: (هذا الإيرادُ الذي أورده ابنُ الزِّبَعْرَى... إنَّما كان مِن جهةِ القياسِ والعمومِ المَعنويِّ الذي يعُمُّ الحُكمُ فيه بعمومِ عِلَّتِه، أي: إنْ كان كونُه مَعبودًا يُوجِبُ أن يكونَ حَصَبَ جَهنَّمَ، فهذا المعنى بعَينِه موجودٌ في الملائكةِ وعُزَيرٍ والمسيحِ! فأُجيبَ بالفارِقِ، وذلك مِن وُجوهٍ:
أحدُها: أنَّ الملائكةَ والمسيحَ وعُزَيرًا: ممَّن سبَقَت لهم مِن الله الحُسنى؛ فهم سُعداءُ لم يفعَلوا ما يَستوجِبونَ به النَّارَ، فلا يُعذَّبونَ بعبادةِ غيرِهم، مع بُغضِهم ومعاداتِهم لهم...
الفرقُ الثاني: أنَّ الأوثانَ حِجارةٌ غيرُ مُكَلَّفةٍ ولا ناطقةٍ، فإذا حُصِبَت بها جهنَّمُ إهانةً لها ولعابِدِيها، لم يكُنْ في ذلك [عذابُ] مَن لا يستَحِقُّ العذابَ، بخِلافِ الملائكةِ والمسيحِ وعُزَيرٍ؛ فإنَّهم أحياءٌ ناطِقونَ، فلو حُصِبَت بهم النَّارُ كان ذلك إيلامًا وتعذيبًا لهم. =

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾.

أي: إنَّ المُؤمِنينَ الذين سَبَق في عِلْمِنا منذُ الأزَلِ أنَّهم من أهلُ السَّعادةِ بدُخولِ الجَنَّةِ، مُبعَدونَ عن جَهَنَّمَ يومَ القيامةِ، فلا يَدخُلونَها، ولا يَقرَبونَ منها، وإنْ عَبَدَهم بَعضُ المُشرِكينَ بغَيرِ رِضاهم واختيارِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾.

﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾.

أي: لا يَسمَعُ المُؤمِنونَ وهم في الجَنَّةِ صَوتَ جَهنَّمَ وإحراقِها الأجسادَ؛ لِبُعدِهم الشَّديدِ عنها[2].

= الثَّالثُ: أنَّ مَن عَبَد هؤلاء بزَعمِه فإنَّه لم يَعبُدْهم في الحقيقةِ؛ فإنَّهم لم يَدْعُوا إلى عبادتِهم، وإنَّما عَبَد المُشركون الشَّياطينَ وتوهَّموا أنَّ العبادةَ لهؤلاء؛ فإنَّهم عَبَدوا بزَعْمِهم مَن ادَّعى أنَّه معبودٌ مع الله، وأنَّه معه إلهٌ، وقد برَّأ اللهُ سُبحانَه ملائكتَه والمسيحَ وعُزيرًا من ذلك، وإنَّما ادَّعى ذلك الشَّياطينُ، وهم بزَعمِهم يعتَقِدونَ أنَّهم يَرضَونَ بأن يكونوا معبودين مع اللهِ تعالى، ولا يرضى بذلك إلَّا الشَّياطينُ؛ ولهذا قال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠]. ((شفاء العليل)) (ص: ٢٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٦). =

﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

أي: والمُؤمِنونَ فيما تَشتَهيه أنفُسُهم مِن نَعيمِ الجَنَّةِ ماكِثونَ، لا يخافونَ زَوالًا عنه، ولا انتِقالًا منه[1].

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾.

أي: لا يَحزُنُ المؤمنينَ الفزعُ الأكبَرُ يَومَ القيامةِ عِندَ النَّفخِ في الصُّورِ للحَشرِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن

= قال ابنُ عاشور: (جُملةُ ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ بيانٌ لمعنى ﴿مُبْعَدُونَ﴾، أي: مُبعَدونَ عنها بُعدًا شَديدًا بحيثُ لا يَلفَحُهم حَرُّها، ولا يُرَوِّعهم مَنظَرُها، ولا يَسمَعونَ صَوتَها، والصَّوتُ يَبلُغُ إلى السَّمعِ مِن أبعَدِ ممَّا يبلُغُ منه المرئيُّ. والحسيسُ: الصَّوتُ الذي يبلُغُ الحِسَّ، أي: الصَّوتُ الذي يُسمَعُ مِن بَعيدٍ، أي: لا يَقرَبونَ مِنَ النَّارِ، ولا تَبلُغُ أسماعَهم أصواتُها، فهم سالِمونَ مِنَ الفَزَعِ مِن أصواتِها، فلا يَقرَعُ أسماعَهم ما يُؤلِمُها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٦).

قال ابن عاشور: (الفَزَعُ: نُفرةُ النَّفسِ وانقِباضُها مِمَّا تتوقَّعُ أن يحصُلَ لها مِنَ الألم، وهو قريبٌ مِن الجَزَعِ. والمرادُ به هنا: فزَعُ الحَشرِ حين لا يَعرِفُ أحَدٌ ما سيؤولُ إليه أمرُه، فيكونونَ في أمنٍ مِن ذلك بطمأنةِ الملائكةِ إيَّاهم، وذلك مُفادُ قَولِه تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فهؤلاء الذين سبقت لهم الحُسنى هم المرادُ مِن الاستثناءِ في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٦).

شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ [الإنسان: ١١].

﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾.

أي: ويَستَقبِلُ الملائِكةُ المُؤمِنينَ يَومَ القيامةِ، فيُهَنِّئونَهم ويُبَشِّرونَهم برَحمةِ اللهِ، ونَيْلِ كرامتِه؛ يقولونَ لهم: هذا اليومُ الحاضِرُ هو اليَومُ الذي كُنتُم في الدُّنيا تُوعَدونَ أن يُثيبَكم اللهُ فيه على قيامِكم بطاعتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٨).

قال الشِّنقيطي: (قيل: تَستَقبِلُهم على أبوابِ الجَنَّةِ بذلك. وقيل: عندَ الخروجِ مِن القبورِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٤٨).

وممن قال بالقولِ الأوَّلِ: البغوي، والزمخشري، والقرطبي، والنسفي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٧).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ، وابنُ السائب، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٣). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٦٨٣).

وممن قال بالقولِ الثاني: مقاتلُ بنُ سليمان، والواحدي، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الحسن. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٤٩).

قال القنوجي: (ولا مانعَ أنَّها تستقبلُهم في الحالينِ). ((تفسير القنوجي)) (٨/ ٣٧٦).

أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾.

أي: لا يَحزُنُهم الفَزَعُ الأكبَرُ في ذلك اليَومِ الذي نَطْوي فيه السَّمواتِ كما تُطوى الصَّحيفةُ على الكَلامِ المكتوبِ فيها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾.

أي: كما قدَرْنا على إيجادِ الخلقِ أوَّلَ مرةٍ، كذلك نقدرُ على إعادتِهم، فنبعثُهم أحياءً مِن قبورِهم[٢]، ونحشرُهم على مِثلِ هَيئَتِهم حينَ خَرَجوا مِن بُطونِ أُمَّهاتِهم؛ حُفاةً، عُراةً، غَيرَ مَختونينَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٥، ٤٢٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٩٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٩).

(٢) ممن اختار هذا المعنى: الزجاجُ، والسمعاني، والرسعني، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤١٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

(٣) ممَّن اختار هذا المعنى المذكور: ابن جرير، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، وابن القيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٥)، ((تفسير =

= البغوي)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٧)، ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٠٧).

قال ابنُ جرير: (فالكافُ التي في قَولِه: ﴿كَمَا﴾ مِن صِلةِ (نُعِيدُ) تقَدَّمت قبلَها، ومعنى الكلامِ: نُعيدُ الخَلْقَ عُراةً حُفاةً غُرْلًا يومَ القيامةِ كما بدَأْناهم أوَّلَ مرَّةٍ في حالِ خلَقْناهم في بُطونِ أمَّهاتهم. على اختلافٍ مِن أهلِ التَّأويلِ في تأويلِ ذلك. وبالذي قُلْنا في ذلك قال جماعةٌ مِن أهل التَّأويلِ، وبه الخبَرُ عن رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فلذلك اختَرتُ القَولَ به على غَيرِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٧).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٧٠).

قال ابنُ عاشور: (وظاهِرُ ما أفاده الكافُ مِن التَّشبيهِ في قَولِه تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أنَّ إعادةَ خَلقِ الأجسامِ شُبِّهت بابتداءِ خَلقِها، ووَجهُ الشَّبَهِ هو إمكانُ كِلَيهما، والقُدرةُ عليهما، وهو الذي سِيقَ له الكلامُ، على أنَّ التَّشبيهَ صالحٌ للمُماثلةِ في غيرِ ذلك. روى مسلِمٌ عن ابنِ عبَّاسٍ قال: «قام فينا رسولُ الله بمَوعظةٍ، فقال: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّكم تُحشَرونَ إلى اللهِ حُفاةً عُراةً غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾» الحديثَ؛ فهذا تفسيرٌ لبَعضِ ما أفاده التَّشبيهُ، وهو مِن طريقِ الوَحي، واللَّفظُ لا يأباه؛ فيَجِبُ أن يُعتبَرَ معنًى للكافِ مع المعنى الذي دَلَّت عليه بظاهِرِ السِّياقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٠).

وقال أيضًا: (قَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلم: «يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾» إنَّما هو تشبيهُ الخَلقِ الثَّاني بالخَلقِ الأوَّلِ؛ لِدَفعِ استِبعادِ البَعثِ، كقَولِه تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، وقَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، فذلك مَورِدُ التَّشبيهِ، غيرَ أنَّ التَّشبيهَ لَمَّا كان صالحًا للحَملِ على تمامِ المُشابهةِ أعلَمَنا النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ ذلك مُرادٌ منه، بأن يكونَ التَّشبيهُ بالخَلقِ الأوَّلِ شامِلًا للتجَرُّدِ مِن الثِّيابِ والنِّعالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٩٥).

وقال الملَّا القاري: (قال الطِّيبي رحمه الله: فإنْ قُلتَ: سياقُ الآيةِ في إثباتِ الحَشرِ والنَّشرِ... فكيف يُستشهَدُ بها للمعنى المذكورِ؟ قلتُ: دَلَّ سِياقُ الآيةِ وعِبارتُها على إثباتِ الحَشرِ، وإشارتُها على المعنى المرادِ مِن الحديثِ؛ فهو من بابِ الإدماجِ. قُلتُ: الظَّاهِرُ أنَّ الآيةَ بعبارتِها تدُلُّ على المعنيَينِ وإن كان سياقُ الآيةِ مُختَصًّا لأحَدِهما؛ فإنَّ العِبرةَ لعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبَبِ). ((مرقاة المفاتيح)) (٨/ ٣٥١٤). ويُنظر: ((شرح المشكاة)) للطيبي (١١/ ٣٤٩٨).=

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّكم مَحشورونَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا[(١)]، ثمَّ قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾))[(٢)].

﴿وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

أي: وَعَدْناكم ذلك وَعدًا حَقًّا علينا أنْ نَفِيَ به، فمِن شأنِنا أنَّنا نفعلُ ما نريدُ، وسنفعلُ ما وعَدْنا به لا محالةَ[(٣)].

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

أي: ولقَدْ كَتَبْنا في جميعِ الكُتُبِ المنَزَّلةِ مِن السماءِ[(٤)] بعدَ اللوحِ المحفوظِ

= وقال البِقَاعي: (﴿كَمَا﴾ أي: مِثلَ ما ﴿بَدَأْنَا﴾ أي: بما عُلِمَ لنا من العَظَمةِ ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ أي: تقديرَ أيِّ تقديرٍ كان؛ نَكَّرَه لِيُفيدَ التَّفصيلَ واحِدًا واحِدًا، بمعنى: أنَّ كُلَّ خَلقٍ جَلَّ أو قَلَّ سواءٌ في هذا الحُكمِ، وهو أنَّا ﴿نُّعِيدُهُ﴾ أي: بتلك العَظَمةِ بعَينِها، غيرَ ناسِينَ له ولا غافِلينَ ولا عاجِزينَ عنه، فما كان مُتضامَّ الأجزاءِ فمدَدْناه نضُمُّه بعد امتدادِه، وما كان مَيتًا فأحيَيناه نُميتُه بعد حياتِه، وما كان حيًّا فأمَتْناه نُحيِيه بعد مَوتِه، ونعيدُ منهم مِن الترابِ مَن بدَأْناه منه. والحاصِلُ أنَّ مَن أوجدَ شَيئًا لا يَبعُدُ عليه التصَرُّفُ فيه كيفما كان. روى البخاري في التفسيرِ عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما قال: «خطَبَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: إنَّكم محشورونَ إلى الله عُراةً غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ الآيةَ». ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨٨).

(١) غُرْلًا: أي: غيرَ مَختونينَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٩٣).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٩) واللفظ له، ومسلم (٢٨٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣١)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٣، ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٨).

(٤) ممن اختار القولَ المذكورَ، وهو أنَّ المرادَ بالزبورِ: جميعُ الكُتُبِ المنَزَّلةِ من السَّماءِ، ولا تختَصُّ =

الذي كتَب اللهُ فيه كلَّ ما هو كائنٌ[(١)] .....

= بزَبورِ داودَ وحْدَه: ابنُ جريرٍ، والرسعني -ونسَبه لأكثرِ المفسِّرينَ-، وابنُ القيم، والعُليمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٤)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٨١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٧).

وقيل: المرادُ به: زَبورُ داود. وممَّن قال بذلك: ابنُ جزي، وأبو حيان، والبقاعي، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٩٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٢).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: عامرٌ الشعبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٣).

قال ابنُ جُزي: (﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ في الزَّبورِ هنا قولان؛ أحدُهما: أنَّه كِتابُ داودَ، والذِّكرُ هنا على هذا: التَّوراةُ التي أنزل اللهُ على موسى، وما في الزَّبورِ مِن ذِكرِ الله تعالى. والقَولُ الثَّاني: أنَّ الزَّبورَ جِنسُ الكُتُبِ التي أنزلها اللهُ على جميع الأنبياء، والذِّكرُ على هذا: هو اللَّوحُ المحفوظُ، أي: كتَبَ اللهُ هذا في الكتابِ الذي أُفرِدَ له بعدما كتَبَه في اللَّوحِ المحفوظِ، حتى قضى الأمورَ كُلَّها. والأوَّلُ أرجَحُ؛ لأنَّ إطلاقَ الزَّبورِ على كِتابِ داودَ أظهَرُ وأكثَرُ استِعمالًا، ولأنَّ الزَّبورَ مُفرَدٌ؛ فدَلالتُه على الواحِدِ أرجَحُ مِن دلالتِه على الجَمعِ، ولأنَّ النَّصَّ قد ورد في زبورِ داودَ بأنَّ الأرضَ يَرِثُها الصَّالحونَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠).

وقال الشوكاني: (الزَّبْرُ في الأصلِ: الكَتْبُ، يقال زَبَرْتُ: أي: كتَبْتُ، وعلى هذا يَصِحُّ إطلاقُ الزَّبورِ على التَّوراةِ والإنجيلِ، وعلى كتابِ داودَ المسمَّى بالزَّبورِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٨).

(١) ممن اختار أنَّ المرادَ بالذكرِ: اللَّوحُ المحفوظُ، على معنى: كتَبْنا ذلك في اللَّوحِ المحفوظِ: ابنُ جريرٍ، وابنُ تيميَّة، وابنُ القيمِ، والعُليمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢١١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وابنُ زيد. وهو معنى ما جاء عن ابنِ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٧). =

أنَّ الأرضَ[١] يَرِثُها عبادِيَ[٢] العامِلونَ بطاعَتي، الذين قاموا بالمأموراتِ، واجتَنَبوا

= وقيل: الذِّكرُ هو التوراة. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٧).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه، وعامرٌ الشعبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٣).

(١) قيل: المرادُ بالأرضِ هنا: الجنةُ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، وهذا القولُ نسَبه الرسعني للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٨١).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وأبو العاليةِ، ومجاهدٌ، وابنُ زيدٍ، والشعبيُّ، وأبو صالحٍ، والسُّدِّيُّ، والربيعُ بنُ أنسٍ، والثوريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٥).

وقيل: المرادُ بها: أرضُ الدُّنيا. وممن رجَّح ذلك: الزَّجَّاج، وابن جُزَي، وابن القيم. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٧).

وممن جمع بين المعنيينِ، وذهب إلى عمومِ الأرضِ في الدنيا والآخرةِ: ابنُ كثير، والبِقَاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٩١).

قال البِقَاعي: (﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: جنسَها الشاملَ لبقاعِ أرضِ الدُّنيا كلِّها، ولأرضِ المحشرِ والجنةِ وغيرِ ذلك مما يعلمُه الله). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٩١).

وقيل: المراد بها: الأرضُ المقَدَّسة. وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ السائب. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٧).

(٢) قيل: المرادُ بهم: أمَّةُ مُحمَّدٍ صَلَّى الله عليه وسلَّم. وممن قال بذلك: ابن جزي، والخازن، وابنُ القيم، والعُليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٤٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٩٥).

ونسَب القرطبيُّ هذا القولَ إلى أكثرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٨). =

المَنهيَّاتِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقال سُبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٥- ٥٦].

= قال ابن جزي: (﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الأرضُ هنا على الإطلاقِ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها... والعبادُ الصالحونَ: أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم، ففي الآيةِ ثناءٌ عليهم، وإخبارٌ بظهورِ غيبٍ مِصداقُه في الوجودِ؛ إذ فتَح الله لهذه الأمةِ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١).

وقيل: المرادُ بهم: بنو إسرائيلَ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٨٢).

قال البيضاوي: (﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ يعني عامَّةَ المؤمنينَ أو الذين كانوا يُستضعَفون مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، أو أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٢).

قال السعدي: (يحتملُ أنَّ المرادَ: الاستخلافُ في الأرضِ، وأنَّ الصالحين يمكِّنُ الله لهم في الأرضِ، ويُولِّيهم عليها؛ كقولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٤، ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢١١)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٥٩٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٩، ٢٥٠).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقال سُبحانه وتعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وعن ثَوبانَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ زَوى[١] ليَ الأرضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سيَبلُغُ مُلكُها ما زُوِيَ لي مِنها))[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أنَّ أرضَ الشامِ كُتِبتْ للصَّالحينَ، ورِثها بنو إسرائيلَ مِن الجبَّارينَ؛ لأنَّهم كانوا أهلَ الحقِّ، ثم ورِثها النَّصارَى مِن اليهودِ؛ لأنَّهم أهلُ الحقِّ، ثم ورِثها المسلمون مِن النَّصارَى؛ لأنَّهم أهلُ الحقِّ. وعلى هذا فاليهودُ الآنَ لا حقَّ لهم في فلسطينَ ولا غيرِها مِن أرضِ الله، ليس لهم حقٌّ في الأرضِ أبدًا -لا هم، ولا أي كافرٍ-؛ لأنَّ الأرضَ إنَّما يستحقُّها عبادُ الله الصالحونَ -وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-، لكن إن صلحَ المسلمونَ ورجَعوا إلى دينِهم الحقيقيِّ -الذي يُورثُهم الله به أرضَه- فإنَّنا نجزمُ جزمًا بأنَّهم سوف يَسترجِعون الأرضَ؛ قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النور: ٥٥]، لكن ما دام المسلمونَ على هذا الوصفِ؛ فإنَّه حسَبَ القواعدِ الشرعيَّةِ والنُّصوصِ لا يستحقُّون النصرَ؛ لأنَّهم

(١) زَوَى: أي: جَمَعَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣).

(٢) رواه مسلم (٢٨٨٩).

لم يقوموا بجهادِ أنفسِهم؛ فكيف يقومونَ بجهادِ غيرِهم ليُدخِلوه في الإسلامِ؟! الآنَ أقيموا الإسلامَ فيما بيْنَكم؛ أقيموا دينَ الله فيما بينكم؛ ثم بعد ذلك سوف ينصرُ الله دينَه إذا قُمْتُم به؛ لأنَّ الله لا ينصرُ فلانًا لأنَّه فلانٌ! أو ينصرُ هذه الطائفةَ لأنَّهم عربٌ! أو ينصرُ هذه الطائفةَ لأنَّهم فُرسٌ! بل ينصرُ مَن قام بهذا الدينِ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ[(٢)].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ مَن سَبَقَت له مِنَ اللهِ الحُسنى، فلا بُدَّ أن يَصيرَ مُؤمِنًا تَقِيًّا، فمَن لم يكُنْ مِنَ المُؤمِنينَ لم يَسبِقْ له مِنَ اللهِ حُسنى، ولكِنْ إذا سَبَقَت للعَبدِ مِن اللهِ سابِقةٌ استعمَلَه بالعَمَلِ الذي يَصِلُ به إلى تلك السَّابِقةِ، كمَن سَبَق له مِنَ اللهِ أن يُولَدَ له وَلَدٌ، فلا بُدَّ أن يَطَأَ امرأةً يُحبِلُها؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه قَدَّرَ الأسبابَ والمُسَبَّباتِ، فسَبَق منه هذا وهذا، فمَن ظَنَّ أنَّ أحدًا سَبَق له مِنَ اللهِ حُسنى بلا سَبَبٍ، فقد ضَلَّ، بل هو سُبحانَه مُيَسِّرُ الأسبابِ والمُسَبَّباتِ، وهو قد قَدَّرَ فيما مضى هذا وهذا[(٣)].

٣- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ إن قيل: كيف يَكونونَ مُبعَدينَ عنها، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، ووُرودُها يقتَضي القُربَ منها؟!

الجوابُ: أنَّ معناه: مُبعَدونَ عن ألَمِها وعَنَاها، مع وُرودِهم لها. أو معناه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٦٦).

مُبعَدونَ عنها بعدَ وُرودِها، بالإنجاءِ المذكورِ بعد الوُرودِ[١].

٤- إنْ قيلَ: هل يَتنافى قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ مع قَولِه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٨]؟

فالجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ طوائِفَ مِن العُلَماءِ قالوا: إنَّ قَولَه: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أراد بها سماءَ الجنَّةِ وأرضَ الجنَّةِ، كما ثبَت عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إذا سألتُمُ اللهَ الجنَّةَ فاسْألوه الفِردَوسَ؛ فإنَّه أعلى الجنَّةِ وأوسَطُ الجَنَّةِ، وسَقفُه عَرْشُ الرَّحمنِ))[٢]، وعلى هذا فلا مُنافاةَ بين انطِواءِ هذه السَّماءِ وبَقاءِ السَّماءِ التي هي سَقفُ الجنَّة؛ إذ كُلُّ ما علا فإنَّه يُسمَّى في اللُّغةِ سَماءً، كما يُسَمَّى السَّحابُ سَماءً، والسَّقفُ سَماءً.

الثاني: أنَّ السَّمَواتِ وإن طُوِيَت وكانت كالمُهلِ، واستحالَت عن صُورَتِها، فإنَّ ذلك لا يُوجِبُ عَدَمَها وفَسادَها، بل أصلُها باقٍ، بتَحويلِها مِن حالٍ إلى حالٍ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وإذا بُدِّلَت فإنَّه لا يَزالُ سَماءٌ دائِمةً، وأرضٌ دائمةً، واللهُ أعلم[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ دَلالةٌ عَقليَّةٌ على إمكانيَّةِ إحياءِ الموتى منه سُبحانَه؛ فإنَّ القادِرَ على ابتداءِ الخَلْقِ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة.

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٩، ١١٠).

لا يَعجِزُ عن إعادتِه[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ فيه سؤالٌ: ما بالُ ﴿خَلْقٍ﴾ مُنَكَّرًا؟ الجوابُ: هو كقَولِك: هو أوَّلُ رَجُلٍ جاءني، تريدُ أوَّلَ الرِّجالِ، ولكِنَّك وَحَّدْتَه ونكَّرْتَه؛ إرادةَ تَفصيلِهم رَجُلًا رجُلًا، فكذلك معنى ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ أي: أوَّلَ الخلائِقِ[٢]. فنكَّرَ ﴿خَلْقٍ﴾ لِيُفيدَ التَّفصيلَ واحِدًا واحِدًا، بمعنى: أنَّ كُلَّ خَلقٍ -جَلَّ أو قَلَّ- سواءٌ في هذا الحُكمِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ عَلَمٌ مِن أعلامِ نُبُوَّةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّه أخبرَ بذلك بمكَّةَ -وأهلُ الأرضِ كلُّهم كُفَّارٌ أعداءٌ له ولأصحابِه- والمُشرِكونَ قد أخرَجوهم مِن ديارِهم ومَساكِنِهم، وشَتَّتوهم في أطرافِ الأرضِ، فأخبَرَهم ربُّهم تبارك وتعالى أنَّه كَتَبَ في الذِّكْرِ الأوَّلِ أنَّهم يَرِثونَ الأرضَ مِن الكُفَّارِ، ثم كَتَبَ ذلك في الكُتُبِ التي أنزَلَها على رُسُلِه[٤]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في تَفسيرِ الآيةِ.

٨- قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ وفي إطلاقِ اسمِ الأرضِ ما يصلُحُ لإرادةِ أنَّ سلطانَ العالمِ سيكونُ بيدِ المسلمينَ ما استقاموا على الإيمانِ والصلاحِ، وقد صدقَ الله وعدَه في الحالينِ وعلى الاحتمالينِ؛ في أنَّ الأرضَ هي أرضُ الجنَّةِ، أو أرضٌ مِن الدُّنيا[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨٩).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٢).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ المُسلِمينَ أحقُّ النَّاسِ بأرضِ اللهِ[١].

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الكِتابةُ هنا الكِتابةُ القَدَريَّةُ -التي لا بُدَّ أنْ تقعَ- ويُقابِلُها الكِتابةُ الشَّرعيَّةُ -التي قد تقَعُ مِن بني آدَمَ، وقد لا تَقَعُ- كما في قَولِه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾[٢] [البقرة: ٢١٦].

١١- في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ سؤالٌ؛ أنَّه قد يَعترِضُ الذين يأسرُهم الزمانُ الذي يعيشونَ فيه، ولا تنفذُ بصائرُهم إلى ما وراءَه؛ بأنَّ المفسدينَ في الأرضِ ظاهرونَ، وهم الذين اتَّخذوا مِن العلمِ بالكونِ وسائلَ تخريبٍ في الأرضِ، وتمكينٍ للظُّلمِ، وأنَّ أهلَ الحقِّ الصالحينَ مغلوبٌ عليهم، مستضعفونَ؟!

الجواب: أنَّ ذلك حُكمُ حِقبةٍ مِن الزمانِ هي التي نعيشُ، ولكنَّ الله تعالى أخبَر أنَّ المآلَ للصالحينَ -والله أعلمُ بالمفسدينَ-، وإنَّ خبرَه صادقٌ، والمستقبلَ غيبٌ؛ لا يعلمُه إلَّا هو[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ استئنافٌ ابتِدائيٌّ، شرَعَ في بَيانِ حالِ المُؤمِنينَ إثْرَ شَرْحِ حالِ الكَفرةِ، حَسَبَما جَرَتْ به سُنَّةُ التَّنزيلِ مِن شَفْعِ الوعْدِ بالوعيدِ، وإيرادِ التَّرغيبِ مع التَّرهيبِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((زهرة التفاسير)) لأبي زهرة (٩/ ٤٩٢٧).

فالجُملةُ مع ما بعْدَها تَفصيلٌ لِمَا أُجْمِلَ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، كما أنَّ ما قبْلَها مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ...﴾ إلخ، تَفصيلٌ لِمَا أُجْمِلَ في قولِه تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ...﴾ إلخ[(١)].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ ذكَرَ الموصولَ في تَعريفِهم؛ لأنَّ الموصولَ للإيماءِ إلى أنَّ سببَ فوزِهم هو سَبْقُ تَقديرِ الهِدايةِ لهم[(٢)].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ذكَرَ اسمَ الإشارةِ؛ لتَمييزِهم بتلك الحالةِ الحَسَنةِ، وما فيه من مَعنى البُعْدِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بما يُذْكَرُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ؛ مِن أجْلِ ما تَقدَّمَ على اسمِ الإشارةِ مِن الأوصافِ، وهو سَبْقُ الحُسْنى مِن اللهِ، وللإيماءِ إلى رِفْعةِ مَنزِلَتِهم[(٣)].

٢- قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ بَيانٌ لِمَعنى ﴿مُبْعَدُونَ﴾؛ سِيقَ للمُبالَغةِ في إنقاذِهم منها[(٤)].

- قولُه: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ بَيانٌ لفَوزِهم بالمَطالِبِ إثْرَ بَيانِ خَلاصِهم مِن المَهالِكِ والمَعاطِبِ، وتَقديمُ الظَّرفِ للقصْرِ والاهتمامِ به، وجِيءَ فيه بما يدُلُّ على العُمومِ، وهو ﴿فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾، وما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٦).

يدُلُّ على الدَّوامِ، وهو ﴿خَٰلِدُونَ﴾[١].

٣- قوله تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ بَيانٌ لِنَجاتِهم مِن الأفزاعِ بالكُلِّيَّةِ بعْدَ بَيانِ نَجاتِهم من النَّارِ؛ لأنَّهم إذا لم يَحْزُنْهم أكبَرُ الأفزاعِ لا يَحزُنُهم ما عداهُ بالضَّرورةِ[٢].

- وصِيغةُ ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ﴾ تُشعِرُ بتَكلُّفِ لِقائِه، وهو تكلُّفُ تَهيُّؤٍ واستعدادٍ[٣].

- قولُه: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ، تَقديرُه: قائلينَ: هذا اليومُ يَومُكم[٤].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ باسمِ إشارةِ القريبِ ﴿هَٰذَا﴾؛ لتَعيينِ اليومِ وتَمييزِه بأنَّه اليومُ الحاضِرُ. وإضافةُ (يوم) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ؛ لإفادةِ اختصاصِه بهم، وكَونِ فائدتِهم حاصِلةً فيه[٥].

٤- قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٧).

- جُملةُ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ مُستأنَفةٌ؛ قُصِدَ منها إعادةُ ذِكْرِ البَعْثِ، والاستدلالِ على وُقوعِه وإمكانِه؛ إبطالًا لإحالةِ المُشرِكين وُقوعَه. وقد رُتِّبَ نَظْمُ الجُملةِ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ لأغراضٍ بَليغةٍ، وأصْلُ الجُملةِ: نُعِيدُ الخَلْقَ كما بدَأْنا أوَّلَ خَلْقٍ يومَ نَطْوي السَّماءَ كطَيِّ السِّجِلِّ للكِتابِ وعْدًا علينا؛ فحُوِّلَ النَّظمُ، فقُدِّمَ الظَّرفُ بادِئَ ذِي بَدْءٍ؛ للتَّشويقِ إلى مُتعلَّقِه، ولِمَا في الجُملةِ الَّتي أُضِيفَ إليها الظَّرفُ مِن الغَرابةِ والطِّباقِ؛ إذ جُعِلَ ابتداءُ خَلْقٍ جَديدٍ -وهو البَعْثُ- مُؤَقَّتًا بوَقْتِ نَقْضِ خَلْقٍ قَديمٍ، وهو طَيُّ السَّماءِ، وقُدِّمَ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ -وهو حالٌ مِن الضَّميرِ المنصوبِ في ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾-؛ للتَّعجيلِ بإيرادِ الدَّليلِ قبْلَ الدَّعوى؛ لِتَتمكَّنَ في النَّفسِ فَضْلَ تَمكُّنٍ، وكلُّ ذلك وُجوهٌ للاهتمامِ بتَحقيقِ وُقوعِ البَعْثِ، وعُقِّبَ ذلك بما يُفِيدُ تَحقُّقَ حُصولِ البَعْثِ مِن كَونِه وَعْدًا على اللهِ بتَضمينِ الوعْدِ مَعنى الإيجابِ، فعُدِّيَ بحَرْفِ (على) في قولِه تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾، أي: حَقًّا واجِبًا[1].

- قولُه: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ تَشبيهٌ لِطَيِّ السَّماءِ بِطَيِّ الكاتِبِ للصَّحيفةِ عندَ انتهاءِ كِتابَتِها. وتَعريفُ ﴿ٱلسِّجِلِّ﴾ وتَعريفُ (الكتاب) تَعريفُ الجِنْسِ؛ فاسْتوى في المُعرَّفِ الإفرادُ والجَمْعُ؛ فأمَّا قِراءةُ (الكُتب) بصِيغَةِ الجَمْعِ[2] مع كَونِ (السِّجِلِ) مُفْرَدًا، ففيها حُسْنُ التَّفنُّنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٧، ١٥٨).

(٢) قرأ بها حمزةُ، والكسائيُّ، وحفصٌ. يُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٢).

بالتَّضادِّ، وأمَّا قِراءةُ (الكتاب) بصِيغَةِ الإفرادِ[١]، ففيها مُحسِّنُ مُراعاةِ النَّظيرِ في الصِّيغةِ[٢].

- قولُه: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ تَشبيهٌ للإعادةِ بالإبداءِ في تَناوُلِ القُدرةِ لهما على السَّواءِ[٣].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ مُؤكَّدةٌ بحَرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لتَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ قُدرةَ اللهِ؛ لأنَّهم لمَّا نَفَوُا البَعْثَ بعِلَّةِ تَعذُّرِ إعادةِ الأجسامِ بعْدَ فَنائِها، فقدْ لَزِمَهم إحالَتُهم ذلك في جانبِ قُدرةِ اللهِ. وفي ذِكْرِ فِعْلِ الكونِ ﴿كُنَّا﴾: إفادةُ أنَّ قُدرتَه قد تَحقَّقَت بما دَلَّ عليه دليلُ قولِه: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[٤].

---

(١) قرأ بها الباقونَ. يُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٨).

الآيات (١٠٦-١١٢)

﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَبَلَٰغًا﴾: أي: لكفايةً، يقال: في هذا الشيءِ بلاغٌ وبُلْغةٌ وتبلُّغٌ، أي: كفايةٌ، والبُلوغُ والبلاغُ: الانتهاءُ إلى أقصَى المقصدِ والمنتهَى، وربَّما يُعبَّرُ به عن المشارفةِ عليه، وإن لم ينتهِ إليه، وأصلُ (بلغ): هو الوصولُ إلى الشَّيءِ[(١)].

﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: أي: على استواءٍ فِي العِلمِ مِنكَ ومِنهم؛ فلَا يَدَّعِي أحدٌ منهم أنَّه لم يبلُغْه الإنذارُ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتدالٍ بينَ شَيئينِ[(٢)].

﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾: أي: أعلَمْتُكم وأنذَرْتُكم، وأصلُ (أذن): يدُلُّ على العِلمِ والإعلامِ[(٣)].

﴿تَصِفُونَ﴾: أي: تكذِبونَ وتقولونَ، والوصْفُ: ذِكْرُ الشَّيءِ بحِلْيتِه ونعْتِه،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٥، ٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٢).

وأصْلُ (وصف): تحْليةُ الشَّيءِ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى: إنَّ في هذا القرآنِ لَكفايةً لِقَومٍ عابِدينَ اللهَ بما شَرَعه لهم ورَضِيَه منهم، يَتبلَّغونَ به في الوصولِ إلى بُغْيَتِهم مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ. وما أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- إلَّا رَحمةً لجَميعِ الخَلقِ.

قُلْ: إنَّما يُوحَى إليَّ أنَّ إلهَكم الذي يَستَحِقُّ العِبادةَ مَعبودٌ واحِدٌ لا شَريكَ له، هو اللهُ، فهل أنتم مُستَسلِمونَ له، مُنقادونَ لِطاعتِه؟

فإنْ أعرَضَ هؤلاء عن الإسلامِ فقُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: أعلَمْتُكم ببَراءَتي منكم وبراءَتِكم مِنِّي، وأنَّه لا صلحَ بينَنا، ولا سلمَ، فاستَوَينا جميعُنا في العِلمِ بذلك، ولسْتُ أدري أقريبٌ ما وعَدَكم اللهُ به من العَذابِ، أم هو بَعيدٌ. إنَّ اللهَ يَعلمُ ما تَجهَرونَ به من أقوالِكم، وما تَكتُمونَه في سَرائِرِكم، وسيُحاسِبُكم عليه، ولَسْتُ أدري لعَلَّ تأخيرَ العذابِ الذي استعْجلتُموه استدراجٌ لكم وابتِلاءٌ، فتزدادُ سَيِّئاتُكم، وتتمَتَّعونَ قَليلًا في حياتِكم إلى وَقتٍ مُعَيَّنٍ، ثمَّ يأتيكم العَذابُ.

قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ربِّ افصِلْ بيْنَنا وبيْنَ قَوْمِنا المكَذِّبينَ بالقَضاءِ الحَقِّ، بأنْ تَنصُرَني عليهم وتَخذُلَهم. ورَبُّنا الرَّحمنَ نَستَعينُ به على ما تَصِفونَه -أيُّها الكُفَّارُ- مِن الشِّركِ والتَّكذيبِ، والافتِراءِ عليه وعلى رَسولِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٩٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان ما ذُكِرَ في هذه السُّورةِ مِن الحِكَمِ والدَّلائِلِ والقَصَصِ، واعِظًا شافِيًا حَكيمًا، ومُرشِدًا هادِيًا عَليمًا؛ قال واصِلًا بما تقَدَّمَ؛ إشارةً إلى أنَّه نتيجتُه[1]:

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾.

أي: إنَّ في هذا القرآنِ الذي أنزَلْناه على نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[2] لَكفايةً؛ يَتبلَّغونَ به في الوصولِ إلى بُغْيَتِهم مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ[3] لِقَومٍ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٠٨).

(٢) ممن اختار أنَّ الإشارةَ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ تعودُ إلى القرآنِ الكريمِ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٠).

وقيل: المرادُ: ما جرَى ذِكرُه في هذه السورةِ مِن الوَعظِ وغيرِه. وممن قال بذلك: القرطبي، والبيضاوي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٢).

وقيل: المراد: ما ذُكِرَ في الآيةِ السَّابقةِ مِن الوَعدِ الموعودِ به في الزَّبورِ مِن أنَّ الأرضَ يَرِثُها عبادُ اللهِ الصَّالِحونَ. وممن قال بذلك: ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٤).

(٣) ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لَبَلَٰغًا﴾ الكفايةُ، واقتَصر عليها: الرسعني، والعليمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٢٦).

وفسَّر الواحدي وابنُ الجوزي البلاغَ بأنَّه الكفايةُ، لكنَّهما قالا: (والمعنى: أنَّ مَن اتَّبَع القرآنَ وعمِل به، كان القرآنُ بلاغَه إلى الجنَّةِ). يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٨٤).

وممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لَبَلَٰغًا﴾ أي: إلى رِضوانِ الله، أي: سببًا يبلغُهم إلى رِضوانِه، ويتبلَّغون به في الوصولِ إلى دارِ كرامتِه، وإلى ما يرجونَ مِن الثوابِ. ممن اختار ذلك في الجملةِ: مقاتُل بنُ سليمان، وابنُ جريرٍ، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤١٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٠)، =

دَيدَنُهم وشَأنُهم القيامُ بعِبادةِ اللهِ بما شَرَعَ[١].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾.

أي: وما أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- إلَّا رَحمةً لِجَميعِ الخَلقِ[٢].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قيل: يا رَسولَ اللهِ، ادْعُ على المُشرِكينَ،

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).

وممن جمَع بينَ القولينِ السابقينِ، فاختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لَبَلَٰغٗا﴾ أي: أنَّ فيه الكفايةَ للعابدينَ، وما يبلغونَ به بُغيتَهم مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ: الرازي، والنسفي، وأبو حيان، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٩٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٧)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٩، ٤٤١)، ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٣٨٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).

قال ابن جرير: (أولى القولينِ في ذلك بالصوابِ القولُ الذي رُوي عن ابنِ عباسٍ، وهو أنَّ الله أرسَل نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم رحمةً لجميعِ العالَمِ؛ مؤمنِهم، وكافرِهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤١).

وقال مقاتلُ بنُ سليمان: (﴿رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني: الجنَّ والإنسَ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٩٧).

وقال ابنُ جُزي: (المعنى...: أنَّ اللهَ رَحِمَ العالَمينَ بإرسالِ سَيِدنا محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم؛ لأنَّه جاءهم بالسَّعادةِ الكبرى، والنَّجاةِ مِن الشَّقاوة العظمى، ونالوا على يديه الخيراتِ الكثيرةَ في الآخرةِ والأولى، وعَلَّمَهم بعد الجَهالةِ، وهداهم بعد الضَّلالةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١).

قال ابنُ عاشور: (وتفصيلُ ذلك يظهَرُ في مَظهَرينِ: الأوَّلُ: تخَلُّقُ نَفْسِه الزكيَّةِ بخُلُقِ الرَّحمةِ، والثاني: إحاطةُ الرَّحمةِ بتَصاريفِ شَريعتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٦).

قال: إنِّي لم أُبعَثْ لعَّانًا، وإنما بُعِثْتُ رَحمةً))[١].

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ بيَّن سبحانَه أنَّ أصلَ تلك الرَّحمةِ هو التَّوحيدُ والبراءةُ مِن الشِّركِ[٢].

وأيضًا بعدَ أن أورَدَ سُبحانَه الحُجَجَ والبراهينَ، لإقناعِ الكافِرينَ بأنَّ رِسالةَ الرَّسولِ حَقٌّ، حتى لم يَبْقَ في القَوسِ مِنْزَعٌ[٣]، وبلغ الغايةَ التي ليس بَعدَها غايةٌ، وبيَّنَ أنَّ هذا الرَّسولَ رَحمةٌ للعالَمينَ، وهدايةٌ للنَّاسِ أجمعينَ، وأنَّ مَن اتَّبَعه سَلَك سبيلَ الرَّشادِ، ومَن نأى عنه ضَلَّ وسار في طريقِ الغَوايةِ والعِنادِ- أردَفَ ذلك ما يكونُ إعذارًا وإنذارًا في مُجاهَدتِهم، والإقدامِ على مُناوَأتِهم، بعد أن أعيَتْه الحِيَلُ، وضاقت به السُّبُلُ، ولم تُغنِهم الآياتُ والنُّذُر، فتَمادَوا في غَوايتِهم، ولجُّوا في عِنادِهم، وأصبَحَ مِنَ العَسيرِ إقناعُهم وهدايتُهم[٤].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى عقَّب الوَصفَ الجامِعَ لِرسالةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن حيثُ ما لها مِنَ الأثَرِ في أحوالِ البَشَرِ، بوَصفٍ جامِعٍ لأصلِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ في ذاتِها، الواجِبِ على كلِّ مُتَّبِعٍ لها، وهو الإيمانُ بوحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وإبطالُ إلهيَّةِ ما سواه؛ لِنَبذِ الشِّركِ المَبثوثِ بين الأُمَمِ يَومَئذٍ؛ وللاهتِمامِ بذلك صُدِّرَت جُملتُه بالأمرِ بأن يقولَ لهم لاستِصغاءِ أسماعِهم[٥]:

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٩).

(٣) المِنْزَعُ: السَّهمُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٧/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٠).

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنَّما يُوحي اللهُ إليَّ أنَّما مَعبودُكم مَعبودٌ واحِدٌ لا شَريكَ له في العِبادةِ، فهل أنتم مُستَسلِمونَ لِتَوحيدِ اللهِ، مُنقادونَ لِطاعتِه وعِبادتِه وَحْدَه بعدَ هذا البَيانِ[1]؟

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾.

أي: فإنْ أعرَضَ النَّاسُ عن الإسلامِ، فقُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: أعلَمْتُكم ببَراءتي منكم وبراءتِكم مِنِّي، وأنَّه لا صُلحَ بينَنا، ولا سِلْمَ، فاستَوَينا جميعُنا في العِلمِ بذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٨).

ممن اختار المعنى المذكورَ: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابن جرير، والبغوي، والرسعني، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥١).

وقيل: المعنى: أعلمْتُكم بما يُوحَى إليَّ؛ لتستووا في الإيمانِ به. وممن اختاره: الزجَّاج. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٠٨).

قال ابن جزي: (أعلمتُكم بالحقِّ على استواءٍ في الإعلامِ، وتبليغٍ إلى جميعِكم، لم يختصَّ به واحدٌ دونَ آخَرَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١).

وقال ابن عطية: (معناه: عرَّفتُكم بنِذارتي، وأردتُ أن تُشارِكوني في معرفةِ ما عندي مِنَ الخَوفِ عليكم مِنَ الله تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٣). =

﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

أي: وما أدري أقريبٌ زَمَنُ وُقوعِ ما وعَدَكم اللهُ به من العَذابِ، أم هو بَعيدٌ[1]؟

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ١١٠﴾.

أي: لكنَّ عَذابَكم واقعٌ لا مَحالةَ؛ لأنَّ اللهَ يَعلَمُ ما يَجهَرُ به عِبادُه مِن أقوالِهم، ويَعلَمُ ما تُخفونَه -أيُّها المُشرِكونَ- وسيُجازيكم على ذلك عاجِلًا أو آجِلًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

= وقال السعدي: (﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ﴾ أي: أعلمْتُكم بالعقوبةِ ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: علمي وعلمُكم بذلك مستوٍ، فلا تقولوا -إذا أُنزِل بكم العذابُ: ما جاءنا مِن بشيرٍ ولا نذيرٍ، بل الآنَ استوَى علمي وعلمُكم، لما أنذَرْتُكم، وحذَّرْتُكم، وأعلمتُكم بمآلِ الكفرِ، ولم أكتُمْ عنكم شيئًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٤).

قال البقاعي: (... فقال: ﴿وَإِنْ﴾ أي: وما ﴿أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ﴾ جِدًّا بحيث يكونُ قُربُه على ما تتعارَفونَه ﴿أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ مِن عذابِ اللهِ في الدُّنيا بأيدي المُسلِمينَ أو بغيرِه، أو في الآخرةِ، مع العلمِ بأنَّه كائِنٌ لا محالةَ، وأنَّه لا بدَّ أن يلحَقَ مَن أعرض عن اللهِ الذُّلُّ والصَّغارُ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٥١٢).

وقال ابنُ عاشور: (قولُه: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يَشمَلُ كُلَّ ما يُوعَدونَه مِن عِقابٍ في الدُّنيا والآخرةِ، إن عاشُوا أو ماتوا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥١٢، ٥١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٢).

قال البيضاوي: (﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ما تجاهِرونَ به من الطَّعنِ في الإسلامِ. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ مِنَ الإِحَنِ والأحقادِ للمُسلِمينَ، فيُجازيكم عليه). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٣).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ١١١﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهم: فإنْ تأخَّرَ عذابُكم، فما أدري سَبَبَ ذلك وحِكمَتَه، لكنْ لعَلَّه[1] فِتنةٌ لكم، فتزدادُ سَيِّئاتُكم، وتتمَتَّعونَ قَليلًا في حياتِكم إلى وَقتٍ مُعَيَّنٍ، ثمَّ يأتيكم العَذابُ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿قَٰلَ﴾ بالمُضِيِّ، على أنَّه خَبَرٌ مِن الله تعالى عن نبيِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾[3].

---

(١) ممن اختار أنَّ الهاءَ في ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ ترجعُ إلى تأخيرِ العذابِ عنهم: ابنُ جرير، والبغوي، والرسعني، وابن جزي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٩٧).
وقيل: الهاءُ ترجعُ إلى قولِه: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني: إنَّ هذا الَّذي أقولُ: لعَلَّه فتنةٌ لكم. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٤، ١٧٥).

(٣) قرأ بها حفص عن عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٥). =

٢- قِراءةُ ﴿قُلْ﴾ على أنَّه أمرٌ مِن اللهِ تعالى لنبيِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يسألَه الحُكمَ بالحَقِّ(١).

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: قال مُحمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ داعيًا رَبَّه: يا رَبِّ، افعَلْ ما تنصُرُ به عبادَك، وتَخذُلُ به أعداءَك.(٢).

كما حكى اللهُ تعالى عن شُعَيبٍ عليه السَّلامُ قَولَه: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٧٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧١).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٧٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٥١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).

قال الرازي: (﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ فِيهِ وجوهٌ: أحدُها: أي: رَبِّي اقْضِ بيْني وبيْنَ قومي بالحقِّ، أي: بالعذابِ. كأنَّه قال: اقضِ بيني وبينَ مَن كذَّبني بالعذابِ... وثانيها: افصِلْ بيني وبينَهم بما يُظهرُ الحقَّ للجميعِ، وهو أنْ تنصرَني عليهم). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٩٥).

وقال الألوسي: (والحَقُّ: العَدْلُ، أي: رَبِّ اقْضِ بَينَنا وبيْن أهلِ مَكَّةَ بالعَدلِ المُقتَضي لتَعجيلِ العذابِ والتَّشديدِ عليهم؛ فهو دعاءٌ بالتَّعجيلِ والتَّشديدِ، وإلَّا فكُلُّ قَضائِه تعالى عَدلٌ وحَقٌّ، وقد استُجيبَ ذلك؛ حيثُ عُذِّبوا ببَدرٍ أيَّ تعذيبٍ). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٠٢).

وقال السَّعدي: (فاستجاب اللهُ هذا الدُّعاءَ، وحكَمَ بينهم في الدُّنيا قبْلَ الآخرةِ بما عاقَبَ اللهُ به الكافرينَ مِن وَقعةِ «بَدرٍ» وغَيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).

أي: وربُّنا المتَّصِفُ بالرَّحمةِ الواسِعةِ هو وَحْدَه الذي نَطلُبُ منه العَونَ عليكم -أيُّها المُشرِكونَ- على ما تَفتَرونَه عليه وعلى رَسولِه مِن الوَصفِ الباطِلِ[(١)].

كما قال تعالى حكايةً عن يَعقوبَ عليه السَّلامُ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ فليس للعابِدينَ الذين هم أشرَفُ الخَلقِ وراءه غايةٌ؛ لأنَّه الكَفيلُ بمَعرفةِ رَبِّهم بأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه، وبالإخبارِ بالغُيوبِ الصَّادِقةِ، وبالدَّعوةِ لحقائِقِ الإيمانِ، وشواهِدِ الإيقانِ؛ المُبَيِّنُ للمأموراتِ كُلِّها، والمَنهيَّاتِ جميعًا، المُعَرِّفُ بعُيوبِ النَّفسِ والعملِ، والطُّرُقِ التي ينبغي سلوكُها في دقيقِ الدِّينِ وجَليلِه، والتَّحذيرِ مِن طُرُقِ الشَّيطانِ، وبيانِ مَداخِلِه على الإنسانِ، فمَن لم يُغْنِه القرآنُ فلا أغناه اللهُ، ومَن لا يَكفيه فلا كفاه الله[(٢)]!

٢- على الإنسانِ أن يكونَ مَقصودُه نَفعَ الخَلقِ، والإحسانَ إليهم مُطلَقًا، وهذا هو الرَّحمةُ التي بُعِثَ بها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، والرَّحمةُ يحصُلُ بها نَفعُ العِبادِ؛ فعلى العَبدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٦، ١٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٢).

ومِن افتِرائِهم ووَصْفِهم الباطِلِ قَولُهم في حَقِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]، وقَولُهم: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقولُهم على اللهِ جَلَّ ثناؤُه: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨] إلى غيرِ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).

أن يَقصِدَ الرَّحمةَ والإحسانَ والنَّفعَ، لكِنْ للاحتياجِ إلى دَفعِ الظُّلمِ شُرِعَت العُقوباتُ، وعلى المُقيمِ لها أن يَقصِدَ بها النَّفعَ والإحسانَ، كما يَقصِدُ الوالِدُ بعُقوبةِ وَلَدِه، والطَّبيبُ بدواءِ المَريضِ، والمقصودُ بهذه النُّكتةِ أنَّ الدِّينَ والشَّرعَ لم يأمُرْ إلَّا بما هو نَفعٌ وإحسانٌ ورَحمةٌ للعبادِ، وأنَّ المُؤمِنَ عليه أن يَقصِدَ ذلك ويُريدَه، فيكونَ مَقصودُه الإحسانَ إلى الخَلقِ ونَفْعَهم، وإذا لم يَحصُلْ ذلك إلَّا بالإضرارِ ببَعضِهم، فعَلَه على نيَّةِ أن يدفَعَ به ما هو شَرٌّ منه، أو يحصُلَ به ما هو أنفَعُ مِن عَدَمِه[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ هذا الاستِفهامُ يتضَمَّنُ الأمرَ بإخلاصِ التَّوحيدِ والانقيادِ إلى اللهِ تعالى[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ المقصودُ منه الأمرُ بالإخلاصِ، وتَركُ النِّفاقِ؛ لأنَّه تعالى إذا كان عالِمًا بالضَّمائرِ، وجَبَ على العاقِلِ أن يُبالِغَ في الإخلاصِ[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ في هذه الآيةِ أعظَمُ حَثٍّ على لُزومِ الإنسانِ بالحَقِّ؛ ليتأهَّلَ لهذه الدَّعوةِ[٤]، فالمرادُ بقولِه تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: كُنْ أنت أيُّها القائلُ على الحقِّ؛ لِيُمْكِنَكَ أنْ تقول: احكمْ بالحقِّ، لأنَّ المُبْطِلَ لا يمكنُه أنْ يقولَ: احْكُمْ بالحق[٥]!

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥١٤).

(٥) الفائدةُ لابنِ هبيرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) =

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِمَّا يدُلُّ على أنَّ نبيَّ اللهِ مُحمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم آخِرُ الرُّسُلِ والأنبياءِ؛ قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقَولُه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وما أشبَهَ ذلك مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ على أنَّه رَسولٌ إلى يَومِ القيامةِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ النَّاسَ لا يَحتاجونَ بَعدَه إلى نبيٍّ ولا رَسولٍ؛ لأنَّ شَريعَتَه ستَبقَى[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ حِكمةُ تَمييزِ شَريعةِ الإسلامِ بهذه المَزِيَّةِ أنَّ أحوالَ النُّفوسِ البَشَريَّةِ مَضَت عليها عُصورٌ وأطوارٌ تهَيَّأتْ بتَطوُّراتِها لِأنْ تُساسَ بالرَّحمةِ، وأن تُدفَعَ عنها المشَقَّةُ، إلَّا بمقاديرَ ضَروريَّةٍ لا تُقامُ المصالِحُ بدُونِها، فما في الشَّرائِعِ السَّالِفةِ مِن اختِلاطِ الرَّحمةِ بالشِّدَّةِ وما في شَريعةِ الإسلامِ مِن تمَحُّضِ الرَّحمةِ لم يجْرِ في زَمَنٍ مِن الأزمانِ إلَّا على مُقتضى الحِكمةِ، ولكِنَّ اللهَ أسعد هذه الشَّريعةَ والذي جاء بها والأمَّةَ المُتَّبِعةَ لها بمُصادَفتِها للزَّمَنِ والطَّورِ الذي اقتضَت حِكمةُ اللهِ في سياسةِ البَشَرِ أن يكونَ التَّشريعُ لهم تَشريعَ رَحمةٍ إلى انقِضاءِ العالَمِ، فأُقيمَت شَريعةُ الإسلامِ على دعائِمِ الرَّحمةِ والرِّفقِ واليُسرِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وما يُتخَيَّلُ مِن شِدَّةٍ في نحوِ القِصاصِ والحُدودِ فإنَّما هو لِمُراعاةِ تعارُضِ الرَّحمةِ والمشَقَّةِ، كما أشار إليه قَولُه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فالقِصاصُ والحُدودُ شِدَّةٌ على الجُناةِ، ورَحمةٌ

= لابن رجب الحنبلي (٢/ ١٤٥).

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٤/ ٤١٩).

بَبَقيَّةِ النَّاسِ[١].

٣- قد يُعارَضُ قولُه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ بأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يكُنْ رَحمةً للكافرينَ، بلْ نِقْمةٌ؛ إذْ لولا إرسالُه إليهم ما عُذِّبوا بكُفْرِهم؛ لقولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]؟

والجوابُ عن ذلك: أنَّه رَحمةٌ للكافرينَ مِن حيثُ إنَّ عذابَ الاستئصالِ أُخِّرَ عنهم بسببِه، أو كان رَحمةً عامَّةً، من حيثُ إنَّه جاء بما يُسْعِدُهم إنِ اتَّبَعوه، ومَن لم يَتَّبِعْه فهو المُقصِّرُ، أو المُرادُ بالرَّحمةِ الرَّحيمُ، وهو صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان رَحيمًا للكُفَّارِ أيضًا[٢].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ حَصرُ الوَحيِ في تَوحيدِ الأُلوهيَّةِ حَصرٌ له في أصلِه الأعظَمِ الذي يَرجِعُ إليه جميعُ الفُروعِ؛ لأنَّ شرائِعَ كُلِّ الأنبياءِ داخِلةٌ في ضِمنِ لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ لأنَّ مَعناها خَلعُ كُلِّ الأندادِ سِوى اللهِ في جميعِ أنواعِ العباداتِ، وإفرادُ اللهِ بجَميعِ أنواعِ العباداتِ، فيَدخُلُ في ذلك جميعُ الأوامِرِ والنَّواهي القَوليَّةِ والفِعليَّةِ والاعتقاديَّةِ[٣]، فالجُملةُ صِيغَت في صيغةِ حَصرِ الوَحيِ إليه في مَضمونِها؛ لأنَّ مَضمونَها هو أصلُ الشَّريعةِ الأعظَمُ، وكُلُّ ما تَشتَمِلُ عليه الشَّريعةُ مُتفرِّعٌ عليه؛ فالدَّعوة إليه هي مَقادةُ الاجتِلابِ إلى الشَّريعةِ كُلِّها؛ إذ كان أصلُ الخِلافِ يَومَئذٍ بينَ الرَّسولِ ومُعانِديه هو قَضيَّةَ الوحدانيَّةِ؛ ولذلك قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: ٥]، وما كان إنكارُهم البَعثَ إلَّا لأنَّهم لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٨، ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٥٧).

يَجِدوه في دِينِ شِرْكِهم؛ إذ كان الذين وَضَعوا لهم الشِّركَ لا يُحَدِّثونَهم إلَّا عن حالِهم في الدُّنيا، فما كان تصَلُّبُهم في إنكارِ البَعثِ إلَّا شُعبةً مِن شُعَبِ الشِّركِ؛ فلا جرَمَ كان الاهتِمامُ بتَقريرِ الوَحدانيَّةِ تَضييقًا لِشُقَّةِ الخلافِ بينَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبينَ المُشرِكينَ المُعرِضينَ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مَبنى الإسلامِ على توحيدِ اللهِ عزَّ وجَلَّ[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ نبَّه اللهُ تعالى على الجَهرِ؛ لأنَّ مِن أحوالِ الجَهرِ أن تَرتَفِعَ الأصواتُ جِدًّا بحيث تختَلِطُ ولا يُمَيَّزُ بينها، ولا يَعرِفُ كَثيرٌ مِن حاضِريها ما قاله أكثَرُ القائلينَ، فأَعلَمَ سُبحانَه أنَّه لا يَشغَلُه صَوتٌ عن آخَرَ، ولا يَفوتُه شَيءٌ عن ذلك، ولو كَثُرَ[٣].

٧- الحُكمُ نَوعانِ: حُكمٌ كَونيٌّ، وحُكمٌ دِينيٌّ، ومِنَ الحُكمِ الكَونيِّ قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾، ومعنى الآيةِ هنا: افعلْ ما تَنْصُرُ به عبادَك، وتخذُلُ به أعداءَك، وأمَّا الحُكْمُ الدِّينيُّ فكَقولِه سُبحانَه: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾[٤] [الممتحنة: ١٠].

٨- ختم اللهُ هذه السُّورةَ بقَولِه تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ على إحدى القراءتَينِ؛ لأنَّه عليه السَّلامُ كان قد بَلَغ في البيانِ الغايةَ لهم، وبَلَغوا النِّهايةَ في أذيَّتِه وتكذيبِه؛ فكان قُصارى أمرِه تعالى بذلك تسليةً له، وتعريفًا أنَّ المقصودَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥١٢). ويُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٤، ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٠).

مَصلحتُهم، فإذا أَبَوْا إلَّا التماديَ في كُفرِهم فعليك بالانقِطاعِ إلى رَبِّك؛ لِيَحكُمَ بينك وبينهم بالحَقِّ؛ إمَّا بتعجيلِ العِقابِ بالجِهادِ أو بغَيرِه، وإمَّا بتأخيرِ ذلك؛ فإنَّ أمْرَهم وإن تأخَّرَ فما هو كائِنٌ قَريبٌ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ تَذييلٌ للوعْدِ، وإعلانٌ بأنْ قد آنَ أوانُه، وجاء إبَّانُه(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ صِيغَتْ هذه الآيةُ بأبلَغِ نَظْمٍ؛ إذ اشتملَتْ -بوَجازةِ ألْفاظِها- على مَدْحِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومَدْحِ مُرْسِلِه تعالى، ومَدْحِ رِسالتِه بأنْ كانت مَظهَرَ رَحمةِ اللهِ تعالى للنَّاسِ كافَّةً، وبأنَّها رَحمةُ اللهِ تعالى بخَلْقِه، فهي تَشتمِلُ على أربعةٍ وعِشْرينَ حَرْفًا بدُونِ حَرْفِ العطْفِ الَّذي عُطِفَت به، ذُكِرَ فيه الرَّسولُ، ومُرْسِلُه، والمُرْسَلُ إليهم، والرِّسالةُ، وأوصافُ هؤلاء الأربعةِ، مع إفادةِ عُمومِ الأحوالِ، واسْتِغراقِ المُرسَلِ إليهم، وخُصوصيَّةِ الحَصْرِ. وتَنكيرُ ﴿رَحْمَةً﴾ للتَّعظيمِ؛ إذ لا مُقْتضَى لإيثارِ التَّنكيرِ في هذا المَقامِ غيرُ إرادةِ التَّعظيمِ، وإلَّا لقِيلَ: إلَّا لِنَرْحَمَ العالمينَ، أو إلَّا أنَّك الرَّحمةُ للعالمينَ؛ فهذه اثْنا عشَرَ معنًى خُصوصيًّا(٣).

- وانتصابُ ﴿رَحْمَةً﴾ في قولِه: ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ على أنَّه حالٌ من ضَميرِ المُخاطَبِ يَجعَلُه وَصْفًا مِن أوصافِه؛ فإذا انضَمَّ إلى ذلك انحصارُ الموصوفِ في هذه الصِّفَةِ، صار مِن قَصْرِ الموصوفِ على الصِّفَةِ؛ ففيه إيماءٌ لَطيفٌ إلى أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٦٥، ١٦٦).

الرَّسولَ اتَّحَدَ بالرَّحمةِ، وانحصَرَ فيها، ومِن المعلومِ أنَّ عُنوانَ الرَّسوليَّةِ مُلازِمٌ له في سائرِ أحوالِه، فصار وُجودُه رَحمةً، وسائرُ أكوانِه رَحمةً. ووُقوعُ الوصْفِ مَصدرًا يُفِيدُ المُبالَغةَ في هذا الاتِّحادِ بحيث تكونُ الرَّحمةُ صِفَةً مُتمكِّنةً مِن إرسالِه؛ ولهذا خَصَّ اللهُ محمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذه السُّورةِ بوَصْفِ الرَّحمةِ، ولم يَصِفْ به غيرَه مِن الأنبياءِ، وكذلك في القُرآنِ كلِّه[1].

- والتَّعريفُ في ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لاستغراقِ كلِّ ما يَصدُقُ عليه اسمُ العالَمِ، فإنْ أُرِيدَ بـ (العالمينَ) أصنافُ ذَوي العِلْمِ؛ فمعنى كونِ الشَّريعةِ المُحمَّديَّةِ مُنحصِرةً في الرَّحمةِ: أنَّها أوسَعُ الشَّرائعِ رَحمةً بالنَّاسِ. وإنْ أُرِيدَ بـ (العالَمينَ) النَّوعُ من أنواعِ المَخلوقاتِ ذاتِ الحياةِ؛ فإنَّ الشَّريعةَ تَتعلَّقُ بأحوالِ الحيوانِ في مُعامَلةِ الإنسانِ إيَّاهُ، وانتفاعِهِ به[2].

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

- صُدِّرَت جُملةُ ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ بالأمْرِ؛ للاهتمامِ بذلك[3].

- قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ (إنَّما) لقَصْرِ الحُكْمِ على شَيءٍ، أو لقَصْرِ الشَّيءِ على حُكْمٍ، كما يقالُ: إنَّما زيدٌ قائمٌ، وإنَّما يقومُ زيدٌ. وقدِ اجتمَعَ المِثالانِ في هذه الآيةِ؛ لأنَّ ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ مع فاعِلِه بمَنزِلةِ: إنَّما يقومُ زيدٌ، و﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بمَنزِلةِ: إنَّما زيدٌ قائمٌ. وفائدةُ اجتماعِهما: الدَّلالةُ على أنَّ الوحْيَ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٦، ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٦٧ - ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٧٠).

اللهُ عليه وسلَّمَ مَقصورٌ على استئثارِ اللهِ بالوَحدانيَّةِ، وفي قولِه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: أنَّ الوحْيَ الوارِدَ على هذا السَّننِ مُوجِبٌ أنْ تُخْلِصوا التَّوحيدَ للهِ، وأنْ تَخْلَعوا الأندادَ؛ ففي الآيةِ قَصرانِ: الأوَّلُ: قَصْرُ الصِّفَةِ على الموصوفِ، وذلك في قَصْرِ الوحْيِ على الوَحدانيَّةِ، والمعنى: لا يُوحَى إليَّ إلَّا اختصاصُ الإلهِ بالوَحدانيَّةِ، لا لأنَّه لم يُوحَ إليه بشَيءٍ غيرِها، ولكنَّها الأصلُ الرَّئيسُ في كلِّ عِبادةٍ وعمَلٍ، وهي المطلوبةُ أوَّلًا وقبْلَ كلِّ شَيءٍ، حتَّى كأنَّ ما عداها غيرُ مَنظورٍ إليهِ، أو غيرُ جَديرٍ بالذِّكْرِ. والقَصْرُ الثَّاني: قَصْرُ الموصوفِ على الصِّفَةِ، وذلك في قَصْرِ اللهِ تعالى على الوَحدانيَّةِ، وهو ظاهِرٌ في قولِه: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[1].

- قولُه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ الفاءُ للدَّلالةِ على أنَّ ما قبْلَها مُوجِبٌ لِمَا بعْدَها[2]، والاستفهامُ حَقيقيٌّ، أي: فهلْ تُسلِمونَ بعْدَ هذا البَيانِ؟ وهو مُستعمَلٌ أيضًا في معنًى كِنائيٍّ، وهو التَّحريضُ على نَبْذِ الإشراكِ، وعلى الدُّخولِ في دَعوةِ الإسلامِ[3].

- وصِيغَ قولُه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ في الجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ دونَ أنْ يُقالَ: (فهلْ تُسلِمون)؛ لإفادةِ أنَّ المطلوبَ منهم إسلامٌ ثابتٌ، وكأنَّ فيه تَعريضًا بهم بأنَّهم في رَيبٍ يَتردَّدونَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٠، ١٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٢).

٤- قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۖ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ فيه إيجازُ قَصْرٍ(١)؛ لأنَّه تَحدَّثَ بثَلاثِ كَلماتٍ، وهي (آذنْتُكم، على، سَواء) عن كَلامٍ طَويلٍ، أي: إنْ تَولَّوا بعْدَ هذه الآياتِ والشَّواهِدِ، وأعْرَضوا، فقُلْ لهم: لقد أعْلَمْناكم على بَيانٍ، أنَّا وإيَّاكم في حَرْبٍ لا مُهادَنةَ فيها، ولا صُلْحَ بيننا، ولكنَّني لا أدري متى يأْذَنُ اللهُ(٢).

- و﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ تَتضمَّنُ معنى التَّحذيرِ والنِّذارةِ، وهذا الإيذانُ هو إعلامٌ بما يَحِلُّ بمَن تَولَّى مِن العِقابِ وغَلبةِ الإسلامِ(٣).

---

(١) الإيجازُ: هو الاختصارُ والجمعُ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ مِن الكلامِ بأقلَّ مِن عبارات مُتعارَفِ الأوساطِ. ويكونُ الإيجازُ محمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصودِ. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغة كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسنُ الإيجازِ. والإيجازُ نوعان؛ الأول: إيجازُ القصرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغةِ)، وهو ما ليس بحَذْف؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه مع أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا علِم أنه متَى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتال؛ فارتفع بالقتْلِ -الذي هو قصاصٌ- كثيرٌ مِن قتْلِ الناسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم. الثاني: إيجاز الحَذْف، والحذف لُغةً: هو الإسقاطُ. والإيجازُ بالحذف: هو حذفُ ما يُعلمُ ويُفهم من سِياق الكلام بشرط وجودُ مُقدَّرٍ يدلُّ عليه؛ فقد يكون الإيجازُ بالحذف وغيره. والفرقُ بينَ الحذفِ والإيجازِ أن يكون في الحذفِ مقدَّرٌ، بخِلافِ الإيجازِ؛ فإنَّه عبارةٌ عن اللفظِ القليلِ الجامعِ للمعاني الجمَّةِ بنفْسِه. يُنظر: ((البيان والتبيين)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشِيق (١/ ٢٤٢)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما بعدها)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٧٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٧٤، ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٣، ٤٧٤).

- قولُه: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ تأخَّرَ المُستفهَمُ عنه لِمُراعاةِ الفاصلةِ؛ إذ لو كان التَّركيبُ: (أقريبٌ ما تُوعَدون أمْ بعيدٌ) لم تكُنْ فاصِلةٌ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بينَ الجُمَلِ المُتعاطفةِ، والمقصودُ مِن الجُملةِ: تَعليلُ الإنذارِ بتَحقيقِ حُلولِ الوعيدِ بهم، وتَعليلُ عدَمِ العلمِ بقُرْبِه أو بُعْدِه، علَّلَ ذلك بأنَّ اللهَ تعالى يعلمُ جهرَهم وسِرَّهم[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، قُصِدَ مِن هذا الاستئنافِ التَّلويحُ إلى عاقبةِ أمْرِ هذا الدِّينِ المَرجُوَّةِ المُستقبَلةِ؛ لِتَكونَ قِصَّةُ هذا الدِّينِ وصاحبِه مُستوفاةَ المَبدأِ والعاقبةِ، على وِزانِ ما ذُكِرَ قبْلَها مِن قَصصِ الرُّسلِ السَّابقينَ[٣].

- وحُذِفَ المُتعلِّقُ الثَّاني لفِعْلِ ﴿ٱحۡكُم﴾؛ لتَنبيهِهم إلى أنَّ النَّبيَّ على الحقِّ؛ فإنَّه ما سأَلَ الحُكْمَ بالحقِّ إلَّا لأنَّه يُريدُه، أي: احْكُم لَنَا، أو فِيهِم، أو بَيْنَنا[٤].

- قولُه: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ قولُه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ تأْكيدٌ؛ لِمَا في التَّصريحِ بالصِّفةِ مِن المُبالَغةِ، وإنْ كانتْ لازِمَةً للفعلِ؛ لأنَّ اللهَ لا يَحكُمُ إلَّا بالحقِّ، ونَظيرُه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٧٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٧٦).

في عَكْسِه مِن صِفَةِ الذَّمِّ قولُه تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢]؛ فقد جاء هذا القيدُ على سَبيلِ التَّشنيعِ لِقَتْلِهم والتَّقبيحِ[١]. وقيل: الصفةُ هنا أُقيمَتْ مُقامَ الموصوفِ، والتقديرُ: ربِّ احكُمْ بحكمِك الحقِّ[٢]. وقيل: الحقُّ هاهنا بمعنى العذابِ، كأنَّه استعجَل العذابَ لقومِه، فعُذِّبوا يومَ بدرٍ[٣].

- وجُملةُ: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه. وإضافةُ الرَّبِّ في قوله: ﴿رَبِّ ٱحْكُم﴾ إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خاصَّةً؛ لِمَا أنَّ الدُّعاءَ مِن الوظائفِ الخاصَّةِ به صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما أنَّ إضافتَه هاهنا إلى ضَميرِ الجَمْعِ المُنتظِمِ للمُؤمِنينَ أيضًا؛ لِمَا أنَّ الاستعانةَ مِنَ الوظائفِ العامَّةِ لهم[٤].

- وتَعريفُ المُسنَدِ إليه ﴿وَرَبُّنَا﴾ بالإضافةِ؛ لِتَضمُّنِها تَعظيمًا لشأْنِ المُسلِمينَ بالاعتزازِ بأنَّ اللهَ ربُّهم. وفيه تَعريضٌ بالمُشرِكينَ بأنَّهم لَيسوا مِن مَربوبيَّةِ اللهِ في شَيءٍ حسَبَ إعراضِهم عن عِبادتِه إلى عِبادةِ الأصنامِ[٥].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ فيه إفادةُ القَصْرِ، أي: لا أستعينُ بغَيرِه على ما تَصِفون[٦].

- وفي قولِه: ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ؛ حيث حُذِف مُضافٌ هو

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٦).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَجرورُ (على)، والتَّقديرُ: على إبطالِ ما تَصِفون بإظهارِ بُطلانِكم للنَّاسِ؛ حتَّى يُؤمِنوا ولا يَتَّبِعوكم، أو على إبطالِ ما يَترتَّبُ عليه مِن أذاهُم له وللمُؤمِنينَ[1].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ السابعَ عَشَرَ

ويليه المجلدُ الثامنَ عَشَرَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الحَجِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٧).

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ الأنْبياءِ ٧
أسماءُ السُّورة: ٧
فَضائِلُ السُّورة وخَصائِصُها: ٧
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ: ٨
مَقاصِدُ السُّورة: ٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٨
الآيات (١-٥) ١٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ١١
المعنى الإجماليُّ: ١١
تَفسيرُ الآياتِ: ١٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٠
بلاغةُ الآياتِ: ٢٢
الآيات (٦-١٠) ٣٢
المعنى الإجماليُّ: ٣٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٠
بلاغةُ الآياتِ: ٤٣

الآيات (١١-١٨) ٥١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥١
المعنى الإجماليُّ: ٥٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦١
بلاغةُ الآياتِ: ٦٣
الآيات (١٩-٢٣) ٧٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٧٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٧٠
المعنى الإجماليُّ: ٧١
تَفسيرُ الآياتِ: ٧٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٧٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٧
بلاغةُ الآياتِ: ٨٠
الآيات (٢٤-٢٩) ٨٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٨٧
المعنى الإجماليُّ: ٨٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٩٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٩٦
بلاغةُ الآياتِ: ١٠١

الآيات (٣٠-٣٣) ١٠٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٠٧
المعنى الإجماليُّ: ١٠٨
تَفسيرُ الآياتِ: ١٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١١٧
بلاغةُ الآياتِ: ١١٨
الآيات (٣٤-٤٠) ١٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٢٤
المعنى الإجماليُّ: ١٢٤
تَفسيرُ الآياتِ: ١٢٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٣٦
بلاغةُ الآياتِ: ١٣٩
الآيات (٤١-٤٧) ١٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٥٠
المعنى الإجماليُّ: ١٥١
تَفسيرُ الآياتِ: ١٥٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٦٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٦٧
بلاغةُ الآياتِ: ١٦٩
الآيات (٤٨-٥٠) ١٨٠
المعنى الإجماليُّ: ١٨٠

تَفسيرُ الآياتِ: ١٨٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٨٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٨٦
بلاغةُ الآياتِ: ١٨٦
الآيات (٥١-٦١) ١٩١
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٩١
المعنى الإجماليُّ: ١٩٢
تَفسيرُ الآياتِ: ١٩٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٩٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٠٠
بلاغةُ الآياتِ: ٢٠٢
الآيات (٦٢-٧٠) ٢١٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢١٢
المعنى الإجماليُّ: ٢١٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٢١٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٢٠
بلاغةُ الآياتِ: ٢٢٢
الآيات (٧١-٧٥) ٢٣٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٣٠
المعنى الإجماليُّ: ٢٣٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٣١

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٣٨
بلاغةُ الآياتِ: ٢٤٠
الآيتان (٧٦-٧٧) ٢٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٤٣
المعنى الإجماليُّ: ٢٤٣
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٢٤٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٤٦
بلاغةُ الآيتينِ: ٢٤٧
الآيات (٧٨-٨٠) ٢٤٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٤٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٥٠
المعنى الإجماليُّ: ٢٥٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٥١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٥٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٥٧
بلاغةُ الآياتِ: ٢٦١
الآيتانِ (٨١-٨٢) ٢٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٦٥
المعنى الإجماليُّ: ٢٦٥
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٢٦٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٦٨

بلاغةُ الآيتينِ: ٢٧٠
الآيتان (٨٣-٨٤) ٢٧٣
المعنى الإجماليُّ: ٢٧٣
تَفسيرُ الآيتينِ: ٢٧٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٧٩
بلاغةُ الآيتينِ: ٢٧٩
الآيات (٨٥-٨٨) ٢٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٨٤
المعنى الإجماليُّ: ٢٨٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٨٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٩٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٩١
بلاغةُ الآياتِ: ٢٩٢
الآيتان (٨٩-٩٠) ٢٩٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٩٥
المعنى الإجماليُّ: ٢٩٥
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٢٩٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٩٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٠٠
بلاغةُ الآيتينِ: ٣٠١
الآيات (٩١-٩٤) ٣٠٣

غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٠٣
مشكلُ الإعرابِ: ٣٠٣
المعنى الإجماليُّ: ٣٠٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٠٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣١٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣١٢
بلاغةُ الآياتِ: ٣١٣
الآيات (٩٥-١٠٠) ٣٢١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٢١
المعنى الإجماليُّ: ٣٢٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٢٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٣٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٣٢
بلاغةُ الآياتِ: ٣٣٥
الآيات (١٠١-١٠٥) ٣٤٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٤٠
المعنى الإجماليُّ: ٣٤١
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٤٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٥٤
بلاغةُ الآياتِ: ٣٥٧
الآيات (١٠٦-١١٢) ٣٦٢

غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٦٢
المعنى الإجماليُّ: ٣٦٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٦٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٧٣
بلاغةُ الآياتِ: ٣٧٦
الفهرس ٣٨٥

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٢٥ ر.س

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الحج وسورة المؤمنون

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بدمنهور

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثامن عشر

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الحج وسورة المؤمنون)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية للنشر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثامن عشر - سورة الحج وسورة المؤمنون/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية للنشر - الظهران، ١٤٤٠هـ

٧٥٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ١-٧٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٠/١٠٧٩٥

رقم الإيداع: ١٤٤٠/١٠٧٩٥

ردمك: ١-٧٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الحج وسورة المؤمنون)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثامن عشر

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ الحَجِّ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الحَجِّ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (الحَجِّ)[١].

فعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((في سُورةِ الحَجِّ سَجدتانِ))[٢].

وعن عبدِ الله بنِ ثعلبةَ: (أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضي اللَّه عنه صلَّى بهم بالجابيةِ[٣]، فقرأ سورةَ الحجِّ، فسجَد فيها سَجْدتينِ)[٤].

فَضائلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

فُضِّلَت هذه السُّورةُ على سائِرِ السُّوَرِ بسَجدَتينِ:

كما دلَّ على ذلك قولُ ابنِ عباسٍ، وفعلُ عُمرَ -فيما تقدَّم- رضي الله عنهم أجمعينَ[٥].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ الحَجِّ؛ لاشتِمالِها على مناسكِ الحَجِّ، وتَعظيمِ الشَّعائِرِ، وتأذينِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ للنَّاسِ بالحَجِّ، وقد نزلَتْ قبلَ أن يُفْرضَ الحجُّ على المسلمينَ بالاتِّفاقِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٩).

(٢) أخرجه الحاكم (٣٤٧٢)، والبيهقي (٣٨٩٣) موقوفًا.

صحَّحه الحاكم في ((المستدرك)) (٢/ ٤٢٣)، وابن حزم في ((المحلى)) (٥/ ١٠٧).

(٣) الجابِيةُ: مدينةٌ بالشَّامِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٧٦٩).

(٤) أخرجه الشافعي في ((الأم)) (٨/ ٦٩٤)، والحاكم (٣٤٧١)، والبيهقي (٣٨٨٧).

صحَّحه الحاكم في ((المستدرك)) (٢/ ٤٢٣)، وابن الملقن في ((شرح البخاري)) (٨/ ٣٨٧).

(٥) أمَّا السجدةُ الأُولَى ففي قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج: ١٨]. وقد أجمَع العلماءُ على السجودِ فيها، وممن نقَل الإجماعَ: ابنُ حزمٍ، وابنُ قُدامةَ، وابنُ حَجَرٍ. يُنظر: ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٣١)، ((الكافي)) لابن قدامة (١/ ٢٧٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٥٥١). =

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

اختلف العُلَماءُ في هذه السُّورةِ على أقوال:

الأوَّل: أنَّها مَدَنيَّةٌ(١).

الثاني: أنَّها مكِّيَّةٌ(٢).

= أمَّا السجدةُ الثانيةُ ففي قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ [الحج: ٧٧]، وفيها خلاف، والسجودُ فيها مذهبُ الشافعيَّةِ والحنابلةِ وبعضِ المالكيَّةِ، وهو اختيارُ ابنِ المُنذِرِ، وابنِ تيميَّةَ، والشَّوكانيِّ، وابنِ عُثيمينَ. يُنظر: ((المجموع)) للنووي (٤/ ٦٢)، ((الإقناع)) للحَجَّاوي (١/ ١٥٥)، ((المنتقى)) للباجي (١/ ٣٥١)، ((الأوسط)) لابن المنذر (٥/ ٢٧٢)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٠)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٤/ ٩٦).

(١) ممن اختار أنَّ السُّورةَ مَدَنيَّةٌ كلُّها: عبد الرزاق، والماوَرْدي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٧).

وقيل: مدنية إلَّا أربعَ آياتٍ منها نزَلَت بمكَّة، وهي قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ [الحج: ٥٢] إلى قَولِه تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥].

وممن قال اختار هذا القولَ: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين، وابن جزي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٥٣)، ((تفسير القرآن العزيز)) لابن أبي زمنين (٣/ ١٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩١).

(٢) وممن اختار أنَّ السورةَ مكِّيَّةٌ: عبدُ القاهر الجرجاني، وابن كثير، والنسفي. يُنظر: ((درج الدرر في تفسير الآي والسور)) لعبد القاهر الجرجاني (٣/ ١٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢٦).

وقيل: مكيَّةٌ غيرَ سِتِّ آياتٍ، وهي قَولُه تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ...﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج: ١٩- ٢٤]، ونقل الاتفاقَ على ذلك: الفيروزابادي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٣).

وممن اختار هذا القولَ: البغويُّ، والزمخشري، والبيضاوي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٤).

وقيل: مكيَّةٌ سوى ثلاثِ آياتٍ، هي قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾ [الحج: ١٩] إلى تمامِ ثلاثِ =

الثَّالث: أنَّها مختلِطةٌ[١].

مَقاصِدُ السُّورة:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ سُورةِ الحَجِّ:

بَيانُ التَّوحيدِ، وإقامةُ الأدلةِ عليه، وإثباتُ البَعثِ[٢].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلت عليها السُّورةُ:

١- افتُتِحَت السُّورةُ بالأمرِ بتقوى اللهِ، والحَديثِ عن أهوالِ القيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه.

٢- بيانُ الأدِلَّةِ على أنَّ البَعثَ حَقٌّ.

٣- ذِكرُ جِدالِ المُشرِكينَ، وعِبادةِ المُنافِقينَ.

٤- بَيانُ حُكمِ اللهِ بين العِبادِ، والفَصلِ بينهم، وأنَّ كُلَّ شَيءٍ في الكَونِ يَسجُدُ لله، وأنَّ كَثيرًا مِنَ النَّاسِ حَقَّ عليه العَذابُ.

٥- عَقْدُ مُقارَنةٍ بين خَصمَينِ اختَصَموا في رَبِّهم مِنَ المُؤمِنينَ والكافِرينَ، مع بيانِ عاقِبةِ كُلٍّ منهما.

= آياتٍ. وممن قال بهذا القولِ: السمرقنديُّ، ومكي، والرازي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٤٧)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٨٣٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ١٩٩).

(١) وممن اختار أنَّ السورةَ مختلطةٌ؛ منها المكِّيُّ، ومنها المدنيُّ: ابنُ عطية، والقرطبي -ونسباه للجمهورِ-، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٤٠).

قال ابنُ عاشور: (أرادوا أنَّ كثيرًا منها مكيٌّ، وأنَّ مثلَه أو يقاربُه مدنيٌّ، وأنَّه لا يتعيَّنُ ما هو مكيٌّ منها، وما هو مدنيٌّ؛ ولذلك عبَّروا بقولِهم: هي مختلطةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٩/ ٢٧٠).

٦- الحَديثُ عن فريضةِ الحَجِّ وما جَعَل اللهُ فيه من المنافِعِ، وصَدِّ المُشرِكينَ عن المسجدِ الحَرامِ.

٧- التَّحذيرُ مِنَ الشِّركِ.

٨- الإذْنُ للمُسلِمينَ بالقِتالِ، وضَمانُ النَّصرِ والتَّمكينِ في الأرضِ لهم.

٩- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِن تكذيبٍ.

١٠- عَرضُ نماذِجَ مِن تكذيبِ المكَذِّبينَ مِن قَبلُ، ومِن مَصارِعِ المكَذِّبينَ ومَشاهِدِ القُرى المُدَمَّرةِ على الظَّالِمينَ.

١١- عَرضُ طَرَفٍ مِن كَيدِ الشَّيطانِ للرُّسُلِ والنبيِّينَ في دَعوتِهم، وتثبيتِ اللهِ لِدَعوتِه، وإحكامِه لآياتِه.

١٢- التَّذكيرُ بألوانٍ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى على الخَلقِ، وأنَّ الله اصطفى خَلْقًا مِنَ الملائِكةِ جعَلَهم رُسُلًا إلى النَّاسِ.

١٣- تَوجيهُ بَعضِ الإرشاداتِ إلى المؤمِنينَ بعِبادتِه سُبحانَه، وفِعلِ الخَيراتِ، والجِهادِ، وإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والاعتِصامِ باللهِ.

الآيتان (١-٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زَلۡزَلَةَ﴾: الزَّلزَلَةُ: الحَرَكَةُ الشَّديدةُ، واضْطِرابُ الأرْضِ، وأصلُها مِن: زَلَّ عن الموضِعِ، أي: زال عنه وتحَرَّكَ[1].

﴿تَذۡهَلُ﴾: أي: تَنسَى وتَترُكُ، والذُّهولُ: نِسيانُ ما مِن شَأنِه ألَّا يُنسَى؛ لوجودِ مُقتَضى تذَكُّرِه، وأصلُ (ذهل): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بذُعرٍ أو غَيرِه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: يا أيُّها النَّاسُ، اتَّقُوا رَبَّكم، واحذَروا عِقابَه، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيهِ، إنَّ ما يَحدُثُ يوم القيامةِ مِن أهوالٍ عظيمةٍ شَيءٌ عَظيمٌ، يومَ تَرَونَ زلزلةَ السَّاعةِ تَنسى المرضِعةُ رَضيعَها الذي ألقَمَتْه ثَدْيَها، وتشتغِلُ عنه؛ لِمَا نَزَل بها مِنَ الكربِ، وتُسْقِطُ الحامِلُ حَمْلَها مِنَ الرُّعبِ، وتَغيبُ عُقولُ النَّاسِ، فيَصيرون كالسُّكارى؛ مِن شِدَّةِ الهَولِ والفَزَعِ، ولَيسُوا بسُكارى مِن الخَمرِ، ولكِنَّ شِدَّةَ العذابِ أفقَدَتْهم عُقولَهم وإدراكَهم!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٩).

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ، اتَّقُوا رَبَّكم الذي خلَقَكم، والذي يرزُقُكم ويدَبِّرُ أمورَكم، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه[1].

﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾.

أي: اتَّقُوا اللهَ؛ لأنَّ أمامَكم أهوالًا عَظيمةً، يَحصُلُ منها رُعبٌ هائِلٌ، وفَزَعٌ كَبيرٌ يومَ القيامةِ، ولا نجاةَ مِن ذلك إلَّا بتَقواهُ سُبحانَه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٤).

قال ابن عاشور: (أوَّلُ تقواهُ هو تنزيهُه عن النَّقائِصِ، وفي مقَدِّمةِ ذلك تنزيهُه عن الشُّرَكاءِ، باعتقادِ وحدانيَّتِه في الإلهيَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣-٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٤ - ٢٦١).

ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: شدَّتَها وهَوْلَها، ومَا يَحْصُلُ لِلنُّفوسِ مِنَ الْفَزَعِ وَالرُّعْبِ: ابنُ كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣).

قال الشنقيطي عن هذه الزلزلةِ: (معناها: شِدَّةُ الخوفِ والهولِ والفزعِ؛ لأنَّ ذلك يُسمَّى زِلْزالًا، بدليلِ قولِه تعالَى فيما وَقَع بالمسلمينَ يومَ الأحزابِ مِن الخوفِ: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۞ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ١٠- ١١]؛ أي: وهو زلزالُ فزعٍ وخوفٍ، لا زلزالُ حركةِ الأرض). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦١). =

= وممن اختار أنَّها زلزلةٌ حقيقة وهي شدةُ الحركةِ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والرازي، والعليمي، وابن عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ١٩٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٧).

ونسَب ابنُ عطيةَ للجمهورِ أنَّ زلزلةَ السَّاعةِ هي كالمعهودةِ في الدنيا، إلَّا أنَّها في غايةِ الشدَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٥).

قال الشنقيطي: (اخْتَلَف العلماءُ في وقتِ هذه الزَّلْزَلةِ المذكورةِ هنا، هل هي بعدَ قيامِ النَّاسِ مِن قُبورِهم يومَ نشورِهم إلى عَرَصاتِ القيامةِ، أو هي عِبارَةٌ عن زلزلةِ الأرضِ قبلَ قِيامِ النَّاسِ مِن القُبورِ؟

فقالَتْ جماعَةٌ مِن أهلِ العلمِ: هذه الزَّلزلةُ كائِنةٌ في آخِرِ عُمْرِ الدُّنيا، وأوَّلِ أحوالِ السَّاعةِ. ومِمَّنْ قالَ بهذا القولِ: عَلْقَمةُ، والشَّعبيُّ، وإبراهيمُ، وعُبَيدُ بنُ عُمَيرٍ، وابنُ جُريجٍ. وهذا القولُ مِن حيثُ المعنَى له وجهٌ مِن النَّظَرِ، ولكِنَّه لم يَثْبُتْ ما يُؤَيِّدُه مِن النَّقلِ، بل الثَّابِتُ مِن النَّقلِ يُؤَيِّدُ خلافَه، وهو القولُ الآخَرُ. وحُجَّةُ مَن قالَ بهذا القولِ حديثٌ مرفوعٌ جاءَ بذلك، إلَّا أنَّه ضعيفٌ لا يجوزُ الاحتجاجُ به.

وأمَّا حُجَّةُ أهلِ القولِ الآخَرِ القائِلينَ بأنَّ الزَّلزلةَ المذكورةَ كائنةٌ يومَ القيامةِ بعدَ البعثِ مِن القبورِ، فهي ما ثَبَت في الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم مِن تصريحِه بذلك. وبذلك تعلمُ أنَّ هذا القولَ هو الصَّوابُ كما لا يخفَى). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٥٧).

وممَّن اختار أنَّها زلزلةٌ واقعةٌ في الدنيا قُبَيل يوم القيامة، وأنَّها من أشراطِه ومُقَدِّماتِه: السمعاني، وابن جزي، وابن عاشور، ونسبه القرطبيُّ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: علقمةُ، وعامرٌ الشعبيُّ، وابنُ جريجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٢١).

قال أبو حيان: (قال الجمهورُ: في الدنيا آخرَ الزمانِ، ويتبعُها طلوعُ الشمسِ مِن مغربِها). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٠).

وممن اختار أنَّ الزلزلةَ كائنةٌ بعدَ بعثِ الناس وقيامِهم مِن قبورِهم: ابنُ جريرٍ، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٧- ٢٦٠).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الحسنُ، والسُّدِّي، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) =

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يقولُ اللهُ تعالى: يا آدَمُ. فيقولُ: لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ[١]، والخَيرُ في يَدَيكَ! فيقولُ: أخرِجْ بَعْثَ النَّارِ[٢]. قال: وما بَعْثُ النَّارِ؟ قال: مِن كُلِّ ألفٍ تِسعَ مئةٍ وتِسعةً وتِسعينَ. فعِندَه يَشيبُ الصَّغيرُ ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، وأيُّنا ذلك الواحِدُ؟! قال: أبشِروا؛ فإنَّ منكم رجُلًا، ومِن يأجُوجَ ومَأجوجَ ألْفًا. ثمَّ قال: والَّذي نَفْسي بيَدِه، إنِّي أَرْجو أنْ تَكونوا رُبُعَ أهلِ الجَنَّةِ. فكبَّرْنا! فقال: أَرْجو أنْ تَكونوا ثُلُثَ أهلِ الجَنَّةِ. فكبَّرْنا! فقال: أَرْجو أنْ تَكونوا نِصْفَ أهلِ الجَنَّةِ. فكبَّرْنا! فقال: ما أنتُم في النَّاسِ إلَّا كالشَّعرةِ السَّوداءِ في جِلدِ ثَورٍ أبيضَ، أو كشَعرةٍ بَيضاءَ في جِلدِ ثَورٍ أسوَدَ!))[٣].

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾.

أي: يومَ تَرَونَ زلزلةَ السَّاعةِ -أيُّها النَّاسُ- تَشْتغِلُ كُلُّ مُرضِعةٍ حِينَها عمَّن تُرضِعُه، وتَغفُلُ عنه حائِرةً مَدهوشةً، قد اشتدَّ بها الكَربُ؛ مِن هَولِ ما تراهُ[٤].

= (١٦/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٢١).

(١) لَبَّيْكَ: أي: أدومُ على طاعتِك دوامًا بعد دَوامٍ، وإقامةً بعد إقامةٍ؛ مِن ألَبَّ بالمكانِ: إذا أقامَ به. وسَعْدَيْكَ: أي: ساعدتُ طاعتَك يا رَبِّ مُساعدةً بعد مُساعدةٍ، وهي الموافَقةُ والمُسارعةُ، أو أسعَدُ بإقامتي على طاعتِك وإجابتي لدَعوتِك سعادةً بعد سعادةٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٦٧٣).

(٢) بَعْثَ النَّارِ: بمعنى المبعوثِ المُوَجَّهِ إليها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٩٧).

(٣) رواه البخاري (٣٣٤٨) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٥٤، ٤٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤، ٥)، ((تفسير =

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾.

أي: وتُسقِطُ كُلُّ امرأةٍ حاملٍ جَنينَها الذي في بَطنِها قَبلَ تمامِه؛ لشِدَّةِ الكَربِ والفَزَعِ والهَولِ[(١)].

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾.

أي: وترى[(٢)] النَّاسَ تَحسَبُهم سُكارى قد دَهِشَت عقولُهم، وغابت أذهانُهم؛ مِن شِدَّةِ الفَزَعِ والكَربِ والهَولِ، ولَيسُوا بسُكارى حقيقةً مِن شُربِ الخَمرِ[(٣)]!

= ابن كثير)) (٥/ ٣٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٥).

قال الزمخشري: (﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾: عن إرضاعِها. أو: عن الذي أرْضَعته، وهو الطفلُ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٢).

وقال السعدي: (﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ مع أنَّها مجبولةٌ على شدةِ محبتِها لولدِها، خصوصًا في هذه الحالِ، التي لا يعيشُ إلَّا بها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٦).

قال السمعاني: (فإن قال قائِلٌ: كيفَ تضَعُ المرأةُ حَمْلَها يومَ القيامةِ؟

الجوابُ: قُلْنا: أمَّا على قَولِنا: إنَّ الزَّلزلةَ قبل قيامِ السَّاعةِ، فمعنى وَضعِ الحَملِ على ظاهِرِه، وإنْ قُلْنا: إنَّ الزَّلزلةَ عند قيامِ السَّاعةِ، فالجوابُ مِن وَجهَينِ: أحدُهما: أنَّ المرادَ مِن الآيةِ النِّساءُ اللَّواتي مِتنَ وهنَّ حَبالى. والوَجهُ الثَّاني -وهو الأصَحُّ: أنَّ هذا على وَجهِ تعظيمِ الأمرِ، وذِكرِ شِدَّةِ الهَولِ، لا على حقيقةِ وَضعِ الحَملِ، والعرَبُ تقولُ: أصابَنا أمرٌ يَشيبُ فيه الوليدُ، وهذا على طَريقِ عِظَمِ الأمرِ وشِدَّتِه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]، والمرادُ ما بَيَّنَّا). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤١٧). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٠).

(٢) قال ابنُ جرير: (وترى النَّاسَ يا محمَّدُ...). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٥٨).

وقال السعدي: (أي: تحسَبُهم -أيُّها الرَّائي لهم ...). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٥٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

أي: ولكِنَّ الذي أوجَبَ لهم هذه الحالةَ خَوفُهم مِن شِدَّةِ عذابِ اللهِ الذي رأوْهُ، فأذهَبَ هَولُه عُقولَهم، وأفرَغَ قُلوبَهم، ومَلَأها فَزَعًا ورُعبًا[١]!

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ يخاطِبُ اللهَ النَّاسَ كافَّةً بأن يتَّقوا رَبَّهم الذي ربَّاهم بالنِّعَمِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، فحقيقٌ بهم أن يتَّقوه بتركِ الشِّركِ والفُسوقِ والعصيانِ، ويمتَثِلوا أوامِرَه مهما استطاعوا، ثمَّ ذكَر ما يُعينُهم على التقوى، ويحَذِّرُهم مِن تركِها، وهو الإخبارُ بأهوالِ القيامةِ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۞ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾، فحقيقٌ بالعاقِلِ الذي يعرِفُ أنَّ هذا أمامَه أن يُعِدَّ له عُدَّتَه، وألَّا يُلهِيَه الأملُ فيترُكَ العمَلَ، وأن تكونَ تقوَى اللهِ شِعارَه، وخوفُه دِثارَه[٢]، ومحبَّةُ اللهِ وذِكرُه رُوحَ أعمالِه[٣]، فعِظَمُ الهولِ يومَ القيامةِ موجِبٌ واضحٌ لِلاستعدادِ لذلك الهولِ بالعملِ الصَّالحِ في دارِ الدُّنيا قبلَ تَعَذُّرِ الإمكانِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- من أسرارِ بلاغةِ القُرآنِ: أنَّه تعالى جعل الافتتاحَ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٥٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٧))، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).

(٢) الشِّعارُ: ما وَلِيَ الجَسَدَ مِن الثِّيابِ. والدِّثارُ: ما كان مِنَ الثِّيابِ فَوقَ الشِّعارِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٠٢، ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢، ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦١).

رَبَّكُمْ﴾ لسورتين في القرآن: إحداهما: سورةُ النساءِ، وهي السُّورةُ الرَّابعةُ مِن النِّصفِ الأوَّلِ مِن القرآنِ، وعلَّل الأمرَ بالتَّقوى فيها بما يدُلُّ على معرفةِ المبدأِ بأنَّه خلق الخَلْقَ من نفْسٍ واحدةٍ، وهذا يدُلُّ على كمالِ قُدرةِ الخالقِ، وكمالِ عِلمِه وحكمتِه. والثانيةُ: سورةُ الحجِّ، وهي الرابعةُ أيضًا مِن النِّصفِ الثَّاني مِن القرآنِ، وعلَّلَ الأمرَ بالتَّقوى فيها بما يدُلُّ على معرفةِ المعادِ، فجعلَ صدْرَ هاتين السورتينِ دليلًا على معرفةِ المبدأِ والمعادِ، وقدَّم السُّورةَ الدالَّةَ على المبدأِ على السُّورةِ الدالَّةِ على المعادِ، وهذا سِرٌّ عظيمٌ[(١)]! وهذا على القولِ بأنَّ ترتيبَ السُّوَرِ توقيفيٌّ.

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ تسميةُ الزَّلزلةِ بـ «شيء» إمَّا لأنَّها حاصلةٌ مُتيقَّنٌ وقوعُها، فيُستسهَلُ لذلك أن تسمَّى شيئًا، وهي معدومةٌ؛ إذ اليقينُ يُشبِهُ الموجوداتِ. وإمَّا على المآلِ، أي: هي إذا وقعت شيءٌ عظيمٌ، وكأنَّه لم يُطلِقِ الاسمَ الآنَ، بل المعنى: أنَّها إذا كانت فهي إذَنْ شيءٌ عظيمٌ؛ ولذلك تَذهَلُ المراضِعُ، وتَسكَرُ النَّاسُ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ دَلالةٌ على إجازةِ المُبالغةِ في الأشياءِ، حتى يُسمَّى بأضدادِها، كما يُقالُ: «فلانٌ ميتٌ» إذا كان بليدًا في أمْرِه خاليًا مِن المنافِعِ، و«فلانٌ شيطانٌ» إذا كان داهيةً، وأشباه ذلك، ألَا تراه قال: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ يعني -واللهُ أعلَمُ- مِن الشَّرابِ، ولكنْ مِن غَلبةِ الفَزَعِ لِمَا عايَنوا مِن الزَّلزَلةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١/ ١٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣١٤).

٤- قد يكونُ سَبَبُ السُّكرِ مِن الألَم، كما يكونُ من اللَّذَّةِ، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، فأخبرَ أنَّهم يُرَونَ سُكارى وما هم بسُكارى[١]!

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ في التَّعبيرِ عن الذَّاتِ العَلِيَّةِ بصِفَةِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ المُخاطبينَ: إيماءٌ إلى استحقاقِه أنْ يُتَّقى؛ لِعَظمتِه بالخالِقيَّةِ، وإلى جَدارةِ النَّاسِ بأنْ يَتقُّوه؛ لأنَّه بصِفَةِ تَدبيرِ الرُّبوبيَّةِ لا يأمُرُ ولا يَنْهى إلَّا لمُراعاةِ مَصالحِ النَّاسِ، ودَرْءِ المفاسِدِ عنهم[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بالتَّقوى، كما يُفِيدُه حَرفُ التَّوكيدِ (إنَّ) الواقِعُ في مَقامِ خِطابٍ لا تَردُّدَ للسَّامِعِ فيه، والتَّعليلُ يَقْتضي أنَّ لِزَلزلةِ السَّاعةِ أثرًا في الأمْرِ بالتَّقوى؛ وهو أنَّه وقْتٌ لحُصولِ الجزاءِ على التَّقوى وعلى العصيانِ، وذلك على وَجْهِ الإجمالِ المُفصَّلِ بما بعْدَه في ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[٣].

- والإتيانُ بلفْظِ ﴿شَيۡءٌ﴾؛ للتَّهويلِ بتَوغُّلِه في التَّنكيرِ، وللإيذانِ بأنَّ العُقولَ قاصِرةٌ عنْ إدراكِ كُنْهِها، والعِبارةَ ضَيِّقةٌ لا تُحِيطُ بها إلَّا على وَجْهِ الإبهامِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ

(١) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٧).

كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ تَمثيلٌ لبَيانِ شِدَّةِ الأمرِ وتَفاقُمِه[١].

- قولُه: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ ...﴾ بَيانٌ لجُملةِ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾؛ لأنَّ ما ذُكِرَ يُبيِّنُ معنَى كونِها شيئًا عظيمًا، وهو أنَّه عظيمٌ في الشَّرِّ والرُّعبِ[٢].

- وتَقديمُ ﴿يَوْمَ﴾ على عامِلِه ﴿تَرَوْنَهَا﴾؛ للاهتمامِ بالتَّوقيتِ بذلك اليومِ، وتوقُّعِ رُؤيتِه لكلِّ مُخاطَبٍ مِنَ النَّاسِ، وأصْلُ نظْمِ الجُملةِ: تَذهَلُ كلُّ مُرضعةٍ عمَّا أرضعَتْ يومَ ترونَ زَلزلةَ السَّاعةِ[٣].

- وذكَرَ لفْظَ الذُّهولِ في قولِه: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ دُونَ النِّسيانِ؛ لأنَّ الذُّهولَ أدَلُّ على شِدَّةِ التَّشاغُلِ. وأطلَقَ ذُهولَ المُرضِعِ وذاتِ الحمْلِ، وأُريدَ ذُهولُ كلِّ ذي عِلْقٍ نَفيسٍ عن عِلْقِه[٤] على طَريقةِ الكِنايةِ. وزِيادةُ كلمةِ ﴿كُلُّ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الذُّهولَ يَعْتري كلَّ مُرضِعٍ، وليس هو لبَعضِ المراضِعِ باحتِمالِ ضَعفٍ في ذاكرتِها، وهي كِنايةٌ عن تَعميمِ هذا الهولِ لكلِّ النَّاسِ، وهذا مِن بَديعِ الكِنايةِ عن شِدَّةِ ذلك الهولِ؛ لأنَّ استلزامَ ذُهولِ المُرضِعِ عن رَضيعِها لشِدَّةِ الهولِ يَستلزِمُ شِدَّةَ الهولِ لغَيرِها بطَريقِ الأَولى؛ فهو لُزومٌ بدرجةٍ ثانيةٍ، وهذا النَّوعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٨).

(٤) الذُّهولُ عن الشَّيءِ: نِسيانُه والغَفلةُ عنه. والعِلْقُ: النَّفيسُ مِن كُلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١١٣، ٢١٦).

مِن الكِنايةِ يُسمَّى الإيماءَ[١]. وقولُه: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ هو كِنايةٌ أيضًا كقولِه: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾[٢].

- وقيل: ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ دونَ (مُرضِع)؛ لأنَّ المُرضِعةَ: الَّتي هي في حالِ الإرضاعِ مُلْقِمةٌ ثَدْيَها الصَّبيَّ. والمُرضِعُ: الَّتي شأْنُها أنْ تُرضِعَ وإنْ لم تُباشِرِ الإرضاعَ في حالِ وَصْفِها به؛ فمِن شأنِ العربِ إذا ذَكرتِ الأوصافَ المختصَّةَ بالإناثِ فأرادتِ المباشرةَ بالفِعلِ أدْخلتْ عليها التاءَ، وإذا أرادتْ مُطلَقَ الوَصفِ والنَّسَبَ جَرَّدتْها من التاءِ، فإنْ قالوا: هي مُرضِعٌ -يُريدون أنَّها ذاتُ رَضاعٍ- جَرَّدوه مِن التاءِ. وإن قالوا: هي مُرضعةٌ بمعنى أنَّها تَفعَلُ الرَّضاعَ، أي: تُلقِمُ الولدَ الثديَ، قالوا: هي مرضعةٌ -بالتَّاءِ-. فقيل هنا:

---

(١) الكِناية: هي في اللُّغة: التكلُّمُ بشيءٍ يُرادُ به غيرُه، أو الدَّلالةُ على الشَّيءِ مِن غير تَصريحٍ باسمِه. وفي اصطلاحِ البلاغيِّين: هي لفظٌ أُريدَ به غيرُ مَعناهُ الذي وُضِعَ له، مع جوازِ إرادةِ المعنى، حيثُ يُريدُ المتكلِّمُ إثباتَ معنًى مِن المعاني فلا يَذكُره باللفظِ الموضوعِ له مِن اللُّغةِ، ولكن يَجيءُ إلى معنى هو تاليهِ ورَديفُه في الوجودِ، فيُشيرُ به إليه، ويجعلُه دليلًا عليه؛ فيدُلُّ على المرادِ مِن طريقٍ أولى، مِثل قولهم: «طويل النِّجاد» و«كثير الرماد»؛ يعنون طويلَ القامةِ، وكثيرَ الضِّيافةِ؛ فتوصَّلوا إلى المرادِ بذِكرِ معنًى آخَرَ هو رديفُه في الوجودِ؛ لأنَّ القامةَ إذا طالتْ طال النِّجادُ، وإذا كَثُرَ القِرَى كَثُر الرَّمادُ. والكنايةُ مِن ألطفِ أساليبِ البلاغةِ وأدقِّها، وهي أبلغُ مِن الحَقيقةِ والتصريحِ. وتنقسمُ الكِنايةُ أيضًا باعتبارِ الوسائطِ (اللوازم) والسِّياق إلى أربعةِ أقسام: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء. والإيماءُ أو الإشارة: هو الذي قلَّتْ وسائطُه، مع وضوحِ اللزومِ بلا تعريضٍ، كقولِ الشاعر:

أوَ مـا رأيـتَ المجـدَ ألْقَـى رحْلَه ... فـي آلِ طـلـحـةَ ثُـمَّ لـمْ يـتـحـوَّلِ

كِناية عن كونِهم: أمجادًا أجوادًا، بغايةِ الوُضوحِ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦- ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٩، ١٩٠).

﴿مُرۡضِعَةٍ﴾؛ ليدُلَّ على أنَّ ذلك الهولَ إذا فُوجِئَتْ به هذه وقد أَلْقَمَتِ الرَّضيعَ ثَدْيَها نزعَتْهُ عن فِيهِ؛ لِمَا يَلْحَقُها مِن الدَّهشةِ، وهو تصويرٌ بليغٌ يدُلُّ على شِدَّةِ الهولِ؛ لأنَّه لا يُتصوَّرُ في الشفقةِ والحنوِّ أعظمُ حالًا مِن تلك المرضعةِ التي أَلْقَمتْ حبيبَها الثديَ؛ فهي تتدفَّقُ حنانًا، ومع ذلك تذهَلُ عنه إذا رأتْ تلك الأهوالَ؛ لشِدَّتِها وعظَمتِها، وعلى هذا فقولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ أبلغُ مِن (مُرضِع) في هذا المقام؛ فإنَّ المرأةَ قد تذهَلُ عن الرضيعِ إذا كان غيرَ مُباشِرٍ للرَّضاعةِ، فإذا الْتَقَمَ الثديَ واشتغلتْ برَضاعِه لم تذهَلْ عنه إلَّا لأمرٍ أعظمَ عندَها مِن اشتغالِها بالرَّضاعِ[(١)].

- قولُه: ﴿تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ (ما) في قولِه: ﴿عَمَّآ﴾ مَوصولةٌ، والإتيانُ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ في تَعريفِ المَذهولِ عنه دونَ أنْ يقولَ: (عنِ ابْنِها)؛ للدَّلالةِ على أنَّها تَذهَلُ عن شَيءٍ هو نُصْبُ عَينِها، وهي في عمَلٍ مُتعلِّقٍ به، وهو الإرضاعُ؛ زِيادةً في التَّكنِّي عن شِدَّةِ الهولِ. وقيل: إنَّ (مَا) مَصدريَّةٌ، أي: تَذهلُ عنْ إرضاعِها، والأوَّلُ أدَلُّ على شِدَّةِ الهولِ، وكَمالِ الانزعاجِ[(٢)].

- والتَّعبيرُ بـ﴿ذَاتِ حَمۡلٍ﴾ دونَ التَّعبيرِ (بحامِلٍ)؛ لأنَّه الجاري في الاستِعمالِ في الأكثرِ، مع ما في هذه الإضافةِ مِنَ التَّنبيهِ على شِدَّةِ اتِّصالِ الحمْلِ بالحاملِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٠).

فيدُلُّ على أنَّ وَضْعَها إيَّاهُ لسبَبٍ مُفظِعٍ[١]. وأيضًا في عُدولِه سُبحانَه عن (كُلِّ حَامِلٍ) سِرٌّ بديعٌ؛ فإنَّ الحامِلَ قد تُطْلَقُ على المُهيَّأةِ للحمْلِ، وعلى مَن هي في أوَّلِ حَمْلِها ومبادئِه، فإذا قيل: (ذاتُ حمْلٍ) لم يكُنْ إلَّا لمَن ظهَرَ حمْلُها وصلَحَ للوضْعِ كاملًا أو سِقطًا، كما يُقالُ: (ذاتُ ولَدٍ)، فأَتَى في المُرضعةِ بالتَّاءِ التي تُحقِّقُ فِعلَ الرَّضاعةِ دونَ التَّهيُّؤِ لها، وأتى في الحامِلِ بالسَّببِ الَّذي يُحقِّقُ وُجودَ الحمْلِ، وقَبولَه للوضْعِ[٢].

- قولُه: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا... وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ فيه الاختلافُ بالجَمْعيَّةِ والإفرادِ؛ لأنَّ المَرئِيَّ في الأوَّلِ هي الزَّلزلةُ الَّتي يُشاهِدُها الجميعُ، وفي الثَّاني حالُ مَن عدا المُخاطَبِ منهم؛ فلا بُدَّ من إفرادِ المُخاطَبِ على وَجْهٍ يعُمُّ كلَّ واحدٍ منهم؛ لكنْ مِن غيرِ اعتِبارِ اتِّصافِه بتلك الحالةِ؛ فإنَّ المُرادَ بَيانُ تأثيرِ الزَّلزلةِ في المَرئيِّ لا في الرَّائي باختلافِ مَشاعِرِه، كأنَّه قيلَ: ويَصيرُ النَّاسُ سُكارى... إلخ. وإنَّما أُوثِرَ عليه ما جاء في التَّنزيلِ ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾؛ للإيذانِ بكَمالِ ظُهورِ تلك الحالةِ فيهم، وبُلوغِها من الجلاءِ إلى حَدٍّ لا يَكادُ يَخْفى على أحدٍ[٣]. والمُرادُ مِنَ الأوَّلِ التَّهديدُ بالوُقوعِ، ومن الثَّاني التَّعجُّبُ مِن حالِهم[٤]. وقيل: الخِطابُ في ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ، وهو كلُّ مَن تتأتَّى منه الرُّؤيةُ مِن النَّاسِ؛ فهو مُساوٍ في المعنى للخِطابِ الَّذي في قولِه: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾، وإنَّما أُوثِرَ الإفرادُ هنا للتَّفنُّنِ؛ كَراهيةَ إعادةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٠، ١٩١).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) (٤/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٣٣).

الجمْع[١]. وقيل: قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ وبَعْدَه: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ مُحَوَّلٌ على (أيَّها المُخاطَبُ)، أي: لو حضَرْتَ أيُّها المُخاطَبُ لرَأيتَه بهذه الصِّفةِ[٢].

- وعُدِلَ عن فِعلِ المُضِيِّ إلى المُضارِعِ في قولِه: ﴿وَتَرَى﴾؛ لاستحضارِ الحالةِ، والتَّعجيبِ منها[٣].

- قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ وُصِفَ النَّاسُ بذلك على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، وقولُه بعْدَه: ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ قَرينةٌ على قَصْدِ التَّشبيهِ؛ فنَفى عنهم الحقيقةَ -وهي السُّكْرُ مِن الخمْرِ؛ وذلك لِمَا هُم فيه مِن الحيرةِ وتَخليطِ العقْلِ[٤].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ استدراكٌ لِمَا تقدَّمَ مِن الحالةِ اللَّيِّنةِ، وهو الذُّهولُ والوضْعُ ورُؤيةُ النَّاسِ أشباهَ السُّكارى؛ وكأنَّه قيل: وهذه أحوالٌ هيِّنةٌ، ولكنَّ عذابَ اللهِ شَديدٌ، وليس بَهيِّنٍ ولا لَيِّنٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٣).

الآيتان (٢-٤)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّرِيدٖ﴾: أي: مُتَمَرِّدٍ خارجٍ عن الطَّاعةِ، مُتجرِّدٍ للفَسادِ، وأصلُ (مرد): يدُلُّ على تجريدِ الشَّيءِ مِن قِشرِه، أو ما يَعلوه مِن شَعرِه[1].

﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: السعيرُ اسْمٌ مِن أسماءِ جَهَنَّمَ، يُقال: سَعرْتُ النَّارَ، إذا ألهَبْتَها، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه وارتِفاعِه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: ومِن النَّاسِ مَن يجادِلُ في دينِ اللهِ وفي قُدرته تعالى على البَعثِ، مِن غيرِ علمٍ، ويتَّبِعُ كُلَّ شَيطانٍ طاغٍ مُتَمَرِّدٍ على اللهِ ورُسُلِه. قضى اللهُ وقدَّر أنَّ ذلك الشَّيْطانَ يُضِلُّ كُلَّ مَن اتَّبَعه، ولا يَهديه إلى الحَقِّ، بل يَسوقُه إلى عذابِ جَهنَّمَ المُوقَدةِ؛ جَزاءَ اتِّباعِه إيَّاه.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى بيَّن أنَّه معَ هذا التحذيرِ الشَّديدِ بذِكرِ زلزلةِ الساعةِ وشدائدِها، فإنَّ مِن الناسِ مَن يجادلُ في الله بغيرِ علمٍ[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أهوالَ يَومِ القيامةِ؛ ذكَرَ مَن غَفَل عن الجزاءِ في ذلك اليومِ، وكذَّبَ به[٢].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾.

أي: ومِنَ النَّاسِ صِنفٌ يجادِلُ في شأنِ اللهِ وفي دينِه بجَهلٍ، من غيرِ علمٍ صحيحٍ، جدلًا ناشئًا عن سوءِ نظرٍ، وسوءِ تفكيرٍ لإحقاقِ الباطلِ وإبطالِ الحقِّ، فينكرُ وحدانيَّةَ اللهِ وقدرتَه على إحياءِ الموتَى، ويُكذِّبُ ما جاءَتْ به رسلُه[٣].

﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾.

أي: ويتَّبعُ الجاهِلُ في جِدالِه في اللهِ بلا عِلمٍ كُلَّ شَيطانٍ عاتٍ طاغٍ مِن شياطينِ الإنسِ والجِنِّ، مُتجَرِّدٍ مِنَ الخيرِ، مُتمَرِّدٍ على اللهِ، فيَقبَلُ وَسوَسَته، وينقادُ للعَمَلِ بها بلا تَفكيرٍ ولا تَرَدُّدٍ[٤].

﴿ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤ ﴾.

أي: قضَى اللهُ على الشَّيطانِ المتَمَرِّدِ وقدَّر أنَّ مَنِ اتَّخَذه وليًّا فأقبَلَ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٥٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٢، ١٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦١).

واتَّبَعَه؛ فإنَّ الشَّيطانَ يُضِلُّه في الدُّنيا عن الحَقِّ، ويَدُلُّه إلى طريقِ النَّارِ المُوقَدةِ ويَدْعوه إليها، فيَسوقُه إلى عَذابِها بما يُزَيِّنُه له مِنَ الباطِلِ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ ذَمٌّ لكلِّ مَن جادلَ في اللهِ بغَيرِ عِلمٍ، وهو دليلٌ على أنَّه جائزٌ بالعِلمِ، كما فَعَلَ إبراهيمُ بقَومِه[٢]، فهذه الآيةُ بمَفهومِها تدُلُّ على جوازِ المجادلةِ الحَقَّةِ؛ لأنَّ تخصيصَ المجادلةِ مع عدَمِ العلمِ بالدَّلائِلِ يدُلُّ على أنَّ المجادلةَ مع العلمِ جائزةٌ، فالمجادَلةُ الباطلةُ هي المرادُ مِن قَولِه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾ [الزخرف: ٥٨]، والمجادلةُ الحقَّةُ هي المرادُ مِن قَولِه: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[٣] [النحل: ١٢٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ بَيَّنَ سُبحانَه حالَ مَن يُجادِلُ في الدِّينِ بلا عِلمٍ، والعِلمُ: هو ما بَعَث اللهُ به رَسولَه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو: السُّلطانُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ [غافر: ٥٦]، فمَن تكَلَّمَ في الدِّينِ بغَيرِ ما بَعَث اللهُ به رَسولَه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان متكَلِّمًا بغيرِ عِلمٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٥٩، ٤٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧، ٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٣، ١٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٩).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ * كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هذا الذي يُجادِلُ في اللهِ قد جمَعَ بين ضَلالِه بنَفْسِه، وتصَدِّيهِ إلى إضلالِ النَّاسِ، وهو مُتَّبِعٌ ومُقَلِّدٌ لكُلِّ شَيطانٍ مَريدٍ، ظُلُماتٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ! ويدخُلُ في هذا جُمهورُ أهلِ الكُفرِ والبِدَعِ؛ فإنَّ أكثَرَهم مُقَلِّدةٌ، يجادِلونَ بغيرِ عِلمٍ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ هذا حالُ أهلِ الضَّلالِ والبِدَعِ؛ المُعرِضينَ عن الحَقِّ، المتَّبِعينَ للباطِلِ، يَترُكونَ ما أنزَلَه اللهُ على رَسولِه مِنَ الحَقِّ المُبينِ، ويتَّبِعونَ أقوالَ رُؤوسِ الضَّلالةِ؛ الدُّعاةِ إلى البِدَعِ بالأهواءِ والآراءِ[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ الكِتابةُ في هذه الآيةِ هي كِتابةٌ كَونيَّةٌ، ويُقابِلُها الكِتابةُ الشَّرعيَّةُ الأَمريَّةِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فالأُولى كِتابةٌ بمعنى القَدَرِ، والثَّانيةُ كِتابةٌ بمَعنى الأَمْرِ[٣].

٥- عن مُضارِبِ بنِ إبراهيمَ، قال: (سألتُ الحُسَينَ بنَ الفَضلِ، فقُلتُ: إنَّك تُخرِجُ أمثالَ العَرَبِ والعَجَمِ مِنَ القُرآنِ، فهل تجِدُ في كتابِ اللهِ: «مَن أعان ظالِمًا سُلِّطَ عليه»؟ قال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾)[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٤/ ٤٨، ٤٩).

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ * كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والجَهميَّةِ؛ إذ هو يقولُ جلَّ جَلالُه نصًّا مِن غَيرِ تأويلٍ: إنَّ الشَّيطانَ يُضِلُّ وَلِيَّه، ويَهدِيه إلى عذابِ السَّعيرِ بما كتَبَه عليه مِن ذلك[١].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ ...﴾ كَلامٌ مُبتدأٌ جِيءَ به بعدَ بَيانِ عَظيمِ شأْنِ السَّاعةِ المُنبئةِ عن البعثِ؛ بَيانًا لحالِ بَعضِ المُنكِرينَ لها[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾

- قولُه: ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فيه التَّعبيرُ بلفْظِ الهِدايةِ على سَبيلِ التَّهكُّمِ[٣]. ولمَّا كان الضَّلالُ مُشتهِرًا في معنى البُعْدِ عن الخيرِ والصَّلاحِ، لم يُحْتَجْ في هذه الآيةِ إلى ذِكْرِ مُتعلِّقِ فِعْلِ ﴿يُضِلُّهُۥ﴾؛ لظُهورِ المعنى. وذُكِرَ مُتعلِّقُ فِعْلِ ﴿يَهْدِيه﴾، وهو: إلى ﴿عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ لأنَّ تَعلُّقَه به غريبٌ؛ إذِ الشَّأْنُ أنْ يكونَ الهُدى إلى ما يَنفَعُ، لا إلى ما يَضُرُّ ويُعذِّبُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٥).

الآيات (٥-٧)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَيۡبٖ﴾: الرَّيبُ: الشَّكُّ، أو هو الشَّكُّ معَ الخَوفِ، ومعَ تُهمةِ المشكوكِ فيه، وتوهُّمُ أمْرٍ ما بالشَّيءِ، والرَّيبُ مصدرُ رابني الشيءُ: إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وهي قلقُ النفْسِ واضطرابُها[١].

﴿نُّطۡفَةٖ﴾: النُّطفةُ: هي المنيُّ، وقيل: الماءُ الصَّافي[٢]، وقيل: الماءُ القليلُ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(٢) وقال الشنقيطي: (النُّطْفةُ مختلِطةٌ مِنْ ماءِ الرَّجلِ وماءِ المرأةِ، خلافًا لمنْ زَعَم أنَّها مِنْ ماءِ الرَّجلِ وحْدَه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٦). وذكَر الدليلَ على ذلك، فقال: (بدليلِ قولِه تعالَى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: أخلاطٍ مِنْ ماءِ الرَّجلِ وماءِ المرأةِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

﴿عَلَقَةٍ﴾: العَلَقةُ: الدَّمُ الجامِدُ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ[١].

﴿مُّضْغَةٍ﴾: المُضْغةُ: القِطعةُ الصَّغيرةُ مِن اللَّحمِ قَدْرَ ما يُمضَغُ، وأصلُها: مِن المَضْغِ[٢].

﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾: أي: مخلوقةٍ تامَّةِ الخَلقِ، وأصلُ (خلق): يدلُّ على تقديرِ الشَّيءِ[٣].

﴿وَنُقِرُّ﴾: أي: نُثبِّتُ، وأصلُه يدُلُّ على التمَكُّنِ[٤].

﴿لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾: أي: سِنَّ الفُتُوَّةِ واستِجماعِ القُوى، وأصلُه مِنَ الشِّدَّةِ والقُوَّةِ والجَلادةِ، وقيلَ: أصلُه الارتفاعُ؛ مِن: شَدَّ النَّهارُ، إذا ارْتفَع[٥].

﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾: أي: أرْدَئِه، وهو الهَرَمُ والخَرَفُ؛ لأنَّ الهَرَمَ أسوأُ العُمُرِ وشَرُّه، والأرذَلُ مِن كُلِّ شَيءٍ: الرَّديءُ منه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥، ٢٧٧)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١١/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠١).
قال أبو حيان: (وأشُدُّ جمعُ شِدَّةٍ أو شَدٍّ أو شُدٍّ، أو جمعٌ لا واحدَ له مِن لفظِه، أو مُفردٌ لا جمعَ له؛ أقوالٌ خمسةٌ). ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٩).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٧)، =

﴿هَامِدَةً﴾: أي: مَيْتةً يابِسةً، لا نباتَ فيها، وأصلُ (همد): يدُلُّ على خُمودِ شَيءٍ[١].

﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾: أي: تحرَّكَت بالنَّباتِ عندَ وقوعِ الماءِ عليها، وأصلُ (هزز): يدُلُّ على اضطرابٍ في شَيءٍ وحَركةٍ[٢].

﴿وَرَبَتۡ﴾: أي: انتَفَخَت وعَلَت وزادت، وأصلُ (ربا): يدُلُّ على الزِّيادةِ والنَّماءِ والعُلُوِّ[٣].

﴿زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾: أي: جِنسٍ وصِنفٍ حَسَنٍ، والبَهيجُ بمعنى المُبهِجِ، وهو الحَسَنُ الصُّورةِ الذي تُمتَّعُ العَينُ برُؤيتِه؛ مِن البَهجةِ: أي: حُسنِ الشَّيءِ ونَضارَتِه، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[٤].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: يا أيُّها النَّاسُ، إنْ كُنتُم في شَكٍّ مِن أنَّ اللهَ يُحيي الموتى،

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٦)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٢٨١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٩٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٧٤).

فإنَّا خلَقْنا أباكم آدَمَ مِن تُرابٍ، ثمَّ تناسَلَت ذُرِّيَّتُه مِن مَنِيٍّ، فيتحَوَّلُ بقُدرةِ اللهِ إلى عَلَقةٍ، وهي قِطعةُ دَمٍ حمراءُ جامِدةٌ تَعلَقُ برَحِمِ المرأةِ، ثمَّ إلى مُضغةٍ -وهي قِطعةُ لَحمٍ صَغيرةٌ قَدْرَ ما يُمضَغُ-، مخلَّقةٍ وغَيرِ مُخلَّقةٍ؛ لنبيِّنَ لكم تَمامَ قُدرَتِنا. ونُبقي في الأرحامِ ما نشاءُ مِن الأجنَّةِ إلى وَقتِ ولادتِه، ثم نخرِجُكم مِن بطونِ أمَّهاتِكم أطفالًا صِغارًا، ثم تكبَرُون حتى تَبلُغوا الأشُدَّ، وهو وَقتُ اكتِمالِ القُوَّةِ والعَقلِ، ومِنكم مَن يَموتُ قبْلَ ذلك، ومِنكم مَن يَكبَرُ حتى يبلُغَ سِنَّ الهَرَمِ وضَعْفِ العَقلِ، فلا يعلَمُ هذا المعمَّرُ شَيئًا مِمَّا كان يَعلَمُه قبْلَ ذلك!

وترى الأرضَ يابِسةً مَيْتةً لا نباتَ فيها، فإذا أنزَلْنا عليها الماءَ تحَرَّكَت بالنَّباتِ وارتفَعَت وانتفَخَت، وأنبَتَت مِن كلِّ نَوعٍ مِن أنواعِ النَّباتِ الحَسَنِ الذي يَسُرُّ النَّاظِرينَ. ذلك المذكورُ مِمَّا تقدَّمَ مِن آياتِ قُدرةِ اللهِ تعالى؛ لِتَعلَموا أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى هو الحقُّ، الذي لا تَنبغي العبادةُ إلَّا له، وأنَّه يُحيي الموتى، وهو قادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ سُبحانَه عن الكافِرينَ الجِدالَ بغَيرِ العِلمِ في إثباتِ الحَشرِ

والنَّشرِ، وذَمَّهم عليه، أورَدَ الدَّلالةَ على صِحَّةِ ذلك[١]؛ فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ، إنْ كُنتُم في شَكٍّ واشتِباهٍ مِن قُدرَتي على بَعْثِكم بعدَ مَوتِكم، فتَذَكَّروا أنَّني خلَقْتُ أباكم آدَمَ مِن ترابٍ؛ فالذي قدَرَ على خَلْقِكم أوَّلًا قادِرٌ على خَلْقِكم ثانيًا[٢].

﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾.

أي: ثمَّ خَلَقْناكم -يا بَني آدَمَ- مِن مَنِيٍّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ * أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧ - ٤٠].

﴿ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ﴾.

أي: ثمَّ خَلَقْناكم مِن قِطعةِ دَمٍ حَمراءَ جامِدةٍ تَعلَقُ برَحِمِ المرأةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦١)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٨، ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٥).

قال الشنقيطي: (التحقيقُ في معنى خَلْقِه للنَّاسِ مِن ترابٍ: أنَّه خلق أباهم آدَمَ منه، ثمَّ خلق منه زَوجَه، ثمَّ خَلَقَهم منهما عن طريقِ التناسُلِ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فلمَّا كان أصلُهم الأوَّلُ مِن تراب، أَطلَق عليهم أنَّه خلَقَهم من ترابٍ؛ لأنَّ الفُروعَ تَبَعٌ للأصلِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((تفسير الشعراوي)) (١٦/ ٩٧٠٦).

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾.

أي: ثمَّ خَلَقْناكم مِن قِطعةِ لَحمٍ صَغيرةٍ بمِقدارِ ما يُمضَغُ، مخلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقةٍ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦١ - ٤٦٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٦ - ٢٦٨).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ بالمُخَلَّقةِ: المُصَوَّرةُ خَلقًا تامًّا، وأنَّ غَيرَ المُخَلَّقةِ تعني السِّقْطَ قبلَ تمامِ خَلْقِه: ابنُ جرير، والواحدي -ونسبه للأكثرينَ-، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣).

قال ابنُ جَرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ: قولُ مَن قال: «المُخلَّقَة» المُصوَّرة خلقًا تامًّا، و﴿غيرُ مُخلَّقة﴾: السِّقْطُ قَبلَ تَمام خَلْقه؛ لأنَّ المُخلَّقةَ وغيرَ المُخلَّقةِ مِن نعْت المُضغَةِ، والنُّطفةُ بعدَ مَصيرها مُضغةً لم يَبقَ لها حالٌ -حتَّى تصيرَ خَلقًا سويًّا- إلَّا التصويرَ، وذلك هو المرادُ بقوله: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]؛ خلقًا سويًّا، وغيرَ مُخلَّقة بأنْ تُلقيَه الأمُّ مُضغةً، ولا يُصَوَّرُ، ولا يُنفَخُ فيها الرُّوحُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٣).

قال الواحديُّ: (ويدلُّ على صحَّة هذا التفسيرِ: ما رَوَى عَلْقمةُ، عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ: «إذا وقعتِ النُّطفةُ في الرَّحمِ بعَث اللهُ عَزَّ وجَلَّ مَلَكًا، فقال: يا ربِّ، مُخلَّقةٌ أمْ غيرُ مُخلَّقةٍ؟ فإنْ قال: غيرُ مُخلَّقةٍ، مجَّتْها الأرحامُ، وإنْ قال: مُخلَّقةٌ، قال: يا ربِّ، ما صِفةُ هذه النُّطفةِ؟ أذَكَرٌ أمْ أُنثى؟ ما رِزقُها؟ ما أجَلُها؟ أشقيٌّ أم سعيدٌ؟»). ((البسيط)) (١٥/ ٢٦١).

قال الشِّنقيطيُّ: (هذا القولُ الذي اختارَه الإمامُ الجَليلُ الطبريُّ رحمه الله تعالى، لا يَظهَر صوابُه، وفي نفْسِ الآيةِ الكريمةِ قرينةٌ تدُلُّ على ذلك، وهي قولُه جلَّ وعلا في أوَّلِ الآية: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]؛ لأنَّه على القولِ المذكورِ الذي اختاره الطبريُّ يصير المعنى: ثُم خلَقْناكم مِن مُضغةٍ مُخلَّقةٍ، وخلَقْناكم مِن مُضغةٍ غيرِ مُخلَّقةٍ. وخطابُ الناس بأنَّ الله خَلَق بعضَهم مِن مُضغةٍ غيرِ مُصوَّرةٍ، فيه مِن التناقُض كما ترَى؛ فافهَمْ.

فإنْ قيل: في نفْسِ الآيةِ الكريمةِ قرينةٌ تدُلُّ على أنَّ المرادَ بغيرِ المخلَّقةِ: السِّقْطُ؛ لأنَّ قوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥] يُفهمُ منه أنَّ هناك قِسمًا آخَرَ =

= لا يُقِرُّه اللهُ في الأرحامِ إلى ذلك الأجلِ المسمَّى، وهو السِّقطُ؟

فالجوابُ: أنَّه لا يتعيَّنُ فَهْمُ السِّقْطِ مِن الآيةِ؛ لأنَّ اللهَ يُقِرُّ في الأرحام ما يشاءُ أنْ يُقِرَّه إلى أجلٍ مسمًّى؛ فقد يُقِرُّه سِتَّةَ أشهرٍ، وقد يُقِرُّه تِسعةً، وقد يُقرُّه أكثرَ مِن ذلك كيفَ شاء.

أمَّا السِّقطُ: فقد دلَّتِ الآيةُ على أنَّه غيرُ مرادٍ، بدليلِ قولِه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾؛ لأنَّ السِّقطَ الذي تُلقيه أمُّه ميِّتًا -ولو بعدَ التشكيلِ والتخطيطِ- لم يَخلُقِ اللهُ منه إنسانًا واحدًا مِن المخاطَبينَ بقوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآيةَ؛ فظاهرُ القرآن يَقتضي أنَّ كُلًّا مِن المخلَّقةِ وغيرِ المخلَّقةِ: يُخلَقُ منه بعضُ المخاطبين في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ الآيةَ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٧).

وقال الواحديُّ: (قال ابن الأعرابي: ﴿مُّخَلَّقَةٖ﴾ قد بدَا خَلقُه، ﴿وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ بعدُ لم يُصوَّر... وأمَّا أهلُ التفسيرِ: فإنَّ مُجاهدًا والسُّدِّيَّ اتَّفقَا على أنَّ المخلَّقةَ وغيرَ المخلقةِ: يعني بهما السِّقطَ... وذهب آخرون إلى أنَّ المخلَّقةَ في غيرِ السِّقطِ، وغيرَ المخلَّقة: هو السقطُ... وعلى هذا القولِ معنى «المخلَّقة»: المخلوقةُ...

وفي هذا مذهبٌ ثالثٌ، وهو: أنَّ المُخلَّقةَ وغيرَ المُخلَّقة كِلاهما مِن صِفة الولدِ الذي يُولد، وليسَا ولا أحدُهما مِن صفةِ السِّقطِ، وهو مذهبُ قَتادةَ، واختيارُ أبي إسحاقِ وثَعلبٍ). يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٥٩).

وقيل: المرادُ: يَخلُق المُضَغَ متفاوِتةً؛ منها ما هو كاملُ الخِلقةِ، أملَسُ مِن العيوبِ، ومنها ما هو على عكسِ ذلك، فيَتبعُ ذلك التفاوتَ تفاوتُ الناسِ في خَلْقِهم وصُوَرِهم، وطُولهم وقِصَرِهم، وتَمامِهم ونُقصانِهم. وممَّن ذهب إلى هذا: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والشِّنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٨).

وقال الرازيُّ في بيانِ ترجيحِ هذا القولِ: (لأنَّه تعالى قال في أوَّلِ الآيةِ: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾، وأشار إلى الناسِ؛ فيجبُ أنْ تُحمَلَ ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ على مَن سيصيرُ إنسانًا، وذلك يَبعُدُ في السِّقطِ؛ لأنَّه قد يكون سِقطًا ولم يتكامَلْ فيه الخِلقةُ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٤).

واختاره محيي الدين زاده، وقال: (لأنَّه أوفَقُ لبناءِ التَّفعيلِ الدَّالِّ على تكثيرِ الخَلقِ؛ فإنَّ الإنسانَ ذو أعضاءٍ مُتباينةٍ، وقُوًى مُتفاوِتةٍ، فإذا كَمَل فيه جميعُ ما يَتِمُّ به خِلقةُ النَّوعِ فقد كَثُرَ فيه الخَلقُ). ((حاشية زاده على البيضاوي)) (٦/ ٨٩).

وقال ابن عاشور: (فقوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ صِفةُ ﴿مُّضۡغَةٖ﴾، وذلك تطوُّرٌ مِن تطوُّرات المُضغةِ...؛ ولذلك لم يَذكر مِثلَ هذين الوصفين عند ذِكر النُّطفةِ والعَلَقةِ؛ إذ ليس =

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حَدَّثنا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو الصَّادِقُ المصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أمِّه أربعينَ يَومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك، ثم يَبعَثُ اللهُ ملَكًا فيُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقِيٌّ أو سَعيدٌ، ثم يُنفَخُ فيه الرُّوحُ))(١).

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾.

أي: لنُعَرِّفَكم بابتداءِ خَلْقِكم، ونُظهِرَ لكم قُدرَتَنا(٢).

= لهما مِثلُ هذين الوصفينِ، بخِلاف المُضغةِ. وإذ قد جُعِلت المضغةُ مِن مبادِئ الخلقِ تَعيَّن أنَّ كِلَا الوصفين لازِمان للمُضغةِ؛ فلا يستقيم تفسيرُ مَن فسَّر «غير المخلَّقة» بأنها التي لم يَكمُلْ خلْقُها فسقَطتْ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٨، ١٩٩).

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) واللفظ له، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٩).

قيل: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ متعلِّقٌ بجعلِ المضغةِ مخلَّقةً وغيرَ مخلَّقةٍ. وذهب إليه ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٣).

وقيل: متعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿خَلَقْنَٰكُم﴾ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾. وممن قال بذلك: أبو حيان، وأبو السعود، والألوسي، واستَظْهره الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٩).

وقال ابن جزي: (﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ اللامُ تتعلَّقُ بمحذوفٍ تقديرُه: ذكَرْنا ذلك لنُبيِّنَ لكم قدرتَنا على البعثِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤١٢).

وقال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ اختلَفوا في مفعولِ التَّبيينِ؛ فقال ابنُ عبَّاسٍ: لِنُبيِّنَ لكم ما تأتُون وما تَذَرون. يعني أنَّ اللهَ تعالى خَلَق بني آدَمَ لِيُبيِّنَ لهم ما يَحتاجون إليه في العبادةِ. وقال الزَّجَّاجُ: أي: ذكَرْنا أحوالَ خَلقِ الإنسانِ لِنُبيِّنَ لكم قُدرتَنا على ما نَشاءُ، =

﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: ونُثبِتُ في أرحامِ الأمَّهاتِ ما نشاءُ إبقاءَه مِن الأجِنَّةِ إلى الوَقتِ الذي قدَّرْناه للولادةِ[١].

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾.

أي: ثمَّ نُخرِجُكم مِن بُطونِ أمَّهاتِكم -إذا بلَغْتُمُ الأجَلَ الذي قدَّرْناه لخُروجِكم منها- أطفالًا[٢].

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾.

أي: ثمَّ لِتَبلُغوا بالتَّدريجِ كَمالَ قُوَّتِكم وعُقولِكم[٣].

= ونُعرِّفَكم ابتداءَنا خَلقَكم. وقال صاحبُ النظمِ [أبو عليٍّ الجُرْجانيُّ]: لِنُبَيِّنَ لكم أنَّ البعثَ حقٌّ، يدُلُّ على هذا أنَ الآيةَ أُنزلتْ دَلالةً على البعثِ. وقال ابنُ مسلمٍ: لِنُبَيِّنَ لكم كيف نَخلُقُكم في الأرحامِ. وقال أهلُ المعاني: لِنَدُلَّكم على مَقدورِنا بتصريفِ ضُروبِ الخَلقِ). ((البسيط)) (١٥/ ٢٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٩).
قال الشِّنقيطيُّ: (الأَجِنَّةُ تختَلِفُ في ذلك حسبَما يشاؤُه اللهُ جلَّ وعلا؛ فتارةً تَضعُه أمُّه لِستَّةِ أشهُرٍ، وتارةً لِتِسعةٍ، وتارةً لأكثرَ مِن ذلك. وما لم يشأِ اللهُ إقرارَه مِن الحَملِ مَجَّتْه الأرحامُ وأسقَطَتْه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣).
قال البِقاعيُّ: (﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ بعدَ ذلك ﴿طِفْلًا﴾ أي: في حالِ الطُّفولةِ؛ مِن صِغَرِ الجُثَّةِ، وضَعْفِ البَدَنِ والسَّمعِ والبَصَرِ، وجميعِ الحواسِّ؛ لئلَّا تُهلِكوا أُمَّهاتِكم بكِبَرِ أجرامِكم، وعِظَمِ أجسامِكم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٩). =

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾.

أي: ومِنكم -أيُّها النَّاسُ- مَن يموتُ قَبلَ أن يبلُغَ أشُدَّه، ومنكم مَن يُؤخَّرُ مَوتُه إلى أن يَبلُغَ أخَسَّ العُمُرِ وأدْوَنَه، فيَصيرُ ضَعيفًا في بَدَنِه وعَقْلِه، لا علمَ له ولا فَهمَ، بعد أن كان قَوِيًّا ذا فَهمٍ وعِلمٍ بالأشياءِ(١)!

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ

= قال ابنُ عطيَّة: (اختلف الناسُ في «الأَشُدِّ» مِن ثمانيةَ عشَرَ إلى ثلاثين، إلى اثنين وثلاثين، إلى سِتَّة وثلاثين، إلى أربعين، إلى خمسةٍ وأربعين، واللفظةُ تُقال باشتراك، فأَشُدُّ الإنسان على العموم غيرُ أشدِّ اليتيمِ الذي هو الاحتلامُ، والأشدُّ في هذه الآية يَحتمِلُ المَعنيَينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٩٢).

وقال السمعاني: (الأكثرونَ على أنَّ الأشُدَّ: ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً، وإليها تَنْتهي، يعني: قوَّةَ الشَّبابِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٠).

وقال ابن جزي: (﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ هو كمالُ القوَّةِ والعقلِ والتمييزِ، وقد اختُلِف فيه مِن ثماني عشْرةَ سنةً إلى خمسٍ وأربعينَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٠).

جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ ﴾ [يس: ٦٨].

ثمَّ ذكَر برهانًا قاطعًا آخرَ على البعثِ[١]، فقال:

﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ ﴾.

أي: وترى[٢] الأرضَ يابِسةً قاحِلةً ساكِنةً سُكونَ الأمواتِ، لا نباتَ فيها ولا زَرْعَ، فإذا أنزَلْنا عليها الماءَ[٣] تحَرَّكَتْ بالنَّباتِ[٤]، .....

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٨).

(٢) قال الشنقيطي: (قولُه: ﴿وَتَرَى﴾ أي: يا نبيَّ اللهِ. وقيل: وترى أيُّها الإنسانُ المُخاطَبُ، وهي رؤيةٌ بصَريَّةٌ تتعَدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٧٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٢).

(٣) قيل: المراد به: المطَرُ من السَّماءِ. قاله ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٦).
وقيل: أعَمُّ من ذلك، سواءٌ كان مِن المطَرِ، أو الأنهارِ، أو العيونِ، أو السَّواني. وممن اختاره: أبو حيان، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٨).

(٤) قال الواحدي: (قال المفَسِّرون: تحَرَّكت بالنَّباتِ، والمعنى على هذا: تحَرَّكَت بالنَّباتِ عند وُقوعِ الماءِ؛ وذلك أنَّ الأرضَ ترتَفِعُ عن النَّباتِ إذا ظَهَر، فذلك تحرُّكُها، وهو معنى قَولِه: ﴿وَرَبَتۡ﴾، أي: ارتَفَعت وزادت). ((البسيط)) (١٥/ ٢٧٣).
وقال أبو حيان: (واهتزازُها: تخلخلُها، واضطرابُ بعضِ أجسامِها؛ لأجلِ خروجِ النباتِ). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٧).
وقال القرطبي: (فالأرضُ تهتزُّ بالنباتِ؛ لأنَّ النباتَ لا يخرجُ منها حتَّى يزيلَ بعضَها مِن بعضٍ إزالةً خفيَّةً). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣).

وقال السَّمعاني: (وقيلَ: في الآيةِ تَقديمٌ وتأخيرٌ، ومعناه: ورَبَت واهتَزَّت، ويقالُ: ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ أي: النَّباتُ، ﴿وَرَبَتۡ﴾ أي: ارتَفَع، وإنَّما أنَّث؛ لذِكْرِ الأرضِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٢٢).
وقال الشِّنقيطي: (﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ أي: تحرَّكت بالنباتِ. ولَمَّا كان النباتُ نابتًا فيها، متَّصلًا بها، كان اهتزازُه كأنَّه اهتزازُها؛ فأُطلِق عليها بهذا الاعتبارِ أنَّها اهتزَّت بالنبات. وهذا أسلوبٌ عربيٌّ =

وارتفَعَت وانتفَخَت[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۞ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۞ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩ - ١١].

﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

أي: وأخرَجَت الأرضُ بذلك الماءِ مِن كُلِّ صِنفٍ حَسَنٍ يَسُرُّ النَّاظرينَ مِن أصنافِ النَّباتاتِ والزُّروعِ والثِّمارِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾.

= معروف). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٥، ٤٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٢، ٢٠٣).

قال ابن عاشور: (ورَبَت: حصَل لها رُبُوٌّ -بضمِّ الراء، وضمِّ الموحَّدةِ- وهو ازديادُ الشيء؛ يُقال: رَبَا يَربُو رُبُوًّا، وفُسِّر هنا بانتفاخ الأرض مِن تفتُّق النبتِ والشجرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٣).

واستظَهر الشنقيطيُّ أنَّ معنى الزيادةِ الحاصلةِ في الأرضِ، هي أنَّ النباتَ لَمَّا كان نابتًا فيها متَّصلًا بها صارَ كأنَّه زيادةٌ حصَلتْ في نفْسِ الأرضِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَرَّر اللهُ سُبحانَه الدَّليلَينِ السَّابِقَينِ، رَتَّب عليهما ما هو المَطلوبُ والنَّتيجةُ[١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: ذلك الذي ذكَرْنا لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن أطوارِ خَلْقِكم، وإحياءِ الأرضِ بالماءِ بعدَ مَوتِها؛ لِتَعلَموا بأنَّ الذي قدَرَ على فِعلِ ذلك هو الحَقُّ الذي لا شَكَّ فيه، الذي يَستَحِقُّ العِبادةَ وَحْدَه؛ فعِبادتُه حَقٌّ، وعِبادةُ ما سِواهُ باطِلةٌ[٢].

﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أي: ولِتَعلَموا بأنَّ الذي قَدَرَ على تلك الأشياءِ العَجيبةِ قادِرٌ على إحياءِ الموتَى[٣].

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قادِرٌ لا يُعجِزُه شَيءٌ مِنَ البَعثِ وغَيرِه[٤].

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

وممن قال بالمعنى المذكورِ لكَلِمةِ الحقِّ هنا: ابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: المصدران السابقان.

ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٥).

وقال الواحدي: (يعني أنَّ جميعَ ما يأمُرُ به ويفعلُه هو الحَقُّ لا الباطِلُ). ((البسيط)) (١٥/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

أي: ولِتُوقنوا بأنَّ القيامةَ قادِمةٌ، لا شَكَّ ولا اشتِباهَ في وقوعِها[1].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ يُحيي الموتى مِن قُبورِهم، فيُخرِجُهم إلى مَوقِفِ الحِسابِ؛ لِيُجازِيَهم بأعمالِهم؛ خَيرِها، وشَرِّها[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

إذا تأمَّلتَ ما دَعَا اللهُ سُبحانَه في كتابِه عِبادَه إلى الفِكرِ فيه، أوقَعَك على العِلمِ به سُبحانَه وتعالى وبوَحدانيَّتِه، وصِفاتِ كَمالِه ونُعوتِ جَلالِه؛ من عُمومِ قُدرتِه وعِلمِه، وكَمالِ حِكمتِه ورَحمتِه، وإحسانِه وبِرِّه، ولُطْفِه وعَدْلِه، ورِضاهُ وغَضَبِه، وثوابِه وعِقابِه؛ فبهذا تعَرَّف إلى عبادِه، وندَبَهم إلى التفَكُّرِ في آياتِه، ونذكُرُ لذلك أمثِلةً مِمَّا ذكَرَها اللهُ سُبحانَه في كتابِه، يُستَدَلُّ بها على غَيرِها؛ فمن ذلك: خَلقُ الإنسانِ، وقد نَدَبَ سُبحانَه إلى التفَكُّرِ فيه والنَّظَرِ، في غيرِ مَوضِعٍ مِن كِتابِه؛ كقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]، وقَولِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[١] [الذاريات: ٢١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾، في جَعلِ كُلِّ واحِدةٍ مِن هذه المراتِبِ مَبدأً لخَلقِهم لا لخَلقِ ما بَعدَها مِنَ المراتِبِ -كما في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ﴾ [المؤمنون: ١٤]- مزيدُ دَلالةٍ على عَظيمِ قُدرَتِه تعالى، وكَسرٌ لِسَورةِ استِبعادِهم[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ استدلَّ به مَن قال باستواءِ غيرِ المُخَلَّقةِ مع المخَلَّقةِ في إثباتِ الولَدِ، وانقضاءِ العِلةِ، ووجوبِ الغُرَّةِ[٣]؛ لأنَّه تعالى أخبَرَ أنَّ غيرَ المخلَّقةِ لها حُكمُ المخَلَّقةِ[٤]، وهذا على أحدِ الأقوالِ في معنى الآيةِ.

٣- إذا قيل: ما وجهُ الإفرادِ في قَولِه: ﴿يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ مع أنَّ المعنى نخرِجُكم أطفالًا؟

فالجوابُ من أوجهٍ:

منها: أنَّ من أساليبِ اللُّغةِ العربيةِ التي نزَل بها القرآنُ أنَّ المفردَ إذا كان اسمَ جِنسٍ، يكثُرُ إطلاقُه مرادًا به الجَمعُ معَ تنكيرِه -كما في هذه الآية- فمِن أمثلتِه

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤).

(٣) الغُرَّةُ: عَبدٌ أو أَمَةٌ، وهو اسمٌ لكُلِّ واحِدٍ مِنهما، كأنَّه عبَّرَ بالغُرَّةِ عن الجِسمِ كُلِّه، كما قالوا: أعتَقَ رَقَبةً. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨١).

في القرآنِ قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤] أي: وأنهارٍ، بدليلِ قولِه تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥]؛ وقولُه: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] أي: أئمَّةً، وقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤] أي: أنفُسًا، وقولُه تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] أي: رُفَقاءَ، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] أي: مظاهِرونَ[(١)].

ومنها: أنَّه أفرده؛ لأنَّه مصدرٌ في الأصلِ مِثلُ عَدلٍ، فيستوي فيه الواحِدُ وغيرُه.

ومنها: أنَّه أفرده باعتبارِ كلِّ واحدٍ منهم، أي: يُخرِجُ كُلَّ واحدٍ منكم طِفلًا[(٢)].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾، جُعِلَ بُلوغُ الأشُدِّ عِلَّةً؛ لأنَّه أقْوى أطوارِ الإنسانِ، وأجْلَى مَظاهِرِ مَواهِبِه في الجِسْمِ والعقلِ، وهو الجانِبُ الأهَمُّ، كما أومَأَ إلى ذلك قولُه بعْدَ هذا: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، فجعَلَ (الأشُدَّ) كأنَّه الغايةُ المقصودةُ مِن تَطويرِه[(٣)].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ فيه سؤالٌ: كيفَ قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، معَ أنَّه يعلَمُ بعضَ الأشياءِ كالطِّفلِ؟ **الجواب**: المرادُ أنَّه يزولُ عَقلُه، فيصيرُ كأنَّه

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٠).

لا يَعلمُ شيئًا؛ لأنَّ مِثلَ ذلك قد يُذكَرُ في النفيِ لأجلِ المبالَغةِ[١].

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ جُعِلَ انتفاءُ عِلْمِ الإنسانِ عندَ أرذَلِ العُمرِ عِلَّةً لِرَدِّه إلى أرذَلِ العُمرِ، باعتبارِ أنَّه عِلَّةٌ غائيَّةٌ لذلك؛ لأنَّه ممَّا اقتضَتْهُ حِكْمةُ اللهِ في نِظامِ الخَلْقِ؛ فكان حُصولُه مَقصودًا عندَ رَدِّ الإنسانِ إلى أرذَلِ العُمرِ، فإنَّ ضَعْفَ القُوى الجِسميَّةِ يَستتبِعُ ضَعْفَ القُوى العَقليَّةِ[٢].

٧- قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ ارتقاءٌ في الاستدلالِ على الإحياءِ بعْدَ الموتِ بقياسِ التَّمثيلِ[٣]؛ لأنَّه استدلالٌ بحالةٍ مُشاهَدةٍ؛ فلذلك افتُتِحَ بفِعْلِ الرُّؤيةِ، بخلافِ الاستدلالِ بخَلْقِ الإنسانِ؛ فإنَّ مَبدأَهُ غيرُ مُشاهَدٍ، فقيل في شأْنِه: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ الآيةَ. ومَحلُّ الاستدلالِ مِن قولِه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ﴾؛ فهو مُناسِبٌ قولَه في الاستدلالِ الأوَّلِ: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾؛ فهُمودُ الأرضِ بمَنزِلةِ مَوتِ الإنسانِ، واهتزازُها وإنباتُها بعْدَ ذلك يُماثِلُ الإحياءَ بعْدَ الموتِ[٤].

٨- في قولِه تعالى مِن أوَّلِ سُورةِ الحجِّ إلى قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٢).

(٣) قياسُ التَّمثيلِ: هو: حَملُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المُشتَرَكَ الكُلِّيَّ، مثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامِعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ: هو القياسُ الأُصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٣).

ٱلْقُبُورِ﴾ خَمْسُ نَتائِجَ، تُسْتَنْتَجُ مِن عَشْرِ مُقدِّماتٍ:

أولًا: قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، ثبَتَ عندنا بالخبرِ المتواتِرِ أنَّه سُبحانَه أخبَرَ بزلزلةِ السَّاعةِ مُعظِّمًا لها، وذلك مقطوعٌ بصِحَّتِه؛ لأنَّه خبَرٌ أخبَرَ به مَن ثبَتَ صِدقُه عمَّن ثبَتَتْ قُدرتُه، فهو حَقٌّ، ولا يُخبِرُ بالحقِّ عمَّا سيكونُ إلَّا الحقُّ؛ فاللهُ هو الحقُّ.

ثانيًا: أخبَرَ سُبحانَه أنَّه يُحْيي الموتى؛ لأنَّه تعالى أخبَرَ عن أهْوالِ السَّاعةِ بما أخبَرَ، وحُصولُ فائدةِ هذا الخبرِ مَوقوفةٌ على إحياءِ الموتى لِيُشاهِدوا تلك الأهوالَ، وقد ثبَتَ أنَّه قادرٌ على كلِّ شَيءٍ، ومن هذه الأشياءِ إحياءُ الموتى.

ثالثًا: أخبَرَ أنَّه على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ؛ لأنَّه أخبَرَ أنَّه مَن يَتَّبِعِ الشَّياطينَ ومَن يُجادِلْ فيه بغيرِ علْمٍ يُذِقْهُ عذابَ السَّعيرِ، ولا يَقدِرُ على ذلك إلَّا مَن هو على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

رابعًا: أخبَرَ أنَّ السَّاعةَ آتيةٌ لا رَيبَ فيها؛ لأنَّه أخبَرَ بالخبرِ الصَّادقِ أنَّه خلَقَ الإنسانَ مِن تُرابٍ إلى قولِه: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، ومَن خلَقَ الإنسانَ على ما أخبَرَ به، فأوجَدَهُ بالخلْقِ ثمَّ أعدَمَهُ بالموتِ، ثمَّ يُعِيده بالبعثِ، وكذلك فِعْلُه في الأرضِ المواتِ، وصدَقَ خَبرُه في ذلك كلِّه بدَلالةِ الواقعِ الشَّاهدِ على المُتوقَّعِ الغائبِ حتَّى انقلَبَ الخبَرُ عِيانًا؛ صدَقَ خبَرُهُ في الإتيانِ بالسَّاعةِ.

خامسًا: لا تأتي السَّاعةُ إلَّا ببَعثِ مَن في القُبورِ، وهو سُبحانَه يَبعَثُ مَن في القُبورِ[1].

---

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٤/ ٦١)، ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (١/ ٣٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٩٧، ٣٩٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلنَّاسُ﴾ للعَهْدِ، والمعهودُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾[1].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ التَّعبيرُ عن اعتقادِهم في حَقِّه بالرَّيبِ مع التَّنكيرِ المُنْبئِ عن القلَّةِ، معَ أنَّهم جازِمونَ باستحالتِه، وإيرادُ كلمةِ الشَّكِّ مع تَقرُّرِ حالِهم في ذلك، وإيثارُ ما عليهِ النَّظمُ الكريمُ عَلى أنْ يُقالَ: (إنِ ارتبْتُم في البعثِ)؛ إمَّا للإيذانِ بأنَّ أقْصى ما يُمكِنُ صُدورُه عنهم -وإنْ كانوا في غايةِ ما يكونُ من المُكابَرةِ والعِنادِ- هو الارتيابُ في شأْنِه، وأمَّا الجزمُ المذكورُ فخارِجٌ مِن دائرةِ الاحتمالِ، كما أنَّ تَنكيرَه وتَصديرَه بكلمةِ الشَّكِّ؛ للإشعارِ بأنَّ حَقَّه أنْ يكونَ ضَعيفًا مَشكوكَ الوُقوعِ، وإمَّا للتَّنبيهِ على أنَّ جَزْمَهم ذلك بمَنزِلةِ الرَّيبِ الضَّعيفِ؛ لكَمالِ وُضوحِ دَلائلِ الإعجازِ ونِهايةِ قُوَّتِها، وإنَّما لم يقُلْ: (وإنِ ارتبْتُم في البعثِ...)؛ للمُبالغةِ في تَنزيهِ الإيمانِ بالبَعثِ عن شائبةِ وُقوعِ الرَّيبِ فيه، والإشعارِ بأنَّ ذلك إنْ وقَعَ فمِن جِهَتِهم لا مِن جِهَتِه العاليةِ، واعتبارُ استقرارِهم فيه وإحاطتُه بهم لا يُنافي اعتبارَ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٣٩).

ضَعْفِه وقِلَّتِه؛ لِمَا أنَّ ما يَقْتضيه ذلك هو دوامُ مُلابسَتِهم به، لا قُوَّتُه وكَثرتُه[١].

- قولُه: ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ...﴾ عُطِفَتِ النُّطفةُ بـ (ثُمَّ)؛ لأنَّ الَّذي خُلِقَ من تُرابٍ هو أصْلُ النَّوعِ، وهو آدمُ عليه السَّلامُ، وسُلِّطَ الفِعلُ عليهم من حيث هُم مِن ذُرِّيتِه، وخُلِقتْ زوجُه حواءُ مِنه، ثمَّ كُوِّنَت في آدَمَ وزَوْجِه قُوَّةُ التَّناسُلِ؛ فصار الخلْقُ منَ النُّطفةِ؛ فـ (ثُمَّ) الَّتي عُطِفَ بها ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ عاطفةٌ مُفرداتٍ؛ فهي للتَّراخي الحقيقيِّ. و(مِن) المُكرَّرةِ أربَعَ مرَّاتٍ هنا ابتدائيَّةٌ، وتَكريرُها تَوكيدٌ[٢].

- وعبَّرَ بقولِه: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ مع المُضْغةِ؛ لمَّا كان الإنسانُ فيه أعضاءٌ مُتباينةٌ، وكلُّ واحدٍ منها مُختصٌّ بخَلْقٍ، حسُنَ تَضعيفُ الفِعْلِ؛ لأنَّ فيه خلْقًا كثيرةً[٣].

- وفي قولِه: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ كان مُقْتضى التَّرتيبِ السَّابقِ المَبْنيِّ على التَّدرُّجِ مِن المبادئِ البعيدةِ إلى القريبةِ: أنْ يُقدَّمَ غيرُ المُخلَّقةِ على المُخلَّقةِ، وإنَّما أُخِّرَت عنها؛ لأنَّ المُخلَّقةَ أدخَلُ في الاستدلالِ، وذكَرَ بعْدَه غيرَ المُخلَّقةِ؛ لأنَّه إكمالٌ للدَّليلِ، وتَنبيهٌ على أنَّ تَخليقَها نشَأَ عن عدَمٍ؛ فكِلَا الحالينِ دليلٌ على القُدرةِ على الإنشاءِ، وهو المَقصودُ مِن الكَلامِ؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، أي: لنُظْهِرَ لكم -إذا تأملتُم- دليلًا واضحًا على إمكانِ الإحياءِ بعْدَ الموتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٣، ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٨، ١٩٩).

- قولُه: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وُرودُ الفِعْلِ غيرَ مُعَدًّى إلى المُبَيَّنِ: إعلامٌ بأنَّ أفعالَه هذه يَتبيَّنُ بها مِن قُدرتِهِ وعِلْمِه ما لا يَكْتنِهُه الذِّكْرُ، ولا يُحِيطُ به الوصْفُ[١]. وقيل: لِنُبيِّنَ أمْرَ البعثِ، فهو اعتراضٌ بينَ الكلامينِ[٢]. ولمَّا اشتمَلتْ تلك الأطوارُ السَّابقةُ على احتقارِ المُنكَرِ مِن كَونِه نُطفةً وعَلَقةً ومُضغةً؛ أُبْرِزَ ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾؛ تَنبيهًا على اختصامِه مع احتقارِه[٣]. وقيل: حُذِفَ مفعولُ ﴿لِّنُبَيِّنَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه يَدخُلُ فيه كلُّ ما يُمكِنُ أنْ يُحيطَ به العقولُ[٤].

- وتَقديمُ التَّبْيينِ على ما بعدَهُ مع أنَّ حُصولَه بالفِعْلِ بعْدَ الكلِّ؛ للإيذانِ بأنَّه غايةُ الغاياتِ، ومَقصودٌ بالذَّاتِ[٥]. وأيضًا لمَّا كانت دَلالةُ الأوَّلِ عَلى كَمالِ قُدرتِه تعالى على جَميعِ المقدُوراتِ -الَّتي مِنْ جُملتِها البَعْثُ المَبْحوثُ عنه- أجْلى وأظهَرَ؛ قدَّم قولَه تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ﴾ على الإقرارِ والإخراجِ[٦].

- قولُه: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ حالِهم بعْدَ تَمامِ خلْقِهم[٧]. أو ﴿وَنُقِرُّ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾، وعُدِلَ عن فِعْلِ المُضِيِّ إلى الفِعْلِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على استِحضارِ تلك الحالةِ؛ لِمَا فيها مِن مُشابَهةِ استقرارِ الأجسادِ في الأجداثِ، ثمَّ إخراجِها منها بالبَعْثِ، كما يَخرُجُ الطِّفلُ مِن قَرارةِ الرَّحمِ مع تَفاوُتِ القرارِ؛ فمِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٤١).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأجِنَّةِ ما يَبْقى سِتَّةَ أشهُرٍ، ومنها ما يَزيدُ على ذلك، وهو الَّذي أفادَهُ إجمالُ قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾. والاستدلالُ في هذا كلِّه بأنَّه إيجادٌ بعْدَ العدَمِ، وإعدامٌ بعْدَ الوُجودِ؛ لتَبْيينِ إمكانِ البعثِ بالنَّظيرِ وبالضِّدِّ[١].

- وعُطِفَت جُملةُ ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ بحَرْفِ (ثمَّ)؛ للدَّلالةِ على التَّراخي الرُّتبيِّ؛ فإنَّ إخراجَ الجنينِ هو المقصودُ[٢]. ويجوزُ أنْ تكونَ (ثم) في الموضعَينِ -﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾، ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾- للتراخي الزَّمَني، على اعتبار أنَّ بلوغَ الأشُدِّ متراخٍ زمنًا عن إخراجِهم طفلًا، وهو -أي: إخراجُهم طفلًا- متراخٍ عن إقرارِهم في الأرحامِ، لكنَّ الأنسبَ للمقامِ أنْ تكونَ للتراخي الرُّتبيِّ[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ الأشُدُّ: كَمالُ القُوَّةِ والعَقْلِ والتَّمييزِ، وهو مِن ألْفاظِ الجُموعِ الَّتي لم يُسْتعمَلْ لها واحدٌ -على قولٍ مِن الأقوالِ-، وكأنَّها شِدَّةٌ في غيرِ شَيءٍ واحدٍ؛ فبُنِيَت لذلك على لفْظِ الجَمْعِ[٤].

- وإيثارُ البُلوغِ مُسنَدًا إلى المُخاطَبينَ ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ على التَّبليغِ مُسنَدًا إليه تعالى (لِنُبلِّغَكم)، كالأفعالِ السَّابقةِ (خَلَقْنَاكُمْ- لِنُبَيِّنَ- نُقِرُّ- نُخْرِجُكُمْ)؛ لأنَّ ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ هو المُناسِبُ لبَيانِ حالِ اتِّصافِهم بالكَمالِ، واستقلالِهم بمَبْدئيَّةِ الآثارِ والأفعالِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية محي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي)) (٦ / ٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤).

- وإعادةُ اللَّامِ هاهنا في ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ مع تَجْريدِ الأوَّلَينِ عنها (نُقِرُّ، نُخرِجُكم)؛ للإشعارِ بأصالتِه في الغَرضيَّةِ بالنِّسبةِ إليهما؛ إذْ عليه يَدورُ التَّكليفُ المُؤدِّي إلى السَّعادةِ والشَّقاوةِ[١].

- وقوله: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ وقَعَ في سُورةِ (غافرٍ): ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗا﴾ [غافر: ٦٧]، فعُطِفَ طورُ الشَّيخوخةِ على طَورِ الأشُدِّ، باعتبارِ أنَّ الشَّيخوخةَ مَقصِدٌ للأحياءِ؛ لحُبِّهم التَّعميرَ، وتلك الآيةُ ورَدَتْ مَورِدَ الامتنانِ؛ فذكَرَ فيها الطَّورَ الَّذي يَتملَّى المَرْءُ فيه بالحياةِ، ولم يُذْكَرْ هنا في آيةِ سُورةِ (الحجِّ)؛ لأنَّها وردَتْ مَورِدَ الاستدلالِ على الإحياءِ بعْدَ العدَمِ؛ فلم يُذْكَرْ فيها من الأطوارِ إلَّا ما فيه ازديادُ القُوَّةِ ونَماءُ الحياةِ دونَ الشَّيخوخةِ القريبةِ مِن الاضمحلالِ، ولأنَّ المُخاطبينَ بها فَريقٌ مُعيَّنٌ مِن المُشركينَ كانوا في طَورِ الأشُدِّ، وقد نُبِّهوا عَقِبَ ذلك إلى أنَّ منهم نفَرًا يُرَدُّونَ إلى أرذَلِ العُمرِ -وهو طَورُ الشَّيخوخةِ- بقولِه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾[٢].

- وجِيءَ بقولِه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ على وَجْهِ الاعتراضِ؛ استقراءً لأحوالِ الأطوارِ الدَّالَّةِ على عَظيمِ القُدرةِ والحِكْمةِ الإلهيَّةِ، مع التَّنبيهِ على تَخلُّلِ الوُجودِ والعدمِ أطوارَ الإنسانِ بَدْءًا ونِهايةً، كما يَقْتضيه مَقامُ الاستدلالِ على البَعْثِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ هو عديلُ قولِه تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾، وسكَتَ عن ذِكْرِ الموتِ بعْدَ أرذَلِ العُمرِ؛ لأنَّه مَعلومٌ بطريقةِ لَحْنِ الخِطابِ[1]؛ فأصْلُ الكلامِ: (ومنكم مَن يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمرِ ثُمَّ يُتوفَّى)، فحُذِفَت جُملةُ (ثُمَّ يُتوفَّى)؛ لدَلالةِ الجُملةِ المذكورةِ عليها[2].

- قولُه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ فيه إيرادُ (التَّوفِّي) و(الرَّدِّ) على صِيغَةِ المَبْنيِّ للمفعولِ؛ للجَرْيِ على سَننِ الكِبْرياءِ؛ لتَعيُّنِ الفاعلِ[3].

- قولُه: ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ عُبِّرَ بـ ﴿شَيۡـٔٗا﴾؛ مُبالَغةً في انتقاصِ عِلْمِه، وانتكاسِ حالِه[4]؛ فقد جاءت نَكِرةً لإفادةِ العُمومِ[5].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ للتَّأكيدِ[6].

---

(١) ينقسِمُ المفهومُ من الكلامِ إلى مَفهومِ موافقةٍ، ومفهومِ مُخالفةٍ؛ فمفهومُ الموافقةِ هو ما يُوافِقُ حُكْمُه المنطوقَ؛ فإنْ كان أَوْلى سُمِّيَ فحْوى الخِطابِ، كدَلالةِ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣] على تحريمِ الضَّربِ؛ لأنَّه أشَدُّ، وإنْ كان مُساوِيًا سُمِّيَ لحنَ الخِطابِ، أي: معناه، كدَلالةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ [النساء: ١٠] على تحريمِ الإحراقِ؛ لأنَّه مُساوٍ للأكلِ في الإتلافِ. وعُرِّف لحنُ الخطابِ أيضًا بأنَّه دلالةٌ للاقتِضاءِ، وهو دلالةُ اللفظِ التزامًا على ما لا يستقلُّ الحكمُ إلَّا به، وإن كان اللفظُ لا يقتضيه وضعًا. يُنظر: ((شرح تنقيح الفصول)) للقرافي (ص: ٥٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ على قولِه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾؛ لكونِ الدَّلائلِ الآفاقيَّةِ مُرتبِطةً بالأنْفُسيَّةِ، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، ومُشتبِكةً بعْضُها مع بعْضٍ، خُصوصًا دَلالةَ إحياءِ الأرضِ بعْدَ مَوتِها، وكانت أنْموذجًا للبعْثِ والنَّشرِ(١).

- قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ فيه الإتيانُ بالفِعْلِ على صِيغَةِ المُضارِعِ ﴿وَتَرَى﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ(٢).

- قولُه: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ سِيقَ هذا الوصْفُ إدماجًا للامتنانِ في أثناءِ الاستدلالِ؛ امتنانًا بجَمالِ صُورةِ الأرضِ المُنْبِتةِ؛ لأنَّ كونَه بَهيجًا لا دخْلَ له في الاستدلالِ، فهو امتنانٌ مَحْضٌ(٣).

- وأيضًا مِن فُنونِ البلاغةِ الَّتي اشتَمَلَ عليها قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾: العدولُ عن لَفْظِي الحَركةِ والسُّكونِ إلى أردافِهما من لَفظي (الهُمودِ) و(الاهتِزازِ)؛ لِمَا في لَفظي الإردافِ من المُلاءَمةِ للمعنى المُرادِ؛ لأنَّ الهُمودَ يُرادُ به الموتُ، والأرضُ في حالِ عَطَلِها مِن السَّقْيِ والنَّباتِ مواتٌ؛ فكان العُدولُ إلى لفْظِ (الهُمودِ) المُعبَّرِ به عن الموتِ أَولى من لفْظِ (السُّكونِ)، والاهتزازُ مُشعِرٌ بالعطاءِ كاهتزازِ المَمدوحِ للمدْحِ؛ فلأجْلِ ذلك عُدِلَ عن لفْظِ الحركةِ العامِّ إلى لَفظِ الحركةِ الخاصِّ وهو الاهتزازُ؛ لِمَا يُشعِرُ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٤).

الأرضَ ستُعْطي عندَ سَقْيِها ما يُرْضِي مِن نَباتِها بتَنزُّلِ السَّقْيِ لها مَنزِلةَ ما يَسُرُّها؛ فاهتزَّتْ لتَشعُرَ بالعطاءِ؛ فظهَرَتْ فائدةُ العُدولِ إلى لفْظِ الإردافِ. ومنها: حُسْنُ التَّرتيبِ؛ حيث تقدَّمَ لفْظُ (الاهتزازِ) على لَفْظِ (الرُّبُوِّ)، ولَفظُ (الرُّبُوِّ) على (الإنباتِ)؛ لأنَّ الماءَ إذا نزَلَ على الأرضِ فرَّقَ أجزاءَها ودخَلَ في خِلالِها، وتَفريقُ أجزاءِ الجَماداتِ هو حركَتُها حالةَ تفرُّقِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ انقسامَ الشَّيءِ يدُلُّ على انتقالِ قِسْمَيه أو أحَدِهما عن حَيِّزِه، ولا معنى للحركةِ إلَّا هذا؛ فالاهتزازُ يجِبُ أنْ يُذْكَرَ عَقِيبَ السَّقْيِ، كما جاء (الرُّبُوُّ) بعْدَ (الاهتزازِ)؛ فإنَّ التُّرابَ إذا دخَلَهُ الماءُ ارتَفَعَ بالنِّسبةِ إلى حالِه قبْلَ ذلك، وهذا هو الرُّبُوُّ بعَينِه؛ فحصَلَ حُسنُ الترتيبِ مع حُسنِ النَّسقِ[(١)].

٢- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ جِيءَ به إثْرَ تَحقيقِ حَقِّيَّةِ البعثِ، وإقامةِ البُرهانِ عليه مِن العالَمينِ الإنسانيِّ والنَّباتيِّ؛ لبَيانِ أنَّ ذلك مِن آثارِ أُلوهيَّتِه تعالى وأحكامِ شُؤونِه الذَّاتيَّةِ والوصفيَّةِ والفِعْليَّةِ[(٢)]. وهو فَذلكةٌ[(٣)] لِمَا تقدَّمَ؛ فالجُملةُ تَذييلٌ[(٤)].

- و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِن خلْقِ الإنسانِ على أطوارٍ مُختلفةٍ، وإحياءِ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٩٥-٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٥).

(٣) الفَذْلكةُ: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملةِ والحوقلةِ؛ من قولهم: (فذَلِك كذا)، ومعناها: ذِكرُ مُجمَلِ ما فُصِّل أولًا وخلاصتِه. وقد يُرادُ بالفذلكةِ النتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فذلكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٤).

الأرضِ بعْدَ مَوتِها، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعْدِ مَنزِلَتِه في الكَمالِ[١].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ فيه قَصرٌ إضافيٌّ[٢]، أي: دونَ غَيرِه مِن مَعبوداتِكم؛ فإنَّها لا وُجودَ لها[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تَخصيصُ إحياءِ الموتى بالذِّكْرِ مع كَونِه من جُملةِ الأشياءِ المقدورِ عليها؛ للتَّصريحِ بما فيه النِّزاعُ، والدَّفعِ في نُحورِ المُنكِرينَ. وتَقديمُه؛ لإبرازِ الاعتناءِ به[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٥).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ: في اصطِلاح البلاغيِّين هو تَخصيصُ شيءٍ بشيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأولُ: مَقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. وينقسمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِع، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ حيثُ قُصِر وصفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصفةِ على الموصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حولَ احتمالينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ، مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن ابن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٥).

تَوكيدٌ لقولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾[١].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ فيه إيثارُ صِيغةِ الفاعلِ ﴿ءَاتِيَةٞ﴾ على الفِعلِ؛ للدَّلالةِ على تَحقيقِ إتيانِها وتَقرُّرِه الْبتَّةَ؛ لاقتضاءِ الحِكْمةِ إيَّاهُ لا مَحالةَ[٢].

- وصِيغةُ نَفْيِ الجِنْسِ على سَبيلِ التَّنصيصِ في قوله تعالى: ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ صِيغةُ تأكيدٍ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٥، ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٦).

الآيات (٨-١٠)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ ﴾: أي: لاوِيًا عُنُقَه تَكَبُّرًا، والثَّنْيُ: لَيُّ الشَّيءِ، والعِطْفُ: الجانِبُ، وعِطْفا الرَّجُلِ: جانِباه عن يَمينٍ وشِمالٍ مِنْ لَدُنْ رأسِه إلى وَرِكِه، وهو المَوضِعُ الذي يَعطِفُه الإنسانُ، أي: يَلويه ويُميلُه عندَ الإعراضِ عن الشَّيءِ[(١)].

﴿ خِزۡيٞ ﴾: أي: هوانٌ، وهلاكٌ، وأصلُ الخِزي: الإبعادُ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ومِنَ النَّاسِ مَن يُجادِلُ رُسُلَ اللهِ وأتباعَهم في شأنِ اللهِ تعالى بغيرِ عِلمٍ ولا دَلالةٍ صَحيحةٍ، ولا كتابٍ مِن اللهِ فيه بُرهانٌ وحُجَّةٌ واضِحةٌ، لاويًا جانِبَه وعُنُقَه، متكبِّرًا مُعرِضًا عن الحَقِّ؛ لِيَصُدَّ عن دينِ اللهِ، فله خِزيٌ في الدُّنيا وذِلَّةٌ، ونذيقُه يومَ القيامةِ عذابُ النَّارِ. ويُقالُ له: ذلك العَذابُ بسَبَبِ ما فَعَلْتَ مِنَ المعاصي، واكتسَبْتَ مِنَ الآثامِ، واللهُ ليس بظلَّامٍ للعبيدِ، فلا يعَذِّبُ أحَدًا بغيرِ ذَنبٍ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى حالَ الضُّلَّالِ الجُهَّالِ المقَلِّدينَ، في قَولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾؛ ذكَرَ في هذه حالَ الدُّعاةِ إلى الضَّلالِ مِن رُؤوسِ الكُفرِ والبِدَعِ، فقال[1]:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾.

أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يُجادِلُ رُسُلَ اللهِ وأتباعَهم في شأنِ اللهِ وتوحيدِه وقدرتِه بجَهلٍ، مِن غَيرِ عِلمٍ[2] صَحيحٍ[3].

﴿وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾.

أي: ويُجادِلُ في اللهِ بمُجَرَّدِ رأيِه وهواهُ، بغيرِ دَلالةٍ صَحيحةٍ يَهتَدي بها للصَّوابِ، ولا كِتابٍ إلهيٍّ نيِّرٍ[4] بيِّنِ الحُجَّةِ يُنيرُ عن حُجَّتِه ورأيِه، وإنَّما يقولُ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٩).

(٢) قيل: المرادُ بالعِلمِ هنا: العِلمُ الضَّروريُّ الحاصِلُ بدونِ نظَرٍ واستِدلالٍ. وممَّن قال بذلك: الزمخشري، والرازي، والنسفي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠). وقال الشوكاني: (قيل: والمرادُ بالعلمِ هو العلمُ الضَّروريُّ... والأَولى حمْلُ العِلمِ على العُمومِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٨)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠، ٢٨١).

(٤) قال ابنُ تيمية: (قَولُه: ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ نكرةٌ في سياقِ النَّفي؛ فيعُمُّ كُلَّ كتابٍ مُنيرٍ، ولو لم =

يقولُ مِنَ الجَهلِ بمجرَّدِ ظُنونِه[١].

﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿لِيُضِلَّ﴾ قراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿لِيَضِلَّ﴾ بفَتحِ الياءِ، أي: ليَضِلَّ هو[٢].

= يكُنْ إلَّا الإنجيلُ لقيل: ولا الكتابِ المنيرِ). ((الجواب الصحيح)) (٢/ ٣٥٠).

ممن اختار أنَّ المرادَ بالكتابِ المنيرِ: الوحيُ: النسفي، وأبو السعود، والألوسي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠).

وقيل: المرادُ بالكتابِ المنيرِ هنا: القرآنُ. وممن قال بذلك: الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠).

قال ابنُ تَيميَّة: (وهذا -والله أعلمُ- مِن بابِ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ، أو الانتقالِ مِن الأدنَى إلى الأعلَى). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٦٧، ٢٦٨).

وممَّن جعَل الهُدى بمعنى الاستِدلالِ والنظرِ والحُجةِ العقليةِ الصَّحيحةِ: ابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠).

وقال الشوكانيُّ: (قيل: والمرادُ... بالهدى هو العلمُ النَّظريُّ الاستدلاليُّ. والأَوْلَى... حمْلُ الهدَى على معناه اللغويِّ، وهو الإرشادُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٩).

(٢) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، واختُلف عن رُوَيْس في القراءة بها. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٢).

٢- قراءةُ ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياءِ، أي: ليُضِلَّ غَيرَه[(١)].

﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

أي: يجادِلُ بالباطِلِ لاوِيًا جانِبَه وعُنُقَه؛ إعراضًا وتكبُّرًا عن قَبولِ الحَقِّ، واحتِقارًا لِداعيه؛ لِيَصُدَّ[(٢)] عن دينِ اللهِ وشرعِه[(٣)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٣).

(٢) قيل: اللامُ هنا للعاقبةِ. وممن قال بذلك: ابنُ الجوزي، والرسعني، والقرطبي، والألوسي. يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١١٧).
وقيل: اللامُ هنا للتعليلِ. وممن قال بذلك: الزمخشري، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨١).
قال الشنقيطي: (والمفسِّرُونَ يقولونَ: إنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ونحوِها مِنَ الآياتِ مِمَّا لم تَظْهَرْ فيه العلَّةُ الغائِيَّةُ، كقولِه: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾. ونحوِ ذلك - لامُ العاقِبَة... ونقول هنا: إنَّ الظاهر في ذلك أنَّ الصوابَ فيه غير ما ذَكروا، وأنَّ اللام في الجميع لامُ التعليل، والمعنى واضحٌ لا إشكالَ فيه، كما نبَّه عليه الحافظُ ابنُ كثير رحمه الله في مواضعَ مِن تفسيره. وإيضاح ذلك: أنَّ الله هو الذي قدَّر على الكافرِ في أزلِه أن يُجادِلَ في الله بغيرِ عِلمٍ في حال كونِه لاويَ عُنُقِه؛ إعراضًا عن الحق، واستكبارًا. وقد قدَّر عليه ذلك ليَجعلَه ضالًّا مُضِلًّا، وله الحِكمةُ البالغة في ذلك). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٨١).
وقال ابن عاشور: (واللَّامُ في قَولِه: ﴿لِيُضِلَّ﴾ لتعليلِ المجادَلةِ، فهو متعَلِّقٌ بـ﴿يُجَٰدِلُ﴾؛ أي: غَرَضُه مِن المجادَلةِ الإضلالُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠).

﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾.

أي: لذلك المُجادِلِ في اللهِ بالباطِلِ ذُلٌّ ومَهانةٌ في الدُّنيا(١).

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨١).

قال ابنُ جرير: (لهذا المجادلِ في الله بغيرِ عِلمٍ في الدُّنيا خِزيٌ، وهو القَتلُ والذُّلُّ والمهانةُ بأيدي المؤمِنينَ، فقتَلَه الله بأيديهم يومَ بَدرٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧١).

وممَّن قال بنحو ذلك: ابنُ عاشور، فقال: (خِزيُ الدُّنيا: الإهانةُ، وهو ما أصابهم مِنَ القَتلِ يَومَ بَدرٍ، ومِنَ القَتلِ والأَسرِ بعد ذلك، وهؤلاء هم الذين لم يُسلِموا بعدُ. ويَنطبقُ الخزيُ على ما حصَل لأبي جَهلٍ يومَ بدْر؛ مِن قتْلِه بيدِ غُلامينِ مِن شبابِ الأنصارِ، وهما ابنا عَفْراءَ. وباعتلاءِ عبدِ الله بن مسعودٍ على صَدْره وذَبْحِه، وكان في عظَمتِه لا يَخطِرُ أمثالُ هؤلاء الثلاثةِ بخاطِره. وينطبقُ الخزيُ أيضًا على ما حلَّ بالنضرِ بنِ الحارثِ؛ مِن الأَسرِ يومَ بدْرٍ، وقتْلِه صبرًا... وإذ كانتْ هذه الآيةُ ونظيرتُها التي سبَقتْ ممَّا نزَل بمكَّةَ لا محالةَ، كان قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ مِنَ الإخبارِ بالغَيبِ، وهو مِن مُعجزاتِ القرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٩).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالخِزيِ هو القتلُ ببَدرٍ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، ومكِّيٌّ، والسمعاني، والبغوي، والبيضاوي، والنسفي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١١٧)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٨٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٤٩).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ جُريج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧١).

وذكَرَ الماتُريدي أنَّ عامَّةَ أهلِ التَّأويلِ يَصرِفونَ الآيةَ إلى النَّضرِ بنِ الحارِثِ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٣٩٤).

وقيل: المرادُ بالخِزيِ ما يصيبُه مِن هوانٍ وذُلٍّ بما يجري له مِن الذِّكرِ القَبيحِ على ألسنةِ المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠] الآيةَ، وقَولِه: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]. قاله القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦).

أي: ونُذيقُه يومَ القِيامةِ ألَمَ عَذابِ النَّارِ المُحرِقةِ[١].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ١٠﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾.

أي: يُقالُ له حينَ يذوقُ عَذابَ النَّارِ يَومَ القيامةِ: هذا العَذابُ الواقِعُ بك[٢] بسَبَبِ ما قَدَّمَتْه يداك في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي[٣].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

أي: وفعَلْنا ذلك؛ لأنَّ اللهَ ليس بِذِي ظُلمٍ للعِبادِ، فلم يكُنْ لِيُعَذِّبَهم بغيرِ ذَنبٍ اقتَرَفوه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٢).

(٢) قيل: الإشارةُ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى: عذابِ النَّارِ المُشارِ إليه في قَولِه: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقندي، والقرطبي، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٢).

وقيل: الإشارةُ إلى العذابِ الدُّنيويِّ والأُخرويِّ في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. وممن قال بذلك: النسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٢).

قال الشِّنقيطيُّ: (المعنى: هذا العذابُ الذي يُذيقُكه اللهُ حصَل لك بسببينِ؛ وهما: ما قدَّمَتْه يداك من عمَلِ السوءِ مِن الكفر والمعاصي، وعدالةُ مَن جازاك ذلك الجزاءَ الوِفاقَ وعَدَمُ ظُلمِه). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ يدُلُّ على أنَّ الجِدالَ مع العِلمِ والهُدى والكِتابِ المُنيرِ حَقٌّ حَسَنٌ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ هذا من آياتِ اللهِ العَجيبةِ؛ فإنَّك لا تجِدُ داعِيًا مِن دُعاةِ الكُفرِ والضَّلالِ إلَّا وله مِن المَقتِ بينَ العالَمينَ، واللَّعنةِ والبُغضِ والذَّمِّ- ما هو حقيقٌ به، وكُلٌّ بحَسَبِ حالِه[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ يُفهَمُ مِن هذه الآيةِ الكَريمةِ أنَّ مَن ثَنَى عِطْفَه استِكبارًا عن الحَقِّ وإعراضًا عنه، عامَلَه اللهُ بنَقيضِ قَصْدِه، فأذَلَّه وأهانه، وذلك الذُّلُّ والإهانةُ نَقيضُ ما كان يؤَمِّلُه مِن الكِبرِ والعَظَمةِ[٣]، فلمَّا استكبَر عن آياتِ الله لقَّاه اللهُ المذلَّةَ في الدُّنيا، وعاقَبه فيها قبْلَ الآخرةِ؛ لأنَّها أكبرُ همِّه، ومبلغُ علمِه[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ

= ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٨٢).

وقال البِقَاعي: (﴿لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ﴾ أي: بذِي ظُلمٍ ما ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾، ولو تركَكم بغيرِ ذلك لكان في مجاري عاداتِكم ظُلمًا؛ أوَّلًا: بتسويةِ المُحسِنِ بالمُسيءِ. وثانيًا: بتَركِ الانتصارِ للذين عادَوك فيه، وأذيَّتِهم مِن أجْلِه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨١، ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٩).

﴿مُّنِيرٍ﴾ رَتَّبَ سُبحانَه هذه الأمورَ الثَّلاثةَ أحسَنَ ترتيبٍ؛ فبدأ بالأعَمِّ، وهو العلمُ، وأخبَرَ أنَّه لا علمَ عندَ المُعارِضِ لآياتِه بعَقلِه، ثمَّ انتقَلَ منه إلى ما هو أخَصُّ، وهو الهُدى، ثمَّ انتقَلَ إلى ما هو أخَصُّ، وهو الكِتابُ المُبينُ؛ فإنَّ العلمَ أعَمُّ مِمَّا يُدرَكُ بالعَقلِ والسَّمعِ والفِطرةِ، وأخَصُّ منه الهُدى الذي لا يُدرَكُ إلَّا مِن جهةِ الرُّسُلِ، وأخَصُّ منه الكِتابُ الذي أنزلَه اللهُ على رَسولِه؛ فإنَّ الهدى قد يَكونُ كِتابًا وقد يكونُ سُنَّةً[1].

٢- ذَكَر الله سُبحانَه التَّفصيلَ في مُجادَلةِ المتبوعِ الدَّاعي، وأنَّها: ﴿فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، واكتفَى في ذِكْرِ التابعِ -في قوله سُبحانَه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾- بنفيِ العلمِ، المستلزِمِ لنفيِ هذه الثلاثةِ؛ فإنَّ مجادلةَ المتبوعِ أصلٌ؛ وهو أقعدُ بها مِن مجادلةِ التَّابعِ، ومصدرُها كِبْرٌ، ومصدرُ مجادلةِ التَّابعِ ضلالٌ وتقليدٌ؛ فذَكَرَ حالَ المتبوعِ على التفصيلِ؛ ولهذا ذَكَرَ فسادَ قصدِه وعِلْمِه، وذَكَر مِن عقوبتِه أَشَدَّ ممَّا ذَكَرَ مِن عقوبةِ التَّابعِ، وهذا وأمثالُه مِن أسرارِ القرآنِ التي حرَّمَها اللهُ على مَن عارضَ بينَه وبينَ العقلِ، وقَدَّمَ العقلَ عليه[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾، أي: بعَمَلِك، ولكِنَّه جرت عادةُ العَرَبِ أن تُضيفَ الأعمالَ إلى اليَدِ؛ لأنَّها آلةُ أكثَرِ العَمَلِ، فبها يُزاوَلُ أكثرُ الأعمالِ، فغلبَتْ على غيرِها[3]، ولكونِ مباشرةِ المعاصي تكونُ بها في الغالبِ[4].

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١٠٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٠٩٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٠).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ كُرِّرَ ذِكْرُ المُجادَلةِ؛ وقد سبَق قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ [الحج: ٣]؛ وذلك مُبالَغةً في الذَّمِّ، ولكونِ كلِّ واحدةٍ اشتمَلَتْ على زِيادةٍ ليست في الأُخرى[١]. أو أنَّهما في الدعاةِ المضلِّينَ، واعتُبِر تغايرُ أوصافِهم فيها، وعليه؛ فلا تكرارَ[٢]. وقيل: الأوَّلُ في المُقلِّدينَ، وهذا في المُقلَّدينَ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ والمُنِيرُ: المُبيِّنُ للحقِّ؛ شُبِّهَ بالمصباحِ المُضِيءِ في اللَّيلِ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾

- قولُه: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ كِنايةٌ عن الكِبْرياءِ والجَبروتِ؛ لأنَّ ذا الجَبروتِ لا تَعطُّفَ له ولا رَحمةَ؛ كأنَّه قِيلَ: مِنَ النَّاسِ مَن يُجادِلُ في اللهِ مُتجبِّرًا في نَفْسِه، ولا يَعْطِفُ على أحدٍ. وقيل: مُعرِضًا عن الحقِّ؛ استخفافًا به[٥]. أو هو تَمثيلٌ للتَّكبُّرِ والخُيلاءِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٧، ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٦، ٩٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٨).

- وإفرادُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿عِطۡفِهِۦ﴾ وما ذُكِرَ بعْدَه (لِيُضِلَّ - لَهُ - وَنُذِيقُهُ)؛ مُراعاةً لِلَفْظِ (مَن)، وإنْ كان معنَى تلك الضَّمائرِ الجَمْعَ[١].

- وقولُه: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تَعليلٌ للمُجادَلةِ. وعلى قِراءةِ ﴿لِيَضِلَّ﴾ فيكونُ غرَضُه مِن جِدالِه الضَّلالَ عن سَبيلِ اللهِ؛ وعُلِّلَ به؛ لأنَّه لمَّا أدَّى جِدالُه إلى الضَّلالِ، جُعِلَ كأنَّه غرَضُه، ولمَّا كان الهُدى مُمْكِنًا له، فترَكَه وأعرَضَ عنه، وأقبَلَ على الجِدالِ بالباطلِ؛ جُعِلَ كالخارجِ مِن الهُدى إلى الضَّلالِ[٢].

- وجُملةُ: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ مُستأْنَفةٌ، مَسوقةٌ لبَيانِ نَتيجةِ ما سلَكَه مِنَ الطَّريقةِ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ فيه الْتفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، والالْتفاتُ لتأْكيدِ الوعيدِ، وتَشديدِ التَّهديدِ، أو على إرادةِ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: يُقالُ له يومَ القيامةِ[٤].

- والتَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وما فيه مِن معنى البُعْدِ؛ للإيذانِ بكَونِه في الغايةِ القاصيةِ مِن الهولِ والفَظاعةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٧).

- وجُملةُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ، مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَها[(١)].

- وجاءت صِيغَةُ المُبالَغةِ ﴿بِظَلَّٰمٖ﴾ -مع أنَّ نفْيَ المبالغةِ لا يَستلزمُ نفْيَ الفِعلِ مِن أصلِه، والمرادَ بنَفْي المبالغةِ هو نفيُ الظُّلْمِ مِن أصلِه-؛ لكَثرةِ العَبيدِ؛ فاللهُ جلَّ وعلَا نفَى ظُلْمَه للعبيدِ، والعبيدُ في غايةِ الكثرةِ، والظُّلمُ المنفيُّ عنهم تَستلزِمُ كَثْرتُهم كَثْرتَه؛ فناسَبَ ذلك الإتيانُ بصِيغةِ المبالَغةِ؛ للدَّلالةِ على كَثرةِ المنفيِّ التابعةِ لكَثرةِ العبيدِ المنفيِّ عنهم الظُّلمُ؛ إذ لو وقَع على كلِّ عبدٍ ظُلمٌ، ولو قليلًا، كان مجموعُ ذلك الظُّلمِ في غايةِ الكَثرةِ؛ فالمرادُ بذلك نفْيُ أصْلِ الظُّلمِ عن كُلِّ عَبدٍ مِن أولئك العَبيدِ، الذين هم في غايةِ الكثرة، سُبحانَه وتعالى عن أنْ يَظلِمَ أحدًا شيئًا[(٢)].

وقيل: نفيُ صِيغةِ المبالغةِ إذا دلَّتْ أدلَّةٌ مُنفصِلةٌ على أنَّ المُرادَ به نفيُ أصْلِ الفِعلِ؛ فلا إشكالَ؛ لقِيامِ الدليلِ على المرادِ، والآياتُ الدالَّةُ على نفْيِ الظُّلمِ مِن أصلِه عن اللهِ تعالى كثيرةٌ معروفةٌ؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ...﴾ [النساء: ٤٠]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، وغيرِ ذلك من الآياتِ. أو: يكون المسوِّغُ لصِيغةِ المبالغةِ أنَّ عذابَه تعالَى بالِغٌ مِن العِظَمِ والشِّدَّةِ أنَّه لولا استحقاقُ المعذَّبِينَ لذلك العَذابِ بكُفرِهم ومَعاصيهم - لكان مُعذِّبُهم به ظلَّامًا بليغَ الظُّلمِ مُتفاقِمَه؛ سُبحانَه وتعالى عن ذلِك عُلوًّا كَبيرًا. أو: يكون المرادُ بالنفيِ في قوله: ﴿وَمَا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢١، ٦/ ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣١-٣٣).

رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ نفيَ نِسبةِ الظُّلمِ إليه؛ لأنَّ صِيغةَ (فَعَّال) تُستعمَل مُرادًا بها النِّسبةُ؛ فتُغني عن ياءِ النَّسبِ؛ فقولُه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾، أي: وما رَبُّكَ بذِي ظُلمٍ للعَبيدِ[1]. وقيل غيرُ ذلك[2].

- و(العبيد) ذُكِر هنا في معنى مسكنتِهم، وقلَّةِ قدرتِهم؛ فلذلك جاءَت هذه الصيغةُ[3].

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣١-٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢١، ٦/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٩).

الآيات (١١-١٢)

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾: أي: على شَكٍّ، والحَرفُ: الطَّرَفُ والجانِبُ، نحو حَرفِ الجبلِ الذي عليه القائمُ غيرُ مستقرٍّ، وأصلُ (حرف): يدلُّ على حَدِّ الشَّيءِ[(١)].

﴿فِتۡنَةٌ﴾: أي: ابتلاءٌ واختبارٌ بمكروهٍ يُصيبُه في أهلِه أو مالِه أو نفْسِه، وأصْلُ (فتن): يدُلُّ على اختِبارٍ وابتِلاءٍ[(٢)].

﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾: أي: ارتَدَّ ورجَعَ عن دينِه إلى الكُفرِ، ويُطلَقُ الانقِلابُ كثيرًا على الانصرافِ مِنَ الجِهةِ التي أتاها إلى الجِهةِ التي جاء منها، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٣).

﴿ٱلْمَوْلَىٰ﴾: أي: الوَليُّ النَّاصِرُ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[١].

﴿ٱلْعَشِيرُ﴾: أي: الصَّاحِبُ المُخالِطُ، وأصلُ (عشر): يدُلُّ على مُداخَلةٍ ومُخالَطةٍ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾

جملةُ ﴿يَدْعُواْ﴾ مُستأنفةٌ، و﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ اللامُ زائدةٌ في المفعولِ للتأكيدِ، و(مَن) اسمٌ موصولٌ في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ به، أي: يدعو مَنْ ضرُّه أقرَبُ، و﴿ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ﴾ مبتدأٌ وخبَرٌ. ويؤيِّدُ هذا الوجهَ قراءةُ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ: (يَدْعُو مَنْ ضَرُّه أَقْرَبُ)، وجملةُ ﴿ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ﴾ صِلةُ (مَن) لا محَلَّ لها. وقيلَ: اللَّامُ في ﴿لَمَن﴾ للابتِداءِ مُزَحْلقةٌ عن محَلِّها الأصليِّ، وهي تُفيدُ تأكيدَ مَضمونِ الجُملةِ الواقِعةِ بَعدَها، وقُدِّمَت مِن تأخيرٍ؛ إذ حَقُّها أن تدخُلَ على صِلَةِ (مَنْ) الموصولةِ، والأصلُ: يدعو مَن لَضَرُّه أقرَبُ مِن نَفعِه. واللَّامُ في ﴿لَبِئْسَ﴾ واقعةٌ في جوابِ قَسَمٍ مُقَدَّر. وقيل غيرُ ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢١٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤١٥)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٦)، ((المجتبى)) للخراط (٢/ ٧٤٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومِنَ النَّاسِ مَن يَعبدُ الله على شَكٍّ وتَرَدُّدٍ، فإنْ أصابه خيرٌ مِن صِحَّةٍ وسَعَةٍ وغَيرِهما، استمَرَّ على عبادتِه، وإنْ حصَلَ له ابتِلاءٌ بمَكروهٍ وشِدَّةٍ، رجَعَ عن دينِه، فهو بذلك قد خَسِرَ الدُّنيا؛ إذ لم يَظفَرْ بحاجَتِه منها، وحُرِمَ الطُّمأنينةَ ومُوالاةَ المُسلِمينَ، وخَسِرَ الآخِرةَ بدُخولِه النَّارَ، وذلك خُسرانٌ بيِّنٌ واضِحٌ.

يَدْعو ذلك المرتَدُّ آلِهةً مِن دُونِ اللهِ لا تضُرُّه ولا تنفَعُه، ذلك هو الضَّلالُ البَعيدُ عن الحَقِّ. يدعو مَن ضَرَرُه المحقَّقُ أقرَبُ مِن نَفْعِه، قَبُحَ ذلك المعبودُ نَصيرًا، وقَبُحَ عَشيرًا ومُصاحِبًا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المُظهِرينَ للشِّركِ المُجادِلينَ فيه؛ عقَّبَه بذِكرِ المُنافِقينَ[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى قِسْمَيِ المصارِحينَ بالكُفرِ الكثيفِ والأكثَفِ صريحًا، وأفهَمَ المؤمِنَ المُخلِصَ؛ عطَفَ على ذلك المُذبذَبَ[2].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه قال في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦).

ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾: (كان الرَّجُلُ يَقدَمُ المدينةَ، فإنْ وَلَدَت امرأتُه غُلامًا، ونُتِجَت[١] خَيلُه، قال: هذا دِينٌ صالِحٌ. وإنْ لم تَلِدِ امرأتُه، ولم تُنتَجْ خَيلُه، قال: هذا دينُ سَوْءٍ!)[٢].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾.

أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يَعبُدُ اللهَ على شكٍّ[٣]؛ فلم يَدخُلِ الإيمانُ قَلْبَه على نحوٍ يَقينيٍّ، بل هو في شَكٍّ وقَلَقٍ وتَرَدُّدٍ في دينِ اللهِ[٤].

---

(١) نُتِجَت: أي وَضَعت وولَدَت. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٢)، ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٤٦).

(٢) رواه البخاري (٤٧٤٢).

(٣) قال الواحدي: (قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ أكثَرُ المفَسِّرين قالوا: على شَكٍّ وضَلالةٍ، وأصلُه مِن حَرْفِ الشَّيءِ: وهو طَرَفُه، نحوُ حَرفِ الجَبَلِ والدُّكَّانِ والحائطِ، الذي عليه القائِمُ غيرُ مُستَقِرٍّ؛ فالذي يَعبدُ اللهَ على حَرفٍ قَلِقٌ في دينِه، على غيرِ ثَباتٍ وطُمأنينةٍ، كالذي هو على حَرْفِ الجَبَلِ ونَحوِه؛ يَضطرِبُ اضطِرابًا، ويَضعُفُ قيامُه، فهو يَعرِضُ أن يَقَعَ في أحدِ جانِبَيِ الطَّرَفِ، فقيل للشَّاكِّ في دينِه: إنَّه يَعبُدُ اللهَ على حَرفٍ؛ لأنَّه ليس على يَقينٍ في وَعدِه ووعيدِه، بخِلافِ المؤمِنِ؛ لأنَّه عبَدَه على يقينٍ وبَصيرةٍ، ولم يكُنْ على حَرفٍ يَسقُطُ عنه بأدنى شَيءٍ يُصيبُه). ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦١).

وقال الشوكاني: (وقيلَ: الحرفُ: الشَّرطُ، أي: ومِن النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ على شرطٍ، والشَّرطُ هو قولُه: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ﴾ أي: خيرٌ دُنيويٌّ مِن رخاءٍ وعافيةٍ وخِصْبٍ وكثرةِ مالٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٤) و(١٦/ ٤٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

وقال ابن عاشور: (هذا وصفُ فريقٍ يَضَعون أنفسَهم في مَعرِض الموازنةِ بين دِينِهم القديمِ ودِينِ الإسلامِ؛ فهُم يَقبلون دعوةَ الإسلامِ ويَدخُلون في عِداد متَّبعيه، ويَرقُبون ما يَنتابُهم بعدَ الدخولِ في الإسلامِ؛ فإنْ أصابهمُ الخيرُ عَقِبَ ذلك علِموا أنَّ دِينهم القديمَ ليس بحقٍّ، وأنَّ =

﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾.

أي: فإنْ أصابَه خَيرٌ -كصِحَّةٍ، ورَخاءِ مَعيشةٍ، ورِزقٍ هَنيءٍ- ولم يقَعْ له مِنَ المكارِهِ شَيءٌ؛ رَضِيَ عن الإسلامِ، واستقَرَّ وثَبَتَ على عبادةِ اللهِ[1]!

﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾.

أي: وإن أصابَتْه مِحنةٌ وإنْ قَلَّتْ -كبَلاءٍ في بَدَنِه أو أهلِه، أو ضيقٍ في مَعيشَتِه- ارتدَّ فرَجَع إلى الوجهِ الَّذي كانَ عليه مِن الكفرِ[2]!

= آلهتهم لا تَقدِر على شيءٍ؛ لأنَّها لو قدرَتْ لانتقمتْ منهم على نبْذِ عِبادتِها، وظنُّوا أنَّ الإسلامَ حقٌّ، وإنْ أصابهم شرٌّ مِن شرورِ الدُّنيا العارضةِ في الحياةِ، المسبَّبةِ عن أسبابٍ عاديَّةٍ، سَخِطوا على الإسلامِ، وانخلعوا عنه، وتوهَّموا أنَّ آلهتَهم أصابتْهم بسوءٍ؛ غضبًا مِن مفارقتِهم عِبادتَها!). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٠، ٢١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

فسَّر كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ قَولَه تعالى: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ بمعنى: رجَعَ إلى ما كان عليه مِنَ الكُفرِ بالله. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والبغوي، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلف: مُجاهد، والضحَّاك، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٣).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (المُهتدون لَمَّا كانوا على هُدًى مِن ربِّهم، ونُورٍ وبيِّنةٍ وبصيرةٍ، صار مكانةً لهم استقرُّوا عليها، وقد تُحيط بهم، بخِلاف الذين قال فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١]؛ فإنَّ هذا ليس ثابتًا مستقِرًّا مطمئنًّا، بل هو كالواقفِ على حَرْفِ الوادي، وهو جانبُه؛ فقد يطمئنُّ إذا أصابه خيرٌ، وقد ينقلِبُ على وجهِه ساقطًا في الوادي). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٦٣، ٦٤). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠- ١١].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ أعرابيًّا بايَعَ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الإسلامِ، فأصاب الأعرابيَّ وَعْكٌ[١] بالمدينةِ، فأتى الأعرابيُّ إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: يا رَسولَ اللهِ، أقِلْني بَيعَتي[٢]، فأبى رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ جاءَه، فقال: أقِلْني بَيعَتي، فأبى، ثمَّ جاءَه فقال: أقِلْني بيعَتي، فأبى، فخرجَ الأعرابيُّ، فقال رَسولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّما المدينةُ كالكِيرِ؛ تَنفي خَبَثَها، ويَنصَعُ طَيِّبُها[٣]))[٤].

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾.

أي: خَسِرَ هذا المُنقَلِبُ على وَجهِه خيرَ دُنياه، فلم يَظفَرْ بحاجَتِه منها،

= وقال البِقاعي: (﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ لِتَهيُّئِه للانقِلابِ، بكَونِه على شَفَا جُرُفٍ، فسقَط عن ذلك الطَّرَفِ مِن الدِّينِ سُقوطًا لا رجوعَ له بعدُ إليه، ولا حركةَ له معه؛ فإنَّ الإنسانَ مَطبوعٌ على المُدافَعةِ بكُلِّ عُضوٍ مِن أعضائِه عن وَجهِه، فلا يُمَكِّنُ منه إلَّا بعدَ نهايةِ العَجْزِ، والمعنى: أنَّه رجَع إلى الوَجهِ الذي كان عليه مِن الكُفرِ أو الشَّكِّ رُجوعًا مُتمَكِّنًا، وهذا بخِلافِ الرَّاسِخِ في إيمانِه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٧).

(١) وعْكٌ: أي: الحُمَّى، أو ألَمُها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٠٧).

(٢) أقِلْني بَيعتي: أي: أقِلْني ما بايعتُك عليه مِنَ البقاءِ بالمدينةِ؛ مِن الإقالةِ: وهي تَركُ العَقدِ وإبطالُه. يُنظر: ((المُعْلِم بفوائد مسلم)) للمازَري (٢/ ١٢١)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٨٠).

(٣) يَنصَعُ طَيِّبُها: أي: يصفو ويَخلُصُ ويتمَيَّزُ. (طَيِّبُها) بفَتحِ الطاءِ وكسرِ الياءِ المشَدَّدةِ، على الروايةِ الصَّحيحةِ، ويُروى بكسر الطاءِ وضَمِّ الباءِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ١٥٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ١٨٨١).

(٤) رواه البخاري (٧٢١١) واللفظ له، ومسلم (١٣٨٣).

وحُرِمَ الطُّمَأنينةَ وثَناءَ المُسلِمينَ ومُوالاتَهم، وخَسِرَ خَيرَ آخِرتِه بدُخولِ النارِ، والحِرمانِ مِن الجَنَّةِ[١]!

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أي: خَسارَتُه لِدُنياه وأُخراه هي الخَسارةُ العَظيمةُ البَيِّنةُ التي لا تَخفَى[٢].

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾.

أي: يدعو ذلك المرتَدُّ عن دينِ اللهِ آلِهةً سوى الله لا تضُرُّه ولا تَنفَعُه بذاتِها مُطلَقًا بأيِّ وَجهٍ مِن وُجوهِ الضُّرِّ أو النَّفعِ[٣].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

أي: دُعاءُ غيرِ اللهِ هو الذَّهابُ البَعيدُ عن الحَقِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٣٢) و (٢٨/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٤).

قال الرازي: (يخسَرُ في الدُّنيا العِزَّةَ والكرامةَ، وإصابةَ الغَنيمةِ، وأهليَّةَ الشَّهادةِ، والإمامةَ والقضاءَ، ولا يبقَى مالُه ودَمُه مصونًا، وأمَّا في الآخرةِ فيَفوتُه الثوابُ الدائِمُ، ويحصُلُ له العِقابُ الدَّائِمُ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٧٢) و(٢٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨، ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٩)، ((أضواء =

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

بعْدَ أن بيَّن لهم أنَّهم يعبدونَ ما لا غَناءَ لهم فيه، زاد فبيَّن أنَّهم يعبُدونَ ما فيه ضُرٌّ، فمضمونُ الجُملةِ ارتقاءٌ في تضليلِ عابدي الأصنامِ، وموضِعُ الارتقاءِ هو مضمونُ جملةِ ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ [الحج: ١٢]، كأنَّه قيل: ما لا يضُرُّه، بل ما ينجَرُّ له منه ضُرٌّ[(١)].

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾.

أي: يَدعو المُشرِكُ مَخلوقًا ضَرَرُ عبادتِه أقرَبُ إليه مِن نَفعِها[(٢)].

﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾.

أي: لَبِئسَ النَّاصِرُ هذا المعبودُ مِن دُونِ اللهِ! ولَبِئسَ المُعاشِرُ والمصاحِبُ هو؛ فإنَّه لا يَنصُرُ عابِدَه، ولا يجلِبُ له خيرًا ولا نَفعًا[(٣)]!

= البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٥، ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٦)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٦).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المراد: المعبودُ مِن دونِ الله: القرطبيُّ، وابنُ كثير، والسِّعدي، وابن عاشور، والشِّنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحو هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٧).

قال السعديُّ: (فإنَّ المقصودَ من المولى والعشيرِ حصولُ النفع، ودفْعُ الضرر؛ فإذا لم يَحصُلْ شيء من هذا، فإنه مذمومٌ ملومٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ هذا بخِلافِ الرَّاسِخِ في إيمانِه؛ فإنَّه إن أصابَتْه سَرَّاءُ شكَر، وإنْ أصابَتْه ضَرَّاءُ حَمِدَ وصَبَر؛ فكُلُّ قَضاءِ اللهِ له خيرٌ[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ فلا بُدَّ مِن أذًى لكلِّ مَن كان في الدُّنيا، فإنْ لم يَصبِرْ على الأذَى في طاعةِ اللهِ، بلِ اختارَ المعصيةَ؛ كان ما يَحصُلُ له مِن الشرِّ أعظمَ ممَّا فرَّ منه بكثيرٍ؛ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: ٤٩]. ومَنِ احتَملَ الهوانَ والأذى في طاعةِ اللهِ على الكَرامةِ والعِزِّ في مَعصيةِ اللهِ -كما فعَلَ يُوسُفُ عليه السلامُ وغيرُه مِن الأنبياءِ والصَّالحينَ- كانتْ العاقبةُ له في الدُّنيا والآخِرَةِ، وكان ما حصَل له مِن الأذَى قد انقَلَب نعيمًا وسرورًا، كما أنَّ

= وممَّن قال بنحو هذا القول مِن السَّلف: ابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٧).
وقال ابن جرير: (وقولُه: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ يقولُ: لبئسَ ابنُ العمِّ هذا الَّذي يعبدُ اللَّه على حَرْفٍ. ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ يقولُ: ولبئسَ الخليطُ المُعاشِرُ ، والصَّاحِبُ هو). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٧).
وقال الرازي: (واعلَمْ أنَّ هذا الوَصفَ بالرُّؤساءِ أليَقُ؛ لأنَّ ذلك لا يكادُ يُستعمَلُ في الأوثانِ؛ فبَيَّن تعالى أنَّهم يَعدِلونَ عن عبادةِ الله تعالى الذي يَجمَعُ خَيرَ الدُّنيا والآخرةِ إلى عبادةِ الأصنامِ وإلى طاعةِ الرُّؤساءِ، ثمَّ ذَمَّ الرُّؤساءَ بقَولِه: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ والمرادُ: ذَمُّ مَن انتصَرَ بهم، والتجأَ إليهم). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧).

ما يَحصُلُ لأربابِ الذُّنوبِ مِن التنعُّمِ بالذُّنوبِ يَنقلِبُ حُزنًا وثُبورًا[١].

٣- العَبدُ على الحَقيقةِ مَن قام بعبوديَّةِ اللهِ على اختِلافِ الأحوالِ، وأمَّا عَبدُ السَّرَّاءِ والعافيةِ الذي ﴿يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾، فليس مِن عَبيدِه الذين اختارَهم لعُبوديَّتِه؛ فلا رَيبَ أنَّ الإيمانَ الذى يَثبُتُ على محَلِّ الابتِلاءِ والعافيةِ هو الإيمانُ النَّافِعُ وَقتَ الحاجةِ، وأمَّا إيمانُ العافيةِ فلا يكادُ يَصحَبُ العَبدَ، ويُبلِّغُه مَنازِلَ المُؤمِنينَ، وإنَّما يَصحَبُه إيمانٌ يَثبُتُ على البلاءِ والعافيةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنْ قِيلَ: إنَّ الله تعالى قال: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾، ومُقابِلُ الخيرِ هو الشَّرُّ، فلماذا قال: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾، ولم يقُلْ: (وإنْ أصابَه شَرٌّ انقلَبَ على وجهِه)؟

فالجوابُ: لأنَّ ما يَنفِرُ عنه الطبعُ ليس شرًّا في نفْسِه، بل هو سَببُ القُربةِ ورفعِ الدَّرجةِ بشرطِ التَّسليمِ والرِّضا بالقضاءِ[٣]، وأيضًا فلَمَّا كانتِ الشِّدَّةُ ليستْ بقبيحةٍ، لم يقُلْ تعالى: (وإنْ أصابَه شَرٌّ)، بلْ وصَفَه بما لا يُفيدُ فيه القُبحَ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ فيه سُؤالٌ: كيفَ قال: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾، والخيرُ أيضًا فِتنةٌ؛ لأنَّه امتحانٌ، وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]؟

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٧٧، ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية زاده على البيضاوي)) (٦/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٣١).

الجوابُ: أنَّ مِثلَ هذا كثيرٌ في اللُّغةِ؛ لأنَّ النِّعمةَ بلاءٌ وابتلاءٌ، لقولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ [الفجر: ١٥]، ولكن إنَّما يُطلقُ اسمُ (البَلاء) على ما يَثقُلُ على الطَّبعِ، والمنافقُ ليس عِندَه الخيرُ إلَّا الخيرُ الدُّنيويُّ، وليس عِندَه الشرُّ إلَّا الشرُّ الدُّنيويُّ؛ لأنَّه لا دِينَ له؛ فلذلك وردتِ الآيةُ على ما يَعتقِدونَه، وإنْ كان الخيرُ كلُّه فِتنةً، لكنْ أكثرُ ما يُستعمَلُ فيما يَشتدُّ ويَثقُلُ[(١)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ فيه سؤالٌ: إذا كانتِ الآيةُ في المنافِقِ؛ فمَا معنى قولِه: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾، وهو في الحقيقةِ لم يُسلِمْ حتى يَنقلِبَ ويرتدَّ؟

والجوابُ: أنَّ المرادَ أنَّه أظهرَ بلسانِه خِلافَ ما كان أَظْهَره، فصارَ يَذُمُّ الدِّينَ عِندَ الشِّدَّةِ، وكان مِن قَبلُ يَمْدَحُه، وذلك انقلابٌ في الحقيقةِ[(٢)].

٤- ذَكرَ اللهُ تعالى في آياتِ هذه السورةِ ثَلاثةَ أصنافٍ: صِنفٌ يُجادِلُ في اللهِ بغَيرِ عِلمٍ، ويَتَّبِعُ كلَّ شيطانٍ مَريدٍ، مكتوبٍ عليه إضلالُ مَن تَولَّاه، وهذه حالُ المتَّبِعِ لِمَن يُضلُّه. وصِنفٌ يُجادِلُ في اللهِ بغَيرِ عِلمٍ ولا هُدًى ولا كِتابٍ مُنيرٍ، ثانِيَ عِطْفِه ليُضِلَّ عن سَبيلِ اللهِ، وهذه حالُ المتبوعِ المُستكبِرِ الضالِّ عن سبيلِ اللهِ. ثُمَّ ذَكَر حالَ مَن يَعبُدُ اللهَ على حَرْفٍ، وهذه حالُ المتَّبِعِ لهواهُ، الذي إنْ حصَلَ له ما يَهواه مِن الدُّنيا عبَدَ اللهَ، وإنْ أصابَه ما يُمتَحَنُ به في دُنياهُ ارتدَّ عن دِينِه؛ فهذه حالُ مَن كان مريضًا في إرادتِه وقصْدِه، وهي حالُ أهلِ الشَّهواتِ والأهواءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١٠٨٨).

٥- كلُّ مَن يملِكُ الضُّرَّ والنفعَ فإنَّه هو المعبودُ حقًّا، والمعبودُ لا بدَّ أن يكونَ مالكًا للنفعِ والضَّررِ؛ ولهذا أنكَر الله تعالى على مَن عبَد مِن دونِه ما لا يملكُ ضرًّا ولا نفعًا، وذلك كثيرٌ في القرآنِ، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾[1].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ * يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ فيه سؤالٌ: الضَّرَرُ والنَّفعُ مَنفيَّانِ عن الأصنامِ، مُثبَتانِ لها في الآيتَينِ، وهذا قد يُتوَهَّمُ أنَّه تناقُضٌ؟

وللعُلماءِ أوْجُهٌ في الجوابِ عن ذلِك:

منها: أنَّ الأصنامَ لا تَضرُّ ولا تَنفعُ بأنفُسِها، ولكنْ عِبادتُها نُسِب الضَّرَرُ إليها، كقولِه: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، أضافَ الإضلالَ إليهم؛ إذ كانوا سَببَ الضلالِ؛ فكذا هنا: نفْيُ الضررِ عنهم؛ لكونِها ليستْ فاعلةً، ثم أضافَه إليها؛ لكونِها سَببَ الضَّررِ[2].

ومنها: أنَّ الأصنامَ في الحقيقةِ لا تَضرُّ ولا تَنفَعُ، بيَّن ذلك في الآيةِ الأولى، ثم أثْبَتَ لها الضرَّ والنفعَ في الثانيةِ على طريقِ التَّسليمِ؛ أي: ولو سَلَّمْنا كونَها ضارَّةً نافعةً، لكان ضَرُّها أكثرَ مِن نفْعِها[3].

ومنها: أنَّ المنفيَّ هو فِعلُهم، بقولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾، والمُثبَتَ اسمٌ مضافٌ إليه، فإنَّه لم يقُلْ: (يَضرُّ أعظمَ ممَّا يَنفَعُ)؛ بل قال: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ

(١) ينظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن نَّفۡعِهِۦ﴾، والشَّيءُ يُضافُ إلى الشَّيءِ بأدْنَى مُلابسةٍ؛ فلا يجبُ أنْ يكونَ الضَّرُّ والنَّفعُ المُضافانِ مِن بابِ إضافةِ المصدرِ إلى الفاعِلِ، بل قد يُضافُ المصدرُ مِن جِهةِ كونِه اسمًا، كما تُضافُ سائرُ الأسماءِ، وقدْ يُضافُ إلى مَحلِّه وزَمانِه ومكانِه وسَببِ حُدوثِه وإنْ لم يكُنْ فاعلًا؛ كقوله: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]، ولا ريبَ أنَّ بينَ المعبودِ مِن دُونِ اللهِ وبين ضَرَرِ عابدِيه تعلُّقًا يَقتضي الإضافةَ، كأنَّه قيل: لَمَنْ شَرُّهُ أقربُ مِن خيرِه، وخَسارتُه أقربُ مِن رِبحِه. فهكذا المدعوُّ المعبودُ مِن دونِ اللهِ الذي لم يَأمُرْ بعِبادةِ نفْسِه؛ إمَّا لكونِه جَمادًا، وإمَّا لكونِه عبدًا مُطيعًا للهِ مِن الملائكةِ والأنبياءِ والصَّالحينَ مِن الإنسِ والجِنِّ؛ فما يُدْعَى مِن دُونِ اللهِ هو لا يَنفعُ ولا يَضرُّ، لكنْ هو السَّببُ في دُعاءِ الداعي له، وعِبادتِه إيَّاه، وعِبادةُ ذاك ودُعاؤُه هو الذي ضَرَّه؛ فهذا الضَّرُّ المضافُ إليه غيرُ الضَّرِّ المنفيِّ عنه[1]؛ فلمَّا كان الضَّرُّ الحاصلُ من الأصنامِ ليس ضَرًّا ناشئًا عن فِعلِها، بل هو ضَرٌّ مُلابِسٌ لها، أَثبَتَ الضرَّ بطريقِ الإضافةِ للضميرِ دون طريقِ الإسنادِ؛ إذ قال تعالى: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾، ولم يقُلْ: (لَمَن يَضرُّ ولا يَنفَعُ)؛ لأنَّ الإضافةَ أوسعُ مِن الإسنادِ؛ فلمْ يَحصُلْ تَنافٍ بين قولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ [الحج: ١٢]، وقولِه: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾[2] [الحج: ١٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ مثَلٌ لكونِهم على قلَقٍ واضطرابٍ في دِينِهم، لا على سُكونٍ وطُمأْنينةٍ، بتَمثيلِ حالِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٦).

المُتردِّدِ في عَمَلِه يُريدُ تَجرِبةَ عاقِبَتِه، بحالِ مَن يَمْشي على حَرفِ جبَلٍ أو حَرفِ وادٍ، فهو مُتهيِّئٌ لأنْ يَزِلَّ عنه إلى أسفَلِه، فيَنقلِبَ[١]، والحَرفُ هنا كِنايةٌ عن المقصدِ[٢].

- وقولُه: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ كالتَّوضيحِ والبَيانِ للجُملةِ السَّابقةِ، وتَكريرُ معنى الخُسرانِ والتَّصويرِ؛ لأنَّ فائدةَ البدَلِ التَّفسيرُ والتَّوكيدُ[٣].

- وجُملةُ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ مُعترِضةٌ بين جُملةِ ﴿أَنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾، وجُملةِ ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. والإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لزِيادةِ تَمييزِ المُسنَدِ إليه أتَمَّ تَمييزٍ؛ لتَقريرِ مَدلولِه في الأذهانِ[٤].

- والتَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وما فيه مِن معنى البُعْدِ؛ للإيذانِ بكونِه في غايةِ ما يَكونُ[٥].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ المُسنَدِ ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ قَصرٌ ادِّعائيٌّ[٦]، والمقصودُ منه: تَحقيقُ الخبَرِ، ونَفْيُ الشَّكِّ في وُقوعِه. وضَميرُ الفصْلِ أكَّدَ معنى القصْرِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٨).

(٦) القصرُ الادِّعائي: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاء والمبالَغةِ، بتنزيلِ غَيرِ المذكورِ مَنزلةَ العدَمِ، وقصْرُ الشيء على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

فأفادَ تَقويةَ الخبرِ المقصورِ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾

- قولُه: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لعِظَمِ الخُسرانِ[٢].

- وفي تَقديمِ الضَّرِّ على النَّفعِ: إشارةٌ إلى أنَّه تَملَّصَ مِن الإسلامِ تَجنُّبًا للضَّرِّ؛ لتَوهُّمِه أنَّ ما لَحِقَه مِن الضَّرِّ بسبَبِ الإسلامِ وبسَببِ غضَبِ الأصنامِ عليه، فعاد إلى عِبادةِ الأصنامِ حاسِبًا أنَّها لا تضُرُّه. وفي هذا الإيماءِ تَهكُّمٌ به، يَظهَرُ بتَعقيبِه بـ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾[٣].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لزيادةِ تَمييزِ المُسنَدِ إليه أتَمَّ تَمييزٍ؛ لتَقريرِ مَدْلولِه في الأذهانِ. والقَصرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ المُسنَدِ ﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾ قَصرٌ ادِّعائيٌّ، والمقصودُ منه: تَحقيقُ الخبرِ، ونَفْيُ الشَّكِّ في وُقوعِه. وضَميرُ الفصْلِ أكَّدَ معنى القَصرِ؛ فأفاد تَقويةَ الخبَرِ المقصورِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ مآلِ دُعائِه المذكورِ، وتَقريرِ كَونِه ضَلالًا بعيدًا، مع إزاحةِ ما عسَى يُتَوهَّمُ مِن نَفْيِ الضَّررِ عن مَعبودِه بطريقِ المُباشَرةِ، ونَفْيِه عنه بطَريقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢١٥).

التَّسبُّبِ أيضًا. ويجوزُ أنْ يكونَ الفِعْلُ ﴿يَدْعُواْ﴾ الثَّاني إعادةً للأوَّلِ، لا تأكيدًا له فقط، بل وتَمهيدًا لِمَا بعْدَه من بَيانِ سُوءِ حالِ مَعبودِه إثْرَ بَيانِ سُوءِ حالِ عبادتِه، بقولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾؛ كأنَّه قِيلَ من جِهَتِه تعالى بعْدَ ذِكْرِ عبادتِه لِمَا لا يَضُرُّه ولا ينفَعُه: (يَدْعو ذلك)، ثمَّ قيلَ: (لمَن ضَرُّه أقرَبُ مِن نَفعِهِ واللهِ لَبِئْسَ المَوْلى ولَبِئْسَ العَشيرُ)؛ فكلمةُ (مَن) وصِيغةُ التَّفضيلِ ﴿أَقْرَبُ﴾ للتَّهكُّمِ به[1].

- قولُه: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ اللَّامُ للابتداءِ -على قولٍ-، وهي تُفِيدُ تأْكيدَ مَضمونِ الجُملةِ الواقعةِ بعْدَها، فلامُ الابتداءِ تُفِيدُ مُفادَ (إنَّ) مِن التَّأكيدِ[2].

- قولُه: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ فيه إيثارُ (مَن) على (مَا)، مع كونِ مَعبودِه جَمادًا، وإيرادُ صِيغَةِ التَّفضيلِ ﴿أَقْرَبُ﴾ مع خُلُوِّه عن النَّفعِ بالمرَّةِ؛ للمُبالَغةِ في تَقبيحِ حالِه، والإمعانِ في ذَمِّه[3]. وكونُه أقرَبَ مِن النَّفعِ كِنايةٌ عن تَمحُّضِه للضَّرِّ، وانتفاءِ النَّفعِ منه؛ لأنَّ الشَّيءَ الأقرَبَ حاصِلٌ قبْلَ البعيدِ؛ فيَقْتضي ألَّا يَحصُلَ معه إلَّا الضَّرُّ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٦).

الآيات (١٤-١٧)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِسَبَبٍ﴾: أي: بحَبلٍ، وأصلُ (سبب): يدُلُّ على طولٍ وامتِدادٍ[١].

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: جمْعُ صابئٍ، ويُقالُ لكلِّ خارجٍ مِن دِينٍ إلى دينٍ آخرَ، والصابئونَ فِرقٌ؛ منها: الصابئةُ الحُنفاءُ، ومنها صابئةٌ مشركونَ، ومنها صابئةٌ فلاسفةٌ، إلى غيرِ ذلك، وأصلُ (صبأ): يدُلُّ على خروجٍ وبُروزٍ، يُقالُ: صبأَتِ النُّجُومُ؛ إذا خرَجتْ مِن مطالعِها[٢].

﴿وَٱلۡمَجُوسَ﴾: هم أهلُ دينٍ يُثبِتُ إلَهَينِ: إلهًا للخَيرِ، وإلهًا للشَّرِّ، وهم أهلُ فارسَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٦١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٣٤)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣١٩)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: إنَّ اللهَ يُدخِلُ الذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، وعَمِلوا الصَّالحاتِ، جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِ أشجارِها وقُصورِها الأنهارُ، إنَّ اللهَ يَفعَلُ ما يريدُ. مَن كان يعتَقِدُ أنَّ اللهَ تعالى لن ينصُرَ رَسولَه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الدُّنيا وفي الآخرةِ، فلْيَمدُدْ حَبلًا إلى سَقفِ بَيتِه، ولْيَختَنِقْ به نَفْسَه، ثمَّ لْيَنظُرْ: هل يُذْهِبنَّ ذلك ما يجِدُ في نَفسِه مِن الغَيظِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى ناصِرٌ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومُتِمُّ نُورِه لا محالةَ.

وكما بَيَّنَ اللهُ تعالى الآياتِ السَّابِقةَ وأوضَحَها، أنزَلَ القُرآنَ آياتُه واضِحةٌ في لَفظِها ومَعناها؛ ولأنَّ اللهَ يَهدي بهذا القُرآنِ إلى الحَقِّ مَن يريدُ هِدايَتَه، أنزَلَه آياتٍ بَيِّناتٍ.

إنَّ الذين آمَنوا باللهِ ورُسُلِه، واليَهودَ والصَّابئينَ والنَّصارى والمجوسَ والذين أشرَكوا؛ إنَّ الله يَفصِلُ بينهم جميعًا يومَ القيامةِ، فيُدخِلُ المُؤمِنينَ الجَنَّةَ، ويُدخِلُ الكافرينَ النَّارَ، إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ، لا يخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ سُبحانَه في الآيةِ السَّابِقةِ حالَ عِبادةِ المُنافِقينَ وحالَ مَعبودِهم؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ صِفةَ عِبادةِ المُؤمِنينَ وصِفةَ مَعبودِهم[1].

= ((تاج العروس)) للزبيدي (١٦/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢١٠).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى المجادِلَ بالباطِلِ، وأنَّه على قِسمَينِ: مُقلِّد، وداعٍ؛ ذَكَر أنَّ المُتسمِّيَ بالإيمانِ أيضًا على قِسمَينِ: قِسْمٌ لم يَدخُلِ الإيمانُ قلبَه. والقِسمُ الثاني: المؤمِنُ حقيقةً، وهو الذي صدَّق ما معه من الإيمانِ بالأعمالِ الصَّالحةِ، فأخْبَر تعالى أنَّه يُدخِلُ أصحابَ هذا القسمِ جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر أنَّ الأصنامَ لا تَنفَعُ مَن عبَدَها، قابَلَ ذلك بأنَّ اللهَ يَنفَعُ مَن عَبَدَه بأعظمِ النَّفعِ، وهو دُخولُ الجَنَّةِ[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُدخِلُ يومَ القيامةِ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ- جَناتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ أشجارِها وقُصورِها[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَفعَلُ كُلَّ ما يُريدُ فِعلَه مِن نَفعٍ أو ضُرٍّ دونَ مُمانِعٍ، ويَحكُمُ في خَلقِه في الدُّنيا والآخرةِ بما يَشاءُ، ومِن ذلك إيصالُ أهلِ الجَنَّةِ إليها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٨، ٩٩)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٣/ ٥١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥).
قال الشوكاني: (إنْ أُريد بها الأشجارُ المتكاثفةُ الساترةُ لِما تحتَها، فجريانُ الأنهارِ مِن تحتِها ظاهرٌ، وإنْ أُريد بها الأرضُ فلا بدَّ مِن تقديرِ مضافٍ، أي: مِن تحتِ أشجارِها). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥).

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: مَن كان يَظُنُّ[1] أنَّ اللهَ ليس بناصرٍ رَسولَه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2]

---

(١) قيل: المرادُ: الكافرُ الحاسدُ. وممن قال بذلك: الشنقيطي. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٨٧).
وقيل: المرادُ مَن يعبدُ الله على حَرفٍ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٣، ٤٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١١).

(٢) وممن قال بأنَّ الضميرَ في قولِه تعالى: ﴿يَنصُرَهُ﴾ عائدٌ إلى محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلام: ابنُ جرير، وابنُ عطيةَ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٣، ٤٨٤)، ((تفسير ابن عطية (٤/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٧).
قال الواحدي: (أكثرُ أهلِ التفسيرِ على أنَّ الهاءَ في ﴿يَنصُرَهُ﴾ كنايةٌ عن محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم). ((البسيط)) (١٥/ ٣٠٧).
وذكر القولَ الثاني، فقال أيضًا: (ومذهبُ مجاهدٍ والضحَّاكِ: أنَّ الهاءَ كنايةٌ عن ﴿مَن﴾ في قولِه ﴿مَن كَانَ﴾). ((البسيط)) (١٥/ ٣١٤).
وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جُزي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٩).
قال ابنُ جزي: (القَولُ الثَّاني: أنَّ الضَّميرَ في ﴿يَنصُرَهُ﴾ عائدٌ على ﴿مَن﴾، والمعنى على هذا: مَن ظنَّ بسَبَبِ ضِيقِ صَدرِه وكَثرةِ غَمِّه أنْ لن يَنصُرَه اللهُ، فلْيَختَنِقْ ولْيَمُتْ بغَيظِه؛ فإنَّه لا يَقدِرُ على غيرِ ذلك، فمُوجبُ الاختناقِ على هذا القُنوطُ والسَّخَطُ من القَضاءِ، وسوءُ الظَّنِّ باللهِ حتى ييأسَ مِن نَصْرِه؛ ولذلك فَسَّر بعضُهم ﴿أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ بمعنى: أنْ لن يَرزُقَه. وهذا القَولُ أرجَحُ مِن الأوَّلِ؛ لِوَجهَينِ: أحَدُهما: أنَّ هذا القَولَ مُناسِبٌ لِـ﴿مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾؛ لأنَّه إذا أصابَتْه فِتنةٌ انقَلَب وقَنِطَ، حتى ظَنَّ أنَّ اللهَ لن يَنصُرَه، فيكونُ هذا الكلامُ مُتَّصِلًا بما قَبْلَه، ويدُلُّ على ذلك قَولُه قبلَ هذه الآيةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، أي: الأمورُ بيَدِ اللهِ؛ فلا ينبغي لأحَدٍ أن يتسَخَّطَ مِن قَضاءِ اللهِ، ولا ينقَلِبَ إذا أصابَتْه فِتنةٌ. والوَجهُ الثَّاني: أنَّ الضَّميرَ في ﴿يَنصُرَهُ﴾ على هذا القَولِ يعودُ على ما تقدَّمَه، وأمَّا على القَولِ الأوَّلِ فلا يعودُ على مذكورٍ قَبْلَه؛ لأنَّ النَّبيَّ =

في الدُّنيا والآخرةِ، فلْيُعَلِّقْ حَبلًا في سقفِ بيتِه، ويَشُدَّه في عُنُقِه[١].

= صلَّى الله عليه وسلَّم لم يُذكَرْ قبلَ ذلك بحيثُ يعودُ الضَّميرُ عليه، ولا يدُلُّ سِياقُ الكلامِ عليه دَلالةً ظاهِرةً). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى تفسيرِ النصرِ بالرزقِ. وضعَّفه ابنُ القيم، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٣، ٤٨٤)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٦٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٨).

وقال ابنُ عطية: (أَبْيَنُ وجوهِ هذه الآيةِ أن تكونَ مثلًا، ويكونَ «النصرُ» المعروفَ، و«القطعُ»: الاختناقَ، و«السماءُ»: الارتفاعَ في الهواءِ بسقفٍ أو شجرةٍ ونحوِه، فتأمَّلْه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١١، ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٦، ٢٨٧).

قيل المراد: حَبْلٌ يُعلَّقُ في سَقفِ بَيتٍ أو غيرِه، وكلُّ شَيءٍ علاك وأظَلَّك فهو سماءٌ. وممن قال بذلك: ابن جرير، والسمعاني -ونسبه لجميعِ المفسرينَ-، وابن عطية، ونسبه ابنُ الجوزي إلى الأكثرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٣، ٤٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٢٧). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٧).

قال الشنقيطي: (وحاصِلُ هذا القَولِ: أنَّ اللهَ يَقولُ لحاسِدِيه صلَّى الله عليه وسلَّم، الذين يَتربَّصون به الدَّوائِرَ، ويَظُنُّونَ أنَّ رَبَّه لن يَنصُرَه: موتوا بغَيظِكم؛ فهو ناصِرُه لا محالةَ على رَغمِ أُنوفِكم. وممَّن قال بهذا القولِ: مجاهِدٌ، وقتادةُ، وعِكرمةُ، وعطاءٌ، وأبو الجوزاءِ، وغيرُهم. كما نقله عنهم ابنُ كثير، وهو أظهَرُها عندي.

وممَّا يشهدُ لهذا المعنى من القرآنِ: قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩]). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٨٧).

وقيل: المرادُ بالسماءِ: السماءُ المعروفةُ، ومعنى الآيةِ على ذلك: مَن كان يظنُّ أنْ لن ينصرَ اللهُ نبيَّه في أمرِه، فلْيَمْدُدْ ذلك الظانُّ بحَبلٍ إلى السماءِ، ولْيَرْقَ إليها، وليقطَعْ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم النصرَ النازِلَ عليه مِن السماءِ. قاله السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥).

قال الشنقيطي: (والمعنى: أنَّه إنْ أعمَلَ كُلَّ ما في وُسْعِه مِن كَيدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لِيَمنَعَ عنه نَصْرَ اللهِ، فإنَّه لا يَقدِرُ على ذلك، ولا يُذهِبُ كَيدُه ما يَغيظُه مِن نَصرِ اللهِ لِنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم. =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾.

أي: ثُمَّ لْيَختَنِقْ بالحَبلِ، فلْيَنظُرْ حينَها: هل يُذهِبَنَّ صَنيعُه هذا ما يَغيظُه؟! كلَّا، لا يُغْني ذلك عنه شيئًا، وإنما يقَعُ ضَرَرُ كَيدِه على نفْسِه، واللهُ مُتِمُّ نُورِه، وناصرٌ نبيَّه(١).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

= وممَّا يشهدُ لهذا القَولِ مِن القُرآنِ قَولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ * جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١٠، ١١]. ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٨٨).

وممن قال بنحو ذلك من السلف: ابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٧).

قال البغوي: (ليس هذا على سبيلِ الحَتمِ أن يفعَلَه؛ لأنَّه لا يمكِنُه القَطعُ والنَّظَرُ بعد الاختناقِ والموتِ، ولكنَّه كما يُقالُ للحاسِدِ: إن لم تَرْضَ هذا، فاختَنِقْ ومُتْ غَيظًا). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٧).

قال الزمخشري: (سمِّيَ الاختناقُ قطعًا؛ لأنَّ المختنقَ يقطعُ نفَسَه بحبسِ مجاريه... وسمِّي فعلُه كيدًا؛ لأنَّه وضَعه موضعَ الكيدِ، حيث لم يَقدِرْ على غيرِه. أو على سبيلِ الاستهزاءِ؛ لأنَّه لم يَكِدْ به محسودَه، إنَّما كاد به نفْسَه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٧، ١٤٨).

وقال ابن عاشور: (المعنى: فلْيَنُطْ حَبلًا بالسَّماءِ مَربوطًا به، ثمَّ يَقطَعْه؛ فيَسقُطَ مِنَ السَّماءِ فيتَمَزَّقَ كُلَّ مُمزَّقٍ، فلا يُغنيَ عنه فِعلُه شَيئًا مِن إزالةِ غَيظِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٩).

أي: وكما بَيَّنَّا لكم الآياتِ السَّابِقةَ وأوضَحْناها، كذلك أنزَلْنا القُرآنَ كُلَّه آياتٍ واضِحاتِ الدَّلالةِ[١].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾.

أي: ولأنَّ اللهَ يَهدي بهذا القُرآنِ إلى الحَقِّ مَن يريدُ هِدايَتَه، أنزَلَه آياتٍ بَيِّناتٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال سُبحانه: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ * يَهۡدِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٤)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٨٥٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٢).

وممَّن قال بأنَّ المصدَرَ المُؤَوَّلَ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي﴾ على تقديرِ لامِ العِلَّةِ، وتعَلُّقِه بفِعلٍ مَحذوفٍ مؤَخَّرٍ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٢).

وذهب ابنُ جزي إلى أنَّ قولَه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ معطوفٌ على ﴿ءَايَٰتٖ بَيِّنَٰتٖ﴾؛ لأنَّه مقدَّرٌ بالمصدرِ، فالتقديرُ: أنزلناه آياتٍ بيناتٍ وهدًى لمن أراد الله أن يهديَه. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥).

وقال ابنُ عطية: (وقَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ﴾ في مَوضِعِ خبرِ الابتِداءِ، والتَّقديرُ: والأمرُ أنَّ اللهَ يَهدي مَن يريدُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٢).

وقال السعديُّ: (أي: وكذلك لَمَّا فصَّلْنا في هذا القُرآنِ ما فصَّلْنا، جعَلْناه آياتٍ بيِّناتٍ واضِحاتٍ دالَّاتٍ على جميعِ المطالِبِ والمسائِلِ النَّافِعةِ، ولكِنَّ الهدايةَ بيَدِ اللهِ؛ فمَن أراد اللهُ هدايتَه اهتدَى بهذا القُرآنِ، وجعَله إمامًا له وقُدوةً، واستضاء بنُورِه، ومَن لم يُرِدِ اللهُ هدايتَه فلو جاءته كلُّ آيةٍ ما آمَن، ولم يَنفَعْه القُرآنُ شَيئًا، بل يكونُ حُجَّةً عليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥).

بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر قَبْلُ أنَّ اللهَ يَهدي مَن يُريدُ؛ عقَّبَ ذلك ببيانِ مَن يَهدِيه ومَن لا يَهديه؛ لأنَّ ما قَبْلَه يَقتضي أنَّ مَن لا يُريدُ هِدايتَه لا يَهديه، فدَلَّ إثباتُ الهِدايةِ لِمَن يُريدُ على نَفْيِها عمَّن لا يُريدُ(١).

وأيضًا لَمَّا اشتَمَلت الآياتُ السَّابِقةُ على بيانِ أحوالِ المترَدِّدينَ في قَبولِ الإسلامِ، كان ذلك مَثارًا لأنْ يُتساءَلَ عن أحوالِ الفِرَقِ بَعضِهم مع بَعضٍ في مُختَلَفِ الأديانِ، وأن يُسألَ عن الدِّينِ الحَقِّ؛ لأنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تَدَّعي أنَّها على الحَقِّ وغَيرَها على الباطِلِ، وتجادِلُ في ذلك، فبَيَّنَت هذه الآيةُ أنَّ الفَصلَ بينَ أهلِ الأديانِ فيما اختَصَموا فيه يكونُ يومَ القيامةِ؛ إذ لم تُفِدْهمُ الحُجَجُ في الدُّنيا(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أي: إنَّ المُؤمِنينَ باللهِ ورُسُلِه، واليَهودَ، والصَّابِئينَ(٣)، والنَّصارى، والمجوسَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٢).

(٣) الصابئةُ أمَّةٌ قديمةٌ قبلَ اليهودِ والنَّصارَى، وهم نوعان: صابئةٌ حنفاءُ موحِّدون، اتَّبَعوا مِلَّةَ إبراهيمَ، وصابئةٌ مشركون. يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٢٨٨)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٢٣٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٢٥٠)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٥٥١).

والمُشرِكينَ باللهِ- إنَّ اللهَ يَحكُمُ بينهم يومَ القيامةِ، ويُجازي كُلًّا بعَمَلِه؛ فيُدخِلُ المُؤمِنينَ منهم الجنَّةَ، ويُدخِلُ الكافرينَ النَّارَ(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ مِن أعمالِ هؤلاء الأصنافِ، وغَيرِ ذلك مِن الأشياءِ كُلِّها- شَهيدٌ لا يخفى عليه شَيءٌ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ هذه الآيةُ الكَريمةُ فيها مِنَ الوَعدِ والبِشارةِ بنَصرِ اللهِ لدِينِه ولِرَسولِه وعبادِه المُؤمِنينَ ما لا يَخفَى، ومِن تَأييسِ الكافرينَ الذين يُريدونَ أن يُطفِئوا نورَ اللهِ بأفواهِهم، واللهُ مُتِمُّ نُورِه، ولو كَرِهَ الكافِرونَ(٣).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٢، ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).
المجوس: هم عبدةُ النيرانِ، القائلون: إنَّ للعالَمِ أصلينِ: النُّور والظُّلمة. وقيل: هم قومٌ عبَدوا الشَّمسَ والقمرَ. وقيل: هم الثنويةُ الذين يؤْمنون بوجودِ إلهينِ؛ أحدُهما للخيرِ، والآخرُ للشرِّ. يُنظر: ((الملل والنحل)) للشَّهْرَسْتاني (٢/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥).

فيه أنَّ اللهَ فَصَّلَ في هذا القُرآنِ ما فَصَّلَ، وجعَلَه آياتٍ بيِّناتٍ واضحاتٍ، دالَّاتٍ على جَميعِ المطالِبِ والمسائِلِ النَّافِعةِ، ولكِنَّ الهِدايةَ بيَدِ اللهِ، فمَن أراد اللهُ هدايَتَه، اهتَدَى بهذا القُرآنِ، وجعَلَه إمامًا له وقُدوةً، واستضاءَ بنُورِه، ومَن لم يُرِدِ اللهُ هِدايَتَه، فلو جاءَتْه كُلُّ آيةٍ ما آمَنَ، ولم ينفَعْه القُرآنُ شَيئًا، بل يكونُ حُجَّةً عليه(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ الإرادةُ في هذه الآيةِ هي إرادةٌ كونيَّةٌ -وهي التي بمعنى المَشيئةِ-، ويُقابِلُها الإرادةُ الشَّرعيَّةُ -وهي التي بمعنى المحبَّةِ-، كما في قَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾(٢) [البقرة: ١٨٥].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾، وفي سُورة (البَقرةِ) و(المائدةِ) ذكَرَ أربعةَ أصنافٍ: المُسلمينَ، والذين هادُوا، والنَّصارى، والصَّابئِينَ، ثمَّ قال: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]؛ فذَكَر سِتَّ أُممٍ، مِنهم: اثنتانِ شَقِيَّتانِ، وأربعٌ منهم مُنقسِمةٌ إلى شَقيٍّ وسعيدٍ، وحيثُ وعَدَ أهلَ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ منهم بالأجْرِ ذَكَرَهم أربعَ أُممٍ لَيس إلَّا؛ ففي آيةِ الفَصلِ بينَ الأممِ أَدخلَ معهم الأُمَّتَينِ، وفي آيةِ الوَعدِ بالجزاءِ لم يُدخِلْها معهم؛ فعُلِمَ أنَّ الصابئينَ فيهم المؤمنُ والكافرُ، والشَّقيُّ والسَّعيدُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٢٣٦، ٢٣٧). ويُنظر أيضًا: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٥٤-٤٥٦).

٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ﴾ ذكَرَ المِلَلَ السِّتَّ؛ ليُبَيِّنَ أنَّه يَفصِلُ بيْنهم يومَ القيامةِ، ولم يُثْنِ عليهم، فلم يُثْنِ سُبحانَه على أحدٍ مِنَ المجوسِ والمُشرِكينَ، كما أثنى على بَعضِ الصَّابِئينَ واليَهودِ والنَّصارى في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وهذا مما استدَلَّ به جمهورُ العُلَماءِ على أنَّ المجوسَ لَيسُوا أهلَ كِتابٍ، فلا تُباحُ ذَبائِحُهم، ولا نِكاحُ نِسائِهم؛ إذ لو كانوا أهلَ كتابٍ لكان فيهم مَن يُثني اللهُ عليه، كما كان في اليَهودِ والنَّصارى[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ استئنافٌ جِيءَ به لبَيانِ كَمالِ حُسْنِ حالِ المُؤمنينَ العابدينَ له تعالى، وأنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يتفضَّلُ عليهم بما لا غايةَ وراءَهُ مِن أجَلِّ المنافعِ، وأعظمِ الخيراتِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تَذييلٌ للكلامِ المُتقدِّمِ، وهو اعتراضٌ بينَ الجُمَلِ المُلْتَئِمِ منها الغرَضُ. وفي الجُملةِ أيضًا معنى التَّعليلِ الإجماليِّ

(١) يُنظر: ((الرَّدُّ على الشَّاذِليِّ)) لابن تيمية (ص: ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٨).

لاختلافِ أحوالِ النَّاسِ في الدُّنيا والآخرةِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ في الكلامِ اختصارٌ، والمعنى: إنَّ اللهَ ناصِرٌ رسولَه في الدُّنيا والآخرةِ؛ فمَن كان يَظُنُّ مِن حاسِديهِ وأعادِيهِ أنَّ اللهَ يَفعَلُ خِلافَ ذلك ويَطمَعُ فيه، ويَغِيظُه أنَّه يَظفَرُ بمَطلوبِه؛ فلْيستقْصِ وُسْعَه ولْيستفرِغْ مَجهودَه في إزالةِ ما يَغيظُه، بأنْ يَفعَلَ ما يفعَلُ مَن بلَغَ منه الغيظُ كلَّ مَبلغٍ، حتَّى مَدَّ حبْلًا إلى سماءِ بَيتِه فاخْتنَقَ، فلْينظُرْ ولْيصوِّرْ في نَفْسِه أنَّه إنْ فعَلَ ذلك، هل يُذهِبُ نَصْرَ اللهِ الَّذي يَغِيظُه[٢]؟

- وفي قولِه: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ توبيخٌ، وهذا على جِهَةِ المثَلِ السَّائرِ: (دُونَك الحبْلَ فاختَنِقْ)، وسَمَّى الاختناقَ قطْعًا؛ لأنَّ المُختنِقَ يَقطَعُ نفَسَهُ بحبْسِ مَجاريه، أي: كَنَّى عن الاختناقِ بالقطْعِ؛ فإنَّه لازِمُه، كما تقولُ العربُ: قُطِعَ فُلانٌ؛ إذا اختنَقَ. ولأنَّ المُختنِقَ يمُدُّ السَّببَ إلى السَّقفِ، ثمَّ يَقطَعُ نفَسَهُ من الأرضِ حتَّى يَختنِقَ. وسَمَّى فِعْلَه كيدًا؛ لأنَّه وضَعَه مَوضِعَ الكيدِ، حيث لم يَقدِرْ على غيرِه. أو على سَبيلِ الاستهزاءِ؛ لأنَّه لم يَكِدْ به مَحسودَهُ، إنَّما كاد به نفْسَه[٣].

- وقد فُسِّرَ النَّصرُ بالرِّزقِ؛ فعلى هذا فالكلامُ تامٌّ ولم يَدخُلْه الاختصارُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٧، ١٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٢، ٤٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٧، ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٢، ٤٩٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٠٧).

والضَّميرُ في ﴿يَنصُرَهُۥ﴾ لكلِّ أحدٍ، وهو راجعٌ إلى (مَنْ)؛ وحينئذٍ تكونُ الآيةُ مُتَّصِلةً بقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾، ويكونُ قولُه: ﴿يَدۡعُواْ﴾ إلى آخِرِ الآياتِ مُعترِضةً مُؤكِّدةً لِمَعنى تَجهيلِهم، وأنَّ اللهَ هو القابِضُ الباسِطُ، وهو الضَّارُّ النَّافعُ وحْدَه[1]، وذلك على أحدِ الأوجُهِ في التفسيرِ.

- ويحتملُ أنْ يكونَ مَوقِعُ هذه الآيةِ استئنافًا ابتدائيًّا، أُريدَ به ذِكْرُ فَريقٍ ثالثٍ غيرِ الفريقينِ المُتقدِّمَينِ. ويحتملُ أنْ يكونَ مَوقِعُها تذييلًا لقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ [الحج: ١١] الآيةَ، بعْدَ أنِ اعتُرِضَ بين تلك الجُملةِ وبين هاتِه بجُمَلٍ أُخرى، فيكونُ المُرادُ: أنَّ الفريقَ الَّذين يَعبدونَ اللهَ على حَرفٍ والمُخبَرَ عنهم بقولِه: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]، هم قومٌ يَظنُّونَ أنَّ اللهَ لا يَنصُرُهم في الدُّنيا ولا في الآخرةِ إنْ بَقُوا على الإسلامِ. وعُلِّقَ فِعْلُ ﴿لَّن يَنصُرَهُۥ﴾ بالمجرورِ بقولِه: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ إيماءً إلى كَونِه مُتعلَّقَ الخُسرانِ في قولِه: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]، ولم تُورَدْ فيه جُملةُ (ومِن النَّاسِ) كما أُورِدَتْ في ذِكْرِ الفريقينِ السَّابقينِ، ويكونُ المقصودُ من الآيةِ تَهديدَ هذا الفريقِ؛ فيكونُ التَّعبيرُ عن هذا الفريقِ بقولِه: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ ...﴾ إلخ، إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ؛ فإنَّ مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُؤْتَى بضَميرِ ذلك الفريقِ، فيُقالُ بعْدَ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤]: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ...﴾ إلخ، عائدًا الضَّميرُ المُستتِرُ في قولِه: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾ على ﴿مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ [الحج: ١١]. والعُدولُ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ لوَجْهينِ؛ أحدُهما: بُعْدُ مُعادِ الضَّميرِ، وثانيهما: التَّنبيهُ على أنَّ عِبادتَه اللهَ على حَرفٍ ناشئةٌ عن ظَنِّه أنْ لنْ يَنصُرَه اللهُ في

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٥٥، ٤٥٦).

الدُّنيا والآخرةِ إنْ صَمَّمَ على الاستمرارِ في اتِّباعِ الإسلامِ؛ لأنَّه غيرُ واثقٍ بوعْدِ النَّصرِ للمُسلمينَ. والآيةُ -على هذا المعنَى في التفسيرِ- فيها إيجازٌ بَديعٌ؛ شُبِّهَت حالةُ استبطانِ هذا الفريقِ الكُفْرَ وإظهارِهم الإسلامَ على حَنَقٍ، أو حالةُ تَردُّدِهم بين البَقاءِ في المُسلمينَ وبين الرُّجوعِ إلى الكُفَّارِ، بحالةِ المُغْتاظِ ممَّا صنَعَ، فقيل لهم: عليكم أنْ تَفْعلوا ما يَفعَلُه أمثالُكم ممَّن ملأَهمُ الغيظُ، وضاقت عليهم سُبُلُ الانفراجِ، فامْدُدوا حبْلًا بأقْصى ما يُمَدُّ إليه حبْلٌ، وتَعلَّقوا به في أعْلى مكانٍ، ثمَّ قَطِّعُوهُ؛ تَخِرُّوا إلى الأرضِ -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-، وذلك تَهكُّمٌ بهم في أنَّهم لا يَجِدون غِنًى في شَيءٍ مِن أفعالِهم، وإنذارٌ باستمرارِ فِتْنتِهم في الدُّنيا، مع الخُسرانِ في الآخرةِ[١].

- وقيل: مَفعولُ ﴿لْيَقْطَعْ﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ المَقامِ عليه. والتَّقديرُ: ثمَّ لْيَقْطَعْه، أي: لِيَقطَعَ السَّببَ، وهو الحبلُ. والأمْرُ في قولِه: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ للتَّعجيزِ؛ فيُعْلَمُ أنَّ تَعليقَ الجوابِ على حُصولِ شَرْطٍ لا يقَعُ[٢].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ ...﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ شَبَّهَ ذلك التَّبْيينَ بنفْسِه؛ كِنايةً عن بُلوغِه الغايةَ في جِنْسِه، بحيث لا يُلْحَقُ بأوضَحَ منه، والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُمَلِ الَّتي قبْلَها عطْفَ غرَضٍ على غرَضٍ، والمُناسَبةُ ظاهرةٌ؛ فهي استئنافٌ ابتدائيٌّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٨، ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾ تَعليلٌ لكونِ القُرآنِ بَيانًا، ومُعَلَّلُه مَحذوفٌ يدُلُّ عليه المذكورُ[(١)].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ فَذلكةٌ[(٢)] لِمَا تقدَّمَ؛ حيث بيَّنَتْ هذه الآيةُ أنَّ الفصلَ بينَ أهْلِ الأديانِ فيما اختَصَموا فيه يكونُ يومَ القيامةِ؛ إذ لم تُفِدْهمُ الحُجَجُ في الدُّنيا. وهذا الكلامُ بما فيه مِن إجمالٍ هو جارٍ مَجْرى التَّفويضِ، ومِثْلُه يكونُ كِنايةً عن تَصويبِ المُتكلِّمِ طَريقتَه، وتَخْطئتِه طَريقةَ خَصْمِه؛ لأنَّ مثْلَ ذلك التَّفويضِ للهِ لا يكونُ إلَّا مِن الواثقِ بأنَّه على الحقِّ، وذلك مِن قَبيلِ الكِنايةِ التَّعريضيَّةِ[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ... إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أُدْخِلَت (إنَّ) على كلِّ واحدٍ من جُزأيِ الجُملةِ؛ لِزيادةِ التَّقريرِ والتَّوكيدِ. وحسَّنَ دُخولَ (إنَّ) على الجُملةِ الواقعةِ خبرًا طولُ الفَصْلِ بينهما بالمعاطيفِ، وكونُ خبَرِها جُملةً[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢١).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٢).

تنقسمُ الكِناية باعتبارِ الوسائطِ (اللوازم) والسِّياق إلى أربعةِ أقسام: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء؛ فالتعريضُ لغة: خلافُ التصريح، واصطلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ، ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ، يُفهَمُ مِن السِّياق، نحو قولك للمؤْذِي: «المسلمُ مَن سَلِمَ المسلمون مِن لِسانِه ويَدِه»؛ تعريضًا بنفيِ صِفةِ الإسلامِ عن المؤذِي.

يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦- ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير =

- وقدَّمَ الصَّابئينَ على النَّصارى؛ لتَقدُّمِ زَمانِهم[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ ...﴾ فيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث زاد في هذه الآيةِ ذِكْرَ المجوسِ والمُشرِكينَ، ولم يذكُرْهما في آيةِ (البقرةِ): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [البقرة: ٦٢]، وآيةِ (المائدةِ): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [المائدة: ٦٩]؛ لأنَّ الآيتينِ المُتقدِّمتينِ كانتا في مَساقِ بَيانِ فضْلِ التَّوحيدِ والإيمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ في كلِّ زمانٍ، وفي كلِّ أُمَّةٍ. وزِيدَ في هذه السُّورة ذِكْرُ المجوسِ والمُشرِكينَ؛ لأنَّ هذه الآيةَ مَسوقةٌ لبَيانِ التَّفويضِ إلى اللهِ في الحُكْمِ بين أهْلِ المِلَلِ، فالمجوسُ والمُشرِكونَ ليسوا من أهْلِ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ[٢]، فذكَر المللَ الستَّ هنا؛ ليبينَ أنَّه يفصلُ بينَهم يومَ القيامةِ، أما في سورة (البقرةِ) و(المائدةِ) فذكَرَ أربعةَ أصنافٍ: المُسلمينَ، والذين هادُوا، والنَّصارى، والصَّابئِينَ، ثمَّ قال: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]؛ فدَلَّ على أنَّ هذه الأربعةَ منهم مَن آمَنَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ وعَمِلَ صالِحًا، وأولئك هم السُّعَداءُ في الآخرةِ، بخلافِ مَن لم يكُنْ مِن هؤلاء مؤمِنًا باللهِ واليومِ الآخِرِ وعَمِلَ صالِحًا، وبخلافِ مَن كان مِن المجوسِ

= أبي السعود)) (٦/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٤، ٢٢٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) (٦/ ٤٠٨).

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٠، ١٨١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٢، ٢٢٣).

والمُشرِكينَ؛ فهؤلاء كلُّهم لم يُذكَرْ منهم سعيدٌ في الآخرةِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للإعلامِ بإحاطةِ عِلْمِ اللهِ بأحوالِهم واختلافِهم، والصَّحيحِ مِن أقوالِهم[٢]، وهو تَعليلٌ لِمَا قبْلَه[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ ناسَبَ الخَتْمُ بقولِه: ﴿شَهِيدٌ﴾ الفصلَ بين الفِرَقِ[٤].

(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٣٠٤)، ((الرد على الشاذلي)) لابن تيمية (ص: ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٤).

الآية (١٨)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿حَقَّ﴾: أي: وجَب ولَزِمَ، والحَقُّ في أصلِه: المطابقةُ والموافقةُ، وأصلُ (حَقق): يَدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: ألم تعلَمْ أنَّ اللهَ سُبحانَه يَسجُدُ له خاضِعًا مُنقادًا مَن في السَّمَواتِ مِنَ الملائكةِ، ومَنْ في الأرضِ مِن المَخلوقاتِ، والشَّمسُ والقَمَرُ، والنُّجومُ والجِبالُ، والشَّجَرُ والدوابُّ؟ ويَسجُدُ له طاعةً واختيارًا كثيرٌ مِن النَّاسِ، وهم المؤمِنونَ، وكثيرٌ مِن النَّاسِ حَقَّ عليه العذابُ فهو مَهينٌ، وأيُّ إنسانٍ يُهِنْه اللهُ، فليس له أحَدٌ يُكرِمُه؛ إنَّ اللهَ يَفعَلُ في خَلْقِه ما يشاءُ وَفْقَ حِكمَتِه.

تَفسيرُ الآيةِ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تحفة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن أبان اللهُ عزَّ وجلَّ فيما سلف أنَّه يَقضي بين أربابِ الفِرَقِ السَّالفةِ يومَ القيامةِ، وهو شهيدٌ على أقوالِهم وأفعالِهم- أردَفَ هذا ببيانِ أنَّه ما كان ينبغي لهم أن يختَلِفوا، ألَا يَرَوْنَ أنَّ جميعَ العوالمِ العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ: كبيرَها وصغيرَها، شَمسَها وقمَرَها ونجومَها، وجبالَها وحيوانَها ونباتَها- خاضِعةٌ لجَبَروتِه، مُسخَّرةٌ لقُدرتِه[١]؟!

وأيضًا فهي مرتبطةٌ بمعنى قَولِه: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٢، ١٣] ارتباطَ الدَّليلِ بالمطلوبِ؛ فإنَّ دلائلَ أحوالِ المخلوقاتِ كُلِّها -عاقِلِها وجمادِها- شاهدةٌ بتفرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ، وفي تلك الدَّلالةِ شَهادةٌ على بطلانِ دعوةِ مَن يدعو مِن دونِ اللهِ ما لا يضُرُّه وما لا ينفَعُه[٢].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾.

أي: ألم تعلَمْ[٣] أنَّ اللهَ يَسجُدُ له مَن في السَّمَواتِ مِن الملائكةِ، ومَن في الأرضِ مِن الخلقِ مِن الجنِّ وغيرِهم[٤]، والشَّمسُ والقَمَرُ والنُّجومُ في السَّماءِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٧/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٥، ٢٢٦).

(٣) قيل: الخِطابُ لكُلِّ مَن يصلُحُ له، وهو مَن تتأتَّى منه الرؤيةُ. وممن قال بذلك: أبو السعود، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٦).

وقيل: الخطابُ للنبيِّ مُحمَّد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٧).

والجِبالُ والشَّجَرُ والدوابُّ في الأرضِ[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ۞ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨، ٤٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي ذَرٍّ حينَ غَرَبَتِ الشَّمسُ: ((أتدري أين تذهَبُ؟ قُلتُ: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، قال: فإنَّها تذهَبُ حتى تسجُدَ تحتَ العَرشِ، فتَستَأذِنُ، فيُؤْذَنُ لها، ويُوشِكُ أن تَسجُدَ فلا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤١٨، ٤١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٣).

قيل: سجودُ كلِّ شيءٍ بحسَبِه وما يختصُّ به. وممن قال بذلك: ابن تيميَّة، وابن كثير. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٣).

وقيل: سُجودُ ذلك ظِلالُه حين تَطلُعُ عليه الشَّمسُ وحين تَزولُ، فإذا تحوَّل ظِلُّ كُلِّ شَيءٍ فهو سُجودُه. وممن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٧).

وقيل: المرادُ بسُجودِها: خُضوعُها وذِلَّتُها وانقيادُها لخالِقِها فيما يريدُ منها. وممَّن قال بذلك في الجُملةِ: الزجَّاج، والواحدي، وابن عطية، وابن القيم، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٤).

قال السمعاني: (قال الزَّجاج: السجودُ هاهنا بمعنَى الطاعةِ؛ أي: يُطيعُه، واستَحسَنوا هذا القولَ؛ لأنَّه موافِقٌ للكِتابِ، وهو قولُه تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، وأيضًا فإنَّ مِن اعتِقادِ أهلِ السُّنَّةِ أنَّ الحيوانَ والمواتَ مُطِيعٌ كُلُّه لله تعالى). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٢٧).

يُقبَلُ منها، وتَستأذِنُ فلا يُؤْذَنُ لها، يُقالُ لها: ارجِعي مِن حَيثُ جِئْتِ، فتَطلُعُ مِن مَغرِبِها، فذلك قَولُه تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٨]))[١].

﴿ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

أي: وكثيرٌ مِن النَّاسِ -وهم المُؤمِنونَ- يَسجُدونَ لله طَوعًا مُختارينَ عابِدِينَ[٢].

﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾.

أي: وكثيرٌ مِن النَّاسِ -وهم الكافِرونَ- وَجَب عليهم عذابُ اللهِ؛ لامتِناعِهم عن السُّجودِ للهِ عن طواعِيَةٍ واختيارٍ[٣].

﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ ﴾.

أي: ومَن يُهِنْهُ اللهُ فلا يَقدِرُ أحَدٌ أن يُكرِمَه[٤].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾.

أي: وذلك لأنَّ اللهَ يَفعَلُ في خَلْقِه ما يَشاءُ، فيُسعِدُ ويُكرِمُ مَن يشاءُ، ويُشقي ويُهينُ مَن يَشاءُ؛ فالخَلقُ خَلقُه، والأمرُ أمرُه[٥].

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٩) واللفظ له، ومسلم (١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦٢، ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإذا كانت المخلوقاتُ كُلُّها ساجِدةً لِرَبِّها، خاضِعةً لِعَظَمتِه، مُستكينةً لعِزَّتِه، عانيةً لِسُلطانِه؛ دَلَّ على أنَّه وَحْدَه الرَّبُّ المعبودُ، والمَلِكُ المَحمودُ، وأنَّ مَن عَدَل عنه إلى عبادةِ سِواه، فقد ضَلَّ ضَلالًا بعيدًا، وخَسِرَ خُسرانًا مُبينًا[١].

٢- قال ابن الجوزي: (نظرتُ في قولِ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾... فرأيتُ الجماداتِ كُلَّها قد وُصِفَت بالسجودِ، واستثنى مِن العقلاءِ، فذكرتُ قَولَ بَعضِهم:

ما جحَـــد الصامتُ[٢] مَن أنشَـــأه ... ومِـــن ذَوي النُّطقِ أتَـــى الجُحودُ

فقلتُ: إنَّ هذه لقدرةٌ عظيمةٌ؛ يوهَبُ عَقلٌ للشَّخصِ، ثمَّ تُسلَبُ فائدتُه! وإنَّ هذا لأقوى دليلٍ على قادرٍ قاهرٍ، وإلَّا فكيف يَحسُنُ من عاقلٍ ألَّا يعرِفَ بوجودِه وجودَ مَن أوجدَه؟! وكيف يَنحِتُ صنمًا بيدِه ثم يَعبُدُه؟! غيرَ أنَّ الحقَّ سُبحانَه وتعالى وهَب لأقوامٍ مِن العقلِ ما يُثبِتُ عليهم الحُجَّةَ، وأعمَى قلوبَهم كما شاء عن المحجَّةِ)[٣].

٣- قاعِدةٌ شَريفةٌ: النَّاسُ قِسمانِ: عِليَّةٌ وسَفِلةٌ؛ فالعِلْيةُ: مَن عرَفَ الطَّريقَ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

(٢) جَحَد: أي: كَفَر وأنكَرَ. والصَّامِتُ: الجَمادُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١١).

(٣) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٤).

رَبِّه وسَلَكها قاصِدًا الوُصولَ إليه، وهذا هو الكريمُ على رَبِّه. والسَّفِلَةُ: مَن لم يَعرِفِ الطَّريقَ إلى رَبِّه، ولم يتعَرَّفْها، فهذا هو اللَّئيمُ الذى قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾[1].

٤- المعصيةُ سَبَبٌ لِهَوانِ العَبدِ على رَبِّه، وسُقوطِه مِن عَينِه؛ قال الحَسَنُ البَصريُّ: (هانُوا عليه فعَصَوه، ولو عَزُّوا عليه لعَصَمَهم!)، وإذا هان العبدُ على اللهِ لم يُكرِمْه أحدٌ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾، وإنْ عَظَّمَهم النَّاسُ في الظَّاهِرِ؛ لحاجَتِهم إليهم، أو خوفًا مِن شَرِّهم، فهم في قُلوبِهم أحقَرُ شَيءٍ وأهوَنُه[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ قَولَه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لَفظُه لَفظُ العُمومِ، فيَدخُلُ فيه النَّاسُ، فلِمَ قال مرَّةً أُخرى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؟

الجوابُ: أنَّه لو اقتَصَر على ما تقَدَّمَ، لأوهَمَ أنَّ كُلَّ النَّاسِ يَسجُدونَ، كما أنَّ كُلَّ الملائكةِ يَسجُدونَ، فبيَّنَ أنَّ كثيرًا منهم يَسجُدونَ طَوعًا دُونَ كثيرٍ منهم، فإنَّه يمتَنِعُ عن ذلك، وهم الذين حَقَّ عليهم العَذابُ[3].

٢- لا يجوزُ تَسميةُ بعضِ الزُّهورِ بـ «عَبَّادِ الشَّمسِ»؛ لأنَّ الأشجارَ لا تَعبُدُ الشَّمسَ، إنَّما تَعبُدُ اللهَ عزَّ وجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ﴾، وإنما يُقال عبارةُ

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢١٣، ٢١٤).

أُخرى ليس فيها ذِكْرُ العبوديَّةِ، كمُراقِبةِ الشَّمسِ، ونحو ذلك مِن العباراتِ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ الإهانةُ إذلالٌ وتَحقيرٌ وخِزيٌ، وذلك قَدْرٌ زائِدٌ على ألَمِ العَذابِ؛ فقد يُعَذَّبُ الرَّجُلُ الكريمُ ولا يُهانُ[٢].

بلاغةُ الآيةِ:

قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ بَيانٌ لِمَا يُوجِبُ الفصْلَ المذكورَ مِنْ أعمالِ الفِرَقِ المذكورةِ، مع الإشارةِ إلى كَيفيَّتِه وكَونِه بطَريقِ التَّعذيبِ والإثابةِ، والإكرامِ والإهانةِ[٣]. أو هي جُملةٌ مُستأنَفةٌ لابتداءِ استِدلالٍ على انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ. وما وقَعَ بين هاتينِ الجُملتينِ استِطرادٌ واعتراضٌ[٤].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، والخِطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والاستفهامُ تَقريريًّا[٥]. والمُرادُ بالرُّؤيةِ العِلْمُ؛ عبَّرَ عنه بها إشعارًا بظُهورِ المعلومِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١١٨). ومِن ذلك تسميةُ بعضُ الناسِ لها: دوَّار الشَّمسِ.

(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٥، ٢٢٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٢٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٠).

- قولُه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (مَن) يجوزُ أنْ يعُمَّ أُولي العَقْلِ وغيرَهم على التَّغليبِ؛ فيكونُ قولُه: ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ إفرادًا لها بالذِّكْرِ؛ لشُهرتِها، واستبعادِ ذلك منها. أو جُعِلَتْ خاصَّةً بالعُقلاءِ؛ لعدَمِ شُمولِ سُجودِ الطَّاعةِ لكُلِّهم[١]. وقيل: إنَّما ذكَر هذه على التنصيصِ؛ لأنَّها قد عُبِدت مِن دونِ الله، فبيَّن أنَّها تسجُدُ لخالقِها، وأنَّها مربوبةٌ مسخَّرةٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مِن بابِ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ مِن حيثُ الفِعْلُ والفاعلُ؛ تَشريفًا لعبادِهِ الصَّالحينَ[٣].

- قولُه: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ جُملةُ ﴿حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ مُكنًّى بها عن تَرْكِ السُّجودِ للهِ، أي: حَقَّ عليهمُ العذابُ؛ لأنَّهم لم يَسْجُدوا للهِ[٤].

- والآيةُ مِن الاحتباكِ[٥]: فإثباتُ السُّجودِ في الأوَّلِ دليلٌ على انتفائِه في الثاني، وذِكرُ العذابِ في الثاني دليلٌ على حذفِ الثَّوابِ في الأوَّلِ[٦].

- وقولُه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾ تَذييلٌ لقولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٧).

(٥) الاحْتِبَاك: هو الحذفُ من الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفان معًا، وله في القرآن نظائرُ، وهو من إبداعاتِ القرآن وعناصر إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧).

يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[١]. والتَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُهِنِ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّ إيثارَ المُضارِعِ في الآيةِ للاستمرارِ، لا لِمُطلَقِ الإخبارِ[٢].

- ولَمَّا عُلِمَ بقولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ...﴾ أنَّ الكُلَّ جارُونَ معَ الإرادةِ، مُنقادُونَ أتمَّ انقيادٍ تحتَ طوعِ المشيئةِ، وأنَّه إنَّما جُعِلَ الأمرُ والنهيُ للمُكلَّفينَ سببًا لإسعادِ السَّعيدِ منهم، وإشقاءِ الشقيِّ؛ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم على ما يَتعارفونَه مِن أحوالِهم فيما بينهم؛ كان المعنى: فمَن يُكرِمِ اللهُ بتوفيقِه لامتِثالِ أمْرِه فما له مِن مُهينٍ؛ فعُطِفَ عليه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾، ولعلَّه إنَّما ذَكَره وطوَى الأوَّلَ؛ لأنَّ السِّياقَ لإظهارِ القُدرةِ، وإظهارُها في الإهانةِ أتمُّ، مع أنَّ أصلَ السِّياقِ للتَّهديدِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ في مَحلِّ العِلَّةِ للجُملتينِ المُعترضتينِ؛ لأنَّ وُجودَ حَرْفِ التَّوكيدِ في أوَّلِ الجُملةِ معَ عدَمِ المُنكِرِ يُمحِّضُ حَرْفَ التَّوكيدِ إلى إفادةِ الاهتمامِ، فنشَأَ مِن ذلك معنى السَّببيَّةِ والتَّعليلِ، فتُغْني (إنَّ) غَناءَ حَرْفِ التَّعليلِ أو السَّببيَّةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٧).

الآيات (١٩-٢٢)

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾: أي: الماءُ الشَّديدُ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم): يَدُلُّ على الحَرارةِ[١].

﴿يُصۡهَرُ﴾: أي: يُذابُ، والصَّهرُ: إذابةُ الشَّحمِ، وأصلُ (صهر): يدُلُّ على إذابةِ شَيءٍ[٢].

﴿مَّقَٰمِعُ﴾: أي: سياطٌ ومَطارِقُ ومَرازِبُ، مِن قَولِهم: قَمَعْتُ رأسَه: إذا ضَرَبْتَه ضَربًا عنيفًا، وأصلُ (قمع): يدُلُّ على إذلالٍ وقَهرٍ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: هذان فَريقانِ اختَلَفوا في شأنِ رَبِّهم وتوحيدِه: أهلُ الإيمانِ وأهلُ الكُفرِ؛ فالذين كَفَروا جُعِلَت لهم ثيابٌ مِن نارٍ يَلْبَسونَها، يُصَبُّ على رُؤوسِهم الماءُ المُتناهي في حَرِّه، يُذابُ بهذا الحَميمِ المصبوبِ فَوقَ رُؤوسِ الكُفَّارِ ما في بُطونِهم والجلودُ، وتَضرِبُهم الملائِكةُ على رُؤوسِهم بمَطارِقَ مِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

حَديدٍ، كُلَّما حاولوا الخروجَ مِنَ النَّارِ؛ لشِدَّةِ غَمِّهم وكَرْبِهم، أُعيدُوا فيها، وقيلَ لهم: ذُوقُوا عذابَ النَّارِ المُحرِقةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى أهلَ السعادةِ وأهلَ الشقاوةِ؛ ذكَر ما دار بينَهم مِن الخصومةِ في دينِه[1].

وأيضًا لَمَّا كان قَولُه تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] يُثيرُ سُؤالَ مَن يَسألُ عن بَعضِ تَفصيلِ صِفَةِ العَذابِ الذي حَقَّ على كثيرٍ مِنَ النَّاسِ الذين لم يَسجُدوا لله تعالى؛ جاءت هذه الجُملةُ لِتَفصيلِ ذلك[2].

﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾.

أي: هذان فَريقانِ اختَلَفوا في شأنِ رَبِّهم وتوحيدِه ودينِه، وتعادَوْا وتحارَبوا: المُؤمِنونَ والكافِرونَ؛ فالمُؤمِنونَ يُريدونَ نُصرةَ دينِ اللهِ، وإعلاءَ كَلِمتِه، والكافِرونَ يُريدونَ إطفاءَ نُورِ الإيمانِ، وقَمْعَ الحَقِّ، وإظهارَ الباطِلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٨).
قال ابن عاشور: (المرادُ من هذه الآية ما يعُمُّ جميعَ المؤمنينَ وجميعَ مُخالِفيهم في الدِّينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٨).
=

عن قَيسِ بنِ عَبَّادٍ، قال: (سَمِعْتُ أبا ذَرٍّ يُقسِمُ قَسَمًا: إنَّ ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ إنَّها نَزَلت في الذين بَرَزوا يومَ بَدرٍ: حَمزةُ وعَلِيٌّ وعُبَيدةُ بنُ الحارِثِ، وعُتَبةُ وشَيبةُ ابنا ربيعةَ، والوليدُ بنُ عُتبةَ)[1].

وعن قَيسِ بنِ عَبَّادٍ، عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه أنَّه قال: (أنا أوَّلُ

= وممَّن قال بالعُموم أيضًا: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن جُزي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٦).

قال ابن جزي: (﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾ الإشارةُ إلى المؤمنينَ والكفَّارِ على العمومِ، ويدلُّ على ذلك ما ذُكِر قبلَها مِن اختلافِ الناسِ في أديانِهم، وهو قولُ ابنِ عباسٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٣).

وقال أبو السعود: (أي: فريقُ المؤمنينَ، وفريقُ الكفرةِ المقسَّمُ إلى الفِرَقِ الخَمسِ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠١).

واختار هذا المعنى أيضًا: الألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٣٨). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٢٩).

وقيل: المرادُ بهم النَّفرُ الذين برَزوا للقتالِ أوَّلَ المعركةِ يومَ بدرٍ. وممن قال بذلك: مكي، والقرطبي. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٨٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥-٢٦). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩١).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٢٨).

قال ابن جرير: (الآيةَ قد تنزِلُ بسَبَبٍ مِن الأسبابِ، ثُمَّ تكونُ عامَّةً في كلِّ ما كانَ نظيرَ ذلك السَّبَبِ. وهذه مِن تلك؛ وذلك أنَّ الَّذينَ تبارَزوا إنَّما كانَ أحدُ الفريقينِ أهلَ شِرْكٍ وكفرٍ باللَّهِ، والآخَرُ أهلَ إيمانٍ باللَّهِ وطاعةٍ له، فكلُّ كافرٍ في حُكْمِ فريقِ الشِّركِ منهما في أنَّه لأهلِ الإيمانِ خَصْمٌ، وكذلك كلُّ مُؤمنٍ في حُكمِ فريقِ الإيمانِ منهما في أنَّه لأهلِ الشِّركِ خَصْمٌ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٣).

وقال الرازي: (السببُ وإن كان خاصًّا، فالواجبُ حملُ الكلامِ على ظاهرِه). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢١٥).

(١) رواه البخاري (٤٧٤٤)، ومسلم (٣٠٣٣) واللفظ له.

مَن يجثو[١] بينَ يدَيِ الرَّحمنِ للخُصومةِ يومَ القيامةِ)، وقال قيسُ بنُ عَبَّادٍ: وفيهم أُنزِلَت: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾، قال: (هم الذين تبارَزوا يومَ بَدرٍ: حمزةُ وعَليٌّ وعُبَيدةُ -أو أبو عبيدةَ بنُ الحارثِ-، وشَيبةُ بنُ رَبيعةَ، وعُتْبةُ بنُ رَبيعةَ، والوَليدُ بنُ عُتبةَ)[٢].

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾.

أي: فالذين كَفَروا بالله فُصِّلَت لهم ثِيابٌ مِن نارٍ، فيَعُمُّ العذابُ أجسادَهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۞ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠].

﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾.

أي: يُصَبُّ على رُؤوسِ الكُفَّارِ الماءُ المُغْلَى الشَّديدُ الحَرارةِ[٤].

---

(١) يجثو: أي: يَجلِسُ على رُكبَتَيه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٣٩).

(٢) رواه البخاري (٣٩٦٥).

قال ابنُ جُزَي: (وقيل: نزَلَت في عليِّ بنِ أبي طالِبٍ، وحمزةَ بنِ عبدِ المُطَّلِب، وعُبيدةَ بنِ الحارثِ؛ حين بَرَزوا يومَ بَدرٍ لِعُتبةَ بنِ رَبيعةَ، وشَيبةَ بنِ رَبيعةَ، والوَليدِ بنِ عُتبةَ؛ فالآيةُ على هذا مَدَنيَّةٌ إلى تمامِ سِتِّ آياتٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦).

قال ابن عاشور: (الأظهرُ: أنَّ أبا ذَرٍّ عنَى بنزول الآية في هؤلاء أنَّ أولئك النفرَ الستَّة هم أبرزُ مِثالٍ وأشهرُ فَردٍ في هذا العمومِ؛ فعبَّر بالنزولِ وهو يُريد أنهم ممَّن يُقصَدُ مِن معنى الآيةِ، ومِثل هذا كثيرٌ في كلام المتقدِّمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٩).

كما قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧، ٤٨].

﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ذكَرَ ما يُعذَّبُ به الجَسدُ ظاهِرُه وما يُصَبُّ على الرَّأسِ؛ ذكَرَ ما يَصِلُ إلى باطنِ المُعذَّبِ[(١)].

﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠﴾.

أي: يُذابُ بالحَميمِ المصبوبِ فَوقَ رُؤوسِ الكُفَّارِ ما في بُطونِهم -مِنَ اللَّحمِ والشَّحمِ، والأمعاءِ والأحشاءِ[(٢)]-، والجلودُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٠، ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٠).

(٣) قيل: (الْجُلُودُ) مرفوعٌ بفعلٍ محذوفٍ معطوفٍ على ﴿يُصۡهَرُ﴾، وتقديرُه: وتُحرقُ أو تُشوَى به الجلودُ. وممن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جريرٍ، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٠).

وقيل: المعنى: أنَّ الحميمَ يُذيبُ جلودَ الكافرين كما يُذيبُ ما في بطونِهم؛ لشدةِ حرارتِه. وممن اختاره: الرسعني، والعليمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٠).

قال الشنقيطي: (وقولُه: ﴿وَٱلۡجُلُودُ﴾ الظَّاهِرُ أنَّه معطوفٌ على «ما» مِنْ قولِه: ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ الَّتي هي نائِبُ فاعلِ ﴿يُصۡهَرُ﴾، وعلى هذا الظَّاهِرِ المتَبادِرِ مِنَ الآيةِ فذلك الحميمُ يُذيبُ جُلودَهم، كما يُذيبُ ما في بطونِهم لِشِدَّةِ حرارَتِه؛ إذ المعنى: يُصْهَرُ به ما في بُطونِهم، وتُصْهَرُ به الجلودُ؛ أيْ: جُلودُهم، فالألِفُ وَاللَّامُ قامَتا مقامَ الإضافةِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٩٠).

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾.

أي: وللكُفَّارِ في جهَنَّمَ مَرازِبُ ومَطارِقُ مِن حَديدٍ، تَضرِبُهم وتَدفَعُهم بها[١] خَزَنَةُ النَّارِ مِن الملائِكةِ[٢].

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾.

أي: كُلَّما أراد هؤلاءِ الكُفَّارُ أن يَخرُجوا مِنَ النَّارِ بسَبَبِ ما نالهم فيها مِنْ غَمٍّ، أُعيدُوا في النَّارِ مرَّةً أُخرى[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ * وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾.

أي: ويُقالُ لهؤلاء الكافرينَ: ذوقوا عَذابَ النَّارِ المُحرِقَ للقُلوبِ والأبدانِ[٤].

---

(١) قال ابنُ جرير: (تَضرِبُ رُؤوسَهم بها الخَزَنَةُ إذا أرادوا الخروجَ مِن النَّارِ، حتى تَرجِعَهم إليها). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٢).

كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ٢٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

حَذَّرَنا اللهُ تعالى في كتابِه مِن النَّارِ، وأخبَرَنا عن أنواعِ عَذابِها بما تتفَطَّرُ منه الأكبادُ، وتتفَجَّرُ منه القُلوبُ؛ حَذَّرَنا منها وأخبَرَنا عن أنواعِ عَذابِها؛ رحمةً بنا؛ لنزدادَ حَذَرًا وخَوفًا، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قال تعالى: ﴿ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ والاختِصامُ يَشمَلُ ما وقع أحيانًا مِن التَّحاوُرِ الحقيقيِّ بين أهلِ الأديانِ المذكورةِ، والمعنويَّ؛ فإنَّ اعتِقادَ كُلٍّ مِن الفريقَينِ بحَقِّيَّةِ ما هو عليه وبُطلانِ ما عليه صاحِبُه، وبناءَ أقوالِه وأفعالِه عليه: خُصومةٌ للفَريقِ الآخَرِ، وإنْ لم يَجْرِ بينهما التَّحاوُرُ والخِصامُ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يُثيرُ سُؤالَ مَن يسأَلُ عن بَعضِ تَفصيلِ صِفَةِ العذابِ الَّذي حَقَّ على كَثيرٍ مِن النَّاسِ الَّذينَ لم يَسْجُدوا للهِ تعالى؛ فجاءت هذه

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٣٨).

الجُملةُ لتَفصيلِ ذلك. واسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَانِ﴾ مُشيرٌ إلى ما يُفِيدُه قولُه تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾، والإشارةُ إلى ما يُسْتَفادُ مِن الكلامِ بتَنزيلِه مَنزِلةَ ما يُشاهَدُ بالعينِ[١].

- قولُه: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ﴾ في قولِه: ﴿هَٰذَانِ﴾ تَعيينٌ لطَرَفي الخِصامِ، وإزاحةٌ لِمَا عسى يَتبادَرُ إلى الوهْمِ مِن كَونِه بينَ كلِّ واحدةٍ من الفِرَقِ السِّتِّ وبين البواقي، وتَحريرٌ لِمَحلِّه، أي: فريقُ المُؤمِنينَ وفريقُ الكَفَرةِ المُقسَّمِ إلى الفِرَقِ الخَمْسِ[٢]. وأُتِيَ باسمِ الإشارةِ الموضوعِ للمُثَنَّى ﴿هَٰذَانِ﴾؛ لمُراعاةِ تَثنيةِ اللَّفظِ، وأُتِيَ بضَميرِ الجماعةِ ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾؛ لِمُراعاةِ العدَدِ[٣].

- قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ تَفصيلٌ لِمَا أُجْمِلَ في قولِه تعالى: ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[٤].

- قولُه: ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ تَعبيرٌ بَليغٌ، كأنَّ الله تعالى يُقدِّرُ لهم نِيرانًا على مقاديرِ جُثَثِهم، تَشتمِلُ عليهم كما تُقطَّعُ الثِّيابُ الملبوسةُ[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿قُطِّعَتۡ﴾ فيه مُبالغةُ القَطْعِ، وصِيغَت صِيغةَ الشِّدَّةِ في القَطْعِ؛ للإشارةِ إلى السُّرعةِ في إعدادِ ذلك لهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٠).

- جاء قولُه: ﴿قُطِّعَتۡ﴾ بلفْظِ الماضي؛ لأنَّ ما كان مِن أخبارِ الآخرةِ؛ فالموعودُ منه كالواقِعِ المُحقَّقِ[١].

- قولُه: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث إنَّه لمَّا ذكَرَ ما يُصَبُّ على رُؤوسِهم؛ إذ يَظهَرُ في المعروفِ أنَّ الثَّوبَ إنَّما يُغطَّى به الجسَدُ دونَ الرَّأسِ؛ فذكَرَ ما يُصِيبُ الرَّأسَ منَ العذابِ[٢].

- وفائدةُ زِيادةِ (مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿مِن فَوۡقِ﴾: أنَّها لابتِداءِ الغايةِ في أوَّلِ أمكنةِ الفوقيَّةِ، والحميمُ إذا صُبَّ فوقَهم عن بُعْدٍ، فإنَّه يُدرِكُه الهواءُ، فيَنقُصُ مِن حرارتِه، فإذا صُبَّ فوقَ رُؤوسِهم بالقُرْبِ نزَلَ كما هو؛ فأفادت زِيادةُ (مِن) أنَّه يُصَبُّ فوقَ رُؤوسِهم مِن أقرَبِ أمكنةِ الفوقيَّةِ إليهم حتَّى لَا يَنتقِصَ مِن حرارتِه شَيءٌ[٣].

- وفي الكلامِ تَقسيمٌ وجَمْعٌ وتَفريقٌ؛ فالتَّقسيمُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾، والجَمْعُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ [الحج: ١٩]، والتَّفريقُ: قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الحج: ٢٣]، ورُوعِيَ فيه معنى قولِه تعالى: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]؛ لأنَّه حينَ ذكَرَ فريقَ الكُفَّارِ ما أسنَدَ جزاءَهم إلى اللهِ تعالى، وحين ذكَرَ جزاءَ المُؤمِنينَ أتَى باسْمِه الجامِعِ (الله)، وصَدَّرَ الجُملةَ بـ(إنَّ)، وفصَلَها للاستئنافِ؛ ليكونَ أدَلَّ على

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ١٨٥).

التَّفخيمِ والتَّعظيمِ، وذيَّلَ الكلامَ بقولِه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾. وأمَّا تَوسيطُ قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ...﴾ الآيةَ؛ فلِلتَّفريعِ على اختلافِ الكَفرةِ، واستبعادِه معَ وُجودِ هذه الآياتِ الصَّارفةِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾

- أُخِّرَ قولُه: ﴿وَٱلۡجُلُودُ﴾؛ إمَّا لمُراعاةِ الفواصلِ، أو للإشعارِ بغايةِ شِدَّةِ الحرارةِ، بإيهامِ أنَّ تأْثيرَها في الباطِنِ أقدَمُ مِن تأْثيرِها في الظَّاهرِ، مع أنَّ مُلابستَها على العكْسِ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾

- قولُه: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ لأنَّ الإعادةَ والرَّدَّ لا يكونُ إلَّا بعْدَ الخُروجِ؛ فالتَّقديرُ: كلَّما أرادوا أنْ يَخرُجوا منها مِن غَمٍّ، فخَرَجوا؛ أُعِيدوا فيها[٣]. وفائدةُ الحذْفِ: الإشعارُ بسُرعةِ تَعلُّقِ الإرادةِ بالإعادةِ، وأنَّه حين تَعلَّقَت إرادتُهم بالخُروجِ، حصَلَ وتَرتَّبَ عليه الإعادةُ، كأنَّ إرادةَ الخُروجِ نفْسُ الخُروجِ، فأُعِيدوا بلا مُكْثٍ[٤].

- قولُه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ هذا القولُ إهانةٌ لهم؛ فإنَّهم قد عَلِموا أنَّهم يَذوقونَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٦١، ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٦).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٠).

- قولُه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ تَقديرُه: وقيل لهم: ذُوقُوا، كما في السَّجدةِ: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1] [السجدة: ٢٠].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٢).

الآيات (٢٢-٢٥)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَسَاوِرَ﴾: جمعُ أَسْوِرَةٍ، وأسْوِرَةٌ جَمعُ سِوارٍ، والسِّوارُ: هو الذي يُلبَسُ في المِعصَم مِن ذَهَبٍ، وهو اسمٌ مُعَرَّبٌ عن الفارسيَّةِ(١).

﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾: أي: المُقيمُ المُلازِمُ، والعُكوفُ: الإقبالُ على الشَّيءِ ومُلازَمتُه على سَبيلِ التَّعظيمِ له، وأصلُ (عكف): يدُلُّ على الإقبالِ والحَبسِ(٢).

﴿وَٱلۡبَادِ﴾: أي: الطَّارِئُ مِنَ البَدوِ، وأصلُ (بدو): يدلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ، وسُمِّيَ خِلافُ الحَضَرِ بَدْوًا مِن هذا؛ لأنَّهم في بَرازٍ مِن الأرضِ، وليسُوا في قُرًى تَستُرُهم أبنِيَتُها(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

﴿بِإِلْحَادٍ﴾: أي: ظُلمٍ ومَيلٍ عن الحَقِّ، وأصلُ (لحد): يدُلُّ على مَيلٍ عن استِقامةٍ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾

قَولُه: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنَّصبِ، وفيه أوجُهٌ، أوَّلُها: أنَّه مَعطوفٌ على مَوضِعِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾؛ لأنَّ مَوضِعَهما نصبٌ. والثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ دَلَّ عليه الأوَّلُ، أي: ويُحَلَّونَ لُؤلؤًا. الثَّالثُ: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿أَسَاوِرَ﴾ و﴿مِنْ﴾ زائِدةٌ فيه عند الأخفَشِ، ويَدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١].

وقُرِئَ ﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾ بالجَرِّ عَطفًا على ﴿ذَهَبٍ﴾، ثمَّ يحتَمِلُ أمرينِ؛ أحدُهما: أن يكونَ لهم أساوِرُ مِن ذَهَبٍ وأساوِرُ مِن لُؤلؤٍ، ويَحتَمِلُ أن تكونَ الأساوِرُ مُرَكَّبةً مِن الأمرَينِ معًا: الذَّهَبِ المُرَصَّعِ باللُّؤلؤِ. وقيل: مَجرورٌ عَطفًا على لَفظِ ﴿أَسَاوِرَ﴾[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٢٥٣).

قَولُه: ﴿جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾: ﴿سَوَآءً﴾ مَفعولٌ به ثانٍ لـ (جعَلْنا)، و﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلِّقٌ بـ (جَعَل)، و﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ فاعِلٌ بـ﴿سَوَآءً﴾؛ لأنَّه مصَدَرٌ بمعنى اسمِ الفاعِلِ، والمعنى: جعَلْناه مُستَويًا فيه العاكِفُ والبادِي. وإنْ قُلْنا (جعل) يتعدَّى لواحدٍ، كانت ﴿سَوَآءً﴾ حالًا مِن هاءِ ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾. وقُرِئَ ﴿سَوَاءٌ﴾ بالرَّفعِ، على أنَّه خبَرٌ مُقَدَّمٌ، و﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ مُبتدأٌ مؤخَّرٌ، والجُملةُ في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ ثانٍ لـ (جعل)، أو حالٌ مِن الهاءِ. وخبَرُ ﴿إِنَّ﴾ محذوفٌ، تقديرُه: (نُذيقُهم مِن عَذابٍ أليمٍ)؛ لأنَّ قَولَه: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يَدُلُّ عليه.

وقَولُه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ جارٌّ ومَجرورٌ مُتعَلِّقٌ بـ﴿يُرِدْ﴾، وقد ضُمِّنَ ﴿يُرِدْ﴾ معنى (يَهُمُّ) أو (يتلبَّسُ)؛ فلذلك تعدَّى بالباءِ. وقيل: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ مَفعولٌ به لـ﴿يُرِدْ﴾، والباءُ زائِدةٌ في المفعولِ للتَّأكيدِ، أي: ومَن يُرد فِيهِ إلحادًا بظُلمٍ. و﴿بِظُلْمٍ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ﴿يُرِدْ﴾، والباءُ فيه للسَّبَبيَّةِ. وقيلَ غيرُ ذلك[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: إنَّ اللهَ تعالى يُدخِلُ أهلَ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ جَنَّاتٍ تجري مِن تحتِ أشجارِها وقُصورِها الأنهارُ، يُزَيَّنونَ فيها بأساوِرِ الذَّهَبِ وباللُّؤلؤِ، ولِباسُهم في الجنَّةِ الحَريرُ، رِجالًا ونساءً. وهداهم اللهُ إلى طَيِّبِ القَولِ، وهداهم إلى طَريقِ اللهِ المحمودِ في أسمائِه وصِفاتِه.

إنَّ الذين كَفَروا بالله، ويَمنَعونَ غَيرَهم مِنَ الدُّخولِ في دينِ اللهِ، ومِن

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٢٥٥).

المَسجِدِ الحرامِ -الذي جعَلْناه لجَميعِ المُؤمِنينَ سواءً المُقيمُ فيه والقادِمُ إليه- نذيقُهم مِن عذابٍ أليمٍ مُوجِعٍ، ومَن يُرِدْ في المَسجِدِ الحَرامِ الميْلَ عن الحَقِّ فيرتكِبْ ظُلمًا -وهو قاصِدٌ لذلك- نُذِقْه مِن عذابٍ أليمٍ مُوجِعٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما لأحَدِ الخَصْمَينِ، وهم الكافِرونَ؛ أتبَعَه ما للآخَرِ، وهم المُؤمِنونَ[(١)].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُدخِلُ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ- جناتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ أشجارِها وقُصورِها[(٢)].

﴿ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ بالنَّصبِ على معنى: ويُحَلَّونَ لُولُؤًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

(٣) قرأ بها نافع، وعاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١١٧). =

٢- قِراءةُ ﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾ بالجَرِّ على معنى: يُحَلَّونَ أساوِرَ مِن ذَهَبٍ وأساوِرَ مِن لُؤلُؤٍ، أو على معنى: يحلَّونَ أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلؤٍ، أي: يكونُ السِّوارُ الواحِدُ مُكَوَّنًا مِنَ الذَّهَبِ واللُّؤلؤِ معًا(١).

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

أي: يُحَلِّي اللهُ المُؤمِنينَ في الجنَّةِ -رِجالًا ونساءً- أساوِرَ مِن ذَهَبٍ، ويُحلَّونَ فيها لُؤلؤًا(٢).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعْتُ خليلي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((تَبلُغُ الحِليةُ(٣) مِن المُؤمِنِ حَيثُ يَبلُغُ الوُضوءُ))(٤).

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

أي: ولِباسُ المُؤمِنينَ في الجنَّةِ ثِيابٌ مِن حَريرٍ(٥).

عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ الله عنه، أنَّه قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤١٩،٤٢٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٧٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٤).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٢٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٧٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).
قال القرطبي: (قال القُشيري: والمرادُ ترصيعُ السوارِ باللؤلؤِ، ولا يبعدُ أن يكونَ في الجنةِ سوارٌ مِن لؤلؤٍ مصمتٍ. قلت: وهو ظاهرُ القرآنِ، بل نصُّه). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩).

(٣) الحِليةُ: أي: البَياضُ. وقيل: الزِّينةُ في الجنَّةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٣٥١).

(٤) رواه مسلم (٢٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٨).

وسلَّمَ: ((لا تلبَسوا الحريرَ؛ فإنَّه مَن لَبِسَه في الدُّنيا، لم يَلبَسْه في الآخِرةِ))(١).

وعن حُذيفةَ بنِ اليَمَانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا تَلبَسوا الحريرَ ولا الدِّيباجَ، ولا تَشرَبوا في آنيةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، ولا تأكُلوا في صِحافِها؛ فإنَّها لهم في الدُّنيا، ولنا في الآخِرةِ))(٢).

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾.

أي: وهدى اللهُ المُؤمِنينَ إلى الأقوالِ الطيِّبةِ(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٠٦٩).

(٢) رواه البخاري (٥٤٢٦) واللفظ له، ومسلم (٢٠٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠، ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

قيل: المرادُ بقوله: ﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾: شهادة أنْ لا إله إلا اللهُ. وممَّن اختاره: مقاتل بن سليمان، وابنُ جرير، وابن أبي زَمَنِين، والثعلبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٧٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٥).

قال ابن جزي: (﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ قيل: هو لا إلهَ إلَّا اللهُ. واللفظُ أعمُّ مِن ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧).

وممن ذهب إلى العمومِ: السعديُّ، فقال: (﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ الذي أفضلُه وأطيبُه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيِّبة التي فيها ذِكرُ الله، أو إحسانٌ إلى عباد الله). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

وقال ابنُ عطية: (الطيِّب من القولِ: لا إله إلا اللهُ، وما جرَى معها مِن ذِكرِ الله تعالى، وتسبيحِه وتقديسِه، وسائر كلامِ أهل الجَنَّة؛ من محاورةٍ وحديثٍ طيِّبٍ؛ فإنَّها لا تَسمعُ فيها لاغيةً). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٥).

وقيل: المعنى: أنَّ المؤمنين يُرشَدُون إلى المكان الذين يَسمعون فيه الأقوالَ الطيِّبةَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٨). =

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

أي: وهَدى المؤمِنينَ إلى طريقِ اللهِ المحمودِ في أسمائِه وصِفاتِه[1].

= قال ابنُ كثير: (وقولُه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ كَقولِه: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبْرَاهِيمَ: ٢٣]، وقولِه: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرَّعْدِ: ٢٣، ٢٤]، وقولِه: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا * إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]؛ فهُدوا إلى المكانِ الذي يَسمَعون فيه الكلامَ الطيِّبَ، ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، لا كما يُهان أهلُ النارِ بالكلامِ الذي يُروَّعون به، ويُقرعون به؛ يُقالُ لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، [الحج: ٢٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٤).

وقال ابنُ كثيرٍ أيضًا: (وقد قال بعضُ المفسِّرين في قولِه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: القرآنِ. وقيل: لا إلهَ إلَّا اللهُ. وقيل: الأذكارُ المشروعةُ،... وكلُّ هذا لا يُنافي ما ذَكرناه، واللهُ أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٨).

وقال الشوكاني: (وقد ورَدَ في القرآن ما يدلُّ على هذا القولِ المُجمَلِ هنا، وهو قولُه سبحانَه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٥).

قيل: المرادُ أنَّهم هُدوا في الدُّنيا إلى الإسلامِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جَرير، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبيُّ، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٥).

وقال مكي: (ومعنى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي: إذا صاروا إلى الآخرةِ، وهُدوا إلى صراطِ الجنَّةِ، وطريقِها، فهو صراطُ الله عزَّ وجلَّ، يسلكُه المؤمنونَ إلى الجنَّةِ، ويعدلُ عنه الكافرونَ والمنافقونَ إلى طريقِ النارِ). ((الهداية)) (٧/ ٤٨٦٦).

وقال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي: إلى المكانِ الَّذي يَحْمَدونَ فيه رَبَّهم، على ما أحْسَن إليهم، وأنْعَم به، وأسْداه إليهم، كما جاءَ في الصَّحيحِ: «إنَّهم يُلْهَمونَ التَّسبيحَ =

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بعدَ أن فَصَل بينَ الكُفَّارِ والمؤمنينَ؛ ذكَرَ عِظَمَ حُرمةِ البَيتِ، وعِظَمَ كُفرِ هؤلاء[1].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى ما للفَريقَينِ، وتَضَمَّنَ هذا البيانُ ما للفريقِ الثَّاني مِن أعمالٍ دالَّةٍ على صِدقِ إيمانِهم؛ كرَّرَ ذِكرَ الفريقِ الأوَّلِ؛ لبيانِ ما يَدلُّ على استمرارِ كُفرِهم، ويُؤكِّدُ بيانَ جزائِهم؛ فقال[2]:

= والتَّحميدَ، كما يُلْهَمونَ النَّفَسَ»). وذكَر أنَّ تفسيرَ صراطِ الحميدِ بالطَّريقِ المستقيمِ في الدُّنيا لا يُنافي ما اختاره. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٨).

وممَّن اختار أنَّ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ صفةٌ لله: ابنُ جَرير، ومكي، والواحديُّ، والسمعاني، والبَغويُّ، وابنُ عطية، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠٠)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٨٦٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣١).

وقيل: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ صِفةٌ للصراط، أي: الصراط المحمود. وممَّن قال بهذا المعنى: جلال الدين المحلي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

قال ابن جزي: (ويحتملُ أن يريدَ الصراطَ الحميدَ، وأضاف الصفةَ إلى الموصوفِ، كقولِك: مسجدُ الجامعِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧).

وقال السعديُّ: (﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: الصراط المحمود؛ وذلك لأنَّ جميعَ الشرع محتوٍ على الحِكمةِ والحمدِ، وحُسن المأمور به، وقُبح المنهيِّ عنه، وهو الدِّين الذي لا إفراطَ فيه ولا تفريط، المشتمِل على العِلم النافع والعمَل الصالح). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾.

أي: إنَّ الذين كَفَروا باللهِ، ويَمنَعونَ النَّاسَ مِن الدُّخولِ في دينِه، ومِنَ المَسجِدِ الحرامِ -الذي ليس مِلكًا لهم ولا لآبائِهم، بل جعَلْناه للمُؤمِنينَ كافةً سَواءً المُقيمُ منهم فيه والقادِمُ إليه، فهم يسْتَوون في تعظيمِه وأحقيَّةِ أداءِ العباداتِ وإقامةِ الشَّعائِرِ فيه[1]- .....

(١) قال البغويُّ: (اختَلفوا في معنى الآيةِ؛ فقال قومٌ: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ يعني: في تعظيمِ حُرمتِه، وقضاءِ النُّسُكِ فيه. وإليه ذهب مجاهدٌ والحسنُ وجماعةٌ، وقالوا: المرادُ منه نفْسُ المسجِدِ الحرامِ، ومعنى التَّسويةِ: هو التَّسويةُ في تعظيمِ الكَعبةِ، وفي فضْلِ الصَّلاةِ في المسجِدِ الحرامِ، والطَّوافِ بالبَيتِ. وقال آخَرونَ: المرادُ منه جميعُ الحَرَمِ، ومعنى التسويةِ: أنَّ المقيمَ والباديَ سَواءٌ في النُّزولِ به، ليس أحَدُهما بأحقَّ بالمَنزِلِ يكونُ فيه مِن الآخَرِ، غيرَ أنَّه لا يُزعَجُ فيه أحدٌ إذا كان قد سبَق إلى مَنزِلٍ. وهو قولُ ابن عبَّاس، وسعيد بن جُبير، وقتادة، وابن زيد). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٣).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابن جرير، والسمرقندي، ومكي، والقرطبي، والخازن، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٥)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٨٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٥/ ١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣٦).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قيل: إنَّه المسجدُ نفْسُه، وهو ظاهرُ القرآن؛ لأنَّه لم يُذكر غيرُه. وقيل: الحرمُ كلُّه؛ لأنَّ المشركين صدُّوا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه عنه عام الحُديبيَةِ، فنزَل خارجًا عنه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥]). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢).

والقول الثاني نسبه الواحدي للأكثرين. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٤٤).

وقال ابنُ القيِّم: (المسجِدُ الحرامُ هنا: المرادُ به الحَرَمُ كلُّه، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، فهذا المرادُ به الحَرَمُ كُلُّه، وقَولِه سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وفي الصَّحيحِ: «أنَّه أُسرِيَ به من بيتِ أمِّ هانئٍ»... فالحرمُ ومشاعِرُه -كالصَّفا =

أولئك الذين كَفَروا نُذيقُهم[١] مِن عذابٍ مُؤلمٍ مُوجعٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥].

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: ومَنْ يَهُمَّ أن يَميلَ ويَحيدَ في المَسجِدِ الحَرامِ عن الحَقِّ، ويَنحَرِفَ عن الاستِقامةِ بارتِكابِ ظُلمٍ[٣] .....

= والمروةِ والمَسعى، ومِنًى وعَرفةَ ومُزدلِفةَ- لا يختصُّ بها أحَدٌ دونَ أحدٍ، بل هي مُشتركةٌ بين النَّاسِ؛ إذ هي مَحلُّ نُسُكِهم ومُتعبَّدُهم؛ فهي مَسجِدٌ مِن الله وقَفَه ووضَعَه لخَلْقِه؛ ولهذا امتنعَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُبنَى له بيتٌ بمنًى يُظِلُّه مِن الحرِّ، وقال: «مِنًى مُناخُ مَن سبَق»). ((زاد المعاد)) (٣/ ٣٨١، ٣٨٢). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ٢١٢، ٢١٣).

وقال ابن عاشور: (ليس في هذه الآيةِ حُجَّةٌ لحُكمِ امتِلاكِ دُورِ مكَّةَ إثباتًا ولا نَفيًا؛ لأنَّ سياقَها خاصٌّ بالمسجدِ الحرامِ دونَ غَيرِه، ويَلحَقُ به ما هو مِن تمامِ مَناسِكِه؛ كالمسعى، والموقِفِ، والمشعَرِ الحرامِ، والجِمارِ... ولا خلافَ بين المُسلِمينَ في أنَّ النَّاسَ سَواءٌ في أداءِ المناسِكِ بالمَسجدِ الحرامِ وما يَتْبَعُه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٨).

وقال ابن عطية: (أجمَع الناسُ على الاستواءِ في نفْسِ المسجدِ الحرامِ، واختلفوا في مكَّةَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٦). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٧٩).

(١) قال الشنقيطي: (اعْلَمْ أنَّ خبرَ ﴿إِنَّ﴾ في قولِه هنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ محذوفٌ كما ترَى. وَالَّذي تَدُلُّ عليه الآيةُ أنَّ التَّقديرَ: إنَّ الَّذينَ كفروا ويصُدُّونَ عن سبيلِ اللهِ، نُذيقُهم مِن عذابٍ أَليمٍ. كما دَلَّ على هذا قولُه في آخِرِ الآيةِ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وخيرُ ما يُفَسَّرُ به القرآنُ القرآنُ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٩٢).

وقيل: الخبرُ محذوفٌ مُقدَّرٌ عندَ قولِه: ﴿وَٱلْبَادِ﴾، تقديرُه: خَسِروا أو هَلَكوا. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٥-٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٣) ممن ذهَب إلى القول بعمومِ المرادِ بالظُّلمِ هاهنا: ابنُ جَرير، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، وابن =

= عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١١، ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٤).

قال ابنُ جَرير: (أَوْلى الأقوال التي ذَكرناها في تأويلِ ذلك بالصوابِ: القولُ الذي ذَكرناه عن ابن مسعودٍ، وابن عبَّاس، من أنه معنيٌّ بالظلم في هذا الموضع كلُّ معصية لله؛ وذلك أنَّ الله عمَّ بقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، ولم يُخصَّص به ظلمٌ دون ظُلمٍ في خبرٍ ولا عقْل؛ فهو على عُمومِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٠).

وقال القرطبيُّ: (هذا الإلحادُ والظلمُ يَجمع جميعَ المعاصي من الكُفر إلى الصغائر، فلِعِظَمِ حُرمة المكان توعَّدَ الله تعالى على نيَّة السيِّئة فيه، ومَن نوَى سيِّئة ولم يَعملْها لم يُحاسَبْ عليها إلا في مكَّة؛ هذا قولُ ابن مسعودٍ وجماعةٍ مِن الصحابة وغيرِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٦).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، أي: يَهُمُّ فيه بأمرٍ فظيعٍ من المعاصي الكِبار. وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾، أي: عامدًا قاصدًا أنَّه ظُلْمٌ، ليس بمتأوَّل... وقال مجاهدٌ: ﴿بِظُلْمٍ﴾: يعمل فيه عملًا سيِّئًا. وهذا من خُصوصية الحرَم، أنه يُعاقَبُ البادي فيه الشرَّ، إذا كان عازمًا عليه، وإنْ لم يُوقِعْه... وهذه الآثارُ، وإن دلَّتْ على أنَّ هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعمُّ من ذلك، بل فيها تنبيهٌ على ما هو أغلظُ منها؛ ولهذا لَمَّا همَّ أصحابُ الفيل على تخريب البيت أرسلَ الله عليهم طيرًا أبابيلَ ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٤- ٥]، أي: دمَّرهم وجعَلهم عبرةً ونكالًا لكلِّ مَن أراده بسوءٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١١، ٤١٢).

وقال الشِّنقيطيُّ: (الذي يَظهَر في هذه المسألةِ أنَّ كلَّ مخالفةٍ بترك واجب، أو فِعل محرَّم تدخل في الظُّلْم المذكور، وأما الجائزات كعِتاب الرجُلِ امرأتَه، أو عبْدَه؛ فليس من الإلحاد، ولا مِن الظُّلم). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٩٤).

وقال أيضًا: (قال بعضُ أهلِ العلمِ: مَن هَمَّ أنْ يعملَ سَيِّئَةً فِي مَكَّةَ، أذاقَه اللَّهُ العذابَ الأليمَ بسَبَبِ هَمِّه بذلك وإنْ لم يفعَلْها، بخلافِ غيرِ الحَرَمِ المكِّيِّ مِنَ البقاعِ، فلا يعاقَبُ فيه بالهمِّ... فهذه الآيةُ الكرِيمَةُ مُخَصِّصةٌ لعمومِ قولِه صَلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم: «ومَنْ همَّ بِسَيِّئَةٍ فلم يَعْمَلْها كُتِبَتْ له حسنَةٌ...» الحديثَ، وعليه فهذا التَّخصيصُ لشدَّةِ التَّغليظِ في المخالَفَةِ في الحَرَمِ المكِّيِّ، ووجهُ هذا ظاهِرٌ... ويحتملُ أنْ يكونَ معنى الإرادةِ في قولِه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ العزمَ المصَمِّمُ على ارتكابِ الذَّنْبِ فيه، والعزمُ المصَمِّمُ على الذَّنْبِ ذنبٌ يُعاقَبُ عليه في جميعِ بِقَاعِ اللَّهِ؛ =

-وهو قاصِدٌ لذلك- نُذِقْه مِن عذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ[١].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يغزو جَيشٌ الكَعبةَ، فإذا كانوا ببَيداءَ[٢] مِن الأرضِ يُخسَفُ بأوَّلِهم وآخِرِهم. قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، كيف يُخسَفُ بأوَّلِهم وآخِرِهم، وفيهم أسواقُهم[٣] ومَن ليس منهم؟ قال: يُخسَفُ بأوَّلِهم وآخِرِهم، ثُمَّ يُبعَثونَ على نيَّاتِهم))[٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والعملُ الصالحُ مبنيٌّ على الإيمانِ، فعملٌ بلا إيمانٍ لا فائدةَ منه، فالمنافقون يعملون، ويذكرون الله، ويُصَلُّون، ويتصدَّقون، ولكن ليس عندَهم إيمانٌ؛ فلا ينفعُهم؛ ولهذا يقدِّمُ الله عزَّ وجلَّ الإيمانَ على العملِ الصالحِ[٥].

٢- الإيمانُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن عملٍ، والعملُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن إيمانٍ، فلا يستحقُّ الجنةَ إلَّا مَن جمَع بينَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ؛

= مَكَّةَ وغيرِها). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠٥، ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٠ - ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٤، ٢٩٥).

قال الشنقيطي: (الظاهرُ أنَّ الضميرَ في قولِه: ﴿فِيهِ﴾ راجعٌ إلى المسجدِ الحرامِ، ولكنَّ حكمَ الحرمِ كلِّه في تغليظِ الذنْبِ المذكورِ كذلك). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٩٥).

(٢) ببَيداءَ مِن الأرضِ: أي: بُقعةٍ ومفازةٍ واسعةٍ منها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ١٨٦٦).

(٣) أسواقُهم: أي: أهلُ أسواقِهم، أو جَمعُ سُوقةٍ، وهي: الرَّعايا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ١٨٦٦).

(٤) رواه البخاري (٢٨٨٣) واللفظ له، ومسلم (٢٨٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٠).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ ﴾، وإذا ذُكِر ثوابُ الجنةِ مقيَّدًا أو معلَّقًا بالإيمانِ وحْدَه، فالمرادُ بذلك الإيمانُ المتضمِّنُ للعملِ الصالحِ(١).

٣- العملُ لا ينفعُ صاحبَه إلَّا إذا كان صالحًا؛ قال تعالى: ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، والعملُ الصالحُ هو: الخالصُ الصوابُ؛ أي: ما ابتُغِي به وجهُ الله، وكان على شريعةِ الله(٢).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ فيه أنَّ الأعمالَ بالنيَّاتِ، والأُمورَ بمقاصدِها(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ ﴾ وهذا على سَبيلِ العُمومِ؛ فإنَّنا نَشهَدُ لكُلِّ مُؤمِنٍ عاملٍ للصَّالحاتِ أنَّه سيَدخُلُ الجنَّةَ، لكِنْ لا نُطَبِّقُ الشَّهادةَ هذه على جميعِ أفرادِ العُمومِ، بمعنى: أن نَخُصَّ واحِدًا بعَينِه إلَّا مَن شَهِدَ اللهُ له بذلك، أو شَهِدَ له رَسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم، أو أجمَعَت عليه الأمَّةُ(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فيه الردُّ على الجبريةِ؛ إذ أضاف العملَ إليهم، والجبريةُ يقولونَ: إنَّ الإنسانَ لا يعملُ، ولا يضافُ العملُ إليه إلا مجازًا، وأنَّ عملَه ليس باختيارِه ولا بقصدِه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٢٧).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في هذه الآيةِ الكَريمةِ وُجوبُ احترامِ الحَرَمِ، وشِدَّةِ تَعظيمِه، والتَّحذيرُ مِن إرادةِ المعاصي فيه وفِعْلِها[١]، فالسَّيِّئةُ في الحَرَمِ أعظَمُ منها في غَيرِه، والهَمُّ بها فيه مأخوذٌ به[٢]. فمِن خَواصِّ الحَرَمِ أنَّه يُعاقَبُ فيه على الهَمِّ بالسَّيِّئاتِ، وإنْ لم يفعَلْها، فتأمَّلْ كيف عَدَّى فِعْلَ الإرادةِ هاهنا بالباءِ، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، ولا يُقالُ: «أردتُ بكذا» إلَّا لَمَّا ضُمِّنَ معنى فِعْلِ «هَمَّ»؛ فإنَّه يُقالُ: «همَمْتُ بكذا»، فتوعَّدَ مَن هَمَّ بأنْ يَظلِمَ فيه بأنْ يُذيقَه العذابَ الأليمَ[٣].

٤- المَعصِيةُ في مكانٍ فاضلٍ أعظَمُ مِنَ المَعصيةِ في مكانٍ مَفضولٍ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٤].

٥- إنْ قال قائِلٌ: وهل تُضاعَفُ السَّيِّئاتُ في الأمكِنةِ الفاضِلةِ والأزمِنةِ الفاضِلةِ؟

فالجوابُ: أمَّا في الكَمِّيةِ فلا تُضاعَفُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وهذه الآيةُ مَكِّيَّةٌ؛ لأنَّها مِن سورةِ (الأنعام)، وكُلُّها مكِّيَّةٌ، لكِنْ قد تُضاعَفُ السَّيِّئةُ في مكَّةَ مِن حَيثُ الكَيفيَّةُ، بمعنى أنَّ العقوبةَ تكونُ أشدَّ وأوجعَ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٥].

٦- قال الله تعالى في الحَرَمِ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨١).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير جزء عم)) لابن عثيمين (ص: ٣٢٤).

(٥) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٦/ ٥١٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ١٦٩).

أَلِيمٍ﴾ فسَمَّى اللهُ المعاصِيَ والظُّلْمَ إلحادًا؛ لأنَّها مَيلٌ عمَّا يَجِبُ أن يكونَ عليه الإنسانُ؛ إذ الواجِبُ عليه السَّيرُ على صِراطِ اللهِ تعالى، ومَن خالَفَ فقد ألحَدَ[١].

٧- يَقولُ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ويَقولُ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما يَرويه عن رَبِّه تبارك وتعالى في آخِرِ الحَديثِ: ((وإنْ همَّ بسَيِّئةٍ فلم يَعمَلْها كتَبَها اللهُ تعالى عِندَه حَسَنةً كامِلةً))[٢]، كيف نجمَعُ بين الآيةِ والحَديثِ؟

الجوابُ: الجَمعُ بينَ الآيةِ والحديثِ مِن أحَدِ وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، أي: مَن يَهُمَّ فيَفعَلْ؛ لِقَولِ الله تبارك وتعالى في سورةِ (الأنعام)، وهي مَكِّيَّةٌ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، ولم يَقُلْ: ومَن هَمَّ، بل قال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ [الأنعام:١٦٠]، فيكونُ المعنى: مَن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظُلْمٍ ويَفعَلْ. وعلى هذا؛ فلا تعارُضَ.

الوَجهُ الثَّاني: أن يُقالَ: إنَّ قَولَه: ((ومَن همَّ بسَيِّئةٍ فلم يَعمَلْها كُتِبَت له حَسَنةٌ)) هذا في غيرِ مكَّةَ، وتكونُ مكَّةُ مُستَثناةً مِن ذلك، أي: أنَّه يُؤاخَذُ الإنسانُ فيها بالهَمِّ، وفي غَيرِها لا يؤاخَذُ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٩٠٧).

(٢) رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) مِن حديثِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين، رقم اللقاء: (٢٥).

حَرِيرٌ﴾ غُيِّرَ الأسلوبُ فيها بإسنادِ الإدخالِ إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يكونَ هذا الكلامُ معطوفًا بالواوِ على جُملةِ ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ [الحج: ١٩]، بأنْ يُقالَ: والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ يُدخِلُهم اللهُ جنَّاتٍ... إلى آخِرِه؛ فعُدِلَ عن ذلك الأسلوبِ إلى هذا النَّظمِ؛ لاسترعاءِ الأسماعِ إلى هذا الكلامِ إذ جاء مُبْتَدَأً به، مُسْتقِلًّا، مُفتتَحًا بحَرفِ التَّأكيدِ، ومُتوَّجًا باسمِ الجلالةِ؛ إيذانًا بكَمالِ مُباينةِ حالِهم لحالِ الكَفرةِ، وإظهارًا لمَزيدِ العنايةِ بأمْرِ المُؤمِنينَ، ودَلالةً على تَحقُّقِ مَضمونِ الكلامِ[(١)].

- وكرَّرَ قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ لأنَّه لمَّا ذكَرَ حُكْمَ أحدِ الخَصمينِ، وهو ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾، لم يكُنْ بُدٌّ مِن ذِكْرِ حُكْمِ الخَصمِ الآخرِ؛ لِمُقارَنتِه له، وإنْ تقدَّمَ ذِكْرُه[(٢)].

- في قولِه: ﴿أَسَاوِرَ﴾ أُشِيرَ بجمْعِ الجَمْعِ إلى التَّكثيرِ[(٣)].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ على القولِ بأنَّها زائدةٌ للتَّوكيدِ؛ فوَجْهُه: أنَّه لمَّا لم يُعْهَدْ تَحليةُ الرِّجالِ بالأساورِ، كان الخبَرُ عنهم بأنَّهم يُحلَّونَ أساورَ مُعرّضًا للتَّردُّدِ في إرادةِ الحقيقةِ؛ فجِيءَ بالمُؤكِّدِ لإفادةِ المَعْنى الحقيقيِّ[(٤)].

- وقولُه: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ غُيِّرَ أُسلوبُ الكلامِ فيه، حيث عُبِّرَ بالجُملةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٣٢).

الاسميَّةِ بعْدَ التَّعبيرِ بالفعليَّةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الحريرَ ثِيابُهم المُعتادةُ، أو للمُحافَظةِ على هَيئةِ الفواصلِ[١].

وقيل: غُيِّرَ الأُسلوبُ للإيذانِ بأنَّ ثُبوتَ اللِّباسِ لهم أمْرٌ مُحقَّقٌ غَنِيٌّ عن البَيانِ؛ إذ لا يُمكِنُ عَراؤُهم عنه، وإنَّما المُحتاجُ إلى البَيانِ أنَّ لِباسَهم ماذا بخِلافِ الأساورِ واللُّؤلؤِ؛ فإنَّها ليستْ مِن اللَّوازمِ الضَّروريَّةِ؛ فجعَلَ بَيانَ تَحلِيَتِهم بها مَقصودًا بالذَّاتِ، ولعلَّ هذا هو الباعثُ إلى تَقديمِ بَيانِ التَّحليةِ على بَيانِ حالِ اللِّباسِ[٢].

وقيل: لمَّا كانتِ التَّحليةُ غيرَ اللِّباسِ، جِيءَ باسمِ اللِّباسِ بعْدَ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ بصِيغَةِ الاسمِ دونَ (يَلْبَسون)؛ لتَحصيلِ الدَّلالةِ على الثَّباتِ والاستمرارِ، كما دلَّتْ صِيغَةُ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ على أنَّ التَّحليةَ مُتجدِّدةٌ بأصنافٍ وألْوانٍ مُختلفةٍ، ومِن عُمومِ الصِّيغتينِ يُفْهَمُ تَحقُّقُ مِثْلِها في الجانبِ الآخَرِ؛ فيكونُ في الكلامِ احتباكٌ[٣]؛ كأنَّه قيل: يُحلَّون بها، وحِلْيَتُهم مِن أساوِرَ مِن ذهَبٍ، ولِباسُهم فيها حَريرٌ يَلْبَسونه[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾

- جُملةُ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ مُعترِضةٌ، وهي كالتَّكملةِ لوصْفِ حُسْنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٢).

(٣) الاحْتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٣).

حالِهم لمُناسَبةِ ذِكْرِ الهدايةِ في قولِه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾[١]. وشُبِّهَ الإسلامُ بالصِّراطِ؛ لأنَّه مُوصِلٌ إلى رِضا اللهِ[٢]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

- وقولُه: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾، قيل: أي: المحمودِ نفْسُه أو عاقبتُه، وهو الجنَّةُ؛ فوَجْهُ تأْخيرِ هذه الهدايةِ لِرعايةِ الفواصلِ. وقيل: المُرادُ بالحميدِ: الحَقُّ المُستحِقُّ لِذَاتِه لغايةِ الحمْدِ، وهو اللهُ عَزَّ وجَلَّ، وصِراطُه الإسلامُ، ووَجْهُ التَّأخيرِ حينئذٍ: أنَّ ذِكْرَ الحمْدِ يَسْتدعِي ذِكْرَ المحمودِ[٣]. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ صِفَةً لـ ﴿صِرَٰطِ﴾، أي: المحمودُ لسالِكِه. فإضافةُ صراطٍ إليه مِن إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفةِ، والصِّراطُ المحمودُ هو صراطُ دينِ الله، وفي هذه الجُملةِ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾: إيماءٌ إلى سَببِ استحقاقِ تلك النِّعمِ، وأنَّه الهدايةُ السَّابقةُ إلى دِينِ اللهِ في الحياةِ الدُّنيا[٤]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا مُقابِلُ قولِه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٥).

بالنِّسبةِ إلى أحوالِ المُشركينَ؛ إذ لم يَسبِقْ لقولِه ذلك مُقابِلٌ في الأحوالِ المذكورةِ في آيةِ ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ [الحج: ١٩]؛ فمَوقِعُ هذه الجُملةِ الاستئنافُ البَيانِيُّ. وفيه مع هذه المُناسَبةِ لِمَا قبْلَه: تَخلُّصٌ بَديعٌ إلى ما بعْدَه؛ مِن بَيانِ حَقِّ المُسلمينَ في المسجِدِ الحرامِ، وتَهويلِ أمْرِ الإلحادِ فيه، والتَّنويهِ به، وتَنزيهِه عن أنْ يكونَ مأْوًى للشِّرْكِ ورِجْسِ الظُّلمِ والعُدوانِ[(١)].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ فيه تأْكيدُ الخبَرِ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ به. وصِيغةُ الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ ذلك الفِعْلَ صار كاللَّقبِ لهم، مثْلُ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[(٢)] [الحج: ٢٣].

- وقولُه: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ والصَّدُّ عن المسجِدِ الحرامِ ممَّا شَمِلَه الصَّدُّ عن سَبيلِ اللهِ؛ فخُصَّ بالذِّكْرِ للاهتمامِ به، ولِيُنْتقَلَ منه إلى التَّنويهِ بالمسجِدِ الحرامِ، وذِكْرِ بِنائِه، وشَرْعِ الحجِّ له مِن عَهْدِ إبراهيمَ[(٣)].

- والفِعْلُ المُضارِعُ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ يُرادُ به استمرارُ الصَّدِّ منهم، وتكرُّرُ ذلك منهم، وأنَّه دأْبُهم؛ ولذلك حسُنَ عطْفُه على الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾[(٤)].

- وفي التَّعقيبِ بقولِه تعالى: ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٣).

﴿ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ عطْفًا على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على مِنوالِ العطْفِ السَّابقِ: تَتميمٌ ومُبالَغةٌ[١].

- وفائدةُ وصْفِ المسجِدِ الحرامِ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ زيادةُ التَّشنيعِ للصَّادِّينَ عنه[٢]، وللإيماءِ إلى عِلَّةِ مُؤاخذةِ المُشركينَ بصَدِّهم عنه لأجْلِ أنَّهم خالَفوا ما أراد اللهُ منه؛ فإنَّه جعَلَهُ للنَّاسِ كلِّهم، يَسْتوي في أحَقِّيَّةِ التَّعبُّدِ به العاكِفُ فيه، أي: المُستقِرُّ في المسجِدِ، والبادي، أي: البعيدُ عنه إذا دخلَهُ[٣].

- وفي قولِه: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ لم يُبيِّنِ الاستواءَ في ماذا؛ لظُهورِ أنَّ الاستواءَ فيه بصِفَةِ كونِه مَسجدًا إنَّما هي في العبادةِ المقصودةِ منه[٤]. والعاكِفُ: هو المُلازِمُ له في أحوالٍ كثيرةٍ، قيل: هو كِنايةٌ عن السَّاكنِ بمكَّةَ، وفي ذِكْرِ العُكوفِ تَعريضٌ بأنَّهم لا يَستحِقُّون بسُكْنى مكَّةَ مَزيَّةً على غيرِهم، وبأنَّهم حين يَمْنعون الخارجينَ عن مكَّةَ مِنَ الدُّخولِ للكعبةِ قد ظَلَموهم باستئثارِهم بمكَّةَ[٥].

- قولُه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ تَذييلٌ للجُملةِ السَّابقةِ؛ لِمَا في (مَن) الشَّرطيَّةِ مِن العُمومِ[٦].

- والباءُ في ﴿بِإِلْحَادٍۭ﴾ زائدةٌ للتَّوكيدِ، كما في قولِه: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٩).

[المائدة: ٦]، أي: مَن يُرِدْ إلحادًا وبُعْدًا عن الحقِّ والاستقامةِ، وذلك صَدُّهم عن زِيارتِه، على قولٍ في التفسيرِ. والباء في ﴿بِظُلْمٍ﴾ للملابسةِ[١]. وقيل: ضُمِّنَ معنى فِعْلِ «هَمَّ»؛ فإنَّه يُقالُ: «همَمْتُ بكذا»[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٥١).

الآيات (٢٦-٢٩)

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَوَّأْنَا﴾: أي: هَيَّأْنا وبَيَّنَّا وعَرَّفْنا، وأصلُه مِن المَباءةِ: وهي مَنزِلُ القَومِ في كُلِّ مَوضِعٍ(١).

﴿رِجَالًا﴾: جمعُ راجِلٍ، أي: مُشاةً، يُقالُ للماشي بالرِّجْل: رَجِلٌ وراجِلٌ، وهو مشتقٌّ من الرِّجْلِ(٢).

﴿ضَامِرٍ﴾: الضَّامِرُ: البَعيرُ المهزولُ الَّذي أتْعَبه السَّفرُ، أو هو كلُّ ما يُركبُ مِن فرَسٍ وناقةٍ وغيرِ ذلك، وقيل: الخَفيفُ اللَّحمِ مِن الأعمالِ لا مِنَ الهُزالِ، وأصلُ (ضمر): يدُلُّ على دِقَّةٍ في الشَّيءِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٢)، =

﴿فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: أي: مَسلَكٍ بَعيدٍ، والفَجُّ: الشَّقُّ بينَ جَبَلينِ، ويُستعمَلُ في الطَّريقِ الواسِعِ، وأصلُ (فجج): يدُلُّ على تفَتُّحٍ وانفِراجٍ، وأصلُ العُمْقِ: البعدُ سُفلًا[١].

﴿بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: أي: الإبلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، والبهيمَةُ: مَا استَبْهم عن الجوابِ: أي: استَغْلَق، وما لا نطقَ له؛ وذلك لِما في صوتِه مِن الإبهامِ، وقيل: سُمِّيت بذلك لأنَّها أُبْهِمتْ عن أن تُميِّزَ، وأصلُ (بهم): أن يبقَى الشيءُ لا يُعرَفُ المأتَى إليه، وأصلُ (نعم): يدلُّ على تَرفُّهٍ، وطِيبِ عَيشٍ، وصلاحٍ[٢].

﴿ٱلْبَآئِسَ﴾: أي: الذي اشتَدَّتْ حاجتُه وساءَتْ حالُه وافتقَرَ، والبُؤسُ: شِدَّةُ الفَقرِ، يقالُ: بَئِسَ الرَّجُلُ بُؤْسًا: إذا اشتَدَّتْ حاجَتُه، فهو بائِسٌ، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضارَعَها[٣].

﴿لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾: أي: لِيُزيلوا أدرانَهم وأوساخَهم، والتَّفَثُ في المَناسِكِ: ما كان مِن نَحوِ قَصِّ الأظفارِ والشَّارِبِ، وحَلْقِ الرَّأسِ والعانةِ، ورَمْيِ الجِمارِ، ونَحْرِ البُدنِ، وأشباهِ ذلك، وأصلُه: يدلُّ على الوَسَخِ[٤].

= ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥، ٥٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١١) (٥/ ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٩، ٨١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٤٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٥)، =

﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾: أي: بَيتِ اللهِ الحَرامِ، وسُمِّي عَتيقًا؛ لأنَّه أقدَمُ بيتٍ للعبادةِ في الأرضِ، أو لأنَّ اللهَ تعالى أعتَقَه مِن الجَبابرةِ فلم يَظهَرْ عليه جبَّارٌ قَطُّ، وقِيل غيرُ ذلك، وأصلُ (عتق): يدُلُّ على الحُرِّيَّةِ والقِدَمِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- إذ بَيَّنَّا لإبراهيمَ عليه السَّلامُ مكانَ البَيتِ، وهيَّأْناه له، وقُلْنا له: لا تُشرِكْ بالله شَيئًا في عبادَتِه، وطَهِّرْ -يا إبراهيمُ- بَيتيَ للطَّائِفينَ حَوْلَه، وللقائِمينَ في صلاتِهم، والرَّاكِعينَ السَّاجِدينَ، بتَنزيهِه مِنَ الشِّركِ والكُفرِ، والبِدَعِ والمعاصي، والقبائِحِ وجَميعِ النَّجاساتِ الحسِّيَّةِ والمَعنَويَّةِ.

وأعلِمْ -يا إبراهيمُ- النَّاسَ بوُجوبِ الحَجِّ عليهم، يأتوك مُلَبِّينَ نِداءَك على مُختَلِفِ أحوالِهم، مُشاةً ورُكبانًا على الرَّواحِلِ التي هُزِلَت أبدانُها مِن طُولِ السَّفَرِ ومَشقَّتِه، تأتي هذه الرَّواحِلُ مِن كُلِّ طَريقٍ بعيدٍ؛ لِيَحضُرَ الحُجَّاجُ منافِعَ لهم في أمورِ دينِهم ودُنياهم، ولِيَذكُروا اسمَ اللهِ في أيَّامِ عشرِ ذي الحجَّةِ على ما رزَقَهم مِنَ الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ.

فكُلوا مِن هذه الذَّبائِحِ، وأطعِموا منها الفَقيرَ الذي اشتَدَّ فَقرُه، ثُمَّ لْيُكمِلِ

= ((الغريبين)) للهروي (١/ ٢٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٥)، ((باهر البرهان)) لأبي القاسم النيسابوري الغزنوي (٢/ ٩٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٥)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٢).

الحُجَّاجُ ما بَقِيَ عليهم مِن النُّسُكِ، بإحلالِهم وخُروجِهم مِن إحرامِهم، وذلك بإزالةِ ما تراكَمَ مِن وسَخٍ في أبدانِهم، وقَصِّ أظفارِهم، وحَلْقِ شَعرِهم- ولْيُوفُوا بما أوجَبوه على أنفُسِهم في الحَجِّ، ولْيَطَّوَّفوا بالبَيتِ العَتيقِ القديمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ الكُفَّارِ، وصَدَّهم عن المَسجِدِ الحرامِ، وتوعَّدَ فيه مَن أراد فيه بإلحادٍ؛ ذكَرَ حالَ أبيهم إبراهيمَ، وتَوبيخَهم على سُلوكِهم غيرَ طَريقِه مِن كُفرِهم باتِّخاذِ الأصنامِ، وامتِنانَه عليهم بإيفادِ العالَمِ إليهم[1].

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حينَ هَيَّأْنا لإبراهيمَ مَكانَ الكَعبةِ، وأنزَلْناه فيه، وعرَّفْناه بالموضِعِ الذي يَبني فيه الكَعبةَ، وقُلْنا له: لا تُشرِكْ بالله شَيئًا في عبادَتِه، وأخلِصْ أعمالَك كُلَّها للهِ وَحْدَه، وابنِ هذا البَيتَ على اسْمِ اللهِ وَحْدَه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١١، ٥١٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٥، ٢٩٦).

قال ابن كثير: (هذا فيه تقريعٌ وتوبيخٌ لِمن عَبَد غيرَ اللهِ وأشرك به مِن قُرَيشٍ في البُقعةِ التي أُسِّسَت مِن أوَّلِ يومٍ على توحيدِ اللهِ وعبادتِه وَحْدَه لا شريكَ له). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٣).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١١).

وقال الشنقيطي: (وذهَبَت جماعةٌ مِن أهلِ العِلمِ إلى أنَّ أوَّلَ مَن بناهُ إبراهيمُ، ولم يُبْنَ قَبْلَه. =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦- ٩٧].

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

أي: وطَهِّرْ -يا إبراهيمُ- بَيتيَ للطَّائِفينَ حَوْلَه، وللقائِمينَ في صلاتِهم، والرَّاكِعينَ السَّاجِدينَ في صَلاتِهم عِندَه، بتَنزيهِه مِن كُلِّ ما لا يَليقُ به مِنَ الشِّركِ والكُفرِ، والبِدَعِ والمعاصي، والقبائِحِ وجَميعِ النَّجاساتِ الحسِّيَّةِ والمَعنَويَّةِ[1].

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾.

أي: وأَعْلِمْ -يا إبراهيمُ[2]- النَّاسَ بوُجوبِ الحَجِّ عليهم، ونادِ فيهم أنْ حُجُّوا

= وظاهِرُ قَولِه حين ترك إسماعيلَ وهاجَرَ في مكَّةَ: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] يدُلُّ على أنَّه كان مَبنيًّا واندرَسَ، كما يدُلُّ عليه قَولُه هنا ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]؛ لأنَّه يدُلُّ على أنَّ له مكانًا سابقًا كان معروفًا. والله أعلم). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٢، ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٦ - ٢٩٨).

قال السعدي: (فهؤلاء لهم الحقُّ، ولهم الإكرامُ، ومِن إكرامِهم تطهيرُ البيتِ لأجْلِهم، ويدخلُ في تطهيرِه: تطهيرُه مِن الأصواتِ اللاغيةِ والمرتفعةِ التي تشوِّشُ المتعبِّدِين بالصلاةِ والطوافِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

(٢) قال الشنقيطي: (والخِطابُ في قَولِه: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ لإبراهيمَ، كما هو ظاهِرٌ مِنَ السِّياقِ، وهو قَولُ الجُمهورِ، خِلافًا لِمَن زعَمَ أنَّ الخِطابَ لنبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وعلى إبراهيمَ وسَلَّم). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٩٩).

أيُّها النَّاسُ بيتَ اللهِ؛ يأتُوا إليك مُشاةً على أرجُلِهم، مُلَبِّينَ نداءَك، حاجِّينَ بَيتَ اللهِ الحرامِ[١].

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

أي: وراكِبينَ على الرَّواحِلِ التي هُزِلَت أبدانُها مِن طُولِ السَّفَرِ ومَشقَّتِه[٢]، والتي تأتي مِن كُلِّ طَريقٍ ومَكانٍ واسِعٍ بَعيدٍ[٣].

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٨ - ٣٠٠).

(٢) قال ابنُ جزي: (الضامرُ يُرادُ به كلُّ ما يُركبُ؛ مِن فرَسٍ، وناقةٍ، وغيرِ ذلك، وإنَّما وصَفه بالضمورِ؛ لأنَّه لا يصلُ إلى البيتِ إلَّا بعدَ ضمورِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨). وممن قال بنحو ذلك: الرسعني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٩).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٨٨).

وقال ابن عاشور: (والضَّامِرُ: قليلُ لَحمِ البَطنِ... والضُّمورُ مِن مَحاسِنِ الرَّواحِلِ والخَيلِ؛ لأنَّه يُعِينُها على السَّيْرِ والحركةِ. فالضَّامِرُ هنا بمنزلةِ الاسمِ، كأنَّه قال: وَعَلَى كُلِّ راحِلةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٤).

وقيل: المرادُ بها: الإبلُ المهازيلُ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والماوردي، والقرطبي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٤)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤١٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

وممن قال بهذا القول من السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالحَجِّ في قَولِه: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾؛ ذكَرَ حِكمةَ ذلك الأمرِ، فقال[١]:

﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾.

أي: لأجْلِ أن يَحضُرَ الحُجَّاجُ، فيُحَصِّلوا مَصالِحَ كَثيرةً لهم مِن أمورِ دينِهم ودُنياهم وآخِرَتِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٨- ١٩٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن حَجَّ هذا البَيتَ، فلم يَرْفُثْ[٣]، ولم يَفسُقْ[٤]؛ رجَعَ كيَومَ ولَدَتْه أُمُّه[٥]))[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ١١٠ - ١١٤).

قال الرسعني: (قال ابنُ عبَّاسٍ وأكثرُ المفسِّرينَ: يعني: التجارةَ والأسواقَ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٤).

(٣) الرَّفَثُ: الجِماعُ، أو الفُحشُ في القَولِ، أو خِطابُ الرَّجُلِ المرأةَ فيما يتعلَّقُ بالجِماعِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٩٧).

(٤) ولم يَفسُقْ: أي: لم يأتِ بسَيِّئةٍ ولا معصيةٍ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٩٧).

(٥) رجَعَ كيَومَ ولَدَتْه أمُّه: أي: بغَيرِ ذَنبٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ١١٩).

(٦) رواه البخاري (١٨٢٠) واللفظ له، ومسلم (١٣٥٠).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((العُمرةُ إلى العُمرةِ كفَّارةٌ لِما بيْنهما، والحجُّ المبرورُ[1] ليس له جَزاءٌ إلَّا الجنَّةُ))[2].

﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

أي: ولِيذكُرَ الحُجَّاجُ اسمَ اللهِ في أيَّامِ عشرِ ذي الحجَّةِ[3] على ما رزَقَهم مِنَ

---

(١) الحجُّ المبرورُ: هو الذي لا يُخالِطُه شيءٌ مِن المآثمِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١١٧).

(٢) رواه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).

(٣) ممن اختار أن المراد بالأيام المعلومات هي العشر: ابن أبي زمنين، والثعلبي، والبيضاوي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٠).
ونسبه الثعلبي والبغوي والرسعني والخازن إلى أكثر المفسرين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٥٥).
وقال ابنُ رجب: (جمهورُ العُلَماءِ على أنَّ هذه الأيامَ المعلوماتِ هي عَشرُ ذي الحجَّةِ؛ منهم: ابنُ عُمر، وابنُ عبَّاسٍ، والحَسَنُ، وعَطاءٌ، ومُجاهِدٌ، وعِكْرمةُ، وقَتادةُ، والنَّخَعيُّ، وهو قولُ أبي حنيفةَ والشَّافعيِّ، وأحمدَ في المشهورِ عنه). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٦٩،٢٧٠).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ بها أيَّامُ النَّحرِ، مع اختِلافِهم: هل هي يومُ النَّحرِ ويومانِ بَعدَه أو ثلاثةٌ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمرقنديُّ، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والشَّوكاني، والشِّنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٢٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ١١٥).
قال الخازن: (﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٢٨] يعني: الهدايا والضَّحايا مِنَ النَّعَمِ، وهي: الإبِلُ والبَقَرُ والغَنَمُ، وفيه دليلٌ على أنَّ الأيامَ المعلوماتِ: يومُ النَّحرِ، وأيَّامُ التَّشريقِ؛ لأنَّ التَّسميةَ على بهيمةِ الأنعامِ عند نحْرِها ونحْرَ الهدايا يكونُ في هذه الأيَّامِ). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٥٥).
وقال القاسمي: (﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي: على ما ملَّكهم منها، وذلَّلها لهم؛ لِيَجعَلوها هَدْيًا وضَحايا... والأيَّامُ المعلوماتُ: أيَّامُ العَشرِ، أو يومُ النَّحرِ وثلاثةُ أيَّامٍ أو يومانِ بَعدَه، أو يومُ عَرفةَ والنَّحرِ ويومٌ بَعدَه: أقوالٌ للأئمَّةِ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٤١).

الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ[١].

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾.

أي: فكُلوا مِنَ الأنعامِ التي ذكَرْتُم اسمَ اللهِ عليها، وأطعِموا منها مَن ساءت حالُه فاشتَدَّ به الفَقرُ، وضَرَّ به الجوعُ، فلا شيءَ له يُذهبُ جوعَه، ويرفعُ عنه ضرَّه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤١، ٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٢٥)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ١١٤).

وممَّن ذهَب إلى أن المعنى: على نَحْرِ وذَبحِ ما رَزَقَهم مِن بهيمةِ الأنعامِ: السمعاني، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَيٍّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤١- ٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ١١٤).

قال ابن رجب: (وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ فقيل: إنَّ المراد ذِكرُه عند ذَبحِها، وهو حاصِلٌ بذِكرِه في يومِ النَّحرِ؛ فإنَّه أفضلُ أيَّامِ النَّحرِ. والأصَحُّ: أنَّه إنَّما أُريدَ ذِكرُه شُكرًا على نِعمةِ تَسخيرِ بهيمةِ الأنعامِ لعِبادِه؛ فإنَّ لله تعالى على عِبادِه في بهيمةِ الأنعامِ نِعَمًا كثيرةً، قد عدَّد بَعضَها في مواضِعَ مِن القُرآنِ، والحاجُّ لهم خُصوصيَّةٌ في ذلك عن غيرِهم؛ فإنَّهم يَسيرونَ عليها إلى الحَرَمِ لِقَضاءِ نُسُكِهم). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٦٩،٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٣، ٥٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

قال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ استَدَلَّ بهذه الآيةِ مَن ذهَب إلى وُجوبِ الأكْلِ مِن الأضاحي، وهو قَولٌ غريبٌ. والذي عليه الأكثرونَ أنَّه مِن باب الرُّخصةِ أو الاستِحبابِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٦). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨).

قال البغوي: (﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ أمرُ إباحةٍ وليس بواجِبٍ، وإنَّما قال ذلك؛ لأنَّ أهلَ الجاهليَّةِ =

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾.

أي: ثُمَّ لْيُكمِلِ الحُجَّاجُ ما بَقِيَ عليهم مِن مناسِكِ حَجِّهم؛ كرَمْيِ الجِمارِ، وحَلْقِ الرُّؤوسِ، ونَتفِ الآباطِ، وحلقِ العانةِ، والأخذِ مِن الشَّوارِبِ، وقَصِّ الأظفارِ، والطَّوافِ بالبَيتِ، وإزالةِ وَسخِ الأبدانِ(١).

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾.

أي: ولْيُوفِ الحُجَّاجُ بما أوجَبوه على أنفُسِهم في الحَجِّ(٢).

= كانوا لا يأكُلونَ مِن لُحومِ هداياهم شيئًا، واتَّفَق العُلَماءُ على أنَّ الهَدْيَ إذا كان تطوُّعًا يجوزُ للمُهدِي أن يأكُلَ منه، وكذلك أُضحيَّةُ التطوُّعِ... واختَلَفوا في الهَدْيِ الواجِبِ بالشَّرعِ: هل يجوزُ للمُهدِي أن يأكُلَ منه شيئًا؛ مِثلُ: دَمِ التَّمتُّعِ والقِرانِ، والدَّمِ الواجِبِ بإفسادِ الحَجِّ وفواتِه، وجزاءِ الصَّيدِ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).
قال النيسابوري: (أجمع أهلُ التفسيرِ على أنَّ المرادَ هاهنا: إزالةُ الأوساخِ والزوائِدِ؛ كقَصِّ الشارِبِ والأظفارِ، ونتْفِ الإبْطِ، وحَلقِ العانة، فتقديرُ الآية: ثمَّ لْيَقضُوا إزالةَ تَفَثِهم). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٧٨). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٤٠٢).
قال ابن عاشور: (هذا من جُملةِ ما خاطب اللهُ به إبراهيمَ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٧، ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٠).
قال البغويُّ: (قَولُه تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال مجاهِدٌ: أراد نَذْرَ الحَجِّ والهَدْيِ، وما يَنذِرُ الإنسانُ مِن شَيءٍ يكونُ في الحجِّ، أي: لِيُتمُّوها بقَضائِها. وقيل: المرادُ منه الوَفاءُ بما نذَر، على ظاهِرِه. وقيل: أراد به الخُروجَ عمَّا وجَب عليه، نذَرَ أو لم يَنذِرْ. والعرَبُ تقولُ لكُلِّ مَن خرجَ عن الواجِبِ عليه: وَفَى بنَذرِه). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٦). =

﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾.

أي: ولْيَطُفِ الحُجَّاجُ طَوافَ الإفاضةِ[١] ببَيتِ الله العتيقِ[٢]؛ .....

= وممَّن اختار القولَ الأوَّل في الجُملة: ابنُ جَرير، والسمرقندي، والواحديُّ، والرازيُّ، والسعديُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٠).

وممَّن قال بنحو هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٧).

والقول الثاني هو ظاهر اختيار الشنقيطي. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٣٣).

(١) قال ابن جرير: (عُنِيَ بالطواف الذي أمَر جلَّ ثناؤه حاجَّ بيتِه العتيقِ به في هذه الآيةِ: طوافُ الإفاضةِ الذي يُطاف به بعد التعريفِ، إمَّا يومَ النحر، وإمَّا بعْدَه؛ لا خِلافَ بين أهل التأويل في ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣١).

وقال ابن جزي: (المراد هنا طوافُ الإفاضةِ، عند جميعِ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩).

وقال ابن عطية: (ويحتملُ بحسَبِ الترتيبِ أن تكونَ الإشارةُ إلى طوافِ الوداعِ؛ إذ المستحسنُ أن يكونَ ولا بدَّ، وقد أسنَد الطبريُّ عن عمروِ بنِ أبي سلمةَ، قال: سألتُ زهيرًا عن قولِه تعالى: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ فقال: هو طوافُ الوداعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٩). ويُنظر: ((موطأ مالك)) (٣/ ٥٣٩، ٥٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٢).

(٢) قال الشنقيطي: (في المرادِ بالعتيقِ هنا للعلماءِ ثلاثةُ أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّ المرادَ به القديمُ؛ لأنَّه أقدمُ مواضِعِ التَّعبُّدِ.

الثَّاني: أنَّ اللهَ أعتقَه مِنَ الجبابرةِ.

الثَّالثُ: أنَّ المرادَ بالعتقِ فيه الكرمُ... وإذا عَلِمتَ ذلك فاعْلَمْ: أنَّه قد دَلَّتْ آيةٌ مِنْ كتابِ اللَّهِ، على أنَّ العتيقَ في الآيةِ بمعنَى القديمِ الأوَّلِ، وهي قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا﴾ الآيةَ [آل عمران: ٩٦]، معَ أنَّ المعنيَيْنِ الآخَرينِ كلاهما حَقٌّ، ولكنَّ القرآنَ دَلَّ على ما ذكرنا، وخيرُ ما يُفَسَّرُ به القرآنُ القرآنُ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٥٣).

وممن اختار أنَّ العتيقَ معناه القديمُ: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٣)، ((تفسير القرطبي)) =

الكعبةِ[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

ينبغي للإنسانِ أنْ يَستَحضِرَ أنَّه في مجيئِه إلى مكَّةَ وإحرامِه، أنَّه إنما يفعَلُ ذلك تلبيةً لدُعاءِ الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، فالأذانُ بأمْرِ الله يُعتبرُ أذانًا مِن اللهِ، فإذا كان اللهُ هو الذي أذَّنَ، فأنا أجيبُه وأقولُ: «لَبَّيك اللهُمَّ لَبَّيك»[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- عُلِّقت القلوبُ على محبَّةِ الكعبةِ: البيتِ الحرامِ، حتى استطاب المحبُّونَ

= (١٢/ ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٣، ٢٥٤).

وقيل: العتيقُ: أي: المعتَقُ مِن تسلطِ الجبابرةِ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٠).

وممَّن جمَع بيْن المعنيينِ السابقينِ في الجملةِ: البِقَاعيُّ، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)

قال البقاعي: (وصفه بقَولِه: ﴿ٱلْعَتِيقِ﴾ إشارةً إلى استحقاقِه للتَّعظيمِ بالقِدَمِ والعِتقِ مِن كُلِّ سوءٍ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١).

وقال السعدي: (﴿ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: القديم؛ أفضل المساجد على الإطلاق، المُعتَق مِن تسلُّط الجبابرةِ عليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

وقال ابنُ عاشور: (والعتيقُ: المُحَرَّرُ، غيرُ المملوكِ لِلنَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)). (١٧/ ٢٥٠).

وقال النيسابوري: (سُمِّيَ بالبيتِ العَتيقِ؛ لأنَّه أوَّلُ بَيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ. عن الحَسَنِ. وقال قتادة: لأنَّه أُعتِقَ مِن تسَلُّطِ الجبابرةِ عليه. وهو قَولُ ابنِ عبَّاسٍ، وابنِ الزُّبَيرِ، وروَوه عن رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم. وعن ابنِ عُيَينةَ: لأنَّه لم يُملَكْ قَطُّ. وعن مجاهِدٍ: لأنَّه أُعتِقَ مِن الغَرَقِ أيامَ الطُّوفانِ. وقيل: معناه البيتُ الكريمُ). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٤/ ٥١٢).

في الوصولِ إليها هجرَ الأوطانِ والأحبابِ، ولَذَّ لهم فيها السَّفرُ الذي هو قطعةٌ مِن العذاب، فركِبوا الأخطارَ، وجابُوا المفاوِزَ والقِفارَ، واحتملوا في الوصولِ غايةَ المشاقِّ، ولو أمكنهم لسَعَوا إليها على الجفونِ والأحداقِ:

نعمْ أســـعَى إليكَ علـــى جُفوني وإنْ بَعُـــدت لمســـراكَ الطريـــقُ

وسِرُّ هذه المحبَّةِ هي إضافةُ الرَّبِّ سُبحانَه له إلى نَفْسِه بقَولِه: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾[1]؛ فقد أضافه الرحمنُ إلى نفْسِه، ولتَعظُمَ محبَّتُه في القلوب، وليكونَ أعظمَ لتطهيرِه وتعظيمِه؛ لكونِه بيتَ الرَّبِّ، للطائفينَ به، والعاكفينَ عنده، المقيمينَ لعبادةٍ من العباداتِ؛ مِن ذكرٍ، وقراءةٍ، وتعلُّمِ عِلمٍ وتعليمِه، وغير ذلك من أنواعِ القُرَبِ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ فقَرَن الطَّوافَ بالصَّلاةِ؛ لأنَّهما لا يُشرَعانِ إلَّا مُختَصَّينِ بالبَيتِ؛ فالطَّوافُ عندَه، والصَّلاةُ إليه في غالِبِ الأحوالِ، إلَّا ما استُثنيَ مِن الصَّلاةِ عندَ اشتِباهِ القِبلةِ، وفي الحَربِ، وفي النَّافلةِ في السَّفَرِ. والله أعلَمُ[3].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ يُؤخَذُ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّه لا يَجوزُ أن يُترَكَ عند بَيتِ اللهِ الحَرامِ قَذَرٌ مِنَ الأقذارِ، ولا نَجَسٌ مِنَ الأنجاسِ المعنويَّةِ ولا الحِسِّيَّةِ، فلا يُترَكُ فيه أحَدٌ يَرتكِبُ ما لا يُرضي اللهَ، ولا أحَدٌ يُلَوِّثُه بقَذَرٍ مِن النَّجاساتِ[4]. فقوله: ﴿وَطَهِّرْ﴾ يَعُمُّ

(١) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٨).

تطهيرَه مِن النَّجاسةِ الحِسِّيَّةِ، ومِن الكُفرِ والمعاصي والأصنامِ[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ﴾ عطْفُ ﴿وَأَذِّن﴾ على ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ مِن إكرامِ الزَّائِرِ: تَنظيفَ المَنزِلِ، وأنَّ ذلك يكونُ قَبلَ نُزولِ الزَّائِرِ بالمكانِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ دَلالةٌ على اشتِراطِ طَهارةِ ثَوبِ المصَلِّي لِصِحَّةِ صَلاتِه؛ فإنَّه إذا أَمَرَ اللهُ تعالى بتطهيرِ المَحَلِّ -وهو مُنفَصِلٌ عن المصَلِّي- فاللِّباسُ الذي هو مُتَّصِلٌ به يكونُ الأمرُ بتطهيرِه مِن بابِ أَولَى[٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ﴾ جملةُ ﴿يَأْتُوكَ﴾ جوابٌ للأمرِ، جعَلَ التأذينَ سَبَبًا للإتيانِ؛ تَحقيقًا لتَيسيرِ اللهِ الحَجَّ على النَّاسِ، فدَلَّ جوابُ الأمرِ على أنَّ اللهَ ضَمِنَ له استجابةَ نِدائِه[٤].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ فيه جوازُ المَشيِ والرُّكوبِ في الحَجِّ[٥].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ استَدلَّ بعضُهم على تفضيلِ حَجِّ الرَّاجِلِ على الرَّاكِبِ بتَقديمِ الله تعالى ﴿رِجَالًا﴾ على ﴿كُلِّ ضَامِرٍ﴾، وأنَّ ذلك دلَّ على أنَّ حَجَّ الرَّاجِلِ أفضَلُ

---

(١) يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٢/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨١).

مِن حَجِّ الراكبِ[١].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ إنَّما قال: ﴿يَأْتُوكَ﴾ وإن كانوا يأتونَ الكَعبةَ؛ لأنَّ المناديَ إبراهيمُ، فمَن أتَى الكَعبةَ حاجًّا، فكأنَّما أتى إبراهيمَ؛ لأنَّه أجاب نِداءَه، وفيه تَشريفُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[٢]. وقيل: تعليقُ فعل ﴿يَأْتُوكَ﴾ بضميرِ خطابِ إبراهيمَ، فيه دلالةٌ على أنَّه كان -في حياتِه- يحضرُ موسمَ الحجِّ كلَّ عامٍ، يبلِّغ للناسِ التوحيدَ، وقواعدَ الحنيفيةِ[٣].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ قد يُؤخَذُ منه بدَلالةِ الإيماءِ[٤]: الوعدُ بفتوحاتٍ شاملةٍ لمناطقَ شاسعةٍ؛ لأنَّ الإتيانَ مِنْ كلِّ فَجٍّ عميقٍ، يَدُلُّ على الإتيانِ إلى الحجِّ مِنْ بعيدٍ، والإتيانُ إلى الحجِّ يَدُلُّ على الإسلامِ، وبالتَّالي يَدُلُّ على مجيءِ المسلمينَ مِنْ بعيدٍ، وهو مَحَلُّ الاستدلالِ. والله تعالَى أعلمُ[٥].

١١- قولُه: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ الفجُّ: الشَّقُّ بين جَبلينِ تَسيرُ فيه الرِّكَابُ؛ فغَلَبَ الفَجُّ على الطَّريقِ لأنَّ أكثَرَ الطُّرقِ المُؤدِّيةِ إلى مكَّةَ تُسلَكُ بين الجبالِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٣).

(٤) دلالة الإيماء: هو اقترانُ الوصفِ بحكمٍ لو لم يَكُن الوصفُ -أو نظيرُه- للتَّعليلِ لكان ذلك الاقترانُ بَعيدًا مِن فصاحةِ كلامِ الشَّارعِ، وكان إتيانُه بالألفاظِ في غيرِ مواضِعِها، معَ كونِ كلامِ الشَّارعِ مُنَزَّهًا عن الحشوِ الَّذي لا فائدةَ فيه. يُنظر: ((شرح الكوكب المنير)) لابن النجار (٤/ ١٢٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ١٤٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٥).

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، فائِدةُ قَولِه: ﴿مَّعْلُومَٰتٍ﴾ وَ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾ التَّحريضُ على هذه الأيامِ، وعلى اغتِنامِ فَضْلِها، أي: لَيسَت كغَيرِها، فكأنَّه قال: هي مَخصوصاتٌ؛ فلْتُغتَنَمْ[١]. وقيل: إنَّ سَببَ تَسميتِها مَعلوماتٍ: الحِرصُ على عِلمِها بحِسابِها؛ لأنَّ وقتَ الحَجِّ في آخِرِها، وكثرةُ ذِكرِ اللهِ تعالى فيها بالتلبيةِ والتكبيرِ[٢]؛ ففي التعبيرِ بالعِلمِ إشارةٌ إلى وجوبِ استفراغِ الجُهدِ، بعدَ القطعِ بأنَّ الشهرَ ذو الحُجَّةِ اسمًا ومُسمًّى في تحريرِ أوَّلِه، وهذا على أنَّ المرادَ بـ (المعلومات) العشرُ مِن ذي الحجَّةِ. وأمَّا أيَّامُ التَّشريقِ، فإنَّها لَمَّا كانتْ مبنِيَّةً على العِلمِ بأمْرِ الشهرِ الذي أُمِرَ به هنا، فأنتجَ العِلمَ بيومِ العيدِ، لم يُحتَجْ في أمرِها إلى غيرِ العَدِّ؛ فلذا عبَّرَ عنها به دون العِلمِ[٣].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ المرادَ به الإكثارُ؛ إذ مُطلَقُ الذِّكرِ مَندوبٌ إليه في كُلِّ وَقتٍ[٤].

١٤- في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ دَلالةٌ على أنَّه يُشترَطُ في الأُضحِيَّةِ أنْ تكونَ مِن بهيمةِ الأنعامِ -وهي: الإبلُ والبَقَرُ والغَنَمُ- فلو ضَحَّى الإنسانُ بحيوانٍ آخَرَ أغلى منها، لم يُجْزِه، وكذلك الهديُ الذي نصَّ الشرعُ على كونِه مِن بهيمةِ الأنعامِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٧٢، ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

[البقرة: ١٩٦]، وقولِه: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾[(١)] [البقرة: ١٩٦].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ دَلالةٌ على إباحة الأكلِ مِن الهَدْي كلِّه -تطوعِه وفرضِه-؛ إذْ مَخْرَجُ الإباحةِ في الأكلِ عامٌّ، فمَن خصَّ منه شيئًا فعليه أنْ يأتيَ بالبرهانِ[(٢)].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المرادَ بالأيَّامِ المعلوماتِ: ما قَبْلَ يومِ النَّحْرِ -وهو عشرُ ذي الحِجَّةِ-؛ وذلك لأنَّه سُبحانه جَعَلَ هذا كلَّه بعد ذِكْرِه في الأيَّامِ المعلوماتِ، وقَضاءُ التَّفَثِ -وهو شَعَثُ الحَجِّ وغُبارُه ونَصَبُه- والطوافُ بالبيتِ؛ إنَّما يكونُ في يومِ النَّحْرِ وما بعدَه، ولا يكونُ قبْلَه، وقد جَعَلَ اللهُ سُبحانَه هذا مرَتَّبًا على ذِكْرِه في الأيَّامِ المعلوماتِ بلَفظةِ «ثُمَّ»[(٣)].

١٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ النَّذرَ كان مشروعًا في شريعةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[(٤)].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الوفاءَ بالنَّذرِ

---

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٧/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣١٧).
ولا خلافَ في جوازِ الأكلِ مِن هديِ التطوُّعِ إذا بلَغ محلَّه في الحرمِ، يُنظر: ((التمهيد)) لابن عبد البر (٢/ ١١٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٥٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ١٩٧).
وأمَّا الأكلُ مِن هدي القِرانِ والتمتعِ فالجمهورُ على استحبابِه. يُنظر: ((الهداية شرح البداية)) للميرغيناني (١/ ١٨٦)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٨٩)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٤/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٠).

عِبادةٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أمرٌ، والأمرُ بوفائِه يدُلُّ على أنَّه عِبادةٌ؛ لأنَّ العِبادةَ ما أُمِرَ به شَرعًا(١).

١٩- قَولُه تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ يدُلُّ على وُجوبِ الإيفاءِ بالنَّذرِ؛ فصيغةُ الأمرِ تَقتَضي الوُجوبَ -على الأصَحِّ- إلَّا لدَليلٍ صارفٍ عنه(٢). ففيه دليلٌ على وُجوبِ إخراجِ النَّذْرِ إن كان دمًا أو هَدْيًا أو غيرَه، ويدُلُّ ذلك على أنَّ النَّذرَ لا يجوزُ أن يُأكَلَ منه وفاءً بالنَّذرِ، وكذلك جزاءُ الصَّيدِ، وفِديةُ الأذى؛ لأنَّ المطلوبَ أن يأتيَ به كامِلًا مِن غيرِ نَقصِ لحمٍ ولا غيرِه(٣).

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الطَّوافَ لا يجوزُ داخِلَ البَيتِ، ولا في شَيءٍ مِن هَوائِه(٤)، وأنَّه يَجِبُ الطَّوافُ مِنْ وَراءِ الحِجْرِ؛ لأنَّه مِنْ أصلِ البيتِ الَّذي بناه إبراهيمُ، وإنْ كانت قُرَيْشٌ قد أخْرَجوه مِنَ البيتِ، حِينَ قَصُرَتْ بهم النَّفَقَةُ؛ ولهذا طافَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم مِنْ وراءِ الحِجْرِ، وأخبرَ أنَّ الحِجْرَ مِنَ البيتِ، ولم يَسْتَلِمِ الرُّكنيْنِ الشَّامِيَّيْنِ؛ لأنَّهما لم يُتَمَّما على قواعِدِ إبراهِيمَ العتيقَةِ(٥).

٢١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ هذا أمرٌ بالطَّوافِ خُصوصًا، بعدَ الأمرِ بالمناسِكِ عُمومًا؛ لِفَضلِه وشَرَفِه، ولِكَونِه المقصودَ، وما قَبْلَه وسائِلُ إليه، ولعَلَّه -واللهُ أعلَمُ أيضًا- لفائدةٍ أُخرى، وهي: أنَّ الطَّوافَ

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٨). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٤).

مَشروعٌ كُلَّ وَقتٍ، وسواءٌ كان تابِعًا لنُسُكٍ أم مُستَقِلًّا بنَفْسِه[١].

٢٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ دَلَّ على لُزومِ طَوافِ الإفاضَةِ، وأنَّه لا صِحَّةَ للحجِّ بِدونِه[٢].

٢٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ختَمَ خِطابَ إبراهيمَ بالأمرِ بالطَّوافِ بالبَيتِ؛ إيذانًا بأنَّهم كانوا يَجعَلونَ آخِرَ أعمالِ الحَجِّ الطَّوافَ بالبيتِ، وهو المُسمَّى في الإسلامِ طَوافَ الإفاضةِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

- عَطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ عطْفَ قِصَّةٍ على قِصَّةٍ. ويُعْلَمُ منها تَعليلُ الجُملةِ المعطوفةِ عليها، بأنَّ المُلحِدَ في المسجِدِ الحرامِ قد خالَفَ بإلحادِه فيه ما أرادَهُ اللهُ مِن تَطهيرِه حينَ أمَرَ ببِنائِه، والتَّخلُّصُ من ذلك إلى إثباتِ ظُلْمِ المُشركينَ وكُفرانِهم نِعمةَ اللهِ في إقامةِ المسجِدِ الحرامِ وتَشريعِ الحجِّ[٤].

- قولُه: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ (إذ) مَنصوبٌ بفِعْلٍ مُقدَّرٍ، أي: اذكُرْ ذلك الوقْتَ العظيمَ، وعُرِفَ معنى تَعظيمِه مِن إضافةِ اسمِ الزَّمانِ إلى الجُملةِ الفِعليَّةِ دونَ المصدرِ؛ فصار بما يدُلُّ عليه الفِعْلُ منَ التَّجدُّدِ كأنَّه زمَنٌ حاضرٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٤٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وتَوجيهُ الأمرِ بالذِّكرِ إلى الوقْتِ، مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما وقَعَ فيه من الحوادثِ؛ للمُبالَغةِ في إيجابِ ذِكْرِها؛ لِمَا أنَّ إيجابَ ذِكْرِ الوقْتِ إيجابٌ لذِكْرِ ما وقَعَ فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ، ولأنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ عليها، فإذا استُحضِر كانت حاضرةً بتَفاصيلِها كأنَّها مُشاهَدةٌ عِيانًا[١].

- واللَّامُ في ﴿لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ لامُ العِلَّةِ؛ لأنَّ (إبراهيمَ) مفعولٌ أوَّلُ لـ ﴿بَوَّأْنَا﴾ الَّذي هو مِن باب (أعطى)؛ فاللَّامُ مِثْلُها في قولِهم: (شكرْتُ لك)، أي: شكرْتُك لأجْلِك. وفي ذِكْرِ اللَّامِ في مثْلِه ضَربٌ من العِنايةِ والتَّكرمةِ[٢].

- وقولُه: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ فيه إيجازٌ في الكلامِ، كأنَّه قيل: وإذ أعطيناهُ مكانًا لِيَتَّخِذَ فيه بَيتًا، فقال: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ لأنَّ هذا حكايةٌ عن قِصَّةٍ مَعروفةٍ لهم، وسبَقَ ذِكْرُها فيما نزَلَ قبْلَ هذه الآيةِ مِن القُرآنِ. والبيتُ مَعروفٌ معهودٌ عند نُزولِ القُرآنِ؛ فلذلك عُرِّفَ بلامِ العهْدِ، ولولا هذه النُّكتةُ لكان ذِكْرُ (مكان) حشْوًا[٣].

- قولُه: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ إضافةُ البيتِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ تَشريفٌ للبَيتِ، وفي الكلامِ إيجازٌ بالحذْفِ دلَّ عليه ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾، والتَّقديرُ: وأمَرْناهُ ببِناءِ البيتِ في ذلك المكانِ، وبعْدَ أنْ بَناهُ قُلْنا: لا تُشْرِكْ بي شيئًا، وطَهِّرْ بَيتي[٤].

- قولُه: ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ فيه التَّعبيرُ عن الصَّلاةِ بأركانِها؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٤١).

ولعلَّ ذلك للدَّلالةِ على أنَّ كلَّ واحدٍ منها مُستقِلٌّ باقتضاءِ ذلك؛ فكيف وقد اجتمَعَتْ[١]؟!

- ولمْ يَعطِفِ السُّجودَ؛ لأنَّه مِن جِنسِ الرُّكوعِ في الخُضوعِ، ويجوزُ أن يكونَ (القائِمينَ) بمعنى المُقيمين، و(الطَّائِفينَ) بمعنى الطَّارئينَ، فيكونَ المرادُ بالرُّكعِ السُّجودِ فقط المُصَلِّينَ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾

- قولُه: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مُضاعفةُ الحُروفِ في قولِه: ﴿وَأَذِّن﴾ مُشعِرٌ بتكريرِ الفِعْلِ، أي: أكثِرِ الإخبارَ بالشَّيءِ[٣].

- الألِفُ واللَّامُ في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ للجِنْسِ؛ فيَعُمُّ كلَّ البشَرِ[٤].

- قولُه: ﴿رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الواوُ واوُ التَّقسيمِ الَّتي بمعنى (أو)؛ إذ معنى العَطْفِ هنا على اعتبارِ التَّوزيعِ بين راجلٍ وراكبٍ، والمقصودُ منه استيعابُ أحوالِ الآتِينَ؛ تَحقيقًا للوعْدِ بتَيسيرِ الإتيانِ المُشارِ إليه بجَعْلِ إتيانِهم جوابًا للأمْرِ. وقُدِّمَ قولُه: ﴿رِجَالًا﴾؛ لكونِ هذه الحالِ أغرَبَ، ثمَّ ذُكِرَ بعْدَه ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾؛ تَكملةً لتَعميمِ الأحوالِ؛ إذ إتيانُ النَّاسِ لا يَعْدو أحَدَ هذينِ الوصفينِ[٥]. وقيل: تقديمُ الرِّجالُ على الرُّكبانِ فيه فائدةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٤٣، ٢٤٤).

جليلةٌ؛ وهي: أنَّ اللهَ تعالى شَرَط في الحجِّ الاستطاعةَ -ولا بُدَّ مِن السَّفَرِ إليه لغالِبِ النَّاسِ- فذَكَر نوعَيِ الحُجَّاجِ؛ لِقَطْعِ تَوَهُّمِ مَن يظنُّ أنَّه لا يجِبُ إلَّا على راكِبٍ، وقَدَّمَ الرِّجالَ؛ اهتِمامًا بهذا المعنى وتأكيدًا. ومِن النَّاسِ مَن يقولُ: قدَّمَهم جَبْرًا لهم؛ لأنَّ نفوسَ الرُّكْبانِ تَزدَريهم وتوَبِّخُهم، وتقولُ: «إنَّ اللهَ تعالى لم يكتُبْه عليكم، ولم يُرِدْه منكم!»، وربَّما توَهَّموا أنَّه غيرُ نافعٍ لهم، فبدأ به؛ جَبْرًا لهم ورحمةً[1].

- وكلمةُ (كلِّ) في قولِه: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ مُستعمَلةٌ في الكثرةِ، أي: وعلى رواحِلَ كثيرةٍ[2].

- قولُه: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ الضَّامِرُ: البعيرُ المهزولُ الَّذي أتعبَه السَّفرُ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ فوصَفَها اللهُ تعالى بالمآلِ الَّذي انتهَتْ عليه إلى مَكَّةَ، وذكَرَ سببَ الضُّمورِ، فقال: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، أي: أثَّرَ فيها طولُ السَّفرِ، ورَدَّ الضَّميرَ إلى الإبلِ؛ تَكرِمةً لها؛ لقَصْدِها الحجَّ مع أربابِها، كما قال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١] في خَيلِ الجِهادِ؛ تَكرِمةً لها حين سعَتْ في سَبيلِ اللهِ[3].

- قَولُه: ﴿يَأْتِينَ﴾ يجوزُ أن يكونَ صِفةً لـ﴿كُلِّ ضَامِرٍ﴾؛ لأنَّ لفظَ (كل) صيَّرَه في معنى الجمعِ، وإذ هو جَمْعٌ لِما لا يَعقِلُ فحقُّه التأنيثُ، وإنما أُسندَ الإتيانُ إلى الرواحِلِ دون النَّاسِ فلم يقُل: (يأتون)؛ لأنَّ الرواحِلَ هي سببُ إتيان الناسِ مِن بُعدٍ لِمن لا يستطيعُ السَّفَرَ على رجلَيه. ويجوزُ أن تُجعَلَ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٩).

جملةُ ﴿يَأْتِينَ﴾ حالًا ثانيةً من ضَميرِ الجَمعِ في ﴿يَأْتُوكَ﴾؛ لأنَّ الحالَ الأُولَى تَضمَّنتْ معنى التَّنويعِ والتَّصنيفِ؛ فصارَ المعنى: يَأتوكَ جماعاتٍ، فلمَّا تُؤوِّلَ ذلك بمعنى الجماعاتِ جرَى عليهم الفِعلُ بضَميرِ التأنيثِ، وهذا الوجهُ يَتضمَّنُ زِيادةَ التَّعجيبِ مِن تيسيرِ الحَجِّ حتَّى على المُشاةِ[١]. وقيل: ﴿يَأْتِينَ﴾ فَجمَع؛ لأنَّه أُريدَ بكُلِّ ضامرٍ النوقُ، ومعنى الكلِّ الجَمعُ؛ فلذلك قِيل: ﴿يَأْتِينَ﴾[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾

- قولُه: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ يَتعلَّقُ بقولِه: ﴿يَأْتُوكَ﴾؛ فهو عِلَّةٌ لإتيانِهم الَّذي هو مُسبَّبٌ على التَّأذينِ بالحجِّ، فآلَ إلى كونِه عِلَّةً في التَّأذينِ بالحجِّ[٣].

- قولُه: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي: لِيَحضُروا، فيُحَصِّلوا منافِعَ لهم؛ فكَنَّى بشُهودِ المنافعِ عن نَيلِها. ولا يُعْرَفُ ما وعَدَهم اللهُ على ذلك بالتَّعيينِ[٤].

- ونكَّرَ المنافِعَ؛ لأنَّه أراد منافِعَ مُختصَّةً بهذه العبادةِ دِينيَّةً ودُنيويَّةً لا تُوجَدُ في غيرِها من العباداتِ؛ فدَلَّ التَّنكيرُ فيها على تَفخيمِ المنافِعِ وتَكثيرِها، بحيثُ لا توجَدُ في غيرِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٤)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٦).

- وفي قولِه: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ كنَّى عن النَّحرِ والذَّبحِ بذِكْرِ اسمِ اللهِ، وفيه تَنبيهٌ على أنَّ الغرَضَ الأصليَّ فيما يُتقرَّبُ به إلى اللهِ أنْ يُذكَرَ اسْمُه، وقد حسَّنَ الكلامَ تَحسينًا بَيِّنًا: أنْ جُمِعَ بين قولِه: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾، وقولِه: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾؛ فجُمِعَ بين ذِكْرِ الرَّازقِ والمرزوقِ على طَريقةِ التَّعليلِ، وذلك أنْ رُتِّبَ ذِكْرُ اسمِ اللهِ على الوصْفِ المُناسِبِ، هو كونُه رِزقًا منه، ولو قيل: (لِيَنْحَروا في أيَّامٍ مَعلوماتٍ بَهيمةَ الأنعامِ)، لم يُرَ شَيءٌ من ذلك الحُسْنِ والرَّوعةِ. ومع هذه النُّكتةِ الجليلةِ رُوعِيَ فيه معنى الإجمالِ والتَّفصيلِ[١].

- وفي جَعْلِ قولِه: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ غايةً للإتيانِ: إيذانٌ بأنَّه الغايةُ القُصوى دونَ غيرِه[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عُلِّقَ الفِعْلُ بالمرزوقِ وبُيِّنَ بالبهيمةِ؛ تَحريضًا على التَّقرُّبِ، وتَنبيهًا على الذِّكْرِ[٣]. وأُدْمِجَ في هذا الحُكْمِ الامتنانُ بأنَّ اللهَ رزَقَهم تلك الأنعامَ، وهذا تَعريضٌ بطلَبِ الشُّكرِ على هذا الرِّزقِ بالإخلاصِ للهِ في العبادةِ، وإطعامِ المَحاويجِ من عِبادِ اللهِ مِن لُحومِها، وفي ذلك سَدٌّ لحاجةِ الفُقراءِ بتَزويدِهم ما يَكْفيهم لعامِهم؛ ولذلك فُرِّعَ عليه: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٦).

- قولُه: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ الأمْرُ بالأكْلِ منها يحتملُ أنْ يكونَ أمْرَ وُجوبٍ في شَريعةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فيكونَ الخِطابُ في قولِه: ﴿فَكُلُواْ﴾ لإبراهيمَ ومَن معه. وقد عُدِلَ عن الغَيبةِ الواقعةِ في ضَمائرِ ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، إلى الخِطابِ بذلك في قولِه: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ...﴾ إلخ، على طَريقةِ الالتفاتِ، أو على تَقديرِ قولٍ مَحذوفٍ مأْمورٍ به إبراهيمُ عليه السَّلامُ، وفي حِكايةِ هذا تَعريضٌ بالرَّدِّ على أهْلِ الجاهليَّةِ؛ إذ كانوا يَمْنعون الأكلَ مِنَ الهَدايا، ثمَّ عاد الأُسلوبُ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾. ويحتملُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا ...﴾ إلخ، مُعترِضةً مُفرَّعةً على خِطابِ إبراهيمَ ومَن معه تَفريعَ الخبَرِ على الخبَرِ؛ تَحذيرًا مِن أنْ يُمنَعَ الأكْلُ مِن بَعْضِها[1]. وقيل: التفتَ إلى الإقبالِ عليهم، وفي ذلك حَثٌّ على التقَرُّبِ بالضَّحايا والهدايا[2].

- وفي قولِه: ﴿ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ لم يُعْطَفْ أحَدُ الوَصفينِ على الآخَرِ؛ لأنَّه كالبَيانِ له، وإنَّما ذُكِرَ البائسُ مع أنَّ الفَقيرَ مُغْنٍ عنه؛ لتَرقيقِ أفئدةِ النَّاسِ على الفقيرِ بتَذكيرِهم أنَّه في بُؤْسٍ؛ لأنَّ وَصْفَ (فقير) -لشُيوعِ تَداوُلِه على الألسُنِ- صار كاللَّقبِ غيرَ مُشعِرٍ بمعنى الحاجةِ، وقد حصَلَ من ذِكْرِ الوصفينِ التَّأكيدُ. وقيل: البائسُ الَّذي ظهَرَ بُؤْسُه في ثِيابِه وفي وَجْهِه، والفقيرُ: الَّذي تكونُ ثِيابُه نَقيَّةً ووَجْهُه وَجْهَ غَنِيٍّ؛ فعلى هذا التَّفسيرِ يكونُ البائسُ هو المُسكينَ[3]، ويكونُ ذِكْرُ الوَصفينِ لقَصدِ استيعابِ أحوالِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩).

(٣) وقد وقَع الخلافُ بينَ العلماءِ في الفقيرِ والمسكينِ أيُّهما أسوأُ حالًا. ينظر: ((معاني القرآن)) =

المُحتاجينَ[١].

- وكرَّرَ قولَه: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ في قولِه: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦]؛ لأنَّ الأوَّلَ مُرتَّبٌ على ذَبْحِ بَهيمةِ الأنعامِ الشَّاملةِ للبُدْنِ والبقرِ والغَنمِ، والثَّانِيَ مُرتَّبٌ على ذَبْحِ البُدْنِ خاصَّةً، وإنْ وافقَهُ في حُكْمِ ذَبْحِ الآخرينَ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾ (ثمَّ) هنا عطَفَتْ جُملةً على جُملةٍ؛ فهي للتَّراخي الرُّتبيِّ لا الزَّمنيِّ؛ فتُفِيدُ أنَّ المعطوفَ بها أهَمُّ في الغرَضِ المسوقِ إليه الكلامُ مِن المعطوفِ عليه، وذلك في الوَفاءِ بالنَّذرِ والطَّوافِ بالبيتِ العتيقِ ظاهرٌ؛ إذ هما نُسكانِ أهَمُّ مِن نَحْرِ الهَدايا[٣].

- وفي قولِه: ﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ شَبَّهَ البيتَ بالعبْدِ العتيقِ في أنَّه لا مِلْكَ لأحدٍ عليه -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-، وفيه تَعريضٌ بالمُشركينَ؛ إذ كانوا يَمْنعونَ منه مَن يَشاؤونَ حتَّى جَعَلوا بابَه مُرتفِعًا بدونِ درَجٍ؛ لئلَّا يَدخُلَه إلَّا مَن شاؤوا[٤].

= للنحاس (٣/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٧٤، ٣٧٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥٢٣) ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٢، ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٥٠).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلرِّجْسَ﴾: هو اسمٌ لكُلِّ ما استُقذِرَ مِن عَمَلٍ، وكُلُّ قَذَرٍ رِجسٌ، وأصلُه يدُلُّ على الخُبثِ والقَذارةِ[(١)].

﴿ٱلزُّورِ﴾: أي: الكَذِبِ والفِرْيَةِ على اللهِ، وأصلُ (زور): يدُلُّ على المَيلِ والعُدولِ[(٢)].

﴿حُنَفَآءَ﴾: جمعُ حَنيفٍ، وهو المُقبلُ على اللهِ، المُعرضُ عمَّا سِواه، وقيل: الحنيفُ: هو المسلمُ المستقيمُ[(٣)]، وقيل: المائلُ عن الشركِ والدِّينِ الباطلِ إلى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٧١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٧٩). ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

(٣) وذلك بِناءً على قولِ مَن قال: إنَّ الحنيفَ هو المستقيمُ مِن كلِّ شيءٍ، والحنفَ الاستقامةُ، وجعلوا الرَّجلَ الَّذي تُقبلُ إحدَى قَدَميه على الأُخرى، إنَّما قِيل له: أحنفُ، على جهة التفاؤلِ، كما قِيل للمَهْلَكةِ مِن البلادِ: المفازَةُ، بمعنَى الفوزِ بالنَّجاةِ منها والسَّلامةِ؛ وكما قِيل لِلَّديغِ: السَّليمُ؛ تفاؤلًا له بالسَّلامةِ مِن الهلاكِ، وما أشبهَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، =

التوحيدِ، والدِّينِ الحقِّ المستقيمِ، وأصلُ الحنفِ: الميلُ عن الشيءِ بالإقبالِ على آخَرَ، فالحنفُ ميلٌ عن الضلالةِ إلى الاستقامةِ، وأصلُه ميلٌ في إبهامي القدمينِ، كل واحدةٍ على صاحبتِها[١].

﴿خَرَّ﴾: أي: سَقَط على وَجهِه، وأصلُه يدُلُّ على اضطرابٍ وسُقوطٍ مع صَوتٍ[٢].

﴿سَحِيقٍ﴾: أي: بَعيدٍ، وأصلُ (سحق): يدُلُّ على بُعدٍ[٣].

﴿شَعَٰٓئِرَ﴾: جمْعُ شَعيرَةٍ، وهي ما جعَله اللهُ تعالى عَلَمًا لطاعتِه، وأصل (شعر): هنا يدلُّ على عِلْمٍ وعَلَمٍ[٤].

= ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٦).

قال القرطبي: (ولفظةُ ﴿حُنَفَآءَ﴾ مِن الأضدادِ؛ تقعُ على الاستقامةِ، وتقعُ على الميلِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (١/ ٢٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨).

﴿مَحِلُّهَآ﴾: المَحِلُّ: الموضِع الذي يَحلُّ فيه نَحْر الهدْي، وقيل: هو وَقتُ النَّحْرِ ومكانُه، وأصلُ (حلل): فَتْحُ الشَّيْءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ذلك الذي أمَرَ اللهُ به مِن قَضاءِ التَّفَثِ والوَفاءِ بالنُّذورِ والطَّوافِ بالبَيتِ: هو ما أوجَبَه اللهُ عليكم؛ فعَظِّموه، ومَن يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ -ومنها مَناسِكُه- بأدائِها كامِلةً خالِصةً لله؛ فهو خيرٌ له في الدُّنيا والآخرةِ. وأحلَّ اللهُ لكم أكلَ الأنعامِ إلَّا ما حرَّمه فيما يُتلَى عليكم في القُرآنِ مِنَ المَيتةِ وغَيرِها، فاجتَنِبوه، وابتَعِدوا عن عِبادةِ الأصنامِ؛ فإنَّها قَذَرٌ، وعَنِ كُلَّ قَولٍ باطِلٍ، مُستَقيمينَ للهِ على إخلاصِ العَمَلِ له، مُقبِلينَ عليه بعِبادتِه وَحْدَه وإفرادِه بالطَّاعةِ، مُعرِضينَ عَمَّا سِواه بنَبذِ الشِّركِ؛ فإنَّه مَن يُشرِكْ بالله شَيئًا فمَثَلُه -في بُعْدِه عن الهُدى، وفي هلاكِه وسُقوطِه مِن رَفيعِ الإيمانِ إلى حَضيضِ الكُفرِ، وتخَطُّفِ الشَّياطينِ له مِن كُلِّ جانبٍ- كمَثَلِ مَن سَقَط مِنَ السَّماءِ؛ فإمَّا أن تخطَفَه الطَّيرُ فتُقَطِّعَ أعضاءَه، وإمَّا أن تُلقيَ الرِّيحُ أوصالَه المُمَزَّقةَ في مَوضِعٍ بَعيدِ العُمقِ.

ذلك ما أمَرَ اللهُ به مِن تَوحيدِه وإخلاصِ العبادةِ له، ومَن يَمتَثِلْ أمْرَ اللهِ ويُعَظِّمْ مَعالِمَ الدِّينِ، ومنها الهدايا، وذلك باستِحسانِها واستِسْمانِها وتَكميلِها مِن كُلِّ وَجهٍ؛ فهذا التَّعظيمُ مِن أفعالِ أصحابِ القُلوبِ المتَّصِفةِ بتَقوى اللهِ وخَشيَتِه.

لكم في هذه الهَدايا منافِعُ تَنتَفِعونَ بها مِنَ الصُّوفِ واللَّبَنِ والرُّكوبِ وغيرِ ذلك ممَّا لا يَضُرُّها، إلى وَقتِ ذَبحِها عندَ بُلوغِها البَيتَ العَتيقَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

أي: ذلك الذي أمَرَ اللهُ به مِن قَضاءِ التَّفَثِ والوَفاءِ بالنُّذورِ والطَّوافِ بالبَيتِ العَتيقِ: هو ما أوجَبَه اللهُ عليكم -أيُّها النَّاسُ- في حَجِّكم؛ فعَظِّموه، ومَن يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ، فيَجتَنِبْ ما أمَرَه اللهُ باجتِنابِه؛ تَعظيمًا منه لحُدودِ اللهِ أن يُواقِعَها أو يَستَحِلَّها- فهو خَيرٌ له عِندَ رَبِّه في دِينِه ودُنياهُ وآخِرَتِه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥١، ٢٥٢).

ممَّن قصَر معنى قولِه: ﴿يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هنا على اجتنابِ ما أمَره اللَّهُ باجتنابِه في حالِ إحرامِه: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٨٨٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣٥).

قال مقاتل بن سليمان: (﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني أمرَ المناسِكِ كلِّها). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٢٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بحُرُماتِ الله: مَعاصيه ومحارِمُه وما نهى عنه: البغوي، والخازن، وابن كثير، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٣٤).

وممَّن اختار العُمومَ: الزَّجَّاجُ، والسَّعدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

قال الزَّجَّاجُ: (وحُرُماتُ اللهِ: الحجُّ والعُمرةُ وسائِرُ المناسِكِ، وكُلُّ ما فَرَض اللهُ فهو مِن حُرُماتِ الله، والحُرمةُ ما وَجَب القيامُ به، وحَرُمَ تركُهُ والتَّفريطُ فيه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٤٢٤).

=

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: وأَحَلَّ اللهُ لكم -أيُّها النَّاسُ- الإبِلَ والبَقَرَ والغَنَمَ أن تأكُلوها إذا ذكَّيتُموها، إلَّا[1] ما يُتلى عليكم تحريمُه في القُرآنِ؛ كالمَيْتةِ، والدَّمِ، ولَحمِ الخِنزيرِ، وما أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ به[2].

= وقال السعدي: (وحُرُماتُ اللهِ: كلُّ ما له حُرمةٌ وأُمِرَ باحترامِه بعبادةٍ أو غيرِها؛ كالمناسِكِ كُلِّها، وكالحَرَمِ والإحرامِ، وكالهدايا، وكالعباداتِ التي أمرَ اللهُ العبادَ بالقيامِ بها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

وقال ابنُ عطية: (والحُرُماتُ المقصودةُ هاهنا في أفعالِ الحَجِّ: المشارُ إليها في قَولِه: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾، ويدخُلُ في ذلك تعظيمُ المواضِعِ. قاله ابنُ زيدٍ وغَيرُه،... ثمَّ لفظُ الآيةِ بعد ذلك يتناولُ كُلَّ حُرمةٍ لله تعالى في جميعِ الشَّرعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٠).

(١) قال الشنقيطي: (لم يُبيِّنْ هنا هذا الذي يُتلَى عليهم المُستثنى مِن حِلِّيَّةِ الأنعامِ، ولكِنَّه بيَّنَه بقَولِه تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وهذا الذي ذكَرْنا هو الصَّوابُ، أمَّا ما قاله جماعاتٌ مِن أهلِ التفسيرِ مِن أنَّ الآيةَ التي بيَّنَت الإجمالَ في قَولِه تعالى هنا: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أنَّها قَولُه تعالى في المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ [المائدة: ٣] الآيةَ؛ فهو غَلَطٌ؛ لأنَّ «المائدةَ» من آخِرِ ما نزَلَ مِن القرآنِ، وآيةُ «الحَجِّ» هذه نازلةٌ قبل نزولِ «المائدةِ» بكثيرٍ؛ فلا يَصِحُّ أن يُحالَ البَيانُ عليها في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، بل المُبيِّنُ لذلك الإجمالِ آيةُ الأنعامِ التي ذكَرْنا؛ لأنَّها نازِلةٌ بمكَّةَ، فيَصِحُّ أن تكونَ مُبيِّنةً لآيةِ الحَجِّ المذكورةِ، كما نبَّهَ عليه غيرُ واحدٍ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٥٤).

وقال ابن عاشور: (استثنَى منه ما يُتلَى تحريمُه في القرآنِ، وهو ما جاء ذكرُه في سورةِ «الأنعامِ» في قولِه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وما ذُكر في سورةِ «النحلِ»، وكلتاهما مكِّيتانِ سابقتانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧). =

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَثَّ على تَعظيمِ حُرُماتِ اللهِ، وذكَرَ أنَّ تَعظيمَها خَيرٌ لِمُعَظِّمِها عندَ اللهِ؛ أتبَعَه الأمرَ باجتِنابِ الأوثانِ وقَولِ الزُّورِ؛ لأنَّ تَوحيدَ اللهِ ونَفْيَ الشُّركاءِ عنه، وصِدْقَ القَولِ؛ أعظَمُ الحُرُماتِ(١).

وأيضًا لما أفْهَم قولُه: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ حلَّ السوائبِ وما معها، وتحريمَ المذبوحِ للأنصابِ، وكان سببُ ذلك كلِّه الأوثانَ؛ سبَّب عنه قولَه(٢):

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾.

أي: فاجتَنِبوا -أيُّها النَّاسُ- عِبادةَ الأصنامِ؛ فإنَّها قَذَرٌ، ومِن ذلك الذَّبحُ إليها وعِندَها(٣).

= قال القرطبي: (﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الكتابِ مِن المحرَّماتِ، وهي الميتةُ والموقُوذَةُ وأخَواتُها، ولهذا اتِّصالٌ بأمرِ الحجِّ؛ فإنَّ في الحجِّ الذبحَ، فبيَّن ما يحِلُّ ذبحُه، وأكلُ لحمِه. وقيل: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٥، ٥٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٤، ٢٥٥).

وممن قال في الجملةِ بهذا المعنى المذكورِ، وأنَّ ﴿مِن﴾ هنا لبيانِ الجنسِ: ابنُ جرير، وابن =

﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾.

أي: واجتَنِبوا -أيُّها النَّاسُ- كُلَّ قَولٍ باطِلٍ مائلٍ عن سَبيلِ الحَقِّ والاستِقامةِ، ومِن ذلك القَولُ على اللهِ بلا عِلمٍ؛ كتَحريمِ أكْلِ ما أحَلَّه اللهُ، أو تَحليلِ ما حرَّمَه[1].

= كثير، والشنقيطي، وذكر السعدي بأنَّه رأيُ كثيرٍ مِنَ المفسِّرينَ. يُنظر: المصادر السابقة. ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

وقال ابن جرير: (ويجوزُ أن يكونَ مرادًا به: اجتنبوا أن ترجسوا أنتم أيُّها الناسُ مِن الأوثانِ بعبادتِكم إيَّاها). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٧).

وقيل: ﴿مِنَ﴾ للتبعيضِ لا لبيانِ الجنسِ، وأنَّ الرجسَ عامٌّ في جميعِ المنهياتِ المحرَّماتِ، فيكونُ منهيًّا عنها عمومًا، وعن الأوثانِ التي هي بعضُها خصوصًا. وممن قال بذلك السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧، ٥٣٨).

قال ابن عطية: (والكلامُ يحتَمِلُ مَعنيَينِ: أحَدُهما: أن تكونَ ﴿مِن﴾ لبيانِ الجِنسِ، فيقَعُ نَهْيُه عن رِجسِ الأوثانِ، فيقَعُ نهيُها في غيرِ هذا الموضعِ. والمعنى الثاني: أن تكونَ ﴿مِن﴾ لابتداءِ الغايةِ، فكأنَّه نهاهم عن الرِّجسِ عامًّا، ثمَّ عَيَّن لهم مبدأَ الذي منه يَلحَقُهم؛ إذْ عبادةُ الوَثَنِ جامعةٌ لكُلِّ فَسادٍ ورِجسٍ، ويظهَرُ أنَّ الإشارةَ إلى الذَّبائحِ التي كانت للأوثانِ، فيكونُ هذا ممَّا يُتلى عليهم، ومَن قال ﴿مِن﴾ للتَّبعيضِ، قلَبَ معنى الآيةِ وأفسَدَه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٠).

وقال القرطبي: (وسمَّاها رِجسًا؛ لأنَّها سببُ الرِّجزِ، وهو العذابُ. وقيل: وصفَها بالرجسِ، والرجسُ النجسُ؛ فهي نجسةٌ حُكمًا، وليست النجاسةُ وصفًا ذاتيًّا للأعيانِ، وإنما هي وصفٌ شرعيٌّ مِن أحكامِ الإيمانِ، فلا تُزالُ إلا بالإيمانِ، كما لا تجوزُ الطهارةُ إلا بالماءِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٤).

وقيل: سمَّاها بذلك؛ لأنَّ وُجوبَ تجَنُّبِها أوكَدُ مِن وُجوبِ تجَنُّبِ الرِّجسِ، ولأنَّ عِبادَتَها أعظَمُ مِن التَّلوُّثِ بالنَّجاساتِ. أو وصفَها بذلك؛ استحقارًا واستِخفافًا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٥).

وممَّن ذهَبَ إلى العمومِ في معنى الزور هنا: ابنُ تيميَّة، والبِقَاعي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة. =

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٣- ١٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾[الفرقان: ٧٢].

وعن أبي بكرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألَا أنبِّئُكم بأكبَرِ الكبائِرِ -ثلاثًا-؟ قالوا: بلى يا رَسولَ اللهِ، قال: الإشراكُ باللهِ، وعُقوقُ الوالِدَينِ. وجلس وكان متَّكِئًا، فقال: ألَا وقَولُ الزُّورِ، قال: فما زال يُكرِّرُها حتى قُلْنا: ليتَه سَكَت))(١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

= قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بقَولِ الزُّورِ أربعةُ أقوالٍ: أحَدُها: شهادةُ الزُّورِ. قاله ابنُ مَسعودٍ. والثَّاني: الكَذِبُ. قاله مجاهد. والثَّالثُ: الشِّركُ. قاله أبو مالك. والرَّابعُ: أنَّه قَولُ المُشرِكينَ في الأنعامِ: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ. قاله الزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣٥).

(١) رواه البخاري (٢٦٥٤) واللفظ له، ومسلم (٨٧).

((مَن لم يَدَعْ قَولَ الزُّورِ والعَمَلَ به، فليس لله حاجةٌ في أن يدَعَ طَعامَه وشَرابَه))[١].

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.

أي: مُستقيمينَ لِلَّهِ على إخلاصِ التَّوحيدِ له، وإفرادِ الطَّاعةِ والعبادةِ له، مائِلينَ عن الباطِلِ إلى الحَقِّ، وعن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، مُقبِلينَ على اللهِ، مُعرِضينَ عن عبادةِ ما سِواه سُبحانَه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى باجتِنابِ عِبادةِ الأوثانِ وقَولِ الزُّورِ؛ ضَرَب مثلًا للمُشرِكِ، فقال[٣]:

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾.

أي: ومَن يُشرِكْ باللهِ شَيئًا في عبادتِه، فمَثَلُه في هلاكِه وضَلالِه عن الهُدى

---

(١) رواه البخاري (١٩٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٤).
وقال ابن عاشور: (﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ حالٌ مِن ضميرِ ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟﴾؛ أي: تكونوا إن اجْتَنبتم ذلك حنفاءَ لله). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٥).

والحَقِّ، وبُعدِه مِن ربِّه؛ كمَن سَقَط مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، فتمَزَّقَ جَسَدُه، فتُقَطِّعُه النُّسورُ سَريعًا، وتَستَلِبُ لَحمَه، فتأكُلُه ويتفَرَّقُ في حواصِلِها[١].

﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾.

أي: أو تُلقِي الرِّيحُ أوصالَه المُمَزَّقةَ في مَوضِعٍ بَعيدِ العُمقِ؛ لِشِدَّةِ هُبوبِها[٢].

عن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((... وإنَّ العَبدَ الكافِرَ إذا كان في انقِطاعٍ مِن الدُّنيا وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزل إليه مِنَ السَّماءِ مَلائِكةٌ سُودُ الوُجوهِ، معهم المُسوحُ[٣]، فيَجلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ[٤]، ثمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوتِ، حتى يجلِسَ عندَ رأسِه، فيقولُ: أيَّتُها النَّفسُ الخبيثةُ، اخرُجي إلى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وغَضَبٍ، فتفَرَّقُ في جَسَدِه، فيَنتَزِعُها كما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ مِن الصُّوفِ المَبلولِ[٥]! فيأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتى

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

قال السَّمعاني: (معنى الآية: أنَّ مَن أشرك فقد هلَك، وبعُد عن الحقِّ بُعدًا لا يصِلُ إليه بحالٍ ما دام مُشركًا). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٣٧).

وقال البيضاويُّ: (﴿أَوۡ﴾ للتخيير... أو للتنويعِ؛ فإنَّ مِن المشركين مَن لا خلاصَ له أصلًا، ومنهم مَن يُمكنُ خلاصُه بالتوبةِ، لكن على بُعْد. ويجوز أنْ يكونَ من التشبيهاتِ المركَّبةِ؛ فيكونَ المعنى: ومَن يُشركْ بالله فقد هلَكتْ نفْسُه هلاكًا يُشبهُ أحدَ الهلاكينِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧١).

(٣) المسوحُ: جَمعُ مِسحٍ، وهو اللِّباسُ الخَشِنُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٩).

(٤) مَدَّ البَصَرِ: أي: قَريبًا منه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٦).

(٥) السَّفُّودُ: الحديدةُ التي يُشوى عليها اللَّحمُ، فيَبقَى معها بقيَّةٌ مِن المحروقِ فيَستصحِبُ عندَ =

يجعَلوها في تِلكَ المُسوحِ، ويَخرُجُ منها كأنتَنِ رِيحِ جيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ! فيَصعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على ملأٍ مِنَ المَلائِكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخَبيثُ؟! فيقولونَ: فلانُ بنُ فُلانٍ، بأقبَحِ أسمائِه التي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتى يُنتَهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستَفتَحُ له فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرأ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: اكتُبُوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفلَى، فتُطرَحُ رُوحُه طَرحًا، ثمَّ قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] ...)) الحديثَ[(١)].

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: هذا الذي ذكرتُ لكم وأمرْتُكم به؛ مِن اجتِنابِ الرِّجسِ مِنَ الأوثانِ، واجتِنابِ قَولِ الزُّورِ، والالتِزامِ بتَوحيدِ اللهِ: مِن تَعظيمِ شَعائِرِه[(٢)]، ومَن يُعَظِّمْ

= الجذبِ شيئًا مِن ذلك الصُّوفِ مع قُوَّةٍ وشِدَّة. يُنظر: ((شرح الطيبي على مشكاة المصابيح)) (٤/ ١٣٨١)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٨).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ متقاربةٍ.

صحَّح إسنادَه: ابنُ جرير في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠). وحسَّنَ الحديثَ: المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٥٠). وصَحَّحه ابنُ القيمِ في ((الروح)) (ص: ٤٦)، والألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٩).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ قيل: يكونُ في موضِعِ رَفعٍ بالابتداءِ، أي: ذلك أمرُ اللهِ. ويجوزُ أن يكونَ في موضعِ رَفعٍ على خبرِ ابتداءٍ محذوفٍ. ويجوزُ أن يكونَ في مَوضِعِ نَصبٍ، أي: اتَّبِعوا ذلك). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٦).

أعلامَ الدِّينِ الظَّاهرةَ، ومنها الهدايا، بإجلالِها والقيامِ بها، واستِسمانِها وتكميلِها مِن كُلِّ وَجهٍ؛ فإنَّه يُبرهِنُ بذلك على تَقواهُ وصِحَّةِ إيمانِه؛ فتَعظيمُها تابعٌ لِتَعظيمِ اللهِ وإجلالِه، وتَعظيمُها مِن فِعلِ المتَّقينَ أصحابِ القُلوبِ المُخلِصةِ الوَجِلةِ مِن خَشيةِ اللهِ[1].

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

أي: لكم -أيُّها الحُجَّاجُ- في البُدْنِ والهَدايا مَنافِعُ؛ مِن لَبَنِها وصُوفِها وأوبارِها وأشعارِها، ورُكوبِها وغيرِ ذلك، إلى وَقتِ نَحْرِها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٩ - ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٦، ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٣٥).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكور في الجملة: ابن كثير، وأبو السعود، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨). قال الرازي: (قوله تعالَى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ لا يَليقُ إلَّا بأنْ تُحْمَلَ الشَّعائِرُ على الهدْيِ الَّذي فيه منافعُ إلى وقْتِ النَّحرِ، ومَن يحمِلُ ذلك على سائِرِ الواجباتِ يقولُ: ﴿ لَكُمْ فِيهَا ﴾ أي: في التَّمسُّكِ بها منافِعُ إلى أجلٍ يَنْقَطِعُ التَّكليفُ عندَه. والأوَّلُ هو قولُ جمهورِ المفسِّرينَ، ولا شكَّ أنَّه أقربُ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٢٤).

وقيل: مَرجِعُ الضَّميرِ في ﴿فِيهَا ﴾ يعودُ إلى الشَّعائِرِ عُمومًا، فيدخُلُ فيها الهَديُ وغَيرُه من مناسِكِ الحَجِّ وأعمالِه. وممن قال بذلك: ابنُ جرير. وجعل المنافِعَ والأجَلَ المسمَّى تختَلِفُ =

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾.

أي: ثمَّ يَحِلُّ نَحرُ تلك البُدْنِ عندَ بُلوغِها البَيتَ العَتيقَ(١).

= بحَسَبِ العَمَلِ، فقال: (قد دلَّلْنا قبلُ على أنَّ قولَ الله تعالى ذِكرُه: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٢] معنيٌّ به كلُّ ما كان مِن عمَلٍ أو مكانٍ جعَلَه الله عَلَمًا لمناسِكِ حَجِّ خَلْقِه؛ إذ لم يُخصِّصْ مِن ذلك جلَّ ثناؤه شَيئًا في خبرٍ ولا عقلٍ، وإذ كان ذلك كذلك فمَعلومٌ أنَّ معنى قَولِه: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [الحج: ٣٣]: في هذه الشَّعائرِ منافعُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى؛ فما كان مِن هذه الشَّعائرِ بُدْنًا وهَدْيًا فمنافِعُها لكم مِن حينِ تَملِكونَ إلى أنْ أوجَبْتُموها هَدايا وبُدْنًا، وما كان منها أماكِنَ يُنسَكُ لله عندها فمنافِعُها التِّجارةُ لله عِندَها، والعَمَلُ بما أمَرَ به إلى الشُّخُوصِ عنها، وما كان منها أوقاتًا فأنْ يُطاعَ اللهُ فيها بعَمَلِ أعمالِ الحَجِّ، وبطَلَبِ المعاشِ فيها بالتِّجارةِ، إلى أن يُطافَ بالبَيتِ في بَعضٍ، أو يُوافَى الحرمُ في بعضٍ، ويُخرَجَ عن الحَرَمِ في بَعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩).

قال الماوردي: (﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ: أحدُها: أنَّ المنافعَ: التجارةُ، وهذا قولُ مَن تأوَّل الشعائرَ بأنَّها مناسكُ الحجِّ، والأجلُ المسمَّى: العَودُ. والثاني: أنَّ المنافعَ: الأجرُ، والأجلُ المسمَّى: القيامةُ، وهذا تأويلُ مَن تأوَّلها بأنَّها الدِّينُ. والثالث: أنَّ المنافعَ: الركوبُ والدرُّ والنسلُ، وهذا قولُ مَن تأوَّلها بأنَّها الهَدْيُ، فعلى هذا في الأجلِ المسمَّى وجهانِ: أحدُهما: أنَّ المنافعَ قبْلَ الإيجابِ وبعْدَه، والأجلُ المسمَّى هو النحرُ، وهذا قولُ عطاءٍ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٨).

اختلف المفسِّرونَ في المُرادِ بالمحِلِّ هنا؛ تبعًا لاختلافِهم السابِقِ في مَرجِعِ الضَّميرِ في ﴿فِيهَا﴾. وممَّن قال منهم بأنَّ المرادَ بالبيت العتيق: الحَرَمُ كُلُّه: مقاتل بن سليمان، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، وابن الجوزي، والرازي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٢)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٨٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٨).

قال الزمخشريُّ: (﴿مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ﴾، أي: وُجوبُ نَحْرِها، أو وقتُ وجوبِ نَحرِها في =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- تَعظيمُ حُرُماتِ اللهِ مِنَ الأمورِ المَحبوبةِ لله، المقَرِّبةِ إليه، التي مَن عَظَّمَها وأجَلَّها أثابَه اللهُ ثوابًا جَزيلًا، وكانت خيرًا له في دِينِه ودُنياه وأُخراهُ عِندَ رَبِّه؛ قال

= الحَرَمِ مُنتهيَةً إلى البَيتِ، كقَولِه: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، والمرادُ: نَحرُها في الحَرَمِ الذي هو في حُكمِ البَيتِ؛ لأنَّ الحَرَمَ هو حريمُ البيتِ، ومِثلُ هذا في الاتِّساعِ قَولُك: بلَغْنا البلدَ، وإنَّما شارَفْتُموه واتَّصل مَسيرُكم بحُدودِه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالبيتِ هنا: الكعبةُ: ابنُ كثير، وابن عاشور، يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٨).

قال ابن كثير: (محَلُّ الهَدْيِ وانتهاؤُه إلى البَيتِ العَتيقِ، وهو الكعبةُ، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٣).

وذكر ابنُ عاشور ما حاصِلُه أنَّ الله تعالى قال: ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾، والكعبةُ لا يُنحَرُ فيها؛ وذلك أنَّ التقَرُّبَ بالهدايا يكونُ بواسطةِ تَعظيمِ الكعبةِ؛ لأنَّ الهدايا شُرِعَت تَكمِلةً لِشَرعِ الحَجِّ، والحَجُّ قَصدُ البَيتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٨).

وقال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أي: حيثُ يَحِلُّ نَحرُها ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ﴾ يعني: عند البيتِ. والمرادُ به: الحَرَمُ كلُّه، لأنَّا نَعلَمُ أنَّها لا تُذبَحُ عند البيتِ، ولا في المسجدِ. هذا على القَولِ الأوَّلِ. وعلى الثَّاني: يكونُ المعنى: ثمَّ مَحِلُّ النَّاسِ مِن إحرامِهم إلى البيتِ، وهو أن يَطوفُوا به بعد قضاءِ المناسِكِ).))تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣٦).

وقال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ يريدُ أنَّها تنتهي إلى البيتِ، وهو الطَّوافُ. فقولُه: ﴿مَحِلُّهَآ﴾ مأخوذٌ من إحلالِ المُحرِمِ. والمعنى: أنَّ شعائِرَ الحَجِّ كُلَّها من الوُقوفِ بعَرَفةَ، ورَميِ الجِمارِ، والسَّعيِ: تنتهي إلى طوافِ الإفاضةِ بالبيتِ العتيقِ. فالبيتُ على هذا التَّأويلِ مرادٌ بنَفْسِه. قاله مالكٌ في الموطَّأِ. وقال عطاءٌ: ينتهي إلى مكَّةَ. وقال الشافعي: إلى الحَرَمِ. وهذا بِناءً على أن الشَّعائِرَ هي البُدْنُ، ولا وجهَ لِتَخصيصِ الشَّعائِرِ مع عُمومِها، وإلغاءِ خُصوصيَّةِ ذِكرِ البيتِ. واللهُ أعلمُ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٧).

الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[١].

٢- أساسُ الطَّريقِ إلى اللهِ هو الصِّدقُ والإخلاصُ، وقد جمَعَ اللهُ بينهما في قَولِه تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ * حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾، ونُصوصُ الكِتابِ والسُّنَّةِ وإجماعُ الأمَّةِ: دالٌّ على ذلك في مواضِعَ؛ كقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقَولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[٢] [الزمر: ٣٢]. وكذلك يَقرِنُ اللهُ بينَ الكَذِبِ والشِّركِ، ومِن ذلك قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾[٣] [الأعراف: ١٥٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فالإيمانُ بمَنزِلةِ السَّماءِ؛ مَحفوظةً مَرفوعةً، ومَن تَرَكَ الإيمانَ بمَنزِلةِ السَّاقِطِ منَ السَّماءِ عُرْضةٌ للآفاتِ والبَلِيَّاتِ، فإمَّا أن تَخطَفَه الطَّيرُ فتُقَطِّعَه أعضاءً، أوْ تَهوِيَ به الرِّيحُ في مَكانٍ بَعيدٍ، كذلك المُشرِكُ؛ إذا تَرَكَ الاعتِصامَ بالإيمانِ تخَطَّفَتْه الشَّياطينُ مِن كُلِّ جانبٍ ومَزَّقوه، وأذهبوا عليه دِينَه ودُنياه[٤]!

٤- التَّقوى أصلُها في القَلبِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[٥]؛ لذا ذُكِرَت القلوبُ؛ لأنَّها مَراكِزُ التَّقوى التي إذا ثَبَتَت فيها

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

(٥) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٧٦).

وتمَكَّنَت، ظهَرَ أثَرُها في سائِرِ الأعضاءِ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ فيه أنَّ تَعظيمَ شَعائِرِ اللهِ صادِرٌ مِن تَقوى القُلوبِ، فالمُعَظِّمُ لها يُبرهِنُ على تقواهُ وصِحَّةِ إيمانِه؛ لأنَّ تعظيمَها تابِعٌ لِتَعظيمِ اللهِ وإجلالِه[٢].

٦- قال تعالَى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ فالمقصودُ تَقْوَى القلوبِ لِلَّهِ، وهو عبادَتُها له وحْدَه دونَ ما سِواهُ بغايَةِ العبودِيَّةِ له، وهذا مما يُبيِّنُ أنَّ عبادةَ القلوبِ هي الأصلُ، كما قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ في الجسدِ مُضْغةً إذا صَلَحت صَلَح الجسدُ كلُّه، وإذا فسَدت فسَد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ))[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ جَمَع الشِّركَ وقَولَ الزُّورِ في سِلكٍ واحِدٍ؛ لأنَّ الشِّركَ مِن بابِ الزُّورِ؛ لأنَّ المُشرِكَ زاعِمٌ أنَّ الوَثَنَ تَحِقُّ له العِبادةُ، فكأنَّه قال: فاجتَنِبوا عِبادةَ الأوثانِ التي هي رأسُ الزُّورِ، واجتَنِبوا قَولَ الزُّورِ كُلَّه، ولا تَقرَبوا منه شَيئًا؛ لِتَماديه في القُبحِ والسَّماجةِ، وما ظَنُّك بشَيءٍ مِن قَبيلِه عِبادةُ الأوثانِ[٤]؟!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٨٥).

والحديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٢٣).

ٱلْعَتِيقِ ﴾ فيه تَشريعٌ لإباحةِ الانتِفاعِ بالهَدايا انتِفاعًا لا يُتلِفُها، وهو رَدٌّ على المُشرِكينَ؛ إذ كانوا إذا قَلَّدوا الهَدْيَ وأشعَروه، حَظَروا الانتفاعَ به؛ مِن رُكوبِه، وحَمْلٍ عليه، وشُربِ لَبَنِه، وغيرِ ذلك[١]، فالآيةُ فيها دلالةٌ على أنَّ البُدْنَ إذا جُعِلَتْ شعائرَ لم يَحْرُمِ الانتفاعُ في الظَّهرِ والدَّرِّ إلى أنْ تُنْحَرَ[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ هذا دَليلٌ على أنَّ الزيادةَ في السِّمَنِ، وكَثرةَ الثَّمَنِ في البُدْنِ: أفضَلُ مِن تكثيرِ اللَّحمِ بعَدَدِ المهازيلِ[٣]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اسمَ البيتِ غَلَبَ على الحَرَمِ كلِّه فسُمِّيَ به؛ لأنَّ العِلْمَ يُحيطُ أنَّ الشَّعائِرَ لا تُنحَرُ عندَ البَيتِ نَفْسِه، إنَّما مَناحِرُها أرضُ مِنًى[٤].

٥- مِمَّا يُحمَدُ به المَسجِدُ عِتْقُه، وكان السَّلَفُ يَرَونَ العَتيقَ أفضَلَ مِنَ الجَديدِ؛ لأنَّ العَتيقَ أبعَدُ عن أن يكونَ بُنِيَ ضِرارًا، مِنَ الجَديدِ الذي يُخافُ ذلك فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾، وقال: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾؛ فإنَّ قِدَمَه يَقتَضي كثرةَ العِبادةِ فيه أيضًا، وذلك يقتَضي زيادةَ فَضْلِه[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٦٩).

لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ اسمُ الإشارةِ مُستعمَلٌ هنا للفصْلِ بينَ كلامينِ، أو بين وَجْهينِ مِن كلامٍ واحدٍ، والقصْدُ منه: التَّنبيهُ على الاهتمامِ بما سيُذْكَرُ بعْدَه. وهو مِن أساليبِ الاقتضابِ في الانتقالِ. وأُوثِرَ في الآيةِ اسْمُ إشارةِ البعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ للدَّلالةِ على بُعْدِ المَنزِلَةِ؛ كِنايةً عن تَعظيمِ مَضمونِ ما قبْلَه؛ فاسمُ الإشارةِ مُبتدأٌ حُذِفَ خبَرُه لظُهورِ تَقديرِه، أي: ذلك بَيانٌ، ونحوُه. وهو كما يُقدِّمُ الكاتِبُ جُملةً مِن كتابِه في بَعضِ الأغراضِ، فإذا أراد الخوضَ في غَرضٍ آخرَ، قال: هذا وقد كان كذا وكذا[1].

- وجُملةُ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ...﴾ إلخ مُعترِضةٌ عطفًا على جُملةِ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]؛ عطْفَ الغرَضِ على الغرضِ. وهو انتقالٌ إلى بَيانِ ما يجِبُ الحِفاظُ عليه مِن الحنيفيَّةِ، والتَّنبيهِ إلى أنَّ الإسلامَ بُنِيَ على أساسِها. والكلامُ مُوجَّهٌ إلى المُسلمينَ؛ تَنبيهًا لهم على أنَّ تلك الحُرماتِ لم يُعطِّلِ الإسلامُ حُرْمَتَها؛ فيكونُ الانتقالُ من غرَضٍ إلى غرَضٍ، ومِن مُخاطَبٍ إلى مُخاطَبٍ آخَرَ؛ فإنَّ المُسلمينَ كانوا يَعْتَمِرون ويَحجُّون قبْلَ إيجابِ الحجِّ عليهم[2].

- قولُه: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ فيه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضَميرِ (مَن)؛ لتَشريفِه والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكْمِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٥).

- وجُملةُ: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ اعتراضٌ جِيءَ به؛ تَقريرًا لِمَا قبْلَه مِن الأمْرِ بالأكْلِ والإطعامِ، ودَفْعًا لِمَا عسى يُتوهَّمُ أنَّ الإحرامَ يُحرِّمُه كما يُحرِّمُ الصَّيدَ[١].

- وجِيءَ بالمُضارِعِ في قولِه: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ ليَشمَلَ ما نزَلَ مِن القُرآنِ في ذلك ممَّا سبَقَ نُزولَ سُورةِ (الحجِّ) بأنَّه تُلِيَ فيما مَضى ولم يَزَلْ يُتْلى. وقيل: وليَشمَلَ أيضًا ما عسى أنْ يَنزِلَ مِن بعْدُ، مِثْلُ قولِه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ الآيةَ[٢] [المائدة: ١٠٣].

- وقولُه: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ غايةُ المُبالَغةِ في النَّهيِ عن تَعظيمِها، والتَّنفيرِ عن عِبادتِها[٣]، والفاءُ في ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟﴾ للتَّفريعِ، وهي جُملةٌ مُعترِضةٌ؛ للتَّصريحِ بالأمْرِ باجتنابِ ما ليس مِن حُرماتِ اللهِ. والأمْرُ باجْتنابِ الأوثانِ مُسْتعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ، كما في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٤] [النساء: ١٣٦].

- ووَصَفَ الأوثانَ بـ(الرِّجْسِ) وهو رِجْسٌ مَعنويٌّ؛ لكونِ اعتقادِ إلَهيَّتِها في النُّفوسِ بمَنزِلةِ تَعلُّقِ الخَبثِ بالأجسادِ؛ فإطْلاقُ الرِّجسِ عليها تَشبيهٌ بَليغٌ، وحين بيَّنَه بقولِه: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ عُلِمَ منه تَشبيهُ الأوثانِ به، وهو مِن التَّشبيهِ الواقِعِ على طَريقِ التَّجريدِ[٥]؛ فجُرِّدَ مِن الرِّجْسِ شَيءٌ يُسمَّى وثَنًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٣).

(٥) التجريد: هو اعتقادُ أنَّ في الشيءِ مِن نفْسِه معنًى آخَرَ كأنَّه مباينٌ له، فيخرجُ ذلك إلى ألفاظِه بما اعتقَد ذلك؛ كقولِهم: لئن لقيتَ زيدًا لتلقيَنَّ معه الأسدَ؛ فظاهرُ هذا أنَّ فيه مِن نفْسِه أسدًا، =

وهو هو[١].

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ بَيانٌ للرِّجْسِ وتَمييزٌ له؛ لأنَّ الرِّجْسَ مُبْهَمٌ يَتناوَلُ غيرَ شَيءٍ، كأنَّه قيل: فاجْتَنِبوا الرِّجسَ الَّذي هو الأوثانُ؛ فالرِّجْسُ أعَمُّ أُرِيدَ به هنا بعْضُ أنواعِه[٢].

- قولُه: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ؛ فإنَّ عِبادةَ الأوثانِ رأْسُ الزُّورِ، كأنَّه لمَّا حَثَّ على تَعظيمِ الحُرماتِ أتْبَعَه ذلك؛ رَدًّا لِمَا كانت الكَفرةُ عليه مِن تَحريمِ البحائرِ والسَّوائبِ، وتَعظيمِ الأوثانِ، والافتراءِ على اللهِ تعالى بأنَّه حكَمَ بذلك[٣].

- قولُه: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾، وقولُه: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ﴾ تَعريضٌ وإيماءٌ إلى بَيانِ نَوعينِ مِن قبائحِ المُشركينَ؛ أحدُهما: تَحريمُهم السَّوائِبَ والحامِيَ والوصيلةَ، وتَحليلُ الميتةِ والدَّمِ وغيرِهما. وثانيهما: عُكوفُهم على عِبادةِ الأوثانِ، فأَتى بهما تَخصيصًا بعْدَ تَعميمٍ؛ ليُؤْذِنَ بأنَّهما مِن أعظَمِ أنواعِ المُحرَّماتِ، ثمَّ ضَمَّ مع عِبادةِ الأوثانِ قولَ الزُّورِ، ولم يَعْطِفْ عليه، بل أعاد الفِعْلَ؛ ليَكونَ مُستقِلًّا في الاجتنابِ عنهُ، وما اكْتَفى بذلك، بل

= وهو عينُه هو الأسدُ، لا أنَّ هناك شيئًا منفصلًا. ويُطلقُ عندَ البعضِ على عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ كأنَّ الخاصَّ جُرِّد مِن العامِّ، وأُفرِد بالذِّكرِ؛ تفضيلًا، كما في هذه الآيةِ. وله إطلاقاتٌ أخرى في البديعِ والمعاني. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٥).

جعَلَ التَّعريفَ للجِنْسِ؛ ليَكونَ مِن بابِ عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾

- قولُه: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ زاد معنى ﴿حُنَفَآءَ﴾ بيانًا بقولِه: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ ...﴾ جُملةٌ مُبتدأةٌ مُؤكِّدةٌ لِمَا قبْلَها مِن الاجتنابِ عن الإشراكِ، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ (الله) في مَقامِ الإضمارِ؛ لإظهارِ حالِ قُبْحِ الإشراكِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ يَجوزُ في هذا التَّشبيهِ أنْ يكونَ مِن المُركَّبِ والمُفرَّقِ؛ فإنَّ كان تَشبيهًا مُركَّبًا، فكأنَّه قال: مَن أشرَكَ باللهِ فقد أهلَكَ نفْسَه إهلاكًا ليس بعْدَه نِهايةٌ؛ فيكونُ قد شَبَّهَ مَن أشرَكَ باللهِ وعبَدَ معه غيرَه برجُلٍ قد تَسبَّبَ إلى هَلاكِ نَفْسِه هَلاكًا لا يُرْجى معه نَجاةٌ، بأنْ صَوَّرَ حالَهُ بصُورةِ حالِ مَن خَرَّ مِن السَّماءِ، فاختطَفَتْهُ الطَّيرُ، فتَفرَّقَ مُزَعًا في حواصِلِها، أو عصَفَتْ به الرِّيحُ حتَّى هوَتْ به في بعضِ المطارِحِ البعيدةِ، وعلى هذا لا تَنظُر إلى كلِّ فَرْدٍ من أفرادِ المُشبَّهِ ومُقابِلِه مِن المُشبَّهِ به. وإنْ كان مُفرَّقًا: فقد شَبَّهَ الإيمانَ في عُلُوِّه بالسَّماءِ، والَّذي ترَكَ الإيمانَ وأشرَكَ باللهِ بالسَّاقطِ مِن السَّماءِ، والأهواءَ الَّتي تتوزَّعُ أفكارَهُ بالطَّيرِ المُختطِفةِ، والشَّيطانَ الَّذي يُطوِّحُ به في

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٧٧، ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٥).

وادي الضَّلالةِ بالرِّيحِ الَّتي تَهْوِي بما عصَفَتْ به في بعْضِ المهاوي المُتلِفَةِ؛ فيُقابَلُ كلُّ واحدٍ مِن أجزاءِ المُمثَّلِ بالمُمثَّلِ به، وعلى هذا فيكونُ قد شَبَّهَ الإيمانَ والتَّوحيدَ في عُلُوِّه وسَعَتِه وشَرَفِه بالسَّماءِ الَّتي هي مصْعَدُه ومَهْبَطُه؛ فمنها هبَطَ إلى الأرضِ، وإليها يَصعَدُ منها، وشَبَّهَ تارِكَ الإيمانِ والتَّوحيدِ بالسَّاقطِ مِن السَّماءِ إلى أسفَلِ سافِلينَ، مِن حيثُ التَّضييقُ الشَّديدُ والآلامُ المُتراكِمةُ، والطَّيرُ الَّتي تتَخطَّفُ أعضاءَهُ وتُمزِّقُه كلَّ مُمزَّقٍ، هي الشَّياطينُ الَّتي يُرسِلُها اللهُ سُبحانَه وتعالى عليه وتَؤزُّهُ أزًّا، وتُزعِجُه وتَدفَعُه إلى مَظانِّ هَلاكِهِ؛ فكلُّ شَيطانٍ له مُزْعَةٌ مِن دِينِه وقَلْبِه، كما أنَّ لكلِّ طَيرٍ مُزْعةً مِن لَحمِه وأعضائِه، والرِّيحُ الَّتي تَهْوِي به في مَكانٍ سَحيقٍ هو هواهُ الَّذي حمَلَهُ على إلْقاءِ نَفْسِه في أسفَلِ مَكانٍ وأبعَدِه مِن السَّماءِ[1].

- وقيل: شَبَّهَ الإيمانَ بالسَّماءِ؛ لعُلُوِّه، والإشراكَ بالسُّقوطِ منها؛ فالمُشرِكُ ساقِطٌ مِن أَوْجِ الإيمانِ إلى حَضيضِ الكُفْرِ، وهذا السُّقوطُ إنْ كان في حَقِّ المُرتَدِّ فظاهِرٌ، وهو في حَقِّ غيرِه باعتبارِ الفطرةِ؛ ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾؛ فإنَّ الأهواءَ المُرْدِيةَ تُوَزِّعُ أفكارَهُ، وفي ذلك تَشبيهُ الأفكارِ المُوَزَّعةِ بخَطْفِ جَوارحِ الطَّيرِ[2].

- وقولُه: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ (أو) للتَّخييرِ في نَتيجةِ التَّشبيهِ، أو للتَّنويعِ؛ أشارتِ الآيةُ إلى أنَّ الكافرينَ قِسمانِ: قِسْمٌ شِرْكُه ذَبْذبةٌ وشَكٌّ؛ فهذا مُشبَّهٌ بمَن اختطَفَتْه الطَّيرُ، فلا يَستولي طائرٌ على مُزْعةٍ منه إلَّا انتهَبَها منه آخَرُ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٥)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٤، ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٤٢، ١٤٣).

فكذلك المُذَبذَبُ؛ متى لاحَ له خَيالٌ اتَّبَعَه وترَكَ ما كان عليه. وقِسْمٌ مُصمِّمٌ على الكُفْرِ، مُستقِرٌّ فيه، فهو مُشبَّهٌ بمَن أَلْقَتْه الرِّيحُ في وادٍ سَحيقٍ، وهو إيماءٌ إلى أنَّ مِن المُشركينَ مَن شِرْكُه لا يُرْجَى منه خلاصٌ، كالَّذي تَخطَّفَتْه الطَّيرُ، ومنهم مَن شِرْكُه قد يَخلُصُ منه بالتَّوبةِ، إلَّا أنَّ تَوبَتَهُ أمْرٌ بَعيدٌ عسيرُ الحُصولِ؛ فالتَّشبيهُ مُركَّبٌ تَمثيليٌّ[١].

- قولُه: ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ فيه التَّعبيرُ بمُضاعَفِ (خطَفَ) -على قراءةِ فتحِ الخاءِ وتشديدِ الطاءِ المفتوحةِ[٢]-؛ للمُبالَغةِ[٣]. وفي إيثارِ المُضارِعِ ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ إشعارٌ باستحضارِ تلك الحالةِ العجيبةِ في مشاهَدةِ المُخاطَبِ؛ تَعجيبًا له[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ تكريرٌ لنَظيرِه السَّابقِ؛ ولكنْ مَضمونُ جُملةِ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ...﴾ أخَصُّ مِن مَضمونِ جُملةِ ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ...﴾، وذُكِرَ الأخَصُّ بعْدَ الأعمِّ؛ للاهتمامِ[٥].

- قولُه: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ على القولِ بأنَّ (مِن) للتَّبعيضِ، فيكونُ فيه إيجازٌ بالحذْفِ، أي: فإنَّ تَعظيمَها مِن أفعالِ ذَوي تَقْوى القُلوبِ. وإنْ جُعِلَت (مِن) للابتداءِ، لم يُحْتَجْ إلى إضمارِ (أفعال)، ولا (ذوي)؛ إذ المعنى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٢٨).

(٢) قرأ بها نافع وأبو جعفر، وقرأ الباقون بإسكان الخاء وتخفيف الطاء. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٦)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٨١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٢٩، ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٦).

فإنَّ تَعظيمَها ناشِئٌ مِن تَقْوى القُلوبِ[١]، ولأنَّ المُنافِقَ يُظهِرُ التَّقوى وقَلْبُه خالٍ عنها، فلا يكونُ مُجِدًّا في أداءِ الطَّاعاتِ، والمُخلِصُ التَّقوى للهِ في قَلْبِه، فيُبالِغُ في أدائِها على سَبيلِ الإخلاصِ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: إلى مَوضِعِ النَّحرِ، فذكَرَ البيتَ؛ لأنَّه أشرَفُ الحرَمِ، وهو المقصودُ بالهدْيِ وغيرِه[٣]. وفيه: كِنايةٌ عن نِهايةِ أمْرِها، ونِهايةُ أمْرِها النَّحرُ أو الذَّبحُ[٤].

- ولمَّا كانت هذه المنافعُ دُنيويَّةً، وكانت مَنفعةُ نَحْرِها إذا أُهْدِيَت دِينيَّةً؛ أشار إلى تَعظيمِ الثَّاني بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾[٥].

- وقد جاء في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ باعتبارِ مَبدأِ هذه الآياتِ، وهو قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾[٦] [الحج: ٢٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٦)

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٧).

وقال ابنُ عاشور: (لأنَّ الهدايا إنما شُرعت تكملةً لشرع الحج، والحجُّ قصدُ البيت؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧]؛ فالهدايا تابعةٌ للكعبة؛ قال تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وإن كانتِ الكعبةُ لا يُنحَر فيها، وإنما المناحِر: مِنًى، والمروة، وفِجاج مكَّةَ، أي: طُرُقُها بحسَب أنواع الهدايا، وتبيينُه في السُّنة). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٩).

الآيتان (٣٤-٣٥)

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَنسَكًا﴾: أي: إراقةَ الدِّماءِ، وذَبْحَ القَرابينِ؛ مِن نَسَك يَنْسُكُ: إذا ذبحَ القُربانَ، أو هو الموضعُ الَّذي يُنْسَكُ للَّهِ فيه، ويُتَقَرَّبُ إليه فيه، أو: العيدُ، وأصلُ (نسك): يدُلُّ على عبادةٍ وتقَرُّبٍ إلى اللهِ تعالى[١].

﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: أي: المُتواضِعينَ المُذعِنينَ له بالعُبوديَّةِ، والإخباتُ سكونُ الجوارحِ على وجهِ التواضعِ والخشوعِ لله، وأصلُ (خبت): يدُلُّ على خُشوعٍ[٢].

﴿وَجِلَتْ﴾: أي: خَافَتْ، والوجلُ خوفٌ مقرونٌ بهيبةٍ ومحبةٍ، وقيل: الوَجَلُ: استِشعارُ الخَوفِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولِكُلِّ جَماعةٍ مُؤمِنةٍ سَلَفَت جعَلْنا لها مَناسِكَ مِنَ الذَّبحِ وإراقةِ الدِّماءِ؛ لِيَذكُروا اسمَ اللهِ تعالى عند ذَبحِ ما رزَقَهم مِن هذه الأنعامِ، ويَشكُروا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٠) (١٦/ ٥٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

له. فإلهُكم -أيُّها النَّاسُ- الذي يَستَحِقُّ العِبادةَ إلهٌ واحِدٌ هو اللهُ؛ فانقادوا لأمْرِه بالطَّاعةِ، واخضَعوا لحُكمِه. وبشِّر -أيُّها النبيُّ- المتواضِعينَ الخاضِعينَ لرَبِّهم بخَيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ، وهم الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَه خَشَعَت قلوبُهم وخضَعَت؛ خوفًا مِن عِقابِه؛ والصَّابِرون على ما يقَعُ عليهم مِن أصنافِ البَلاءِ وأنواعِ الأذى، والمُؤَدُّونَ الصَّلاةَ تامَّةً، وهم مع ذلك يُنفِقونَ مِمَّا رزَقَهم اللهُ تعالى.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا جَعَلَ المشرِكونَ لأصنامِهم مَناسِكَ تُشابِهُ مناسكَ الحَجِّ، وجعَلوا لها مَواقيتَ ومَذابحَ، ذَكَّرَهم اللهُ تعالى بأنَّه ما جَعَلَ لكلِّ أُمَّةٍ إلَّا مَنسَكًا واحدًا للقُربانِ إلى اللهِ تعالى، الذي رَزَقَ الناسَ الأنعامَ التي يَتقرَّبون إليه منها؛ فلا يَحِقُّ أنْ يُجعَلَ لغيرِ اللهِ مَنْسَكٌ[1].

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾.

أي: وكلُّ جَماعةٍ مُؤمِنةٍ ممَّن قَبْلَكم شرَعْنَا لهم التقرُّبَ إلى اللهِ بالذَّبحِ وإراقةِ الدِّماءِ؛ لِيَذكُروا اسمَ اللهِ وَحْدَه عندَ نَحرِ ما رزَقَهم مِنَ الإبِلِ أو البَقَرِ أو الغَنَمِ، ويجعَلوا نَسيكَتَهم لِوَجهِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٤)، =

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

في مُناسَبتِها لِمَا قَبْلَها وجهانِ:

أحدُهما: أنَّه لَمَّا ذَكَرَ الأُممَ المتقدِّمةَ خاطبَها بقولِه: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، أي: هو الذي شرَعَ المناسكَ لكم، ولِمَن تَقدَّم قَبْلَكم.

والثاني: أنَّه إشارةٌ إلى الذَّبائحِ، أي: إلهُكم إلهٌ واحدٌ؛ فلا تَذْبحوا تَقرُّبًا لغَيرِه[1].

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾.

أي: فمَعبودُكم الذي يَستَحِقُّ العِبادةَ مَعبودٌ واحِدٌ لا شَريكَ له؛ فله وَحْدَه أخلِصوا عِباداتِكم، وانقادُوا له بالطَّاعةِ، واخضَعوا لحُكمِه[2].

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٦، ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

وحرفُ (على) في قولِه: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ (يَذْكُرُوا)، وهو بمعنى الملابسةِ والمصاحبةِ، أي: على الأنعامِ، وهو على تقديرِ مضافٍ بعد (على)، أي: عِندَ إهداءِ ما رَزَقَهم، يعني: ونَحْرَها أو ذَبْحَها. ويجوزُ أنْ تكونَ (على) بمعنَى: لامِ التَّعليلِ، والمعنَى: لِيَذْكُروا اسمَ اللَّهِ لأجلِ ما رَزَقَهم مِنْ بهيمةِ الأنعامِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٩).

قال السعدي: (والحِكْمةُ في جَعْلِ اللهِ لكُلِّ أمَّةٍ مَنسَكًا: لإقامةِ ذِكرِه، والالتفاتِ لشُكرِه؛ ولهذا قال: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

قال البقاعي: (ولَمَّا ثبَت كونُه واحِدًا، وجَب اختِصاصُه بالعبادةِ؛ فلذا قال: ﴿فَلَهُۥٓ﴾ أي: وحْدَه ﴿أَسْلِمُوا۟﴾ أي: انقادُوا بجميعِ ظَواهِركم وبَواطِنِكم في كلِّ ما أمَر به أو نَهَى عنه، ناسِخًا كان =

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾.

أي: وبَشِّرْ -يا مُحمَّدُ- بخَيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ الخاضِعينَ الخاشِعينَ المُتواضِعينَ المُطمَئِنِّينَ لله، المُنيبينَ إليه[1].

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾.

أي: الذين خَشَعَت قلوبُهم لذِكْرِ اللهِ، وخضَعَت مِن خَشيَتِه؛ خَوفًا مِن عِقابِه وسَخَطِه[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي

= أو لا، وإنْ لم تَفهَموا معناه، كغالِب مَناسِكِ الحَجِّ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٧، ٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (أي: فاترُكوا جميعَ المناسِكِ التي أُقيمَت لغيرِ اللهِ، فلا تَنسُكوا إلَّا في المَنسَكِ الذي جعَلَه لكم، تَعريضًا بالردِّ على المُشرِكينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٨)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٨٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٥، ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٨).

بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ ﴾.

أي: والصَّابِرينَ على ما يقَعُ عليهم مِن أصنافِ البَلاءِ وأنواعِ الأذى والمصائِبِ، فلا يَجري منهم التسَخُّطُ على ذلك[١].

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ ﴾.

أي: والمُؤَدِّينَ الصَّلاةَ كامِلةً مُستقيمةً ظاهِرًا وباطِنًا، فيُحافِظونَ على أوقاتِها وواجباتِها، ويؤَدُّونَها على الوَجهِ الذي أمَرَ اللهُ به[٢].

كما قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ... وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ٩].

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٨).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ بالصَّبرِ: الصَّبرُ على ما يُصيبُهم مِن الأذى في سَبيلِ الإسلامِ، وأمَّا الصَّبرُ في الحُروبِ وعلى فقْدِ الأحبَّةِ فمِمَّا تتشَرَّكُ فيه النُّفوسُ الجَلْدةُ مِن المتكبِّرينَ والمُخبِتينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

ممَّن نَصَّ على أنَّ المرادَ بها الفريضةُ: ابنُ جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥).

أي: ويُنفِقونَ مِمَّا آتيناهم مِن رِزقٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[البقرة: ٢٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ * وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ * جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦١).

قال ابن جرير: (﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ مِنَ الأموالِ ﴿يُنفِقُونَ﴾ في الواجِبِ عليهم إنفاقُها فيه؛ في زكاةٍ، ونَفَقةِ عِيالٍ، ومَن وجبت عليه نَفَقتُه، وفي سَبيلِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٢).

وقال ابنُ عاشورٍ: (المرادُ مِن الإنفاقِ: الإنفاقُ على المحتاجينَ الضعفاءِ مِن المؤمنينَ؛ لأنَّ ذلك هو دأبُ المخبتينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦١).

وممن اختار عمومَ النفقةِ في وُجوهِ البِرِّ: ابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

قال السعدي: (﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ وهذا يشمَلُ جَميعَ النَّفَقاتِ الواجِبةِ؛ كالزَّكاةِ، والكفَّارة، والنَّفَقةِ على الزَّوجات والمَماليكِ، والأقاربِ؛ والنَّفَقاتِ المُستحَبَّة؛ كالصَّدَقاتِ بجَميعِ وُجوهِها. وأُتِيَ بـ﴿مِّنۡ﴾ المُفيدةِ للتَّبعيضِ؛ لِيُعلَمَ سُهولةُ ما أمَرَ اللهُ به ورَغَّبَ فيه، وأنَّه جزءٌ يَسيرٌ مِمَّا رزَقَ اللهُ، ليس للعَبدِ في تحصيلِه قُدرةٌ، لولا تيسيرُ اللهِ له ورِزقُه إيَّاه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢١ - ٢٤].

وقال الله سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ أتبَعَ صِفةَ المُخبِتينَ بأربعِ صِفاتٍ؛ وهي: وَجَلُ القُلوبِ عندَ ذِكرِ اللهِ، والصَّبرُ على الأذى في سَبيلِه، وإقامةُ الصَّلاةِ، والإنفاقُ، وكُلُّ هذه الصِّفاتِ الأربَعِ مَظاهِرُ للتَّواضُعِ، فليس المقصودُ مَن جَمَع تلك الصِّفاتِ؛ لأنَّ بَعضَ المُؤمِنينَ لا يَجِدُ ما يُنفِقُ منه، وإنما المقصودُ مَن لم يُخِلَّ بواحدةٍ منها عندَ إمكانِها[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ وصَفَهم تعالى بالخَوفِ والوَجَلِ عندَ ذِكرِ اللهِ؛ وذلك لقُوَّةِ يَقينِهم، ومُراعاتِهم لرَبِّهم، وكأنَّهم بينَ يَدَيه[(٢)].

٣- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ هذه الآيةُ نظيرُ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فهذه حالةُ العارفينَ باللهِ، الخائِفينَ مِن سَطْوتِه وعُقوبتِه، لا كما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٢).

يفعَلُه جُهَّالُ العَوامِّ، والمُبتَدِعةُ الطَّغامُ، مِن الزَّعيقِ والزَّئير، ومِن النُّهاقِ الذي يُشبِهُ نُهاقَ الحَمير، فيُقالُ لِمَن تعاطى ذلك وزعَمَ أنَّ ذلك وَجْدٌ وخُشوعٌ: إنَّك لم تبلُغْ أن تساوِيَ حالَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا حالَ أصحابِه في المَعرفةِ باللهِ تعالى، والخَوفِ منه، والتَّعظيمِ لجَلالِه، ومع ذلك فكانت حالُهم عند المواعِظِ الفَهمَ عن اللهِ، والبُكاءَ خَوفًا مِنَ الله، وكذلك وصَفَ اللهُ تعالى أحوالَ أهلِ المَعرفةِ عندَ سَماعِ ذِكرِه وتلاوةِ كِتابِه، ومَن لم يكُنْ كذلك فليس على هَدْيِهم ولا على طريقَتِهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، فهذا وَصْفُ حالِهم، وحِكايةُ مَقالِهم؛ فمَن كان مُستَنًّا فلْيَستَنَّ، ومَن تعاطى أحوالَ المجانينِ والجُنونِ، فهو مِن أخَسِّهم حالًا، والجُنُون فُنُون[1]!!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْ﴾ فيه أنَّه وإنِ اختَلَفَت أجناسُ الشَّرائِعِ، فكُلُّها مُتَّفِقةٌ على هذا الأصلِ، وهو أُلوهيَّةُ اللهِ، وإفرادُه بالعُبوديَّةِ، وتَركُ الشِّركِ به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْ﴾[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الذَّبائحَ التي يُتقرَّبُ بها ليست مِن خَصائِصِ هذه الأمَّةِ، بل كانت لكُلِّ أمَّةٍ، وعلى أنَّ الضَّحايا لم تَزَلْ مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

الأنعامِ، وأنَّ التَّسميةَ على الذَّبحِ كانت مَشروعةً[١]، فالذَّبحُ تقرُّبًا إلى اللهِ تعالى مَشروعٌ في كُلِّ مِلَّةٍ لِكُلِّ أُمَّةٍ، وهو بُرهانٌ بَيِّنٌ على أنَّه عِبادةٌ ومَصلَحةٌ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ وأُمَّةٍ[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا ﴾ في هذا دَليلٌ على أنَّ ذَبْحَ الأُضحِيَّةِ وذِكْرَ اسمِ اللهِ عليها عِبادةٌ مَقصودةٌ بذاتِها، وأنَّها مِن توحيدِ اللهِ وتمامِ الاستِسلامِ له، ورُبَّما كان هذا المقصودُ أعظَمَ بكَثيرٍ مِن مُجَرَّدِ انتِفاعِ الفَقيرِ بها[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّ القُربانَ يَجِبُ أن يكونَ مِنَ الأنعامِ[٤].

٥- قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ ناسَبَ تَبشيرُ مَن اتَّصَف بالإخباتِ هنا؛ لأنَّ أفعالَ الحَجِّ؛ مِن نَزعِ الثِّيابِ، والتجَرُّدِ مِنَ المَخيطِ، وكَشْفِ الرَّأسِ، والتَرَدُّدِ في تلك المواضِعِ الغَبرةِ المُحَجَّرةِ، والتلبُّسِ بأفعالٍ شاقَّةٍ لا يَعلَمُ مَعناها إلَّا اللهُ تعالى- مُؤْذِنٌ بالاستِسلامِ المَحْضِ، والتَّواضُعِ المُفرِطِ؛ حيثُ يَخرُجُ الإنسانُ عن مألوفِه إلى أفعالٍ غَريبةٍ؛ ولذلك وصَفَهم بالإخباتِ والوَجَلِ إذا ذُكِرَ اللهُ تعالى، والصَّبرِ على ما أصابَهم مِنَ المشاقِّ، وإقامةِ الصَّلواتِ في مواضِعَ لا يُقيمُها إلَّا المُؤمِنونَ المُصطَفَونَ، والإنفاقِ مِمَّا رزَقَهم، ومنها الهَدايا التي يُغالونَ فيها[٥].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((أحكام الأضحية والذكاة)) لابن عثيمين (٢/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٥/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٨).

٦- قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ اعلَمْ أنَّ وَجَلَ القُلوبِ عِندَ ذِكرِ اللهِ -أي: خَوْفَها مِنَ اللهِ عندَ سَماعِ ذِكرِه- لا يُنافي ما ذكَرَه جلَّ وعلا مِن أنَّ المُؤمِنينَ تَطمَئِنُّ قُلوبُهم بذِكرِ اللهِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، ووَجهُ الجَمعِ بينَ الثَّناءِ عليهم بالوَجَلِ -الذي هو الخَوفُ عِندَ ذِكرِه جَلَّ وعلا- معَ الثَّناءِ عليهم بالطُّمَأنينةِ بذِكرِه، والخَوفُ والطُّمَأنينةُ مُتَنافيانِ: هو أنَّ الطُّمَأنينةَ بذِكرِ اللهِ تكونُ بانشراحِ الصَّدرِ بمَعرفةِ التَّوحيدِ، وصِدْقِ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فطُمَأنينَتُهم بذلك قَويَّةٌ؛ لأنَّها لم تتطَرَّقْها الشُّكوكُ ولا الشُّبَهُ- والوَجَلَ عِندَ ذِكرِ الله تعالى يكونُ بسَبَبِ خَوفِ الزَّيغِ عن الهُدى، وعَدَمِ تقَبُّلِ الأعمالِ، كما قال تعالى عنِ الرَّاسِخينَ في العِلمِ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[(١)] [الزمر: ٢٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ عبَّر بالوصفِ دُون الفِعلِ (أقاموا)؛ إشارةً إلى أنَّه لا يُقيمُها على الوجهِ المشروعِ مع تِلك المشاقِّ والشواغِلِ إلَّا الأراسخُ في حُبِّها؛ فهُم -لِمَا تمكَّن مِن حُبِّها في قُلوبِهم، والخوفِ مِن الغَفلةِ عنها- كأنَّهم دائمًا في صَلاةٍ[(٢)].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٩).

مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا ﴾ فيه تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ ﴾ على الفِعْلِ ﴿ جَعَلۡنَا ﴾؛ للتَّخصيصِ[(١)].

- قولُه: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ علَّلَ الجَعْلَ به؛ تَنبيهًا على أنَّ المقصودَ الأصليَّ مِن المناسِكِ تَذكُّرُ المعبودِ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْ﴾ الفاءُ في ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ ﴾ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها؛ فإنَّ جَعْلَه تعالى لكلِّ أُمَّةٍ مِن الأُمَمِ مَنْسكًا ممَّا يدُلُّ على وَحدانيَّتِه تعالى. وإنَّما قيل: ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، ولم يقُلْ: (واحدٌ)؛ لِمَا أنَّ المُرادَ بَيانُ أنَّه تعالى واحدٌ في ذاتِه، كما أنَّه واحدٌ في إلهِيَّتِه للكلِّ[(٣)]. وهذا التَّفريعُ الأوَّلُ تَمهيدٌ للتَّفريعِ الَّذي عَقِبَهُ وهو المقصودُ، فوقَعَ في النَّظمِ تَغييرٌ بتَقديمٍ وتأْخيرٍ، وأصْلُ النَّظمِ: فلِلَّهِ أسْلِموا؛ لأنَّ إلهَكم إلهٌ واحدٌ[(٤)].

- وفي قولِه: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْ﴾ تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ (له) على الأمْرِ ﴿أَسۡلِمُواْ﴾؛ للحصْرِ، أي: أسْلِموا له لا لغَيرِه[(٥)].

- قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴾ اعتراضٌ بينَ سَوقِ المِنَنِ، والخِطابُ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(٦)]، وناسَبَ تَبشيرُ مَنِ اتَّصَفَ بالإخباتِ هنا؛ لأنَّ أفعالَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٠).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٠).

الحجِّ مُؤْذِنةٌ بالاستسلامِ المَحضِ، والتَّواضُعِ المُفرِطِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فيه تقديمُ المفعولِ (مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) على الفِعلِ ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ للاهتمامِ به، وللدَّلالةِ على كونِه أهمَّ، ولإفادةِ الاختصاصِ، ولتناسبِ رُؤوسِ الآيِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٩).

الآيتان (٢٦-٢٧)

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَٱلْبُدْنَ ﴾: أي: الإِبِلَ، وقيل: الإبلَ والبقرَ، جَمعُ بَدَنةٍ، وسُمِّيَتْ بذلك؛ لِعِظَمِ بَدَنِها وضخامتِها، وهو اسمٌ مَأخوذٌ مِن البَدانةِ، وهي: عِظَمُ الجُثَّةِ والسِّمَنُ[(١)].

﴿صَوَآفَّ﴾: أي: قائِماتٍ قد صُفَّت قَوائِمُها في حالِ نَحْرِها، وأصلُها مِنَ الصَفِّ، وهو جَعْلُ الأجسامِ يلي أحَدُها الآخَرَ على مِنهاجٍ واحِدٍ، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استواءٍ في الشَّيءِ، وتساوٍ بينَ شيئيْنِ في المقَرِّ[(٢)].

﴿وَجَبَتْ﴾: أي: وقَعَت وسَقَطت، وأصلُ (وجب): يدُلُّ على سُقوطِ الشَّيءِ ووقُوعِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٣)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٢)

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٣).

﴿ٱلْقَانِعَ﴾: أي: السَّائِلَ الذي يَتعرَّضُ لِما في أيدِي النَّاسِ، مِن: قَنَعَ يقْنَع قُنُوعًا: أي: ذلَّ للسُّؤالِ، فهو مِن القُنُوعِ، بمعنى: المسألةِ، وقيل: القُنوعُ بمعنى القَناعةِ -أي: الرِّضا بالقَليلِ، مِن: قَنِعَ[1].

﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: أي: المُتعَرِّضَ للنَّوالِ مِن غَيرِ طَلَبٍ ولا سُؤالٍ، يقالُ: اعْتَرَّني وعَرَّني، وعَراني واعْتَراني، أي: ألَمَّ بك لتعطيَه ولا يسألُ، وقيل: هو الذي يُطيفُ بك يَطلُبُ ما عِندَك، سألَك أو سكَت عن السُّؤالِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وجعَلْنا لكم الإبِلَ الضِّخامَ مِن شَعائِرِ الدِّينِ الظَّاهِرةِ؛ لتتقرَّبوا بها إلى اللهِ، وفي حكمِها البقرُ. لكم فيها -أيُّها المتَقَرِّبونَ- خيرٌ في الدُّنيا، وأجرٌ في الآخِرةِ، فاذكُروا اسمَ اللهِ عِندَ نَحْرِكم الإبِلَ، وهي قائِمةٌ قد صُفَّت قَوائِمُها، فإذا سقَطَت على الأرضِ جُنوبُها، فكُلوا مِن لَحمِها، وأطعِمُوا منها الفَقيرَ السَّائِلَ بتذَلُّلٍ، والمتعرِّضَ للعَطاءِ دونَ سُؤالٍ، هكذا سخَّر اللهُ البُدْنَ لكم؛ لعَلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على تَسخيرِها لكم.

لن ينالَ اللهَ مِن لحومِ هذه الذَّبائِحِ ولا مِن دمائِها شَيءٌ، ولكِنْ ينالُه الإخلاصُ فيها، وأن يَكونَ القَصدُ بها وَجهَ اللهِ وَحْدَه، كذلك ذلَّلَها لكم -أيُّها المتقَرِّبونَ-

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٧)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١/ ١٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٦)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٦).

لتُعَظِّموا اللهَ، وتَشكُروا له على ما هَداكم مِنَ الحَقِّ؛ فإنَّه أهلٌ لذلك. وبشِّرْ -يا مُحمَّدُ- المُحسِنينَ بعبادةِ اللهِ وَحْدَه، والمُحسِنينَ إلى خَلْقِه؛ بكُلِّ خَيرٍ وفَلاحٍ في الدُّنيا والآخرةِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قَدَّم اللهُ سُبحانَه الحَثَّ على التقَرُّبِ بالأنعامِ كُلِّها، وكانت الإبِلُ أعظَمَها خَلْقًا، وأجَلَّها في أنفُسِهم أمْرًا؛ خصَّها بالذِّكرِ[(١)].

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: والإبِلَ الضِّخامَ العِظامَ الأجسامِ[(٢)] -وفي حُكمِها البقرُ- جعَلْناها لكم

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٩).

(٢) وممن خَصَّ البُدْنَ بالإبِلِ: الرازي، والقرطبي، والبِقاعي، والعليمي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٢).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: مُجاهدٌ، والحَكَمُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥).

قال القرطبي مُستدِلًّا على صحَّةِ هذا القَولِ: (لِقَولِه عليه السَّلامُ في الحديثِ الصَّحيحِ في يومِ الجُمُعةِ: (مَن راحَ في السَّاعةِ الأُولى فكأنَّما قَرَّب بَدَنةً، ومَن راح في السَّاعةِ الثَّانيةِ فكأنَّما قَرَّب بقَرَةً...) الحديثَ. فتفريقُه عليه السَّلامُ بين البَقَرةِ والبَدَنةِ يدُلُّ على أنَّ البَقَرةَ لا يقالُ عليها بَدَنةٌ، والله أعلمُ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦١). =

-أيُّها النَّاسُ- مِن أعلامِ دِينِ اللهِ الظَّاهِرةِ التي يُتعبَّدُ ويُتقرَّبُ بها إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فشُرِعَ سَوقُها إلى البَيتِ، وتَقليدُها وإشعارُها، وتعظيمُها، ونَحْرُها والإطعامُ منها[١].

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

أي: لكم في الإبِلِ مَنافِعُ في الدُّنيا، وأجرٌ في الآخِرةِ[٢].

﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾.

أي: فاذكُروا اسمَ اللهِ عِندَ نَحْرِكم الإبِلَ، وهي قائِمةٌ قد صُفَّت قَوائِمُها[٣].

= وقال الرسعني: (والصَّحيحُ ما قاله صاحِبُنا القاضي أبو يَعلَى بن الفرَّاء رحمةُ الله عليه: أنَّ البَدَنَةَ: اسمٌ يختَصُّ الإبِلَ في اللُّغةِ، والبقَرةَ تقومُ مَقامَها في الحُكمِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم جعل البَدَنةَ عن سَبعةٍ، والبَقَرةَ عن سَبعةٍ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٠).

وقيل: تُطلَقُ على الإبِلِ والبَقَرِ. وممن ذهب إلى ذلك: الواحديُّ، وابن عطية، والخازن، وابن كثير. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥).

ونسَب الرسعنيُّ هذا القولَ إلى جمهور المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٠)

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عمرَ، وسعيدُ بنُ المسيبِ، والحسنُ البصري، وعطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥).

قال ابنُ كثير: (أمَّا إطلاقُ البَدَنةِ على البعيرِ فمُتَّفَقٌ عليه، واختلفوا في صِحَّةِ إطلاقِ البَدَنةِ على البَقَرةِ؛ على قولين: أصَحُّهما: أنَّه يُطلَقُ عليها ذلك شرعًا، كما صحَّ في الحديثِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٠٧، ٤٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) =

عن زيادِ بنِ جُبَيرٍ، ((أنَّ ابنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أتَى على رَجُلٍ وهو يَنحَرُ بَدَنَتَه بارِكةً، فقال: ابعَثْها قِيامًا مُقَيَّدةً؛ سُنَّةَ نَبيِّكم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[١].

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾.

أي: فإذا سَقَطت الإبِلُ بعد نَحْرِها، ووقَعَت جُنوبُها على الأرضِ، فكُلوا مِن لَحمِها[٢].

﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾.

أي: وأطعِموا منها القانِعَ، وهو: الفَقيرُ السَّائِلُ بتذَلُّلٍ، وأطعِموا منها المُعْتَرَّ، وهو: الذي يأتي مُتَعَرِّضًا للنَّوالِ مِن غَيرِ طَلَبٍ ولا سُؤالٍ[٣].

= (ص: ٥٣٨).

قال السعدي: (تقامُ على قوائِمِها الأربَعِ، ثمَّ تُعقَلُ يَدُها اليُسرى، ثمَّ تُنحَرُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨). ويُنظر في حِكمة عقلِ يدِها اليسرى: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٧/ ٤٤٠).

(١) رواه البخاري (١٧١٣)، ومسلم (١٣٢٠) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦٠، ٥٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٤).

قال ابنُ جرير: (قَولُه: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ هذا مَخرَجُه مَخرجُ الأمرِ، ومعناه الإباحةُ والإطلاقُ؛ يقولُ اللهُ: فإذا نُحِرَت فسَقَطت مَيتةً بعد النَّحرِ، فقد حَلَّ لكم أكلُها، وليس بأمرِ إيجابٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦٢، ٥٦٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٩).

وممَّن اختار هذا المعنى للقانِعِ والمعتَرِّ في الجملة: ابنُ جرير، والسمعاني، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عباس في رواية عنه، وعِكرمةُ في رواية عنه، والحسَنُ البصري، والكلبي، ومقاتل، وزيد بن أسلم، ومالك بن أنس، وسعيد بن جُبَير في رواية عنه، وبكر بن عبد الله. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

أي: مِثلَ ذلك التَّسخيرِ العَجيبِ الذي تُشاهِدونَه ذَلَّلْنا لكم الإبِلَ -أيُّها النَّاسُ- ومكَّنَّاكم مِن التصَرُّفِ فيها، فتَنتَفِعونَ برُكوبِها والشُّربِ والأكلِ منها؛ لِتَشكُروا اللهَ على نِعمةِ تَسخيرِها لكم[1].

= (٥/ ٤٢٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٤).

وقيل: القانِعُ: الفقيرُ المتعَفِّفُ الذي لا يَسألُ، والمعتَرُّ: الفقيرُ الذي يسألُ. وممن اختار هذا القولَ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عباس في رواية عنه، ومجاهدٌ في رواية عنه، وعكرمةُ في رواية عنه، وقتادةُ، وإبراهيمُ النخَعي، وسعيد بن جُبَير في رواية عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٤).

قال الماوَرْدي: (﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّ﴾ فيهم أربعةُ تأويلاتٍ:

أحدُها: أنَّ القانِعَ: السَّائِلُ، والمُعتَرَّ: الذي يتعَرَّضُ ولا يَسألُ. وهذا قَولُ الحَسَنِ، وسَعيدِ بنِ جُبَيرٍ...

والثَّاني: أنَّ القانِعَ: الذي يَقنَعُ ولا يَسألُ، والمُعتَرَّ: الذي يَسألُ. وهذا قولُ قتادةَ.

والثَّالِثُ: أنَّ القانِعَ: المِسكينُ الطَّوَّافُ، والمُعتَرَّ: الصَّديقُ الزَّائِرُ. وهذا قَولُ زيدِ بنِ أسلَمَ.

والرَّابعُ: أنَّ القانِعَ: الطَّامِعُ، والمُعتَرَّ: الذي يَعتري البُدْنَ ويتعَرَّضُ لِلَّحمِ؛ لأنَّه ليس عنده لحمٌ. وهذا قَولُ عِكرمةَ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٧).

وقال الواحديُّ: (القانع يجوزُ أن يكون السائلَ وغيرَ السائلِ، وكذا المُعتَرُّ، إلا أنه لا ينفكُّ مِن تعرُّض ونوعِ طلَبٍ. وعلى هذين الوجهين كلامُ المفسِّرين؛ منهم مَن يقولُ: القانعُ: الذي يسألُ، والمُعتَرُّ: الذي يأتيك بالسلامِ ويُريك وجهَه ولا يسأل،... ومنهم مَن يقولُ بعكس هذا؛ فيقول: القانع: المتعفِّف الجالس في بيتِه، والمُعترُّ: السائلُ الذي يَعتريك ويسألُ). ((البسيط)) (١٥/ ٤١٧، ٤١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٠).

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ * وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾.

أي: لن يَصِلَ إلى اللهِ شَيءٌ مِن لحومِ بُدْنِكم، ولا دِمائِها المُهراقةِ، ولم يَشرَعْ ذَبحَها لذلك؛ فهو غنيٌّ عنكم وعنها[(١)].

﴿وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾.

أي: ولكِنَّ الذي يَصِلُ إلى اللهِ ويَبلُغُه: تَقواكم وإخلاصُكم العمَلَ له وَحْدَه، فيتقَبَّلُه منكم، ويُثيبُكم عليه إنِ اتَّقَيتُموه فيما تَذبَحونَه مِنَ البُدْنِ، وأرَدْتُم بذلك وَجْهَه وَحْدَه، لا فَخرًا ولا رياءً، ولا سُمعةً ولا مُجَرَّدَ عادةٍ؛ وعَظَّمتُم بها حُرُماتِه، وعَمِلتُم فيها بما أمَرَكم به؛ فليس المقصودُ مُجَرَّدَ ذَبحِها فحَسْبُ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٧).
قال ابنُ عاشور: (المقصودُ مِن نَفيِ أن يَصِلَ إلى اللهِ لُحومُها ودِماؤُها: إبطالُ ما يَفعَلُه المُشرِكونَ مِن نَضحِ الدِّماءِ في المَذابِحِ وحَولَ الكعبةِ، وكانوا يَذبَحونَ بالمروةِ. قال الحسن: كانوا يُلَطِّخونَ بدِماءِ القرابينِ، وكانوا يُشَرِّحونَ لحومَ الهدايا ويَنصِبونَها حولَ الكعبةِ؛ قُربانًا لله تعالى. يعني: زيادةً على ما يعطونَه للمحاويجِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكِنْ يَنظُرُ إلى قُلوبِكم وأعمالِكم))(١).

﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾.

أي: هكذا سخَّرَ اللهُ لكم البُدْنَ؛ كي تَعرِفوا عظَمَتَه باقتدارِه على ما لا يَقدِرُ عليه سِواه، فتُوَحِّدُوه بالكِبرياءِ؛ شُكرًا له في مقابِلِ تَوفيقِه إيَّاكم لِدينِكم، وللنُّسُكِ في حَجِّكم(٢).

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

أي: وبَشِّرْ -يا مُحمَّدُ- المُحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، وفي مُعامَلتِهم لعبادِ اللهِ، بالسَّعادةِ في الدُّنيا والآخرةِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال عزَّ مِن قائِلٍ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٣، ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ مَنَّ سُبحانَه علينا بتَذليلِها وتَمكينِنا مِن تَصريفِها، وهي أعظَمُ مِنَّا أبدانًا، وأقوى منا أعضاءً؛ ذلك لِيَعلَمَ العَبدُ أنَّ الأمورَ ليست على ما يَظهَرُ إلى العَبدِ مِن التَّدبيرِ، وإنَّما هي بحَسَبِ ما يُريدُها العزيزُ القَديرُ، فيَغلِبُ الصَّغيرُ الكبيرَ؛ لِيَعلَمَ الخَلقُ أنَّ الغالِبَ هو اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ فَوقَ عِبادِه[1]، فالرجُلُ الواحدُ يأخُذُ العدَدَ منها ويَسوقُها مُنقادةً، ويؤلِمُها بالإشعارِ ثمَّ بالطَّعنِ، ولولا أنَّ الله أودع في طباعِها هذا الانقيادَ، لَما كانت أعجَزَ مِن بعضِ الوحوشِ التي هي أضعَفُ منها، فتنفِرُ مِن الإنسانِ ولا تُسخَّرُ له[2]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ في هذا حَثٌّ وتَرغيبٌ على الإخلاصِ في النَّحرِ، وأن يكونَ القَصدُ وَجهَ اللهِ وَحْدَه، لا فَخرًا ولا رياءً، ولا سُمعةً ولا مُجَرَّدَ عادةٍ، وهكذا سائِرُ العباداتِ، إن لم يقتَرِنْ بها الإخلاصُ وتقوى اللهِ، كانت كالقُشورِ التي لا لُبَّ فيها، والجَسَدِ الذي لا رُوحَ فيه[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ هذا دليلٌ على أنَّ الشَّعائِرَ عامٌّ في جميعِ أعلامِ الدِّينِ الظَّاهِرةِ، وقد أخبَرَ تعالى أنَّ مِن جُملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

شَعائِرِه البُدْنَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ دَلالةٌ على جوازِ رُكوبِ البُدْنِ؛ لِعُمومِ قَولِه تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾[٢].

٣- عن مالكِ بنِ أنسٍ، قال: (حجَّ سعيدُ بنُ المُسَيِّبِ، وحجَّ معه ابنُ حرملةَ، فاشترى سعيدٌ كبشًا فضحَّى به، واشترَى ابنُ حرملةَ بَدَنةً بستةِ دنانيرَ، فنحَرها، فقال له سعيدٌ: أمَا كانَ لك فينا أُسوةٌ؟ فقال: إنِّي سمعت الله يقول: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، فأحببتُ أن آخُذَ الخيرَ مِن حيثُ دلَّني الله عليه. فأعجب ذلك ابنَ المسيِّبِ منه! وجعَل يحدِّثُ بها عنه)[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ فيه استِحبابُ نَحرِ الإبِلِ قِيامًا[٤]، فقوله: ﴿صَوَآفَّ﴾ يعني: قائمةً قد صُفَّتْ قوائمُها؛ فدلَّ ذلك على أنَّ الإبلَ تُنحَرُ قائمةً[٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ فيه أنَّ البُدْنَ تُنحَرُ قائِمةً[٦]، فقولُه: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقَطتْ، وهو يُشعِرُ بكونِها كانت قائمةً[٧].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ بدأ سُبحانَه بذِكْرِ الأكلِ، وهذا يَدُلُّ على أنَّه ليس المقصودُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).
(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٥٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٩٤).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٦٠).
(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٣).
(٧) يُنظر: ((إحكام الأحكام)) لابن دقيق العيد (٢/ ٨٣).

بالأُضحِيَّةِ الصَّدَقةَ بها، ولكنَّ المقصودَ التَّعَبُّدُ لله تعالى بنَحْرِها؛ تعظيمًا له جلَّ وعلا[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سَقَطت على الأرضِ، والقَصدُ مِن هذا التَّوقيتِ المُبادَرةُ بالانتِفاعِ بها؛ إسراعًا إلى الخَيرِ الحاصِلِ مِن ذلك في الدُّنيا بإطعامِ الفُقَراءِ وأكلِ أصحابِها منها؛ فإنَّه يُستحَبُّ أن يكونَ فُطورُ الحاجِّ يومَ النَّحرِ مِن هَدْيِه، وكذلك الخَيرُ الحاصِلُ مِن ثوابِ الآخرةِ[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ استُنبِطَ مِن الآيةِ: أنَّها تُجَزَّأُ ثلاثةَ أثلاثٍ؛ فيأكُلُ ثُلُثًا، ويُهدِي ثُلثًا، ويتصَدَّقُ بثُلُثٍ[٣]؛ لأنه جعلها بين ثلاثةٍ؛ فدَلَّ على أنَّها بيْنهم أثلاثًا[٤].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ فيه رَدٌّ لِما اعتادَه بعضُ النَّاسِ مِن لَطخِ البُيوتِ بدِماءِ الأضاحيِّ[٥].

١٠- الأُضحِيَّةُ لا يُرادُ بها مُجَرَّدُ الصَّدَقةِ بلَحْمِها، أو الانتِفاعِ به؛ لِقَولِ الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾، ولكِنْ أهَمُّ شَيءٍ فيها هو التقَرُّبُ إلى اللهِ بالذَّبحِ[٦].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((اللقاء الشَّهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٤). ويُنظر أيضًا: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٧/ ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((المهذب في فقة الإمام الشافعي)) للشيرازي (١/ ٤٣٦).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٤).

(٦) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٧/ ٤٢٤).

فيه أنَّه يُستَحَبُّ أن يُضَمَّ إلى التَّسميةِ التَّكبيرُ عِندَ الذَّبحِ، فقد ذكَر سبحانَه في الآيةِ السابقةِ ذِكرَ اسمِه عليها، فقال: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾، وذكَر هنا التكبيرَ؛ فيُستحَبُّ الجمعُ بينهما[١].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ فيه الاقتصارُ على البُدْنِ الخاصِّ بالإبلِ؛ لأنَّها أفضَلُ في الهَدْيِ[٢].

- قولُه: ﴿لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞ﴾ جُملةٌ مُستأْنَفةٌ مُقرِّرةٌ لِمَا قبْلَها[٣]، وكلمةُ ﴿لَكُمۡ﴾ فيها امتنانٌ على النَّاسِ، وتَقديمُها على المُبتدأِ ﴿خَيۡرٞ﴾؛ لِيتأتَّى كونُ المُبتدَأِ نَكِرةً؛ لِيُفيدَ تَنوينُه التَّعظيمَ، وتَقديمُ ﴿فِيهَا﴾ على مُتعلَّقِه وهو ﴿خَيۡرٞ﴾؛ للاهتمامِ بما تَجمَعُه وتَحْتوي عليه مِن الفوائدِ[٤].

- وإضافةُ الشَّعائرِ في قولِه: ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾؛ تَعظيمٌ لها[٥].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ استئنافٌ؛ للامتنانِ بما خلَقَ مِن المخلوقاتِ لنَفْعِ النَّاسِ[٦]. وفي قولِه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ تَعريضٌ

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٩٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٢، ٢٦٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٦).

بالمُشركينَ؛ إذ وَضَعوا الشِّرْكَ مَوضِعَ الشُّكرِ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ تَعليلٌ لجُملةِ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾، أي: دَلَّ على أنَّا سَخَّرناها لكم لِتَشْكُروني: أنَّه لا انتفاعَ للهِ بشَيءٍ مِن لُحومِها ولا دِمائِها[٢].

- ولَمَّا كان السياقُ للحَثِّ على التَّقريبِ له سُبحانَه، كان تقديمُ اسمِه على الفاعِلِ أنسَبَ للإسراعِ بنفي ما قد يُتوهَّمُ مِن لَحاقِ نفعٍ أو ضُرٍّ، فقال معبِّرًا بالاسمِ العلَمِ الذي حمى عن الشَّرِكةِ بكُلِّ اعتبارٍ: ﴿ٱللَّهَ﴾[٣].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ (مِن) ابتدائيَّةٌ، وعُبِّرَ بلفْظِ ﴿ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ دونَ: (تَقْواكم) أو (التَّقوى)، مُجرَّدًا مع كونِ المعدولِ عنه أوجَزَ؛ لأنَّ في هذا الإطنابِ زِيادةَ مَعنًى مِن البلاغةِ[٤].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ كرَّرَ تَذكيرَ النِّعمةِ بالتَّسخيرِ، ثمَّ قال: لِتَشْكُروا اللهَ على هِدايَتِه إيَّاكم لِأَعْلامِ دِينِه ومَناسِكِ حَجِّه، بأنْ تُكبِّروا وتُهَلِّلوا، فاختصَرَ الكلامَ بأنْ ضَمَّنَ التَّكبيرَ معنى الشُّكرِ وعَدَّاهُ تَعْديتَه، فصارَ مدلولُ الجُملتينِ مُترادِفًا؛ فوقَعَ التَّأكيدُ[٥]. وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٢، ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) =

حسُنَ تَسميةُ الشُّكرِ بالتَّكبيرِ؛ لأنَّ التَّكبيرَ على هِدايةِ اللهِ تعالى المكلَّفَ لِأعْلامِ الدِّينِ ومَناسِكِ الحجِّ: هو النِّداءُ على الجميلِ بسَببِ إحسانِه، وليس معنى الشُّكرِ اللِّسانيِّ إلَّا هذا، فوَضْعُ التَّكبيرِ هاهنا مَوضِعَ الشُّكرِ، كوضْعِ ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٢٨] مَوضِعَ (يَنحَروا)؛ للإيذانِ بأنَّ المقصودَ الأوَّلِيَّ مِن شَرعيَّةِ الأحكامِ التَّوحيدُ وذِكْرُ اللهِ تعالى وحْدَه وتَشْييدُه، وأنَّ رأْسَ الشُّكرِ هو الذِّكْرُ باللِّسانِ[1].

- قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الخِطابُ للمُسلمينَ، وتَغييرُ الأُسلوبِ تَخريجٌ على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ بالإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم قدِ اهتَدَوا وعَمِلوا بالاهتداءِ، فأحْسَنوا[2].

= (٧/ ٥١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٠).

الآيات (٣٨-٤١)

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ خَوَّانٍ ﴾: أي: مُبالِغٍ في الخيانةِ بالإصرارِ عليها، والخِيانةُ: مُخالفةُ الحَقِّ بنَقضِ العَهدِ، وأصلُ (خون): يدُلُّ على نُقصانِ الوَفاءِ[١].

﴿ صَوَٰمِعُ ﴾: أي: مَنازِلُ الرُّهبانِ، جَمعُ صَومَعةٍ، وهي كلُّ بناءٍ مُتَصَمِّعِ الرَّأسِ، أي: متلاصِقِه، وسُمِّيَت صومعةً؛ لانضمامِ طرَفَيْها، أو لأنَّها دقيقةُ الرَّأْسِ، وأصلُ (صمع): يدُلُّ على لَطافةٍ في الشَّيءِ وتَضامٍّ[٢].

﴿ وَبِيَعٞ ﴾: أي: كنائِسُ النَّصارى، جَمعُ بِيعَةٍ، ولا يُعرَفُ أصلُ اشتِقاقِها، ولعَلَّها مُعَرَّبةٌ عن لُغةٍ أُخرى، قيل: هي الفارسيةُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٠)، ((التلخيص في معرفة أسماء الأشياء)) للعسكري (ص: ١٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٣١)، ((المعرب)) للجواليقي (ص: ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٨).

﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾: أي: كَنائِسُ اليَهودِ، وهي بالعِبرانيَّةِ صَلُوتَا، وقيل: مواضعُ صلواتٍ، ويُسمَّى موضعُ العبادةِ الصَّلاةَ(١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ﴾: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محلِّ جرٍّ نعتٌ للمَوصولِ الأوَّلِ في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾، أو بدلٌ منه. ويجوزُ أن يكونَ في محلِّ نصبٍ على المَدحِ، وأن يكونَ في محلِّ رفعٍ على إضمارِ مُبتدأٍ.

﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ﴾ المصدَرُ المؤوَّلُ مَنصوبٌ على الاستثناءِ المُنقَطِعِ، وهذا ممَّا يُجْمِعُ العربُ على نصبِه؛ لأنَّه مُنقَطِعٌ لا يمكنُ تَوَجُّهُ العاملِ إليه؛ لأنَّك لو قلتَ: (الذين أُخْرِجوا مِنْ ديارِهم إلَّا أَنْ يقولوا ربُّنا اللهُ) لم يَصحَّ. وقيل: إنَّ الاستثناءَ مُتَّصِلٌ مِن عُمومِ الحَقِّ، فـ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ في مَوْضِع جَرٍّ على البَدَلِ مِن ﴿حَقٍّ﴾؛ لِما في (غَيْرِ) من معنى النَّفي، والمعنى: أُخرِجُوا بلا حَقٍّ إلَّا بِقَولِهم رَبُّنا اللهُ، أي: أُخرِجوا بغيرِ مُوجِبٍ سِوى التَّوحيدِ الذي ينبغي أن يكونَ مُوجِبَ الإقرارِ والتَّمكينِ، لا الإخراجِ والتَّسييرِ. وهذا مِن تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّهُ، ويُسمَّى عند أهلِ البَديعِ: تأكيدَ المَدحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ، ومِثلُه قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩]، أي: لا تَجِدونَ شَيئًا تَنقِمونَه غيرَ ما ذُكِرَ، وكُلُّ ذلك ليس حقيقًا بأن يُنقَمَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٣١)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٦)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٨/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: إنَّ اللهَ تعالى يَدفَعُ عن المُؤمِنينَ عُدوانَ الكُفَّارِ، وكَيدَ الأشرارِ؛ لأنَّه عَزَّ وجَلَّ لا يُحِبُّ كُلَّ خوَّانٍ لأمانةِ رَبِّه، جَحودٍ لنِعمَتِه.

أَذِنَ اللهُ للمُسلِمينَ في القِتالِ؛ بسَبَبِ ما وقَعَ عليهم مِن الظُّلْمِ والعُدوانِ، وإنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على نَصرِهم، وإذلالِ عَدوِّهم؛ الذين أخرَجَهم الكُفَّارُ ظُلمًا مِن ديارِهم، لا لِشَيءٍ فَعَلوه إلَّا لأنَّهم أسلَموا وقالوا: ربُّنا اللهُ وَحْدَه. ولولا ما شَرَعَه اللهُ مِن دَفْعِ المُشرِكينَ بالمُجاهِدينَ بتشريع الجهادِ، لَخُرِّبَت الأرضُ، وهُدِّمَت فيها أماكِنُ العِبادةِ؛ مِن معابدِ الرُّهبانِ، ومعابدِ النَّصارى، ومَعابِدِ اليَهودِ، ومساجِدِ المُسلِمينَ التي يُصَلُّونَ فيها، ويَذكُرونَ اسمَ اللهِ فيها كثيرًا.

ولَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يجاهِدُ في سَبيلِه؛ لِتَكونَ كَلِمتُه هي العُليا؛ إنَّ اللهَ لَقَويٌّ لا يُغالَبُ، عزيزٌ لا يُرامُ.

الذينَ إنْ مكَّنَّاهم في الأرضِ، واستَخْلَفْناهم فيها، وأظهَرْناهم على عَدُوِّهم؛ أقاموا الصَّلاةَ، وأخرَجوا زكاةَ أموالِهم إلى أهلِها، وأمَروا بالمعروفِ، ونَهَوا عن المنكَرِ، ولله وَحْدَه مَصيرُ الأمورِ كُلِّها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى جُملةً مِمَّا يُفعَلُ في الحَجِّ، وكان المُشرِكونَ قد صَدُّوا رسولَ

= (٨/ ٢٨٢)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٦/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٥).

اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عام الحُدَيبيَةِ، وآذَوا مَن كان بمكَّةَ مِن المُؤمِنينَ- أنزل اللهُ تعالى هذه الآياتِ مُبَشِّرةً المُؤمِنينَ بدَفْعِه تعالى عنهم، ومُشيرةً إلى نَصرِهم، وإذْنِه لهم في القِتالِ، وتَمكينِهم في الأرضِ برَدِّهم إلى ديارِهم، وفَتْحِ مَكَّةَ، وأنَّ عاقبةَ الأمورِ راجِعةٌ إلى اللهِ تعالى[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يَدْفَعُ﴾ مِن دَفَع يَدفَعُ، والفِعلُ مِن طَرَفِه وَحْدَه[٢].

٢- قراءة ﴿يُدَٰفِعُ﴾ مِن دافَع يُدافِعُ، وهو بمعنى دفَعَ، وإن كان مِنَ المُفاعَلةِ، مِثلُ: عاقَبْتُ اللِّصَّ، وعافاه اللهُ. وقيل: على معنى تكَرُّرِ الفِعلِ؛ أي: يدفَعُ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يدْفَعُ شرَّ الكُفَّارِ وكَيدَ المُشرِكينَ عن عبادِه المُؤمِنينَ، فيُنَجِّيهم، ويَحفَظُهم، ويَنصُرُهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٤).

(٢) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب البصري. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٨٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٧، ٤٧٨)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٢٠).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٨٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٨)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦١، ٢٦٢). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مَن يَخونُ أمانَتَه فيَبخَسُ حُقوقَ اللهِ عليه، ويُخالِفُ أمْرَه ونَهْيَه، ويَخونُ حُقوقَ عِبادِه فيَنقُضُ العَهدَ الذي بينه وبينَهم، ويَجحَدُ نِعَمَ اللهِ عليه، ولا يَشكُرُه عليها[(١)].

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه؛ أي: يقاتِلُهم الكُفَّارُ[(٢)].

٢- قراءةُ ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ بإسنادِ الفِعلِ إلى الفاعِلِ؛ أي: هم يُقاتِلون الكفَّارَ

= وهذا المعنى المذكورُ هو في الجُملة اختيار: ابنِ جَرير، وابن كَثير، وابنِ عاشور، والشِّنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وذهَب السعديُّ إلى معنًى أعمَّ من ذلك، فقال: (الله يُدافِعُ عنهم كلَّ مكروهٍ، ويَدفعُ عنهم كُلَّ شرٍّ بسَببِ إيمانِهم؛ مِن شرِّ الكفَّارِ، وشرِّ وَسوسةِ الشَّيطانِ، وشُرورِ أنفُسِهم، وسيِّئاتِ أعمالِهم، ويَحمِلُ عنهم عندَ نزولِ المكارهِ ما لا يَتحمَّلونَ، فيُخفِّفُ عنهم غايةَ التَّخفيفِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦١، ٢٦٢).

(٢) قرأ بها نافعٌ، وحفصٌ عن عاصمٍ، وابنُ عامر، وأبو جعفر المدني. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٨١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٨٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٨، ٤٧٩).

الذين بَدؤُوهم بالقتالِ[(١)].

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾.

أي: أَذِنَ اللهُ للمُؤمِنينَ في قِتالِ الكُفَّارِ الذين يُقاتِلونَهم؛ وذلك بسَبَبِ ظُلمِهم لهم، بمُحارَبتِهم في دِينِهم وأذِيَّتِهم، وإخراجِهم مِن ديارِهم[(٢)].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧١)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٨١)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٢).

قال ابن زَنْجَلَة: (قال عاصمٌ: لو كانتْ «يُقاتِلون» بكسر التاء، ففيمَ أُذِنَ لهم؟ فكأنَّهم ذهبوا إلى أن المشركين قد كانوا بَدؤوهم بالقتال، فأذِن اللهُ لهم حين قاتلوا أنْ يُقاتِلوا مَن قاتلهم. وهو وجهٌ حسَنٌ). ((حجة القراءات)) (ص: ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٢).

قال مكيُّ بن أبي طالب: (الآيةُ ناسِخةٌ عند الجَميعِ لكُلِّ ما في القرآنِ مِن الأمرِ بالصَّفحِ عنهم، والصَّبرِ على أذاهم، والمَنعِ مِن قتالِهم). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (٧/ ٤٨٩٨).

وقال أبو بكرِ بنُ العربيِّ: (هذه الآيةُ ناسِخةٌ لكُلِّ آيةٍ في القُرآنِ تَقتَضي التوقُّفَ عن القِتالِ؛ مِن تَركٍ وإعراضٍ، وصَفحٍ ونحوِه...)، ثمَّ ذَكَر قَولَ مَن قال: إنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ بقَولِه تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال: (بل الآيةُ بالإذنِ في القتالِ نَسَخَت هذه الآيةَ؛ لأنَّها نَسَخَت أمثالَها بإجماعٍ مِن الأمَّةِ، ويَستحيلُ أن يبقى التَّركُ مع الأمرِ بالقتالِ، فكُلُّ ما في القرآنِ مِن نَظائِرِه فإنَّه جميعَه منسوخٌ به). ((الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم)) (٢/ ٣٠٤). ويُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٥٧٠).

قال الشوكاني: (هذه الآيةُ مقرِّرةٌ أيضًا لمضمونِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾؛ فإنَّ إباحةَ القتالِ لهم هي مِن جملةِ دفْعِ اللهِ عنهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٠).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (أوَّلُ آيةٍ نَزَلت في القتالِ قَولُه تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج ٣٩]، فأذِنَ اللهُ لهم أوَّلًا فيه، ثمَّ كُتِبَ عليهم ثانيًا فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة ٢١٦]). ((الصفدية)) (٢/ ٣١٧). =

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ على نَصرِ المُؤمِنينَ على أعدائِهم لقدِيرٌ، ولو بغيرِ قِتالٍ[1].

كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾ [محمد: ٤].

﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ المؤمنينَ إنما أُذِن لهم في القتالِ لأجْلِ أنَّهم ظُلِموا؛ بيَّن تعالى ظُلمَهم لهم بهذينِ الوجهينِ: أحدُهما: أنَّهم أخرجوهم من ديارِهم، والثاني: أنَّهم أخرجوهم بسبَبِ أنَّهم قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[2]، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾.

أي: الذين أخرَجَهم الكُفَّارُ ظُلمًا مِن دِيارِهم بغيرِ حَقٍّ يُوجِبُ ذلك، وما كان

= وقال البِقاعي: (﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ أي: للَّذين فيهم قوَّةُ المدافعة، في المدافعةِ بالقِتالِ بعدَ أنْ كانوا يُمنَعون منه بمكَّة ويُؤمَرون بالصفح). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٥٦).

وقال الشِّنقيطيُّ: (دلَّ قوله: ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ على أنَّ المرادُ مَن يَصلُح للقِتالِ منهم دونَ مَن لا يصلُحُ له؛ كالأعمى والأعرجِ، والمريضِ والضعيفِ، والعاجزِ عن السَّفرِ للجِهادِ لفَقرِه). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٤، ٢٦٥).

قال السعدي: (﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ فليَسْتنصروه، وليَسْتَعينوا به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٢٩).

لهم ذَنبٌ يَنقِم عليهم أعداؤُهم بسَبَبِه إلَّا أنَّهم قالوا ربُّنا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له![1] كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١].

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾.

أي: ولولا كَفُّ اللهِ المُشرِكينَ بالمُجاهِدينَ المُوحِّدينَ، وشَرْعُه جهادَهم، لهدَّمَ المُشرِكونَ مَواضِعَ العِبادةِ التي اتُّخِذَت قبْلَ الإسلامِ مِن أتباعِ الأديانِ السَّماويَّةِ قبْلَ تَحريفِها وتَبديلِها، فأذِنَ للمُسلِمينَ بالقِتالِ كما أذِنَ لأُمَمِ التَّوحيدِ مِن قَبلِهم؛ لكيلا يطغَى عليهم المُشرِكونَ، ولولا ذلك لهَدَّموا المعابِدَ الصَّغيرةَ التي للرُّهبانِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧٩، ٥٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩).

قال ابن عطية: (قَولُه ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ...﴾ الآيَةَ، تقويةٌ للأمرِ بالقتالِ، وذَكَرَ الحُجَّةَ بالمصلحةِ فيه، وذكر أنَّه متقَدِّمٌ في الاسمِ، وبه صلحت الشرائِعُ، واجتمعت المتعَبَّداتُ، فكأنَّه قال: أُذِنَ في القتالِ فلْيُقاتِلِ المؤمنونَ، ولولا القتالُ والجهادُ لتُغُلِّبَ على الحَقِّ في كلِّ أمَّةٍ. هذا أصوبُ تأويلاتِ الآيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٤).

وقال أيضًا: (ومعاني هذه الأسماءِ هي في الأُمَمِ التي لها كتابٌ على قديمِ الدَّهرِ، ولم يُذكَرْ في هذه المجوسُ ولا أهلُ الإشراكِ؛ لأنَّ هؤلاء ليس لهم ما تجِبُ حمايتُه، ولا يوجَدُ ذِكرُ اللهِ إلَّا عند أهلِ الشَّرائعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٥).

وقال القرطبيُّ: (أي: لولا ما شرَعه اللهُ تعالى للأنبياءِ والمؤمِنينَ مِن قِتالِ الأعداءِ لاستولَى أهلُ الشِّركِ، وعطَّلوا ما بَنَتْه أربابُ الدِّياناتِ مِن مواضِعِ العباداتِ، ولكنَّه دفَع بأنْ أوجبَ القِتالَ؛ ليتفرَّغَ أهلُ الدِّينِ للعبادةِ؛ فالجهادُ أمرٌ متقدِّمٌ في الأمَمِ، وبه صَلَحت الشَّرائعُ، واجتَمَعت المُتعبَّداتُ، فكأنَّه قال: أُذِنَ في القتالِ، فليُقاتِلِ المؤمِنونَ، ثم قُوِّيَ هذا الأمرُ في القِتال بقَولِه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ الآيَةَ، أي: لولا القتالُ والجِهادُ لتُغلِّبَ على الحقِّ في كلِّ أمَّةٍ؛ فمَن =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

أي: ولهَدَّمَ المُشرِكونَ معابِدَ كَبيرةً للنَّصارى، وكنائِسَ لليَهودِ، ومساجدَ للمُسلِمينَ، يُذكَرُ فيها[1] .....

= استَبشَع مِن النَّصارى والصَّابئين الجِهادَ فهو مُناقِضٌ لِمَذهبِه؛ إذ لولا القتالُ لَمَا بقِيَ الدِّينُ الذي يَذُبُّ عنه، وأيضًا هذه المواضِعُ التي اتُّخِذَت قبْلَ تحريفِهم وتبديلِهم، وقبل نسْخِ تلك المِلل بالإسلامِ: إنَّما ذُكِرَتْ لهذا المعنى، أي: لولا هذا الدَّفعُ لهُدِّمَ في زَمَنِ موسى الكنائِسُ، وفي زمَن عيسى الصَّوامِعُ والبِيَعُ، وفي زَمَنِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ المساجِدُ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٠).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: لولا دِفاعُ النَّاسِ عن مواضِعِ عِبادةِ المُسلِمينَ لضَرِيَ [أي: لاجْتَرأَ] المُشرِكونَ، ولَتَجاوَزوا فيه المُسلِمين إلى الاعتداءِ على ما يُجاوِرُ بلادَهم مِن أهلِ المِللِ الأخرى المُناوِيةِ لِمِلَّةِ الشِّركِ، ولهدَّموا معابدَهم مِن صوامعَ وبِيَعٍ وصلواتٍ ومساجِدَ يُذكرُ فيها اسمُ اللهِ كثيرًا؛ قصدًا منهم لمحوِ دعوةِ التَّوحيدِ، ومَحْقًا للأديانِ المخالِفةِ للشِّركِ... ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ: لولا ما سبَق قبلَ الإسلامِ مِن إذنِ اللهِ لأُمَمِ التَّوحيدِ بقِتالِ أهلِ الشِّركِ -كما قاتَلَ داوودُ جالوتَ، وكما تغلَّب سُليمانُ على مَلِكةِ سَبَأٍ- لَمَحَق المُشرِكونَ معالِمَ التَّوحيدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(١) قيل: الضَّميرُ في ﴿فِيهَا﴾ يعودُ على أقرَبِ مذكورٍ، وهو المساجِدُ، وممَّن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٦).

وقيل: هو عائدٌ على جميعِ المعابِدِ المذكورةِ: (الصَّوامِعُ، والبِيَعُ، والصَّلواتُ، والمساجِدُ)، وممن قال بذلك: السعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤١).

قال ابنُ عاشور: (جملةُ ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ صفةٌ، والغالب في الصِّفة الواردة بعد جُمَلٍ متعاطفة فيها أنْ تَرجِع إلى ما في تلك الجُمل من الموصوف بالصِّفة؛ فلذلك قيل =

اسمُ اللهِ كَثيرًا[(١)].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾.

أي: ولَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يجاهِدُ في سَبيلِه؛ لِتكونَ كَلِمتُه هي العُليا[(٢)].

كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لقَوِيٌّ كاملُ القوةِ، عزيزٌ منيعٌ، غالبٌ لا يُغلَبُ ولا يُقهَرُ، ومَن كان القويُّ العزيزُ ناصِرَه، فهو المنصورُ ولو كان هو الأضعَفَ، وعَدُوُّه هو المقهورُ

= برُجوع صِفة ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ﴾ إلى ﴿صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ﴾؛ للأربعة المذكورات قَبْلَها، وهي مُعاد ضمير ﴿فِيهَا﴾. وفائدةُ هذا الوصف الإيماءُ إلى أنَّ سبب هدْمِها أنَّها يُذكَر فيها اسمُ الله كثيرًا، أي: ولا تُذكَر أسماءُ أصنام أهل الشرك؛ فإنَّهم لَمَّا أَخرجوا المسلمين بلا سببٍ إلَّا أنهم يَذْكرون اسمَ الله، فيقولون: ربُّنا الله؛ لِمَحْوِ ذِكرِ اسمِ الله مِن بلدهم؛ لا جرَمَ أنَّهم يُهدِّمون المواضعَ المجعولةَ لذِكر اسم الله كثيرًا، أي: دون ذِكر الأصنام). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٢، ٥٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٥، ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٥).

وقال الشِّنقيطيُّ: (بيَّن اللهُ جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّه أقسَمَ لَيَنصُرَنَّ مَن يَنصُرُه، ومعلومٌ أنَّ نَصْرَ اللهِ إنَّما هو باتِّباعِ ما شرَعه؛ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه، ونُصرةِ رُسُلِه وأتْباعِهم، ونُصرةِ دينِه، وجِهادِ أعدائِه وقَهرِهم؛ حتى تكونَ كَلِمتُه جلَّ وعلا هي العُليا، وكلمةُ أعدائِه هي السُّفلى). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٦٥).

ولو كان هو الأقوى[١].

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وصَفَ اللهُ سُبحانه نفْسَه بما يقتضي تمكينَ مَنصورِه الذي يَنصُرُه؛ وصَفَهم بما يُبيِّنُ أنَّ قتالَهم له لا لهم، بعْدَ أن وصَفَهم بأنَّهم أُوذوا بالإخراجِ مِن الدِّيارِ، الذي يعادِلُ القَتلَ، فقال[٢]:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

أي: الذين إنْ وَطَّنَّا لهم في البلادِ فقَهَروا المُشرِكينَ، وصارت لهم السُّلطةُ والغَلَبةُ والمُلْكُ، أقاموا الصَّلاةَ بحُدودِها وأركانِها وشُروطِها وواجباتِها، وأعطَوا زكاةَ الأموالِ لِمُستَحقِّيها[٣].

﴿ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾.

أي: وأمَروا النَّاسَ بالإيمانِ وتَوحيدِ اللهِ وطاعتِه، ونَهَوهم عن الكُفرِ والشِّركِ به ومَعصِيتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٠).

قال القرطبي: (قال الضحَّاكُ: هو شَرطٌ شَرَطه اللهُ عَزَّ وجَلَّ على مَن آتاه المُلْكَ. وهذا حَسَنٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٧)، ((تفسير =

﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

أي: وإلى الله وَحْدَه تَرجِعُ أمورُ الخَلقِ، وتَصيرُ إليه سُبحانَه[1].

= ابن عطية)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠).

قال السعدي: (﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يَشمَلُ كُلَّ معروفٍ حُسنُه شَرعًا وعَقلًا مِن حُقوقِ اللهِ وحُقوقِ الآدميِّينَ ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ كُلِّ مُنكَرٍ شَرعًا وعَقلًا مَعروفٍ قُبحُه، والأمرُ بالشَّيءِ والنَّهيُ عنه يدخُلُ فيه ما لا يَتِمُّ إلَّا به؛ فإذا كان المعروفُ والمُنكَرُ يتوقَّفُ على تعلُّمٍ وتعليمٍ أجبَروا النَّاسَ على التعَلُّم والتَّعليمِ، وإذا كان يَتوقَّفُ على تأديبٍ مُقدَّرٍ شَرعًا أو غيرِ مُقدَّرٍ -كأنواعِ التَّعزيرِ- قاموا بذلك، وإذا كان يَتوقَّفُ على جَعْلِ أُناسٍ مُتصدِّين له لزِمَ ذلك، ونحوُ ذلك ممَّا لا يتمُّ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المُنكَرِ إلَّا به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠).

قيل: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: في الآخرةِ. وممن قال بذلك: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والواحدي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٦٢). ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٤٤).

قال ابنُ جرير: (يقولُ: ولله آخرُ أمورِ الخلقِ؛ يعني: أنَّ إليه مصيرَها في الثوابِ عليها، والعقابِ في الدارِ الآخرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٨).

وقال البغوي: (يعني: آخرُ أمورِ الخلقِ ومَصيرُهم إليه؛ يعني: يُبْطَلُ كلُّ مُلْكٍ سِوَى ملكِه، فتصيرُ الأمورُ كلُّها إليه، بلا مُنازِعٍ ولا مُدَّعٍ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٤٤).

وقال السعديُّ: (﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: جميع الأمور تَرجِع إلى الله، وقد أخبر أنَّ العاقبة للتقوى؛ فمَن سلَّطه اللهُ على العِباد من الملوك، وقام بأمْرِ الله، كانتْ له العاقبةُ الحميدة، والحالةُ الرشيدة، ومَن تَسلَّط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوَى نفْسِه، فإنَّه وإنْ حصَل له مُلكٌ مُوقَّتٌ، فإنَّ عاقبتَه غيرُ حميدة؛ فولايتُه مشؤومة، وعاقبتُه مذمومة). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠).

وقال البِقاعي: (﴿وَلِلَّهِ﴾، أي: المَلِكِ الأعلى المحيط بكُلِّ شيء ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فتَمكينُهم كائنٌ لا محالةَ، لكنْ ذِكرُه للعاقبةِ وطيُّه للبادئةِ مُنبِّهٌ على أنه تعالى يَجعلُ للشيطان -كما هو المشاهَد في الأغلب- حظًّا في البادئة؛ ليتبينَ الصادقُ من الكاذب، والمزلزلُ مِن الثابت، وأمَّا العاقبةُ فهي مُتمحِّضة له إلى أنْ يكونَ آخِرُ ذلك القيامةَ التي لا يكونُ لأحدٍ فيها أمرٌ، حتى إنَّه =

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۞ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۞ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٩ - ١١١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ هذا إخبارٌ ووَعدٌ وبِشارةٌ مِن اللهِ للذين آمنوا، وكُلُّ مُؤمِنٍ له مِن هذه المدافَعةِ والفَضيلةِ بحَسَبِ إيمانِه، فمُستَقِلٌّ ومُستَكثِرٌ[(١)]، فبحَسَبِ إيمانِه يكونُ دِفاعُ اللهِ عنه؛ فإنْ كَمَل إيمانُه كان دَفْعُ اللهِ عنه أتمَّ دَفعٍ، وإنْ مَزَج مُزِجَ له، وإن كان مرَّةً ومرَّةً فاللهُ له مرَّةً ومرَّةً، كما قال بَعضُ السَّلَفِ: مَن أقبَلَ على اللهِ بكُلِّيَّتِه أقبل اللهُ عليه جُملةً، ومن أعرَضَ عن الله بكُلِّيَّتِه أعرضَ اللهُ عنه جملةً، ومن كان مرَّةً ومرَّةً فاللهُ له مرَّةً ومرَّةً[(٢)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن أخلَصَ لله، صوَّبَ النَّاسُ إليه سِهامَ مَكرِهم، ولم يَدَعوا في أذاهُ شَيئًا مِن جُهدِهم[(٣)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ

= لا يَنطِقُ أحدٌ إلَّا بإذنٍ خاصٍّ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٧).

ٱلْمُنكَرِ﴾ فيه التَّنبيهُ على الشُّكرِ على نِعمةِ النَّصرِ، بأن يأتُوا بما أمَرَ اللهُ به مِن أصولِ الإسلامِ؛ فإنَّ بذلك دوامَ نَصرِهم، وانتِظامَ عَقدِ جماعتِهم، والسَّلامةَ مِن اختلالِ أمرِهم، فإن حادُوا عن ذلك فقد فرَّطوا في ضَمانِ نَصرِهم، وأمْرُهم إلى اللهِ؛ فأمَّا إقامةُ الصَّلاةِ فلِدَلالتِها على القيامِ بالدِّينِ وتجديدٍ لِمَفعولِه في النفوسِ، وأمَّا إيتاءُ الزَّكاةِ فلِيَكونَ أفرادُ الأمَّةِ مُتقاربينَ في نظامِ مَعاشِهم، وأمَّا الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المُنكَرِ فلِتَنفيذِ قوانينِ الإسلامِ بين سائِرِ الأمَّةِ مِن تلقاءِ أنفُسِهم(١).

٤- في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ بيانُ شُروطِ النَّصرِ وأسبابِه، فإذا تمَّت هذه الأسبابُ حَصَل النَّصرُ، أمَّا إذا تخَلَّف واحِدٌ منها فإنَّه يَفوتُ النَّصرُ بقَدرِ ما تخَلَّفَ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ دَليلٌ على وُجوبِ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ؛ لأنَّ نُصرةَ اللهِ -لا محالةَ- نُصرةُ دينِه؛ إذ هو جلَّ وتعالى قَوِيٌّ عزيزٌ -كما قال- لا يُرامُ، فإنَّما الواجِبُ على أهل دينِه نُصرةُ دينِه الذي شرعَه لهم، ولا وصولَ إليه إلَّا بإيجابِ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ؛ إذ لو كانا غيرَ مفترَضينِ لَوَسِعَ القعودُ عنهما، وارتفعتِ المآثِمُ في تضييعِهما مِن أجل أنَّ أحدًا لا يُجبَرُ على عَمَلِ تَطَوُّعٍ، ولا يُحرجُ بتَركِه، وفي ذلك زوالُ النُّصرةِ عن دينِ الله،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٥).

ودخولُ الوَهَن عليه، وسببُه قعودُ الآمِرينَ بالمعروفِ والنَّاهينَ عن المُنكَرِ عنه، وهم قادِرونَ على التَّغييرِ، فلم يَجُزْ أن يُسَمَّى نهوضُهم إليه تطَوُّعًا(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وجهُ المُفاعَلةِ (المُدافَعة): أنَّ الكُفَّارَ يَستعمِلون كُلَّ ما في إمكانِهم لإضرارِهم بالمؤمِنينَ، وإيذائِهم، واللهُ جلَّ وعلا يَدْفَعُ كَيدَهم عن المُؤمنين؛ فكان دَفْعُه جلَّ وعلا لقُوَّةٍ عَظيمةٍ، أهلُها في طُغيانٍ شَديدٍ، يُحاولونَ إلحاقَ الضَّرَرِ بالمُؤمنَينَ، وبهذا الاعتبارِ كان التعبيرُ بالمفاعلةِ في قوله: ﴿يُدَٰفِعُ﴾، وإنْ كان جلَّ وعلا قادرًا على إهلاكِهم، ودفْعِ شَرِّهم عن عِبادِه المُؤمنِينَ(٢).

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (الخَوَّان) و(الكَفور) كِلاهما صِيغةُ مُبالَغةٍ، والمُقرَّرُ في عِلمِ العَربيَّةِ: أنَّ نفْيَ المُبالغةِ في الفِعلِ لا يَستلزمُ نفْيَ أصْلِ الفِعلِ؛ فلو قُلتَ: زيدٌ ليسَ بقَتَّالٍ للرِّجالِ، فقدْ نَفيتَ مُبالَغتَه في قتْلِهم، ولم يَستلزمْ ذلك أنَّه لم يَحصُلْ منه قتْلٌ لبعضِهم، ولكنَّه لم يُبالِغْ في القَتْلِ؛ وعلى هذه القاعدةِ العربيَّةِ المعروفةِ: فإنَّ الآيةَ قدْ صرَّحتْ بأنَّ اللهَ لا يُحبُّ المُبالِغينَ في الكُفرِ والمُبالِغينَ في الخِيانةِ، ولم تَتعرَّضْ لِمَنْ يتَّصِفْ بمُطلَقِ الخِيانةِ ومُطلقِ الكُفرِ مِن غَيرِ مُبالَغةٍ فيهما، ولا شكَّ أنَّ اللهَ يُبغِضُ الخائنَ مُطلقًا، والكافِرَ مُطلقًا، وقدْ أوْضَح -جلَّ وعلا- ذلك في بعضِ المواضِعِ، فقال في الخائِنِ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، وقال في الكافِرِ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٢).

يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[1] [آل عمران: ٣٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ هذه الآيةَ الكَريمةَ تَدُلُّ على أنَّ قِتالَ الكُفَّارِ مَأذونٌ فيه لا واجِبٌ، وقد جاءت آياتٌ تَدُلُّ على وجوبِه؛ كقَولِ الله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [التوبة: ٥]، وقَولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً ﴾ [التوبة:٣٦]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ؟

الجَوابُ ظاهِرٌ: وهو أنَّه تعالى أَذِنَ فيه أولًا مِن غيرِ إيجابٍ، ثمَّ أوجَبَ بعد ذلك، ويدُلُّ لهذا ما قاله ابنُ عَبَّاسٍ، وعُروةُ بنُ الزُّبَيرِ، وزَيدُ بنُ أسلَمَ، ومُقاتِلُ بنُ حَيَّانَ، وقَتادةُ، ومجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ، وغَيرُ واحدٍ -كما نقَلَه عنهم ابنُ كَثيرٍ وغَيرُه- مِن أنَّ آيةَ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ ﴾ هي أوَّلُ آيةٍ نَزَلت في الجِهادِ، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى[2].

٤- إنَّ اللهَ تبارك وتعالى لعِظَمِ حِكمتِه في التَّشريعِ إذا أراد أن يُشَرِّعَ أمرًا شاقًّا على النُّفوسِ كان تَشريعُه على سبيلِ التَّدريجِ؛ لأنَّ إلزامَه بَغتةً في وقتٍ واحدٍ مِن غيرِ تدريجٍ: فيه مشقَّةٌ عظيمةٌ على الذين كُلِّفوا به. قالوا: فمِن ذلك الجِهادُ؛ فإنَّه أمرٌ شاقٌّ على النُّفوسِ؛ لِما فيه من تعريضِها لأسبابِ الموتِ، ومع تعريضِ النُّفوسِ فيه لأعظَمِ أسبابِ الموتِ فإنَّه يُنفَقُ فيه المالُ أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ ﴾ [الصف: ١١]، قالوا: ولَمَّا كان الجِهادُ فيه هذا مِن المشَقَّةِ، وأراد اللهُ تَشريعَه، شَرَعه تدريجًا، فأذِنَ فيه أوَّلًا مِن غيرِ إيجابٍ، بقَولِه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ ﴾ الآية [الحج: ٣٩]، ثمَّ لَمَّا

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٥٨).

استأنَسَت به نفوسُهم بسَبَبِ الإذنِ فيه أوجب عليهم قتالَ مَن قاتَلَهم دونَ مَن لم يُقاتِلْهم، بقَولِه: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وهذا تدريجٌ مِن الإذنِ إلى نوعٍ خاصٍّ مِن الإيجابِ، ثمَّ لَمَّا استأنَسَت نفوسُهم بإيجابِه في الجُملةِ أوجَبَه عليهم إيجابًا عامًّا جازِمًا في آياتٍ مِن كِتابِه؛ كقَولِه تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ ﴾ [التوبة: ٥]، وقَولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ ﴾[التوبة: ٣٦]، وقَولِه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ ﴾ [الفتح: ١٦]... إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ يُشيرُ إلى مَعنيَينِ:

أحدُهما: أنَّ فيه الإشارةَ إلى وعْدِه للنبيِّ وأصحابِه بالنَّصرِ على أعدائِهم، كما قال قَبْلَه قريبًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج: ٣٨].

والمعنى الثاني: أنَّ اللهَ قادِرٌ على أنْ يَنصُرَ المُسلِمينَ على الكافِرينَ مِن غَيرِ قِتالٍ؛ لقُدرتِه على إهلاكِهم بما شاءَ، ونُصرةِ المُسلِمينَ عليهم بإهلاكِه إيَّاهم، ولكنَّه شرَعَ الجِهادَ لحِكَمٍ؛ منها: اختبارُ الصادِقِ في إيمانِه، وغيرِ الصادِقِ فيه. ومنها: تَسهيلُ نَيلِ فَضلِ الشَّهادةِ في سَبيلِ اللهِ بقَتْلِ الكُفَّارِ لشُهداءِ المُسلِمينَ، ولولا ذلك لَمَا حصَّلَ أحدٌ فضْلَ الشهادةِ في سَبيلِ اللهِ، إلى غيرِ ذلك[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ يدُلُّ على حِكمةِ الجِهادِ، وأنَّ المَقصودَ منه إقامةُ دِينِ اللهِ، وذَبُّ الكُفَّارِ المُؤذِينَ للمُؤمِنينَ، البادِئينَ لهم بالاعتِداءِ، عن ظُلمِهم واعتِدائِهم- والتمَكُّنُ

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٦٤، ٢٦٥).

مِن عِبادةِ الله، وإقامةُ الشَّرائعِ الظَّاهِرةِ[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ فيه تَحريضٌ على القِتالِ المأذونِ فيه قَبْلُ، وأنَّه تعالى أجرى العادةَ بذلك في الأُمَمِ الماضيةِ، بأن ينتَظِمَ به الأمرُ، وتَقومَ الشَّرائِعُ، وتُصانَ المتعَبَّداتُ مِنَ الهَدمِ، وأهلُها مِن القَتلِ والشَّتاتِ[٢].

٨- قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ فلولا مُدافَعةُ اللهِ النَّاسَ بَعضَهم ببَعضٍ بأسبابٍ مُتعدِّدةٍ، وطُرُقٍ مُتنوِّعةٍ قَدَريَّةٍ وشَرعيَّةٍ، وأعظَمُها وأجَلُّها وأزكاها الجِهادُ في سَبيلِه- لاستولى الكُفَّارُ الظَّالِمون، ومَحَقوا أديانَ الرُّسُلِ، فقَتَلوا المؤمِنينَ بهم، وهَدَّموا مَعابِدَهم، ولكِنَّ ألطافَ اللهِ عظيمةٌ، وأياديَه جَسيمةٌ، وبهذا وشِبْهِه يُعرَفُ حِكمةُ الجِهادِ الدِّينيِّ، وأنَّه مِن الضَّروريَّاتِ، لا كقِتالِ الظَّلَمةِ المبنيِّ على العَداواتِ والجَشَعِ، والظُّلمِ والاستِعبادِ للخَلْقِ، بل الجِهادُ الإسلاميُّ مَرماه وغَرَضُه الوحيدُ إقامةُ العَدلِ، وحُصولُ الرَّحمةِ، واستِعبادُ الخَلقِ لخالِقِهم، وأداءُ الحُقوقِ كُلِّها، ونَصرُ المظلومينَ، وقَمعُ الظَّالِمين، ونَشرُ الصَّلاحِ والإصلاحِ المُطلَقِ بكُلِّ وَجهٍ واعتِبارٍ، وهو مِن أعظَمِ محاسِنِ دينِ الإسلامِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ مِن الفَسادِ في الأرضِ هَدْمَ بيوتِ العبادةِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تيسير اللطيف المنان)) للسعدي (١/ ١٠٩).

ٱلْأَرْضُ ﴾[البقرة: ٢٥١]، فما في آيةِ (الحجِّ) هنا تفسيرٌ لقولِه تعالى في سورةِ (البقرة): ﴿لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾؛ أو هو ذكرٌ لنوعٍ مِن الفسادِ[١]. وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ هذه المواضعَ المذكورةَ لا يجوزُ أن تُهْدَمَ على مَن كانَ له ذِمَّةٌ أو عهدٌ مِن الكفَّارِ[٢].

١٠- قولُه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ ﴾ لقائلٍ أنْ يقولَ: أيُّ مِنَّةٍ على المؤمنينَ في حِفظِ الصَّوامعِ والبِيَعِ والصَّلَوَاتِ عن الهَدْمِ، حتَّى امتنَّ عليهم بذلك؟!

فالجواب: المِنَّةُ عليهم فيها أنَّ الصَّوامعَ والبِيَعَ في حَرسِهم وحِفظهم؛ لأنَّ أهلَهما مُحترَمون. أو المرادُ لهدِّمتْ صوامعُ وبِيعٌ في زَمَن عيسى عليه السَّلام، وكَنائِسُ في زمَن موسى عليه السَّلام، ومَساجِدُ في زَمنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فالامتنانُ على أهلِ الأديانِ الثلاثةِ، لا على المؤمنين خاصَّةً[٣].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ فلولَا دفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببَعضٍ، لاسْتولَى الكُفَّارُ على المُسلِمينَ، فخرَّبوا مَعابِدَهم، وفَتنوهم عن دِينِهم؛ فدلَّ هذا على أنَّ مما شُرِعَ له الجِهادُ دَفْعَ الصائِلِ والمُؤذِي، ودَلَّ ذلك على أنَّ البُلدانَ التي حَصَلتْ فيها الطُّمأنينةُ بعِبادةِ الله، وعَمَرتْ مَساجِدُها، وأُقيمَت فيها شَعائِرُ الدينِ كُلُّها؛ مِن فَضائِلِ المجاهِدينَ، وببَركتِهم دَفَعَ اللهُ عنها الكافِرينَ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (٣/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٣، ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩).

وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ لم يَذكُرْ بُيوتَ الشِّركِ، كبُيوتِ الأصنامِ والمَشاهِدِ، ولا ذكَرَ بُيوتَ النَّارِ؛ لأنَّ الصَّوامِعَ والبِيَعَ لأهلِ الكتابِ، فالممدوحُ من ذلك ما كان مبنيًّا قبل النَّسخِ والتَّبديلِ، كما أثنى على اليَهودِ والنَّصارى والصَّابِئينَ الذين كانوا قبْلَ النَّسخِ والتَّبديلِ يُؤمِنونَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ ويَعمَلونَ صالِحًا، بخلافِ بُيوتِ الأصنامِ وبُيوتِ النَّارِ، وبُيوتِ الصَّابئةِ المُشرِكينَ[(١)].

١٣- الجِهادُ أمرٌ مُتقَدِّمٌ في الأُمَمِ، وبه صَلَحَت الشَّرائِعُ، واجتَمَعت المتعَبَّداتُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ﴾[(٢)].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ فيه تَرغيبٌ في الجهادِ مِن حَيثُ وَعَدَهم النَّصرَ[(٣)].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ فيه أخذُ العَهدِ على مَن مكَّنَه اللهُ أن يَفعَلَ ما رُتِّبَ على التَّمكينِ في الآيةِ[(٤)].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ دلالةٌ على أنَّ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ مِن أسبابِ

---

(١) يُنظر: ((الرد على البكري)) (٢/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٨).

النَّصرِ[١].

١٧- الحُكمُ بغَيرِ ما أنزَلَ اللهُ مِن أعظَمِ أسبابِ تَغييرِ الدُّوَلِ، ومَن أراد اللهُ سَعادتَه جعَلَه يَعتَبِرُ بما أصاب غَيرَه، فيَسلُكُ مَسلَكَ مَن أيَّدَه اللهُ ونصَرَه، ويجتَنِبُ مَسلَكَ مَن خذَلَه اللهُ وأهانَه؛ فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ في كتابه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾، فقد وعَدَ اللهُ بنَصرِ مَن يَنصُرُه، ونَصْرُه هو نَصرُ كِتابِه ودِينِه ورَسولِه، لا نَصرُ مَن يَحكُمُ بغَيرِ ما أنزَلَ اللهُ، ويتكَلَّمُ بما لا يعلَمُ[٢].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾ دَليلٌ على أنَّه لا وَعْدَ مِن اللهِ بالنَّصرِ إلَّا مع إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ؛ فالذين يُمكِّنُ اللهُ لهم في الأرضِ ويَجعَلُ الكَلِمةَ فيها والسُّلطانَ لهم، ومع ذلك لا يُقيمونَ الصَّلاةَ ولا يُؤتُونَ الزَّكاةَ، ولا يأمُرونَ بالمَعروفِ ولا يَنهَونَ عن المُنكَرِ- فليس لهم وَعدٌ مِنَ اللهِ بالنَّصرِ؛ لأنَّهم ليسوا مِن حِزبِه، ولا مِن أوليائِه الذين وعَدَهم بالنَّصرِ، بل هم حِزبُ الشَّيطانِ وأولياؤُه[٣]!

١٩- قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ هذه الآياتُ تدُلُّ على صِحَّةِ خِلافةِ الخُلَفاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (١/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٦).

الرَّاشِدينَ؛ لأنَّ اللهَ نَصَرَهم على أعدائِهم، لأنَّهم نَصَروه فأقاموا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ، وأمَروا بالمعروفِ ونَهَوا عن المُنكَرِ، وقد مَكَّنَ لهم واستخلَفَهم في الأرضِ، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآيةَ [النور: ٥٥]، والحَقُّ أنَّ الآياتِ المذكورةَ تَشمَلُ أصحابَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكُلَّ مَن قام بنُصرةِ دِينِ اللهِ على الوَجهِ الأكمَلِ(١).

٢٠- قال تعالى: ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ جَمَعتِ الآيةُ بينَ الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ -مع أنَّ كلًّا منهما آيلٌ إلى الآخَرِ- باعتبارِ أوَّلِ ما تَتوجَّهُ إليه نُفوسُ النَّاسِ عندَ مُشاهدَةِ الأعمالِ، ولِتَكونَ مَعرفةُ المعروفِ دَليلًا على إنكارِ المُنكَرِ وبالعكسِ؛ إذ بضِدِّها تَتمايَزُ الأشياءُ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ، جوابًا لسُؤالٍ يَخطُرُ في نُفوسِ المُؤمنينَ، ينشَأُ مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ. والكلامُ مُوجَّهٌ إلى المُؤمنينَ؛ ولذلك فافتِتاحُه بحَرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ) إمَّا لمُجرَّدِ تَحقيقِ الخبرِ، وإمَّا لِتَنزيلِ غيرِ المُتردِّدِ مَنزِلةَ المُتردِّدِ؛ لشِدَّةِ انتظارِهم النَّصرَ واستبطائِهم إيَّاهُ، والتَّعبيرُ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لِمَا فيه مِن الإيماءِ إلى وَجْهِ بناءِ الخبَرِ، وأنَّ دِفاعَ اللهِ عنهم لأجْلِ إيمانِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧١).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لم يَذكُرْ تعالى ما يَدفَعُه عنهم؛ لِيَكونَ أفخَمَ وأعظَمَ وأعمَّ[١]. أو حُذِفَ مَفعولُ ﴿يُدَٰفِعُ﴾؛ لدَلالةِ المَقامِ، أي: يُدافِعُ الكافرينَ الخائنينَ[٢].

- وصِيغةُ المُفاعَلةِ ﴿يُدَٰفِعُ﴾ إمَّا للمُبالَغةِ، أو الدَّلالةِ على تَكرُّرِ الدَّفعِ؛ فإنَّها قد تُجرَّدُ عن وُقوعِ الفِعْلِ المُتكرِّرِ مِن الجانبَينِ؛ فيَبْقَى تَكرُّرُه كما في المُمارَسةِ، أي: يُبالِغُ في دَفْعِ غائلةِ المُشركينَ وضَرَرِهم الَّذي مِن جُملَتِه الصَّدُّ عَن سَبيلِ اللهِ مُبالَغةَ مَن يُغالبُ فيه، أو يَدفَعُها عنهم مَرَّةً بعْدَ أُخرَى حسبما تَجدَّدَ منهم القصْدُ إلى الإضرارِ بالمُسلمينَ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ تَعليلٌ لِمَا في ضِمْنِ الوعدِ الكريمِ من الوعيدِ للمُشركينَ، وإيذانٌ بأنَّ دَفْعَهم بطَريقِ القَهْرِ والخِزْيِ[٤].

- وأفادتْ (كل) في سِياقِ النَّفْيِ عُمومَ نَفْيِ مَحبَّةِ اللهِ عن جَميعِ الكافرينَ[٥].

- وصِيغَةُ المُبالَغةِ في ﴿خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾؛ لبَيانِ أنَّهم كذلك، لا لتَقييدِ البُغْضِ بغايةِ الخِيانةِ والكُفْرِ، أو للمُبالَغةِ في نَفْيِ المَحبَّةِ على اعتبارِ النَّفْيِ أوَّلًا، وإيرادِ معنى المُبالَغةِ ثانيًا[٦].

وقيل: أَتى بالصِّفتَينِ على صيغة المُبالغةِ؛ لأنَّ نقائصَ الإنسانِ لا يُمكِنُه أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٨).

يَفعلَها خاليةً عن المبالَغةِ؛ لأنَّه يَخونُ نفْسَه بالعَزمِ أوَّلًا، والفِعلِ ثانيًا، وغَيْرَه مِنَ الخَلْقِ ثالثًا، وكذا يَخون ربَّه سُبحانَه، وهكذا في الكُفرِ وغَيرِه، ولَمَّا كانت الخيانةُ مَنبَعَ النَّقائصِ، كانت المبالَغةُ فيها أَكثَرَ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ فالمأْذونُ فيه مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ المذكورِ عليه؛ فإنَّ مُقاتَلةَ المُشركينَ إيَّاهُم دَالَّةٌ على مُقاتلَتِهم إيَّاهم دَلالةً نَيِّرةً(٢).

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وَعْدٌ لهم بالنَّصرِ، وتأْكيدٌ لِمَا مَرَّ من العِدَةِ الكريمةِ بالدَّفعِ، وتَصريحٌ بأنَّ المُرادَ به ليس مُجرَّدَ تَخليصِهم مِن أيدي المُشركينَ، بل تَغليبُهم وإظْهارُهم عليهم. والإخبارُ بقُدرتِه تعالى على نَصْرِهم واردٌ على سَننِ الكِبرياءِ، وتأْكيدُه بكلمةِ التَّحقيقِ (إنَّ) واللَّامِ في ﴿لَقَدِيرٌ﴾؛ لِمَزيدِ تَحقيقِ مَضمونِه، وزِيادةِ تَوطينِ نُفوسِ المُؤمنينَ، أو تَعريضٌ بتَنزيلِهم مَنزِلةَ المُتردِّدِ في ذلك؛ لأنَّهم استبْطَؤوا النَّصرَ(٣). وأصْلُ الكلامِ: (قاتِلوا الَّذين ظَلَموكم، وإنيِّ أنصُرُكم البَتَّةَ)؛ فعُدِلَ إلى لفْظِ العَظمةِ والكِبْرياءِ بقولِه: ﴿أُذِنَ﴾؛ لِمَا عُلِمَ أنَّ الآذِنَ في مِثْلِ هذا الخِطابِ مَن هو. وقيل في جانبِ المَظلومِ: ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾، كأنَّه لا يُرِيدُ المُخاطَبينَ، يعني: لِمَن هذا شأْنُه وعادتُه(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٩٤).

٣- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الاستثناءُ فيه مُنْقطِعٌ، بمعنى: لكنْ أُخْرِجوا بقولِهم: ربُّنا اللهُ. أو هو مِن بابِ تَعقيبِ المَدْحِ بما يُشْبِهُ الذَّمَّ؛ فيُسْتفادُ مِن ذلك تأْكيدُ عدَمِ الحقِّ عليهم بسبَبِ استِقراءِ ما قد يُتخيَّلُ أنَّه حَقٌّ عليهم. وهذا مِن تأْكيدِ الشَّيءِ بما يُوهِمُ نَقْضَه[1].

- قولُه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ اعتراضٌ بين جُملةِ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩] إلخ، وبينَ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ [الحج: ٤١] إلخ؛ فالواوُ في قولِه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ ...﴾ اعتراضيَّةٌ، وتُسمَّى واوَ الاستئنافِ، ومُفادُ هذه الجُملةِ: تَعليلُ مَضمونِ جُملةِ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ إلخ؛ فتكونُ هذه الجُملةُ تَذييلًا لجُملةِ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾[2].

- قولُه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ...﴾ ذِكْرُ الصَّوامعِ والبِيَعِ إدماجٌ[3]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٣) الإدماجُ، لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ؛ كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مبالغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم =

لِيَنْتَبِهوا إلى تأْييدِ المُسلمينَ؛ فالتَّعريفُ في (النَّاس) تَعريفُ العهْدِ، أي: النَّاسَ الَّذين يَتقاتلونَ، وهم المُسلمونَ ومُشرِكو أهْلِ مكَّةَ. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ: لولا ما سبَقَ قبْلَ الإسلامِ مِن إذْنِ اللهِ لِأُمَمِ التَّوحيدِ بقِتالِ أهْلِ الشِّركِ، لَمَحَقَ المُشرِكونَ معالِمَ التَّوحيدِ؛ فتكونَ هذه الجُملةُ تَذييلًا لجُملةِ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٩]، أي: أُذِنَ للمُسلمينَ بالقِتالِ كما أُذِنَ لِأُمَمٍ قبْلَهم؛ لكَيْلا يَطْغى عليهم المُشرِكون كما طَغَوا على مَن قبْلَهم حين لم يأذَنِ اللهُ لهم بالقتالِ؛ فالتَّعريفُ في (النَّاس) تَعريفُ الجِنْسِ[(١)].

- قولُه: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ لمَّا كانتِ المواضِعُ كثيرةً ناسَبَ مَجيءُ التَّضعيفِ ﴿لَهُدِّمَتْ﴾؛ لكَثرةِ المواضِعِ؛ فتكرَّرَ الهَدْمُ لتكثيرِها، والأظهَرُ أنَّه قُصِدَ بها المُبالَغةُ في ذِكْرِ المُتعبَّداتِ[(٢)]. أو للمُبالَغةِ في الهَدْمِ، أي: لَهُدِّمَت هَدْمًا ناشِئًا عن غَيظٍ بحيث لا يُبْقُون لها أثَرًا[(٣)].

- وفيه تَرتيبٌ حَسنٌ؛ حيث قُدِّمَ الصَّوامِعُ في الذِّكْرِ على ما بعْدَه؛ لأنَّ صَوامِعَ الرُّهبانِ كانت أكثَرَ في بلادِ العرَبِ مِن غَيرِها، وكانت أشهَرَ عنْدَهم؛ لأنَّهم كانوا يَهْتَدون بأضوائِها في أسفارِهم، ويأْوونَ إليها، وتَعقيبُها بذِكْرِ البِيَعِ للمُناسَبةِ؛ إذ هي مَعابِدُ النَّصارى مِثْلُ الصَّوامعِ. وأمَّا ذِكْرُ الصَّلواتِ

= البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٧، ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٧).

بعْدَهما؛ فلأنَّه قد تهيَّأَ المَقامُ لذِكْرِها. وتأْخيرُ المساجِدِ: إمَّا لأجْلِ قِدَمِ تلك وحُدوثِ هذه، وإمَّا لانتقالٍ مِن شَريفٍ إلى أشرَفَ، وإمَّا لأنَّها أعَمُّ، وشأْنُ العُمومِ أنْ يُعَقَّبُ به الخُصوصُ؛ إكْمالًا للفائدةِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ خُصَّتِ المساجِدُ بالصِّفةِ المادحةِ ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾؛ دَلالةً على فَضْلِها وفَضْلِ أهْلِها[٢]، وهذا على القولِ بأنَّ الضميرَ في ﴿فِيهَا﴾ يرجِعُ إلى (مَسَاجِدُ).

- قولُه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ فيه تأكيدٌ لِمَا وعَدَهُ مِن إظهارِ أوليائِه وإعلاءِ كَلِمَتِهم[٣]؛ حيث أُكِّدَ بلامِ القَسَمِ ونُونِ التَّوكيدِ في ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾. وهذه الجُملةُ تَذييلٌ؛ لِمَا فيها مِن العُمومِ الشَّاملِ للمُسلمينَ الَّذين أخرَجَهم المُشرِكون[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، أي: كان نَصْرُهم مَضْمونًا؛ لأنَّ ناصِرَهم قَديرٌ على ذلك بالقُوَّةِ والعِزَّةِ[٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بَدلٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾، وما بَينهما اعتراضٌ؛ فالمُرادُ مِن ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٧، ٥١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

[الحج: ٤١]: المهاجِرونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ بَدلًا مِن (مَن) الموصولةِ في قولِه: ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]؛ فيكون المُرادُ: كلَّ مَن نَصَرَ الدِّينَ مِن أجيالِ المُسلمينَ، أي: مكَّنَّاهم بالنَّصرِ الموعودِ به إنْ نَصَروا دِينَ اللهِ. وعلى الاحتمالينِ فالكلامُ مَسوقٌ للتَّنبيهِ على الشُّكرِ على نِعمةِ النَّصرِ بأنْ يأْتوا بما أمَرَ اللهُ به مِن أُصولِ الإسلامِ؛ فإنَّ بذلك دوامَ نَصْرِهم[(١)].

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ تَقديمُ المجرورِ هنا؛ للاهتمامِ، والتَّنبيهِ على أنَّ ما هو للهِ فهو يُصرِّفُه كيف يشاءُ. وفيه: تأْنيسٌ للمُهاجرينَ؛ لِئلَّا يَسْتبطِئوا النَّصرَ[(٢)]. وفيه كذلك: تأكيدٌ لِمَا وعَدَه سبحانه مِن إظهارِ أوليائِه، وإعلاءِ كَلِمَتِهم[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٩).

الآيات (٤٢-٤٥)

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ فَأَمْلَيْتُ ﴾: أي: أمهَلْتُ وأطَلْتُ لهم المُدَّةَ، وأصلُ الإملاءِ: يدُلُّ على امتِدادِ زَمانٍ أو غَيرِه[١].

﴿ نَكِيرِ ﴾: أي: نَكالي وعِقابي وانتِصاري لرُسُلي، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المعرفةِ[٢].

﴿ خَاوِيَةٌ ﴾: أي: خاليةٌ ساقِطةٌ، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على الخُلوِّ والسُّقوطِ[٣].

﴿ عُرُوشِهَا ﴾: أي: سُقوفِها، وأصلُ (عرش): يدُلُّ على الارتِفاعِ في شَيءٍ مَبنيٍّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٦، ٢٢٨)، غريب القرآن للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٤). ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٨٦)، ((غريب =

﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾: أي: مَتروكةٍ على هيئَتِها، وأصلُ (عطل): يدُلُّ على خُلوٍّ وفَراغٍ[١].

﴿مَّشِيدٍ﴾: أي: مُطَوَّلٍ مُرتَفِعٍ؛ مِن قَولِهم: شاد بناءَه: إذا رفَعَه. وقيل: مُجَصَّص؛ مِنَ الشِّيدِ، وهو الْجِصُّ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وإنْ يكَذِّبْك قَومُك -يا مُحمَّدُ- فقد كَذَّب مِن قَبلِهم قَومُ نُوحٍ، وعادٌ، وثمودُ، وقَومُ إبراهيمَ، وقَومُ لُوطٍ، وأصحابُ «مَدْينَ» الذين كذَّبوا شُعَيبًا، وكذَّب فِرعَونُ وقَومُه موسى، فأمهَلْتُ هؤلاء الكافرينَ ثمَّ أخَذْتُهم بالعَذابِ، فكيف كانت مُعاقَبتي لهم؟

فكثيرٌ مِن القُرى الظَّالِمةِ بكُفرِها أهلَكْنا أهلَها؛ فديارُهم مُهَدَّمةٌ خَلَتْ مِن سُكَّانِها، وآبارُها مُعطَّلةٌ لا يُستَقى منها، وقُصورُها العاليةُ المُزَخرفةُ خَلَت مِن سُكَّانِها ولم تدفَعْ عن أهلِها سُوءَ العَذابِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾.

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى -فيما تقَدَّمَ- إخراجَ الكُفَّارِ المؤمِنينَ مِن ديارِهم بغَيرِ حَقٍّ، وأذِنَ في مُقاتَلتِهم، وضَمِنَ للرَّسولِ والمُؤمِنينَ النُّصرةَ، وبيَّنَ أنَّ لله عاقِبةَ الأمورِ- أردَفَه بما يجري مَجرى التَّسليةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الصَّبرِ على ما هم عليه مِن أذيَّتِه وأذيَّةِ المُؤمِنينَ بالتَّكذيبِ وغَيرِه[1].

وأيضًا لَمَّا نعَى اللهُ تعالى على المشركينَ مَساويَهم في شؤونِ الدينِ بإشراكِهم، وإنكارِهم البعثَ، وصَدِّهم عن الإسلامِ وعن المسجِدِ الحرامِ، وما ناسب ذلك في غرَضِه مِن إخراجِ أهلِه منه- عطَفَ هنا إلى ضلالِهم بتكذيبِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقصدَ مِن ذلك تسليةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتمثيلَهم بأمثالِ الأمَمِ التي استأصلها اللهُ، وتهديدَهم بالمصيرِ إلى مصيرِهم[2].

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: وإن يُكذِّبْك -يا مُحَمَّدُ- قَومُك المُشرِكونَ على ما جِئْتَهم به مِنَ الحَقِّ، فذلك سنَّةُ إخوانِهم مِن الأُمَمِ الخاليةِ المكذِّبةِ لرُسُلِ اللهِ، ولستَ بأوَّلِ رَسولٍ كُذِّبَ؛ فقد كذَّبَت قَبلَ قَومِك قومُ نوحٍ، وعادٌ: قومُ هودٍ، وثمودُ: قومُ صالحٍ[3].

كما قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٣).
قال القرطبي: (هذا تَسليةٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتعزيةٌ، أي: كان قبْلَك أنبياءُ كُذِّبوا، فصَبَروا إلى أن أهلَكَ اللهُ المكذِّبينَ؛ فاقتَدِ بهم واصبِرْ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٣).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٧).

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١].

وقال عز وجل: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال عز مِنْ قائل: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: وكذَّب قَبلَ قَومِك -يا مُحَمَّدُ- قومُ إبراهيمَ، وقومُ لوطٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠].

﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾.

أي: وكذَّب قومُ شُعَيبٍ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٣).

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾.

أي: وكذَّب فِرعَونُ وقَومُه رسولَهم مُوسى[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۞ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١- ٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۞ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩- ١٠].

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾.

أي: فأمهَلْتُ الكافِرينَ فلمْ أُعاجِلْهم بالعُقوبةِ لَمَّا كَذَّبوا رسُلَهم، ثمَّ أخَذْتُهم بالعذابِ في الوقتِ المحدَّدِ لإهلاكِهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٩).
قال ابنُ عاشور: (وهذا الأخذُ مَعلومٌ في آياتٍ أخرى، عدا أنَّ قَومَ إبراهيمَ لم يتقَدَّمْ في القرآنِ ذِكرٌ لعَذابِهم أو أخْذِهم، سِوى أنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠] مُشيرٌ إلى سوءِ عاقِبَتِهم مِمَّا أرادوا به مِن الكَيدِ، وهذه الآيةُ صَريحةٌ في ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٣).

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملِي للظَّالِمِ حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه. قال: ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))[(١)].

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

أي: فانظُرْ -يا مُحَمَّدُ- كيف كانت مُعاقَبتي لهم؟ فلْيَعتَبِرْ بذلك هؤلاء المكَذِّبونَ مِن قَومِك أن يُصيبَهم ما أصاب أولئكَ؛ فإنَّهم ليسوا خَيرًا منهم[(٢)]!

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى حالَ قَومٍ مِنَ المُكَذِّبينَ، وأنَّه عجَّلَ إهلاكَهم؛ أتبَعَه بما دلَّ على أنَّ لذلك أمثالًا، وإن لم يُذكَرْ مُفَصَّلًا[(٣)].

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

أي: فكثيرٌ مِنَ القُرى[(٤)] أهلَكْنا أهلَها بالعَذابِ الشَّديدِ؛ بسَبَبِ ظُلمِهم، فصارت

---

(١) رواه البخاري (٤٦٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٢).

(٤) قال الشنقيطي: (لفظُ القَريةِ يُطلَقُ تارةً على نفسِ الأبنيةِ، وتارةً على أهلِها السَّاكنينَ بها؛ فالإهلاكُ في قَولِه تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾، والظُّلمُ في قَولِه تعالى: ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾: يُرادُ به أهلُها السَّاكِنونَ بها، وقَولُه تعالى: ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يُرادُ به الأبنيةُ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٦٩).

بيوتُهم مُهَدَّمةً قد سقَطَت جُدرانُها فوقَ سُقوفِها[١].

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾.

أي: وكثيرٌ مِن الآبارِ الصَّالِحةِ للانتِفاعِ عَطَّلْناها بإهلاكِ أهلِها ووارِدِيها، فلا يُستقَى منها مع بقاءِ بِنائِها وفَوَرانِ مائِها! وكثيرٌ مِن القُصورِ العاليةِ المجصَّصةِ المَنيعةِ المُحكَمةِ خَلت من سُكَّانِها بعد هَلاكِهم، فغَدَت مُوحِشةً، بعد أن كانت بأهلِها عامِرةً ومُؤنسةً[٢]!

كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المُغتَمَّ بالشَّيءِ قد يتسَلَّى بأنْ يكونَ له في مُصيبتِه شَريكٌ، ألا ترى إلى اللهِ جَلَّ جَلالُه كيف عَزَّى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمُشاركةِ مَن مضى قَبْلَه مِن الأنبياءِ في تكذيبِ قَومِهم إيَّاهم، واحتِمالِ مَضَضِه وأذاهم؛ فدَلَّ على أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وغَيرَه من الأنبياءِ صَلواتُ اللهِ عليهم كانوا يغتَمُّونَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٥، ٢٨٦).
قال الشنقيطي: (المعنى: أنَّ السُّقوفَ سَقَطت ثمَّ سَقَطت عليها حِيطانُها، على أظهَرِ التَّفسيراتِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٠، ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٦).

تَكذيبِ قَومِهم إيَّاهم[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ مُناسَبةُ اختيارِ النَّكيرِ في هذه الآيةِ دُونَ العَذابِ ونَحوِه: أنَّه وقع بعد التَّنويهِ بالنَّهيِ عن المُنكَرِ؛ ليُنَبِّهَ المُسلِمينَ على أن يَبذُلوا في تَغييرِ المُنكَرِ مُنتَهى استِطاعتِهم؛ فإنَّ الله عاقَبَ على المُنكَرِ بأشَدِّ العِقابِ، فعلى المؤمنينَ الائتِساءُ بصُنعِ اللهِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ مُناسَبةُ عَدِّ قَومِ إبراهيمَ هنا في عدادِ الأقوامِ الَّذين أخَذَهم اللهُ دونَ الآياتِ الأُخرى الَّتي ذُكِرَ فيها مَن أُخِذُوا مِن الأقوامِ: أنَّ قَومَ إبراهيمَ أتَمُّ شَبَهًا بمُشركي قُريشٍ في أنَّهم كَذَّبوا رَسولَهم وآذَوهُ، وألْجؤوهُ إلى الخُروجِ مِن مَوطنِه ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]؛ فكان ذِكْرُ إلْجاءِ قُريشٍ المُؤمِنينَ إلى الخُروجِ مِن مَوطنِهم في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠] مُناسَبةً لذِكْرِ قَومِ إبراهيمَ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾، ولم يَقُلْ: (قَومُ موسى) عَطفًا على ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾؟

الجوابُ مِن أوجهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ ما كَذَّبَه قَومُه بنو إسرائيلَ، وإنَّما كذَّبَه غَيرُ قَومِه، وهم القِبطُ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الإبهامَ في بناءِ الفِعلِ للمَفعولِ؛ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ، أي:

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٨٣، ٢٨٤).

وكُذِّبَ مُوسى أيضًا، مع وُضوحِ آياتِه، وعِظَمِ مُعجِزاتِه، فما ظَنُّك بغَيرِه[١]؟!

للإيذانِ بأنَّ تكذيبَهم له كان في غَايةِ الشَّناعةِ؛ لكونِ آياتِه في كَمالِ الوُضوحِ؛ فتَكذيبُه كان أشنَعَ، وآياتُه كانت أعظَمَ.

الوجهُ الثالثُ: أنَّه لمَّا صَدَّرَ الكلامَ بحِكايةِ تَكذيبِهم، ثمَّ عدَّدَ أصنافَ المُكذِّبينَ وطوائفَهم، ولم يَنْتَهِ إلى مُوسى إلَّا بعْدَ طُولِ الكلامِ؛ حسُنَ تَكريرُه؛ لِيَلِيَ قوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، فيَتَّصِل المُسبَّبُ بالسَّببِ[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الإملاءَ للكافرينَ مَكْرٌ بهم واستِدراجٌ، وهو رَدٌّ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فيه سؤالٌ: إن قيلَ: كيف يُوصَفُ ما يُنزِلُه بالكُفَّارِ مِن الهَلاكِ بالعذابِ المُعَجَّلِ بأنَّه نَكيرٌ؟

الجوابُ: إذا كان رادِعًا لغَيرِه، وصادِعًا له عن مِثلِ ما أوجَبَ ذلك، صار نكيرًا[٤].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ إذا قيل: إنَّ قَولَه تعالى: ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يدُلُّ على تهَدُّمِ أبنِيَةِ أهلِها، وسُقوطِها، وقَولَه تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٢).

يدُلُّ على بقاءِ أبنِيَتِها قائِمةً مَشيدَةً، فكيف الجَمعُ بينهما؟

فالجوابُ: أنَّ قُصورَ القُرى التي أهلَكَها اللهُ، وَقْتَ نُزولِ هذه الآيةِ منها ما هو مُتهَدِّمٌ، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، ومنها ما هو قائِمٌ باقٍ على بنائِه، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾، ويدُلُّ على هذا الجَمعِ قولُه جَلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠]، فصَرَّحَ في هذه الآيةِ بأنَّ منها قائِمًا، ومنها حَصيدًا؛ فالقائِمُ هو الذي لم يَتهَدَّمْ، والحَصيدُ هو الذي تهَدَّمَ، وتفرَّقَت أنقاضُه(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ تَسليةٌ لرَسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مُتضمَّنةٌ للوعْدِ الكريمِ بإهلاكِ مَن يُعادِيه مِن الكَفرةِ، وتَعيينٌ لكَيفيَّةِ نَصْرِه تعالى له الموعودِ بقولِه تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾. وعبَّرَ بصِيغَةِ المُضارِعِ في الشَّرطِ ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ مع تَحقُّقِ التَّكذيبِ؛ لِمَا أنَّ المقصودَ تَسليتُه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا يَترتَّبُ على التَّكذيبِ مِن الحُزنِ المُتوقَّعِ(٢).

- وجَوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ، دَلَّ عليه قولُه: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ...﴾؛ إذِ التَّقديرُ: فلا عجَبَ في تَكذيبِهم، أو فلا غَضاضةَ عليك في تَكذيبِ قَومِك إيَّاك؛ فإنَّ تلك عادةُ أمثالِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٠، ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

- قولُه: ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ إذِ التَّقديرُ: رُسُلَهم، أي: كذَّبتْ قبلَهم قومُ نوح وعادٌ وثمودُ وأصحابُ مدْينَ رسلَهم ممَّن ذُكِرَ وممن لم يُذكَرْ؛ وإنَّما حُذِفَ لكَمالِ ظُهورِ المُرادِ، أو لأنَّ المُرادَ نفْسُ الفِعْلِ، أي: فعَلَتِ التَّكذيبَ قومُ نُوحٍ... إلى آخِرِه[١].

- وإنَّما لم يُعبَّرْ عنهم بـ(قَوم شُعيبٍ)، وعُبِّرَ عنهم بقولِه: ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾؛ لئلَّا يَتكرَّرَ لفْظُ (قوم) أكثَرَ مِن ثلاثِ مَرَّاتٍ[٢].

- قولُه: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾، أي: فأمليْتُ لهم؛ فوضَعَ الظَّاهِرَ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ لذَمِّهم بالكُفْرِ، والتَّصريحِ بمُكذِّبِي مُوسى عليه السَّلامُ، حيث لم يُذْكَروا فيما قبْلُ صَريحًا، وللإيماءِ إلى أنَّ عِلَّةَ الإملاءِ لهم ثمَّ أَخْذِهم هو الكُفْرُ بالرُّسلِ؛ تَعريضًا بالنِّذارةِ لمُشرِكي قُريشٍ[٣]. والأخْذُ كِنايةٌ عن العِقابِ والإهلاكِ[٤].

- والفاءُ في ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ للتَّعقيبِ؛ دَلالةً على أنَّ تَقديرَ هَلاكِهم حاصِلٌ مِن وَقْتِ تَكذيبِهم، وإنَّما أُخِّرَ لهم، وهو تَعقيبٌ مُوزَّعٌ؛ فلكلِّ قَومٍ من هؤلاء تَعقيبُ إملائِه، والأخْذُ حاصِلٌ بعْدَ الإملاءِ بمُهلةٍ؛ فلذلك عُطِفَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٠)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٩).

فِعْلُه بحَرفِ المُهْلَةِ ﴿ثُمَّ﴾[١].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهامٌ إنْكاريٌّ، معناهُ التَّقريرُ، وهو حمْلُ المُخاطَبِ على الإقرارِ بما يَعرِفُه ويُماري فيه، ويَلْجَأُ إلى المُكابَرةِ والسَّفسطةِ في مُخالَفَتِه[٢]. وقيل: استفهامٌ تَعجُّبِيٌّ، أي: فاعْجَبْ مِن نَكِيري كيف حصَلَ. ووَجْهُ التَّعجُّبِ منه: أنَّهم أُبْدِلوا بالنِّعمةِ مِحْنةً، وبالحياةِ هَلاكًا، وبالعمارةِ خَرابًا؛ فهو عِبرةٌ لغَيرِهم. وعُطِفَتْ جُملةُ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ بالفاءِ؛ لأنَّ حَقَّ ذلك الاستفهامِ أنْ يَحصُلَ عندَ ذِكْرِ ذلك الأخْذِ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾

- قولُه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ (فكأيِّنْ) تَقْتضي التَّكثيرَ[٤]. وتَفرَّعَ ذِكْرُ جُملةِ ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ على جُملةِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤]؛ فعُطِفَتْ عليها بفاءِ التَّفريعِ -والتَّعقيبُ في الذِّكْرِ لا في الوُجودِ-؛ لأنَّ الإملاءَ لكَثيرٍ مِن القُرى، ثمَّ أخْذَها بعدَ الإملاءِ لها: يُبيِّنُ كيفيَّةَ نَكيرِ اللهِ وغضَبِه على القُرى الظَّالمةِ ويُفسِّرُه؛ فناسَبَ أنْ يُذكَرَ التَّفسيرُ عَقِبَ المُفسَّرِ بحَرفِ التَّفريعِ، ثمَّ هو يُفِيدُ بما ذُكِرَ فيه مِن اسْمِ كَثرةِ العدَدِ شُمولًا للأقوامِ الَّذين ذُكِروا مِن قبْلُ في قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الحج: ٤٢] إلى آخِرِه، فيَكونُ لتلك الجُملةِ بمَنزِلَةِ التَّذييلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٥).

- قولُه: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أي: كمْ قَريةٍ أهْلَكْنا؟! وكم بِئْرٍ عطَّلْنا عن سُقاتِها؟! وقَصْرٍ مَشيدٍ أخليناهُ عن ساكِنِيه؟! فتُرِكَ ذلك؛ لدَلالةِ ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾ عليه[١].

- وفي قولِه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال ذلك هنا، وقال بَعدُ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مُوافقةً لِمَا قبْلَهما؛ إذْ ما هنا تقدَّمَه معنى الإهلاكِ بقولِه: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي: أهلَكْتُهم، وما بعْدُ تقدَّمَه ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، وهو يدُلُّ على أنَّ العذابَ لم يأْتِهم في الوقْتِ؛ فحسُنَ ذِكْرُ الإهلاكِ في الأوَّلِ، والإملاءِ -أي: التَّأخير- في الثَّاني[٢].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا قولُه هنا: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾، فوصَفَ القَصْرَ بـ﴿مَّشِيدٍ﴾، ولم يُوصَفْ بـ (مُشَيَّد) كما في قولِه: ﴿فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. ووَجْهُه: أنَّ ذلك جمْعٌ ناسَبَ التَّكثيرَ فيه، وهذا مُفْرَدٌ. وأيضًا ﴿مَّشِيدٍ﴾ فاصلةُ آيةٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٢٦، ٩٢٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٢)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٥٩، ٣٦٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٤، ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٠).

الآيات (٤٦-٤٨)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى ذِكرُه: أفلم يَسِرِ المُكَذِّبونَ مِن قُرَيشٍ في الأرضِ؛ لِيُشاهِدوا آثارَ المُهلَكِينَ، فتكونَ لهم قلوبٌ واعِيةٌ يَعقِلونَ بها فيتفَكَّرون ويَعتَبِرون، أو تكونَ لهم آذانٌ يَسمَعون بها سَماعَ تدبُّرٍ فيتَّعِظونَ؟! فإنَّ العمى ليس عَمى البَصَرِ، وإنَّما العَمى المُهْلِكُ لصاحبِه هو عَمى البَصيرةِ عن إدراكِ الحَقِّ والاعتِبارِ.

ويَستَعجِلُك -يا مُحَمَّدُ- كفَّارُ قُرَيشٍ بالعَذابِ الذي أنذَرْتَهم به جَزاءَ كُفرِهم، ولن يُخلِفَ اللهُ ما وعَدَهم به مِنَ العَذابِ، فلا بدَّ مِن وُقوعِه، وإنَّ يَومًا عِندَ اللهِ كمِقدارِ ألْفِ سَنةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ مِن سِنِي الدُّنيا.

وكثيرٌ مِن القُرى كانت ظالِمةً بإصرارِ أهلِها على الكُفرِ، فأمهَلْتُهم ولم أعاجِلْهم بالعُقوبةِ فاغتَرُّوا، ثمَّ أخَذْتُهم بعَذابي في الدُّنيا، وإليَّ مَرجِعُهم بعدَ هَلاكِهم، فأُعَذِّبُهم بما يَستَحِقُّونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مَن كذَّبَ الرُّسُلَ مِن الأُمَمِ الخاليةِ، وكان عِندَ العَرَبِ

أشياءُ مِن أحوالِهم يَنقُلونَها، وهم عارِفونَ ببِلادِهم، وكثيرًا ما يَمُرُّونَ على كثيرٍ منها- قال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ ﴾، فاحتَمَلَ أن يكونَ حَثًّا على السَّفَرِ لِيُشاهِدوا مصارِعَ الكُفَّارِ فيَعتَبِروا، أو يكونوا قد سافَروا وشاهَدوا فلم يَعتَبِروا، فجُعِلوا كأنْ لم يُسافِروا ولم يَرَوا[1]!

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾.

أي: أفلمْ يَسِرْ كُفَّارُ قُرَيشٍ في الأرضِ؛ لِيَنظُروا آثارَ الأُمَمِ المُكَذِّبةِ مِن قَبلِهم، فيتسَبَّبَ عن ذلك أن تكونَ لهم قلوبٌ واعِيةٌ يَعقِلونَ بها ما رأَوه في الآياتِ المَرئِيَّاتِ مِنَ الدَّلالةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وقُدرَتِه وغيرِ ذلك، فيتَفَكَّروا ويتَّعِظوا قبْلَ أن يَحُلَّ بهم ما أصاب أولئكَ القَومَ[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر: ٨٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٤).

قال ابن عجيبة: (السَّيرُ في الأرضِ: إمَّا حِسِّيٌّ، أو معنويٌّ باعتبارِ سَماعِ أخبارها مِنَ الغيرِ، أو قراءتِها في الكُتُبِ؛ فقولُه: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ﴾: راجِعٌ للسيرِ الحِسيِّ، وقولُه: ﴿أَوْ ءَاذَانٌ﴾ للسَّيرِ المَعنويِّ). ((البحر المديد)) (٣/ ٥٤١). ويُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ١٩٢).

وقال ابنُ القيم: (كلُّ مَوضِعٍ أمَرَ اللهُ سُبحانَه فيه بالسَّيرِ في الأرضِ، سواءٌ كان السَّيرَ الحِسِّيَّ على الأقدامِ والدَّوابِّ، أو السَّيرَ المَعنويَّ بالتفَكُّرِ والاعتبارِ، أو كان اللَّفظُ يَعُمُّهما -وهو الصَّوابُ؛ فإنَّه يدُلُّ على الاعتِبارِ والحَذَرِ أن يَحُلَّ بالمُخاطَبينَ ما حَلَّ بأولئك). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٠٣).

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [مُحَمَّد: ١٠].

﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

أي: أو يتسبَّبَ عن سَيرِهم ورُؤيَتِهم آثارَ مَن سَبَقَهم مِن أُمَمِ الكُفرِ أن تكونَ لهم آذانٌ واعِيةٌ يَسمعَونَ بها سَماعَ تَدَبُّرٍ وعِظَةٍ، فيُمَيِّزوا بين الحَقِّ والباطِلِ، ويَعرِفوا أخبارَ الأُمَمِ الماضيةِ، وسَبَبَ هلاكِهم، فيَحذَروا أن يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم[1]؟!

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: لا تَعمى أبصارُ الكُفَّارِ؛ فأَعيُنُهم مُبصِرةٌ يَرَونَ بها المَرئيَّاتِ، ولكِنَّ قُلوبَهم هي التي تَعمَى عن رُؤيةِ الحَقائِقِ وإدراكِها، والانتِفاعِ بها، فهذا هو العمَى المُهلِكُ لصاحِبِه[2].

كما قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر سبحانَه أنَّ المُشرِكينَ كَذَّبوا رسولَه، وبالَغوا في تكذيبِه، وسلَّاه على ذلك بأنَّك لستَ ببِدْعٍ فى الرسُلِ؛ فكثيرٌ مِمَّن قبلَك منهم قد كُذِّبوا وأُوذُوا، فلا تبتَئِسْ بما يفعلونَ، واصبِرْ على ما تدعو إليه، ولا يضيرَنَّك ما يأتونَ وما يَذَرونَ- قفَّى على ذلك ببيانِ أنَّهم لاستهزائِهم به وشديدِ تكذيبِهم كانوا يَستَعجِلونَه العذابَ[1].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

أي: ويَستَعجِلُك الكُفَّارُ -يا مُحَمَّدُ- بنُزولِ عَذابِ اللهِ عليهم جَزاءَ شِرْكِهم به، واللهُ لن يُخلِفَ ما وعَدَ به مِن ذلك، وهو واقِعٌ بهم حَتْمًا في وَقتِه المَحَدَّدِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣- ٥٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٧/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٥ - ٢٧٧).

وممن ذهب إلى أنَّ ذلك قد وقع عليهم يومَ بَدرٍ بقَتْلِهم: مقاتلٌ، وابنُ جريرٍ، والثعلبي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٤٠).

وذهب ابنُ كثيرٍ والسعدي إلى أنَّ ذلك واقعٌ بهم في الآخرةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

أي: هُم يَستَعجِلونكَ بالعذابِ، ولكنَّ اللهَ تعالى حليمٌ لا يَعجَلُ به؛ فإنَّ مِقدارَ ألْفِ سَنةٍ عِندَ خَلْقِه كيَومٍ واحدٍ عِندَه، فالطَّويلُ عِندَهم مِنَ الزَّمنِ قَصيرٌ عِندَه، وليس عذابُهم عِندَه ببعيدٍ، فلا بدَّ مِن وُقوعِه لا مَحالةَ، فهو على الانتقامِ قادرٌ، لا يَفوتُه شَيءٌ، ولا فَرْقَ بيْن وُقوعِ ما يَستَعجِلون به مِنَ العذابِ وتأخُّرِه في القُدرةِ، إلَّا أنَّه تَفضَّلَ بالإمهالِ؛ فلذلك لا يَعجَلُ بعقوبةِ مَن أرادَ عقوبتَه حتَّى يَبلُغَ غايةَ مُدَّتِه وإنْ تَطاوَلُوها، واستَبطَؤوا نُزولَ العذابِ، فإنَّ اللهَ يُمهِلُ المُدَدَ الطَّويلةَ ولا يُهمِلُ، حتَّى إذا أَخَذَ الظَّالِمينَ بعذابِه لمْ يُفْلِتْهُم(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٨، ٥٩٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٦٦، ٦٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١).

قيل: المعنى: إنَّ يومًا واحدًا مِن أيَّامِ العذابِ في الآخرةِ كألْفِ سَنةٍ مِمَّا يعُدُّونَ. وممَّن ذهب إلى هذا القول: السمرقنديُّ، والسمعانيُّ، والرازيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٤).

وقيل: المعنى: وإنَّ يَومًا عند رَبِّك من أيامِ الآخرةِ كألْفِ سَنَةٍ مِمَّا تعُدُّونَ مِن أيَّامِ الدُّنيا. وممَّن ذهبَ إلى هذا القولِ: يحيى بنُ سلَّامٍ، وابنُ الجوزي، وابنُ جُزي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣).

قال الواحدي (﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: مِن أيَّام عذابِهم ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ وذلك أنَّ يومًا مِن أيَّامِ الآخرةِ كألْفِ سَنَةٍ في الدُّنيا). ((الوجيز)) (ص: ٧٣٦).

وقيل: إنَّ اليومَ المذكورَ في الآيةِ هو يومٌ مِنَ الأيَّامِ السِّتَّةِ التي خَلَقَ اللهُ فيها السَّمواتِ والأرضَ، فكُلُّ يومٍ منها كألْفِ سَنَةٍ.

وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مُقاتِلُ بنُ سُليمانَ، وأحمدُ بن حنبل. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٣١)، ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ٧٠).

كما قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يَدخُلُ فُقَراءُ المُسلمينَ الجَنَّةَ قَبلَ أغنيائِهم بنصفِ يومٍ، وهو خَمسُ مئةِ عامٍ))[1].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّها عطْفٌ على جملةِ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧]، أو على جملةِ: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]؛ باعتِبارِ ما تَضمَّنَه استعجالُهم بالعذاب مِنَ التَّعريضِ بأنَّهم آيسون منه؛ لتأخُّرِ وُقوعِه، فذُكِّروا بأنَّ أُمَمًا كثيرةً أُمهِلَتْ، ثمَّ حلَّ بها العذابُ[2].

وأيضًا لَمَّا دَلَّلَ اللهُ تعالى على نصْرِ أوليائِه، وقَسْرِ أعدائِه، بشَهادةِ تلك القُرى، وخَتَمَ بالتَّعجيبِ مِن استعجالِهم، مع ما شاهَدوا مِن إهلاكِ أمثالِهم، وأَعلَمَهم ما هو عليه مِنَ الأناةِ، واتِّساعِ العظَمةِ، وكِبَرِ المِقدارِ، عَطَفَ على ﴿فَكَأَيِّن﴾ -مُحذِّرًا مِن نَكالِه، بَعدَ طَويلِ إمهالِه- قولَه[3]:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٥٤) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٣٤٨)، وابن ماجه (٤١٢٢)، وأحمد (٩٨٢٣)

صححه الترمذي، وابن حبان في ((الصحيح)) (٦٧٦)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٩٨٢٣)، وقال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ١٣٨): رواته محتَجٌّ بهم في الصحيح، وقال ابن كثير في ((نهاية البداية والنهاية)) (٢/ ٣٤٥): (مرفوعٌ، إسنادُه على شرطِ مسلمٍ)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٣٥٤): (حسن صحيح).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٦٧).

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وكَثيرٌ مِن القُرى أمهَلْتُ أهلَها، ولم أُعاجِلْهم بالعُقوبةِ، مع ظُلمِهم بالشِّركِ والعِصيانِ، ثُمَّ عاقَبْتُهم في الدُّنيا، ومَرجِعُهم في الآخرةِ إليَّ، فأُعَذِّبُهم فيها أيضًا؛ فلْيَحذَرْ هؤلاء الظَّالِمونَ مِن ذلك، ولا يَغتَرُّوا بإمهالِ اللهِ لهم(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ المقصودُ منه ذِكرُ ما يتكامَلُ به ذلك الاعتِبارُ؛ لأنَّ الرُّؤيةَ لها حَظٌّ عَظيمٌ في الاعتِبارِ، وكذلك استِماعُ الأخبارِ فيه مَدخَلٌ، ولكِنْ لا يَكمُلُ هذان الأمرانِ إلَّا بتدَبُّرِ القَلبِ؛ لأنَّ مَن عايَن وسَمِع، ثمَّ لم يتدبَّرْ ولم يَعتَبِرْ، لم ينتَفِعْ البتَّةَ، ولو تفكَّرَ فيما سَمِعَ لانتفَعَ؛ فلهذا قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(٢).

٢- القَلبُ مِن شَأنِه أن يُبصِرَ؛ فإنَّ بَصَرَه هو البَصَرُ، وعَماه هو العَمى، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(٣)، وعن قَتادَةَ في قولِه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ قالَ: (ما هذه الأبصارُ التي في الرؤوسِ؛ فإنَّها جعَلها الله منفعةً وبلغةً، وأمَّا البصرُ النافعُ فهو في القلبِ)(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٩٨).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، فسَترجعُ إلى اللهِ فيُعَذِّبُها بذُنوبِها؛ فلْيَحذَرِ الظَّالِمونَ مِن حُلولِ عِقابِ اللهِ، ولا يغتَرُّوا بالإمهالِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ يدلُّ على أنَّ محلَّ العقلِ والفَهمِ في القلبِ[٢]، فقد أضاف العقلَ إلى القلبِ؛ لأنَّه محلُّه، كما أنَّ السمعَ محلُّه الأذنُ[٣]، ولا يُنكَرُ أنَّ للدماغِ اتِّصالًا بالقلبِ يُوجِبُ فسادَ العقلِ متى اختلَّ الدماغُ[٤].

٢- قال تعالى لمُكَذِّبي الرُّسُلِ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، ذكَر ذلك بعدَ قَولِه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٧).

قال شيخُ الإسلامِ بَعدَ أنْ ذَكَر الخلافَ في محَلِّ العقلِ: (والتَّحقيقُ: أنَّ الرُّوحَ التي هي النَّفْسُ لها تعلُّقٌ بهذا وهذا، وما يَتَّصِفُ مِنَ العقل به يَتعلَّقُ بهذا وهذا، لكنَّ مَبدأَ الفِكرِ والنَّظرِ في الدِّماغِ، ومَبدأَ الإرادةِ في القلبِ. والعقلُ يُرادُ به العِلمُ، ويُرادُ به العملُ، فالعِلمُ والعَملُ الاختياريُّ أصْلُه الإرادةُ، وأصلُ الإرادةِ في القلبِ، والمريدُ لا يكونُ مُريدًا إلَّا بَعد تَصوُّرِ المرادِ، فلا بدَّ أنْ يكونَ القلبُ مُتصوِّرًا، فيكون منه هذا وهذا، ويَبتدئُ ذلك مِنَ الدِّماغِ، وآثارُه صاعدةٌ إلى الدِّماغِ، فمنه المبتدأُ، وإليه الانتهاءُ. وكِلا القولَينِ له وجْهٌ صحيحٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٩/ ٣٠٣، ٣٠٤).

ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٢-٤٥]، ثمَّ قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآيةَ، ثمَّ قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾، فذكَرَ إهلاكَ مَن أهلَكَ، وإملاءَه لِمَن أملَى؛ لئلَّا يغتَرَّ المغتَرُّ فيقولَ: نحن لم يُهلِكْنا[1]!

٣- قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾، وِزانُ هذه الآيةِ وِزانُ قولِه آنِفًا: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ﴾ [الحج: ٤٥] إلخ، إلَّا أنَّ الأُولى قُصِد منها كثرةُ الأُمَمِ التي أُهلِكَتْ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ مِن ذِكرِ قَومِ نوحٍ ومَن عُطِف عليهم أنَّ الهلاكَ لَمْ يَتجاوَزْهم؛ ولذلك اقتُصِر فيها على ذِكرِ الإهلاكِ دون الإمهالِ. وهذه الآيةُ القصدُ منها التَّذكيرُ بأنَّ تأخيرَ الوعيدِ لا يقتَضي إبطالَه؛ ولذلك اقتُصِر فيها على ذِكرِ الإمهالِ، ثمَّ الأخذِ بَعدَه المناسبِ للإملاءِ، مِن حيثُ إنَّه دُخولٌ في القبضةِ بَعدَ بُعْدِه عنها[2].

٤- مَن نظَرَ إلى الأشياءِ بغَيرِ قَلبٍ، أو استمَعَ إلى كَلِماتِ أهلِ العِلمِ بغَيرِ قَلبٍ؛ فإنَّه لا يَعقِلُ شَيئًا؛ فمدارُ الأمرِ على القَلبِ، وعند هذا تَستبينُ الحِكمةُ في قَولِه تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾، حتى لم يذكُرْ هنا العينَ، كما في آياتٍ أُخرى، كقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]؛ وذلك لأنَّ سِياقَ الكَلامِ هنا في أمورٍ

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٢، ٢٩٣). ويُنظر أيضًا ما تقدَّم في بلاغةِ الآياتِ في هذه الآية: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ﴾ (ص: ٢٥٩).

غائبةٍ وحِكمةٍ مَعقولةٍ مِن عواقِبِ الأمورِ لا مجالَ لنَظَرِ العَينِ فيها، ومِثلُه قَولُه تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾[1] [الفرقان: ٤٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ فيه سؤالٌ: ظاهِرُ هذه الآيةِ أنَّ الأبصارَ لا تَعمى، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على عَمى الأبصارِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣]، وكقَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]؟

الجوابُ: أنَّ التَّمييزَ بينَ الحَقِّ والباطِلِ، وبين الضَّارِّ والنَّافِعِ، وبين القَبيحِ والحَسَنِ، لَمَّا كان كُلُّه بالبصائرِ لا بالأبصارِ، صار العَمى الحقيقيُّ هو عمَى البصائِرِ لا عمَى الأبصارِ، فصِحَّةُ العَينَينِ لا تُفيدُ معَ عَدَمِ العَقلِ كما هو ضروريٌّ، وقَولُه: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ يعني بصائِرَهم، أو أعمى أبصارَهم عن الحَقِّ، وإن رأت غَيرَه[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فيه أنَّ الوعدَ يُطْلَقُ في الخيرِ والشَّرِّ؛ لأنَّ ظاهرَ الآيةِ الذي لا يَجوزُ العُدولُ عنه: ولن يُخلِفَ اللهُ وعْدَه في حُلولِ العذابِ الذي يَستَعجِلونك به لهم؛ لأنَّه مُقترنٌ بقولِه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، فتَعلُّقُه به هو الظَّاهرُ، وقد أُطلِق الوعدُ في القرآنِ على التَّوعُّدِ بالنَّارِ والعذابِ، كقولِه تعالى: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3] [الحج: ٧٢].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ مِقدارَ اليومِ عندَ اللَّهِ ألْفُ سنَةٍ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿يُدَبِّرُ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٦).

ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥]. وقدْ جاءَتْ آيةٌ أخرَى تدُلُّ على خلافِ ذلك، هي قولُه تعالَى في سورةِ (المعارج): ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ الآيةَ [المعارج: ٤].

وللجمعِ بيْنَهما وجهانِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أن يومَ الألْفِ في سُورةِ (السجدة) هو مِقدارُ سَيرِ الأمْرِ وعُروجِه إليه تعالى، ويومَ الألْفِ في سُورةِ (الحجِّ) هو أحَدُ الأيَّامِ السِّتَّةِ الَّتي خلَقَ اللهُ فيها السَّمواتِ، ويومَ الخمسينَ ألْفًا في سورة (المعارج) هو يومُ القيامةِ[(١)].

الوجهُ الثاني: أنَّ المُرادَ بها جَميعِها يوم القيامةِ، وأنَّ الاختلافَ باعتبارِ حالِ المُؤمِنِ والكافِرِ، بدليلِ قولِه: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[(٢)] [المدثر: ٩، ١٠].

بلاغة الآيات:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾

- قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على القولِ بأنَّ الفاءَ عطْفٌ على الكلامِ السَّابقِ؛ فالهمزةُ دخَلَتْ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه لمَزيدِ الإنكارِ، أي: كأيِّنْ مِن قَريةٍ أهْكَلْناها فهي ظالمةٌ، فلم يَسِيروا في الأرضِ، فيَعْتَبِروا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٤)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان))

- والاستفهامُ في ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تَعجُّبيٌّ مِن حالِهم في عدَمِ الاعتبارِ بمَصارِعِ الأُمَمِ المُكذِّبةِ لأنبيائِها، والتَّعجُّبُ مُتعلِّقٌ بمَن سافَروا منهم ورَأَوا شيئًا مِن تلك القُرى المُهْلَكةِ وبمَن لم يُسافِروا؛ فإنَّ شأْنَ المُسافرينَ أنْ يُخبِروا القاعدينَ بعجائبِ ما شاهَدوهُ في أسفارِهم، كما يُشِيرُ إليه قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ فالمقصودُ بالتَّعجُّبِ هو حالُ الَّذين سارُوا في الأرضِ، ولكنْ جُعِل الاستفهامُ داخِلًا على نَفْيِ السَّيرِ؛ لأنَّ سيرَ السَّائرينَ منهم لمَّا لم يُفِدْهم عِبْرةً وذِكْرَى جُعِلَ كالعدَمِ؛ فكان التَّعجُّبُ مِن انتفائِه؛ فالكلامُ جارٍ على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ[(١)].

- قولُه: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ...﴾ في ذِكْرِ الآذانِ اكتفاءٌ عن ذِكْرِ الأبصارِ؛ إذ يُعْلَمُ أنَّ القُلوبَ الَّتي تَعقِلُ إنَّما طَريقُ عِلْمِها مُشاهَدةُ آثارِ العذابِ والاستئصالِ، كما أشار إليه قولُه بعْدَ ذلك: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[(٢)]. وقيل: لأنَّ سِياقَ الكَلامِ هنا في أمورٍ غائبةٍ وحِكمةٍ مَعقولةٍ مِن عواقِبِ الأمورِ، لا مجالَ لنَظَرِ العَينِ فيها[(٣)].

- والفاءُ في جُملةِ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ تفريعٌ على جَوابِ النَّفيِ في قولِه: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾، وفَذْلَكةٌ[(٤)] للكلامِ السَّابقِ، وتَذييلٌ له بما في هذه الجُملةِ من العُمومِ. وحَرْفُ التَّوكيدِ (إنَّ) لغَرابةِ الحُكْمِ، لا لأنَّه

(٧/ ٥٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١١).

(٤) تقدَّم تعريفُها (ص: ٥٤).

ممَّا يُشَكُّ فيه[١].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن النَّفيِ وحَرفِ الاستدراكِ (لكنْ) في قولِه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ قَصرٌ ادِّعائيٌّ[٢]؛ للمُبالَغةِ بجَعْلِ فَقْدِ حاسَّةِ البصَرِ المُسمَّى بالعَمى كأنَّه غيرُ عَمًى، وجَعْلِ عدَمِ الاهتداءِ إلى دَلالةِ المُبْصَراتِ مع سَلامةِ حاسَّةِ البصرِ هو العَمى؛ مُبالَغةً في استحقاقِه لهذا الاسمِ[٣].

- وقولُه: ﴿ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ صِفَةٌ لـ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾، تُفِيدُ تَوكيدًا لِلَفْظِ القُلوبِ؛ فهو لزِيادةِ التَّقريرِ والتَّشخيصِ، ويُفِيدُ هذا الوصْفُ -وراءَ التَّوكيدِ- تَعريضًا بالقومِ المُتحدَّثِ عنهم بأنَّهم لم يَنتفِعوا بأفئدتِهم مع شِدَّةِ اتِّصالِها بهم؛ إذ هي قارَّةٌ في صُدورِهم[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ ...﴾[الحج: ٤٢] عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ؛ فإنَّ مِن تَكذيبِهم أنَّهم كذَّبوا بالوعيدِ، وقالوا: لو كان محمَّدٌ صادِقًا في وَعيدِه لعُجِّلَ لنا وَعيدُه؛ فكانوا يَسألونَه التَّعجيلَ بنُزولِ العذابِ استهزاءً[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٩).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢١، ٥٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٠).

- وحُكِيَ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ بصِيغَةِ المُضارِعِ؛ للإشارةِ إلى تَكريرِهم ذلك تَجْديدًا منهم للاستهزاءِ، وتَهكُّمًا وإنكارًا على المُسلمينَ. والخِطابُ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمقصودُ: إبلاغُه إيَّاهم[١].

- قولُه: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ فيه تأْنيسٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُؤمنينَ؛ لئلَّا يَستبْطِئوه[٢]. وأضاف الوعْدَ إليه تعالى؛ لأنَّ رسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هو المُخبِرُ به عن اللهِ تعالى[٣]. قيل: المُرادُ بوَعْدِه تعالى ما جُعِل لهَلاكِ كلِّ أُمَّةٍ مِن مَوعدٍ مُعيَّنٍ وأجَلٍ مُسمًّى، كما في قولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]؛ فتكونُ الجُملةُ الأُولى مُبيِّنةً لبُطلانِ الاستعجالِ به ببَيانِ استحالةِ مَجيئِه قبْلَ وَقْتِه الموعودِ، والجُملةُ الأخيرةُ بَيانًا لبُطلانِه ببَيانِ ابتنائِه على استطالةِ ما هو قَصيرٌ عندَهُ تعالى؛ فلا يكونُ في النَّظمِ الكريمِ حينئذٍ تَعرُّضٌ لإنكارِهم الَّذي دَسُّوه تحتَ الاستعجالِ، بل يكونُ الجوابُ مَبْنيًّا على ظاهرِ مَقالِهم، ويُكْتَفى في رَدِّ إنكارِهم ببَيانِ عاقبةِ مَن قَبْلَهم مِن أمثالِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾؛ فإنَّ اللهَ توعَّدَهم بالعذابِ، وهو صادِقٌ على عَذابِ الدُّنيا والآخرةِ، وهم إنَّما استَعْجَلوا عذابَ الدُّنيا تَهكُّمًا وكِنايةً عن إيقانِهم بعدَمِ وُقوعِه بلازمٍ واحدٍ، وإيماءً إلى عدَمِ وُقوعِ عَذابِ الآخرةِ بلازمَينِ؛ فرَدَّ اللهُ عليهم رَدًّا عامًّا بقولِه: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، وكان ذلك تَثبيتًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٢).

للمُؤمنينَ، ثمَّ أعقَبَه بإنذارِهم بأنَّ عذابَ الآخرةِ لا يفلِتونَ منه أيضًا، وهو أشَدُّ العذابِ؛ فقولُه: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بالوعيدِ، وهذا اليومُ هو يومُ القيامةِ[1]، على قولٍ في التفسيرِ.

- والخِطابُ في قولِه: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ على القولِ بأنَّه خِطابٌ للَّذين يَستعجِلون العذابَ؛ فيكونُ فيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ عطَفَ هذه الجُملةَ بالواوِ؛ بينما عطَفَ الجُملةَ الأُولى بالفاءِ ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾؛ لأنَّ الأُولى بدَلٌ مِن قولِه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، وهذه الجُملةُ ﴿وَكَأَيِّن ...﴾ في حُكْمِ ما تقدَّمَها مِن الجُملتينِ ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾؛ لبَيانِ أنَّ المُتوعَّدَ به يَحِيقُ بهم لا مَحالةَ، وأنَّ تأْخيرَه لِعادَتِه تعالى[3].

- قولُه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ أي: وكم مِن أهْلِ قَريةٍ، فحُذِفَ المُضافُ، وأُقِيمَ المُضافُ إليه مُقامَهُ، وأرجَعَ الضَّمائرَ (لها- وهي - ظالمة- أخذتها) والأحكامَ إلى القريةِ؛ مُبالَغةً في التَّعميمِ والتَّهويلِ[4].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث تكرَّرَ التَّكثيرُ بـ(كأيِّن) في القُرى؛ لإفادةِ مَعنًى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٢).

غيرِ ما جاءت له الأُولى؛ لأنَّه ذكَرَ فيها القُرى الَّتي أهْلَكَها دونَ إملاءٍ وتأْخيرٍ، بل أعقَبَ الإهلاكُ التَّذكيرَ، وهذه الآيةُ لمَّا كان تعالى قد أمهَلَ قُريشًا حتَّى استعجَلَتْ بالعذابِ، جاءت بالإهلاكِ بعْدَ الإملاءِ؛ تَنبيهًا على أنَّ قُريشًا وإنْ أمْلى تعالى لهم وأمْهَلَهم فإنَّه لا بُدَّ مِن عَذابِهم، فلا يَفْرَحوا بتأْخيرِ العَذابِ عنهم[١].

- وجُملةُ: ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ حاليَّةٌ مُفِيدةٌ لكَمالِ حِلْمِه تعالى، ومُشعِرةٌ بطَريقِ التَّعريضِ بظُلْمِ المُستعجِلينَ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، ومُصرِّحٌ بما أفادهُ ذلك بطَريقِ التَّعريضِ مِن أنَّ مآلَ أمْرِ المُستعجِلينَ أيضًا ما ذُكِرَ مِن الأخْذِ الوَبيلِ[٣].

- وتَقديمُ المَجرورِ (إليَّ) للحَصرِ الحقيقيِّ، أي: لا يَصيرُ النَّاسُ إلَّا إلى اللهِ، وهو يَقْتضي أنَّ المصيرَ إليه كائنٌ لا مَحالةَ؛ فهو كِنايةٌ عن عدَمِ الإفلاتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٣).

الآيات (٤٩-٥١)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَعَوْا﴾: السَّعْيُ: المشيُ السَّريعُ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمرِ، خيرًا كان أو شرًّا، يُقالُ: سعَى في الأمرِ: إذا جَدَّ فيه لقصدِ إصلاحِه أو إفسادِه[1].

﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: أي: مُشاقِّينَ مُعانِدينَ مُغالِبينَ، ومعنى المعاجَزةِ في اللُّغةِ: مُحاولةُ عَجْزِ المغالَبِ، يُريدُ كُلُّ واحدٍ أن يُظهِرَ عَجْزَ صَاحِبِه، وأصلُ (عجز): يدُلُّ على ضَعفٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قُلْ -يا مُحَمَّدُ: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّما أنا مُنذِرٌ لكم واضِحُ النِّذارةِ، فالذينَ آمَنوا باللهِ ورَسولِه، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ؛ لهم عِندَ اللهِ مَغفِرةٌ لذُنوبِهم، ورِزقٌ حَسَنٌ، والذينَ سَعَوا في الكَيدِ لإبطالِ آياتِ القُرآنِ مُعانِدينَ، ظانِّينَ أنَّهم يُعجِزونَ اللهَ، أولئك هم أهلُ النَّارِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤١١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الاستِعجالُ لا يُطلَبُ مِنَ الرَّسولِ، وإنَّما يُطلَبُ مِنَ المُرسِلِ؛ أمَرَه اللهُ تعالى بأن يُديمَ لهم التَّخويفَ والإنذارَ، بقَولِه تعالى[(١)]:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ-: يا أيُّها النَّاسُ[(٢)]، إنَّما أنا لكم نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ، أُخَوِّفُكم عذابَ اللهِ، ولا أملِكُ تَعجيلَ العَذابِ عن وَقتِه ولا تأخيرَه، وليس عليَّ حِسابُكم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٥٨).

(٢) قيل: المرادُ بهم هنا: مُشركو قريشٍ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٨).

وقيل: المرادُ بهم: جميعُ النَّاسِ. وممن قال بذلك: البقاعي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨١).

وممَّن قال بأنَّ ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى بيِّنِ النِّذارةِ وظاهِرِها، في الجملةِ: مقاتلُ بن سليمان، وجلال الدين المحلي، والسعدي، واستظهره الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨١).

قال ابن جرير: (﴿مُّبِينٌ﴾ يقول: أبيِّنُ لكم إنذاري ذلك، وأظهرُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠٠).

وذهب القرطبيُّ والشوكانيُّ إلى أنَّ معنى ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: أُبَيِّنُ لكم ما تحتاجونَ إليه من أمرِ دينِكم. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٥).

قال الشنقيطيُّ: (قولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿مُّبِينٌ﴾ الظَّاهِرُ أنَّه الوصفُ مِن «أبان» الرُّباعيَّةِ اللازمةِ التي بمعنى «بان»، والعربُ تقول: أبانَ فهو مُبِينٌ، بمعنى بانَ فهو بَيِّنٌ، مِن اللازمِ الذي ليس بمتعَدٍّ إلى المفعول... ويحتمِلُ أن يكونَ قَولُه في هذه الآيةِ: ﴿مُّبِينٌ﴾: اسمَ «أبان» المتعدية، والمفعولُ محذوفٌ؛ للتَّعميمِ، أي: مُبينٌ لكم في إنذاري كلَّ ما ينفَعُكم، وما =

كما قال تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [ص: ٧٠].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه يَجِبُ أن يقولَ للكافِرينَ: ﴿أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾؛ أردَفَ ذلك بأنْ أمَرَه بوَعْدِهم ووَعيدِهم؛ لأنَّ الرَّجُلَ إنَّما يكونُ مُنذِرًا بذِكرِ الوَعدِ للمُطيعينَ، والوَعيدِ للعاصينَ(١).

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠﴾.

أي: فالذين آمَنوا بكُلِّ ما وجب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ؛ لهم مِنَ اللهِ سَترٌ لذُنوبِهم، وتَجاوُزٌ عن مُؤاخَذتِهم بها، ولهم رِزْقٌ حَسَنٌ(٢).

= يضُرُّكم؛ لِتَجتَلِبوا النَّفعَ، وتجتَنِبوا الضرَّ. والأولُ أظهَرُ، واللهُ تعالى أعلمُ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨١).

ممَّن قال بأنَّ الرِّزقَ الكريمَ لهم في الجنَّة: ابنُ جرير، وابن عطية، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨١).

قال ابنُ كثير: (قال محمَّدُ بنُ كَعبٍ القُرَظي: إذا سَمِعتَ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ فهو الجنَّةُ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤١).

وقيل: المرادُ: رِزقٌ في الدُّنيا، ورزقٌ في الآخرة. وممَّن قال بذلك: البقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣ ٦٧، ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٥). إلَّا أنَّ ابنَ عاشور جعَلَ رِزقَ الدُّنيا مَعنويًّا.

وقولُه: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ فيه وَصْفُ الرِّزقِ بالكريمِ، وهو يَجمَعُ وَفْرَتَه وصَفاءَه مِن المُكدِّراتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٤).

كما قال تعالى: ﴿... لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ: ٤].

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ٥١﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ بتشديدِ الجِيمِ، قيل معناه: مُبَطِّئينَ مُثَبِّطينَ، أي: يُثَبِّطونَ النَّاسَ عن اتِّباعِ الحَقِّ. وقيل: معناه: يَنسُبونَ المؤمنينَ إلى العَجزِ[(١)].

٢- قِراءةُ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ بالتَّخفيفِ والألف، قيل: معناه: مُعانِدينَ. وقيل: معناه: ظانِّينَ أنَّهم يَغلِبونَ الرَّسولَ وأتباعَه. وقيل معناه: يَحسَبونَ أنَّهم يَفوتونَنا لإنكارِهم البَعثَ والثَّوابَ والعِقابَ، فلا نَقدِرُ على إعادتِهم ومُعاقَبَتِهم[(٢)]!

---

(١) قرأ بها: ابنُ كثير، وأبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٥٤)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٨٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٨١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٥٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٨٥)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٨٤).
قال ابنُ جريرٍ: (الصَّوابُ مِن القول في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّهما قِراءتانِ مَشهورتان؛ قد قَرأَ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماءُ مِنَ القرَّاءِ، مُتقارِبَتَا المعنى؛ وذلك أنَّ مَن عَجَّزَ عن آياتِ اللهِ، فقد عاجزَ اللهَ، ومِن معاجزةِ اللهِ التَّعجيزُ عن آياتِ اللهِ، والعملُ بمعاصيه، وخلافِ أمْرِه. وكان مِن صِفَةِ القومِ الذين أَنزلَ اللهُ هذه الآياتِ فيهم أنَّهم كانوا يُبطِّئون الناسَ عن الإيمانِ باللهِ، واتِّباعِ رسولِه، ويُغالِبون رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَحسَبون أنَّهم يُعجِزونه، ويَغلِبونه، وقد ضَمِن اللهُ له نصْرَه عليهم، فكان ذلك مُعاجزتَهمُ اللهَ. فإذْ كان ذلك كذلك، فبأيِّ القِراءتَينِ قَرأَ القارئُ فمُصيبٌ الصَّوابَ في ذلك. وأمَّا المُعاجَزةُ فإنَّها المُفاعَلةُ، مِنَ العَجْزِ، ومعناه: مغالبةُ اثنَينِ أحدِهما صاحبَه، أيُّهما يُعجِزُه فيَغلِبُه الآخرُ ويَقهَرُه. وأمَّا التَّعجيزُ: فإنَّه التَّضعيفُ، وهو التَّفعيلُ مِنَ العَجْزِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠٢).

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾.

أي: والذينَ سَعَوْا فِي إبطالِ آياتِ القُرآنِ ورَدِّها، مُعانِدينَ ومُشاقِّينَ لله وظانِّينَ أنَّهم يُعجِزونَ اللهَ فلا يَقدِرُ عليهم، أو يَغلِبونَ أولياءَه فلا يَنصُرُهم؛ أولئك في الآخرةِ سُكَّانُ الجَحيمِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ [سبأ: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [سبأ: ٣٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠١، ٦٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٢).

قال الشِّنقيطي: (الظَّاهِرُ بحَسَبِ الوَضعِ العربيِّ في قراءة الجمهورِ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: هو اقتِضاءُ طَرَفينِ؛ لأنَّ الظَّاهِرَ لا يُعدَلُ عنه إلَّا لدليلٍ يجِبُ الرجوعُ إليه، والمفاعلةُ تقتضي الطَّرفَينِ إلَّا لدليلٍ يَصرِفُ عن ذلك، واقتِضاءُ المفاعلةِ الطَّرفينِ في الآيةِ مِن طَريقَينِ:

الأولى: هي ما قاله ابنُ عَرَفةَ مِن أنَّ معنى ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ في الآية: أنَّهم يُعاجِزونَ الأنبياءَ وأتباعَهم، فيُحاوِلُ كُلُّ واحدٍ منهما إعجازَ الآخَرِ، فالأنبياءُ وأتباعُهم يُحاوِلونَ إعجازَ الكُفَّارِ وإخضاعَهم لِقَبولِ ما جاء عن اللهِ تعالى، والكُفَّارُ يُقاتِلونَ الأنبياءَ وأتباعَهم ويُمانِعونَهم؛ لِيُصَيِّروهم إلى العَجزِ عن أمرِ الله، وهذا الوجهُ ظاهِرٌ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧]؛ وعليه فمَفعولُ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ محذوفٌ، أي: مُعاجِزينَ الأنبياءَ وأتباعَهم، أي: مُغالِبينَ لهم؛ لِيُعجِزوهم عن إقامةِ الحَقِّ.

الطريقةُ الثانيةُ: هي التي ذكَرْناها آنفًا عن الزَّجَّاجِ أنَّ معنى مُعاجِزينَ: ظانِّينَ أنَّهم يُعجِزونَ رَبَّهم، فلا يَقدِرُ عليهم؛ لِزَعمِهم أنَّه لا يَقدِرُ على بَعثِهم بعد الموتِ... والوجهُ الأوَّلُ أظهرُ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٨٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إنَّ العملَ لا ينفعُ إلَّا إذا كان صالحًا، والصالحُ ما تضمَّن شيئينِ: الإخلاصَ لله، واتِّباعَ شريعتِه[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ يُبَيِّنُ أنَّ مَن جمَعَ بينَ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، فاللهُ تعالى يجمَعُ له بينَ المَغفِرةِ والرِّزقِ الكَريمِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾، فيه سؤالٌ: إنْ قيل: إنَّ النبيَّ -عليه السَّلامُ- في هذه الآيةِ بَشَّرَ المؤمِنين أوَّلًا، وأَنذَرَ الكافرين ثانيًا، فكان القياسُ أنْ يُقالَ: قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إنَّما أنا لكم بَشيرٌ ونَذيرٌ؟

والجواب مِن عِدَّةِ أوجُهٍ:

منها: أنه عبَّرَ بقولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ ولم يقُلْ: (إنَّما أنا لكم بَشيرٌ ونَذيرٌ) مع أنَّه ذكَرَ الفريقينِ بعْدَهُ؛ لأنَّ الحديثَ مَسوقٌ إلى المُشركينَ. و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نِداءٌ لهم، وهم الَّذين قِيلَ فيهم: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ووُصِفُوا بالاستعجالِ. وإنَّما ذُكِرَ المُؤمِنون هنا وما أعَدَّ اللهُ لهم مِن الثَّوابِ؛ ليُغاظَ المُشرِكون بذلك، ولِيُحرِّضَهم على نَيلِ هذه الرُّتبةِ الجليلةِ. ومنها: أنَّ فيه إيجازًا بالحَذْفِ، والتَّقديرُ: بَشيرٌ ونَذيرٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٢).

ومنها: أنَّه يَحتمِل أنَّ الآيةَ واردةٌ لبَيانِ ما يَترتَّبُ على الإنذارِ؛ مِن انتفاعِ مَن قَبِلَه، وهَلاكِ مَن رَدَّهُ، فكأنَّه قيل: أنذِرْ -يا محمَّدُ- هؤلاء الكَفَرةَ وبالِغْ فيه؛ فمَن قَبِلَ منك وآمَنَ فلهُ الثَّوابُ، ومَن دام على ما كان في إبطالِ ما جِئْتَ به وسَعى فيه، فقد أدَّيْتَ حَقَّك؛ فقاتِلْهم ليُعَذِّبَهم اللهُ تعالى في الدُّنيا بالقتْلِ، وفي الآخرةِ بالجحيمِ؛ فلا يكونُ ذِكْرُ المُؤمنينَ لاغتمامِهم[١].

ومنها: أنَّ النِّذارةَ هي المقصودُ الأَعظَمُ مِنَ الدَّعوةِ؛ لأنَّه لا يُقدِمُ عليها إلَّا المؤَيَّدون برُوحٍ مِنَ الله[٢].

٢- السَّعْيُ يُطْلَقُ على العملِ في الأمرِ لإفسادِه وإصلاحِه، ومِن استعمالِه في الإفسادِ قولُه تعالَى هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾، ومِنْ إطلاقِ السَّعيِ في العملِ للإصلاحِ قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]، وقولُه: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۞ وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾ الآيةَ [عبس: ٨ - ٩]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ. ومِن إطلاقِ السَّعيِ على الخيرِ والشَّرِّ مَعًا قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾[٣] [الليل: ٤ - ١١].

بلاغة الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ استِئنافٌ، وافتِتاحُه بـ ﴿قُلۡ﴾؛ للاهتمامِ به، وافتتاحُ المَقولِ بنِداءِ النَّاسِ؛ لِلَفْتِ أَلْبابِهم إلى الكَلامِ. وفيه تَثبيتٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَسليةٌ له فيما يَلْقاهُ منهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٣، ٢٩٤).

- وقَصْرُ النَّبيِّ على صِفَةِ النِّذارةِ في قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: لسْتُ طالِبًا نِكايَتَكم، ولا تَزلُّفًا إليكم؛ فمَن آمَن فلِنفْسِه، ومَن عَمِيَ فعليها(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ فرَّعَ على الأمْرِ بالقولِ تَقْسيمَ النَّاسِ في تَلقِّي هذا الإنذارِ المأْمورِ الرَّسولُ بتَبْليغِه إلى مُصدِّقٍ ومُكذِّبٍ؛ لِبَيانِ حالِ كِلَا الفريقينِ في الدُّنيا والآخرةِ؛ تَرغيبًا في الحالةِ الحُسْنى، وتَحذيرًا مِن الحالةِ السُّوأَى(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قال هنا: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، وقال بَعْدَه بآياتٍ: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الحج: ٥٦]؛ فاختلَفَ الجزاءُ مع اتِّفاقِ وَصْفِهم بالإيمانِ وعمَلِ الصَّالحاتِ؛ فوقَعَ في الأوَّلِ: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، وفي الثَّاني: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ قيل: ووَجْهُ ذلك: أنَّ الآيةَ الأُولى إخبارٌ لهم عندَ دُعائِهم قبْلَ أنْ يُؤمِنوا، ولَمَّا ذَكَرَ في الآيةِ الأُولى حالَهم في الدَّارِ الأُخرى بعْدَ انصرامِ الدُّنيا، وحُصولِ اتِّصافِهم بالإيمانِ وأعمالِ الطَّاعاتِ، أُخْبِروا فيها بالحاصلِ مِن المَغفرةِ، وبُيِّنَ لهم الرِّزقُ الكريمُ، وأنَّه نَعيمُ الجنَّةِ والخُلودُ الأبدِيُّ فيها؛ فالآيةُ الأُولى تَضمَّنَت وَعْدَهم إنْ آمَنُوا، وذلك عندَ دُعائِهم إلى الإيمانِ، ثمَّ أُخْبِروا ثانيًا بالحاصِلِ لهم؛ بَيانًا لِمَضمونِ البِشارةِ الأُولى، وإخْبارًا لهم بغايةِ الجَزاءِ؛ فالآيةُ الثَّانيةُ بَيانٌ وتَفصيلٌ لِمَا أُجْمِلَ في الأُولى، مُرَتَّبٌ عليه وآتٍ بعْدَه بما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٤).

يجِبُ فيما يأْتي فيه الإجمالُ والتَّفصيلُ، فكأنَّهم قالوا: ما الرِّزقُ الكريمُ؟ فقيل لهم: جنَّاتُ النَّعيمِ؛ فورَدَ كلٌّ مِن الآيتينِ على ما يُناسِبُ ويُلائِمُ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: والَّذين استمَرُّوا على الكُفْرِ، وعبَّر عن الاستمرارِ بالسَّعيِ في الآياتِ؛ لأنَّه أخَصُّ مِن الكُفْرِ، وذلك حالُ المُشركينَ المُتحدَّثِ عنهم. والكلامُ تَمثيلٌ؛ شُبِّهَت هَيئةُ تَفنُّنِهم في التَّكذيبِ بالقُرآنِ، وتَطلُّبِ المعاذيرِ لنَقضِ دَلائلِه مِن قولِهم: هو سِحرٌ، هو شِعرٌ، هو أساطيرُ الأوَّلينَ، هو قولُ مَجنونٍ، وتَعرُّضِهم بالمُجادَلاتِ والمُناقَضاتِ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بهَيئةِ السَّاعي في طَريقٍ يُسابِقُ غيرَه؛ ليَفُوزَ بالوُصولِ[٢].

- قولُه: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ في تَقديمِ المجرورِ المُؤْذِنِ بالاهتمامِ بنِذارتِهم: إشارةٌ إلى أنَّهم مُشرِفون على شَرٍّ عظيمٍ؛ فهم أحْرِياءُ بالنِّذارةِ[٣].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فيه التَّصديرُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُخبَرَ عنهم جَديرونَ بما سيَرِدُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن الحُكْمِ؛ لأجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَه مِن الأوصافِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٦١، ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٩٦).

الآيات (٥٢-٥٤)

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: أي: تلا القُرآنَ وقَرَأَه، و﴿أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾: أي: تِلاوَتِه، وأصلُ (مني): يدُلُّ على تَقديرِ شَيءٍ؛ لأنَّ القِراءةَ تَقديرٌ ووَضعُ كلِّ آيةٍ مَوضِعَها. وقيل: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ مِنَ التَّمَنِّي المعروفِ[١].

﴿فَيَنسَخُ﴾: أي: يُبطِلُ ويُزيلُ، وأصلُ النَّسخِ: يدُلُّ على إزالةِ شَيءٍ بشَيءٍ يتعَقَّبُه[٢].

﴿يُحۡكِمُ﴾ أي: يخلِّصُ أو يُثبِتُ، وأصلُ (حكم): هو المنعُ[٣].

﴿فَتُخۡبِتَ﴾: أي: تَخضَعَ وتَلِينَ، وأصلُ (خبت): يدُلُّ على خُشوعٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٨)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا مُحمَّدُ- مِن رَسولٍ ولا نَبِيٍّ إلَّا إذا قرأ وتلا ألقَى الشَّيطانُ في قِراءَتِه الشُّبَهَ والوَساوسَ؛ لِيَصُدَّ النَّاسَ عن اتِّباعِ ما يَقرَؤُه ويَتلُوه، لكِنَّ اللهَ يُبطِلُ كَيدَ الشَّيطانِ، فيُزيلُ وَساوِسَه، ويُثبتُ آياتِه الواضِحاتِ في مَبانيها ومَعانيها، واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ.

وهذا الفِعلُ مِنَ الشَّيطانِ جعَلَه اللهُ فتنةً للذينَ في قُلوبِهم شَكٌّ ونِفاقٌ، ولِقُساةِ القُلوبِ مِن المُشرِكينَ الذين لا يُؤثِّرُ فيهم زَجرٌ، وإنَّ الظَّالِمينَ مِن هؤلاء وأولئكَ في عداوةٍ شَديدةٍ لله ورَسولِه، وخِلافٍ للحَقِّ بَعيدٍ عن الصَّوابِ؛ ولِيَعلَمَ أهلُ العِلمِ الذين يُفَرِّقونَ بعِلمِهم بين الحَقِّ والباطلِ أنَّ القُرآنَ الكريمَ هو الحَقُّ النَّازِلُ مِن عندِ اللهِ عليك، لا شُبهةَ فيه، ولا سَبيلَ للشَّيطانِ إليه، فيَزدادَ به إيمانُهم، وتَخضَعَ له قلوبُهم، وإنَّ اللهَ لهادي الذين آمَنوا به وبرَسولِه إلى طَريقِ الحَقِّ الواضِحِ، وهو الإسلامُ، يُنقِذُهم به من الضَّلالِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾.

أي: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا مُحمَّدُ- مِن رَسولٍ ولا نبيٍّ إلا إذا تلا وقرَأ[1]

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٧).

(١) نسبَ ابنُ الجوزي، والخازنُ، والشنقيطي معنى التمنِّي المذكورِ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٨٠). =

= قال ابنُ القيم: (والسَّلَفُ كُلُّهم على أنَّ المعنى: إذا تلا ألقَى الشَّيطانُ فى تلاوتِه). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٩٣).

وممن قال به مِن السلفِ: مجاهدٌ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠٩، ٦١٠).

ونسَبه الرسعنيُّ لابنِ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٨٠).

وقال ابنُ جرير: (فتأويلُ الكلامِ إذَنْ: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك مِن رَسولٍ ولا نَبيٍّ إلَّا إذا تلا كتابَ اللهِ وقرَأَ، أو حدَّث وتكَلَّم؛ ألقى الشَّيطانُ في كتابِ الله الذي تلاهُ وقَرأه، أو في حديثِه الذي حدَّث وتكَلَّم). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٠).

وقيل: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ في الآيةِ مِنَ التَّمَنِّي المعروف، وهو تمنِّيه إسلامَ أمَّتِه وطاعتَهم لله ولرُسُلِه. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الخازن، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٨).

وممن قال مِن السلفِ إنَّ التمنِّي مِن الأمنيَّةِ: محمدُ بن كعب القُرَظي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤٦).

قال الشنقيطي: (ومفعولُ ﴿أَلْقَى﴾ محذوفٌ؛ فعلى أنَّ ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ بمعنى: أحبَّ إيمانَ أمَّتِه وعَلَّقَ أمَلَه بذلك؛ فمفعولُ ﴿أَلْقَى﴾ يظهَرُ أنَّه من جنسِ الوَساوِسِ، والصَّدِّ عن دينِ اللهِ؛ حتى لا يَتِمَّ للنبيِّ أو الرَّسولِ ما تمنَّى. ومعنى كونِ الإلقاءِ في أمنيَّتِه على هذا الوجهِ: أنَّ الشَّيطانَ يُلقي وساوِسَه وشُبَهَه؛ لِيَصُدَّ بها عمَّا تَمَنَّاه الرسولُ أو النبيُّ، فصار الإلقاءُ كأنَّه واقعٌ فيها بالصَّدِّ عن تمامِها والحيلولةِ دونَ ذلك). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٨٤).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (للنَّاسِ فيها قولانِ مَشهوران؛ بَعدَ اتِّفاقِهم على أنَّ التَّمنِّي هو التِّلاوةُ والقرآنُ كما عليه المفسِّرون مِنَ السَّلفِ، كما في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، وأمَّا مَن أوَّلَ التمنِّي على تَمنِّي القلبِ، فذاكَ فيه كلامٌ آخَرُ؛ وإنْ قيل: إنَّ الآيةَ تَعُمُّ النَّوعينِ؛ لكنَّ الأوَّلَ هو المعروفُ المشهورُ في التَّفسيرِ، وهو ظاهرُ القرآنِ، ومُرادُ الآيةِ قَطْعًا؛ لقولِه بَعدَ ذلك: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج: ٥٢، ٥٣]. وهذا كلُّه لا يَكونُ في مُجرَّدِ القلبِ إذا لمْ يتكلَّمْ به النَّبيُّ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٩٠، ١٩١).

وممَّن جَمَع بين المعاني السَّابقة: البقاعيُّ؛ حيث قال: (﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: تلا على النَّاسِ ما أمرَه اللهُ به، أو حَدَّثَهم به، واشتهى في نَفسِه أن يَقبَلوه؛ حِرصًا منه على إيمانِهم، وشَفَقةً عليهم ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: ما تلاه أو حَدَّث به واشتهى أن يُقبَلَ، مِن الشُّبَهِ والتخَيُّلاتِ =

ألقَى الشَّيطانُ في قراءتِه الشُّبَهَ والوَساوِسَ؛ لِيَصُدَّ النَّاسَ عن اتِّباعِ ما يَقرَؤُه ويَتْلوه[1].

= ما يتلقَّفُه منه أولياؤُه فيُجادِلون به أهلَ الطَّاعةِ؛ لِيُضِلُّوهم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٧٠).

وقال الراغب: (لمَّا كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم كثيرًا ما كان يبادرُ إلى ما نزَل به الرُّوحُ الأمينُ على قلبِه حتى قيل له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ [طه: ١١٤]، و﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦]؛ سمَّى تلاوتَه على ذلك تمنِّيًا، ونبَّه أنَّ للشيطانِ تسلُّطًا على مثلِه في أمنيَّتِه، وذلك من حيثُ بيَّن أنَّ العجلةَ مِن الشَّيطانِ). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٧٨٠).

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٨).

قال الشنقيطي: (الذي يَظهَرُ لنا أنَّه الصَّوابُ، وأنَّ القُرآنَ يدُلُّ عليه دَلالةً واضِحةً، وإن لم يَنتَبِهْ له مَن تكلَّمَ على الآيةِ من المفَسِّرينَ: هو أنَّ ما يلقيه الشَّيطانُ في قراءةِ النبيِّ: الشكوكُ والوساوِسُ المانِعةُ من تصديقِها وقَبولِها، كإلقائِه عليهم أنَّها سِحرٌ أو شِعرٌ، أو أساطيرُ الأوَّلينَ، وأنَّها مُفتراةٌ على اللهِ ليست مُنزَّلةً مِن عنده. والدَّليلُ على هذا المعنى: أنَّ اللهَ بيَّنَ أنَّ الحِكمةَ في الإلقاءِ المذكورِ امتِحانُ الخَلقِ؛ لأنَّه قال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾؛ فقولُه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الآيةَ، يدُلُّ على أنَّ الشَّيطانَ يُلقي عليهم أنَّ الذي يَقرَؤه النبيُّ ليس بحَقٍّ، فيُصَدِّقُه الأشقياءُ، ويكونُ ذلك فِتنةً لهم، ويكَذِّبُه المؤمِنونَ الذين أوتُوا العِلمَ، ويَعلَمونَ أنَّه الحَقُّ لا الكَذِبُ، كما يزعم لهم الشَّيطانُ في إلقائِه، فهذا الامتحانُ لا يُناسِبُ شَيئًا زاده الشَّيطانُ مِن نَفْسِه في القراءةِ، والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((المصدر السابق)).

وقال ابن تيميَّةَ: (وإذا كان التَّمنِّي لا بدَّ أنْ يَدخُلَ فيه القولُ، ففيه قولان: «الأوَّل»: أنَّ الإلقاءَ هو في سمْعِ المُستَمعينَ، ولمْ يَتكلَّمْ به الرَّسولُ. وهذا قولُ مَن تأوَّلَ الآيةَ بمنعِ جَوازِ الإلقاءِ في كلامِه. و«الثاني» -وهو الذي عليه عامَّةُ السَّلفِ ومَنِ اتَّبعَهم-: أنَّ الإلقاءَ في نفْسِ التلاوةِ، كما دلَّتْ عليه الآيةُ وسياقُها مِن غَيرِ وجْهٍ، كما وردَتْ به الآثارُ المتعدِّدةُ، ولا مَحذورَ في ذلك إلَّا إذا أُقِرَّ عليه، فأمَّا إذا نَسَخَ اللهُ ما أَلْقى الشَّيطانُ وأَحكَمَ آياتِه فلا مَحذورَ في ذلك). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٩١).

وقد رُويَ في سببِ نُزولِ هذه الآيةِ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قرأَ بمكَّةَ: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، فلمَّا بَلَغَ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، أَلْقى الشَّيطانُ =

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾.

أي: فيُذهِبُ اللهُ ويُزيلُ ما يُلقيه الشَّيطانُ مِن الباطِلِ في قراءةِ نَبيِّه، ولا يتأثَّرُ بباطِلِه المُؤمِنونَ(١).

﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

أي: ثمَّ يُخَلِّصُ اللهُ آياتِ كِتابِه مِنَ الباطلِ الذي ألقاه الشَّيطانُ، ويَحفَظُها

= على لسانِه: تلك الغَرانيقُ [أي: الأصنامُ] العُلى، وإنَّ شَفاعتَهُنَّ لتُرتَجى! فقال المشركون: ما ذَكَرَ آلهتَنا بخَيرٍ قَبلَ اليَومِ! فسَجَد وسَجَدوا؛ فنزلتْ هذه الآيةُ.

قال القرطبي عن هذه الروايةِ وغيرِها: (الأحاديثُ المرويَّةُ في نزولِ هذه الآيةِ ليس منها شَيءٌ يَصِحُّ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٠).

وقال ابنُ كثير: (قد ذكر كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ هاهنا قِصَّةَ الغرانيقِ، وما كان من رجوعِ كَثيرٍ مِن المُهاجِرةِ إلى أرضِ الحَبَشةِ؛ ظنًّا منهم أنَّ مُشركي قريشٍ قد أسلموا، ولكِنَّها من طرقٍ كُلُّها مُرسَلةٌ، ولم أرَها مُسنَدةً مِن وَجهٍ صَحيحٍ، واللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤١).

وقال الشَّوكانيُّ: (لمْ يَصِحَّ شيءٌ مِن هذا، ولا ثَبَتَ بوجْهٍ مِنَ الوُجوهِ، ومع عدَمِ صِحَّتِه -بل بُطلانِه- فقد دفَعَه المُحقِّقون بكِتابِ اللهِ سُبحانَه؛ قال اللهُ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]، وقولُه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]، وقولُه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الإسراء: ٧٤]، فنَفى المقاربةَ للرُّكونِ، فضْلًا عن الرُّكونِ. قال البَزَّارُ: هذا حديثٌ لا نَعْلَمُه يُروى عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإسنادٍ مُتَّصِلٍ. وقال البَيهقيُّ: هذه القصَّةُ غيرُ ثابتةٍ مِن جهةِ النَّقلِ. ثمَّ أخَذ يَتكلَّمُ أنَّ رُواةَ هذه القصَّةِ مَطعونٌ فيهم. وقال إمامُ الأئمَّةِ ابنُ خُزيمةَ: إنَّ هذه القصَّةَ مِن وضْعِ الزَّنادقةِ. قال القاضي عِياضٌ في الشِّفا: إنَّ الأُمَّةَ أجمَعَتْ فيما طريقُه البَلاغُ أنَّه معصومٌ فيه مِنَ الإخبارِ عن شيءٍ بخلافِ ما هو عليه، لا قصْدًا ولا عَمْدًا، ولا سَهْوًا ولا غلَطًا). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٦).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٧).

ويُنظَرُ الكلامُ عن رواياتِ هذه القصَّةِ وعِلَلِها في: ((نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق)) للألباني (ص: ١٠) فما بعدها.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٣/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٨).

ويُبيِّنُها، ويُظهِرُ أنَّها وحيٌ مُنَزَّلٌ منه بحَقٍّ[١].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عَليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، فيَعلَمُ ما يكونُ مِن الأمورِ، وما يَحدُثُ في خَلْقِه، ومِن جملةِ ذلك عِلمُه بما يُوحيه إلى نبيِّه، وبقَصدِ الشَّيطانِ؛ حَكيمٌ في كُلِّ ما يفعَلُه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللائِقِ به، ومِن جُملةِ ذلك حِكمَتُه في تمكينِ الشَّيطانِ مِن إلقاءِ الباطِلِ، ومِن حِكمَتِه أنَّه لا يَدَعُه حتى يَكشِفَه ويُزيلَه[٢].

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه ما حكَمَ به مِن تمكينِ الشَّيطانِ مِن هذا الإلقاءِ؛ ذكَرَ العِلَّةَ في ذلك، فقال[٣]:

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: مِن كَمالِ حِكمَتِه سُبحانَه أنْ مكَّن الشَّيطانَ مِن الإلقاءِ المَذكورِ؛ ليَجعَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٨).

قال الشنقيطي: (معنى ﴿يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾: يُتقِنُها بالإحكامِ، فيُظهِرُ أنَّها وَحيٌ مُنَزَّلٌ منه بحَقٍّ، ولا يُؤَثِّرُ في ذلك محاولةُ الشيطانِ صَدَّ النَّاسِ عنها بإلقائِه المذكورِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٥)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧٢).

إلقاءَه فِتنةً للذينَ في قُلوبِهم شَكٌّ ونفاقٌ، ولأصحابِ القُلوبِ القاسيةِ التي لا تَلينُ للحقِّ، ولا تَرْجِعُ إلى الصَّوابِ، وهم المشركونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢- ١١٣].

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

أي: وإنَّ هذَينِ الفريقَينِ لَفي خِلافٍ ومُعانَدةٍ لأمرِ اللهِ، وضَلالٍ بَعيدٍ عن الحقِّ والصَّوابِ؛ بسَبَبِ ظُلمِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١١، ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٩).

قيل: المرادُ بالفتنةِ: الاختبارُ، وممن اختاره: ابن جرير، ومكي، والبقاعي، والعليمي. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١١)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٩١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٤١).

وقيل: المرادُ بها الضلالةُ، وممن اختاره: القرطبي، والشوكاني. ينظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٧).

وقال الشنقيطي: (ومعنَى كونِه: فِتْنَةً لهم أنَّه سَبَبٌ لِتَمادِيهم فِي الضَّلالِ والكفرِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧٢، ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٢).

لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾.

أي: ولِيَعلَمَ الذين آتاهم اللهُ العِلمَ النَّافِعَ الذي يُفَرِّقونَ به بينَ الحَقِّ والباطِلِ أنَّ ما أنزَلَه اللهُ هو الحَقُّ لا غيرُه مِمَّا ألقاه الشَّيطانُ، فيُؤمِنوا بالقُرآنِ، ويَعمَلوا به، ويَزدادوا هُدًى[(١)].

﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: فتَخضَعَ وتَلينَ قلوبُهم للحَقِّ الذي جاء مِن عِندِ اللهِ، وتَطمَئِنَّ به، وتُذعِنَ إليه وتُقِرَّ[(٢)].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَمُرشِدُ المؤمِنينَ إلى طريقِ الحَقِّ، ومُوَفِّقُهم لاتِّباعِه واجتِنابِ الباطِلِ، فلا يَضُرُّهم كَيدُ الشَّيطانِ وإلقاؤُه الباطِلَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٢، ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢). =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، في هذه الآيةِ أَخبَرَ اللهُ سُبحانَه أنَّه ما أَرسَلَ مِن رسولٍ ولا نبيٍّ إلَّا إذا تَمنَّى أَلقى الشَّيطانُ في أُمنيَّتِه، أي: إذا تَلَا أَلقى الشَّيطانُ في تِلاوتِه، فإذا كان هذا فِعْلَ الشَّيطانِ مع الرُّسُلِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فكيف بغَيرِهم؟! ولهذا يُغَلِّطُ القارئَ تارةً، ويُخَبِّطُ عليه القِراءةَ ويُشَوِّشُها عليه؛ فيُخَبِّطُ عليه لسانَه، أو يُشَوِّشُ عليه ذِهنَه وقلبَه، فإذا حَضَرَ عِندَ القِراءةِ لَمْ يَعْدَمْ منه القارئُ هذا أو هذا، وربَّما جمَعَهما له؛ فكان مِن أهمِّ الأمورِ: الاستعاذةُ باللهِ تعالى منه عِندَ القِراءةِ(١).

٢- قد ذكر سُبحانَه أنواعَ القُلوبِ في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾؛ فذكَرَ القَلبَ المَريضَ، وهو الضَّعيفُ المُنحَلُّ الذي لا تَثبُتُ فيه صورةُ الحَقِّ، والقَلبَ القاسِيَ اليابِسَ الذي لا يَقبَلُها ولا تَنطَبِعُ فيه؛ فهذان القَلبانِ شَقِيَّانِ

= قال ابنُ كثير: (﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: في الدُّنيا والآخرةِ؛ أمَّا في الدنيا فيُرشِدُهم إلى الحَقِّ واتِّباعِه، ويوَفِّقُهم لمخالفةِ الباطِلِ واجتنابِه، وفي الآخرةِ يهديهم إلى الصِّراطِ المُستَقيمِ المُوصِلِ إلى دَرَجاتِ الجنَّاتِ، ويُزَحزِحُهم عن العذابِ الأليمِ والدَّرَكاتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢).

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٣).

مُعَذَّبانِ، ثمَّ ذكَرَ القَلبَ المُخبِتَ المُطمَئِنَّ إليه، وهو الذي ينتَفِعُ بالقُرآنِ ويزكو به[1]، فجَعَل اللهُ سُبحانَه وتعالى القلوبَ في هذه الآياتِ ثلاثةً: قلبَينِ مَفْتونَينِ، وقلْبًا ناجيًا؛ فالمَفْتونانِ: القلبُ الذي فيه مرَضٌ، والقلبُ القاسي. والناجي: القلبُ المؤْمِنُ المُخْبِتُ إلى ربِّه، وهو المُطْمَئنُّ إليه، الخاضعُ له، المُستسلِمُ المُنقادُ.

وذلك أنَّ القلبَ وغَيرَه مِنَ الأعضاءِ يُرادُ منه أنْ يَكونَ صحيحًا سليمًا لا آفةَ به، يَتأتَّى منه ما هُيِّئ له وخُلِق لأجْلِه. وخُروجُه عن الاستقامةِ إمَّا ليُبْسِه وقَساوتِه، وعدمِ التَّأتِّي لِما يُرادُ منه، كاليَدِ الشَّلَّاءِ، واللِّسانِ الأخرسِ، والعَينِ التي لا تُبصِرُ شيئًا، وإمَّا بمرضٍ وآفةٍ فيه تَمنَعُه مِن كمالِ هذه الأفعالِ ووُقوعِها على السَّدادِ؛ فلذلك انقسمَتِ القلوبُ إلى هذه الأقسامِ الثَّلاثةِ.

فالقلبُ الصَّحيحُ السَّليمُ: ليس بيْنه وبيْن قَبولِ الحقِّ ومَحبَّتِه وإيثارِه سِوى إدراكِه، فهو صحيحُ الإدراكِ للحقِّ، تامُّ الانقيادِ والقَبولِ له.

والقلبُ المَيِّتُ القاسي: لا يَقْبَلُه، ولا يَنقادُ له.

والقلبُ المريضُ: إنْ غَلَبَ عليه مرَضُه التَحَقَ بالمَيِّتِ القاسي، وإنْ غَلبَتْ عليه صِحَّتُه التَحَقَ بالسَّليمِ.

فما يُلقيه الشَّيطانُ في الأسماعِ مِنَ الألفاظِ، وفي القلوبِ مِنَ الشُّبَهِ والشُّكوكِ: فيه فِتنةٌ لهذَينِ القلبَينِ، وقوَّةٌ للقلبِ الحيِّ السَّليمِ؛ لأنَّه يَرُدُّ ذلك ويَكرَهُه ويُبغِضُه، ويَعلَمُ أنَّ الحقَّ في خلافِه، فيُخبِتُ للحقِّ قلْبُه، ويَطمئنُّ ويَنقادُ، ويَعلمُ بُطلانَ ما ألْقاه الشَّيطانُ؛ فيَزدادُ إيمانًا بالحقِّ ومحبَّةً له، وكُفرًا بالباطل وكَراهةً له. فلا يَزالُ القلبُ المَفتونُ في مِرْيةٍ مِن إلقاءِ الشَّيطانِ، وأمَّا القلبُ الصَّحيحُ

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٦).

السَّليمُ فلا يَضُرُّه ما يُلقيه الشَّيطانُ أبدًا[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ دالٌّ على أنَّ للنَّبيِّ معنًى غيرَ معنَى الرَّسولِ، وليس مرادفًا له؛ وذلك لعطفِه عليه[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ * لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ * وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فيه عِصمةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما استقرَّ تَبليغُه مِن الرِّسالةِ، باتِّفاقِ المُؤمِنينَ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٧).

والفرقُ بينَ النبيِّ والرسولِ: أنَّ النبيَّ هو الذي يُنبِّئُه الله، وهو ينبِّئُ بما أنبأ الله به؛ فإن أُرسِل مع ذلك إلى مَن خالَف أمرَ الله؛ ليبلغَه رسالةً مِن الله إليه؛ فهو رسولٌ، وليس مِن شرطِ الرسولِ أن يأتيَ بشريعةٍ جديدةٍ، وأمَّا إذا كان يعملُ بشريعةِ مَن قبلَه، ولم يُرسَلْ هو إلى أحدٍ يبلغُه عن الله رسالةً؛ فهو نبيٌّ، وليس برسولٍ، فالأنبياءُ يأتيهم وحيٌ مِن الله بما يفعلونه، ويأمرون به مَن آمَن بهم. وقيل: الرسول: مَن أُنزل إليه كتابٌ مستقلٌّ، كمحمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وموسى عليه السلامُ، والنبيُّ: مَن أُمِر بأن يتعبَّدَ بكتابٍ منزَّلٍ على غيرِه، كأنبياءِ بني إسرائيلَ الذين يُؤمرون بالتعبُّدِ بما في التوراةِ. يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((بغية المرتاد)) لابن تيمية (ص: ٥٠١).

ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هذه الآيةُ لا تعارُضَ بيْنها وبين الآيةِ المصَرِّحةِ بأنَّ الشَّيطانَ لا سُلطانَ له على عبادِ الله المؤمِنينَ المتوكِّلينَ، ومعلومٌ أنَّ خيارَهم الأنبياءُ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقولِه تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]. ووجهُ كونِ الآياتِ لا تعارُضَ بينها: أنَّ سُلطانَ الشَّيطانِ المنفيَّ عن المؤمنينَ المتوكِّلينَ في معناهُ وجهانِ للعلماءِ:

الأول: الحُجَّةُ الواضِحةُ، وعليه فلا إشكالَ؛ إذ لا حُجَّةَ مع الشيطانِ البتَّةَ، كما اعترف به فيما ذَكَر اللهُ عنه في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

الثاني: أنَّ معناه: لا تَسلُّطَ له عليهم بإيقاعِهم في ذنْبٍ يَهلِكونَ به، ولا يتوبونَ منه، فلا يُنافي هذا ما وقَع مِن آدَمَ وحوَّاءَ وغيرِهما؛ فإنَّه ذنْبٌ مغفورٌ؛ لوقوعِ التوبة منه، فإلقاءُ الشَّيطانِ في أمنيةِ النبيِّ -سواءٌ فسَّرناها بالقراءةِ، أو التمنِّي لإيمانِ أمَّتِه- لا يتضَمَّنُ سُلطانًا للشيطانِ على النبيِّ، بل من جنسِ الوسوسةِ وإلقاءِ الشُّبَهِ لصَدِّ النَّاسِ عن الحَقِّ، كقَولِه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1] [النمل: ٢٤].

٤- في قَولِه: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٥٩-١٦١).

بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ دليلٌ على أنَّ العِلمَ يدُلُّ على الإيمانِ، ليس أنَّ أهلَ العِلمِ ارتَفَعوا عن دَرجةِ الإيمانِ -كما يتوهَّمُه طائفةٌ مِنَ المتكَلِّمةِ- بل معهم العِلمُ والإيمانُ، كما قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [النساء: ١٦٢]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٥٦] الآيةَ[(١)].

بلاغة الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

- القصْرُ المُستفادُ مِن النَّفيِ والاستثناءِ في قولِه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾ قَصْرُ مَوصوفٍ على صِفَةٍ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: دونَ أنْ نُرسِلَ أحدًا منهم في حالِ الخُلُوِّ مِن إلْقاءِ الشَّيطانِ ومَكْرِه[(٢)].

- و(مِن) في قولِه: ﴿ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ زائدةٌ، تُفِيدُ استغراقَ الجِنْسِ؛ فأفادَ أنَّ ذلك لم يَعْدُ أحدًا مِن الأنبياءِ والرُّسلِ[(٣)].

- قَولُه: ﴿ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ مَفعولُ ﴿ أَلْقَى ﴾ مَحذوفٌ دَلَّ عليه المَقامُ؛ لأنَّ الشَّيطانَ إنَّما يُلْقِي الشَّرَّ والفسادَ، فإسنادُ التَّمنِّي إلى الأنبياءِ دَلَّ على أنَّه تَمنِّي الهُدى والصَّلاحِ -وذلك على أحدِ القولينِ في معنَى التمنِّي-، وإسنادُ الإلْقاءِ إلى الشَّيطانِ دَلَّ على أنَّه إلْقاءُ الضَّلالِ والفسادِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٨).

- قولُه: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ في كِلْتا الجُملتينِ إيجازٌ بالحَذْفِ، أي: يَنسَخُ آثارَ ما يُلْقِي الشَّيطانُ، ويُحكِمُ آثارَ آياتِه[١]. والإتيانُ بصِيغَةِ المُضارِعِ في الفِعْلينِ (فَيَنْسَخُ - يُحْكِمُ)؛ للدَّلالةِ على الاستِمرارِ التَّجدُّديِّ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ إظهارٌ لِلَفْظِ الجَلالةِ في مَوقِعِ الإضمارِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ، والإيذانِ بأنَّ الأُلوهيَّةَ مِن مُوجِباتِ إحكامِ آياتِه الباهرةِ[٣].

- و(ثمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لأنَّ إحكامَ الآياتِ وتَقريرَها أهَمُّ مِن نَسْخِ ما يُلْقِي الشَّيطانُ؛ إذ بالإحكامِ يَتَّضِحُ الهُدى، ويَزدادُ ما يُلْقِيه الشَّيطانُ نَسْخًا[٤].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ[٥]، وفيه أيضًا إظهارٌ لِلَفْظِ الجَلالةِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ، والإيذانِ بأنَّ الأُلوهيَّةَ مِن مُوجِباتِ إحكامِ آياتِه الباهرةِ، ولتأْكيدِ استِقلالِ الاعتراضِ التَّذييليِّ[٦].

٢- قَولُه تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾

- قولُه: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ عِلَّةٌ لتَمكينِ الشَّيطانِ مِن الإلْقاءِ، وذلك يدُلُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٣).

على أنَّ المُلْقى أمْرٌ ظاهِرٌ عرَفَه المُحِقُّ والمُبْطِلُ[١]. وقيل: هي لامُ العاقِبةِ[٢].

- قَولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه[٣].

- وذِكْرُ الظَّالمينَ في ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ من الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ عِلَّةَ كَونِهم في شِقاقٍ بَعيدٍ هي ظُلْمُهم[٤].

- قولُه: ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ في وَصْفِ الشِّقاقِ بالبعيدِ: مُبالَغةٌ في انتهائِه، وأنَّهم غيرُ مَرْجُوٍّ رَجْعَتُهم منه؛ فالبَعيدُ هنا مُستعمَلٌ في معنى: البالِغِ حَدًّا قَوِيًّا في حَقيقتِه؛ تَشبيهًا لانتشارِ الحقيقةِ فيه بانتشارِ المسافةِ في المكانِ البعيدِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]، أي: دُعاءٍ كَثيرٍ مُلِحٍّ[٥].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

- قَولُه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ اللامُ في ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ للتَّعليلِ، أي: يَنسَخُ اللهُ ما يُلْقي الشَّيطانُ؛ لإرادةِ أنْ يَعلَمَ المُؤمِنون أنَّه الحقُّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠١).

- والضَميرُ في ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ عائدٌ إلى العِلْمِ الَّذي أُوتُوه، أي: لِيَزدادوا يَقينًا بأنَّ الوحيَ الَّذي أُوتُوه هو الحقُّ لا غيرُه؛ فالقَصرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ الجُزأينِ في ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ قَصرٌ إضافيٌّ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ضَميرُ ﴿أَنَّهُ﴾ عائدًا إلى ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾، أي: أنَّ المذكورَ هو الحقُّ[1].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الجُملةُ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا قَبْلَه[2].

- وإظهارُ لفْظِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في مَقامِ ضَميرِ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾؛ لِقَصْدِ مَدْحِهم بوَصفِ الإيمانِ، والإيماءِ إلى أنَّ إيمانَهم هو سبَبُ هَدْيِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٧).

الآيات (٥٥-٥٧)

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مِرْيَةٍ﴾: أي: شكٍّ، وقيل: المِرْيةُ: التردُّدُ في الأمرِ، وهو أخصُّ مِن الشَّكِّ[(١)].

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فجأَةً، وكلُّ ما جاءَ فجأةً فقد بَغَتَ، يقال: قد بَغَتَه الأمرُ يَبْغَتُه بغْتًا وبَغتةً، إذَا أتاه فجأةً، وأصْلُ (بغت): مُفاجأةُ الشَّيءِ مِن حيث لا يحتسِبُ[(٢)].

﴿عَقِيمٍ﴾: أي: لا خَيْرَ فيه للكافرينَ، كأنَّ ذلك اليومَ عليهم يومٌ لا ليلَ لهم بَعدَه؛ مِن العُقمِ: وهو القَطعُ والمَنعُ، يُقالُ: رجُلٌ عَقيمٌ: إذا مُنِعَ مِن الوَلَدِ[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: ولا يَزالُ الكافِرونَ المُكَذِّبونَ في شَكٍّ مِنَ القُرآنِ إلى أن تأتيَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٢٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٩٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٤).

السَّاعةُ فَجأةً، وهم على تَكذيبِهم، أو يأتيَهم عذابُ يومٍ عقيمٍ.

المُلكُ والسُّلطانُ يومَ القيامةِ لله وَحْدَه، وهو سُبحانَه يقضي بين المُؤمِنينَ والكافرينَ؛ فالذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ، لهم النَّعيمُ الدَّائِمُ في الجَنَّاتِ، والذينَ كَفَروا باللهِ ورَسولِه وكذَّبوا بآياتِ القُرآنِ لهم عذابٌ مُخزٍ مُذِلٌّ في جَهنَّمَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه حالَ الكافِرينَ أوَّلًا، ثمَّ حالَ المؤمنين ثانيًا، عاد إلى شرْحِ حالِ الكافرينَ مرَّةً أخرى(١).

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾.

أي: ولا يَزالُ الذين كَفَروا في شَكٍّ ورَيبٍ مِنَ القُرآنِ؛ لإعراضِهم وعنادِهم(٢).

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾.

أي: هم مُستَمِرُّونَ على تلك الحالِ إلى أن يأتيَهم يومُ القيامةِ فَجأةً، أو يأتيَهم عذابُ يَومٍ عقيمٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٥ - ٦١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٨).=

= اختلف المفسِّرون في المرادِ بقَولِه تعالى: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ فقيل: المرادُ به يومُ القيامةِ. وممن قال بذلك: أبو حيان، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦- ٤٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩١).

وممن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: الضَّحَّاكُ، وعِكرمةُ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في رواية عنه، والحَسَنُ البصري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦).

قال الزمخشريُّ: (عن الضَّحَّاكِ أنَّه يومُ القيامةِ، وأنَّ المرادَ بالسَّاعةِ مُقَدِّماتُه، ويجوزُ أن يرادَ بالسَّاعةِ وبِيَومٍ عَقيمٍ: يومُ القيامةِ، وكأنَّه قيل: حتى تأتيَهم الساعةُ أو يأتيَهم عذابُها، فوُضِعَ ﴿يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٦).

وقال ابنُ كثير: (وهذا القَولُ هو الصَّحيحُ، وإن كان يومُ بدرٍ مِن جملةِ ما أُوعِدوا به، لكِنَّ هذا هو المرادُ؛ ولهذا قال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦، ٤٤٧).

وقال الشنقيطيُّ: (القرينةُ القُرآنيَّةُ هنا دلَّت على أنَّ المرادَ باليَومِ العَقيمِ: يومُ القيامةِ، لا يومُ بَدرٍ، وذلك أنَّه تعالى أتبَعَ ذِكرَ اليَومِ العَقيمِ بقَولِه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، وذلك يومُ القيامةِ، وقَولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذْ تأتيهم السَّاعةُ، أو يأتيهم عذابٌ عَقيمٌ، وكلُّ ذلك يومَ القيامةِ. فظهر أنَّ اليَومَ العَقيمَ: يومُ القيامةِ، وإن كان يومُ بَدرٍ عَقيمًا على الكُفَّارِ؛ لأنَّهم لا خيرَ لهم فيه، وقد أصابَهم ما أصابهم). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٩١).

قيل: سُمِّيَ يَومُ القيامةِ عَقيمًا؛ لأنَّه لا ليلةَ بعدَه ولا يومَ، والأيَّامُ كأنَّها نتائجُ؛ لمجيءِ واحدٍ إثرَ واحدٍ، فكأنَّ آخِرَ يَومٍ قد عُقِمَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٠).

وقيل: المرادُ باليَومِ العَقيمِ: يومُ بَدرٍ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، والزمخشري، والرسعني -ونسبه لجمهور المفسرين-، وابن جزي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٦، ٦١٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٦)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٨).

ومن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: أُبَيُّ بنُ كعبٍ، وابنُ عبَّاس، وسعيدُ بنُ جُبَير، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وعِكرمةُ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، والسُّدِّي، وابنُ جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦).

قيل: إنَّما قيل له: يَومٌ عَقيمٌ؛ لأنَّهم لم يُنظَروا إلى اللَّيلِ، ولم يُؤَخَّروا فيه إلى المساءِ، لكِنَّهم =

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن بيَّن سبحانَه حالَ الفريقينِ فى الدُّنيا؛ أرشَد إلى حالِهم فى الآخرةِ[1].

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: السُّلطانُ يومَ القيامةِ لله وَحْدَه، لا مُنازِعَ له فيه، يَحكُمُ فيه بالعَدلِ بينَ عِبادِه المُؤمِنينَ والكافرينَ[2].

كما قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

= قُتِلوا قبلَ المساءِ؛ فكان لهم عقيمًا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٦، ٦١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٠).

وقيل: يومُ بَدرٍ كان عقيمًا عن أن يكونَ للكافرينَ فيه فَرَحٌ أو راحةٌ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٨).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٧/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

قال ابنُ عاشور: (الحُكمُ بينهم: الحُكمُ فيما اختَلَفوا فيه مِن ادِّعاءِ كُلِّ فَريقٍ أنَّه على الحَقِّ، وأنَّ ضِدَّه على الباطِلِ... فقد يكونُ الحُكمُ بالقَولِ، وقد يكونُ بظهورِ آثارِ الحَقِّ لفَريقٍ، وظهورِ آثارِ الباطِلِ لفريقٍ، وقد فصَّلَ الحُكمَ بقَولِه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وهو تفصيلٌ لأثَرِ الحُكمِ يَدُلُّ على تفصيلِ أصلِه، أي: ذلك حُكمُ اللهِ بيْنهم في ذلك اليومِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٩).

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

أي: فالذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه وما جاء به مِن عندِ اللهِ تعالى، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ؛ يكونونَ يومَ القيامةِ في جنَّاتِ النَّعيمِ، يَتنَعَّمونَ فيها بأرواحِهم وأبدانِهم(١).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ ثوابَ المُؤمِنينَ العامِلينَ للصَّالحاتِ؛ ثَنَّى بذِكرِ مَن يُقابِلُهم(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٥٧﴾.

أي: والذينَ كَفَروا باللهِ ورَسولِه وكذَّبوا بآياتِ القُرآنِ، فأولئك لهم يَومَ القيامةِ عَذابٌ مُخْزٍ ومُذِلٌّ في النَّارِ؛ جزاءً لهم على استِكبارِهم عن الحَقِّ، واستِهانتِهم بآياتِ اللهِ ورُسُلِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

قال ابنُ جرير: (﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ باللهِ ورَسولِه ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ بآياتِ كتابِه وتَنزيلِه، وقالوا: ليس ذلك مِن عندِ اللهِ، إنَّما هو إفكٌ افتراه مُحمَّدٌ، وأعانه عليه قَومٌ آخَرونَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٨).

وقال السعدي: (﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ باللهِ ورُسُلِه ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ بآياتِه الهاديةِ للحَقِّ والصَّوابِ، فأعرَضوا عنها، أو عاندوها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والعملُ الصالحُ مبنيٌّ على الإيمانِ، فعملٌ بلا إيمانٍ لا فائدةَ منه، فالمنافقون يَعملون، ويَذْكرون الله، ويُصَلُّون، ويتصدَّقون، ولكن ليس عندَهم إيمانٌ؛ فلا ينفعُهم، ولهذا يقدِّمُ الله عزَّ وجلَّ الإيمانَ على العملِ الصالحِ[١].

٢- الإيمانُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن عملٍ، والعملُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن إيمانٍ، فلا يستحقُّ الجنةَ إلَّا مَن جمَع بينَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ؛ قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وإذا ذُكِر ثوابُ الجنةِ مقيَّدًا أو معلَّقًا بالإيمانِ وحْدَه، فالمرادُ بذلك الإيمانُ المتضمِّنُ للعملِ الصالحِ[٢].

٣- العملُ لا ينفعُ صاحبَه إلَّا إذا كان صالحًا؛ قال تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والعملُ الصالحُ هو: الخالصُ الصوابُ؛ أي: ما ابتُغِي به وجهُ الله، وكان على شريعةِ الله[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لَمَّا ذكَرَ عزَّ وجَلَّ أهلَ الإيمانِ وثوابَهم، ذكَرَ أصحابَ الشِّمالِ بعد ذلك، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ لأنَّ القُرآنَ مَثانٍ، تُثَنَّى فيه الأمورُ والمعاني؛ ولهذا تجِدُ القُرآنَ الكريمَ في الغالبِ إذا ذكَرَ اللهُ الجنَّةَ ذكَرَ النَّارَ، وإذا ذكَرَ أولياءَ اللهِ ذكَرَ أعداءَ الله، والحِكمةُ مِن ذلك ألَّا يَمَلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٣).

الإنسانُ؛ لأنَّه كُلَّما تَنقَّلَ المعنى إلى معنًى آخَرَ نَشِطَ الإنسانُ، وحِكمةٌ أُخرى: أن يكونَ الإنسانُ سائرًا إلى الله، أي: مُتعَبِّدًا إلى الله بين الخَوفِ والرَّجاءِ؛ لأنَّه إذا مَرَّت به صفاتُ المؤمِنينَ قَوِيَ جانِبُ الرَّجاءِ، وإذا ذُكِرَت أحوالُ الكافِرينَ غَلَب جانِبُ الخَوفِ[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ الكُفرُ قد يَصحَبُه التَّكذيبُ وقد لا يَصحَبُه؛ ولهذا أحيانًا يَذكُرُ اللهُ الكُفرَ فقط، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وأحيانًا يَذكُرُ التَّكذيبَ فقط، قال تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ٣٢]، وأحيانًا يَقرِنُ بينهما كما هنا؛ وذلك لأنَّ كُلًّا منهما قد يكونُ وَحْدَه مُوجِبًا للخُلودِ في النَّارِ، فإذا اجتَمَعا جميعًا صار ذلك أشَدَّ وأعظَمَ. والعياذُ باللهِ[2].

٣- لم يَجِئْ إعدادُ العذابِ المُهينِ في القُرآنِ إلَّا في حَقِّ الكُفَّارِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء: ٣٧]، وقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء: ١٠٢]، وقَولِه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقَولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [الحج: ٥٧] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ، وأمَّا العذابُ العظيمُ فقد جاء وعيدًا للمُؤمِنينَ في قَولِه: ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٦٨]، وقَولِه: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٤]، وفي المحارِبِ: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[3] [المائدة: ٣٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٢).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ يدُلُّ على أنَّ الأعصارَ إلى قيامِ السَّاعةِ لا تخلو مِمَّن هذا وَصْفُه[١].

بلاغةُ الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ خَصَّ في هذه الآيةِ الكافرينَ بالقُرآنِ بعْدَ أنَّ عَمَّهم مع جُملةِ الكافرينَ بالرُّسلِ؛ فخَصَّهم بأنَّهم يَستمِرُّ شَكُّهم فيما جاء به محمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويَتردَّدونَ في الإقدامِ على الإسلامِ إلى أنْ يُحالَ بينهم وبينه بحُلولِ السَّاعةِ بَغتةً، أو بحُلولِ عَذابِ يومٍ عقيمٍ[٢].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه وَضْعُ المُظْهَرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ، أي: لا يَزالونَ في مِرْيةٍ، وهم الشَّاكُّون الَّذين في قُلوبهم مَرضٌ[٣].

- قولُه: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ المُرادُ به السَّاعةُ، كأنَّه قيل: أو يأْتِيَهم عَذابُها، فوُضِعَ ذلك مَوضِعَ ضَميرِها؛ لمَزيدِ التَّهويلِ[٤]. وذلك على أحدِ القولينِ في التفسيرِ.

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

- قولُه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ استئنافٌ بَيانِيٌّ؛ فقد آذَنَتِ الغايةُ الَّتي في قولِه: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [الحج: ٥٥] أنَّ ذلك وَقْتُ زَوالِ مِرْيةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٥).

الَّذين كَفَروا، فكان ذلك مَنشَأَ سُؤالِ سائلٍ عن صُورةِ زَوالِ المِرْيَةِ، وعن ماذا يَلْقَونه عندَ زَوالِها؟ فكان المَقامُ أنْ يُجابَ السُّؤالُ بجُملةِ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، إلى آخِرِ ما فيها من التَّفصيلِ[١].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ تَعريفُ الجِنْسِ؛ فدَلَّتْ جُملةُ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ على أنَّ ماهيَّةَ المُلْكِ مَقصورةٌ يَومَئذٍ على الكونِ مُلْكًا للهِ، أي: لا مُلْكَ لغَيرِه يومَئذٍ[٢].

- والمقصودُ بالكَلامِ هو جُملةُ ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾؛ إذ هم البدلُ. وإنَّما قُدِّمَت جُملةُ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾؛ تَمهيدًا لها، ولِيَقَعَ البَيانُ بالبَدلِ بعْدَ الإبهامِ الَّذي في المُبْدَلِ منه[٣]. وقيل: جُملةُ ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ مُستأْنَفةٌ، وقعَتْ جَوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ من الإخبارِ بكَونِ المُلْكِ يَومئذٍ للهِ؛ كأنَّه قيل: فماذا يُصْنَعُ بهم حينئذٍ؟ فقيل: يَحكُمُ بين فريقَي المؤمنينَ به والمُمارينَ فيه بالمُجازاةِ[٤].

- قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ إلخ تَفسيرٌ للحُكمِ المذكورِ، وتَفصيلٌ له[٥].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فيه التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ (أُولَئِكَ) وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعْدِ مَنزِلَتِهم في الشَّرِّ والفسادِ[٦]، وللتَّنبيهِ على أنَّهم استحَقُّوا العذابَ المُهينَ؛ لأجْلِ ما تقدَّمَ مِن صِفَتِهم بالكُفْرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٥، ١١٦).

والتَّكذيبِ بالآياتِ[١].

- وتَصديرُ الخبرِ بالفاءِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ تَعذيبَ الكُفَّارِ بسبَبِ أعمالِهم السَّيِّئةِ[٢]. وقيل: قُرِنَ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ بالفاءِ؛ لِمَا تَضمَّنَه التَّقسيمُ مِن معنى حَرفِ التَّفصيلِ وهو (أمَّا)، كأنَّه قيل: وأمَّا الَّذين كَفَروا... لأنَّه لمَّا تقدَّمَ ثَوابُ الَّذين آمَنوا، كان المَقامُ مُثيرًا لسُؤالِ مَن يَترقَّبُ مُقابَلةَ ثَوابِ المُؤمِنين بعِقابِ الكافرينَ، وتلك المُقابَلةُ مِن مَواقِعِ حَرفِ التَّفصيلِ[٣].

- وعَطَفَ التَّكذيبَ على الكُفرِ وهو نَوعٌ منه، في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ لأنَّه أشَدُّ، فالذي يَكفُرُ ولم يُكَذِّبْ أهوَنُ مِن الذي يَكفُرُ ويُكَذِّبُ؛ فعَطفُ ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ على ﴿كَفَرُواْ﴾ مِن بابِ عَطفِ الخاصِّ على العامِّ، كعَطفِ الرُّوحِ على الملائِكةِ، وهو منهم، قال الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، والرُّوحُ جبريلُ عليه السَّلامُ، وهو مِن الملائِكةُ[٤].

- وفي قولِه: ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ قابَلَ النَّعيمَ بالعذابِ، ووصَفَهُ بالمُهينِ مُبالَغةً فيه[٥]؛ فـ﴿مُّهِينٞ﴾ مُؤكِّدةٌ لِمَا أفادَهُ التَّنوينُ مِن الفَخامَةِ، وفيه مِن المُبالَغةِ مِن وُجوهٍ شَتَّى ما لا يَخْفَى[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٥، ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٦).

الآيات (٥٨-٦٠)

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلًا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ٥٩ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ٦٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّدۡخَلًا﴾: أي: الجنةَ، والمُدخلُ: مكانٌ أو مصدرُ (أدْخَل) أي: إدخالًا، يُقالُ: أدخلتُه مُدْخَلًا، وهذا مُدْخلُه، أي: المكانُ الذي يدخلُ منه وقتَ إدخالِه، والدُّخولُ: نقيضُ الخروجِ، ويُستعمَلُ ذلك في المكانِ، والزَّمانِ، والأعمالِ[1].

﴿بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾: أي: ظُلِم، وتُعُدِّي عليه، يُقالُ بَغَى الجرحُ: تجاوَز الحدَّ في فسادِه، وأصلُ (بغي): هنا جِنسٌ مِن الفسادِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: والذين خَرَجوا مِن دِيارِهم طَلَبًا لرِضا اللهِ، ونُصرةً لدِينِه، ثم قُتِلوا أو ماتوا؛ لَيَرزُقَنَّهم اللهُ رِزقًا كريمًا حَسَنًا، وإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لَهُو خَيرُ الرَّازِقينَ؛ لَيُدخِلَنَّهم اللهُ المُدْخَلَ الذي يُحبُّونَه وهو الجنَّةُ، وإنَّ اللهَ لَعليمٌ بمَن يَخرُجُ في سَبيلِه، ومَن يَخرُجُ طَلَبًا للدُّنيا، حَليمٌ بمن عصاه، فلا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٦٤) (١٥/ ٤٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٧)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٤٤).

ذلك، ومَن عاقَبَ مِن العِبادِ مَن اعتَدَى عليه بمِثلِ اعتِدائِه، بالعَدلِ دُونَ زِيادةٍ، ثمَّ ظُلِمَ بالمُعاوَدةِ إلى عُقوبتِه؛ فإنَّ اللهَ يَنصُرُه على مَن ظَلَمَه، إنَّ اللهَ لعَفُوٌّ غَفورٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ المُلْكَ له يومَ القيامةِ، وأنَّه يَحكُمُ بينهم، ويُدخِلُ المُؤمِنينَ الجَنَّاتِ؛ أتبَعَه بذِكرِ وَعْدِه الكريمِ للمُهاجِرينَ، مُفرِدًا لهم بالذِّكرِ[1].

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًا﴾.

أي: والذين فارَقوا دِيارَهم وأهلِيهم؛ طلبًا لِرضا اللهِ وطاعَتِه، ثُمَّ قُتِلوا أو ماتوا دُونَ قَتلٍ؛ فإنَّ اللهَ سيُثيبُهم رِزقًا كَريمًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٨، ٦١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

قيل: الرزقُ الحَسَنُ يكونُ في الجنَّة. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٨، ٦١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٧).

وممن قال بهذا القول من السلف: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤٧).

وقيل: الرزقُ الحسنُ: الحلالُ. وممن قال به مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وعن سَلمانَ الفارسيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((رِباطُ[١] يَومٍ ولَيلةٍ خَيرٌ مِن صِيامِ شَهرٍ وقِيامِه، وإنْ مات جرى عليه عَمَلُه الذي كان يَعمَلُه، وأُجرِيَ عليه رِزقُه، وأَمِنَ الفَتَّانَ[٢]))[٣].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَهُو أفضَلُ مَن يَرزُقُ عِبادَه، ويُعطيهم مِن فَضْلِه[٤].

= قال السعدي: (يحتملُ أنَّ المعنى أنَّ المُهاجِرَ في سبيلِ الله قد تكَفَّلَ اللهُ برِزقِه في الدُّنيا رِزقًا واسِعًا حَسَنًا، سواءٌ عَلِمَ الله منه أنَّه يموتُ على فِراشِه، أو يُقتَلُ شَهيدًا؛ فكُلُّهم مضمونٌ له الرِّزقُ، فلا يُتوَهَّمُ أنَّه إذا خرج مِن ديارِه وأموالِه سيَفتَقِرُ ويحتاجُ؛ فإنَّ رازِقَه هو خيرُ الرَّازِقينَ، وقد وقع كما أخبَرَ؛ فإنَّ المهاجِرينَ السَّابِقينَ تَرَكوا ديارَهم وأبناءَهم وأموالَهم؛ نُصرةً لدينِ اللهِ، فلم يَلبَثوا إلَّا يَسيرًا، حتى فتحَ اللهُ عليهم البلادَ، ومكَّنَهم مِنَ العبادِ، فاجتَبَوا مِن أموالِها ما كانوا به مِن أغنى النَّاسِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

(١) الرِّباطُ: مُراقبةُ العَدُوِّ في الثُّغورِ المُتاخِمةِ لبِلادِهم بحِراسةِ مَن بها مِن المُسلِمينَ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٨٩).

(٢) الفتَّان: الذي يَفتِنُ المقبورَ بالسُّؤالِ فيُعَذِّبُه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٤٥٨).

(٣) رواه مسلم (١٩١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير الجلالين)) =

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان الرِّزقُ لا يَتِمُّ إلَّا بحُسنِ الدَّارِ، وكان ذلك مِن أفضَلِ الرِّزقِ؛ قال دالًّا على خِتامِ التي قَبلُ[1]:

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ﴾.

أي: ليُدخِلَنَّ اللهُ المُهاجِرينَ -الذين قُتِلوا أو ماتوا في سَبيلِه- الجنَّةَ، فيَرضَونَ بذلك، ولا يَبغُونَ بها بَدَلًا؛ جزاءً لهم على خُروجِهم مِن ديارِهم وأوطانِهم في سَبيلِه[2].

= (ص: ٤٤١).

قال البقاعي: (﴿لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ يَرزُقُ الخَلقَ عامَّةً؛ البَرَّ منهم والفاجِرَ، فكيف بمَن هاجَرَ إليه؟! ويُعطي عطاءً لا يَدخُلُه عَدٌّ، ولا يَحويه حَدٌّ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٧٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٨٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالمُدخَلِ الذي يَرضَونَه: الجنَّةُ: ابنُ جرير، والواحدي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٧).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلف: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٠٣).

وقال الألوسي: (و﴿مُّدْخَلًا﴾: إمَّا اسمُ مكانٍ، أُريدَ به الجَنَّةُ، كما قال السُّدِّيُّ وغيرُه... أو مَصدَرٌ مِيميٌّ، وهو على الاحتمال الأوَّلِ مفعولٌ ثانٍ للإدخال، وعلى الثاني مفعولٌ مُطْلَقٌ، ووصْفُه بـ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾ على الاحتمالَينِ لِما أنَّهم يَرَون إذا أُدخِلوا ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلْبِ بشَرٍ. وقيل على الثاني: إنَّ رِضاهُم لِما أنَّ إدخالَهم مِن غَيرِ مَشقَّةٍ تَنالُهم، بل براحةٍ واحترام). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٨٠).

وذهب السعديُّ إلى أنَّ قَولَه: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ إمَّا ما يَفتَحُه اللهُ عليهم مِنَ البُلدانِ، خُصوصًا فَتحَ مَكَّةَ المُشَرَّفةِ؛ فإنَّهم دَخَلوها في حالةِ الرِّضا والسُّرورِ، وإمَّا المرادُ به =

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَعليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بنِيَّةِ مَن يُهاجِرُ ويُجاهِدُ، حَليمٌ لا يُعاجِلُ بالعُقوبةِ مَن عصاه مِن خَلْقِه، بل يُواصِلُ لهم مِن رِزْقِه، ويَمنَحُهم مِن فَضْلِه[١].

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ثوابَ مَن هاجَرَ وقُتِلَ أو ماتَ في سَبيلِ اللهِ؛ أخبَرَ أنَّه لا يَدَعُ نُصرَتَهم في الدُّنيا على مَن بغَى عليهم[٢].

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾.

أي: ذلك[٣] ومَن عاقَبَ مِن العِبادِ مَن اعتَدَى عليه بمِثلِ اعتِدائِه بالعَدلِ دُونَ زِيادةٍ، ثمَّ ظُلِمَ بالمُعاوَدةِ إلى عُقوبتِه؛ فإنَّ اللهَ يَنصُرُه على مَن ظَلَمَه[٤].

= رِزقُ الآخرةِ، وأنَّ ذلك دُخولُ الجَنَّةِ، فتكونُ الآيةُ جَمَعت بينَ الرِّزقَينِ؛ رِزقِ الدُّنيا، ورِزقِ الآخرةِ، وذهب إلى أنَّ اللَّفظَ صالحٌ لذلك كُلِّه، وأنَّ المعنى صَحيحٌ، فلا مانِعَ مِن إرادةِ الجَميعِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٩، ٥٣٠).

(٣) قال الشوكاني: (الإشارَةُ بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تَقَدَّم. قال الزَّجَّاجُ: أَي: الأمرُ ما قَصَصْنا عليكم مِن إنجازِ الوعدِ للمهاجرين خاصَّةً إذا قُتِلوا أو ماتوا، فهو على هذا خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٠).

وقال البقاعي: (﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمرُ المقرَّرُ مِن صفةِ الله تعالى ذلك). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ كَثيرُ العَفوِ والغُفرانِ لعِبادِه المُؤمِنينَ[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ يَجوزُ لمَن جُنيَ عليه وظُلِمَ مُقابلةُ الجاني بمِثْلِ جِنايتِه، فإنْ فَعَل ذلك فليس عليه سَبيلٌ، وليس بمَلومٍ، فإنْ بُغِيَ عليه بَعدَ هذا فإنَّ اللهَ يَنصُرُه؛ لأنَّه مَظلومٌ، فلا يَجوزُ أنْ يُبغَى عليه بسبَبِ أنَّه استَوْفَى حقَّه. وإذا كان المُجازي غَيرَه بإساءتِه إذا ظُلِم بَعدَ ذلك نَصَرَه اللهُ، فالَّذي بالأصلِ لمْ يُعاقِبْ أَحدًا إذا ظُلِم وجُنِيَ عليه؛ فالنَّصرُ إليه أَقرَبُ[(٢)].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ فمُعامَلتُه لعِبادِه في جميعِ الأوقاتِ بالعَفوِ والمغفرةِ، فيَنبَغي لكم أيُّها المَظلومون المَجنيُّ عليهم، أنْ تَعفوا وتَصفَحوا وتَغفِروا؛ ليُعامِلَكمُ اللهُ كما تُعامِلون عِبادَه ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[(٣)] [الشورى: ٤٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، وإنَّما سَوَّى بينَ مَن قُتِلَ في الجهادِ ومَن مات

= (٤/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حَتْفَ أنْفِه في الوعْدِ؛ لاستوائِهما في القَصدِ وأصْلِ العمَلِ[١]، وقد استدلَّ به فَضالةُ بنُ عبيدٍ الأنصاريُّ الصحابيُّ على أنَّ المقتولَ والميِّتَ في سبيلِ الله سواءٌ في الفضلِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُواْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ هذه بِشارةٌ كُبرى لِمن هاجَرَ في سَبيلِ اللهِ، فخرَجَ مِن دارِه ووَطنِه وأولادِه ومالِه؛ ابتغاءَ وَجهِ اللهِ، ونُصرةً لدينِ اللهِ، فهذا قد وجب أجرُه على اللهِ، سواءٌ مات على فِراشِه، أو قُتِلَ مُجاهِدًا في سَبيلِ اللهِ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُواْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، فيه التعبيرُ بأداةِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾؛ إشارةً إلى طولِ العمرِ، وعلوِّ الرُّتبةِ بسببِ الهجرةِ[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، فيه سؤالٌ: إنْ قيل: الرَّازق في الحقيقةِ هو اللهُ تعالى، فكيف قال: ﴿لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾؟

والجوابُ على ذلك مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ صِيغةَ التَّفْضيلِ في قولِه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ نظرًا إلى أنَّ بعضَ المخلوقينَ يَرْزُقُ بعضَهم، كقولِه تعالَى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٤).

قال السيوطي: (وهو رأيٌ قاله جماعةٌ، وخالفَه آخرونَ؛ ففضَّلوا المقتولَ). يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٥).

وأثر فضالة أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٦/ ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧٧).

وقولِه تعالَى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٣٣]، ولا شَكَّ أنَّ فضلَ رِزْقِ اللَّهِ خلقَه على رِزْقِ بعضِ خلقِه بعضَهم، كفضلِ ذاتِه وسائِرِ صفاتِه على ذواتِ خلقِه وصفاتِهم؛ فرَزْق اللهِ لخَلْقِه ليس كَرَزْق الناسِ بعضِهم لبعضٍ، فبيْن الفِعلِ والفِعلِ مِنَ المُنافاةِ كمِثلِ ما بيْن الذَّاتِ والذَّاتِ[١].

الثاني: أنَ يَكونَ المرادُ: أنَّه الأصلُ في الرِّزقِ، وغَيرُه إنَّما يَرزُقُ بما تَقدَّمَ مِنَ الرِّزقِ مِن جِهةِ اللهِ تعالى.

الثالثُ: أنَّ غَيرَه إنَّما يَرزُقُ لو حَصَل في قلْبِه إرادةُ ذلك الفعلِ، وتلك الإرادةُ مِنَ اللهِ؛ فالرَّازقُ في الحقيقةِ هو اللهُ تعالى.

الرابعُ: أنَّ الغَيرَ إذا رَزقَ، فلولا أنَّ اللهَ تعالى أَعطى ذلك الإنسانَ أنواعَ الحَواسِّ، وأَعطاهُ السَّلامةَ والصِّحَّةَ والقدرةَ على الانتِفاعِ بذلك الرِّزقِ، لَما أَمكَنه الانتِفاعُ به، ورِزقُ الغَيرِ لا بدَّ وأنْ يَكونَ مَسبوقًا برِزقِ اللهِ، ومَلحوقًا به؛ حتَّى يَحصُلَ الانتِفاعُ. وأمَّا رِزقُ اللهِ تعالى فإنَّه لا حاجةَ به إلى رِزقِ غَيرِه؛ فثَبَتَ أنَّه سُبحانَه خَيرُ الرَّازقين. وقيل غَيرُ ذلك[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ فيه وَصْفُ الرِّزقِ بالحُسْنِ؛ لإفادةِ أنَّه يُرْضيهم بحيث لا يَتطلَّبون غيرَه؛ لأنَّه لا أحسَنَ منه[٣].

٦- تَغييرُ أُسلوبِ الجَمْعِ الَّذي في قولِه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ ...﴾ إلى أُسلوبِ الإفرادِ في قولِه: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾؛ للإشارةِ إلى إرادةِ العُموم مِن هذا الكلامِ؛ لِيَكونَ بمَنزِلَةِ القاعدةِ الكُلِّيَّةِ لسُنَّةٍ مِن سُنَنِ اللهِ تعالى في الأُمَمِ، ولمَّا

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٠).

أتى في الصِّلةِ هنا بفِعْلِ ﴿عَاقَبَ﴾، مع قَصدِ شُمولِ عُمومِ الصِّلةِ للَّذينَ أُذِنَ لهم بأنَّهم ظُلِموا؛ عَلِمَ السَّامِعُ أنَّ القِتالَ المأْذونَ لهم به قِتالُ جَزاءٍ على ظُلْمٍ سابقٍ، وفي ذلك تَحديدٌ لقانونِ العِقابِ: أنْ يكونَ مُماثِلًا للعُدْوانِ المَجْزِيِّ عليه، أي: ألَّا يكونَ أشَدَّ منه[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ كان هذا شَرعًا لأصولِ الدِّفاعِ عن جماعةِ المُسلِمينَ، وأمَّا آياتُ التَّرغيبِ في العَفوِ فليس هذا مقامَ تَنزيلِها، وإنَّما هي في شَرعِ مُعاملاتِ الأمَّةِ بَعضِها مع بَعضٍ، وقد أكَّدَ لهم اللهُ نَصْرَه إن هم امتَثَلوا لِما أُذِنوا به، وعاقَبوا بمِثلِ ما عُوقِبوا به[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ سُمِّيَ الابتداءُ بالعِقابِ الَّذي هو الجزاءُ؛ لأنَّه سبَبٌ وذاك مُسبَّبٌ عنه، كما يَحمِلون النَّظيرَ على النَّظيرِ، والنَّقيضَ على النَّقيضِ للمُلابَسةِ[٣]. وقيل: سُمِّي جَزاءُ العُقوبةِ عُقوبةً؛ لاستِواءِ الفِعلَينِ في جِنسِ المَكروهِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فالأوَّلُ سَيئةٌ، والمُجازاةُ عليها سُمِّيَت سَيِّئةً بأنَّها وقَعَت إساءةً بالمَفعولِ به؛ لأنَّه فعَلَ به ما يَسوؤُه[٤]. وسُمِّيَ اعتداءُ المُشرِكين على المُؤمِنين عِقابًا؛ لأنَّ الَّذي دفَعَ المُعتدِينَ إلى الاعتداءِ قَصْدُ العِقابِ على خُروجِهم عن دِينِ الشِّركِ، ونَبْذِ عِبادةِ أصنامِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًا﴾ جُملةٌ ابتدائيَّةٌ لابتداءِ معنًى آخَرَ[١]. وفيها تَخصيصٌ للَّذين هاجَروا في سَبيلِ اللهِ بالذِّكْرِ؛ تَنويهًا بشأْنِ الهجرةِ[٢]، وتَفخيمًا لشأنِ المهاجرينَ[٣].

- وجُملةُ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه. وصَريحُ هذه الجُملةِ: الثَّناءُ على اللهِ. وكِنايتُها: التَّعريضُ بأنَّ الرِّزقَ الَّذي يَرزُقُهم اللهُ هو خيرُ الأرزاقِ؛ لصُدورِه مِن خَيرِ الرَّازقينَ. وأُكِّدَتِ الجُملةُ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)، ولامِهِ، وضَميرِ الفصلِ (هو)؛ تَصويرًا لعَظَمةِ رِزْقِ اللهِ تعالى[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥ﴾ بدَلُ اشتمالٍ مِن قولِه: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ كَرامةَ المَنزِلِ مِن جُملةِ الإحسانِ في العطاءِ، بل هي أبهَجُ لَدى أهْلِ الهِمَمِ؛ ولذلك وُصِفَ المدْخَلُ بـ﴿يَرۡضَوۡنَهُۥ﴾. أو استئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٠، ٣١١).

- وجُملةُ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ، أي: عليمٌ بما تَجشَّموهُ مِن المَشاقِّ في شأْنِ هِجْرَتِهم مِن دِيارِهم وأهْلِهم وأموالِهم، وهو حليمٌ بهم فيما لاقَوهُ، فهو يُجازِيهم بما لَقُوهُ مِن أجْلِه[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: الأمْرُ ذلك، وهي جُملةٌ لتَقريرِ ما قبْلَه، والتَّنبيهِ على أنَّ ما بعْدَه كَلامٌ مُستأنَفٌ[2]. وأيضًا اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ للفصْلِ بين الكلامينِ؛ لَفْتًا لأذهانِ السَّامعينَ إلى ما سيَجِيءُ من الكَلامِ. وجُملةُ ﴿وَمَنْ عَاقَبَ ...﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ [الحج: ٥٨]، والغرَضُ منها التَّهيئةُ للجهادِ، والوعْدُ بالنَّصرِ الَّذي أُشِيرَ إليه سابقًا بقولِه تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، إلى قولِه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠]؛ فإنَّه قد جاء مُعترِضًا في خِلالِ النَّعيِ على تَكذيبِ المُكذِّبين وكُفْرِهم النِّعَمَ، فأُكْمِلَ الغرَضُ الأوَّلُ بما فيه مِن انتقالاتٍ، ثمَّ عُطِفَ الكلامُ إلى الغرَضِ الَّذي جَرَتْ منه لَمحةٌ؛ فعاد الكلامُ هنا إلى الوعْدِ بنَصرِ اللهِ القومَ المُعْتَدى عليهم، كما وعَدَهم بأنْ يُدخِلَهم في الآخرةِ مُدخَلًا يَرضَونَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١١، ٣١٢).

- و(ثمَّ) مِن قولِه: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾؛ فـ(ثمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ فإنَّ البَغْيَ عليه أهَمُّ مِن كَونِه عاقَبَ بمِثْلِ ما عُوقِبَ به؛ إذ كان مَبْدوءًا بالظُّلْمِ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ تَعليلٌ للاقتصارِ على الإذنِ في العِقابِ بالمُماثَلةِ في ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ دونَ الزِّيادةِ في الانتقامِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ تَعليلًا للوعْدِ بجَزاءِ المُهاجِرينَ؛ اتِّباعًا للتَّعليلِ في ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾؛ لأنَّ الكلامَ مُستمِرٌّ في شأْنِهم[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث طابَقَ ذِكْرُ العَفُوِّ الغفورِ هذا الموضِعَ، ووَجْهُ تَعلُّقِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ بما تقدَّمَ: أنَّ اللهَ تعالى ندَبَ المُعاقِبَ إلى العَفْوِ عن الجاني، والعَفْوُ عن الجاني مَندوبٌ إليه، ومُستوجِبٌ عندَ اللهِ المدْحَ إنْ آثَرَ ما نُدِبَ إليه وملَكَ سَبيلَ التَّنزيهِ؛ فحينَ لم يُؤثِرْ ذلك وانتصَرَ وعاقَبَ، ولم يَنظُرْ في قولِه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]؛ فإنَّ اللهَ لعَفُوٌّ غفورٌ، أي: لا يَلومُه على تَركِ ما بعَثَهُ عليه، وهو ضامِنٌ لنَصرِهِ في كرَّتِه الثَّانيةِ مِن إخلالِه بالعَفْوِ وانتقامِه مِن الباغي عليه؛ فلمَّا لم يأْتِ بهذا المَندوبِ فهو نَوعُ إساءةٍ، فكأنَّه سُبحانَه قال: إنِّي قد عفَوتُ عن هذه الإساءةِ وغفَرْتُها؛ فإنِّي أنا الَّذي أذِنْتُ لك فيه. ويَجوزُ أنَّه سُبحانَه وإنْ ضَمِنَ له النَّصرَ على الباغي، لكنَّه عرَّضَ مع ذلك بما كان أَولى به مِن العَفْوِ والمغفرةِ؛ فلَوَّحَ بذِكْرِ هاتينِ الصِّفتينِ؛ ففي ذِكرِهما إشعار بأنَّ العفوَ أفضلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣١٣، ٣١٤).

مِن العقوبةِ فكأنَّه حضٌّ على العفوِ، فلمَّا قال: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾، اتَّجَهَ لسائلٍ أنْ يَسألَ: لماذا يَنصُرُهُ؟ قال: لأنَّ اللهَ عَفُوٌّ غفورٌ، وكان من الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (إنَّ اللهَ يَنصُرُ المَظْلومين)؛ فعرَّضَ بهاتينِ الصِّفتينِ على سَبيلِ الكِنايةِ التَّلويحيَّةِ؛ لأنَّه أشار إلى المطلوبِ مِن بُعْدٍ. أو دَلَّ بذِكْرِ العَفْوِ والمغفرةِ على أنَّه قادِرٌ على العُقوبةِ؛ لأنَّه لا يُوصَفُ بالعفْوِ إلَّا القادرُ على ضِدِّه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥١٨، ٥١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٧).

الآيتان (٦١-٦٢)

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُولِجُ﴾: أي: يُدخِلُ، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيءٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ذلك النَّصرُ المَذكورُ كائِنٌ بسَبَبِ أنَّه سُبحانَه قادِرٌ لا يَعجِزُ عن نُصرةِ مَن شاء نُصرَتَه، ومِن قُدرتِه أنَّه يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ، فيَزيدُ في أحَدِهما ما يَنقُصُه مِنَ الآخَرِ، وبالعَكسِ، وأنَّ اللهَ سَميعٌ لكُلِّ صَوتٍ، بصيرٌ بكُلِّ فِعلٍ، لا يخفى عليه شَيءٌ. ذلك بأنَّ اللهَ هو الإلهُ الحَقُّ الذي لا تنبغي العبادةُ إلَّا له، وأنَّ ما يَعبُدُه المُشرِكونَ مِن دُونِه مِنَ الأصنامِ والأندادِ هو الباطِلُ الذي لا يَنفَعُ ولا يَضُرُّ، وأنَّ اللهَ هو العليُّ الكبيرُ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

تعَلُّقُ هذه الآيةِ بما قَبلَها مِن ثلاثةِ أوجهٍ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢، ٨٨٣))، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠).

الأوَّل: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: ذلك النَّصرُ بسَبَبِ أنَّه قادِرٌ، ومِن آياتِ قُدرتِه البالغةِ كَونُه خالِقًا لِلَّيلِ والنَّهارِ، ومتصَرِّفًا فيهما؛ فوجَبَ أن يكونَ قادِرًا عالِمًا بما يَجري فيهما، وإذا كان كذلك كان قادِرًا على النَّصرِ مُصيبًا فيه.

الثاني: المرادُ أنَّه سُبحانَه مع ذلك النَّصرِ يُنعِمُ في الدُّنيا بما يَفعَلُه مِن تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وولوجِ أحَدِهما في الآخَرِ[(١)].

الثالث: أنَّه لَمَّا ختَمَ بهَذينِ الوَصفَينِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾، ذكَرَ مِنَ الدَّليلِ عليهما أمرًا جامِعًا للمَصالحِ، عامًّا للخلائِقِ، يكونُ فيه وبه الإحسانُ بالخَلقِ والرِّزقِ؛ فقال[(٢)]:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾.

أي: ذلك النَّصرُ المَذكورُ[(٣)] كائِنٌ بسَبَبِ أنَّه سُبحانَه قادِرٌ لا يَعجِزُ عن نُصرةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٨٠).

(٣) ممَّن اختار أنَّ الإشارةَ بـ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى نَصرِ المَظلومِ على الظَّالِمِ، المذكورِ في الآياتِ السَّابقةِ: ابنُ جرير، وابن الجوزي، والرسعني، والرازي، والقرطبي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٥).

وقيل: المرادُ بالإشارةِ: مَعرِفةُ اتِّصافِه سُبحانَه بالوَصفَينِ المَذكورينِ في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾. وممَّن قال بهذا المعنى: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٨٠).

وقيل: المرادُ: ذلك الذي شرَعَ لكم تلك الأحكامَ الحَسَنةَ العادِلةَ، هو حَسَنُ التصَرُّفِ في تقديرِه وتَدبيرِه، الذي ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾. وممن قال بهذا المعنى: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

واختار الشنقيطيُّ أنَّ الإشارةَ ترجِعُ لقولِه: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الحج: ٥٦]، إلى ما ذَكَره مِن نُصرةِ المظلومِ، أي: ذلك المذكورُ مِن كونِ الملكِ له وحْدَه يومَ القيامةِ، =

مَن شاء نُصرَتَه، ومِن علاماتِ قُدرتِه الباهِرةِ أنَّه يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ، فيَزيدُ في أحَدِهما ما يَنقُصُه مِنَ الآخَرِ، وبالعَكسِ؛ فتارةً يَطولُ النَّهارُ ويَقصُرُ اللَّيلُ، وتارةً يكونُ بعَكسِ ذلك[1].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾.

أي: وذلك أيضًا بسَبَبِ أنَّه سَميعٌ لِما يقولُ عِبادُه، بَصيرٌ بأحوالِهم وأعمالِهم، حافِظٌ لكُلِّ ذلك، ثمَّ يجازيهم جَميعًا على ما قالوا وما عَمِلوا[2].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ

= وأنَّه الحاكمُ وحْدَه بيْن خَلْقِه، وأنَّه المُدخِلُ الصَّالحين جنَّاتِ النَّعيمِ، والمُعذِّبُ الَّذين كفَروا العذابَ المُهينَ، والنَّاصرُ مَن بُغيَ عليه مِن عِبادِه المؤمِنين؛ بسببِ أنَّه القادرُ على كلِّ شَيءٍ، ومِن أدلَّةِ ذلك: أنَّه يولِجُ الليلَ في النهارِ... إلخ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٣).

وممَّن اختار المعنى المذكورَ لإيلاجِ كلٍّ مِن اللَّيلِ والنَّهارِ في الآخَرِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، واستظهره الشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المراد: إدخالُ ظُلْمةِ هذا في مكانِ ضياءِ ذاك بغيبوبةِ الشَّمسِ، وضياءِ ذاك في مكانِ ظُلمةِ هذا بطُلوعِها. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، وابن جزي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٧، ١٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٩).

قال البِقاعي: (﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بجَلالِه وعظَمتِه ﴿سَمِيعُۢ﴾ لِما يُمكِن أنْ يُسمع، ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: مُبصِرٌ عالِم لِما يُمكِنُ أنْ يُبصَر، دائمُ الاتِّصافِ بذلك، فهو غَيرُ مُحتاجٍ إلى سُكونِ اللَّيلِ ليَسمعَ، ولا لضياءِ النَّهارِ ليُبصِرَ... وهو لتَمامِ قُدرتِه وعِلمِه لا يَخافُ في عَفْوِه غائلةً، ولا يُمكِنُ أنْ يَفوتَه أمْرٌ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٨٠).

﴿هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ ذلك الوَصفَ الَّذي تَقدَّمَ ذِكرُه مِنَ القدرةِ على هذه الأمورِ إنَّما حَصَل لأجْلِ أنَّ اللهَ هو الحقُّ؛ فلا جَرَمَ أتَى بالوعدِ والوعيدِ[١]، فلمَّا وصَف نفْسَه سُبحانَه بما ليس لغيرِه؛ علَّله بقولِه[٢]:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: ذلك الفِعلُ الذي فعَل -مِن إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ-، واتِّصافُه سبحانَه بكمالِ القدرةِ وتمامِ العلمِ؛ بسَبَبِ أنَّ اللهَ هو الإلهُ الحَقُّ الثَّابِتُ الإلهيَّةِ، الذي يَستحِقُّ العِبادةَ وَحْدَه دونَ ما سِواه[٣].

﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾.

أي: وأنَّ ما يَدْعوه المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ مِن الأصنامِ وغَيرِها: هو الباطلُ الذي لا يَنفَعُ ولا يَستَحِقُّ العِبادةَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٣).
قال القرطبيُّ: (قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: ذو الحقِّ، فدِينُه الحقُّ، وعِبادتُه حقٌّ. والمؤْمِنون يستحقُّون منه النَّصرَ بحُكمِ وعْدِه الحقِّ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٩).
قال ابن تيميَّة: (الآلهةُ مَوجودةٌ، ولكِنْ عِبادتُها ودعاؤُها باطِلٌ لا ينفَعُ، والمقصودُ منها لا يَحصُلُ؛ فهو باطِلٌ، واعتِقادُ ألوهيَّتِها باطِلٌ، أي: غيرُ مُطابِقٍ، واتِّصافُها بالإلهيَّةِ في أنفُسِها باطِلٌ لا بمعنى أنَّه معدومٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ٥١٦). =

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ هو العالي على كُلِّ شَيءٍ بذاتِه وقَهرِه وقَدْرِه، الكبيرُ في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه، وكلُّ شَيءٍ دُونَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

مِن أسماءِ اللهِ تعالى (السَّميعُ البَصيرُ): يَسمَعُ كُلَّ شَيءٍ، ويرى كُلَّ شَيءٍ، لا يخفى عليه دَبيبُ النَّملةِ السَّوداءِ، على الصَّخرةِ الصَّمَّاءِ، في اللَّيلةِ الظَّلماءِ؛ إنْ جهَرْتَ بقَولِك سَمِعَه، وإن أسرَرْتَ به لصاحِبك سَمِعَه، وإن أخفَيتَه في نَفْسِك سَمِعَه، وأبلَغُ من ذلك أنَّه يَعلَمُ ما تُوسوِسُ به نَفْسُك وإن لم تَنطِقْ به! وإذا آمَنَ الإنسانُ بهذه الصِّفةِ العَظيمةِ -صِفةِ السَّمعِ- فإنَّ إيمانَه بذلك يقتَضي ألَّا يُسمِعَ اللهَ تعالى ما يكونُ سَببًا لغَضَبِه على عَبدِه.

وهو سُبحانَه البَصيرُ: فإنْ فعَلْتَ فِعلًا ظاهِرًا رآك، وإن فعَلْتَ فِعلًا باطِنًا ولو في جَوفِ بَيتٍ مُظلمٍ رآك، وإن تحرَّكْتَ بجَميعِ بدَنِك رآك، وإن حرَّكْتَ عُضوًا مِن أعضائِك رآك، وأبلَغُ مِن ذلك أنَّه يَعلَمُ خائِنةَ الأعيُنِ وما تُخفي الصُّدُورُ[2]! فإذا آمَنَ العَبدُ بذلك انبَعَث منه قُوَّةُ الحياءِ، فيَستَحِي مِن رَبِّه أن يرَاهُ على مَا يَكرَهُ،

= وقال أيضًا: (هو مِن جِهةِ كَونِه مَعبودًا: باطِلٌ لا يُنتَفَعُ به، ولا يحصُلُ لعابِدِه مَقصودُ العبادةِ، وإنْ كان مِن جهةٍ أخرى هو شَمسٌ وقَمرٌ يُنتفَعُ بضيائِه ونُورِه، وهو يَسجُدُ لله ويُسَبِّحُه). ((الرد على الإخنائي)) (ص: ٤٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٦/ ١٧٢).

أو يَسمَعَ منه ما يَكرَهُ، أو يُخفيَ في سَريرتِه ما يَمقُتُه عليه؛ فتبقى حَرَكاتُه وأقوالُه وخواطِرُه مَوزونةً بميزانِ الشَّرعِ، غيرَ مُهمَلةٍ ولا مُرسَلةٍ تحت حُكمِ الطَّبيعةِ والهَوى[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ فيه سُؤالٌ: أيُّ تعَلُّقٍ لقَولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ بما تقَدَّمَ؟

الجوابُ: المرادُ أنَّه كما يَقدِرُ على ما لا يَقدِرُ عليه غَيرُه، فكذلك يُدرِكُ المَسموعَ والمُبصَرَ، ولا يجوزُ المنعُ عليه، ويكونُ ذلك كالتَّحذيرِ مِنَ الإقدامِ على ما لا يجوزُ في المَسموعِ والمُبصَرِ[٢]. وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّ عَطفَ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ على السَّبَبِ؛ للإشارةِ إلى عِلمِ اللهِ بالأحوالِ كُلِّها؛ فهو يَنصُرُ مَن يَنصُرُه بعِلمِه وحِكمَتِه، ويَعِدُ بالنَّصرِ مَن عَلِمَ أنَّه ناصِرُه لا محالةَ، فلا يَصدُرُ منه شَيءٌ إلَّا عن حِكمةٍ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الحقَّ مِن أسماءِ الله الحُسنى[٤].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٤٣).

- قولُه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى الكَلامِ السَّابقِ الدَّالِّ على تكفُّلِ النَّصرِ؛ فإنَّ النَّصرَ يَقْتضي تَغليبَ أحَدِ الضِّدَّينِ على ضِدِّهِ، وإقحامِ الجيشِ في الجيشِ الآخَرِ في المَلْحمةِ، فضَرَب له مثَلًا بتَغليبِ مُدَّةِ النَّهارِ على مُدَّةِ اللَّيلِ في بَعْضِ السَّنةِ، وتَغليبِ مُدَّةِ اللَّيلِ على مُدَّةِ النَّهارِ في بَعضِها؛ لِمَا تَقرَّرَ مِن اشتهارِ التَّضادِّ بينَ اللَّيلِ والنَّهارِ. ويجوزُ أنْ يكونَ اسمُ الإشارةِ تَكريرًا لشَبيهِه السَّابقِ؛ لقَصرِ تَوكيدِه؛ لأنَّه مُتَّصِلٌ به؛ لأنَّ جُملةَ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ...﴾ إلخ، مُرتبِطةٌ بجُملةِ ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ...﴾ إلخ[1]. وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلُوِّ رُتْبَةِ ذلك النَّصرِ[2].

- والجَمْعُ بين ذِكْرِ إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ؛ للإشارةِ إلى تقلُّبِ أحوالِ الزَّمانِ؛ فقد يَصِيرُ المغلوبُ غالِبًا، ويَصيرُ ذلك الغالِبُ مَغلوبًا، مع ما فيه مِن التَّنبيهِ على تَمامِ القُدرةِ بحيث تَتعلَّقُ بالأفعالِ المُتضادَّةِ، ولا تَلزَمُ طَريقةً واحدةً كقُدرةِ الصُّنَّاعِ من البشَرِ. وفيه: إدماجُ التَّنبيهِ بأنَّ العذابَ الَّذي استبطأَهُ المُشرِكون مَنوطٌ بحُلولِ أجَلِه، وما الأجَلُ إلَّا إيلاجُ ليلٍ في نَهارٍ، ونَهارٍ في لَيلٍ. وفي ذِكْرِ اللَّيلِ والنَّهارِ في هذا المَقامِ: إدماجُ تَشبيهِ الكُفْرِ باللَّيلِ، والإسلامِ بالنَّهارِ؛ لأنَّ الكُفْرَ ضَلالةُ اعتقادٍ، فصاحِبُه مِثْلُ الَّذي يَمْشي في ظُلمةٍ، ولأنَّ الإيمانَ نُورٌ يَتجلَّى به الحقُّ والاعتقادُ الصَّحيحُ، فصاحِبُه كالَّذي يَمْشي في النَّهارِ، ففي هذا إيماءٌ إلى أنَّ الإيلاجَ المقصودَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٧).

هو ظُهورُ النَّهارِ بعْدَ ظُلمةِ اللَّيلِ، أي: ظُهورُ الدِّينِ الحقِّ بعْدَ ظُلمةِ الإشراكِ؛ ولذلك ابتُدِئَ في الآيةِ بإيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، أي: دُخولِ ظُلمةِ اللَّيلِ تحْتَ ضَوءِ النَّهارِ. وقولُه: ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ تَتميمٌ[1]؛ لإظهارِ صَلاحيَّةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ[2].

- وقولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ مِن بابِ التَّكميلِ[3]، إذا كان المعنى: ذلك النَّصرُ بسبَبِ أنَّه قادِرٌ، ومِن آياتِ قُدرتِه البالغةِ أنَّه يُولِجُ اللَّيْلَ... أو مِن بابِ التَّتميمِ، إذا كان المعنى: ذلك بسبَبِ أنَّه خالِقُ اللَّيلِ والنَّهارِ[4].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾

---

(١) التَّتميم: من أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التتميمِ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العزةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٥، ٣١٦).

(٣) التكميلُ هو الاحتراسُ، والفَرقُ بينه وبين التَّتميم: أنَّ الاحتراسَ يجبُ أنْ يكونَ لرَفْعِ إيهامِ خِلافِ المقصودِ، وأمَّا التتميم فإنَّه يكونُ في كلامٍ لا يُوهِمُ خِلافَ المقصودِ؛ فالنِّسبةُ بيْنهما إذَنْ هي التباينُ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٢٠).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الاتِّصافِ بما ذُكِرَ مِن كَمالِ القُدرةِ والعِلْمِ، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلُوِّ رُتْبَتِه[١].

- والقَصرُ المُسْتفادُ مِن ضَميرِ الفَصلِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ قَصرٌ حَقيقيٌّ. وأمَّا القَصرُ في ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾؛ فهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ لعدَمِ الاعتدادِ بباطِلٍ غَيرِها، حتَّى كأنَّه ليس من الباطلِ. وهذا مُبالَغةٌ في تَحقيرِ أصنامِهم[٢].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾، وقال في سُورةِ لُقمانَ: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠]؛ فخُصَّتْ سُورةُ الحجِّ بالتَّوكيدِ بضَميرِ الفَصلِ، ولم يُؤْتَ به في سُورةِ لُقمانَ. ووَجْهُه: أنَّ ما في سُورةِ الحجِّ وقَعَ بعْدَ عشْرِ آياتٍ، كلُّ آيةٍ مُؤكَّدةٌ مرَّةً أو مرَّتينِ[٣]. وقيل: وَجْهُ ذلك: أنَّه لمَّا تقدَّمَ في هذه السُّورة ذِكْرُ اللهِ سُبحانَه وذِكْرُ الشَّيطانِ، أكَّدَهما؛ فإنَّه خبَرٌ وقَعَ بين خَبرينِ، ولم يَتقدَّمْ في لُقمانَ ذِكْرُ الشَّيطانِ؛ فأُكِّدَ ذِكْرُ اللهِ تعالى، وأُهْمِلَ ذِكْرُ الشَّيطانِ، وهذه دَقيقةٌ[٤].

وقيل: وَجْهُ ذلك: أنَّه لم يتقدَّمْ هنا من الدَّليلِ على بُطلانِ الأوثانِ مِثْلُ ما ذَكَرَه في لُقمانَ لداعي الحالِ إلى التَّأكيدِ بضَميرِ الفَصلِ؛ فقال: ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾؛ لأنَّه مُمكِنٌ وُجودُه وعدَمُه، فليس له مِن ذاتِه إلَّا العدَمُ كغيرِه من المُمْكِناتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص:٩٣٠، ٩٣١)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٨٠).

الآيات (٦٢-٦٩)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۚ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلْفُلْكَ﴾: أي: السُّفنَ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (الفلك): الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفن سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[1].

﴿لَرَءُوفٌ﴾: أي: شديدُ الرَّحمةِ، أو ذو رحمةٍ واسعةٍ، والرَّأفةُ أعلَى معاني الرَّحمةِ، وأصلُ (رأف): يدلُّ على رِقَّةٍ ورَحمةٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: لقد رأيتَ ببَصَرِك وعَلِمْتَ ببَصيرتِك -أيُّها المُخاطَبُ- أنَّ اللهَ أنزل مِنَ السَّماءِ مَطَرًا، فتُصبِحُ الأرضُ مُخضَرَّةً بما يَنبُتُ فيها مِنَ النَّباتِ، إنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٤)، و(٣/ ٥٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

لَطيفٌ بعبادِه، ومِن لطفِه استخراجُ النَّباتِ مِنَ الأرضِ بذلك الماءِ، خَبيرٌ، ومن خبرتِه أنَّه لا تخفَى عليه الحَبَّةُ التي في باطِنِ الأرضِ، فيَسوقُ إليها الماءَ لتنبُتَ.

لله سُبحانَه وتعالى ما في السَّمَواتِ والأرض؛ خَلْقًا ومُلْكًا وعُبوديَّةً، كلٌّ مُحتاجٌ إلى تَدبيرِه وإفضالِه، إنَّ اللهَ لَهُو الغنيُّ المحمودُ في كُلِّ حالٍ.

ألم تَرَ أنَّ الله تعالى ذلَّل لكم جميعَ ما في الأرضِ، كالحَيَواناتِ والأشجارِ والأنهارِ، وسهَّل لكم أنواعَ الانتِفاعِ بها، وذلَّل لكم السُّفُنَ تَجري في البَحرِ بقُدرتِه وأمْرِه، فتَحمِلُكم مع أمتِعَتِكم إلى حيثُ تشاؤون مِن البلادِ والأماكِنِ، ويُمسِكُ السَّماءَ فيَحفَظُها؛ حتى لا تقَعَ على الأرضِ فيَهلِكَ مَنْ عليها، إلَّا بإذنِه سُبحانَه بذلك؟ إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لرَؤوفٌ رَحيمٌ.

وهو اللهُ تعالى الذي أحياكم بأن أوجَدَكم مِنَ العَدَمِ، ثمَّ يُميتُكم عند انقِضاءِ أعمارِكم، ثمَّ يُحييكم بالبَعثِ؛ لِمُحاسبتِكم على أعمالِكم، إنَّ الإنسانَ لَجحودٌ لِما ظهَرَ مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ على قُدرةِ اللهِ ووحدانيَّتِه، جَحودٌ لنِعَمِ اللهِ فلا يَشكُرُ.

لكُلِّ أمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ جعَلْنا شريعةً، فهُم عامِلونَ بها، فلا يُجادِلُنَّك -يا مُحمَّدُ- في شَريعتِك، وادْعُ إلى توحيدِ رَبِّك وإخلاصِ العبادةِ له واتِّباعِ أمْرِه؛ إنَّك لعلى طَريقٍ قَويمٍ لا اعوِجاجَ فيه.

وإنْ أصرَّ كُفَّارُ قَومِك على مُجادَلتِك بالباطِلِ فيما تدعوهم إليه، فلا تُجادِلْهم، بل قُلْ لهم: اللهُ أعلَمُ بما تَعمَلونَه مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ؛ فهم معانِدونَ مُكابِرونَ. اللهُ يَقضي ويَفصِلُ بيْنكم يومَ القيامةِ فيما كُنتُم فيه تَختَلِفونَ مِن أمرِ دينِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ

خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما دَلَّ على قُدرتِه الباهرةِ مِن إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ والنَّهارِ في اللَّيلِ، وهما أمْرانِ مُشاهَدانِ: مجيءُ الظُّلمةِ والنُّورِ- ذكَرَ أيضًا ما هو مُشاهَدٌ مِن العالَمِ العُلويِّ والعالَمِ السُّفليِّ، وهو: نُزولُ المطَرِ، وإنباتُ الأرضِ. وإنزالُ المطَرِ واخضِرارُ الأرضِ مَرئيَّانِ[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾.

أي: ألمْ ترَ[2] أنَّ اللهَ أنزَلَ المطَرَ مِنَ السَّماءِ، فتَصيرُ به الأرضُ اليابِسةُ خَضراءَ بالنَّباتِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۞

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣١).

(٢) قال ابنُ عاشور: (الخِطابُ لكُلِّ مَن تَصلُحُ منه الرؤيةُ؛ لأنَّ المرئيَّ مَشهورٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٧).

وقيل: الخطابُ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ٣٣٨).

قال الألوسي: (﴿أَلَمْ تَرَ﴾... أي ألم تعلَمْ ذلك، وجُوِّز كونُ الرؤيةِ بصريةً نظرًا للماءِ المنزَلِ). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٨٢).

وقال الشنقيطي: (الظَّاهرُ: أنَّ ﴿تَرَ﴾ هنا مِنْ «رأى» بمعنى: «عَلِم»؛ لأنَّ إنزالَ المطرِ وإن كان مشاهَدًا بالبصرِ فكونُ اللَّهِ هو الَّذي أنْزلَه، إنَّما يُدرَكُ بالعلمِ لا بالبصرِ، فالرُّؤيةُ هنا علميَّةٌ على التَّحقيقِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٩٤). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٧).

وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۞ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ [ق: ٩ - ١١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لَطيفٌ في فِعلِ ما يشاءُ، ومِن ذلك إنباتُ الأرضِ بالماءِ، خَبيرٌ يَعلَمُ خَفايا كُلِّ شَيءٍ، ومن ذلك أنَّه لا تخفَى عليه الحَبَّةُ التي في باطِنِ الأرضِ، فيَسوقُ إليها الماءَ بلُطفِه لِيُنبِتَها به[1].

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: لله وَحْدَه مُلكُ جَميعِ ما في السَّمَوات ومُلكُ جَميعِ ما في الأرضِ مِنَ الخَلقِ؛ فكُلُّهم عَبيدُه، وتحتَ تَدبيرِه، لا شَريكَ له في ذلك[2].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَهُو الغنيُّ عن كُلِّ ما سِواه، المحمودُ في أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه[3].

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۚ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤).

قال السعدي: (وهو الغنيُّ في حَمدِه، الحَميدُ في غِناه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ألم تَرَ أنَّ اللهَ ذلَّل لكم جميعَ ما في الأرضِ، كالحَيَواناتِ والأشجارِ والأنهارِ، وسهَّل لكم أنواعَ الانتِفاعِ بها[1].

﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾.

أي: وذلَّل لكم السُّفُنَ تجري في البِحارِ بقُدرتِه وتَيسيرِه، فتَحمِلُكم وتَحمِلُ بَضائِعَكم مِن مَوضِعٍ إلى آخَرَ[2].

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾.

أي: ويُمسِكُ اللهُ السَّماءَ بقُدرتِه؛ كيْ لا تَسقُطَ على الأرضِ فيَهلِكَ مَن فيها، إلَّا إذا أذِنَ اللهُ لها بالوُقوعِ، فتَقَعُ بإذنِه[3].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢١، ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٦).

قيل: قولُه: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي: يومَ القيامةِ، كأنَّ طَيَّ السَّماءِ بَعْضُ هذه الهيئةِ لوُقوعِها، ويجوزُ أنْ يكونَ ذلك وَعيدًا لهم في أنَّه إنْ أذِنَ في سُقوطِها كِسفًا عليكم سقَطَتْ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٣، ٥٣٤).

أي: إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لَذُو رأفةٍ ورَحمةٍ، ومِن رأفتِه ورَحمتِه بهم سَخَّر لهم جميعَ تلك الأشياءِ[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ٦٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ذكَرَ سُبحانَه -فيما سلف- عظيمَ قدرتِه وبالِغَ حِكمتِه في ولوجِ اللَّيلِ في النَّهارِ والنَّهارِ في اللَّيلِ، ونبَّه بذلك على سابغِ نِعَمِه على عبادِه؛ أردَف ذلك بذِكرِ أنواعٍ أُخرى مِن الدَّلائِلِ على قدرتِه، فقال[٢]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾.

أي: واللهُ هو الذي أحياكم وأوجَدَكم مِنَ العَدَمِ، ثُمَّ يُميتُكم عندَ انقضاءِ آجالِكم، ثمَّ يُحييكم يومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الجاثية: ٢٦].

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ لَجَحودٌ لآياتِ اللهِ فلا يُؤمِنُ بها، جَحودٌ لِنِعَمِ اللهِ فلا يَشكُرُ اللهَ عليها، ولا يُخلِصُ عِبادَتَه له وَحْدَه[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٧/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قدَّمَ اللهُ تعالى ذِكْرَ نِعَمِه، وبيَّنَ أنَّه رَؤوفٌ رَحيمٌ بعِبادِه، وإن كان منهم مَن يَكفُرُ ولا يَشكُرُ؛ أتبَعَه بذِكرِ نِعَمِه بما كَلَّف؛ فقال[1]:

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾.

أي: لكلِّ جماعةٍ مُؤمِنةٍ ممَّن قَبْلَكم وضَعْنا شريعةً، هم عاملونَ بها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٢).

وممن اختار أنَّ المنسكَ معناه هنا الشريعةُ: الواحديُّ، والرازي، والقرطبي، والبيضاوي، والعليمي، والشوكاني، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢١٣).

قال الرازي: (المَنسَكُ: هو الشَّريعةُ والمِنهاجُ، وهو قولُ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عطاءٍ، واختيارُ القَفَّالِ، وهو الأقربُ؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ ولأنَّ المَنسَكَ مأخوذٌ مِنَ النُّسُكِ، وهو العِبادةُ، وإذا وقَعَ الاسمُ على كلِّ عِبادةٍ، فلا وجْهَ للتَّخصيصِ. فإنْ قيل: هلَّا حملْتُموه على الذَّبحِ؛ لأنَّ المَنسَكَ في العُرفِ لا يُفهَمُ منه إلَّا الذَّبحُ؟ وهلَّا حملْتُموه على مَوضِعِ العِبادةِ أو على وقْتِها؟ الجوابُ عن الأوَّلِ: لا نُسلِّمُ أنَّ المَنسَكَ في العُرفِ مَخصوصٌ بالذَّبحِ؛ والدَّليلُ عليه أنَّ سائرَ ما يُفعَلُ في الحجِّ يوصَفُ بأنَّه مَناسكُ، ولأجْلِه قال عليه السَّلامُ: «خُذوا عَنِّي مَناسِكَكُم». وعن الثاني: أنَّ قولَه: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أَلْيَقُ بالعِبادةِ منه بالوقتِ والمكانِ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٩).

وقيل: المرادُ به: إراقةُ الدَّمِ أيامَ النحرِ بمِنًى. وممَّن اختارَ هذا القولَ: ابنُ جَريرٍ.

قال ابن جَريرٍ: (الصَّوابُ مِنَ القولِ في ذلكَ أنْ يقالَ: عُني بذلك إراقةُ الدَّمِ أيَّامَ النَّحرِ بمِنًى؛ =

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾.

أي: فلا يُجادِلُنَّك[(١)] -يا مُحمَّدُ- فيما شرَعَ اللهُ لك[(٢)].

= لأنَّ المَناسكَ التي كان المُشرِكون جادَلوا فيها رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كانت إراقةَ الدَّمِ في هذه الأيَّامِ، على أنَّهم قد كانوا جادَلوه في إراقةِ الدِّماءِ التي هي دماءُ ذَبائحِ الأنعامِ، بما قد أخبَرَ اللهُ عنهم في سورةِ «الأنعامِ». غَيرَ أنَّ تلك لم تَكُنْ مَناسكَ، فأمَّا التي هي مَناسكُ فإنَّما هي هَدايا أو ضَحايا؛ ولذلك قُلنا: عُنيَ بالمَنسكِ في هذا الموضعِ: الذَّبحُ، الذي هو بالصِّفةِ التي وصَفْنا). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٧).

وقال الشِّنقيطيُّ: (الأظهر في معنى قولِه: ﴿مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُ﴾ أي: مُتعبَّدًا هُم مُتعبِّدون فيه؛ لأنَّ أصلَ النُّسكِ التَّعبُّدُ، وقد بيَّن تعالى أنْ مَنسَكَ كلِّ أُمَّةٍ فيه التَّقرُّبُ إلى اللهِ بالذَّبحِ، فهو فَرْدٌ مِن أفرادِ النُّسكِ صَرَّحَ القرآنُ بدُخولِه في عُمومِه، وذلك مِن أنواعِ البيانِ الذي تَضمَّنها هذا الكتابُ المبارَكُ. والآيةُ التي بيَّن اللهُ فيها ذلك هي قولُه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [الحج: ٣٤]). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٩٨).

وقال السعديُّ: (جَعَل لكلِّ أُمَّةٍ مَعبدًا وعِبادةً، قد تَختلِفُ في بعضِ الأمورِ، مع اتِّفاقِها على العدلِ والحِكمةِ، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾ [المائدة: ٤٨] الآيةَ. ﴿هُمۡ نَاسِكُوهُ﴾ أي: عامِلون عليه، بحسَبِ أحوالِهم، فلا اعتِراضَ على شريعةٍ مِنَ الشَّرائعِ، خُصوصًا مِنَ الأُمِّيِّينَ، أهلِ الشِّركِ والجهلِ المُبينِ، فإنَّه إذا ثَبَتَتْ رسالةُ الرَّسولِ بأدلَّتِها، وَجَب أنْ يُتلقَّى جميعُ ما جاء به بالقَبولِ والتَّسليمِ، وترْكِ الاعتِراضِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

وقال القاسمي: (﴿مَنسَكًا﴾ أي: شريعةً ومتعبدًا). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٧٣).

وقيل: المرادُ بالنُّسكِ هنا: مواضعُ الحجِّ، بخِلافِ المرادِ به في الآية السابقةِ؛ فهو موضعُ القُربانِ. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٨).

(١) قال الشوكاني: (والضَّميرُ راجعٌ إلى الأُممِ الباقيةِ آثارُهم، أي: قد عَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ شَرِيعَةً، ومِن جملةِ الأُممِ هذه الأمَّةُ المحَمَّديَّةُ، وذلك مُوجبٌ لعدمِ منازعةِ مَن بَقِي منهم لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ومُستلْزِمٌ لطاعَتِهم إيَّاه في أمرِ الدِّينِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٣).

وقيل: الضميرُ يرجعُ إلى المشركينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨].

= (٥/ ٤٥١).

وقال القاسمي: (﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي: في ذلك الجَعْلِ والوَضعِ والحوارِ في تَنوُّعِه في كلِّ أُمَّةٍ، وعدَمِ وحْدَتِه. أو في أمرِ ما جِئتَهُم به، زعمًا بأنَّه يُستغنى عنه بما شُرِع قَبْلَه؛ لأنَّه جهْلٌ بحكمتِه تعالى في تكوين الأُممِ وتربيتِها بالشَّرائعِ المناسبةِ لِزَمنِها ومكانِها، وحياتِها ومَنشئِها؛ ولذلك كانت هذه الشَّريعةُ أَهدى الشَّرائعِ للامتِنان بها، حينما بَلَغ الإنسانُ أعلى طَورِ الرُّشدِ؛ ولذلك وجَبَتِ الدَّعوةُ إليها خاصَّةً). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٧٣).

وذهَبَ ابنُ جَريرٍ إلى أنَّ المعنى: فلا يُنازعنَّكَ المُشرِكون في ذبْحِكَ، بقولِهم: أَتأكُلون ما قَتَلْتُم، ولا تَأكُلون المَيْتَةَ التي قَتَلَها اللهُ؟! فإنكَ أَوْلى بالحقِّ منهم؛ لأنَّك مُحِقٌّ، وهُم مُبْطِلون. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٧).

وذهَبَ الزَّجَّاجُ إلى أنَّ المعنى: لا يُجادِلُنَّكَ، ولا تُجادِلَنَّهُم. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٣٧).

قال الزمخشريُّ: (هو نَهيٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: لا تَلتَفِتْ إلى قَولهم، ولا تُمكِّنْهم مِن أنْ يُنازِعوك. أو هو زجْرٌ لهم عنِ التَّعرُّضِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالمُنازعةِ في الدِّينِ وهُم جُهَّالٌ لا عِلمَ عِندَهم). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٩).

وقال ابن كثير: (إنْ كان... المراد: «لِكُلِّ أُمَّةٍ نبيٍّ جَعَلْنَا مَنْسَكًا»؛ فيكونُ المرادُ بقولِه: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي: هؤلاء المشركونَ. وإنْ كان المرادُ: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا﴾ جعلًا قَدَرِيًّا -كما قال: ﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة: ١٤٨]، ولهذا قال هاهنا: ﴿هُمۡ نَاسِكُوهُ﴾ أي: فاعِلوه- فالضَّميرُ هاهنا عائِدٌ على هؤلاءِ الَّذين لهم مناسِكُ وطرائِقُ، أي: هؤلاء إنَّما يفعلونَ هذا عن قَدَرِ اللَّهِ وإرادتِه، فلا تَتَأَثَّرْ بمنازعَتِهم لك، ولا يَصْرِفْكَ ذلك عمَّا أنت عليه مِنَ الحقِّ؛ ولهذا قال: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: طريقٍ واضحٍ مستقيمٍ موصِلٍ إلى المقصودِ. وهذه كقولِه: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٧]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥١).

﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾.

أي: وادْعُ -يا مُحمَّدُ- إلى عبادةِ رَبِّك وَحْدَه، والإيمانِ به، واتِّباعِ شَريعَتِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧].

﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

أي: داوِمْ على هذه الدَّعوةِ ولا يَثنِيَنَّك عنها شَيءٌ؛ فإنَّك على طريقٍ مُستقيمٍ لا عِوَجَ فيه، مُوصلٍ إلى المَقصودِ(٢).

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨﴾.

أي: وإنْ جادَلَك كُفَّارُ قَومِك -يا مُحمَّدُ- فقُلْ لهم: اللهُ أعلَمُ بما تَعمَلونَه مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ، وهو مُجازيكم على ذلك، ففَوِّضْ أمْرَهم إلى اللهِ، وأعرِضْ عنهم، ولا تُجادِلْهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٨، ٢٩٩).
قال الرسعني: (أكثرُ المفسرينَ يقولون: هذا منسوخٌ بآيةِ السيفِ. وبعضُهم يقولُ: هذا في حقِّ المنافقين، وكانت تظهرُ منهم فَلَتاتٌ، فإذا عُوتِبوا أنكَروا وحلَفوا وجادَلوا. فعلى هذا: لا نسخَ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٩٠).
وقال أبو الحسن السخاوي: (وقالوا في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ نسَخَها آيةُ السَّيفِ. وقد قُلْنا: إنَّ آيةَ السَّيفِ لا يَصِحُّ أن تكونَ ناسِخةً لِشَيءٍ من هذا؛ لأنَّه صلَّى =

كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨].

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عن الكافِرينَ، وكان ذلك شَديدًا على النَّفْسِ؛ لِتَشَوُّفِها إلى النُّصرةِ- رجَّاه في ذلك؛ فقال[1]:

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: اللهُ يَقضي ويَفصِلُ بينكم يومَ القيامةِ فيما كُنتُم فيه تَختَلِفونَ مِن أمرِ دينِكم، ويتبَيَّنُ حِينَئِذٍ المُحِقُّ مِن المُبطِلِ[2].

= الله عليه وسلَّم لم يكن قادِرًا على القِتالِ مَنهيًّا عنه، وإنَّما تَنسَخُ آيةُ السَّيفِ آيةً يكونُ فيها نهيُه عن القِتالِ، ولا نجِدُ ذلك في القُرآنِ؛ لأنَّ العاجِزَ عن القِتالِ لا يُنهى عنه، أفَتَرى أنَّه بعد آيةِ السَّيفِ لا يجوزُ له أن يقولَ لهم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؟! وما يُروى عن السَّلَفِ -رَحِمَهم اللهُ- مِثلِ ابنِ عبَّاسٍ وغَيرِه مِن إطلاقِ النَّسخِ في هذا إنَّما يريدونَ به: الانتِقالَ مِن حالٍ الى أُخرى؛ فأطلقوا على ذلك النَّسخَ، ونحن نريدُ بالنَّسخِ: رَفْعَ الحُكمِ الثَّابتِ نَصًّا بنصٍّ آخَرَ لولاه لكان الأوَّلُ ثابِتًا، وابنُ عبَّاسٍ وغيرُه لا يريدونَ بالنَّسخِ هذا). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٧٦٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

قيل: هذا خِطابٌ مِنَ اللهِ للمُؤمِنينَ والكافرينَ، أي: يَفصِلُ بينكم بالثَّوابِ والعِقابِ. قاله الزمخشري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٠). =

كما قال الله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ۞ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ هذا حَثٌّ منه تعالى وترغيبٌ في النَّظَرِ إلى آياتِه الدَّالَّاتِ على وحدانيَّتِه[(١)].

٢- الإنسانُ مأمورٌ بالدَّعوةِ إلى الخَيرِ -أي: الدَّعوةِ إلى الله عزَّ وجلَّ- كما في قَولِه تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾[(٢)].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۞ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ في هذه الآيةِ أدَبٌ حَسَنٌ عَلَّمَه اللهُ عِبادَه في الرَّدِّ على مَن جادَلَ تعنُّتًا ومِراءً: ألَّا يُجابَ ولا يُناظَرَ، ويُدفَعَ بهذا القَولِ الذي عَلَّمَه اللهُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٣)].

= وقيل: هذا مِن ضِمنِ ما أُمِرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَقولَه على معنى أنَّ اللهَ يَحكُمُ بين المُسلِمينَ والكافرينَ يومَ القيامةِ. قاله الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٣).

وقيل: جملة ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ كلامٌ مستأنفٌ ليس مِن المقولِ، فهو خطابٌ للنبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وليس خطابًا للمشركين؛ بقرينةِ قولِه: ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾. والمقصودُ: تأييدُ الرسولِ والمؤمنينَ. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنْ قيل: ما وجْهُ الرَّفعِ في قوله: ﴿فَتُصْبِحُ﴾، مع أنَّ قَبلَها استِفهامًا؟

والجوابُ: أنَّ الرَّفعَ في قولِه: ﴿فَتُصْبِحُ﴾؛ لأنَّه ليس مُسبَّبًا عن الرُّؤيةِ التي هي موضعُ الاستِفهامِ، وإنما هو مُسبَّبُ الإنزالِ في قولِه: ﴿أَنزَلَ﴾، والإنزالُ الذي هو سببُ إِصباحِ الأرضِ مُخضرَّةً ليس فيه استِفهامٌ، ومعلومٌ أنَّ الفاءَ التي يُنصَبُ بَعدَها المضارعُ إنْ حُذفَتْ جازَ جعْلُ مَدخولِها جزاءً للشَّرطِ، ولا يُمكنُ أنْ تقولَ هنا: إنْ ترَ أنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً، تُصبِحِ الأرضُ مُخضرَّةً؛ لأنَّ الرُّؤيةَ لا أَثَرَ لها الْبتَّةَ في اخضِرارِ الأرضِ، بل سببُه إنزالُ الماءِ، لا رؤْيةُ إنزالِه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ استوعَبَت الآيةُ العوالِمَ الثَّلاثةَ: البَرَّ، والبَحرَ، والجَوَّ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ قال: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾؛ لأنَّه سُبحانَه لَمَّا كان المُجريَ لها بالرِّياحِ، نسَبَ ذلك إلى أمْرِه توَسُّعًا؛ لأنَّ ذلك يفيدُ تَعظيمَه بأكثَرَ مِمَّا يُفيدُ لو أضافَه إلى فِعلِه؛ بِناءً على عادةِ المُلوكِ في مِثلِ هذه اللَّفظةِ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ دَلالةً قاطِعةً لا تَقبَلُ الشَّكَّ على أنَّ السَّمَواتِ أجرامٌ مَحسوسةٌ حَقيقيَّةٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((الضياء اللامع)) لابن عثيمين (١/ ٣٤).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ هذا كما قد يُعَدِّدُ المَرءُ نِعَمَه على وَلَدِه، ثمَّ يقولُ: إنَّ الوَلَدَ لكَفورٌ لنِعَمِ الوالِدِ؛ زَجرًا له عن الكُفرانِ، وبَعثًا له على الشُّكرِ؛ فلذلك أورد تعالى ذلك في الكُفَّارِ، فبيَّنَ أنَّهم دفعوا هذه النِّعَمَ، وكَفَروا بها، وجَهِلوا خالِقَها، مع وضوحِ أمْرِها[1]!

٦- سَبيلُ اللهِ وصِراطُه المُستَقيمُ هو الذي كان عليه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصَحابتُه، بدَليلِ قَولِه عَزَّ وجَلَّ: ﴿يسٓ ۞ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۞ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۞ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يس: ١ - ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]، فمَنِ اتَّبع رسولَ اللهِ صلَّى الله تعالى عليه وآله وسلَّم فى قولِه وفعلِه فهو على صِراطِ الله المستقيمِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ استئنافٌ ابْتِدائيٌّ؛ انتقالٌ إلى التَّذكيرِ بنِعَمِ اللهِ تعالى. والمقصودُ: التَّعريضُ بشُكْرِ اللهِ على نِعَمِه، وألَّا يَعْبُدوا غيرَه، كما دَلَّ عليه التَّذييلُ عَقِبَ تَعدادِ هذه النِّعَمِ بـ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾. وفي ذلك كلِّه: إدماجُ الاستدلالِ على انفرادِه بالخَلقِ والتَّدبيرِ، فهو الرَّبُّ الحقُّ المُستحِقُّ للعِبادةِ[3].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تَقريريٌّ[4]. وقيل: الاستفهامُ إنكاريٌّ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٧)

وإنَّما حُكِيَ الفِعْلُ المُستفهَمُ عنه الإنكاريُّ مُقترِنًا بحَرفِ (لم) الَّذي يُخلِّصُه إلى المُضِيِّ، وحُكِيَ مُتعلَّقُه -وهو الإنزالُ- بصِيغَةِ الماضي كذلك في قولِه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، ولم يُراعَ فيهما معنى تَجدُّدِ ذلك؛ لأنَّ مَوقِعَ إنكارِ عدَمِ العِلْمِ بذلك هو كونُه أمْرًا مُتقرِّرًا ماضيًا لا يُدَّعى جَهْلُه[١].

- قولُه: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ فيه التَّعبيرُ عن مَصيرِ الأرضِ خَضراءَ بصِيغةِ (تُصْبِحُ مُخْضرَّة) -مع أنَّ ذلك مُفرَّعٌ على فِعْلِ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الَّذي هو بصِيغةِ الماضي-؛ لأنَّه قُصِدَ مِن المُضارِعِ استحضارُ تلك الصُّورةِ العجيبةِ الحَسَنةِ، ولإفادةِ بَقاءِ أثَرِ إنزالِ المطَرِ زمانًا بعْدَ زَمانٍ[٢]، والفاءُ هاهنا للتعقيب، وتعقيبُ كلِّ شيءٍ بحسَبِه[٣]؛ فمعلومٌ أنَّ النباتَ يَخرُجُ بعدَ نُزولِ المطرِ بمُدَّةٍ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ [المؤمنون: ١٤] وبينهما أربعونَ يومًا.

- وخُصَّ (تُصبِحُ) دون سائِرِ أوقاتِ النَّهارِ؛ لأنَّ رُؤيةَ الأشياءِ المحبوبةِ أوَّلَ النَّهارِ أبهَجُ وأسَرُّ للرَّائي[٤].

- وإذا كان الاخضِرارُ مُتأخِّرًا عن إنزالِ المطَرِ؛ فثَمَّ جُمَلٌ مَحذوفةٌ، والتَّقديرُ: فتَهتزُّ وتَرْبو، فتُصبِحُ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣١، ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وعبَّرَ عنِ النَّباتِ -الَّذي هو مُقْتضى الشُّكرِ؛ لِمَا فيه من إقامةِ أقواتِ النَّاسِ والبهائمِ- بذِكْرِ لَونِه الأخضرِ؛ لأنَّ ذلك اللَّونَ مُمتِعٌ للأبصارِ؛ فهو أيضًا مُوجِبُ شُكْرٍ على ما خلَقَ اللهُ مِن جَمالِ المصنوعاتِ في المَرْأى، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[1] [النحل: ٦].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ تَعليلٌ للإنزالِ[2]، ووَجْهُ تَعلُّقِه بما تقدَّمَ: أنَّه أراد أنَّه رحيمٌ بعِبادِه، ولِرَحمتِه فعَلَ ذلك حتَّى عظُمَ انتفاعُهم به؛ لأنَّ الأرضَ إذا أصبَحَتْ مُخضرَّةً، والسَّماءَ إذا أمطَرَتْ، كان ذلك سببًا لعَيشِ الحيواناتِ على اختلافِها أجمَعَ. ومعنى ﴿خَبِيرٌ﴾ أنَّه عالِمٌ بمَقاديرِ مَصالحِهم، فيَفعَلُ على قَدْرِ ذلك مِن دونِ زِيادةٍ ونُقْصانٍ. وقيل: وَجْهُه: أنَّه أراد أنَّه لَطيفٌ بأرزاقِ عِبادِه، خَبيرٌ بما في قُلوبِهم من القُنوطِ. وقيل: لَطيفٌ في أفعالِه، خبيرٌ بأعمالِ خَلْقِه. وقيل: لَطيفٌ باستخراجِ النَّبتِ، خَبيرٌ بكيفيَّةِ خَلْقِه[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فُصِلَت هذه الجُملةُ ولم تُعْطَفْ على الَّتي قبْلَها مع اتِّحادِهما في الغرَضِ؛ لأنَّ هذه تَتنزَّلُ مِن الأُولى مَنزِلَةَ التَّذييلِ بالعُمومِ الشَّاملِ لِمَا تَضمَّنَته الجُملةُ الَّتي قبْلَها، ولأنَّ هذه لا تَتضمَّنُ تَذكيرًا بنِعمةٍ[4].

- وتَقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالةِ على القَصرِ، أي: له ذلك لا لغَيرِه مِن أصنامِكم، هذا على جَعْلِ القَصرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٠).

إضافيًّا. أو لعدَمِ الاعتدادِ بغِنَى غيرِه ومَحموديَّتِه، إنْ جُعِلَ القَصرُ ادِّعائيًّا[١].

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ نَبَّهَ بوَصْفِ الغِنَى على أنَّه غيرُ مُفتقِرٍ إلى غيرِه؛ تَنبيهًا على أنَّ افتقارَ الأصنامِ إلى مَن يَصنَعُها، ومَن يَنقُلُها مِن مكانٍ إلى آخَرَ، ومَن يَنفُضُ عنها القَتامَ -أي: الغُبارَ- والقذَرَ: دَليلٌ على انتفاءِ الإلهيَّةِ عنها. وأمَّا وَصْفُ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ فذِكْرُه لِمُزاوَجةِ وَصْفِ الغِنَى؛ لأنَّ الغَنِيَّ مُفِيضٌ على النَّاسِ، فهُم يَحمَدونَه. وفي ضَميرِ الفَصلِ (هو) إفادةُ أنَّه المُختَصُّ بوَصْفِ الغِنَى دونَ الأصنامِ، وبأنَّه المُختَصُّ بالمَحْموديَّةِ؛ فإنَّ العرَبَ لم يَكونوا يُوجِّهونَ الحمْدَ لغَيرِ اللهِ تعالى. وأُكِّدَ الحَصرُ بحَرفِ التَّوكيدِ وبلامِ الابتداءِ (إنَّ - لـهو)؛ تَحقيقًا لِنِسبةِ القَصرِ إلى المقصورِ، وهذا التَّأكيدُ لِتَنزيلِ تَحقُّقِهم اختصاصَه بالغِنَى أو المَحْموديَّةِ مَنزِلةَ الشَّكِّ أو الإنكارِ؛ لأنَّهم لم يَجْرُوا على موجَبِ عِلْمِهم حين عَبَدوا غيرَه، وإنَّما يُعبَدُ مَن وَصْفُه الغِنَى[٢].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، بإعادةِ (ما)، وأدخَلَ اللَّامَ على قولِه: (هو)، بخِلافِ آيةِ سُورةِ لُقمانَ: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦]؛ ووَجْهُ ذلك: إفادةُ التَّوكيدِ المُحتاجِ إليه هنا في سُورةِ الحجِّ؛ فلا تَدخُلُ اللَّامُ الخبَرَ لغيرِ ذلك، وتَكرارُ الموصولِ أيضًا لذلك؛ فدخَلَتا في آيةِ هذه السُّورة بعْدَ عشْرِ آياتٍ، كلُّ آيةٍ مُؤكَّدةٍ مرَّةً أو مرَّتينِ، وخالَفَتِ الَّتي في سُورةِ لُقمانَ تلك بمَوقِعِها، فلم تُؤكَّدْ كما أُكِّدَتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأُولى لذلك[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ مُستأنَفٌ استئنافًا ابتِدائيًّا. والاستفهامُ إنكاريٌّ. وهذا مِن نسَقِ التَّذكيرِ بنِعَمِ اللهِ، واقِعٌ مَوقِعَ قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]؛ فهو مِن عِدادِ الامتنانِ والاستدلالِ؛ فكان كالتَّكريرِ للغرَضِ؛ ولذلك فُصِلَتِ الجُملةُ ولم تُعْطَفْ. وهذا تَذكيرٌ بنِعمةِ تَسخيرِ الحيوانِ وغيرِه، وفيه: إدماجُ الاستدلالِ على انفرادِه بالتَّسخيرِ والتَّقديرِ، فهو الرَّبُّ الحقُّ[٢].

- قولُه: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيه تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُم﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿مَّا﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ؛ لتَعجيلِ المَسرَّةِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ نَبَّهَ على تَسخيرِ الفُلْكِ وإنْ كانت مُندرِجةً في عُمومِ (ما)؛ تَنبيهًا على غَرابةِ تَسخيرِها، وكثرةِ مَنافِعِها[٤]. وخُصَّ الجَريانُ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ ذلك الجرْيَ في البحرِ هو مَظهَرُ التَّسخيرِ؛ إذ لولا الإلهامُ إلى صُنْعِها على الصِّفةِ المعلومةِ لكان حَظُّها مِن البحرِ الغرَقَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٣٢، ٩٣٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٢)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٦٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٢).

- قولُه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ مُناسَبةُ عَطْفِ إمساكِ السَّمواتِ على تَسخيرِ ما في الأرضِ وتَسخيرِ الفُلْكِ: أنَّ إمساكَ السَّماءِ عن أنْ تقَعَ على الأرضِ ضَرْبٌ من التَّسخيرِ؛ لِمَا في عَظمةِ المخلوقاتِ السَّماويَّةِ مِن مُقتضياتِ تَغلُّبِها على المخلوقاتِ الأرضيَّةِ وحَطْمِها إيَّاها، لولا ما قدَّرَ اللهُ تعالى لكلِّ نَوعٍ منها مِن سُننٍ ونُظُمٍ تَمنَعُ مِن تسلُّطِ بَعضِها على بَعضٍ[1].

- ولَفْظُ السَّماءِ في قولِه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ بمعنى (ما قابَلَ الأرضَ) في اصطلاحِ النَّاسِ؛ فيكونَ كُلًّا شامِلًا للعوالِمِ العُلويَّةِ كلِّها الَّتي لا نُحِيطُ بها عِلْمًا؛ كالكواكبِ السَّيَّارةِ، وما اللهُ أعلَمُ به، وما يَكشِفُه للنَّاسِ في مُتعاقَبِ الأزمانِ. ويكونَ وُقوعُها على الأرضِ بمعنى الخُرورِ والسُّقوطِ؛ فيكونَ قولُه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ امتنانًا على النَّاسِ بالسَّلامةِ ممَّا يُفْسِدُ حَياتَهم، ويكونَ قولُه: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ احتراسًا؛ جمْعًا بين الامتنانِ والتَّخويفِ؛ لِيَكونَ النَّاسُ شاكِرينَ مُستزِيدينَ مِن النِّعَمِ، خائفينَ مِن غضَبِ رَبِّهم أنْ يأذَنَ لبعضِ السَّماءِ بالوُقوعِ على الأرضِ.

ويَجوزُ أنْ يكونَ لفْظُ السَّماءِ قد أُطلِقَ على جَميعِ الموجوداتِ العُلويَّةِ الَّتي يَشمَلُها لفْظُ السَّماءِ، الَّذي هو ما علا الأرضَ، فأُطْلِقَ على ما يَحْويهِ، كما يُطلَقُ لفْظُ الأرضِ على سُكَّانِها؛ فاللهُ يُمسِكُ ما في السَّمواتِ مِن الشُّهُبِ ومِن كُريَّاتِ الأثيرِ والزَّمهريرِ عن اختراقِ كُرَةِ الهواءِ، ويُمْسِكُ ما فيها من القُوى -كالمطَرِ والبَرَدِ، والثَّلجِ والصَّواعقِ- مِن الوُقوعِ على الأرضِ والتَّحكُّكِ بها إلَّا بإذنِ اللهِ فيما اعتادَ النَّاسُ إذْنَه به؛ مِن وُقوعِ المطَرِ والثَّلجِ والصَّواعقِ والشُّهبِ، وما لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٢).

يَعتادُوهُ مِن تَساقُطِ الكواكبِ؛ فيكونُ مَوقِعُ ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ بعْدَ قولِه تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ كمَوقِعِ قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٢- ١٣]. ويكونُ في قولِه: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ إدماجٌ بَين الامتنانِ والتَّخويفِ؛ فإنَّ مِن الإذنِ بالوُقوعِ على الأرضِ ما هو مَرغوبٌ للنَّاسِ، ومنه ما هو مَكروهٌ[١].

- ومَوقِعُ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ مَوقِعُ التَّعليلِ للتَّسخيرِ والإمساكِ؛ لأنَّ في جَميعِ ذلك رأفةً بالنَّاسِ بتَيسيرِ مَنافِعِهم الَّذي في ضِمْنِه دَفْعُ الضُّرِّ عنهم[٢].

- قولُه: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الجَمْعُ بين هاتينِ الصِّفتينِ يُفِيدُ ما تختَصُّ به كلُّ صِفَةٍ منهما، ويُؤكِّدُ ما تَجتمعانِ عليه[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾

- جُملةُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ [الحج: ٦٥]؛ لأنَّ صَدْرَ هذه مِن جُملةِ النِّعَمِ؛ فناسَبَ أنْ تُعطَفَ على سابِقَتِها المُتضمِّنةِ امتنانًا واستدلالًا كذلك[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ الجُملةُ تَذييلٌ يَجمَعُ المَقصدَ مِن تَعدادِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٣، ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٢٦).

نِعَمِ المُنعِمِ بجلائلِ النِّعَمِ المُقتضيةِ انفرادَهُ باستحقاقِ الشُّكرِ، واعترافَ الخَلقِ له بوَحدانِيَّةِ الرُّبوبيَّةِ. وتَوكيدُ الخبَرِ بحَرفِ (إنَّ)؛ لِتَنزيلِهم مَنزِلَةَ المُنكِرِ أنَّهم كُفراءُ[1].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ وَصْفٌ للجِنْسِ بوَصْفِ بَعْضِ أفرادِهِ؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ تَعريفُ الاستغراقِ العُرْفيِّ المُؤْذِنِ بأكثَرِ أفرادِ الجِنْسِ؛ مِن بابِ قولِهم: جمَعَ الأميرُ الصَّاغةَ، أي: صاغَةَ بَلَدِه، وقوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ٣٨]، وقد كان أكثَرُ العرَبِ يومئذٍ مُنكرينَ للبَعْثِ. أو أُرِيدَ بالإنسانِ خُصوصُ المُشرِكِ، كقولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]. والكَفُورُ مُبالَغةٌ في الكافِرِ؛ لأنَّ كُفْرَهم كان عن تَعنُّتٍ ومُكابَرةٍ. ويَجوزُ كونُ الكَفُورِ مأْخوذًا مِن كُفْرِ النِّعمةِ، وتكونُ المُبالَغةُ باعتبارِ آثارِ الغَفلةِ عن الشُّكرِ، وحينَئذٍ يكونُ الاستغراقُ حَقيقيًّا[2].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ كَلامٌ مُستأْنَفٌ؛ جِيءَ به لِزَجْرِ مُعاصِريه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أهْلِ الأديانِ الأخرى عن مُنازَعتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ببَيانِ حالِ ما تَمسَّكُوا به مِن الشَّرائعِ، وإظْهارِ خَطَئِهم في النَّظرِ. وقولُه: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ صِفَةٌ لـ ﴿مَنسَكًا﴾، مُؤكِّدةٌ للقَصرِ المُستفادِ من تَقديمِ الجارِّ والمَجرورِ على الفِعْلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٦، ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٨).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ لِتَرتيبِ النَّهيِ أو مُوجِبِه على ما قبْلَها؛ فإنَّ تَعيينَه تعالى لكلِّ أُمَّةٍ مِن الأُمَمِ الَّتي مِن جُمْلَتِهم هذه الأُمَّةُ شريعةً مُستقِلَّةً، بحيث لا تَتخطَّى أُمَّةٌ منهم شريعتَها المُعيَّنةَ لها: مُوجِبٌ لطاعةِ هؤلاء لرَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعدَمِ مُنازعتِهم إيَّاهُ في أمْرِ الدِّينِ. والنَّهيُ إمَّا على حَقيقتِه، أو كِنايةٌ عن نَهْيِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الالتفاتِ إلى نِزاعِهم للنَّبيِّ على زَعْمِهم المَذكورِ، وإنَّما أُسْنِدَ الفِعْلُ هنا لضَميرِ المُشرَكين ﴿يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ مُبالَغةً في نَهْيِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن مُنازَعتِه إيَّاهم الَّتي تُفْضي إلى مُنازَعتِهم إيَّاهُ؛ فيكونُ النَّهْيُ عن مُنازَعتِه إيَّاهم كإثباتِ الشَّيءِ بدَليلِه[1].

- وقولُه: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾؛ عُطِفَ على انتهاءِ المُنازَعةِ في الدِّينِ أمْرٌ بالدَّوامِ على الدَّعوةِ، وعدَمِ الاكتفاءِ بظُهورِ الحُجَّةِ؛ لأنَّ المُكابَرةَ تُجافي الاقتناعَ، ولأنَّ في الدَّوامِ على الدَّعوةِ فوائدَ للنَّاسِ أجمعينَ. وفي حَذْفِ مَفعولِ (ادْعُ) إيذانٌ بالتَّعميمِ[2].

- قولُه: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تَعليلٌ للدَّوامِ على الدَّعوةِ، وأنَّها قائمةٌ مَقامَ فاءِ التَّعليلِ، لا لِرَدِّ الشَّكِّ[3].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاءت هذه الآيةُ غيرَ مَعطوفةٍ، وجاءت نَظيرتُها مَعطوفةً بالواوِ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [الحج: ٣٤]؛ ووَجْهُه: أنَّ تلك وقَعَتْ مع ما يُدانِيها

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٨، ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٣٠).

ويُناسِبُها مِن الآياتِ الواردةِ في أمْرِ النَّسائكِ؛ فعُطِفَت على أخَواتِها، وأمَّا هذه فواقعةٌ مع أباعِدَ عن مَعناها؛ فلم تَجْدِ مَعْطفًا[1]. وقيل: إنَّ هذه الآيةَ تَقْدِمَةُ نَهْيِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا يُوجِبُ مُنازَعةَ القومِ، وتَسليةٌ له، وتَعظيمٌ لأمْرِه، حيثُ جُعِل أمْرُه نُسُكًا ودِينًا. وأمَّا اتِّصالُه بما سبَقَ مِن الآياتِ؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ يُوجِبُ القَلْعَ عن إنذارِ القومِ، والإياسَ منهم ومُتاركَتِهم، والآياتُ المُتخلِّلةُ كالتَّأكيدِ لِمَعنى التَّسليةِ؛ فجِيءَ بقولِه: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ تَحريضًا له صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على التَّأسِّي بالأنبياءِ السَّابقةِ في مُتارَكةِ القومِ، والإمساكِ عن مُجادَلَتِهم بعْدَ الْيأسِ مِن إيمانِهم؛ فالرَّبطُ على طَريقةِ الاستئنافِ، وهو أقْوى مِن الرَّبْطِ اللَّفظيِّ[2]. وهذا مُتَّصِلٌ في المعنى بقولِه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ [الحج: ٣٤] الآيةَ. وقد فصَلَ بين الكلامينِ ما اقْتَضى الحالُ استطرادَهُ؛ مِن قولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٧- ٣٨]، إلى هنا، فعاد الكلامُ إلى الغرَضِ الَّذي في قولِه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٤] الآيةَ؛ لِيُبْنى عليه قولُه: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾؛ فهذا استِدْلالٌ على تَوحيدِ اللهِ تعالى بما سبَقَ مِن الشَّرائعِ لِقَصْدِ إبطالِ تَعدُّدِ الآلهةِ، بأنَّ اللهَ ما جعَلَ لأهْلِ كلِّ مِلَّةٍ سبَقَتْ إلَّا مَنْسكًا واحِدًا يَتقرَّبونَ فيه إلى اللهِ؛ لأنَّ المُتقرَّبَ إليه واحدٌ. وقد جعَلَ المُشرِكون مَناسِكَ كثيرةً، فلكلِّ صَنَمٍ بَيتٌ يُذبَحُ فيه؛ فالجُملةُ استئنافٌ. والمُناسَبةُ ظاهرةٌ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٤، ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٢٥، ٥٢٦).

ولذلك فُصِلَتِ الجُملةُ ولم تُعْطَفْ كما عُطِفَت نَظيرتُها المُتقدِّمةُ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فيه تَفويضُ أمْرِهم إلى اللهِ تعالى، وهو كِنايةٌ عن قَطْعِ المُجادَلةِ معهم، وإدماجٌ بتَعريضٍ بالوعيدِ والإنذارِ بكَلامٍ مُوجَّهٍ صالِحٍ لِمَا يَتظاهَرون به مِن تطلُّبِ الحُجَّةِ[٢]، فهو وَعيدٌ وإنْذارٌ؛ ولكنْ برِفْقٍ ولِينٍ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٥).

الآيات (٧٠-٧٢)

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُلْطَٰنًا﴾: أي: حُجَّةً، وأصْلُ السُّلطانِ: القُوَّةُ والقَهرُ[(١)].

﴿يَسْطُونَ﴾: أي: يَبطِشونَ ويَقَعونَ، والسَّطوةُ: البَطشُ برَفعِ اليَدِ، وأصلُ (سطو): يدُلُّ على القَهرِ والعُلوِّ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قد علمْتَ -أيُّها الرَّسولُ- أنَّ اللهَ يَعلَمُ ما في السَّماءِ والأرضِ عِلمًا كامِلًا قد أثبَتَه في اللَّوحِ المَحفوظِ، إنَّ ذلك أمرٌ سَهلٌ على اللهِ الذي لا يُعجِزُه شَيءٌ.

ويَعبُدُ كُفَّارُ قُرَيشٍ آلِهةً لم يُنَزِّلِ اللهُ حُجَّةً على صِحَّةِ عبادتِها، ولا عِلمَ لهم فيما اختَلَقوه وافتَرَوه على اللهِ، وما للمُشرِكينَ ناصِرٌ يَنصُرُهم ويَدفَعُ عنهم عَذابَ الله.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٤).

وإذا تُتلى آياتُ القُرآنِ الواضِحةُ على هؤلاءِ المُشرِكينَ، ترى الكَراهةَ ظاهِرةً على وُجوهِهم، يَكادونَ يَبطِشونَ بالمُؤمِنينَ الذين يَدْعونَهم إلى اللهِ تعالى ويتلونَ عليهم آياتِه. قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: أفلا أخبِرُكم بما هو أشَدُّ شَرًّا عليكم مِمَّا سَمِعتُموه مِنَ القُرآنِ؟ النَّارُ أعدَّها اللهُ للكافرينَ في الآخرةِ، وبِئسَ المكانُ الذي يَصيرونَ إليه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى مِن قَبلُ: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الحج: ٦٩]؛ أتبَعَه بما به يُعلَمُ أنَّه سُبحانَه عالِمٌ بما يَستَحِقُّه كُلُّ أحدٍ منهم، فيقَعُ الحُكمُ منه بيْنهم بالعَدلِ لا بالجَورِ، فقال لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1]:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ألم تعلَمْ -يا مُحمَّدُ- أنَّ اللهَ يَعلَمُ كُلَّ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، ويَعلَمُ أعمالَ عِبادِه واختلافَهم، فمُجازيهم على ذلك[2]؟

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾.

أي: إنَّ عِلمَ اللهِ بكلِّ ما يكونُ في السَّماءِ والأرضِ قد أثبَتَه اللهُ في اللَّوحِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٩، ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

المَحفوظِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم يقولُ: ((كتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائِقِ قَبلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألْفَ سَنةٍ))[٢].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

أي: إنَّ إحاطةَ عِلمِ الله بجميعِ ذلك وكتابتَه في كتابٍ[٣] هَيِّنٌ سَهلٌ على اللهِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٣) قيل: الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى كَتبِ المعلوماتِ في كتابٍ. وممن قال بذلك المعنى: ابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زمنين، والرازي، واستظهرَه ابنُ جزي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٨٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦).

وقيل: المراد: إنَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: علمَه بجميعِ ذلك. وممن قال بذلك: الثعلبيُّ، والبغوي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٥٤).

وممن جمع بين المعنيين السابقين: السعديُّ، فقال: (﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وإن كان تصوُّرُه عندَكم لا يُحاطُ به، فالله تعالى يسيرٌ عليه أن يُحيطَ عِلمًا بجميعِ الأشياءِ، وأن يكتُبَ ذلك في كتابٍ مُطابقٍ للواقِعِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

وقال الزمخشري: (والإحاطةُ بذلك وإثباتُه وحفظُه عليه يَسيرٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٠).

وقيل: المراد: إنَّ الفَصلَ بين المختَلِفَينِ على الله يسيرٌ. وممن قال بذلك: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

أي: ويَعبُدُ المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ أصنامًا لم يُنَزِّلِ اللهُ على رُسُلِه حُجَّةً على صِحَّةِ عبادتِها[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

أي: وليس للمُشرِكينَ عِلمٌ يَقينيٌّ بجَوازِ وصِحَّةِ عِبادةِ الأصنامِ، وإنَّما يَعبُدونَها تقليدًا لآبائِهم[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٣).

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

أي: وما للمُشرِكينَ بسَبَبِ ظُلمِهم مِن ناصرٍ يَنصُرُهم ويُنقِذُهم مِن عذابِ اللهِ، ويَدفَعُ عنهم عِقابَه[١].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى اعترافَ الكافرينَ بما لا يُعرَفُ بنقلٍ ولا عقلٍ؛ ذكَر إنكارَهم لِمَا لا يصحُّ أن يُنكرَ، فقال[٢]:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾.

أي: وإذا تُتلى على المُشرِكينَ آياتُ القُرآنِ، والحالُ أنَّها واضِحاتُ الحُجَجِ والدَّلالةِ على توحيدِ اللهِ، وصِدقِ رَسولِه، تتبَيَّنُ في وجوهِهم الغَمَّ والكراهيَةَ، والعُبوسَ والغَضَبَ[٣]!

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾.

أي: يَكادُ المُشرِكونَ يَبطِشونَ بالذينَ يَتلونَ عليهم القُرآنَ، ويَبْسُطونَ إليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

أيدِيَهم وألسِنَتَهم بالسُّوءِ؛ لشِدَّةِ كراهتِهم وبُغضِهم آياتِ اللهِ وما فيها مِنَ الدَّعوةِ إلى الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨].

﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: أفأُخبِرُكم بما هو أشَدُّ عليكم وأكرَهُ إليكم مِمَّا سَمِعتُموه مِنَ القُرآنِ؟ هو النَّارُ التي وعَدَها اللهُ الكُفَّارَ يومَ القيامةِ(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٥، ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

قال ابن عاشور: («الَّذِينَ يَتْلُونَ» يَجوزُ أنْ يَكونُ مُرادًا به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مِن إطلاقِ اسمِ الجَمعِ على الواحدِ، كقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٧]، أي: كَذَّبوا الرَّسولَ. ويَجوزُ أنْ يُرادَ به مَن يَقرأُ عليهمُ القرآنَ مِنَ المُسلِمينَ والرَّسولِ، أمَّا الذين سَطَوا عليهم مِنَ المؤمِنين فلعلَّهم غَيرُ الذين قرَؤوا عليهمُ القرآنَ، أو لعلَّ السَّطوَ عليهم كان بَعدَ نُزولِ هذه الآيةِ؛ فلا إشكالَ في ذِكرِ فِعْلِ المُقارَبةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٦، ٣٣٧).

وممَّن قال بأنَّ الإشارةَ في ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ تعودُ إلى القرآنِ: الواحديُّ، والبغوي، والرسعني، والقرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٦، ٣٣٧).

وقيل: الإشارةُ تعودُ إلى التَّالينَ عليهم القُرآنَ. قاله ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٤).

قال ابن جرير: (أفأنبِّئكم أيُّها المشركونَ بأكرَهَ إليكم مِن هؤلاء الذين تتكرَّهون قراءتَهم القرآنَ عليكم؟). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٤).

وقيل: الإشارة بـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلى السطوِ. وممن اختاره: الزمخشريُّ، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٣). =

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وبِئسَ المكانُ الذي يصيرُ إليه هؤلاء المُشرِكونَ يومَ القيامةِ: النَّارُ[١]!

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه عُمومُ عِلمِ اللهِ. والآياتُ في العِلمِ مُتنوِّعةٌ؛ تارةً تكونُ مُجمَلةً، وتارةً تكونُ مُفصَّلةً، وتارةً تكونُ فيما يتعَلَّقُ بِفِعلِ الإنسانِ، وتارةً تكونُ فيما يتعَلَّقُ بِفِعلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ لأنَّ صِفةَ العِلمِ متَّى آمَنَ بها الإنسانُ أوجَبَ له ذلك أمْرَينِ:

الأمرُ الأوَّلُ: الهُروبُ مِن مَعصيةِ اللهِ، فلا يَجِدُه اللهُ عزَّ وجَلَّ حيث نهاه.

الأمرُ الثَّاني: الرَّغبةُ في طاعةِ اللهِ، فلا يَفقِدُه حيثُ أمَرَه[٢]؛ لأنَّك متى عَلِمْتَ أنَّ اللهَ عالمٌ بك فإنَّ ذلك يُوجِبُ لك مُراقبةَ اللهِ سُبحانَه؛ فلا يَفقِدُك حيثُ أمَرَك، ولا يَجِدُك حيثُ نهاك[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى كَتَب في اللَّوحِ المَحفوظِ

= وقال البقاعي: (﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ أي: أتَعُونَ فأُخبِرَكم خبرًا عظيمًا ﴿بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ﴾ الأمرِ الكَبيرِ مِنَ الشَّرِّ الذي أردتُموه بعبادِ اللهِ التَّالينَ عليكم للآياتِ، وما حصَلَ لكم من الضَّجَرِ مِن ذلك؟). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٩٤). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٦، ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٤).

ما هو كائنٌ إلى يَومِ القِيامةِ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ فيه إثباتُ العِلمِ وإثباتُ الكِتابةِ، وهما المَرتبتانِ الأُولى والثَّانيةُ مِن مراتِبِ الإيمانِ بالقَدَرِ، وأمَّا المرتبةُ الثَّالِثةُ: فهي المَشيئةُ. والمَرتبةُ الرَّابِعةُ: هي الخَلقُ[٢].

٣- قال تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ فاللهُ سُبحانَه قد عَلِمَ قَبلَ أنْ يُوجِدَ عِبادَه أحوالَهم، وما هُم عامِلون، وما هُم إليه صائِرون، ثمَّ أَخرجَهم إلى هذه الدَّارِ؛ ليَظهَرَ مَعلومُه الذي عَلِمَه فيهم كما عَلِمَه، وابتَلاهُم مِنَ الأمرِ والنَّهيِ والخَيرِ والشَّرِّ بما أَظهَر مَعلومَه، فاستَحقُّوا المدحَ والذَّمَّ، والثَّوابَ والعِقابَ بما قام بهم مِنَ الأفعال والصِّفاتِ المُطابقةِ للعِلمِ السَّابقِ، ولمْ يَكونوا يَستحِقُّون ذلك وهي في عِلمِه قَبْلَ أنْ يَعمَلوها، فأَرسَلَ رُسُلَه، وأَنزل كُتُبَه، وشَرَع شرائعَه؛ إعذارًا إليهم، وإقامةً للحُجَّةِ عليهم؛ لئلَّا يقولوا: كيف تُعاقِبُنا على عِلمِكَ فينا، وهذا لا يَدخُلُ تحتَ كَسْبِنا وقُدرتِنا؟! فلمَّا ظَهَر عِلمُه فيهم بأفعالهم، حَصَل العِقابُ على مَعلومِه الذي أَظهَرَه الابتلاءُ والاختبارُ، وكما ابتلاهُم بأمْرِه ونَهْيِه ابتلاهُم بما زَيَّنَ لهم مِن الدنيا، وبما ركَّب فيهم مِنَ الشَّهواتِ؛ فذلك ابتلاءٌ بشَرْعِه وأمْرِه، وهذا ابتلاءٌ بقَضائِه وقدَرِه[٣].

٤- الدِّينُ الذي نزَلَ به الوحيُ هو الدِّينُ الذي شَرَعه اللهُ عزَّ وجَلَّ، وأهلُ الضَّلالِ يَتَّبِعونَ دِينًا ليس مُوافقًا للشَّرعِ المُنزَّلِ، ولا لهم به عِلمٌ، بل يَتَّبعونَ

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٥).

أهواءَهم وما يَذوقونَه ويَجِدونه في أَنفُسِهم بغيرِ شرْعٍ ولا عِلمٍ؛ ولهذا كان شُيوخُ أهلِ المَعرفةِ يُوصونَ باتِّباعِ الشَّرعِ والعِلمِ، ويذُمُّونَ أهلَ العباداتِ الذينَ لا يتَّبِعونَ الشَّرعَ والعِلمَ، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[1].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ أهلَ الباطِلِ تَضيقُ صُدورُهم مِن الحَقِّ[2]، وهكذا ترى أهلَ البِدَعِ المُضِلَّةِ: إذا سَمِعَ الواحِدُ منهم ما يتلوه العالِمُ عليهم من آياتِ الكِتابِ العَزيزِ أو مِنَ السُّنَّةِ الصَّحيحةِ مُخالِفًا لِما اعتَقَده مِن الباطِلِ والضَّلالةِ، رأيتَ في وَجْهِه مِن المُنكَرِ ما لو تمكَّنَ مِن أن يَسطوَ بذلك العالِمِ لفَعَل به ما لا يَفعَلُه بالمُشرِكينَ! واللهُ ناصِرٌ الحَقَّ، ومُظهِرٌ الدِّينَ، وداحِضٌ الباطِلَ، ودامِغٌ البِدَعَ، وحافِظٌ المُتكَلِّمينَ بما أَخَذه عليهم، المُبَيِّنينَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهم، وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوَكيلُ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئنافٌ؛ لِزَيادةِ تَحقيقِ التَّأييدِ الَّذي تَضمَّنَه قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: فهو لا يَفوتُه شَيءٌ مِن أعمالِكم؛ فيُجازي كُلًّا على حِسابِ عَمَلِه؛ فالكَلامُ

(١) يُنظر: ((قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق)) لابن تيميَّة (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٤).

كِنايةٌ عن جَزاءِ كلٍّ بما يَلِيقُ به. والاستفهامُ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ تَقريريٌّ، أي: إنَّك تَعلَمُ ذلك، وهذا الكَلامُ كِنايةٌ عنِ التَّسليةِ، أي: فلا تضِقْ صَدْرًا ممَّا تُلاقِيه منهم[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾ بَيانٌ للجُملةِ قبْلَها، أي: يَعلَمُ ما في السَّماءِ والأرضِ عِلْمًا مُفصَّلًا لا يَختلِفُ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ قيل: هذا بَيانٌ لمَضمونِ الاستفهامِ من الكِنايةِ عن الجزاءِ. واسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائدٌ إلى مَضمونِ الاستفهامِ من الكِنايةِ؛ فتَأويلُه بالمذكورِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ بَيانًا لجُملةِ ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ويكونَ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائدًا إلى العِلْمِ المأخوذِ مِن فِعْلِ ﴿يَعْلَمُ﴾، أي: أنَّ عِلْمَ اللهِ بما في السَّماءِ والأرضِ للهِ حاصِلٌ دونَ اكتسابٍ؛ لأنَّ عِلْمَه ذاتيٌّ لا يَحتاجُ إلى مُطالَعةٍ وبَحْثٍ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فيه تَقديمُ المجرورِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على مُتعلَّقِه وهو ﴿يَسِيرٌ﴾؛ للاهتمامِ بذِكْرِه؛ للدَّلالةِ على إمكانِه في جانِبِ عِلْمِ اللهِ تعالى[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يَجوزُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنْ يكونَ الواوُ حَرفَ عطْفٍ، وتكونَ الجُملةُ مَعطوفةً على الجُملةِ السَّابقةِ بما تفرَّعَ عليها عطْفَ غرَضٍ على غرَضٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ الواوُ للحالِ، والجُملةُ بعْدَها حالًا منَ الضَّميرِ المرفوعِ في قولِه: ﴿جَٰدَلُوكَ﴾ [الحج: ٦٨]، والمعنى: جادَلوك في الدِّينِ، مُستمرِّينَ على عِبادةِ ما لا يَستحِقُّ العِبادةَ بَعْدما رأَوا مِن الدَّلائلِ، وتَتضمَّنُ الحالُ تعجُّبًا مِن شأْنِهم في مُكابَرتِهم وإصرارِهم[١].

- وعبَّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ (يَعْبُدُونَ) المُفيدِ للتَّجدُّدِ؛ لأنَّ في الدَّلائلِ الَّتي تَحُفُّ بهم، والَّتي ذُكِّروا ببَعضِها في الآياتِ الماضيةِ: ما هو كافٍ لإقلاعِهم عن عِبادةِ الأصنامِ، لو كانوا يُريدونَ الحقَّ[٢].

- قولُه: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فيه تَقديمُ انتفاءِ الدَّليلِ النقليِّ، وهو قولُه: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ على انتفاءِ الدَّليلِ العقليِّ، وهو قولُه: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ لأنَّ الدَّليلَ النقليَّ أهَمُّ[٣].

- والمُرادُ بالظَّالمينَ في قولِه: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ المُشرِكونَ المُتحدَّثُ عنهم؛ فهو مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ سبَبَ انتفاءِ النَّصيرِ لهم هو ظُلْمُهم، أي: كُفْرُهم. وقد أفاد ذلك ذَهابَ عِبادَتِهم الأصنامَ باطِلًا؛ لأنَّهم عَبَدوها رجاءَ النَّصرِ. ويُفِيدُ بعُمومِه أنَّ الأصنامَ لا تَنصُرُهم؛ فأغْنى عن مَوصولٍ ثالثٍ هو مِن صفاتِ الأصنامِ، كأنَّه قِيلَ: وما لا يَنصُرُهم، كقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾[٤] [الأعراف: ١٩٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٣٣، ٣٣٤).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ معنى التَّتميمِ والتَّنزُّلِ؛ إذِ المعنى: ليس لهم دَليلٌ قاطعٌ على صِحَّةِ ما هم فيه، ولا لهم أيضًا ما يَصِحُّ عندَ الضَّرورةِ أنْ يُتمسَّكَ به، ولا لهم ذُو شَوكةٍ يَقهَرُ النَّاسَ بالتَّعدِّي والظُّلْمِ الصِّرْفِ على عِبادةِ ما يَدْعُون[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ عَطْفٌ على ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾؛ لِبَيانِ جُرْمٍ آخَرَ مِن أجرامِهم مع جُرْمِ عِبادةِ الأصنامِ، وهو جُرْمُ تَكذيبِ الرَّسولِ والتَّكذيبِ بالقُرآنِ، وما بيْنهما اعتراضٌ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ إيثارُ صِيغَةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ التَّجدُّديِّ[٣].

- وتَقييدُ الآياتِ بوَصْفِ البيِّناتِ؛ لِتَفظيعِ إنكارِهم إيَّاها؛ إذ ليس فيها ما يُعْذَرُ به مُنكِروها[٤].

- قولُه: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، ومُقْتَضى الظَّاهرِ أنْ يكونَ (تَعرِفُ في وُجوهِهم)، أي: وُجوهِ الَّذين يَعْبُدون مِن دونِ اللهِ ما لم يُنزِّلْ به سُلْطانًا؛

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٥).

فخُولِفَ مُقْتضى الظَّاهرِ، فقال: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للتَّسجيلِ عليهم بالإيماءِ إلى أنَّ عِلَّةَ ذلك هو ما يُبْطِنونه مِن الكُفْرِ[(١)].

- وأيضًا في قولِه: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ كِنايةٌ عن امتلاءِ نُفوسِهم مِن الإنكارِ والغَيظِ حتَّى تَجاوَزَ أثَرُه بَواطِنَهم؛ فظهَر على وُجوهِهم، ولأجْلِ هذه الكِنايةِ عُدِلَ عن التَّصريحِ بنحْوِ: (اشتَدَّ غَيظُهم)، أو (يَكادُون يَتميَّزون غَيظًا)[(٢)].

- قولُه: ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ وَعيدٌ وتَقريعٌ[(٣)]، وهو استئنافٌ ابتدائيٌّ يُفيدُ زِيادةَ إغاظَتِهم، بأنْ أمَرَ اللهُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَتْلُوَ عليهم ما يُفِيدُ أنَّهم صائِرونَ إلى النَّارِ. والتَّفريعُ بالفاءِ ناشِئٌ مِن ظُهورِ أثَرِ المُنكَرِ على وُجوهِهم، فجُعِل دَلالةُ مَلامِحِهم بمَنزِلَةِ دَلالةِ الألفاظِ، ففُرِّعَ عليها ما هو جَوابٌ عن كلامٍ، فيَزيدُهم غَيظًا. ويَجوزُ كونُ التَّفريعِ على التِّلاوةِ المأخوذةِ من قولِه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾، أي: اتْلُ عليهم الآياتِ المَنْذِرةَ والمُبيِّنةَ لِكُفْرِهم، وفُرِّعَ عليها وَعيدُهم بالنَّارِ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في الاستئذانِ، وهو استئذانٌ تَهكُّمِيٌّ؛ لأنَّه قد نبَّأَهم بذلك دونَ أنْ يَنتظِرَ جَوابَهم[(٤)].

- قولُه: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ دَلَّ عليه قولُه: ﴿بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾، والتَّقديرُ: شَرٌّ مِن ذلِكُم النَّارُ، والجُملةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٦).

استئنافٌ بَيانيٌّ، أي: إنْ سألْتُم عن الَّذي هو أشَدُّ شَرًّا، فاعْلَموا أنَّه النَّارُ. وجُملةُ ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلنَّارُ﴾، أو هي استئنافٌ[١]. أو جوابُ سائلٍ قال: ما هو؟ ويجوزُ أن يكونَ مبتدأً، خبرُه: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٢].

- والتَّعبيرُ عنهم بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في قولِه: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، أي: وعَدَها اللهُ إيَّاكم لِكُفْرِكم[٣].

- قولُه: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: بِئْسَ مَصيرُهم هي؛ فحَرْفُ التَّعريفِ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه؛ فتكونُ الجُملةُ إنشاءَ ذَمٍّ مَعطوفةً على جُملةِ الحالِ على تَقديرِ القولِ. ويجوزُ أنْ يكونَ التَّعريفُ للجِنْسِ، فيُفِيدَ العُمومَ، أي: بِئْسَ المصيرُ هي لِمَن صار إليها؛ فتكونَ الجُملةُ تَذييلًا؛ لِمَا فيها مِن عُمومِ الحُكْمِ للمُخاطبينَ وغيرِهم، وتكونُ الواوُ اعتراضيَّةً تَذييليَّةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧٢-٧٦)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿يَسۡلُبۡهُمُ﴾: أي: يختَطِفْ منهم، والسَّلبُ: نَزعُ الشَّيءِ مِن الغَيرِ على القَهْرِ، وأصلُ (سلب): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بخِفَّةٍ واختِطافٍ[١].

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾: أي: ما أجلُّوا اللهَ حَقَّ إجلالِه، ولا عَظَّموه حقَّ تَعظيمِه، ولا عَرَفوه حقَّ مَعرِفتِه. والقَدْرُ: العَظَمةُ. يُقالُ لكُلِّ مَن عَرَف شَيئًا: هو يَقدُرُ قَدْرَه. وإذا لم يَعرِفْه بصِفاتِه: لا يَقدُرُ قَدْرَه، و﴿حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: ما قدَروا اللهَ قَدْرَه الحَقَّ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ وكُنْهِه[٢].

﴿يَصۡطَفِي﴾: أي: يَختارُ ويُخْلِصُ، والاصطِفاءُ: تَناوُلُ صَفْوِ الشَّيءِ، وتخيُّرُ الأصفَى، وأصلُ (صفو): يدُلُّ على خُلوصٍ مِن كُلِّ شَوبٍ[٣].

---

(١) ينظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦)، ((مقاييس اللغة)) (٣/ ٩٢).

(٢) ينظر: ((تفسير الطبري)) (١١/ ٥٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٢٧٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٤٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٢) (٢٤/ ٦١).

(٣) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٥)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: يا أيُّها النَّاسُ، ضُرِبَ مَثَلٌ فاستَمِعوا له وتدَبَّروه: إنَّ الأصنامَ والأندادَ التي تَعبُدونَها مِن دُونِ اللهِ لن تَقدِرَ مُجتَمِعةً على خَلقِ ذُبابةٍ واحدةٍ، ولا تَقدِرُ أن تَستخلِصَ ما يَسلُبُه الذُّبابُ ممَّا عليها مِن طِيبٍ أو طَعامٍ ونحوِه، ضَعُفَ الطَّالِبُ -الذي هو المعبودُ مِن دُونِ اللهِ- أن يَستَنقِذَ ما أخَذَه الذُّبابُ منه، وضَعُفَ المطلوبُ الذي هو الذُّبابُ، وضَعُفَ العابِدُ لغير الله، وضعُف معبودُه، فكيف تُتَّخَذُ هذه الأصنامُ والأندادُ آلِهةً، وهي بهذا العَجزِ التامِّ والهوانِ؟!

هؤلاءِ المُشرِكونَ لم يُعَظِّموا اللهَ حَقَّ تَعظيمِه؛ إذ جعَلوا له شُرَكاءَ، وهو القَويُّ العزيزُ.

اللهُ سُبحانَه وتعالى يختارُ مِنَ المَلائِكةِ رُسُلًا إلى أنبيائِه، ويَختارُ مِنَ النَّاسِ رُسُلًا لتبليغِ رِسالاتِه إلى الخَلقِ، إنَّ اللهَ سَميعٌ لكُلِّ شَيءٍ، ومن ذلك سماعُه لأقوالِ عِبادِه، بصيرٌ بجَميعِ الأشياءِ، وبمَن يختارُه للرِّسالةِ مِن خَلْقِه، وهو سُبحانَه يَعلَمُ ما بيْن أيدِي الرُّسُلِ مِنَ الملائكةِ والنَّاسِ، وما خَلْفَهم، وإلى الله وَحْدَه تُرجَعُ الأمورُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٩٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ الكُفَّارَ يَعبُدونَ ما لا دَليلَ على عبادتِه لا مِن سَمعٍ ولا مِن عَقلٍ، ويَترُكون عبادةَ مَن خلَقَهم؛ ذكَرَ ما عليه مَعبوداتُهم مِن انتِفاءِ القُدرةِ على خَلقِ أقَلِّ الأشياءِ، بل على رَدِّ ما أخَذَه ذلك الأقَلُّ منه، وفي ذلك تجهيلٌ عَظيمٌ لهم؛ حيثُ عَبَدوا مَن هذه صِفَتُه[١].

وأيضًا فإنَّه أُعقِبَت تضاعيفُ الحُجَج والمواعِظِ والإنذاراتِ التي اشتَمَلت عليها السُّورةُ مِمَّا فيه مَقنَعٌ للعِلمِ بأنَّ إلهَ النَّاسِ واحِدٌ، وأنَّ ما يُعبَدُ من دونِه باطِلٌ- أُعقِبَت تلك كُلُّها بمَثَلٍ جامعٍ لوَصفِ حالِ تلك المعبوداتِ وعابديها[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ[٣] ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا للآلِهةِ التي يَعبُدُها المُشرِكونَ، فأنصِتُوا لهذا المَثَلِ، وتفهَّموا ما احتَوى عليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٧).

(٣) قال ابنُ عطية: (الخطابُ بقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قيل: هو خِطابٌ يعُمُّ العالَم، وقيل: هو خِطابٌ للمُؤمِنينَ حينئذٍ، الذين أراد اللهُ تعالى أن يبَيِّنَ عِندَهم خطأَ الكافرينَ، ولا شَكَّ أنَّ المُخاطَبَ هم، ولكنَّه خِطابٌ يعُمُّ جَميعَ النَّاسِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٣).

وقال ابن عاشور: (المرادُ بالنَّاسِ هنا المُشرِكونَ، على ما هو المُصطلَحُ الغالِبُ في القرآنِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بالنَّاسِ جميعَ النَّاسِ مِن مُسلِمينَ ومُشرِكينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

وممن قال بهذا المعنى في الجملة: ابنُ جُزَي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

ويُنظر أيضًا: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦٦)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٩). =

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾.

أي: إنَّ الذين تَعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ مِنَ الأصنامِ وغَيرِها، لن يَقدِروا على خَلقِ ذُبابةٍ واحِدةٍ، ولو تَعاونوا جميعًا على ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ومَن أظلَمُ مِمَّن ذهَبَ يَخلُقُ كخَلْقي، فلْيَخلُقوا ذَرَّةً، أو لِيَخلُقوا حَبَّةً أو شَعيرةً!))(٢).

﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾.

أي: وإنْ يَختَطِفِ الذُّبابُ ويَختَلِسْ مِنَ الأصنامِ شَيئًا ممَّا عليها مِن طِيبٍ أو مما يُجعَلُ لها مِن طَعامٍ ونحوِه، لا تَستطِعِ الأصنامُ أن تَرُدَّ ما استَلَبَه الذُّبابُ، مع ضَعفِه وحَقارتِه(٣)!

= وقيل: المرادُ: أنَّ المشركين شَبَّهوا الأصنامَ بالله، فعبَدوها معه، وأَشرَكوها في عِبادتِه. وممَّن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والسمعانيُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥١).

قال ابنُ عطية: (واختَلَف المُتأوِّلون في فاعل ﴿ضُرِبَ﴾، مَن هو؟ فقالت فِرقةٌ: المعنى: ضَرَبَ أهلُ الكفرِ مَثَلًا للهِ أصنامَهم وأوثانَهم، فاستَمِعوا أنتم أيُّها النَّاسُ لأمْرِ هذه الآلهةِ. وقالت فِرقةٌ: ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لهذه الأصنام، وهو كذا وكذا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٥)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦٦، ٤٦٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣، ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

(٢) رواه البخاري (٧٥٥٩) واللفظ له، ومسلم (٢١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير =

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾.

أي: ضعُفَت الآلِهةُ المعبودةُ مِن دُونِ اللهِ -كالأصنامِ- وعَجَزت عن استِنقاذِ ما يَسلُبُه الذُّبابُ منها، وضعُفَ الذُّبابُ، وضَعُفَ العابِدُ لغير الله، وضعُف معبودُه، فكيف يَعبُدُ المُشرِكونَ ما لا قُدرةَ له على خَلقِ ذُبابٍ، ولا على رَدِّ ما استَلَبَه منه(١)؟!

= القرطبي)) (١٢/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٤).

قال ابنُ الجوزي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: كانوا يَطلُونَ أصنامَهم بالزَّعفرانِ فيَجِفُّ، فيأتي الذبابُ فيَختَلِسُه. وقال ابنُ جُريج: كانوا إذا طَيَّبوا أصنامَهم عَجَنوا طِيبَهم بشيءٍ مِن الحلواءِ، كالعَسَلِ ونحوه، فيقَعُ عليها الذُّبابُ فيَسلُبُها إيَّاه، فلا تَستطيعُ الآلهةُ ولا مَن عبَدَها أن يمنَعَه ذلك!). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٦)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٩، ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

وممَّن قال بأنَّ الطَّالِبَ هو الأصنامُ، والمطلوبَ هو الذُّبابُ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن جرير، والنسفي، وابن جُزَي، وابن كثير، والنيسابوري، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

قال الشوكاني: (فالصَّنَمُ كالطَّالِبِ؛ من حيثُ إنَّه يَطلُبُ خَلْقَ الذُّبابِ، أو يَطلُبُ استِنقاذَ ما سَلَبَه منه، والمطلوبُ الذُّبابُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٥).

وقيل: الطالبُ: هو الدَّاعي المُشرِكُ، والمطلوبُ: الأصنامُ المدعُوَّةُ. أي: ضَعُفتُم أنتم في دعوتِهم آلهةً، وضَعُفَت الأصنامُ عن صِفاتِ الإله. وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٢).

قال ابنُ الجوزيِّ: (فيه ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: أنَّ الطَّالِبَ: الصَّنَمُ، والمطلوبَ: الذُّبابُ. رواه عطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ. والثاني: الطالِبُ: الذُّبابُ يَطلُبُ ما يَسلُبُه مِنَ الطِّيبِ الذي على الصَّنمِ، والمطلوبُ: الصَّنَمُ يطلُبُ الذُّبابُ منه سَلْبَ ما عليه. رُوِيَ عن ابنِ عَبَّاسٍ أيضًا. والثالثُ: =

﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤ ﴾.

﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾.

أي: ما عظَّمَ المُشرِكونَ اللهَ حَقَّ تَعظيمِه، ولا عَرَفوا صفاتِ كَمالِه حينَ جَعَلوا الأصنامَ الضَّعيفةَ شُرَكاءَ له، فلم يُخلِصوا له العِبادةَ[1]!

كما قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لَقَويٌّ قادِرٌ على خَلْقِ ما يَشاءُ، مَنيعٌ في مُلكِه، غالِبٌ وقاهِرٌ لكُلِّ شَيءٍ، لا يَقدِرُ شَيءٌ دُونَه أن يَسلُبَه مِن مُلكِه شَيئًا، وليس كآلِهَتِكم -أيُّها المُشرِكونَ- التي لا تَقدِرُ على خَلقِ ذبابٍ، ولا على الامتناعِ منه إذا استَلَبها شيئًا، فكيف تَدْعُونها مِن دونِ الله[2]؟!

= الطَّالِبُ: عابِدُ الصَّنمِ يَطلُبُ التقرُّبَ بعبادتِه، والمطلوبُ: الصَّنَمُ. هذا معنى قَولِ الضَّحَّاكِ، والسُّدِّي). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٠).

وممن اختار الجَمْعَ: ابنُ القيم، والبِقاعي؛ فقال ابن القيم: (الصَّحيحُ أنَّ اللَّفظَ يتناوَلُ الجَميعَ، فضَعُفَ العابِدُ والمعبودُ، والمُستَلِبُ والمُستَلَبُ؛ فمَن جعَلَ هذا إلهًا مع القويِّ العزيزِ فما قَدَره حَقَّ قَدْرِه، ولا عَرَفَه حَقَّ مَعرفتِه، ولا عَظَّمَه حَقَّ تَعظيمِه!). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٣٩، ١٤٠).

وقال البِقاعي: (﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ أي: للاستِنقاذِ مِن الذُّبابِ، وهو الأصنامُ وعابِدوها ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ أي: الذُّبابُ والأصنامُ اجتَمَعوا في الضَّعفِ، وإن كان الأصنامُ أضعَفَ بدَرَجاتٍ!). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٨)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٦٣، ١٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٤).

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قَدَّمَ اللهُ سُبحانَه ما يتعَلَّقُ بالإلهيَّاتِ، ذكَرَ هاهنا ما يتعَلَّقُ بالنُبُوَّاتِ[١].

وأيضًا لَمَّا نَصَب اللهُ تعالى الدَّليلَ على أنَّ ما دعاه المُشرِكونَ لا يَصلُحُ أن يكونَ شَيءٌ منه إلهًا، بعد أن أخبَرَ أنَّه لم يُنَزِّلْ إليهم حُجَّةً بعِبادتِهم لهم، وخَتَم بما له سُبحانَه مِن وَصفَيِ القُوَّةِ والعِزَّةِ، بعد أن أثبَتَ أنَّ له المُلكَ كُلَّه؛ تلا ذلك بدَليلِه الذي تَقتَضيه سَعةُ المُلكِ وقُوَّةُ السُّلطانِ مِن إنزالِ الحُجَجِ على ألسِنَةِ الرُّسُلِ بأوامِرِه ونواهيه، المُوجِبِ لإخلاصِ العبادةِ له، المُقتَضي لِتَعذيبِ تارِكِها؛ فقال تعالى[٢]:

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

أي: اللهُ يَختارُ مِنَ المَلائِكةِ رُسُلًا، كالذينَ يُرسِلُهم إلى أنبيائِه ومَن شاء مِن عِبادِه، ويَختارُ مِن النَّاسِ أيضًا رُسُلًا يُبَلِّغونهم وَحْيَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سَميعٌ لكُلِّ شَيءٍ، بصيرٌ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك سَماعُه لأقوالِ عِبادِه، ورُؤيتُه لهم، فهو يَعلَمُ مَن يَستَحِقُّ مِن خَلْقِه اصطِفاءَه لِرسالتِه؛ فاختيارُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٨)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٥/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٠).

لهم عن عِلمٍ منه بأنَّهم أهلٌ لهذه الرِّسالةِ[١].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

أي: يَعلَمُ اللهُ ما بين أيدِي الرُّسُلِ مِنَ الملائكةِ والنَّاسِ، وما خَلْفَهم[٢].

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه لا إلى غَيرِه تُرجَعُ جَميعُ أمورِ عِبادِه، فيَحكُمُ بيْنهم يومَ القيامةِ، ويُجازيهم على ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٩٨).

قيل المراد: يعلَمُ ما كان قبْلَ خَلقِ الملائكةِ والأنبياءِ، ويعلَمُ ما يكونُ مِن بَعدِهم. قاله مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والثعلبي، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٤).

وقيل: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِن أمرِ الآخرةِ. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِن أمرِ الدُّنيا. وممن اختاره: يحيى بنُ سلام، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٩٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧١).

وقيل: يعلَمُ ما قَدَّموا مِن الأعمالِ، وما أخَّروا منها فترَكوه ولم يَعمَلوه. وممن ذهب إلى ذلك: السمعانيُّ، والقرطبي، الشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٥).

قال السعدي: (﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: هو يُرسِلُ الرُّسُلَ يَدْعونَ النَّاسَ إلى اللهِ؛ فمنهم المجيبُ، ومنهم الرادُّ لِدَعوتِهم، ومنهم العامِلُ، ومنهم النَّاكِلُ؛ فهذه وَظيفةُ الرُّسُلِ، وأمَّا =

كما قال تعالى في خاتمةِ سورةِ هُودٍ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾، أي: تدبَّروه حَقَّ تَدَبُّره؛ لأنَّ نَفْسَ السَّماعِ لا يَنفَعُ، وإنَّما ينفَعُ التدبُّرُ[(١)].

٢- قد ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى هذه الكَلِمةَ: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ في ثلاثةِ مواضِعَ؛ لِيُثبِتَ عَظَمتَه في نَفْسِه، وما يَستَحِقُّه مِنَ الصِّفاتِ، ولِيُثبِتَ وَحدانيَّتَه وأنَّه لا يستَحِقُّ العبادةَ إلَّا هو، ولِيُثبِتَ ما أنزَلَه على رُسُلِه، فقال هنا في سورةِ الحجِّ: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾، وقال في الزُّمَر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال في الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. وفي المواضِعِ الثَّلاثةِ ذَمَّ الذين ما قَدَروه حَقَّ قَدْرِه مِنَ الكُفَّارِ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّه يجِبُ على المؤمِنِ أن يَقدُرَ اللهَ حَقَّ قَدرِه، كما يجِبُ عليه أن يتَّقِيَه حَقَّ تُقاتِه، وأن يجاهِدَ فيه حَقَّ جِهادِه؛ قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[(٢)] [آل عمران: ١٠٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ إشارةٌ إلى العِلمِ التَّامِّ، وقَولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ إشارةٌ إلى القُدرةِ التَّامَّةِ والتفرُّدِ بالإلهيَّةِ والحُكمِ،

= الجزاءُ على تلك الأعمالِ فمَصيرُه إلى اللهِ تعالى، فلا تَعدَمُ منه فَضلًا أو عَدلًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٦٠، ١٦١).

ومجموعُهما يتضَمَّنُ نهايةَ الزَّجرِ عن الإقدامِ على المَعصيةِ[١].

٤- قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ فلم يَقْدُرِ اللهَ حَقَّ قَدْرِه مَن هان عليه أمرُه فعَصاه، ونهيُه فارتَكَبه، وحَقُّه فضَيَّعه، وذِكْرُه فأهْمَله، وغَفَل قلبُه عنه، وكان هواه آثَرَ عندَه مِن طَلَبِ رضاه، وطاعةُ المخلوقِ أهمَّ مِن طاعتِه، فللَّهِ الفضْلَةُ مِن قلبِه وقولِه وعملِه، هواه المقدَّمُ في ذلك لأنَّه المهمُّ عندَه، يَسْتَخِفُّ بنظَرِ اللَّهِ إليه، واطِّلاعِه عليه بكلِّ قَلْبِه وجوارِحِه، ويَسْتَحي مِن النَّاسِ ولا يَسْتحي مِن اللَّهِ، ويخشَى النَّاسَ ولا يخشَى اللَّهَ، ويعامِلُ الخلقَ بأفضلِ ما يَقْدِرُ عليه، وإنْ عامَل اللَّهَ عامَله بأهونِ ما عندَه وأحقرِه، وإنْ قامَ في خدمةِ مَن يُحِبُّه مِن البشرِ قامَ بالجدِّ والاجتهادِ وبذلِ النَّصيحةِ، وقد أفْرَغ له قلبَه وجوارِحَه، وقَدَّمَه على الكثيرِ مِن مصالِحِه، حتَّى إذا قامَ في حقِّ رَبِّه -إنْ ساعَد القَدَرُ- قامَ قيامًا لا يَرْضاه مخلوقٌ مِن مخلوقٍ مِثْلِه، وبَذَل له مِن مالِه ما يستَحي أنْ يُواجِهَ به مخلوقًا مِثْلَه، فهل قَدَر اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه مَن هذا وصْفُه[٢]؟

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ...﴾ فتأمَّلْ هذا المَثَلَ الذي أمَرَ النَّاسَ كُلَّهم باستماعِه؛ فمَن لم يَستَمِعْه فقد عصى أمْرَه: كيف تضَمَّنَ إبطالَ الشِّركِ وأسبابِه بأصَحِّ بُرهانٍ في أوجَزِ عِبارةٍ وأحسَنِها وأحلاها؟ وأسْجَلَ على جميعِ آلهةِ المُشرِكينَ أنَّهم لو اجتَمَعوا كُلُّهم في صعيدٍ واحدٍ وساعَدَ بعضُهم بعضًا وعاوَنَه بأبلَغِ المعاوَنةِ لعَجَزوا عن خَلْقِ ذُبابٍ واحدٍ! ثمَّ بيَّن ضَعْفَهم وعَجْزَهم عن استِنقاذِ ما يَسلُبُهم الذُّبابُ إيَّاه حين يَسقُطُ عليهم! فأيُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٤٢).

إلهٍ أضعَفُ مِن هذا الإلهِ المطلوبِ، ومِن عابِدِه الطَّالِبِ نَفْعَه وخَيْرَه -على قَولٍ في التَّفسيرِ-؟! فهل قَدَر القَويَّ العزيزَ حَقَّ قَدْرِه مَن أشرَكَ معه آلِهةً هذا شأنُها؟! فأقام سُبحانَه حُجَّةَ التَّوحيدِ، وبيَّن إفكَ أهلِ الشِّركِ والإلحادِ بأعذَبِ ألفاظٍ وأحسَنِها، لم يَستكْرِهْها غُموضٌ، ولم يَشِنْها تطويلٌ، ولم يَعِبْها تقصيرٌ، ولم تُزْرِ بها زيادةٌ ولا نَقصٌ، بل بلَغَت في الحُسنِ والفَصاحةِ والبَيانِ والإيجازِ ما لا يَتوهَّمُ مُتوهِّمٌ ولا يَظُنُّ ظانٌّ أن يكونَ أبلَغُ في معناها منها، وتحتَها من المعنى الجَليلِ القَدْرِ العظيمِ الشَّرَفِ البالِغِ في النَّفْعِ ما هو أجَلُّ مِن الألفاظِ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ دَلالةٌ على عِلمِه سُبحانَه بالمُستَحيلِ[(٢)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ أي: الصَّنَمُ بطَلَبِ ما سُلِبَ منه ﴿وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ الذُّبابُ بما سَلَب -على قَولٍ في التَّفسيرِ- وهذا كالتَّسويةِ بينهم وبين الذُّبابِ في الضَّعفِ، ولو حقَّقْتَ وجَدْتَ الطَّالِبَ أضعَفَ وأضعَفَ؛ فإنَّ الذُّبابَ حيوانٌ وهو جمادٌ، وهو غالِبٌ وذاك مغلوبٌ[(٣)].

٤- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، فكلمةُ (مِن) للتَّبعيضِ، وقال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ [فاطر: ١]؛ فهنا جَعَل المَلائكةَ كلَّهم رُسُلًا؟

والجوابُ عن ذلك: أنَّ الملَكَ في اللُّغة: هو حاملُ الأَلُوكةِ؛ وهي الرِّسالة. فاسمُ الملائكةِ والملَكِ يَتضمَّنُ أنَّهم رُسُلُ اللهِ. أمَّا قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٥٥).

ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فالمرادُ به الذين يُرسِلُهم بالوحيِ؛ كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

وأمَّا عُمومُ الملائكةِ: فإنَّ إرسالَها لِتَفعلَ فِعلًا، لا لتُبلِّغَ رسالةً، فالملائكةُ رُسُلُ اللهِ في تنفيذِ أمْرِه الكَونيِّ الذي يُدبِّرُ به السَّمواتِ والأرضَ، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، وكما قال: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠][1]. وقيل غيرُ ذلك[2].

٥- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فيه: تَقريرٌ للنُّبوَّةِ[3]، ورَدٌّ لِمَا أنْكروهُ مِن أنْ يكونَ الرَّسولُ مِن البشَرِ، وبَيانُ أنَّ رُسلَ اللهِ على ضَربينِ: ملائكةٍ، وبشَرٍ[4].

٦- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ فيه: تَزييفٌ لقولِهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، و: الملائكةُ بَناتُ اللهِ تعالى، ونحْوِ ذلك[5]!

٧- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، وهذا نظيرُ قولِه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٨، ٦٩]، ونظيرُ قولِه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فأخبَر في

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢١).

ذلك كلِّه عن علمِه المتضمِّنِ لتخصيصِه محالَّ اختيارِه بما خصَّصها به، لعلمِه بأنَّها تصلحُ له دونَ غيرِها، فتدبَّرِ السِّياقَ في هذه الآياتِ تجِدْه متضمِّنًا لهذا المعنى، زائدًا عليه، واللهُ أعلمُ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ في افتتاحِ السُّورة بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وتَنْهيتِها بمِثْلِ ذلك: شَبَهٌ بِرَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ، وممَّا يَزِيدُه حُسْنًا: أنْ يكونَ العَجُزُ جامِعًا لِمَا في الصَّدرِ وما بَعْده؛ حتَّى يكونَ كالنَّتيجةِ للاستدلالِ، والخُلاصةِ للخُطبةِ، والحَوصلةِ للدَّرسِ[(٢)].

- وبُنِيَ فِعْلُ ﴿ضُرِبَ﴾ بصِيغةِ النَّائبِ، فلم يُذْكَرْ له فاعِلٌ، بعَكْسِ ما في المواضعِ الأُخرى الَّتي صُرِّحَ فيها بفاعِلِ ضَرْبِ المثَلِ، نحوُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا﴾ [البقرة: ٢٦]، و﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكًا﴾ [النحل: ٧٥]؛ إذ أُسْنِدَ في تلك المواضعِ وغَيرِها ضَرْبُ المثَلِ إلى اللهِ، ونحوُ قولِه: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥ﴾ [يس: ٧٨]؛ إذ أُسْنِدَ ضَرْبُ المثَلِ إلى المُشرِكين؛ لأنَّ المقصودَ هنا نَسْجُ التَّركيبِ على إيجازٍ صالحٍ لإفادةِ احتمالينِ: أحدِهما: أنْ يُقدَّرَ الفاعِلُ اللهَ تعالى، وأنْ يكونَ المثَلُ تَشبيهًا تَمثيليًّا، أي: أوضَحَ اللهُ

(١) ينظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٨).

تَمثيلًا يُوضِّحُ حالَ الأصنامِ في فَرطِ العَجْزِ عن إيجادِ أضعَفِ المخلوقاتِ، كما هو مُشاهَدٌ لكلِّ أحدٍ. والثَّاني: أنْ يُقدَّرَ الفاعِلُ المُشرِكينَ، ويكونُ المثَلُ بمعنى المُماثِلِ، أي: جَعَلوا أصنامَهم مُماثِلةً للهِ تعالى في الإلهيَّةِ، وفُرِّعَ على ذلك المعنى مِن الإيجازِ قولُه: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾؛ لاسترعاءِ الأسماعِ إلى مُفادِ هذا المثَلِ ممَّا يُبْطِلُ دَعْوى الشَّركةِ للهِ في الإلهيَّةِ، أي: استَمِعوا استماعَ تَدبُّرٍ؛ فصِيغَةُ الأمْرِ في ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ مُستعمَلةٌ في التَّحريضِ على الاحتمالِ الأوَّلِ، وفي التَّعجيبِ على الاحتمالِ الثَّاني[1].

- واسْتُعْمِلَتْ صِيغَةُ الماضي في ﴿ضُرِبَ﴾ مع أنَّه لَمَّا يُقَلْ؛ لِتَقريبِ زمَنِ الماضي من الحالِ، وذلك تَنبيهٌ للسَّامعينَ بأنْ يَتهَيَّؤوا لِتَلقِّي هذا المثَلِ؛ لِمَا هو مَعروفٌ لَدى البُلغاءِ مِن استشرافِهم للأمثالِ ومَواقِعِها[2]. وقيل: اسْتُعْمِلَتْ صِيغَةُ الماضي معَ أنَّ الله تعالى هو المتكلِّمُ بهذا الكلامِ ابتداءً؛ لأنَّ ما أُورِد مِن الوصفِ كان معلومًا مِن قَبْلُ، فجاز ذلك فيه، ويكونُ ذِكرُه بمنزلةِ إعادةِ أمرٍ قد تقدَّم[3].

- وقولُه: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ مُجمَلٌ بُيِّنَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. وقولُه: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ تَقريرٌ لِمَا يُرادُ مِن الإبهامِ والتَّبيينِ؛ مِن تَوخِّي التَّفطُّنِ لِمَا يُتْلى بعْدَ المُجمَلِ، وتَطلُّبِ إلْقاءِ الذِّهنِ، ويُؤيِّدُه تَصدُّرُ الآيةِ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وتَذييلُ المثَلِ بقولِه تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾، وتَعليلُه بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٨، ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٣٠).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ بَيانٌ لـ ﴿مَثَلٌ﴾؛ فإنَّ المثَلَ في مَعنى القولِ، فصَحَّ بَيانُه بهذا الكلامِ[١].

وقيل: بَيانٌ للمَثلِ وتَفسيرٌ له، على أنَّ ضارِبَ المثَلِ هو اللهُ، وتَعليلٌ لبُطلانِ جَعْلِهم الأصنامَ مِثْلَ اللهِ سُبحانه في استحقاقِ العِبادةِ، على تَفسيرِ المَثلِ بالمُماثِلِ[٢].

- وفي جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا﴾ أُكِّدَ إثباتُ الخبَرِ بحَرفِ تَوكيدِ الإثباتِ وهو (إنَّ)، وأُكِّدَ ما فيه مِن النَّفيِ بحَرفِ تَوكيدِ النَّفيِ (لن)؛ لِتَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ المُنكِرينَ لِمَضمونِ الخبَرِ؛ لأنَّ جَعْلَهم الأصنامَ آلهةً يَقْتضي إثباتَهم الخَلْقَ إليها، وقد نُفِيَ عنها الخَلقُ في المُستقبَلِ؛ لأنَّه أظهَرُ في إفْحامِ الَّذين ادَّعَوا لها الإلهيَّةَ؛ لأنَّ نَفْيَ أنْ تَخلُقَ في المُستقبَلِ يَقْتَضي نَفْيَ ذلك في الماضي بالأحْرى؛ لأنَّ الَّذي يَفعَلُ شيئًا يكونُ فِعْلُه مِن بَعْدُ أيسَرَ عليه[٣].

- وخُصَّ الذبابُ؛ لأربعةِ أمورٍ تخصُّه: لمهانتِه، وضَعفِه، ولاستقذارِه، وكثرتِه[٤].

- قولُه: ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ جوابُ (لو) محذوفٌ؛ لدلالةِ ما قبلَه عليه، والجملةُ معطوفةٌ على شرطيةٍ أُخرى محذوفةٍ؛ ثقةً بدلالةِ هذه عليها، أي: لو لم يجتَمِعوا عليه لن يخلقُوه، ولو اجتمعُوا له لن يخلقُوه، وهما في موضعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٧).

الحالِ، كأنَّه قيل: لن يخلقوا ذبابًا على كلِّ حالٍ[١].

- وقيل: قولُه: ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ حالٌ؛ جِيءَ به للمُبالَغةِ، أي: لا يَقدِرونَ على خَلْقِه مُجْتَمعينَ له، مُتعاونينَ عليه؛ فكيف إذا كانوا مُنفَرِدينَ[٢]؟!

- والاستنقاذُ في قولِه: ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ﴾ مُبالَغةٌ في الإنقاذِ، مثْلُ الاستحياءِ، والاستجابةِ[٣].

- وقولُه: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ تَذييلٌ وفَذْلكةٌ[٤] للغرَضِ مِن التَّمثيلِ، أي: ضعُفَ الدَّاعي والمَدْعُوُّ، إشارةً إلى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ ...﴾ إلخ، أي: ضَعُفْتُم أنتم في دَعوتِهم آلهةً، وضَعُفَتِ الأصنامُ عن صِفاتِ الإلهِ -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-. وهذه الجُملةُ كَلامٌ أُرْسِلَ مثَلًا، وذلك مِن بَلاغةِ الكلامِ[٥]. وقيل: معناهُ التَّعجُّبُ، أي: ما أضعَفَ الطَّالِبَ والمطلوبَ[٦]!

- والتَّشبيهُ في هذه الآيةِ ضِمْنِيٌّ خَفِيٌّ، يُنْبِئُ عنه قولُه: ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾، وقولُه: ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾؛ فشُبِّهَتِ الأصنامُ المُتعدِّدةُ المُتفرِّقةُ في قَبائلِ العربِ -وفي مكَّةَ بالخُصوصِ- بعُظماءَ، أي: عندَ عابِدِيها، وشُبِّهَتْ هَيئتُها في العَجْزِ بهَيئةِ ناسٍ تَعذَّرَ عليهم خَلْقُ أضعَفِ المخلوقاتِ، وهو الذُّبابُ، بَلْهَ المخلوقاتِ العظيمةِ كالسَّمواتِ والأرضِ، وقد دَلَّ إسنادُ نَفْيِ الخَلْقِ إليهم على تَشبيهِهم بذَوي الإرادةِ؛ لأنَّ نَفْيَ الخَلْقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٢).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٨).

يَقْتَضي مُحاولةَ إيجادِه، ولو فُرِضَ أنَّ الذُّبابَ سَلَبَهم شيئًا لم يَسْتَطيعوا أخْذَه منه، ودَليلُ ذلك مُشاهَدةُ عدَمِ تَحرُّكِهم، فكما عجَزَتْ عن إيجادِ أضعَفِ الخَلْقِ، وعن دَفْعِ أضعَفِ المخلوقاتِ عنها؛ فكيف تُوسَمُ بالإلهيَّةِ؟! ورُمِزَ إلى الهيئةِ المُشبَّهِ بها بذِكْرِ لوازمِ أركانِ التَّشبيهِ مِن قولِه: ﴿لَن يَخْلُقُواْ﴾، وقولِه: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ إلى آخِرِه؛ لا جرَمَ حصَلَ تَشبيهُ هَيئةِ الأصنامِ في عَجْزِها بما دونَ هَيئةِ أضعَفِ المخلوقاتِ(١).

- وفي الآيةِ ما يُعرَفُ بسَلامةِ الاختِراعِ؛ وهو اختراعُ القائِلِ معنًى لم يُسْبَقْ إليه؛ فقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ الآيةَ، مِن أبلَغِ ما أنزَلَ اللهُ في تَجْهيلِ الكافرينَ وتَقريعِهم والاستِخفافِ بعُقولِهم؛ لِغَرابةِ التَّمثيلِ الَّذي تضمَّنَ الإفراطَ في المُبالَغةِ مع كونِها مُلازِمةً للحقِّ والواقعِ؛ فقدِ اقتصَرَ سُبحانَه على ذِكْرِ أضعَفِ المخلوقاتِ وأقَلِّها سَلْبًا لِمَا تَسلُبُه، وتَعجيزِ كلِّ مَن دُونَه عن خَلْقِ مِثْلِه، مع التَّضافُرِ والاجتماعِ، ثمَّ عدَلَ عن رُتْبةِ الخَلْقِ -لِمَا فيه مِن تَعجيزٍ- إلى استِنقاذِ النَّزْرِ القليلِ الَّذي يَسلُبُه الذُّبابُ؛ فقد تدرَّجَ في النُّزولِ على ما تَقْتضيه خُطَّةُ البَلاغةِ في التَّرتيبِ. ولم يُسْمَعْ مثْلُ هذا التَّمثيلِ في بابِه لأحدٍ قبْلَ نُزولِ الكتابِ العزيزِ(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ تَعليلٌ لِمَا قبْلَها مِن نَفْيِ مَعرِفَتِهم له تعالى(٣). وهو أيضًا تَذييلٌ للمثَلِ بأنَّ عِبادَتَهم الأصنامَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((بديع القرآن)) لابن أبي الأصبع (ص ٢٠٠- ٢٠١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٧/ ١٥٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٨١-٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢١).

مع اللهِ استخفافٌ بحَقِّ إلهيَّتِه تعالى[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تَعليلٌ لِمَضمونِ الجُملةِ قبْلَها؛ فإنَّ ما أشْرَكوهم مع اللهِ في العِبادةِ كلُّ ضَعيفٍ ذَليلٍ، فما قَدَروهُ حَقَّ قَدْرِه؛ لأنَّه قَوِيٌّ عَزيزٌ، فكيف يُشارِكُه الضَّعيفُ الذَّليلُ؟! والعُدولُ عن أنْ يُقالَ: (ما قدَرْتُم اللهَ حقَّ قَدْرِه) إلى أُسلوبِ الغَيبةِ: الْتِفاتٌ؛ تَعريضًا بهم بأنَّهم لَيسوا أهْلًا للمُخاطَبةِ تَوبيخًا لهم، وبذلك يَندمِجُ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تَهديدٌ لهم بأنَّه يَنتقِمُ منهم على وَقاحَتِهم. وتَوكيدُ الجُملةِ بحَرفِ التَّوكيدِ ولامِ الابتداءِ، مع أنَّ مَضمونَها ممَّا لا يُخْتَلَفُ فيه؛ لِتَنزيلِ عِلْمِهم بذلك مَنزِلةَ الإنكارِ؛ لأنَّهم لم يَجْرُوا على موجَبِ العِلْمِ حين أشْرَكوا مع القوِيِّ العزيزِ ضُعفاءَ أذِلَّةً[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وَضْعُ اسْمِه الأعظمِ (الله) الجامِعِ لأسمائِه الحُسْنى مَوضِعَ الضَّميرِ؛ تَقريرًا للقُوَّةِ الكاملةِ، والعِزَّةِ القاهرةِ، أو هو بمَنزِلَةِ اسمِ الإشارةِ المُؤْذِنِ بأنَّ ما بَعْدَه جديرٌ بمَن قبْلَه؛ لاتِّصافِه بتلك الصِّفاتِ الفائقةِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾

- جُملةُ: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، وتَقديمُ المُسنَدِ إليه -وهو اسمُ الجَلالةِ- على الخبَرِ الفِعْليِّ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٤٢، ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٣٢، ٥٣٣).

قولِه: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: اللهُ وحْدَه هو الَّذي يَصْطفي لا أنتم تَصْطَفون وتَنْسِبون إليه. والإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ هنا حيث لم يقُلْ: (هو يَصْطَفي من الملائكةِ رُسلًا)؛ لأنَّ اسْمَ الجَلالةِ أصْلُه الإلهُ، أي: الإلهُ المعروفُ الَّذي لا إلهَ غيرُه، فاشْتِقاقُه مُشيرٌ إلى أنَّ مُسمَّاهُ جامِعٌ كلَّ الصِّفاتِ العُلى؛ تَقريرًا للقُوَّةِ الكاملةِ، والعِزَّةِ القاهرةِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ تَعليلٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي ﴾؛ لأنَّ المُحيطَ عِلْمُه بالأشياءِ هو الَّذي يَختَصُّ بالاصطفاءِ. وفيه: كِنايةٌ عن عُمومِ العِلْمِ بالأشياءِ بحسَبِ المُتعارَفِ في المعلوماتِ أنَّها لا تَعْدُو المسموعاتِ والمُبْصَراتِ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ جُملةٌ مُقرِّرةٌ لِمَضمونِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾، وفائدتُها -زيادةً على التَّقريرِ-: أنَّها تَعريضٌ بوُجوبِ مُراقَبَتِهم ربَّهم في السِّرِّ والعلانيةِ؛ لأنَّه لا تَخْفى عليه خافيةٌ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ بُنِيَ فِعْلُ ﴿تُرۡجَعُ ﴾ إلى النَّائبِ؛ لظُهورِ مَن هو فاعِلُ الإرجاعِ؛ فإنَّه لا يَليقُ إلَّا باللهِ تعالى، فهو يُمْهِلُ النَّاسَ في الدُّنيا، وهو تُرْجَعُ الأُمورُ إليه يومَ القيامةِ[٤].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ﴾ على الفِعْلِ ﴿تُرۡجَعُ ﴾؛ لإفادةِ الحصْرِ الحقيقيِّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٤٥).

أي: إلى اللهِ لا إلى غيرِه يَرجِعُ الجَزاءُ؛ لأنَّه مَلِكُ يومِ الدِّينِ[١].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأُمُورُ﴾ للاستغراقِ، أي: كلُّ أمْرٍ. وذلك جَمْعٌ بينَ البِشارةِ والنِّذارةِ؛ تَبعًا لِمَا قبْلَه مِن قولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٧٧-٧٨)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾: أي: اختَاركم واصطَفاكم واستخلَصَكم، وأصلُ (جبي): يدُلُّ على الجَمعِ على طَريقِ الاصطِفاءِ[١].

﴿مِّلَّةَ﴾: أي: دِينَ وطَريقةَ، وإنَّما سُمِّيَ الدِّينُ مِلَّةً؛ لأنَّه يُمَلُّ، أي: يُملَى على المَدعُوِّ إليه، فالمِلَّةُ تُبنَى على مَسموعٍ ومتلوٍّ[٢].

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾: أي: استَمسِكوا وامتنِعوا، وأصلُ العَصْمِ: المنعُ، فكلُّ مانعٍ شيئًا فهو عاصِمُه، والمُمتنِعُ به مُعتصِمٌ به، يُقال: عَصَمَه الطَّعامُ؛ أي: مَنعَه مِن الجوعِ، وأصلُ (عصم) أيضًا: يَدُلُّ على إمساكٍ ومُلازمةٍ، والمعنَى في ذلك كُلِّه معنًى واحِدٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣، ٧٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ٣٣١)، ((المفردات)) =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾

في نَصبِ ﴿مِّلَّةَ﴾ أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّها مَنصوبةٌ على المصدريَّةِ بفِعلٍ دلَّ عليه ما قَبْلَه مِن نَفيِ الحَرَجِ بعد حَذفِ مُضافٍ، أي: وسَّعَ دينَكم تَوسِعةَ مِلَّةِ أبيكم، ثم حُذِف المضافُ، وأُقيم المضافُ إليه مُقامَه. الثَّاني: أنَّها مَنصوبةٌ على الاختِصاصِ بتَقديرِ أعني أو أخُصُّ. الثالثُ: أنَّها مَنصوبةٌ على الإغراءِ بتَقديرِ: (اتَّبِعوا) أو (الزَمُوا)؛ لأنَّ الكلامَ قَبْلَه أمْرٌ، فكأنَّه قيل: اركَعوا واسجُدوا، والزَموا مِلَّةَ أبيكم إبراهيمَ. الرَّابعُ: أنَّها مَنصوبةٌ بنَزعِ الخافِضِ، أي: كمِلَّةِ أبيكم، فلَمَّا حُذِفَ حَرفُ الجَرِّ نُصِبَ، وتقديرُه: وسَّعَ عليكم في الدِّينِ كمِلَّةِ أبيكم؛ لِأَنَّ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يدُلُّ على وسَّعَ عليكم[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: يا أيُّها الذينَ آمَنوا، اركَعوا واسجُدوا في صَلاتِكم، واعبُدوا ربَّكم وَحْدَه لا شَريكَ له، وافعَلوا الخيرَ؛ لِتُفلِحوا، وجاهِدوا لله ومِن أجْلِه أنفُسَكم، وجاهِدوا الشَّيطانَ والكفَّارَ وأهلَ الظُّلمِ والزَّيغِ والهوَى جهادًا خالصًا لوجهِ الله، هو اصطفاكم لحَملِ هذا الدِّينِ ونَصْرِه، وقد مَنَّ عليكم بأنْ جعَلَ شريعتَكم سَمْحةً، فما جعَل عليكم مِن ضِيقٍ وعُسرٍ في دِينِ الإسلامِ، بل وَسَّع دينَكم كمِلَّةِ أبيكم إبراهيمَ.

= للراغب (ص: ٥٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٢٧).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٣١)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٤٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير الآلوسي)) (٩/ ١٩٩).

وقد سَمَّاكم اللهُ المُسلِمينَ مِن قبْلُ في الكتُبِ المنزَّلةِ السَّابقةِ، وفي هذا القُرآنِ، وقد اختَصَّكم بهذا الفَضلِ والاجتباءِ؛ ليكونَ خاتَمُ الرُّسُلِ مُحمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شاهِدًا عليكم بأنَّه بلَّغكم رِسالةَ رَبِّه، وتكونوا شُهَداءَ على الأُمَمِ أنَّ رُسُلَهم قد بلَّغَتْهم؛ فعليكم أن تَشكُروا هذه النعمةَ بأداءِ الصَّلاةِ بأركانِها وحُدودِها، وإخراجِ الزَّكاةِ المَفروضةِ، وأن تَلجَؤوا إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى، وتتوكَّلوا عليه في جَميعِ أمورِكم؛ فهو نِعْمَ المَولى، ونِعْمَ النَّصيرُ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تكلَّم اللهُ سبحانه في الإلهيَّاتِ، ثُمَّ في النُّبوَّاتِ؛ أتْبعَه بالكلامِ في الشَّرائعِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه اصطفى رُسلًا مِن البَشرِ إلى الخَلقِ؛ أمرَهم بإقامةِ ما جاءتْ به الرُّسُلُ مِن التكاليفِ[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾.

أي: يا أيُّها الذينَ آمَنوا، اركَعوا واسجُدوا لله في صَلاتِكم، وذِلُّوا واخضَعوا لرَبِّكم بطاعتِه، مُخلِصينَ له في عبادتِه[3].

﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٦).

أي: وافعَلوا -أيُّها المُؤمِنونَ- أنواعَ الخَيراتِ مِمَّا أمَرَكم اللهُ به؛ لعَلَّكم تفوزونَ بما تَرغَبونَ فيه في الدُّنيا والآخِرةِ، وتنجَوْنَ ممَّا ترهبونَه[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الجِهادُ أساسَ العِبادةِ، وهو -مع كَونِه حقيقةً في قِتالِ الكُفَّارِ- صالِحٌ لأنْ يَعُمَّ كُلَّ أمرٍ بمَعروفٍ ونَهيٍ عن مُنكَرٍ؛ بالمالِ والنَّفسِ، بالقَولِ والفِعلِ، بالسَّيفِ وغَيرِه، وكُلَّ اجتِهادٍ في تهذيبِ النَّفسِ وإخلاصِ العَمَلِ- ختَمَ به، فقال تعالى[2]:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾.

أي: جاهِدوا -للهِ ومِن أجْلِه- أنفُسَكم، وجاهِدوا الشَّيطانَ والكفَّارَ وأهلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).
قال الثعلبي: (هذه الآيةُ الكريمةُ عامَّةٌ في أنواعِ الخَيراتِ، ومِن أعظَمِها الرَّأفةُ والشَّفَقةُ على خَلقِ اللهِ، ومُواساةُ الفُقَراءِ وأهلِ الحاجةِ). ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٠، ١٠١).

الظُّلمِ والزَّيغِ والهوَى جهادًا خالصًا لوجهِ الله؛ بأموالِكم وأنفُسِكم وألسِنَتِكم، مُستَفرغينَ فيه طاقتَكم[(١)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ قيل: عَنى به جِهادَ الكُفَّارِ. وقيل: هو إشارةٌ إلى امتِثالِ جميعِ ما أمَرَ اللهُ به، والانتهاءِ عن كُلِّ ما نهى اللهُ عنه، أي: جاهِدوا أنفُسَكم في طاعةِ اللهِ، ورُدُّوها عن الهوى، وجاهِدوا الشَّيطانَ في رَدِّ وَسوَستِه، والظَّلَمةَ في رَدِّ ظُلْمِهم، والكافِرينَ في رَدِّ كُفرِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٩).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٧).

قال ابنُ جرير: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك: قَولُ مَن قال: عنى به الجِهادَ في سَبيلِ اللهِ؛ لأنَّ المعروفَ مِن الجِهادِ ذلك، وهو الأغلَبُ على قَولِ القائِلِ: جاهَدْتُ في اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٠).

قال ابن عطية: (والعمومُ حسَنٌ، وبيِّنٌ أنَّ عرفَ اللفظةِ تقتضي القتالَ في سبيلِ الله). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٥).

وممن اختار القولَ الثانيَ -وهو العمومُ-: الزمخشريُّ، والرازي، وأبو حيان، والبقاعي، والسيوطي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠١)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٥)،))تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧).

وعزا ابنُ الجوزي القولَ بأنَّ معناه: فعلُ جميعِ الطاعاتِ، إلى الأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٢، ٢٥٣).

قال الرازي: (والأَوْلَى أن يُحملَ ذلك على كلِّ التكاليفِ، فكلُّ ما أُمِر به ونُهِي عنه فالمحافظةُ عليه جهادٌ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٥).

وقال ابنُ الجوزي: (فأمَّا حَقُّ الجِهادِ ففيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّه الجِدُّ في المجاهَدةِ، واستيفاءُ الإمكانِ فيها.

والثَّاني: أنَّه إخلاصُ النيَّةِ لله عزَّ وجَلَّ. =

كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ٧٣].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((جاهِدوا المُشرِكينَ بأموالِكم وأنفُسِكم وألسِنَتِكم))(١).

وعن فَضالةَ بنِ عُبَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

= والثَّالِثُ: أنَّه فِعلُ ما فيه وَفاءٌ لحَقِّ اللهِ عزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٣).

وقال البغوي: (قال أكثَرُ المفَسِّرينَ: حَقُّ الجهادِ أن تكونَ نيَّتُه صادِقةً خالِصةً لله عَزَّ وجلَّ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥٤).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾: استفراغُ الوسعِ والطاقةِ: ابنُ جرير، وأبو حيان، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٤٥).

قال البقاعي: (﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ باستِفراغِ الطَّاقةِ في إيقاعِ كُلِّ ما أمَرَ به؛ مِن جِهادِ العَدُوِّ والنَّفْسِ على الوَجهِ الذي أمَرَ به من الحَجِّ والغَزْوِ وغَيرِهما جِهادًا يليقُ بما أفهَمَتْه الإضافةُ إلى ضميرِه سُبحانَه مِن الإخلاصِ والقُوَّةِ؛ فإنَّه يُهلِكُ جَميعَ مَن يَصُدُّكم عن شَيءٍ منه). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠١).

وقال مكِّي: (وأكثَرُ النَّاسِ على أنَّه غيرُ مَنسوخٍ، وواجِبٌ على كلِّ مُسلمٍ أن يجاهِدَ في اللهِ حَقَّ جهادِه على قَدْرِ استطاعتِه، ويكونُ قَولُه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦] بيانًا لهذا، وليس بناسِخٍ له). ((الهداية)) (٧/ ٤٩٣٧).

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٣٠٩٦) واللفظُ له، وأحمد (١٢٢٦٨).

أخرجه ابنُ حبَّان في ((صحيحه)) (٤٧٠٨)، وقال ابن حزم في ((أصول الأحكام)) (١/ ٢٧): (في غاية الصحَّةِ)، وصحَّح إسناده النووي في ((رياض الصالحين)) (٤٣٧)، وصحَّحَ الحديثَ ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١١٤)، وقال محمد ابن عبد الهادي في ((المحرر)) (٢٨٦): (إسناده على رسم مُسلِم)، وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٨/ ٢٧): (رجالُه رجال الصحيح)، وصَحَّحه ابن باز في ((مجموع فتاواه)) (٤/ ٢٩٦)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٠٩٦).

((المجاهِدُ مَن جاهَدَ نَفسَه))[١].

﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾.

أي: اللهُ هو الذي اختاركم -أيُّها المُؤمِنونَ- لاتِّباعِ دينِه، ونَصْرِه، والجِهادِ في سَبيلِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وعن أبي عِنَبَةَ الخَوْلانيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَزالُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ يَغرِسُ في هذا الدِّينِ بغَرسٍ يَستَعمِلُهم في طاعتِه))[٣].

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾.

أي: وما جعل اللهُ عليكم -أيُّها المُؤمِنونَ- مِن ضِيقٍ وعُسرٍ ومشقَّةٍ في دِينِ الإسلامِ، بل يسَّرَ لكم هذا الدِّينَ غايةَ التيسيرِ[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٢١)، وأحمد (٢٣٩٥١).

قال الترمذي: (حسن صحيح)، وأخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٤٦٢٤)، وقال ابن تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٦٣٥): (ثابت)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٦٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٨)، وأحمد (١٧٧٨٧) واللفظ له.

أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٣٢٦)، وصحَّح إسنادَه ووثَّقَ رِجالَه البوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (١/ ٤٤)، وحَسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٦، ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧). =

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((لَمَّا نزَلَت هذه الآيةُ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: دخَلَ قُلوبَهم منها شَيءٌ لم يَدخُلْ قُلوبَهم مِن شَيءٍ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قولوا: سَمِعْنا، وأطَعْنا، وسَلَّمْنا. قال: فألقى اللهُ الإيمانَ في قُلوبِهم، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: قد فعَلْتُ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: قد فعَلْتُ، ﴿وَٱغْفِرْ

= قيل: المرادُ: أنَّه سُبحانَه ما جعَلَ عليهم حَرَجًا بتَكليفِ ما يَشُقُّ عليهم، ولكِنْ كَلَّفَهم بما يَقدِرونَ عليه، ورَفَع عنهم التَّكاليفَ التي فيها حَرَجٌ، فلم يتعَبَّدْهم بها؛ ومن ذلك: قَصرُ الصَّلاةِ في السَّفَرِ، والإفطارُ في رَمَضانَ فيه، وصلاةُ العاجِزِ عن القيامِ قاعِدًا، وإباحةُ المحظورِ للضَّرورةِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجُملةِ: البيضاويُّ، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٠، ٣٠١).

وقيل: المرادُ: أنَّه جَعَل لهم مِن الذَّنْبِ مَخرَجًا، بفتْحِ بابِ التَّوبةِ وقَبولِ الاستغفارِ والتَّكفيرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٠).

قال الشوكانيُّ بَعد أنْ ذَكَر اختلافَ العُلماءِ في الحرَجِ المرفوعِ: (والظَّاهرُ أنَّ الآيةَ أَعَمُّ مِن هذا كلِّه، فقد حَطَّ سُبحانَه ما فيه مَشقَّةٌ مِن التَّكاليفِ على عِبادِه، إمَّا بإسقاطها من الأصلِ وعدَمِ التَّكليفِ بها كما كُلِّف بها غَيرُهم، أو بالتَّخفيف وتَجويزِ العُدولِ إلى بَدَلٍ لا مَشقَّةَ فيه، أو بمَشروعيَّةِ التَّخلُّصِ عن الذَّنْبِ بالوجْهِ الذي شَرَعَه اللهُ، وما أَنفعَ هذه الآيةَ، وأَجَلَّ مَوقِعَها، وأَعظمَ فائدتَها!). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٦، ٥٥٧).

لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: قد فعَلْتُ))[١].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قيل لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أيُّ الأديانِ أحَبُّ إلى اللهِ؟ قال: الحَنيفيَّةُ السَّمْحةُ))[٢].

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

أي: وما جعَلَ عليكم في الدِّينِ مِن حَرَجٍ، بل وسَّعه كمِلَّةِ أبيكم إبراهيمَ[٣].

---

(١) رواه مسلم (١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري معلَّقًا بصيغة الجزم قبل حديث (٣٩) باختلاف يسيرٍ، وأخرجه موصولًا في ((الأدب المفرد)) (٢٨٧)، وأحمد (٢١٠٧)، والطبراني (١١/ ٢٢٧) (١١٥٧٢).

قال ابن الملقِّن في ((شرح البخاري)) (٣/ ٨٠): (إسنادُه لا بأس به)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١/ ١١٦)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/ ٣٥٥)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (١٦٠).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٥٣).

ممن اختار المعنى المذكورَ: الفرَّاءُ، وابن جرير، والعليمي. يُنظر: ((المصادر السابقة)).

وقيل: المعنى: وَسَّع عليكم دينَكم توسعةَ مِلَّةِ أبيكم إبراهيمَ. وممَّن اختاره: الشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٧)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٣).

وقيل: المرادُ: اتَّبِعوا والْزَموا مِلَّةَ أبيكم إبراهيمَ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزجَّاجُ، وابن أبي زمنين، والواحديُّ، والسمعاني، والسعديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٩١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

ونسبه الواحديُّ لأكثرِ النحْويِّينَ. يُنظر: ((البسيط)) (١٥/ ٥٠٨).

وقيل: قوله: ﴿مِّلَّةَ﴾ منصوبةٌ على الاختصاصِ، أي: أعني الدينَ ملةَ أبيكم. وممَّن اختاره: النيسابوريُّ. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١٠٣).

قال الشِّنقيطيُّ: (ولا يَبعُدُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] شامِلًا لِما ذُكِر =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾.

أي: اللهُ سمَّاكم المُسلِمينَ مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ في كُتُبِ الأنبياءِ السَّابقةِ، وسمَّاكم المُسلِمينَ أيضًا في هذا القُرآنِ(١).

= قَبْلَه مِنَ الأوامرِ في قَوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، ويُوضِّحُ هذا قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، والدِّينُ القَيِّمُ الذي هو مِلَّةُ إبراهيمَ: شاملٌ لِما ذُكر كله). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٠٢).

وقال السَّمعاني: (وقَولُه: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فيه قَولانِ: أحَدُهما: أنَّ الآيةَ خِطابٌ مع العَرَبِ، وقد كان إبراهيمُ أبًا لهم. والقَولُ الثَّاني: أنَّ الآيةَ خِطابٌ مع جميعِ المُسلِمينَ، وجَعْلُ إبراهيمَ أباهم على معنَى وُجوبِ احترامِه وحِفظِ حَقِّه، كما يَجِبُ احترامُ الأبِ وحِفظُ حَقِّه). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٤، ٦٤٦)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (١/ ١٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٢).

قال الواحدي: (قال جماعةُ المُفَسِّرينَ وأهلُ المعاني: هو كنايةٌ عن اللهِ تعالى، أي: اللهُ تعالى سَمَّاكم المُسلِمينَ قبْلَ إنزالِ القُرآنِ في الكُتُبِ التي أُنزِلَت قَبْلَه). ((البسيط)) (١٥/ ٥١١).

ونَسَبه البغَوي لأكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥٥).

وقيل: المعنى: إبراهيمُ سَمَّاكم المُسلِمينَ. وهو قَولُ عبدِ الرَّحمنِ بنِ زَيدِ بنِ أسلَمَ، قال ابنُ =

كما قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وعن الحارِثِ الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((... ومَن دعا بِدَعوى الجاهليَّةِ، فهو مِن جُثا[1] جَهنَّمَ. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، وإنْ صام وإن صلَّى؟ قال: وإن صام وإن صَلَّى وزعَمَ أنَّه مُسلِمٌ، فادْعُوا المُسلِمينَ بأسمائِهم؛ بما سَمَّاهم اللهُ عَزَّ وجَلَّ: المُسلِمينَ المُؤمِنينَ عبادَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ))[2].

= جريرٍ: (ولا وَجْهَ لِما قال ابنُ زيدٍ مِن ذلك؛ لأنَّه معلومٌ أنَّ إبراهيمَ لم يُسَمِّ أمَّةَ مُحمَّدٍ مُسلِمينَ في القُرآنِ؛ لأنَّ القُرآنَ أُنزِلَ مِن بَعدِه بدَهرٍ طويلٍ، وقد قال الله تعالى ذِكرُه: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨]، ولكِنَّ الذي سَمَّانا مُسلِمينَ مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ وفي القُرآنِ: اللهُ الذي لم يَزَلْ ولا يَزالُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٦).

وذكَرَ الشنقيطيُّ قرينةً أُخرى تدُلُّ على أنَّ هذا القَولَ غيرُ صَوابٍ، وهي (أنَّ الأفعالَ كُلَّها في السِّياقِ المذكورِ راجِعةٌ إلى الله تعالى لا إلى إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فقَولُه: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ أي: اللهُ. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ أي: اللهُ. ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي: اللهُ. فإنْ قيل: الضَّميرُ يَرجِعُ إلى أقرَبِ مَذكورٍ، وأقرَبُ مَذكورٍ للضَّميرِ المذكورِ هو إبراهيمُ؛ فالجَوابُ: أنَّ محَلَّ رُجوعِ الضَّميرِ إلى أقرَبِ مَذكورٍ محَلُّه ما لم يَصرِفْ عنه صارِفٌ، وهنا قد صَرَف عنه صارِفٌ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٦).

(١) الجُثَا: جمعُ جُثْوةٍ، والجُثوةُ: الشَّيءُ المجموعُ، والمرادُ: مِن جماعاتِ جَهَنَّمَ. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن الجوزي (١/ ١٣٧).

(٢) أخرجه مطوَّلًا الترمذي (٢٨٦٣)، وأحمد (١٧١٧٠) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٣٤٩) باختلافٍ يسيرٍ.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ غريب)، وأخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٦٢٣٣)، وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٨)، وابن القيم في ((أعلام الموقعين)) (١/ ٢٠٨)، =

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

أي: اجتَباكم اللهُ وفضَّلَكم، ونَوَّهَ باسمِكم؛ لِيَكونَ الرَّسولُ -الذي هو خَيرُكم- شَهيدًا عليكم يومَ القيامةِ أنَّه قد بلَّغكم رسالةَ ربِّه[1]، وتكونوا شُهَداءَ على جَميعِ الأُمَمِ أنَّ رُسُلَهم قد بلَّغُوهم ما أرسَلَهم اللهُ به[2].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

= وحسنه ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (١/ ٨٧)، وقال ابن باز في ((الفوائد العلمية)) (٦/ ٢٦٤): (جيد عظيمٌ جدًّا؛ جيد الإسناد جيدُ المعنى)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٨٦٣).

(١) ممن اختار أنَّ المرادَ: يشهَدُ بأنَّه بلَّغَهم رسالةَ ربِّه: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والبغوي، والقرطبي، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي.
يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٣).
وقال يحيى بن سلام: (﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ على الأُمَمِ، بأنَّ الرُّسُلَ قد بلَّغَت قَومَها). ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٩١).
وقيل: شهيدٌ على الأمَّةِ الإسلاميَّةِ بأنَّها آمنت به. وممن قال بذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥١).
وقيل: شهيدٌ على صِدقِ الأمَّةِ فيما شَهِدَت به للرُّسُلِ على أُمَمِهم مِنَ التَّبليغِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٣).

وسلَّم: ((يُدعَى نوحٌ يومَ القيامةِ، فيَقولُ: لبَّيكَ وسَعْديكَ[١] يا رَبِّ، فيقولُ: هل بلَّغْتَ؟ فيقولُ: نعَمْ، فيُقالُ لأُمَّتِه: هل بلَّغَكم؟ فيقولونُ: ما أتانا مِن نَذيرٍ! فيقولُ: مَن يَشهَدُ لك؟ فيقولُ: مُحمَّدٌ وأمَّتُه. فتَشهَدونَ أنَّه قد بلَّغَ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]))[٢].

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: قابِلُوا تلك النِّعمةَ العَظيمةَ بالقيامِ بشُكرِها، فأقيمُوا -أيُّها المُسلِمونَ- الصَّلاةَ للهِ بحُدودِها وأركانِها، وأعطُوا زَكاةَ أموالِكم لِمُستحقِّيها[٣].

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾.

أي: وثِقُوا باللهِ وتوَكَّلوا عليه في جَميعِ أمورِكم، واعمَلوا بوَحْيِه وتمَسَّكوا به؛ لأنَّه وليُّكم وحافِظُكم، ومُدَبِّرُ أمورِكم، وناصِرُكم على أعدائِكم[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣].

---

(١) لبَّيك: أي: أدومُ على طاعتِك دوامًا بعد دوامٍ، وأُقيمُ على طاعتِك إقامةً بعد إقامةٍ، مِن: ألَبَّ بالمكانِ: إذا أقام به. وسعديك: أي: ساعدتُ طاعتَك يا ربِّ مساعدةً بعد مساعدةٍ، وهي الموافَقةُ والمسارعةُ، أو أسعدُ بإقامتي على طاعتِك وإجابتي لدعوتِك سعادةً بعد سعادةٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٦٧٣).

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٩٨، ٤٥٧-٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥٢).

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

أي: فنِعْم المَولى هو سُبْحانَه، ونِعْمَ النَّاصِرُ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ فيه أمرٌ بإسداءِ الخَيرِ إلى النَّاسِ مِنَ الزَّكاةِ، وحُسنِ المُعامَلةِ؛ كصِلةِ الرَّحِمِ، والأمرِ بالمَعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ، وسائِرِ مَكارِمِ الأخلاقِ، وهذا مُجمَلٌ بيَّنَتْه وبيَّنَت مراتِبَه أدِلَّةٌ أُخرى[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (لعلَّ) كَلِمةُ تَرَجٍّ تُشعِرُ بأنَّ الإنسانَ قَلَّما يخلو في أداءِ فَريضةٍ مِن تَقصيرٍ، وليس هو على يقينٍ مِن أنَّ الذي أتى به مَقبولٌ عندَ اللهِ، والعواقِبُ مَستورةٌ، وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ علَّق تعالى الفَلاحَ على هذه الأمورِ، فلا طريقَ للفَلاحِ سوى الإخلاصِ في عبادةِ الخالِقِ، والسَّعيِ في نَفعِ عَبيدِه، فمن وُفِّقَ لذلك فله القِدْحُ المُعَلَّى[٤] مِنَ السَّعادةِ والنَّجاحِ والفَلاحِ[٥].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ باستِفراغِ الطَّاقةِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٦٧).

(٤) القِدْحُ المُعَلَّى: أي: الحَظُّ الأوفَرُ. والقِدْحُ: السَّهمُ: والمعلَّى: السَّابعُ مِن سِهامِ المَيسِرِ، وهو أفضَلُها عندَهم. يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٨)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

إيقاع كلِّ ما أَمَر به مِنَ الجهادِ للعدوِّ والنَّفْسِ على الوجْهِ الَّذي أَمَر به، مِنَ الحجِّ والغَزوِ وغَيرِهما، جهادًا يَليقُ بما أَفهَمَتْه الإضافةُ إلى ضَميرِه سبحانه مِنَ الإخلاصِ والقوَّةِ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ فمتى اعتصَمْتُم به سُبحانَه تولَّاكم ونصَرَكم على أنفُسِكم وعلى الشَّيطانِ، وهما العدوَّانِ اللَّذانِ لا يُفارِقانِ العبدَ، وعداوتُهما أضَرُّ مِن عَداوةِ العَدُوِّ الخارجِ؛ فالنَّصرُ على هذا العدوِّ أهمُّ، والعَبدُ إليه أحوَجُ، وكمالُ النُّصرةِ على العَدُوِّ بحَسَبِ كَمالِ الاعتصامِ باللهِ[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾، والاعتِصامُ به نوعانِ: اعتِصامُ توكُّلٍ واستعانةٍ، وتَفويضٍ ولَجَأٍ وعِياذٍ، وإسلامُ النَّفْسِ إليه، والاستِسلامُ له سُبحانَه. والثاني: اعتِصامٌ بوَحْيِه، وهو تحكيمُه دونَ آراءِ الرِّجالِ ومقاييسِهم ومَعقولاتِهم، وأذواقِهم وكُشوفاتِهم ومَواجيدِهم، فمَن لم يكُنْ كذلك فهو مُنسَلٌّ مِن هذا الاعتصامِ؛ فالدِّينُ كُلُّه في الاعتصامِ به وبحَبلِه؛ عِلمًا وعمَلًا، وإخلاصًا واستِعانةً، ومُتابعةً واستِمرارًا على ذلك إلى يومِ القيامةِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ تخصيصُ المُؤمِنينَ بالذِّكرِ لا يدُلُّ على نَفيِ ذلك عمَّا عداهم، بل قد دَلَّت هذه الآيةُ على كَونِهم على التَّخصيصِ مأمورينَ بهذه الأشياءِ، ودَلَّت سائِرُ الآياتِ على كَونِ الكُلِّ مأمورينَ بها. ويُمكِنُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))(٣/ ٣٠٣).

أن يُقالَ: فائِدةُ التَّخصيصِ أنَّه لَمَّا جاء الخِطابُ العامُّ مَرَّةً بعدَ أخرى، ثمَّ إنَّه ما قَبِلَه إلَّا المُؤمِنونَ، خَصَّهم اللهُ تعالى بهذا الخِطابِ؛ لِيَكونَ ذلك كالتَّحريضِ لهم على المُواظَبةِ على قَبولِه، وكالتَّشريفِ لهم في ذلك الإقرارِ والتَّخصيصِ[(١)].

٢- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ دلالةٌ على أنَّ الركوعَ ركنٌ في الصلاةِ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ بالركوعِ، ومِن المعلومِ أنَّه لا يُشرَعُ لنا أنْ نركعَ ركوعًا مجرَّدًا، وإذا لم يُشرعْ لنا الرُّكوعُ المجرَّدُ وَجَب حَمْلُ الآيةِ على الرُّكوع الذي في الصلاةِ[(٢)].

٣- تَضمَّنَ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ ذِكْرَ الواجِباتِ والمُستحبَّاتِ كلِّها؛ توَحيدًا، وصلاةً وزكاةً، وحَجًّا وصِيامًا، فيدخُلُ في قَولِه: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ كلُّ واجِبٍ ومُستحَبٍّ، فخَصَّصَ في هذه الآيةِ وعمَّمَ، ثمَّ قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، فهذه الآيةُ وما بَعْدَها لم تَترُكْ خَيرًا إلَّا جمعَتْه؛ ولا شَرًّا إلَّا نفَتْه[(٣)].

٤- إنَّ حَقَّ تُقاتِه وحَقَّ جِهادِه سُبحانَه في قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقَولِه: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ هو ما يُطيقُه كلُّ عَبْدٍ في نَفْسِه، وذلك يختَلِفُ باختِلافِ أحوالِ المكلَّفينَ في القُدرةِ والعَجزِ، والعِلمِ والجَهلِ؛ فحَقُّ التَّقوى وحقُّ الجِهادِ بالنِّسبةِ إلى القادِرِ المتمَكِّنِ العالِمِ شَيءٌ، وبالنِّسبةِ إلى العاجِزِ الجاهِلِ الضَّعيفِ شَيءٌ، وتأمَّلْ كيف عَقَّبَ الأمرَ بذلك بقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾، والحَرَجُ:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٣/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٦٦).

الضِّيقُ، بل جَعَلَه واسِعًا يَسَعُ كلَّ أَحَدٍ[١]!

٥- عن الحَسَنِ رَضِي اللهُ عنه: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، قال: (إنَّ الرجُلَ لَيُجاهِدُ في اللَّهِ حقَّ جِهادِه وما ضَرَب بسيفٍ)[٢].

٦- قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ يُؤخَذُ مِن هذه الآيةِ قاعِدةٌ شَرعيَّةٌ، وهي أنَّ (المشقَّةَ تَجلِبُ التَّيسيرَ)، و(الضَّروراتُ تُبيحُ المحظوراتِ)، فيَدخُلُ في ذلك مِنَ الأحكامِ الفَرعيَّةِ شَيءٌ كثيرٌ مَعروفٌ في كُتُبِ الأحكامِ[٣].

٧- قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾، ورفعُ الحرَجِ إنَّما هو لِمَنِ استقامَ على مِنهاجِ الشَّرْعِ، وأمَّا السَّلَّابَةُ وَالسُّرَّاقُ وأصحابُ الحُدودِ فعليهم الحَرَجُ، وهم جاعِلوه على أنفسِهم بمُفارَقَتِهم الدِّينَ[٤].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾، فقد أخبَرَ أنَّه ما جَعَلَ علينا في الدِّينِ مِن حَرَجٍ، ونفاه نفيًا عامًّا مؤكَّدًا، فمَنِ اعتقدَ أنَّ فيما أمَرَ اللهُ به مِثقالَ ذرَّةٍ مِن حَرَجٍ، فقد كَذَّبَ اللهَ ورَسولَه، فكيف بمَن اعتقدَ أنَّ المأمورَ به قد يكونُ فَسادًا وضَررًا لا مَنفعةَ فيه ولا مَصلحةَ لنا؟! ولهذا لَمَّا لم يكُنْ فيما أمَرَ اللهُ ورَسولُه حَرَجٌ علينا، لم يكُنِ الحَرَجُ من ذلك إلَّا مِن النِّفاقِ، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال الله تعالى فيما أمَرَ به مِن الصِّيامِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة:

---

(١) يُنظر: ((زاد المَعاد)) لابن القيم (٣/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠١).

١٨٥]، فإذا كان لا يُريدُ فيما أمَرَنا به ما يَعسُرُ علينا، فكيف يريدُ ما يكونُ ضَررًا وفَسادًا لنا بما أمَرَنا به إذا أطعناه فيه[١]!!

٩- قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ فيه بيانُ أنَّ هذه الحنيفِيَّةَ السَّمحةَ الَّتي جاءَ بها نبيُّنا مُحَمَّدٌ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم، أنَّها مَبْنِيَّةٌ على التَّخفيفِ والتَّيسيرِ، لا على الضِّيقِ والحرجِ، وقد رَفَعَ اللَّهُ فيها الآصارَ والأغلالَ الَّتي كانت على مَنْ قبْلَنا. وهذا المعنَى الَّذي تَضَمَّنَتْه هذه الآيةُ الكريمَةُ ذَكَره -جَلَّ وعَلا- في غيرِ هذا الموضعِ؛ كقولِه تعالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقولِه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[٢] [النساء: ٢٨].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ المقصودُ مِن ذِكرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ التَّنبيهُ على أنَّ هذه التَّكاليفَ والشَّرائِعَ هي شَريعتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والعَرَبُ كانوا مُحبِّينَ لإبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّهم مِن أولادِه، فكان التَّنبيهُ على ذلك كالسَّبَبِ لصَيرورتِهم مُنقادينَ لِقَبولِ هذا الدِّينِ[٣].

١١- في قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اسمَ «الآباءِ» يَشمَلُ الأجدادَ؛ وإنْ عَلَوا[٤].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ هذا يقتَضي أن تكونَ مِلَّةُ مُحمَّدٍ كمِلَّةِ إبراهيمَ -عليهما السَّلامُ- سواءً، فيكونَ الرَّسولُ ليس له

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٧٠).
(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٦).
(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٢/ ١١٩).

شَرعٌ مَخصوصٌ، ويؤكِّدُه قَولُه تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣]؟

والجوابُ: أنَّ هذا الكلامَ إنَّما وَقَع مع عَبَدةِ الأوثانِ، فكأنَّه تعالى قال: عبادةُ اللهِ وتَرْكُ الأوثانِ هي مِلَّةُ إبراهيمَ، فأمَّا تفاصيلُ الشَّرائعِ فلا تعَلُّقَ لها بهذا الموضِعِ[(١)].

وقيل: إنَّ الإسلامَ احْتَوى على دِينِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومَعلومٌ أنَّ للإسلامِ أحكامًا كثيرةً، ولكنَّه لَمَّا اشتمَلَ على ما لم يَشتمِلْ عليه غيرُه مِن الشَّرائعِ الأُخرى مِن دِينِ إبراهيمَ، جُعِلَ كأنَّه عَينُ مِلَّةِ إبراهيمَ[(٢)].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أُخِذَ منه ما يدُلُّ على أنَّ الإجماعَ حُجَّةٌ[(٣)].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ شهادةَ غيرِ المسلمِ ليسَتْ مقبولةً[(٤)].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث خُتِمَتِ السُّورة بالإقبالِ على خِطابِ المُؤمنينَ بما يُصلِحُ أعْمالَهم، ويُنَوِّهُ بشأْنِهم، بعْدَ استيفاءِ ما سِيقَ إلى المُشرِكينَ من الحُجَجِ والقوارِعِ والنِّداءِ على مَساوي أعمالِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥٠، ٣٥١).

قال ابن عاشور: (فعلى هذا الاعتبارِ يكونُ انتصابُ ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ على الحالِ مِن الدِّينِ باعتبارِ أنَّ الإسلامَ حَوَى مِلَّةَ إبراهيمَ) ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٧) و (٤/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٦٩).

حيث كان خِطابُ المُشرِكين فاتِحًا لهذه السُّورة، وشاغِلًا لمُعْظَمِها، عدا ما وقَعَ اعتراضًا في خلالِ ذلك، فقد خُوطِبَ المُشرِكون بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أربَعَ مرَّاتٍ. وفي هذا التَّرتيبِ إيماءٌ إلى أنَّ الاشتغالَ بإصلاحِ الاعتقادِ مُقدَّمٌ على الاشتغالِ بإصلاحِ الأعمالِ(١).

- قولُه: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ فيه حُسْنُ تَرتيبٍ؛ حيث يَظهَرُ في هذا التَّرتيبِ أنَّهم أُمِرُوا أوَّلًا بالصَّلاةِ، وهي نَوعٌ من العِبادةِ، وثانِيًا بالعِبادةِ، وهي نَوعٌ من فِعْلِ الخيرِ، وثالِثًا بفِعْلِ الخيرِ، وهو أعَمُّ من العِبادةِ؛ فبدَأَ بخاصٍّ، ثمَّ بعامٍّ، ثمَّ بأعمَّ(٢). وتَخصيصُ الصَّلاةِ بالذِّكْرِ قبْلَ الأمْرِ ببقيَّةِ العِباداتِ المَشمولةِ بقولِه: ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾: تَنبيهٌ على أنَّ الصَّلاةَ عِمادُ الدِّينِ(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ كان القِياسُ أنْ يُقالَ: (حَقَّ الجِهادِ فيه)، أو: (حَقَّ جِهادِكم فيه)؛ ووَجْهُ العُدولِ عن ذلك: أنَّ الإضافةَ تكونُ بأدْنى مُلابَسةٍ واختصاصٍ؛ فلمَّا كان الجِهادُ مُخْتَصًّا باللهِ، من حيث إنَّه مَفعولٌ لِوَجْهِه ومِن أجْلِه؛ صَحَّتْ إضافَتُه إليه، فقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٦).

جِهَادِهِۦ﴾[١]. أو التَّقديرُ: جِهادًا فيه حَقًّا خالِصًا لِوَجْهِه؛ فعُكِسَ، وأُضِيفَ الحَقُّ إلى الجِهادِ؛ مُبالَغةً[٢].

- وجُملةُ: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ إنْ حُمِلَتْ على أنَّها واقعةٌ مَوقِعَ العِلَّةِ لِمَا أُمِرُوا به، ابتداءً مِن قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ ...﴾ [الحج: ٧٧] إلخ، أي: لأنَّه لَمَّا اجْتَباكم، كان حَقيقًا بالشُّكرِ له بتلك الخِصالِ المأْمورِ بها، أي: هو اختارَكم لِتَلقِّي دِينِه ونَشْرِه ونَصْرِه على مُعانديهِ، فيَظهَرُ أنَّ هذا مُوجَّهٌ لأصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أصالةً، ويُشارِكُهم فيه كلُّ مَن جاء بَعْدهم بحُكْمِ اتِّحادِ الوَصفِ في الأجيالِ، كما هو الشَّأنُ في مُخاطَباتِ التَّشريعِ. وإنْ حُمِلَ قولُه: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ على معنى التَّفضيلِ على الأُمَمِ، كان مَلحوظًا فيه تَفضيلُ مَجموعِ الأُمَّةِ على مَجْموعِ الأُمَمِ السَّابقةِ، الرَّاجِعِ إلى تَفضيلِ كلِّ طَبقةٍ مِن هذه الأُمَّةِ على الطَّبقةِ المُماثِلَةِ لها مِن الأُمَمِ السَّالفةِ. وأُعْقِبَ ذلك بتَفضيلِ هذا الدِّينِ المُستتبِعِ تَفضيلَ أهْلِه بأنْ جعَلَه دِينًا لا حرَجَ فيه؛ لأنَّ ذلك يُسهِّلُ العمَلَ به، مع حُصولِ مَقْصدِ الشَّريعةِ مِن العمَلِ، فيَسعَدُ أهْلُه بسُهولةِ امتثالِه[٣].

- ولَفظةُ (هو) في قولِه: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ فيها تَفخيمٌ واختصاصٌ[٤]. والجملةُ فيها تأكيدٌ للأمرِ بالمجاهدةِ، أي: وجَب عليكم أن تُجاهِدوا؛ لأنَّ الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٩).

اختاركم له[١].

- وقولُه: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عِلَّةٌ لِرَفْعِ الحرَجِ عن هذه الأُمَّةِ المرحومةِ[٢].

- قولُه: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فيه زِيادةٌ في التَّنويهِ بهذا الدِّينِ، وتَحضيضٌ على الأخْذِ به، بأنَّه اخْتُصَّ بأنَّه دِينٌ جاء به رسولانِ: إبراهيمُ، ومحمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليهما وسلَّمَ، وهذا لم يَستتِبَّ لِدِينٍ آخَرَ، فمحملُ الكلامِ أنَّ هذا الدِّينَ دينُ إبراهيمَ، أيْ: أنَّ الإسلامَ احْتَوى على دينِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهذا على قولٍ في التفسيرِ.

ثمَّ إنْ كان الخِطابُ مُوجَّهًا إلى الَّذين صَحِبوا النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإضافةُ أُبُوَّةِ إبراهيمَ إليهم باعتبارِ غالِبِ الأُمَّةِ يومَئذٍ. وإنْ كان الخِطابُ لِعُمومِ المُسلمينَ، كانت إضافةُ أُبُوَّةِ إبراهيمَ لهم على معنى التَّشبيهِ في الحُرْمةِ واستحقاقِ التَّعظيمِ، كقولِه تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، ولأنَّه أبو النَّبيِّ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومحمَّدٌ له مَقامُ الأُبُوَّةِ للمُسلمينَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على طَريقةِ التَّعظيمِ؛ كأنَّه قال: مِلَّةَ أبيك إبراهيمَ، والضَّميرُ في ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عائدٌ إلى الجَلالةِ كضَميرِ ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾؛ فتكون الجُملةُ استئنافًا ثانيًا، أي: هو اجْتَباكم وخَصَّكم بهذا الاسمِ الجليلِ، فلم يُعْطِه غيرَكم، ولا يعودُ إلى إبراهيمَ[٣]؛ فالقاعدةُ: أنَّ الضمائرَ إذا تعاقبتْ فالأصلُ أنْ يتَّحدَ مَرجعُها؛ فتوحيدُ مرجعِ الضمائرِ أَوْلَى مِن تَفريقِها؛ فالضمائرُ السابقةُ كلُّها ترجِعُ إلى اللهِ تعالى، وهذا أرجحُ مِن كونِ الضميرِ في

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥٠، ٣٥١).

الآيةِ يعودُ إلى إبراهيمَ عليه السلامُ باعتبارِ أنَّه أقربُ مذكورٍ[١].

- قولُه: ﴿وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قُدِّمَت شَهادةُ الرَّسولِ للأُمَّةِ هنا، وقُدِّمَت شَهادةُ الأُمَّةِ في سُورةِ (البقرةِ) في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ الآيةَ هنا في سُورةِ (الحجِّ) في مَقامِ التَّنويهِ بالدِّينِ الَّذي جاء به الرَّسولُ؛ فالرَّسولُ هنا أسبَقُ إلى الحُضورِ؛ فكان ذِكْرُ شَهادتِه أهَمَّ، وأنَّ آيةَ البقرةِ صُدِّرَت بالثَّناءِ على الأُمَّةِ؛ فكان ذِكْرُ شَهادةِ الأُمَّةِ أهَمَّ[٢].

- قولُه: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ وما بَعْدها، أي: فاشْكُروا اللهَ بالدَّوامِ على إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ والاعتصامِ باللهِ[٣]. وخَصَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ بالذِّكْرِ؛ لإنافَتِهما وفضْلِهما على غَيرِهما من العِباداتِ[٤].

- قولُه: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ جُملةُ: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ مُستأْنفةٌ مُعلِّلةٌ للأمْرِ بالاعتصامِ باللهِ، وفُرِّعَ عليها إنشاءُ الثَّناءِ على اللهِ بأنَّه (نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)، أي: نِعْمَ المُدبِّرُ لِشُؤونِكم، ونِعْمَ النَّاصِرُ لكم. و﴿ٱلنَّصِيرُ﴾ مُبالَغةٌ في النَّصرِ؛ أي: نِعْمَ المولى لكم، ونِعْمَ النَّصيرُ لكم، وهذا الإنشاءُ يَتضمَّنُ تَحقيقَ حُسْنِ ولايةِ اللهِ تعالى وحُسْنِ نَصْرِه، وبذلك الاعتبارِ حَسُنَ تَفريعُه على الأمْرِ بالاعتصامِ به، وهذا مِن بَراعةِ الخِتامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٤١٤- ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥٢، ٣٥٣).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ المؤمِنونَ

سورةُ المُؤْمِنونَ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسورةِ (المؤمنون)[١].

فعن عبدِ الله بنِ السَّائبِ رضي الله عنه، قال: ((صلَّى لنا النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم الصبحَ بمكةَ، فاستفتح سورةَ المؤمنينَ حتَّى جاء ذِكرُ موسَى وهارونَ أو ذِكرُ عيسَى -محمدُ بنُ عبَّادٍ[٢] يشكُّ، أو اختلفوا عليه- أَخَذَتِ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم سَعْلةٌ[٣] فركع، وعبدُ الله بنُ السَّائبِ حاضرٌ ذلك))[٤].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ:

سورةُ (المؤمنون) مكيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ من المفسِّرين[٥].

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مقاصدِ هذه السورةِ:

١- تحقيقُ الوحدانيَّةِ، وإبطالُ الشِّركِ[٦].

---

(١) وسمِّيت هذه السورةُ بـ«المؤمنون»؛ لافتتاحِها بفلاحِ المؤمنينَ، واشتمالِها على أوصافِهم وجزائِهم في الآخرةِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروابادي (١/ ٣٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٨٠).

(٢) هو أحدُ رجالِ الإسنادِ.

(٣) السَّعلةُ: فَعلةٌ مِن السُّعالِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٦٩٣).

(٤) أخرجه مسلم (٤٥٥).

(٥) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبي، وأبو حيانَ، والفيروزابادي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٠٢).

(٦) قال ابنُ عاشورٍ: (هذه السورةُ تدورُ آيُها حولَ محورِ تحقيقِ الوحدانيَّةِ، وإبطالِ الشِّركِ ونقضِ قواعدِه، والتنويهِ بالإيمان وشرائعِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦).

٢- تقريرُ النُّبُوةِ للنَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، والردُّ على مَن ينكرونَها مِن الكفَّارِ[١].

٣- الدَّلالةُ على أخلاقِ أهلِ الإسلامِ[٢].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ المَوضوعاتِ التي تناولَتْها هذه السُّورةُ:

١- بيانُ صِفاتِ المؤمِنينَ، وما أعدَّه اللهُ لأصحابِ هذه الصِّفاتِ.

٢- ذِكرُ أطوارِ خَلقِ الإنسانِ الدالِّ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وقُدرتِه على البَعثِ.

٣- بيانُ بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ في هذا الكَونِ.

٤- ذِكرُ جانبٍ مِن قَصَصِ بَعضِ الأنبياءِ، ومَوقِفِ أقوامِهم منهم، وكيف كانت العاقبةُ.

٥- توجيهُ الرُّسُلِ إلى أكلِ الحَلالِ الطَّيِّبِ، والمداومةِ على العَمَلِ الصَّالحِ؛ وبيانُ وَحدةِ دينِ الأنبياءِ جَميعًا.

٦- بيانُ مَوقِفِ المُشرِكينَ مِن الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، ومَصيرِهم يومَ القيامةِ، مع الرَّدِّ على شُبُهاتِهم الفاسِدةِ، وتسليةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما يُثَبِّتُ قَلبَه.

٧- ذِكرُ بَعضِ الأدِلَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِه؛ كخَلقِ سَمعِهم وأبصارِهم وأفئِدتِهم، ونَشأتِهم مِن الأرضِ، وإشهادِهم على أنفُسِهم بأنَّ الخالِقَ هو اللهُ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٩٦).

(٢) قال الفيروزابادي: (مقصودُ السورةِ ومُعظَمُ ما اشتملَتْ عليه: الفتوى بفلاحِ المؤمنينَ، والدَّلالةُ على أخلاقِ أهلِ الإسلامِ). ((بصائر ذوي التمييز)) (١/ ٣٢٩).

٨- إرشادُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى أن يغُضَّ عن سوءِ مُعاملةِ المُشرِكينَ، ويَدفعَها بالتي هي أحسَنُ، وأن يستعيذَ باللهِ مِن الشَّياطينِ.

٩- ذِكرُ أحَدِ مَشاهِدِ يومِ القيامةِ وما يَنتظِرُ المُشرِكينَ في هذا اليومِ، وحالِهم عند نُزولِ الموتِ بهم.

١٠- خُتِمت السُّورةُ بأمرِ اللهِ لِنَبيِّه بالتوجُّهِ إليه طلَبًا للرَّحمةِ والغُفرانِ.

الآيات (١-١١)

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَفْلَحَ﴾: أي: فازَ وسعِد، والفَلاحُ: الظَّفَرُ وإدراكُ البُغيةِ، والبقاءُ، وأصلُ (فلح): يدلُّ على فوزٍ وبقاءٍ[١].

﴿خَٰشِعُونَ﴾: أي: ساكِنونَ مُتواضِعونَ، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ الخشوعُ فيما يُوجَدُ على الجوارحِ، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التطامُنِ[٢].

﴿ٱللَّغْوِ﴾: أي: الباطِلِ، وما يجبُ أن يُلغَى مِن اللعبِ والهزلِ والمعاصي، واللَّغْوُ مِن الكلامِ: ما لا يُعتدُّ به، وأصلُه يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٤٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٤٢)، ((تذكرة =

﴿مُعْرِضُونَ﴾: أي: مُنصَرِفونَ، والإعراضُ: هو أن تولِّيَ الشَّيءَ عُرضَك، أي: جانِبَك، ولا تُقبِلَ عليه[١].

﴿ٱلْعَادُونَ﴾: أي: المجاوِزونَ الحَدَّ، والمُعتَدونَ، وأصلُه: يدُلُّ على تَجاوُزِ الحَدِّ[٢].

﴿رَٰعُونَ﴾: أي: قائِمونَ بالحِفظِ والإصلاحِ، وأصلُ (رعي): يدلُّ على مُراقَبةٍ وحِفْظٍ[٣].

﴿ٱلْفِرْدَوْسَ﴾: أي: أعلَى الجنَّةِ، وأوسطَها، وقيل: هو البستانُ المخصوصُ بالحسنِ وذلك بلسانِ الرُّومِ، وأصلُ الفردوسِ: البستانُ الواسعُ الجامعُ لأصنافِ الثَّمَرِ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢١).

قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ ﴿عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ ﴿حَٰفِظُونَ﴾ لتَضمينِه معنى (مُمسِكونَ)، والإمساكُ يتعَدَّى بـ (على) كما في قَولِه تعالى: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، والاستِثناءُ مُفرَّغٌ على اعتبارِ معنى النَّفي المفهومِ مِن الإمساكِ؛ ليصِحَّ التَّفريغُ، لأنَّه لا يكونُ إلَّا بعدَ نَفيٍ أو ما في مَعناه، فكأنَّه قيلَ: حافِظونَ فُروجَهم لا يَكشِفونَها إلَّا على أزواجِهم. وقيل: (على) بمعنى (مِنْ)، وهي مُتعَلِّقةٌ بـ (حَافِظُونَ)، أي: يَحفَظونَها إلَّا مِنْ أزواجِهم.

وقيل: (عَلَى) مُتعَلِّقةٌ بمَحذوفٍ يدُلُّ عليه ﴿غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾، كأنَّه قيل: يُلامُونَ إلَّا على أزواجِهم، أي: يُلامونَ على كُلِّ مُباشَرٍ إلَّا على ما أُطلِقَ لهم؛ فإنَّهم غَيرُ ملومينَ عليه. وقيل غيرُ ذلك[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ الله تعالى أنَّ المؤمنينَ قد فازوا وأفلحوا، وذلك لجمعهم صفاتِ الفوزِ والفلاحِ، فمِن صِفاتِهم أنَّهم خاشعونَ لله في صلاتِهم، وأنَّهم معرِضونَ عن الباطل، وأنَّهم لزَكاةِ أموالِهم مُؤَدُّونَ، وأنهم لفُروجِهم حافِظونَ مِن الوقوع فيما حرَّمَ اللهُ إلَّا مِن زَوجاتِهم أو ما ملَكَت أيمانُهم مِنَ الإماءِ؛ فلا لَومَ عليهم ولا حَرَجَ في الاستِمتاعِ بهِنَّ، وجِماعِهنَّ على الوجهِ المَشروعِ، فمَن طلَبَ خِلافَ ما أحلَّه الله فهو مِن المجاوِزينَ الحَلالَ إلى الحَرامِ. ومِن صفاتِ المفلحينَ أيضًا أنهم يحفظونَ كُلَّ ما اؤتُمِنوا عليه، ويُوفون بكُلِّ عُهودِهم، وأنَّهم يواظِبون على أداءِ صَلَواتِهم في أوقاتِها بأركانِها وشُروطِها وواجِباتِها. هؤلاء المُؤمِنونَ الذين

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٦)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٦٤٧)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٥٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣١٧)، ((تفسير الآلوسي)) (٩/ ٢٠٩).

اتَّصفوا بتلك الصفاتِ هم الوارِثونَ في الآخرةِ مَنازِلَ أهلِ النَّارِ مِن الجَنَّةِ، الذين يَرِثونَ يومَ القيامةِ جناتِ الفردوسِ، هم فيها خالِدونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١﴾.

أي: قد فاز وظفِر بخَيرِ الدُّنيا والآخرةِ المُؤمِنونَ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجبَ عليهم الإيمانُ به[١].

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾.

أي: الذينَ مِن صِفاتِهم أنَّهم في صَلاتِهم خاضِعونَ، مُتَذلِّلونَ لله ساكِنونَ، مُتدَبِّرونَ لِما يقولونَ فيها[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا وصَف اللهُ سُبحانَه وتعالى المؤمِنينَ بالخُشوعِ في الصَّلاةِ؛ أتبَعَه الوَصفَ بالإعراضِ عن اللَّغوِ؛ ليجمَعَ لهم الفِعلَ والتَّركَ الشَّاقَّينِ على الأنفُسِ، اللذينِ هما قاعِدتا بناءِ التَّكليفِ[٣].

وأيضًا عقَّبَ ذِكْرَ الخُشوعِ بذِكْرِ الإعراضِ عنِ اللَّغوِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ في الأصْلِ الدُّعاءُ، وهو مِن الأقوالِ الصَّالحةِ؛ فكان اللَّغوُ ممَّا يَخطُرُ بالبالِ عندَ ذِكْرِ الصَّلاةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٥، ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦، ١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٦٢)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٥).

بجامِعِ الضِّدِّيَّةِ، فكان الإعراضُ عن اللَّغوِ بمَعنَيِي الإعراضِ (إعراضِ السَّمْعِ عن اللَّغْوِ، وإعراضِ الألْسِنَةِ عنه) ممَّا تَقْتَضيه الصَّلاةُ والخُشوعُ؛ لأنَّ مَن اعتادَ القولَ الصَّالِحَ تجنَّبَ القولَ الباطِلَ، ومَن اعتادَ الخُشوعَ للهِ تجنَّبَ قولَ الزُّورِ[١].

وأيضًا لَمَّا كان كلٌّ مِن الصَّلاةِ والخُشوعِ صادًّا عن اللَّغوِ؛ أتبَعَه قَولَه[٢]:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم معرِضونَ عن الباطلِ وجميعِ ما يَكرَهُه الله؛ كالمعاصي وما لا فائِدةَ ولا خَيرَ فيه؛ تَنزيهًا لأنفُسِهم عنه، وانشِغالًا منهم بما يَنفَعُ مِن الحَقِّ والخَيرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ باللَّغوِ هاهنا خمسةُ أقوالٍ:

أحدُها: الشِّركُ. رواه أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثاني: الباطِلُ. رواه ابنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثالثُ: المعاصي. قاله الحَسَنُ.

والرابعُ: الكَذِبُ. قاله السُّدِّيُّ.

والخامسُ: الشَّتمُ والأذى الذي كانوا يَسمَعونَه مِن الكُفَّارِ. قاله مقاتِلٌ.

قال الزَّجَّاج: واللَّغوُ: كُلُّ لَعِبٍ ولَهوٍ، وكلُّ مَعصيةٍ فهي مُطَّرَحةٌ مُلغاةٌ، فالمعنى: شَغَلَهم الجِدُّ فيما أمَرَهم اللهُ به عن اللَّغوِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٦). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٥٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٦).

وممَّن قَصَر اللَّغوَ على ساقِطِ الكلامِ: السمرقندي، وابن عطية، والنَّسَفي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨).

=

كما قال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لمَّا ذكَر الصَّلاةَ عَقَّبَ بذكرِ الزَّكاةِ؛ لكثرةِ التَّآخِي بيْنَهما في آياتِ القرآنِ[1].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم لزَكاةِ أموالِهم مُؤَدُّونَ[2].

= قال ابنُ جُزَي: (اللَّغوُ هنا: السَّاقِطُ مِن الكلامِ؛ كالسَّبِّ واللَّهوِ، والكلامِ بما لا يَعني، وعددُ أنواعِ المنهيِّ عنه من الكلامِ عِشرون نَوعًا، ومعنى الإعراضِ عنه: عدمُ الاستماعِ إليه والدُّخولِ فيه، ويحتَمِلُ أن يريدَ أنَّهم لا يتكلَّمونَ به، ولكِنَّ إعراضَهم عن سَماعِه يقتضي ذلك من بابِ أَولى وأَحرى). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨).

وقيل: اللَّغوُ هو ما لا يَعنيك مِن قَولٍ أو فِعلٍ؛ كاللَّعِبِ والهَزلِ. وممَّن اختاره: الزمخشري، والبيضاوي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٨١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به: الباطِلُ وما يَكرَهُه اللهُ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٩٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢).

قال ابن كثير: (﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي: عن الباطِلِ، وهو يَشمَلُ: الشِّركَ -كما قاله بعضُهم-، والمعاصيَ -كما قاله آخَرون-، وما لا فائِدةَ فيه من الأقوالِ والأفعالِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢).

وقال النيسابوري: (﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ اللَّغوُ... يَشمَلُ كُلَّ ما كان حرامًا، أو مكروهًا، أو مباحًا لا ضرورةَ إليه ولا حاجةَ قَولًا أو فِعلًا). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١٠٩).

وقال الواحدي: (﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ عن كلِّ ما لا يَجمُلُ في الشَّرعِ مِن قَولٍ وفِعلٍ). ((الوجيز)) (ص: ٧٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٧)، ((تفسير ابن =

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا أشار إلى أنَّ بَذْلَ المالِ على وجهِه طُهرةٌ، وأنَّ حبسَه عن ذلك تَلَفٌ؛ أتبعه

= عاشور)) (١٨/ ١٢).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالزَّكاةِ هنا: زكاةُ الأموال: ابنُ جريرٍ، والبقاعي، وابنُ عاشور، ونسبه ابنُ كثير إلى الأكثرينَ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعيدُ بنُ جُبيرٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٨٧).

واللَّامُ على هذا القَولِ للتعَدِّي؛ لأنَّ اسمَ الفاعِلِ لا تبلُغُ قُوَّتُه قوَّةَ الفِعلِ، فقَوِيَ باللَّامِ، كقَولِه: ﴿لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٧٧٠).

قال الشوكاني: (ومعنى فِعلِهم للزَّكاةِ تأديتُهم لها، فعبَّرَ عن التَّأديةِ بالفِعلِ؛ لأنَّها ممَّا يَصدُقُ عليه الفِعلُ، والمرادُ بالزَّكاةِ هنا المصدَرُ؛ لأنَّه الصَّادرُ عن الفاعِلِ. وقيل: يجوزُ أن يرادَ بها العينُ على تقديرِ مُضافٍ، أي: والذين هم لتأديةِ الزَّكاةِ فاعِلونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٦١).

واختار الرَّاغبُ أنَّ الزَّكاةَ بمعنى الطَّهارةِ، واللَّامَ للتَّعليلِ، والمعنى: والذين يَفعَلونَ ما يَفعَلونَ مِن العبادةِ؛ لِيُزَكِّيَهم اللهُ تعالى، أو لِيُزكُّوا أنفُسَهم. يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٠٨).

وقيل: المرادُ: زكاةُ الأموالِ وزكاةُ النُّفوسِ، بتطهيرِها مِن مساوي الأخلاقِ والأعمال. وممن قال بذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

قال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾: الأكثرونَ على أنَّ المرادَ بالزكاةِ هاهنا زكاةُ الأموال، مع أنَّ هذه الآيةَ مكيَّةٌ، وإنَّما فُرِضَت الزكاةُ بالمدينةِ في سنة اثنتينِ مِن الهجرة، والظاهِرُ أنَّ التي فُرِضَت بالمدينةِ إنَّما هي ذاتُ النُّصُبِ والمقاديرِ الخاصَّةِ، وإلَّا فالظاهِرُ أنَّ أصلَ الزَّكاةِ كان واجبًا بمكَّةَ، كما قال تعالى في سورة «الأنعام»، وهي مكيَّةٌ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]. وقد يحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ بالزَّكاةِ هاهنا: زكاةُ النَّفسِ مِنَ الشِّركِ والدَّنَسِ، كقَولِه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وكقَولِه تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصِّلت: ٦- ٧]، على أحَدِ القَولَينِ في تفسيرِها، وقد يحتَمِلُ أن يكون كِلا الأمرينِ مُرادًا، وهو زكاةُ النُّفوسِ وزَكاةُ الأموالِ؛ فإنَّه من جملةِ زكاةِ النُّفوسِ، والمؤمِنُ الكامِلُ هو الذي يتعاطَى هذا وهذا، واللهُ أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٧، ٣٠٨).

الإيماءَ إلى أنَّ بذْلَ الفرْجِ في غيرِ وَجهِه نجاسةٌ، وحِفظَه طُهرةٌ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾، وذِكْرُ الشَّهوةِ بعدَ اللَّغوِ الدَّاعي إليها، وبذْلِ المالِ الذي هو مِن أعظَمِ أسبابِها- عظيمُ المناسَبةِ[١].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم صائِنونَ لفُروجِهم مِن الحَرامِ، فلا يَقَعونَ فيما نهاهم اللهُ عنه مِنَ الفواحِشِ[٢].

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦﴾.

أي: هُم يَحفَظونَ فُروجَهم إلَّا مِن زَوجاتِهم أو مِن إمائِهم اللَّاتي يَملِكونَهنَّ؛ فإنَّهم لا يُلامُونَ على وَطْئِهنَّ على الوَجهِ المَشروعِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣).

قال الواحدي: (قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ قال الفرَّاءُ: معناه: إلَّا مِن أزواجِهم. وعلى هذا القَولِ ﴿عَلَىٰٓ﴾ بمعنى: مِن. وحروفُ الصِّفاتِ مُتعاقِبةٌ. وقال الزَّجَّاجُ: دخلت ﴿عَلَىٰٓ﴾ هاهنا؛ لأنَّ المعنى: أنَّهم يُلامُونَ في إطلاقِ ما حُظِرَ عليهم إلَّا على أزواجِهم؛ فإنَّهم لا يُلامُونَ، والمعنى: أنَّهم يُلامُونَ على سِوى أزواجِهم ومِلْكِ أيمانِهم). ((البسيط)) (١٥/ ٥٢٤).

وقيل: ضَمَّنَ ﴿حَٰفِظُونَ﴾ مَعنَى: مُمْسِكونَ أو قاصِرونَ، وكِلاهما يَتعدَّى بـ (على). واختاره: أبو حيان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤٨).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣١٩).

قال أبو حيان: (وفي قَولِه ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ دَلالةٌ على تعميمِ وطْءِ ما مُلِكَ باليمينِ، =

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧﴾.

أي: فمَنِ التَمَس التمَتُّعَ بفَرجِه فيما سِوى زَوجتِه وأمَتِه، فأولئك هم المُعتَدونَ، المتعَدُّونَ حُدودَ اللهِ، المجاوِزونَ ما أحلَّه لهم إلى ما حرَّمَه عليهم[1].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كان حِفظُ الفُروجِ مِن الأماناتِ العظيمةِ؛ أتبَعَه عمومَها، فقال[2]:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم لِمَا ائتَمَنَهم اللهُ والنَّاسُ عليه، ولِعُهودِهم مع اللهِ وعبادِه مُراعونَ، قائِمونَ بحِفظِها، والوَفاءِ بها، فلا يَخونونَ الأماناتِ، ولا يَنقُضونَ العُهودَ[3].

= وهو مختَصٌّ بالإناثِ بإجماعٍ، فكأنَّه قيل: أو ما مَلَكَت أيمانُهم مِنَ النِّساءِ). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤٩).

وقال الشنقيطي: (أهلُ العِلمِ أجمَعوا على أنَّ حُكمَ هذه الآيةِ الكريمةِ في التمَتُّعِ بمِلْكِ اليَمينِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ خاصٌّ بالرِّجالِ دونَ النِّساءِ، فلا يحِلُّ للمرأةِ أن تتسَرَّى عبدَها وتتمَتَّعَ به بمِلْكِ اليَمينِ، وهذا لا خِلافَ فيه بينَ أهلِ العِلمِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣١٦). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣١٩).

قال ابنُ جُزي: (﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ أمانةَ النَّاسِ وعَهدَهم، وأمانةَ اللهِ =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كانت الصَّلاةُ أجَلَّ ما عُهِدَ فيه مِن أمرِ الدِّينِ وآكَدَ، وهي مِن الأمورِ الخَفيَّةِ التي وقَع الائتِمانُ عليها، لِما خفَّفَ اللهُ فيها على هذه الأمَّةِ بإيساعِ زمانِها ومكانِها؛ قال[1]:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم مُواظِبونَ على أداءِ صَلَواتِهم في أوقاتِها، بأركانِها وشُروطِها وواجِباتِها[2].

= وعَهدَه في دينِه، أو العُمومَ، والأمانةُ أعَمُّ مِن العَهدِ؛ لأنَّها قد تكونُ بعَهدٍ وبغيرِ عَهدٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٧، ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٠).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ﴾.

أي: أولئك المُؤمِنونَ المَوصوفونَ بتلك الصِّفاتِ هم الوارِثونَ يَومَ القيامةِ مَنازِلَ أهلِ النَّارِ مِن الجَنَّةِ(١).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومَنزِلٌ في النَّارِ، فإذا مات فدخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذلك قَولُه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾))(٢).

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ ﴾.

أي: أولئك المُؤمِنونَ يَرِثونَ يومَ القيامةِ جَنَّاتِ الفِردَوسِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٣٤١)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٣٧٧) واللفظ لهما، والبزار (٩١٥٢) مختصرًا.

صحَّح إسنادَه البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٢٦٦)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٤٥١) وقالا: (على شرطِ الشَّيخينِ)، وذكَر الشوكاني في ((تفسيره)) (٣/ ٦٧٣) أنَّ له شاهدًا في مسلم، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢١).

((فإذا سألتُمُ اللهَ فسَلُوه الفِردَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفَوقَه عَرشُ الرَّحمنِ، ومنه تفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ))(١).

وعن أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ أمَّ الرُّبَيِّعِ بِنتَ البراءِ -وهي أمُّ حارِثةَ ابنِ سُراقةَ- أتَتِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت: ((يا نبيَّ اللهِ، ألَا تُحَدِّثُني عن حارِثةَ -وكان قُتِلَ يَومَ بَدرٍ؛ أصابَه سَهمٌ غَرْبٌ(٢)- فإن كان في الجنَّةِ صَبَرتُ، وإن كان غيرَ ذلك اجتَهَدْتُ عليه في البُكاءِ؟ قال: يا أُمَّ حارِثةَ، إنَّها جِنانٌ في الجنَّةِ، وإنَّ ابنَك أصاب الفِردَوسَ الأعلى!!))(٣).

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: هم في تلك الجنَّاتِ ماكِثونَ لا يَخرُجونَ منها أبَدًا؛ فهم في خُلودٍ لا مَوتَ معه، ولذَّةٍ ونَعيمٍ لا انقِطاعَ له، ومُلكٍ عَظيمٍ لا زَوالَ عنه(٤).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧- ١٠٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾ الآياتِ، هذا تنويهٌ مِن اللهِ تعالى بذِكرِ عبادِه المؤمِنينَ، وذِكرِ فلاحِهم وسعادتِهم، وبأيِّ شيءٍ وصَلوا إلى ذلك، وفي ضِمنِ ذلك الحثُّ على الاتِّصافِ بصفاتِهم، والتَّرغيبُ فيها، فَلْيَزِنِ العبدُ

(١) رواه البخاري (٧٤٢٣).

(٢) سهمٌ غَرْبٌ: أي: لا يُدرَى مَن رماه. يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥).

(٣) رواه البخاري (٢٨٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢١).

نفْسَه وغيرَه على هذه الآياتِ، يَعرِفْ بذلك ما معه، وما مع غيرِه من الإيمانِ، زيادةً ونَقصًا، كثرةً وقِلَّةً[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ الإعراضُ عن جنسِ اللَّغوِ: مِن خُلُقِ الجِدِّ، ومَن تخلَّق بالجِدِّ في شؤونِه كَمَلَت نفْسُه، ولم يصدُرْ منه إلَّا الأعمالُ النَّافِعةُ؛ فالجِدُّ في الأمورِ مِن خُلُقِ الإسلامِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ أنَّهم لا يُمْضون أوقاتَهم الثَّمينةَ إلَّا فيما فيه فائدةٌ، وإذا كان مِن وصفِهم الإعراضُ عن اللَّغوِ -وهو ما لا فائِدةَ فيه- فإعراضُهم عن المحرَّمِ وما فيه مضرَّةٌ مِن بابِ أولى وأحرى، وإذا ملَكَ العبدُ لسانَه وخزَنَه -إلَّا في الخيرِ- كان مالكًا لأمرِه؛ فالمؤمنون مِن صفاتِهم الحميدةِ كَفُّ ألسنتِهم عن اللَّغوِ والمحرَّماتِ[٣].

٤- عَلَّقَ سُبحانَه فلاحَ العبدِ على حِفْظِ فرْجِه مِن الزِّنا؛ فلا سبيلَ إلى الفلاحِ بدونِه، فقال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إلى قَولِه سبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾، وهذا يتضمَّنُ ثلاثةَ أمورٍ: أنَّ مَن لم يحفَظْ فرْجَه لم يكُنْ مِن المفلحينَ، وأنَّه مِن المَلومينَ، ومِن العادينَ؛ ففاته الفلاحُ، واستحقَّ اسمَ العُدوانِ، ووقعَ في اللَّومِ؛ فمقاساةُ ألَمِ الشَّهوةِ ومعاناتُها أيسَرُ مِن بعضِ ذلك[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ أي: في الجِماعِ وما

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٥١).

داناه بالظَّاهِرِ والباطِنِ، فهم دائمًا لا يُتبِعونَها شهوتَها، بل هم قائِمونَ عليها يُذِلُّونَها ويَضبِطونَها[١]. وقولُه: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ فيه إيذانٌ بأنَّ قُوَّتَهم الشَّهْويَّةَ داعيةٌ لهم إلى ما لا يَخْفى، وأنَّهم حافِظون لها مِن استيفاءِ مُقْتضاها، وبذلك يَتحقَّقُ كَمالُ العِفَّةِ[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ هذا عامٌّ في جميعِ الأماناتِ التي هي حقٌّ لله، والتي هي حقٌّ للعبادِ؛ فجميعُ ما أوجبه اللهُ على عبدِه أمانةٌ، على العبدِ حِفظُها بالقيامِ التَّامِّ بها، وكذلك يدخُلُ في ذلك أماناتُ الآدميِّينَ؛ كأماناتِ الأموالِ والأسرارِ ونحوِهما، فعلى العبدِ مُراعاةُ الأمْرينِ، وأداءُ الأمانتينِ، وكذلك العهدُ يشمَلُ العهدَ الذي بينهم وبينَ رَبِّهم، والذي بينَهم وبينَ العبادِ، وهي الالتِزاماتُ والعُقودُ التي يَعقِدُها العبدُ؛ فعليه مراعاتُها، والوفاءُ بها، ويَحرُمُ عليه التَّفريطُ فيها، وإهمالُها[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ مدَحَهم بالخُشوعِ في الصَّلاةِ في بدايةِ السُّورةِ حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، وبالمحافَظةِ عليها في هذه الآيةِ؛ لأنَّه لا يَتِمُّ أمرُهم إلَّا بالأمْرينِ؛ فمَن يداومْ على الصَّلاةِ مِن غَيرِ خُشوعٍ، أو على الخُشوعِ مِن دونِ مُحافظةٍ عليها؛ فإنَّه مذمومٌ ناقِصٌ[٤].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ...﴾ الآياتِ، جمَعت هذه الآياتُ أصولَ التَّقوى الشَّرعيَّة؛ لأنَّها أتت على أعسَرِ ما تُراضُ له النفْسُ مِن أعمالِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧).

القلبِ والجوارحِ، فجاءت بوصفِ الإيمانِ وهو أساسُ التقوى، ثمَّ ذكَرَت الصَّلاةَ وهي عِمادُ التقوى، والتي تنهَى عن الفحشاءِ والمنكَرِ؛ لِما فيها مِن تكرُّرِ استحضارِ الوقوفِ بينَ يدي الله ومناجاتِه، وذكَرَت الخشوعَ وهو تمامُ الطاعةِ؛ لأنَّ المرءَ قد يعمَلُ الطاعةَ للخروجِ مِن عهدةِ التكليفِ غيرَ مُستحضِرٍ خُشوعًا لربِّه الذي كلَّفه بالأعمالِ الصالحةِ، فإذا تخلَّق المؤمِنُ بالخشوعِ اشتَدَّت مراقبتُه رَبَّه، فامتثل واجتنَبَ، فهذان مِن أعمالِ القلبِ.

وذكرَت الإعراضَ عن اللَّغوِ، واللَّغوُ مِن سوءِ الخُلقِ المتعلِّقِ باللسانِ الذي يعسُرُ إمساكُه، فإذا تخلَّق المؤمِنُ بالإعراضِ عن اللَّغوِ فقد سهُلَ عليه ما هو دونَ ذلك، وفي الإعراضِ عن اللَّغوِ خُلقٌ للسَّمعِ أيضًا. وذكَرَت إعطاءَ الصَّدَقاتِ، وفي ذلك مقاومةُ داءِ الشُّحِّ، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]. وذكَرَت حِفظَ الفَرجِ، وفي ذلك خُلقُ مُقاومةِ اطِّرادِ الشَّهوةِ الغريزيَّةِ، بتعديلِها وضبطِها، والترفُّعِ بها عن حضيضِ مُشابهةِ البهائمِ. وذكَرَت أداءَ الأمانةِ، وهو مظهَرٌ للإنصافِ، وإعطاءِ ذي الحقِّ حَقَّه، ومغالبةِ شَهوةِ النفْسِ لأمتعةِ الدُّنيا. وذكَرَت الوفاءَ بالعهدِ، وهو مظهرٌ لخُلقِ العدلِ في المعاملةِ، والإنصافِ من النفْسِ بأن يَبذُلَ لأخيه ما يحِبُّ لنفسِه من الوفاءِ. وذكَرَت المحافظةَ على الصَّلواتِ، وهو التخلُّقُ بالعنايةِ بالوقوفِ عند الحدودِ والمواقيتِ. وأنت إذا تأمَّلتَ هذه الخِصالَ وجدْتَها ترجِعُ إلى حِفظِ ما مِن شأنِ النُّفوسِ إهمالُه؛ مثلُ: الصَّلاةِ، والخُشوعِ، وتَركِ اللَّغوِ، وحِفظِ الفرجِ، وحفظِ العهدِ؛ وإلى بَذْلِ ما من شأنِ النفوسِ إمساكُه؛ مثلُ: الصَّدقةِ، وأداءِ الأمانةِ. فكان في مجموعِ ذلك إعمالُ ملَكتَيِ الفعلِ والتَّركِ في المهِمَّاتِ، وهما منبَعُ الأخلاقِ الفاضلةِ لمن تتبَّعَها[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- جعَلَ اللهُ تعالى فاتحةَ السُّورةِ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، وأَوردَ في خاتمتِها: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ فشَتَّانَ ما بيْنَ الفاتحةِ والخاتمةِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فيه سؤالٌ: كيف حكمَ على الموصوفينَ بالصِّفاتِ المذكورةِ بالفلاحِ، مع أنَّه تعالى ما تمَّم ذِكرَ العباداتِ الواجبةِ كالصَّومِ والحَجِّ والطَّهارةِ؟

الجوابُ: أنَّ قَولَه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ يأتي على جميعِ الواجِباتِ مِن الأفعالِ والتُّروكِ، والطَّهاراتُ دخَلتْ في جملةِ المحافظةِ على الصَّلواتِ الخَمسِ؛ لكَونِها مِن شرائِطِها[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ...﴾ الآياتِ، فيها مِن شُعَبِ الإيمانِ: الخُشوعُ في الصَّلاةِ، واجتِنابُ اللَّغوِ، وأداءُ الزَّكاةِ، وحِفظُ الفَرجِ إلَّا على الأزواجِ والسَّراريِّ، وحِفظُ الأماناتِ والعُهودِ، والمحافظةُ على الصَّلواتِ لأوقاتِها[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ استُدِلَّ به على وجوبِ الخشوعِ في الصلاةِ؛ فقد أخبرَ سُبحانَه وتعالى أنَّ هؤلاء الذين ذُكِرتْ خِصالُهم هم الذين يَرِثونَ فِردَوسَ الجنَّةِ، وذلك يقتضي أنَّه لا يَرِثُها غيرُهم، وقد دَلَّ هذا على وجوبِ هذه الخصالِ؛ إذ لو كان فيها ما هو مُستحَبٌّ لكانت جنَّةُ الفردوسِ تُورَثُ بدونِها؛ لأنَّ الجنَّةَ تُنالُ بفِعلِ الواجباتِ دونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٦).

المُستحبَّاتِ؛ ولهذا لم يُذكَرْ في هذه الخِصالِ إلَّا ما هو واجِبٌ[١].

٥- في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إلى قَولِه سبحانَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ حُجَّةٌ على المُرجِئةِ واضحةٌ؛ ألَا تراه كيف نَعَتَ المؤمِنينَ بنُعوتِ العَمَلِ، ولم يجعَلْهم وارِثي جنَّتِه وفِردَوسِه إلَّا بها، فكيف يكونُ مُستَكمِلَ الإيمانِ مَن عَرِيَ مِن هذه النُّعوتِ المذكورةِ في وصفِ المؤمنينَ[٢]؟!

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ استُدِلَّ به على تحريمِ نِكاحِ المُتعةِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى إنَّما أباح في كتابِه الأزواجَ ومِلْكَ اليَمينِ، وحَرَّمَ ما زاد على ذلك، والمُستَمتَعُ بها بعدَ التَّحريمِ ليست زَوجةً ولا مِلْكَ يمينٍ؛ فتكونُ حَرامًا بنَصِّ القُرآنِ؛ أمَّا كَونُها ليست مملوكةً فظاهرٌ، وأمَّا كونُها ليست زَوجةً فلانتِفاءِ لوازمِ النِّكاحِ فيها؛ فإنَّ مِن لوازمِ النِّكاحِ كونَه سببًا للتَّوارُثِ، وثبوتَ عِدَّةِ الوفاةِ فيه، والطَّلاقَ الثَّلاثَ، وتَنصيفَ المهرِ بالطَّلاقِ قبلَ الدُّخولِ، وغيرَ ذلك مِن اللَّوازمِ[٣].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ استُدِلَّ به على تحريمِ نِكاحِ المحَلِّلِ؛ فإنَّ مَن تزوَّجها لذلك ليسَتْ زوجةً حقيقةً مقصودًا بقاؤُها، ولا مملوكةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ١٩١). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ٩٢)، ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ يدُلُّ على أنَّه يُشترَطُ في حِلِّ المملوكةِ أن تكونَ كُلُّها في مِلكِه، فلو كان له بَعضُها لم تحِلَّ؛ لأنَّها ليست ممَّا ملكت يمينُه، بل هي مِلكٌ له ولغيرِه[١].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ فيه سؤالٌ: هلَّا قيل: (مَن مَلَكَتْ)، فالمملوكاتُ مِن جملةِ العقلاءِ، والعقلاءُ يُعبَّرُ عنهم بـ (مَن) لا بـ (ما)؟

الجوابُ من وجهين:

الأول: أنَّ التعبيرَ عن الإماءِ باسمِ (ما) الموصولةِ الغالِبِ استعمالُها لغيرِ العاقلِ- جرى على خلافِ الغالبِ، وهو استعمالٌ كثيرٌ لا يُحتاجُ معه إلى تأويلٍ[٢]، وإطلاقُ (ما) مُرادًا بها (مَنْ) كثيرٌ في القرآنِ، كقولِه: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] أي: مَنْ طابَ لكم[٣].

الثاني: أنَّ الإماءَ لَمَّا كُنَّ يَتَّصِفْنَ ببعضِ صفاتِ غيرِ العقلاءِ، كبيعِهنَّ وشرائِهنَّ ونحوِ ذلك، كان ذلك مُسوِّغًا لإطلاقِ لفظةِ (ما) عليهنَّ[٤]. وقيل غيرُ ذلك[٥].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ظاهرُ عمومِه يقتضي جوازَ أنْ يستمتعَ الرجلُ بزوجتِه فيما شاء، ما عدا الدُّبُرَ؛ فإنَّه لا يجوزُ للرجُلِ أنْ يجامِعَ زوجتَه فيه[٦].

١١- في عمومِ قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٨).

(٦) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٣٢٥).

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ دليلٌ على تحريمِ الاستمناءِ، الذي يُسمَّى: (العادةَ السِّرِّيَّةَ)؛ لأنَّه عمليةٌ في غيرِ الزوجاتِ والمملوكاتِ[1]، فظاهرُ الآيةِ يدلُّ على أنَّه حرامٌ ظهورًا بيِّنًا، ولم يَرِدْ في كتابِ الله ولا في سُنةِ رسولِ اللَّهِ شيءٌ يعارضُ ظاهرَ هذه الآيةِ، فالله تعالى لم يَسْتَثْنِ إلا نوعينِ، وهو قولُه: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾، ثمَّ جاء بحكمٍ عامٍّ شاملٍ، وهو قولُه: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾، ولا شَكَّ أنَّ الناكحَ يدَه مِمَّنِ ابتغَى وراءَ ذلك، فهو داخلٌ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾[2].

١٢- قولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ فيه دليلٌ على حرمةِ إتيانِ البهيمةِ، وأنَّه معصيةٌ، فأيُّ شيءٍ وراءَ الأزواجِ ومِلْكِ اليمينِ يُعتبرُ عُدوانًا وظُلمًا[3].

١٣- في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ دليلٌ على أنَّ التعرِّيَ عند الجماعِ لا حَرَجَ فيه؛ لأنَّه إذا كان لا مَلامةَ في عدمِ سَتْرِ الفرجِ عندَ الجماعِ، فما سِواه مِن بابِ أَولى[4].

١٤- قَال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾، وقال أيضًا: ﴿ وَٱلَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٣٦٣). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٤/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٣٢٤).

هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾، لا يخفَى ما في افتتاحِ هذه الأوصافِ واختتامِها بالصلاةِ مِن التعظيمِ لها، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((واعْلَموا أنَّ خيرَ أعمالِكمُ الصلاةُ))[١].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ لِمَ سُمِّيَ ما يجدونَه مِن الثَّوابِ والجنَّةِ بالميراثِ، مع أنَّه سبحانَه حكمَ بأنَّ الجنَّةَ حَقُّهم في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ ﴾[التوبة: ١١١]؟

الجواب من وجوهٍ:

الأولُ: ما ورد عن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢]، وهو أبينُ على ما يقالُ فيه، وهو: أنَّه لا مُكلَّفَ إلَّا أعدَّ اللهُ له في النَّارِ ما يستحِقُّه إن عصى، وفي الجنَّةِ ما يستحِقُّه إن أطاع، وجعل لذلك علامةً، فإذا آمَنَ منهم البعضُ ولم يؤمِنِ البعضُ، صار مَنزِلُ مَن لم يؤمِنْ كالمنقولِ إلى المؤمنينَ؛ فسُمِّيَ ذلك ميراثًا لهذا الوجهِ[٣].

الثاني: أنَّ انتقالَ الجنَّةِ إليهم بدونِ مُحاسَبةٍ ومعرفةٍ بمقاديرِه يشبِهُ انتقالَ المالِ إلى الوارثِ.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٩).

والحديث رواه ابن ماجه (٢٧٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٦) (٢٢٤٣٢)، والدارمي (٦٥٥)، وابن حبان (٣/ ٣١١) (١٠٣٧).

صحَّح إسنادَه ابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (١٤٩)، وقال: (له شواهدُ)، وجوَّد إسناده ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (١/ ١٤٣)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٧٧).

(٢) يُنظرُ حديثُ أبي هريرةَ المتقدم (ص: ٤٣٠).

(٣) ولم يُصوِّب الشنقيطي حملَ الآيةِ على هذا الحديثِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٢).

الثالثُ: أنَّ الجنَّةَ كانت مسكَنَ أبينا آدمَ عليه السَّلامُ، فإذا انتقلَت إلى أولادِه صار ذلك شبيهًا بالميراثِ[١].

الرابعُ: أنَّه ذكَر لفظَ الوراثةِ؛ لكونِها أقوَى الأسبابِ في التمليكِ والاستحقاقِ، مِن حيثُ إنَّها لا تُعقَبُ بفسخٍ، ولا استرجاعٍ، ولا تبطلُ بردٍّ وإسقاطٍ[٢].

الخامسُ: أنَّ الأتقياءَ يَلْقَوْنَ رَبَّهم يومَ القيامةِ قد انقضَتْ أعمالُهم، وثمرَتُها باقيةٌ وهي الجنَّةُ، فإذا أدخَلَهم الجنَّةَ فقَدْ أورَثَهم مِنْ تَقْواهم كما يورثُ الوارِثُ المالَ مِنَ المُتَوَفَّى[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ افتِتاحٌ بَديعٌ؛ لأنَّه مِن جوامِعِ الكَلِمِ؛ فإنَّ الفلاحَ غايةُ كلِّ ساعٍ إلى عمَلِه؛ فالإخبارُ بفَلاحِ المُؤمِنينَ دونَ ذِكْرِ مُتعلَّقٍ بفِعْلِ الفَلاحِ: يَقْتضي في المَقامِ الخِطابيِّ تَعميمَ ما به الفَلاحُ المطلوبُ، فكأنَّه قِيلَ: قد أفلَحَ المُؤمِنون في كلِّ ما رَغِبوا فيه. وتَضمَّنَ بِشارةً برِضَا اللهِ عنهم، ووَعدًا بأنَّ اللهَ مُكمِّلٌ لهم ما يَتطلَّبونَه مِن خَيرٍ[٤]، فحُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿أَفۡلَحَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم أفْلَحوا فَلاحًا كامِلًا[٥].

- وجاءتْ كَلِمةُ ﴿قَدۡ﴾ هاهنا؛ لإفادةِ ثُبوتِ ما كان مُتوقَّعَ الثُّبوتِ مِن قَبْلُ. والإخبارُ به على صِيغَةِ الماضي ﴿أَفۡلَحَ﴾ إنْ أُرِيدَ بالإفلاحِ حَقيقةُ الدُّخولِ في الفَلاحِ الَّذي لا يَتحقَّقُ إلَّا في الآخرةِ؛ فالإخبارُ به على صيغةِ الماضي

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((التفسير المظهري)) (٦/ ١٠٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للدَّلالةِ على تَحقُّقِه لا مَحالةَ بتَنزيلِهِ مَنزِلةَ الثَّابتِ. وإنْ أُرِيدَ كونُهم بحالٍ تَسْتتبِعُه الْبَتَّةَ؛ فصيغةُ الماضي في مَحلِّها[١]. وقيل: وَجْهُ تَوكيدِ هذا الخبرِ هنا بحَرفِ (قد) -الذي إذا دخَلَ على الفِعلِ الماضي أفادَ التَّحقيقَ، أي: التوكيدَ-: أنَّ المُؤمِنين كانوا مُؤمِّلينَ مِثلَ هذه البِشارةِ فيما سبَقَ لهم مِن رَجاءِ فَلاحِهم؛ فكانوا لا يَعرِفون تَحقُّقَ أنَّهم أَتَوا بما أرْضى رَبَّهم، فلمَّا أُخْبِروا بأنَّ ما تَرجَّوه قد حصَلَ، حُقِّقَ لهم بحَرفِ التَّحقيقِ، وبفِعْلِ المُضِيِّ المُستعمَلِ في معنى التَّحقُّقِ؛ فالإتيانُ بحَرفِ التَّحقيقِ لتَنزيلِ تَرقُّبِهم إيَّاهُ -لفَرطِ الرَّغبةِ والانتظارِ- مَنزِلةَ الشَّكِّ في حُصولِه[٢].

- وفي قولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ نِيطَ الفَلاحُ بوَصفِ الإيمانِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه السَّببُ الأعظمُ في الفَلاحِ، فإنَّ الإيمانَ وَصفٌ جامِعٌ للكَمالِ؛ لتَفرُّعِ جَميعِ الكَمالاتِ عليه[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ﴾ أُضِيفَتِ الصَّلاةُ إليهم؛ لأنَّ الصَّلاةَ دائرةٌ بين المُصلِّي والمُصلَّى له؛ فالمُصلِّي هو المُنتفِعُ بها وَحْدَه، وهي عُدَّتُه وذَخيرَتُه، فهي صَلاتُه، وأمَّا المُصلَّى له فغَنِيٌّ مُتعالٍ عن الحاجةِ إليها، والانتفاعِ بها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٤١، ٥٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤٧).

- وإجْراءُ الصِّفاتِ على ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بالتَّعريفِ بطَريقِ الموصولِ، وبتَكريرِه؛ للإيماءِ إلى وَجْهِ فَلاحِهم وعِلَّتِه، أي: أنَّ كلَّ خَصلةٍ مِن هاتِهِ الخِصالِ هي مِن أسبابِ فَلاحِهم؛ ولمَّا كانت كلُّ خَصلةٍ مِن هذه الخِصالِ تُنبِئُ عن رُسوخِ الإيمانِ مِن صاحِبِها، اعْتُبِرَتْ لذلك سَببًا للفَلاحِ، على أنَّ ذِكْرَ عِدَّةِ أشياءَ لا يَقْتَضي الاقتصارَ عليها في الغرضِ المذكورِ[(١)].

- وتَقييدُ الخُشوعِ بكَونِه في الصَّلاةِ؛ لقَصْدِ الجَمْعِ بين وَصْفِهم بأداءِ الصَّلاةِ وبالخُشوعِ. وذُكِرَ مع الصَّلاةِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ أوْلى الحالاتِ بإثارةِ الخُشوعِ وقُوَّتِه؛ ولذلك قُدِّمَت، ولأنَّه بالصَّلاةِ أعلَقُ؛ فإنَّ الصَّلاةَ خُشوعٌ للهِ تعالى وخُضوعٌ له، ولأنَّ الخُشوعَ لمَّا كان للهِ تعالى كان أوْلى الأحوالِ به حالَ الصَّلاةِ؛ لأنَّ المُصلِّيَ يُناجِي ربَّهُ، فيُشعِرُ نَفْسَه أنَّه بين يدَيْ رَبِّه، فيَخشَعُ له؛ ولهذا الاعتبارِ قُدِّمَ هذا الوَصْفُ على بَقيَّةِ أوصافِ المُؤمِنينَ، وجُعِلَ مُواليًا للإيمانِ؛ فقد حصَلَ الثَّناءُ عليهم بوَصفينِ[(٢)].

- وأيضًا قُدِّمَ ﴿فِي صَلَاتِهِمْ﴾ على ﴿خَٰشِعُونَ﴾؛ للاهتمامِ بالصَّلاةِ، وللإيذانِ بأنَّ لهم تَعلُّقًا شَديدًا بالصَّلاةِ؛ لأنَّ شأْنَ الإضافةِ أنْ تُفِيدَ شِدَّةَ الاتِّصالِ؛ لأنَّها على مَعْنى لامِ الاختصاصِ، فلو قيل: (الَّذين إذا صَلَّوا خَشَعُوا) فات هذا المعنى. وأيضًا لم يتأَتَّ وَصْفُهم بكَونِهم خاشعينَ إلَّا بُواسطةِ كَلمةٍ أُخرى، نَحْو: (كانوا خاشِعينَ)، وإلَّا يَفُتْ ما تدُلُّ عليه الجُملةُ الاسميَّةُ مِن ثَباتِ الخُشوعِ لهم ودَوامِه، أي: كونِ الخُشوعِ خُلُقًا لهم، بخِلافِ نَحوِ: (الَّذين خَشَعوا)؛ فحصَلَ الإيجازُ، ولم يَفُتِ الإعجازُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٩، ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ فيه إعادةُ اسمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ دونَ اكتفاءٍ بعَطْفِ صِلَةٍ على صِلَةٍ؛ للإشارةِ إلى أنَّ كلَّ صِفَةٍ مِن الصِّفاتِ مُوجِبةٌ للفَلاحِ، فلا يُتَوهَّمُ أنَّهم لا يُفْلِحون حتَّى يَجْمَعوا بين مَضامينِ الصَّلاةِ كلِّها، ولِمَا في الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ مِن زِيادةِ تَقريرٍ للخَبرِ في ذِهْنِ السَّامعِ[١].

- والتَّعبيرُ بـ ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ أبلَغُ مِن أنْ يُقالَ: (لا يَلْهُون)، مِن وُجوهٍ؛ وهي: جَعْلُ الجُملةِ اسميَّةً، وبِناءُ الحُكْمِ على الضَّميرِ، والتَّعبيرُ عنه بالاسمِ، وتَقديمُ الصِّلةِ عليه، وإقامةُ الإعراضِ مَقامَ التَّركِ؛ لِيَدُلَّ على تَباعُدِهم عنه رأْسًا؛ مُباشرةً وتَسبُّبًا، ومَيلًا وحُضورًا[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ وَصَفَهم بذلك بعْدَ وَصْفِهم بالخُشوعِ في الصَّلاةِ؛ لِيدُلَّ على أنَّهم بَلَغوا الغايةَ في القِيامِ على الطَّاعاتِ البَدنيَّةِ والماليَّةِ، والتَّجنُّبِ عن المُحرَّماتِ، وسائرِ ما تُوجِبُ المُروءةُ اجتِنابَه[٣]. أو لكَثرةِ التَّآخي بينَ الصلاةِ والزكاةِ في القُرآنِ، وإنَّما فُصِلَ بينهما هنا بالإعراضِ عن اللَّغوِ؛ لأنَّ اللَّغوَ ممَّا يَخطُرُ بالبالِ عندَ ذِكْرِ الصَّلاةِ بجامعِ الضِّدِّيَّةِ[٤].

- وعبَّرَ بقولِه: ﴿فَٰعِلُونَ﴾ ولم يقُلْ: (مُؤدُّون)؛ لأنَّه لمَّا كانتِ الزَّكاةُ تُوجِبُ زَكاءَ المالِ، كان لَفْظُ (الفِعْلِ) أَلْيقَ به مِن لَفْظِ (الأداءِ)؛ كأنَّه قِيلَ: لأجْلِ زَكاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣).

المالِ يَفْعلون ما يَفْعلون، فالمُؤدَّى يَصيرُ زَكاةً بفِعْلِ المُزكِّي. وفي ﴿فَٰعِلُونَ﴾ إشارةٌ إلى المُداومَةِ ما ليس في الأداءِ؛ تقولُ: هذا فِعْلُه، أي: شأْنُه ودأْبُه وعادَتُه[١].

وقيل: لا تُسمَّى العينُ المُخرَجةُ زَكاةً، فكان التَّعبيرُ بالفِعْلِ عن إخراجِه أوْلى منه بالأداءِ[٢]. وقيل: إنَّما أُوثِرَ هنا الاسمُ الأعَمُّ -وهو فاعِلونَ-؛ لأنَّ مادَّةَ (ف ع ل) مُشْتهَرةٌ في إسداءِ المعروفِ، واشْتُقَّ منها الفَعَالُ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ ذُكِرَ حِفْظُ الفَرجِ هنا عَطْفًا على الإعراضِ عن اللَّغوِ؛ لأنَّ مِن الإعراضِ عن اللَّغوِ تَرْكَ اللَّغوِ بالأحرى؛ لأنَّ زَلَّةَ الصَّالحِ قد تأْتيهِ مِن انفلاتِ أحَدِ هذينِ العُضوينِ (اللسانِ والفرجِ) مِن جِهةِ ما أُودِعَ في الجِبِلَّةِ مِن شَهوةِ استعمالِهما[٤]. أو أُفرِدَ ذلك بالذِّكْرِ بعْدَ تَعميمِ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾؛ لأنَّ المُباشَرةَ أشْهَى الملاهي إلى النَّفسِ، وأعظَمُها خَطرًا[٥].

- قولُه: ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ تَعليلٌ لِمَا يُفيدُه الاستثناءُ مِن عدَمِ حِفْظِ فُروجِهم مِنهنَّ[٦]؛ فالفاءُ في ﴿فَإِنَّهُمۡ﴾ تَفريعٌ للتَّصريحِ على مَفهومِ الاستِثناءِ الَّذي هو في قُوَّةِ الشَّرطِ، فأشبَهَ التَّفريعُ عليه جَوابَ الشَّرطِ، فقُرِنَ بالفاءِ؛ تَحقيقًا للاشتراطِ. وزِيدَ ذلك التَّحذيرُ تَقريرًا بأنْ فُرِّعَ عليه ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾؛ لأنَّ داعيةَ غَلبةِ شَهوةِ الفَرْجِ على حِفظِ صاحِبِه

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٢، ٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٥٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٤).

إيَّاهُ غَريزةٌ طبيعيَّةٌ، يُخْشَى أنْ تَتغلَّبَ على حافِظِها[١].

- وأُتِيَ لهم باسمِ الإشارةِ (أولئك) في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾؛ لزِيادةِ تَمييزِهم بهذه الخَصلةِ الذَّميمةِ؛ ليَكونَ وَصْفُهم بالعُدوانِ مَشهورًا مُقرَّرًا. وتَوسيطُ ضَميرِ الفصلِ (هُم)؛ لتَقويةِ الحُكْمِ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ فيه جَمْعُ الأماناتِ باعتبارِ تَعدُّدِ أنواعِها، وتَعدُّدِ القائمينَ بالحِفْظِ؛ تَنصيصًا على العُمومِ[٣]. والجَمْعُ بين رَعْيِ الأماناتِ ورَعْيِ العهدِ؛ لأنَّ العَهدَ كالأمانةِ؛ لأنَّ الَّذي عاهَدَك قدِ ائتَمَنَك على الوفاءِ بما يَقْتَضيه ذلك العَهدُ. وذِكْرُهما عقِبَ أداءِ الزَّكاةِ؛ لأنَّ الزَّكاةَ أمانةُ اللهِ عندَ الَّذين أنعَمَ عليهم بالمالِ؛ ولذلك سُمِّيَت: حَقَّ اللهِ، وحَقَّ المالِ، وحَقَّ المِسكينِ[٤].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ فيه تَكرارُ ذِكْرِ الصَّلاةِ أوَّلًا وآخِرًا؛ لأنَّهما ذِكْرانِ مُختلفانِ وليس بتَكريرٍ؛ فالخُشوعُ في الصَّلاةِ غيرُ المُحافَظةِ عليها، حيث وُصِفُوا أوَّلًا بالخُشوعِ في صَلاتِهم، وآخِرًا بالمُحافَظةِ عليها؛ وذلك ألَّا يَسْهُوا عنها، ويُؤدُّوها في أوقاتِها، ويُقِيموا أركانَها، ويُوكِلُوا نُفوسَهم بالاهتمامِ بها، وبما يَنْبَغي أنْ تَتِمَّ به أوصافُها. وأيضًا وُحِّدَتْ أوَّلًا؛ لِيُفادَ الخُشوعُ في جِنْسِ الصَّلاةِ أيَّ صَلاةٍ كانت، وجُمِعَت آخِرًا؛ لِتُفادَ المُحافظةُ على أعدادِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨).

- وأيضًا حصَلَ بذلك تَكريرُ ذِكْرِ الصَّلاةِ؛ تَنويهًا بها، ورَدًّا للعجُزِ على الصَّدرِ؛ تَحْسينًا للكلامِ الَّذي ذُكِرَت فيه تلك الصِّفاتُ؛ لِتَزدادَ النفْسُ قَبولًا لِسَماعِها ووَعْيِها، فتَتأسَّى بها[١].

- والمُحافَظةُ في قولِه: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ مُستعمَلةٌ في المُبالَغةِ في الحِفْظِ، وأتَى بلَفْظِ الفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُحَافِظُونَ﴾، ولم يقُلْ: (مُحافِظون)؛ لِمَا في الصَّلاةِ منَ التَّجدُّدِ والتَّكرُّرِ، وهو السِّرُّ في جَمْعِها. وفصَلَ المحافظةَ على الصلاةِ عن الخشوعِ فيها، المذكورِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]؛ للإيذانِ بأنَّ كلًّا منهما فَضيلةٌ مُستقِلَّةٌ على حِيالِها، ولو قُرِنَا في الذِّكْرِ لَرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ مَجموعَ الخُشوعِ والمُحافظةِ فَضيلةٌ واحدةٌ، وفي تَصديرِ الأوصافِ وخَتْمِها بأمْرِ الصَّلاةِ: تَعظيمٌ لِشأْنِها[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لِيُفيدَ أنَّ جَدارتَهم بما سيُذْكَرُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ حَصَلَت مِن اتِّصافِهم بتلك الصِّفاتِ المُتقدِّمةِ[٣]، وإيثارُه على الإضمارِ؛ للإشعارِ بامتيازِهم بها عن غَيرِهم، ونُزولِهم مَنزِلةَ المُشارِ إليه حِسًّا، وما فيه مِن مَعنى البُعْدِ؛ للإيذانِ بعُلُوِّ طَبقتِهم، وبُعْدِ دَرجتِهم في الفضلِ والشَّرفِ[٤].

- وتَوسيطُ ضَميرِ الفصلِ (هُم)؛ لتَقويةِ الخَبرِ عنهم بذلك. أو أفادَ تَعريفُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٥).

الخبرِ وتَوسيطُ ضَميرِ الفصلِ الحَصْرَ[١].

- وحُذِفَ مَعمولُ ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾؛ لِيَحصُلَ إبهامٌ وإجمالٌ، فيَترقَّبَ السَّامِعُ بَيانَه؛ فبُيِّنَ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ قَصْدًا لتَفخيمِ هذه الوِراثةِ وتأْكيدِها[٢]. والإتيانُ في البَيانِ باسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الَّذي شأْنُه أنْ يَكونَ مَعلومًا للسَّامعِ بمَضمونِ صِلَتِه؛ إشارة إلى أنَّ تَعريفَ ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ تَعريفُ العَهْدِ، كأنَّه قِيلَ: هم أصحابُ هذا الوَصفِ المَعْروفونَ به[٣].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠).

الآيات (١٢-١٦)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُلَٰلَةٍ﴾: أي: ما يُسَلُّ مِن كُلِّ تُربةٍ، والسُّلالةُ: فُعالةٌ مِن السَّلِّ، وهو استخراجُ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، ومنه قولُهم: سلَلْتُ الشَّعرَ من العَجينِ فانسَلَّ[(١)].

﴿نُطْفَةً﴾: النُّطفةُ: هي المنيُّ[(٢)]، وقيل: الماءُ الصَّافي، وقيل: الماءُ القليلُ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[(٣)].

﴿قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾: أي: مُستَقَرٍّ حصينٍ، وهو الرَّحِمُ، وأصلُ (قرر): يدلُّ على تمكُّنٍ، والمكينُ: المُتمكِّنُ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٢) وقال الشنقيطي: (النُّطْفة مختلِطةٌ مِن ماءِ الرَّجلِ وماءِ المرأةِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٦). وذكَر الدليلَ على ذلك، فقال: (بدليلِ قولِه تعالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: أخلاطٍ مِنْ ماءِ الرَّجلِ وماءِ المرأةِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤٠).

﴿عَلَقَةً﴾: العَلَقةُ: الدَّمُ الجامِدُ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ[١].

﴿مُضْغَةً﴾: المُضْغةُ: القِطعةُ الصَّغيرةُ مِن اللَّحمِ قَدْرَ ما يُمضَغُ، وأصلُها: مِن المَضْغِ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ اللهُ تعالى أنه خلَق آدَمَ مِن طينٍ مأخوذٍ مِن جَميعِ الأرضِ، ثمَّ جعل سبحانه وتعالى ابنَ آدم نطفةً تَستَقِرُّ محفوظةً في رحمِ المرأةِ، ثمَّ صَيَّر اللهُ تعالى النُّطفةَ قِطعةَ دَمٍ، فجعَلها قِطعةَ لَحمٍ صغيرةٍ، فجعَلها عِظامًا مختلفةً، وشَكَّلها ذاتَ رأسٍ ويدينِ ورِجلَينِ، ثم ألبس تلك العِظامَ لَحمًا، ثمَّ أنشَأه خَلقًا آخَرَ بأن نفخَ فيه الرُّوحَ، فتبارَكَ اللهُ الذي أحسَنَ وأتقنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَه!

ثمَّ يُذكِّرُ الله البشرَ أنَّهم بعدَ ذلك سيموتونَ، ثمَّ بعدَ موتِهم سيُبْعثونَ يومَ القيامةِ مِن قُبورِهم؛ للحِسابِ والجَزاءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ سبحانه بالعباداتِ في الآيةِ المتقَدِّمةِ، والاشتغالُ بعبادةِ الله لا يَصِحُّ إلَّا بعد معرفةِ الإلهِ الخالقِ؛ لا جرَمَ عقَّبَها بذِكرِ ما يدُلُّ على وجودِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

واتِّصافِه بصفاتِ الجلالِ والوحدانيَّةِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكر اللهُ تعالى أنَّ المتَّصفينَ بتلك الأوصافِ الجليلةِ هم يَرِثونَ الفِردَوسَ، فتضَمَّنَ ذلك المعادَ الأُخرويَّ- ذكَرَ النشأةَ الأولى؛ ليستَدِلَّ بها على صِحَّةِ النشأةِ الآخرةِ[٢].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

أي: ولقد خلَق اللهُ تعالَى آدَمَ عليه السلامُ مِن طينٍ أُخِذ مِن جميعِ الأرضِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالإنسانِ: آدمُ: مقاتلُ بنُ سليمان، ويحيى بن سلام، والزجَّاج، والسمرقندي، والقصَّاب، وابن أبي زمنين، وابن كثير، وابن القيم، والعُليمي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٩٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧٥)، ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٣)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥٨٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٢).

قال ابن كثير: (وقال قتادَةُ: استُلَّ آدمُ مِنَ الطِّينِ. وهذا أظهرُ في المعنَى، وأقربُ إلى السِّياقِ، فإنَّ آدَمَ عليه السَّلامُ خُلِق مِن طينٍ لازِبٍ، وهو الصَّلصالُ مِنَ الحمَأِ المسنونِ، وذلك مخلوقٌ مِنَ التُّرابِ، كما قالَ تعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٥).

وقال ابنُ عاشور في معنى السُّلالةِ بناءً على هذا القولِ: (السُّلالةُ: الطِّينَةُ الخاصَّةُ الَّتي كَوَّن اللَّهُ منها آدمَ، وهي الصَّلْصالُ الَّذي مَيَّزَه مِنَ الطِّينِ في مبدأِ الخليقةِ، فتلك الطِّينةُ مسلولةٌ سَلًّا خاصًّا مِنَ الطِّينِ ليتكَوَّنَ منها حَيٌّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣). =

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ﴾ [الحج: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ * ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴾ [السجدة: ٧، ٨].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ تعالى خلَقَ آدَمَ مِن قَبضَةٍ قبَضَها مِن جَميعِ الأرضِ، فجاء

= وقيل: المرادُ بالإنسانِ: ابنُ آدمَ. وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والثعلبي، والسمعاني، والواحدي، والبغوي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٦٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٦٤).

قال ابنُ الجوزي: (﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾ فيه قولان: أحدُهما: أنَّه آدمُ عليه السَّلامُ، وإنَّما قيل: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ﴾؛ لأنَّه استُلَّ مِن كُلِّ الأرضِ. هذا مذهبُ سلمانَ الفارسيِّ، وابنِ عبَّاسٍ في روايةٍ، وقتادةَ. والثاني: أنَّه ابنُ آدم، والسُّلالةُ: النُّطفةُ استُلَّت من الطينِ، والطينُ: آدمُ عليه السلامُ. قاله أبو صالحٍ عن ابن عباسٍ. قال الزجَّاج: والسُّلالةُ: فُعالةٌ، وهي القليلُ مما يَنسَلُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٧).

وقال السمعاني: (وقولُه: ﴿مِّن طِينٖ﴾ الطينُ هاهُنا هو آدمُ، وعليه الأكثرونَ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٦٦).

وقال ابن جُزي: (ويحتملُ عندي أن يرادَ بالإنسانِ الجنسُ الذي يعُمُّ آدمَ وذريتَه، فأجمَلَ ذِكرَ الإنسانِ أوَّلًا، ثم فصَّلَه بعد ذلك إلى الخِلقةِ المختصَّةِ بآدمَ: وهي من طينٍ، وإلى الخِلقةِ المختصَّةِ بذريَّتِه، وهي النطفةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩).

وقولُه: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ (مِن) الأولى ابتدائيَّةٌ متعلِّقةٌ بالخَلقِ، و(مِنْ) الثانية بيانيَّةٌ متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقَعَ صفةً لسُلالة، أي: خلقناهُ مِن سُلالةٍ كائنةٍ مِن طينٍ. ويجوزُ أنْ تتعلَّق بسُلالة على أنَّها بمعنى مسلولةٍ؛ فهي ابتدائيَّةٌ كالأُولى. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٠، ٥٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٦).

بنو آدَمَ على قَدْرِ الأرضِ[١]، فجاء منهم الأحمَرُ والأبيَضُ، والأسْوَدُ وبيْنَ ذلك، والسَّهلُ والحَزْنُ[٢]، والخَبيثُ والطَّيِّبُ))[٣].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: ثمَّ جعَلْنا ابنَ آدمَ[٤] نُطفةً[٥]، .....

---

(١) على قَدْرِ الأرضِ، أي: مَبْلَغِها من الألوانِ والطِّباعِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١٧٦).

(٢) والسَّهلُ، أي: اللَّيِّنُ. والحَزْنُ، أي: الغَليظُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١٧٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٩٥٥)، وأحمد (١٩٦٤٢).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيح)، وصحَّحه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٧٤)، وابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (ص١٢٦)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٦٩٣).

(٤) على القولِ بأنَّ المرادَ بالإنسانِ آدمُ: فالمرادُ بقولِه: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ بنو آدمَ، (ويكونُ الضميرُ يعودُ على غيرِ مَن ذُكِرَ أوَّلًا، ولكن يفسِّره سياقُ الكلامِ، وإن أراد بالإنسانِ ابنَ آدم فيستقيمُ عودُ الضمير عليه، ويكون معنى خَلْقِه مِن سُلالَةٍ مِن طِينٍ: أي: خلْقِ أصلِه، وهو أبوه آدمُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩).

وقال القصَّاب: (﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ الهاء: غيرُ راجعةٍ إلى آدمَ، بل راجعةٌ على ولدِه؛ لأنَّهم شاركوه باسم الإنسيَّةِ، وهي عمومٌ منهم، إلَّا عيسى صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّه غيرُ مجعولٍ نطفةً، بل مخلوقٌ بقدرةِ الربِّ في بطن أمِّه، وحواءُ خارجةٌ مِن الطينِ والنُّطفةِ معًا؛ لأنَّ خَلْقَها بعدَ خلقِ آدمَ، وبعدَ نفْخِ الرُّوحِ فيه مِن ضِلَعٍ مِن أضلاعِه، والضِّلَعُ حينئذٍ عظمٌ). ((النكت الدالة على البيان)) (٢/ ٣٤٥).

(٥) قال الشنقيطي: (خُلِقَ الإنسانُ مِن نطفةٍ، وهي مَنيُّ الرجلِ ومَنيُّ المرأةِ... وقال صاحبُ «الدر المنثور» بعد ذكرِ بعض الرواياتِ في تفسير الأمشاجِ بالأخلاطِ مِن ماء الرجلِ وماء المرأةِ: وأخرج الطستي عن ابنِ عباسٍ: أنَّ نافِعَ بنَ الأزرق، قال: أخبِرْني عن قوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ قال: اختلاطُ ماءِ الرجلِ وماء المرأةِ إذا وقع في الرحمِ... إذا عرَفتَ معنى ذلك، فاعلمْ أنَّه تعالى بيَّنَ أنَّ ذلك الماءَ الذي هو النطفةُ: منه ما هو خارجٌ مِن الصُّلبِ، وهو ماءُ الرجلِ، ومنه ما هو خارجٌ مِن الترائبُ، وهو: ماءُ المرأةِ، وذلك في قولِه جلَّ وعلا: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥ - ٧]؛ لأنَّ المرادَ بالصُّلبِ: صُلبُ الرجلِ، وهو ظهرُه، والمرادَ بالترائبِ: ترائبُ المرأةِ، وهي موضِعُ القِلادةِ منها... فقولُه هنا: ﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ يدُلُّ على أنَّ الأمشاجَ هي الأخلاطُ المذكورةُ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

مُستَقِرَّةً محفوظةً في رَحِمِ المرأةِ[١].

كما قال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: ٢٠- ٢٢].

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾.

أي: ثمَّ صيَّرْنا النُّطْفةَ قِطعةَ دَمٍ تعْلَقُ في الرَّحمِ[٢].

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾.

أي: فجعَلْنا قِطعةَ الدَّمِ قِطعةَ لَحمٍ صَغيرةً، لا شَكلَ فيها ولا تَخطيطَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٢، ٣٢٣).

قال الشنقيطي: (القرارُ هنا: مكانُ الاستقرارِ، والمكينُ: المتمكِّنُ، وُصِفَ القرارُ به؛ لتمكُّنِه في نفْسِه، بحيث لا يَعرِضُ له اختلالٌ، أو لتمكُّنِ مَن يحُلُّ فيه، قاله أبو حيانَ في «البحر». وقال الزمخشري: القرارُ: المستقَرُّ، والمراد به: الرَّحِمُ، وصِفَت بالمكانةِ التي هي صفةُ المستقِرِّ فيها، أو بمكانتِها في نفْسِها؛ لأنَّها مَكُنَت بحيث هي وأُحرِزت). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٢٤).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥١).

وقال البقاعي: (﴿فِى قَرَارٍ﴾ أي: مِن الصُّلبِ والترائبِ ثمَّ الرَّحمِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حَدَّثَنا رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو الصَّادِقُ المَصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلقُه في بَطنِ أمِّه أربعينَ يَومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك))(١).

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾.

أي: فجعَلْنا قِطعةَ اللَّحمِ عِظامًا مُختَلِفةً، شَكَّلْناها ذاتَ رأسٍ ويدينِ ورِجلَينِ(٢).

﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾.

أي: فألبَسْنا تلك العِظامَ لَحمًا(٣).

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾.

أي: ثمَّ نفَخْنا فيه الرُّوحَ، فتحَوَّلَ إنسانًا حَيًّا، وبشَرًا سَوِيًّا(٤).

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

أي: فتعاظَمَ وكثُرَ خَيرُ اللهِ أتقنِ الصَّانِعينَ، الذي أتْقَنَ كلَّ شَيءٍ خلَقَه(٥)!

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) واللفظ له، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١، ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٦، ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

قال الراغب: (كلُّ موضعٍ ذُكِرَ فيه لفظُ «تبارك» فهو تنبيهٌ على اختِصاصِه تعالى بالخَيراتِ المذكورةِ مع ذِكرِ «تبارك»). ((المفردات)) (ص: ١٢٠). =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

وعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أنَّه كان إذا سجَدَ قال: ((اللهمَّ لك سجَدْتُ، وبك آمَنْتُ، ولك أسلَمْتُ، سَجَد وَجْهي للَّذي خلقَه وصَوَّره، وشقَّ سَمْعَه وبصَرَه، تبارك اللهُ أحسَنُ الخالِقِينَ))(١).

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥﴾.

أي: ثمَّ إنَّكم -أيُّها النَّاسُ- بعد أنْ خلَقْناكم وأحيَيناكم ستَموتونَ، فتَعودونَ تُرابًا كما كُنتُم(٢).

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ١٦﴾.

أي: ثمَّ إنَّكم -أيُّها النَّاسُ- ستُبعَثونَ يومَ القيامةِ مِنَ التُّرابِ؛ للحِسابِ والجَزاءِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۞ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ

= وقال ابنُ جُزي: (أي: أحسنُ الخالقينَ خَلقًا، فحُذِف التمييزُ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه. وفسَّرَ بعضُهم ﴿ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ بالمقدِّرينَ؛ فرارًا مِن وصفِ المخلوقِ بأنَّه خالقٌ، ولا يجِبُ أن يُنفَى عن المخلوقِ أنَّه خالقٌ بمعنى صانعٍ، كقولِه: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ [المائدة: ١١٠]، وإنما الذي يجبُ أن يُنفَى عنه: معنى الاختراعِ والإيجادِ مِن العدَمِ؛ فهذا هو الذي انفردَ الله به). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣١، ١٣٢).

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۞ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ فيه تنبيهٌ للإنسانِ أن يكون الموتُ نُصبَ عينَيه، ولا يَغفُلَ عن ترَقُّبِه؛ فإنَّ مآلَه إليه، لأنَّ الإنسانَ في الحياةِ الدُّنيا يسعَى فيها غايةَ السَّعيِ، ويَكِدُّ ويجمَعُ حتى كأنَّه مُخلَّدٌ فيها، فنبَّه بذِكرِ الموتِ مؤكِّدًا مبالِغًا فيه؛ لِيُقصِرَ، ولِيَعلَمَ أنَّ آخِرَه إلى الفناءِ، فيعمَلَ لدارِ البقاءِ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ فيه ردٌّ على مَن زعَمَ أنَّ الإنسانَ هو الرُّوحُ فقط، وقد بيَّن تعالى أنَّ الإنسانَ مركَّبٌ مِن هذه الأشياءِ. وفيه ردٌّ أيضًا على الفلاسِفةِ في زَعمِهم أنَّ الإنسانَ شَيءٌ لا ينقَسِمُ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ مِن إعجازِ القُرآنِ العِلميِّ تسميةُ هذا الكائِنِ باسمِ العَلَقةِ؛ فإنَّه وَضعٌ بديعٌ لهذا الاسمِ؛ إذ قد ثبت في عِلمِ التَّشريحِ أنَّ هذا الجزءَ الذي استحالت إليه النُّطفةُ هو كائنٌ له قوَّةُ امتصاصِ القُوَّةِ مِن دَمِ الأمِّ؛ بسبَبِ التِصاقِه بعروقٍ في الرَّحِمِ تدفَعُ إليه قُوَّةَ الدَّمِ[3].

٣- إن قيل: كيف الجمعُ بينَ قَولِه: ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾، وقَولِه: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣، ٢٤).

فالجوابُ: أنَّ الخَلقَ يكونُ بمعنى الإيجادِ، ولا مُوجِدَ سِوى اللهِ، ويكونُ بمعنى التَّقديرِ، كقولِ زُهَيرٍ[١]:

وبعضُ القَومِ يَخلُقُ ثمَّ لا يَفري[٢].

فهذا المرادُ هاهنا: أنَّ بني آدَمَ قد يصوِّرونَ ويُقَدِّرونَ ويَصنَعونَ الشَّيءَ؛ فاللهُ خَيرُ المصوِّرينَ والمقَدِّرينَ. وقال الأخفَشُ: الخالقونَ هاهنا هم الصَّانِعونَ، فاللهُ خيرُ الخالِقينَ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ فيه سؤالٌ: قد يُفهَمُ مِن هذه الآيةِ نفيُ عذابِ القبرِ؛ لأنَّه لم يَذكُرْ بينَ الأمْرينِ الإحياءَ في القبرِ والإماتةَ؟

الجوابُ مِن وجوهٍ:

الوجه الأول: أنَّه ليس في ذِكرِ الحياتينِ نفيُ الثالثةِ.

الوجه الثاني: أنَّ الغرضَ ذِكرُ هذه الأجناسِ الثلاثةِ -الإنشاءُ والإماتةُ والإعادةُ-، والذي تُرِكَ ذِكرُه فهو مِن جنسِ الإعادةِ[٤].

الوجه الثالث: أنَّه عيَّن البعثَ الأكبرَ التامَّ الذي هو محطُّ الثوابِ والعقابِ؛ لأنَّ مَن أقرَّ به أقرَّ بما هو دونَه مِن الحياةِ في القبرِ وغيرِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((ديوان زهير بن أبي سلمى)) (ص: ٥٦).

(٢) الخَلقُ: التَّقديرُ. والفَرْيُ: القَطعُ على وَجهِ الإصلاحِ، ولا يَفْري: أي: لا يَقطَعُ. يُنظر: ((غريب الحديث)) للقاسم بن سلام (٤/ ٢١٦)، ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (١/ ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١١٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ شُروعٌ في بَيانِ مَبدأِ خَلْقِ الإنسانِ، وتَقلُّبِه في أطوارِ الخِلْقةِ، وأدوارِ الفِطْرةِ بَيانًا إجْماليًّا[١]. والواوُ في ﴿ وَلَقَدْ ﴾ عاطفةٌ غرَضًا على غرَضٍ، ويُسمَّى عطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، فالجُملةُ استئنافٌ؛ لأنَّها عَطْفٌ على جُملةِ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ١] الَّتي هي ابتدائيَّةٌ، وهذا شُروعٌ في الاستدلالِ على انفرادِ اللهِ تعالى بالخلْقِ وبَعظيمِ القُدرةِ الَّتي لا يُشارِكُه فيها غيرُه، وعلى أنَّ الإنسانَ مَربوبٌ للهِ تعالى وَحْدَه، والاعتبارِ بما في خَلْقِ الإنسانِ وغَيرِه مِن دلائلِ القُدرةِ ومِن عَظيمِ النِّعمةِ؛ فالمَقصودُ منه إبطالُ الشِّركِ، ويَتضمَّنُ ذلك امتنانًا على النَّاسِ بأنَّه أخرَجَهم مِن مَهانةِ العدَمِ إلى شَرفِ الوُجودِ؛ وذلك كلُّه لِيَظهَرَ الفَرقُ بين فَريقِ المُؤمِنينَ الَّذين جَرَوا في إيمانِهم على ما يَلِيقُ بالاعترافِ بذلك، وبينَ فَريقِ المُشرِكين الَّذين سَلَكوا طَريقًا غيرَ بَيِّنَةٍ، فحادُوا عن مُقْتَضى الشُّكْرِ بالشِّركِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ﴾ تأْكيدُ الخَبرِ بلامِ القَسمِ وحَرْفِ التَّحقيقِ (قد)، وهو مُراعًى فيه التَّعريضُ بالمُشرِكين المُنزَّلينَ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ هذا الخَبرَ؛ لِعَدمِ جَرْيِهم على مُوجَبِ العلْمِ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾

- قولُه: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ... ﴾، أي: وَضْعَناها فيه؛ حِفْظًا لها؛ ولذلك غُيِّرَ في الآيةِ التَّعبيرُ عن فِعْلِ الخَلْقِ إلى فِعْلِ الجَعْلِ المُتعدِّي بـ (في) بمعنى الوَضْعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١، ٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٣).

- و﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتْبِيِّ؛ لأنَّ ذلك الجعلَ أعظمُ مِنْ خلقِ السُّلالَةِ[١].

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿ جَعَلْنَٰهُ ﴾ عائدٌ على ابنِ آدَمَ وإنْ كان لم يُذْكَرْ؛ لِشُهرةِ الأمْرِ، أو على حَذْفِ مُضافٍ، أي: ثُمَّ جعَلْنا نَسْلَه؛ ففيه إيجازٌ بالحَذفِ[٢].

- قولُه: ﴿ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ المكينُ، أي: الثابتُ في المكانِ بحيث لا يُقْلَعُ مِن مكانِه؛ فمُقْتَضى الظَّاهرِ أنْ يُوصَفَ بالمَكينِ الشَّيءُ الحالُّ في المكانِ الثَّابتِ فيه، وقد وقَعَ هنا وَصْفًا لنَفْسِ المكانِ الَّذي استقرَّتْ فيه النُّطفةُ؛ للمُبالَغةِ، وحَقيقتُه: مَكينٌ حالُه[٣]. وأيضًا عُبِّرَ عن الرَّحمِ بالقَرارِ الَّذي هو مَصدرٌ؛ مُبالَغةً[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ فيه اخْتِلافُ حُروفِ العَطْفِ (ثمَّ - الفاء)؛ لِتَفاوُتِ الاستحالاتِ[٥]. وعُطِفَ جَعْلُ العَلَقةِ مُضغةً بالفاءِ؛ لأنَّ الانتقالَ مِن العَلقةِ إلى المُضْغةِ يُشْبِهُ تَعقيبَ شَيءٍ عن شَيءٍ؛ إذِ اللَّحمُ والدَّمُ الجامِدُ مُتقارِبانِ، فتَطوُّرُهما قَريبٌ، وإنْ كان مُكْثُ كلِّ طَورٍ مُدَّةً طويلةً[٦]. وجُمِعَ (عظام)؛ لاختلافِها في الهيئةِ والصَّلابةِ[٧].

- وعُطِفَ بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ في قولِه: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾؛ لكَمالِ التَّفاوُتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٦).

(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٦).

بين الخَلْقين[١].

- قولُه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه؛ لأنَّ (تبارَكَ) لمَّا حُذِفَ مُتعلِّقُه كان عامًّا، فيَشمَلُ عَظمةَ الخيرِ في الخَلْقِ وفي غَيرِه. وكذلك حَذْفُ مُتعلِّقِ (الخالقينَ) يَعُمُّ خَلْقَ الإنسانِ، وخلْقَ غيرِه كالجبالِ والسَّمواتِ. والفاءُ في ﴿فَتَبَارَكَ ...﴾ تَفريعٌ على حِكايةِ هذا الخَلْقِ العجيبِ بإنشاءِ الثَّناءِ على اللهِ بأنَّه أحسَنُ الخالِقِينَ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ الْتِفاتٌ إلى الاسمِ الجليلِ؛ لتَربيةِ المَهابَةِ، وإدخالِ الرَّوعةِ، والإشعارِ بأنَّ ما ذُكِرَ مِن الأفاعيلِ العجيبةِ مِن أحكامِ الأُلوهيَّةِ، وللإيذانِ بأنَّ حَقَّ كلِّ مَن سمِعَ ما فُصِّلَ مِن آثارِ قُدرتِه عَزَّ وعَلا أو لَاحَظَهُ: أنْ يُسارِعَ إلى التَّكلُّمِ به؛ إجلالًا وإعظامًا لشُؤونِه تعالى[٣].

- وأيضًا في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ ما يُعرَفُ بـ «ائتِلافِ الفاصِلةِ»[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ إدماجٌ[٥] في أثناءِ تَعدادِ الدَّلائلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٦).

(٤) ائتلافُ الفاصلةِ أو التمكينُ: هو أن يُمَهَّدَ قبلَ الفاصلةِ تمهيدٌ تأتي به الفاصلةُ مُمَكَّنةً في مكانها، مُستقرَّةً في قرارِها، مُطمئِنَّةً في موضعها، غيرَ نافرةٍ ولا قَلِقةٍ، مُتعلِّقًا معناها بمعنى الكلامِ كلِّه تَعلُّقًا تامًّا، بحيثُ لو طُرِحتْ لاختلَّ المعنى، واضطرَبَ الفَهمُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٧٩)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٨).

(٥) الإدماجُ لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ؛ =

على تَفرُّدِ اللهِ بالخَلْقِ على اختلافِ أصنافِ المخلوقاتِ؛ لِقَصدِ إبطالِ الشِّركِ. و(ثمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لأنَّ أهميَّةَ التَّذكيرِ بالموتِ في هذا المَقامِ أقْوى مِن أهميَّةِ ذِكْرِ الخَلقِ؛ لأنَّ الإخبارَ عن مَوتِهم تَوطِئةٌ للجُملةِ بَعْدَه -وهي قولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾- وهو المقصودُ. وهذه الجُملةُ لها حُكْمُ الجُملةِ الابتدائيَّةِ، وهي مُعترِضةٌ بين الَّتي قبْلَها وبين جُملةِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧]. ولِكَونِ (ثمَّ) لم تُفِدْ مُهلةً في الزَّمانِ هنا، صُرِّحَ بالمُهلةِ في قولِه: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾[(١)].

- وقيل: لَمَّا كانت إماتةُ ما صار هكذا -بعد القوَّةِ العظيمةِ والإدراكِ التامِّ- من الغرائبِ، وكان وجودُها فيه وتَكرارُها عليه في كلِّ وقتٍ قد صيَّرها أمرًا مألوفًا، وشيئًا ظاهرًا مكشوفًا، وكان عُتُوُّ الإنسانِ على خالِقِه وتمرُّدُه ومخالفتُه لأمرِه -نسيانًا لهذا المألوفِ- كالإنكارِ له؛ أشار إلى ذلك بقولِه تعالى مُسبِّبًا مبالغًا في التأكيدِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾، ولَمَّا كان الممكِنُ ليس له مِن ذاتِه إلا العَدَمُ، نزع الجارَّ فقال: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: الأمرِ العظيمِ مِن الوصفِ بالحياةِ والمدِّ في العمُرِ في آجالٍ مُتفاوتةٍ ﴿لَمَيِّتُونَ﴾[(٢)].

- قولُه: ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ أي: لَصائِرونَ إلى الموتِ لا مَحالةَ؛ كما يُؤْذِنُ به اسميَّةُ

= كقولِه تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١١٧).

الجُملةِ، و(إنَّ)، واللَّامُ، وصيغةُ النَّعتِ (مَيِّت) الدَّالَّةُ على الثُّبوتِ دونَ الحُدوثِ الذي تُفيدُه صيغةُ الفاعِلِ (مائِت)[١]؛ ففي قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ بُولِغَ في تأْكيدِ ذلك بـ (إنَّ) وباللَّامِ؛ تَنبيهًا للإنسانِ أنْ يكونَ الموتُ نُصْبَ عَينَيه، ولم تُؤكَّدْ جُملةُ البَعثِ إلَّا بـ (إنَّ)؛ لأنَّه أُبرِزَ في صورةِ المقطوعِ به الَّذي لا يُمكِنُ فيه نِزاعٌ، ولا يَقْبَلُ إنكارًا، وأنَّه حَتْمٌ لا بُدَّ مِن كِيانِه، فلم يُحتَجْ إلى تَوكيدٍ ثانٍ[٢].

- وقيل: أُكِّدَ هذا الخبرُ بـ (إنَّ) واللَّامِ مع كَونِهم لا يَرتابونَ فيه؛ لأنَّهم لمَّا أعْرَضُوا عن التَّدبيرِ فيما بعْدَ هذه الحياةِ، كانوا بمَنزِلةِ مَن يُنكِرونَ أنَّهم يَموتونَ، وتَوكيدُ خَبرِ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾؛ لأنَّهم يُنكِرونَ البَعثَ، ويكونُ ما ذُكِرَ قبْلَه مِن الخَلْقِ الأوَّلِ دَليلًا على إمكانِ الخَلْقِ الثَّاني؛ فلم يُحتَجْ إلى تَقويةِ التَّأكيدِ بأكثَرَ مِن حَرفِ التَّأكيدِ وإنْ كان إنكارُهم البعثَ قَوِيًّا[٣]. وقيل: لم يُخْلِه عن التأكيدِ؛ لكونِه على خلافِ العادةِ[٤].

- وقيل: أُكِّدَ قولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ باللَّامِ دونَ قولِه بَعْدَه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾، مع أنَّ المذكورينَ يُنكِرون البعثَ دونَ الموتِ؛ لأنَّه لمَّا كان العَطفُ بـ (ثُمَّ) المُحتاجُ إليه هنا يَقْتَضي الاشتراكَ في الحُكْمِ، أغْنَى به عن التَّأكيدِ باللَّامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٨/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١١٨).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٨).

وقيل: لأنَّ المقصودَ بذِكرِ الموتِ والبعثِ هو الإخبارُ بالجزاءِ والمَعادِ، وأوَّلُ ذلك هو الموتُ؛ فنبَّه على الإيمانِ بالمعادِ والاستعدادِ لِما بعد الموتِ، وهو إنَّما قال ﴿تُبْعَثُونَ﴾ فقط، ولم يقُلْ (تُجازَون)، لكن قد عُلِمَ أنَّ البعثَ للجزاءِ، وأيضًا ففيه تنبيهٌ على قهرِ الإنسانِ وإذلالِه[١].

- وقيل: دخَلَتِ اللَّامُ في قولِه: ﴿لَمَيِّتُونَ﴾، ولم تَدخُلْ في ﴿تُبْعَثُونَ﴾؛ لأنَّ اللَّامَ مُخلِّصةٌ المُضارِعَ للحالِ غالبًا، فلا تُجامِعُ يومَ القيامةِ؛ لأنَّ إعمالَ ﴿تُبْعَثُونَ﴾ في الظَّرفِ المُستقبَلِ تُخلِّصُه للاستقبالِ، فتُنافي الحالَ[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ...﴾ فيه نَقْلُ الكلامِ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ على طَريقةِ الالتفاتِ، ونُكْتَتُه هنا: أنَّ المقصودَ التَّذكيرُ بالموتِ وما بَعْدَه على وَجْهِ التَّعريضِ بالتَّخويفِ، وإنَّما يُناسِبُه الخِطابُ[٣].

- وقولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ...﴾ فيه التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، وما فيه مِن مَعْنى البُعدِ المُشعرِ بعُلُوِّ رُتبةِ المُشارِ إليه، وبُعْدِ مَنزِلَتِه في الفَضلِ والكَمالِ، وكونِه بذلك مُمْتازًا، مُنزَّلًا مَنزِلةَ الأُمورِ الحِسِّيَّةِ[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾

- الآياتُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ فيها مِن فُنونِ البلاغةِ: ما يُعرَفُ بالمُخالَفةِ في حُروفِ العطفِ؛ ففي حُروفِ العطفِ المُتتابِعةِ في هذه الآياتِ أسرارٌ لَطيفةُ المأْخَذِ،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٧).

دَقيقةُ المعنى؛ فقد ذكَرَ تعالى تَفاصيلَ حالِ المخلوقِ في تَنقُّلِه؛ فبدَأَ بالخلْقِ الأوَّلِ وهو خلْقُ آدَمَ من طِينٍ، ولمَّا عطَفَ عليه الخلْقَ الثَّاني -الَّذي هو خلْقُ النَّسلِ- عطَفَه بـ (ثُم)؛ لِمَا بينهما مِن التَّراخي، وحيث صار إلى التَّقديرِ الَّذي يَتبَعُ بعْضُه بعضًا مِن غيرِ تراخٍ عطَفَه بالفاءِ، ولمَّا انتهَى إلى جَعْلِه ذَكَرًا أو أُنْثى -وهو آخِرُ الخَلْقِ- عطَفَه بـ (ثمَّ)، ومعلومٌ أنَّ الزَّمنَ الَّذي تَصيرُ فيه النُّطفةُ عَلَقةً طويلٌ، ولكنَّ الحالتينِ مُتَّصلتانِ؛ فأحيانًا يُنظَرُ إلى طُولِ الزَّمانِ، فيُعطَفُ بـ (ثمَّ)، وأحيانًا يُنظَرُ إلى اتِّصالِ الحالينِ ثانيهما بأوَّلِهما مِن غيرِ فاصِلٍ بيْنهما بغَيرِهما، فيُعطَفُ بالفاءِ. وأيضًا صَيرورةُ التُّرابِ نُطفةً أمْرٌ مُستبعَدٌ في ظاهِرِ الحالِ، ومِثلُ ذلك صَيرورةُ النُّطفةِ عَلَقةً؛ لاختِلافِ إحداهما عن الأُخرى اختلافًا ظاهرًا، ولكنْ صَيرورةُ العَلَقةِ مُضْغةً لا غرابةَ فيه؛ لِتَقارُبِهما؛ فلهذا الوَجْهِ عُطِفَ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ [الحج: ٥] بـ (ثمَّ)، وأمَّا في آيةِ (المُؤمِنون): فلُوحِظَتْ أطوارُ الخلْقِ وتباعُدُ الأوقاتِ بيْن كلِّ طَورينِ؛ فاختلافُ العواطفِ بالفاءِ و(ثمَّ) لِتَفاوُتِ الاستحالاتِ، يعني: أنَّ بعضَها مُستبعَدٌ حُصولُه ممَّا قبْلَه وهو المعطوفُ بـ (ثمَّ)؛ فجُعِلَ الاستبعادُ عقْلًا أو رُتبةً بمَنزِلةِ التَّراخي والبُعْدِ الحِسِّيِّ؛ لأنَّ حُصولَ النُّطفةِ مِن أجزاءٍ تُرابيَّةٍ غريبٌ جدًّا، وكذا جَعْلُ النُّطفةِ البيضاءِ ماءً أحمَرَ، بخِلافِ جَعْلِ الدَّمِ لَحْمًا مُشابِهًا له في اللَّونِ والصُّورةِ، وكذا تَصليبُها حتَّى تَصيرَ عَظْمًا؛ لأنَّه قد يَحصُلُ ذلك بالمُكْثِ فيما يُشاهَدُ، وكذا مَدُّ لَحْمِ المُضغةِ عليه لِيَسْتُرَه، وذلك يَقْتَضي عَطْفَ الجميعِ بـ (ثمَّ) إنْ نُظِرَ لآخِرِ المُدَّةِ وأوَّلِها، ويَقْتَضي العطْفَ بالفاءِ إنْ نُظِرَ لآخِرِها فقطْ[1].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٩٩، ٥٠٠).

الآيات (١٧-٢٢)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طَرَائِقَ﴾: أي: سمواتٍ، كُلُّ سماءٍ طَريقةٌ، وسُمِّيتْ طرائِقَ؛ لأنَّ بَعضَها فوقَ بَعضٍ، يُقالُ: طارقتُ الشَّيءَ: إذا جعلتَ بعضَه فوقَ بعضٍ[١].

﴿طُورِ سَيْنَاءَ﴾: اسمُ جبلٍ معروفٍ، وهو الجَبَلُ الذي كَلَّمَ اللهُ مُوسى عليه[٢].

﴿وَصِبْغٍ﴾: أي: زيتٍ يُغمَسُ فيه للائتدامِ، وأصلُ الصِّبغِ: ما يلَوَّنُ به الثَّوبُ، فشُبِّه به ما يُصطَبَغُ به؛ وذلك أنَّ الخبزَ يُلوَّنُ بالصِّبغِ إذا غُمِرَ فيه[٣].

﴿الْفُلْكِ﴾: أي: السُّفنِ، واحدُه وجمعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (الفلك): الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيت فُلكًا؛ لأنها تُدارُ في الماءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: ولقد خلَقْنا فوقَكم -أيُّها الناسُ- سَبعَ سَمواتٍ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، وما كنَّا عن الخَلقِ غافلينَ.

ويخبرُ أنه أنزَل مِنَ السَّماءِ ماءً بقَدْرِ حاجةِ الخلائِقِ، وجَعَل هذا الماءَ ساكنًا في الأرضِ محفوظًا فيها، وهو سبحانَه على إذهابِه لَقادِرٌ، فأنشَأ بهذا الماءِ للناسِ بَساتينَ النَّخيلِ والأعنابِ، لهم فيها فَواكِهُ كثيرةٌ، ولهم منها غِذاءٌ يأكُلونَه، وأنشَأ لهم به أيضًا الشجرةَ العظيمةَ المنافعِ شَجرةَ الزَّيتونِ التي تَخرُجُ مِن جَبَلِ طُورِ «سَيناءَ» يُعصَرُ مِن ثمرِها الذي تُخرِجُه الزَّيتُ، فيُدَّهَنُ ويُؤتَدَمُ به.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا آخَرَ مِن نِعَمِه، فيُخبرُ أنَّ لهم في الأنعامِ ما يعتَبِرونَ به؛ فهو يَسقيهم منها ممَّا في بُطونِها مِنَ اللَّبَنِ، ولهم فيها مَنافِعُ أُخرى كَثيرةٌ، ومِن لحومِها وشحومِها يأكُلونَ، وعلى الإبِلِ برًّا وعلى السُّفُنِ بحرًا يُحمَلونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لمَّا ذكَر الله تعالى ابتداءَ خَلقِ الإنسانِ، وانتهاءَ أمرِه؛ ذكَّره بنِعَمِه[1].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾.

أي: ولقدْ خلَقْنا فَوقَكم -أيُّها النَّاسُ- سَبعَ سَمواتٍ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ[2].

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٩). =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥].

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾.

أي: أحاط عِلمُنا بكلِّ مخلوقٍ، فلا نخلقُ مخلوقًا ونغفُلُ عنه أو ننساه، بل نحفظُه وندبِّرُ أمرَه، ونقومُ بمصالحِه، ومِن ذلك حفظُ السمواتِ مِن السقوطِ على الأرضِ(١).

= قال ابن جرير: (العَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ شَيءٍ فَوقَ شَيءٍ طَريقةً، وإنَّما قيل للسَّمواتِ السَّبعِ سَبعَ طرائِقَ؛ لأنَّ بَعضَهنَّ فَوقَ بعضٍ، فكُلُّ سماءٍ منهنَّ طَريقةٌ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦).

وقيل: سمِّيت طرائقَ؛ لأنها طُرُقُ الملائكةِ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

قال القرطبي: (﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ قال بعضُ العُلَماءِ: أي: عن خَلقِ السَّماءِ. وقال أكثَرُ المفسِّرينَ: أي: عن الخَلقِ كُلِّهم مِن أن تَسقُطَ عليهم فتُهلِكَهم. قلتُ: ويحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ أي: في القيامِ بمَصالِحِهم وحِفظِهم، وهو معنى الحيِّ القَيُّومِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١١).

وقال الشنقيطي: (معناه كقولِه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥]؛ لأنَّ مَنْ يُمسكُ السَّماءَ لو كان يغفُلُ لسقَطتْ فأهلكَتِ الخَلقَ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٢٧).

قال الشوكاني: (﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ المرادُ بالخَلقِ هنا المخلوقُ، أي: ﴿وَمَا كُنَّا﴾ عن هذه السَّبعِ الطَّرائِقِ وحِفظِها عن أن تَقَعَ على الأرضِ بغافِلينَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٦٥).

وقال ابن جرير: وقَولُه: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ يقولُ: وما كُنَّا في خَلْقِنا السَّمَواتِ السَّبعَ فَوقَكم عن خَلْقِنا الذي تحتَها غافِلينَ، بل كُنَّا لهم حافِظينَ مِن أن تَسقُطَ عليهم فتُهلِكَهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٩)، =

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ

= ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٩٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٢).

واختار يحيى بن سلام أنَّ معنى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ أي: عن أن نُنزِّلَ عليهم ما يُحييهم وما يُصلِحُهم مِن هذا المطَرِ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٩٦).

وممن اختارَ عمومَ المعنى: أبو حيانَ، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

وقال السعدي: (﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ فكما أنَّ خَلْقَنا عامٌّ لكلِّ مخلوقٍ، فعِلمُنا أيضًا محيطٌ بما خلَقْنا، فلا نُغفِلُ مخلوقًا ولا ننساه، ولا نخلقُ خَلقًا فنضَيِّعُه، ولا نَغفُل عن السَّماءِ فتقَعُ على الأرض، ولا ننسى ذرَّةً في لُجَج البحار وجوانبِ الفَلَوات، ولا دابَّةً إلا سُقْنا إليها رزقَها ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

وقال البقاعي في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾: (بل دبَّرْناه تدبيرًا محكَمًا ربطْناه بأسبابٍ تنشأ عنها مُسَبَّباتٌ يَكونُ بها صلاحُه، وجعَلْنا في كلِّ سماءٍ ما ينبغي أن يكونَ فيها مِن المنافِعِ، وفي كلِّ أرضٍ كذلك، وحَفِظناه من الفسادِ إلى الوقتِ الذي نريدُ فيه طيَّ هذا العالَمِ وإبرازَ غيره، ونحن مع ذلك كلَّ يومٍ في شأنٍ، وإظهارِ برهانٍ، نعلَمُ ما يلِجُ في الأرضِ وما يخرجُ منها، وما ينزِلُ من السماءِ وما يعرُجُ فيها، إذا شِئْنا أنفَذْنا السَّبَبَ فنشأ عنه المسَبَّبُ، وإذا شِئْنا منعناه ممَّا هُيِّئ له، فلا يكونُ شيءٌ مِن ذلك إلا بخلقٍ جديدٍ، فكيف يُظَنُّ بنا أنَّا نتركُ الخَلقَ بعد موتِهم سُدًى، مع أنَّ فيهم المطيعُ الذي لم نوَفِّه ثوابَه، والعاصي الذي لم نُنزِلْ به عقابَه؟! أم كيف لا نقدِرُ على إعادتِهم إلى ما كانوا عليه بعد ما قدَرْنا على إبداعِهم ولم يكونوا شيئًا؟!). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٢٠).

وقال ابن عطية: (قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ نفيٌ عامٌّ في إتقانِ خَلْقِهم، وعن مصالحِهم، وعن أعمالِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٩).

كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

مُناسبةُ عَطفِ إنزالِ ماءِ المطَرِ على جملةِ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ [المؤمنون: ١٧]: أنَّ ماءَ المطَرِ ينزِلُ مِن صَوبِ السَّماءِ، أي: من جهةِ السَّماءِ، وفي إنزالِ ماءِ المطرِ دَلالةٌ على سَعةِ العِلمِ ودَقيقِ القُدرةِ، وفي ذلك أيضًا مِنَّةٌ على الخَلقِ[١].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بحَسَبِ حاجةِ الخَلقِ وما يَكفيهم، على المِقدارِ الذي يُصلِحُ ولا يُفسِدُ، فجعَلْناه مَحفوظًا في الأرضِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨).

قال البقاعي: (﴿فَأَسْكَنَّٰهُ﴾ بعظمتِنا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعضَه على ظهرِها وبعضَه في بطنِها، ولم نعُمَّها بالذي على ظهرِها، ولم نغوِّرْ ما في بطنِها؛ ليَعُمَّ نفعُه، وليَسهُلَ الوصولُ إليه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٢١).

وقال ابن عاشور: (هذا الإقرارُ على نوعينِ: إقرارٌ قصيرٌ، مثلُ: إقرارِ ماءِ المطرِ في القشرةِ الظَّاهرةِ مِن الأرضِ عَقِبَ نزولِ الأمطارِ، على حسَبِ ما تقتضيه غزارةُ المطرِ ورخاوةُ الأرضِ، وشِدَّةُ الحرارةِ أو شِدَّةُ البردِ، وهو ما يَنبُتُ به النباتُ في الحرثِ، والبَقلُ في الربيعِ، وتمتَصُّ منه الأشجارُ بعروقِها فتُثمِرُ إثمارَها، وتخرُجُ به عروقُ الأشجارِ وأصولُها من البزورِ التي في الأرض. ونوعٌ آخَرُ: هو إقرارٌ طويلٌ، وهو إقرارُ المياه التي تنزِلُ مِن المطرِ وعن ذَوبِ الثُّلوجِ النازلةِ، فتتسَرَّبُ إلى دواخِلِ الأرضِ، فتنشأُ منها العيونُ التي تنبُعُ بنفْسِها، أو تُفجَّرُ بالحفرِ آبارًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الحجر: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: ٢١].

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾.

أي: وإنَّا على إذهابِ الماءِ الذي أسكَنَّاه في الأرضِ لَقادِرونَ، ولو وقَعَ ذلك لهَلَك النَّاسُ وهلَكَت أراضيهم وزُروعُهم وماشيَتُهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۢ﴾ [الملك: ٣٠].

﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا نبَّه اللهُ سُبحانَه على عظيمِ نِعمتِه بخَلقِ الماءِ؛ ذكَرَ بعده النِّعَمَ الحاصِلةَ مِن الماءِ، فقال[(٢)]:

﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾.

أي: فأوجَدْنا لكم بسَبَبِ الماءِ بَساتينَ مِن نَخيلٍ وأعنابٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٢).
قال السعدي: (﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ إمَّا بألَّا نُنزِلَه، أو نُنزِلَه فيَذهبَ نازِلًا لا يُوصَلُ إليه، أو لا يُوجَدُ منه المقصودُ منه، وهذا تنبيهٌ منه لعبادِه أن يشكُروه على نِعمَتِه، ويقدِّروا عَدَمَها، ماذا يحصُلُ به مِنَ الضَّرَرِ، كقولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۢ﴾ [الملك: ٣٠]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧١).

كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠- ١١].

﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

أي: لكم -أيُّها النَّاسُ- في البَساتينِ فَواكِهُ كَثيرةٌ سِوى النَّخيلِ والأعنابِ، ولكم مِنَ البَساتينِ غذاءٌ تأكُلونَه[1].

كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾.

أي: وأنشَأْنا لكم -أيُّها النَّاسُ- شَجرةَ الزَّيتونِ التي تَنبُتُ في جَبَلِ سَيناءَ الذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

وممَّن قال بأنَّ الضميرَ في قولِه تعالى ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ عائدٌ إلى الجناتِ: ابنُ جريرٍ، والبغوي، والبيضاوي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

وذهَب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ الضميرَ في قولِه تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعودُ إلى الفواكهِ الكثيرةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨).

قال البيضاوي: (ويجوزُ أن يكونَ الضميرانِ للنخيلِ والأعنابِ، أي: لكم في ثمراتِها أنواعٌ مِن الفواكهِ: الرطبُ والعنبُ والتمرُ والزبيبُ والعصيرُ والدبسُ، وغير ذلك، وطعامٌ تأكلونَه). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٤).

كَلَّمَ اللهُ عليه مُوسى عليه السَّلامُ[١].

كما قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥].

﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾.

أي: تُخرِجُ شَجرةُ الزَّيتونِ ثَمَرًا يُعصَرُ منه زَيتٌ يُدَّهَنُ به، ويجعَلُه الآكِلونَ إدامًا يغْمِسونَ فيه خُبزَهم[٢].

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤ - ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٠).

قال الواحدي: (أجمع المفَسِّرونَ كُلُّهم على أنَّ هذه شَجرةُ الزيتونِ). ((البسيط)) (١٥/ ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١، ٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٠).

قال ابن عاشور: (مَعْنَى ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ أنَّها تَنْبُتُ مُلابِسةً للدُّهْنِ؛ فالباءُ للمُلابسةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٨).

وقال الشنقيطي: (قوله: ﴿بِٱلدُّهْنِ﴾: أي: تَنْبُتُ مصحوبَةً بالدُّهنِ الَّذي يُستخرَجُ مِن زَيْتونِها). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٣٠).

وأما على القراءةِ الثانيةِ -قراءةِ ابنِ كثيرٍ وأبي عَمرٍو- بضمِّ التَّاءِ وكسرِ الباءِ ﴿تُنْبِتُ﴾ مُضارِع (أَنْبَتَ) الذي يَتعَدَّى بنفْسِه دونَ الحرفِ، فالباءُ مزيدةٌ للتَّوكيدِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٩).

قال العليمي: (﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ والصِّبغُ: هو الإدامُ، معطوفٌ على الدُّهنِ؛ أي: تنبتُ بالشَّيءِ الجامِعِ بين كَونِه دُهنًا يُدَّهَنُ به ويُسرَجُ منه، وكَونِه إدامًا يُصبَغُ فيه الخُبزُ، أي: يُغمَسُ فيه للائتِدامِ). ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٦٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

بعد أنَّ ذكَّرَنا سبحانَه بنِعمةِ إنزالِ الماءِ مِن السَّماءِ الذي يُنبِتُ به جنَّاتِ النَّخيلِ والأعنابِ، والفواكهَ المُختلفةَ والزيتونَ- أردَفَها بذِكرِ النِّعَمِ المختلِفةِ التي سخَّرها لنا مِن خَلقِ الحيوانِ[١].

وأيضًا لما دَلَّ سبحانَه وتعالى على قُدرتِه بما أحيا بالماءِ حياةً قاصِرةً عن الرُّوحِ، أتبعه ما أفاض عليه به حياةً كاملةً، فقال[٢]:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾.

أي: وإنَّ لكم -أيُّها النَّاسُ- في الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ[٣] ما تَعتَبِرونَ به، فتَعرِفونَ أياديَ اللهِ عندَكم، وسابِغَ رَحمتِه، وانفرادَه بالخَلقِ، وسَعةَ عِلمِه، وعظيمَ قُدرتِه عَزَّ وجَلَّ؛ فتَشكُرونَه ولا تَكفُرونَه[٤].

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾.

أي: نُسقيكم -أيُّها النَّاسُ- لبنًا مِمَّا في بُطونِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٨/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٢٧).

(٣) وقيل: المرادُ بالأنعامِ هنا: الإبِلُ خاصَّةً. وممن قال بذلك: الزمخشري، وابنُ جزي، والنيسابوري، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٩).
قال النيسابوري: (لعلَّ القصدَ بالأنعامِ هاهنا الإبِلُ خاصَّةً؛ لأنَّها هي المحمولُ عليها في العادةِ، ولأنَّه قرنها بالفُلكِ، وهي سفائِنُ البَرِّ كما أنَّ الفُلكَ سفائِنُ البحرِ). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦].

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ ﴾.

أي: ولكم في الأنعامِ مَنافِعُ كَثيرةٌ؛ كاتِّخاذِ أوبارِها لباسًا وأثاثًا، وغيرِ ذلك مِنَ المَنافِعِ[(١)].

﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾.

أي: ومِن لُحومِ الأنعامِ وشُحومِها تأكُلونَ بعدَ ذَبحِها[(٢)].

﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

أنَّه ذكَر ما تكاد تختَصُّ به بعضُ الأنعامِ، وهو الحَملُ عليها، وقرَنَها بالفُلكِ؛ لأنَّها سفائنُ البَرِّ، كما أنَّ الفُلكَ سفائِنُ البحرِ[(٣)].

﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

= (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير الآلوسي)) (٩/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٥٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

قال ابنُ عاشور: (هذه المنافِعُ هي الأصوافُ والأوبارُ والأشعارُ والنِّتاجُ، وأمَّا الأكلُ منها فهو عِبرةٌ أيضًا؛ إذ أعدَّها الله صالحةً لتغذيةِ البشَرِ بلُحومِها لذيذةِ الطَّعمِ، وألهمَ إلى طريقةِ شَيِّها وصَلقِها وطَبخِها، وفي ذلك مِنَّةٌ عظيمةٌ ظاهرةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٦).

أي: وعلى الإبِلِ[(١)] في البَرِّ، وعلى السُّفُنِ في البَحرِ تَركَبونَ -أيُّها النَّاسُ- فتَحمِلُكم وتَحمِلُ مَتاعَكم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩- ٨٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ

(١) وممن نصَّ هنا على أنَّ المرادَ بذلك الإبِلُ: مقاتلُ بن سليمان، ومكِّيُّ بن أبي طالب، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والرسعني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٥٤)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٩٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٥٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣١).

وقيل المرادُ: الإبِلُ والبَقَرُ. وممن اختاره: البيضاويُّ، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٢٨). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٤، ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣١).

لَقَٰدِرُونَ﴾ فعلى العبادِ أن يَستَعظِموا النِّعمةَ في الماءِ، ويُقيِّدوها بالشُّكرِ الدائمِ، ويخافوا نِفارَها إذا لم تُشكَرْ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ كثيرًا ما يَقرِنُ تعالى بين خَلقِه وعِلمِه، كقولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]؛ لأنَّ خَلقَ المخلوقاتِ مِن أقوى الأدِلَّةِ العَقليَّةِ على عِلمِ خالِقِها وحِكمتِه(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ رَدٌّ على مَن يزعمُ أنَّ اللهَ في الأرضِ بنفْسِه كهو في السَّماءِ! ولو كان كذلك ما كان في قَولِه: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ فائدةٌ؛ لأنَّ مَن كان مع خلْقِه بنفْسِه عُلِمَ أنَّه لا يَغفُلُ عنهم، ولكِنَّه دَلَّ المُرتابينَ على أنَّ الطَّرائقَ السَّبْعَ لا تَحجُبُ خلْقَه عنه، ولا تُنسيه أمرَهم(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ فيه إثباتُ إحاطةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا، فما وَصَفَ اللهُ به نفْسَه يَنقَسِمُ إلى قِسمَينِ: ثُبوتيٍّ، وسَلبيٍّ أو انتفائيٍّ؛ فالثُّبوتيُّ كلُّه صِفاتُ كَمالٍ، فكُلُّ صِفةٍ أثبتَها اللهُ لِنَفسِه فهي صِفةُ كَمالٍ، والسَّلبيُّ أو الانتِفائيُّ كُلُّه صِفاتُ نَقصٍ، ولكِنَّه مُتضَمِّنٌ لِثُبوتِ كَمالٍ؛ ففي قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ نَفيُ الغَفلةِ؛ لِكَمالِ عِلمِه ومُراقبتِه، وفي قَولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] نفيُ الظُّلمِ؛ لِكَمالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٤٦).

عَدلِه، وفي قَولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤] نَفيُ أن يُعجِزَه شَيءٌ؛ لكَمالِ قُدرتِه وعِلمِه... وهَلُمَّ جَرًّا[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّه سُبحانه قادرٌ على ما لا يفعَلُه، خِلافًا لبعضِ أهلِ البِدَعِ الذين قالوا: لا يكونُ قادِرًا إلَّا على ما أراده دونَ ما لم يُرِدْه، فقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: لَقادرونَ على أنْ نَذهبَ به حتَّى تموتوا عَطَشًا، وتَهْلِكَ مواشِيكم، وتَخْرَبَ أراضِيكم، ومعلومٌ أنَّه لم يَذْهَبْ به[٢].

٥- قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ مَقَرَّ ما نزَلَ مِن السَّماءِ هو في الأرضِ؛ فمِنْه الأنهارُ والعُيونُ والآبارُ[٣].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استَدلَّ به مَن قال: إنَّ المياهَ كلَّها مِن السَّماءِ، وأنَّه لا ماءَ مِن الأرضِ[٤].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ سُمِّيَ الصِّنفُ الأوَّلُ باسمِ شَجَرتِه؛ لكثرةِ ما فيها مِن المنافِعِ المقصودةِ، بخلافِ الثَّاني؛ فإنَّه المقصودُ مِن شجرتِه[٥].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ فيه التَّنبيهُ على الأُدْمِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٠) (٢/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٤).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٢١، ١٢٢).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٦).

٩- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ فذكرَ اللهُ سبحانه أنَّ فيها عِبرةً، مُجمِلًا، ثمَّ أردَفه بالتفصيلِ مِن أربعةِ أوجُهٍ:

أحدها: قولُه: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾، والمرادُ منه جميعُ وجوهِ الانتفاعِ بألبانِها، ووجهُ الاعتبارِ فيه أنَّها تجتمعُ في الضُّروعِ، وتتخلَّصُ مِن بينِ الفَرْثِ والدمِ بإذن الله تعالى، فتستحيلُ إلى طهارةٍ وإلى لونٍ وطَعمٍ موافقٍ للشَّهوةِ، وتصيرُ غِذاءً، فمَن استدَلَّ بذلك على قدرةِ الله وحكمتِه كان ذلك معدودًا في النِّعَم الدينيَّةِ، ومَن انتفَع به فهو في نعمةِ الدنيا، وأيضًا فهذه الألبانُ التي تخرجُ مِن بطونِها إلى ضروعِها تجدُها شرابًا طيِّبًا، وإذا ذبحْتَها لم تجِدْ لها أثرًا، وذلك يدلُّ على عظيمِ قُدرةِ الله تعالى.

وثانيها: قولُه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾؛ وذلك بيعُها، والانتفاعُ بأثمانِها، وما يجري مَجرَى ذلك.

وثالثها: قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني: كما تنتفعون بها وهي حيَّةٌ، تنتفِعون بها بعد الذَّبحِ أيضًا بالأكلِ.

ورابعها: قوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾؛ لأنَّ وجهَ الانتفاعِ بالإبلِ في المحمولاتِ على البَرِّ بمنزلةِ الانتفاعِ بالفُلكِ في البحرِ؛ ولذلك جمع بيْن الوجهينِ في إنعامِه؛ لكي يُشكَرَ على ذلك، ويُستدَلَّ به[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾

- انتِقالٌ مِن الاستدلالِ بخَلْقِ الإنسانِ إلى الاستدلالِ بخَلقِ العوالِمِ العُلويَّةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧٠).

لأنَّ أمْرَها أعجَبُ، فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾[1] [المؤمنون: ١٢].

- وإنَّما ذُكِرَ هذا عَقِبَ قولِه: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٦]؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الَّذي خلَقَ هذا العالَمَ العُلويَّ ما خلَقَه إلَّا لحكمةٍ، وأنَّ الحكيمَ لا يُهمِلُ ثَوابَ الصَّالحينَ على حَسناتِهم، ولا جَزاءَ المُسيئينَ على سَيِّئاتِهم، وأنَّ جَعْلَه تلك الطَّرائقَ فَوقَنا بحيث نَراها؛ لِيَدُلَّنا على أنَّ لها صِلةً بنا؛ لأنَّ عالَمَ الجَزاءِ كائنٌ فيها، ومَخلوقاتِه مُستقِرَّةٌ فيها؛ فالإشارةُ بهذا التَّرتيبِ مِثْلُ الإشارةِ بعَكْسِه في قولِه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2] [الدخان: ٣٨-٤٠].

- وذِكرُ ﴿فَوْقَكُمْ﴾؛ للتَّنبيهِ على وُجوبِ النَّظرِ في أحوالِها؛ للاستدلالِ بها على قُدرةِ الخالِقِ لها تعالى؛ فإنَّها بحالةِ إمكانِ النَّظرِ إليها، والتَّأمُّلِ فيها، ولأنَّ كَونَها فوقَ النَّاسِ ممَّا سَهَّلَ انتفاعَهم بها في التَّوقيتِ؛ ولذلك عقَّبَ بجُملةِ ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ المُشعِرِ بأنَّ في ذلك لُطْفًا بالخَلْقِ، وتَيسيرًا عليهم في شُؤونِ حَياتِهم، وهذا امتنانٌ، وفيه تَنبيهٌ للنَّظرِ في أنَّ عالَمَ الجَزاءِ كائنٌ بتلك العَوالِمِ[3].

- ولإرادةِ التعظيمِ أضافَ إلى جمعِ كثرةٍ، فقال: ﴿طَرَآئِقَ﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦، ٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١١٨).

- قولُه: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ نفيُ الغفلةِ كنايةٌ عن العِنايةِ والمُلاحظةِ[١].

- وقولُه: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ إنْ أُرِيدَ بـ ﴿ٱلْخَلْقِ﴾ السَّمواتُ، فهو مُظْهَرٌ أُقِيمَ مُقامَ الضَّميرِ؛ للإشعارِ بأنَّه تعالى خلَقَ السَّمواتِ عن حِكْمةٍ، وأنَّها مَحفوظةٌ بحِفْظِه وإمساكِه. وإنْ أُرِيدَ به النَّاسُ، فهو مَصدرٌ بمعنَى مَخلوقٍ؛ للإشعارِ بفَضيلةِ الإنسانِ، وأنَّ هذه المخلوقاتِ العِظامِ أُوجِدَتْ لِمَنافِعِه دِينًا ودُنْيَا؛ امتنانًا عليهم، وعلى التَّقديرينِ يَلزَمُ تَعظيمُ ما يُرادُ منه[٢]. وقيل: العُدولُ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (وما كنَّا عنكم غافِلينَ)؛ لِمَا يُفيدُه المُشْتَقُّ مِن مَعْنى التَّعليلِ، أي: ما كُنَّا عنكم غافِلينَ؛ لأنَّكم مَخلوقاتُنا، فنحنُ نُعامِلُكم بوَصفِ الرُّبوبيَّةِ، وفي ذلك تَنبيهٌ على وُجوبِ الشُّكرِ، والإقلاعِ عن الكُفْرِ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ يَصِحُّ أنْ يُحمَلَ على صَريحِه، أي: بمِقْدارٍ مُعيَّنٍ مُناسِبٍ للإنعامِ به؛ لأنَّه إذا أُنزِلَ كذلك حَصَلَ به الرِّيُّ والتَّعاقُبُ، وكذلك ذَوبانُ الثُّلوجِ النَّازِلَةِ. ويصِحُّ أنْ يُقصَدُ مع ذلك الكِنايةُ عن الضَّبطِ والإتقانِ[٤].

- قولُه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ فيه تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٩).

على المفعولِ الصَّريحِ ﴿مَآءٗ﴾؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[١].

- وفيه إظْهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، حيث لم يقُلْ: (أنزَلْنا منها)؛ لأنَّ الإنزالَ لا يُعتَبَرُ فيه عُنوانُ كَونِها طَرائقَ، بل مُجرَّدُ كَونِها جِهَةَ العُلوِّ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بين جُملةِ ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وما تفرَّعَ عليها[٣]. وفيه وَعيدٌ وتَهديدٌ[٤].

- وقولُه: ﴿ذَهَابِۭ﴾ مِن أوقَعِ النَّكراتِ، والمَعْنى: على وَجْهٍ مِن وُجوهِ الذَّهابِ به، وطَريقٍ مِن طُرقِه؛ فالتَّنكيرُ إشارةٌ إلى كَثرةِ طُرقِه. وفيه إيذانٌ باقتدارِ المُذْهِبِ، وأنَّه لا يَتعايَا[٥] عليه شَيءٌ إذا أراده[٦].

- وقولُه: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أبلَغُ في الإيعادِ مِن قولِه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ [الملك: ٣٠]؛ لوُجوهٍ كثيرةٍ، منها:

الأوَّلُ: التَّوكيدُ بـ (إنَّ).

الثَّاني: اللَّامُ في الخبَرِ ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾.

الثَّالثُ: أنَّ هذه في مُطلَقِ الماءِ المُنزَّلِ من السَّماءِ، وتلك في ماءٍ مُضافٍ إليهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٤).

(٥) يتعايا: أي: يَصعُبُ، مِن قَولِهم: أعيا عليه الأمرُ وتعايا: إذا لم يَهْتَدِ لِوَجهِ مُرادِه أو وَجهِ عَمَلِه، أو عَجَز عنه ولم يُطِقْ إحكامَه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٩/ ١٣٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩).

الرَّابعُ: أنَّ الغائِرَ قد يكونُ باقيًا بخِلافِ الذَّاهِبِ.

الخامسُ: ما في تَنكيرِ ﴿ذَهَابٍ﴾ مِن المُبالَغةِ.

السَّادسُ: إسنادُه هاهنا إلى مُذهِبٍ بخِلافِه ثَمَّت، حيث قيل: ﴿غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠].

السَّابعُ: ما في ضَميرِ المُعظِّمِ نَفْسَه ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ من الرَّوعةِ.

الثَّامنُ: ما في ﴿لَقَدِرُونَ﴾ من الدَّلالةِ على القُدرةِ عليه، والفِعلُ الواقِعُ مِن القادِرِ أبلَغُ.

التَّاسِعُ: ما في جَمْعِه.

العاشرُ: ما في لَفْظِ ﴿بِهِۦ﴾ مِن الدَّلالةِ على أنَّ ما يُمْسِكُه فلا مُرسِلَ له.

الحاديَ عشَرَ: إخلاؤُهُ مِن التَّعقيبِ بإطماعٍ، وهنالك ذُكِرَ الإتيانُ المطْمِعُ.

الثَّانيَ عشَرَ: تَقديمُ ما فيه الإيعادُ -وهو الذَّهابُ- على ما هو كالمُتعلَّقِ له أو مُتعلَّقِه.

الثَّالثَ عشَرَ: ما بين الجُملتينِ -الاسميَّةِ والفِعْليَّةِ- مِن التَّفاوُتِ ثَباتًا وغيرَهُ.

الرَّابعَ عشَرَ: ما في لَفْظِ ﴿أَصْبَحَ﴾ مِن الدَّلالةِ على الانتقالِ والصَّيرورةِ.

الخامسَ عشَرَ: أنَّ الإذهابَ هاهنا مُصرَّحٌ به، وهنالك مَفهومٌ مِن سِياقِ الاستفهامِ.

السَّادسَ عشَرَ: أنَّ هنالك نَفْيَ ماءٍ خاصٍّ -أعني: المَعِينَ- بخِلافِه هاهنا.

السَّابعَ عشَرَ: اعتبارُ مَجموعِ هذه الأُمورِ الَّتي يَكْفِي كلٌّ منها مُؤكِّدًا.

الثَّامنَ عشَرَ: إخبارُه تعالى به بنَفْسِه مِن دُونِ أمْرٍ للغيرِ هاهنا، بخِلافِه هنالك؛

فإنَّه سُبحانَه أمَرَ نَبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يَقولَ ذلك.

التَّاسعَ عشَرَ: عدَمُ تَخصيصِ مُخاطَبٍ هاهنا، وتَخصيصُ الكُفَّارِ بالخِطابِ هنالك.

العِشْرونَ: التَّشبيهُ المُستفادُ مِن جَعْلِ الجُملةِ حالًا؛ فإنَّه يُفِيدُ تَحقيقَ القُدرةِ، ولا تَشبيهَ ثَمَّت.

الحادي والعِشْرونَ: إسنادُ القُدرةِ إليه تعالى مرَّتينِ.

الثَّاني والعِشرونَ: أنَّه ليس الوقْتُ للذَّهابِ مُعيَّنًا هنا بخِلافِه في ﴿إِنْ أَصْبَحَ﴾ [الملك: ٣٠]؛ فإنَّه يُفْهَمُ منه أنَّ الصَّيرورةَ في الصُّبحِ على أحَدِ استعمالَيْ (أصبح) ناقِصًا.

الثالث والعِشرونَ: أنَّ جِهةَ الذَّهابِ به ليست مُعيَّنةً بأنَّها السُّفلُ، أي: ما دَلَّ عليه لَفْظُ ﴿غَوْرًا﴾.

الرابع والعِشرونَ: أنَّ المُوعَدَ به هنا إنْ وقَعَ فهم هالِكونَ الْبَتَّةَ.

الخامس والعِشرونَ: أنَّه لم يَبْقَ هنا لهم مُتشبَّثٌ ولو ضَعيفًا في تأْميلِ امتناعِ المُوعَدِ به، وهناك حيث أُسنِدَ الإصباحُ غَورًا إلى الماءِ، ومعلومٌ أنَّ الماءَ لا يُصبِحُ غَورًا بنَفْسِه، أيضًا احْتُمِلَ أنْ يُتوهَّمَ الشَّرطيَّةُ مع صِدْقِها مُمْتنِعةَ المَقْدَمِ، فيَأْمَنوا وُقوعَه. إلى غيرِ ذلك[1].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٨/ ١٩-٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩ - ٣٢).

قال ابنُ عاشور: (عُنِي هؤلاء النحاريرُ ببيان التفاوتِ بين الآيتينِ، ولم يتعرَّضْ أحدُهم للكشفِ عن وجه توفيرِ الخصائصِ في هذه الآيةِ دونَ الآية الأخرى ممَّا يوازِنُها، وليس ذلك لِخلوِّ الآيةِ عن نُكَت الإعجازِ، ولا عَجْزِ الناظرين عن استخراجِ أمثالِها، ولكِنْ ما يبيَّنُ من الخصائِصِ =

- وأيضًا آيةُ سُورةِ (المُؤمِنون) قُصِدَ منها الإنذارُ والتَّهديدُ بسَلْبِ تلك النِّعمةِ العظيمةِ، وأمَّا آيةُ سُورةِ (المُلْكِ) فالقَصْدُ منها الاعتبارُ بقُدرةِ اللهِ تعالى على سَلْبِها، فاخْتِلافُ المَقامَينِ له أثرٌ في اختلافِ المُقتضياتِ؛ فكانت آيةُ سُورةِ (المُؤمِنون) آثَرَ بوَفرةِ الخصائصِ المُناسِبةِ لمَقامِ الإنذارِ والتَّهديدِ، على أنَّ سُورةَ (المُلْكِ) نَزَلت عقِبَ نُزولِ سُورةِ (المُؤمِنين)، وقد يَتداخَلُ نُزولُ بَعْضِها مع نُزولِ بَعضِ سُورةِ (المُؤمنينَ)، فلمَّا أُشْبِعَت آيةُ سُورةِ (المُؤمِنين) بالخُصوصيَّاتِ الَّتي اقْتَضاها المَقامُ، اكتُفِيَ عن مِثْلِها في نَظيرتِها مِن سُورةِ (المُلْكِ)، فسُلِكَ في الثَّانيةِ مَسْلَكُ الإيجازِ؛ لِقُرْبِ العَهدِ بنَظيرِها[1].

٣- قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، لعله قدَّم الظَّرفَ؛ تعظيمًا للامتنانِ بها[2].

- قولُه: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ ذُكِرَ النَّخيلُ والأعنابُ؛ لكثرةِ منافعِهما؛ فإنَّهما يقومانِ مقامَ الطَّعامِ، ومقامَ الإدامِ، ومقامَ الفواكِهِ رطبًا

= البلاغيةِ في القرآنِ ليس يريدُ مَن يبيِّنُه أنَّ ما لاح له ووُفِّقَ إليه هو قُصارى ما أودعه اللهُ في نظم القرآنِ من الخصائصِ والمعاني، ولكنَّه مَبلغُ ما صادف لَوحُه للناظرِ المتدبِّر، والعلماءُ متفاوِتون في الكشفِ عنه على قدرِ القرائحِ والفهومِ؛ فقد يُفاضُ على أحدٍ مِن إدراك الخصائصِ البلاغيَّةِ في بعض الآياتِ، ولا يفاضُ عليه مثلُه أو على مثلِه في غيرِها، وإنما يقصِدُ أهلُ المعاني بإفاضةِ القولِ في بعض الآياتِ أن تكونَ نموذجًا لاستخراج أمثالِ تلك الخصائِصِ في آياتٍ أخرى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٢٢).

ويابسًا[١]. وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه صَرَّح بهذين الصِّنفينِ لشَرَفِهما، ولأنَّهما أكثَرُ ما عندَ العربِ من الثِّمارِ[٢].

- قولُه: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ فيه وَصْفُ الفواكِهِ بـ﴿كَثِيرَةٌ﴾ باعتبارِ اختلافِ الأصنافِ؛ كالبُسْرِ والرُّطبِ والتَّمرِ، وكالزَّيتِ والعِنَبِ الرَّطْبِ، وأيضًا باعتبارِ كَثرةِ إثمارِ هَذينِ الشَّجَرينِ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء قولُه: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بجَمْعِ (فواكه) وبالواوِ في ﴿وَمِنْهَا﴾، وفي سُورةِ (الزُّخرفِ) قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٣] بإفرادِ (فاكهة) وحَذْفِ الواو مِن (منها)؛ ووَجْهُه: أنَّه راعَى في السُّورتينِ لَفْظَ الجنَّةِ؛ إذ ما هنا تقدَّمَتْ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ [المؤمنون: ١٩] بالجَمْعِ، فقال: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ بالجَمْعِ، وفي (الزُّخرفِ) ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ [الزخرف: ٧٢] بلَفْظِ الإفرادِ، وإنْ كانت هذه جَنَّةَ الخُلْدِ، لكنْ راعى اللَّفظَ فقال: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ [الزخرف: ٧٣]. وقال في هذه السُّورةِ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بزِيادةِ الواوِ؛ لأنَّ تَقديرَ الآيةِ: منها تَدَّخِرون ومنها تَبيعونَ، وليس كذلك فاكهةُ الجنَّةِ؛ فإنَّها للأكْلِ فحَسْبُ؛ فلذلك قال في (الزَّخرفِ): ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، ووافَقَ هذه السُّورةَ ما بَعْدَها أيضًا، وهو قولُه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[٤] [المؤمنون: ٢١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ أُخِّرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٨، ٣٨٩).

ذِكْرُ شَجرةِ الزَّيتونِ عن ذِكْرِ أخوَيْها (النَّخلِ والعِنَبِ)؛ لأنَّه أُرِيدَ الامتِنانُ بما في ثَمَرتِهما مِن التَّفكُّهِ والقُوتِ؛ فتكونُ مِنَّةً بالحاجيِّ والتَّحسينيِّ[١]. وتَخصيصُها بالذِّكْرِ مع طَيِّ كونِ النَّاسِ منها يأْكُلون: تَنويهٌ بشأْنِها، وإشارةٌ إلى كَثرةِ مَنافِعِها؛ لأنَّ مِن ثَمرتِها طَعامًا وإصلاحًا ومُداواةً، ومِن أعوادِها وَقودًا وغيرَه[٢].

- قولُه: ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ فيه تَخصيصُها بالخُروجِ مِن طُورِ سَيناءَ -مع خُروجِها من سائرِ البِقاعِ أيضًا؛ لِتَعظيمِها، ولأنَّه المنشَأُ الأصليُّ لها[٣]. وفيه تَنبيهٌ للتَّنويهِ بشَرَفِ مَنْبَتِها، وكَرَمِ الموطنِ الَّذي ظهَرَت فيه[٤].

- والتَّعبيرُ بالمُضارعِ في قولِه: ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ العَجيبةِ المُهِمَّةِ الَّتي كُوِّنَت بها تلك الشَّجرةُ في أوَّلِ تَكوينِها، حتَّى كأنَّ السَّامعَ يُبصِرُها خارجةً بالنَّباتِ في طُورِ سَيناءَ[٥].

- قولُه: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ فيه عَطْفٌ للخاصِّ (الصِّبغِ) على العامِّ (الدُّهْنِ)؛ للاهتمامِ[٦].

٥- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

---

(١) لأنَّ منْ الطعامِ ما هو فاكهةٌ (يُتَفَكَّه بأكلِه، أي: يُتَلَذَّذُ بِطَعْمِه مِن غيرِ قصدِ القُوتِ)، كاللَّوْزِ والكُمَّثْرَى، ومنها ما يُقصدُ به القُوت -وليس فَاكِهَةً- كَالزَّيْتونِ، ومن الأطعمةِ ما هو فاكهةٌ وطعامٌ كالتَّمرِ والعنبِ لأنَّه يُؤكلُ رَطْبًا ويابِسًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- في قولِه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ خُصَّتِ العِبْرةُ بالحيوانِ؛ لِمَا أنَّ مَحَلَّ العِبْرةِ فيه أظهَرُ ممَّا في النَّباتِ(١).

- قولُه: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ تَفصيلٌ وبَيانٌ لجُملةِ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾(٢).

- قولُه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فيه تَقديمُ الظَّرفِ -﴿فِيهَا﴾، ﴿وَمِنْهَا﴾- على عامِلِه -﴿مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾، ﴿تَأْكُلُونَ﴾-؛ لِيُشْعِرَ بالأوَّلِ الاشتراكَ بسائرِ الحيواناتِ الَّتي تُناسِبُها في المنافِعِ، وبالثَّاني اختصاصَها بمَنْفعةٍ زائدةٍ، وكذا عُطِفَ قولُه: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾؛ لِيُؤْذِنَ بأنَّ المُرادَ مِن قولِه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ الإبلُ لا غيرُ -على أحدِ القولينِ في التفسيرِ- فحِينئذٍ نَظْمُ الآياتِ قَريبٌ مِن نَظْمِ قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] الآيةَ؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧ - ٢٠] تَفصيلٌ لقولِه: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٩ - ٢٠]، وقولَه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ إلى قولِه: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ تَفصيلٌ لقولِه: ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، وإنَّما دخَلَ الجِبالُ، وإنْ لم يُنَصَّ عليها في التَّنزيلِ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يَدُلُّ عليها(٣).

٦- قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٦٩).

- في قولِه: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ جمَعَ بينَ الأنعامِ وبينَ الفُلكِ في إيقاعِ الحَمْلِ عليها؛ مُبالَغةً في تَحمُّلِها للحِمْلِ، وهو الدَّاعي إلى تأْخيرِ ذِكْرِ هذه المَنفعةِ -مع كَونِها مِن المنافعِ الحاصِلَةِ منها- عن ذِكْرِ مَنفعةِ الأكلِ المُتعلِّقةِ بعَينِها[1].

- وفي ذِكْرِ ﴿وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾ إدماجٌ وتَهيئةٌ للتَّخلُّصِ إلى قِصَّةِ نُوحٍ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٠).

الآيات (٢٢-٢٠)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾: أي: أشرافُ النَّاسِ ووجُوهُهم، أو الجماعةُ يجتمعونَ على رأيٍ، فيَملؤونَ العيونَ منظرًا، والنفوسَ بهاءً وجلالًا. ويُقالُ: فلانٌ مِلءُ العيونِ، أي: معظَّمٌ عندَ مَن رآه. وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنَّهم يتمالؤونَ، أي: يتظاهرونَ عليه. وأصلُ (ملأ): يدلُّ على المساواةِ، والكمالِ في الشيءِ[(١)].

﴿جِنَّةٌ﴾: أي: جُنونٌ، وأصلُ (جنن): السَّتْرُ والتَّسَتُّرُ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ٣٤٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣، ٣٠٦).

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾: أي: انتَظِروا، وأصلُ التربُّصِ: الانتظارُ والتمكُّثُ[١].

﴿وَفَارَ﴾: أي: نبَع وارتفَع، ومنه: فارت القِدرُ: إذا ارتفعَ ما فيها وغلَى، وأصلُ (فور): يدُلُّ على غَلَيانٍ[٢].

﴿ٱلتَّنُّورُ﴾: أي: المكانُ الذي يُخبَزُ فيه، أو: مَكانُ النارِ، وقيل: التَّنُّورُ: وجهُ الأرضِ، وأصلُ (نور): يدلُّ على إضاءةٍ، واضطرابٍ، وقِلَّةِ ثَباتٍ[٣].

﴿لَمُبۡتَلِينَ﴾: أي: لَمُختَبِرينَ، وأصلُ البلاءِ: الاختبارُ والامتحانُ[٤].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّه أرسَل نُوحًا إلى قَومِه بدَعوةِ التَّوحيدِ، فقال لهم: اعبُدوا اللهَ وحْدَه، ليس لكم مِن إلهٍ يَستَحِقُّ العِبادةَ غَيرُه جَلَّ وعلَا، أفلا تَخشَونَه وتخافون عَذابَه؟! فكذَّبه سادةُ قَومِه وأشرافُهم، وقالوا لعامَّتِهم: ما نوحٌ إلا إنسانٌ مِثلُكم، وليس رسولًا كما يدَّعي، إنَّما يُريدُ أن يكونَ أفضلَ منكم، ولو شاء اللهُ إرسالَ رسلٍ لأرسَلَ المَلائِكةَ يُبلِّغونَنا رسالتَه إلينا؛ ما سَمِعْنا بمِثلِ هذا الذي يدْعُونا إليه فيمَن سبَقَنا مِن القرونِ التي مَضَتْ، وما نُوحٌ إلَّا رجُلٌ به مَسٌّ مِنَ الجُنونِ، فانتَظِروا وقتًا حتى يُفيقَ مِنْ جُنونِه أو يموتَ، فتَستريحوا منه!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٤)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٣) (١٧/ ٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٤).

قال نوحٌ: رَبِّ انصُرْني على قَومي؛ بسَبَبِ تَكذيبِهم لي فيما بلَّغتُهم مِن رِسالتِك.

فأوحَى الله إلى نوحٍ أنْ يصنعَ السَّفينةَ بمرأًى منه تعالى وحِفظِه، وبتعليمِه إيَّاه كيفيةَ صنعِها، وأنَّه إذا جاء أمرُه بإهلاكِ قَومِ نوحٍ بالطوفانِ، ونبَعَ الماءُ بقُوَّةٍ مِنَ المكانِ الذي يُخبَزُ فيه، فليحمِلْ في السَّفينةِ مِن كُلٍّ المَخلوقاتِ ذَكَرًا وأنثى، وليُدخِلْ أهلَه فيها أيضًا إلَّا مَن سبَقَ حُكمُ الله تعالى بإهلاكِه لكفرِه، ونهاه الله تعالى أن يَسأله نَجاةَ قَومِه الكافرينَ؛ فإنَّهم مُغرَقونَ لا مَحالةَ.

وأمَرَه تعالى إذا استقرَّ على السَّفينةِ وركِبَها هو ومَن معَه؛ أن يقولَ: الحَمدُ لله الذي نجَّانا مِنَ القَومِ الظالمين. وأمره أن يدعوَ ربَّه أن يُنزِلَه إنزالًا مباركًا؛ فهو سبحانَه خَيرُ المُنزِلينَ.

ثم بيَّن تعالى أنَّ في إهْلاكِ قَومِ نُوحٍ الكافرينَ وإنجائِه المُؤمِنينَ لَدَلالاتٍ واضحاتٍ على صِدقِ ما جاء به رُسُلُ اللهِ مِن عنده، وإنْ كان الله تعالى لَمُختَبِرٌ الأُمَمَ بإرسالِ الرُّسُلِ إليهم قَبلَ إيقاعِ العُقوبةِ بهم؛ لِينظرَ كيف يَعملونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه وتَعالَى دَلائلَ التَّوحيدِ؛ أرْدَفَها بالقَصصِ؛ كما هو العادةُ في سائِرِ القُرآنِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أولًا بَدْءَ الإنسانِ وتَطوُّرَه في تِلكَ الأطوارِ، وما

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧٠).

امتَنَّ به عليه ممَّا جَعَله تعالى سَببًا لحياتِهم، وإدراكِ مَقاصدِهم؛ ذَكَر أمثالًا لكُفَّارِ قُرَيشٍ مِن الأممِ السَّابقةِ المُنكِرةِ لإرسالِ اللهِ رُسلًا، المُكذِّبةِ بما جاءَتْهم به الأنبياءُ عن اللهِ؛ فابتَدَأَ بقِصَّةِ نُوحٍ؛ لأنَّه أبو البَشرِ الثاني، كما ذَكَر أولًا آدَمَ وخلقَه مِنْ طِينٍ. ولِقَصَّتِه أيضًا مُناسَبةٌ بما قَبْلَها؛ إذ قَبْلَها ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]؛ فذَكر قِصَّةَ مَن صَنَعَ الفُلكَ أولًا، وأنَّه كان سَببَ نَجاةِ مَن آمَنَ[١].

وأيضًا لَمَّا كان الاستدلالُ والامتنانُ -اللَّذانِ تَقدَّما- مُوجَّهَينِ إلى المشركينَ الذين كَفروا بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واعتلُّوا لذلك بأنَّهم لا يُؤمِنون برِسالةِ بَشَرٍ مِثلِهم، وسألوا إنزالَ ملائكةٍ، ووَسَموا الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالجُنونِ، فلمَّا شابَهوا بذلك قومَ نُوحٍ ومَن جاءَ بعدَهم، ناسَبَ أنْ يُضرَبَ لهم بقومِ نُوحٍ مَثَلٌ؛ تحذيرًا ممَّا أصابَ قومَ نُوحٍ مِن العَذابِ[٢].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

أي: ولقدْ أَرسَلْنا نُوحًا إلى قَومِه، فقال لهم نُوحٌ: يا قَومِ، اعبُدُوا اللهَ وَحْدَه، وذِلُّوا بطاعتِه مُخلِصينَ له، ما لكم مِن مَعبودٍ غيرُه يَستَحِقُّ أنْ تَعبُدوه[٣].

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

أي: أفلا تخشونَ اللهَ، وتخافونَ عقوبتَه أن تحِلَّ بكم بسببِ عبادتِكم غيرَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٦، ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤١).

قال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرون: هذا تَعزيةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ هذا الرَّسولِ الصابِرِ؛ ليتأسَّى به في صبرِه، ولِيَعلَمَ أنَّ الرُّسُلَ قبْلَه قد كُذِّبوا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٠).

وإشراكِكم به[١]؟!

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: فقال الكفارُ مِن قومِ نوحٍ مِن الأشرافِ والسَّادةِ: ما نُوحٌ إلَّا إنسانٌ مِثلُكم، وليس رَسولًا كما يَزعُمُ، وإنَّما يُريدُ أنْ يكونَ أفضَلَ منكم، فادَّعى النُّبُوَّةَ لتَتَّبِعوه[٢]!

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾.

أي: ولو شاءَ اللهُ ألَّا نَعبُدَ شَيئًا سِواه، لَأَنزلَ علينا ملائِكةً رُسُلًا يُبَلِّغونَنا ألَّا نَعبُدَ غَيرَه[٣].

﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: ما سَمِعْنا في أسلافِنا مِنَ القُرونِ الماضيةِ بمِثلِ هذا الَّذي يَدْعونا إليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٣٠، ١٣١).

قال البقاعي: (﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: تخافون ما ينبغي الخوفُ منه، فتجعلوا لكم وقايةً مِن عذابِه، فتعمَلوا بما تقتضيه التقوى مِن إفرادِه بالعبادةِ؛ خوفًا من ضَرِّكم، ورجاءً لنفعِكم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٢).

قولُه: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ وَصَفُوه بذلك؛ إغضابًا للمُخاطبينَ عليه -عليه السَّلامُ-، وإغراءً لهم على مُعاداتِه عليه السَّلامُ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠).

نُوحٌ، مِن أنَّه لا مَعبودَ لنا غيرُ اللهِ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۞ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۞ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۞ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص: ٤ - ٨].

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينِ ٢٥﴾.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾.

أي: ما نُوحٌ إلَّا رجُلٌ فيه شَيءٌ مِنَ الجُنونِ؛ دفَعه لادِّعاءِ الرسالةِ، فلا يَدري ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٦٩).

وممَّن قال بأنَّ الإشارةَ في قولِه تعالى: ﴿بِهَٰذَا﴾ تعودُ إلى دعوةِ نوحٍ إلى التوحيدِ: ابنُ جريرٍ، والسمرقندي، ومكِّي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧٨)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٩٥٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٦٩).

قال الماوردي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فيه وجهانِ: أحدُهما: ما سمِعنا بمثلِ دعوتِه. والثاني: ما سمِعنا بمثلِه بشرًا أتَى برسالةٍ مِن ربِّه). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٥٢).

وممَّن قال بالقولِ الثاني: ابنُ أبي زمنين، والسمعاني، وابنُ كَثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠).

يقولُ، وهو ليس رَسولًا مِن عِندِ اللهِ كما يَزعُمُ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

أي: فانتَظِروا بنُوحٍ وَقْتًا ما حتَّى يُفيقَ مِنْ جُنونِه فيتركَ دعواه هذه، أو يَموتَ؛ فتَستَريحوا منه[(٢)].

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: قال نُوحٌ: رَبِّ، انصُرْني على قَومي، فأهلِكْهم بسَبَبِ تَكذيبِهم برِسالَتي[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٣)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٤).
قال الزمخشريُّ: (الجِنَّةُ: الجُنونُ أو الجِنُّ، أي: به جِنٌّ يخبلونَه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠).
وممن قال بأنَّ المرادَ: انتظارُ مَوتِه: الواحديُّ، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠).
وقيل: المرادُ: انتَظِروا حتى حينٍ؛ لعَلَّه يُفيقُ مِمَّا هو فيه من الجُنونِ. وممن قال بنحو ذلك: الزمخشريُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٢٨).
وقال الشوكاني: (﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: انتَظِروا به حتَّى يَستَبينَ أمرُه، بأنْ يفيقَ مِنْ جُنونِه فيَترُكَ هذه الدَّعوَى، أو حتَّى يموتَ؛ فتَستَريحوا مِنه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات: ٧٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠].

وقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۞ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦- ٢٧].

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾.

أي: فقُلْنا لنُوحٍ: اصنَعِ السَّفينةَ بمرأًى مِنَّا، وفي حِفظِنا، وبتَعليمِنا إيَّاك كيفيَّةَ صُنْعِها[1].

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾.

أي: فإذا أتَى وَقتُ إهلاكِنا لِقَومِك -يا نوحُ- بالطُّوفانِ، ونَبَع الماءُ بشِدَّةٍ مِنَ المَوضِعِ الَّذي يُخبَزُ فيه؛ فأَدْخِلْ في السَّفينةِ مِن كلِّ صِنفٍ مِن أصنافِ المخلوقاتِ ذَكَرًا وأُنثى[2].

= (١٢/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠).

قال ابنُ جرير: (وقَولُه: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] اختلف أهلُ التَّأويلِ في معنى ذلك؛ فقال بَعضُهم: معناه: انبَجَس الماءُ مِن وَجهِ الأرضِ، وفار التَّنُّورُ، وهو وَجهُ الأرضِ... وقال آخَرون: هو تنويرُ الصُّبحِ... وقال آخرون: معنى ذلك: وفارَ أعلى الأرضِ، وأشرَفُ مكانٍ فيها بالماءِ... =

كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠].

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾.

أي: وأَدخِلْ -يا نُوحُ- في السَّفينةِ أهْلَ بَيتِك، إلَّا مَن سبَقَ حُكمُ اللهِ عليه بإهلاكِه؛ لكُفرِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا

= وقال آخَرون: هو التَّنُّورُ الذي يُختبَزُ فيه). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠١- ٤٠٤).

وقال أيضًا: (وأَولى هذه الأقوالِ عندنا بتأويلِ قَولِه: ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] قَولُ مَن قال: هو التَّنُّورُ الذي يُخبَزُ فيه؛ لأنَّ ذلك هو المعروفُ مِن كلامِ العَرَبِ، وكلامُ اللهِ لا يُوجَّهُ إلَّا إلى الأغلَبِ الأشهَرِ مِن معانيه عند العَربِ إلَّا أن تقومَ حُجَّةٌ على شَيءٍ منه بخلافِ ذلك، فيُسَلَّمَ لها. وذلك أنَّه جلَّ ثناؤه إنَّما خاطبَهم بما خاطَبَهم به؛ لإفهامِهم معنى ما خاطَبَهم به). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠٦).

وقال ابن عطية: (الصَّحيحُ من الأقوالِ فيه: أنَّه تنُّورُ الخُبزِ، وأنَّها أمارةٌ كانت بيْنَ الله تعالى وبيْن نوحٍ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤١).

ونسَبه السمعاني للأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٢٨).

وقال السعدي: (﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: فارت الأرضُ، وتفجَّرتْ عيونًا، حتى محلُّ النارِ، الذي لم تَجرِ العادةُ إلَّا ببُعدِه عن الماءِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٠).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ الآيةِ (٤٠) مِن سورةِ (هودٍ).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٣).

تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

أي: ولا تَسألْني -يا نُوحُ- أنْ أُنَجِّيَ الكافرينَ؛ فإنِّي قدْ حَكمْتُ بإغراقِهم جَميعًا[1].

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: فإذا استقرَرْتَ -يا نوحُ- أنتَ والمُؤمِنونَ الَّذين معك على السَّفينةِ، وعَلَوتُم فَوقَها راكِبينَ، فقُلِ: الحَمدُ للهِ الَّذي خلَّصَنا مِنَ القَومِ المُشرِكينَ[2].

كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أشار اللهُ تعالى لنُوحٍ -عليه السَّلامُ- بقولِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا﴾ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٠٤).

قال ابن عاشور: (والتَّنجيةُ مِنَ القومِ الظَّالمينَ: الإنجاءُ مِنْ أذاهم والكونِ فيهم؛ لأنَّ في الكونِ بينَهم مُشاهدةَ كفرِهم ومناكِرِهم، وذلك مِمَّا يُؤْذي المؤمنَ. والظُّلْمُ: يجوزُ أنْ يُرادَ به الشِّركُ كما قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ويجوزُ أنْ يُرادَ به الاعتداءُ على الحقِّ؛ لأنَّ الكافرينَ كانوا يُؤْذونَ نوحًا والمؤمنينَ بشتَّى الأذَى باطلًا وعدوانًا، وإنَّما كان ذلك إنجاءً؛ لأنَّهم قدِ استقلُّوا بجماعَتِهم، فسَلِموا مِنَ الاختلاطِ بأعدائِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٧).

السَّلامةِ بالحمْلِ، أَتْبَعه الإشارةَ إلى الوَعدِ بإسكانِ الأرضِ، فقال[١]:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿مُنزَلًا﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿مَنْزِلًا﴾ اسمُ مَكانٍ، بمعنى مَوضِعِ النُّزولِ[٢].

٢- قِراءةُ ﴿مُنزَلًا﴾ وهو مصدرٌ بمعنى الإنزالِ، أي: أَنْزِلْني إنْزالًا مُبارَكًا. وقيل: هو اسمُ مفعولٍ مِن (أنزله) على حذفِ المجرورِ، أي: مُنزلًا فيه. وقيلَ: يَرجِعُ لمعنى القِراءةِ الأُولَى، بمعنَى: مَوضِعًا مُبارَكًا يَنزِلونَ فيه[٣].

﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا ﴾.

أي: وقُلْ -يا نُوحُ: رَبِّ أَنْزِلْني إنْزالًا مُبارَكًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٣٤).

(٢) قرأ بها شعبةُ أبو بكرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٨٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٠).
قال السمعاني: (وفي مَوضِعِ النُّزولِ قولانِ: أحدُهما: أنَّه السَّفينةُ بعدَ الرُّكُوبِ، والآخَرُ: أنَّه الأرضُ بعدَ النُّزُولِ مِن السَّفينةِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٧٢).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٨٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧، ٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٧٠).
قال ابن الجوزي: (وفي الوقتِ الذي قال فيه نوحٌ ذاكَ: قولان: أحدُهما: عند نزولِه في السفينةِ. والثاني: عند نزولِه من السفينةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦١). =

قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [هود: ٤٨].

﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾.

أي: وأنتِ -يا رَبَّنا- خَيرُ مَن تُنزِلُ عِبادَك[١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى هذه القِصَّةَ العظيمةَ، أعقَبَها بالتَّنبيهِ إلى مَوضعِ العِبرةِ منها للمُسلمينَ؛ فأتَى بهذا الاستئنافِ لذلك[٢].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾.

أي: إنَّ في إهْلاكِنا قَومَ نُوحٍ الكافرينَ وإنجائِنا المُؤمِنينَ: لَدَلالاتٍ واضحاتٍ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وعِلْمِه وحِكمَتِه، وصِدْقِ أنبيائِه، وقُدْرتِه على نَصْرِ المؤمنين، وإهلاكِ أعدائِه[٣].

= وقال البغوي: (فالبَركةُ في السفينةِ: النجاةُ، وفي النزولِ بعدَ الخروجِ: كثرةُ النسلِ مِن أولادِه الثلاثةِ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧٩)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٩٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٨).

قال ابن عاشور: (الآياتُ: الدَّلالاتُ، أي: لَآياتٍ كثيرةً، منها ما هي دلائلُ على صدقِ رسالة نوحٍ، وهي إجابةُ دعوتِه وتصديقُ رسالتِه وإهلاكُ مكذِّبيه، ومنها آياتٌ لأمثالِ قومِ نوحٍ من الأممِ المكذِّبين لرسُلِهم، ومنها آياتٌ على عظيمِ قدرةِ الله تعالى في إحداثِ الطوفانِ وإنزالِ مَن في السفينةِ مَنزِلًا مُباركًا، ومنها آياتٌ على عِلمِ الله تعالى وحكمتِه؛ إذ قدَّر لتطهيرِ الأرضِ مِن =

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾.

أي: وقدْ كُنَّا مُختَبِرينَ بإرسالِ الرُّسُلِ، والتَّذكيرِ بآياتِنا قَبلَ نُزولِ عُقوبتِنا؛ لِنَنظُرَ كيف يَعمَلونَ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا تَعليمٌ منه تعالى لِنُوحٍ عليه السَّلامُ ولمَن معَه أنْ يَقولوا هذا؛ شُكْرًا له تعالى، وحمْدًا على نَجاتِهم مِنَ القومِ الظَّالمينَ(٢)، وهكذا الواجِبُ على كلِّ مَن أنجاه اللَّه مِن الظَّلمةِ أن يحمَدَ رَبَّه على ذلك، ويسألَه النَّجاةَ إذا ابتُلِيَ بهم،

= الشِّركِ مِثلَ هذا الاستئصالِ العامِّ لأهلِه، وإذ قدَّر لإبقاءِ الأنواعِ مِثلَ هذا الصُّنعِ الذي أنجَى به مِن كلِّ نوعٍ زوجينِ ليُعادَ التناسُلُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨)، ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٤٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٠).

قيل: المعنى: وقد كنَّا مُختبِرينَ قومَ نوح بإرسالِنا نوحًا إليهم، وتذكيرِهم بآياتنا قَبلَ نُزولِ عُقوبتنا بهم؛ لِنَنظرَ كيف يعملون. وممَّن قال بذلك في الجُملة: ابنُ جَرير، والواحديُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦١).

وقيل: المعنى: ما كُنَّا إلَّا مُبتلِينَ الأممَ قَبلَكم، أي: مختبرينَ لهم بإرسالِ الرُّسلِ إليهم؛ ليَظهرَ المطيعُ والعاصي. وممَّن قال بذلك في الجُملة: القُرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٤).

وإلى نحوِ ذلك ذهَب البقاعيُّ، فقال: (﴿لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: فاعلين فِعلَ المختبِرِ لعبادِنا بإرسال الرُّسلِ؛ لِيَظهرَ في عالَمِ الشهادةِ الصالحُ منهم مِن غيرِه، ثمَّ نبتلي الصالحينَ منهم بما يَزيدُ حَسناتِهم، ويَنقُصُ سيِّئاتِهم، ويُعلي دَرجاتِهم، ثم نجعلُ لهم العاقبةَ؛ فنُبلي بهم الظالمينَ بما يُوجبُ دَمارَهم، ويُخربُ دِيارَهم، ويمحو آثارَهم، هذه عادتُنا المستمرَّةُ إلى أنْ نرِثَ الأرضَ ومَن عليها، فيكونَ البلاءُ المبينُ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

كما عَلَّم نوحًا أن يقولَ ما ذَكَر ويحمَدَه على النَّجاةِ منهم[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فيه إبْطالُ أُلوهيَّةِ غَيرِ اللهِ، وإثْباتُ الإلهيَّةِ للهِ تعالى[٢].

٢- الإقرارُ بالملائكةِ عامٌّ في بَني آدَمَ، لم يُنكِرْ ذلك إلَّا شَواذٌّ مِن بَعضِ الأُمَمِ؛ ولهذا قالت الأُمَمُ المُكذِّبةُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، حتَّى قَومُ نُوحٍ وعادٌ، وثمودُ، وقومُ فِرعونَ؛ قال قَومُ نُوحٍ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقال تَعالَى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤]، وفِرْعونُ وإنْ كان مُظْهِرًا لِجَحْدِ الصَّانعِ؛ فإنَّه ما قال: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]، إلَّا وقد سمِعَ بذِكْرِ الملائكةِ؛ إمَّا مُعترِفًا بهم، وإمَّا مُنكِرًا لهم، فذِكْرُ الملائكةِ عامٌّ في الأُمَمِ، وليس في الأُمَمِ أُمَّةٌ تُنكِرُ ذلك إنكارًا عامًّا، وإنَّما يُوجَدُ إنكارُ ذلك في بَعضِهم؛ مِثْلُ مَن قدْ يَتفلسَفُ، فيُنكِرُهم؛ لِعَدمِ العِلْمِ، لا للعِلْمِ بالعَدمِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: نَصْرًا كائِنًا بسبَبِ تَكذيبِهم؛ جعَلَ حَظَّ نَفْسِه فيما اعْتَدَوا عليه مُلْغًى، واهتَمَّ بحَظِّ الرِّسالةِ عن اللهِ؛ لأنَّ الاعتداءَ على الرَّسولِ استخفافٌ بمَن أرسَلَهُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٥).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ لَمَّا كان نوحٌ عليه السَّلامُ يَخافُ مِن أذاهُم له في عَمَلِه بالإفسادِ وغيرِه، قال: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: إنَّه لا يَغِيبُ عنَّا شَيءٌ مِن أمْرِك ولا مِن أمْرِهم، وأنتَ تَعرِفُ قُدرتَنا عليهم؛ فثِقْ بحِفْظِنا، ولا تَخَفْ شيئًا مِن أمْرِهم. ولَمَّا كان لا يَعلَمُ تلك الصَّنعةَ، قال: ﴿وَوَحْيِنَا﴾[1].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أَلْهَمه اللَّهُ بالوحيِ أنْ يحمَدَ رَبَّه على ما سَهَّل له مِن سبيلِ النَّجاةِ، وأنْ يسألَه نزولًا في منزِلٍ مُبارَكٍ عقبَ ذلك الترحُّلِ، والدُّعاءُ بذلك يتضَمَّنُ سؤالَ سلامةٍ مِن غَرَقِ السَّفينةِ، وفي ذلك التَّعليمِ إشارةٌ إلى أنَّه سيُتقبَّلُ ذلك منه[2].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ استُدِلَّ به على استحبابِ هذا الدُّعاءِ عندَ النُّزولِ مِن السَّفينةِ، وأنَّه تعليمٌ مِن الله لعبادِه أن يقولوا ذلك[3]، وذلك على أحدِ القولينِ في وقتِ قولِه.

٧- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ جِيءَ بـ(على)؛ لأنَّ السَّابقَ ضارٌّ، كما جِيءَ باللَّامِ حيث كان نافعًا في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾[4] [الأنبياء: ١٠١].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٠)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٢).

بلاغة الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ لمَّا شابَهَ المشركونَ قَومَ نُوحٍ ومَن جاء بَعْدَهم: ناسَبَ أنْ يُضْرَبَ لهم بقَومِ نُوحٍ مَثَلٌ؛ تَحذيرًا ممَّا أصاب قَومَ نُوحٍ مِن العذابِ، وقد جَرَى في أثناءِ الاستدلالِ والامتنانِ ذِكْرُ الحَمْلِ في الفُلْكِ؛ فكان ذلك مُناسَبةً للانتقالِ، فحصَلَ بذلك حُسْنُ التَّخلُّصِ[١]، فيُعتبَرُ ذِكْرُ قَصصِ الرُّسلِ إمَّا استطرادًا في خِلالِ الاستدلالِ على الوَحدانيَّةِ، وإمَّا انتقالًا[٢]. وهو شُروعٌ في بَيانِ إهمالِ الأُممِ السَّابقةِ، وتَرْكِهم النَّظرَ والاعتبارَ فيما عُدِّدَ مِن النِّعَمِ الفائتةِ للحصرِ، وعَدَمِ تَذكُّرِهم بتَذكيرِ رُسلِهم وما حاقَ بهم لذلك مِن فُنونِ العذابِ؛ تَحذيرًا للمُخاطَبينَ[٣].

- وتَقديمُ قِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ على سائرِ القصصِ؛ لأنَّه أبو البشَرِ الثَّاني، كما ذُكِرَ أوَّلًا آدَمُ في قولِه: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾، وفي إيرادِها إثْرَ قولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ مِن حُسْنِ المَوقِعِ ما لا يُوصَفُ[٤].

---

(١) حُسنُ التخَلُّصِ: هو الانتِقالُ ممَّا ابتُدِئَ به الكلامُ إلى المقصودِ، أو مِن مَوضوعٍ إلى موضوعٍ آخَرَ بأسلوبٍ حَسَنٍ مُستطابٍ، على وَجهٍ سَهلٍ دَقيقِ المعنى، بحيث لا يشعُرُ السَّامِعُ بالانتقالِ مِن المعنى الأوَّلِ إلَّا وقد وقعَ عليه الثَّاني؛ لشِدَّةِ الالتئامِ بيْنهما. وحُسنُ التخَلُّصِ مُتشابِهٌ جِدًّا مع الاستِطرادِ، إلَّا أنَّ بينهما فَرقًا دقيقًا، بيانُه: أنَّ التخَلُّصَ تَركُ ما كان الكلامُ فيه بالكُلِّيَّةِ، والإقبالُ على ما تُخُلِّصَ إليه. والاستِطرادُ: مُرورٌ بذِكرِ الأمرِ الذي استُطرِدَ إليه مُرورًا كالبَرقِ الخاطِفِ، ثمَّ تَرْكُه والعودةُ إلى ما كان فيه، كأنَّ المتكَلِّمَ لم يَقصِدْه وإنَّما عرَضَ عُروضًا. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٧٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩).

- وتَصديرُ جُملةِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ بلامِ القسَمِ؛ لتأْكيدِ المضمونِ التَّهديديِّ مِن القِصَّةِ[١].

- قولُه: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ...﴾ فيه عَطْفُ مَقالةِ نُوحٍ على جُملةِ إرسالِه بفاءِ التَّعقيبِ؛ لإفادةِ أدائِه رِسالةَ ربِّه بالفَورِ مِن أمْرِه، وهو شأْنُ الامتثالِ[٢].

- قولُه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اعْبُدُوه وَحْدَه، كما يُفْصِحُ عنه قولُه تعالى في سُورةِ (هُودٍ): ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢٦]، وتُرِكَ التَّقييدُ به؛ للإيذانِ بأنَّها هي العِبادةُ فقطْ، وأمَّا العِبادةُ بالإشراكِ فليسَتْ مِن العِبادةِ في شَيءٍ رأْسًا[٣].

- جُملةُ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتَعليلِ العِبادةِ المأْمورِ بها، أو لِتَعليلِ الأمْرِ بها[٤]، وهو تَعليلٌ أخَصُّ مِن المُعلَّلِ، وهو أوقَعُ؛ لِمَا فيه مِن الإيجازِ؛ لاقتضائِه مَعْنى: اعْبُدوا اللهَ وَحْدَه[٥]. و(لكم) للتَّخصيصِ والتَّبْيينِ[٦].

- قولُه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الهمزةُ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِه، والفاءُ للعَطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المَقامُ، أي: أتعرِفونَ ذلك -أي: مَضمونَ قولِه تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾- فلا تتَّقونَ عذابَهُ بسبَبِ إشْراكِكم به في العِبادةِ ما لا يَستحِقُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٠).

الوُجودَ لولا إيجادُ اللهِ تعالى إيَّاهُ، فَضْلًا عنِ استحقاقِ العِبادةِ؛ فالمُنكَرُ عدَمُ الاتِّقاءِ مع تَحقُّقِ ما يُوجِبُه، أو: ألَا تُلاحِظونَ ذلكَ، فلا تتَّقونَه؛ فالمُنكَرُ كِلَا الأمرينِ؛ فالمُبالَغة حِينئذٍ في الكَميَّةِ، وفي الأوَّلِ في الكَيفيَّةِ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيه مناسَبةٌ حسنةٌ؛ حيث خُولِفَت في حِكايةِ جَوابِ الملأِ مِن قَومِهِ الطَّريقةُ المألوفةُ في القُرآنِ في حِكايةِ المُحاوَراتِ، وهي تَرْكُ العَطْفِ الَّتي جَرَى عليها قولُه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فعُطِفَ هنا جَوابُ الملأِ مِن قَومِه بالفاءِ؛ لِوَجهينِ:

أحدُهما: أنَّهم لم يُوجِّهوا الكلامَ إليه، بل تَرَكوه وأقْبَلوا على قَومِهم يُفنِّدون لهم ما دَعاهم إليه نُوحٌ.

والثَّاني: لِيُفادَ أنَّهم أسْرَعوا بتكذيبِه وتَزْييفِ دَعوتِه قبْلَ النَّظرِ(٢).

- ومِن المناسَبةِ الحسنةِ أيضًا: قولُه هنا: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ بتَقديمِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾، وقال بعْدُ بالعَكْسِ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّه اقتصَرَ هنا في صِلَةِ الموصولِ على الفِعلِ والفاعِلِ، وفيما بَعْدُ طالَتْ فيه الصِّلةُ، بزِيادةِ العَطْفِ على الصِّلةِ مرَّةً بعْدَ أُخرى، فقدَّمَ عليها ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾؛ لأنَّ تأْخيرَه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤١).

عن المفعولِ مُلْبِسٌ، وتَوسيطَه بَيْنَه وبينَ ما قبْلَه رَكيكٌ[١].

وفيه وَجْهٌ آخَرُ: أنَّ المجرورَ ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ رافعٌ إمكانَ أنْ يكونَ القائلونَ غيرَهم، ويَلِيهِ في الحاجةِ إلى ذِكْرِه وَسْمُهم بالكُفْرِ؛ لأنَّه سبَبُ أخْذِهم وهَلاكِهم، إلَّا أنَّه لمَّا كان قد يُفْهِمُه سِياقُ الكلامِ، لم يَلزَمِ الإفصاحُ به في كلِّ مَوضعٍ، وإنْ أُفْصِحَ به هنا، أمَّا الإفصاحُ بالمجرورِ فالإفصاحُ به أو بضَميرٍ يَقومُ مَقامَه ضَروريٌّ لا بُدَّ منه؛ لِيَحصُلَ منه تَخصيصُ الحُكْمِ بمَن تقدَّمَ. ولا فرقَ بينَ هذه القِصَّةِ وقِصَّةِ نُوحٍ قبْلَها في الحاجةِ إلى هذا المجرورِ أو ما يَقومُ مَقامَه، فلم يُقدَّمْ هناك؛ لأنَّه لم يَرِدْ هناك غيرُ صِفَةٍ واحدةٍ جُعِلَتْ مع مَوصوفِها كشَيءٍ واحدٍ، وإن كان الوصفُ بموصولٍ، والموصولُ يَطولُ بصِلتِه، إلَّا أنَّ طُولَه بصِلتِه لا يُزيلُه عن تقديرِه باسمٍ واحدٍ، فمِن حيثُ جُعلتِ الصِّفةُ مع موصوفِها كشيءٍ واحدٍ للحاجةِ إليها، وكونِها مفردةً: قُرِنتْ بموصوفِها، وتأخَّر المجرورُ، فقال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وحيثُ لم يقَعِ الاكتفاءُ بصِفَةٍ واحدةٍ وزِيدَ عليها، ولا يُمكِنُ جَعْلُ صِفَتينِ فما زاد مع مَوصوفِها كشَيءٍ واحدٍ: قُدِّمَ المجرورُ، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣]؛ فوقَعَ المَجرورُ في كلٍّ مِن الآيتينِ على ما يَجِبُ، وعُطِفَتِ الصِّفاتُ بَعْضُها على بَعضٍ؛ لِوُرودِها غيرَ صِفَةٍ[٢].

- ومِن المناسَبةِ أيضًا: زِيادةُ ما عُطِفَ على الوَصفِ بالكُفْرِ في القِصَّةِ الثَّانيةِ، وهو قولُه: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣]،

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٣٤-٩٣٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٣، ١٨٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣٠، ٣٣١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٦٧، ٣٦٨).

مع اسْتِحقاقِهم العَذابَ بمُجرَّدِ كُفْرِهم؛ ووَجْهُه: أنَّ هذه الزِّيادةَ مُنْبئةٌ بأنَّ المذكورينَ في القِصَّةِ الثَّانيةِ ليسوا في شُمولِ الكُفْرِ إيَّاهم واستيلائِه على مُعْظَمِهم كقَومِ نُوحٍ عليه السَّلامُ، بلِ الإيمانُ في هؤلاء أفْشَى وأكثَرُ؛ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨]، ولم يقَعْ هنا وَصْفُ مَن آمَنَ مِن قَومِ هُودٍ بقِلَّةٍ ولا بكَثرةٍ، فبَقِيَ الاحتمالُ في الطَّرفينِ على حَدٍّ سواءٍ، إلَّا أنَّه ورَدَ في وَصْفِ الملأِ المُكذِّبينَ مِن قَومِ هُودٍ في هذه السُّورةِ، ممَّن أفصَحَ بالرَّدِّ والتَّكذيبِ وصَدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِه، ما يُشعِرُ بأنَّهم ليسوا أكثَرَ قومِه، وذلك لِمَا وصَفَهم به بعْدَ الكُفْرِ مِن التَّكذيبِ والإترافِ، وهو التَّنعُّمُ والتَّرفيهُ، والعَقْلُ شاهِدٌ أنَّ المُترفينَ ليسوا جَميعَهم، أمَّا الكُفْرُ فلا يَبعُدُ اتِّصافُ أُمَّةٍ بأسْرِها به، ويَبعُدُ اتِّصافُ جَميعِهم بالامتدادِ في التَّنعُّمِ والتَّرفُّهِ، فأشعَرَ وَصْفُهم بما ذُكِرَ بعْدَ كُفْرِهم بكَثرةٍ فيمَن عَداهم، بخِلافِ الحالِ في قَومِ نُوحٍ، وأشعَرَ أيضًا بامتدادِهم وتَمكُّنِهم في دُنْياهم أكثَرَ مِن غَيرِهم؛ فأشعَرَتْ زِيادةُ الوَصْفِ بتَوسُّعِ الحالِ وامتدادِ الآمادِ، فلم يكُنْ بُدٌّ مِن وَصْفِهم بما ذُكِرَ[1].

- قولُه: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وصَفَ الملأَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مع اشتراكِ الكلِّ فيه؛ للإيذانِ بكَمالِ عَراقتِهم في الكُفْرِ، وشِدَّةِ شَكيمتِهم فيه[2]. وفيه: إيماءٌ إلى أنَّ كُفْرَهم هو الَّذي أنطَقَهم بهذا الرَّدِّ على نُوحٍ، وهو تَعريضٌ بأنَّ مِثْلَ ذلك الرَّدِّ لا نُهوضَ له، ولكنَّهم رَوَّجُوا به كُفْرَهم؛ خَشيةً على زَوالِ سِيادَتِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٦٧، ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤١، ٤٢).

- قولُه: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ وصَفُوهُ عليه السَّلامُ بذلك؛ مُبالَغةً في وَضْعِ رُتْبتِه العاليةِ وحَطِّها عن مَنصبِ النُّبوَّةِ[١]. وهو كِنايةٌ عن تكذيبِه في دَعْوى الرِّسالةِ بدَليلٍ مِن ذاتِه؛ أَوْهَموهُم أنَّ المُساواةَ في البشريَّةِ مانِعةٌ مِن الوساطةِ بينَ اللهِ وبينَ خَلْقِه. واسمُ الإشارةِ مُنصرِفٌ إلى نُوحٍ، وهو يَقْتَضي أنَّ كَلامَ الملأِ وقَعَ بحَضرةِ نُوحٍ في وَقْتِ دَعوتِه، فعَدَلوا مِن اسمِه العَلَمِ إلى الإشارةِ؛ لأنَّ مَقصودَهم تَصغيرُ أمْرِه، وتَحقيرُه لَدى عامَّتِهم؛ كَيْ لَا يَتقبَّلوا قولَه[٢].

- قولُه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ فيه حَذْفُ مَفعولِ فِعْلِ المشيئةِ؛ لِظُهورِه من جَوابِ (لو)، أي: لو شاءَ اللهُ إرسالَ رَسولٍ لَأنزَلَ ملائكةً رُسلًا، وذلك مِن الإيجازِ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء قولُه هنا: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ ...﴾ الآيةَ، بلَفْظِ (الله)، وفي سُورةِ (فُصِّلتْ) قال: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [فصلت: ١٤] بلَفْظِ ﴿رَبُّنَا﴾؛ ووَجْهُه: أنَّ كلَّ آيةٍ جاءت مُوافِقةً لِمَا قبْلَها؛ إذْ ما هنا تقدَّمَه لَفْظُ ﴿ٱللَّهُ﴾ دونَ ﴿رَبُّنَا﴾، وفي (فُصِّلَت) تقدَّمَ ذِكْرُ ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [فصلت: ٩] سابقًا على ذِكْرِ (الله)، فصُرِّحَ في هذه السُّورةِ بذِكْرِ (الله)، وهناك بذِكْرِ الرَّبِّ لإضافَتِه إلى العالَمينَ، وهم جُملَتُهم، فقالوا -إمَّا اعتقادًا، وإمَّا استهزاءً-: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾؛ فأضافُوا الرَّبَّ إليهم[٤].

- وجُملةُ: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ مُستأْنفةٌ، قَصَدوا بها تَكذيبَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٤٢، ٤٣).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٠).

الدَّعوةِ بَعْدَ تَكذيبِ الدَّاعي؛ فلذلك جِيءَ بها مُستأْنفةً غيرَ مَعطوفةٍ؛ تَنبيهًا على أنَّها مَقصودةٌ بذاتِها، وليست تَكْمِلةً لِمَا قبْلَها، بخِلافِ أُسلوبِ عَطْفِ جُملةِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾؛ إذ كان مَضمونُها مِن تَمامِ غرَضِ ما قبْلَها[١].

- ولمَّا كان السَّماعُ المَنْفِيُّ ليس سَماعًا بآذانِهم لكَلامٍ في زَمنِ آبائِهم، بلِ المُرادُ ما بلَغَ إلينا وُقوعُ مِثْلِ هذا في زَمنِ آبائِنا- عُدِّيَ فِعْلُ (سمِعَ) بالباءِ؛ لِتَضمينِه معنى الاتِّصالِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

- وقولُه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ جَميعَ ما قالوه يُثِيرُ في نُفوسِ السَّامعينَ أنْ يَتساءَلوا: إذا كان هذا حالَ دَعوتِه في البُطلانِ والزَّيفِ؛ فماذا دَعاهُ إلى القولِ بها؟ فيُجابُ بأنَّه أصابَهُ خلَلٌ في عَقْلِه، فطلَبَ ما لم يكُنْ لِيَنالَه مِثْلُه مِن التَّفضُّلِ على النَّاسِ كلِّهم بنِسْبَتِهم إلى الضَّلالِ؛ فقد طَمِعَ فيما لا يَطمَعُ عاقِلٌ في مِثْلِه، فدَلَّ طمَعُه في ذلك على أنَّه مَجنونٌ[٣].

- والتَّنوينُ في ﴿جِنَّةٌ﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: هو مُتلبِّسٌ بشَيءٍ من الجُنونِ، وهذا اقتصادٌ منهم في حالِه؛ حيث احْتَرَزوا مِن أنْ يُورِّطُوا أنفُسَهم في وَصْفِه بالخَبالِ، مع أنَّ المُشاهَدَ مِن حالِه يُنافي ذلك، فأوْهَموا قَومَهم أنَّ به جُنونًا خَفيفًا لا تَبْدو آثارُه واضحةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والقَصرُ في قولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ قَصرٌ إضافيٌّ[(١)]، أي: ليس برَسولٍ مِن اللهِ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ مُتعلِّقًا بما قبْلَه، أي: أنَّه مَجنونٌ، فاصْبِروا إلى زَمانٍ حتَّى يَظهَرَ عاقِبةُ أمْرِه؛ فإنْ أفاقَ، وإلَّا قَتلتُموهُ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ كَلامًا مُستأْنفًا، وهو أنْ يَقولوا لِقَومِهم: اصْبِروا؛ فإنَّه إنْ كان نَبِيًّا حقًّا، فاللهُ يَنصُرُه ويُقوِّي أمْرَه، فنحن حِينئذٍ نَتَّبِعُه، وإنْ كان كاذِبًا، فاللهُ يَخذُلُه ويُبطِلُ أمْرَه، فحينئذٍ نَستريحُ منه[(٣)].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ما حُكِيَ عن صَدِّهم النَّاسَ عن تَصديقِ دَعوةِ نُوحٍ، وما لَفَّقُوه مِن البُهتانِ في نِسْبتِه إلى الجُنونِ، ممَّا يُثِيرُ سُؤالَ مَن يسأَلُ: ماذا صنَعَ نُوحٌ حين كذَّبَه قَومُه؟ فيُجابُ بأنَّه قال: رَبِّ انْصُرْني... إلخ[(٤)].

- قولُه: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث سأَلَ نوحٌ هنا نَصْرًا مُجْملًا، ولمَّا أعلَمَهُ اللهُ أنَّه لا رجاءَ في إيمانِ قَومِه إلَّا مَن آمَنَ منهم، كما جاء في سُورةِ (هُودٍ)، فلا رجاءَ في أنْ يكونَ نَصْرُه برُجوعِهم إلى طاعَتِه

---

(١) القصرُ الإضافي: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدمِ صحةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ يدورُ حولَ احتمالينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويستدلُّ عليها بالقرائنِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٥).

وتَصديقِه واتِّباعِ مِلَّتِه؛ فسأَلَ نُوحٌ حِينذاك نَصْرًا خاصًّا، وهو استئصالُ الَّذين لم يُؤْمِنوا، كما جاء في سُورةِ (نُوحٍ): ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]؛ فالتَّعقيبُ الَّذي في قولِه تعالى هنا: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ تَعقيبٌ بتَقديرِ جُمَلٍ مَحذوفةٍ، وهو إيجازٌ في حِكايةِ القِصَّةِ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ لِتَرتيبِ مَضمونِ ما بَعْدَها على تَمامِ صُنْعِ الفُلكِ[٢].

- قولُه: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ التَّنوينُ في قولِه: ﴿كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ تَنوينُ عِوَضٍ[٣] يُشعِرُ بمَحذوفٍ أُضِيفَ إليه (كل)، وتَقديرُه: مِن كلِّ ما أمرْتُك أنْ تَحمِلَه في السَّفينةِ[٤].

- وتأْخيرُ الأمْرِ بإدخالِ الأهْلِ عمَّا ذُكِرَ مِن إدخالِ الأزواجِ فيها في قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣١).

(٣) تَنوينُ العِوَضِ: هو حذفُ حرفٍ مِن كلمةٍ، أو حذفُ كلمةٍ كاملةٍ، أو حذفُ جملةٍ بتمامِها أو أكثرَ؛ فيحلُّ التنوينُ محلَّ المحذوفِ، ويكونُ عوضًا عنه. وحذفُ كلمةٍ ومجيءُ التنوينِ عِوضًا عنها يكثرُ بحذفِ المضافِ إليه بعدَ لفظةِ: (كل)، أو (بعض)، وما في حكمِهما، ومِن أمثلتِه: قسمتُ المالَ بينَ المستحقِّينَ؛ فأعطيتُ كُلاًّ نصيبَه، أي: كلَّ مستحِقٍّ. يُنظر: ((شرح كتاب الحدود في النحو)) للفاكهي (ص: ٢٨٩)، ((جامع الدروس العربية)) للغلاييني (١/ ١٠)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (١/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٦).

﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ﴾؛ لكَونِه عَريقًا فيما أُمِرَ به مِن الإدخالِ؛ فإنَّه يَحتاجُ إلى مُزاوَلةِ الأعمالِ منه عليه السَّلامُ، بل إلى مُعاونةٍ مِن أهْلِه وأتْباعِه، وأمَّا هم فإنَّما يَدْخلونَها باختيارِهم بعْدَ ذلك، ولأنَّ في المُؤخَّرِ ضَرْبَ تَفصيلٍ بذِكْرِ الاستثناءِ وغَيرِه؛ فتَقديمُه يُؤدِّي إلى الإخلالِ بتَجاوُبِ أطرافِ النَّظمِ الكريمِ[1].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث عُبِّرَ هنا بقولِه: ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا﴾، وفي سُورةِ (هُودٍ) بقولِه: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾ [هود: ٤٠]؛ ووَجْهُه: أنَّ آيةَ سُورةِ (هُودٍ) حَكَتْ ما خاطبَه اللهُ به عندَ حُدوثِ الطُّوفانِ، وذلك وقْتٌ ضَيِّقٌ، فأُمِرَ بأنْ يَحمِلَ في السَّفينةِ مَن أرادَ اللهُ إبقاءَهم، فأسنَدَ الحَمْلَ إلى نُوحٍ تَمْثيلًا للإسراعِ بإركابِ ما عُيِّنَ له في السَّفينةِ، حتَّى كأنَّ حالَهُ في إدخالِه إيَّاهم حالُ مَن يَحمِلُ شيئًا لِيَضعَهُ في مَوضِعٍ، وآيةُ هذه السُّورةِ حَكَتْ ما خاطبَهُ اللهُ به مِن قَبْلِ حُدوثِ الطُّوفانِ؛ إنباءً بما يَفعَلُه عندَ حُدوثِ الطُّوفانِ، فأمَرَه بأنَّه حِينئذٍ يُدخِلُ في السَّفينةِ مَن عيَّنَ اللهُ إدْخالَهم، مع ما في ذلك مِن التَّفنُّنِ في حِكايةِ القِصَّةِ[2].

٦- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ، أو لِمَا يُنبِئُ عنه مِن عدَمِ قَبولِ الدُّعاءِ، أي: إنَّهم مَقْضِيٌّ عليهم بالإغراقِ لا مَحالةَ؛ لِظُلْمِهم بالإشراكِ وسائرِ المَعاصي، ومَن هذا شأْنُه لا يُشْفَعُ له، ولا يُشَفَّعُ فيه، كيف لا وقد أُمِرَ بالحمْدِ على النَّجاةِ منهم بهَلاكِهم بقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣١).

عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، على طَريقةِ قولِه تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] [الأنعام: ٤٥].

٧- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ﴾ جاء الأمْرُ (قُل) له وَحْدَه، وإنْ كان الشَّرطُ قد شَمِلَه ومَن معهُ؛ لأنَّه نَبيُّهم وإمامُهم، وهم مُتَّبِعوه في ذلك؛ إذ هو قُدْوتُهم، مع ما فيه مِن الإشعارِ بفَضلِ النُّبوَّةِ، وإظهارِ كِبْرياءِ الرُّبوبيَّةِ، وأنَّ رُتبةَ تلك المُخاطَبةِ لا يَترقَّى إليها إلَّا مَلَكٌ أو نَبيٌّ[2].

٨- قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾

- قولُه: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ تَعليلٌ لسُؤالِه: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا ﴾[3]، وهو ثَناءٌ مُطابِقٌ لدُعائِه، أمَرَهُ بأنْ يَشفَعَهُ به؛ مُبالَغةً فيه، وتَوسُّلًا به إلى الإجابةِ[4].

٩- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ لمَّا ذكَرَ هذه القِصَّةَ العظيمةَ؛ أعقَبَها بالتَّنبيهِ إلى مَوضِعِ العِبْرةِ منها للمُسلمينَ، فأتَى بهذا الاستئنافِ لذلك[5].

- وعُطِفَ جُملةُ ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ على جُملةِ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٤، ١٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٧، ٥٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٨).

مَضمونَ ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ يُفِيدُ معنَى: إنَّ في ذلك لَبَلْوى؛ فكأنَّه قِيلَ: إنَّ في ذلك لآياتٍ وابتلاءً وكُنَّا مُبْتلينَ، أي: وشأْنُنا ابتلاءُ أوليائِنا[١].

- وقولُه: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ تَسليةٌ للنَّبيِّ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما يَلْقاهُ مِن المُشركينَ، وتَعريضٌ بتَهديدِ المُشركينَ بأنَّ ما يُواجِهون به الرَّسولَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا بَقاءَ له، وإنَّما هو بَلْوى تَزُولُ عنه وتَحُلُّ بهم، ولكلٍّ حظٌّ يُناسِبُه، ولكونِ هذا ممَّا قد يَغِيبُ عن الألبابِ، نُزِّلَ مَنزِلةَ الشَّيءِ المُتردَّدِ فيه، فأُكِّدَ بـ (إنْ) المُخفَّفةِ، وبفِعْلِ (كنَّا)[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٤٩).

الآيات (٢١-٤٢)

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَرْنًا﴾: القَرْنُ: القومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المقترِنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْر مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّة القرنِ مئةُ سنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقترانِ، وهو اجتماعُ شيئينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصْلُ (قرن): يدلُّ على جَمْعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ(١).

﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾: أي: نعَّمْناهم، وأبْقَيناهم في المُلْكِ، ووسَّعْنا عليهم، والمُترَفُ: المُتقلِّبُ فِي لِينِ العَيْشِ، وأصْلُ (ترف): التَّنعُّمُ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).١٧٣]

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٠)، =

﴿هَيْهَاتَ﴾: أي: بَعيدٌ، وهي كلمةٌ تُستعمَلُ لتبعيدِ الشيءِ، أو هي اسمُ فعلٍ بمعنَى (بعُدَ)[١].

﴿غُثَآءً﴾: أي: هَلْكَى كالغُثاءِ، وهو ما علا السَّيلَ مِن الزَّبَدِ وغيرِه، أو لا بَقِيَّةَ فيهم، أو شَيئًا بالِيًا، وأصْلُه: ارتِفاعُ شَيءٍ دَنِيٍّ فوقَ شَيءٍ[٢].

﴿فَبُعْدًا﴾: أي: فهَلَاكًا، والبُعدُ أكثرُ ما يُقالُ في الهلاكِ، وأصْلُه: ضِدُّ القُرْبِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَوْلُه تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾

المَصدَرُ المُؤَوَّلُ مِن (أنَّ) الأُولى واسمِها (كُمْ) في ﴿أَنَّكُمْ﴾، وخَبَرِها ﴿مُّخْرَجُونَ﴾ في محَلِّ نَصبٍ مَفعولٌ ثانٍ لـ ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾، وكُرِّرَتْ (أنَّ) الثَّانيةُ تَوكيدًا لَمَّا طال الفَصلُ؛ فالمعنى على هذا: أيَعِدُكم أنَّكم مُخرَجونَ إذا مِتُّم... فلمَّا بَعُدَ ما بينَ (أنَّ) الأُولى وخَبَرِها ﴿مُّخْرَجُونَ﴾ بقَولِه: ﴿إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ أُعِيدَ ذِكرُ (أنَّ). و ﴿إِذَا﴾ ظَرفٌ لـ ﴿مُّخْرَجُونَ﴾. وقيل: خبَرُ الأُولى مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ خبَرِ الثَّانيةِ عليه؛ فتقديرُه: أنَّكم تُبعَثون، وهو العامِلُ في الظَّرفِ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٢، ٤١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٤).

(إذَا)، و (أنَّ) الثَّانيةُ وما في حَيِّزِها بَدَلٌ مِنَ الأُولى. وقيلَ غيرُ ذلك[١].

٢- قَوْلُه تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾

قَولُه: ﴿هَيْهَاتَ﴾: اسمُ فِعلٍ ماضٍ بمعنَى (بَعُدَ). وفي فاعلِه وَجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه ضَميرٌ مُستَتِرٌ، تَقديرُه: بَعُدَ التَّصديقُ أو الوُقوعُ، ونحوُ ذلك، واللَّامُ في (لِمَا) للتَّبْيينِ. والثَّاني: أنَّ فاعِلَه (ما)، واللَّامُ فيه زائِدةٌ، أي: بَعُدَ ما تُوعَدونَ مِنَ البَعثِ. وقيلَ: ﴿هَيْهَاتَ﴾ اسمٌ بمعنى البُعدِ، وهو مُبتدأٌ مبنيٌّ على الفَتحِ في محلِّ رَفعٍ، والجارُّ والمجرورُ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ في محلِّ رَفعٍ خَبَرٌ له. و﴿هَيْهَاتَ﴾ الثَّاني تأكيدٌ للأوَّلِ تأكيدًا لَفْظِيًّا[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى: أنه أنشَأَ مِن بَعدِ قَومِ نُوحٍ قومًا آخَرينَ، فأرسَل فيهم رَسولًا منهم، فقال لهم: اعْبُدوا اللهَ وَحْدَه؛ ليس لكم مَعبودٌ بحَقٍّ غَيرُه؛ أفلَا تَخافونَ عِقابَه إذا عَبدْتُم غَيرَه؟! وقال السادة والأشرافُ مِن قَومِه الَّذين كَفَروا باللهِ، وأنْكَروا الحياةَ الآخِرةَ، وأطْغَتْهم النِّعَمُ التي أنعمَ الله بها عليهم في الدُّنيا: ما هذا الرسولُ إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكم، يأكُلُ مِمَّا تأكُلونَ مِنَ الطَّعامِ، ويَشرَبُ مِمَّا تَشرَبونَ مِنَ الشَّرابِ، ولئنِ اتَّبَعتُم إنسانًا مِثلَكم إنَّكم -إذًا- لخاسِرونَ.

وقالوا لقومِهم أيضًا: أيَعِدُكم أنَّكم إذا مِتُّم وصِرتُم تُرابًا وعِظامًا مُفتَّتةً، أنكم

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١)، ((شرح كتاب سيبويه)) للسيرافي (٣/ ٣٥٤)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٠٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٩٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٢٣٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعُكْبَري (٢/ ٩٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٣٥)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٢٩٣).

ستُخْرَجونَ مِن قُبورِكم أحياءً؟! بَعِيدٌ بعيدٌ جِدًّا ما يعدُكم به؛ ما حَياتُنا إلَّا في هذه الدُّنيا؛ يَموتُ فيها الأحياءُ مِنَّا فلا يَحْيَوْنَ مرَّةً أخرى، ويُولَدُ آخَرون فيَحْيَوْن فيها، وما نحن بمبعوثينَ أحياءً مَرَّةً أُخرَى بعدَ الموتِ. وما هذا الذي يدَّعي أنَّه رسولٌ إلَّا رجُلٌ اختَلَقَ على اللهِ كَذِبًا، وما نحن بمُصَدِّقينَ له فيما يقولُه!

ثم يخبرُ تعالى أنَّ رَسولَهم دعا رَبَّه قائِلًا: رَبِّ انصُرْني عليهم؛ بسَبَبِ تَكذيبِهم لي. فقال اللهُ مُجِيبًا لِدَعوةِ ذلك الرَّسولِ: سنُعَذِّبهم قَريبًا، فيُصبِحونَ نادِمينَ على كُفرِهم وتَكذيبِهم. فانتقَم الله منهم بأنْ أخَذتْهم صَيحةٌ شَديدةٌ، وهم يستحِقُّون ذلك العقابَ، فجعَل الله هؤلاء الكافرينَ هامدينَ هلْكَى، كغُثاءِ السَّيلِ الَّذي يَطْفو على الماءِ لا منفعةَ فيه؛ فبُعدًا للقومِ الظَّالِمينَ مِن رَحمةِ اللهِ.

ثمَّ يخبرُ تعالى أنه أنشَأ مِن بَعدِ أولئك القوم المُكَذِّبينَ أقوامًا آخَرينَ، ما تتقَدَّمُ أيُّ أُمَّةٍ مِن الأُمَمِ المُكَذِّبةِ الوَقتَ الذي حدَّده الله لهَلاكِها، ولا تَتأخَّرُ عنه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ سُبحانَه وتعالَى تَكذيبَ قَومِ نُوحٍ عليه السَّلامُ وما عَذَّبَهم به، وكان القِياسُ مُوجبًا أنَّ مَن يأْتي بَعْدَهم يَخْشى مِثْلَ مَصرَعِهم، فيَسلُكُ غيرَ سَبيلِهم، ويقولُ غيرَ قِيلِهم؛ بيَّنَ أنَّه لم تَنفَعْهم العِبرةُ، فارْتَكبوا مِثْلَ أحوالِهم، وزادوا على أقْوالِهم وأفعالِهم؛ لإرادةِ ذلك مِن الفاعِلِ المُختارِ، الواحِدِ القهَّارِ.

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان المقصودُ -مع التَّهديدِ والدَّلالةِ على القُدرةِ والاختيارِ- الدَّلالةَ على تَخصيصِ المُؤمِنينَ بالفلاحِ والبَقاءِ بعْدَ الأعداءِ، وكان إهْلاكُ

المُتْرفينَ أدَلَّ على ذلك؛ اقْتَصَرَ على ذِكْرِهم، وأبْهَمَهم؛ لِيَصِحَّ تَنزيلُ قِصَّتِهم على كلِّ مَن ادُّعِي فيهم الإترافُ مِن الكَفرةِ(١).

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: ثُمَّ أوجَدْنا مِن بَعدِ قَومِ نُوحٍ قَومًا آخَرينَ(٢).

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

أي: فأرسَلْنا في أولئك القَومِ رَسولًا منهم، فقال لهم: اعْبُدوا اللهَ وَحْدَه وأطِيعُوه؛ ما لكمْ مِن مَعبودٍ يَستَحِقُّ العِبادةَ غَيرُه(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٣٥، ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢١).

قيل: المُرادُ بقولِه: ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾: ثمودُ؛ قَومُ صالحٍ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسِّعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٩، ٥٠).

وقيل: المُرادُ به: عادٌ؛ قومُ هودٍ. وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦١).

قال ابن الجوزي: (﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ يعني: عادًا ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وهو هودٌ. هذا قولُ الأكثرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦١). ونسَبه لأكثرِ المفسرينَ أيضًا: الرازيُّ، والخازن، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

قال السِّعدي: (﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ مِن جِنسِهم، يَعرِفونَ نَسَبَه وحَسَبَه وصِدْقَه؛ لِيكونَ ذلك أسرعَ لانقيادِهم إذا كان منهم، وأبعَدَ عن اشمِئزازِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

أي: أفَلا تخافونَ عقابَ الله على شركِكم؛ فتَجْتَنِبوا عبادةَ هذه الأصنامِ[١]؟!

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وقال الرُّؤساءُ والأشرافُ والسادةُ مِن قَومِ هذا الرسولِ، الَّذين كَفَروا باللهِ، وكذَّبوا بالبَعثِ والحِسابِ، ونعَّمْناهم ووَسَّعْنا عليهم الرِّزقَ في الحَياةِ الدُّنيا حتَّى بَطِروا وطَغَوا[٢].

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾.

أي: ما هذا الرَّسولُ إلَّا إنسانٌ مِثلُكم، يأكُلُ مِمَّا تأكُلونَ مِنَ الطَّعامِ، ويَشرَبُ مِمَّا تَشرَبونَ مِنَ الشَّرابِ، وليس رسولًا كما يَزعُمُ[٣]!

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: ولئِنْ أطعْتُم إنسانًا مِثلَكم، فصَدَّقتُم أنَّه رَسولٌ واتَّبعتُموه، إنَّكم إذَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٩٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

قال البقاعي: (﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: تجعلونَ لكم وقايةً مما ينبغي الخوفُ منه، فتجعلوا وقايةً تحولُ بينَكم وبينَ سخطِ الله). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

لَمَغْبونونَ[١].

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: أيَعِدُكم أنَّكم إذا مِتُّم وصِرتُم تُرابًا وعِظامًا في قُبورِكم أنَّكم ستُخرَجون منها أحياءً، كما كُنتُم قَبلَ مَماتِكم[٢]؟!

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: بَعيدٌ بَعيدٌ جِدًّا ما يَعِدُكم به مِنَ البَعثِ بَعدَ المَوتِ؛ فلا يكونُ ذلك أبدًا[٣]!

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾.

أي: ليس هناك حَياةٌ أُخرَى سِوى حياتِنا الدُّنيا، يَموتُ فيها الأحياءُ مِنَّا فلا يَحيَونَ ثانيةً، ويُولَدُ آخَرونَ فيَحيَونَ فيها[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

قال ابنُ جريرٍ: (قالوا: إنَّكم إذَنْ لَمغبونونَ حُظوظَكم مِنَ الشَّرَفِ والرِّفعةِ في الدُّنيا، باتِّباعِكم إيَّاه). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠).

وقال الرسعني: (﴿إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾: لمغبونونَ في عقولِكم وآرائِكم). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

قال القُرطبي: (يُقالُ: كيفَ قالوا: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ وهم لا يُقِرُّونَ بالبَعثِ؟ ففي هذا أجوبةٌ؛ منها: أنْ يكونَ المعنى: نكونُ مَوانًا -أي: نُطَفًا- ثمَّ نحيا في الدُّنيا. وقيل: فيه تَقديمٌ وتأخيرٌ، أي: =

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

أي: وما نحن بمَبعوثينَ أحياءً بَعْدَ المَوتِ[١].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

أي: ما هذا الَّذي يَزعُمُ أنَّه رَسولٌ سِوى رَجُلٍ يَختَلِقُ على اللهِ كَذِبًا بأنَّه أرسَلَه بالتَّوحيدِ، وأنَّه يَبعَثُ عِبادَه أحياءً بَعْدَ المَوتِ[٢]!

﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وما نحنُ له بمُصَدِّقينَ فيما يقولُه مِن تَوحيدِ اللهِ والبَعثِ بَعدَ المَوتِ[٣]!

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: قال الرَّسولُ: ربِّ انصُرْني على قَومِي، فأَهلِكْهم بسَبَبِ تَكذيبِهم برِسالتي[٤].

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: قال اللهُ للرَّسولِ: سنُعَذِّبُهم قَريبًا، فيُصبِحونَ نادِمينَ على كُفرِهم

= إنْ هي إلَّا حياتُنا الدُّنيا نَحْيَا فيها ونموتُ، كما قال: ﴿وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي﴾ [آل عمران: ٤٣]. وقيل: ﴿نَمُوتُ﴾ يعني: الآباءَ، ﴿وَنَحْيَا﴾ يعني: الأولادَ. ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢).

وتكذيبِهم[١].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾.

أي: فانتقَمْنا منهم بصَيحةٍ أخذَتْهم، وهم يَستَحِقُّونَ هذا العِقابَ؛ لِكُفرِهم باللهِ وتَكذيبِهم رَسولَه، فلم يَظلِمْهمُ اللهُ، ولكِنْ ظَلَموا أنفُسَهم[٢].

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾.

أي: فجعَلْنا الكافرينَ هَلْكى هامِدينَ، حتَّى صاروا كغُثاءِ السَّيلِ الَّذي لا مَنْفعةَ فيه[٣].

﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: فبُعدًا مِن رَحمةِ اللهِ لِلقَومِ الكافرينَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ برَبِّهم، ومَعصيةِ رَسولِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢).

وقال البقاعي: (﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالأمرِ الثَّابِتِ مِنَ العذابِ الَّذي أُوجِبَ لهم، الَّذي لا تُمكِنُ مُدافَعتُه لهم ولا لأحدٍ غَيرِ اللهِ، ولا يكونُ كذلك إلَّا وهو عَدْلٌ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٤، ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٩).

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: ثُمَّ أوجَدْنا مِن بَعدِ أولئك القَومِ الظَّالِمينَ أقوامًا آخَرينَ(١).

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

أي: ما تَسبِقُ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ الكافِرةِ الوقتَ الَّذي قدَّرَه اللهُ لإهْلاكِها، وما تتأخَّرُ عن ذلك الوَقتِ المكتوبِ في اللَّوحِ المَحفوظِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۞ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨- ٣٩].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۞ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ تَعقيبُ قِصَّةِ نُوحٍ وقَومِه بقِصَّةِ رسولٍ آخَرَ، وما بَعْدَها مِن القَصصِ يُرادُ منه: أنَّ ما أصاب قَومَ نُوحٍ على تَكذيبِهم له

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٥).

قال القُرطبي: (وفي الكلامِ حَذْفٌ: فكَذَّبوا أنبياءَهم فأهلَكْناهم). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٥).

قال ابنُ جَريرٍ: (وهذا وعيدٌ مِن اللهِ لِمُشركي قَومِ نَبيِّنا محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإعلامٌ منه لهم أنَّ تأخيرَه في آجالِهم مع كُفرِهم به وتَكذيبِهم رَسولَه؛ لِيَبلُغوا الأجَلَ الَّذي أُجِّلَ لهم، فيُحِلَّ بهم نِقمَتَه، كسُنَّتِه فيمَن قَبْلَهم مِنَ الأُمَمِ السَّالِفةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧، ٤٨).

لم يكُنْ صُدْفةً، ولكنَّه سُنَّةُ اللهِ في المُكذِّبينَ لرُسُلِه؛ ولذلك لم يُعيِّنِ القَرْنَ ولا القُرونَ بأسمائِهم[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلَةِ والقدَريَّةِ فيما يَزْعُمون أنَّ المقتولَ ميِّتٌ بغَيرِ أجَلِه[٢]؛ فهذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ المقتولَ مَيِّتٌ بأجَلِه؛ إذ لو قُتِلَ قبْلَ أجَلِه لكان قد تَقدَّمَ الأجَلُ أو تأخَّرَ، وذلك يُنافِيهِ هذا النَّصُّ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ على القولِ بأنَّ المُرادَ: قَومُ صالحٍ، فلعلَّ تَخصيصَهم بالذِّكْرِ هنا دونَ عادٍ؛ خِلافًا لِمَا تكرَّرَ في غَيرِ هذه الآيةِ؛ لأنَّ العِبْرةَ بحالِهم أظهَرُ؛ لِبَقاءِ آثارِ دِيارِهم بالحِجْرِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٤] [الصافات: ١٣٧- ١٣٨].

٢- قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

- عُدِّيَ فِعْلُ ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ بـ (في) دونَ (إلى)؛ لإفادةِ أنَّ الرَّسولَ كان منهم ونشَأَ فيهم؛ لأنَّ القَرْنَ لَمَّا لم يُعيَّنْ باسمٍ حتَّى يُعرَفَ أنَّ رسولَهم منهم أو وارِدًا إليهم، كان التَّنبيهُ على أنَّ رَسولَهم منهم مَقصودًا؛ إتْمامًا للمُماثَلةِ بين حالِهم وحالِ الَّذين أُرسِلَ إليهم محمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكلامُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٩).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٠).

رسولِهم مِثْلُ كَلامِ نُوحٍ[١]. أو لأنَّه لَمَّا كان المقصودُ الإبلاغَ في التَّسليةِ، عُدِّيَ الفِعْلُ بـ (في)؛ دَلالةً على أنَّه عَمَّهم بالإبلاغِ، كما يَعُمُّ المَظْروفَ الظَّرفُ، حتَّى لم يدَعْ واحِدًا منهم إلَّا أبلَغَ في أمْرِه[٢]. وقيل: لأن الأُمَّةَ أو القَريةَ جُعِلَتْ مَوضِعًا للإرسالِ، وعلى هذا المعنى جاء (بعَثَ) في قَولِه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾[٣] [الفرقان: ٥١].

- قولُه: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ تَعليلٌ للعِبادةِ المأْمورةِ بها، أو للأمْرِ بها، أو لِوُجوبِ الامتثالِ بهِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء قولُ قَومِ هُودٍ -على قولٍ في التفسيرِ- في جَوابِه هنا بالواوِ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾، وفي سُورةِ (الأعرافِ) وسُورةِ (هُودٍ): ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]، بغَيرِ واوٍ، والفَرقُ بَينهما: أنَّ الَّذي بغَيرِ واوٍ على تَقْديرِ سُؤالِ سائلٍ، قال: فما قال قَومُه؟ فقيل له: قالوا: كَيتَ وكَيتَ. وأمَّا الَّذي مع الواوِ، فعَطْفٌ لِمَا قالوهُ على ما قالَهُ، ومعناه: أنَّه اجتمَعَ في الحُصولِ هذا الحَقُّ وهذا الباطِلُ، وشتَّانَ ما هما[٥]. وقيل: جاء قولُهم بطَريقِ العَطفِ؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٩).

المُرادَ حِكايةُ مُطْلَقِ تَكذيبِهم له عليه السَّلامُ إجْمالًا، لا حِكايةُ ما جَرى بينَه عليه السَّلامُ وبَينَهم مِن المُحاوَرةِ والمُقاوَلةِ تَفْصيلًا، حتَّى يُحْكَى بطَريقِ الاستِئنافِ المَبْنيِّ على السُّؤالِ، كما يُنبِئُ عنه ما سَيَأْتي من حِكايةِ سائرِ الأُممِ(١).

- وقيل: سبَبُ الاختلافِ بينَ الآياتِ: أنَّ هُودًا مكَثَ بيْن القومِ أزمنةً مُتطاوِلةً، وله معهم مَقالاتٌ ومُجادلاتٌ في مَقاماتٍ شَتَّى، وذلك يُوجِبُ اختلافَ العِباراتِ؛ فإنَّ لكلِّ قَومٍ مَقالًا، فكان كلامُه في سُورةِ (هُودٍ) أبسَطَ مِن هَذينِ المَوضعينِ؛ لأنَّه قد أظهَرَ فيه النَّصيحةَ التَّامَّةَ، وضَمَّ مع الأمْرِ بالعِبادةِ الأمْرَ بالاستغفارِ والتَّوبةِ، وعَدَهم بذلك البركاتِ والخيراتِ، وكان ذلك مَظِنَّةً لِبَعثِ السَّامعِ وتَحرُّكِه على السُّؤالِ: فما كان جَوابُ القومِ عنه بعْدَ تلك النَّصيحةِ البالغةِ؟ أمَّا في (الأعرافِ) وإنْ لم يُبْسَطْ ذلك البسْطَ، لكنْ ذُكِرَ فيه اسمُ هُودٍ بعْدَ التَّوطئةِ بقولِه: ﴿أَخَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٦٥]؛ فدَلَّ على إضمارِ النُّصحِ، بل أهَمَّ وأبلَغَ مِن ذلك؛ فإنَّ الأُخُوَّةَ مَئِنَّةٌ لكلِّ حَدْبٍ ومَرْحمةٍ، ألَا تَرى كيف مَنَّ اللهُ تعالى على قُريشٍ بقَولِه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، بخِلافِه هاهنا، بل طَوى اسْمَهُ أيضًا، والقومُ ما الْتَفَتوا إليه وإلى كلامِه، وما أجابوا، بلْ كانت تلك المَقالةُ دَمْدَمةً فيما بيْنهم. واللهُ تعالى أعلَمُ بأسرارِ كَلامِهِ(٢).

- وقيل: وَجْهُ ذلك: أنَّ كَلامَ الملَأِ المَحْكِيَّ هنا غيرُ كَلامِهم المَحْكِيِّ في السُّورتينِ؛ لأنَّ ما هنا كَلامُهم المُوجَّهُ إلى خِطابِ قَومِهم، إذ قالوا: ﴿مَا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٥٧٨).

هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ﴾ [المؤمنون: ٣٣] إلى آخِرِه؛ خَشيةً منهم أنْ تُؤثِّرَ دَعوةُ رَسولِهم في عامَّتِهم، فرأَوُا الاعتناءَ بأنْ يَحُولوا دونَ تأثُّرِ نُفوسِ قَومِهم بدَعوةِ رَسولِهم أوْلى مِن أنْ يُجاوِبوا رَسولَهم، وإنَّما لم يُعطَفْ قَولُ الملأِ بفاءِ التَّعقيبِ، كما ورَدَ في قِصَّةِ نُوحٍ آنفًا؛ لأنَّ قَولَهم هذا كان مُتأخِّرًا عن وَقْتِ مَقالةِ رَسولِهم الَّتي هي فاتحةُ دَعوتِه بأنْ يكونوا أجابُوا كَلامَه بالرَّدِّ والزَّجرِ، فلمَّا استمَرَّ على دَعوتِهم وكرَّرَها فيهم، وَجَّهُوا مَقالَتَهم المَحْكيَّةَ هنا إلى قَومِهم، ومِن أجْلِ هذا عُطِفَتْ جُملةُ جَوابِهم، ولم تأْتِ على أُسلوبِ الاستعمالِ في حِكايةِ أقوالِ المُحاوَراتِ. وأيضًا لأنَّ كَلامَ رَسولِهم لم يُحْكَ بصِيغةِ القولِ، بل حُكِيَ بـ(أنْ) التَّفسيريَّةِ لِمَا تَضمَّنَه معنى الإرسالِ في قولِه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[1] [المؤمنون: ٣٢].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وُصِفُوا بذلك؛ ذَمًّا لهم، وتَنبيهًا على غُلُوِّهم في الكُفْرِ[2]. وتأْخيرُه عن ﴿مِن قَوۡمِهِۦ﴾؛ لِيتَّصِلَ به الصِّفتانِ المَعطوفتانِ مِن قولِه: ﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ﴾[3].

- قولُه: ﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ في هَذينِ الوَصفينِ إشارةٌ إلى أنَّهما الباعِثُ على تَكذيبِهم رَسولَهم؛ لأنَّ تَكذيبَهم بلِقاءِ الآخرةِ يَنْفِي عنهم تَوقُّعَ المُؤاخَذةِ بعْدَ الموتِ، وثَروتُهم ونِعْمتُهم تُغْرِيهم بالكِبْرِ والصَّلَفِ؛ إذ أَلِفُوا أنْ يَكونوا سادةً لا تَبَعًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٢).

- قولُه: ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فيه إيثارُ التَّعبيرِ بـ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ على (مِثْلنَا)؛ للمُبالَغةِ في تَهوينِ أمْرِه عليه السَّلامُ وتَوهينِه[١]. وهو كِنايةٌ عن تَكذيبِه في دَعْوى الرِّسالةِ؛ لِتَوهُّمِهم أنَّ البشريَّةَ تُنافِي أنْ يكونَ صاحِبُها رسولًا مِن اللهِ، فأتَوْا بالملزومِ وأرادوا لَازِمَه[٢].

- وجُملةُ: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾ في مَوقِعِ التَّعليلِ والدَّليلِ للبَشريَّةِ؛ لأنَّه يأكُلُ مِثْلَهم ويَشرَبُ مِثْلَهم، ولا يَمتازُ فيما يأْكُلُه وما يَشرَبُه[٣].

- قولُه: ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ أي: ممَّا تَشربونَ منه، وحسَّنَ هذا الحذْفَ ورَجَّحه كَونُ ﴿تَشْرَبُونَ﴾ فاصِلةً، ولدَلالةِ ﴿مِنْهُ﴾ عليه في قولِه: ﴿مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ وقَعَ ﴿إِذًا﴾ بينَ اسْمِ (إنَّ) وخبَرِها؛ لِتأْكيدِ مَضمونِ الشَّرطِ. والجُملةُ جَوابٌ لِقَسَمٍ مَحذوفٍ، أي: وباللهِ لئنْ أطعْتُم بشَرًا...[٥].

٥- قولُه تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لِتَقريرِ ما قبْلَه مِن زَجْرِهم عن اتِّباعِه عليه السَّلامُ، بإنكارِ وُقوعِ ما يَدْعُوهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣).

إلى الإيمانِ به واستِبعادِه[١].

- وفي قولِهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ اسْتَفْهَموا استفهامَ استبعادٍ وتَوقيفٍ واستهزاءٍ[٢]. أو استفهامَ تَعجُّبٍ، وهو انتقالٌ مِن تَكذيبِه في دَعْوى الرِّسالةِ إلى تَكذيبِه في المُرْسَلِ به[٣].

- وكَلِمةُ ﴿أَنَّكُمْ﴾ في ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ إعادةٌ لِكَلمةِ (أنَّكم) الأُولى، وحسَّنَ إعادتَها بُعْدُ ما بيْنَها وبينَ خبَرِها. وتُفِيدُ إعادتُها تأكيدًا للمُستفهَمِ عنه استفهامَ استبعادٍ؛ تأكيدًا لاستِبعادِه[٤].

- وَتقديمُ التُّرابِ في قولِه: ﴿تُرَابًا وَعِظَامًا﴾؛ لِعَراقَتِه في الاستِبعادِ[٥].

٦- قولُه تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ فيه تَكريرُ ﴿هَيْهَاتَ﴾؛ لتأْكيدِ البُعْدِ[٦].

- اللَّامُ في قولِه: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ للبَيانِ؛ كأنَّهم لَمَّا صَوَّتوا بكلمةِ الاستبعادِ، قيل: فما له هذا الاستبعادُ؟ قالوا: لِمَا تُوعَدُونَ[٧]؛ فجاء ما بَعْدَ ﴿هَيْهَاتَ﴾ مَجْرورًا باللَّامِ، فاسْتُغْنِيَ عن فاعِلِها للعِلْمِ به ممَّا يَسْبِقُها مِن الكلامِ؛ لأنَّها لا تقَعُ غالِبًا إلَّا بَعْدَ كلامٍ، وتكونُ اللَّامُ للتَّبيينِ، أي: إيضاحِ المُرادِ مِن الفاعِلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٤).

فيَحصُلُ بذلك إجمالٌ ثمَّ تَفصيلٌ يُفِيدُ تَقْوِيةَ الخبَرِ، وهذه اللَّامُ تَرجِعُ إلى لامِ التَّعليلِ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء هنا فِعْلُ ﴿تُوعَدُونَ﴾ مِن (أوعَدَ)، وجاء قبْلَه فِعْلُ ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾، وهو مِن (وعَدَ)، مع أنَّ الموعودَ به شَيءٌ واحدٌ؛ قيل: لأنَّ الأوَّلَ راجِعٌ إليهم في حالِ وُجودِهم، فجُعِلَ وَعْدًا، والثَّانِيَ راجِعٌ إلى حالَتِهم بعْدَ الموتِ والانعدامِ؛ فناسَبَ التَّعبيرُ عنه بالوعيدِ. أو الأحسَنُ أنَّه عبَّرَ مرَّةً بالوعْدِ ومرَّةً بالوعيدِ على وَجْهِ الاحتباكِ[٢]؛ فإنَّ إعلامَهم بالبَعثِ مُشتمِلٌ على وَعْدٍ بالخيرِ إنْ صَدَّقوا، وعلى وَعيدٍ إنْ كَذَّبوا، فذُكِرَ الفِعْلانِ على التَّوزيعِ إيجازًا[٣].

٧- قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ بَيانًا للاستبعادِ الَّذي في قولِه: ﴿هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾، أو استدلالًا وتَعليلًا له، ولِكَلا الوَجْهينِ كانت الجُملةُ مَفصولةً عنِ الَّتي قبْلَها، أي: لم تُعْطَفْ عليها[٤].

- قولُه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أصْلُه: (إنِ الحياةُ إلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا)، أُقِيمَ الضَّميرُ مُقامَ الأُولى؛ لدَلالةِ الثَّانيةِ عليها؛ حَذَرًا عن التَّكريرِ، وإشعارًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٥).

(٢) الاحْتِبَاك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفان معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواع. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بأنَّ تَعيُّنَها مُغْنٍ عن التَّصريحِ بها[١]؛ فضَميرُ (هي) عائدٌ إلى ما لم يَسْبِقْ في الكلامِ، بل عائدٌ على مَذكورٍ بَعْدَه؛ قَصْدًا للإبهامِ ثمَّ التَّفصيلِ؛ لِيَتمكَّنَ المَعْنى في ذِهْنِ السَّامعِ[٢].

- وجُملةُ: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ مُفسِّرةٌ لِمَا ادَّعَوهُ مِن أنَّ الحياةَ هي الحياةُ الدُّنيا، أي: يَموتُ بَعْضُنا ويُولَدُ بَعضٌ إلى انقراضِ العصرِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ باعتبارِ اشتمالِها على إثباتِ حَياةٍ عاجلةٍ ومَوتٍ؛ فإنَّ الاقتصارَ على الأمْرينِ مُفيدٌ للانحصارِ في المَقامِ الخِطابيِّ، مع قَرينةِ قولِه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾. وأفادَ صَوغُ الخبَرِ في الجُملةِ الاسميَّةِ تَقْويةَ مَدْلولِه وتَحقيقَه[٤].

٨- قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾

- جُملةُ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ مُستأْنفةٌ؛ لأنَّها مُسْتقِلَّةٌ على ما تَقدَّمَها؛ فهي تَصريحٌ بما كُنِّيَ عنه آنفًا في قولِه: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وما بَعْدَه مِن تكذيبِ دَعوتِه، وجُملةُ ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ صِفَةٌ لـ ﴿رَجُلٌ﴾، وهي مُنْصَبُّ الحَصْرِ؛ فهو مِن قَصْرِ الموصوفِ على الصِّفةِ قَصْرَ قَلْبٍ إضافيًّا[٥]، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٦).

(٥) القصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ يدورُ حولَ احتمالينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويستدلُّ عليها بالقرائنِ. =

لا كما يَزعُمُ أنَّه مُرسَلٌ مِن اللهِ. وإنَّما أجْرَوا عليه أنَّه رجَلٌ؛ مُتابَعةً لِوَصْفِه بالبشريَّةِ في قولِهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾؛ تَقريرًا لِدَليلِ المُماثَلةِ المُنافِيةِ للرِّسالةِ في زَعْمِهم، أي: زيادةٌ على كَونِه رجُلًا مِثْلَهم فهو رجُلٌ كاذِبٌ[١].

- قولُه: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ إنَّما صَرَّحوا بأنَّهم لا يُؤْمِنون به، مع دَلالةِ نِسْبتِه إلى الكذِبِ على أنَّهم لا يُؤمِنون به؛ إعلانًا بالتَّبرِّي مِن أنْ يَنخدِعوا لِمَا دَعاهم إليه، وهو مُقْتَضى حالِ خِطابِ العامَّةِ. وأفادَتِ الجُملةُ الاسميَّةُ التَّقويةَ[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ما حُكِيَ مِن صَدِّ الملَأِ النَّاسَ عن اتِّباعِه، وإشاعَتِهم عنه أنَّه مُفْترٍ على اللهِ، وتَلْفيقِهم الحُجَجَ الباطلةَ على ذلك: ممَّا يُثِيرُ سُؤالَ سائلٍ عمَّا كان مِن شأْنِه وشأْنِهم بَعْدَ ذلك؛ فيُجابُ بأنَّه تَوجَّهَ إلى اللهِ الَّذي أرسلَهُ بالدُّعاءِ بأنْ يَنصُرَه عليهم[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ جاء جَوابُ دُعاءِ هذا الرَّسولِ غيرَ مَعطوفٍ؛ لأنَّه جَرى على أُسلوبِ حِكايةِ المُحاوَراتِ[٤].

- و(ما) في قولِه: ﴿عَمَّا قَلِيلٖ﴾ صِلَةٌ بين الجارِّ والمجرورِ؛ لتأْكيدِ مَعْنى القِلَّةِ[٥].

= وأما قصرُ القلْبِ: فهو أنْ يَقلِبَ المتكلمُ فيه حُكمَ السامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمن يعتقدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرفٍ معينٍ، لكنَّه يقول: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٥٧، ٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير أبي =

١١- قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أفادَتْ تَعجيلَ إجابةِ دَعوةِ رَسولِهم[١].

- وفي قولِه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ شَبَّهَهم في دَمارِهم بغُثاءِ السَّيلِ، وهو حَمِيلُ السَّيلِ، وهو تَشبيهٌ بَليغٌ للهيئةِ؛ فهو تَشبيهُ حالةٍ بحالةٍ[٢].

- قولُه: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فرَّعَ على حِكايةِ تَكذيبِهم دُعاءً عليهم وعلى أمثالِهم دُعاءَ شَتْمٍ وتَحقيرٍ بأنْ يَبْعَدُوا؛ تَحقيرًا لهم وكراهيةً، وليس مُستعمَلًا في حَقيقةِ الدُّعاءِ؛ لأنَّ هؤلاء قد بَعِدُوا بالهلاكِ[٣]. وقيل: يَحتمِلُ الإخبارَ والدُّعاءَ، ووَضْعُ الظَّاهرِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مَوضِعَ ضَميرِهم للتَّعليلِ[٤].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِّلْقَوْمِ﴾ للتَّبْيينِ، وهي مُبيِّنةٌ للمقصودِ بالدُّعاءِ؛ زِيادةً في البَيانِ، كما في قولِهم: سُحقًا لك وتَبًّا له، فإنَّه لو قِيلَ: (فبُعْدًا) لَعُلِمَ أنَّه دُعاءٌ عليه، فبِزيادةِ اللَّامِ يَزِيدُ بَيانُ المَدْعُوِّ عليهم، وهي مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ مُستأْنَفٍ للبَيانِ[٥].

- واخْتِيرَ الوَصْفُ بالظُّلمِ هنا؛ لأنَّ هؤلاءِ ظَلَموا أنفُسَهم بالإشراكِ، وظَلَموا نبيَّهم بزَعْمِهم أنَّه تَعمَّدَ الكذِبَ على اللهِ؛ إذ قالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى

= حيان)) (٧/ ٥٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٠).

ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [المؤمنون: ٣٨]. والتَّعريفُ في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للاستِغراقِ؛ فشَمِلَهم؛ ولذلك تكونُ الجُملةُ بمَنزِلةِ التَّذييلِ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قالَه هنا: ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالتَّعريفِ، وقال بَعْدُ في سُورةِ (المُؤمِنون) أيضًا: ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤] بالتَّنكيرِ؛ ووَجْهُه: أنَّ الآيةَ الأُولى في أُمَّةٍ مُعيَّنةٍ؛ قد بُيِّنَ حالُها وقَبيحُ مُرْتَكَبِها، وتَحصَّلَ العِلْمُ بكُفْرِهم وظُلْمِهم أنفُسَهم، فقِيلَ: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وأمَّا قولُه بَعْدُ: ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ فورَدَ عقِبَ إجمالِ إخبارٍ بطوائفَ وأُمَمٍ اجْتَمَعوا في التَّكذيبِ ورَدِّ ما جاءَتْهم به رُسُلُهم، فأُعْقِبَ بوَصْفٍ إذا وُجِدَ كان ما سِواهُ مِن قَولٍ وعمَلٍ مُناسِبًا له وبِحَسبِه، وهو عدَمُ الإيمانِ، ولم يكُنْ وَصْفُهم بالظُّلمِ لِيُعطِيَ ذلك؛ لِوُقوعِه على الظُّلمِ بالكُفْرِ وعلى الظُّلمِ بمَعصيةٍ، والمعصيةُ ليست كُفْرًا، أمَّا مَن اتَّصَفَ بعَدمِ الإيمانِ، فلا فَلاحَ معه، فلمَّا اجتمَعَ هؤلاء الطَّوائفُ في عدَمِ الإيمانِ وُسِمُوا به، ولمَّا كان عدَمُ الإيمانِ حاصلًا لمَن تَقدَّمَ بما ذُكِرَ مِن تَكذيبِهم، وأخْذِهم بالصَّيحةِ، وجَعْلِهم غُثاءً: أُعْقِبَ وَصْفُهم بما يُنبِئُ بالزِّيادةِ على كُفْرِهم؛ إذِ الكُفْرُ حاصِلٌ. والآيةُ الثَّانيةُ لم يَقَعْ في ذِكْرِ هؤلاء تَفصيلُ مُرْتَكباتِهم كما ورَدَ فيمَن تَقدَّمَهم؛ فناسَبَ إجْمالَ الواقِعِ مِن التَّكذيبِ إجْمالُ الوَصْفِ بعَدمِ الإيمانِ، وجاء كلٌّ مِن ذلك على ما يُناسِبُه(٢).

١٢- قولُه تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٤٠-٩٤٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٦٨، ٣٦٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٠).

والفَصلُ بينَ المَعْطوفينِ بهذه الجُملةِ المُعترِضةِ، النَّاطقةِ بعدَمِ تقدُّمِ الأُمَمِ أجَلَها المَضْروبَ لِهَلاكِهم؛ للمُسارَعةِ إلى بَيانِ هَلاكِهم على وَجْهٍ إجماليٍّ[١].

- ولعلَّه عبَّرَ بالمُضارِعِ في قولِه: ﴿مَا تَسْبِقُ﴾ إشارةً إلى أنَّه ما كان شَيءٌ مِن ذلك ولا يكونُ، وأشارَ إلى الاستِغراقِ بقولِه: ﴿مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي: الَّذي قَدَّرناهُ لِهَلاكِها ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه[٢]؛ فـ (مِنْ) في قولِه: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ مَزيدةٌ؛ للاستغراقِ[٣].

- والسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾ زائدتانِ؛ للتَّأكيدِ[٤]. وقيل: صيغةُ الاستفعالِ (يستئخرون) للإشعارِ بعجزِهم عن ذلك معَ طلبِهم له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٦).

الآيات (٤٤-٥٠)

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

غَريبُ الكلماتِ:

﴿تَتْرَا﴾: أي: تتواترُ واحدًا بعدَ واحدٍ، ويتبعُ بعضُهم بعضًا، وهو مِنَ المُواتَرةِ، أي: المُتابَعةِ، أو: مِن الوِتْرِ، وهو الفَرْدُ[1].

﴿أَحَادِيثَ﴾: أي: أخبارًا وعِبَرًا يُتَمَثَّلُ بهم فِي الشَّرِّ، أو يُتحدَّثُ بهلاكِهم، ولا يُقالُ: جعلتُه حديثًا في الخيرِ. وأصلُ (حدث): كونُ الشَّيءِ لم يَكُنْ، والحديثُ مِن هذا؛ لأنَّه كلامٌ يَحْدُثُ منه الشَّيءُ بعدَ الشَّيءِ[2].

﴿وَسُلْطَانٍ﴾: أي: حُجَّةٍ، وأصْلُ (سلط): القُوَّةُ والقَهْرُ؛ ولذلكَ سُمِّيَ السُّلطانُ سُلْطانًا[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠، ٧٢٤).

﴿ءَايَةً﴾: أي: عَلَمًا ودَليلًا، وأمارةً قَاطِعةً، وهي مُشتقَّةٌ مِن التأيِّي الذي هو التثبُّتُ، والإقامةُ على الشيءِ[١].

﴿رَبْوَةٍ﴾: قِيلَ: إنَّها دِمشقُ، وقيل: أرضُ بَيتِ المَقْدِسِ، والرَّبوةُ: المكانُ المُرتفِعُ مِن الأرضِ، وأصْلُ (ربو): العُلُوُّ والزِّيادةُ والنَّماءُ[٢].

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾: أي: مُسْتقَرٍّ، أو مُسْتويةٍ يَستقِرُّ عليها ساكِنُوها، وأصْلُ (قرر): يدلُّ على تمكُّنٍ[٣].

﴿وَمَعِينٍ﴾: أي: مَاءٍ ظَاهرٍ جَارٍ، يُقالُ: معَن الماءُ: أي: جرَى، وأصْلُ (معن): يدُلُّ على سُهولةٍ في جَرَيانٍ، أو غيرِ ذلك[٤].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه أرسَلَ رُسُلَه يَتبَعُ بَعضُهم بَعضًا، إلى أُمَمٍ أُخرى بعدَ أولئك القَومِ المُهلَكينَ، كلَّما أتى رَسولٌ أُمَّتَه كَذَّبوه ولم يَقْبَلوا ما جاء به مِن الحقِّ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٧).

فأتْبَع اللهُ بَعضَهم بَعضًا بالهَلاكِ وعَذابِ الاستِئصالِ، وجعَلهم أخبارًا للناسِ يتحدَّثون بها عنهم. فبُعدًا مِن رحمةِ الله لقَومٍ لا يُؤمِنونَ.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّه أرسَل بعدَهم مُوسى وأخاهُ هارونَ بمُعجِزاتِه وحُجَّةٍ بَيِّنةٍ واضِحةٍ إلى فِرعونَ وسادةِ قومِه وأشرافِهم، فاستكبَروا عنِ الإيمانِ واتِّباعِ الحقِّ، وكانوا قَومًا مُتطاوِلينَ على النَّاسِ، قاهِرينَ لبني إسرائيلَ ظالمينَ لهم، فقال فِرعونُ ومَلَؤُه: أنُصَدِّقُ فَردَينِ مِن البشرِ مِثْلنا، وقَومُهما مُطيعونَ مُتذَلِّلونَ لنا؟! فكَذَّبوهما فكانوا مِنَ المُهلَكينَ غرقًا في البَحرِ.

ويخبِرُ تعالى أنَّه آتَى مُوسَى التَّوراةَ؛ لِيَهتَديَ بها قَومُه مِن بني إسرائيلَ إلى الحَقِّ، وجعَل عيسَى ابنَ مَريمَ وأُمَّه علامةً دالَّةً على قُدرَتِه سبحانه على خَلقِ ما يشاءُ؛ إذ خلَقه مِن أمٍّ بغيرِ أبٍ، وجعَل لهما مأوًى في مكانٍ مُرتَفعٍ مِنَ الأرضِ، مُستَوٍ مُستَقِرٍّ، وفيه ماءٌ جارٍ ظاهِرٌ للعُيونِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾.

أي: ثمَّ أرسَلْنا رُسُلَنا مُتواتِرينَ يَتبَعُ بَعضُهم بَعضًا، واحدًا بعدَ واحدٍ؛ إلى أُمَمٍ أُخرى بعد أولئك القَومِ المُهلَكينَ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٢).

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾.

أي: كلَّما جاء رَسولٌ إلى أُمَّةٍ مِن تلك الأُمَمِ كَذَّبوه، فلم يَقبَلوا ما جاء به مِنَ الحَقِّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

﴿فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا﴾.

أي: فأهلَكْنا تِلك الأُمَمَ بعَذابِ الاستِئصالِ؛ بَعضَهم في إثْرِ بَعضٍ[(٢)].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾.

أي: وصَيَّرْناهم أخبارًا للنَّاسِ يتحَدَّثونَ بها عنهم[(٣)].

﴿فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: كذَّبه جُمهورُهم، وربَّما كذَّبه جميعُهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٣).

أي: فبُعدًا مِن رَحمةِ اللهِ وهَلاكًا لقَومٍ لا يُؤمِنونَ بوَحدانيَّةِ اللهِ، ويُكَذِّبونَ رُسُلَه[1].

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: ثمَّ أرسَلْنا بَعدَ أولئك الرُّسُلِ مُوسى وأخاهُ هارونَ بمُعجِزاتِنا وحُجَّةٍ بيِّنةٍ واضِحةٍ[2].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه، فاستَكبَروا عنِ الإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ الَّذي جاءَهم مِن عندِ اللهِ، وكانوا قَومًا قاهِرينَ لبني إسرائيلَ ظالِمينَ لهم، خُلُقُهم وسَجِيَّتُهم الكِبْرُ[3].

﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: فقال فِرعَونُ ومَلَؤُه: أنُصدِّقُ مُوسى وهارونَ ونُقِرُّ لهما، وهما بَشَرانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٣).

قال أبو حيان: (﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قال ابنُ عباسٍ: هي التِّسعُ؛ وهي: العصا، واليدُ، والجرادُ، والقُمَّلُ، والضفادعُ، والدمُ، والبحر، والسِّنونَ، ونقصٌ مِن الثمراتِ. ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ قيل: هي العصا واليد، وهما اللَّتان اقترن بهما التحدِّي، ويدخلُ في عمومِ اللفظِ سائرُ آياتِهما؛ كالبحرِ والمُرسَلاتِ الستِّ... وقال الحسن: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بدينِنا. ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هو المعجِز. ويجوزُ أن يُرادَ بالآياتِ: نفْسُ المعجزاتِ، و «بسلطانٍ مبينٍ»: كيفيَّةُ دَلالتِها... قيل: ويجوزُ أن يُرادَ بالسلطانِ المبينِ: العصا... ويجوز أن يُراد بسلطانٍ مبينٍ: الآياتُ أنفسُها، أي: هي آياتٌ وحُجَّةٌ بيِّنةٌ). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٣).

مِثلُنا في المأكَلِ والمَشرَبِ وغَيرِهما مِمَّا يَعْتري أحوالَ البَشَرِ، وقَومُهما لنا مُطيعونَ ذَليلونَ خاضِعونَ؟! فكيف نَتَّبِعُهما[1]؟!

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

أي: فكذَّب فِرعَونُ ومَلَؤُه مُوسى وهارونَ، فأغرَقَهم اللهُ، فكانوا ممَّنْ أهلكهم الله؛ لِتَكذيبِهم رُسُلَ اللهِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ۞ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾[الفرقان: ٣٥، ٣٦].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان ضَلالُ بني إسرائيلَ -الَّذين اسْتنقَذَهُم اللهُ تعالى مِن عُبوديَّةِ فِرعونَ وقَومِه- أعجَبَ، وكان السَّامعُ مُتشوِّفًا إلى ما كان مِن أمْرِهم بَعدَ نَصْرِهم؛ ذَكَرَ ذلك[3].

وأيضًا لَمَّا ذُكِرَت دَعوةُ مُوسى وهارونَ لِفِرعونَ ومَلَئِه، وما ترتَّبَ على تَكذيبِهم مِن إهلاكِهم، أُكْمِلَت قِصَّةُ بَعثةِ مُوسى عليه السَّلامُ بالمُهِمِّ منها الجاري، ومِن بَعثةِ مَن سلَفَ مِنَ الرُّسلِ المُتقدِّمِ ذِكْرُهم، وهو إيتاءُ مُوسى عليه السَّلامُ الكِتابَ لِهِدايةِ بني إسرائيلَ لِحُصولِ اهتِدائِهم؛ لِيَبْنِيَ على ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٤٧).

الاتِّعاظَ بخلافِهم على رُسلِهم في قولِه بَعدَ ذلك: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ ﴾ [المؤمنون: ٥٣]؛ فإنَّ مَوعِظةَ المُكذِّبينَ رَسولَهم بذلك أَوْلى[١].

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٤٩ ﴾.

أي: ولقدْ آتَينا مُوسى التَّوراةَ؛ كي يَهتَديَ بنو إسرائيلَ باتِّباعِها[٢].

﴿ وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان مَن ذُكِرَ كلُّهم قد رَدُّوا مَن جاءهم؛ لإشعارِهم اسْتِبعادَهم لأنْ يكونَ الرُّسلُ بَشَرًا، وكان بعضُ بني إسرائيلَ الَّذين أعَزَّهُم اللهُ ونصَرَهم على عَدُوِّهم، وأوضَحَ لهم الطَّريقَ بالكتابِ قدِ اتَّخَذوا عيسى -مع كونِه بَشرًا- إلهًا: أتْبَعَ ذلك ذِكْرَه؛ تَعجيبًا مِن حالِ المُكذِّبينَ في هذا الصُّعودِ بَعدَ ذلك النُّزولِ في أمْرِ مَن أُرْسِلوا إليهم، وجَرَتْ على أيدِيهم الآياتُ لِهدايتِهم، فقال[٣]:

﴿ وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ ﴾.

أي: وجعَلْنا عِيسى ابنَ مَريمَ وأُمَّه مَريمَ حُجَّةً عَجيبةً واضِحةً للنَّاسِ، تدُلُّهُم على قُدرةِ اللهِ على خَلقِ ما يَشاءُ؛ حيثُ خَلَقَ عِيسى مِن أُمٍّ بلا أبٍ[٤]!

كما قال تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾ [مريم: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٣).

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

أي: وصَيَّرْنا عِيسى وأُمَّه مَريمَ إلى مَكانٍ مُرتَفِعٍ مِنَ الأرضِ، مُستَوٍ مُستَقِرٍّ، وفيه نَهرٌ جارٍ ظاهِرٌ للعِيَانِ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۞ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢، ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٦، ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٧).

قال البقاعي: (﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مُنبسَطٍ صالحٍ لأن يُستقَرَّ فيه؛ لِما فيه من المرافِقِ، ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي: ماءٍ ظاهرٍ للعينِ، ونافعٍ كالماعون، فرعٌ اشتُقَّ من أصلينِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٤٩).

وقال ابنُ كثير: (أقربُ الأقوالِ في ذلك ما رواه العَوفي عن ابنِ عبَّاسٍ في قولِه: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: المَعينُ: الماءُ الجاري، وهو النَّهرُ الذي قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]، وكذا قال الضَّحَّاكُ وقتادةُ: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: هو بيتُ المَقدِسِ، فهذا -والله أعلم- هو الأظهرُ؛ لأنَّه المذكورُ في الآيةِ الأخرى، والقُرآنُ يُفسِّرُ بَعضُه بعضًا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٧).

وقال الواحدي: (قال ابنُ عباس: يريدُ دِمشقَ. وهو قولُ سعيدِ بنِ المسيِّبِ، ومقاتِلٍ، وروايةُ عِكْرِمةَ عن ابنِ عباسٍ.

وقال عطاءٌ عن ابنِ عباسٍ: يريدُ بيتَ المقدسِ. وهو قولُ قتادةَ وكعبٍ...، وقال السُّدِّيُّ: إنها أرضُ فلسطينَ. وهو قولُ أبي هريرةَ). ((الوسيط)) (٣/ ٢٩١).

وقال السعدي: (﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي: مكانٍ مرتفعٍ، وهذا -والله أعلم- وقتُ وَضعِها، ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مُستقَرٍّ وراحةٍ ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي: ماءٍ جارٍ؛ بدليلِ قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ﴾ [مريم: ٢٤] أي: تحتَ المكانِ الذي أنت فيه؛ لارتفاعِه ﴿سَرِيًّا﴾ أي: نهرًا، وهو المَعينُ ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۞ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٥-٢٦])، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٣).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بهذا الإيواءِ وحيُ الله لمريمَ أن تنفرِدَ بربوةٍ حين اقترب مخاضُها لِتَلدَ عيسَى في منعَزَلٍ مِن الناسِ؛ حفظًا لعيسَى مِن أذاهم. والقرارُ: المكثُ في المكانِ، أي: هي صالحةٌ لأن تكونَ قرارًا، فأُضيفَت الربوةُ إلى المعنى الحاصِلِ فيها لأدنى ملابسةٍ، وذلك بما اشتملت عليه مِن النخيلِ المثمِرِ، فتكونُ في ظِلِّه ولا تحتاجُ إلى طلبِ قُوتِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٧).

جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم: ٢٢- ٢٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾، فلم تُغْنِ عن فِرْعونَ ومَلَئِه قُوَّتُهم في أنفُسِهم، ثُمَّ قُوَّتُهم على خُصوصِ بني إسرائيلَ باستِعْبادِهم إيَّاهم، ولا ضَرَّ بني إسرائيلَ ضَعْفُهم عن دِفاعِهم، ولا ذُلُّهم لهم وصَغارُهم في أيدِيهم[(١)].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾ فإذا عرَفَ الإنسانُ قَصَصَ الأنبياءِ ومَن اتَّبَعهم، ومَن كذَّبهم، وأنَّ مُتَّبِعيهم كان لهم النَّجاةُ والعاقِبةُ والنَّصرُ والسَّعادةُ، ولِمُكَذِّبِهم الهَلاكُ والبَوارُ؛ جَعَل الأمرَ في المُستقبَلِ مِثلَما كان في الماضي، فعَلِمَ أنَّ مَن صَدَّقَهم كان سَعيدًا، ومَن كذَّبهم كان شَقيًّا. وهذه سُنَّةُ اللهِ وعادتُه[(٢)].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوٓا۟

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٤٦، ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٩٦٣).

أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٤ - ٤٩]، ذكَر بعضُهم أنَّه بَعْدَ بَعْثِ مُوسى ونُزولِ التَّوراةِ رفَعَ اللهُ العذابَ عن الأُمَمِ، أي: عذابَ الاستِئصالِ، وشرَعَ للمُكذِّبينَ المُعانِدينَ الجِهادَ، وبتدبُّرِ هذه الآياتِ مع الآياتِ التي في سورةِ (القَصصِ) يَتبيَّنُ وجهُ هذا الكلامِ؛ فإنَّ اللهَ في هذه الآياتِ ذكَرَ الأُمَمَ المُهْلَكةَ المُتتابِعةَ على الهَلاكِ، ثمَّ أخبَرَ أنَّه أرسَلَ مُوسى بَعْدَهم، وأنزَلَ عليه التَّوراةَ فيها الهِدايةُ للنَّاسِ، ولا يَرِدُ على هذا: إهْلاكُ فِرعونَ؛ فإنَّه قَبْلَ نُزولِ التَّوراةِ، وأمَّا الآياتُ الَّتي في سُورةِ (القَصصِ) فهي صَريحةٌ جِدًّا؛ فإنَّه لَمَّا ذكَرَ هَلاكَ فِرعونَ، قال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٣]، فهذا صَريحٌ أنَّه آتاهُ الكِتابَ بَعدَ هَلاكِ الأُمَمِ الباغيةِ، وأخبَرَ أنَّه أنزَلَه بَصائرَ للنَّاسِ وهدًى ورَحمةً، ولعلَّ مِن هذا: ما ذكَرَ اللهُ في سُورةِ (يُونس) مِن قَولِ: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾، أي: مِن بَعدِ نُوحٍ، ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ الآياتِ [يونس: ٧٤، ٧٥]، واللهُ أعلَمُ[(١)].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ مُعجزاتِ مُوسى عليه السَّلامُ كانت مُعجزاتِ هَارونَ عليه السَّلامُ أيضًا، وأنَّ النُّبوَّةَ كما أنَّها مُشترِكةٌ بيْنهما، فكذلك المُعْجِزاتُ[(٢)].

٣- قولُه تعالى -إخبارًا عن فِرْعونَ ومَلَئِه-: ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُه يُجْري نَقْضَ ضَلالةِ الضَّالِّينَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢). ويُنظر أيضًا: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧٩).

على ألْسِنَتِهم، فلا يَشْعُرون بها ولا أتْباعُهم؛ لِيُحِقَّ كَلِمَتَه على مَن قَضى عليه الشِّقوةَ، أَلَا ترَى أنَّ فِرعونَ مع ادِّعائِه الرُّبُوبيَّةَ قال مع مَلَئِه: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾، ولم يَحْتَرِزْ مِن تَسميةِ نَفْسِه بَشرًا، وقد سمَّاها ربًّا لا مَلَؤُه[1]!! وكذلك فقد أنكَر أنْ يكونَ الرسولُ بشرًا معَ أنَّه ادَّعَى لنفْسِه الربوبيةَ والإلهيةَ وهو بشرٌ.

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ نسَبَه إليها؛ تَحقيقًا لكَونِه لا أبَ له، وكَونِه بَشرًا مَحمولًا في البَطنِ مَولودًا، لا يَصلُحُ لِرُتبةِ الإلهيَّةِ؛ وزاد في تَحْقيقِ ذلك بقولِه: ﴿وَأُمَّهُۥٓ﴾[2].

٥- قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ لمَّا كانتْ آيةُ عِيسى العُظْمَى في ذاتِه في كَيفيَّةِ تَكوينِه، كان الاهتمامُ بذِكْرِها هنا، ولم تُذْكَرْ رِسالتُه؛ لأنَّ مُعجزةَ تَخليقِه دالَّةٌ على صِدْقِ رِسالَتِه[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث أضاف اللهُ عَزَّ وجَلَّ الرُّسلَ إليه في قولِه: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾؛ وأضافَها إلى الأُمَمِ ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا﴾؛ لأنَّ الإضافةَ تكونُ بالمُلابَسةِ، والرَّسولُ مُلابِسٌ المُرسِلَ والمُرسَلَ إليه جميعًا؛ فالأوَّلُ كانتِ الإضافةُ لِتَشريفِ الرُّسلِ، والثَّاني كانتِ الإضافةُ إلى الأُمَّةِ، حيث كذَّبَتْه ولم يَنجَحْ فيهم إرسالُه إليهم؛ فناسَبَ الإضافةُ إليهم[4]. وقيل:

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٤).

إضافةُ الرَّسولِ مع الإرسالِ إلى المُرسِلِ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾، ومع المَجِيءِ إلى المُرسَلِ إليهم ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا﴾؛ لأنَّ الإرسالَ الَّذي هو مَبدَأُ الأمْرِ منه، والمَجِيءَ الَّذي هو مُنتهاهُ إليهم[١]. وقيل: إضافةُ الرَّسولِ إلى الأُمَّةِ مع إضافةِ كُلِّهم فيما سبَقَ إلى نُونِ العَظمةِ؛ لِتَحقيقِ أنَّ كلَّ رَسولٍ جاء أُمَّتَه الخاصَّةَ به، لا أنَّ كلَّهم جاؤوا كلَّ الأُمَمِ، والإشعارِ بكَمالِ شَناعتِهم وضَلالِهم؛ حيثُ كذَّبَتْ كلُّ واحدةٍ منهُم رسولَها المُعيَّنَ لها[٢].

- قولُه: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لِمَجيءِ كلِّ رسولٍ لأُمَّتِه، ولِمَا صدَرَ عنهم عندَ تَبْليغِ الرِّسالةِ، والمُرادُ بالمَجِيءِ إمَّا التَّبليغُ، وإمَّا حَقيقةُ المَجيءِ؛ للإيذانِ بأنَّهم كذَّبوه في أوَّلِ المُلاقاةِ[٣].

- قولُه: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ كِنايةٌ عن إبادتِهم[٤].

- قوله: ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وقال قبلَها: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]، فنِيطَ الدُّعاءُ هنا بوَصْفِ أنَّهم ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لِيَحصُلَ مِن مَجموعِ الدعوتينِ التَّنبيهُ على مَذمَّةِ الكُفْرِ، وعلى مَذمَّةِ عَدَمِ الإيمانِ بالرُّسلِ؛ تَعريضًا بمُشركِي قُريشٍ، على أنَّه يَشمَلُ كلَّ قَومٍ لا يُؤمِنون برُسلِ اللهِ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سِياقِ الدُّعاءِ تعُمُّ[٥].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ اقْتُصِرَ على وَصْفِهم بعَدمِ الإيمانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٢، ٦٣).

حَسَبَما اقْتُصِرَ على حِكايةِ تَكذيبِهم إجْمالًا، وأمَّا القُرونُ الأَوَّلُون فحيث نُقِلَ عنهم ما مَرَّ مِن الغُلوِّ وتَجاوُزِ الحدِّ في الكُفرِ والعُدوانِ، وُصِفوا بالظُّلمِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾

- إضافةُ الآياتِ في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ للتَّنويهِ بها وتَعظيمِها[٢].

- وقولُه: ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ على القولِ بأنَّ المُرادَ بالسُّلطانِ المُبينِ العَصا؛ فيكونُ فيه إفرادُها بالذِّكْرِ مع اندراجِها في الآياتِ؛ لأنَّها أُمُّ آياتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأُولاها، وقد تعلَّقَتْ بها مُعجِزاتٌ شَتَّى، جُعِلَت كأنَّها ليست بَعْضَ الآياتِ؛ لِمَا استبَدَّتْ به مِن الفَضلِ. وعلى أنَّ المُرادَ بالسُّلطانِ نفْسُ الآياتِ؛ فيكونُ عبَّرَ عنها بذلك على طَريقةِ العَطْفِ؛ تَنبيهًا على جَمْعِها لِعُنوانينِ جَليلينِ، وتَنزيلًا لِتَغايُرِهما مَنزِلةَ التَّغايُرِ الذَّاتيِّ[٣]. أو جُرِّدَ مِن نَفْسِ الآياتِ سُلطانٌ مُبينٌ، وعُطِفَ عليها؛ مُبالغةً، وهو هي[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ خُصَّ الملأُ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ إرسالَ بني إسرائيلَ مَنوطٌ بآرائِهم لا بآراءِ أعقابِهم[٥]؛ فجُعِلَ الإرسالُ إليهم دونَ بَقِيَّةِ أُمَّةِ القِبْطِ؛ لأنَّ دَعوةَ مُوسى وأخيه إنَّما كانت خِطابًا لِفرعونَ وأهْلِ دَولتِه الَّذين بيَدِهم تَصريفُ أُمورِ الأُمَّةِ لِتَحريرِ بني إسرائيلَ مِن استِعْبادِهم إيَّاهم؛ قال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٥، ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٤، ٥٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٦).

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه: ٤٧]، ولم يُرسَلَا بشَريعةٍ إلى القِبْطِ، وأمَّا الدَّعوةُ إلى التَّوحيدِ فمُقَدِّمةٌ لإثباتِ الرِّسالةِ لهم[١].

- وعَطْفُ ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ بفاءِ التَّعقيبِ يُفِيدُ أنَّهم لم يتأمَّلوا الدَّعوةَ والآياتِ والحُجَّةَ، ولكنَّهم أفْرَطوا في الكِبْرياءِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للتَّوكيدِ[٢].

- قولُه: ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بينَ فِعْلِ (اسْتَكْبَرُوا) وما تفرَّعَ عليه مِن قولِه: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ﴾، مُقرِّرةٌ للاستكبارِ، وأفاد وَصْفُ القومِ باسْمِ الفاعِلِ ﴿عَالِينَ﴾ تَمكُّنَ ذلك الوَصفِ مِن الموصوفِ بلَفْظِ (قوم)، أو تَمكُّنَه مِن أولئك القومِ؛ فأفادَ أنَّ استكبارَهم على تَلقِّي دَعوةِ مُوسى وآياتِه وحُجَّتِه إنَّما نشَأَ عن سَجِيَّتِهم مِن الكِبْرِ وتَطبُّعِهم، وبُيِّنَ ذلك بالتَّفريعِ بقولِه: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾؛ فهو مُتفرِّعٌ على قولِه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ عَطْفٌ على ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾، وما بيْنهما اعتراضٌ[٤].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ[٥].

- وجُملةُ: ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ حالٌ مِن فاعِلِ (نُؤْمِنُ)، مُؤكِّدةٌ لإنكارِ الإيمانِ لهما؛ كأنَّهم قَصَدوا بذلك التَّعريضَ بشأْنِهما عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٣، ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٤).

وحَطَّ رُتْبتِهما العَلِيَّةِ عن مَنصِبِ الرِّسالةِ مِن وَجْهٍ آخَرَ غيرِ البَشريَّةِ. واللَّامُ في ﴿لَنَا﴾ مُتعلِّقةٌ بـ﴿عَٰبِدُونَ﴾؛ قُدِّمَت عليه رِعايةً لِفَواصِلِ الآياتِ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ تفرَّعَ على قَولِهم التَّصميمُ على تَكذيبِهم إيَّاهما المَحْكِيِّ بقولِه: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾، ثمَّ فرَّعَ على تَكذيبِهم أنْ كانوا مِن المُهلَكينَ؛ إذ أهلَكَهم اللهُ بالغرَقِ، أي: فانْتَظَموا في سِلْكِ الأقوامِ الَّذينَ أُهْلِكوا، وهذا أبلَغُ مِن أنْ يُقالَ: فأُهْلِكوا. والتَّعقيبُ هنا تَعقيبٌ عُرفيٌّ؛ لأنَّ الإغراقَ لمَّا نشَأَ عن التَّكذيبِ، فالتَّكذيبُ مُستمِرٌّ إلى حينِ الإهلاكِ[٢].

- وفيه تَعريضٌ بتَهديدِ قُريشٍ على تَكذيبِهم رسولَهم صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ في قولِه: ﴿مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ إشارةً إلى أنَّ الإهلاكَ سُنَّةُ اللهِ في الَّذينَ يُكذِّبون رُسلَهُ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أُعِيدَ ذِكْرُ مُوسى عليه السَّلامُ؛ لِيُناطَ به ذِكْرُ الكتابِ، وكَونُه مَبْعوثًا إلى بني إسرائيلَ كما ذُكِرَ في الآيةِ السَّابقةِ، وقرَنَ به الآياتِ والسُّلطانَ وكَونَه مَبْعوثًا إلى فِرعونَ وملَئِه[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث لم يُذْكَرْ هارونُ هنا ووقَع الإعراضُ عنه، بخِلافِ الآيةِ السَّابقةِ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [المؤمنون: ٤٥]؛ لأنَّ رِسالتَه قدِ انتهَتْ؛ لاقتصارِه على تَبليغِ الدَّعوةِ لِفِرعونَ ومَلَئِه؛ إذ كانت مَقامَ مُحاجَّةٍ واستدلالٍ، فسأَلَ مُوسى ربَّهُ إشراكَ أخِيهِ هارونَ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٨٨).

تَبْليغِها؛ لأنَّه أفصَحُ منه لِسانًا في بَيانِ الحُجَّةِ والسُّلطانِ المُبينِ[١].

- قولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ لمَّا كان إيتاؤُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ التَّوراةَ لإرشادِ قَومِه إلى الحقِّ -كما هو شأْنُ الكُتبِ الإلهيَّةِ- جُعِلُوا كأنَّهم أُوتُوها؛ فقيلَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾. وقيل: أُرِيدَ: آتَيْنا قَومَ مُوسى، فحُذِفَ المُضافُ وأُقيمَ المُضافُ إليه مُقامَه[٢]. وقيل: بلْ ضَميرُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ظاهِرُ العَودِ إلى غَيرِ مَذكورٍ في الكلامِ، بل إلى مَعلومٍ مِن المَقامِ، وهم القومُ المُخاطَبونَ بالتَّوراةِ، وهم بنو إسرائيلَ؛ فاتِّساقُ الضَّمائرِ ظاهِرٌ في المَقامِ دونَ حاجةٍ إلى تأْويلِ قولِه: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ بمعنى: آتَيْنا قَومَ مُوسى[٣].

٧- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَأُمَّهُۥٓ﴾ إدماجٌ لِتَسفيهِ اليَهودِ فيما رَمَوا به مَريمَ عليها السَّلامُ؛ فإنَّ ما جعَلَهُ اللهُ آيةً لها ولابْنِها جَعَلُوه مَطْعَنًا ومَغْمَزًا فيهما[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ أفرَدَ وقال: ﴿ءَايَةً﴾؛ لأنَّ حالَهُما بمَجموعِهما آيةٌ واحدةٌ؛ وهي وِلادتُها إيَّاهُ مِن غَيرِ فَحْلٍ. أو جَعَلْنا ابنَ مَريمَ آيةً بأنْ تكلَّمَ في المَهْدِ، وظَهَرَتْ منه مُعجِزاتٌ أُخَرُ، ﴿وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ بأنْ ولَدَتْ مِن غَيرِ مَسيسٍ؛ فحُذِفَتِ الأُولى لِدَلالةِ الثَّانيةِ عليها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٧).

وقيل: قال: ﴿ءَايَةً﴾ إشارةً إلى ظُهورِ الخَوارقِ على أيدِيهما حتَّى كأنَّهما نفْسُ الآيةِ، فلا يُرَى منها شَيءٌ إلَّا وهو آيةٌ، ولو قال: (آيتينِ) لكان ربَّما ظُنَّ أنَّه يُرادُ حَقيقةُ هذا العددِ، ولعلَّ في ذلك إشارةً إلى أنَّه تكمَّلَتْ به آيةُ القُدرةِ على إيجادِ الإنسانِ بكلِّ اعتبارٍ: مِن غَيرِ ذكَرٍ ولا أُنْثى كآدَمَ عليه السَّلامُ، ومِن ذكَرٍ بلا أُنْثى كحوَّاءَ عليها السَّلامُ، ومِن أُنْثَى بلا ذكَرٍ كعِيسى عليه السَّلامُ، ومِن الزَّوجينِ كبَقِيَّةِ النَّاسِ[1].

- وأيضًا تَنكيرُ ﴿ءَايَةً﴾ للتَّعظيمِ؛ لأنَّها آيةٌ تَحْتوي على آياتٍ، ولمَّا كان مَجموعُها دالًّا على صِدْقِ عِيسى في رِسالَتِه، جُعِلَ مَجموعُها آيةً عَظيمةً على صِدْقِه[2].

- والتَّعبيرُ عنهما بما ذُكِرَ من العُنوانينِ -وهما كونُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ابنَها، وكونُها أُمَّهَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بحَيثيَّةِ كَونِهما آيةً؛ فإنَّ نِسْبتَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إليها -معَ أنَّ النَّسبَ إلى الآباءِ- دالَّةٌ على أنْ لا أبَ له، أي: جَعَلْنا ابنَ مَريمَ وحْدَها مِن غَيرِ أنْ يَكونَ له أبٌ، وأُمَّه الَّتي ولدَتْهُ خاصَّةً مِن غَيرِ مُشارَكةِ الأبِ: آيةً. وتَقديمُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأصالتِه فيما ذُكِرَ مِن كَونِه آيةً، كما أنَّ تَقديمَ أُمِّه في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]؛ لِأَصالتِها فيما نُسِبَ إليها من الإحصانِ والنَّفخِ[3].

- قولُه: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ فيه تَنويهٌ بهما؛ إذ جَعَلَهما اللهُ مَحَلَّ عِنايَتِه،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٤٨، ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٧).

ومَظهَرَ قُدرتِه ولُطْفِه[١].

- وقولُه: ﴿وَمَعِينٍ﴾ وَصْفٌ جَرى على مَوصوفٍ مَحذوفٍ؛ لِدَلالةِ الوَصْفِ عليه، أي: ماءٍ مَعينٍ[٢]. ووُصِفَ ماؤُها بذلك؛ للإيذانِ بكَونِه جامِعًا لفُنونِ المنافِعِ؛ مِن الشُّربِ، وسَقْيِ ما يُسْقَى من الحيوانِ والنَّباتِ بغَيرِ كُلْفةٍ، والتَّنزُّهِ بمَنظَرِهِ المُونِقِ، وطِيبِ المكانِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٨).

الآيات (٥١-٥٦)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾.

غَريبُ الكلماتِ:

﴿أُمَّتُكُمۡ﴾: أي: مِلَّتُكم ودينُكم وشريعتُكم، والأصلُ أنَّه يُقالُ للقومِ يجتمعونَ على دينٍ واحدٍ: أُمَّةٌ، فتُقامُ الأُمَّةُ مقامَ الدِّينِ، وتُطلَقُ الأُمَّةُ أيضًا على البُرْهةِ مِن الزَّمنِ، والرَّجلِ المُقتدَى به، والأصلِ، والمرجِعِ، ويُقالُ لكلِّ ما كان أصلًا لوجودِ شيءٍ أو تربيتِه أو إصلاحِه أو مبدئِه: أمٌّ[(١)].

﴿زُبُرٗا﴾: أي: كُتبًا مُختلِفةً، جمعُ زبورٍ، وأصلُ (زبر): يدُلُّ على قراءةٍ وكتابةٍ وما أشبهَ ذلك[(٢)].

﴿حِزۡبِۭ﴾: أي: طائِفةٍ وفِرْقةٍ، والحزبُ: الجماعةُ مِن الناسِ، أو: جماعةٌ فيها غِلَظٌ، والطَّائفةُ مِن كلِّ شيءٍ حزبٌ، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٨)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٣).

﴿غَمْرَتِهِمْ﴾: أي: عَمايَتِهم وجَهْلِهم وضَلالِهم، وسُمِّيَتْ غَمْرةً؛ لأنَّها شَيءٌ يَستُرُ الحقَّ عن العينِ، وأصْلُ الغَمْرِ: إزالةُ أثَرِ الشَّيءِ، وكذلك تَغطيةٌ وسَتْرٌ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾

قَولُه: ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ خبَرُ لـ (إنَّ)، ونُصِبَ ﴿أُمَّةً﴾ على الحالِ من ﴿أُمَّتُكُمْ﴾، أو نُصِبَ على البدَلِ مِن ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾، فيكونُ قد فُصِلَ بالخبَرِ بين البَدَلِ والمُبدَلِ منه[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾

﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم﴾: (ما) مَوصولةٌ بمعنى (الَّذي)[٣]، وهي اسمُ (أنَّ)، و﴿نُمِدُّهُم﴾ صِلتُها، وعائدُه الضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾. و﴿مِن مَّالٍ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ حالٌ مِن الموصولِ (ما). و﴿نُسَارِعُ﴾ خبرُ (أنَّ)، والعائدُ مِن هذه الجُملةِ إلى اسم (أنَّ) مَحذوفٌ، تَقديرُه: نُسارِعُ لهم به، أو فيه. والمصدرُ المُؤوَّلُ سَدَّ مَسدَّ مَفعولَي (يحسَبُ). وقيل غيرُ ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٤).

(٢) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٠٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٩٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ١٩٥).

(٣) قال الألوسي: (ومَن جوَّز كونَها مصدريةً وجعَل المصدرَ الحاصلَ بعدَ السبكِ اسمَ أنَّ وخبرَها ﴿نُسَارِعُ﴾ على تقديرِ «مسارعة»، بناءً على أنَّ الأصلَ «أنْ نسارع»، فحُذفت «أنْ» وارتفَع الفعلُ- لم يُوفِّ القرآنَ الكريمَ حقَّه، وكذا مَن جعَلها كافَّةً كالكسائيِّ). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكِّي (٢/ ٥٠٣)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٤٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يخاطبُ اللهُ رسلَه آمرًا إيَّاهم بأن يأكُلوا مِنَ الرِّزقِ الحَلالِ الطَّيِّبِ، وأن يعْمَلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ؛ ويُذكِّرُهم بأنَّه عَليمٌ بما يعمَلونَ، لا يَخْفَى عليه مِن أعمالِهم شَيءٌ. ويبيِّنُ لهم أنَّ دِينَهم جميعًا دِينٌ واحِدٌ، وهو الإسلامُ، وأنه هو رَبُّهم؛ فعليهم أن يتَّقوه، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه.

ويخبِرُ تعالى أنَّ الناسَ مِن أُمَمِ الرُّسُلِ تفرَّقتْ في الدِّينِ، وجعلوه كتبًا وضَعوها، دانَ كلُّ فريقٍ منهم بكتابٍ، وجعَل له دينًا، كُلُّ حِزْبٍ مُعْجَبٌ برأيِه، يَعتقِدُ أنَّه على الحَقِّ دون غيره! وأمَر اللهُ نبيَّه أن يَتركَهم في غَفلَتِهم وحَيرتِهم إلى أنْ يَنزِلَ العَذابُ بهم أو الموتُ.

ثم يقولُ تعالى: أيظُنُّ هؤلاء المُفَرِّقونَ دِينَهم أنَّ ما يبسُطُه لهم جلَّ وعلا مِن أموالٍ وأولادٍ في الدُّنيا هو تعجيلٌ لثوابِهم لِكَرامتِهم علَيْه؟! كلَّا! إنَّما يفعل ذلك فِتنةً لهم واستِدراجًا، ولكِنَّهم لا يَشعُرونَ بذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

المناسبةُ لهذا الاستئنافِ هي قولُه: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، وليَحصُلَ مِنْ ذلك الرَّدُّ على اعتقادِ الأقوامِ المُعلِّلينَ تكذيبَهم رُسُلَهم بعِلَّةِ أنَّهم يأكُلونَ الطَّعامَ، كما قالَ تعالَى في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، وليُبْطِلَ بذلك ما ابْتَدَعه النَّصارَى مِنَ الرَّهبانِيَّةِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٨).

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ عيسَى عليه السَّلامُ على مِنْهاجِ إخوانِه مِنَ الرُّسلِ في الأكْلِ والعِبادةِ، وجميعِ الأحوالِ؛ زاد في تَحقيقِ ذلك بَيانًا لِمَن ضَلَّ بأنِ اعتقَدَ فيه ما لا يَليقُ به، فقال مُخاطِبًا لِجَميعِ الرُّسلِ[1]:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾.

أي: يا أيُّها الرُّسُلُ، كُلُوا مِنَ الرِّزقِ الحَلالِ المُستلَذِّ النَّافِعِ، واعْمَلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ الخالِصةَ للهِ، المُوافِقةَ لِشَريعتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٥٤، ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٤).

قيل: المرادُ أنَّ كُلَّ رَسولٍ في زمانِه خُوطِبَ بذلك. وممَّن قال بهذا: ابنُ جُزي، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٤).

وقيل: الخِطابُ للنبيِّ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ قتيبة، والزجَّاج. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٥٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٥).

قال ابنُ الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ ﴾ قال ابنُ عباس، والحسنُ، ومجاهدٌ، وقتادةُ في آخرينَ: يعني بالرُّسُلِ هاهنا محمَّدًا -صلَّى الله عليه وسلَّم- وحْدَه. وهو مذهَبُ العربِ في مخاطبةِ الواحِدِ خِطابَ الجميعِ، ويتضَمَّنُ هذا أنَّ الرسُلَ جميعًا كذا أُمِروا. وإلى هذا المعنى ذهَب ابنُ قتيبةَ والزجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٤).

وقيل: الخِطابُ لعيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٦).

((أيُّها النَّاسُ، إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمَرَ المُؤمِنينَ بما أمَرَ به المُرسَلينَ؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثمَّ ذكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أشعَثَ أغبَرَ[١]، يَمُدُّ يَدَيه إلى السَّماءِ: يا رَبِّ، يا رَبِّ، ومَطعَمُه حَرامٌ، ومَشرَبُه حَرامٌ، ومَلبَسُه حَرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ؛ فأنَّى يُستَجابُ لذلك؟!))[٢].

﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾.

أي: لا يَخْفى علَيَّ شَيءٌ مِن أعمالِكم، وسأُجازيكم عليها جَميعًا؛ فاجتَهِدوا في صالحِ الأعمالِ[٣].

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾.

أي: وقُلْنا للرُّسُلِ: إنَّ دِينَكم جَميعًا دِينٌ واحِدٌ، وهو الإسلامُ[٤].

---

(١) أشعَثَ: أي: مُتفرِّقَ شَعرِ الرَّأسِ. أغبَرَ: أي: مُغْبَرَّ البَدَنِ يعلوه الغُبارُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٤٠٢٤).

(٢) رواه مسلم (١٠١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٩).

قال الشنقيطي: (فقَولُه: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، أي: إنَّ هذِه شَريعتُكم شَريعة واحِدة، ودِينُكم دِينٌ واحدٌ، ورَبُّكم واحدٌ؛ فلا تَتفرَّقوا في الدِّينِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٦١). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٤٢).

وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ المعنَى: هذا الَّذي تقَدَّم ذكرُه =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ قال: ((أنا أَولى النَّاسِ بعِيسى ابنِ مَريمَ في الدُّنيا والآخِرةِ، والأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ[١]؛ أُمَّهاتُهم شَتَّى، ودِينُهم واحِدٌ))[٢].

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾.

أي: وأنا رَبُّكم فاتَّقوني بفِعلِ أوامِري، واجتِنابِ نَواهيَّ، ولا تُشرِكوا بي شَيئًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾.

أي: فتَفرَّقَ النَّاسُ مِن أُمَمِ الرُّسُلِ في هذا الدِّينِ الواحِدِ الَّذي شرَعَه اللهُ لهم؛ وجعلوه كُتبًا وضَعوها، دانَ كلُّ فريقٍ منهم بكتابٍ غيرِ كُتبِ الفِرَقِ الأخرَى، وجعَل كلُّ فريقٍ منهم لنفْسِه دِينًا[٤].

= هو دينُكم ومِلَّتُكم فالْتَزِموه. والأمَّةُ هنا: الدِّينُ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٩).

وقال ابنُ عطية: (الإشارةُ بـ «هذه» إلى الحنيفيةِ السمحةِ ملَّةِ إبراهيمَ عليه السلامُ، وهو دينُ الإسلامِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٦).

(١) أولادُ العَلَّاتِ: الَّذين أُمَّهاتُهم مُختلفةٌ وأبُوهُم واحِدٌ؛ أرادَ أنَّ إيمانَهم واحِدٌ، وشرائعَهُم مُختلفةٌ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٩١).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١، ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٩، ١٣٠)، =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال سبحانَه: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣].

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

أي: كلُّ فَريقٍ منهم مَسْرورونَ بما اختارُوه لأنفُسِهم، فَرِحونَ بباطِلِهم، يَعتَقِدونَ أنَّهم على الحَقِّ دونَ مَن سِواهم(١).

كما قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ

= ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٢، ٧٣).

قال القرطبي: (الافتراقُ المحَذَّرُ منه في الآيةِ والحديثِ [يعني: حديثَ افتراقِ الأمَّةِ] إنَّما هو في أصولِ الدِّينِ وقواعِدِه؛ لأنَّه قد أطلَقَ عليها مِلَلًا، وأخبَرَ أنَّ التمَسُّكَ بشَيءٍ مِن تلك المِلَلِ مُوجِبٌ لدُخولِ النَّارِ. ومِثلُ هذا لا يُقالُ في الفروعِ؛ فإنَّه لا يُوجِبُ تعديدَ المِلَلِ، ولا عذابَ النَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٠).

وقال أيضًا: (قَولُه تعالى: ﴿زُبُرًا﴾ يعني: كُتُبًا وَضَعوها، وضَلالاتٍ ألَّفوها، قاله ابنُ زيدٍ. وقيل: إنَّهم فرَّقوا الكُتُبَ، فاتَّبَعت فِرقةٌ الصُّحُفَ، وفِرقةٌ التَّوراةَ، وفِرقةٌ الزَّبورَ، وفِرقةٌ الإنجيلَ، ثمَّ حُرِّفَ الكُلُّ وبُدِّلَ، قاله قتادةُ. وقيل: أخَذَ كُلُّ فريقٍ منهم كتابًا آمَنَ به، وكفَرَ بما سِواه). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٠).

وقال ابنُ جريرٍ في معنى ﴿زُبُرًا﴾: (إجماعُ أهلِ التأويلِ في تأويلِ ذلك على أنَّه مرادٌ به الكتبُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣).

وقال الشنقيطي: (وقوله في هذه الآيةِ: ﴿زُبُرًا﴾ أي: قِطَعًا كزُبَرِ الحديدِ والفضَّةِ، أي: قِطَعِها). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٣).

فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢].

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مَن ذَكَرَ مِنَ الأُمَمِ، ومآلَ أمْرِهم مِنَ الإهلاكِ حين كذَّبوا الرُّسلَ، كان ذلك مِثالًا لِقُريشٍ؛ فخاطَبَ رَسولَه في شأْنِهم بقولِه[1]:

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: فاتْرُكْ -يا مُحمَّدُ- هؤلاء المُشرِكينَ المُختَلِفينَ في دِينِهم، الَّذين هم بمَنزلةِ مَن تقدَّمَ؛ اترُكْهم في حَيْرَتِهم وضَلالتِهم وغَفلَتِهم الَّتي غَرِقوا فيها، إلى أنْ يأتيَهم العَذابُ أو الموتُ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها:

لَمَّا كان القومُ في نِعَمٍ عَظيمةٍ في الدُّنيا، جاز أنْ يظُنُّوا أنَّ تلك النِّعَمَ كالثَّوابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: فيما يغمُرُ قُلوبَهم مِن حُبِّ المالِ والبنينَ، المانِعِ لهم مِن المُسارَعةِ في الخيراتِ والأعمالِ الصَّالحةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٥٩٦).

المُعجَّلِ لهم على أديانِهم؛ فبيَّنَ سُبحانَه أنَّ الأمْرَ بخِلافِ ذلك[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان المُوجِبَ لِغُرورِ الكافرينَ ظَنُّهم أنَّ حالَهم -في بَسْطِ الأرزاقِ مِن الأموالِ والأولادِ- حالُ الموعودِ لا المُتوعَّدِ، أنْكَر ذلك عليهم؛ تَنبيهًا لِمَن سبَقَتْ له السَّعادةُ، وكُتِبَت له الحُسْنى وزِيادةٌ، فقال[٢]:

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: أيظُنُّ أولئك الَّذين فَرَّقوا دِينَهم أنَّ ما نَبسُطُه عليهم في الدُّنيا مِنَ الأموالِ والأبناءِ هو تَعجيلٌ لِثَوابِهم؛ لِمَعزَّتِهم وكَرامتِهم عندنا؟! كلَّا! ليس الأمرُ كما يَزعُمونَ، بلْ هم يُسارِعونَ في أسبابِ الشُّرورِ، ولكِنْ لا يَشعُرونَ أنِّي أُعْطِيهم ذلك فِتْنةً واستِدراجًا لهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾[سبأ: ٣٤ - ٣٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ دَلَّ هذا على أنَّ الحلالَ عَونٌ على الطاعةِ والعمَلِ الصَّالحِ(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾، بَعدَ قولِه: ﴿ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾، تَحذيرٌ مِن مُخالَفةِ ما أمَرَهُم به، وإذا كان ذلك تَحذيرًا للرُّسلِ مع عُلُوِّ شأْنِهم، فبأنْ يكونَ تَحذيرًا لِغَيرِهم أَوْلى؛ فهو تَحذيرٌ، والمُرادُ أتْباعُهم(٢). وفيه أيضًا تَحريضٌ على الاستِزادةِ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ؛ لأنَّ ذلك يَتضمَّنُ الوعْدَ بالجَزاءِ عنها، وأنَّه لا يَضِيعُ منه شَيءٌ؛ فالخَبرُ مُستعمَلٌ في التَّحريضِ(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ وقَّفَهم تعالى على خطَأِ رأْيِهم في أنَّ نِعمةَ اللهِ عليهم بالمالِ ونَحْوِه إنَّما هي لِرِضاهُ عن حالِهم، وبيَّنَ تعالى أنَّ ذلك إنَّما هو إملاءٌ واستِدراجٌ إلى المعاصي، واستِجرارٌ إلى زِيادةِ الإثْمِ، وهم يَحْسَبونه مُسارَعةً لهم في الخَيراتِ، ومُعاجَلةً بالإحسانِ(٤).

٤- كلُّ لذَّةٍ أعقَبَتْ ألَمًا، أو منَعَتْ لذَّةً أكمَلَ منها؛ فليست بِلَذَّةٍ في الحقيقةِ، وإنْ غالَطَتِ النَّفْسُ في الالتِذاذِ بها؛ فأيُّ لَذَّةٍ لآكلِ طَعامٍ شَهِيٍّ مَسمومٍ يُقطِّعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٧).

أمعاءَه عن قَريبٍ؟! وهذه هي لَذَّاتُ الكُفَّارِ والفُسَّاقِ بعُلُوِّهم في الأرضِ وفَسادِهم، وفرَحِهم فيها بغَيرِ الحقِّ ومرَحِهم، وذلك مِثْلُ لَذَّةِ الَّذين اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ يُحِبُّونَهم كحُبِّ اللهِ، فنَالوا بهم مَودَّةَ بَيْنِهم في الحياةِ الدُّنيا، ثمَّ استحالَتْ تلك اللَّذَّةُ أعظَمَ ألَمٍ وأمَرَّهُ، ومِن ذلك لَذَّةُ العقائِدِ الفاسدةِ والفرَحِ بها، ولَذَّةُ غَلبةِ أهْلِ الجَورِ والظُّلمِ والعُدوانِ، والزِّنا، والسَّرقةِ، وشُربِ المُسكِراتِ، وقد أخبَرَ اللهُ سُبحانَه وتَعالى أنَّه لم يُمَكِّنْهم مِن ذلك لِخَيرٍ يُرِيدُه بهم، إنَّما هو استِدراجٌ مِنه؛ لِيُنيلَهم به أعظَمَ الألَمِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[1] [التوبة: ٥٥].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾، هذا أمْرٌ منه تَعالى لِرُسلِه بأكْلِ الطَّيِّباتِ الَّتي هي الرِّزقُ الطَّيِّبُ الحلالُ، وشُكْرِ اللهِ بالعمَلِ الصَّالحِ الَّذي به يَصلُحُ القَلْبُ والبدَنُ، والدُّنيا والآخرةُ، ويُخبِرُهم أنَّه بما يَعْمَلون عليمٌ، فكلُّ عمَلٍ عَمِلُوه، وكلُّ سَعْيٍ اكتَسَبوه؛ فإنَّ اللهَ يَعلَمُه، وسيُجازِيهم عليه أتَمَّ الجزاءِ وأفضَلَهُ، فدَلَّ هذا على أنَّ الرُّسلَ كلَّهم مُتَّفِقون على إباحةِ الطَّيِّباتِ مِنَ المآكِلِ، وتَحريمِ الخبائثِ منها، وأنَّهم مُتَّفِقون على كلِّ عمَلٍ صالحٍ وإنْ تَنوَّعَتْ بَعضُ أجناسِ المأموراتِ، واختلَفَتْ بها الشَّرائعُ؛ فإنَّها كلَّها عمَلٌ صالِحٌ، ولكنْ تَتفاوَتُ بتَفاوُتِ الأزمنةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٣).

٢- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ فيه: بَيانُ كَرامةِ الرُّسلِ عندَ اللهِ، ونَزاهتِهم في أُمورِهم الجُسمانيَّةِ والرُّوحانيَّةِ؛ فالأكْلُ مِنَ الطَّيِّباتِ نَزاهةٌ جِسْميَّةٌ، والعمَلُ الصَّالِحُ نَزاهةٌ نَفسانيَّةٌ(١).

٣- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، وقال: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]؛ فأمَرَ بالأكْلِ والشُّكرِ، فمَن أكَلَ ولم يَشكُرْ كان مَذْمومًا، ومَن لم يأكُلْ ولم يَشكُرْ كان مَذْمومًا(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ * وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ دَلالةٌ على أنَّ دِينَ الأنبياءِ واحدٌ(٣).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ * وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ إنْ قِيلَ: لمَّا كانت شَرائعُهم مُختلِفةً؛ فكيف يكونُ دِينُهم واحدًا؟

فالجَوابُ: أن المُرادَ مِنَ الدِّينِ ما لا يَختلِفون فيه مِن مَعرفةِ ذاتِ اللهِ تعالى وصِفاتِه، وأمَّا الشَّرائعُ فإنَّ الاختلافَ فيها لا يُسمَّى اختلافًا في الدِّينِ، فكما يُقالُ في الحائضِ والطَّاهِرِ مِنَ النِّساءِ: إنَّ دِينَهنَّ واحدٌ، وإنِ افترَقَ تَكليفُهما، فكذا هاهنا. ويدُلُّ على ذلك قولُه: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾، فكأنَّه نبَّهَ بذلك على أنَّ دِينَ الجَميعِ واحدٌ فيما يتَّصِلُ بمَعرفةِ اللهِ تعالى، واتِّقاءِ مَعاصيهِ، فلا مَدخَلَ للشَّرائعِ، وإنِ اختلَفَتْ في ذلك(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧١٦).

(٣) يُنظر: ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ؛ اكتِفاءً بالمَقولِ، وهو استِئنافٌ ابتدائيٌّ، أي: قُلْنا: يا أيُّها الرُّسلُ كُلُوا[1]. والخِطابُ لجَميعِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، على معنَى: أنَّ كلًّا منهم خُوطِبَ في زَمانِه؛ فيَدخُلُ تحتَه عِيسى عليه السَّلامُ دُخولًا أوَّلِيًّا، وإنَّما أتى بصُورةِ الجَمْعِ؛ لِيَعتقِدَ السَّامِعُ أنَّ أمْرًا نُودِيَ له جَميعُ الرُّسلِ ووُصُّوا به: حَقيقٌ أنْ يُوحَّدَ به ويُعمَلَ عليه. أو يكونُ ابتداءَ كَلامٍ؛ ذُكِرَ تَنبيهًا على أنَّ تَهيئةَ أسبابِ التَّنعيمِ لم تكُنْ له خاصَّةً، وأنَّ إباحةَ الطَّيِّباتِ للأنبياءِ عليهم السَّلامُ شَرعٌ قديمٌ، واحتجاجًا على الرَّهبانِيَّةِ في رَفْضِ الطَّيِّباتِ، أو حِكايةً لِمَا ذُكِرَ لِعِيسى عليه السَّلامُ ومَريمَ وإيوائِهما إلى الرَّبوةِ؛ لِيَقْتديَا بالرُّسلِ في تَناوُلِ ما رُزِقَا. وقيل: النِّداءُ له، ولَفْظُ الجَمْعِ للتَّعظيمِ. وقيل: هو خِطابٌ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَحْدَه على دأْبِ العرَبِ في مُخاطَبةِ الواحدِ بلَفْظِ الجَمعِ، أو لِقيامِه مقامَ الرُّسلِ، وفيه إبانةٌ لِفَضلِه وقِيامِه مقامَ الكُلِّ في حِيازةِ كَمالاتِهم[2].

- والأمْرُ في قولِه: ﴿كُلُواْ﴾ للإباحةِ، وإنْ كان الأكْلُ أمْرًا جِبلِيًّا للبشرِ، إلَّا أنَّ المُرادَ به هنا لَازِمُه، وهو إعلامُ المُكذِّبينَ بأنَّ الأكْلَ لا يُنافي الرِّسالةَ، وأنَّ الَّذي أرسَلَ الرُّسلَ أباح لهمُ الأكْلَ. وتَعليقُ ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بكسْبِ الإباحةِ المُستفادَةِ مِن الأمْرِ شَرْطٌ أنْ يكونَ المُباحُ مِنَ الطَّيِّباتِ، أي: أنْ يكونَ المأْكولُ طَيِّبًا. ويَزِيدُ في الرَّدِّ على المُكذِّبينَ بأنَّ الرُّسلَ إنَّما يَجْتنِبونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٨).

الخبائِثَ، ولا يَجتنِبونَ ما أحَلَّ اللهُ لهم مِن الطَّيِّباتِ[١].

- قولُه: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ في تَقديمِ الأكْلِ مِن الطَّيِّباتِ على العمَلِ الصَّالحِ: دَلالةٌ على أنَّه لا يكونُ صالِحًا إلَّا مَسبوقًا بأكْلِ الحلالِ[٢]. وفي عَطْفِ العمَلِ الصَّالحِ على الأمْرِ بأكْلِ الطَّيِّباتِ: إيماءٌ إلى أنَّ هِمَّةَ الرُّسلِ إنَّما تَنصرِفُ إلى الأعمالِ الصَّالحةِ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء قولُه: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ بلَفظِ (عليم)، وفي سُورةِ (سبَأٍ) قال: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١] بلَفظِ (بصير)؛ ووَجْهُه: أنَّه تقدَّمَ آيةَ (المُؤمِنون) إيتاءُ الكِتابِ، وجَعْلُ مَريمَ وابْنِها آيةً، والعِلْمُ بهما أنسَبُ مِن بَصَرِهما، وفي سُورةِ (سبَأٍ) تقدَّمَ قولُه: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، والبصَرُ بإلَانَةِ الحديدِ أنسَبُ مِن العِلْمِ بها[٤]. وقيل: خَصَّ كلَّ سُورةٍ بما وافَقَ فواصِلَ الآيِ[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فيه تأْكيدُ الكَلامِ بحَرفِ (إنَّ)؛ للرَّدِّ على المُشركينَ مِن أُمَمِ الرُّسلِ، أو المُشرِكينَ المُخاطَبينَ بالقُرآنِ[٦].

- وإنَّما أُشِيرَ إليها بـ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾؛ للتَّنبيهِ على كَمالِ ظُهورِ أمْرِ الأُمَّةِ في الصِّحَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٠، ٣٩١).

(٥) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٠).

والسَّدادِ، وانتظامِها بسَببِ ذلكَ في سِلْكِ الأُمورِ المُشاهَدةِ[١]. وقيل: الإشارةُ بقولِه: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إلى أمْرٍ مُسْتَحضَرٍ في الذِّهنِ بَيَّنَه الخبرُ والحالُ؛ ولذلك أُنِّثَ اسمُ الإشارةِ، أي: هذه الشَّريعةُ الَّتي أَوْحَينا إليك هي شَريعتُك، ومعنى هذا الإخبارِ: أنَّك تَلتزِمُها ولا تَنقُصُ منها، ولا تُغيِّرُ منها شيئًا، ولِأجْلِ هذا المُرادِ جُعِلَ الخَبرُ ما حَقُّه أنْ يكونَ بَيانًا لاسمِ الإشارةِ؛ لأنَّه لم يُقْصَدْ به بَيانُ اسمِ الإشارةِ، بل قُصِدَ به الإخبارُ عن اسمِ الإشارةِ؛ لإفادةِ الاتِّحادِ بيْن مَدْلولَيِ اسمِ الإشارةِ وخَبرِه؛ فيُفِيدُ أنَّه هو هو لا يُغيَّرُ عن حالِه؛ فالخَبرُ مُستعمَلٌ في مَعْنى التَّحريضِ والمُلازَمةِ[٢].

- وفِعْلُ الأمْرِ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ في حَقِّ الرُّسلِ للتَّهييجِ والإلهابِ، وفي حَقِّ الأُمَمِ للتَّحذيرِ والإيجابِ، والفاءُ لِتَرتيبِ الأمْرِ، أو وُجوبِ الامتثالِ به على ما قَبْلَه مِن اختِصاصِ الرُّبوبيَّةِ به تعالى واتِّحادِ الأُمَّةِ؛ فإنَّ كُلًّا منهما مُوجِبٌ للاتِّقاءِ حَتْمًا[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء قولُه هنا: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾، وفي (الأنبياءِ): ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]؛ فيجوزُ أنَّ اللهَ أمَرَهم بالعِبادةِ وبالتَّقْوى، ولكنْ حَكَى في كلِّ سُورةٍ أمْرًا مِن الأمْرَينِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ الأمرانِ وقَعَا في خِطابٍ واحدٍ، فاقْتُصِرَ على بَعْضِه في سُورةِ (الأنبياءِ)، وذُكِرَ مُعظَمُه في سُورةِ (المُؤمِنينَ)، بحَسَبِ ما اقتضاهُ مَقامُ الحِكايةِ في كِلْتَا السُّورتينِ. ويحتمِلُ أنْ يكونَ كلُّ أمْرٍ مِن الأمْرينِ قد وقَعَ في خِطابٍ مُستقِلٍّ؛ تَماثَلَ بَعضُه، وزاد الآخَرُ عليه بحَسَبِ ما اقتضاهُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧١، ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٨).

مَقامُ الخِطابِ مِن قَصْدِ إبلاغِه للأُمَمِ كما في سُورةِ (الأنبياءِ)، أو مِن قَصْدِ اختِصاصِ الرُّسلِ كما في سُورةِ (المُؤمِنينَ)، وعلى كلٍّ فوَجْهُ ذلك: أنَّ آيةَ سُورةِ (الأنبياءِ) لم تُذْكَرْ فيها رِسالاتُ الرُّسلِ إلى أقْوامِهم بالتَّوحيدِ عدَا رِسالةَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ثمَّ جاء ذِكْرُ غَيرِه مِن الرُّسلِ والأنبياءِ مع الثَّناءِ عليهم، وطالَ البُعْدُ بيْنَ ذلك وبيْنَ قِصَّةِ إبراهيمَ؛ فكان الأمْرُ بإفرادِ اللهِ تعالى بالعِبادةِ -الَّذي هو المعنى الَّذي اتَّحدَتْ فيه الأديانُ- أَوْلى هُنالِك؛ لأنَّ المَقصودَ مِن ذلك الأمْرِ أنْ يُبلَّغَ إلى أقوامِهم، فكان ذِكْرُ الأمْرِ بالعِبادةِ أَوْلى بالمَقامِ في تلك السُّورةِ؛ لأنَّه الَّذي حَظُّ الأُمَمِ منه أكثَرُ؛ إذِ الأنبياءُ والرُّسلُ لم يَكونوا بخِلافِ ذلك قطُّ، فلا يُقْصَدُ أمْرُ الأنبياءِ بذلك؛ إذ يَصِيرُ مِن تَحصيلِ الحاصلِ، إلَّا إذا أُرِيدَ به الأمْرُ بالدَّوامِ. وأمَّا آيةُ سُورةِ (المُؤمِنون) فقد جاءت بعْدَ ذِكْرِ ما أُرسِلَ به الرُّسلُ إلى أقوامِهم مِن التَّوحيدِ وإبطالِ الشِّركِ؛ فكان حَظُّ الرُّسلِ مِن ذلك أكثَرَ كما يَقْتضيهِ افتِتاحُ الخِطابِ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١]؛ فكان ذِكْرُ الأمْرِ بالتَّقوى هنا أنسَبَ بالمَقامِ؛ لأنَّ التَّقوى لا حَدَّ لها؛ فالرُّسلُ مأْمُورونَ بها، وبالازديادِ منها[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ أبلَغُ في التَّخويفِ والتَّحذيرِ من قولِه في (الأنبياءِ): ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]؛ لأنَّ هذه جاءت عَقِيبَ إهْلاكِ طوائفَ كَثيرينَ مِن قَومِ نُوحٍ والأُمَمِ الَّذين مِن بَعْدِهم، وفي (الأنبياءِ) وإنْ تقدَّمَتْ أيضًا قِصَّةُ نُوحٍ وما قبْلَها: فإنَّه جاء بَعْدَها ما يدُلُّ على الإحسانِ واللُّطفِ التَّامِّ في قِصَّةِ أيُّوبَ ويُونسَ وزكريَّا ومَرْيَمَ؛ فناسَبَ الأمْرُ بالعِبادةِ لمَن هذه صِفَتُه تعالى[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٠، ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٦، ٥٦٧).

٣- قوله تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ ﴾ جِيءَ بفاءِ التَّعقيبِ هنا؛ لإفادةِ أنَّ الأُمَمَ لم يَتريَّثوا عَقِبَ تَبليغِ الرُّسل إيَّاهم ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢] أنْ تَقطَّعوا أمْرَهم بيْنهم، وذلك مُبالَغةٌ في عدَمِ قَبولِهم، وفي نِفارِهم عن تَوحيدِ اللهِ وعِبادتِه؛ فالكلامُ مَسوقٌ مَساقَ الذَّمِّ؛ ولذلك قد تُفِيدُ الفاءُ مع التَّعقيبِ معنَى التَّفريعِ، أي: فتفرَّعَ على ما أمَرْناهُم به مِن التَّوحيدِ أنَّهم أتَوْا بعَكْسِ المطلوبِ منهم؛ فيُفِيدُ الكلامُ زِيادةً على الذَّمِّ تَعجيبًا مِن حالِهم. وممَّا يَزِيدُ معنَى الذَّمِّ تَذييلُه بقولِه: ﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾، أي: وهم ليسوا بحالِ مَن يَفرَحُ[1]، وجاء في سورةِ (الأنبياءِ) بالواوِ ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ ﴾ [الأنبياء: ٩٣]؛ فاحتمَلَ معنى الفاءِ، واحتمَلَ تأخُّرَ تَقطُّعِهم عن الأمْرِ بالعِبادةِ، وفَرَحُ كلِّ حِزْبٍ بما لدَيْهِ دَليلٌ على نِعْمتِه في ضَلالِه، وأنَّه هو الَّذي يَنْبَغي أنْ يُعتقَدَ، وكأنَّه لا رِيبةَ عندَه في أنَّه الحقُّ[2]!

- والتقطُّعُ: الانقطاعُ الشَّديدُ، وأصلُه مُطاوِعُ (قطَّع) -بالتَّشديدِ- الذي هو مُضاعَفُ (قطَع) -بالتخفيف. واستُعمِلَ فِعلًا مُتعديًا بمعنى قَطَّع بقَصْدِ إفادةِ الشِّدَّةِ في حُصولِ الفِعلِ؛ فالمعنى: قطَّعوا أمْرَهم بيْنهم قِطعًا كثيرةً، أي: تفرَّقوا على نِحَلٍ كَثيرةٍ، فجَعَل كُلُّ فريقٍ منهم لنَفْسِه دِينًا[3]. وقيل: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم ﴾: فتفرَّقُوا في أمرِهم، على نَزْعِ الخافِضِ، ويجوز أن يكونَ ﴿ أَمۡرَهُم ﴾ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٦، ٥٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٦، ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٩٧) و(١٨/ ٧٢، ٧٣).

هذا نصبًا على التمييزِ عندَ الكوفيينَ المجوِّزينَ تعريفَ التمييزِ[١].

- قولُه: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ تَذييلٌ لِمَا قَبْلَه؛ لأنَّ التَّقطُّعَ يَقْتَضي التَّحزُّبَ؛ فذُيِّلَ بأنَّ كلَّ فَريقٍ منهم فَرِحٌ بدِينِه، ففي الكلامِ صِفَةٌ مَحذوفةٌ لـ﴿حِزْبٍ﴾، أي: كلُّ حِزْبٍ منهم؛ بدَلالةِ المَقامِ، أي: إنَّهم فَرِحونَ بدِينِهم عن غَيرِ دَليلٍ ولا تَبصُّرٍ، بل لمجرَّدِ العُكوفِ على المعتادِ، وذلك يُومِئُ إليه ﴿لَدَيْهِمْ﴾ المُقْتَضي أنَّه مُتقرِّرٌ بيْنهم مِن قَبْلُ، أي: بالدِّينِ الَّذي هو لَدَيْهم، فهم لا يَرْضَون على مَن خالَفَهم ويُعادُونَه، وذلك يُفْضِي إلى التَّفريقِ والتَّخاذُلِ بين الأُمَّةِ الواحدةِ، وهو خِلافُ مُرادِ اللهِ؛ ولذلك ذُيِّلَ به قولُه: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ انتِقالٌ بالكَلامِ إلى خِطابِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وضَميرُ الجَمْعِ ﴿فَذَرْهُمْ﴾ عائدٌ إلى مَعروفٍ مِن السِّياقِ، وهم مُشرِكو قُريشٍ[٣]. وفيه وَعيدٌ لهم بعَذابِ الدُّنيا والآخِرةِ، وتَسليةٌ لرَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ونَهْيٌ له عن الاستعجالِ بعَذابِهم، والجَزَعِ مِن تأْخيرِه[٤].

- وفي قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ شبَّهَ جَهْلَهم بغَمرةِ الماءِ إذا وقَعَ فيها الشَّخصُ، فلا يَدْرِي كيف يَتخلَّصُ منها، والجامِعُ: الوُقوعُ في وَرطةِ الهَلاكِ. أو هو تَمثيلٌ؛ شَبَّهَ حالَ هؤلاء مع ما هُم عليه مِن مُحاولَةِ الباطلِ

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٩).

والانغماسِ فيه، بحالِ مَن يَدخُلُ في الماءِ الغامِرِ لِلَّعَبِ، والجامِعُ: تَضييعُ السَّعيِ بَعْدَ الكَدْحِ في العَملِ[١].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ ...﴾ لِتَرتيبِ الأمْرِ بالتَّركِ على ما قبْلَه مِن كَونِهم فَرِحينَ بما لَدَيْهم؛ فإنَّ انْهِماكَهم فيما هُم فيه، وإصْرارَهم عليه: مِن مَخايلِ كَونِهم مَطبوعًا على قُلوبِهم، أي: اترُكْهُم على حالِهم[٢].

- وإضافةُ الغَمرةِ إلى ضَميرِهم باعتبارِ مُلازَمَتِها إيَّاهم حتَّى قد عُرِفَتْ بهم[٣].

- وفي تَنكيرِ وإبْهامِ ﴿حِينٍ﴾ ما لا يَخْفَى مِن التَّهويلِ[٤].

- والكَلامُ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ظاهِرُه المُتارَكةُ، والمَقصودُ منه: الإملاءُ لهم، وإنْذارُهم بما يَسْتقبِلُهم مِن سُوءِ العاقبةِ في وَقتٍ ما؛ ولذلك نُكِّرَ لَفظُ ﴿حِينٍ﴾ المَجعولُ غايةً لاستِدراجِهم، أي: زَمنٌ مُبْهَمٌ[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ وتَوبيخيٌّ على هذا الحُسبانِ[٦].

- وقولُه: ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ فيه تَقديمُ المالِ على البنينَ؛ لعَراقتِه فيما نِيطَ به من الزِّينةِ والإمدادِ وغيرِ ذلك، وعُمومِه بالنِّسبةِ إلى الأفرادِ والأوقاتِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٩٣، ٥٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٥).

فإنَّه زِينةٌ ومَمَدٌّ لكلِّ أحدٍ من الآباءِ والبنينَ في كلِّ وقتٍ وحينٍ، وأمَّا البَنونَ فزينتُهم وإمدادُهم إنَّما يكونُ بالنِّسبةِ إلى مَن بلَغَ مَبْلغَ الأُبوَّةِ، ولأنَّ المالَ مَناطٌ لِبَقاءِ النفْسِ، والبنينَ لبقاءِ النَّوعِ، ولأنَّ الحاجةَ إليه أمَسُّ مِن الحاجةِ إليهم، ولأنَّه أقدَمُ منهم في الوُجودِ، ولأنَّه زِينةٌ بدُونِهم مِن غيرِ عكسٍ؛ فإنَّ مَن له بَنونَ بلا مالٍ، فهو في ضِيقِ حالٍ ونَكالٍ[(١)].

٦- قوله تعالى: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (بَلْ) استِدْراكٌ لقولِه: ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾، يعني: بل هم أشباهُ البهائمِ، لا فِطْنةَ بهم ولا شُعورَ حتَّى يتأمَّلوا ويَتفكَّروا في ذلك: أهوَ استِدْراجٌ، أم مُسارَعةٌ في الخيرِ؟ وفيه تَهديدٌ ووَعيدٌ[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٥) و(٦/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٨).

الآيات (٥٧-٦٢)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

غَريبُ الكلماتِ:

﴿مُّشْفِقُونَ﴾: أي: خائِفونَ، حَذِرونَ، والإشفاقُ: عِنايةٌ مختلِطةٌ بخوفٍ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[1].

﴿وَجِلَةٌ﴾: أي: خائفةٌ، والوَجَلُ: استِشعارُ الخَوفِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ الَّذين همْ -لِخَشيَتِهم مِن رَبِّهم- حَذِرونَ خائِفونَ مِن عِقابِه، يُداوِمونَ على طاعتِه، والذين يُؤمِنونَ بآياتِه، والَّذين يُخْلِصونَ لِرَبِّهم في عِباداتِهم كلِّها؛ فلا يُشرِكونَ به شَيئًا، والذين يُعطونُ ما يُعطونَ مِنَ الزَّكواتِ والصَّدقاتِ وغيرِ ذلك، وقلوبُهم خائفةٌ مِن رُجوعِهم إلى ربِّهم، فيَخافونَ ألَّا يَتقَبَّلَ الله منهم أعمالَهم: أولئك يُبادِرونَ إلى فِعْلِ الخَيراتِ؛ تقرُّبًا إلى ربِّهم، وهم إلى هذه الخَيراتِ سابِقونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

ويخبرُ تعالى أنَّه لا يكَلِّفَ أحدًا إلَّا ما يُطِيقُه، وأنَّه لديه كتابٌ فيه جميعُ أعمالِ العبادِ، قد سجَّلَتها الملائكةُ الكِرامُ، فهو يُبيِّنُ بالصدقِ المطابقِ للواقعِ ما عمِلوه في الدنيا مِن خيرٍ أو شرٍّ، فيُجازيهم سبحانَه بأعمالِهم وهم لا يُظلمون.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَمَّ اللهُ تعالى مَن تقدَّمَ ذِكْرُه بقولِه: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦]، ثمَّ قال: ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾؛ بيَّنَ بَعدَه صِفاتِ مَن يُسارِعُ في الخَيراتِ، ويَشعُرُ بذلك[١].

وأيضًا لَمَّا فرَغَ اللهُ تعالى مِنْ ذِكْرِ الكَفرةِ وتوَعَّدَهم؛ عقَّبَ ذلك بذِكْرِ المُؤمِنينَ، ووَعَدَهم وذكَرَهم بأبلَغِ صِفاتِهم[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الَّذين جَمَعوا بيْنَ الإساءةِ والأمْنِ، الَّذين يَزْعُمون أنَّ عطاءَ اللهِ إيَّاهم في الدُّنيا دَليلٌ على خَيرِهم وفَضْلِهم؛ ذكَرَ الَّذين جَمَعوا بيْن الإحسانِ والخوفِ، فقال[٣]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧﴾.

أي: إنَّ الَّذينَ همْ -لِخَشيَتِهم مِن رَبِّهم- حَذِرونَ خائِفونَ مِن عِقابِه، يُداوِمونَ على طاعتِه، وطَلَبِ مَرضاتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٢)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۞ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ [المعارج: ٢٧- ٢٨].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨﴾.

أي: والَّذين همْ بآياتِ القُرآنِ وغَيرِها مِنَ الدَّلائِلِ والبَراهينِ والحُجَجِ يُؤمِنونَ[1].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩﴾.

أي: والَّذين يُخلِصونَ لِرَبِّهم في عِباداتِهم كلِّها؛ فلا يُشرِكونَ به شَيئًا[2].

= كثير)) (٥/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٠).

ممَّن قَصَر الآياتِ على القُرآنِ فقط: مقاتلُ بن سليمان، ومكِّي، واستظهره النيسابوري. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٥٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٩٧٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١٢٦).

وممَّن حمَلَها على الآياتِ الكونيَّةِ والمخلوقاتِ الدَّالَّةِ على وُجودِ الله: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٣).

وممَّن حمَلَها على العُمومِ، أي: الآياتِ الشَّرعيَّةِ والكونيَّةِ: ابنُ عطية، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٠).

قال ابن عطية: (و«الآياتُ» تعُمُّ القُرآنَ، وتعُمُّ العِبَرَ والمصنوعاتِ التي لله، وغيرَ ذلك ممَّا فيه نظَرٌ واعتبارٌ، وفي كُلِّ شَيءٍ له آيةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٧).

قال الشوكاني: (﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ قِيلَ: المرادُ بالآياتِ هي التَّنزيليَّةُ، وقِيلَ: هي التَّكوينيَّةُ، وقِيلَ: مجموعُهما). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لَا يُشۡرِكُونَ﴾ نفيُ الشركِ الجليِّ والخفيِّ: ابنُ جرير، والبيضاوي، والعليمي، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٠)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٩٣)، =

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أثبَتَ اللهُ تعالى لهمُ الإيمانَ الخالِصَ، نَفَى عنهم العُجْبَ بقولِه[1]:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾.

أي: والَّذين يُعطُونَ ما أعْطَوا مِن زَكَواتٍ وصَدَقاتٍ وغيرِ ذلك[2]، والحالُ

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

وقيل: إنَّ المرادَ به نفيُ الشركِ الأكبرِ. وممن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقندي، والواحدي، والرسعني، وابن عطية، وأبو حيان، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٠).

قال أبو حيان: (ثمَّ ذكَر نفيَ الإشراكِ، وهو عبادتُهم آلهتَهم التي هي الأصنامُ؛ إذ لكفارِ قريشٍ أن تقولَ: نحن نؤمِنُ بآياتِ رَبِّنا ونصَدِّقُ بأنَّه المخترعُ الخالقُ). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٩).

وقيل: إنَّ المرادَ به نفيُ الشركِ الخفيِّ. وممن اختاره: الرازيُّ، فقال: (قَوْلُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾... المرادُ منه نَفْيُ الشِّركِ الخفِيِّ، وهو أنْ يكونَ مخلصًا في العبادةِ لا يقدِمُ عليها إلَّا لوجهِ اللَّه تعالَى وطَلَبِ رِضوانِه. واللَّه أعلمُ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٥٩).

(٢) وممن اختار أنَّ قولَه: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ يتعلَّق بإعطاءِ الأموالِ: ابنُ جرير، والبغوي، والرازي، والرسعني، والخازن، وابنُ كثيرٍ، والعُليمي، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٧).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وابنُ عمر، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والضحَّاكُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧).

قال الرازي: (قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ معناه: يُعطون ما أعطَوا، فدخل فيه =

أنَّ قُلوبَهم خائِفةٌ مِن رُجوعِهم إلى ربِّهم، وبَعْثِهم يومَ القِيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ، فيَخافونَ ألَّا يُتقبَّلَ منهم[(١)].

= كلُّ حَقٍّ يلزمُ إيتاؤه، سواءٌ كان ذلك مِن حَقِّ الله تعالى: كالزكاةِ والكفَّارةِ وغيرِهما؛ أو مِن حقوقِ الآدميِّينَ: كالودائعِ والديونِ، وأصنافِ الإنصافِ والعدلِ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٣).

وقال ابن عاشور: (ومعنَى: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ يُعْطونَ الأموالَ صدَقاتٍ وصِلاتٍ ونَفَقاتٍ فِي سَبيلِ اللهِ. واستعمالُ الإيتاءِ في إعطاءِ المالِ شائعٌ في القرآنِ، مُتَعَيِّنٌ أنَّه المرادُ هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٧).

وممن اختار أنَّ المرادَ أعمالُ البرِّ كلُّها: الواحديُّ، واستحسنه ابنُ عطية، وهو اختيار البِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عائشةُ، وابنُ عباسٍ في روايةٍ، والحسنُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧).

قال ابن عطية: (وقَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ على قراءةِ الجُمهورِ: يُعطُونَ ما أعطَوا. وقال الطبري: يريدُ الزَّكاةَ المفروضةَ وسائِرَ الصَّدَقةِ. ورُوِيَ نحوُه عن ابنِ عُمَرَ ومجاهدٍ. وإنَّما ضَمَّهم إلى هذا التَّخصيصِ أنَّ العَطاءَ مُستعمَلٌ في المالِ على الأغلَبِ. قال ابنُ عبَّاسٍ وابنُ جُبيرٍ: هو عامٌّ في جميعِ أعمالِ البرِّ. وهذا أحسَنُ، كأنَّه قال: والذين يُعطُونَ مِن أنفُسِهم في طاعةِ الله ما بَلَغَه جُهدُهم... وذهبت فِرقةٌ إلى أنَّ معناه: مِن المعاصي، وذهَبَت فِرقةٌ إلى أنَّ ذلك في جميعِ الأعمالِ؛ طاعتِها ومَعصيتِها. وهذا أمدَحُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٧).

قال أبو السعود: (﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ حالٌ من فاعلِ يُؤتون... أي يُؤتون ما آتوه... والحالُ أنَّ قلوبهم خائفةٌ أشدَّ الخوفِ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٠).

وقال ابن عاشور: (وجملةُ ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ في موضعِ الحالِ، وحَقُّ الحالِ إذا جاءت بعد جُمَلٍ متعاطفةٍ أن تعودَ إلى جميعِ الجُمَلِ التي قبْلَها، أي: يفعلون ما ذُكِرَ من الأعمالِ الصَّالحةِ بقلوبِهم وجوارِحهم، وهم مُضمِرون وجَلًا وخوفًا من ربِّهم أن يرجِعوا إليه فلا يجدوه راضيًا عنهم، أو لا يجدوا ما يجِدُه غيرُهم ممَّن يفوتُهم في الصالحاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٧).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾.

أي: أولئك يُبادِرونَ ويُسابِقونَ في عمَلِ الطَّاعاتِ؛ تَقرُّبًا إلى اللهِ تعالى، ونَيلِ الدَّرَجاتِ(١).

﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾.

أي: وهم إلى الخَيراتِ سابِقونَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

قال ابنُ جُزَي: (فيه معنيانِ: أحدُهما: أنَّهم يُبادِرونَ إلى فِعلِ الطَّاعاتِ، والآخَرُ: أنَّهم يتعَجَّلونَ ثوابَ الخيراتِ، وهذا مُطابِقٌ للآيةِ المتقدِّمةِ؛ لأنَّه أثبَتَ فيهم ما نفى عن الكُفَّارِ مِن المُسارَعةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٨).

ممَّن اختار المعنى المذكور: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاج، والسمعاني، والبغوي، والخازن، وأبو حيان. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٣٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٠).

قال أبو حيان: (ومفعولُ ﴿سَٰبِقُونَ﴾ محذوفٌ، أي: سابِقونَ النَّاسَ، وتكونُ الجُملةُ تأكيدًا للتي قَبلَها مفيدةً تجَدُّدَ الفِعلِ بقولِه ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾، وثُبوتَه بقَولِه: ﴿سَٰبِقُونَ﴾). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٠).

وقيل: المعنى: ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ مِن أجْلِها. وممَّن اختاره: الأخفش، وابن الجوزي، والعُليمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٧٩).

قال ابن عطية: (وقالت فِرقةٌ: معناه: وهم مِن أجْلِها سابِقونَ، فالسَّابِقُ على هذا التَّأويلِ هو إلى رِضوانِ اللهِ تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٨). =

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه كَيفيَّةَ أعمالِ المُؤمِنينَ المُخلِصينَ؛ ذكَرَ حُكمينِ مِن أحكامِ أعْمالِ العِبادِ؛ الأوَّلُ: قولُه: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾، والثَّاني: قولُه:

= وقال ابنُ جرير: (وأَولى الأقوالِ في ذلك عندي بالصَّوابِ القَولُ الذي قاله ابنُ عبَّاسٍ من أنَّه سبَقَت لهم مِنَ الله السَّعادةُ قبل مُسارعتِهم في الخيراتِ، ولَمَّا سبَق لهم مِن ذلك سارَعوا فيها). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٢).

وقال ابنُ عطية: (وقال الطَّبري عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: المعنى: سَبَقت لهم السَّعادةُ في الأزَلِ، فهُم لها. ورجَّحَه الطَّبريُّ بأنَّ اللامَ مُتمَكِّنةٌ في المعنى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٨).

وقال السعدي: (﴿وَهُمْ لَهَا﴾ أي: للخيراتِ ﴿سَٰبِقُونَ﴾ قد بلَغوا ذِرْوتَها، وتبارَوا هم والرَّعيلُ الأوَّلُ، ومع هذا قد سبَقَت لهم مِنَ اللهِ سابقةُ السَّعادةِ؛ أنَّهم سابِقونَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

وقال الواحدي: (وقوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ قال أبو إسحاق [الزجَّاج]: فيه وجهان: أحدُهما: هم إليها سابقونَ. وهذا قولُ الفرَّاءِ، ومعنى قولِ ابنِ عباسٍ: ينافِسون فيها أمثالَهم مِن أهلِ البِرِّ والتقوى. وقال الكلبي: سبقوا الأممَ إلى الخيراتِ. وعلى هذا المعنى: هم إلى الخيراتِ سابقون غيرَهم؛ لإسراعِهم فيها، ومبادرتِهم إليها.

والوجهُ الآخَرُ: هم مِن أجلِها، أي: مِن أجلِ اكتسابِها، كما تقولُ: أنا أُكرِمُ فلانًا لك، أي: مِن أجلِك. والمعنى على هذا القولِ: وهم لأجلِ الخيراتِ سابقونَ غيرَهم، أي: إنما يسبِقون غيرَهم لأجلِ اكتسابِها. وذكر صاحب النظم [أبو عليٍّ الجرجاني] على هذا الوجهِ معنًى آخَرَ لقولِه: ﴿سَٰبِقُونَ﴾ فقال: تأويلُ الآيةِ: وهم مِن أجلِها، أي: مِن أجلِ مسارعتِهم في الخيراتِ سابقونَ يومَ القيامةِ إلى الجنَّةِ، يسبقونَ غيرَهم ممَّن لا يسارعُ في الخيراتِ، وعلى هذا الكنايةُ في ﴿لَهَا﴾ تعودُ إلى المسارعةِ، ودَلَّ عليها قولُه: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾، وعلى ما قال أبو إسحاقَ يعودُ إلى الخيراتِ). ((البسيط)) (١٦/ ١٢).

وقال الماوَرْدي: (﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ فيه وجهانِ: أحَدُهما: وهم بها سابِقونَ إلى الجنَّةِ. الثَّاني: وهم إلى فِعْلِها سابقون. وفيه وجهٌ ثالثٌ: وهم لِمَن تقَدَّمَهم مِن الأُمَمِ سابِقونَ. قاله الكلبي). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٥٩).

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[١].

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ مُسارَعةَ المُؤمِنينَ إلى الخَيراتِ، وسَبْقَهم إليها، رُبَّما وَهِمَ واهِمٌ أنَّ المطلوبَ منهم ومِن غَيرِهم أمْرٌ غيرُ مَقْدورٍ أو مُتَعَسِّرٌ؛ أخْبَر تعالى أنَّه لا يُكلِّفُ نفْسًا إلَّا وُسْعَها[٢].

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

أي: ولا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا ما تُطِيقُ حَمْلَه والقِيامَ به، مِن عِبادةِ اللهِ والعَمَلِ بشَرعِه[٣].

كما قال سُبحانَه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كانتِ الأعمالُ إذا تكاثَرَتْ وامتَدَّ زمَنُها، تعسَّرَ أو تعذَّرَ حَصْرُها إلَّا بالكتابةِ؛ عامَلَ العِبادَ سُبحانَه بما يَعرِفونَ مع غِناهُ عن ذلك[٤]، فقال:

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

قال البقاعي: (﴿وَلَا﴾ أي: والحالُ أنَّا لا نُكلِّفُهم، ولكنَّه عمَّ فقال: ﴿نُكَلِّفُ نَفْسًا﴾ أي: كافرةً ومؤمِنةً ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فلا يقدِرُ عاصٍ على أن يقولَ: كنتُ غيرَ قادرٍ على الطاعةِ، ولا يظنُّ بنا مؤمِنٌ أنَّا نؤاخِذُه بالزلَّةِ والهَفوةِ؛ فإنَّ أحدًا لا يستطيعُ أن يَقدُرَنا حقَّ قدْرِنا؛ لأنَّ مبنى المخلوقِ على العَجزِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦١).

أي: وعِندَنا كِتابٌ كتَبَتِ الملائِكةُ فيه جَميعَ أعْمالِ العِبادِ؛ فهو يُبَيِّنُ بالصِّدقِ الثَّابِتِ المُطابِقِ للواقِعِ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ، فنُجازِيهم بأعمالِهم، ولا نَظلِمُهم بعُقوبتِهم بما لم يَعمَلوا، أو بالزِّيادةِ في سَيِّئاتِهم، أو بالنَّقصِ مِن حَسَناتِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨- ٢٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- اللهُ سُبحانَه كما جعَلَ الرَّجاءَ لأهْلِ الأعمالِ الصَّالحةِ، فكذلك جعَلَ الخَوفَ لأهْلِ الأعمالِ الصَّالحةِ؛ فعُلِمَ أنَّ الرَّجاءَ والخوفَ النَّافِعَ: ما اقترَنَ به العمَلُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٦).

قيل: المرادُ بالكتابِ هنا: كتابُ أعمالِ الخَلقِ. وممن قال بذلك: ابنُ جَرير، وابنُ عطيَّة، وابنُ كثير، والشِّنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ بالكتابِ: اللَّوحُ المحفوظ. وممَّن ذهَب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحديُّ، والسَّمعانيُّ، وابنُ الجوزي، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

قال الشِّنقيطي: (الظاهِرُ: أنَّ معنى نُطقِ الكتابِ بالحَقِّ: أنَّ جميعَ المكتوبِ فيه حَقٌّ؛ فمَن قرأ المكتوبَ فيه كأنَّه لا يَنطِقُ في قراءتِه له إلا بالحَقِّ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٣٦). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٧٩).

وقال ابنُ عاشور: (يجوز أن يكون نُطقُ الكتابِ حقيقةً، بأن تكونَ الحروفُ المكتوبةُ فيه ذاتَ أصواتٍ، وقُدرةُ الله لا تُحَدُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٩).

رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[(١)].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾، فإذا تُلِيَت عليهم آياتُه زادَتْهم إيمانًا، ويَتفكَّرون أيضًا في الآياتِ القُرآنيَّةِ ويَتدبَّرونَها؛ فيَبِينُ لهم مِن مَعاني القُرآنِ وجَلالَتِه واتِّفاقِه، وعدَمِ اختلافِه وتَناقُضِه، وما يَدْعُو إليه مِن مَعرفةِ اللهِ وخَوفِه ورجائِه، وأحوالِ الجَزاءِ؛ فيَحْدُثُ لهم بذلك مِن تَفاصيلِ الإيمانِ ما لا يُعبِّرُ عنه اللِّسانُ، ويَتفكَّرونَ أيضًا في الآياتِ الأُفقيَّةِ، كما في قولِه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ... ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، إلى آخِرِ الآياتِ[(٢)].

٣- قَولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أي: مُشفِقةٌ قُلوبُهم؛ كلُّ ذلك مِن خَشيةِ ربِّهم؛ خَوفًا أنْ يضَعَ عليهم عَدْلَه، فلا يَبْقى لهم حَسنةٌ، وسُوءَ ظَنٍّ بأنفُسِهم ألَّا يَكُونوا قد قامُوا بحَقِّ اللهِ تَعالى، وخَوفًا على إيمانِهم مِنَ الزَّوالِ، ومَعرِفةً منهم برَبِّهم، وما يَستحِقُّه مِن الإجلالِ والإكرامِ، وخَوفُهم وإشْفاقُهم يُوجِبُ لهم الكفَّ عمَّا يُوجِبُ الأمْرَ المَخُوفَ مِنَ الذُّنوبِ، والتَّقصيرِ في الواجباتِ[(٣)].

٤- كان الحَسنُ يَقولُ: (إنَّ المؤْمِنَ جَمَع إحسانًا وشفَقةً، وإنَّ المُنافِقَ جَمَع إساءةً وأمْنًا)، ثمَّ تَلَا الحَسنُ: (﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾[المؤمنون: ٥٧] إلى: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. وقال المُنافِقُ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾ [القصص: ٧٨])[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٨).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي: في مَيدانِ التَّسارُعِ في أفْعالِ الخَيرِ، هَمُّهم ما يُقرِّبُهم إلى اللهِ، وإرادَتُهم مَصروفةٌ فيما يُنْجِي مِن عَذابِه؛ فكلُّ خَيرٍ سَمِعُوا به، أو سنَحَتْ لهم الفُرصةُ إليه؛ انْتَهَزوه وبادَرُوه، قد نظَروا إلى أولياءِ اللهِ وأصْفيائِه، أمامَهم، ويَمْنَةً ويَسْرةً، يُسارِعون في كلِّ خَيرٍ، ويُنافِسون في الزُّلفى عندَ ربِّهم، فنافَسُوهم[١].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ فيه الثَّناءُ على المُبادرينَ إلى امتثالِ أوامِرِ رَبِّهم[٢]، وهذا دَليلٌ على أنَّ المُبادَرةَ إلى الأعمالِ الصَّالحةِ؛ مِن صلاةٍ في أوَّلِ الوقتِ، وغَيرِ ذلكَ مِنَ العِباداتِ، هو الأفضلُ، ومدْحُ الباري أَدَلُّ دَليلٍ على صِفَةِ الفَضلِ في المَمدوحِ على غَيرِه، واللهُ أعلَمُ[٣].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ والإشفاقُ: الخوفُ، وقيلَ: الإشفاقُ هو الخشيةُ، فظاهِرُ ما في الآيةِ التَّكرارُ.

وأُجيبَ عن ذلك مِن عدَّةِ وجوهٍ:

منها: حملُ الخشيةِ على العذابِ، أي: مِن عذابِ ربِّهم خائِفونَ.

ومنها: حَملُ الإشفاقِ على ما هو أثَرٌ له، وهو الدَّوامُ على الطَّاعةِ، أي: الَّذينَ هم مِن خشيةِ ربِّهم دائِمونَ على طاعَتِه.

ومنها: أنَّ الإشفاقَ كمالُ الخوفِ؛ فلا تَكرارَ. وقيلَ: هو تَكرارٌ للتَّأكيدِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٧٨).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ إنَّما عُبِّرَ بـ﴿مَآ ءَاتَوا۟﴾ دُونَ (الصَّدقاتِ) أو (الأموالِ)؛ لِيَعُمَّ كلَّ أصنافِ العطاءِ المطلوبِ شَرعًا، ولِيَعُمَّ القليلَ والكثيرَ؛ فلعَلَّ بَعضَ المُؤمِنينَ ليس له مِن المالِ ما تَجِبُ فيه الزَّكاةُ وهو يُعْطي ممَّا يَكسِبُ[١].

٣- في قولِه تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بِشارةٌ للمُشفقينَ مِن خَشيةِ ربِّهم، والوَجِلةِ قُلوبُهم -مع صالِحِ أعمالِهم- مِنَ الرُّجوعِ إلى ربِّهم، وتَطْييبٌ لأنفُسِهم بألَّا يَرْهَبوا ظُلْمًا، وأنْ يَطْمَئِنُّوا إلى أنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُه لا يُطالِبُهم فَوقَ وُسْعِهم، وأنَّ وُسْعَهم في صالِحِ أعمالِهم قد أحصاهُ كِتابٌ يَنطِقُ لهم[٢].

٤- قال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ استدلَّ بعضُهم بهذه الآيةِ على أنَّ مَن كتَب إلى إنسانٍ كتابًا فقد كلَّمه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ مَن له المُسارَعةُ في الخَيراتِ، بَعْدَ إقْناطِ الكُفَّارِ عنها، وإبْطالِ حُسبانِهم الكاذبِ[٤].

- وافتِتاحُ الجُملةِ بـ(إنَّ) للاهتمامِ بالخبَرِ[٥].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾ للتَّعليلِ، والمعنى: أنَّهم لِخَشيةِ ربِّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٦، ٧٧).

يَخافونَ عِقابَه؛ فحُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿مُّشۡفِقُونَ﴾؛ لدَلالةِ السِّياقِ عليه[١]. وقِيلَ: (مِن) لِبَيانِ جِنْسِ الإشفاقِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: شِرْكًا جَلِيًّا ولا خَفِيًّا -على أحدِ القولينِ في التفسيرِ-؛ ولذلك أُخِّرَ عن الإيمانِ بالآياتِ. والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في المواقِعِ الثَّلاثةِ؛ للإشعارِ بعِلِّيَّتِها للإشفاقِ والإيمانِ وعَدَمِ الإشراكِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ صِيغةُ المُضارِعِ في الصِّلةِ الأُولى؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ، وصِيغَةُ الماضي في الصِّلةِ الثَّانيةِ؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[٤].

- والآياتُ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ فيها مُقابَلَةٌ حَسَنةٌ؛ فهذه الآياتُ مُقابِلُ ما تَضمَّنَتْه الغَمرةُ في قولِه: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ﴾ [المؤمنون: ٥٤]؛ مِن الإعراضِ عن عِبادةِ اللهِ وعنِ التَّصديقِ بآياتِه، ومِن إشراكِهم آلِهةً مع اللهِ، ومِن شُحِّهم عن الضُّعفاءِ، وإنْفاقِ مالِهم في اللَّذَّاتِ، ومِن تَكذيبِهم بالبَعثِ؛ كلُّ ذلك ممَّا شَمِلَتْه الغَمرةُ، فجِيءَ في مُقابِلِها بذِكْرِ أحوالِ المُؤمِنينَ ثناءً عليهم؛ ألَا تَرى إلى قولِه بَعدَ هذا: ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٠).

فكانتْ هذه الجُملةُ كالتَّفصيلِ لإجمالِ الغَمرةِ مع إفادةِ المُقابَلةِ بأحوالِ المُؤمِنينَ. واختِيرَ أنْ يكونَ التَّفصيلُ بذِكْرِ المُقابِلِ لِحُسنِ تلك الصِّفاتِ وقُبْحِ أضْدادِها؛ تَنزيهًا للذِّكرِ عن تَعدادِ رَذائلِهم، فحصَلَ بهذا إيجازٌ بَديعٌ، وطِباقٌ مِن أَلْطَفِ البديعِ، وصَونٌ للفَصاحةِ مِن كَراهةِ الوَصفِ الشَّنيعِ[١].

- والإتيانُ بالموصولاتِ (إِنَّ الَّذِينَ - وَالَّذِينَ هُمْ - وَالَّذِينَ هُمْ - وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ) في الآياتِ السَّابقةِ؛ للإشارةِ إلى وَجْهِ بناءِ الخبَرِ، وهو قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، وتَكريرُ أسماءِ المَوصولاتِ؛ للاهتمامِ بكلِّ صِلَةٍ مِن صِلاتِها، فلا تُذكَرُ تَبعًا بالعطفِ[٢]. وإيذانًا باستقلالِ كلِّ واحدةٍ مِن تلك الصِّفاتِ بفَضيلةٍ باهرةٍ على حِيالِها، وتَنزيلًا لاستِقلالِها مَنزِلةَ استِقلالِ المَوصوفِ بها[٣].

- وتَقديمُ المَجروراتِ الثَّلاثةِ -﴿مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم﴾، ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾- على عوامِلِها؛ لِرعايةِ الفواصلِ، مع الاهتمامِ بمَضمونِها[٤].

- وجاء تَرتيبُ هذه الصِّفاتِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ في نِهايةِ الحُسنِ؛ لأنَّ الأُولى دلَّتْ على حُصولِ الخَوفِ الشَّديدِ المُوجِبِ للاحترازِ، والثَّانيةَ على تَحصيلِ الإيمانِ باللهِ، والثَّالثةَ على تَرْكِ الرِّياءِ في الطَّاعةِ -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-، والرَّابعةَ على أنَّ المُستجمِعَ لهذه الصِّفاتِ الثَّلاثةِ يأْتي بالطَّاعاتِ مع خَوفٍ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٧٦، ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٧).

التَّقصيرِ، وهو نِهايةُ مَقاماتِ الصِّدِّيقينَ[١].

٤- قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ فيه افتِتاحُ الخَبرِ باسمِ الإشارةِ؛ لزِيادةِ تَمييزِهم للسَّامعينَ؛ لأنَّ مِثْلَهم أحْرِياءُ بأنْ يُعْرَفُوا[٢]، وإفادةِ أنَّ مَن قَبْلَه جَديرٌ بما بَعدَه؛ لاكْتِسابِه تلك الفضائلَ[٣]. وأيضًا التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإشعارِ ببُعْدِ رُتْبَتِهم في الفَضلِ[٤].

- وقولُه: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ أبلَغُ مِن (يُسرِعون)، وَجِهَةُ المُبالَغةِ: أنَّ المُفاعَلةَ تكونُ مِن اثنينِ، فتَقْتَضي حَثَّ النَّفْسِ على السَّبقِ؛ لأنَّ مَن عارضَكَ في شَيءٍ تَشْتَهي أنْ تَغلِبَه فيه[٥].

- وفي قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أثبَتَ لهم ما نُفِيَ عن أضْدادِهم، غيرَ أنَّه غيَّرَ الأُسلوبَ حيثُ لم يقُلْ: (أولئكَ نُسارِعُ لهم في الخَيراتِ)، بلْ أسنَدَ المُسارَعةَ إليهم؛ إيماءً إلى كَمالِ استِحقاقِهم لِنَيلِ الخَيراتِ بمَحاسِنِ أعمالِهم. وإيثارُ كَلِمةِ (في) على كَلمةِ (إلى)؛ للإيذانِ بأنَّهم مُتقلِّبونَ في فُنونِ الخَيراتِ، لا أنَّهم خارِجُون عنها، مُتوجِّهون إليها بطَريقِ المُسارَعةِ في قولِه تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣] الآيةَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٠).

- وجُملةُ: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ تأْكيدٌ للَّتي قبْلَها، مُفيدةٌ تَجدُّدَ الفِعْلِ بقولِه: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾، وثُبوتَه بقولِه: ﴿سَٰبِقُونَ﴾[1]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- والسَّبقُ في قولِه: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ تَمثيلٌ للتَّنافُسِ والتَّفاوُتِ في الإكثارِ مِن الخَيراتِ -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-، وتَقديمُ المَجرورِ ﴿لَهَا﴾؛ للاهتِمامِ، ولرِعايةِ الفاصِلةِ[2].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ تَذييلٌ لِمَا تقدَّمَ مِن أحوالِ الَّذين مِن خَشيةِ ربِّهم مُشفِقونَ؛ لأنَّه لمَّا ذكَرَ ما اقْتَضى مُخالَفةَ المُشرِكينَ لِمَا أُمِرُوا به مِن تَوحيدِ الدِّينِ، وذكَرَ بَعدَه ما دَلَّ على تَقْوى المُؤمِنينَ بالخَشيةِ وصِحَّةِ الإيمانِ، والبَذلِ، ومُسارعَتِهم في الخيراتِ: ذَيَّلَ ذلك بأنَّ اللهَ ما طلَبَ مِن الَّذين تَقطَّعوا أمْرَهم إلَّا تكليفًا لا يَشُقُّ عليهم، وبأنَّ اللهَ عذَرَ مِن المُؤمِنينَ مَن لم يَبلُغوا مَبلَغَ مَن يَفوتُهم في الأعمالِ، عُذْرًا يَقْتضي اعتبارَ أجْرِهم على ما فاتَهم إذا بذَلُوا غايةَ وُسْعِهم؛ فقولُه: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ خبَرٌ مُرادٌ منه لازِمُه، وهو تَسجيلُ التَّقصيرِ على الَّذين تقطَّعُوا أمْرَهم بَيْنهم، وقَطْعُ مَعذِرَتِهم، وتَيسيرُ الاعتذارِ على الَّذين هم مِن خَشيةِ ربِّهم مُشفِقونَ، كقولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، مع ما في ذلك مِن جَبرِ الخواطرِ المُنكسِرةِ مِن أهْلِ الإيمانِ الَّذين لم يَلْحَقوا غيرَهم لِعَجزٍ أو خَصاصةٍ، ولمُراعاةِ هذا المعنى عُطِفَ قولُه: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾، وهو معنَى إحاطةِ العِلْمِ بأحوالِهم ونيَّاتِهم؛ فالكِتابُ هنا هو الأمْرُ الَّذي فيه تَسجيلُ الأعمالِ مِن حَسناتٍ وسيِّئاتٍ، وإطلاقُ الكتابِ عليه لإحاطَتِه. وفي قولِه: (لَدَيْنَا) دَلالةٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٨).

أنَّ ذلك مَحفوظٌ، لا يَستطيعُ أحَدٌ تَغييرَه بزِيادةٍ ولا نُقصانٍ[١]. وقيل: على أنَّ معنى الآيةِ: هذا الَّذي وُصِفَ به المُؤمِنون غيرُ خارِجٍ مِن حَدِّ الوُسعِ والطَّاقةِ، وكذلك كلُّ ما كلَّفَه عِبادَه وما عمِلُوه مِن الأعمالِ، فغَيرُ ضائعٍ عندَه؛ فالجُملةُ تَذييلٌ للآياتِ السَّابقةِ، وتأْكيدٌ لمَضمونِها. وعلى أنَّ معنى الآيةِ: إنَّ اللهَ لا يُكلِّفُ إلَّا الوُسْعَ، فإنْ لم يَبلُغِ المُكلَّفُ أنْ يكونَ على صِفَةِ هؤلاء السَّابقينَ بَعدَ أنْ يَستفرِغَ وُسْعَه ويَبذُلَ طاقتَهُ: فلا عليه، ولَدَيْنا كِتابٌ فيه عمَلُ السَّابقِ والمُقتصِدِ؛ فهو استِطرادٌ وبَيانٌ لحُكمِ غيرِ المذكورينَ مِن المُقتصدينَ[٢].

- وقيل: إنَّ جُملةَ: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ مُستأْنفةٌ؛ سِيقَتْ للتَّحريضِ على ما وُصِفَ به السَّابِقون مِن فِعْلِ الطَّاعاتِ المُؤدِّي إلى نَيلِ الخَيراتِ، ببَيانِ سُهولَتِه، وكَونِه غيرَ خارِجٍ عن حَدِّ الوُسعِ والطَّاقةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بَيانٌ لفَضلِه تعالى وعَدلِه في الجزاءِ، بَعدَ بَيانِ لُطفِه في التَّكليفِ. وقيل: تَقريرٌ لِمَا قَبلَه مِن التَّكليفِ وكَتْبِ الأعمالِ، أي: لا يُظْلَمون بتَكليفِ ما ليس في وُسْعِهم، ولا بَعدمِ كَتْبِ بَعضِ أعمالِهم[٤]. وقيل: يَجوزُ أنْ يكونَ مَسوقًا لمُؤاخَذةِ المُفرِّطينَ والمُعرِضينَ، فيَكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى ما عاد إليه ضَميرُ ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم﴾ [المؤمنون: ٥٣] وأشباهُهُ مِن الضَّمائرِ، والاعتمادُ على قَرينةِ السِّياقِ، وقولُه: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣] وما بَعدَهُ مِن الضَّمائرِ، والظُّلمُ على هذا الوَجهِ مَحمولٌ على ظاهِرِه، وهو حِرمانُ الحقِّ والاعتداءُ. ويَجوزُ أنْ يكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٨، ٧٩).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الضَّميرُ عائدًا إلى عُمومِ الأنفُسِ في قولِه: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ فيَكونَ قولُه: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ مِن بَقِيَّةِ التَّذييلِ، والظُّلمُ على هذا الوَجهِ مُستعمَلٌ في النَّقصِ مِن الحقِّ؛ فيكونُ وَعيدًا لفَريقٍ، ووَعدًا لفَريقٍ. وهذا أَلْيقُ الوَجهينِ بالإعجازِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٩، ٨٠).

الآيات (٦٢-٦٧)

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

غَريبُ الكلماتِ:

﴿مُتْرَفِيهِم﴾: المُتْرفونَ: الأغنياءُ والرُّؤساءُ، أو المُنَعَّمُونَ في الدُّنْيا، والمُتقلِّبون فِي لِينِ العَيْشِ، الذين قد أبطَرَتْهم النِّعمةُ وسَعَةُ العَيشِ، والتُّرْفَةُ: التوسُّعُ في النِّعمةِ، وأصْلُ (ترف): التَّنعُّمُ[(١)].

﴿يَجْأَرُونَ﴾: أي: يَضِجُّون (يَصيحونَ)، ويَستَغيثونَ باللهِ، ويَرْفعونَ أصْواتَهم بالدُّعاءِ، وجأَر: إذا أفرَطَ في الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ، والجؤَارُ هو الصَّوتُ[(٢)].

﴿تَنكِصُونَ﴾: أي: تَرْجِعون عنِ الإيمانِ، وتَرْجِعون القَهْقَرَى، أو تُعرِضون مُدْبرينَ، أو تَستأْخِرونَ، والنُّكوصُ: الإِحْجامُ عنِ الشَّيءِ، وعادةً ما يكونُ عن الخيرِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨)، ((الكليات)) =

﴿سَٰمِرًا﴾: أي: سُمَّارًا، وهم الجماعةُ يتحدَّثونَ باللَّيلِ، والسَّمرُ: الحديثُ باللَّيْلِ، مأخوذٌ مِنَ السَّمَرِ، وهو ظِلُّ القمرِ، ومنه سُمْرَةُ اللَّونِ، وأصْلُ (سمر): يدُلُّ على خِلافِ البَياضِ في اللَّونِ[١].

﴿تَهۡجُرُونَ﴾: أي: تُعرِضونَ؛ مِنَ الهَجْرِ، وهو التَّرْكُ والإعراضُ، وأصلُه: يدُلُّ على قَطيعةٍ وقَطْعٍ، أو تَهْذُونَ؛ مِنَ الهَجْرِ، وهو الهَذَيانُ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهۡجُرُونَ﴾

﴿سَٰمِرًا﴾ مَنصوبٌ على الحالِ؛ إمَّا مِنْ فاعلِ ﴿تَنكِصُونَ﴾، وإمَّا مِنَ الضَّميرِ في ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾، والسَّامِرُ يقَعُ على ما فوقَ الواحِدِ بلَفظِ الإفرادِ، تقولُ: قَومٌ سامِرٌ. وجُملةُ: ﴿تَهۡجُرُونَ﴾ في مَحَلِّ نَصبٍ، حالٌ مِن فاعلِ ﴿تَنكِصُونَ﴾، أو مِنَ الضَّميرِ في ﴿سَٰمِرًا﴾؛ لأنَّه بمعنى الجَماعةِ؛ فهو اسمٌ لجَمعِ السَّامرينَ، أي: المُتحَدِّثينَ في سَمَرِ اللَّيلِ، وهو ظُلمَتُه؛ فالسَّامِرُ كالحاجِّ والحاضِرِ والجامِلِ، بمعنى: الحُجَّاجِ والحاضرينَ وجَماعةِ الجِمالِ[٣].

= للكفوي (ص: ٣١٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٤٧٥)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٥٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٨/ ١٩١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن الكافِرينَ أنَّ قُلوبَهم في جَهالةٍ وغَفلةٍ عنِ القُرآنِ الكريمِ، وأنَّ لهم أعمالًا سيِّئةً كثيرةً دونَ أعمالِ المُؤمِنينَ الصَّالحةِ التي ذكرها اللهُ هم مُستَمِرُّونَ عليها، يُمهِلُهم اللهُ سبحانَه حتَّى يَعمَلوها قبْلَ مَوتِهم؛ فيَحِقَّ عليهمُ العَذابُ.

حتَّى إذا عاقَبَ اللهُ هؤلاء المُترَفينَ -الَّذين أبطَرَتْهمُ النِّعمةُ- بالعذابِ الَّذي يُذِلُّهم، إذا هم يَصْرُخونَ ويَستَغيثونَ، فيُقالُ لهم: لا تَصرُخوا وتَستَغيثوا -أيُّها الكافِرونَ-؛ فلا فائِدةَ مِن هذا الصُّراخِ، ولنْ يُخلِّصَكم مِنَّا أحَدٌ؛ قد كانتْ الآياتُ تُتلَى عليكم، فكُنتُم تُعرِضونَ عنها، حالَ كونِكم مستكبرينَ بسببِ البيتِ الحرامِ، -تقولونَ: لا يَظهَرُ علينا أحدٌ؛ لأنَّا أهلُ الحَرمِ-، متحدِّثينَ ليلًا تَهْذونَ في شأنِ القرآنِ، وتقولونَ فيه الباطلَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

هذا رجوعٌ لأحوالِ الكفارِ المحكيَّةِ فيما سبَق بقولِه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم ...﴾، والجُمَلُ التي بيْنَهما -وهي قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾ إلى قولِه: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾- اعتراضٌ في خلالِ الكلامِ المتعلِّقِ بالكفَّارِ[1].

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

أي: بلْ[2] قُلوبُ المُشرِكينَ في عَمايةٍ وغَفلةٍ عنِ القُرآنِ؛ فهُم لا يُؤمِنونَ به،

---

(١) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٣/ ٢٠٩).

(٢) قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ما الأمرُ كما يحسَبُ هؤلاء المُشرِكونَ مِن أنَّ إمدادَناهم =

ولا يَتدبَّرونَه[١].

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾.

أي: وللمُشرِكينَ أعمالٌ سَيِّئةٌ رَديئةٌ دونَ أعمالِ المُؤمِنينَ الصَّالحةِ التي ذكرها الله، يُمهِلُهم اللهُ سبحانَه حتَّى يَعمَلوها قبْلَ مَوتِهم؛ فيَحِقَّ عليهمُ العَذابُ[٢].

= بما نُمِدُّهم به مِن مالٍ وبنينَ، بخيرٍ نَسوقُه بذلك إليهم، ورضًا منَّا عنهم؛ لكنَّ قلوبَهم في عَمًى عن هذا القرآنِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

وقيل: (هذه الآياتُ مِن صفاتِ المُشفقينَ، كأنَّه سبحانَه قال بعدَ وصفِهم: ولا نكلِّفُ نفْسًا إلَّا وُسْعَها، ونهايتُه ما أتَى به هؤلاء المشفقونَ، ولدينا كتابٌ يحفظُ أعمالَهم ينطقُ بالحقِّ، وهم لا يُظلمونَ، بل نوفرُ عليهم ثوابَ كلِّ أعمالِهم. ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ هو أيضًا وصفٌ لهم بالحيرةِ، كأنَّه قال: وهم مع ذلك الوجلِ والخوفِ كالمتحيِّرينَ في جعْلِ أعمالِهم مقبولةً أو مردودةً، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: لهم أيضًا مِن النوافلِ ووجوهِ البرِّ سِوى ما هم عليه، إمَّا أعمالًا قد عمِلوها في الماضي، أو سيَعمَلونها في المستقبَلِ، ثمَّ إنَّه سبحانَه رجَع بقولِه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ إلى وصفِ الكفَّارِ). ونسَب الرَّازي هذا القولَ لأبي مسلمٍ، واختاره. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٤، ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: أنَّ لهؤلاء الكُفَّارِ أعمالًا لا يرضاها اللهُ مِن المعاصي مِن دونِ أعمالِ المؤمِنينَ التي ذكَرَها اللهُ سُبحانَه لا بُدَّ لهم مِن أن يَعمَلوها فيَدخُلوا بها النَّارَ: ابنُ جرير، والثعلبي، والواحدي، والبغوي -ونسبه لأكثرِ المفَسِّرينَ-، والنَّسَفيُّ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٧٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٥١).

قال الواحدي: (﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ إجماعُ المفسِّرينَ وأصحابِ المعاني على أنَّ هذا إخبارٌ =

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((فوالَّذي لا إلهَ غَيرُه، إنَّ أحَدَكم لَيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجَنَّةِ، حتَّى ما يكونُ بَيْنَه وبيْنَها إلَّا ذِراعٌ، فيَسبِقُ عليه الكِتابُ، فيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ النَّارِ، فيَدخُلُها. وإنَّ أحَدَكم لَيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ النَّارِ، حتَّى ما يكونُ بيْنَه وبيْنَها إلَّا ذِراعٌ، فيَسبِقُ عليه

= عمَّا سيعملونَه مِن أعمالِهم الخبيثةِ التي كُتِبَت عليهم، لا بدَّ لهم أن يَعمَلوها). ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٤).

وقال الشوكاني: (فالإشارةُ بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إمَّا إلى أعمالِ المؤمنينَ، أو إلى أعمالِ الكُفَّارِ، أي: لهم أعمالٌ مِن دُونِ أعمالِ المؤمنينَ التي ذَكَرَها اللهُ، أو مِنْ دونِ أعمالِ الكُفَّارِ التي تَقَدَّم ذِكرُها مِن كَونِ قُلوبِهم في غَفلةٍ عظيمةٍ مِمَّا ذُكِر، وهي فُنونُ كُفرِهم ومَعاصِيهم التي مِن جُملتِها ما سيأتي مِن طَعنِهم في القُرآنِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٧٩).

وقال السمعاني: (وقال قتادةُ: الآيةُ تَنصَرِفُ إلى أصحابِ الطَّاعاتِ، ومعناه: أنَّ المؤمنينَ لهم أعمالٌ سِوى ما عَمِلوا مِن الخيرِ ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨١).

وقال ابن الجوزي: (قَولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ فيه أربعةُ أقوالٍ: أحدُها: أعمالٌ سَيِّئةٌ دونَ الشِّركِ. رواه عِكرمةُ عن ابنِ عبَّاسٍ. والثَّاني: خطايا مِن دونِ ذلك الحَقِّ. قاله مجاهِدٌ. وقال ابنُ جريرٍ: مِن دونِ أعمالِ المؤمِنينَ وأهلِ التَّقوى والخَشيةِ. والثَّالثُ: أعمالٌ غيرُ الأعمالِ التي ذُكِروا بها سيَعمَلونَها. قاله الزَّجَّاجُ. والرَّابعُ: أعمالٌ -مِن قَبْلِ الحِينِ الذي قدَّرَ الله تعالى أنَّه يُعَذِّبهم عند مجيئِه- مِن المعاصي. قاله أبو سليمان الدمشقي). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٦). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٨).

وقال ابن جُزَي: (﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: لهم أعمالٌ سَيِّئةٌ دونَ الغَمرةِ التي هم فيها، فالمعنى: أنَّهم يَجمَعونَ بينَ الكُفرِ وسُوءِ الأعمالِ، والإشارةُ بذلك على هذا إلى الغَمرةِ، وإنَّما أشار إليها بالتَّأكيدِ؛ لأنَّها في معنى الكُفرِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقال آخرونَ: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: قد كُتِبَ عليهم أعمالٌ سَيِّئةٌ لا بُدَّ أن يَعمَلوها قبْلَ موتِهم لا محالةَ؛ لِتَحِقَّ عليهم كَلِمةُ العذابِ. ورُوِيَ نَحوُ هذا عن مُقاتِلِ بنِ حيَّان، والسُّدِّيِّ، وعبدِ الرَّحمنِ بنِ زيدِ بنِ أسلمَ. وهو ظاهرٌ قَويٌّ حَسَنٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٢).

وقال ابنُ جُزي: (﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ قيل: هي إخبارٌ عن أعمالِهم في الحالِ. وقيل: عن الاستِقبالِ. وقيل: المعنى أنَّهم يتمادَونَ على عَمَلِها حتى يأخُذَهم اللهُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣).

الكِتابُ، فيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ، فيَدخُلُها))[١].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤ ﴾.

أي: فإذا عذَّبَ اللهُ عُظَماءَ المُشرِكينَ المُنعَّمينَ، أخَذوا يَصرُخونَ ويَستَغيثونَ مِن شِدَّةِ عَذابِهم، طالِبينَ الخَلاصَ ممَّا أصابَهم[٢].

﴿ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ٦٥ ﴾.

أي: لا تَضِجُّوا وتَستَغيثوا -أيُّها الكافِرونَ-؛ فلا شَيءَ يُخلِّصُكم مِن عذابي، ولا يَنفَعُكم صُراخُكم[٣].

﴿ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّ المُترفينَ مِنَ الكُفَّارِ إذا أخَذَهُم ربُّهم بالعذابِ، ضَجُّوا

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٧).

قال ابنُ الجوزي: (قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم ﴾ أي: أغنياءَهم ورؤساءَهم، والإشارةُ إلى قريشٍ. وفي المرادِ ﴿بِٱلۡعَذَابِ ﴾ قولانِ: أحدُهما: ضربُ السيوفِ يومَ بدرٍ. قاله ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ. والثاني: الجوعُ الذي عُذِّبوا به سبعَ سنينَ. قاله ابنُ السَّائبِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٦).

ممن اختار أنَّ المرادَ ﴿بِٱلۡعَذَابِ ﴾: القتلُ يومَ بدرٍ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن أبي زمنين، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٢).

وصاحُوا واستغاثُوا، وبيَّنَ أنَّهم لا يُغاثُونَ؛ بيَّنَ سبَبَ ذلك[١]، وهو أنَّه متى تُلِيَتْ آياتُ اللهِ عليهم أتَوْا بأُمورٍ ثلاثةٍ: أحدِها: أنَّهم كانوا على أعقابِهم يَنكِصُون، وهذا مَثَلٌ يُضرَبُ فيمَنْ تَباعَد عن الحقِّ كلَّ التَّباعُدِ، وثانِيها: قولُه: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾، وثالِثها: يَسْمُرونَ بذِكْرِ القُرآنِ وبالطَّعنِ فيه[٢].

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: قد كانت آياتُ القُرآنِ تُقرَأُ عليكم؛ لِتُؤمِنوا بها قبْلَ أنْ يَحُلَّ بكمُ العَذابُ، فكنتُم تُكذِّبونَ بها، وتَرجِعونَ مُعرِضينَ عنها[٣].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٨).

مِمن فَسَّر الرجوعَ بمعناه الحقيقي: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٩)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٩٨٢).

قال ابن جرير: (ترجِعونَ مولِّينَ عنها إذا سَمِعتُموها؛ كراهيةً منكم لسَماعِها). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٩).

وقيل: هو رجوعٌ معنويٌّ، بمعنَى التأخُّرِ عن الإيمان، والإعراضِ عن الحقِّ. وممَّن اختار هذا المعنَى في الجملةِ: مقاتلُ بن سليمان، وابن أبي زمنين، والواحدي، وابن عطية، والقرطبي، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥).

قال السعدي: (﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي: راجعينَ القَهقرى إلى الخلفِ؛ وذلك لأنَّ باتِّباعِهم القرآنَ يتقدَّمونَ، وبالإعراضِ عنه يستأخِرونَ ويَنزِلونَ إلى أسفَلِ سافِلينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥).

قال البقاعي: (﴿فَكُنتُمْ﴾ أي: كونًا هو كالجبِلَّةِ ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ عند تلاوتِها ﴿تَنكِصُونَ﴾ أي: تَرجِعونَ القَهقَرى، إمَّا حِسًّا أو معنًى). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٦٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ٦٧﴾.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾.

أي: والحالُ أنَّكم مُستَكبِرونَ بسببِ البيتِ الحرامِ، تقولونَ: لا يَظهَرُ علينا أحدٌ؛ لأنَّا أهلُ الحرمِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٨٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥).

قال الرسعني: (والضميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ كنايةٌ عن البيتِ الحرامِ شرَّفه الله تعالى في قولِ عامَّةِ المفسِّرينَ، وكانوا يفتخِرون به، ويقولونَ: نحن أهلُ الحرمِ، وجوارُ الله تعالى وسَدَنَةُ بيتِه، فلا يظهرُ علينا أحدٌ؛ فيكون كنايةً عن غيرِ مذكورٍ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٣٧).

وقال القرطبيُّ: (الضميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ قال الجمهورُ: هو عائِدٌ على الحَرَمِ، أو المسجِدِ، أو البلد الذي هو مكَّةُ، وإن لم يتقدَّم له ذِكرٌ؛ لشهرتِه في الأمرِ، أي: يقولون: نحن أهلُ الحَرَمِ فلا نخافُ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٦).

وقال ابنُ عطية: (وقالت فرقةٌ: الضميرُ عائدٌ على القرآنِ مِن حيثُ ذُكِرت الآياتُ، والمعنَى يُحدِثُ لكم سماعُ آياتي كِبْرًا وطغيانًا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٩).

وقال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ في تفسيرِه قولانِ:

أحدُهما: أنَّ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حالٌ منهم حين نكوصِهم عن الحقِّ وإبائهم إيَّاه؛ استكبارًا عليه، واحتقارًا له ولأهلِه، فعلى هذا الضميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدُهما: أنَّه الحرمُ بمكَّةَ، ذُمُّوا لأنَّهم كانوا يَسمُرون بالهُجرِ من الكلامِ. والثاني: أنه ضميرُ القرآن، كانوا يسمُرون ويذكُرون القرآنَ بالهُجرِ من الكلام: «إنَّه سِحر، إنه شِعر، إنه كِهانة» إلى غيرِ ذلك من الأقوالِ الباطلةِ. والثالث: أنَّه محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، كانوا يذكرونَه في سَمَرهم بالأقوال الفاسدةِ، ويضرِبون له الأمثالَ الباطلةَ؛ مِن أنَّه شاعر أو كاهِنٌ أو ساحرٌ، أو كذَّابٌ أو مجنونٌ. وكلُّ ذلك باطِلٌ، بل هو عبدُ اللهِ ورسولُه، الذي أظهره اللهُ عليهم، وأخرجهم من الحرَمِ صاغرين أذِلَّاءَ. وقيل: المرادُ بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: بالبيتِ، يفتخرون به ويعتَقِدون أنَّهم أولياؤُه، =

﴿سَٰمِرًا تَهۡجُرُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿تَهۡجُرُونَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿تُهْجِرُونَ﴾ بضُمِّ التَّاءِ وكَسرِ الجِيمِ، أي: تُفْحِشُونَ، فكان الكفَّارُ إذا سمِعوا قِراءَة رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم تكلَّموا بالهُجْرِ وهو الفُحشُ، وسبُّوا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلمَّ[(١)]!

٢- قِراءةُ ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بفَتحِ التَّاءِ وضَمِّ الجِيمِ، مِن الهَجْرِ بالفتحِ، إمَّا بمعنَى القطيعةِ أو الهذيانِ، أي: تُعرِضونَ عن القرآنِ، أو تهذونَ في شأنِه، مِن قولِك: هجرَ المريضُ، إذا هذَى، أي: تقولون اللغوَ مِن القولِ. وقيل: مِن الهُجْرِ بالضمِّ، أي: الفُحْشِ[(٢)]، فيرجعُ إلى معنى القراءةِ الأُولى.

﴿سَٰمِرًا تَهۡجُرُونَ﴾.

أي: حالَ كونِكم متحدِّثينَ ليلًا، تَهْذونَ في شأنِ القرآنِ، وتَقولونَ فيه ما لا معنَى له مِن القولِ؛ مِن الباطلِ الذي لا يضرُّه[(٣)].

= وليسوا بهم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٢).

(١) قرأ بها نافع. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٨٩).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٢)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٥٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٧)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٨١). =

كما قال سُبحانَه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا * وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان: ٤ - ٥].

وقال تَبارَكَ وتَعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١ - قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴾ جعَل تعالى الأخْذَ واقعًا على المترفينَ منهم؛ لأنَّهم الذين أضلُّوا عامَّةَ قَومِهم، والعامَّةُ أقرَبُ إلى الإنصافِ إذا فَهِموا الحقَّ؛ بسببِ سلامتِهم مِن جُلِّ دواعي المكابرةِ: مِن توقُّعِ تقلُّصِ سُؤددٍ، وزوالِ نعيمٍ. وكذلك حقٌّ على قادةِ الأُممِ أنْ يُؤاخَذوا

= قال الواحدي: (الأكثرونَ على أنَّ السامرَ هاهنا: اسمٌ للجماعةِ الذين يسمرونَ. وهو معنَى قولِ ابنِ عبَّاسٍ، وأكثرِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٦/ ٢٦).

قال القرطبيُّ: (مِنْ «هَجَرَ المريضُ»: إذا هذَى، معناه: يتكلَّمونَ بهَوَسٍ وسَيئٍ مِنَ القَولِ في النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفي القرآنِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٧).

والمعنى الثاني على قراءةِ ﴿تَهۡجُرُونَ﴾: أي تُعرِضون عن القرآنِ، أو البيتِ، أو رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٢).

وقال ابنُ عاشور: (أي: في حالِ كَونِكم مُتحَدِّثينَ هجْرًا، وكان كبراءُ قُرَيشٍ يَسمُرون حَولَ الكعبةِ يتحَدَّثونَ بالطَّعنِ في الدِّينِ، وتكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٦).

وقال البقاعي: (﴿تَهۡجُرُونَ﴾ أي: تُعرضون عنها [أي: الآياتِ]، وتقولونَ فيها القولَ الفاحشَ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٦٤).

بالتبعاتِ اللاحقةِ للعامَّةِ مِن جرَّاءِ أخطائِهم ومُغامرتِهم عن تضليلٍ أو سُوءِ تَدبُّرٍ، وأن يُسألوا عن الخَيبةِ أنْ أَلْقَوا بالذين اتَّبعوهم في مهواةِ الخَطرِ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨]، ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[(١)] [النحل: ٢٥].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ لعلَّه إنَّما قال: ﴿سَامِرًا﴾ بلَفْظِ المُفرَدِ؛ لأنَّ كلًّا منهم يَتحدَّثُ في أمْرِ الآياتِ مُجتمِعًا مع غَيرِه، ومُنفرِدًا مع نفْسِه حَديثًا كثيرًا، كحديثِ المُسامِرِ الَّذي مِن شأْنِه ألَّا يُمَلَّ، وقال: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ أي: تُعرِضونَ عنها، وتقولونَ فيها القولَ الفاحِشَ، فأسنَدَه إلى الجمْعِ؛ لأنَّ بَعضَهم كان يَستمِعُها ولم يكُنْ يُفحِشُ القولَ فيها، أو تَعجيبًا مِن أنْ يَجتمِعَ جمْعٌ على مِثْلِ ذلك؛ لأنَّ الجمْعَ جَديرٌ بأنْ يُوجَدَ فيه مَن يُبصِرُ الحَقَّ، فيأمُرُ به[(٢)].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ الآيةُ تدُلُّ على أنَّ السَّمرَ إنَّما يُكرَهُ في غَيرِ الخيرِ؛ لأنَّ (الهُجْرَ) هو القولُ الفاحِشُ[(٣)]. على قَولٍ في التَّفسيرِ.

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ فيه تأْييسٌ لهم مِن النَّجاةِ مِن العَذابِ الَّذي هُدِّدُوا به[(٤)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٧). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٤، ٨٥).

- قولُه: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ إضْرابُ انتقالٍ إلى ما هو أغرَبُ ممَّا سبَقَ، وهو وَصْفُ غَمرةٍ أُخرى انغمَسَ فيها المُشرِكون[١].

- قولُه: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ اللَّامُ في قولِه: (لَهُمْ أَعْمَالٌ) للاختصاصِ. وتَقديمُ المَجْرورِ بها على المُبتدأِ ﴿أَعْمَالٌ﴾؛ لقَصْرِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ، أي: لهم أعمالٌ لا يَعمَلون غيرَها مِن أعمالِ الإيمانِ والخَيراتِ. ويجوزُ أنْ يكونَ تَقديمُ ﴿لَهَا﴾ على ﴿عَامِلُونَ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ لقَصرِ القلْبِ[٢]، أي: لا يَعمَلون غيرَها مِن الأعمالِ الصَّالحةِ الَّتي دُعُوا إليها. ويجوزُ أنْ يكونَ للرِّعايةِ على الفاصلةِ؛ لأنَّ القَصرَ قد أُفِيدَ بتَقديمِ المُسنَدِ إليه[٣].

- ووَصْفُ ﴿أَعْمَالٌ﴾ بجُملةِ ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مُستمِرُّونَ عليها لا يُقلِعون عنها؛ لأنَّهم ضُرُّوا بها لكَثرةِ انغماسِهم فيها. وجِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ لإفادةِ الدَّوامِ على تلك الأعمالِ وثَباتِهم عليها[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ ...﴾ في تَخصيصِ المُترفينَ بالتَّعذيبِ -مع أنَّ شأْنَ العَذابِ الإلهيِّ إنْ كان دُنْيويًّا أنْ يعُمَّ النَّاسَ كلَّهم-: إشارةٌ إلى أنَّ المُتْرفينَ هم سبَبُ نُزولِ العذابِ بالعامَّةِ، ولولا نُفوذُ كَلِمتِهم على قَومِهم لاتَّبعَتِ الدَّهماءُ الحقَّ، ولأنَّ المُتْرفينَ هم أشَدُّ إحساسًا بالعذابِ؛ لأنَّهم لم يَعتادُوا مَسَّ الضَّراءِ والآلامِ، ولأنَّهم مع كَونِهم مُتَمنِّعينَ مَحْمِيِّينَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بحِمايةِ غَيرِهم مِن المَنَعةِ والحَشَمِ حين لَقُوا ما لَقُوا مِن الحالةِ الفظيعةِ، فلأنْ يَلْقاها مَنْ عَداهم مِن الحُماةِ والخَدمِ أَوْلى وأقدَمُ[١]. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بالمُتْرفينَ جَميعَ المُشرِكينَ؛ فتَكونَ الإضافةُ بَيانِيَّةً[٢]، ويكونَ ذِكْرُ المُتْرفينَ تَهويلًا في التَّهديدِ؛ تَذكيرًا لهم بأنَّ العذابَ يُزِيلُ عنهم تَرَفَهم؛ فيكونَ المعنى: حتَّى إذا أخَذْناهم وهم في تَرَفِهم[٣].

- وقولُه: ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ كِنايةٌ عن شِدَّةِ ألَمِ العذابِ، بحيث لا يَستطيعونَ صَبرًا عليه؛ فيَصدُرُ منهم صُراخُ التَّأوُّهِ والوَيلِ والثُّبورِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ ما قَبْلَها، وما تَفرَّعَ عليه مِن قولِه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾[٥] [المؤمنون: ٦٨]، وهي مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ؛ مَسُوقةٌ لرَدِّهم وتَبكيتِهم وإقْناطِهم ممَّا عَلَّقوا به أطْماعَهم الفارِغةَ مِن الإغاثةِ والإعانةِ مِن جِهَتِه تعالى[٦].

- وتَخصيصُ اليومِ بالذِّكرِ؛ لتَهويلِه، والإيذانِ بتَفويتِهم وَقتَ الجُؤارِ[٧].

- وقولُه: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ المُستعمَلِ في التَّسويةِ؛ فمَوقِعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٢).

(٢) الإضافةُ البَيانيَّةُ: هي الَّتي تَكونُ على تقديرِ (مِن)، ويَكونُ المُضافُ إليه فيها جِنسًا للمُضافِ؛ مِثلُ: «سوارُ ذَهَبٍ، خاتمُ فضةٍ، ثوبُ قُطْنٍ»، أي: سوارٌ مِن ذهبٍ، وخاتمٌ مِن فضةٍ، وثوبٌ مِن قطنٍ. يُنظر: ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٢، ٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٢).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(إنَّ) إفادةُ التَّعليلِ؛ لأنَّها تُغْني غَناءَ فاءِ التَّفريعِ[١]. وتَقديمُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿مِّنَّا﴾؛ للاهتمامِ بجانِبِ اللهِ تعالى، ولِرعايةِ الفاصلةِ[٢].

- وضُمِّنَ ﴿تُنصَرُونَ﴾ معنَى النَّجاةِ؛ فعُدِّيَ الفِعْلُ بـ (مِن)، أي: لا تَنْجُون مِن عَذابِنا، فثَمَّ مُضافٌ مَحذوفٌ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ تَعليلٌ لعَدمِ لُحوقِ النَّصرِ مِن جِهَتِه بسَببِ كُفْرِهم بالآياتِ[٤]. وقيل: استئنافٌ، والخَبرُ مُسْتَعمَلٌ في التَّنديمِ والتَّلهيفِ، وإنَّما لم تُعطَفِ الجُملةُ على جُملةِ ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾؛ لقَصدِ إفادةِ معنًى بها غيرِ التَّعليلِ؛ إذ لا كَبيرَ فائدةٍ في الجَمعِ بيْن عِلَّتينِ[٥].

- قَولُه: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ لَمَّا كانتْ عَظمةُ الآياتِ -الَّتي استحَقَّتْ بها الإضافةَ إلى اللهِ تعالى- تَكْفي في الحثِّ على الإيمانِ بمُجرَّدِ سَماعِها؛ بُنِيَ للمَفعولِ قولُه: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[٦].

- وذِكْرُ فِعلِ (كُنتم)؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك شأْنُهم. وذِكْرُ المُضارعِ ﴿تَنكِصُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّكرُّرِ، فذلك خُلُقٌ منهم مُعادٌ مَكرورٌ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٢، ١٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٥).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٥).

٥- قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ الضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ للبَيتِ العَتيقِ أو للحرمِ، والَّذي سَوَّغَ هذا الإضمارَ شُهْرَتُهم بالاستِكبارِ بالبيتِ. ويَجوزُ أنْ يَرجِعَ إلى ﴿ءَايَٰتِى﴾، إلَّا أنَّه ذُكِّرَ؛ لأنَّها في مَعنَى (كتابي). ومعنَى استكبارِهم بالقُرآنِ: تَكذيبُهم به استِكبارًا، ضُمِّنَ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ معنى مُكذِّبينَ، أو يُحدِثُ لكم استِماعُه استِكبارًا وعُتُوًّا، فأنتم مُستكبِرونَ بسَببِه. أو تَتعلَّقُ الباءُ بـ﴿سَٰمِرًا﴾، أي: تَسمُرونَ بذِكْرِ القُرآنِ وبالطَّعنِ فيه. وقيل: الضَّميرُ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويُحسِّنُه أنَّ في قولِه: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ دَلالةً على التَّالي، وهو الرَّسولُ عليه السَّلامُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٥، ٨٦).

الآيات (٦٨-٧٢)

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جِنَّةٌ﴾: أي: جُنونٌ، وأصلُ (جنن): السَّترُ والتَّستُّرُ، وسُمِّي الجُنونُ بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ العقلَ ويُغطِّيه(١).

﴿خَرْجًا﴾ ﴿فَخَرَاجُ﴾: الخرْجُ والخراجُ واحدٌ، أي: الأجرُ والجُعلُ والرِّزْقُ، والخرْجُ والخراجُ: الإتاوةُ؛ لأنَّه مالٌ يُخرجُه المُعطي، وقيل: بيْنَهما فرقٌ؛ فالخراجُ ما لَزِمك، والخرجُ ما تَبَرَّعْتَ به، وقيل غيرُ ذلك. وأصلُ (خرج): النَّفاذُ عنِ الشَّيءِ(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ألم يَتدبَّرْ أولئك المُشرِكونَ القُرآنَ، أمْ جاءهم فيه ما لمْ يأْتِ آباءَهم الأوَّلينَ حتَّى استبعَدوه وأعرَضُوا عنه؟! أمْ لم يَعرِفوا رَسولَهم محمَّدًا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨، ٢٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٤).

صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّه الصَّادِقُ الأمينُ، فأنْكَروا ما جاء به؟! أمْ يقولون عنه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: به جنونٌ؟! كلَّا! فليس ما تقدَّم هو سببَ رفضِهم الإيمانَ وتوحيدَ الله، بل السببُ أنَّ الرَّسولَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جاءَهم بالحَقِّ الثَّابِتِ، وأكثَرُهم كارِهونَ للحَقِّ؛ لأنَّه يَتعارَضُ مع أهوائِهم، ولوِ اتَّبَعَ الحقُّ أهواءَ المُشرِكينَ، لَفسَدَتِ السَّمَواتُ والأرضُ ومَن فِيهنَّ، بلْ أتَيناهم بالقُرآنِ الكريمِ الَّذي فيه شَرَفُهم ومَجْدُهم، ولكِنَّهم عنه مُعرِضونَ!

أم تَسألُهم -يا مُحمَّدُ- أجْرًا على ما جِئْتَهم به مِنَ الحقِّ، فيَمنَعُهم ذلك مِن اتِّباعِه؟! لا، ليس الأمرُ كذلك؛ فثَوابُ اللهِ تعالى على ما تُبلِّغُه مِن رسالتِه خيرٌ لك وأعظَمُ مِن عَطاءِ هؤلاءِ الضُّعفاءِ الَّذين لا يَستَغنونَ أبدًا عن عطاءِ الله تعالى، واللهُ تعالى هو خيرُ الرَّازِقينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كانتِ الآياتُ -لِمَا فيها مِنَ البَلاغةِ المُعجزةِ، والحِكَمِ المُعجبةِ- داعيةً إلى تَقبُّلِها بَعدَ تأمُّلِها، وكان الكافِرونَ يُعرِضونَ عنها، ويُفْحِشون في وَصْفِها: تارَةً بالسِّحرِ، وأُخرى بالشِّعرِ، وكرَّةً بالكَهانةِ، ومرَّةً بغَيرِها؛ تسبَّبَ عن ذلك الإنكارُ عليهم[1].

وأيضًا لَمَّا وَصَفَ اللهُ تعالى حالَ الكافرينَ، ردَّ عليهم -في هذه الآيةِ وما يَليها- بأنْ بيَّنَ أنَّ إقْدامَهم على هذه الأُمورِ لا بُدَّ أنْ يكونَ لأحدِ أُمورٍ أربعةٍ:

أحدِها: ألَّا يَتأمَّلُوا في دَليلِ نُبوَّتِه، وهو المُرادُ مِن قَولِه: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾؛

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٤).

فبيَّنَ أنَّ القولَ الَّذي هو القُرآنُ كان مَعروفًا لهم، وقد مُكِّنوا مِنَ التَّأمُّلِ فيه مِن حيثُ كان مُبايِنًا لكلامِ العرَبِ في الفَصاحةِ، ومُبرَّأً عن التَّناقُضِ في طُولِ عُمرِه، ومِن حيثُ يُنبِّهُ على ما يَلْزَمُهم مِن مَعرفةِ الصَّانعِ، ومَعرِفةِ الوَحدانيَّةِ؛ فلِمَ لا يَتدبَّرونَ فيه لِيَتْرُكوا الباطِلَ، ويَرْجِعوا إلى الحقِّ؟!

وثانيها: أنْ يَعْتَقِدوا أنَّ مَجِيءَ الرُّسلِ أمْرٌ على خِلافِ العادةِ، وهو المُرادُ مِن قولِه: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ وذلك لأنَّهم عَرَفوا بالتَّواتُرِ أنَّ الرُّسلَ كانت تَتواتَرُ على الأُمَمِ، وتَظهَرُ المُعجِزاتُ عليها، وكانتِ الأُمَمُ بيْنَ مُصدِّقٍ ناجٍ، وبيْنَ مُكذِّبٍ هالكٍ بعَذابِ الاستِئصالِ؛ أفمَا دعاهم ذلك إلى تَصديقِ الرَّسولِ؟!

وثالِثِها: ألَّا يَكُونوا عالِمينَ بدِيانَتِه، وحُسْنِ خِصالِه قَبلَ ادِّعائِه للنُّبوَّةِ، وهو المُرادُ مِن قَولِه: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾؛ نبَّهَ سُبحانَه بذلك على أنَّهم عَرَفوا منه قبْلَ ادِّعائِه الرِّسالةَ كَونَه في نِهايةِ الأمانةِ والصِّدقِ، وغايةِ الفِرارِ مِنَ الكذِبِ والأخلاقِ الذَّميمةِ؛ فكيف كذَّبوهُ بَعدَ أنِ اتَّفقَتْ كَلِمَتُهم على تَسمِيَتِه بالأمينِ؟!

ورابِعِها: أنْ يَعتَقِدوا فيه الجُنونَ، فيَقولوا: إنَّما حمَلَه على ادِّعائِه الرِّسالةَ جُنونُه، وهو المُرادُ مِن قولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾، وهذا أيضًا ظاهِرُ الفسادِ؛ لأنَّهم كانوا يَعلمونَ بالضَّرورةِ أنَّه أعقَلُ النَّاسِ، والمَجنونُ كيف يُمكِنُه أنْ يأتِيَ بمِثْلِ ما أتَى به مِنَ الدَّلائلِ القاطِعةِ، والشَّرائعِ الكاملةِ[1]؟!

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: أفلمْ يَتدبَّرْ أولئك المُشرِكونَ القُرآنَ؛ فيَعقِلوا مَعانِيَه، ويَعلَموا ما فيه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٦).

ويَعمَلوا به ويتَّبِعوه، أمْ جاءَهم فيه ما لم يأْتِ آباءَهم الَّذين مِن قَبْلِهم، فأنكَروه وأعرَضوا عنه[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

وقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ۞ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۞ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢١ - ٢٤].

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان الرَّجلُ الكامِلُ مَن عرَفَ الرِّجالَ بالحقِّ؛ بدَأَ بما أشارَ إليه، ثمَّ أعقَبَه بمَن يَعرِفُ الشَّيءَ للإِلْفِ به، ثمَّ بمَن يَعرِفُ الحقَّ بالرِّجالِ، فقال[2]:

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: أمْ لم يَعرِفِ المُشرِكونَ رَسولَهم مُحمَّدًا، وأنَّه مِن أهلِ الصِّدقِ والأمانةِ، فيُنكِروا قَولَه[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٧، ٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٣)، ((تفسير =

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان البشَرُ قد يَعرِضُ له ما يَسلُبُ خِصالَهُ -وهو اختلالُ عقْلِه- عطَفَ على ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ﴾ قولَه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾، أي: ألَعلَّهم ادَّعَوا أنَّ رَسولَهم الَّذي يَعرِفونَه قد أُصِيبَ بجُنونٍ، فانقلَبَ صِدْقُه كذِبًا[1]؟!

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ ﴾.

أي: أمْ يَحتجُّونَ في تَركِ الإيمانِ بدَعوى أنَّ بمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم جُنونًا[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ [التكوير: ٢٢].

﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا كانت هذه الأقسامُ مُنْتفيَةً، ولا سيَّما الأخيرِ المُستَلزِمِ عادةً للتَّخليطِ المُستلْزِمِ للباطلِ؛ فإنَّهم أعرَفُ النَّاسِ بهذا الرَّسولِ الكريمِ، وأنَّه أكمَلُهم خَلْقًا،

= السعدي)) (ص: ٥٥٥).

قال البِقاعي: (في هذا غايةُ التَّوبيخِ لهم بجَهلِهم وبعِنادِهم، بأنَّهم يَعرِفونَ أنَّه أصدَقُ الخَلقِ وأعلاهم في كُلِّ مَعنًى جَميلٍ، ثمَّ يُكَذِّبونَه!). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٩).

وأشرَفُهم خُلُقًا، وأطهَرُهم شِيَمًا، وأعظَمُهم هِمَمًا، وأرجَحُهم عَقْلًا، وأمتَنُهم رأْيًا، وأرضاهُم قَولًا، وأصوَبُهم فِعْلًا: أضرَبَ عنها، وقال[1]:

﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

أي: ليس سَبَبُ رَفْضِهمُ الإيمانَ وتَوحيدَ الرَّحمنِ شيئًا مِمَّا تقَدَّمَ ذِكْرُه، بلِ السَّبَبُ الَّذي دعاهم للتَّمسُّكِ بشِرْكِهم وكُفرِهم هو أنَّ مُحمَّدًا قد جاءَهم بالحَقِّ، وأكثَرُهم يَكرَهونَ القَبولَ والإذعانَ لهذا الحَقِّ المُخالِفِ لأهوائِهم[2]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٠).

قال ابنُ عاشور: (الحقُّ: الثَّابتُ في الواقعِ ونفْسِ الأمرِ، يكونُ في الذواتِ وأوصافِها، وفي الأجناسِ، وفي المعاني، وفي الأخبارِ؛ فهو ضدُّ الكذبِ، وضدُّ السِّحرِ، وضدُّ الشِّعرِ؛ فما جاءهم به النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الأخبارِ والأوامرِ والنَّواهي كلُّه مُلابِسٌ للحَقِّ؛ فبَطَل بهذا ما قالوه في القرآنِ وفي الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَقالةَ مَن لم يتدَبَّروا القرآنَ، ومَن لم يُراعُوا إلَّا مُوافقةَ ما كان عليه آباؤُهم الأوَّلونَ، ومَن لم يَعرِفوا حالَ رَسولِهم الذي هو مِن أنفُسِهم؛ ومَقالةَ مَن يَرمي بالبُهتانِ؛ فنَسَبوا الصَّادِقَ إلى التَّلبيسِ والتَّغليطِ! فالحقُّ الذي جاءهم به النبيُّ أوَّلُه إثباتُ الوَحدانيَّةِ لله تعالى، وإثباتُ البَعثِ، وما يَتْبَعُ ذلك مِن الشَّرائعِ النَّازلةِ بمكَّةَ؛ كالأمرِ بالصَّلاةِ والزَّكاةِ، وصِلةِ الرَّحمِ، والاعترافِ للفاضِلِ بفَضلِه، وزَجْرِ الخَبيثِ عن خُبثِه، وأُخوَّةِ المُسلِمينَ بَعضِهم لِبَعضٍ، والمساواةِ بينهم في الحَقِّ، ومَنْعِ الفواحِشِ؛ مِن الزِّنا، وقَتْلِ الأنفُسِ، ووأْدِ البناتِ، والاعتداءِ وأكْلِ الأموالِ بالباطِلِ، وإهانةِ اليتيمِ والمِسكينِ، ونحوِ ذلك مِن إبطالِ ما كان عليه أمرُ الجاهليَّةِ مِن العُدوانِ، والخِلافةِ التي نَشَؤوا عليها من عَهدٍ قديمٍ؛ فكلُّ ما جاء به الرَّسولُ يومَئذٍ هو الموافِقُ لِمُقتضَى نِظامِ العُمرانِ الذي خَلَق اللهُ عليه العالَمَ؛ فهو الحقُّ، كما قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩]. ولَمَّا كان قَولُ الكاذبِ وقَولُ المجنونِ المُختَصُّ بهذا الذي لا يُشارِكُهما فيه العُقلاءُ والصَّادِقونَ غيرَ جارِيَينِ على هذا الحقِّ، كان إثباتُ أنَّ ما جاء به الرَّسولُ حَقٌّ نَقضًا لإنكارِهم صِدْقَه. ولِقَولِهم: هو مجنونٌ كان ما بعدَ «بل» نَقضًا لِقَولِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٠).

كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٥- ١٧].

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.

أي: ولو جاء الحَقُّ[1] بما يُوافِقُ أهواءَهم الفاسِدةَ المُختَلِفةَ، لفَسَدتِ السَّمواتُ

---

(١) قيل: المرادُ بالحَقِّ هنا: هو اللهُ تعالى. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والثعلبي، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، وابن كثير، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٤)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٨٢).

قال القرطبي: (﴿ٱلْحَقُّ﴾ هنا هو اللَّهُ سبحانَه وتعالَى، قالَه الأكثرونَ، منهم مُجاهدٌ، وابنُ جُرَيجٍ، وأبو صالِحٍ، وغيرُهم). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٠). ونسبه الماورديُّ والعزُّ بن عبد السلام أيضًا للأكثرين، يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير العز بن عبد السلام)) (٢/ ٣٧٩).

وقيل: المرادُ به: القرآنُ، وممَّن اختاره: الواحدي، والسمعاني، وجلال الدين المحلي، =

= والشربيني. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٥١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٥٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٨٦).

وقيل: المرادُ بالحقِّ هنا: ضدُّ الباطلِ، وهو المذكورُ في الآيةِ قبْلَه، ومِن جملته القُرآنُ وما جاء به النبيُّ صلى الله عليه وسلم مِنَ الإسلام والتوحيد والشَّرعِ. وممَّن قال بذلك في الجُملةِ: ابنُ عطية، وابن جزي، وأبو حيان، وابن القيم، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٤)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٨٣) ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٢).

قال ابنُ جزي: (الحقُّ هنا يُرادُ به الصَّوابُ والأمرُ المستقيمُ، فالمعنى: لو كان الأمرُ على ما تقتضي أهواؤُهم مِن الشِّركِ بالله واتِّباعِ الباطِلِ لفَسَدَت السَّمَواتُ والأرضُ، كقَولِه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢]. وقيل: إنَّ الحَقَّ في الآيةِ هو اللهُ تعالى، وهذا بَعيدٌ في المعنى، وإنَّما حمَلَه عليه أنْ جَعَل الاتِّباعَ حَقيقةً، ولم يَفهَمْ فيه الاستِعارةَ، وإنَّما الحقُّ هنا هو المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٤).

وقال الشِّنقيطي: (اختلف العُلماءُ في المرادِ بالحقِّ في هذه الآيةِ؛ فقال بعضُهم: الحقُّ: هو اللهُ تعالى. ومعلومٌ أنَّ الحقَّ مِن أسمائِه الحُسنى... وكونُ المرادِ بالحقِّ في الآيةِ هو اللهَ: عزاه القرطبيُّ للأكثرينَ، ومِمَّن قال به: مجاهدٌ، وابنُ جُريجٍ، وأبو صالحٍ، والسُّدِّيُّ، ورُوي عن قتادةَ، وغيرِهم. وعلى هذا القَولِ فالمعنى: لو أجابهم اللهُ إلى تشريعِ ما أحبُّوا تَشريعَه، وإرسالِ مَن اقترَحوا إرسالَه -بأنْ جَعَل أمرَ التَّشريعِ، وإرسالَ الرُّسلِ، ونَحوَ ذلك؛ تابِعًا لأهوائِهم الفاسدةِ- لفَسَدت السَّمواتُ والأرضُ ومَن فيهِنَّ؛ لأنَّ أهواءَهم الفاسِدةَ وشَهَواتِهم الباطِلةَ لا يُمكِنُ أن تقومَ عليها السَّماءُ والأرضُ...

القولُ الثاني: أنَّ المرادَ بالحقِّ في الآيةِ: الحقُّ الذي هو ضِدُّ الباطلِ، المذكورُ في قَولِه قَبلَه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾، وهذا القولُ الأخيرُ اختاره ابنُ عطيَّة، وأنكَر الأوَّلَ. وعلى هذا القَولِ فالمعنى: أنَّه لو فُرِضَ كونُ الحَقِّ مُتَّبَعًا لأهوائِهم التي هي الشِّركُ باللهِ، وادِّعاءُ الأولادِ والأندادِ له، ونحوُ ذلك؛ لفَسَد كلُّ شَيءٍ؛ لأنَّ هذا الفَرضَ يَصيرُ به الحقُّ هو أبطلَ الباطِلِ، ولا يمكنُ أن يقومَ نِظامُ السَّماءِ والأرضِ على شَيءٍ هو أبطلُ الباطِلِ؛ لأنَّ استِقامةَ نِظامِ هذا العالَمِ لا تُمكِنُ إلَّا بقُدرةِ وإرادةِ إلهٍ هو الحَقُّ، مُنفَرِدٌ بالتَّشريعِ والأمرِ والنَّهيِ، كما لا يخفَى على عاقِلٍ. والعِلمُ عند اللهِ تعالى). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٤٢، ٣٤٣).

والأرضُ ومَن فيهنَّ مِنَ المَخلوقاتِ، واختَلَّ نِظامُ العالَمِ[١].

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

أي: بلْ أتَينا أولئك المُشرِكينَ بالقُرآنِ المُبَيِّنِ للحَقِّ، وفيه شَرَفُهم وعِزُّهم في دُنياهم وأُخراهم؛ فهُمْ عن القُرآنِ -الَّذي فيه شَرَفُهم وعِزُّهم- مُعرِضونَ لا يَتَّبِعونَه[٢]!

كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أبطَلَ اللهُ تعالى وُجوهَ طعْنِ الكافرينَ في المُرسَلِ به والمُرسَلِ؛ مِن جِهَةِ جَهْلِهم مرَّةً، ومِن جِهَةِ ادِّعائِهم البُطلانَ أُخرى؛ نبَّهَهم على وَجْهٍ آخَرَ، هم أعرَفُ النَّاسِ ببُطلانِه؛ لِيُثْبِتَ المُدَّعَى مِنَ الصِّحَّةِ إذا انتفَتْ وُجوهُ المَطاعِنِ، فقال مُنكِرًا[٣]:

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾.

أي: أمْ تَسأَلُ -يا مُحمَّدُ- مُشرِكي قَومِك أجْرًا على ما جِئتَهم به مِنَ الحَقِّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٠)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٨).

فيَمنَعُهم ذلك مِن اتِّباعِه؟! كلَّا! ليس الأمرُ كذلك؛ فثَوابُ اللهِ الَّذي يُعْطيك على تَبليغِ رِسالتِه خَيرٌ لك مِن ذلك؛ فما الَّذي يَمنَعُهم -إذنْ- مِن اتِّباعِ الحقِّ[1]؟!

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

أي: واللهُ خيرُ مَن يُعطي عِبادَه ويَرزُقُهم مِن فَضلِه[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: أفلَا يَتفكَّرونَ في القُرآنِ ويَتأمَّلونَه ويَتدبَّرونَه، أي: فإنَّهم لو تَدبَّروهُ لَأوجَبَ لهم الإيمانَ، ولَمنَعَهُم مِنَ الكُفرِ، ولكنَّ المُصيبةَ الَّتي أصابَتْهُم بسَببِ إعراضِهم عنه، ودَلَّ هذا على أنَّ تَدبُّرَ القُرآنِ يَدْعُو إلى كلِّ خَيرٍ، ويَعصِمُ مِن كلِّ شَرٍّ، والَّذي منَعَهم مِن تَدبُّرِه أنَّ على قُلوبِهم أقْفالَها[3].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢] [محمد: ٢٤]، وتَدبُّرُ الكلامِ بدُونِ فَهمِ مَعانِيه لا يُمكِنُ. وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وعَقْلُ الكلامِ مُتضمِّنٌ لِفَهْمِه. ومِنَ المَعلومِ أنَّ كلَّ كلامٍ فالمقصودُ منه فَهْمُ مَعانِيه دُونَ مُجرَّدِ أَلْفاظِه؛ فالقُرآنُ أَولى بذلك، وأيضًا فالعادةُ تَمنَعُ أنْ يَقرَأَ قَومٌ كِتابًا في فَنٍّ مِنَ العِلْمِ -كالطِّبِّ والحِسابِ- ولا يَسْتَشرِحوه؛ فكيف بكلامِ اللهِ الَّذي هو عِصْمَتُهم، وبه نَجاتُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

وسَعادَتُهم، وقِيامُ دِينِهم ودُنياهم[(١)]؟!

٣- التَّأمُّلُ في القُرآنِ هو تَحديقُ ناظِرِ القَلْبِ إلى مَعانِيه، وجمْعُ الفِكْرِ على تَدبُّرِه وتَعقُّلِه، وهو المقصودُ بإنزالِه، لا مُجرَّدُ تِلاوَتِه بلا فَهْمٍ ولا تَدبُّرٍ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾، وقال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]. وقال الحسَنُ: (نزَلَ القُرآنُ؛ لِيُتدبَّرَ ويُعمَلَ به، فاتَّخَذوا تِلاوَتَه عمَلًا!). فليس شَيءٌ أنفَعَ للعَبْدِ في مَعاشِه ومَعادِه، وأقرَبَ إلى نَجاتِه؛ مِن تَدبُّرِ القُرآنِ، وإطالةِ التَّأمُّلِ فيه، وجمْعِ الفِكْرِ على مَعاني آياتِه؛ فإنَّها تُطْلِعُ العبْدَ على مَعالِمِ الخيرِ والشَّرِّ بحَذافيرِهما، وعلى طُرقاتِهما وأسبابِهما، وغاياتِهما وثَمراتِهما، ومآلِ أهْلِهما، وتَضَعُ في يَدِه مَفاتيحَ كُنوزِ السَّعادةِ والعُلومِ النَّافعةِ، وتُثبِّتُ قَواعِدَ الإيمانِ في قَلْبِه، وتُشيِّدُ بُنيانَه، وتُوطِّدُ أركانَه، وتُرِيه صُورةَ الدُّنيا والآخرةِ والجنَّةِ والنَّارِ في قَلْبِه، وتُحضِرُه بيْنَ الأُمَمِ، وتُرِيهِ أيَّامَ اللهِ فيهم، وتُبصِّرُه مَواقِعَ العِبَرِ، وتُشهِدُه عَدْلَ اللهِ وفَضْلَه، وتُعرِّفُه ذاتَه وأسماءَه، وصِفاتِه وأفعالَه، وما يُحِبُّه وما يُبغِضُه، وصِراطَه المُوصِلَ إليه، وما لِسالِكِيه بَعدَ الوُصولِ والقُدومِ عليه، وقَواطِعَ الطَّريقِ وآفاتِها، وتُعرِّفُه النَّفْسَ وصِفاتِها، ومُفسداتِ الأعمالِ ومُصحِّحاتِها، وتُعرِّفُه طَريقَ أهْلِ الجنَّةِ وأهْلِ النَّارِ، وأعمالَهم وأحوالَهم وسِيمَاهم، ومَراتِبَ أهْلِ السَّعادةِ وأهْلِ الشَّقاوةِ، وأقسامَ الخلْقِ، واجتماعَهم فيما يَجتَمِعونَ فيه، وافْتِراقَهم فيما يَفترِقونَ فيه.

وبالجُملةِ: تُعرِّفُه الرَّبَّ المَدْعُوَّ إليه، وطَريقَ الوُصولِ إليه، وما له مِنَ الكرامةِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٣١، ٣٣٢).

إذا قَدِمَ عليه.

وتُعرِّفُه في مُقابِلِ ذلك ثلاثةٌ أُخرى: ما يَدْعُو إليه الشَّيطانُ، والطَّريقَ المُوصِلَةَ إليه، وما للمُستجيبِ لِدَعوتِه مِنَ الإهانةِ والعذابِ بَعدَ الوُصولِ إليه. فهذه سِتَّةُ أُمورٍ ضَروريٌّ للعبْدِ مَعرِفَتُها، ومُشاهدَتُها ومُطالعَتُها.

وفي تأمُّلِ القُرآنِ وتَدبُّرِه وتَفهُّمِه: أضعافُ أضعافِ ما ذكَرْنا مِن الحِكَمِ والفوائدِ. وبالجُملةِ فهو أعظَمُ الكُنوزِ[(١)].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فبيَّنَ سُبحانَه أنَّ الحقَّ لا يَتَّبِعُ الهَوى، بلِ الواجِبُ على المُكلَّفِ أنْ يَطرَحَ الهوَى ويَتَّبِعَ الحقَّ؛ فبيَّنَ سُبحانَه أنَّ اتِّباعَ الهَوى يُؤدِّي إلى الفَسادِ العظيمِ[(٢)].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾، لعلَّهُ عبَّرَ بـ (القول)؛ إشارةً إلى أنَّ مَن لم يَتقبَّلْه ليس بأهْلٍ لِفَهمِ شَيءٍ مِنَ القَولِ، بلْ هو في عِدادِ البَهائمِ[(٣)].

٢- في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ في سَجايا النَّاسِ نُبُوًّا عمَّا لم يَسْمَعوا به؛ ولم تَجْرِ سُنَّتُه فيمَن قَبْلَهم، فصارتِ الحُجَّةُ عليهم بذلك مِن حيثُ يَعقِلُونها ولا يُنكرونُ تَخصيصَهم بما دُعُوا إليه؛ لِتَكونَ أوْكَدَ عليهمْ، وأَبْعَدَ لهم مِن أنْ يُعْذَرُوا عندَ أنفُسِهم، لا أنَّها لا تَلْزَمُهم ولا تَجِبُ عليهم إلَّا بما صارَ سُنَّةً في غَيرِهم؛ فقد أُمِرَ آدمُ بتَرْكِ الأكْلِ مِنَ الشَّجرةِ، ولَزِمَتْه حُجَّةُ ربِّه، ولم يَتقدَّمْ له في ذلك مُتَقَدِّمٌ؛ فليس لأحدٍ رَدُّ حُجَّةٍ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٩ - ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٥).

واضحةٍ يُورِدُها عليه مُورِدٌ -وإنْ لم يكُنْ سَمِعَها مِن غَيرِه، ولا سَبَقَ مُورِدَها إليه سِواهُ- اعتمادًا على أنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤُه قال في هؤلاء: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ لأنَّ ذلك منه -واللهُ أعلَمُ- على معنَى النَّكيرِ لا على الارتِضاءِ[١].

٣- في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ تَدَبُّرُ الكلامِ هو أنْ يَنْظُرَ في أوَّلِه وآخِرِه، ثمَّ يُعِيدَ نظَرَه مَرَّةً بَعدَ مَرَّةٍ؛ ولهذا جاء (التَّدَبُّرُ) على بِناءِ (التَّفَعُّل)؛ كالتَّجَرُّعِ، والتَّفَهُّمِ، والتَّبَيُّنِ[٢].

٤- في قولِه تعالى: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الجَدَّ أَبٌ[٣].

٥- في قولِه تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّ خَبرَ الواحدِ يَلْزَمُ قَبولُه بشَرْطِ مَعرفةِ المُخْبَرِ بصِدْقِ المُخْبِرِ، وثَباتِ عَقْلِه؛ ألَا ترَى أنَّ حُجَجَ قُريشٍ كانت مُنقطِعةً بما عَرَفَتْ مِن عَقْلِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وصِدْقِه؛ فلَزِمَهم خبَرُه عن اللهِ جَلَّ جَلالُه؟ إذْ لا عِلَّةَ لهم في رَسولِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتعلَّقونَ بها، ويأْوونَ في تَكذيبِه إليها، وهذا مِن أكبَرِ ما يُحتَجُّ به في تَثبيتِ خَبرِ الواحدِ لِمَن تدبَّرَهُ[٤].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، فأخبَرَ سُبحانَه أنَّ الحقَّ لوِ اتَّبَعَ أهواءَ العِبادِ، فجاء شَرْعُ اللهِ ودِينُه بأهوائِهم؛ لَفسدَتِ السَّمواتُ والأرضُ ومَن فِيهنَّ، وأنَّه مِن المُحالِ أنْ يَتَّبِعَ الحقُّ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦٧).

أهواءَهم، وأنَّ أهواءَهُم مُشتمِلةٌ على قُبْحٍ عَظيمٍ؛ لو وَرَدَ الشَّرعُ به لَفَسَد العالَمُ: أعلاهُ وأسفلُه وما بيْن ذلك، ومَعلومٌ أنَّ هذا الفسادَ إنَّما يكونُ لِقُبْحِ خِلافِ ما شرَعَه اللهُ وأمَرَ به، ومُنافاتِه لِصلاحِ العالَمِ عُلْوِيِّه وسُفْلِيِّه، وأنَّ خَرابَ العالَمِ وفَسادَه لَازِمٌ لِحُصولِه ولِشَرْعِه، وأنَّ كَمالَ حِكْمةِ اللهِ وكَمالَ عِلْمِه ورَحْمَتِه ورُبوبيَّتِه يأْبى ذلك ويَمنَعُ منه(١).

٧- قولُه تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ دَلَّ بهذا على عِظَمِ شأْنِ الحقِّ، وأنَّ السَّمواتِ والأرضَ ما قامت ولا مَن فِيهنَّ إلَّا بهِ(٢).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾، كأنَّه سمَّاهُ (خَراجًا) إشارةً إلى أنَّه أوجَبَ رِزْقَ كلِّ أحدٍ على نفْسِه بوَعْدٍ لا خُلْفَ فيه(٣).

٩- قولُه تعالى: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ دَلَّ على أنَّ العِبادَ قد يَرزُقُ بَعضُهم بَعضًا(٤)، فصِيغةُ التَّفضيلِ في قولِه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ نظرًا إلى أنَّ بعضَ المخلوقينَ يرزُقُ بعضَهم، كقولِه تعالَى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥]، وقولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٣٣]، ولا شكَّ أنَّ فضلَ رزقِ اللهِ خَلْقَه على رزقِ بعضِ خَلْقِه لبعضِهم كفَضْلِ ذَاتِه وسائِرِ صفاتِه على ذَواتِ خَلْقِه وصِفاتِهم(٥). فقولُه: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ دَلَّ على أنَّه لا يُساويهِ أحدٌ في الإفضالِ على

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤، ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٦).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٤٤).

عِبادِه[١]، فكلُّ مَن يَرزُقُ غيرَه -مِن سُلْطانٍ يَرزُقُ جُندَهُ، أو سيِّدٍ يَرزُقُ عبْدَهُ، أو رجُلٍ يَرزُقُ عِيالَهُ- فهو واسطةٌ لا يَقدِرُ إلَّا على ما قدَّرَه اللهُ، وأمَّا هو سُبحانَه فهو يُوجِدُ المَعدومَ، ويَرزُقُ مَن يُطيعُه ومَن يَعْصيه، ولا يَضيقُ رِزْقُه بأحدٍ، ولا يَشغَلُه فيه أحدٌ عن أحدٍ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ هَمزةُ الاستفهامِ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِه، والفاءُ للعَطفِ على مُقدَّرٍ يَنسحِبُ عليه الكلامُ، أي: فَعَلُوا ما فعَلُوا مِن النُّكوصِ والاستكبارِ والهَجرِ، فلم يَتدبَّروا القُرآنَ[٣]. وهو تَقريعٌ وتَوبيخٌ على إعراضِهم عن اتِّباعِ الحقِّ، والانتفاعِ بالقُرآنِ[٤]. وقيل: الفاءُ لتَفريعِ الكلامِ على الكلامِ السَّابقِ، وهو قولُه: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ إلى قولِه: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣-٦٧]. وهذا التَّفريعُ مُعترِضٌ بيْن جُملةِ: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ وجُملةِ ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ ...﴾ إلخ[٥] [المؤمنون: ٧٥].

- و(أمْ) في قولِه: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مُنقطِعةٌ، وما فيها مِن مَعنَى (بل) للإضرابِ والانتقالِ عنِ التَّوبيخِ بما ذُكِرَ إلى التَّوبيخِ بآخَرَ، والهمزةُ لإنكارِ الوُقوعِ لا لإنكارِ الواقعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٨).

- قولُه: ﴿أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ إنْ كان المُرادُ ظاهِرَ مَعنى الصِّلةِ، وهي ما لم يأْتِ آباءَهم الأوَّلِينَ مِن أنَّ الدِّينَ الَّذي جاءهم لا عَهْدَ لهم به، تَعيَّنَ أنْ يكونَ في الكلامِ تَهكُّمٌ بهم؛ إذ قد أنْكَروا دِينًا جاءهم، ولم يَسبِقْ مَجيئُه لآبائِهم. ووَجْهُ التَّهكُّمِ: أنَّ شأْنَ كلِّ رسولٍ جاء بدِينٍ أنْ يكونَ دِينُه أُنُفًا -جديدًا-، ولو كان للقومِ مِثْلُه لكانَ مَجيئُه تَحصيلَ حاصلٍ. وإنْ كان المُرادُ مِن الصِّلةِ أنَّه مُخالِفٌ لِمَا كان عليه آباؤُهم؛ لأنَّ ذلك مِن معنى ﴿لم يأْتِ آباءَهم﴾؛ كان الكلامُ مُجرَّدَ تَغليطٍ، أي: لا اتِّجاهَ لكُفْرِهم به؛ لأنَّه مُخالِفٌ لِمَا كان عليه آباؤُهم؛ إذ لا يكونُ الدِّينُ إلَّا مُخالِفًا للضَّلالةِ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ﴾ إضْرابٌ وانتقالٌ مِن التَّوبيخِ بما ذُكِرَ إلى التَّوبيخِ بوَجهٍ آخَرَ، والهمزةُ في ﴿أَمۡ﴾ لإنكارِ الوُقوعِ[2]. وهو إضْرابٌ على سَبيلِ التَّرقِّي، وكذلك قولُه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾؛ فإنَّه لمَّا أثبَتَ لهم الجَهلَ الموروثَ، أضرَبَ عن ذلك بإثْباتِ الجَهلِ المُكتسَبِ، وهو عدَمُ جَرْيِهم بمُوجَبِ العِلْمِ؛ فإنَّ الهَمزةَ في ﴿أَمۡ﴾ للسُّؤالِ مُجْرًى للمعلومِ مَساقَ غَيرِه تَجْهيلًا، أو للتَّوبيخِ؛ فقولُه: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ﴾ واردٌ على سَبيلِ التَّوبيخِ على الإعراضِ، ثمَّ أضرَبَ عنه بقولِه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾[3].

- قولُه: ﴿فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: جاحِدُون بِنُبوَّتِه؛ فجُحودُهم بها مُترتِّبٌ على عَدَمِ مَعرفَتِهم بشأْنِه عليه السَّلامُ، ومِن ضَرورةِ انتفاءِ المَبْنيِّ: بُطلانُ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٠٤، ٦٠٥).

بُنِيَ عليه، أي: فهُمْ غيرُ عارفينَ له عليهِ السَّلامُ؛ فهو تأْكيدٌ لِمَا قَبلَه[١].

٣- قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ انتقالٌ إلى تَوبيخٍ آخَرَ، والهمزةُ لإنكارِ الواقِعِ كالهمزةِ الأُولى في قولِه: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾[٢].

- وقد رُوعِيَ في هذه التَّوبيخاتِ الأربعةِ، الَّتي اثنانِ منها مُتعلِّقانِ بالقُرآنِ، والباقيانِ به صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: التَّرقِّي مِن الأدْنى إلى الأعلى؛ حيثُ وُبِّخُوا أوَّلًا بعدَمِ التَّدبُّرِ، ثمَّ وُبِّخوا بشَيءٍ لو اتَّصَفَ به القولُ لكان سببًا لِعدَمِ تَصديقِهم به، ثمَّ وُبِّخوا بما يَتعلَّقُ بالرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن عَدمِ مَعرِفَتِهم به صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وذلك يَتحقَّقُ بعَدمِ المعرفةِ بخَيرٍ ولا شَرٍّ، ثمَّ بما لو كان فيه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذلك لَقَدَحَ في رِسالَتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما سبَقَ[٣].

- قولُه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ﴾ تَقْييدُ الحُكْمِ بـ (الأكثرِ)؛ لأنَّ منهم مَن ترَكَ الإيمانَ استِنكافًا مِن تَوبيخِ قَومِه، أو لِقِلَّةِ فِطْنَتِه وعَدمِ تَفكُّرِه، لا لكَراهَتِه الحقَّ. أو يكونُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ على الجِنسِ للنَّاسِ كافَّةً، ولمَّا ذكَرَ هذه الطَّائفةَ مِن الجِنْسِ، بَقِيَ الكلامُ في قولِه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ على الجِنْسِ بجُملَتِه. ويحتمِلُ أنْ يُرادَ بالأكثرِ الكلُّ، كما حُمِلَ القليلُ على النَّفيِ؛ فيكونُ قولُه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ تَذْييلًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية الأمير)) (٣/ ١٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٤)، ((فتح =

- وقولُه: ﴿لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ فيه الإظهارُ في مَوقعِ الإضمارِ، وهو يُنبِئُ عن كُرْهِهم للحقِّ مِن حيثُ هو حَقٌّ أيَّ حَقٍّ كان، لا لهذا الحقِّ فقطْ[١]. وقُدِّمَ المَعمولُ ﴿لِلْحَقِّ﴾ اهتِمامًا بذِكْرِ الحقِّ؛ حتَّى يَسْتوعِيَ السَّامِعُ ما بَعدَهُ، فيَقَعَ مِن نَفْسِه حُسْنُ سَماعِه مَوقِعَ العجَبِ مِن كارهِيهِ، ولمَّا ضَعُفَ العامِلُ فيه بالتَّأخيرِ قُرِنَ المعمولُ بلامِ التَّقويةِ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ المَعطوفِ والمَعطوفِ عليه، وهو ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ [المؤمنون: ٧٢] و﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [المؤمنون: ٧٠][٣]. وقيل: هو استِئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ أنَّ أهواءَهم الزَّائغةَ الَّتي ما كَرِهُوا الحقَّ إلَّا لعَدمِ مُوافَقَتِه إيَّاها مُقْتضيةٌ للطَّامَّةِ[٤]. وقيل: عُطِفَ هذا الشَّرطُ الامتناعيُّ على جُملةِ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]؛ زِيادةً في التَّشنيعِ على أهوائِهم؛ فإنَّها مُفْضيةٌ إلى فَسادِ العالَمِ ومَن فيه، وكَفَى بذلك فَظاعةً وشَناعةً[٥].

- قولُه: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ انتِقالٌ مِن تَشنيعِهم بكَراهةِ الحقِّ الَّذي به يَقومُ العالَمُ، إلى تَشنيعِهم بالإعراضِ عمَّا جُبِلَ عليه كلُّ نَفْسٍ مِنَ الرَّغبةِ

= الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٢٧، ٥٢٨).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩١).

فيما فيه خَيرُها[١]. وهو إبْطالٌ لِمَا اقْتَضاهُ الفرْضُ في قولِه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾، أي: بلْ لم يتَّبِعِ الحقُّ أهواءَهم، فأبْلَغْنا إليهم الحقَّ على وَجْهِه بالقُرآنِ الَّذي هو ذِكْرٌ لهم، يُوقِظُ عُقولَهم مِن سُباتِها؛ جُعِلَ إبلاغُ الحقِّ لهم بالأدِلَّةِ بمَنزِلةِ تَذكيرِ النَّاسي شيئًا طال عَهْدُه به[٢].

- وفي إسنادِ الإتيانِ بالذِّكرِ إلى نُونِ العَظمةِ ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ بَعدَ إسنادِه إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾: تَنويهٌ لِشَأْنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَنبيهٌ على كَونِه بمَثابةٍ عَظيمةٍ منه عَزَّ وجَلَّ. وفي إيرادِ القُرآنِ الكريمِ عندَ نِسبَتِه إليه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعُنوانِ الحقِّيَّةِ، وعندَ نِسبَتِه إليه تعالى بعُنوانِ الذِّكرِ- ما لا يَخْفَى؛ فإنَّ التَّصريحَ بحَقِّيَّتِه المُستلْزِمةِ لِحَقِّيَّةِ مَن جاء به هُو الَّذي يَقْتضيهِ مَقامُ حِكايةِ ما قالَهُ المُبطِلون في شأْنِه، وأمَّا التَّشريفُ فإنَّما يَليقُ به تعالى لا سيَّما رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أحدَ المُشرَّفينَ[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ الفاءُ لِتَفريعِ إعراضِهم على الإتيانِ بالذِّكرِ إليهم، أي: فتفرَّعَ على الإرسالِ إليهم بالذِّكرِ إعراضُهم عنه[٤]. وفيه وَضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ الضَّميرِ، حيث لم يقُلْ: (عنه)، وفي هذا مَزيدُ تَشنيعٍ لهم وتَقريعٍ[٥].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ التَّعبيرُ عن إعراضِهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤).

بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ إعراضِهم وتَمكُّنِه منهم. وتَقديمُ المجرورِ ﴿عَن ذِكۡرِهِم﴾ على عامِلِه ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾؛ للاهتمامِ بذِكْرِهم؛ لِيَكونَ إعراضُهم عنه مَحَلَّ عَجَبٍ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞ﴾ (أمْ) للانتقالِ إلى استفهامٍ آخَرَ عن دَواعي إعراضِهم عن الرَّسولِ، واستِمرارِ قُلوبِهم في غَمرةٍ. والاستفهامُ المُقدَّرُ هنا إنكاريٌّ تَوبيخيٌّ، أي: ما تسألُهم خَرْجًا، فيَعتذِروا بالإعراضِ عنك لأجْلِه؛ شُحًّا بأموالِهم[٢].

- وفي قولِه: ﴿خَرۡجٗا فَخَرَاجُ﴾ تفنُّنٌ في الكلامِ؛ تَجنُّبًا لإعادةِ اللَّفظِ في غَيرِ المقامِ المُقْتَضي إعادةَ اللَّفظينِ مع قُربِ اللَّفظينِ[٣].

- وقولُه: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞ﴾ تَعليلٌ لِنَفيِ السُّؤالِ المُستفادِ مِن الإنكارِ. وفي التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مِن تَعليلِ الحُكمِ وتَشريفِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما لا يَخْفى[٤].

- وجُملةُ: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ؛ تَكميلًا للغرَضِ بالثَّناءِ على اللهِ والتَّعريفِ بسَعةِ فَضْلِه. وفيه تَقريرٌ وتأْكيدٌ لِمَعنَى: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٨).

الآيات (٧٢-٧٧)

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَنَٰكِبُونَ﴾: أي: لجائِرونَ، مُنحرِفون، مُعْرِضونَ؛ يقال: نَكَبَ عن كذا، أي: عدَل عنه ومالَ، وأصلُ (نكب): يدُلُّ على مَيْلٍ[١].

﴿لَّلَجُّوا۟﴾: أي: لَثَبَتُوا، ولتَمادَوْا، ولاستَمرُّوا، واللَّجاجُ: التَّمادي والعِنادُ في تعاطي الفِعلِ المزجورِ عنه، وأصل (لجج): يدُلُّ على تردُّدِ الشيءِ بَعضِه على بعضٍ، وترديدِ الشيءِ[٢].

﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾: أي: عُتُوِّهِم وتَكبُّرِهم، وأصلُ الطُّغيان: مجاوزةُ الحَدِّ[٣].

﴿يَعْمَهُونَ﴾: أي: يتَحيَّرون ويَجورونَ عَن الطَّرِيق، وأصلُ العَمَهِ: التردُّدُ في الأمْرِ مِن التحيُّرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٤٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٤) ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، =

﴿ٱسۡتَكَانُواْ﴾: أي: خشَعوا وذَلُّوا، وخَضَعوا، وأصلُ الاستِكانةِ: إظهارُ الضَّعْفِ[(١)].

﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: أي: يَتذلَّلُون، ويَدْعُون في خشوعٍ، وأصلُ (ضرع): يَدُلُّ على لِينٍ في الشَّيءِ[(٢)].

﴿مُبۡلِسُونَ﴾: أي: مُتحيِّرون، ويائِسون مُلقون بأيديهم، والإبلاسُ: الحُزنُ المعترِضُ مِن شِدَّةِ اليأسِ، وأصلُ (بلس): يدلُّ على اليأسِ[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نَبِيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائلًا: إنَّك -يا محمَّدُ- تَدْعُو قَومَك إلى الإسلامِ؛ وهو الدِّينُ القويمُ، ولكِنَّ هؤلاء الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ مُنحَرِفونَ عن ذلك الصِّراطِ المُستقيمِ إلى غَيرِه.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣، ٢٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

قال الشنقيطي: (المبلِسُ: اسمُ فاعلِ الإبلاسِ، والإبلاسُ في لغةِ العربِ يُطْلَقُ على معانٍ متقاربةٍ، هو في الحقيقةِ يُرادِفُ الوجومَ، والوجومُ هو: أن يكونَ الإنسانُ ساكِتًا منقطعًا لا يقدرُ أن يتكلَّمَ؛ لشدةِ اليأسِ مِن الخلاصِ مِن البلايا والدَّواهي التي وَقَع فيها). ((العذب النمير)) (١/ ٢٥٩).

ويبيِّنُ تعالى أنَّه لو رَحِمهم وكشَف عنهم ما أصابهم مِن ضُرٍّ في الدنيا، لَتَمادَوْا في الكُفرِ والعِنادِ والضلالِ الذي تجاوَزوا به الحدَّ، وهم يترَدَّدونَ متحيِّرينَ، لا يُفَرِّقونَ بينَ الحقِّ والباطلِ.

ويخبِرُ تعالى أنَّه قد أخَذهم بالعذابِ في الدنيا؛ كإصابتِهم بالفقرِ والجوعِ وغيرِ ذلك، فما خَضَعوا لربِّهم، وما تَضَرَّعوا إليه سُبحانَه بالدُّعاءِ الخالِصِ لِيَكشِفَ عنهم البَلاءَ الَّذي حلَّ بهم، بلِ استَمرُّوا على جُحودِهم وعِنادِهم، حتَّى إذا فتَح الله عليهم بابًا مِنَ العذابِ الشَّديدِ إذا هم فيه نادِمونَ على ما فَعلوه مِن كفرٍ وتكذيبٍ بالحقِّ، آيِسُونَ مِن كلِّ نَجاةٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا زيَّفَ اللهُ سُبحانَه وتَعالى طَريقةَ القَومِ؛ أتبَعَه ببَيانِ صِحَّةِ ما جاء به الرَّسولُ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى أعقَبَ تَنزيهَ الرَّسولِ عمَّا افتراهُ المُشرِكونَ عليه، بتَنزيهِ الإسلامِ عمَّا وَسَمُوه به مِنَ الأباطيلِ، والتَّنزيهِ بإثباتِ ضِدِّ ذلك؛ وهو أنَّه صِراطٌ مُستقيمٌ، أي: طريقٌ لا الْتِواءَ فيه، ولا عَقَباتٍ[2].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كانتْ عَظَمةُ المَلِكِ مُقْتَضِيةً لِتَقبُّلِ ما أتَى به، والتَّشرُّفِ به على أيِّ حالٍ كان؛ نبَّهَ على أنَّه حقٌّ، يُكسِبُ قَبولُه الشَّرفَ لو لم يكُنْ مِن عندِ المَلِكِ؛ فكيف إذا كان مِن عِندِه؟! فكيف إذا كان مَلِكَ المُلوكِ ومالِكَ المُلْكِ؟! فكيف

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٨).

إذا كان الآتِي به خالِصةَ العِبادِ، وأشرَفَ الخلْقِ؟! كما قام عليه الدَّليلُ بنَفْيِ هذه المطاعِنِ كلِّها، فقال عاطِفًا على ﴿أَتَيْنَٰهُم﴾[1] [المؤمنون: ٧١]:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: وإنَّك -يا محمَّدُ- لَتَدْعُو مُشركي قَومِك إلى طَريقٍ مُستقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه، وهو دِينُ الإسلامِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧].

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

أي: وإنَّ المُكذِّبينَ بالبَعثِ بَعدَ المَوتِ لَمُنحرِفونَ عن طَريقِ الحَقِّ المُستقيمِ، المُوصِلِ إلى اللهِ وإلى جنَّتِه، فصائِرونَ إلى النَّارِ[3].

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: ولو رَحِمْنا هؤلاء الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ، ورفَعْنا ما أصابَهم مِن عذابِ الدُّنيا مِن قَحْطٍ وجَدْبٍ وفَقرٍ؛ لَتَمادَوْا واستَمرُّوا في كُفرِهم وضَلالِهم الَّذي تَجاوَزوا فيه الحَدَّ، وهم يَتردَّدونَ حيَارى لا يُميِّزونَ الحقَّ مِنَ الباطِلِ[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٩، ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٤، ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٥).

وقال ابنُ جزي (﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ ...﴾ الآيَةَ: قال الأكثرونَ: نزلَتْ هذه الآيةُ حينَ دعا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على قريشٍ بالقحطِ فنالهم الجوعُ حتَّى أكلوا الجلودَ وغيرَها، =

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّها استِدلالٌ على مَضمونِ قولِه: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، بسابِقِ إصرارِ المُشرِكينَ على الشِّركِ، والإعراضِ عن الالْتِجاءِ إلى اللهِ، وعدَمِ الاتِّعاظِ بأنَّ ما حَلَّ بهم مِن العذابِ هو جَزاءُ شِرْكِهم[1].

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: ولقدْ أصَبْناهم بعَذابِ الدُّنيا -كإصابتِهم بالجُوعِ وغَيرِه- فما خَضَعوا لربِّهم بالانقيادِ لأوامِرِه، واجتِنابِ نواهِيهِ، وما دَعَوْه بخُشوعٍ وتذَلُّلٍ وافتِقارٍ؛ لِيَرفَعَ عنهم البلاءَ الذي أصابَهم[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٤].

= فالمعنى رحِمناهم بالخِصبِ، وكشَفنا ما بهم مِن ضرِّ الجوعِ والقحطِ: لتَمَادَوا على طغيانِهم. وفي هذا عندي نظرٌ؛ فإنَّ الآيةَ مكِّيَّةٌ باتِّفاقٍ، وإنَّما دعا النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على قريشٍ بعدَ الهجرةِ حسَبما ورَد في الحديثِ. وقيل: المعنى: لو رحِمْناهم بالردِّ إلى الدُّنيا لعادُوا لِمَا نُهُوا عنه، وهذا القولُ لا يلزمُ عليه ما لزِم على الآخَرِ، ولكنَّه خرَج عن معنَى الآيةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٥).

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤- ٩٥].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٧ ﴾.

أي: حتَّى إذا فتَحْنا عليهم عَذابًا شديدًا، إذا هم في ذلك العَذابِ الشَّديدِ نادِمونَ على ما صدَرَ منهم مِن كُفْرٍ وتَكذيبٍ بالحَقِّ، آيِسُونَ مِن حُصولِ الخَيرِ والفَرَجِ والنَّجاةِ(١)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٣).

واختلَفَ المفسِّرون في المُرادِ بالعذابِ الشَّديدِ هنا؛ فقيل: هو الجوعُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ ابن سليمان، وابن جرير، والبيضاوي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٧٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: ٤٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٨).

قال ابنُ عطية: (العذابُ الشديدُ، إمَّا يوم بدرٍ بالسيوفِ كما قال بعضُهم، وإمَّا توعُّدٌ بعذابٍ غيرِ معيَّنٍ، وهو الصوابُ؛ لِما ذكرناه مِن تقدُّمِ بدرٍ للمجاعةِ، ورُويَ عن مجاهدٍ أنَّ العذابَ والبابَ الشديدَ هو كلُّه مجاعةُ قريشٍ. وهذا حسَنٌ، كأنَّ الأخذَ كان في صدرِ الأمرِ ثم فُتح البابُ عندَ تناهيهِ حيثُ أُبلِسوا وجاء أبو سفيانَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٢). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٣).

وقيل: المرادُ: عذابُ الآخرةِ، كما ينبئُ عنه التَّهويلُ بفتحِ البابِ، والوصفِ بالشِّدَّةِ. وممَّن قال بذلك: أبو السعودِ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٦).

قال ابن كثير: (أي: حتَّى إذا جاءهم أمرُ اللهِ وجاءتْهم السَّاعةُ بَغتةً، وأخَذَهم مِن عقابِ اللهِ ما لم يكونوا يحتَسِبونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٧). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾، ذكَر اللهُ تعالى في هذه الآياتِ الكريماتِ والتي قبْلَها كلَّ سَببٍ مُوجِبٍ للإيمانِ، وذكَرَ الموانِعَ، وبيَّنَ فَسادَها، واحدًا بَعْدَ واحدٍ، فذكَر مِنَ الموانِعِ: أنَّ قُلوبَهم في غَمرةٍ، وأنَّهم لم يَدَّبَّروا القولَ، وأنَّهم اقْتَدَوا بآبائِهم، وأنَّهم قالوا برسولِهم جِنَّةٌ، وذكَرَ مِنَ الأُمورِ المُوجِبةِ لإيمانِهم: تَدبُّرَ القُرآنِ، وتَلقِّيَ نعمةِ اللهِ بالقَبولِ، ومعرفةَ حالِ الرَّسولِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكمالِ صدقِه وأمانتِه، وأنَّه لا يسألُهم عليه أجْرًا، وإنَّما سعيُه لنفعِهم ومصلحتِهم، وأنَّ الَّذي يَدْعوهم إليه صِراطٌ مُستقيمٌ، سَهْلٌ على العاملينَ لِاستقامَتِه، مُوصِلٌ إلى المقصودِ مِن قُربٍ، حَنيفيَّةٌ سَمْحةٌ؛ حَنيفيَّةٌ في التَّوحيدِ، سَمْحةٌ في العمَلِ، فدَعوتُك إيَّاهم إلى الصِّراطِ المُستقيمِ مُوجِبٌ لمَن يُريدُ الحقَّ أنْ يَتَّبِعَك؛ لأنَّه ممَّا تَشهَدُ العُقولُ والفِطَرُ بحُسْنِه، ومُوافقَتِه للمصالِحِ، فأين يَذْهَبون إنْ لم يُتابِعوك[1]؟!

= وقيل: المُرادُ بالعذابِ الشَّديدِ: عذابُ السَّيفِ يومَ بدْرٍ. وممَّن قال بذلك: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤١٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٨).

قال السعدي: (لكنْ وراءَهم العذابُ الذي لا يُردُّ، وهو قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾؛ كالقتلِ يومَ بدرٍ وغيرِه، ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيِسونَ مِن كلِّ خيرٍ، قد حضرهم الشرُّ وأسبابُه، فلْيَحْذَروا قبْلَ نزولِ عذابِ الله الشديدِ، الذي لا يُرَدُّ، بخلافِ مجرَّدِ العذابِ؛ فإنَّه ربَّما أقلع عنهم، كالعقوباتِ الدنيويَّةِ التي يؤدِّبُ الله بها عبادَه، قال تعالى فيها: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦).

٢- اللهُ تعالى يَبْتلي عبْدَه؛ لِيَسمَعَ شَكواهُ وتَضرُّعَه ودُعاءَه، وقد ذَمَّ سُبحانَه مَن لم يَتضرَّعْ إليه ولم يَستكِنْ له وقْتَ البلاءِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، والعبْدُ أضعَفُ مِن أنْ يَتجلَّدَ على رَبِّه، والرَّبُّ تعالى لم يُرِدْ مِن عَبْدِه أنْ يَتجلَّدَ عليه، بلْ أراد منه أنْ يَستكينَ له ويَتضرَّعَ إليه، وهو تَعالى يَمقُتُ مَن يَشْكوهُ إلى خلْقِه، ويُحِبُّ مَن يَشْكُو ما به إليه. وقيلَ لِبَعضِهم: كيف تَشْتَكي إليه ما ليس يَخْفَى عليه؟ فقال: ربِّي يَرْضَى ذُلَّ العبْدِ إليه[(١)].

٣- المُؤمِنُ مَن يَستكينُ قَلْبُه لِرَبِّه، ويَخشَعُ له ويَتواضَعُ، ويُظهِرُ مَسْكنَتَه وفاقَتَه إليه في الشِّدَّةِ والرَّخاءِ؛ أمَّا في حالةِ الرَّخاءِ: فإظهارُ الشُّكرِ، وأمَّا في حالِ الشِّدَّةِ: فإظهارُ الذُّلِّ والعُبوديَّةِ، والفاقةِ والحاجةِ إلى كشْفِ الضُّرِّ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ فذَمَّ مَن لا يَستكينُ لِرَبِّه عِندَ الشِّدَّةِ، وكان النَّبيُّ يَخرُجُ عندَ الاستِسقاءِ مُتواضِعًا مُتخشِّعًا مُتمسْكِنًا[(٢)].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ هذا تَعذيبٌ لهم في الدُّنيا؛ لِيَتضرَّعوا إليه ولِيَتُوبوا، وذَكَر سُبحانَه هنا أنَّه أخَذَهم بالعذابِ، ولم يقُلْ: بالذُّنوبِ؛ كأنَّه -واللهُ أعلَمُ- ضمَّنَ ذلك معنَى: جذَبْناهم إلينا؛ لِيُنِيبوا

---

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ١١٥).
ويُنظر في صفةِ خروجِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم للاستسقاءِ ما رواه أبو داود (١١٦٥)، والترمذي (٥٥٨)، والنسائي (١٥٢١)، وابن ماجه (١٢٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
قال الترمذيُّ: (حسنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه النوويُّ في ((المجموع)) (٥/ ٦٦)، وابن الملقِّن في ((البدر المنير)) (٥/ ١٤٣)، وحسَّنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٧٦)، والألبانيُّ في ((صحيح ابن ماجه)) (١٠٥٣).

ولِيَتوبوا، ويَسْتَكينوا ويَتضرَّعوا، وإذا قال: فأخَذَهم اللهُ بذنوبِهم، يكونُ قد أهلَكَهم، فأخَذَهم إليه بالإهلاكِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

- فيه تَعريضٌ بالَّذين اعْتَقَدوا خِلافَ ذلك. والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) واللَّامِ في ﴿لَتَدْعُوهُمْ﴾ باعتِبارِ أنَّه مَسوقٌ للتَّعريضِ بالمُنكِرينَ على ما دَعاهم إليه النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكذلك التَّوكيدُ في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وُصِفُوا بذلك؛ تَشنيعًا لهم بما هُم عليهِ مِن الانهماكِ في الدُّنيا، وزَعْمِهم أنْ لا حياةَ إلَّا الحياةُ الدُّنيا، وإشعارًا بعِلَّةِ الحُكمِ؛ فإنَّ الإيمانَ بالآخرةِ وخَوفَ ما فيها مِن الدَّواهي مِن أَقْوى الدَّواعي إلى طَلبِ الحقِّ وسُلوكِ سَبيلِه[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾ للجِنْسِ، أي: هم ناكِبونَ عن الصِّراطِ مِن حيثُ هو؛ حيث لم يَتطلَّبوا طَريقَ نَجاةٍ، فهم ناكِبونَ عنِ الطَّريقِ، بَلْهَ الطَّريقَ المُستقيمَ؛ ولذلك لم يكُنِ التَّعريفُ في قولِه: ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ للعهْدِ بالصِّراطِ المذكورِ؛ لأنَّ تَعريفَ الجِنْسِ أتَمُّ في نِسْبَتِهم إلى الضَّلالِ؛ بقَرينةِ أنَّهم لا يُؤمِنون بالآخرةِ الَّتي هي غايةُ العامِلِ مِن عمَلِه، فهُم إذَنْ ناكِبونَ عن كلِّ صِراطٍ

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٥).

مُوصِّلٍ؛ إذ لا هِمَّةَ لهم في الوُصولِ[١].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ على أنَّ معنَى الآيةِ: إنَّ هؤلاء -وَصِفَتُهم أنَّهم لا يُؤمِنون بالآخرةِ- لَناكِبُونَ؛ ففيه: إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ حيث عَدَلَ عن أنْ يَقولَ: (وإنَّهم عن الصِّراطِ لناكِبون)؛ لِيُؤْذِنَ بأنَّ مُنكِرَ الحَشرِ ناكبٌ عن الصِّراطِ المُستقيمِ الَّذي هو دِينُ الإسلامِ، وأنَّ مَبْنى دِينِ الإسلامِ على الإيمانِ باليومِ الآخِرِ. أو المعنى: أنَّ كلَّ مَن لا يُؤمِنُ بالآخِرةِ فهو عن القَصدِ ناكِبٌ؛ فعلى هذا لا يكونُ مِن إقامةِ المُظهَرِ مُقامَ المُضْمرِ، بلِ الجُملةُ تَذييلٌ؛ فيَدخُلُ هؤلاء دُخولًا أوَّلِيًّا في هذا المقامِ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ﴾ (لو) هنا داخِلةٌ على الفِعْلِ الماضي المُرادِ منه الاستِقبالُ بقَرينةِ المَقامِ؛ إذ المَقامُ للإنذارِ والتَّأييسِ مِن الإغاثةِ عندَ نُزولِ العذابِ الموعودِ به، وليس مَقامَ اعتذارٍ مِن اللهِ عن عدَمِ استجابَتِه لهم، أو عن إمساكِ رَحمَتِه عنهم؛ لِظُهورِ أنَّ ذلك لا يُناسِبُ مَقامَ الوعيدِ والتَّهديدِ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للاستشهادِ على مَضمونِ الشَّرطيَّةِ في قولِه: ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾. واللَّامُ في (لَقَدْ) جَوابُ قَسمٍ مَحذوفٍ، أي: وباللهِ لقد أخَذْناهُم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٩).

بالعذابِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قَبلَه، أي: وليس مِن عادَتِهم التَّضرُّعُ إليه تعالى[٢]. أو هو مَعطوفٌ على ﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾، ولمْ تُراعَ المُوافَقةُ بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه في كَونِهما ماضيينِ أو مُضارعينِ؛ وذلك لأنَّ ﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾ على ظاهِرِه؛ لأنَّه مُرتَّبٌ على قولِه: ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾، وأمَّا ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ فعُدولٌ عنِ الظَّاهرِ؛ لِتَوخِّي الاستمرارِ على عدَمِ التَّضرُّعِ والدَّوامِ عليه[٣].

- وقولُه: ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿يَعْمَهُونَ﴾، قُدِّمَ عليه؛ للاهتِمامِ بذِكْرِه، ولرِعايةِ الفاصلةِ[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾

- فَتْحُ البابِ في قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا﴾ فيه تَمثيلٌ لِمُفاجأَتِهم بالعذابِ بَعدَ أنْ كان مَحْجوزًا عنه؛ شُبِّهَت هَيئةُ إصابَتِهم بالعذابِ بَعدَ أنْ كانوا في سَلامةٍ وعافيةٍ بهَيئةِ ناسٍ في بَيتٍ مُغلَقٍ عليهم، ففُتِحَ عليهم بابُ البيتِ مِن عَدُوٍّ مَكروهٍ. أو شُبِّهَت هَيئةُ تَسليطِ العذابِ عليهم بهَيئةِ بابٍ اختُزِنَ فيه العَذابُ، فلمَّا فُتِحَ البابُ انهالَ العَذابُ عليهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٠٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث وُصِفَ البابُ هنا بكونِه ﴿ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ دونَ أنْ يُضافَ (باب) إلى (عذاب)، فيُقالُ: (بابَ عذابٍ)، كما قال تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣]؛ لأنَّ ﴿ذَا عَذَابٍ﴾ يُفِيدُ مِن شِدَّةِ انتِسابِ العذابِ إلى البابِ ما لا تُفِيدُه إضافةُ (بابٍ) إلى (عذابٍ)، ولِيتأتَّى بذلك وَصْفُ (عذاب) بـ ﴿شَدِيدٍ﴾، بخِلافِ قولِه: ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾؛ فقدِ اسْتُغْنِيَ عن وَصْفِه بـ(شديد) بأنَّه مَعمولٌ لِفِعْلِ (صَبَّ) الدَّالِّ على الوَفرةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٢).

الآيات (٧٨-٨٢)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ذَرَأَكُمْ﴾: أي: أنشَأَكُم، وبثَّكُم، وخلَقَكُم، وأصْلُ (ذرأ): كالشَّيءِ يُبذَرُ ويُزرَعُ[(١)].

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: الأساطيرُ: الأباطيلُ والتُّرَّهاتُ، جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ الشَّيءِ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يمتنُّ اللهُ تعالى على عبادِه بأنَّه هو الَّذي أنشَأَ لهم السَّمعَ الذي به يسمعونَ، والأبصارَ التي بها يبصرونَ، والقلوبَ التي بها يعقلونَ، لكِنَّهم لا يشْكُرونَ اللهَ إلَّا شُكرًا قَليلًا.

ويخبرُ أيضًا أنَّه هو الَّذي خلَقَهم وبثَّهم في الأرضِ، وإليه وَحْدَه يُجمَعونَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

يومَ القيامةِ للحِسابِ، وأنَّه هو وحْدَه الَّذي يُحيي ويُميتُ، وله اختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ، فهما يتعاقبانِ بقدرتِه؛ أفليس لهم عقولٌ يُدركونَ بها ذلك؟!

لكِنْ هؤلاء الكفَّارُ لا يعقِلونَ تلك الأدلَّةَ، بل أنكَروا البَعثَ، فقالوا مِثلَ ما قال أسْلافُهم المنكِرونَ له؛ قالوا: إذا مِتْنا وصِرْنا ترابًا وعظامًا في قبورِنا هل نُبعثُ بعد ذلك؟! هذا لا يكونُ أبدًا، لقد وُعِدَ آباؤُنا بمِثْلِ هذا مِن قَبْلُ، كما وُعِدْنا نحنُ به الآنَ، لكن لم نَرَ لهذا الوعدِ حقيقةً، ما هذا البعثُ الذي وُعِدنا به إلَّا أكاذيبُ الأوَّلينَ ورواياتُهم المختلقةُ الَّتي سَطَّروها مِنْ عندِ أنفُسِهم في كتُبِهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

بعدَ أنْ ذكَر سبحانَه إعراضَ المشركينَ عن سماعِ الأدلَّةِ، ورؤيةِ العِبَرِ والتأمُّلِ في الحقائقِ- أردفَ ذلك الامتِنانَ على عبادِه بأنَّه قد أعطاهم الحواسَّ؛ مِن السمعِ والبصرِ وغيرِهما، ووفَّقهم لاستعمالِها، وكان مِن حقِّهم أن يَسْتفيدوا بها؛ لِيَستبينَ لهم الرُّشدُ مِن الغَيِّ، لكنَّها لم تُغْنِ عنهم شيئًا، فكأنَّهم فقَدوها، كما قال: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[1] [الأحقاف: ٢٦].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الَّذي أوجَدَ لكم[2] السَّمعَ الَّذي تَسمَعونَ به، والأبصارَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٨/ ٤٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٩).

(٢) قيل: الخطابُ للمُكذِّبينَ بالبعثِ. وممن قال به: ابنُ جرير، ومكِّي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦)، ((الهداية)) لمكِّي (٧/ ٤٩٩٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٩٩). =

الَّتي تُبصِرونَ بها، والقُلوبَ الَّتي تَعقِلونَ بها، فتَنتَفِعونَ بها في مَصالحِ دِينِكم ودُنياكم[١].

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

أي: لا تَشْكُرونَ اللهَ إلَّا شُكرًا قَليلًا على ما أنْعَمَ به عليكم[٢].

= وقيل: الخطابُ للمؤمنينَ. وممن قال به: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٩).

وقيلَ: الخطابُ لِعُمومِ العِبادِ. اختاره أبو حيان، وهو ظاهرُ عبارةِ ابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٤).

قال ابنُ جرير: (يقول تعالى ذِكرُه: واللهُ الذي أحدَث لكم -أيُّها المكذِّبون بالبعثِ بعدَ المماتِ- السمعَ الذي تسمعونَ به، والأبصارَ التي تُبصرونَ بها، والأفئدةَ التي تفقهونَ بها؛ فكيفَ يتعذَّرُ على مَن أنشأَ ذلك ابتِداءً إعادتُه بعدَ عدمِه وفقْدِه، وهو الذي يُوجِدُ ذلك كلَّه إذا شاء، ويُفنيه إذا أراد؟!) ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦).

وقال ابنُ كثير: (ذكر تعالى نعمتَه على عبادِه في أن جعَل لهم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ، وهي العقولُ والفهومُ التي يُدركونَ بها الأشياءَ، ويَعتبرونَ بما في الكونِ مِن الآياتِ الدالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وأنَّه الفاعلُ المختارُ لِما يشاءُ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦).

قال ابنُ عاشور: (إنْ كان الخِطابُ للمُشرِكينَ فالشُّكرُ مُرادٌ به التَّوحيدُ، أي: فالشُّكرُ الصَّادِرُ منكم قَليلٌ بالنِّسبةِ إلى تَشريكِكم غيرَه معه في العِبادةِ. وإنْ كان الخِطابُ لجميعِ النَّاسِ فالشُّكرُ عامٌّ في كلِّ شُكرِ نِعْمةٍ، وهو قليلٌ بالنِّسبةِ لِقلَّةِ عَددِ الشَّاكرينَ؛ لأنَّ أكثَرَ النَّاسِ مُشرِكونَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]. وإنْ كان الخِطابُ للمُسلمينَ والمقصودُ التَّعريضُ بالمشركينَ، فالشُّكرُ عامٌّ، وتَقليلُه تَحريضٌ على الاستِزادةِ منه ونبْذِ الشِّركِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٤).

ممن اختار أن المراد أنهم يشكرون شكرًا قليلًا: ابنُ جرير، والرسعني، والقرطبي، وابن =

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: واللهُ هو الَّذي خلَقَكم وبثَّكم -أيُّها النَّاسُ- بالتَّناسُلِ في سائِرِ جِهاتِ الأرضِ، على اخْتِلافِ أجناسِكم وصِفاتِكم ولُغاتِكم(١).

= جزي، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٠٠).

قال الشِّنقيطي: (قَولُه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ نَعتٌ لمَصدَرٍ، أي: تَشكُرونَ شُكرًا قليلًا. و «ما» تأكيدٌ للقِلَّةِ، ولفظةُ «ما» تأتي لتأكيدِ النَّكِرةِ في قِلَّتِها وحقارتِها. قال بعضُ العُلَماءِ: لا يخلو أحدٌ مِنْ شُكْرٍ في الجُملةِ إلَّا أنَّه شُكرٌ قَليلٌ، والشُّكرُ القَليلُ لا يفيدُ؛ لأنَّ مَن عَمِلَ ببَعضِ الكِتابِ وتَرَكَ أكثَرَه كمَن لم يعمَلْ به، كما قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، وبَعضُ عُلَماءِ التَّفسيرِ يقولون: إنَّ القرآنَ تُطلَقُ فيه القِلَّةُ ويُرادُ العَدَمُ، والمرادُ: لا تَشكُرونَ النِّعمةَ أصلًا؛ لأنَّ المفرِّطَ المُستَعمِلَ أغلَبَ نِعَمِ اللهِ فيما يُسخِطُ اللهَ لا يُعَدُّ مِن الشَّاكِرينَ. وهذا التَّفسيرُ مُخالِفٌ لظاهِرِ القُرآنِ؛ لأنَّ القُرآنَ دَلَّ على أنَّ هناك شُكرًا قليلًا، ولا تجوزُ مُخالفةُ ظاهِرِ القُرآنِ إلَّا لدَليلٍ يجِبُ الرُّجوعُ إليه مِن كتابٍ أو سُنَّةٍ، أمَّا استِعمالُ القِلَّةِ في العَدَمِ فهو استِعمالٌ صَحيحٌ في لُغةِ العَرَبِ مَعروفٌ لا شَكَّ فيه بينَ العُلَماءِ.... ولكِنَّ هذا الإطلاقَ وإن كان صَحيحًا في لُغةِ العَرَبِ فظاهِرُ القُرآنِ يُخالِفُه ويدُلُّ على أنَّه لا يخلو إنسانٌ مِن شُكرٍ في الجُملةِ، إلَّا أنَّ الشُّكرَ القَليلَ مع الكُفرِ الكثيرِ لا يَنفَعُ). ((العذب النمير)) (٣/ ١٠٠) بتصرُّفٍ يسيرٍ.

وقال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرونَ: يريدُ أنَّهم لا يشكرونَ أصلًا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٩).

وممَّن اختار هذا القولَ: السمعانيُّ، والبغوي، والخازن، والعليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تُجمَعونَ يومَ القِيامةِ، فيُحْييكم بَعْدَ مَوتِكم لِيُحاسِبَكم ويُجازِيَكم بما عَمِلتُم مِن خَيرٍ وشَرٍّ[(١)].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه الَّذي يُحْيي خَلْقَه بنَفخِ الرُّوحِ فيهم، وهو يُمِيتُهم بَعدَ أنْ أحْياهم[(٢)].

﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن الإحياءِ خَلقُ الإيقاظِ، ومِن الإماتةِ خَلقُ النَّومِ،كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] الآيةَ؛ عَطَف على ذلك أنَّ

= كثير)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٦).

بقُدرتِه اختِلافَ اللَّيلِ والنَّهارِ؛ لتِلك المُناسَبةِ[١].

وأيضًا لَمَّا كانت حَقيقةُ البَعثِ إيجادَ الشَّيءِ كما هو بَعْدَ إعْدامِه؛ ذَكَّرَهم بأمْرٍ طالَمَا لابَسوهُ وعالَجوهُ ومارسوهُ، فقال[٢]:

﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

أي: وللهِ وَحْدَه اختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ، فهو الذي جعَلَهما يَتناوبانِ ويتعاقبان بقُدرتِه سُبحانَه، فيَذهبُ باللَّيلِ، ويأْتي بالنَّهارِ، ثُمَّ يَذهبُ بالنَّهارِ، ويَأْتي باللَّيلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٧).

ممَّن اختار أنَّ الاختلافَ هنا بمعنَى التَّعاقبِ: ابنُ عطية، وأبو حيان، وابنُ كثير، والعُليمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٧).

وممَّن اختار أنَّ الاختِلافَ هنا في الزِّيادةِ والنُّقصانِ: السمعانيُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٥).

قال الماوَرْديُّ: (قَولُه: ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فيه قولانِ: أحَدُهما: بالزِّيادةِ والنُّقصانِ. الثاني: تكَرُّرُهما يومًا بعدَ ليلةٍ، وليلةً بعدَ يَومٍ. ويحتَمِلُ ثالثًا: اختِلافُ ما مضى فيهما مِن سَعادةٍ وشَقاءٍ، وضَلالٍ وهُدًى). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٦٤).

وذكر الواحدي أنَّ قَولَه: ﴿ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فُسِّرَ بتَفسيرينِ يَرجِعانِ إلى أصلٍ واحِدٍ: الأوَّلُ: هو تَعاقُبُهما في الذَّهابِ والمجيءِ. والثَّاني: اختِلافُهما في الطُّولِ والقِصَرِ، والنُّورِ والظُّلمةِ، والزِّيادةِ والنُّقصانِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٣).

وقال ابن الجوزي: (قَولُه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: هو الذي جعَلَهما مُختَلفَينِ، يتَعاقَبانِ، ويختَلِفانِ في السَّوادِ والبَياضِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٩).

وقال النَّسَفي: (﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: مَجيءُ أحَدِهما عَقِيبَ الآخَرِ، واختِلافُهما في الظُّلمةِ والنُّورِ، أو في الزِّيادةِ والنُّقصانِ). ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٧٧). =

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

أي: أفليسَتْ لكم عُقولٌ تُدرِكونَ بها أنَّ الَّذي خلَقَ لكم السَّمعَ والأبصارَ والأفئدةَ، وذرَأَكم في الأرضِ، ويُحْيي ويُمِيتُ، وله اختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ -هو المُستحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له، وأنَّه القادِرُ على بَعْثِكم بَعدَ مَوتِكم[1]؟!

﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

= قال القرطبي: (﴿... وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾، أي: جعْلُهما مُخْتلفينِ، كقولك: لك الأجرُ والصِّلةُ، أي: إنَّك تُؤجَرُ وتُوصَلُ، قاله الفرَّاء. وقيلَ: اختلافُهما: نُقْصانُ أحدِهما وزيادةُ الآخَرِ. وقِيلَ: اختلافُهما في النُّورِ والظُّلمةِ. وقِيلَ: تكرُّرُهما يومًا بَعدَ ليلةٍ، وليلةً بَعدَ يومٍ. ويَحتمِلُ خامسًا: اختلافُ ما مَضى فيهما مِن سَعادةٍ وشَقاءٍ، وضلالٍ وهُدًى). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٤٠).

وقال البقاعي: (﴿وَلَهُ ﴾ أي: وَحْدَه لا لِغَيرِه ﴿ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي: التصَرُّفُ فيهما على هذا الوَجهِ، يُوجِدُ كلًّا منهما بعدَ أن أعدَمَه، كما كانا سواءً؛ فدلَّ تعاقبُهما على تغَيُّرِهما، وتغيُّرُهما بذلك وبالزِّيادةِ والنَّقصِ على أنَّ لهما مُغَيِّرًا لا يتغَيَّرُ، وأنَّه لا فِعلَ لهما، وإنَّما الفِعلُ له وَحْدَه، وأنَّه قادِرٌ على إعادةِ المعدومِ كما قَدَر على ابتدائِه بما دلَّ على قُدرتِه، وبهذا الدَّليلِ الشُّهوديِّ للحامِدينَ؛ ولذلك ختَمَه بقولِه مُنكِرًا تَسبيبَ ذلك لعَدَمِ عَقلِهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي: يكونُ لكم عُقولٌ؛ لتَعرِفوا ذلك فتَعمَلوا بما تَقتَضيه مِن اعتقادِ البَعثِ الذي يُوجِبُ سُلوكَ الصِّراطِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أوضَحَ اللهُ سُبحانَه القولَ في دَلائلِ التَّوحيدِ؛ عقَّبَه بذِكْرِ المَعادِ، فقال: ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ في إنْكارِ البَعثِ مع وُضوحِ الدَّلائلِ[1].

﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

أي: هم لا يَعقِلونَ تلك الأدِلَّةَ والحُجَجَ، ولا يَعتَبِرونَ بها، ولكنَّهم يقولونَ بإنكارِ البَعثِ بَعدَ الموتِ، كما قال أسلافُهم المُكذِّبون به[2]!

﴿ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

أي: قالوا: أإذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا وعِظامًا في قُبورِنا، أإنَّا لَمُعادونَ بَعدَ ذلك أحياءً؟! ذلك أمْرٌ لا يُعقَلُ، ولا يكونُ أبدًا[3]!

كما قال تعالى: ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الواقعة: ٤٧-٤٨].

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ ﴾.

أي: لقد سبَقَ أنْ وُعِدَ آباؤُنا[4] مِن قَبْلِنا بالبَعثِ، كما وُعِدْنا نحنُ به، ولم نَرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧).

(٤) قال ابن عطية: (وقولهم ﴿وَءَابَآؤُنَا﴾ إن حكَى المقالةَ عن العربِ فمرادُهم مَن سلَف مِن العالمِ، جعلوهم آباءً مِن حيثُ النوعُ واحدٌ، وإن حكَى ذلك عن الأوَّلينَ فالأمرُ مستقيمٌ فيهم). ((تفسير =

له حَقيقةً[١].

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: ما هذا البَعثُ الَّذي وُعِدْنا به إلَّا أخبارٌ باطِلةٌ، وقَصَصٌ وأحاديثُ خُرافيَّةٌ، ورِواياتٌ مُخْتَلَقةٌ لا صِحَّةَ لها، سطَّرَها الأوَّلونَ في كُتُبِهم؛ بقَصدِ المُسامَرةِ والتَّلهِّي بها[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فذَكَر أنَّه قد جعَلَ لهم ما يُدرِكونَ به المسموعاتِ والمُبصَراتِ والمعقولاتِ؛ إيضاحًا للحُجَّةِ، وقَطعًا للمَعذِرةِ، وذمًّا لهم على عدَمِ شُكرِ نِعَمِ اللهِ؛ ولهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فيه ثلاثةُ مَعانٍ: أحدُها: إظهارُ النِّعمةِ. وثانيها: مُطالَبةُ العبادِ بالشُّكرِ عليها. وثالِثُها: الشِّكايةُ أنَّ الشَّاكِرَ قَليلٌ[٤]، والشُّكرُ هو القيامُ بطاعةِ المُنعِمِ إقرارًا بالقَلبِ، واعترافًا باللِّسانِ، وعَمَلًا بالأركانِ، فيَعترِفُ بقَلبِه أنَّها مِن اللهِ، كذلك أيضًا

= ابن عطية)) (٤/ ١٥٣).

وقال الشنقيطي: (والظَّاهرُ أنَّهم يَعْنُونَ أجدادَهم، الَّذينَ جاءَتهم الرُّسلُ، وأخْبَرتْهم بأنَّهم يُبْعَثونَ بعدَ الموتِ للحسابِ والجزاءِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١٣٠).

يتحَدَّثُ بها بلِسانِه اعترافًا لا افتِخارًا، وكذلك أيضًا يقومُ بطاعةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بجَوارِحِه؛ وبهذه الأركانِ الثَّلاثةِ يكونُ الشُّكرُ(١).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّ مَن لم يُعمِلْ هذه الأعضاءَ فيما خلَقَهُ اللهُ تعالى، وتدبَّرَ ما أودعَه فيها مِن الدَّلائلِ على وَحدانيَّتِه وباهِرِ قُدرتِه: فهو كعادِمِ هذه الأعضاءِ(٢).

٢- قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ هذه الأعضاءُ الثَّلاثةُ هي أمَّهاتُ ما يُنالُ به العِلمُ ويُدرَكُ، أعني العِلمَ الذي يمتازُ به البَشَرُ عن سائِرِ الحيواناتِ دونَ ما يُشارِكُها فيه مِنَ الشَّمِّ والذَّوقِ واللَّمسِ، وهنا يُدرِكُ به ما يُحِبُّ ويَكرَهُ، وما يمَيِّزُ به بينَ مَن يُحسِنُ إليه ومَن يُسيءُ إليه، إلى غيرِ ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، وقال: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ [البقرة: ٧]، وقال فيما لكُلِّ عُضوٍ مِن هذه الأعضاءِ مِن العَمَلِ والقُوَّةِ: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ﴾(٣) [الأعراف: ١٧٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣٠٩).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾

- هذا رُجوعٌ إلى غرَضِ الاستدلالِ على انفِرادِ اللهِ تَعالى بصِفاتِ الإلهيَّةِ، والامتنانِ بما منَحَ النَّاسَ مِن نِعمةٍ؛ لعلَّهم يَشكُرون بتَخصيصِه بالعِبادةِ، وذلك قدِ انتقَلَ عنه مِن قولِه: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]؛ فانتقَلَ إلى الاعتبارِ بآيةِ فُلكِ نُوحٍ عليه السَّلامُ، فأتْبَعَ بالاعتبارِ بقَصصِ أقوامِ الرُّسلِ عقِبَ قولِه تعالى: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]؛ فالجُملةُ إمَّا مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾ [المؤمنون: ٢١]، والغرَضُ واحدٌ، وما بيْنَهما انتقالاتٌ، وإمَّا مُستأْنَفةٌ؛ رُجوعًا إلى غرَضِ الاستدلالِ والامتِنانِ. وفي هذا الانتِقالِ مِن أُسلوبٍ إلى أُسلوبٍ، ثمَّ الرُّجوعِ إلى الغرَضِ: تَجديدٌ لِنَشاطِ الذِّهنِ، وتَحريكٌ للإصغاءِ إلى الكلامِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ خصَّ السَّمعَ والأبصارَ والأفئدةَ بالذِّكرِ؛ لأنَّه يَتعلَّقُ بها مِن المنافِعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ ما لا يَتعلَّقُ بغَيرِها؛ مِن إعمالِ السَّمعِ والبصَرِ في آياتِ اللهِ، والاستِدلالِ بفِكْرِ القَلْبِ على وَحدانيَّةِ اللهِ وصِفاتِه[٢].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ ...﴾ لَمَّا عَبَدوا غيرَه نُزِّلُوا مَنزِلةَ مَن جَهِلَ أنَّه الَّذي أنشَأَ لهم السَّمعَ، فأتَى لهم بكَلامٍ مُفيدٍ لقَصرِ القَلبِ أو الإفرادِ، أي: اللهُ الَّذي أنشَأَ ذلك دونَ أصنامِكم. والخِطابُ للمُشرِكين على طَريقةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٠).

الالْتِفاتِ، أو لجَميعِ النَّاسِ، أو للمُسلِمينَ، والمقصودُ منه التَّعريضُ بالمُشرِكين[١].

- وفي قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ جمَعَ الأبصارَ والأفئدةَ باعتبارِ تَعدُّدِ أصحابِها. وأمَّا إفرادُ السَّمعِ: فجَرَى على الأصْلِ في إفرادِ المصدرِ؛ لأنَّ أصلَ السَّمعِ أنَّه مَصدرٌ. وقيل: الجَمعُ باعتبارِ المُتعلِّقاتِ؛ فلمَّا كان البصرُ يَتعلَّقُ بأنواعٍ كثيرةٍ مِن المَوجوداتِ، وكانت العُقولُ تُدرِكُ أجناسًا وأنواعًا؛ جُمِعَا بهذا الاعتبارِ، وأُفْرِدَ السَّمعُ؛ لأنَّه لا يَتعلَّقُ إلَّا بنَوعٍ واحدٍ، وهو الأصواتُ[٢]. وقيل: لعلَّهَ جمَعَ الأبصارَ؛ لأنَّ التَّفاوُتَ فيها أكثَرُ مِنَ التَّفاوُتِ في السَّمعِ، وجمَعَ (فُؤاد) -وهو القَلْبُ-؛ لِتَوقُّدِه وتَحرُّقِه، مِنَ (التَّفؤُّدِ) وهو التَّحرُّقُ، ولعلَّهَ جمَعَ الأبصارَ كذلك؛ لاحتِمالِها للبصيرةِ[٣].

- و(ما) في قولِه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ صِلةٌ؛ للتَّأكيدِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ فيه مِن مُحسِّناتِ البَلاغةِ: الطِّباقُ؛ حيثُ قُوبِلَ الذَّرْءُ بضِدِّهِ، وهو الحَشرُ والجَمعُ؛ فإنَّ الحشرَ يَجمَعُ كلَّ مَن كان على الأرضِ مِن البشَرِ، والمقصودُ مِن هذه المُقابَلةِ الرَّدُّ على مُنكِري البَعثِ؛ فتَقديمُ المجرورِ في (إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) تَعريضٌ بالتَّهديدِ بأنَّهم مَحشورونَ إلى اللهِ، فهو يُجازِيهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٣٦، ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٢، ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٥).

- وتقديمُ المعمولِ في ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للاهتِمامِ، والرِّعايةِ على الفاصلةِ[١].

٣- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أعقَبَ ذِكْرَ الحَشرِ بذِكْرِ الإحياءِ؛ لأنَّ البعثَ إحياءٌ؛ إدْماجًا للاستِدلالِ على إمكانِ البَعثِ في الاستِدلالِ على عُمومِ التَّصرُّفِ في العالَمِ. وأمَّا ذِكْرُ الإماتةِ فلِمُناسَبةِ التَّضادِّ، ولأنَّ فيها دَلالةً على عَظيمِ القُدرةِ والقَهرِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فيه تَقديمُ المجرورِ؛ للقَصرِ، أي: له اختلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ لا لغَيرِه، أي: فغَيرُه لا تَحِقُّ له الإلهيَّةُ[٣].

- قولُه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ، وهذا تَذييلٌ راجِعٌ إلى قولِه: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وما بَعْدَه[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ هذا إدْماجٌ لذِكْرِ أصْلٍ آخَرَ مِن أُصولِ الشِّركِ، وهو إحالةُ البَعثِ بَعدَ الموتِ[٥].

- قولُه: ﴿بَلْ قَالُوا۟﴾ عَطْفٌ على مُضْمَرٍ يَقْتضيهِ المَقامُ، أي: فلَمْ يَعقِلُوا، بلْ قالُوا؛ ففيه إيجازٌ بالحَذفِ[٦]. وقيل: ﴿بَلْ﴾ للإضرابِ الإبطاليِّ؛ إبطالًا لكونِهم يَعقلونَ، وإثباتًا لإنكارِهم البَعْثَ مع بَيانِ ما بَعثَهم على إنكارِه، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٠٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٠٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٧).

تقليدُ الآباءِ[١].

- وفي قولِه: ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ الْتِفاتٌ من الخِطابِ في ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ إلى الغَيبةِ ﴿ بَلْ قَالُوا۟ ﴾؛ لأنَّ الكلامَ انتقَلَ مِن التَّقريعِ والتَّهديدِ إلى حِكايةِ ضَلالِهم؛ فناسَبَ هذا الانتقالَ مَقامُ الغَيبةِ؛ لِمَا في الغَيبةِ مِن الإبعادِ[٢]؛ وللإيذانِ بالغضَبِ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ تَفسيرٌ لِمَا قَبلَه مِن المُبْهَمِ، وتَفصيلٌ لِمَا فيه مِن الإجمالِ[٤]. وفيه الجَمعُ بيْن ذِكْرِ الموتِ والكونِ تُرابًا وعِظامًا؛ لقَصدِ تَقْويةِ الإنكارِ بتَفظيعِ إخبارِ القُرآنِ بوُقوعِ البَعثِ[٥].

- وجُملةُ: ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا ﴾ إلخ، بدَلٌ مُطابِقٌ مِن جُملةِ ﴿قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾؛ تَفصيلٌ لإجمالِ المُماثَلةِ. ويجوزُ جَعْلُ ﴿قَالُوا۟ ﴾ الثَّاني استِئنافًا بَيانيًّا لِبَيانِ ما قال الأوَّلونَ، والمعنى واحدٌ على التَّقديرينِ. وعلى كِلَا الوَجْهينِ: فإعادةُ فِعْلِ (قالوا) مِن قَبيلِ إعادةِ الَّذي عَمِلَ في المُبدَلِ منه. ونُكْتَتُه هنا: التَّعجُّبُ مِن هذا القولِ[٦].

- قولُه: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ الاستِفهامُ إنكاريٌّ، مفيدٌ لكمالِ الاستِبعادِ والاستِنكارِ للبعثِ بعدَ ما آل الحالُ إلى هذا المآلِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٣٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٧).

- وذِكْرُ حَرفِ (إنَّ) في قولِهم: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ المقصودُ منه: حِكايةُ دَعوى البَعثِ بأنَّ الرَّسولَ الَّذي يَدَّعيها بتَحقيقٍ وتَوكيدٍ مع كَونِها شَديدةَ الاستِحالةِ؛ ففي حِكايةِ تَوكيدِ مُدَّعِيها زِيادةٌ في تَفظيعِ الدَّعوى في وَهْمِهم[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تَعليلٌ للإنكارِ، وتَقويةٌ له[٢]. ووَجْهُ ذِكْرِ الآباءِ: دَفْعُ ما عسَى أنْ يَقولَ لهم قائلٌ: إنَّكم تُبْعَثون قبْلَ أنْ تَصِيروا تُرابًا وعِظامًا، فأعَدُّوا الجوابَ بأنَّ الوعْدَ بالبَعثِ لم يكُنْ مُقتصِرًا عليهم، فيَقَعوا في شَكٍّ باحتِمالِ وُقوعِه بهم بَعدَ مَوتِهم وقبْلَ فَناءِ أجسامِهم، بلْ ذلك وَعدٌ قَديمٌ وُعِدَ به آباؤُهم الأوَّلونَ، وقد مضَتْ أزمانٌ، وشُوهِدَتْ رُفاتُهم في أجْداثِهم، وما بُعِثَ أحدٌ منهم[٣].

- وجُملةُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِن القولِ الأوَّلِ، مُستأْنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا لجوابِ سُؤالٍ يُثيرُه قولُهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾؛ وهو أنْ يقولَ سائلٌ: فكيفَ تمالأَ على هذه الدَّعوى العدَدُ مِن الدُّعاةِ في عُصورٍ مُختلفةٍ مع تَحقُّقِهم عدَمَ وُقوعِه؟ فيُجيبون بأنَّ هذا الشَّيءَ تَلقَّفوهُ عن بَعضِ الأوَّلينَ، فتَناقَلُوه[٤].

- والقَصرُ في قولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قَصرٌ إضافيٌّ[٥]، لا يَعْدو كَونَه مِن الأساطيرِ إلى كَونِه واقعًا كما زعَمَ المُدَّعون[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٨).

- وفي قولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عُدولٌ عن الإضمارِ إلى اسمِ الإشارةِ، حيثُ لم يقُلْ: (إنَّه)؛ لقَصدِ زِيادةِ تَمييزِه؛ تَشهيرًا بخَطَئِه في زَعْمِهم(١).

- وفي الآياتِ الثَّلاثةِ السَّابقةِ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال تعالى هنا: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ * قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقال في سُورةِ (النَّملِ): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٧-٦٨]؛ فهنا في سُورةِ (المُؤمِنون) قُدِّمَ تَوكيدُ المُضْمَرِ المرفوعِ بـ ﴿نَحْنُ﴾ وأُخِّرَ المفعولُ، وهو ﴿هَٰذَا﴾، وعُكِسَ ذلك في سُورةِ (النَّملِ)؛ لأنَّه لمَّا كان مَحَطُّ العِنايةِ في هذه السُّورةِ الخلْقَ والإيجادَ والتَّهديدَ لأهْلِ العِنادِ، حكى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا﴾ مُقدِّمًا قولَهم: ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ على قولِهم: ﴿هَٰذَا﴾، أي: البعثَ مِن قَبْلُ، بخِلافِ (النَّملِ): فإنَّ محَطَّ العِنايةِ فيها الإيمانُ بالآخرةِ؛ فلذلك قُدِّمَ قولُه: ﴿هَٰذَا﴾، والمُرادُ وَعْدُ آبائِهم على ألْسِنَةِ مَن أتاهُم مِن الرُّسلِ، غيرَ أنَّ الإخبارَ بشُمولِه جَعَلَه وعْدًا للكلِّ على حَدٍّ سَواءٍ(٢).

وقيل: لَمَّا تقدَّمَ قبْلَ آيةِ (المُؤمِنون) قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، فتقدَّمَ التَّعريفُ في هذه الآيةِ أنَّ آباءَهم قد جاءتهم الرُّسلُ، وأُنْذِروا كما أُنْذِرَ هؤلاء؛ لهذا قالوا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٣]، ولمَّا لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٥).

يَتقدَّمْ في آيةِ (النَّملِ) ذِكْرُ إنذارِ آبائِهم، كان أهمُّ شَيءٍ ذِكْرَ الموعودِ به الَّذي هو (هذا)، فقالوا: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا ﴾[1] [النمل: ٦٨]. وقيل غيرُ ذلك[2].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٦٩، ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٤٣، ٩٤٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٤، ١٨٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروابادي (١/ ٣٣٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩١، ٣٩٢).

الآيات (٨٤-٩٢)

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَلَكُوتُ﴾: الملكوتُ: المُلْكُ، زِيدَتْ فيه الواوُ والتَّاءُ للمبالغةِ، وأصلُ (ملك): يدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ[(١)].

﴿يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾: أي: يمنعُ ويغيثُ مَن يشاءُ ممن يشاءُ، ولا يمنعُ منه أحدٌ؛ يُقالُ: أجرْتُ فلانًا: إذا حمْيتَه، وأجرتُ على فلانٍ: إذا حميتَ عنه، أو: يؤمِّنُ مَن أخافَه غيرُه، ومَن أخافه هو لم يؤمِّنْه أحدٌ، مِن الجوارِ بمعنَى التأمينِ[(٢)].

﴿تُسْحَرُونَ﴾: أي: تُخْدَعونَ وتُصْرَفون، وأصلُ (سحر): يدلُّ على الخِداعِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((الغريبين)) للهروي (١/ ٣٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٢)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

وشِبْهِه[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لِقَومِه المُشرِكينَ المكذِّبينَ بالبعثِ: لِمَن هذه الأرضُ ومَن عليها إن كنتُم تعلمونَ؟ سيقولونَ مجيبينَ: للهِ، قُلْ لهم: أفلَا تَتذكَّرونَ بأنَّ مَن خلَقَ الأرضَ ومَن فيها قادِرٌ على إحياءِ النَّاسِ بَعدَ مَوتِهم؟!

ويأمرُه أن يقولَ لهم: مَن خالقُ السَّمواتِ السَّبْعِ ومدَبِّرُها ومالِكُها، ومَن خالقُ العرشِ العَظيمِ ومدَبِّرُه ومالِكُه؟ سيَقولون: ذلك كلُّه للهِ خالقِ كُلِّ شَيءٍ، فقُلْ لهم: أفلَا تخافونَ عَذابَه؛ وغضَبَه وسخطَه؟! قلْ لهم: مَن بيَدِه مُلْكُ كُلِّ شَيءٍ، ومَن يُغِيثُ مَن يشاء مِن خَلقِه ممَّن يُريدُ به سوءًا أو ضرًّا، ولا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يَحْمِيَ ويَمنَعَ مَن أراد اللهُ به السوءَ والضرَّ، إنْ كنتُم تَعلمونَ ذلك؟ سيَقولونَ: كُلُّ ذلك للهِ، قُلْ لهم: إنِ اعترَفْتُم بذلك فكيف يُخَيَّلُ إليكم الباطِلُ حقًّا، وكيف تُصْرَفونَ عن الحقِّ إلى الباطِلِ؟!

ثم يقولُ تعالى: بلْ أتَيْناهم بالحَقِّ، وإنَّهم لَكاذبونَ في زعمِهم الشَّريكَ والولدَ لله، ودَعْواهم أنَّ البَعثَ غيرُ واقعٍ!

ويخبرُ تعالى أنَّه ما اتَّخذَ سبحانه وتعالى لنَفْسِه ولدًا كما يَزعُمُ النصارى وغيرُهم، ولم يكُنْ معه مِن إلهٍ آخَرَ، فلو كان معه آلهةٌ أخرَى لانفرَد كلُّ إلهٍ بما خلَقَ، ولأرادَ كلُّ إلهٍ أن يعلوَ على الآخَرِ ويقهرَه، مما يستحيلُ معه أن ينتظمَ أمرُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١).

هذا الكونِ. تَنزَّهَ اللهُ سُبحانَه وتعالى وتقدَّس عمَّا يَصِفُه به هؤلاء المشركونَ، هو وَحْدَه العليمُ بما غاب عن خَلقِه وما شاهَدوهُ، فتَنزَّهَ اللهُ وتقَدَّس عن شركِ المشركينَ، وتعالى عمَّا يصفونَه به من العيوبِ والنقائضِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا اتَّخَذَ المُشرِكون مِن دُونِ اللهِ تعالى آلهةً، ونَسَبوا إليه الولَدَ، نبَّهَهم على فَرْطِ جَهْلِهم بكَونِهم يُقِرُّون بأنَّه تعالى له الأرضُ ومَن فيها مِلْكٌ، وأنَّه رَبُّ العالَمِ العُلويِّ، وأنَّه مالِكُ كلِّ شَيءٍ، وهم مع ذلك يَنْسُبون له الولَدَ، ويتَّخِذونَ له شُركاءَ[1]!

وأيضًا لَمَّا أنكَرَ المُشرِكونَ البَعثَ هذا الإنكارَ المُؤكَّدَ، ونَفَوهُ هذا النَّفيَ المُحتَّمَ؛ أمَرَهُ أنْ يُقرِّرَهم بأشياءَ هُمْ بها مُقِرُّون، ولها عارِفونَ، يَلْزَمُهم مِن تَسليمِها الإقرارُ بالبعثِ قطْعًا، فقال[2]:

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِقَومِك المُشرِكينَ المُكذِّبينَ بالبَعثِ: لِمَن مُلْكُ الأرضِ ومَن فيها مِن الخلْقِ، إنْ كنتُم تَعلَمونَ مَن هو مالِكُ ذلك وخالِقُه[3]؟

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧).

أي: سيقولُ المُشرِكونَ: الأرضُ ومَن فيها للهِ، فقُلْ لهم حينَ يُجِيبونَك بذلك: أفلَا تتأمَّلونَ وتتفكَّرونَ، فتَتذَكَّرونَ ما هو مَعلومٌ عندَكم، ومُستَقِرٌّ في فِطَرِكم؛ مِن أنَّ الَّذي قدَرَ على خلْقِ ذلك كُلِّه هو المُستحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه، فتُخلِصونَ له، وتَعلَمونَ قُدْرتَه على بَعثِ خَلقِه أحياءً يومَ القيامةِ[1]؟!

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لمَّا ذكَّرَهم اللهُ تعالى بالعالَمِ السُّفليِّ لِقُرْبِه؛ تلاهُ بالعُلويِّ؛ لأنَّه أعظَمُ، فقال على ذلك المِنوالِ مُرَقِّيًا لهم إليه[2]:

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لقَومِك: مَن خالِقُ السَّمواتِ السَّبْعِ ومالِكُها ومدَبِّرُها، ومَن خالِقُ العرشِ الكبيرِ الواسِعِ المُحيطِ بجَميعِ المخلوقاتِ ومالِكُه ومدَبِّرُه[3]؟

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

أي: سيَقولُ المُشرِكونَ: ذلك كلُّه للهِ؛ فالسَّمواتُ السَّبْعُ والعَرشُ العظيمُ مِلكٌ للهِ وَحْدَه، فقُلْ لهم حينَ يُجِيبونك بذلك: أفلَا تتَّقونَ سَخَطَ اللهِ وغضَبَه وعذابَه، والحالُ أنَّه كامِلُ القُدرةِ، عظيمُ السُّلطانِ، فتَتوبونَ مِن شِرْكِكم به،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٦، ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧).

ووَصْفِكم له بما لا يَلِيقُ به سُبحانَه، وتَكذيبِكم رسولَه[١]؟!

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قرَّرَهم بالعالَمَينِ: العُلويِّ والسُّفليِّ، أمَرَهُ بأنْ يُقرِّرَهم بما هو أعَمُّ منهما وأعظَمُ، فقال[٢]:

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك المُشرِكينَ: مَنِ الَّذي بيَدِه مُلكُ كلِّ شَيءٍ في السَّمواتِ والأرضِ، المُتصرِّفُ فيه بقُدرتِه ومَشيئتِه[٣]؟

كما قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦].

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: وهو الَّذي يَمنَعُ مَن يَشاءُ مِن عِبادِه ممَّن يُرِيدُ به السُّوءَ والضُّرَّ، ولا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يَمنَعَ السُّوءَ والضُّرَّ عن أحدٍ إذا شاء اللهُ به ذلك، إنْ كنتُم تَعلمونَ عظَمةَ اللهِ، وأنَّه قادِرٌ على كلِّ شَيءٍ، وبِيَدِه مَلكوتُ كُلِّ شَيءٍ[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧، ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٥١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٠)، ((السراج المنير)) للخطيب الشربيني (٢/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٨)، =

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

أي: سيقولُ المُشرِكون: ذلك كُلُّه للهِ؛ فالمالِكُ لكُلِّ شَيءٍ الَّذي يُجِيرُ ولا يُجارُ عليه هو اللهُ، وهو المُختَصُّ بذلك وَحْدَه، فقُلْ لهم حين يُجيبونَك بذلك: فكيف يُخَيَّلُ إليكم الباطِلُ حقًّا، فتُخْدَعونَ وتُصْرَفونَ عن اتِّباعِ الحَقِّ، وتَذهَبُ عُقولُكم مع ظُهورِه؛ فلا تُوحِّدونَه سُبحانَه في عِبادتِه، ولا تُؤمِنونَ بقُدرتِه على بَعثِكم أحياءً بَعدَ مَوتِكم[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

أي: بلْ[2] .....

= ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٩، ٣٥٠).

قال القُرطبيُّ: (قيلَ: هذا في الدُّنيا، أي: مَن أراد اللهُ إهْلاكَه وخَوْفَه لم يَمْنَعْه منه مانعٌ، ومَن أراد نَصْرَه وأمْنَه لم يَدْفَعْه مِن نَصْرِه وأمْنِه دافِعٌ. وقيلَ: هذا في الآخرةِ، أي: لا يَمْنَعُه مِن مُستحَقِّ الثَّوابِ مانعٌ، ولا يَدفَعُه عن مُستوجبِ العذابِ دافِعٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٠، ١٠١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٠).

(٢) قال ابنُ جرير: (يقولُ: ما الأمرُ كما يزعمُ هؤلاء المشركونَ بالله مِن أنَّ الملائكةَ بناتُ الله، وأنَّ الآلهةَ والأصنامَ آلهةٌ دونَ الله). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١).

وقال البقاعي: (ولمَّا كان الإنكارُ بمعنَى النفيِ، حسُن قولُه: ﴿بَلْ﴾، أي: ليس الأمرُ كما يقولونَ، لم نأتِهم بسِحرٍ ﴿بَلْ﴾. أو يكونُ المعنى: ليس هو أساطيرَ، ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم﴾). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٧٩).

=

أتَيْناهم بالحقِّ[(١)]، وإنَّ المُشرِكينَ لَكاذِبونَ في دَعْواهم الشَّريكَ والولَدَ للهِ سُبحانَه، ونَفْيِهم البَعثَ[(٢)].

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

= وقال ابنُ عاشورٍ: (إضرابٌ لإبطالِ أن يكونوا مَسْحورينَ، أي: بل ليس الأمرُ كما خُيِّلَ إليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٢).

(١) ممن اختار أنَّ المرادَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: التوحيدُ: مقاتلُ بن سليمان، والرسعني، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٤)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩١).

وممن اختار أنَّ المرادَ به القرآنُ: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين، والواحدي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤١٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٨).

وقيل: المرادُ: بالتوحيدِ والقرآنِ. وممَّن اختاره: ابنُ الحوزي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٧٠).

وقال ابن جرير: (﴿بِٱلْحَقِّ﴾ اليقينِ، وهو الدِّينُ الَّذي ابْتَعَث اللَّهُ به نَبِيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك الإسلامُ، ولا يُعبَدُ شيءٌ سِوَى اللهِ؛ لأنَّه لا إلهَ غيرُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١).

ومِن المفسِّرينَ مَن قال: المرادُ: بالتوحيدِ والوعدِ بالبعثِ. وممن ذهب إليه: البيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ به: الصدقُ: السمعانيُّ، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُليمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٨٩).

قال الشوكاني: (﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: الأمْرِ الواضِحِ الَّذي يَحِقُّ اتِّباعُه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أثبَتَ لِنفْسِه الإلهيَّةَ بالدَّلائلِ الإلزاميَّةِ في الآياتِ المُتقدِّمةِ، نفَى عنْ نفْسِه الأندادَ والأضْدادَ بقولِه[١]:

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾.

أي: ما اتَّخَذ اللهُ لنَفْسِه -تعالى- ولدًا كما يَزْعُمُ النَّصارى ومُشرِكو العَرَبِ وغَيرُهم[٢].

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾.

أي: ولم يكُنْ مع اللهِ شَريكٌ يَستَحِقُّ أنْ يُعبَدَ معه[٣].

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ ﴾.

أي: لو كان مع اللهِ آلهةٌ أُخرى، لَاعتزَلَ كلُّ إلهٍ بما يَخْلُقُ وانفرَدَ بتَدبيرِه؛ فلا تَنتَظِمُ شُؤونُ الكونِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٤).

قال ابنُ جرير: (ولا كان معه في القديمِ، ولا حِين ابتَدَع الأشياءَ مَن تصلُحُ عبادتُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨).

قال السِّعدي: (اعتبِرْ ذلك بالشَّمسِ والقمرِ، والكواكبِ الثابتةِ، والسيَّارةِ؛ فإنَّها منذ خُلِقَت وهي تَجْري على نِظامٍ واحدٍ، وترتيبٍ واحدٍ، كُلُّها مُسخَّرةٌ بالقُدرةِ، مُدَبَّرةٌ بالحكمةِ لمصالحِ الخَلقِ كُلِّهم، ليست مَقْصورةً على مَصلحةِ أحدٍ دونَ أحدٍ، ولنْ تَرى فيها خللًا ولا تناقُضًا، ولا =

كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

أي: ولَطلَبَ كلُّ إلهٍ أنْ يعلُوَ على غَيرِه مِن الآلهةِ ويَقهَرَه، فيَغلِبُ القوِيُّ منهم الضَّعيفَ، ومع هذا التَّمانُعِ والتَّصارُعِ بيْنَ الآلهةِ لا يُمكِنُ وُجودُ العالَمِ، ولا يُمكِنُ أنْ ينتَظِمَ هذا الانتِظامَ العَجيبَ المُتَّسِقَ(١).

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

مُناسبَتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا طابَقَ الدَّليلُ الإلزامَ على نَفْيِ الشَّريكِ؛ نزَّهَ نفْسَه الشَّريفةَ بما هو نَتيجةُ ذلك بقولِه(٢):

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

أي: تنزَّهَ اللهُ عمَّا يَصِفُه المُشرِكونَ مِن اتِّخاذِ الولَدِ، ووُجودِ الشَّريكِ(٣).

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

= مُعارضةً في أدنى تصَرُّفٍ، فهل يُتصَوَّرُ أنْ يكونَ ذلك تَقديرَ إلهينِ ربَّينِ؟!)) ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩١).

أي: عالِمِ ما غابَ عن خَلقِه مِمَّا لم يُشاهِدوه، وعالِمِ ما يَرَونَه ويُشاهِدونَه؛ فلا يَخْفى عليه السِّرُّ ولا العَلانيةُ[١].

﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: فارتفَعَ اللهُ وتَنزَّهَ عن شِركِ المُشرِكينَ، وما يَصِفونَه به مِن العُيوبِ والنَّقائِصِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ معناهُ التَّرغيبُ في التَّدبُرِ؛ لِيَعْلَموا بُطلانَ ما هم عليه[٣].

٢- قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨).

قال ابنُ جرير: (إنَّما هذا مِن الله خبرٌ عن هؤلاء الذين قالوا مِن المشركين: اتَّخذ الله ولدًا، وعبَدوا مِن دونِه آلهةً، أنَّهم فيما يقولونَ ويفعلونَ مبطلونَ مخطئونَ؛ فإنَّهم يقولونَ ما يقولونَ مِن قولٍ في ذلك عن غيرِ علمٍ، بل عن جهلٍ منهم به؛ وإنَّ العالِمَ بقديمِ الأمورِ، وبحديثِها، وشاهِدِها وغائبِها عنهم، اللهُ الذي لا يخفَى عليه شيءٌ، فخبرُه هو الحقُّ دونَ خبرِهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٢).

وقال السعدي: (﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: الذي غاب عن أبصارِنا وعِلمِنا؛ مِن الواجباتِ والمستحيلاتِ والممكناتِ، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وهو ما نشاهدُ مِن ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٠).

وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾، في هذه الآياتِ دَلالةٌ على جَوازِ مُحاجَّةِ الكُفَّارِ والمُبطِلينَ، وإقامةُ الحُجَّةِ عليهم، وإظهارُ إبطالِ الباطِلِ مِن قَولِهم ومَذهَبِهم، ووُجوبُ النَّظرِ في الحُجَجِ على مَن خالَفَ دِينَ اللهِ(١).

٣- قال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ في هاتينِ الآيتَينِ مِن صِفاتِ النَّفيِ: تنَزُّهُ اللهِ تعالى عن اتِّخاذِ الوَلَدِ الذي وصَفَه به الكافِرونَ، وعن الشَّريكِ له في الألوهيَّةِ الذي أشرَكَ به المُشرِكونَ، وهذا النَّفيُ لكمالِ غِناه، وكَمالِ رُبوبيَّتِه وإلهيَّتِه، ونَستفيدُ منهما مِن النَّاحيةِ المَسلكيَّةِ: أنَّ الإيمانَ بذلك يَحمِلُ الإنسانَ على الإخلاصِ لله عزَّ وجَلَّ(٢).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إلى أن قال: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ فالكُفَّارُ المُشرِكونَ مُقِرُّونَ أنَّ اللهَ خالِقُ السَّمواتِ والأرضَ، وليس في جَميعِ الكُفَّارِ مَن جعَلَ للهِ شَريكًا مُساوِيًا له في ذاتِه وصِفاتِه وأفعالِه، هذا لم يَقُلْهُ أحدٌ قطُّ؛ لا مِن المَجوسِ الثَّنويَّةِ(٣)، ولا مِن أهْلِ التَّثليثِ، ولا مِن الصَّابئةِ المُشركينَ الَّذين يَعْبُدون الكواكِبَ والملائكةَ، ولا مِن عُبَّادِ الأنبياءِ والصَّالحينَ، ولا مِن عُبَّادِ التَّماثيلِ والقُبورِ وغَيرِهم؛ فإنَّ

(١) يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكِّي بن أبي طالب (٧/ ٤٩٩٥).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٦٧).

(٣) الثنويةُ: فِرقةٌ تزعمُ أنَّ النُّورَ والظلمةَ صانعانِ أزليَّانِ قديمانِ، والنورَ منهما فاعلُ الخيراتِ والمنافِعِ، والظلامَ فاعلُ الشُّرورِ والمضارِّ، وأنَّ الأجسامَ ممتزجةٌ مِن النُّورِ والظُّلمةِ. يُنظر: ((الفَرْق بين الفِرَق)) للبغدادي (ص: ٢٦٩)، ((المِلَل والنِّحَل)) للشهرستاني (٢/ ٤٩).

جَميعَ هؤلاء -وإنْ كانوا كُفَّارًا مُشركينَ مُتنوِّعينَ في الشِّرْكِ- فهم مُقِرُّونَ بالرَّبِّ الحقِّ الَّذي ليس له مِثْلٌ في ذاتِه وصِفاتِه وجَميعِ أفعالِه، ولكنَّهم مع هذا مُشرِكونَ به في أُلوهيَّتِه؛ بأنْ يَعْبُدوا معه آلهةً أُخرى يَتَّخِذونها شُفعاءَ أو شُركاءَ، أو في رُبوبيَّتِه؛ بأنْ يَجْعَلوا غيرَه ربَّ بَعضِ الكائناتِ دُونَه، مع اعترافِهم بأنَّه ربُّ ذلك الرَّبِّ، وخالِقُ ذلك الخلْقِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، فيه سُؤالٌ: كيف قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، ثمَّ حَكَى عنهم ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾، وفي ذلك ما يُوهِمُ التَّعارُضَ؟

الجوابُ: لا تعارُضَ بيْنَ قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وبيْنَ ما حَكَى عنهم مِن قولِهم: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ لا يَنْفِي عِلْمَهم بذلك، وقد يُقالُ مِثْلُ ذلك في الاحتجاجِ على وَجْهِ التَّأكيدِ لِعِلْمِهم[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾، واتِّخاذُ الولَدِ أعَمُّ مِن نَفْيِ الولَدِ؛ فيدُلُّ باللُّزومِ على نَفْيِ الولَدِ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، قُدِّمَتِ النَّتيجةُ على القِياسِ؛ لِتُجْعَلَ هي المطلوبَ؛ فإنَّ النَّتيجةَ والمَطلوبَ مُتَّحِدانِ في المعنى، مُختلفانِ بالاعتبارِ؛ فهي باعتبارِ حُصولِها عقِبَ القياسِ تُسمَّى نَتيجةً، وباعتبارِ كَونِها دَعوى مُقامٌ عليها الدَّليلُ -وهو القياسُ- تُسمَّى مَطلوبًا كما في علْمِ المَنطِقِ. ولتَقْديمِها نُكتةٌ: أنَّ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٠، ٥٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٢١٤).

هذا المطلوبَ واضحُ النُّهوضِ، لا يَفتقِرُ إلى دَليلٍ إلَّا لزِيادةِ الاطمئنانِ؛ فقولُه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍ﴾ هو المطلوب، وقولُه: ﴿إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ هو الدَّليلُ، وتَقديمُ هذا المَطلوبِ على الدَّليلِ أغْنَى عن التَّصريحِ بالنَّتيجةِ عقِبَ الدَّليلِ[(١)].

٥- قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ هذا مِن أمْثِلةِ عِلْمِه سُبحانَه بالمُستحيلِ[(٢)].

٦- قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ ذَكَر المُتكلِّمونَ هذا المعنى، وعبَّروا عنه بدليلِ التَّمانُعِ، وهو أنَّه لو فُرِضَ صانِعانِ فصاعِدًا، فأراد واحدٌ تَحريكَ جسمٍ، وأراد الآخَرُ سُكونَه؛ فإنْ لم يَحصُلْ مُرادُ كلِّ واحدٍ منهما كانا عاجزينِ، والواجِبُ لا يكونُ عاجِزًا، ويَمتنعُ اجتماعُ مُرادَيْهما؛ للتَّضادِّ، وما جاء هذا المُحالُ إلَّا مِن فرضِ التَّعدُّدِ، فيكونُ مُحالًا، فأمَّا إنْ حصَل مُرادُ أحدِهما دونَ الآخَرِ، كان الغالبُ هو الواجبَ، والآخرُ المغلوبُ مُمْكِنًا؛ لأنَّه لا يليقُ بصفةِ الواجبِ أنْ يكونَ مقهورًا[(٣)].

٧- قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فتأمَّلْ هذا البرهانَ الباهرَ بهذا اللفظِ الوجيزِ البيِّنِ، فإنَّ الإلهَ الحقَّ لا بدَّ أنْ يكونَ خالقًا فاعلًا، يُوصلُ إلى عابدِه النفعَ، ويدفعُ عنه الضُّرَّ، فلو كان معه سبحانَه إلهٌ لكان له خلقٌ وفِعلٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (٢/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩١). ويُنظر أيضًا: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ٩٢-٩٤)، و((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٧٧، ١٧٨).

وحينَئذٍ فلا يرضَى بشركةِ الإلهِ الآخَرِ معه، بل إنْ قدَر على قهرِه وتفرُّدِه بالإلهيَّةِ دونَه فعَل، وإن لم يقدِرْ على ذلك انفردَ بخَلقِه، وذهَب به، كما ينفردُ ملوكُ الدُّنيا عن بعضِهم بعضًا بممالكِهم، إذا لم يقدِرِ المنفردُ على قهرِ الآخَرِ، والعلوِّ عليه؛ فلا بدَّ مِن أحدِ أمورٍ ثلاثةٍ: إمَّا أن يذهبَ كلُّ إلهٍ بخَلقِه وسلطانِه. وإمَّا أنْ يعلوَ بعضُهم على بعضٍ. وإمَّا أنْ يكونَ كلُّهم تحتَ قهرِ إلهٍ واحدٍ، ومَلِكٍ واحدٍ، يتصرَّفُ فيهم ولا يتصرَّفونَ فيه، ويمتنِعُ مِن حُكمِهم عليه ولا يمتنعونَ مِن حُكمِه عليهم، فيكون وحْدَه هو الإلهَ الحقَّ، وهم العبيدُ المربوبونَ المقهورونَ. وانتِظامُ أمرِ العالَمِ العلويِّ والسُّفليِّ، وارتباطُ بعضِه ببعضٍ، وجريانُه على نظامٍ مُحكَمٍ لا يختلفُ ولا يفسدُ؛ مِن أدلِّ دليلٍ على أنَّ مدبِّرَه واحدٌ، لا إلهَ غيرُه، كما دلَّ دليلُ التمانعِ على أنَّ خالقَه واحدٌ لا ربَّ له غيرُه، فذاك تمانعٌ في الفعلِ والإيجادِ، وهذا تمانعٌ في العبادةِ والإلهيَّةِ، فكما يستحيلُ أن يكونَ للعالَمِ ربَّانِ خالقانِ متكافئانِ؛ يستحيلُ أن يكونَ له إلهانِ معبودانِ[(١)].

٨- قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ في هذه الآيةِ نفْيُ اتِّخاذِ الولدِ، ونفْيُ تعدُّدِ الآلهةِ، وتنزيهُ الله عمَّا وصَفه به المشركونَ، وهذا يتضمَّنُ معَ انتفاءِ ما ذُكِر كمالُ الله، وانفرادُه بما هو مِن خصائصِه[(٢)].

٩- قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ...﴾ إلى قولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ في هذه الآياتِ الدَّلالةُ على أنَّ إنكارَ الحَشرِ والبعثِ: أمْرٌ عَظيمٌ، وخَطْبٌ جليلٌ، وأنَّ مُنكِرَه مُعطِّلٌ مُبطِلٌ للذَّاتِ والصِّفاتِ؛

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٧٩).

لِتَوقُّفِ المُلْكِ -أعني: الأرضَ والسَّمواتِ، والعرشَ ومَلكوتَ كلِّ شَيءٍ- على ذلك، واستتباعِه العِلْمَ بالتَّنزيهِ والتَّوحيدِ والعِلْمِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ استِئنافُ استِدلالٍ عليهم في إثْباتِ الوَحدانيَّةِ للهِ تعالى. والاستفهامُ تَقريريٌّ، أي: أَجِيبوا عن هذا، والمَقصودُ: إثْباتُ لازِمِ جَوابِهم، وهو انفرادُه تعالى بالوَحدانيَّةِ[٢]. وفيه استِهانةٌ بهم، وتَقريرٌ لِفَرطِ جَهالَتِهم حتَّى جَهِلوا مِثْلَ هذا الجَلِيِّ الواضحِ، إلْزامًا بما لا يُمكِنُ لمَن له مُسكةٌ مِن العِلْمِ إنكارُه؛ ولذلك أخبَرَ عن جَوابِهم قبْلَ أنْ يُجِيبوا، فقال: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ العقلَ الصَّريحَ قدِ اضْطَرَّهم بأدْنى نظَرٍ إلى الإقرارِ بأنَّه خالِقُها[٣].

- وجاء بـ (مَن) في قولِه: ﴿وَمَن فِيهَآ﴾؛ تَغليبًا للعُقلاءِ على غَيرِهم[٤].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ؛ ثِقةً بدَلالةِ الاستِفهامِ عليه، والتَّقديرُ: فأَجِيبوني عن هذا السُّؤالِ[٥]. وفي هذا الشَّرطِ تَوجيهٌ لِعُقولِهم أنْ يتأمَّلوا، فيَظهَرَ لهم أنَّ الأرضَ للهِ، وأنَّ مَن فيها للهِ؛ فإنَّ كونَ جَميعِ ذلك للهِ قد يَخْفى؛ لأنَّ النَّاسَ اعتادُوا نِسبةَ المُسبَّباتِ إلى أسبابِها المُقارِنةِ، والتَّصرُّفاتِ إلى مُباشِريها، فنُبِّهوا بقولِه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إلى

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٩).

التَّأَمُّلِ، أي: إنْ كُنْتُم تَعلمونَ عِلْمَ اليقينِ؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، أي: يُجِيبون عقِبَ التَّأمُّلِ جوابًا غيرَ بَطِيءٍ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هذا أمْرٌ مُرادٌ منه التَّبكيتُ لهم، أي: قُلْ عندَ اعترافِهم بذلك -تَبْكيتًا لهم-: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٢]؟!

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إنكاريٌّ؛ إنكارٌ لِعَدَمِ تَذكُّرِهم بذلك. وخُصَّ بالتَّذكُّرِ؛ لِمَا في بَعضِه مِن خَفاءِ الدَّلالةِ، والاحتياجِ إلى النَّظرِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ﴾ فيه تَكريرُ الأمرِ بالقَولِ، وإنْ كان المَقولُ مُختلِفًا، دونَ أنْ تُعطَفَ جُملةُ ﴿مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ﴾؛ لأنَّها وقَعَتْ في سِياقِ التَّعدادِ؛ فناسَبَ أنْ يُعادَ الأمْرُ بالقَولِ دُونَ الاستِغناءِ بحَرفِ العطفِ. والمَقصودُ وُقوعُ هذه الأسئلةِ مُتتابِعةً؛ دَفْعًا لهم بالحُجَّةِ[٤]. ولم يُؤْتَ مع هذا الاستِفهامِ بشَرطِ (إنْ كُنْتُم تَعْلَمونَ) ونَحوِه، كما جاء في سابِقِه؛ لأنَّ انفرادَ اللهِ تعالى بالرُّبوبيَّةِ في السَّمواتِ والعرشِ لا يَشُكُّ فيه المُشرِكونَ؛ لأنَّهم لم يَزْعُموا إلهيَّةَ أصنامِهم في السَّمواتِ والعوالِمِ العُلويَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٠٩، ١١٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١١١).

- وفي قولِه: ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أُعِيدَ الرَّبُّ؛ تَنويهًا لشأْنِ العرشِ، ورَفعًا لِمَحلِّه عن أنْ يكونَ تَبعًا للسَّمواتِ وُجودًا وذِكرًا(١).

٤- قولُه تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ لَمَّا سُئِلوا بـ(مَن) الَّتي هي للاستفهامِ عن تَعيينِ ذاتِ المُستفهَمِ عنه، كان مُقْتَضى الاستِعمالِ أنْ يكونَ الجَوابُ بذِكْرِ اسمِ ذاتِ المَسؤولِ عنه؛ (سيقولونَ الله)، فكان العُدولُ عن ذلك إلى الجَوابِ عن كَونِ السَّمواتِ السَّبْعِ والعَرشِ مَملوكةً للهِ: عُدولًا إلى جانِبِ المعنَى دونَ اللَّفظِ؛ مُراعاةً لكَونِ المُستفهَمِ عنه لُوحِظَ بوَصفِ الرُّبوبيَّةِ، والرُّبوبيَّةُ تَقْتضي المُلْكَ. وصَوغُ الآيةِ بهذا الأُسلوبِ؛ لِقَصدِ التَّعريضِ بأنَّهم يَحترِزونَ عن أنْ يَقولوا: ربُّ السَّمواتِ السَّبْعِ اللهُ؛ لأنَّهم أثْبَتوا مع اللهِ أربابًا في السَّمواتِ؛ إذ عَبَدوا الملائكةَ، فهم عَدَلُوا عمَّا فيه نَفْيُ الرُّبوبيَّةِ عن مَعْبُوداتِهم، واقْتَصَروا على الإقرارِ بأنَّ السَّمواتِ مِلْكٌ للهِ؛ لأنَّ ذلك لا يُبطِلُ أوهامَ شِرْكِهم مِن أصْلِها؛ ففي حِكايةِ جَوابِهم بهذا اللَّفظِ تَورُّكٌ عليهم؛ ولذلك ذَيَّلَ حِكايةَ جَوابِهم بالإنكارِ عليهم انتفاءَ اتِّقائِهم اللهَ تعالى(٢).

- قولُه: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أمْرٌ مُرادٌ منه الإفحامُ لهم والتَّوبيخُ(٣).

- وفي قولِه: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ خَصَّ وَعْظَهم عَقِبَ جَوابِهم بالحثِّ على تَقْوى اللهِ؛ لأنَّه لمَّا تَبيَّنَ مِن الآيةِ الَّتي قَبلَها أنَّهم لا يَسَعُهم إلَّا الاعترافُ بأنَّ اللهَ مالِكُ الأرضِ ومَن فيها، وعُقِّبَتْ تلك الآيةُ بحَضِّهم على التَّذكُّرِ؛ لِيَظهَرَ لهم أنَّهم عِبادُ اللهِ لا عِبادُ الأصنامِ. وتَبيَّنَ مِن الآيةِ السَّابقةِ أنَّه رَبُّ السَّمواتِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٨).

-وهي أعظَمُ مِن الأرضِ- وأنَّهم لا يَسَعُهم إلَّا الاعِترافُ بذلك؛ ناسَبَ حَثُّهم على تَقواهُ؛ لأنَّه يَستحِقُّ الطَّاعةَ له وَحْدَه، وأنْ يُطِيعوا رَسولَهُ[١].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ لتَنزيلِ الفِعْلِ مَنزِلةَ القاصِرِ؛ لأنَّه دالٌّ على معنًى خاصٍّ، وهو التَّقوى الشَّامِلةُ لامتِثالِ المأْموراتِ، واجتِنابِ المَنْهيَّاتِ[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ بُنِيَ فِعْلُ ﴿يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ للمَجهولِ؛ لِقَصدِ انتفاءِ الفِعْلِ عن كلِّ فاعلٍ؛ فيُفِيدُ العُمومَ مع الاختصارِ. ولمَّا كان تَصرُّفُ اللهِ هذا خَفِيًّا يَحتاجُ إلى تَدبُّرِ العَقلِ لإدراكِهِ، عُقِّبَ الاستِفهامُ بقولِه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، كما عُقِّبَ الاستِفهامُ الأوَّلُ بمِثْلِه؛ حَثًّا لهم على عِلْمِه والاهتداءِ إليه، ثمَّ عُقِّبَ بما يدُلُّ على أنَّهم إذا تَدبَّروا عَلِموا، فقيل: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[٣].

٦- قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ تَعجُّبِيٌّ[٤]. وفي قولِه: ﴿تُسْحَرُونَ﴾ تَشبيهٌ لِمَا يقَعُ منهم مِن التَّخليطِ ووَضعِ الأفعالِ والأقوالِ غيرَ مَواضِعِها بما يقَعُ مِن المَسحورِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨١).

- وفي التَّذييلاتِ الثَّلاثِ -﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾- ترَقٍّ مِن الأدنى إلى الأغلَظِ في التَّعريضِ، وأنَّها مِن الأُمورِ المُسلَّمةِ؛ لقولِه: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[1]؛ فقد سُلِكَت في تَرتيبِ هذه الأدِلَّةِ طَريقةُ التَّرقِّي، فابْتُدِئَ بالسُّؤالِ عن مالكِ الأرضِ ومَن فيها؛ لأنَّها أقرَبُ العوالِمِ لإدراكِ المُخاطَبينَ، ثمَّ ارْتُقِيَ إلى الاستِدلالِ برُبوبيَّةِ السَّمواتِ والعرشِ، ثمَّ ارْتُقِيَ إلى ما هو أعَمُّ وأشمَلُ، وهو تَصرُّفُه المُطلَقُ في الأشياءِ كلِّها؛ ولذلك اجْتُلِبَت فيه أداةُ العُمومِ وهي (كل)[2].

- وتَكرَّرَ قولُه تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ؛ الأوَّلُ جَوابٌ لقولِه: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ جَوابٌ مُطابِقٌ لَفْظًا ومعنًى؛ لأنَّه قال في السُّؤالِ: ﴿قُل لِّمَنِ﴾، فقال في الجَوابِ: ﴿لِلَّهِ﴾، وأمَّا الثَّاني والثَّالثُ فالمُطابَقةُ فيهما في المعنى. وقُرِئَ الثَّاني والثَّالثُ (اللهُ، اللهُ)[3]؛ مُراعاةً للمُطابَقةِ[4].

- وفي الآياتِ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٣).

(٣) وهي قراءةُ البصريَّينِ: أبي عمرٍو ويعقوبَ؛ بإثباتِ ألفِ الوصلِ قبلَ اللامِ، ورفعِ الهاءِ: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ في الآيةِ (٨٧) والآيةِ (٨٩)، وقرأ الباقون: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ بغيرِ ألفٍ وخفضِ الهاءِ. يُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٥٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٠)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٥)، ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ٩٨٤، ٩٨٥)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٥١٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروابادي (١/ ٣٣٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٢).

لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث خُتِمَ كلُّ سُؤالٍ بما يُناسِبُه؛ فرتَّبَ هذه التَّوبيخاتِ الثَّلاثةَ بالتَّدريجِ؛ فقال أوَّلًا: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ثمَّ قال ثانيًا: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، وذلك أبلَغُ؛ لأنَّ فيه زِيادةَ تَخويفٍ، ثمَّ قال ثالثًا: ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾، وفيه مِن التَّوبيخِ ما ليس في غَيرِه؛ فخُتِمَ مُلْكُ الأرضِ ومَن فيها بالتذكُّرِ أي: أفلا تذكَّرونَ فتعلمونَ أنَّ مَن له ملكُ السمواتِ والأرضِ حَقيقٌ ألَّا يُشرَكَ به بَعضُ خَلْقِه -ممَّن في الأرضِ مُلكًا له- في الرُّبوبيَّةِ؟! وخُتِمَ ما بَعدَها بالتَّقوى، وهي أبلَغُ مِن التَّذكُّرِ، وفيها وَعيدٌ شَديدٌ، وخُتِمَ ما بَعْدَ هذه بقولِه: ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾؛ مُبالَغةً في التَّوبيخِ بَعدَ إقرارِهم والْتِزامِهم ما يقَعُ عليهم به في الاحتِجاجِ[1].

وقيل: وَجْهُ ذلك: أنَّ هذه الآيَ جاءت بَعْدَما أخبَرَ اللهُ تعالى عن الكُفَّارِ مِن إنكارِ البَعثِ، فأمَرَ نَبيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يسألَهم لمَن الأرضُ ومَن فيها؟ فإنَّهم يُقِرُّون أنَّ جميعَ ذلك لِخالِقِها، وهو اللهُ تعالى، فإذا أقَرُّوا بذلك فقُلْ لهم: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ فخُصَّتْ بالتَّذكُّرِ؛ لأنَّهم إذا أثْبَتوا الخلْقَ الأوَّلَ لَزِمَهم الخَلْقُ الثَّاني. وأمَّا قولُه تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ وهذه الأشياءُ مِن أكبَرِ ما يُرى مِن خلْقِ اللهِ تعالى، فإذا أقرَرْتُم للهِ بذلك؛ فلِمَ لا تَجْتَنِبون مَعصِيَتَه، ولا تتَّقونَ عُقوبتَه. وأمَّا الثَّالثةُ -وهي: ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾- فإنَّها جاءت بَعدَ تَقريرٍ ثالثٍ، وهو: ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾، أي: مَن الَّذي مُلْكُه على الأشياءِ أتَمُّ مُلْكٍ؛ يَمنَعُ مِن المكروهِ مَن شاء، ولا يَملِكُ أحدٌ مَنْعَ مَن أرادهُ بسُوءٍ؟ فإذا أقَرُّوا بذلك، فقُلْ لهم: كيف

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٦).

تُخْدَعونَ عن عقُولِكم حتَّى تَتَّخِذوا الأوثانَ والأصنامَ آلهةً -وهي لا تَسمَعُ ولا تُبصِرُ- مع القادرِ العليمِ الَّذي قد أقرَرْتُم له بأتَمِّ المُلْكِ؟! وأمَّا قولُه: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي: مِن أين يأْتِيكم ما يَغلِبُ على عُقولِكم، فيُخيِّلُ الباطلَ إليها حَقًّا، والقَبِيحَ عندَها حَسَنًا؟! فهذا الَّذي ختَمَ به الثَّالثةَ ناظِمٌ معناهُ بخواتيمِ ما قَبْلَه، وكلٌّ في مَكانِه اللَّائقِ به[1].

وقيل: وجهُ ذلك: أنَّ تَذكيرَهم ورَدَ أوَّلًا بذِكْرِ ما كانوا يُقِرُّون ولا يَتوقَّفونَ فيه، وهو مُلْكُه سُبحانَه الأرضَ ومَن فيها؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، والخالِقُ مالِكٌ لِمَا خلَقَه، فكأنْ قد قِيلَ لهم: إذا علِمْتُم بانفرادِه سُبحانَه بذلك؛ فهلَّا أفرَدْتُموه بالعِبادةِ، واستدْلَلْتُم بالبَدأةِ على العودةِ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟! ثمَّ ذُكِّروا برُبوبيَّتِه سُبحانَه ومُلْكِه السَّمواتِ السَّبْعَ والعرشَ، فاعْتَرَفوا إلى اعترافِهم بما تقدَّمَ وإقرارِهم بمُلْكِه لِمَا ذُكِرَ، وقُدرتِه وقَهْرِه، ولو سبَقَتْ لهم سعادةٌ لكان تذكُّرُهم لذلك يُؤثِّرُ خَوفَهم مِن عَذابِه، فلمَّا لم يقَعْ ذلك منهم، قِيلَ لهم: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٧]، ثمَّ ذُكِّروا بعَظيمِ سُلطانِه تعالى، وعُلوِّ قَهْرِه لجَميعِ الموجوداتِ، وكَونِها في قَبْضَتِه، وأنَّه لا حُكْمَ لأحدٍ عليه تعالى، فقال: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، ثمَّ ذكَرَ اعتِرافَهم بهذا في قولِه: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٩]؛ فلمَّا تمَّ تَقريرُهم على جَميعِ ما تقدَّمَ ممَّا ذُكِّروا به، واعتِرافُهم بكلِّ ذلك، ولم يَعْقُبْ إقرارَهم ولا اعتِرافَهم الإيمانُ والانقيادُ، كانوا كمَن فقَدَ عقْلَه أو سُحِرَ، فاختَلَّ نظَرُه وعقْلُه، فقِيلَ لهم: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾: ما بالُكم كيف تُسحَرُونَ؟! ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٤٦-٩٤٩).

وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١ - ٩٢]؛ فوضَحَ تناسُبُ هذا كلِّه، وتبيَّنَ الْتِحامُه[١].

٧- قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ إضرابٌ لإبطالِ أنْ يَكونوا مَسْحُورينَ، أي: بلْ ليس الأمْرُ كما خُيِّلَ إليهم[٢].

- والعُدولُ عن الخِطابِ في قولِه: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم﴾: الْتِفاتٌ؛ لأنَّهم المُوجَّهُ إليهم الكلامُ في هذه الجُملةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فيه تأْكيدُ نِسْبتِهم إلى الكذِبِ بـ (إنَّ) واللَّامِ؛ لِتَحقيقِ الخبَرِ[٤].

٨- قولُه تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

- قولُه: ﴿مِن وَلَدٍ﴾ و﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ في قولِه: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ نَفْيٌ عامٌّ يُفيدُ استغراقَ الجِنْسِ؛ ولهذا جاء ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ ﴾ ولم يأْتِ التَّركيبُ: إذًا لَذهَبَ الإلهُ...[٥]؛ فقولُه: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ ﴾ استِدلالٌ على امتِناعِ أنْ يكونَ مع اللهِ آلِهةٌ. وإنَّما لم يُستدَلَّ على امتِناعِ أنْ

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨١).

يَتَّخِذَ اللهُ ولدًا؛ لأنَّ الاستِدلالَ على ما بَعْدَه مُغْنٍ عنه؛ لأنَّ ما بَعدَه أعَمُّ منه، وانتفاءُ الأعَمِّ يَقْتضي انتفاءَ الأخصِّ؛ فإنَّه لو كان للهِ ولَدٌ لكان الأولادُ آلِهةً؛ لأنَّ ولَدَ كلِّ مَوجودٍ إنَّما يتكوَّنُ على مِثْلِ ماهيَّةِ أصْلِه[1]. فذَكَر الدَّليلَ على نفْيِ الشَّريكِ، واقتَصَرَ عليه، ولم يَذكُرِ الدَّليلَ على نفْيِ الولدِ؛ لأنَّ الدَّليلَ على نفْيِ الشريكِ يَتضمَّنُ نفْيَ الولدِ؛ وذلك أنَّ الولدَ يُنازِعُ الأبَ في المُلكِ مُنازعةَ الأجانبِ؛ فلو كان للهِ ولدٌ لأظْهرَ المنازعةَ كما يكونُ بينَ الإلَهينِ والمَلِكَينِ[2].

- وأيضًا قولُه: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ جَوابٌ لِمُحاجَّتِهم، وجَزاءٌ لشَرطٍ مَحذوفٍ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَه عليه، أي: لو كان معه آلِهَةٌ كما يَزْعُمون لَذَهَبَ...[3]. وإنَّما حُذِفَ؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ عليه[4].

- قولُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لَمَّا اقْتَضى هذا الدَّليلُ بُطلانَ قولِهم، عُقِّبَ الدَّليلُ بتَنزيهِ اللهِ تعالى عن أقوالِ المُشرِكين، وهو بمَنزِلةِ نَتيجةِ الدَّليلِ[5].

٩- قولُه تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أتبَعَ الاستِدلالَ على انتفاءِ الشَّريكِ بقولِه: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ المُرادِ به عُمومُ العِلْمِ وإحاطَتُه بكلِّ شَيءٍ -كما أفادَتْهُ لامُ التَّعريفِ في (الغَيْبِ) و(الشَّهَادَةِ) مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٦، ١١٧).

الاستِغراقِ الحقيقيِّ، أي: عالِمِ كلِّ مَغِيبٍ وكلِّ ظاهرٍ-: لدَفْعِ تَوهُّمِ أنْ يُقالَ: إنَّ استِقلالَ كلِّ إلهٍ بما خلَقَ قد لا يُفْضِي إلى عُلوِّ بَعضِ الآلهةِ على بَعضٍ؛ لجَوازِ ألَّا يَعلَمَ أحدٌ مِن الآلهةِ بمِقدارِ تَفاوُتِ مَلكوتِه على مَلكوتِ الآخَرِ، فلا يَحصُلُ عُلوُّ بَعضِهم على بَعضٍ؛ لاشتغالِ كلِّ إلَهٍ بمَلكوتِه. ووَجْهُ الدَّفعِ: أنَّ الإلهَ إذا جاز أنْ يكونَ غيرَ خالِقٍ لطائفةٍ مِن المخلوقاتِ الَّتي خلَقَها غيرُه؛ لئلَّا تَتداخَلَ القُدَرُ في مَقدوراتٍ واحدةٍ: لا يَجوزُ أنْ يكونَ غيرَ عالِمٍ بما خلقَه غيرُه؛ لأنَّ صِفاتِ العِلْمِ لا تَتداخَلُ، فإذا عَلِمَ أحدُ الآلهةِ مِقْدارَ مَلكوتِ شُركائِه؛ فالعالِمُ بأشَدِّيَّةِ مَلكوتِه يَعلُو على مَن هو دُونَه في الملكوتِ؛ فظهَرَ أنَّ قولَه: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ مِن تَمامِ الاستِدلالِ على انتفاءِ الشُّركاءِ؛ ولذلك فُرِّعَ عنه بالفاءِ قولُه: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٧).

الآيات (٩٢-١٠٠)

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾: أي: نَخساتِهم، وغَمزاتِهم، وطَعَناتِهم، ووساوسِهم، والهمْزُ: الدَّفْعُ؛ فهَمَزاتُهم: دَفْعُهم بالإغواءِ إلى المعاصي، أو هو دفعٌ بنَخْزٍ وغَمْزٍ يُشبهُ الطَّعنَ، وأصْلُ (همز): يدُلُّ على ضَغطٍ وعصْرٍ[(١)].

﴿وَمِن وَرَائِهِم﴾: أي: مِن أمامِهم فيما يَستقبلونَ مِن الزَّمانِ، و(وراء) مِن الأضْدادِ، يُقالُ للرَّجل: وراءَك، أي: خلْفَك، ووَراءَك، أي: أمامَك[(٢)].

﴿بَرْزَخٌ﴾: البَرزخُ: القَبْرُ، أو ما بيْن الدُّنيا والآخرةِ، وكلُّ حاجزٍ بَيْن شَيْئَيْنِ فهو بَرزخٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٨)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٩)، ((الأضداد)) لابن الأنباري (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) =

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نَبِيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائلًا له: قُلْ -يا محمَّدُ-: ربِّ إنْ تُرِني العَذابَ الَّذي وعدتَ به هؤلاء المُشرِكينَ، فنَجِّني حِينذاكَ، ولا تجعَلْني في هؤلاء القومِ الظَّالمينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قادِرٌ على أن يُريَه العذابَ الَّذي أعدَّه لهم.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نَبِيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يقابلَ أذاهم بالخَصلةِ التي هي أحسَنُ الخصالِ؛ وأن يصبرَ على أذاهُم، ويبيِّنُ له أنَّه تعالى أعلَمُ بما يَصِفُه هؤلاء المُشرِكونَ مِنَ الشِّركِ والتَّكذيبِ.

ويأمرُه كذلك أن يستعيذَ به مِن وَساوسِ الشَّياطينِ، ومِن نَزَغاتِهم المُغريةِ على الباطِلِ، وأن يستجيرَ به مِن حُضورِهم في أيِّ أمْرٍ مِن أُمورِه.

ثمَّ يخبرُ تعالَى عن حالِ المحتضَرينَ مِن المفرِّطينَ الظالمينَ، فإنَّه إذا فاجَأَ أحدَهم الموتُ، ونزَلَت به سكَراتُه، ولاحَتْ لهم علاماتُ العذابِ؛ قال حينَها: ربِّ ارجِعْني إلى الدُّنيا؛ لكيْ أعملَ عملًا صالحًا أستدركُ به ما فرَّطتُ فيه مِن الإيمانِ والطاعاتِ.

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ الأمرَ ليس كما قال هذا الكافرُ النَّادمُ؛ فلن يستجيبَ اللهُ تعالى لهذا الطلبِ، فإنَّ طلبَه هذا مجرَّدُ كَلِمةٍ يقولُها حينَ يأتيه الموتُ، ولا تنفعُه شيئًا؛ ومِن أمامِ هؤلاءِ الموتَى حاجِزٌ يَحولُ بيْنهم وبيْن الرُّجوعِ إلى الدُّنيا، وهذا الحاجِزُ مُستمِرٌّ إلى يومِ البَعثِ والنُّشورِ.

= للكفوي (ص: ٢٢٦).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما كان عليه الكُفَّارُ مِن ادِّعاءِ الولَدِ والشَّريكِ له، وكان تعالى قد أعلَمَ نَبيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يَنتقِمُ منهم، ولم يُبيِّنْ إذ ذاك هل يقَعُ ذلك في حَياتِه أمْ بَعْدَ مَوتِه: أمَرَهُ بأنْ يَدْعوَ بهذا الدُّعاءِ[1].

وأيضًا فإنَّ الآياتِ السَّابقةَ آذنَتْ بأقصى ضَلالِ المُشركينَ، وانتفاءِ عُذْرِهم فيما دانُوا به اللهَ تعالى، وبغَضبِ اللهِ عليهم لذلك، وأنَّهم سواءٌ في ذلك مع الأُمَمِ الَّتي عجَّلَ اللهُ لها العَذابَ في الدُّنيا، وادَّخَرَ لها عذابًا آخَرَ في الآخرةِ؛ فكان ذلك نِذراةً لهم بمِثْلِه، وتَهديدًا بما سيَلْقَونَه، وكان مَثارًا لِخَشيةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَحِلَّ العَذابُ بقَومِه في حَياتِه، والخوفِ مِن هَولِه؛ فلقَّنَ اللهُ نَبيَّه أنْ يَسأَلَ النَّجاةَ مِن ذلك العذابِ[2].

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ-: يا ربِّ، إنْ أَرَيتَني ما وعَدْتَ هؤلاء المُشرِكينَ المُكذِّبينَ مِن نُزولِ العذابِ بهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨).

قال الشنقيطي: (قد بيَّنَ تعالى في مواضِعَ أُخَرَ: أنَّه لا يُنزِلُ بهم العذابَ وهو فيهم، وذلك في قولِه تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وبيَّنَ هنا أنَّه قادِرٌ على =

﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

أي: ربِّ، فنَجِّني حِينذاكَ، ولا تَجْعَلْني فيهم[١].

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما، عنِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما يَرويه عن رَبِّه عزَّ وجلَّ، أنَّه قال: ((يا محمَّدُ، إذا صلَّيتَ فقُلِ: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ فِعلَ الخَيراتِ، وتَرْكَ المُنْكَراتِ، وحُبَّ المَساكينِ، وإذا أردْتَ بعِبادِك فِتنةً[٢] فاقبِضْني إليك غيْرَ مَفْتونٍ))[٣].

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

أي: وإنَّا -يا محمَّدُ- على أنْ نُرِيَك ما نَعِدُ المُشرِكينَ المُكذِّبينَ مِن العذابِ لَقادِرونَ، وإنَّما نُؤخِّرُه لحِكمةٍ؛ فلا يَحزُنْك تكذيبُهم[٤].

= أنْ يُرِيَه العذابَ الَّذي وعَدَهُم به في قولِه: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٥]، وبيَّنَ في سُورةِ «الزُّخرفِ»: أنَّه إنْ ذهَبَ به قَبلَ تَعذيبِهم، فإنَّه مُعذِّبٌ لهم ومُنتقِمٌ منهم لا مَحالةَ، وأنَّه إنْ عذَّبَهم وهو حاضِرٌ فهو مُقتدِرٌ عليهم، وذلك في قولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢]). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٢).

(٢) فِتنةً: أي: ضلالةً أو عقوبةً دنيويةً. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا القاري (٢/ ٦١١).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٣٣) واللفظ له، وأحمد (٣٤٨٤).

حسَّن إسنادَه ابنُ الجوزي في ((العلل المتناهية)) (١/ ٣٥)، وحسَّن الحديثَ ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٣١٧)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٣٣)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٥/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨).

قال القرطبيُّ: (قد أراه اللهُ تعالى ذلك فيهم بالجوعِ والسَّيفِ، ونجَّاه اللهُ ومَن آمن به مِن =

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها:

لَمَّا أنبَأَ اللهُ رسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بما يُلمِحُ له بأنَّه مُنجِزٌ وَعيدَه مِنَ الَّذين كذَّبوهُ، فعَلِمَ الرَّسولُ والمُسلِمون أنَّ اللهَ ضَمِنَ لهمُ النَّصرَ؛ أعقَبَ ذلك بأنْ أمَرَه بأنْ يَدفَعَ مُكذِّبيه بالَّتي هي أحسَنُ، وألَّا يَضِيقَ بتَكذيبِهم صَدْرُه، فذلك دَفْعُ السَّيِّئةِ بالحَسنةِ كما هو أدَبُ الإسلامِ[1].

وأيضًا لَمَّا تبيَّن أنَّ أخْذَهم وتأْخيرَهم في الإمكانِ على حَدٍّ سَواءٍ، وكانوا يَقولون ويَفْعَلون ما لا صَبْرَ عليه إلَّا بمَعونةٍ مِنَ اللهِ؛ كان كأنَّه قال: فماذا أفعَلُ فيما تَعلَمُ مِن أمْرِهم؟ فقال آمِرًا له بمُداواتِه[2]:

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

أي: ادفَعْ -يا محمَّدُ- أذَى أولئك القومِ بالخَصلةِ الَّتي هي أحسَنُ الخِصالِ؛ بأنْ تُحسِنَ إليهم، وتَصفَحَ عنهم، وتَصبِرَ على أذاهُم[3].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي

= ذلك). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٧).

وقال ابنُ عاشور: (قد تحقَّقَ ذلك فيما حلَّ بالمشركين يومَ بدْرٍ ويومَ حُنَينٍ، فالوعيدُ المذكور هنا وَعيدٌ بعقابٍ في الدُّنيا كما يَقْتضيه قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٢).

قال ابن جزي: (والأظهرُ أنَّه أمرٌ بالصَّفحِ والاحتمالِ وحُسنِ الخُلقِ، وهو مُحْكَمٌ غيرُ منسوخٍ، وإنَّما نُسِخ ما يقتضيه مِن مسالمةِ الكفَّارِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٧).

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾.

أي: نحنُ أعلَمُ بما يَصِفُ أولئك المُشرِكونَ به ربَّهم مِنَ الأكاذيبِ والأباطيلِ المُختَلَقةِ؛ كادِّعاءِ الشَّريكِ والولَدِ له سُبحانَه، وبما يقولونَ فيك مِن السُّوءِ[(١)].

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أدَّبَ اللهُ سُبحانَه رَسولَه بقولِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، أتْبَعَه بما به يَقْوَى على ذلك؛ وهو الاستِعاذةُ باللهِ مِن أمْرينِ: أحدِهما: مِن هَمزاتِ الشَّياطينِ، وثانيهِما: قولُه: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[(٢)].

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: يا ربِّ، أعتصِمُ بك مِن وَساوسِ الشَّياطينِ، ونزَغاتِهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩).

قال البقاعي: (﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ أي: مِن كلِّ عالِمٍ، ﴿بِمَا يَصِفُونَ﴾ في حَقِّك وحَقِّنا). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٨)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩).

قال الشوكاني: (﴿هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾: نَزَغاتُهم ووَساوِسُهم كما قالَه المفسِّرونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٨٨).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

وقال سبُحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۞ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٨].

وعن سُلَيمانَ بنِ صُرَدٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((كنتُ جالِسًا مع النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ورجُلانِ يَستبَّانِ، فأحدُهما احمرَّ وجْهُه، وانتفخَتْ أوداجُه[1]، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنِّي لَأعلَمُ كَلِمةً لو قالها ذهَبَ عنه ما يَجِدُ؛ لو قال: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ، ذهَبَ عنه ما يَجِدُ))[2].

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾.

أي: وأعتصِمُ بك -يا ربِّ- أنْ يَحضُرَ الشَّياطينُ شيئًا مِن أُموري، فيُصِيبوني بشَرٍّ وأذًى[3].

عن أبي اليَسَرِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَدْعو:

---

(١) الأوداج: هي ما أحاط بالعنُقِ من العروقِ، واحدُها: ودَجٌ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٦٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢٨٢) واللفظ له، ومسلم (٢٦١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٨، ١٤٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩).
قال الشَّوكانيُّ: (المعنى: وأعوذُ بك أنْ يكونوا معي في حالٍ مِنَ الأحوالِ؛ فإنَّهم إذا حَضَروا الإنسانَ لم يكُنْ لهم عمَلٌ إلَّا الوَسوسةُ والإغراءُ على الشرِّ والصَّرفِ عن الخيرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٨٨). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٣).
وقال ابنُ كثير: (ولهذا أُمِرَ بذِكْرِ اللهِ في ابتداءِ الأُمورِ -وذلك مَطرَدةٌ للشَّياطينِ-: عندَ الأكلِ والجِماعِ والذَّبحِ، وغيرِ ذلك مِن الأُمور). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٢).

((اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك أنْ يَتخبَّطني[١] الشَّيطانُ عندَ الموتِ))[٢].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان أضَرُّ أوقاتِ حُضورِ الشَّياطينِ ساعةَ المَوتِ، وحالةَ الفوتِ، فإنَّه وقْتُ كشْفِ الغِطاءِ، عمَّا كُتِبَ مِنَ القضاءِ، وآنُ اللِّقاءِ، وتَحتُّمِ السُّفولِ أوِ الارتقاءِ- عقَّبَ ذلك بذِكْرِه؛ تَنبيهًا على بَذلِ الجُهدِ في الدُّعاءِ، والتَّضرُّعِ للعِصمةِ فيه، فقال[٣]:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ ﴾.

أي: حتَّى[٤] إذا حضَرَتِ الوَفاةُ أحدَ المُفرِّطينَ الظَّالِمينَ، فانكشَفَ له الغِطاءُ، وظهَرَ له الحَقُّ، ولاحَتْ له أماراتُ العذابِ؛ قال نادمًا: يا ربِّ، ارجِعُوني إلى الدُّنيا[٥].

---

(١) يتخَبَّطَني: أي: يصرَعَني، ويلعبَ بي، ويُفسِدَ ديني وعقلي. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٨/ ٢٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٥٢)، والنسائي (٥٥٣١)، وأحمد (١٥٥٢٣).
صحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ٧١٣)، وذكر ابن حجر في ((بذل الماعون)) (١٩٩) أنه حديثٌ ثابتٌ، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٤).

(٤) قال ابن عطيَّة: (﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ في هذا الموضِعِ: حَرْفُ ابتداءٍ، ويَحتمِل أنْ تكونَ غايةً مُجرَّدةً بتقديرِ كلامٍ مَحذوفٍ، والأوَّلُ أبيَنُ؛ لأنَّ ما بعدَها هو المَعْنِيُّ به المقصودُ ذِكرُه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٥). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩).
نقل السَّمعاني الاتِّفاقَ على أنَّ سُؤالَ الرَّجعةِ يَكونُ للكافرِ لا للمُؤمِنِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٠).
=

كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٠٠﴾.

﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

أي: لِأعمَلَ[(١)] عمَلًا صالِحًا أستَدْرِكُ به ما ضيَّعتُه وفرَّطْتُ فيه مِنَ الإيمانِ وما يتبعُه مِن الطَّاعاتِ[(٢)].

= لكِنْ أثبَتَ الرَّازيُّ الخِلافَ، ونَسَب للأكثَرينَ القَولَ بأنَّ سُؤالَ الرَّجعةِ يَكونُ للكُفَّارِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٢).

قال القرطبي: (ليس سُؤالُ الرَّجعةِ مُختَصًّا بالكافِرِ؛ فقد يَسألُها المؤمِنُ كما في آخِرِ سُورةِ المنافِقينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٩).

وقال ابنُ كثير: (يخبِرُ تعالى عن حالِ المُحتَضَرِ عند الموتِ مِن الكافِرينَ أو المفرِّطينَ في أمرِ اللهِ تعالى، وقِيلِهم عندَ ذلك، وسُؤالِهم الرَّجعةَ إلى الدُّنيا؛ لِيُصلِحَ ما كان أفسَدَه في مُدَّةِ حَياتِه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٣).

وقال الرازي: (اختَلَفوا في وَقتِ مسألةِ الرَّجعةِ؛ فالأكثَرونَ على أنَّه يَسألُ في حالِ المُعايَنةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٣).

(١) قال القرطبيُّ: («لعلَّ» تتضمَّن تردُّدًا، وهذا الَّذي يَسألُ الرَّجعةَ قدِ استيقنَ العذابَ، وهو يُوطِّنُ نفْسَه على العملِ الصَّالحِ قطْعًا مِن غيرِ تردُّدٍ؛ فالتَّردُّدُ يرجِعُ إمَّا إلى ردِّه إلى الدُّنيا، وإمَّا إلى التَّوفيقِ، أي: أعمَلُ صالحًا إنْ وفَّقتَني؛ إذ ليس على قطْعٍ مِن وُجودِ القُدرةِ والتَّوفيقِ لو رُدَّ إلى الدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٠). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٥).

قيل: المعنى: فيما تركتُ وضيعتُ مِن العمل بالطاعاتِ. وممَّن اختاره: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩). =

﴿كَلَّآ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما قال هذا الظَّالمُ لنَفْسِه؛ فلنْ يَستجيبَ اللهُ طلَبَ إمهالِه وإرجاعِه إلى الدُّنيا لِيعمَلَ صالِحًا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾.

أي: إنَّ طلَبَه الرُّجوعَ إلى الدُّنيا مُجرَّدُ كلامٍ يقولُه الظَّالمُ حين تَحضُرُه الوَفاةُ[2].

= قال الشنقيطي: (والعملُ الصَّالحُ يشملُ جميعَ الأعمالِ؛ مِن الشَّهادتينِ، والحجِّ الَّذي كانَ قد فَرَّط فيه، والصَّلواتِ، والزَّكاةِ، ونحوِ ذلك). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٥٥).

وقيل: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي: ضيَّعتُ أن أقولَ: لا إلهَ إلا اللهُ. وممَّن اختاره: السمعانيُّ، والبغوي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٤).

وقيل: المرادُ: في الإيمانِ الذي تركتُه. وممَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٠).

وقيل: المراد: الإيمانُ وما يتبعُه. وممَّن اختاره: البِقاعيُّ، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٥)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٩١).

وقيل: فيما تركتُه من المالِ فأتصدق، أو مِن الدُّنيا، أو فيما مضى مِن عُمُري. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٠).

قال ابنُ القيِّم: (ذكَر سببَ سؤالِ الرَّجعةِ، وهو أن يَستقبلَ العملَ الصالحَ فيما ترَك خلفَه مِن مالِه وجاهِه وسلطانِه وقوَّتِه وأسبابِه). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٤).

قال ابنُ كثير: (قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾: قال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلمَ: أي لا بدَّ أن يقولَها لا محالةَ كلُّ محتضَرٍ ظالمٍ. ويحتمِلُ أن يكونَ ذلك علةً لقولِه: ﴿كَلَّآ﴾، أي: لأنَّها =

﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

أي: ومِن أمامِ هؤلاء المَوتى حاجِزٌ بيْنَ الدُّنيا والآخرةِ يَحجُزُهم عنِ الرُّجوعِ إلى الدُّنيا، مِن وقْتِ مَوتِهم إلى يومِ القِيامةِ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه النَّاسَ أحياءً مِن قُبورِهم(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾، والتَّخلُّقُ بهذه الآيةِ هو: أنَّ المُؤمِنَ الكامِلَ يَنْبَغي له أنْ يُفوِّضَ أمْرَ المُعتدينَ عليه إلى اللهِ؛ فهو يَتولَّى الانتصارَ لمَن توكَّلَ عليه، وأنَّه إنْ قابَلَ السَّيِّئَةَ بالحَسَنةِ، كان انتصارُ اللهِ أشْفى لِصَدْرِه، وأرسَخَ في نَصْرِه، وماذا تَبلُغُ قُدرةُ المَخلوقِ تُجاهَ قُدرةِ الخالِقِ، وهو الَّذي هزَمَ الأحزابَ بلا جُيوشٍ ولا فيالِقَ؟! وهكذا كان خلُقُ

= كلمةٌ، أي: سؤالُه الرجوعَ ليعملَ صالحًا هو كلامٌ منه، وقولٌ لا عملَ معه، ولو رُدَّ لَما عمِل صالحًا، ولكان يكذبُ في مقالتِه هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٥، ١٨٦).

وقال السعدي: (﴿إِنَّهَا﴾ أي: مقالتَه التي تمنَّى فيها الرجوعَ إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ أي: مجرَّدُ قولٍ باللسانِ، لا يفيدُ صاحبَه إلَّا الحسرةَ والندمَ، وهو أيضًا غيرُ صادقٍ في ذلك؛ فإنَّه لو رُدَّ لعاد لِما نُهي عنه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٠)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٠٨)، ((أهوال القبور)) لابن رجب (ص: ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩). ونقَل ابنُ عطيةَ إجماعَ المفسِّرينَ على أنَّ البرزخَ هنا هو المُدَّةُ الَّتي بينَ موتِ الإنسانِ وبيْنَ بَعثِه. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٦).

وقال ابنُ كثير: (في قولِه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ﴾: تهديدٌ لهؤلاء المحتضَرينَ مِن الظَّلَمةِ بعذابِ البرزخِ، كما قال: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠]، وقال ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]. وقولُه: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: يستمرُّ به العذابُ إلى يومِ البعثِ، كما جاء في الحديثِ: «فلا يزالُ معذَّبًا فيها» أي: في الأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٥).

النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فقد كان لا يَنتقِمُ لِنفْسِه، وكان يَدْعُو رَبَّه[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ فِقْهُ الآيةِ: اسلُكْ مَسلَكَ الكِرامِ ولا تَلحَظْ جانِبَ المكافأةِ، ادفَعْ بغَيرِ عِوَضٍ ولا تَسلُكْ مَسلَكَ المُبايَعةِ. ويَدخُلُ فيه: سَلِّمْ على مَن لمْ يُسلِّمْ عليكَ[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾، قال قَتادةُ: (طلَبَ الرُّجوعَ لِيَعملَ صالِحًا، لا لِيَجمعَ الدُّنيا، ويَقضيَ الشَّهَواتِ؛ فرحِمَ اللهُ امرَأً عَمِلَ فيما يَتمنَّاهُ الكافرُ إذا رأى العَذابَ)[٣].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه إيذانٌ بكَمالِ فَظاعةِ ما وُعِدُوه مِن العَذابِ، وكَونِه بحيثُ يَجِبُ أنْ يَستعيذَ منه مَن لا يكادُ يُمكِنُ أنْ يَحِيقَ به، ورَدٌّ لإنكارِهم إيَّاهُ واستعجالِهم به على طَريقةِ الاستِهزاءِ به[٤]. وقيل: أُمِرَ به صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هَضْمًا لنَفْسِه؛ إظهارًا للعُبوديَّةِ وتَواضُعًا لرَبِّه، وإخباتًا له. وقيل: لأنَّ شُؤمَ الكَفَرةِ قد يَحِيقُ بمَن وَراءَهُم، كقولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾[٥] [الأنفال: ٢٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَن نُّرِيَكَ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّه في مَنجاةٍ مِن أنْ يَلحَقَه ما يُوعَدونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٩).

به، وأنَّه سَيَراهُ مَرأى عينٍ دونَ كَونٍ فيه[١].

٣- في قولِه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ فِعْلَ العبدِ مَقدورٌ للهِ سُبحانَه؛ فمِنَ المعلومِ أنَّ الإعاذةَ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ ليست بإماتَتِه، ولا تَعطيلِ آلاتِ كَيْدِه، وإنَّما هي بأنْ يَعْصِمَ اللهُ المُستعيذَ مِن أذاهُ له، ويَحولَ بيْنَه وبيْنَ فِعْلِه الاختياريِّ له؛ فدَلَّ على أنَّ فِعْلَه مَقدورٌ له سُبحانَه: إنْ شاء سَلَّطه على العبدِ، وإنْ شاء حالَ بيْنَه وبيْنَه[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ دلَّتِ الآيةُ على أنَّ أحدًا لا يَموتُ حتَّى يَعرِفَ اضطرارًا أهو مِن أولياءِ اللهِ أمْ مِن أعداءِ اللهِ، ولولَا ذلك لَمَا سأَلَ الرَّجعةَ، فيَعْلَموا ذلك قَبلَ نُزولِ الموتِ وذَوَاقِه[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ لا يَخْفى ما يَسبِقُ إلى الذِّهنِ فيه مِن رُجوعِ الضَّميرِ إلى الرَّبِّ، والضَّميرُ بصِيغةِ الجمْعِ، والرَّبُّ جَلَّ وعلَا واحدٌ؟ **والجوابُ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:**

الوجْهُ الأوَّلُ: أنَّ الواوَ لِتَعظيمِ المُخاطَبِ، وهو اللهُ، وهذا لفظٌ تَعرِفُه العربُ للجليلِ الشَّأنِ يخبِرُ عن نفسِه بما يخبِرُ به عن الجماعةِ. وذلك النَّادِمُ السَّائلُ الرَّجعةَ يُظهِرُ في ذلك الوقْتِ تَعظيمَه ربَّهُ[٤].

الوجْهُ الثَّاني: أنَّ قَولَه: ﴿رَبِّ﴾ استغاثةٌ به تَعالى، وقولُه: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾ خِطابٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٩، ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٦١)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٥).

وقال الشنقيطي عن هذا الوجهِ في ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ١٦٤): (وهو أظهَرُها).

للملائكةِ، فمَسألةُ القَومِ الرَّدَّ إلى الدُّنيا إنَّما كانت منهم للملائكةِ الَّذين يَقْبِضون رُوحَهم، ومِثلُ هذا يَكثُرُ في الكلامِ عن العَرَبِ؛ أن يُخاطِبوا أحدًا ثمَّ تُصرَفُ المُخاطَبةُ إلى غيرِه؛ لأنَّ المعنى مُشتَمِلٌ على ذلك(١).

الوجْهُ الثَّالثُ: أنَّه جمَعَ الضَّميرَ لِيَدُلَّ على التَّكرارِ، فكأنَّه قال: ربِّ ارْجِعْني ارْجِعني(٢).

٦- قولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾، والمرادُ بها قولُه: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾- دلَّ على أنَّ اللَّهُ يُطلِقُ اسمَ الكلمةِ على الكلامِ، وكما في قولِه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، وما جاءَ لفظُ الكَلِمةِ في القرآنِ إلَّا مُرادًا به الكلامُ المفيدُ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ فيه إدخالُ (ما) الزَّائدةِ بَعدَ حَرفِ الشَّرطِ للتَّوكيدِ؛ فاقترَنَ فِعْلُ الشَّرطِ بنُونِ التَّوكيدِ؛ لِزيادةِ تَحقيقِ رَبْطِ الجَزاءِ بالشَّرطِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٦١)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٥).

وقال الشنقيطي عن الوجهِ الثالثِ: (ولا يَخْلو هذا القولُ عندي مِنْ بُعْدٍ). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٠). ويُنظر أيضًا: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٨).

٢- قوله تعالى: ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- في تَكريرِ النِّداءِ، ولَفظِ ﴿رَبِّ﴾، وتَصديرِ كلٍّ مِن الشَّرطِ والجَزاءِ به في قولِه: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مُبالَغةٌ في الابتِهالِ إلى اللهِ تعالى والتَّضرُّعِ؛ لإبرازِ كَمالِ الضَّراعةِ والابتهالِ[(١)]. أو ذُكِرَ في هذا الدُّعاءِ لَفْظُ ﴿رَبِّ﴾ مُكرَّرًا تَمهيدًا للإجابةِ؛ لأنَّ وَصْفَ الرُّبوبيَّةِ يَقْتضي الرَّأفةَ بالمَربوبِ[(٢)].

- ولَقَّنَ اللهُ نَبِيَّه أنْ يسأَلَ النَّجاةَ مِن ذلك العَذابِ، وفي هذا التَّلقينِ تَعريضٌ بأنَّ اللهَ مُنَجِّيه مِن العذابِ بحِكْمتِه، وإيماءٌ إلى أنَّ اللهَ يُرِي نَبِيَّه حُلولَ العذابِ بمُكذِّبيه؛ فهذه الجُملةُ استئنافٌ بَيانيٌّ، جوابًا عمَّا يَختلِجُ في نَفْسِ رسولِ اللهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[(٣)].

٣- قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾

- في قولِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ عَدَلَ عن مُقْتضى السِّياقِ لسِرٍّ بَليغٍ؛ فالظَّاهرُ أنْ يقولَ: (ادفَعْ بالحَسنةِ السَّيِّئةَ)، ولكنَّه عَدَلَ عن مُقْتضى الكلامِ؛ لِمَا فيه مِن التَّفضيلِ، والمعنى: ادفَعِ السَّيِّئةَ بما أمكَنَ مِن الإحسانِ، حتَّى إذا اجتمَعَ الصَّفحُ والإحسانُ، وبَذْلُ الاستِطاعةِ فيه؛ كانت حَسنةً مُضاعَفةً بإزاءِ سَيِّئةٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٢٣، ٦٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) =

- وفي قولِه: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ فخَّمَ الأمْرَ بالموصولِ؛ لِمَا فيه مِن الإيهامِ المُشوِّقِ للبَيانِ، ثمَّ بأفعَلِ التَّفضيلِ ﴿أَحۡسَنُ﴾[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ تَقديمُ الجارِّ والمَجرورِ على المفعولِ؛ للاهتِمامِ[2].

- قولُه: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ خَبرٌ مُستعمَلٌ كِنايةً عن كَونِ اللهِ يُعامِلُ أصحابَ الإساءةِ لرَسولِه بما هُمْ أحِقَّاءُ به مِن العِقابِ؛ لأنَّ الَّذي هو أعلَمُ بالأحوالِ يَجْري عمَلُه على مُناسِبِ تلك الأحوالِ بالعَدْلِ. وفي هذا تَطمينٌ لِنفْسِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[3]؛ ففي قولِه: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ وَعيدٌ لهم بالجَزاءِ والعُقوبةِ، وتَسليةٌ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإرشادٌ له صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى تَفويضِ أمْرِه إليه تعالى[4].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ أُمِرَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَعوذَ به تعالى مِن حُضورِهم بَعْدَما أُمِرَ بالعَوذِ مِن هَمزاتِهم؛ للمُبالَغةِ في التَّحذيرِ مِن مُلابَسَتِهم. وإعادةُ الفِعْلِ (أعوذُ) مع تَكريرِ النِّداءِ ﴿رَبِّ﴾؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتِناءِ بالمأْمورِ به، وعَرْضِ نِهايةِ الابتِهالِ في الاستدعاءِ[5].

- وقولُه: ﴿يَحۡضُرُونِ﴾ قيل: إنَّه مَقطوعٌ عن مُتعَلِّقِه بمَنزِلةِ اللَّازمِ؛ فالاستِعاذةُ

= (٦/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٤٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٥٠).

مِن حُضورِه مُطلقًا[١]. وعلى القولِ بتَخصيصِ الاستِعاذةِ بحالِ الصَّلاةِ وقِراءةِ القُرآنِ، أو حالِ حُلولِ الأجَلِ؛ لأنَّها أحْرَى الأحوالِ بالاستِعاذةِ منها[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يَصِفُونَ﴾، وما بَيْنَهما اعتِراضٌ؛ لتأْكيدِ الإغضاءِ بالاستِعاذةِ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ أنْ يُزِلَّه عن الحِلْمِ، ويُغْرِيَه على الانتِقامِ[٣]. وقيل: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيَّةٌ، ولا تُفِيدُ أنَّ مَضمونَ ما قَبْلَها مُغيًّا بها؛ فلا حاجةَ إلى تَعليقِ (حتَّى) بـ ﴿يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وقيل: إنَّ (حتَّى) مُتَّصِلةٌ بقولِه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٥]؛ فهذا انتِقالٌ إلى وَصفِ ما يَلْقَون مِنَ العذابِ في الآخرةِ بَعْدَ أنْ ذكَرَ عَذابَهم في الدُّنيا؛ فيكونُ قولُه هنا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ وَصْفًا أُنُفًا -جديدًا- لعَذابِهم في الآخرةِ[٤].

- وفي قَولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ قدَّمَ المفعولَ فقال: ﴿أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾؛ لِيذْهَبَ الوَهْمُ في فاعِلِه كلَّ مَذهَبٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٢).

قال الشِّنقيطي: (الظَّاهرُ عندي: أنَّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في هذه الآيةِ: هي الَّتي يُبتدأُ بعدها الكلامُ، ويُقال لها: حرفُ ابتداءٍ، كما قاله ابنُ عطيَّة، خِلافًا للزمخشريِّ القائلِ: إنَّها غايةٌ لقولِه: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾... ولأبي حيَّانَ القائلِ: إنَّ الظاهرَ له أنَّ قبْلَها جملةً محذوفةً هي غايةٌ له يدُلُّ عليها ما قبْلَها، وقدَّر الجملةَ المذكورةَ بقولِه: فلا أكون كالكفارِ الذين تهمزُهم الشياطينُ ويحضرونَهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾...). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٥٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٤).

- وضَمائرُ الغَيبةِ عائدةٌ إلى ما عادَتْ عليه الضَّمائرُ السَّابقةُ مِن قولِه: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢] إلى ما هنا، وليست عائدةً إلى الشَّياطينِ، ولقَصْدِ إدماجِ التَّهديدِ بما سيُشاهِدون مِن عَذابٍ أُعِدَّ لهم، فيَندَمُون على تَفريطِهم في مُدَّةِ حَياتِهم[١].

٦- قوله تعالى: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾ في مَوضِعِ العِلَّةِ لمَضمونِ قولِه: ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾[٢]. وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث لم يَنظِمْه في سِلْكِ الرَّجاءِ كسائرِ الأعمالِ الصَّالحةِ، بأنْ يقولَ: (لعلِّي أُؤمِنُ فأعمَلَ...) إلخ؛ للإشعارِ بأنَّه أمْرٌ مُقرَّرُ الوُقوعِ، غَنِيٌّ عن الإخبارِ بوُقوعِه قَطْعًا، فضْلًا عن كَونِه مَرْجُوَّ الوُقوعِ[٣].

- والتَّركُ هنا في قولِه: ﴿فِيمَا تَرَكۡتُ﴾ مُستعمَلٌ في حَقيقتِه، وهو معنَى التَّخليةِ والمُفارَقةِ. والمُرادُ بـ﴿فِيمَا تَرَكۡتُ﴾ عالَمُ الدُّنيا. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالتَّركِ الإعراضُ والرَّفضُ، على أنْ يكونَ المُرادُ بـ (ما) الموصولةِ الإيمانَ باللهِ وتَصديقَ رَسولِه، فذلك هو الَّذي رفَضَه كلُّ مَن يَموتُ على الكُفرِ؛ فالمعنَى: لعلِّي أُسلِمُ، وأعمَلُ صالِحًا في حالةِ إسْلامي الَّذي كنْتُ رَفضْتُه؛ فاشتمَلَ هذا المعنى على وَعْدٍ بالامتِثالِ، واعترافٍ بالخطأِ فيما سلَفَ، ورُكِّبَ بهذا النَّظمِ المُوجَزِ؛ قَضاءً لحَقِّ البلاغةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٣).

- قولُه: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ عن طلَبِ الرَّجعةِ، وإنكارٌ واستِبعادٌ[١]. وقولُه: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ تركيبٌ يَجْري مَجرى المثَلِ، وهو مِن مُبتكَراتِ القُرآنِ، وحاصِلُ معناهُ: أنَّ قَولَ المُشرِكِ: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ...﴾ إلخ، لا يَتجاوزُ أنْ يكونَ كَلامًا صدَرَ مِن لِسانِه لا جَدْوى له فيه، أي: لا يُستجابُ طلَبُه به؛ فجُملةُ ﴿هُوَ قَآئِلُهَا﴾ وَصفٌ لـ ﴿كَلِمَةٌ﴾، أي: هي كَلِمةٌ هذا وَصْفُها. وإذ كان مِن المُحقَّقِ أنَّه قائِلُها، لم يكُنْ في وَصْفِ ﴿كَلِمَةٌ﴾ به فائدةٌ جديدةٌ؛ فتَعيَّنَ أنْ يكونَ الخبَرُ مُستعمَلًا في معنَى أنَّه لا وَصْفَ لكَلِمتِه غيرُ كَونِها صدَرَتْ مِن فِي صاحِبِها، وبذلك يُعلَمُ أنَّ التَّأكيدَ بحَرفِ (إنَّ)؛ لتَحقيقِ المعنى الَّذي استُعمِلَ له الوَصفُ[٢].

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ لأحدِهم، والجَمْعُ باعتِبارِ المعنَى؛ لأنَّه في حُكْمِ كلِّهم، كما أنَّ الإفرادَ في الضَّمائرِ الأُوَلِ باعتِبارِ اللَّفظِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ إقناطٌ كُلِّيٌّ لِمَا عُلِمَ أنَّه لا رَجعةَ يومَ البَعثِ إلَّا إلى الآخرةِ؛ ففيه التَّقييدُ بالمُحالِ للمُبالَغةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٣، ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٤).

الآيات (١٠١-١٠٤)

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرْنِ الَّذي يَنفُخُ فيه إسرافيلُ، وقيل: الصورُ جمعُ صُورَةٍ يَنْفُخُ فيها رُوحَها فتَحْيا[١].

﴿تَلْفَحُ﴾: أي: تُحرِقُ، ويُقال: لَفَحتْه النَّارُ بحَرِّها: إذا أصابَه حَرُّها، فتغيَّرَ وَجْهُه[٢].

﴿كَٰلِحُونَ﴾: أي: عابِسونَ، والكُلوحُ: بدوُّ الأسنانِ عندَ العبوسِ، أو: مُتَقَلِّصو الشِّفَاهِ عن الأسنانِ؛ مِن إحْراقِ النَّارِ وُجوهَهم، وأصْلُ (كلح): يدُلُّ على عُبوسٍ وقُبحٍ في الوَجهِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ تعالى أنَّه إذا كان يومُ القِيامةِ، ونُفِخ في الصورِ نفخةُ البعثِ، ونهَض

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٥).

النَّاسُ مِن قُبورِهم؛ فلا ينفعُ أحدًا حينَئِذٍ نسَبُه، ولا يَفتخرُ به، ولا يسألُ أحدٌ أحدًا.

فمَن ثَقُلَت مَوازينُ أعمالِه الصَّالحةِ، فأولئك هم الفائِزونَ بالجنَّةِ، ومَن خفَّتْ مَوازينُ أعمالِه الصَّالحةِ، فرجَحَت سيِّئاتُه على حَسناتِه؛ فأولئك هم الخاسِرونَ، وسيَمكثونَ في نارِ جهنَّمَ لا يخرجون منها، تُحرِقُ وُجوهَهم النَّارُ، وهم فيها عابِسونَ، مُتقَلِّصو الشِّفاهِ عن الأسنانِ؛ مِن أثرِ العذابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]؛ ذكَرَ أحوالَ ذلك اليومِ، فقال[1]:

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ ﴾.

أي: فإذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفْخةُ البَعثِ[2]، وقام النَّاسُ مِن قُبورِهم، فلا تَنفَعُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٤).

(٢) ممَّن قال بأنَّ المُرادَ بالنَّفخةِ هنا: النفخةُ الثانيةُ؛ نَفخةُ البَعثِ والنشورِ: مقاتلُ بن سليمان، والقرطبيُّ، وابن كثير، والشوكاني، والسِّعدي، واستظْهَرَهُ الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وابنُ مسعود. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٧١).

وقيلَ: المُرادُ بها: النَّفخةُ الأُولى. وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ =

حينَئذٍ أنسابُهم، ولا يَفتَخِرونَ بها، ولا يَسألُ أحدٌ منهم أحدًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١١ - ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

أي: فمَن ثقُلَت مَوازينُ حَسَناتِه، ورجَحَت على سَيِّئاتِه؛ فأولئك هم الفائِزونَ بالنَّجاةِ مِنَ النَّارِ، والخُلودِ في الجنَّةِ[٢].

= عنه، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٧١).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٦).

اختلَفَ المُفسِّرون في معنى التَّساؤُلِ المَنْفيِّ هنا؛ فقيلَ: المرادُ: لا يَسألُ أحدٌ أحدًا: مِن أيِّ قَبيلةٍ أنت؟ ولا مِن أيِّ نسَبٍ؟ وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٢).

وقِيلَ: السُّؤالُ المَنْفيُّ أنْ يسأَلَ بعضُهم بعضًا النُّصرةَ والمعونةَ والنَّجدةَ. وممَّن قال بذلك: البقاعيُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٦).

وقِيلَ: السُّؤالُ المَنفيُّ هو: سُؤالُ بعضِهم العفْوَ مِن بعضٍ فيما بيْنهم مِن الحقوقِ؛ لقُنوطِهم مِن الإعطاءِ. وممَّن حكَى هذا القولَ: الشنقيطيُّ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٥٦، ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩). =

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣﴾.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

أي: ومَن خفَّت موازينُ حسناتِه، ورجَحَتْ موازينُ سيئاتِه؛ فأولئك الَّذين غَبَنوا أنفسَهم حُظوظَها مِن رَحمةِ اللهِ، وفاتَهم النعيمُ المقيمُ، فخابُوا وهَلَكوا[1]!

﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾.

أي: هم في جَهنَّمَ ماكِثونَ لا يَخرُجونَ منها[2].

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: تُصيبُ نارُ جهنَّمَ وُجوهَهم فتُحرِقُها إحراقًا شديدًا[3].

كما قال تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

= قال السَّفَّارِيني: (دلَّت الآثارُ على أنَّه مِيزانٌ حَقيقيٌّ ذو كِفَّتينِ ولِسانٍ، كما قال ابنُ عبَّاسٍ والحَسَنُ البَصريُّ، وصَرَّح بذلك عُلَماؤنا والأشعريَّةُ وغيرُهم، وقد بلَغَت أحاديثُه مَبلَغَ التَّواتُرِ، وانعقد إجماعُ أهلِ الحَقِّ مِن المُسلِمينَ عليه). ((لوامع الأنوار)) (٢ / ١٨٥). ويُنظر: ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٧١٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٥٣٨). وقال الشنقيطي: (التحقيقُ أنَّه وزنٌ حقيقيٌّ بميزانٍ ذي لِسانٍ وكِفَّتينِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٤)، ((الهداية)) لمكِّي (٧/ ٥٠٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٧).

﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾.

أي: وهم في جَهنَّمَ عابِسونَ قد تقلَّصتْ شِفاهُهم، وظهَرَتْ أسنانُهم؛ مِن أثرِ العذابِ [(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- اللهُ تعالى قدْ رتَّبَ الجزاءَ على الأعمالِ لا على الأنسابِ، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[(٢)].

٢- عن سَهلِ بنِ عاصمٍ، قال: سَمِعتُ إبراهيمَ يقولُ: سَمِعتُ رَجُلًا يقولُ لزُهَيرِ بنِ نُعَيمٍ: (ممَّن أنتَ يا أبا عبدِ الرَّحمنِ؟ قال: ممَّن أَنعَمَ اللهُ عليه بالإسلامِ. قال: إنَّما أُريدُ النَّسَبَ. قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١])[(٣)].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٥)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٧).

قال البقاعي: (﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ أي مُتقَلِّصو الشِّفاهِ عن الأسنانِ مع عبوسةِ الوجوهِ وتجعدِها وتقطبِها؛ شغلُ مَن هو ممتلئُ الباطنِ كراهيةً؛ لِما دَهِمَه مِن شدةِ المعاناةِ وعظيمِ المقاساةِ في دارِ التجهُّمِ، كما ترَى الرؤوسَ المشويةَ)، ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (الكالحُ: الذي به الكلوحُ، وهو تقلُّصُ الشفتينِ، وظهورُ الأسنانِ مِن أثرِ تقطُّبِ أعصابِ الوجهِ عندَ شدةِ الألمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٧).

وقال ابنُ جرير: (وهم فيها متقلِّصو الشِّفاهِ عن الأسنانِ مِن إحراقِ النارِ وجوهَهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٠٨)

(٣) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١٠/ ١٤٩).

هذه الآيةُ الكريمةُ تَدُلُّ على أنَّهم لا أنسابَ بيْنَهم يومَئِذٍ، وأنَّهم لا يَتَساءَلونَ يومَ القيامةِ، وقد جاءَتْ آياتٌ أُخَرُ تَدُلُّ على ثبوتِ الأنسابِ بيْنَهم، كقولِه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ...﴾ الآيةَ [عبس: ٣٤- ٣٦]؟

والجوابُ: أنَّ المرادَ بنفيِ الأنسابِ انقطاعُ فوائِدِها وآثارِها الَّتي كانت مُترتِّبةً عليها في الدُّنيا؛ مِنَ العواطفِ والنَّفعِ والصِّلاتِ والتَّفاخُرِ بالآباءِ، لا نفيُ حقيقَتِها[(١)]. وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، قولُه تعالى في هذه الآيةِ: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ وقولُه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠] لا يُناقِضُ قولَه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، وقولَه: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]؛ وذلك مِن وُجوهٍ:

الوجه الأوَّل: أنَّ يومَ القيامةِ مِقدارُهُ خَمسونَ ألْفَ سنَةٍ؛ ففيه أزْمِنةٌ وأحوالٌ مُختلِفةٌ، فيَتعارَفونَ ويَتَساءلون في بَعْضِها، ويتحيَّرونَ في بَعضِها؛ لشِدَّةِ الفزَعِ، فقيل: نَفْيُ السُّؤالِ عندَ اشْتِغالِهم بالصَّعقِ والمُحاسَبةِ والجوازِ على الصِّراطِ، وإثباتُه فيما عَدا ذلك.

الوجه الثَّاني: أنَّه إذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفخةٌ واحدةٌ شُغِلوا بأنفُسِهم عن التَّساؤُلِ، فإذا نُفِخَ فيه أُخرى أقبَلَ بعضُهم على بَعضٍ وقالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [يس: ٥٢]، فنفيُ السُّؤالِ بعدَ النَّفخةِ الأُولَى وقبْلَ الثَّانيةِ، وإثباتُه بعدَهما مَعًا.

الوجه الثَّالث: المُرادُ: لا يَتساءلونَ بحُقوقِ النَّسبِ.

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٤، ٢٩٥).

الوجه الرَّابع: أنَّ قولَه: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ صِفَةٌ للكُفَّارِ؛ وذلك لشِدَّةِ خَوفِهم، أمَّا قولُه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ فهو صِفةُ أهْلِ الجنَّةِ إذا دَخَلوها[١].

الوجه الخامس: أنَّ قولَه ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: في التناصُرِ، فلا يُناقِضُ نَفْيُ التَّساؤُلِ هنا إثباتَه في غَيرِه؛ لأنَّه في غَيرِ تناصُرٍ، بلْ في التَّلاوُمِ والتَّعاتُبِ والتَّخاصُمِ[٢].

الوجه السَّادس: أنَّ السُّؤالَ المَنْفيَّ سُؤالٌ خاصٌّ، وهو سُؤالُ بَعضِهم العفْوَ مِن بَعضٍ فيما بيْنهم مِنَ الحُقوقِ؛ لقُنوطِهم مِنَ الإعطاءِ، ولو كان المَسؤولُ أبًا أو ابنًا، أو أمًّا أو زوجةً[٣].

٣- في قولِه تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الموازينَ للكافِرِ والمُؤمِنِ معًا[٤]، وقد استدَلَّ به مالِكٌ على أنَّ الكُفَّارَ يُنصَبُ لهم المِيزانُ[٥].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ إنْ قيل: الميزانُ واحِدٌ[٦]، فما وجهُ الجَمعِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٦٤، ١٦٥). ويُنظر أيضًا: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٦٨).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٧).

ويُنظر الخلافُ في مسألةِ وزنِ أعمالِ الكفارِ في: ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٧١٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٥٣٨)، ((لوائح الأنوار السنية)) للسَّفَّاريني (٢/ ٢٠٣).

(٦) قال ابن عثيمين: (اختلف العُلَماءُ في الميزانِ: هل هو واحِدٌ أو متعَدِّدٌ؛ على قولَينِ؛ وذلك لأنَّ =

فالجوابُ: أنَّ العَربَ قد تُوقِعُ لفظَ الجَمعِ على الواحِدِ تفخيمًا له. وقيل: إنَّه يُنصَبُ لكُلِّ عبدٍ مِيزانٌ. وقيل: جُمِعَ لاختلافِ الموزوناتِ، وتعَدُّدِ الجَمعِ، فهو جمعُ مَوزونٍ أو ميزانٍ، فالميزانُ واحدٌ، وأُطلق عليه اسمُ الجمعِ؛ لكثرةِ ما يُوزَنُ فيه مِن أنواعِ الأعمالِ، وكثرةِ الأشخاصِ العاملينَ الموزونةِ أعمالُهم[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]؛ فإنَّ زمَنَ النَّفخِ في الصُّورِ هو يومُ البَعثِ، فالتَّقديرُ: فإذا جاء يومُ يُبْعَثون، ولكنْ عُدِلَ عن ذلك إلى ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾؛ تَصويرًا لحالةِ يومِ البَعثِ[(٢)].

= النُّصوصَ جاءت بالنِّسبةِ للمِيزانِ مَرَّةً بالإفرادِ، ومرَّةً بالجَمعِ... والذي يظهَرُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّ الميزانَ واحِدٌ، لكِنَّه مُتعَدِّدٌ باعتبارِ الموزونِ). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٤٣).

وقال ابنُ حجر: (والذي يترجَّحُ: أنَّه مِيزانٌ واحِدٌ، ولا يُشكِلُ بكَثرةِ مَن يُوزَنُ عَمَلُه؛ لأنَّ أحوالَ القيامةِ لا تُكَيَّفُ بأحوالِ الدُّنيا). ((فتح الباري)) (١٣/ ٥٣٨).

وقال الشنقيطي: (وظاهِرُ القُرآنِ تعَدُّدُ هذه الموازينِ؛ لأنَّه قال في سورةِ «الأنبياءِ»: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧]... وقال في القارعة: ﴿... فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦ - ٩]، وقال في سورة المؤمنون: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ * فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ...﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣]؛ فهذه الآياتُ تعبِّرُ بالجَمعِ في الميزانِ، وظاهِرُها التعَدُّدُ. وذهبت جماعةٌ مِن العُلَماءِ إلى أنَّ الميزانَ واحِدٌ). ((العذب النمير)) (٣/ ٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧٦)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٥).

- وأُسْنِدَ ﴿نُفِخَ﴾ إلى المَجهولِ؛ لأنَّ المُعْتَنى به هو حُدوثُ النَّفخِ لا تَعيينُ النَّافخِ[١].

- قولُه: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ النَّصيرِ[٢] على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ؛ ففي قولِه: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ ما يُعرَفُ بالتَّنكيتِ؛ فقد قصَدَ بنَفْيِ الأنسابِ -وهي مَوجودةٌ- أمْرًا آخَرَ لِنُكْتةٍ فيه؛ فإنَّ الأنسابَ ثابتةٌ، وقد كان العرَبُ يَتفاخَرون بها في الدُّنيا، ولكنَّه جنَحَ إلى نَفْيِها إمَّا لأنَّها تَلْغُو في الآخرةِ؛ إذ يقَعُ التَّقاطُعُ بيْنهم، فيَتفرَّقونَ مُعاقَبينَ أو مُثابينَ، أو أنَّه قصَدَ بالنَّفْيِ صِفَةً للأنسابِ مَحذوفةً، أي: يُعتَدُّ بها، حيث تَزولُ بالمرَّةِ وتَبطُلُ؛ لِزَوالِ التَّراحُمِ والتَّعاطُفِ مِن فَرطِ البُهْرِ والكَلالِ واستيلاءِ الدَّهشةِ عليهم[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ بَيانُ الرَّدِّ على قَولِ قائلِهم: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، المَردودِ إجمالًا بقولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]؛ فقُدِّمَ عليه ما هو كالتَّمهيدِ له، وهو قولُه: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ إلى آخِرِه؛ مُبادرةً بتأْييسهم مِن أنْ تَنفَعَهم أنسابُهم أو استِنْجادُهم[٤].

- وذِكْرُ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ في هذهِ الآيةِ إدْماجٌ؛ للتَّنويهِ بالمُؤمِنينَ، وتَهديدِ المُشرِكين؛ لأنَّ المُشرِكين لا يَجِدون في مَوازينِ الأعمالِ الصَّالحةِ شيئًا[٥].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٢٦).

خَٰلِدُونَ﴾ تَمثيلٌ لحالِ خَيبَتِهم فيما كانوا يأْمُلونَه مِن شَفاعةِ أصنامِهم، وأنَّ لهم النَّجاةَ في الآخرةِ، أو مِن أنَّهم غيرُ صائرينَ إلى البَعثِ، فكذَّبوا بما جاء به الإسلامُ، وحَسِبُوا أنَّهم قد أعَدُّوا لأنفُسِهم الخيرَ، فوَجَدوا ضِدَّه، فكانت نُفوسُهم مَخْسُورةً، كأنَّها تَلِفَتْ منهم؛ ولذلك نُصِبَ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ على المفعولِ بـ﴿خَسِرُوٓاْ﴾[1].

- وتَكرارُ اسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لزِيادةِ تَمييزِ الفَريقينِ بصِفاتِهم[2]. والجَمْعُ فيهما باعتِبارِ معناهُما، كما أنَّ إفرادَ الضَّميرينِ في الصِّلتينِ -﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾- باعتِبارِ اللَّفظِ[3].

٤- قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾

- في قولِه: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ خَصَّ الوَجْهَ باللَّفحِ؛ لأنَّه أشرَفُ ما في الإنسانِ، والإنسانُ أحفَظُ له مِن الآفاتِ مِن غَيرِه مِن الأعضاءِ؛ فإذا لُفِحَ الأشرفُ فما دُونَه مَلفوحٌ[4]. أو: لأنَّ بيانَ حالِها أزجَرُ عن المعاصي المُؤدِّيةِ إلى النَّارِ، وهو السِّرُّ في تَقديمِها على الفاعِلِ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥١).

الآيات (١٠٥-١١٤)

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شِقْوَتُنَا﴾: الشِّقْوةُ مصدرُ شَقِيَ، كالشَّقاوةِ والشَّقاءِ: خلافُ السَّعادةِ، وأصْلُ (شقو): يدُلُّ على المُعاناةِ وخِلافِ السُّهولةِ والسَّعادةِ[١].

﴿ٱخْسَـُٔواْ﴾: أَيِ: اقْعُدوا وامْكُثوا فيها صاغِرينَ، مُهانينَ، أذلَّاءَ، وابْعُدُوا، وأصْلُ (خسأ): يدُلُّ على الإبعادِ[٢].

﴿سِخْرِيًّا﴾: أي: استِهزاءً، يُقالُ: سَخِرْتُ منه، واسْتَسْخَرْتُه لِلْهُزْءِ، والسِّخْرِيُّ -بكسْرِ السِّينِ- مِنَ: الهُزءِ، وأصْلُ (سخر): يدُلُّ على احتِقارٍ واستِذلالٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه يقولُ لأهْلِ النَّارِ يومَ القِيامةِ: ألمْ تكُنْ آياتُ كتابي تُقرَأُ عليكمْ في الدُّنيا، فكنتُم تُكذِّبونَ بها؟ فيجيبونَ: رَبَّنا غلَبَ علينا ما سبَقَ لنا في سابِقِ عِلْمِك، وكتبْتَه في اللَّوحِ المحفوظِ، وقدَّرتَه علينا مِن شَقاوةٍ، وكنَّا ضالِّينَ عن الهُدى والرَّشادِ، رَبَّنا أخرِجْنا مِنَ النَّارِ، فإنْ رَجَعْنا إلى الكُفرِ وارتِكابِ السَّيِّئاتِ فإنَّا ظالِمونَ نَستَحِقُّ العقوبةَ.

فيقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لهم: امكُثوا في النَّارِ أذِلَّاءَ حقيرينَ مُبعَدينَ، ولا تُخاطِبوني في إخراجِكم مِنَ النارِ؛ إنَّه كان فَريقٌ مِن عِبادي المُؤمِنينَ يَقولونَ: رَبَّنا آمَنَّا فاغفِرْ ذُنوبَنا وارحَمْنا، وأنت خيرُ الرَّاحِمينَ، فسَخِرتُم منهم، واستهزَأتُم بهم، حتَّى أنْسَوكم -لانِشغالِكم بالسُّخريةِ منهم- ذِكْري، وقد كنتُم تَضحَكونَ منهم في الدنيا عِندَما ترَونَهم. إنِّي جَزيتُ هؤلاء المُؤمِنينَ بسَبَبِ صَبرِهم على أذاكُم، وعلى امتِثالِ الأمرِ واجتِنابِ النَّهيِ: أنَّهم هم الفائزونَ بالجنةِ.

ثم أخبرَ اللهُ تعالى أنَّه قال لهم: كم عَدَدُ السِّنينَ الَّتي أقمْتُموها في الدُّنيا؟ قالوا: أقَمْنا فيها يومًا أو بعضَ يومٍ، فاسأَلِ الحاسِبينَ الضَّابِطينَ لمِقْدارِ ذلك. قال اللهُ تعالى لهم: ما لَبِثتُم في الدُّنيا إلَّا وقْتًا قليلًا، لو كنتُمْ تعلَمونَ أن إقامتَكم في الدنيا قليلةٌ لَمَا آثَرْتُم الدُّنيا الفانيةَ على الآخرةِ الباقيةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾.

أي: يقولُ اللهُ تَعالَى لأهْلِ النَّارِ يومَ القِيامةِ: ألمْ تكُنْ آياتُ كِتابي تَتتابَعُ عليكم قِراءتُها في الدُّنيا شيئًا فشيئًا، فكنتُمْ تُكذِّبون بها[1]؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) =

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦﴾.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾.

أي: قال أهْلُ النَّارِ: ربَّنا غلَبَ علينا ما سبَقَ لنا في سابِقِ عِلْمِك، وكَتبْتَه في اللَّوحِ المَحفوظِ، وما قدَّرْتَه علينا مِن شَقاوةٍ، فكذَّبْنا الرُّسلَ، ولم نَهْتدِ بعدَ قِيامِ الحُجَّةِ علينا؛ لنصيرَ إلى ما سَبَق في عِلمِك[1].

﴿وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ﴾.

أي: وكُنَّا في الدُّنيا قَومًا ضالِّينَ عن طَريقِ الحقِّ، تائهينَ عن سَبيلِ الرَّشادِ[2].

﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾.

أي: قالوا: ربَّنا أخْرِجْنا مِنَ النَّارِ إلى الدُّنيا، فإنْ عُدْنا إلى ما كنَّا عليه مِنَ الكُفْرِ والعِصيانِ، فنَحنُ ظالِمونَ لأنفُسِنا، ومُستحِقُّونَ للعِقابِ[3].

= (ص: ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٨).

قال البقاعيُّ: (﴿غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ أي: أهواؤنا الَّتي قادتْنا إلى سُوءِ الأعمالِ الَّتي كانت سببًا ظاهرًا للشَّقاوةِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٨٩).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الغَلبُ حَقيقتُه: الاستيلاءُ والقهْرُ. وأُطْلِقَ هنا على التَّلبُّسِ بالشِّقوةِ دونَ التَّلبُّسِ بالسَّعادةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٧، ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٨، ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٩).

قال القرطبيُّ: (﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾: طَلَبوا الرَّجعةَ إلى الدُّنيا كما طَلَبوها عندَ الموتِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٣).

﴿ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

أي: قال اللهُ لأهْلِ النَّارِ: اقْعُدوا في النَّارِ ذَلِيلينَ مُبعَدينَ حَقيرينَ، ولا تُكلِّموني في إخراجِكم منها[1].

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ الحالَ الَّتي أوصَلَتِ المُشركينَ إلى العذابِ، وقطَعَتْ عنهم الرَّحمةَ، فقال[2]:

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

أي: إنَّه[3] كان في الدُّنيا جَماعةٌ مِن عِبادي المُؤمنينَ المُستضعَفينَ يَقولون

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٩، ٣٦٠).
قال السعديُّ: (وهذا القولُ- نسألُه تعالى العافيةَ- أعظَمُ قولٍ على الإطلاقِ يَسمَعُه المُجرِمون في التَّخييبِ، والتَّوبيخِ، والذُّلِّ، والخَسارِ، والتَّأييسِ مِن كلِّ خيرٍ، والبُشرى بكلِّ شَرٍّ، وهذا الكلامُ والغضبُ مِن الرَّبِّ الرَّحيمِ أشَدُّ عليهم وأبلَغُ في نِكايَتِهم مِن عذابِ الجحيمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).
وقال ابنُ عاشورٍ: (نُهُوا عن خِطابِ اللهِ، والمقصودُ تأْييسُهم مِنَ النَّجاةِ ممَّا هم فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).

(٣) قال الشنقيطي: (قد تَقَرَّر في الأصولِ في مسلكِ الإيماءِ وَالتَّنبيهِ، أَنَّ «إِنَّ» المكسورةَ المشدَّدَةَ مِنْ حروفِ التَّعليلِ، كقولِك: عاقِبْه إنَّه مُسِيءٌ؛ أي: لأجلِ إساءَتِه، وقولُه في هذه الآيةِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي﴾ يَدُلُّ فيه لفظُ «إِنَّ» المكسورةِ المشدَّدةِ على أنَّ الأسبابَ الَّتي أدخلَتْهم النَّارَ هو استهزاؤُهم، وسخريتُهم مِنَ الفريقِ المؤمنِ الَّذي يقولُ: ﴿ربَّنا آمنَّا فاغفِرْ لنا وارحَمْنا وأنتَ خيرُ الرَّاحمينَ﴾، فالكفَّارُ يَسخرونَ مِنْ ضعفاءِ المؤمنينَ في الدُّنيا حتَّى يُنسيَهم ذلك ذِكْرَ اللهِ والإيمانَ به؛ فيَدخُلونَ بذلك النَّارَ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٦٠).

في دُعائِهم: ربَّنا آمَنَّا بكَ وبجَميعِ ما جاءتْ به رُسلُكَ؛ فاسْتُرْ ذُنوبَنا، وتَجاوَزْ عن مُؤاخَذَتِنا بها، وارحَمْنا وأنتَ أفضَلُ مَن رحِمَ(١).

﴿ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿سِخۡرِيًّا﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضَمِّ السِّينِ. قيل: مِنَ السُّخرةِ والاستِخدامِ. وقيل: هي بمعنى الاستِهزاءِ كالقِراءةِ الأُخرى(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩٠)، ((السراج المنير)) للشربيني (٢/ ٥٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٠).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿فَرِيقٌ مِّنۡ عِبَادِي﴾: المؤمنون: ابنُ جرير، والواحدي، والبغوي، وابن كثير، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٦) ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٩١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٠٤).

وقيل المرادُ: الصحابةُ، وقيل: المرادُ: المهاجرون. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٩١).

قال ابنُ عطيَّةَ: (هذه الآيةُ كلُّها ممَّا يُقالُ للكُفَّارِ على جِهةِ التَّوبيخِ، والفريقُ المُشارُ إليه: كلُّ مُستضعَفٍ مِن المؤمنينَ يَتَّفِقُ أنْ تكونَ حالُه مع كُفَّارٍ في مِثْلِ هذه الحالِ، ونزَلَتِ الآيةُ في كفَّارِ قُريشٍ مع صُهيبٍ وبلالٍ وعمَّارٍ ونظرائِهم، ثمَّ هي عامَّةٌ فيمَن جرى مَجْراهم قديمًا وبقيَّةَ الدَّهرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٧).

(٢) قرأ بها نافع، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٦، ١٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٧، ١٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٧١، ٣٧٢).

قال الشنقيطي: (ومعنى القراءتينِ واحِدٌ، وهو سُخريَّةُ الكُفَّارِ واستِهزاؤُهم بضُعَفاءِ المؤمنينَ...، =

٢- قراءةُ: ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكَسرِ السِّينِ، بمعنى: الاستِهزاءِ[(١)].

﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠﴾.

أي: فاسْتهزأْتُم بهؤلاءِ المؤمنينَ إلى أنْ أَنساكُمْ اشتِغالُكم بالسُّخريةِ منهم ذِكْري[(٢)]، وكنتُمْ تَضْحَكون منهم في الدُّنيا[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ

= وممَّن قال بأنَّ معناهما واحِدٌ: الخليلُ وسيبويهِ، وهو الحَقُّ إن شاء اللهُ تعالى. وعن الكِسائيِّ والفَرَّاءِ: أنَّ السِّخْريَّ -بكَسرِ السِّينِ- مِن قَبيلِ ما ذكَرْنا مِن الاستِهزاءِ، وأنَّ السُّخْريَّ -بضَمِّ السِّينِ- مِن التَّسخيرِ الذي هو التَّذليلُ والعُبوديَّةُ، والمعنى: أنَّ الكُفَّارَ يُسَخِّرونَ ضُعَفاءَ المؤمِنينَ ويَستَعبِدونَهم، كما كان يَفعَلُه أميَّةُ بنُ خَلَفٍ ببَلالٍ. ولا يخفى أنَّ الصَّوابَ هو ما ذكَرْنا إن شاء اللهُ تعالى). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٦٠).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٦، ١٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٧، ١٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٧١، ٣٧٢).

(٢) قيل: المرادُ: ذِكرُ اللهِ. وممَّن اختاره: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين، وأبو حيان، والقنوجي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤١٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٧) ((تفسير القنوجي)) (٩/ ١٥٥).

وقيل: حتَّى أنْساهم ذلك ذكْرَ اللهِ والإيمانَ به. قالَهُ الشنقيطيُّ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٦١).

وقيل: يعني: الإيمانَ بالقُرآنِ. قاله مقاتلُ بن سليمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٧).

وقيل: يعني: العمَلَ بطاعتي. قاله السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٦، ١٢٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦١).

قال السعديُّ: (وهذا الَّذي أوجَبَ لهم نِسيانَ الذِّكرِ اشتِغالُهم بالاستِهزاءِ بهم، كما أنَّ نِسيانَهم للذِّكرِ يَحثُّهم على الاستِهزاءِ؛ فكلٌّ مِنَ الأمرينِ يمُدُّ الآخَرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).

يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٢].

﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾.

﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

أي: إنِّي جَزَيتُ هؤلاء المُؤمنينَ الَّذين اتَّخذْتُموهم سِخْرِيًّا وكنتُمْ تَضْحَكون منهم؛ بسبَبِ صَبْرِهم على ما نالَهُم في الدُّنيا منكم مِن أذًى واستِهزاءٍ، وصبرِهم على الطَّاعةِ، وعن المعصيةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١٢].

﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿إِنَّهُمۡ﴾ على معنى الاستِئنافِ، وهو استِئنافٌ مُعَلِّلٌ للجَزاءِ. وقيل: مُبَيِّنٌ لِكَيفيَّتِه. ويكونُ الكلامُ تامًّا عندَ قولِه تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾[(٢)].

٢- قِراءةُ ﴿أَنَّهُمۡ﴾ قِيلَ: على معنى التَّعليلِ لِمَا سبَقَ، فتكونُ مُوافِقةً للقِراءةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦١).
قال الشنقيطيُّ: (قولُه: ﴿بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ أي: بسببِ صبرِهم في دارِ الدُّنيا على أذَى الكفَّارِ الَّذينَ اتَّخَذوهم سِخْرِيًّا، وعلى غيرِ ذلك مِن امتثالِ أمْرِ اللهِ واجتنابِ نَهْيِه). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٦١).

(٢) قرَأَ بها حمزةُ، والكِسائيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩، ٣٣٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن خالويه (ص: ٢٥٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٦٨).

الأُولى؛ فإنَّ الاستئنافَ يُعَلَّلُ به أيضًا. أي: جَزَيتُهم اليومَ بما صَبَروا؛ لأنَّهم هُمُ الفائِزونَ. وقيلَ: على معنى المفعوليَّةِ، أي: جَزَيتُهم اليومَ بصَبْرِهم الفَوْزَ[١].

﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

أي: أنَّهم الفائِزونَ بالنَّعيمِ المُقيمِ في الجنَّةِ، النَّاجونَ مِن عَذابِ النَّارِ[٢].

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ (قُلْ) على الأمْرِ بغَيرِ ألِفٍ، قِيلَ: هو أمْرٌ للمَلَكِ أنْ يسألَهم يومَ البَعثِ عن قَدْرِ مُكْثِهم في الدُّنيا، أو عن قَدْرِ لُبْثِهم في قُبورِهم. وقِيلَ: المعنى: قُولوا: كم لَبِثْتُم؟ فأُخرِجَ الكلامُ مُخرَجَ الأمْرِ للواحدِ، والمُرادُ: الجَماعةُ. وقِيلَ: المعنى: قُلْ: أيُّها الكُفَّارُ، كم لَبِثْتُم في الدُّنيا أو في قُبورِكم[٣]؟

٢- قِراءةُ ﴿قَالَ﴾ بالألِفِ على الخبَرِ، أي: قالَ اللهُ تعالى لهم، أو قالتِ الملائكةُ لهم: كمْ لَبِثْتُم في الدُّنيا أو في قُبورِكم[٤]؟

---

(١) قرَأَ بها الباقونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩، ٣٣٠).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن خالويه (ص: ٢٥٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين (٨/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٨، ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٩)، ((السراج المنير)) للشربيني (٢/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).

(٣) قرَأَ بها ابنُ كثيرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٠).
ويُنظَر لمعنى هذه القِراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٥، ١٥٦).

(٤) قرَأَ بها الباقونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٠).
ويُنظَر لمعنى هذه القِراءةِ: ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٥، ١٥٦).

﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢﴾.

أي: قال اللهُ في الآخِرةِ لأُولئكَ الأشقياءِ: كمْ كانتْ مُدَّةُ مُكْثِكم في الأرضِ مِنَ السِّنينَ[1]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٠، ١٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠).

قيلَ: المُرادُ: كمْ لبِثْتُم في الدُّنيا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والثعلبي، وابنُ كثيرٍ، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٠، ١٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٨٤).

وقِيلَ: المُرادُ: كم لَبِثْتُم في القُبورِ. وممَّن ذهَبَ إلى هذا المعنى: مُقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمرقندي، ومكِّي، ونسَبَه ابنُ عطيَّة لجُمهورِ المفسِّرينَ ورجَّحَه، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٩٢)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكِّي (٧/ ٥٠١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣١).

وممَّن جمَعَ بيْن القَولينِ: الواحديُّ، والبغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٨).

قال الرازيُّ: (الغرَضُ مِن هذا السُّؤالِ التبكيتُ والتوبيخُ؛ فقد كانوا يُنكرون اللُّبثَ في الآخِرَة أصلًا، ولا يَعدُّون اللُّبثَ إلَّا في دارِ الدنيا، ويظنُّون أنَّ بعدَ الموتِ يدومُ الفناءُ ولا إعادةَ؛ فلمَّا حُصِّلوا في النارِ، وأيقنوا أنَّها دائمةٌ، وهم فيها مخلَّدون سألهم: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؟ تنبيهًا لهم على أنَّ ما ظنُّوه دائمًا طويلًا فهو يسيرٌ بالإضافةِ إلى ما أنكروه، فحينَئذٍ تحصُلُ لهم الحسرةُ على ما كانوا يَعتقدونَه في الدنيا مِن حيثُ أيقنوا خِلافَه؛ فليس الغرضُ السؤالَ، بل الغرضُ ما ذَكَرْنا). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٨).

وقال القرطبيُّ: (هذا السُّؤالُ للمُشركينَ في عَرصاتِ القيامةِ أو في النَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (يقولُ تعالى مُنبِّهًا لهم على ما أضاعوهُ في عُمرِهم القصيرِ في الدُّنيا؛ مِن طاعةِ اللهِ تعالى وعِبادته وحْدَه، ولو صَبَروا في مُدَّةِ الدُّنيا القصيرةِ لَفازوا كما فازَ أولياؤُه المتَّقونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠). =

﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

أي: قالوا: مَكَثْنا في الأرضِ يومًا أو بعضَ يومٍ(١).

﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾.

أي: فاسأَلِ الحاسِبينَ الضَّابطينَ لِمِقدارِ ذلك(٢).

﴿قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

= وقال البقاعيُّ: (﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على تلك الحالِ الَّتي كُنْتُم تعُدُّونها فوزًا، ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ أنتم فيها ظافِرونَ، ولأعدائِكم قاهِرونَ، ولعلَّه عبَّرَ بما منه الإسناتُ الَّذي معناهُ القحْطُ؛ إشارةً إلى أنَّ أيَّامَ الدُّنيا ضِيِّقةٌ حرِجةٌ وإنْ كان فيها سَعةٌ، ولا سيَّما للكفَرةِ بكُفْرِهم وخُبْثِهم ومَكْرِهم الَّذي جرَّهم إلى أضيقِ الضِّيقِ وأسوَأِ العَيشِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٢).

قال ابنُ جريرٍ: (أَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ: أنْ يُقالَ كما قال اللهُ جَلَّ ثناؤُه: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٣]، وهمُ الَّذينَ يعُدُّون عدَدَ الشُّهورِ والسِّنينَ وغيرِ ذلك. وجائزٌ أنْ يكونوا الملائكةَ، وجائزٌ أنْ يكونوا بني آدَمَ وغيرَهم، ولا حُجَّةَ بأيِّ ذلك مِن أيٍّ ثبَتَتْ صِحَّتُها؛ فغيرُ جائزٍ تَوجيهُ معنى ذلك إلى بَعضِ العادِّينَ دونَ بَعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٢).

وقال البقاعيُّ: (ولَمَّا كان المَكَرةُ في الدُّنيا إذا أرادُوا تَمشيةَ كَذِبِهم، قالوا لمَن أخبَروهُ فتوقَّفَ في خبَرِهم: سَلْ فُلانًا؛ إيثاقًا بإخبارِهم، وسَتْرًا لعَوارِهم، جَرَوا على ذلك تَمادِيًا منهم في الجَهلِ بالعليمِ القديرِ في قولِهم: ﴿فَسْـَٔلِ﴾ أي: لِتعلَمَ صِدْقَ خبَرِنا، أو بسبَبِ تَرَدُّدِنا في العِلْمِ بحقيقةِ الحالِ لتَحريرِ حَقيقةِ المُدَّةِ، ﴿ٱلْعَآدِّينَ﴾. ويحتملُ أيضًا قصْد التَّرقيقِ عليهم؛ بالإشارةِ إلى أنَّ ما هم فيه مِنَ العذابِ شاغِلٌ لهم عن أنْ يَتصوَّرُوا شيئًا حاضِرًا مَحسوسًا، فضلًا عن أنْ يكونَ ماضيًا، فضلًا عن أنْ يكون فِكْريًّا، فكيف إنْ كان حسابًا؟!). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٩٣، ١٩٤).

﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

أي: قال اللهُ لهم: ما لَبِثْتُم في الأرضِ إلَّا وقْتًا يَسيرًا[١].

﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: لو أنَّكم كنتُمْ تَعلَمون قِلَّةَ لُبْثِكم في الدُّنيا لَمَا آثرْتُم الدُّنيا الفانيةَ على الآخِرَةِ الباقيةِ، فترَكْتُم طاعةَ اللهِ في تلك المُدَّةِ القَصيرةِ، واستَحْقَقْتُم سَخَطَهُ، وخَسِرْتُم النَّعيمَ الأبديَّ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ جَمَعوا بيْنَ الإيمانِ المُقتضي لأعمالِه الصَّالحةِ، والدُّعاءِ لِرَبِّهم بالمَغْفرةِ والرَّحمةِ، والتَّوسُّلِ إليه برُبوبيَّتِه، ومِنَّتِه عليهم بالإيمانِ، والإخبارِ بسَعةِ رَحمَتِه، وعُمومِ إحسانِه، وفي ضِمْنِه ما يدُلُّ على خُضوعِهم وخُشوعِهم وانكسارِهم لِرَبِّهم، وخَوفِهم ورَجائِهم. فهؤلاء ساداتُ النَّاسِ وفُضلاؤهم[٣].

٢- مِن أنواعِ التوسُّلِ المشروعِ في دعاءِ الله تعالى: التوسُّلُ إلى اللهِ تعالَى بالإيمانِ به وطاعتِه؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٢).

قال البقاعيُّ: (﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: هو مِنَ القِلَّةِ بحيث لا يُسمَّى، بلْ هو عدَمٌ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٩٥).

وقال الشِّنقيطيُّ: (لأنَّ مُدَّةِ مُكْثِهم في الدُّنيا قليلةٌ جِدًّا بالنِّسبةِ إلى طُولِ مُدَّتِهم خالدينَ في النَّارِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٦٢). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).

فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا﴾، وقولِه عن أُولي الألبابِ: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾[(١)][آل عمران: ١٩٣].

٣- في قولِه تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ إلى قولِه سُبحانَه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، هذه الآياتُ تُبيِّنُ أنَّ الإنسانَ يَنْبَغي له أنْ يَنتهِزَ فُرصةَ العُمرِ، وألَّا يَخسَرَ عُمرَه كما خَسِرَه هؤلاءِ، وأنَّه سوفَ يُبعَثُ ويُجازَى ويُحاسَبُ على عمَلِه، فنسأَلُ اللهَ تعالى أنْ يَجعَلَنا وإيَّاكم ممَّن حِسابُه يَسيرٌ، ومآلُه إلى دارِ القَرارِ في جنَّاتِ النَّعيمِ[(٢)].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: في عِدادِ مَن يَعلَمُ في ذلك الوقْتِ، لَمَا آثرْتُمُ الفانِيَ على الباقي، ولَأقْبَلْتُم على ما يَنفَعُكم، وتَركْتُم الخَلاعةَ الَّتي لا يَرْضاها عاقِلٌ، ولا يكونُ على تَقديرِ الرِّضا بفِعْلِها إلَّا بعدَ الفراغِ مِنَ المُهِمِّ، ولكنَّكم كنتُمْ في عِدادِ البهائمِ. وفي ذلك تَنبيهٌ للمُؤمنينَ -الَّذين هم الوارِثونَ- على الشُّكرِ على ما منَحَهُم؛ مِن السُّرورِ بإهلاكِ أعدائِهم، وإيراثِهم أرْضَهم ودِيارَهم، مع إعزازِهم، والبَرَكةِ في أعمارِهم، بعدَ إراحَتِهم منهم في الدُّنيا، ثمَّ بإدامةِ سَعادتِهم في الآخرةِ، وشَقاوةِ أعدائِهم[(٣)].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، إنَّما ذكَرَ ﴿قَلِيلًا﴾؛ لأنَّ الواحِدَ مِن أهْلِ الدُّنْيا وإنْ لَبِثَ في الدُّنْيا سِنينَ كثيرةً، فإنَّه يكونُ قَلِيلًا في جَنبِ ما يلْبَثُ في الآخرةِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين)) (٢/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٤).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، لمَّا كان مُجرَّدُ ذِكْرِ الآياتِ كافيًا في الإيمانِ، نبَّهَ على ذلك بالبِناءِ للمفعولِ: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1].

٢- عن زَيدِ بنِ أسلَمَ، قال: (واللهِ ما قالَتِ القَدريَّةُ كما قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ، ولا كما قالتِ الملائكةُ، ولا كما قال النَّبيُّونَ، ولا كما قال أهْلُ الجنَّةِ، ولا كما قال أهْلُ النَّارِ، ولا كما قال أخُوهم إبليسُ؛ قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقالتِ الملائكةُ: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، وقال شُعيبٌ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقال أهْلُ الجنَّةِ: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال أهْلُ النَّارِ: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾، وقال أخُوهم إبليسُ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩])[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، فيه سُؤالٌ: كيف يَجوزُ أنْ يَطلُبوا ذلك، وقد عَلِموا أنَّ عِقابَهم دائمٌ؟

الجوابُ: يجوزُ أنْ يَلْحَقَهمُ السَّهوُ عن ذلك في أحوالِ شِدَّةِ العذابِ، فيسألونَ الرَّجعةَ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ مع عِلْمِهم بذلك، يسألون ذلك على وَجْهِ الغَوثِ والاستِرواحِ[3].

٤- أنَّ عَذابَ الكافرينَ عَذابٌ مُؤلِمٌ ألَمًا نَفْسيًّا، وألَمًا جُسمانيًّا؛ فأمَّا الألَمُ النَّفْسيُّ فدَليلُه قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾؛ فهذا مِن أبلَغِ ما

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٨).

(٢) أخرجه الفريابي في ((القدر)) (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٧).

يكونُ مِن الإذلالِ الَّذي به الألَمُ النَّفسيُّ، وأمَّا الألَمُ البَدنيُّ فدليلُه قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]، وقولُه تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقولُه تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[1] [الحج: ١٩ - ٢٢].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ يُستفادُ مِن هذا: التَّحذيرُ مِن السُّخريةِ والاستِهزاءِ بالضُّعفاءِ والمساكينِ، والاحتِقارِ لهم، والإزراءِ عليهم، والاشتِغالِ بهم فيما لا يُغْني، وأنَّ ذلك مُبْعِدٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ[2].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، احتَجَّ مَن أنكَرَ عذابَ القبْرِ بهذه الآيةِ، فقال: قولُه: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَتناوَلُ زَمانَ كَونِهم أحياءً فوقَ الأرضِ، وزَمانَ كَونِهم أمواتًا في بطْنِ الأرضِ؛ فلو كانوا مُعذَّبِينَ في القبْرِ لَعَلِموا أنَّ مُدَّةَ مُكْثِهم في الأرضِ طويلةٌ، فما كانوا يقولونَ: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؟ **والجوابُ مِن وَجْهينِ:**

الوجْه الأوَّلِ: أنَّ الجوابَ لا بُدَّ أنْ يكونَ بحسَبِ السُّؤالِ، وإنَّما سُئِلوا عن مَوتٍ لا حياةَ بَعدَه إلَّا في الآخرةِ، وذلك لا يكونُ إلَّا بَعدَ عذابِ القبْرِ.

الوَجْه الثَّاني: يَحتمِلُ أنْ يَكونوا سُئلوا عن قَدْرِ اللُّبثِ الَّذي اجْتَمَعوا فيه، فلا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٥).

يَدخُلُ في ذلك تَقدُّمُ مَوتِ بَعضِهم على البعضِ؛ فيَصِحُّ أنْ يكونَ جَوابُهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ عندَ أنفُسِنا[1].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ﴾، فيه سُؤالٌ: إنْ قِيلَ: كيف يصِحُّ في جَوابِهم أنْ يَقولوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ولا يقَعُ مِن أهْلِ النَّارِ الكذِبُ؟

الجوابُ: لعلَّهم نَسُوا ذلك؛ لكَثرةِ ما هم فيه مِن الأهوالِ، وقدِ اعْتَرَفوا بهذا النِّسيانِ حيث قالوا: ﴿فَسْئَلِ الْعَادِّينَ﴾.

وقِيلَ: مُرادُهم بقولِهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: تَصغيرُ لُبْثِهم وتَحقيرُه بالإضافةِ إلى ما وَقَعوا فيه وعَرَفُوه مِن أليمِ العذابِ[2].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ﴾، فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ الكُفَّارَ يَزعُمون يومَ القيامةِ أنَّهم ما لَبِثوا إلَّا يومًا أو بعضَ يومٍ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ يُفهَمُ منها خِلافُ ذلك؛ كقولِه تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]؟

الجوابُ عن هذا بما دَلَّ عليه القُرآنُ؛ وذلك أنَّ بَعضَهم يقولُ: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] [المؤمنون: ١١٣]، وبَعضَهم يقولُ: لَبِثْنا ساعةً، وبعضَهم يقولُ: لَبِثْنا عشْرًا. ووَجْهُ دَلالةِ القُرآنِ على هذا: أنَّه بيَّنَ أنَّ أقْواهم إدراكًا، وأرجَحَهم عقْلًا، وأمثَلَهم طَريقةً، هو مَن يقولُ: إنَّ مُدَّةَ لُبْثِهم يومٌ، وذلك قولُه تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤]؛ فدَلَّ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٩٨).

على اختِلافِ أقوالِهم في مُدَّةِ لُبْثِهم، والعِلْمُ عندَ اللهِ تعالى[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على إضمارِ القولِ تَعنيفًا وتَوبيخًا، وتَذكيرًا لِمَا به اسْتَحقُّوا ما ابْتُلُوا به مِن العذابِ. والاستفهامُ للإنكارِ[٢].

- وقولُه: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ليس بتكرارٍ لقَولِه قَبْلَه: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٦]؛ لأنَّ الأوَّلَ في الدُّنيا عندَ نُزولِ العَذابِ، وهو الجَدبُ عندَ بَعضِهم، ويومُ بَدرٍ عندَ بعضِهم. والثَّاني في القيامةِ وهم في الجَحيمِ؛ بدَليلِ قولِه: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾[٣] [المؤمنون: ١٠٧].

- قَولُه: ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهَا﴾؛ للإعلامِ بمُبالَغَتِهم في التَّكذيبِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾

- مَفعولُ ﴿غَلَبَتْ﴾ مَحذوفٌ يدُلُّ عليه ﴿شِقْوَتُنَا﴾؛ لأنَّ الشِّقوةَ تُقابِلُها السَّعادةُ، أي: غلَبَتْ شِقوتُنا السَّعادةَ[٥].

- ومُثِّلَت حالةُ اختيارِهم لأسبابِ الشِّقوةِ بَدَلَ أسبابِ السَّعادةِ بحالةٍ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٦٥، ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٨، ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٧، ١٢٨).

غائرةٍ بيْنَ السَّعادةِ والشَّقاوةِ على نُفوسِهم. وإضافةُ الشِّقوةِ إلى ضَميرِهم؛ لاختِصاصِها بهم حين صارَتْ غالِبةً عليهم[١].

- وفي جَعْلِ الخبَرِ ﴿قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ دونَ الاقتِصارِ على ﴿ضَآلِّينَ﴾ تنبيهٌ على أنَّ الضَّلالةَ سَجِيَّةٌ فيهم ومن شِيمَتِهم حتَّى كأنَّها مِن مُقَوِّماتِ قَوميَّتِهم[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ تَدرُّجٌ مِن الإقرارِ بالذَّنْبِ إلى الرَّغبةِ والتَّضرُّعِ[٣].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿عُدْنَا﴾؛ لِظُهورِه مِن المَقامِ؛ إذ كان إلْقاؤهم في النَّارِ لأجْلِ الإشراكِ والتَّكذيبِ، كما دَلَّ عليه قولُهم: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ استِئنافٌ قُصِدَ منه إغاظَتُهم بمُقابَلةِ حالِهم يومَ العذابِ بحالِ الَّذين أنعَمَ اللهُ عليهم، وتَحسيرُهم على ما كانوا يُعامِلون به المُسلمينَ[٥]. وقيل: تَعليلٌ لِمَا قَبلَه مِن الزَّجرِ عن الدُّعاءِ[٦]. وهذه الآيةُ مِن الخبَرِ الَّذي يُقالُ للكُفَّارِ على جِهَةِ التَّوبيخِ[٧].

- والإخبارُ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ إلى قولِه: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ مُستعمَلٌ في كَونِ المُتكلِّمِ عالِمًا بمَضمونِ الخَبرِ؛ بقَرينةِ أنَّ المُخاطَبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٧).

يَعلَمُ أحوالَ نَفْسِه. وتأْكيدُ الخَبرِ بـ(إنَّ) وضَميرِ الشَّأنِ؛ للتَّعجيلِ بإرهابِهم[١].

٥- قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾ مُتضمِّنٌ للتَّخويفِ؛ لِوُرودِه تَوبيخًا للقومِ، وأنَّه إنَّما جَرَّهم إلى السُّخريةِ بأولياءِ اللهِ تَرْكُ الذِّكرِ المُؤدِّي إلى عدَمِ الخَوفِ مِن اللهِ تعالى؛ فقولُه: ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ مُرتَّبٌ على قولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا﴾، وهو تَعليلٌ لقولِه: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[٢].

- قولُه: ﴿سِخۡرِيًّا﴾ مَصدرٌ زِيدَتْ فيه ياءُ النِّسبةِ؛ للمُبالَغةِ[٣]، وسُلِّطَ الاتِّخاذُ على المصدرِ في قولِه: ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾؛ للمُبالَغةِ، كما يُوصَفُ بالمَصدرِ[٤].

- قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ اسْتِهْزَاءً بِهم، وأضافَ الإنساءَ إلى المُؤمنينَ؛ لأنَّهم كانوا سببًا لاشتِغالِهم عن ذِكْرِه، وتَعدِّي شُؤمِ استِهزائِهم بالمُؤمنينَ إلى استِيلاءِ الكُفْرِ على قُلوبِهم[٥].

- ﴿وَكُنتُم﴾ أي: بأخلاقٍ هي كالجِبِلَّةِ، ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ أي: خاصَّةً، ﴿تَضۡحَكُونَ﴾ كأنَّهم لَمَّا صَرَفوا قُواهُمْ إلى الاستِهزاءِ بهم، عُدَّ ضَحِكُهم مِن غَيرِهم عدَمًا[٦].

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ استِئنافٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٣٢، ٦٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٩).

(٥) يُنظر: تفسير القرطبي (١٢/ ١٥٥).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩١).

لِبَيانِ حُسنِ حالِهم، وأنَّهم انْتَفَعوا بما آذَوْهم[١]. وقيل: خبَرُ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ﴾؛ لزِيادةِ التَّأكيدِ[٢].

- قولُه: ﴿بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ إدماجٌ للتَّنويهِ بالصَّبرِ، والتَّنبيهِ على أنَّ سُخريَّتَهم بهم كانت سَببًا في صَبْرِهم الَّذي أكسَبَهم الجَزاءَ. وفي ذلك زِيادةُ تَلْهيفٍ للمُخاطَبينَ بأنْ كانوا هم السَّببَ في ضَرِّ أنفُسِهم، ونَفعِ مَن كانوا يَعُدُّونهم أعداءَهم[٣].

- قولُه: ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ قِراءةُ فَتْحِ الهمزةِ على معنَى المصدريَّةِ والتَّأكيدِ؛ أي: جَزَيتُهم بأنَّهم. وقِراءةُ كَسْرِ هَمزةِ (إنَّ) على التَّأكيدِ فقطْ؛ فتكونُ استئنافًا بَيانيًّا للجزاءِ[٤]. وقيل: على قِراءةِ فَتحِ الهمزةِ تَعليلٌ، أي: جَزَيتُهم لأنَّهم، والكَسرُ على الاستئنافِ، وقد يُرادُ به التَّعليلُ؛ فيكونُ الكَسرُ مِثْلَ الفَتحِ مِن حيثُ المعنى[٥]. وقيل: كَسرُ الهمزةِ على أنَّه تَعليلٌ للجزاءِ، وبَيانٌ لِكَونِه في غايةِ ما يكونُ مِن الحُسنِ[٦].

- وضَميرُ الفَصلِ ﴿هُمُ﴾؛ للاختصاصِ، أي: هم الفائِزونَ لا أنتم[٧].

٧- قولُه تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ تَذكيرٌ لِمَا لَبِثوا فيما سَأَلوا الرُّجوعَ إليه مِن الدُّنيا بَعدَ التَّنبيهِ على استِحالَتِه[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٠).

(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٢).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ؛ لِيَظهَرَ لهم خَطَؤُهم؛ إذْ كانوا يَزعُمون أنَّهم إذا دُفِنوا في الأرضِ لا يَخرُجون منها. وإضافةُ لَفظِ (عدد) إليه تأكيدٌ لِمَضمونِ (كم)؛ لأنَّ (كم) اسمُ استِفهامٍ عن العدَدِ، فذِكْرُ لَفظِ (عدد) معها تأكيدٌ لبَعضِ مَدْلولِها[1].

٨- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ استَقْصَروا مُدَّةَ لُبْثِهم في الدُّنيا بالإضافةِ إلى خُلودِهم، ولِمَا هم فيه مِن عَذابِها؛ لأنَّ المُمْتحَنَ يَستطيلُ أيَّامَ مِحْنَتِه، ويَستقصِرُ ما مَرَّ عليه مِن أيَّامِ الدَّعةِ إليها. أو لأنَّهم كانوا في سُرورٍ، وأيَّامُ السُّرورِ قِصارٌ، أو لأنَّ المُنْقضِيَ في حُكْمِ ما لم يكُنْ[2].

- وإيقافُهم على ضَلالِ اعتِقادِهم الماضي جِيءَ به في قالَبِ السُّؤالِ عن مُدَّةِ مُكْثِهم في الأرضِ؛ كِنايةً عن ثُبوتِ خُروجِهم مِن الأرضِ أحياءً، وهو ما كانوا يُنكِرونَه، وكِنايةً عن خطَأِ استدلالِهم على إبطالِ البَعثِ باستحالَةِ رُجوعِ الحياةِ إلى عِظامٍ ورُفاتٍ، وهي حالةٌ لا تَقْتَضي مُدَّةَ قَرنٍ واحدٍ؛ فكيف وقد أُعِيدَت إليهم الحياةُ بَعْدَ أنْ بَقُوا قُرونًا كثيرةً، فذلك أدَلُّ وأظهَرُ في سَعةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ، وأدخَلُ في إبطالِ شُبْهَتِهم؛ إذ قد تبيَّنَ بُطلانُها فيما هو أكثَرُ ممَّا قَدَّروهُ مِن عِلَّةِ استِحالةِ عَودِ الحياةِ إليهم. وقد دَلَّ على هذا قولُه في آخِرِ الآيةِ: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقد ألْجَأَهم اللهُ إلى إظهارِ اعتقادِهم قِصرَ المُدَّةِ الَّتي بَقُوها؛ زِيادةً في تَشويهِ خطَئِهم، فإنَّهم لمَّا أحسُّوا مِن أنفُسِهم أنَّهم صاروا أحياءً كحياتِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٣).

الأُولى، وعاد لهم تَفكيرُهم القديمُ الَّذي ماتوا عليه، وكانوا يَتوهَّمون أنَّهم إذا فَنِيَت أجسادُهم لا تعودُ إليهم الحياةُ: أوهَمَهم كَمالُ أجسادِهم أنَّهم ما مَكَثوا في الأرضِ إلَّا زمنًا يَسيرًا لا يَتغيَّرُ في مِثْلِه الهيكلُ الجُثمانِيُّ، فبَنَوا على أصْلِ شُبْهَتِهم الخاطئةِ خطأً آخَرَ[١].

٩- قولُه تعالى: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ صَدَّقَهم اللهُ في مَقالِهم لِسِنِي لُبْثِهم في الدُّنيا، ووبَّخَهم على غَفْلَتِهم الَّتي كانوا عليها[٢].

- ولم يُعْطَفْ فِعْلُ ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾؛ لأنَّه جاء على طَريقةِ حِكايةِ المُحاوَراتِ[٣].

- قولُه: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ يُؤْذِنُ بكَلامٍ مَحذوفٍ، على طَريقةِ دَلالةِ الاقتِضاءِ[٤]؛ لأنَّهم قد لَبِثُوا أكثَرَ مِن يومٍ أو بعضَ يومٍ بكثيرٍ؛ فكيف يُجعَلُ قليلًا؟! فتعيَّنَ أنَّ قولَه: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ لا يَستقيمُ أنْ يكونَ جوابًا لكَلامِهم إلَّا بتَقديرِ: قال: بلْ لَبِثْتُم قُرونًا، وإنْ لَبِثْتم إلَّا قليلًا فيما عندَ اللهِ[٥].

- قولُه: ﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ الجَوابُ مَحذوفٌ؛ ثِقَةً بدَلالةِ ما سبَقَ عليه، أي: لعَلِمْتُم يَومئذٍ قِلَّةَ لُبْثِكم فيها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣١).

(٤) دلالةُ الاقتِضاءِ: هي دلالةُ اللفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصدقِ أو الصحةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٣).

الآيات (١١٥-١١٨)

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَبَثًا﴾: العَبَثُ: اللَّعِبُ، وما لا فائدةَ فيه، وكلُّ ما ليس له غَرَضٌ صحيحٌ، يُقالُ: عَبَثَ يَعْبَثُ عَبَثًا: إذا خَلَط عَمَلَه بلَعِبٍ، وأصلُ (عبث): يَدُلُّ على الخَلْطِ[(١)].

﴿بُرْهَٰنَ﴾: البرهانُ: الحُجَّةُ والدَّليلُ، وأصْلُه: وُضوحُ الشَّيءِ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: أفظَنَنتُم أنَّما خلَقْناكم لَعِبًا وباطلًا، لا لحِكمةٍ ولا فائدةٍ، وأنَّكم لا تُرجَعونَ إلينا يومَ القِيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ؟! فتعاظَمَ وتقَدَّسَ اللهُ المَلِكُ الحَقُّ عن أنْ يَخلُقَ شيئًا من المخلوقات عَبثًا، وعن كُلِّ ما لا يَلِيقُ بعظمته وجَلالِه وكَمالِه، لا إلهَ غَيرُه، وهو ربُّ العَرشِ الكريمِ.

ثمَّ بيَّن اللهُ تعالى أنَّ مَن يَعبُدُ مع اللهِ الواحِدِ إلهًا آخَرَ لا دَليلَ له على استِحقاقِه العِبادةَ، فسَيَلْقَى الحِسابَ الشَّديدَ في الآخرةِ مِن ربِّه جلَّ وعلا؛ إنَّه لا نَجاةَ ولا فلاحَ للكافرينَ يومَ القيامةِ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين (٨/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٧)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٢٤٨).

ثمَّ أمَر اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَدْعوَه فيقولَ: ربِّ اغفِرْ وارحَمْ، وأنت سبحانَك خيرُ مَن يَرحَمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا شرَحَ اللهُ سُبحانَه صِفاتِ القِيامةِ؛ ختَمَ الكلامَ فيها بإقامةِ الدَّلالةِ على وُجودِها؛ وهي أنَّه لولا القِيامةُ لَمَا تميَّزَ المُطِيعُ مِن العاصي، والصِّدِّيقُ مِن الزِّنديقِ، وحينَئذٍ يكونُ خَلْقُ هذا العالَمِ عبَثًا[1]، فقال:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾.

أي: أفظَنَنْتُم[2] أنَّني خلَقْتُكم لَعِبًا وباطلًا، بلا قصْدٍ ولا فائدةٍ ولا حِكْمةٍ، مُهمَلينَ؛ لا تُؤْمَرونَ ولا تُنهَون، ولا تُثابُون ولا تُعاقَبون[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٩).

(٢) قِيلَ: الضَّميرُ يعودُ على الأشقياءِ المنكرينَ للبعثِ. وممَّن قال بهذا المعنى: يحيى بنُ سلام، وابنُ جريرٍ، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٦٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٣).
قال البِقاعيُّ: (ولمَّا كان حالُهم في ظنِّهم أنْ لا بَعثَ، حتَّى اشْتَغلوا بالفرَحِ والبطَرِ والمرَحِ، والاستِهزاءِ بأهْلِ اللهِ، حالَ مَن يظُنُّ العَبَثَ على اللهِ الملِكِ الحقِّ المُبينِ؛ سبَّبَ عن ذلك عطْفًا على قولِه: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [المؤمنون: ١١٠] إنكارَهُ عليهم في قولِه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ معطوفًا على مُقدَّرٍ، نَحْوُ: أحسِبْتُم أنَّا نُهْمِلُكم، فلا نُنصِفُ مَظلومَكم مِن ظالِمِكم، فحَسِبْتم ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾؟!). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٩٥).
وقِيلَ: الخِطابُ لعُموم الخلْقِ. وممَّن ذهَبَ إلى هذا: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١٧٤)، =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال تَباركَ وتَعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.

أي: وتَحْسَبون أنَّكم بَعدَ مَوتِكم لا تُبعَثون يومَ القِيامةِ أحياءً للحِسابِ والجَزاءِ على أعْمالِكم خَيرِها وشَرِّها[1]؟!

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: فتَعاظَمَ وتقدَّسَ اللهُ عن كُلِّ ما لا يَلِيقُ به سُبحانَه، ومِن ذلك إيجادُه المخلوقاتِ عَبثًا؛ فإنَّه التَّامُّ المُلْكِ الَّذي قهَرَ كُلَّ شَيءٍ، الَّذي لا يَتطرَّقُ الباطِلُ

= ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).

قال ابنُ القيِّم: (اتَّفقَ المُفسِّرونَ على أنَّ الحقَّ الَّذي خُلِقَت به السَّمواتُ والأرضُ هو الأمْرُ والنَّهيُ، وما يترتَّبُ عليهما مِنَ الثَّوابِ والعِقابِ، فمَن جحَدَ ذلك، وجحَدَ رِسالةَ الرُّسلِ، وكفَرَ بالمَعادِ، وأحالَ حَوادِثَ العالَمِ على حركاتِ الكواكِبِ: فقد زعَمَ أنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ أبطَلُ الباطِلِ، وأنَّ العالَمَ خُلِق عبَثًا، وتُرِك سُدًى، وخُلِّي همَلًا، وغايةُ ما خُلِق له أنْ يكونَ مُتمتِّعًا باللَّذَّاتِ الحِسيَّةِ كالبهائمِ في هذه المُدَّةِ القصيرةِ جِدًّا، ثمَّ يُفارِقُ الوُجودَ، وتُحْدِثُ حَركاتُ الكواكِبِ أشخاصًا مِثْلَه، هكذا أبدًا! فأيُّ باطِلٍ أبطَلُ مِن هذا؟! وأيُّ عبَثٍ فوقَ هذا؟!). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٢، ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٣).

إليه في شَيءٍ مِن ذاتِه ولا صِفاتِه؛ فلا زوالَ له ولا لِمُلْكِه، فأنَّى يأْتيهِ العَبثُ[(١)]؟!

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان الحَقُّ مِن حيثُ هو قدْ يكونُ له ثانٍ؛ نفَى ذلك في حَقِّه تعالى بقولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ فلا يُوجَدُ له نظيرٌ أصلًا في ذاتٍ ولا صِفَةٍ، ومَن يكونُ كذلك يكونُ حائزًا لجَميعِ أوصافِ الكَمالِ، وخِلالِ الجَلالِ والجَمالِ، مُتعاليًا عن سِماتِ النَّقصِ، والعبَثُ مِن أدْنى صِفاتِ النَّقصِ؛ لِخُلُوِّهِ عن الحِكمةِ الَّتي هي أساسُ الكَمالِ. ثمَّ زاد في التَّعيينِ والتَّأكيدِ للتَّفرُّدِ بوَصْفِه بصِفَةٍ لا يَدَّعِيها غيرُه، فقال: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ﴾[(٢)].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٣).

قال السعديُّ: (فكونُه مَلِكًا للخَلقِ كلِّهم حقًّا؛ في صِدْقِه، ووَعْدِه ووَعيدِه، مأْلوهًا مَعبودًا؛ لِمَا له مِنَ الكَمالِ ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾، فما دُونَه مِن بابِ أَولى: يَمنَعُ أنْ يَخلُقَكم عبثًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الحقُّ: ما قابَلَ الباطِلَ، ومَفهومُ الصِّفةِ يَقْتَضي أنَّ مُلْكَ غَيرِه باطِلٌ، أي: فيه شائبةُ الباطِلِ، لا مِن جِهةِ الجَورِ والظُّلمِ؛ لأنَّه قد يُوجَدُ مُلْكٌ لا جَورَ فيه ولا ظُلْمَ؛ كمُلْكِ الأنبياءِ والخُلفاءِ الرَّاشدينَ، وأصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الخُلفاءِ والأُمراءِ، بلْ مِن جِهةِ أنَّه مُلْكٌ غيرُ مُسْتكمِلٍ حَقيقةَ المالكيَّةِ؛ فإنَّ كلَّ مَن يُنْسَبُ إليه المُلْكُ -عدَا اللهَ تعالى- هو مالِكٌ مِن جِهةٍ، ومَمْلوكٌ مِن جِهةٍ؛ لِمَا فيه مِن نقْصٍ واحتياجٍ، فهو مَمْلوكٌ؛ لِمَا يَتطلَّبُه مِن تَسديدِ نقْصِه بقَدْرِ الحاجةِ، ومِن استعانةٍ بالغَيرِ لجَبْرِ احتياجِه، فذلك مُلْكٌ باطِلٌ؛ لأنَّه ادِّعاءُ مُلْكٍ غيرِ تامٍّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩٧).

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، وكلُّ ما سِواهُ عَبيدُه؛ فهو المُستحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له[١].

﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾.

أي: رَبُّ العَرْشِ الشَّريفِ الحسَنِ البَهِيِّ المَنْظَرِ، الَّذي هو سَقْفُ المَخلوقاتِ وأعظَمُها[٢].

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ سُبحانَه أنَّه هو المَلِكُ الحقُّ لا إلَهَ إلَّا هو؛ أتبَعَه بأنَّ مَنِ ادَّعَى إلهًا آخَرَ فقدِ ادَّعَى باطِلًا مِن حيثُ لا بُرهانَ لهم فيه، ثمَّ ذكَرَ أنَّ مَن قال بذلك فجزاؤُه العِقابُ العظيمُ؛ بقولِه: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾[٣].

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾.

أي: ومَن يَعبُدْ مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ لا حُجَّةَ له على عِبادتِه؛ فرَبُّه وَحْدَه سيُحاسِبُه يومَ القيامةِ، ويُعذِّبُه على شِرْكِه به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٣).

قال الشنقيطيُّ: (وصَفَ عرْشَه بالكرَمِ؛ لِعَظَمتِه، وكِبَرِ شأْنِه). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٧)، ((تفسير ابن =

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

أي: إنَّه لا يَنجَحُ الكافِرونَ، ولا يَسْعدون، ولا يَفوزونَ، ولا يَنالونَ الخُلودَ في نَعيمِ الجنَّةِ، بلْ هم أهْلُ النَّارِ الهالِكونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا شرَحَ اللهُ تعالى أحوالَ الكُفَّارِ في جَهْلِهم في الدُّنيا، وعذابِهم في الآخرةِ؛ أمَرَ نَبِيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالانقطاعِ إليه، والالتِجاءِ إلى دَلائلِ غُفْرانِه ورَحْمَتِه؛ فإنَّهما هما العاصِمانِ عن كلِّ الآفاتِ والمَخافاتِ(٢).

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: يا رَبِّ، استُرْ ذُنوبَنا، وتجاوَزْ عن مُؤاخَذَتِنا بها، وارْحَمْنا

= كثير)) (٥/ ٥٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤).

قال الشنقيطيُّ: (لا خِلافَ بيْن أهْلِ العِلْمِ أنَّ قولَه هنا: ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ لا مَفهومَ مُخالَفةٍ له؛ لِاستحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عِبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، بلِ البراهينُ القَطعيَّةُ المُتواتِرةُ دالَّةٌ على أنَّه هو المعبودُ وَحْدَه، ولا يُمكِنُ أنْ يُوجَدَ دَليلٌ على عِبادةِ غَيرِه). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٠٠).

في دُنيانا وآخِرَتِنا[(١)].

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أي: وأنتَ أفضَلُ مَن رحِمَ[(٢)].

الفوائدُ التربوية:

١- إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى خَلَق الجِنَّ والإنسَ؛ لحِكمةٍ عَظيمةٍ، وغايةٍ حميدةٍ، وهي عبادتُه تبارك وتعالى، كما قال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على أنَّ لله تعالى حِكمةً بالِغةً مِن خَلقِ الجِنِّ والإنسِ، وهي عبادتُه. وعلى هذا فمَن تمَرَّد على رَبِّه واستكبَرَ عن عبادتِه فإنَّه يكونُ نابذًا لهذه الحِكمةِ التي خَلَق اللهُ العِبادَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٥).

قال ابنُ كثيرٍ: (قولُه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ هذا إرشادٌ مِنَ اللهِ إلى هذا الدُّعاءِ، فالغَفرُ -إذا أُطْلِقَ- معناهُ: مَحْوُ الذَّنْبِ وسَتْرُه عنِ النَّاسِ، والرَّحمةُ معناها: أنْ يُسدِّدَه ويُوفِّقَه في الأقوالِ والأفعالِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٢).

وقال السعديُّ: (﴿وَقُل﴾ داعيًا لرَبِّك مُخلِصًا له الدِّينَ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ﴾ لنَا؛ حتَّى تُنجِّيَنا مِنَ المكروهِ، وارْحَمْنا؛ لِتُوصِّلَنا برَحْمَتِك إلى كلِّ خيرٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٥).

قال السعدي: (فكلُّ راحمٍ للعبدِ، فاللهُ خيرٌ له منه؛ أرحَمُ بعبدِه مِن الوالدةِ بولدِها، وأرحمُ به مِن نفْسِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١)

وقال النَّسفيُّ: (رَحْمَتُه إذا أدرَكَتْ أحدًا أغنَتْه عن رَحمةِ غَيرِه، ورَحمةُ غَيرِه لا تُغْنِيه عن رَحْمتِه). ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٨٥).

أجْلِها، وفِعلُه يَشهَدُ أنَّ اللهَ خَلَق الخَلقَ عَبثًا وسُدًى! وهو وإنْ لم يُصَرِّحْ بذلك لكِنْ هذا هو مُقتَضى تمرُّدِه واستِكبارِه عن طاعةِ رَبِّه(١).

٢- قَوْله تَعالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ يدلُّ على أنَّ الآدَمِيَّ لم يُخلَقْ لطلبِ الدُّنيا والاشتِغالِ بها، وإنَّما خُلِق ليَعبدَ الله، ويقومَ بأوامرِه(٢).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- مَن تأمَّلَ بَعضَ هِدايةِ اللهِ المَبْثوثةِ في العالَمِ، شهِدَ له بأنَّه اللهُ الَّذي لا إلهَ إلَّا هوَ، عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ، العزيزُ الحكيمُ، وانتقَلَ مِن مَعرفةِ هذه الهِدايةِ إلى إثباتِ النُّبوَّةِ بأيسَرِ نظَرٍ، وأوَّلِ وَهلةٍ، وأحسَنِ طَريقٍ وأخصَرِها، وأبْعَدِها مِن كُلِّ شُبهةٍ؛ فإنَّه لم يُهمِلِ هذه الحيواناتِ سُدًى، ولم يَتْرُكْها مُعطَّلةً، بلْ هَداها إلى هذه الهِدايةِ الَّتي تَعجِزُ عُقولُ العُقلاءِ عنها. كيف يَلِيقُ به أنْ يَترُكَ النَّوعَ الإنسانيَّ -الَّذي هو خُلاصةُ الوُجودِ، الَّذي كرَّمَه وفضَّلَه على كَثيرٍ مِن خَلْقِه- مُهْمَلًا، وسُدًى مُعطَّلًا، لا يَهْديهِ إلى أقْصَى كَمالاتِه، وأفضَلِ غاياتِه، بلْ يَترُكُه مُعطَّلًا لا يأمُرُه ولا يَنهاهُ، ولا يُثيبُه ولا يُعاقِبُه؟! وهل هذا إلَّا مُنافٍ لِحِكمَتِه، ونِسْبةٌ له مَا لا يَلِيقُ بجَلالِه؟! ولهذا أنكَرَ ذلك على مَن زعَمَه، ونزَّهَ نفْسَه عنه، وبيَّنَ أنَّه يَستحِيلُ نِسْبةُ ذلك إليه، وأنَّه يَتعالى عنه؛ فقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾؛ فنزَّهَ نفْسَه عن هذا الحُسبانِ؛ فدَلَّ على أنَّه مُستقِرٌّ بُطلانُه في الفِطَرِ السَّليمةِ، والعُقولِ المُستقيمةِ، وهذا أحَدُ ما يدُلُّ على إثباتِ المَعادِ بالعقْلِ، وأنَّه ممَّا تظاهَرَ عليه العقْلُ والشَّرعُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((فتاوى أركان الإسلام)) لابن عثيمين (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٦).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ في هذينِ الاسمينِ: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ إبطالٌ لهذا الحُسبانِ الَّذي ظَنَّه أعداؤُه؛ إذْ هو مُنافٍ لكَمالِ مُلْكِه ولكونِه الحَقَّ؛ إذِ ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ هو الَّذي يكونُ له الأمرُ والنَّهيُ، فيَتصرَّفُ في خَلْقِه بقولِه وأمْرِه، وهذا هو الفَرقُ بين (المَلِكِ) و(المالكِ)؛ إذِ المالِكُ هو المُتصرِّفُ بفِعْلِه، والمَلِكُ هو المُتصرِّفُ بفِعْلِهِ وأَمْرِهِ، والرَّبُّ تعالى مالِكُ المُلْكِ، فهو المُتصرِّفُ بفِعْلِه وأَمْرِهِ، فمَن ظَنَّ أنَّه خَلَقَ خلْقَه عَبثًا، لم يأمُرْهم ولم يَنْهَهُم، فقد طعَنَ في مُلْكِه، ولم يَقْدُرْه حَقَّ قَدْرِه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، فمَن جحَدَ شرْعَ اللهِ وأمْرَه ونَهْيَه، وجعَلَ الخلْقَ بمَنزلةِ الأنعامِ المُهْمَلةِ؛ فقد طعَنَ في مُلْكِ اللهِ، ولم يَقْدُرْه حَقَّ قَدْرِه(١).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ﴾ لَمَّا كان بعضُ مُلوكِ الدُّنيا قد يَفعَلُ ما يُنافي شِيَمَ المُلوكِ مِن العبَثِ بما فيه مِنَ الباطلِ، أتْبَعَ ذلك بصِفَةٍ تُنزِّهُه عنه، فقال: ﴿ٱلْحَقُّ﴾(٢).

٤- دُعاءُ غيرِ اللهِ كُفْرٌ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فأثبَتَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ أمْرينِ مُهمَّينِ:

الأمْرَ الأوَّلَ: أنَّ مَن دعا غيرَ اللهِ فهو كافِرٌ؛ لقولِه: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

الأمرَ الثَّانيَ: أنَّ مَن دعا غيرَ اللهِ فإنَّه لا يُفلِحُ، لا يَحصُلُ له مَطلوبُه، ولا يَنْجو مِن مَرْهوبِه، فيكونُ داعِي غيرِ اللهِ خاسرًا في دِينِه ودُنياه، وإذا كان غيرَ مُفلِحٍ فهو

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩٦، ١٩٧).

أيضًا غيرُ عاقلٍ، بلْ هذا غايةُ السَّفهِ؛ لقولِه تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥]، أي: لا أحَدَ أضَلُّ ممَّن يَدْعو مِن دُونِ اللهِ، ولكنَّه جاء هذا النَّفيُ بصِيغةِ الاستِفهامِ؛ لأنَّه أبلَغُ مِنَ النَّفيِ المحضِ، حيث يكونُ مُشرَبًا معنَى التَّحدِّي[١].

٥- صيغةُ التَّفضيلِ في قولِه: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾؛ لأنَّ المخلوقينَ قد يرحمُ بعضُهم بعضًا، ولا شكَّ أنَّ رحمةَ اللهِ تُخالِفُ رَحمةَ خَلقِه، كمخالفةِ ذاتِه وسائِرِ صِفاتِه لِذَواتِهم وصِفاتِهم[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾ فرَّعَ الاستِفهامَ عن حُسبانِهم أنَّ الخلْقَ لأجْلِ العبَثِ على إظهارِ بُطلانِ ما زعَمُوه مِن إنكارِ البَعثِ. والاستِفهامُ تَقريرٌ وتَوبيخٌ؛ لأنَّ لازِمَ إنكارِهم البَعثَ أنْ يكونَ خلْقُ النَّاسِ مُشتمِلًا على عبَثٍ، فنُزِّلُوا مَنزِلةَ مَن حَسِبَ ذلك، فقُرِّرُوا ووُبِّخُوا؛ أخْذًا لهم بلازِمِ اعتقادِهم[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾

- وجُملةُ: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ خبرًا، قُصِدَ منه التَّذكيرُ والاستِنتاجُ ممَّا تقدَّمَ مِن الدَّلائلِ المُبيِّنةِ لمعنَى تعالِيه، وأنْ تكونَ إنشاءَ ثَناءٍ عليه بالعُلوِّ[٤].

- قولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ دَليلانِ على ما قَبلَه ﴿ فَتَعَٰلَى

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٥).

ﭐللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ ﴾؛ وهما: انفرادُه بالإلهيَّةِ، وذلك وَصفٌ ذاتِيٌّ، وبأنَّه مالِكُ أعظَمِ المخلوقاتِ -أعني: العرشَ-، وذلك دَليلُ عَظمةِ القُدرةِ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء هنا قولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴾، وفي (التَّوبةِ): ﴿فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وفي (النَّملِ): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٦]؛ ووَجْهُه: أنَّ الآيةَ الأُولى وُصِفَ العرشُ بالكريمِ؛ لأنَّه في سِياقِ الحُكْمِ بالعَدلِ، والتَّنزُّهِ عن العَبثِ، بخِلافِ سِياقِ سُورةِ (التَّوبةِ) و(النَّملِ)، فإنَّه للقَهرِ والجَبروتِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ صِفَةٌ لازِمةٌ، نحوَ قولِه: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ ﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ جِيءَ بها للتَّوكيدِ، وبِناءِ الحُكْمِ عليه، لا أنْ يكونَ في الآلهةِ ما يَجوزُ أنْ يقومَ عليه بُرهانٌ. وتَنبيهًا على أنَّ التَّديُّنَ بما لا دَليلَ عليه باطِلٌ، فكيفَ بما شَهِدَتْ بَديهةُ العُقولِ بخِلافِه؟! ويجوزُ أنْ يكونَ اعتراضًا بيْنَ الشَّرطِ والجَزاءِ؛ لتَوكيدِ مَضمونِهما[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال: ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾، ولم يقُل: (لَا بُرْهَانَ لَهُ عليه)؛ ووجه ذلك: أنَّه لَمَّا كان المُرادُ ما يُسمَّى بُرهانًا -ولو على أدْنى الوُجوهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٦، ٢٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٦).

الكافيةِ-، عبَّرَ بالباءِ؛ سُلوكًا لِغايةِ الإنصافِ، دُونَ (على) المُفْهِمةِ للاستِعلاءِ بغايةِ البَيانِ، فقال: ﴿بِهِۦ﴾، أي: بسبَبِ دُعائِه؛ فإنَّه إذا اجتهَدَ في إقامةِ بُرهانٍ على ذلك لم يَجِدْ، بلْ وجَدَ البراهينَ كلَّها قائمةً على نفْيِ ذلك[١].

- والقَصرُ في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ قَصرٌ حَقيقيٌّ. وفيه إثباتُ الحسابِ، وأنَّه للهِ وَحْدَه؛ مُبالَغةً في تَخطِئَتِهم وتَهديدِهم، ويجوزُ أنْ يكونَ القَصرُ إضافِيًّا؛ تَطمينًا للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ اللهَ لا يُؤاخِذُه باستِمرارِهم على الكُفْرِ، ويدُلُّ على ذلك تَذييلُه بجُملةِ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وُضِعَ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ لأنَّ (مَنْ يَدْعُ) في معنَى الجَمعِ، والأصلُ: حِسابُه أنَّه لا يُفلِحُ هو، وإنَّما وجَبَ الجَمْعُ؛ لأنَّ الآيةَ تَذييلٌ للآياتِ الواردةِ في حَقِّ المُعانِدينَ المُصرِّينَ[٣]. ووُضِعَ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ المُفرَدِ بَعدَ الإفرادِ في ﴿حِسَابُهُۥ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ عدَمَ الفَلاحِ مُعلَّلٌ بالكُفْرِ، فوُضِعَ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مَوضِعَ ضَميرِه؛ تَنبيهًا على كُفْرِه، وتَعميمًا للحُكْمِ، فصار أوَّلُ السُّورةِ وآخِرُها مُفْهِمًا لِأنَّ الفَلاحَ مُختَصٌّ به المُؤمِنونَ، ولِيَتطابَقَ أوَّلُ السُّورةِ وآخِرُها[٤]، أو لِرِعايةِ التَّوافُقِ في الفواصِلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩٨، ١٩٩).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٣٧، ٦٣٨).

- وفيه: تَسليةٌ للرَّسولِ صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه[١].

- وفيه: ضَرْبٌ مِن رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ؛ إذِ افتُتِحَتِ السُّورةُ بـ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، وخُتِمَت بـ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وهو نَفْيُ الفلاحِ عن الكافرينِ ضِدَّ المُؤمِنينَ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

- في حَذْفِ مُتعلَّقِ ﴿ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ﴾ تَفويضُ الأمرِ إلى اللهِ في تَعيينِ المَغفورِ لهم والمَرحومِينَ، والمُرادُ مَن كانوا مِن المُؤمِنينَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ المعنى: اغْفِرْ لي وارْحَمْني؛ بقَرينَةِ المَقامِ[٣].

- وفيه: إيذانٌ بأنَّ الاستِغفارَ والاستِرحامَ مِن أهمِّ الأُمورِ الدِّينيَّةِ؛ حيثُ أُمِرَ بهما مَن قد غُفِرَ له ما تقدَّمَ مِن ذَنْبِه وما تأخَّرَ، فكيف بمَن عداهُ[٤]؟!

- وأمْرُه بأنْ يَدعُوَ بذلك يَتضمَّنُ وَعْدًا بالإجابةِ، وهذا الكلامُ مُؤْذِنٌ بانتِهاءِ السُّورةِ؛ فهو مِن بَراعةِ المَقطَعِ[٥].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثامنَ عَشَرَ
ويليه المجلدُ التاسعَ عَشَرَ
وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ النُّورِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٧).

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ الحَجِّ ٧
أسماءُ السُّورةِ: ٧
فَضائلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ٧
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٨
مَقاصِدُ السُّورة: ٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٩
الآيتان (١-٢) ١١
غَريبُ الكَلِماتِ: ١١
المَعنى الإجماليُّ: ١١
تَفسيرُ الآيتَينِ: ١٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٦
بلاغةُ الآيتَينِ: ١٨
الآيتان (٣-٤) ٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٤
المَعنى الإجماليُّ: ٢٤
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٢٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٦
بلاغةُ الآيتَينِ: ٢٨
الآيات (٥-٧) ٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٩
المَعنى الإجماليُّ: ٣١
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ... ٤٣
بلاغةُ الآياتِ: ٤٧
الآيات (٨-١٠) ٥٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٧
المَعنى الإجماليُّ: ٥٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٣
بلاغةُ الآياتِ: ٦٥
الآيات (١١-١٣) ٦٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ٧٠
المَعنى الإجماليُّ: ٧١
تَفسيرُ الآياتِ: ٧١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٧٧

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٨
بلاغةُ الآياتِ: ٨١
الآيات (١٤-١٧) ٨٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٨٥
المَعنى الإجماليُّ: ٨٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٩٤
بلاغةُ الآياتِ: ٩٥
الآية (١٨) ١٠٢
غريبُ الكلماتِ: ١٠٢
المَعنى الإجماليُّ: ١٠٢
تَفسيرُ الآيةِ: ١٠٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٠٧
بلاغةُ الآيةِ: ١٠٨
الآيات (١٩-٢٢) ١١١
غَريبُ الكَلِماتِ: ١١١
المَعنى الإجماليُّ: ١١١
تَفسيرُ الآياتِ: ١١٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١١٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١١٧
بلاغةُ الآياتِ: ١١٧
الآيات (٢٣-٢٥) ١٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٢٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٢٣
المَعنى الإجماليُّ: ١٢٤
تَفسيرُ الآياتِ: ١٢٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٣٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٣٤
بلاغةُ الآياتِ: ١٣٦
الآيات (٢٦-٢٩) ١٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٤٣
المَعنى الإجماليُّ: ١٤٥
تَفسيرُ الآياتِ: ١٤٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٥٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٥٤
بلاغةُ الآياتِ: ١٦١
الآيات (٣٠-٣٣) ١٦٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٦٩
المَعنى الإجماليُّ: ١٧١
تَفسيرُ الآياتِ: ١٧٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٨٤

بلاغةُ الآياتِ: ١٨٥
الآيتان (٣٤-٣٥) ١٩٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٩٣
المَعنى الإجماليُّ: ١٩٣
تَفسيرُ الآيتَينِ: ١٩٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٩٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٠٠
بلاغةُ الآيتَينِ: ٢٠٢
الآيتان (٣٦-٣٧) ٢٠٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٠٥
المَعنى الإجماليُّ: ٢٠٦
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٢٠٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢١٣
بلاغةُ الآيتَينِ: ٢١٦
الآيات (٣٨-٤١) ٢١٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢١٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٢٠
المَعنى الإجماليُّ: ٢٢١
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٢١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٣٣
بلاغةُ الآياتِ: ٢٤٠
الآيات (٤٢-٤٥) ٢٤٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٤٧
المَعنى الإجماليُّ: ٢٤٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٤٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٥٤
بلاغةُ الآياتِ: ٢٥٦
الآيات (٤٦-٤٨) ٢٦٠
المَعنى الإجماليُّ: ٢٦٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٦٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٦٧
بلاغة الآيات: ٢٧٠
الآيات (٤٩-٥١) ٢٧٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٧٦
المَعنى الإجماليُّ: ٢٧٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٧٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢٨١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٨١
بلاغة الآيات: ٢٨٢
الآيات (٥٢-٥٤) ٢٨٥

غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٨٥
المَعنى الإجماليُّ: ٢٨٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٨٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٩٥
بلاغة الآيات: ٢٩٧
الآيات (٥٥-٥٧) ٣٠١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٠١
المَعنى الإجماليُّ: ٣٠١
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٠٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٠٦
بلاغةُ الآيات: ٣٠٨
الآيات (٥٨-٦٠) ٣١١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣١١
المَعنى الإجماليُّ: ٣١١
تَفسيرُ الآياتِ: ٣١٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣١٦
بلاغةُ الآياتِ: ٣٢٠
الآيتان (٦١-٦٢) ٣٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٢٤
المَعنى الإجماليُّ: ٣٢٤
تَفسيرُ الآيتينِ: ٣٢٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٢٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٢٩
بلاغةُ الآيتَينِ: ٣٢٩
الآيات (٦٣-٦٩) ٣٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٣٣
المَعنى الإجماليُّ: ٣٣٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٣٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٤٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٤٥
بلاغةُ الآياتِ: ٣٤٦
الآيات (٧٠-٧٢) ٣٥٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٥٧
المَعنى الإجماليُّ: ٣٥٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٥٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٦٣
بلاغةُ الآياتِ: ٣٦٥
الآيات (٧٣-٧٦) ٣٧١
غريبُ الكلماتِ: ٣٧١
المَعنى الإجماليُّ: ٣٧٢

تَفسيرُ الآياتِ: ٣٧٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٧٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٨٠
بلاغةُ الآياتِ: ٣٨٣
الآيتان (٧٧-٧٨) ٣٩١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٩١
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٩٢
المَعنى الإجماليُّ: ٣٩٢
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٣٩٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٠٥
بلاغةُ الآيتَينِ: ٤٠٩
سورةُ المُؤْمِنونَ ٤١٧
أسماءُ السُّورةِ: ٤١٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ: ٤١٧
مقاصِدُ السُّورةِ: ٤١٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٤١٨
الآيات (١-١١) ٤٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٢٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٢١
المَعنى الإجماليُّ: ٤٢٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٢٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٣٥
بلاغةُ الآياتِ: ٤٤٠
الآيات (١٢-١٦) ٤٤٨
غريبُ الكَلِماتِ: ٤٤٨
المَعنى الإجماليُّ: ٤٤٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٤٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٥٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٥٦
بلاغةُ الآياتِ: ٤٥٨
الآيات (١٧-٢٢) ٤٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٦٥
المَعنى الإجماليُّ: ٤٦٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٧٦
بلاغةُ الآياتِ: ٤٧٨
الآيات (٢٣-٣٠) ٤٨٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٨٩
المَعنى الإجماليُّ: ٤٩٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٩١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٠١

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥٠٢
بلاغة الآيات: ٥٠٤
الآيات (٣١-٤٣) ٥١٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥١٦
مُشكِلُ الإعرابِ: ٥١٧
المَعنى الإجماليُّ: ٥١٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٥١٩
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: .. ٥٢٥
بلاغةُ الآياتِ: ٥٢٦
الآيات (٤٤-٥٠) ٥٣٨
غَريبُ الكلماتِ: ٥٣٨
المَعنى الإجماليُّ: ٥٣٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٤٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٤٦
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: .. ٥٤٦
بلاغةُ الآياتِ: ٥٤٨
الآيات (٥١-٥٦) ٥٥٦
غَريبُ الكلماتِ: ٥٥٦
مُشكِلُ الإعرابِ: ٥٥٧
المَعنى الإجماليُّ: ٥٥٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٥٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٦٥
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: .. ٥٦٦
بلاغةُ الآياتِ: ٥٦٨
الآيات (٥٧-٦٢) ٥٧٦
غَريبُ الكلماتِ: ٥٧٦
المَعنى الإجماليُّ: ٥٧٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٧٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥٨٤
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: .. ٥٨٦
بلاغةُ الآياتِ: ٥٨٧
الآيات (٦٣-٦٧) ٥٩٤
غَريبُ الكلماتِ: ٥٩٤
مُشكِلُ الإعرابِ: ٥٩٥
المَعنى الإجماليُّ: ٥٩٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٩٦
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: .. ٦٠٣
بلاغةُ الآياتِ: ٦٠٤
الآيات (٦٨-٧٢) ٦٠٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٠٩
المَعنى الإجماليُّ: ٦٠٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٦١٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦١٨
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: .. ٦٢٠

بلاغةُ الآياتِ: ٦٢٣
الآيات (٧٣-٧٧) ٦٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٢٩
المَعنى الإجماليُّ: ٦٣٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٣١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٣٥
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: .. ٦٣٦
بلاغةُ الآياتِ: ٦٣٧
الآيات (٧٨-٨٣) ٦٤١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٤١
المَعنى الإجماليُّ: ٦٤١
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٤٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٤٩
الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ: .. ٦٥٠
بلاغةُ الآياتِ: ٦٥١
الآيات (٨٤-٩٢) ٦٥٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٥٨
المَعنى الإجماليُّ: ٦٥٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٦٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٦٧
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: .. ٦٦٨
بلاغةُ الآياتِ: ٦٧٢
الآيات (٩٣-١٠٠) ٦٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٨٢
المَعنى الإجماليُّ: ٦٨٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٨٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٩٢
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: .. ٦٩٣
بلاغةُ الآياتِ: ٦٩٥
الآيات (١٠١-١٠٤) ٧٠١
غريبُ الكَلِماتِ: ٧٠١
المَعنى الإجماليُّ: ٧٠١
تَفسيرُ الآياتِ: ٧٠٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٧٠٥
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: .. ٧٠٥
بلاغةُ الآياتِ: ٧٠٨
الآيات (١٠٥-١١٤) ٧١١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٧١١
المَعنى الإجماليُّ: ٧١٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٧١٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٧٢١
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: .. ٧٢٣
بلاغةُ الآياتِ: ٧٢٦
الآيات (١١٥-١١٨) ٧٣٢

غَريبُ الكَلِماتِ: ٧٣٢
المَعنى الإجماليُّ: ٧٣٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٧٣٣
الفوائدُ التربوية: ٧٣٨
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ: .. ٧٣٩
بلاغةُ الآياتِ: ٧٤١
الفهرس ٧٤٧

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٣٥ درس

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة النور

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الإمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد التاسع عشر

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة النور)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر للقرآن الكريم: المجلد التاسع عشر: سورة النور/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤١ هـ

٥٤٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٥-٧٥-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٣٢٧٣

رقم الإيداع: ١٤٤١/٣٢٧٣

ردمك: ٥-٧٥-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة النور)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد التاسع عشر

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ
سُورَةِ النُّورِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ النُّورِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (النُّورِ)[١]، مما يدُلُّ على ذلك:

١- عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: ((سُئِلتُ عن المتلاعنَينِ -في إمرةِ مُصعَبٍ-: أيُفَرَّقُ بيْنهما؟ قال: فما دَرَيتُ ما أقولُ، فمضيتُ إلى منزلِ ابنِ عُمرَ بمكَّةَ، فقلتُ للغلامِ: استأذِنْ لي، قال: إنَّه قائِلٌ[٢]، فسَمِعَ صَوتي، قال ابنُ جُبَيرٍ؟ قلتُ: نعَمْ، قال: ادخُلْ، فواللهِ ما جاء بك هذه السَّاعةَ إلَّا حاجةٌ، فدخلتُ، فإذا هو مفترِشٌ بَرْذَعةً[٣]، متوسِّدٌ وِسادةً حَشوُها ليفٌ، قلتُ: أبا عبدِ الرَّحمنِ، المتلاعِنانِ أيُفَرَّقُ بيْنهما؟ قال: سُبحانَ اللهِ، نعَمْ! إنَّ أوَّلَ مَن سأل عن ذلك فلانُ بنُ فلانٍ، قال: يا رسولَ اللهِ، أرأيتَ أنْ لو وجدَ أحدُنا امرأتَه على فاحشةٍ، كيف يَصنعُ؟ إنْ تكلَّمَ تكلَّمَ بأمرٍ عظيمٍ، وإنْ سكتَ سكتَ على مثلِ ذلك! قال: فسكَتَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلم يُجِبْه، فلمَّا كان بعْدَ ذلك أتاهُ، فقال: إنَّ الذي سألْتُك عنه قد ابتُليتُ به! فأنزل الله عزَّ وجلَّ هؤلاء الآياتِ في سورة «النُّورِ»: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ ...﴾ [النور: ٦ - ٩]، فتلاهُنَّ عليه، ووعَظَه وذَكَّره، وأخبَرَه أنَّ عذابَ

---

(١) سُمِّيَت هذه السورةُ بسورةِ (النورِ)؛ لكثرةِ ذِكرِ (النورِ) فيها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣٤).

قال ابن عاشور: (وهذه تسميتُها في المصاحفِ وكتبِ التَّفسيرِ والسُّنَّةِ، ولا يُعْرَفُ لها اسمٌ آخَرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٩).

(٢) قائل: هو اسمُ فاعِلٍ مِن: قالَ يَقِيلُ؛ فهو مِن القَيلولةِ، وهي النَّومُ نِصفَ النَّهارِ. يُنظر: ((المفهم لما أَشكل من تلخيص كتاب مسلم)) للقرطبي (٤/ ٢٩٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١٢٤).

(٣) البَرْذَعةُ: ما يُوضَعُ على ظَهرِ البَعيرِ والدَّابَّةِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٥/ ٥٤٦).

الدُّنيا أهوَنُ مِن عذابِ الآخرةِ. قال: لا، والَّذي بعَثَك بالحَقِّ ما كذَبْتُ عليها. ثمَّ دعاها، فوعَظها وذكَّرَها، وأخبرَها أنَّ عذابَ الدُّنيا أهوَنُ مِن عذابِ الآخرةِ. قالت: لا، والَّذي بعَثَك بالحَقِّ إنَّه لكاذِبٌ. فبدأ بالرجُلِ، فشَهِدَ أربَعَ شهاداتٍ باللهِ إنَّه لَمِنَ الصادقينَ، والخامِسةُ أنَّ لعنةَ اللهِ عليه إنْ كان مِن الكاذبينَ، ثمَّ ثنَّى بالمرأةِ، فشَهِدَت أربعَ شهاداتٍ باللهِ إنَّه لَمِنَ الكاذبينَ، والخامِسةُ أنَّ غَضَبَ اللهِ عليها إنْ كان من الصَّادقينَ، ثمَّ فَرَّق بيْنهما))[١].

٢- عن أبي إسحاقَ الشَّيْبانيِّ، قال: ((سألتُ عبدَ اللهِ بنَ أبي أَوفَى: هل رَجَمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ؟ قال: نعَمْ. قال: قلتُ: بعدَما أُنزِلَت سورةُ «النُّورِ» أمْ قبْلَها؟ قال: لا أدري))[٢].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ:

سورةُ النُّورِ مَدَنيَّةٌ[٣]، ونقلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٤].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

من أهمِّ مقاصدِ هذه السورةِ: ذِكرُ أحكامِ العفافِ والسترِ[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٨).

(٤) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، وأبو حيان، والفيروزابادي، والبِقَاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٨).

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ الموضوعاتِ الَّتي تناولَتْها سورةُ النُّورِ:

١- تقريرُ وُجوبِ الانقيادِ لِما أُنزِلَ في هذه السورةِ مِن أحكامٍ وآدابٍ.

٢- بيانُ حَدِّ الزِّنا.

٣- بيانُ عُقوبةِ قاذِفِي المُحصَناتِ.

٤- حُكمُ قَذفِ الزَّوجاتِ، وتَشريعُ اللِّعانِ.

٥- ذِكرُ قِصَّةِ الإفكِ.

٦- ذِكرُ آدابِ الاستِئذانِ، ووجوبِ غَضِّ البَصَرِ وحِفظِ الفُروجِ.

٧- نَهيُ النِّساءِ عن إبداءِ زينتِهِنَّ إلَّا لِمَن استَثناهم اللهُ تعالى.

٨- الأمرُ بإنكاحِ الأيامَى مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ.

٩- الحديثُ عن مظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى في هذا الكَونِ.

١٠- ذَمُّ أحوالِ أهلِ النِّفاقِ، والإشارةُ إلى سوءِ طَوِيَّتِهم.

١١- وَعدُ اللهِ تعالى للمُؤمِنينَ بالاستِخلافِ في الأرضِ، والتَّمكينِ للدِّينِ، والأمنِ بعدَ الخَوفِ.

١٢- بيانُ صِفاتِ المؤمِنينَ الصَّادِقينَ.

الآيات (١-٢)

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُورَةٌ﴾: السُّورةُ: مَجموعُ آياتٍ ممَّا أنزل اللهُ تعالى، معلومُ الابتِداءِ والانتِهاءِ، والسُّورَةُ: بالهَمزِ وبتَركِه؛ فبالهَمزِ مِن السُّؤْرِ: وهو البَقيَّةُ مِمَّا يَشرَبُ الشَّارِبُ؛ لأنَّ كُلَّ سُورةٍ مِن القُرآنِ بَقيَّةٌ منه. وبغيرِ الهَمزِ: قيل: مِنَ السُّورِ بمعنى الجماعةِ؛ لأنَّ السُّورةَ مُشتَمِلةٌ على جماعةِ الآياتِ. أو مِن السُّورِ المُحيطِ بالأبنيةِ؛ لأنَّ السُّورةَ مُحيطةٌ بالآياتِ. وقيلَ غَيرُ ذلك[١].

﴿رَأْفَةٌ﴾: الرأفةُ: أرقُّ الرَّحْمةِ، وأصلُ (رأف): يدُلُّ على رِقَّةٍ ورَحْمةٍ[٢].

﴿طَآئِفَةٌ﴾: أي: جماعةٌ، والطَّائِفةُ: جماعةٌ مِن النَّاسِ؛ وتُطلَقُ على الواحدِ فما فَوْقَه، وأصلُ (طوف): دَوَرانُ الشَّيءِ على الشَّيءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٩)، ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ هذه السُّورةَ أَنزَلَها، ووضَّحَ فيها واجباتٍ ونواهيَ، وقدَّرَ فيها ما تضَمَّنَتْه من الحُدودِ والحُقوقِ، وأوجبَ العملَ بما اشتمَلتْ عليه، وأنزَلَ فيها آياتٍ واضحاتٍ فيها تِبيانٌ للحَقِّ لِمَن تَدبَّرها؛ وذلك لكي تَتذكَّروا بهذه الآياتِ وتَتَّعظوا بها وتَعملُوا.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه بعدَ ذلك حدَّ الزاني والزانيةِ؛ فيأمُرُ تعالى بجَلْدِهما مِئةَ جَلدةٍ لكلٍّ منهما -إذا كانا حُرَّينِ، مكلَّفينِ، بِكرَينِ، غيرَ مُحصَنَينِ-، وينهَى المُؤمنينَ أنْ تَأخُذَهم بهما رِقَّةٌ في حُكمِ الله، تَمنعُهم من إقامةِ الحَدِّ عليهما كما أمَرَ اللهُ تعالى، إنْ كانوا يُؤمِنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ، ويأمُرُ أنْ يَشهَدَ ذلك الجَلْدَ جَماعةٌ مِن المُؤمنِينَ.

ويبيِّنُ تعالى أنَّ الزانيَ لا ينكِحُ إلَّا زانيةً مِثلَه أو مُشرِكةً، والزانيةَ لا ينكِحُها إلَّا زَانٍ مِثلُها أو مُشرِكٌ، وأنَّه سبحانَه حرَّمَ ذلك على المُؤمنِينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ١﴾.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قولِه: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ قراءتانِ:

١- قِراءة ﴿وَفَرَّضْنَاهَا﴾ بتَشديدِ الرَّاء؛ أي: فَرضْنا فرائضَها، فحُذف المضافُ. وقيل: معناها: أَنزَلْنا فيها الأحكامَ الكَثيرةَ فَرْضًا بَعدَ فَرْضٍ. وقيل: بَيَّنَّا وفصَّلْنا ما

فيها مِن أمرٍ ونَهيٍ، وتَوقيفٍ وحَدٍّ[١].

٢- قِراءة ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ بتَخفيفِ الرَّاء؛ أي: ألْزَمْناكُم العملَ بما فَرَضْنا فيها وبَيَّنَّا من الواجباتِ والحُقوقِ[٢].

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾.

أي: هذه سُورةٌ أَنزَلْناها وبَيَّنَّا ما فيها مِن الواجباتِ والنَّواهي، وقدَّرْنا ما فيها مِن الحُدودِ والحُقوقِ، وأَوجَبْنا الإيمانَ بها وبما تضمَّنَتْه، والعملَ بما فيها[٣].

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

أي: وأنزَلْنا في هذِه السُّورةِ علاماتٍ، ودَلالاتٍ واضحاتٍ تُبيِّنُ الحَقَّ لِمَن تَدَبَّرها[٤].

﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

---

(١) قرَأ بها ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو. يُنظر: ((التيسير)) لأبي عمرو الداني (ص: ١٦١)، ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٠).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٠١)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٥٩، ٢٦٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٤).

(٢) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((التيسير)) لأبي عمرو الداني (ص: ١٦١)، ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٠).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٠١)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٥٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٢، ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

أي: وذلك لكي تَتذكَّروا بهذه الآياتِ وتَتَّعظوا، وتَعملُوا بها[١].

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ﴾.

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ ﴾.

أي: مَن زَنَى مِن النِّساءِ أو الرِّجالِ -إذا كانا حُرَّينِ، مكلَّفينِ، بِكرَينِ، غيرَ مُحصَنَينِ- فاجْلِدوا كلَّ واحدٍ مِنهما مِئةَ جَلدةٍ؛ عُقوبةً لهما[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٩).

قال السَّمعاني: (وأمَّا قولُ عامَّةِ العُلَماءِ فهو: أنَّ الآيةَ مخصوصةٌ للأبكارِ، وأنَّ الثيِّبَ يُرجَمُ ولا يُجلَدُ، واتَّفَق أهلُ العِلمِ أنَّ هذه الآيةَ ناسِخةٌ للآيةِ المذكورةِ في الإمساكِ في سورة النساءِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٨).

وقال القرطبي: (هذه الآيةُ ناسخةٌ لآيةِ الحَبسِ وآيةِ الأذى، اللَّتَينِ في سورة النِّساء، باتِّفاقٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٩).

وقال السخاوي: (وقيل: ليس هذا بنَسْخٍ؛ لأنَّه سبحانه قال: ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾؛ لأنَّه قد كان الحُكمُ مُنتظَرًا). ((جمال القراء)) (٢/ ٦٥٢).

وقال الشنقيطي: (حَبسُ الزَّواني في البُيوتِ مَنسوخٌ بالجَلدِ والرَّجمِ، أو أنَّه كانت له غايةٌ يَنتهي إليها، هي جَعلُ اللهِ لهنَّ السَّبيلَ، فجَعَل اللهُ السَّبيلَ بالحَدِّ، كما يدُلُّ عليه قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «خُذُوا عنِّي، قد جعَلَ اللهُ لهنَّ سَبيلًا...» الحديثَ). ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) (ص: ٥٥، ٥٦).

وقال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ [النور:٢] هذه الآيةُ ناسِخةٌ لآيةِ النِّساءِ، وإن شِئتَ فقُلْ: مُبَيِّنةٌ؛ لأنَّ آيةَ النِّساءِ ليس فيها جَزمٌ أنَّ هذه هي العُقوبةُ؛ لأنَّ الله قال: ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٥]، فجَعَل اللهُ لهنَّ سبيلًا). ((لقاء الباب المفتوح- اللقاء رقْم ١٨٦)) بتصرف. =

عن عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((خُذُوا عنِّي، خُذُوا عنِّي؛ قد جَعَلَ اللهُ لهُنَّ سَبيلًا[(١)]؛ البِكْرُ بالبِكْرِ: جَلْدُ مِئةٍ، ونَفيُ سَنةٍ، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ: جَلْدُ مِئةٍ، والرَّجمُ[(٢)]))[(٣)].

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾.

= وقال الشوكاني: (وأمَّا مَن كان مُحصَنًا مِن الأحرارِ، فعليه الرَّجمُ؛ بالسُّنَّةِ الصَّحيحةِ المتواترةِ بإجماعِ أهلِ العِلمِ، وبالقرآنِ المنسوخِ لَفظُه الباقي حُكمُه، وهو: «الشَّيخُ والشَّيخةُ إذا زنَيَا، فارجُموهُما البتَّةَ»). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦).

وقال السعدي: (هذا الحُكمُ في الزَّاني والزانية البِكرَين: أنَّهما يُجلَدُ كلٌّ منهما مئةَ جَلدةٍ، وأمَّا الثيِّبُ فقد دلَّت السُّنَّةُ الصحيحةُ المشهورةُ أنَّ حدَّه الرَّجمُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

وقال ابن عاشور: (لا شكَّ في أنَّ القضاءَ بالرَّجمِ وقَع بعدَ نزولِ سورةِ النُّورِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٩).

قال القرطبي: (الخبرُ في قولِه: ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾؛ لأنَّ المعنى: الزانيةُ والزاني مجلودانِ بحكمِ الله. وهو قولٌ جيدٌ، وهو قولُ أكثرِ النُّحاةِ. وإن شئتَ قدَّرتَ الخبرَ: يَنبغي أن يُجلَدَا). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦٠).

(١) سَبيلًا: أي: طريقًا وحَدًّا واضِحًا، أشار إلى قَولِه تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥]. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٨٨)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٣٢٨).

(٢) قال النووي: (واختلَفوا في جَلْدِ الثَّيِّبِ مع الرَّجمِ؛ فقالت طائِفةٌ: يجِبُ الجَمعُ بيْنهما، فيُجلَدُ ثمَّ يُرجَمُ. وبه قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه، والحَسَنُ البَصريُّ، وإسحاقُ بنُ راهَوَيه، وداودُ، وأهلُ الظَّاهِرِ، وبَعضُ أصحابِ الشَّافعيِّ. وقال جماهيرُ العُلَماءِ: الواجِبُ الرَّجمُ وَحْدَه... وحُجَّةُ الجُمهورِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم اقتصَرَ على رَجمِ الثَّيِّبِ في أحاديثَ كثيرةٍ؛ منها: قِصَّةُ ماعِزٍ، وقِصَّةُ المرأةِ الغامِديَّةِ، وفي قَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «واغْدُ يا أُنَيسُ على امرأةِ هذا، فإنِ اعتَرَفَت فارجُمْها». قالوا: وحديثُ الجَمعِ بينَ الجَلْدِ والرَّجمِ مَنسوخٌ؛ فإنَّه كان في أوَّلِ الأمرِ). ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٨٩). ويُنظر: ((المحلى)) لابن حزم (١٢/ ١٧٣-١٧٨)، ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٣٥-٣٨).

(٣) رواه مسلم (١٦٩٠).

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا﴾، وكان الجَلْدُ مُوجِعًا، وكان المُباشِرُ له قد يَرِقُّ على المَجلودِ مِن وَجَعِه؛ نُهيَ المُسلِمون أنْ تأخُذَهم رَأفةٌ بالزَّانيةِ والزَّاني، فيَترُكوا الحدَّ أو يَنقُصوه أو يُخفِّفوه[١]؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا تَأخُذْكم -أيُّها المُؤمِنونَ- بالزَّانيةِ والزَّاني رِقَّةٌ في حُكمِ الله، تَمنعُكم مِن إقامةِ الحَدِّ عليهما على الوجهِ الذي أمَرَ به اللهُ تعالى[٢].

﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

أي: إنْ كُنتُم -أيُّها المؤمنون- تُؤمِنونَ حقًّا باللهِ وبالبَعثِ يومَ القِيامةِ للجَزاءِ على الأعمالِ، ثوابًا أو عِقابًا، فأقيموا الحَدَّ على الزَّانِيَينِ كما أمرَكَم اللهُ، ولا تَأخُذْكم بهما رأفةٌ في دِينِه[٣].

﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: ولْيَحضُرْ جَلْدَ الزَّانِيَينِ جماعةٌ[٤].....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٩، ١٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٠، ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥١).

(٤) قال الرازي: (اختلفوا في أقَلِّ الطَّائفةِ؛ على أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّه رجُلٌ واحِدٌ. وهو قَولُ النَّخَعيِّ، ومجاهِدٍ، واحتجَّا بقَولِه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩].

وثانيها: أنَّه اثنانِ. وهو قَولُ عِكرمةَ، وعَطاءٍ ... =

مِن المُؤمنِينَ، تَحُفُّ وتُحيطُ بهما[١].

= وثالثُها: أنَّه ثلاثةٌ. وهو قَولُ الزُّهْريِّ، وقتادةَ. قالوا: الطَّائفةُ هي الفِرقةُ التي يمكِنُ أن تكونَ حَلْقةً، كأنَّها الجماعةُ الحافَّةُ حوْلَ الشَّيءِ، وهذه الصُّورةُ أقَلُّ ما لا بُدَّ في حُصولِها هو الثَّلاثةُ.

ورابعُها: أنَّه أربعةٌ بعَدَدِ شُهودِ الزِّنا. وهو قَولُ ابنِ عبَّاسٍ، والشَّافعيِّ رَضِيَ الله عنهما.

وخامِسُها: أنَّه عَشَرةٌ. وهو قَولُ الحَسَنِ البَصريِّ؛ لأنَّ العَشَرةَ هي العَدَدُ الكامِلُ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣١٧). ويُنظر: ((الأم)) للشافعي (٦/ ١٦٧).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٩).

قال ابنُ جرير: (أَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ: قولُ مَن قال: أقلُّ ما ينبغي حضورُ ذلك مِن عَدَدِ المُسلِمينَ: الواحدُ فصاعدًا؛ وذلك أنَّ اللهَ عَمَّ بقَولِه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ﴾ [النور: ٢]، والطَّائِفةُ: قد تقعُ عند العَرَبِ على الواحِدِ فصاعدًا، فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكُن اللهُ -تعالى ذِكرُه- وضَع دَلالةً على أنَّ مُرادَه مِن ذلك خاصٌّ مِنَ العَدَدِ؛ كان معلومًا أنَّ حضورَ ما وقَع عليه أَدنى اسمِ الطَّائفةِ ذلك المحْضَرَ مُخرِجٌ مُقيمَ الحدِّ ممَّا أمَره اللهُ به بقَولِه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، غيرَ أنِّي -وإنْ كان الأمرُ على ما وَصفتُ- أَستحِبُّ ألَّا يُقصَّرَ بعدَدِ مَن يحضُرُ ذلك الموضعَ عن أربعةِ أنفُسٍ؛ عدَدِ مَن تُقبلُ شَهادتُه على الزِّنا؛ لأنَّ ذلك إذا كان كذلك فلا خِلافَ بيْن الجَمعِ أنَّه قد أدَّى المقيمُ الحدَّ ما عليه في ذلك، وهُم فيما دونَ ذلك مُختَلِفونَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٩).

وممَّن اختار القولَ الثانيَ وأنَّ المرادَ اثنانِ فصاعِدًا: مقاتلُ بن سليمان، والزَّجَّاج. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٨٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨).

وممَّن اختار القولَ الثالثَ وأنَّ المرادَ ثلاثةٌ فأكثَرُ: البيضاوي، وأبو حيان، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧).

قال ابنُ عطيةَ: (وقَولُه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المَقصَدُ بالآيةِ الإغلاظُ على الزُّناةِ، والتَّوبيخُ بحَضرةِ النَّاسِ، فلا خِلافَ أنَّ «الطَّائِفةَ» كُلَّما كَثُرَت فهو أليَقُ بامتِثالِ الأمرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٥، ١٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨، ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

قال الشنقيطي: (قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ أي: حدَّهما بلا نِزاعٍ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٦٤).

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾.

سَببُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رجلٌ يُقالُ له: مَرْثَدُ ابنُ أبي مرثدٍ، وكان رجلًا يَحمِلُ الأسرى من مكَّةَ حتى يأتيَ بهم المدينةَ. قال: وكانت امرأةٌ بَغِيٌّ بمكةَ يُقالُ لها: عَناقُ، وكانت صديقةً له، وإنَّه كان وعَدَ رجلًا مِن أُسارى مكَّةَ يَحمِلُه. قال: فجئتُ حتى انتهيتُ إلى ظلِّ حائطٍ مِن حوائطِ مكَّةَ في ليلةٍ مُقمِرةٍ. قال: فجاءت عَناقُ فأبصرَت سوادَ ظلِّي بجنبِ الحائطِ، فلمَّا انتهَت إليَّ عرَفَتْ[١]، فقالت: مرثدٌ؟! فقلتُ: مَرثدٌ، قالت: مرحبًا وأهلاً، هلُمَّ فبِتْ عندَنا الليلةَ، قلتُ: يا عَناقُ، حرَّم اللهُ الزِّنا! قالت: يا أهلَ الخيامِ، هذا الرجلُ يحمِلُ أُسَراءَكم[٢]، قال: فتَبِعني ثمانيةٌ وسلكتُ الخَندَمةَ[٣]، فانتهيتُ إلى كهفٍ أو غارٍ فدخلتُ، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فظلَّ بولُهم على رأسي، وأعماهم اللهُ عنِّي. قال: ثمَّ رجَعوا ورجعتُ إلى صاحبي فحمَلتُه، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهيتُ إلى الإذخِرِ[٤]، ففككتُ عنه كَبْلَه[٥]، فجعلتُ أحمِلُه ويُعْيِيني[٦] حتى قَدِمتُ المدينةَ، فأتيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم،

(١) عَرَفَتْ: أي: عَرَفَتْني. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ١٧).

(٢) أُسَراء: جمْعُ أسير، والمعنى: تنبَّهوا يا أهلَ الخيام وخُذوا هذا الرجلَ الذي يذهب بأُساراكم. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ١٧).

(٣) الخَندَمة: جبلٌ بمكَّةَ. يُنظر: ((معجم البلدان)) لياقوت (٢/ ٣٩٢).

(٤) المرادُ بالإذخِرِ هنا: مكانٌ خارج مكَّة، يَنبُتُ فيه الإذخرُ. ويَحتمِلُ أنْ يكون المرادُ بالإذخِرِ: أذاخرَ، وهو موضعٌ قُربَ مكَّة. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ١٧).

(٥) كَبْلَه: أي: قَيْدَه. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ١٧).

(٦) ويعييني: أي: يُتعِبُني ويُجهِدُني. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ١٧).

فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أنكِحُ عناقَ -مرتين-؟ فأمسك رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يرُدَّ عليَّ شيئًا، حتَّى نزلت: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ﴾، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا مَرْثَدُ، الزَّاني لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ؛ فلا تَنْكِحْها))[(١)].

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان في الحكمِ المذكورِ في الآيةِ السابقةِ مِن الغلظةِ على الزَّاني لما ارتكب مِن الحرامِ المتصفِ بالعارِ ما يُفهِمُ مجانبتَه؛ صرَّح به[(٢)]، فقال تعالى:

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ﴾.

أي: الزَّاني لا يَنْكِحُ إلَّا زَانيةً مِثلَه أو مُشرِكةً باللهِ، والزَّانيةُ لا يَنْكِحُهَا إلا زانٍ مِثلُها أو مُشرِكٌ باللهِ[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥١)، والترمذي (٣١٧٧)، والنسائي (٣٢٢٨).
قال ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٢٦٠): (حسن صحيح جدًّا). وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٠٥١): (حسن صحيح).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٩، ٣٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣١٥ - ٣٢١)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٢٢ - ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).
قال الشنقيطي: (العُلماءُ اختَلَفوا في المرادِ بالنِّكاحِ في هذه الآيةِ؛ فقال جماعةٌ: المرادُ بالنِّكاحِ في هذه الآيةِ: الوَطءُ الذي هو نفْسُ الزِّنا. وقالت جماعةٌ أُخرى مِن أهلِ العِلمِ: إنَّ المرادَ بالنِّكاحِ في هذه الآيةِ هو عقدُ النِّكاحِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤١٧، ٤١٨). =

= ممن اختار أنَّ المرادَ بالنِّكاحِ هنا: عقدُ الزواجِ: الزجَّاجُ، وابن تيميَّة، وابن القيِّم، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١١٣-١١٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦٥-٦٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٢).

والمعنى على هذا القول: أنَّ مَن اتَّصف بالزِّنا، من رجُل أو امرأة، ولم يتُبْ من ذلك، أنَّ المُقدِمَ على الزواجِ به إمَّا أنْ يلتزمَ حُكمَ الله سُبحانَه ويعتقدَ وجوبَه عليه، أو لا؛ فإنْ لم يلتزِمْه ولم يعتقِدْه فهو مشركٌ، وإنِ التزمه واعتقَد وجوبه وخالفَه فهو زانٍ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابن عباس في راويةٍ عنه، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بن جُبير في روايةٍ عنه، وعطاء ابن أبي رباح، وقتادة، والزُّهري، والشعبي، والقاسم بن أبي بزة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٨٠).

قال الشنقيطي: (وهؤلاء الذين فسَّروا النكاحَ بالعقدِ انقسَموا قِسمينِ؛ منهم مَن قال: لا يجوزُ نكاحُ الزانيةِ بحالٍ ... ومنهم مَن ذهَب إلى جوازِ نكاحِها، وقالوا: إنَّ الآيةَ منسوخةٌ بقولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]...). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٣٧).

وممن اختار أنَّ معنى النِّكاحِ هنا: الوطءُ: ابنُ جرير، وابن عطيَّة، وابن جُزَيٍّ، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩).

والمعنى على هذا القَولِ: لا يقَعُ في الزِّنا إلَّا زانٍ عاصٍ أو مُشرِكٌ لا يعتَقِدُ حُرمتَه، ولا يُوافِقُه عليه مِنَ النِّساءِ إلَّا زانيةٌ عاصيةٌ أو مُشرِكةٌ لا تَعتَقِدُ حُرمتَه. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في رواية عنه، وعِكْرِمةُ، وسعيدُ بن جُبَيرٍ في رواية عنه، وعُرْوةُ بن الزُّبَير، والضَّحَّاك، ومكحولٌ، ومقاتل بن حيان، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩).

وذهب الشِّنقيطيُّ إلى أنَّ لفظَ النِّكاحِ مُشترَكٌ بين الوطءِ والتَّزويجِ، فيُحمَلُ النِّكاحُ في هذه الآيةِ على الوَطءِ وعلى التزويجِ معًا، ويكونُ ذِكرُ المُشرِكةِ والمُشرِكِ على تفسيرِ النِّكاحِ بالوَطءِ دونَ العَقدِ، فقال: (هذه الآيةُ الكريمةُ مِن أصعَبِ الآياتِ تحقيقًا؛ لأنَّ حمْلَ النِّكاحِ فيها على التَّزويجِ لا يُلائِمُ ذِكرَ المُشرِكةِ والمُشرِكِ، وحمْلَ النِّكاحِ فيها على الوَطءِ لا يُلائِمُ الأحاديثَ الواردةَ المتعلِّقةَ بالآيةِ؛ فإنها تُعيِّنُ أنَّ المرادَ بالنِّكاحِ في الآيةِ: التَّزويجُ، ولا أعلَمُ مَخرجًا واضِحًا =

عن أبي هُرَيرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا يَنكِحُ الزاني المجلودُ إلَّا مِثلَه))[1].

= من الإشكالِ في هذه الآية إلَّا مع بَعضِ تَعَسُّفٍ، وهو أنَّ أصحَّ الأقوالِ عند الأصوليِّين -كما حرَّره أبو العباسِ ابنُ تيميَّةَ في رسالتِه في عُلومِ القُرآنِ، وعزاه لأجلَّاءِ عُلَماءِ المذاهِبِ الأربعةِ: هو جوازُ حَملِ المُشتَرَكِ على مَعنَيَيه، أو معانيه... وإذا عَلِمْتَ ذلك فاعلَمْ أنَّ النِّكاحَ مُشتَرَكٌ بين الوَطءِ والتَّزويجِ...، وإذا جاز حَملُ المُشتَرَكِ على معنَيَيه فيُحمَلُ النِّكاحُ في الآيةِ على الوَطءِ، وعلى التَّزويجِ معًا، ويكونُ ذِكرُ المُشرِكةِ والمُشرِكِ على تَفسيرِ النِّكاحِ بالوَطءِ دونَ العَقدِ، وهذا هو نوعُ التعسُّفِ الذي أشَرْنا له، والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٢٥).

وقيل: المعنى: أنَّه في الأعمِّ الأغلَبِ أنَّ الفاسِقَ الخَبيثَ الذي من شأنِه الزِّنا لا يَرغَبُ في نكاحِ الصَّالحاتِ مِنَ النِّساءِ، وإنما يَرغَبُ في فاسقةٍ خبيثةٍ مِن شَكلِه، أو مُشركةٍ، والفاسِقةَ الخَبيثةَ المُسافِحةَ كذلك لا يَرغَبُ في نِكاحِها الصُّلَحاءُ مِن الرِّجالِ، وإنَّما يَرغَبُ فيها مَن هو مِن شَكلِها مِن الفَسَقةِ أو المُشرِكينَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجملة: القَفَّالُ -ونسَبه إليه الرازيُّ-، والزمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ مِن قَولِه: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً ...﴾ إلخ: مَن كان الزِّنا دأبًا له قبل الإسلامِ وتخلَّق به، ثمَّ أسلمَ وأراد تزوُّجَ امرأةٍ مُلازمةٍ للزِّنا مِثلِ البغايا ومُتَّخِذاتِ الأخدانِ، ولا يكُنَّ إلَّا غيرَ مُسلِماتٍ لا محالةَ؛ فنَهَى اللهُ المسلمين عن تزوُّجِ مِثلِها بقَولِه: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقدَّم له ما يُفيدُ تَشويهَه بأنَّه لا يُلائِمُ حالَ المسلِمِ، وإنَّما هو شأنُ أهلِ الزِّنا، أي: غيرِ المؤمِنينَ؛ لأنَّ المؤمِنَ لا يكونُ الزِّنا له دأبًا، ولو صدَر منه لكان على سبيلِ الفَلتةِ، كما وقَع لِماعزِ بنِ مالك؛ فقولُه: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ تمهيدٌ، وليس بتشريعٍ؛ لأنَّ الزَّانيَ -بمعنى مَن الزِّنا له عادةٌ- لا يكونُ مُؤمِنًا؛ فلا تُشرَعُ له أحكامُ الإسلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٥).

وقيل في معنى الآيةِ غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧).

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥٢) واللفظ له، وأحمد (٨٣٠٠).

صحَّحه ابنُ القطَّان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٤٨٩). وجوَّد إسنادَه محمد بن عبد الهادي =

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وحَرَّمَ اللهُ ذلك[(١)] على المُؤمنِينَ[(٢)].

= في ((تنقيح التعليق)) (٣/ ١٨٠)، وابنُ كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ١٤٩) وقوَّاه. ووثَّق رجالَه ابن حجر في ((بلوغ المرام)) (٢٩٦)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٠٥٢).

(١) قيل: الإشارةُ بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ترجعُ إلى تزوُّجِ المؤمنِ غيرِ الزَّاني بزانيةٍ، والعكس، وذلك بِناءً على أنَّ المرادَ بالنِّكاحِ في الآيةِ عقدُ الزَّواجِ.

قال ابن تيميَّة: (لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بعُقوبةِ الزَّانيَينِ حرَّمَ مُناكَحتَهما على المُؤمِنينَ؛ هَجْرًا لهما، ولِمَا معهما مِن الذُّنوبِ والسيِّئاتِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣١٥).

وقيل: الإشارةُ تَرجعُ إلى الزِّنا، أي: حُرِّم الزِّنا على المؤمنينَ، وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ بالنِّكاحِ في الآيةِ الوَطءُ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨).

قال الشنقيطي: (اعلَمْ أنَّ العلماءَ اختَلَفوا فِي جَوازِ نِكاحِ العفِيفِ الزَّانِيةَ، ونِكاحِ العفيفةِ الزَّانِيَ، فذَهَب جَماعَةٌ مِن أهلِ العلمِ؛ منهم الأئِمَّةُ الثَّلاثةُ إلى جوازِ نِكاحِ الزَّانِيةِ مع الكراهةِ التَّنْزيهيَّةِ عندَ مالِكٍ وأصحابِه، ومَن وافَقَهم). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤١٨). ويُنظر: ((البحر الرائق)) لابن نجيم (٣/ ١١٤)، ((شرح مختصر خليل)) للخرشي، (٣/ ١٧٢)، ((الحاوي الكبير)) للماوَرْدي (٩/ ١٨٩).

وقال الشوكاني: (وقيل: هو مكروهٌ فقطْ [أي: نكاح الزواني]، وعَبَّر بالتَّحريمِ عن كراهةِ التَّنزيهِ مُبالغةً في الزَّجْرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨).

وقال الشنقيطي: (وهنا قد يرِدُ سؤالٌ، وهو كيفَ سوَّغ هؤلاء الأئمةُ الأجِلَّاءُ للمسلمِ العفيفِ مقاربةَ الزانيةِ بالزَّواجِ منها، وهي زانيةٌ خبيثةٌ خسيسةٌ؟

والجوابُ: أنَّ هؤلاء الأئمةَ لم يُجيزوا له ذلك على أن يتركَها وشأنَها، وإنَّما جوَّزوا له ذلك معَ المحافظةِ عليها، والضربِ على يدِها وزجرِها، وإذا وقَع منها ما لا يَنبَغي مِن ارتكابِ الفاحشةِ، وهو لا يدري وقد عمِل ما يقدرُ عليه مِن الاحتياطاتِ التي تحولُ بينها وبينَ ذلك فلا حرجَ عليه، وتكونُ معَه على حدِّ قولِ القائلِ: اجْتَنِ الشِّمارَ، وألْقِ الخشبةَ في النارِ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٣٧). =

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- سُمِّيتْ سُورةُ النورِ بهذا الاسمِ؛ لقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: ٣٥]، وإذا تأمَّلتَ السُّورةَ وَجدتَ ذِكْرَ النورِ فيها، وأنَّ اللهَ نورُ السمواتِ والأرضِ، وقولَه: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]؛ تَبَيَّنَ لك أنَّ العِفَّةَ مِن أسبابِ نورِ القَلبِ، وأنَّ ضِدَّها -وهو الفُجورُ- مِن أسبابِ ظُلمةِ القَلبِ؛ ولذلك فإنَّ الزِّنا -سواءٌ كان بالعَينِ، أو بالرِّجلِ، أو باليَدِ، أو باللِّسانِ، أو بالفرْجِ- تأثيرُه على القَلبِ وعلى نُورِ القلبِ أعظَمُ مِن غيرِه، وتأثيرُ العِفَّةِ في نُورِ القلبِ أبلغُ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهَا﴾ بَيَّنَ تعالى أنَّه هو الذي أَنزلها، مُعَبِّرًا عن نفْسِه بصيغةِ الجَمعِ التي تدُلُّ على عَظَمتِه تعالى، وذلك يتضمَّنُ عَظَمةَ هذه السورةِ؛ ويدلُّ على وجوبِ امتِثالِ أوامرِها، وما فيها مِن حدودٍ وأحكامٍ وآدابٍ[(٢)].

٣- قال الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ...﴾ تأمَّلْ هذا السِّرَّ العظيمَ مِن أسرارِ التَّنزيلِ، وإعجازِ القُرآنِ الكريمِ، ذلك أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لَمَّا ذكَرَ في فاتحةِ سُورةِ النور شناعةَ جَريمةِ الزِّنا، وتحريمَه تحريمًا

= وقال ابن تيميَّة: (والذين لم يَعملوا بهذه الآيةِ ذكَروا لها تأويلًا ونَسخًا؛ أمَّا التأويلُ فقالوا: المرادُ بالنِّكاحِ الوَطءُ... وأمَّا النَّسخُ فقال سعيدُ بنُ المسيِّبِ وطائفةٌ: نسَخَها قَولُه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ [النور: ٣٢]). وبيَّن ضَعفَ هذا القولِ. يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ١٧٨).

وذهب الحنابلةُ إلى أنَّه يَحرُمُ الزواجُ بالزانيةِ حتى تَتوبَ. يُنظر: ((المبدع في شرح المقنع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٦/ ١٣٨)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٢/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٢).

غائيًّا؛ ذكَرَ سُبحانَه مِن فاتحتِها إلى تمامِ ثلاثٍ وثلاثينَ آيةً أربَعَ عَشْرةَ وسيلةً وقائيَّةً، تحجُبُ هذه الفاحِشةَ، وتقاوِمُ وقوعَها في مجتَمَعِ الطُّهرِ والعَفافِ؛ جماعةِ المسلمينَ، وهي:

الأولى: تطهيرُ الزُّناةِ والزَّواني بالعُقوبةِ الحَدِّيَّةِ.

الثانية: التطهُّرُ باجتنابِ نِكاحِ الزانيةِ وإنكاحِ الزَّواني، إلَّا بعد التَّوبةِ ومَعرفةِ الصِّدقِ فيها.

الثالثة: تطهيرُ الألسنةِ عن رميِ النَّاسِ بفاحشةِ الزِّنا، ومَن قال ولا بيِّنةَ فيُحَدُّ حَدَّ القَذفِ.

الرابعة: تطهيرُ لسانِ الزَّوجِ عن رَميِ زَوجتِه بالزِّنا ولا بَيِّنةَ، وإلَّا فاللِّعانُ.

الخامسة: تطهيرُ النُّفوسِ وحَجبُ القلوبِ عن ظَنِّ السُّوءِ بمُسلمٍ بفعلِ الفاحِشةِ.

السادسة: تطهيرُ الإرادةِ وحَجبُها عن محبَّةِ إشاعةِ الفاحِشةِ في المسلمينَ.

السابعة: الوِقايةُ العامَّةُ بتطهيرِ النَّفْسِ مِن الوساوِسِ والخَطَراتِ التي هي أُولى خُطواتِ الشَّيطانِ في نُفوسِ المؤمِنينَ؛ لِيُوقِعَهم في الفاحشةِ، وهذا غايةٌ في الوقايةِ مِن الفاحِشةِ.

الثامنة: مشروعيَّةُ الاستِئذانِ عندَ إرادةِ دُخولِ البَيتِ؛ حتى لا يقَعَ النَّظَرُ على العَوْراتِ.

التاسعة والعاشرة: تطهيرُ العَينِ مِن النَّظَرِ المحَرَّمِ إلى المرأةِ الأجنبيَّةِ، أو منها إلى الرجُلِ الأجنبيِّ عنها.

الحاديةَ عشرةَ: تحريمُ إبداءِ المرأةِ زينتَها للأجانِبِ عنها.

الثانيةَ عشرةَ: مَنعُ ما يُحَرِّك الرَّجُلَ ويُثيرُه، كضَربِ المرأةِ برِجْلِها؛ لِيُسمَعَ صَوتُ خَلخالِها، فيَجلِبَ ذَوي النُّفوسِ المريضةِ إليها.

الثالثةَ عشرةَ والرابعةَ عشرةَ: الأمرُ بالاستعفافِ لِمَن لا يجِدُ ما يستطيعُ به الزَّواجَ، وفعلِ الأسبابِ(١).

٤- ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ قد نهانا اللهُ عزَّ وجلَّ أن تأخذَنا بالزُّناةِ رأفةٌ، بل نُقيم عليهم الحدَّ؛ فكيف بما هو دون ذلك من هَجرٍ وأدبٍ باطنٍ، ونهيٍ وتوبيخٍ وغيرِ ذلك؟! وبهذا يتبيَّنُ لك أنَّ العقوباتِ الشرعيَّةَ كلّها أدويةٌ نافعةٌ يُصلِحُ اللهُ بها مرَضَ القلوبِ، وهي مِن رحمةِ اللهِ بعِبادِه، ورأفتِه بهمُ الدَّاخِلةِ في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؛ فمَن ترَك هذه الرحمةَ النافعةَ لرأفةٍ يَجِدُها بالمريضِ، فهو الذي أعان على عذابِه وهلاكِه، وإنْ كان لا يُريدُ إلا الخيرَ؛ إذ هو في ذلك جاهلٌ أحمقُ، كما يَفعلُه بعضُ النساءِ والرجالِ الجُهَّالِ بمرضاهم وبمَن يُرَبُّونه مِن أولادِهم وغِلمانِهم وغيرِهم، في ترْكِ تأديبِهم وعُقوبتِهم على ما يأتونه مِن الشرِّ، ويتركونَه مِن الخيرِ؛ رأفةً بهم؛ فيكونُ ذلك سببَ فَسادِهم وعداوتِهم وهلاكِهم. ومِن الناسِ مَن تأخذُه الرأفةُ بهم؛ لمشاركتِه لهم في ذلك المرضِ، وذَوقِه ما ذاقوه مِن قوَّةِ الشهوةِ وبُرودةِ القلبِ والدِّياثةِ؛ فيتركُ ما أمَر اللهُ به مِن العقوبةِ، وهو في ذلك مِن أظلَمِ الناس وأديَثِهم في حقِّ نفْسِه ونُظرائِه. ومنهم مَن تأخذُه الرأفةُ؛ لكونِ أحدِ الزانيَينِ مَحبوبًا له، فمَن لم يكن مُبغِضًا للفواحشِ، كارهًا لها ولأهلِها، ولا يَغضبُ عندَ رُؤيتِها وسماعِها؛ لم يكُنْ مريدًا للعقوبةِ عليها، إنَّ الرأفةَ والرحمةَ يُحِبُّهما اللهُ ما لم تكُنْ مضيعةً لدِينِ اللهِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((حراسة الفضيلة)) لبكر أبو زيد (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨٧ - ٢٩١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه أنَّ الزِّنا حرامٌ، وهو مِن الكَبائرِ، ويدُلُّ عليه أنَّ اللهَ تعالى أوجبَ المئةَ فيها بكَمالِها، بخِلافِ حَدِّ القذفِ وشُربِ الخَمرِ، وشرَع فيه الرَّجْمَ، ونهَى المؤمنينَ عن الرَّأفةِ بِمَن ارتَكبَ هذِه الفاحشةَ، وأمَرَ بشهودِ الطائفةِ للتَّشهيرِ[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ﴾ فيه أنَّ المؤمِنَ الصالِحَ لا يَتزوَّجُ الزانيةَ؛ ذلك لأنَّ الدُّربةَ على الزِّنا يَتكوَّنُ بها خُلُقٌ يُناسِبُ أحوالَ الزُّناةِ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ؛ فلا يَرغَبُ في مُعاشرةِ الزانيةِ إلَّا مَن تَرُوقُه أخلاقُ أمثالِها[٢].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لَمَّا أمَرَ الله تعالى بعُقوبةِ الزَّانيينِ حَرَّم مُناكحتَهما على المُؤمنِينَ؛ هَجرًا لهما، ولِمَا معهما مِن الذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدثر: ٥]، وجعَل مُجالِسَ فاعِلِ ذلك المُنكَرِ مِثلَه بقولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٠]، وهو زَوجٌ له، وقد قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: ٢٢]، أي: عُشراءَهم وقُرناءَهم، وأشباهَهم ونُظراءَهم؛ ولهذا يُقال: المُستمِعُ شريكُ المُغتابِ، فإذا كانَ هذا في المجالسةِ والعِشْرةِ العارضةِ حينَ فِعلِهم للمنكَرِ يَكونُ مُجالِسُهم مِثْلًا لهم، فكيفَ بالعِشرةِ الدَّائمةِ[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣١٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يُستدَلُّ به لِمَا يُصدِّرُ به المؤلِّفون أمامَ كُتبَهم، والشُّروعِ في مَقاصدِهم مِن الخُطبِ والدِّيباجاتِ[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فيها حُجَجٌ وتوحيدٌ، وفيها دلائِلُ الأحكامِ، والكُلُّ آياتٌ بَيِّناتٌ: حُجَجُ العُقولِ تُرشِدُ إلى مسائِلِ التَّوحيدِ، ودلائِلُ الأحكامِ تُرشِدُ إلى وجهِ الحَقِّ، وترفَعُ غُمَّةَ الجَهلِ، وهذا هو شَرفُ السورةِ، وهو أقَلُّ ما وقع التحَدِّي به في سَبيلِ المُعجِزةِ؛ فيكونُ شَرفًا للنبيِّ في الوِلايةِ، وشَرفًا لنا في الهدايةِ[2].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ ذَكَر اللهُ سُبحانَه وتعالَى الذَّكَرَ والأُنثَى، و(الزاني) كان يَكفي منهما؛ فقيل: ذَكَرَهما للتأكيدِ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ ذَكَرَهما هنا لئلَّا يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ الرجُلَ لَمَّا كان هو الواطئَ، والمرأةُ محلٌّ، ليستْ بواطئةٍ، فلا يجبُ عليها حَدٌّ[3].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ فيه ردٌّ على مَن قال: إنَّ العبدَ إذا زنَى بحُرَّةٍ يُرجَمُ، أو أَمَةٍ يُجلَدُ، وعلى مَن قال: لا تُحَدُّ العاقلةُ إذا زنَى بها مجنونٌ، أو الكبيرةُ إذا زنَى بها صبيٌّ، أو عكسُه لا يُحَدُّ، وعلى مَن قال: لا حدَّ على الزاني بحَربيَّةٍ أو مُسلِمةٍ في بلادِ الحَرْبِ، أو في عَسْكرِ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦٠).

أهلِ البغيِ، أو بنَصرانيَّةٍ مُطلقًا، أو بأَمَةِ امرأتِه، أو مَحْرَمٍ، أو مَن استَدخلَتْ ذَكَرَ نائمٍ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ فيه وجوبُ الجلدِ على الزَّاني والزَّانيةِ، وأنَّه مِئةُ جَلدةٍ، أي: في البِكرِ كما بيَّنَتْه السُّنَّةُ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّه ليس أحدُهما بأَولَى بالعُقوبةِ مِنَ الآخَرِ[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لا يُكتَفَى بالضربِ بها مَجموعةً ضربةً واحدةً، صحيحًا كان أو مريضًا[٤]؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾، والذي يَضرِبُ بها مَجموعةً ضربةً واحدةً لم يجلِدْ مئةَ جلدةٍ، إنَّما جلَد جَلدةً[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ حَدَّ الجَلْدِ هذا يُقامُ عَلانيةً غيرَ سِرٍّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وتقدَّم الكلامُ عن حديثِ عبادةَ بنِ الصَّامتِ في الجمعِ بينَ الجلدِ والرَّجمِ للثيِّبِ (ص: ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٦، ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٨).

وذهَب الجمهورُ مِن الحنفيَّةِ والشافعيَّةِ والحنابلةِ إلى أنَّ المريضَ مرضًا لا يُرجَى زوالُه يُضرَبُ بها مجموعةً، دَفعةً واحدةً، وذلك في الجملةِ. يُنظر: ((فتح القدير)) للكمال ابن الهمام (٥/ ٢٤٥)، ((مغني المحتاج)) للخطيب الشربيني (٤/ ١٥٤)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ٨٢).

(٥) يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٤٨)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٢٨).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٣٨٣).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أمَر تعالى أنْ يَحضُرَ عذابَ الزانيَينِ جماعةٌ مِن المُؤمنِينَ؛ ليشتهرَ ويَحصُلَ بذلك الخزيُ، وليُشاهِدوا الحدَّ فِعلًا؛ فإنَّ مُشاهدَةَ أحكامِ الشرعِ بالفِعلِ ممَّا يَقْوَى بها العِلمُ، ويستقرُّ به الفَهمُ، ويكونُ أقربَ لإصابةِ الصوابِ؛ فلا يُزادُ فيه ولا يُنقَصُ[١]. وأيضًا فإنَّه أمَر بذلك؛ تحقيقًا لإقامةِ الحدِّ، وحذرًا مِن التساهُلِ فيه؛ فإنَّ الإخفاءَ ذريعةٌ للإنساءِ، فإذا لم يَشْهَدْه المؤمنون فقد يَتساءلون عن عدمِ إقامتِه، فإذا تبيَّنَ لهم إهمالُه فلا يُعدَمُ بيْنهم مَن يقومُ بتغيير المنكَرِ مِن تعطيلِ الحُدودِ.

وفيه فائدةٌ أخرى، وهي أنَّ مِن مقاصدِ الحدودِ مع عُقوبةِ الجاني: أنْ يَرتدِعَ غيرُه، وبحُضورِ طائفةٍ مِن المؤمنين يتَّعظُ به الحاضرونُ ويَزدَجِرون، ويَشيعُ الحديثُ فيه بنَقْلِ الحاضِرِ إلى الغائِبِ[٢].

وفيه أيضًا تنكيلٌ للزَّانيَينِ إذا جُلِدا بحضرةِ النَّاسِ؛ فإنَّ ذلك يكونُ أبلغَ في زجرِهما، وأنجَعَ في رَدعِهما، فإنَّ في ذلك تقريعًا وتوبيخًا وفضيحةً إذا كان النَّاسُ حُضورًا[٣].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، قولُه تعالى: ﴿بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾ أي: لِينٌ، ولعلَّه عَبَّر بها إعلامًا بأنَّه لم يَنْهَ عن مُطلَقِ الرحمةِ؛ لأنَّ الرأفةَ أشدُّ الرحمةِ أو أرَقُّها، وتكونُ عن أسبابٍ مِن المرؤوفِ به، وكذا قولُه: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، أي: الذي شَرَعَه لكم المَلِكُ المحيطُ بصِفاتِ الكَمالِ؛ إشارةً إلى أنَّ الممنوعَ منه رحمةٌ تُؤدِّي إلى ترْكِ الحدِّ أو شيءٍ منه، أو التَّهاوُنِ به، أو الرِّضا عن

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨).

مُنتهِكِه، لا رِقَّةُ القلبِ المطبوعُ عليها البشرُ[١].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ فيه الحثُّ على إقامةِ الحدودِ، والنهيُ عن تَعطيلِها، وأنَّه لا يجوزُ العفوُ عنها للإمامِ ولا لغَيرِه، وفيه ردٌّ على مَن أجازَ للسيِّدِ العَفوَ[٢].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فيه أنَّ الإيمانَ مُوجِبٌ لانتفاءِ هذه الرأفةِ المانعةِ مِن إقامةِ أمْرِ اللهِ؛ فرحمتُه حَقيقةً بإقامةِ حدِّ اللهِ عليه[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ سؤالٌ: أنَّ الرَّأفةَ والرَّحمةَ مِن الانفعالاتِ التي لا يملكُ الإنسانُ ترْكَها، والأمرُ والنهيُ إنما يتوجَّهانِ إلى الأفعالِ الاختياريَّةِ، فكيف يُوَجَّهُ النَّهيُ هنا عمَّا ليس هو مِن الأفعالِ الاختياريَّةِ؟

الجوابُ: أنَّ النهيَ مُتَوَجِّهٌ إلى أن تَحْمِلَ الرأفةُ بهما على المحاباةِ في ترْكِ الحَدِّ، أو تخفيفِه، أو نقصِ العددِ؛ فلا يُقامُ الحَدُّ كما يَنبغي[٤]، أمَّا رِقَّةُ القلبِ التي لا تَمنعُ مِن إقامةِ الحَدِّ كما يَنبغي، فلا يَتعلَّقُ بها النَّهيُ[٥].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ سؤالٌ: وهو أنَّ «إنْ» تُفيدُ الشكَّ، ومع ذلك تأتي في الكتابِ والسُّنَّةِ في الأمورِ المتحقِّقةِ الوقوعِ كما

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

(٤) والقاعدةُ: أنَّ مُتعلَّقَ الخِطابِ إذا كان مَقدورًا حُمِل عليه، وإنْ كان غيْرَ مَقدورٍ صُرِف الخِطابُ للأثرِ أو سَببِه. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٨٤-٧٨٧). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤٨، ٣٤٩) و(٤/ ١٨٦-١٨٨) و(٥/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٣٢، ٣٣).

هنا، وكما في قَولِه تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]؟

الجوابُ: قدِ اختلفَ الكوفيُّونَ والبصريُّونَ في الجوابِ عن ذلك؛ فالكوفيُّون يقولون: إنَّها في كلِّ المواضعِ للتَّعليلِ؛ فهي مُطَّرِدةٌ عندَهم بهذا المعنى.

وأمَّا البصريُّون فيقولون: إنْ جاءتْ مع فعْلِ المشيئةِ كما في قَولِه تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧]، فالشرطُ دَخَل على أمْرٍ مُحَقَّقٍ؛ وليس المرادُ منه الشكَّ، بلِ المرادُ تعليمُ الخلائقِ بألَّا يتحَدَّثوا عن المستقبلِ إلَّا بالمشيئةِ، وإنْ لم تكنْ مع فعْلِ المشيئةِ -كما في هذه الآيةِ التي نحنُ بصددِها: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ﴾- فهي شرطيَّةٌ لم يُجَأْ بها لتعليقِ الجزاءِ على الشرطِ، بل جِيءَ بها للتَّهييجِ والحثِّ على العملِ، وهذا أسلوبٌ معروفٌ، كما يقالُ: «إنْ كنتَ ابنَ الكرامِ فافعَلْ كذا»، وأنت لا تشكُّ في كونِه ابنَ الكرامِ؛ ولكنْ تَحُثُّه على العملِ[(١)].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا﴾ المرادُ بالعذابِ هنا: الجَلْدُ المنصوصُ عليه في قَولِه تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ الجَلْدَ يُسمَّى عذابًا[(٢)].

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فأخْبَر الله تعالى أنَّ الزَّانيَ لا يَنكحُ إلَّا زانيةً أو مشركةً، ثم قال تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ فعُلِمَ أنَّ الإيمانَ يَمنعُ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٣٣). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٣٤).

ذلك ويَزجُرُ؛ وأنَّ فاعلَه إمَّا مُشركٌ وإمَّا زانٍ؛ ليس مِن المؤمنين الذين يَمنعُهم إيمانُهم من ذلك؛ فإنَّ كمالَ الإيمانِ وحقيقتَه يمنعُ ذلك، فلا يَقَعُ إلَّا عندَ نوعِ ضَعفٍ في الإيمانِ، وفي الصَّحيحِ: ((لا يَزني الزَّاني حِين يَزني وهو مُؤمِنٌ))[١]، فسَلَبه حقيقةَ الإيمانِ الَّتي بها يستحِقُّ حُصولَ الثَّوابِ والنَّجاةِ مِن العقابِ؛ وإنْ كانَ معَه أصلُ الإيمانِ الَّذي يُفارِقُ به الكفَّارَ، ويَخرُجُ به مِن النَّارِ[٢].

١٧- إذا كان رَجُلٌ له جاريةٌ تَزني؛ فليس له أنْ يَطَأَها حتَّى تَحيضَ ويَستبرِئَها مِن الزِّنا؛ فإنَّ ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً﴾ عَقدًا ووطْئًا، ومتى وَطِئَها -مع كونِها زانيةً- كان دَيُّوثًا[٣].

١٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٌ﴾ أَسندَ النِّكاحَ في الموضِعَينِ إلى الرَّجُلِ؛ تنبيهًا إلى أنَّ النساءَ لا حَقَّ لهنَّ في مُباشَرةِ العَقدِ[٤]، وذلك بِناءً على أنَّ المرادَ بالنِّكاحِ هاهنا: العقدُ.

١٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه دليلٌ صريحٌ على تَحريمِ نِكاحِ الزانيةِ حتى تَتوبَ، وكذلك إنكاحُ الزاني حتَّى يتوبَ؛ فإنَّ مُقارَنةَ الزوجِ لزوجتِه، والزوجةِ لزَوجِها أشدُّ الاقتراناتِ والازدِواجاتِ، وقد قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: قُرناءَهم؛ فحرَّمَ اللهُ ذلك؛ لِمَا فيه مِن الشرِّ العظيمِ، ممَّا بعضُه كافٍ للتحريمِ[٥]، وذلك أنَّ الزانيةَ فيها إفسادُ فِراشِ الرَّجُلِ،

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣١٦)، (٢٠/ ١٢٤)، (٢٨/ ٧٢).
(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ١٠٢).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

وفي مُناكحتِها مُعاشرةُ الفاجرةِ دائمًا ومصاحبتُها، والله قدْ أمَرَ بهَجرِ السُّوءِ وأهلِه ما داموا عليه، وهذا المعنى موجودٌ في الزاني؛ فإنَّ الزانيَ إنْ لم يُفسِدْ فراشَ امرأتِه كان قَرينَ سُوءٍ لها، كما قال الشعبيُّ: (مَن زَوَّجَ كريمتَه من فاسقٍ فقدْ قطَعَ رَحِمَها)[1]، وهذا ممَّا يَدخُلُ به على المرأةِ ضَررٌ في دِينها ودُنياها؛ فنِكاحُ الزانيةِ أشدُّ مِن جِهةِ الفراشِ، ونِكاحُ الزاني أشدُّ من جِهةِ أنَّه السيِّدُ المالكُ الحاكمُ على المرأةِ؛ فتَبقَى المرأةُ الحُرَّةُ العفيفةُ في أَسْرِ الفاجرِ الزاني، الذي يُقصِّرُ في حُقوقِها، ويَتعدَّى عليها[2].

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على تحريمِ نِكاحِ الزَّواني والزُّناةِ على الأعفَّاءِ والعفائفِ، ويدُلُّ لذلك قولُه: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ﴾ [النساء: ٢٥]، وقولُه: ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤]، وقد جاءتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ بعُمومِها على خِلافِ ذلك؛ كقولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ [النور: ٣٢]، وقولِه: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٤]؟

والجواب عن هذا مُختَلَفٌ فيه اختلافًا مَبنيًّا على الاختلافِ في حُكمِ تَزوُّجِ العفيفِ للزَّانيةِ، أو العفيفةِ للزَّاني؛ فمَن يقولُ: هو حرامٌ، يقولُ: هذه الآيةُ مُخصِّصةٌ لعُمومِ: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾، وعُمومِ: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾، والذين يقولون بعَدمِ المنعِ -وهُم الأكثرُ- أجابوا بأجوبةٍ:

الأوَّل: أنَّها مَنسوخةٌ بقولِه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾.

الثَّاني: أنَّ النِّكاحَ في هذه الآيةِ الوطءُ؛ وعليه فالمرادُ بالآيةِ أنَّ الزَّانيَ لا يُطاوِعُه

(١) الأثر في: ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (٤/ ٣١٤)، ((شُعَب الإيمان)) للبيهقي (١١/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣١٦).

على فِعلِه ويُشارِكُه في مُرادِه إلَّا زانيةٌ مِثلُه، أو مُشرِكةٌ لا ترَى حُرمةَ الزِّنا.

الثَّالث: أنَّ هذا خاصٌّ؛ لأنَّه كان في نِسوةٍ بَغايا، كان الرَّجُلُ يتزوَّجُ إحداهُنَّ على أنْ تُنفِقَ عليه ممَّا كَسَبتْه مِن الزِّنا؛ لأنَّ ذلك هو سببُ نزولِ الآيةِ؛ فزَعَم بعضُهم أنَّها مُختَصَّةٌ بذلك السببِ؛ بدليلِ قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، وقولِه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾[1].

٢١- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لو زَوَّجَ الأبُ عَفيفةً بفاجِرٍ؛ فإنَّ النِّكاحَ فاسِدٌ[2].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إنَّما خَصَّهم بالذِّكْرِ؛ لأنَّهم هم المنتَفِعون بالأمرِ والنَّهيِ، والتَّحليلِ والتحريمِ؛ فلا دليلَ فيه لِمَن يقولُ: إنَّ الكفَّارَ ليسوا مخاطَبينَ بفروعِ الشَّريعةِ[3]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

- قَولُه: ﴿سُورَةٌ﴾ خبرُ مبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: هذه سُورةٌ، وإنَّما أُشيرَ إليها مع عَدمِ سَبْقِ ذِكْرِها؛ لأنَّها باعتِبارِ كَونِها في شرَفِ الذِّكرِ في حُكْمِ الحاضِرِ المُشاهَدِ[4].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص:١٦٧). وقال الشنقيطي عن الجوابِ الثالثِ: (وهذا أضعفُها).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٢/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥).

- قَولُه: ﴿أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ صِفاتٌ لـ﴿سُورَةٌ﴾، والمقصودُ مِن تلكَ الأوصافِ: التَّنْويهُ بهذه السُّورةِ؛ ليُقْبِلَ المُسلِمونَ على تَلقِّي ما فيها. وفي ذلكَ امتِنانٌ على الأُمَّةِ بتَحديدِ أحكامِ سِيرتِها في أحوالِها؛ ففي قولِه: ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾ تَنْويهٌ بالسُّورةِ بما يَدُلُّ عليه (أَنزَلْنا) مِنَ الإسنادِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ الدَّالِّ على العِنايةِ بها وتَشريفِها. والمَقصودُ مِن إسنادِ إنزالِها إلى اللهِ تعالى: تَنْويهٌ بها. وعَبَّرَ عن إنزالِها بصِيغَةِ المُضِيِّ -وإنَّما هو واقِعٌ في الحالِ- باعتِبارِ إرادةِ إنزالِها، فكأنَّه قيل: أَرَدْنا إنزالَها وإبلاغَها، فجَعَل ذلكَ الاعتِناءَ كالماضي؛ حِرصًا عليه. وهذا مِن استِعمالِ الفِعلِ في معنى إرادةِ وُقوعِه[1]. وقولُه: ﴿أَنزَلْنَٰهَا ...﴾ مع ما عُطِفَ عليه صِفاتٌ للسُّورةِ، مُؤكِّدةٌ لِما أفادَه التَّنكيرُ مِنَ الفَخامةِ مِن حيثُ الذَّاتُ بالفَخامةِ مِن حيثُ الصِّفاتُ[2].

- قَولُه: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾، أي: فَرَضْنا ما بُيِّن فيها، وإنَّما قال ذلكَ؛ لأنَّ أكثَرَ ما في هذه السُّورةِ مِن بابِ الأَحكامِ والحُدودِ[3]؛ فقولُه: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ بمَنزلةِ بَراعةِ الاستِهلالِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ ...﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ مِنَ الأحكامِ كالتَّفصيلِ[4].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ مِنَ الإيذانِ بغايةِ وِكادةِ الفَرْضيَّةِ ما لا يَخفَى[5].

- قَولُه: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ قُرِئَ بالتَّشديدِ هكذا ﴿وَفَرَّضْنَاهَا﴾؛ لِلمُبالَغةِ في الإيجابِ وتَوكيدِه، أو لأنَّ فيها فرائضَ شتَّى، أو لكثرةِ المفروضِ عليهم[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) =

- وقولُه: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ إنْ أُريدَ بها الآياتُ الَّتي نِيطَتْ بها الأَحكامُ المَفروضةُ، فتكريرُ (أَنْزَلْنَا) مع استِلزامِ إنزالِ السُّورةِ لإنزالِها؛ لإبرازِ كَمالِ العِنايةِ بشأْنِها. وإنْ أُريدَ جَميعُ الآياتِ، فتكريرُ (أَنْزَلْنَا) مع أنَّ جميعَ الآياتِ عَيْنُ السُّورةِ، وإنزالَها عَيْنُ إنزالِها؛ لاستِقلالِها بعُنوانٍ رائقٍ داعٍ إلى تَخصيصِ إنزالِها بالذِّكرِ؛ إبانةً لخَطَرِها، ورَفعًا لمَحلِّها[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ تَنْويهٌ آخَرُ بهذه السُّورةِ؛ تَنويهٌ بكلِّ آيةٍ اشتَملَتْ عليها السُّورةُ: مِنَ الهَدْيِ إلى التَّوحيدِ، وحَقِّيَّةِ الإسلامِ، ومِن حُجَجٍ وتَمثيلٍ، وما في دَلائلِ صُنعِ اللهِ على سَعةِ قُدرتِه وعِلْمِه وحِكْمتِه، وهي ما أشارَ إليه قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]، وقولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ إلى قولِه: ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٣ - ٤٦]. ومِنَ الآياتِ البَيِّناتِ الَّتي أُنزِلَتْ فيها: إطْلاعُ اللهِ رسولَه على دَخائِلِ المُنافِقينَ ممَّا كَتَموه في نُفوسِهِم، مِن قولِه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٤٨- ٥٣]؛ فحَصَل التَّنويهُ بمَجموعِ السُّورةِ ابتِداءً، والتَّنويهُ بكلِّ جُزءٍ منها ثانيًا؛ فالمرادُ مِنَ الآياتِ المُنزَّلةِ في هذه السُّورةِ: جَميعُ ما اشتَملَتْ عليه مِنَ الآياتِ، لا آياتٌ مَخصوصةٌ مِن بَيْنِها. والمَقصودُ: التَّنويهُ بآياتِها، بإجراءِ وَصْفِ (بَيِّناتٍ) عليها[2].

- قَولُه: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فيه إيذانٌ بأنَّ حَقَّها أنْ تَكونَ على ذُكْرٍ منهُم، بحيثُ

= (٨/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥)

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٣، ١٤٤).

متى مَسَّتِ الحاجةُ إليها استَحضَرُوها[١].

- وجُملةُ: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مُرتبِطةٌ بجُملةِ: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾؛ لأنَّ الآياتِ بهذا المعنى مَظِنَّةُ التَّذكُّرِ، أي: دلائِلُ، مَظِنَّةٌ لحُصولِ تَذكُّرِكُم؛ فحَصَلَ بهذا الرَّجاءِ وَصْفٌ آخَرُ للسُّورةِ، هو: أنَّها مَبعَثُ تَذكُّرٍ وعِظَةٍ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ابتِداءُ كلامٍ، وهو كالعُنوانِ والتَّرجمةِ في التَّبويبِ؛ فلذلكَ أُتِيَ بَعدَه بالفاءِ المُؤْذِنةِ بأنَّ ما بَعدَها في قُوَّةِ الجوابِ، وأنَّ ما قَبْلَها في قُوَّةِ الشَّرطِ؛ فالتَّقديرُ: الزَّانيةُ والزَّاني ممَّا أُنزِلَتْ له هذه السُّورةُ وفُرِضَتْ. ولَمَّا كان هذا يَستَدعي استِشرافَ السَّامعِ، كان الكلامُ في قُوَّةِ: إنْ أرَدْتُم حُكْمَهما فاجْلِدوا كلَّ واحدٍ منهُما مئةَ جَلْدةٍ[٣]. وإنَّما بُدِئَ بالزِّنا، مع أنَّ السُّورةَ تَضمَّنَتْ أحكامًا كثيرةً فيما يَتعلَّقُ بالزِّنا ونِكاحِ الزَّواني، وقَذْفِ المُحْصَناتِ، والتَّلاعُنِ، والحِجابِ، وغَيرِ ذلكَ؛ لقُبحِ الزِّنا، وما يَحدُثُ عنه مِنَ المَفاسدِ والعارِ[٤].

- وقُدِّمَ ذِكْرُ الزَّانيةِ على الزَّاني للاهتِمامِ بالحُكمِ؛ لأنَّ المرأةَ هي الباعِثُ على زِنَا الرَّجُلِ، وبمُساعَفَتِها الرَّجُلَ يَحصُلُ الزِّنا، ولو مَنَعَتِ المرأةُ نفْسَها ما وَجَد الرَّجُلُ إلى الزِّنا تَمكينًا؛ فتَقديمُ المرأةِ في الذِّكْرِ لأنَّه أشَدُّ في تَحذيرِها، ولأنَّها أصلُ الفِتنةِ بهَتْكِ ما أُمِرَتْ به مِن حِجابِ التَّستُّرِ والتَّصوُّنِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧).

والتَّحذُّرِ[١]. وقيل: قُدِّمَتْ لأنَّ زِناها أفحَشُ وأكثَرُ عارًا، وهو لأجلِ الحَبَلِ أضَرُّ؛ فقدَّمها لأنَّ أثَرَ الزِّنا يَبدُو عليها مِن الحَبَلِ وزَوالِ البَكارةِ، وحالُ النِّساءِ الحَجبَةُ والصِّيانةُ؛ فقَدَّمَ ذِكْرَهُنَّ تَغليظًا واهتمامًا[٢]. وقيل: قُدِّمتِ الزانيةُ في الآيةِ؛ لأنَّه في ذلك الزَّمانِ كان زِنَا النساءِ فاشيًا، وكان لإماءِ العربِ وبغايا الوقتِ راياتٌ، وكُنَّ مُجاهِراتٍ بذلك[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ جاءَ قولُه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ الآيةَ، فقُدِّمَتِ المرأةُ في آيةِ حَدِّ الزِّنا، وأُخِّرَتْ في آيةِ حدِّ السَّرِقةِ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]؛ أمَّا وجهُ تقديمِ المرأةِ في آيةِ حَدِّ الزِّنا فقد سبَق، وأمَّا وجهُ تقديمِ الرجُلِ في آيةِ حدِّ السَّرِقةِ فلأنَّ السَّرِقةَ إنَّما تَتولَّدُ مِنَ الجَسارةِ والقُوَّةِ والجُرأةِ، وهي مِنَ الرَّجُلِ أَقوى وأَكثَرُ[٤].

- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾ سؤالٌ: ما الموجِبُ لدخولِ الفاءِ في قَولِه تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾؟

والجوابُ: ما ذَكَرَه بعضُ العلماءِ مِن أنَّ الموصولَ إذا تضمَّنَ معنى الشرطِ دخلتِ الفاءُ في خبرِه، و(أل) في: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ موصولةٌ مضمَّنةٌ الشَّرطَ؛ لأنَّها دخلَتْ على صفةٍ صريحةٍ، والمعنى: إذا زنَيا فاجلِدوهما[٥].

- قَولُه: ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾ في لَفظِ الجَلْدِ إشارةٌ إلى أنَّه لا يَنبَغي أنْ يَتجاوَزَ الألَمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٥، ٢٦).

إلى اللَّحمِ؛ لأنَّ الجَلْدَ ضَرْبُ الجِلْدِ، أي: لا يَكونُ الضَّربُ يُطيِّرُ الجِلْدَ حتَّى يَظهَرَ اللَّحمُ؛ فاختيارُ هذا اللَّفظِ دُون الضَّربِ مَقصودٌ به الإشارةُ إلى هذا المعنى على طَريقةِ الإدماجِ(١).

- قَولُه: ﴿كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ تأكيدٌ للعُمومِ المُستفادِ مِنَ التَّعريفِ في ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾؛ فلمْ يَكتَفِ بأنْ يُقالَ: فاجلِدوهُما، كما قال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾(٢) [المائدة: ٣٨]، ولئلاَّ يُتَوهَّمَ أنَّ المئةَ بيْنَهما مُناصَفةً.

- وفي قولِه: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ قُدِّمَ المَجرورُ ﴿بِهِمَا﴾ على عامِلِه ﴿رَأْفَةٌ﴾؛ للاهتِمامِ بذِكْرِ الزَّاني والزَّانيةِ؛ تَنبيهًا على الاعتِناءِ بإقامةِ الحدِّ. والنَّهيُ عن أنْ تأخُذَهم رَأفةٌ: كِنايةٌ عنِ النَّهيِ عن أثَرِ ذلكَ، وهو تَرْكُ الحدِّ أو نَقْصُه أو تخفيفُه(٣).

- وعُلِّقَ بالرَّأفةِ قولُه: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ أنَّها رَأفةٌ غيرُ مَحمودةٍ؛ لأنَّها

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٧).

والإدماجُ لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٦، ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٥٠).

تُعطِّلُ دِينَ اللهِ، أي: أحكامَه، وإنَّما شَرَعَ اللهُ الحدَّ استِصلاحًا؛ فكانتِ الرَّأفةُ في إقامتِه فَسادًا. وفيه تَعريضٌ بأنَّ اللهَ الَّذي شَرَعَ الحدَّ هو أرأفُ بعِبادِه مِن بعضِهم ببَعضٍ[١].

وقيل: سرُّ تقييدِ النَّهيِ عنِ الرأفةِ بقولِه تعالى: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، هو أنَّ الرِّقَّةَ إذا منَعَتْ مِن إقامةِ الحَدِّ فهي واقعةٌ في دينِ اللهِ، ودينُ اللهِ هو الإسلامُ، ويدخلُ فيه الأوامِرُ والنَّواهي والحدودُ، وغيرُ ذلك ممَّا يَشملُه الدِّينُ[٢].

- وجُملةُ: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ شَرْطٌ مَحذوفُ الجوابِ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَه عليه، أي: إنْ كنتُم مُؤمِنينَ فلا تأخُذْكُم بهِما رَأفةٌ، أي: لا تؤَثِّرْ فيكُم رَأفةٌ بهِما. والمقصودُ: شِدَّةُ التَّحذيرِ مِن أنْ يَتأثَّروا بالرَّأفةِ بهِما، بحيثُ يُفرَضُ أنَّهم لا يُؤْمِنونَ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ مِن بابِ التَّلهيبِ والتَّهييجِ والغضبِ للهِ، حتَّى يقولَ السَّامعُ: كيف لا أُومِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ؟! فإنَّ الإيمانَ بهما يَقتضِي الجِدَّ في طاعتِه تعالى، والاجتهادَ في إجراءِ أحكامِه، وذُكِرَ اليومُ الآخِرُ؛ لتَذكيرِ ما فيه مِن العِقابِ في مُقابلةِ المُسامحةِ والتَّعطيلِ[٤].

- وعَطْفُ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ على الإيمانِ باللهِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ للتَّذكيرِ بأنَّ الرَّأفةَ بهِما في تَعطيلِ الحدِّ أو نَقْصِه نِسيانٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٠، ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٣٢، ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٦١، ٥٦٢).

لليومِ الآخِرِ؛ فإنَّ تلكَ الرَّأفةَ تُفْضِي بهما إلى أنْ يُؤخَذَ منهما العِقابُ يومَ القيامةِ؛ فهي رَأفةٌ ضارَّةٌ، كرَأفةِ تَرْكِ الدَّواءِ للمَريضِ؛ فإنَّ الحُدودَ جَوابرُ على ما تُؤْذِنُ به أدِلَّةُ الشَّريعةِ(١).

- قَولُه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سَمَّى الجَلدَ عذابًا؛ إذْ فيه إيلامٌ وافتِضاحٌ، وهو عُقوبةٌ على ذلك الفِعلِ(٢). وقولُه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ زِيادةٌ في التَّنكيلِ؛ فإنَّ التَّفضيحَ قد يُنكِّلُ أكثرَ ممَّا يُنكِّلُ التَّعذيبُ(٣). واختِصاصُه المُؤمِنينَ؛ لأنَّ ذلك أفضَحُ، والفاسقُ بيْنَ صُلَحاءِ قَومِه أخجَلُ(٤).

٣- قَولُه تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مَوقِعُ هذه الآيةِ مَوقِعُ المَقصودِ مِنَ الكلامِ بَعدَ المُقدِّمةِ؛ ولذلك جاءَتْ مُستأنَفةً كما تَقَعُ النَّتائجُ بَعدَ أدِلَّتِها، وقُدِّمَ قَبْلَها حُكْمُ عُقوبةِ الزِّنا؛ لإفادةِ حُكْمِه وما يَقتَضيه ذلك مِن تَشنيعِ فِعْلِه(٥).

- وقولُه: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ حُكْمٌ مُؤَسَّسٌ على الغالبِ المُعتادِ؛ جِيءَ به لزَجْرِ المُؤمِنينَ عن نِكاحِ الزَّواني -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-، بَعدَ زَجْرِهم عنِ الزِّنا بهنَّ، كأنَّه قيلَ: الزَّاني لا يَرغَبُ إلَّا في نِكاحِ إحداهما، والزَّانيةُ لا يَرغَبُ في نِكاحِها إلَّا أحدُهُما، فلا تَحومُوا حَولَه؛ كيْ لا تَنتَظِموا في سِلْكِهما، أو تَتَّسِموا بسِمَتِهما؛ فإيرادُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٦).

الجُملةِ الأُولى مع أنَّ مَناطَ التَّنفيرِ هي الثَّانيةُ؛ إمَّا للتَّعريضِ بقَصْرِهم الرَّغبةَ عليهِنَّ، أو لتأكيدِ العَلاقةِ بيْن الجانِبَينِ؛ مُبالَغةً في الزَّجرِ والتَّنفيرِ. وعَدَمُ التَّعرُّضِ في الجُملةِ الثَّانيةِ للمُشرِكةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مَناطَ الزَّجرِ والتَّنفيرِ هو الزِّنا لا مُجرَّدُ الإشراكِ، وإنَّما تُعرِّضَ لها في الأُولى؛ إشباعًا في التَّنفيرِ عنِ الزَّانيةِ بنَظْمِها في سِلْكِ المُشركةِ[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قُدِّمَتِ الزَّانيةُ على الزَّاني أوَّلًا، ثمَّ قُدِّمَ عليها ثانيًا؛ وذلك لأنَّ تلك الآيةَ سِيقَتْ لعُقوبَتِهما على ما جَنَيا، والمرأةُ هي المادَّةُ الَّتي منها نَشأتِ الجِنايةُ؛ لأنَّها لو لمْ تُطْمِعِ الرَّجُلَ، ولمْ تُومِضْ له، ولمْ تُمكِّنْه: لمْ يَطمَعْ ولمْ يَتمكَّنْ؛ فلمَّا كانتْ أصْلًا وأوَّلًا في ذلك بدَأَ بذِكْرِها، وأمَّا الثَّانيةُ فمَسوقةٌ لذِكْرِ النِّكاحِ، والرَّجُلُ أصْلٌ فيه؛ لأنَّه هو الرَّاغِبُ والخاطِبُ، ومنه يَبدأُ الطَّلبُ[٢]. وقيل: لأنَّ سبَبَ نُزولِ هذه الآيةِ كان رَغبةَ رَجُلٍ في تَزوُّجِ امرأةٍ تَعوَّدَتِ الزِّنا؛ فكان المَقامُ مُقتَضيًا الاهتِمامَ بما يَترتَّبُ على هذا السُّؤالِ مِن مَذمَّةِ الرَّجُلِ الَّذي يَتزوَّجُ مِثْلَ تلك المرأةِ[٣].

- وعَطْفُ قولِه: ﴿أَوْ مُشْرِكَةً﴾ على ﴿زَانِيَةً﴾، وقولِه: ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ على ﴿إِلَّا زَانٍ﴾؛ لزِيادةِ التَّفظيعِ[٤].

- وجُملةُ: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تكميلٌ للمَقصودِ مِنَ الجُملتينِ قَبْلَها،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦، ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٢، ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٣، ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٥٦).

وهو تَصريحٌ بما أُريدَ مِن تَفظيعِ نِكاحِ الزَّانيةِ، ببَيانِ الحُكْمِ الشَّرعيِّ في القَضيَّةِ، وعُطِفَتِ الجُملةُ؛ لأنَّها أفادَتْ تَكميلًا لِما قبلَها، وشأْنُ التَّكميلِ أنْ يكونَ بطَريقِ العَطفِ[1].

- قَولُه: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا كان معنَى الآيةِ على الخَبرِ؛ فيَكونُ فيه التَّعبيرُ عنِ التَّنزيهِ بالتَّحريمِ؛ مُبالَغةً في الزَّجرِ، وإذا كان مَعناها النَّهيَ؛ فقولُه: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مؤَكِّدٌ لمعنَى النَّهيِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٧).

الآيتان (٤-٥)

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَرۡمُونَ﴾: أي: يَشتُمون، ويَقْذِفون بالزِّنَا، وأصْلُ (رمي): نَبْذُ الشَّيءِ[1].

﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾: أي: ذواتَ الأزواجِ، والمُحْصَناتُ أيضًا: الحرائرُ وإنْ لم يكُنَّ مُتزوِّجاتٍ، والعفائفُ، وأصْلُ (حصن): الحِفْظُ والحِياطةُ والحِرْزُ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى تشريعًا آخَرَ يكفُلُ حمايةَ الأعراضِ، فيقولُ مبيِّنًا حدَّ القذفِ: والذين يَقذِفونَ المسلماتِ الحرائرَ المكلَّفاتِ العَفيفاتِ بالفاحشةِ دونَ أن يشهَدَ معهم أربعةُ شُهداءَ مِن الرجالِ العدولِ، فيُجلَدُ كلُّ واحدٍ منهم ثمانينَ جَلدةً، ولا تُقبَلُ لهم شهادةٌ أبدًا، وأولئك هم الخارِجونَ عن طاعةِ الله، إلَّا الذين تابوا ونَدِموا على ما فعَلوا، وأصلحوا أعمالَهم؛ فإنَّ اللهَ يغفِرُ ذنوبَهم ويرحَمُهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣، ١٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٥).

قال الرازي: (الإحصان... مأخوذٌ مِن منْعِ الفرْجِ، فإذا تزوَّجَتْ منعَتْه إلَّا مِن زَوجِها، وغيرُ المُتزوِّجةِ تَمنَعُه كلَّ أحدٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٢٣).

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نفَّرَ اللهُ تعالى مِن نكاحِ مَنِ اتَّصفَ بالزِّنا مِن رجُلٍ أو امرأةٍ- عطَفَ على ذلك تَحريمَ القذْفِ بما يُوجِبُ تَعظيمَ الرَّغبةِ في السَّترِ، وصِيانةِ الأعراضِ، وإخفاءِ الفواحشِ[١].

وأيضًا لَمَّا عظَّمَ اللهُ تعالى أمْرَ الزَّاني بوُجوبِ جَلْدِه، وكذا رَجْمُه إنْ كان مُحصَنًا، وأنَّه لا تَجوزُ مُقارَنتُه، ولا مُخالَطَتُه على وَجْهٍ لا يَسلَمُ فيه العبْدُ مِنَ الشَّرِّ- بيَّنَ تعالى تَعظيمَ الإقدامِ على الأعراضِ بالرَّمي بالزِّنا؛ فقال[٢]:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾.

أي: والَّذين يَقْذِفون[٣] المسلماتِ الحرائرَ المكلَّفاتِ العَفيفاتِ[٤] بالزِّنا، ولم

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

(٣) حكى الرازي الاتفاقَ على دُخولِ الكافرِ تحتَ عُمومِ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾، قال: (لأنَّ الاسمَ يتناولُه). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٢٣).

قال الشِّنقيطيُّ: (قولُه تعالى في هذه الآيةِ: ﴿يَرۡمُونَ﴾ معناهُ: يَقْذِفون المُحْصَناتِ بالزِّنا صريحًا، أو ما يَستلزِمُ الزِّنا؛ كنَفْيِ نسَبِ ولَدِ المُحْصَنةِ عن أبيهِ؛ لأنَّه إنْ كان مِن غَيرِ أبيه كان مِن زِنًا). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٢٨).

(٤) قال البِقَاعيُّ: (﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ جمْعُ مُحصَنةٍ، وهي هنا المُسلِمةُ، الحُرَّةُ، المُكلَّفةُ، العَفيفةُ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢١٤).

وقال الرازيُّ: (ظاهِرُ الآيةِ يَتناوَلُ جميعَ العفائفِ؛ سواءٌ كانت مُسلمةً أو كافرةً، وسواءٌ كانت حُرَّةً أو رقيقةً، إلَّا أنَّ الفُقهاءَ قالوا: شرائطُ الإحصانِ خمْسةٌ: الإسلامُ، والعقْلُ، والبُلوغُ، =

يُحضِروا أربعةً مِنَ الرِّجالِ العُدولِ؛ لِيَشْهدوا علَيهِنَّ أنَّهم رأَوْهُنَّ يَفعلْنَ الزِّنا؛ فاجلِدوا كلَّ واحدٍ منهم ثمانينَ جَلدةً؛ عُقوبةً لهم على القذفِ بلا بيِّنةٍ(١).

﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾.

أي: ولا تَقْبَلوا للقاذِفِينَ بعدَ جَلدِهم شَهادةً في بَقيَّةِ حياتِهم؛ عُقوبةً أُخرى لهم على مَعصيَتِهم(٢).

= والحُرِّيةُ، والعِفَّةُ مِن الزِّنا). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٢٣).

وهذه الشرائطُ الخمسةُ اتفقَتْ عليها المذاهبُ الفقهيَّةُ الأربعةُ، وخالَف الحنابلةُ في البلوغِ؛ فقالوا: لا يُشترَطُ في المَقذوفِ البلوغُ، بل أن يَكونَ مِثلُه يَطأُ أو يُوطأُ. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٧/ ٤٠)، ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (٨/ ٨٦)، ((نهاية المحتاج)) للرملي (٧/ ٤٣٧، ١٠٩)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ١٠٥).

وقال القرطبيُّ: (قذْفُ الرِّجالِ داخلٌ في حُكمِ الآيةِ بالمعنى، وإجماعِ الأُمَّةِ على ذلك... وحكى الزَّهراويُّ أنَّ المعنى: الأنفُسَ المُحْصناتِ؛ فهي بلَفْظِها تعُمُّ الرِّجالَ والنِّساءَ، ويدُلُّ على ذلك قولُه: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٤]). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٧٢). وممَّن حكى الإجماعَ أيضًا: ابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٦١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٥٣، ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩).

قال ابنُ عاشورٍ: (الشُّهداءُ الأربعةُ هم غيرُ القاذِفِ؛ لأنَّ معنى: ﴿يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ لا يتحقَّقُ فيما إذا كان القاذِفُ مِن جُملةِ الشُّهداءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٩).

قال الشنقيطيُّ: (يُشترَطُ في شُهودِ الزِّنا أنْ يكونوا ذُكورًا، ولا تصِحُّ فيه شَهادةُ النِّساءِ بحالٍ، ولا نعلَمُ أحدًا مِن أهلِ العلْمِ خالَفَ في ذلك، إلَّا شيئًا يُرْوى عن عطاءٍ وحمَّادٍ: أنَّه يُقبَلُ فيه ثلاثةُ رجالٍ وامرأتانِ. وقال ابنُ قُدامةَ في «المُغْني»: وهو شُذوذٌ لا يُعوَّلُ عليه). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٧٣). ويُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١). =

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

أي: وأُولئِكَ القاذِفونَ هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ[1].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾.

أي: إلَّا الَّذين نَدِموا على قَذْفِهم، وأقلَعوا عن مَعصيةِ القذفِ بعدَ وُقوعِهم فيها، وعَزَموا على عدَمِ العودةِ إليها[2]،.....

= قال ابنُ تيميَّةَ: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ فهذا نَصٌّ في أنَّ هؤلاء القَذَفةَ لا تُقبَلُ لهم شَهادةٌ أبدًا، واحدًا كانوا أو عَددًا؛ بلْ لفْظُ الآيةِ يَنتظِمُ العدَدَ على سَبيلِ الجمْعِ والبدَلِ؛ لأنَّ الآيةَ نزَلَت في أهْلِ الإفكِ باتِّفاقِ أهْلِ العلْمِ والحديثِ والفِقْهِ والتَّفسيرِ، وكان الَّذين قَذَفوا عائشةَ عددًا، ولم يَكونوا واحدًا). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٥٣، ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٨/ ٥٠٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

(٢) قال ابن عطية: (تضَمَّنَت الآيةُ ثلاثةَ أحكامٍ في القاذِفِ: جَلْدَه، ورَدَّ شهادتِه أبدًا، وفِسقَه؛ فالاستِثناءُ غيرُ عاملٍ في جَلْدِه بإجماعٍ، وعامِلٌ في فِسْقِه بإجماعٍ، واختَلَف النَّاسُ في عَمَلِه في رَدِّ الشَّهادةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦٥).

ممَّن نَقَل الاتِّفاقَ أيضًا على أنَّ الاستثناءَ لا يَرجِعُ إلى جملةِ الجَلْدِ، وأنَّ القاذِفَ إذا تاب وأصلَحَ لا يَسقُطُ عنه حَدُّ القَذفِ بالتَّوبةِ: ابنُ جرير، وابنُ رُشْد، وابن كثير، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٢)، ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١).

قال الشنقيطي: (الجُملةُ الأُولى التي هي: ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ لا يَرجِعُ لها الاستِثناءُ في قَولِ عامَّةِ أهلِ العِلمِ، ولم يخالِفْ إلَّا مَن شَذَّ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٣٢).

وممَّن نَقَل الاتِّفاقَ أيضًا على أنَّ الفِسقَ يَزولُ بالتَّوبةِ، وأنَّ الجُملةَ الأخيرةَ التي هي قَولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ يَرجِعُ لها الاستِثناءُ: ابنُ جرير، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٢).

واختَلَفوا في قَبولِ الشَّهادةِ بعد التَّوبةِ؛ فذَهَب الجُمهورُ إلى أنَّ الاستِثناءَ عامِلٌ في رَدِّ =

= الشَّهادةِ، فإذا تاب القاذِفُ قُبِلَت شَهادتُه، ومِمَّن نَسَبه إلى الجُمهورِ: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّة، ونسبه الرازيُّ إلى أكثرِ الصَّحابةِ والتابعينَ، وممَّن اختاره: السعديُّ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥).

وهو مذهَبُ جُمهورِ الفُقَهاءِ مِنَ المالكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٤/ ٢٤٦)، ((البيان في مذهب الإمام الشافعي)) للعمراني (١٣/ ٣١٧)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٥٩٠).

قال مكِّيٌّ: (وهو مذهَبُ أكثَرِ الفُقَهاءِ؛ منهم: الشَّعْبيُّ، والزُّهْري، وأبو الزناد، ومالكٌ، والشافعيُّ، وأحمدُ، وإسحاق، وأبو ثور، وأبو عبيد، وهو قول عُمرَ بنِ الخطابِ، وابن أبي طلحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ، وعطاء، ومجاهد، وطاوُس، وبه قال عُمرُ بن عبد العزيز، وعبد الله بن عتبة، وابنُ المسَيِّب.(((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (٨/ ٥٠٣٤).

وقال أبو حيان: (وقد وقَعَ الخِلافُ في قَبولِ شهادتِهم إذا تابوا؛ بِناءً على أنَّ هذا الاستثناءَ راجِعٌ إلى جُملةِ النَّهيِ، وجملةِ الحُكمِ بالفِسقِ، أو هو راجِعٌ إلى الجملةِ الأخيرةِ، وهي الثَّالِثةُ، وهي الحُكمُ بفِسقِهم). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥).

وقال الشنقيطي: (اعلَمْ أنَّ المقرَّرَ في أُصولِ المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ: أنَّ الاستِثناءَ إذا جاء بعد جُمَلٍ مُتعاطِفاتٍ أو مُفرَداتٍ مُتعاطِفاتٍ: أنَّه يرجِعُ لجَميعِها إلَّا لدليلٍ مِن نَقلٍ أو عَقلٍ يُخَصِّصُه ببَعضِها، خلافًا لأبي حنيفةَ القائِلِ برُجوعِ الاستِثناءِ للجُملةِ الأخيرةِ فقط). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٣١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨٠).

وقال أيضًا: (الذي يَظهَرُ لنا في مسألةِ الاستثناءِ بعد جُمَلٍ مُتعاطِفاتٍ أو مُفرَداتٍ مُتعاطِفاتٍ: هو ما ذكَرَه بَعضُ المتأخِّرين؛ كابنِ الحاجِبِ مِنَ المالكيَّةِ، والغزاليِّ من الشَّافعيَّةِ، والآمديِّ مِن الحنابلةِ: مِن أنَّ الحُكمَ في الاستثناءِ الآتي بعد متعاطِفاتٍ هو الوَقفُ، ولا يُحكَمُ برُجوعِه إلى الجَميعِ ولا إلى الأخيرةِ إلَّا بدَليلٍ. وإنَّما قُلْنا: إنَّ هذا هو الأظهَرُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وإذا ردَدْنا النِّزاعَ في هذه المسألةِ إلى اللهِ وَجَدْنا القُرآنَ دالًّا على ما ذكَرْنا أنَّه الأظهَرُ عندَنا، وهو الوَقفُ؛ وذلك لأنَّ بعضَ الآياتِ لم يَرجِعْ فيها الاستثناءُ للأُولى، وبَعضَها لم يَرجِعْ فيه الاستثناءُ للأخيرةِ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ رُجوعَه لِما قَبلَه ليس شيئًا مُطَّرِدًا). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٣٢).

وقال الماوَرْدي: (وفي صفةِ التَّوبةِ قولانِ: أحدُهما: أنَّها بإكذابِه نَفْسَه، وقد رواه الزُّهري عن =

وأصلَحوا أحوالَهم وأعمالَهم[(١)].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: فإنَّ اللهَ يَستُرُ ذُنوبَهم ويَتجاوزُ عن مُؤاخذَتِهم بها، رَحيمٌ بهم، فاقْبَلوا

= ابن المسَيِّبِ: أنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ جَلَد أبا بَكْرةَ وشِبلَ بنَ مَعبدٍ ونافِعَ بنَ الحارثِ بنِ كَلَدةَ، وقال لهم: مَن أكذَبَ نَفْسَه، أحرزَ شَهادتَه. فأكذَبَ نَفْسَه شِبلٌ ونافِعٌ، وأبى أبو بَكرةَ أن يَفعَلَ. قال الزُّهريُّ: وهو واللهِ السُّنَّةُ، فاحفَظوه. الثاني: أنَّ توبتَه منه تكونُ بصلاحِ حالِه، وندَمِه على قَذفِه، والاستغفارِ منه، وتَركِ العَودِ إلى مِثلِه. قاله ابنُ جريرٍ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٧٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ التوبةَ لا تحصُلُ إلَّا بإكذابِه نَفْسَه: السمعانيُّ، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

وممَّن قال به من السَّلَفِ: طاوسٌ، وعطاءٌ، وسعيدُ بنُ المسيِّبِ، والشَّعبيُّ، والزُّهْريُّ، وإسحاقُ، وأبو عُبيد، وأبو ثور. يُنظر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٧/ ١٠٨).

وهو مذهبُ الشافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((الحاوي الكبير)) للماوَرْدي (١٧/ ٣٢)، ((شرح منتهي الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٥٩٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أنَّه لا يُشترَطُ إكذابُه نَفْسَه، بل توبتُه بأن يُصلِحَ حالَه، ويُقلِعَ ويَندَمَ، ويَعزِمَ ألَّا يَعودَ لمِثلِ ذلك: ابنُ جرير، وابنُ جُزي، وهو ظاهِرُ اختيارِ الشوكانيِّ، واختاره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٠).

وهو مذهبُ المالكيَّةِ. يُنظر: ((الكافي في فقه أهل المدينة)) لابن عبد البر (٢/ ٨٩٧)، ((الذخيرة)) للقرافي (١٠/ ٢٢١).

قال ابنُ عاشورٍ: (ليس مِن شَرطِ التَّوبةِ أنْ يُكذِّبَ نفْسَه فيما قذَفَ به...؛ لأنَّه قد يكونُ صادقًا، ولكنَّه عجَزَ عن إثباتِ ذلك بأربعةِ شُهداءَ على الصِّفةِ المعلومةِ؛ فتَوبَتُه أنْ يُصلِحَ ويُحسِّنَ حالَه، ويَتثبَّتَ في أمْرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٢، ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٧٨، ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٠).

شَهادتَهم، ولا تُسَمُّوهم فاسِقينَ؛ فقد صاروا عُدولًا غيرَ فَسقةٍ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- عاقَبَ هؤلاء القاذِفينَ للمُحصَناتِ بثَلاثِ عُقوباتٍ:

أُولاها: حِسِّيَّةٌ، وتتمَثَّلُ في جَلْدِهم ثمانينَ جَلدةً، وهي عُقوبةٌ قَريبةٌ مِن عُقوبةِ الزِّنا.

وثانيتُها: مَعنويَّةٌ، وتتمَثَّلُ في عدَمِ قَبولِ شَهادتِهم؛ بأن تُهدَرَ أقوالُهم، ويَصيروا في المجتمَعِ أشبَهَ ما يكونون بالمَنبوذينَ الذين إنْ قالوا لا يُصَدِّقُ النَّاسُ أقوالَهم، وإن شَهِدوا لا تُقبَلُ شهادتُهم؛ لأنَّهم انسلَخَت عنهم صِفةُ الثِّقةِ مِن النَّاسِ فيهم.

وثالثتُها: دينيَّةٌ، وتتمَثَّلُ في وَصفِ اللهِ تعالى لهم بالفِسقِ، أي: بالخُروجِ عن طاعتِه سُبحانَه، وعن آدابِ دينِه وشريعتِه.

وما عاقَبَ اللهُ تعالى هؤلاء القاذِفينَ في أعراضِ النَّاسِ بتلك العُقوباتِ الرَّادِعةِ إلَّا لحِكَمٍ؛ مِن أهَمِّها: حمايةُ أعراضِ المُسلِمينَ مِن ألسِنةِ السُّوءِ، وصيانتُهم مِن كُلِّ ما يَخدِشُ كرامتَهم، ويَجرَحُ عَفافَهم، وأقسى شَيءٍ على النُّفوسِ الحُرَّةِ الشَّريفةِ الطَّاهِرةِ: أن تُلصَقَ بهم التُّهَمُ الباطِلةُ. وعلى رأسِ الرَّذائِلِ التي تُؤدِّي إلى فسادِ المُجتمَعِ: تَركُ ألسِنةِ السُّوءِ تَنهَشُ أعراضَ الشُّرَفاءِ دونَ أن تجِدَ هذه الألسِنةُ مَن يُخرِسُها أو يَردَعُها[٢].

٢- قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فعطَفَ الإصلاحَ على التَّوبةِ؛ لأنَّ التَّوبةَ التي لا أثَرَ لها في العَمَلِ لا شأنَ لها ولا قيمةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ٨٦).

في نَظَرِ الدِّينِ؛ ولذلك جرى القُرآنُ على عَطفِ العَمَلِ الصَّالحِ عليها عندَ ذِكرِها أو وَصْفِها بالنَّصُوحِ، وترى كثيرًا مِنَ النَّاسِ يُظهِرونَ التَّوبةَ بالنَّدَمِ والاستِغفارِ والرُّجوعِ عن الذَّنبِ، ثمَّ لا يَلبَثونَ أن يعودوا إلى ما كانوا تابوا عنه؛ ذلك بأنَّه لم يكُنْ للتَّوبةِ أثَرٌ في نُفوسِهم يُنبِّهُهم إذا غَفَلوا كَيْ لا يعودوا إلى ما اقترَفوا، ويهديهم إلى اتِّخاذِ الوَسائِلِ لإصلاحِ شَأنِهم، وتقويمِ أمْرِهم[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ لَمَّا كانت مَعصيةُ الزِّنا كبيرةً مِن أُمَّهاتِ الكبائرِ، وكان مُتعاطِيها كثيرًا ما يَتستَّرُ بها، فقلَّما يَطَّلِعُ أحدٌ عليها- شدَّدَ اللهُ تعالى على القاذفِ؛ حيثُ شرَطَ فيها أربعةَ شُهداءَ؛ رَحمةً بعِبادِه، وسَتْرًا لهم[٢].

٢- القاذِفُ قد يكونُ ذكَرًا والمقذوفُ أُنثى، وقد يكونُ أُنثى والمقذوفُ ذكَرًا، وقد يكونُ ذكرًا والمقذوفُ ذكرًا، وقد يكونُ أنثى والمقذوفُ أنثى؛ فالقِسمةُ رباعيَّةٌ. وقد نصَّ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ على قذْفِ الذُّكورِ للإناثِ، وبقيَّةُ الصوَرِ المسكوتِ عنها داخِلةٌ في حُكمِ المنصوصِ بالإلحاقِ بنفيِ الفارقِ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾ احْتُجَّ به على أنَّ مَن قذَفَ نفْسَه، ثمَّ رجَعَ، لا يُحَدُّ لنفْسِه؛ لأنَّه لم يَرْمِ أحدًا[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٤٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

أنَّ الزِّنا لا يُقبَلُ فيه إلَّا أربعةُ رِجالٍ، لا أقَلُّ، وسواءٌ شَهِدوا مُجْتمِعينَ أو مُتفرِّقينَ، ولا يُقبَلُ فيه نِساءٌ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ هذه الآيةُ أصْلٌ في حَدِّ الفِرْيةِ والقذْفِ الَّذي كان أوَّلُ ظُهورِه في رَمْيِ المُحصَناتِ بالزِّنا[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ فيه أنَّه يُجلَدُ القاذِفُ ثمانينَ إذا قذَفَ مُحصَنةً، ومَفهومُه: أنَّه إذا قذَفَ مَن عُرِفَت بالزِّنا لا يُحَدُّ للقذْفِ، ويُصرِّحُ بذلك قولُه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾[٣]، لكنْ ينبغي صَونُ الألسنةِ عن الخوضِ في الأعراضِ.

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾ فيه أنَّ القاذِفَ لا تُقبَلُ شَهادتُه[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾ أنَّ عدمَ قَبولِ شهادةِ القاذِفِ لا يجري حُكْمُه على الرِّوايةِ، فتُقْبَلُ روايتُه في حالِ أنَّ شهادتَه لا تُقْبَلُ، سواءٌ كان قبْلَ توبتِه أو بعْدَها عندَ مَن يقولُ بعدَمِ قَبولِها -أي: الشهادةِ- بعدَ التَّوبةِ؛ ولهذا لم يتوقَّفِ البخاريُّ ومسلمٌ في روايةِ أبي بَكْرةَ. وهنا قد يَرِدُ سؤالٌ لطالبِ العلمِ، وهو: كيف تُقْبَلُ روايتُه دونَ شهادتِه، مع أنَّ كلًّا منهما تترتَّبُ عليه أحكامٌ، وهو إخبارٌ؟!

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والجوابُ: أنَّ الشَّرعَ فَرَّقَ بيْن الشَّهادةِ والروايةِ؛ فشهادةُ المرأةِ لا تُقْبَلُ في دِرهمٍ إلَّا إذا كانت مع غيرِها مِن النِّساءِ، وتكونُ شَهادةُ اثنتَينِ كشَهادةِ رجُلٍ واحدٍ؛ وروايتُها تُقْبَلُ ولو كانت في نصٍّ تُزهَقُ به النُّفوسُ[(١)].

٩- الفِسْقُ قد يكونُ ناقِلًا عن المِلَّةِ؛ كما قال في حقِّ إبليسَ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]. وقد لا يكونُ الفِسْقُ ناقِلًا عن المِلَّةِ؛ كقولِه تعالى في الَّذين يَرْمُون المُحصَناتِ: ﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾[(٢)] [البقرة: ٢٨٢].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فيه تَحريمُ القذْفِ، وأنَّه فِسْقٌ[(٣)]. وقولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، أي: الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، الَّذين قد كثُرَ شَرُّهم؛ وذلك لانتِهاكِ ما حرَّمَ اللهُ، وانتِهاكِ عِرْضِ أخيهِ، وتَسليطِ النَّاسِ على الكلامِ بما تكلَّمَ به، وإزالةِ الأُخُوَّةِ الَّتي عقَدَها اللهُ بيْن أهْلِ الإيمانِ، ومَحبَّةِ أنْ تَشيعَ الفاحشةُ في الَّذين آمنوا، وهذا دليلٌ على أنَّ القذفَ مِن كبائرِ الذُّنوبِ[(٤)]، ولأنَّ اسمَ الفِسقِ لا يقَعُ إلَّا على صاحِبِ كبيرةٍ[(٥)].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٩٩).

جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾، يُستدَلُّ بالآيةِ لقولِ مَن قال: إنَّ شَهادةَ القاذِفِ لا تَسقُطُ بمُجرَّدِ القذْفِ حتَّى يُقامَ عليه الحدُّ؛ لأنَّه تعالى إنَّما نَهى عن قَبولِ شَهادتِهم إذا لم يأْتوا بالشُّهداءِ، وللقاذِفِ الإتيانُ بالشُّهداءِ ما لم يُحَدَّ، فهذا بَيِّنٌ أنَّ شَهادتَه لا تَسقُطُ إلَّا بإقامةِ الحدِّ عليه؛ لاحتِمالِ إتيانِه بالشُّهداءِ[(١)].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ استَدَلَّ به مَن قال: إنَّ حدَّ القذْفِ مِن حُقوقِ اللهِ؛ فلا يَجوزُ العفْوُ عنه[(٢)].

١٣- في قولِه تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ دَليلٌ على أنَّ شَهادةَ القاذفِ بعدَ التَّوبةِ مَقبولةٌ، وذَنْبَه مَغفورٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٤٤)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

وهذا مَذهَبُ الحَنَفيَّةِ: أنَّه لا يجوزُ عَفوُ المقذوفِ عن القاذِفِ، خِلافًا للجُمهورِ مِن المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ الذين يرَوْنَ جوازَ ذلك، وأنَّه يَسقُطُ حَدُّ القَذفِ بالعَفوِ عن المقذوفِ، وقَيَّد المالكيَّةُ جوازَه بكَونِه قبْلَ الرَّفعِ إلى الإمامِ وصاحِبِ الشُّرطةِ أو الحَرَسِ، إلَّا أن يريدَ سَترًا على نَفْسِه، فيجوزُ أيضًا بعد الرَّفعِ. يُنظر: ((شرح مختصر الطحاوي)) للجصَّاص (٦/ ٢١٠-٢١٣)، ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (٣/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((الذخيرة)) للقرافي (٤/ ٣٣٧) و(١٢/ ١٨٨)، ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (٨/ ٩٠، ٩١)، ((نهاية المحتاج)) للرملي (٧/ ١١٠)، ((المغني)) لابن قدامة (١٠/ ٢١٣)، ((الإقناع)) للحَجَّاوي (٤/ ٢٥٩).

قال ابنُ القَيِّم: (الحَدُّ يَستحِقُّه المقذوفُ، فلا يُستوفَى إلَّا بطَلَبِه، باتِّفاقِ الفُقَهاءِ، فإنْ عفا عنه سَقَط عندَ جمهورِ العُلَماءِ؛ لأنَّ المُغلَّبَ فيه حقُّ الآدميِّ، كالقِصاصِ والأموالِ. وقيل: لا يَسقُطُ؛ تغليبًا لحَقِّ اللهِ؛ لعَدَمِ المماثَلةِ، كسائِرِ الحُدودِ). ((السياسة الشرعية)) (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤١٥).

وتقدَّم ذِكرُ الخلافِ في ذلك (ص: ٤٣).

١٤- في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ دليلٌ واضِحٌ على أنَّ مَنِ اغتابَ مُسلِمًا، وأوصَلَ إليه أذَى القَولِ في شَتْمِ نفْسٍ أو آباءٍ؛ فتَوبتُه منه تَحُطُّ ذَنْبَه، وتَغفِرُ خَطيئتَه، وإنْ لم يُحَلِّلْهُ صاحبُه[١]؛ أَلاَ ترى أنَّ القاذِفَ قد غَمَّ المَقذوفَ وآذاهُ بقَذْفِه، ثمَّ أوجَبَ اللهُ له المَغفِرةَ والرَّحمةَ بتَوبَتِه منه، ولم يَشترِطْ عليه تَحليلَ المقذوفِ عنه؟ فالقِصَاصُ والمَظالِمُ ما كان في مالٍ أو نَفْسٍ أو جُرْحٍ دونَ الكلامِ، واللهُ أعلمُ[٢].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ...﴾ خُصَّ النِّساءُ بذلك، وإنْ كان الرِّجالُ يَشْرَكونَهنَّ في الحُكْمِ؛ تَنبيهًا على عَظيمِ حَقِّ أُمِّ المُؤمنينَ عائِشةَ رضِيَ اللهُ عنها[٣]، ولأنَّ القَذفَ فيهِنَّ أشنَعُ وأنكَرُ للنُّفوسِ، ومِن حيث هُنَّ هَوَى الرِّجالِ؛ ففيه إيذاءٌ لهُنَّ ولأزواجِهنَّ وقَراباتِهنَّ[٤].

- وفي التَّعبيرِ عنِ التَّفَوُّهِ بما قالوا في حقِّهِنَّ بالرَّميِ ﴿يَرۡمُونَ﴾ المُنْبِئِ عن صَلابةِ الآلةِ، وإيلامِ المَرْميِّ، وبُعْدِه عنِ الرَّامي: إيذانٌ بشِدَّةِ تأثيرِه فيهِنَّ،

---

(١) ومِن أهلِ العلمِ مَن يرَى أنه يُشترَطُ في توبةِ المغتابِ والقاذفِ طلبُ عفوِ مَنِ اغتابه وإبرائِه، ومنهم مَن فرَّق بيْن ما إذا عَلِم به مَنِ اغتابه وقذَفَه فيَستحِلُّه حينَئذٍ، وإلَّا دعا له واستَغْفَر ولم يُعْلِمْه. وحُكي عن أكثرِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٧-٣٣٩)، ((الأذكار)) للنووي (ص: ٣٤٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((الإنصاف)) للمرداوي (١٠/ ٢٢٥)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (٦/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٦١، ٥٦٢).

وكَونِه رَجْمًا بالغَيبِ، والمُرادُ به رَمْيُهنَّ بالزِّنا لا غَيرُ، وعَدَمُ التَّصريحِ به؛ للاكتِفاءِ بإيرادِهنَّ عَقِيبَ الزَّواني، ووَصْفِهنَّ بالإحصانِ الدَّالِّ بالوَضعِ على نَزاهتِهنَّ عنِ الزِّنا خاصَّةً؛ فإنَّ ذلك بمَنزلةِ التَّصريحِ بكَونِ رَمْيِهنَّ به لا مَحالةَ[١]؛ فحُذِفَ المَرميُّ به في هذه الآيةِ لظُهورِ المَقصودِ بقَرينةِ السِّياقِ وذِكْرِ المُحْصَناتِ، أي: يَرمُون المُحْصَناتِ بالزِّنا[٢].

- ولَمَّا كان إقْدامُ المُجترِئِ على القَذْفِ -معَ ما شرَطَه فيه لدَرءِ الحدِّ إرادةَ السَّترِ- بَعيدًا؛ أشار إليه بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾[٣].

- قَولُه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ فيه حَذْفُ مُتعلَّقِ الشَّهادةِ؛ لظُهورِ أنَّهم شُهداءُ على إثباتِ ما رَمى به القاذِفُ[٤].

- قَولُه: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ فيه تَخصيصُ رَمْيِهنَّ بهذا الحُكْمِ، مع أنَّ حُكمَ رَمْيِ المُحصَنِينَ أيضًا كذلك؛ لخُصوصِ الواقعةِ، وشُيوعِ الرَّمْيِ فيهنَّ[٥].

- قَولُه: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً﴾ عَطفٌ على (اجْلِدُوا)، داخِلٌ في حُكْمِه تَتِمَّةً له؛ لِمَا فيه مِن معنَى الزَّجرِ؛ لأنَّه مُؤلِمٌ للقلبِ، كما أنَّ الجَلدَ مُؤلِمٌ للبَدنِ، وقد آذَى المَقذوفَ بلِسانِه؛ فعُوقِبَ بإهدارِ مَنافِعِه جَزاءً وِفاقًا[٦].

- واللَّامُ في ﴿لَهُمْ﴾ مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ هو حالٌ مِن ﴿شَهَادَةً﴾؛ قُدِّمتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٧).

عليها لكَونِها نَكِرةً، ولو تَأَخَّرَتْ عنها لكانتْ صِفَةً لها، وفائدَتُها: تَخصيصُ الرَّدِّ بشَهادتِهِمُ النَّاشِئةِ عن أهْلِيَّتِهِمُ الثَّابتةِ لهم عندَ الرَّمْيِ[١].

- قَولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، مُقرِّرٌ لِمَا قَبْلَه، ومُبيِّنٌ لسُوءِ حالِهِم عندَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وما في اسمِ الإشارةِ (أُولَئِكَ) مِن معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهِم في الشَّرِّ والفسادِ[٢]؛ فعُبِّرَ باسمِ الإشارةِ؛ للإعلانِ بفِسْقِهِم؛ ليَتميَّزوا في هذه الصِّفةِ الذَّميمةِ[٣].

- والحَصرُ[٤] في قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ لِلمُبالَغةِ في شَناعةِ فِسْقِهم، حتَّى كأنَّ ما عَداهُ مِن الفُسوقِ لا يُعَدُّ فِسْقًا[٥].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- قَولُه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ لتَهويلِ المَتوبِ عنه، أي: مِن بَعدِ ما اقتَرفُوا ذلك الذَّنْبَ العظيمَ الهائِلَ[٦].

- ومَفعولُ (أَصْلَحُوا) مَحذوفٌ؛ دَلَّ عليه السِّياقُ، أي: أصلَحوا أنفُسَهم باجتِنابِ ما نُهُوا عنه[٧]، وأصلَحوا أعمالَهم بالتَّدارُكِ، ومنه الاستِسلامُ للحَدِّ، أو الاستِحلالُ مِنَ المَقذوفِ[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٩).

(٤) وهو المستفادُ مِن دُخولِ ضميرِ الفَصلِ ﴿هُمُ﴾ بيْن طَرَفَيِ الجُملةِ؛ لتَقويةِ النِّسبةِ، وكذلك دُخولُ (أل) على الخبرِ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ فكأنَّهمُ استَحَقُّوا الوَصفَ الكاملَ مِنَ الفِسقِ، وأنَّه لا فاسِقَ إلَّا هُم.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٠).

(٨) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٩).

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَعليلٌ لِما يُفيدُه الاستِثناءُ مِن العَفْوِ عنِ المُؤاخَذةِ بمُوجَبِ الفِسْقِ[1]؛ ففُرِّعَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على ما يَقتَضيهِ الاستِثناءُ مِن معنَى: فاقبَلوا شَهادَتَهم، واغفِروا لهم ما سَلَفَ؛ فإنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ، أي: فإنَّ اللهَ أمَرَ بالمَغفرةِ لهم؛ لأنَّه غَفورٌ رَحيمٌ، كما قال في آيةِ البقرةِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]، وإنَّما صُرِّحَ في آيةِ البقرةِ بما قُدِّرَ نَظيرُه هنا؛ لأنَّ المَقامَ هنالِك مَقامُ إطنابٍ؛ لشِدَّةِ الاهتِمامِ بأمْرِهِم؛ إذْ ثابُوا إلى الإيمانِ والإصلاحِ، وبَيانِ ما أُنزِلَ إليهِم مِن الهُدى بَعْدَ ما كَتَموه وكَتَمه سَلَفُهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٠).

الآيات (٦-١٠)

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَيَدۡرَؤُاْ ﴾: أي: يَدْفعُ، وأصْلُ (درأ): دَفْعُ الشَّيءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

بعْدَ أن بيَّن الله تعالى حُكمَ القذفِ بصِفةٍ عامَّةٍ، يُبيِّنُ حُكمَ القذفِ إذا ما حدَث بيْنَ الزَّوجينِ، فيقولُ: والذين يَرمونَ زوجاتِهم بالزِّنا، وليس لهم شهودٌ يَشهدون بما رمَوهنَّ به مِن الزِّنا إلا أنفُسُهم، فشهادةُ أحدِهم التي تُزيلُ عنه حدَّ القَذفِ أن يَحلِفَ بالله أربعَ مرَّاتٍ إنَّه صادقٌ فيما رماها به مِن الزِّنا، ويَحلفُ في المرَّةِ الخامسةِ بأنَّ لعنةَ الله عليه إن كان كاذبًا فيما رماها به. ويدفَعُ عن الزوجةِ المقذوفةِ حدَّ الزنا -وهو الرجمُ حتى الموتِ- أن تَحلِفَ أربعَ مرَّاتٍ إنَّه لكاذبٌ في اتِّهامه لها بالزِّنا، وتحلفُ في المرَّة الخامسةِ باستحقاقِها غضَبَ اللهِ إن كان زوجُها صادقًا في اتِّهامه لها بالزِّنا. ويُبيِّنُ تعالى أنَّه لولا فَضْلُه عليكم ورحمتُه، لعاجَلَكم بالعقوبةِ، وأنَّ اللهَ توَّابٌ لِمَن تاب مِن عبادِه، حكيمٌ فيما شرَعَ مِنَ الأحكامِ، ومِن جملتِها حُكمُ اللِّعانِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى رمْيَ المُحصَناتِ، دخَلَ في عمومِه الزوجُ إذا رمى زوجتَه، ولمَّا كان له أحكامٌ خاصَّةٌ، والقرائِنُ تدُلُّ على أنَّه لا يَرمي زوجتَه إلَّا إذا كان صادِقًا؛ لأنَّ زناها مصيبةٌ وعارٌ عليه هو، والإنسانُ لا يَذْكرُ عيبًا يَعودُ عليه- جعَل اللهُ تعالى له مَخرَجًا إذا قذَفَ زوجتَه، بتشريعِ حُكمِ اللِّعانِ[1].

سَببُ النُّزولِ:

عن سَهلِ بنِ سَعدٍ رضِيَ اللهُ عنْهما: ((أنَّ عُوَيْمِرًا أتَى عاصِمَ بنَ عَدِيٍّ، وكان سيِّدَ بَني عَجْلانَ، فقال: كيف تقولونَ في رَجُلٍ وجَدَ مع امرأتِه رَجُلًا: أيقتُلُه فتَقْتُلونه، أمْ كيف يَصنَعُ؟ سَلْ لي رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن ذلك. فأتَى عاصِمٌ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، فَكَرِهَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المسائِلَ، فسألَهُ عُوَيْمِرٌ، فقال: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَرِهَ المسائلَ وعابَهَا، قال عُوَيْمِرٌ: واللهِ لا أنْتَهي حتَّى أسأَلَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن ذلك، فجاء عُوَيْمِرٌ، فقال: يا رسولَ اللهِ، رجُلٌ وجَدَ مع امرأتِه رجُلًا: أيقتُلُه فتَقْتُلونه، أمْ كيف يصنَعُ؟ فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: قد أنزَلَ اللهُ القُرآنَ فيك وفي صاحِبَتِكَ، فأمَرَهُما رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالمُلاعَنةِ بما سمَّى اللهُ في كِتابِه، فلاعَنَها، ثمَّ قال: يا رسولَ اللهِ،

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٥١).

إنْ حبَسْتُها فقد ظلَمْتُها، فطلَّقَها، فكانتْ سُنَّةً لِمَن كان بَعْدَهما في المُتلاعنَينِ، ثمَّ قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: انْظُروا؛ فإنْ جاءتْ به أسْحَمَ[١]، أدْعَجَ العينَينِ[٢]، عظيمَ الألْيَتَينِ، خَدَلَّجَ السَّاقينِ[٣]؛ فلا أحسبُ عُويمرًا إلَّا قد صدَقَ عليها، وإنْ جاءت به أُحيمِرَ كأنَّه وَحَرَةٌ[٤]، فلا أحسبُ عُويمرًا إلاَّ قد كذَبَ عليها. فجاءت به على النَّعتِ الَّذي نعَتَ به رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن تَصديقِ عُويمرٍ، فكان بَعْدُ يُنسَبُ إلى أُمِّهِ))[٥].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ هِلالَ بنَ أُميَّةَ قذَفَ امرأتَه[٦] عندَ

---

(١) أسْحَمَ: أي: أسودَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٤٨).

(٢) أدْعَجَ العينَينِ: أي: شديدَ سَوادِهما. يُنظر: (((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١١٧).

(٣) خَدَلَّجَ السَّاقينِ: أي: مُمتلِئَ السَّاقَينِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١١٠).

(٤) كأنَّه وَحَرَةٌ: الوَحَرةُ: حَشرةٌ من حَشراتِ الأرض تُشبِهُ الحرباءَ، وهي حمراءُ، وإذا دبَّت على اللَّحْمِ وَحَر، أي: اشْتَدَّ حماه. يُنظر: ((الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي)) للهروي (٢٢٢)، ((تفسير غريب ما في الصحيحين)) للحميدي (١٣٤).

(٥) رواه البخاري (٤٧٤٥) واللفظ له، ومسلم (١٤٩٢).

(٦) قال ابنُ حَجَرٍ: (في هذه الرِّوايةِ أنَّ آياتِ اللِّعانِ نزَلَت في قِصَّةِ هلالِ بنِ أُمَيَّةَ، وفي حديثِ سَهلِ بنِ سَعدٍ الماضي أنَّها نزَلَت في عُوَيمرٍ...

وقد اختلف الأئمَّةُ في هذا الموضِعِ؛ فمنهم مَن رجَّح أنَّها نزلت في شأنِ عُوَيمرٍ، ومنهم مَن رجَّح أنَّها نزلت في شأنِ هلالٍ، ومنهم مَن جمَع بيْنهما بأنَّ أوَّلَ مَن وقع له ذلك هلالٌ، وصادف مجيءُ عويمرٍ أيضًا؛ فنزَلت في شأنِهما معًا في وقتٍ واحدٍ، وقد جنح النوويُّ إلى هذا، وسبَقَه الخطيبُ... ويؤيِّدُ التعَدُّدَ أنَّ القائِلَ في قِصَّةِ هلالٍ: سَعدُ بنُ عُبادةَ... والقائِلَ في قِصَّةِ عُوَيمرٍ: عاصِمُ بنُ عَدِيٍّ... ولا مانِعَ أن تتعدَّدَ القِصَصُ ويتَّحِدَ النُّزولُ... ويحتَمِلُ أنَّ النُّزولَ سَبق بسببِ هلالٍ، فلما جاء عويمرٌ ولم يكُنْ عَلِمَ بما وقع لهلالٍ أعلمَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالحُكمِ... وجنح القُرطبيُّ إلى تجويزِ نُزولِ الآيةِ مرَّتينِ، قال: وهذه الاحتمالاتُ وإن بَعُدت أَولى من تغليطِ الرُّواةِ الحُفَّاظِ. وقد أنكَرَ جماعةٌ ذِكْرَ هلالٍ فيمن لاعَنَ ... وكلامُ الجَميعِ =

النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بشَريكِ ابنِ سَحْماءَ، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: البيِّنَةَ، أو حَدٌّ في ظَهْرِكَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إذا رأى أحدُنا على امرأتِه رجُلًا، يَنطلِقُ يلْتمِسُ البيِّنَةَ؟! فجعَلَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: البيِّنَةَ، وإلَّا حَدٌّ في ظَهْرِكَ، فقال هِلالٌ: والَّذي بعثَكَ بالحقِّ إنِّي لصادِقٌ؛ فلَيُنزِلَنَّ اللهُ ما يُبرِّئُ ظَهْري مِن الحدِّ، فنزَلَ جبريلُ وأنزَلَ عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ * وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ * وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٦ - ٩]، فانصرَفَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأرسَلَ إليها، فجاء هِلالٌ فشَهِدَ، والنَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: إنَّ اللهَ يَعلَمُ أنَّ أحَدَكما كاذِبٌ؛ فهلْ منْكما تائبٌ؟ ثمَّ قامتْ فشَهِدَتْ، فلمَّا كانت عندَ الخامسةِ وَقَّفُوها، وقالوا: إنَّها مُوجِبةٌ، قال ابنُ عبَّاسٍ: فتلكَّأَتْ ونكَصَتْ، حتَّى ظَنَنَّا أنَّها ترجِعُ، ثمَّ قالت: لا أفضَحُ قَومي سائرَ اليومِ، فمَضَتْ، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أبْصِروها؛ فإنْ جاءت به أكحَلَ العينَينِ[(١)]، سابغَ الأَلْيَتينِ[(٢)]، خَدَلَّجَ السَّاقينِ؛ فهو لشَريكِ ابنِ سَحماءَ، فجاءت به كذلك، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لولا ما مَضى مِن كِتابِ اللهِ

= مُتعَقَّبٌ). ((فتح الباري)) (٨/ ٤٥٠، ٤٥١). ويُنظر: ((المفهم لما أَشكل من تلخيص كتاب مسلم)) للقرطبي (٤/ ٣٠٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١٢٠)، ((المحرر في أسباب نزول القرآن)) للمزيني (٢/ ٧١٩-٧٤٢).

(١) أَكْحَلَ العَينينِ: الكَحَل: سَوادٌ فِي أجْفانِ العَيْنِ خِلْقةً. يُنظر: ((تفسير غريب ما في الصحيحين)) للحميدي (١٦٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٥٤).

(٢) سابغَ الأَلْيَتينِ: أي تامَّهما وعَظيمَهما، والأَلْيةُ: العَجيزَةُ والمؤخِّرةُ، للنَّاسِ وغيرِهِم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٣٨)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٧/ ٩٥).

لَكان لي ولَها شَأْنٌ))[١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((إنَّا لَيلةَ الجُمُعةِ في المسجِدِ، إذ جاء رجُلٌ مِن الأنصارِ، فقال: لو أنَّ رجُلًا وجَدَ مع امرأتِه رجُلًا فتكلَّمَ جلَدْتُموهُ، أو قتَلَ قَتلْتُموه، وإنْ سكَتَ سكَتَ على غَيظٍ! واللهِ لَأسألَنَّ عنه رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلمَّا كان مِنَ الغدِ أتى رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فسألَهَ فقال: لو أنَّ رجُلًا وجَدَ مع امرأتِه رجُلًا فتكلَّمَ جلَدْتُموهُ، أو قتَلَ قَتلْتُموه، أو سكَتَ سكَتَ على غَيظٍ؟ فقال: اللَّهُمَّ افتَحْ. وجعَلَ يَدْعو، فنزلَتْ آيةُ اللِّعانِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ ...﴾ هذه الآيات؛ فابتُلِيَ به ذلك الرَّجلُ مِن بيْنِ النَّاسِ، فجاء هو وامرأتُه إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فتلاعَنَا، فشَهِدَ الرَّجلُ أربَعَ شَهاداتٍ باللهِ إنَّه لَمِنَ الصَّادقينَ، ثمَّ لعَنَ الخامسةَ: أنَّ لَعنةَ اللهِ عليه إنْ كان مِنَ الكاذبينَ، فذهبَتْ لِتَلْعَنَ، فقال لها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَهْ[٢]! فأبَتْ، فلعَنَتْ، فلمَّا أدبَرَا، قال: لعلَّها أنْ تَجِيءَ به أسْوَدَ جَعْدًا، فجاءت به أسوَدَ جَعْدًا))[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾.

أي: والَّذين يَقذِفون زَوجاتِهم بالزِّنا، وليس لدَيْهم أربعةُ شُهودٍ يَشْهَدون على صِحَّةَ ما رَمَوهنَّ به غيرُ أنفُسِهم[٤].

﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٤٧).

(٢) مَهْ: هي كَلِمةُ زَجرٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٩٣).

(٣) رواه مسلم (١٤٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

أي: ففي تلك الحالِ يَشهَدُ الزَّوجُ أربَعَ شَهاداتٍ، يَحلِفُ فيها باللهِ فيقولُ: إنَّه لَمِنَ الصَّادقينَ فيما رَمَى به زَوجتَه مِن الزِّنا[١].

﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧﴾.

أي: والشَّهادةُ الخامِسةُ يقولُ فيها: إنَّ لَعنةَ اللهِ عليه واجِبةٌ وحالَّةٌ إنْ كان مِنَ الكاذبينَ فيما رَمَى به زوجتَه مِنَ الزِّنا[٢].

﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كانت هذه الأيمانُ مُقتضِيةً صِدقَ دَعوى الزَّوجِ على المرأةِ، كان مِن أثَرِ ذلك أنْ تُعتبَرَ المرأةُ زانيةً، أو أن يكونَ حَملُها ليس منه؛ فهو مِن زِنًا؛ لأنَّها في عِصمةٍ؛ فكان ذلك مُقْتضِيًا أنْ يُقامَ عليها حَدُّ الزِّنا، فلمْ تُهمِلِ الشَّريعةُ حقَّ المرأةِ، ولم تَجعَلْها مأخوذةً بأَيمانٍ قد يكونُ حالِفُها كاذِبًا فيها؛ لأنَّه يُتَّهمُ بالكذِبِ لِتَبْرئةِ نفْسِه، فجعَلَ للزَّوجةِ مُعارَضةَ أيمانِ زَوجِها، كما جعَلَ للمشهودِ عليه الطَّعنَ في الشَّهادةِ بالتَّجريحِ أو المُعارَضةِ؛ فقال تعالى[٣]:

﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨﴾.

أي: ويَدفَعُ حَدَّ الزِّنا عن الزَّوجةِ أنْ تَشهَدَ أربَعَ شَهاداتٍ، تَحلِفُ فيها باللهِ فتقولُ: إنَّ زوجَها لَمِنَ الكاذبينَ فيما رَمَاها به مِنَ الزِّنا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٦٦، ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤، ١٥)، =

﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

أي: وتَشهَدُ المرأةُ الشَّهادةَ الخامِسةَ، فتقولُ فيها: إنَّ غضَبَ اللهِ عليها إنْ كان زَوجُها مِنَ الصَّادقينَ فيما رمَاها به مِنَ الزِّنا[1].

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٦٤).

قال الرازي: (قولُه تعالى: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ﴾ الألِفُ واللَّامُ الدَّاخِلانِ على العذابِ لا يفيدانِ العُمومَ؛ لأنَّه لم يَجِبْ عليها جميعُ أنواعِ العذابِ، فوجَبَ صَرفُهما إلى المعهودِ السَّابِقِ، والمعهودُ السَّابِقُ هو الحَدُّ؛ لأنَّه تعالى ذكَرَ في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢]، والمرادُ منه الحَدُّ، وإذا ثبَت أنَّ المرادَ مِنَ العذابِ في قَولِه: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾ هو الحَدُّ، ثبت أنَّها لو لم تلاعِنْ لحُدَّت، وأنَّها باللِّعانِ دَفَعَت الحَدَّ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٣٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩).

قال مكِّي: (قَولُه: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾ يعني الحَدَّ، أي: يَدفَعُ عنها حَدَّ الزَّانيةِ شَهادتُها باللهِ أربَعَ شَهاداتٍ إنَّه لَمِنَ الكاذِبينَ، والخامِسةَ أنَّ غَضَبَ اللهِ عليها إن كان مِن الصَّادقينَ. وقيل: العذابُ هنا: الرَّجمُ، ومعناه: العذابُ الذي عَهِدْتُم مِن فِعْلِ نَبيِّكم؛ ولذلك أتى بالألفِ واللَّامِ. وقيل: هو الجَلدُ إن كانت غيرَ مُحصَنةٍ، والرَّجمُ إن كانت مُحصَنةً). ((الهداية الى بلوغ النهاية)) (٨/ ٥٠٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٠).

ويترتَّبُ على اللِّعانِ ثُبوتُ الفُرقةِ بيْنَ الزَّوجَينِ، وذلك باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((المبسوط)) للسرخسي (٧/ ٤٠)، ((التاج والإكليل)) للمَوَّاق (٤/ ١٣٨)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٥١(، ((المبدع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٨/ ٨٢).

وتحرمُ الزَّوجةُ بذلك على الزَّوجِ تَحريمًا مُؤَبَّدًا، وهو مَذهَبُ الجُمهورِ: المالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((التاج والإكليل)) للمواق (٤/ ١٣٨)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٥١)، ((المبدع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٨/ ٨٢).

أي: ولولا فَضْلُ اللهِ عليكم -أيُّها النَّاسُ- ورَحمَتُه بكم، وأنَّ اللهَ يجودُ على خَلْقِه بنِعَمِه، ويُنزِلُ رَحمتَه على مَن تابَ مِن عِبادِه، حَكيمٌ في قدَرِه وشَرْعِه وتَدبيرِ خلْقِه، ومِن ذلك ما شرَعَ لعِبادِه مِن حُكْمِ اللِّعانِ- لَعاجَلَكم بالعُقوبةِ على مَعاصيكم، ولفَضَحَ المُذْنِبينَ منكم، فاشْكُروا اللهَ واتَّقوهُ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ الضَّميرُ هنا ضَميرُ غَيْبةٍ؛ إلَّا أنَّ الزَّوجَ يَجعَلُه ضَميرَ مُتكلِّمٍ؛ يعني يقولُ: (أنَّ لَعنةَ اللهِ عَلَيَّ)، ولا يقولُ: (عليه)، وهذا مِن بابِ التَّأدُّبِ في اللَّفظِ: أنَّ يُعَبَّرَ بضَميرِ الغَيْبةِ؛ لئلَّا يُضِيفَ المُتكلِّمُ اللَّعنةَ إلى نَفْسِه[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فيه مِن أحكامِ الحِكَمِ البالِغةِ، وآثارِ التَّفضُّلِ والرَّحمةِ ما لا يَخفى؛ أمَّا على الصَّادقِ فظاهرٌ، وأمَّا على الكاذبِ فهو إمهالُه، والسَّترُ عليه في الدُّنيا، ودَرْءُ الحدِّ عنه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣).

قال السعدي: (﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ جوابُ الشرطِ محذوفٌ، يدُلُّ عليه سِياقُ الكلامِ، أي: لَأَحَلَّ بأحدِ المُتلاعنَينِ الكاذبِ منْهما ما دعا به على نفْسِه، ومِن رحمَتِه وفضْلِه ثبوتُ هذا الحُكمِ الخاصِّ بالزوجينِ؛ لشِدَّةِ الحاجةِ إليه، وأنْ بيَّنَ لكم شِدَّةَ الزِّنا وفظاعتَه، وفظاعةَ القذْفِ به، وأنْ شرعَ التَّوبةَ مِن هذه الكبائرِ وغيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢، ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٩٠).

قال النووي: (مِن آدابِ الكلامِ ... أنَّه إذا عرَضَ في الحكايةِ عن الغَيرِ ما فيه سوءٌ، واقتضَتِ الحكايةُ رُجوعَ الضَّميرِ إلى المُتكلِّمِ؛ صرَفَ الحاكي الضميرَ عن نفْسِه؛ تَصاوُنًا عن صورةِ إضافةِ السُّوءِ إلى نفْسِه). ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٧١) و (١/ ٢١٤).

وتَعريضُه للتَّوبةِ، حسْبَما يُنْبِئُ عنه التَّعرُّضُ لعُنوانِ تَوَّابيَّتِه سُبحانه، ما أعظَمَ شَأنَه، وأوسَعَ رَحْمتَه، وأدَقَّ حِكمتَه[١]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيه أنَّ شَرْطَ اللِّعانِ سَبْقُ قَذْفٍ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ دَليلٌ على أنَّ كلَّ زوجٍ رَمَى زَوجتَه -حُرَّةً كانتْ أو أَمَةً، مُسلِمةً أو ذِمِّيَّةً-؛ فاللِّعانُ بيْنهما واجبٌ، لا يُزيلُه افتراقُ أحوالِ الأزواجِ، وأنَّه باسمِ الزَّوجيَّةِ لا بغيرِها[٣]، فاللِّعان إنَّما يَكونُ بيْن الزَّوجينِ، لا بيْن الرجُلِ وأجْنبيَّةٍ، ولا السَّيِّدِ وأمَتِه[٤].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ عمومُ الآيةِ في قولِه: ﴿أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ يَشمَلُ ما قبْلَ الدُّخولِ وما بعدَه، فلو عقَدَ على امرأةٍ ثمَّ رماها بالزِّنا، أُجْرِيَ بيْنهما اللِّعانُ؛ لأنَّها زَوجتُه[٥].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ ظاهِرُه يَدُلُّ على اشتِراطِ هذه الألفاظِ عندَ اللِّعانِ مِن المُلاعِنِ ومِن المُلاعِنَةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٢٤).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٣).

واشتراطِ التَّرتيبِ فيها، وألَّا يُنْقَصَ منها شَيءٌ، ولا يُبَدَّلَ شَيءٌ بشَيءٍ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فيه أنَّ اللِّعانَ مُختَصٌّ بالزَّوجِ إذا رمَى امرأتَه، لا بالعَكْسِ[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فيه أنَّ الشَّبهَ في الولَدِ مع اللِّعانِ لا عِبْرةَ به، كما لا يُعتبَرُ مع الفِراشِ، وإنَّما يُعتبَرُ الشَّبهُ حيث لا مُرجِّحَ إلَّا هو[٣].

٧- قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ * وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ ...﴾ يؤخَذُ مِن هذه الآياتِ قاعدةٌ عظيمةٌ مِن قواعدِ الشَّرعِ، ودَلالتُها عليها في غايةِ الصَّراحةِ، والقاعِدةُ هي: (أنَّ أحكامَ الشَّرعِ تكونُ على حسَبِ الظَّاهرِ، ولو كان الواقعُ يخالِفُه)؛ لأنَّ المتلاعِنَينِ متكاذِبانِ، فالزَّوجُ يُثبِتُ أنَّ زوجتَه زانيةٌ، وهي تدَّعي أنَّه قاذِفٌ كاذبٌ، ونحن نقطَعُ أنَّ أحدَهما كاذِبٌ، كما قال الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم[٤]، ولو أَقَرَّ الرجُلُ لوجَبَ عليه حَدُّ القَذفِ، ولو أقرَّتِ المرأةُ لوَجبَ عليها الرَّجمُ، ومع ذلك فالشَّرعُ صَدَّقَهما في الظَّاهرِ مع الجَزمِ بأنَّ أحدَهما كاذِبٌ، وقد أشار اللهُ تعالى في آخِرِ هذه الآياتِ إلى أنَّ الأخذَ يَكونُ بالظَّاهرِ، وأنَّ ذلك رحمةٌ منه تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾، أي: لولا ذلك لَمَا قَبِلَ منكم هذه الظَّواهرَ، والبواطنُ غيرُ صحيحةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر ما رواه البخاري (٤٧٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٥٤).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ استدَلَّ به مَن قال: لا لِعانَ إذا أقام الزَّوجُ البيِّنةَ بزِنَا زَوجتِه[١].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ استدَلَّ به مَن قال: إنَّ اللِّعانَ شَهادةٌ لا يمينٌ[٢].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ أنَّ البَدَلَ يُجْعَلُ له حُكْمُ المُبْدَلِ منه؛ فإنَّه لَمَّا كانتِ البيِّنَةُ على الزِّنا أربعةَ شُهودٍ؛ وكان الزَّوجُ إذا قذَفَ زوجتَه بالزِّنا يُعتبَرُ شاهِدًا، والتَّعدُّدُ الشَّخصيُّ في حَقِّه مُمتنِعٌ؛ جُعِلَ التَّعدُّدُ في نَفْسِ الشَّهادةِ، ويَكونُ هذا تقْريرًا للقاعدةِ المشهورةِ المعروفةِ: أنَّ البَدَلَ له حُكْمُ المُبْدَلِ منه؛ فلمَّا كانت شَهادةُ الزَّوجِ على زَوجتِه بالزِّنا بمَنزلَةِ شَهادةِ رجُلٍ، صار تَكرارُها بمَنزلةِ تَكرارِ الرِّجالِ وتعدُّدِ الشُّهودِ[٣].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ فسمَّاها شهادةً؛ لأنَّها نائبةٌ منابَ الشهودِ، بأن يقولَ: (أشهدُ باللهِ إنِّي لَمِنَ الصادقينَ فيما رميتُها به)[٤].

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ أفادتِ الآيةُ الكريمةُ أنَّ هذه الشَّهادةَ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذا مَذهَبُ الحَنَفيَّةِ، خلافًا للجُمهورِ مِن المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ الَّذينَ قالوا: إنَّ اللِّعانَ يَمينٌ وليس بشهادةٍ. يُنظر: ((فتح القدير)) للكمال ابن الهُمام (٤/ ٢٧٨)، ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (٣/ ١٤)، ((الكافي في فقه أهل المدينة)) لابن عبد البر (٢/ ٦١٠)، ((بداية المجتهد)) لابن رُشْد (٢/ ١١٨، ١١٩)، ((الحاوي الكبير)) للماوَرْدي (١١/ ١٢)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

مَقْرونةٌ بقَسَمٍ؛ لأنَّه يقولُ: (أشهَدُ باللهِ)، كأنَّما قال: (أشهَدُ مُقْسِمًا باللهِ)؛ ولهذا سمَّاها اللهُ تعالى شَهادةً[١].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إنَّما كانت شَهاداتُ الزَّوجِ على زَوجتِه دارِئةً عنه الحدَّ؛ لأنَّ الغالِبَ أنَّ الزَّوجَ لا يُقدِمُ على رَمْيِ زَوجتِه الَّتي يُدنِّسُه ما يُدنِّسُها إلَّا إذا كان صادقًا، ولأنَّ له في ذلك حقًّا، وخوفًا مِن إلْحاقِ أولادٍ ليسوا منه به، ولغيرِ ذلك مِن الحِكَمِ المَفقودةِ في غَيرِه[٢].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ احتُجَّ به على بُطلانِ قَولِ الخوارجِ في أنَّ الزِّنا والقذْفَ كُفْرٌ؛ مِن وَجهينِ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّ الرَّامِيَ إنْ صدَقَ فهي زانيةٌ، وإنْ كذَبَ فهو قاذفٌ، فلا بُدَّ -على قَولِهم- مِن وُقوعِ الكُفرِ مِن أحَدِهما، وذلك يكونُ رِدَّةً، فيجِبُ على هذا: أنْ تقَعَ الفُرقةُ، ولا لِعانَ أصْلًا، وأنْ تكونَ فُرقةَ الرِّدَّةِ؛ حتَّى لا يتعلَّقَ بذلك توارُثُ الْبتَّةَ.

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّ الكُفْرَ إذا ثبَتَ عليها بلِعانِه، فالواجِبُ أنْ تُقتَلَ لا أنْ تُجلَدَ أو تُرجَمَ؛ لأنَّ عُقوبةَ المُرتَدِّ مُبايِنةٌ للحدِّ في الزِّنا[٣].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٣٦).

أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الآيةُ دالَّةٌ على بُطلانِ قَولِ مَن يقولُ: إنَّ وُقوعَ الزِّنا يُفسِدُ النِّكاحَ؛ وذلك لأنَّه يجِبُ إذا رمَاها بالزِّنا أنْ يكونَ قولُه هذا كأنَّه مُعترِفٌ بفَسادِ النِّكاحِ، حتَّى يَكونَ سَبيلُه سَبيلَ مَن يُقِرُّ بأنَّها أُخْتُه مِن الرَّضاعِ أو بأنَّها كافرةٌ، ولو كان كذلك لَوجَبَ أنْ تقَعَ الفُرقةُ بنفْسِ الرَّمي مِن قبْلِ اللِّعانِ، وقد ثبَتَ بالإجماعِ فسادُ ذلك[1].

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ليس لها مُقابِلٌ في عدَدِ شُهودِ الزِّنا، فلعلَّ حِكْمةَ زِيادةِ هذه اليمينِ مع الأيمانِ الأربَعِ القائمةِ مَقامَ الشُّهودِ الأربعةِ: أنَّها لِتَقويةِ الأيمانِ الأربَعِ، باستِذكارِ ما يترتَّبُ على أَيْمانِه إنْ كانت غَموسًا مِن الحِرمانِ مِن رَحمةِ اللهِ تعالى. وهذا هو وَجْهُ كَونِها مُخالِفةً في صِيغَتِها لصِيَغِ الشَّهاداتِ الأربَعِ الَّتي تقدَّمَتْها. وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ الأربَعَ هي المجعولةُ بدَلًا عن الشُّهودِ، وأنَّ هذه الخامسةَ تَذييلٌ للشَّهادةِ، وتَغليظٌ لها[2].

١٧- في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ دَلالةٌ على جَوازِ الاستِثناءِ في الدُّعاءِ[3].

١٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيه أنَّ لِعانَ الزَّوجِ يُوجِبُ على المرأةِ حدَّ الزِّنا، وأنَّ لها دفْعَه بأنْ تقولَ أربعَ مرَّاتٍ: أشهَدُ باللهِ إنَّه لَمِنَ الكاذبينَ، والخامسةَ: أنَّ غضَبَ اللهِ عليها

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((فتاوى أركان الإسلام)) لابن عثيمين (ص: ٤١٠).

إنْ كان مِنَ الصَّادقينَ[١].

١٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لا يجوزُ تَقديمُ لِعانِ الزَّوجةِ على لِعانِ الزَّوجِ[٢].

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لَمَّا كانت أَيْمانُ المرأةِ لِرَدِّ أيمانِ الرَّجلِ، وكانت أيمانُ الرَّجلِ بدَلًا مِنَ الشَّهادةِ وسُمِّيت شَهادةً؛ كانت أيمانُ المرأةِ -لِرَدِّها- يُناسِبُ أنْ تُسمَّى شَهادةً، ولأنَّها كالشَّهادةِ المُعارِضةِ، ولكَونِها بمَنزلةِ المُعارِضةِ؛ كانت أيمانُ المرأةِ كلُّها على إبطالِ دَعواهُ، لا على إثباتِ بَراءتِها أو صِدْقِها[٣].

٢١- قال تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لا ريبَ أنَّ المرأةَ المزوَّجةَ الزانيةَ استحقَّتِ الغضبَ لشيئَينِ: لأجْلِ ما في الزِّنا من التحريمِ، ولأنَّها اعتَدَتْ فيه على الزوجِ فأفسَدَتْ فِراشَه؛ ولهذا كان للزَّوجِ إذا قذَف امرأتَه ولم يأتِ بأربعةِ شُهداءَ أن يلاعِنَها؛ لِما له في ذلك مِن الحَقِّ، ولأنَّه مظلومٌ إذا كان صادقًا، وعليه في زناها من الضَّررِ ما يحتاجُ إلى دفعِه بما شرَعَه اللهُ، كالمقذوفِ الذي له أن يستوفيَ حَدَّ القذفِ مِن القاذِفِ الذي ظلَمَه في عِرضِه، فكذلك الزوجُ له أن يستوفيَ حَدَّ الفاحشةِ مِن البَغِيِّ الظَّالمةِ له، المُعتَديةِ عليه، كما قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حقِّ الرجُلِ على امرأتِه: ((فلا يُوطِئْنَ فُرُشَكم مَن تكرَهونَ))[٤]؛ فلهذا كان له أن يَقذِفَها ابتِداءً، وقذفُها إمَّا مباحٌ له،

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٠٨٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٩١٦٩)، وابن ماجه (١٨٥١) =

وإمَّا واجِبٌ عليه إذا احتاج إليه لنفيِ النَّسَبِ، ويَضطرُّها بذلك إلى أحدِ أمرينِ: إمَّا أن تعترفَ فيُقامَ عليها الحَدُّ، فيَكونَ قد استوفى حَقَّه، وتطهَّرت هي أيضًا من الجزاءِ لها والنَّكالِ في الآخرةِ بما حصَل. وإمَّا أن تبوءَ بغضَبِ اللهِ عليها وعقابِه في الآخرةِ الذي هو أعظَمُ مِن عقابِ الدُّنيا؛ فإنَّ الزَّوجَ مظلومٌ معها، والمظلومُ له استيفاءُ حَقِّه؛ إمَّا في الدنيا، وإمَّا في الآخرةِ، قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[1] [النساء: ١٤٨].

٢٢- قال الله تعالى: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يؤخَذُ مِن هذه الآيةِ رَدٌّ على بعضِ العلماءِ -كالمالكيَّةِ- القائلينَ: «إنَّ التخصيصَ بالشَّرطِ المتأخِّرِ لا يُفيدُ، وإنَّما يكونُ ندَمًا»؛ فإنَّهم قالوا: لو قال للمرأةِ: «أنا المخالِعُ لكِ إنْ أمضى وليُّك» حصَلتِ المخالَعةُ وإنْ لم يُمْضِ الوليُّ، بخِلافِ ما لو قال: «إنْ أمضى وليُّك فأنا المخالِعُ لكِ» فإنَّ المخالَعةَ لا تحصُلُ إذا لم يُمْضِ الوليُّ. والقرآنُ يدُلُّ على خلافِ ما ذهَبوا إليه؛ فإنَّ الشَّرطَ تأخَّرَ، وصيغةُ الفعلِ «غضب» متقدِّمةٌ، وهي تفيدُه لو تأخَّرَتْ[2].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه قد يُخَفَّفُ في التشريعِ تخفيفٌ يَلزَمُ معه قطعُ النظَرِ عن الواقعِ في نفْسِ الأمرِ؛ ففي الآيةِ تخفيفٌ اقتضَتْهُ رحمةُ اللهِ وحِكمتُه، فالأحكامُ قد تَكونُ مشروعةً تشريعًا قطعيًّا بِناءً على الظَّاهرِ، والباطنُ غيرُ صَحيحٍ[3]!

= من حديث عمرو ابن الأحوص رضي الله عنه.

قال الترمذي، وابن العربي في ((أحكام القرآن)) (٢/ ٤٥٠): (حسَنٌ صحيحٌ)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٨٥١).

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٧-٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٧).

٢٤- في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ حُجَّةٌ لِمَن يَحذِفُ مِن لفْظِ الكلامِ ما لا يَتِمُّ على الحَقيقةِ إلَّا به؛ الْتِماسَ الإيجازِ والاختِصارِ، كقولِ الشَّاعرِ:

فإنَّ المَنيَّةَ مَن يَخْشَها فسَوفَ تُصادِفُه أيْنَما[1]

لأنَّه جلَّ وتَعالى ابتدَأَ بـ﴿لوْلَا﴾، ولم يَصِلْه بشَيءٍ يكونُ تمامُه ظاهرًا في اللَّفظِ؛ فكأنَّه -واللهُ أعلَمُ-: (ولولَا فضْلُ اللهِ عليكم ورَحمتُه، وأنَّ اللهَ توَّابٌ حكيمٌ؛ لَمَا بَيَّنَ لكم هذه الأحكامَ الَّتي قَبْلَ هذا الكلامِ، ولكنْ مِن فَضْلِه عليكم بَيَّنَ لكم، وأنصَفَ المَرْمِيَّ مِن الرَّامي، وطَهَّرَ الزَّانيَ والزَّانيةَ بالجَلْدِ)، أو شَيءٌ هذا معناهُ[2].

٢٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ والموانعِ؛ لأنَّ هذه الآيةَ فيها مانِعٌ وفيها سبَبٌ؛ فالسَّببُ ذُنوبُنا وما نحنُ عليه مِنَ الأخطاءِ، والمانعُ الَّذي يَمنَعُ مِن العُقوبةِ هو فَضْلُ اللهِ ورَحمتُه[3].

٢٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فيه بَيانُ فضْلِ اللهِ ورَحمتِه على عِبادِه بالشَّرعِ والقدَرِ؛ لقولِه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾؛ فإنَّ هذا يتعلَّقُ بالشَّرعِ وبالقدَرِ؛ أمَّا بالشَّرعِ فلولا أنَّ اللهَ تفضَّلَ علينا ورَحِمَنا، وشرَعَ للأزواجِ ما شرَعَ مِن اللِّعانِ، لَكان الزَّوجُ يقَعُ في حرَجٍ عظيمٍ؛ لأنَّه إنْ تكلَّمَ يُقامُ عليه حَدُّ القذْفِ، وإنْ سكَتَ سكَتَ عن أمْرٍ عظيمٍ، لكنْ مِن رَحمةِ اللهِ وفضْلِه أنَّه شرَعَ اللِّعانَ.

---

(١) أيْنَما: المرادُ: أيْنَما ذهَب. وقائلُ البيت هو: النَّمِرُ بنُ تَوْلَبٍ. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٥٣).

كذلك في القدَرِ في قضيَّةِ المُتلاعنَينِ: أنَّه لولا أنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ السَّتْرَ، لَفضحَ المرأةَ، وأظهَرَ آيةً تدُلُّ على صِدْقِ الزَّوجِ، أو بالعكْسِ إذا كان الزَّوجُ كاذبًا، لكنْ مِن رَحمةِ اللهِ أنَّه سُبحانَه وتَعالى يَستُرُ على عِبادِه في الدُّنيا مِثْلَ هذه الأمورِ، ثمَّ يُجازيهم عليها في الآخرةِ[١].

٢٧- قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ إنَّ بادئَ الرأيِ يقتضي (توَّاب رحيم)؛ لأنَّ الرَّحمةَ مُناسِبةٌ للتوبةِ، لكنْ عبَّرَ به؛ إشارةً إلى فائدةِ مَشروعيَّةِ اللِّعانِ وحِكمتِه، وهي السَّترُ عن هذه الفاحِشةِ العَظيمةِ[٢]، وأيضًا ففي ذِكْرِ وَصْفِ (الحكيم) هنا مع وَصْفِ (تَوَّاب): إشارةٌ إلى أنَّ في هذه التَّوبةِ حِكْمةً، وهي استِصلاحُ النَّاسِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- بدأَ اللهُ سُبحانَه في اللِّعَان بذِكْرِ الزَّوجِ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٦ - ٩]، وبدأَ في حَدِّ الزنا بذِكْرِ المرأةِ، فقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾، وهذا في غايةِ المناسَبةِ؛ لأنَّ في اللِّعَانِ الزوجُ هو الذي قذَفَها، وعرَّضَها لِلِّعَانِ، وهَتَكَ عِرْضَها، ورَماها بالعَظيمةِ، وفَضحَها عندَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٩).

قَومِها وأهلِها؛ ولهذا يجبُ عليه الحَدُّ إذا لم يُلَاعِنْ؛ فكانتِ البُداءةُ به في اللِّعَان أَوْلى مِن البُداءةِ بها، وأمَّا في الزِّنا فهو مِن المرأةِ أقبَحُ منه بالرَّجُلِ؛ لأنَّها تَزيدُ على هَتْكِ حقِّ الله: إفسادَ فِراشِ بَعلِها، وتَعليقَ نَسَبٍ مِن غيرِه عليه، وفَضيحةَ أهلِها وأقاربِها، والجِنايةَ على مَحْضِ حقِّ الزَّوجِ، وخِيانتَه فيه، وإسقاطَ حُرْمتِه عندَ الناسِ، وتَعييرَه بإمساكِ البَغِيِّ، وغيرَ ذلك مِن مَفاسِدِ زِنَاها؛ فكانتِ البُداءةُ بها في الحَدِّ أهَمَّ[١].

- قَولُه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ لم يُقَيَّدْ بعَددٍ؛ اكتِفاءً بالتَّقييدِ في قَذْفِ غيرِ الزَّوجاتِ[٢].

- و﴿أَنفُسُهُمْ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿شُهَدَآءُ﴾، أو صِفَةٌ لها، على أنَّ (إلَّا) بمعنَى (غَير)؛ جُعِلوا مِن جُملةِ الشُّهداءِ؛ إيذانًا مِن أوَّلِ الأمرِ بعَدَمِ إلغاءِ قَولِهم بالمرَّةِ، ونَظْمِه في سِلْكِ الشَّهادةِ في الجُملةِ؛ وبذلك ازدادَ حُسْنُ إضافةِ الشَّهادةِ إليهم في قولِه تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾[٣].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿شُهَدَآءُ﴾؛ لظُهورِه مِنَ السِّياقِ، أي: شُهداءُ على ما ادَّعَوْهُ ممَّا رَمَوْا به أزواجَهُم[٤].

- قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أصْلُه: (على أنَّه)، فحُذِفَ الجارُّ، وكُسِرَتْ (إنَّ)، وعُلِّقَ العاملُ عنها باللَّامِ؛ للتَّأكيدِ[٥].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٨).

- قَولُه: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ﴾ فيه إفرادُ الشَّهادةِ الخامسةِ عنهُنَّ، مع كَونِها شَهادةً أيضًا؛ لاستِقلالِها بالفَحوى، ووِكادَتِها في إفادةِ ما يُقصَدُ بالشَّهادةِ مِن تَحقيقِ الخَبرِ وإظهارِ الصِّدقِ[١].

- قَولُه: ﴿أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ فيه تَعيينُ خُصوصِ اللَّعنةِ له في الدُّعاءِ؛ لأنَّه إنْ كان كاذبًا فقد عَرَّضَ بامرأتِه لِلَعْنةِ النَّاسِ ونَبْذِ الأزواجِ إيَّاها؛ فناسَبَ أنْ يكونَ جَزاؤُه اللَّعنةَ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- قَولُه: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ﴾ عُيِّنَ لها في الخامسةِ الدُّعاءُ بغضَبِ اللهِ عليها إنْ صَدَقَ زَوْجُها؛ لأنَّها أغضبَتْ زَوْجَها بفِعلِها؛ فناسَبَ أنْ يكونَ جَزاؤُها على ذلك غَضَبَ ربِّها عليها كما أغضبَتْ بَعْلَها[٣]. أو لأنَّ النِّساءَ كثيرًا ما يَستَعمِلْنَ اللَّعنَ، فربَّما يَجترِئْنَ على التَّفوُّهِ به؛ لسُقوطِ وَقْعِه عن قُلوبِهنَّ، بخِلافِ غضَبِه تعالى[٤].

وقيل: خُصَّتِ المرأةُ بالغضَبِ؛ لأنَّه أبلَغُ مِنَ اللَّعنِ الَّذي هو الطَّردُ؛ لأنَّه قد يَكونُ بسبَبٍ غيرِ الغضَبِ، وسبَبُ التَّغليظِ عليها: الحَثُّ على اعترافِها بالحقِّ؛ لِمَا يُصدِّقُ الزَّوجَ مِنَ القَرينةِ؛ مِن أنَّه لا يَتجشَّمُ فَضيحةَ أهْلِه -المُستلزِم لفَضيحَتِه- إلَّا وهو صادِقٌ[٥]، وهي تَعلمُ صِدقَه فيما رماها به؛ ولهذا كانت الخامسةُ في حقِّها أنَّ غضبَ الله عليها، والمغضوبُ عليه هو الذي يَعلَمُ الحقَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩)

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١٨)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٠١).

ثم يَحيدُ عنه[١]، ولأنَّها مادَّةُ الفسادِ، وخالِطةُ الأنسابِ[٢].

وقيل: خُصَّتِ المرأةُ بلفْظِ الغضبِ؛ لِعِظَمِ الذَّنْبِ بالنِّسبةِ إليها؛ لأنَّ الرجُلَ إذا كان كاذبًا لم يَصِلْ ذنْبُه إلى أكثرَ مِن القذْفِ، وإنْ كانت هي كاذبةً فذنْبُها أعظَمُ؛ لِمَا فيه مِن تلويثِ الفِراشِ، والتَّعرُّضِ لإلحاقِ مَن ليس مِن الزَّوجِ به؛ فتَنتشِرُ المَحْرميَّةُ، وتثبُتُ الوَلايةُ والمِيراثُ لِمَن لا يَستحِقُّهما[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ تَذييلٌ لِما مَرَّ مِن الأحكامِ العظيمةِ المُشتمِلةِ على التَّفضُّلِ مِن اللهِ والرَّحمةِ منه، والمُؤْذِنةِ بأنَّه توَّابٌ على مَن تابَ مِن عِبادِه، والمُنْبِئةِ بكَمالِ حِكْمَتِه تعالى، فلمَّا دخَلَتْ تلك الأحكامُ تحتَ كُلِّيِّ هذه الصِّفاتِ، كان ذِكْرُ الصِّفاتِ تَذييلًا[٤].

- وجَوابُ (لَوْلَا) في قولِه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ مَحذوفٌ؛ لقَصْدِ تَهويلِ مَضمونِه وتَعظيمِه؛ فيَدُلُّ تَهويلُه على تَفخيمِ مَضمونِ الشَّرطِ الَّذي كان سببًا في امتِناعِ حُصولِه[٥]، وأيضًا لِتَذهَبَ النَّفْسُ كلَّ مَذهبٍ مُمكِنٍ في تَقديرِه بحسَبِ المَقامِ[٦]. وأيضًا ثَمَّ حذْفٌ مع جَوابِ (لولا)، أي: كأنْ يُقالَ في بَيانِه: فلانٌ صادِقٌ في قذفِه فلانةَ بالزِّنا؛ لكونِ المقذوفةِ قد زَنتْ في نفْسِ الواقعِ. أو يُقال: فلانٌ كاذبٌ في قَذْفِه؛ لكونِ المقذوفةِ لم تَزْنِ في نفْسِ الواقِعِ؛ وسُدِلَ السِّتارُ على ذلك كلِّه؛ لأنَّ الغَرَضَ الأسْمى هو الصَّونُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٠١).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٨، ١٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥).

والصَّونُ يتطلَّبُ التحوُّطَ، والتَّحوُّطُ يَستدعي السُّكوتَ عمَّا لا يَحسُنُ التَّصريحُ به[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ الْتِفاتٌ؛ فقد الْتُفِتَ مِنَ الغَيبةِ إلى خِطابِ الرَّامينَ والمَرميَّاتِ؛ لتَسجيلِ المِنَّةِ على المُخاطَبِينَ، بحيثُ لا تَبقَى لدَيْهم أعذارٌ واهيةٌ يَتشبَّثون بها إذا هُم تَجاوَزوا حُدودَ ما بَيَّنه لهم[٢].

- قَولُه: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فيه ما يُعرَفُ بالتَّغليبِ؛ فقد غَلَّبَ صِيغةَ الذُّكورِ على صِيغةِ الإناثِ، حيثُ لمْ يَقُلْ: عليكُم وعليكُنَّ؛ لأنَّه بِصَددِ مُخاطَبةِ الفريقَينِ، أي: القاذِفينَ والمَقذوفاتِ[٣].

- وقد تَكرَّرَ قولُه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أربعَ مَرَّاتٍ [النور: ١٠، ١٤، ٢٠، ٢١]؛ كرَّرَه لاختِلافِ الأجوبةِ فيه؛ إذْ جَوابُ الأوَّلِ مَحذوفٌ تَقديرُه: لَفَضَحَكُم، وجوابُ الثَّاني قولُه: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤]، وجوابُ الثَّالثِ مَحذوفٌ تَقديرُه: لعَجَّلَ لكمُ العَذابَ، وجوابُ الرَّابعِ: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[٤] [النور: ٢١].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ جاءَ قولُه هنا في آخِرِ العَشْرِ الأُولى مِنَ السُّورةِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾، وقال في آخِرِ العِشرينَ مِن أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠]؛ فاختَلَفَتْ خاتِمَتَا الآيتَينِ، وحُذِفَ جَوابُ (لَوْلَا) منهُما؛ ووَجْهُه: أنه ذُكِرَ هنا وَصْفُ اللهِ بأنَّه ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾؛ لِمَا مرَّ مِن الأحكامِ العظيمةِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٦٧).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٤).

المشتملةِ على التفضُّلِ مِن الله والرحمةِ منه، والمُؤْذِنةِ بأنَّه توَّابٌ على مَن تاب مِن عبادِه، والمُنبئةِ بكمالِ حكمتِه تعالى؛ إذ وضَعَ الشِّدَّةَ مَوضعَها، والرفقَ مَوضعَه، وكفَّ بعضَ الناسِ عن بعضٍ، وذُكِرَ بعد ذلك وصْفُه بأنَّه ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأنَّ هذا التَّنبيهَ الَّذي تَضمَّنَه التَّذييلُ فيه انتِشالٌ للأُمَّةِ مِن اضْطِرابٍ عظيمٍ في أخلاقِها وآدابِها، وانفِصامِ عُرَى وَحْدَتِها، فأنقَذَها مِن ذلك رَأفةً ورَحمةً لآحادِها وجَماعتِها، وحِفْظًا لأواصِرِها. وذَكَر وَصْفَ الرَّأفةِ والرَّحمةِ هنا؛ لأنَّه قد تَقدَّمَه إنقاذُه إيَّاهُم مِن سُوءِ مَحبَّةِ أنْ تَشيعَ الفاحشةُ في الَّذين آمَنوا، تلك المَحبَّةُ الَّتي انطَوَتْ عليها ضَمائرُ المُنافِقينَ، كان إنقاذُ المُؤمِنينَ مِن التَّخلُّقِ بها رأفةً بهم مِن العذابِ، ورَحمةً لهم بثَوابِ المَتابِ[1]. وقيل غيرُ ذلك[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥، ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٥٠).

الآيات (١١-١٨)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم
مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ
يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا
لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ
لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلْإِفْكِ﴾: أي: الكَذِبِ والبُهتانِ، وقيل: الإِفْكُ: أسوأُ الكذبِ، وأصلُه يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهَتِه[1].

﴿عُصْبَةٌ﴾: العُصبةُ: الجماعةُ مِن العَشَرةِ إلى الأربعينَ، وأصلُ (عصب): يدُلُّ على ربطِ شَيءٍ بشَيءٍ[2].

﴿كِبْرَهُۥ﴾: أي: مُعظَمَه، أي: معظمَ ذلك الإثمِ والإفكِ، ومنه الكِبْرُ: وذلك أن يرى الإنسانُ نفْسَه أكبرَ مِن غيرِه، وقيلَ: الكِبْرُ: الإثمُ، وهو مِن الكبيرةِ، وأصلُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣، ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣٦).

(كبر): خِلافُ الصِّغَرِ[١].

﴿أَفَضْتُمْ﴾: أي: خُضتُم، وأصلُ (فيض): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بسُهولةٍ[٢].

﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾: أي: يُلقيه بعضُكم إلى بعضٍ، يقالُ: تلقَّيتُ الحديثَ مِن فلانٍ، أي: أخذتُه عنه فقَبِلتُه، وأصلُ التلقِّي: التكَلُّفُ لِلِقاءِ الغَيرِ[٣].

﴿هَيِّنًا﴾: يَسيرًا سَهلًا، لا تَبِعةَ فيه، وأصلُه يدلُّ على اليُسرِ والسُّهولةِ[٤].

﴿بُهْتَٰنٌ﴾: أي: افتِراءٌ وكَذِبٌ يَبهَتُ سامِعَه لفظاعتِه، يقالُ: بَهَت فلانٌ فُلانًا: إذا كذَب عليه، وأصلُه مِن قولِهم: بُهِت الرجُلُ: إذا تحيَّر؛ فالبهتانُ كَذِبٌ يُحيِّرُ الإنسانَ لعِظَمِه، ثم جُعِلَ كلُّ باطلٍ يُتحيَّرُ مِن بطلانِه بُهتانًا[٥].

﴿يَعِظُكُمُ﴾: أي: يُوصِيكُم ويُذكِّرُكم، والوَعظُ: زجرٌ مُقترِنٌ بتخويفٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٠)، ((الغريبين)) للهروي (٥/ ١٧٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٠٧)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨)، (البسيط)) للواحدي (٦/ ٤٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦ / ١٢٦)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: إنَّ الذين قذَفوا أمَّ المؤمنينَ عائِشةَ كَذِبًا وباطلًا، جماعةٌ منكم -أيُّها المُسلِمونَ-، لا تَحسَبوا قذْفَهم لها شرًّا لكم، بل هو خيرٌ لكم؛ لكلِّ فردٍ من أولئك القاذفينَ حظُّه من العذابِ بقَدْرِ جُرمِه، والذي تحمَّلَ مُعظَمَ ذلك الافتِراءِ والكَذِبِ له عذابٌ عظيمٌ. هلَّا حين سَمِعتُم ذلك الإفكَ ظننتُم -أيُّها المُؤمِنونَ والمُؤمِناتُ- بإخوانِكم وأخواتِكم خيرًا مِن العفافِ والصَّلاحِ، وقلتُم: هذا القذفُ كَذِبٌ وافتراءٌ باطِلٌ! وهلَّا جاء هؤلاء المُفتَرونَ القاذِفونَ بالباطِلِ بأربعةِ رجالٍ عُدولٍ يشهَدون على صِحَّةِ قولِهم! وما داموا لم يأتوا بالشُّهداءِ فإنَّهم -في حُكمِ الله تعالى- كاذِبونَ.

ولولا فَضلُ الله عليكم ورحمتُه بكم -بإمهالِكم للتَّوبةِ، وعدَمِ تعجيلِ العقوبةِ لكم، وعَفوِه عنكم- لنزَلَ بكم بسبَبِ خَوضِكم في حديثِ الإفكِ عذابٌ عظيمٌ حينَ تناقلتُم بيْنكم هذا الحديثَ السيِّئَ دون تحرُّجٍ أو تمهُّلٍ، وتفَوَّهتُم بكلامٍ لا عِلمَ لكم بحقيقتِه، ولا دليلَ معكم على صِدقِه، وتظنُّونَ خَوضَكم الباطِلَ هذا شيئًا يسيرًا سهلًا، وهو -عندَ اللهِ- ذنْبٌ عظيمٌ!

وهلَّا قلتُم وقتَ سماعِكم هذا الإفكَ: ما يَصِحُّ لنا أن نتكلَّم بهذا الباطِلِ، نُنزِّهُك -يا ربَّنا- ونتعجَّبُ مِن شناعةِ ما سَمِعْناه، ونبرَأُ إليك مِن هذا الافتراءِ العظيمِ! يُذَكِّرُكم اللهُ ويُحَذِّرُكم مِن العودةِ لهذا الإثمِ العظيمِ إن كنتُم مؤمنينَ بالله حقًّا، ويوضِّحُ اللهُ لكم آياتِه، واللهُ عليمٌ بأحوالِ خَلقِه، حكيمٌ فيما يأمُرُ به ويَنهى عنه.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعْدَ أنْ بيَّنَ اللهُ سبحانه وتعالى حُكْمَ القَذفِ بالنِّسبةِ للمُحصَناتِ، وبالنِّسبةِ للزَّوجاتِ، أتبَعَ ذلك بإيرادِ مثَلٍ لِما قاله المُنافِقونَ في شأنِ أمِّ المؤمِنينَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، ولِما كان يجبُ على المؤمِنينَ أن يَفعلوه في مِثلِ هذه الأحوالِ[1]. فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ...﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن الزُّهْريِّ، قال: أخبَرَني سعيدُ بنُ المسيِّبِ وعُرْوةُ بنُ الزُّبيرِ وعَلْقَمةُ بنُ وقَّاصٍ وعُبَيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عُتبةَ بنِ مَسعودٍ، عن حديثِ عائشةَ زَوجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حين قال لها أهلُ الإفكِ ما قالوا، فبَرَّأها اللهُ ممَّا قالوا، وكلُّهم حدَّثَني طائفةً مِن حديثِها، وبعضُهم كان أَوْعَى لحديثِها مِن بعضٍ، وأثبَتَ اقتِصاصًا، وقد وَعَيتُ عن كلِّ واحدٍ منهم الحديثَ الذي حدَّثني، وبعضُ حديثِهم يُصَدِّقُ بعضًا؛ ذكروا أنَّ عائشةَ زوجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قالت: ((كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أراد أن يَخرُجَ سَفرًا[2] أقرَع بيْنَ نسائِه، فأيَّتُهنَّ خرَج سهمُها خرَج بها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معه. قالت عائشةُ: فأقرَع بيْنَنا في غزوةٍ غزاها، فخرَج فيها سهمي، فخرجتُ مع رسولِ الله صلَّى

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ٩١).

(٢) سَفرًا: أي: إلى سفرٍ؛ فهو نُصِب بنزعِ الخافضِ، أو ضُمِّن (يَخرُجُ) معنَى: يُنشئ؛ فالنصبُ على المفعوليةِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٤/ ٣٩٠).

اللهُ عليه وسلَّم، وذلك بعدَما أُنزِل الحِجابُ، فأنا أُحمَلُ في هَوْدَجي[١]، وأُنزَلُ فيه مَسيرَنا، حتى إذا فَرَغ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن غَزْوِه وقَفَلَ[٢]، ودَنَوْنا مِن المدينةِ؛ آذَنَ[٣] لَيلةً بالرَّحيلِ، فقُمتُ حين آذَنوا بالرَّحيلِ، فمَشيتُ حتى جاوزتُ الجيشَ، فلمَّا قضيتُ مِن شأني أقبلتُ إلى الرَّحلِ، فلمَستُ صدري، فإذا عِقْدي مِن جَزْعِ ظَفَارِ[٤] قد انقطع، فرجعتُ، فالتمستُ عِقدي، فحبسَني ابتغاؤُه، وأقبل الرَّهطُ الذين كانوا يَرْحَلون لي[٥]، فحَمَلوا هَوْدَجي، فرَحَلوه على بعيري الذي كنتُ أركَبُ، وهم يَحسَبون أنِّي فيه -قالت: وكانت النِّساءُ إذ ذاك خِفافًا، لم يُهَبَّلْنَ[٦] ولم يَغْشَهُنَّ اللحمُ؛ إنَّما يأكُلنَ العُلْقَةَ[٧] مِن الطعامِ، فلمْ يَستنكرِ القومُ ثِقلَ الهَودَجِ حين رحَلوه ورفَعوه، وكنتُ جاريةً حديثةَ السِّنِّ- فبَعَثوا الجملَ وساروا، ووجدتُ عِقدي بعدَما استمَرَّ الجيشُ، فجِئتُ منازِلَهم وليس بها داعٍ ولا مُجيبٌ، فتيمَّمتُ[٨] منزلي الذي كنتُ فيه، وظننتُ أنَّ القومَ سيَفقِدوني فيرجِعونَ إليَّ، فبيْنا أنا جالسةٌ في منزلي غلبَتْني عيني فنِمتُ، وكان صفوانُ بنُ المُعَطَّلِ السُّلميُّ ثمَّ الذَّكْوانيُّ قد عَرَّسَ[٩] مِن وراءِ الجيشِ،

---

(١) الهَوْدَجُ: مَركَبٌ مِن مَراكِبِ النِّساءِ يكونُ على البعيرِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٤).

(٢) وقَفَل: أي: رَجَع. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٥٨).

(٣) آذَنَ: أي: أعلَمَ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٥٨).

(٤) جَزْعِ ظَفَارِ: الجَزعُ: خَرَزٌ يماني، وظَفَارِ: قَريةٌ في اليَمَنِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٤).

(٥) يَرْحَلون لي: أي: يَجعَلونَ الرَّحْلَ على البعيرِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٤).

(٦) يُهَبَّلْنَ: أي: يَثقُلْنَ باللَّحمِ والشَّحمِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٤).

(٧) العُلْقَةَ: أي: القَليلَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٤).

(٨) فتيمَّمتُ: أي: قَصَدتُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

(٩) عرَّس: التَّعريسُ: النُّزولُ آخِرَ اللَّيلِ في السَّفَرِ لِنَومٍ أو استراحةٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

فادَّلَجَ[١] فأصبَحَ عندَ منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فعرَفَني حينَ رآني -وقد كان يراني قبْلَ أن يُضرَبَ الحِجابُ علَيَّ- فاستيقظتُ باسترجاعِه حينَ عرَفَني، فخَمَّرتُ[٢] وجهي بجِلبابي، ووالله ما يُكَلِّمُني كَلِمةً، ولا سمِعْتُ منه كَلِمةً غيرَ استِرجاعِه، حتى أَناخَ[٣] راحلتَه، فوَطِئَ على يَدِها فرَكِبْتُها، فانطلَق يَقودُ بيَ الراحلةَ، حتى أَتَيْنا الجيشَ بعدَما نزَلوا مُوغِرينَ[٤] في نَحْرِ الظَّهيرةِ[٥]، فهَلَكَ مَن هلَكَ في شأني، وكان الذي تولَّى كِبْرَه عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلولَ.

فقَدِمْنا المدينةَ، فاشتكيتُ حينَ قَدِمْنا المدينةَ شَهرًا، والنَّاسُ يُفيضونَ في قَولِ أهلِ الإفكِ، ولا أَشعُرُ بشَيءٍ مِن ذلك، وهو يَرِيبُني[٦] في وَجَعي أنِّي لا أعرِفُ مِن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم اللُّطفَ الذي كنتُ أرى منه حينَ أشتكي؛ إنَّما يَدخُلُ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيُسَلِّمُ، ثمَّ يقولُ: كيف تِيكُمْ؟ فذاك يَرِيبُني، ولا أشعُرُ بالشَّرِّ.

حتى خرجتُ بعدَما نَقَهْتُ[٧]، وخرَجَتْ معي أمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَناصِعِ[٨] -وهو مُتبَرَّزُنا- ولا نخرُجُ إلَّا لَيلًا إلى لَيْلٍ، وذلك قبْلَ أن نتَّخِذَ الكُنُفَ قَريبًا

---

(١) ادَّلَجَ: أي: سار آخِرَ اللَّيلِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

(٢) فخمَّرتُ: أي: غطَّيتُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

(٣) أناخ: أي: أبرَكَ بَعيرَه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٣٩١).

(٤) مُوغِرين: الموغرُ: النازلُ في وقت الوَغْرة، وهي شِدَّةِ الحَرِّ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

(٥) نحرِ الظَّهيرةِ: أي: وقت القائلةِ وشِدَّة الحَرِّ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

(٦) يَريبُني: أي: يُوهِمُني ويُشَكِّكني. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٦).

(٧) نَقَهْتُ: بَرِئْتُ مِن المَرَضِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٦).

(٨) المَناصِعُ: مَواضِعُ خارِجَ المدينةِ كانوا يتبَرَّزونَ فيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٦).

مِن بُيوتِنا، وأمْرُنا أمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ في التنزُّهِ، وكنَّا نتأذَّى بالكُنُفِ أن نتَّخِذَها عندَ بيوتِنا، فانطلقتُ أنا وأمُّ مِسْطَحٍ -وهي بنتُ أبي رُهْمِ بنِ المُطَّلِبِ بنِ عبدِ مَنافٍ، وأمُّها ابنةُ صَخرِ ابنِ عامرٍ، خالةُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ، وابنُها مِسطَحُ بنُ أُثاثةَ بنِ عبَّادِ بنِ المُطَّلِبِ- فأقبلتُ أنا وبنتُ أبي رُهْمٍ قِبَلَ بيتي حين فرَغْنا مِن شأنِنا، فعَثَرَتْ أمُّ مِسطَحٍ في مِرْطِها[1]، فقالت: تَعِسَ مِسطَحٌ! فقلتُ لها: بئسَ ما قُلتِ! أتسُبِّينَ رجُلًا قد شَهِدَ بَدرًا؟! قالت: أيْ هَنْتَاهُ[2]، أوَلَمْ تَسمَعي ما قال؟! قلتُ: وماذا قال؟ قالت: فأخبَرَتني بقولِ أهلِ الإفكِ؛ فازددتُ مرضًا إلى مرَضي، فلمَّا رجعتُ إلى بيتي، فدخَل علَيَّ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فسلَّم، ثمَّ قال: كيف تِيكُمْ؟ قلتُ: أتأذَنُ لي أن آتيَ أبَوَيَّ؟ -قالت: وأنا حينَئذٍ أريدُ أن أتيقَّنَ الخبرَ مِن قِبَلِهما-، فأذِنَ لي رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فجِئتُ أبَوَيَّ، فقُلتُ لأمي: يا أُمَّتَاهْ، ما يتحدَّثُ الناسُ؟! فقالت: يا بُنَيَّةُ، هَوِّني عليك؛ فواللهِ لَقَلَّما كانت امرأةٌ قَطُّ وَضِيئةً[3] عندَ رجُلٍ يحِبُّها، ولها ضرائِرُ، إلاَّ كثَّرْنَ عليها، قالت: قلتُ: سُبحانَ اللهِ، وقد تحدَّث النَّاسُ بهذا؟! قالت: فبكيتُ تلك الليلةَ حتى أصبحتُ لا يَرْقأُ[4] لي دَمعٌ، ولا أكتَحِلُ بنومٍ، ثم أصبحتُ أبكي.

ودعا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عليَّ بنَ أبي طالبٍ وأُسامةَ بنَ زيدٍ حين استلبثَ الوحيُ، يستشيرُهما في فِراقِ أهلِه، قالت: فأمَّا أسامةُ بنُ زيدٍ فأشار على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالذي يَعلمُ مِن براءةِ أهلِه، وبالذي يعلَمُ في نفْسِه لهم مِن الوُدِّ، فقال: يا رسولَ اللهِ، هم أهلُك، ولا نعلمُ إلَّا خيرًا. وأمَّا

(١) مِرطِها: المِرطُ: كِساءٌ مِن صُوفٍ أو غَيرِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٧).
(٢) هَنْتَاهُ: أي: يا هذه، أو يا امرأةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٧).
(٣) وضيئةً: أي: جميلةً حَسناءَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٧).
(٤) لا يَرقأُ: أي: لا يَنقَطِعُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٧).

عليُّ بنُ أبي طالبٍ فقال: لم يُضَيِّقِ اللهُ عليك، والنِّساءُ سواها كثيرٌ، وإنْ تسألِ الجاريةَ تَصْدُقْك. قالت: فدعا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَرِيرةَ، فقال: أيْ بَرِيرةُ، هل رأيتِ مِن شَيءٍ يَرِيبُكِ مِن عائشةَ؟ قالت له بَرِيرةُ: والذي بعثَك بالحَقِّ، إنْ رأيتُ عليها أمرًا قَطُّ أَغْمِصُه[١] عليها أكثَرَ مِن أنَّها جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، تنام عن عَجينِ أهلِها، فتأتي الدَّاجِنُ[٢] فتأكُلُه. قالت: فقام رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على المِنبرِ، فاستَعْذَرَ[٣] مِن عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ ابنِ سَلولَ، قالت: فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو على المِنبرِ: يا مَعشرَ المُسلمينَ، مَن يَعذِرُني مِن رجُلٍ قد بلغ أذاه في أهلِ بيتي؟ فوالله ما عَلِمتُ على أهلي إلَّا خيرًا، ولقد ذكَروا رجلًا ما علمتُ عليه إلَّا خيرًا، وما كان يدخُلُ على أهلي إلَّا معي. فقام سعدُ بنُ معاذٍ الأنصاريُّ، فقال: أنا أَعذِرُك منه يا رسولَ اللهِ، إن كان مِن الأَوسِ ضَرَبْنا عُنُقَه، وإن كان مِن إخوانِنا الخَزرجِ أمَرْتَنا ففعَلْنا أمْرَك، قالت: فقام سعدُ بنُ عُبادةَ -وهو سَيِّدُ الخَزرجِ، وكان رجلًا صالِحًا، ولكِنِ اجتَهَلَتْه الحَمِيَّةُ[٤]- فقال لسَعدِ بنِ مُعاذٍ: كذَبْتَ، لعَمْرُ اللهِ[٥] لا تقتُلُه، ولا تقدِرُ على قَتلِه! فقام أُسَيْدُ بنُ حُضَيرٍ -وهو ابنُ عَمِّ سعدِ بنِ مُعاذ- فقال لسَعدِ بنِ عُبادةَ: كذَبْتَ، لَعَمْرُ اللهِ لنَقتُلَنَّه؛ فإنَّك منافِقٌ تجادِلُ عن المنافقين! فثار الحَيَّانِ: الأَوسُ والخزرجُ، حتى هَمُّوا أن يَقتَتِلوا، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائِمٌ على المِنبَر، فلم يزَلْ

---

(١) أغمِصُه عليها: أي: أعيبُها به. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٩).

(٢) الدَّاجِنُ: أي: الشاةُ التي تألَفُ البَيتَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٩).

(٣) فاستعذر: أي: قال مَن يقومُ بعُذري إن كافأتُه على قبيحِ فِعالِه ولا يلومُني، أو من ينصُرُني؟ يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٩).

(٤) اجتَهَلَتْه: أي: استَخَفَّتْه وأغضَبَتْه وحَمَلَتْه على الجَهلِ. والحَمِيَّةُ: أي: العَصبيَّةُ والأنفَةُ والغَضَبُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٢٢)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١١٠).

(٥) لعَمْرُ اللهِ: هو قَسَمٌ ببَقاءِ اللهِ تعالى ودَوامِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٩٨).

رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخَفِّضُهم[١] حتى سكَتوا وسكَتَ.

قالت: وبكيتُ يَومي ذلك لا يَرْقأُ لي دمعٌ، ولا أكتَحِلُ بنومٍ، ثمَّ بكيتُ ليلتي المُقبِلةَ لا يَرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتَحِلُ بنومٍ، وأبَوايَ يَظُنَّانِ أنَّ البكاءَ فالِقٌ كَبِدي، فبيْنما هما جالِسانِ عندي وأنا أبكي استأذَنَتْ علَيَّ امرأةٌ من الأنصارِ، فأذِنتُ لها، فجَلَسَت تبكي. قالت: فبيْنا نحنُ على ذلك دخَلَ علينا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فسَلَّم ثمَّ جلس، قالت: ولم يجلِسْ عندي منذُ قيلَ لي ما قيل، وقد لَبِث شَهرًا لا يُوحَى إليه في شأني بشَيءٍ. قالت: فتشهَّدَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ جلَس، ثمَّ قال: أمَّا بعدُ، يا عائشةُ، فإنَّه قد بلغَني عنكِ كذا وكذا، فإنْ كُنتِ بريئةً فسيُبَرِّئُك اللهُ، وإن كنتِ ألممْتِ[٢] بذنْبٍ فاستغفري اللهَ وتوبي إليه؛ فإنَّ العبدَ إذا اعترَف بذنبٍ ثم تاب، تاب الله عليه. قالت: فلمَّا قضى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مقالتَه، قَلَصَ[٣] دمعي حتى ما أُحِسُّ منه قطرةً! فقلتُ لأبي: أجِبْ عنِّي رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما قال، فقال: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! فقلتُ لأمي: أجيبي عنِّي رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! فقلتُ -وأنا جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، لا أقرأُ كثيرًا مِن القرآنِ-: إنِّي واللهِ لقد عرَفْتُ أنَّكم قد سمِعتُم بهذا حتى استقَرَّ في نفوسِكم، وصدَّقتُم به، فإنْ قلتُ لكم: إنِّي بريئةٌ -واللهُ يعلمُ أنِّي بريئةٌ- لا تُصَدِّقوني بذلك، ولئنْ اعترَفْتُ لكم بأمرٍ -واللهُ يعلمُ أنِّي بريئةٌ- لَتُصدِّقونَني! وإنِّي واللهِ ما أجِدُ لي ولكم مثلًا إلَّا كما قال أبو يوسفَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:

(١) يُخفِّضُهم: أي: يُسَكِّنُهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٥٨).

(٢) ألممْتِ: أي: فعَلْتِ ذَنبًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١١١).

(٣) قلَصَ: أي: استمسَك نزولُه فانقَطَع. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٧٥).

١٨]، قالت: ثمَّ تحوَّلتُ فاضْطَجَعتُ على فِراشي.

قالت: وأنا -واللهِ- حينَئذٍ أعلَمُ أنِّي بريئةٌ، وأنَّ اللهَ مُبَرِّئي ببَراءتي، ولكِنْ واللهِ ما كنتُ أظُنُّ أن يُنزَلَ في شأني وحْيٌ يُتلَى، ولَشَأني كان أحقَرَ في نفْسي مِن أن يتكلَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيَّ بأمرٍ يُتلى! ولكنِّي كنتُ أرجو أن يرَى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النَّومِ رُؤيا يُبَرِّئُني اللهُ بها. قالت: فواللهِ ما رامَ[١] رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مجلِسَه، ولا خرَج مِن أهلِ البَيتِ أحدٌ حتى أنزَل اللهُ عزَّ وجَلَّ على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخَذه ما كان يأخُذُه مِن البُرَحاءِ[٢] عندَ الوَحيِ، حتى إنَّه لَيَتحَدَّرُ منه مِثلُ الجُمَانِ[٣] مِن العَرَقِ في اليومِ الشَّاتِ؛ مِن ثِقَلِ القَولِ الذي أُنزِلَ عليه، قالت: فلمَّا سُرِّيَ[٤] عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يضحَكُ، فكان أوَّلَ كَلِمةٍ تكلَّمَ بها أنْ قال: أَبْشِري يا عائشةُ، أمَّا اللهُ فقد برَّأكِ! فقالت لي أمِّي: قُومي إليه، فقلتُ: واللهِ لا أقومُ إليه، ولا أحمَدُ إلَّا اللهَ؛ هو الذي أنزل براءتي! قالت: فأنزل اللهُ عَزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ [النور: ١١] عشْرَ آياتٍ، فأنزل اللهُ عَزَّ وجَلَّ هؤلاء الآياتِ براءتي.

قالت: فقال أبو بكرٍ -وكان يُنفِقُ على مِسْطَحٍ؛ لقَرابتِه منه وفَقرِه-: واللهِ لا أُنفِقُ عليه شيئًا أبدًا بعدَ الذي قال لعائشةَ؛ فأنزَل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٢]...، فقال أبو بكرٍ: واللهِ إنِّي لَأُحِبُّ أن يغفِرَ اللهُ لي، فرجَع إلى مِسطَحٍ النَّفقةَ التي كان يُنفِقُ عليه، وقال:

---

(١) ما رام: أي: ما فارق. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٧٦).

(٢) البُرَحاءِ: أي: شِدَّةِ الحُمَّى أو شِدَّةِ الكَربِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٧٦).

(٣) الجُمَانِ: أي: اللُّؤلؤِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٧٦).

(٤) سُرِّيَ: أَيْ: كُشِفَ وأُزيلَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١١٢).

لا أَنزِعُها منه أبدًا.

قالت عائشةُ: وكان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سأل زينبَ بنتَ جَحشٍ زوجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن أمري: ما عَلِمْتِ؟ -أو: ما رأيتِ؟- فقالت: يا رسولَ اللهِ، أَحْمي سَمعي وبصري، واللهِ ما عَلِمتُ إلَّا خيرًا. قالت عائشةُ: وهي التي كانت تُسامِيني[1] مِن أزواجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فعصَمَها اللهُ بالوَرَعِ، وطَفِقَتْ أختُها حَمْنةُ بنتُ جَحشٍ تُحارِبُ لها، فهلَكَت فيمَن هلَكَ)). قال الزُّهْريُّ: فهذا ما انتهى إلينا مِن أمرِ هؤلاءِ الرَّهطِ[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾.

أي: إنَّ الذين جاؤوا بالبُهتانِ والكَذِبِ الشَّنيعِ بقَذفِهم عائشةَ، جماعةٌ في عدادِكم، أيُّها المُسلِمونَ[3].

﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾.

أي: لا تظنُّوا قَذْفَهم لها شَرًّا لكم، بل هو خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخرةِ[4].

---

(١) تُساميني: أي: تُعاليني. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٧٨).

(٢) رواه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠) واللفظُ له.

قال ابنُ الجوزي: (أجمع المفسِّرون أنَّ هذه الآيةَ وما يتعلَّقُ بها بعدَها نزلت في قصَّةِ عائشةَ رضيَ الله عنها). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٢). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٢١-٢٢٣).

قال ابنُ كثير: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ﴾ أي: جماعةٌ منكم، يعني: ما هو واحِدٌ ولا اثنانِ، بل جماعةٌ، فكان المقَدَّمُ في هذه اللَّعنةِ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلولَ: رأسَ المنافقين؛ فإنَّه كان يجمَعُه ويستوشيه، حتى دخَل ذلك في أذهانِ بعضِ المسلِمينَ، فتكَلَّموا به، وجوَّزه آخرون منهم، وبقِي الأمرُ كذلك قريبًا من شهرٍ، حتى نزَل القرآنُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٩٨)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾.

أي: لكلِّ واحدٍ ممَّن تكلَّم بالإفكِ نَصيبُه مِن العذابِ؛ جزاءً له بقَدرِ ذَنبِه[1].

= كثير)) (٦/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٢١-٢٢٣).

قال ابن عاشور: (خيرٌ لهم؛ لأنَّ فيه منافِعَ كثيرةً؛ إذ يميَّزُ به المؤمنون الخُلَّصُ مِن المنافقين، وتُشرَعُ لهم بسبَبِه أحكامٌ تردَعُ أهلَ الفِسقِ عن فِسقِهم، وتتبيَّنُ منه براءةُ فُضَلائِهم، ويزدادُ المنافِقونَ غيظًا، ويُصبِحونَ محقَّرينَ مذمومينَ، ولا يفرحون بظَنِّهم حُزْنَ المسلمين؛ فإنَّهم لَمَّا اختلَقوا هذا الخبَرَ ما أرادوا إلَّا أذَى المسلمينَ، وتجيءُ منه مُعجزاتٌ بنزولِ هذه الآياتِ بالإنباء بالغيبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

وقال ابنُ جُزي: (والخيرُ في ذلك من خمسةِ أوجُهٍ: تَبرِئةُ أمِّ المؤمنينَ، وكرامةُ اللهِ لها بإنزالِ الوَحيِ في شأنِها، والأجرُ الجزيلُ لها في الفِرْيةِ عليها، ومَوعِظةُ المؤمِنينَ، والانتِقامُ مِن المُفتَرينَ). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ١٢١٧).

وقال ابن الأثير: (قال عروةُ: لو لم يكُنْ لعائشةَ مِن الفضائلِ إلَّا قصةُ الإفكِ لكفَى بها فضلًا وعلوَّ مجدٍ؛ فإنَّها نزَل فيها مِن القرآنِ ما يُتلَى إلى يومِ القيامةِ). ((أسد الغابة)) (٦/ ١٩١).

ومِن أوجُهِ الخَيريَّةِ أيضًا: أنَّه ظهر بذلك نقاءُ وطُهرُ فِراشِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه لا يُمكِنُ لِفراشِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَتدَنَّس بهذا.

ومنها: الأجرُ العظيمُ الذي ترتَّب على ما أصاب المؤمِنينَ في هذه الحادثةِ مِنَ الأذى والمشقَّةِ والجَهدِ الجَهيدِ، حتى إنَّه مِن حِكمةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ أنَّ الوَحيَ انقطَعَ شَهرًا كامِلًا!

ومنها: رِفعةُ شأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِكَونِ اللهِ سُبحانَه وتعالى يدافِعُ بنَفْسِه عنه.

ومنها: تأديبُ المؤمنينَ وعِظَتُهم بما يَنبغي أن يَكونوا عليه مِن عدَمِ إطلاقِ القَولِ والتَّجَرُّؤِ على أعراضِ الأعِفَّاءِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٢)، ((الوسيط)) =

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: والذي تحمَّل مُعظَمَ ذلك الإثمِ والإفكِ، له عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ[١].

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى قِصَّةَ الإفكِ، وذكَرَ حالَ المقذوفينَ والقاذفينَ؛ عقَّبَها بما يليقُ بها مِن الآدابِ والزَّواجرِ[٢].

وأيضًا لَمَّا أخبر اللهُ سُبحانَه وتعالى بعقابِ أهلِ الإفكِ، وكان في المؤمنينَ

= للواحدي (٣/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٩١، ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

وقال ابن كثير: (﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ قيل: ابتدأ به. وقيل: الذي كان يجمَعُه ويَستوشيه ويُذيعُه ويُشيعُه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥).

قال ابنُ جرير: (لا خِلافَ بيْن أهلِ العِلمِ بالسِّيَرِ أنَّ الذي بدأ بذكْرِ الإفكِ، وكان يجمعُ أهلَه ويحدِّثُهم: عبدُ الله بنُ أبيٍّ ابنُ سَلولَ، وفِعلُه ذلك على ما وصفتُ كان تولِّيَه كِبْرَ ذلك الأمرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٩٧).

وقال ابن عطية: (والإشارةُ بقَولِه: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ إلى عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ، والعذابُ المتوَعَّدُ به هو عذابُ الآخرةِ، وهذا قولُ الجمهورِ، وهو ظاهِرُ الحديثِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦٩)

وممَّن نسَبَ إلى الأكثرينَ أيضًا أنَّه عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ: السمعانيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥).

قال ابنُ كثيرٍ: (وقيل: بل المرادُ به حسَّانُ بنُ ثابتٍ، وهو قولٌ غريبٌ، ولولا أنَّه وقَع في صحيح البخاريِّ ما قد يدُلُّ على ذلك لَمَا كان لإيرادِه كبيرُ فائدةٍ؛ فإنَّه مِنَ الصحابةِ الذين كان لهم فضائلُ ومناقبُ ومآثرُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٠).

مَن سَمِعَه وسكَت، وفيهم مَن سَمِعه فتحَدَّث به متعجِّبًا مِن قائِلِه، أو متثبِّتًا في أمرِه، وفيهم مَن أكذَبه- أتْبَعه سُبحانَه وتعالى بعتابِهم في أسلوبِ خطابِهم، مُثنيًا على مَن كذَّبه، فقال مُستأنفًا مُحرِّضًا[١]:

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

أي: هلَّا حين سَمِعتُم قولَ أهلِ الإفكِ ظَنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهم ببعضٍ السلامةَ مما رُمُوا به مِن الإفكِ[٢]!

﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: وقال المؤمنونَ والمؤمناتُ: هذا الذي يقولُه أهلُ الإفكِ كَذِبٌ واضِحٌ على أُمِّ المؤمنينَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٤).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: ظنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بإخوانِهم وأهلِ دينِهم الذين هم منهم مِن المؤمنينَ والمؤمناتِ خيرًا: ابنُ جرير، والزجَّاجُ، ومكِّي، والسمعانيُّ، والبغوي، والبيضاوي، والنسفي، والسعدي، والشنقيطي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٦)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّه كان يَنبغي أن يَقيسَ فُضلاءُ المؤمنينَ والمؤمناتِ الأمرَ على أنفُسِهم، وإذا كان ذلك يَبعُدُ في حقِّهم، فهو في حقِّ عائشةَ أَبْعَدُ؛ لفَضلِها: ابنُ عطية، وابنُ جزي، وابن كثير، والثعالبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير أبي =

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾.

أي: هلَّا جاء أهلُ الإفكِ بأربعةِ رِجالٍ عُدولٍ يَشهَدونَ على صِحَّةِ ما رَمَوا به عائشةَ رَضِي اللهُ عنها[1]!

﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

أي: فإذ لم يأتِ القاذِفون بأربعةِ شُهَداءَ يَشهَدونَ على صِحَّةِ ما قالوا، فإنَّهم في حُكمِ اللهِ كاذِبونَ[2].

= السعود)) (٦/ ١٦١).

قال ابنُ كثير: (﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كَذِبٌ ظاهِرٌ على أمِّ المؤمنينَ؛ فإنَّ الذي وقع لم يكن ريبةً، وذلك أنَّ مجيءَ أمِّ المؤمنين راكبةً جَهرةً على راحلةِ صفوانَ بنِ المُعطِّلِ في وقتِ الظَّهيرةِ، والجيشُ بكمالِه يُشاهِدونَ ذلك، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيْن أظهُرِهم، لو كان هذا الأمرُ فيه ريبةٌ لم يكنْ هكذا جهرةً، ولا كانا يَقدَمانِ على مِثلِ ذلك على رؤوسِ الأشهادِ، بل كان يكونُ هذا -لو قُدِّرَ- خُفيةً مستورًا؛ فتعيَّن أنَّ ما جاء به أهلُ الإفك ممَّا رَمَوا به أمَّ المؤمنينَ هو الكَذِبُ البَحتُ، والقولُ الزورُ، والرُّعونةُ الفاحشةُ الفاجرةُ، والصفقةُ الخاسرةُ!). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

قال القرطبي: (قد يعجِزُ الرجلُ عن إقامةِ البيِّنة وهو صادقٌ في قذفِه، ولكنَّه في حُكمِ الشَّرع وظاهِرِ الأمرِ كاذبٌ، لا في علم الله تعالى، وهو سبحانَه إنَّما رتَّب الحدودَ على حُكمِه الذي شرعه في الدُّنيا لا على مقتضى عِلمِه... وأجمع العُلَماءُ أنَّ أحكامَ الدُّنيا على الظاهر، وأنَّ السَّرائرَ إلى الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٣).

وقال ابنُ تيمية: (القاذِفُ كاذِبٌ، ولو كان قد قذَف مَن زنى في نفسِ الأمرِ؛ لأنَّه أخبَر بما =

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى لهم بإقامةِ الدَّليلِ على كَذِبِ الخائضينَ في هذا الكلامِ أنَّهم استحَقُّوا الملامَ، وكان ذلك مرَغِّبًا لأهلِ التقوى؛ بيَّن أنَّهم استحقُّوا بالتقصيرِ في الإنكارِ عمومَ الانتقامِ في سياقٍ مُبَشِّرٍ بالعفوِ[1]، فقال تعالى:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

أي: ولولا فضلُ الله عليكم -أيُّها الخائضون في الإفكِ- ورحمتُه بكم في الدُّنيا والآخرةِ، بإمهالِه لكم لتتوبوا، وقَبولِ توبتِكم، وعَفوِه عنكم، وعدَمِ معُاجلتِكم بالعقوبةِ- لأصابَكم بسبَبِ خوضِكم في عِرضِ عائشةَ عذابٌ عظيمٌ[2].

= لا يحلُّ له الإخبارُ به، وتكلَّف ما لا عِلمَ له به). ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٣٧١).

وقال السعدي: (فإنَّهم كاذبونَ في حُكمِ الله؛ لأنَّ الله حرَّم عليهم التكلُّمَ بذلك، مِن دونِ أربعةِ شهودٍ؛ ولهذا قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ ولم يقل «فأولئك هم الكاذبون» وهذا كلُّه من تعظيمِ حُرمةِ عِرضِ المسلمِ؛ بحيث لا يجوزُ الإقدامُ على رميه، مِن دون نصابِ الشَّهادةِ بالصِّدقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

قال ابنُ كثير: (وهذا فيمن عندَه إيمانٌ رزقه اللهُ بسبَبِه التوبةَ إليه؛ كمِسطحٍ، وحسانَ، وحَمْنةَ بنتِ جحشٍ أختِ زينبَ بنتِ جحش. فأمَّا مَن خاض فيه مِن المنافقين -كعبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ وأضرابِه- فليس أولئك مرادينَ في هذه الآيةِ؛ لأنَّه ليس عندَهم مِن الإيمانِ والعملِ الصالحِ ما يُعادِلُ هذا ولا ما يُعارِضُه، وهكذا شأنُ ما يَرِدُ مِن الوعيدِ على فِعلٍ معيَّنٍ، يكونُ مطْلَقًا =

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾.

أي: لَمَسَّكم عذابٌ عظيمٌ حين تتلقَّونَ الإفكَ، ويأخُذُه ويَرويه بعضُكم عن بعضٍ[1].

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

أي: وتقولونَ في عائشةَ كلامًا ليس لكم أيُّ دليلٍ على صحَّتِه[2]!

﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

= مشروطًا بعدمِ التوبةِ، أو ما يقابِلُه مِن عملٍ صالحٍ يوازنُه أو يرجَحُ عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٣، ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

قال ابن الجوزي: (ذَكَرَ الوقتَ الذي لولا فَضلُه لأصابهم فيه العذابُ، فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾، وكان الرجُلُ منهم يَلْقى الرجُلَ فيقولُ: بلَغَني كذا، فيتلقَّاه بعضُهم من بعضٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨)، ((السراج المنير)) للشربيني (٢/ ٦٠٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فهذا بيانٌ لسببِ العذابِ، وهو تلقِّي الباطِلِ بالألسنةِ، والقَولِ بالأفواه، وهما نوعانِ محرَّمانِ: القولُ بالباطلِ، والقولُ بلا علمٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٣١).

وقال ابن جُزي: (في هذا الكلامِ عِتابٌ لهم على خوضِهم في حديثِ الإفكِ، وإن كانوا لم يُصَدِّقوه؛ فإنَّ الواجِبَ كان الإغضاءَ عن ذِكرِه، والتركَ له بالكلِّيَّةِ، فعاتَبَهم على ثلاثةِ أشياءَ، وهي: تلقِّيهِ بالألسنةِ، أي: السؤالُ عنه، وأخْذُه مِن المسؤولِ، والثاني: قولُهم ذلك، والثالث: أنهم حَسِبوه هيِّنًا، وهو عندَ الله عظيمٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٣، ٦٤).

أي: وتَظُنُّونَ أنَّ تلقِّيَكم الإفكَ، وروايةَ بَعضِكم له عن بعضٍ، والخوضَ فيه بلا علمٍ- أمرٌ سهلٌ يسيرٌ، وهو عندَ اللهِ ذنْبٌ عظيمٌ مِن كبائِرِ الذُّنوبِ[١]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ٢٣].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اجتَنِبوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ[٢]، قيل: يا رسولَ اللهِ، وما هُنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتلُ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ إلا بالحقِّ، وأكلُ مالِ اليتيمِ، وأكلُ الرِّبا، والتولِّي يومَ الزَّحفِ[٣]، وقَذفُ المُحصَناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ))[٤].

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾.

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾.

أي: وهلَّا حين سَمِعتُم الإفكَ قلتُم: ما يَنبغي لنا أن نتكلَّمَ بهذا الباطِلِ أو نذكُرَه لأحدٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨).

(٢) المُوبقاتِ: أي: المُهلِكاتِ. يُنظر: ((إكمال المُعْلِم)) للقاضي عياض (١/ ٣٥٦).

(٣) التولِّي يومَ الزَّحفِ: أي: الإعراضُ عن الحَربِ، والفِرارُ مِن الكُفَّارِ. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٢/ ٥٠٥)، ((عمدة القاري)) للعَيني (١٤/ ٦٢).

(٤) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) واللفظُ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٠).

قال ابن كثير: (هذا تأديبٌ آخَرُ بعد الأوَّلِ: الأمرِ بالظنِّ خيرًا، أي: إذا ذُكِرَ ما لا يَليقُ من القولِ في شأنِ الخِيَرَةِ، فأَوْلى يَنبغي الظَّنُّ بهم خيرًا، وألا يُشعِرَ نفْسَه سوى ذلك، ثم إن عَلِقَ بنفْسِه شَيءٌ من ذلك -وسوسةٌ أو خيالٌ- فلا يَنبغي أن يتكلَّم به). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩). =

﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾.

أي: ننزِّهُك -يا ربَّنا- ونبرأُ إليك من هذا الكَذِبِ العظيمِ[(١)]!

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧﴾.

أي: يَنصَحُكم اللهُ ويُذَكِّرُكم ويَنهاكم؛ لئلَّا تَعودُوا لِقَذفِ المُحصَناتِ، والخَوضِ في أعراضِهنَّ بلا عِلمٍ، إن كنتُم مؤمنينَ باللهِ وشَرعِه، وتتَّعظونَ بِعِظاتِه، فتنتهُون عمَّا نهاكم عنه، وتأتمِرون بأمرِه[(٢)].

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٨﴾.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾.

أي: ويوضِّحُ اللهُ لكم آياتِ كتابِه، فيَجعَلُها لكم واضِحةَ الدَّلالةِ على المقصودِ؛ لتَعمَلوا بها وتتَّعِظوا[(٣)].

= وقال ابن عاشور: (معنى ﴿قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ أن يقولوا لِلَّذينَ أخبَروهم بهذا الخبرِ الآفِك، أي: قلتُم لهم زجرًا وموعِظةً. وضميرُ ﴿لَنَآ﴾ مرادٌ به القائِلون والمخاطَبون؛ فأمَّا المخاطَبون فلأنَّهم تكلَّموا به حين حدَّثوهم بخبرِ الإفكِ، والمعنى: ما يَكونُ لكم أن تتكلَّموا بهذا. وأمَّا المتكَلِّمون فلِتنزُّهِهم مِن أن يجريَ ذلك البهتانُ على ألسنَتِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

قال الشوكاني: (وعظ سُبحانَه الذين خاضوا في الإفكِ، فقال: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: ينصَحُكم اللهُ، أو يُحَرِّمُ عليكم، أو يَنهاكم؛ كراهةَ أن تعودوا، أو مِن أن تعودوا، أو في أن تعودوا لمِثلِ هذا القذفِ مُدَّةَ حياتِكم إن كنتم مؤمِنينَ؛ فإنَّ الإيمانَ يَقتضي عدَمَ الوقوعِ في مِثلِه ما دمتُم، وفيه تهييجٌ عَظيمٌ، وتقريعٌ بالغٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بعبادِه وما يُصلِحُهم، وعِلمُه بأعمالِهم، فيُجازي كلًّا بما قدَّم مِن خيرٍ أو شرٍّ، وهو ذو الحكمةِ التامَّةِ العامَّةِ، ومِن ذلك حكمتُه في شرعِه، وتكليفِ عِبادِه، وتدبيرِ خَلقِه، فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللائِقِ به[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ حَقَّ المؤمِنِ إذا سَمِعَ قالةً في أخيه أن يبنيَ الأمرَ فيه على ظَنِّ الخيرِ، وأن يقولَ بِناءً على ظنِّه: هذا إفكٌ مُبينٌ، هكذا باللَّفظِ الصَّريحِ ببراءةِ أخيه، كما يقولُ المُستيقنُ المطَّلِعُ على حقيقةِ الحالِ، وهذا مِن الأدبِ الحسَنِ[(٢)]، فالواجِبُ على المؤمِنين إذا سَمِعوا قَولَ القاذِفِ أن يُكَذِّبوه، ويَشتَغِلوا بإحسانِ الظَّنِّ، ولا يُسرِعوا إلى التُّهمةِ فيمن عرَفوا فيه الطَّهارةَ[(٣)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ يدُلُّ على أنَّ الواجِبَ فيمن كان ظاهِرُه العدالةَ أن يُظَنَّ به خيرٌ،

= (٦/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٣).

قال البِقَاعي: (﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ أي: بما له مِن الاتِّصافِ بصِفاتِ الجلالِ والإكرامِ ﴿لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: العلاماتِ الموضِّحةَ للحَقِّ والباطِلِ، مِن كُلِّ أمرٍ دينيٍّ أو دُنيويٍّ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤١).

ويوجِبُ أن تكونَ عُقودُ المسلمين وتصَرُّفاتُهم محمولةً على الصِّحَّةِ والجوازِ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ المسلمينَ عُدولٌ ما لم يظهَرْ منهم رِيبةٌ؛ لأنَّا مأمورونَ بحُسنِ الظَّنِّ، وذلك يوجِبُ قَبولَ الشهادةِ ما لم يَظهَرْ منه ريبةٌ توجِبُ التوقُّفَ عنها أو ردَّها[٢].

٤- في قولِه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ دليلٌ على أنَّ التصديقَ بالذَّايعِ مِن الخبرِ المُنْكَرِ والنِّحلةِ الفاحشةِ إلى المُخْبَرِ عنه- مُحَرَّمٌ؛ وهو مُوجِبٌ على سامعِه إعدادَه في وجوهِ الكذبِ والزُّورِ، بل لازمٌ له أن يَلفِظَ بتكذيبِه، ولا يقتصرَ على إضمارِ القلبِ ونُبُوِّه عنه[٣]!

٥- قَولُه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ فيه تحريمُ ظَنِّ السُّوءِ، وأنَّه لا يُحكَمُ بالظنِّ[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ فيه أنَّ مَن عُرِف بالصلاحِ لا يُعدَلُ به عنه لخبرٍ مُحتَمَلٍ، وأنَّ القاذِفَ يُكذَّبُ شرعًا ما لم يأتِ بالشُّهَداءِ[٥].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ جعَل اللهُ الخطابَ عامًّا مع المؤمنين كلِّهم، وأخبر تعالى أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قَدْحَ بعضِهم ببعضٍ كقَدحٍ في أنفُسِهم -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-؛ ففيه أنَّ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم، واجتماعِهم على مصالحِهم- كالجَسَدِ الواحِدِ؛ والمؤمِنَ للمؤمِنِ كالبُنيانِ، يَشُدُّ بعضُه بعضًا، فكما أنَّه يُكرهُ أن يقدَحَ أحَدٌ في عِرضِه، فلْيَكرَهْ مِن كلِّ أحدٍ أن يَقدحَ في أخيه المؤمِنِ الذي بمنزلةِ نفْسِه، وما لم يَصِلِ العبدُ إلى هذه الحالةِ فإنَّه مِن نقصِ إيمانِه، وعدَمِ نُصحِه[١]!

٨- وفي عَطْفِ ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ على قولِه: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ تَشريعٌ لوُجوبِ المُبادَرةِ بإنكارِ ما يَسمَعُه المُسلِمُ مِن الطَّعنِ في المُسلِمِ بالقَولِ كما يُنكِرُه بالظَّنِّ، وكذلك تَغييرُ المُنكَرِ بالقلبِ واللِّسانِ[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ في هذا تربيةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ تُفيدُ أنَّ الإنسانَ يتثبَّتُ فيما يقولُ؛ لِيَكونَ قولُه معتبرًا، ولِيَسْلَمَ مِن إثمِ القولِ بلا علمٍ، لا سيَّما إذا كان القولُ على الله؛ فإنَّه لا أحدَ أظلَمُ ممَّن افترَى على الله كذبًا، أو كان القولُ في النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وآلِ بيتِه وأصحابِه[٣]. ففيه مِن الأدَبِ الأخلاقيِّ أنَّ المرءَ لا يقولُ بلِسانِه إلاَّ ما يعلَمُه ويتحَقَّقُه، وإلَّا فهو أحدُ رجُلين: أَفِنٌ[٤] الرأيِ، يقولُ الشَّيءَ قبْلَ أن يتبيَّنَ له الأمرُ، فيُوشِكُ أن يقولَ الكَذِبَ فيَحسَبَه النَّاسُ كذَّابًا، وفي الحديثِ: ((كفَى بالمرءِ كذبًا أن يحَدِّثَ بكُلِّ ما سمِعَ))[٥]، أو رجُلٌ مُمَوِّهٌ مُراءٍ، يقولُ ما يعتَقِدُ خِلافَه؛ قال

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٨٤).

(٤) أفِنُ: الأفَنُ: النَّقصُ. ورجُلٌ أفينٌ ومأفونٌ، أي: ناقِصُ العقلِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٥٧).

(٥) أخرجه مسلم (٥).

تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، وقال: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣]. هذا في الخبرِ، وكذلك الشأنُ في الوعدِ، فلا يَعِدُ إلَّا بما يعلَمُ أنَّه يستطيعُ الوفاءَ به، وفي الحديثِ: ((آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أخلفَ، وإذا ائتُمِنَ خان))[١].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ يُرشِدُ إلى أنَّ الواجِبَ على المكلَّفِ في كلِّ محرَّمٍ أن يَستعظِمَ الإقدامَ عليه؛ إذ لا يأمَنُ أنَّه من الكبائرِ[٢]، فهذا فيه الزَّجرُ البليغُ عن تعاطي بعضِ الذنوبِ على وجهِ التَّهاونِ بها؛ فإنَّ العبدَ لا يُفيدُه حسبانُه شيئًا، ولا يُخفِّفُ مِن عقوبةِ الذَّنبِ، بل يُضاعفُ الذَّنبَ، ويُسهِّلُ عليه مواقعتَه مرَّةً أُخرَى[٣].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ فيه مِن أدبِ الشريعةِ أنَّ احترامَ القوانينِ الشرعيَّةِ يجبُ أن يكونَ سواءً في الغَيبةِ والحضرةِ، والسرِّ والعلانيةِ[٤].

١٢- قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ وصْفُ اللهِ سُبحانَه وتعالى أو ذِكرُه ينبغي أن يُذكَرَ في كلِّ مَحَلٍّ بما يُناسبُه؛ فعندَما يكونُ الأمرُ يقتضي انتِقاصَ اللهِ عزَّ وجلَّ نأتي بالتَّسبيحِ، وعندَما يكونُ الأمرُ موجِبًا لإظهارِ فضْلِ اللهِ ورحمتِه نأتي بالحَمدِ، وعندَما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٨).

والحديث أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٩).

يَشعُرُ الإنسانُ في نَفْسِه بعُلُوٍّ يأتي بالتَّكبيرِ؛ ولهذا كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم وجيوشُه إذا علَوُا الثَّنايا كبَّروا، وإذا هبَطوا سبَّحوا[١]، فالإنسانُ عندَما يَعلو يَشعُرُ في نَفسِه بالكبرياءِ، فيُكَبِّرُ اللهَ، وعندما يَهْبِطُ فيقتضي أنْ يُسَبِّحَ اللهَ؛ لِيُنزِّهَه عن السُّفُولِ[٢].

١٣- قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ فلا يَنبغي لمن يؤمِنُ باللهِ تعالى ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يخالِجَ قلبَه بعدَ الوقوفِ على الآياتِ والأخبارِ شَكٌّ في طهارةِ نساءِ الأنبياءِ -عليهم الصلاةُ والسَّلامُ- عن الفُجورِ في حياةِ أزواجِهنَّ، وبعدَ وفاتِهم عنهنَّ[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ دَلالةٌ على أنَّه يجِبُ على الإنسانِ إذا سَمِعَ إفكًا ألَّا يتكلَّمَ به، بل يُدافِعُ عنِ المَقولِ فيه، ويقولُ: هذا إفكٌ ظاهِرٌ كبيرٌ[٤].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ الإيمانَ الصَّادِقَ يمنَعُ صاحِبَه من الإقدامِ على المحَرَّماتِ[٥].

١٦- قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَلِيمٌ﴾ فثِقوا ببَيانِه ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يضَعُ شَيئًا إلَّا في أحكَمِ مواضِعِه، وإن دَقَّ عليكم فَهْمُ ذلك؛ فلا تتوقَّفوا في

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٩٩)، والبيهقي في ((الدعوات الكبير)) (٤٦٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
حسَّن إسنادَه النووي في ((المجموع)) (٤/ ٣٩٥)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

أمرٍ مِن أوامِرِه، واعلَموا أنَّه لم يختَرْ لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا الخُلَّصَ مِن عِبادِه، على حسَبِ مَنازِلِهم عندَه، وقُربِهم مِن قَلبِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ نزل في براءةِ عائشةَ -رضي الله عنها- فيما قُذِفَت به، فاستدَلَّ به الفُقَهاءُ على أنَّ قاذِفَها يُقتَلُ؛ لتكذيبِه لنصِّ القرآنِ[٢]، قال مالكٌ: فمَن رماها فقد خالفَ القرآنَ، ومَن خالفَ القرآنَ قُتِل[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ ترَكَ تسميةَ عائشةَ رضيَ الله عنها؟

الجوابُ: أنَّه تركَه تنزيهًا لها عن هذا القالِ، وإبعادًا لِصَونِ جانبِها العَليِّ عن هذا المرادِ[٤].

٣- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ كمالُ غَيرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه جَلَّ وعلا يدافِعُ عن نبيِّه وعن فِراشِ نبيِّه هذه المدافَعةَ البليغةَ[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ الخطابُ للمؤمنينَ، وكونُهم مِن المؤمنينَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((المحلى)) لابن حزم (١٢/ ٤٤٠)، ((الشفا)) للقاضي عياض (٢/ ١١٠٩).

قال ابن حزم: (قول مالكٍ هاهنا صحيحٌ، وهي رِدَّةٌ تامَّةٌ، وتكذيبٌ لله تعالى في قَطعِه ببَراءتِها). ((المحلى)) (١٢/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٦٧).

يدُلُّ على أنَّهم لم يَخرجوا مِن الإيمانِ بذلك -أي: بهذا القذفِ-؛ لأنه صَدَرَ قبْلَ أنْ يَتبيَّنَ الحُكمُ في هذا[١]، فالآيةُ فُهِم منها أنَّ كِبارَ الذُّنوبِ لا تُخرِجُ المُسلمَ عن دائرةِ الإسلامِ، وكونُ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ منهم لا يَضُرُّ؛ فإنَّ القُرآنَ يتكلَّمُ عنِ الظَّاهرِ، وهو في ظاهِرِه منهم، له أحكامُ الإسلامِ[٢]، وإلاَّ فمَن قذَف عائشةَ بما رُمِيتْ به فإنَّه يَكفرُ؛ لأنَّه مكذِّبٌ للقرآنِ[٣]، قال العُلماءُ: قَذْفُ عائِشةَ -رضي الله عنها- كُفرٌ؛ لأنَّ اللهَ سَبَّح نفْسَه عندَ ذِكرِه، فقال: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، كما سبَّح نفْسَه عند ذِكرِ ما وصفَه به المُشرِكونَ من الزَّوجةِ والولَدِ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لإزالةِ ما حصل في نفُوسِ المؤمنينَ مِن الأسَفِ مِن اجتراءِ عُصبةٍ على هذا البُهتانِ الذي اشتملت عليه القِصَّةُ، فضميرُ ﴿تَحْسَبُوهُ﴾ عائِدٌ إلى الإفكِ[٥].

٦- في قولِه تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن لحِقَه غَمٌّ بالمُتَقَوَّلِ عليه مِن الزُّورِ، فإنَّه شريكُه في الأجرِ؛ لأنَّ المَرميَّةَ بالإفكِ أمُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٦٦).

قال النوويُّ: (براءةُ عائشةَ رضي الله عنها مِن الإفكِ، وهي براءةٌ قطعيَّةٌ بنصِّ القرآنِ العزيزِ، فلو تَشكَّكَ فيها إنسانٌ -والعياذُ بالله- صار كافرًا مرتدًّا بإجماعِ المسلمينَ). ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١١٧).

وقال ابن القيم: (واتَّفقَتِ الأمَّةُ على كُفرِ قاذِفِها). ((زاد المعاد)) (١/ ١٠٣).

وقال ابن كثير: (وقد أجمَعَ العلماءُ رحمهمُ اللهُ قاطِبةً على أنَّ مَن سبَّها بعدَ هذا ورماها بما رماها به بعدَ هذا الذي ذُكِر في هذه الآيةِ، فإنَّه كافرٌ؛ لأنَّه معانِدٌ للقرآنِ. وفي بقيَّةِ أمَّهاتِ المؤمنينَ قولانِ؛ أصَحُّهما: أنَّهُنَّ كَهِيَ، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧١).

المؤمنين رضي الله عنها وحْدَها، فجَمَعَ اللهُ معها مَن لَحِقَه أذَى القولِ، ورسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأبوَيها وكلَّ مَن لَحِقَه غَمٌّ بسببِها، فقال: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ على لفظِ الجميعِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أنَّ الخيرَ قد يكونُ فيما يَتوقَّعُ الإنسانُ منه الشَّرَّ[٢].

٨- في قولِه تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ دليلٌ على أنَّ قولَ الزُّورِ في المَقولِ خيرٌ مُدَّخَرٌ له، يُثابُ عليه في الآخرةِ، وشَرٌّ على قائلِه، معدودٌ عليه في عِدادِ ذُنوبِه[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم﴾ عُدِلَ عن «على» إلى «اللام»؛ لِتُفيدَ الاستِحقاقَ، أي: لبيانِ أنَّ هؤلاء العُصبةَ الذين ارتكَبوا ما ارتكبوا مستحِقُّون لِمَا عليهم مِن الإثمِ[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ كمالُ عَدْلِ اللهِ جلَّ وعلا؛ لأنه لا يُحَمِّلُ الإنسانَ أكثرَ ممَّا يَستحِقُّ، ولا يُحَمِّلُ أحدًا وِزْرَ أحدٍ، فهذه الآيةُ دليلٌ على مسألتينِ: أنَّ الإنسانَ يُجازَى بقَدرِ عَمَلِه، وأنَّه لا يُجازَى بذنْبِ غَيرِه[٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن سَنَّ شرًّا أعظمُ إثمًا ممَّن واطأَهُ عليه؛ لأنَّ المتولِّيَ للكِبْرِ كان السابقَ إلى الإفكِ،

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٦٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٦٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٨).

وسائرَهم صَدَّقَ قولَه؛ فاستوجَبَ ضِعْفَ العذابِ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّ الإنكارَ يكونُ بالقَلبِ واللِّسانِ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أنَّ مِن فوائدِ الإيمانِ أنَّ صاحبَه مَحَلٌّ للثِّقةِ، وأنَّ الإيمانَ مُوجِبٌ للعدالةِ؛ حيثُ إنَّ اللهَ نهَى أنْ يُظَنَّ بالمؤمنينَ إلَّا الخيرُ[٣].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فيه وجوبُ إنزالِ الناسِ مَنازِلَهم؛ فالمؤمنُ يُظَنُّ به الخيرُ، والفاسِقُ -الذي هو مَحَلُّ التُّهمةِ- يُظَنُّ به ما يليقُ به[٤].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ وجوبُ احترامِ أعراضِ المؤمنينَ؛ وأَلَّا تُعَرَّضَ لِمَا يُسيءُ إليها وما يَخدِشُ المجتمعَ الإسلاميَّ، فإذا كان المقذوفُ له مكانةٌ في المجتمعِ الإسلاميِّ؛ فإنّ قَذْفَه ليس عيبًا لشخصِه فقط، بل عيبٌ للإسلامِ كلِّه، وذلك كالعيبِ في علماءِ المسلمينَ، فهذا في الحقيقةِ عيبٌ للإسلامِ كلِّه؛ لأننا إذا عِبْنا واجهةَ الإسلامِ -وهم علماؤه- فقد عِبْنا الإسلامَ كلَّه[٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أنَّ ظَنَّ السُّوءِ بمَن يَستحِقُّه لا يُنافي الإيمانَ؛ فالمؤمنُ ليس مَحَلًّا لسُوءِ الظنِّ، أمَّا غيرُه مِن

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفُسَّاقِ إذا كان مَحَلًّا فلا بأسَ، فإذا دَلَّتِ القرائنُ مثلًا على أنَّ هذا الرجُلَ مَحَلٌّ لسُوءِ الظنِّ، فلا بأسَ أنْ نَظُنَّ به، بل قد يجبُ على الإنسانِ أن يَتَّهِمَ الشَّخصَ الذي دَلَّتِ القرائنُ على اتِّهامِه(١).

١٧- القرائِنُ لها تأثيرٌ، والإنسانُ يَحكُمُ بالظَّنِّ بحَسَبِ القرائنِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، فهذا يدُلُّ على أنَّ القرائِنَ لها تأثيرٌ في الأحكامِ، وأنَّ الإنسانَ يجِبُ عليه أن يبنيَ ظَنَّه على قرائِنَ(٢)، فالآيةُ فيها تنبيهٌ على أنَّ حَقَّ المؤمِنِ أن ينظُرَ في قرائنِ الأحوالِ وصلاحيةِ المقامِ، فإذا نُسِبَ سُوءٌ إلى مَن عُرِف بالخير، ظَنَّ أنَّ ذلك إفكٌ وبهتانٌ حتى يتَّضِحَ البُرهانُ(٣).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ دَلالةٌ على أنَّه يجبُ على القُضاةِ أن يَحكُموا ببُطلانِ مِثلِ هذه الإشاعاتِ في الذين ظاهِرُهم البراءةُ(٤).

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا يُقبَلُ في شَهادةِ الزِّنا إلَّا أربعةُ رجالٍ؛ وذلك لأنَّ «أربعة» مؤنَّثةٌ؛ فيكونُ المعدودُ مُذَكَّرًا(٥).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ حمايةُ اللهِ عزَّ وجلَّ للأعراضِ؛ حيثُ جَعَل البَيِّنَةَ على الزِّنا أربعةَ رجالٍ(٦).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ بيانُ أنَّ مِن الكذبِ: الخبرَ الذي لا يجوزُ الإخبارُ به -وإنْ كان خَبَرُه مطابِقًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٦٨).

(٥) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٥/ ٤٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٦).

للمُخبَرِ به- فحُكمُ اللهِ في مِثلِ هذا أن يُعاقَبَ عقوبةَ المفتري الكاذبِ، وإنْ كان خبرُه مُطابِقًا، وعلى هذا فلا تتحقَّقُ توبتُه حتى يَعترفَ بأنَّه كاذِبٌ عندَ اللهِ -وهذا على أحدِ القولَينِ-، كما أخبرَ اللهُ تعالى به عنه، فإذا لم يَعترِفْ بأنَّه كاذِبٌ وجعَلَه اللهُ كاذِبًا، فأيُّ توبةٍ له؟ وهل هذا إلَّا محضُ الإصرارِ والمجاهرةِ بمخالفةِ حُكمِ اللهِ الذي حكَمَ به عليه[١]؟!

٢٢- قولُه تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ...﴾ فيه تَوبيخٌ وتَعنيفٌ للَّذين سَمِعوا الإفكَ فلمْ يَجِدُّوا في دَفْعِه وإنكارِه، واحتِجاجٌ عليهم بما هو ظاهرٌ مَكشوفٌ في الشَّرعِ: مِن وُجوبِ تكذيبِ القاذِفِ بغَيرِ بَيِّنةٍ، والتَّنكيلِ به إذا قَذَف امرأةً مُحْصَنةً مِن عُرْضِ نِساءِ المُسلِمينَ؛ فكيف بأُمِّ المُؤمِنينَ، الصِّدِّيقةِ بنتِ الصِّدِّيق، حُرْمةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وحَبيبةِ حَبيبِ اللهِ[٢]؟!

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أنَّ الأسبابَ قد يَحصُلُ لها مِن الموانعِ ما يمنعُ تأثيرَها؛ فقد يَجعَلُ اللهُ تعالى مِن الموانِعِ ما يمنعُ حصولَ الشَّيءِ مع تحقُّقِ أسبابِه؛ لأنَّ الأسبابَ موجودةٌ -وهي المَسُّ بعذابٍ عظيمٍ- والمانعُ مِن هذا فضلُ اللهِ ورحمتُه[٣].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إثباتُ الأسبابِ، وربطُها بمسبَّباتِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٩).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أنَّ شُيوعَ المعصيةِ بيْنَ النَّاسِ سببٌ للعُقوبةِ العامَّةِ(١).

٢٦- قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ نبَّه بقَولِه: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ على أنَّ عِظَمَ المعصيةِ لا يختَلِفُ بظَنِّ فاعِلِها وحُسبانِه، بل ربَّما كان ذلك مؤكِّدًا لعِظَمِها؛ مِن حيثُ جهلُ كَونِها عظيمًا(٢).

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ بيانُ عِظَمِ قَذْفِ زَوجاتِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بالزِّنا(٣).

٢٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ يدُلُّ على أنَّ القَذفَ مِن الكبائِرِ ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾(٤).

٢٩- لَمَّا وصَفَ طَعنَ اليَهودِ في مريمَ بأنَّه بُهتانٌ عَظيمٌ، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، ووصَفَ طَعْنَ المنافقينَ في عائشةَ بأنَّه بهتانٌ عظيمٌ؛ حيث قال هنا: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾- دَلَّ ذلك على أنَّ الرَّوافِضَ الذين يَطعنونَ في عائشةَ -رضِيَ اللهُ عنها- بمنزلةِ اليهودِ الذين يطعنونَ في مريمَ عليها السَّلامُ(٥).

٣٠- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١١/ ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ١١١).

بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ هذا من بابِ الآدابِ، أي: هلَّا إذ سمِعتُموه قلتُم: ما يكونُ لنا أن نتكَلَّم بهذا! وإنما وجَب عليهم الامتناعُ منه؛ لوُجوهٍ:

أحدُها: أنَّ المقتضيَ لكونِهم تاركينَ لهذا الفعلِ قائِمٌ، وهو العقلُ والدِّينُ، ولم يوجَدْ ما يعارِضُه؛ فوجبَ أن يكونَ ظَنُّ كونِهم تاركينَ للمَعصيةِ أقوى مِن ظَنِّ كَونِهم فاعلينَ لها، فلو أنَّه أخبر عن صدورِ المعصيةِ، لكان قد رجَّح المرجوحَ على الرَّاجِحِ، وهو غيرُ جائزٍ.

وثانيها: أنَّه يتضَمَّنُ إيذاءَ الرَّسولِ، وذلك سببٌ لِلَّعنِ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وثالثها: أنَّه سببٌ لإيذاء عائشةَ وإيذاءِ أبوَيها ومَن يتَّصِلُ بهم، مِن غيرِ سَبَبٍ عُرِفَ إقدامُهم عليه، ولا جنايةٍ عُرِفَ صدورُها عنهم، وذلك حرامٌ.

ورابعها: أنَّه إقدامٌ على ما يجوزُ أن يكونَ سببًا للضَّررِ مع الاستِغناءِ عنه، والعقلُ يقتضي التباعُدَ عنه؛ لأنَّ القاذِفَ بتقديرِ كونِه صادقًا لا يستحِقُّ الثوابَ على صدقِه، بل يستحِقُّ العقابَ؛ لأنَّه أشاع الفاحشةَ، وبتقديرِ كونِه كاذبًا فإنَّه يستحِقُّ العقابَ العظيمَ، ومِثلُ ذلك ممَّا يقتضي صريحُ العقلِ الاحترازَ عنه.

وخامسها: أنَّه تضييعٌ للوقتِ بما لا فائدةَ فيه.

وسادسها: أنَّ في إظهارِ محاسِنِ النَّاسِ وسَترِ مقابِحِهم اتِّصافًا بمقتضياتِ صفاتِ اللهِ تعالى.

فهذه الوجوه توجِبُ على العاقِلِ أنَّه إذا سَمِع القَذفَ أن يسكُتَ عنه، وأن يجتَهِدَ في الاحترازِ عن الوقوعِ فيه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣).

٣١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يليقُ (سُبحانَك) بهذا الموضِعِ؟

الجواب مِن وُجوهٍ:

الوجه الأوَّل: أنَّ المرادَ منه التعجُّبُ مِن عِظَمِ الأمر، وإنَّما استُعمِلَ في معنى التعجُّبِ؛ لأنَّه يُسَبَّحُ اللهُ عندَ رؤيةِ العجيبِ مِن صنائعِه، ثمَّ كثُرَ حتى استُعملَ في كلِّ متعَجَّبٍ منه.

الوجه الثاني: المرادُ تنزيهُ الله تعالى عن أن تكونَ زوجةُ نبيِّه فاجرةً.

الوجه الثالث: أنَّه مُنزَّهٌ عن أنْ يرضَى هؤلاء الفِرقةَ المُفترينَ.

الوجه الرابع: أنَّه مُنزَّهٌ عن ألَّا يعاقِبَ هؤلاء القَذَفةَ الظَّلَمةَ[(١)].

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أنَّ المؤمنَ هو الذي يَنتفِعُ بالموعظةِ، أمَّا غيرُه فإنَّه لا يَنتفِعُ[(٢)].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فضلُ اللهِ ورحمتُه بالعِبادِ؛ حيثُ كان اللهُ سُبحانَه وتعالى يَعِظُهم عمَّا يضُرُّهم ويُنافي إيمانَهم، ولا شكَّ أنَّ الذي يَعِظُك ويُرشِدُك وينصَحُك له فَضلٌ عليك[(٣)].

٣٤- أنَّه ينبغي للمؤمِنِ إذا خَفِيَ عليه شيءٌ أن يَتأمَّلَ؛ لأنَّ الآياتِ مُبَيَّنةٌ وظاهِرةٌ، فمثلًا إذا خَفِيَ عليك حُكمُ شيءٍ مِن كتابِ اللهِ، فأعِدِ النظرَ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾، فالآياتُ مُبَيَّنَاتٌ، وخفاؤُها على الإنسانِ في بعضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأحيانِ يدُلُّ على قُصورِه؛ إمَّا في العلمِ، أو الفَهمِ، أو التَّدبُّرِ[١].

٣٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إثباتُ الصِّفاتِ والأسماءِ؛ لأنَّ ﴿عَلِيمٌ﴾ مِن أسماءِ الله جلَّ وعلا، و﴿حَكِيمٌ﴾ من أسمائِه أيضًا، وهما متضَمِّنانِ لِصِفَتينِ: العِلمِ، والحِكمةِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ نَزَل في قِصَّةِ الإفكِ آياتٌ؛ كلُّ واحدةٍ منها مُستقِلَّةٌ بما هو تَعظيمٌ لشأْنِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَسليةٌ له، وتَنزيهٌ لأُمِّ المُؤمِنينَ رِضوانُ اللهِ عليها، وتَطهيرٌ لأهْلِ البَيتِ، وتَهويلٌ لمَن تَكلَّمَ في ذلكَ أو سَمِع به فلمْ تَمُجَّه أُذُناهُ، وعِدَّةُ ألْطافٍ للسَّامِعينَ والتَّالينَ إلى يَومِ القيامةِ، وفوائدُ دِينيَّةٌ، وأحكامٌ وآدابٌ لا تَخفَى على مُتأمِّليها[٣].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ[٤]. وفي لفظِ (المَجيءِ) إشارةٌ إلى أنَّهم أظْهَروه مِن عندِ أنفُسِهم مِن غيرِ أنْ يكونَ له أصْلٌ[٥].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ معناه: قَصَدوا واهتَمُّوا. وأصلُه: أنَّ الَّذي يُخبِرُ بخبرٍ غريبٍ يُقالُ له: جاء بخبرِ كذا؛ لأنَّ شأنَ الأخبارِ الغريبةِ أنْ تَكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٠).

مع الوافِدينَ مِن أسفارٍ، أو المُبتَعِدينَ عن الحَيِّ[١].

- قَولُه: ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ ذِكْرُ ﴿عُصْبَةٌ﴾ تَحقيرٌ لهُم ولقَولِهم، أي: لا يُعبَأُ بقَولِهم في جانبِ تَزكيةِ جميعِ الأُمَّةِ لمَن رُميَتْ بالإفكِ. ووَصْفُ العُصبةِ بكَونِهم ﴿مِّنكُمْ﴾ يَدُلُّ على أنَّهم مِن المُسلِمينَ، وفي ذلك تَعريضٌ بهم بأنَّهم حادُوا عن خُلُقِ الإسلامِ، حيثُ تَصَدَّوا لِأَذَى المُسلِمينَ[٢].

- قَولُه: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ[٣]. وقيل: استِئنافٌ خُوطِبَ به رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأبو بكرٍ وعائشةُ وصَفْوانُ رضِيَ اللهُ عنهم؛ تَسليةً لهم مِن أوَّلِ الأمرِ[٤].

- قَولُه: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إضْرابُ إبطالِ أنْ يَحسَبوه شَرًّا، وإثباتُ أنَّه خَيرٌ لهُم؛ لأنَّ فيه مَنافعَ كثيرةً. وعَدَل عن أنْ يَعطِفَ خَيرًا على ﴿شَرًّا﴾ بحَرفِ (بَلْ)، فيُقالُ: بَلْ خَيرًا لكم؛ إيثارًا للجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ والدَّوامِ[٥].

- قَولُه: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في التَّعبيرِ عنه بـ (الَّذي)، وتكريرِ الإسنادِ[٦]، وتَنكيرِ العذابِ، ووَصْفِه بالعِظَمِ: مِن تَهويلِ الخَطْبِ ما لا يَخفَى[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٩، ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٢).

(٦) لم يقُلْ: (وللذي تولَّى كبرَه عذابٌ أليمٌ)؛ إنَّما كرَّر الإسنادَ بجَعْلِ الجملةِ الظرفيَّةِ خبرًا للموصولِ؛ لتقويةِ الحُكم.

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ استِئنافٌ لتَوبيخِ عُصْبةِ الإفكِ مِن المُؤمِنينَ وتَعنيفِهم بَعدَ أنْ سَمَّاهُ إفْكًا. و﴿لَّوْلَآ﴾ هنا حَرفٌ بمعنَى (هَلَّا) للتَّوبيخِ كما هو شأْنُها إذا وَلِيَها الفِعلُ الماضي، وهو هنا ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. وأمَّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ فهو ظَرْفٌ مُتعلِّقٌ بفِعلِ الظَّنِّ؛ فقُدِّمَ عليه، ومَحَلُّ التَّوبيخِ جُملةُ: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، فأُسنِدَ السَّماعُ إلى جَميعِ المُخاطَبينَ، وخُصَّ بالتَّوبيخِ مَن سَمِعوا ولم يُكذِّبوا الخَبرَ[1].

- وفي قولِه: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ جَرى الكلامُ على الإبهامِ في التَّوبيخِ بطَريقةِ التَّعبيرِ بصِيغَةِ الجَمْعِ، وإنْ كان المَقصودُ دُونَ عددِ الجَمْعِ؛ فإنَّ مَن لمْ يَظُنَّ خيرًا رَجُلانِ، فعُبِّرَ عنهما بالمُؤمِنينَ، وامرأةٌ، فعُبِّرَ عنها بالمُؤمِناتِ، على حَدِّ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾[2] [آل عمران: ١٧٣].

- وكذلك ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فيه التَّعبيرُ بالأنفُسِ عنِ الآخَرينَ -هذا على قولٍ في التفسيرِ-؛ والتَّعبيرُ بالأنفُسِ عنِ الآخَرينَ يَنطوي على أبعَدِ النُّكتِ مَرمًى، وأكثَرِها حُفولًا بالمعاني السَّامِيَةِ؛ فهو أوَّلًا يُهيبُ بالمُؤمِنينَ إلى التَّعاطُفِ وإجراءِ التَّوبيخِ على النَّفْسِ بدَلًا مِن أنْ يَذكُرَه بسُوءٍ، وذلك أدْعَى إلى اصطِناعِه وجَعْلِه مَحمولًا على المُوالاةِ والاصطِفاءِ، وذلك بتَصويرِه بصُورةِ مَن أخَذَ يَقذِفُ نَفْسَه ويَرميها بما ليس فيها مِن الفاحشةِ، فأُطلقتِ الأنفسُ مرادًا بها الإخوانُ؛ لبيانِ شدَّةِ ارتباطِ المُسلمِ بأخيه المُسلمِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٧٤).

وأنَّه كنَفْسِه؛ تنفيرًا له مِن أنْ يعمَلَ معه ما يَسوؤُه. ومجيءُ النَّفسِ مُرادًا بها الإخوانُ كثيرٌ في القُرآنِ. وهو ثانيًا يَحتمِلُ أنْ يَكونَ التَّعبيرُ بالأنفُسِ حقيقةً، والمَقصودُ إلزامُ سَيِّئِ الظَّنِّ بنَفْسِه؛ لأنَّه لم يَعْتَدَّ بنَوازِعِ الإيمانِ ووَزائِعِه في حَقِّ غَيرِه وألْغاهُ، واعتبَرَه في حَقِّ نفْسِه وادَّعى لها البَراءةَ قَبْلَ مَعرفتِه، بحُكْمِ الهَوى لا بحُكْمِ الهُدى، والمعنى: أنَّه كما تظُنُّ بنَفسِك الخيرَ، يجبُ أنْ تظنَّ ذلك بأخيك، إلَّا بيقينٍ يُبَيِّنُ خِلافَ ذلك[1]. وقيل: قال ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ لأنَّ أهلَ الإسلامِ كلَّهم بمنزلةِ نفسٍ واحدةٍ؛ لأنَّهم أهلُ ملةٍ واحدةٍ[2].

- ووقَعَ قولُه: ﴿بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ في مُقابَلةِ ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾؛ فيَقتَضي التَّوزيعَ، أي: ظَنَّ كلُّ واحدٍ منهُم بالآخَرينَ ممَّن رُمُوا بالإفكِ خَيرًا -على قولٍ في التفسيرِ-؛ إذْ لا يَظُنُّ المَرءُ بنفْسِه، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، أي: لا يَلْمِزْ بعضُكُم بعضًا[3].

- وتَوسيطُ الظَّرفِ ﴿إِذْ﴾ بيْن ﴿لَّوْلَآ﴾ وفِعْلِها ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾؛ لتَخصيصِ التَّحضيضِ بأوَّلِ زمانِ سماعِهِم، وقَصْرُ التَّوبيخِ على تأخيرِ الإتيانِ بالمُحضَّضِ عليه عن ذلك الآنِ والتَّردُّدِ فيه؛ ليُفِيدَ أنَّ عدَمَ الإتيانِ به رأسًا في غايةِ ما يكونُ مِن القَباحةِ والشَّناعةِ، أي: كان الواجِبُ أنْ يَظُنَّ المُؤمِنونَ والمُؤمِناتُ أوَّلَ ما سَمِعوه ممَّن اختَرَعَه بالذَّاتِ أو بالواسطةِ، مِن غَيرِ تَلَعثُمٍ وتَردُّدٍ بمِثلِهِم مِن آحادِ المُؤمِنينَ: خَيرًا[4]، فذِكرُه مُنبِّهٌ على الاهتمامِ به؛ لوجوبِ المبادرةِ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٧٧، ٥٧٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٧)، =

إلى المحضَّضِ عليه[١]، وأنَّه كان الواجِبُ عليهم أن يحترِزوا أوَّلَ ما سَمِعوا بالإفكِ عن التكَلُّمِ به[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث لمْ يَقُلْ: (لولا إذْ سمِعتُموه ظنَنْتُم بأنفسِكُم خَيرًا وقُلتُم)، وعَدَلَ عنِ الخِطابِ إلى الغَيبةِ، وعنِ الضَّميرِ إلى الظَّاهرِ؛ ليُبالِغَ في التَّوبيخِ بطريقةِ الالتِفاتِ، ولِيُصرِّحَ بلَفظِ الإيمانِ؛ دَلالةً على أنَّ الاشتِراكَ فيه مُقتَضٍ ألَّا يُصَدِّقَ مُؤمِنٌ على أخيه ولا مُؤمِنةٌ على أُختِها قولَ غائبٍ ولا طاعنٍ. وفيه: تَنبيهٌ على أنَّ حَقَّ المُؤمِنِ إذا سمِعَ قالةً في أخيهِ أنْ يَبْنِيَ الأمرَ فيها على الظَّنِّ لا على الشَّكِّ، وأنْ يقولَ بمِلْءِ فيه -بِناءً على ظَنِّه بالمُؤمِنِ الخَيرَ-: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، هكذا بلَفظِ المُصرِّحِ ببَراءةِ أخيهِ وبَراءةِ ساحتِه، كما يقولُ المُستَيقِنُ المُطَّلِعُ على حقيقةِ الحال. وهذا مِنَ الأدبِ الحَسنِ[٣]. وقيل: والأصلُ أيضًا: (وظنَنْتُم بها)، أي: بأُمِّ المُؤمِنينَ -رضِيَ اللهُ عنها- خيرًا؛ وعدَلَ عن المُفرَدِ إلى الجماعةِ؛ لأنَّ في العُدولِ مِنَ المفرَدِ إلى الجماعةِ وسُلوكِ طريقِ الكِنايةِ: الإشعارَ بتَعظيمِ شأْنِها، ورِفعةِ مَنزلتِها[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾

= ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٤، ١٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٧٨، ٥٧٩).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٤، ٣٥).

- قولُه: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ...﴾ استِئنافٌ ثانٍ لتَوبيخِ العُصْبةِ الَّذين جاؤُوا بالإفكِ، وذَمٌّ لهُم[١]. وقيل: هو إمَّا مِن تَمامِ القولِ المُحضَّضِ عليهِ، مَسوقٌ لحَثِّ السَّامِعينَ على إلْزامِ المُسمِّعين وتَكذيبِهِم إثْرَ تَكذيبِ ما سَمِعوه منهُم بقولِهِم: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، وتَوبيخِهِم على تَرْكِه، وإنَّما قيل: ﴿بِٱلشُّهَدَآءِ﴾؛ لزِيادةِ التَّقريرِ. وإمَّا كلامٌ مُبتدَأٌ مَسوقٌ مِن جِهَتِه تعالى للاحتِجاجِ على كَذِبِهِم، بكَونِ ما قالُوه قَولًا لا يُساعِدُه الدَّليلُ أصلًا[٢].

- قَولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الخائِضينَ، وما فيه مِن معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ بغُلوِّهِم في الفسادِ، وبُعْدِ مَنزلتِهِم في الشَّرِّ[٣]. وأيضًا التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ؛ لزِيادةِ تَمييزِهِم بهذه الصِّفةِ؛ لِيَحذَرَ النَّاسُ أمثالَهم[٤].

- وصِيغةُ الحَصرِ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ للمُبالَغةِ؛ كأنَّ كَذِبَهم -لِقُوَّتِه وشَناعَتِه- لا يُعَدُّ غَيرُهم مِن الكاذِبينَ كاذِبًا؛ فكأنَّهمُ انحصَرَتْ فيهم ماهيَّةُ المَوصوفِينَ بالكذِبِ. والتَّقييدُ بقولِه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لزِيادةِ تَحقيقِ كَذِبِهم، أي: هو كَذِبٌ في عِلْمِ اللهِ؛ فإنَّ عِلْمَ اللهَ لا يكونُ إلَّا مُوافِقًا لنفْسِ الأمرِ، واسمُ الإشارةِ لزيادةِ تمييزِهم بهذه الصفةِ؛ ليَحذرَ الناسُ أمثالَهم[٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦١، ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ على القولِ بأنَّ المعنى: ولولا فضْلُ اللهِ عليكُم ورَحمتُه لمَسَّكُم فيما أفَضْتُم فيه عذابٌ عظيمٌ في الدُّنيا والآخِرةِ مَعًا؛ فيكونُ فيه تَقديمٌ وتأخيرٌ[(١)].

- قَولُه: ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾، أي: حديثِ الإفكِ، والإبهامُ لتَهويلِ أمْرِه، والاستِهجانِ بذِكْرِه[(٢)].

٥- قَولُه تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾

- قَولُه: ﴿إِذْ ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿أَفَضْتُمْ ﴾ [النور: ١٤]، والمقصودُ منه ومِن الجُملةِ المُضافِ هو إليها: استِحضارُ صُورةِ حَديثِهم في الإفكِ، وتَفظيعُها[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ تَعريضٌ بحِرْصِهم على تَلقِّي هذا الخبرِ؛ فهم حين يَتلقَّوْنَه يُبادِرونَ بالإخبارِ به بلا تَرَوٍّ ولا تَرَيُّثٍ، وهذا تَعريضٌ بالتَّوبيخِ أيضًا[(٤)].

- فإنْ قيل: كيفَ يُسنَدُ التَّلقِّي إلى الألسنةِ مع أنَّ الكلامَ يُتلقَّى بالأُذنِ؟

والجوابُ: أنَّه لَمَّا كان المقصودُ مِن تلقِّيه بالأذُنِ أن يُتكلَّمَ به ويُشاعَ باللِّسانِ، عَبَّرَ عنه بحسَبِ المقصودِ؛ فكأنَّ اللِّسانَ هو الذي يَتلقَّاه.

وقيل: إنَّ في الكلامِ حَذفًا دلَّ عليه المقامُ؛ أي: تَلَقَّونه حالَ كونِكم تُشِيعونَه بألسنتِكم؛ ففيه إشارةٌ إلى سرعةِ إشاعتِه، بحيث كأنَّه لا يقَعُ على الأسماعِ، وإنَّما

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٧٨).

يقَعُ على اللِّسانِ ثمَّ يُنقَلُ مُباشَرةً! وليس فيه تَكرارٌ على هذا التَّقديرِ مع قَولِه تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ توبيخٍ يقتضي الإطنابَ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- وَجْهُ ذِكْرِ ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾ في قولِه: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ مع أنَّ القَولَ لا يكونُ بغَيرِ الأفواهِ: أنَّه أُرِيدَ التَّمهيدُ لقَولِه: ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، أي: هو قَولٌ غَيرُ مُوافِقٍ لِما في العِلْمِ، ولكنَّه عن مُجرَّدِ تَصوُّرٍ؛ لأنَّ أدلَّةَ العِلْمِ قائمةٌ بنَقيضِ مَدلولِ هذا القولِ؛ فصارَ الكلامُ مُجرَّدَ ألْفاظٍ تَجري على الأفواهِ؛ فالشَّيءُ المعلومُ يكونُ عِلْمُه في القلبِ، فيُتَرجِمُ عنه اللِّسانُ، وهذا الإفكُ ليس إلَّا قَولًا يَجري على ألْسنتِكُم، ويَدورُ في أفواهِكُم مِن غَيرِ تَرجمةٍ عن عِلْمٍ[٣].

- قَولُه: ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، فيه تنكيرُ ﴿عِلْمٌ﴾؛ للتحقيرِ[٤].

- قَولُه: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ زِيادةٌ في تَوبيخِهم، أي: تَحسَبون الحديثَ بالقذْفِ أمْرًا هَيِّنًا[٥].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري-الحاشية)) (٣/ ٢١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٨، ٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٧٧ - ٥٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٨).

- قَولُه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ توسيطُ الظَّرفِ بيْن (لَوْلَا) و(قُلْتُمْ)؛ لتَخصيصِ التَّحضيضِ بأوَّلِ وَقْتِ السَّماعِ، وقَصْرِ التَّوبيخِ واللَّومِ على تأخيرِ القَولِ المذكورِ عن ذلكَ الآنِ؛ ليُفيدَ أنَّه المُحتملُ للوُقوعِ، المُفتقِرُ إلى التَّحضيضِ على تَرْكِه[١].

- قَولُه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم﴾ عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلخ [النور: ١٢]. وأُعيدَتْ (لَوْلَا) وشَرْطُها وجَوابُها؛ لزِيادةِ الاهتِمامِ بالجُملةِ[٢].

- قَولُه: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، ولمْ يَقُلْ: (ليس لنا أنْ نَتكلَّمَ بهذا)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الكلامَ في هذا وكَيْنونةَ الخَوضِ فيه حَقيقٌ بالانتِفاءِ؛ وذلكَ أنَّ قَولَك: (ما يَكونُ لي أنْ أفعَلَ) أشَدُّ في نَفْيِ الفِعْلِ عنك مِن قَولِك: ليس لي أنْ أفعَلَ. وهذا مَسوقٌ للتَّوبيخِ على تَناقُلِهمُ الخبرَ الكاذبَ. وكان الشَّأنُ أنْ يقولَ القائلُ في نَفْسِه: ما يكونُ لنا أنْ نَتكلَّمَ بهذا، ويقولَ ذلك لمَن يُجالِسُه ويَسمَعُه منه؛ فهذا زِيادةٌ على التَّوبيخِ على السُّكوتِ عليه في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[٣].

- قَولُه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تَعجُّبٌ مِن ذلك الإفكِ، أو ممَّن يقولُ ذلك[٤]؛ فقولُه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ جُملةُ إنشاءٍ وقَعَتْ مُعترِضةً بيْن جُملةِ: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) (٦/ ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣))، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٣).

بِهَٰذَا﴾ وجُملةِ: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾؛ للتَّعجُّبِ. والأحسَنُ أنْ يكونَ هنا لإعلانِ المُتكلِّمِ البَراءةَ مِن شَيءٍ، بتَمثيلِ حالِ نَفْسِه بحالِ مَن يُشهِدُ اللهَ على ما يقولُ، فيَبتَدِئُ بخِطابِ اللهِ بتَعظيمِه، ثمَّ بقولِ: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾؛ تَبرُّؤًا مِن لازِمِ ذلك، وهو مُبالَغةٌ في إنكارِ الشَّيءِ، والتَّعجُّبِ مِن وُقوعِه[١].

- وتَوجيهُ الخِطابِ إلى اللهِ تعالى في قولِه: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ اللهَ غاضبٌ على مَن يَخوضُ في ذلك، فعليهِم أنْ يتوجَّهوا للهِ بالتَّوبةِ منه لِمَن خاضُوا فيه، وبالاحتِرازِ مِن المُشارَكةِ فيه لِمَن لمْ يَخوضوا فيه[٢].

- وجُملةُ: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾؛ فهي داخِلةٌ في تَوبيخِ المَقولِ لهم. ووَصْفُ البُهتانِ بأنَّه ﴿عَظِيمٌ﴾ مَعناهُ: أنَّه عَظيمٌ في وُقوعِه، أي: بالِغٌ في كُنْهِ البُهتانِ مَبْلغًا قَويًّا[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

- قَولُه: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا﴾، في الكلامِ إيجازٌ بالحَذْفِ؛ ففِعلُ ﴿يَعِظُكُمُ﴾ لا يَتعدَّى إلى مفعولٍ ثانٍ بنَفْسِه؛ فالمصدرُ المأخوذُ مِن ﴿أَن تَعُودُواْ﴾ لا يكونُ مَعمولًا لفِعلِ ﴿يَعِظُكُمُ﴾ إلَّا بتقديرِ شَيءٍ محذوفٍ، أو بتَضمينِ فِعلِ الوَعظِ معنَى فِعلٍ مُتعَدٍّ، أو بتقديرِ حرْفِ جرٍّ محذوفٍ؛ فجائزٌ أنْ يُضمَّنَ فِعلُ ﴿يَعِظُكُمُ﴾ معنى التَّحذيرِ؛ والتقديرُ: يُحذِّرُكم مِن العَودِ لمِثلِه، أو يُقدَّرَ: يَعِظُكم الله في العودِ لمِثلِه، أو يُقدَّرَ حرْفُ نَفيٍ، أي: ألَّا تعودوا لمِثلِه، وحَذْفُ حرْفِ النَّفيِ كثيرٌ إذا دلَّ عليه السِّياقُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٨٢).

- وقولُه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ تَهييجٌ وإلْهابٌ لهم، يَبعَثُ حِرْصَهم على ألَّا يَعودوا لمِثْلِه؛ لأنَّهم حَريصونَ على إثْباتِ إيمانِهم؛ فالشَّرطُ في مِثْلِ هذا لا يُقصَدُ بالتَّعليقِ؛ إذْ ليس المعنَى: إنْ لمْ تَكونوا مُؤمِنينَ فعُودوا لمِثْلِه، ولكنْ لَمَّا كان احتِمالُ حُصولِ مَفهومِ الشَّرطِ مُجْتنَبًا، كان في ذِكْرِ الشَّرطِ بَعْثٌ على الامتِثالِ[١].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجَليلِ في مَوقعِ الإضمارِ؛ لتَفخيمِ شأْنِ البَيانِ[٢]، ولتَأكيدِ استِقلالِ الاعتِراضِ التَّذييليِّ، والإشعارِ بعِلَّةِ الأُلوهيَّةِ للعِلْمِ والحِكمةِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٩-٢٢)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَشِيعَ﴾: أي: تفشُوَ وتَذيعَ، وأصلُ (شيع): يدلُّ على بَثٍّ وإشادةٍ[١].

﴿ٱلْفَٰحِشَةُ﴾: أي: الزِّنا، والفاحِشةُ: كلُّ شَيءٍ مُستقبَحٍ ومُستشنَعٍ؛ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشناعةٍ[٢].

﴿رَءُوفٌ﴾: أي: شديدُ الرَّحمةِ، والرؤوفُ: ذو الرأفةِ، والرأفةُ أعلَى معاني الرحمةِ وأرَقُّها، وأصلُ (رأف): يدُلُّ على رِقَّةٍ ورحمةٍ[٣].

﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: سَبيلَه ومَسلَكَه، وخُطواتٌ جَمعُ خُطوةٍ، والخُطوةُ: ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٤) (٣/ ٥٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥، ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٤).

بيْن القَدَمينِ[١].

﴿بِٱلْفَحْشَآءِ﴾: الفحشاءُ مِن المعاصي: ما تناهَى قُبْحُه ممَّا يَستفحشُه مَن له عقلٌ سليمٌ، أو: هي كلُّ شيءٍ مُستقبَحٍ ومُستشنَعٍ، من قولٍ أو فِعلٍ، أو: ما ظهَر قُبْحُه لكلِّ أحدٍ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبْحٍ في شَيءٍ وشناعةٍ[٢].

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾: المنكَرُ: كلُّ معصيةٍ تَستنكرُها العقولُ والفِطَرُ، أو: ما لم يُعرَفْ حُسنُه ولم يُؤْلَفْ، وأصْلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المعرفةِ الَّتي يَسكُنُ إليها القلْبُ[٣].

﴿زَكَىٰ﴾: أي: صلَح وطَهُر، وأصلُ (زكو): يدُلُّ على طهارةٍ[٤].

﴿يَأْتَلِ﴾: أي: يَحلِفْ، مِن الأَلِيَّةِ، وهي اليَمينُ، وأصلُه يدُلُّ على الاجتِهادِ والمُبالَغةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١، ١٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

﴿وَٱلسَّعَةِ﴾: أي: الغِنى والجِدَةِ، وأصلُ (وسع): يدُلُّ على خِلافِ الضِّيقِ والعُسرِ(١).

﴿وَلۡيَعۡفُواْ﴾: العفْوُ: التَّجاوزُ عَنِ الذَّنْبِ، وتركُ المؤاخَذةِ عليه، وأصلُ (عفو) هنا يَدُلُّ على تَرْكِ الشَّيءِ. وقيل: أصلُه المحوُ والطَّمْسُ، مِن: عَفَت الرِّيحُ الأثرَ؛ إذا طَمَسَتْه، والمعنى: فَلْيَطْمِسوا آثارَ الإساءةِ بِحِلْمِهم وتجاوُزِهم(٢).

﴿وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ﴾: الصَّفْحُ: الإعراضُ عن المؤاخَذةِ بالذَّنْبِ، وتركُ التَّثريبِ والعِتابِ، وهو أبلَغُ مِن العفوِ، يُقالُ: صَفحتُ عنه: إذا أعرضْتَ عن ذنْبِه، والأصلُ فيه أنَّ مَن أعرَض عن صاحبِه ولَّاه صَفحةَ عُنُقِه (أي: جانبَه)، وصرَف عنه وجْهَه، فكأنَّه أعرَض بوجهِه عن ذنْبِه(٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: إنَّ الذين يُحبُّون أنْ يَظهرَ الزِّنا، ويَشيعَ خبرُه، والقذفُ به في المؤمنين؛ لهم عذابٌ مُؤْلِمٌ في الدُّنيا والآخِرةِ، واللهُ يعلَمُ، وأنتم لا تعلمون إلَّا ما علَّمكم سبحانه وتعالى، ولولا فَضلُ اللهِ على عبادِه ورحمتُه بهم، وأنَّه بهم رؤوفٌ رحيمٌ؛ لعجَّل لهم العُقوبةَ.

يا أيُّها الذين آمَنوا لا تتَّبِعوا طرقَ الشَّيطانِ، ولا تَسلُكوا مسالِكَه، ومَن يَسلُكْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٠، ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٦)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٢)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١٠٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٠).

طُرُقَ الشيطانِ فإنَّه يأمُرُه بقبيحِ الأفعالِ ومُنكَراتِها، ولولا فَضلُ الله ورحمتُه بكم -أيُّها المؤمِنونَ- ما تطهَّرَ أحدٌ منكم مِن الأوزارِ، ولكِنَّ اللهَ برحمتِه وفَضلِه يطهِّرُ من يشاءُ، واللهُ سميعٌ لأقوالِكم، عليمٌ بأعمالِكم ونيَّاتِكم.

ثمَّ يقولُ الله تعالى: ولا يحلِفْ أهلُ الفَضلِ وأصحابُ الغِنى على ألَّا يُؤتوا أقاربَهم والمساكينَ والمهاجرينَ ما كانوا يُعطونهم إيَّاه من الإحسانِ؛ بسبَبِ ذنْبٍ فَعَلوه، ولْيَعفوا عمَّا كان منهم مِن جُرمٍ، ولْيُعرِضوا عن ذَنبِهم ويَترُكوا عُقوبتَهم، ولْيُحسِنوا إليهم، ألَا تُحِبُّونَ أن يغفِرَ اللهُ لكم؟ واللهُ غفورٌ رحيمٌ مع كمالِ قُدرتِه على العقابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه ما على أهلِ الإفكِ وما على مَن سَمِع منهم، وما يَنبغي أن يتمَسَّكوا به من آدابِ الدِّينِ؛ أتبَعَه بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾؛ لِيُعلَمَ أنَّ من أحَبَّ ذلك فقد شارك في هذا الذَّمِّ، كما شارك فيه مَن فَعَلَه ومَن لم يُنكِرْه، ولِيُعلَمَ أنَّ أهلَ الإفكِ كما عليهم العقوبةُ فيما أظهروه، فكذلك يَستحِقُّون العقابَ بما أسرُّوه مِن محبَّةِ إشاعةِ الفاحشةِ في المؤمنينَ[1].

وأيضًا لَمَّا حذَّر اللهُ المؤمنينَ مِن العَودِ إلى مِثلِ ما خاضوا به مِن الإفكِ على جميعِ أزمِنةِ المُستقبَلِ؛ أعقبَ تحذيرَهم بالوعيدِ على ما عسى أن يَصدُرَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٥).

منهم في المستقبَلِ، بالوعيدِ على محبَّةِ شُيوعِ الفاحشةِ في المؤمنين؛ فهو تحذيرٌ للمُؤمِنينَ، وإخبارٌ عن المنافِقينَ والمُشرِكينَ[١].

وأيضًا لَمَّا كان مِن أعظمِ الوعظِ: بيانُ ما يستحقُّ على الذنْبِ مِن العقابِ؛ بيَّنه بقولِه[٢]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: إنَّ الذين يُحِبُّون[٣] أنْ يظهرَ الزِّنا، ويَشيعَ خبرُه، والقذفُ به[٤] في أوساطِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٠٩).

(٣) قال ابن جزي: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ الإشارةُ بذلك إلى المنافقينَ الذين أَحَبُّوا أن يَشيعَ حديثُ الإفكِ، ثمَّ هو عامٌّ في غَيرِهم ممَّن اتَّصَف بصِفتِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٤).

وقال ابن عطية: (وقالت فِرقةٌ -وقَولُها الأظهَرُ: الآيةُ عامَّةٌ في كلِّ قاذِفٍ، منافقًا كان أو مؤمِنًا؛ فالقاذِفُ المؤمِنُ لا يَتَّصِفُ بحُبِّ شِياعِ الفاحشةِ في المؤمنينَ جُملةً، لكنَّه يُحِبُّها لمَقذوفِه، وكذلك آخَرُ لمَقذوفِه، وآخَرُ حتى تَشيعَ الفاحِشةُ مِن مجموعِ فِعلِهم؛ فهُم لها مُحِبُّون بهذا الوجهِ، مِن حيث أحَبَّ كلُّ واحدٍ جزءًا مِن شِياعِها). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧١). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣).

(٤) قال الماتريدي: (هذا يحتَمِلُ وجهين؛ أحدُهما: يُشيعونَ الفاحشةَ ويُذيعونها في الذين آمنوا، هم الذين تولَّوا إشاعتَها وإذاعتَها فيهم، لهم ما ذُكِرَ من العذابِ الأليمِ.

والثاني: يُحِبُّونَ أن تشيعَ الفاحشةُ في الذين آمنوا؛ ليَكونَ ذلك ذريعةً لهم في المؤمنينَ، فيقولون: إنَّ دينكم لم يمنَعْكم عن الفواحِشِ والمنكَرِ). ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٥٣٤).

وقال ابن تيميَّة: (قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ الآيةَ. وهذا ذمٌّ لِمَن يُحِبُّ ذلك، وذلك يكونُ بالقَلبِ فقط، ويكونُ مع ذلك باللِّسانِ والجوارحِ، وهو ذمٌّ لِمَن يتكَلَّمُ بالفاحِشةِ، أو يُخبِرُ بها؛ محبَّةً لِوُقوعِها في المؤمنينَ: إمَّا حَسَدًا أو بُغضًا، وإمَّا مَحبَّةً للفاحشةِ وإرادةً لها). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٣٢). =

المُؤمِنينَ والمؤمِناتِ[(١)]؛ لهم عذابٌ مُؤْلِمٌ في الدُّنيا وفي الآخرةِ[(٢)].

= وقال السعدي: (إذا كان هذا الوعيدُ لمجَرَّدِ محبَّةِ أن تَشيعَ الفاحِشةُ، واستِحْلاءِ ذلك بالقَلبِ، فكيف بما هو أعظَمُ من ذلك؛ مِن إظهارِه ونَقْلِه؟! وسواءٌ كانت الفاحِشةُ صادِرةً أو غيرَ صادرةٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

(١) ممَّن اختار أنَّ معنَى ﴿تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾: أن يَذِيعَ الزِّنا ويَظهَرَ ويَفْشُوَ: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: إشاعةُ خبرِ الفاحشةِ، والقذف بها: الواحديُّ، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلِّي، وابن عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٤).

قال بكر أبو زيد: (ومحبَّةُ إشاعةِ الفاحِشةِ تَنتَظِمُ جَميعَ الوسائِلِ القبيحةِ إلى هذه الفاحِشةِ؛ سواءٌ كانت بالقَولِ، أم بالفِعلِ، أم بالإقرارِ، أو ترويجِ أسبابِها، وهكذا). ((حراسة الفضيلة)) (ص: ٧٥).

وممن اختار الجمعَ بينَ المعنيَينِ السابقينِ: ابنُ عثيمينَ، فقال: (الأظهَرُ أنَّها أعَمُّ مِن الشُّيوعِ باللِّسانِ، وأنَّها تَشيعُ بالفِعلِ بحيثُ يُشاهِدُهم النَّاسُ، وبالقَولِ بحيثُ يُشاعُ عنهم ذلك، فهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ سواءٌ يُحِبُّون أن تشيعَ بالقَولِ... أو يحبُّونَ أن تَشيعَ بالفِعلِ، بمعنى أن يَظهَرَ أمْرُهم ويَتَبيَّنَ، ويُرَونَ ويُشاهَدونَ). ((تفسير ابن عثيمين-سورة النور)) (ص: ٩٩).

وقال أيضًا: (يَظهَرُ أنَّ الآيةَ عامَّة لهذا ولهذا؛ أن يَشيعَ خبَرُها وتَنتشِرَ إذا فُعلَتْ، وأن يَشيعَ فِعلُها وتَكثُرَ الفواحشُ في المؤمنينَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٤).

ممَّن اختار أنَّ العذابَ الأليمَ في الدُّنيا بالحدِّ، وفي الآخرةِ بالنارِ: الواحديُّ، والسمعاني، وابن الجوزي، وأبو حيان، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧). =

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: واللهُ يَعلمُ جميعَ المعلوماتِ، ومِن جملةِ ذلك عِلمُه ما في القلوب مِن الأسرارِ والضمائرِ، فيَعلمُ مَن يُحِبُّ إشاعةَ الفاحشةِ، وهو معاقِبُه عليها، ويَعلمُ كَذِبَ الذين جاؤوا بالإفكِ، ويعلَمُ ما في ذلك من المفاسِدِ فيَعِظُكم لتَجتَنِبوا، وأنتم لا تعلمونَ إلَّا ما علَّمكم، وبيَّن لكم، فرُدُّوا الأمورَ إليه تَرْشُدوا، ولا تَرْوُوا ما لا عِلمَ لكم به[1].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِي الله عنهما، قال: ((صَعِدَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المِنبَرَ، فنادى بصوتٍ رفيعٍ، فقال: يا معشَرَ مَن أسْلَمَ بلِسانِه، ولم يُفْضِ الإيمانُ

= وممَّن قيَّد العَذابَ في الآخرةِ بالنارِ بعدَمِ التَّوبةِ ومَوتِهم مُصِرِّينَ على ذلك: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٤٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٥).

قال ابن عطية: (والعذابُ الأليمُ في الدُّنيا: الحدودُ، وفي الآخِرةِ يحتمِلُ وجهَينِ؛ أحَدُهما: أن يَكونَ القاذِفُ متوعَّدًا مِن بيْن العُصاةِ بعذابِ الآخرةِ لا يُزيلُه الحَدُّ حسَبَ مُقتضى حديثِ عُبادةَ بنِ الصامِتِ، ويَكونَ أمْرُه كأمرِ المُحارِبينَ إذا صُلِّبوا؛ لهم خِزْيٌ في الدُّنيا، ولهم في الآخرةِ عَذابٌ. والوجهُ الثَّاني: أن يُحكَمَ بأنَّ الحدَّ مُسقِطٌ عَذابَ الآخرةِ حسَبَ حديثِ عُبادةَ بنِ الصامِتِ، وأنَّ قَولَه: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لا يريدُ به عُمومَ القَذَفةِ، بل يريدُ إمَّا المنافقينَ، وإمَّا مَن لم يَتُبْ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧١).

وقال ابن جزي: (ورد في الحديثِ: أنَّ مَن عُوقِب في الدُّنيا على ذنبٍ لم يُعاقَبْ عليه في الآخرةِ [يُنظر ما أخرجه البخاري «٣٨٩٢»، ومسلم «١٧٠٩» مِن حديثِ عُبادةَ]، فأَشكَل اجتِماعُ الحَدِّ معَ عذابِ الآخرةِ في هذا الموضِعِ، فيَحتَمِلُ أن يكونَ القاذِفُ يُعذَّبُ في الآخرةِ ولا يُسقِطُ الحَدُّ عنه عذابَ الآخرةِ بخلافِ سائرِ الحدودِ، أو يكونَ هذا مختَصًّا بمن قذَفَ عائشةَ...، أو يكونَ لِمن مات مُصِرًّا غيرَ تائبٍ، أو يكونَ للمُنافِقين). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥).

إلى قلبِه، لا تُؤْذُوا المُسلِمينَ، ولا تُعَيِّروهم، ولا تتَّبِعوا عَوْراتِهم؛ فإنَّه مَن تتَبَّع عَوْرةَ أخيه المسلِمِ تتَبَّع اللهُ عورتَه، ومَن تتَّبَع اللهُ عَورتَه يَفْضَحْهُ ولو في جَوفِ رَحلِه))[١].

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

أي: ولولا فَضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه وأنَّه رؤوفٌ بكم؛ لعجَّل لكم العُقوبةَ على خَوضِكم في الإفكِ، لكِنَّه لم يعاقِبْكم، وتاب عليكم[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبرَ تعالى بأنَّه ما أنزَل لهم هذا الشَّرعَ على لسانِ هذا الرَّسولِ الرؤوفِ الرَّحيمِ إلَّا رحمةً لهم، بعْدَ أن حذَّرهم موارِدَ الجَهلِ؛ نهاهم عن التَّمادي فيه في سياقِ مُعْلِمٍ أنَّ الدَّاعيَ إليه الشَّيطانُ العَدُوُّ[٣].

وأيضًا لَمَّا نهَى تعالى عمَّا نهَى عنه فيما سبَق بخصوصِه، نهَى عن الذنوبِ عمومًا[٤]، فقال تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٢)، وابن حبان (٥٧٦٣).
قال الترمذي: (حسنٌ غريبٌ)، وصَحَّح إسنادَه الزَّيْلعيُّ في ((تخريج الكشاف)) (٣/ ٣٤٤)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٠٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

أي: يا أيُّها الذين آمنوا لا تَسلُكوا طُرُقَ الشَّيطانِ التي يَدْعوكم إليها بوساوسِه، كإشاعةِ الفاحشةِ في الذين آمنوا(١).

﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾.

أي: ومَن يَسلُكْ طرُقَ الشَّيطانِ يقَعْ في الفَحشاءِ والمنكَرِ؛ لأنَّ الشيطانَ يأمُرُ النَّاسَ بفِعلِ الذُّنوبِ العظيمةِ القبيحةِ، كالزِّنا، ويأمُرُ بمُنكراتِ الأقوالِ والأفعالِ التي تُنكِرُها الشَّريعةُ والعقولُ السَّليمةُ(٢).

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾.

أي: ولولا فَضلُ الله عليكم ورحمتُه بكم، ما تطهَّر أحَدٌ منكم أبدًا مِن الشِّركِ والمعاصي واتِّباعِ خُطواتِ الشَّيطانِ، ولا اهتدَى إلى الإيمانِ والتَّوبةِ النَّصوحِ وطاعةِ الرَّحمنِ(٣).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ يُطهِّرُ مِن الذُّنوبِ وآثامِها، ويهدي إليه مَن يشاءُ مِن عبادِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).
قال السعدي: (وخُطواتُ الشَّيطانِ يدخُلُ فيها سائِرُ المعاصي المتعَلِّقةِ بالقَلبِ واللِّسانِ والبَدَنِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٥).

ممَّن يستحِقُّ ذلك[١].

كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩].

وعن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ الله عنه، قال: كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((اللهُمَّ آتِ نفْسي تَقْواها، وزَكِّها أنت خيرُ مَن زكَّاها، أنت وليُّها ومَوْلاها))[٢].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ سميعٌ لأقوالِكم كُلِّها؛ خَيرِها وشَرِّها، عليمٌ بأقوالِكم وأعمالِكم وما في قلوبِكم، وهو محيطٌ بكلِّ ذلك، ومُحصيه عليكم؛ لِيُجازيَكم به[٣].

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أمِّ المؤمنين عائِشةَ بنتِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ -رَضِيَ الله عنهما- في قِصَّةِ الإفكِ، قالت: ((فأنزل اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ [النور: ١١] العشرَ الآياتِ كُلَّها في براءتي، فقال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ -وكان يُنفِقُ على مِسْطَحٍ لِقَرابتِه منه-: واللهِ لا أُنفِقُ على مِسطَحٍ شَيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشةَ؛ فأنزل اللهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٧٥).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠).

وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]. قال أبو بكرٍ: بلى واللهِ، إنِّي لَأُحِبُّ أن يَغفِرَ اللهُ لي، فرجَعَ إلى مِسْطَحٍ النَّفقةَ التي كان يُنفِقُ عليه، وقال: واللهِ لا أنزِعُها عنه أبدًا))[(١)].

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ولا يَحلِفْ باللهِ أصحابُ الفَضلِ[(٢)] والغِنى وذَوو السَّعةِ في الرِّزقِ، على

---

(١) رواه البخاري (٦٦٧٩) واللفظ له، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) قال الواحدي: (﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ [النور: ٢٢] قال جماعةُ المفسرين: لا يحلِفْ). ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٣).

قال ابن جزي: (والفضلُ هنا يحتمِلُ أن يُريدَ به: الفضلَ في الدِّينِ، أو الفضلَ في المالِ، وهو أن يَفضُلَ له عن مِقدارِ ما يَكفيه، والسَّعةُ هي اتِّساعُ المالِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالفضلِ هنا: الفضلُ في الدِّينِ: السمرقنديُّ، والرازي، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والعليمي، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٩).

قال ابن عاشور: (والفضلُ: أصْلُه الزِّيادةُ؛ فهو ضِدُّ النقصِ، وشاعَ إطلاقُه على الزيادةِ في الخَيرِ والكمالِ الدِّينيِّ، وهو المرادُ هنا. ويُطلَقُ على زيادةِ المالِ فوقَ حاجةِ صاحِبِه، وليس مرادًا هنا؛ لأنَّ عَطْفَ ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ عليه يُبعِدُ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أن المرادَ به: الفضلُ في المالِ والغنى: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٧٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠).

قال ابن جرير: (ذَوو الفَضلِ منكم، يعني: ذَوي التفضُّلِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٢). =

أَلَّا يُنفِقوا ويُعطوا الصَّدَقاتِ أقارِبَهم والمساكينَ والمُهاجرينَ في سَبيلِ اللهِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟

= وقال ابن كثير: (﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أي: الطَّوْلِ والصدقةِ والإحسانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٦).

قال الواحدي: (﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾... وهو أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ الله عنه، في قولِ جميعِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٦/ ١٧٣).

وقال الرازي: (أجمَع المفسِّرونَ على أنَّ المرادَ مِن قولِه: ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ﴾: أبو بكرٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٩).

وقال أيضًا: (أجمعوا على أنَّ المرادَ مِن قوله: ﴿أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: مِسطَحٌ؛ لأنَّه كان قريبًا لأبي بكرٍ، وكان من المساكينِ، وكان من المهاجرينَ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٢).

وقال ابن عطية: (غيرَ أنَّ الآيةَ تتناوَلُ الأمَّةَ إلى يومِ القيامةِ، بألَّا يَغتاظَ ذو فَضلٍ وسَعةٍ فيَحلِفَ ألَّا ينفَعَ مَن هذه صِفتُه غابِرَ الدَّهرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٣).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ مِن أُولي الفضلِ ابتداءً أبو بكرٍ، والمرادُ مِن أولي القُربى ابتداءً مِسطَحُ ابنُ أُثاثةَ، وتعُمُّ الآيةُ غيرَهما ممَّن شاركوا في قضية الإفكِ، وغيرَهم ممَّن يشمَلُه عمومُ لَفظِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٩).

قال البقاعي: (ذكَرَ الصِّفاتِ المُقتَضيةَ للإحسانِ، فقال: ﴿أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وعدَّدَها بأداةِ العَطفِ؛ تكثيرًا لها وتَعظيمًا لأمرِها، وإشارةً إلى أنَّ صِفةً منها كافيةٌ في الإحسانِ، فكيف إذا اجتمَعَت؟! فقال سُبحانَه: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ أي: الذين لا يجِدون ما يُغنيهم وإن لم تكن لهم قَرابةٌ، ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ لأهلِهم وديارِهم وأموالِهم، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي عَمَّ الخلائِقَ بجودِه؛ لِما له من الإحاطةِ بالجلالِ والإكرامِ، وإنِ انتفى عنهم الوصفانِ الأوَّلانِ فإنَّ هذه الصِّفاتِ مُؤْذِنةٌ بأنَّهم ممَّن زكَّى الله، وتَعدادُها بجَعلِها عِلَّةً للعَفوِ- دليلٌ على أنَّ الزاكيَ مِن غيرِ المعصومين قد يَزِلُّ، فتُدرِكُه الزكاةُ بالتوبةِ، فيَرجِعُ كما كان، وقد تكونُ الثلاثةُ لِموصوفٍ واحدٍ؛ لأنَّ سَبَبَ نزولِها مِسطَحٌ رضِيَ الله عنه؛ فالعَطفُ إذَنْ للتمكُّنِ في كُلِّ وصفٍ منها). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٣٨).

بَيْنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٢٤].

﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾.

أي: ولْيَعْفُ ذَوو الفَضلِ والسَّعةِ منكم عن أولئك المحتاجينَ الذين خاضُوا في الإفكِ، ويتجاوَزوا عنهم، ويُعرِضوا عن ذَنبِهم، ويَترُكوا عُقوبتَهم؛ فلا يَمْنعوهم مِن الصَّدقاتِ والنَّفَقاتِ التي كانوا يُقدِّمونَها إليهم مِن قبْلُ(١).

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

أي: ألا تُحِبُّونَ أن يَستُرَ اللهُ ذُنوبَكم، ويَتجاوزَ عن مؤاخَذتِكم بها؟ إذَنْ فاعفُوا واصفَحوا عمَّن أساؤوا إليكم؛ لِيَغفِرَ اللهُ لكم(٢).

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ ساترٌ لذُنوبِ التَّائبينَ الطَّائعينَ، ومُتجاوِزٌ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٩).

قال ابن عثيمين: (إذا قال قائلٌ: ما الفرقُ بيْن العَفوِ والصفحِ؟

الجوابُ: العفوُ بمعنَى التجاوُزِ، يعني: أنَّ اللهَ إذا عفا عنه فقد تجاوَزَ عنه، وقد يَكونُ الصفحُ بدُونِ عَفوٍ، كما لو أعرَضَ الإنسانُ عن هذا الاعتِداءِ لكنَّ قلبَه مملوءٌ على صاحِبِه، ولم يَعْفُ عنه، وقد يَكونُ العفوُ بدُونِ صَفحٍ، بأن يَتجاوَزَ ولا يُعاقِبَه على ذَنبِه، ولكنَّه ليس مُعرِضًا عن هذا الذَّمِّ كلَّما جاءت مناسَبةُ ذِكرِه؛ ولهذا أمَرَ اللهُ بالأمْرَينِ جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٢١).

وقال أيضًا: (العفو: ترْكُ المؤاخَذةِ على الذنْبِ، والصفحُ: الإعراضُ عنه... فالصفحُ معناهُ: الإعراضُ عن هذا بالكلِّيَّةِ وكأنَّه لم يَكُنْ؛ فعلى هذا يَكونُ بيْنهما فرقٌ؛ فالصفحُ أكمَلُ إذا اقترَنَ بالعَفْوِ). ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٨).

بعبادِه المؤمِنينَ الصَّالحينَ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ يدُلُّ على وجوبِ سلامةِ القَلبِ للمُؤمنينَ، كوجوبِ كَفِّ الجوارِحِ والقَولِ عمَّا يَضُرُّ بهم[٢].

٢- العاقِلُ هو الذي يتحَسَّسُ مَعايبَ نَفْسِه، ويَنظُرُ فيها لِيُصلِحَها، لا أن يَنظُرَ في معايبِ الغَيرِ لِيُشيعَها -والعياذُ باللهِ-؛ ولهذا قال اللهُ عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣].

٣- مَن كان مِن النَّاسِ مَستورًا لا يُعرَفُ بشَيءٍ مِن المعاصي، إذا وقَعَت منه هَفوةٌ أو زلَّةٌ، فإنَّه لا يجوزُ كَشفُها ولا هَتكُها، ولا التَّحدُّثُ بها؛ لأنَّ ذلك غِيبةٌ مُحرَّمةٌ، وهذا هو الذي ورَدتْ فيه النُّصوصُ، وفي ذلك قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، والمرادُ: إشاعةُ الفاحشةِ على المؤمِنِ المُستَتِرِ فيما وقع منه، أو اتُّهِم به وهو بريءٌ منه[٤]، فالآية فيها الحثُّ على سَترِ المؤمِنِ، وعَدَمِ هَتكِه[٥].

٤- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ إذا أَحَبُّوا إشاعتَها وإذاعتَها، فكيفَ إذا تولَّوا هم إشاعتَها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٥١).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٩٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠).

وإذاعتَها، لا نصيحةً منهم، ولكن طاعةً لإبليسَ ونيابةً عنه[١]؟! ففي الآيةِ أنَّ هذا العقابَ ثابتٌ لِمَن أشاع الفاحِشةَ؛ لأنَّه إذا ثَبَتَ فيمَن أحَبَّها، فكذلك فيمَن أشاعَها مِن بابِ أَولى[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ يدُلُّ على أنَّ العَزمَ على الذَّنبِ العَظيمِ عَظيمٌ، وأنَّ إرادةَ الفِسقِ فِسقٌ؛ لأنَّه تعالى علَّق الوعيدَ بمحبَّةِ إشاعةِ الفاحشةِ[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ مِن أدَبِ هذه الآيةِ أنَّ شأنَ المؤمنِ ألَّا يُحِبَّ لإخوانِه المؤمنين إلَّا ما يحِبُّ لنفسِه، فكما أنَّه لا يحِبُّ أن يُشيعَ عن نَفْسِه خبرَ سوءٍ، كذلك يجِبُ عليه ألَّا يحِبَّ إشاعةَ السوءِ عن إخوانِه المؤمِنينَ[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لِشُيوعِ أخبارِ الفواحِشِ بيْن المؤمِنينَ بالصِّدقِ أو بالكَذِبِ مَفسدةٌ أخلاقيَّةٌ؛ فإنَّ ممَّا يَزَعُ النَّاسَ عن المفاسِدِ تَهيُّبَهم وُقوعَها، وكراهتَهم سوءَ سُمعتِها، وذلك مِمَّا يَصرِفُ تفكيرَهم عن تذكُّرِها -بَلْهَ الإقدامِ عليها- رويدًا رويدًا حتى تُنسى وتَنْمحي صُوَرُها مِن النُّفوسِ، فإذا انتشرَ بيْن الأمَّةِ الحديثُ بوقوعِ شَيءٍ مِن الفواحِشِ، تذكَّرَتها الخواطِرُ، وخَفَّ وقْعُ خَبَرِها على الأسماعِ؛ فدَبَّ بذلك إلى النُّفوسِ التهاوُنُ بوقوعِها، وخِفَّةُ وَقعِها على الأسماعِ، فلا تلبَثُ النفوسُ الخبيثةُ أن تُقدِمَ على اقترافِها، وبمقدارِ تكرُّرِ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥).

وُقوعِها وتكرُّرِ الحديثِ عنها تصيرُ متداوَلةً. هذا إلى ما في إشاعةِ الفاحشةِ مِن لَحاقِ الأذى والضُّرِّ بالنَّاسِ ضُرًّا متفاوِتَ المقدارِ على تفاوُتِ الأخبارِ في الصِّدقِ والكَذِبِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ التَّحذيرُ مِن اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ، وبيانُ عاقبةِ اتِّباعِها[٢]، ومِن حِكمتِه تعالى أنْ بَيَّنَ الحُكمَ، وهو: النَّهيُ عن اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ. والحِكمةَ، وهي: بيانُ ما في المَنهيِّ عنه مِنَ الشَّرِّ المُقتضي والدَّاعي لِتَركِه؛ فنَهيُ اللهِ عنها للعبادِ نِعمةٌ منه عليهم أن يَشكُروه ويَذكُروه؛ لأنَّ ذلك صيانةٌ لهم عن التدَنُّسِ بالرَّذائِلِ والقَبائحِ؛ فمِن إحسانِه عليهم أنْ نهاهم عنها كما نهاهم عن أكلِ السُّمومِ القاتِلةِ، ونَحوِها[٣]. ومِن نعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى أنْ يُبيِّنَ للعِبادِ أسبابَ الشَّرِّ، ويُحَذِّرَهم منها، يعني لا يَكِلُهم إلى أنفُسِهم، بل اللهُ سُبحانَه وتعالى يتولَّى بيانَ ذلك بفَضلِه ورَحمتِه[٤].

٩- في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أنَّه يَنبغي ذِكرُ الحوافزِ التي تُحَفِّزُ الإنسانَ، وتَحمِلُه على الامتثالِ؛ لقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، كأنَّه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لأنَّكم مؤمِنونَ ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ ففي هذا إثارةٌ وحافزٌ قويٌّ يُحَفِّزُ الإنسانَ على ألَّا يَتَّبعَ خُطواتِ الشَّيطانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٦).

١٠- زكاةُ القَلبِ مَوقوفةٌ على طهارتِه، كما أنَّ زكاةَ البدَنِ موقوفةٌ على استفراغِه مِن أخلاطِه الرَّديئةِ الفاسدةِ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾، وذكَرَ ذلك سُبحانَه عَقِيبَ تحريمِ الزِّنا والقَذفِ ونِكاحِ الزَّانيةِ؛ فدَلَّ على أنَّ التزكِّيَ هو باجتنابِ ذلك[١].

١١- قولُه تعالى: ﴿عَلِيمٞ﴾ أي: بجميعِ المعلوماتِ التي مِنْ جُملتِها نيَّاتُهم، وفيه حَثٌّ لهُم على الإخلاصِ في التَّوبةِ[٢].

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ في هذه الآيةِ مِن الأخلاقِ الاجتماعيَّةِ ما يدُلُّ على أنَّ القُرآنَ تَشريعٌ سَماويٌّ؛ حيثُ يُعطِّفُ الإنسانَ على مَن تَكلَّمَ فيه بما لا يَنبغي، وليس فيه تَشجيعٌ على الجرائمِ؛ فإنَّ كلَّ واحدٍ يُؤَدَّبُ مِن جهةٍ؛ فالذي رمى أُدِّبَ مِن جهةِ الحَدِّ، والذي حَلَفَ ألَّا يُنفِقَ عليه أُدِّبَ مِن جهةِ تَكفيرِ يمينِه، وإيتاءِ الفَقيرِ ما يَستحِقُّ[٣].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ﴾ فيه دليلٌ على أنَّه لا تُترَكُ النَّفقةُ والإحسانُ بمعصيةِ الإنسانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ فيه الحَثُّ على العَفوِ والصَّفحِ، ولو جرى عليه ما جرى مِن أهلِ الجرائِمِ[١]. قال الإمامُ أحمدُ: (كُلُّ مَن ذكرني ففي حِلٍّ إِلَّا مُبتدعًا، وقدْ جعلْتُ أبا إسحاقَ -يعني: المعتصمَ[٢]- في حِلٍّ، ورأيْتُ اللهَ يقولُ: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، وأمَر النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم أبا بكرٍ بالعفوِ في قِصَّةِ مِسطحٍ). وقال أيضًا: (وما ينفعُكَ أنْ يُعَذِّبَ اللهُ أخاكَ المسلمَ في سببِكَ)[٣]؟!

١٥- قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فيه ترغيبٌ عظيمٌ في العفوِ، ووَعْدُ الكريمِ بمُقابَلتِه[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ دليلٌ على أنَّ مُواصلةَ مَن قطَع، والإحسانَ إلى مَن أساء: هو خُلُقٌ مَرْضِيٌّ، ومندوبٌ إليه المرءُ[٥].

١٧- يُفيدُ قَولُه تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أنَّه ينبغي التعرُّضُ لمَغفرةِ اللهِ ورِضوانِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(٢) فقد حُبِس، وضُرِب بينَ يدي المعتصمِ في المحنةِ بخلقِ القرآنِ. يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١٤/ ٣٩٣، ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١١/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٢٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ عبَّر بالحُبِّ؛ إشارةً إلى أنَّه لا يَرتكِبُ هذا مع شناعتِه إلَّا مُحِبٌّ له[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ تَعليقُ الوعيدِ على مَحبَّةِ الشِّياعِ: دَليلٌ على أنَّ إرادةَ الفِسْقِ فِسْقٌ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ فضْلُ اللهِ على المؤمنينَ في حمايةِ أعراضِهم؛ حيث تَوعَّدَ مَن أحبَّ أن تَشيعَ الفاحشةُ فيهم[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ هذا الوَعيدُ الشَّديدُ يَنطَبِقُ على دُعاةِ تَحريرِ المرأةِ في بلادِ الإسلامِ مِن الحِجابِ، والتخَلُّصِ مِن الأوامِرِ الشَّرعيَّةِ الضَّابِطةِ لها في عِفَّتِها وحِشمتِها وحيائِها[٤].

٥- حَسُنَ مَوقِعُ قَولِ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بعْدَ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ لأنَّ محبَّةَ القَلبِ كامِنةٌ، ونحن لا نعلَمُها إلَّا بالأماراتِ، أمَّا الله سُبحانَه فهو لا يخفَى عليه شَيءٌ،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((حراسة الفضيلة)) لبكر أبو زيد (ص: ٧٥).

فصار هذا الذِّكرُ نهايةً في الزَّجرِ؛ لأنَّ مَن أحبَّ إشاعةَ الفاحشةِ -وإنْ بالغَ في إخفاءِ تلك المحبَّةِ- فهو يعلمُ أنَّ اللهَ تعالى يعلَمُ ذلك منه، وأنَّ عِلمَه سُبحانَه بذلك الذي أخفاه كعِلمِه بالذي أظهَرَه، ويعلَمُ قَدرَ الجزاءِ عليه[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وجوبُ رَدِّ الأشياءِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وحُكمِها؛ لقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾[٢].

٧- قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فيه قصورُ علمِ المخلوقِ؛ ولذلك نفى اللهُ عنه العِلمَ؛ لأنَّ ما أُوتي مِن العلمِ قليلٌ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ بيانُ فضلِ اللهِ وحكمتِه؛ حيثُ يَقرِنُ الأحكامَ بعِلَلِها؛ لأنَّ قولَه: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ هذا حُكمٌ؛ علةُ النَّهيِ: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾، وذِكرُ الأحكامِ بعِلَلِها له فوائدُ؛ منها: زيادةُ اطمئنانِ الإنسانِ للحُكمِ، ومعرفةُ أسرارِ الشريعةِ وكمالِها، وتعدِّي هذا الحُكمِ بتعدِّي العلَّةِ[٤].

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ لا يُعارِضُه قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، ولا قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، ووجهُ ذلك في قَولِه: ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أنَّه لا يزكِّيها إلَّا بتوفيقِ اللهِ وهدايتِه إيَّاه للعمَلِ الصَّالحِ، وقَبولِه منه. وكذلك الأمرُ في قَولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ كما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٧).

لا يخفى[١].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ فيه دليلٌ على النَّفَقةِ على القَريبِ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ فضيلةُ أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه[٣]، فقولُه: ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أي: في الدِّين -على قولٍ في التفسيرِ-، وكفَى به دليلًا على فضلِ الصِّدِّيقِ رضي الله تعالى عنه[٤].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه النَّهيُ عن الحَلِفِ ألَّا يفعَلَ خَيرًا، وأنَّ مَن حلَف على يمينٍ فرأى غيرَها خيرًا منها، فيُستحَبُّ له الحِنثُ[٥]، وفيه دليلٌ على أنَّ اليمينَ إذا وقعَتْ على ما لا قُربةَ فيه إلى اللهِ، فالطَّاعةُ تَرْكُها وتَركُ المُضِيِّ عليها -وإنْ لم يكُنِ التَّركُ مفروضًا- إذا كان غيرُه أقربَ منه؛ لأنَّ سياقَ الآيةِ يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى نَدَب أبا بكرٍ إلى العَودِ إلى مِسطَحٍ بفَضلِه، وتَرْكِ مُعاقبتِه على ما كان منه إلى ابنتِه نَدبًا، ولم يَفرِضْ عليه فَرضًا، ولولا ذلك ما دَلَّه -واللهُ أعلمُ- على العَفوِ والصَّفحِ، ولا وَعَده عليه الغُفرانَ؛ إذِ العَفوُ والصَّفحُ بَابَا فَضلٍ، لا يُجبَرُ أحدٌ عليهما[٦].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(٣) يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٩٠). ويُنظر أيضًا: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ٣٤).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ الإساءةَ مِن الشَّخصِ لا تُوجِبُ إسقاطَ حُقوقِه، فإذا أساء فليس معنى ذلك أنَّنا نُسيءُ إليه بتَركِ ما يجبُ علينا؛ فإساءتُه تكونُ على نفْسِه، ونحن علينا ما يجِبُ[1].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دليلٌ على أنَّ اسمَ القُربى شاملٌ لكلِّ مَن مَتَّ إلى الإنسانِ برَحِمٍ -قَرُبَت أو بَعُدَت-؛ إذِ الرَّحِمُ قُربَةٌ يَقتربُ بها ذو النَّسَبِ، وقد عَرِي منها الأجنبيُّ، فلا يَمُتُّ بها أبدًا، وكذا النَّسَبُ -وإن بَعُدَ نسَبُه- فهو قُرْبةٌ مِن الإنسانِ لا يقتربُ بها سائرُ جنْسِه مِن النَّاسِ، وسواءٌ كان ذلك مِن قِبَلِ الأبِ أو الأمِّ؛ لا أنَّه أسباطُ الإنسانِ وبنو عمِّه الأَدْنَونَ، كما تزعُمُ الرَّافضةُ مِن أنَّ قولَ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] أنه عليٌّ والحسَنُ والحُسَينُ وفاطمةُ رضي الله عنهم، دون سائرِ قراباتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم!! ألَا ترَى أنَّ مِسطحَ بنَ أُثَاثةَ -الذي حُضَّ أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنه على الإنفاقِ عليه، المسمَّى بأُولي القُربى- إنَّما هو ابنُ بنتِ خالةِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عنه، وقد سمَّاه اللهُ مِن أُولي قُربَاه؟! فكيف تُخَصُّ ابنةُ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وسِبْطاهُ وابنُ عمِّه دونَ سائرِ أقاربِه المسلمين، بالمودَّةِ في الآيةِ، وابنُ بنتِ خالةِ الإنسانِ قريبُه كما ترى[2]؟!

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الرَّدُّ على المعتزلةِ القائلين: إنَّ الكبائرَ تُحبِطُ الأعمالَ[3]؛ لأنَّ مِسطَحًا رضي اللهُ عنه كان ممَّن خاض في رَمي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٨).

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ: (إذا كانت السَّيِّئاتُ لا تُحبِطُ جميعَ الحَسَناتِ، فهل تُحبِطُ =

عائشةَ، وذلك كَبيرةٌ قَطعًا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾، وتَوَعَّدَ على ذلك توعُّدًا عظيمًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ومع ذلك بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ هِجرةَ مِسطَحٍ باقيةٌ، فلو كانتِ الكبيرةُ -غيرَ الشِّركِ- تُحبِطُ العمَلَ، لَمَا بَقِيت له هِجرةٌ، فلمَّا نَوَّه تعالى بهِجرتِه بعدَ ارتكابِه ذَنبَ القذْفِ؛ دلَّ ذلك على أنَّ سائرَ الذُّنوبِ لا تَقضي على الأعمالِ الصَّالحةِ إلَّا ذنبَ الشِّركِ الذي لا يَغفِرُه اللهُ[1]، وفيه ردٌّ على مَن يزعُمُ أنَّ الذُّنوبَ كُفرٌ، وكيف تكونُ كُفرًا وقد سمَّى اللهُ مِسطحًا -مع عظيمِ ذَنبِه- مُهاجِرًا[2]؟!

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ يؤْذِنُ بأنَّ كفَّارةَ اليمينِ كانت مشروعةً مِن قبْلِ هذه القصَّةِ، ولكنَّهم كانوا يَهابون الإقدامَ على الحِنثِ[3].

١٧- قَولُه تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ﴾ فيه أنَّ كمالَ العَفوِ يكونُ بالصَّفحِ؛

= بقَدْرِها؟ وهل يُحبَطُ بعضُ الحَسَناتِ بذَنبٍ دونَ الكُفرِ؟ فيه قولانِ للمُنتَسِبينَ إلى السُّنَّةِ: منهم مَن يُنكِرُه، ومنهم مَن يُثبِتُه، كما دلَّت عليه النُّصوصُ)). ((مجموع الفتاوى)). (١٠/ ٦٣٨).

وقال أيضًا: (أمَّا الصَّحابةُ وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ فعلى أنَّ أهلَ الكبائِرِ يُخرَجونَ مِن النَّارِ، ويُشفَعُ فيهم، وأنَّ الكبيرةَ الواحِدةَ لا تُحبِطُ جميعَ الحَسَناتِ، ولكِنْ قد يُحبَطُ ما يقابِلُها عند أكثرِ أهلِ السُّنَّةِ، ولا يُحبِطُ جميعَ الحَسَناتِ إلَّا الكُفرُ، كما لا يُحبِطُ جميعَ السَّيِّئاتِ إلَّا التَّوبةُ؛ فصاحِبُ الكبيرةِ إذا أتى بحسَناتٍ يبتغي بها رضا الله أثابه اللهُ على ذلك، وإن كان مُستَحِقًّا للعُقوبةِ على كبيرتِه)). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٣٢١، ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٨). ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٠).

فالعفوُ بعدمِ المؤاخَذةِ على الذنْبِ، والصَّفحُ بالإعراضِ عنه بالكلِّيَّةِ، وكأنَّه لم يَجْرِ؛ فيكونُ تكميلًا للعفوِ[١].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ العفوَ والصَّفحَ عن المسيءِ المسلمِ مِنْ مُوجِباتِ غفرانِ الذُّنوبِ[٢].

١٩- قَولُه تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه بيانُ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العمَلِ[٣].

٢٠- قال الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قيل: هذه أرجَى آيةٍ في كتابِ الله تعالى[٤]؛ لأنَّ الله أوصَى بالإحسانِ إلى القاذفِ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الجُملةُ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، واسمُ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يَعُمُّ كلَّ مَن يَتَّصِفُ بمَضمونِ الصِّلَةِ؛ فيَعُمُّ المُؤمِنينَ والمُنافِقينَ والمُشرِكينَ؛ فهو تَحذيرٌ للمُؤمِنينَ، وإخبارٌ عنِ المُنافِقينَ والمُشرِكينَ[٦].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ فيه جَعْلُ الوعيدِ على المَحبَّةِ لشُيوعِ الفاحشةِ في المُؤمِنينَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٤٨٣).

(٤) قاله عبدُ الله بنُ المبارك. يُنظر: ((صحيح مسلم)) (٢٧٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٨-٤٩٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٤).

تَنبيهًا على أنَّ مَحبَّةَ ذلك تَستحِقُّ العُقوبةَ؛ لأنَّ مَحبَّةَ ذلك دالَّةٌ على خُبْثِ النِّيَّةِ نحوَ المُؤمِنينَ. ومِن شأْنِ تلك الطَّوِيَّةِ: ألَّا يَلْبَثَ صاحبُها إلَّا يَسيرًا حتَّى يَصدُرَ عنه ما هو مُحِبٌّ له أو يُسَرَّ بصُدورِ ذلك مِن غَيرِه؛ فالمحبَّةُ هنا كِنايةٌ عنِ التَّهيُّؤِ لإبرازِ ما يُحِبُّ وُقوعَه. وجِيءَ بصِيغةِ الفِعْلِ المُضارعِ ﴿يُحِبُّونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستِمرارِ[١].

- قيل: المرادُ بشُيوعِ الفاحشةِ في قولِه: ﴿يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ شُيوعُ خَبَرِها -على قولٍ في التفسيرِ-، أي: يُحِبُّون شُيوعَها، ويَتَصدَّون مع ذلك لإشاعتِها؛ وإنَّما لم يُصرِّحْ به اكتِفاءً بذِكْرِ المحبَّةِ؛ فإنَّها مُستتبِعةٌ له لا مَحالةَ[٢]. وقيل: إذا أُريدَ بالمحبَّةِ نفْسُها مِن غَيرِ أنْ يُقارِنَها التَّصدِّي للإشاعةِ، فيَكونُ تَرتيبُ العذابِ عليها تَنبيهًا على أنَّ عذابَ مَن يُباشِرُ الإشاعةَ ويَتولَّاها أشَدُّ وأعظَمُ، ويَكونُ الاعتِراضُ التَّذييليُّ -وهو: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾- تَقريرًا لثُبوتِ العذابِ الأليمِ لهم، وتَعليلًا له[٣].

- قَولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ تَذييلٌ، أي: يَعلَمُ ما في ذلك مِن المفاسِدِ؛ فيَعِظُكم لِتَجتَنِبوا، وأنتم لا تَعلَمون فتَحسَبون التَّحدُّثَ بذلك لا يَترتَّبُ عليه ضُرٌّ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

- قَولُه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه تَكرارُ المِنَّةِ بتَرْكِ المُعاجَلةِ بالعِقابِ، وحُذِفَ جَوابُ (لَوْلَا) كما حُذِفَ ثَمَّةَ، وفي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥).

هذا التَّكريرِ مع حَذْفِ الجوابِ مُبالَغةٌ عظيمةٌ، وكذلك في التَّوَّابِ والرَّؤوفِ والرَّحيمِ[١]. فجَعَل هذا المعنى أوَّلاً خاتمةً لأحكامِ الزَّاني والرَّامي والمُلاعِنِ، ثمَّ أتَى به في حديثِ الإفكِ؛ للإيذانِ بأنَّهما سِيَّانِ في استِيجابِ سَخَطِ اللهِ ونَكالِه ولَعْنِه، وجَعَل الفاصِلةَ هنالِك: ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠]، وهاهنا: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّ هذا أعظَمُ مِن ذلك[٢].

- قَولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ؛ لتَربيةِ المَهابةِ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾

- قَولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ. ووُقوعُه عَقِبَ الآياتِ العَشْرِ الَّتي في قَضيَّةِ الإفكِ يُشيرُ إلى أنَّ ما تَضمَّنَتْه تلك الآياتُ مِن المَناهي وظُنونِ السُّوءِ ومَحبَّةِ شُيوعِ الفاحشةِ، كلُّه مِن وَساوِسِ الشَّيطانِ؛ فشَبَّه حالَ فاعِلِها في كَونِه مُتلبِّسًا بوَسوَسةِ الشَّيطانِ، بهَيئةِ الشَّيطانِ يَمشي، والعاملُ بأمْرِه يَتَّبِعُ خُطَى ذلك الشَّيطانِ؛ ففي قولِه: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ...﴾ تَمثيلٌ مَبنيٌّ على تَشبيهِ حالةٍ مَحسوسةٍ بحالةٍ مَعقولةٍ؛ إذْ لا يَعرِفُ السَّامِعون للشَّيطانِ خُطُواتٍ حتَّى يُنْهَوْا عنِ اتِّباعِها. وفيه: تَشبيهُ وَسوَسةِ الشَّيطانِ في نُفوسِ الَّذين جاؤُوا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٤).

بالإفكِ بالمَشيِ[١].

- وقولُه: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ...﴾ بَيانٌ لعِلَّةِ النَّهيِ عنِ اتِّباعِه[٢].

- وقولُه: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ عِلَّةٌ للجزاءِ، وُضِعَتْ مَوضِعَه، كأنَّه قيلَ: فقدِ ارتَكَبَ الفَحشاءَ والمُنكَرَ؛ لأنَّ دَأْبَه المُستمِرَّ أنْ يَأمُرَ بهما، فمَنِ اتَّبَعَ خُطُواتِه فقدِ امتَثَلَ بأمْرِه قَطْعًا[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ...﴾ وَضْعُ الظَّاهِرَينِ مَوضِعَ ضَميرَيْهما، حيثُ لمْ يَقُلْ: (ومَن يَتَّبِعْها)، أو: (ومَن يَتَّبِعْ خُطواتِه)؛ لزيادةِ التَّقريرِ، والمُبالَغةِ في التَّنفيرِ والتَّحذيرِ[٤].

- قَولُه: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ مفعولُ ﴿يَأْمُرُ﴾ مَحذوفٌ؛ لقصْدِ العُمومِ[٥].

- قَولُه: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ اعتِراضٌ تَذْييليٌّ بيْن الوعدِ والوعيدِ. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ؛ للإيذانِ باستِدعاءِ الأُلوهيَّةِ للسَّمعِ والعِلْمِ؛ ولِيَكونَ التَّذييلُ مُستقِلًّا بنفْسِه؛ لأنَّه ممَّا يَجري مَجرَى المَثَلِ[٦].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٦، ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٨).

- عطْفٌ على جُملةِ: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [النور: ٢١]؛ عطفَ خاصٍّ على عامٍّ؛ للاهتمامِ به؛ لأنَّه قد يَخْفى أنَّه مِن خُطواتِ الشَّيطانِ؛ فإنَّ مِن كَيدِ الشَّيطانِ أنْ يأتيَ بوَسوسةٍ في صُورةِ خواطِرِ الخيرِ إذا علِمَ أنَّ المُوسوَسَ إليه مِن الَّذين يتوخَّونَ البِرَّ والطَّاعةَ، وأنَّه ممَّن يتعذَّرُ عليه تَرويجُ وَسوستِه إذا كانت مَكشوفةً[١].

- وقولُه: ﴿أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صِفاتٌ لموصوفٍ واحدٍ، جيءَ بها بطريقِ العطْفِ؛ تَنبيهًا على أنَّ كلًّا منها عِلَّةٌ مُستقلَّةٌ لاستِحقاقِه الإيتاءَ، وقيل: لمَوصوفاتٍ أُقيمتْ هي مُقامَها؛ فيكونُ أبلَغَ في تعليلِ المقصودِ. وحُذِفَ المفعولُ الثَّاني لغايةِ ظُهورِه، أي: على ألَّا يُؤْتوهم شيئًا[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ إنكاريٌّ، مُستعملٌ في التَّحضيضِ على السَّعيِ فيما به المغفرةُ[٣].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ على جُملةِ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾؛ زِيادةً في التَّرغيبِ في العفْوِ والصَّفحِ، وتَطمينًا لنفْسِ أبي بكرٍ في حِنْثِه، وتَنبيهًا على الأمْرِ بالاتِّصافِ بمقتضياتِ صفاتِ اللهِ تعالى، مما ليس مختصًّا به سبحانَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٩٠).

الآيات (٢٢-٢٦)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٢٦﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾: أي: حِسابَهم العَدلَ، وجزاءَهم الواجِبَ، وأصلُ (دين) وما تفرَّع عنه: جنسٌ مأخوذٌ مِن الانقيادِ والذُّلِّ(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: إنَّ الذين يَقذِفون بالزِّنا العَفيفاتِ، الغافلاتِ عن الفاحِشةِ، المتَّصِفاتِ بالإيمانِ- مطرودون مِن رحمةِ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ، ولهم عذابٌ عَظيمٌ في نارِ جهنَّمَ إنْ لم يتوبوا قبلَ وفاتِهم، ذلك العذابُ يومَ القيامةِ حينَ تشهَدُ عليهم ألسنتُهم، وتتكَلَّمُ أيديهم وأرجُلُهم بما اقترَفوا مِن السيِّئاتِ، في هذا اليومِ ينالُهم حِسابُهم وجزاؤُهم العادِلُ، ويَعلَمونَ حينَئذٍ أنَّ اللهَ هو الحَقُّ الموجودُ الثابتُ، الظَّاهِرُ الذي لا شَكَّ فيه، المُظهِرُ للحقائِقِ في الآخرةِ.

الخبيثاتُ مِن النِّساءِ والأقوالِ والأعمالِ والأوصافِ مُناسِبةٌ للخَبيثينَ، وكذلك الخَبيثونَ مُوافِقونَ ومُناسِبونَ للخَبيثاتِ، والطيِّباتُ مِن النِّساءِ والأقوالِ والأعمالِ والأوصافِ مُناسِبةٌ للطَّيِّبينَ، وكذلك الطَّيِّبونَ أهلٌ للطَّيِّباتِ، أولئك

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٦٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٥).

الطَّيِّبونَ والطَّيِّباتُ مُنزَّهونَ ممَّا تقوَّلَه أهلُ الإفكِ، لهم على ما نالهم مِن الأذى مَغفِرةٌ لذُنوبِهم، ورِزقٌ كريمٌ في جنَّاتِ النَّعيمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ختَمَ الآيةَ السَّابقةَ بالوَصفينِ ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ بعْدَ الأمرِ بالعَفوِ، ربَّما جرَّأ على مِثلِ هذه الإساءةِ، فوصَلَ به مُرَهِّبًا من الوقوعِ في مثلِ ذلك قَولَه مُعَمِّمًا للحُكمِ[1]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

أي: إنَّ الذين يَقذِفونَ بالزِّنا العَفيفاتِ الغافلاتِ عن الفاحِشةِ[2] المؤمِناتِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٤٠).

(٢) قال ابنُ جريرٍ بعدَ أن ذكَر الخلافَ في المحصناتِ اللاتي هذا حُكمُهنَّ: (أَوْلى هذه الأقوالِ في ذلك عندي بالصَّوابِ قَولُ من قال: نزَلت هذه الآيةُ في شأنِ عائشةَ، والحُكمُ بها عامٌّ في كلِّ مَن كان بالصِّفةِ التي وصَفه اللهُ بها فيها). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٠). وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١-٣٣). وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السلفِ: قتادةُ، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٦).
وقيل: الآيةُ خاصَّةٌ في قذفِ عائشةَ وأزواجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والكرماني. يُنظر ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٨٠)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٧٩٣).
ونسَبَ ابنُ تيميَّةَ القولَ بأنَّ هذه الآيةَ في أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خاصَّةً إلى كثيرٍ مِن أهلِ العِلمِ. يُنظر: ((الصارم المسلول)) (ص: ٤٤).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَير في روايةٍ عنه، والضَّحَّاك، والكلبي، وأبو الجوزاء، وسَلَمةُ بن نُبَيْط. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٨٩)، =

ولم يتوبوا مِنْ قذْفِهِنَّ؛ أبعَدَهم اللهُ مِن رحمتِه في الدُّنيا والآخِرةِ[١].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: ولهم عذابٌ عظيمٌ في جهنَّمَ، إنْ لم يتوبوا قبْلَ وفاتِهم مِن قَذفِ المُحصَناتِ الغافلاتِ المُؤمِناتِ[٢].

= ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ١٦٥).

قال الشنقيطي: (وَصْفُه تعالى للمُحصَناتِ في هذه الآيةِ بكَونِهنَّ غافِلاتٍ: ثناءٌ عليهنَّ بأنَّهنَّ سليماتُ الصُّدورِ، نقيَّاتُ القُلوبِ، لا تَخطُرُ الرِّيبةُ في قُلوبِهنَّ؛ لحُسنِ سَرائِرِهنَّ، ليس فيهنَّ دَهاءٌ ولا مَكرٌ؛ لأنَّهنَّ لم يُجَرِّبْنَ الأمرَ فلا يَفْطُنَّ لِمَا تَفطُنُ له المُجَرِّباتُ ذواتُ المَكرِ والدَّهاءِ، وهذا النَّوعُ مِن سلامةِ الصُّدورِ وصَفائِها مِنَ الرِّيبةِ: مِن أحسَنِ الثَّناءِ). ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٦، ٢٣٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

قال الزجَّاج: (لم يقُلْ هاهنا: والمؤمنينَ؛ استِغناءً بأنَّه إذا رمى المؤمنةَ فلا بدَّ أن يرميَ معها مؤمنًا، فاستَغْنى عن ذِكرِ المؤمنينَ؛ لأنَّه قد جرى ذِكرُ المؤمنينَ والمؤمناتِ). ((معاني القرآن)) (٤/ ٣٧).

وذهب النحاسُ إلى أنَّ التقديرَ: الذين يَرْمونَ الأنفُسَ المحصناتِ، فيَدخُلُ في الآية قذفُ الذكورِ والإناث. يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٩١).

وقال ابن القيم: (خُصَّ الإناثُ باللَّفظِ؛ إذ كنَّ سببَ النُّزولِ، فنُصَّ عليهم بخُصوصهنَّ). ((إعلام الموقعين)) (١/ ٢٧٤).

وقال ابن عاشور: (اللعنُ في الدنيا: التَّفسيقُ، وسَلبُ أهليَّةِ الشهادة، واستيحاشُ المؤمنين منهم، وحَدُّ القذفِ؛ واللَّعنُ في الآخرة: الإبعادُ من رحمةِ الله). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٦، ٢٣٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

قال السعدي: (وهذا زيادةٌ على اللعنةِ، أبعَدهم عن رحمتِه، وأحلَّ بهم شدةَ نقمتِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اجتَنِبوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ، قيل: يا رَسولَ اللهِ، وما هُنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقَتلُ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ إلَّا بالحَقِّ، وأكلُ مالِ اليتيمِ، وأكلُ الرِّبا، والتولِّي يومَ الزَّحفِ، وقَذفُ المُحصَناتِ الغافلاتِ المُؤمِناتِ))[١].

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: لهم عذابٌ عظيمٌ يومَ القيامةِ حينَ تَشهَدُ عليهم ألسِنتُهم وأيديهم وأرجُلُهم، فتنطِقُ بغيرِ اختيارِهم بما كانوا يكتَسِبونَه في الدُّنيا مِن الذُّنوبِ، بأقوالِهم وأفعالِهم، كالقَذفِ وغَيرِه[٢].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فضَحِكَ، فقال: هل تدرونَ ممَّ أضحَكُ؟ قلنا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: مِن مخاطبةِ العبدِ ربَّه؛ يقولُ: يا ربِّ، ألم تُجِرْني من الظُّلمِ؟ يقولُ: بلى، فيقولُ: فإنِّي لا أُجيزُ على نفْسي إلَّا شاهِدًا مِنِّي، فيقولُ: كفَى بنَفْسِك اليومَ عليك شَهيدًا، وبالكِرامِ الكاتبينَ شُهودًا! فيُختَمُ على فِيهِ، فيُقالُ لأركانِه[٣]: انطِقي، فتَنطِقُ بأعمالِه، ثم يُخلَّى بيْنَه وبيْنَ الكلامِ، فيقولُ: بُعْدًا لكُنَّ وسُحْقًا! فعنكُنَّ كنتُ أُناضِلُ[٤]))[٥].

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٥)، ((السراج المنير)) للشربيني (٢/ ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

(٣) لأركانِه: أي: لجوارحِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٥).

(٤) أُناضِلُ: أي أُدافِعُ وأُجادِلُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٥).

(٥) رواه مسلم (٢٩٦٩).

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾.

أي: يومَئذٍ يوفِّيهم اللهُ حِسابَهم بالعَدلِ، ويُجازيهم على أعمالِهم بلا ظُلمٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾.

أي: وينكَشِفُ لهم(٢) حينَها أنَّ اللهَ هو الحَقُّ الموجودُ الثَّابتُ في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، الظَّاهِرُ الذي لا شَكَّ فيه، والهادي مَن يشاءُ، المُظهِرُ للحقائِقِ في الآخرةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٩١).

قال النحاس: (مجازاةُ الله جلَّ وعَزَّ للكافِرِ والمُسيءِ: بالحَقِّ والعدلِ، ومجازاتُه للمحسنينَ: بالفضلِ والإحسانِ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٩٢).

وقال البِقَاعي: (﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي الذي يَظهرُ لكلِّ أحدٍ مِن أهلِ ذلك المجمعِ العظيمِ أنَّهم يستحقونَه، فلا يقدرُ أحدٌ على نوعِ طعنٍ فيه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٤٢).

(٢) قيل: هم أهلُ النِّفاقِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٥).

قال ابنُ عاشور: (قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ينكشفُ للناسِ أنَّ الله هو الحقُّ... ومعنى كونِهم يعلمون أنَّ الله هو الحقُّ المبينُ: أنهم يتحقَّقونَ ذلك يومَئذٍ بعلمٍ قطعيٍّ لا يَقبلُ الخفاءَ ولا التردد، وإن كانوا عالِمينَ ذلك مِن قبْلُ؛ لأنَّ الكلامَ جارٍ في موعظةِ المؤمنينَ، ولكن نزَّل عِلمَهم المحتاجَ للنظرِ والمُعَرَّضَ للخفاءِ والغفلةِ منزلةَ عدمِ العلمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٢، ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢/ ٤١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٢، ١٩٣).

قال السعدي: (أوصافُه العظيمةُ حقٌّ، وأفعالُه هي الحقُّ، وعبادتُه هي الحقُّ، ولقاؤُه حقٌّ، ووعدُه ووعيدُه، وحُكمُه الدينيُّ والجزائيُّ حقٌّ، ورُسلُه حقٌّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥). =

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

بعد أن برَّأ سُبحانَه عائشةَ رضي اللهُ عنها مِمَّا رُمِيَت به مِن الإفكِ، ثمَّ ذكرَ أنَّ راميَ المُحصَناتِ الغافلاتِ مَطرودٌ مِن رَحمةِ الله- أردف ذلك دليلًا يَنفي الرِّيبةَ

= قال ابن عاشور: (﴿ٱلْمُبِينُ﴾: اسمُ فاعلٍ مِن أبانَ، الذي يُستعمَلُ مُتعدِّيًا بمعنَى أظهَرَ، على أصلِ معنَى إفادةِ الهمزةِ التَّعديةَ، ويُستعمَلُ بمعنَى بانَ، أي: ظهَرَ، على اعتِبارِ الهمزةِ زائدةً). (تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٣).

ممَّن اختار أنَّ المُبينَ بمعنَى البَيِّنِ الظاهِرِ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابنُ جُزَي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٠).

وممَّن اختار أنَّ المُبينَ بمعنَى المُظهِرِ: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والسمعاني، والبغوي، والرازي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٨٢)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٤١).

والمعنى على ذلك: أنَّه يُبيِّنُ لهم حقائقَ ما كان يَعِدُهم في الدُّنيا مِن العذابِ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، والواحدي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٨٢)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٦).

وقيل: المُظهِرُ للأشياءِ كما هي في أنفُسِها. وممَّن اختاره: الشوكانيُّ، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٤١).

وذكَرَ ابنُ عثيمينَ أنَّ مِن اللازمِ أنَّه إذا كان مُظهِرًا فهو ظاهِرٌ في نفْسِه، فالمُبينُ بمعنَى المُظهِرِ لا بدَّ أن يَكونَ بَيِّنًا بنفْسِه. وقد جمَع بيْن المعنيَينِ السابقَينِ، فقال: (الله تعالى بيِّنُ الأحَقِّيَّةِ، ومُبينٌ ذلك لعِبادِه بما ركَّبَ فيهم مِنَ الفِطَرِ السليمةِ، والعقولِ، وبالوحيِ الذي أرسَلَ به الرُّسلَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٤١) بتصرف.

عن عائشةَ بأجلى وضوحٍ؛ ذاك أنَّ السُّنةَ الجاريةَ بيْن الخَلقِ مَبنيَّةٌ على مُشاكلةِ الأخلاقِ والصِّفاتِ بيْن الزَّوجَينِ؛ فالطيِّباتُ للطيِّبينَ، والخبيثاتُ للخبيثينَ؛ ورسولُ اللهِ أطيبُ الطَّيِّبينَ، فيَجِبُ كونُ الصِّدِّيقةِ مِن أطيبِ الطَّيِّباتِ على مقتضى المنطقِ السَّليمِ والعادةِ الشَّائِعةِ بين الخَلقِ(١).

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾.

أي: الخَبيثاتُ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ والنِّساءِ وغيرِ ذلك لائقةٌ ومُناسِبةٌ للخَبيثينَ، وكذلك الخَبيثونَ أهلٌ للخَبيثاتِ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ والنِّساءِ وغيرِ ذلك(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٨/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

قال الماوَرْدي: (قوله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ الآيَةَ. فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدُها: الخبيثاتُ مِن النِّساءِ للخبيثينَ مِن الرِّجالِ، والخبيثون مِنَ الرِّجالِ للخبيثاتِ مِن النِّساءِ؛ والطيِّباتُ مِن النِّساءِ للطيِّبينَ مِن الرِّجالِ، والطيِّبونَ مِن الرِّجالِ للطيِّباتِ مِن النِّساءِ. قاله ابنُ زيد.

الثاني: الخبيثاتُ مِن الأعمالِ للخَبيثين مِنَ النَّاسِ، والخَبيثون مِن النَّاسِ للخَبيثاتِ مِن الأعمالِ؛ والطيِّباتُ مِن الأعمالِ للطيِّبينَ مِن النَّاسِ، والطيِّبون مِن النَّاسِ للطيِّباتِ مِن الأعمالِ. قاله مجاهِدٌ، وقتادةُ.

الثالث: الخبيثاتُ مِن الكلامِ للخَبيثين من النَّاسِ، والخبيثون مِن النَّاسِ للخَبيثاتِ مِن الكلامِ؛ والطيِّباتُ مِن الكلامِ للطيِّبينَ مِن النَّاسِ، والطيِّبونَ مِن النَّاسِ للطيِّباتِ مِن الكلامِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والضحَّاكُ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٨٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: البيضاويُّ، وابن تيميَّةَ، وابنُ جُزَي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٣)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيميَّة (٣/ ١٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١).

وممن قال به مِن السلفِ: ابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٨٢).

وذكَرَ ابنُ كثيرٍ أنَّ هذا القولَ يرجِعُ إلى القولِ الثالثِ باللازمِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤).

وممَّن اختار القولَ الثالثَ: ابنُ جريرٍ، والزجَّاجُ، والنحاس، ومكِّي، والواحدي، والنسفي، =

= والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٥١٥)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٠).

ونسَبَه الثعلبيُّ والواحديُّ والبغويُّ والقُرطُبيُّ لأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢١١).

وممَّن قال به من السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، والشعبي، والحسن بن أبي الحسن البصري، وحبيب بن أبي ثابت، والضحَّاكُ. ونسَبَه ابنُ تيميَّةَ لجمهورِ السَّلَفِ. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٥٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٨/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤).

قال الزجَّاجُ: (وقولُه جلَّ وعزَّ: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فيها وَجهانِ: المعنى: الكَلِماتُ الخَبيثاتُ للخَبيثينَ مِنَ الرِّجالِ، والرِّجالُ الخَبيثونَ للكَلِماتِ الخبيثَاتِ، أي: لا يَتكلَّمُ بالخَبيثاتِ إلَّا الخَبيثُ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ، ولا يتكلَّمُ بالطيِّباتِ إلَّا الطَّيِّبُ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ. ويجوزُ أن يكونَ معنى هذه: الكَلِماتُ الخَبيثاتُ إنَّما تَلصَقُ بالخَبيثينَ مِنَ الرِّجالِ والخَبيثاتِ مِن النِّساءِ، فأمَّا الطَّاهِراتُ الطَّيِّباتُ فلا يَلصَقُ بِهنَّ شَيءٌ). ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧).

قال الواحديُّ: (والمعنى: أنَّ الخَبيثَ مِنَ القَولِ لا يَليقُ إلَّا بالخَبيثِ مِنَ النَّاسِ، وكُلُّ كلامٍ إنَّما يَحسُنُ في أهلِه؛ فيُضافُ سَيِّئُ القَولِ إلى مَن يليقُ به ذلك، وكذلك الطَّيِّبُ مِنَ القَولِ، وعائِشةُ لا يَليقُ بها الخَبيثاتُ مِنَ الكَلامِ، فلا يَصدُقُ فيها؛ لأنَّها طَيِّبةٌ، فيُضافُ إليها طَيِّباتُ الكلامِ مِنَ الثَّناءِ الحَسَنِ وما يَليقُ بها). ثمَّ عَلَّق على الوَجهِ الأوَّلِ الذي ذكره الزَّجَّاجُ، فقال: (وهذا ذمٌّ للذين قذَفوا عائِشةَ بالخَبيثِ، ومَدحٌ للَّذينَ بَرَّؤوها بالطَّهارةِ). ((الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥).

وممَّن اختار العمومَ: ابنُ القيِّمِ، والسعديُّ. قال ابن القيِّمِ: (هذا وإنْ كان في النِّساءِ والرِّجالِ، فإنَّه يتناوَلُ الأعمالَ والأقوالَ، والمطاعِمَ والمشارِبَ، والملابسَ والروائِحَ، إمَّا بعمومِ لفظِه، أو بعمومِ معناه). ((زاد المعاد)) (٤/ ٢٥٧).

وقال السعديُّ: (هذه كَلِمةٌ عامَّةٌ وحَصرٌ، لا يخرجُ منه شَيءٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٤٣، ١٤٤).

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾.

أي: والطَّيِّباتُ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ والنِّساءِ وغيرِ ذلك لائقةٌ ومُناسِبةٌ للطَّيِّبينَ، وكذلك الطيِّبون أهلٌ للطَّيِّباتِ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ والنِّساءِ وغيرِ ذلك(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

أي: أولئك الطَّيِّبون والطَّيِّباتُ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ بُعَداءُ ومنزَّهونَ مِن الخُبْثِ الذي يَنسُبُه إليهم أهلُ الإفكِ(٢).

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: لهؤلاءِ الطيِّبين مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ، في الآخرةِ، مَغفِرةٌ من اللهِ لذُنوبِهم، ورِزقٌ حسَنٌ في جنَّاتِ النَّعيمِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥).

قال السعديُّ: (الإشارةُ إلى عائشةَ رضي اللهُ عنها أصلًا، وللمؤمناتِ المُحصَناتِ الغافلاتِ تبعًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

وقال الواحدي: (قال الفرَّاء: يعني عائِشةَ وصَفوانَ، فذكَر الاثنينِ بلَفظِ الجمعِ، كقَولِه: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١] يريدُ: أخَوين، وقَولِه: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] يريدُ: داودَ وسليمانَ. وقال الزَّجَّاجُ: كلُّ مِن قُذِفَ مِنَ المؤمنينَ والمؤمناتِ مُبَرَّؤونَ ممَّا يقولُ أهلُ الخبثِ القاذِفونَ). ((البسيط)) (١٦/ ١٨٦).

قال ابنُ جرير: (وقَولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾ يقولُ: الطَّيِّبونُ مِنَ النَّاسِ مُبَرَّؤونَ مِن خَبيثاتِ القَولِ، إنْ قالوها فإنَّ اللهَ يَصفَحُ لهم عنها، ويَغفِرُها لهم، وإنْ قِيلَت فيهم ضَرَّت قائِلَها ولم تَضُرَّهم، كما لو قال الطَّيِّبَ مِنَ القَولِ الخَبيثُ مِن النَّاسِ لم يَنفَعْهُ اللهُ به؛ لأنَّ اللهَ لا يَتقبَّلُه، ولو قِيلَت له لَضَرَّتْه؛ لأنَّه يَلحَقُه عارُها في الدُّنيا، وذُلُّها في الآخرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٨٨)، ((تفسير ابن =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ قضى اللهُ العليمُ الخبيرُ أنَّ كُلَّ شَكلٍ ينضَمُّ إلى شَكلِه، ويفعَلُ أفعالَ مِثلِه(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ الغالبُ الْتِئامُ الطَّيِّبةِ مع الطَّيِّبِ، والخَبيثةِ مع الخَبيثِ، لكن قد يَخْرِمُ اللهُ هذه القاعِدةَ لحِكَمٍ عَظيمةٍ، فيَضرِبُها أمثالًا للنَّاسِ، كما ضَرَبَ لهم بامرأتَيْ نوحٍ ولوطٍ، وامرأةِ فِرعونَ، وكما ضَرَبَ مثلًا لابنِ نوحٍ معه، وأبِي إبراهيمَ مع إبراهيمَ. والحكمةُ في ذلك: التفكُّرُ والاتِّعاظُ، وعدَمُ ركونِ الإنسانِ على قريبِه التقيِّ؛ قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١]، فإذا عُلِمَ أنَّ أعظمَ مُداخلةٍ بيْن النَّاسِ هي الزوجيَّةُ، ومع ذلك فَصِلَةُ امرأتَيْ نوحٍ ولوطٍ بهما -وهما نبيَّانِ- لم تنفعْهما،

= كثير)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

وقال ابن عثيمين: (أي: هؤلاء لهم مَغفِرةٌ على ذنوبِهم، ورِزقٌ كريمٌ على طاعاتِهم؛ فإنَّ الذنْبَ يناسِبُه المغفرةُ، والأعمالَ الصَّالحةَ يناسِبُها الرِّزقُ الكريمُ؛ لأنَّ مَن فعَلَ حَسَنةً يُجزى بعشرِ حَسَناتٍ إلى سَبعِ مئةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، فنَفْهَمُ مِن هذا أنَّ هؤلاء الذين قيل عليهم ما قيل قد حصَلَ لهم تكفيرُ سَيِّئاتٍ ومغفرةُ ذُنوبٍ، وكذلك رِفعةُ دَرَجاتٍ... وهنا قال عزَّ وجَلَّ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فهؤلاء أُصيبوا مُصيبةً عَظيمةً، ولا شَكَّ أنَّهم صبَروا حتى فرَّج الله عنهم هذه الغُمَّةَ، فكان جزاءَ ما أُصيبوا به في هذه القضيَّةِ أن حصَلَت لهم المغفرةُ، وفي مقابلةِ الصبرِ حصَل لهم الرِّزقُ الكريمُ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٤٦، ١٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٤٤).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]. إذا عَلِمَ الإنسانُ ذلك وأنَّ قرابةَ الصَّالحِ لا تنفعُ العاصيَ، كان ذلك باعثًا على العمَلِ، والاتِّصافِ بالصَّلاحِ، والمعروفُ أنَّ اللهَ تعالى نهى عن مُقاربةِ أهلِ السُّوءِ، والاختلاطِ بهم، وقال فيمَن يجالِسُهم إنَّهم يكونون مِثلَهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، ولكنَّ الصالحِينَ قد يَلجَؤون إلى مُخالطةِ الفاسدِين، فلا يَضُرُّهم ذلك في حُدودِ الضَّرورةِ المُلجِئةِ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ فيه أنَّ كُلَّ خَبيثٍ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، والكَلِماتِ والأفعالِ: مُناسِبٌ للخبيثِ، ومُوافِقٌ له، ومُقترِنٌ به، ومشاكِلٌ له؛ وكُلَّ طيِّبٍ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، والكَلِماتِ والأفعالِ: مُناسِبٌ للطيِّبِ، وموافِقٌ له، ومُقترِنٌ به، ومُشاكِلٌ له[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿الطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ دلَّت الآيةُ على النَّهيِ عن مُقارنةِ الفُجَّارِ ومُزاوجتِهم[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٨٥- ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٢٦).

وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ لقد برَّأ اللهُ تعالى أربعةً بأربعةٍ: برَّأ يوسُفَ بلِسانِ الشَّاهِدِ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]، وبرَّأ موسى مِن قَولِ اليهودِ فيه بالحَجَرِ الذي ذهَبَ بثَوبِه[١]، وبرَّأ مريمَ بإنطاقِ ولَدِها حين نادى مِن حِجْرِها: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، وبرَّأ عائشةَ بهذه الآياتِ العِظامِ في كتابِه المُعجِزِ المتلُوِّ على وجهِ الدَّهرِ مِثْلَ هذه التبرئةِ بهذه المبالغاتِ، فانظُرْ: كَمْ بيْنها وبيْن تبرئةِ أولئك؟! وما ذاك إلَّا لإظهارِ علُوِّ مَنزلةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتنبيهِ على إنافةِ محلِّ سَيِّدِ ولدِ آدمَ، وخِيرةِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وحُجَّةِ الله على العالَمينَ، ومَن أراد أن يتحقَّق عظَمةَ شأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتقَدُّمَ قدَمِه، وإحرازَه لقصَبِ السَّبْقِ دونَ كُلِّ سابقٍ؛ فليتلَقَّ ذلك من آياتِ الإفكِ، وليتأمَّلْ كيف غَضِبَ اللهُ في حُرمتِه، وكيف بالغَ في نفيِ التُّهمةِ عن حِجابِه[٢]؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أنَّ مَن رمى زانيةً مجلودةً لا يُحَدُّ؛ لثبوتِ الفاحِشةِ فيها، وليس المرادُ مِن هذا إباحةَ عِرْضِ مَن ثَبَتَ عليه الزِّنا، فلا يجوزُ ذلك، ويُؤَدِّبُ السلطانُ مَن رماهُ بما يَراهُ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ فيه مِن الدَّلالةِ على كَمالِ النَّزاهةِ ما ليس في ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، أي: السَّليماتِ الصُّدورِ، التَّقيَّاتِ القُلوبِ عن كلِّ سُوءٍ[٤].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢٧٨، ٣٤٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥، ١٦٦).

وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ تضمَّنت هذه الآيةُ بيانَ أنَّ القَذْفَ مِن الكبائرِ، وهذا بِناءً على أنَّ كلَّ ما تُوُعِّدَ عليه باللَّعْنِ أو العذابِ، أو شُرِعَ فيه حَدٌّ؛ فهو كبيرةٌ، وهو المعتمَدُ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «لَعَنَهم اللهُ»، وإنما قال: ﴿لُعِنُواْ﴾؛ لأجلِ أنْ يشمَلَ ذلك لعنةَ اللهِ سُبحانَه وتعالى وغَيرِه، وهذا مِثلُ قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، يعني: أنَّ اللهَ يَلعنُهم، وكذلك اللاعِنونَ يلعنونَهم، وبِناءُ الفِعلِ للمفعولِ أفاد في هذه الآيةِ العمومَ(٢).

٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ هذا الحُكمُ وإن كان عامًّا فهو لأجلِ الصِّدِّيقةِ بالذَّاتِ وبالقَصدِ الأوَّلِ، وفيما فيه مِن التَّشديدِ الذي قَلَّ أن يوجَدَ مِثلُه في القرآنِ مِن الإعلامِ بعَليِّ قَدرِها، وجَليِّ أمرِها، في عَظيمِ فَخرِها- ما يَجِلُّ عن الوَصفِ(٣).

٧- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ وعيدٌ مِن اللهِ تعالى للذين يَرمونَ المُحصَناتِ الغافلاتِ المُؤمِناتِ؛ فأُمَّهاتُ المؤمنينَ أَولى بالدُّخولِ في هذا مِن كُلِّ مُحصَنةٍ، ولا سيَّما التي كانت سبَبَ النُّزولِ، وهي عائشةُ الصِّدِّيقةُ بنتُ الصِّدِّيقِ، رَضِيَ اللهُ عنهما(٤).

٨- قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * يَوۡمَئِذٖ

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٢/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١، ٣٢).

﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ قد أقرُّوا بوجودِه عزَّ وجَلَّ في الدُّنيا، لكنْ في ذلك اليومِ يَعلَمونَ أنَّه الحقُّ المُبينُ دونَ ما سِواه؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ بصيغةِ الحَصرِ؛ فإنَّه يومئذٍ لا يبقَى أحَدٌ يُدَّعَى فيه الإلهيَّةُ، ولا أحدٌ يُشرِكُ برَبِّه أحدًا[١].

٩- في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تمامُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ إنَّ هذه الأعضاءَ تنطِقُ مع أنَّ النُّطقَ في العادةِ باللِّسانِ، لكنْ يكونُ النُّطقُ بكلِّ شَيءٍ إذا أراد اللهُ سُبحانَه وتعالى؛ ولهذا تقولُ الجلودُ: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[٢] [فصلت: ٢١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ سؤالٌ: وهو أنَّ الذين تشهَدُ عليهم ألسِنتُهم وأيديهم وأرجلُهم كثيرون، فما سببُ جمْعِها على «أفعُل» وهو مِن جُموعِ القلَّةِ؟!

والجوابُ: أنَّ هذا البحثَ قد حقَّقَه الأصوليُّونَ، وأهملَه النحْويُّونَ، وذلك أنَّ مَحَلَّ القِلَّةِ والكثرةِ حينما تكونُ الصِّيغةُ مُنكَّرةً، أمَّا إذا دخلتْ عليها «أل» أو أُضيفتْ إلى مَعرفةٍ فتكونُ عامَّةً، فهي أكثرُ مِن الكَثرةِ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الحقَّ مِن أسماءِ اللهِ الحُسنى[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٥/ ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٨٣).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٤٣).

وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ بيانُ أنَّ الرِّجالَ الطَّيِّبينَ للنِّساءِ الطيِّباتِ، والرِّجالَ الخَبيثين للنِّساءِ الخَبيثاتِ، وكذلك في النِّساءِ؛ فإذا كانت المرأةُ خَبيثةً كان قرينُها خَبيثًا، وإذا كان قرينُها خَبيثًا كانت خَبيثةً، وبهذا عَظُمَ القولُ فيمَن قَذَفَ عائِشةَ ونحوَها مِن أمَّهاتِ المؤمنينَ، ولولا ما على الزَّوجِ في ذلك مِن العَيبِ ما حَصَلَ هذا التَّغليظُ[1]. والأنبياءُ -خصوصًا أُولي العَزمِ منهم، خصوصًا سَيِّدَهم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذي هو أفضَلُ الطيِّبينَ مِن الخَلقِ على الإطلاقِ- لا يناسِبُهم إلَّا كُلُّ طَيِّبٍ مِن النِّساءِ؛ فالقَدحُ في عائشةَ رَضِيَ الله عنها بهذا الأمرِ قدْحٌ في النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو المقصودُ بهذا الإفكِ، مِن قَصدِ المنافِقين، فمُجَرَّدُ كَونِها زوجةً للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يُعلِمُ أنَّها لا تَكونُ إلَّا طيِّبةً طاهِرةً مِن هذا الأمرِ القَبيحِ. فكيف وهي هي؛ صِدِّيقةُ النِّساءِ، وأفضَلُهنَّ، وأعلَمُهنَّ، وأطيبُهنَّ، حَبيبةُ رَسولِ رَبِّ العالمَينَ، التي لم يَنزِلِ الوحيُ عليه وهو في لحافِ زَوجةٍ مِن زَوجاتِه غَيرِها؟! ثمَّ صرَّح بذلك، بحيثُ لا يُبقي لمُبطِلٍ مَقالًا، ولا لشَكٍّ وشُبهةٍ مَجالًا، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾، والإشارةُ إلى عائشةَ رَضِيَ الله عنها أصلًا، وللمُؤمِناتِ المُحصَناتِ الغافلاتِ تَبَعًا[2].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ سؤالٌ: وهو أنَّ الرَّميَ وَقَعَ على اثنينِ، فكيف يُعَبَّرُ عنهما بصيغةِ الجَمعِ؟

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الوجهُ الأولُ: أنَّ هذا مِمَّا استدَلَّ به بعضُ العُلماءِ على ما رآه الإمامُ مالكٌ مِن أنَّ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٣٢/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

أقلَّ الجَمعِ اثنانِ، ومِثلُ هذا قولُه تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾ [النساء: ١١]؛ فإنه يَصْدُقُ على اثنينِ عندَ غيرِ ابنِ عباسٍ. وقَولُه تعالى: ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠] أي: طَرَفاه. وقَولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] أي: قَلْباكُما.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالجمعِ التَّعظيمُ.

وهناك وجهٌ ثالثٌ: وهو أنَّ مَرجِعَ الضَّميرِ هو عائشةُ وصَفْوانُ، وأبو بكرٍ والرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فالآيةُ تدُلُّ على بَعضِهم -وهما عائشةُ وصَفوانُ- بالمُطابقةِ، وعلى بعضِهم -وهما الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم وأبو بكرٍ- باللُّزومِ[1].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ نزَلتْ في براءةِ أُمِّ المؤمنينَ عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها مِمَّا رُمِيَت به، وعلى هذا فالآيةُ الكريمةُ يظهَرُ تعارُضُها مع قَولِه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖ﴾ [التحريم: ١٠]، إلى قَولِه: ﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾، وقولِه أيضًا: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ ...﴾ [التحريم: ١١]؛ إذ الآيةُ الأولى دلَّت على خُبثِ الزَّوجَتينِ الكافرتَينِ، مع أنَّ زوجَيهما مِن أطيبِ الطيِّبينَ، وهما نوحٌ ولوطٌ عليهما وعلى نبيِّنا الصلاةُ والسَّلامُ، والآيةُ الثانيةُ دلَّت على طِيبِ امرأةِ فِرعونَ مع خُبثِ زَوجِها؟

الجوابُ عن ذلك مِن أوجُهٍ:

الأول: أنَّ معنى الآيةِ: الخبيثاتُ من القولِ للخبيثينَ مِن الرجالِ، والخَبيثون مِنَ الرِّجالِ للخَبيثاتِ مِنَ القَولِ؛ والطيِّباتُ مِن القَولِ للطيِّبينَ مِن الرِّجالِ،

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٨٧).

والطيِّبونَ مِن الرِّجالِ للطيِّباتِ مِن القَولِ، أي فما نسَبَه أهلُ النِّفاقِ إلى عائشةَ مِن كَلامٍ خَبيثٍ هم أَولى به، وهي أَولى بالبراءةِ والنَّزاهة منهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]، وعلى هذا الوجهِ فلا تعارُضَ أصلًا بين الآياتِ.

الثاني: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ...﴾ إلى آخِرِه: مِن العامِّ المخصوصِ، بدليلِ امرأةِ نوحٍ وامرأةِ فِرعَونَ، وعليه فالغالِبُ تَقييضُ كُلٍّ مِن الطيِّباتِ والطيِّبين والخبيثاتِ والخَبيثين لجِنسِه وشَكلِه الملائِمِ له في الخُبثِ أو الطِّيبِ، مع أنَّه تعالى ربَّما قَيَّض خبيثةً لطَيِّبٍ، كامرأةِ نوحٍ ولوطٍ، أو طيِّبةً لخبيثٍ، كامرأةِ فِرعَونَ؛ لحِكمةٍ بالغةٍ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التحريم: ١٠]، وقَولُه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [التحريم: ١١] مع قَولِه: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ فدلَّ ذلك على أنَّ تقييضَ الخبيثةِ للطيِّبِ أو الطيِّبةِ للخَبيثِ فيه حِكمةٌ لا يَعقِلُها إلَّا العُلماءُ، وهي في تقييضِ الخبيثةِ للطيِّبِ أن يبيِّنَ للنَّاسِ أنَّ القرابةَ مِن الصالحينَ لا تنفَعُ الإنسانَ، وإنَّما ينفَعُه عَمَلُه[(١)].

الثالث: أنَّ المرادَ بالخُبثِ: خُبثُ الصِّفاتِ الإنسانيَّةِ كالفواحشِ، وكذلك المرادُ بالطِّيبِ: زكاءُ الصِّفاتِ الإنسانيَّةِ مِن الفضائِلِ المعروفةِ في البشَرِ، فليس الكُفرُ مِن الخُبثِ، ولكِنَّه من متمِّماتِه، وكذلك الإيمانُ مِن مكَمِّلاتِ الطِّيبِ؛ فلذلك لم يكُنْ كُفرُ امرأةِ نوحٍ وامرأةِ لوطٍ ناقضًا لعمومِ الآيةِ[(٢)].

١٥- قال الله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٦٨، ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٥).

وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ فليس في الأنبياءِ ولا الصَّالحينَ مَن تزوَّج بَغِيًّا؛ لأنَّ البِغاءَ يُفسِدُ فِراشَه؛ ولهذا أُبيحَ للمسلِمِ أن يتزوَّجَ الكتابيَّةَ اليهوديَّةَ والنصرانيَّةَ إذا كان مُحصَنًا غيرَ مُسافِحٍ ولا متَّخِذِ خِدنٍ، فعُلِمَ أنَّ تزَوُّجَ الكافرةِ قد يجوزُ، وتزَوُّجَ البَغِيِّ لا يجوزُ؛ لأنَّ ضَرَرَ دِينِها لا يتعدَّى إليه، وأمَّا ضرَرُ بِغائِها فيتعَدَّى إليه[١].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ دَليلٌ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُبرِّئُ أهلَ الرَّجُلِ الطيِّبِ العفيفِ مِن الخُبثِ؛ لأنَّ الطيِّباتِ للطَّيِّبينَ، والطيِّبينَ للطيِّباتِ، وهذا مِن حكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ: أنَّ الإنسانَ كلَّما كان طيِّبًا نظيفًا وطاهِرًا، فإنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى يُهيِّئُ له أهلًا بهذه المَثابةِ؛ جزاءً وِفاقًا، والأمرُ كذلك بالعَكسِ فيما لو كان خبيثًا، ولا سيَّما فيما يتعلَّقُ بالعِفَّةِ، وهذا هو الغالِبُ في الواقِعِ: أنَّ المرءَ ذا الخُلُقِ الخَبيثِ يكونُ أهلُه كذلك؛ لأنَّه لم يَحْمِ نَفْسَه حتى يحميَه اللهُ عزَّ وجَلَّ[٢].

١٧- قَولُ الله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ فيه وَعدٌ بأنْ تكونَ عائشةُ رَضِيَ الله عنها -زوجةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في الجنَّةِ[٣].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ دَليلٌ على أنَّ مَن أُصيبَ بمصيبةٍ قوليَّةٍ أو فعليَّةٍ، فإنَّ اللهَ تعالى يَغفِرُ له، فإن صَبَر فله أجرٌ أيضًا[٤].

١٩- قَولُه: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ ذِكْرُ الرِّزقِ الكريمِ هاهنا مِثْلُه في

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٤٨).

قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١]؛ فكما أُرِيدَ بالرِّزقِ الكريمِ هنالك البِشارةُ بالجنَّةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ بدليلِ قولِه: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، كذلك يَنْبغي أنْ يكونَ هاهنا؛ لأنَّ الآيتينِ مِثْلانِ، وكما أنَّ الرِّزقَ الكريمَ هناك مَسبوقٌ بـ ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، كذلك هاهنا مَسبوقٌ بقولِه: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، وكما أنَّ إيتاءَ الأجرِ هناك مُسبَّبٌ عن قُنوتِهنَّ، كذلك هنا ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ مُسبَّبٌ عن كونِها مُبرَّأةً عمَّا قِيلَ فيها، وليس ذلك إلَّا لقُنوتِها وطَهارتِها، وكما أنَّ تلك الآيةَ في شأْنِ نِساءِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كذلك هذه في شأْنِ حَبيبتِه وصَفيَّتِه؛ فالكلامُ مَبْنيٌّ على حمْلِ المُطْلَقِ على المُقيَّدِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

- جُملةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ...﴾ استِئنافٌ بعدَ استئنافِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ [النُّور: ١٩]، والكلُّ تَفصيلٌ للموعظةِ الَّتي في قولِه: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النُّور: ١٧]؛ فابْتُدِئَ بوعيدِ العَودِ إلى محبَّةِ ذلك، وثُنِّيَ بوَعيدِ العَودِ إلى إشاعةِ القالةِ؛ فالمُضارِعُ ﴿يَرْمُونَ﴾ للاستقبالِ، وإنَّما لم تُعطَفْ هذه الجُملةُ؛ لوُقوعِ الفصلِ بيْنها وبيْنَ الَّتي تُناسِبُها بالآياتِ النَّازلةِ بيْنهما مِن قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾(٢) [النور: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٠، ١٩١).

- قَولُه: ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ وُقوعِهنَّ فيما رُمِينَ به؛ لأنَّ الَّذي يفعَلُ الشَّيءَ لا يكونُ غافلًا عنه؛ فالمعنى: إنَّ الَّذين يَرْمُون المُحصَناتِ كذِبًا عليهنَّ. وذُكِرَ وَصفُ ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ لتَشنيعِ قذْفِ الَّذين يَقْذِفونَهنَّ كذِبًا؛ لأنَّ وصْفَ الإيمانِ وازِعٌ لهنَّ عن الخَنا[١].

- قَولُه: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المُرادُ عائشةُ الصِّدِّيقةُ رضِيَ اللهُ عنَها، والجمْعُ باعتبارِ أنَّ رمْيَها رمْيٌ لسائرِ أُمَّهاتِ المُؤمنينَ؛ لاشتراكِ الكلِّ في العِصمةِ والنَّزاهةِ والانتِسابِ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وقِيلَ: المُرادُ أُمَّهاتُ المؤمنينَ، فيَدخُلُ فيهنَّ الصِّدِّيقةُ دُخولًا أوَّليًّا[٢]. أو المُرادُ أُمُّ المؤمنينَ عائشةُ، فجُمِعَت إرادةً لها ولبَناتِها مِن نِساءِ الأُمَّةِ الموصوفاتِ بالإحصانِ والغفلةِ والإيمانِ[٣]. وقِيلَ: أراد بالمُحصَناتِ العُمومَ، وإنْ كان الحديثُ مَسوقًا عن عائشةَ، والمقصودُ بذِكْرِهنَّ على العُمومِ وَعيدُ مَن وقَعَ في عائشةَ على أبلغِ الوُجوهِ؛ لأنَّه إذا كان هذا وعيدَ قاذفِ آحادِ المُؤمناتِ، فما الظَّنُّ بوعيدِ مَن وقَعَ في قذْفِ سيِّدتِهنَّ؟! على أنَّ تَعميمَ الوعيدِ أبلَغُ وأقطَعُ مِن تَخصيصِه؛ ولهذا عمَّمَت امرأةُ العزيزِ حينَ قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، فعمَّمت وأرادتْ يُوسفَ؛ تَهويلًا عليه وإرجافًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥، ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٨٨).

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

- قَولُه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ إمَّا مُتَّصلٌ بما قبْلَه، مَسوقٌ لتَقريرِ العذابِ المذكورِ بتَعيينِ وقْتِ حُلولِه وتَهويلِه ببَيانِ ظُهورِ جِناياتِهم المُوجِبةِ له، مع سائرِ جِناياتِهم المُستتبِعةِ لعُقوباتِها عَلى كيفيَّةٍ هائلةٍ وهيْئةٍ خارقةٍ للعاداتِ؛ فـ﴿يَوْمَ﴾ ظرفٌ لِمَا في الجارِّ والمجرورِ المُتقدِّمِ: ﴿وَلَهُمْ﴾ من معنى الاستقرارِ، لا لـ﴿عَذَابٌ﴾، وإنْ أغْضَينا عن وصْفِه؛ لإخلالِه بجزالةِ المعنى. وإمَّا مُنقطِعٌ عنه، مَسوقٌ لتَهويلِ اليومِ بتَهويلِ ما يَحويهِ، على أنَّه ظرفٌ لِفعلٍ مُؤخَّرٍ قد ضُرِبَ عنه الذِّكرُ صَفْحًا؛ للإيذانِ بقُصورِ العبارةِ عن تَفصيلِ ما يقَعُ فيه مِن الطَّامَّةِ التَّامَّةِ، والدَّاهيةِ العامَّةِ؛ كأنَّه قِيلَ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: يكونُ مِن الأحوالِ والأهوالِ ما لا يُحِيطُ به حيطةُ المقالِ، على أنَّ الموصولَ المذكورَ عِبارةٌ عن جميعِ أعمالِهم السَّيِّئةِ، وجِناياتِهم القبيحةِ، لا عن جِناياتِهم المعهودةِ فقطْ. والموصولُ والمحذوفُ عبارةٌ عنها وعن فُنونِ العُقوباتِ المُترتِّبةِ عليها كافَّةً، لا عنْ إحداهما خاصَّةً؛ ففيهِ مِن ضُروبِ التَّهويلِ بالإجمالِ والتَّفصيلِ ما لا مَزيدَ عليه[١].

- والجمْعُ بين صِيغتَي الماضِي والمُستقبَلِ ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استِمرارِهم عليها في الدُّنيا. وتَقديمُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الفاعلِ ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾؛ للمُسارَعةِ إلى بَيانِ كونِ الشَّهادةِ ضارَّةً لهم، مع ما فيه مِن التَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[٢].

- وتَخصيصُ هذه الأعضاءِ ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ بالذِّكرِ، مع أنَّ الشَّهادةَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تكونُ مِن جميعِ الجسَدِ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا﴾ [فصلت: ٢١]؛ لأنَّ لهذه الأعضاءِ عمَلًا في رمْيِ المُحصَناتِ؛ فهم يَنطِقون بالقذْفِ، ويُشيرون بالأيدي إلى المقذوفاتِ، ويَسْعَون بأرجُلِهم إلى مجالِسِ النَّاسِ لإبلاغِ القذْفِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ذِكْرَ شَهادةِ الأعضاءِ يُثِيرُ سُؤالًا عن آثارِ تلك الشَّهادةِ، فيُجابُ بأنَّ أثَرَها أنْ يُجازِيَهم اللهُ على ما شهِدَت به أعضاؤُهم عليهم[٢].

- ووصْفُ الدِّينِ بالحقِّ، وكذلك وصْفُ اللهِ تعالى بالحقِّ في قولِه: ﴿دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾، وقولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ وَصْفٌ بالمصدَرِ؛ للمُبالَغةِ، ولإفادةِ تحقُّقِ اتِّصافِه بالحقِّ[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ إنْ كان وصْفُ اللهِ بـ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ بالمعنى المصدريِّ؛ فالحصْرُ المُستفادُ مِن ضَميرِ الفصلِ ادِّعائيٌّ؛ لعدَمِ الاعتِدادِ بالحقِّ الَّذي يَصدُرُ مِن غيرِه مِن الحاكمينَ؛ لأنَّه وإنْ يُصادِفِ المِحَزَّ فهو مع ذلك مُعرَّضٌ للزَّوالِ وللتَّقصيرِ وللخطأِ، فكأنَّه ليس بحقٍّ، أو ليس بمُبينٍ. وإنْ كان الخبَرُ عن اللهِ بأنَّه الحقُّ بالمعنى الاسميِّ للهِ تعالى؛ فالحصْرُ حقيقيٌّ؛ إذ ليس اسمُ الحقِّ مُسمًّى به غيرُ ذاتِ اللهِ تعالى، فالمعنى: أنَّ اللهَ هو صاحبُ هذا الاسمِ. وعلى أنَّ المُرادَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ خُصوصُ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ ومَن يتَّصِلُ به مِن المُنافقينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

المُبْطِنينَ الكُفْرَ، بلْهَ الإصرارَ على ذنْبِ الإفكِ؛ إذ لا توبةَ لهم، فهم مُستمِرُّون على الإفكِ فيما بيْنهم؛ لأنَّه زُيِّنَ عندَ أنفُسِهم، فلم يَرُوموا الإقلاعَ عنه في بَواطِنِهم مع علْمِهم بأنَّه اختِلاقٌ منهم، لكنَّهم -لِخُبْثِ طَواياهم- يَجعَلون الشَّكَّ الَّذي خالَجَ أنفُسَهم بمَنزلةِ اليقينِ، فهم ملْعونونَ عندَ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ، ولهم عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ، ويعْلمون أنَّ اللهَ هو الحقُّ المُبينُ فيما كذَّبَهم فيه مِن حديثِ الإفكِ، وقد كانوا مِن قبْلُ مُبْطنينَ الشِّركَ مع اللهِ، فجاعلينَ الحقَّ ثابتًا لأصنامِهم؛ فالقصْرُ حينئذٍ إضافيٌّ[(١)]، أي: يعْلَمون أنَّ اللهَ وحْدَه دونَ أصنامِهم[(٢)].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۞ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۞ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ هذا مِنَ التَّغليظِ الشَّديدِ الَّذي أُوعِدَ به العُصاةُ؛ ولم يُغلِّظِ اللهُ تعالى في شَيءٍ تَغليظَه في إفكِ عائشةَ رضوانُ اللهِ عليها، ولا أنزَلَ مِن الآياتِ القوارعِ، المشحونةِ بالوعيدِ الشَّديدِ، والعِتابِ البليغِ، والزَّجرِ العنيفِ، واستِعظامِ ما رُكِبَ مِن ذلك،

---

(١) القصرُ -في اصطلاحِ البلاغيينَ-: هو تخصيصُ شيءٍ بشيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأوَّلُ: مقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، وما ضربتُ إلَّا زيدًا. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكون المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدم صحةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنما هو قصر بالإضافة إلى موضوعٍ خاصٍّ يدورُ حولَ احتمالينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويستدلُّ عليها بالقرائنِ. مثل: قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٣، ١٩٤).

واستِفظاعِ ما أُقْدِمَ عليه، ما أنزَلَ فيه على طُرقٍ مُختلفةٍ، وأساليبَ مُفْتَنَّةٍ، كلُّ واحدٍ منها كافٍ في بابِه، ولو لم يُنزِلْ إلَّا هذه الثلاثَ لَكفَى بها؛ حيث جعَلَ القذفةَ ملْعونينَ في الدَّارينِ جميعًا، وتوعَّدَهم بالعذابِ العظيمِ في الآخرةِ، وبأنَّ ألْسنَتَهم وأيدِيَهم وأرجُلَهم تَشهَدُ عليهم بما أفكُوا وبَهَتوا، وأنَّه يُوفِّيهم جزاءَهم الحقَّ الواجبَ الَّذي هم أهْلُه، حتَّى يَعْلَموا عندَ ذلك أنَّ اللهَ هو الحقُّ المبينُ؛ فأوجَزَ في ذلك وأشبَعَ، وفصَّلَ وأجمَلَ، وأكَّدَ وكرَّرَ، وجاء بما لم يقَعْ في وَعيدِ المشركينَ عبدةِ الأوثانِ إلَّا ما هو دونَه في الفظاعةِ، وما ذاك إلَّا لأمْرٍ[1]؛ ففصَّلَ وأجمَلَ؛ حيث أوقَعَ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ إجمالًا لِمَا سبَقَ، وأكَّدَ وكرَّرَ من حيث إنَّ البدَلَ -وهو قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾- بدلُ تكريرٍ للمُبدَلِ وتَوكيدٍ له، وجاء بما لم يقَعْ في وَعيدِ المشركينَ إلَّا ما هو دونه في الفظاعةِ، وهو قولُه: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فيه تَعريضٌ بالَّذين اختَلَقوا الإفكَ بأنْ ما أفكُوه لا يَليقُ مثْلُه إلَّا بأزواجِهم؛ فقولُه: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ تعريضٌ بالمُنافقينَ المُختلقينَ للإفكِ. والابتداءُ بذِكْرِ الخبيثاتِ؛ لأنَّ غرَضَ الكلامِ الاستِدلالُ على بَراءةِ عائشةَ وبقيَّةِ أُمَّهاتِ المؤمنينَ رضِيَ اللهُ عنهنَّ[3].

- وعطْفُ ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ إطنابٌ؛ لمَزيدِ العنايةِ بتَقريرِ هذا الحُكْمِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٧، ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٤).

ولتكونَ الجُملةُ بمَنزلةِ المَثَلِ مُستقِلَّةً بدَلالتِها على الحُكْمِ، ولِيَكونَ الاستِدلالُ على حالِ القرينِ بحالِ مُقارِنِه حاصلًا مِن أيِّ جانبٍ ابتدأَهُ السَّامعُ. وذِكْرُ ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ إطنابٌ أيضًا؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُقارَنةَ دليلٌ على حالِ القرينَينِ في الخيرِ أيضًا. وعطْفُ ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ كعطْفِ ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾[١]؛ فقولُه: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ ...﴾ الآيةَ، هذه قضيَّةٌ كُلِّيَّةٌ؛ ولذلك حُقَّ لها أنْ تَجرِيَ مَجرى المثَلِ، وجُعِلَت في آخرِ القصَّةِ كالتَّذييلِ[٢].

- قَولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الطَّيِّبينَ، وأنَّهم مُبرَّؤونَ ممَّا يقولُ الخبيثونَ مِن خَبيثاتِ الكلِمِ، وهو كلامٌ جارٍ مَجرى المثَلِ لعائشةَ رضِيَ اللهُ عنها وما رُمِيَت به مِن قولٍ لا يُطابِقُ حالَها في النَّزاهةِ والطِّيبِ[٣]؛ فالآيةُ عامَّةٌ تَذييلٌ للكلامِ السَّابقِ[٤]. وما في اسمِ الإشارةِ مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتبةِ المُشارِ إليهم، وبُعدِ مَنزلَتِهم في الفضلِ[٥].

- وفي العُدولِ عن التَّعبيرِ عن الإفكِ باسْمِه إلى ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾: إيماءٌ إلى أنَّه لا يَعْدو كونَه قولًا، أي: أنَّه غيرُ مُطابِقٍ للواقعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٥).

الآيات (٢٧-٢٩)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾: أي: تَستأذِنوا، وتَستَعلِموا أيُريدُ أهلُها أن تَدخُلوا أم لا، والاستِئناسُ: إعلامُ مَن في الدارِ، تقولُ: استأنَسْتُ فما رأيتُ أحدًا، أي: استعلَمْتُ وتعرَّفْتُ، وأصلُ (أنس): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ[1].

﴿مَتَٰعٞ﴾: أي: تمتُّعٌ وانتِفاعٌ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على المنفعةِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: يا أيُّها الذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، لا تَدخُلوا بيوتًا غيرَ بُيوتِكم حتى تستأذِنوا أهلَها في الدُّخولِ، وتُسَلِّموا عليهم، ذلكم الاستِئذانُ والتَّسليمُ خيرٌ لكم؛ لتتَّعِظوا وتعمَلوا بموجِبِ هذه الآدابِ، فإنْ لم تجِدوا في بُيوتِ الآخَرينَ أحدًا يأذَنُ لكم بالدُّخولِ فلا تَدخُلوها حتى يُسمَحَ لكم بالدُّخولِ، وإنِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

استأذَنْتُم فلم يُؤذَنْ لكم، وقيل لكم: ارجِعوا؛ فارجِعوا ولا تُلِحُّوا؛ فإنَّ الرُّجوعَ عندَئذٍ أطهَرُ لكم، واللهُ عليمٌ بكُلِّ أعمالِكم، فيُجازيكم عليها. وليس عليكم إثمٌ وحرَجٌ أن تدخُلوا بغيرِ استِئذانٍ بُيوتًا لا تختَصُّ بسُكنى أحدٍ؛ كالبُيوتِ المبنيَّةِ على الطُّرُقِ للمُسافرينَ، والبُيوتِ الخَرِبةِ، وحوانيتِ التجَّارِ وغيرِها؛ ففيها حاجةٌ ومنافِعُ لِمَن يدخُلُها، واللهُ يعلَمُ ما تُظهِرونَ وما تُسِرُّونَ في نفوسِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى عدَلَ عمَّا يتَّصِلُ بالرَّميِ والقذفِ وما يتعلَّقُ بهما مِن الحُكمِ، إلى ما يليقُ به؛ لأنَّ أهلَ الإفكِ إنَّما وجَدوا السَّبيلَ إلى بُهتانِهم مِن حيث اتَّفَقت الخَلوةُ، فصارت كأنَّها طريقُ التُّهمةِ، فأَوجَبَ اللهُ تعالى ألَّا يَدخُلَ المرءُ بيتَ غَيرِه إلَّا بعد الاستِئذانِ والسَّلامِ؛ لأنَّ في الدُّخولِ لا على هذا الوجهِ وقوعَ التُّهمةِ، وفي ذلك مِن المضَرَّةِ ما لا خَفاءَ به، فقال تعالى[1]:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾.

أي: يا أيُّها الذين آمَنوا، لا تدخُلوا بيوتَ غيرِكم حتى تستأذِنُوا منهم في دُخولِها، وتُسلِّموا على ساكِنيها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢١٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٧١٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) =

= (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٧).

وممَّن قال بأنَّ الاستِئناسَ هنا بمعنى الاستِئذانِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن القيم، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ جُزَي: (ومعنَى ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾: تَستأذِنوا، وهو مأخوذٌ مِن قَولِك: آنستُ الشَّيءَ: إذا عَلِمْتَه؛ فالاستِئناسُ: أن يَستعلِمَ: هل يريدُ أهلُ الدَّارِ الدُّخولَ أم لا؟ وقيل: هو مأخوذٌ مِنَ الأُنسِ، ضِدِّ الوَحشةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٦).

قال الشنقيطي: (في تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ بما يناسِبُ لَفْظَها وجهانِ، ولكُلٍّ منهما شاهِدٌ مِن كتابِ الله تعالى:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّه مِن الاستِئناسِ الظَّاهِرِ الذي هو ضِدُّ الاستيحاشِ؛ لأنَّ الذي يَقرَعُ بابَ غيرِه لا يدري أيؤْذَنُ له أمْ لا، فهو كالمُستوحِشِ من خَفاءِ الحالِ عليه، فإذا أُذِنَ له استأنسَ وزال عنه الاستيحاشُ...

الوَجهُ الثَّاني في الآيةِ: هو أن يكونَ الاستِئناسُ بمعنى الاستِعلامِ والاستِكشافِ، فهو استفعالٌ مِن آنسَ الشَّيءَ: إذا أبصَرَه ظاهِرًا مَكشوفًا أو عَلِمَه. والمعنى: حتى تَستَعلِموا وتستكشِفوا الحالَ، هل يؤْذَنُ لكم أمْ لا). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٩١).

وقال القاسمي: (﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ أي تَستَعلِموا وتَستكشِفوا الحالَ: هلْ يُرادُ دُخولُكم أمْ لا؟ مِنَ الاستِئناسِ وهو الاستِعلامُ... أو المعنى: حتى يؤْذَنَ لكم فتَستأنِسوا، مِنَ الاستِئناس الذي هو خِلافُ الاستيحاشِ؛ لِما أنَّ المستأذِنَ مُستَوحِشٌ مِن خَفاءِ الحالِ عليه، فيكون عبَّر بالشَّيءِ عمَّا هو لازِمٌ له). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٦٨).

وقال ابنُ جرير: (فتأويلُ الكلامِ إذَنْ إذا كان ذلك معناه: يا أيُّها الذين آمنوا، لا تدخُلوا بُيوتًا غيرَ بُيوتِكم حتى تُسَلِّموا وتستأذِنوا، وذلك أن يقولَ أحَدُكم: السَّلامُ عليكم، أدخُلُ؟ وهو مِن المقَدَّمِ الذي معناه التأخيرُ، إنما هو: حتى تسَلِّموا وتستأذِنوا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٦).

وقال ابن عثيمين: (اختلف العُلَماءُ في مسألة: هل تستأذِنُ أولًا، أو تسَلِّمُ أولًا؟ على أقوالٍ ثلاثة:

فمنهم مَن يرى تقديمَ الاستئذانِ على السَّلامِ؛ لظاهِرِ الآيةِ: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾.

ومنهم مَن يرى أنَّ السَّلامَ قبل الاستئذانِ؛ لأحاديثَ وردَت في ذلك.

ومنهم مَن يرى أنَّه لو عَلِمَ أنَّ صاحِبَ البَيتِ موجودٌ، فعليه أن يسَلِّمَ أولًا ثم يستأذِنَ، وأمَّا إذا لم يَعلَمْ بوجودِه فإنَّه يستأذِنُ أولًا ثم يسَلِّمُ، وهذا القولُ أصَحُّ الأقوالِ الثلاثةِ؛ لأنَّ فيه جمعًا بين الآيةِ والأحاديثِ الواردةِ، ولأنَّه موافِقٌ تمامًا للنظَرِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٥٤). =

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنتُ في مجلِسٍ مِن مجالسِ الأنصارِ إذ جاء أبو موسى كأنَّه مذعورٌ، فقال: استأذنتُ على عُمَرَ ثلاثًا، فلم يؤْذَنْ لي، فرَجَعْتُ، فقال: ما منَعَك؟ قلتُ: استأذنتُ ثلاثًا فلم يؤذَنْ لي فرجعْتُ، وقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إذا استأذنَ أحَدُكم ثلاثًا فلم يؤْذَنْ له، فلْيَرجِعْ. فقال: واللهِ لَتُقِيمَنَّ عليه ببَيِّنةٍ، أمِنْكم أحدٌ سَمِعه من النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ فقال أُبَيُّ بنُ كَعبٍ: واللهِ لا يَقومُ معك إلَّا أصغَرُ القومِ! فكنتُ أصغَرَ القَومِ، فقُمتُ معه، فأخبَرْتُ عُمَرَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال ذلك))[١].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((اطَّلَع رجلٌ من جُحْرٍ[٢] في حُجَرِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِدْرًى[٣] يَحُكُّ به رأسَه، فقال: لو أعلَمُ أنَّك تنظُرُ لطعَنْتُ به في عَينِك، إنَّما جُعِل الاستِئذانُ مِن أجلِ البَصَرِ))[٤].

وعن رجُلٍ من بني عامرٍ، أنَّه ((استأذَنَ علَى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وهو في بيتٍ، فقالَ: أألِجُ؟ فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ لخادمِه: اخرُجْ إلى هذا فعلِّمهُ الاستئذانَ، فقُلْ لَه: قُلْ: السَّلامُ عليكم، أأدخُلُ؟ فسمِعَه فقال: السَّلامُ عليكم، أأدخُلُ؟ فأَذِنَ لَه النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فدخَلَ))[٥].

= وقال ابنُ جُزَي: (وليس في الآيةِ عَدَدُ الاستِئذانِ، وجاء في الحَديثِ أن يَستأذِنَ ثلاثَ مَرَّاتٍ، وهو تفسيرٌ للآيةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٦).

(١) رواه البخاري (٦٢٤٥).

(٢) جُحْرٍ: أي: ثُقبٍ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٢/ ٢٣٩).

(٣) مِدْرًى: أي: حديدةٌ يُسَوَّى بها شَعرُ الرَّأسِ شِبهُ المُشطِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ١٣٧).

(٤) رواه البخاري (٦٢٤١) واللفظ له، ومسلم (٢١٥٦).

(٥) أخرجه أبو داود (٥١٧٧) واللفظ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠١٤٨)، وأحمد (٢٣١٢٧). =

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: ذلكم الاستِئذانُ والسَّلامُ عندَ إرادةِ دُخولِ بُيوتِ النَّاسِ أفضَلُ للمُستأذِنِ ولأهلِ البَيتِ، أمَرَكم اللهُ بذلك لتُطيعوه بفِعلِ هذه الآدابِ، وتَعلَموا أنَّها خيرٌ لكم مِن الدُّخولِ بلا إذنٍ ولا سلامٍ، فتَّتعِظوا وتأخُذوا بها[1].

﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨﴾.

﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾.

أي: فإنْ لم تجِدوا في بُيوتِ غَيرِكم أحَدًا مِن أهلِها، فاصبِروا ولا تدخُلوها إلى أن يؤْذَنَ لكم بالدُّخولِ، فإن أُذِن لكم فادخُلوا[2].

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْ﴾.

أي: وإنِ استأذَنْتُم مِن أهلِ البُيوتِ في دُخولِ بُيوتِهم، فلمْ يأذَنوا لكم، وقالوا لكم: انصَرِفوا؛ فانصَرِفوا بلا غَضَبٍ، ولا تُلِحُّوا عليهم في طلَبِ الإذنِ، ولا تَبقَوا عندَ بُيوتِهم مُنتَظِرينَ[3].

= صحَّح إسنادَه النووي في ((المجموع)) (٤/ ٦١٩)، وصحَّح الحديثَ ابنُ القيم في ((زاد المعاد)) (٢/ ٣٩٢)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥١٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥). =

﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

أي: رجوعُكم عن بُيوتِ النَّاسِ إذا لم يأذَنوا لكم بدُخولِها، أطهَرُ لكم[١].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ بما تعمَلون مِن الطَّاعاتِ والمعاصي، ودُخولِكم بإذنٍ وبغيرِ إذنٍ، وبغيرِ ذلك مِن أعمالِكم؛ عليمٌ، وسيُجازيكم عليها؛ خَيرِها وشَرِّها[٢].

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حُكمَ الدُّورِ المَسكونةِ؛ ذكَرَ بعدَه حُكمَ الدُّورِ التي هي غيرُ مَسكونةٍ؛ وذلك لأنَّ المانِعَ مِن الدُّخولِ إلَّا بإذنٍ زائِلٌ عنها[٣].

وأيضًا لَمَّا كان مِن الأماكنِ التي قد لا يُوجَدُ بها أحَدٌ، ما يُباحُ الدُّخولُ إليه؛

= قال السعدي: (﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ أي: فلا تمتَنِعوا مِن الرُّجوعِ، ولا تغضَبوا منه؛ فإنَّ صاحِبَ المنزِلِ لم يمنعْكم حقًّا واجبًا لكم، وإنما هو متبرِّعٌ، فإن شاء أذِنَ أو منَعَ، فأنتم لا يأخُذْ أحَدَكم الكِبْرُ والاشمئزازُ مِن هذه الحالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٠).

قال السعدي: (﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: أشدُّ لتطهيرِكم مِن السيئاتِ، وتنميتِكم بالحسناتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

وقال ابنُ عاشور: (معنى ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾: أنَّه أفضَلُ وخيرٌ لكم مِن أن يأذَنوا على كراهيةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٩).

لخُلوِّه، أو عَدَمِ اختِصاصِ النَّازِلِ به- أتبَع ما تقدَّمَ التَّعريفَ بأنَّه لم يَدخُلْ في النَّهيِ؛ فقال تعالى[١]:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾.

أي: لا إثمَ ولا حرجَ عليكم أن تدخُلوا -مِن غيرِ استِئذانٍ- بيوتًا لا يَسكُنُها أحدٌ؛ لتنتَفِعوا بها؛ كالبيوتِ المبنيَّةِ على الطُّرُقِ للمُسافرينَ، والبُيوتِ الخَرِبةِ، وحوانيتِ التجَّارِ، والمكتباتِ، إلى غيرِ ذلك[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٨، ٢٥٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠١-٢٠٣).

قال ابن جرير: (إنَّ الله عمَّ بقولِه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ٢٩] كلَّ بيتٍ لا ساكنَ به لنا فيه متاعٌ، نَدخلُه بغيرِ إذنٍ، فلا وجهَ لتخصيصِ بعضِ ذلك دونَ بعضٍ، فكُلُّ بيتٍ لا مالِكَ له ولا ساكِنَ؛ مِن بيتٍ مبنيٍّ ببعضِ الطُّرُقِ للمارَّة والسَّابِلةِ؛ ليأوُوا إليه، أو بيتٍ خرابٍ قد بادَ أهلُه، ولا ساكِنَ فيه، حيث كان ذلك- فإنَّ لِمَن أراد دخولَه أن يدخُلَ بغيرِ استئذانٍ؛ لمتاعٍ له يؤويه إليه، أو للاستِمتاعِ به لقضاءِ حَقِّه؛ مِن بولٍ، أو غائطٍ، أو غيرِ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٢، ٢٥٣).

وقال البيضاوي: (﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ كالرُّبُطِ والحوانيتِ والخاناتِ والخانقاتِ. ﴿فِيهَا مَتَاعٌ﴾ استِمتاعٌ ﴿لَّكُمْ﴾؛ كالاستِكنانِ مِن الحرِّ والبردِ، وإيواءِ الأمتعةِ، والجلوسِ للمعامَلةِ، وذلك استثناءٌ مِن الحُكمِ السَّابقِ؛ لشُمولِه البيوتَ المسكونةَ وغيرَها). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٤).

قال ابن عاشور: (وأمَّا أن تكونَ تلك البيوتُ مأهولةً بأناسٍ يقطُنونَها يُؤوونَ المُسافرين ورِحالَهم ورواحِلَهم، ويحفَظون أمتِعتَهم ويُبيِّتونَهم حتى يستأنِفوا المرحلةَ؛ مثل الخاناتِ المأهولةِ والفنادقِ، وكذلك البيوتُ المعدودةُ لبيعِ السِّلَعِ، والحمَّاماتُ، وحوانيتُ التجَّارِ، وكذلك المكتباتُ وبُيوتُ المطالعةِ؛ فهذه مأهولةٌ، ولا تُسمَّى مسكونةً؛ لأنَّ السكنى هي الإقامةُ التي يَسكُنُ بها المرءُ، ويستقِرُّ فيها، ويُقيمُ فيها شؤونَه. فمعنى قولِه: ﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أنَّها غيرُ مأهولةٍ على حالةِ الاستقرارِ، أو غيرُ مأهولةٍ البتَّةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٢). =

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾.

أي: واللهُ يعلَمُ ما تُظهِرونَه، وما تُخفونَه في قُلوبِكم[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ فيه مِن الآدابِ أنَّ المرءَ لا يَنبغي أن يكونَ كَلًّا على غَيرِه، ولا يَنبغي له أن يُعرِّضَ نفْسَه إلى الكراهيةِ والاستِثقالِ،

= وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ قَولِه: ﴿فِيهَا مَتَٰعٞ﴾ أنَّ المتاعَ موضوعٌ هناك قبْلَ دخولِ الدَّاخِلِ، فلا مفهومَ لهذه الصفةِ؛ لأنَّها خرجت مخرجَ التنبيهِ على العُذرِ في الدُّخولِ، ويشمَلُ ذلك أن يدخُلَها لوضعِ مَتاعِه بدَلالةِ لحنِ الخِطابِ، وكذلك يشمَلُ دُخولَ المسافِرِ وإن كان لا متاعَ له؛ لقصدِ التظَلُّلِ أو المبيتِ، بدلالةِ لحنِ الخطابِ أو القياس، وقد فُسِّر المتاعُ بالمصدر، أي: التمتُّع والانتِفاع). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٢، ٢٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: واللهُ يعلم ما تُظهِرونَ -أيُّها الناسُ- بألسنتِكم مِن الاستئذانِ إذا استأذنتُم على أهلِ البيوتِ المسكونةِ، ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ يقولُ: وما تُضمِرونَه في صدورِكم عندَ فِعلِكم ذلك، ما الذي تَقصِدون به: أطاعةَ اللهِ والانتهاءَ إلى أمرِه، أمْ غيرَ ذلك؟). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤).

وقال البِقَاعي: (﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ تَحذيرًا مِن أن تُزاحِموا أحدًا في مُباحٍ بما يؤذيه ويضَيِّقُ عليه، معتلِّينَ بأصلِ الإباحةِ، أو يؤْذَنَ لكم في منزلٍ فتُبطِنوا فيه الخيانةَ؛ فإنَّه وإن وقع الاحترازُ مِن الخَوَنةِ بالحِجابِ، فلا بدَّ من الخُلطةِ؛ لِما بُني عليه الإنسانُ من الحاجةِ إلى العِشرةِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٥٣).

وقال أبو السعود: (هذا وعيدٌ لِمَن يدخُلُ مَدخلًا مِن هذه المداخِلِ؛ لفسادٍ، أو اطِّلاعٍ على عَوْراتٍ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩).

وقال السعدي: (﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ أي: أحوالَكم الظَّاهِرةَ والخَفيَّةَ، وعَلِمَ مصالحَكم؛ فلذلك شَرَع لكم ما تحتاجون إليه وتُضْطَرُّون مِن الأحكامِ الشَّرعيةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

وأنَّه يَنبغي أن يكونَ الزَّائِرُ والمَزورُ مُتوافِقَينِ مُتآنِسَينِ، وذلك عَونٌ على توفُّرِ الأُخُوَّةِ الإسلاميَّةِ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾ أي: أطهَرُ وأصلَحُ مِن الوقوفِ على الأبوابِ مُنتظرينَ؛ لأنَّ هذا ممَّا يجلِبُ الكراهةَ، ويقدَحُ في قلوبِ النَّاسِ، خصوصًا إذا كانوا ذَوِي مروءةٍ مُرتاضينَ للآدابِ الحَسَنةِ، وإذا نُهيَ عن ذلك لأدائِه إلى الكراهةِ، وجَبَ الانتِهاءُ عن كُلِّ ما يؤدِّي إليها؛ مِن قَرعِ البابِ بعُنفٍ، والتَّصييحِ بصاحِبِ الدارِ، وغيرِ ذلك ممَّا يَدخُلُ في عاداتِ مَن لم يتهذَّبْ، مِن أكثَرِ النَّاسِ(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾ فيه أدبٌ عَظيمٌ: وهو تعليمُ الصَّراحةِ بالحَقِّ دونَ المواربةِ، ما لم يكنْ فيه أذًى، وتعليمُ قَبولِ الحَقِّ؛ لأنَّه أطمَنُ لنَفْسِ قابِلِه مِن تلقِّي ما لا يُدرَى أهو حَقٌّ أم مُواربةٌ، ولو اعتاد النَّاسُ التصارُحَ بالحَقِّ بيْنهم، لزالت عنهم ظُنونُ السُّوءِ بأنفُسِهم(٣)!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ يُرشِدُ الباري جلَّ وعلا عبادَه المؤمنين ألَّا يَدخُلوا بيوتًا غيرَ بُيوتِهم بغير استِئذانٍ؛ فإنَّ في ذلك عِدَّةَ مفاسِدَ:

منها: ما ذكرَه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حيث قال: ((إنَّما جُعِلَ الاستِئذانُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٠).

مِن أجلِ البصَرِ))[١]، فبسبَبِ الإخلالِ به يقَعُ البصَرُ على العَوْراتِ التي داخِلَ البيوتِ؛ فإنَّ البيتَ للإنسانِ في سَترِ عورةِ ما وراءَه بمنزلةِ الثَّوبِ في سَترِ عورةِ جَسَدِه.

ومنها: أنَّ ذلك يوجِبُ الرِّيبةَ مِن الدَّاخِلِ، ويُتَّهَمُ بالشَّرِّ سرقةً أو غيرَها؛ لأنَّ الدُّخولَ خُفيةً يدُلُّ على الشَّرِّ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ كَلِمةَ (حتى) للغايةِ، والحُكمُ بعْدَ الغايةِ يكونُ بخلافِ ما قَبْلَها، فقولُه: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ يقتضي جوازَ الدُّخولِ بعد الاستِئذانِ، وإن لم يكُنْ مِن صاحِبِ البيتِ إذْنٌ؟

الجوابُ مِن وجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ الله تعالى جعَل الغايةَ الاستِئناسَ لا الاستِئذانَ، والاستِئناسُ لا يحصُلُ إلَّا إذا حصَلَ الإذنُ بعد الاستِئذانِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّه لَمَّا عَلِمْنا أنَّ الحِكمةَ في الاستِئذانِ: ألَّا يَدخُلَ الإنسانُ على غَيرِه بغَيرِ إذنِه؛ فإنَّ ذلك ممَّا يَسوؤُه، وعَلِمْنا أنَّ هذا المقصودَ لا يحصُلُ إلَّا بعد حُصولِ الإذنِ- عَلِمْنا أنَّ الاستِئذانَ ما لم يتَّصِلْ به الإذنُ، وجَبَ ألَّا يكونَ كافيًا.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾، فحظَرَ الدُّخولَ إلَّا بإذنٍ؛ فدَلَّ على أنَّ الإذنَ مَشروطٌ بإباحةِ الدُّخولِ في الآيةِ الأُولى[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤١) واللفظ له، ومسلم (٢١٥٦) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٨).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ الظَّاهِرُ أنَّه يجوزُ للإنسانِ أن يدخُلَ بيتَ نَفْسِه مِن غيرِ استِئذانٍ ولا سلامٍ؛ لقَولِه: ﴿غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ ﴾[1]، فالآيةُ فُهِم منها أنَّ الرجُلَ لا يستأذنُ عندَ دخولِ بيتِه على امرأتِه[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ ظاهِرُ الآيةِ يَقتَضي قَبولَ الإذنِ مُطلَقًا، سواءٌ كان الآذِنُ صَبيًّا أو امرأةً أو عبدًا أو ذِمِّيًّا؛ فإنَّه لا يُعتبَرُ في هذا الإذنِ صِفاتُ الشَّهادةِ[3].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ فيه وجوبُ الاستِئذانِ عند دُخولِ بيتِ الغيرِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٩٠).

قال الشنقيطي: (اعلَمْ أنَّه إنْ لم يكُنْ مع الرَّجُلِ في بَيتِه إلَّا امرأتُه أنَّ الأظهَرَ أنَّه لا يستأذِنُ عليها، وذلك يُفهَمُ مِن ظاهِرِ قَولِه تعالى: ﴿ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ ﴾، ولأنَّه لا حِشمةَ بينَ الرَّجُلِ وامرأتِه، ويجوزُ بيْنهما مِنَ الأحوالِ والملابَساتِ ما لا يجوزُ لأحدٍ غَيرِهما، ولو كان أبًا أو أمًّا أو ابنًا، كما لا يخفى). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٠١).

لكنْ قال ابنُ كثيرٍ: (الأَولى أن يُعلِمَها بدُخولِه، ولا يُفاجِئَها به؛ لاحتِمالِ أن تكونَ على هيئةٍ لا تحِبُّ أن يراها عليها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩).

أمَّا إذا كان مع الرَّجُلِ في بيتِه مَحارِمُه، فقال الشنقيطي: (الأظهَرُ الذي لا ينبغي العُدولُ عنه أنَّ الرَّجُلَ يَلزَمُه أن يستأذِنَ على أمِّه وأختِه، وبَنِيه وبناتِه البالِغينَ؛ لأنَّه إنْ دخَلَ على مَن ذُكِرَ بغيرِ استِئذانٍ فقد تقَعُ عَينُه على عَوْراتِ مَن ذُكِرَ، وذلك لا يَحِلُّ له). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٨).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ فيه وجوبُ الرُّجوعِ إذا لم يُؤذَنْ له، وتحريمُ الدُّخولِ إذا لم يكُنْ فيها أحَدٌ، ويُستفادُ مِن هذا تحريمُ دُخولِ مِلكِ الغيرِ، والسُّكنى فيه، وشَغلِه بغيرِ إذْنِ صاحِبِه، فيدخُلُ تحتَه من المسائِلِ والفروعِ ما لا يُحصَى[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ هو بيانٌ لكيفيَّةِ الاستِئذانِ[٢].

٨- قال تعالى: ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ والسَّلامُ تقرَّرتْ مَشروعيَّتُه مِن قبْلُ في أوَّلِ الإسلامِ، ولم يكُنْ خاصًّا بحالةِ دُخولِ البيوتِ، فلم يكُنْ للسَّلامِ اختِصاصٌ هنا، وإنَّما ذُكِرَ مع الاستِئذانِ؛ للمُحافَظةِ عليه مع الاستِئذانِ؛ لئلَّا يُلْهِيَ الاستِئذانُ الطَّارقَ، فيَنْسى السَّلامَ، أو يَحسَبَ الاستئذانَ كافيًا عن السَّلامِ[٣].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ سُمِّي الاستِئذانُ استِئناسًا؛ لأنَّ به يحصُلُ الاستِئناسُ، وبعَدَمِه تحصُلُ الوَحشةُ[٤].

١٠- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ... ﴾ إلى قَولِه: ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ الجُناحُ: الإثمُ، فيُستفادُ منه أنَّ الأوامِرَ السَّابِقةَ للوُجوبِ؛ لأنَّها هي التي يأثمُ الإنسانُ بمُخالفتِها[١].

١١- قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ في ذلك توعُّدٌ لأهلِ التجَسُّسِ على البيوتِ، وطلَبِ الدُّخولِ على غَفلةٍ للمعاصي، والنَّظَرِ لِما لا يحِلُّ[٢].

١٢- قال قتادةُ: (قال بَعضُ المُهاجِرينَ: لقد طلبتُ عُمُري كلَّه هذه الآيةَ فما أدرَكْتُها: أنْ أستأذِنَ على بَعضِ إخواني، فيقولَ لي: ارجِعْ، فأرجِعُ وأنا مُغتَبِطٌ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾)[٣].

١٣- لا مُنافاةَ بيْنَ قَولِه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا ﴾ وبيْنَ قَولِه: ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾؛ فإنَّ أهلَ البُيوتِ قد يَكونونَ غائِبينَ عن بُيوتِهم، فإذا رجَعوا وأذِنوا فلا مانِعَ مِن الدُّخولِ؛ فصاحِبُ البَيتِ قد لا يوجَدُ في وقتٍ، ويوجدُ في وَقتٍ آخَرَ، والفائدةُ في هذا نفيُ توهُّمِ جوازِ دُخولِ الدَّارِ التي لا يُوجَدُ فيها صاحِبُها؛ ظنًّا بأنَّ النَّهيَ إنَّما هو لخشيةِ الاطِّلاعِ على عَوْراتِ أهلِ الدَّارِ أنفُسِهم فحسْبُ؛ فإنَّ أهلَ الدارِ وإنْ غابوا فقد يَكرهونَ أن يَطَّلِعَ أحَدٌ على ما في دارِهم مِن مَتاعٍ وغَيرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٩٣، ٩٤).

قال الزمخشريُّ: (وذلك أنَّ الاستِئذانَ لم يُشرَع لئلَّا يطَّلِعَ الدَّاخِلُ بغير إذْنٍ على عورةٍ، ولا تسبِقَ عينُه إلى ما لا يحِلُّ النظرُ إليه فقط، وإنَّما شُرع لئلَّا يُوقَفَ على الأحوالِ التي يطويها النَّاسُ =

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ﴾ بُنِيَ الفِعلُ للمَجهولِ؛ لِيَدُلَّ أنَّ المستأذِنَ إذا سَمِعَ مَن يقولُ له: «ارجِعْ»، فإنَّه يجبُ عليه أن يَرجِعَ، ولو كان القائِلُ غيرَ مَن له الإذنُ مِن أهلِ البَيتِ[١].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡ﴾ يدخُلُ فيه المُعَدُّ للضَّيفِ إذا أَذِنَ فيه صاحبُه في أوَّلِ الأمرِ، ووضَعَ الضَّيفُ متاعَه فيه؛ لأنَّ الاستِئذانَ لئلَّا يُهجَمَ على ما لا يُرادُ الاطِّلاعُ عليه، ويُرادُ طَيُّه عن عِلمِ الغَيرِ، فإذا لم يُخَفْ ذلك، فلا معنى للاستِئذانِ[٢].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡ﴾ يُفهَمُ منه تحريمُ النَّظَرِ إلى النِّساءِ وعَوراتِ الرِّجالِ، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّما جُعِلَ الاستِئذانُ مِن أجلِ البصرِ))[٣].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡ﴾ هذا مِن احتِرازاتِ القُرآنِ العَجيبةِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾ لفظٌ عامٌّ في كلِّ بيتٍ ليس مِلكًا للإنسانِ؛ أخْرَجَ منه تعالى البيوتَ التي ليست مِلكَه، وفيها متاعُه، وليس فيها ساكِنٌ، فأسقَطَ الحرجَ في الدُّخولِ إليها[٤].

= في العادةِ عن غيرِهم، ويتحفَّظون مِن اطِّلاعِ أحدٍ عليها، ولأنَّه تصَرُّفٌ في مِلكِ غيرِك؛ فلا بدَّ من أن يكونَ برضاه، وإلَّا أشْبَهَ الغَصبَ والتغلُّبَ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩١).

والحديث أخرجه البخاري (٦٢٤١) واللفظ له، ومسلم (٢١٥٦) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

١٨- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ مَن لا منفعةَ له في دُخولِها لا يؤْذَنُ له في دُخولِها؛ لأنَّه يُضَيِّقُ على أصحابِ الاحتياجِ إلى بِقاعِها[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

- قَولُه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ استِئنافٌ لبَيانِ أحكامِ التَّزاوُرِ، وتَعليمِ آدابِ الاستِئذانِ، وتَحديدِ ما يحصُلُ المقصودُ منه؛ كيْ لا يكونَ النَّاسُ مُختلفينَ في كَيفيَّتِه على تفاوُتِ اختلافِ مَداركِهم في المقصودِ منه والمُفيدِ[٢].

- ووَصْفُ البُيوتِ بمُغايرةِ بُيوتِهم خارجٌ مَخرجَ العادةِ الَّتي هي سُكنى كلِّ أحدٍ في ملْكِه، وإلَّا فالمؤاجرُ والمُعيرُ أيضًا مَنْهيَّانِ عن الدُّخولِ بغيرِ إذنٍ[٣].

- قَولُه: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ كِنايةٌ لَطيفةٌ عن الاستِئذانِ، أي: أنْ يَستأذِنَ الدَّاخلُ، أي: يَطلُبَ إذنًا مِن شأنِه ألَّا يكونَ معه استيحاشُ ربِّ المنزلِ بالدَّاخلِ، إذا كان معنى الاستِئناسِ خِلافَ الاستيحاشِ؛ لأنَّ الَّذي يَطرُقُ بابَ غيرِه لا يَدْري أيُؤْذَنُ له أمْ لا، فهو كالمُستَوحشِ مِن خَفاءِ الحالِ، فإذا أُذِنَ له استأنَسَ، فالمعنى: حتَّى يُؤذَنَ لكم؛ فهذا مِن بابِ الكِناياتِ والإردافِ؛ لأنَّ هذا النَّوعَ مِن الاستئناسِ يَردُفُ الإذْنَ؛ فوُضِعَ مَوضعَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٨).

الإذنِ[١]. وسِرُّ ذلك: تَرغيبُ المُخاطَبينَ في الإتيانِ بالاستِئذانِ؛ فإنَّ له فائدةً وثمرةً تَميلُ النُّفوسُ إليها، وتَنفِرُ مِن ضِدِّها، وهو الاستيحاشُ الحاصلُ بتقديرِ عدَمِ الاستِئذانِ؛ ففيه تَنهيضٌ للدَّواعي على سُلوكِ هذا الأدبِ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ عطَفَ الأمرَ بالسَّلامِ على الاستِئناسِ، وجعَلَ كِلاهما غايةً للنَّهيِ عن دُخولِ البيوتِ؛ تَنبيهًا على وُجوبِ الإتيانِ بهما؛ لأنَّ النَّهيَ لا يرتفِعُ إلَّا عند حُصولِهما[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾

- قَولُه: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا﴾ احتِراسٌ مِن أنْ يظُنَّ ظانٌّ أنَّ المنازِلَ غيرَ المسكونةِ يدخُلُها النَّاسُ في غَيبةِ أصحابِها بدونِ إذْنٍ منهم؛ توهُّمًا بأنَّ عِلَّةَ شرْعِ الاستئذانِ ما يَكرَهُ أهْلُ المنازِلِ مِن رُؤيتِهم على غيرِ تأهُّبٍ، بلِ العلَّةُ هي كراهتُهم رُؤيةَ ما يُحِبُّون سَتْرَه مِن شُؤونِهم؛ فالشَّرطُ هنا يُشبِهُ الشَّرطَ الوصليَّ؛ لأنَّه مُرادٌ به المُبالَغةُ في تَحقيقِ ما قبْلَه؛ ولذلك ليس له مفهومُ مخالفةٍ[٤].

- والغايةُ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ لتأكيدِ النَّهيِ بقولِه: ﴿فَلَا تَدۡخُلُوهَا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٢٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: (((المصدر السابق)).

- قَولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ تَذييلٌ لهذه الوصايا بتَذكيرِهم بأنَّ اللهَ عليمٌ بأعمالِهم؛ لِيَزدجِرَ أهْلُ الإلحاحِ عن إلْحاحِهم بالتَّثقيلِ، ولِيَزدجِرَ أهْلُ الحِيَلِ أو التَّطلُّعِ مِن الشُّقوقِ ونَحوِها. وهذا تَعريضٌ بالوعيدِ؛ لأنَّ في ذلك عِصيانًا لِمَا أمَرَ اللهُ به؛ فعِلْمُه به كِنايةٌ عن مُجازاتِه فاعِليه بما يَستحِقُّونَ[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾

- قَولُه: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡ﴾ ﴿فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡ﴾ صِفةٌ للبُيوتِ، أو استِئنافٌ جارٍ مَجْرى التَّعليلِ لعدَمِ الجُناحِ[2].

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ فيه وَعيدٌ لِمَن يَدخُلُ مَدخلًا مِن هذه المداخلِ لفسادٍ أو اطِّلاعٍ على عَوراتٍ، كمَن يدخُلونَ الخَرِباتِ والدُّورَ الخاليةَ مِن أهْلِ الرِّيبةِ؛ فهذه الجُملةُ مُستعمَلةٌ في التَّحذيرِ مِن تجاوُزِ ما أشارت إليه الآيةُ مِن القيودِ، وهي كونُ البُيوتِ غيرَ مَسكونةٍ، وكونُ الدَّاخلِ مُحتاجًا إلى دُخولِها، بلْهَ أنْ يدخُلَها بقصْدِ التَّجسُّسِ على قُطَّانِها -أي: ساكنيها-، أو بقصْدِ أذاهُم، أو سَرِقةِ مَتاعِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣).

الآيتان (٢٠-٢١)

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَغُضُّوا۟﴾: أَي: يَكُفُّوا، وأصلُ (غضض): يدُلُّ على كَفٍّ ونَقصٍ[١].

﴿أَزْكَىٰ﴾: أي: أصلَحُ وأطهَرُ، والزكاةُ: هى النَّماءُ والزِّيادةُ فى الصلاحِ، وكمالُ الشيءِ، وأصلُ (زكو): يدُلُّ على طهارةٍ ونَماءٍ[٢].

﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾: جمعُ خِمارٍ، وهو ما تُغطِّي به المرأةُ رأسَها، وكُلُّ شَيءٍ غطَّيتَه فقد خمَّرتَه، وأصلُ (خمر): يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٠٦)، =

﴿جُيُوبِهِنَّ﴾: جَمعُ جَيبٍ، وهو طَوقُ القَميصِ الذي يُحيطُ بالعُنُقِ مِمَّا يلي الرَّقبةَ، وأصلُه مبدَلٌ مِن (جوب)، بمعنى: الخَرقِ والقَطعِ؛ لأنَّ الجيبَ هو موضِعُ القَطعِ مِنَ القَميصِ[١].

﴿لِبُعُولَتِهِنَّ﴾: جمعُ بَعْلٍ، هو الذَّكَرُ مِن الزَّوجينِ، ويُسمَّى به كلُّ مُستَعلٍ على غَيرِه، وأصلُ (بعل) هنا: الصَّاحِبُ[٢].

﴿ٱلْإِرْبَةِ﴾: أي: الحاجةِ إلى النِّساءِ، وأصلُ (أرب) هنا: الحاجةُ[٣].

﴿يَظْهَرُواْ﴾: أي: يَطَّلِعوا، ويَعرِفوا، والظُّهورُ أصلُه: البروزُ دونَ ساترٍ، و (ظهر) تُطلَقُ بمعنى اطَّلَع وفَهِمَ وعَلِمَ، وبمعنى غلَب، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: قُلْ -يا محمَّدُ- للمؤمنينَ يَكُفُّوا أبصارَهم عمَّا حرَّم اللهُ عليهم،

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(١) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١١/ ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٧)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (١٠٩).

ويَصونوا فُروجَهم عمَّا حرَّم اللهُ؛ ذلك الغضُّ والحِفظُ أطهَرُ لقُلوبِهم، وأفضَلُ لهم في دينِهم ودُنياهم، إنَّ الله رقيبٌ عليهم، مطَّلِعٌ على أعمالِهم، لا يَخفَى عليه منها شَيءٌ.

ثمَّ يرشِدُ الله سبحانَه النِّساءَ إلى ما أرشَد إليه الرجالَ، فيقول: وقُلْ -يا محمَّدُ- للمُؤمِناتِ يَكفُفْنَ النظَرَ عمَّا حرَّمَ اللهُ، ويحفَظْنَ فروجَهنَّ عمَّا حَرَّم اللهُ، ولا يَكشِفْنَ زينتَهنَّ للأجانبِ إلَّا ما ظهرَ منها، كظاهرِ الثِّيابِ التي جرَت العادةُ بلُبسِها، ولْيُلقِينَ بِخُمُرِهِنَّ على فتَحاتِ القُمصِ المحيطةِ بالأعناقِ؛ لئلَّا يبدوَ شَيءٌ مِن شُعورِهنَّ، وآذانِهنَّ، وأعناقِهنَّ، ونحورِهنَّ، وصُدورِهنَّ، ولا يُظْهِرْنَ زينتَهنَّ الخفيَّةَ إلَّا لأزواجِهنَّ، أو آبائهنَّ أو آباءِ أزواجِهنَّ، أو أبنائِهنَّ أو أبناءِ أزواجِهنَّ، أو إخوانِهنَّ أو أبناءِ إخوانِهنَّ، أو أبناءِ أخَواتهنَّ أو نسائِهنَّ، أو ما ملكْنَ مِنَ الإماءِ والعبيدِ، أو التَّابعينَ مِن الرِّجالِ الذين لا مَيلَ لهم ولا شَهوةَ إلى النِّساءِ، أو الأطفالِ الصِّغارِ الذين لم يَبلُغوا حدَّ الشَّهوةِ، ولا يَعرِفونَ عَوْراتِ النِّساءِ. ولا يَضرِبِ النِّساءُ بأرجُلِهنَّ الأرضَ لِيُسْمِعْنَ صَوتَ ما خَفِيَ مِن حُلِيهنَّ.

ويختمُ الله تعالى هذه الآيةَ بدعوةِ المؤمنينَ إلى التوبةِ، فيقولُ: وتوبوا -أيُّها المؤمِنونَ- إلى ربِّكم؛ لِتَفوزوا في دُنياكم وآخِرتِكم.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى حُكمَ الاستئذانِ؛ أعقَبه ببيانِ آدابِ ما تَقْتضيه المجالسةُ

بعدَ الدخولِ[١]، فقال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُؤمِنينَ يَكُفُّوا نظَرَهم[٢] عمَّا حرَّم اللهُ عليهم[٣].

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إيَّاكم والجُلوسَ بالطُّرُقاتِ. فقالوا: يا رسولَ اللهِ، ما لنا مِن مجالِسِنا بُدٌّ نتحَدَّثُ فيها، فقال: إذ أَبَيْتُم إلَّا المجلِسَ، فأعطُوا الطَّريقَ حَقَّه. قالوا: وما حَقُّ الطَّريقِ يا رسولَ الله؟ قال: غَضُّ البصَرِ، وكَفُّ الأذى، ورَدُّ السَّلامِ، والأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المنكَرِ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣).

(٢) قال الشوكاني: (﴿مِنْ﴾ في قَولِه: ﴿مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ هي: التَّبعيضيَّةُ، وإليه ذهب الأكثَرونَ، وبيَّنوه بأنَّ المعنى غضُّ البصَرِ عمَّا يَحرُمُ، والاقتِصارُ به على ما يَحِلُّ. وقيل: وجهُ التَّبعيضِ أنه يُعفَى للنَّاظِرِ أوَّلُ نظرةٍ تقَعُ مِن غيرِ قَصدٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦).

وقال ابنُ جُزي بعدَ أنْ ذكَر أنَّ (مِن) للتبعيضِ في الآيةِ: (وأجاز الأخفَشُ أن تكونَ «مِنْ» زائدةً. وقيل: هي لابتداءِ الغايةِ؛ لأنَّ البَصَرَ مِفتاحُ القَلبِ، والغَضُّ المأمورُ به هو عن النَّظَرِ إلى العَورةِ، أو إلى ما لا يَحِلُّ مِنَ النِّساءِ، أو إلى كُتُبِ الغَيرِ، وشِبهِ ذلك مِمَّا يُستَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤)، ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٥/ ٣٦٩)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣).

قال ابنُ القطَّان: (النَّظَرُ إنَّما حَرُم في محلِّ الإجماعِ حَذرًا من الفِتنةِ، كما حَرُم الزِّنا حَذرًا من اختلاطِ الأنساب، وشُربُ الخَمرِ توقيرًا للعَقلِ، فإذا كان كذلك وَجَب غَضُّ البصرِ على كلِّ خائفٍ، وحرُمَ عليه أن يُرسِلَ طَرْفَه في مواقِعِ الفِتَنِ؛ فإنَّه إذا فعَل ذلك رأى الذي لا كُلُّه هو قادِرٌ عليه، ولا عن بَعضِه هو صابِرٌ!). ((إحكام النظر)) (ص: ٣٣٨).

(٤) رواه البخاري (٦٢٢٩) واللفظ له، ومسلم (٢١٢١).

وعن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنه، قال: ((سألتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن نظَرِ الفُجاءةِ، فأمَرَني أن أصرِفَ بَصَري))(١).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كُتِبَ على ابنِ آدَمَ نصيبُه مِن الزِّنا، مُدرِكٌ ذلك لا مَحالةَ؛ فالعينانِ زِناهما النَّظَرُ، والأُذنانِ زِناهما الاستِماعُ، واللِّسانُ زِناه الكلامُ، واليَدُ زِناها البَطشُ، والرِّجلُ زِناها الخُطا، والقَلبُ يَهوى ويتمنَّى، ويُصَدِّقُ ذلك الفَرجُ ويُكَذِّبُه))(٢).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يَنظُرِ الرجُلُ إلى عَورةِ الرَّجُلِ، ولا المرأةُ إلى عورةِ المرأةِ، ولا يُفضِي(٣) الرجُلُ إلى الرجُلِ في ثوبٍ واحدٍ، ولا تُفضي المرأةُ إلى المرأةِ في الثَّوبِ الواحدِ))(٤).

﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾.

أي: ويَحفَظوا فروجَهم عمَّا حرَّم اللهُ؛ كالزِّنا، وكأنْ يَراها أو يَمَسَّها أحدٌ لا يحِلُّ له ذلك(٥).

---

(١) رواه مسلم (٢١٥٩).

(٢) رواه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧) واللفظ له.

(٣) لا يُفضِي: أي: لا يَصِلُ. والمعنى: لا يَضْطَجعانِ مُتجَرِّدينِ تحت ثوبٍ واحدٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠٥١).

(٤) رواه مسلم (٣٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٦).

قال الجصَّاص: (المعنى: حِفظُها عن سائرِ ما حُرِّمَ عليه؛ من الزِّنا، واللَّمسِ، والنَّظَرِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٠٧).

=

كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ الله عنهما، عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن يَضْمَنْ لي ما بيْن لَحْيَيه[١] وما بيْن رِجلَيه، أَضمَنْ له الجنَّةَ))[٢].

وعن مُعاويةَ بنِ حَيْدةَ القُشَيريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، عوْراتُنا ما نأتي منها وما نذَرُ؟ قال: احفَظْ عورتَك إلَّا مِن زوجتِك أو ما ملَكَت يمينُك. فقال: الرجُلُ يكونُ مع الرجُلِ؟ قال: إنِ استطَعْتَ ألَّا يراها أحَدٌ، فافعَلْ. قلتُ: والرجُلُ يكونُ خاليًا؟ قال: فاللهُ أحقُّ أن يُستَحْيَا منه))[٣].

= وقال ابن عطية: (حِفظُ الفروجِ يعُمُّ الفواحِشَ، وسَترَ العورةِ، وما دون ذلك ممَّا فيه حِفظٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٨).

(١) لَحْيَيه: هما العَظمانِ في جانبَي الفَمِ، والمرادُ بما بيْنَهما: اللِّسانُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٠٩).

(٢) رواه البخاري (٤٣٠٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٦٩) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٩٧٢)، وابن ماجه (١٩٢٠)، وأحمد (٢٠٠٣٤).

حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّحه ابنُ القطَّان في ((أحكام النظر)) (٩٤)، وذكر ثبوته ابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (٢١/ ٣٣٧). وصحَّح الحديثَ ابنُ القيم في ((تهذيب السنن)) (١١/ ٥٦)، وابنُ باز في ((الفوائد العلمية)) (٦/ ١١٧)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٧٦٩).

وآخِرُ الحديث أخرجه البخاري معلَّقًا بصيغة الجزم قبْلَ حديث (٢٧٨)، ولفظُه: ((اللهُ أحقُّ أن يُستَحيا منه من النَّاسِ)).

﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ﴾.

أي: غَضُّ المؤمنينَ مِن أبصارِهم، وحِفظُهم لفُروجِهم: أطهَرُ وأطيَبُ لقُلوبِهم، وأفضَلُ لهم في دينِهم ودُنياهم، وأنْمَى لأعمالِهم، وأبعَدُ لهم مِن الخَطايا والآثامِ[1].

كما قال تعالى: ﴿... وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ خبيرٌ بما يصنَع النَّاسُ، لا يَخفى عليه شَيءٌ من ذلك، فيَعلَمُ مَن يَغُضُّ بصَرَه ويحفظُ فَرجَه منهم، ومَن لا يفعَلُ ذلك؛ فلْيَجتَهِدوا في طاعتِه، ولْيَحذروا مِن مَعصيتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٧٨، ٣٨٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قوله: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡ﴾ فالغَضُّ مِن البَصَرِ، وحِفظُ الفرجِ يتضَمَّنُ البُعدَ عن نجاسةِ الذُّنوبِ، ويتضَمَّنُ الأعمالَ الصالحةَ التي يزكو بها الإنسانُ، وهو أزكى، والزكاةُ تتضمَّنُ الطَّهارةَ؛ فإنَّ فيها معنى تَركِ السيِّئاتِ، ومعنى فِعلِ الحَسَناتِ؛ ولهذا تفسَّرُ تارةً بالطَّهارةِ، وتارةً بالزِّيادةِ والنَّماءِ، ومعناها يتضَمَّنُ الأمْرينِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى المؤمنينَ بغضِّ الأبصارِ، وحفظِ الفروجِ؛ أمَر المؤمناتِ بذلك[١]، فأردَفَ أمرَ المؤمنينَ بأمرِ المؤمِنات؛ لأنَّ الحِكمةَ في الأمْرينِ واحِدةٌ، وتصريحًا بما تقرَّرَ في أوامِرِ الشريعةِ المُخاطَبِ بها الرِّجالُ، مِن أنَّها تشملُ النِّساءَ أيضًا، ولكِنَّه لَمَّا كان هذا الأمرُ قد يُظَنُّ أنَّه خاصٌّ بالرِّجالِ؛ لأنَّهم أكثَرُ ارتِكابًا لضِدِّه- وقَع النَّصُّ على هذا الشُّمولِ بأمرِ النِّساءِ بذلك أيضًا[٢].

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ- للمُؤمِناتِ يَكفُفْنَ النظَرَ عمَّا حرَّمَ اللهُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٦)، ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ١٠٢ و٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٦٩)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣).

قال ابن القَطَّان: (لا خِلافَ أعلَمُه في جَوازِ نظرِ المرأةِ إلى وَجهِ الرجُلِ مُطلقًا إذا لم تَقصِدِ اللَّذَّةَ ولم تَخَفِ الفِتنةَ... [و] إنْ قصَدَت اللذَّةَ وخافت الفِتنةَ حَرُمَ بلا نزاعٍ، وكذلك إن قصَدَت ولم تَخَفْ؛ فإنَّها تاركةٌ لغضِّ البصرِ حيثُ أُمِرَت به). ((إحكام النظر)) (ص: ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٣٣).=

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يَنظُرِ الرجُلُ إلى عَورةِ الرَّجُلِ، ولا المرأةُ إلى عورةِ المرأةِ، ولا يُفضِي الرجُلُ إلى الرجُلِ في ثوبٍ واحدٍ، ولا تُفضي المرأةُ إلى المرأةِ في الثَّوبِ الواحدِ))[1].

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

أي: ويحفَظْنَ فُروجَهنَّ عمَّا حرَّم اللهُ؛ كالزِّنا، وكأنْ يراها أو يمسَّها أحدٌ لا يَحِلُّ له ذلك[2].

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

أي: لا يُظهِرْنَ شَيئًا مِنَ الزِّينةِ للأجانِبِ، إلَّا ما لا يُمْكِنُ إخفاؤُه؛ كظاهرِ

= ونَظَرُ المرأةِ إلى وَجهِ الرَّجُلِ بشَهوةٍ أو مع خَوفِ الفِتنةِ حَرامٌ بالإجماعِ، أمَّا إذا لم يكُنِ النَّظَرُ بشَهوةٍ وأَمِنَت الفِتنةَ فالمذاهِبُ الفِقهيَّةُ الأربعةُ: الحَنَفيَّةُ، والمالِكيَّةُ، والشَّافِعيَّةُ، والحنابِلةُ- على جوازِه، والمسألةُ فيها خِلافٌ. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٥/ ١٢٢)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (٣/ ١٣٢)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ١٤). ويُنظر الخلاف في: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٨٤)، ((الشرح الكبير)) لابن قدامة (٧/ ٣٥١).

قال ابنُ كثير: (قولُه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي: عمَّا حرَّم اللهُ عليهنَّ مِن النَّظَرِ إلى غيرِ أزواجِهنَّ؛ ولهذا ذهَبَ كثيرٌ مِنَ العُلَماءِ إلى أنَّه: لا يجوزُ للمَرأةِ أن تَنظُرَ إلى الأجانبِ بشَهوةٍ ولا بغيرِ شَهوةٍ أصلًا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤).

وقال ابنُ العربي: (وكما لا يَحِلُّ للرَّجُلِ أن يَنظُرَ إلى المرأةِ، فكذلك لا يحِلُّ للمَرأةِ أن تنظُرَ إلى الرَّجُلِ؛ فإنَّ عَلاقتَه بها كعَلاقتِها به، وقَصْدَه منها كقَصدِها منه). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٣٨٠).

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٦).

الثِّيابِ التي جرَت العادةُ بلُبسِها[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٦٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: ظاهِرُ الثِّيابِ: ابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر المصادِرُ السَّابِقةُ.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عبدُ الله بن مسعود، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ في روايةٍ عنه، والحسَنُ في روايةٍ عنه، وماهانُ الحنفيُّ في روايةٍ عنه، وابن سيرينَ، وأبو الجوزاء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥).

قال ابنُ كثير: (﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: لا يُظهِرْنَ شَيئًا مِنَ الزِّينةِ للأجانبِ إلَّا ما لا يمكِنُ إخفاؤُه. وقال ابنُ مسعودٍ: كالرِّداءِ والثِّيابِ. يعني: على ما كان يتعاناه نِساءُ العرَبِ مِنَ الْمِقنَعةِ التي تجَلِّلُ ثيابَها، وما يبدو مِن أسافِلِ الثِّيابِ فلا حرَجَ عليها فيه؛ لأنَّ هذا لا يمكِنُ إخفاؤُه، ونظيرُه في زيِّ النِّساءِ ما يظهَرُ مِن إزارِها، وما لا يمكِنُ إخفاؤُه. وقال بقَولِ ابنِ مسعودٍ: الحسَنُ، وابنُ سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، وغيرُهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (فما ظهَرَ مِن الزِّينةِ: هو الثِّيابُ الظَّاهِرةُ، فهذا لا جُناحَ عليها في إبدائِها إذا لم يكُنْ في ذلك محذورٌ آخَرُ؛ فإنَّ هذه لا بدَّ مِن إبدائِها، وهذا قَولُ ابنِ مسعودٍ وغيرِه، وهو المشهورُ عن أحمدَ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: الوَجهُ واليدانِ مِنَ الزِّينةِ الظَّاهِرةِ. وهي الرِّوايةُ الثَّانيةُ عن أحمدَ، وهو قَولُ طائفةٍ مِن العُلَماءِ؛ كالشَّافعيِّ وغيرِه، وأمَرَ سُبحانَه النِّساءَ بإرخاءِ الجلابيبِ؛ لئَلَّا يُعرَفْنَ ولا يُؤذَينَ، وهذا دليلٌ على القَولِ الأوَّلِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٧١).

وقال ابنُ كثير: (عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: وَجْهَها وكَفَّيها والخاتَمَ. ورُوِيَ عن ابنِ عُمَرَ، وعطاءٍ، وعِكْرِمةَ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وأبي الشَّعثاء، والضَّحَّاك، وإبراهيمَ النَّخَعيِّ، وغيرِهم -نحوُ ذلك. وهذا يحتَمِلُ أن يكونَ تفسيرًا للزِّينةِ التي نُهِينَ عن إبدائِها كما قال أبو إسحاقَ السَّبيعيُّ، عن أبي الأحوص، عن عبدِ الله قال في قَولِه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾: الزِّينةُ: القُرطُ والدُّمْلُجُ والخَلْخالُ والقِلادةُ. وفي روايةٍ عنه بهذا الإسنادِ قال: الزِّينةُ زينتانِ: فزِينةٌ لا يراها إلَّا الزَّوجُ: الخاتَمُ والسِّوارُ، وزينةٌ يراها الأجانِبُ، وهي الظَّاهِرُ مِنَ الثِّيابِ. وقال الزُّهْريُّ: لا يبدو لهؤلاء الذين سَمَّى اللهُ مِمَّن لا يحِلُّ له إلَّا الأَسْوِرةُ والأخمِرةُ والأقرِطةُ مِن غيرِ حَسْرٍ، وأمَّا عامَّةُ النَّاسِ فلا يبدو منها إلَّا الخواتِمُ. وقال مالِكٌ عن الزُّهري: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الخاتَمَ والخَلْخالَ. ويحتَمِلُ أنَّ ابنَ عبَّاسٍ ومَن تابعه أرادوا تفسيرَ ما =

= ظهَرَ منها بالوَجهِ والكَفَّينِ، وهذا هو المشهورُ عند الجُمهورِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥).

وقال ابنُ تيميَّة: (وحقيقةُ الأمرِ: أنَّ اللهَ جَعَل الزِّينةَ زِينتَينِ: زينةً ظاهِرةً، وزينةً غيرَ ظاهِرةٍ، وجوَّز لها إبداءَ زينتِها الظَّاهِرةِ لغيرِ الزَّوجِ وذَوِي المحارِمِ، وكانوا قبْلَ أن تَنزِلَ آيةُ الحِجابِ كان النِّساءُ يَخرُجْنَ بلا جِلبابٍ، يرى الرَّجُلُ وَجْهَها ويَدَيها، وكان إذ ذاك يجوزُ لها أن تُظهِرَ الوَجهَ والكَفَّينِ، وكان حينَئذٍ يجوزُ النَّظَرُ إليها؛ لأنَّه يجوزُ لها إظهارُه، ثمَّ لَمَّا أنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ آيةَ الحِجابِ بقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] حُجِب النِّساءُ عن الرِّجالِ... فإذا كُنَّ مأموراتٍ بالجِلبابِ لئلَّا يُعرَفْنَ، وهو سَترُ الوَجهِ أو سَترُ الوَجهِ بالنِّقابِ؛ كان الوَجهُ واليدانِ مِنَ الزِّينةِ التي أُمِرَت ألَّا تُظهِرَها للأجانِبِ، فما بَقِيَ يَحِلُّ للأجانِبِ النَّظَرُ إلَّا إلى الثِّيابِ الظَّاهِرةِ؛ فابنُ مَسعودٍ ذَكَر آخِرَ الأمْرَينِ، وابنُ عبَّاسٍ ذَكَر أوَّلَ الأمْرَينِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ١٠٩).

وقال ابنُ عثيمين: (الصَّحيحُ أنَّ المرادَ بالزِّينةِ: الزِّينةُ الخارجيَّةُ -وهي ما تتزَيَّنُ بها المرأةُ- لا الزِّينةُ الخِلْقيَّةُ التي خَلَق اللهُ عليها المرأةَ، والدَّليلُ قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وفي آخِرِ هذه الآيةِ: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] .... فكُلُّ مَن تأمَّلَ الزِّينةَ وجَدَها في الزِّينةِ الخارجيَّةِ لا فيما زَيَّن اللهُ به المرأةَ، وعلى هذا يَكونُ الاستِثناءُ عائِدًا على ما يبدو مِنَ الثِّيابِ التي لا بدَّ مِن ظُهورِها... ويؤيِّدُه أيضًا أنَّه قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾، ولو كان المرادُ الوَجهَ والكَفَّينِ لقال: إلَّا ما أُظهِرَ مِنها. أمَّا ثيابُ الجَمالِ فهي مِنَ الزِّينةِ الخَفيَّةِ، وكذلك الحَلْيُ وشِبهُه ممَّا تتحَلَّى به المرأةُ لا يُبدى إلَّا لِمَن ذَكَر اللهُ عزَّ وجَلَّ؛ لأنَّ الحَلْيَ يمكِنُ إخفاؤُه، ليس كالعَباءةِ والجِلبابِ وشِبهِهما). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٦٦، ١٦٧).

وقال الشِّنقيطي: (ظاهِرُ اللُّغةِ أنَّ الزِّينةَ تُطلَقُ على ما تتزيَّنُ به المرأةُ خارِجًا عن بَدَنِها؛ فإنَّ إطلاقَها على نفْسِ البَدَنِ يحتاجُ إلى قرينةٍ، وأمَّا استِقراءُ الشَّرعِ فالمعروفُ منه الأمرُ بالتباعُدِ عن أسبابِ الفِتنةِ، والوَجهُ محَلُّ الجَمالِ والافتِتانِ مِنَ المرأةِ؛ فالواجِبُ سَتْرُه). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٩٩).

وقال أيضًا: (هذا القَولُ [أي: قَولُ ابنِ مَسعودٍ] هو أظهَرُ الأقوالِ عندَنا وأحوَطُها، وأبعَدُها مِنَ الرِّيبةِ وأسبابِ الفِتنةِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥١٥).

وذكر أبو يَعلَى أنَّ هذا القَولَ أشبَهُ، كما في ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٠). وذهب ابنُ باز إلى أنَّ هذا القَولَ أصَحُّ، وأنَّه الموافِقُ للأدِلَّةِ الشَّرعيَّةِ. يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٥/ ٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

أي: ولْيُلقِينَ الخُمُرَ -وهي ما تُغطِّي به المرأةُ رأسَها- على فتَحاتِ القُمُصِ المحيطةِ بالأعناقِ، ويَشدُدْنَها؛ لِيَستُرْنَ شُعورَهنَّ، وآذانَهنَّ، وأعناقَهنَّ، ونحورَهنَّ، وصُدورَهنَّ[1].

= وتُنظَرُ بقيَّةُ الأقوالِ في هذه الآيةِ في: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٠).

قال الشنقيطيُّ بعد أن ذكَرَ جُملةً مِن أقوالِ أهلِ العِلمِ في الزِّينةِ الظَّاهِرةِ والزِّينةِ الباطِنةِ: (جميعُ ذلك راجِعٌ في الجُملةِ إلى ثلاثةِ أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بالزِّينةِ: ما تتزَيَّنُ به المرأةُ خارِجًا عن أصلِ خِلْقتِها، ولا يَستلزِمُ النَّظَرُ إليه رؤيةَ شَيءٍ مِن بَدَنِها، كقَولِ ابنِ مسعودٍ ومَن وافقَه: إنَّها ظاهِرُ الثِّيابِ؛ لأنَّ الثِّيابَ زِينةٌ لها خارِجةٌ عن أصلِ خِلْقتِها، وهي ظاهِرةٌ بحُكمِ الاضْطِرارِ كما ترى.

القَولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالزِّينةِ: ما تتزَيَّنُ به وليس مِن أصلِ خِلْقتِها أيضًا، لكِنَّ النَّظَرَ إلى تلك الزِّينةِ يَستلزِمُ رُؤيةَ شَيءٍ مِن بَدَنِ المرأةِ، وذلك كالخِضابِ والكُحلِ ونحوِ ذلك؛ لأنَّ النَّظَرَ إلى ذلك يَستلزِمُ رُؤيةَ الموضِعِ المُلابِسِ له مِنَ البَدَنِ كما لا يخفى.

القَولُ الثَّالِثُ: أنَّ المرادَ بالزِّينةِ الظَّاهِرةِ: بَعضُ بَدَنِ المرأةِ الذي هو مِن أصلِ خِلْقتِها، كقَولِ مَن قال: إنَّ المرادَ بما ظَهَرَ منها: الوَجهُ والكَفَّانِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٨).

قال ابنُ عثيمين: (هل المرادُ بضَربِ الخِمارِ على الجَيبِ: أن يكونَ مِن تحتِ الوَجهِ بحيثُ يبقى الوَجهُ مَكشوفًا والجَيبُ مَستورًا، أو أنَّ المعنى أن تَضرِبَ بالخِمارِ على الجَيبِ مارًّا بالوَجهِ؟ هذا هو الأقرَبُ؛ لأنَّ الخِمارَ يَنزِلُ مِن أعلى لأنَّه فَوقَ الرَّأسِ، ثمَّ الجَيبُ إذا وجَب سَتْرُه فالوَجهُ مِن بابِ أَولى، وكان النِّساءُ في الجاهِليَّةِ -على حَسَبِ ما قاله بَعضُ المفَسِّرينَ- كانت المرأةُ =

عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: (يَرحمُ اللهُ نِساءَ المُهاجِراتِ الأُوَلَ؛ لَمَّا أنزل اللهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شقَّقْنَ مُروطَهنَّ[١]، فاختمَرْنَ بها[٢])[٣].

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر في الآيةِ قَبْلَها ما أباح أن يَراه غيرُ ذي المَحرَمِ مِن الزِّينةِ الظَّاهِرةِ؛ ذَكَر في هذه ما أباح أن يراه الزَّوجُ وذَوو المحارِمِ مِنَ الزِّينةِ الباطِنةِ، فقال[٤]:

= تَسدُلُ الخِمارَ مِن وَرائِها، ولا يَقرَبُ وَجهَها ولا جَيبَها؛ ولهذا أمَرَ اللهُ تعالى النِّساءَ أن يَضرِبنَ بخُمُرِهنَّ على جُيوبِهنَّ، وعندَ مَن يرى أنَّ المرادَ بالزِّينةِ الوَجهُ والكَفَّانِ يقولُ: تَضرِبُ بخِمارِها على جَيبِها مِن أسفَلَ، فتُغطِّي الجَيبَ، وتَكشِفُ الوَجهَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٦٨).

(١) مُروطَهنَّ: جمعُ مِرطٍ، وهو الإزارُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٩٠).

(٢) قال الشنقيطي: (قال ابنُ حَجَرٍ في «الفتح» في شَرحِ هذا الحَديثِ: قَولُه: فاختَمَرْنَ، أي: غَطَّينَ وُجوهَهنَّ، .... انتهى... وهذا الحديثُ الصَّحيحُ صَريحٌ في أنَّ النِّساءَ الصَّحابيَّاتِ المذكوراتِ فيه فَهِمْنَ أنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يَقتَضي سَتْرَ وُجوهِهنَّ، وأنَّهنَّ شَقَّقْنَ أُزُرَهنَّ فاختَمَرْنَ، أي: سَتَرْنَ وُجوهَهنَّ بها؛ امتِثالًا لأمرِ اللهِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ المُقتضي سَتْرَ وُجوهِهنَّ، وبهذا يتحَقَّقُ المُنصِفُ أنَّ احتِجابَ المرأةِ عن الرِّجالِ وسَتْرَها وَجْهَها عنهم ثابِتٌ في السُّنَّةِ الصَّحيحةِ المُفَسِّرةِ لكِتابِ اللهِ تعالى، وقد أثنَتْ عائِشةُ رَضِيَ اللهُ عنها على تلك النِّساءِ بمُسارعتِهنَّ لامتثالِ أوامِرِ اللهِ في كتابِه، ومعلومٌ أنَّهنَّ ما فَهِمْنَ سَتْرَ الوُجوهِ مِن قَولِه: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ إلَّا مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه موجودٌ، وهنَّ يَسأَلْنَه عن كُلِّ ما أَشكَلَ عليهنَّ في دِينِهنَّ، واللهُ جَلَّ وعلا يقولُ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]؛ فلا يُمكِنُ أن يُفَسِّرْنَها مِن تِلقاءِ أنفُسِهنَّ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٥٠). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٩٠).

(٣) رواه البخاري (٤٧٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٧).

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾.

أي: ولا يُظهِرْنَ زينتَهنَّ الخفيَّةَ[١] إلاَّ لأزواجِهنَّ[٢].

﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾.

أي: أو لآبائهنَّ، وأجدادِهنَّ من جهةِ آبائهنَّ وأمهاتهنَّ، أو لآباءِ أزواجِهنَّ، وأجدادِهم مِن جهةِ آبائِهم وأمهاتِهم، أو لأبنائِهنَّ وأحفادِهنَّ مِن جهةِ أبنائهنَّ وبناتِهنَّ، أو لأبناءِ أزواجِهنَّ مِن غيرِهنَّ وأحفادِهم[٣].

﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَاتِهِنَّ﴾.

أي: أو لإخوانِهنَّ الأشقَّاءِ أو لأبٍ أو لأمٍّ، أو لبني إخوانِهنَّ وأبنائِهم ذُكورًا وإناثًا، أو لبني أخواتِهنَّ وأبنائِهم ذكورًا وإناثًا[٤].

---

(١) قال ابن جزي: (المرادُ بالزينةِ هنا: الباطنةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال ابن القطان: (أُجمِعَ على أنَّ الزوجَ مرادٌ بالآيةِ). ((إحكام النظر)) (ص: ٢٤٣).

وقال الشوكاني: (البَعْلُ: هو الزَّوجُ والسَّيِّدُ في كلامِ العَرَبِ،... ومِثْلُه قَولُه سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦]). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٢، ٢٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال ابن القطَّان: (البَعلُ والأبُ يفترِقان في إبداءِ العَورةِ؛ فلا يحِلُّ ذلك للأبِ، وهذا لا اختلافَ ولا ريبَ فيه). ((إحكام النظر)) (ص: ٢٣٨).

وقال أيضًا: (الإجماعُ مُنعَقِدٌ على أنَّ ما تُبديه للمذكورينَ أكثَرُ مِمَّا تُبديه للأجانِبِ، وعلى أنَّ المذكورينَ مُتفاوِتون فيما تُبديه لهم). ((إحكام النظر)) (ص: ١٧١). =

﴿أَوۡ نِسَآئِهِنَّ﴾.

أي: أو لِنسائِهنَّ[(١)].

﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾.

= وقال أيضًا: (مَن أجازت الآيةُ التبسُّطَ بحَضرتِهم والتكَشُّفَ لهم ليسوا سواءً؛ فإنَّا لا نشُكُّ في أنَّ ابنَ بَعلِها مِن غَيرِها ليس كابنِها، وأنَّ أبا بَعلِها ليس كأبيها، وأنَّ إخوتَها وبنيهم ليسُوا كأبيها وابنِها، ولا كابنِ بَعلِها وأبيه، هذا ممَّا لا يختَلِفُ فيه كلُّ مَن رأيتُه عرَضَ للآيةِ بتَفسيرٍ، أو أجال فيها نظرًا). ((إحكام النظر)) (ص: ٢٤٠).

وقد اختَلَف الفُقَهاءُ فيما تُبديه المرأةُ لمحارِمِها. يُنظر: ((فتح القدير)) للكمال ابن الهمام (١٠/ ٣١)، ((الشَّرح الكبير)) للدَّردير (١/ ٢١٤)، ((مغني المحتاج)) للشِّربيني (٣/ ١٢٩)، ((كشَّاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٩)، ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٢٨٠ - ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٧).

قيل: المرادُ هنا: عمومُ النساءِ؛ فللمرأةِ إبداءُ زينتِها لكلِّ امرأةٍ، ولو كانت مشركةً. وممَّن قال بذلك: ابنُ العربي، والرازي، والألوسي، ومال إليه ابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٧٦-١٧٧، ١٨٠).

وقيل المراد هنا: النساءُ المسلماتُ فقط. وممَّن قال بذلك: ابنُ عطيَّة، والقرطبيُّ، والرسعني، وابن تيميَّة، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٣٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٢/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٧)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٧).

وقال السعدي: (﴿أَوۡ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: يجوزُ للنِّساءِ أن ينظُرَ بعضُهنَّ إلى بعضٍ مُطلقًا، ويحتملُ أنَّ الإضافةَ تقتضي الجنسيَّةَ، أي: النِّساءِ المسلماتِ اللَّاتي مِن جنسِكنَّ؛ ففيه دليلٌ لِمَن قال: إنَّ المسلمةَ لا يجوز أن تنظُرَ إليها الذمِّيَّةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

أي: أو لِمماليكِهنَّ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ[١].

عن أنسٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أتَى فاطمةَ بعبدٍ كان قد وهَبَه لها، وعلى فاطمةَ رَضِيَ الله عنها ثوبٌ، إذا قنَّعَت به رأسَها لم يبلُغْ رِجلَيها، وإذا غطَّت به رِجلَيها لم يبلُغْ رأسَها، فلمَّا رأى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما تلقى قال: ((إنَّه ليس عليك بأسٌ؛ إنما هو أبوكِ وغُلامُكِ))[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٥)، ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال العليمي: (﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ اختلف العُلَماءُ في حُكمِ الآيةِ؛ فقال قَومٌ: هو عامٌّ، فيكونُ عَبدُ المرأةِ مَحْرَمًا لها، فيجوزُ له الدُّخولُ عليها إذا كان عَفيفًا، وأن يَنظُرَ إلى مَولاتِه كالمحارِمِ، وهو مَذهَبُ مالِكٍ والشَّافعيِّ...، وقال آخَرونَ: المرادُ: الإماءُ دونَ العَبيدِ، فيكونُ العَبدُ حُكمُه حُكمُ الأجنبيِّ معها، وهو مَذهَبُ أبي حنيفةَ وأحمدَ، مع اتِّفاقِهما على جوازِ رُؤيتِه إليها، فأبو حنيفةَ يُجَوِّزُ رؤيتَه إلى وَجهِها وكَفَّيها، وأحمدُ يُجوِّزُ رؤيتَه إلى ما يجوزُ للمَحرَمِ النَّظَرُ إليه منها كما تقدَّمَ؛ قال أحمدُ: ولا يَلزَمُ مِنَ النَّظَرِ المَحْرَميَّةُ، فلا يُباحُ لها الحَجُّ ولا السَّفَرُ معه). ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٢٩). يُنظر: ((فتح القدير)) للكمال ابن الهمام (١٠/ ٣٧)، ((الذخيرة)) للقرافي (١٣/ ٣١٦)، ((مغني المحتاج)) للخطيب الشربيني (٣/ ١٣٠)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٨/ ١٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يدُلُّ على أنَّ لها أن تبديَ الزينةَ الباطنةَ لِمَملوكها. وفيه قولان؛ قيل: المرادُ الإماءُ والإماءُ الكتابيَّاتُ، كما قاله ابنُ المسيِّبِ، ورجَّحه أحمدُ وغيرُه، وقيل: هو المملوكُ الرجُلُ، كما قاله ابنُ عباسٍ وغيرُه، وهو الروايةُ الأخرى عن أحمدَ؛ فهذا يقتضي جوازَ نظَرِ العبدِ إلى مَولاتِه، وقد جاءت بذلك أحاديثُ، وهذا لأجلِ الحاجةِ؛ لأنَّها محتاجةٌ إلى مخاطَبةِ عبدِها أكثرَ مِن حاجتِها إلى رؤيةِ الشاهدِ والمعامِلِ والخاطِبِ، فإذا جاز نظَرُ أولئك، فنظَرُ العبدِ أَولى). ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ١١١).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ قال ابنُ جُرَيجٍ: يعني: مِن نساءِ المشركين، فيجوزُ لها أن تُظهرَ زينتَها لها وإن كانت مشركةً؛ لأنها أمَتُها، وإليه ذهب سعيدُ بنُ المسيِّبِ. وقال الأكثرونَ: بل يجوزُ لها أن تظهَرَ على رقيقِها مِن الرجالِ والنساءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤١٠٦)، والبيهقي (١٣٩٢٩)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (١٧١٢).=

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾.

أي: أو الذين يَتْبَعونَكم من الرجال ممَّن لا شَهوةَ لهم في النِّساءِ[1].

﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

أي: أو الأطفالِ الذين لم يطَّلِعوا على عَوْراتِ النِّساءِ، ولم يَعرِفوا أحوالهنَّ، ولا يشتهونَهنَّ؛ لِصِغَرِهم[2].

= صحَّحه ابن القطان في ((أحكام النظر)) (١٩٦). وقال الضياء المقدسي في ((الأحاديث المختارة)) (٥/ ١٠٧): لا أعلم بإسناده بأسًا. وجوَّد إسنادَه الذهبي في ((المهذب)) (٥/ ٢٦٧١)، وابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (٧/ ٥١٠). وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤١٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال القرطبي: (واختلف النَّاسُ في معنى قوله: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ﴾؛ فقيل: هو الأحمقُ الذي لا حاجةَ به إلى النساءِ. وقيل: الأبلَهُ. وقيل: الرجلُ يتْبَعُ القومَ فيأكلُ معهم، ويرتفِقُ بهم، وهو ضعيفٌ لا يَكترثُ للنساءِ ولا يشتهيهنَّ. وقيل: العِنِّينُ. وقيل: الخَصِيُّ. وقيل: المخنَّثُ. وقيل: الشيخُ الكبيرُ، والصبيُّ الذي لم يُدرِكْ. وهذا الاختلافُ كُلُّه متقاربُ المعنى، ويجتمِعُ فيمَن لا فَهْمَ له، ولا هِمَّةَ ينتبهُ بها إلى أمرِ النِّساءِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال القرطبي: (الطِّفلُ يُطلقُ مِن وقتِ انْفِصالِ الولدِ إلى البُلوغِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢).

وقال الماوَردي: وفي معنى قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ ثلاثةُ أوجُهٍ: الأوَّلُ: لعَدَمِ شَهوتِهم. والثَّاني: لم يَعرِفوا عَوْراتِ النِّساءِ لعَدَمِ تَمييزِهم. والثَّالِثُ: لم يُطيقوا جِماعَ النِّساءِ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٩٦).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: أنَّهم لم يَفهَموا أحوالَ النِّساءِ وعَوراتِهنَّ، ولم يَعرِفوها: ابنُ قُتَيبةَ، والرسعني، وابن كثير، والعليمي، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٤)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) =

= (١٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٧٩).

قال ابنُ كثير: (قوله: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني: لِصِغَرِهم لا يفهَمونَ أحوالَ النساءِ وعوراتِهنَّ؛ مِن كلامِهنَّ الرخيمِ، وتعطُّفِهنَّ في المِشيةِ وحَركاتِهنَّ، فإذا كان الطفلُ صغيرًا لا يفهَمُ ذلك، فلا بأسَ بدُخولِه على النساءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩).

وقال ابنُ عثيمين: (والمعنى: أنَّهم لا يَعرِفونَ ما يتعلَّقُ بالعَوْراتِ، فقَولُه: ﴿لَمۡ يَظۡهَرُواْ﴾ أي: لم يطَّلِعوا بحيث لا يَدرونَ ماذا يُصنَعُ بالعَوْراتِ، ولا هي لهم على بالٍ؛ فهؤلاء الأطفالُ يجوزُ أن تُبدَى لهم الزِّينةُ، هذا المرادُ، ليس المرادُ الاطِّلاعَ بالعَينِ؛ لأنَّ الاطِّلاعَ بالعَينِ هذا يكونُ في الأطفالِ وغَيرِهم، لكِنِ المرادُ أنَّهم لا يَدرونَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٨٢).

ومِمَّن اختار أنَّ المرادَ عدمُ الشهوةِ: السمرقنديُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٢).

وممَّن جمع بين المعنيَينِ السَّابِقَينِ، فقال: ليس لهم عِلمٌ بذلك، ولا وُجِدت فيهم الشَّهوةُ بعدُ: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

وقيل: المعنى: لم يَطَّلِعوا على عوراتِ النِّساءِ ويَكْشِفوا عنها لِلجِماعِ. ومِمَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، وابن عطية، والقرطبي، والخازن، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٨٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٢).

وقيل: المعنى: لم يَبلغوا أن يُطيقُوا النِّساءَ. وممَّن اختاره: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والنحاس، والهروي، والسمعاني. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٥٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٥٢٦)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١٢١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢٣).

قال الشنقيطي: (العورةُ ما يسوؤُك أن يُطَّلَعَ عليه ... والمرادُ هنا ما تسترُه المرأةُ مِن المحاسنِ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٠٦).

وقال القرطبي: (أجْمَع المسلمونَ على أنَّ السَّوأتينِ عَوْرَةٌ مِن الرَّجلِ والمرأةِ، وأنَّ المرأةَ كُلَّها عورَةٌ، إلَّا وَجْهَها ويَدَيْها؛ فإنَّهم اخْتَلفوا فيهما). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩).

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾.

أي: ولا تَضرِبِ النِّساءُ بأرجُلِهنَّ الأرضَ، أو بإحدى الرِّجلَينِ على الأخرى؛ ليَظهَرَ صَوتُ ما خَفِيَ مِن حُلِيهنَّ، كأن تقرعَ الخَلخالَ بالخَلخالِ، فيسمَعَ النَّاسُ صَوتَ الخلاخِلِ المستورةِ مِن وراءِ الثِّيابِ[1].

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أمر تعالى بهذه الأوامِرِ الحَسَنةِ، ووصَّى بالوصايا المُستحسَنةِ، وكان لا بُدَّ مِن وقوعِ تَقصيرٍ من المؤمِنِ بذلك- أمرَ اللهُ تعالى بالتوبةِ، فقال[2]:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: وتُوبوا -أيُّها المؤمِنونَ والمؤمِناتُ- بإخلاصٍ للهِ، وارْجِعوا إلى طاعتِه سبحانه فيما أمرَكم به، ونهاكم عنه، ومِن ذلك غَضُّ البصَرِ، وحِفظُ الفَرْجِ، وتركُ النساءِ إظهارَ ما خفِي مِن زينتهنَّ لغيرِ مَنِ استثناهُ اللهُ؛ توبوا إلى الله؛ لتفوزوا في دُنياكم وآخِرتِكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧).
قال الزجاج: (كانت المرأةُ ربَّما اجتازت وفي رِجلِها الخَلخالُ، وربما كان فيها الخلاخِلُ، فإذا ضرَبت برِجلِها عُلِمَ أنَّها ذاتُ خَلخالٍ وزينةٍ، وهذا يحَرِّكُ مِن الشهوةِ، فنهيَ عنه، كما أُمِرنَ ألَّا يُبدينَ؛ لأنَّ استماعَ صوتِه بمنزلة إبدائِه). ((معاني القرآن)) (٤/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٤).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

وعن الأَغَرِّ المُزَنيِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا أيُّها النَّاسُ، توبوا إلى الله؛ فإنِّي أتوبُ في اليَومِ إليه مئةَ مَرَّةٍ))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((واللهِ، إنِّي لَأستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليومِ أكثَرَ مِن سبعينَ مَرَّةً))[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡ﴾ في هذا الأمرِ بالغَضِّ أدَبٌ شَرعيٌّ عظيمٌ في مُباعَدةِ النَّفْسِ عن التطَلُّعِ إلى ما عسى أن يُوقِعَها في الحرامِ، أو ما عسى أن يكَلِّفَها صبرًا شديدًا عليه[٣]. فليحذرِ العاقلُ إطلاقَ البصرِ؛ فإنَّ العينَ ترَى غيرَ المقدورِ عليه، على غيرِ ما هو عليه، وربَّما وقَع مِن ذلك العشقُ فيهلِك البدنُ والدِّينُ، فمَن ابتُلِي بشيءٍ منه فليتفكَّرْ في عيوبِ النِّساءِ[٤].

٢- قال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ وإنَّما بصَرُك نِعمةٌ مِنَ اللهِ عليك، فلا تَعْصِه بنِعَمِه، وعامِلْه بغَضِّه عن الحرامِ تَربَحْ، واحذَرْ أن تكونَ العقوبةُ سَلْبَ تلك النِّعمةِ[٥].

٣- قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((الفروع)) لابن مفلح (٨/ ١٨١).

(٥) يُنظر: ((ذم الهوى)) لابن الجوزي (ص: ١٤٣).

﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ في غَضِّ البصَرِ عِدَّةُ مَنافِعَ:

أحدها: أنَّه امتِثالٌ لأمرِ اللهِ، الذي هو غايةُ سَعادةِ العَبدِ في معاشِه ومَعادِه.

الثانية: أنَّه يمنَعُ مِن وصولِ أثَرِ السَّهمِ المسمومِ -الذي لعلَّ فيه هلاكَه- إلى قَلبِه.

الثالثة: أنَّه يورِثُ القلبَ أُنسًا بالله، وجمعيَّةً عليه.

الرابعة: أنَّه يقوِّي القلبَ ويُفرِحُه.

الخامسة: أنَّه يُكسِبُ القَلبَ نُورًا، كما أنَّ إطلاقَه يُلبِسُه ظُلمةً؛ ولهذا ذكَرَ الله سُبحانَه آيةَ النورِ عَقِيبَ الأمرِ بغَضِّ البصَرِ، فقال: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾ [النور: ٣٠] ثمَّ قال إثرَ ذلك: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، أي: مَثَلُ نورِه في قَلبِ عَبدِه المؤمِنِ الذي امتَثَل أوامِرَه، واجتَنَب نواهيَه.

السادسة: أنَّه يُورِثُ العبدَ فِراسةً صادِقةً يميِّزُ بها بين الحَقِّ والباطِلِ، والصَّادِقِ والكاذِبِ، فمَن ترَك لله شيئًا عوَّضَه اللهُ خيرًا منه، فإذا غَضَّ بصَرَه عن محارِمِ الله، عوَّضَه اللهُ بأن يُطلِقَ نورَ بصيرتِه؛ عِوَضًا عن حَبسِ بَصَرِه لله، ويفتَحَ عليه بابَ العِلمِ والإيمانِ، والمعرفةِ والفِراسةِ الصَّادقةِ المُصيبةِ التي إنَّما تُنالُ ببَصيرةٍ.

السابعة: أنَّه يورِثُ القَلبَ ثَباتًا وشجاعةً وقُوَّةً، فجمَع الله له بيْنَ سُلطانِ النُّصرةِ والحُجَّة، وسُلطانِ القُدرةِ والقُوَّة.

الثامنة: أنَّه يَسُدُّ على الشَّيطانِ مَدخَلَه مِن القلبِ؛ فإنَّه يدخُلُ مع النَّظرةِ، ويَنفُذُ معها إلى القَلبِ أسرَعَ مِن نفوذِ الهواءِ في المكانِ الخالي، فيُمثِّلُ له صورةَ المنظورِ إليه ويزَيِّنُها، ويجعَلُها صنَمًا يَعكُفُ عليه القَلبُ، ثمَّ يَعِدُه ويُمَنِّيه، ويوقِدُ

على القَلبِ نارَ الشَّهوةِ، ويُلقي عليها حطَبَ المعاصي التي لم يكُنْ يتوصَّلُ إليها بدونِ تلك الصُّورةِ؛ فيصيرُ القَلبُ في اللَّهبِ!

التاسعة: أنَّه يُفَرِّغُ القلبَ للفِكرةِ في مصالحِه، والاشتِغالِ بها.

العاشرة: أنَّ بيْنَ العَينِ والقَلبِ مَنفذًا وطريقًا يوجِبُ انتقالَ أحَدِهما عن الآخَرِ، وأن يَصلُحَ بصلاحِه، ويَفسُد بفسادِه، فإذا فسَد القَلبُ فسَدَ النَّظرُ، وإذا فسَدَ النظَرُ فسدَ القَلبُ، وكذلك في جانبِ الصَّلاحِ، فإذا خَرِبَت العَينُ وفَسَدت خَرِب القَلبُ وفَسَد، وصار كالمَزبَلةِ التي هي محَلُّ النَّجاساتِ والقاذوراتِ والأوساخِ، فلا يَصلُحُ لسُكنى معرفةِ اللهِ ومحبَّتِه، والإنابةِ إليه، والأُنسِ به، والسُّرورِ بقُربِه فيه، وإنَّما يسكُنُ فيه أضدادُ ذلك.

فهذه إشارةٌ إلى بَعضِ فوائِدِ غَضِّ البصَرِ، تُطلِعُك على ما وراءَها[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أطهَرُ وأطيَبُ، وأنمَى لأعمالِهم؛ فإنَّ مَن حَفِظَ فَرْجَه وبصَرَه، طهُرَ من الخُبثِ الذي يتدنَّسُ به أهلُ الفواحشِ، وزكَت أعمالُه بسبب ترْكِ المحرَّمِ الذي تَطمَحُ إليه النفْسُ، وتدعو إليه؛ فمَن ترك شيئًا لله عوَّضَه الله خيرًا منه، ومَن غَضَّ بصَرَه عن المحَرَّم أنار اللهُ بصيرتَه، ولأنَّ العبدَ إذا حَفِظ فَرجَه وبصرَه عن الحرامِ ومقَدِّماتِه معَ داعي الشهوةِ، كان حِفظُه لغيرِه أبلَغَ؛ ولهذا سمَّاه الله حِفظًا، فالشيءُ المحفوظُ إن لم يَجتهِدْ حافظُه في مراقبتِه وحِفظِه، وعملِ الأسبابِ الموجبةِ لحفظِه؛ لم ينحفِظْ، كذلك البصرُ والفرجُ: إن لم يجتهِدِ العبدُ في حفظِهما، أوقعاه في بلايا ومِحَنٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٨-١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ هذا يقتضي النَّهيَ عن كُلِّ ما مِن شأنِه أن يُذَكِّرَ الرجُلَ بلَهوِ النِّساءِ، ويُثيرَ منه إليهنَّ مِن كُلِّ ما يُرى أو يُسمَعُ، من زينةٍ أو حركةٍ؛ كالتثنِّي، والغناءِ، وكلامِ الغزَلِ، ومِن ذلك رقصُ النِّساءِ في مجالسِ الرِّجالِ، ومِن ذلك التلَطُّخُ بالطِّيبِ الذي يغلِبُ عَبيقُه[1]، وقد أومأ إلى عِلَّةِ ذلك قولُه تعالى: ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[2].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ فيه الحثُّ على الإخلاصِ بالتَّوبةِ لا لمقصَدٍ غيرِ وجهِه؛ مِن سلامةٍ مِن آفاتِ الدُّنيا، أو رياءٍ وسُمعةٍ، أو نحوِ ذلك مِن المقاصِدِ الفاسِدةِ[3].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ علَّق سُبحانَه وتعالى على التَّوبةِ الفلاحَ، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ فلا سبيلَ إلى الفلاحِ إلَّا بالتوبةِ، وهي الرجوعُ مِمَّا يَكرَهُه اللهُ، ظاهِرًا وباطنًا، إلى ما يُحِبُّه ظاهِرًا وباطِنًا، ودلَّ هذا أنَّ كُلَّ مؤمنٍ محتاجٌ إلى التوبةِ؛ لأنَّ الله خاطَبَ المؤمنينَ جميعًا[4].

٨- أُعقِبَتِ الأوامرُ والنَّواهي المُوجَّهةُ إلى المؤمنينَ والمُؤمناتِ بأمرِ جميعِهم بالتَّوبةِ إلى اللهِ؛ إيماءً إلى أنَّ فيما أُمِروا به ونُهُوا عنه دِفاعًا لداعٍ تَدْعو إليه الجِبِلَّةُ البشريَّةُ مِن الاستحسانِ والشَّهوةِ، فيَصدُرُ ذلك عن الإنسانِ عن غفلةٍ، ثمَّ يتغلغَلُ هو فيه، فأُمِروا بالتَّوبةِ؛ ليُحاسِبوا أنفُسَهم على ما يفلِتُ منهم

---

(١) عَبيقُه: أي: رائحتُه الطيِّبةُ الذكيَّةُ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٣، ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن ذلك اللَّممِ المُؤدِّي إلى ما هو أعظَمُ[١]، فأوامرُ اللهِ ونَواهيه في كلِّ بابٍ لا يَكادُ العبْدُ الضَّعيفُ يقدِرُ على مُراعاتِها وإنْ ضبَطَ نفْسَه واجتهَدَ، ولا يَخْلو مِن تَقصيرٍ يقَعُ منه؛ فلذلك وصَّى المؤمنينَ جميعًا بالتَّوبةِ والاستغفارِ، وبتأْميلِ الفلاحِ إذا تابوا واستَغْفروا[٢].

٩- قولُه تعالى ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ التَّوبةَ هي مِن أسبابِ الفَلاحِ[٣]، فقد خاطَبَ اللهُ بهذه الآيةُ أهلَ الإيمانِ وخِيارَ خَلقِه أن يَتوبوا إليه، بعد إيمانِهم وصَبرِهم، وهِجرتِهم وجِهادِهم، ثمَّ علَّق الفَلاحَ بالتَّوبةِ تعليقَ المُسَبَّبِ بسَبَبِه، وأتى بأداةِ لعلَّ المُشعِرةِ بالترجِّي؛ إيذانًا بأنَّكم إذا تُبتُم كنتُم على رجاءِ الفلاحِ، فلا يرجو الفَلاحَ إلَّا التَّائِبونَ. جعَلَنا اللهُ منهم[٤].

١٠- قال تعالى ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ في قَولِه: ﴿جَمِيعًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ التَّوبةَ واجِبةٌ على جَميعِ المكلَّفينَ[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- البصَرُ هو البابُ الأكبَرُ إلى القلبِ، وأعمَرُ طُرُقِ الحواسِّ إليه، وبحسَبِ ذلك كثُرَ السقوطُ مِن جهتِه، ووجَب التحذيرُ منه، وغضُّه واجبٌ عن جميعِ المحَرَّماتِ، وكُلِّ ما يُخشى الفتنةُ مِن أجْلِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٠).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٢٣). =

٢- الإصرارُ على النَّظرِ إلى الحرامِ يُصيِّرُه كبيرةً، وقد يكونُ الإصرارُ على ذلك أعظَمَ مِن قليلِ الفواحِشِ؛ فإنَّ دوامَ النظَرِ بالشَّهوةِ وما يتَّصِلُ به من العِشقِ والمعاشرةِ والمباشرةِ قد يكون أعظمَ بكثيرٍ مِن فَسادِ زِنًا لا إصرارَ عليه؛ ولهذا قال الفُقَهاءُ في الشَّاهِدِ العَدلِ: (ألَّا يأتيَ كبيرةً، ولا يُصِرَّ على صغيرةٍ). بل قد ينتهي النظَرُ بالرَّجُلِ إلى الشِّركِ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ ولهذا لا يكونُ عِشقُ الصُّوَرِ إلَّا مِن ضَعفِ محبَّةِ اللهِ، وضَعفِ الإيمانِ، واللهُ تعالى إنَّما ذكرَه في القرآنِ عن امرأةِ العزيزِ المُشرِكةِ، وعن قَومِ لُوطٍ المُشركين، والعاشِقُ المتَيَّمُ يَصيرُ عبدًا لِمَعشوقِه، منقادًا له، أسيرَ القَلبِ له[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ عبَّرَ بالوصفِ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةً إلى أنَّه لا يعِفُّ فيه إلَّا مَن رسَخ الإيمانُ في قلبِه؛ لخفاءِ الخيانةِ حينَئذٍ، بخلافِ ما سبَق في المنعِ مِن الدخولِ؛ حيثُ كان التعبيرُ بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ سؤالٌ: وهو ما عُرِفَ مِن أنَّ القاعدةَ في الفِعلِ المضارعِ المجزومِ في جَوابِ الطَّلبِ أن يكونَ جزْمُه بشَرطٍ مُقَدَّرٍ دلَّ عليه فِعْلُ الطَّلبِ، وقولُه: ﴿يَغُضُّوا۟﴾ مِن هذا القَبيلِ، فالمعنى: «إنْ تَقُلْ: غُضُّوا، يَغُضُّوا»، ويُشْكِلُ على هذا أنَّه رَبَطَ الشَّرطَ بالجزاءِ،

= قال ابنُ القطَّان: (كلُّ ما قُلنا: إنَّه لا يجوزُ أن يَنظُرَ إليه الرجُلُ أو غيرُه؛ مِن عَورةٍ أو شخصٍ، فإنَّه لا يجوُز أن يَنظُرَ إلى المُنطَبِعِ منه في مرآةٍ أو ماءٍ أو جِسمٍ صَقيلٍ؛ لأنَّه في الحَقيقةِ قد نظرَ إلى ذلك الشَّيءِ بعَينِه). ((إحكام النظر)) (ص: ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٥/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٣، ٢٥٤).

والرَّبطُ يقتضي عدَمَ التخَلُّفِ بمجَرَّدِ القَولِ، مع أنَّ المشاهَدَ تَخَلُّفُ الغَضِّ مِن كثيرٍ مِن النَّاسِ، فكيف يَصحُّ الرَّبطُ مع هذا؟

الجوابُ: ما أشارتْ إليه الآيةُ، وهو العَنْونةُ بالمؤمنينَ في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ فإنَّ الإيمانَ إذا أُطلِقَ فالمرادُ به الإيمانُ الكامِلُ، أي: «قُلْ للمُؤمِنينَ -الذين كَمُلَ إيمانُهم- هذا القَولَ، يَستجيبوا»، ولا يَرِدُ على هذا أنَّ غيرَ الكاملِ الإيمانِ يَدخُلُ في هذا؛ لأنَّ اللهَ تعالى كَثيرًا ما يَخُصُّ المنتَفِعَ مع أنَّه يعني غيرَه معه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، مع أنَّ الذين يُنذَرون ويُذَكَّرون هم جميعُ النَّاسِ[(١)].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف دخَلَت (مِن) في غَضِّ البصَرِ دونَ حِفظِ الفَرجِ؟

الجوابُ من وجوهٍ:

الوجه الأول: أنه لَمَّا كان تحريمُ النظرِ تحريمَ الوسائلِ -فيُباحُ للمصلحةِ الراجحةِ؛ ويَحْرُمُ إذا خِيفَ منه الفسادُ؛ ولم يُعارِضْه مصلحةٌ أرجحُ مِن تلك المفسدةِ- لم يأمُرْ سُبحانَه بِغَضِّهِ مطلقًا؛ بل أمَر بالغَضِّ منه، وأمَّا حِفْظُ الفَرْجِ فواجبٌ بكل حالٍ -لا يُباحُ إلَّا بِحَقِّهِ-؛ فلذلك عَمَّ الأمرَ بحِفْظِه[(٢)].

الوجه الثاني: أنَّه لَمَّا كان الغَضُّ التامُّ لا يمكِنُ، جيءَ في الآيةِ بحَرفِ (مِن) الذي هو للتَّبعيضِ إيماءً إلى ذلك؛ إذ مِن المفهومِ أنَّ المأمورَ بالغَضِّ فيه هو ما

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٩٢).

لا يَليقُ تَحديقُ النظَرِ إليه، وذلك يتذكَّرُه المسلِمُ مِن استحضارِه أحكامَ الحَلالِ والحرامِ في هذا الشَّأنِ، فيَعلَمُ أنَّ غضَّ البصَرِ مراتِبُ: منه واجِبٌ، ومنه دونَ ذلك، فيشمَلُ غَضَّ البصَرِ عما اعتاد النَّاسُ كراهيةَ التحَقُّقِ فيه، كالنظَرِ إلى خبايا المنازِلِ، بخلافِ ما ليس كذلك[١].

الوجه الثالث: أن فائدةَ ذِكْرِ (مِنْ) التَّبعيضيَّةِ في غضِّ البصرِ دونَ حِفْظِ الفرْجِ: الدَّلالةُ على أنَّ حُكْمَ النَّظرِ أخفُّ مِن حُكْمِ الفرْجِ؛ إذْ يَحِلُّ النَّظرُ إلى بعضِ أعضاءِ المحارمِ، ولا يَحِلُّ شَيءٌ مِن فُروجِهنَّ[٢].

الوجه الرابع: أنه لمَّا كان المُسْتثنى مِن حفظِ الفرجِ كالشَّاذِّ النَّادرِ -بخلافِ الغضِّ- أطلَقَه، وقيَّدَ الغضَّ بحرْفِ التَّبعيضِ[٣].

الوجه الخامس: أنَّ قولَه ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ أي: يَنقُصوا مِن نظَرِهم، فالبصَرُ إذا لم يُمكَّنْ مَن عَمَلِه فهو مغضوضٌ ممنوعٌ عنه، وعلى هذا (مِن) ليست بزائدةٍ، ولا هي للتَّبعيضِ، بل هي من صِلةِ الغَضِّ، يقال: غَضَضتُ مِن فلانٍ: إذا نقَصْتَ مِن قَدْرِه[٤].

٦- سَترُ العورةِ عن أعيُنِ النَّاظرين بما لا يصِفُ البشَرةَ واجِبٌ في الجملةِ، في الصَّلاةِ وخارجَ الصلاةِ؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾، وحِفظُ الفَرجِ يعُمُّ حِفظَه مِن مَسِّ مَن لا يحِلُّ له مسُّه بجِماعٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٦٠، ٣٦١).

وغيرِ جماعٍ، ومِن النظَرِ إليه[١].

٧- قال الله تعالى: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بدأ سبحانَه بالغَضِّ في الموضِعَينِ قَبلَ حِفظِ الفَرجِ، لأنَّ النَّظَرَ وَسيلةٌ إلى عدَمِ حِفظِ الفَرجِ، والوسيلةُ مُقَدَّمةٌ على المتوَسَّلِ إليه[٢]. فعدمُ غَضِّ البصرِ سببٌ لعدمِ حِفْظِ الفَرجِ، والإنسانُ إذا أطلقَ بصرَه تَعَلَّقَ قلبُه بالنِّساءِ، ثم لا يزالُ به النظرُ حتى يدنوَ مِن المرأةِ ويُكَلِّمَها ويخاطِبَها، ثمَّ يَعِدَها، ثمَّ تحصُلَ الفاحشةُ[٣]؛ فغَضُّ البصرِ لَمَّا كان أصلًا لحِفْظِ الفَرْجِ بدأ بذِكْرِه[٤].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ المرأةَ يحرمُ عليها النَّظرُ إلى الرَّجلِ كحُرمةِ نظرِه إليها[٥].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ فيه أنَّ المرأةَ يجِبُ عليها سَترُ عورتِها[٦].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ كَرَّرَ تعالى النهْيَ عن إبداءِ الزِّينةِ؛ نظرًا لتنوُّعِ الاستِثناءِ، فالنَّهيُ

---

(١) يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الصلاة)) لابن تيميَّة (ص: ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٩٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩١).

وتقدَّم الخلافُ في المسألة إذا لم يكُنِ النظرُ بشَهوةٍ أو مع خَوفِ الفِتنةِ (ص: ٢٠١) وما بعدها.

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٢).

الأوَّلُ استثنى منه بعضَ الزِّينةِ التي يجوزُ للمَنظورِ أنْ يُبديَها، والأمرُ الثاني استثنَى منه بعضَ الأشخاصِ الذين يجوزُ لهم النظَرُ[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ فيه إباحةُ النَّظَرِ للمَحارمِ[٢].

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ...﴾ فمَنِ اتَّصَف بذلك دخَل في هذه الآيةِ، ودلَّت الآيةُ على أنَّ الأعمالَ بالنيَّاتِ، ويؤخَذُ مِن مَفهومِ مُخالفتِها أنَّ مَن ذَكَرَ اللهُ مِن المحارمِ إذا حَدَثَ مِن بعضِهم النظَرُ إلى مَن حُرِّمَتْ عليه بشَهوةٍ؛ أنَّه لا يجوزُ له أنْ يَنظُرَ إليها، وكذا المرأةُ إذا بَلَغَ فيها الفَسادُ إلى أنْ تتعاطى السِّحاقَ لو نظرتْ إلى امرأةٍ أخرى بشَهوةٍ؛ فلا يجوزُ لها النظَرُ إليها[٣].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ كأنَّه اختير لفظُ (الضَّربِ)؛ إشارةً إلى قُوَّةِ القصدِ للسَّترِ، وإشارةً إلى العفوِ عمَّا قد يبدو عند تحَرُّكِ الخمارِ عند مزاولةِ شَيءٍ مِن العملِ[٤].

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، وقال سُبحانه: ﴿وَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٠١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٦٠).

يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فنهى الله تعالى في هاتَينِ الآيتَينِ عمَّا يُوجِبُ العِلمَ بالزِّينةِ الخَفِيَّةِ بالسَّمعِ أو غيرِه[١].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ فيه دليلٌ على وجوبِ سَترِ الصَّدرِ والنَّحرِ والعُنُقِ، وأنَّ ذلك منها عورةٌ[٢]، لا يجوزُ للأجنبيِّ النَّظرُ إلى ذلك منها[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ دليلٌ على أنَّ المرأةَ إذا مَلَكَت زوجَها حَرُمت عليه، وانفسخَ نكاحُها[٤]؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ مِلْكَ يمينِ المرأةِ في عِدَادِ محارِمِها، والمَحْرَمُ لا يَصلُحُ أنْ يكونَ زوجًا بحالٍ[٥].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ دَلالةٌ على أنَّه إذا عُرِفَ مِن الطِّفلِ أنَّه ينظُرُ إلى المرأةِ نَظَرَ شَهوةٍ -ولو لم يكن له إلَّا عشرُ سنواتٍ- فإنَّه يجبُ عليها أنْ تحتَجِبَ عنه؛ لأنَّ نظَرَ الطِّفلِ للمرأةِ ليس مقيَّدًا بالبلوغِ، بل هو مقيَّدٌ بما إذا عُرِف من الطِّفلِ أنَّه ينظُرُ إلى المرأةِ نظَرَ شَهوةٍ[٦]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

١٨- لم يَذكُرِ اللهُ الأعمامَ والأخوالَ فِي عِدادِ المُستثنَياتِ؛ وذلك لعدَّةِ أوجُهٍ:

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٥/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٢). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ١٧٤).

(٤) حكى الإجماعَ على ذلك: ابنُ المنذر، وابنُ حزم، وابنُ قدامة. يُنظر: ((الإقناع)) لابن المنذر (١/ ٣١٠)، ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٦٩)، ((المغني)) لابن قدامة (٧/ ١٤٨).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٣).

(٦) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٤٣٣). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

الأوَّلُ: أنَّ سُكوتَ الآيةِ عن العَمِّ والخالِ ليس لمخالفةِ حُكمِهما حُكمَ بقيَّةِ المحارِمِ، ولكِنَّه اقتِصارٌ على الذين تكثُرُ مزاولتُهم بيتَ المرأةِ؛ فالتَّعدادُ جرَى على الغالِبِ[(١)].

الثَّاني: أنَّه لم يذكُرِ العَمَّ والخالَ؛ لأنَّهما يجريانِ مجرى الوالِدَينِ، وقد جاء تسميةُ العَمِّ أبًا في قَولِه تعالى: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾[(٢)] [البقرة: ١٣٣].

الثَّالِثُ: أنَّه لم يذكُرْهما لِفَهمِهما مِن بني الإخوانِ وبني الأخَواتِ[(٣)]؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ بني الأخِ للعمَّاتِ محارِمُ، عَلِمَ أنَّ بناتِ الأخِ للأعمامِ محارِمُ، وكذلك الحالُ في أمرِ الخالِ[(٤)]، فإذا لم يحتجِبْنَ عمَّن هنَّ عمَّاتُه ولا خالاتُه مِن أبناءِ الإخوةِ والأخَواتِ، مع رفعتِهنَّ عليهم، فعدمُ احتجابهنَّ عن عَمِّهنَّ وخالِهنَّ مِن بابِ أَولَى[(٥)].

الرَّابعُ: أنَّه تَركَ ذِكرَهما كما ترَك ذِكْرَ مَحرَمِ الرَّضاعِ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

قال الشنقيطي: (وقال بعضُهم: إنَّ في الآيةِ ما يُشيرُ إليه، فلو سُمِّيَ لكان فيه شِبهُ تَكرارٍ؛ فقد ذَكَر أنَّ ابنَ أخي المرأةِ وابنَ أُختِها مِن محارِمِها، وهي عَمَّةُ أحدِهما وخالةُ الآخَرِ، فيُؤخَذُ منه أنَّ العَمَّ والخالَ مَحْرَمانِ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٠١).

(٦) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨).

وقيل أيضًا: لأنَّ الأعمامَ ربَّما يذكُرونَ بناتِ الأخِ عند أبنائِهم، وهم غيرُ محارِمَ، وكذلك الحالُ في الخالِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٠).

=

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ نبَّه به على أنَّ الذي لأجْلِه نُهيَ عنه: أنْ يُعلَمَ زينتُهنَّ مِن الحَلْيِ وغيرِه، فلمَّا نهَى عن استماعِ الصَّوتِ الدَّالِّ على وجودِ الزِّينةِ، فلَأنْ يدُلَّ على المنعِ مِن إظهارِ الزينةِ أَولى[1].

٢٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فيه أنَّ المرأةَ مَنهيَّةٌ عن رَفعِ صَوتِها بالكلامِ، بحيث يَسمَعُ ذلك الأجانِبُ؛ إذ كان صوتُها أقرَبَ إلى الفتنةِ مِن صوتِ خَلخالِها؛ ولذلك كَرِهوا أذانَ النِّساءِ؛ لأنَّه يُحتاجُ فيه إلى رفعِ الصَّوتِ، والمرأةُ مَنهيَّةٌ عن ذلك[2].

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ تَغطيةَ المرأةِ وَجْهَها واجِبٌ؛ لأنَّه إذا كانت المرأةُ مَنهيَّةً عن الضَّربِ بالأرجُلِ خَوفًا مِنِ افتِتانِ الرَّجُلِ بما يَسمَعُ مِن صَوتِ خَلخالِها ونَحوِه، فكيف

= قال ابنُ عثيمين بعد أن ذكَرَ هذا الوَجْهَ: (فلمَّا كان يُخشى أنَّ العَمَّ والخالَ يَصِفُ [أحَدُهما] المرأةَ لابنِه، لم يُذكَرا؛ للتحَرُّزِ لا لمخالفةِ الحُكمِ، وهذا التَّعليلُ له بعضُ الوجهِ، والله أعلمُ بما أراد... ولا شَكَّ أنَّ قوَّةَ المَحْرَميَّةِ في العَمِّ والخالِ أضعَفُ مِن قوَّتِها فيمَن عداهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥١).

قال الشوكاني: (وقال الزَّجَّاجُ: العَمُّ والخالُ ربَّما يَصِفانِ المرأةَ لولَدَيهما؛ فإنَّ المرأةَ تحِلُّ لابنِ العَمِّ وابنِ الخالِ، فكُرِه لهما الرؤيةُ، وهذا ضعيفٌ جِدًّا؛ فإنَّ تجويزَ وَصفِ المرأةِ لِمن تحِلُّ له ممكِنٌ مِن غيرِهما ممَّن يجوزُ له النظَرُ إليها، لا سيَّما أبناءُ الإخوةِ وأبناءُ الأخواتِ، واللازِمُ باطِلٌ فالملزومُ مِثلُه، وهكذا يستلزِمُ ألَّا يجوزَ للنِّساءِ الأجنبيَّاتِ أن ينظُرْنَ إليها؛ لأنَّهنَّ يَصِفْنها، واللازِمُ باطِلٌ فالملزومُ مِثلُه، وهكذا لا وَجهَ لِما قاله الشعبي وعِكرمةُ مِن أنَّه يُكرهُ للمرأةِ أن تضعَ خِمارَها عند عَمِّها أو خالِها. والأَولى أن يقالَ: إنَّه سبحانه اقتصَرَ هاهنا على بعضِ ما ذكَرَه مِن المحارِمِ في سورةِ النورِ؛ اكتفاءً بما تقدَّم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بكَشفِ الوَجهِ؟! فأيُّما أعظَمُ فِتنةً: أن يَسمَعَ الرَّجُلُ خَلخالًا بقَدَمِ امرأةٍ لا يدري ما هي وما جمالُها، أو أن يَنظُرَ إلى وَجهِ سافِرٍ جَميلٍ مُمتَلِئٍ شَبابًا ونَضارةً وحُسنًا وجَمالًا وتَجميلًا بما يجلِبُ الفِتنةَ، ويدعو إلى النَّظَرِ[١]؟!

٢٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ يُؤخَذُ منه قاعدةُ سَدِّ الوسائِلِ، وأنَّ الأمرَ إذا كان مُباحًا، ولكِنَّه يُفضي إلى محَرَّمٍ، أو يُخافُ مِن وقوعِه؛ فإنَّه يُمنَعُ منه؛ فالضَّربُ بالرِّجلِ في الأرضِ الأصلُ أنَّه مباحٌ، ولكِنْ لَمَّا كان وسيلةً لعِلمِ الزِّينةِ، مُنِع منه[٢]. فالآيةُ فيها دليلٌ على أنَّ المرأةَ منهيَّةٌ عن إبرازِ كلِّ ما دعا إلى الشهوةِ، وإنْ كان مُباحًا لُبسُه لها[٣].

٢٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ قَولُه: ﴿مَا يُخْفِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ اللِّباسَ سَتَرَ هذه الخَلاخيلَ[٤]. والآيةُ نَصٌّ على أنَّ الرِّجلَينِ والسَّاقَينِ مِمَّا يُخفى ولا يَحِلُّ إبداؤُه[٥]، وإلَّا لاستطاعَت إحداهُنَّ أن تُبدِيَ ما تُخفِي مِنَ الزِّينةِ «وهي الخلاخيلُ»، ولاستغنَت بذلك عن الضَّربِ بالرِّجْلِ[٦].

٢٤- كانت المرأةُ في الجاهليَّةِ إذا كانت تمشي في الطريقِ وفي رِجلِها خَلخالٌ صامِتٌ -لا يُسمَعُ صَوتُه- ضَرَبت برِجلِها الأرضَ، فيَعلَمُ الرِّجالُ طَنينَه، فنهى اللهُ المؤمِناتِ عن مِثلِ ذلك. وكذلك إذا كان شيءٌ مِن زينتِها

---

(١) يُنظر: ((رسالة الحجاب)) لابن عثيمين (ص: ٩، ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٧٦).

(٥) يُنظر: ((المحلى بالآثار)) لابن حزم (٢/ ٢٤٧).

(٦) يُنظر: ((جلباب المرأة المسلمة)) للألباني (ص: ٨٠).

مستورًا، فتحَرَّكت بحركةٍ لِتُظهِرَ ما هو خفيٌّ، دخَل في هذا النَّهيِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[١]، ومِن ذلك الكَعبُ العالي الذي تَلبَسُه بعضُ النِّساءِ فيُسمَعُ له صوتٌ إذا مَشَينَ، يلفتُ أنظارَ الرِّجالِ.

٢٥- يُؤخذُ مِن مَفهومِ المُوافَقةِ[٢] في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أنَّ حُكْمَ الطِّيبِ حُكمُ الحَلْيِ؛ الحَلْيُ يُحَرِّكُ الشَّهوةَ بالسَّماعِ، والطِّيبُ يُحَرِّكُ الشَّهوةَ بالشَّمِّ، وقد نصَّتِ السُّنَّةُ على هذا المفهومِ[٣]، فنُهِيت المرأةُ عن التعطُّرِ والتطيُّبِ عندَ خروجِها من بيتِها لِيشتَمَّ الرِّجالُ طِيبَها[٤].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ بَيانٌ لعلَّةِ النَّهيِ عن الضَّربِ بالأرجُلِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ الخَلخالَ ونحوَه مِن الحُليِّ هو مِن الزِّينةِ الخفيَّةِ[٥].

٢٧- ليس في كِتابِ اللهِ آيةٌ أكثرَ ضَمائرَ مِن هذه؛ جمَعَتْ خمسةً وعشرينَ ضميرًا للمُؤمناتِ مِن مَخفوضٍ ومَرفوعٍ، وسُمِّيَت لذلك: آيةَ الضَّمائرِ[٦].

٢٨- في قولِه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فائدةٌ جليلةٌ، وهي أنَّ في أمرِه سبحانَه لجميعِ المؤمنين بالتَّوبةِ -في هذا السياقِ- تنبيهًا على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩).

(٢) مَفهومُ الموافقةِ: هو أن يكونَ المَسكوتُ عنه مُوافِقًا في الحكمِ للمَنطوقِ بِه. يُنظر: ((كشف الأسرار شرح أصول البزدوي)) لعلاء الدين البخاري (٢/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩).

ويُنظر ما أخرجه مسلم (٤٤٣) من حديث زينبَ، امرأةِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما.

وما أخرجه أبو داود (٤١٧٣) والنسائي (٥١٢٦) من حديث أبي موسى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٠٧).

(٦) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٤).

أنَّه لا يخلو مؤمِنٌ مِن بعضِ هذه الذُّنوبِ التي هي: تَركُ غَضِّ البصرِ وحفظِ الفرجِ، وتَركُ إبداءِ الزينةِ وما يتبَعُ ذلك، فمُستقِلٌّ ومُستكثِرٌ[١]. وفيه دليلٌ أنَّ الذَّنْبَ لا يُخرِجُ العبدَ مِن الإيمانِ؛ لأنَّه أمَرَ بالتوبةِ، ولم يَفصِلْ بينَ الكبائِرِ وغيرِها، فقال بعدما أمر بالتوبةِ: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ سَمَّاهم مؤمنينَ بعدَ الذَّنْبِ[٢].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ مَن لم يَتُبْ فهو ناقِصُ الإيمانِ؛ لأنَّ التوبةَ مِن مُقتَضياتِ الإيمانِ، وعلى حسَبِ معصيتِه يكونُ نَقصُ إيمانِه[٣].

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ حيثُ جَعَلَ اللهُ التوبةَ سببًا للفلاحِ، ففيه رَدٌّ على مَن أنكروا الأسبابَ، وقالوا: إنَّ الأسبابَ مجرَّدُ علاماتٍ لا مُوجِباتٍ[٤]!

٣١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ التعبيرُ بالوصفِ في قولِه: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إشارةٌ إلى علُوِّ مقامِ التوبةِ، بأنَّه لا يقدِرُ على ملازمتِها إلَّا راسِخُ القدَمِ في الإيمانِ، عارفٌ بأنَّه -وإن بالَغَ في الاجتهادِ- واقِعٌ في النُّقصانِ، وهذا الأمرُ للوجوبِ، وإذا كان للرَّاسخينَ في الإيمانِ، فمَن دُونَه مِن بابِ الأَولى[٥].

٣٢- في قولِه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ توجيهُ الخطابِ للذكورِ -مع أنه يشملُ النِّساءَ بلا شكٍّ- فيه إشارةٌ -واللهُ أعلمُ-

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٥/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٦٤).

إلى رعايةِ الرجُلِ للمرأةِ، وأنَّ المرأةَ لا تَستقيمُ إلَّا باستقامةِ الرجلِ، فمِن أسبابِ تفريطِ النساءِ عدمُ رعايةِ الرجالِ لهنَّ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾[1] [النساء: ٣٤].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ كَرَمُ اللهِ تعالى وفضلُه؛ نأخذُ الكرمَ والفضلَ مِن محبَّتِه للتَّوبةِ، يعني كَوْنَه يُحِبُّ أنْ يتوبَ الناسُ حتى لا يُعاقِبَهم يدُلُّ على كَرَمِه وفضْلِه، وأنَّ رحمتَه سبَقتْ غضبَه؛ بخلافِ مَن لا رحمةَ عندَه[2].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ شُروعٌ في بَيانِ أحكامٍ كُلِّيَّةٍ شاملةٍ للمُؤمنينَ كافَّةً، يَندرِجُ فيها حُكْمُ المُستأذنينَ عندَ دُخولِهم البيوتَ انْدراجًا أوليًّا. وتلْوينُ الخِطابِ وتَوجيهُه إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتفويضُ ما في حيِّزِه مِن الأوامرِ والنَّواهي إلى رأْيِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّها تكاليفُ مُتعلِّقةٌ بأُمورٍ جُزئيَّةٍ كثيرةِ الوُقوعِ، حَقيقةٌ بأنْ يكونَ الآمِرُ بها والمُتصدِّيَ لِتَدبيرِها حافظًا ومُهيمنًا عليهم. ومفعولُ الأمرِ أمْرٌ آخَرُ؛ قد حُذِفَ تَعويلًا على دَلالةِ جَوابِه عليه، أي: قُلْ لهم: غُضُّوا[3].

- وخَصَّ المؤمِنينَ معَ تحريمِه على غيرِهم، لكونِ قِطْعِ ذرائعِ الزِّنا الَّتي منها النَّظَرُ، هم أحَقُّ مِنْ غيرِهم بها، وأَولَى بذلك مِمَّنْ سِواهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦).

- قَولُه: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ اسمُ التَّفضيلِ ﴿أَزْكَىٰ﴾ مَسلوبُ المُفاضَلةِ، والمُرادُ تقويةُ تلك التَّزكيةِ؛ لأنَّ ذلك جُنَّةٌ مِن ارتكابِ ذُنوبٍ عظيمةٍ(١).

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ تذييلٌ؛ لأنَّه كِنايةٌ عن جزاءِ ما يتضمَّنُه الأمرُ مِن الغضِّ والحِفْظِ؛ لأنَّ المقصَدَ مِن الأمرِ الامتثالُ(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ عطْفٌ بالنَّهيِ عن إبداءِ مَواقعِ الزِّينَ مِن الجسَدِ على الأمرِ بإغضاءِ البصرِ تأْكيدًا(٣).

- قَولُه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ فيه ذِكْرُ الزِّينةِ دونَ مَواقعِها؛ للمُبالَغةِ في الأمرِ بالتَّصوُّنِ والتَّستُّرِ؛ لأنَّ هذه الزِّينةَ واقعةٌ على مواضعَ مِن الجسَدِ لا يحِلُّ النَّظرُ إليها لغيرِ هؤلاء؛ فنَهى عن إبداءِ الزِّينةِ نفْسِها؛ لِيُعلَمَ أنَّ النَّظرَ إذا لم يحِلَّ إليها لِمُلابسَتِها تلك المواقعِ -بدَليلِ أنَّ النَّظرَ إليها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦١).

غيرَ مُلابِسَةٍ لها لا مَقالَ في حِلِّه- كان النَّظرُ إلى المواقعِ أنفُسِها مُتمكِّنًا في الحظْرِ، ثابتَ القدمِ في الحُرمةِ، شاهِدًا على أنَّ النِّساءَ حقُّهنَّ أنْ يَحتطْنَ في سَتْرِها، ويتَّقينَ اللهَ في الكشْفِ عنها[١].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ لتأكيدِ اللُّصوقِ؛ مُبالَغةً في إحكامِ وضْعِ الخِمارِ على الجَيبِ؛ زِيادةً على المُبالَغةِ المُستفادةِ مِن فِعْلِ (يضْرِبْنَ)[٢].

- وقيل: ضُمِّنَ «يَضرِبنَ» معنى «يُلْقينَ»؛ فلذلك عُدِّيَ بـ «على»[٣].

- ولَمَّا كان أكثَرُ الزِّينةِ في الأعناقِ والأيدي والأرجُلِ، وكان دوامُ سَترِ الأعناقِ أيسَرَ وأمكَنَ؛ خَصَّها، فقال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، جمعُ جيبٍ: وهو خَرقُ الثَّوبِ الذي يُحيطُ بالعُنُقِ[٤].

- قَولُه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فيه إعادةُ لفْظِ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾؛ تأكيدًا للأوَّلِ، وهو قولُه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ المُتقدِّمُ، ولِيَبْنِيَ عليه الاستثناءَ في قولِه: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ...﴾ إلخ، الَّذي مُقْتضَى ظاهِرِه أنْ يُعطَفَ على ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾؛ لبُعْدِ ما بيْنَ الأوَّلِ والثَّاني، أي: ولا يبدينَ زينتَهنَّ غيرَ الظاهرةِ إلَّا لمَن ذُكِروا بعدَ حرفِ الاستثناءِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ...﴾ بدَأَ تعالى بالأزواجِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢، ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٨٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٩، ٢٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٨).

لأنَّهم المقصودونَ بالزينةِ، ولأنَّ كلَّ بدَنِ الزوجةِ والسُّرِّيَّةِ حلالٌ لهم[١].

- قَولُه: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ﴾ وضَعَ الواحدَ مَوضِعَ الجمْعِ، حيث لم يقُلْ: (أو الأطفالِ)؛ لأنَّه يُفِيدُ الجنْسَ؛ فلذلك أُجْرِي عليه الجمْعُ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ﴾[٢].

- قَولُه: ﴿لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ كِنايةٌ عن خُلوٍّ بالِهم مِن شَهوةِ النِّساءِ[٣].

- قَولُه: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ في النَّهيِ عن إبداءِ صَوتِ الحُليِّ بعدَ النَّهيِ عن إبداءِ عَينِها، مِن المُبالَغةِ في الزَّجرِ عن إبداءِ مَوضعِها ما لا يَخْفَى[٤].

- قَولُه: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فيه تلْوينٌ للخِطابِ، وصرْفٌ له عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الكلِّ بطريقِ التَّغليبِ؛ لإبرازِ كَمالِ العِنايةِ بما في حيِّزِه مِن أمْرِ التَّوبةِ، وأنَّها مِن مُعظَّماتِ المُهمَّاتِ الحقيقةِ بأنْ يكونَ سُبحانَه وتعالى هو الآمرَ بها؛ لِمَا أنَّه لا يكادُ يَخلو أحدٌ مِن المُكلَّفينَ عن نَوعِ تفريطٍ في إقامةِ مَواجبِ التَّكاليفِ كما يَنْبغي[٥]. وقيل: وقَعَ الْتفاتٌ مِن خطابِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧١).

إلى خِطابِ الأمَّةِ؛ لأنَّ هذا تَذكيرٌ بواجبِ التَّوبةِ المُقرَّرةِ مِن قبْلُ، وليس استئنافَ تَشريعٍ. ونبَّهَ بقولِه: ﴿جَمِيعًا﴾ على أنَّ المُخاطبينَ هم المُؤمِنون والمُؤمناتُ، وإنْ كان الخِطابُ ورَدَ بضميرِ التَّذكيرِ على التَّغليبِ، وأنْ يُؤمِّلوا الفلاحَ إنْ هم تابوا وأنابوا[١].

- والإضافةُ في قولِه: ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ إلى ضَميرِ المؤمناتِ إنْ حُمِلَت على ظاهرِ الإضافةِ، كانت دالَّةً على أنَّهنَّ النِّساءُ اللَّاتي لهنَّ بهنَّ مَزيدُ اختصاصٍ؛ فقيل: المُرادُ نِساءُ أُمَّتِهنَّ، أي: المؤمناتُ. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ: (أو النِّساءِ)، وإنَّما أضافَهنَّ إلى ضَميرِ النِّسوةِ؛ إتْباعًا لبقيَّةِ المعدودِ؛ ففي هذه الآيةِ خمْسةٌ وعِشرونَ ضَميرًا، فجاء هذا للإتْباعِ، أي: فتكونُ الإضافةُ لغيرِ داعٍ معنويٍّ، بلْ لداعٍ لفظيٍّ تَقْتضيه الفصاحةُ، مِثْلُ الضَّميرينِ المُضافِ إليهما[٢].

- وفي تَكريرِ الخِطابِ في قولِه: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيدٌ للإيجابِ، وإيذانٌ بأنَّ وصْفَ الإيمانِ مُوجِبٌ للامتثالِ حتْمًا[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧١).

الآيتان (٣٢-٣٣)

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡأَيَٰمَىٰ﴾: أي: الذين لا أزواجَ لهم مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، واحِدُهم أَيِّمٌ[١].

﴿وَإِمَآئِكُمۡ﴾: جمعُ أَمَةٍ، والأمَةُ: ضِدُّ الحُرَّةِ، وهي المرأةُ المَملوكةُ[٢].

﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾: أي: لِيطلُبِ العِفَّةَ عن الزنا، والعِفَّةُ: حصولُ حالةٍ للنَّفْسِ تمتَنِعُ بها عن غَلَبةِ الشَّهوةِ، وأصلُه: الكَفُّ عن القَبيحِ[٣].

﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: أي: المكاتَبةَ، وكتابةُ العبدِ: ابتياعُ نفْسِه مِن سَيِّدِه بما يؤدِّيهِ مِن كَسْبِه، فيَعْقِدُ معَه عقدًا على مالٍ بشرطِ أنَّه إذا أدَّى عَتَقَ، وأصلُه مِن الكتابِ، يُرادُ بذلك الشَّرطُ الَّذي يُكْتَبُ بيْنَهما، وأصلُ (كتب): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ٤٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٨، ١٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢٧)، =

﴿فَتَيَٰتِكُمۡ﴾: أي: إمائِكم، وأصلُ (فتي): يدُلُّ على طراوةٍ وجِدَّةٍ[١].

﴿ٱلۡبِغَآءِ﴾: أي: الزِّنا، يُقالُ: بَغَى الجرحُ: تجاوَز الحدَّ في فسادِه، وبَغَتِ المرأةُ بِغَاءً: إذا فجَرت؛ وذلك لتجاوزِها إلى ما ليس لها، وأصلُ (بغي) هنا: جنسٌ مِن الفسادِ[٢].

﴿تَحَصُّنٗا﴾: أي: تعَفُّفًا، وأصلُ (حصن): يدُلُّ على حِفظٍ وحياطةٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مرشدًا عبادَه إلى ما يُعِينُ على العفافِ: وزوِّجوا -أيُّها المؤمنونَ- مَن لا زوجَ له مِن الأحرارِ والحرائرِ، ومِن مماليكِكم الصَّالحينَ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، إن يكُنْ هؤلاء الذين تُنكِحونَهم فقراءَ، يُغْنِهِمُ اللهُ مِن واسِعِ رِزقِه، واللهُ واسِعُ الفَضلِ، جَوادٌ كريمٌ، عليمٌ بأحوالِ العِبادِ.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى بإعانةِ المماليكِ على ما يُحرِّرُهم مِن الرِّقِّ، فيقولُ: والذين يريدونَ أن يتحَرَّروا مِن رِقِّ العبوديَّةِ بمُكاتبتِكم، فكاتِبوهم على قَدرٍ مِن المالِ؛ ليَصيروا أحرارًا، إن عرَفتُم منهم قُدرةً على كسبِ المالِ والوفاءِ، وأعطوهم مِمَّا أعطاكم اللهُ مِن المالِ؛ ليَستعينوا به على الأداءِ. ولا تُجبِروا إماءَكم على الزِّنا؛

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

طلبًا للمالِ بطريقِ الفاحشةِ، إن أرَدْنَ التعفُّفَ عن مُقارفةِ الفاحشةِ، ومَن يُجبِرْهنَّ على الزِّنا، فإنَّ الله تعالى غفورٌ لهنَّ، رحيمٌ بهنَّ، والإثمُ على مَن أكرَههنَّ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ سُبحانَه بغَضِّ الأبصارِ، وحِفظِ الفُروجِ؛ أرشَدَ بعد ذلك إلى ما يَحِلُّ للعِبادِ مِن النِّكاحِ الذي يكونُ به قَضاءُ الشَّهوةِ، وسُكونُ دَواعي الزِّنا، ويَسهُلُ بَعدَه غَضُّ البَصَرِ عن المُحَرَّماتِ، وحِفظُ الفَرجِ عمَّا لا يَحِلُّ[(١)].

وأيضًا لَمَّا تقَدَّمت أوامِرُ ونواهٍ في غَضِّ البصَرِ وحِفظِ الفَرجِ وإخفاءِ الزِّينةِ وغيرِ ذلك، وكان الموجِبُ للطُّموحِ مِن الرجالِ إلى النِّساءِ، ومِن النِّساءِ إلى الرِّجالِ هو عدمَ التزوُّجِ غالِبًا؛ لأنَّ في تكاليفِ النِّكاحِ وما يجِبُ لكُلِّ واحدٍ مِن الزوجينِ ما يشغَلُ- أمَر تعالى بإنكاحِ الأيامَى، وهم الذين لا أزواجَ لهم مِن الصِّنفينِ؛ حتى يشتَغِلَ كُلٌّ منهما بما يلزَمُه، فلا يلتَفِتَ إلى غيرِه[(٢)]، فأُردِفت أوامرُ العفافِ بالإرشادِ إلى ما يُعينُ عليه، ويُعِفُّ نفوسَ المؤمنينَ والمؤمناتِ، ويَغُضُّ مِن أبصارِهم[(٣)].

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٥).

أي: وزوِّجُوا[١] -أيُّها المُسلِمونَ- كُلَّ مَن لا زوجَ له منكم مِن الرِّجالِ والنِّساءِ الأحرارِ؛ فإنَّ الزَّواجَ طَريقُ التعَفُّفِ[٢].

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾.

أي: وزوِّجُوا -أيُّها المالِكونَ للعبيدِ- كُلَّ مَن لا زوجَ له مِن مماليكِكم مِن الرِّجالِ والنِّساءِ الصَّالحينَ[٣].

---

(١) قال القرطبي: (الخطابُ للأولياءِ. وقيل: للأزواجِ. والصحيحُ الأوَّلُ؛ إذ لو أراد الأزواجَ لقال «وانْكِحوا» بغير همزٍ، وكانت الألفُ للوصلِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٢٨، ٥٢٩).
قال ابنُ تيميَّةَ: (هذه الآيةُ لم تتعرَّضْ للصفاتِ التي بها تحرُمُ المرأةُ مطلقًا أو مؤقَّتًا، وإنَّما أمر بإنكاحِ الأيَامى مِن حيثُ الجملةُ، وهو أمرٌ بإنكاحِهنَّ بالشروطِ التي بيَّنَها، وكما أنَّها لا تُنكَحُ في العِدَّة والإحرامِ، لا تُنكَحُ حتى تتوبَ [أي: مِن الزنا]). ((مجموع الفتاوى)) (٣٢/ ١١٥).
ويُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٨)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٧٩٩)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣١٧).
اختلف المفسِّرون في المرادِ بالصلاحِ المذكورِ هنا؛ فقيل: المرادُ به: الصلاحُ في الدِّين. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والزمخشري، والبيضاوي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٦).
وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ وَصفِ العَبيدِ والإماءِ بالصَّالحينَ أنَّ المرادَ اتِّصافُهم بالصَّلاحِ الدِّينيِّ، أي: الأتقياء. والمعنى: لا يَحمِلْكم تحقُّقُ صَلاحِهم على إهمالِ إنكاحِهم؛ لأنَّكم آمِنون مِن وقوعِهم في الزِّنا، بل عليكم أن تُزَوِّجوهم؛ رفقًا بهم، ودفعًا لِمَشقةِ العَنَتِ عنهم. فيُفيدُ أنَّهم إن لم يكونوا صالحينَ كان تزويجُهم آكَدَ أمرًا، وهذا من دَلالةِ الفَحوى؛ فيَشمَلُ غيرُ الصَّالحينَ غيرَ الأعِفَّاءِ والعفائِفِ مِن المماليكِ المُسلِمينَ، ويَشمَلُ المماليكَ غيرَ المُسلمينَ. وبهذا التفسيرِ تنقَشِعُ الحَيرةُ التي عَرَضت للمفَسِّرينَ في التَّقييدِ بهذا الوَصفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٦).
=

﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

أي: إنْ يكُنْ هؤلاء الذين تُنكِحونَهم -مِن أيامى رجالِكم ونسائِكم، وعبيدِكم وإمائِكم- أهلَ فاقةٍ وفَقرٍ، فإنَّ اللهَ سيُغنيهم مِن فَضلِه؛ فلا تمتَنِعوا عن تزويجِهم بسبَبِ فَقرِهم[1].

= وقيل: المرادُ الذين يَصلُحون للنكاحِ، وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ عطية، وابنُ الفرس، وابنُ جزي، وابنُ القيم. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٠)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٨)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٧٩٩).

قال ابنُ القيم: (المرادُ بـ «الصالحينَ»: مَن صلَحَ للنكاحِ، هذا أصحُّ التفسيرينِ، وذهبت طائفة إلى أنه الإيمانُ، والأوَّلُ أصَحُّ؛ فإنَّ الله سبحانه لم يأمُرْهم بإنكاحِ أهلِ الصلاحِ والدِّينِ خاصَّةً مِن عبيدِهم وإمائهم، كما لم يَخُصَّهم بوجوبِ الإنفاقِ عليهم، بل يجِبُ على السيِّدِ إعفافُ عبدِه وأمَتِه، كما يجبُ عليه الإنفاقُ عليه؛ فإنَّ ذلك مِن تمامِ مصالحِه وحقوقِه على سيِّدِه). ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٧٩٩).

وممَّن ذهَب إلى احتمالِ إرادةِ كِلا المعنيَينِ: السعديُّ، فقال: (﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ يحتملُ أنَّ المرادَ بالصالحينَ: صلاحُ الدِّينِ، وأنَّ الصالحَ مِن العبيدِ والإماءِ -وهو الذي لا يكونُ فاجرًا زانيًا- مأمورٌ سيِّدُه بإنكاحِه؛ جزاءً له على صلاحِه، وترغيبًا له فيه؛ ولأنَّ الفاسِدَ بالزِّنا منهيٌّ عن تزوجِه، فيكونُ مؤيِّدًا للمذكورِ في أوَّلِ السورةِ: أنَّ نكاحَ الزاني والزانيةِ مُحرَّمٌ حتى يَتوبَ، ويَكونُ التخصيصُ بالصلاحِ في العبيدِ والإماءِ دُونَ الأحرارِ؛ لكثرةِ وُجودِ ذلك في العبيدِ عادةً. ويحتملُ أنَّ المرادَ بالصالحينَ: الصالحونَ للتزوُّجِ، المحتاجون إليه مِن العبيدِ والإماءِ، يؤيِّدُ هذا المعنى أنَّ السيِّدَ غيرُ مأمورٍ بتزويجِ مملوكِه قبْلَ حاجتِه إلى الزواجِ، ولا يبعُدُ إرادةُ المعنيَينِ كِلَيْهِما، والله أعلَمُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧).

وممَّن قال بالمعنيَين: ابنُ عثيمينَ، حيث قال: (ينبغي أن يُفَسَّر قولُه: «الصالحين» بصلاحِ الدينِ، وصلاحِ الدنيا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٤)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٠).

قال القرطبي: (هذا وعْدٌ بالغنى للمتزوِّجينَ؛ طلبَ رضا الله، واعتصامًا مِن معاصيه). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٤١). =

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ثلاثةٌ حَقٌّ على اللهِ عَونُهم: المجاهِدُ في سبَيلِ اللهِ، والمُكاتَبُ[١] الَّذي يريدُ الأداءَ، والنَّاكِحُ الَّذي يُريدُ العَفافَ))[٢].

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ واسِعُ الفَضلِ والغِنى، عليمٌ بعبادِه وأحوالِهم ونيَّاتِهم، عليمٌ بمن يستَحِقُّ منهم الإغناءَ مِن فَضلِه[٣].

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

= وقال الشنقيطي: (الظاهرُ أن المتزوِّجَ الذي وعده الله بالغنى هو الذي يريدُ بتزويجِه الإعانةَ على طاعةِ الله بغَضِّ البصرِ، وحِفظِ الفَرجِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٣١).

(١) المُكاتَبُ: هو العَبدُ يُكاتِبُ على نَفْسِه بثَمَنِه، فإذا سعى وأدَّاه عَتَقَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٤٨)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٦٦).

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٥٥) واللفظ له، والنَّسائي (٣٢١٨)، وابن ماجه (٢٥١٨)، وأحمد (٧٤١٦). حسَّنه الترمذي، وقال الدارقطني -كما في ((البدر المنير)) لابن الملقِّن (٧/ ٤٣٢): اختُلِف في رفعه ووقفِه، ورفعه صحيح. وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٣/ ٥)، وابن الملقِّن في ((شرح صحيح البخاري)) (٢٤/ ٢٣٦)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيقِ ((مسند أحمد)) (١٣/ ١٤٩)، وجوَّد إسنادَه ابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٧٦٥)، وذكر أنَّه ورد بإسنادٍ صَحيحٍ بلَفظِ: (الغازي في سَبيلِ اللهِ) بَدَلَ (المُجاهِدُ). وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٦٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٧، ٢١٨).
قال البقاعي: (﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فهو بسَعةِ قُدرتِه يَسوقُ ما كتَبه للمرأةِ على يدِ الزوجِ، وبشمولِ علمِه يسبِّبُ أسبابَه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٦٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه تزويجَ الحرائرِ والإماءِ؛ ذكَرَ حالَ مَن يَعجِزُ عن ذلك[١].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى أمَرَ كُلَّ مَن تعلَّقَ به الأمرُ بالإنكاحِ بأن يُلازِموا العَفافَ في مُدَّةِ انتظارِهم تيسيرَ النِّكاحِ لهم بأنفُسِهم، أو بإذْنِ أوليائِهم ومَواليهم[٢].

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: ولْيلزَمِ الكفَّ والامتِناعَ عن الوقوعِ فيما حرَّمَ اللهُ مِنَ الفواحِشِ، الذين لا يَجِدونَ قُدرةً على النِّكاحِ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ الأحرارِ والعبيدِ، ولْيصبِروا على مشقَّةِ العُزوبةِ حتى ييسِّرَ اللهُ لهم مِن فَضلِه ما يتزوَّجونَ به[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٨).

قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ هذا الاستِعفافُ المأمورُ به في هذه الآيةِ الكريمةِ هو المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، وقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، ونحوِ ذلك مِنَ الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٣٢).

قال السعدي: (قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يَقدِرونَ نِكاحًا؛ إمَّا لفَقرِهم أو فقرِ أوليائِهم وأسيادِهم، أو امتناعِهم مِن تزويجِهم، وليس لهم مِن قدرةٍ على إجبارِهم على ذلك، وهذا التقديرُ أحسَنُ مِن تقديرِ مَن قدَّر: «لا يجدون مهرَ نكاحٍ» وجعلوا المضافَ إليه نائبًا مَنابَ المضافِ؛ فإنَّ في ذلك محذورينِ؛ أحدهما: الحذفُ في الكلامِ، والأصلُ عدمُ الحذف. والثاني: كونُ المعنى قاصرًا على مَن له حالانِ: حالةُ غنًى بمالِه، وحالةُ عدَمٍ، فيخرجُ العبيدُ والإماءُ ومَن إنكاحُه على وليِّه، كما ذكرنا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٠٧، ٢٠٨).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شَبابًا لا نجِدُ شيئًا، فقال لنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا معشَرَ الشَّبابِ، مَنِ استطاع الباءةَ[(١)] فلْيَتزَوَّجْ؛ فإنَّه أغَضُّ للبصَرِ، وأحصَنُ للفَرْجِ، ومَن لم يَستَطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ[(٢)]))[(٣)].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ومَن يَستعفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، ومَن يَستغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، ومَن يَتصبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وما أُعطِيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسَعَ مِنَ الصَّبرِ))[(٤)].

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾.

أي: والذين يَلتَمِسونَ المُكاتَبةَ منكم -أيُّها المالِكونَ للعَبيدِ[(٥)]- مِن مماليكِكم مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، فأجيبوهم إلى ما طَلَبوا ليتحَرَّروا مِن الرِّقِّ، إنْ عَلِمتُم فيهم

(١) الباءةَ: أي: الجِماعَ أو مُؤَنَ النِّكاحِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ١٧٣).

(٢) وِجاءٌ: أي: قاطِعٌ للشَّهوةِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ١١٩).

(٣) رواه البخاري (٥٠٦٦) واللفظ له، ومسلم (١٤٠٠).

(٤) رواه البخاري (١٤٦٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٣).

(٥) قال ابنُ الفرس: (والمخاطبونَ بإنكاحِهنَّ السادةُ، ولا خلافَ في هذا). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٣٧٥).

قُدرةً على كَسبِ المالِ، وأمانةً للوفاءِ بما التَزَموا لكم[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٩).

قال القرطبي: (معنى المكاتَبةِ في الشَّرعِ: هو أن يُكاتِبَ الرجُلُ عبْدَه على مالٍ يؤدِّيه مُنجَّمًا عليه [أي: على أقساط]، فإذا أدَّاه فهو حرٌّ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٤٤).

اختلف أهلُ العلمِ في الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾؛ هل هو للوُجوبِ، أو للاستِحبابِ؟ فالمذاهِبُ الفِقهيَّةُ الأربعةُ: الحَنَفيَّةُ، والمالِكيَّةُ، والشَّافِعيَّةُ، والحنابِلةُ- على أنَّه للاستِحبابِ، وهو قولُ عامَّةِ أهلِ العلمِ خِلافًا للظَّاهِريَّةِ وبعضِ السلفِ. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٤/ ١٣٤)، ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ٣٧٤)، ((البيان في مذهب الإمام الشافعي)) للعمراني (٨/ ٤١٢)، ((المغني)) لابن قدامة (١٠/ ٣٦٥).

قال ابنُ رشد: (قال أهلُ الظَّاهِرِ: هو واجِبٌ، واحتَجُّوا بظاهِرِ قَولِه تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ والأمرُ على الوُجوبِ، وأمَّا الجُمهورُ فإنَّهم لَمَّا رَأَوا أنَّ الأصلَ هو ألَّا يُجبَرَ أحَدٌ على عِتقِ مَملوكِه، حمَلوا هذه الآيةَ على النَّدبِ؛ لئَلَّا تكونَ مُعارِضةً لهذا الأصلِ، وأيضًا فإنَّه لم يكُنْ للعَبدِ أن يُحكَمَ له على سَيِّدِه بالبَيعِ له، وهو خروجُ رَقَبتِه عن مِلكِه بعِوَضٍ؛ فأحرى ألَّا يُحكَمَ له عليه بخُروجِه عن غَيرِ عِوَضٍ هو مالِكُه؛ وذلك أنَّ كَسْبَ العَبدِ هو للسَّيِّدِ). ((بداية المجتهد)) (٢/ ٣٧٤).

وقال ابنُ عثيمين في بيانِ دليلِ الجُمهورِ: (وحُجَّتُهم في ذلك أنَّ العبدَ مملوكٌ لك، ولا يجِبُ عليك إخراجُ مِلكِك إلَّا برضًا منك، فكما أنَّ الإنسانَ لا يُجبَرُ على بيعِ بَيتِه وعلى بَيعِ دابَّتِه، لا يُجبَرُ كذلك على بَيعِ عَبدِه، فإذا طَلَب منِّي المكاتَبةَ فأنا حُرٌّ؛ لأنَّه مالي؛ ولهذا سمَّاه الله تعالى مِلكًا، فلا يُجبَرُ على إخراجِ مِلكِه مِن مِلكِه؛ «لا يحِلُّ مالُ امرئٍ مُسلِمٍ إلَّا بطِيبِ نَفْسٍ منه»، وإذا كان كذلك، فإنَّ الأمرَ هنا للاستِحبابِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢١١).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٠).

وقال ابنُ حجر: (وقال أبو سعيدٍ الإصطخري: القرينةُ الصارفةُ للأمرِ في هذا عن الوجوبِ: الشرطُ في قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾؛ فإنَّه وكَل الاجتهادَ في ذلك إلى المولَى، ومقتضاه أنَّه إذا رأَى عدمَه لم يُجبَرْ عليه؛ فدلَّ على أنَّه غيرُ واجبٍ. وقال غيرُه: الكتابةُ عقدُ غررٍ، وكان الأصلُ أن لا تجوزَ، فلمَّا وقَع الإذنُ فيها كان أمرًا بعدَ منعٍ، والأمرُ بعدَ المنعِ للإباحةِ، ولا يَرِدُ على هذا كونُها مستحبةً؛ لأنَّ استحبابَها ثبَت بأدلةٍ أخرَى). ((فتح الباري)) (٥/ ١٨٧). =

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

= واختُلِف في معنى الخَيرِ في قَولِه: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾:

فقيل: ﴿خَيْرًا﴾ أي: مَالًا. وممَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، ونَسَبه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباس في رواية عنه، والسُّدِّيُّ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، وقَتادةُ، والحسنُ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ، وعطاءٌ، ومقاتلُ بنُ حيان، وطاووسٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٨٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٣٦).

وقيل: المرادُ بالخَيرِ: القُوَّةُ على الاحترافِ والاكتِسابِ، والقُدرةُ على أداءِ ما كُوتِبَ عليه، والوَفاءِ بما أوجَب على نفْسِه وألزَمَها. ومِمَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، والزجَّاج، ومكِّي، والواحديُّ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عُمرَ، وابنُ عبَّاسٍ في رواية عنه، ومالكُ بن أنس، وزيد، والثوري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٩٦).

وقيل: المرادُ بالخَيرِ: الأمانةُ، والقُدرةُ على الكَسبِ وأداءِ المالِ بالاحترافِ. وممَّن اختاره: الشافعيُّ، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٨/ ٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٩).

وممَّن قال بنحو هذا القولِ مِن السلفِ: الحسنُ في رواية عنه، ومجاهدٌ في رواية عنه، وطاووسٌ في رواية عنه، وأبو صالح، وإبراهيم، وعطاء، وعَمرُو بن دينار، وسفيان، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٩٦).

وقال البِقَاعي: (﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: تصَرُّفًا صالحًا في دينِهم ودُنياهم؛ لئَلَّا يَفسُدَ حالُهم بعدَ الاستِقلالِ بأنفُسِهم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٦٨).

وقال السعدي: (﴿خَيْرًا﴾ أي: قدرةً على التكَسُّبِ، وصلاحًا في دينِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

أي: وأعطُوا المكاتَبينَ مِن مالِ اللهِ الذي رزَقَكم[(١)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٢، ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣، ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

قيل: عَنَى به إيتاءَهم سَهْمَهم مِنَ الزَّكاةِ المفروضةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وزيدُ بنُ أسلمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٣).

قال النسفي: (﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أمرٌ للمُسلِمينَ على وَجهِ الوُجوبِ بإعانةِ المُكاتَبينَ، وإعطائِهم سَهْمَهم مِنَ الزَّكاةِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠]). ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٣).

وقيل: هذا أمرٌ للسَّادةِ بإعانتِهم في مالِ الكتابةِ؛ إمَّا بأن يُعطوهم شيئًا ممَّا في أيديهم، أو يحطُّوا عنهم شيئًا. وممَّن قال بذلك: الزجَّاجُ، والسمرقندي، ومكِّي، والواحدي، والقرطبي، والبيضاوي، وأبو حيان، والبقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ في رواية، وعِكرمةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٣).

قال ابنُ كثيرٍ: (قولُه: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ اختلَف المفسِّرون فيه؛ فقال قائلون: معناه: اطرَحوا لهم مِن الكتابةِ بعضَها، ثمَّ قال بعضُهم: مقدارُ الرُّبُعِ. وقيل: الثُّلُثُ. وقيل: النِّصْفُ. وقيل: جزءٌ من الكتابةِ مِن غيرِ حَدٍّ.

وقال آخَرونَ: بل المرادُ مِن قَولِه: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ هو النَّصيبُ الذي فَرَض الله لهم مِن أموالِ الزَّكواتِ... والقولُ الأوَّلُ أشهرُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣، ٥٤).

وممَّن جمع بيْن القولينِ السَّابقَينِ: القاسميُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨). =

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أرشَدَ اللهُ سُبحانَه المَواليَ إلى نِكاحِ الصَّالِحينَ مِنَ المماليكِ؛ نهَى المُسلِمينَ عمَّا كان يَفعَلُه أهلُ الجاهِليَّةِ مِن إكراهِ إمائِهم على الزِّنا(١).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن جابرٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ جاريةً لعبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ يقالُ لها: مُسَيكةُ، وأُخرى يُقالُ لها: أُميمةُ، فكان يُكرِهُهما على الزِّنا، فشكَتَا ذلك إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾.

أي: ولا تُكرِهوا إماءَكم على الزِّنا إنْ أرَدْنَ التعفُّفَ عنه(٣).

= قال السعدي: (يدخلُ في ذلك أمرُ سَيِّدِه الذي كاتَبه أن يعطيَه مِن كتابتِه، أو يُسقِطَ عنه منها، وأمرُ النَّاسِ بمعونتِهم؛ ولهذا جعَل الله للمُكاتَبينَ قِسطًا مِن الزَّكاةِ، ورغَّب في إعطائِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥).

(٢) رواه مسلم (٣٠٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

قال ابن كثير: (كان أهلُ الجاهلية إذا كان لأحدِهم أمَةٌ أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبةً يأخُذُها منها كلَّ وقتٍ! فلمَّا جاء الإسلامُ نهى اللهُ المسلمينَ عن ذلك... وقولُه: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ هذا خرجَ مَخرجَ الغالِبِ؛ فلا مفهومَ له). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤، ٥٦).

وقال الشوكاني: (وقيل: إنَّ هذا الشرطَ خرَج مخرجَ الغالبِ؛ لأنَّ الغالِبَ أنَّ الإكراهَ لا يكونُ إلَّا عندَ إرادةِ التحصُّنِ؛ فلا يلزمُ منه جوازُ الإكراهِ عندَ عدمِ إرادةِ التحَصُّنِ، وهذا الوجهُ أقوى =

﴿لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وذلك لِتَطلبوا بإكراهِ إمائِكم على الزِّنا مالًا مِن كَسبِهنَّ به[١].

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: ومَن يُكرِهْ إماءَه على الزِّنا، فإنَّ اللهَ مِن بعدِ إكراهِهنَّ غفورٌ لهنَّ، رحيمٌ بهنَّ، وإثمُهنَّ على مَن أكرهَهنَّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

= هذه الوجوهِ؛ فإنَّ الأمَةَ قد تكونُ غيرَ مريدةٍ للحلالِ ولا للحرامِ، كما فيمَن لا رغبةَ لها في النكاحِ كالصغيرةِ، فتوصَفُ بأنها مُكرَهةٌ على الزِّنا، مع عدمِ إرادتِها للتحصُّنِ، فلا يتِمُّ ما قيل مِن أنَّه لا يُتصَوَّرُ الإكراهُ إلَّا عندَ إرادةِ التحصُّنِ، إلَّا أن يُقالَ: إنَّ المرادَ بالتحصُّنِ هنا مجرَّدُ التعفُّفِ، وأنَّه لا يَصدُقُ على مَن كانت تريدُ الزواجَ أنَّها مريدةٌ للتحصُّنِ، وهو بعيدٌ، فقد قال الحَبرُ ابنُ عبَّاسٍ: إنَّ المرادَ بالتحصُّنِ: التعفُّفُ والتزوُّجُ، وتابَعه على ذلك غيرُه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥).

وقال النووي: (المقصودُ أنَّ الإكراهَ على الزِّنا حرامٌ، سواءٌ أرَدْنَ تحَصُّنًا أم لا، وصورةُ الإكراهِ مع أنَّها لا تُريدُ التحَصُّنَ أن تكونَ هي مريدةَ الزِّنا بإنسانٍ، فيُكرِهُها على الزِّنا بغَيرِه، وكلُّه حرامٌ). ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦).

قال البغوي: (﴿لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: لتَطلُبوا مِن أموالِ الدنيا، يريدُ: مِن كسبِهنَّ، وبيعِ أولادِهنَّ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٤).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مِن خراجِهنَّ ومُهورهنَّ وأولادِهنَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦).

قال الشنقيطي (﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهنَّ، وليس المرادُ أنَّه غَفورٌ رَحيمٌ للذين أكرَهوهنَّ؛ لأنَّ الغُفرانَ والرَّحمةَ يُناسِبانِ المقهورَ المُكْرَهَ، لا المُجرِمَ المُكرِهَ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٢٠).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ وضَعَ عن أمَّتي الخطأَ، والنِّسيانَ، وما استُكرِهوا عليه))[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- فائدةُ ربْطِه الغِنى بالنِّكاحِ في قولِه: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: أنَّه قد ركَزَ في الطِّباعِ السُّكونُ إلى الأسبابِ، والاعتمادُ عليها، والغَفلةُ عن المُسبِّبِ جلَّ وعلا، حتَّى غلَبَ الوهمُ على العقْلِ، فخيَّلَ أنَّ كثرةَ العيالِ سبَبٌ يُوجِبُ الفقرَ حتْمًا، وعدَمَها سببٌ يُوجِبُ تَوفيرَ المالِ جزْمًا، وإنْ كان واحدٌ مِن هذينِ السَّببينِ غيرَ مُؤثِّرٍ فيما ربطَهُ الوهمُ به؛ فأُرِيدَ قلْعُ هذا الخَيالِ المُتمكِّنِ مِن الطَّبعِ، بالايذانِ بأنَّ اللهَ تعالى قد يُوفِّرُ المالَ ويُنَمِّيه مع كثرةِ العيالِ الَّتي هي سببٌ في الأوهامِ لنَفادِ المالِ، وقد يُقدِّرُ الإملاقَ مع عدَمِه الَّذي هو سبَبٌ في الإكثارِ عندَ الأوهامِ، والواقِعُ يَشهَدُ بذلك بلا مِراءٍ؛ فدلَّ ذلك قطْعًا على أنَّ الأسبابَ الَّتي يَتوهَّمُها البشرُ مُرتبِطاتٍ بمُسبَّباتِها ارتباطًا لا ينفكُّ ليست على ما يَزْعُمونه، وإنَّما يُقدِّرُ الغِنى والفقرَ مُسبِّبُ الأسبابِ، غيرُ مَوقوفٍ تقديرُ ذاك إلَّا على مَشيئةٍ خاصَّةٍ، وحينَئذٍ لا يَنفِرُ العاقلُ المُتيقِّظُ مِن النِّكاحِ؛ لأنَّه استقَرَّ عنده أنْ لا أثَرَ له في الإقتارِ، وأنَّ اللهَ تعالى لا يمنَعُه ذلك مِن إغنائِه، ولا يُؤثِّرُ أيضًا الخُلوُّ عن

---

(١) أخرجه من طرق ابن ماجه (٢٠٤٥) واللفظ له، وابن حبان (٧٢١٩)، والحاكم (٢٨٠١) ذكر العقيلي في ((الضعفاء الكبير)) (٤/ ١٤٥) أن له إسنادًا جيدًا، وصحَّحه الحاكم على شرط الشيخين، وصحَّحه ابن حزم في ((المحلى)) (١٠/ ٢٠٥)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٠٤٥)، وحسنه النووي في ((المجموع)) (٢/ ٢٦٧)، وابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (١/ ٥١٠)، والحديث استنكره الإمام أحمد وأبو حاتم. يُنظر: ((العلل ومعرفة الرجال)) (١/ ٥٦١)، ((علل الحديث)) لابن أبي حاتم (٤/ ١١٦).
لكن قال ابنُ العربي: (والخبرُ، وإنْ لم يصحَّ سندُه، فإنَّ معناه صحيحٌ باتِّفاقِ العلماءِ). ((أحكام القرآن)) (٥/ ٢١٢).

النِّكاحِ لأجلِ التَّوفيرِ؛ لأنَّه قد استقرَّ أنْ لا أثَرَ له فيه، وأنَّ اللهَ تعالى لا يمنَعُه مانعٌ أنْ يَقتُرَ عليه، وأنَّ العبْدَ إنْ تَعاطى سببًا، فلا يكُنْ ناظرًا إليه، ولكنْ إلى مَشيئةِ اللهِ تعالى وتقدَّسَ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فيه استِحبابُ الصَّبرِ عن النكاحِ لِمن لا يقدِرُ على أُهبَتِه، والاستِعفافُ بأن يَكسِرَ شَهوتَه بالصَّومِ، كما بيَّنه الحديثُ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فيه حثٌّ على التزَوُّجِ، ووعدٌ للمُتزوِّجِ بالغِنَى بعدَ الفَقرِ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أخَذَ بعضُ العُلَماءِ مِن هذه الآيةِ أنَّ العَبدَ التقيَّ الصَّالحَ في دينِه كُفُؤٌ للحُرَّةِ، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾[٤] [البقرة: ٢٢١]. فمَن أباح نِكاحَ العبَدِ الحُرَّةَ استدَلَّ بعمومِ آيةِ سورةِ (النُّورِ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٣٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

والحديث المشار إليه أخرجه البخاري (١٩٠٥) واللفظ له، ومسلم (١٤٠٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنَّا مع النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: ((مَنِ استطاع الباءةَ فلْيَتزَوَّجْ؛ فإنَّه أغَضُّ للبصرِ، وأحصَنُ للفَرْجِ، ومَن لم يَستطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ أخذَ مِن الآيةِ بَعضُ العُلَماءِ أنَّ العبدَ إذا طلَبَ التَّزويجَ لِيَعِفَّ نفْسَه أنَّه ليس للسيِّدِ أن يمنَعَه، بل يجِبُ عليه أن يأذَنَ له بذلك[١]؛ للأمرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾[٢]. وأنَّه يُجبَرُ على إنكاحِ عبدِه وأمَتِه[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ حجَّةٌ واضحةٌ في أنَّه ليس للبِكْرِ ولا للثَّيِّبِ أنْ تتزوَّجَ بغيرِ أمرِ وَلِيِّها؛ إذْ لو كان لها ذلك ما أُمِرَ غيرُها بإنكاحِها[٤]! فالآيةُ فيها دليلٌ على اعتبارِ الوَليِّ؛ لأنَّ الخِطابَ له، وعدَمِ استقلالِ المرأةِ بالنِّكاحِ[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ استدَلَّ بعمومِه مَن أباح نكاحَ الإماءِ بلا شرطٍ[٦].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ دَلالةٌ على جوازِ قولِ القائلِ: «عبدي» أو «أَمَتي»[٧]، والنَّهْيُ الَّذي ورَد في الحديثِ عن

---

(١) قال ابنُ تيمية: (وإذا طَلَب النِّكاحَ فعلى السَّيِّدِ أنْ يُزَوِّجَه، لِقولِ اللَّهِ تعالَى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾). ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٤).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

وهو مَذهَبُ الجُمهورِ: المالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ؛ أنه لا يَصِحُّ النِّكاحُ بدونِ وليٍّ للمَرأةِ. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٢٢٠)،))روضة الطالبين)) للنووي (٧/ ٥٠)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٤٨).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

(٧) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ١٧٨).

قولِ الرجُلِ: «عبدي» و«أَمَتي»[١] للتَّنزيهِ، لا للتَّحريمِ. وقيل: المرادُ بالنَّهيِ: مَنِ استعمَله على جهةِ التعاظُمِ والارتفاعِ، لا للوصفِ والتعريفِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ دليلٌ على أنَّه ليس للعبدِ ولا للأَمَةِ أنْ يتزوَّجا بغير إذْنِ سيِّدِهما[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ فيه أمرُ الأولياءِ بإنكاحِ مَن تحتَ ولايتِهم مِن الأيامَى، وهم مَن لا أزواجَ لهم مِن رجالٍ ونساءٍ، ثيِّباتٍ وأبكارٍ، فيجبُ على القريبِ ووليِّ اليتيمِ أن يزوِّجَ مَن يحتاجُ للزَّواجِ ممن تجِبُ نفقتُه عليه، وإذا كانوا مأمورينَ بإنكاحِ مَن تحتَ أيديهم، كان أمرُهم بالنِّكاحِ بأنفُسِهم مِن بابِ أولى[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ دليلٌ واضحٌ على أنَّ العبيدَ والإماءَ يَملِكونَ، ولا يكونُ المِلْكُ مضافًا إليهم على المجازِ وحقيقتُه للسَّادةِ؛ إذْ لو كان كذلك ما استغنَوا بالإنكاحِ، ولكانوا فقراءَ قَبْلَه وبَعْدَه؛ لأنَّ مَن لا يملِكُ شيئًا لا يقعُ عليه اسمُ غِنًى[٥]!

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٧)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٣/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٥٠).

قال الرازي: (لكنِ المفسِّرونَ تَأَوَّلوه على الأحرارِ خاصَّةً؛ فكأنَّهم قالوا: هو راجعٌ إلى الأيامَى، أمَّا إذا فسَّرْنا الغنى بالعفافِ فالاستدلالُ به على ذلك ساقِطٌ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٧١).

قال ابنُ قُدامةَ: (ولا يملكُ العبدُ شيئًا، إذا لم يملِّكْه سيدُه، في قولِ عامةِ أهلِ العلمِ. وقال أهلُ الظاهرِ: يملكُ). ((المغني)) لابن قدامة (٤/ ١٣١). ويُنظر: ((المحلى)) لابن حزم (٨/ ٣٧٤).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: لا يَمنَعْكم فَقْرُ الخاطِبِ إليكم -إذا كان كفُؤًا- عن تزويجِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى سيُغنيهم، وفي هذا الرَّبطِ دليلٌ على أنَّ النِّكاحَ سبَبٌ في الغنى، قال بعضُ السَّلَفِ: (التَمِسوا الغِنى في النِّكاحِ)[1]. ولكِنْ في هذا الرَّبطِ إشكالٌ، وهو أنَّنا نَجِدُ كثيرًا مِن النَّاسِ يَتزوَّجون ويَبقَونَ فُقراءَ؟

الجوابُ مِن وَجهينِ:

الأوَّلُ: أنَّ غِناهم مُقيَّدٌ بالمشيئةِ؛ فمَن شاء تعالى أغناه، ومَن لم يشأْ بقِيَ على فَقرِه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦].

الوجهُ الثاني: أنَّ الرَّبطَ على بابِه، ولكنْ قد يحصُلُ مانعٌ لبعضِ النَّاسِ مِن الغنى؛ كعَدَمِ الطَّاعةِ، أو وجودِ المعصيةِ، أو أنَّ المتزوِّجَ لم يُرِدْ بزواجِه العِفَّةَ، واللهُ تعالى إنَّما وَعَدَ عبادَه الطائِعينَ[2].

١١- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أنَّ الفقرَ في الحالِ لا يمنَعُ التزويجَ؛ لاحتمالِ حصولِ المالِ في المآلِ[3].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ سُؤالٌ: وهو كَوْنُ اللهِ تعالى جَعَلَ غايةَ طلبِ العفَّةِ بحُصولِ الغِنى، وطلبُ العفَّةِ فَرضٌ في كلِّ وَقتٍ؟!

الجوابُ: أنَّ هذه الغايةَ لا مَفهومَ لها؛ فليس المرادُ أنَّ اللهَ إذا أغناهم مِن فضْلِه

---

(١) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٧/ ٢٧٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه. ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٣).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ١٣١).

فلا حاجةَ إلى طلبِهم العفَّةَ، وهو كقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، فليس المرادُ أنَّه إذا بَلَغَ أشُدَّه فاقرَبوه بغيرِ التي هي أحسنُ! وإنَّما سَكَتَ عمَّا بعدَ الغايةِ؛ لأنَّ الذي لم يجِدْ ما يتزوَّجُ به هو الذي يَحتاجُ إلى أنْ يتكَلَّفَ طلبَ العفَّةِ؛ لشِدَّةِ حرارةِ الشَّهوةِ والغَريزةِ الجنسيَّةِ ما دامَ غيرَ متزَوِّجٍ، فإذا أغناه اللهُ تعالى بالزَّواجِ، فلا يحتاجُ إلى تكلُّفِ العفَّةِ الذي كان واجِبًا عليه مِن قَبلُ؛ لأنَّ الغالبَ على المؤمنِ أنْ يستغنيَ بالحَلالِ عنِ الحرامِ، واللهُ تعالى أعلمُ[(١)].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ استدلَّ بعضُهم به على بُطلانِ نِكاحِ المُتعةِ؛ لأنَّه لو صحَّ لم يَتعيَّن الاستعفافُ على فاقدِ المهرِ، وظاهرُ الآيةِ تعيُّنُه، ولا يلزمُ مِن ذلك تحريمُ مِلكِ اليمينِ؛ لأنَّ مَن لا يقدِرُ على النِّكاحِ لعدمِ المهرِ، لا يقدِرُ على شراءِ الجاريةِ غالبًا[(٢)].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ دليلٌ على وجوبِ نفقةِ الزَّوجاتِ -إماءً كُنَّ أو حرائرَ-، وعلى أنَّ المهرَ يكونُ نَقدًا إلَّا أنْ ترضَى المرأةُ بتأخيرِه؛ إذْ لا نَجِدُ شيئًا يلزمُ الراغبَ في النِّكاحِ غيرَ هذين الشيئينِ؛ مِن نَقْدِ المهرِ والإنفاقِ، وإلَّا فلِمَ لا يَجِدُ النكاحَ[(٣)]؟!

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ العِفَّةَ سببٌ للغِنى[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٧٦)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٠٩).

١٦- إنْ قيلَ: قد قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وقال في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أمَرَهم بالاستِعفافِ إلى وَقتِ الغِنى، وأمَرَ بتَزويجِ أولئك مع الفَقرِ، وأخبَرَ أنَّه تعالى يُغنيهم. فما مَحمَلُ كُلٍّ مِنَ الآيتَينِ؟

الجَوابُ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في حَقِّ الأحرارِ، أمَرَهم اللهُ تعالى أن يَستَعِفُّوا حتى يُغنيَهم اللهُ مِن فَضْلِه؛ فإنَّهم إن تزَوَّجوا مع الفَقرِ التَزَموا حُقوقًا لم يَقدِروا عليها، وليس لهم مَن يَقومُ بها عنهم. وأمَّا قَولُه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ فإنَّه سُبحانَه أمَرَهم فيها أن يُنكِحوا الأَيامى وهنَّ النِّساءَ اللَّواتي لا أزواجَ لهُنَّ. هذا هو المَشهورُ مِن لَفظِ الأَيِّمِ عندَ الإطلاقِ، وإنِ استُعمِلَ في حَقِّ الرَّجُلِ بالتَّقييدِ، مع أنَّ العَرَبَ عندَ الإطلاقِ للرَّجُلِ وإنِ استُعمِلَ في حَقِّ المرأةِ، ثمَّ أمَرَهم سُبحانَه أن يُزَوِّجوا عَبيدَهم وإماءَهم إذا صَلَحوا للنِّكاحِ؛ فالآيةُ الأُولى في حُكمِ تزَوُّجِهم لأنفُسِهم، والثَّانيةُ في حُكمِ تَزويجِهم لِغَيرِهم، وقَولُه في هذا القِسمِ: ﴿وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ﴾ يَعُمُّ الأنواعَ الثَّلاثةَ التي ذُكِرَت فيه؛ فإنَّ الأَيِّمَ تَستغني بنَفَقةِ زَوجِها، وكذلك الأَمَةُ، وأمَّا العَبدُ فإنَّه لَمَّا كان لا مالَ له، وكان مالُه لسَيِّده، فهو فقيرٌ ما دام رقيقًا، فلا يُمكِنُ أن يُجعَلَ لِنكاحِه غايةٌ، وهي غِناه ما دام عَبدًا، بل غِناه إنَّما يكونُ إذا عَتَقَ واستغنى بهذا العِتقِ، والحاجةُ تَدعوه إلى النِّكاحِ في الرِّقِّ- فأَمَر سُبحانَه بإنكاحِه، وأخبَرَ أنَّه يُغنيه مِن فَضْلِه؛ إمَّا بكَسْبِه، وإمَّا بإنفاقِ سَيِّدِه عليه وعلى امرأتِه، فلم يُمكِنْ أن يَنتَظِرَ بنِكاحِه الغِنى الذي يُنتظَرُ بنِكاحِ الحُرِّ. واللهُ أعلَمُ[1].

---

(١) يُنظر: ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٣١٧).

١٧- تشوَّفَ الشَّارِعُ تَشَوُّفًا شَديدًا للحُرِّيَّةِ والإخراجِ مِنَ الرِّقِّ، فأكثَرَ أسبابَ ذلك، كما أوجَبَه في الكفَّاراتِ؛ مِن قَتلٍ خَطَأٍ، وظِهارٍ، ويَمينٍ، وغَيرِ ذلك، وأوجبَ سِرايةَ العِتقِ[١]، وأمَرَ بالكِتابةِ في قَولِه تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣]، ورَغَّب في الإعتاقِ تَرغيبًا شَديدًا[٢].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ استُدلَّ به على أنَّه فَرْضٌ على السَّيِّدِ -إذا عَرَف مِن عَبدِه خيرًا أو مِن أَمَتِه- أنْ يُكاتِبَهما إذا التمَسَا منه الكِتابةَ، ولا يكونَ بالخِيارِ في إجابتِهما؛ لأنَّ ظاهرَ الآيةِ أمرٌ[٣]، والأصلُ في أوامرِ اللهِ ورَسولِه الوُجوبُ[٤].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ مفهومُ الآيةِ الكريمةِ أنَّ العبدَ إذا لم يطلُبِ الكتابةَ لا يُؤمَرُ سَيِّدُه أن يبتدئَ بكتابتِه، وأنَّه إذا لم يعلَمْ منه خيرًا -بأنْ عَلِمَ منه عكْسَه-؛ إمَّا أنَّه يعلمُ أنَّه لا كسْبَ له، فيكونُ بسبَبِ ذلك كَلًّا على الناسِ ضائِعًا، وإمَّا أن يخافَ إذا أُعتِقَ وصار في حرِّيَّةِ نَفْسِه أن يتمكَّنَ مِن الفساد- فهذا لا يُؤمَرُ بكتابتِه، بل يُنهى عن ذلك؛ لِما فيه من المحذورِ المذكورِ[٥].

٢٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾

---

(١) سِرايةَ العِتقِ: أي: نُفوذَه فيما يُضافُ إليه، وسَرَيانَه إلى باقِيه. كما لو أعتَق جزءًا له مِن عبدٍ مشتركٍ، فإنَّه يسري إلى حصَّةِ شريكِه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٧٥)، ((المنثور في القواعد الفقهية)) للزركشي (٢/ ٢٠٠)، ((إعانة الطالبين)) للبكري (٢/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢١٣). وسبق أن الجمهورَ حمَلوا الأمرَ في الآيةِ على الندبِ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ٣٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧).

فيه سؤالٌ: كيف يصِحُّ أن يبيعَ مالَه بمالِه؟

الجوابُ: إذا ورد الشرعُ به أنَّه يجوزُ -كما إذا علَّقَ عِتقَه على مالٍ يكتَسِبُه فيؤدِّيه أو يؤدَّى عنه- صار سببًا لعِتقِه[١].

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ استدَلَّ به الشافعيُّ على وجوبِ أن يحُطَّ السيِّدُ عن المكاتَبِ جُزءًا من المال الذي كاتَبَه عليه، أو يدفَعَه إليه. وقال غيرُه: هو أمرُ نَدبٍ[٢].

٢٢- قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ في الآية ردٌّ على من حدَّد القَدْرَ المؤتَى[٣].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ دليلٌ على أنَّ السيِّدَ الذي له مملوكاتٌ -ولو كُنَّ كبارًا- يُزوِّجُهنَّ بغيرِ إذنِهنَّ؛ لأنَّه مالكٌ لهُنَّ ملكًا مطلقًا، فمفهومُ الآيةِ أنَّ إكراهَهُنَّ على غيرِ البغاءِ -كالنكاحِ الصحيحِ- لا بأسَ به[٤].

٢٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ فيه أنَّ الإكراهَ على الزِّنا يُتصَوَّرُ[٥]، وإنَّما ذَكَر اللَّهُ إرادَةَ التَّحَصُّنِ مِن المرأةِ؛ لأنَّ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

والقول بأنَّ الأمر في الآيةِ للوجوبِ هو مذهبُ الشافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((المجموع)) للنووي (١٦/ ٢٨)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٤/ ٥٦٠).

ومذهبُ الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ أنَّه على النَّدبِ. يُنظر: ((البناية شرح الهداية)) للعيني (١٠/ ٣٦٤)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٤/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣، ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٢/ ٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٧٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

هو الَّذي يُصَوِّرُ الإكراهَ، فأمَّا إذا كانَتْ راغبةً في الزِّنا لم يُتَصَوَّرْ إكراهٌ[١].

٢٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه أنَّ مَهرَ البَغِيِّ حرامٌ[٢].

٢٦- قال تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بكسبِهنَّ وبيعِ أولادهنَّ مِن الفجورِ[٣]، وفيه دليلٌ على أنَّ وَلَدَ الأَمَةِ مِن زنًى عَبدٌ لسَيِّدِها[٤].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دليلٌ على أنَّ إِثْمَ الزِّنا مدفوعٌ عن المكرَهةِ، ولا حَدَّ عليها فيه[٥]، وأنَّ المُكرَهَ غيرُ مُكَلَّفٍ ولا آثمٍ[٦]، فالآيةُ فيها ردٌّ على مَن أوجَب الحَدَّ على المُكرَهِ[٧].

٢٨- قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استُدلَّ به على إبطالِ قولِ مَن قال: «إنَّ الرجلَ إذا أكرَى جاريتَه مِن الفُسَّاقِ بِيْعَتْ عليه»؛ أَلَا ترى أنَّ اللهَ تعالى وعَدَها الغفرانَ على الإكراهِ؟! ولو كان البيعُ عليه جائزًا لكان حائِلًا بيْنها وبينَ الإكراهِ، فلا يكونُ السيدُ بعدَه مُكرِهًا، ولا هي محتاجةً بسببِ الإكراهِ إلى المغفرةِ والرحمةِ، وإنْ كانت محتاجةً في غيرِه[٨]!

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٣٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٧٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٧١).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٨) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٧١).

٢٩- في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دَليلٌ لِمن قال بإباحةِ الأفعالِ المُحَرَّمةِ بالإكراهِ، فلا يَختصُّ بالأقوالِ فقط، وهذا في الأفعالِ المحرَّمةِ لحقِّ اللهِ فيها، فأمَّا قَتلُ المعصومِ فلا يُباحُ بالإكراهِ بلا نزاعٍ[١]، فالآيةُ فيها رَدٌّ على مَن فَرَّقَ مِن أهلِ العلمِ بين الإكراهِ على القَولِ والإكراهِ على الفِعلِ، ففي هذه الصُّورةِ الإكراهُ على البِغاءِ، والبِغاءُ فِعلٌ[٢]. فليس كلُّ مَكرَهٍ على فِعلٍ مُحَرَّمٍ يأثَمُ به، وعليه جمهورُ العُلَماءِ، وقد دَلَّ على ذلك نَصُّ هذه الآيةِ، فإذا كان هذا في الإكراهِ على البِغاءِ، فالإكراهُ على شُربِ الخَمرِ وأكلِ المَيتةِ دونَ ذلك؛ فإنَّ الزِّنا مِن أكبرِ الكبائرِ بعد القَتلِ، كما دلَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ذلك عندَما سُئِلَ: أيُّ الذَّنْبِ أعظَمُ؟ قال: ((أن تجعَلَ لله نِدًّا...)) الحديثَ، إلى قَولِه: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ((أن تُزانيَ بحَليلةِ جارِك))، ثمَّ قرأ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[٣] [الفرقان: ٦٨]، ومعلومٌ أنَّ المُكرَهاتِ مِن الإماءِ على البغاءِ -كما كان ابنُ أُبَيٍّ وأمثالُه يُكرِهونَ إماءَهم على الاكتسابِ بالبغاءِ- ليس هو أن يفعَلَ بها بلا فِعلٍ منها، بل هو أن تُكرَهَ حتى تقصِدَ ذلك وتفعَلَه؛ ولهذا سَمَّاه بِغاءً[٤].

٣٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لعلَّه عبَّرَ بلَفظِ (بَعد) إشارةً إلى العَفوِ عن الميلِ إلى ذلك الفِعلِ عند مواقَعتِه إن رجَعَت إلى الكَراهةِ بعْدَه؛ فإنَّ النَّفْسَ لا تَملِكُ بُغضَه حينَئذٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيميَّة (٢/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٠١) واللفظ له، ومسلم (٨٦).

(٤) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٠).

٣١- قال تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وحاجَتُهنَّ إلى المغفرةِ المُنبئةِ عن سابقةِ الإثمِ: إمَّا باعتبارِ أنَّهنَّ وإنْ كنَّ مُكرَهاتٍ لا يَخْلونَ في تَضاعيفِ الزِّنا عن شائبةِ مُطاوَعةٍ ما بحُكْمِ الجِبلَّةِ البشريَّةِ، وإمَّا باعتبارِ أنَّ الإكراهَ قد يكونُ قاصِرًا عن حدِّ الإلجاءِ المُزيلِ للاختيارِ بالمرَّةِ، وإمَّا لغايةِ تَهويلِ أمْرِ الزِّنا، وحثِّ المُكرَهاتِ على التَّثبُّتِ في التَّجافي عنه، والتَّشديدِ في تَحذيرِ المُكرِهينَ، ببَيانِ أنَّهنَّ حيث كنَّ عُرضةً للعُقوبةِ لولا أنْ تَداركَهنَّ المغفرةُ والرَّحمةُ، مع قِيامِ العُذْرِ في حَقِّهنَّ؛ فما حالُ مَن يُكْرِهُهنَّ في استحقاقِ العذابِ[1]؟!

٣٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، في قَولِه: ﴿رَّحِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ سيجعلُ لهنَّ فَرَجًا؛ لأنَّ الرحمةَ بها حصولُ المطلوبِ وزوالُ المرهوبِ؛ لذلك نقولُ: إنَّ في هذه الآيةِ إشارةً إلى الفَرَجِ لِمَن أُكرِه على فِعل مُحَرَّمٍ؛ وأنَّ اللهَ تعالى سيَجْعَلُ له فَرَجًا، ويؤيِّدُ ذلك قولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((واعلمْ أنَّ النصرَ مع الصبرِ، وأنَّ الفَرَجَ مع الكربِ، وأنَّ مع العُسرِ يُسرًا))[2].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دَليلٌ على أنَّ المُسلِمَ إذا وَقَعَ في ذَنبٍ وهو مُكرَهٌ مقهورٌ، لا يُؤخَذُ به، والقرآنُ الكريمُ قد دلَّ على أنَّ المكرهَ لا يُؤاخَذُ بما أُكْرِه عليه، كما قال تعالى: ﴿ مَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٢٥).

والحديث أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، والطبراني (١١/ ١٢٣) (١١٢٤٣)، والحاكم (٦٣٠٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

صحَّحه عبدالحق الإشبيلي في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (٣/ ٣٣٣)، وحسَّنه ابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (١/ ٣٢٧)، والسخاوي في ((المقاصد الحسنة)) (١٨٨).

كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[1] [النحل: ١٠٦].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ خصَّ الصَّالحينَ؛ لِيُحصِّنَ دِينَهم، ويَحفَظَ عليهم صَلاحَهم -وذلك على أحدِ الأقوالِ في معنى الصلاحِ في الآيةِ-، ولأنَّ الصَّالحينَ مِن الأرِقَّاءِ هم الَّذين مَواليهم يُشفِقون عليهم، ويُنزِّلونَهم مَنزلةَ الأولادِ في الأثَرةِ والموَدَّةِ؛ فكانوا مَظِنَّةً للتَّوصيةِ بشأْنِهم، والاهتمامِ بهم، وتقبُّلِ الوصيةِ فيهم، والمُفسِدون منهم حالُهم عندَ مَواليهم على عكْسِ ذلك[2].

- وجُملةُ: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ ...﴾ إلخ، استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ عُمومَ الأيامى والعبيدِ والإماءِ في صِيغةِ الأمرِ يُثيرُ سُؤالَ الأولياءِ والموالي: أنْ يكونَ الرَّاغبُ في تزوُّجِ المرأةِ الأيِّمِ فقيرًا؛ فهل يرُدُّه الولِيُّ؟ وأنْ يكونَ سيِّدُ العبدِ فقيرًا لا يجِدُ ما يُنفِقُه على زَوجِه، وكذلك سيِّدُ الأمَةِ يخطُبُها رجُلٌ فقيرٌ حُرٌّ أو عبْدٌ؟ فجاء هذا لبَيانِ إرادةِ العُمومِ في الأحوالِ[3].

- و﴿عَلِيمٞ﴾ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ تكميلٌ لقولِه: ﴿وَٰسِعٌ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٧).

فذِكْرُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بعدَ ﴿وَٰسِعٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه يُعْطي فضْلَه على مُقْتضى ما عَلِمَه مِن الحِكمةِ في مِقدارِ الإعطاءِ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ السِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ للمُبالَغةِ في الفِعلِ(٢).

- وقولُه: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ قيل: فيه إيجازٌ بالحذْفِ، والتَّقديرُ: لا يَجِدون قُدرةً على النِّكاحِ(٣).

- وقولُه: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه تَرجيةٌ للمُستعفِّينَ، وتَقدِمةُ وَعدٍ بالتَّفضُّلِ عليهم بالغِنى؛ ليكونَ انتظارُ ذلك وتأْميلُه لُطْفًا لهم في استعفافِهم، وربْطًا على قُلوبِهم، وليَظهَرَ بذلك أنَّ فضْلَه أوْلَى بالأعِفَّاءِ، وأدْنَى مِن الصُّلحاءِ؛ ففي إيقاعِ الغِنى غايةً للأمرِ بالاستعفافِ فائدتانِ؛ إحداهما: أنْ يُوطِّنَ المُستعفِفُ نفْسَه على الإمساكِ عن النِّكاحِ، ولا يَستعجِلَ قبْلَ الاستغناءِ. وثانيهما: أنَّه تعالى لمَّا رتَّبَ الأمرَ بالاستعفافِ على قولِه: ﴿يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، آذَنَ أنَّ فضْلَه أَولى بالأعِفَّاءِ؛ لأنَّ ترتُّبَ الحُكْمِ على الوصفِ المُناسِبِ مُشعِرٌ بالعِلِّيَّةِ، وكأنَّه قِيل: استَعِفُّوا إلى أنْ يُغنِيَكم اللهُ مِن فضْلِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٧٩)، =

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾ دُخولُ الفاءِ في ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾؛ لتَضمينِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ...﴾ معنى الشَّرطيَّةِ؛ كأنَّه قِيل: إنِ ابْتَغى الكتابَ ما ملَكَتْ أيمانُكم فكاتِبوهم؛ تأْكيدًا لترتُّبِ الخيرِ على تحقُّقِ مَضمونِ صِلَةِ الموصولِ بأنْ يكونَ كترتُّبِ المشروطِ على الشَّرطِ[١].

- قَولُه: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ فيه إضافةُ المالِ إليه تعالى، ووَصْفُه بإيتائِه إيَّاهم؛ للحثِّ على الامتثالِ بالأمْرِ بتَحقيقِ المأْمورِ به، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]؛ فإنَّ مُلاحظةَ وُصولِ المالِ إليهم مِن جِهَتِه تعالى مع كونِه هو المالِكَ الحقيقيَّ له: مِن أقْوى الدَّواعي إلى صَرْفِه إلى الجِهةِ المأمورِ بها، والإضافةُ والوَصْفُ لتَعيينِ المأخَذِ[٢]. وقِيل: إضافةُ المالِ إلى اللهِ؛ لأنَّه مُيسِّرُ أسبابِ تَحصيلِه. وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الإعطاءَ مِن ذلك المالِ شُكْرٌ، والإمساكَ جَحدٌ للنِّعمةِ قد يَتعرَّضُ به المُمسِكُ لسلبِ النِّعمةِ عنه[٣].

- وقولُه: ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ على القولِ بأنَّه وصْفٌ لاسمِ الجَلالةِ؛ فيكونُ امتنانًا وحثًّا على الامتثالِ بتذكيرِ أنَّه ولِيُّ النِّعمةِ، ويكونُ مَفعولُ ﴿ءَاتَىٰكُمۡ﴾ مَحذوفًا للعُمومِ، أي: آتاكم نِعَمًا كثيرةً، كقولِه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾[٤] [إبراهيم: ٣٤].

= ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فيه مِن زِيادةِ تَقبيحِ حالِهم وتَشنيعِهم على ما كانوا عليه مِن القبائحِ ما لا يخفى؛ فإنَّ مَن له أدْنى مُروءةٍ لا يَكادُ يَرضى بفُجورِ مَن يَحويهِ حرَمُه مِن إمائِهِ، فضْلًا عن أمْرِهنَّ به أو إكراهِهنَّ عليه، لا سيَّما عندَ إرادتِهنَّ التَّعفُّفَ[1].

- قولُه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾، أي: إماءَكم؛ فإنَّ كُلًّا مِن الفَتَى والفَتاةِ كِنايةٌ مَشهورةٌ عن العبدِ والأمَةِ، ولهذه العبارةِ في هذا المقامِ باعتبارِ مَفهومِها الأصليِّ حُسْنُ مَوقعٍ، ومَزيدُ مُناسَبةٍ لقولِهِ تعالى: ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ وهو الزِّنا مِن حيثُ صُدورُه عن النِّساءِ؛ لأنَّهنَّ اللَّاتي يُتوقَّعُ منهنَّ ذلك غالبًا دُون مَن عداهنَّ مِن العجائزِ والصَّغائرِ[2].

- قولُه: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ في التعبيرِ بكلمةِ (إنْ) وإيثارُها على (إذا) إيذانٌ بأنَّ المُساعياتِ كنَّ يَفعلْنَ ذلك برغبةٍ وطواعيةٍ منهنَّ، وأنَّ ما وُجِدَ مِن إرادةِ التَّحصُّنِ مِن خبَرِ الشَّاذِّ النَّادرِ[3]. وقِيل: إيثارُ كَلمةِ (إنْ) على (إذا) مع تحقُّقِ الإرادةِ في مَوردِ النَّصِّ حتْمًا؛ للإيذانِ بوُجوبِ الانتهاءِ عن الإكراهِ عندَ كونِ إرادةِ التَّحصُّنِ في حيِّزِ التَّردُّدِ والشَّكِّ؛ فكيف إذا كانت مُحقَّقةَ الوُقوعِ كما هو الواقعُ[4]؟!

- وقولُه: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿تُكْرِهُوا۟﴾، أي: لا تُكْرِهوهنَّ لهذه العِلَّةِ؛ ذكَرَ هذه العِلَّةَ لزِيادةِ التَّشيعِ[5]. فهو قَيدٌ للإكراهِ، لكنْ لا باعتبارِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٧).

أنَّه مَدارُ النَّهيِ عنه، بلْ باعتبارِ أنَّه المُعتادُ فيما بيْنهم؛ تَشنيعًا لهُم فيما هُم عليه مِن احتمالِ الوِزْرِ الكبيرِ لأجْلِ النَّزْرِ الحقيرِ[١]؛ فإنَّ العَرَض مُتَحَقِّقٌ فيه الزوالُ، والدنيا مُشْتقَّةٌ مِن الدناءةِ[٢].

- قَولُه: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ سِيقَت لتَقريرِ النَّهيِ، وتأْكيدِ وُجوبِ العمَلِ به، ببَيانِ خَلاصِ المُكْرَهاتِ مِن عُقوبةِ المُكرَهِ عليه عِبارةً، ورُجوعِ غائلةِ الإكراهِ إلى المُكرِهينَ إشارةً[٣].

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فيه توسيطُ الإكراهِ بيْن اسم (إنَّ) وخبَرِها؛ للإيذانِ بأنَّ ذلك هو السَّببُ للمغفرةِ والرَّحمةِ. وفي تَخصيصِهما بهنَّ، وتَعيينِ مَدارِهما، مع سَبْقِ ذِكْرِ المُكرِهينَ أيضًا في الشَّرطيةِ: دَلالةٌ بيِّنةٌ على كونِهم مَحرومينَ منهما بالكُلِّيَّةِ؛ كأنَّه قِيل: لا للمُكْرِهِ. ولظُهورِ هذا التَّقديرِ اكْتَفى به عن العائدِ إلى اسمِ الشَّرطِ.

- قَولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ قِيل: إنَّه دَليلُ جوابِ الشَّرطِ المحذوفِ؛ إذ حُذِفَ الجوابُ إيجازًا، واستُغْنِيَ عن ذِكْرِه بذِكْرِ عِلَّتِه الَّتي تشمَلُه وغيرَه. والتَّقديرُ: فلا إثْمَ عليهنَّ؛ فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ لأمْثالِهنَّ ممَّن أُكْرِهَ على فِعْلِ جريمةٍ. وحرْفُ (إنَّ) في هذا المقامِ يُفِيدُ التَّعليلَ، ويُغْني غَناءَ لامِ التَّعليلِ[٤].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تَعريضٌ بالوعيدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٨).

للَّذين يُكْرِهون الإماءَ على البغاءِ[١].

- وفي الآياتِ الثَّلاثِ السَّابقةِ تَرتيبٌ حسَنٌ بَديعٌ؛ فما أحسَنَ ما رتَّبَ هذه الأوامِرَ! حيث أمَرَ أوَّلًا بما يَعصِمُ مِن الفتنةِ، ويُبعِدُ مِن مُواقَعةِ المعصيةِ؛ وهو غضُّ البصرِ، ثمَّ بالنِّكاحِ الَّذي يُحصَنُ به الدِّينُ، ويقَعُ به الاستغناءُ بالحلالِ عن الحرامِ، ثمَّ بالحمْلِ على النَّفسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ، وعزْفِها عن الطُّموحِ إلى الشَّهوةِ عندَ العجْزِ عن النِّكاحِ إلى أنْ يُرزَقَ القُدرةَ عليه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩).

الآيتان (٣٤-٣٥)

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَمَثَلًا﴾: أي: قصةً عجيبةً، أو شبَهًا، أو أخبارًا تكونُ لكم مثلًا، وأصلُ (مثل): يَدُلُّ على مُناظرَةِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ[(١)].

﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾: المشكاةُ: الكَوَّةُ فِي الحائِطِ غيرُ النافذةِ يُوضَعُ فيها المصباحُ، وقيل: مَوضِعُ الفتيلةِ مِن القنديلِ، واختُلِف هل هي عربيةٌ أو حبشيَّةٌ مُعَرَّبةٌ[(٢)].

﴿دُرِّىٌّ﴾: أي: مضيءٌ؛ منسوبٌ إلى الدُّرِّ، وهو كِبارُ اللُّؤْلُؤِ، تَشْبيهًا بصفائِه، والدريُّ: الشَّديدُ الإنارةِ، وأصلُ (دري) هنا: يدلُّ على اضْطِرابٍ في شيءٍ، وسُمِّي الدرُّ بذلك؛ لاضطرابٍ يُرَى فيه لِصَفائِه، كأنَّه ماءٌ يَضْطَرِبُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((الوجوه والنظائر)) لأبي هلال العسكري (ص: ٤٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١). ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٣). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٥). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٠٢). ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٥، ٢٥٦). ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٦٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ١١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ولقد أنزَلْنا إليكم آياتٍ واضحاتٍ موضِّحاتٍ، ومَثَلًا بمَن سبقَكم مِن الأُمَمِ؛ لتتَّعِظوا وتعتَبِروا، وعِظةً وذِكرى للمتَّقين. اللهُ نورُ السَّمواتِ والأرضِ، وهادي مَن فيهما، مَثَلُ نورِ الله في قلبِ المؤمِنِ ككَوَّةٍ في حائطٍ غيرِ نافذةٍ، فيها مِصباحٌ، المِصباحُ في زُجاجةٍ مُتوهِّجةٍ كأنَّها كوكبٌ مُضيءٌ كالدُّرِّ، يوقَدُ المصباحُ مِن زيتِ شَجَرةِ زيتونٍ مُبارَكةٍ، لا شرقيَّةٍ ولا غربيَّةٍ، فلا يستُرُها عن الشَّمسِ شَيءٌ في الصَّباحِ أو في المساءِ، يكادُ زيتُها -لصفائِه- يضيءُ ولو لم تمسَسْه نارٌ، نورٌ على نورٍ؛ نورُ النَّارِ مع نورِ الزَّيتِ والزجاجة، وانعكاسه مِن الكوَّةِ، وهكذا قلبُ المؤمنِ إذا أشرقَ فيه نورُ الهدايةِ، واللهُ يَهدي لنورِه مَن يشاءُ مِن عبادِه، ويضرِبُ اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ، واللهُ بكُلِّ شيءٍ عَليمٌ، لا يخفى عليه شَيءٌ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعدَ أن فصَّل هذه الأحكامَ التي سبَقت وبيَّنها؛ امتنَّ على عبادِه بذلك، فقال[1]:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿مُبَيَّنَاتٍ﴾ بفتح الياءِ، بمعنى: واضحاتٍ مفسَّراتٍ مفصَّلاتٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٨/ ١٠٦).

(٢) قرأ بها ابن كثير، وأبو بكر شعبة، ونافع، وأبو جعفر، وأبو عمرو، ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨). =

٢- قراءةُ ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بكسر الياءِ، بمعنى: موضِّحاتٍ؛ تُبَيِّنُ الحقَّ والصوابَ للنَّاسِ[١].

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾.

أي: ولقد أنزَلْنا إليكم[٢] آياتٍ واضحاتٍ مُفَصَّلاَتٍ، توضِّحُ الحقَّ، وتميِّزُه مِن الباطلِ، وتُبَيِّنُ الأحكامَ[٣].

﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

أي: وأنزَلْنا إليكم قِصَّةً عجيبةً في هذه السُّورةِ مِن جنسِ قَصَصِ الأُمَمِ الماضينَ مِن قَبْلِكم[٤].

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٩٨).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٩٨).

(٢)) قال ابنُ جريرٍ: (ولقد أنزلنا إليكم أيُّها الناسُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢٣١، ٢٣٢).
قال البِقَاعي: (﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ مفصَّلٌ فيها الحقُّ من الباطلِ، موضَّحٌ بالنقل والعقلِ، بحيث صارت لشدَّةِ بيانِها تبينُ هي لمن تدبَّرها طرقَ الصوابِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٦).
قال ابن عاشور: (وفي الكلامِ حذفُ مُضافٍ يَدُلُّ عليه السِّياقُ، تقديرُه: مِنْ أمثالِ الَّذينَ خَلَوا مِنْ قبلِكم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٠).
وممَّن قال بهذا القولِ: الزمخشريُّ، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦). =

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: وأنزَلْنا إليكم من الوَعدِ والوعيدِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ ما يَعتبِرُ به الذين يتَّقون اللهَ، ويخافونَ عقابَه، فيَمتثِلون أوامِرَه، ويجتَنِبون نواهيَه[١].

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّن سُبحانَه مِنَ الأحكامِ ما بَيَّنَ، أردَف ذلك بكَونِه سُبحانَه في غايةِ الكَمالِ[٢]، وعلَّل إنزالَه ما سبَق على هذا السَّنَنِ الأقوَمِ، والنَّظْمِ المُحكَمِ[٣].

= وقال الشنقيطي: (المرادُ بالقِصَّةِ العجيبةِ التي أنزل إلينا، وعبَّرَ عنها بقَولِه: ﴿وَمَثَلًا﴾ هي براءةُ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها مِمَّا رماها به أهلُ الإفك... لأنَّ كُلًّا مِن عائشةَ ومريمَ ويوسُفَ رُمي بما لا يليقُ، وكلٌّ منهم برَّأه الله، وقِصَّةُ كُلٍّ منهم عجيبةٌ؛ ولذا أطلَقَ عليها اسمَ المَثَل). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٣٤، ٥٣٦).

وقال ابنُ عثيمين: (المرادُ بالمَثَلِ -والله أعلم- هنا ما هو أعَمُّ مِن الواقِعِ، يعني: أمثالًا مِن الذين خَلَوا، وليس هذا خاصًّا بخبَرِ عائشةَ رضِيَ الله عنها ومريمَ ويوسُفَ، بل هو أعَمُّ مِن ذلك... فاللهُ سُبحانه وتعالى ضرَبَ لنا أمثالًا ممَّن خلا مِن قَبلِنا فيما يتعلَّقُ بالعِفَّةِ والصِّيانةِ، وفيما يتعلَّقُ بالأمرِ بالدِّينِ والإيمانِ والقُدوةِ الحَسَنةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧١).

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى ببَعضِ الأُمورِ التي لا غِنَى للنَّاسِ عنها، ونَهى عن بَعضِ الأُمورِ التي بارتِكابِها يَحصُلُ الضَّرَرُ على المُجتمَعِ والأفرادِ، وحَثَّ على بَعضِ الآدابِ؛ بَيَّن سُبحانَه أنَّ امتِثالَ تلك الأوامِرِ، واجتِنابَ تلك النَّواهي، والتِزامَ تلك الآدابِ: يُنَوِّرُ لها قُلوبَ بَعضِ عِبادِه؛ فيُوفِّقُهم لها، ويَطمِسُ قُلوبَ آخَرِينَ؛ فلا يَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويَرتَكِبونَ نواهيَه، فضَرَبَ للمُوَفَّقِ هذا المَثَلَ، وضَرَب للضَّالِّينَ المَثَلَ الآتيَ بعدَ ذلك(١).

وأيضًا لَمَّا كان غَضُّ البصرِ يَكْسِبُ القَلبَ نُورًا، كما أنَّ إطلاقَه يُلْبِسُه ظُلمةً؛ ذَكَرَ اللهُ سبحانَه آيةَ النُّورِ عَقِيبَ الأمرِ بغَضِّ البصرِ(٢)، فقال تعالى:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: اللهُ مُنَوِّرُ السَّمواتِ والأرضِ، وهادي مَن فيهما، ومُدبِّرُ أمورِهم، وهو بذاتِه نورٌ جلَّ وعلا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٣٩١)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤٤ - ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٣٩).

قال ابنُ القيِّمِ: (اللهُ سبحانَه وتعالى سمَّى نفسَه نورًا، وجعل كتابَه نورًا، ورسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نورًا، ودينَه نورًا، واحتجَبَ عن خلقِه بالنورِ، وجعَلَ دارَ أوليائِه نورًا تتلألأ... وقد فُسِّر: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: ٣٥] الآيةَ: بكونِه مُنَوِّرَ السَّموات والأرضِ، وهاديَ أهلِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فبُنورِه اهتدى أهلُ السَّمواتِ والأرضِ، وهذا إنَّما هو فِعلُه، وإلَّا فالنورُ الذي هو من أوصافِه قائِمٌ به، ومنه اشتُقَّ له اسمُ النورِ الذي هو أحدُ الأسماءِ الحُسنى.

والنورُ يُضافُ إليه سُبحانَه على أحدِ وَجهَينِ: إضافةُ صِفةٍ إلى موصوفِها، وإضافةُ مَفعولٍ =

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعو مِنَ اللَّيلِ: ((اللهُمَّ لك الحمدُ، أنت ربُّ السَّمواتِ والأرضِ، لك الحمدُ أنت قَيِّمُ السَّمواتِ والأرضِ ومَن فيهنَّ، لك الحمدُ أنت نورُ السَّمواتِ والأرضِ، قولُك الحقُّ، ووعدُك الحقُّ، ولِقاؤُك حَقٌّ، والجنَّةُ حقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والسَّاعةُ حَقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكَّلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصَمتُ، وإليك حاكَمتُ؛ فاغفِرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وأسرَرتُ وأعلَنتُ، أنت إلهي لا إلهَ لي غيرُك))[1].

= إلى فاعِلِه. فالأوَّلُ: كقَولِه تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ...﴾ [الزمر: ٦٩] الآيةَ، فهذا إشراقُها يومَ القيامةِ بنورِه تعالى إذا جاء لفَصلِ القَضاءِ... وفي مُعجَمِ الطَّبَرانيِّ والسُّنَّةِ له، وكتابِ عُثمانَ الدَّارميِّ، وغيرِها، عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: «ليس عند ربِّكم ليلٌ ولا نهارٌ؛ نورُ السَّمواتِ والأرضِ مِن نورِ وَجهِه»، وهذا الذي قاله ابنُ مسعودٍ رَضِيَ الله عنه أقرَبُ إلى تفسيرِ الآيةِ مِن قَولِ مَن فسَّرها بأنَّه هادي أهلِ السَّمواتِ والأرضِ، وأمَّا مَن فسَّرها بأنَّه مُنَوِّرُ السَّمواتِ والأرضِ، فلا تنافيَ بيْنه وبيْن قَولِ ابنِ مَسعودٍ، والحَقُّ أنَّه نورُ السَّمواتِ والأرضِ بهذه الاعتِباراتِ كُلِّها). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٤٤-٤٦).

وقال السَّعدي: (﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الحسِّيُّ والمعنويُّ؛ وذلك أنَّه تعالى بذاتِه نورٌ، وحِجابُه -الذي لولا لُطفُه لأحرَقَت سُبُحاتُ وَجهِه ما انتهى إليه بصَرُه مِن خَلقِه- نورٌ، وبه استنار العَرشُ والكرسيُّ، والشَّمسُ والقَمَرُ والنورُ، وبه استنارت الجنَّةُ. وكذلك النورُ المعنويُّ يَرجِعُ إلى الله؛ فكتابُه نورٌ، وشَرعُه نورٌ، والإيمانُ والمعرفةُ في قُلوبِ رُسُلِه وعبادِه المؤمنين نورٌ. فلولا نورُه تعالى لتَراكمت الظُّلُمات؛ ولهذا كُلُّ محَلٍّ يَفقِدُ نورَه، فثَمَّ الظُّلمةُ والحَصرُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

وقال ابنُ عثيمين: (النُّورُ حقيقيٌّ لله سبحانَه وتعالى؛ فهو نورٌ، وصِفاتُه نورٌ، وكذلك آياتُه نورٌ؛ سَمَّاها اللهُ تعالى نورًا لأنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ نَفْسَه بهذا الشَّيءِ، ولكِنْ ليس كالنُّورِ الذي نتصَوَّرُه أو نتخيَّلُه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٣٨).

وقال ابن تيميَّةَ: (اللهُ تعالَى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ فإنَّه ليس كشَيءٍ مِنَ الأنوارِ، كما أنَّ ذاتَه ليست كشيءٍ مِنَ الذَّواتِ). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٣٩٥).

(١) رواه البخاري (٧٣٨٥) واللفظ له، ومسلم (٧٦٩).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلَق خَلْقَه في ظُلمةٍ، فألقَى عليهم مِن نُورِه، فمَن أصابَه مِن ذلك النُّورِ اهتدَى، ومَن أخطأه ضلَّ؛ فلذلك أقولُ: جفَّ القَلمُ على عِلمِ اللهِ))[1].

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾.

أي: مَثَلُ نورِ الله[2] في قَلبِ المؤمنِ الذي هداه الله مثلُ كَوَّةٍ غيرِ نافذةٍ، وُضِع

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤٢) واللفظُ له، وأحمد (٦٦٤٤) مُطوَّلاً.
حسَّنه الترمذي، وصَحَّحه الحاكِمُ في ((المستدرك)) (١/ ٨٤) وقال: (قد تداوله الأئمَّةُ، وقد احتجَّا بجميعِ رُواتِه ثُمَّ لم يُخَرِّجاه، ولا أعلمُ له عِلَّةً). وحَسَّنه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٥/ ٣١٦)، وصَحَّح إسنادَه البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (١/ ١٦٦)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١١/ ٧٩)، وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٦٤٢).

(٢) ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿نُورِهِۦ﴾ يعودُ إلى اللهِ تعالى: البغويُّ، وابن جُزي، والخازن، وابن القيم، والعليمي، والشوكاني، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٧)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٤).
قال السمعاني: (﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ فيه أقوالٌ؛ أحَدُها: أنَّ معناه: مَثَلُ نُورِ اللهِ في قَلبِ المُؤمِنِ، وهو النُّورُ الذي يُهتدَى به، وهذا في معنى قَولِه تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. والقَولُ الثَّاني: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: نورِ قَلبِ المؤمِنِ بالإيمانِ. والقَولُ الثَّالِثُ: أنَّه نورُ مُحمَّدٍ، ومنهم مَن أوَّلَ على القُرآنِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢٩).
قال ابنُ عطيَّة: (واختلف المتأوِّلون في الضَّميرِ في ﴿نُورِهِۦ﴾ على مَن يعودُ؛ فقال كَعبُ الأحبارِ وابنُ جُبَيرٍ: هو عائِدٌ على محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أي: مَثَلُ نُورِ محمَّدٍ. وقال أُبَيُّ بنُ كَعبٍ، وابنُ جُبَيرٍ [في روايةٍ أُخرَى]، والضحَّاكُ: هو عائِدٌ على المؤمِنينَ... وقال الحسَنُ: هو عائِدٌ على القُرآنِ والإيمانِ... وهذه أقوالٌ فيها عَودُ الضَّميرِ على مَن لم يَجْرِ له ذِكرٌ، وفيها قَطعُ المعنى المرادِ بالآيةِ. =

فيها مِصباحٌ[(١)].

= وقالت فِرقةٌ: الضَّميرُ في ﴿نُورِهِۦ﴾ عائدٌ على الله، ثم اختَلَفت هذه الفِرقةُ في المرادِ بـالنورِ الذي أُضيفَ إلى اللهِ تعالى إضافةَ خَلقٍ إلى خالقٍ، كما تقولُ: سماءُ اللهِ، وناقةُ الله؛ فقال بعضُها: هو محمَّدٌ. وقال بعضُها: هو المؤمِنُ. وقال بعضُها: هو الإيمانُ والقرآنُ. وهذه الأقوالُ متَّجِهةٌ مطَّرِدٌ معها المعنى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٣).

قال ابن جزي: (المعنى: صفةُ نورِ الله في وضوحِه كصفةِ مِشكاةٍ فيها مِصباحٌ، على أعظَمِ ما يَتصوَّرُه البَشَرُ مِن الإضاءةِ والإنارةِ... وقيل: الضَّميرُ في نورِه عائدٌ على سيدِنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقيل: على القرآنِ، وقيل: على المؤمنِ. وهذه الأقوالُ ضعيفةٌ؛ لأنَّه لم يتقدَّمْ ما يعودُ عليه الضَّميرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٠).

وقال ابن القيم: (وقد اختُلف في تفسيرِ الضميرِ في ﴿نُورِهِۦ﴾؛ فقيل: هو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أي: مثَلُ نورِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقيل: تفسيرُه المؤمنُ، أي: مثلُ نورِ المؤمنِ، والصحيحُ أنَّه يعودُ على الله عزَّ وجلَّ، والمعنى: مثلُ نورِ الله سبحانه وتعالى في قلبِ عبدِه. وأعظَمُ عبادِه نصيبًا مِن هذا النورِ رسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم، فهذا مع ما تضمَّنه عودُ الضميرِ إلى المذكورِ، وهو وجهُ الكلامِ يتضمَّنُ التقاديرَ الثلاثةَ، وهو أتمُّ معنًى ولفظًا). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٥).

ممَّن اختار أنَّ المشكاةَ هي الكَوَّةُ غيرُ النَّافذةِ في الجِدارِ: الفَرَّاءُ، وأبو عبيدة، وابنُ قُتَيبة، والزجَّاج، والسمعاني، والراغب الأصبهاني، والبغوي، والزمخشري، وابن عطية -ونسَبه لجمهورِ المفسِّرين-، وابن جزي، وابن القيم، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٥٢)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٦٦)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٠)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٥٠)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٤١).

قال الألوسي: (والمُعَوَّلُ عليه قَولُ الجُمهورِ). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٥٩). =

قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾.

= قال الواحدي: (﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وهي كَوَّةٌ غيرُ نافذةٍ، في قَولِ الجَميعِ). ((الوسيط)) (٣/ ٣٢٠).

وقال أيضًا: (قال ابنُ عباسٍ في رواية عطاءٍ وسليمانَ [بن قتَّة]: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ يعني: كَوَّةً غيرَ نافذةٍ بلِسانِ الحَبَشِ. وهذا قولُ السُّدِّي، والكلبي، وقتادةَ، وجميعِ المفسِّرين. قالوا: هي الكَوَّةُ غيرُ النافذةِ، كما قال أهلُ اللغةِ، غيرَ أنَّ بعضَهم ذكر أنَّها بلُغةِ الحبَشَةِ). ((البسيط)) (١٦/ ٢٦٠).

وقال ابن عاشور: (المِشْكاةُ: المعروفُ مِن كلامِ أهلِ اللُّغةِ أنَّها فُرجةٌ في الجِدارِ مِثلُ الكَوَّةِ، لكِنَّها غيرُ نافِذةٍ، فإن كانت نافِذةً فهي الكَوَّةُ. ولا يُوجَدُ في كلامِ الموثوقِ عنهم من أهلِ العربيَّةِ غيرُ هذا المعنى، واقتصَرَ عليه الرَّاغِبُ، وصاحِبُ «القاموس»، و «الكشَّاف»). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٥).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عمر، وابنُ عَبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وكعب الأحبار، والحسن، وابن جُرَيج، وسعد بن عياض، والسُّدِّي، وعِكْرِمة، والكلبي، وسليمان بن قتة، وقتادة، والضحاك، وأبو مالك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٠١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٦٠).

وقيل: المِشْكاةُ: هي مَوضِعُ الفَتيلةِ مِنَ القِنديلِ. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جرير، وابن كثير، والسيوطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٣٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، ومجاهِدٌ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨).

قال الواحدي: (﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وهي: الكَوَّةُ غيرُ النَّافذةِ، والمرادُ بها هاهنا: الذي وسَطَ القِنديلِ كالكَوَّةِ يُوضَعُ فيها الذُّبالةُ). ((الوجيز)) (ص: ٧٦٤). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ١٦٦).

وقال ابنُ العربي: (لا خِلافَ بينَ المُحَقِّقينَ الذين يُنزِلونَ التَّفسيرَ مَنازِلَه، ويَضَعونَ التَّأويلَ مَواضِعَه مِن غيرِ إفراطٍ ولا تفريطٍ: أنَّ هذا مَثَلٌ ضَرَبَه اللهُ تعالى لنُورِه، ولا يُمكِنُ أن يَضرِبَ لنُورِه المُعَظَّمِ مَثَلًا تنبيهًا لخَلقِه إلَّا ببَعضِ خَلْقِه؛ لأنَّ الخَلْقَ بقُصورِهم لا يَفهَمونَ إلَّا بأنفُسِهم ومِن أنفُسِهم، ولولا ذلك ما عَرَفَ اللهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٠٤).

أي: وهذا المِصباحُ داخلَ زجاجةٍ تُحيطُ به[١].

﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿دُرِّيّٞ﴾ قِراءاتٌ:

١- قِراءةُ: ﴿دِرِّيءٞ﴾ بكَسرِ الدَّالِ مع المَدِّ والهَمزِ، وهو فِعِّيلٌ، مِثلُ سِكِّيرٍ؛ مِنَ الدَّرْءِ: وهو الدَّفعُ، والمعنى: أنَّ الخَفاءَ يُدفَعُ عنه لِتَلألُئِه في ظُهورِه، أو أنَّه يَدفَعُ بنُورِه مِن أن يَنظُرَ النَّاظِرُ إليه. وقيل: سُمِّيَ دِرِّيئًا؛ لأنَّ الكوكَبَ يَدفَعُ الشَّياطينَ مِنَ السَّماءِ، وشَبَّهَه بحالةِ الدَّفعِ؛ لأنَّه يكونُ في تلك الحالةِ أضوَأَ وأنوَرَ. ويُقالُ: هو مِنَ دَرَأَ الكَوكبُ: إذا اندفَعَ مُنقَبِضًا، فيتَضاعَفُ ضَوؤُه في ذلك الوَقتِ. وقيل: إنَّما سُمِّيَ دِرِّيئًا؛ لأنَّه يَطلُعُ عليك مِن مَطْلِعِه، يُقالُ: دَرَأَ النَّجمُ: إذا طَلَع وارتَفَع[٢].

٢- قِراءةُ: ﴿دُرِّيءٞ﴾ بضَمِّ الدَّالِ والمَدِّ والهَمزِ، وهو فُعِّيلٌ مِنَ الدَّرءِ: وهو الدَّفعُ[٣].

٣- قِراءةُ: ﴿دُرِّيّٞ﴾ نِسبةً إلى الدُّرِّ؛ لفَرطِ ضِيائِه وبَهائِه ونُورِه، ويجوزُ أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٦).

(٢) قرأ بها أبو عمرو والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٠٧)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٦٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩).

(٣) قرأ بها حمزة وشعبة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٠٧)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٦٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٩).

يكونَ فُعِّيلًا مِنَ الدَّرءِ: وهو الدَّفعُ، فخُفِّفَت الهَمزةُ فانقَلَبَت ياءً، ثم أُدغِمَت الياءُ في الياءِ، فتكونُ بمعنى القِراءةِ السَّابقةِ[١].

﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾.

أي: الزُّجاجةُ صافيةٌ وبهيَّةٌ كأنَّها كوكَبٌ صافٍ حَسَنٍ مُضيءٍ، وهكذا قَلبُ المؤمِنِ الخالِصِ من الكُفرِ والشَّكِّ، المتطهِّرِ من دَنَسِ المعاصي[٢].

عن حُذيفةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ كالحَصيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ[٣] فيه نُكتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قَلبٍ أنكَرَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بَيضاءُ، حتى تصيرَ على قَلبينِ؛ على أبيَضَ مِثلِ الصَّفا[٤]، فلا تضُرُّه فِتنةٌ ما دامت السَّمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسوَدُ مِرْبادًّا، كالكُوزِ مُجَخِّيًا[٥]، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلاَّ ما أُشرِبَ مِن هواه!))[٦].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٠٧)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٦٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٠٧، ٣٠٩)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

قال البقاعي: (فإنه إذا كان في زجاجةٍ صافيةٍ انعكَست الأشعةُ المنفصلةُ عنه مِن بعضِ جوانبِ الزُّجاجةِ إلى بعضٍ؛ لِما فيها مِن الصَّفاءِ والشفيفِ، فيزدادُ النورُ، ويبلغُ النهايةَ، كما أنَّ شعاعَ الشمسِ إذا وقَع على ماءٍ أو زجاجةٍ صافيةٍ تضاعَف النُّورُ، حتى إنَّه يَظهرُ فيما يقابلُه مثلُ ذلك النُّورِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٧٣).

(٣) نُكِتَ: أي: نُقِطَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).

(٤) الصَّفا: أي: الحَجَرِ الأملَسِ الذي لا يَعلَقُ به شَيءٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).

(٥) مُجَخِّيًا: أي: مائِلاً مَنكوسًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٣).

(٦) رواه مسلم (١٤٤).

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿يُوقَدُ﴾ قِراءاتٌ:

١- قِراءةُ ﴿يُوقَدُ﴾ وفاعِلُ (يوقَدُ) المِصباحُ. وقيل: يجوزُ أن يكونَ التوقُّدُ للكَوكَبِ[(١)].

٢- قِراءةُ ﴿تَوَقَّدَ﴾: فعلٌ ماضٍ بزِنةِ (تَفَعَّلَ)، وفاعِلُ (تَوقَّدَ) المِصباحُ. ويجوزُ أن يكونَ التوقُّدُ للكوكَبِ. وقيل: لا يعودُ على (كوكب)؛ لفَسادِ المعنى[(٢)].

٣- قِراءةُ ﴿تُوقَدُ﴾ على أنَّ الإيقادَ للزُّجاجةِ[(٣)].

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾.

أي: يَستَمِدُّ المصباحُ نورَه مِن زيتِ شَجرةِ زيتونٍ، مُبارَكةٍ كَثيرةِ المنافِعِ،

---

(١) قرأ بها نافع، وابن عامر، وحفص. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).
وينظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٠).

(٢) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٠٧).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٠٧).
قال ابن زنجلة: (فإنْ قِيلَ: كيف وُصِفَت الزُّجاجةُ بأنَّها تُوقَدُ، وإنَّما يكونُ الاتِّقادُ للنَّارِ؟ قيل: لَمَّا كان الاتِّقادُ فيها جازَ أن يُوصَفَ به؛ لارتفاعِ اللَّبسِ عن وَهمِ السَّامِعينَ، وعِلمِهم بالمرادِ مِن الكَلامِ، والعَرَبُ قد تُسنِدُ الأفعالَ كثيرًا إلى ما لا فِعْلَ له في الحقيقةِ إذا كان الفِعلُ يَقَعُ فيه، فيقولونَ: ليلٌ نائِمٌ؛ لأنَّ النَّومَ فيه يكونُ). ((حجة القراءات)) (ص: ٥٠٠)

لا شرقيَّةٍ تصيبُها الشَّمسُ عند الشُّروقِ فقط، ولا غربيَّةٍ تصيبُها الشَّمسُ عند الغروبِ فقط، بل الشَّمسُ تصيبُها طوالَ النَّهارِ؛ فيكونُ زيتُها أصفى وأجوَدَ وأشدَّ إضاءةً[(١)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٠، ٣١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

ممَّن اختار القولَ المذكورَ: الفرَّاءُ، وابن جرير، والزجاج، والبقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٨٦).

ونسَبَ السمعانيُّ هذا القولَ لأكثَرِ أهلِ المعاني، ونسَبَه البغويُّ للأكثرينَ، والرَّسعنيُّ لأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٥٥).

قال ابن عثيمين: (فهي إمَّا في رَبْوةٍ، وذلك أكمَلُ وأبيَنُ وأعلى وأطيَبُ زَيتًا، وإمَّا في مكانٍ مُستَوٍ؛ صحراويَّة). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٤٥).

وقال الشنقيطيُّ بعد أن ذكَر أنَّ أظهَرَ الأقوالِ أنَّها باديةٌ لا يَستُرُها شَيءٌ عن الشمسِ، قال: (وذلك بألَّا يَكونَ في شَرقِها ولا في غَربِها شجَرٌ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٣٧).

وقيل: ليست مِن المَشرقِ ولا مِن المَغربِ، بلْ في الوسَطِ منهما، وهو الشامُ، وأجْوَدُ الزَّيتونِ زَيتونُ الشامِ. وممَّن اختار هذا القولَ: الكرمانيُّ، والزمخشري، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٧٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٦).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٣٨)، وقد وصَف هذا القولَ بأنَّه غيرُ سديدٍ.

وقال السعدي: (﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تُصيبَها الشمسُ آخِرَ النهارِ، ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تُصيبَها الشمسُ أوَّلَ النهارِ، وإذا انتفى عنها الأمْرانِ، كانت متوسِّطةً مِن الأرضِ؛ كزَيتونِ الشامِ، تُصيبُها الشمسُ أوَّلَ النهارِ وآخِرَه؛ فتَحسُنُ وتَطيبُ، ويَكونُ أصْفى لزَيتِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

وقيل: المعنى: أنَّها شجرةٌ بيْن الأشجارِ، لا هي بارزةٌ للشمسِ عندَ شُروقِها، ولا هي بارزةٌ عندَ غروبِها. وذكَر الشنقيطيُّ أنَّه باطلٌ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٣٨). =

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

أي: يُقارِبُ زَيتُ هذه الشَّجَرةِ المباركةِ أن يضيءَ بنَفسِه ولو لم تمسَسْه نارٌ؛ مِن شدَّةِ صَفائِه وتلألُئِه، فإذا مسَّتْه النارُ أضاء إضاءةً عظيمةً[1].

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

أي: اجتمعُ نورُ النَّارِ مع نور الزَّيتِ، وهكذا المؤمِنُ قَلبُه مضيءٌ، يكادُ يعرِفُ

= وقال السمرقندي: (ورُويَ عن الحسَنِ أنَّه قال: ليس هذه مِن أشجارِ الدُّنيا، لكنْ مِن أشجارِ الآخِرةِ، يعني: أنَّ أشجارَ الدُّنيا لا تَخلو مِن أن تكونَ شرقيَّةً أو غربيَّةً، ولكنْ هذه مِن أشجارِ الآخرةِ). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٣).

وقال ابنُ القيِّم: (كذلك مادَّةُ نورِ المِصباحِ الذي في قلبِ المؤْمِنِ هو مِن شجرةِ الوحيِ التي هي أعظَمُ الأشياءِ بَرَكةً، وأبعَدُها مِن الانحرافِ، بل هي أوسَطُ الأمورِ وأعْدَلُها وأفضَلُها، لم تَنحرِفِ انحرافَ النصرانيَّةِ، ولا انحرافَ اليهوديَّةِ، بل هي وسَطٌ بيْن الطرفَينِ المَذمومَينِ في كلِّ شَيءٍ، فهذه مادَّةُ مِصباحِ الإيمانِ في قلبِ المؤمِنِ). ((الوابل الصيب)) (ص: ٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٣، ٣١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

قال ابنُ جريرٍ: (وعُنيَ بقَولِه: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ أنَّ حُجَجَ اللهِ تعالى ذِكرُه على خَلقِه تَكادُ مِن بَيانِها ووُضوحِها تُضيءُ لِمَن فكَّر فيها، ونظَرَ، أو أعرَضَ عنها ولها. ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يقولُ: ولو لم يَزِدْها الله بيانًا ووضوحًا بإنزالِه هذا القرآنَ إليهم، مُنَبِّهًا لهم على تَوحيدِه، فكيف إذا نبَّهَهم به، وذكَّرهم بآياتِه، فزادهم به حُجَّةً إلى حُجَجِه عليهم قبْلَ ذلك؟! فذلك بيانٌ مِنَ الله، ونورٌ على البيانِ والنُّورِ الذي كان قد وصَفَه لهم ونصَبَه قبْلَ نُزولِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٣، ٣١٤).

وقال السمعانيُّ: (يَكادُ قلبُ المؤمنِ يَعرِفُ الحقَّ قبْلَ أن يُبَيَّنَ له؛ لِموافَقتِه إيَّاه). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٣).

وقال القرطبيُّ: (تَكادُ حُجَجُ القرآنِ تتَّضحُ، ولو لم يُقرَأْ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٦٤).

وقال ابنُ القيِّم: (وهكذا المؤمِنُ؛ قلبُه مُضيءٌ، يَكادُ يَعرِفُ الحقَّ بفِطرتِه وعَقلِه، ولكنْ لا مادَّةَ له مِن نفْسِه). ((الوابل الصيب)) (ص: ٥٣).

الحَقَّ بفِطرتِه وعَقلِه، فإذا نزلت آياتُ الوحيِ فباشرَت قلبَه وخالطت بَشاشتَه، ازداد نورًا بالوَحيِ على نورِ الإيمانِ الذي فطَرَه اللهُ تعالى عليه[1].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٦)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٥٢)، ((الوابل الصيب من الكلم الطيب)) لابن القيم (ص: ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

قال ابن القيِّم: (النورُ على النورِ: نورُ الفِطرةِ الصحيحةِ والإدراكِ الصحيحِ، ونورُ الوَحيِ والكِتابِ، فيَنضافُ أحَدُ النُّورَينِ إلى الآخَرِ؛ فيَزدادُ العبدُ نورًا على نورٍ... فيَتَّفِقُ عندَه شاهِدُ العقلِ والشرعِ، والفِطرةِ والوَحيِ، فيُريهِ عقلُه وفِطرتُه وذَوقُه أنَّ الذي جاء به الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو الحقُّ، لا يَتعارَضُ عندَه العقلُ والنقلُ البَتَّةَ، بل يَتصادَقانِ ويَتوافَقانِ). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٥٢).

وقد تقدَّمَ (ص: ٢٧١) اختِلافُ المفسِّرينَ -الذين ذهبوا إلى أن الضميرَ في قولِه: ﴿نُورِهِۦ﴾ يَعودُ على اللهِ- في المرادِ بالنورِ، وأنَّ منهم مَن قال: المرادُ به محمَّدٌ. ومنهم مَن قال: المؤمِنُ. ومنهم مَن قال: القرآنُ والإيمانُ.

قال ابنُ عطيَّةَ: (فعلى قَولِ مَن قال: الممثَّلُ به محمَّدٌ عليه السَّلامُ، وهو قَولُ كَعبِ الحَبْرِ؛ فرسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ هو «المشكاة» أو صدرُه، و﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾ هو النُّبوءةُ وما يتَّصِلُ بها مِن عمَلِه وهُداهُ، و﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ قلبُه، و«الشجرة المباركة» هي الوحيُ، والملائكةُ رُسُلٌ إليه وسببُه المتَّصِلُ به، والزَّيتُ هو الحُجَجُ والبَراهينُ، والآياتُ التي تضَمَّنها الوحيُ.

وعلى قَولِ مَن قال: الممَثَّلُ به المؤمِنُ -وهذا قَولُ أُبَيِّ بنِ كعبٍ- فـ «المشكاة» صدرُه، و﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾ الإيمانُ والعِلمُ، و﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ قلْبُه، و«الشجرةُ» القرآنُ، وزَيتُها هو الحُجَجُ والحِكمةُ التي تضَمَّنها. قال أُبَيٌّ: فهو على أحسَنِ الحالِ؛ يَمْشي في الناسِ كالرجُلِ الحيِّ يمشي في قُبورِ الأمواتِ.

ومَن قال: إنَّ الممثَّلَ به القرآنُ والإيمانُ، فتقديرُ الكلامِ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الذي هو الإيمانُ في صدرِ المؤمِنِ في قلْبِه ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾، أي: كهذه الجُملةِ. وهذا القولُ ليس في مقابلةِ التَّشبيهِ كالأوَّلَينِ؛ لأنَّ المِشكاةَ ليست تُقابِلُ الإيمانَ. وتَحتمِلُ الآيةُ معنًى آخَرَ ليس فيه مُقابَلةُ جُزءٍ مِنَ المِثالِ لجُزءٍ مِنَ المُمَثَّلِ، بل وقَع التَّشبيهُ فيه جُملةً بجُملةٍ، وذلك أن يُريدَ: مثَلُ نورِ الله الذي هو هُداهُ وإتقانُه صَنعةَ كلِّ مَخلوقٍ وبراهينُه الساطِعةُ على الجملةِ كهذه الجُملةِ مِن النورِ الذي تتَّخِذونه أنتم على هذه الصِّفةِ التي هي أبلَغُ صِفاتِ النورِ الذي بيْن أيدي الناسِ، أي: فمثَلُ نورِ الله في الوضوحِ كهذا الذي هو مُنتهاكم أيُّها البشَرُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٣). =

﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الإخبارُ عن مُضاعفةِ هذا النُّورِ موجِبًا لاعتقادِ أنَّه لا يخفَى عن أحدٍ، أشار إلى أنَّه -بشُمولِ عِلمِه، وتمامِ قُدرتِه- يُعمي عنه مَن يريدُ، مع شِدَّةِ ضيائِه، وعظيمِ لألائِه، فقال[1]:

= وقال الرسعني: (قال أكثَرُ المفسِّرينَ: هذا مثَلٌ للمؤمِنِ؛ فـ«المشكاةُ»: قلْبُه، و«الزجاجةُ»: صدرُه، و«المِصباحُ»: هو الإيمانُ والقرآنُ، «توقدُ مِن شجرةٍ مبارَكةٍ»: وهي الإخلاصُ، «لا شرقيَّةٍ ولا غربيَّةٍ»: بل هي مُسَلَّمةٌ ممَّا يوجِبُ نَقصًا فيها، كذلك المؤمِنُ قد أُجيرَ وحُرِسَ مِن الفِتَنِ القادِحةِ في نورِ إيمانِه، فإنْ أُعطيَ شَكَر، وإنِ ابتُليَ صبَر، وإنْ قال صَدَق، وإنْ حَكَم عَدَل، يَكادُ قلبُ المؤمنِ يَعمَلُ بالهُدى ولو لم يأتِه العِلمُ، فإذا أتاه العِلمُ ازداد نورًا على نورِه الذي جُبِل عليه). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٥٧).

وقال السعديُّ: (وجْهُ هذا المثَلِ الذي ضرَبه الله، وتطبيقه على حالةِ المؤمِنِ، ونور الله في قلبِه: أنَّ فِطرتَه التي فُطِر عليها بمَنزِلةِ الزَّيتِ الصافي، ففِطرتُه صافيةٌ، مُستعِدَّةٌ للتعاليمِ الإلهيَّةِ، والعملِ المشروعِ، فإذا وصَل إليه العِلمُ والإيمانُ اشتَعَل ذلك النورُ في قلبِه، بمَنزلةِ اشتِعالِ النارِ في فَتيلةِ ذلك المِصباحِ، وهو صافي القلبِ مِن سوءِ القَصدِ، وسوءِ الفَهمِ عن الله، إذا وصَل إليه الإيمانُ أضاء إضاءةً عظيمةً؛ لصفائه مِن الكُدوراتِ، وذلك بمَنزِلةِ صفاءِ الزُّجاجةِ الدُّرِّيَّةِ؛ فيَجتمِعُ له نورُ الفِطرةِ، ونورُ الإيمانِ، ونورُ العِلمِ، وصَفاءُ المعرفةِ؛ نورٌ على نورِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

وقال ابن عثيمينَ: (اللهُ شَبَّهَ النورَ الذي في قلبِ المؤمنِ بهذه القضيةِ كلِّها: «مشكاة فيها مِصباحٌ»، والذي يُقابِلُ المِشكاةَ هو القلبُ، والنورُ الذي يَقذِفُه الله في قلبِه مع نورِ الإيمانِ هو المِصباحُ، لكنْ هذا المِصباحُ مُرَكَّبٌ في زُجاجةٍ، والزُّجاجةُ صافيةٌ لامِعةٌ ﴿كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ ووَقودُ هذا النورِ ﴿مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ﴾ جيِّدةٍ؛ لأنَّ الزُّجاجةَ تَقي النورَ وتُصفِّيه...، فتَجدُ أنَّ هذا النورَ قد كمَلَتْ فيه أسبابُ الصفاءِ مِن حيث الوَقودُ والمكانُ، وكذلك أسبابُ الشمولِ والقوةِ من حيث كوْنُه في مِشكاةٍ، النورُ الذي في قلبِ المؤمنِ مثلُ هذا، ولكنِ المرادُ المؤمِنُ كامِلُ الإيمانِ في الحقيقةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٤٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٥).

﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: يوفِّقُ الله لنورِه مَن يختارُه ممن يعلمُ زكاءَه وطهارتَه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قال الشوكاني: (﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ مِنْ عِبادِه، أي: هدايةً خاصَّةً مُوَصِّلةً إلى المطلوبِ، وليس المرادُ بالهدايةِ هنا مجرَّدَ الدَّلالَةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠).

وقال الواحدي: (قَولُه تعالى: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: لدينِه الإسلامِ، وإنْ شِئتَ قُلتَ: للقُرآنِ، وإنْ شِئتَ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، على اختِلافِ التَّفسيرِ في قَولِه تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾). ((البسيط)) (١٦/ ٢٨٧).

وقال السعدي: (ولمَّا كان هذا مِن نورِ الله تعالى، وليس كلُّ أحدٍ يصلحُ له ذلك، قال: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يعلمُ زكاءَه وطهارته، وأنَّه يزكو معه وينمو). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

أي: ويُبيِّن اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ؛ ليفهَموا معانيَها، ويُدرِكوا مراميَها، كما مثَّل لهم نورَ القرآنِ في قلبِ المؤمِنِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ محيطٌ عِلمًا بجميعِ الأشياءِ، لا يخفَى عليه شَيءٌ، ومِن ذلك عِلمُه بمَن هو قابلٌ للهُدى، ومَن هو مُصِرٌّ على ضلالِه، ومِن ذلك عِلمُه بما يَضرِبُ مِن الأمثالِ، فهو ضَربُ مَن يعلَمُ حقائِقَ الأمورِ وتفاصيلَها، وأنَّها مَصلحةٌ للعبادِ، فليكُنِ اشتغالُكم بتدبُّرِها وتعقُّلِها، لا بالاعتراضِ عليها أو بمعارَضتِها؛ فهو سُبحانَه يعلَمُ وأنتم لا تعلَمونَ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي: مَثَلُ نورِه في قَلبِ عَبدِه المؤمِنِ الذي امتَثَل أوامِرَه واجتَنَب نواهيَه، وإذا استنار القَلبُ أقبلتْ وفودُ الخيراتِ إليه مِن كُلِّ ناحيةٍ، كما أنَّه إذا أظلَم أقبَلَت سحائِبُ البلاءِ والشَّرِّ عليه مِن كُلِّ مكانٍ، فما شِئتَ مِن بِدَعٍ وضلالةٍ، واتِّباعِ هَوًى، واجتنابِ هُدًى، وإعراضٍ عن أسبابِ السَّعادة، واشتغالٍ بأسبابِ الشَّقاوةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٤).

فإنَّ ذلك إنَّما يَكشِفُه له النورُ الذي في القلبِ، فإذا نَفِدَ ذلك النورُ بَقِيَ صاحِبُه كالأعمَى الذي يجوسُ في حنادِسِ الظَّلامِ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ يُومِئ إلى الحاجةِ إلى اجتِهادِ عُلَماءِ الدِّينِ في استخراجِ إرشادِ الإسلامِ على مرورِ الأزمنةِ؛ لأنَّ استخراجَ الزَّيتِ مِن ثَمَرِ الشَّجرةِ يتوقَّفُ على اعتِصارِ الثَّمَرةِ، وهو الاستِنباطُ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ ...﴾ هذه الآيةُ دَليلٌ صريحٌ على أنَّ اللهَ أنزلَ القرآنَ مِن عندِه، وأنَّ النُّزولَ ليس بمعنى الوحيِ فقط، بل هو معنًى خاصٌّ أخَصُّ مِن الوحيِ، وأنَّه يلزَمُ مِن الإنزالِ أن يكونَ المُنزِلُ عاليًا[٣]، فالنُّزولُ لا يَكونُ إلَّا مِن أعلَى؛ ففيه إثباتُ علُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ الذي هو مِن صفاتِه الذاتيَّةِ اللازمةِ له، التي لم يَزَلْ ولا يَزالُ متَّصِفًا بها[٤].

٢- الإيمانُ له نورٌ في القلبِ، قال تعالى ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي: مثَلُ نورِه فِي قلبِ المُؤمِنِ كمِشكاةٍ فِيهَا مِصباحٌ، إلى قولِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فسمَّى الايمانَ الذي يَهَبُه للعبدِ نورًا[٥].

٣- قال الله تعالى: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ إنْ قيل: لمَ

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٢٩، ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٩) (٣/ ٤٤٧).

(٥) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ١٤٣).

خَصَّ الزُّجاجةَ بالذِّكرِ؟

فالجوابُ: أنَّه قيل: إنَّما ذكَرَ الزُّجاجةَ؛ لأنَّ المِصباحَ فيها أضوأُ. وقيل: ذكَرَ الزُّجاجةَ؛ لأنَّها إذا انكَسَرت لا يُنتفَعُ منها بشَيءٍ، كذلك القَلبُ إذا فسَد لا يُنتفَعُ منه بشَيءٍ[(١)]، ولأنَّها جمعت أوصافًا هي في قلبِ المؤمنِ، وهي الصَّفاءُ والرِّقَّةُ، فيَرى الحقَّ والهدى بصفائِه، وتحصُلُ منه الرأفةُ والرَّحمةُ والشَّفَقةُ برِقَّتِه، ويجاهِدُ أعداءَ الله تعالى ويُغلِظُ عليهم ويشتَدُّ في الحَقِّ ويَصلُبُ فيه بصلابتِه، ولا تُبطِلُ صِفةٌ منه صِفةً أخرى ولا تُعارِضُها، بل تُساعِدُها وتُعاضِدُها ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾[(٢)].

٤- قال الله تعالى: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ إن قيلَ: لمَ شبَّهَ بالكواكِبِ، ولم يشَبِّهْ بالشَّمسِ والقَمرِ؟

الجواب: لأنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ يلحَقُهما الخُسوفُ والكسوفُ، والكواكِبُ لا يلحَقُها ذلك[(٣)].

٥- قال الله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ المرادُ بالشَّجَرةِ هاهنا: شجرةُ الزَّيتونِ، وبَرَكتُها مِن وجوهٍ: أنَّها تجمَعُ الأُدمَ والدُّهنَ والوَقودَ؛ فيُوقَدُ بحَطَبِ الزَّيتونِ، ويُغسَلُ برَمادِه الإبْريسَمُ[(٤)]، ويُستخرَجُ دُهنُه أسهلَ استخراجٍ، ويُورِقُ غُصنُه مِن أوَّلِه إلى آخِرِه، وإنَّما خُصَّت بالذِّكرِ هاهنا دونَ غيرِها؛ لأنَّ دُهنَها أصفَى وأضوأُ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((الوابل الصيب من الكلم الطيب)) لابن القيم (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٢٣).

(٤) الإبْريسَمُ: أي: الحريرُ، أو الخامُ الخالِصُ منه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣١/ ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٦).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ دليلٌ وإرشادٌ إلى أنَّه يَنبغي للإنسانِ إذا وَضَعَ الشجرَ أَلَّا يَضعَه في مكانٍ يَحتجِبُ عن الشمسِ شرقًا أو غربًا؛ بل يَنبغي أن يوضَعَ الشجرُ في مكانٍ يَبرُزُ للشمسِ شرقًا وغربًا[١]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ، وأنَّها إمَّا في رَبْوةٍ -وذلك أكمَلُ وأبْيَنُ وأعلى وأطيَبُ زَيتًا-؛ وإمَّا في مكانٍ مُستوٍ؛ صحراويَّةً.

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيه أنَّ وضوحَ الدَّلائِلِ لا يَكفي ولا ينفَعُ ما لم يَخلُقِ اللهُ الإيمانَ[٢]. وقَولُه: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فيه إيذانٌ بأنَّ مَناطَ هذه الهدايةِ ومِلاكَها ليس إلَّا مَشيئتَه تعالى، وأنَّ تظاهُرَ الأسبابِ بدُونِها بمَعزلٍ مِن الإفضاءِ إلى المَطالِبِ[٣].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

- قَولُه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ، جِيءَ به في تَضاعيفِ ما ورَدَ مِن الآياتِ السَّابقةِ واللَّاحقةِ؛ لبَيانِ جَلالةِ شُؤونِها المُستوجبةِ للإقبالِ الكُلِّيِّ على العمَلِ بمَضمونِها[٤].

- وابتُدِئَ الكلامُ بلامِ القسَمِ وحَرفِ التَّحقيقِ؛ لإبرازِ كَمالِ العِنايةِ بشأْنِه[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث وصَفَ هذه الآياتِ المُنزَّلةِ بثلاثِ صِفاتٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٩).

-﴿مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةً لِّلۡمُتَّقِينَ﴾- كما وصَفَ السُّورةَ في طالِعَتِها بثلاثِ صِفاتٍ -﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ١]-، والمقصدُ مِن الأوصافِ في الموضعينِ هو الامتِنانُ؛ فكأنَّ هذا يُشبِهُ رَدَّ العجُزِ على الصَّدرِ، فجُملةُ: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافَ التَّذييلِ، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ ألَّا تُعطَفَ؛ لأنَّ شأْنَ التَّذييلِ والاستئنافِ الفصْلُ، وإنَّما عُدِلَ عن الفصْلِ إلى العطفِ؛ لأنَّ هذا خِتامُ التَّشريعاتِ والأحكامِ الَّتي نزَلَتِ السُّورةُ لأسبابِها. وقد خُلِّلَت بمِثْلِ هذا التَّذييلِ مرَّتينِ قبْلَ هذا بقولِه تعالى في ابتداءِ السُّورةِ: ﴿وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ١]، ثمَّ قولِه: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٨]، ثمَّ قولِه هنا: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾؛ فكان كلُّ واحدٍ مِن هذه التَّذييلاتِ زائدًا على الَّذي قبْلَه؛ فالأوَّلُ زائدٌ بقولِه: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [النور: ١٨]؛ لأنَّه أفاد أنَّ بَيانَ الآياتِ لِفائدةِ الأمَّةِ، وما هنا زاد بقولِه: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةً لِّلۡمُتَّقِينَ﴾؛ فكانت كلُّ زِيادةٍ مِن هاتينِ مُقْتضيةً العطفَ؛ لِمَا حصَلَ مِن المُغايَرةِ بيْنها وبيْن أخْتِها، وتُعتبَرُ كلُّ واحدةٍ عطفًا على نَظيرتِها؛ فوُصِفَتِ السُّورةُ كلُّها بثلاثِ صِفاتٍ، ووُصِفَ ما كان مِن هذه السُّورةِ مُشتمِلًا على أحكامِ القذْفِ والحُدودِ وما يُفْضي إليها أو إلى مُقاربِها مِن أحوالِ المُعاشَرةِ بينَ الرِّجالِ والنِّساءِ بثلاثِ صِفاتٍ؛ فقولُه هنا: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ يُطابِقُ قولَه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ١]، وقولُه: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ يُقابِلُ قولَه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَفَرَضۡنَٰهَا﴾ [النور: ١]، على أنَّ مَعنى الفرْضِ التَّعيينُ والتَّقديرُ؛ لأنَّ في التَّمثيلِ تقْديرًا وتَصويرًا للمعاني بنَظائرِها، وفي ذلك كشْفٌ للحقائقِ، وقولُه: ﴿وَمَوۡعِظَةً لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ يُقابِلُ قولَه في أوَّلِها

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١] [النور: ١].

- وإنَّما قِيلَ: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مع شُمولِ الموعظةِ للكلِّ -حسَبَ شُمولِ الإنزالِ لقولِه تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾-؛ حثًّا للمُخاطَبينَ على الاعتِناءِ بالانتِظامِ في سِلْكِ المُتَّقينَ، ببَيانِ أنَّهم المُغتنِمون لآثارِها، المُقتبِسون مِن أنوارِها[٢]، والمنتَفِعون بها[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث جاء قولُه هنا: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بذِكْرِ الواوِ و﴿إِلَيْكُمْ﴾، وقالَه بعْدُ بحذْفِهما: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ٤٦]؛ ووَجْهُه: أنَّ اتِّصالَ ما هنا بما قبْلَه أشدُّ؛ إذ قولُه بعْدُ: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مَصروفٌ إلى الجُمَلِ السَّابقةِ مِن قولِه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾[النور: ٣٣] إلى آخِرِه، وفيه مَعطوفانِ بالواوِ؛ فناسَبَ ذِكرَها العطْفُ، وذكَرَ ﴿إِلَيْكُمْ﴾؛ ليُفِيدَ أنَّ الآياتِ المُبيِّناتِ نزَلَتْ في المُخاطبينَ في الجُمَلِ السَّابقةِ، وما ذُكِرَ بعدُ خالٍ عن ذلك؛ فناسَبَهُ الاستِئنافُ والحذْفُ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ جاءت هذه الآيةُ رابطةً لقصَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٢٢).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣٧، ٣٣٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٦).

بَراءةِ ساحةِ حِجابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُمِّ المُؤمنين الصِّدِّيقةِ بنتِ الصِّدِّيقِ رضِيَ اللهُ عنهما بقولِه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وتخلُّصًا منها إليه، وقد كرَّرَ هذا المعنى في هذه السُّورةِ الكريمةِ مِرارًا؛ تَرجيعًا إلى ما هو مُهتمٌّ به، وتخلُّصًا إلى ما يَنْبغي أنْ يَشرَعَ فيه. منها: قولُه تعالى في فاتحةِ السُّورةِ: ﴿وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١]. ومِن ثَمَّ جاء في هذا المقامِ مَفصولًا استئنافًا على بَيانِ المُوجَبِ؛ امتِنانًا على المُنزَّلِ عليهم، كأنَّه قِيل: إنَّما أنزَلَ اللهُ إليكم هذه الآياتِ ومثَلًا مِن الَّذين خَلَوا مِن قبْلِكم ومَوعظةً للمُتَّقينِ؛ لأنَّه هادي أهلِ السَّمواتِ وأهلِ الأرضِ بإنزالِ الآياتِ البيِّناتِ والكتابِ المُنيرِ المُشتمِلِ على ما تأْتون به وتَذَرون؛ ففيهِ مع الامتِنانِ تَعظيمُ شأْنِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حيث استشهَدَ لبراءةِ حِجابِه بمثْلِ هذه الآيةِ الكريمةِ الجامعةِ، وفي جَعْلِ تلك الآيةِ تخلُّصًا لهذه، وإنَّها مِن الجوامعِ المُحتويةِ على الأمَّهاتِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ يَشتمِلُ على جميعِ ما يَستحِقُّ أن يُبيَّنَ مِن أصولِ الدِّينِ وفُروعِه[1].

- قَولُه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه إتْباعُ مِنَّةِ الهدايةِ الخاصَّةِ في أحكامٍ خاصَّةٍ -المُفادةِ من قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ الآيةَ [النور: ٣٤]- بالامتِنانِ بأنَّ اللهَ هو مُكوِّنُ أصولِ الهدايةِ العامَّةِ والمعارفِ الحقَّةِ للنَّاسِ كلِّهم بإرسالِ رسولِه بالهُدى ودِينِ الحقِّ، مع ما في هذا الامتِنانِ مِن الإعلامِ بعَظَمةِ اللهِ تعالى ومجْدِه، وعُمومِ عِلْمِه وقُدرتِه[2].

- وإذا كان المُرادُ بالآياتِ المُبيِّناتِ والمثَلِ والموعظةِ جميعَ ما في القُرآنِ المجيدِ مِن الآياتِ والأمثالِ والمواعظِ؛ فقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٠).

﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتَقريرِ ما فيها مِن البَيانِ، مع الإشعارِ بكونِه في غايةِ الكَمالِ. وإذا كان المُرادُ بالآياتِ المُبيِّناتِ والمثَلِ والموعظةِ ما نُزِّلَ في هذه السُّورةِ؛ فهو استِئنافٌ مَسوقٌ لتَحقيقِ أنَّ بَيانَه تعالى ليس مَقصُورًا على ما ورَدَ في السُّورةِ الكريمةِ، بلْ هو شاملٌ لكلِّ ما يحِقُّ بَيانُه مِن الأحكامِ والشَّرائعِ، ومَباديها وغاياتِها المُترتِّبةِ عليها في الدُّنيا والآخرةِ، وغيرِ ذلك ممَّا له مَدخلٌ في البَيانِ، وأنَّه واقِعٌ منه تعالى على أتمِّ الوُجوهِ وأكمَلِها؛ حيث عبَّرَ عنه بالتَّنويرِ الَّذي هو أقْوى مَراتبِ البَيانِ وأجْلاها، وعبَّرَ عن المُنوِّرِ بنفْسِ النُّورِ؛ تَنبيهًا على قُوَّةِ التَّنويرِ، وشدَّةِ التَّأثيرِ، وإيذانًا بأنَّه تعالى ظاهرٌ بذاتِه، وكلُّ ما سِواهُ ظاهرٌ بإظهارِه[1].

- وفي الانتِقالِ مِن ضَميرِ التَّعظيمِ ﴿أَنزَلۡنَآ﴾ إلى اسمِ الذَّاتِ ﴿ٱللَّهُ﴾ خطْبٌ جليلٌ، وخطَرٌ خطيرٌ، وإيذانٌ بأنَّ تلك الهِدايةَ أيضًا جامعةٌ لِمَا يُناطُ به أُمورُ الدِّينِ؛ مِن بَعثةِ الرُّسلِ، وإنزالِ الكُتبِ، وغيرِ ذلك[2].

- وهذه الجُملةُ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ ...﴾ بَيانٌ لجُملةِ: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ [النور: ٣٤]؛ إذ كان يَنْطوي في معنى آياتٍ ووَصْفِها بـ ﴿مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ ما يَستشرِفُ إليه السَّامعُ مِن بَيانٍ لـ: ما هي الآياتُ، وما هو تَبيينُها؟ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا. ووقعَتْ جُملةُ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مُعترِضةً بيْنَ هذه الجُملةِ والَّتي قبْلَها؛ تَمهيدًا لعَظَمةِ هذا النُّورِ المُمثَّلِ بالمِشكاةِ. وقيل: إنَّها بَيانٌ لجُملةِ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فيَكونُ مَوقعُها مَوقعَ عطْفِ البَيانِ؛ فلذلك فُصِلَت فلمْ تُعطَفْ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣١، ٢٣٤).

- ومُناسَبةُ مَوقعِ جُملةِ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ بعدَ جُملةِ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ٣٤]: أنَّ آياتِ القُرآنِ نُورٌ؛ قال تعالى في سُورةِ النِّساءِ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، فكان قولُه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كلمةً جامعةً لِمَعانٍ جَمَّةٍ تتْبَعُ معاني النُّورِ في إطلاقِه في الكلامِ. ومَوقعُ الجُملةِ عجيبٌ مِن عدَّةِ جِهاتٍ، وانتقالٌ مِن بَيانِ الأحكامِ إلى غرَضٍ آخَرَ مِن أغراضِ الإرشادِ، وأفانينَ مِن الموعظةِ والبُرهانِ[(١)].

- قَولُه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النُّورُ اسمٌ جامدٌ لمعنًى؛ فهو كالمصدرِ، وبذلك كان الإخبارُ به بمَنزلةِ الإخبارِ بالمصدَرِ أو باسمِ الجِنسِ في إفادةِ المُبالَغةِ[(٢)].

- وإضافةُ النُّورِ إلى السَّمواتِ والأرضِ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ إمَّا للدَّلالةِ على سَعةِ إشراقِه وفُشوِّ إضاءتِه حتَّى تُضيءَ له السَّمواتُ والأرضُ، وإمَّا أنْ يُرادَ أهْلُ السَّمواتِ والأرضِ وأنَّهم يَسْتضيئون به، وإمَّا لاشتِمالِها على الأنوارِ الحسِّيَّةِ والعقليَّةِ، وقُصورِ الإدراكاتِ عليهما، وعلى المُتعلِّقِ بهما، والمَدلولِ لهما[(٣)]، فيجوزُ أنْ يُرادَ بالسَّمواتِ والأرضِ مَن فيهما مِن بابِ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وهو أبلَغُ مِن ذِكْرِ المُضافِ المحذوفِ؛ لأنَّ في هذا الحذْفِ إيهامَ أنَّ السَّمواتِ والأرضَ قابلةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣).

لهذا النُّورِ، كما أنَّ القريةَ نفْسَها تَشهَدُ بما يُسأَلُ منها، وذلك أبلَغُ في الدَّلالةِ على الإحاطةِ بالمقصودِ وأَلْطَفُ دَلالةً[١].

- قَولُه: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

- هذا التَّشبيهُ العجيبُ الذي تَضمَّنه قَولُه سُبحانَه: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فيه مِن الأسرارِ والمعاني وإظهارِ تَمامِ نِعمة اللهِ تعالَى على عبْدِه المؤمِنِ بما أنالَه مِن نُورِه ما تَقَرُّ به عيونُ أهلِه، وتَبتهِجُ به قلوبُهم. وهذا التَّشبيهُ تَشبيهٌ مُرسَلٌ[٢]؛ حيثُ جاء التَّشبيهُ هنا بواسطةِ الأداةِ وهي الكافُ، ولأهلِ البَلاغةِ والمعاني في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٣).

(٢) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: هو إثباتُ حُكمٍ مِن أحكامِ المُشبَّهِ به للمُشبَّهِ. وقد اتَّفقَ الأُدباءُ على شَرفِه في أنواعِ البَلاغةِ، وأنَّه إذا جاء في أعقابِ المعاني أفادَها كمَالًا، وكساها حُلَّةً وجَمالًا، وهو جارٍ في كلامِ العَربِ، بلْ هو أكثرُ كلامِهم. ويَنقسمُ التشبيهُ عِدَّةَ تَقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّة؛ فمنه: التَّشبيهُ المُفرَد. ومنه: التشبيهُ المُركَّبُ: وهو الذي يكونُ وجهُ الشَّبهِ فيه مُنتزَعًا مِن مُتعدِّدٍ، أو مِن أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتشبيهُ هنا مُركَّبٌ من أحوالِ الحِمارِ. وخَصَّ البيانيُّونَ لفْظَ «التمثيل» بالتشبيهِ المركَّبِ. ومنه: التشبيهُ البليغُ: وهو ما كانتْ أداةُ التشبيهِ فيه مَحذوفةً. وينقسمُ التشبيهُ باعتبارٍ آخَرَ إلى مُؤكَّدٍ: وهو ما حُذفتْ فيه الأداةُ، نحو: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مِثلَ مرِّ السحابِ. ومُرْسَل: وهو ما لم تُحذَفْ فيه الأداةُ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

هذا التَّشبيهِ طَريقتانِ؛ أحدُهما: طريقةُ التَّشبيهِ المركَّبِ، وهي أقرَبُ مأخذًا، وأسلَمُ مِن التكلُّفِ، وهي أن تُشبَّهَ الجُملةُ برُمَّتِها بنورِ المؤمنِ مِن غيرِ تعرُّضٍ لتفصيلِ كلِّ جزءٍ مِن أجزاءِ المشبَّهِ، ومقابلتِه بجزءٍ مِن المشبَّهِ به، وعلى هذا عامَّةُ أمثالِ القرآنِ الكريمِ. فتأمَّلْ صِفةَ مشكاةٍ -وهي كَوَّةٌ لا تَنفذُ؛ لتكونَ أجمعَ للضوءِ- قد وُضع فيها مِصباحٌ، وذلك المصباحُ داخلُ زُجاجةٍ تُشبِهُ الكوكبَ الدُّرِّيَّ في صفائِها وحسنِها، ومادَّتُه مِن أصفَى الأدْهانِ وأتمِّها وَقودًا مِن زَيتِ شجرةٍ في وسَطِ القَراحِ[1]، لا شرقيَّةٍ ولا غربيَّةٍ، فمِن شِدَّةِ إضاءةِ زَيتِها وصَفائِه وحُسنِه يَكادُ يُضيءُ مِن غيرِ أنْ تمسَّه نارٌ، فهذا المجموعُ المركَّبُ هو مثَلُ نورِ الله تعالَى الذي وضَعه في قلْبِ عَبدِه المؤمنِ وخصَّه به؛ فمثَلُ نُورِه في قلْبِ عبْدِه المُخلِصِ كمِشكاةٍ، والمِشكاةُ: القلْبُ، والمِصباحُ: النُّورُ الَّذي قُذِفَ فيه، والمعرفةُ تُضِيءُ في قلْبِ العارفِ بنُورِ التَّوفيقِ في مِصباحِ النُّورِ، توقَدُ مِن شَجرةٍ مُبارَكةٍ، تُضِيءُ على شخصٍ مُبارَكٍ، تتبيَّنُ أنوارُ باطنِه على آدابِ ظاهِرِه، وحُسنِ مُعامَلتِه، زَيتونةٍ لا شرقيَّةٍ ولا غربيَّةٍ، جَوهرةٍ صافيةٍ.

والطَّريقةُ الثانية: طريقةُ التَّشبيهِ المفصَّلِ؛ فقيل: المِشكاةُ صَدرُ المؤمنِ، والزُّجاجةُ قلبُه، وشَبَّه قلبَه بالزُّجاجةِ؛ لرِقَّتِها وصَفائِها وصَلابتِها، وكذلك قلبُ المؤمنِ فإنَّه قد جمَع الأوصافَ الثلاثةَ؛ فهو يَرحمُ ويُحسنُ ويتحنَّنُ ويُشفقُ على الخَلقِ برِقَّتِه. وبصَفائِه تَتجلَّى فيه صُوَرُ الحقائقِ والعُلومِ على ما هي عليه، ويُباعِدُ الكَدرَ والدَّرَنَ والوَسخَ بحسَبِ ما فيه مِن الصَّفاءِ، وبصَلابتِه يَشتدُّ في أمرِ الله تعالى، ويَتصلَّبُ في ذاتِ الله تعالى، ويُغلظُ على أعداءِ الله تعالى، ويَقومُ بالحقِّ لله تعالى. والمصباحُ هو نورُ الإيمانِ في قلبِه، والشجرةُ المباركةُ

(١) القَراحِ: أي: المَزْرَعةِ التي ليس فيها بِناءٌ ولا شَجَرٌ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٩٦).

هي شجرةُ الوحيِ المتضمِّنةُ للهُدَى ودِينِ الحقِّ، وهي مادَّةُ المِصباحِ التي يتَّقدُ منها. والنورُ على النورِ: نورُ الفِطرةِ الصَّحيحةِ والإدراكِ الصحيحِ، ونورُ الوحيِ والكِتابِ؛ فيَنضافُ أحدُ النُّورينِ إلى الآخَرِ فيَزدادُ العبدُ نورًا على نورٍ.

وقيل: هذا مَثَلٌ ضرَبَهُ اللهُ لنَبيِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: المِشكاةُ: صدْرُه، والزُّجاجةُ: قلْبُه، والمِصباحُ فيه: النُّبوَّةُ. والمِصباحُ: ما في قلْبِه مِن الدِّينِ. وقيل: المِشكاةُ: جوفُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والزُّجاجةُ: قلْبُه، والمِصباحُ: النُّورُ الَّذي فيه.

وقيل: الشَّجرةُ المُبارَكةُ شَجرةُ الوَحيِ، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾: تَكادُ حُجَّةُ القُرآنِ تتَّضِحُ وإنْ لم يُقْرَأْ. وقيل: هي شَجرةُ النُّبوَّةِ. وقيل وجْهٌ آخَرُ: وهو أنْ يُشبَّهَ القُرآنُ بالمِصباحِ على ما سبَقَ، ونفْسُه الزَّكيَّةُ الطَّاهرةُ صلواتُ اللهِ على صاحبِها بالشَّجرةِ؛ لكونِها ثابتةً مِن أرضِ الدِّينِ، مُتشعِّبةً فُروعُها إلى سماءِ الإيمانِ، مُتدلِّيةً أثمارُها إلى فضاءِ الإخلاصِ والإحسانِ؛ وذلك لاستقامتِها بمُقْتضَى قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، غيرَ مائلةٍ إلى طرفَي الإفراطِ والتَّفريطِ. ويُشبَّهُ ما مُحِّضَ مِن تلك الثَّمراتِ بعدَ التَّصفيةِ التَّامَّةِ للتَّهيئةِ، وقَبولِ تلك الأنوارِ: بالزَّيتِ الصَّافي؛ لوُفورِ قوَّةِ استعدادِها للاستضاءةِ، وهي الدُّهنيَّةُ القابلةُ للاشتعالِ، ومِن ثَمَّ خُصَّتْ شجرةُ الزَّيتونِ؛ لأنَّ لُبَّ ثَمرتِها الزَّيتُ الَّذي تشتعِلُ به المصابيحُ، وخُصَّ هذا الدُّهنُ؛ لمزيدِ إشراقِه، مع قِلَّةِ الدُّخَانِ، يَكادُ زيتُ استِعدادِه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه -لصفائِه وذَكائِه- يُضِيءُ ولو لم يمَسَّهُ نُورُ القُرآنِ[1].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩٥ - ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤٩ - ٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٠٨- ٦٠٩).

- وأيضًا ذُكِرَ في معنَى هذا التَّمثيلِ وُجوهٌ أُخرَى؛ الأوَّلُ: أنَّه تمثيلٌ للهُدى الَّذي دلَّتْ عليه الآياتُ المُبيِّناتُ في جَلاءِ مَدْلولِها، وظُهورِ ما تضمَّنَه مِن الهُدى بالمشكاةِ المنعوتةِ. الثاني: أنَّه تَشبيهٌ للهُدى مِن حيثُ إنَّه محفوفٌ بظُلماتِ أوهامِ النَّاسِ وخيالاتِهم بالمصباحِ، وإنَّما ولِيَ الكافُ المِشكاةَ؛ لاشتِمالِها عليه، وتَشبيهُه به أوفَقُ مِن تَشبيهِه بالشَّمسِ. وقيل غيرُ ذلك[1].

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿نُورِهِۦ﴾ عائدٌ إلى اسمِ الجَلالةِ، أي: مَثَلُ نورِ اللهِ سُبحانَه، أي: مثَلُه في إنارةِ عُقولِ المُهتدينَ؛ فالكلامُ تَمثيلٌ لهيئةِ إرشادِ اللهِ المؤمنينَ بهَيئةِ المِصباحِ الَّذي حفَّتْ به وسائلُ قوَّةِ الإشراقِ، فهو نورُ اللهِ لا مَحالةَ، وإنَّما أُوثِرَ تَشبيهُه بالمِصباحِ الموصوفِ بما معه مِن الصِّفاتِ دونَ أنْ يُشبَّهَ نُورُه بطُلوعِ الشَّمسِ بعدَ ظُلمةِ اللَّيلِ؛ لقصْدِ إكمالِ مُشابَهةِ الهيئةِ المُشبَّهِ بها بأنَّها حالةُ ظُهورِ نُورٍ يَبْدو في خِلالِ ظُلمةٍ، فتَنقشِعُ به تلك الظُّلمةُ في مِساحةٍ يُرادُ تَنويرُها. ودونَ أنْ يُشبَّهَ بهَيئةِ بزُوغِ القمَرِ في خِلالِ ظُلمةِ الأُفقِ؛ لقصْدِ إكمالِ المُشابَهةِ؛ لأنَّ القمَرَ يَبْدو ويَغيبُ في بعضِ اللَّيلةِ، بخِلافِ المصباحِ الموصوفِ، وبعْدَ هذا: فلأنَّ المقصودَ ذِكْرُ ما حفَّ بالمِصباحِ مِن الأدواتِ؛ لِيَتسنَّى كَمالُ التَّمثيلِ بقَبولِه تَفريقَ التَّشبيهاتِ، وذلك لا يتأتَّى في القمَرِ، والمثَلُ: تَشبيهُ حالٍ بحالٍ؛ فمعنى ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾: شَبيهُ هَدْيِه حالُ مِشكاةٍ... إلى آخرِه. فالمُشبَّهُ به هو المِشكاةُ وما يتْبَعُها[2].

- وإنَّما قدَّمَ المِشكاةَ في الذِّكرِ؛ لأنَّ المُشبَّهَ به هو مَجموعُ الهيئةِ؛ فاللَّفظُ الدَّالُّ على المُشبَّهِ به هو مَجموعُ المُركَّبِ المُبْتَدِئِ بقولِه: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾، والمُنْتهي بقولِه: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾؛ فلذلك كان دُخولُ كافِ الشَّبهِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩٨- ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٤، ٢٣٥).

على كلمةِ (مِشكاة) دونَ لفْظِ (مِصباح) لا يَقْتضي أصالةَ لفْظِ (مِشكاةٍ) في الهيئةِ المُشبَّهِ بها دونَ لفْظِ (مِصباح)، بلْ مُوجبُ هذا التَّرتيبِ مُراعاةُ التَّرتيبِ الذِّهنيِّ في تصوُّرِ هذه الهيئةِ المُتخيَّلةِ حين يلمَحُ النَّاظِرُ إلى انبثاقِ النُّورِ، ثمَّ ينظُرُ إلى مَصدرِه، فيَرى مِشكاةً، ثمَّ يَبْدو له مِصباحٌ في زُجاجةٍ[١].

- وهذا تَشبيهٌ بالِغٌ كَمالَ الإفصاحِ، بحيثُ هو مع أنَّه تَشبيهُ هَيئةٍ بهيئةٍ هو أيضًا مُفرَّقُ التَّشبيهاتِ لأجزاءِ المُركَّبِ المُشبَّهِ مع أجزاءِ المُركَّبِ المُشبَّهِ به؛ وذلك أقْصَى كَمالِ التَّشبيهِ التَّمثيليِّ في صناعةِ البلاغةِ، ولَمَّا كان المقصودُ تَشبيهَ الهَيئةِ بالهيئةِ والمُركَّبِ بالمُركَّبِ، حسُنَ دُخولُ حرفِ التَّشبيهِ على بَعضِ ما يدُلُّ على بعضِ المُركَّبِ؛ ليَكونَ قَرينةً على أنَّ المُرادَ التَّشبيهُ المُركَّبُ، ولو كان المُرادُ تَشبيهَ الهُدَى فقطْ، لَقال: نُورُه كمِصباحٍ في مِشكاةٍ... إلى آخرِه؛ فالنُّورُ هو مَعرفةُ الحقِّ على ما هو عليه، المُكتسَبةُ مِن وحْيِ اللهِ، وهو القُرآنُ. شُبِّهَ بالمصباحِ المحفوفِ بكُلِّ ما يَزيدُ نُورَه انتشارًا وإشراقًا[٢].

- وفي إعادةِ المصباحِ والزُّجاجةِ مُعرَّفينِ إثْرَ سبْقِهما مُنكَّرينِ، والإخبارِ عنهما بما بعْدَهما مع انتِظامِ الكلامِ بأنْ يُقالَ: كمشكاةٍ فيها مِصباحٌ في زُجاجةٍ، كأنَّها كَوكبٌ دُرِّيٌّ: مِن تفخيمِ شأْنِهما، ورفعِ مكانِهما؛ بالتَّفسيرِ إثْرَ الإبهامِ، والتَّفصيلِ بعْدَ الإجمالِ، وبإثباتِ ما بعْدَهما لهما بطريقِ الإخبارِ المُنْبِئِ عن القصْدِ الأصليِّ، دونَ الوَصفِ المَبْنيِّ على الإشارةِ إلى الثُّبوتِ في الجُملةِ- ما لا يَخْفى[٣].

- وإعادةُ لفْظِ المِصباحِ دونَ أنْ يُقالَ: فيها مِصباحٌ في زُجاجةٍ، كما قال:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٦).

﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للتَّنويهِ بذِكْرِ المِصباحِ؛ لأنَّه أعظَمُ أركانِ هذا التَّمثيلِ، وكذلك إعادةُ لَفْظِ الزُّجاجةِ في قولِه: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾؛ لأنَّه مِن أعظَمِ أركانِ التَّمثيلِ. ويُسمَّى مِثْلُ هذه الإعادةِ تَشابُهَ الأطرافِ في فنِّ البديعِ[1].

- قَولُه: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ إنَّما سلَكَ طريقَ التَّشبيهِ في التَّعبيرِ عن شدَّةِ صَفاءِ الزُّجاجةِ؛ لأنَّه أوجَزُ لفْظًا، وأبيَنُ وصْفًا. وهذا تَشبيهُ مُفردٍ في أثناءِ التَّمثيلِ، ولا حَظَّ له في التَّمثيلِ[2].

- وفي صِيغةِ المُضارعِ على قِراءةِ الأكثرينَ -﴿يُوقَدُ﴾ و(تَوَقَّدُ)- إفادةُ تجدُّدِ إيقادِه، أي: لا يَذْوِي ولا يُطفَأُ. وعلى القِراءةِ بصِيغةِ المُضِيِّ -(تَوَقَّدَ)- إفادةُ أنَّ وَقودَه ثبَتَ وتحقَّقَ[3].

- وذُكِرَتِ الشَّجرةُ باسمِ جِنْسِها، ثمَّ أُبْدِلَ منه ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ وهو اسمُ نَوعِها؛ للإبهامِ الَّذي يَعقُبُه التَّفصيلُ؛ اهتِمامًا بتقرُّرِ ذلك في الذِّهنِ، وتَفخيمًا لشأْنِها[4].

- ووَصَفَ الزَّيتونةَ بالمُبارَكةِ؛ لِمَا فيها مِن كثرةِ النَّفعِ؛ فإنَّها يُنتفَعُ بحَبِّها أكلًا، وبزَيتِها كذلك، ويُستنارُ بزَيتِها، ويدخُلُ في أدويةٍ وإصلاحِ أُمورٍ كثيرةٍ، ويُنتفَعُ بحطَبِها، وهو أحسَنُ حطَبٍ؛ لأنَّ فيه المادَّةَ الدُّهنيَّةَ، قال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٦).

تَشابُهِ الأطرافِ: وهو أنْ يَنظُرَ المُتكلِّمُ إلى لفظةٍ وقَعَتْ في آخرِ جُملةٍ مِن الفقرةِ في النَّثرِ، أو آخرِ لفْظةٍ وقعَتْ في آخرِ المِصراعِ الأوَّلِ في النَّظمِ؛ فيَبْتدِئُ بها. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٠).

﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، ويُنتفَعُ بجَودةِ هواءِ غاباتِها. وقد قِيل: إنَّ بَركتَها؛ لأنَّها مِن شجَرِ بلادِ الشَّامِ، والشَّامُ بَلدٌ مُبارَكٌ مِن عهْدِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ قال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، يُرِيد أرضَ الشَّامِ. ووَصْفُ الزَّيتونةِ بـ ﴿مُّبَٰرَكَةٖ﴾ على هذا وصْفٌ كاشفٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ وصْفًا مُخصِّصًا لـ ﴿زَيۡتُونَةٖ﴾، أي: شَجرةٍ ذاتِ بَركةٍ، أي: نَماءٍ ووَفرةِ ثمَرٍ مِن بيْنِ شجَرِ الزَّيتونِ؛ فيكونَ ذِكْرُ هذا الوصْفِ لتَحسينِ المُشبَّهِ به؛ ليَنجَرَّ منه تَحسينٌ للمُشبَّهِ(١).

- وفي قولِه: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ وصْفٌ لـ ﴿زَيۡتُونَةٖ﴾، دخَلَ حرْفُ (لا) النَّافيةِ في كِلَا الوصفينِ، فصار بمَنزلةِ حَرفِ هِجاءٍ مِن الكلمةِ بعْدَه؛ لإفادةِ الاتِّصافِ بنفْيِ كلِّ وصْفٍ، وعُطِفَ على كلِّ وصْفٍ ضِدُّه؛ لإرادةِ الاتِّصافِ بوصْفٍ وسَطٍ بيْن الوصفَينِ المَنْفيَّينِ؛ لأنَّ الوصفَينِ ضِدَّانِ، على طريقةِ قولِهم: الرُّمَّانُ حُلوٌ حامضٌ. والعطْفُ هنا مِن عطْفِ الصِّفاتِ؛ كقولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، والمعنى: أنَّها زَيتونةٌ جِهتُها بيْن جِهةِ الشَّرقِ وجِهةِ الغرْبِ، فنَفى عنها أنْ تكونَ شرقيَّةً وأنْ تكونَ غربيَّةً، وهذا الاستِعمالُ مِن قَبيلِ الكِنايةِ؛ لأنَّ المقصودَ لازمُ المعنى لا صريحُه. وأمَّا إذا لم يكُنِ الأمرانِ المَنفيَّانِ مُتضادَّينِ، فإنَّ نَفْيَهما لا يَقْتضي أكثَرَ مِن نفْيِ وُقوعِهما؛ كقولِه تعالى: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ * لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٣، ٤٤]. وهذا الاستعمالُ يكونُ في عطْفِ نفْيِ الأسماءِ(٢).

- قولُه: ﴿وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾ مُبالَغةٌ في صَفاءِ الزَّيتِ، وأنَّه -لإشراقِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٤٠، ٢٤١).

وجَودتِه- يكادُ يُضِيءُ مِن غيرِ نارٍ[١].

- وكلمةُ (لو) لبَيانِ تحقُّقِ ما يُفِيدُه الكلامُ السَّابقُ مِن الحُكْمِ المُوجَبِ على كلِّ حالٍ مَفروضٍ مِن الأحوالِ المُقارِنةِ له إجمالًا بإدخالِها على أبعَدِها منه؛ إمَّا لوُجودِ المانعِ كما في قولِه تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، وإمَّا لعدَمِ الشَّرطِ كما في هذه الآيةِ الكريمةِ؛ لِيَظهرَ بثُبوتِه أو انتفائِه معه ثُبوتُه أو انتفاؤُه مع عداهُ مِن الأحوالِ بطريقِ الأولويَّةِ؛ لِمَا أنَّ الشَّيءَ متى تحقَّقَ مع ما يُنافِيه مِن وُجودِ المانعِ أو عدَمِ الشَّرطِ، فلَأنْ يتحقَّقَ بدونِ ذلك أَولى. وتَقديرُ الآيةِ الكريمةِ: يَكادُ زيتُها يُضِيءُ لو مسَّتْه نارٌ ولو لم تمَسَّهُ نارٌ، أي: يُضِيءُ كائنًا على كلِّ حالٍ مِن وُجودِ الشَّرطِ وعدَمِه، وقد حُذِفَتِ الجُملةُ الأُولى حسْبَما هو المُطَّردُ في البابِ؛ لدَلالةِ الثَّانيةِ عليها دَلالةً واضحةً[٢].

- قَولُه: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ هو صِفةٌ له، مُؤكِّدةٌ لِما أفادَهُ التَّنكيرُ مِن الفَخامةِ، والجُملةُ فَذْلكةٌ للتَّمثيلِ، وتَصريحٌ بما حصَلَ منه، وتَمهيدٌ لِمَا يَعقُبُه، أي: ذلك النُّورُ الَّذي عُبِّرَ به عن القُرآنِ[٣].

- وفي تَنكيرِ قولِه: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ ضَربٌ مِن الفَخامةِ والمُبالَغةِ[٤].

- جُملةُ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ مُستأنَفةٌ، إشارةً إلى أنَّ المقصودَ مِن مجموعِ أجزاءِ المُركَّبِ التَّمثيليِّ هنا هو البُلوغُ إلى إيضاحِ أنَّ الهيئةَ المُشبَّهَ بها قد بلغَتْ حدَّ المُضاعَفةِ لوسائلِ الإنارةِ؛ إذ تظاهَرَتْ فيها المِشكاةُ والمِصباحُ والزُّجاجُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٦، ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦١١).

الخالصُ والزَّيتُ الصَّافي؛ فالمِصباحُ إذا كان في مِشكاةٍ، كان شُعاعُه مُنحصِرًا فيها غيرَ مُنتشِرٍ، فكان أشدَّ إضاءةً لها ممَّا لو كان في بَيتٍ، وإذا كان مَوضوعًا في زُجاجةٍ صافيةٍ تضاعَفَ نُورُه، وإذا كان زَيتُه نقيًّا صافيًا كان أشدَّ إسراجًا؛ فحصَلَ تَمثيلُ حالِ الدِّينِ أو الكتابِ المُنزَّلِ مِن اللهِ في بَيانِه وسُرعةِ فُشوِّه في النَّاسِ، بحالِ انبثاقِ نُورِ المِصباحِ وانتشارِه فيما حفَّ به مِن أسبابِ قوَّةِ شُعاعِه وانتشارِه في الجهةِ المُضاءةِ به[١].

- قَولُه: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيه إظهارُ كَلمةِ النُّورِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزِيادةِ تَقريرِه، وتأكيدِ فَخامتِه الذَّاتيَّةِ بفَخامَتِه الإضافيَّةِ النَّاشئةِ مِن إضافتِه إلى ضَميرِه عَزَّ وجَلَّ[٢].

- قَولُه: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ إظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في مَقامِ الإضمارِ؛ للإيذانِ باختِلافِ حالِ ما أُسنِدَ إليه تعالى مِن الهدايةِ الخاصَّةِ، وضَرْبِ الأمثالِ الَّذي هو مِن قَبيلِ الهدايةِ العامَّةِ، كما يُفصِحُ عنه تَعليقُ الأُولى بمَن يشاءُ، والثَّانيةِ بالنَّاسِ كافَّةً[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ الإشعارُ بأنَّ هذه تَقريباتٌ وتلْويحاتٌ بحسَبِ الاستِعداداتِ، وأنَّ بَيانَ نُورِه الحقيقيِّ لا يسَعُه نِطاقُ التَّحريرِ، لكنَّ اللهَ بعِلْمِه الواسعِ يَعلَمُ حَقيقتَه، واللهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ[٤].

- قَولُه: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذه الجُملُ الثَّلاثُ مُعترضةٌ، أو تَذييلٌ للتَّمثيلِ، والمعنى: دفْعُ التَّعجُّبِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٧٧، ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩٩).

مِن عدَمِ اهتِداءِ كثيرٍ مِن النَّاسِ بالنُّورِ الَّذي أنزلَهُ اللهُ، وهو القُرآنُ والإسلامُ؛ فإنَّ اللهَ إذا لم يشَأْ هدْيَ أحَدٍ خلَقَه وجبَلَه على العِنادِ والكُفرِ، وأنَّ اللهَ يَضرِبُ الأمثالَ للنَّاسِ مَرْجُوًّا منهم التَّذكُّرُ بها: فمِنْهم مَن يَعتبِرُ بها فيَهْتدي، ومنْهم مَن يُعرِضُ فيَستمِرُّ على ضَلالِه، ولكنْ شأْنُ تلك الأمثالِ أنْ يَهتدِيَ بها غيرُ مَن طُبِعَ على قلْبِه(١).

- قَولُه: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ ...﴾ جاء مفصولًا للاستِئنافِ، وبَيانِ أنَّ اللهَ يختَصُّ بتلك الهدايةِ مَن يشاءُ، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩]، ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ [النور: ٤٠] جاء مُقابِلًا لهذه الآياتِ، والمعنى: أنَّ أعمالَهم الصَّالحةَ الَّتي لم تكُنْ مُقتبسةً مِن مِشكاةِ النُّبوَّةِ ضائعةٌ؛ ألَا ترى كيف أوقَعَ قولَه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّ الكافرَ كان فاقِدَ ذلك النُّورِ عند عمَلِه؟ وقولُه: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ مُقابِلٌ لقولِه: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾؛ ولهذا ختَمَها بقولِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾. وقيل: إنَّه تعالى لمَّا وصَفَ هِدايةَ المؤمنِ بأنَّها في نِهايةٍ مِن الجَلاءِ والظُّهورِ، عقَّبَها بأنْ قال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، ولمَّا وصَفَ ضَلالةَ الكافرِ بأنَّها في نِهايةِ الظُّلمةِ، عقَّبَها بقولِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]؛ مُظهِرًا أنَّ المُرادَ بالنُّورِ: الهدايةُ بإنزالِ الكُتبِ وإرسالِ الرُّسلِ، شبَّهَها في ظُهورِها في نفْسِها والبَيانِ والجَلاءِ، وفي كَونِها مُبَيِّنًا لغيرِها ممَّا يُناطُ به أمرُ الدِّينِ بالنُّورِ؛ لأنَّه ظاهرٌ في نفْسِه، مُظهِرٌ لغيرِه(٢).

- قَولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ لمَضمونِ الجُملتينِ قبْلَها، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩٢).

لا يَعزُبُ عن عِلْمِه شَيءٌ، ومِن ذلك عِلْمُ مَن هو قابِلٌ للهُدى، ومَن هو مُصِرٌّ على غيِّه. وهذا تَعريضٌ بالوعدِ للأوَّلينَ، والوعيدِ للآخِرينَ[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ إظهارُ الاسمِ الجَليلِ ﴿وَٱللَّهُ﴾؛ لتأكيدِ استِقلالِ الجُملةِ، والإشعارِ بعلَّةِ الحُكْمِ وبما ذُكِرَ مِن اختلافِ حالِ المحكومِ به ذاتًا وتعلُّقًا[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨).

الآيات (٢٦-٢٨)

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِۙ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (غدو): يَدلُّ على زمانٍ[1].

﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾: أي: آخِرَ النَّهارِ وَقتَ اصفِرارِ الشَّمسِ في آخرِ المساءِ، وأصلُ (أصل): يَدلُّ على زمانٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله سبحانَه أهمَّ أماكنِ هذا النورِ، ومَن ينتفعُ به، فيقولُ تعالى: في مَساجِدَ أَذِنَ سبحانَه أن تُبنى وتُشادَ، وتُعظَّمَ وتُطهَّرَ، ويُذكَرَ فيها اسمُ الله، يُسبِّحُ للهِ فيها بإخلاصٍ في أوَّلِ النَّهارِ وفي آخِرِه- رجالٌ لا تُلهيهم تِجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذِكرِ رَبِّهم، وإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ لِمُستحقِّيها، يخافونَ يومَ القيامةِ الذي تَضْطَرِبُ مِن شِدَّةِ هَولِه وفزَعِه قلوبُ النَّاسِ وأبصارُهم؛ ليُكافِئَهم اللهُ على أعمالِهم في الدُّنيا بأحسَنِ ما عَمِلوا، ويَزيدَهم مِن فَضلِه جزاءً عليها، واللهُ يرزُقُ مَن يشاءُ بغيرِ حِسابٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧٦).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ضَرَب اللهُ المَثَلَ لهذا النُّورِ، جَعَل ظَرْفَه أحسَنَ البِقاعِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان نورُ الإيمانِ والقُرآنِ أكثَرُ وقوعِ أسبابِه في المساجِدِ، ذكَرَها اللهُ تعالى مُنَوِّهًا بها، فقال تعالى[(٢)]:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ ﴾.

أي: في مَساجِدَ[(٣)] أمرَ اللهُ أن تُرفَعَ حِسًّا في البناءِ، وتُرفَعَ معنًى بتَعظيمِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٥٦٨).

(٣) قال الرسعني: (قولُه تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ ... قال ابنُ عبَّاسٍ وأكثرُ المفسِّرينَ: يعني: المساجدَ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٥٨). ونسَبَه الواحديُّ أيضًا لأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٨٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاس، وسالم بن عمر، وعِكْرِمةُ في رواية عنه، وأبو صالح، ومجاهد في رواية عنه، والضحَّاكُ، والحسن في رواية عنه، ونافع بن جُبَير، وأبو بكر ابن سليمان بن أبي حَثْمَةَ، وسفيان بن حسين، وقتادة، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٠٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٠٢).

وقال الشوكاني: (قَولُه: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ ﴾ بمَ هو مُتعَلِّقٌ؟ فقيل: مُتعَلِّقٌ بما قَبْلَه، أي: كمِشْكاةٍ في بَعضِ بُيوتِ اللهِ، وهي المساجِدُ، كأنَّه قيل: مَثَلُ نُورِه كما ترى في المَسجِدِ نُورَ المِشْكاةِ التي من صِفَتِها كَيْتَ وكَيْتَ. وقيل: مُتعَلِّقٌ بمِصْباح. وقال ابنُ الأنباري: سمِعتُ أبا العبَّاسِ يقولُ: هو حالٌ للمِصباحِ والزُّجاجةِ والكَوكَبِ، كأنَّه قيل: وهي في بُيوتٍ. وقيل: مُتعَلِّقٌ بـ﴿يُوقَدُ﴾، أي: يُوقَدُ في بُيوتٍ. وقد قيل: متعَلِّقٌ بما بعْدَه، وهو: ﴿يُسَبِّحُ﴾، أي: يُسَبِّحُ له رِجالٌ في بُيوتٍ، وعلى هذا يكونُ قَولُه: ﴿فِيهَا﴾ تكريرًا، كقَولِك: زيدٌ في الدَّارِ جالِسٌ فيها. وقيل: إنَّه مُنفَصِلٌ عمَّا قَبْلَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠). =

وتَطهيرِها وتَنزيهِها عن كلِّ ما لا يَليقُ بها؛ مِن الرَّوائِحِ الكريهةِ، والأقوالِ السَّيِّئةِ، وغيرِ ذلك[1].

= وممَّن اختار أنَّ الجارَّ والمجرورَ مُتعَلِّقانِ بمِشكاةٍ: الزجَّاجُ، والزمخشري، والغزنوي، والبقاعي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٢)، ((باهر البرهان)) للغزنوي (٢/ ١٠٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٧).

وممَّن اختار أن الجارَّ والمجرورَ ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ متعلِّقانِ بـ (مصباح) المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾، أي: ذلك المِصباحُ في بُيوتٍ أذِنَ اللهُ أن تُرفَعَ: السمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والخازن، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٠٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١١١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٧).

قال الشنقيطيُّ بعدَ أن ذكَر هذَينِ القولينِ السَّابِقينِ: (وكِلاهما مُتقاربانِ، والمرادُ كينونةُ هذا النُّورِ العظيمِ في أعظَمِ المواضعِ المناسِبةِ له، وهي المساجدُ؛ لأنَّها بُنِيت لهذا النُّورِ خاصَّةً). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٤١).

وممَّن اختار أنَّ قَولَه: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ متعلِّقٌ بقولِه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا ﴾ والتَّقديرُ: يُسَبِّحُ للهِ رِجالٌ في بُيوتٍ: جلال الدين المحلِّي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥١).

قال الواحدي: (الاختيارُ ألَّا تُجعَلَ هذه الآيةُ مُتَّصِلةً بما قَبلَها؛ لأنَّ الآيةَ الأُولى في ضَربِ المثَلِ لنُورِ المُؤمِنِ بالمِشْكاةِ التي فيها مِصباحٌ يُزهِرُ بزَيتٍ مُضيءٍ، ولا فائِدةَ في وَصفِ المِصْباحِ بكَونِه في بُيوتٍ أو في غَيرِها، ولا تأكيدَ لِضَوئِها بأن تُوصَفَ أنَّها في بُيوتٍ يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ، وأيضًا فإنَّه وَحَّدَ المِشْكاةَ وجَمَع البُيوتَ، ولا تكونُ مِشكاةٌ في بُيوتٍ؛ فإذَنِ الأَوْلى أن يقالَ: قَولُه: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ ابتِداءُ كَلامٍ في وَصفِ مَساجِدِ المُؤمِنينَ الذين يَذكُرونَ اللهَ فيها ويَعبُدونَه ويُصَلُّونَ له). ((البسيط)) (١٦/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٦٦، ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

عن عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن بنى مَسجِدًا -قال بُكَيرٌ[١]: حَسِبتُ أنَّه قال: يَبتغي به وجْهَ اللهِ- بنى الله له مِثلَه في الجنَّةِ))[٢].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ هذه المساجِدَ لا تصلُحُ لشَيءٍ مِن هذا البَولِ ولا القَذَرِ، إنَّما هي لِذِكرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، والصَّلاةِ، وقراءةِ القرآنِ)) أو كما قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن سَمِعَ رجُلًا يَنشُدُ ضالَّةً[٤] في المسجِدِ، فلْيَقُلْ: لا ردَّها الله عليك؛ فإنَّ المساجِدَ لم تُبْنَ لهذا))[٥].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((من أكَلَ البصَلَ والثُّومَ والكُرَّاثَ فلا يقرَبَنَّ مَسجِدَنا؛ فإنَّ الملائكةَ تتأذَّى ممَّا يتأذَّى منه بنو آدَمَ))[٦].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لِيَلِني منكم أُولو الأحلامِ والنُّهى، ثمَّ الذين يَلونَهم -ثلاثًا-، وإيَّاكم

---

(١) بكيرُ بنُ عبد الله الاشجُّ، وهو أحدُ رواةِ الحديثِ. ينظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٤/ ٢١١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٠)، ومسلم (٥٣٣).

(٣) رواه مسلم (٢٨٥).

(٤) يَنشُدُ ضالَّةً: أي: يَطلُبُها برَفعِ الصَّوتِ ويَسألُ عنها، والضَّالَّةُ: الحَيوانُ الضَّائِعُ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٢/ ٤١٣).

(٥) رواه مسلم (٥٦٨).

(٦) رواه البخاري (٨٥٤)، ومسلم (٥٦٨) واللفظ له.

وهَيْشاتِ الأسواقِ[١]))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أنَّه نهى عن تَناشُدِ الأشعارِ في المسجِدِ، وعن البَيعِ والاشتِراءِ فيه، وأن يتحَلَّقَ[٣] النَّاسُ فيه يومَ الجمُعةِ قبْلَ الصَّلاةِ))[٤].

﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾.

أي: وأذِنَ اللهُ لعِبادِه أن يَذْكُروا في المساجِدِ اسمَه وحْدَه لا شريكَ له[٥].

كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

---

(١) هَيشاتِ الأسواقِ: أي: اختِلاطَها، والمُنازَعةَ والخُصوماتِ، وارتِفاعَ الأصواتِ، واللَّغَطَ والفِتَنَ التي فيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٤/ ١٥٦).

(٢) رواه مسلم (٤٣٢).

(٣) يتحَلَّقَ النَّاسُ: أي: يَجلِسوا على هَيئةِ الحَلْقةِ، يُقالُ: تحَلَّقَ القَومُ: إذا جَلَسوا حَلْقةً حَلْقةً. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٦١٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٢٢) واللَّفظُ له، والنَّسائي (٧١٥)، وابن ماجه (٧٤٩)، وأحمد (٦٦٧٦). حَسَّنه الترمذي، وصَحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (١/ ٣٥٤)، وحَسَّنه النووي في ((المجموع)) (٢/ ١٧٧)، وابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٢٩٧)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٢)، وجوَّد أسانيدَه ابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (١٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٦).

قال ابن عثيمين: (المرادُ أنَّ اللهَ يُذكَرُ بأسمائِه؛ لأنَّه إذا ذُكِرَ الاسمُ ذُكِرَ المُسمَّى، لكِنْ بأيِّ شيءٍ يُذكَرُ؟ بالقراءةِ والتَّسبيحِ...، المهِمُّ أن يُذكَرَ بالثَّناءِ والتَّمجيدِ، وهذا يشمَلُ الصَّلاةَ وغيرَ الصَّلاةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥٣).

وقال الشوكاني: (﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ يُتْلَى فيها كِتابُه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤).

وقال ابن عطية: (وذكرُ اسْمِه تعالى، هو بالصلاةِ والعبادةِ قولًا وفعلًا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٦).

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما اجتمَعَ قَومٌ في بَيتٍ مِن بُيوتِ اللهِ، يتلُونَ كِتابَ الله، ويَتدارَسونَه بيْنهم، إلَّا نزلتْ عليهمُ السَّكينةُ، وغَشِيَتْهمُ الرَّحمةُ، وحفَّتْهمُ الملائِكةُ، وذكَرَهمُ اللهُ فيمَن عِندَه))[(١)].

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾.

أي: يُسبِّحُ للهِ بإخلاصٍ في المساجِدِ في أوَّلِ النَّهارِ وفي آخِرِه[(٢)].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٩، ٣٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٦، ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قال ابن الجوزي: (﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ فِيها قولانِ:

أحَدُهما: أنَّه الصَّلاةُ، ثمَّ في صلاةِ الغُدُوِّ قولانِ: أحَدُهما: أنَّها صلاةُ الفَجرِ. رواه ابنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ. والثاني: صلاةُ الضُّحى، روى ابنُ أبي مُلَيكة عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: إنَّ صلاةَ الضُّحى لَفِي كِتابِ اللهِ، وما يَغوصُ عليها إلَّا غوَّاصٌ، ثمَّ قرأ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾. وفي صلاةِ الآصالِ قولانِ؛ أحَدُهما: أنَّها صَلاةُ الظُّهرِ والعَصرِ والمَغرِبِ والعِشاءِ، قاله ابنُ السَّائبِ. والثَّاني: صلاةُ العَصرِ. قاله أبو سليمانَ الدمشقيُّ.

والقَولُ الثَّاني: أنَّه التَّسبيحُ المعروفُ. ذكره بعضُ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ: الصَّلاةُ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والرسعني، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٨).

وعزا الثَّعلبيُّ والبَغَويُّ إلى أهلِ التَّفسيرِ القَولَ بأنَّ المرادَ الصَّلواتُ المَفروضةُ، وأنَّ التي تُؤدَّى بالغَداةِ صَلاةُ الصُّبحِ، والتي تُؤدَّى بالآصالِ صَلاةُ الظُّهرِ والعَصرِ والعِشاءَينِ، وعزاه =

كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

وعن عُمارةَ بنِ رُؤَيْبةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لن يَلِجَ النَّارَ أحَدٌ صلَّى قبلَ طلوعِ الشَّمسِ وقبلَ غُروبِها)) يعني: الفجرَ والعَصرَ(١).

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾.

= القرطبيُّ والشوكانيُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١).

وقيل: الغُدُوُّ: صلاةُ الصُّبحِ، والآصالُ: الظُّهرُ والعَصرُ. وممَّن اختاره: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٣٧).

وقيل: المرادُ: صلاةُ الصُّبحِ وصلاةُ العَصرِ. وممَّن اختاره: مكِّيٌّ، والسمعاني. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ: التَّنزيهُ: الشوكانيُّ، فقال: (قيل: المرادُ بالتَّسبيحِ هنا: معناه الحقيقيُّ، وهو تنزيهُ اللهِ سُبحانَه عمَّا لا يليقُ به في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، ويؤيِّدُ هذا ذِكرُ الصَّلاةِ والزَّكاةِ بَعْدَه، وهذا أرجَحُ ممَّا قَبْلَه؛ لكَونِه المعنى الحقيقيَّ، مع وجودِ دليلٍ يدُلُّ على خِلافِ ما ذهب إليه الأوَّلونَ، وهو ما ذكَرْناه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١).

وممَّن اختار الجَمْعَ بين المعنيَينِ السَّابِقَينِ: البِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥٣).

قال السعدي: (يدخُلُ في ذلك التَّسبيحُ في الصَّلاةِ وغَيرِها؛ ولهذا شُرِعت أذكارُ الصَّباحِ والمساءِ وأورادُهما عندَ الصَّباحِ والمساءِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ أعمُّ مِن كَونِهم يُصَلُّون، بل هم يُسَبِّحون اللهَ بالصَّلاةِ وغَيرِها مِمَّا يكونُ به تنزيهُ اللهِ سُبحانه وتعالى). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥٣).

(١) رواه مسلم (٦٣٤).

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

أي: رِجالٌ لا تَشغَلُهم أيُّ تجارةٍ ولا أيُّ بيعٍ عن ذِكرِ اللهِ تعالى(١).

﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾.

أي: ولا تَشغَلُهمُ التِّجارةُ ولا البيعُ عن حُضورِ المساجِدِ لأداءِ الصَّلواتِ بحُدودِها في أوقاتِها، ولا عن أداءِ الزَّكاةِ لِمُستحِقِّيها في وقتِها(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بذكرِ الله هنا: الأذانُ؛ لأنَّهم كانوا إذا سَمِعوا المؤذِّنَ ترَكوا بيعَهم، وقاموا إلى الصَّلاةِ: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٣٨).

وقيل: المرادُ بذكرِ الله: حُضورُ المساجِدِ لإقامةِ الصَّلَواتِ. ومِمَّن اختاره: الواحديُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٩).

واختار مقاتلُ بنُ سليمانَ والعليميُّ أنَّ المرادَ: الصَّلواتُ المفروضةُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٢).

وقيل: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ باللِّسانِ والقَلبِ. ومِمَّن اختاره: النَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٨).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٩١).

وقال الشوكانيُّ: (ومعنى ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: هو ما تقدَّمَ في قَولِه: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾)، وذكَر في تفسيرِ هذه الآيةِ أنَّ المرادَ: يُتْلَى فيها كتابُه. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٣، ٣٢٤)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥١١٧، ٥١١٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٩).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى لإيتاءِ الزكاةِ: مكيُّ بن أبي طالب، والرازي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥١١٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢).

وقيل: معناها: طاعةُ الله تعالى، والإخلاصُ له. وممَّن رُوي عنه القولُ بذلك: ابنُ عباسٍ -رَضِيَ اللهُ عنهما- في إحدى الرِّوايتينِ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٤). =

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان تَركُ الدُّنيا شديدًا على أكثَرِ النُّفوسِ، وحُبُّ المكاسِبِ بأنواعِ التِّجاراتِ محبوبًا لها، ويشُقُّ عليها تَركُه في الغالبِ، وتتكَلَّفُ من تقديمِ حَقِّ الله على ذلك- ذكرَ ما يدعوها إلى ذلك ترغيبًا وترهيبًا، فقال[1]:

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

أي: يخافونَ يومَ القيامةِ الذي تتحَرَّكُ وتَضْطَرِبُ فيه قلوبُ النَّاسِ وأبصارُهم؛ مِن شِدَّةِ الأهوالِ والفَزَعِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ

= قال الرازي: (اختلفوا في الصَّلاةِ؛ فمنهم مَن قال: هي الفرائِضُ، ومنهم مَن أدخَلَ فيها النَّفلَ ...، والأوَّلُ أقرَبُ؛ لأنَّه إلى التَّعريفِ أقرَبُ، وكذلك القَولُ في الزَّكاةِ أنَّ المرادَ المفروضُ؛ لأنَّه المعروفُ في الشَّرعِ المُسمَّى بذلك، وقال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: المرادُ مِن الزَّكاةِ: طاعةُ اللهِ تعالى والإخلاصُ، وكذا في قَولِه: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٥]، وقَولِه: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [النور: ٢١]، وقَولِه: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وهذا ضَعيفٌ؛ لِما تقَدَّم، ولأنَّه تعالى عَلَّق الزَّكاةَ بالإيتاءِ، وهذا لا يُحمَلُ إلَّا على ما يُعطى مِن حُقوقِ المالِ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٨).

وقيل: معنى تقَلُّبِ القُلوبِ: أنَّ النَّاسَ يومَ القيامةِ يَكونونَ بيْنَ الطَّمَعِ بالنَّجاةِ، والحَذَرِ مِنَ الهلاكِ، ومعنى تقَلُّبِ الأبصارِ: أنَّهم يَنظُرونَ إلى أيِّ ناحيةٍ يُؤخَذُ بهم: أذاتَ اليمينِ أمْ ذاتَ الشِّمالِ؟ ومِن أين يُؤتَونَ كُتُبَهم: أمِنْ قِبَلِ الأيمانِ أم مِن قِبَلِ الشَّمائِلِ؟ ومِمَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٢).

مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۞ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ٧ - ١٠].

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أفعالَ هؤلاء الرِّجالِ التي أقبَلوا بها عليه، وأعرَضوا عمَّا عداه؛ بيَّنَ غايتَهم فيها، فقال تعالى[(١)]:

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾.

أي: أنَّهم فَعَلوا ما فَعَلوا[(٢)]؛كي يُثيبَهمُ اللهُ يومَ القيامةِ بأحسَنِ ما عَمِلوه في

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٨١).

(٢) قال أبو حيان: (اللامُ في ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ مُتعَلِّقةٌ بمحذوفٍ، أي: فعَلوا ذلك لِيَجزيَهم، ويجوزُ أن تتعلَّقَ بـ﴿يُسَبِّحُ﴾، وهو الظَّاهِرُ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠).

مِمَّن اختار في الجُملةِ القَولَ الأوَّلَ، أي: اشتَغَلوا بذِكرِ اللهِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ؛ لِيَجزيَهم، أو فعلوا ذلك، أو يَفعَلون ما يَفعَلون مِن هذه القُرُباتِ؛ لِيَجزيَهم: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن عطية، والرازي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢).

ومِمَّن اختار القَولَ الثَّانيَ: أنَّها تتعَلَّقُ بـ﴿يُسَبِّحُ﴾: الواحديُّ، وابن الجوزي، وأبو حيان. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠).

وممَّن قال بأنَّ المعنى: يُسَبِّحونَ ويخافون؛ لِيَجزيَهم ثوابَهم: الزمخشريُّ، والنسفي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٨)، ((أضواء البيان)) =

الدُّنيا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

= للشنقيطي (٥/ ٥٤٩).

وقال ابنُ عاشور: (ويتعلَّقُ قَولُه: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ بـ﴿يَخَافُونَ﴾، أي: كان خَوفُهم سَبَبًا للجَزاءِ على أعمالِهم النَّاشِئةِ عن ذلك الخَوفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قيل: المرادُ بالأحسَنِ: جميعُ الحَسَناتِ وما عَمِلوا من الخيرِ، فهي موصوفةٌ في مُقابَلةِ الذُّنوبِ بأنَّها أحسَنُ، ولهم مَساوئُ فلا يَجزيهم بها. ومِمَّن اختار هذا القَولَ: مقاتل بن سليمان، والواحدي، وابن الجوزي، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٩).

وقيل: المرادُ: أحسَن جزاءِ أعمالِهم حَسْبَما وعَدَهم مِن تضعيفِ ذلك إلى عَشَرةِ أمثالِه وإلى سبْعِ مئةِ ضِعفٍ . وممَّن قال بذلك: الزمخشريُّ، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٣٨).

وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾: أعمالُهم الحَسَنةُ الصَّالحةُ؛ لأنَّها أحسَنُ ما عَمِلوا؛ لأنَّهم يَعمَلونَ المباحاتِ وغيرَها، فالثَّوابُ لا يَكونُ إلَّا على العمَلِ الحسَنِ. وممَّن قال بذلك: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

وهذا على القَولِ بأنَّ المباحَ ليس مِن قِسمِ الحَسَنِ. واختار الشنقيطيُّ أنَّ الآيةَ تدُلُّ على أنَّ المباحَ مِن الحَسَنِ؛ وعليه فإنَّ أعمالَ الإنسانِ منها الحَسَنُ -وهو المباحُ- وهذا لا يُجازَى عليه، ومنها الأحسَنُ، وهو المندوبُ والواجِبُ، وهما المرادُ بقَولِه: ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾. يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤٦).

وقيل: يَجزيهم أحسَنَ وأفضَلَ مِن أعمالِهم، وهو الجنَّةُ. وقيل: يَجزيهم ويَغفِرُ لهم بأحسَنِ أعمالِهم، ويبقى سائِرُ أعمالِهم فَضْلًا. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥).

وقال سُبحانَه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: ويَزيدَهمُ اللهُ على ثوابِ أعمالِهم الصَّالحةِ فَوقَ ما يستَحِقُّونَه بأعمالِهم(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: واللهُ يتفضَّلُ على مَن يشاءُ، فيَرزُقُه أرزاقًا كثيرةً لا حدَّ لها ولا عَدَّ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٩).

قال أبو السعود: (﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يتفضَّلَ عليهم بأشياءَ لم تُوعَدْ لهم بخصوصيَّاتِها أو بمقاديرِها، ولم تخطُرْ ببالِهم كيفيَّاتُها ولا كَمِّيَّاتُها، بل إنَّما وُعِدَت بطريقِ الإجمالِ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٠).

وقال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ هذا زائِدٌ على ثوابِ العمَلِ، وذلك ما يَحصُلُ مِن زيادةِ الأعمالِ الصَّالحةِ، وزيادةِ الرِّزقِ في الدُّنيا، وزيادةِ ما يُدَّخَرُ لهم عندَ الله في الجنَّةِ؛ كالنَّظَرِ إلى وَجهِ اللهِ سُبحانَه وتعالى). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٥)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٦/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٠).

مِمَّن اختار أنَّ المعنى: مِن غيرِ أن يُحاسِبَه على ما بَذَل له وأعطاه، فيَرزُقُه ولا يُحاسِبُه: ابنُ جرير، والسمرقندي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨١).

وقال مقاتل بن سليمان: (﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يقولُ اللهُ تعالى: ليس فوقي مَلِكٌ يُحاسِبني، أنا المَلِكُ أُعطي مَن شِئتُ بغيرِ حِسابٍ، لا أخافُ مِن أحدٍ يُحاسِبُني). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠١).

=

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ فيه دليلٌ على حَثِّ المسلمين أنْ يُصَلُّوا في المساجدِ[(١)]، وفيه استِحبابُ ذِكرِ الله فيها[(٢)].

٢- قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۞ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وصْفُه تعالى لهؤلاء الرِّجالِ الذين يُسَبِّحون له بالغدُوِّ والآصالِ بكَونِهم لا تُلهيهم تِجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذِكرِ اللهِ، وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، على سبيلِ مَدحِهم والثَّناءِ

= وقال يحيى بن سلام: (قَولُه: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ بغيرِ أن يُحاسِبَ نفْسَه، أي: لا يَنقُصُ ما عندَ اللهِ كما يَنقُصُ ما في أيدي النَّاسِ). ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٣).

وقيل: هو كنايةٌ عن كثرةِ العَطاءِ وسَعتِه، فهو يُوسِّعُ كأنَّه لا يَحسِبُ ما يُنفِقُه ويُعطيه. ومِمَّن اختار هذا القَولَ في الجُملةِ: جلال الدين المحلي، والبِقاعي، والقاسمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٨٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢٦٤).

وقال السمرقندي: (﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ ... يقالُ: يَرزقُه رزقًا لا يُدرَكُ حِسابُه،... ويقال: بغيرِ حسابٍ، أي: مِن غيرِ حِسابٍ، أي: مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥).

وقال البقاعي: (ولَمَّا كان المعنى: رِزقًا يفوقُ الحَدَّ، ويفوتُ العَدَّ؛ عَبَّرَ عنه بقَولِه: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾، فهو كنايةٌ عن السَّعةِ، ويجوزُ أن يكونَ مع السَّعةِ التَّوفيقُ، فيكونَ بِشارةً بنَفيِ الحِسابِ في الآخرةِ أيضًا أصلًا ورأسًا؛ لأنَّ ذلك المَرزوقَ لم يَعمَلْ ما فيه دَرَكٌ عليه، فلا يُحاسَبُ، أو يحاسَبُ ولا يُعاقَبُ؛ فيكونَ المرادُ بنَفيِ الحِسابِ نَفيَ عُسرِه وعِقابِه، ويجوزُ أن يُرادَ الرزقُ كَفافًا، وقد ورد أنَّه لا حِسابَ فيه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٨٢).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

عليهم- يدُلُّ على أنَّ تلك الصِّفاتِ لا يَنبغي التَّساهُلُ فيها بحالٍ؛ لأنَّ ثناءَ الله على المتَّصِفِ بها يدُلُّ على أنَّ مَن أخَلَّ بها يستحِقُّ الذَّمَّ الذي هو ضِدُّ الثَّناءِ، ويوضِّحُ ذلك أنَّ الله نهَى عن الإخلالِ بها نهيًا جازِمًا في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [الجمعة: ٩]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ[١].

٣- قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ في تعقيبِ المَثَلِ بذكرِ كونِ المساجدِ ظرفًا لذلك النُّورِ -على أحدِ الأقوالِ-؛ تنبيهٌ على أنَّ صَقالةَ القَلبِ تكونُ بتزويدِه بالطَّاعةِ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فيه أنَّ التِّجارةَ لا تُنافي الصَّلاحَ؛ لأنَّ مَقصودَ الآيةِ أنَّهم يتعاطَونَها، ومع ذلك لا تُلهيهم عن الصَّلاةِ وحُضورِ الجماعةِ[٣]. فهؤلاء الرِّجالُ وإنِ اتَّجَروا وباعُوا واشتَرَوا، فإنَّ ذلك لا محذورَ فيه، لكِنَّه لا تُلهيهم تلك، بأن يقَدِّموها ويُؤثِروها على ذِكرِ اللهِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، بل جَعَلوا طاعةَ اللهِ وعِبادتَه غايةَ مُرادِهم، ونهايةَ مَقصدِهم، فما حالَ بيْنهم وبيْنها رَفَضوه[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ بيَّن سُبحانَه وتعالى أنَّ هؤلاء الرِّجالَ وإن تعَبَّدوا بذِكرِ اللهِ والطَّاعاتِ، فإنَّهم مع ذلك موصوفون

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

بالوجَلِ والخَوفِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ قولُه تعالى: ﴿أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ هذان مجموعُ أحكامِ المساجِدِ، فيدخُلُ في رَفعِها بناؤُها وكَنسُها وتنظيفُها مِن النَّجاسةِ والأذى، وصونُها مِن المجانينِ والصِّبيانِ الذين لا يتحَرَّزونَ عن النَّجاسةِ، وعن الكافِرِ، وأن تُصانَ عن اللَّغوِ فيها، ورَفعِ الأصواتِ بغيرِ ذِكرِ الله، ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ يدخُلُ في ذلك الصَّلاةُ كُلُّها؛ فرضُها ونَفلُها، وقراءةُ القرآنِ، والتسبيحُ، والتهليلُ، وغيرُه من أنواعِ الذِّكرِ، وتعلُّمُ العِلمِ وتعليمُه، والمذاكرةُ فيها، والاعتكافُ، وغيرُ ذلك مِن العباداتِ التي تُفعَلُ في المساجِدِ؛ ولهذا كانت عمارةُ المساجدِ على قِسمَينِ: عمارةِ بُنيانٍ وصيانةٍ لها، وعِمارةٍ بذكرِ اسمِ الله، مِن الصَّلاةِ وغَيرِها، وهذا أشرَفُ القِسمَينِ؛ ولهذا شُرِعَت الصَّلواتُ الخَمسُ والجُمُعةُ في المساجِدِ[٢].

٢- قولُه: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ فيه فضيلةُ وشَرَفُ المساجدِ؛ لأنَّها مَحَلُّ ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتعظيمِه؛ فالمكانُ يَشرُفُ بشَرَفِ العَمَلِ فيه، كما أنَّ الزَّمانَ أيضًا يَشرُفُ بشَرَفِ العَمَلِ فيه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ أنَّ الأفضَلَ في الذِّكرِ أنْ يكونَ بالقلبِ واللِّسانِ؛ لأنَّه لا يُمكِنُ أن يُذكَرَ فيها اسمُه إلَّا باللِّسانِ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿رِجَالٞ﴾ أنَّ النِّساءَ لَسْنَ مكَلَّفاتٍ بصَلاةِ الجَماعةِ وزيارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٦).

المساجِدِ؛ لأنَّ اللهَ خَصَّ بها الرِّجالَ[١]، ومفهومُ المُخالَفةِ الذي دلَّتْ عليه هذه الآيةُ بيَّنَتْه الأحاديثُ الصَّحيحةُ، وهو أنَّ صَلاةَ المرأةِ في بَيتِها أفضلُ مِن صلاتِها في المَسجِدِ[٢]، وأنَّ النِّساءَ لَسْنَ كالرِّجالِ في حكمِ الخروجِ إلى المساجِدِ، وأنَّه يجوزُ لهنَّ الخروجُ إلى المساجِدِ بِشُروطٍ[٣].

٥- قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ هؤلاء الرجالُ لو كانوا لا يَعرِفونَ التِّجارةَ ولا يستطيعونَ التِّجارةَ، قُلْنا: إنَّ لجوءَهم إلى بيوتِ اللهِ مِن بابِ الضَّرورةِ -يعني: لأجْلِ أنْ يقضُوا الوقتَ عن أنفُسِهم، ويتسَلَّوا بذلك- لكنَّهم قومٌ لهم تِجارةٌ، فالصَّارِفُ عن ذِكْرِ اللهِ في المساجِدِ موجودٌ، وهو التِّجارةُ، لكنَّهم مع ذلك لا تُلهيهم، وكُلَّما قَوِيَ الصَّارِفُ ولم ينصَرِفِ الإنسانُ، فهو أكمَلُ ممَّن لا صارفَ له[٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قَولُه: ﴿رِجَالٌ﴾

---

(١) قال الشنقيطي: (الحاصِلُ: أنَّ لَفظَ الرِّجالِ في الآيةِ وإن كان في الاصطِلاحِ لَقَبًا، فإنَّ ما يَشتَمِلُ عليه مِن أوصافِ الذُّكورةِ المُناسِبةِ للفَرقِ بينَ الذُّكورِ والإناثِ- يَقتضي اعتِبارَ مَفهومِ المُخالَفةِ في لَفظِ رِجالٍ، فهو في الحقيقةِ مَفهومُ صِفةٍ لا مَفهومُ لَقَبٍ؛ لأنَّ لَفظَ الرِّجالِ مُستَلزِمٌ لأوصافٍ صالحةٍ لإناطةِ الحُكمِ به، والفَرقُ في ذلك بين الرِّجالِ والنِّساءِ كما لا يخفى... [و] مَفهومُ الصِّفةِ مُعتَبَرٌ عند الجُمهورِ، خِلافًا لأبي حنيفةَ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٩).

ويُنظَرُ في أفضليَّةِ صَلاةِ المرأةِ في بَيتِها: ما أخرَجَه أبو داود (٥٦٧)، وأحمد (٢/ ٧٦) (٥٤٦٨) مِن حديثِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، وما أخرجه أبو داود (٥٧٠) من حديث ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٩).

ويُنظَرُ في شروطِ خُروجِ المرأةِ إلى المسجِدِ: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٦٧).

فيه إشعارٌ بهِمَمِهم السَّاميةِ، ونيَّاتِهم وعَزائِمِهم العاليةِ، التي بها صاروا عُمَّارًا للمَساجِدِ التي هي بُيوتُ اللهِ في أرضِه، ومواطِنُ عِبادتِه وشُكرِه، وتَوحيدِه وتَنزيهِه، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣][(١)].

٧- إيرادُ قولِه: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ هاهنا وإنْ لم يكُنْ ممَّا يُفعَلُ في البُيوتِ؛ لكونِه قَرينةً لا تُفارِقُ إقامةَ الصَّلاةِ في عامَّةِ المواضعِ، مع ما فيه مِن التَّنبيهِ على أنَّ مَحاسنَ أعمالِهم غيرُ مُنْحصرةٍ فيما يقَعُ في المساجدِ، وكذلك قولُه تعالى: ﴿يَخَافُونَ﴾ إلخ؛ فليس خَوفُهم مَقصُورًا على كونِهم في المساجدِ[(٢)].

٨- أنَّ مَن تَعَبَّدَ للهِ خَوفًا فهو محمودٌ؛ لقَولِه: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾، وقد أثنى اللهُ على مَن تَعبَّدَ خوفًا منه مِن العذابِ، قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، وهنا قال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾، وأثنى اللهُ تعالى على مَن تَعَبَّدَ طلبًا، قال تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وفي هذا ردٌّ على مَن ذَهَبَ مِن الصوفيَّةِ أو غيرِهم إلى أنَّ الأفضلَ في التَّعبُّدِ أَلَّا يَقصِدَ الإنسانُ حظًّا لنَفْسِه؛ وإنما يَعْبُدُ اللهَ لذاتِه فقط، لا قصدًا لفضلِه، ولا حذرًا مِن عقابِه! وهذا نبيُّ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وهؤلاء أصحابُه -وهم أكملُ حالًا- قد ذَكَر اللهُ عنهم أنَّهم كانوا ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، وكذلك فإنَّ مَن يَعْبُدُ اللهَ سبحانَه لِينالَ فضْلَه وينجوَ مِن عقابِه، هو يريدُ الوصولَ إلى رِضوانِ اللهِ وإلى رؤيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، التي هي مِن جملةِ النَّعيمِ في الجنَّةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٦٨).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ ردٌّ على مَن يزعُمُ أنَّه لا ينبغي أنْ يعمَلَ الإنسانُ لأجلِ الجَزاءِ الذي يناله مِن اللهِ؛ لأنَّه يكونُ في زَعمِهم مِن بابِ المُتاجرةِ، بل يجِبُ أنْ يعمَلَ العمَلَ تعظيمًا وإجلالًا للهِ! فهذا يخالِفُ ثناءَ اللهِ تعالى ومدْحَه لِمَن عَمِلَ لأجلِ نَيلِ جزاءِ اللهِ[١].

١٠- أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، بل هو في الطَّاعاتِ أحسَنُ مِن العمَلِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ شيئًا فوقَ ما عَمِلوه[٢]، فاللهُ تعالى جعَل الحُسْنَ للعملِ نفْسِه، مع أنَّ الحُسْنَ للثَّوابِ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ إشارةً إلى أنَّ الجزاءَ بقَدْرِ العملِ؛ ولذلك عَبَّر به عنه[٣].

١١- استُدِلَّ بقولِه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ ونحوِ ذلك مِن الآياتِ على أنَّ المباحَ حَسَنٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ صيغةُ تفضيلٍ، وصيغةُ التَّفضيلِ المذكورةُ تَدُلُّ على أَنَّ مِن أعمالِهم حَسَنًا لَمْ يُجْزَوْهُ، وهو المباحُ، فصيغَةُ التفضيلِ تَدُلُّ على المشاركةِ، والواجبُ أحسَنُ مِن المندوبِ، والمندوبُ أحسَنُ مِن المباحِ؛ فيُجازَوْنَ بالأحسَنِ الَّذي هو الواجبُ والمندوبُ -على قولٍ في التفسيرِ-، دونَ مُشارِكِهما في الحُسنِ، وهو المباحُ[٤].

١٢- قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ فذَكَر الجزاءَ على الحَسَناتِ، ولم يَذكُرِ الجزاءَ على السَّيِّئاتِ وإن كان يُجازى عليها؛ لأمْرَينِ:

أحَدُهما: أنَّه تَرغيبٌ، فاقتَصَر على ذِكرِ الرَّغبةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٩)، (٥/ ٥٤٩).

الثَّاني: أنَّه يكونُ في صِفةِ قَومٍ لا تكونُ منهم الكبائِرُ، فكانت صَغائِرُهم مَغفورةً[١].

١٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ فيه تَنبيهٌ على كَمالِ القُدرةِ، ونَفاذِ المشيئةِ، وسَعةِ الإِحسانِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾

- قيل: قولُه: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ مِن تَمامِ التَّمثيلِ؛ فيكونُ ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ مُتعلِّقًا بشَيءٍ ممَّا قبْلَه؛ فقيل: يتعلَّقُ بقولِه: ﴿يُوقَدُ﴾ [النور: ٣٥]، أي: يُوقَدُ المِصباحُ في بيوتٍ. وقيل: هو صِفةٌ لِمشكاةٍ، أي: مِشكاةٍ في بُيوت، وما بيْنهما اعتراضٌ، وإنَّما جاء (بيوت) بصِيغةِ الجمْعِ مع أنَّ (مِشكاة) و(مِصباح) مُفرَدانِ؛ لأنَّ المُرادَ بهما الجنسُ؛ فتَساوى الإفرادُ والجمْعُ. والمقصدُ مِن ذِكرِ هذا زيادةُ إيضاحِ المُشبَّهِ به. وفيه مع ذلك تَحسينُ المُشبَّهِ به؛ ليَسرِيَ ذلك إلى تَحسينِ المُشبَّهِ؛ لأنَّ ما ذُكِرَ مِن وصْفِ البيوتِ وما يجري فيها مما يُكسِبُها حُسنًا في نُفوسِ المؤمنينَ[٣].

- ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ غيرَ مُرتبِطٍ بما قبْلَه، وأنَّه مبدَأُ استِئنافٍ ابتدائيٍّ، وأنَّ المجرورَ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ استِئنافٌ. وتَقديمُ المجرورِ للاهتِمامِ بتلك البُيوتِ، وللتَّشويقِ إلى مُتعلَّقِ المجرورِ، وهو التَّسبيحُ وأصحابُه. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ خبرًا مُقدَّمًا، و﴿رِجَالٞ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٥، ٢٤٦).

مُبتدأً، والجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن قولِه: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]؛ فيسأَلُ السَّائلُ في نفْسِه عن تَعيينِ بعضٍ ممَّن هداهُ اللهُ لنُورِه، فقيل: رِجالٌ في بُيوتٍ[١]. وقيل: كَلِمةُ (في) في قولِه: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ مُتعلِّقةٌ بقولِه تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾، وقولُه تعالى: ﴿فِيهَا﴾ تَكريرٌ لها للتَّأكيدِ والتَّذكيرِ؛ لِمَا بيْنهما مِن الفاصلةِ، وللإيذانِ بأنَّ التَّقديمَ للاهتِمامِ، لا لقصْرِ التَّسبيحِ على الوُقوعِ في البُيوتِ فقطْ[٢]. وفي ذلك تَنويهٌ بالمساجدِ، وإيقاعِ الصَّلاةِ والذِّكْرِ فيها[٣].

- وتَنكيرُ: ﴿بُيُوتٍ﴾؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ[٤]. وأتَى بجمعِ الكثرةِ (بيوت) دونَ جمعِ القِلَّةِ؛ للتعظيمِ[٥].

- وفي التَّعبيرِ بالإذنِ في قولِه: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ تلْويحٌ بأنَّ اللَّائقَ بحالِ المأمورِ أنْ يكونَ مُتوجِّهًا إلى المأمورِ به قبْلَ وُرودِ الأمرِ به ناويًا لتَحقيقِه، كأنَّه مُستأذِنٌ في ذلك، فيقَعُ الأمرُ به مَوقِعَ الإذْنِ فيه[٦].

- قولُه: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ قيل: فيه إفرادُ طَرفَيِ النَّهارِ بالذِّكرِ؛ لقِيامِهما مَقامَ كلِّها؛ لكونِهما العُمدةَ فيها؛ بكونِهما مَشهودَينِ، وكَونِهما أشهَرَ ما يقَعُ فيه المُباشَرةُ للأعمالِ، والاشتِغالُ بالأشغالِ. وقيل: خصَّ هذَينِ الوقتَينِ؛ لشَرَفِهما، ولتيسُّرِ السَّيرِ فيهما إلى اللهِ وسُهولتِه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٢٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

٢- قَولُه تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾

- قولُه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ * رِجَالٌ ...﴾ ﴿رِجَالٌ﴾ فاعلُ ﴿يُسَبِّحُ﴾، وتأخيرُه عن الظُّروفِ؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، ولأنَّ في وَصْفِه نوعَ طُولٍ، فيُخِلُّ تَقديمُه بحُسنِ الانتِظامِ[1].

- وخَصَّ الرِّجالَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ النِّساءَ لَسْنَ مِن أهلِ التِّجاراتِ أو الجماعاتِ[2].

- قولُه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ صِفَةٌ لـ ﴿رِجَالٌ﴾، مُؤكِّدةٌ لِمَا أفادَهُ التَّنكيرُ مِن الفخامةِ، مُفِيدةٌ لكَمالِ تَبتُّلِهم إلى اللهِ تعالى، واستغراقِهم فيما حُكِيَ عنهم مِن التَّسبيحِ، مِن غيرِ صارفٍ يَلْويهم، ولا عاطفٍ يَثْنيهم كائنًا ما كان. وتَخصيصُ التِّجارةِ بالذِّكْرِ؛ لكونِها أقوى الصَّوارفِ عندَهم وأشهَرَها[3]، فهي أعظَمُ ما يشتَغِلُ به الإنسانُ عن الصَّلاةِ[4].

- وعُطِفَ البَيعُ على التِّجارةِ في قولِه: ﴿تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لمُغايَرةِ التِّجارةِ والبَيعِ؛ فاحتمَلَ أنْ تكونَ ﴿تِجَٰرَةٌ﴾ مِن إطلاقِ العامِّ، ويُرادُ به الخاصُّ، فأرادَ بالتِّجارةِ الشِّراءَ، ولذلك قابلَه بالبيعِ. أو يُرادُ تِجارةُ الجلَبِ، ويُقال: تَجَرَ فُلانٌ في كذا، إذا جلَبَهُ، وبالبيعِ البيعُ بالأسواقِ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ مِن الخاصِّ بعدَ العامِّ؛ لأنَّ التِّجارةَ هي البيعُ والشِّراءُ طلبًا للرِّبْحِ. وإفرادُه بالذِّكرِ مع اندراجِه تحتَ التِّجارةِ؛ لأنَّه في الإلهاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧٩).

أدخَلُ؛ لأنَّ الربحَ الحاصلَ في البيعِ مُتيقَّنٌ ناجزٌ، والربحُ الحاصلُ في الشراء شكٌّ مستقبَلٌ، مُتوقَّعٌ في ثاني الحالِ عندَ البيعِ، ولذلك كُرِّرت كلمةُ (لا)؛ لتَذكيرِ النَّفيِ وتأْكيدِه[١]. ويحتمِلُ أنَّه عطَفَه عليها؛ لئلاَّ يُتوهَّمَ القصورُ على بيعِ التِّجارةِ[٢]، فالإنسانُ قد يُضْطَرُّ إلى الخروجِ بالبَيعِ عن بَعضِ ما يَملِكُ؛ للاقتياتِ بثَمَنِه، أو التبلُّغِ به إلى بَعضِ المُهمَّاتِ التي لا وصولَ له إليها إلَّا به، أو بتحصيلِ ما لا يملِكُ كذلك؛ لذا قال: ﴿وَلَا بَيۡعٞ﴾ أي: وإن لم يكُنْ على وجهِ التِّجارةِ[٣]، فالتَّاجِرُ مَن يَجعلُ البيعَ والشِّراءَ حِرفةً له يستفيدُ منهما، والبائِعُ قد يَبيعُ السِّلعةَ مرَّةً واحدةً لحاجةٍ، ولا يُريدُ مِن البَيعِ التِّجارةَ[٤].

- على القولِ بأنَّ قولَه تعالى: ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، أي: تَسبيحِ اللهِ؛ فـ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ مُظْهَرٌ وُضِعَ مَوضِعَ المُضمَرِ، وتَقديرُ الكلامِ: يُسبِّحُ له فيها بالغُدوِّ والآصالِ رجالٌ لا تُلْهيهم تِجارةٌ ولا بيعٌ عنه[٥].

- وأعاد ذِكرَ (الصَّلاةِ) بعد ذِكرِها بالتَّسبيحِ -على قولٍ في التفسيرِ- تَصريحًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤٤).

وقال ابن عثيمين: (التِّجارةُ أعَمُّ مِن البَيعِ؛ قد يلهو الإنسانُ في تجارتِه بتَصنيفِها وتبويبِها وحِفظِها وصيانتِها، وما أشبَهَ ذلك. ربَّما لا يلهو وهو يبيعُ ويشتري، لكنْ يلهو بطَريقٍ آخَرَ بهذه التجارةِ؛ لذلك نقولُ: المرادُ بالتِّجارةِ في الآيةِ: ما يتَّجِرُ به الإنسانُ، ولَهْوُه به ليس بالشِّراءِ، بل بما هو أعَمُّ، أمَّا الشِّراءُ فمَفهومٌ مِن البيعِ؛ لأنَّهم إذا اشتَرَوا فقد باع عليهم غيرُهم، وإذا باعوا فقد اشتَرى منهم غيرُهم). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٠٩).

بها؛ تأكيدًا لها، وحَثًّا على حِفظِ وَقتِها؛ لأنَّه مِن جملة مقَوِّماتِها، وكذا جميعُ حدودِها، ولو بأوجَزِ ما يكونُ من أدنى الكَمالِ، بما أشار إليه حذفُ التاءِ في (إِقامِ)[١]؛ إشعارًا بأنَّ هذا المدحَ لا يتوقَّفُ على أنهى الكَمالِ[٢].

- قولُه: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ وقولُه: ﴿يَخَافُونَ ...﴾ فيه تَعريضٌ بالمُنافِقين[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ للزِّيادةِ، وعْدٌ كريمٌ بأنَّه تعالى يُعْطِيهم غيرَ أجْزيةِ أعمالِهم مِن الخيراتِ ما لا يَفِي به الحِسابُ[٤]. وقد حصَلَ التَّذييلُ؛ لِمَا في قولِه: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مِن العُمومِ، أي: وهُمْ ممَّن يَشاءُ اللهُ لهم الزِّيادةَ[٥].

- والاسمُ الموصولُ (مَن) في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ عبارةٌ عمَّن ذُكِرَتْ صِفاتُهم الجميلةُ؛ كأنَّه قيل: واللهُ يرزُقُهم بغيرِ حِسابٍ، ولكنْ وُضِعَ الموصولُ مَوضِعَ ضَميرِهم؛ للتَّنبيهِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ، على أنَّ مناطَ الرِّزقِ المذكورِ في مَحضِ مَشيئتِه تعالى لا أعمالُهم المَحكيَّةُ، كما أنَّها المناطُ

---

(١) قال الرسعني: (فإن قيل: لِمَ حذفوا التاءَ مِن إقام الصلاةِ، فإنَّ أصْلَها: إقامة الصلاة؟ قلتُ: لأنها عِوَضٌ مِن العَينِ الساقطةِ للإعْلالِ، وأصلُها: إقوام، فلمَّا أُضيفت جعَلوا الإضافةَ مقامَ حرفِ العِوَضِ؛ فأُسقِطتْ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٦١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٣).

وقيل: حَذْفُ هاءِ (إقامة) تخفيفٌ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٠).

لِمَا سبَقَ مِن الهِدايةِ لنُورِه تعالى لا لظاهرِ الأسبابِ، وللإيذانِ بأنَّهم ممَّن شاءَ اللهُ تعالى لأنْ يَرزُقَهم، كما أنَّهم ممَّن شاء اللهُ تعالى أنْ يَهديَهم لنُورِه، حسْبَما يُعرِبُ عنه ما فُصِّلَ مِن أعمالِهم الحَسنةِ؛ فإنَّ جميعَ ما ذُكِر مِن الذِّكرِ والتَّسبيحِ، وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، وخوفِ اليومِ الآخِرِ وأهوالِه، ورجاءِ الثَّوابِ: مُقتبَسٌ مِن القُرآنِ الكريمِ العظيمِ الَّذي هو المَعْنيُّ بالنُّورِ، وبه يتِمُّ بَيانُ أحوالِ مَنِ اهْتَدى بهُداهُ، على أوضَحِ وجْهٍ وأجلاهُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٠).

الآيتان (٣٩-٤٠)

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّّ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ كَسَرَابِۭ ﴾: السَّرابُ: ما رأيتَ مِن الشَّمسِ كالماءِ نِصفَ النَّهارِ، وأصلُ (سرب): يدُلُّ على الاتِّساعِ والذَّهابِ في الأرضِ[١].

﴿ بِقِيعَةٖ ﴾: القِيعَةُ جمعُ قاعٍ، وهو المُستَوي مِن الأرضِ، وأصلُ (قوع): يدُلُّ على تبسُّطٍ في مكانٍ[٢].

﴿ لُّجِّّ ﴾: أي: عَميقٍ لا يُدرَكُ قَعرُه، وأصلُ (لجج): يدُلُّ على تردُّدِ الشَّيءِ بَعضِه على بعضٍ، وترديدِ الشَّيءِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يضرِبُ الله تعالى مَثليْنِ لأعمالِ الكفَّارِ، فيذكرُ المثلَ الأولَ، فيقولُ تعالى: والذين كفَروا برَبِّهم وكذَّبوا رسُلَه، أعمالُهم التي عَمِلوها ظنًّا منهم أنَّها تنفَعُهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١).

لا ثوابَ لها، مِثْلُ السَّرابِ في أرضٍ مُنبَسِطةٍ خاليةٍ مِن البناءِ والشَّجَرِ والنَّباتِ، يراه العَطشانُ فيظُنُّه ماءً، فإذا أتاه لم يجِدْه ماءً، وكذا الكافِرُ يظُنُّ أنَّ أعمالَه تنفَعُه، حتَّى إذا مات وبُعِثَ لم يجِدْ ثَوابَها، ووجدَ رَبَّه عندَه بالمرصادِ، فوفَّاه حِسابَ عَمَلِه كاملًا، واللهُ سَريعُ الحِسابِ.

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى المثلَ الثاني، وما هم فيه مِن ضَلالٍ وجَهلٍ لا يتبيَّنونَ فيه الهُدى والحَقَّ، فيقولُ: أو أعمالُهم مِثْلُ ظُلُماتٍ في بحرٍ عَميقٍ يَعلوه موجٌ، مِن فَوقِ ذلك الموجِ مَوجٌ آخَرُ، مِن فَوقِه سَحابٌ، ظُلُماتٌ مُتراكِمٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ، إذا أخرجَ مَن وقَع في هذه الظُّلُماتِ يَدَه لم يُقارِبْ رُؤيتَها؛ مِن شِدَّةِ الظُّلُماتِ، ومَن لم يَهْدِه اللهُ للإيمانِ وينَوِّرْ قَلبَه بنورِ الإسلامِ، فما له مِن هادٍ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى فيما تقَدَّمَ حالةَ الإيمانِ والمُؤمِنينَ، وتَنويرَه قُلوبَهم؛ عَقَّب ذلك بذِكرِ الكَفَرةِ وأعمالِهم[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه حالَ المؤمِنِ، وأنَّه في الدُّنيا يكونُ في النُّورِ، وبسَبَبِه يكونُ متمَسِّكًا بالعمَلِ الصَّالحِ، ثمَّ بيَّن أنَّه في الآخرةِ يكونُ فائزًا بالنَّعيمِ المقيمِ والثَّوابِ العظيمِ- أتبعَ ذلك بأنْ بيَّن أنَّ الكافِرَ يكونُ في الآخرةِ في أشَدِّ الخُسرانِ، وفي الدُّنيا في أعظَمِ الظُّلُماتِ، وضرَبَ لكلِّ واحدٍ منهما مثَلًا[2]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٩).

فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾.

أي: ومَثَلُ أعمالِ الذين كفَروا مَثَلُ سَرابٍ في أرضٍ مُنبَسِطةٍ خاليةٍ مِن البناءِ والشَّجَرِ والنَّباتِ وغيرِها مِن المعالِمِ[1].

﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: يظُنُّ العَطشانُ ذلك السَّرابَ ماءً، حتى إذا جاء إلى موضِعِه يلتَمِسُ الماءَ، لم يجِدِ السَّرابَ شَيئًا مِمَّا كان يظُنُّه؛ فيَهلِكُ، وكذلك الكافِرونَ: يظُنُّونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٤/ ٧٥)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قال ابنُ كثير: (هذان مَثَلانِ ضَرَبهما اللهُ تعالى لنَوعَيِ الكُفَّارِ... فأمَّا الأوَّلُ مِن هذَينِ المَثَلينِ فهو للكُفَّارِ الدُّعاةِ إلى كُفرِهم، الذين يَحسَبونَ أنَّهم على شَيءٍ مِنَ الأعمالِ والاعتقاداتِ، وليسوا في نفْسِ الأمرِ على شَيءٍ؛ فمَثَلُهم في ذلك كالسَّرابِ الذي يُرى في القِيعانِ مِنَ الأرضِ عن بُعدٍ كأنَّه بَحرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٠، ٧١). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٤/ ٧٥) و (٧/ ٢٧٨) و (١٠/ ١٠١).

وقال ابنُ القيم: (ذكَرَ سُبحانَه للكافِرينَ مَثَلينِ: مَثَلًا بالسَّرابِ، ومَثَلًا بالظُّلماتِ المتراكِمةِ؛ وذلك لأنَّ المُعرِضينَ عن الهُدى والحَقِّ نوعان؛ أحَدُهما: مَن يَظُنُّ أنَّه على شَيءٍ، فيتبَيَّنُ له عندَ انكِشافِ الحقائِقِ خِلافُ ما كان يظُنُّه، وهذه حالُ أهلِ الجَهلِ وأهلِ البِدَعِ والأهواءِ الذين يظنُّونَ أنَّهم على هُدًى وعِلمٍ، فإذا انكشَفَت الحقائِقُ تبَيَّنَ لهم أنَّهم لم يكونوا على شَيءٍ، وأنَّ عقائِدَهم وأعمالَهم التي ترتَّبَت عليها كانت كسَرابٍ بقِيعةٍ يُرى في عينِ النَّاظِرِ ماءً، ولا حقيقةَ له! وهكذا الأعمالُ التي لغيرِ اللهِ وعلى غيرِ أمْرِه، يَحسَبُها العامِلُ نافِعةً له، وليست كذلك!... وتأمَّلْ جَعْلَ اللهِ سُبحانَه السَّرابَ بالقِيعةِ -وهي الأرضُ القَفرُ الخاليةُ مِنَ البناءِ والشَّجَرِ والنَّباتِ والمعالِمِ- فمَحَلُّ السَّرابِ أرضٌ قَفرٌ لا شَيءَ بها، والسَّرابُ لا حقيقةَ له، وذلك مُطابِقٌ لأعمالِهم وقُلوبِهم التي أقفَرَت مِنَ الإيمانِ والهُدى!... فهذا مَثَلُ الضَّالِّ الذي يَحسَبُ أنَّه على هُدًى). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٢٠، ١٢١).

اعتقاداتِهم وأعمالَهم تنفَعُهم، فإذا جاؤوا يومَ القيامةِ وجَدوها غيرَ مَقبولةٍ عندَ اللهِ؛ فلا ينتَفِعونَ بها[١].

كما قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا ﴾ [فاطر: ٨].

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾.

أي: ووجَدَ الكافِرُ ربَّه عندَه بالمرصادِ[٢]، فيُجازيه يومَ القيامةِ على جميعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦، ٣٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٢، ٢٨٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٣).

(٢) قال الشوكاني: (﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: وَجَد اللهَ بالمرصادِ فوَفَّاه حِسابَه... وقيلَ: وَجَد وَعْدَ اللهِ بالجَزاءِ على عَمَلِه. وقيلَ: وَجَد أمرَ اللهَ عندَ حَشرِه. وقيلَ: وَجَد حُكمَه وقضاءَه عندَ المجيءِ. وقيلَ: عندَ العَمَلِ. والمعنى مُتقارِبٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦).

مِمَّن اختار أنَّ المعنى: وَجَد اللهَ بالمِرصادِ: ابنُ جرير، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦).

قال القاسمي: (﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: وَجَد عِقابَ اللهِ وجَزاءَه عندَ السَّرابِ، أو العَمَلِ... وقيل: المعنى: وَجَده مُحاسِبًا إيَّاه؛ فالعِنْدِيَّةُ بمعنى الحِسابِ على طريقِ الكِنايةِ؛ لذِكرِ التَّوفيةِ بَعْدَه. قيل: هذه الجُملةُ مَعطوفةٌ على ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ﴾، ولا حاجةَ إلى عَطْفِه على ما يُفيدُه مِن نَحوِ: لم يجِدْ ما عَمِلَه نافِعًا. =

أعمالِه التي عَمِلَها في الدُّنيا بما يَستَحِقُّه مِن العذابِ جزاءً وافيًا[١].

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي: واللهُ سريعُ المحاسَبةِ لعِبادِه، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم، ولا يَشغَلُه حِسابٌ عن حِسابٍ[٢].

= وقال الشِّهابُ: ويحتَمِلُ أن يكونَ بيانًا لحالِ المُشَبَّهِ به الكافِرِ، فيُعطَفَ بحَسَبِ المعنى على التَّمثيلِ بتَمامِه. ولو قيلَ على الأوَّلِ: إنَّه مِن تَتِمَّةِ وَصفِ السَّرابِ. والمعنى: وَجَد مَقدورَه تعالى من الهَلاكِ بالظَّمَأِ عند السَّرابِ، فوَفَّاه ما كُتِبَ له مَن لا يؤخِّرُ الحِسابَ- كان الكَلامُ مُتناسِبًا. واختار الثَّاني أبو السعود). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٩٢). ويُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٦/ ٣٨٨).

ومِمَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿عِندَهُۥ﴾ يعودُ إلى العملِ: مقاتلُ بن سليمان، والفرَّاء، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، وابن جزي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٢)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٤).

قال السمعاني: (وقَولُه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: عِندَ عَمَلِه، ومعناهُ: أنَّه لَقِيَ اللهَ في الآخِرةِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٦).

وقال ابنُ جزي: (﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ ضميرُ الفاعِلِ في «وَجَدَ» للكافِرِ، والضَّميرُ في ﴿عِندَهُۥ﴾ لعمَلِه، والمعنى: وَجَد اللهَ عندَه بالجزاءِ، أو وجَدَ زَبانِيَةَ اللهِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٢).

وقال النسفي: (﴿عِندَهُۥ﴾ عندَ الكافِرِ). يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٩).

وقال ابن جرير: (عندَ هلاكِه). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦، ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٩).

قال السعدي: (﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فلا يَستبطِئِ الجاهلونَ ذلك الوعدَ؛ فإنَّه لا بدَّ مِن إتيانِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩). =

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى بالمثالِ السَّابِقِ أنَّ الكافرينَ لم يَصِلوا إلى شيءٍ غيرِ التَّعَبِ المُثمِرِ للعَطَبِ، وكان هذا لا يفعَلُه بنَفْسِه عاقِلٌ- ضرَب مثالًا آخَرَ بيَّن الحامِلَ لهم على الوقوعِ في ذلك، وهو السَّيرُ بغيرِ دليلٍ، الموقِعُ في خَبطِ العَشواءِ، كالماشي في الظَّلامِ[1].

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾.

أي: أو مَثَلُ أعمالِ الكافرينَ[2] في ضَلالِهم وجَهلِهم الذي لا يتبيَّنونَ فيه الهُدى والحَقَّ، مَثَلُ ظُلُماتٍ في بحرٍ عَميقٍ[3].

= وقال ابن عثيمين: (ما المرادُ بالسُّرعةِ هنا؟ هل المرادُ قُربُ وقتِ المجازاةِ، فتكونَ السُّرعةُ زَمنيةً؟ أو المرادُ إنجازُ الحِسابِ فتكونَ السُّرعةُ عَمَليَّةً؟ أو كلاهما؟ هل المعنى أنَّه في محاسَبتِه سريعٌ، أو المعنى حسابُه للعبادِ قريبٌ، أو كلاهما؟ الجواب: كلاهما). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٧٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٢) قال الرسعني: (قولُه تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ قال أكثرُ المفسِّرينَ: هذا المَثَلُ لأعمالِ الكفَّارِ أيضًا). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكور: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثيرٍ.

قال ابنُ تيميَّةَ: (ذَكَر سُبحانَه مَثَلينِ:... والمَثَلُ الثَّاني: مَثَلُ الكُفرِ والجَهلِ البَسيطِ الذي لا يَتبيَّنُ فيه صاحِبُه حَقًّا، ولا يَرى فيه هُدًى، والكُفرُ المُرَكَّبُ مُستلزِمٌ للبَسيطِ، وكُلُّ كُفرٍ فلا بُدَّ فيه مِن جَهلٍ مُرَكَّبٍ؛ فضَرَب اللهُ سُبحانَه المَثَلينِ بذلك؛ ليُبيِّنَ حالَ الاعتقادِ الفاسِدِ، ويُبيِّنَ حالَ عدَمِ مَعرفةِ الحقِّ، وهو يُشبِهُ حالَ المغضوبِ عليهم والضَّالِّينَ، حالَ المُصَمِّمِ على الباطِلِ حتى =

= يَحُلَّ به العذابُ، وحالَ الضَّالِّ الذي لا يرى طريقَ الهُدى). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٧٥).

وقال ابنُ كثير: (وهذا المِثالُ مِثالٌ لِذَوي الجَهلِ المُرَكَّبِ، فأمَّا أصحابُ الجَهلِ البَسيطِ، وهم... المقَلِّدونَ لأئمَّةِ الكُفرِ، الصُّمُّ البُكمُ الذين لا يَعقِلونَ... فهذا مَثَلُ قَلبِ الكافِرِ الجاهِلِ البَسيطِ المقَلِّدِ الذي لا يَدري أين يَذهَبُ، ولا هو يَعرِفُ حالَ مَن يَقودُه، بل كما يُقالُ في المَثَلِ للجاهِلِ: أين تذهَبُ؟ قال: معهم. قيل: فإلى أينَ يَذهَبون؟ قال: لا أدري!). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١).

وقال ابنُ القيِّم: (النوع الثَّاني: أصحابُ مثَلِ الظُّلُماتِ المُتراكِمةِ، وهُمُ الذين عرَفوا الحقَّ والهُدى، وآثَروا عليه ظُلُماتِ الباطِلِ والضَّلالِ، فتراكمَتْ عليهم ظُلْمةُ الطَّبعِ، وظُلمةُ النفوسِ، وظُلمةُ الجهلِ حيث لم يَعمَلوا بعِلمِهم فصاروا جاهِلين، وظُلمةُ اتِّباعِ الغَيِّ والهَوى، فحالُهم كحالِ مَن كان في بحرٍ لُجِّيٍّ لا ساحلَ له، وقد غَشِيَه مَوجٌ، ومِن فَوقِ ذلك المَوجِ مَوجٌ، ومِن فَوقِه سَحابٌ مُظْلِمٌ؛ فهو في ظُلمةِ البحرِ، وظُلمةِ المَوجِ، وظُلمةِ السَّحابِ، وهذا نَظيرُ ما هو فيه مِنَ الظُّلُماتِ التي لم يُخرِجْهُ الله منها إلى نورِ الإيمانِ... فكذلك الكفَّارُ في هذَينِ المثَلَينِ؛ حَظُّهم مِنَ الماءِ السَّرابُ الذي يَغُرُّ الناظِرَ ولا حقيقةَ له، وحَظُّهمُ الظُّلُماتُ المُتراكِمةُ. وهذا يَجوزُ أن يَكونَ المرادُ به حالَ كلِّ طائفةٍ مِن طوائفِ الكفَّارِ، وأنَّهم عَدِموا مادَّةَ الحياةِ والإضاءةِ بإعراضِهم عن الوَحيِ؛ فيَكونَ المَثَلانِ صِفَتَينِ لمَوصوفٍ واحدٍ. ويَجوزُ أن يَكونَ المرادُ به تنويعَ أحوالِ الكفَّارِ، وأنَّ أصحابَ المَثَلِ الأوَّلِ هُمُ الذين عمِلوا على غَيرِ عِلمٍ ولا بصيرةٍ، بل على جهلٍ وحُسنِ ظَنٍّ بالأسلافِ، فكانوا يَحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنْعًا، وأصحابَ المَثَلِ الثَّاني هم الذين استَحَبُّوا الضَّلالةَ على الهُدى، وآثَروا الباطلَ على الحقِّ، وعَمُوا عنه بعْدَ أن أبصَروه، وجَحَدوه بعْدَ أن عرَفوه، فهذا حالُ المغضوبِ عليهم، والأوَّلُ حالُ الضَّالِّينَ... فالمَثَلُ الأوَّلُ مِنَ المَثَلينِ لأصحابِ العملِ الباطلِ الذي لا يَنفَعُ، والمثَلُ الثَّاني لأصحابِ العِلمِ الذي لا يَنفَعُ والاعتِقاداتِ الباطِلةِ، وكِلاهما مُضادٌّ للهُدى ودينِ الحقِّ؛ ولهذا مثَّلَ حالَ الفريقِ الثَّاني في تلاطُمِ أمواجِ الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ والعلومِ الفاسدةِ في قلوبِهم بتلاطُمِ أمواجِ البحرِ فيه، وأنَّها أمواجٌ مُتراكِمةٌ مِن فَوقِها سَحابٌ مُظْلِمٌ، وهكذا أمواجُ الشُّكوكِ والشُّبَهِ في قلوبِهم المُظْلِمةِ التي قد تراكمتْ عليها سُحُبُ الغَيِّ والهوى والباطِلِ. فلْيَتدبَّرِ اللَّبيبُ أحوالَ الفريقَينِ، ولْيُطابِقْ بيْنهما وبيْن المَثَلينِ؛ يَعرِفْ عَظَمةَ القرآنِ وجَلالَتَه، وأنَّه تَنزيلٌ مِن حكيمٍ حميدٍ). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٢١، ١٢٢).

وقال السعدي: (يحتمِلُ أنَّ هذَينِ المِثالَينِ لأعمالِ جميعِ الكفَّارِ، كلٌّ منهما مُنطبِقٌ عليها، وعدَّدهما لتعدُّدِ الأوصافِ. ويحتمِلُ أنَّ كلَّ مثالٍ لطائفةٍ وفِرقةٍ؛ فالأوَّلُ للمتبوعينَ، والثَّاني =

﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ (سَحَابٌ ظُلُمَاتٍ): برفعِ (سَحَابٌ) منوَّنًا، و(ظُلُمَاتٍ) بالخفضِ بدلًا مِن قَولِه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾[(١)].

٢- قراءة (سَحَابُ ظُلُمَاتٍ): برفعِ (سَحَابُ) مِن غيرِ تنوينٍ، و(ظُلُمَاتٍ) بالخفضِ، جعلَ الموجَ المتراكِمَ بمنزلةِ السَّحابِ، كما يُقالُ: سَحابةُ رحمةٍ، فأضافَ (سَحَابُ) إلى (ظُلُمَاتٍ) ليبيِّنَ في أيِّ شَيءٍ هو[(٢)].

٣- قراءةُ ﴿سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ﴾: برفعِهما جميعًا وتنوينِهما، و(ظُلُمَاتٌ) تبيينٌ لِقَولِه: ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾، فهذه ثلاثُ ظُلُماتٍ[(٣)].

= للتابِعينَ، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

وقال ابن عثيمين: (﴿أَوْ﴾ للتَّنويعِ في قَولِه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾، يعني: أو أعمالُهم كظُلُماتٍ... إلى آخِرِه... وهذا التقسيمُ للتَّنويعِ كما تقدَّم؛ فالأوَّلُ -والله أعلمُ- في حالِ الكافِرِ المجتَهِدِ الذي عندَه فَهمٌ واجتِهادٌ، الذي يظُنُّ أنَّ عَمَله يَنفَعُه، والثاني: في حالِ المقَلِّدِ الذي لا يَدري وعِندَه جَهلٌ وضَلالٌ، فهو في ظُلمةٍ، يسيرُ مع الكُفَّارِ وهو لا يَدري). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٧٧، ٢٧٨).

(١) قرأ بها قنبل عن ابن كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٦٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٩٧٣).

(٢) قرأ بها البزِّي عن ابن كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٢)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٤٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٩٧٣).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٦٣)، ((الدر المصون)) للحلبي (٨/ ٤١٥).

﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾.

أي: يَعلو ذلك البَحرَ اللُّجِّيَّ مَوجٌ، ومِن فوقِ الموجِ مَوجٌ آخَرُ يَعلوه، ومِن فَوقِ الموجِ الثَّاني سَحابٌ مُظلِمٌ(١).

﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾.

أي: ظُلمةُ البَحرِ، وظُلمةُ المَوجِ، وظُلمةُ السَّحابِ؛ هي ظُلُماتٌ مُتراكِمةٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٤)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٥٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢١).

قال ابن القيم: (تصويرٌ لحال هذا المُعرِضِ عن وَحْيِه، فشَبَّه تلاطُمَ أمواجِ الشُّبَهِ والباطِلِ في صدرِه بتلاطُمِ أمواجِ ذلك البحرِ، وأنَّها أمواجٌ بعضُها فوقَ بَعضٍ). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٥٨).

وقال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ بمعنى: يغطِّي هذا الكافِرَ ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أيضًا؛ أمواجٌ عاليةٌ، لكنْ ما حَدُّ الموجِ الثاني مِن الأوَّلِ؟ يعني: ما الذي يميِّزُ الموجَ الثَّانيَ عن الموجِ الأوَّلِ؟

الجوابُ: إمَّا أن يقالَ بالاتِّجاهِ، يعني: الأمواج تتلاقى؛ موجٌ يأتي مِن هنا، والثَّاني أعلى منه، أتى مِن جهةٍ ثانيةٍ؛ مِن أجْلِ أن يتبيَّنَ عُلوُّ هذا على ذاك، أو أنَّها أمواجٌ مُتلاحِقةٌ، مثلًا مَوجٌ مُقبِلٌ كارتفاعِ الجبَلِ، ووراءَه موجٌ آخَرُ أعلى منه، فإذا لَحِقَه صار مَوجًا مِن فَوقِه مَوجٌ، وأمَّا أنَّه موجٌ واحِدٌ فلا يمكِنُ أن يُفصَلَ بَعضُه عن بعضٍ، ومَن شاهَد البحرَ وجد الأمرَ كذلك؛ تجِدُ أمواجًا متلاحِقةً، أحيانًا إذا انعكس الهواءُ تتقابَلُ، وأحيانًا تتلاحَقُ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٧٨).

قال الشوكاني: (يجتمِعُ حينئذٍ عليهم خوفُ البحرِ وأمواجِه، والسحابِ المرتفعِ فوقَه. وقيلَ إنَّ المعنَى: يَغشاهُ موجٌ مِن بعدِ موجٌ، فيكونُ الموجُ يَتْبَعُ بعضُه بعضًا حتَّى كأنَّه بعضَه فوقَ بعضٍ، والبحرُ أخوفُ ما يكونُ إذا توالَتْ أمواجُه، فإذا انْضَمَّ إلى ذلك وجودُ السَّحابِ مِن فوقِه، زادَ الخوفُ شِدَّةً، لأنَّها تَسْتُرُ النُّجومَ الَّتي يَهْتَدي بها مَن في البحرِ، ثمَّ إذا أمطَرت تلك السحبُ وَهَبَّتِ الرِّيحُ المعتادَةُ في الغالبِ عندَ نُزولِ المطرِ، تكاثَفَتِ الهمومُ، وترادَفَتِ الغمومُ، وبَلَغ الأمرُ إلى الغايةِ الَّتي ليسَ وراءَها غايةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦).

بَعضُها فوقَ بعضٍ[١].

﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾.

أي: إذا أخرجَ مَن كان في هذه الظُّلُماتِ يَدَه لِيَنظُرَ إليها، لم يقارِبْ رُؤيتَها؛ مِن شِدَّةِ الظَّلامِ، فلا يراها مُطلقًا[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٠)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٦).

قال ابنُ جرير: (فجعَلَ الظُّلُماتِ مَثَلًا لأعمالِهم، والبَحرَ اللُّجِّيَّ مَثلًا لقَلبِ الكافِرِ، يقولُ: عَمَلُه بنيَّةِ قَلبٍ قد غمَره الجَهلُ، وتغَشَّتْه الضَّلالةُ والحَيرةُ، كما يَغشى هذا البَحرَ اللُّجِّيَّ ﴿مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞ﴾، فكذلك قَلبُ هذا الكافِرِ الذي مَثَلُ عَمَلِه مَثَلُ هذه الظُّلُماتِ؛ يغشاه الجَهلُ بالله، بأنَّ اللهَ ختَمَ عليه فلا يَعقِلُ عن الله، وعلى سَمعِه فلا يَسمَعُ مَواعِظَ الله، وجعَلَ على بصَرِه غِشاوةً فلا يُبصِرُ به حُجَجَ الله، فتلك ظُلُماتٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٠،٣٢٩).

وقال السعدي: (كذلك الكُفَّارُ؛ تراكمت على قلوبِهم الظُّلُماتُ: ظُلمةُ الطبيعة التي لا خيرَ فيها، وفوقَها ظلمةُ الكُفرِ، وفوقَ ذلك ظُلمةُ الجَهلِ، وفوقَ ذلك ظُلمةُ الأعمالِ الصَّادرة عمَّا ذُكر، فبقُوا في الظلمةِ متحيِّرين، وفي غمرتِهم يَعْمَهون، وعن الصراطِ المُستقيمِ مُدْبِرين، وفي طرُقِ الغَيِّ والضَّلالِ يترَدَّدون؛ وهذا لأنَّ الله تعالى خذَلهم، فلمْ يُعطِهم مِن نورِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٥)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قال ابن جُزي: (المعنى: مُبالَغةٌ في وَصفِ الظُّلمةِ، والضَّميرُ في ﴿أَخۡرَجَ﴾ وما بعْدَه للرَّجُلِ الذي وَقَع في الظُّلُماتِ الموصوفةِ. واختُلِفَ في تأويلِ الكلامِ؛ فقيل: المعنى: إذا أخرَج يَدَه لم يُقارِبْ رُؤيتَها، فنفى الرُّؤيةَ ومُقارَبتَها. وقيل: بل رآها بعْدَ عُسرٍ وشِدَّةٍ؛ لأنَّ «كاد» إذا نُفِيَت تقتضي الإيجابَ، وإذا أُوجِبَت تقتضي النَّفيَ. وقال ابنُ عطيةَ: إنَّما ذلك إذا دخل حَرفُ النَّفيِ على الفِعلِ الذي بَعْدَها، فأمَّا إذا دَخَل حَرفُ النَّفيِ على كاد، كقَولِه: «لم يَكَدْ»، فإنَّه يحتَمِلُ النَّفيَ والإيجابَ). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ١٢٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٨). =

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

أي: ومَنْ لم يَهدِه اللهُ في الدُّنيا لنورِ القُرآنِ ويُوفِّقْه للإيمانِ، فلا هِدايةَ له مِن أيِّ أحَدٍ كائنًا مَن كان(١).

كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيه إثباتُ الحِسابِ، وأنَّ الإنسانَ سوف يُحاسَبُ على عمَلِه؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، فيَنبَغي للعاقِلِ أن يُحاسِبَ نفْسَه قبْلَ أنْ يُحاسَبَ، كما قال أميرُ المؤمِنينَ عُمرُ بنُ الخَطَّابِ رضي

= مِمَّن اختار القَولَ الأوَّلَ، وهو نفيُ الرُّؤيةِ، وأنَّ معنى ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي: لم يَرَها، أو نَفيُ مُقاربتِها، والمعنى: لم يُقارِبْ رُؤيتهَا، وهذا يقتَضي نفيَ الرُّؤيةِ جُملةً؛ لأنَّه إذا كان لا يُقارِبُ رُؤيتَها، فكيف يراها؟ مِمَّن اختار هذا القَولَ في الجُملةِ: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والنحاس، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبيضاوي، والنسفي، والخازن، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٩٧).

ومِمَّن اختار القَولَ الثَّاني: أي: أنَّه رآها بَعدَ جَهدٍ وتَعَبٍ: مكِّي، والغزنوي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٢٦)، ((باهر البرهان)) للغزنوي (٢/ ١٠٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩، ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٢).

اللهُ عنه: (حاسِبوا أنفُسَكم قبْلَ أن تُحاسَبوا)[١]. فكَوْنُ الإنسانِ يُحاسِبُ نفْسَه لِيُصلِحَ ما عَساهُ فسَدَ، أَوْلى مِن سُكوتِه وإهمالِه وعدَمِ حسابِ نفْسِه؛ لأنَّ الذُّنوبَ تَتراكَمُ عليه ثمَّ يَهلِكُ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّه يجبُ على المرءِ أنْ يلجأَ إلى اللهِ دائمًا، فيسألَه أنْ يُنَوِّرَ قلبَه؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ هذا منطوقُ الآيةِ، ومفهومُ الآيةِ: مَن جَعَل اللهُ له نورًا فلا أحدَ يَحْجُبُ عنه نورَ اللهِ عزَّ وجلَّ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ فيه سؤالٌ: قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ يدُلُّ على كونِه شيئًا. وقولُه: ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ قد يُفهَمُ منه التَّعارُضُ؟

الجواب مِن وجوهٍ ثلاثةٍ:

الأول: أنَّ المرادَ معناه: أنَّه لم يَجِدْه شيئًا نافعًا، كما يُقالُ: (فلانٌ ما عمِل شيئًا)، وإن كان قد اجتَهد.

الثاني: أنَّ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ أي: جاء موضعَ السرابِ، لم يَجِدِ السرابَ شيئًا؛ فاكتفَى بذكرِ السرابِ عن ذكرِ موضعِه.

الثالث: الكنايةُ للسرابِ؛ لأنَّ السرابَ يُرى مِن بعيدٍ بسببِ الكثافةِ كأنَّه ضبابٌ وهباءٌ، وإذا قرُب منه رقَّ وانتثر، وصار كالهواءِ، فالمرادُ: جاء الشيءَ

(١) أخرجه أبو نعيم في ((الحلية)) (١/ ٥٢) والآجري في ((أدب النفوس)) (ص: ٢٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٣٠) و(٢/ ٥٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٣).

الذي تخيَّلَ أنَّه ماءٌ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـًٔا﴾ دَلالةٌ على أنَّ السَّرابَ مَعدومٌ، وأنَّ المعدومَ ليس شيئًا، وأنَّ الجبالَ يومَ القيامةِ تصيرُ إلى لا شَيءٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال في شأنِها: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾[(٢)] [النبأ: ٢٠].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ حُجَّةٌ في أنَّ الكُفَّارَ يُحاسَبونَ[(٣)].

٤- لا رَيْبَ أنَّ الاعتِقاداتِ الفاسِدةَ -مِثلَ اعتِقادِ الكُفَّارِ في ربِّهم- وما يَتبَعُها مِنَ الإراداتِ هي خَيالاتٌ وأَوْهامٌ باطِلةٌ؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٧)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٦٩)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦٣٠).

قال ابنُ تيميَّةَ جوابًا عن سُؤالٍ: هل الكُفَّارُ يُحاسَبونَ يومَ القيامةِ أم لا؟: (هذه المسألةُ تنازَعَ فيها المتأخِّرون من أصحابِ أحمدَ وغيرِهم... وفَصْلُ الخِطابِ: أنَّ الحِسابَ يُرادُ به عَرضُ أعمالِهم عليهم وتَوبيخُهم عليها، ويرادُ بالحِسابِ مُوازَنةُ الحَسَناتِ بالسَّيِّئاتِ؛ فإنْ أُريدَ بالحِسابِ المعنى الأوَّلُ فلا رَيبَ أنَّهم يُحاسَبونَ بهذا الاعتِبارِ، وإن أُريدَ المعنى الثاني: فإنْ قَصَد بذلك أنَّ الكُفَّارَ تَبقى لهم حَسَناتٌ يَستَحِقُّونَ بها الجنَّةَ، فهذا خطأٌ ظاهِرٌ، وإنْ أُريدَ أنَّهم يَتفاوتونَ في العِقابِ، فعِقابُ مَن كَثُرت سيِّئاتُه أعظَمُ من عقابِ مَن قَلَّتْ سيِّئاتُه، ومَن كان له حَسَناتٌ خُفِّفَ عنه العذابُ، كما أنَّ أبا طالبٍ أخَفُّ عذابًا مِن أبي لهَبٍ، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: ٣٧]، والنَّارُ دَرَكاتٌ؛ فإذا كان بَعضُ الكُفَّارِ عَذابُه أشَدُّ عَذابًا مِن بَعضٍ -لكَثرةِ سَيِّئاتِه، وقِلَّةِ حَسَناتِه- كان الحِسابُ لبَيانِ مراتِبِ العذابِ، لا لأجْلِ دُخولِهم الجنَّةَ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣٠٥).

كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ * أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩-٤٠]، هذا بعْدَ قَولِه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ إلى قَولِه: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾[1] [الأنعام: ١٢٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ الله تعالى متصَرِّفٌ بالإعطاءِ والمَنعِ، على حَسَبِ إرادتِه وحِكمتِه، وما سبَقَ مِن نِظامِ تَدبيرِه[2].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً ...﴾ عطْفُ حالِ أعمالِ الكافرينَ عطْفَ القصَّةِ على القصَّةِ، على عادةِ القُرآنِ في إردافِ البشارةِ بالنِّذارةِ. والجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتِدائيًّا، وجُعِلَ المُسنَدُ إليه ما يدُلُّ على ذواتِ الكافرينَ، ثمَّ بُنِيَ عليه مُسنَدٌ إليه آخَرُ وهو ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، ولم يُجعَلِ المُسنَدُ إليه أعمالَ الَّذين كَفروا مِن أوَّلِ وهْلةٍ؛ لِمَا في الافتتاحِ

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٧).

بذِكْرِ (الَّذين كفروا) مِن التَّشويقِ إلى مَعرفةِ ما سيُذكَرُ مِن شُؤونِهم؛ ليَتقرَّرَ في النفْسِ كَمالُ التَّقرُّرِ، وليَظهَرَ أنَّ للَّذينَ كَفروا حظًّا في التَّمثيلِ، بحيث لا يكونُ المُشبَّهُ أعمالَهم خاصَّةً، وفي الإتيانِ بالموصولِ وصِلَتِه إشارةٌ إلى وجْهِ بِناءِ الخبَرِ، وهو أنَّه مِن جَزاءِ كُفْرِهم باللهِ. على أنَّه قد يكونُ عنوانُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قد غلَبَ على المُشركين مِن أهلِ مكَّةَ؛ فيكونُ افتِتاحُ الكلامِ بهذا الوصفِ إشارةً إلى أنَّه إبطالٌ لشيءٍ اعتقدَهُ الَّذين كفروا؛ فتَشبيهُ الكافرينَ وأعمالِهم تَشبيهٌ تَمثيليٌّ؛ شُبِّهَت حالةُ كَدِّهِم في الأعمالِ وحِرْصِهم على الاستكثارِ منها، مع ظَنِّهم أنَّها تُقرِّبُهم إلى رِضا اللهِ، ثمَّ تبيَّنَ أنَّها لا تُجْدِيهم، بلْ يَلْقَون العذابَ في وقتِ ظنِّهم الفوزَ: شبَّهَ ذلك بحالةِ ظمآنٍ يَرى السَّرابَ، فيَحسَبُه ماءً، فيَسْعى إليه، فإذا بلَغَ المسافةَ الَّتي خالَ -أي: ظَنَّ- أنَّها مَوقعُ الماءِ لم يجِدْ ماءً، ووجَدَ هُنالك غَريمًا يأسِرُه ويُحاسِبُه على ما سلَفَ مِن أعمالِه السَّيِّئةِ. والحالةُ المُشبَّهةُ مُركَّبةٌ مِن مَحسوسٍ ومَعقولٍ، والحالةُ المُشبَّهُ بها حالةٌ مَحسوسةٌ، أي: داخلةٌ تحتَ إدراكِ الحواسِّ[1].

- وفي قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً ...﴾ شبَّهَ أعمالَهم في اضْمِحلالِها وفُقدانِ ثَمرتِها بسَرابٍ في مكانٍ مُنخفضٍ ظنَّه العطشانُ ماءً، فقصَدَه وأتعَبَ نفْسَه في الوُصولِ إليه، حتَّى إذا جاء مَوضِعَه الَّذي تخيَّلَه فيه، لم يجِدْه شيئًا، أي: فقَدَهُ؛ لأنَّه مع الدُّنوِّ لا يَرى شيئًا. كذلك الكافِرُ يظُنُّ أنَّ عمَلَه في الدُّنيا نافِعُه، حتَّى إذا أفْضى إلى الآخرةِ لم يَنفَعْه عمَلُه، بل صار وَبالًا عليه. ويَحتمِلُ أنْ يعودَ الضَّميرُ في ﴿جَآءَهُۥ﴾ على السَّرابِ، ثمَّ في الكلامِ مَتروكٌ كثيرٌ يدُلُّ عليه الظَّاهرُ، تقديرُه: وكذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٠، ٢٥١).

الكافرُ يومَ القيامةِ يظُنُّ عملَهُ نافعًا، حتَّى إذا جاءهُ لم يجِدْه شيئًا. ويَحتمِلُ الضَّميرُ أنْ يعودَ على العمَلِ الَّذي يدُلُّ عليه قولُه: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾، ويكونُ تَمامُ المثَلِ في قولِه: ﴿مَآءً﴾، ويَسْتغني الكلامُ عن مَتروكٍ على هذا التَّأويلِ، لكنْ يكونُ في المثَلِ إيجازٌ واقتِضابٌ؛ لوُضوحِ المعنى المُرادِ به[١].

- قولُه: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ فيه تَخصيصُ الحُسبانِ بالظَّمآنِ، مع شُمولِه لكلِّ مَن يراهُ كائنًا مَن كان مِن العطشانِ والرَّيَّانِ؛ لتكميلِ التَّشبيهِ بتَحقيقِ شَرِكةِ طرفَيهِ في وَجهِ الشَّبهِ الَّذي هو المُطلعُ المُطْمِعُ، والمُقطِعُ المُوئِسُ[٢].

وأيضًا يُفيدُ قولُه: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ وجْهَ الشَّبهِ، ويتضمَّنُ أحدَ أركانِ التَّمثيلِ؛ وهو العطشانُ، وهو مُشابهُ الكافرِ صاحبِ العمَلِ؛ ضُرِبَ ذلك مثلًا لقُربِ زمَنِ إفضاءِ الكافرِ إلى عمَلِه وقتَ مَوتِه حينَ يَرى مَقعدَه، أو في وقتِ الحشْرِ. وقولُه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ مِن تَمامِ التَّمثيلِ، أي: لم يجِدِ الماءَ، ووجَدَ في مَظِنَّةِ الماءِ الَّذي ينتفِعُ به، وجَدَ مَن إنْ أخَذَ بناصيتِه لم يُفلِتْه[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ فيه تَشبيهٌ مُرسَلٌ[٤]؛ فقد أخرَجَ ما لا تقَعُ عليه الحاسَّةُ إلى ما تقَعُ عليه الحاسَّةُ، ولو قِيلَ: (يَحسَبُه الرَّائي ماءً) لكان بَليغًا، وأبلَغُ منه لفظُ القُرآنِ؛ لأنَّ الظَّمآنَ أشدُّ حِرصًا عليه، وأكثَرُ تعلُّقَ قلْبٍ به. وتَشبيهُ أعمالِ الكفَّارِ بالسَّرابِ مِن أحسَنِ التَّشبيهِ وأبلَغِه؛ فكيف وقد تضمَّنَ مع ذلك حُسنَ النَّظمِ، وعُذوبةَ الألفاظِ، وصِحَّةَ الدَّلالةِ، وصِدْقَ التَّمثيلِ[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٣).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٢٩١).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦١٨).

- وفي قولِه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ تَشبيهٌ تَمثيليٌّ، أي: وجَدَ عِقابَه وزَبانيةَ عذابِه -على قولٍ في التفسيرِ- ووجْهُ التَّشبيهِ: أنَّ الَّذي يأْتي به الكافرُ من أعمالِ البِرِّ، ويعتقِدُ أنَّ له ثوابًا عندَ اللهِ تعالى وليس كذلك، فإذا وافَى عَرَصاتِ القيامةِ لم يجِدِ الثَّوابَ الَّذي كان يظُنُّه، بلْ وجَدَ العِقابَ العظيمَ، والعذابَ الأليمَ؛ فعظُمَت حَسرتُه، وتَناهى غمُّه؛ فشُبِّهَ حالُه بحالِ الظَّمآنِ الَّذي اشتدَّتْ حاجتُه إلى الماءِ، فإذا شاهَدَ السَّرابَ في البَرِّ تعلَّقَ قلْبُه، فإذا جاءهُ لم يجِدْه شيئًا، فكذلك حالُ الكافرِ يَحسَبُ أنَّ عمَلَه نافِعُه، فإذا احتاج إلى عمَلِه لم يجِدْه أغْنى عنه شيئًا[(١)].

- قولُه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ فالجُملةُ عطْفٌ على مُقدَّرٍ، وليست معطوفةً على ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾، بلْ على ما يُفهَمُ منه بطريقِ التَّمثيلِ، مِن عدَمِ وُجدانِ الكفرةِ مِن أعمالِهم المذكورةِ عَيْنًا ولا أثرًا، كأنَّه قيل: حتَّى إذا جاء الكفرةُ يومَ القيامةِ أعمالَهم الَّتي كانوا في الدُّنيا يَحسَبونها نافعةً لهم في الآخرةِ، لم يجِدُوها شيئًا، ووَجَدوا حُكْمَ اللهِ وقضاءَه -على قولٍ في التفسيرِ- لهم بالمِرصادِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ بَيانٌ لبقيَّةِ أحوالِهم العارضةِ لهم بعدَ ذلك بطريقِ التَّكملةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ قُصارى أمْرِهم هو الخَيبةُ والقُنوطُ فقطْ كما هو شأْنُ الظَّمآنِ[(٣)].

- وإفرادُ الضَّميرينِ (فوجَدَ - فوفَّاه) الرَّاجعَينِ إلى الَّذين كَفروا؛ إمَّا لإرادةِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨١).

الجنْسِ كالضَّمانِ الواقعِ في التَّمثيلِ، وإمَّا للحمْلِ على كلِّ واحدٍ منهم، وكذا إفرادُ ما يَرجِعُ إلى أعمالِهم[١].

- وجُملةُ: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ تذييلٌ؛ فالمُرادُ أنَّه لا يُماطِلُ الحِسابَ ولا يُؤخِّرُه عندَ حُلولِ مُقْتضيه؛ فهو عامٌّ في حسابِ الخيرِ والشَّرِّ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ هذا هو التَّشبيهُ الثَّاني لأعمالِهم؛ فالأوَّلُ فيما يَؤولُ إليه أعمالُهم في الآخرةِ -على قولٍ-، وهذا الثَّاني فيما هُم عليه في حالِ الدُّنيا -على قولٍ-. وبدَأَ بالتَّشبيهِ الأوَّلِ؛ لأنَّه آكَدُ في الإخبارِ؛ لِمَا فيه مِن ذِكْرِ ما يَؤولُ إليه أمْرُهم مِن العقابِ الدَّائمِ، والعذابِ السَّرْمَديِّ. ثمَّ أتبَعَهُ بهذا التَّمثيلِ الَّذي نبَّهَهم على ما هي أعمالُهم عليه؛ لعلَّهم يرجِعون إلى الإيمانِ، ويُفكِّرون في نُورِ اللهِ الَّذي جاء به الرَّسولُ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣]. وقد شبَّهَ أعمالَهم أوَّلًا في فَواتِ نفْعِها وحُضورِ ضرَرِها بسَرابٍ لم يجِدْه مَن خدَعَه مِن بعيدٍ شيئًا، ولم يَكْفِه خَيبةً وكَمَدًا أنْ لم يجِدْ شيئًا كغيرِه مِن السَّرابِ، حتَّى وجَدَ عندَه الزَّبانيةَ -على قولٍ في التفسيرِ- تَعتِلُه إلى النَّارِ، ولا يقتُلُ ظمأَهُ بالماءِ. وشبَّهها ثانيًا في ظُلْمتِها وسَوادِها لكونِها باطلةً، وفي خُلوِّها عن نورِ الحقِّ بظُلُماتٍ مُتراكمةٍ مِن لُجِّ البحرِ والأمواجِ والسَّحابِ[٤].

- قولُه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢، ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤).

﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍۚ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ قيل: تَقديرُ ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾: أو كَذِي ظُلماتٍ، ودلَّ على هذا المُضافِ قولُه: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ﴾؛ فالكِنايةُ تعودُ إلى المُضافِ المحذوفِ؛ فالتَّشبيهُ وقَعَ للكافرِ لا للأعمالِ -وهو خلافُ الظَّاهرِ-، ويكونُ التَّقديرُ: أو هُم كذي ظُلماتٍ؛ فيكونُ التَّشبيهُ الأوَّلُ لأعمالِهم، والثَّاني لهم في حالِ ضَلالِهم. وقيل: الآيةُ الأُولى في ذِكْرِ أعمالِ الكفَّارِ، والثَّانيةُ في ذِكْرِ كُفْرِهم، ونسَقَ الكُفرَ على أعمالِهم؛ لأنَّ الكُفرَ أيضًا مِن أعمالِهم، وقد قال تعالى: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] مِن الكُفرِ إلى الإيمانِ، فيكونُ التَّمثيلُ قد وقَعَ لأعمالِهم بكُفرِ الكافرِ، وأعمالُهم منها كُفْرُهم؛ فيكونُ قد شبَّهَ أعمالَهم بالظُّلماتِ(١).

- وأيضًا هذا التَّمثيلُ صالحٌ لاعتِبارِ التَّفريقِ في تَشبيهِ أجزاءِ الهيئةِ المُشبَّهةِ بأجزاءِ الهيئةِ المُشبَّهِ بها؛ فالضَّلالاتُ تُشبِهُ الظُّلماتِ، والأعمالُ الَّتي اقتحَمَها الكافرُ لقصْدِ التَّقرُّبِ بها تُشْبِهُ البحْرَ، وما يُخالِطُ أعمالَه الحَسنةَ مِن الأعمالِ الباطلةِ كالبَحيرةِ والسَّائبةِ، يُشبِهُ الموجَ في تَخليطِه العمَلَ الحَسنَ وتخلُّلِه فيه، وهو الموجُ الأوَّلُ. وما يَرِدُ على ذلك مِن أعمالِ الكُفرِ كالذَّبحِ للأصنامِ، يُشبِهُ الموجَ الغامِرَ الآتيَ على جميعِ ذلك بالتَّخلُّلِ والإفسادِ، وهو الموجُ الثَّاني، وما يحُفُّ اعتقادَهُ مِن الحَيرةِ في تَمييزِ الحسَنِ مِن العبَثِ ومِن القبيحِ، يُشبِهُ السَّحابَ الَّذي يَغْشى ما بقِيَ في السَّماءِ مِن بَصيصِ أنوارِ النُّجومِ، وتَطلُّبُه الانتفاعَ مِن عمَلِه يُشبِهُ إخراجَ الماخِرِ(٢) يدَهُ لإصلاحِ أمْرِ سَفينتِه أو تناوُلِ ما يحتاجُه، فلا يَرى يدَهُ، بلْهَ الشَّيءَ الَّذي يُرِيدُ تناوُلَه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣).

(٢) الماخِرِ: أي: مُجْرِي السَّفينةِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٧).

- وقولُه: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾ عطْفٌ على ﴿كَسَرَابِۭ﴾، وكلمةُ (أو) للتَّنويعِ إثْرَ ما مُثِّلتْ أعمالُهم الَّتي كانُوا يعتمِدونَ عليها أقوى اعتمادٍ، ويفتخِرون بها في كلِّ وادٍ ونادٍ، بما ذُكِرَ مِن حالِ السَّرابِ مع زِيادةِ حِسابٍ وعِقابٍ: مُثِّلتْ أعمالُهم القَبيحةُ الَّتي ليس فيها شائبةُ خَيريَّةٍ يَغترُّ بها المُغترُّون بظُلُماتٍ[(١)]. وقيل: (أَو) للتَّخييرِ؛ فإنَّ أعمالَهم لكونِها لاغيةً لا مَنفعةَ لها كالسَّرابِ، ولكونِها خاليةً عن نُورِ الحقِّ كالظُّلماتِ المُتراكمةِ مِن لُجِّ البحرِ والأمواجِ والسَّحابِ. أو للتَّنويعِ؛ فإنَّ أعمالَهم إنْ كانت حَسنةً فكالسَّرابِ، وإنْ كانت قَبيحةً فكالظُّلماتِ. أو للتَّقسيمِ باعتبارِ وقْتينِ؛ فإنَّها كالظُّلماتِ في الدُّنيا، وكالسَّرابِ في الآخرةِ[(٢)].

- (أو) إذا جاءت في عطْفِ التَّشبيهاتِ تدُلُّ على تَخييرِ السَّامعِ أنْ يُشَبِّهَ بما قبْلَها وبما بعْدَها مع اتِّحادِ وجْهِ الشَّبهِ. فالمعنى تَمثيلُ الَّذين كَفروا في أعمالِهم الَّتي يَظنُّون أنَّهم يتقرَّبون بها إلى اللهِ، بحالِ ظُلماتِ ليلٍ غَشِيَت ماخِرًا في بحرٍ شديدِ المَوجِ، قدِ اقتحَمَ ذلك البحرَ ليصِلَ إلى غايةٍ مطلوبةٍ؛ فحالُهم في أعمالِهم تُشبِهُ حالَ سابحٍ في ظُلماتِ ليلٍ في بَحرٍ عميقٍ، يَغشاهُ مُوجٌ يركَبُ بعضُه بعضًا لشدَّةِ تَعاقُبِه، وإنَّما يكونُ ذلك عندَ اشتدادِ الرِّياحِ، حتَّى لا يكادُ يَرى يدَهُ الَّتي هي أقرَبُ شيءٍ إليه، وأوضَحُه في رُؤيتِه؛ فكيف يَرْجو النَّجاةَ؟! وإنْ كان الكلامُ جاريًا على التَّخييرِ في التَّشبيهِ مع اختلافِ وَجْهِ الشَّبهِ، كان المعنى تَمثيلَ حالِ الَّذين كَفَروا في أعمالِهم الَّتي يعْمَلونها وهم غيرُ مُؤمنينَ، بحالِ مَن ركِبَ البحرَ يَرْجو بُلوغَ غايةٍ، فإذا هو في ظُلماتٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣).

لا يَهْتدي معها طريقًا؛ فوجْهُ الشَّبهِ هو ما حَفَّ بأعمالِهم مِن ضَلالِ الكُفرِ الحائلِ دونَ حُصولِ مُبْتغاهم. ويُرجِّحُ هذا الوجهَ تَذييلُ التَّمثيلِ بقولِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾. وهذا التَّمثيلُ مِن قَبيلِ تَشبيهِ حالةٍ مَعقولةٍ بحالةٍ مَحسوسةٍ، كما يُقال: شاهدتُ سوادَ الكُفرِ في وجْهِ فُلانٍ[١].

- والجمْعُ في قولِه: ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾ مُستعمَلٌ في لازمِ الكثرةِ، وهو الشِّدَّةُ؛ فالجمْعُ كِنايةٌ؛ لأنَّ شِدَّةَ الظُّلمةِ يحصُلُ مِن تظاهُرِ عِدَّةِ ظُلماتٍ[٢].

- قولُه: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ فيه إيماءٌ إلى غايةِ تَراكُمِ الأمواجِ وتَضاعيفِها حتَّى كأنَّها بلغَتِ السَّحابَ[٣].

- قولُه: ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، أي: مُتكاثِفةٌ مُتراكِمةٌ، وهذا بَيانٌ لكَمالِ شدَّةِ الظُّلماتِ[٤].

- قولُه: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾، أي: مَنِ ابتُلِيَ بها، وإضمارُه مِن غيرِ ذِكْرِه؛ لدَلالةِ المَعْنى عليه دَلالةً واضحةً[٥].

- قولُه: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ مُبالغةٌ في (لم يَرَها)، أي: لم يَقرُبْ أنْ يراها، فضْلًا عن أنْ يَراها[٦]، على أحدِ القولينِ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ؛ جِيءَ به لتَقريرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٤، ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨١، ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٨٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦١٩، ٦٢٠).

ما أفادهُ التَّمثيلُ مِن كونِ أعمالِ الكَفَرةِ كما فُصِّلَ، وتحقيقِ أنَّ ذلك لعدَمِ هِدايتِه تعالى إيَّاهم لنُورِه. وإيرادُ الموصولِ؛ للإشارةِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ إلى عِلَّةِ الحُكْمِ، وأنَّهم ممَّن لم يَشَأِ اللهُ تعالى هِدايتَهم[1].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٧).

الآيات (٤١-٤٦)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾: أي: باسِطاتٍ أجنِحتَهُنَّ، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استواءٍ في الشَّيءِ[1].

﴿يُزْجِى﴾: أي: يَسوقُ، والتَّزجيةُ: دَفعُ الشَّيءِ ليَنساقَ، وأصلُ (زجي): يدُلُّ على تَسييرِ الشَّيءِ[2].

﴿يُؤَلِّفُ﴾: أي: يَجمَعُ، وأصلُ (ألف): يدُلُّ على انضِمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١)، ((تفسير =

﴿رُكَامًا﴾: الرُّكَامُ: ما يُجمَعُ ويُضَمُّ بعضُه إلى بعضٍ، وأصلُه يدُلُّ على تجمُّعِ الشَّيءِ[١].

﴿ٱلْوَدْقَ﴾: أي: المطَرَ، وأصلُ (ودق): يدُلُّ على إتيانٍ[٢].

﴿بَرَدٍ﴾: البَرَدُ: المطرُ الجامِدُ، ويُقالُ له: حَبُّ الغَمامِ، وأصلُ (برد) هنا: خِلافُ الحَرِّ[٣].

﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾: أي: ضوءُ برقِه، والسَّنَا: الضَّوءُ السَّاطِعُ، وأصلُ (سنا): يدلُّ على رِفعةِ الضَّوءِ، وأصلُ (برق): يدُلُّ على لَمعانِ الشَّيءِ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾

(مِنْ) الأُولى لابتِداءِ الغايةِ اتِّفاقًا، وأمَّا (مِن) الثانيةُ ففيها ثلاثةُ أوجهٍ؛ أحدها:

= القرطبي)) (١٢/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٧)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٢).

قال الراغب: (والبَرَدُ: ما يبردُ مِن المطرِ في الهواءِ فيصلبُ). ((المفردات)) (ص: ١١٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢١) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨، ٤٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣).

أنَّها لابتِداءِ الغايةِ أيضًا، فـ (جبال) بدلُ اشتِمالٍ مِن (السَّماء) بإعادةِ الجارِّ، والتقديرُ: وينَزِّلُ من جبالِ السَّماءِ، أي: مِن جبالٍ فيها. الثاني: أنَّها للتبعيضِ، وهي ومجرورُها في موضِعِ نصبٍ مَفعولُ (يُنَزِّلُ)، كأنَّه قال: وينَزِّلُ بعضَ جبالٍ. الثالثُ: أنَّها زائدةٌ على قَولِ الأخفَشِ، أي: ينزِّلُ مِن السَّماء جِبالًا. وأمَّا (مِن) الثالثةُ ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ ففيها أربعةُ أوجهٍ: الثَّلاثةُ المتقَدِّمةُ، والرَّابعُ: أنَّها لبيانِ الجِنسِ، والتقدير: وينَزِّلُ مِن السَّماءِ بعضَ جبالٍ التي هي البَرَدُ، فالمنَزَّلُ بَرَدٌ؛ لأنَّ بعضَ البَرَدِ بَرَدٌ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: ألمْ ترَ أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ له وينَزِّهُه كُلُّ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ مِن المَخلوقاتِ، والطَّيرُ باسِطاتٍ أجنِحَتَها في السَّماءِ حالَ الطَّيرانِ تُسَبِّحُ رَبَّها؟ كُلُّ مَخلوقٍ قد عَلِمَ صلاتَه وتَسبيحَه لله، وهو سُبحانَه عليمٌ بأفعالهم، لا يخفَى عليه شيءٌ منها، ولله وحْدَه مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ، فهو المالِكُ والمتصَرِّفُ في الكونِ، وإليه مَرجِعُ الخلائِقِ يومَ القيامةِ.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا بعضَ مظاهرِ قدرتِه: ألم ترَ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَسوقُ بقُدرتِه السَّحابَ إلى حيثُ يشاءُ، ثمَّ يجمَعُه بعدَ تفَرُّقِه، ثمَّ يجعَلُه مُتراكِمًا بعضُه فوقَ بَعضٍ، فترى المطَرَ يخرُجُ مِن بينِ السَّحابِ الكثيفِ؟

ويُنَزِّلُ اللهُ مِن السَّماء بَرَدًا مِن قِطَعِ سَحابٍ عَظيمةٍ كأمثالِ الجِبالِ، فيُصيبُ بذلك البَرَدِ مَن شاء مِن العبادِ، ويَدفَعُه عمَّن يشاءُ، يَكادُ ضَوءُ البَرقِ في السَّحابِ

(١) ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥١٣)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩)، ((الجدول)) لمحمود صافي (١٨/ ٢٧٤).

يَخطَفُ أبصارَ النَّاظِرينَ؛ مِن شِدَّةِ إضاءتِه، وقُوَّةِ لَمعانِه، يُقلِّبُ اللهُ تعالى اللَّيلَ والنَّهارَ، بمَجيءِ أحَدِهما بعدَ الآخَرِ، واختلافِهما طُولًا وقِصَرًا، وحرًّا وبردًا، ونورًا وظلمةً، وبما يقعُ فيهما مِن وقائعَ وأحداثٍ إلى غير ذلك، إنَّ في ذلك لَدلالةً واضِحةً، وعِظةً بليغةً لأصحابِ العُقولِ.

واللهُ تعالى خلقَ كُلَّ ما يَدِبُّ على الأرضِ مِن ماءٍ؛ فمِن هذه الدوابِّ مَن يزحَفُ على بَطنِه، كالحيَّةِ والزَّواحِفِ؛ ومنهم مَن يمشي على رِجلينِ، كالإنسانِ والطَّيرِ؛ ومنهم مَن يمشي على أربَعٍ، كالبهائِمِ ونَحوِها، يخلُقُ اللهُ ما يشاءُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثم يقولُ تعالى: لقد أنزَلْنا آياتِ القُرآنِ علاماتٍ واضِحاتٍ مُوضِحاتٍ للحَقِّ، واللهُ يُرشِدُ ويوَفِّقُ مَن يشاءُ إلى طريقِ الإسلامِ الواضِحِ المُستقيمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مَثَلَ المؤمِنِ والكافِرِ، وأنَّ الإيمانَ والضَّلالَ أمْرُهما راجِعٌ إليه؛ أعقَبَ بذِكرِ الدَّلائِلِ على قُدرتِه وتوحيدِه[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ألم تَرَ[2] أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ له وينزِّهُه عن النَّقائِصِ كُلُّ مَن في السَّمَواتِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥).

(٢) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تَعلَمْ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والرازيُّ، والقرطبيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، وابن جُزَي، والشوكانيُّ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن =

وكُلُّ مَن في الأرضِ؛ مِن الملائكةِ والنَّاسِ والجِنِّ، والحيواناتِ والنَّباتاتِ والجَماداتِ[1]؟

= سليمان)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٤). ويُنظر: أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكِّي (٨/ ٥١٢٨).

قال ابنُ عثيمين: (هل هذه الرُّؤيةُ بَصَريَّةٌ أو عِلميَّةٌ؟ ... الأَولى: أن تكونَ عِلميَّةً، يعني: ألمْ تَعلَمْ، سواءٌ كان عِلمُك عن طريقِ المُشاهَدةِ بالبَصَرِ، أو عن طريقِ السَّمعِ بالأُذُنِ، أو عن طريقِ الاستِنتاجِ بالعَقلِ والتَّفكيرِ، هذه الثَّلاثةُ هي طُرُقُ العِلمِ، كما قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦]). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٤).

وقال الشوكاني: (والخطابُ لكلِّ مَنْ له أهليَّةُ النَّظرِ، أو للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسَلَّم، وقد عَلِمه مِنْ جهةِ الاستِدلالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧).

ممَّن اختار أنَّ المُخاطَبَ هو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير، ومكي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٠).

وممَّن اختار العُمومَ: القرطبيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٤).

قال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ﴾ يعني: قد رأيتَ، لكِنْ هل الخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو لكُلِّ مَن يتأتَّى خِطابُه؟ الظَّاهِرُ: العُمومُ. ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أيُّها المخاطَبُ، لا أيُّها النبيُّ؛ لأنَّ ذلك أشمَلُ وأعَمُّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٢).

قال ابنُ جُزَي: (والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ والتَّعظيمُ، وهو مِنَ العُقلاءِ بالنُّطقِ، وأمَّا تَسبيحُ الطَّيرِ وغَيرِها مِمَّا لا يَعقِلُ، فقال الجُمهورُ: إنَّه حقيقيٌّ، ولا يَبعُدُ أن يُلهِمَها اللهُ التَّسبيحَ كما يُلهِمُها الأُمورَ الدَّقيقةَ التي لا يَهتدي إليها العُقَلاءُ. وقيل: تَسبيحُه: ظُهورُ الحِكمةِ فيه). ((تفسير ابن جزي)) =

كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖ﴾.

= (ص: ١٢٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٨).

وممَّن حَمَل التَّسبيحَ على حقيقتِه: الرسعنيُّ، وأبو حيان -لكِنْ خَصَّه بالمُطيعِ مِنَ الثَّقَلينِ-، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٧٥) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٤) (٤/ ٤٧).

وممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ: دَلالةُ هذه الأشياءِ على كَونِه تعالى مُنَزَّهًا عن النَّقائصِ، موصوفًا بنُعوتِ الجَلالِ، وأنَّ هذا التَّسبيحَ بلِسانِ الحال: الرازيُّ، والنيسابوري، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠١)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٧٩).

وممَّن جمع بين المعنَيَينِ السَّابِقَينِ: البيضاويُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٥).

قال ابن عثيمين: (وهذا التَّسبيحُ يَشمَلُ التَّسبيحَ بالقَولِ وبالحالِ؛ بالقَولِ، مِثلُ: سُبحانَ الله، وبالحالِ: أنَّك إذا تأمَّلْتَ خَلْقَه وما جُبِلوا عليه عَلِمْتَ بذلك أنَّ الله تعالى مُنَزَّهٌ عن العَبَثِ وعن النَّقائِصِ، يُسَمَّى هذا التسبيحَ بالحالِ.

إذا قُلْنا: إنَّ التَّسبيحَ بالمقالِ، فمِن المعلومِ أنَّ الكافِرَ لا يُسَبِّحُ اللهَ بمقالِه، يعني: لا يَقولُ: سُبحانَ اللهِ؛ لأنَّه يَصِفُ اللهَ تعالى بالعَيبِ، ويَجعَلُ مع اللهِ شَريكًا، لكِنَّه مُسَبِّحٌ لله بحالِه؛ فإنَّ حالَه وما جُبِلَ عليه، وانصِرافَه عن الحَقِّ مع وُضوحِه، وما أشبَهَ ذلك: كُلُّ ذلك ممَّا يدُلُّ على تنزيهِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وعلى حِكمتِه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٥).

وقيل: المرادُ بالتَّسبيحِ الصَّلاةُ، وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٢٨).

وقيل: معنى ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ أي: يَذكُرُه. قاله مقاتل بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٣).

وممَّن جمع بيْن المعنَيَينِ السَّابِقَينِ -أي: أنَّ معنى ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾: يُصَلِّي له، ويَذكُرُه-: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٧).

أي: والطَّيرُ مُصطَفَّاتِ الأجنحةِ في الهواءِ، تُسَبِّحُ لله أيضًا في حالِ طَيَرانِها[١].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾.

أي: كلُّ مخلوقٍ قد عَلِمَ صلاتَه وتَسبيحَه لله[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٨، ٤٩)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥١، ٥٥٢).

قال الماوردي: (﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾... فيه قولانِ:

أحدُهما: أنَّ كلَّ واحدٍ منهم قد علِم صلاتَه وتسبيحَه.

الثاني: أنَّ الله قد علِم صلاتَه وتسبيحَه). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١١٢).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: كلٌّ مِنَ المصَلِّينَ والمُسَبِّحِينَ قد عَلِم هو نفْسُه كيفيَّةَ صَلاتِه وتسبيحِه، على وَفقِ ما أرشدَه الله إليه: ابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥١، ٥٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٧).

قال الشنقيطي: (كلامُ الأُصوليِّينَ في أنَّ اللَّفظَ إنِ احتَمَل التَّوكيدَ والتَّأسيسَ حُمِلَ على التَّأسيسِ... وإذا عَلِمْتَ ذلك فاعلَمْ أنَّ الأظهَرَ على مُقتضى ما ذكَرْنا عن الأُصوليِّينَ: أن يكونَ ضَميرُ الفاعِلِ المحذوفُ في قَولِه: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ راجِعًا إلى قَولِه: ﴿كُلٌّ﴾، أي: كُلٌّ مِنَ المُصَلِّينَ قد عَلِمَ صَلاةَ نفْسِه، وكُلٌّ مِنَ المُسَبِّحينَ قد عَلِمَ تَسبيحَ نفْسِه، وعلى هذا القَولِ فقَولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تأسيسٌ لا تأكيدٌ. أمَّا على القَولِ بأنَّ الضَّميرَ راجِعٌ إلى اللهِ، أي: قد عَلِمَ اللهُ صَلاتَه، يكونُ قَولُه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ كالتَّكرارِ مع ذلك؛ فيكونُ مِن قَبيلِ التَّوكيدِ اللَّفظيِّ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٥١).

وقال ابنُ عثيمين: (الصَّحيحُ أنَّ قَولَه: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾، أي: كُلٌّ مِن هؤلاء المُسَبِّحينَ ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ هو نفْسُه ﴿صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، لكِنْ بأيِّ شَيءٍ عَلِمَ؟ أمَّا بالنِّسبةِ للبَشَرِ وكذلك الجِنُّ فقد عَلِموا =

= عن طريقِ الرُّسُلِ، فالرُّسُلُ أرسلَهم اللهُ ليُعَلِّموا النَّاسَ كيف يُصَلُّونَ وكيف يُسَبِّحونَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ، وأمَّا البهائِمُ والحيواناتُ الأُخرى فإنَّها عَلِمَت صَلاتَها وتَسبيحَها بما ألهَمَها اللهُ عزَّ وجَلَّ، ولكُلٍّ منها صلاةٌ وتَسبيحٌ خاصٌّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٧).

وقال الشوكاني: (فائدةُ الإخبارِ بأنَّ كُلَّ واحدٍ قد عَلِمَ ذلك: أنَّ صدورَ هذا التَّسبيحِ هو عن عِلمٍ عَلَّمَها اللهُ ذلك، وألهَمَها إليه، لا أنَّ صُدورَه منها على طريقةِ الاتِّفاقِ بلا رَوِيَّةٍ، وفي ذلك زيادةُ دَلالةٍ على بديعِ صُنعِ الله سبحانَه، وعظيمِ شأنِه؛ كونُه جعَلَها مسبِّحةً له، عالِمةً بما يصدُرُ منها، غيرَ جاهلةٍ له). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨).

وقيل: المعنى: قد عَلِمَ اللهُ صلاةَ كُلِّ مصَلٍّ منهم وتسبيحَه، وأنَّ الضميرَ في ﴿عَلِمَ﴾ للهِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والزجَّاج، والرسعني، وابنُ القيم، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٨، ٤٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٦٦)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٦).

ممَّن حمل الصَّلاةَ والتَّسبيحَ على حَقيقتِهما: ابنُ القيم، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٢).

قال الشوكاني: (قيلَ: والصَّلاةُ هنا بمعنَى التَّسبيحِ، وكُرِّر للتَّأكيدِ، والصَّلاةُ قد تُسَمَّى تسبيحًا. وقيلَ: المرادُ بالصَّلاةِ هنا الدُّعاءُ، أي: كلُّ واحدٍ قد عَلِم دُعاءَه وتسبيحَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالصَّلاةِ هنا: الدعاءُ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٨).

قال الرسعني: (قال أكثرُ المفسِّرينَ: الصلاةُ لبني آدمَ، والتَّسبيحُ لِما سِواهم). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٦٧). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٢).

وقال مقاتل بن سليمان: (﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ﴾ مِنَ الملائكةِ والمُؤمِنينَ مِن الجِنِّ والإنسِ. ثمَّ قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ يعني: ويَذكُرُه كُلُّ مخلوقٍ بلُغتِه، غيرَ كُفَّارِ الإنسِ والجِنِّ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٣).

وقيل: إنَّ هذا في الطَّيرِ، وإنَّ ضَرْبَ أجنِحَتِها صَلاةٌ، وإنَّ أصواتَها تَسبيحٌ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١١٢).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾.

أي: واللهُ ذو عِلمٍ بما يفعَلُ كُلُّ مُصَلٍّ ومُسَبِّحٍ منهم، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم، وهو مُجازيهم على ذلك[١].

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٤٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عمَّا في الكونَينِ بما يستلزِمُ المُلكَ على أنهَى وجوهِ التَّمامِ المُستلزِمِ للقُدرةِ على البَعثِ؛ أخبَرَ عنهما بالتَّصريحِ به[٢].

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى عبوديَّةَ المخلوقاتِ، وافتقارَهم إليه مِن جِهةِ العبادةِ والتوحيدِ؛ بيَّنَ افتِقارَهم مِن جِهةِ المُلكِ والتَّربيةِ والتَّدبيرِ، فقال[٣]:

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ولله سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ ومُلكُهما وتدبيرُهما، فلا تنبغي الرَّهبةُ والرَّغبةُ والعبادةُ إلَّا له وحْدَه[٤].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وحْدَه مَرجِعُ عِبادِه، فيَبعَثُهم بعدَ مَوتِهم، ويُجازيهم على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠).

أعمالِهم؛ فلْيُحسِنوا عبادَتَه، ويجتَهِدوا في طاعتِه[١].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾.

أي: ألم ترَ[٢] أنَّ اللهَ يَسوقُ بقُدرتِه قِطَعَ السَّحابِ المتفرِّقةَ، إلى حيثُ يريدُ[٣]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠).

وقال ابن عثيمين: (ويحتَمِلُ أنَّ قولَه: ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ ليس المرادُ مَصيرَ النَّاسِ في الآخرةِ فقط، بل مصيرُ الأمورِ كُلِّها، يعني: المرجِعُ إلى اللهِ في كُلِّ شَيءٍ، كلُّ شَيءٍ صائِرٌ إلى الله؛ فهو سبحانَه وتعالى يدبِّرُ ويَفعَلُ ما شاء). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩٢).

(٢) ممَّن اختار أنَّ الرُّؤيةَ هنا بَصَريَّةٌ: ابنُ عطيَّة، وابن عادل، وأبو السعود، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٤١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

وممَّن اختار أنَّ الرُّؤيةَ عِلميَّةٌ: مقاتلُ بن سليمان، والرازيُّ (وعَبَّرَ عن ذلك بقَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بعَينِ عَقلِك)، والقرطبيُّ (وعَبَّرَ عن ذلك بقَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بعَينَي قَلبِك) ، والرسعني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٦٥، ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩٣).

قال ابنُ عثيمين: (فالرُّؤيةُ في قَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى العِلمِ، وتفسيرُنا لها بالعِلمِ أعَمُّ مِن تفسيرِها بالرُّؤيةِ البَصَريَّةِ؛ لأجْلِ أن يَشمَلَ رُؤيةَ الإنسانِ ببَصَرِه -أي: عن طريقِ المُشاهَدةِ؛ لأنَّها تؤدِّي إلى العِلمِ-، ورُؤيةَ الإنسانِ بسَمْعِه بما يُخبَرُ به -لأنَّها تؤدِّي أيضًا إلى العِلمِ، ورؤيةَ الإنسانِ بقراءتِه عن هذا الأمرِ؛ لأنَّه يؤدِّي إلى العِلمِ،... فتَفسيرُها بالعِلمِ أَولى؛ لأنَّه أشمَلُ وأعَمُّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾.

أي: ثمَّ يجمَعُ اللهُ بينَ قِطَعِ السَّحابِ المتفرِّقةِ(١).

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾.

أي: ثمَّ يجعَلُ اللهُ قِطَعَ السَّحابِ المجموعةَ مُتراكِمةً؛ بَعضُها على بعضٍ، فتكونُ قويَّةً متَّصِلةً وكثيفةً(٢).

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾.

أي: فتنظُرُ إلى المطَرِ يَخرُجُ مِن فُتُوقِ السَّحابِ نُقَطًا متفرِّقةً(٣).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦١).

قال ابن عاشور: (أكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّ الوَدْقَ هو المطَرُ، وهو الذي اقتصَرَت عليه دواوينُ اللُّغةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦١).

وممَّن نسَبَ هذا القولَ للجمهورِ: الماوَرْديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٨). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٢١).

أي: ويُنَزِّلُ اللهُ البَرَدَ مِن جِهةِ السَّماءِ إلى الأرضِ، مِن قِطَعِ سَحابٍ عظيمةٍ كالجِبالِ[(١)].

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾.

أي: فيُصيبُ اللهُ بالبَرَدِ مَن يَشاءُ مِن عبادِه؛ عقوبةً لهم، فيَضُرُّهم في أنفُسِهم وأموالِهم، ويُتلِفُ ثمارَهم وزُروعَهم، ويَصرِفُ البَرَدَ عَمَّن يشاءُ مِن عبادِه؛ رَحمةً بهم، فلا يُصيبُهم ضَرَرُه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦١، ٢٦٢).

قال الرازي: (في هذه الآيةِ قولان؛ أحدُهما: أنَّ في السَّماءِ جِبالًا مِن بَرَدٍ خلَقَها الله تعالى كذلك، ثمَّ يُنزِّلُ منها ما شاء. وهذا القَولُ عليه أكثَرُ المفَسِّرينَ، قال مجاهدٌ والكلبيُّ: جبالٌ مِن بَرَدٍ في السَّماءِ. والقولُ الثاني: أنَّ السَّماءَ هو الغَيمُ المرتفِعُ على رؤوسِ النَّاسِ؛ سُمِّيَ بذلك لسُمُوِّه وارتفاعِه، وأنَّه تعالى أنزلَ مِن هذا الغيمِ -الذي هو سماءٌ- البَرَدَ، وأراد بقولِه: ﴿مِن جِبَالٍ﴾ السَّحابَ العِظامَ؛ لأنَّها إذا عَظُمت أشبَهَت الجبالَ، كما يقالُ: فلانٌ يملِكُ جِبالًا مِن مالٍ، ووُصِفَت بذلك توسُّعًا. وذهبوا إلى أنَّ البَرَدَ ماءٌ جامِدٌ خلَقَه الله تعالى في السَّحابِ، ثمَّ أنزله إلى الأرضِ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٥).

وممَّن ذهَب إلى القولِ الأوَّلِ وأنَّ هذه الجبالَ مِن بَرَدٍ: يحيى بنُ سلام، والزجَّاج، والواحدي، وأبو حيان، والعليمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٤) ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩٧).

وممَّن ذهَب إلى القولِ الثاني في الجملةِ: البِقَاعيُّ، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦١، ٢٦٢).

وقال محمد رشيد رضا: (لا مانِعَ مِنْ جَعْلِ السَّماءِ فيها عَيْنَ السَّحابِ، ولعلَّ الأظهَرَ أنْ يُرادَ بها جهةُ العلوِّ الَّتي يكونُ فيها السَّحابُ؛ كقولِه: ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨]). ((تفسير المنار)) (٨/ ٤١٦). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن =

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

أي: يُقارِبُ ضَوءُ بَرقِ السَّحابِ أن يُعمِيَ عُيونَ النَّاظِرينَ إليه؛ مِن شِدَّةِ ضَوئِه ولَمعانِه(١).

كما قال تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠].

= كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٢).

قال ابن كثير: (يحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بقولِه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بما ينزِلُ مِن السَّماءِ مِن نوعَي البَرَدِ والمطرِ؛ فيكونَ قولُه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ رحمةً لهم، ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ أي: يُؤَخِّرُ عنهم الغَيْثَ.

ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بقولِه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بالبَرَدِ؛ نِقْمَةً على مَن يشاءُ؛ لِمَا فيه مِنْ نَثْرِ ثِمارِهم، وإتلافِ زُروعِهم وأشجارِهم. ويَصْرِفُه عَمَّنْ يشاءُ؛ أي: رحمةً بهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣).

ممَّن اختار أنَّ إصابةَ البَرَدِ هنا نِقمةٌ وضرَرٌ، وصَرْفَه رحمةٌ ونِعمةٌ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن جرير، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠١).

قال ابن عثيمين: (يحتَمِلُ أن تكونَ مِن بابِ الامتنانِ؛ فإنَّ البَرَدَ قد يكونُ خَيرًا، وقد يَحصُلُ به رِيُّ الأرضِ ونباتُ الأشجارِ وغَيرُ ذلك؛ فيكونَ هذا من بابِ سياقِ الامتنانِ: يُصيبُ بهذا البَرَدِ مَن يشاءُ فيَنتَفِعُ به، ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فيَفوتُه الانتِفاعُ. ولا مانِعَ مِن أن يُستعمَلَ الصَّرفُ في صَرفِ الشَّيءِ النَّافِعِ، وإنْ كان الأكثَرُ أن يكونَ في صَرفِ الأشياءِ الضَّارَّةِ، لكِنْ قد يُستعمَلُ أيضًا في صَرفِ الأشياءِ التي تنفَعُ، وهذا من بلاغةِ القُرآنِ: أن تكونَ هذه الجُملةُ صالحةً للوَجهَينِ: وَجهِ العُقوبةِ، ووَجهِ الرَّحمةِ؛ فالإصابةُ بالبَرَدِ أحيانًا تكونُ عُقوبةً تَهلِكُ بها الزُّروعُ وتموت بها المواشي، وأحيانًا بالعَكسِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤﴾.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

أي: يُعقِّبُ اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ؛ فيأتي بأحَدِهما بعْدَ الآخَرِ، ويتصَرَّفُ فيهما بالزِّيادةِ والنُّقصانِ، ويغَيِّرُ حالَهما بالحَرِّ والبَردِ، والظُّلمةِ والنُّورِ إلى غيرِ ذلك، ويُديلُ الأيامَ بينَ عبادِه، ويَرفعُ أقوامًا ويضعُ آخرينَ إلى غيرِ ذلك(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بتقلُّبِ اللَّيلِ والنَّهارِ: اختِلافُهما؛ فيأتي باللَّيلِ ويَذهبُ بالنهارِ، ثمَّ يأتي بالنهارِ ويَذهبُ باللَّيلِ: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، والواحديُّ، وابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والخازنُ، وابنُ جُزَي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦١٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: أخْذُ كلِّ واحِدٍ منهما مِن صاحِبِه: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: يُعاقِبُ بيْن اللَّيلِ والنهارِ، ويُخالِفُ بيْنهما بالطُّولِ والقِصَرِ: الزمخشريُّ، والنسفي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٨).

وممَّن اختار ما هو أعَمُّ مِن التقليبِ الحِسِّيِّ: ابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ، وابنُ عثيمين:

قال ابنُ عثيمين: (المرادُ ما هو أعَمُّ مِن التَّقليبِ الحِسِّيِّ، والتقليبُ الحِسِّيُّ أنَّ اللهَ يُقَلِّبُ الأرضَ: بَدلًا مِن أنْ كانت ضياءً ونهارًا إلى لَيلٍ، ثمَّ إلى نهارٍ، وهكذا... والتَّقليبُ المعنويُّ: ما يحصُلُ في هذه الأيامِ مِن الحوادِثِ والتغَيُّراتِ، والعِزِّ والنَّصرِ، والإذلالِ والخِذلانِ، كما قال =

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

أي: إنَّ في ذلك[١] لَعِظةً لأصحابِ العُقولِ النَّافذةِ، الذين يعتَبِرونَ بالنَّظَرِ إليه، فيَستَدِلُّونَ بذلك على وُجودِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه وعظَمتِه وتوحيدِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ

= الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٠١).

وقال ابن تيميَّةَ: (تقليبُه اللَّيلَ والنَّهارَ: تحويلُ أحوالِ العالَمِ بإنزالِ المطَرِ الذي هو سبَبُ خلقِ النَّباتِ والحيوانِ والمَعدِن، وذلك سبَبُ تحويلِ النَّاسِ مِن حالٍ إلى حالٍ، المتضَمِّنِ رَفْعَ قومٍ وخَفْضَ آخَرينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٤٩٢).

وقال السعدي: (﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ مِن حرٍّ إلى بردٍ، ومِن بردٍ إلى حرٍّ، مِن لَيلٍ إلى نهارٍ، ومِن نهارٍ إلى لَيلٍ، ويُديلُ الأيامَ بينَ عبادِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(١) ممَّن اختار أنَّ معنى قولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي ذكرتُ مِن هذه الأشياءِ، مما تقدَّم ذِكرُه: الثعلبيُّ، والرازي، والبيضاوي، والخازن، وأبو حيان، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠).

قال ابن جرير: (يقولُ: إنَّ في إنشاءِ اللهِ السَّحابَ، وإنزالِه منه الوَدْقَ، ومِن السَّماءِ البَرَدَ، وفي تقليبِه اللَّيلَ والنَّهارَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: إنَّ في ذلكَ التَّقليبِ: السمرقنديُّ، والواحدي، وابن الجوزي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٠٢).

قال ابن عاشور: (والإشارَةُ الواقعةُ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تَضَمَّنه فعلُ ﴿يُقَلِّبُ﴾ مِن المصدرِ. أي: إنَّ في التَّقليبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا استدلَّ أوَّلًا بأحوالِ السماءِ والأرضِ، وثانيًا بالآثارِ العُلويةِ؛ استدلَّ ثالثًا بأحوالِ الحيواناتِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى أوَّلًا أحوالَ الخافِقَينِ[٢] دليلاً على وَحدانيَّتِه، وفصَّلَ منها الآثارَ العُلويَّةَ، فذكَرَ ما يَسقي الأرضَ؛ ذكَر أحوالَ ما يتكوَّنُ به مِن الحيواناتِ دَليلًا ظاهِرًا على الإعادةِ، وبُرهانًا قاهِرًا على المُنكِرينَ لها، فقال تعالى[٣]:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾.

أي: واللهُ خلَقَ كلَّ كائنٍ حَيٍّ يمشي على الأرضِ، مِن ماءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٦).

(٢) الخافِقَينِ: أي: المَشرِق والمَغرِب، أو أُفُقَيهما. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٥/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦).

قال ابنُ الجوزي: (وفي الماءِ قولان؛ أحَدُهما: أنَّ الماءَ أصلُ كُلِّ دابَّةٍ. والثَّاني: أنَّه النُّطفةُ، والمرادُ به: جميعُ الحيوانِ المشاهَدِ في الدُّنيا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠١).

والقَولُ الأوَّلُ هو ظاهِرُ قَولِ السمعانيِّ، وابنِ كثيرٍ، واختاره ابنُ رجب، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((لطائف المعارف)) =

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾.

أي: فمِنَ الحَيواناتِ المَخلوقةِ مِنْ ماءٍ مَنْ يَمشي زَحفًا على بَطنِه؛ كالحيَّةِ[١].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾.

أي: ومِنهم مَن يمشي قائِمًا على رِجلَينِ؛ كالإنسانِ والطَّيرِ[٢].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾.

= لابن رجب (ص: ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٠٤).

والقَولُ الثَّاني -أنَّ المرادَ بالماءِ النُّطفةُ- عزاه الشوكانيُّ للجمهور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠).

وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠١).

قال ابنُ رجب: (وقَولُ مَن قال: إنَّ المرادَ بالماءِ النُّطفةُ التي يُخلَقُ منها الحيواناتُ- بَعيدٌ). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٣).

وقال ابنُ عثيمين: (كَلِمةُ ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ أعَمُّ مِن كَلِمةِ نُطفةٍ، والواجِبُ إبقاءُ الآيةِ على عُمومِها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٠٤).

وقال الشوكاني: (وقيل: في الآيةِ تَنزيلُ الغالِبِ مَنزِلةَ الكُلِّ، على القَولِ الأوَّلِ -أي: أنَّ المرادَ بالماءِ: النُّطفةُ-؛ لأنَّ في الحيواناتِ مَن لا يتولَّدُ عن نُطفةٍ، ويخرُجُ من هذا العُمومِ الملائِكةُ؛ فإنَّهم خُلِقوا مِن نورٍ، والجانُّ؛ فإنَّهم خُلِقوا مِن نارٍ). ((فتح القدير)) للشوكاني (٤/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

أي: ومنهم مَن يمشي على أربَعِ قوائِمَ؛ كالبهائِمِ[١].

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: يُحدِثُ اللهُ بقُدرتِه في كُلِّ وَقتٍ ما يشاءُ مِن المَخلوقاتِ المتنوِّعةِ، ويجعَلُها على ما يَشاءُ مِن الصِّفاتِ المُختَلِفةِ[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قادِرٌ، ومِن ذلك قدرتُه على خلْقِ ما يشاءُ، ودخولُ كلِّ مخلوقاتِه تحتَ قدرتِه، فهو سبحانه لا يُعجِزُه شَيءٌ[٣].

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا اتَّضحَ بما ذُكِرَ مِن الدَّلائِلِ ما لله تعالى مِن صِفاتِ الكَمالِ، والتنزُّهِ عن كُلِّ شائِبةِ نَقصٍ، وقامت أدِلَّةُ الوحدانيَّةِ على ساقٍ، واتَّسَقت براهينُ الألوهيَّةِ أيَّ اتِّساقٍ؛ قال تعالى مُترجِمًا لتلك الأدِلَّةِ[٤]:

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾.

أي: لقد أنزَلْنا آياتِ القُرآنِ عَلاماتٍ واضِحاتٍ مُوضِحاتٍ للحَقِّ ولِما يحتاجُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٤).

النَّاسُ إلى بيانِه مِن مَعارِفَ وعُلومٍ، وآدابٍ وأحكامٍ(١).

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

أي: واللهُ يُرشِدُ ويُوفِّقُ مَن يشاءُ مِن عبادِه مِمَّن هو أهلٌ للهِدايةِ، إلى طريقِ الإسلامِ المُستَقيمِ الواضِحِ، المُوصِلِ إلى رِضاه وجَنَّتِه(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تنبيهٌ على أنَّه سُبحانَه وتعالى مالِكٌ للأوَّلِ والآخِرِ، فـ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ابتداءٌ، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ انتهاءٌ؛ ففيه -واللهُ أعلمُ- إشارةٌ إلى أنَّه إذا كان المُلكُ للهِ والمرجِعُ إليه، فإنَّه لا يَحِلُّ لنا أنْ نتصَرَّفَ إلَّا حسَبَ ما شُرِعَ لنا ما دُمْنا مِلكًا للهِ عزَّ وجلَّ، ومصيرُنا إلى اللهِ، وما دُمْنا نَعلمُ أنَّ مصيرَنا إليه فلا بُدَّ أنْ نستعدَّ لهذا المصيرِ؛ لأنَّه سوف يُحاسبُنا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٧).

قال ابن عطية: (قَولُه: ﴿ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ يعُمُّ كُلَّ ما نصَبَ الله تعالى من آيةٍ وصَنعةٍ للعِبرةِ، وكُلَّ ما نصَّ في كتابِه مِن آيةِ تنبيهٍ وتذكيرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩١).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بالآياتِ هنا آياتُ القرآنِ، كما يقتضيه فِعلُ ﴿أَنزَلۡنَآ﴾؛ ولذلك لم تُعطَفْ هذه الجملةُ على ما قبْلَها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

قال ابنُ عثيمين: (يعني: على الرَّغمِ مِن كَونِ الآياتِ ﴿مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ واضِحةً مُبيِّنةً، على الرَّغمِ مِن ذلك، فليس كلُّ أحدٍ يَهتدي بها، وإنَّما الله تعالى ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩١).

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ فالبصيرُ ينظُرُ إلى هذه المخلوقاتِ نظَرَ اعتِبارٍ وتفَكُّرٍ وتدَبُّرٍ لِما أُريدَ بها ومنها، والمُعرِضُ الجاهِلُ نَظَرُه إليها نظَرُ غَفلةٍ، بمنزلةِ نظَرِ البَهائمِ[1]!

٣- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تأمَّلْ كيف نبَّه سُبحانَه باختلافِ الحيواناتِ في المشيِ مع اشتراكِها في المادَّةِ على الاختِلافِ فيما وراءَ ذلك من أعضائِها وأشكالِها، وقُواها وأفعالِها، وأغذيتِها ومساكِنِها؛ فنبَّه على الاشتراكِ والاختِلافِ، فنُشيرُ إلى يسيرٍ منه: فالطَّيرُ كُلُّها تشتَرِكُ في الريشِ والجَناحِ، وتتفاوتُ فيما وراءَ ذلك أعظَمَ تفاوُتٍ، واشتراكُ ذواتِ الحوافِرِ في الحافِرِ، كالفَرَسِ والحِمارِ والبَغلِ، وتفاوُتُها في ما وراءَ ذلك، واشتراكُ ذواتِ الأظلافِ في الظِّلفِ، وتفاوتُها في غيرِ ذلك، واشتراكُ ذواتِ القُرونِ فيها، وتفاوتُها في الخَلقِ والمنافِعِ والأشكالِ، واشتراكُ حَيواناتِ الماء في كونِها سابحةً تأوي فيها وتتكوَّنُ فيها، وتفاوتُها أعظَمُ تفاوُتٍ عَجَز البشرُ إلى الآنَ عن حَصْرِه، واشتراكُ الوحوشِ في البُعدِ عن النَّاسِ، والنِّفارِ عنهم وعن مساكِنِهم، وتفاوتُها في صفاتِها وأشكالِها وطبائِعِها وأفعالها أعظَمُ تفاوُتٍ يَعجِزُ البشَرُ عن حصرِه، واشتراكُ الماشي منها على بطنِه في ذلك، وتفاوتُ نَوعِه، واشتراكُ الماشي على رِجلَين في ذلك، وتفاوُتُ نوعِه أعظَمُ تفاوتٍ؛ وكلٌّ من هذه الأنواعِ له عِلمٌ وإدراكٌ وتحيُّلٌ على جَلبِ مصالِحِه ودَفعِ مَضارِّه، يعجِزُ عن كثيرٍ منها نوعُ الإنسانِ، فمِن أعظَمِ الحِكَمِ الدَّلالةُ الظاهرةُ على مَعرفةِ الخالِقِ الواحدِ المُستولي بقوَّتِه وقُدرتِه وحِكمتِه على ذلك كُلِّه، بحيث جاءت

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

كُلُّها مطيعةً مُنقادةً مُنساقةً إلى ما خلَقَها له على وَفقِ مَشيئتِه وحكمتِه، وذلك أدَلُّ شيءٍ على قوَّتِه القاهرةِ، وحِكمتِه البالِغةِ، وعِلمِه الشَّامِلِ، فيُعلَمُ إحاطةُ قُدرةٍ واحدةٍ، وعلمٍ واحدٍ، وحِكمةٍ واحدةٍ -أعني: بالنوع- مِن قادرٍ واحدٍ، عالِمٍ واحدٍ، حَكيمٍ واحدٍ، بجميعِ هذه الأنواعِ وأضعافِها مِمَّا لا تعلَمُه العُقولُ البشريَّةُ، كما قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] [النحل: ٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أنَّه لا ينبغي للإنسانِ أن يعتَمِدَ على نفْسِه في الهدايةِ، بل يسألُ اللهَ دائمًا أنْ يهديَه ثم يُثَبِّتَه ما دامَ أنَّ اللهَ هو الذي يهدي[2]! فالله تعالى عَمَّم البيانَ التَّامَّ لجميعِ الخَلقِ، فقال: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾، وخَصَّص بالهدايةِ مَن يشاءُ، فهذا فَضلُه وإحسانُه، وما فَضلُ الكريمِ بمَمنونٍ -أي: بمقطوعٍ-، وذاك عَدلُه[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّ الله تعالى عَلِمَ في الجماداتِ وسائِرِ الحيواناتِ سِوى العُقلاءِ عِلمًا لا يَقِفُ عليه غيرُه، فلها صلاةٌ وتَسبيحٌ وخَشيةٌ، كما قال جلَّ ذِكرُه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [الحج: ١٨] الآيةَ؛ فيَجِبُ على المرءِ الإيمانُ به، ويَكِلُ عِلمَه إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى[4].

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (١/ ١٣٢).

٢- قال تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ إنَّ إعطاءَ الله سبحانه للأجرامِ الثَّقيلةِ ما تتمكَّنُ مِن الوُقوفِ في الجَوِّ والحركةِ كيف تشاءُ مِن الأجنحةِ والأذنابِ الخَفيفةِ، وإرشادَها إلى كيفيَّةِ استعمالِهما بالقبْضِ والبسْطِ: حُجَّةٌ نيِّرةٌ واضحةُ المَكنونِ، وآيةٌ بيِّنةٌ لقومٍ يعقِلون، دالَّةٌ على كَمالِ قُدرةِ الصَّانعِ المجيدِ، وغايةِ حِكمةِ المُبدئِ المُعيدِ[(١)].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُز�jِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ إنَّما دخلَتْ (بينَ) على مفردٍ، وهي إنما تَدخُلُ على المثَّنى فما فوقَه؛ لأنَّه إمَّا أن يُرادَ بالسَّحابِ الجِنسُ، فعاد الضَّميرُ عليه على حُكمِه، وإمَّا أن يُرادَ حَذفُ مُضافٍ، أي: بيْن قِطَعِه؛ فإنَّ كلَّ قِطعةٍ سَحابةٌ[(٢)].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ جعَلَ نُزولَ البرَدِ إصابةً؛ لأنَّ الإصابةَ إذا أُطْلِقَت في كلامِهم دلَّتْ على أنَّها حُلولُ مَكروهٍ، ومِن ذلك سُمِّيَتِ المُصيبةُ: الحادثةَ المكروهةَ، فجعَلَ نُزولَ البرَدِ إصابةً؛ لأنَّه يُفسِدُ الزَّرعَ والثَّمرةَ[(٣)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ نصٌّ صريحٌ أنَّ ذلك ليس مِن تَفرقةِ الرِّيحِ كما يزعُمُ أهلُ الطبيعةِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى ذَكَرَ بعدَ ذلك أنَّه هو الذي يُصرِّفُه ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾، وقد نصَّ تعالى أنه هو المُصَرِّفُ له في آيةٍ أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا * لِّنُحۡيِۦَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا * وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٢).

كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٥٠]، وهذا مِن لُطْفِ اللهِ وحِكمتِه؛ فإنَّه لو لم يجعَلْ للمطَرِ فُتوقًا وفُروجًا يَنزِلُ منها مُفرَّقًا، فأنزلَه دَفعةً واحدةً إلى الأرضِ لأهلكَ الناسَ والدَّوابَّ، ولأفسدَ الأرضَ وخرَّبَها، وهذا يرُدُّ على عُلَماءِ الطبيعةِ الذين لا يَعتَبِرونَ لهذا الكونِ مُدَبِّرًا[(١)]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ في السَّماءِ جِبالًا مِن بَرَدٍ -على أحدِ القولَينِ-، وهو تعالى يُنَبِّه خلْقَه على ما فيه نفْعُهم؛ لِيطمَعوا فيه، وعلى ما فيه هَلاكُهم؛ لِيخافوا منه، فنَبَّهَ على ما يَطمَعونَ فيه بالمطَرِ، ونَبَّهَ على ما يخافونَ منه بالبَرَدِ، وهو شَبيهٌ بقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾[(٢)] [الرعد: ١٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ فيه تَنبيهُ العُقولِ إلى التَّدبُّرِ في هذه التَّغيُّراتِ؛ إذ كان شُعورُ النَّاسِ بحُدوثِ البرْقِ أوضَحَ وأكثَرَ مِن شُعورِهم بتكوُّنِ السَّحابِ وتَراكُمِه، ونُزولِ المطَرِ والبرَدِ؛ إذ قد يَغفُلُ النَّاسُ عن ذلك لكثرةِ حُدوثِه وتَعوُّدِهم به، بخلافِ اشتدادِ البرْقِ؛ فإنَّه لا يَخْلو أحدٌ مِن أنْ يكونَ قد عرَضَ له مرَّاتٍ، فإنَّ أصحابَ الأبصارِ الَّتي حرَّكَها خَفْقُ البرْقِ يتذكَّرون تلك الحالةَ العجيبةَ الدَّالَّةَ على القُدرةِ؛ ولهذه النُّكتةِ خُصِّصَت هذه الحالةُ مِن أحوالِ البرْقِ بالذِّكْرِ[(٣)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ العِبرةُ مِن الاعتبارِ، وهو مأخوذٌ مِن «العِبْرِ» وهو شاطِئُ النَّهرِ، ومَن قَطَعَ النَّهرَ فقد عَبَرَه، فكأنَّ المُعتَبِرينَ بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على قُدرتِه عَبَروا مِن شاطِئِ السِّنَةِ والغَفلةِ والجهلِ إلى شاطِئِ

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٢).

النُّورِ والانتباهِ والاتِّعاظِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أنَّ عُمْيَ الأبصارِ لا يَستدِلُّونَ بهذه الآياتِ على كَمالِ قُدرتِه، ولا يَنتَفِعونَ منها بشَيءٍ[٢].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الماءَ مادَّةُ جَميعِ الحيواناتِ، وعلى خَلقِ جَميعِ ما يدِبُّ وما فيه حياةٌ مِن ماءٍ؛ فعُلِمَ بذلك أنَّ أصلَ جَميعِها الماءُ المُطلَقُ[٣].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ لِمَ قال الله ذلك مع أنَّ كثيرًا مِن الحيواناتِ غَيرُ مخلوقةٍ مِن الماءِ، أمَّا الملائكةُ فهُم أعظَمُ المخلوقاتِ الحيةِ عَددًا، وهم مخلوقونَ مِن النورِ، وأمَّا الجِنُّ فهم مخلوقون مِن النَّارِ[٤]، وخَلَق

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٦٦).

قال الرازي: («ع ب ر» ... تُفيدُ العُبورَ والانتقالَ، ... ومنه العِبارةُ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يُمْكِنُه أنْ يَتَكَلَّمَ بها إلَّا إذا انتَقَل مِن حرفٍ إلى حرفٍ آخَرَ، وأيضًا كأنَّه بسببِ تلك العِبارةِ يَنتقِلُ المعنَى مِن ذِهْنِ نفْسِه إلى ذِهنِ السَّامِعِ. ومنه العَبْرَةُ؛ لأنَّ تلك الدَّمعةَ تَنتقِلُ مِن داخلِ العيْنِ إلى الخارجِ. ومنه العِبرُ؛ لأنَّ الإنسانَ يَنتقِلُ فيها مِن الشَّاهدِ إلى الغائِبِ. ومنه المِعْبَرُ؛ لأنَّ الإنسانَ يَنتقِلُ بِواسِطَتِه مِن أحدِ طرفَيِ البحرِ إلى الثَّاني. ومنه التَّعبيرُ؛ لأنَّه يَنتقِلُ مِمَّا يَراهُ في النَّومِ إلى المعاني الغائبةِ). ((تفسير الرازي)) (١/ ٣٢).

وقال ابن القيِّم: (الاتِّعاظُ يُسمَّى اعتِبارًا وعِبرةً؛ لعبورِ المتَّعِظِ مِن النَّظيرِ إلى نظيرِه). ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) (١/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٣).

(٤) قال ابن رجب: (القرآنُ دَلَّ على خَلقِ جَميعِ ما يدِبُّ وما فيه حياةٌ مِن ماءٍ، فعُلِمَ بذلك أنَّ أصلَ جَميعِها الماءُ المُطلَقُ، ولا يُنافي هذا قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧]، وقَولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «خُلِقت الملائكةُ مِن نورٍ» [مسلم (٢٩٩٦) من حديثِ عائشةَ]؛ فإنَّ حديثَ أبي هُريرةَ «كُلُّ شَيءٍ خُلِقَ مِن ماءٍ» [أحمد (٧٩٣٢)، وابن حبان (٢٥٥٩)، والحاكم (٧٢٧٨). ويُنظر: ((إرواء الغليل)) للألباني (١/ ١٩٠)] دلَّ على =

اللهُ آدمَ مِن الترابِ؛ لِقَولِه: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال عن خلقِ عيسى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وأيضًا كثيرٌ من الحيواناتِ متولِّدٌ لا عن النُّطفةِ؟

الجواب من وجوه:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ قولَه: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ صِلةُ ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾، وليس هو مِن صِلةِ ﴿خَلَقَ﴾، والمعنى: أنَّ كُلَّ دابَّةٍ متولِّدةٍ مِن الماء فهي مخلوقةٌ لله تعالى.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ أصلَ جَميعِ المخلوقاتِ الماءُ، ولَمَّا كان المقصودُ مِن هذه الآيةِ بيانَ أصلِ الخِلقةِ، وكان الأصلُ الأوَّلُ هو الماءَ؛ لا جَرَمَ ذَكَره على هذا الوجهِ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ المرادَ مِن (الدابَّة) التي تدِبُّ على وجهِ الأرضِ، ومَسكنُهم هناك، فيَخرُجُ عنه الملائكةُ والجِنُّ، ولَمَّا كان الغالِبُ جِدًّا من هذه الحيواناتِ كَونَهم مخلوقينَ مِن الماء؛ إمَّا لأنَّها متولِّدةٌ مِن النُّطفةِ، وإمَّا لأنَّها لا تعيشُ إلَّا بالماء- لا جَرَمَ أطلَق لَفظَ الكُلِّ؛ تنزيلًا للغالِبِ مَنزلةَ الكُلِّ[1].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ سؤالٌ: وهو: أنَّ بعضَ الحيواناتِ تمشي على أكثرَ مِن أربعٍ، فلِمَ لم تُذكَرْ؟

والجوابُ مِن أوجهٍ:

الوجهُ الأولُ: أنَّ الواوَ حُذِفَتْ مع معطوفِها، أي: ومنهم مَن يمشي على أكثرَ

= أنَّ أصلَ النورِ والنَّارِ الماءُ، كما أنَّ أصلَ الترابِ الذي خُلِقَ منه آدمُ الماءُ، فإنَّ آدَمَ خُلِقَ مِن طينٍ، والطينُ تُرابٌ مُختَلِطٌ بماءٍ، أو الترابُ خُلِقَ من الماءِ... ولا يُستنكَرُ خَلقُ النَّارِ مِن الماءِ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ جمَع بقُدرتِه بينَ الماءِ والنَّارِ في الشَّجَرِ الأخضَرِ، وجعَل ذلك مِن أدلَّةِ القُدرةِ على البَعثِ). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٦).

مِن أربعٍ، وحَذْفُ الواوِ مع معطوفِها أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ.

الوجهُ الثاني: أنَّ ما يمشي على أكثرَ مِن أربعٍ قليلٌ، فلم يَتعرَّضْ له؛ لِقِلَّتِه.

الوجهُ الثالثُ: أنَّ المشيَ الرَّئيسَ على أربعٍ وإن كَثُرت الأرجُلُ.

الوجهُ الرابعُ: أنَّ الآيةَ ذكرتْ أمثلةً شَهيرةً، ولم تَحصُرْ[١]، فليسَ فيها ما يَقْتضي حَصرَ المشي في هذه الأحوالِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّ المقصودَ الاعتبارُ بالغالبِ المُشاهَدِ[٢].

الوجه الخامس: أنَّه لم يزِدْ على الأربعِ؛ لأنَّ القوائمَ وإن زادَتْ فاعتمادُ الحيوانِ على جهاتِه الأربعةِ، فكأنَّها تمشي على أربعةٍ[٣].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه تعالى ما تعلَّقَت به إرادةُ خَلقِه، أنشأه واختَرَعه، وفي ذلك تنبيهٌ على كثرةِ الحَيوانِ، وأنَّها كما اختَلَفت بكيفيَّةِ المشي، اختلَفَت بأمورٍ أُخَرَ[٤].

١٤- في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أنَّ الشَّرعَ كلَّه -الذي هو دينُ الإسلامِ- مُستقيمٌ، ليس فيه اعوِجاجٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٦٨).

وقال ابن عثيمين: (مِن الحيواناتِ أو مِن الدوابِّ ما يمشي على أكثَرَ مِن أربَعٍ، فمنها ما له سِتُّ أرجُلٍ أو أكثرُ من ذلك، إنَّما هذا التقسيمُ ليس للحَصرِ، ولكِنَّه للقَصرِ، أي: مِن بابِ الاقتصارِ على بعضِ الأنواعِ فقط، ويدُلُّ على ذلك قَولُه: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾).

((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٠٦) بتصرف يسير.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣١٣).

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ كِنايةً عن التَّعجُّبِ مِن حالِ فريقِ المُشرِكين الَّذين هم مِن أصحابِ العُقولِ، ومع ذلك قد حُرِموا الهُدى لَمَّا لم يَجعَلْه اللهُ فيهم، وقد جعَلَ الهُدى في العَجْماواتِ؛ إذ جبَلَها على إدراكِ أثَرِ نِعمةِ الوُجودِ والرِّزقِ. وقيل: الرُّؤيةُ هنا بَصريَّةٌ؛ وعلى هذا الاعتبارِ كان الاستفهامُ الإنكاريُّ مَكينَ الوقْعِ. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ جاريةً مَجْرى الأمثالِ في كلامِ البُلغاءِ؛ وعليه فلا الْتِفاتَ فيها إلى معنى الرُّؤيةِ. وقيل: الرُّؤيةُ هنا قلبيَّةٌ، وأغنَى المصدرُ عن المفعولَينِ[1]. وقيل: هو استِئنافٌ خُوطِبَ بهِ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -على أحدِ الأقوالِ-؛ للإيذانِ بأنَّه تعالى أفاضَ عليه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أعلَى مَراتبِ النُّورِ وأجْلاها، وبيَّنَ له مِن أسرارِ المُلْكِ والملكوتِ أدقَّها وأخفاها، والهمزةُ للتَّقريرِ، أي: قد علِمْتَ عِلْمًا يَقينيًّا شَبيهًا بالمُشاهَدةِ في القوَّةِ والرَّصانةِ بالوحيِ الصَّريحِ، والاستدلالِ الصَّحيحِ[2].

- وفي قولِه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نبَّهَ على كَمالِ قُوَّةِ دَلالةِ المخلوقاتِ عليه سُبحانه وغايةِ وُضوحِها؛ حيثُ عبَّرَ عنها بما يخُصُّ العُقلاءَ مِن التَّسبيحِ الَّذي هو أقْوى مَراتبِ التَّنزيهِ وأظهَرُها؛ تَنزيلًا لِلِسانِ الحالِ مَنزلةَ لِسانِ المَقالِ -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-، وأكَّدَ ذلك بإيثارِ كَلمةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٢).

(مَن) على (ما)؛ كأنَّ كلَّ شيءٍ ممَّا عَزَّ وهانَ، وكلَّ فَرْدٍ مِن أفرادِ الأعراضِ والأعيانِ: عاقلٌ ناطقٌ، ومُخبِرٌ صادقٌ بعُلوِّ شأْنِه تعالى وعِزَّةِ سُلطانِه. وتَخصيصُ التَّنزيهِ (التَّسبيحِ) بالذِّكْرِ مع دَلالةِ ما فيهما على اتِّصافِه تعالى بنُعوتِ الكَمالِ أيضًا؛ لِما أنَّ مَساقَ الكلامِ لتَقبيحِ حالِ الكفَرةِ في إخلالِهم بالتَّنزيهِ، بجَعْلِهم الجَماداتِ شُركاءَ له في الأُلوهيَّةِ، ونِسبَتِهم إيَّاه إلى اتِّخاذِ الولَدِ، تعالى عن ذلكَ عُلُوًّا كبيرًا[1]. وقيل: وجهُ تخصيصِ التسبيحِ هاهنا بالعقلاءِ أنَّ خِلْقةَ العقلاءِ أشدُّ دَلالةً على وجودِ الصانعِ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ العجائبَ والغرائبَ في خَلقِهم أكثرُ، وهي العقلُ والنطقُ والفَهمُ[2]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ فيه تَخصيصُ الطَّيرِ بالذِّكْرِ مع اندراجِها في جُملةِ ما في الأرضِ؛ لعدَمِ استِقرارِ قَرارِها، واستِقلالِها بصُنْعٍ بارعٍ، وإنشاءٍ رائعٍ؛ قُصِدَ بَيانُ تَسبيحِها مِن تلك الجِهَةِ؛ لوُضوحِ إنبائِها عن كَمالِ قُدرةِ صانعِها، ولُطْفِ تَدبيرِ مُبدعِها؛ ولذلك قيَّدها بقولِه: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾؛ فإنَّ إعطاءَ الأجرامِ الثقيلةِ ما به تقوَى على الوقوفِ في الجوِّ باسطةً أجنحتَها، بما فيها مِن القبضِ والبسطِ- حُجَّةٌ قاطعةٌ على كمالِ قدرةِ الصانعِ تعالى، ولُطفِ تدبيرِه[3]. وقيل: تَخصيصُ الطَّيرِ بالذِّكْرِ مِن بيْنِ المخلوقاتِ؛ للمُقابَلةِ بيْنَ مخلوقاتِ الأرضِ والسَّماءِ بذِكْرِ مَخلوقاتٍ في الجوِّ بين السَّماءِ والأرضِ؛ ولذلك قُيِّدَت بـ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٩).

- قولُه: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ استِئنافٌ، وهو مِن تَمامِ العِبرةِ؛ إذ أودَعَ اللهُ في جميعِ أولئك ما به مُلازَمتُهم لِمَا فُطِروا عليه مِن تَعظيمِ اللهِ وتَنزيهِه[١]. وتَقديمُ الصلاةِ على التَّسبيحِ في الذِّكْرِ؛ لِقِدَمِها عليه في الرُّتبةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فيه وَعيدٌ وتَخويفٌ[٣]. وهو اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تَحقيقٌ لِمَا دلَّ عليه الكلامُ السَّابقُ مِن إعطائِه الهُدى للعَجْماواتِ في شُؤونِه، وحِرْمانِه إيَّاهُ فريقًا مِن العُقلاءِ؛ فلو كان ذلك جاريًا على حسَبِ الاستحقاقِ لكان هؤلاء أهْدى مِن الطَّيرِ في شأْنِهم[٥].

- قولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ بَيانٌ لاختِصاصِ المُلكِ به تعالى في المعادِ، إثْرَ بَيانِ اختصاصِه به تعالى في المبدَأِ. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في مَوقعِ الإضمارِ؛ لتَربيةِ المَهابةِ، والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ[٦]، وفيه أيضًا تذكيرٌ وتَخويفٌ[٧].

- وتَقديمُ المعمولينِ ﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: إنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٤).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦).

التَّصرُّفَ في العوالِمِ للهِ لا لغَيرِه[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ فيه حُسنُ تخلُّصٍ؛ حيث أعقَبَ الدَّلالةَ على إعطاءِ الهُدى في قوانينِ الإلهامِ في العَجْماواتِ بالدَّلالةِ على خلْقِ الخصائصِ في الجَمادِ، بحيث تَسِيرُ على السَّيرِ الَّذي قدَّرَهُ اللهُ لها سَيرًا لا يتغيَّرُ؛ فهي بذلك أهْدى مِن فريقِ الكافرينَ الَّذين لهم عُقولٌ وحواسٌّ لا يَهْتدون بها إلى مَعرفةِ اللهِ تعالى، والنَّظرِ في أدِلَّتِها، وفي ذلك دَلالةٌ على عِظَمِ القُدرةِ، وسَعةِ العلْمِ، ووَحدانيَّةِ التَّصرُّفِ. وهذا استدلالٌ بنظامِ بعضِ حوادثِ الجوِّ حتَّى آلَ إلى قولِه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ وقد حصَلَ مِن هذا حُسنُ التَّخلُّصِ للانتِقالِ إلى الاستِدلالِ على عِظَمِ القُدرةِ، وسُمُوِّ الحِكمةِ، وسَعةِ العلْمِ الإلهيِّ[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ في تَعقيبِ الجَعلِ المذكورِ برُؤيتِه خارجًا لا بخُروجِه مِنَ المُبالَغةِ في سُرعةِ الخُروجِ، ومِنَ الاعتناءِ بتَقريرِ الرُّؤيةِ ما لا يَخْفى[٣].

- قولُه: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ مَفعولُ (يُنَزِّلُ). وقيل: المفعولُ ﴿مِن جِبَالٍ﴾، وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ. وقيل: مفعولُ (يُنَزِّلُ) مَحذوفٌ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾، والتَّقديرُ: يُنزِّلُ بَردًا، ووُقوعُ (مِن) زائدةً؛ لقصْدِ مُشاكَلةِ قولِه: ﴿مِن جِبَالٍ﴾. وقيل: هو على حذْفِ حَرفِ التَّشبيهِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٤).

والسَّماءُ: السَّحابُ، أي: مِن السَّماءِ الَّتي هي جِبالٌ، أي: كجبالٍ[١].

- وذكر البَرَد؛ لأنَّهم كانوا يَعرِفونه، فخُوطِبوا بما يعرِفون، وترَك ذِكرَ الثلجِ، وهو أكثرُ نزولًا مِن البَرَدِ؛ لأنَّهم كانوا لا يعرِفونَه في بلادِهم[٢].

- قولُه: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، أي: ضَوءُ بَرقِ السَّحابِ، وإضافةُ البرْقِ إليه قبْلَ الإخبارِ بوُجودِه فيه؛ للإيذانِ بظُهورِ أمْرِه، واستِغنائِه عن التَّصريحِ به[٣].

- قولُه: ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، أي: يخطَفُها مِن فَرطِ الإضاءةِ، وسرعةِ وُرودِها. وفي إطلاقِ الأبصارِ مَزيدُ تَهويلٍ لأمْرِه، وبَيانٌ لشِدَّةِ تأْثيرِه فيها، كأنَّه يكادُ يذهَبُ بها ولو عندَ الإغماضِ، وهذا مِن أقوى الدَّلائلِ على كَمالِ القُدرةِ، مِن حيثُ إنَّه تَوليدٌ للضِّدِّ مِن الضِّدِّ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّ قولَه: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ هو كقولِه في سُورةِ (البقرةِ): ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠]، سِوى أنَّ هذه الآيةَ زِيدَ فيها لفْظُ ﴿سَنَا﴾؛ لأنَّ هذه الآيةَ واردةٌ في مَقامِ الاعتبارِ بتَكوينِ السَّحابِ، وإنْزالِ الغَيثِ؛ فكان المَقامُ مُقْتضيًا للتَّنويهِ بهذا البرْقِ وشِدَّةِ ضِيائِه؛ حتَّى يكونَ الاعتبارُ بأمْرينِ: بتكوينِ البرْقِ في السَّحابِ، وبقُوَّةِ ضِيائِه حتَّى يَكاد يَذهَبُ بالأبصارِ. وآيةُ (البقرةِ) واردةٌ في مَقامِ التَّهديدِ والتَّشويهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٤، ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٦/ ٤٠٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥).

لحالِهم حين كانوا مُظهِرينَ الإسلامَ ومُنطَوِينَ على الكُفرِ والجُحودِ؛ فكانتْ حالُهم كحالةِ الغَيثِ المُشتمِلِ على صَواعِقَ ورعْدٍ وبرْقٍ؛ فظاهِرُه مَنفعةٌ، وفي باطنِه قوارعُ ومَصائبُ. ومِن أجْلِ اختلافِ المَقامينِ وُضِعَ التَّعبيرُ هنا بـ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، وهنالِك بقولِه: ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾؛ لأنَّ في الخَطْفِ مِن معنى النِّكايةِ بهم والتَّسلُّطِ عليهم ما ليس في (يَذهَبُ)؛ إذ هو مُجرَّدُ الاستِلابِ. وأمَّا التَّعبيرُ هنا بالأبصارِ مُعرَّفًا باللَّامِ؛ فلأنَّ المقصودَ أنَّ البرْقَ مُقارِبٌ أنْ يُزيلَ طائفةً مِن جِنسِ الأبصارِ؛ فالحُكْمُ على حالةِ البرْقِ الشَّديدِ مِن حيثُ هي، بخلافِ آيةِ (البقرةِ)؛ فإنَّها في مَقامِ التَّوبيخِ لهم بأنَّ ما شأْنُه أنْ يَنتفِعَ النَّاسُ به قد أشرَفَ على الضُّرِّ بهم؛ فلذلك ذُكِرَ لفْظُ (أبصار) مُضافًا إلى ضَميرِهم. مع ما في هذا التَّخالُفِ مِن تفْنينِ الكلامِ الواحدِ على أفانينَ مُختلفةٍ؛ حتَّى لا يكونَ الكلامُ مُعادًا، وإنْ كان المَعنى مُتَّحِدًا. ولا تجِدُ حقَّ الإيجازِ فائتًا؛ فإنَّ هذينِ الكلامينِ في حدِّ التَّساوي في الحُروفِ والنُّطقِ. وهكذا نَرى بلاغةَ القُرآنِ وإعجازَهُ وحلاوةَ نظْمِه[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ الكلامُ استِئنافٌ، وجِيءَ به مُستأنَفًا غيرَ مَعطوفٍ على آياتِ الاعتِبارِ المذكورةِ قَبْلَه؛ لأنَّه أُرِيدَ الانتِقالُ مِن الاستِدلالِ بما قدْ يَخْفى على بعضِ الأبصارِ إلى الاستِدلالِ بما يُشاهِدُه كلُّ ذي بَصَرٍ كلَّ يومٍ وكلَّ شهْرٍ، فهو لا يَكادُ يَخْفى على ذي بصَرٍ، وهذا تدرُّجٌ في مَوقعِ هذه الجُملةِ عقِبَ جُملةِ: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ ولذلك فالمقصودُ مِن الكلامِ هو جُملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، ولكنْ بُنِيَ نظْمُ الكلامِ على تَقديمِ الجُملةِ الفِعليَّةِ ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ لِمَا تَقْتضيهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٣).

مِن إفادةِ التَّجدُّدِ، بخلافِ أنْ يُقالَ: إنَّ في تَقليبِ اللَّيلِ والنَّهارِ لَعِبرةً[١].

- قولُه: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ تَقليبُ اللَّيلِ والنَّهارِ تَغييرُ الأُفقِ مِن حالةِ اللَّيلِ إلى حالةِ الضِّياءِ، ومِن حالةِ النَّهارِ إلى حالةِ الظَّلامِ، فالمُقلَّبُ هو الجوُّ بما يَختلِفُ عليه مِن الأعراضِ، ولكنْ لمَّا كانت حالةُ ظُلمةِ الجوِّ تُسمَّى ليلًا، وحالةُ نُورِه تُسمَّى نهارًا؛ عُبِّرَ عن الجوِّ في حالتَيهِ بهما، وعُدِّيَ التَّقليبُ إليهما بهذا الاعتِبارِ، وممَّا يدخُلُ في معنى التَّقليبِ تَغييرُ هَيئةِ اللَّيلِ والنَّهارِ بالطُّولِ والقِصَرِ؛ ولرَعْيِ تَكرُّرِ التَّقلُّبِ بمَعنيَيهِ عُبِّرَ بالمُضارِعِ المُقْتضي للتَّكرُّرِ والتَّجدُّدِ ﴿يُقَلِّبُ﴾[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فيه التَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ وهو إمَّا لمُجرَّدِ الاهتِمامِ بالخبَرِ، وإمَّا لتَنزيلِ المُشركينَ في تَرْكِهم الاعتبارَ بذلك مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ في ذلك عِبرةً[٣].

- والإشارةُ الواقعةُ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تَضمَّنَه فِعلُ ﴿يُقَلِّبُ﴾ مِن المصدرِ، أي: إنَّ في التَّقليبِ، ويُرجِّحُ هذا القصدَ ذِكرُ العِبرةِ بلفْظِ المُفرَدِ المُنكَّرِ. وقيل: الإشارةُ بقولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إلى جميعِ ما ذُكِرَ آنفًا، ابتِداءً مِن قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣]؛ فيَكونُ الإفرادُ في قولِه: ﴿لَعِبۡرَةً﴾ ناظرًا إلى أنَّ مجموعَ ذلك يُفيدُ جِنسَ العِبرةِ الجامعةِ لليقينِ بأنَّ اللهَ هو المُتصرِّفُ في الكونِ. ولم تَرِدِ العِبرةُ في القُرآنِ مُعرَّفةً بلامِ الجِنسِ، ولا مَذكورةً بلفْظِ الجمْعِ[٤]. والتعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يفيدُ البُعدَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٦٤، ٢٦٥).

مع قُربِ المُشارِ إليه؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتْبتِه، وبُعدِ مَنزلَتِه[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ خُصَّ أولُو الأبصارِ بالاتِّعاظِ؛ لأنَّ البصرَ والبصيرةَ إذا استُعْمِلا وَصَلا إلى إدراكِ الحقِّ[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ فيه تَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ على الخبرِ الفِعليِّ ﴿خَلَقَ ...﴾؛ لأنَّه لمَّا كان الاعتِبارُ بتَساوي أجناسِ الحيوانِ في أصلِ التَّكوينِ مِن ماءِ التَّناسُلِ، مع الاختلافِ في أوَّلِ أحوالِ تلك الأجناسِ في آثارِ الخِلْقةِ -وهو حالُ المشْيِ- إنَّما هو باستمرارِ ذلك النِّظامِ بدونِ تخلُّفٍ، وكان ذلك مُحقَّقًا؛ كان إفراغُ هذا المعنى بتَقديمِ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعليِّ مُفيدًا لأمْرينِ: التَّحقُّقِ بالتَّقديمِ على الخبَرِ الفِعليِّ، والتَّجدُّدِ بكونِ الخبَرِ فِعليًّا[٣].

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾ دونَ الإضمارِ (وهو)؛ للتَّنويهِ بهذا الخَلْقِ العجيبِ[٤].

- وأيضًا اخْتِيرَ فِعلُ المُضِيِّ ﴿خَلَقَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَقريرِ التَّقوِّي بأنَّ هذا شأْنٌ مُتقرِّرٌ منذ القِدَمِ، مع عدَمِ فَواتِ الدَّلالةِ على التَّكريرِ؛ حيث عقَّبَ الكلامَ بقولِه: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وخصَّ الدَّابَّةَ بالذِّكْرِ، مع أنَّ غيرَها مِثْلُها، كما شَمِلَهُ قولُه في سُورةِ الأنبياءِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ لأنَّ القُدرةَ فيها أظهَرُ وأعجَبُ منها في غيرِها(١).

- قولُه: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ فيه تَنكيرُ (ماء)، وهو إمَّا للإفرادِ نوعًا؛ فإنَّه تعالى خلَقَ كلَّ نوعٍ مِن أنواعِ الدَّوابِّ مِن ماءٍ مُختَصٍّ بذلك النَّوعِ؛ فخلَقَ نوعَ الإنسانِ مِن ماءٍ مُختصٍّ به، وخلَقَ الفرَسَ مِن ماءٍ مُختصٍّ به. وإمَّا للإفرادِ شَخْصًا؛ فإنَّه تعالى خلَقَ كلَّ دابَّةٍ مِن ماءٍ مَخصوصٍ بها، وهو النُّطفةُ -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-، ثمَّ اختلَفَتْ هذه النُّطفةُ بحسَبِ اختلافِ الدَّوابِّ؛ فيكونُ تَنزيلًا للغالِبِ مَنزلةَ الكلِّ؛ إذ مِن الحيواناتِ ما يَتولَّدُ لا عن النُّطفةِ(٢).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ جاء الماءُ في قولِه: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ نكِرةً، وجاء في سُورةِ (الأنبياءِ) ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] مَعرِفةً؛ ووَجْهُه: أنَّ تَنكيرَ ﴿مَّآءٍ﴾ لإرادةِ النَّوعيَّةِ؛ تَنبيهًا على اختِلافِ صِفاتِ الماءِ لكلِّ نوعٍ مِن الدَّوابِّ؛ إذ المقصودُ تَنبيهُ النَّاسِ إلى اختلافِ النُّطَفِ -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-؛ للزِّيادةِ في الاعتبارِ. وهذا بخِلافِ قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ إذ قُصِدَ هناك إلى أنَّ أجناسَ الحيوانِ كلَّها مَخلوقةٌ مِن جِنسِ الماءِ، وهو جِنسٌ واحدٌ اختلَفَت أنواعُه؛ فتعريفُ الجِنسِ هناك إشارةٌ إلى ما يَعرِفُه النَّاسُ إجمالًا ويَعهَدونه؛ مِن أنَّ الحيوانَ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣٦).

كلَّه مخلوقٌ مِن نُطَفِ أُصولِه. وهذا مناطُ الفرْقِ بيْن التَّنكيرِ كما هنا، وبيْن تَعريفِ الجِنسِ كما في آيةِ ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ فالآيةُ الأُولى لإخراجِ المُختلِفِ مِن المُتَّفِقِ، والثَّانيةُ لإخراجِ المُتَّفِقِ مِن المُختلِفِ[١].

- قولُه: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ فيه تَسميةُ حَركتِها مشْيًا مع كَونِها زحْفًا على البطن؛ اتساعًا؛ لقيامِه مقامَ المشيِ[٢]. وقيل: لأنَّ كلَّ سائرٍ يقالُ له: ماشٍ، وقد مشَى، سواءٌ كانت له قوائمُ أو لم تكنْ له، بل وإن لم يكنْ مِن الحيوانِ[٣]. وقيل: للمُشاكَلةِ مع بقيَّةِ الأنواعِ. وقيل غيرُ ذلك[٤].

- وفي قولِه: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ تَغليبٌ للعاقلِ على غيرِه؛ لأنَّه لمَّا اختلَطَ غيرُ العاقلِ بالعاقلِ في الفصْلِ بـ (مَن) و﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾، كان التَّعبيرُ بـ (مَن) أوْلى؛ لِتُوافِقَ اللَّفظَ. والقاعدةُ: إذا اجتَمع مَن يعقلُ وغيرُه غُلِّب مَن يعقلُ، فلمَّا وقَع التفصيلُ وقَع تفصيلًا للعقلاءِ فقط، ويحتمِلُ أنْ تكونَ (مَن) نكِرةً مَوصوفةً بالجُملةِ بعدَها، والتَّقديرُ: فمنهم نوعٌ يَمْشي على بطْنِه، ونوعٌ يَمْشي على رِجلينِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٧)، ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٩).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣٦).

ونوعٌ يَمْشي على أربعٍ[١]. وقيل: لمَّا كان في سياقِ التعظيمِ، وكان قد آتَى كلَّ نفْسٍ مِن الإدراكِ ما تعرِفُ به منافعَها ومضارَّها؛ عبَّر عن الكلِّ بأداةِ مَن يَعقِلُ، وإن كانوا متفاوتينَ في التمييزِ[٢].

- قولُه: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ زِيادةٌ في العِبرةِ، أي: يتجدَّدُ خلْقُ اللهِ ما يشاءُ أنْ يَخلُقَه ممَّا علِمْتُم وما لم تَعلَموا؛ فهي جُملةٌ مُستأنَفةٌ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في مَوضعِ الإضمارِ؛ لتَفخيمِ شأْنِ الخَلْقِ المذكورِ، والإيذانِ بأنَّه مِن أحكامِ الأُلوهيَّةِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تَعليلٌ وتَذييلٌ، وإظهارُ اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ أيضًا في مقامِ الإضمارِ؛ لتَفخيمِ شأْنِ الخلْقِ المذكورِ، والإيذانِ بأنَّه مِن أحكامِ الأُلوهيَّةِ؛ وليكونَ كلامًا مُستقِلًّا بذاتِه؛ لأنَّ شأْنَ التَّذييلِ أنْ يكونَ كالمَثلِ[٥].

- وقدَّم ما يمشي على غيرِ آلةٍ؛ لكونِ الآيةِ سيقَتْ لبيانِ القدرةِ وتعجُّبِ السامعِ، وما يمشي بغيرِ آلةٍ أعجبُ ممَّا يمشي بآلةٍ، فلذلك كان تقديمُه ملائمًا لمقصودِ الآيةِ الشريفةِ، ثمَّ ثنَّى بالأفضلِ فأتَى بما يمشي على رجلينِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢١٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦).

وهو الآدميُّ والطيرُ؛ لتمامِ خلقِ الإنسانِ، وكمالِ صورتِه، ولما في الطيرِ مِن عجبِ الطيرانِ الدالِّ على الخفَّةِ، معَ ما فيه مِن الكثافةِ الأرضيةِ، وثلَّث بما يمشي على أربعٍ؛ لأنَّه أحسنُ الحيوانِ البهيميِّ وأقواه، فتضمَّنتْ هذه الكلماتُ -التي هي بعضُ آيةٍ-، عدةً مِن المحاسنِ، منها: صحةُ التقسيمِ معَ مراعاةِ الترتيبِ، وائتلافُ اللفظِ معَ المعنى، وحُسنِ النَّسقِ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تَذييلٌ للدَّلائلِ والعِبَرِ السَّالفةِ، وهو نتيجةُ الاستِدلالِ؛ ولذلك خُتِمَ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: إنْ لم يَهتَدِ بتلك الآياتِ أهلُ الضَّلالةِ؛ فذلك لأنَّ اللهَ لم يَهْدِهم؛ لأنَّه يَهْدي مَن يشاءُ[٢].

- ولم تُعطَفْ هذه الجُملةُ على ما قبْلَها، بعكْسِ قولِه السَّابقِ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ٣٤]؛ لأنَّ المُرادَ بالآياتِ هنا آياتُ القُرآنِ كما يَقْتضيه فِعْلُ ﴿أَنزَلْنَآ﴾. ولمَّا كان المقصودُ مِن هذا إقامةَ الحُجَّةِ دونَ الامتنانِ، لم يُقيَّدْ إنزالُ الآياتِ بأنَّه إلى المُسلمينَ كما قُيِّدَ في قولِه تعالى قبْلَه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾[٣] [النور: ٣٤].

- وتَكريرُ قولِه: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ مِن بابِ التَّرجيعِ والشُّروعِ في مَشرعٍ آخَرَ مِن ذِكْرِ المُنافقينَ وأحوالِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((خزانة الأدب)) للحموي (٢/ ٣٧١)، و يُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢٢).

الآيات (٤٧-٥٠)

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُذْعِنِينَ﴾: أي: مُنقادينَ مُطيعينَ، وأصلُ (ذعن): يدُلُّ على الانقيادِ[١].

﴿ٱرْتَابُوٓاْ﴾: أي: شَكُّوا، وأصلُ الرَّيبِ: الشكُّ مع الخَوفِ، ومع تُهمةِ المشكوكِ فيه[٢].

﴿يَحِيفَ﴾: أي: يَظلِمَ ويَجورَ، وأصلُ (حيف): يدُلُّ على المَيلِ في الحُكمِ، والجُنوحِ إلى أحَدِ الجانِبينِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا بعضَ أحوالِ المنافقينَ: ويقولُ المُنافِقون بألسِنتِهم كَذِبًا: آمَنَّا باللهِ وبالرَّسولِ، وأطَعْنا أمْرَهما. ثمَّ تُعْرِضُ جماعةٌ منهم مِن بعدِ ما صدَرَ منهم مِن دعوى الإيمانِ والطَّاعةِ، وما أولئك بالمؤمِنينَ. وإذا دُعوا في

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦).

مُنازعاتِهم إلى حُكمِ اللهِ ورَسولِه، أعرَضَ فريقٌ منهم عن حُكمِ اللهِ وحُكمِ رَسولِه، وإن يكُنِ الحَقُّ في جانبِهم يأتوا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طائعينَ مُنقادينَ لحُكمِه. فهلْ إعراضُهم عن حُكمِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لنفاقٍ في قلوبِهم، أمْ شَكُّوا في نبُوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أم يخافونَ أن يَظلِمَهم رسولُ اللهِ في الحُكمِ؟! كلَّا، ليس الأمرُ كذلك، بل هؤلاء هُمُ الظَّالِمون لأنفُسِهم بعَدَمِ التَّسليمِ بحُكمِ الشَّرعِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعد أن ذُكرَت دلائِلُ انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ، وذُكرَ الكُفَّارُ الصُّرَحاءُ الذين لم يَهتَدوا بها في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ ﴾ [النور: ٣٩]، تهيَّأ المقامُ لِذِكرِ صِنفٍ آخَرَ مِن الكافرينَ الذين لم يَهتَدوا بآياتِ الله، وأظهَروا أنَّهم اهتَدوا بها[١].

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾.

أي: ويَقولُ المُنافِقونَ بألسِنتِهم كَذِبًا مِن غيرِ يقينٍ ولا إخلاصٍ: آمَنَّا باللهِ وبرَسولِه محمَّدٍ، وأطَعْنا اللهَ وأطَعْنا رَسولَه[٢].

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۞

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤).

يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨، ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥۗ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾.

أي: ثمَّ يُعرِضُ طائِفةٌ مِن المُنافِقين عن طاعةِ اللهِ ورَسولِه مِن بَعدِ قَولِهم: آمنَّا وأطَعْنا[(١)]!

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: وليس أولئك القائِلونَ بأفواهِهم: آمَنَّا باللهِ وبالرسولِ وأطَعْنا[(٢)] بالمُؤمِنينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

قال ابن تيميَّة: (التَّولِّي ليس هو التَّكذيبَ، بل هو التوَلِّي عن الطَّاعةِ؛ فإنَّ النَّاسَ عليهم أن يُصَدِّقوا الرَّسولَ فيما أخبرَ، ويُطيعوه فيما أمَرَ، وضِدُّ التَّصديقِ التَّكذيبُ، وضِدُّ الطَّاعةِ التوَلِّي). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٤٢).

وقال الشنقيطي: (على قَولٍ بأنَّها نزلت في المنافِقينَ، وَجهُ كَونِ فَريقٍ منهم يتولَّونَ مع أنَّهم على مِلَّةٍ واحدةٍ، وكُلُّهم يوافِقُ على التَّولِّي: هو أنَّ بَعضَهم قد تقَعُ بيْنه وبيْن خَصمِه مُنازَعةٌ، فيَطلُبُ الخَصمُ منه التحاكُمَ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيتولَّى، والباقون لا تقَعُ منهم خُصومةٌ مع أحدٍ، فلا يَظهَرُ تولِّيه مِثلَ الفَريقِ الأوَّلِ، ولو وقَعَت بيْنه وبيْن أحدٍ مُنازَعةٌ وطُلِب منه التحاكُمُ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَتَوَلَّى أيضًا كما تولَّى الفريقُ الأوَّلُ.

وقال بعضُ العُلَماءِ: الآيةُ نزلت في عُمومِ المُؤمِنينَ، سواءٌ منهم مَن كان مُؤمِنًا ظاهِرًا وباطِنًا، وهم المؤمِنونَ الصَّادِقونَ، أو كان مُؤمِنًا في الظَّاهِرِ دونَ الباطِنِ، وهم المنافِقونَ، ثمَّ أَخرَجَ منهم المنافِقينَ، ووَجهُ ذلك أنَّهم ادَّعَوُا الإيمانَ كما ادَّعاه المؤمِنونَ الصَّادِقونَ، ثمَّ تولَّوا عنه). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٧٠).

(٢) قال البيضاوي: (﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى القائلين بأَسْرِهم، فيكونُ إعلامًا مِن الله تعالى بأنَّ جميعَهم وإن آمَنوا بلسانِهم لم تؤمِنْ قُلوبُهم، أو إلى الفَريقِ منهم، وسُلِب الإيمانُ =

المُخلِصينَ الثَّابِتينَ[١].

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا فضح المُنافِقين بما أخفَوه مِن تولِّيهم، قبَّح عليهم ما أظهَروه، فقال تعالى[٢]:

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨﴾.

= عنهم لتولِّيهم، والتَّعريفُ فيه للدَّلالةِ على أنَّهم ليسوا بالمؤمِنينَ الذين عَرَفتَهم، وهم المُخلِصونَ في الإيمانِ، والثَّابتونَ عليه. ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بهم القائلون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾: ابنُ جرير، ومكي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٣٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٨).

قال الشوكاني: (﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: ما أولئك القائلونَ هذه المقالةَ بالمؤمنينَ على الحقيقةِ، فيشملُ الحُكمُ بنفيِ الإيمانِ جميعَ القائلينَ، ويندرجُ تحتَهم مَن تولَّى اندراجًا أوَّليًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢).

وقيل: المرادُ بهم: الفريقُ الذي تولَّى منهم؛ المُعرِضونَ. وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، وابنُ تيمية، وجلال الدين المحلي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٨، ٢٦٩).

قال الشوكاني: (والكلامُ مُشتمِلٌ على حُكمَينِ: الحُكمُ الأوَّلُ على بعضِهم بالتولِّي، والحُكمُ الثاني على جميعِهم بعدَمِ الإيمانِ. وقيل: أراد بمَن تولَّى: مَن تولَّى عن قَبولِ حُكمِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقيل: أراد بذلك رُؤساءَ المنافِقين. وقيل: أراد بتولِّي هذا الفريقِ رُجوعَهم إلى الباقين). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٦).

أي: وإذا دُعِيَ هؤلاء المُنافِقونَ إلى كتابِ اللهِ وإلى رَسولِه؛ لِيَحكُمَ بينهم الرَّسولُ بحُكمِ اللهِ فيما يَختَلِفونَ فيه، إذا طائِفةٌ مِن المُنافِقينَ يُعرِضونَ عن التَّحاكُمِ إلى اللهِ ورَسولِه[1]!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

أي: وإنْ يكُنِ الحَقُّ للمُنافِقينَ على مَن يُخاصِمونَه، يَقبَلوا التَّحاكُمَ إلى اللهِ ورَسولِه، ويأتوا إلى الرَّسولِ طائِعينَ مُنقادينَ لحُكمِه؛ لِمُوافقتِه لأهوائِهم[2]!

﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾.

أي: أفي قُلوبِ هؤلاء المُنافِقينَ -المُعرِضينَ عن التَّحاكُمِ إلى اللهِ ورَسولِه- مَرَضٌ مُلازِمٌ لهم، أخْرجَ القلبَ عن صِحَّتِه، فصاروا كالمريضِ الذي يُعرِضُ عمَّا يَنفَعُه، ويُقبِلُ على ما يضُرُّه[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١). =

﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾.

أي: أمْ حدَثَ لهم شَكٌّ واضطرابٌ وتردُّدٌ وقلقٌ[(١)]؟

﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ﴾.

= قيل: المرادُ بالمَرَضِ هنا: الشكُّ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن القيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٥).

وقيل: المرادُ بالمرَضِ هنا: الكُفرُ والشِّركُ. ومِمَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، وابن أبي زمنين، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٦).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلفِ: الحسنُ البصري. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٧).

وقيل: المرادُ بالمرَضِ: النفاقُ. ومِمَّن اختاره: الرازيُّ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٧).

وقيل: المرادُ بالمرَضِ: عِلَّةٌ تُخرِجُ القَلبَ عن صِحَّتِه، وتمنَعُ مِن قَبولِ الحَقِّ. ومِمَّن اختار هذا القَولَ في الجملة: السمعانيُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

وقال البقاعي: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: نَوعُ فَسادٍ مِن أصلِ الفِطرةِ يَحمِلُهم على الضَّلالِ. ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٧).

وقال ابن عثيمين: (الذي يَظهَرُ لي -واللهُ أعلَمُ- أنَّ المرادَ به الشَّهوةُ في الإرادةِ السَّيِّئةِ؛ بدَليلِ التَّقسيمِ، سواءٌ كان كُفرًا أو نِفاقًا أو غيرَ ذلك، المُهِمُّ أنَّ المرَضَ هو الإرادةُ السَّيِّئةُ التي تَصرِفُهم عن قَبولِ الحَقِّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١).

قال الماوَرْدي: (﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ أي: شكُّوا. ويَحتَمِلُ وَجهَينِ؛ أحَدُهما: في عَدلِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم. الثَّاني: في نبُوَّتِه). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١١٧).

أي: أمْ يخافون أن يَجورَ اللهُ ورَسولُه عليهم في الحُكمِ[١]؟!

﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: بل هؤلاء هُمُ الظَّالِمون لأنفُسِهم بعَدَمِ الرِّضا والتَّسليمِ بحُكمِ الشَّرعِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ ليس ذلك لأجْلِ أنَّه حُكمٌ شَرعيٌّ، وإنَّما ذلك لأجْلِ مُوافَقةِ أهوائِهم، فليسوا ممدوحينَ في هذه الحالِ ولو أتَوا إليه مُذعِنينَ؛ لأنَّ العبدَ حقيقةً مَن يَتَّبعُ الحَقَّ فيما يُحِبُّ ويَكرَهُ، وفيما يَسُرُّه ويَحزُنُه، وأمَّا الذي يَتَّبعُ الشَّرعَ عندَ موافقةِ هواه، ويَنبِذُه عندَ مخالفتِه، ويُقَدِّمُ الهوى على الشَّرعِ؛ فليس بعَبدٍ على الحقيقةِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ حظَّ المُنافقينَ مِن الإيمانِ مُجرَّدُ القَولِ دونَ الاعتقادِ[٤].

٢- القُرآنُ يُبيِّنُ أنَّ إيمانَ القَلبِ يَستَلزِمُ العمَلَ الظَّاهِرَ بحَسَبِه، كقَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٨).

بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، فنفَى الإيمانَ عَمَّن تولَّى عن طاعةِ الرَّسولِ، وأخبَرَ أنَّ المؤمنينَ إذا دُعُوا إلى الله ورَسولِه ليَحكُمَ بيْنهم، سَمِعوا وأطاعوا؛ فبَيَّن أنَّ هذا مِن لوازِمِ الإيمانِ(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه دليلٌ واضحٌ على أنَّ الإنسانَ إذا قال: إنَّه مؤمِنٌ، وهو مُتَوَلٍّ ومُعرِضٌ؛ فهو كاذبٌ في دَعْواه، وهو إمَّا أن يكونَ ليس مؤمنًا أصلًا، وإمَّا أن يكونَ مؤمنًا لكن ناقص الإيمانِ، فإذا كان التولِّي تولِّيًا مُطلقًا انتفَى أصلُ الإيمانِ، وإذا كان التولِّي تولِّيًا غيرَ مُطلَقٍ، بل في بعضِ الأمورِ، فإنَّها تختلِفُ؛ فبَعضُ الأمورِ إذا ترَكَها الإنسانُ وأعرَضَ عنها قد يكونُ كافِرًا، وقد يكونُ مُؤمِنًا ناقِصَ الإيمان(٢).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ الله تعالى حكى عنهم كلِّهم أنَّهم يقولون آمنَّا، ثمَّ حكى عن فَريقٍ منهم التولِّيَ، فكيف يصِحُّ أن يقولَ في جميعِهم: ﴿وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، مع أنَّ الذي تولَّى منهم هو البَعضُ؟

الجوابُ: أنَّ قَولَه: ﴿وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ راجِعٌ إلى الذين تولَّوا، لا إلى الجُملةِ الأولى -على قولٍ-، وأيضًا فلو رجعَ إلى الأوَّلِ يَصِحُّ، ويكونُ معنى قَولِه: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي: يَرجِعُ هذا الفريقُ إلى الباقينَ منهم، فيُظهِرُ بَعضُهم لبعضٍ الرُّجوعَ عمَّا أظهَروه(٣).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٠).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فيه دَليلٌ على وجوبِ الانقيادِ لحُكمِ اللهِ ورَسولِه في كُلِّ حالٍ، وأنَّ مَن لم ينقَدْ له دَلَّ على مرَضٍ في قَلبِه، ورَيبٍ في إيمانِه؛ وأنَّه يَحرُمُ إساءةُ الظَّنِّ بأحكامِ الشَّريعةِ، وأن يُظَنَّ بها خِلافُ العَدلِ والحِكمةِ[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فيه وجوبُ الحُضورِ على مَن دُعِيَ لحُكمِ الشَّرعِ، وتَحريمُ الامتِناعِ[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ إنَّما جُعِلَ الدُّعاءُ إلى اللهِ ورسولِه كِلَيْهِما، مع أنَّهم دُعوا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ حُكمَ الرَّسولِ حُكمُ اللهِ؛ لأنَّه لا يَحكُمُ إلَّا عن وَحيٍ؛ ولهذا الاعتبارِ أُفرِدَ الضَّميرُ في قَولِه: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ العائدُ إلى أقرَبِ مَذكورٍ، ولم يقُلْ: (لِيحكُمَا)[٣]، أو: لأنَّ المعنيَّ به الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنَّما بدأ بذِكرِ اللهِ؛ إعظامًا لله، واستفتاحَ كَلامٍ[٤]، ولبيانِ أنَّه المشرِّعُ للأحكامِ، والرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو المباشِرُ للحُكمِ في الحقيقةِ[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أنه يجبُ على المؤمنِ إذا دعاه أحدٌ إلى حاكمٍ مِن حُكَّامِ المسلمينَ يحكمُ بالشَّرعِ أنْ يُجيبَه ويأتيَ إليه؛ وأنَّه يَلْزَمُه الانقيادُ لحُكْمِه؛ وأن يقولَ: «سمعنا وأطعنا»؛

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٧٢).

لأنَّ اللهَ تعالى ذَمَّ مَن أعْرَضَ وتولَّى، ومَدَحَ مَن أطاعَ وأجابَ، وشرْطُ وجوبِ الإجابةِ والانقيادِ أنْ يكونَ القاضي عالمًا عادلًا؛ لأنه وارثُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فالتولِّي عنه حرامٌ، أمَّا إذا كان القاضي متَّبِعًا لهواهُ، جائرًا في حكْمِه، يأخُذُ الرِّشوةَ؛ فلا إثْمَ على مَنِ امتنعَ عن التحاكمِ إليه[1].

٩- مَرَضُ القُلوبِ نَوعانِ: مَرَضُ شُبهةٍ وشَكٍّ، ومَرَضُ شَهوةٍ وغَيٍّ، وكِلاهما في القُرآنِ؛ قال تعالى في مَرَضِ الشُّبهةِ: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]، وقال تعالى في حَقِّ مَن دُعِيَ إلى تحكيمِ القُرآنِ والسُّنَّةِ فأبى وأعرَضَ: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۞ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُواْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۞ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠]، فهذا مَرَضُ الشُّبُهاتِ والشُّكوكِ. وأمَّا مَرَضُ الشَّهَواتِ، فقال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ فهذا مَرَضُ شَهوةِ الزِّنا. واللهُ أعلَمُ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ ﴾ على القولِ بأنَّها نزَلَتْ في أحدِ المنافقينَ؛ فيكونُ فيه التَّعبيرُ بصِيغَةِ الجمْعِ ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ للقائلِ طائفةً يُساعِدونه ويُشايِعونه في تلك المقالةِ، كما يُقال: بنُو فلانٍ قَتلُوا

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٥).

فُلانًا، والقاتلُ واحدٌ منهم[١]. وقيل: ضَميرُ الجمْعِ عائدٌ إلى معْروفينَ عند السَّامعينَ، وهم المُنافِقون؛ لأنَّ ما ذُكِرَ بعدَه هو مِن أحوالِهم، وعَودُ الضَّميرِ إلى شَيءٍ غيرِ مذكورٍ كثيرٌ في القُرآنِ، على أنَّهم قد تقدَّمَ ما يُشِيرُ إليهم بطريقِ التَّعريضِ في قولِه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[٢] [النور: ٣٧].

- في قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عبَّرَ بالمُضارعِ؛ لإفادةِ تجدُّدِ ذلك منهم، واستِمرارِهم عليه؛ لِمَا فيه مِن تَكرُّرِ الكذِبِ ونَحوِه مِن خِصالِ النِّفاقِ[٣].

- ومَفعولُ (أَطَعْنَا) مَحذوفٌ؛ دلَّ عليه ما قبْلَه، أي: أطَعْنا اللهَ والرَّسولَ؛ ففيه إيجازٌ بالحذْفِ[٤].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ عُبِّر باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يُفيدُ البُعدَ؛ للإيذانِ بكونِه أمرًا مُعتَدًّا به، واجِبَ المُراعاةِ[٥].

- قولُه: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في التَّعريفِ في قولِه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّهم ليسوا بالمُؤمنينَ الَّذين عرَفْتَ، وهم الثَّابِتون المُستقيمون على الإيمانِ، الموصوفونَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾[٦] [الحجرات: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦).

- وعُبِّر باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذي يفيدُ البُعدَ؛ للإشعارِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الكُفرِ والفسادِ[١]. وإذا كان قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةً إلى القائلينَ ﴿ءَامَنَّا﴾، يكونُ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي في الرُّتبةِ؛ إيذانًا بارتفاعِ دَرجةِ كُفْرِ الفريقِ المُتولِّي منهم، وانحطاطِ درجةِ أولئك. وإذا كان إشارةً إلى الفريقِ المُتولِّي منهم، يكونُ ﴿ثُمَّ﴾ للاستبعادِ، ويُؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، أي: كيف يَدخُلون في زُمرةِ المُؤمنينَ الَّذين يقولون: آمنَّا باللهِ وبالرَّسولِ وأطَعْنا، ثمَّ يُعرِضون، ويتَجاوزون عن الفريقِ المُؤمنينَ، ويَرغَبُون عن تلك المَقالةِ، وهذا بعيدٌ عن العاقلِ المُميِّزِ[٢]؟!

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ شَرْحٌ للتَّولِّي المذكورِ في الآيةِ السَّابقةِ، ومُبالَغةٌ فيه[٣].

- قولُه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ الضَّميرُ في قولِه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ عائدٌ إلى مُعادِ ضَميرِ (يَقُولُونَ)، وإسنادُ فِعْلِ ﴿دُعُوٓاْ﴾ إلى جميعِهم، وإنْ كان المُعرِضون فَريقًا منهم لا جميعَهم؛ للإشارةِ إلى أنَّهم سواءٌ في التَّهيُّؤِ إلى الإعراضِ، ولكنَّهم لا يُظهِرونه إلَّا عندما تَحُلُّ بهم النَّوازلُ؛ فالمُعرِضون هم الَّذين حلَّت بهم الخُصوماتُ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ وقَعَ حرْفُ (إذا) المُفاجأةِ في جوابِ (إذا) الشَّرطيَّةِ؛ لإفادةِ مُبادرتِهم بالإعراضِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٩).

دونَ تريُّثٍ؛ لأنَّهم قد أيْقَنوا مِن قبلُ بعَدالةِ الرَّسولِ، وأيْقَنوا بأنَّ الباطِلَ في جانبِهم، فلم يَتردَّدوا في الإعراضِ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَقسيمِ الأمْرِ في صُدودِهم عن حُكومتِه إذا كان الحقُّ عليهم بيْن أنْ يكونوا مرضَى القلوبِ مُنافقينَ، أو مُرتابينَ في أمْرِ نبوَّتِه، أو خائِفين الحَيفَ في قضائِه. والاستِفهاماتُ الثلاثةُ مُستعمَلةٌ في التَّنبيهِ على أخلاقِهم، ولفْتِ الأذهانِ إلى ما انْطَوَوا عليه، والدَّاعي إلى ذلك أنَّها أحوالٌ خَفِيَّةٌ؛ لأنَّهم كانوا يُظهِرون خِلافَها. وأتْبَعَ بعضَ الاستِفهاماتِ بعضًا بحَرفِ (أَمْ) المُنقطعةِ الَّتي هي هنا للإضرابِ الانتِقاليِّ، والانتقالُ هنا تدرُّجٌ في عَدِّ أخلاقِهم؛ فالمعنى: أنَّه إنْ سأَلَ سائلٌ عن اتِّصافِهم بخُلقٍ مِن هذه المذكوراتِ، علِمَ المسؤولُ أنَّهم مُتَّصِفون به؛ فكان الاستِفهامُ المُكرَّرُ ثلاثَ مرَّاتٍ مُستعمَلًا في التَّنبيهِ[٢].

- وقيل: إنَّ (أَمْ) هنا مُنقطِعةٌ، والتَّقديرُ: بلِ ارْتابوا، بلْ أيخافُونَ؟ وهو استِفهامُ تَوقيفٍ وتوبيخٍ؛ ليُقِرُّوا بأحدِ هذه الوُجوهِ الَّتي عليهم في الإقرارِ بها ما عليهم[٣].

- وقيل: إنَّ قولَه: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ إنكارٌ واستِقباحٌ لِإعراضِهم المذكورِ، وفيه بَيانٌ لمَنشأِ إعراضِهم وصُدودِهم بعدَ استِقصاءِ عِدَّةٍ مِن القَبائحِ المُحقَّقةِ فيهم، والمُتوقَّعةِ منهم، وتَرديدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٦/ ٦٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٢).

المَنشئيَّةِ بيْنها؛ فمدارُ الاستِفهامِ ليس نفْسَ ما جاء بعدَ الهمزةِ و(أم) مِن الأمورِ الثَّلاثةِ -وهي وجودُ المرضِ في قُلوبِهم، وارتيابُهم، وخوفُهم مِن أنْ يَحيفَ اللهُ عليهم ورسولُه-، بلْ مدارُ الاستِفهامِ مَنشئيَّةُ هذه الأمورِ للإعراضِ؛ كأنَّه قيل: أذلِكَ -أي: إعراضُهم المذكورُ- لأنَّهم مَرْضى القُلوبِ؛ لكُفْرِهم ونِفاقِهم، ﴿أَمْ﴾ لأنَّهم ﴿ٱرْتَابُوٓاْ﴾ في أمْرِ نُبوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع ظُهورِ حقِّيَّتِها، ﴿أَمْ﴾ لأنَّهم ﴿يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾؟ ثمَّ أُضرِبَ عن الكلِّ، وأُبطِلَتْ مَنشئيَّتُه، وحُكِمَ بأنَّ المَنشأَ للإعراضِ شَيءٌ آخرُ مِن شَنائعِهم، وهو كونُهم ظالِمينَ[1]. أو أبطَلَ خوفَهم حَيْفَه بقولِه: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: لا يَخافون أنْ يَحيفَ عليهم؛ لمعرفتِهم بحالِه، وإنَّما هم ظالمونَ يُريدونَ أنْ يَظلِموا مَن له الحقُّ عليهم، ويَتِمَّ لهم جُحودُه، وذلك شَيءٌ لا يَستطيعونَه في مجلسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فمِن ثَمَّةَ يأبَوْنَ المُحاكمةَ إليه[2].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ لطيفةٌ؛ حيث أُتِيَ في جانبِ هذا الاستفهامِ ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ المرضِ في قُلوبِهم، وتأصُّلِه فيها بحيثُ لم يدخُلِ الإيمانُ في قُلوبِهم. وأُتِيَ في جانبِ هذا الاستِفهامِ ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ بالجُملةِ الفِعليَّةِ المُفيدةِ للحُدوثِ والتَّجدُّدِ، أي: حدَثَ لهم ارتيابٌ بعدَ أنِ اعتَقَدوا الإيمانَ اعتقادًا مُزلزَلًا. وجِيءَ في جانبِ هذا الاستفهامِ ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ بالفِعلينِ المُضارعينِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه خَوفٌ في الحالِ مِن الحَيفِ في المُستقبلِ، يَقْتضيهِ دُخولُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٩).

﴿أَن﴾ -وهي حرفُ الاستقبالِ- على فِعلِ ﴿يَحِيفَ﴾[١].

- قولُه: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ كِنايةٌ عن كَونِهم يَعتقِدون أنَّه غيرُ مُنزَّلٍ مِن اللهِ، وأنْ يكونَ حُكمُ الرَّسولِ بغيرِ ما أمَرَ اللهُ؛ فهم يَطعنونَ في الحُكْمِ وفي الحاكمِ، وما ذلك إلَّا لأنَّهم لا يُؤمِنون بأنَّ شريعةَ الإسلامِ مُنزَّلةٌ مِن اللهِ، ولا يُؤمِنون بأنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُرسَلٌ مِن عندِ اللهِ؛ فالكلامُ كِنايةٌ عن إنكارِهم أنْ تكونَ الشَّريعةُ إلَهيَّةً، وأنْ يكونَ الآتي بها صادِقًا فيما أتى به[٢].

- قولُه: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قيل: (بل) للإضرابِ الانتقاليِّ مِنَ الاستِفهامِ التَّنبيهيِّ إلى خبَرٍ آخَرَ، ولم يُؤتَ في هذا الإضرابِ بـ (أَمْ)؛ لأنَّ (أَمْ) لا بُدَّ معها مِن معنى الاستفهامِ، وليس المُرادُ عطْفَ كونِهم ظالمينَ على الاستفهامِ المُستعمَلِ في التَّنبيهِ، بلِ المُرادُ به إفادةُ اتِّصافِهم بالظُّلمِ دونَ غيرِهم؛ لأنَّه قدِ اتَّضحَ حالُهم، فلا داعِيَ لإيرادِه بصِيغةِ استِفهامِ التَّنبيهِ. وليست (بل) هنا للإبطالِ؛ لأنَّه لا يَستقيمُ إبطالُ جميعِ الأقسامِ المُتقدِّمةِ؛ فإنَّ منها مرَضَ قُلوبِهم وهو ثابتٌ، ولا دليلَ على قصْدِ إبطالِ القِسمِ الأخيرِ خاصَّةً، ولا على إبطالِ القِسمينِ الآخَرينِ[٣].

- وجُملةُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ السَّامعَ بعدَ أنْ طنَّتْ بأُذنِه تلك الاستفهاماتُ الثَّلاثةُ، ثمَّ أُعقِبَت بحرفِ الإضرابِ (بل)، يترقَّبُ ماذا سيُرسِي عليه تحقيقَ حالِهم؛ فكان قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بَيانًا لِمَا يَترقبُّه السَّامعُ[١].

- والقَصرُ الحاصلُ مِن تَعريفِ الجُزأينِ، ومِن ضَميرِ الفصلِ ﴿هُمُ﴾ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: حَصْرٌ مُؤكَّدٌ، أي: هم الظَّالِمون، لا شَرْعُ اللهِ، ولا حُكمُ رَسولِه. وزاد اسمَ الإشارةِ تأْكيدًا للخبَرِ؛ فحصَلَ فيه أربعةُ مُؤكِّداتٍ: اثنانِ مِن صِيغَةِ الحصرِ؛ إذ ليس الحصْرُ والتَّخصيصُ إلَّا تأكيدًا على تأكيدٍ، والثَّالثُ: ضَميرُ الفصْلِ، والرَّابعُ: اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٣).

الآيات (٥١-٥٤)

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: أي: أقوى الأيمانِ وأغلَظَها مُجتَهِدينَ في تَوكيدِها. وحقيقةُ الجَهدِ: التَّعَبُ والمشَقَّةُ ومُنتهَى الطَّاقةِ، ثمَّ أُطلِقَ على أشَدِّ الفِعلِ ونِهايةِ قُوَّتِه؛ لِما بينَ الشِّدَّةِ والمَشقَّةِ مِن المُلازَمةِ[1].

﴿حُمِّلَ﴾: أي: كُلِّفَ وأُمِرَ به، وأصلُ (حمل): يدُلُّ على إقلالِ الشَّيءِ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ مُضارِعٌ مجزومٌ عَطفًا على ما قَبْلَه بحَذفِ حَرفِ العِلَّةِ؛ لأنَّه مُعتَلُّ الآخِرِ، والأصلُ (ويتَّقِهِ)، ثمَّ سُكِّنَت القافُ؛ تَخفيفًا لكَثرةِ الحَرَكاتِ على لُغةٍ للعَرَبِ في كُلِّ مُعتَلٍّ حُذِفَ آخِرُه، فيَقولونَ: لم أرْ زَيدًا، يُسقِطونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦) (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٧).

الحَرفَ للجَزمِ، ثمَّ يُسَكِّنونَ ما قَبْلَه. وقيلَ غَيرُ ذلك[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾

﴿جَهْدَ﴾: منصوبٌ، وفي نَصبِه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ الأوَّل: أنَّه مَصدرٌ مؤكِّدٌ، وناصبُه (أقسَموا) مِن مَعناه لا مِن لَفظِه، والمعنى: أَقسَموا إقْسامَ اجتِهادٍ في اليَمينِ.

الثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ من ضَميرِ (أقسَموا) على تأويلِ المَصْدَرِ باسْمِ الفاعِلِ، أي: جاهِدِينَ، والتَّقديرُ: وأقْسَموا باللهِ جاهِدينَ أنفُسَهم في أَيمانِهم، أي: بالغِينَ بها أقْصى الطَّاقةِ.

الثَّالِثُ: أنَّه مَنصوبٌ على المَفعولِ المُطلَقِ الواقِعِ بَدَلًا مِن فِعْلِه، والفِعلُ المُقَدَّرُ في مَوضِعِ الحالِ مِن ضَميرِ (أقسَموا)، والتَّقديرُ: أقسَموا يَجْهَدونَ أيمانَهم جَهْدًا[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى ما يَنبغي أنْ يكونَ عليه المؤمنونَ، فيقولُ: إنَّما المؤمِنونَ حقًّا الذين إذا دُعوا إلى التَّحاكُمِ في خُصوماتِهم إلى اللهِ ورَسولِه، أن يقولوا: سَمعًا وطاعةً، وأولئك هم الفائِزون بسَعادةِ الدَّارَينِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى جزاءَ مَن أطاع الله ورسولَه، فيقولُ: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه، ويَخَفِ اللهَ تعالى، ويتَّقِ سَخَطَه وعذابَه، فيمتَثِلْ أوامِرَه، ويجتَنِبْ نواهيَه؛ فهؤلاء هم الفائِزونَ برِضوانِه تعالى.

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٢٨)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٩٠)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٢/ ٨٠٢).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٤٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٠٥) (٨/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨ / ٢٧٧).

ثم يعودُ الحديثُ مرَّةً أخرى عن المنافقينَ، فيقولُ الله تعالى: وأقسَمَ المنافِقونَ باللهِ تعالى أغلَظَ الأيمانِ وآكَدَها: لَئِنْ أمرْتَهم -أيُّها النبيُّ- بالخُروجِ إلى الجِهادِ لِيَخرُجُنَّ معك. قُلْ لهم: لا تَحلِفوا؛ فإنَّ أيمانَكم كاذِبةٌ، فطاعتُكم معروفةٌ؛ فهي باللِّسانِ دونَ القَلبِ، وبالقَولِ دونَ العَمَلِ، إنَّ اللهَ خَبيرٌ بما تَعمَلونَه، لا يخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

ثم يأمُرُ نبيَّه بإرشادِهم إلى الطاعةِ الصادقةِ، فيقولُ تعالى: قُلْ -يا أيُّها النبيُّ- لهم: أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ، فإنْ أعرَضوا فإنَّ على الرَّسولِ ما كُلِّفَ به مِن تَبليغِ الرِّسالةِ، وعليكم ما كُلِّفْتُم به مِنَ السَّمعِ والطَّاعةِ والامتِثالِ، وإن تُطيعوه تَرشُدوا إلى الحَقِّ، وليس على الرَّسولِ إلَّا التبليغُ الواضِحُ في نفْسِه، الموضِّحُ رسالةَ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى قَولَ المُنافِقين وما قالوه وما فعَلوه؛ أتبَعَه بذِكرِ ما كان يجِبُ أن يفعَلوه، وما يجِبُ أن يَسلُكَه المؤمِنون[1]، وهذا على عادتِه تعالى في إتْباعِ ذِكرِ المُحِقِّ المُبطِلَ، والتَّنبيهِ على ما يَنبغي بعْدَ إنكارِه لِما لا ينبغي[2].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى حالةَ المُعرِضينَ عن الحُكمِ الشَّرعيِّ؛ ذكَرَ حالةَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٢).

المؤمِنينَ الممدوحين، فقال[١]:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

أي: إنَّما يَنبغي على المؤمِنينَ الصَّادقينَ المُخلِصينَ إذا طُلِب منهم عندَ اختلافِهم التَّحاكُمُ إلى اللهِ ورَسولِه- أن يقولوا برَغبةٍ ومُبادرةٍ، وإقبالٍ دونَ مَطلٍ وتَسويفٍ وتَردُّدٍ: سَمِعْنا الدَّعوةَ، وأجَبْنا إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه، ورَضِينا بحُكمِهما لنا أو علينا[٢].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: وأولئك المُؤمِنونَ المُتحاكِمونَ إلى اللهِ ورَسولِه، هم المُدرِكونَ لِما يَطلبونَ، وفي الجنَّةِ هم خالِدون[٣].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى فَضلَ الطَّاعةِ في الحُكمِ خُصوصًا؛ ذكَرَ فَضلَها عُمومًا في جميعِ الأحوالِ، فقال[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).
قال ابن جرير: (لم يُعْنَ بـ ﴿كَانَ﴾ في هذا الموضِعِ الخبرُ عن أمرٍ قد مضَى فتقضَّى، ولكنَّه تأنيبٌ مِن اللهِ الذين أُنزِلت هذه الآيةُ بسَبَبِهم، وتأديبٌ منه آخَرينَ غيرَهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢﴾.

أي: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه فيما يأمُرانِه ويَنهيانِه، ويَخَفِ اللهَ العظيمَ خَوفًا مُقترِنًا بعِلمٍ وتَعظيمٍ، ويتَّقِ سَخَطَه وعذابَه، فيَمتَثِلْ أوامِرَه، ويَترُكْ نواهيَه- فأولئك هم الظَّافِرونَ بكُلِّ خَيرٍ، النَّاجونَ مِن كُلِّ شَرٍّ في الدُّنيا والآخرةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٧١].

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٥٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله سُبحانَه ما رَتَّب على الطَّاعةِ الظَّاهِرةِ التي هي دَليلُ الانقيادِ الباطِنِ؛ ذكَرَ حال المنافِقينَ فيه، فقال[2]:

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾.

أي: وحلَفَ باللهِ أولئك المُنافِقونَ أغلَظَ أيمانِهم وأشَدَّها، مُبالِغينَ في تأكيدِها: لَئِنْ أمَرْتَهم -أيُّها النبيُّ- بالخروجِ إلى الجهادِ لَيَخْرُجُنَّ معك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٨)، ((تفسير =

قال تعالى: ﴿ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٦].

﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌ﴾.

أي: قُلْ -يا أيُّها النبيُّ- لأولئك المُنافِقين: لا تَحلِفوا؛ فقد عرَفْتُ أنَّ طاعتَكم مجرَّدُ قَولٍ بلا فِعلٍ، وطاعةٌ نِفاقيَّةٌ لم تكُنْ عن اعتِقادٍ، ومعروفٌ عنكم الكَذِبُ دونَ الإخلاصِ، وقد عرَفتُ كَذِبَكم في دعواكم طاعتي إن أمَرْتُكم بالخُروجِ للجِهادِ[1].

= الشوكاني)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: المصادِرُ السَّابِقةُ.

قال الثعلبي: (﴿لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌ﴾ أي: هذه طاعةٌ بالقَولِ واللِّسانِ دونَ الاعتِقادِ، فهي مَعروفةٌ منكم بالكَذِبِ؛ أنَّكم تَكذِبونَ فيها، وهذا معنى قَولِ مجاهِدٍ). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٤).

قال السمعاني: (وقَولُه: ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌ﴾ فِيهِ أقوالٌ؛ أحدُها: ليكُنْ مِنكم طاعةٌ مَعروفةٌ. والآخَرُ: طاعةٌ معروفةٌ أمثَلُ مِن يمينٍ بالقَولِ لا يُوافِقُها الاعتِقادُ. والثَّالِثُ: هذه طاعةٌ مَعروفةٌ منكم أن تَحلِفوا كاذِبينَ، وأن تَقولوا ما لا تَفعَلونَ، ومعناه: هذا أمرٌ مَعروفٌ منكم). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٣).

وقال ابن عثيمين: (الظاهِرُ أنَّ ﴿طَاعَةٞ﴾ مبتدأٌ، والخبَرُ محذوفٌ، تقديرُه: (عليكم)، أي: عليكم طاعةٌ معروفةٌ، أو ﴿طَاعَةٞ﴾ خبَرٌ، والمبتدأُ محذوفٌ، أي: طاعتُكم معروفةٌ، فمعنى ذلك أنَّ الإنسانَ عليه أن يُطيعَ طاعةً معروفةً. والطَّاعةُ المعروفةُ مِن المؤمنينَ تكونُ بدونِ حَلِفٍ؛ لأنَّ الذي يحلِفُ على أن يفعلَ، كأنَّه لا يريدُ أن يفعَلَ؛ يفعَلُ لكنَّه يُلزِمُ نَفسَه، فالطَّاعةُ المعروفةُ: الانقيادُ بدونِ قَسَمٍ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٤٣، ٣٤٤).

وقال البقاعي: (قولُه: ﴿طَاعَةٞ﴾ أي: هذه الحقيقةُ ﴿مَّعۡرُوفَةٌ﴾ أي: منكم ومِن غيرِكم، ... والمعنى: أنَّ الطاعةَ وإنِ اجتهَد العبدُ في إخفائِها لا بدَّ أن تظهَرَ مخايلُها على شمائِلِه، وكذا =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ خبيرٌ بجَميعِ ما تَعمَلونَ مِن طاعةٍ أو مَعصيةٍ، ويعلَمُ ما في بواطِنِكم، وهو مُجازيكم بكُلِّ ذلك؛ فإنَّه إنْ خَفِيَ على النَّاسِ حَقيقةُ حالِكم؛ لِنفاقِكم وكَذِبِكم، فإنَّه لا يخفى على اللهِ العالِمِ بالسَّرائِرِ، المطَّلِعِ على بواطِنِ الأمورِ[(١)].

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بكَّت اللهُ تعالى المُنافِقين بأنَّه مُطَّلِعٌ على سَرائِرِهم؛ تلطَّفَ بهم فأمَرَهم بطاعةِ اللهِ والرَّسولِ، وهو أمرٌ عامٌّ للمُنافِقين وغَيرِهم[(٢)].

وأيضًا لَمَّا نَبَّه اللهُ تعالى على خِداعِ المُنافِقين، وأشار إلى عدَمِ الاغترارِ بإيمانِهم، وإلى قَبولِ شَهادةِ التوسُّمِ فيهم؛ أمَرَ بتَرغيبِهم وترهيبِهم، مُشيرًا إلى الإعراضِ عن عُقوبَتِهم، فقال[(٣)]:

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

أي: قُلْ -أيُّها النبيُّ- لهؤلاء المُنافِقين: أطيعوا اللهَ باتِّباعِ كِتابِه، وأطيعوا

= المعصيةُ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

قال البقاعي: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: الذي له الإحاطةُ بكلِّ شيءٍ ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وإنِ اجتهدتُم في إخفائِه، فهو ينصبُ عليه دلائلَ يعرفُه بها عبادُه، فالحلفُ غيرُ مُغْنٍ عن الحالفِ، والتسليمُ غيرُ ضارٍّ للمسلمِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٠١، ٣٠٢).

الرَّسولَ باتِّباعِ سُنَّتِه طاعةً ظاهِرةً وباطِنةً بصِدقٍ وإخلاصٍ[١].

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾.

أي: فإنْ تُعرِضوا -أيُّها المُنافِقونَ- عمَّا جاءكم به الرَّسولُ، فإنَّما عليه مسؤوليَّةُ تبليغِكم الرِّسالةَ، وأداءُ الأمانةِ، وعليكم مسؤوليةُ طاعتِه، واتِّباعُ شَريعتِه[٢].

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾.

أي: وإنْ تُطيعوا الرَّسولَ في أمرِه ونَهيِه، تَرشُدوا إلى الخَيرِ، وتُصيبوا الحَقَّ في جميعِ أمورِكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

وعن العِرباضِ بنِ ساريةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((صلَّى بنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصُّبحَ ذاتَ يومٍ، ثمَّ أقبَلَ علينا، فوعَظَنا مَوعِظةً بَليغةً، ذَرَفَت[٤] منها العُيونُ، ووَجِلَت[٥] منها القُلوبُ، فقال قائِلٌ: يا رسولَ اللهِ، كأنَّ هذه مَوعِظةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٨٠).
قال السعدي: (وإنْ ﴿تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ مِن الرِّسالةِ، وقد أدَّاها. ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ مِن الطاعةِ، وقد بانت حالُكم وظهَرت، فبان ضلالُكم وغَيُّكم، واستحقاقُكم العذابَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٢).

(٤) ذَرَفَت: أي: دَمَعَت. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٢٥١).

(٥) وَجِلَت: أي: خافَت، والوَجَلُ: خَوفٌ مع الحَذَرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٢٥١).

مُوَدِّعٍ! فماذا تعهَدُ إلينا؟ فقال: أُوصيكم بتَقوى اللهِ، والسَّمعِ والطَّاعةِ وإن كان عبدًا حَبَشيًّا؛ فإنَّه مَن يَعِشْ منكم بعدي فسَيَرى اختِلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ المَهديِّينَ، تمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ[(١)]، وإيَّاكم ومُحدَثاتِ الأُمورِ؛ فإنَّ كُلَّ مُحدَثةٍ بِدعةٌ، وكُلَّ بِدعةٍ ضَلالةٌ))[(٢)].

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أي: ولا يَجِبُ على الرَّسولِ إلَّا التَّبليغُ الظَّاهِرُ الواضِحُ في نفْسِه، الموضِّحُ لكم رسالةَ اللهِ، بحيثُ لا يبقَى لدى أحَدٍ شَكٌّ ولا شُبهةٌ، وقد أدَّى ذلك، وقام بوظيفتِه، وبَقِيَ عليكم ما حُمِّلْتُم، وليس هو مَن كَلَّفَكم، وليس عليه هدايتُكم ولا حِسابُكم، فطاعتُه يعودُ نَفعُها إليكم، ومَعصيتُه يعودُ وبالُها عليكم[(٣)].

---

(١) عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ: أي: تمسَّكوا بها كما يتمَسَّكُ العاضُّ بجَميعِ أضراسِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (١٧١٤٥).
صحَّحه الترمذيُّ (٢٦٧٦)، والحاكم (١/ ١٧٦)، ووافقه الذهبي، وصحَّحه ابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (٢/ ١١٦٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٥٢).
قال الشوكاني: (اللامُ: إمَّا للعهد، فيُرادُ بالرَّسولِ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ وإمَّا للجِنسِ، فيُرادُ كُلُّ رَسولٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥).
وقال ابنُ عثيمين: (﴿ٱلْمُبِينُ﴾ تَصِحُّ بمعنى البَيِّنِ، وتَصِحُّ بمعنى المُبَيِّنِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٥٢).
ممَّن اختار أنَّها بمعنى البَيِّنِ الواضِحِ الظَّاهِرِ: مكِّي، والسمعانيُّ، والبغوي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٥٤)، =

كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ هذه الآيةُ -على إيجازِها- حاويةٌ لكُلِّ ما ينبغي للمُؤمِنينَ أن يفعَلوه[١].

٢- قال أبو عثمانَ سعيدُ بنُ إسماعيلَ: (مَن أمَّرَ السنَّةَ على نفْسِه قَولًا وفِعلًا، نطقَ بالحِكمةِ، ومَن أمَّرَ الهوى على نفْسِه قَولًا وفِعلًا، نطَقَ بالبدعةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾)[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أنَّ المبلِّغِينَ لشريعةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يجبُ عليهم أن يُبيِّنوها للنَّاسِ على أتمِّ الوُجوهِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- يَحرُمُ الإفتاءُ والحُكْمُ في دينِ اللهِ بما يخالِفُ النصوصَ؛ ويَسقطُ الاجتهادُ

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

وممَّن اختار أنَّها بمعنى الموضِّحِ المُظهِرِ: البيضاويُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٥٢).

وممَّن جمع بين المعنيَينِ السَّابِقَينِ: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (١٠/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٨٠).

والتقليدُ عندَ ظهورِ النصِّ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[(١)] [الحجرات: ١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ حصَرَ الفلاحَ فيهم؛ لأنَّ الفلاحَ: الفَوزُ بالمطلوبِ، والنَّجاةُ مِن المكروهِ، ولا يُفلِحُ إلَّا مَن حكَّمَ اللهَ ورَسولَه، وأطاع اللهَ ورَسولَه[(٢)].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ ميَّزَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بيْن حَقِّه وحَقِّ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذه الآيةِ؛ فالطاعةُ لله والرَّسولِ، والخَشيةُ للهِ وحْدَه، والتَّقوى للهِ وحْدَه، لا يُخْشَى مخلوقٌ، ولا يُتَّقَى مخلوقٌ؛ لا مَلَكٌ ولا نبيٌّ ولا غيرُهما[(٣)].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فجمَعَ اللهُ في هذه الآيةِ أسبابَ الفوزِ؛ فالفاءُ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ جزائيَّةٌ، مُؤذِنةٌ بأنَّ ما بعْدَها مُسبَّبةٌ عمَّا قبْلَها ممَّا تضمَّنَه الشَّرطُ مِن طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه؛ فخَشيةُ اللهِ على ما مَضى، إنْ فرَطَ منه تَقصيرٌ فيَتدارَكُه، وتَقْوى اللهِ فيما يُستقبَلُ مِن ترْكِ ما يجِبُ عليه أنْ يذَرَهُ، والإتيانِ بما يجِبُ عليه إتيانُه، فعَمَّ الأوقاتَ بأسْرِها، والأفعالَ بأجمَعِها، مِن فِعلِ ما يَنْبغي، وترْكِ ما لا يَنْبغي؛ ولذلك قِيل: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، أي: الكامِلونَ في الفوزِ بمَباغِيهم ومَطالِبِهم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢٨)، =

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ إشارةٌ إلى النَّهيِ عن النَّذرِ[١]، فهذا القَسَمُ نذرٌ؛ لأنَّ القَسَمَ إذا تضمَّن إلزامًا مِن الإنسانِ لله صار جامعًا بينَ القَسَمِ والنَّذرِ، فنهَى الله عن ذلك بقولِه: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾[٢].

٦- في قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ وجوبُ تقييدِ الطاعةِ بالمعروفِ، يعني أنْ تكونَ طاعةً بالمعروفِ، والمرادُ بالمعروفِ هنا المعروفُ مِن الشرعِ، وليست المعروفة بيْن الناسِ؛ لأنَّ الناسَ قد يَعرفون شيئًا يظنُّونه طاعةً وليس بطاعةٍ[٣]! وذلك على أحدِ الأقوالِ في معنى الآيةِ.

٧- في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ إعادةُ العاملِ (أطيعُوا) تدُلُّ على أنَّ طاعةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم طاعةٌ مُستقِلَّةٌ؛ وأنَّ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم فكما جاء به عنِ اللهِ؛ ولهذا قال العلماءُ: (إنَّ ما وَجَبَ في سُنَّةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كالذي وَجَبَ في القُرآنِ مِن أمرٍ ونهيٍ)، وهذا واضِحٌ؛ لأنَّه جعَلَ طاعةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طاعةً مُستقِلَّةً؛ حيث قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[٤].

٨- إردافُ التَّرهيبِ الذي تضَمَّنَه قولُه تعالى: ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ بالتَّرغيبِ في الطَّاعةِ الذي تضَمَّنَه قَولُه تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ فيه استِقصاءٌ في الدَّعوةِ إلى الرُّشدِ[٥].

= ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٥).

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١١/ ٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما جاءت به السُّنَّةُ فهو حُكمٌ مُستَقِلٌّ يجبُ أن يُطاعَ ويُتَّبَعَ، كما جاء في القرآنِ؛ ولهذا قال: ﴿تَهْتَدُوا﴾، فالهِدايةُ مطلوبةٌ؛ فإذا أمَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأمرٍ، فلا يجوزُ لنا أن نقولَ: هل لهذا أصلٌ في القُرآنِ أو لا؟ إن كان له أصلٌ قَبِلْناه، وإن لم يكُنْ له أصلٌ لم نَقبَلْه! لأنَّ هذا حرامٌ، وهو كُفرٌ بالقُرآنِ نفْسِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾؛ فدَلَّ هذا على أنَّ كُلَّ ما جاء به فهو حَقٌّ وهِدايةٌ، ليس فيه باطِلٌ وضَلالٌ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ الإخبارَ عن الَّذين يُعرِضون عندَما يُدْعَون إلى الحُكومةِ بأنَّهم ليسوا بالمُؤمِنينَ في حينِ أنَّهم يُظهِرونَ الإيمانَ، يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن الفاصلِ الَّذي يُميِّزُ بينَ المُؤمِن الحقِّ وبيْنَ الَّذي يُرائي بإيمانِه في حين يُدْعَى إلى الحُكومةِ عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فيَقْتضي أنْ يُبيَّنَ للسَّائلِ الفرْقُ بين الحالينِ؛ لئلَّا يلْتبِسَ عنده الإيمانُ المُزوَّرُ بالإيمانِ الصَّادقِ، فقد كان المُنافِقون يُموِّهون بأنَّ إعراضَ مَن أعرَضَ منهم عن التَّحاكُمِ عندَ رسولِ اللهِ ليس لِتَزلزُلٍ في إيمانِه بصِدْقِ الرَّسولِ، ولكنَّه إعراضٌ لمُراعاةِ أعراضٍ مِن العلائقِ الدُّنيويَّةِ؛ فبيَّنَ اللهُ بُطلانَ ذلك بأنَّ المُؤمِنَ لا يَرتابُ في عدْلِ الرَّسولِ، وعدَمِ مُصانعَتِه. وقد أفاد هذا الاستِئنافُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٥٠).

أيضًا الثَّناءَ على المُؤمنينَ الأحِقَّاءِ بضِدِّ ما كان ذمًّا للمُنافقينَ[١].

- وجِيءَ بصِيغَةِ الحصرِ ﴿إِنَّمَا﴾؛ لدفْعِ أنْ يكونَ مُخالِفُ هذه الحالةِ في شَيءٍ مِن الإيمانِ، وإنْ قال بلسانِه: إنَّه مُؤمِنٌ، فهذا القصرُ إضافيٌّ[٢]، أي: هذا قولُ المُؤمنينَ الصَّادقينَ في إيمانِهم. وليس قصْرًا حَقيقيًّا؛ لأنَّ أقوالَ المُؤمنينَ حين يُدْعَون إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِيَحكُمَ بيْنهم غيرُ مُنحصرةٍ في قولِ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ولا في مُرادِفِه؛ فلعلَّ منهم مَن يَزِيدُ على ذلك؛ فليس المُرادُ بقولِ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ خُصوصَ هذين اللَّفظينِ، بلِ المُرادُ لفْظُهما أو مُرادِفُهما؛ للتَّسامُحِ في مفعولِ فِعلِ القولِ ألَّا يُحْكى بلَفظِه. وإنَّما خُصَّ هذانِ اللَّفظانِ بالذِّكْرِ هنا؛ مِن أجْلِ أنَّهما كَلمةٌ مَشهورةٌ تُقال في مثْلِ هذه الحالةِ، وهي ممَّا جَرى مَجْرى المثَلِ، كما يُقال أيضًا: (سمْعٌ وطاعةٌ)، و(سمْعًا وطاعةً). والقصرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) هنا قصْرُ إفرادٍ لأحدِ نوعَيِ القولِ؛ فالمقصودُ منه الثَّناءُ على المُؤمنينَ برُسوخِ إيمانِهم، وثَباتِ طاعتِهم في المَنْشَطِ والمَكْرَهِ. وفيه تَعريضٌ بالمنافقينَ؛ إذ يقولونَ كَلمةَ الطَّاعةِ ثمَّ يَنقُضونها بضِدِّها مِن كلماتِ الإعراضِ والارتيابِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ جِيءَ في وَصْفِ المُؤمنينَ بالفلاحِ بمِثْلِ التَّركيبِ الَّذي وُصِفَ به المُنافِقون بالظُّلمِ، بصِيغةِ القصرِ المُؤكَّدِ؛ ليكونَ الثَّناءُ على المُؤمنينَ ضِدًّا لِمَذمَّةِ المُنافِقين تامًّا[٤].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن معنى البُعدِ؛ للإشعارِ بعُلوِّ رُتبتِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٥).

وبُعدِ مَنزلتِهم في الفضْلِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ...﴾ استئنافٌ؛ جِيءَ به لتَقريرِ مَضمونِ ما قبْلَه مِن حُسنِ حالِ المُؤمنينَ، وتَرغيبِ مَن عَداهم في الانتظامِ في سِلْكِهم[٢]. وقِيل: الواوُ في ﴿وَمَن يُطِعِ...﴾ اعتراضيَّةٌ، أو عاطفةٌ على جُملةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، والتَّقديرُ: وهُمُ الفائِزون؛ فجاء نظْمُ الكلامِ على هذا الإطنابِ؛ ليَحصُلَ تَعميمُ الحُكْمِ والمحكومِ عليه. ومَوقعُ هذه الجُملةِ مَوقِعُ تَذييلٍ؛ لأنَّها تعُمُّ ما ذُكِرَ قبْلَها مِن قولِ المُؤمنينَ: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ [النور: ٥١]، وتَشملُ غيرَه مِن الطَّاعاتِ بالقولِ أو بالفِعْلِ[٣].

- وصِيغةُ الحصرِ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾؛ للتَّعريضِ بالَّذين أعْرَضوا إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِه، وهي على وزْنِ صِيغةِ القصْرِ الَّتي تقدَّمَتْها[٤]. وقيل: هي تَعريضٌ بالمُؤمنينَ الَّذين إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِه ليَحكُمَ بيْنهم أن يَقولوا: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾، وبالمُنافقين الَّذين يَقولونَ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى آخرِ الآياتِ؛ بأنَّ الأوَّلينَ هم الفائِزونَ بمَباغِيهم، والآخَرينَ هم الدَّامِرونَ الخاسِرونَ؛ فالآيةُ مِن الجوامعِ[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٥، ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٥).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢٨).

مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾ ضَميرُ (أَقْسَمُوا) عائدٌ إلى ما عاد إليه ضَميرُ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ [النور: ٤٧]، والتَّعبيرُ بفِعْلِ المُضِيِّ هنا؛ لأنَّ ذلك شَيءٌ وقَعَ وانْقَضى[(١)].

- وجُملةُ: ﴿لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾ بَيانٌ لجُملةِ: (أَقْسَمُوا)، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿أَمَرۡتَهُمۡ﴾؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾، والتَّقديرُ: لئنْ أمَرْتَهم بالخُروجِ لَيَخرُجُنَّ[(٢)].

- أيضًا في قولِه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾ على القولِ بأنَّهم ذَكَروا خُروجينِ؛ فيكونُ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ حيث حُذِفَ مُتعلِّقُ الخُروجِ؛ ليَشمَلَ ما يُطلَقُ عليه لفْظُ الخُروجِ[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ لأنَّه أبلَغُ في تَبكيتِهم[(٤)].

- وقولُه: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ هذا كَلامٌ مُوَجَّهٌ؛ لأنَّ نَهْيَهم عن أنْ يُقْسِموا بعْدَ أنْ صدَرَ القَسَمُ يَحتمِلُ أنْ يكونَ نهْيًا عن إعادتِه؛ لأنَّهم كانوا بصدَدِ إعادتِه، بمعنى: لا حاجةَ بكم إلى تأْكيدِ القسَمِ، أي: فإنَّ التَّأكيدَ بمَنزلةِ المُؤكَّدِ في كَونِه كذِبًا. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٤).

النَّهيُ مُستعمَلًا في معنى عدَمِ المُطالَبةِ بالقسَمِ، أي: ما كان لكم أنْ تُقسِموا؛ إذ لا حاجةَ إلى القسَمِ؛ لعدَمِ الشَّكِّ في أمْرِكم. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ النَّهيُ مُستعمَلًا في التَّسويةِ، مِثْلُ ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾[الطور: ١٦]. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ النَّهيُ مُستعمَلًا في حقيقتِه، والمُقسَمُ عليه مَحذوفٌ، أي: لا تُقسِموا على الخُروجِ مِن ديارِكم وأموالِكم؛ فإنَّ اللهَ لا يُكلِّفُكم بذلك. ومَقامُ مُواجهةِ نِفاقِهم يَقْتضي أنْ تكونَ هذه الاحتمالاتُ مَقصودةً(١).

- وقولُه: ﴿طَاعَةٌ مَّعۡرُوفَةٌ﴾ كَلامٌ أُرْسِلَ مَثلًا، وتحْتَه مَعانٍ جمَّةٌ تَختلِفُ باختلافِ الاحتمالاتِ المُتقدِّمةِ في قولِه: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْ﴾؛ فعلى احتمالِ أنْ يكونَ النَّهيُ عن القسَمِ مُستعمَلًا في النَّهيِ عن تَكريرِه، يكونُ المعنى مِن قَبيلِ التَّهكُّمِ، أي: لا حُرمةَ للقسَمِ، فلا تُعِيدُوه؛ فطاعَتُكم مَعروفةٌ، أي: مَعروفٌ وَهَنُها وانتفاؤُها. وعلى احتمالِ استِعمالِ النَّهيِ في عدَمِ المُطالَبةِ باليمينِ، يكونُ المعنى: لماذا تُقْسِمون؟ أفَأنا أشُكُّ في حالِكم؟! فإنَّ طاعتكم مَعروفةٌ عندي، أي: أعرِفُ عدَمَ وُقوعِها، والكلامُ تهكُّمٌ أيضًا. وعلى احتمالِ استعمالِ النَّهيِ في التَّسويةِ؛ فالمعنى: قسَمُكم ونفْيُه سواءٌ؛ لأنَّ أيمانَكم فاجرةٌ، وطاعتكم مَعروفةٌ. وإنْ كان النَّهيُ مُستعمَلًا في حقيقتِه؛ فالمعنى: لا تُقْسِموا هذا القسَمَ، أي: على الخُروجِ مِن ديارِكم وأموالِكم؛ لأنَّ اللهَ لا يُكلِّفُكم الطَّاعةَ إلَّا في معروفٍ(٢).

- وأيضًا قولُه: ﴿طَاعَةٌ مَّعۡرُوفَةٌ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ تَعليلٌ للنَّهيِ، أي: لا تُقسِمُوا على ما تدَّعُون مِن الطَّاعةِ؛ لأنَّ طاعتَكم طاعةٌ نِفاقيَّةٌ واقعةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٨، ٢٧٩).

باللِّسانِ فقَطْ مِن غيرِ مُواطأةٍ مِن القلبِ، وإنَّما عبَّرَ عنها بـ﴿مَّعۡرُوفَةٌ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ كونَها كذلك مَشهورٌ مَعروفٌ لكلِّ أحدٍ(١).

- وتَنكيرُ ﴿طَاعَةٌ﴾؛ لأنَّ المقصودَ به نوعُ الطَّاعةِ، وليست طاعةً مُعيَّنةً، فهو مِن بابِ: تمْرةٌ خيرٌ مِن جَرادةٍ(٢).

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تَذييلٌ وتَعليلٌ لِما قبْلَها(٣)؛ فالجُملةُ تَعليلٌ للحُكمِ بأنَّ طاعتَهم طاعةٌ نِفاقيَّةٌ، مُشعِرٌ بأنَّ مَدارَ شُهرةِ أمْرِها فيما بيْن المُؤمنين إخبارُه تعالى بذلك، ووَعيدٌ لهم بأنَّه تعالى مُجازيهم بجميعِ أعمالِهم السَّيِّئةِ الَّتي منْها نِفاقُهم(٤).

٤- قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فيه تَكرارُ الأمرِ بالقولِ؛ لإبرازِ كَمالِ العِنايةِ به، والإشعارِ باختلافِهما؛ مِن حيثُ إنَّ المَقولَ في الأوَّلِ نهْيٌ بطريقِ الرَّدِّ والتَّقريعِ، وفي الثَّاني أمْرٌ بطَريقِ التَّكليفِ والتَّشريعِ. وإطلاقُ الطَّاعةِ المأمورِ بها عن وصْفِ الصِّحَّةِ والإخلاصِ ونحوِهما بعْدَ وصْفِ طاعتِهم بما ذُكِرَ؛ للتَّنبيهِ على أنَّها ليست مِن الطَّاعةِ في شَيءٍ أصْلًا(٥).

- قولُه: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ ...﴾ أمْرٌ بتَبليغِ ما خاطَبَهم اللهُ به على الحكايةِ؛ مُبالَغةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٨، ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٠).

في تَبكيتِهم[١].

- قولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ خِطابٌ للمأْمورينَ بالطَّاعةِ مِن جِهَتِه تعالى، واردٌ لتأكيدِ الأمْرِ بها، والمُبالَغةِ في إيجابِ الامتثالِ به، والحمْلِ عليه بالتَّرهيبِ والتَّرغيبِ؛ لِمَا أنَّ تَغييرَ الكلامِ المَسوقِ لمَعنًى مِن المعاني، وصَرْفَه عن سَنَنِه المَسلوكِ يُنبِئُ عن اهتمامٍ جديدٍ بشأْنِه مِن المُتكلِّمِ، ويَستجلِبُ مَزيدَ رغْبةٍ فيه مِن السَّامعِ، لا سيَّما إذا كان ذلك بتَغييرِ الخِطابِ بالواسطةِ إلى الخِطابِ بالذَّاتِ؛ فإنَّ في خِطابِه تعالى إيَّاهم بالذَّاتِ بعْدَ أمْرِه تعالى إيَّاهم بواسطَتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَصدِّيَه لبَيانِ حُكْمِ الامتثالِ بالأمْرِ والتولِّي عنه إجمْالًا وتَفصيلًا؛ مِن إفادةِ ما ذُكِرَ مِن التَّأكيدِ والمُبالَغةِ ما لا غايةَ وراءَه. والفاءُ لتَرتيبِ ما بعْدَها على تَبليغِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للمأمورِ به إليهم، وعدَمُ التَّصريحِ به؛ للإيذانِ بغايةِ ظُهورِ مُسارَعتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى تبْليغِ ما أُمِرَ به، وعدَمِ الحاجةِ إلى الذِّكْرِ[٢].

- ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ تَفريعًا على فِعْلِ ﴿أَطِيعُواْ﴾؛ فيكونَ فِعلُ ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ مِن جُملةِ ما أُمِرَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَه لهم، ويكونَ فِعلًا مضارِعًا بتاءِ الخِطابِ، وحُذِفَت تاءُ الخِطابِ للتَّخفيفِ، وهو حذْفٌ كثيرٌ في الاستعمالِ، والكلامُ تَبْليغٌ عن اللهِ تعالى إليهم؛ فيكونَ ضَميرَا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ عائدَينِ إلى الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ويجوزُ أنْ يكونَ تَفريعًا على فِعْلِ ﴿قُلْ﴾، أي: فإذا قلْتَ ذلك، فتولَّوا ولم يُطِيعوا...

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٩، ١٩٠).

إلخ؛ فيكونَ فِعلُ ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ ماضِيًا بتاءٍ واحدةٍ، مُواجَهًا به النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: فإنْ تولَّوا ولم يُطِيعوا، فإنَّما عليك ما حُمِّلْتَ مِن التَّبليغِ، وعليهم ما حُمِّلوا مِن تَبِعَةِ التَّكليفِ؛ فيكونَ في ضمائرِ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ الْتِفاتٌ. وأصْلُ الكلامِ: فإنَّما عليك ما حُمِّلْتَ، وعليهم ما حُمِّلوا. والالتفاتُ مُحسِّنٌ لا يَحتاجُ إلى نُكتةٍ. وبهذَينِ الوجهينِ تكونُ الآيةُ مُفيدةً معنيينِ: معنًى مِن تعلُّقِ خِطابِ اللهِ تعالى بهم، وهو تَعريضٌ بتَهديدٍ ووَعيدٍ، ومعنًى مِن موعظةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيَّاهم، ومُوادعةٍ لهم. وهذا كلُّه تَبكيتٌ لهم؛ لِيَعْلَموا أنَّهم لا يضُرُّون بتولِّيهم إلَّا أنفُسَهم[1]؛ ففي قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ ...﴾ صَرْفُ الكلامِ عن الغَيبةِ في (أَقْسَمُوا) إلى الخِطابِ على طريقةِ الالتفاتِ، وهو أبلَغُ في تَبكيتِهم[2].

- قولُه: ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾، أي: ما أُمِرْتُم بهِ مِنَ الطَّاعةِ، ولعلَّ التَّعبيرَ عنه بالتَّحميلِ؛ للإشعارِ بثِقَلِه، وكَونِه مُؤنةً باقيةً في عُهْدتِهم بعْدُ. وقولُه تعالى: ﴿مَا حُمِّلَ﴾ مَحمولٌ على المُشاكَلةِ[3].

- وتأخيرُ قولِه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ عن بَيانِ حُكْمِ التَّولِّي في قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾؛ لِمَا في تَقديمِ التَّرهيبِ مِن تأْكيدِ التَّرغيبِ وتَقريبِه ممَّا هو مِن بابِه مِن الوعْدِ الكريمِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، مِن أنَّ غائلةَ التَّولِّي وفائدةَ الإطاعةِ مَقصورتانِ عليهم[1]. وقيل: جُملةُ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ بَيانٌ لإبهامِ قولِه: ﴿مَا حُمِّلَ﴾[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٩، ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨١).

الآيات (٥٥-٥٧)

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾: أي: ليجعَلَنَّهم خُلَفاءَ، والخِلافةُ: النِّيابةُ عن الغَيرِ، يُقالُ: خلَفَ فلانٌ فلانًا: إذا قام بالأمرِ عنه؛ إمَّا معه وإمَّا بَعْدَه، وأصلُه: يدُلُّ على مجيءِ شَيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مَقامَه[1].

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾: أي: لَيُثَبِّتَنَّ، وليوطِّئَنَّ، والتَّمكينُ هنا: التَّثبيتُ والتَّقريرُ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى وعْدَه الذي لا يتخلَّفُ لعبادِه المؤمنينَ، فيقولُ: وعَدَ اللهُ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ بمِيراثِ الأرضِ وخِلافتِها، كما استخلفَ المؤمِنينَ مِن قَبْلِهم، وأن يجعَلَ دينَهم الذي ارتَضاه لهم -وهو الإسلامُ- دينًا مَكينًا عزيزًا، فيَظهَرَ على غيرِه مِن الأديانِ، وأن يغَيِّرَ حالَهم مِن الخَوفِ إلى الأمنِ، يوحِّدونَ الله ويُخلِصونَ له العبادةَ، ولا يَعبُدونَ إلهًا غيرَه سُبحانَه. ومَن كفَرَ بعْدَ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).

الاستِخلافِ والأمنِ والتَّمكينِ، فأولئك هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ.

ثمَّ يُبيِّنُ -سُبحانه وتعالى- بعدَ ذلك أهَمَّ أركانِ عبادتِه، فقال: وأقيموا الصَّلاةَ، وأدُّوا الزَّكاةَ على الوَجهِ التَّامِّ، وأطيعوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ رجاءَ رَحمةِ اللهِ.

ثم يقولُ تعالى مثَبِّتًا للمؤمنينَ، ومهَوِّنًا مِن شأنِ أعدائِهم: ولا تظُنَّنَّ -أيُّها النبيُّ- الذين كفَروا مُعجِزينَ لله في الأرضِ، بل هو قادِرٌ عليهم، ومَرجِعُهم في الآخرةِ إلى نارِ جهنَّمَ، وقبُحَ هذا المرجِعُ والمآلُ الذي يصيرونَ إليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

مُناسَبةُ الانتِقالِ إلى هذا الكَلامِ التعَرُّضُ إلى أحوالِ المُنافِقينَ الذين أبقاهم على النِّفاقِ تردُّدُهم في عاقبةِ أمرِ المُسلِمينَ، وخَشيتُهم ألَّا يَستَقِرَّ بالمُسلِمينَ المُقامُ بالمدينةِ حتى يَغزُوَهم المُشرِكونَ، أو يُخرِجَهم المنافِقونَ حين يَجِدونَ الفُرصةَ لذلك، مع ما لهذا الكَلامِ مِن المناسَبةِ مع قَولِه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤]، فيكونُ المعنى: وإنْ تُطيعوه تَهتَدوا وتُنصَروا وتَأمَنوا[1].

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: وَعَدَ اللهُ الذين آمَنوا مِن هذه الأمَّةِ وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ وَعدًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨١).

جازِمًا مؤكَّدًا أنَّه سيُورِثُهم الأرضَ، فيَجعَلُهم خُلَفاءَ فيها، مُسيطرينَ عليها، متصرِّفينَ في أمورِها، والقيامِ بتَدبيرِها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٣).

و(مِن) في قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ قيل: للتَّبعيضِ، أو للتَّبيينِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٨٨).

قال النسفي: (﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ولِمَن معه، ﴿مِنكُمْ﴾ للبَيانِ، وقيل: المرادُ به المهاجِرونَ، و«مِن» للتَّبعيضِ). ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٥).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالَى ذِكْرُه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ باللَّهِ ورسولِه ﴿مِنكُمْ﴾ أيُّهَا النَّاسُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦).

وقال الشوكاني: (وهو وَعدٌ يَعُمُّ جميعَ الأُمَّةِ. وقيل: هو خاصٌّ بالصَّحابةِ، ولا وَجْهَ لذلك؛ فإنَّ الإيمانَ وعَمَلَ الصَّالحاتِ لا يختَصُّ بهم، بل يُمكِنُ وُقوعُ ذلك مِن كُلِّ واحدٍ مِن هذه الأمَّةِ، ومَن عَمِلَ بكِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه فقد أطاع اللهَ ورَسولَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥).

قال ابنُ جرير: (يقولُ: لَيُورِثَنَّهم اللهُ أرضَ المشركين مِن العرَبِ والعَجَمِ، فيجعَلُهم ملوكَها وساسَتَها). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦).

وقال ابن عطية: (قولُه: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يريدُ في البلادِ التي تجاوِرُهم، والأصقاعِ التي قضى بامتدادِهم إليها. واستخلافُهم هو أن يُملِّكَهم البلادَ ويجعَلَهم أهلَها، كما جرى في الشَّامِ وفي العراقِ وخُراسانَ والمغربِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٢).

وقال ابن عثيمين: (كَلِمةُ ﴿الْأَرْضِ﴾ المرادُ بها الجِنسُ، ليست أرضًا واحِدةً مُعَيَّنةً، بل أرضٌ عامَّةٌ، أي: الأرضُ كُلُّها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٥٤).

وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

وعن ثَوْبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ زوى[١] لي الأرضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أمَّتي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها، وأُعطيتُ الكَنزَينِ: الأحمَرَ والأبيضَ، وإنِّي سألتُ رَبِّي لأمَّتي ألَّا يُهلِكَها بسَنَةٍ عامَّةٍ، وألَّا يُسَلِّطَ عليهم عدُوًّا مِن سِوى أنفُسِهم، فيَستبيحَ بَيضَتَهم[٢]، وإنَّ رَبِّي قاكل: يا مُحمَّدُ، إنِّي إذا قضيتُ قضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ، وإنِّي أعطيتُك لأمَّتِك ألَّا أُهلِكَهم بسَنَةٍ عامَّةٍ[٣]، وألاَّ أُسَلِّطَ عليهم عدُوًّا مِن سِوى أنفُسِهم يَستبيحُ بَيضَتَهم، ولوِ اجتَمَع عليهم مَن بأقطارِها، حتى يكونَ بَعضُهم يُهلِكُ بَعضًا، ويَسبِي بعضُهم بعضًا))[٤].

﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

أي: كما ملَّك اللهُ الأرضَ لآخَرِينَ مِن قَبْلِ هذه الأُمَّةِ[٥].

---

(١) زَوَى: أي: جَمَعَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣).

(٢) بَيضَتَهم: أي: جَماعتَهم، ومَوضِعَ سُلطانِهم، ومُستَقَرَّ دَعوتِهم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٧٢).

(٣) بسَنةٍ عامَّةٍ: أي: بقَحْطٍ يَعُمُّهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٤).

(٤) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: بنو إسرائيل: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، والواحدي، والزمخشري، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، وأبو حيان، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٤٢)، ((الوجيز)) =

كما قال تعالى حاكيًا قولَ موسى لِقَومِه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥، ٦].

وقال عزَّ وجلَّ عن فِرعَونَ وقَومِه: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧- ٥٩].

وقال الله عن ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤].

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾.

أي: ولَيُثبِّتَنَّ اللهُ للمُؤمِنينَ دينَ الإسلامِ الذي اختارَه لهم، فيَظهَرُ على غيرِه

= للواحدي (ص: ٧٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٣).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الأُممُ المؤمنةُ برُسلِها؛ بنو إسرائيلَ وغَيرُهم، وداودُ وسُلَيمانَ وغيرُهما مِنَ الأنبياءِ والمؤمنينَ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، والسمرقندي، والرازي، والخازن، والبقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير يحيى ابن سلام)) (١/ ٤٥٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢١)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٠٣).

وقال الشوكاني: (وظاهِرُ قَولِه: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كُلُّ مَنِ استَخلَفَهُ اللهُ في أرضِه، فلا يُخَصُّ ذلك ببَني إسرائيلَ ولا أُمَّةٍ مِن الأمَمِ دُونَ غَيرِها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥).

وقال ابن عاشور: (يعني: الأمَمَ التي حكَمَت معظَمَ العالَمِ وأخافت جميعَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٦).

مِن الأديانِ، وينتَشِرُ ويتمَكَّنُ أتباعُه مِن إقامةِ شَرائِعِه[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وعن تَميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لَيبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وبَرٍ[٢] إلاَّ أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ. وكان تميمٌ الدَّاريُّ يقول: قد عرَفتُ ذلك في أهلِ بيتي؛ لقد أصابَ مَن أسلَمَ منهم الخيرُ والشَّرَفُ والعِزُّ، ولقد أصابَ مَن كان منهم كافِرًا الذُّلُّ والصَّغارُ والجِزيةُ))[٣].

وعن المِقدادِ بنِ الأسوَدِ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٢)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٣).

(٢) بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ: المَدَرُ: جَمعُ مَدَرةٍ، وهي: اللَّبِنةُ، والمرادُ به هنا: البُيوتُ المُحكَمةُ المَبنيَّةُ مِن الأحجارِ والطُّوبِ واللَّبِنِ، كبُيوتِ المُدُنِ والقُرى. والوَبَرُ: شَعرُ الإبِلِ، والمرادُ به هنا: البُيوتُ غيرُ المُحكَمةِ، كبُيوتِ البوادي وأهلِ الخِيامِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١١٦)، ((الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم)) لمحمد الأمين الهَرري (٢٦/ ٢٥٩).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧) واللفظ له، والحاكم (٨٣٢٦)، والبيهقي (١٩٠٩٠).
صحَّحه الحاكِمُ على شَرطِ الشيخين. وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧): (رجالُه رجالُ الصحيح). وقال الألباني في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): (على شرطِ مُسلمٍ، وله شاهِدٌ على شَرطِ مُسلمٍ أيضًا).

عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَبقى على ظَهرِ الأرضِ بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلَّا أدخلَه اللهُ كَلِمةَ الإسلامِ، بعِزِّ عزيزٍ أو ذُلِّ ذليلٍ؛ إمَّا يُعِزُّهم اللهُ فيَجعَلُهم مِن أهلِها، أو يُذِلُّهم فيَدينون لها))[١].

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾.

أي: وليُغَيِّرَنَّ اللهُ حالَ المؤمِنينَ مِن الخَوفِ مِن أعدائِهم إلى الأمنِ التَّامِّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وعن خَبَّابِ بنِ الأرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((شَكَونا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو متوَسِّدٌ بُردةً[٣] له في ظِلِّ الكعبةِ، فقُلْنا: ألاَ تَستنصِرُ لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان مَن قَبْلَكم يُؤخَذُ الرَّجُلُ فيُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه فيُجعَلُ نِصفَينِ، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لَحمِه وعَظمِه، فما يَصُدُّه ذلك عن دينِه! واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتى يسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضرموتَ لا يخافُ إلَّا اللهَ، والذِّئبَ على غَنَمِه، ولكِنَّكم تَستعجِلون))[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨١٤)، وابن حبان (٦٧٠١)، والطبراني (٢٠/ ٢٥٥) (٦٠١).
صحَّحه الحاكمُ على شرط الشيخينِ في ((المستدرك)) (٤/ ٤٧٦)، وحَسَّنه ابن عساكر في ((معجم الشيوخ)) (٢/ ٨٠٦)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧): (رجالُه رجالُ الصحيحِ). وصَحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٣) مُتوَسِّدٌ بُردةً: أي: كِساءً مُخطَّطًا، والمعنى، جاعِلٌ البُردةَ وِسادةً له؛ مِن توسَّدَ الشَّيءَ: إذا جعَلَه تحتَ رأسِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٤٧).

(٤) رواه البخاري (٦٩٤٣).

وعن عَدِيِّ بنِ حاتمٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((بينا أنا عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذْ أتاه رجُلٌ فشكا إليه الفاقةَ، ثمَّ أتاه آخَرُ فشكا إليه قطْعَ السَّبيلِ، فقال: يا عَدِيُّ، هل رأيتَ الحِيرةَ[١]؟ قلتُ: لم أرَها، وقد أُنبِئتُ عنها، قال: فإنْ طالت بك حياةٌ لتَرَينَّ الظَّعينةَ[٢] ترتحِلُ مِن الحِيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحدًا إلاَّ اللهَ -قُلتُ فيما بيْني وبيْن نفْسي: فأينَ دُعَّارُ[٣] طَيِّئٍ الذين قد سَعَّروا[٤] البلادَ؟!- ولئن طالت بك حياةٌ لَتُفْتَحَنَّ كنوزُ كِسرى، قلتُ: كسرى بنِ هُرمزَ؟! قال: كِسرى بنِ هُرْمُزَ، ولئن طالت بك حياةٌ لتَرَينَّ الرجُلَ يُخرِجُ مِلءَ كَفِّه مِن ذَهبٍ أو فِضَّةٍ يَطلُبُ مَن يَقبَلُه منه فلا يجِدُ أحدًا يقبَلُه منه... قال عَدِيٌّ: فرأيتُ الظَّعينةَ ترتحِلُ مِن الحِيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ إلَّا اللهَ، وكنتُ فيمَنِ افتتَحَ كُنوزَ كِسرى بنِ هُرْمُزَ، ولئن طالت بكم حياةٌ لتَرَوُنَّ ما قال النبيُّ أبو القاسِمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ يُخرِجُ مِلءَ كَفِّه))[٥].

﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

أي: يَعبُدُني المؤمِنونَ بإخلاصٍ آمِنينَ، ويَخضَعونَ ويتذَلَّلونَ لي بالطَّاعةِ، لا يُشرِكونَ بي شيئًا في عِبادتي[٦].

---

(١) الحِيرةَ: مَدينةٌ كانت على ثلاثةِ أميالٍ مِنَ الكُوفةِ على مَوضِعٍ يُقالُ له: النَّجَفُ، كانت مَسكَنَ مُلوكِ العَرَبِ في الجاهِليَّةِ. يُنظر: ((معجم البلدان)) لياقوت الحموي (٢/ ٣٢٨)، ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٥٠).

(٢) الظعينةَ: أي: المرأةَ في الهَودَجِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٥٧).

(٣) دُعَّار: أي: قُطَّاعُ الطَّريقِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١١٩).

(٤) سَعَّروا: أي: أوقَدوا نارَ الفِتنةِ، ومَلؤوا الأرضَ شَرًّا وفسادًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٦١٣).

(٥) رواه البخاري (٣٥٩٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٧)، ((تفسير =

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((بشِّرْ هذه الأمَّةَ بالسَّناءِ[١] والنَّصرِ والتَّمكينِ، فمَن عَمِلَ منهم عمَلَ الآخرةِ للدُّنيا، لم يكُنْ له في الآخرةِ نصيبٌ))[٢].

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

أي: ومَن كفَرَ بعدَ نعمةِ الاستِخلافِ والأمنِ وتمكينِ الدِّينِ[٣]، فأولئك هم

= السمعاني)) (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦).

قال الزجَّاج: (قوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ يجوزُ أن يكونَ مُستأنفًا، ويجوزُ أن يكونَ في موضِعِ الحال، على معنى: وعَدَ اللهُ المؤمنينَ في حالِ عبادتِهم وإخلاصِهم لله عزَّ وجَلَّ لَيَفعلَنَّ بهم. ويجوزُ أن يكونَ استئنافًا على طريقِ الثناءِ عليهم وتثبيتًا، كأنَّه قال: يعبُدُني المؤمِنون لا يُشرِكون بي شيئًا). ((معاني القرآن)) (٤/ ٥١).

وقال السمرقندي: (﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ يعني: لكي يعبدوني لا يُشرِكونَ بي شيئًا). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢١).

وقال ابن عثيمين عن قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾: (لا شكَّ أنَّه تعليلٌ... لكنَّه مُتضَمِّنٌ للثَّناءِ؛ لأنَّ مَن عبَد الله استحقَّ الثناءَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٦٥).

قال الشوكاني: (جملةُ ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ في محلِّ نَصبٍ على الحالِ مِن فاعِلِ ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾، أي: يَعبُدونَني غيرَ مُشرِكينَ بي في العبادةِ شَيئًا مِنَ الأشياءِ. وقيل معناه: لا يُراؤونَ بعبادتي أحدًا. وقيل معناه: لا يخافونَ غَيري. وقيل معناه: لا يُحِبُّونَ غيري). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦).

(١) بالسَّناءِ: أي: بارتِفاعِ المَنزِلةِ والقَدْرِ عندَ الله تعالى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٢٢٣) واللفظ له، وابن حبان (٤٠٥)، والحاكم (٧٨٦٢).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٢٢٣): (رجاله رجال الصحيح). ووثَّق رواتَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٣٤٨)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٨٢٥).

(٣) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالكُفرِ هنا: كُفرُ النِّعمةِ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٤٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير الرازي)) =

الخارِجون عن طاعةِ رَبِّهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٥، ١٠٦].

= (٢٤/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٧).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: أبو العالية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٣٠).

وقيل: المرادُ به: الكُفرُ الأكبَرُ. وممَّن اختاره: الشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٨٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: حُذَيفةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: أقام على كُفرِه وثبتَ واستمَرَّ عليه: يحيى بنُ سلام، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩١).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: وأوَّلُ مَن كفَر بهذه النِّعَم وجحَد حَقَّها: الذين قتَلوا عثمانَ رَضِيَ الله عنه، فلمَّا قتلوه غيَّر اللهُ ما بهم، وأدخَل عليهم الخَوفَ الذي رفَعَه عنهم حتى صاروا يقتَتِلون بعد أن كانوا إخوانًا متحابِّينَ). ((الوسيط)) (٣/ ٣٢٧).

قال البيضاوي: (﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ومَن ارتدَّ، أو كفَر هذه النعمةَ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعدَ الوعدِ أو حصولِ الخلافةِ. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكاملونَ في فسقِهم، حيثُ ارتدُّوا بعْدَ وضوحِ مثلِ هذه الآياتِ، أو كفَروا تلك النعمةَ العظيمةَ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣).

وقال السعدي: (﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ...؛ لأنَّ الذي يتركُ الإيمانَ في حالِ عزِّه وقَهرِه، وعَدَمِ وُجودِ الأسبابِ المانعةِ منه: يدُلُّ على فَسادِ نيَّتِه، وخُبثِ طَوِيَّتِه؛ لأنَّه لا داعيَ له لتركِ الدِّينِ إلَّا ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

وقال سُبحانَه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: وأقيموا -أيُّها المُؤمِنونَ- الصَّلاةَ بحُدودِها، وآتُوا الزَّكاةَ مُستَحقِّيها[1].

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أي: وأطيعوا رَسولَ رَبِّكم فيما يأمُرُكم به ويَنهاكم عنه؛ لِتَنالوا رحمةَ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٤).
(لَعَلَّ) في قَولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إمَّا حرفُ تعليلٍ أو تَرَجٍّ؛ فعلى أنَّها حرفُ تعليلٍ فإقامةُ الصَّلاةِ وما عُطِف عليه سببٌ لرحمةِ اللَّهِ؛ لأنَّ العللَ أسبابٌ شرعيَّةٌ، وعلى أنَّ (لعلَّ) للتَّرجِّي، فالمعنى: أقيموا الصَّلاةَ، وآتُوا الزَّكاةَ على رجائِكم أنَّ اللهَ يرحَمُكم بذلكَ؛ لأنَّ اللهَ ما أطمَعهم بتلكَ الرَّحمةِ عندَ عملِهم بمُوجبِها إلَّا ليرحَمَهم؛ لِما هو معلومٌ مِن فضلِه وكرمِه. وكونُ لعلَّ هنا للتَّرجِّي، إنَّما هو بِحَسَبِ عِلمِ المخلوقِينَ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الكُفَّارُ مِن الكَثرةِ والقُوَّةِ بمكانٍ، كان الحالُ جديرًا بتأكيدِ معنى التَّمكينِ، جوابًا لسؤالِ مَن كأنَّه قال: وهل ذلك ممكِنٌ، فقال[١]:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ بياءِ الغَيبةِ، وفاعِلُ الحِسبانِ هو النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيكونُ التَّقديرُ: لا يَحسَبَنَّ محمَّدٌ الذين كفَروا مُعجِزينَ. ويحتَمِلُ أن يكونَ فاعِلُ الحِسبانِ: الذين كفَروا، ويكونَ المفعولُ الأوَّلُ مَحذوفًا، تقديرُه: لا يحسَبَنَّ الذين كفَروا أنفُسَهم مُعجِزينَ[٢]. أو: لا يَحسبنَّ الذين كفروا أحدًا يُعجِزُ الله في الأرضِ حتَّى يطمَعوا هم في مثلِ ذلك[٣].

٢- قِراءةُ ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاءِ، أي: لا تحسَبَنَّ -يا محمَّدُ- الكافرينَ مُعجِزينَ[٤].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٠٨).

(٢) قرأ بها حمزةُ، وابنُ عامرٍ. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٢).

(٤) قرأ بها الباقون على اختِلافٍ بينَهم في فَتحِ السِّينِ وكَسْرِها. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٥١).

قال أبو حيان: (وقرأ الجُمهورُ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بتاءِ الخطابِ، والتقديرُ: لا تحسبنَّ -أيُّها المخاطَبُ-، ولا يندرجُ فيه الرَّسولُ. وقالوا: هو خِطابٌ للرَّسولِ. وليس بجَيِّدٍ؛ لأنَّ مِثلَ هذا الحِسْبانِ لا يُتصوَّرُ وُقوعُه فيه عليه السَّلامُ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٦).

أي: لا تظُنَّ الكافرينَ -أيُّها النبيُّ- فائتينَ في الأرضِ فلا يُدرَكونَ، ومِن الهلاكِ يُفلِتُون، فإذا أراد اللهُ هلاكَهم فهو قادرٌ عليهم، وهم مأخوذونَ لا محالةَ[١].

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [هود: ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: ومَسكَنُهم في الآخرةِ النَّارُ[٢].

﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: ولبِئسَ المآلُ الذي يَرجِعونَ إليه النَّارُ[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((السراج المنير)) للخطيب الشربيني (٢/ ٦٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١).

وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ يُستفادُ مِن هذه الآيةِ أنَّ الإيمانَ والعمَلَ الصَّالحَ سَبَبٌ لتمكينِ الدِّينِ في الأرضِ، وأنَّ المُخالفةَ سَبَبٌ لِنَزعِ الدِّينِ مِن الأرضِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ﴾ فيُفهَمُ منه أنَّهم لو فَسَقُوا ولم يُؤمِنوا ولم يعمَلوا صالحًا، ما مُكِّنَ لهم الدِّينُ الذي هو لهم، والذي ارتضاه اللهُ تعالى لهم، ويتفرَّعُ على هذا: التحذيرُ البالغُ مِن المخالفةِ والفُسوقِ، وأنَّ ذلك سببٌ لنَزْعِ الدِّينِ منهم، وهذا هو المُطَّرِدُ في سُنَنِ اللهِ سُبحانه وتعالى؛ فإنَّ النِّعَمَ إذا لم تُشْكَرْ زالت، وأكبرُ نعمةٍ أنعَمَ اللهُ بها على عبادِه هي نِعمةُ الدِّينِ، فإذا لم تُشْكَرْ فإنَّها تَزولُ كغَيرِها مِن النِّعَمِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ وعَدَهم اللهُ هذه الأمورَ وقتَ نزولِ الآيةِ، وهي لم تُشاهَدْ: وهي الاستِخلافُ في الأرضِ، والتَّمكينُ فيها، والتَّمكينُ مِن إقامةِ الدِّينِ الإسلاميِّ، والأمنُ التَّامُّ، بحيثُ يَعبُدونَ اللهَ، ولا يُشرِكونَ به شيئًا، ولا يخافون أحدًا إلَّا اللهَ، فقام صدرُ هذه الأُمَّةِ مِن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ بما يفوقون على غيرِهم، فمكَّنَهم من البلادِ والعبادِ، وفُتِحَت مشارِقُ الأرضِ ومَغارِبُها، وحصل الأمنُ التَّامُّ والتَّمكينُ التامُّ، فهذا مِن آياتِ اللهِ العَجيبةِ الباهرةِ، ولا يزالُ الأمرُ إلى قيامِ السَّاعةِ: مهما قاموا بالإيمانِ والعَمَلِ الصالحِ، فلا بدَّ أن يوجَدَ ما وعَدهم اللهُ، وإنَّما يُسلِّطُ عليهم الكُفَّارَ والمنافقين، ويُديلُهم في بعضِ الأحيانِ؛ بسَبَبِ إخلالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٦٦).

المسلمين بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ[١]، فهذا الوَعدُ مُناسِبٌ لكُلِّ مَنِ اتَّصفَ بهذا الوَصفِ، فمَن كان أكملَ إيمانًا وعَمِلَ صالحًا، كان استِخلافُه المذكورُ أتَمَّ، فإنْ كان فيه نقصٌ وخَلَلٌ، كان في تمكينِه خَلَلٌ ونَقصٌ[٢]؛ وذلك أنَّ هذا جزاءُ هذا العَمَلِ، فمَن قام بذلك العمَلِ استحقَّ ذلك الجزاءَ، لكِنْ ما بقِيَ قَرنٌ مِثلُ القَرنِ الأوَّلِ؛ فلا جَرَم ما بقيَ قَرنٌ يتمكَّنُ تمكُّنَ القَرنِ الأوَّلِ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فإقامةُ الصَّلاةِ وإيتاءُ الزَّكاةِ وطاعةُ الرَّسولِ سببٌ لرحمةِ اللهِ[٤]، فمَن أراد الرَّحمةَ فهذا طريقُها، ومَن رجاها مِن دونِ إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ وطاعةِ الرَّسولِ، فهو مُتَمَنٍّ كاذِبٌ، وقد مَنَّتْه نفْسُه الأمانيَّ الكاذِبةَ[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ يدُلُّ على أنَّه سُبحانَه متكَلِّمٌ؛ لأنَّ الوَعدَ نوعٌ مِن أنواعِ الكلامِ، والموصوفُ بالنَّوعِ مَوصوفٌ بالجِنسِ، ولأنَّه سُبحانَه مَلِكٌ مُطاعٌ، والمَلِكُ المطاعُ لا بُدَّ أن يكونَ بحيثُ يُمكِنُه وَعْدُ أوليائِه، ووعيدُ أعدائِه؛ فثبَت أنَّه سُبحانَه مُتكَلِّمٌ[٦].

٢- قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٢) والقاعدةُ: أنَّ الحُكمَ المعلَّقَ على وصْفٍ يَزيدُ بزيادتِه، ويَنقُصُ بنُقصانِه. يُنظر: ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ١٣)، ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٢).

كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ فقد وعَدَ اللهُ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ بالاستِخلافِ، كما وعَدَهم في تلك الآيةِ مَغفرةً وأجرًا عظيمًا، واللهُ لا يُخلِفُ الميعادَ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ الذين استخلَفَهم كما استخلَفَ الذين مِن قَبْلِهم، ومكَّن لهم دينَ الإسلامِ، وبَدَّلهم مِن بعدِ خَوفِهم أمنًا- لهم منه المغفرةُ والأجرُ العظيمُ.

وهذا يُستدَلُّ به مِن وَجهينِ: يُستدَلُّ به على أنَّ المُستَخلَفينَ مؤمِنون عَمِلوا الصَّالحاتِ؛ لأنَّ الوعدَ لهم لا لِغَيرِهم، ويُستدَلُّ به على أنَّ هؤلاء مَغفورٌ لهم، ولهم مغفرةٌ وأجرٌ عَظيمٌ؛ لأنَّهم آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، فتناولَتْهم هذه الآيةُ في سورةِ (النور)، كما تناولَتْهم آيةُ (الفتحِ): ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

ومِن المعلومِ أنَّ هذه النُّعوتَ مُنطَبِقةٌ على الصَّحابةِ على زمَنِ أبي بكرٍ وعُمَرَ وعُثمانَ؛ فإنَّه إذ ذاك حصَلَ الاستِخلافُ، وتمكُّنُ الدِّينِ، والأمنُ بعدَ الخَوفِ، لَمَّا قَهَروا فارِسَ والرُّومَ، وفتَحوا الشَّامَ والعِراقَ ومِصرَ وخُراسانَ وإفريقيَّةَ.

وحينَئذٍ فقد دَلَّ القرآنُ على إيمانِ أبي بكرٍ وعُمَرَ وعُثمانَ، ومَن كان معهم في زمَنِ الاستخلافِ والتَّمكينِ والأمنِ؛ والذين كانوا في زمَنِ الاستخلافِ والتَّمكينِ والأمنِ وأدركوا زمَنَ الفِتنةِ -كعليٍّ، وطَلحةَ، والزُّبَيرِ، وأبي موسى الأشعريِّ، ومُعاويةَ، وعَمرِو بنِ العاصِ- دخلوا في الآيةِ؛ لأنَّهم استُخلِفوا ومُكِّنوا وأمِنُوا.

وأمَّا مَن حَدَث في زمَنِ الفتنةِ -كالرَّافضةِ الذين حَدَثوا في الإسلامِ في زَمَن الفِتنةِ والافتراقِ، وكالخوارجِ المارِقين- فهؤلاء لم يتناوَلْهم النَّصُّ، فلم يَدخُلوا فيمَن وُصِفَ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ المذكورَينِ في هذه الآيةِ؛ لأنَّهم أوَّلًا: ليسوا مِن الصَّحابةِ المُخاطَبينَ بهذا. وثانيًا: لم يحصُلْ لهم مِن الاستِخلافِ والتَّمكينِ والأمنِ بعْدَ الخَوفِ ما حصلَ للصَّحابةِ، بل لا يَزالون خائِفينَ مُقلقَلينَ غيرَ ممكَّنينَ[(١)].

٣- التَّمكينُ في الأرضِ لا يكونُ إلَّا بعدَ تحقيقِ عبادةِ اللهِ وحْدَه، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾، فإذا قام العبدُ بعبادةِ اللهِ مُخلِصًا له في أقوالِه وأفعالِه، لا يريدُ بها إلَّا وجهَ اللهِ والدَّارَ الآخرةَ، ولا يريدُ بها جاهًا ولا ثناءً مِن النَّاسِ، ولا مالًا ولا شيئًا مِن الدُّنيا، واستمَرَّ على هذه العبادةِ المُخلَصةِ في السَّراءِ والضَّرَّاءِ، والشِّدَّةِ والرَّخاءِ- مكَّنَ اللهُ له في الأرضِ، وإذَنْ فالتَّمكينُ في الأرضِ يَستلزِمُ وَصفًا سابقًا عليه، وهو عبادةُ اللهِ وحْدَه لا شريكَ له، وبعْدَ التَّمكينِ والإخلاصِ يكونُ الوصفُ الثاني، وهو: إقامةُ الصَّلاةِ[(٢)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للاستِغراقِ، أي: عَمِلوا جميعَ الصَّالحاتِ، وهي الأعمالُ التي وصَفَها الشَّرعُ بأنَّها صلاحٌ، وتَركُوا الأعمالَ التي وصَفَها الشَّرعُ بأنَّها فَسادٌ؛

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيميَّة (٢/ ٣٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٣٣١).

لأنَّ إبطالَ الفَسادِ صَلاحٌ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ الأرضَ للهِ يورِثُها مَن يشاءُ مِن عبادِه، وهو الذي يَستخلِفُ فيها النَّاسَ بَدَلَ غَيرِهم، وليس للنَّاسِ في هذه الأرضِ مُلكٌ؛ المُلكُ في الأرضِ للهِ يؤتيه مَن يَشاءُ[٢].

٦- قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تَعليقُ فِعْلِ الاستخلافِ بمجموعِ الَّذين آمَنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ -وإنْ كان تَدبيرُ شُؤونِ الأُمَّةِ مَنوطًا بوُلاةِ الأمورِ لا بمجموعِ الأُمَّةِ- مِن حيث إنَّ لمَجموعِ الأُمَّةِ انتِفاعًا بذلك، وإعانةً عليه، كلٌّ بحسَبِ مَقامِه في المُجتمَعِ[٣].

٧- قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ...﴾ فمتى اهتمَّ وُلاةُ الأمورِ وعُمومُ الأمَّةِ باتِّباعِ ما وضَّحَ لهم الشرعُ، تحقَّق وعدُ اللهِ إيَّاهم بهذا الوعدِ الجليلِ، وهذه التَّكاليفُ التي جعلَها اللهُ قِوامًا لصَلاحِ أمورِ الأمَّةِ، ووعَدَ عليها بإعطاءِ الخِلافةِ والتَّمكينِ والأمنِ؛ صارت بترتيبِ تلك المَوعِدةِ عليها أسبابًا لها، فلو أنَّ قومًا غيرَ مسلمين عَمِلوا في سيرتِهم وشؤونِ رعيَّتِهم بمِثلِ ما أمرَ الله به المُسلمينَ مِن الصَّالحاتِ، بحيثُ لم يُعْوِزْهم إلَّا الإيمانُ باللهِ ورَسولِه؛ لاجتَنَوا مِن سيرتِهم صوَرًا تُشبِهُ الحقائِقَ التي يَجتَنيها المسلمونَ؛ لأنَّ تلك الأعمالَ صارت أسبابًا وسُنَنًا تترتَّبُ عليها آثارُها التي جعَلَها الله سُنَنًا وقوانينَ عُمرانيَّةً، سِوى أنَّهم لِسوءِ معامَلتِهم ربَّهم، بجُحودِه، أو بالإشراكِ به، أو بعدَمِ تصديقِ رسولِه؛ يكونون بمَنأًى عن كفالتِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٥).

وتأييدِه إيَّاهم، ودَفعِ العوادي عنهم، بل يَكِلُهم إلى أعمالِهم وجهودِهم على حَسَبِ المعتادِ. ألَا ترى أنَّ القادةَ الأوروبيِّينَ بعْدَ أن اقتَبَسوا مِن الإسلامِ قوانينَه ونظامَه بما مارسُوه من شؤونِ المُسلِمينَ في خلالِ الحُروبِ الصَّليبيَّةِ، ثمَّ بما اكتَسَبوه مِن ممارسةِ كُتُبِ التاريخِ الإسلاميِّ والفقهِ الإسلاميِّ والسيرةِ النبويَّةِ؛ قد نَظَّموا ممالِكَهم على قواعِدِ العَدلِ والإحسانِ والمواساةِ، وكراهةِ البغيِ والعُدوانِ، فعَظُمَت دُوَلُهم، واستقامت أمورُهم[1]؟

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يدُلُّ على أنَّه سُبحانَه يعلَمُ الأشياءَ قبلَ وقوعِها، ووجهُ الاستدلالِ به: أنَّه سُبحانَه أخبَرَ عن وقوعِ شَيءٍ في المُستقبَلِ إخبارًا على التَّفصيلِ، وقد وقع المُخبَرُ مُطابِقًا للخبرِ، ومِثلُ هذا الخبَرِ لا يَصِحُّ إلَّا مع العلمِ[2].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ يدُلُّ على صِحَّةِ نبُوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه أخبَرَ عن الغَيبِ في هذه الآيةِ، وقد وُجِدَ هذا المُخبَرُ مُوافِقًا للخَبرِ، ومِثلُ هذا الخبَرِ مُعجِزٌ، والمُعجِزُ دَليلُ الصِّدقِ؛ فدَلَّ على صِدقِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٤١٣).

يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى قد مكَّن مَن قَبْلَنا واستخلفَهم في الأرضِ، كما قال موسى لقَومِه: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُم فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[(١)] [القصص: ٥، ٦].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ ممَّا نستفيدُه مِن الآيةِ أنَّ الإيمانَ والعمَلَ الصَّالحَ هو عبادةُ اللهِ؛ لِقَولِه: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾، وعليه يكونُ تحقيقُ التَّوحيدِ مِن أسبابِ هذا الوَعدِ الذي وَعَد اللهُ به[(٢)].

١٢- قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إنَّ الأمورَ الهامَّةَ ينبغي تأكيدُها بأنواعِ المؤكِّداتِ؛ فإنَّ هذا الوعدَ مِن الأمورِ الهامَّةِ؛ لِمَا يترتبُ عليه مِن المصالحِ والمنافعِ في الدُّنيا والآخرةِ؛ ولهذا أَكَّدَه اللهُ تعالى بالقَسَمِ واللامِ والنونِ، كما في قوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، وقَولِه: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، والمرادُ بهذا التَّشبيهِ تأكيدُ هذا الوَعدِ بذِكْرِ شواهِدِه؛ فيَكونُ ذلك أيضًا تأكيدًا معنويًّا على تأكيدٍ لَفظيٍّ، فهو سُبحانَه يَذكُرُ ما يُقوِّي القلبَ ويُثَبِّتُه[(٣)].

١٣- كمالُ الدِّينِ الإسلاميِّ؛ حيث قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، فهو الدِّينُ الذي ارتضاه لعِبادِه، وهو أكمَلُ الأديانِ؛ ولذلك خُتِمَت به الرِّسالاتُ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٤- قولُه تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ المَوصوفينَ بهذه الصِّلةِ هم الَّذين يَنشُرون هذا الدِّينَ في الأُمَمِ؛ لأنَّه دِينُهم؛ فيكونُ تمكُّنُه في النَّاسِ بواسطَتِهم[١].

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وليس هذا الوَعدُ بمقتَضٍ ألَّا تحدُثَ حوادِثُ خَوفٍ في الأمَّةِ في بعضِ الأقطارِ، كالخَوفِ الذي اعترى أهلَ المدينةِ مِن ثَورةِ أهلِ مِصرَ الذين قادهم الضَّالُّ مالِكُ الأشتَرُ النَّخَعيُّ[٢]، ومِثلِ الخَوفِ الذي حدَثَ في المدينةِ يومَ الحَرَّةِ[٣]، وغيرِ ذلك من الحوادِثِ، وإنَّما كانت تلك مُسَبَّباتٍ عن أسبابٍ بشريَّةٍ، وإلى الله إيابُهم، وعلى الله حِسابُهم[٤]!

١٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ فائِدتُه بعْدَ الخَوفِ أبلَغُ مِن ظُهورِ أمْنٍ على أمْنٍ؛ لأنَّه لا تُعرَفُ قيمةُ الأشياءِ إلَّا بضِدِّها، فإذا قُدِّرَ أنَّ هذا الإنسانَ في خَوفٍ ثم أُبدِلَ بعدَ الخَوفِ أمنًا، ظهَر لهذا الأمنِ مِن الأثَرِ في نفْسِه ما هو أبلَغُ مِمَّا لو كان أمنًا على أمنٍ[٥].

١٧- في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أنَّ الصَّلاةَ أفضَلُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).

(٢) الأشترُ: مالكُ بنُ الحارثِ النَّخَعيُّ: كان شريفًا كبيرَ القدرِ في النخَعِ، شهِدَ اليرموك، وقُلِعَتْ عينُه يومَئذٍ، وكان ممَّن ألَّب على عُثمانَ، وقاتَلَه وحضَر حصرَه في المدينةِ. وشَهِدَ يومَ الجَمَلِ، وأيامَ صِفِّينَ مع عليٍّ، وكان خطيبًا بليغًا فارسًا. يُنظر: ((تاريخ الإسلام)) للذهبي (٢/ ٣٣٦)، ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٤/ ٣٤)، ((الأعلام)) للزِّرِكْلي (٥/ ٢٥٩).

(٣) يوم الحَرَّةِ: أي: وَقعة الحَرَّةِ التي كانت بالمدينةِ أيَّامَ يزيدَ بنِ مُعاويةَ على يَدَي مُسلِمِ بنِ عُقبةَ لمَّا بايع أهلُ المدينةِ لعبدِ الله بنِ الزُّبيرِ، وخلَعوا بيعةَ يزيدَ، وخلَعوا واليَه في المدينةِ، وحاصروا بني أُمَيَّةَ في دارِ مرْوانَ. يُنظر: ((الروض الأُنُف)) للسهيلي (٣/ ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٦٠).

الزكاةِ؛ وذلك لتقديمِها عليها في كلِّ موضعٍ، اللهمَّ إلَّا أنْ يكونَ هناك سببٌ خاصٌّ لتقديمِ الإنفاقِ، فقد يُقَدَّمُ الإنفاقُ على الصَّلاةِ، لكنْ عندَما تُذكَرُ الصَّلاةُ والزَّكاةُ معًا فإنَّها تُقدَّمُ(١).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أنَّ الذي ثَبَتَ في السنَّةِ كالذي ثَبَتَ في القُرآنِ، وهذا شامِلٌ لِما قاله النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ابتِداءً، ولِما قاله تفسيرًا للقُرآنِ، فيكونُ فيه دليلٌ على وجوبِ العمَلِ بالسنَّةِ كما يجبُ العمَلُ بالقُرآنِ(٢).

١٩- قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ، حيثُ جَعَلَ هذه الأشياءَ الثلاثةَ -إقامَ الصلاةِ، وإيتاءَ الزكاة، وطاعةَ الرَّسولِ- سببًا للرَّحمةِ، وهذا باعتبارِ أنَّ (لعلَّ) تعليليَّةٌ(٣).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أنَّ أهلَ النارِ -مِن الكُفَّارِ- مخلَّدونَ فيها، ولو لم يُخَلَّدوا لكان مأواهم ما بعْدَ النارِ؛ لأنَّ المأوى معناه المرجعُ الأخيرُ، وهذا دَليلٌ على أنَّ النارَ دائمةٌ لهم، وأنَّهم مخَلَّدون فيها، وقد ثبَت في القُرآنِ الكريمِ تأبيدُ أهلِ النَّارِ في ثلاثِ آياتٍ مِن القُرآنِ؛ هي: قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وقَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، فهذه ثلاثُ آياتٍ صَريحةٌ تنُصُّ على تأبيدِ خُلودِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٧٢)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٧٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَا في قولِه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ مِن الوعْدِ الكريمِ، ومُعرِبٌ عنه بطريقِ التَّصريحِ، ومُبيِّنٌ لتفاصيلِ ما أُجمِلَ فيه مِن فُنونِ السَّعاداتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ الَّتي هي مِن آثارِ الاهتِداءِ، ومُتضمِّنٌ لِمَا هو المُرادُ بالطَّاعةِ الَّتي نِيطَ بها الاهتِداءُ[(١)].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ وُسِّطَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنكُمْ﴾ بين المعطوفينِ؛ لإظهارِ أصالةِ الإيمانِ وعَراقَتِه في استِتباعِ الآثارِ والأحكامِ، وللإيذانِ بكَونِه أوَّلَ ما يُطلَبُ منهم، وأهمَّ ما يجِبُ عليهم. بيْنَما أُخِّرَ عنهما في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]؛ وذلك لأنَّ (مِن) هناك -في سورةِ (الفتحِ)- بَيانيَّةٌ، والضَّميرُ للَّذين معه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن خُلَّصِ المُؤمنين، ولا ريبَ في أنَّهم جامِعونَ بيْن الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ، مُثابِرونَ عليهما؛ فلا بُدَّ مِن وُرودِ بَيانِهم بعْدَ ذِكْرِ نُعوتِهم الجليلةِ بكَمالِها، و(من) هنا تَبعيضيَّةٌ[(٢)]، على قولٍ في التفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقيل: فائدةُ تَوسيطِ ﴿مِنكُمْ﴾ بيْن ﴿ءَامَنُواْ﴾ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هنا، وتأخيرِه عنهما في سُورةِ (الفتْحِ): أنَّ التَّأخيرَ دَلَّ على أنَّ وعْدَ اللهِ تعالى بالمغفرةِ والأجْرِ العظيمِ مُسبَّبانِ عن إيمانِهم المُقارَنِ بالأعمالِ الصَّالحاتِ معًا؛ لأنَّ الاتِّصافَ بالإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ في الظَّاهرِ مُناسِبٌ لأنْ يَكونَ عِلَّةً للمغفرةِ والأجْرِ العظيمِ، وتوسيطَه دلَّ على أنَّ الإيمانَ هو الأصلُ في الاعتبارِ، وأنَّ الأعمالَ كالتَّابعةِ له؛ فتأثيرُ العمَلِ الصَّالحِ في الاستخلافِ دونَ تأْثيرِه في إثباتِ المغفرةِ والأجْرِ العظيمِ، ونحوُه في الاعتبارِ قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، أُخِّرَ إسماعيلُ عن المفعولِ؛ ليَدُلَّ على أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ كان الأصلَ في العمَلِ، وإسماعيلُ عليه السَّلامُ كالتَّابعِ له، ولو قدَّمَه لم يكُنْ كذلك[١].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عامٌّ، و(مِن) للتَّبعيضِ؛ وذلك أنَّ قولَه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ إلى آخِرِ قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ وسَطٌ بيْن المعطوفِ -وهو قولُه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾- والمعطوفِ عليه -وهو قولُه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾- كالاعتِراضِ؛ لأنَّ أصلَ الكلامِ: قُلْ: أطِيعوا اللهَ وأطِيعوا الرَّسولَ، ولا تخَفْ مَعرَّتَهم؛ فيَنْبغي أنْ يَجرِيَ الكلُّ على سَننٍ واحدٍ، وأنْ يُقالَ: أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ، فإنْ تُعرِضوا عن طاعتِهما فقد عرَّضْتُم نُفوسَكم لِسخَطِ اللهِ تعالى، وإنْ أطَعْتُموهما تَهْتدوا. ثمَّ بيَّن ما لِلمُهتدينَ منهم بقولِه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ إلى آخِرِه، أي: أحرَزْتُم نَصيبَكم في الدُّنيا والعُقبى؛ ولهذه الفائدةِ أُخِّرَ المعطوفُ عن المعطوفِ عليه[٢].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٣٢، ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٣٢).

- قولُه: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ جُملةُ: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ...﴾ بَيانٌ لجُملةِ: ﴿وَعَدَ﴾؛ لأنَّها عينُ المَوعودِ به. ولمَّا كانت جُملةَ قسَمٍ وهو مِن قَبيلِ القولِ، كانت إحداهما بَيانًا للأُخرى[١]. وإنَّما صِيغَ الكلامُ في هذا النَّظمِ ولم يُقتصَرْ على قولِه: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ دونَ تَقْييدٍ بقولِه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لـ ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ الاستِخلافَ يَحصُلُ في مُعظَمِ الأرضِ، وذلك يَقبَلُ الامتدادَ والانقباضَ[٢].

- وقد كان المُسلِمون واثقينَ بالأمْنِ، ولكنَّ اللهَ قدَّمَ على وعْدِهم بالأمْنِ أنْ وعَدَهم بالاستِخلافِ في الأرضِ، وتَمكينِ الدِّينِ والشَّريعةِ فيهم؛ تَنبيهًا لهم بأنَّ سُنَّةَ اللهِ أنَّه لا تأمَنُ أُمَّةٌ بأسَ غَيرِها حتَّى تكونَ قويَّةً مَكينةً مُهيمِنةً على أصقاعِها؛ ففي الوعْدِ بالاستِخلافِ والتَّمكينِ وتبْديلِ الخوفِ أمْنًا: إيماءٌ إلى التَّهيُّؤِ لتَحصيلِ أسبابِه، مع ضمانِ التَّوفيقِ لهم والنَّجاحِ إنْ هم أخَذوا في ذلك، وأنَّ مِلاكَ ذلك هو طاعةُ اللهِ والرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]، وإذا حلَّ الاهتِداءُ في النُّفوسِ نشأَتِ الصَّالحاتُ، فأقبلَتْ مُسبَّباتُها تَنهالُ على الأُمَّةِ، فالأسبابُ هي الإيمانُ وعمَلُ الصَّالحاتِ[٣]. وقيل: تأْخيرُ التمكينِ عن الاستِخلافِ مع كونِه أجَلَّ الرَّغائبِ الموعودةِ وأعظَمَها؛ لِما أنَّ النُّفوسَ إلى الحُظوظِ العاجلةِ أميَلُ؛ فتَصديرُ المواعيدِ بها في الاستِمالةِ أدخَلُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩١).

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ جوابُ قسَمٍ مَحذوفٍ، أي: وأُقسِمُ لَيسْتخلِفنَّهم، أو أجْرى وعْدَ اللهِ -لتَحقُّقِه- مُجرى القسَمِ، فجُووِبَ بما يُجاوَبُ به القسَمُ. وعلى تَقديرِ حذْفِ القسَمِ يكونُ معمولُ ﴿وَعَدَ﴾ مَحذوفًا، تقديرُه: استِخلافَكم وتَمْكينَ دِينِكم. ودلَّ عليه جوابُ القسَمِ[١].

- السِّينُ والتَّاءُ في ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ للتَّأكيدِ، وأصْلُه: (لَيُخلِفنَّهم)[٢].

- قولُه: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾، أي: لَيَجعلَنَّ دِينَهم ثابتًا مُقرَّرًا، بحيثُ يَستمِرُّون على العمَلِ بأحكامِه، ويَرجِعون إليه في كلِّ ما يأتُون وما يَذَرُون. والتَّعبيرُ عن ذلك بالتَّمكينِ الَّذي هو جَعْلُ الشَّيءِ مكانًا لآخَرَ؛ للدَّلالةِ على كَمالِ ثَباتِ الدِّينِ، ورَصانةِ أحكامِه، وسَلامتِه مِن التَّغييرِ والتَّبديلِ؛ لابتِنائِه على تَشبيهِه بالأرضِ في الثَّباتِ والقرارِ، مع ما فيه مِن مُراعاةِ المُناسَبةِ بيْنَه وبيْنَ الاستخلافِ في الأرضِ[٣].

- وتَقديمُ صِلَةِ التَّمكينِ ﴿لَهُمْ﴾ على مَفعولِه الصَّريحِ ﴿دِينَهُمُ﴾؛ للمُسارَعةِ إلى بَيانِ كَونِ الموعودِ مِن مَنافعِهم؛ تَشويقًا لهم إليه، وتَرغيبًا لهم في قَبولِه عندَ وُرودِه؛ ولأنَّ في تَوسيطِها بيْنه وبيْن وَصْفِه -وهو قولُه: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾- وفي تأخيرِها عنه: مِن الإخلالِ بجَزَالةِ النَّظمِ الكريمِ ما لا يَخْفَى[٤]. وقيل: قُدِّمَ ﴿لَهُمْ﴾ على المفعولِ ﴿دِينَهُمُ﴾؛ للإيماءِ إلى العِنايةِ بهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).

- قولُه: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ في إضافةِ الدِّينِ إليهم -وهو دِينُ الإسلامِ- ثمَّ وَصْفِه بارتضائِه لهم: تأليفٌ لقُلوبِهم، ومَزيدُ ترغيبٍ فيه، وفضْلُ تَثبيتٍ عليه[١]. وأيضًا إضافةُ الدِّينِ إلى ضَميرِهم؛ لتَشريفِهم به؛ لأنَّه دِينُ اللهِ، كما دلَّ عليه قولُه عقِبَه: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، أي: الَّذي اختارَهُ ليَكونَ دِينَهم؛ فيَقْتضي ذلك أنَّه اختارَهم أيضًا ليَكونوا أتْباعَ هذا الدِّينِ[٢]. وقيل: أضافه إليهم؛ إشارةً إلى رسوخِ أقدامِهم فيه، وأنَّه أبَديٌّ لا يُنسخُ[٣].

- وإنَّما قال: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ ولم يقُلْ: (ولَيُؤمِّنَنَّهم) كما قال في سابقَيه؛ لأنَّهم ما كانوا يَطمَحون يومَئذٍ إلَّا إلى الأمْنِ؛ فكانوا في حالةٍ هي ضدُّ الأمْنِ، ولو أُعْطوا الأمنَ دونَ أنْ يكونوا في حالةِ خوفٍ، لكانَ الأمْنُ مِنَّةً واحدةً[٤].

- وإضافةُ الخوفِ إلى ضَميرِهم؛ للإشارةِ إلى أنَّه خوفٌ مَعروفٌ مُقرَّرٌ[٥].

- وتَنكيرُ ﴿أَمْنًا﴾ للتَّعظيمِ؛ بقَرينةِ كَونِه مُبْدَلًا مِن ﴿بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ المعروفِ بالشِّدَّةِ[٦].

- قولُه: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ عبَّرَ بالمُضارعِ ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾؛ لإفادةِ استِمرارِهم على ذلك تَعريضًا بالمُنافقين؛ إذ كانوا يُؤمِنون ثمَّ يَنقلِبون[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٨٨).

- وجُملةُ: ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ﴾، مُفيدةٌ لتَقييدِ الوعْدِ بالثَّباتِ على التَّوحيدِ، أو استِئنافٌ ببَيانِ المُقْتضي للاستِخلافِ وما انتظَمَ معه في سِلْكِ الوعْدِ[١]. وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾ حالٌ مِن ضَمائرِ الغَيبةِ المُتقدِّمةِ، أي: هذا الوعدُ جَرَى في حالِ عِبادتِهم إيَّايَ، وفي هذه الحالِ إيذانٌ بأنَّ ذلك الوعْدَ جَزاءٌ لهم، أي: وعَدْتُهم هذا الوعْدَ الشَّاملَ لهم، والباقيَ في خَلَفِهم؛ لأنَّهم يعبُدونَني عِبادةً خالصةً عن الإشراكِ[٢].

- وجُملةُ: ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ حالٌ مِن ضَميرِ الرَّفعِ في ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾؛ تَقييدًا للعِبادةِ بهذه الحالةِ؛ لأنَّ المُشركين قد يَعبُدون اللهَ ولكنَّهم يُشرِكون معه غيرَه[٣].

- قولُه: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ تَحذيرٌ بعْدَ البِشارةِ، على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ البِشارةِ بالنِّذارةِ والعكْسُ؛ دَفْعًا للاتِّكالِ[٤].

- وصِيغةُ الحصْرِ المأخوذةُ مِن تَعريفِ المُسنَدِ بلامِ الجِنْسِ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ مُستعمَلةٌ مُبالَغةً؛ للدَّلالةِ على أنَّه الفِسْقُ الكاملُ، ووصْفُ الفاسقين لهم رَشيقُ الموقِعِ؛ لأنَّ مادَّةَ الفِسْقِ تدُلُّ على الخُروجِ مِن المكانِ مِن مَنفَذٍ ضيِّقٍ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٨٨، ٢٨٩).

- قولُه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ[١]. وقيل: إنَّه عَطفٌ على مُقدَّرٍ يَنسحِبُ عليه الكلامُ، ويَستدعيهِ النِّظامُ؛ فكأنَّه قيل: فآمِنوا واعْمَلوا صالِحًا، وأقيمُوا. أو فلا تكْفُروا وأقيمُوا[٢]. وقيل: إنَّه عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٥٥]؛ لِمَا فيها مِن معنى الأمْرِ بترْكِ الشِّركِ، فكأنَّه قِيل: اعْبُدوني ولا تُشرِكوا، وأقِيموا الصَّلاةَ. والخِطابُ موَجَّهٌ للَّذين آمَنوا خاصَّةً بعدَ أنْ كان مُوجَّهًا لأُمَّةِ الدَّعوةِ؛ فالطَّاعةُ المأمورُ بها هنا غيرُ الطَّاعةِ الَّتي في قولِه: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ [النور: ٥٤] إلخ؛ لأنَّ تلك دَعوةٌ للمُعرِضينَ، وهذه ازديادٌ للمُؤمنينَ[٣]. وقيل: يجوزُ أن يكونَ مَعطوفًا على ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾[٤]، فإنَّ الفاصِلَ وَعدٌ على المأمورِ به؛ فيكونَ تكريرُ الأمرِ بطاعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لتأكيدِ وُجوبِها، وليس ببَعيدٍ أن يَقَع بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه فاصِلٌ وإن طالَ؛ لأنَّ حَقَّ المعطوفِ أن يكونَ غَيرَ المعطوفِ عليه؛ لأنَّ طُولَ الفَصلِ يُحَقِّقُ المغايَرةَ المطلوبةَ بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ فالواجِبُ أن يكونَ بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه المغايَرةُ، وعندَ القُربِ لا يتحَقَّقُ ذلك؛ فإنَّ المُجاوَرةَ مَظِنَّةُ الاتِّصالِ، بخِلافِ المضافِ والمضافِ إليه؛ فإنَّ شِدَّةَ اتِّصالِهما مانعةٌ مِن دُخولِ فَصلٍ بينهما[٥]. وللفَصلِ والتَّأخيرِ فوائِدُ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٩).

(٤) لكن قال أبو السعود: (وعطفُه على ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ ممَّا لا يليقُ بجزالةِ النَّظمِ الكريمِ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٦).

منها: الإشعارُ بأنَّ الجُملةَ المُتخَلِّلةَ -وهي ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ الآيةَ- ممَّا هو يُهتَمُّ بشَأنِه، وأنَّها مُتَّصِلةٌ بما يَتعلَّقُ بالمعطوفِ عليه، وهو ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾. ومنها: أنَّ في تأخيرِ المعطوفِ عن قَولِه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ إعلامًا بنوعِ اتِّصالٍ به، وهو: إنْ أطعتُم وآمنتُم فقد أحرَزتُم نَصيبَكم في الدُّنيا والعُقبى. ومنها: التَّوكيدُ؛ لأنَّه لو لم يؤخَّرْ لم يُحتَجْ إلى إناطةِ «أطيعوا الرَّسولَ» به؛ فإنَّه على مِنوالِ قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١١٩]. ومنها: الإيذانُ بشَرَفِ إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، ومَحلِّهما عندَ الله، وأنَّهما أُمَّا العِباداتِ، وأبعَدُهما مَرتبةً عن سائِرِ العباداتِ والطَّاعاتِ؛ لأنَّ العَطفَ مِن بابِ عَطفِ جِبريلَ على الملائِكةِ -أي: الخاصِّ على العامِّ-، ومِن ثَمَّ رَتَّب الأوَّلَ بقَولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾، وعلى الثَّاني بقَولِه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أمَرَهم اللهُ سُبحانَه وتعالى بالذَّاتِ بما أمَرَهُم به بواسطةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن طاعَتِه الَّتي هي طاعَتُه تعالى في الحقيقةِ؛ تأْكيدًا للأمْرِ السَّابقِ، وتَقريرًا لمَضمونِه[2].

- وقد جمَعَتْ هذه الآيةُ جميعَ الأعمالِ الصَّالحاتِ؛ فأهَمُّها بالتَّصريحِ، وسائرُها بعُمومِ حَذْفِ المُتعلَّقِ بقولِه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، أي: في كلِّ ما يأْمُرُكم ويَنْهاكم[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٣٧، ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٩).

٣- قولُه تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لتَحقيقِ ما اقتضاهُ قولُه: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]؛ فقد كان المُشرِكون يومَئذٍ لم يَزالوا في قُوَّةٍ وكَثرةٍ، وكان المُسلِمون لم يَزالوا يخافونَ بأْسَهم، فرُبَّما كان الوعْدُ بالأمْنِ مِن بأْسِهم مُتلقًّى بالتَّعجُّبِ والاستِبطاءِ الشَّبيهِ بالتَّردُّدِ؛ فجاء قولُه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تطْمينًا وتسليةً. والنَّهيُ في قولِه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ قُصِدَ منه التَّنبيهُ على تَحقيقِ الخبَرِ[(١)].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إمَّا لكلِّ أحدٍ ممَّن يَصلُحُ له كائنًا مَن كانَ، وإمَّا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، على مِنهاجِ قولِه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] ونظائرِه؛ للإيذانِ بأنَّ الحِسبانَ المذكورَ مِن القُبحِ والمَحذوريَّةِ بحيثُ يُنْهَى عنه مَن يَمتنِعُ صُدورُه عنه؛ فكيف بمَن يُمكِنُ ذلك منه[(٢)]؟!

- قولُه: ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قولُه: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ظرْفٌ لـ ﴿مُعْجِزِينَ﴾؛ لإفادةِ شُمولِ عدَمِ الإعجازِ بجميعِ أجزائِها، أي: لا تَحسبَنَّهم مُعجزينَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ عن إدراكِهم وإهلاكِهم في قُطْرٍ مِن أقطارِ الأرضِ بما رحُبَتْ، وإنْ هرَبُوا منها كلَّ مَهرَبٍ[(٣)].

- وقولُه: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جوابُ قسَمٍ مُقدَّرٍ، والمخصوصُ بالذَّمِّ مَحذوفٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: وباللهِ لبِئْسَ المصيرُ هي، أي: النَّارُ، والجُملةُ اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه. وفي إيرادِ النَّارِ بعُنوانِ كَونِها مأوًى ومَصيرًا لهم، إثْرَ نفْيِ فَوتِهم بالهرَبِ في الأرضِ كلَّ مَهرَبٍ مِن الجَزالةِ: ما لا غايةَ وراءَهُ، فلِلَّهِ دَرُّ شأْنِ التَّنزيلِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٢، ١٩٣).

الآيات (٥٨-٦٠)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾: أي: الأطفالُ غيرُ البالغينَ، والحُلُمُ: الاحتِلامُ، وعبَّر عن البلوغِ بالاحتلامِ؛ لأنَّه أقوَى دلائلِه، وأصلُ (حلم): رُؤيةُ الشَّيءِ في المنامِ، وقيل: سُمِّي زمانُ البُلوغِ الحُلُمَ؛ لكونِ صاحبِه جديرًا بالحِلْمِ، وأصلُ (حلم) على ذلك: تَركُ العَجَلةِ[1].

﴿عَوۡرَٰتٖ﴾: العورةُ: كلُّ ما يُسْتَحْيا منه إذا ظهَر. قيل: أصلُ العورةِ: الخَلَلُ، ومنه: الأعور: المختلُّ العَيْنِ، فسُمِّيت هذه عوراتٌ؛ لاختلالِ تَستُّرِ الناسِ، وقلَّةِ تحفُّظِهم فيها. والعورَةُ: سوأةُ الإنسانِ، وأصلُها مِن العارِ؛ وذلك لِما يَلحَقُ في ظهورِها من العارِ، أي: المذَمَّةِ. وقيل: أصلُ (عور) هنا: يدُلُّ على مرضٍ في إحدى عينَي الإنسانِ وكلِّ ذي عينينِ، ومعناه الخلُوُّ مِن النَّظرِ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه ويُشتَقُّ منه، ومنه العورَةُ، كأنَّها شيءٌ يَنْبغي مُراقَبَتُه؛ لخُلُوِّه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٩)، =

﴿جُنَاحٌ﴾: أي: إثمٌ؛ وأصلُ (جنح): مالَ وتَعدَّى، وسُمِّي الإثمُ بذلك؛ لِمَيلِه عن طريقِ الحقِّ[١].

﴿طَوَّٰفُونَ﴾: أي: ساعونَ في خِدمتِكم، والطَّوْفُ: المشيُ حوْلَ الشَّيءِ، وأصلُ (طوف): يدُلُّ على دَورانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ[٢].

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾: أي: العجائزُ اللَّواتي قعَدْنَ عن الحَيضِ والوَلَدِ والأزواجِ؛ مِن الكِبَرِ، جمعُ قاعدٍ، وأمَّا القاعدَةُ فهي الجالسةُ[٣].

﴿مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾: أي: مُظهِراتٍ مُحاسِنَهنَّ، وأصلُ (برج): يدُلُّ على البُروزِ والظُّهورِ[٤].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا بعضَ الأحكامِ والآدابِ التي شرَعها لعبادِه: يا أيُّها الذين آمَنوا، مُروا العَبيدَ والإماءَ الذين تَملِكونَهم، والأطفالَ الأحرارَ الذين لم يَبلُغوا

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

مَبلَغَ الرِّجالِ؛ أن يَستأذِنوا عندَ الدُّخولِ عليكم في أوقاتٍ ثلاثةٍ: قَبْلَ صلاةِ الفَجرِ، ووقتَ الظُّهرِ حينَ خَلْعِ الثِّيابِ للقَيلولةِ، ومِن بعدِ صَلاةِ العِشاءِ؛ فهذه الأوقاتُ تكونُ العوراتُ فيها باديةً، فعَلِّموهم ألَّا يَدخُلوا عليكم إلَّا بعْدَ الاستِئذانِ، أمَّا فيما سِوى هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ فلا حرَجَ إذا دخَلوا بغيرِ استِئذانٍ؛ فهم خدَمُكم وأطفالُكم، يَطوفونَ عليكم لِقَضاءِ حوائِجِكم، وأنتم تتردَّدونَ عليهم؛ لاستِخدامِهم وغيرِ ذلك. مِثلَ ذلك البيانِ والتَّوضيحِ في أحكامِ الاستِئذانِ يُبَيِّنُ اللهُ لكم آياتِه وأحكامَه وشرائِعَ دينِه، واللهُ عليمٌ بما يُصلِحُ عبادَه، حكيمٌ فيما يَشرَعُه لهم مِن الأحكامِ.

وإذا بلَغ الأطفالُ منكم مَبلغَ الرِّجالِ، فعليهم أن يَستأذِنوا في كلِّ الأوقاتِ كما استأذَنَ الرِّجالُ البالِغونَ، وكما بيَّنَ اللهُ آدابَ الاستئذانِ يُبيِّنُ اللهُ تعالى لكم آياتِه، واللهُ عليمٌ بخَلقِه، حكيمٌ فى تشريعِه.

والنِّساءُ العجائِزُ اللَّاتي قعَدْنَ عن الحَيضِ والوَلَدِ وطلبِ الزَّواجِ؛ لكِبَرِ سِنِّهنَّ- فلا إثمَ عليهنَّ في أن يضَعْنَ بعضَ ثيابِهنَّ الظَّاهرةِ، كالِخمارِ، غيرَ مُظهِراتٍ للزِّينةِ. ولُبْسُهنَّ هذه الثيابَ مُبالَغةً في التستُّرِ والتعفُّفِ أحسَنُ لهُنَّ، وأزكى عندَ الله وأطهَرُ، واللهُ سَميعٌ لأقوالِكم، عليمٌ بأعمالِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أوَّلًا حُكمَ البالِغينَ الأحرارِ في الاستِئذانِ في قَولِه: ﴿لَا

تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ...﴾[النور: ٢٧]، بَيَّن تعالى هنا حُكمَ الأحرارِ غيرِ البالِغينَ، وحُكمَ العَبيدِ، فقال(١):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

أي: يا أيُّها الذين آمنوا، مُرُوا مماليكَكم مِن الذُّكورِ والإناثِ، والكِبارِ والصِّغارِ؛ أن يَستأذِنوكم إذا أرادوا الدُّخولَ عليكم(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾.

أي: ومُرُوا -أيُّها المُؤمِنونَ- صِبيانَكم الأحرارَ غيرَ البالغينَ أن يستأذِنوا إذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٢، ٢٩٣).

قال ابن كثير: (هذه الآياتُ الكريمةُ اشتملت على استئذانِ الأقارب بعضِهم على بعضٍ، وما تقدَّم في أوَّلِ السورةِ فهو استئذانُ الأجانبِ بَعضِهم على بعضٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١).

وممَّن قال بأنَّ الآيةَ عامَّةٌ في الأرِقَّاءِ الكِبارِ والصِّغارِ: يحيى بنُ سلام، وابن جرير، واستظهره الرازي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الصِّغارُ منهم: الماتريديُّ، والقاضي أبو يعلى -كما نسبه إليه ابن الجوزي-، وعبد القاهر الجُرْجاني. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٥٩٠)، ((درج الدرر)) لعبد القاهر الجرجاني (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠٥).

قال ابن القيم: (قالت طائفة: كان الأمرُ بالاستئذانِ في ذلك الوقتِ للحاجةِ ثمَّ زالت، والحُكمُ إذا ثبت بعلَّةٍ زال بزوالِها... وقالت طائفة: الآيةُ محكَمةٌ عامَّةٌ لا مُعارِضَ لها ولا دافِعَ، والعمَلُ بها واجب، وإنْ تركَه أكثرُ الناس. والصَّحيحُ: أنَّه إن كان هناك ما يقومُ مقامَ الاستئذانِ؛ مِن فَتحِ بابٍ فَتحُه دليلٌ على الدُّخولِ، أو رَفعِ سِترٍ، أو تردُّدِ الداخِلِ والخارِجِ ونحوِه- أغنى ذلك عن الاستئذانِ، وإن لم يكُنْ ما يقوم مقامَه فلا بدَّ منه، والحُكمُ معَلَّلٌ بعلَّةٍ قد أشارت إليها الآيةُ، فإذا وُجِدت وُجِد الحكمُ، وإذا انتفتِ انتفى. والله أعلم). ((زاد المعاد)) (٢/ ٣٩٦، ٣٩٧). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٣).

أرادوا الدُّخولَ عليكم في ثلاثةِ أوقاتٍ مِن ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهارِ[١].

﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾.

أي: لِيَستأذِنوا إذا أرادوا الدُّخولَ عليكم في ثلاثةِ أوقاتٍ: قبْلَ صَلاةِ الفَجرِ، ووقتَ القَيلولةِ نِصفَ النَّهارِ، وبعْدَ صَلاةِ العِشاءِ[٢].

﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾.

أي: هذه ثلاثةُ أوقاتٍ يَحصُلُ فيها ظُهورٌ للعَوْراتِ؛ فلا يدخُلْ عليكم مماليكُكم وأطفالُكم إلَّا بإذنِكم[٣].

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾.

أي: ليس عليكم ولا على مماليكِكم وأطفالِكم إثمٌ في تَركِ الاستِئذانِ للدُّخولِ عليكم في غيرِ هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٢، ٢٩٣).

قال السمعاني: (ليس هؤلاء هُمُ الذين لم يَظهَروا على عوراتِ النِّساءِ؛ فإنَّ الذين لم يظهَروا على عوراتِ النِّساءِ لا حِشمةَ لأحدٍ منهم؛ لأنَّا بَيَّنَّا أنَّهم الذين لا يُمَيِّزون، ولكِنَّ هؤلاء هم الذين مَيَّزوا، وعَرَفوا أمرَ النِّساءِ، ولكن لم يَبلُغوا). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١، ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٢ - ٢٩٤).

قال ابنُ عاشور: (وتعيينُ الاستئذانِ في هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّها أوقاتُ خَلوةِ الرِّجالِ والنساءِ، وأوقاتُ التعَرِّي مِن الثيابِ، وهي أوقاتُ نَومٍ، وكانوا غالبًا ينامون مجرَّدينَ من الثيابِ؛ اجتِزاءً بالغِطاءِ، وقد سمَّاها الله تعالى عَوراتٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٢).

﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾.

أي: بعضُكم يَطوفُ على بعضٍ؛ فمَماليكُكم وأطفالُكم يدخُلونَ ويَخرُجونَ عليكم في منازِلِكم لقضاءِ أشغالِكم وحوائِجِكم، وأنتم تتردَّدونَ عليهم لاستخدامِهم وغيرِ ذلك(١).

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾.

أي: كما بيَّن اللهُ لكم -أيُّها المؤمِنونَ- أحكامَ الاستئذانِ بيانًا تامًّا واضِحًا، كذلك يبيِّنُ اللهُ لكم جميعَ آياتِ القُرآنِ وشرائِعِ الإسلامِ(٢).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بما يُصلِحُ عبادَه، حكيمٌ فيما يُدبِّرُه لهم، وفيما يَشرَعُه لهم مِن الأحكامِ؛ فهو يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللائِقِ به، ومِن ذلك تلك الأحكامُ التي بيَّنَها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

قال ابنُ جرير: (ويعني بالطوَّافينَ: أنَّهم يدخلون ويخرُجون على مواليهم وأقرِبائِهم في منازِلِهم غُدوةً وعَشِيَّةً بغيرِ إذنٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٧).

وقال القرطبي: (فمعنى ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ أي: يَطوفون عليكم، وتَطوفون عليهم). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٦).

وقال الشنقيطي: (يَطوفون للخِدمةِ، والسَّادةُ والآباء يطوفون عليهم للاستخدامِ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٥)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٦).

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حُكمَ الصِّبيانِ والأرقَّاءِ الذين هم أطوَعُ للأمرِ، وأقبَلُ لكُلِّ خَيرٍ؛ أتبَعَه حُكمَ البالغينَ مِن الأحرارِ، فقال[1]:

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: وإذا صار أطفالُكم بالغينَ، فلْيستأذِنوا في الدُّخولِ عليكم في كُلِّ وَقتٍ بلا استِثناءٍ، كما استأذن الكِبارُ الأحرارُ[2].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

أي: كما بيَّن اللهُ لكم -أيُّها المؤمِنونَ- حُكمَ الأطفالِ في الاستِئذانِ إذا بلَغوا الحُلُمَ، كذلك يوضِّحُ اللهُ ويفَصِّلُ لكم جميعَ آياتِ القُرآنِ وأحكامِ الإسلامِ[3].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بما يُصلِحُ عِبادَه، حكيمٌ في تدبيرِهم بما شرَعَه لهم مِن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤).

قال الرسعني: (﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الرجالَ الكبارَ الأحرارَ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في الوجودِ أو في بلوغِ الحُلمِ، أو الذين ذُكِروا مِن قَبلِهم في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا ...﴾). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤).

الأحكامِ[١].

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى بعضَ الآدابِ الاجتماعيَّةِ، ومِنها أمْرُ النِّساءِ بالتسَتُّرِ وعَدَمِ إبداءِ الزِّينةِ لغَيرِ مَحارِمِهنَّ، وكان ذلك شامِلًا للشَّابَّاتِ وغَيرِهنَّ مِنَ العَجائِزِ- استَثنى هنا العَجائِزَ الكَبيراتِ في السِّنِّ، وبَيَّنَ ما يجوزُ لهُنَّ، وما هو الأفضَلُ في حَقِّهنَّ، فقال تعالى[٢]:

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾.

أي: والنِّساءُ العجائزُ اللَّاتي لا يَحِضْنَ ولا يَلِدْنَ، ولا يَطمَعْنَ في الزَّواجِ لكبرِ سنِّهنَّ، لا إثمَ عليهنَّ أن يترُكْنَ لُبسَ الثِّيابِ الظَّاهرةِ، كالجِلبابِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٣، ٨٤).

قال الواحدي: (المفسِّرون كلُّهم قالوا في «القَواعِد»: هنَّ اللاتي قعَدْنَ عن الحَيضِ والولَدِ؛ مِنَ الكِبَرِ). ((البسيط)) (١٦/ ٣٦٤).

وقال السمرقندي: (القاعدُ: المرأةُ التي قعَدت عن الزَّوجِ وعن الحيضِ والولَدِ). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٣).

وقال البقاعي: (﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لعدَمِ رغبَتِهنَّ فيه، أو لوصولهنَّ إلى حدٍّ لا يُرغَبُ فيهنَّ معه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣١٤). =

= وقال ابن عاشور: (هذه الآيةُ مُخَصِّصةٌ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١]... وعلَّةُ هذه الرخصةِ هي أنَّ الغالِبَ أن تنتفيَ أو تقِلَّ رغبةُ الرجالِ في أمثالِ هذه القواعدِ؛ لكِبَرِ السِّنِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٦، ٢٩٧). ويُنظر: ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٣٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٧٣).

وقال الشنقيطي: (حَمَل بعضُ العُلَماءِ معنى القاعِد منها على التي قعدَتْ عن الولَدِ، ولكنَّ هذا غيرُ سديدٍ؛ فإنَّا نرى كثيرًا مِن النِّساءِ يقعُدْنَ عن الولَدِ في سنٍّ مبكِّرةٍ مع أنهنَّ جميلاتٌ وفيهنَّ مُستمتَعٌ، ولا عِبرةَ بكونِ بَعضِ العجائِزِ قد يبدو منهنَّ مَيلٌ إلى الرجالِ وهي في غايةٍ مِن الكِبَرِ الذي لا يلتَفِتُ معه إليها أحَدٌ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٩٧).

قال الماوردي: (﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: جِلبابُها، وهو الرِّداءُ الذي فَوقَ خِمارِها، فتَضَعُه عنها إذا ستَرَها باقي ثيابِها. قاله ابنُ مَسعودٍ، وابنُ جُبَيرٍ. الثَّاني: خِمارُها ورِداؤُها. قاله جابِرُ بنُ زيدٍ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٢١).

ممَّن اختارَ القَولَ الأوَّلَ، وهو أنَّ المرادَ: الثِّيابُ الظَّاهِرةُ فوقَ الثِّيابِ السَّاتِرةِ، كالجِلبابِ الذي فوقَ الخِمار: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، والواحديُّ -ونسبه لعامَّةِ المفسِّرينَ-، والبغويُّ، والزمخشري، وابن الجوزي، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والبقاعي، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٤٨).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وابنُ عُمرَ في روايةٍ عنه، وجابرُ بنُ زيدٍ، ومُجاهِدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وأبو الشَّعْثاءِ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، والحسنُ، وقَتادةُ، والزُّهْريُّ، والأَوْزاعيُّ، وسُلَيمانُ بنُ يَسارٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٣).

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾.

أي: لا إثمَ على العجائزِ أن يَضَعْنَ ثيابَهنَّ حالَ كَونِهنَّ غيرَ مُظهِراتٍ للزِّينةِ التي يجِبُ على المرأةِ إخفاؤُها[1].

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

أي: وتَركُ وَضْعِهنَّ لثيابِهنَّ -وإن كان جائِزًا- خيرٌ وأفضَلُ لهنَّ مِن خَلعِها[2].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ سَميعٌ لجَميعِ الأصواتِ، عليمٌ بجميعِ الأعمالِ والمقاصِدِ والنيَّاتِ؛ فلْيَحذَرْنَ مِن كُلِّ قولٍ وفِعلٍ وقَصدٍ فاسدٍ، ولْيَعلَمْنَ أنَّ اللهَ يجازي على ذلك[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ توجيهُ الخطابِ للمُؤمِنينَ -والحُكمُ لِغَيرِهم- فيه دَلالةٌ على أنَّهم مَسؤولون عنهم، ومَسؤولون عن تنفيذِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٨).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي: غيرَ مُظهِراتٍ ولا متعَرِّضاتٍ بالزينةِ ليُنظَرَ إليهنَّ؛ فإنَّ ذلك من أقبَحِ الأشياءِ وأبعَدِه عن الحَقِّ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٩).

وقال البقاعي: (﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي متعمِّداتٍ -بوضعِ ما أبيحَ لهنَّ وضْعُه- إظهارَ وجوهِهنَّ معَ الزينةِ، أو غيرَ متظاهراتٍ بالزينةِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٤).

وقال السعدي: (الاستعفافُ: طَلَبُ العِفَّةِ، بفِعلِ الأسبابِ المُقتَضيةِ لذلك؛ مِن تزوُّجٍ، وتَرْكٍ لِما يُخشى منه الفتنةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٠٧).

هذا الحُكمِ في أولادِهم الصِّغارِ ومماليكِهم، وأنَّ هذا الصَّغيرَ والمملوكَ إذا خالَفَ فإنَّ إثمَه على مَن لم يقُمْ بواجِبِ التَّربيةِ والتَّأديبِ[١]. فالسيِّدُ ووليُّ الصَّغيرِ مُخاطَبانِ بتعليمِ عَبيدِهم ومَن تحتَ ولايتِهم مِن الأولادِ، العِلمَ والآدابَ الشَّرعيَّةَ؛ لأنَّ اللهَ وجَّه الخِطابَ إليهم بقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾، ولا يمكِنُ ذلك إلَّا بالتَّعليمِ والتأديبِ، ولِقَولِه: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّ﴾[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ مَن لم يبلُغْ، وقد عَقَل، يُؤمَرُ بفِعلِ الشَّرائِعِ، ويُنهى عن ارتكابِ القبائِحِ؛ فإنَّ اللهَ أمَرَهم بالاستِئذانِ في هذه الأوقاتِ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ سَتْرَ العَورةِ عن الأطفالِ -الذين قد بلَغوا مَبلَغَ مَعرفتِها- فرضٌ في كلِّ وقتٍ؛ إذْ لا يأمُرُ اللهُ تعالى بالاستئذانِ مِن أجْلِ ذلك إلَّا وقد فَرضَ سَترَها في كلِّ وقتٍ عنهم وعن مِلْكِ اليمينِ[٤]، فالله تعالى أمَر باستئذانِ الصِّغارِ والمماليكِ حينَ الاستيقاظِ مِن النَّومِ، وحينَ إرادةِ النَّومِ، وحينَ القائِلةِ؛ فإنَّ في هذه الأوقاتِ تبدو العوراتُ، كما قال تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾. وفي ذلك ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٢، ٢٩٣)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٨٨).

يدُلُّ على أنَّ المملوكَ المميَّزَ، والمميِّزَ مِن الصِّبيانِ- ليس له أن ينظُرَ إلى عورةِ الرَّجُلِ[١]. وإذا وَجبَ الاستئذانُ في هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ خوفًا مِن أن يُفاجِئَهم أحدٌ على عَورةٍ، فمَن تَعمَّدَ أنْ يرى العورةَ فهو أَولى إذَنْ؛ فيُستفادُ منه تحريمُ النَّظَرِ إلى العَورةِ، سواءٌ كان النَّاظرُ صغيرًا أو كبيرًا، وأمَّا تهاوُنُ بعضِ النَّاسِ في نَظَرِ الصَّغير المميِّزِ إلى العورةِ، فهذا خطأٌ، وبَعضُ النَّاسِ إذا كان الصغيرُ له سِتُّ سنواتٍ أو سبْعُ سنواتٍ لا يبالي أنْ يَنظُرَ إلى عورتِه! وذلك لا يجوزُ؛ لأنَّه لا بُدَّ أن يَرتَسِمَ في ذِهنِه هذا المنظرُ؛ ثمَّ ربَّما يَذكُرُه في يومٍ مِن الأيامِ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ فيه أنَّه ينبغي للواعِظِ والمعَلِّمِ ونَحوِهما ممَّن يتكَلَّمُ في مسائِلِ العِلمِ الشَّرعيِّ- أن يَقرِنَ بالحُكمِ بَيانَ مَأخَذِه ووَجهِه، ولا يُلقيَه مجرَّدًا عن الدَّليلِ والتَّعليلِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن الحُكمَ المذكورَ، عَلَّله بقَولِه: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ وصْفُ الأحكامِ بالآياتِ؛ ففيه إرشادٌ للخَلْقِ إلى تأمُّلِ هذه الأحكامِ؛ لِيستَدِلُّوا بها على مُشَرِّعِها[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٨٨).

صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ ففي ثلاثةِ هذه الأحوالِ يكونُ المماليكُ والأولادُ الصِّغارُ كغَيرِهم، لا يُمَكَّنونَ مِن الدُّخولِ إلَّا بإذنٍ، وأمَّا ما عدا هذه الأحوالَ الثَّلاثةَ، فقال تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّ﴾[1]، فالآيةُ فيها جوازُ الدُّخولِ للمذكورينَ بدونِ استئذانٍ في غيرِ هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾ دَلالةٌ على المَنعِ مِن فِعْلِ ما يؤدِّي إلى الحَرامِ؛ فاللهُ تعالى أمَرَ مماليكَ المؤمنينَ ومَن لم يَبلُغْ منهم الحُلُمَ أنْ يستأذِنوا عليهم في هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ؛ لئلَّا يكونَ دُخولُهم هَجْمًا بغير استئذانٍ فيها ذريعةً إلى اطِّلَاعِهم على عَوْراتِهم وقتَ إلقاءِ ثيابِهم عندَ القائلةِ والنَّومِ واليَقَظةِ، ولم يأمُرْهم بالاستِئذانِ في غَيرِها -وإنْ أمكنَ في ترْكِه هذه المَفسَدةُ- لنُدورِها، وقِلَّةِ الإفضاءِ إليها؛ فجُعِلَتْ كالمقَدِّمةِ[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ فيه ثبوتُ مِلكِ اليمينِ للآدميِّينَ، ولكنْ -كما هو مَعروفٌ- أنَّ الإسلامَ حمَى حقوقَ هؤلاء المَماليكِ، ورَغَّبَ في تحريرِهم وعِتقِهم، وجَعلَ للعتقِ أسبابًا متعَدِّدةً[4].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ فيه جوازُ وَضعِ الثَّوبِ عندَ النَّومِ، ويلتَحِفُ الإنسانُ بلِحافِه[5].

٥- قَولُه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ لا يُفهَمُ منه أنَّ ما قبْلَه مِن اللَّيلِ كان مُباحَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الدُّخولِ بلا استِئذانٍ؛ لأنَّ هذا خَرَجَ مخْرَجَ الغالِبِ، وهو أنَّ النَّاسَ في العادةِ يبدأُ انتِشارُهم قَبلَ صلاةِ الفَجرِ بعدَ الأذانِ؛ ولا يَكثُرُ قبلَ ذلك مِن اللَّيلِ[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ فيه جوازُ كَشفِ العَورةِ لحاجةٍ؛ كالحاجةِ عندَ النَّومِ، وعند البَولِ والغائِطِ، ونحوِ ذلك[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ فيه الأمرُ بحِفظِ العَوراتِ، والاحتياطِ لذلك مِن كُلِّ وَجهٍ، وأنَّ المحَلَّ والمكانَ الذي هو مَظِنَّةٌ لرؤيةِ عَورةِ الإنسانِ فيه؛ أنَّه منهيٌّ عن الاغتِسالِ فيه والاستِنجاءِ ونحوِ ذلك[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ فيه أنَّ المُسلِمينَ كانوا مُعتادينَ للقَيلولةِ وسَطَ النَّهارِ، كما اعتادوا نومَ اللَّيلِ؛ لأنَّ اللهَ خاطبَهم ببيانِ حالِهم الموجودةِ[٤].

٩- قال الله تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ الواجِبَ اعتِبارُ العِلَلِ في الأحكامِ إذا أمكَنَ؛ لأنَّه تعالى نبَّه على العِلَّةِ في هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ مِن وَجهينِ:

أحدُهما: بقَولِه تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والثَّاني: بالتَّنبيهِ على الفَرقِ بينَ هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ وبينَ ما عداها؛ بأنَّه ليس ذاك إلَّا لعلَّةِ التكَشُّفِ في هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ، وأنَّه لا يُؤمَنُ وُقوعُ التكشُّفِ فيها، وليس كذلك ما عدا هذه الأوقاتَ[١]. فالآيةُ فيها دَليلٌ على تَعليلِ الأحكامِ[٢]، بمعنى أنَّ أحكامَ اللهِ سبحانه وتعالى كلَّها مبنيَّةٌ على الحِكمِ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ دَليلٌ على أنَّه لا حَرَجَ على المرأةِ أن يَنظُرَ إليها الذَّكَرُ البالغُ مِن مِلْكِ يمينِها -وذلك على أنَّ مِلكَ اليمينِ هنا شاملٌ للكبيرِ والصَّغيرِ-، ولا عليه إذا نَظرَ -لِغَيرِ ريبةٍ- إذْ كان في غيرِ هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ مُباحٌ له أنْ يدخُلَ بغير إذْنٍ، ومَن دخَلَ بغير إذنٍ أبصَرَ الحُرَمَ، وقد أزال اللهُ عن الجَميعِ الحَرَجَ، وهذا خاصٌّ في المماليكِ، وأمَّا الأحرارُ فيُفرَضُ عليهم غَضُّ البصَرِ عن النِّساءِ، إلَّا ما تُجُوِّزَ لهم عنه مِن نظرةِ الفَجأةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أمرَ بِغَضِّ البصَرِ مُطلقًا بلا شَرطٍ في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، وقَولِه: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾[٤].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ هذا الحُكمَ يختَصُّ بالصِّغارِ دونَ البالغينَ، وقد نَصَّ تعالى على ذلك مِن بعْدُ، فقال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، والمرادُ: مَن تجدَّدَ منه البُلوغُ يجِبُ أن يكونَ بمَنزلةِ مَن تقَدَّم بلوغُه في وجوبِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٨٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٨٩).

الاستئذانِ، فهذا معنى قَولِه: ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. وقد يجوزُ أن يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ مَن خدَمَ في حالِ الصِّغَرِ فإذا بلغ يجوزُ له ألَّا يستأذِنَ، ويفارِقُ حالُه حالَ مَن لم يَخدُمْ ولم يُملَكْ؛ فبيَّن تعالى أنَّه كما حظَرَ على البالِغين الدُّخولَ إلَّا بالاستئذانِ، فكذلك على هؤلاء إذا بَلَغوا، وإن تقَدَّمتْ لهم خِدمةٌ، أو ثبَتَ فيهم مِلكٌ لهنَّ[١].

١٢- في قولِه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إشكالٌ؛ وهو: أنَّ مفهومَ الآيةِ الكريمةِ أنَّ على الأطفالِ جُناحًا فيهنَّ، وقد عُلِمَ أنَّه قد رُفِعَ القلمُ عنهم!

والجوابُ: أنَّ الجُناحَ على الأولياءِ والمماليكِ لا الصِّغارِ؛ فعُموماتُ الأدلَّةِ على أنَّ الصَّغيرَ غَيرُ مُكَلَّفٍ، وأنَّه لا إثمَ عليه[٢].

وقيل: ليس المرادُ بالجناحِ هنا الإثمَ، وإنما المرادُ: الحرَجُ والمشقَّةُ في الاستئذانِ؛ وهذا لا يَلزمُ منه الإثمُ[٣].

١٣- في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ دلالةٌ على أنَّ الطَّوَّافينَ يُرَخَّصُ فيهم ما لا يُرَخَّصُ في غيرِ الطَّوَّافينَ عليكم والطَّوَّافاتِ، والطَّوَّافُ مَن يدخلُ بغير إِذْنٍ -كما تدخُلُ الهِرَّةُ؛ وكما يدخُلُ الصبيُّ والمملوكُ-، وإذا كان هذا في الصبيِّ المُمَيِّزِ؛ فغيرُ المُميِّزِ أولى[٤].

١٤- في قولِه تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ طهارةُ بَدَنِ الطفلِ -وإنْ غَلَبَ على

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((المنتقى من فرائد الفوائد)) لابن عثيمين (ص: ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٧٠).

الظنِّ أنه نَجِسٌ-، نأخُذُه مِن قولِه صَلَّى الله عليه وسلَّم في الهِرةِ: ((إنَّها ليست بِنَجَسٍ))[١]، وعلَّلَ ذلك بأنها مِن الطَّوَّافينَ؛ وهؤلاء مِن الطَّوَّافينَ، فرُبَّما يُؤخَذُ مِن هذا طهارةُ بَدَنِ الطفلِ؛ وأنه طاهرٌ ما لم يَتيقَّنِ النجاسةَ[٢]، وأنَّ ريقَه طاهرٌ، ولو كان بعْدَ نجاسةٍ، كالقيءِ[٣].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ فيه جوازُ استخدامِ الإنسانِ مَن تحتَ يَدِه مِن الأطفالِ على وجهٍ مُعتادٍ لا يَشُقُّ على الطِّفلِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ رفْعُ الحَرَجِ والمشَقَّةِ عنِ النَّاسِ. وجهُ ذلك يُؤخَذُ مِن رفْعِ الحَرَجِ في عدَمِ الاستئذانِ في غيرِ هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّهم طَوَّافونَ عليهم متردِّدونَ، والاستِئذانُ فيه مشَقَّةٌ[٥]، والمشَقَّةَ تجلِبُ التَّيسيرَ[٦].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أنَّه لا يستطيعُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٥)، وأحمد (٢٢٨٥٠) واللفظ لهما، والترمذي (٩٢)، والنسائي (٦٨)، وابن ماجه (٣٦٧) باختلافٍ يسيرٍ. من حديث أبي قَتادةَ الأنصاريِّ رضي الله عنه.
قال البخاريُّ -كما في ((السنن الكبرى)) للبيهقي (١/ ٢٤٥): (جوَّد مالكٌ هذا الحديثَ، وروايتُه أصَحُّ مِن روايةِ غَيرِه). وقال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وقال العُقَيليُّ في ((الضعفاء الكبير)) (٢/ ١٤٢): (إسنادُه ثابتٌ صحيحٌ). وحسَّنَ إسنادَه الدارقطنيُّ في ((تعليقة على العلل)) (١٢٩)، وصحَّحه ابنُ عبدالبَرِّ في ((التمهيد)) (١/ ٣١٨)، والنوويُّ في ((المجموع)) (١/ ١١٧)، وابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١٢٦)، وابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (١/ ٥٥١)، وابن حجر في ((المطالب العالية)) (١/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٣).

أحدٌ أن يأتيَ بمثلِ تَشريعِ اللهِ عزَّ وجلَّ ونظامِه. تُؤخَذُ مِن كَونِه جَعلَ ذلك مِن الآياتِ، وآياتُ اللهِ معناها أنَّها لا تصلُحُ لغَيرِه تعالى؛ إذْ لو صلحتْ لغيرِه لم تكنْ آيةً له؛ فهذا يدُلُّ على أنَّ شَرعَ اللهِ لا يُمكِنُ أن يأتيَ أحَدٌ بمِثلِه، وإلَّا ما صَحَّ أن يكونَ آيةً[١]!

١٨- قَولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فيه مِنَّةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى على العِبادِ ببَيانِ الآياتِ الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ؛ حتى لا يبقَى للنَّاسِ على اللهِ حُجَّةٌ بعدَ هذا البيانِ[٢].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الاحتلامَ في الذُّكْرَانِ هو حَدُّ البُلوغِ، ووقتُ وجوبِ الفَرائضِ عليهم[٣].

٢٠- وقَعَ قولُه: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ في مَوقعِ التَّصريحِ بمفهومِ الصِّفةِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّ الأطفالَ إذا بَلَغوا الحُلُمَ تغيَّرَ حُكْمُهم في الاستئذانِ إلى حُكمِ استئذانِ الرِّجالِ[٤].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الاستئذانَ في جَميعِ الأوقاتِ واجِبٌ -في الأوقاتِ الثَّلاثةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٩٣). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٦).

قال البغوي: (﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾... ليس المرادُ منهم الأطفالَ الذين لم يَظهروا على عوراتِ النِّساءِ، بل الذين عرَفوا أمرَ النِّساءِ، ولكن لم يَبْلغوا). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٨).

وغيرِها- على سائرِ النَّاسِ سِوى الأطفالِ ومِلْكِ اليَمينِ الذين أُبيحَ لهم إلَّا في الثَّلاثةِ الأوقاتِ[١]؛ فالأولادُ البالغونَ لا يدخُلونَ على والدِيهم إلَّا باستئذانٍ، كالأجانِبِ[٢].

٢٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ فيه إباحةُ تَركِ التحفُّظِ في التستُّرِ للنِّساءِ القواعِدِ، وفيه أنَّ استِعفافَهنَّ وتحفُّظَهنَّ بالسِّترِ كالثَّوابِّ، خَيرٌ وأفضَلُ[٣].

٢٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ فيه سؤالٌ: كيف أباح تعالى للقَواعِدِ مِن النِّساءِ -وهنَّ العجائِزُ- التجرُّدَ مِن الثيابِ بحَضرةِ الرِّجالِ؟

الجوابُ: المرادُ بالثِّيابِ: الزَّائِدةُ على ما يَستُرُهنَّ[٤].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ أنَّ الحُكمَ يدورُ مع عِلَّتِه وجودًا وعَدَمًا؛ لأنَّ اللهَ إنما أباح وضْعَ الثِّيابِ لهؤلاء القواعِدِ؛ لأنَّ الفِتنةَ بعيدةٌ فيهنَّ؛ فيؤخَذُ منه أنَّ المدارَ كلَّه على خَوفِ الفتنةِ في مِثلِ هذه الأمورِ؛ فالحُكمُ يدورُ مع عِلَّتِه وُجودًا وعَدَمًا[٥]، فالعَجوزُ التي لا تطمَعُ في النِّكاحِ رُخِّصَ لها أن تضَعَ ثيابَها، فلا تُلقيَ عليها جِلبابَها ولا تحتَجِبَ، وإن كانت مُستثناةً مِن الحرائِرِ؛ لزَوالِ المفسدةِ الموجودةِ في غيرِها، كما استثنى

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٠١).

التابعينَ غيرَ أُولي الإرْبةِ مِن الرِّجالِ في إظهارِ الزِّينةِ لهم؛ لِعَدمِ الشَّهوةِ التي تتولَّدُ منها الفِتنةُ[١]. قال بعضُهم: (لمَّا كان القواعدُ لا مذهبَ للرجالِ فيهنَّ، أُرِحْنَ مِن عناءِ التستُّرِ، وخُفِّف عنهنَّ قلَّةُ التحفُّظِ؛ إذ علةُ وجوبِه منعدمةٌ)[٢].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحًا﴾ أنَّه يُقاسُ على القواعِدِ مَن لا تُشتَهى؛ لغايةٍ في قُبْحِها، كالعَجائزِ؛ لأنَّها لا ترجو النِّكاحَ، ولا يَطمعُ أحدٌ فيها؛ ولهذا ألحَقَ العُلَماءُ هذا الصِّنفَ مِن النِّساءِ بالقَواعدِ[٣].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖ﴾ أنَّ التبَرُّجَ بالزِّينةِ حرامٌ على العَجائزِ، فهذا الشرطُ إذا تخلَّفَ صار عليهنَّ جُناحٌ في ذلك، وهذا يدُلُّ على التَّحريمِ، فإذا كان التبَرُّجُ حرامًا على العَجائزِ، فيتفَرَّعُ على هذه الفائدةِ تحريمُ التبَرُّجِ على الشَّابَّاتِ ومَن هي مَحَلُّ الفِتنةِ، وهذا قياسُ أولويَّةٍ؛ لأنَّه مَعلومٌ إذا حُرِّمَ على القواعِدِ اللَّاتي لا يَرجونَ نِكاحًا، فغَيرُهنَّ ممَّن يرجون النِّكاحَ وتتعَلَّقُ بهن الفِتنةُ أبلَغُ[٤].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾ أنَّ الأفضلَ البُعدُ عن الرِّيبةِ ومَحَلِّ الفِتنةِ، وإن بَعُدَت[٥].

٢٨- قولُه تعالى: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾ لمَّا ذكَرَ الجائزَ عقَّبَه بالمُستحَبِّ؛ بَعثًا منه على اختيارِ أفضلِ الأعمالِ وأحسَنِها[٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٥١).

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّ﴾ دَليلٌ على أنَّ الأخذَ بالرُّخَصِ، وإنْ كان مُباحًا، فالأخذُ بالعزائمِ أفضَلُ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ استِئنافٌ انتقاليٌّ إلى غرَضٍ مِن أحكامِ المُخالَطةِ والمُعاشَرةِ، وهو عَودٌ إلى الغرَضِ الَّذي ابتُدِئَتْ به السُّورةُ وقُطِعَ عندَ قولِه: ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[(٢)] [النور: ٣٤].

- قولُه: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖ﴾، أي: ثلاثةَ أوقاتٍ في اليومِ واللَّيلةِ، والتَّعبيرُ عنها بالمرَّاتِ؛ للإيذانِ بأنَّ مَدارَ وُجوبِ الاستئذانِ مُقارَنةُ تلك الأوقاتِ لمُرورِ المُستأذِنينَ بالمُخاطَبينَ، لا أنفُسُها[(٣)].

- وحَرفُ (مِن) في قولِه: ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ مَزيدٌ للتَّأكيدِ[(٤)].

- قولُه: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ الظَّهيرةُ: هي شِدَّةُ الحرِّ عندَ انتصافِ النَّهارِ، وهي بَيانٌ للحِينِ؛ والتَّصريحُ بمَدارِ الأمْرِ -أي: وضْعِ الثِّيابِ في هذا الحينِ- دُونَ الأوَّلِ والآخِرِ؛ لأنَّ التَّجرُّدَ عن الثِّيابِ فيه لأجْلِ القَيلولةِ؛

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٣).

لقلَّةِ زَمانِها -كما يُنبِئُ عنها إيرادُ (الحينِ) مُضافًا إلى فِعْلٍ حادثٍ مُتقَضٍّ، ووُقوعُها في النَّهارِ الَّذي هو مَئِنَّةٌ لكَثرةِ الوُرودِ والصُّدورِ، ومَظِنَّةٌ لظُهورِ الأحوالِ وبُروزِ الأمورِ- ليسَ مِن التَّحقُّقِ والاطِّرادِ بمَنزلةِ ما في الوقتينِ المَذكورينِ؛ فإنَّ تَحقُّقَ التَّجرُّدِ واطِّرادَه فيهما أمْرٌ مَعروفٌ لا يُحتاجُ إلى التَّصريحِ به[١].

- قولُه: ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ﴾ أثبَتَ (مِن) في الموضِعَينِ الأوَّلِ والثَّالثِ؛ دَلالةً على قُربِ الزَّمَنِ مِن الوَقتِ المذكورِ لِضَبطِه، وأسقَطَها في الأوسَطِ دَلالةً على استغراقِه؛ لأنَّه غَيرُ مُنضَبِطٍ[٢].

- قولُه: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ عِلَّةِ وُجوبِ الاستئذانِ، والعَورةُ في الأصلِ هو الخلَلُ -غلَبَ في الخلَلِ الواقعِ فيما يَهُمُّ حِفْظُه، ويُعْتنى بسَتْرِه- أُطْلِقتْ على الأوقاتِ المُشتملةِ عليها؛ مُبالَغةً كأنَّها نفْسُ العورةِ[٣]. أو سمَّى كلَّ واحدةٍ مِن هذه الأحوالِ عورةً؛ لأنَّ النَّاسَ يَختَلُّ تَستُّرُهم وتَحفُّظُهم فيها[٤].

- قولُه: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ﴾ مُستأنَفةٌ؛ مَسوقةٌ لتَقريرِ ما قبْلَها بالطَّردِ والعكْسِ[٥]. ونفْيُ الجُناحِ عن المُخاطَبينَ في قولِه: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بعْدَ أنْ كان الكلامُ على استئذانِ المماليكِ والَّذين لم يَبلُغوا الحُلُمَ: إشارةٌ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤).

لَحْنِ خِطابٍ[١] حاصِلٍ مِن قولِه: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾؛ فإنَّ الأمْرَ باستِئذانِ هؤلاء عليهم يَقْتضي أمْرَ أهْلِ البيتِ بالاستئذانِ على الَّذين ملَكَتْ أيمانُهم إذا دعاهم داعٍ إلى الدُّخولِ عليهم في تلك الأوقاتِ، كما يُرشِدُ السَّامعَ إليه قولُه: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾. وإنَّما لم يُصرَّحْ بأمْرِ المُخاطَبينَ بأنْ يَستأذِنوا على الَّذين ملَكَتْ أيمانُهم؛ لنُدورِ دُخولِ السَّادةِ على عَبيدِهم أو على غِلْمانِهم؛ إذِ الشَّأنُ أنَّهم إذا دعَتْهم حاجةٌ إليهم أنْ يُنادُوهم، فأمَّا إذا دعَتِ الحاجةُ إلى الدُّخولِ عليهم فالحُكْمُ فيهم سواءٌ[٢].

- قولُه: ﴿بَعْدَهُنَّ﴾، أي: بعْدَ كلِّ واحدةٍ مِن تلك العوراتِ الثَّلاثِ، وهي الأوقاتُ المُتخلِّلةُ بيْن كلِّ اثنتينِ منْهنَّ، وإيرادُها بعُنوانِ البَعديَّةِ -مع أنَّ كلَّ وقتٍ مِن تلكَ الأوقاتِ قبْلَ عَورةٍ من العَوراتِ، كما أنَّها بعْدَ أُخرى منْهنَّ-؛ لتَوفيةِ حقِّ التَّكليفِ والتَّرخيصِ الَّذي هو عبارةٌ عن رَفْعِه؛ إذِ الرُّخصةُ إنَّما تُتَصَوَّرُ في فِعلٍ يقَعُ بعْدَ زمانِ وُقوعِ الفِعلِ المُكلَّفِ[٣].

- قولُه: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ استِئنافٌ ببَيانِ العُذرِ المُرخِّصِ في تَرْكِ الاستئذانِ، وهو المُخالَطةُ، وكثرةُ المُداخَلةِ[٤]. وفي الكلامِ اكتِفاءٌ؛ تَقديرُه: وأنتم طوَّافون

---

(١) لحنُ الخطاب: هو أن يكونَ المسكوتُ عنه موافقًا للمنطوقِ في الحُكمِ، ويُسمَّى أيضًا: فحوى الخطاب. وقيل: إنْ كان أَوْلى بالحُكمِ مِن المنطوقِ به فيُسَمَّى فَحْوى الخطابِ، وإن كان مساويًا فيُسَمَّى لحنَ الخطابِ. وقيل: هو مفهومُ المخالَفةِ. وقيل: هو دَلالةُ الاقتِضاءِ. يُنظر: ((نفائس الأصول)) للقرافي (٢/ ٦٤١)، ((المختصر في أصول الفقه)) لابن اللحام (ص: ١٣٢)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٥).

عليهم؛ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾، وقولُه عقِبَه: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[١].

- وجُملةُ: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ مُستأنَفةٌ، ويتعلَّقُ قولُه: ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بخبَرٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: طوَّافٌ على بعضٍ؛ وحُذِفَ الخبرُ وبقِيَ المُتعلِّقُ به -وهو كَونٌ خاصٌّ-؛ لدَلالةِ ﴿طَوَّافُونَ﴾ عليه، والتَّقديرُ: بعضُكم طوَّافٌ على بعضٍ[٢].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى مَصدرِ الفِعلِ الَّذي بعْدَه، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ لتَفخيمِ شأنِ المُشارِ إليه، والإيذانِ ببُعدِ مَنزلَتِه، وكونِه مِن الوُضوحِ بمَنزلةِ المُشارِ إليه حِسًّا[٣].

- وقولُه: ﴿لَكُمُ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يُبَيِّنُ﴾، وتَقديمُه على المَفعولِ الصَّريحِ ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ للاهتِمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تأكيدٌ لنَظيرِه المُتقدِّمِ في الآيةِ السَّابقةِ، وهو تأكيدٌ بالتَّكريرِ؛ لمزيدِ الاهتمامِ والامتِنانِ، ومبُالَغةً في الأمرِ بالاستئذانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٦).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ ختَمَ هذه الآيةَ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ بالإضافةِ إليه، وختَمَ ما قبْلَها وما بعْدَها بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ [النور: ٥٨- ٦١] بالتَّعريفِ بـ (أل)؛ ووجْهُه: أنَّه لَمَّا تقارَبَ اللَّفظُ الواحدُ، عدَلَ عن تَكرارِه بلفْظٍ واحدٍ فيما تقارَبَ، على عادةِ العرَبِ في استثقالِها تَكرُّرَ اللَّفظِ الواحدِ بعَينِه في بيتٍ واحدٍ مِن الشِّعرِ أو ما تقارَبَ مِن الكلامِ، ما لم يَحمِلْ على ذلك حامِلٌ مِن المعنى؛ فجِيءَ بالآياتِ في الأُولى مُعرَّفًا بالألفِ واللَّامِ للعهْدِ فيما تقدَّمَ مِن المُعتبَراتِ الواضحةِ الدَّلالةِ، وفي الآيةِ الثَّانيةِ مُضافًا إلى الضَّميرِ المُتَّصلِ؛ لتَحصُلَ نِسبةُ الآياتِ لِمَن هي له تعالى، وكانت الثَّانيةُ هي المُضافَةَ؛ لأنَّها مع ما تُعطيهِ مِن النِّسبةِ مُبيِّنةٌ للأُولى بَيانًا تأْكيديًّا؛ إذ مِن المعلومِ أنَّها آياتُه سُبحانه، فجاء ذلك على ما يجِبُ. ومِن الواردِ على هذا الرَّعْيِ -واللهُ أعلَمُ- قولُه في سُورةِ (البقرةِ): ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثمَّ قال تعالى بعدَ آيٍ: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]، فهذا مِثْلُ الواردِ في سُورةِ (البقرةِ)[١]. وقيل: إنَّما أُضِيفَتِ الآياتُ هنا لضَميرِ الجَلالةِ؛ تَفنُّنًا، ولتَقويةِ تأْكيدِ معنَى كَمالِ التَّبْيينِ الحاصلِ مِن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾. وتأْكيدِ معنَى الوصفينِ ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: هي آياتٌ مِن لَدُنْ مَن هذه صِفاتُه، ومَن تلك صِفاتُ بَيانِه[٢]. وقيل: إضافةُ الآياتِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ لتَشريفِها[٣]. وقيل: أضاف الآياتِ إليه سُبحانَه تعظيمًا لها؛ إشارةً إلى أنَّها مُقَدِّمةٌ للآياتِ الإلهيَّاتِ؛ لأنَّ مَن لم يتفرَّغْ مِن مُكَدِّرات الأفكارِ، لم يَطِرْ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٥).

ذلك المطارَ، وحثًّا على تدبُّرِ ما تقَدَّم منها؛ لاستحضارِ ما دعت إليه مِن الحِكَمِ، وفَصَّلت به من المواعِظِ، وتنبيهًا على ما فيها من العُلومِ النافعةِ دينًا ودُنيا[١].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- السِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿يَسْتَعْفِفْنَ﴾ للمُبالَغةِ؛ فالاستعفافُ: التَّعفُّفُ، مثْلُ استجابَ[٢].

- وجُملةُ: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ مَسوقةٌ مَساقَ التَّذييلِ؛ للتَّحذيرِ مِن التَّوسُّعِ في الرُّخصةِ أو جَعْلِها ذَريعةً لِمَا لا يُحمَدُ شرْعًا؛ فوَصْفُ (السَّميعِ) تذكيرٌ بأنَّه يسمَعُ ما تُحدِّثُهنَّ به أنفُسُهنَّ مِن المقاصِدِ، ووَصْفُ (العليمِ) تذْكيرٌ بأنَّه يعلَمُ أحوالَ وضْعِهنَّ الثِّيابَ وتبرُّجِهنَّ ونَحْوِها؛ ففي ذِكْرِ هاتينِ الصِّفتينِ توعُّدٌ وتحذيرٌ، وفيه مِن التَّرهيبِ ما لا يَخْفى[٣].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٩).

الآية (٦١)

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَشْتَاتًا﴾: أي: مُتَفَرِّقينَ، وأصلُه يدُلُّ على تفَرُّقٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ليس على أصحابِ الأعذارِ -كالأعمى، والأعرَجِ، والمَريضِ- حَرَجٌ في الأكلِ مِن البُيوتِ المذكورةِ؛ لِضَعفِهم وعَجزِهم، وليس عليكم كذلك حرَجٌ في أن تأكُلوا مِن بُيوتِكم وبُيوتِ أولادِكم وعَبيدِكم، أو مِن بُيوتِ آبائِكم أو أمَّهاتِكم، أو إخوانِكم أو أخَواتِكم، أو أعمامِكم أو عمَّاتِكم، أو أخوالِكم أو خالاتِكم، أو البُيوتِ التي وُكِّلتُم بحِفظِها وتَملِكونَ مَفاتيحَها في غيابِ أهلِها، أو مِن بُيوتِ الأصدقاءِ؛ ولا حرَجَ عليكم أن تأكُلوا مجتَمِعينَ أو متفَرِّقينَ، فإذا دخَلتُم بُيوتَكم أو بُيوتَ غَيرِكم، فلْيُسلِّمْ بعضُكم على بَعضٍ بتحيَّةِ الإسلامِ،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٣).

تحيَّةً مُباركةً طَيِّبةً شَرَعها اللهُ لعبادِه المؤمِنين. مِثلَ هذا التَّبيينِ يبيِّنُ الله لكم آياتِه؛ لِتَعقِلوها، وتَعمَلوا بها.

تفسيرُ الآيةِ:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أتمَّ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما ذكَرَ مِن حُرُماتِ البُيوتِ المُستلزِمةِ لصيانةِ الأبضاعِ على وجهٍ يلزَمُ منه إحرازُ الأموالِ؛ أتبَعَه ما يُباحُ مِن ذلك للأكلِ -الذي هو مِن أجَلِّ مقاصِدِ الأموالِ- اجتِماعًا وانفِرادًا، فقال في جوابِ مَن كأنَّه سأل: هل هذا التَّحجيرُ في البُيوتِ سارٍ في الأقارِبِ وغَيرِهم في جميعِ الأحوالِ[1]:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

أي: ليس على الأعمى ولا على الأعرجِ ولا على المريضِ إثمٌ في الأكلِ مِن البُيوتِ المذكورةِ في هذه الآيةِ، التي أباح اللهُ لهم الأكلَ فيها[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١)، ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن =

= عطية)) (٤/ ١٩٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٩).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكور: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١).

قال ابنُ جُزي: (اختُلِف في المعنى الذي رَفَع اللهُ فيه الحَرَجَ عن الأعمى والأعرَجِ والمريضِ في هذه الآيةِ:

فقيلَ: هو في الغَزْوِ، أي: لا حَرَجَ عليهم في تأخيرِهم عنه، وقَولُه: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ مقطوعٌ مِن الذي قَبْلَه على هذا القَولِ، كأنَّه قال: ليس على هؤلاءِ الثَّلاثةِ حَرَجٌ في تَرْكِ الغَزْوِ، ولا عليكم حَرَجٌ في الأكلِ.

وقيل: الآيةُ كُلُّها في معنى الأكلِ، واختَلَف الذَّاهِبونَ إلى ذلك؛ فقيل: إنَّ أهلَ هذه الأعذارِ كانوا يتجَنَّبونَ الأكلَ مع النَّاسِ؛ لئَلَّا يتقَذَّرَهم النَّاسُ، فنزلت الآيةُ مُبيحةً لهم الأكلَ مع النَّاسِ. وقيل: إنَّ النَّاسَ كانوا إذا نَهَضوا إلى الغَزوِ خَلَّفوا أهلَ هذه الأعذارِ في بُيوتِهم، وكانوا يتجَنَّبون أكلَ مالِ الغائِبِ، فنزلت الآيةُ في ذلك. وقيل: إنَّ النَّاسَ كانوا يتجَنَّبون الأكلَ معهم تقَذُّرًا، فنزلت الآيةُ، وهذا ضَعيفٌ؛ لأنَّ رَفعَ الحَرَجِ عن أهلِ الأعذارِ لا عن غَيرِهم. وقيل: إنَّ رَفْعَ الحَرَجِ عن هؤلاء الثَّلاثةِ في كلِّ ما تمنَعُهم عنه أعذارُهم مِنَ الجِهادِ وغَيرِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٥).

ويُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٩).

وقال البيضاوي: (وقيل: نَفيٌ للحَرَجِ عنهم في القُعودِ عن الجِهادِ، وهو لا يُلائِمُ ما قَبْلَه ولا ما بَعْدَه). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥).

وممَّن اختار أنَّ الآيةَ في مُؤاكَلةِ أصحابِ الأعذارِ المذكورينَ لِغَيرِهم مِنَ الأصِحَّاءِ: جلال الدين المحلي، والبقاعي، والعليمي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٥)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٥).

وقيل: المرادُ أنَّ الحَرَجَ عنهم مرفوعٌ في كُلِّ ما يَضطَرُّهم إليه العُذرُ، وتَقتَضي نيَّتُهم الإتيانَ فيه بالأكمَلِ، ويَقتَضي العُذرُ أن يَقَع منهم الأنقَصُ؛ فالحَرَجُ مَرفوعٌ عنهم في هذا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطية، وابن العربي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٠٨). =

﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾.

أي: وليس عليكم -أيُّها المُسلِمونَ- إثمٌ في الأكلِ مِن بُيوتِكم وبُيوتِ أولادِكم وعَبيدِكم، أو في تناوُلِكم الطَّعامَ بمُفرَدِكم دونَ بقيَّةِ أهلِ بَيتِكم(١).

= قال ابنُ العربي: (إنَّ اللهَ رَفَع الحَرَجَ عن الأعمى فيما يتعَلَّقُ بالتَّكليفِ الذي يُشترَطُ فيه البَصَرُ، وعن الأعرَجِ فيما يُشترَطُ في التَّكليفِ به المَشيُ، وما يَتعذَّرُ مِن الأفعالِ مع وُجودِ الحَرَجِ، وعن المريضِ فيما يتعَلَّقُ بالتَّكليفِ الذي يؤثِّرُ المرَضُ في إسقاطِه؛ كالصَّومِ، وشُروطِ الصَّلاةِ، وأركانِها، والجِهادِ، ونَحوِ ذلك). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١، ٣٧٣)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠١).

قال الشوكاني: (الحاصِلُ أنَّ رَفعَ الحَرَجِ عن الأعمى والأعرَجِ والمَريضِ: إن كان باعتِبارِ مُؤاكَلةِ الأصِحَّاءِ، أو دُخولِ بُيوتِهم؛ فيَكونُ ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ مُتَّصِلًا بما قَبْلَه، وإن كان رَفعُ الحَرَجِ عن أولئك باعتِبارِ التَّكاليفِ التي يُشترَطُ فيها وُجودُ البصَرِ، وعَدَمُ العَرَجِ، وعَدَمُ المرَضِ؛ فقَولُه: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ ابتِداءُ كَلامٍ غَيرُ مُتَّصِلٍ بما قَبْلَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢).

وقال ابن العربي: (وأمَّا مالُ العبدِ فيدخُلُ في قولِه: ﴿بُيُوتِكُمۡ﴾؛ لأنَّ العبدَ ومالَه مِلكٌ للسَّيِّدِ... كما بيَّنَّا أنَّ بيتَ الابنِ يدخُلُ فيه؛ فبيتُ العبدِ أَولى وأحرى بإجماعٍ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٢٤).

وقال ابنُ كثير: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ إنَّما ذكَرَ هذا وهو معلومٌ؛ ليعطِفَ عليه غيرَه في اللَّفظِ، وليستأديَه ما بعْدَه في الحُكمِ. وتضمَّنَ هذا بُيوتَ الأبناءِ؛ لأنَّه لم ينُصَّ عليهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٥).

وقال السعدي: (﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: حَرَجٌ ﴿أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ أي: بُيوتِ أولادِكم، ... وليس المرادُ مِن قَولِه: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ بيتَ الإنسانِ نفْسِه؛ فإنَّ هذا مِن بابِ تَحصيلِ الحاصِلِ، الذي يُنَزَّهُ عنه كلامُ اللهِ تعالى، ولأنَّه نَفى الحَرَجَ عمَّا يُظَنُّ أو يُتوهَّمُ فيه الإثمُ مِن هؤلاءِ المذكورينَ، وأمَّا بَيتُ الإنسانِ نفْسِه فليس فيه أدنى توَهُّمٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بأكلِ الإنسانِ مِن بيتِه الأكلُ غيرُ المُعتادِ، أي: أن يأكُلَ أكلًا لا يُشارِكُه فيه بقيَّةُ أهلِه، كأنْ يأكُلَ الرجُلُ وزَوجُه غائبةٌ، أو أن تأكُلَ هي وزوجُها غائِبٌ؛ فهذه أثَرَةٌ =

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجُلُ مِن كَسْبِه، وإنَّ ولَدَه مِن كَسْبِه[١]))[٢].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّ رجُلًا قال: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ لي مالًا وولدًا، وإنَّ أبي يريدُ أن يجتاحَ[٣] مالي، فقال: أنت ومالُك لأبيك))[٤].

= مُرَخَّصٌ فيها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠١).

وقال ابنُ عثيمين: (لا مانِعَ مِن أن يُرادَ بها بَيتُه الحَقيقيُّ وبَيتُ وَلَدِه. فإن قال قائِلٌ: أيُّ فائدةٍ في نَفيِ الحَرَجِ عن أكْلِه مِن بَيتِه؟!

قُلْنا: لأجْلِ ما ذُكِرَ في آخِرِ الآيةِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١]، يعني: ليس عليك جُناحٌ أن تأكُلَ مِن بَيتِك، سواءٌ أكَلْتَ أنت وأهلُكَ، أو أكلتُم مُتفَرِّقينَ، وإن كان الأفضَلُ الاجتِماعَ على الأكْلِ...، لكِنْ مع ذلك لا جُناحَ، يعني: ليس على الإنسانِ جُناحٌ أنَّه يأكُلُ فيتغَذَّى وَحْدَه وعيالُه وَحْدَهم، أو يتغَذَّى وَحْدَه وزوجتُه وَحْدَها، أو ما أشبَهَ ذلك، ولا بأسَ أيضًا أن يأكُلوا جميعًا، لا بأسَ بهذا وبهذا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٠٩).

(١) وإنَّ وَلَدَه مِن كَسْبِه: الكَسْبُ: الطَّلَبُ والسَّعيُ في طَلَبِ الرِّزقِ والمَعيشةِ، وإنَّما جُعِلَ الوَلَدُ كَسْبًا؛ لأنَّ الوالِدَ طَلَبَه وسعَى في تحصيلِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٧١).

(٢) أخرجه من طرقٍ أبو داود (٣٥٢٨)، النسائي (٤٤٥٢)، وابن ماجه (٢١٣٧)، وأحمد (٢٥٨٤٥) واللفظ له.

أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٤٢٦٠)، وصحَّحه ابن حزم في ((المحلى)) (٨/ ١٠٢)، وابن الملقِّن في ((البدر المنير)) (٨/ ٣٠٨)، وقال ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ٤١٩): (له طُرُقٌ متعددةٌ، بعضُها على شرط الصحيحين). وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٣٧).

(٣) أن يَجتاحَ مالي: أي: يَستأصِلَه ويأتيَ عليه أخْذًا وإنفاقًا؛ مِنَ الجائِحةِ: وهي الآفةُ التي تُهلِكُ الثِّمارَ والأموالَ وتَستأصِلُها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣١١).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٢٩١)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٦٧٢٨) واللفظ لهما، والطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) (٦١٥٠).

صحَّحه ابنُ حزم في ((المحلى)) (٨/ ١٠٦)، وابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ١٠٢)، =

﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾.

أي: وليس عليكم -أيُّها المُسلِمونَ- إثمٌ في أكلِكم مِن بُيوتِ آبائِكم أو بُيوتِ أمَّهاتِكم، أو بُيوتِ إخوانِكم أو بُيوتِ أخواتِكم، أو بُيوتِ أعمامِكم أو بُيوتِ عَمَّاتِكم، أو بُيوتِ أخوالِكم أو بُيوتِ خالاتِكم(١).

= وابنُ القيم في ((الصواعق المرسلة)) (٢/ ٥٨٤)، وصحَّح إسنادَه ابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (٧/ ٦٦٥)، والبوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (٢/ ٢٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٢٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١، ٣٧٣)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠١).

قال ابنُ عاشور: (المقصودُ بالأكلِ هنا: الأكلُ بدونِ دَعوةٍ، وذلك إذا كان الطَّعامُ مُحضَّرًا دونَ المُختزَن). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠١).

وقال البِقاعي: (﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ مِن الأبَوَين، أو الأبِ أو الأمِّ، بالنَّسَبِ أو الرَّضاعِ؛ فإنَّهم من أَولى من رضِيَ بذلك بعد الوالِدَينِ؛ لأنَّهم أشقَّاؤكم، وهم أولياءُ بُيوتِهم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣١٦).

وقال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ يَشملُ الأبَ الأدنى والأعلى؛ فإنَّ الجَدَّ أَبٌ... قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ يَشملُ الأُمَّ الدُّنيا التي وَلَدت الإنسانَ، والأُمَّ العُليا التي هي الجَدَّةُ... قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ الأشِقَّاءِ، أو لأبٍ، أو لأمٍّ. قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ﴾ لكِنْ بشَرطِ ألَّا تكونَ ذاتَ زَوجٍ؛ فإنْ كانت ذاتَ زَوجٍ والمالُ له لم يكُنْ بَيتًا لأُختي، بل لِزَوجِها، لكِنْ إذا كانت الأُختُ لها بَيتٌ فإنَّه لا بأسَ أن يأكُلَ الإنسانُ من هذا البَيتِ. قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ﴾ يُقالُ في عَمَّاتِكم مِثلُ ما قيل في أَخَواتِكم، يعني: ما لم تكُنِ العَمَّةُ ذاتَ زَوجٍ، فلا يأكُلُ الإنسانُ مِن بَيتِ زَوجِها؛ لأنَّه له، وليس لها. قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ بالنِّسبةِ للأعمامِ والأخوالِ والخالاتِ يَشمَلُ الأَدنى مِن هؤلاء والأعلى؛ فالأدنى أخو أبيك بالنِّسبةِ للعَمِّ، والأعلى أخو جَدِّك وإنْ علا، وبالنِّسبةِ للخالِ الأَدنى أخو أمِّك، والأعلى أخو جَدِّتِك وإنْ عَلا؛ فإنَّه خالٌ). ((تفسير =

﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾.

أي: وليس عليكم إثمٌ في أكلِكم مِن البُيوتِ التي مفاتيحُها بأيديكم، فوُكِّلتُم بحِفظِها، وأُذِنَ لكم بالتصَرُّفِ فيها[1].

﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡ﴾.

أي: وليس عليكم إثمٌ في أكلِكم مِن بُيوتِ أصدقائِكم[2].

= ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤١٠، ٤١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١، ٣٧٣)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٤/ ٢٥٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٢).

قال ابن جُزي: (﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ يعني: الوكَلاءَ والأُجراءَ والعبيدَ الذين يُمسِكونَ مفاتِحَ مخازنِ أموالِ ساداتِهم، فأباح لهم الأكلَ منها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٦). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢).

وقال ابن عاشور: (يأكُلُ كُلٌّ منهم ممَّا تحتَ يَدِه بدونِ إذنٍ، ولا يَتجاوَز شِبَعَ بطنِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١، ٣٧٣)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٢، ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٢).

قال ابنُ جرير: (إذا أذِنوا لكم في ذلك، عندَ مغيبِهم ومَشهَدِهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧٣).

وقال ابنُ كثير: (فلا جُناحَ عليكم في الأكلِ منها، إذا عَلِمتُم أنَّ ذلك لا يشُقُّ عليهم، ولا يَكرَهونَ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٦).

وقال السعدي: (وهذا الحَرَجُ المَنفيُّ عن الأكلِ مِن هذه البُيوتِ، كُلُّ ذلك إذا كان بدونِ إذنٍ، والحِكمةُ فيه معلومةٌ مِنَ السِّياقِ؛ فإنَّ هؤلاء المُسَمَّينَ قد جرت العادةُ والعُرفُ بالمُسامَحةِ في الأكلِ منها؛ لأجْلِ القَرابةِ القَريبةِ، أو التصَرُّفِ التَّامِّ، أو الصَّداقةِ، فلو قُدِّرَ في أحدٍ مِن هؤلاء عَدَمُ المسامَحةِ، والشُّحُّ في الأكلِ المذكورِ: لم يَجُزِ الأكلُ، ولم يرتَفِعِ الحَرَجُ؛ نظرًا للحِكمةِ والمَعنى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

أي: ليس عليكم إثمٌ في الأكلِ في تلك البُيوتِ المذكورةِ سواءٌ كنتُم مُجتَمِعينَ على الطَّعامِ أم متفرِّقينَ يأكُلُ كلٌّ منكم بمُفرَدِه[1].

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

أي: فإذا دَخلتُم -أيُّها المُسلِمونَ- بُيوتَكم أو بُيوتَ غَيرِكم[2]، فلْيُسلِّمْ بعضُكم على بَعضٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).
قال ابن عطية: (وكان بَعضُ العَرَبِ إذا كان له ضَيفٌ، لا يأكُلُ إلَّا أن يأكُلَ مع ضيفِه، فنَزَلت هذه الآيةُ مُبَيِّنةً سُنَّةَ الأكلِ، ومُذهِبةً كُلَّ ما خالفَها مِن سُنَّةِ العَرَبِ، ومُبيحةً مِن أكلِ المنفَرِدِ ما كان عند العَرَبِ مُحَرَّمًا؛ نَحَتْ به نحوَ كَرَمِ الخُلُقِ، فأفرَطَت في إلزامِه، وإنَّ إحضارَ الأكيلِ لحَسَنٌ، ولكِنْ بألَّا يَحرُمَ الانفِرادُ). ((تفسير ابن عطية)) ((٤/ ١٩٦)).

(٢) مِن المفسِّرين مَن أدخلَ في عمومِ ذلك المساجِدَ. ومنهم: ابنُ جرير، وابن العربي، والبقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٣، ٣٨٤)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٣، ٣٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٣).
قال ابن العربي: (أي: ليسَلِّمْ بعضُكم على بعضٍ، وأطلق القولَ؛ لأنَّه قد بيَّن الحُكمَ في بُيوتِ الغيرِ؛ ليَدخُلَ تحت هذا العمومِ كُلُّ بيتٍ كان للغيرِ أو لنفْسِه... فإذا دخَل بيتًا لغَيرِه استأذَن كما تقدَّم، وإن دخَل بيتًا لنفْسِه... إذا كان فيه أهلُه وعيالُه وخَدَمُه، فلْيَقُلْ: السلامُ عليكم؛ فإنَّهم أهلٌ للتحيَّةِ منه... والذي أختارُه إذا كان البيتُ فارغًا أنَّه لا يلزَمُ السَّلامُ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٢٧).
قال السعدي: (﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ نكرةٌ في سِياقِ الشَّرطِ؛ يشملُ بيتَ الإنسانِ وبيتَ غَيرِه، سواءٌ كان في البيتِ ساكنٌ أم لا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).
وقال ابنُ حجرٍ: (ويدخُلُ في عُمومِ إفشاءِ السَّلامِ: السَّلامُ على النفْسِ لِمنْ دخَل مكانًا ليس =

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رجُلًا سأل رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ الإسلامِ خَيرٌ؟ قال: ((تُطعِمُ الطَّعامَ، وتَقرأُ السَّلامَ على مَن عَرَفتَ ومَن لم تَعرِفْ))[(١)].

﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾.

أي: لِيُحَيِّ بَعضُكم بَعضًا -أيُّها المُسلِمونَ- بالسَّلامِ تحيةً شرَعَها اللهُ لكم كثيرةَ الخيراتِ والبَرَكاتِ، عظيمةَ الثَّوابِ والحَسَناتِ، جميلةً في ألفاظِها، حَسَنةً في معانيها، تجلِبُ المحبَّةَ والمودَّةَ، وتَطِيبُ بها نفْسُ سامِعيها[(٢)].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((خلَقَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ آدمَ على صورتِه، طولُه ستُّونَ ذِراعًا، فلمَّا خلَقَه قال: اذهَبْ فسلِّمْ على أولئِك النَّفرِ -وَهم نفَرٌ منَ الملائِكةِ جلوسٌ- فاستَمِعْ ما يُجيبونَك؛ فإنَّها تحيَّتُك، وتحيَّةُ ذرِّيَّتِك. قال: فذَهبَ فقال: السَّلامُ عليكم. فقالوا: السَّلامُ عليكَ

= فيه أحَدٌ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآيَةَ. وأخرَج البخاريُّ في الأدَبِ المُفرَدِ، وابنُ أبي شيبةَ بسَنَدٍ حَسَنٍ، عن ابنِ عُمَرَ: «فيُستحَبُّ إذا لم يكُنْ أحَدٌ في البيتِ أن يقولَ: السَّلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصَّالحينَ»، وأخرج الطبريُّ عن ابنِ عباسٍ، ومِن طريقِ كُلٍّ مِن عَلْقَمةَ وعَطاءٍ ومُجاهِدٍ، نحوَه). ((فتح الباري)) (١١/ ٢٠).

(١) رواه البخاري (٢٨)، ومسلم (٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٤).

قال ابنُ عاشور: (هي مِن جوامِعِ الكَلِمِ؛ لأنَّ المقصودَ مِن التحيَّةِ تأنيسُ الدَّاخِلِ بتأمينِه إن كان لا يَعرِفُه، وباللُّطفِ له إن كان معروفًا. ولفظُ «السَّلام» يجمَعُ المعنيينِ؛ لأنَّه مشتَقٌّ مِن السَّلامةِ، فهو دُعاءٌ بالسَّلامةِ، وتأمينٌ بالسَّلامِ؛ لأنَّه إذا دعا له بالسَّلامةِ فهو مسالِمٌ له، فكان الخَبَرُ كنايةً عن التأمينِ، وإذا تحقَّق الأمْرانِ حصَل خيرٌ كثيرٌ؛ لأنَّ السَّلامةَ لا تُجامِعُ شيئًا مِن الشَّرِّ في ذاتِ السَّالِمِ، والأمانَ لا يُجامِعُ شَيئًا مِن الشَّرِّ يأتي مِن قِبَلِ المعتدي، فكانت دُعاءً تُرجَى إجابتُه، وعهدًا بالأمنِ يَجِبُ الوفاءُ به). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٤).

ورحمةُ اللَّهِ. قال: فزادوهُ: ورحمةُ اللَّهِ...)) الحديثَ[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَدخُلونَ الجنَّةَ حتَّى تُؤمِنوا، ولا تُؤمِنوا حتَّى تَحابُّوا، أوَلا أدُلُّكُم علَى شَيءٍ إذا فعلتُموه تحابَبتُم؟ أفشُوا السَّلامَ بيْنَكُم))[٢].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

مناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى ما في السُّورةِ الكريمةِ مِنَ الأحكامِ المُحكَمةِ، والشَّرائِعِ المُتقَنةِ المُبرَمةِ، نَبَّه تعالى على أنَّه يُبَيِّنُ لعبادِه الآياتِ بيانًا شافيًا؛ ليَتَدبَّروها ويتعَقَّلوها[٣].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: كما بيَّن اللهُ لكم -أيُّها المُؤمِنونَ- الأحكامَ[٤] بهذا الوُضوحِ والتَّمامِ، كذلك يبَيِّنُ لكم جميعَ آياتِ القُرآنِ وشرائِعِ الإسلامِ، بيانًا تامًّا واضِحًا شافيًا؛

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤١).

(٢) رواه مسلم (٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨).

(٤) قال ابن جرير: (وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: هكذا يفصِّلُ الله لكم معالِمَ دينِكم فيُبيِّنُها لكم، كما فصَّل لكم في هذه الآيةِ ما أحلَّ لكم فيها، وعرَّفكم سبيلَ الدخولِ على مَن تدخلونَ عليه). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٤).

وقال ابن عطية: (والكافُ مِن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كافُ تشبيهٍ، وذلك إشارةٌ إلى هذه السُّننِ، أي: كهذا الذي وصَف يَطَّرِدُ تبيينُ الآياتِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٧).

وقال الشوكاني: (والإشارَةُ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ إلى مصدرِ الفعلِ الَّذي بعْدَه، كما في سائِرِ المواضعِ في الكتابِ العزيزِ، أي: مِثْلُ ذلك التَّبيينِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لكم الآياتِ الدَّالَّةَ على ما شَرَعه لكم مِن الأحكامِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠).

لِتَفهموها وتتدبَّروها، وتَعمَلوا بها[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ تفريعٌ على الإذنِ لهم في الأكلِ مِن هذه البُيوتِ، بأن ذكَّرَهم بأدَبِ الدُّخولِ المتقدِّمِ في قَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]؛ لئلَّا يجعَلوا القَرابةَ والصَّداقةَ والمُخالَطةَ مُبيحةً لإسقاطِ الآدابِ؛ فإنَّ واجِبَ المرءِ أن يلازِمَ الآدابَ مع القريبِ والبعيدِ، ولا يغُرَّنَّه قَولُ النَّاسِ: إذا استوى الحُبُّ سقَطَ الأدَبُ[٢]!

٢- قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فإنَّ مَعرفةَ أحكامِ اللهِ تعالى الشَّرعيَّةِ على وَجهِها تَزيدُ في العَقلِ، وينمو به اللُّبُّ؛ لِكَونِ معانيها أجَلَّ المعاني، وآدابُها أجَلَّ الآدابِ، ولأنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فكلَّما استعمَل عقلَه للعَقلِ عن رَبِّه، وللتفكُّرِ في آياتِه التي دعاه إليها؛ زادَه مِن ذلك[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ فيه دليلٌ على قاعدةٍ عامَّةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

كُلِّيَّةٍ، وهي: أنَّ (العُرفَ والعادةَ مُخَصِّصٌ للألفاظِ، كتَخصيصِ اللَّفظِ للَّفظِ)؛ فإنَّ الأصلَ: أنَّ الإنسانَ مَمنوعٌ مِن تناوُلِ طَعامِ غَيرِه، مع أنَّ اللهَ أباح الأكلَ مِن بُيوتِ هؤلاء؛ لِلعُرفِ والعادةِ، فكُلُّ مسألةٍ تتوقَّفُ على الإذنِ مِن مالِكِ الشَّيءِ، إذا عُلِمَ إذنُه بالقَولِ أو العُرفِ، جاز الإقدامُ عليه(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ بيانُ رحمةِ اللهِ سبحانه وتعالى، وسهولةِ هذه الشريعةِ في نَفيِ الحَرَجِ عمَّن يَستحِقُّه؛ ويَلحَقُ بذلك سائِرُ العاهاتِ(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ الأحكامُ تدورُ مع عِلَلِها، فإذا وُجِدَتِ العِلَّةُ في الحُكمِ ثَبَتَ، وإذا انتفتِ انتفَى الحُكمُ؛ لأنَّ نفيَ الحَرَجِ عن هؤلاء إنَّما كان لهذه العِلَّةِ التي فيهم، فإذا بَرِئَ المريضُ واستقامُ، ومشى الأعرجُ، ورَدَّ اللهُ البصرَ على الأعمى؛ انتفَى هذا الحُكمُ في حقِّهم، وثَبَتَ في حقِّهم ما يثبُتُ في حقِّ السَّالِمينَ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ...﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ جوازُ الأكلِ مِن بُيوتِ هؤلاء المذكورينَ -ما لم يُعلَمْ عدَمُ رضاهم- سواءٌ بإذنٍ أو بغيرِ إذنٍ(٤)؛ إذْ لو كان بإذْنٍ ما كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال الشنقيطي: (ظاهِرُ القرآنِ أنَّ ذلك جائِزٌ مِن غيرِ إذْنٍ، وبعضُهم يقَيِّدُه بالإذنِ، وهذه المسألةُ ذاتُ طرفَينِ وواسطةٍ:

الطرَفُ الأول: أن يُعلَمَ أنَّهم راضون بالأكلِ، وهذا لا كلامَ في جوازه. =

لاختِصاصِ هؤلاء معنًى؛ لأنَّ الإذنَ يُبيحُ مِن جميعِ الأمكِنةِ، لكن بِشَرطِ ألَّا يُفْسِدَ ولا يَحْمِلَ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ المتصَرِّفَ في بيتِ الإنسانِ -كزَوجتِه، وأُختِه، ونَحوِهما- يجوزُ له الأكلُ عادةً، وإطعامُ السَّائِلِ المُعتاد[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ لم يذكُرْ بُيوتَ الأولادِ؛ اكتِفاءً بذِكرِ ﴿بُيُوتِكُمْ﴾؛ لأنَّ ولَدَ الرَّجُلِ بَعضُه، وحُكمُه حُكمُ نفْسِه، وبَيتُه بَيتُه[٣]، فبُيوتُ الأبناءِ داخلةٌ في بُيوتهم أنفسِهم؛ فاكتفَى بذِكْرِها دونَها، وإلَّا فبُيوتُهم أقربُ مِن بُيوتِ مَن ذُكِر في الآيةِ[٤].

= الطَّرفُ الثاني: أن يُعلَمَ عَدَمُ الرِّضا، وهذا لا يجوزُ معه الأكلُ بدون إذنٍ، والآيةُ خرجت مخرجَ الغالبِ؛ فإنَّ الغالِبَ في الأقارِبِ والأصدقاءِ الرِّضا والسَّماحُ.

والواسطة: أن يُجهَلَ حالُ القريبِ أو الصديقِ مِن جِهةِ الرضا وعَدَمِه، والأظهرُ الجوازُ؛ لإطلاقِ الآيةِ، ولأنَّ العادةَ جرت بالتسامُحِ في مثل ذلك). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٨٨).

قال ابن العربي: (وأما بيتُ الابنِ... كبَيتِ المرءِ نفْسِه... فيما كان غيرُ مُحرزٍ؛ فلا يَتبسَّط الأبُ على الابنِ في هَتكِ حِرزٍ وأخْذِ مالٍ؛ وإنَّما يأكُلُه مُسترسلًا فيما لم يقَعْ فيه حيازةٌ، ولكنْ بالمعروفِ، دُونَ فسادٍ ولا استِغنامٍ، وأمَّا بيتُ الأبِ للابنِ فمِثلُه، ولكنَّ تبسُّطَ الابنِ أقَلُّ مِن =

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ فيه أنَّ مالَ ابنِ الإنسانِ مالٌ له. وجْهُ الدلالةِ مِن الآيةِ: أنَّه لم يَذْكُرِ الأولادَ؛ فدلَّ على أنَّ المرادَ بالبُيوتِ بُيوتُكم وبُيوتُ أولادِكم، ولقولِه صَلَّى الله عليه وسَلَّم: ((إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجُلُ مِن كَسْبِه، وإنَّ ولَدَه مِن كَسْبِه))[١]، وقولِه[٢]: ((أنت ومالُك لأبيكَ))[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ﴾ احتَجَّ أبو حنيفةَ رحمه اللهُ بهذه الآيةِ على أنَّ مَن سرَقَ مِن ذي رَحِمٍ مَحرَمٍ، أنَّه لا يُقطَعُ؛ لإباحةِ الله تعالى بهذه الآيةِ الأكلَ مِن بُيوتِهم، ودُخولَها بغَيرِ إذنِهم؛ فلا يكونُ مالُه مُحرَزًا منهم[٤].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ﴾ قد يَستَدِلُّ به من يُوجِبُ نفَقةَ الأقاربِ بَعضِهم على بَعضٍ، كما هو مذهبُ الإمامِ أبي حنيفةَ والإمامِ أحمَدَ بنِ حَنبلٍ،

= تبسُّطِ الأبِ، كما كان تبسُّطُ الزَّوجِ أقَلَّ مِن تبسُّطِ الزَّوجةِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٢٤).

(١) تقدم تخريجه (ص: ٤٨٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٣). ويُنظر أيضًا: ((شرح مختصر الطحاوي)) للجَصَّاص (٦/ ٢٦٦)، ((فتح القدير)) للكمال ابن الهُمام (٥/ ٣٨١).

في المشهورِ عنهما[١].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡ﴾ عدَلَ الصَّديقَ هنا بالقَريبِ؛ تنبيهًا على شريفِ رُتبةِ الصَّداقةِ، ولَطيفِ سِرِّها، وخَفِيِّ أمرِها[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡ﴾ دليلٌ على أنَّ للصَّداقةِ حقًّا، وهو كذلك، والسببُ: الصِّلةُ التي بيْنَك وبيْنَه[٣]، قال جَعفرُ بنُ محمَّدٍ: (مِن عِظَمِ حُرمةِ الصَّديقِ أن جعَلَه كالنفْسِ والأبِ ومَن معَه)[٤].

١٢- قولُه تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتًا﴾ فيه رخصةٌ مِنَ اللَّهِ تعالَى في أنْ يأكلَ الرجُلُ وحْدَه، ومعَ الجماعةِ، وإنْ كان الأكلُ معَ الجماعةِ أفضَلَ وأبرَكَ[٥].

١٣- قال الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتًا﴾ فيه إباحةُ اجتِماعِ الجَماعةِ على الأكلِ، وإن تفاوَتوا فيه[٦].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةً مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ وصَفَها بالبَرَكةِ والطِّيبِ؛ لأنَّها دَعوةُ مُؤمِنٍ لِمُؤمنٍ، يُرجَى بها مِن اللهِ زيادةُ الخَيرِ، وطِيبُ الرِّزقِ[٧]، ولِما فيها مِن نيَّةِ المُسالَمةِ، وحُسنِ اللِّقاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٥).

ويُنظر في مذهب الحنفية: ((تبيين الحقائق)) للزيلعي (٣/ ٦٤)، وفي مذهب الحنابلة: ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤١٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٦).

(٦) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٨).

والمُخالطةِ، وذلك يُوفِّرُ خَيرَ الأُخُوَّةِ الإسلاميَّةِ[١].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ جَعَلَهم سُبحانَه مِن «أنفُسِهم»؛ لأنَّ المؤمنَ للمُؤمِنِ كالبُنْيانِ، يَشُدُّ بعضُه بعضًا، فهو كقَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: ١٢٨]، فالمعنى إذَنْ: سَلِّمُوا على مَن فيها؛ لأنَّكم وإيَّاهم نفْسٌ واحِدةٌ[٢]، فالمسلمون كأنَّهم شخصٌ واحدٌ، مِن تَوادُدِهم، وتراحمِهم، وتعاطفِهم[٣]. وقيل: عبَّر بـ ﴿أَنفُسِكُمْ﴾؛ ترغيبًا في السلامِ، والإحسانِ في الإكرامِ، ولتصلحَ العبارةُ لِما إذا لم يكنْ فيها أحدٌ، فيقالُ حينَئذٍ: (السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالحينَ)[٤]، وذلك على أحدِ القولينِ. وقيل: قولُه: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: على أهْلِ البُيوتِ، وفي التَّعبيرِ عنهم بالأنفُسِ تَنبيهٌ على السِّرِّ الَّذي اقْتَضى إباحةَ الأكْلِ مِن هذه البُيوتِ المعدودةِ، وأنَّ ذلك إنَّما كان لأنَّها بالنِّسبةِ إلى الدَّاخلِ كبَيْتِ نفْسِه؛ لاتِّحادِ القرابةِ، فلْيَطِبْ نفْسًا بالبساطِ فيها[٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فَضيلةُ السَّلامِ؛ فقد وَصَفَه اللهُ تعالى بثلاثةِ أوصافٍ: أنَّها تحيةٌ مِن عنده، وأنَّها مُباركةٌ، وطيِّبةٌ، وذلك مِن الآياتِ التي بيَّنَها الله تعالى للعبادِ وأوضحَها لهم؛ لِما في ذلك مِن جَلبِ المودَّةِ والمحبَّةِ والخيرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٩).

(٥) يُنظر: ((حاشية ابن المنير على تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٠).

بلاغةُ الآيةِ:

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ...﴾ فائدةُ الإخبارِ برَفعِ الجُناحِ عمَّن أكَلَ مِن بَيتِه: التَّوطِئةُ؛ لِيَبْنيَ عليه ما يَعطِفُه على جُملتِه مِن البُيوتِ الَّتي قُصِدَ إباحةُ الأكلِ منها؛ فإنَّه إذا عُلِمَ أنَّ الإنسانَ لا جُناحَ عليه أنْ يأكُلَ مِن بَيتِه، فكذلك لا جُناحَ عليه أنْ يأكُلَ مِن هذه البُيوتِ؛ لِيُشيرَ إلى أنَّ أموالَ هذه القرابةِ كَمالِ الإنسانِ؛ فيكونُ سُبحانه قد أدمَجَ في ذلك الحضَّ على صِلَةِ الأرحامِ، ومُعامَلَتِهم مُعامَلةَ الإنسانِ نفْسَه(١).

- وفي قولِه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أُعِيدَ حرفُ (لا) مع المعطوفِ على المَنْفيِّ قبْلَه؛ تأكيدًا لمعنى النَّفيِ، وهو استعمالٌ كثيرٌ(٢).

- قولُه: ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠١).

بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ فيه تَخصيصُ هؤلاء بالذِّكرِ؛ لاعتيادِهم التَّبسُّطَ فيما بيْنهم[1]، وقدَّمَ الأبَ؛ لأنَّه أجَلُّ، وهو حاكِمُ بَيتِه دائِمًا، والمالُ له[2].

- قولُه: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ فيه التَّعبيرُ عن الصَّديقِ بالإفرادِ، كما في قولِه: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]؛ حيث أفرَدَ الصَّديقَ دونَ الشَّافعينَ؛ قِيلَ: وسِرُّ ذلك: التَّنبيهُ على قِلَّةِ الأصدقاءِ. ويَحتمِلُ في الآيتينِ -واللهُ أعلَمُ- أنْ يكونَ المُرادُ به الجمْعَ؛ فالصَّديقُ يقَعُ على الواحدِ وعلى الجمْعِ؛ ككلمةِ (العدوِّ)، كما في قولِه تعالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧]، فالمعنى: (أو بيوتِ أصدقائِكم)، فالمرادُ به هنا جمعٌ؛ ليُناسبَ ما ذُكِر قبلَه مِن الجموعِ في قولِه: ﴿ءَابَآئِكُمْ﴾ و﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ وغيرِ ذلك[3].

- قولُه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ، مَسوقٌ لِبَيانِ حُكْمٍ آخَرَ مِن جنسِ ما بُيِّنَ قبْلَه[4].

- وأُعِيدَت جُملةُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ تأكيدًا للأُولى في قولِه: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ إذ الجُناحُ والحرَجُ كالمُترادفَينِ. وحَسُنَ هذا التَّأكيدُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٥٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٦).

بعْدَما بيَّنَ الحالَ وصاحِبَها، وهو واوُ الجَماعةِ في قولِه: ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾، ولأجْلِ كونِها تأكيدًا فُصِلَت بلا عطْفٍ(١).

- وقولُه: ﴿أَشْتَاتًا﴾ على القولِ بأنَّه في الأصْلِ مَصدرٌ؛ فيكونُ وصَفَ به مُبالَغةً(٢).

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ تكريرُه ثلاثًا؛ لِمَزيدِ التَّأكيدِ، وتَفخيمِ الأحكامِ المُختتَمةِ به. وفي تَعليلِ هذا التَّبيينِ بهذه الغايةِ القُصوى -﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾- بعْدَ تَذييلِ الأوَّلَينِ بـ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨ و٥٩] بما يُوجِبُهما مِن الجَزالةِ: ما لا يَخْفى(٣).

- وقدِ اشتمَلَتْ هذه الآيةُ الكريمةُ أيضًا على أنواعٍ مِن فُنونِ البلاغةِ والبديعِ؛ منها: صِحَّةُ التَّقسيمِ؛ وذلك لاستيعابِ الكلامِ جميعَ أقسامِ الأقاربِ القريبةِ، بحيث لم يُغادِرْ منها شيئًا. ومنها: التَّهذيبُ؛ وذلك في انتقالِ الكلامِ على مُقْتضى البلاغةِ في هذا المكانِ؛ فإنَّ مُقْتضى البلاغةِ تَقديمُ الأقربِ فالأقرَبِ كما جاء فيها. ومنها: حُسْنُ النَّسقِ؛ وذلك في اختيارِه (أو) لِعطْفِ الجُمَلِ، وهي تدُلُّ على الإباحةِ. ومنها: المُناسَبةُ؛ وذلك بمُناسَبةِ الألفاظِ بعْضِها ببَعضٍ في الزِّنَةِ، وهي واضحةٌ في الألفاظِ (آبائِكم- إخوانِكم- أعمامِكم- أخوالِكم). ومنها: المثَلُ؛ وذلك في قولِه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، حيث خرَجَ مَخرَجَ المثَلِ السَّائرِ الَّذي يصِحُّ أنْ يُتمثَّلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٥).

به في كلِّ واقعةٍ تُشبِهُ واقعِتَه. ومنها: التَّذييلُ؛ فإنَّ الكلامَ الَّذي خرَجَ مَخرَجَ المثَلِ جاء تَذييلًا لمعنى الكلامِ المُتقدِّمِ؛ لِقَصْدِ تَوكيدِه وتَقريرِه[١].

- وقولُه: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ قولُه: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أضافها اللهُ إليه؛ لأنَّه هو الذي شَرَعها وأمَرَ بها، يعني: هذه التحيَّةُ مِن عندِ الله، أو لأنَّه غايتُها، أي: الذي تَنتهي إليه هذه التحيَّةُ لِيُثيبَ عليها ويُجيبَها؛ لأنَّك تقول: السَّلامُ علينا، أو السَّلامُ عليكم؛ فهي تُطلَبُ منه، فهو غايتُها، أو هو مُشَرِّعُها[٢].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٥٤- ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤١٧).

الآيات (٦٢-٦٤)

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾: أي: يَخرُجونَ مِن الجَماعةِ واحِدًا وَاحِدًا خُفْيَةً، والتَّسلُّلُ هو الخروجُ على خُفْيَةٍ، وأصلُه يدُلُّ على مَدِّ الشَّيءِ فِي رِفقٍ وخَفاءٍ[١].

﴿لِوَاذًا﴾: أي: مُستَتِرًا بعضُهم ببَعضٍ، وأصلُ (لوذ): يدُلُّ على إطافةِ الإنسانِ بالشَّيءِ مُستعيذًا به ومُتَستِّرًا[٢].

﴿فِتْنَةٌ﴾: أي كُفرٌ وضلالةٌ، والفتنةُ في الأصلِ: الاختِبارُ، والابتلاءُ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه مِن رداءتِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٩٥).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- قولُه تعالى: ﴿دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ المصدرُ ﴿دُعَآءَ﴾ مُضافًا لِمَفعولِه، أي: دعاءَكم الرَّسولَ، بمعنى: لا تنادُوه باسمِه ولا بكُنيتِه، بل نادُوه وخاطِبوه بالتوقيرِ: يا رسولَ اللهِ، يا نبيَّ اللهِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مُضافًا للفاعِلِ، أي: لا تَجعَلوا دعاءَه إيَّاكم كدُعاءِ بعضِكم لبعضٍ؛ فتَتباطَؤُوا عنه كما يتباطَأُ بعضُكم عن بعضٍ إذا دعاه لأمرٍ، بل يجبُ عليكم المبادرةُ لأمرِه صلَّى الله عليه وسلَّم. وقيل غيرُ ذلك.

- قَولُه تعالى: ﴿لِوَاذًا﴾ فيه وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّه مَنصوبٌ على المصدَرِ مِن معنى الفِعلِ الأوَّلِ، أي: يَتَسَلَّلون منكم تَسَلُّلًا، أو يُلاوِذون لِواذًا. والثَّاني: أنَّه مَصدرٌ في موضعِ الحالِ، أي: مُلاوِذين[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى ما يَنبغي أن يكونَ عليه المؤمنونَ مع نبيِّهم صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: إنَّما المُؤمِنونَ حَقًّا هم الذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، وإذا كانوا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أمرٍ مُهِمٍّ جمَعَهم له، لم ينصَرِفْ أحَدٌ منهم حتى يستأذِنَه. إنَّ الذين يَستأذِنونَك -أيُّها النبيُّ- هم المؤمِنونَ حَقًّا، فإذا استأذَنَك

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٣٠)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٤٦-٤٤٩)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٤١٥)، ((الجدول)) لمحمود صافي (١٨/ ٢٩٩).

هؤلاء المؤمِنونَ لِبَعضِ حاجتِهم، فَأْذَنْ لِمَن شِئتَ إن كان فيه حِكمةٌ ومَصلحةٌ، واطلُبْ لهم العَفوَ والمغفرةَ مِن الله؛ إنَّ اللهَ عظيمُ المغفرةِ، واسِعُ الرَّحمةِ.

ثمَّ يُوجِّهُهم إلى أدبٍ آخَرَ فيه مِن التوقيرِ والتعظيمِ لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: لا تَجعَلوا -أيُّها المُؤمِنونَ- دُعاءَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إيَّاكم كدُعاءِ بعضِكم لبَعضٍ؛ فتَتباطَؤُوا عنه كما يتباطَأُ بعضُكم عن بعضٍ إذا دعاه لأمرٍ، بل يجِبُ عليكم المبادرةُ لأمرِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ ولا تُنادوه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باسمِه مُجَرَّدًا كما يُنادي بَعضُكم بَعضًا باسمِه، ولكِنْ عَظِّموه ووَقِّروه، وقولوا: يا نبيَّ اللهِ، يا رَسولَ اللهِ.

ثمَّ يحذِّرُ الله تعالى المنافقينَ مِن سوءِ عاقبةِ أفعالِهم، فيقولُ: قد عَلِمَ اللهُ المنافِقينَ الذين يَخرُجونَ مِن الجماعةِ في خُفيةٍ مُستَتِرينَ، فليَحْذَرِ الذين يُعرِضونَ عن أمرِ رَسولِ اللهِ أن تَنزِلَ بهم فتنةٌ في الدُّنيا، أو يُصيبَهم عذابٌ شَديدٌ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى السورةَ بقولِه: لله وحْدَه مُلكُ ما في السَّمواتِ والأرضِ، قد عَلِمَ سُبحانَه كُلَّ شُؤونِكم، ويومَ يُرجَعُ العِبادُ إليه سُبحانَه، فيُخبِرُهم بما فعَلوا في الدُّنيا، ويُجازي كُلًّا بعَمَلِه، واللهُ بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ، لا يَخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا جرى الكلامُ السَّابِقُ في شأنِ الاستِئذانِ للدُّخولِ، عقَّب ذلك بحُكمِ

الاستئذانِ للخُروجِ ومُفارقةِ المجامِعِ، فاعتُنِي من ذلك بالواجِبِ منه، وهو استِئذانُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مُفارَقةِ مَجلِسِه، أو مُفارَقةِ جَمعٍ جُمِعَ عن إذْنِه لأمرٍ مُهِمٍّ؛ كالشُّورى، والقِتالِ، والاجتِماعِ للوعظِ، ونحوِ ذلك[1].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: إنَّما المُؤمِنونَ حَقَّ الإيمانِ، الكامِلونَ في إيمانِهم: هم الذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه ظاهِرًا وباطِنًا، إيمانًا صحيحًا صادِقًا، يتضَمَّنُ القَبولَ والإذعانَ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢١، ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٤).

قال القرطبي: («إنَّما» في هذه الآيةِ للحَصرِ، المعنى: لا يَتِمُّ ولا يَكمُلُ إيمانُ مَن آمَنَ باللهِ ورَسولِه إلَّا بأن يكونَ مِنَ الرَّسولِ سامِعًا غَيرَ مُعْنِتٍ؛ في أن يكونَ الرَّسولُ يُريدُ إكمالَ أمرٍ، فيُريدُ هو إفسادَه بزَوالِه في وقتِ الجَمْعِ، ونحوِ ذلك، وبَيَّنَ تعالى في أوَّلِ السُّورةِ أنَّه أنزل آياتٍ بَيِّناتٍ، وإنَّما النُّزولُ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فخَتَم السُّورةَ بتأكيدِ الأَمرِ في مُتابعتِه عليه السَّلامُ؛ لِيُعلَمَ أنَّ أوامِرَه كأوامِرِ القُرآنِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٠).

وقال ابنُ عاشور: (المقصودُ: إظهارُ علامةِ المؤمِنينَ، وتَمييزُهم عن عَلامةِ المُنافِقينَ؛ فليس سياقُ الآيةِ لبَيانِ حقيقةِ الإيمانِ؛ لأنَّ للإيمانِ حَقيقةً مَعلومةً ليس استِئذانُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عند إرادةِ الذَّهابِ من أركانِها؛ فعُلِمَ أنْ ليس المقصودُ مِن هذا الحَصرِ سَلبَ الإيمانِ عن الذي يَنصَرِفُ دونَ إذنٍ مِن المؤمنِينَ الأحِقَّاءِ، لو وَقَع منه ذلك عن غيرِ قَصدِ الخَذْلِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو أذاهُ؛ إذ لا يَعْدو ذلك -لو فعَله أحَدُ المؤمِنينَ- عن أن يكونَ تَقصيرًا في الأدَبِ يَستَحِقُّ التَّأديبَ والتَّنبيهَ على تجنُّبِ ذلك؛ لأنَّه خَصلةٌ مِنَ النِّفاقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٦).

﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾.

أي: وإذا كانوا مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أمرٍ مُهِمٍّ يجمَعُهم؛ كالجِهادِ، أو التَّشاوُرِ في أمرٍ ما- لم يُفارِقوا الرَّسولَ وينصَرِفوا لحاجتِهم حتى يَطلُبوا منه الإذنَ[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: إنَّ الذين يَطلُبونَ منك -أيُّها النبيُّ- أن تأذَنَ لهم بالانصرافِ لِعُذرٍ: أولئك الذين يُؤمِنون باللهِ ورَسولِه حقًّا، وليسوا بمُنافِقين[٢].

﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾.

أي: فإذا طلَبَ المؤمِنونَ منك -أيُّها النبيُّ- أن تأذنَ لهم بالانصِرافِ لحاجتِهم إلى قَضاءِ بَعضِ أمورِهم؛ فأْذَنْ لِمَن تشاءُ منهم، وامنَعْ مَن تشاءُ إن كانت المصلحةُ تَقضي بعدَمِ ذَهابِه[٣].

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾.

أي: وادْعُ اللهَ -أيُّها النبيُّ- أن يغفِرَ لهؤلاء المُستأذِنينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٥، ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ كثيرُ المَغفِرةِ والرَّحمةِ، يَغفِرُ لعبادِه ذُنوبَهم ويَرحَمُهم، ومِن رَحمتِه أنْ جوَّز للمَعذورينَ الاستِئذانَ(١).

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الاجتِماعُ للرَّسولِ في الأُمورِ يقعُ بعْدَ دَعوتِه النَّاسَ للاجتماعِ، وقد أمَرهم اللهُ ألَّا يَنصَرِفوا عن مجامِعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا لعُذرٍ بعْدَ

= (ص: ٥٧٦).

قال البيضاوي: (﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ بعد الإذنِ؛ فإنَّ الاستئذانَ ولو لعُذرٍ قُصورٌ؛ لأنَّه تقديمٌ لأمرِ الدُّنيا على أمرِ الدِّينِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥).

وقال السعدي: (ومع هذا إذا استأذن وأُذِنَ له، بشَرطَيْهِ؛ أمرَ اللهُ رسولَه أن يستغفِرَ له؛ لِما عسى أن يكون مقصِّرًا في الاستئذانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦).

وقال ابنُ عثيمين: (هذا الاستِغفارُ لهم لِتَطيبَ قُلوبُهم إذا انصَرَفوا عن هذا الجَمعِ، وفاتَهم أجرُه، فاستغفَرَ لهم الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّ قُلوبَهم تطيبُ بالانصرافِ، ولا يبقى في قلوبِهم حَرَجٌ وقَلَقٌ. هذا من جهةٍ.

ومِن جهةٍ أخرى: يَستغفِرُ لهم؛ لأنَّه قد يكونُ في استِئذانِهم هذا أمرٌ لا يُعذَرونَ فيه؛ هم ظَنُّوه عُذرًا فاستأذنوا مِن أجْلِه، وهو ليس بعُذرٍ عندَ الله، ويكونُ استغفارُك لهم ماحيًا لِما عسى أن يكونَ مِن التقصيرِ والتَّفريطِ في ذلك، واستغفارُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم كأنْ يقولَ: انصَرِفوا، غفَرَ اللهُ لكم، أو: اللهُمَّ اغفِرْ لهم). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٧، ٤٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦).

إذنِه؛ أنبَأَهم بهذه الآيةِ وُجوبَ استِجابةِ دَعوةِ الرَّسولِ إذا دعاهم[١]، وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ.

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ هذه السُّورةَ العظيمةَ وما فيها مِن الآدابِ السَّاميةِ، خَتَمَها بأدبٍ اجتماعيٍّ لائقٍ برَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو احترامُه في الخِطابِ[٢].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَت الآيةُ السَّابِقةُ وُجوبَ الاستِئذانِ عندَ إرادةِ الانصِرافِ مِن مَجلِسِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بَيَّنَت هذه الآيةُ وُجوبَ تَلبيةِ دَعوتِه إذا دعا -وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ-، وفَضَحت حالةَ الذين يَتسَلَّلونَ غيرَ مُستأذِنينَ، وحَذَّرَت مِن فِعْلِهم، وأوعَدَت الوَعيدَ الشَّديدَ للمُخالِفينَ أمثالِهم[٣].

﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ﴾.

أي: لا تَعتَقِدوا -أيُّها المُؤمِنونَ- أنَّ دَعوةَ الرَّسولِ لكم للاجتِماعِ غَيرُ واجِبةٍ، كما يدعو بعضُكم بعضًا؛ ولا تنادُوا الرَّسولَ بقِلَّةِ احترامٍ وتوقيرٍ، كمناداتِه باسمِه مُجَرَّدًا، أو برَفعِ الصَّوتِ مِثلَما ينادي بعضُكم بعضًا؛ فإجابةُ الرَّسولِ لازِمةٌ، والتأدُّبُ معه واجِبٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨، ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٦ - ٥٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٣ - ٤٣٥).

ممَّن اختار أنَّ معنى الآيةِ: لا تَدْعوه باسمِه، كما يدعو بعضُكم بعضًا، بل قولوا: يا رسولَ الله، يا نبيَّ الله. فعلى هذا: المصدرُ مضافٌ إلى المفعولِ، أي: دعاءَكم الرَّسولَ. ممَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ عطيةَ، والقرطبيُّ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن =

= سليمان)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٦).

قال الواحدي: (وهذا قولُ أكثرِ المفَسِّرين، واختيارُ الفرَّاءِ، والزَّجَّاجِ). ((البسيط)) (١٦/ ٣٨٩).

ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٦٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٥٥).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عباس في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والحسن في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٥٤).

وممَّن اختار أنَّ معنَى الآيةِ: لا تجعلوا دُعاءَه -صلَّى الله عليه وسلَّم- لكم بمنزلةِ دُعاءِ بَعضِكم بَعضًا؛ إن شاء أجاب، وإن شاء تَرَك، بل إذا دعاكم لم يكُنْ لكم بُدٌّ مِن إجابتِه، ولم يَسَعْكم التخَلُّفُ عنها البتَّةَ. فعلى هذا: المصدرُ مُضافٌ إلى الفاعِلِ، أي: دُعاؤه إيَّاكم. ممَّن اختاره: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٨).

وممَّن جمَع بينَ المعنيَينِ السَّابِقَينِ: البقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٣).

وقال ابنُ عثيمين: (يجوزُ أن نجعَلَها شامِلةً للمعنَيينِ؛ لأنَّنا أسلَفْنا قاعدةً في هذا، وهي: أنَّ الآيةَ إذا كانت تحتَمِلُ المعنيينِ بدونِ تناقُضٍ، فإنَّها تُحمَلُ عليهما جميعًا... فعليه نقولُ: إنَّ هذا مِن بابِ الأدَبِ في مخاطبةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والأدَبِ في إجابتِه؛ ففي مُخاطبتِه لا نجعَلُ مُخاطبتَه ودُعاءَنا إيَّاه كدُعاء غيرِه، وفي إجابتِه لا نجعَلُ دُعاءَه وطَلَبَه لأمرٍ مِن الأمورِ كطَلَبِ غَيرِه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٣).

وقال ابنُ عبَّاسٍ في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ قال: (دَعوةُ الرَّسولِ عليكم مُوجِبةٌ؛ فاحذَروها). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٨).

وقال ابنُ كثير: (والقَولُ الثَّاني في ذلك أنَّ المعنى في: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي: لا تعتَقِدوا أنَّ دُعاءَه على غيرِه كدُعاءِ غَيرِه؛ فإنَّ دُعاءَه مُستجابٌ؛ فاحذَروا أن يَدعوَ عليكم فتَهلِكوا. حكاه ابنُ أبي حاتمٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، والحَسَنِ البَصريِّ، وعطيَّةَ العَوْفيِّ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٩).

وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، وأبو القاسم نجم الدين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٩)، ((إيجاز البيان)) لنجم الدين (٢/ ٦٠٧). =

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يعلَمُ المُنافِقينَ الذين ينصَرِفونَ خُفيةً عن اجتِماعِ المُسلِمينَ، فيَخرُجونَ بلا استِئذانٍ، مُستَتِرينَ؛ مخافةَ أن يراهم أحدٌ، وسيُجازيهم اللهُ على ذلك[(١)].

﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ ﴾.

أي: فلْيحذَرِ الذين يُعرِضونَ عن أمرِ الرَّسولِ أن تُصيبَهم فِتنةٌ في الدُّنيا[(٢)].

= وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، والشعبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٥٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٣١).

قال الشنقيطي: (هذا الوَجهُ الأخيرُ يأباه ظاهِرُ القُرآنِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا ﴾ يدُلُّ على خِلافِه، ولو أراد دُعاءَ بَعضِهم على بَعضٍ، لقال: لا تجعَلوا دُعاءَ الرَّسولِ عليكم كدُعاءِ بَعضِكم على بَعضٍ؛ فدُعاءُ بَعضِهم بعضًا، ودُعاءُ بَعضِهم على بَعضٍ: مُتغايِرانِ، كما لا يخفى). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٥٨).

وممَّن استبعد هذا الوَجهَ الأخيرَ أيضًا: ابنُ عطية، وابنُ الفرس، وابن جُزي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩١، ٣٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٩، ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٨ - ٥٦٠)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٨). =

= قال الشنقيطي: (الضَّميرُ في قَولِه: ﴿عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ راجِعٌ إلى الرَّسولِ، أو إلى اللهِ، والمعنى واحِدٌ؛ لأنَّ الأمرَ مِنَ اللهِ، والرَّسولُ مُبلِّغٌ عنه). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٥٨).

وقال ابن عطية: (قوله: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ معناه: يقعُ خلافُهم بعْدَ أمرِه، وهذا كما تقولُ: كان المطرُ عن ريحٍ، و«عن» هي لِما عدا الشَّيءَ، والفِتنةُ في هذا الموضِعِ: الإخبارُ بالرَّزايا في الدُّنيا، وبالعذابِ الأليمِ في الآخرةِ، ولا بدَّ للمُنافقينَ مِن أحدِ هذَينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨).

وقال ابن تيميَّةَ: (قال الإمامُ أحمد رحمه الله تعالى: أيُّ فتنةٍ هي؟ إنما هي الكُفرُ، وكذلك ألبس اللهُ سبحانه الذِّلَّةَ والصَّغارَ لِمن خالفَ أمْرَه). ((مجموع الفتاوى)) (١٩/ ١٠٤).

قال الماوَرْدي: (﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ فيها ثلاثةُ تأويلاتٍ؛ أحَدُها: كُفرٌ. قاله السُّدِّيُّ. الثاني: عُقوبةٌ. قاله ابنُ كامل. الثَّالِثُ: بَلِيَّةٌ تُظهِرُ ما في قُلوبِهم مِنَ النِّفاقِ. حكاه ابنُ عيسى). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٢٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالفِتنةِ هنا الكُفرُ والشِّركُ: ابنُ جرير، والسمرقندي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٨).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: السُّدِّيُّ، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ، وعبدُ الرحمن بنُ زيدِ بنِ أَسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٥٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٢٩).

قال ابنُ كثيرٍ: (﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: في قُلوبِهم؛ مِن كُفرٍ، أو نِفاقٍ، أو بِدعةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠).

وممَّن اختار القَولَ الثَّانيَ، وأنَّ المرادَ بالفِتنةِ: العُقوبةُ: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٧).

وقال الشنقيطي: (الفِتنةُ تُطلَقُ على الاختِبارِ، وليست مُرادةً هنا، وتُطلَقُ على نتيجةِ الاختبارِ إذا كانت سيِّئةً، والمرادُ بها هنا العِقابُ؛ كالزَّلازِلِ، والوُلاةِ الجائِرينَ، أو الإضلالِ، وهو أن يَختِمَ اللهُ على قُلوبِهم، وهذا أقرَبُ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٢٠٨). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالفِتنةِ هنا: البَلِيَّةُ والمِحْنةُ في الدُّنيا: ابنُ أبي زمنين، والواحدي، والزمخشري، وابن عطية، والبيضاوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥١)، ((الوجيز)) للواحدي =

كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((جُعِلَ الذِّلَّةُ والصَّغارُ على من خالفَ أمري))[(١)].

﴿أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

= (ص: ٧٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤١٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِنَ السلَفِ: عطاءٌ، وجعفر بن محمد، والحسن، ومجاهد، والكلبي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١٠).

قال أبو حيان: (والفِتنةُ: القَتلُ، قاله ابنُ عبَّاسٍ أيضًا. أو بلاءٌ، قاله مجاهِدٌ. أو كُفرٌ، قاله السُّدِّيُّ ومقاتل. أو إسباغُ النِّعَمِ استِدراجًا، قاله الجرَّاحُ. أو قَسوةُ القَلبِ عن مَعرفةِ المعروفِ والمُنكَرِ، قاله الجُنَيد. أو طَبعٌ على القُلوبِ، قاله بعضُهم. وهذه الأقوالُ خرَجَت مَخرجَ التَّمثيلِ لا الحَصرِ، وهي في الدُّنيا). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٦).

(١) أخرجه البخاري مُعَلَّقًا بصيغةِ التَّضعيفِ قبْلَ حديث (٢٩١٤)، وأخرجه أحمدُ موصولاً (٥١١٤).

صحَّح إسنادَه الذهبيُّ في ((سير أعلام النبلاء)) (١٥/ ٥٠٩)، وقال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٧٠): (فيه عبدُ الرحمنِ بنُ ثابتِ بنِ ثَوْبانَ، وبقيَّةُ رجالِه ثِقاتٌ)، وذكر ابنُ حجر في ((تغليق التعليق)) (٣/ ٤٤٥) أنَّ فيه عبدَ الرحمنِ بنَ ثابتٍ: مختلَفٌ في الاحتجاجِ به، وله شاهِدٌ بإسناد حسنٍ، لكنَّه مُرسَل. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٧/ ١٢٢)، وجوَّد إسنادَه ابنُ باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (١/ ٢٠٠)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ ((صحيح الجامع)) (٢٨٣١).

أي: أو[١] يُصيبَهم عذابٌ مُوجِعٌ؛ لِمُخالفتِهم أمرَ الرَّسولِ[٢].

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذه الآيةُ جاءت بعدَ قَولِه تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ كالدَّليلِ على أنَّ ما هدَّد اللهُ به مِن الفِتنةِ أو العذابِ الأليمِ: أمرٌ لا يُعجِزُ اللهَ؛ لأنَّ اللهَ

---

(١) قال ابنُ عثيمين: (قوله: ﴿ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ ﴾ ﴿ أَوْ ﴾ مانعةُ اجتماعٍ، أو مانِعةُ خُلُوٍّ؟ يعني: هل المعنى: إمَّا هذا أو هذا ولا يجتمعانِ، فتكون مانعةَ اجتماعٍ، مثل: تزوَّجْ هندًا أو أختَها؟ هذه مانعةُ اجتماعٍ؛ لأنَّهما لا يمكِنُ أن يجتَمِعا، فهل نقولُ: إنَّ ﴿ أَوْ ﴾ هذه مانعةُ اجتماعٍ، أو مانعةُ خُلوٍّ؛ بمعنى: أنَّه لا يخلو من أحدِهما، وربما يجتَمِعان؟

الجوابُ: مانِعةُ خُلوٍّ؛ بمعنى: أنَّه لا يخلو مِن أحدِ هذَينِ الأمْرَينِ المتوقَّعينِ، أو منهما جميعًا، لا سيما إذا قُلْنا بأنَّ الفتنةَ: الشِّركُ؛ فإنَّ العذابَ الأليمَ ملازمٌ لها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٨، ٤٣٩). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١١).

قيل: المرادُ بالعذابِ هنا: عذابُ الدنيا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن كثير: (﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: في الدُّنيا؛ بقَتلٍ، أو حَدٍّ، أو حبسٍ، أو نحو ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠).

وقيل: المرادُ به: عذابُ الآخرةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عطية، والبِقاعي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٨).

قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ أَلِيمٌ ﴾ بمعنى: مُؤلِم، ولم يقيِّدْه اللهُ تعالى بالآخرةِ؛ فقد يكونُ في الدنيا، وقد يكونُ في الآخرةِ، وقد يكونُ فيهما جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٩).

تعالى له مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ، ومَن كان له مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ فإنَّه لا يَعجِزُ عن تنفيذِ ما هدَّد به وإيقاعِه[١].

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ألا إنَّ للهِ مُلكَ جَميعِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، وكلُّهم خَلْقُه وعبيدُه وتحتَ تدبيرِه؛ فلا تنبغي لكم مَعصيتُه[٢].

﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يعلَمُ ما أنتم عليه -أيُّها النَّاسُ- في سِرِّكم وعَلانيتِكم؛ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وطاعةٍ ومَعصيةٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾.

أي: ويَومَ[٤] يُرجَعُ النَّاسُ إلى اللهِ فيُخبِرُهم بجَميعِ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٠، ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٩).

(٤) كلمةُ ﴿ وَيَوْمَ ﴾ معطوفةٌ على ﴿ مَآ ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ فيكونُ المعنى: ويعلمُ يومَ يُرجَعونَ إليه. وممَّن قال بهذا: أبو حيان، والشوكاني، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٦١)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن =

خَيرٍ وشَرٍّ، ويُجازيهم عليه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بجَميعِ الأعمالِ والأحوالِ والنيَّاتِ، لا يخفَى عليه شَيءٌ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

= عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٣).

قال الشنقيطي: (الصَّحيحُ أنَّ كَلِمةَ «يومَ» معطوفةٌ على ﴿مَآ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، فهو مفعولٌ به، لا مَفعولٌ فيه، أي: هو عالمٌ بحالِكم اليَومَ، وما ستُلاقونَ في يومِ الجزاءِ الذي تُرجَعونَ فيه إليه). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٢٠٩).

وقال الشهاب الخفاجي: (ويجوزُ تعَلُّقُه بمحذوفٍ يُعطَفُ على ما قبلَه، أي: وسيُنَبِّئُهم يومَ يُرجَعونَ إليه، كما في الكشَّافِ). ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٠٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦١).

وقال ابن عثيمين: (الله تعالى يَعلمُ متى يرجعون؛ سواءٌ كان رجوعًا عامًّا كيومِ القيامةِ، أم خاصًّا كموتِ الإنسانِ؛ هذا أيضًا مرجعُه إلى الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٦١).

قال ابن عثيمين: (فائدةُ الإنباءِ هو الإقرارُ، يعني: يقرِّرُهم حتى يكونَ جزاؤُهم على وجهِ العدلِ الذي أقرُّوا به هم، فلا يقولونَ: إنَّنا ظُلِمنا، بل الله يقولُ: عَمِلتُم كذا وعمِلتُم كذا وعمِلتُم كذا، حتى يُقَرَّروا بذلك، ثم بعْدَ هذا الإقرارِ يترتَّبُ الجزاءُ فضلًا أو عدلًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ وكذلك ينبغي أن يكونَ الناسُ مع أئمتِهم ومقدَّميهم في الدينِ والعلمِ، يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلةٍ من النوازلِ، ولا يتفرَّقونَ عنهم، والأمرُ في الإذنِ مفوَّضٌ إلى الإمامِ: إن شاء أذِنَ، وإن شاء لم يأذَنْ، على حسَبِ ما اقتضاه رأيُه[١]، ففي الآيةِ بَيانُ حِفظِ الأدَبِ، بأنَّ الإمامَ إذا جمعَ النَّاسَ لتدبيرِ أمرٍ مِن أمورِ المُسلِمين فينبغي ألَّا يَرجِعوا إلَّا بإذنِه، وكذلك إذا خرجوا إلى الغَزوِ، لا ينبغي لأحدٍ أن يرجِعَ إلَّا بإذنِه، أو يخالِفَ أمرَ السَّرِيَّةِ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ مِن نظامِ الجَماعاتِ في مصالحِ الأمَّةِ؛ لأنَّ مِن السُّنةِ أن يكونَ لكُلِّ اجتِماعٍ إمامٌ ورئيسٌ يديرُ أمرَ ذلك الاجتِماعِ، وقد أشارت مشروعيَّةُ الإمامةِ إلى ذلك النِّظامِ، ومِن السُّنةِ ألَّا يجتَمِعَ جماعةٌ إلَّا أمَّروا عليهم أميرًا؛ فالذي يترأَّسُ الجَمعَ هو قائِمٌ مقامَ وليِّ أمرِ المُسلِمين، فهو في مقامِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا ينصَرِفُ أحدٌ عن اجتماعِه إلَّا بعد أن يستأذِنَه؛ لأنَّه لو جُعِلَ أمرُ الانسلالِ لِشَهوةِ الحاضِرِ، لكان ذريعةً لانفِضاضِ الاجتِماعاتِ دونَ حُصولِ الفائدةِ التي جُمِعت لأجلِها، وكذلك الأدبُ أيضًا في التخَلُّفِ عن الاجتِماعِ عند الدَّعوةِ إليه؛ كاجتِماعِ المجالِسِ النيابيَّةِ والقضائيَّةِ والدينيَّةِ، أو التخَلُّفِ عن ميقاتِ الاجتماعِ المتَّفَقِ عليه إلَّا لعُذرٍ واستِئذانٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٨).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ أنَّ الأوْلَى عدَمُ الاستئذانِ حتى وإنْ كان للإنسانِ شأنٌ؛ لأنَّ الأمرَ بالاستغفارِ دليلٌ على أنَّ هناك شيئًا مِن التفريطِ الذي أُمِرَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَستغفرَ لهم عليه، وهذا صحيحٌ بلا شكٍّ؛ وأنَّ الأَولى البقاءُ مع الجماعةِ؛ وأنَّ الاستئذانَ للانصرافِ أمرٌ قد يكون فيه ذَمٌّ؛ ولهذا أَمَرَ اللهُ نبيَّه أنْ يَستغفرَ لهم؛ فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾[1]، فالانصِرافُ خِلافُ ما ينبغي؛ لأنَّه لِترجيحِ حاجتِه على الإعانةِ على حاجةِ الأمَّةِ[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضًا﴾ إذا كان هذا في خِطابِه -على قولٍ في التفسيرِ-، فهكذا في مَغيبِه؛ فلا ينبغي أن يُجعَلَ ما يُدعَى به له صلَّى الله عليه وسلَّم مِن جِنسِ ما يدعو به بعضُنا لبعضٍ، بل يُدعَى له بأشرَفِ الدُّعاءِ، وهو الصَّلاةُ عليه، ومعلومٌ أنَّ الرَّحمةَ يُدعَى بها لكُلِّ مُسلمٍ[3].

٥- تحذيرُ المتسَلِّلينَ في الأمورِ الجامعةِ بدونِ عذرٍ واستِئذانٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذًا﴾، وهذه الجملةُ وهي قولُه تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ﴾ لا شَكَّ أنَّها تحذيرٌ لهؤلاء الذين يَتَسَلَّلون، وأنَّهم سوف يُجازَونَ على هذا العَمَلِ المُحَرَّمِ[4].

٦- قَولُه تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه وجوبُ امتِثالِ أمرِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّحذيرُ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٩).

مخالفتِه[١]، وأنَّ الذي يخالِفُ عنه مُهَدَّدٌ بهذه العُقوبةِ: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢].

٧- قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مخالفةُ بعضِ أوامرِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خطأً مِن غيرِ عمدٍ، مع الاجتهادِ على متابعتِه، هذا يقعُ كثيرًا مِن أعيانِ الأمَّةِ مِن علمائِها وصلحائِها، ولا إثمَ فيه، بل صاحبُه إذا اجتهَد فله أجرٌ على اجتهادِه، وخطؤُه موضوعٌ عنه، أمَّا المبتدعُ فإنَّ عقوبتَه تغلَّظتْ على عقوبةِ العاصي؛ لأنَّ المبتدعَ مُفتَرٍ على اللهِ، مخالفٌ لأمرِ رسولِه؛ لأجْلِ هواه[٣].

٨- سُئِلَ مالِكٌ عن رجُلٍ أحرَمَ قَبلَ الميقاتِ؟ فقال: أخافُ عليه من الفِتنةِ! قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾. فقال السَّائِلُ: وأيُّ فِتنةٍ في ذلك، وإنما هي زيادةُ أميالٍ في طاعةِ اللهِ تعالى؟! قال: وأيُّ فِتنةٍ أعظَمُ مِن أن تظُنَّ أنَّك خُصِصْتَ بفِعلٍ لم يَفعَلْه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟! أو كما قال[٤].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه عُمومُ علمِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وفائدةُ ذِكرِ عُمومِ العِلمِ: التَّحذيرُ مِن المُخالفةِ؛ لأنَّ مَن عَلِم بك مُمتَثِلًا أو مُخالفًا، فسوف يُجازيك على ذلك، فإنْ كان الأمرُ هكذا، ففي كلِّ آيةٍ فيها إثباتُ العِلمِ تحذيرٌ مِن مخالفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لئلَّا يَقَعَ الإنسانُ فيما يُسخِطُ اللهَ سُبحانَه

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((الحكم الجديرة بالإذاعة)) لابن رجب (ص: ٣٣).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٣٧٥)، ((مواهب الجليل)) للحطاب (٤/ ٥٤).

وتعالى عليه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ فيه وُجوبُ استِئذانِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قبْلَ الانصرافِ عنه، في كُلِّ أمرٍ يَجتَمِعون عليه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ أنَّه إذا جُعِلَ مِن لوازمِ الإيمانِ أنَّهم لا يَذهَبونَ مَذهَبًا -إذا كانوا معه- إلَّا باستِئذانِه؛ فأَولى أنْ يكونَ مِن لوازمِه ألَّا يَذهَبوا إلى قَولٍ ولا مَذهَبٍ عِلميٍّ إلَّا بعد استئذانِه، وإذنُه يُعرَفُ بدَلالةِ ما جاء به على أنَّه أَذِنَ فيه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حُجَّةٌ على المُرجِئةِ فيما يَزعُمونَ أنَّ الأعمالَ ليست مِن الإيمانِ؛ فقد جَعَل اللهُ تعالى استِئذانَ الرَّسولِ مِن الإيمانِ؛ إذْ جَعَله في صفةِ الإيمانِ، ولم يَشهَدْ لهم به إلَّا معه[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا مِن عَظيمِ التَّنبيهِ على عَلِيِّ أمرِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وشَريفِ قَدرِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٥٠٢).

وذلك أنَّه سُبحانَه كما أمَرَهم بالاستِئذانِ عندَ الدُّخولِ عليه وعلى غيرِه، أفرَدَه بأمرِهم باستِئذانِه عندَ الانصرافِ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجعَلَ رُتبةَ ذلك تاليةً لرُتبةِ الإيمانِ باللهِ والرَّسولِ، وجعَلَهما كالتَّسبيبِ له(١).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ يدُلُّ على أنَّه سُبحانَه فوَّض إلى رَسولِه بَعضَ أمرِ الدِّينِ؛ ليَجتَهِدَ فيه برأيِه(٢).

٦- قَولُه تعالى: ﴿لِّمَن شِئۡتَ﴾ فيه تفويضُ الأمرِ إلى مَن له وِلايةٌ، ولكِنَّ هذا التَّفويضَ تفويضٌ للمَصلحةِ لا لمجرَّدِ التَّشَهِّي والإرادةِ؛ فإذا رأى أنَّ في الإذنِ لهم مَصلحةً، أذِنَ لهم، وإذا رأى أنَّ المصلحةَ في عَدَمِ الإذنِ فلا يجوزُ أن يَأذَنَ(٣).

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ﴾ فيه أنَّ الاستئذانَ بدونِ عُذرٍ لا يُقبَلُ، وإذا استأذَنوا لمجَرَّدِ أن يَتركوا العملَ، فإنَّه لا يُؤذَنُ لهم(٤).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ أنَّ وليَّ الأمرِ يجبُ عليه التَّيسيرُ على مَن تحتَ يدِه(٥).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له الإذنُ لِمن شاء، وقولُه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣] يُوهِمُ خِلافَ ذلك؟

الجوابُ ظاهِرٌ، وهو أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له الإذنُ لِمن شاء مِن أصحابِه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الذين كانوا معه على أمرٍ جامعٍ؛ كصلاةِ جُمعةٍ، أو عيدٍ، أو جماعةٍ، أو اجتِماعٍ في مشورةٍ، ونحوِ ذلك، كما بيَّنه تعالى بقَولِه: ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]، وأمَّا الإذنُ في خُصوصِ التخَلُّفِ عن الجِهادِ، فهو الذي بيَّن اللهُ لِرَسولِه أنَّ الأَولى فيه ألَّا يُبادِرَ بالإذنِ، حتى يتبيَّنَ له الصَّادِقَ في عُذرِه مِن الكاذِبِ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]؛ فلا مُنافاةَ بينَ الآياتِ. والعِلمُ عندَ الله تعالى[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ عنايةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بعبادِه المؤمِنين؛ حيث أمَرَ اللهُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَستغفِرَ لهم؛ لِيطمَئِنُّوا على هذا الانصِرافِ[٢].

١١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ فيه انتفاعُ الإنسانِ بدُعاءِ غَيرِه[٣].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ فيه تحريمُ ندائِه صلَّى الله عليه وسلَّم باسمِه، بل يُقالُ: يا رسولَ اللهِ، يا نبيَّ اللهِ. والظَّاهِرُ استِمرارُ ذلك بعد وفاتِه صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الآنَ[٤]، لكن لا على سبيلِ الاستغاثةِ والدُّعاءِ.

١٣- إنْ تَرَكَ المُسلِمُ -عالِمًا كان أو غيرَ عالمٍ- ما عَلِم مِن أمرِ اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِقَولِ غَيرِه- كان مُستحِقًّا للعذابِ؛ قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص:٧٠، ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٦).

ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[(١)].

١٤- قولُ الله تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الأمرَ المجرَّدَ عن القرائنِ يقتضي الوجوبَ؛ لأنَّه جلَّ وعلا توعَّد المخالفينَ عن أمرِه بالفتنةِ أو العذابِ الأليمِ، وحذَّرهم مِن مخالفةِ الأمرِ، وكلُّ ذلك يقتضي أنَّ الأمرَ للوجوبِ، ما لم يصرِفْ عنه صارفٌ؛ لأنَّ غيرَ الواجبِ لا يستوجبُ تركُه الوعيدَ الشديدَ والتحذيرَ[(٢)].

١٥- قال الله تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ ختَمَ السُّورةَ بتأكيدِ الأمرِ في مُتابعتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيُعلَمَ أنَّ أوامِرَه كأوامِرِ القُرآنِ[(٣)].

١٦- مَنِ استقرأ أحوالَ الفِتَنِ التي تجري بينَ المُسلِمينَ، تبيَّنَ له أنَّه ما دخَلَ فيها أحدٌ فحَمِدَ عاقبةَ دُخولِه؛ لِما يحصُلُ له مِن الضَّرَرِ في دينِه ودُنياه؛ ولهذا كانت مِن بابِ المنهيِّ عنه، والإمساكُ عنها مِن المأمورِ به الذي قال الله فيه: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(٤)].

١٧- لَمَّا افتتح اللهُ تعالى السورةَ بقَولِه تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا﴾ [النور: ١]، وذكَرَ أنواعًا مِن الأوامِرِ والحدودِ مِمَّا أنزلَه على الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ اختتَمَها بما يجِبُ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أمَّتِه؛ مِن التَّتابُعِ والتَّشايُعِ على ما فيه مَصلحةُ الإسلامِ، ومِن طلَبِ استِئذانِه إنْ عَرَض لأحدٍ منهم عارِضٌ، ومِن

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبِقاعي (١٣/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٤١٠).

توقيرِه في دُعائِهم إيَّاه[١].

١٨- قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ في هذه الآيةِ وما في معناها أحسَنُ وعدٍ للمُطيعين، وأشَدُّ وعيدٍ للعُصاةِ المُجرِمينَ[٢].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، المرادُ بالمضارعِ هنا وجودُ الوصفِ مِن غيرِ نظرٍ إلى زمانٍ، ولو عبَّر بالماضي لتُوُهِّم الاختصاصُ به[٣].

٢٠- قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ في هذه الآيةِ لَطيفةُ الاطِّلاعِ على أحوالِهم؛ لأنَّهم كانوا يَستُرون نِفاقَهم[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أراد عَزَّ وجَلَّ أنْ يُرِيَهم عِظَمَ الجِنايةِ في ذَهابِ الذَّاهبِ عن مَجلِسِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّمَ بغيرِ إذْنِه إذا كانوا معه على أمْرٍ جامعٍ، فجعَلَ ترْكَ ذَهابِهم حتَّى يَستأذِنوهُ ثالثَ الإيمانِ باللهِ والإيمانِ برسولِه،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٧).

والقاعدة: أن (قد) إذا دخلت على المضارعِ المُسْنَدِ لله تعالى فهي للتحقيقِ دائمًا. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٢).

وجعَلَهما كالتَّقديمِ والتَّوطئةِ له والبِساطِ لذِكْرِه، وذلك مع تَصديرِ الجُملةِ بـ (إنَّما)، وإيقاعِ المُؤمِنين مُبتدَأً مُخبَرًا عنه بمَوصولٍ أحاطت صِلَتُه بذِكْرِ الإيمانينِ، ثمَّ عقَّبَه بما يَزِيدُه تَوكيدًا وتَشديدًا؛ حيث أعادَه على أُسلوبٍ آخَرَ، وهو قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وضمَّنَه شيئًا آخرَ، وهو: أنَّه جعَلَ الاستئذانَ كالمِصْداقِ لِصِحَّةِ الإيمانينِ، وعرَّضَ بحالِ المُنافِقين وتَسلُّلِهم لِواذًا[1].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ استئنافٌ جِيءَ به في أواخرِ الأحكامِ السَّابقةِ؛ تَقريرًا لها، وتأكيدًا لوُجوبِ مُراعاتِها، وتَكميلًا لها ببَيانِ بعضٍ آخرَ مِن جِنْسِها، وإنَّما ذكَرَ الإيمانَ باللهِ ورسولِه في حيِّزِ الصِّلةِ للموصولِ الواقعِ خبَرًا للمُبتدَأِ مع تَضمُّنِه له قطعًا؛ تَقريرًا لِمَا قبْلَه، وتَمهيدًا لِمَا بعْدَه، وإيذانًا بأنَّه حقيقٌ بأنْ يُجعَلَ قَرينًا للإيمانِ بهما مُنتظِمًا في سِلْكِه[2].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) قصْرُ مَوصوفٍ على صِفَةٍ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ[3] قصْرَ إفرادٍ، أي: لا غيرَ أصحابِ هذه الصِّفةِ مِن الَّذين أظْهَروا الإيمانَ، ولا يَستأذِنون الرَّسولَ عندَ إرادةِ الانصرافِ[4].

- قولُه: ﴿أَمۡرٍ جَامِعٍ﴾ وصَفَ الأمْرَ بأنَّه جامِعٌ؛ للمُبالَغةِ[5].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾، أي: النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الذَّهابِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٣، ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٧).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٧).

لا على أنَّ نفْسَ الاستئذانِ غايةٌ لعدَمِ الذَّهابِ، بلِ الغايةُ هي الإذْنُ المَنوطُ برأْيِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والاقتصارُ على ذِكْرِه؛ لأنَّه الَّذي يتِمُّ مِن قِبَلِهم، وهو المُعتبَرُ في كَمالِ الإيمانِ، لا الإذْنُ ولا الذَّهابُ المُترتِّبُ عليه، واعتبارُه في ذلك؛ لأنَّه كالمِصْداقِ لصِحَّتِه، والمُميِّزِ للمُخلِصِ فيه عن المُنافِقِ؛ فإنَّ دَيدنَه التَّسلُّلُ للفِرارِ، ولتَعظيمِ ما في الذَّهابِ بغيرِ إذْنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الجِنايةِ؛ ولذلك أعادَهُ مُؤكَّدًا على أُسلوبٍ أبلَغَ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ فإنَّه يُفيدُ أنَّ المُستأذِنَ مُؤمِنٌ لا مَحالةَ، وأنَّ الذَّاهبَ بغيرِ إذْنٍ ليس كذلك[1].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ ...﴾ إلى آخرِها، تأكيدٌ لقولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ...﴾؛ لأنَّ مَضمونَ معنى هذه الجُملةِ هو مضمونُ معنَى جُملةِ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ...﴾، وقد تُفنِّنَ في نظْمِ الجُملةِ الثَّانيةِ بتغييرِ أُسلوبِ الجُملةِ الأُولى؛ فجُعِلَ مَضمونُ المُسنَدِ في الأُولى مُسنَدًا إليه في الثَّانيةِ، والمُسنَدُ إليه في الأُولى مُسنَدًا في الثَّانيةِ، ومآلُ الأسلوبينِ واحدٌ؛ لأنَّ المآلَ الإخبارُ بأنَّ هذا هو ذاك، على حدِّ: وشِعْري شِعْري؛ تَنويهًا بشأْنِ الاستئذانِ، وليُبْنَى عليها تفريعُ ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ﴾؛ لِيُعْلِمَ المُؤمنين الأعذارَ المُوجِبةَ للاستئذانِ[2]؛ فلمَّا أراد أنْ يُكرِّرَ هذا المعنى تَوكيدًا وتَقريرًا، أعاد المعنى وقلَبَه؛ حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ فأفادَ الأوَّلُ حصْرَ المُؤمنين في المُستأذِنين، والثَّاني عكْسَه؛ تَعريضًا بحالِ المُنافِقين وتَسلُّلِهم لِواذًا، وما اكْتَفى بذلك، بل أوقَعَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ خبرًا، وعقَّبَه ذِكْرَ الإيمانينِ؛ ليُؤذِنَ بأنَّ أولئك مَحقوقونَ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٧).

بأنْ يُسَمَّوا مُؤمِنين؛ لِمَا اكْتَسبوا مِن صِفَةِ الاستئذانِ، واجْتَنبوا مِن التَّسلُّلِ الَّذي هو مِن صِفَةِ المُنافِقين[١].

- وقولُه: ﴿يَسْتَـٔذِنُونَكَ﴾ فيه: الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ تَشريفًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذا الخِطابِ[٢].

- وفي التَّعبيرِ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن تَفخيمِ شأْنِ المُستأذِنينَ ما لا يَخْفى[٣]؛ فإنَّ (أولاء) اسمُ إشارةٍ يدلُّ على تعظيمِ المشارِ إليه؛ ولهذا جاء بصيغةِ البعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةً إلى علوِّ مرتبتِهم[٤].

- قولُه: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ فيه مُبالَغةٌ وتَضييقُ الأمْرِ، حيث لم يقُلْ: لشأْنِهم[٥].

- قولُه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ ذِكْرُ الاستغفارِ للمُستأذِنينَ دليلٌ على أنَّ الأحسَنَ والأفضَلَ ألَّا يُحدِّثوا أنفُسَهم بالذَّهابِ ولا يَستأذِنوا فيه؛ ففي تَعقيبِ ذلك بالاستغفارِ تَتميمٌ لمعنَى الكراهةِ منه صلواتُ اللهِ عليه في إذْنِه[٦].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَعليلٌ للمغفرةِ الموعودةِ في ضِمْنِ الأمْرِ بالاستغفارِ لهم[٧].

٢- قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨).

يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه، وفيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى خِطابِ المُسلِمين؛ لإبرازِ مَزيدِ الاعتناءِ بشأْنِه، وحثًّا على تلَقِّي الجُملةِ بنَشاطِ فَهْمٍ؛ فالخِطابُ للمُؤمنين الَّذين تحدَّثَ عنهم بقولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ ...﴾[1] [النور: ٦٢].

- وقولُه: ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ أفاد التَّعريضَ بالمُنافِقين الَّذين تمالَؤُوا بيْنهم على التَّخلُّفِ عن رسولِ اللهِ إذا دعاهم كلَّما وَجَدوا لذلك سبيلًا[2].

- قولُه: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ استئنافُ تَهديدٍ للَّذين كانوا سبَبَ نُزولِ آيةِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾ الآيةَ، أي: أولئك المُؤمِنون، وضِدُّهم المُعرَّضُ بهم ليسوا بمُؤمِنين. و﴿ قَدْ ﴾ لتَحقيقِ الخبَرِ؛ لأنَّهم يظُنُّون أنَّهم إذا تَسلَّلوا مُتَستِّرينَ لم يَطَّلِعْ عليهم النَّبيُّ، فأعلَمَهم اللهُ أنَّه عَلِمَهم، أي: أنَّه أعلَمَ رسولَه بذلك[3].

- والفاءُ في قولِه: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ...﴾ لتَرتيبِ الحذَرِ أو الأمْرِ به على ما قبْلَها مِن عِلْمِه تعالى بأحوالِهم؛ فإنَّه ممَّا يُوجِبُ الحذَرَ الْبَتَّةَ[4]. والفِعلُ المُضارِعُ ﴿ يُخَالِفُونَ ﴾ يُفِيدُ معنَى الدَّأبِ والعادةِ، وقد أُقِيمَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

المُظهَرُ مَوضِعَ المُضمَرِ مِن غيرِ لفْظِه السَّابقِ وهو قولُه: ﴿أَمْرٍ جَامِعٍ﴾؛ عِلَّةً لاستحقاقِهم فِتنةَ الدَّارينِ[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ...﴾ عُدِّيَ الفِعْلُ (خالَفَ) بـ (عَنْ) مع أنَّه يتعدَّى بنفْسِه؛ قيل: لأنَّه ضمَّنَ (خَالَفَ) معنى (أعرَضَ) أو (عدَلَ)، فعدَّاهُ تَعديتَه، أو (عن) مُتعلِّقٍ بمَحذوفٍ تَقديرُه: أو ويَعدِلون عن أمْرِه. وقيل: ﴿يُخَالِفُونَ﴾ مُتضمِّنٌ معنَى (يصُدُّون)، أي: الَّذين يصُدُّون عن أمْرِه دونَ المُؤمِنين؛ فحُذِفَ المَفعولُ لأنَّ الغرَضَ تَقبيحُ أمْرِ المُخالِفِ، وتعظيمُ أمْرِ المُخالَفِ عنه، فذكَرَ الأهمَّ، وترَكَ ما لا اهتمامَ به. وقيل: هي زائدةٌ[٢]. وقيل: حُذِفَ مَفعولُه هنا؛ لظُهورِ أنَّ المُرادَ: الَّذين يُخالِفون اللهَ، وتَعديةُ فِعْلِ المُخالَفةِ بحرفِ (عن)؛ لأنَّه ضُمِّنَ معنى الصُّدودِ، ولو تُرِكَت تَعديتُه بحرفِ جرٍّ، لَأفادَ أصْلَ المُخالَفةِ في الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ[٣]. وقيل: عدَّى ﴿يُخَالِفُونَ﴾ بـ (عن)؛ لِمَا في المُخالَفةِ مِن معنى التَّباعُدِ والحَيدِ، كأنَّه قال: الَّذينَ يَحِيدون عن أمْرِه بالمُخالَفةِ، وهو أبلَغُ مِن إذا قِيل: يُخالِفون أمْرَه[٤].

- قولُه: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه إعادةُ فِعْلِ الإصابةِ صَريحًا؛ للاعتناءِ بالتَّهديدِ والتَّحذيرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨، ١٩٩).

٣- قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ﴾ تَذييلٌ لِمَا تقدَّمَ في هذه السُّورةِ كلِّها. وافتتاحُه بحَرفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَآ﴾ إيذانٌ بانتهاءِ الكلامِ، وتَنبيهٌ للنَّاسِ لِيَعُوا ما يَرِدُ بعدَ حَرفِ التَّنبيهِ[(١)].

- وقولُه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾ فيه تَهديدٌ ووَعيدٌ. وأُدْخِلَ (قد)؛ ليُؤكِّدَ عِلْمَه بما هم عليه مِن المُخالَفةِ عن الدِّينِ والنِّفاقِ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾ تَعليقُ عِلْمِه تعالى بيَومِ رُجوعِهم لا برُجوعِهم؛ لزِيادةِ تَحقيقِ عِلْمِه تعالى بذلك، وغايةُ تَقريرِه؛ لِمَا أنَّ العِلْمَ بوقتِ وُقوعِ الشَّيءِ مُستلزِمٌ للعِلْمِ بوُقوعِه على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه، وفيه إشعارٌ بأنَّ عِلْمَه تعالى لنفْسِ رُجوعِهم مِن الظُّهورِ بحيث لا يَحتاجُ إلى البَيانِ قطْعًا[(٣)].

- والخِطابُ والغَيبةُ في قولِه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَا جميعًا للمُنافِقين على طريقِ الالْتفاتِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ عامًّا، و﴿يُرْجَعُونَ﴾ للمُنافِقين؛ فيكونَ تَسليةً ووَعْدًا بالنِّسبةِ إلى المُؤمنين، وتَهديدًا بالنِّسبةِ إلى المُنافِقين، وتَخويفًا في الدُّنيا، ووَعيدًا في العُقْبى خاصًّا في حقِّ المُنافِقين؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ يأْبَى أنْ يُنزَّلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٦، ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٩).

على المُؤمِنين؛ ولذلك غُيِّرَ التَّغليبُ في الخِطابِ بـ﴿أَنتُمْ﴾ إلى الغَيبةِ في ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ ويجوزُ أيضًا كونُ كلٍّ منهما عامًّا[١].

- وقيل على اعتبارِ العمومِ في الخطابِ والغَيبةِ: أعرَض عنهم تهويلًا للأمرِ. وعلى القول بأنَّه خاصٌّ بالمتولِّينَ المعرضينَ يكونُ ذلك إشارةً إلى أنَّهم يُناقَشون الحسابَ، ويكونُ سرُّ الالتفاتِ: التنبيهَ على الإعراضِ عن المكذِّبِ بالقيامةِ، والإقبالِ على المصَدِّقِ؛ صَونًا لنفيسِ الكلامِ، عن الجفاةِ الأغبياءِ اللئامِ[٢]، بالإضافةِ إلى أنَّ هذا الالتفاتَ فيه تنبيهٌ للمخاطَبِ، بخلافِ ما إذا كان الأُسلوبُ على نسقٍ واحدٍ[٣].

- وقولُه: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ كِنايةٌ عن الجَزاءِ؛ لأنَّ إعلامَهم بأعمالِهم لو لم يكُنْ كِنايةً عن الجزاءِ لَمَا كانت له جَدْوى[٤].

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ لأنَّه أعَمُّ منه[٥].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ التاسعَ عَشَرَ

ويليه المجلدُ العشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الفرقانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٦، ٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ النُّورِ ٧
أسماءُ السُّورةِ: ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ: ٨
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٨
موضوعاتُ السُّورةِ: ٩
الآيات (١-٣) ١٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٠
المَعنى الإجماليُّ: ١١
تَفسيرُ الآياتِ: ١١
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٦
بلاغةُ الآياتِ: ٣٣
الآيتان (٤-٥) ٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٣
المَعنى الإجماليُّ: ٤٣
تَفسيرُ الآيتينِ: ٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٠
بلاغةُ الآيتينِ: ٥٤
الآيات (٦-١٠) ٥٨

غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٨
المَعنى الإجماليُّ: ٥٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٦
بلاغةُ الآياتِ: ٧٤
الآيات (١١-١٨) ٨٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٨٠
المَعنى الإجماليُّ: ٨٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٩٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٠٤
بلاغةُ الآياتِ: ١١٣
الآيات (١٩-٢٢) ١٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٢٤
المَعنى الإجماليُّ: ١٢٦
تَفسيرُ الآياتِ: ١٢٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٤٢
بلاغةُ الآياتِ: ١٤٧
الآيات (٢٣-٢٦) ١٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٥٢

المَعنى الإجماليُّ: ١٥٢
تَفسيرُ الآياتِ: ١٥٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٦٢
بلاغةُ الآياتِ: ١٧٠
الآيات (٢٧-٢٩) ١٧٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٧٧
المَعنى الإجماليُّ: ١٧٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٧٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٨٥
بلاغةُ الآياتِ: ١٩١
الآيتان (٣٠-٣١) ١٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٩٤
المعنى الإجماليُّ: ١٩٥
تَفسيرُ الآيتينِ: ١٩٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢١٧
بلاغةُ الآيتينِ: ٢٢٩
الآيتان (٣٢-٣٣) ٢٣٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٣٤
المعنى الإجماليُّ: ٢٣٥

تَفسيرُ الآيتينِ: ٢٣٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٤٨
بلاغةُ الآيتينِ: ٢٥٩
الآيتان (٣٤-٣٥) ٢٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٦٥
المعنى الإجماليُّ: ٢٦٦
تَفسيرُ الآيتين: ٢٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٨٣
بلاغةُ الآيتينِ: ٢٨٥
الآيات (٣٦-٣٨) ٣٠٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٠٢
المعنى الإجماليُّ: ٣٠٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٠٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣١٦
بلاغةُ الآياتِ: ٣٢٠
الآيتان (٣٩-٤٠) ٣٢٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٢٦
المعنى الإجماليُّ: ٣٢٦
تَفسيرُ الآيتينِ: ٣٢٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٣٦

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٣٧
بلاغةُ الآيتينِ: ٣٣٩
الآيات (٤١-٤٦) ٣٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٤٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٤٩
المَعنى الإجماليُّ: ٣٥٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٥١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٦٨
بلاغة الآيات: ٣٧٤
الآيات (٤٧-٥٠) ٣٨٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٨٦
المَعنى الإجماليُّ: ٣٨٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٨٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٩٢
بلاغةُ الآياتِ: ٣٩٥
الآيات (٥١-٥٤) ٤٠٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٠٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٠٢
المَعنى الإجماليُّ: ٤٠٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٠٤

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤١١
بلاغةُ الآياتِ: ٤١٤
الآيات (٥٥-٥٧) ٤٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٢٣
المَعنى الإجماليُّ: ٤٢٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٢٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٣٧
بلاغةُ الآياتِ: ٤٤٥
الآيات (٥٨-٦٠) ٤٥٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٥٥
المَعنى الإجماليُّ: ٤٥٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٥٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٦٦
بلاغةُ الآياتِ: ٤٧٥
الآية (٦١) ٤٨١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٨١
المَعنى الإجماليُّ: ٤٨١
تفسيرُ الآيةِ: ٤٨٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٤٩١

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٩١
بلاغةُ الآيةِ: ٤٩٧
الآيات (٦٢-٦٤) ٥٠١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٠١
مُشكِلُ الإعرابِ: ٥٠٢
المَعنى الإجماليُّ: ٥٠٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٠٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥١٨
بلاغةُ الآياتِ: ٥٢٢
الفهرس ٥٣٣

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٢٥ درهم

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الفرقان

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الأستاذ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الأستاذ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر، قطر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد العشرون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الفرقان)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر للقرآن الكريم: المجلد العشرون: سورة الفرقان/ القسم العلمي

بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤١ هـ

٤١٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٧٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير الحديث أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤١/٤٤٣٣

رقم الإيداع: ١٤٤١/٤٤٣٣

ردمك: ٢-٧٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الفرقان)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد العشرون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ الفُرقانِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الفُرقانِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفرقان)[١].

فعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه، قال: ((سَمِعتُ هِشامَ بنَ حَكيمٍ يقرأُ سورةَ الفُرقانِ في حياةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاستمعتُ لِقراءتِه، فإذا هو يقرأُ على حُروفٍ كثيرةٍ لم يُقرِئْنيها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكِدتُ أُساوِرُه[٢] في الصَّلاةِ، فتصبَّرتُ حتى سَلَّمَ، فلبَّبْتُه[٣] بردائِه، فقلتُ: مَن أقرأَك هذه السُّورةَ التي سمِعتُك تقرأُ؟ قال: أقرأَنيها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فقلتُ: كذَبْتَ؛ فإنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أقرأَنيها على غيرِ ما قرأتَ. فانطلقتُ به أقودُه إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقلتُ: إني سمِعتُ هذا يقرأُ سورةَ الفُرقانِ على حروفٍ لم تُقرِئْنيها! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهشامٍ: اقرأْ، فقرأَ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كذلك أُنزِلَت. ثمَّ قال: اقرأْ يا عُمَرُ، فقرأتُ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كذلك أُنزِلَت، إنَّ هذا القُرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرُفٍ[٤]، .....

---

(١) سُمِّيَت سورةَ الفُرقانِ؛ لأنَّ في فاتحتِها ذِكرَ الفُرقانِ؛ في قَولِه تعالى: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٣).

(٢) أساوِرُه: أي: أُواثِبُه وأقاتِلُه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٢٠).

(٣) فلَبَّبْتُه: أي: جَمَعتُ ثيابَه عند نَحْرِه ثمَّ جَرَرْتُه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٧/ ٢٩٦).

(٤) سَبعةِ أحرُفٍ: اختُلِف في المرادِ بالأحرفِ السبعةِ على أقوالٍ كثيرةٍ، مِن أقربِها: أنَّ المرادَ سبعةُ أوجُهٍ مِن الاختلافِ لا يخرُجُ عنها، أو: سبْعُ لُغاتٍ مِن لُغاتِ العَرَبِ، أو: سبعةُ أوجهٍ مِن المعاني المتَّفقةِ بألفاظٍ مختلفةٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٦٩)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٢٦)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٦٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٥٢).

فاقرؤوا ما تيسَّرَ منه))[١].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

في سورةِ (الفرقان) سجدةُ تلاوةٍ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[٢] [الفرقان: ٦٠].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الفُرقانِ مكِّيَّةٌ[٣]، وحُكيَ الإجماعُ على ذلك[٤].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ المَقاصِدِ التي تَضمَّنَتْها سورةُ الفُرقانِ:

١- التَّنويهُ بالقُرآنِ، وإثباتُ أنَّه مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تعالى، والتَّنويهُ بالرَّسولِ المنَزَّلِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبيانُ دلائِلِ صِدقِه، والتَّنويهُ بالذين اتَّبَعوه[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٩٢) واللفظ له، ومسلم (٨١٨).

(٢) نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ حزم، وابنُ قُدامة، وابنُ حجر. يُنظر: ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٣١)، ((الكافي)) لابن قدامة (١/ ٢٧٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٥٥١).

(٣) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا ثلاثَ آياتٍ منها نزَلت بالمدينةِ؛ وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ ...﴾ [الفرقان: ٦٨] إلى قَولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]. وقيل: مَدَنيَّةٌ. وقيل: مَدَنيَّةٌ، وفيها آياتٌ مَكِّيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (٨/ ٥١٧١)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٤).

(٤) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الفيروزابادي، والبِقَاعي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣١٦).

وعزا القرطبيُّ القولَ بأنَّها مكيَّةٌ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٦).

قال ابنُ عاشور: (أُقيمَت هذه السُّورةُ على ثلاثِ دَعائِمَ:

الأُولى: إثباتُ أنَّ القُرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، والتَّنويهُ بالرَّسولِ المُنزَّلِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، =

٢- تثبيتُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَسليتُه، والتَّسْريةُ عنه[١].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ المَوضوعاتِ التي تناولَتْها سورةُ الفُرقانِ:

١- تمجيدُ اللهِ تعالى والثَّناءُ عليه، ووَصفُه بصِفاتِ الإلهيَّةِ والوَحدانيَّةِ فيها، واتِّخاذُ المُشرِكينَ مع ذلك آلهةً مِن دُونِه تعالى مخلوقةً مَوصوفةً بالعَجزِ.

٢- حِكايةُ بَعضِ أقوالِ المُشرِكينَ وشُبُهاتِهم حولَ القُرآنِ وحولَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع الرَّدِّ عليهم، ودَحْضِ شُبُهاتِهم.

٣- المُقارنةُ بيْنَ مَصيرِ المُشرِكينَ وما أعَدَّه اللهُ لهم، وبينَ ما أعَدَّه اللهُ تعالى للمؤمِنينَ.

٤- ذِكرُ جانِبٍ مِن قَصَصِ بَعضِ الأنبياءِ مع أقوامِهم.

٥- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِنَ المُشرِكينَ مِن تَطاوُلٍ عليه، وتَكذيبٍ له.

= ودلائِلِ صِدقِه، ورفِعةِ شأنِه عن أن تكونَ له حُظوظُ الدُّنيا، وأنَّه على طريقةِ غَيرِه مِنَ الرُّسُلِ، ومِن ذلك تَلقِّي قَومِه دَعوتَه بالتَّكذيبِ.

الدِّعامةُ الثَّانيةُ: إثباتُ البَعثِ والجَزاءِ، والإنذارُ بالجزاءِ في الآخرةِ، والتَّبشيرُ بالثَّوابِ فيها للصَّالِحينَ، وإنذارُ المُشرِكينَ بسُوءِ حَظِّهم يومَئذٍ، وتكونُ لهم النَّدامةُ على تكذيبِهم الرَّسولَ، وعلى إشراكِهم واتِّباعِ أئمَّةِ كُفْرِهم.

الدِّعامةُ الثَّالِثةُ: الاستِدلالُ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وتفَرُّدِه بالخَلْقِ، وتَنزيهُه عن أن يكونَ له وَلَدٌ أو شَريكٌ، وإبطالُ إلهيَّةِ الأصنامِ، وإبطالُ ما زَعَموه مِن بنُوَّةِ الملائِكةِ لله تعالى.

وافتُتِحَت في آياتِ كُلِّ دِعامةٍ مِن هذه الثَّلاثِ بجُملةِ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ إلخ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ١٦٧).

٦- الحديثُ عن بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ.

٧- عَرضُ صِفاتِ عِبادِ الرَّحمنِ، وأخلاقِهم، وعبادتِهم لرَبِّهم، ودُعائِهم له، وتضَرُّعِهم إليه.

الآيات (١-٢)

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبَارَكَ﴾: أي: تعاظَمَ، وتعالَى، وتقَدَّس، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثباتُ الشَّيءِ[١].

﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: أي: كلامَ اللهِ تعالى؛ لِفَرقِه بينَ الحقِّ والباطِلِ، وأصلُه: يدُلُّ على الفَصلِ بيْن شيئَينِ[٢].

﴿نَذِيرًا﴾: أي: مُنذِرًا مخوِّفًا، وأصلُه: يدُلُّ على التَّخويفِ[٣].

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾: أي: سَوَّاه وهَيَّأه، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنهِه ونهايتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٢)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٢).

﴿نُشُورًا﴾: أي: حياةً بعْدَ المَوتِ. وأصْلُه: يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مفتتِحًا السورةَ بالثناءِ على نفْسِه: تعاظَمَ الله، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ بَرَكاتُه، فهو الذي نزَّل القرآنَ المفرِّقَ بين الحَقِّ والباطِلِ آياتٍ بعْدَ آياتٍ، وسورةً بعدَ سورةٍ على عَبدِه مُحمَّدٍ؛ ليكونَ مُنذِرًا لجَميعِ الإنسِ والجِنِّ، وهو الذي له وحْدَه مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ، ولم يتَّخِذْ لِنَفْسِه ولدًا، ولم يكُنْ له شَريكٌ في سُلطانِه، وأوجَدَ كلَّ شيءٍ، وجعَلَه مُحكَمًا بحِكمتِه وتقديرِه، وهيَّأه لِما يصلُحُ له.

ثمَّ يُبيِّنُ انحرافَ المشركينَ، فيقول: واتَّخذ المشرِكون مِن دونِ اللهِ آلهةً لا تستطيعُ أن تخلُقَ شيئًا، وهذه الآلهةُ المزعومةُ مَخلوقةٌ لا تستطيعُ أن تدفَعَ عن نَفْسِها ضَرًّا، ولا أن تجلِبَ لِنَفسِها نَفعًا، ولا تستطيعُ أن تُميتَ أحدًا، ولا أن تُحييَه، ولا أن تبعَثَه بعدَ مَوتِه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾.

أي: تعاظَمَ الله، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ وثبتت بَرَكاتُه، فهو الذي نزَّل القرآنَ المفرِّقَ ببيانِه بيْن الحَقِّ والباطِلِ، آياتٍ بعْدَ آياتٍ، وسورةً بعدَ سورةٍ على عَبدِه مُحمَّدٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١].

﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

أي: لِيَكونَ محمَّدٌ مُنذِرًا لجَميعِ الإنسِ والجِنِّ، يحَذِّرُهم عذابَ اللهِ إن لم يُخلِصوا له العبادةَ[1].

= (١٣/ ١، ٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤).

قال ابنُ كثير: (﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ نزَّل: فعَّل، مِن التكرُّرِ والتكثُّرِ، كما قال: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾ [النساء: ١٣٦]؛ لأنَّ الكتُبَ المتقدِّمةَ كانت تنزِلُ جُملةً واحدةً، والقرآنُ نَزَل منجَّمًا مفرَّقًا مفصَّلًا آياتٍ بعدَ آياتٍ، وأحكامًا بعدَ أحكامٍ، وسُوَرًا بعدَ سُوَرٍ، وهذا أشدُّ وأبلغُ، وأشدُّ اعتناءً بمن أُنزِل عليه، كما قال في أثناءِ هذه السُّورةِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلًا * وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٢).

وقال البِقَاعي: (نزَل مفرَّقًا بحسَبِ المصالحِ؛ فسُمِّيَ لذلك فُرقانًا، ولأنَّه الفارقُ بيْن ملتبِسٍ؛ فلا يدَعُ خفاءً إلَّا بيَّنه، ولا حقًّا إلا أثبته، ولا باطلًا إلَّا نفاه ومحَقَه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٣٠).

وقال ابن عثيمين: (هذا مِن جملةِ البَرَكةِ التي هي مِن صفةِ الله سبحانه وتعالى: أنَّه نزَّل الفرقانَ على عبدِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧).

مِمَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿لِيَكُونَ﴾ عائدٌ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، ومكِّيٌّ، والرازيُّ، والقرطبيُّ، وابنُ جُزيٍّ، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (٨/ ٥١٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٦). =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف: ١٥٨].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً))(١).

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقَدَّم ذِكرُ مُنَزِّلِ الفُرقانِ سُبحانه، وذِكرُ الفُرقانِ والمنَزَّلِ عليه على طريقِ الإجمالِ؛ أتبَعَ ذلك تفصيلَه على الترتيبِ، فبدأ بوَصفِ المنَزِّلِ سُبحانه بما هو أدَلُّ دَليلٍ على إرادةِ التَّعميمِ في الرِّسالةِ لكُلِّ مَن يريدُ، فقال(٢):

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وهو اللهُ الذي له وحْدَه سُلطانُ السَّمواتِ والأرضِ، يصَرِّفُ شُؤونَهما ويدبِّرُهما وجميعَ ما فيهما(٣).

= ونسَبَ ابنُ الجوزيِّ هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١١).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٦٠).

وممَّن قال: إنَّ الضميرَ يعودُ على القرآنِ، أي: لِيَكونَ القرآنُ نذيرًا: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٨).

قال ابن عطية: (قَولُه: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ عامٌّ في كلِّ إنسيٍّ وجِنِّيٍّ عاصَرَه أو جاء بعْدَه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩).

(١) رواه البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠، ٢٠١)، =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾.

أي: ولم يتَّخِذْ لِنَفْسِه وَلدًا؛ لا عيسى، ولا عُزَيرًا، ولا الملائكةَ، ولا غيرَهم مِن خَلقِه[١].

كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾.

أي: ولم يكُنْ لله شريكٌ في مُلكِه وسُلطانِه كما يزعُمُ المُشرِكون[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

أي: وأوجَد اللهُ كلَّ شيءٍ مِن المخلوقاتِ الكبيرةِ والصَّغيرةِ، فأتقَنَه وهيَّأه لِما يَصلُحُ له، وجعَلَه مُحْكَمًا، لا تفاوُتَ فيه ولا خَللَ، على ما أراد سُبحانَه بحِكمتِه[٣].

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨، ٣١٩). =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقال سُبحانه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن كَمالَه وعظَمتَه وكَثرةَ إحسانِه، وكان ذلك مُقتَضيًا لأن يكونَ وحْدَه المحبوبَ المألوهَ المعظَّمَ، المُفرَدَ بالإخلاصِ وحْدَه لا شريكَ له؛ ناسَبَ أن يذكُرَ بُطلانَ عبادةِ ما سِواه، فقال[1]:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾.

أي: واتَّخذ المُشرِكون من دونِ اللهِ معبوداتٍ مِن الأصنامِ وغَيرِها لا تَستطيعُ أن تخلُقَ شيئًا، وهذه الآلهةُ مخلوقةٌ، بل منها ما هو مَصنوعٌ ومنحوتٌ بأيدي المُشرِكين[2]!

= قال ابن عطية: (تقديرُ الأشياءِ: هو حَدُّها بالأمكنةِ والأزمانِ والمقاديرِ، والمصلحةِ والإتقانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧). =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ [الحج: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

أي: ولا تَستطيعُ المعبوداتُ مِن دونِ اللهِ أن تدفَعَ عن نفْسِها ضَرًّا، ولا أن تجلِبَ لنَفسِها نفعًا[1].

= قال ابنُ عطية: (قَولُه: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ: يخلُقُهم اللهُ بالاختراعِ والإيجادِ، ويحتَمِلُ أن يريدَ: يخلُقُهم البشَرُ بالنَّحتِ والنِّجارةِ، وهذا التأويلُ أشَدُّ إبداءً لخَساسةِ الأصنامِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩، ٢٠٠).

ممَّن اختار المعنى الثانيَ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن أبي زمنين، والزمخشري، والبيضاوي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٦)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٦).

وممَّن جمَع بينَ المعنيينِ السَّابِقَينِ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧).

قال البقاعي: (﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: بما يُشاهَدُ فيهم مِنَ التغَيُّرِ والطَّواعِيَةِ لِمَشيئتِه سُبحانَه، ومِن ذلك أنَّ عَبَدَتَهم افتَعَلوهم بالنَّحتِ والتَّصويرِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والقرطبي، والشنقيطي. يُنظر: المصادِرُ السابِقةُ.

قال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾... ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾: لو أرادوا أن يَضُرُّوا أنفُسَهم ما ضَرُّوها، ولو أرادوا أن يدْفَعوا عنها ضَرَرًا ما دفَعوا عنها؛ ... قولُه: ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ يعني: لا يَملِكونَ أن يجُرُّوا لأنفُسِهم نَفعًا، ولا يملِكون أيضًا أن يدفَعوه عن أنفُسِهم... وإبقاءُ الآيةِ على العُمومِ أَولى، يعني: لا يَستطيعونَ شَيئًا لأنفُسِهم، وإذا كانوا لا يَستَطيعونَ ذلك لأنفُسِهم، فمِن بابِ أَولَى لا يَستطيعونَه لعابِدِيهم!). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٨، ٢٩).

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾.

أي: ولا تَستطيعُ المعبوداتُ مِن دونِ اللهِ إماتةَ حَيٍّ، ولا إحياءَ مَيِّتٍ، ولا بَعْثَه بعدَ مَوتِه[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أنَّ هذا الربَّ المُنْعِمَ المتفضِّلَ القُدُّوسَ: هو الذي أَنزلَ هذا الفرقانَ، فإذا أردتَ أن تَرقَى في درجاتِ الكمالِ، وتظفرَ بأنواعِ الإنعامِ، وتُزَكِّيَ نفْسَك الزَّكاءَ التامَّ؛ فعليك بهُدى هذا الفرقانِ، فهو بساطُ القُدُسِ، ومِعراجُ الكمالِ، ومائدةُ الإكرامِ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ لَمَّا سمَّى الله كتابَه الفُرقانَ، عَلِمْنا أنَّه به يُفرَقُ بيْنَ الحقِّ والباطلِ، وأهْلِ هذا وذاك. فهو الحَكَمُ العَدلُ، والقَولُ الفَصلُ بيْن كلِّ متنازعينِ يدَّعي كلٌّ منهما أنَّه على الحَقِّ فيما هو عليه مِن عَقدٍ أو قَولٍ أو عمَلٍ، فما تقابَلَ حقٌّ وباطلٌ، وما تعالجت حُجَّةٌ وشُبهةٌ إلَّا وفي هذا الكتابِ الحكيمِ ما يَفرُقُ ما بيْنهما. وإنما يتفاوتُ النَّاسُ في إدراكِ ذلك منه على حسَبِ ما عندَهم مِن قوةِ عِلمٍ، وصِدقِ بصيرةٍ، وحُسنِ إخلاصٍ، فعلينا -إذَنْ- أن يكون أوَّلُ فزَعِنا في الفَرقِ والفَصلِ إليه، وأن يكون أوَّلُ جُهدِنا في استجلاءِ ذلك مِن نصوصِه ومَراميه، مستعينينَ بالسُّنَّةِ القوليَّةِ والعمليَّةِ على استخراجِ لآليه، فإذا حكَمَ قَبِلْنا وسَلَّمْنا، وكنَّا مع ما حكَمَ له، وفارَقْنا ما حكَم عليه؛ فالله سمَّاه الفرقانَ لِنَعلمَ أنَّه فارِقٌ بنفْسِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٥٤).

ولِنَعملَ بالفَرقِ به، ولا يَكمُلُ إيمانُنا بأنَّه الفرقانُ إلَّا بالعلمِ والعمَلِ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ نستفيدُ مِن النَّاحيةِ المسلكيَّةِ التربويَّةِ: أن تتأكَّدَ وتزدادَ محبَّتُنا لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيث كان عبدًا لله، قائِمًا بإبلاغِ الرِّسالةِ، وإنذارِ الخَلقِ[٢].

٤- نَستفيدُ مِن قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا أراد أنْ تتبينَ له الأمورُ، فلْيَرجِعْ إلى القُرآنِ؛ لأنَّ اللهَ سمَّاه فُرقانًا[٣]، فكما أنَّه فُرقانٌ بذاتِه يَفرُقُ، فإنَّ مَن كان مِن أهلِه ولازَمَه وعَمِلَ به، أُوتيَ هذه الصِّفةَ، وصار له تَفريقٌ بين الحَقِّ والباطِلِ؛ لِقَولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[٤] [الأنفال: ٢٩].

٥- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ لَمَّا جَعَلَ تعالى غايةَ تنزيلِ الفُرقانِ أنْ يكونَ عبْدُه نذيرًا، اقتضى ذلك أنَّ نِذارتَه تكونُ بالقُرآنِ؛ لتَقومَ الحُجَّةُ، وتتِمَّ الحِكمةُ، وتحصُلَ الفائدةُ، وتشمَلَ النعمةُ، وقد صُرِّحَ بهذا في قَولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢]، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ فعلينا -إذَنْ- أن نَعلَمَ أنَّ القرآنَ هو كتابُ النِّذارةِ والهدايةِ، فنستخرجَ أصولَها وفُنونَها مِن آياتِه، وهذا حظُّ العِلمِ؛ وأن يكونَ اهتداؤنا في أنفُسِنا وهديُنا لغيرِنا به، وهذا حظُّ العمَلِ، وهما رُكنا الإيمانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٥٥).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾ فِعلٌ مختَصٌّ بالله تعالى لم يُستعمَلْ في غَيرِه[١]، فلا يقالُ لغيرِ الله: (تَبارَك)[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ لمَّا قال تعالى أولًا: ﴿تَبَارَكَ﴾ ومعناه كثرةُ الخيرِ والبَرَكةِ، ثمَّ ذكَرَ عَقِبَه أمرَ القرآنِ؛ دلَّ ذلك على أنَّ القُرآنَ مَنشأُ الخيراتِ، وأعمُّ البَرَكاتِ[٣]. وأيضًا فإسنادُه ﴿تَبَارَكَ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، يدُلُّ على أنَّ إنزالَه الفُرقانَ على عبدِه مِن أعظَمِ البَرَكاتِ والخَيراتِ والنِّعَمِ التي أنعَمَ بها على خَلقِه[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ تكلَّمَ الله سُبحانَه وتعالى في هذه السُّورةِ في التَّوحيدِ والنبوَّةِ وأحوالِ القيامةِ، ثم خَتَمها بذكرِ صفاتِ العبادِ المُخلِصينَ الموقِنينَ، ولمَّا كان إثباتُ التوحيدِ يجبُ أنْ يكونَ مُقَدَّمًا على الكُلِّ؛ لا جَرَم افتتحَ اللهُ هذه السُّورةَ بذلك[٥].

٤- اللهُ سُبحانَه قد أقام الحُجَّةَ على خَلقِه بكتابِه ورُسُلِه، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، وقال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فكلُّ مَن بلَغَه هذا القرآنُ فقد أُنذِرَ به، وقامت عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٨).

حُجَّةُ اللهِ به[١].

٥- قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فافتتح هذه السُّورةَ بأنَّه تعالَى مُنَزَّهٌ في صفاتِه عن النَّقائصِ، كثيرُ الخيرِ، ومِن خَيرِه أنَّه نَزَّلَ الفُرقانَ على رسولِه مُنْذِرًا لهم؛ فكانَ في ذلك إطماعٌ في خَيرِه، وتحذيرٌ مِن عِقابِه[٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ كالتَّنبيهِ على أنَّه لا التفاتَ إلى المنافعِ العاجلةِ؛ وذلك لأنَّه سُبحانَه لَمَّا وَصَفَ نفْسَه بأنه الذي يُعطي الخيراتِ الكثيرةَ لم يَذْكُرْ إلَّا منافعَ الدِّينِ، ولم يَذْكُرِ البتَّةَ شيئًا مِن منافعِ الدُّنيا[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، في إيثارِ اسمِ ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ بالذِّكْرِ هنا إيماءٌ إلى أنَّ ما سيُذْكَرُ مِن الدَّلائلِ على الوحدانيَّةِ وإنزالِ القرآنِ دلائلُ قيِّمَةٌ تُفَرِّقُ بيْنَ الحقِّ والباطلِ[٤].

٨- قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فيه أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ إذا أضاف إنزالَ شيءٍ إليه، ولم يكُنْ عينًا قائمًا بذاتِه ولا صفةً في عينٍ قائمةٍ بذاتِها؛ لزِم أن يكونَ صفةً مِن صفاتِ الله، فتعيَّن أن يكونَ كلامًا لله تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٧٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٢، ١٨).

٩- قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ هذه صِفةُ مَدحٍ وثَناءٍ؛ لأنَّ اللهَ أضاف نَبيَّه إلى عُبُوديَّتِه[١]. وقد وَصَف اللهُ تعالى أكرَمَ خَلْقِه عليه، وأعلاهم عِندَه مَنزِلةً بالعُبوديَّةِ في أشرَفِ مَقاماتِه؛ فذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ إنزالِ الكِتابِ عليه، فقال تبارك تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، وذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ التحَدِّي بأن يأتُوا بمِثْلِه في قَولِه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، وذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ الدَّعوةِ إليه، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ الإسراءِ، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[٢] [الإسراء: ١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ إشارةٌ إلى كثرةِ المستحقِّينَ للنِّذارةِ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ إثباتُ الحكمةِ في أفعالِ اللهِ تعالى؛ لِقَولِه: ﴿لِيَكُونَ﴾؛ لأنَّ «اللامَ» في قَولِه: ﴿لِيَكُونَ﴾ للتَّعليلِ، فإذا كانت للتعليلِ دلَّ هذا على أنَّها تفيدُ الحِكمةَ؛ إذِ العلَّةُ هي الباعثةُ على الشَّيءِ، أو هي غايةُ الشَّيءِ؛ لأنَّ العلةَ إمَّا غائيَّةٌ أو باعثةٌ، وكلٌّ منها يدُلُّ على الحِكمةِ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ في السَّماءِ، ووجهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨).

الدَّلالةِ: أنَّ النُّزولَ يكونُ مِن عُلُوٍّ؛ وإذا كان اللهُ نَزَّلَ الفُرقانَ، فإنَّ هذا يدُلُّ على عُلُوِّ اللهِ تبارك وتعالى[١].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أنَّ القُرآنَ كلَّه واضِحٌ صَريحٌ ليس فيه إشكالٌ؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يكونَ فُرقانًا إلَّا على هذا الوجهِ، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] فالمرادُ بالتَّشابُهِ فيه ليس اشتباهَ المَعنى، بل هو الموافَقةُ والمُشاكَلةُ في الكَمالِ والحُسنِ[٢].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ يدُلُّ على عمومِ رسالتِه صلَّى الله عليه وسلَّم للأسودِ والأحمرِ، والجنِّ والإنسِ؛ لدخولِ الجميعِ في قولِه تعالى: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٣]، فهو يتناوَلُ جميعَ المكلَّفِينَ مِن الجِنِّ والإنْسِ[٤].

ويَبطُلُ بهذا قولُ مَن قال: إنَّه كان رسولًا إلى بعضِ الناسِ دونَ بعضٍ[٥]، فمَن قال: إنَّه رسولٌ إلى العَرَبِ فقط، فإنَّه كافرٌ به[٦].

١٥- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، دلَّتِ الآيةُ على أنَّه رَسولٌ للخَلْقِ إلى يَومِ القيامةِ؛ فوَجَبَ أنْ يكونَ خاتَمَ الأنبياءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣).

(٤) أمَّا الملائِكةُ فقد حكى الرازيُّ الإجماعَ على أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يكُنْ رَسولًا إلى الملائكةِ، وقد قدَح في هذا الإجماعِ البِقَاعيُّ في ((نظم الدرر)) (٧/ ٧٠) و(١٣/ ٣٣٢). ويُنظر تفصيلُ المسألةِ، والخلافُ فيها في رسالةِ: ((تزيين الأرائكِ في إرسالِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الملائكِ)) للسيوطيِّ.

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨).

والرُّسُلِ[١].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فضْلُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حيثُ كُلِّفَ الرِّسالةَ إلى جميعِ الخَلقِ؛ لأنَّ هذا دَليلٌ على فضْلِه، وأنَّه أهلٌ لهذه المهِمَّةِ العظيمةِ؛ فلو أَرسلتَ إنسانًا لِيُصلحَ بيْن شخصينِ فهذا دليلٌ على فضْلِه، لكنْ لو أرسلتَ إنسانًا لِيُصلِحَ بيْن طائفتينِ أو أُمَّتَينِ فهذه زيادةُ فضلٍ؛ ولذلك لا يُرسَلُ لهذه المهمَّةِ الأخيرةِ إلَّا مَن هو جديرٌ بها، فكَوْنُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُرسِلَ لجميعِ الخَلقِ دَليلٌ على فَضلِه؛ حيث حُمِّل الرِّسالةَ إلى جَميعِ الخَلقِ[٢].

١٧- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۞ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فذكَرَ الله سُبحانه وتعالى إنزالَ الفُرقانِ، وهو تشريعٌ وتَنظيمٌ، ثمَّ أعقَبَه بقَولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه يجِبُ العمَلُ بما جاء في هذا الفرقانِ؛ لأنَّه جاء مِن مالكِ السَّمواتِ والأرضِ، والمالِكُ له حَقُّ التصَرُّفِ في مملوكِه، بأنْ يُشَرِّعَ له ما شاء، ويُنَظِّمَ له ما شاء، وهذه هي الفائدةُ مِن قَولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بعْدَ قَولِه: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، فأتى بالتَّشريعِ أوَّلًا، أو بدُستورِ التَّشريعِ كما يقولون، ثمَّ أتى بعْدَ ذلك بعُمومِ المُلكِ؛ لأنَّه عزَّ وجَلَّ إذا كان هو المالِكَ العامَّ للسَّمواتِ والأرضِ، لَزِمَ أن يكونَ ما شَرَعه حتمًا على المملوكينَ[٣].

١٨- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠).

﴿شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أثنى جلَّ وعلا على نفْسِه في هذه الآيةِ الكريمةِ بخَمسةِ أُمورٍ، هي أدِلَّةٌ قاطِعةٌ على عَظَمتِه واستحقاقِه وحْدَه لإخلاصِ العبادةِ له:

الأوَّلُ منها: أنَّه هو الذي له مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ.

والثاني: أنَّه لم يتَّخِذْ ولَدًا- سُبحانَه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كَبيرًا.

والثالثُ: أنَّه لا شريكَ له في مُلكِه.

والرابعُ: أنَّه هو خالِقُ كُلِّ شَيءٍ.

والخامسُ: أنَّه قَدَّر كُلَّ شَيءٍ خَلَقه تقديرًا[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الاشتراكَ في المِلكِ ينافي حقيقةَ المِلكِ التامَّةَ التي لا يَليقُ به غيرُها[٢].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فيه ردٌّ على مُشْركي قُريشٍ، وعلى النَّصارى واليهودِ النَّاسبينَ للهِ الولَدَ[٣].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّه سُبحانَه خالقٌ لأعمالِ العِبادِ، وهذا مِن وجهينِ:

الأول: أنَّ قولَه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يتناوَلُ جميعَ الأشياءِ؛ فيتناولُ أفعالَ العبادِ.

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٠).

والثاني: أنَّه تعالى بعْدَ أنْ نفَى الشريكَ ذَكَر ذلك، والتقديرُ أنَّه سُبحانَه لَمَّا نفَى الشريكَ كأنَّ قائلًا قال: هاهنا أقوامٌ يَعترفون بنَفيِ الشُّركاءِ والأندادِ، ومع ذلك يقولون: إنَّهم يَخلقون أفعالَ أنفسِهم؛ فذَكَرَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ لتكونَ مُعينةً في الرَّدِّ عليهم[١].

٢٢- قَولُه تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ إنْ كان الخلْقُ بمعنى التَّقديرِ، فكيف جاء ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾؛ إذ يَصيرُ المعنى: وقدَّرَ كلَّ شَيءٍ يُقدِّرُه تقديرًا، وكيف جمَعَ بيْنهما؟

الجوابُ: أنَّ الخلْقَ مِن اللهِ هو الإيجادُ؛ فصَحَّ الجمْعُ بيْنه وبيْن التَّقديرِ، والمعنى أنَّه أحدَثَ كلَّ شَيءٍ إحداثًا مُراعًى فيه التَّقديرُ والتَّسويةُ، فقدَّرَه وهيَّأَهُ لِمَا يَصلُحُ له. أو سمَّى إحداثَ اللهِ خلْقًا؛ لأنَّه لا يُحدِثُ شيئًا -لحِكْمتِه- إلَّا على وَجْهِ التَّقديرِ مِن غيرِ تفاوُتٍ، فإذا قِيل: خلَقَ اللهُ كذا، فهو بمَنزلةِ قولِك: أحدَثَ وأوجَدَ، مِن غيرِ نظَرٍ إلى وَجهِ الاشتقاقِ، فكأنَّه قِيل: وأوجَدَ كلَّ شيءٍ، فقدَّرَهُ في إيجادِه لم يُوجِدْه مُتفاوِتًا. وقيل: فجعَلَ له غايةً ومُنتهًى، ومعناهُ: فقدَّرَه للبقاءِ إلى أمدٍ معلومٍ، ولو سُلِّمَ أنَّه التَّقديرُ، فساغ الجمْعُ بيْنهما لاختلافِهما لفظًا[٢].

٢٣- قَولُه تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ يُستدَلُّ به على أنَّ فِعلَ العَبدِ مَخلوقٌ لله تعالى؛ لأنَّه تعالى عابَ هؤلاء الكفَّارَ مِن حيثُ عَبَدوا ما لا يَخلقُ شَيئًا، وذلك يدُلُّ على أنَّ مَن خَلَقَ يَستحقُّ أن يُعبَدَ، فلو كان العبدُ خالِقًا لكان مَعبودًا إلهًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٠، ٨١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٤٧).

٢٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ لَمَّا اعتَقَد المُشرِكون فيها أنَّها تضُرُّ وتنفَعُ، عبَّر عنها كما يعبَّرُ عمَّا يعقِلُ[١].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَسوقَ للخَصمِ ما يُقِرُّ به لُزومًا؛ حتى تقومَ الحُجَّةُ عليه، فهؤلاء الذين جَعَلوها آلهةً لا يمكِنُ أنْ يَدَّعوا أنَّها تخلُقُ، ولا يمكِنُ أنْ يَدَّعوا أنَّها غيرُ مخلوقةٍ[٢].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ حُجَّةٌ على مَن يَرُدُّ مَشيئةَ العبادِ إلى أنفُسِهم؛ إذْ لو كانتِ المشيئةُ إليهم لكانوا مالِكينَ لضَرِّهم ونَفْعِهم، وقد نفاهما اللهُ تعالى عنهم، كما نفَى عنهم الموتَ والحياةَ والنُّشورَ[٣].

٢٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على البَعثِ؛ لأنَّه تعالى ذَكَرَ النُّشورَ، ومعناه أنَّ المعبودَ يجبُ أنْ يكونَ قادرًا على إيصالِ الثَّوابِ إلى المُطيعينَ، والعقابَ إلى العُصاةِ، فمَن لا يكونُ كذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٣).

قال ابنُ تيميَّة: (إنَّ العَبدَ له مَشيئةٌ، وهي تابِعةٌ لِمَشيئةِ اللهِ، كما ذكَرَ اللهُ ذلك في عِدَّةِ مَواضِعَ مِن كتابِه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥-٥٦]، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ [المزمل: ١٩]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩]). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٣٧٤).

وقال أيضًا: (له مَشيئةٌ لكُلِّ ما يَفعَلُه باختيارِه مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وكُلُّ ذلك إنَّما يكونُ بمَشيئةِ اللهِ وقُدرتِه؛ فلا بُدَّ مِن الإيمانِ بهذا وهذا). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٢٤٠).

وَجَبَ ألَّا يَصلُحَ للإلهيَّةِ[١].

٢٨- قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ زيَّف الله تعالى فيه مذهَبَ عَبَدةِ الأوثانِ، وبيَّنَ نُقصانَها مِن وجوهٍ:

أحدُها: أنَّها ليستْ خالقةً للأشياءِ؛ والإلهُ يجبُ أنْ يكونَ قادرًا على الخلْقِ والإيجادِ.

وثانيها: أنَّها مخلوقةٌ؛ والمخلوقُ محتاجٌ؛ والإلهُ يجبُ أنْ يكونَ غنيًّا.

وثالثُها: أنَّها لا تَملِكُ لأنفُسِها ضرًّا ولا نفعًا؛ ومَن كان كذلك فهو لا يملكُ لغيرِه أيضًا نفعًا؛ ومَن كان كذلك فلا فائدةَ في عبادتِه.

ورابعُها: أنَّها لا تملكُ موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، أي: لا تَقدِرُ على الإحياءِ والإماتةِ في زمانِ التكليفِ، وثانيًا في زمانِ المجازاةِ، ومَن كان كذلك كيف يسمَّى إلهًا؟! وكيف يَحْسُنُ عبادتُه مع أنَّ حقَّ مَن يحقُّ له العبادةُ أنْ يُنْعِمَ بهذه النِّعَمِ المخصوصةِ[٢]؟!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ افتتاحٌ بديعٌ؛ لِنُدرةِ أمثالِه في كَلامِ بُلغاءِ العرَبِ؛ لأنَّ غالبَ فواتحِهم أنْ تكونَ بالأسماءِ مُجرَّدةً أو مُقترِنةً بحرفٍ غيرِ مُنفصِلٍ، أو بأفعالِ المُضارَعةِ ونحوِها، أو بحروفِ التَّأكيدِ أو الاستفهامِ أو التَّنبيهِ، مثْلُ (إنَّ) و(قد) والهمزةِ و(هَلْ). وبهذه النُّدرةِ يكونُ في طالعِ هذه السُّورةِ بَراعةُ المَطلَعِ؛ لأنَّ النُّدرةَ مِن العِزَّةِ، والعِزَّةُ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٤٣١).

مَحاسنِ الألفاظِ، وضِدُّها الابتذالُ[١].

- وقولُه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ...﴾ على القولِ بأنَّه إخبارٌ عن عَظَمةِ اللهِ، وتوفُّرِ كَمالاتِه؛ فيكونُ المقصودُ به التَّعليمَ والإيقاظَ، ويجوزُ مع ذلك أنْ يكونَ كِنايةً عن إنشاءِ ثَناءٍ على اللهِ تعالى؛ أنشَأَ اللهُ به ثَناءً على نفْسِه كقولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، على طريقةِ الكلامِ العربيِّ في إنشاءِ التَّعجُّبِ مِن صِفاتِ المُتكلِّمِ في مَقامِ الفخرِ والعظَمةِ، أو إظهارِ غرائبَ صدَرَتْ[٢].

- كلمةُ ﴿تَبَارَكَ﴾ لا تُستعمَلُ إلَّا للهِ بلَفظِ الماضي، وقد ذُكِرَت في هذه السُّورةِ في ثلاثةِ مواضِعَ؛ تَعظيمًا للهِ تعالى، وخُصَّتْ مَواضُعها بذِكْرِها؛ لِعِظَمِ ما بعْدَها:

الأوَّلُ: ذِكْرُ الفُرقانِ، وهو القُرآنُ، المُشتمِلُ على معاني جميعِ كُتبِ اللهِ.

والثَّاني: ذِكْرُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُخاطَبةُ اللهِ له فيه.

والثَّالثُ: ذِكْرُ البُروجِ، والشَّمسِ والقمَرِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، ولولاها -بعْدَ اللهِ- لَمَا وُجِدَ في الأرضِ حيوانٌ ولا نَباتٌ[٣].

- قَولُه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ فيه إبرازُ تَنزيلِ الفُرقانِ في مَعْرِضِ الصِّلةِ الَّتي حَقُّها أنْ تكونَ مَعلومةَ الثُّبوتِ للمَوصولِ عندَ السَّامعِ مع إنكارِ الكَفَرةِ له؛ لإجرائِه مُجْرى المَعلومِ المُسلَّمِ؛ تَنبيهًا على كَمالِ قُوَّةِ دَلائلِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٥، ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٢، ٤٠٣).

وكونِه بحيثُ لا يَكادُ يَجْهلُه أحدٌ[١]. والموصولُ ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ﴾ يُومِئُ إلى عِلَّةِ ما قبْلَه؛ فهو كِنايةٌ عن تَعظيمِ شأْنِ الفُرقانِ وبَرَكتِه على النَّاسِ مِن ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، فتلك مِنَّةٌ عظيمةٌ تُوجِبُ الثَّناءَ على اللهِ. وهو أيضًا كِنايةٌ عن تَعظيمِ شأْنِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

- وقولُه: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾، أي: المُفرَّقَ -على أحدِ القولينِ في التفسيرِ-، وجاء في أثناءِ السُّورةِ بعْدَ آياتٍ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: أنزَلْناهُ مُفرَّقًا، كذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾؛ فيكونُ وصْفُه بالفُرقانِ في أوَّلِ السُّورةِ -واللهُ أعلَمُ- كالمُقدِّمةِ والتَّوطئةِ لِمَا يأْتي بعْدُ[٣].

- ووَصْفُ النَّبيِّ بـ ﴿عَبْدِهِۦ﴾ تَقريبٌ له، وتَمهيدٌ لإبطالِ طلَبِهم منه في قولِه: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧] الآيةَ[٤]. وإيرادُه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أيضًا بذلك العُنوانِ؛ لتَشريفِه، والإيذانِ بكَونِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أقصى مَراتبِ العُبوديَّةِ، والتَّنبيهِ على أنَّ الرَّسولَ لا يكونُ إلَّا عبْدًا للمُرسِلِ؛ ردًّا على النَّصارى[٥].

- قَولُه: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فيه تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على عامِلِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري – حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠).

لمُراعاةِ الفواصلِ[١].

- وفي قولِه: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث اقتصَرَ في وصْفِ الرَّسولِ هنا على النَّذيرِ دونَ البشيرِ، كما في قولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]؛ لأنَّ المقامَ هنا لتَهديدِ المُشركينَ؛ إذ كذَّبوا بالقُرآنِ وبالرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فكان مُقْتضيًا لذِكْرِ النِّذارةِ دونَ البِشارةِ، وفي ذلك اكتِفاءٌ؛ لأنَّ البِشارةَ تَخطُرُ ببالِ السَّامعِ عندَ ذِكْرِ النِّذارةِ. وسيَجِيءُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ في هذه السُّورةِ [الآية: ٥٦][٢]؛ ففي اختصاصِ النَّذيرِ دونَ البشيرِ سُلوكُ طريقِ بَراعةِ الاستهلالِ، والإيذانُ بأنَّ هذه السُّورةَ مُشتمِلةٌ على ذِكْرِ المُعانِدينَ المُتَّخِذينَ للهِ ولدًا وشريكًا، الطَّاعنينَ في كُتبِه ورُسلِه واليومِ الآخِرِ[٣]. وقيل: اقتصرَ على النِّذارةِ؛ للإشارةِ إلى البِشارةِ بلفظِ ﴿تَبَارَكَ﴾[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ على القولِ بأنَّ مَحلَّه الرَّفعُ على أنَّه خبرٌ لمُبتدأٍ مَحذوفٍ؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ مُقرِّرةٌ لِمَا قبْلَها[٥]. وعلى أنَّ قولَه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بدَلٌ مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١]؛ فإعادةُ اسمِ الموصولِ لاختلافِ الغرَضِ مِن الصِّلتينِ؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠١).

الصِّلةَ الأُولى في غرَضِ الامتِنانِ بتَنزيلِ القُرآنِ للهُدى، والصِّلةَ الثَّانيةَ في غرَضِ اتِّصافِ اللهِ تعالى بالوَحدانيَّةِ(٦).

- وقولُه: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ توطئةٌ وتَمهيدٌ لقولِه: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، وأردَفَه بقولِه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾؛ لأنَّ كَوْنَه بَديعَ السَّمواتِ والأرضِ، ومُفطِرَهما، ومالِكَهما، مُنافٍ لاتِّخاذِ الولَدِ والشَّريكِ(٧).

- وقد أُجْرِيَت على اسمِ اللهِ تعالى هذه الصِّفاتُ الأربعُ -﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾- بطريقِ تَعريفِ الموصوليَّةِ؛ لأنَّ بعضَ الصِّلاتِ مَعروفٌ عندَ المُخاطَبينَ اتِّصافُ اللهِ به، وهما الصِّفتانِ الأُولى والرَّابعةُ؛ وإذ قد كانَتَا مَعلومتينِ كانت الصِّلتانِ الأُخْرَيانِ المذْكورتانِ معهما في حُكْمِ المعروفِ؛ لأنَّهما أُجْرِيَتا على مَن عُرِفَ بالصِّلتينِ الأُولى والرَّابعةِ؛ فإنَّ المُشركين ما كانوا يَمتَرُون في أنَّ اللهَ هو مالِكُ السَّمواتِ والأرضِ، ولا في أنَّ اللهَ هو خالِقُ كلِّ شيءٍ، كما في قولِه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ الآياتِ [٨٦، ٨٧] مِن سُورةِ (المؤمنون)، ولكنَّهم يُثبِتون للهِ ولدًا وشريكًا في المُلْكِ. ومِن بَديعِ النَّظمِ أنْ جُعِلَ الوَصفانِ المُختلَفُ فيهما معهم مُتوسِّطَينِ بيْنَ الوصفينِ اللَّذينِ لا مِريةَ فيهما؛ حتَّى يكونَ الوَصفانِ المُسلَّمينِ كالدَّليلِ أوَّلًا، والنَّتيجةِ آخِرًا؛ فإنَّ الَّذي له مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ لا يَلِيقُ به أنْ يَتَّخِذَ ولدًا، ولا أنْ يَتَّخِذَ

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨).

(٧) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٨).

شَريكًا؛ لأنَّ مُلْكَه العظيمَ يَقْتضي غِناهُ المُطْلَقَ، فيَقْتضي أنْ يكونَ اتِّخاذُه ولدًا وشريكًا عبثًا؛ إذ لا غايةَ له، وإذا كانت أفعالُ العُقلاءِ تُصانُ عن العبَثِ؛ فكيف بأفعالِ أحكَمِ الحُكماءِ تعالى وتقدَّسَ[١]؟!

- ونظَمَ قولَه: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ في سِلْكِ الصِّلةِ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾؛ للإيذانِ بأنَّ مَضمونَه مِن الوُضوحِ والظُّهورِ بحيثُ لا يَكادُ يَجْهَله جاهِلٌ، لا سيَّما بعدَ تَقريرِ ما قبْلَه[٢].

- قَولُه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ تأكيدٌ لقولِه: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وردٌّ على مَن جعَل لله شريكًا[٣]. وتَوسيطُ نفْيِ اتِّخاذِ الولدِ بيْنَهما؛ للتَّنبيهِ على استقلالِه وأصالَتِه، والاحترازِ عن تَوهُّمِ كونِه تَتِمَّةً للأوَّلِ[٤].

- قَولُه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ الجُملةُ جاريةٌ مَجْرى التَّعليلِ لِمَا قبْلَها مِن الجُمَلِ المُنتظِمةِ مِثْلِها في سِلْكِ الصِّلةِ؛ فإنَّ خَلْقَه تعالى لجَميعِ الأشياءِ على ذلك النَّمطِ البديعِ -كما يَقْتضي استقلالَه تعالى باتِّصافِه بصِفاتِ الأُلوهيَّةِ- يَقْتضي انتظامَ كلِّ ما سِواهُ كائنًا ما كان تحت مَلكوتِه القاهرِ، بحيثُ لا يَشِذُّ عنها شَيءٌ مِن ذلك قطْعًا، وما كان كذلك كيف يُتوَّهَمُ كونُه ولدًا له سُبحانه أو شَريكًا في مُلْكِه[٥]؟!

- وفرَّعَ على (خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) قولَه: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾؛ لأنَّه دليلٌ على إتْقانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الخلْقِ إتقانًا يدُلُّ على أنَّ الخالقَ مُتَّصِفٌ بصِفاتِ الكَمالِ[١].

- وقولُه: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ فيه تأكيدُ الفِعْلِ ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿تَقۡدِيرٗا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه تقديرٌ كاملٌ في نَوعِ التَّقاديرِ[٢].

- وما جاء مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا بَراعةُ استهلالٍ بأغراضِها، وهو يَتنزَّلُ مَنزِلةَ خُطبةِ الكِتابِ أو الرِّسالةِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾

- قولُه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾ استطرادٌ لانتهازِ الفُرصةِ لوَصفِ ضَلالِ أهْلِ الشِّركِ، وسَفالةِ تَفكيرِهم؛ فهو عطفٌ على جُملةِ: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الفرقان: ٢] وما تلاها ممَّا هو استِدلالٌ على انفرادِه تعالى بالإلهيَّةِ، وأُرْدِفَت بقولِه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الفرقان: ٢] الشَّاملِ لِكَونِ ما اتَّخَذوه مِن الآلهةِ مَخلوقاتٍ؛ فكان ما تقدَّمَ مُهيِّئًا للتَّعجيبِ مِن اتِّخاذِ المُشرِكين آلهةً دونَ ذلك الإلهِ المَنعوتِ بصِفاتِ الكَمالِ والجلالِ؛ فالخبَرُ غيرُ مَقصودٍ به الإفادةُ، بلْ هو للتَّعجُّبِ مِن حالِهم: كيف قابَلوا نِعمةَ إنزالِ الفُرقانِ بالجَحدِ والطُّغيانِ، وكيف أشْرَكوا بالَّذي تلك صِفاتُه آلهةً أُخرى، صِفاتُهم على الضِّدِّ مِن صِفاتِ مَن أشْرَكوهم به؟! وإلَّا فإنَّ اتِّخاذَ المُشرِكين آلهةً أمرٌ معلومٌ لهم وللمُؤمِنينَ؛ فلا يُقصَدُ إفادتُهم لحُكْمِ الخبرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ فيه إضمارٌ في مَوضعِ الإظهارِ، والإضمارُ مِن غَيرِ جَرَيانِ ذِكْرِهم؛ للثِّقةِ بدَلالةِ ما قبْلَه مِن نفْيِ الشَّريكِ عليهم[١].

- وذكَرَ في هذه الآيةِ مِن أقوالِهم المُقابِلةِ للجُمَلِ الموصوفِ بها اللهُ تعالى؛ اهتمامًا بإبطالِ كُفْرِهم المُتعلِّقِ بصِفاتِ اللهِ؛ لأنَّ ذلك أصْلُ الكُفرِ ومادَّتُه[٢]؛ فجُملةُ: ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ مُقابِلةٌ جُملةَ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٢]. وجُملةُ: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ مُقابِلةٌ جُملةَ: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الفرقان: ٢]؛ لأنَّ ولَدَ الخالقِ يجِبُ أنْ يكونَ مُتولَّدًا منه، فلا يكونُ مَخلوقًا. وجُملةُ: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ مُقابِلةٌ جُملةَ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢]؛ لأنَّ الشَّرِكةَ في المُلْكِ تَقْتضي الشَّرِكةَ في التَّصرُّفِ. وجُملةُ: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ مُقابِلةٌ جُملةَ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]؛ لأنَّ أعظَمَ مَظاهِرِ تَقديرِ الخلْقِ هو مَظهَرُ الحياةِ والموتِ، وذلك مِن المُشاهَداتِ. وأمَّا قولُه: ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ فهو تكميلٌ لِقَرْعِ المُشركينَ نُفاةِ البَعثِ؛ لأنَّ نفْيَ أنْ يكونَ الآلهةُ يَمْلِكون نُشورًا يَقْتضي إثباتَ حَقيقةِ النُّشورِ في نفْسِ الأمْرِ؛ إذ الأكثَرُ في كلامِ العرَبِ أنَّ نَفْيَ الشَّيءِ يَقْتضي تحقُّقَ ماهيَّتِه[٣].

- قولُه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فيه وَصْفُ الآلهةِ بانتفاءِ إنشائِهم شيئًا مِن الأشياءِ؛ إشارةً إلى انتفاءِ القُدرةِ بالكُلِّيَّةِ، ثمَّ بأنَّهم مَخلوقونَ للهِ ذاتًا، أو مَصْنوعون بالنَّحتِ والتَّصويرِ على شكْلٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣١٩، ٣٢٠).

مَخصوصٍ، وهذا أبلَغُ في الخَساسةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قاله هنا بالضَّميرِ: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، وقالَه في سُورةِ (مُريمَ) و(يسَ) بلفْظِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ فقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]، وقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤]؛ مُوافَقةً لِمَا قبْلَه في المواضعِ الثَّلاثةِ؛ فآيةُ (الفُرقانِ) تَقَدَّمَ قبْلَها اسمُه سُبحانَه مَكْنِيًّا عنه جلَّ وعلا في قولِه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا * ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾؛ فوَرَدَ اسمُه سُبحانه مَكْنِيًّا عنه ثمانِيَ مرَّاتٍ: أوَّلُها الموصولُ، وهو الَّذي مِن قولِه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي﴾، وفاعلُ ﴿نَزَّلَ﴾ المُضْمَرُ، والضَّميرُ في ﴿عَبۡدِهِۦ﴾، والموصولُ الثَّاني، والضَّميرُ المجرورُ باللَّامِ، والضَّميرُ الفاعلُ في ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾، والضَّميرُ في ﴿لَّهُۥ﴾ المجرورُ، والضَّميرُ الفاعلُ في ﴿وَخَلَقَ﴾؛ فلمَّا تكرَّرَ اسمُه مَكْنِيًّا عنه ثمانِيَ مرَّاتٍ جَرى بعْدَ ذلك في قولِه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ مُضْمَرًا على حُكْمِ ما تقدَّمَ، فما في هذه السُّورةِ وافَق ما قبْلَه، أمَّا في السُّورتينِ فلو جاءَ (مِن دونِه) لخالَف ما قبلَه؛ لأنَّ ما قبْلَه في السُّورتينِ بلفظِ الجَمعِ؛ تعظيمًا، فصرَّح؛ فجاء كلٌّ مِن الآيتينِ على ما يجِبُ ويُناسِبُ[٢].

- والتَّنصيصُ على قولِه: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾؛ لبَيانِ عجْزِهم عمَّا هو أهْوَنُ مِن هذه الأمورِ مِن دفْعِ الضَّرِّ وجلْبِ النَّفعِ؛ للتَّصريحِ بعَجْزِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٧٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٢).

عن كلِّ واحدٍ ممَّا ذُكِرَ على التَّفصيلِ، والتَّنبيهِ على أنَّ الإلهَ يجِبُ أنْ يكونَ قادرًا على جميعِ ذلك. وفيه إيذانٌ بغايةِ جَهْلِهم وسَخافةِ عُقولِهم، كأنَّهم غيرُ عارفينَ بانتفاءِ ما نُفِيَ عن آلهتِهم مِن الأمورِ المذكورةِ، مُفْتَقِرون إلى التَّصريحِ بذلك[١].

- والتَّنكيرُ في قولِه: ﴿مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً﴾ في سِياقِ النَّفيِ للعُمومِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ جاء قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، فقدَّمَ الضَّرَّ على النَّفعِ هنا، وعكَسَ ذلك في سُورةِ (الرَّعدِ): ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦]. ووَجْهُ ذلك: أن ما في سُورةِ (الفُرقانِ) بُنِيَ على ما قبْلَه، وهو ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، وقولُه: ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ نفْيٌ، وقولُه: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ إثباتٌ؛ فقَدَّمَ النَّفيَ على الإثباتِ، وكان الضَّرُّ نفْيًا، والنَّفعُ إثباتًا؛ إذِ النَّفعُ إثباتُ المصالحِ وإيجادُها؛ والضَّرُّ نفْيُها، فكما قَدَّمَ فيما قبْلَه ما نَفى على ما أثبَتَ، حمَلَ المعطوفَ عليه لِيكونَ مُشاكِلًا له. وأمَّا في سُورةِ (الرَّعدِ) فإنَّه قدَّمَ فيها الأفضلَ على الأنقَصِ؛ لأنَّ اجتلابَ النَّفعِ أشرَفُ مِن استدفاعِ الضَّرِّ، وهو رُتْبةٌ فَوقَه؛ فمَن فاته ذلك طلَبَ دفْعَ الضَّرِّ، فهو على وَجْهِه في التَّرتيبِ[٣]. وقيل: قدَّمَ الضَّرَّ على النَّفعِ؛ لمُناسَبةِ ما بعْدَه مِن تَقديمِ الموتِ على الحياةِ[٤]. وقيل: تَقديمُ ذِكْرِ الضَّرِّ؛ لأنَّ دَفْعَه -مع كونِه أهَمَّ في نفْسِه- أوَّلُ مَراتبِ النَّفعِ وأقدمُها[٥]. وقيل: قولُه هنا: ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ جَرَى مَجْرى المثَلِ لقَصْدِ الإحاطةِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ٩٥٧).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢).

بالأحوالِ؛ فكأنَّه قيل: لا يَمْلِكون التَّصرُّفَ بحالٍ مِن الأحوالِ. وهذا نظيرُ أنْ يُقالَ: شَرْقًا وغرْبًا، وليلًا ونَهارًا. وبذلك يَندفِعُ ما يُشكِلُ في بادئِ الرَّأيِ مِن وجْهِ نفْيِ قُدرتِهم على إضرارِ أنفُسِهم بأنَّه لا تَتعلَّقُ إرادةُ أحدٍ بضَرِّ نفْسِه، وبذلك أيضًا لا يُتطلَّبُ وجْهٌ لتَقديمِ الضَّرِّ على النَّفعِ؛ لأنَّ المقامَ يَقْتضي التَّسويةَ في تَقديمِ أحَدِ الأمْرينِ؛ فالمُتكلِّمُ مُخيَّرٌ في ذلك، والمُخالَفةُ بيْن الآياتِ في تَقديمِ أحَدِ الأمرينِ مُجرَّدُ تَفنُّنٍ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٠).

الآيات (٤-٦)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿إِفۡكٌ﴾: أي: كَذِبٌ، وقيل: هو أسوأُ الكذبِ؛ لأنَّه قلْبٌ للكلامِ عن الحقِّ إلى الباطلِ، وأصلُه: يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن جِهتِه[١].

﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾: أي: اختلَقَه، والافتِراءُ: الاختِلاقُ، ويُقالُ: افترَى فلانٌ على فلانٍ: إذا قذَفه بما ليسَ فيه، وأصلُه: ما عظُم مِن الكَذِبِ[٢].

﴿وَزُورٗا﴾: الزُّورُ: الباطِلُ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وقد غَلَب على الكَذِبِ، وقيل للكَذِبِ: زورٌ؛ لكونِه مائِلًا عن طريقةِ الحَقِّ، وأصلُ (زور): يدُلُّ على المَيلِ والعُدولِ[٣].

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: الأساطيرُ: الأباطيلُ والتُّرَّهاتُ، جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (ص: ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، =

﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾: أي: اختَلَقها واستَنسخَها، وأصلُ (كتب): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿تُمۡلَىٰ﴾: أي: تُلقَى وتُقرَأُ، مِن قَولِهم: أمليتُ عليك الكِتابَ وأملَلْتُ، وهو إلقاءُ الكلامِ لِمن يكتُبُ ألفاظَه أو يَرويها أو يحفَظُها[٢].

﴿بُكۡرَةً﴾: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدئِه[٣].

﴿وَأَصِيلًا﴾: أي: آخِرَ النَّهَارِ، وما بيْن العَصرِ إلى اللَّيلِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكرُ الله تعالى بعضَ الشُّبهاتِ التي أثارها المشركونَ حوْلَ القرآنِ، فيقولُ: وقال الكافِرونَ: ما هذا القرآنُ إلَّا كَذِبٌ اختلقَه محمَّدٌ مِن عِندِه، وأعانه على اختِلاقِه قَومٌ مِن غيرِ قَومِه! فقد أتى هؤلاء الكُفَّارُ الكاذِبون بظُلمٍ وكَذِبٍ.

ثمَّ يَذكرُ تعالى شُبْهةً أُخرَى مِن شُبُهاتِهم الفاسدةِ، وهي أنَّهم قالوا: ما هذا القُرآنُ إلَّا أكاذيبُ الأوَّلينَ استنسَخها منهم محمَّدٌ، فهي تُقرأُ عليه أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه!

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالردِّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الكُفَّارِ: الذي أنزَلَ القُرآنَ هو اللهُ الذي يعلَمُ غَيبَ السَّمواتِ والأرضِ، وسِرَّ مَن فيهما، إنَّه غفورٌ رَحيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما يعودُ إلى التَّوحيدِ؛ انتقَلَ إلى ما يعودُ إلى الرِّسالةِ؛ وذلك لأنَّ الشَّهادةَ: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ[1].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ ﴾.

أي: وقال الكافِرونَ: ما هذا القرآنُ إلَّا كَذِبٌ اختلَقَه محمَّدٌ، وليس هو مِن عندِ اللهِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤].

﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ ﴾.

أي: وأعان محمَّدًا على اختِلاقِ هذا القُرآنِ أُناسٌ ذَوو قُدرةٍ وكفايةٍ مِن غَيرِ قَومِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾.

أي: فقد أتى الكُفَّارُ بظُلمٍ وكَذِبٍ ومَيْلٍ عن الحَقِّ، حينَ وصَفوا القُرآنَ بغيرِ صِفتِه، ورَمَوُا النبيَّ بالكَذِبِ على اللهِ[1].

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ: هذا القُرآنُ عِبارةٌ عن أكاذيبِ الأُمَمِ الأوَّلينَ وقَصَصِهم المسطَّرةِ في كُتُبِهم، استنسَخها منهم محمَّدٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٣، ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٥-٤٠).

قال ابن كثير: (وهذا الكلامُ -لسخافتِه وكَذِبِه وبَهْتِه منهم- كلُّ أحدٍ يعلَمُ بُطلانَه؛ فإنَّه قد عُلِم بالتواتُرِ وبالضَّرورةِ أنَّ محمدًا رسولَ الله لم يكُنْ يعاني شيئًا مِن الكتابةِ، لا في أوَّلِ عُمُرِه ولا في آخِرِه، وقد نشأ بيْن أظهُرِهم مِن أوَّلِ مَولِدِه إلى أنْ بعَثَه اللهُ نحوًا مِن أربعين سنةً، وهم يَعرِفون مَدخَلَه ومَخرَجَه، وصِدقَه وبِرَّه وأمانتَه، ونزاهتَه مِن الكَذِبِ والفُجورِ وسائرِ الأخلاقِ الرذيلةِ، حتى إنَّهم لم يكونوا يسمُّونَه في صِغَرِه إلى أنْ بُعِث إلَّا الأمينَ؛ لِما يَعلمون مِن صِدقِه وبِرِّه. فلمَّا أكرَمَه الله بما أكرَمَه به نصَبوا له العداوةَ، ورَمَوه بهذه الأقوالِ التي يعلَمُ كُلُّ عاقلٍ براءتَه منها، وحاروا ماذا يَقذِفونَه به؛ فتارةً مِن إفكِهم يقولون: ساحِرٌ، وتارةً يقولون: شاعرٌ، وتارةً يقولون: مجنونٌ، وتارة يقولون: كذَّابٌ!). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥).

قال السمين الحلبي: (﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾: الافتِعالُ هنا يجوز أَنْ يكونَ بمعنى أَمَر بكِتابتِها، =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

أي: فهذه الأساطيرُ التي اكتَتَبها محمَّدٌ تُقرأُ عليه في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرَه؛ ليَحفَظَها[(١)].

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الكُفَّارِ: الذي أنزَل القُرآنَ المشتَمِلَ على الأسرارِ -كالإخبارِ بالأمورِ الماضيةِ والمُستَقبَلةِ- هو اللهُ الذي يعلَمُ غَيبَ السَّمواتِ والأرضِ، وسِرَّ مَن فيهما، ولا يخفَى عليه شَيءٌ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦].

= كافتَصَد واحتَجَم، إذا أَمَر بذلك. ويجوزُ أَنْ يكونَ بمعنى كَتَبَها، وهو مِنْ جملةِ افترائِهم عليه؛ لأنَّه عليه السَّلامُ كان أمِّيًّا لا يَقرأُ ولا يَكتُبُ، ويكونَ كقَولِهم: اسْتَكَبَّه واصْطَبَّه، أي: سَكَبَه وصَبَّه. والافتِعالُ مُشْعِرٌ بالتكَلُّفِ. ويجوز أَنْ يكونَ مِنْ كَتَبَ بمعنى جَمَعَ، مِن الكَتْبِ: وهو الجَمْعُ، لا مِنَ الكتابةِ بالقلَمِ). ((الدر المصون)) (٨/ ٤٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤).

قال ابنُ جزي: (ويعني بالسِّرِّ: ما أَسَرَّه الكُفَّارُ مِن أقوالِهم، أو يكونُ ذلك على وَجهِ التنَصُّلِ والبراءةِ مِمَّا نَسَبه الكُفَّارُ إليه مِنَ الافتراءِ، أي: أنَّ اللهَ يَعلَمُ سِرِّي، فهو العالِمُ بأنِّي ما افتَرَيتُ عليه، بل هو أنزَلَه عليَّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٨).

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ العالِمَ بكُلِّ شَيءٍ قادِرٌ على كلِّ شَيءٍ، وكانت العادةُ جاريةً بأنَّ مَن عَلِم استِخفافَ غَيرِه به وكان قادِرًا عليه، عاجَلَه بالأخذِ- أُجيبَ مَن كأنَّه قال: فما له لا يُهلِكُ المكذِّبين له؟ بقَولِه -مرَغِّبًا لهم في التوبةِ، مشيرًا إلى قُدرتِه بالسَّترِ والإنعامِ، ومبيِّنًا لفائدةِ إنزالِه إليهم هذا الذِّكرَ مِن الرُّجوعِ عمَّا تمادت عليه أزمانُهم مِن الكُفرِ وأنواعِ المعاصي-[1]:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

أي: إنَّ اللهَ لم يَزَلْ يستُرُ ذُنوبَ عبادِه، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها ويرحَمُهم، ومِن رحمتِه بهم أنَّه لم يُعاجِلْهم بالعُقوبةِ، ويَقبَلُ منهم التَّوبةَ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨).

قال ابن جرير: (يقولُ: إنَّه لم يَزَلْ يصفَحُ عن خَلقِه ويرحَمُهم، فيتفضَّلُ عليهم بعَفوِه، يقول: فلأنَّ ذلك مِن عادتِه في خَلقِه يمهِلُكم أيُّها القائلونَ ما قلْتُم مِن الإفكِ، والفاعلونَ ما فعلْتُم مِن الكُفرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١).

وقال ابنُ كثير: (دعاءٌ لهم إلى التَّوبةِ والإنابةِ، وإخبارٌ بأنَّ رحمتَه واسعةٌ، وأنَّ حِلمَه عَظيمٌ، وأنَّ مَن تاب إليه تاب عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤).

وقال البِقاعي: (﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ أزلًا وأبَدًا ﴿غَفُورٗا﴾ أي: بليغَ السَّترِ لِما يريدُ مِن ذنوبِ عبادِه؛ بألَّا يعاتِبَهم عليها، ولا يؤاخِذَهم بها. ﴿رَّحِيمٗا﴾ بهم في الإنعامِ عليهم بعْدَ خَلقِهم؛ برزقِهم، وتركيبِ العُقولِ فيهم، ونصْبِ الأدلَّةِ لهم، وإرسالِ الرسلِ، وإنزالِ الكُتُبِ فيهم، ولإمهالِهم في تكذيبِهم، أي: فليس لإمهالِهم ووعْظِهم بما نزَّله إليهم سبَبٌ إلَّا رحمتُه وغفرانُه وعِلمُه بأنَّ كتابَه صَلاحٌ لأحوالِهم في الدارينِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٤٢).

كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أنزَلَه مَن أحاط عِلْمُه بما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ؛ مِنَ الغَيبِ والشَّهادةِ، والجَهرِ والسِّرِّ، وذِكْرُ عِلمِه تعالى العامِّ يُنَبِّهُهم ويَحُضُّهم على تدَبُّرِ القُرآنِ، وأنَّهم لو تدَبَّروا لرَأَوا فيه مِن عِلْمِه وأحكامِه ما يدُلُّ دَلالةً قاطِعةً على أنَّه لا يكونُ إلَّا مِن عالِمِ الغَيبِ والشَّهادةِ[(١)].

٢- مع إنكارِهم للتَّوحيدِ والرِّسالةِ؛ مِن لُطفِ اللهِ بهم أنَّه لم يَدَعْهم وظُلْمَهم، بل دعاهم إلى التَّوبةِ والإنابةِ إليه، ووَعَدَهم بالمَغفِرةِ والرَّحمةِ إنْ هم تابوا ورَجَعوا، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا﴾ أي: وَصْفُه المَغفِرةُ لأهلِ الجَرائِمِ والذُّنوبِ إذا فَعَلوا أسبابَ المَغفِرةِ، وهي الرُّجوعُ عن مَعاصيه، والتَّوبةُ منها. ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم؛ حيثُ لم يُعاجِلْهم بالعُقوبةِ وقد فَعَلوا مُقتَضاها، وحيثُ قَبِلَ تَوبتَهم بعْدَ المعاصي، وحيثُ مَحا ما سَلَف مِن سَيِّئاتِهم، وحيثُ قَبِلَ حَسَناتِهم، وحيثُ أعاد الرَّاجِعَ إليه بعْدَ شُرودِه، والمُقبِلَ عليه بَعدَ إعراضِه- إلى حالةِ المُطيعينَ المُنِيبينَ إليه[(٢)]، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ هذه الذُّنوبَ مع بُلوغِها الغايةَ في العِظَمِ مَغفورةٌ إن تابوا، وأنَّ رَحمتَه واصِلةٌ إليهم بَعْدَها؛ فلا يَيأَسوا منها بما فَرَط منهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٨/ ١٥٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ هذا القَولُ منهم فيه عِدَّةُ عَظائمَ:

منها: رَميُهم الرَّسولَ -الذي هو أبَرُّ النَّاسِ وأصدَقُهم- بالكَذِبِ، والجُرأةُ العَظيمةُ.

ومنها: إخبارُهم عن هذا القُرآنِ -الذي هو أصدَقُ الكَلامِ وأعظَمُه وأجَلُّه- بأنَّه كَذِبٌ وافتِراءٌ.

ومنها: أنَّ في ضِمنِ ذلك أنَّهم قادِرون أن يأتوا بمِثلِه، وأن يضاهيَ المخلوقُ النَّاقِصُ مِن كُلِّ وجهٍ الخالِقَ الكامِلَ مِن كُلِّ وجهٍ، بصفةٍ مِن صِفاتِه، وهي الكلامُ.

ومنها: أنَّ الرَّسولَ قد عُلِمت حالتُه، وهم أشَدُّ النَّاسِ عِلمًا بها؛ أنَّه لا يكتُبُ ولا يجتَمِعُ بمَن يكتُبُ له، وقد زعموا ذلك[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لأنَّ فيه مِن الأسرارِ التي لا يعلَمُها إلَّا اللهُ ما يدُلُّ على أنَّ اللهَ أنزله، فذِكرُه ذلك يُستدَلُّ به تارةً على أنَّه حَقٌّ مُنزَّلٌ مِن اللهِ؛ لِكَونِه تضمَّنَ مِن الأخبارِ عن أسرارِ السَّمَواتِ والأرضِ والدُّنيا والأوَّلينَ والآخِرينَ، وسِرِّ الغيبِ، ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ. فمِن هنا نستَدِلُّ بعِلمِنا بصِدقِ أخبارِه أنَّه مِن الله، وإذا ثبَت أنَّه أنزَله بعِلمِه تعالى استدلَلْنا بذلك على أنَّ خبَرَه حَقٌّ، وإذا كان خبرًا بعِلمِ اللهِ فما فيه مِن الخبَرِ يُستدَلُّ به عن الأنبياءِ وأُممِهم، وتارةً عن يومِ القيامةِ وما فيها، والخبَرُ الذي يُستدَلُّ به لا بدَّ أن نعلمَ صِحَّتَه مِن غيرِ جِهتِه، وذلك كإخبارِه بالمستقبَلاتِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨).

فوقعت كما أخبَرَ، وكإخباره بالأُمَمِ الماضية بما يوافِقُ ما عندَ أهلِ الكتابِ مِن غيرِ تعلُّمٍ منهم، وإخبارِه بأمورٍ هي سِرٌّ عندَ أصحابِها، كما قال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣] إلى قوله: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]؛ فقولُه: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استِدلالٌ بأخبارِه[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فيه ردٌّ على ما زعَمه المشركونَ مِن اجتماعِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بمَن يكتبُ له، ووجهُ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم أنَّ الذي أنزَله هو المحيطُ عِلمُه بكُلِّ شَيءٍ، فيَستحيلُ ويمتَنِعُ أن يقولَ مخلوقٌ ويتقَوَّلَ عليه هذا القرآنَ، ويقولَ: هو مِن عندِ الله. وما هو مِن عندِه، ويستَحِلَّ دِماءَ مَن خالفَه وأموالَهم، ويزعُمَ أنَّ الله قال له ذلك. واللهُ يعلَمُ كُلَّ شَيءٍ، ومع ذلك فهو يؤيِّدُه وينصُرُه على أعدائِه، ويمكِّنُه من رِقابِهم وبلادِهم، فلا يمكِنُ أحدًا أن ينكِرَ هذا القُرآنَ إلَّا بعْدَ إنكارِ عِلمِ اللهِ، وهذا لا تقولُ به طائِفةٌ مِن بني آدمَ سِوى الفلاسفةِ الدهريَّةِ. وأيضًا فإنَّ ذِكرَ عِلمِه تعالى العامِّ ينبِّهُهم ويحضُّهم على تدبُّرِ القرآنِ، وأنَّهم لو تدَبَّروا لرأوا فيه مِن عِلمِه وأحكامِه ما يدُلُّ دَلالةً قاطِعةً على أنَّه لا يكونُ إلَّا مِن عالمِ الغَيبِ والشَّهادةِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ هذا شُروعٌ في حِكايةِ أباطيلِهم المُتعلِّقةِ بالمُنزَّلِ والمُنزِّلِ عليه معًا، وإبطالِها[٣].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢).

- قَولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ﴾ فيه إظْهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، حيثُ لم يقُلْ: (وقالوا)؛ لإفادةِ أنَّ مَضمونَ الصِّلةِ هو عِلَّةُ قولِهم هذا، أي: ما جرَّأَهم على هذا البُهتانِ إلَّا إشراكُهم وتَصلُّبُهم فيه، وليس ذلك لشُبهةٍ تَبعَثُهم على هذه المقالةِ؛ لانتفاءِ شُبهةِ ذلك، بخِلافِ ما حُكِيَ آنفًا مِن كُفْرِهم باللهِ، فإنَّهم تلقَّوهُ مِن آبائِهم؛ فالوصفُ الَّذي أُجْرِيَ عليهم هنا مُناسِبٌ لِمَقالتِهم؛ لأنَّها أصْلُ كُفرِهم، وهذه الجُملةُ مُقابِلةٌ جُملةَ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]؛ فهي المقصودُ مِن افتِتاحِ الكلامِ كما آذنَتْ بذلك فاتِحةُ السُّورةِ. وإنَّما أُخِّرَت هذه الجُملةُ الَّتي تُقابِلُ الجُملةَ الأُولى، مع أنَّ مُقْتضَى ظاهرِ المُقابَلةِ أنْ تُذكَرَ هذه الجُملةُ قبْلَ جُملةِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: ٣]؛ اهتمامًا بإبطالِ الكُفرِ المُتعلِّقِ بصِفاتِ اللهِ[(١)].

- والقصْرُ المُشتمِلُ عليه كلامُهم المُستفادُ مِن (إنْ) النَّافيةِ و(إلَّا) قصْرُ قلْبٍ[(٢)]؛ زعَموا به رَدَّ دَعوَى أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، وإسنادُ هذا القولِ إلى جميعِ الكُفَّارِ؛ لأنَّه واقعٌ بيْن ظَهرانَيْهم، وكلُّهم يَتناقَلونَه، وهذه طريقةٌ مأْلوفةٌ في نِسْبةِ أمْرٍ إلى القَبيلةِ، كما يُقالُ: بنو أسَدٍ قَتَلوا حُجْرًا[(٣)]. وقيل: الموصولُ إمَّا عبارةٌ عن غُلاتِهم في الكُفرِ والطُّغيانِ، والجمْعُ لمُشايَعةِ الباقينَ له في ذلك. وإمَّا عن كُلِّهم، ووَضْعُ الموصولِ مَوضِعَ ضَميرِهم؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٢).

(٢) قصر القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ معيَّنٍ، لكنَّه يقول: ما زَيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٢).

وحُجْرٌ هو الكِنديُّ، والدُ امرئِ القيسِ. يُنظر: ((أمثال العرب)) للمفضل الضبي (ص: ١٢٧).

لِذمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ، والإيذانِ بأنَّ ما تَفوَّهوا به كُفْرٌ عظيمٌ[١].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن قولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ مُتسلِّطٌ على كِلْتا الجُملتينِ، أي: لا يَخْلو هذا القُرآنُ -على زَعْمِهم- مِن مجموعِ الأمْرينِ؛ هما: أنْ يكونَ افْتَرى بعْضَه مِن نفْسِه، وأعانَه قومٌ على بَعضِه[٢].

- قَولُه: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ فرَّعَ على حِكايةِ قولِهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ ظُهورَ أنَّهم ارْتَكبوا بقولِهم ظُلْمًا وزُورًا؛ لأنَّهم حين قالوا ذلك ظهَرَ أنَّ قولَهم زُورٌ وظُلْمٌ؛ لأنَّه اختِلاقٌ واعتداءٌ؛ فالفاءُ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها؛ لكنْ لا على أنَّهما أمْرانِ مُتغايرانِ حقيقةً، يقَعُ أحدُهما عَقِيبَ الآخَرِ أو يَحصُلُ بسبَبِه، بلْ على أنَّ الثَّانيَ هو عينُ الأوَّلِ حقيقةً، وإنَّما التَّرتيبُ بحسَبِ التَّغايُرِ الاعتباريِّ، و(قد) لتَحقيقِ ذلك المعنى؛ فإنَّ ما جاؤوه مِن الظُّلمِ والزُّورِ هو عينُ ما حُكِيَ عنهم؛ لكنَّه لمَّا كان مُغايِرًا له في المفهومِ، وأظهَرَ منه بُطلانًا، رُتِّبَ عليه بالفاءِ تَرتيبَ اللَّازمِ على الملزومِ؛ تَهويلًا لأمْرِه[٣].

- وتَنكيرُ ﴿ظُلْمًا وَزُورًا﴾؛ للتَّفخيمِ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

- قَولُه: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، أي: تُمْلى عليه طرفَيِ النَّهارِ، وهذا مُستعمَلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٠٢).

كِنايةً عن كثرةِ المُمارَسةِ لِتَلقِّي الأساطيرِ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هذا جَوابٌ عن قولِهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، وقولِهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ على الأُسلوبِ الحَكيمِ[٢]، أي: قُلْ يا محمَّدُ: ليس هذا مِن افتِرائي، ولا هو مُمْلًى علَيَّ، بلْ مُنزَّلٌ مِن عندِ مَن يَعلَمُ السِّرَّ في السَّمواتِ والأرضِ، وما في بواطِنِكم مِن الدَّهاءِ والمَكْرِ؛ لأنَّكم تَعلَمون عِلْمًا يَقينًا أنَّ هذا ليس مِن قَبيلِ الافتراءِ، ولا هو مِن الأساطيرِ؛ لأنَّه أعجَزَكم عن آخِرِكم بفَصاحَتِه، وأنَّه تضمَّنَ أخبارًا عن المُغيَّباتِ، وأسرارًا لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ عَزَّ وجَلَّ، لكنَّ غرَضَكم الصَّدُّ عن سَبيلِ اللهِ، ومُجرَّدُ العِنادِ؛ ويُؤيِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ وإقحامُه بيْن كَلامِهم، فسُبحانَه ما أرحَمَه وما أجَلَّه؛ حيث أمهَلَكُم ولم يُعاجِلْكم بالاستئصالِ لهذه العظيمةِ! فإذَنْ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ معنى التَّعجُّبِ[٣]، وقد ردَّ عليهم بوَصْفِه تعالى بالعِلْمِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ لم يكُنْ لِيَصدُرَ إلَّا مِن علَّامٍ بكلِّ المعلوماتِ؛ لِمَا احْتَوى عليه مِن إعجازِ التَّركيبِ الَّذي لا يُمكِنُ صُدورُه مِن أحدٍ ولوِ استعانَ بالعالَمِ كلِّهم، ولِاشتمالِه على مصالِحِ العالَمِ وعلى أنواعِ العُلومِ. واكْتَفى بعِلْمِ السِّرِّ؛ لأنَّ ما سِواهُ أولى أنْ يَتعلَّقَ عِلْمُه به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٥).

(٢) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأولَى بحالِه وبالسؤالِ عنه، وهو مِن خلافُ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وَصْفُه تعالى بإحاطةِ عِلْمِه بجَميعِ المعلوماتِ الجَلِيَّةِ والخَفيَّةِ؛ للإيذانِ بانطواءِ ما أنزلَهُ على أسرارٍ مَطْويَّةٍ عن عُقولِ البشَرِ، مع ما فيه مِن التَّعريضِ بمُجازاتِهم بجِناياتِهم المَحْكيَّةِ الَّتي هي مِن جُملةِ مَعلوماتِه[1].

- وفي قولِه: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ عبَّرَ عن مُنزِلِ القُرآنِ بطَريقِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾؛ لِمَا تَقْتضيهِ الصِّلةُ مِن استشهادِ الرَّسولِ اللهَ على ما في سِرِّهِ؛ لأنَّ اللهَ يعلَمُ كلَّ سِرٍّ في كلِّ مكانٍ؛ فجُملةُ الصِّلةِ مُستعمَلةٌ في لازمِ الفائدةِ، وهو كونُ المُتكلِّمِ -أي: الرَّسولِ- عالِمًا بذلك. وفي ذلك كِنايةٌ عن مُراقبَتِه اللهَ فيما يُبلِّغُه عنه. وفي ذلك إيقاظٌ لهم بأنْ يَتدبَّروا في هذا الَّذي زعَمُوه إفْكًا أو أساطيرَ الأوَّلينَ؛ لِيَظهَرَ لهم اشتمالُه على الحقائقِ النَّاصعةِ الَّتي لا يُحِيطُ بها إلَّا اللهُ الَّذي يَعلَمُ السِّرَّ، فيُوقِنوا أنَّ القُرآنَ لا يكونُ إلَّا مِن إنزالِه، ولِيَعلموا بَراءةَ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الاستعانةِ بمَن زَعَمُوهم يُعينونَه[2].

- قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تَرغيبٌ لهم في الإقلاعِ عن هذه المُكابَرةِ، وفي اتِّباعِ دِينِ الحقِّ؛ لِيَغفِرَ اللهُ لهم ويَرحَمَهم، وذلك تَعريضٌ بأنَّهم إنْ لم يُقلِعوا ويَتوبوا حَقَّ عليهم الغضَبُ والنِّقمةُ. أو غفورًا رحيمًا في كونِه أمهَلَكم ولم يُعاجِلْكم على ما اسْتَوجَبْتُموه مِن العِقابِ بسبَبِ مُكابرَتِكم؛ فهو تَعليلُ ما هو المُشاهَدُ مِن تأْخيرِ العُقوبةِ. أو لمَّا تقدَّمَ ما يدُلُّ على العِقابِ أعقَبَهُ بما يدُلُّ على القُدرةِ عليه؛ لأنَّ المُتَّصِفَ بالغُفرانِ والرَّحمةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٦).

قادرٌ على أنْ يُعاقِبَ[١]؛ فدلَّ قولُه: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ على القُدرةِ التَّامَّةِ الكاملةِ بالكِنايةِ. وفي إيثارِ هاتينِ الصِّفتينِ ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: تَعييرٌ لهم، ونعْيٌ على فِعْلِهم؛ يعني: إنَّكم فيما أنتم فيه بحيث يَتصدَّى لِعَذابِكم مَن صِفَتُه الغُفرانُ والرَّحمةُ. وقيل: ذكَرَ المغفرةَ والرَّحمةَ؛ لأجْلِ أنْ يَعرِفوا أنَّ هذه الذُّنوبَ العظيمةَ المُتجاوِزةَ عن الحدِّ مَفقودةٌ إنْ تابوا، وأنَّ رَحمتَه واصلةٌ إليهم بعْدَها، وألَّا ييْأَسوا مِن رَحمتِه بما فرَطَ منهم مع إصرارِهم عليه مِن المُعاداةِ والمُخاصَمةِ الشَّديدةِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٧٦).

الآيات (٧-١٠)

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۙ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ۝٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ۝١٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَنزٌ﴾: أي: مالٌ عظيمٌ، وهو في الأصلِ: المالُ المَدْفونُ تحتَ الأرضِ، والكَنْزُ: جعْلُ المالِ بعضِه على بعضٍ، وحِفظُه، وأصلُ (كنز): يدُلُّ على تجَمُّعٍ في الشَّيءِ[(١)].

﴿جَنَّةٌ﴾: أي: بُستانٌ، وكُلُّ بُستانٍ ذي شَجَرٍ يستُرُ بأشجارِه الأرضَ يقالُ له: جنَّةٌ. وأصلُ (جنن): يدُلُّ على السَّترِ[(٢)].

﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾: أي: الأشباهَ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكرُ الله تعالى شبهةً ثالثةً مِن شُبَهِ المشركينَ، فيقولُ تعالى: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص ٦٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٣٢).

ما لمحمَّدٍ يأكُلُ الطَّعامَ ويمشي في الأسواقِ للتكسُّبِ -معَ أنَّه رَسولٌ-؟! هلَّا أنزَلَ اللهُ إليه مَلَكًا مِن السَّماءِ يَشهَدُ له بالصِّدقِ، ويُنذِرُ معه النَّاسَ إن كان صادِقًا، أو يُلقَى إليه كَنزٌ مِن المالِ يُنفِقُ منه، ويُكفى به طلَبَ الرِّزقِ، أو يكونُ له بُستانٌ يأكُلُ مِن ثمارِه! وقال هؤلاء المُشرِكون: ما تتَّبِعون إلَّا رجلًا به سِحرٌ، وليس هو برَسولٍ.

ثمَّ يقولُ تعالى مهوِّنًا مِن شأنِهم، ومسلِّيًا لرسولِه: انظرْ -يا محمَّدُ- كيف جعَل هؤلاء المُشرِكون لك الأوصافَ الكاذِبةَ الباطِلةَ، فضَلُّوا بذلك عن الصَّوابِ، فلا يَستطيعون إلى ذلك طَريقًا!

تعاظَمَ اللهُ، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ بركاتُه؛ فهو الذي إن شاء جعَلَ لك -يا محمَّدُ- خيرًا ممَّا يقولُ المُشرِكون؛ بساتينَ تجري مِن تحتِ أشجارِها الأنهارُ، ويجعَلْ لك بُيوتًا عظيمةً في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۙ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا فَرَغ سُبحانَه مِن ذِكرِ ما طَعَنوا به على القُرآنِ؛ ذَكَر ما طَعَنوا به على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال تعالى[1]:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: ما لمحمَّدٍ -الذي يزعُمُ أنَّه رَسولٌ مِن اللهِ- يأكُلُ

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٣).

الطَّعامَ كما نأكُلُ، ويمشي في الأسواقِ للتكسُّبِ والتجارةِ كما نمشي[١]؟!

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

أي: هلَّا أنزَلَ اللهُ إلى محمَّدٍ مَلَكًا مِن الملائكةِ، يَشهَدُ له بالصِّدقِ، ويُعينُه على إنذارِ النَّاسِ وتبليغِ رسالتِه، إن كان صادِقًا في دعواه أنَّه رَسولٌ مِن عندِ اللهِ[٢]!

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾.

أي: أو يُلقَى إلى محمَّدٍ كَنزٌ مِن المالِ يُنفِقُ منه فيُغنيه عن طَلَبِ المعاشِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢].

وقال تعالى حكايةً لِقَولِ فِرعَونَ عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٣)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧).
قال العليمي: (وكُتِبت اللامُ في المصحفِ مفرَدةً مِن قولِه: ﴿مَالِ هَٰذَا﴾، واتِّباعُه سُنَّةٌ). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٩، ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٠).

﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿نَأۡكُلُ﴾ بالنونِ، أي: أو تكونُ له جَنَّةٌ يُطعِمُنا منها، فنتيقَّنُ أنَّ ثَمَرَها حقيقةٌ لا سِحرٌ(١).

٢- قراءةُ ﴿يَأۡكُلُ﴾ بالياءِ، أي: يختَصُّ الرَّسولُ بالأكلِ مِن الجنَّةِ، فيَبينُ فَضلُه على غيرِه في مأكَلِه(٢).

﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَا﴾.

أي: أو يكونُ لمحمَّدٍ بُستانٌ يأكُلُ مِن ثمارِه، فيستغني بذلك عن طَلبِ الرِّزقِ(٣).

---

(١) قرأ بها حمزة، والكسائي، وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٨).
قال البقاعي: (وعلى قراءةِ حمزةَ والكسائيِّ بالنونِ يكونُ المعنى: أنَّا إذا أمكنَّا منها، كان ذلك أجلَبَ لنا إلى اتِّباعِه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٤٥).
وقال ابنُ عاشورٍ: (قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلَفٌ: (نأكُلُ منها) بنونِ الجماعةِ. والمعنى: ليتيقَّنوا أنَّ ثمرَها حقيقةٌ لا سِحرٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٨).
(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢١٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٣/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٠).
قال الزمخشري: (يَعْنُونَ أنَّه كان يجِبُ أن يكونَ مَلَكًا مستغنيًا عن الأكلِ والتعَيُّشِ، ثمَّ نزَلوا عن اقتراحِهم أن يكونَ مَلَكًا إلى اقتراحِ أن يكونَ إنسانًا معه ملَكٌ؛ حتى يَتساندَا في الإنذارِ والتَّخويفِ، ثمَّ نزَلوا أيضًا فقالوا: وإن لم يكُنْ مَرْفودًا بملَكٍ فلْيَكُنْ مَرفودًا بكَنزٍ يُلقى إليه من السَّماءِ يَستظهِرُ به، ولا يحتاجُ إلى تحصيلِ المعاشِ، ثمَّ نزلوا فاقتنعوا بأن يكونَ رجُلًا له =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٠، ٩١].

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

أي: وقال المُشرِكون: ما تتَّبِعون[١] إلَّا رجُلًا مِن البَشَرِ به سِحرٌ، وليس رسولًا مِن عندِ اللهِ كما يزعُمُ، فهو رجلٌ مَخدوعٌ مَغلوبٌ على أمرِه، ومختَلُّ العَقلِ بالسِّحرِ[٢].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾.

أي: انظُرْ -يا محمَّدُ- إلى هؤلاء المُشرِكين كيف يجعَلونَ لك هذه الأوصافَ، ويقولون فيك هذه الأقوالَ الباطلةَ المُتناقِضةَ، فأخطَؤوا بذلك الحَقَّ والصوابَ، فلا يَستطيعون إليه طَريقًا[٣]!

= بستانٌ يأكُلُ منه ويرتَزِقُ كما الدَّهاقينِ والمياسيرِ، أو يأكلون هُم مِن ذلك البُستانِ فينتَفِعون به في دنياهم ومعاشِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥).

(١) قيل: الخطابُ هنا للمؤمنينَ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٥).

قال ابنُ جرير: (وقال المشركون للمؤمنينَ بالله ورسولِه: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أيُّها القومُ، باتِّباعِكم محمَّدًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤).

وقيل: الخطابُ لِقَومِهم المشركين، فقال ذلك بعضُهم لبعضٍ. ومِمَّن قال بذلك في الجملةِ: مكِّيٌّ، والبِقَاعيُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير =

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

ابتُدِئت السورةُ بتعظيمِ اللهِ وثَنائِه على أنْ أنزَل الفُرقانَ على رسولِه، وأعقَبَ ذلك بما تلقَّى به المشرِكون هذه المزيَّةَ مِن الجُحودِ والإنكارِ النَّاشئِ عن تمسُّكِهم بما اتَّخَذوه مِن آلهةٍ مِن صِفاتِهم ما يُنافي الإلهيَّةَ، ثمَّ طعنوا في القُرآنِ والذي جاء به بما هو كُفرانٌ للنِّعمةِ ومَن جاء بها، فلَمَّا أُريدَ الإعراضُ عن باطلِهم، والإقبالُ على خِطابِ الرَّسولِ بتَثبيتِه وتثبيتِ المؤمنين؛ أُعِيدَ اللَّفظُ الذي ابتُدِئتْ به السورةُ على طريقةِ وصْلِ الكَلامِ، بقَولِه تعالى[1]:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾.

أي: تعاظَمَ الله وكَمَلَت أوصافه وكثُرتْ خيراته ودامتْ وثبتتْ بَرَكاتُه؛ فهو الَّذي إن شاء جعَلَ لك -يا محمَّدُ- خيرًا مِمَّا اقتَرَحه المشركونَ؛ بساتينَ عديدةً في الدُّنيا[2]

= ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٥٣، ٥٤).

قال البِقاعي: (﴿فَضَلُّوا۟﴾ أي: عن جميعِ طرُقِ العَدلِ، وسائِرِ أنحاءِ البيانِ بسبَبِ ذلك، فلم يجِدوا قولًا يستقِرُّون عليه، وأبعدوا جِدًّا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ في الحالِ ولا في المآلِ؛ بسببِ هذا الضَّلالِ ﴿سَبِيلًا﴾ أي: سُلوكَ سَبيلٍ مِن السُّبُلِ الموصِلةِ إلى ما يستحِقُّ أن يُقصَدَ، بل هم في مجاهِلَ مُوحِشةٍ، وفيافيَ مُهلِكةٍ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٤٧).

وقال الشنقيطي: (وقَولُه تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فيه أقوالٌ كثيرةٌ مُتقارِبةٌ، وأظهَرُها أنَّ معنى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، أي: طريقًا إلى الحَقِّ والصَّوابِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٠).

(٢) وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ وُقوعُ ذلك في الدُّنيا: الواحديُّ، وابنُ كثير، والبقاعي، والعليمي، =

تجري مِن تحتِ أشجارِها الأنهارُ[١].

﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءة ﴿وَيَجْعَلُ﴾ بالرفعِ على الاستِئنافِ، وفيه معنى الحَتمِ، أي: وسيجعَلُ اللهُ لك -يا محمَّدُ- قُصورًا في الجنَّةِ[٢].

٢- قراءة ﴿وَيَجْعَل﴾ بالجَزمِ؛ عَطفًا على موضِعِ ﴿جَعَلَ﴾ أي: إن يَشَأِ اللهُ يجعَلْ لك -يا محمَّدُ- جَناتٍ، ويجعَلْ لك قُصورًا في الدُّنيا[٣].

= والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٥٨).

ونسَبه ابنُ عاشورٍ للجمهورِ، ثمَّ قال: (وعلى هذا التأويلِ تكونُ «إن» الشَّرطيةُ واقعةً موقعَ «لو»، أي: إنَّه لم يَشَأْ، ولو شاءه لفعَلَه، ولكِنَّ الحكمةَ اقتضت عدَمَ البَسطِ للرَّسولِ في هذه الدُّنيا، ولكنَّ المشركين لا يدركون المطالِبَ العاليةَ. وقال ابنُ عطيةَ: يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بالجنَّاتِ والقصورِ ليست التي في الدُّنيا، أي: هي جناتُ الخُلدِ وقصورُ الجنَّةِ؛ فيكونَ وعدًا مِن الله لرسولِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٠، ٣٣١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠١).

ومِمَّن اختار أنَّها في الآخرةِ: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٥ - ٤٠٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

قال السمعانيُّ: (بساتينَ تجري مِن تحتِ أشجارِها الأنهارُ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨).

وقال البقاعي: (﴿جَنَّٰتٍ﴾ فضلًا عن جَنَّةٍ واحدةٍ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تكونُ أرضُها عُيونًا نابعةً، أيُّ موضعٍ أُريدَ منه إجراءُ نهرٍ جرى، فهي لا تزال رَيَّا تُغْني صاحِبَها عن كلِّ حاجةٍ، ولا تُحوِجُه في استِثمارِها إلى سقيٍ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٤٧).

(٢) قرأ بها ابنُ كثير، وابنُ عامر، وأبو بكرٍ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٥٩)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤٤).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣). =

﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

أي: وإن شاء اللهُ جعَلَ لك -يا محمَّدُ- بيوتًا مُشَيَّدةً عَظيمةً واسِعةً في الدُّنيا[1].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ إباحةُ دخولِ الأسواقِ للعُلماءِ وأهلِ الدِّينِ والصَّلاحِ، خلافًا لِمَن كرِهَها لهم[2].

٢- قال تعالى حِكايةً عن المُشرِكينَ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾، ومُرادُهم فاسِدٌ مِن وَجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّه ليس يُوجِبُ اختِصاصُه بالمَنزِلةِ نَقْلَه عن مَوضِعِ الخِلْقةِ؛ لأمرَينِ: أحَدُهما: أنَّ كُلَّ جِنسٍ قد يَتفاضَلُ أهلُه في المَنزِلةِ، ولا يَقتَضي تمييزَهم في الخِلْقةِ، كذلك حالُ مَن فُضِّلَ في الرِّسالةِ. الثَّاني: أنَّه لو نُقِلَ عن مَوضوعِ الخِلْقةِ بتَمييزِه بالرِّسالةِ لصار مِن غَيرِ جِنسِهم، ولَمَا كان رسولًا منهم، وذلك مِمَّا تَنفِرُ منه النُّفوسُ.

وأمَّا الوَجهُ الثَّاني: فهو أنَّ الرِّسالةَ لا تَقتَضي مَنْعَه مِنَ المَشْيِ في الأسواقِ؛ لأمرَينِ:

أحَدُهما: أنَّ هذا مِن أفعالِ الجَبابِرةِ، وقد صان اللهُ رَسولَه عن التجَبُّرِ.

الثَّاني: لحاجتِه لدُعاءِ أهلِ الأسواقِ إلى نبُوَّتِه، ومُشاهدةِ ما هم عليه مِن مُنكَرٍ

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٥٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٧).

يَمنَعُ منه، ومَعروفٍ يُقِرُّ عليه[١].

٣- قال تعالى حِكايةً عن المُشرِكينَ قولَهم: ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ﴾ العَجَبُ لجَهلِهم حين أرادوا أن يُلقَى إليه كَنزٌ، أو تكونَ له جَنَّةٌ، ولو فَهِموا عَلِموا أنَّ كُلَّ الكُنوزِ له، وجَميعَ الدُّنيا مِلكُه! أَوَليس قد قَهَر أربابَ الكُنوزِ، وحَكَم في جميعِ المُلوكِ؟! وكان مِن تمامِ مُعجزتِه أنَّ الأموالَ لم تُفتَحْ عليه في زَمَنِه؛ لئَلَّا يَقولَ قائِلٌ: قد جَرَت العادةُ بأنَّ إقامةَ الدُّوَلِ وقَهْرَ الأعداءِ بكَثرةِ الأموالِ! فتَمَّت المُعجِزةُ بالغَلَبةِ والقَهرِ مِن غَيرِ مالٍ، ولا كَثرةِ أعوانٍ، ثمَّ فُتِحَت الدُّنيا على أصحابِه، ففَرَّقوا ما جَمَعه الملوكُ بالشَّرَهِ، فأخرَجوه فيما خُلِقَ له، ولم يُمسِكوه إمساكَ الكافِرينَ؛ لِيُعَلِّموا النَّاسَ بإخراجِ ذلك المالِ: أنَّ لنا دارًا سِوى هذه، ومَقَرًّا غَيرَ هذا[٢]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ إذا أوردَ الشُّبُهاتِ على نفْسِه أو على مَن أتَى بالحقِّ؛ فإنه يكونُ سببًا لضَلالِه، إذا لم يَقبَلِ الإنسانُ الحقَّ، ويدَعْ ما يَرِدُ على خاطِرِه مِن الشُّبُهاتِ حوْلَ ذلك الحقِّ؛ فإنه يكونُ سببًا لضَلالِه؛ ولهذا قال: ﴿فَضَلُّواْ﴾، الفاءُ عاطفةٌ، وتُفيدُ السَّببيَّةَ[٣].

٥- قال تعالى: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ نَفيُ الاستِطاعةِ المذكورةِ هنا كقَولِه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وقَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ [الكهف:

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٣٣).

(٢) الفائِدةُ لابنِ هُبَيرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٥٤).

١٠١][1]، وهذه الاستِطاعةُ نَفْيُها إنَّما هو بحَسَبِ مَشيئةِ اللهِ مِن مُعاقَبةِ الإنسانِ على ذنْبٍ مِن ذُنوبِهِ، وقد دَلَّتْ آياتٌ كثيرةٌ أنَّ اللهَ جلَّ وعلا يُسَبِّبُ للإنسانِ الضَّلالةَ بِسَبَبِ ارتكابِ الذُّنوبِ، كما يُسَبِّبُ له الهُدى بسَبَبِ الطَّاعاتِ؛ فالعَبدُ إذا سارَعَ إلى الكُفرِ، وتكذيبِ الرُّسُلِ، وإلى ما يُسْخِطُ اللهَ؛ عاقَبَه اللهُ بأنْ زادَه ضَلالًا فَوقَ ضَلالِه، وظَلامًا على ظَلامِه، وجاءه الطَّبعُ والخَتمُ على قَلْبِه، والغِشاوةُ على عَينِه؛ بسَبَبِ كُفرِه وبَغْيِه وتمَرُّدِه على اللهِ، ومِن هنالك يُعلَمُ أنَّ اللهَ يَجعَلُ الحَسَناتِ وطاعةَ اللهِ سَببًا لهُدى عَبْدِه، كما أنَّ السَّيِّئاتِ والمُبادرةَ إلى ما لا يُرضيه تكونُ سَبَبًا للرَّينِ على القُلوبِ والطَّبعِ عليها، كما قال تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال في الهُدى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وأمثالِ ذلك مِنَ الآياتِ[2].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٢) و (٢/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (الاستِطاعةُ نوعانِ: مُتقَدِّمةٌ صالِحةٌ للضِّدَّينِ، ومُقارِنةٌ لا تكونُ إلَّا مع الفِعلِ؛ فتلك هي المُصَحِّحةُ للفِعلِ المجَوِّزةُ له، وهذه هي المُوجِبةُ للفِعلِ المحَقِّقةُ له، قال الله تعالى في الأُولى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، ولو كانت هذه الاستِطاعةُ لا تكونُ إلَّا مع الفِعلِ لَما وَجَب الحَجُّ إلَّا على مَن حَجَّ، ولَمَا عَصى أحَدٌ بتَركِ الحَجِّ، ولا كان الحَجُّ واجِبًا على أحدٍ قبْلَ الإحرامِ به، بل قبْلَ فَراغِه! وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فأمَرَ بالتَّقوى بمِقدارِ الاستِطاعةِ، ولو أراد الاستِطاعةَ المُقارِنةَ لَمَا وَجَب على أحدٍ مِن التَّقوى إلَّا ما فَعَل فقط؛ إذ هو الذي قارَنَتْه تلك الاستِطاعةُ... ونظائِرُ هذا مُتعَدِّدةٌ؛ فإنَّ كُلَّ أمرٍ عُلِّقَ في الكتابِ والسُّنَّةِ وُجوبُه بالاستطاعةِ، وعَدَمُه بعَدَمِها- لم يُرَدْ به المقارَنةُ، وإلَّا لَمَا كان اللهُ قد أوجَبَ الواجباتِ إلَّا على مَن فعَلَها، وقد أسقَطَها عمَّن لم يفعَلْها، فلا يأثَمُ أحدٌ بتَركِ الواجِبِ المذكورِ. وأمَّا «الاستِطاعةُ المُقارِنةُ المُوجِبةُ» فمِثلُ قَولِه تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وقَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]، فهذه الاستِطاعةُ هي المُقارِنةُ المُوجِبةُ؛ إذ =

بلاغةُ الآياتِ:

١ - قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ هذا انتِقالٌ مِن حِكايةِ مَطاعنِهم في القُرآنِ، وبَيانِ إبطالِها، إلى حِكايةِ مَطاعنِهم في الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والضَّميرُ في ﴿وَقَالُوا﴾ عائدٌ إلى الَّذين كَفَروا؛ فمدلولُ الصِّفةِ مُراعًى كما تقدَّمَ[١].

- قَولُه: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ ...﴾ (ما) استِفهاميَّةٌ بمعنى إنكارِ الوُقوعِ ونفْيِه، وهذا الاستِفهامُ استِفهامٌ تَعجُّبيٌّ مُستعمَلٌ في لازمِه، وهو بُطلانُ كَونِه رَسولًا؛ بِناءً على أنَّ التَّعجُّبَ مِن الدَّعوى يَقْتضي استحالتَها أو بُطلانَها. وتركيبُ ﴿مَالِ هَٰذَا﴾ ونحوِه يُفيدُ الاستِفهامَ عن أمْرٍ ثابتٍ له؛ فمَثارُ الاستِفهامِ في هذِه الآيةِ هو ثُبوتُ حالِ أكْلِ الطَّعامِ والمشْيِ في الأسواقِ للَّذي يَدَّعي الرِّسالةَ مِن اللهِ. وفي قولِهم: (هذا) تَصغيرٌ لشأْنِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وتَسميَتُهم له صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رسولًا بطريقِ الاستهزاءِ به صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو أجْرَوا عليه وصْفَ الرِّسالةِ؛ مُجاراةً منهم لقولِه، وهم لا يُؤمِنون به[٢]، ولكنَّهم بنَوا عليه؛ لِيتأتَّى لهم التَّعجُّبُ، والمُرادُ منه الإحالةُ والإبطالُ[٣].

= الأُخرى لا بدَّ منها في التَّكليفِ؛ فالأُولى: هي الشَّرعيَّةُ التي هي مَناطُ الأمرِ والنَّهيِ، والثَّوابِ والعِقابِ، وعليها يَتكَلَّمُ الفُقَهاءُ، وهي الغالِبةُ في عُرفِ النَّاسِ. والثَّانيةُ: هي الكونيَّةُ التي هي مَناطُ القَضاءِ والقَدَرِ، وبها يتحَقَّقُ وُجودُ الفِعلِ؛ فالأُولى للكَلِماتِ الأَمْريَّاتِ الشَّرعيَّاتِ، والثَّانيةُ للكَلِماتِ الخَلْقيَّاتِ الكَونيَّاتِ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٣٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٦).

(٢) والقاعِدةُ: أنَّه قد يَرِدُ الخِطابُ بالشَّيءِ في القُرآنِ على اعتِقادِ المُخاطَبِ دُونَ ما في نفْسِ الأمرِ، وهو يَقَعُ في القُرآنِ على أنواعٍ مُتعَدِّدةٍ؛ منها: نوعٌ يَخرُجُ على اعتقادِ المُخاطَبِ سواءٌ وافَقَ الواقِعَ أم لا، إلَّا أنَّ المتكَلِّمَ لا يَعتَقِدُه. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير أبي =

- قَولُه: ﴿يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ كَنَوْا بأكْلِ الطَّعامِ والمشْيِ في الأسواقِ عن مُماثَلةِ أحوالِه لأحوالِ النَّاسِ؛ تذَرُّعًا منهم إلى إبطالِ كَونِه رسولًا؛ لِزَعْمِهم أنَّ الرَّسولَ عن اللهِ تكونُ أحوالُه غيرَ مُماثِلةٍ لأحوالِ النَّاسِ، وخَصُّوا أكْلَ الطَّعامِ والمشْيَ في الأسواقِ؛ لأنَّهما مِن الأحوالِ المُشاهَدةِ المُتكرِّرةِ[١]. وفي قولِه: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كِنايةٌ عن الحدَثِ؛ لأنَّه مُلازِمٌ أكْلَ الطَّعامِ. وفي ﴿وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ كِنايةٌ عن طلَبِ المعاشِ[٢].

- و(لولا) في قولِهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ حَرفُ تَحضيضٍ مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ[٣].

- وفي قولِهم: ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ خصُّوا مِن أحوالِ الرَّسولِ حالَ النِّذارةِ؛ لأنَّها هي الَّتي أنبتَتْ حِقْدَهم عليه[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾

- عبَّر بالإلقاءِ -وهو الرميُ- عن الإعطاءِ مِن عندِ اللهِ[٥].

- قَولُه: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ فيه وَضْعُ الظَّاهرِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مَوضِعَ المُضْمَرِ؛ لِيُسجِّلَ عليهم بالظُّلمِ، وتجاوُزِ الحدِّ فيما

= حيان)) (٨/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٢٨).

قالوهُ؛ لكونِه إضلالًا خارجًا عن حدِّ الضَّلالِ، مع ما فيه مِن نِسبَتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى المَسْحُوريَّةِ[١]؛ فـ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هم المُشرِكون، فغيَّرَ عُنوانَهم الأوَّلَ إلى عنوانِ الظُّلمِ وهمْ همْ؛ تَنبيهًا على أنَّ في هذا القولِ اعتداءً على الرَّسولِ، بنَبْزِه بما هو بريءٌ منه، وهم يَعلمون أنَّه ليس كذلك؛ فظُلْمُهم له أشدُّ ظُلْمٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢]. وأفاد الإظهارُ في مقامِ الإضمارِ هنا أيضًا: أنَّ هذا القَولُ ظُلْمٌ مِن أيِّ إنسانٍ وقَع؛ لأنَّه للتعليل، فهذا القولُ يعتبَرُ مِن الظلْمِ؛ فيكونُ الأمرُ شامِلًا، يعني: أنَّ كُلَّ مَن قال فهو ظالِمٌ. وأفاد أيضًا تنبيهَ المخاطَبِ؛ لأنَّ اختلافَ الكَلامِ أو اختِلافَ النَّسَقِ في الكلامِ يوجِبُ الانتباهَ[٣].

- وأسنَد القَولَ إلى جميعِ الظَّالِمين؛ لأنَّهم تلقَّفوه ولَهِجوا به[٤].

- وذكَرَ ﴿رَجُلًا﴾ في قولِهم: ﴿رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾ لتَمهيدِ استِحالةِ كونِه رسولًا؛ لأنَّه رجُلٌ مِن النَّاسِ[٥].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾

- قَولُه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ...﴾ إلى قولِه: ﴿وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ اعتراضًا بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ مُؤكِّدًا لمعنى مَضمونِ الكلامِ، ومَسْلاةً لقلْبِه صلواتُ اللهِ عليه. ويجوزُ أنْ يكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٥٠)

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كالجوابِ عن قولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ إلى آخِرِه، على سبيلِ التَّعريضِ التَّوبيخيِّ، ويكونَ قولُه: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ﴾ إضْرابًا عن قولِه: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1].

- قَولُه: ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فُرِّعَ على هذا التَّعجُّبِ ﴿كَيْفَ ضَرَبُواْ﴾ إخبارٌ عنهم بأنَّهم ضَلُّوا في تَلْفيقِ المطاعِنِ في رِسالةِ الرَّسولِ، فسَلَكوا طَرائقَ لا تصِلُ بهم إلى دَليلٍ مُقنِعٍ على مُرادِهم، وهو هنا تعجُّبٌ مِن خطَلِهم، وإعراضٌ عن مُجاوبَتِهم[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ استِئنافٌ واقِعٌ مَوقِعَ الجَوابِ عن قولِهم: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ ...﴾ [الفرقان: ٨]، أي: إنْ شاءَ جعَلَ لك أفضَلَ مِن الَّذي اقتَرحوهُ، أي: إنْ شاء عَجَّلَه لك في الدُّنيا؛ فالإشارةُ إلى المذكورِ مِن قولِهم[3]. وعدَمُ التَّعرُّضِ لجَوابِ الاقتراحَينِ الأوَّلَينِ -﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾-؛ للتَّنبيهِ على خُروجِهما عن دائرةِ العقْلِ، واستغنائِهما عن الجوابِ؛ لظُهورِ بُطلانِهما ومُنافاتِهما للحِكمةِ التَّشريعيَّةِ[4].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٥).

الآيات (١١-١٦)

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَعِيرًا﴾: أي: نارًا مُتَّقِدةً، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه[1].

﴿تَغَيُّظًا﴾: أي: غَضَبًا شَديدًا، والغَيظُ: أشدُّ الغَضَبِ، وهو الحرارةُ التي يجِدُها الإنسانُ مِن فوَرانِ دَمِ قَلبِه[2].

﴿وَزَفِيرًا﴾: الزَّفيرُ: إخراجُ النَّفَسِ بقُوَّةٍ وشِدَّةٍ مِن الهَمِّ والكَربِ، وهو بمَنزلةِ ابتداءِ صَوتِ الحِمارِ بالنَّهيقِ، وأصلُ (زفر): يدُلُّ على صَوتٍ[3].

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: أي: مُوثَقينَ في السَّلاسِلِ والأغلالِ، قد قُرِنَ بعضُهم إلى بعضٍ، أو قُرِنَت أيديهم وأرجلُهم إلى رِقابِهم، يقالُ: قَرَنتُ الشَّيءَ بالشَّيءِ: إذا شدَدْتَه به

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٠).

ووصَلْتَه، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿ثُبُورًا﴾: أي: هَلاكًا، وأصلُ (ثبر) هنا: الهلاكُ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى موقفَ المشركينَ مِن البعثِ، وما أعدَّه لهم مِن جزاءٍ، فيقولُ: قد كذَّب هؤلاء المُشرِكون بالبَعثِ يومَ القيامةِ، وقد هيَّأنا لهم نارًا شديدًا حَرُّها، إذا رأتْهم مِن مكانٍ بعيدٍ سَمِعوا صوتَ لهيبِها وصوتَ زَفيرِها؛ مِن شِدَّةِ غَيظِها منهم، وإذا طُرِحوا في مكانٍ ضَيِّقٍ مِن النَّارِ وقد قُرِنوا في الأغلالِ والسَّلاسِلِ، دَعَوا على أنفُسِهم بالهلاكِ لِيَستريحوا من العَذابِ. فيقولُ خَزَنَةُ النَّارِ لهم: لا تَطلُبوا هلاكًا واحِدًا، بل اطلُبوا هلاكًا كثيرًا؛ فلن ينفَعَكم الدُّعاءُ أبدًا.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَ يُبيِّنَ لهم ما أعدَّ الله سبحانَه للمتَّقينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء الكُفَّارِ: أذلك العذابُ خَيرٌ أم جَنَّةُ الخُلدِ التي وَعَد اللهُ بها المتَّقينَ، قد كانت ثوابًا لهم، ومَصيرًا يَصيرونَ إليها يومَ القيامةِ؟! ولهؤلاء المتَّقين ما يشاؤونَ في الجنَّةِ، لابثينَ فيها أبدًا، وكان هذا الوَعدُ وَعدًا واجِبًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥١٨) و(١٦/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٣٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كانت تلك الأقوالُ التي قالوها معلومةَ الفسادِ؛ أخبَرَ تعالى أنَّها لم تصدُرْ منهم لطَلَبِ الحقِّ، ولا لاتِّباعِ البُرهانِ، وإنَّما صَدَرتْ منهم تَعَنُّتًا وظُلمًا وتَكذيبًا بالحَقِّ، فقالوا ما بقُلوبِهم مِن ذلك؛ ولهذا قال[١]:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾

أي: لا تظُنَّ أنَّهم كذَّبوا بما جئتَ به مِن الحَقِّ -يا محمَّدُ- لأنَّهم يعتَقِدونَ فيك كَذِبًا وافتراءً للقُرآنِ، أو نُقصانًا؛ لأكلِك الطَّعامَ ومَشيِكَ في الأسواقِ، وإنَّما سبَبُ كُفرِهم وتكذيبِهم واقتراحِهم ما اقترَحوه هو عَدَمُ إيمانِهم بالبَعثِ يومَ القيامةِ[٢].

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾

أي: وهيَّأنا وأرصَدْنا لِمن أنكَرَ البَعثَ يومَ القيامةِ مِن هؤلاء المُشرِكين وغَيرِهم نارًا مُوقَدةً شَديدةَ الحرارةِ، نعَذِّبُهم فيها في الآخرةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٦].

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٢).

أي: إذا رأتْ تلك النَّارُ أهلَها الكُفَّارَ يومَ القيامةِ مِن مكانٍ بَعيدٍ، سَمِعوا صَوتَ غَلَيانِها وتلهُّبِها؛ مِن شِدَّةِ غَيظِها منهم، وسَمِعوا لها صوتَ زَفيرٍ؛ مِن غَضَبِها وحَنَقِها عليهم(١).

كما قال تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ [الملك: ٧، ٨].

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصَفَ سُبحانَه مُلاقاتَها لهم؛ وَصَفَ إلقاءَهم فيها، فقال تعالى(٢):

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾

أي: وإذا طُرِح الكُفَّارُ في مكانٍ ضَيِّقٍ في النَّارِ، وقد قُرِنوا في الأغلالِ والسَّلاسِلِ(٣)- رفعوا أصواتَهم بطَلَبِ الهلاكِ؛ ندَمًا على تَركِهم الإيمانَ، وانصرافِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٤).

قال ابنُ جريرٍ: (فإن قال قائِلٌ: وكيف قيل: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا﴾ [الفرقان: ١٢]، والتغيُّظُ لا يُسمَعُ؟ قيل: معنى ذلك: سمَعِوا لها صوتَ التغَيُّظِ؛ مِن التلَهُّبِ والتوَقُّدِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٨، ٤٠٩).

وقال الشنقيطيُّ: (وللعُلماءِ أقوالٌ في معنى الزَّفيرِ والشَّهيقِ، وأقربُها: أنَّهما يمثِّلُهما معًا صوتُ الحِمارِ في نهيقِه؛ فأوَّلُه زَفيرٌ، وآخِرُه الذي يرَدِّدُه في صَدرِه شَهيقٌ. والأظهَرُ أنَّ معنى قولِه تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا﴾ أي: سَمِعوا غلَيانَها مِن شِدَّةِ غَيظِها، ولَمَّا كان سبَبُ الغَلَيانِ التغيُّظَ، أطلَقَه عليه، وذلك أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٤).

(٣) قيل: المرادُ قُرِنَت أيديهم إلى أعناقِهم في الأغلالِ. ومِمَّن قال ذلك: ابنُ جرير، والبغوي، والزمخشري، والبيضاوي، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) =

عن طاعةِ الرَّحمنِ، وتمنِّيًا للمَوتِ لِيَستريحوا مِن العذابِ[١].

قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [إبراهيم: ٤٩].

﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

أي: يقولُ خَزَنةُ النَّارِ للكُفَّارِ: لا تَطلُبوا هلاكًا واحِدًا في النَّارِ، بل اطلُبوا كثيرًا مِن ذلك، فعَذابُكم مستَمِرٌّ ومتجَدِّدٌ، ولن ينفَعَكم الدُّعاءُ أبدًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ * قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

= (١٧/ ٤١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٦٦).

وقيل: مُقَرَّنًا بعضُهم إلى بَعضٍ في الأصفادِ والسلاسلِ، كحالِ الأسرى والمساجينِ: أن يُقرَنَ عدَدٌ منهم في وِثاقٍ واحدٍ، أو يُقرنوا مع الشياطين. وممَّن قال بذلك في الجملة: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، وابن عطية، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧).

ومِمَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السابقَينِ: مكِّيٌّ، والسمعاني. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٨٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٠، ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٧، ٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦، ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وصَفَ الله تعالى حالَ العِقابِ المعَدِّ للمُكَذِّبين بالسَّاعةِ؛ أتبَعَه بما يؤكِّدُ الحَسرةَ والنَّدامةَ(١).

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه جزاءَ الظَّالمين؛ ناسَبَ أن يَذكرَ جزاءَ المتَّقين، فقال تعالى(٢):

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للكُفَّارِ: أذلك العذابُ المستَمِرُّ في النَّارِ خَيرٌ، أم جنَّةُ الخُلدِ الدَّائمُ نعيمُها، التي وعَد اللهُ بها الذين يتَّقونَ سَخَطَه وعذابَه؛ بامتِثالِ ما يأمُرُهم، واجتِنابِ ما يَنهاهم(٣)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦٠، ٦١].

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾.

أي: كانت الجنَّةُ ثَوابًا للمتَّقينَ على تَقواهم وأعمالِهم الصَّالحةِ، ومَرجِعًا يَصيرون إليها في الآخرةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ﴾.

أي: للمتَّقينَ في الجنَّةِ ما يَشاؤون ممَّا تَشتهيه أنفُسُهم، لابثينَ فيها أبدًا بلا زَوالٍ عنها، ولا انقِطاعٍ لنَعيمِها[1].

﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾.

أي: كان دُخولُ المتَّقينَ الجنَّةَ وَعدًا واجِبًا لا بدَّ أن يقَعَ في الآخرةِ؛ جزاءً لهم على طاعتِهم ربَّهم، وسؤالِهم ذلك في الدُّنيا[2].

كما قال تعالى حاكيًا عنهم قَولَهم: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۞ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٤، ١٩٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- احتُجَّ بقَولِه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ على أنَّ النارَ -التي هي دارُ العِقابِ- مَخلوقةٌ؛ لأنَّ ﴿وَأَعْتَدْنَا ﴾ إخبارٌ عن فِعلٍ وَقَعَ في الماضي؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢).

قال ابنُ القيم: (﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ يَسألُه إيَّاه عبادُه المؤمنون، ويَسألُه إيَّاه ملائكتُه لهم؛ فالجنَّةُ تَسألُ رَبَّها أهلَها، وأهلُها يسألونَه إيَّاها، والملائكةُ تسألُها لهم، والرسُلُ يسألونَه إيَّاها لهم ولأتْباعِهم). ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٠).

فدلَّتِ الآيةُ على أنَّ دارَ العِقابِ مَخلوقةٌ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ التَّحقيقُ أنَّ النَّارَ تُبصِرُ الكُفَّارَ يومَ القيامةِ، كما صَرَّح اللهُ بذلك في قَولِه هنا: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، ورؤيتُها إيَّاهم مِن مكانٍ بَعيدٍ تدُلُّ على حِدَّةِ بَصَرِها، كما لا يخفى، كما أنَّ النَّارَ تتكَلَّمُ، كما صرَّح اللهُ به في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، والأحاديثُ الدَّالَّةُ على ذلك كثيرةٌ؛ كحَديثِ مُحاجَّةِ النَّارِ مع الجنَّةِ[٢]، وكحديثِ اشتكائِها إلى رَبِّها، فأذِنَ لها في نفَسَينِ[٣]، ونحوِ ذلك، ويكفي في ذلك أنَّ اللهَ جَلَّ وعلا صَرَّحَ في هذه الآيةِ أنَّها تَراهم، وأنَّ لها تغيُّظًا على الكُفَّارِ، وأنَّها تقولُ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]. واعلَمْ أنَّ ما يزعُمُه كَثيرٌ مِن المفَسِّرينَ، وغيرُهم مِن المنتسبينَ للعِلمِ مِن أنَّ النَّارَ لا تُبصِرُ ولا تتكَلَّمُ ولا تغتاظُ، وأنَّ ذلك كُلَّه مِن قَبيلِ المجازِ، أو أنَّ الذي يفعَلُ ذلك خزَنَتُها: كُلُّه باطِلٌ، ولا مُعَوَّلَ عليه؛ لمخالفتِه نُصوصَ الوَحيِ الصَّحيحةَ بلا مُستَنَدٍ، والحَقُّ هو ما ذكَرْنا[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ جُعِلَ إزجاؤُهم إلى النَّارِ مِن مكانٍ بعيدٍ زِيادةً في النِّكاية بهم؛ لأنَّ بُعدَ المكانِ يَقتضي زِيادةَ المَشقَّةِ إلى الوُصولِ، ويَقتضي طُولَ الرُّعبِ ممَّا سمِعوا[٥].

٤- قال تعالى: ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾، وكذلك في (الأنعام) في قولِه تعالى: ﴿يَجْعَلْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٧)، ومسلم (٦١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٣).

صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال في (هود) ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]، فما وجهُ التعبيرِ في سورة (هود) بقولِه: (ضائق) على وزنِ (فاعلٍ)، وفي (الفرقان) و(الأنعام) بقولِه: ﴿ضَيِّقًا﴾ على وزنِ (فَيْعِل)، مع أنَّه في المواضعِ الثلاثةِ هو الوصفُ مِن ضاق يَضيقُ، فهو ضيِّقٌ؟

والجوابُ عن هذا: أنَّ قولَه تعالى في سورةِ (هود): ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢] أُريدَ به أنَّه يحدثُ له ضِيقُ الصدرِ، ويتجدَّدُ له بسببِ عنادِهم وتعنتِهم في قولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]، ولَمَّا كان كذلك، قيل فيه: (ضائق) بصيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لأنَّه قُصِد بها الحدوثُ والتجدُّدُ. أمَّا قولُه: ﴿ضَيِّقًا﴾ في (الفرقان) و(الأنعام) فلمْ يُرَدْ به حدوثٌ؛ ولذلك بقيَ على أصلِه، فقد تقرَّر في فنِّ الصرفِ أنَّ جميعَ أوزانِ الصفةِ المشبَّهةِ باسمِ الفاعلِ إنْ قُصِد بها الحدوثُ والتجدُّدُ جاءت على وزنِ (فاعل) مطلَقًا، وإن لم يُقصَدْ به الحدوثُ والتجدُّدُ بقيَ على أصلِه[(١)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ سؤالٌ؛ وهو أنَّ الجنةَ ستصيرُ للمتقين جزاءً ومصيرًا؛ لكنها بعْدُ ما صارتْ كذلك، فلِمَ قال تعالى: ﴿كَانَتْ﴾؟!

أجيبَ مِن أوجُهٍ:

الأول: أنَّها أحيانًا تدُلُّ على مجرَّدِ الحدثِ، لا على الزمنِ؛ لأنَّ الفعلَ كما هو معروفٌ يدُلُّ على زمنٍ ومعنًى، فـ (كان) دائمًا تأتي للدَّلالةِ على مجرَّدِ المعنى فقط، يعني التي وُعِد المتقون وهي لهم جزاءٌ ومصيرٌ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٧٣).

الثاني: أنَّ ما وعدَه اللهُ تعالى فهو في تحقُّقِه كالواقعِ، كأنَّه قد كان.

الثالثُ: أنَّه كان مكتوبًا في اللوحِ المحفوظِ قبْلَ أنْ يَخْلُقَهم اللهُ تعالى بأزمنةٍ متطاولةٍ أنَّ الجنةَ جزاؤُهم ومصيرُهم[١].

٦- قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ أهلَ الجنةِ يجِدونَ كلَّ ما يَشاؤُونه مِن أنواعِ النعيمِ[٢]، وهي كالتَّنبيهِ على أنَّ حصولَ المراداتِ بأسْرِها لا يكونُ إلَّا في الجنَّةِ، فأمَّا في غَيرِها فلا يحصُلُ ذلك، بل لا بُدَّ في الدُّنيا مِن أن تكونَ راحاتُها مَشوبةً بالجِراحاتِ[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا﴾ يدُلُّ على أنَّ الجنةَ جُعِلَتْ لهم بحُكمِ الوَعدِ والتفَضُّلِ، لا بحُكمِ الاستِحقاقِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ إضرابٌ عن تَوبيخِهم بحِكايةِ جِناياتِهم السَّابقةِ، وانتِقالٌ منه إلى تَوبيخِهم بحِكايةِ جِناياتِهم الأُخرى؛ للتَّخلُّصِ إلى بَيانِ ما لهم في الآخرةِ بسَببِها مِن فُنونِ العذابِ[٥]. وقيل: يَجوزُ أنْ يكونَ إضرابَ انتقالٍ مِن ذِكْرِ ضَلالِهم في صِفَةِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى ذِكْرِ ضَلالِهم في إنكارِ البَعثِ، على تأويلِ أنَّ قولَه: ﴿إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٥٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٥).

ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠] بمعنى: أنَّه لم يَشَأْ، ولو شاءَه لَفعلَه. ويجوزُ أنْ يكونَ إضرابَ إبطالٍ لِمَا تَضمَّنَه قولُه: ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ﴾، على تأويلِ أنَّه وعْدٌ بإيتائِه ذلك في الآخرةِ[١].

- قَولُه: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ﴾ فيه قَصْرُ تَكذيبِهم على السَّاعةِ؛ لأنَّهم كذَّبوا بالبعثِ، فَهُم بما وراءَهُ أحْرى تَكذيبًا[٢].

- وجُملةُ: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ مُعترِضةٌ بالوَعيدِ لهم، وهو -لعُمومِه- يَشمَلُ المُشرِكين المُتحدَّثَ عنهم؛ فهو تَذييلٌ. ومِن غرَضِه مُقابَلةُ ما أعدَّ اللهُ للمُؤمِنينَ في العاقبةِ بما أعدَّهُ للمُشرِكين[٣].

- قَولُه: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ وضْعُ (السَّاعة) مَوضِعَ ضَميرِها حيثُ لم يقُلْ: (لِمَن كذَّبَ بها)؛ للمُبالَغةِ في التَّشنيعِ[٤]. وهذا الاعتدادُ وإن كان ليس بسبَبِ تكذيبِهم بها خاصَّةً، بل يُشارِكُه في السببيَّةِ له ارتكابُهم الأباطيلَ في أمرِ التَّوحيدِ وأمرِ النبُوَّةِ؛ إلَّا أنَّه لَمَّا كانت السَّاعةُ نَفسُها هي العِلَّةَ القَريبةَ لدخولِهم السعيرَ؛ أُشيرَ بما ذُكِرَ إلى سببيَّةِ التَّكذيبِ بها لدُخولِها، ولم يتعَرَّضْ للإشارةِ إلى سببيَّةِ شَيءٍ آخَرَ. وقيل: إنَّ مَن كذَّب بالساعةِ صار كالاسمِ لأولئك المشرِكين، والمكذِّبين برَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمكَذِّبين بالسَّاعةِ، أي: الجامعين للأوصافِ الثلاثةِ؛ لأنَّ التكذيبَ بها أخَصُّ صِفاتِهم القبيحةِ، وأكثَرُ دَوَرانًا على ألسنتِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٤٣٠).

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿إِذَا رَأَتْهُم ...﴾ فيه نِسبةُ الرُّؤيةِ إليها لا إليهم؛ للإيذانِ بأنَّ التَّغيُّظَ والزَّفيرَ منها لِهَيجانِ غضَبِها عليهم عندَ رُؤيتِها إيَّاهم[١].

- وفي التَّعبيرِ بـ (مِن) في قولِه: ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾: إشعارٌ بأنَّ بُعدَ ما بيْنَها وبيْنَهم مِن المسافةِ -حينَ رأتْهم- خارجٌ عن حُدودِ البُعدِ المُعتادِ في المسافاتِ المعهودةِ، وفيه مَزيدُ تَهويلٍ لأمْرِها[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ هذا وَصْفٌ لوُصولِهم إلى جَهنَّمَ مِن مَكانٍ بعيدٍ، ووَضْعِهم فيها؛ صِيغَ نظْمُه في صُورةِ تَوصيفِ ضَجيجِ أهْلِ النَّارِ مِن قولِه: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾، وأدْمَجَ في خلالِ ذلك وصْفَ داخلِ جَهنَّمَ، ووَصْفَ وَضْعِ المُشركين فيها بقولِه: ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾، وقولِه: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾؛ تفنُّنًا في أُسلوبِ الكلامِ[٣].

- قَولُه: ﴿أُلْقُوا﴾ الإلقاءُ: الرَّمْيُ، وهو كِنايةٌ عن الإهانةِ[٤].

- قَولُه: ﴿ضَيِّقًا﴾ صِفَةٌ لـ ﴿مَكَانًا﴾ مُفيدةٌ لزِيادةِ شِدَّةٍ؛ فإنَّ الكَرْبَ مع الضِّيقِ، كما أنَّ الرَّوحَ مع السَّعةِ، وهو السِّرُّ في وصْفِ الجنَّةِ بأنَّ عرْضَها السَّمواتُ والأرضُ[٥]؛ فقولُه: ﴿ضَيِّقًا﴾ على القراءةِ بتَشديدِ الياءِ، والقِراءةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٣، ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٦).

بسُكونِها ﴿ضَيِّقًا﴾[١]؛ كلاهما للمُبالَغةِ في الوصْفِ، مثْلُ مَيْتٍ ومَيِّتٍ؛ لأنَّ (الضَّيِّق) بالتَّشديدِ صِيغَةُ تمكُّنِ الوصْفِ مِن الموصوفِ، و(الضِّيق) بالسُّكونِ وصْفٌ بالمصدرِ[٢].

- قَولُه: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ المُقرَّنُ: المقرونُ؛ صِيغَتْ له مادَّةُ التَّفعيلِ للإشارةِ إلى شِدَّةِ القرْنِ[٣].

- قَولُه: ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ النِّداءُ كِنايةٌ عن التَّمنِّي، أي: تمنَّوُا الهلاكَ؛ للاستراحةِ مِن فظيعِ العذابِ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ على تَقديرِ (قولٍ) مَحذوفٍ؛ فهو منصوبٌ على أنَّه حالٌ مِن فاعلِ ﴿دَعَوْا﴾، أي: دَعَوهُ مقُولًا لهم ذلك حقيقةً بأنْ يُخاطِبَهم الملائكةُ به؛ لِتَنبيهِهم على خُلودِ عَذابِهم، وأنَّهم لا يُجابونَ إلى ما يَدْعُونه، ولا يَنالون ما يَتمنَّوْنَه مِن الهلاكِ المُنجِّي. أو يكونُ تَمثيلًا وتَصويرًا لحالِهم بحالِ مَن يُقالُ له ذلك مِن غيرِ أنْ يكونَ هناك قولٌ ولا خِطابٌ، أي: دَعَوهُ حالَ كونِهم أحقَّاءَ بأنْ يُقالَ لهم ذلك. وإمَّا مُستأنَفٌ وقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ يَنسحِبُ عليه الكلامُ؛ كأنَّه قيلَ: فماذَا يكونُ عندَ دُعائِهم المذكورِ؟ فقيل: يُقالُ لهم ذلك؛ إقناطًا ممَّا علَّقوا به أطماعَهم مِن الهلاكِ، وتَنبيهًا على أنَّ عذابَهم المُلْجِئَ لهم إلى استدعاءِ الهلاكِ بالمَّرةِ

---

(١) قرأها ابنُ كثيرٍ بإسكانِ الياءِ مخفَّفةً، والباقونَ بكسرِها مشددةً. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أبَدِيٌّ لا خَلاصَ لهم منْه[١].

- قَولُه: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ فيه تَقييدُ النَّهيِ والأمْرِ بـ (اليوم)؛ لمَزيدِ التَّهويلِ والتَّفظيعِ، والتَّنبيهِ على أنَّه ليس كسائرِ الأيَّامِ المعهودةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ وُصِفَ الثُّبورُ بالكثيرِ؛ إمَّا لكثرةِ نِدائِه بالتَّكريرِ، وهو كِنايةٌ عن عدَمِ حُصولِ الثُّبورِ؛ لأنَّ انتهاءَ النِّداءِ يكونُ بحُضورِ المُنادَى، أو هو يأْسٌ يَقْتضي تَكريرَ التَّمنِّي أو التَّحسُّرِ[٣].

٥- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ هذا الاستِفهامُ على سَبيلِ التَّوقيفِ والتَّوبيخِ[٤]. وقيل: الاستفهامُ والتَّفضيلُ والتَّرديدُ للتَّقريعِ، مع التَّهكُّمِ والتَّحسيرِ على ما فاتَهم[٥]؛ فإنَّه لمَّا ذكَرَ حالَ العِقابِ المُعَدِّ لِمَن كَذَّبَ بالسَّاعةِ؛ أتْبَعه بما يُؤكِّدُ حَسرتَه ونَدامتَه؛ تَقريعًا وتهكُّمًا[٦].

- وقيل: يَجوزُ أنْ يُقصَدَ بقولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: قُلْ لهم، أي: للمُشرِكين الَّذين يَسمَعون الوعيدَ والتَّهديدَ السَّابقَ؛ فالجُمَلُ مُتَّصلةُ السِّياقِ، والاستِفهامُ حينَئذٍ للتَّهكُّمِ؛ إذ لا شُبهةَ في كونِ الجنَّةِ الموصوفةِ خيرًا. ويجوزُ أنْ يُقصَدَ: قُلْ للمُؤمنينَ؛ فالجُملةُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧).

(٦) يُنظر: ((حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي)) (٦/ ٢٧٢).

مُعترِضةٌ بيْنَ آياتِ الوَعيدِ؛ لمُناسَبةِ إبداءِ البَونِ بيْنَ حالِ المُشرِكين وحالِ المُؤمِنين، والاستِفهامُ حينَئذٍ مُستعمَلٌ في التَّلميحِ والتَّلطُّفِ. والتَّفضيلُ على المَحملِ الأوَّلِ في مَوقعِ الآيةِ مُستعمَلٌ للتَّهكُّمِ بالمُشرِكينَ، وعلى المَحملِ الثَّاني مُستعمَلٌ للتَّمليحِ في خِطابِ المُؤمِنين، وإظهارِ المِنَّةِ عليهم. ووَصْفُ الموعودينَ بأنَّهم مُتَّقونَ على المَحمَلِ الأوَّلِ جارٍ على مُقْتضى الظَّاهرِ، وعلى المَحملِ الثَّاني جارٍ على خلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ؛ لأنَّ مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُؤتَى بضميرِ الخِطابِ؛ فوَجْهُ العُدولِ إلى الإظهارِ ما يُفِيدُه ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مِن العُمومِ للمُخاطَبينَ ومَن يَجِيءُ بعْدَهم[١].

- وقولُه: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِن السَّعيرِ باعتبارِ اتِّصافِها بما فُصِّلَ مِن الأحوالِ الهائلةِ، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإشعارِ بكونِها في الغايةِ القاصيةِ مِن الهَولِ والفَظاعةِ[٢]. وقيل: المُشارُ إليه في قولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ ...﴾ العِقابُ والمكانُ الضَّيِّقُ، وتَسميتُه بالخيرِ للتَّهكُّمِ والسُّخريةِ؛ لِيَزيدَ في غَيظِهم، أو أنَّ ثوابَ العدُوِّ وتَنعُّمَه سببٌ لتَغيُّظِ العدُوِّ وتَحسُّرِه[٣].

- وإضافةُ الـ﴿جَنَّةُ﴾ إلى ﴿ٱلْخُلْدِ﴾ للمدْحِ، أو للدَّلالةِ على خُلودِها، أو التَّمييزِ عن جنَّاتِ الدُّنيا[٤].

- قَولُه: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾، قد عُلِمَ مِن قولِه: ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ كَوْنُ الجنَّةِ جزاءَهم ومَصيرَهم، وإنَّما كرَّرها؛ لأنَّها كالتَّذييلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧).

لها؛ إرادةً لمَزيدِ مَدحِ المكانِ لتَبجُّحِ ساكنِيه، كما أنَّ قولَه: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١] تَذييلٌ لقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ ...﴾ [الكهف: ٣١]، وأنَّ قولَه: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩] تَذييلٌ لقولِه: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]. ودَلالتُه على المدْحِ مِن جِهةِ تَنكيرِه، أي: جزاءً مُوفَّرًا لا يدخُلُ تحتَ الوصْفِ، وإردافُه بقولِه: ﴿وَمَصِيرًا﴾، أي: مَصيرًا لا يُقادَرُ قَدْرُه؛ فالجزاءُ هنا كالثَّوابِ في تلك الآيةِ، والمصيرُ كالمُرتفَقِ، واجتماعُهما كالتَّتميمِ لِمَا يتِمُّ به ما يُطلَبُ مِن المكانِ مِن التَّرفُّهِ والتَّنعُّمِ؛ فقدَّمَ هنا قولَه تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ﴾ الآيةَ، على قولِه: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ...﴾ الآيةَ؛ لِيُؤذِنَ بأنَّ النَّعيمَ لا يتِمُّ إلَّا بطِيبِ المكانِ وسَعتِه، ومُوافقَتِه للمُرادِ والشَّهوةِ، وإلَّا تَنغَّصَ؛ فلذلك ذكَرَ المصيرَ مع الجزاءِ، وأنَّ العِقابَ يتضاعَفُ بضِيقِ الموضعِ وظُلْمتِه، وجمْعِه لأسبابِ الاجتواءِ[1]؛ ولذلك ذكَرَ ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا﴾، وذكَرَ ﴿مَكَانٗا ضَيِّقٗا﴾[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾

- قولُه: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ مَسوقٌ مَساقَ المُبالَغةِ في تَحقيقِ الوعْدِ والكرَمِ؛ إذ لا مَعنى للوُجوبِ على اللهِ تعالى سِوى أنَّه تَفضَّلَ وتعهَّدَ به[3].

---

(١) الاجتِواءُ: كَراهةُ المَكانِ وعدَمُ مُوافَقتِه. يُنظر: ((العين)) للخليل (١/ ١٢٥)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٧/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٦).

- وقولُه: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ في التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ مِن تَشريفِه، والإشعارِ بأنَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو الفائزُ آثِرَ ذي أثيرٍ[١] بمَغانمِ الوعْدِ الكريمِ: ما لا يَخْفى[٢].

(١) آثِرَ ذي أَثيرٍ، أي: أوَّلَ كلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٥٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧).

الآيات (١٧-١٩)

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بُورًا﴾: أي: هَلْكى، مِن: بارَ يَبورُ: إذا هلَك وبطَل، وأصلُ (بور) هنا: يدُلُّ على هَلاكِ الشَّيءِ، وما يُشْبِهُه مِن تَعَطُّلِه وخُلُوِّه[1].

﴿صَرْفًا﴾: أي: دَفعًا وحِيلةً، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى حالَ المشركينَ وآلهتِهم الباطلةِ يومَ القيامةِ، فيقولُ: اذكُرْ -أيُّها الرسولُ- يومَ القيامةِ حين يَحشُرُ اللهُ المُشرِكين وما عَبَدوه مِن دونِ اللهِ، فيقولُ اللهُ لهذه الآلهةِ المزعومةِ: أأنتم أضلَلتُم عبادي هؤلاء، أمْ هم الذين ضَلُّوا عن الهُدى؟ فتقولُ: سبحانَك، ما يحِقُّ لنا أن نعبُدَ غَيرَك ولا أن نُشرِكَ بك أحدًا في عبادتِك، ولكِنَّك -يا رَبَّنا- متَّعْتَ هؤلاءِ المُشرِكين وآباءَهم بالنِّعَمِ، حتى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

تَرَكوا وَحْيَك المنزَّلَ، وفيه ما أمَرْتَهم به مِن توحيدِك وعبادتِك وحْدَك، وكانوا قومًا مُهلَكينَ.

فيقولُ اللهُ تعالى لهؤلاء الكافرين مُبَكِّتًا ومُقَرِّعًا لهم: قد كذَّبَكم مَنْ عبَدْتُموهم وردُّوا قولَكم الباطِلَ، فقد وجَب عليكم العذابُ، فلا تملِكون له ردًّا ولا دَفعًا، ولا نَصرًا مِن جهةِ أنفُسِكم، أو مِن جِهةِ غَيرِكم. ومَن يكفُرْ باللهِ تعالى منكم نعذِّبْه عذابًا كبيرًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا توَعَّدَهم بالسَّعيرِ وما يُلاقون مِن هَولِها؛ بَيَّنَ لهم حالَ ما قبْلَ ذلك، وهو حالُهم في الحَشرِ مع أصنامِهم[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ لهم حالَهم في السَّاعةِ معه سُبحانَه؛ أتبَعَه ذِكرَ حالِهم مع معبوداتِهم مِن دُونِه، فقال[٢]:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: واذكُرْ -أيُّها الرَّسولُ[٣]- يومَ القيامةِ حين يَحشُرُ اللهُ المُشرِكين ومَعبوداتِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٩).

(٣) قال محمد رشيد رضا: (جمهورُ الْمفسِّرينَ يجعلونَ كلمةَ «يوم» في أمثالِ هذه الآياتِ مفعولًا لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه، «واذكُرْ»، وهو خطابٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، أي: واذكُرْ لهم فيما تَتْلوه عليهم يومَ يكونُ كَذا وكَذا؛ لأنَّ هذا معهودٌ ومعروفٌ عندَهم). ((تفسير المنار)) (٨/ ٥٥).

التي عَبَدوها مِن دونِ اللهِ[(١)].

﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾.

أي: فيقولُ اللهُ للمَعبوداتِ التي كان يعبُدُها المُشرِكون: أأنتم أضلَلْتُم عبادي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٣، ٣٤).

قيل: المرادُ بقَولِه: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: الأصنامُ. ومِمَّن اختاره: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٢).

وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: الملائِكةُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١١).

وقيل: المرادُ: الملائكةُ والإنسُ والجِنُّ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٨٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٠).

وقال الرازيُّ: (وأمَّا الأكثَرونَ فزَعَموا أنَّ المرادَ هو الملائِكةُ، وعيسى، وعُزَيرٌ -عليهم السَّلامُ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٢).

وممَّن اختار العُمومَ، وأنَّ المرادَ كُلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ اللهِ: ابنُ عطية، والبيضاوي، والبقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

قال ابنُ عطيَّة: (وقولُه: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يريدُ به كُلَّ شَيءٍ عُبِدَ مِن دون الله، فغَلَّب العبارةَ عمَّا لا يعقِلُ مِن الأوثانِ؛ لأنَّها كانت الأغلَبَ وقتَ المخاطَبةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٣).

وقال الشنقيطي: (الأظهرُ عندي شُمولُ المعبودينَ المذكورينَ للأصنامِ معَ الملائكةِ وعيسى وعُزَيرٍ؛ لأنَّ ذلك تدُلُّ عليه قرينتانِ قرآنيتانِ؛ الأولَى: أنَّه عبَّرَ عن المعبودينَ المذكورينَ بـ «ما» التي هي لغيرِ العاقِلِ في قولِه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ فلفظةُ «ما» تدُلُّ على شُمولِ غيرِ العقلاءِ، وأنَّه غلَّب غيرَ العاقِلِ؛ لكثرتِه.

القرينة الثانية: هي دَلالةُ آياتٍ مِن كتابِ اللهِ على أنَّ المعبودينَ غافلونَ عن عبادةِ مَن عبَدَهم، أي: لا يعلَمون بها؛ لكَونِهم غيرَ عُقلاءَ... وإطلاقُ اللَّفظِ المختَصِّ بالعُقلاءِ عليهم؛ نظرًا إلى أنَّ المشركينَ نَزَّلوهم منزلةَ العُقلاءِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٣، ٣٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٠).

هؤلاء عن طَريقِ الهُدى، ودعَوْتُموهم إلى عبادتِكم مِن دوني حتى فَعَلوا ذلك، أمْ هم الذين ضَلُّوا عن طَريقِ الحَقِّ مِن تِلقاءِ أنفُسِهم مِن غيرِ دَعوةٍ وتَضليلٍ منكم[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ...﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿نَّتَّخِذَ﴾ قراءتانِ:

١- قراءةُ: ﴿نُتَّخَذَ﴾ بضمِّ النُّونِ، وفتحِ الخاءِ، على البناءِ للمفعولِ؛ أيْ: ما كان يَنْبَغي لنا أنْ يَتَّخِذَنا المشرِكونَ أولِياءَ مِن دونِكَ[(٢)].

٢- قراءةُ: ﴿نَّتَّخِذَ﴾ بِفتحِ النُّونِ، وكسرِ الخاءِ، والمعنى أنَّ هؤلاءِ المعبودينَ هم الَّذينَ تَبَرَّءوا أنْ يكونَ كانَ لهم وَلِيٌّ غيرُ اللَّهِ تعالَى ذِكْرُه[(٣)].

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

أي: قال المعبودون مِن دونِ اللهِ: ننزِّهُك -يا اللهُ- عن مُشارَكتِك في الألوهيَّةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٨).

(٢) قرأ بها أبو جعفر. يُنظر ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٨).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٧).

فما يليقُ ولا يحِقُّ لنا أن نَعبُدَ غَيرَك، ونواليَ سِواك، ولا نطلُبَ مِن النَّاسِ أن يكونوا عابدينَ لنا؛ فنحن ما دعَوْناهم إلى ذلك، بل هم فَعَلوه مِن تِلْقاءِ أنفُسِهم مِن غيرِ أمْرِنا ولا رِضانا، ونحن بُرآءُ منهم ومِن عبادتِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾.

أي: ولكِنْ متَّعْتَ -يا ربَّنا- هؤلاء المُشرِكين وآباءَهم في الدُّنيا بالنِّعَمِ، فانشَغَلوا بالشَّهواتِ حتى تَرَكوا وَحْيَك المنزَّلَ، وفيه الأمرُ بتوحيدِك وعبادتِك وحْدَك لا شَريكَ لك(٢).

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

أي: وكان المُشرِكون قومًا هَلْكى، قد غلَب عليهم الخِذلانُ والشَّقاءُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٦، ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٦، ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤).
قال ابن جرير: (وإنَّما أُريدَ بالبورِ في هذا الموضِعِ أنَّ أعمالَ هؤلاء الكُفَّارِ كانت باطلةً؛ لأنَّها لم تكُنْ لله). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٩).
وقال البقاعي: (﴿وَكَانُوا۟﴾ في عِلمِك بما قضيتَ عليهم في الأزَلِ ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ هَلْكى). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٦٣).

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾.

أي: فقد كذَّبَكم -أيُّها المُشرِكون- مَن عبَدْتُموهم مِن دُونِ اللهِ، وأنكروا قَولَكم أنَّهم أمَروكم بعبادتِهم، ورَضُوا فِعْلَكم، وأنَّهم شُفَعاءُ لكم عندَ رَبِّكم، وكذَّبوكم في زَعمِكم أنَّهم آلهةٌ[1]!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [النحل: ٨٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٦].

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿تَسْتَطِيعُونَ ﴾ بالتاءِ على الخِطابِ للمُشرِكين، أي: فما تَستطيعونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠).

قال ابن عطية: (الآيةُ خِطابٌ مِن الله تعالى بلا خِلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٤).

وقال ابن عاشور: (الباءُ في قَولِه: ﴿بِمَا تَقُولُونَ ﴾ يجوزُ أن تكونَ بمعنى «في» ...، أي: كذَّبوكم تكذيبًا واقِعًا فيما تقولون، ويجوزُ أن تكونَ للسَّببيَّةِ، أي: كذَّبوكم بسَبَبِ ما تقولون). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).

-يا عَبَدةَ الأوثانِ- صَرفًا لعذابِ اللهِ عنكم، ولا نَصرًا منه لأنفُسِكم[١].

٢- قراءةُ ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ بالياءِ على الإخبارِ عن المعبودينَ مِن دونِ الله، أي: فما يستطيعُ الآلهةُ صَرفًا لعذابِ اللهِ عنكم -أيُّها المشركون- ولا نَصرًا لكم[٢].

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾

أي: فما تَستطيعون -أيُّها المُشرِكونَ- صَرْفَ عذابِ اللهِ عنكم بفِداءٍ أو غيرِه، ولا تستطيعونَ نَصرَ أنفُسِكم؛ لِعَجزِكم[٣].

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾

أي: ومَن يَظلِمْ نفْسَه منكم[٤] .....

---

(١) قرأ بها حفصٌ عن عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢١٥)، ((الحجة)) لأبي عليٍّ الفارسي (٥/ ٣٤٠)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٤٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢١٥)، ((الحجة)) لأبي عليٍّ الفارسي (٥/ ٣٤٠)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).
قال الواحدي: (وتفسيرُ الصَّرفِ هاهنا: صرْفُ العذابِ، في قولِ ابنِ عبَّاسٍ ومقاتلٍ، وأكثَرِ المفسِّرينَ، وأهلِ المعاني). ((البسيط)) (١٦/ ٤٤٠).

(٤) قال ابن عطية: (وقوله: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ﴾، قيل: هو خطابٌ للكفَّارِ، وقيل: للمؤمنينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٤).
ممَّن اختار أنَّ الخِطابَ للمؤمنينَ: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٢).
وممَّن اختار أنَّ الخطابَ لعمومِ المكلَّفينَ: البيضاويُّ، والنسفي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).
=

بالشِّركِ، نُعَذِّبْه في النَّارِ عذابًا كبيرًا[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أنَّه لا تجوزُ الوَلايةُ والعَداوةُ إلَّا بإذنِ اللهِ؛ فكلُّ وَلايةٍ مَبنيَّةٍ على مَيلِ النَّفْسِ ونَصيبِ الطَّبعِ، فذاك على خِلافِ الشَّرعِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ

= قال الشوكاني: (﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ هذا وعيدٌ لكلِّ ظالمٍ، ويدخُلُ تحتَه الذي فيهم السياقُ دخولًا أوَّليًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٩).

وقال السعدي: (وأمَّا المعانِدُ منهم الذي عرَف الحقَّ وصدَفَ عنه، فقال في حقِّه: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ بتركِ الحقِّ ظُلمًا وعنادًا ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يُقادَرُ قَدرُه، ولا يُبلَغُ أمرُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).

قال ابن عطية: (الظُّلمُ هنا: الشِّركُ. قاله الحَسَنُ وابنُ جُرَيجٍ. وقد يحتمِلُ أن يعُمَّ غيرَه مِن المعاصي). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٤).

وقال البقاعي: (ولَمَّا كان التَّقديرُ: فمَن يَعدِلْ منكم لسَماعِ هذا الوَعظِ بوَضعِ العِبادةِ في موضِعِها، نُثِبْه ثوابًا جليلًا؛ عطف عليه ما المقامُ له، فقال: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ بوَضعِها في غيرِ مَوضِعِها، وباعتِقادِه في الرسُلِ ما لا يَنبغي مِن أنَّه لا يَنبغي لهم أن يكونوا مِثلَ النَّاسِ في أكلٍ ولا طلَبِ مَعيشةٍ ونحوِ ذلك؛ ﴿نُذِقْهُ﴾ في الدُّنيا والآخرةِ، بما لنا مِن العَظَمةِ ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٤).

أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۞ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾. إن قيل: إن كانت الأصنامُ التي تُعبَدُ تُحشَرُ، فكيف تَنطِقُ وهي جمادٌ؟

فالجواب: يُنطِقُها الله تعالى يومَ القيامةِ كما يُنطِقُ الأيديَ والأرجُلَ[١]، فإسنادُ القَولِ إلى ما يُعبَدون مِن دونِ اللهِ يَقتضي أنَّ اللهَ يجعَلُ في الأصنامِ نُطقًا يَسمَعُه عبَدَتُها، أمَّا غيرُ الأصنامِ مِمَّن عُبِد مِن العُقَلاءِ، فالقَولُ فيهم ظاهِرٌ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۞ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ قولُهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تعظيمٌ لله تعالى في مَقامِ الاعترافِ بأنَّهم ينزِّهون اللهَ عن أن يَدَّعُوا لأنفُسِهم مشاركتَه في الإلهيَّةِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الإشارةُ إليهم؛ لتَمييزِهم مِن بيْنِ بقيَّةِ العِبادِ، وهذا أصلٌ في أداءِ الشَّهادةِ على عَينِ المشهودِ عليه لدى القاضي[٤].

٤- قال تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ «لا ينبغي» في كَلامِ اللهِ تعالى، ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لِلَّذي هو في غايةِ الامتِناعِ شَرعًا؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]، وقَولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]، وقَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۞ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ ﴾[١] [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ ﴾ نُصِبَ على أنَّه مَفعولٌ لِمُضمرٍ مُقدَّمٍ مَعطوفٍ على قولِه تعالى: ﴿ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ ﴾ إلخ [الفرقان: ١٥]، إنْ كان المُرادُ: قُلْ للمُشرِكين. أو على قولِه: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١]، على جوازِ أنَّ المُرادَ: قُلْ للمُؤمِنينَ. والتَّقديرُ: واذكُرْ لهم بعْدَ التَّقريعِ والتَّحسيرِ يومَ يَحشُرُهم اللهُ عَزَّ وجلَّ. أو على أنَّه ظرْفٌ لمُضمَرٍ مُؤخَّرٍ؛ قد حُذِفَ للتَّنبيهِ على كَمالِ هَولِه وفَظاعةِ ما فيه، والإيذانِ بقُصورِ العِبارةِ عن بَيانِه[٢].

- وتَعليقُ التَّذكيرِ باليومِ مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما وقَعَ فيه مِن الحوادثِ الهائلةِ؛ للمُبالَغةِ في إيجابِ ذِكْرِها؛ لِأنَّ إيجابَ ذِكْرِ الوَقتِ إيجابٌ لذِكْرِ ما وقَعَ فيه، ولأنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ عليها؛ فإذا استُحضِرَ كانت حاضرةً بتَفاصيلِها كأنَّها مُشاهَدةٌ عِيانًا[٣].

- واستعمالُ (مَا) في قولِه: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ ﴾؛ إمَّا لأنَّ وضْعَه أعَمُّ، ولذلك يُطلَقُ لكلِّ شبَحٍ يُرى ولا يُعرَفُ، أو لأنَّه أُريدَ به الوصْفُ، كأنَّه قِيلَ: ومَعبودَهم. أو لتَغليبِ الأصنامِ؛ تَحقيرًا وتَنبيهًا على أنَّهم مِثْلُها في السُّقوطِ عن رُتبةِ المَعبوديَّةِ. أو اعتبارًا لغَلبةِ عُبَّادِها. أو

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٦، ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨).

يَخُصُّ الملائكةَ وعُزَيرًا والمسيحَ؛ بقَرينةِ السُّؤالِ والجوابِ. أو الأصنامُ يُنطِقُها اللهُ، أو تَتكلَّمُ بلسانِ الحالِ. وقولُه: ﴿فَيَقُولُ﴾، أي: للمَعبودينَ، وهو على طَريقةِ تَلوينِ الخِطابِ[١]. وقِيل: أنْ يكونَ عامًّا لهم جميعًا يأْباهُ جوابُ المَعبودينَ، وهو قولُهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾؛ لأنَّهم ملائِكةٌ مَعصومونَ وأنبياءُ مَعصومونَ؛ فلا يدخُلُ فيه الأصنامُ، لكنْ عُدِلَ إلى (ما) إجراءً للمَعبودينَ مُجْرى غيرِ ذَوِي العُقولِ؛ تَحقيرًا لشأنِهم؛ لغايةِ قُصورِهم عن معنَى الرُّبوبيَّةِ، وتَنبيهًا على المُجانَسةِ المُنافيةِ للأُلوهيَّةِ[٢].

- قَولُه: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ استِفهامُ تَقريعٍ وتَبْكيتٍ للعَبَدةِ. وحَذْفُ صِلَةِ (ضَلَّ) مُبالَغةٌ؛ فسُؤالُه تعالى وهو عالِمٌ بالمسؤولِ عنه؛ لِيُجيبوا بما أجابوا به، حتَّى يُبكِّتَ عَبَدتَهم بتَكذيبِهم إيَّاهم، فيُبْهَتوا ويَنْقطِعوا، وتَزيدَ حَسرتُهم، ويكونَ ذلك نوعًا ممَّا يَلحَقُهم مِن غضَبِ اللهِ وعَذابِه، ويَغتبِطَ المُؤمِنون ويَفْرَحوا بحالِهم ونَجاتِهم مِن فَضيحةِ أولئك، وليكونَ حِكايةُ ذلك في القُرآنِ لُطْفًا للمُكلَّفينَ. وجاء الاستفهامُ مُقدَّمًا فيه الاسمُ على الفِعلِ، ولم يقُلْ: أضلَلْتُم عِبادي هؤلاء أمْ ضلُّوا السَّبيلَ؛ بحذْفِ (أنتُم) و(هم)؛ لأنَّ السُّؤالَ ليس عن الفِعلِ ووُجودِه؛ لأنَّه لولا وُجودُه لَمَا توجَّهَ هذا العِتابُ، وإنَّما هو عن مُتولِّيهِ، فلا بُدَّ مِن ذِكْرِه، وإيلائِه حَرْفَ الاستفهامِ حتَّى يُعلَمَ أنَّه المسؤولُ عنه[٣]. وقيل: هو استِفهامٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨).

تقْريريٌّ للاستِنطاقِ والاستِشهادِ. والمعنى: أأنتُمْ أضْلَلْتُموهم أمْ ضَلُّوا مِن تِلقاءِ أنفُسِهم دونَ تَضليلٍ منكم؛ ففي الكلامِ حَذْفٌ دلَّ عليه المذكورُ[١].

- وأخبَرَ بفِعلِ: ﴿أَضْلَلْتُمْ﴾ عن ضَميرِ المُخاطَبينَ المُنفصِلِ، وبفِعلِ ﴿ضَلُّوا﴾ عن ضَميرِ الغائبينَ المُنفصِلِ؛ لِيُفيدَ تَقديمُ المُسنَدِ إليهما على الخَبرينِ الفِعْلِيَّينِ تَقْويةَ الحُكْمِ المُقرَّرِ به؛ لإشعارِهم بأنَّهم لا مَناصَ لهم مِن الإقرارِ بأحَدِ الأمْرَينِ، وأنَّ أحدَهم مُحقَّقُ الوُقوعِ لا مَحالةَ؛ فالمقصودُ بالتَّقويةِ هو مُعادِلُ هَمزةِ الاستِفهامِ، وهو ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾[٢]. وإعادةُ فِعْلِ ﴿ضَلُّوا﴾ في قولِه: ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾؛ لِيَجْرِيَ على ضَميرِهم مُسنَدٌ فِعليٌّ، فيُفِيدَ التَّقويةَ في نِسبةِ الضَّلالِ إليهم[٣].

- ووصْفُ العِبادِ هنا بقولِه: ﴿عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تَسجيلٌ على المُشرِكين بالعُبوديَّةِ، وتعريضٌ بكُفرانِهم حقَّها[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ استِئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حكايةِ السُّؤالِ؛ كأنَّه قِيلَ: فماذَا قالوا في الجوابِ؟ فقيل: قالوا...[٥].

- قولُه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ إمَّا على إرادةِ مُطلَقِ التَّعجُّبِ ممَّا قِيل لهم مِن قولِه: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي﴾، أو نَطَقوا بكلمةِ التَّسبيحِ كِنايةً عن البَراءةِ عن أنفُسِهم ذلك القولَ، أو أرادوا مَوضوعَها اللُّغويَّ مِن التَّنزيهِ والتَّقديسِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

قدَّسوا ساحةَ جَلالِ اللهِ عمَّا لا يَلِيقُ بحَضرتِه مِن النِّدِّ والضِّدِّ[١].

- ولَمَّا كان السُّؤالُ على التَّعريضِ التَّوبيخيِّ -والمقصودُ تَبْكيتُهم، وإلْزامُ الحُجَّةِ عليهم، وتَفضيحُهم على رُؤوسِ الأشهادِ- أجابوا أوَّلًا بما يدُلُّ على تَبرُّئِهم مِن نِسبةِ الإضلالِ إلى أنفُسِهم بأقْصى ما يُمكِنُ مِن المُبالَغةِ؛ خِذْلانًا لهم، وكان مِن حقِّ الظَّاهرِ: إنَّا ما أضلَلْناهم، فأطْنَبوا بقولِهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ إلى آخِرِه؛ تَعجُّبًا، أي: كيف يَصِحُّ منَّا أنْ نصِفَك بما لا يَلِيقُ بجَلالِك، ونحن عالِمون بالتَّقديسِ، وكيف يَستقيمُ لنا أنْ نَحمِلَ غيرَنا أنْ يَتولَّونا دونَك، ونحن العابِدون؟! وثانيًا: بما يدُلُّ على أنَّ الكَفرةَ هم ضلُّوا السَّبيلَ، لكنْ بتَقديرِ اللهِ وإضلالِه، فأطْنَبوا في تَعبيرِهم بقولِه: ﴿لَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ﴾ إلى آخِرِه[٢].

- قَولُه: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ﴾ كِنايةٌ عنِ انتِفاءِ طلَبِهم هذا الاتِّخاذَ انتفاءً شديدًا. والخبَرُ مُستعمَلٌ في لازمِ فائِدتِه، أي: نَعلَمُ أنَّه لا يَنْبغي لنا؛ فكيف نُحاوِلُه[٣]؟!

- وتَنكيرُ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مِن حيثُ إنَّهم أولياءُ مَخْصوصون، وهم الجِنُّ والأصنامُ. على القولِ بأنَّ القائلين الملائكةُ والأنبياءُ؛ فتعيَّنَ أنْ يكونَ الباقي الجِنَّ والأصنامَ؛ لأنَّ المعبودينَ مُنحصِرون في هؤلاء. ويجوزُ أنْ يكونَ المعبودونَ عامًّا، والتَّقديرُ: ما يَنبغِي لنا أن نُحسَبَ مِن بعضِ ما يقَعُ عليه اسمُ الولايةِ، فضْلًا مِن الكلِّ؛ فإنَّ الوليَّ قد يكونُ مَعبودًا ومالِكًا ومَخدومًا. أو التَّقديرُ: نتَّخِذَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٩).

مَعبودينَ مِن أولياءَ، أي: مِن جِهةِ أولياءَ؛ فحَذْفُ مَفعولِ الاتِّخاذِ مَعهودٌ[١].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ مَزيدةٌ؛ لتأكيدِ عُمومِ النَّفيِ، أي: استِغراقِه؛ لأنَّه نَكِرةٌ في سِياقِ النَّفيِ. وقيل: للتَّبعيضِ، أي: لا نتَّخِذَ بعضَ أولياءَ[٢].

- والاستدراكُ الَّذي أفادَهُ (لكنْ) في قولِه: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾ ناشئٌ عن التَّبرِّي مِن أنْ يكونوا هم المُضِلِّينَ لهم، بتَعقيبِه ببَيانِ سَببِ ضلالِهم؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ تَبرئةَ أنفُسِهم مِن إضلالِهم يرفَعُ تَبِعةَ الضَّلالِ عن الضَّالِّينَ. والمقصودُ بالاستِدراكِ ما بعْدَ (حتَّى)، وهو: ﴿نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾، وأمَّا ما قبْلَها؛ فقد أُدمِجَ بيْن حَرفِ الاستِدراكِ ومَدخولِه ما يُسجِّلُ عليهم فَظاعةَ ضَلالِهم؛ بأنَّهم قابَلوا رَحمةَ اللهِ ونِعمتَه عليهم وعلى آبائِهم بالكُفرانِ؛ فالخبَرُ عن اللهِ بأنَّه متَّعَ الضَّالِّين وآباءَهم مُستعمَلٌ في الثَّناءِ على اللهِ بسَعةِ الرَّحمةِ، وفي الإنكارِ على المُشرِكين مُقابَلةَ النِّعمةِ بالكُفرانِ؛ غضَبًا عليهم. وجعَلَ نِسيانَهم الذِّكْرَ غايةً للتَّمتيعِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ ذلك التَّمتيعَ أفْضى إلى الكُفرانِ؛ لِخُبثِ نُفوسِهم، قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[٣] [الواقعة: ٨٢].

- قَولُه: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ التَّعرُّضُ إلى تَمتيعِ آبائِهم هنا، معَ أنَّ نِسيانَ الذِّكْرِ إنَّما حصَلَ مِن المُشرِكين الَّذين بلَغَتْهم الدَّعوةُ المُحمديَّةُ ونسُوا الذِّكْرَ: هو زِيادةُ تَعظيمِ نِعمةِ التَّمتيعِ عليهم بأنَّها نِعمةٌ مُتأثِّلةٌ تَليدةٌ، مع الإشارةِ إلى أنَّ كُفرانَ النِّعمةِ قد انجَرَّ لهم مِن آبائِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٠).

الَّذين سَنُّوا لهم عِبادةَ الأصنامِ؛ ففيه تَعريضٌ بشَناعةِ الإشراكِ، ولو قبْلَ مَجيءِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

- وجُملةُ: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه(٢).

- وعلى القول بأنَّ ﴿بُورًا﴾ مَصدرٌ؛ فيكون وُصِفوا به مُبالَغةً؛ ولذلك يَسْتوي فيه الواحدُ والجمْعُ(٣).

- واجتِلابُ فِعْلِ (كان)، وبِناءُ ﴿بُورًا﴾ على ﴿قَوْمًۢا﴾ دونَ أن يُقالَ: (حتَّى نسُوا الذِّكْرَ وبارُوا)؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ البَوارِ منهم بما تَقْتضيهِ (كان) مِن تَمكُّنِ معنى الخبَرِ، وما يَقْتضيهِ ﴿قَوْمًۢا﴾ مِن كَونِ البَوارِ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم(٤).

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ هذه الآيةُ كالخاتمةِ لِمَا يَجْري عليهم مِن الأحوالِ والنَّكالِ مِن لَدُنْ قولِه تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾(٥) [الفرقان: ١٢].

- وقولُه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ في الكَلامِ حذْفُ فِعلِ القولِ يدُلُّ عليه المَقامُ، والتَّقديرُ: إنْ قُلْتم: هؤلاء آلِهَتُنا، فقد كذَّبوكم، على تَقديرِ قولٍ مُرتَّبٍ علَى الجوابِ، أي: فقال اللهُ تعالى عِندَ ذلك: فقد كذَّبوكم. وفي حذْفِ فِعلِ القولِ في هذه الآيةِ استحضارٌ لصُورةِ المَقامِ كأنَّه مُشاهَدٌ غيرُ مَحكِيٍّ، وكأنَّ السَّامعَ آخِرَ الآيةِ قد سمِعَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤١).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٢).

لهذه المُحاوَرةِ مُباشَرةً دونَ حِكايةٍ، فقرَعَ سمْعَه شَهادةُ الأصنامِ عليهم، ثمَّ قرَعَ سمْعَه توجُّهُ خِطابِ التَّكذيبِ إلى المشهودِ عليهم، وهو تفنُّنٌ بَديعٌ في الحِكايةِ يَعتمِدُ على تَخييلِ المَحكيِّ واقِعًا؛ فجُملةُ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم ...﴾ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ، وهو الْتِفاتٌ إلى العَبَدةِ بالاحتِجاجِ والإلزامِ، وإقبالٌ على خِطابِ الحاضِرينَ، وهو ضَربٌ مِن الالتِفاتِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾[1] [يوسف: ٢٩].

- وهذه المفاجأةُ بالاحتِجاجِ والإلزامِ التي في قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ حَسَنةٌ رائعةٌ، وخاصَّةً إذا انضمَّ إليها الالتِفاتُ؛ فالمفاجأةُ مِن تَعقُّبِ القِصَّةِ بالفاءِ التي تَستدعي ما يَترتَّبُ عليه، كأنَّ السامعَ لم يَنتظِرْ ما بعْدَ الفاءِ بتقديمِ ما يَترتَّبُ عليه ففُوجِئَ به، وهذا أسلوبٌ رائعٌ حسَنٌ، والالتفاتُ مِن قولِه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾، كأنَّه قيل: أنتُم المخصوصونَ -أيُّها المكذِّبونَ- بأنْ يَفعَلَ بكم ما تَستحقُّونَه مِن الفَضيحةِ والنَّكالِ، ولا يُمهِلَكم فيه. والفاءُ في ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ فَصيحةٌ، أي: إفصاحٌ عن حُجَّةٍ بعْدَ تَهيئةِ ما يَقْتضيها، وهو إفصاحٌ رائعٌ، وزادَهُ الالْتِفاتُ في قولِه: ﴿كَذَّبُوكُم﴾[2].

- قَولُه: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ فُرِّعَ على الإعلانِ بتَكذيبِهم إيَّاهم تأْييسُهم مِن الانتِفاعِ بهم في ذلك الموقِفِ؛ إذ بَيَّنَ لهم أنَّهم لا يَستطيعون صَرْفَ ضُرٍّ عنهم، ولا إلْحاقَ ضُرٍّ بمَن يَغلِبُهم. ووَجْهُ التَّفريعِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤١، ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤١).

ما دَلَّ عليه قولُهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ [الفرقان: ١٨]، الَّذي يَقْتضي أنَّهم في مَوقفِ العُبوديَّةِ والخُضوعِ؛ ففيه ضَربُ تَهكُّمٍ بهم[١].

- وعلى القَولِ بأنَّ الخِطابَ للمَعبودِينَ؛ فالتاءُ في ﴿تَسۡتَطِيعُونَ﴾ التِفاتٌ[٢].

- قَولُه: ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا﴾ تَذييلٌ للكَلامِ يَشمَلُ عُمومُه جميعَ النَّاسِ، ويكونُ خِطابُ ﴿مِّنكُمۡ﴾ لجَميعِ المُكلَّفينَ، ويُفِيدُ ذلك أنَّ المُشرِكين المُتحدَّثَ عنهم مُعَذَّبون عذابًا كبيرًا[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).

الآيات (٢٠-٢٤)

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَعَتَوۡ﴾: أي: تكبَّروا وتجبَّروا، والعاتي: هو المبالِغُ في رُكوبِ المعاصي المتمَرِّدُ، والعُتُوُّ: تجاوُزُ الحَدِّ في الظُّلمِ، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على استِكبارٍ[1].

﴿حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾: أي: حَرَامًا محرَّمًا، وأصلُ (حجر): يدُلُّ على مَنعٍ[2].

﴿هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾: أي: ضائِعًا باطِلًا، والهباءُ المنثورُ: ما يدخُلُ البَيتَ مِن الكُوَّةِ (النافذة) مِثلَ الغُبارِ إذا طلَعَت فيها الشَّمسُ. وأصلُ الهباءِ: يدُلُّ على غَبرةٍ ورِقَّةٍ، وأصلُ (نثر): يَدُلُّ على إلقاءِ شيءٍ مُتَفَرِّقٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١٢٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٩)، (٦/ ٣١).

﴿مَقِيلًا﴾: أي: مَنزِلًا وقرارًا وقتَ القائلةِ، والقَيلولةُ عند العَرَبِ: الاستراحةُ نِصفَ النَّهارِ إذا اشتَدَّ الحَرُّ[(١)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾

قَولُه: ﴿يَوْمَ﴾ العامِلُ فيه النَّصبَ محذوفٌ تقديرُه (يُمنَعون) أي: يُمنَعون البِشارةَ يومَ يَرَون الملائكةَ، ولا يجوزُ أن يعمَلَ فيه نفْسُ البُشرى؛ لوجهينِ:

أحدُهما: أنَّها مصدرٌ، والمصدرُ لا يعمَلُ فيما قبْلَه.

والثاني: أنَّها منفيَّةٌ بـ (لا)، وما بعْدَها لا يعمَلُ فيما قبْلَها.

وقيل: إنَّ (يومَ) منصوبٌ بـ (اذكُرْ) محذوفًا؛ فيكونُ مفعولًا به، والتقديرُ: اذكُرْ يومَ يَرَونَ الملائكةَ. وجملةُ ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ في محلِّ نَصبٍ، مَقولُ قَولٍ مُضمَرٍ، أي: يومَ يَرَونَ الملائكةَ يقولونَ: لا بُشرى، وجملةُ (يقولون) المقَدَّرةُ في محلِّ نصبٍ حالٌ مِن ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

قَولُه: ﴿حِجْرًا﴾ منصوبٌ على المَصدريَّةِ بفِعلٍ مَحذوفٍ وُجوبًا، وهي مِنْ (حَجَره): إذا مَنَعَه؛ لأنَّ المستعيذَ طالِبٌ مِن اللهِ أن يمنعَ المكروهَ لا يَلحَقُه، وكأنَّ المعنى: أسألُ اللهَ أن يمنَعَه مَنعًا، ويَحجُرَه حَجرًا، و﴿مَّحْجُورًا﴾ صِفةٌ مُؤكِّدةٌ للمَعنى[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٤)، ((الغريبين)) للهروي (٥/ ١٦٠٢)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٤٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٩٨٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٧٠-٤٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٦).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وما أرسَلْنا قَبْلَك -يا مُحمَّدُ- أحدًا مِن المُرسَلينَ إلَّا مِن البشَرِ الذين يأكُلونَ الطَّعامَ، ويَمشونَ في الأسواقِ؛ فليس للمُشرِكين حُجَّةٌ في تكذيبِك. وابتَلَيْنا بعضَكم ببَعضٍ -أيُّها النَّاسُ- فهلْ تَصبِرون على هذا البَلاءِ؟ وكان ربُّك -يا محمَّدُ- بَصيرًا بمن يَصبِرُ مِن عِبادِه ومَن لا يصبِرُ، ويعلَمُ أحوالَهم وأعمالَهم، وسيُجازي كُلًّا بعَمَلِه، ويعلَمُ مَن يصلُحُ لرسالتِه فيَصْطَفيه.

وقال الكفَّارُ الذين يُنكِرون البعثَ ولا يُقِرُّون بلقاءِ الله ولا يخافونَه: هلَّا أنزَل اللهُ الملائِكةَ علينا؛ ليُخبِرونا بصِدقِك، أو نرى اللهَ جَهرةً بأعيُنِنا فنؤمِنَ لك! لقد أضمر هؤلاء الكُفَّارُ في أنفُسِهم كِبْرًا عن الحَقِّ، وتجاوَزوا الحَدَّ في الظُّلمِ والطُّغيانِ والاستِكبارِ. يومَ يرى هؤلاء الكُفَّارُ ملائِكةَ العذابِ فلا بُشرى لهم يَومَها بالخَيرِ، بل بالخَيبةِ والخُسرانِ، ويقولُ الملائِكةُ لهم: حَرامٌ محَرَّمٌ عليكم أن تكونَ لكم اليومَ بُشرى.

وقصَدْنا إلى ما عَمِلَه هؤلاء الكُفَّارُ في الدُّنيا مِن وُجوهِ الخَيرِ، وأعمالِ البِرِّ، فجعَلْناه ضائِعًا باطِلًا لا وَزنَ له، كالهباءِ الذي تفرَّق وتبَدَّد؛ لحقارتِه، أمَّا أهلُ الجنَّةِ فهم خَيرٌ مكانًا ومَنزِلًا في الجنةِ، وهم أحسَنُ موضعَ قائلةٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقدمَ الطعنُ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأكلِ الطَّعامِ، والمشيِ

في الأسواقِ؛ أخبَرَ تعالى أنَّها عادةٌ مُستمِرَّةٌ في كلِّ رِسالةٍ[١].

وأيضًا لَمَّا فرَغَ مِن تهديدِهم ووعيدِهم؛ شرَع في تسليةِ رَسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما ناله مِن قَولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧] مِن الحُزنِ وضِيقِ الصَّدرِ[٢].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾.

أي: وما أرسَلْنا قبْلَك -يا محمَّدُ- أحدًا مِن المرسَلينَ إلَّا والحالُ أنَّهم بَشَرٌ يأكلون الطَّعامَ ويَمشونَ في الأسواقِ؛ فليس للمُشرِكين حُجَّةٌ في تكذيبِك؛ لكَونِك تأكُلُ الطَّعامَ وتَمشي في الأسواقِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ * وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧، ٨].

﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

أفاد ما تَقَدَّمَ مِن الآيةِ أنَّ الرُّسُلَ يأكُلونَ الطَّعامَ فيحتاجونَ للغِذاءِ وتحصيلِه، وأنَّهم يَمشونَ في الأسواقِ للسَّعيِ والتكسُّبِ؛ وأفاد آخِرُ الآيةِ الحِكمةَ الربَّانيَّةَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٣).

في ذلك، وهي أنْ يكونَ بذلك فتنةٌ واختبارٌ للعِبادِ، وتلك سُنَّةُ اللهِ تعالى في خلْقِه؛ فقد جَعَل بعضَهم لبعضٍ فتنةً(١).

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾.

أي: وامتحَنَّا -أيُّها النَّاسُ- بعضَكم ببَعضٍ؛ لِيَظهَرَ ما نعلَمُه منكم في عالَمِ الغَيبِ مِن الطَّاعةِ والمعصيةِ في عالَمِ الشَّهادةِ، فهلْ تَصبِرونَ على البَلاءِ أو لا تَصبِرونَ(٢)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٦٢، ٦٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).

قال ابن القيم: (قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾، فهو سبحانه جعَل أولياءَه فتنةً لأعدائِه، وأعداءَه فِتنةً لأوليائِه، والملوكَ فِتنةً للرعيَّةِ، والرعيَّةَ فتنةً لهم، والرِّجالَ فِتنةً للنِّساءِ، وهنَّ فِتنة لهم، والأغنياءَ فِتنةً للفقراءِ، والفُقراءَ فِتنةً لهم، وابتلى كلَّ أحدٍ بضِدٍّ جَعَلَه مُتقابِلًا؛ فما استقرَّت أقدامُ الأبَوَينِ على الأرضِ إلَّا وضِدُّهما مقابِلهما، واستمَرَّ الأمرُ في الذُّرِّيَّةِ كذلك إلى أن يطويَ اللهُ الدُّنيا ومَن عليها، وكم له سبحانَه في مِثلِ هذا الابتِلاءِ والامتحانِ مِن حِكمةٍ بالغةٍ، ونِعمةٍ سابِغةٍ، وحُكمٍ نافذٍ، وأمرٍ ونهيٍ، وتصريفٍ دالٍّ على ربوبيَّتِه وإلهيَّتِه، ومُلكِه وحَمدِه!). ((شفاء العليل)) (ص: ٢٤٤). ويُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٢).

ومِمَّن اختار هذا المعنى بعمومِه في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن رجب، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨)، ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ١٢٢، ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).

قال ابن عاشور: (وحالُ الفتنةِ في كِلا البعضينِ مختلِفٌ؛ فبعضُها فِتنةٌ في العقيدةِ، وبعضُها فِتنةٌ في الأمنِ، وبعضُها فِتنةٌ في الأبدانِ، وشمِلَ أحدُ البعضينِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ معه، والبعضُ الآخَرُ المشركينَ، فكان حالُ الرَّسولِ فتنةً للمُشرِكين؛ إذْ زعَموا أنَّ حالَه مُنافٍ للرسالةِ فلم يؤمنوا به، وكان حالُ المؤمنينَ في ضَعفِهم فتنةً للمُشرِكين؛ إذ ترفَّعوا عن الإيمانِ الذي يُسَوِّيهم بهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٤).

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وعن عِياضِ بنِ حِمارٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال فيما يرويه عن اللهِ: ((قال: إنَّما بعثتُك لأبتلِيَك وأبتليَ بك))[١].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

موقعُ هذه الجملةِ بعْدَ الجملةِ الأُولى لبيانِ أنَّ فِتنةَ اللهِ لهم هي عن عِلمٍ وبَصَرٍ بصَوابِ ذلك وحكمتِه، وأنه مُطَّلِعٌ على حقيقةِ ما يكونُ منهم عندَ الاختيارِ لِيجازيَهم عليه، وفي هذا وعدٌ ووعيدٌ للمُمتحَنينَ[٢].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

أي: وكان ربُّك -يا محمَّدُ- بَصيرًا بمن يَصبِرُ مِن عبادِه ومَن لا يصبِرُ على ما امتُحِنَ به، ويعلَمُ أحوالَكم وأعمالَكم، وسيُجازي كُلًّا بعَمَلِه، ويعلَمُ مَن يصلُحُ لرسالتِه فيَصْطَفيه، ويختَصُّه بتفضيلِه[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠، ٥٨١).

مِمَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: بمَن يصبِرُ وبمَن يجزعُ: ابنُ جرير، ومكي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والرازي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٠). =

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

أي: وقال الكفَّارُ الذين لا يَطمَعونَ في لقائِنا، فلا يرجونَ ثوابَنا ولا يخافونَ عِقابَنا؛ لإنكارِهم البَعثَ: هلَّا أنزَل اللهُ علينا الملائِكةَ، أو نرى اللهَ بأعيُنِنا فنُؤمِنَ[1]؟!

= ومِمَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦).
وقيل: المعنى: إنَّ اللهَ بصيرٌ بمن يَستحِقُّ أن يُوحى إليه ومَن يستحِقُّ أن يهديَه اللهُ لِما أرسَلَهم به، ومَن لا يستَحِقُّ ذلك. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠).
وقال الثعلبيُّ: (﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بمَن يَصبرُ ويَجزعُ، وبمن يؤمنُ وبمن لا يؤمنُ). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٢٨).
وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: بكلِّ امرئٍ، وبمن يصبرُ أو يجزعُ، ومَن يؤمنُ ومَن لا يؤمنُ، وبمن أدَّى ما عليه مِن الحقِّ ومَن لا يؤدِّي). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٩).
وقال السعدي: (﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ يعلَمُ أحوالكم، ويصطَفي مَن يعلَمُه يصلُحُ لرسالتِه ويختَصُّه بتفضيلِه، ويعلَمُ أعمالَكم فيُجازيكم عليها: إنْ خَيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠، ٥٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧).
قيل: المعنى: هلَّا أنزل اللهُ علينا ملائكةً، فتُخبِرَنا أنَّ محمَّدًا محِقٌّ فيما يقولُ، وأنَّ ما جاءنا به صِدقٌ، أو نرى ربَّنا فيُخبِرَنا بذلك! وممَّن قال بذلك في الجملة: ابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زمنين، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والخازن، والألوسي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: لقد تكبَّرَ الكُفَّارُ الذين تجرَّؤوا على اقتراحِ نُزولِ الملائِكةِ عليهم، أو رُؤيةِ اللهِ في الدُّنيا، وتعظَّموا في أنفُسِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

= القرطبي)) (١٣/ ١٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦).

وقيل: معنى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: بالرسالةِ كما أتت الأنبياءَ والرسُلَ، كما أخبرَ عنهم تعالَى في الآيةِ الأخرى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ومِمَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٩٢).

وقيل: المعنى: هلَّا أُنْزِل علينا الملائِكةُ فكانوا رُسُلًا إلينا! وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٨).

وقال السعدي: (﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ أي: هلَّا نُزِّلَت الملائِكةُ تَشهَدُ لك بالرِّسالةِ وتؤيِّدُك عليها، أو تُنزلُ رُسُلًا مُستقِلِّينَ، أو نرى رَبَّنا فيُكَلِّمَنا ويقولَ: هذا رَسولي فاتَّبِعوه؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧).

﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

أي: وتجاوَزَ أولئك الكُفَّارُ الحَدَّ في الكِبْرِ والظُّلمِ والطُّغيانِ، باقتراحِهم ذلك[١].

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذه الآيةُ جَوابٌ لقَولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، فبَيَّنَ تعالى أنَّ الذي سألوه سيُوجَدُ، ولكِنَّهم يَلقونَ منه ما يَكرَهونَ[٢].

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: يومَ يرى الكُفَّارُ مَلائكةَ الموتِ حينَ تَنزِلُ لقَبضِ أرواحِهم، ويَرَون ملائِكةَ العذابِ في البَرزخِ ويومَ القيامةِ؛ فلا تُبَشِّرُ الملائكةُ المُجرِمين يومَ يَرَونَها بالخَيرِ، بل بالخَيبةِ والخُسرانِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠١، ١٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧، ٣٨).

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ * فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩].

وعن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبدَ الكافِرَ إذا كان في انقِطاعٍ مِن الدُّنيا وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزل إليه مِن السَّماءِ مَلائِكةٌ سُودُ الوجوهِ، معهم المُسُوحُ[١]، فيَجلِسون منه مَدَّ البصَرِ[٢]، ثمَّ يجيءُ مَلَكُ الموتِ حتى يجلِسَ عند رأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخرُجي إلى سَخَطٍ مِن اللهِ وغَضَبٍ، فتَفَرَّقُ في جَسَدِه، فينتَزِعُها كما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ[٣] مِن الصُّوفِ المبلولِ، فيأخُذُها، فإذا أخَذها لم يَدَعوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَجعَلوها في تلك المُسُوحِ، ويخرُجُ منها كأنتَنِ ريحِ جيفةٍ وُجِدَت على وجهِ الأرضِ، فيَصعَدونَ بها، فلا يمُرُّون بها على ملأٍ مِن الملائِكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ؟ فيقولون: فُلانُ بنُ فلانٍ، بأقبَحِ أسمائِه التي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتى يُنتهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستفتَحُ له فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: اكتُبوا كتابَه في سِجِّينٍ[٤] في الأرضِ السُّفلى، فتُطرَحُ رُوحُه طَرحًا، ثمَّ قرأ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ

(١) المُسُوحُ، جَمعُ المِسْحِ، وهو اللِّباسُ الخَشِنُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٩).

(٢) مَد البصَر: عبارةٌ عمَّا ينتهي إليه بصَرُ الإنسانِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٤٩٦).

(٣) السَّفُّودُ: أي: الحديدةُ التي يُشوى بها اللَّحمُ. يُنظر: ((شرح المشكاة للطيبي)) (٤/ ١٣٨١).

(٤) سِجِّينٍ: قِيلَ: هو موضِعٌ فيه كتابُ الفُجَّارِ مِن قعرِ النَّارِ. وقيل: هو كتابٌ جامِعٌ لأعمال الشياطينِ والكَفَرةِ. وقيل: هو مكانٌ في أسفلِ الأرضِ السَّابعةِ، وهو محلُّ إبليسَ وجنودِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٨٠)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٩).

مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١]، فتُعادُ رُوحُه في جسَدِه، ويأتيه مَلَكانِ فيُجلِسانِه، فيقولان له: مَن ربُّك؟ فيقول: هاهْ هاهْ، لا أدري، فيقولانِ له: ما دِينُك؟ فيقولُ: هاهْ هاهْ، لا أدري، فيقولانِ له: ما هذا الرجُلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاهْ هاهْ، لا أدري، فيُنادي مُنادٍ مِن السَّماءِ أن كذَبَ، فافرِشُوا له مِن النَّارِ، وافتَحوا له بابًا إلى النَّارِ، فيأتيه مِن حَرِّها، وسَمومِها، ويُضَيَّقُ عليه قبرُه حتَّى تختَلِفَ فيه أضلاعُه، ويأتيه رجُلٌ قَبيحُ الوجهِ، قَبيحُ الثِّيابِ، مُنتِنُ الرِّيحِ، فيقولُ: أبشِرْ بالذي يَسوؤُك، هذا يومُك الذي كنتَ تُوعَدُ. فيقولُ: مَن أنت؟ فوجهُك الوجهُ يجيءُ بالشَّرِّ. فيقولُ: أنا عمَلُك الخبيثُ. فيقولُ: ربِّ، لا تُقِمِ السَّاعةَ))[1].

﴿وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾.

أي: ويقولُ الملائِكةُ للكُفَّارِ: حَرامٌ محَرَّمٌ عليكم الفَلاحُ اليومَ[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ متقاربة.

صحَّح إسنادَه ابنُ جريرٍ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وحسَّن الحديثَ المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ القائلينَ بذلك هم الملائكةُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، ونسَبه إلى الجمهورِ. يُنظر: المصدران السابقان.

ومِمَّن ذهب إلى ذلك أيضًا: السمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٩٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٣٢).

ومِمَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: أبو سعيدٍ الخُدْريُّ، والضحَّاكُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) =

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾.

أي: وعَمَدْنا يومَ القيامةِ إلى ما عَمِل هؤلاء المُجرِمونَ في الدُّنيا مِن العباداتِ وأعمالِ البِرِّ والخَيرِ، فأحبَطْناها وأبْطَلْناها، حتَّى صارَتْ كالهباءِ[1] المتفرِّقِ المتبدِّدِ، فلا ينتفِعُ منها صاحبُها بشَيءٍ أصلًا[2].

= (٨/ ٢٦٧٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٤٥).

ومِمَّن اختار أنَّ القائلينَ بذلك هم المجرمون الكفَّارُ: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وأبو حيَّان، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩).

ومِمَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ جُرَيجٍ، ومجاهدٌ في رواية عنه، وقتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٩)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١٧).

قال ابنُ جُزي: (إن كان الضميرُ للمجرمينَ فالمعنى أنَّهم يقولونَ: حجرًا، بمعنى عوذًا؛ لأنَّ العربَ كانت تتعوَّذُ بهذه الكلمةِ ممَّا تَكرهُ، وانتِصابُه بفعلٍ متروكٍ إظهارُه، نحو: معاذَ الله). ((التسهيل لعلوم التنزيل)) (ص: ١٢٦٦).

وقال الشنقيطي: (الكفَّار الَّذينَ اقْتَرَحوا إنزالَ الملائكةِ إذا رَأَوُا الملائكةَ تَوَقَّعوا العذابَ مِن قِبَلِهم، فيقولونَ حينئذٍ للملائكةِ: ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾: أي: حرامًا مُحَرَّمًا عليكم أنْ تَمَسُّونا بسوءٍ؛ أي: لأنَّنا لم نرتكِبْ ذنبًا نَستوجِبُ به العذابَ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٩).

وقال الواحدي: (قولُه: ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أي: حرامًا مُحَرَّمًا. قاله ابنُ عباسٍ وجميعُ المفسِّرينَ. وأصلُ الحَجرِ في اللغة: المنعُ). ((البسيط)) (١٦/ ٤٥٤).

(١) قال ابنُ جرير: (والهَباءُ: هو الذي يُرى كهيئةِ الغُبارِ إذا دخل ضَوءُ الشَّمسِ مِن كَوَّةٍ، يحسَبُه الناظِرُ غُبارًا، وليس بشَيءٍ، تَقبِضُ عليه الأيدي ولا تمَسُّه، ولا يُرى ذلك في الظِّلِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣١).

وقال البقاعي: (باطلًا لا نفعَ فيه، وهو معنى ﴿هَبَآءً﴾، وهو ما يُرى في شُعاعِ الشَّمسِ الدَّاخِلِ مِن الكُوَّةِ ممَّا يُشبِهُ الغُبارَ، فهو أشبَهُ شَيءٍ بالعدَمِ؛ لأنَّه لا نفعَ له أصلًا). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٠، ٤٣١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٧)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) =

كما قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه وتعالى حالَ الكُفَّارِ في الخَسارِ الكُلِّيِّ والخَيبةِ التامَّةِ؛ شرَحَ وصْفَ أهلِ الجنَّةِ؛ تنبيهًا على أنَّ الحظَّ كلَّ الحَظِّ في طاعةِ اللهِ تعالى[(١)].

﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤ ﴾.

أي: أهلُ الجنَّةِ بسَبَبِ ما عَمِلوه من الأعمالِ المتقبَّلةِ أفضَلُ[(٢)] منزِلًا في الجنَّةِ، وأحسَنُ مَوضِعَ قائِلَةٍ[(٣)].

= (٤/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨).

قال ابن القيم: (﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ وهي الأعمالُ التي كانت لغَيرِ الله، وعلى غيرِ أمْرِه وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((مدارج السالكين)) (١/ ٥١٤).

وقال ابن عاشور: (كانوا في الجاهليَّةِ يَعُدُّون الأعمالَ الصالحةَ مَجلبةً لخَيرِ الدُّنيا؛ لأنَّها تُرضي الله تعالى فيُجازيهم بنِعَمٍ في الدنيا؛ إذ كانوا لا يؤمِنون بالبَعثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥١).

(٢) قال ابن جُزي: ﴿خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾ جاء هنا التفضيلُ بيْنَ الجنةِ والنارِ؛ لأنَّ هذا مستقَرٌّ وهذا مستقَرٌّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨١).

وقال السعدي: (هذا من بابِ استِعمالِ أفعَلِ التفضيلِ فيما ليس في الطَّرَفِ الآخَرِ منه شَيءٌ؛ لأنَّه لا خيرَ في مَقيلِ أهلِ النَّارِ ومُستقَرِّهم، كقَولِه: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [النمل: ٥٩]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١). ويُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ قَرنَ سُبحانَه الفِتنةَ بالصَّبرِ هاهنا، وفى قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ [النحل: ١١٠]، فليس لِمَن قد فُتِنَ بفتنةٍ دواءٌ مِثلُ الصَّبرِ، فإنْ صبرَ كانتِ الفتنةُ مُمحِّصةً له ومُخَلِّصةً مِن الذُّنوبِ، كما يُخَلِّصُ الكِيرُ خَبَثَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، فالفتنةُ كِيرُ القلوبِ، ومحَكُّ الإيمانِ، وبها يتبيَّنُ الصَّادِقُ مِن الكاذِبِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، فالفِتنةُ قَسَّمت النَّاسَ إلى صادقٍ وكاذبٍ، ومؤمنٍ ومُنافقٍ، وطيِّبٍ وخَبيثٍ، فمَن صبرَ عليها كانت رحمةً فى حَقِّه، ونجا بصبرِه مِن فِتنةٍ أعظَمَ منها، ومَن لم يصبِرْ عليها وقعَ فى فتنةٍ أشَدَّ منها(١).

٢- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بكُلِّ شَيءٍ؛ فهو عالِمٌ بالإنسانِ قبْلَ الامتِحانِ، لم يُفِدْه ذلك عِلمًا لم يكُنْ، وهو سُبحانَه يضَعُ الأمورَ في حاقِّ مواضِعِها وإن رُئِيَ غيرُ ذلك، فينبغي على كلِّ أحدٍ التَّسليمُ له في جَميعِ الأمورِ؛ فإنَّه يَجُرُّ إلى خَيرٍ كبيرٍ، والتدبُّرُ لأقوالِه وأفعالِه بحُسْنِ الانقيادِ والتلقِّي؛ فإنَّه يُوصِلُ إلى علمٍ غزيرٍ، وما أراد بابتلائِك بهم

= الخازن)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٢).

قال البقاعي: (﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: مكانًا يمكنُ فيه الاستراحةُ في مثلِ وقت القَيلولةِ للاسترواحِ بأزواجِهم، والتمتع بما يكونُ في الخَلواتِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٧٢).

وقال ابن عاشور: (والمَقيلُ: المكانُ الذي يُؤوَى إليه في القَيلولةِ، والاستراحةُ في ذلك الوقتِ مِن عادةِ المترَفينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩).

وقال الشنقيطي: (اعلمْ أنَّ المشهورَ في كلامِ العرب أنَّ المَقيلَ: القيلولةُ أو مكانُها، وهي الاستراحةُ نصفَ النهارِ زمنَ الحرِّ مثلًا، وإن لم يكن معها نومٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٤٣).

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٢).

وابتلائِهم بك في هذا الأذى الكبيرِ إلَّا إعلاءَ شأنِك، وإسفالَ أمرِهم، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾[1] [ص: ٨٨].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ الرَّسولُ فِتنةٌ للمُرسَلِ إليهم، واختبارٌ للمُطيعينَ مِن العاصين، والرسُلُ فتنَّاهم بدَعوةِ الخَلقِ، والغنيُّ فتنةٌ للفقيرِ، والفقيرُ فِتنةٌ للغنيِّ، وهكذا سائِرُ أصنافِ الخَلقِ في هذه الدَّارِ دارِ الفِتَنِ والابتلاءِ والاختبارِ، والقصدُ مِن تلك الفِتنةِ ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فتقومون بما هو وظيفتُكم اللَّازمةُ الرَّاتبةُ، فيُثيبكم مولاكم، أمْ لا تَصبِرون فتَستَحِقُّون المعاقَبةَ[2]؟ فكُلُّ مَنِ اتَّصل بك، مِن أهلك وبَنيك، وأبيك وأمِّك، وأصحابِك وعشيرتِك، وقَومِك وكُلِّ مَن ترتبِطُ به برباطٍ مِن أبناءِ جنسِك: هو فِتنةٌ وامتِحانٌ لك: هل تقومُ بواجبِك نحوَه مِن جلْبِ خَيرٍ له، أو دفعِ شَرٍّ عنه، أو جلْبِ خيرٍ منه لِغَيرِه، أو دفعِ شَرِّه عن غيرِه، وهل تكُفُّ يدَك عن شَيْئِه، وتكُفُّ بصَرَك عمَّا مُتِّع به، وتسألُ اللهَ مِمَّا عندَه مِن فَضلِه؟ وإنَّما تقوم بواجِبِك نحوَه ممَّا تقدَّم، وتكُفُّ يدَك وعينَك عنه، وتسألُ اللهَ ممَّا عندَه راضيًا بما قَسَم لك، معتقدًا الخيرَ كُلَّ الخير في قَسمِه؛ إذا تدرَّعتَ بالصَّبرِ على إتيانِه وإن كان عليك ثقيلًا، والكفِّ عمَّا يُطلَبُ منك الانكفافُ عنه وإن كان منك قريبًا، وفي طبعِك لذيذًا. وإنَّما يكونُ لك هذا الصبرُ إذا كنتَ دائمَ اليقينِ بعِلمِ الله بك، واطِّلاعِه عليك، وأنَّه كان بك بصيرًا. هذه الحقائِقُ كُلُّها هَدَتْنا هذه الآيةُ الكريمةُ إليها؛ هدَتْنا إلى أنَّا امتُحِنَّا ببعضِنا، وأنَّ الذي يُخلِّصُنا في هذا الامتحانِ، ويخرِجُنا سالمينَ هو الصَّبرُ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٨).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ عَلِمْنا مِن هذه الآيةِ أنَّ اللهَ تعالى يَمتحِنُ عبادَه ويَختبِرُهم لِيُظهرَ حقائقَهم؛ فعلينا أن نبنيَ أمورَنا على الامتحانِ والاختبارِ، فلا نُقَرِّرَ علمًا ولا نُصدِرَ حُكمًا إلَّا بعْدَ ذلك، وخُصوصًا في معرفةِ النَّاسِ والحُكْمِ عليهم، فالظَّواهرُ كثيرًا ما تُخالِفُ البواطنَ، والتصنُّعُ والتكلُّفُ قلَّما يَسلَمُ منهما أحَدٌ، ولا يَعصِمُ مِن الخطأِ مع هذه المغالطاتِ كلِّها إلَّا الامتحانُ والاختبارُ، فاعتَصِمْ بهما[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ فيه دَليلٌ على القضاءِ والقدَرِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ سؤالٌ: اللهُ تعالى عالِمٌ بما يَكونُ مِن عبادِه بعْدَ امتحانِهم قبْلَ أن يَمتحِنَهم، فما حِكمةُ الامتحانِ؟

الجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى إنما يُحاسِبُ عبادَه على ما عَمِلوه وكَسَبوه واكتسَبوه بما عندهم مِن التمكُّنِ مِن الفِعلِ والتَّركِ، وما عندَهم مِن الاختيارِ، لا على عِلْمِه منهم قبْلَ أن يَعملوه؛ فلهذا يُمتحَنون؛ لتظهرَ حقائقُهم، ويَقَعَ جزاؤُهم على ما كسبتْ أيديهم باختيارِهم، ولا حُجَّةَ لهم في تَقَدُّمِ عِلمِه تعالى بما يكونُ منهم؛ لأنَّ تَقدُّمَ العِلمِ لم يكن مُلجِئًا لهم على أعمالِهم، ففي هذا الامتحانِ قيامُ حُجَّةِ اللهِ على العامِلِينَ أمامَ أنفُسِهم وأمامَ الناسِ، كما فيه إظهارٌ لحقيقتِهم لأنفُسِهم ولغيرِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٧).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ كما يُفتَنُ الفَردُ بالفردِ، كذلك تُفتَنُ الأمَّةُ بالأمَّةِ: مِن ذلك أنَّنا -معشرَ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ- قد فُتِنَّا بغَيرِنا مِن أمَمِ الغربِ، وفُتِنوا هم أيضًا بنا؛ فنحن نَدينُ بالإسلامِ، وهو دينُ السعادةِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، ولكِنْ حيثما كنَّا -إلَّا قليلًا- لسْنا سعداءَ لا في مظاهِرِ تديُّنِنا، ولا في أحوالِ دُنيانا!

ففي الأُولى: نأتي بما يبرَأُ منه الإسلامُ، ونصَرِّحُ بأنَّه مِن صميمِه!

وفي الثَّانيةِ: ترانا في حالةٍ مِن الجهلِ والفَقرِ والذُّلِّ والاستعبادِ يَرثي لها الجمادُ.

فلمَّا يَرانا الغربيُّون على هذه الحالةِ يَنفِرونَ مِن الإسلامِ، ويَسخرونَ منه، إلَّا مَن نظَرَ منهم بعَينِ العِلمِ والإنصافِ؛ فإنَّه يعرِفُ أنَّ ما نحن عليه هو ضِدُّ الإسلام، فكنَّا فِتنةً عظيمةً عليهم، وحجابًا كثيفًا لهم عن الإسلامِ. فكنَّا -ويا لَلأسفِ- فتنةً للقَومِ الظالمين.

وهم مِن ناحيتِهم نراهم في عزٍّ وسيادةٍ وتقدُّمٍ عِلميٍّ وعمرانيٍّ، فننظرُ إلى تلك الناحيةِ منهم، فنندفِعُ في تقليدِهم في كلِّ شيءٍ حتى معائِبِهم ومفاسِدِهم، ونَزْدَري كلَّ شيءٍ عندَنا حتى أعزَّ عزيزٍ، إلَّا مَن نظَر بعينِ العِلمِ، فعرَف أنَّ كلَّ ما عندَهم مِن خيرٍ هو عندَنا في دينِنا وتاريخِنا، وأنَّ ذلك هو الذي تقَدَّموا وسادوا به، وأنَّ ما عِندَهم مِن شَرٍّ هو شَرٌّ على حقيقتِه، وأنَّ ضرَرَه فيهم هو ضَرَرُه، وأنَّه لا يجوز أن يُتابَعوا عليه؛ فكانوا فتنةً لنا حتى ينظُرَ مَن ينظُرُ بعَينِ الحَقِّ للحقائق ممَّن تبهَرُه الظواهِرُ فتَسلُبُه إدراكَه فيَغْدو لا يفرِّقُ بيْن اللُّبِّ والقشورِ[1].

٤- قَولُه تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يخافون، وإنَّما جاز «يرجو» في موضِعِ «يخاف»؛ لأنَّ الرَّاجيَ الشَّيءَ قَلِقٌ فيما يرجوه؛ فمرَّةً يَشتدُّ طمَعُه فيصيرُ كالآمِنِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٧).

ومرَّةً يضْعُفُ فيصيرُ كالخائفِ[١].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ دلَّ ظاهِرُ الآيةِ على جوازِ الرؤيةِ[٢]، وقد أجمَع أهلُ اللسانِ على أنَّ اللقاءَ متى نُسِب إلى الحيِّ السليمِ مِن العمَى والمانعِ اقتضَى المعايَنةَ والرؤيةَ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ النبوَّةَ لا تكونُ بالاكتِسابِ، وإنَّما هي إعدادٌ مِن اللهِ تعالى؛ قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[٤] [الأنعام: ١٢٤].

٧- يُفهَمُ مِن قولِه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ الآيةَ: أنَّ أصحابَ النارِ ليسوا كذلك، وأنَّ حسابَهم غيرُ يسيرٍ، وهذا المفهومُ دلَّت عليه آياتٌ أُخَرُ؛ كقولِه تعالى قريبًا مِن هذه الآيةِ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، فقولُه: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّه على المؤمنينَ غيرُ عسيرٍ، كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ الآيةَ [الأنبياء: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[٥] [القمر: ٨].

٨- قال الله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ استَنبَط بعضُ العُلماءِ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ حِسابَ أهلِ الجنَّةِ يسيرٌ، وأنَّه

---

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) للغزنوي (٢/ ١٠٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤١).

ينتهي في نِصفِ نَهارٍ، ووجْهُ ذلك أنَّ قَولَه: ﴿مَقِيلًا﴾، أي: مكانَ قَيلولةٍ، وهي الاستراحةُ في نِصفِ النَّهارِ، قالوا: وهذا الذي فُهِمَ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ جاء بيانُه في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾[1] [الانشقاق: ٧-٩]. وقيل: إنَّ الله تعالى يحاسِبُ الخلائقَ كلَّها في نصفِ يومٍ؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، والقيلولةُ إنما تكونُ في نصفِ النهارِ، ويلزمُ مِن هذا أنَّ الله يحاسِبُ الخلائقَ كلَّهم في نصفِ يومٍ حتى إنَّ كلَّ واحدٍ منهم يَقيلُ في منزلِه ومستقَرِّه[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ سؤالٌ، وهو أنَّ الآيةَ دلَّتْ على أنَّ مُستقَرَّهم غيرُ مَقيلِهم، فكيف ذلك؟

والجوابُ مِن وجوهٍ:

منها: أنَّ المستقَرَّ مكانُ الاستِقرارِ، والمقيلَ زمانُ القَيلولةِ، فهذا إشارةٌ إلى أنَّهم مِن المكانِ في أحسَنِ مكانٍ، ومِن الزَّمانِ في أطيَبِ زَمانٍ.

ومنها: أنَّ بعْدَ الفراغِ مِن المحاسَبةِ والذَّهابِ إلى الجنَّةِ يكونُ الوقتُ وقتَ القَيلولةِ[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ سُؤالٌ: كيف يصحُّ القَيلولةُ في الجنَّةِ والنَّارِ، وأهلُ الجنَّةِ في الآخرةِ لا ينامون، وأهلُ النَّارِ أبدًا في عَذابٍ يَعرِفونَه، وأهلُ الجنَّةِ في نعيمٍ يَعرِفونَه؟!

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤١)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٢).

والجوابُ: قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، وليس في الجنَّةِ بُكرةٌ وعَشِيٌّ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣]، ولأنَّه إذا لم يكُنْ هناك شَمسٌ لم يكُن هناك نِصفُ النَّهارِ، ولا وقتُ القَيلولةِ، بلِ المرادُ منه بيانُ أنَّ ذلك الموضِعَ أطيبُ المواضِعِ وأحسَنُها، كما أنَّ مَوضِعَ القيلولةِ يكونُ أطيبَ المواضِعِ. واللهُ أعلمُ[(١)]. وقيل: المقيلُ: موضعُ الاستراحةِ؛ نام أو لم ينَمْ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ رَدٌّ على قولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، بعْدَ أنْ ردَّ عليهم قولَهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٨] بقولِه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ...﴾ [الفرقان: ١٠]؛ ولكنْ لَمَّا كان قولُهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ حالةً لم تُعطَ للرُّسلِ في الحَياةِ الدُّنيا، كان رَدُّ قولِهم فيها بأنَّ اللهَ أعطاهُ خَيرًا مِن ذلك في الآخرةِ[(٣)].

- جُملةُ: ﴿إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ في مَوضعِ الحالِ، والتَّوكيدُ بـ(إنَّ) واللَّامِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٣).

لتَحقيقِ وُقوعِ الحالِ؛ تَنزيلًا للمُشرِكين في تَناسِيهم أحوالَ الرُّسلِ مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنْ يكونَ الرُّسلُ السَّابقون يأْكُلون الطَّعامَ، ويَمْشون في الأسواقِ[١].

- قَولُه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ هذا تَصبيرٌ لرَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما قالوهُ واستَبْدعوهُ؛ مِن أكْلِه الطَّعامَ، ومَشْيِه في الأسواقِ، بعْدَما احتجَّ عليهم بسائرِ الرُّسلِ. وقيل: هو تَسليةٌ له عمَّا عيَّروه به مِن الفَقرِ حينَ قالوا: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾[٢].

- قَولُه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ تَذييلٌ؛ فضَميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿بَعْضَكُمْ﴾ يعُمُّ جميعَ النَّاسِ؛ بقرينةِ السِّياقِ[٣].

- قَولُه: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ عِلَّةٌ للجَعْلِ، والمعنى: وجَعَلْنا بَعضَكم لِبعضٍ فِتنةً؛ لنَعلَمَ أيُّكم يَصبِرُ. ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. أو استِفهامٌ مُستعمَلٌ في الحثِّ والأمْرِ على الصَّبرِ على ما افْتُتِنُوا به[٤].

- قَولُه: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ الاقتِصارُ على ذِكْرِه مِن غيرِ تعرُّضٍ لمُعادِلٍ له -كأنْ يقولَ: (أتصبِرونَ أمْ لا تصبِرون)-؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّ اللَّائقَ بحالِ المفتونينَ والمُتوقَّعَ صُدورُه عنهم هو الصَّبرُ لا غيرُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٠).

- قَولُه: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ خبرٌ فيه مَزيدُ تَشريفٍ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالالْتفاتِ إلى اسمِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

ومَوقِعُ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ مَوقِعُ الحثِّ على الصَّبرِ المأمورِ به، أي: هو عليمٌ بالصَّابرينَ، وإيذانٌ بأنَّ اللهَ لا يُضِيعُ جَزاءَ الرَّسولِ على ما يُلاقِيه مِن قَومِه، وأنَّه ناصِرُه عليهم. وفي الإسنادِ إلى وصْفِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ النَّبيِ إلْماعٌ إلى هذا الوعْدِ؛ فإنَّ الرَّبَّ لا يُضِيعُ أولياءَهُ(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ حِكايةُ مَقالةٍ أُخرى مِن مَقالاتِ تَكذيبِهمُ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقد عَنْوَنَ عليهم في هذه المقالةِ بـ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، وعَنْوَنَ عليهم في المقالاتِ السَّابقةِ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [الفرقان: ٤] وبـ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الفرقان: ٨]؛ لأنَّ بيْنَ هذا الوصفِ وبيْن مقالَتِهمُ انتِقاضًا؛ فهُم قد كذَّبوا بلِقاءِ الآخِرةِ بما فيه مِن رُؤْيةِ اللهِ والملائكةِ، وطلَبوا رُؤْيةَ اللهِ في الدُّنيا، ونُزولَ الملائكةِ عليهم في الدُّنيا، وأرادُوا تَلَقِّي الدِّينِ مِنَ الملائكةِ أو مِنَ اللهِ مباشرةً؛ فكان في حكايةِ قَولِهم، وذِكْرِ وصْفِهم: تَعجيبٌ مِن تَناقُضِ مَدارِكِهم! وأيضًا فإنَّ أهلَ الشِّركِ أنكروا البعثَ، وتوهَّموا أنَّ شُبهتَهُم في إنكارِه أقوَى حجَّةً لهم في تكذيبِ الرُّسلِ؛ فمِن أجْلِ ذلك أيضًا جَعَل قولَهم ذلك طريقًا لتعريفِهم بالمَوصولِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾(٣) [يونس: ١٥].

- قَولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ شُروعٌ في حِكايةِ بعضٍ آخَرَ مِن أقاويلِهمُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥).

الباطلةِ وبيانِ بُطلانِها، بعْدَ إبطالِ أباطيلِهِمُ السَّابقةِ. والجملةُ معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾، ووُضِع الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ موضعَ الضَّميرِ؛ للتَّنبيهِ بما في حَيِّزِ الصِّلَةِ على أنَّ ما يُحكَى عنهم مِنَ الشَّناعةِ بحيثُ لا يَصدُرُ عمَّن يَعتقدُ المصيرَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

- والقومُ المعانِدون السابِقون في قولِه: ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا بُورًا﴾ هم الذين وصَفَهم اللهُ هنا بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، وقد أُقيمَ المُظهَرُ مُقامَ المُضمَرِ؛ وذلك أنَّه تعالى لَمَّا سَلَّى رسولَه صلواتُ اللهِ عليه بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ...﴾ [الفرقان: ٢٠] عاد إلى تقبيحِ نوعٍ آخَرَ مِن أفعالِهم، وهو إنكارُهم لقاءَ اللهِ، وأنَّ لله تعالى دارَ جَزاءٍ[٢].

- و(لولا) في قولِه: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ حرْفُ تَحضيضٍ مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ والاستِحالةِ[٣].

- قَولُه: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ استِئنافٌ يَتنزَّلُ منزلةَ جوابٍ عن قَولِهم. والتَّأكيدُ بلامِ القَسَمِ لإفادةِ معنَى التَّعجيبِ؛ لأنَّ القسَمَ يُستعمَلُ في التَّعجُّبِ[٤]. والاستِكبارُ: مُبالَغةٌ في التَّكبُّرِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ للمُبالَغةِ[٥].

- وأيضًا هذه الجُملةُ في حُسنِ استِئنافِها غايةٌ، وفي فَحْوى هذا الفعلِ دليلٌ على التَّعجُّبِ مِن غَيرِ لفظِ التَّعجُّبِ؛ ألا ترى أنَّ المعنى: ما أشَدَّ استِكبارَهم!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥، ٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥).

وما أَكبرَ عُتُوَّهم[١]! فقولُه: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ جملةٌ قَسَميَّةٌ، يَستدعي أنْ يُتلقَّى بها مَن يُبالِغُ في الإنكارِ، كأنَّه لَمَّا قالوا: لولا أُنزِل علينا الملائِكةُ أو نَرى ربَّنا، حُمِل السَّامعُ على أن يقولَ: ما أشدَّ استِكبارَهم! وما أكبرَ عُتُوَّهم! لأنَّها اشتَملَتْ على أمرٍ يَقتضي التَّعجُّبَ منهم، فلا يَتمالَكُ أنْ يَترُكَ ذلك القَولَ، فوُضِع مَوضِعَه: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ لأنَّه أَثبَتُ وأَبلَغُ مِن ذلك[٢].

- قَولُه: ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ وصَفَ العُتُوَّ بالكبيرِ؛ مبالَغةً في إفراطِه[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾

- قَولُه: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ ما يَلْقَونه عِندَ مُشاهَدتِهم لِما اقترحُوه مِن نُزولِ الملائكةِ عليهم السَّلامُ، بعْدَ استِعظامِه، وبيانِ كَونِه في غايةِ ما يكونُ مِنَ الشَّناعةِ. وإنَّما قيلَ: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ﴾ دُونَ أنْ يُقالَ: (يومَ يَنزِلُ الملائكةُ)؛ إيذانًا مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّ رُؤيتَهم لهم ليسَتْ على طريقِ الإجابةِ إلى ما اقتَرحُوه، بل على وجهٍ آخَرَ غيرِ معهودٍ[٤].

- وفي هذا الاستِئنافِ تَلميحٌ وتَهكُّمٌ بهم؛ لأنَّ ابتِداءَه مُطمِعٌ بالاستِجابةِ، وآخِرَه مؤيِسٌ بالوعيدِ[٥].

- والعُدولُ إلى نَفْيِ الجِنسِ في قولِه: ﴿لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ للمُبالَغةِ في نَفْيِ البُشرى. وحيثُ كان نَفْيُها كِنايةً عن إثباتِ ضِدِّها -كما أنَّ نفيَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٦، ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦، ٧).

المحبَّةِ في مثلِ قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢] كنايةٌ عن البُغض والمَقْتِ- دَلَّ على ثبوتِ النَّذْرِ -أي: الخوف- لهم على أَبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه[١].

- و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ والتَّهويلِ، مع ما فيه مِنَ الإيذانِ بأنَّ تقديمَ الظَّرفِ للاهتِمامِ لا لقَصْرِ نَفْيِ البُشرَى على ذلك الوقتِ فقط؛ فإنَّ ذلك مُخِلٌّ بتَفظيعِ حالِهم[٢]. وقيل: قُدِّم الظَّرفُ للاهتِمامِ به؛ لإثارةِ الطَّمعِ، وللتَّشويقِ إلى تَعيينِ إبَّانِه، حتَّى إذا وَرَدَ ما فيه خَيبةُ طَمَعِهم كان له وقْعُ الكآبةِ على نفوسِهم حينما يَسمَعونه[٣].

- وقوله: ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ إمَّا عامٌّ يَتناوَلُ حُكْمُه حُكْمَهم، ولا يَلزَمُ مِن نَفْيِ البُشرى لعامَّةِ المُجرمينَ حينئذٍ نَفْيُ البُشرى بالعَفْوِ والشَّفاعةِ في وقتٍ آخَرَ، وإمَّا خاصٌّ وُضِعَ مَوضِعَ ضميرِهم؛ تسجيلًا على جُرْمِهم، وإشعارًا بما هو المانعُ للبُشرى، والموجِبُ لِما يُقابِلُها[٤].

- وفي قولِه: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ جاءتِ الصِّفةُ ﴿مَّحْجُورًا﴾؛ لتأكيدِ معنَى الحَجرِ، كما يُقالُ: ذَيْلٌ ذائِلٌ -والذَّيلُ: الهَوانُ-، ومَوتٌ مائِتٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١، ١٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾

- في قولِه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ شَبَّه عمَلَهم بالهَباءِ في قِلَّتِه وحَقارتِه عِندَه، وأنَّه لا يُنتفَعُ به مع كَونِه مَوجودًا، ثمَّ بالمَنثورِ منه؛ لأنَّك تراه مُنتظِمًا مع الضَّوءِ فإذا حرَّكَتْه الرِّيحُ رأيْتَه قد تَناثَرَ وذَهَب كُلَّ مَذهَبٍ؛ فلمْ يَكتَفِ أنْ شَبَّهَ عملَهم بالهَباءِ حتَّى جعَلَه مُتناثِرًا، ومِثْلُ هذا الإردافِ يُسمَّى في البَديعِ: بالتَّتْميمِ[1] والإيغالِ[2]؛ فقولُه: ﴿مَّنثُورًا﴾ وصْفٌ كاشِفٌ؛ لأنَّ الهَباءَ لا يَكونُ إلَّا مَنثورًا، فذِكْرُ هذا الوَصفِ للإشارةِ إلى ما في الهَباءِ مِنَ الحَقارةِ ومِنَ التَّفرُّقِ[3].

---

(١) التَّتميم: هو أن يُؤتى في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المراد بفضلةٍ تُفيد نكتةً. أو بعبارةٍ أخرى هو: الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصود؛ لرَفْعِ اللبسِ عنه، وتقريبِه للفَهم، أو لزِيادةٍ حسنة، بحيث إذا طُرِح من الكلام نقَص معناه في ذاتِه، أو في صِفاته. يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ١٢٠)، (٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠).

(٢) الإيغال: هو استِكمالُ الكلامِ قبْلَ الإتيانِ بمقطعِه، فإذا أُريدَ الإتيانُ بذلك أُتيَ بما يُفيد معنًى زائدًا على معنى ذلك الكلامِ، وهو ضَربانِ: ١- إيغالُ تخييرٍ؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]؛ إذ إنَّ المعنى قد تمَّ بقَولِه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾، ولَمَّا احتاجَ الكلامُ إلى فاصلةٍ تُناسِبُ ما قبْلَها وما بعْدَها، أتتْ هذه الفاصلةُ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لتُفيدَ معنًى زائدًا، لولاها لم يَحصُل؛ وذلك أنَّه لا يَعلَمُ أنَّ حُكْمَ الله أحسَنُ مِن كلِّ حُكمٍ إلَّا مَن أَيقنَ أنَّه واحدٌ حكيمٌ عادلٌ. ٢- إيغالُ احتياطٍ: وهو استِكمالُ معنَى الكلامِ قبْلَ قَطْعِه، فإذا أُريدَ الإتيانُ بذلك أُتيَ بما يُفيدُ معنىً زائدًا تتمَّةً للمبالَغةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، فالكلامُ يحتاجُ إلى فاصلةٍ تماثلُ مقاطعَ ما قبْلَها وما بعْدَها، فأتى بها مفيدةً معنًى زائدًا على معنى الكلامِ، حيث قال: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]، فإنْ قيل: ما معنى مُدبرينَ وقد أغنى عنها ذِكرُ التولِّي؟ قيل: ذلك لا يُغني عنها؛ إذ التولِّي قد يكون بجانبٍ دونَ جانبٍ، كما يكونُ الإعراضُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٢٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٠٠، ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((حاشية =

٥- قَولُه تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ؛ جِيءَ به لمُقابَلةِ حالِ المشركينَ في الآخرةِ بضِدِّها مِن حالِ أصحابِ الجنَّةِ[١].

- قَولُه: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ سَمَّى مكانَ دَعَتِهم واستِرواحِهم إلى الحُورِ مَقِيلًا -مع أنَّه لا نَومَ في الجنَّةِ- على طَريقِ التَّشبيهِ؛ إذِ المكانُ المُتخيَّرُ للقَيلولةِ يكونُ أَطيَبَ المواضعِ. وفي وصْفِه بزِيادةِ الحُسنِ مع حُصولِ الخَيريةِ بعَطفِه على المُستَقَرِّ رمْزٌ إلى أنَّه مُزَيَّنٌ بفُنونِ الزِّينِ والزَّخارفِ[٢]. وقيل: وصَفَه بالحُسنِ؛ إرادةً لحُسنِ ساكنِيهِ على طريقِ الكِنايةِ[٣].

- واسمُ التَّفضيلِ (خَيْرٌ) في قولِه: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ قيل: إنَّه ليس على بابِه مِن استِعمالِه دَلالةً على الأفضليَّةِ؛ لئلَّا يَلزَمَ مِن ذلك خَيرٌ في مُستَقَرِّ أهلِ النَّارِ. وقيل: يُمكِنُ إبقاؤُه على بابِه، ويكونُ التَّفضيلُ وقَعَ بيْن المُستَقَرَّينِ والمَقِيلَينِ باعتِبارِ الزَّمانِ الواقعِ ذلك فيه[٤]. وقيل: التَّفضيلُ المُعتبَرُ فيهما إمَّا لإرادةِ الزِّيادةِ على الإطلاقِ، وإمَّا بالإضافةِ إلى ما للكَفرةِ المُتنعِّمينَ في الدُّنيا، أو إلى ما لهم في الآخرةِ بطريقِ التَّهكُّمِ بهم[٥]. وقيل: التفاضُلُ

= الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٨٦، ٦٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨، ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٩)، ويُنظر أيضًا: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩).

الذي ذُكِرَ بيْن المنزلتينِ إنَّما يَرجعُ إلى المَوضعِ، والموضعُ مِن حيثُ إنَّه مَوضعٌ لا شرَّ فيه. وقيل: هذا التفاضُلُ واقعٌ على هذا التقديرِ، أي: لو كان لهم مستقَرٌّ فيه خَيرٌ لكان مستقَرُّ أهلِ الجنةِ خيرًا منه[١]. وقيل: هذا يَحْسُنُ في مَعرِضِ التَّقريعِ، كما إذا أعطى السيدُ عبدَه مالًا فتَمَرَّدَ وأبى واستكبَرَ؛ فيَضْرِبُه ضربًا وجيعًا، ويقولُ على سبيلِ التوبيخِ: هذا أطيَبُ أمْ ذاك[٢]؟!

- وفي قوله: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ كِنايةٌ في قولِه: ﴿مُّسْتَقَرًّا﴾ و﴿مَقِيلًا﴾؛ فالمُستقَرُّ اسمُ مكانٍ مِنَ الاستِقرارِ، وهو المجلسُ الدَّائمُ لأهلِ الجنَّةِ يَستقِرُّونَ فيه ويَقْضُون مُعظَمَ أوقاتِهم مُتقابِلينَ يَتحادَثونَ ويَتسامَرون، وكَنَى به عن أحاديثِ العَشايا والبُكَرِ الَّتي يَتبادَلُونها، وهي أحاديثُ كانتْ في الدُّنيا تَدورُ بيْن المُترَفينَ وأصحابِ النَّعيمِ واليَسارِ، وكَنَى بالمَقِيلِ -وهو وقتُ استراحةِ نِصفِ النَّهارِ- عن قَضائِهم وقتَ الاستِجمامِ والاستِراحةِ مع أزواجِهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٧، ٨).

الآيات (٢٥-٢٩)

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾: أي: السَّحابِ؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّه يَغُمُّ السَّماءَ، أي: يَستُرُها ويُغطِّيها، وكُلُّ شَيءٍ غطَّيتَه فقدْ غَمَمتَه، وأصلُ (غمم): يدُلُّ على تغطيةٍ وإطباقٍ[١].

﴿خَلِيلًا﴾: الخَليلُ: الصَّديقُ، مِنَ الخُلَّةِ، أي: الصَّداقةِ والمودَّةِ؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّها تتخَلَّلُ النَّفْسَ، أي: تتوسَّطُها[٢].

﴿خَذُولًا﴾: أي: كثيرَ الخِذلانِ، والخِذلانُ: تَركُ المَعونةِ، وأصلُ (خذل): يدُلُّ على تَركِ الشَّيءِ والقُعودِ عنه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يصِفُ الله تعالى بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: واذكُرْ -أيُّها الرسولُ- حين تتشَقَّقُ السَّماءُ عن سَحابٍ رَقيقٍ أبيضَ يومَ القيامةِ، وتُنزَّلُ الملائِكةُ إلى أرضِ المحشَرِ تنزيلًا. في ذلك اليَومِ يكونُ السُّلطانُ الثَّابِتُ الحَقُّ لله وحْدَه دونَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩، ٣١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩، ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

غيرِه مِن مُلوكِ الأرضِ، وكان ذلك اليَومُ يَومًا شَديدًا على الكافرينَ.

ثمَّ يذكُرُ تعالى ما يكونُ عليه الكافرونَ يومَ القيامةِ مِن حسرةٍ وندامةٍ، فيقولُ: واذكُرْ حين يَعَضُّ الظَّالمُ المحادُّ للهِ ورَسولِه على يَدَيه؛ تحسُّرًا وأسَفًا، يقولُ: يا ليتني سلَكْتُ طَريقَ الحَقِّ الذي جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واتبَعْتُه فيما جاء به مِن عندِ رَبِّه.

وأنَّه يقولُ في هذا اليومِ: يا هَلاكي! ليتَني لم أتَّخِذْ مَن أضَلَّني وأغواني في الدُّنيا صديقًا لي وحبيبًا، لقد صرَفَني هذا الصَّديقُ المشؤومُ عن القُرآنِ والهُدى بعد أن بلَغَني. ثمَّ قال الله تعالى: وكان الشَّيطانُ كثيرَ الخِذلانِ للإنسانِ الذي يتَّبِعُه، تارِكًا لإعانتِه ونصرِه وَقتَ استِنصارِه به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذا الكلامُ مَبنيٌّ على ما استَدعَوه مِن إنزالِ الملائكةِ؛ فبَيَّنَ سُبحانَه أنَّه يحصُلُ ذلك في يومٍ له صِفاتٌ ذكَرَها في هذه الآياتِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان للكَفَرةِ في هذه الدَّارِ مِن العِزِّ والقوَّةِ والضَّخامةِ ما يتعجَّبونَ معه مِن مَصيرِ حالِهم إلى ما ذُكِرَ؛ بيَّنَ أنَّ الأمرَ في ذلك اليومِ على غَيرِ ما نَعهَدُه، فقال عاطِفًا على ﴿ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾[2] [الفرقان: ٢٢]:

﴿ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٢).

أي: واذكُرْ أيُّها الرسولُ[١] يومَ القيامةِ حين تتشَقَّقُ السَّماءُ عن سَحابٍ أبيَضَ رَقيقٍ[٢].

﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾.

أي: وتُنَزَّلُ الملائِكةُ يومَ القيامةِ مِن السَّمواتِ إلى أرضِ المحشَرِ تنزيلًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان ذلك اليومُ سببًا لانكِشافِ الأمورِ، ومَعرفةِ أنَّه لا مُلْكَ لِسواه سُبحانَه؛ لأنَّه لا يَقضي فيه غَيرُه، قال[٤]:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

---

(١) قال محمد رشيد رضا: (وجمهورُ الْمفسِّرينَ يجعلونَ كلمةَ «يومٍ» في أمثالِ هذه الآياتِ مفعولًا لِفعلٍ محذوفٍ تقديرُه «واذْكُرْ»، وهو خطابٌ لِلرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، أي: واذكُرْ لهم فيما تَتْلوه عليهم يومَ يَكونُ كَذا وكَذا). ((تفسير المنار)) (٨/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٤).

وقال ابن كثير: (يخبِرُ تعالى عن هَولِ يومِ القيامةِ، وما يكونُ فيه مِن الأمورِ العظيمةِ؛ فمنها انشِقاقُ السَّماءِ وتفطُّرُها، وانفراجُها بالغَمامِ، وهو ظُلَلُ النورِ العظيمِ الذي يُبهِرُ الأبصارَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٣).

أي: السُّلطانُ -يَومَ القيامةِ- المؤكَّدُ الثَّابِتُ الذي لا يَزولُ: للرَّحمنِ وَحْدَه دُونَ غَيرِه مِن مُلوكِ الأرضِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((يَقبِضُ اللهُ الأرضَ يومَ القيامةِ، ويَطوي السَّماءَ بيَمينِه، ثمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ، أين ملوكُ الأرضِ؟))[(٢)].

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾.

أي: وكان يومُ القيامةِ يَومًا صَعبًا شَديدًا على الكافرينَ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۞ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۞ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨ - ١٠].

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان حاصِلُ حالِ الكافرينَ أنَّهم جانَبوا أشرفَ الخلْقِ، الهاديَ لهم إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٨٧).

(٢) رواه البخاري (٧٣٨٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١).

قال القرطبي: (﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي: لِما يَنالُهم مِن الأهوالِ، ويَلحَقُهم مِن الخِزيِ والهوانِ، وهو على المؤمِنينَ أخَفُّ مِن صَلاةٍ مكتوبةٍ...، وهذه الآيةُ دالَّةٌ عليه؛ لأنَّه إذا كان على الكافرين عَسيرًا، فهو على المؤمنين يَسيرٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي: شديدًا صَعبًا؛ لأنَّه يومُ عَدلٍ، وقَضاءٍ فَصلٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٧).

كلِّ خَيرٍ، وصاحَبوا غيرَه ممَّن يقودُهم إلى كُلِّ شرٍّ؛ بَيَّنَ عُسْرَ ذلك اليومِ -الذي إنَّما أوجبَ جُرأتَهم تكذيبُهم به- بتناهِي نَدَمِهم على فِعلِهم هذا، فقال[١]:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾.

أي: واذكُرْ يومَ القيامةِ حينَ يَعَضُّ الظَّالِمُ المخالِفُ لطَريقِ الرَّسولِ على يَدَيه؛ نَدَمًا وحَسرةً وأسَفًا[٢].

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾.

أي: يَقولُ هذا الظَّالِمُ: يا ليتني اتَّبَعتُ في الدُّنيا طريقَ رَسولِ اللهِ، فآمنتُ به ولم أخالِفْه؛ لأنجوَ مِن عذابِ اللهِ، وأصِلَ إلى جنَّاتِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۞ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٦، ٦٧].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٩)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

قال الشوكاني: (الظَّاهِرُ أنَّ العَضَّ هنا حقيقةٌ، ولا مانِعَ من ذلك، ولا مُوجبَ لتأويلِه. وقيل: هو كنايةٌ عن الغَيظِ والحَسرةِ، والمرادُ بالظالم: كلُّ ظالمٍ يَرِدُ ذلك المكانَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٤).

وقال الشنقيطي: (مِن المشهورِ عندَ علماءِ التفسيرِ أنَّ الظَّالمَ الذي نزَلَت فيه هذه الآيةُ: هو عُقبةُ ابنُ أبي مُعَيطٍ، وأنَّ فلانًا الذي أضلَّه عن الذِّكرِ: أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ أو أخوه أُبَيُّ بنُ خلَفٍ... وعلى كلِّ حالٍ فالعِبرةُ بعُمومِ الألفاظِ، لا بخصوصِ الأسبابِ؛ فكُلُّ ظالمٍ أطاع خليلَه في الكُفرِ حتى مات على ذلك يجري له مِثلُ ما جرى لابنِ أبي مُعَيطٍ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨﴾.

أي: يقولُ الظَّالِمُ: يا هلاكي! ليتَني لم أجعَلْ مَن أغواني في الدُّنيا صديقًا وحبيبًا لي[١].

عن أبي موسى الأشعريِّ رضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّما مَثَلُ الجَليسِ الصَّالحِ والجَليسِ السُّوءِ، كحامِلِ المِسكِ ونافِخِ الكِيرِ[٢]؛ فحامِلُ المسكِ: إمَّا أن يُحْذيَك[٣]، وإمَّا أنْ تَبتاعَ منه، وإمَّا أن تجِدَ منه ريحًا طيِّبةً، ونافِخُ الكِيرِ: إمَّا أن يُحرِقَ ثيابَك، وإمَّا أن تجِدَ ريحًا خَبيثةً))[٤].

﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾.

﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِي﴾.

أي: لقد صَرَفني مَن اتَّخَذْتُه في الدُّنيا خليلًا عن القُرآنِ بعد بُلوغِه إليَّ، وصَدَّني عنه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٥).

(٢) الكِير: هو شيءٌ يَنفُخُ فيه الحدَّادُ؛ لتشتَعِلَ النَّارُ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٢٣١). ويُنظر أيضًا: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٣٢٤).

(٣) يُحذيَك؛ أي: يُعطيَك. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٧٨)، ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٢٣١).

(٤) رواه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨) واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥، ١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٧).

قال السعدي: (﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِي﴾ حيثُ زيَّن له ما هو عليه مِن الضَّلالِ بخُدَعِه وتسويلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

وقال ابن عاشور: (أي: نهاني عن التدبُّرِ فيه والاستماعِ له بعْدَ أن قاربْتُ فَهْمَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦).

﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾.

أي: قال الله: وإنَّ مِن عادةِ الشَّيطانِ وصِفَتِه المجبولِ عليها: أن يَخذُلَ الإنسانَ الذي يتَّبِعُه، ويترُكَ إعانَتَه ونَصْرَه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٠٢-١٠٤).

قال ابن عطية: (وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ يحتمِلُ أن يكونَ مِن قولِ الظَّالِم، ويحتمِلُ أن يكونَ ابتِداءَ إخبارٍ مِن الله تعالى على جهةِ الدَّلالةِ على وجهِ ضلالتِهم، والتحذيرِ مِن الشيطانِ الذي بلَّغهم ذلك المبلغَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩).

وقال القرطبي: (﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ قيل: هذا مِن قَولِ الله لا مِن قَولِ الظالم. وتمامُ الكلامِ على هذا عندَ قولِه: ﴿بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِي﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦).

وممَّن قال بذلك: ابنُ أبي زمنين، والواحديُّ، وابن الجوزي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، وابن عاشور. واستظهره الشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٦).

قال السعدي: (﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ يزيِّنُ له الباطِلَ، ويقبِّحُ له الحَقَّ، ويَعِدُه الأمانيَّ، ثم يتخلَّى عنه، ويتبرَّأُ منه، كما قال لجميعِ أتْباعِه حين قُضيَ الأمرُ، وفَرَغَ اللهُ مِن حسابِ الخَلقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

وقال ابن عثيمين: (فالظَّاهِرُ أنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا الجنسُ، يعني: المؤمِنَ أو الكافِرَ، وإنَّما قُلْنا: إنَّ ذلك هو الظَّاهِرُ؛ لأنَّه كما يُغْوي الكافرين بالكُفرِ، كذلك يُغوي المؤمنينَ بالفِسقِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٠٢).

وقال سُبحانَه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ﴾ [الحشر: ١٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلٗا﴾ فيه التَّحذيرُ مِن هذا اليومِ، وأنَّه يَنبغي الاستِعدادُ له، فيومُ القيامةِ لا يمكنُ أن يَفِرَّ الناسُ منه ومِن أهوالِه وأحكامِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ تخويفٌ وتحذيرٌ مِن تَسَلُّطِ الملوكِ؛ فإنَّهم يجبُ أنْ يَذكُروا هذا اليومَ الذي تَزولُ فيه مِلكيَّتُهم، ولا يبقَى إلَّا مُلكُ اللهِ سُبحانَه وتعالى[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ أنَّه كما علينا أن نَتَّبِعَ سبيلَ الرَّسولِ -عليه وآلِه الصلاةُ والسَّلامُ- الَّتي جاء بها مِن عندِ اللهِ تعالى، وهي الإسلامُ؛ كذلك علينا أن نَتَّبِعَ سبيلَه في القيامِ بشرائعِ الإسلامِ عِلمًا وعملًا؛ في أبوابِ العباداتِ، وأحكامِ المعامَلاتِ، وفي تطبيقِ أصولِ الإسلامِ وفروعِه على الحياةِ العامَّةِ والخاصَّةِ، وهذه هي سُنَّتُه التي كان عليها، وكان عليها أصحابُه، وأهلُ القرنِ الثَّاني مِن التابعينَ، وأهلُ القرنِ الثالثِ مِن أتبَاعِ التابعينَ؛ تلك القرونُ المشهودُ لها بالخيريَّةِ على غيرِها بلسانِ المعصومِ، كما أنَّ مَن عدَلَ عنِ الإسلامِ ولم يَسلُكْ سبيلَه وَقَعَ في ضلالِ الكُفرِ؛ كذلك مَن عدَلَ عنِ السُّنَّةِ ولم يَسلُكْ سبيلَها وَقَعَ في ضلالِ الابتِداعِ، وكما أنَّ مَن لم يَتخِذْ مع الرَّسولِ سبيلَ الإسلامِ يَندَمُ أشدَّ الندمِ، ويَتَحَسَّرُ أعظَمَ الحَسرةِ على ما كان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩١).

مِن تَفريطِه؛ كذلك مَن لم يَتَّخِذْ مع الرَّسولِ سبيلَ السُّنَّةِ؛ إذْ كلٌّ منهما قد ظَلَمَ نفْسَه، وفَرَّطَ في سبيلِ نجاتِه؛ فالآيةُ وإنْ كانت في الكافرِ والمشرِكِ، فهي تتناوَلُ بطريقِ الاعتِبارِ لكلِّ الأهواءِ والبدعِ، وبهذا كانتِ الآيةُ متناوِلةً بوَعْظِها وترهيبِها جميعَ الخلْقِ ممَّن لم يَدخُلْ في الإسلامِ، أو دخَلَ فيه ولم يلزَمْ سُنَّةَ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن قُرَناءِ السوءِ؛ لقولِه: ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى ﴾[٢]. وأنَّه يجِبُ على المرءِ أن يختارَ لنفْسِه الأصحابَ: أهلَ العِلمِ والدِّينِ[٣]. فلْينظُرِ العبدُ لنفْسِه وَقتَ الإمكانِ، ولْيَتدارَكِ المُمكنَ قبْلَ ألَّا يُمكنَ، ولْيُوالِ مَن وَلايتُه فيها سَعادتُه، ولْيُعادِ مَن تنفَعُه عداوتُه وتضُرُّه صداقتُه[٤]، ولْيَختَرْ مَنْ يُخالِلُ؛ فلا يخالَّ إلَّا مَن حَسُنَتْ سريرتُه، واستقامتْ سيرتُه، وغَلَب الصوابُ على أقوالِه وأعمالِه؛ ليكونَ دليلَه إلى الخَيرِ، وسائقَه إليه[٥].

٥- قال الله تعالى: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ عندَما تتخَلَّلُ محبَّةُ شَخصٍ مِن الناسِ قلْبَك، وتُمزَجُ برُوحِك، ويَستولي بسُلطانِ موَدَّتِه عليك؛ تصيرُ أقوالُه وأفعالُه كُلُّها عندَك مَرْضيَّةً، وعيوبُه ونقائصُه عنك محجوبةً، فتُمْسي طَوعَ بَنانِه، ورَهْنَ إشارتِه، يوجِّهُك حيث شاء، ويَصرِفُك عمَّا أراد. وهذه حالةٌ مِن أخطرِ الأحوالِ عليك؛ لأنَّك فيها قد سُلِبت تمييزَك، وخَسِرتَ إرادتَك، وصِرتَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧١).

آلةً في يدِ غَيرِك؛ فقد ترى الخيرَ وتُدْعى إليه فيَصرِفُك عنه، وقد ترى الشرَّ وتَحذَرَ منه فيُوقِعُك فيه!

وهَبْ هذا الخليلَ كان مخلِصًا لك، وحَدِبًا عليك؛ فإنَّه غيرُ معصومٍ مِن الخطأِ والضَّلالِ، أمَّا إذا كان شرِّيرًا مفسِدًا فهنالِكَ الهلاكُ المحقَّقُ، والوَبالُ الشَّديدُ، وقد ذكَرَ لنا اللهُ تعالى في هذه الآيةِ ما كان مِن سوءِ مثالِ الظالمِ بسببِ انقيادِه لخليلِه، واتِّباعِه له مِن غيرِ رويَّةٍ وصِدقِ تمييزٍ؛ تحذيرٌ مِن سلطانِ الخُلَّةِ الذي يُهمَلُ معه شأنُ الإرادةِ والتمييزِ، وتعليمٌ أنَّ علينا أنْ نحافظَ على إرادتِنا وتمييزِنا ونظرِنا لأنْفُسِنا مع الصَّديقِ والعدوِّ، ومع الخليلِ وغيرِ الخليلِ، بل نحافظُ عليها مع الخليلِ أكثرَ؛ لأنَّه مظِنَّةُ الخَوفِ بما له مِن المكانةِ في القلبِ، والسُّلطانِ على النَّفْسِ[(١)].

٦- قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۞ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۞ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ فكلُّ مَن خرَجَ عن اتِّباعِ الرَّسولِ فهو ظالمٌ بحَسَبِ ذلك، والمُبتدِعُ ظالمٌ بقَدْرِ ما خالف مِن سُنَّتِه[(٢)].

٧- التقليدُ المُحَرَّمُ بالنصِّ والإجماعِ: هو أنْ يُعارِضَ قولَ اللهِ ورسولِه بما يُخالِفُ ذلك، كائِنًا مَن كان المخالِفُ لذلك؛ قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۞ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۞ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۞ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[(٣)].

٨- قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٢).

سَبِيلًا ۞ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ لا ريبَ أنَّ هذا يتناوَلُ الكافِرَ الذي لم يؤمِنْ بالرَّسولِ؛ فإنَّ «الظلمَ المُطلَقَ» يتناوَلُ ذلك ويتناوَلُ ما دونَه بحسَبِه. فمَن خالَّ مخلوقًا في خِلافِ أمرِ اللهِ ورسولِه، كان له مِن هذا الوعيدِ نَصيبٌ، كما قال تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[1] [الزخرف: ٦٧].

٩- قال الله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۞ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلًا ۞ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِي ﴾ فكلُّ مَنِ اتَّخَذَ غيرَ الرَّسولِ، يَترُكُ لأقوالِه وآرائِه ما جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّه قائلٌ هذه المقالةَ لا محالةَ؛ فهذا حالُ الخَليلينِ المتخالَّينِ على خِلافِ طاعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومآلُ تلك الخُلَّةِ إلى العَداوةِ واللَّعنةِ، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقد ذُكِرَ حالُ هؤلاء الأتْباعِ وحالُ مَن تَبِعوهم في غيرِ مَوضِعٍ مِن كتابِه؛ كقَولِه تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۞ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۞ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]. تمنَّى القَومُ طاعةَ اللهِ ورَسولِه حين لا ينفَعُهم ذلك، واعتَذَروا بأنَّهم أطاعوا كُبراءَهم ورُؤساءَهم، واعتَرَفوا بأنَّهم لا عُذرَ لهم في ذلك، وأنَّهم أطاعوا السَّاداتِ والكُبَراءَ، وعَصَوُا الرَّسولَ، وآلت تلك الطَّاعةُ والموالاةُ إلى قَولِهم: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٨]، وفي بَعضِ هذا عِبرةٌ للعاقِلِ ومَوعِظةٌ شافيةٌ[2].

١٠- التَّحذيرُ مِن الظُّلْمِ الذي يُصَدُّ به الإنسانُ عن دينِ اللهِ، أو التَّحذيرُ مِن

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٤٥).

الظُّلمِ الذي يُوقِعُ الإنسانَ في مُخالَفةِ الرُّسُلِ؛ لقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾؛ لأنَّ الغرضَ مِن ذلك التَّحذيرِ ليس مجرَّدَ القِصَّةِ، بلِ الغرضُ أن يَحذَرَ الإنسانُ مِن هذا الأمرِ الذي يكونُ مآلُ صاحبِه إلى هذا الحالِ(١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ شأنَ الخُلَّةِ الثِّقةُ بالخَليلِ، وحملُ مَشورتِه على النُّصحِ؛ فلا ينبغي أن يَضَعَ المرءُ خُلَّتَه إلَّا حيثُ يُوقِنُ بالسَّلامةِ مِن إشاراتِ السُّوءِ؛ قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾(٢) [آل عمران: ١١٨].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ دَليلٌ على مجيءِ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ -مع أنَّه ليس في الآيةِ ذِكرُ المجيءِ-؛ وذلك لأنَّ تشَقُّقَ السَّماءِ بالغَمامِ وتنزيلَ الملائكةِ إنَّما يكونانِ عندَ مجيءِ اللهِ للقَضاءِ بيْن عبادِه، فيكونُ مِن بابِ الاستِدلالِ بأحَدِ الأمْرَينِ على الآخَرِ؛ لِمَا بيْنَهما مِن التلازُمِ(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ فيه أنَّ الملائكةَ في السَّماءِ(٤).

٣- قَولُه تعالى: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ لم يقُلْ: «للهِ»؛ إشارةً إلى كثرةِ رحمةِ اللهِ في ذلك اليومِ(٥).

٤- قال الله تعالى: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ فلا يبقى لأحدٍ مِن المخلوقين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٨٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٧).

مُلكٌ ولا صورةُ مُلكٍ، كما كانوا في الدُّنيا، بل قد تساوت الملوكُ ورعاياهم، والأحرارُ والعبيدُ، والأشرافُ وغَيرُهم. وممَّا يرتاحُ له القَلبُ، وتطمئِنُّ به النَّفْسُ، ويَنشرِحُ له الصدرُ: أنْ أضاف المُلْكَ في يومِ القيامةِ لاسمِه «الرَّحمن» الذي وَسِعتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، وعَمَّتْ كلَّ حيٍّ، وملأتِ الكائناتِ، وعمَرتْ بها الدُّنيا والآخرةُ، وتمَّ بها كلُّ ناقِصٍ، وزال بها كلُّ نَقصٍ، وغلبتِ الأسماءُ الدالَّةُ عليه الأسماءَ الدالَّةَ على الغَضَبِ، وسبقتْ رحمتُه غضَبَه وغلَبَتْه، فلها السَّبْقُ والغَلَبةُ، وخَلَقَ هذا الآدميَّ الضعيفَ وشَرَّفَه وكَرَّمَه؛ لِيُتِمَّ عليه نِعمَتَه، ولِيتغمَّدَه برَحمتِه، وقد حضروا في موقِفِ الذُّلِّ والخُضوعِ والاستِكانةِ بيْنَ يدَيه ينتَظِرونَ ما يَحكُمُ فيهم، وما يجري عليهم، وهو أرحَمُ بهم مِن أنفُسِهم ووالِدِيهم، فما ظنُّك بما يُعامِلُهم به؟! ولا يَهلِكُ على اللهِ إلَّا هالِكٌ، ولا يَخرُجُ مِن رحمتِه إلَّا مَن غلَبَتْ عليه الشَّقاوةُ، وحَقَّتْ عليه كلمةُ العذابِ[(١)]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ دليلٌ على أنَّه على المؤمنين يَسيرٌ، وهي بِشارةٌ لهم؛ إذ مُحالٌ أن يَخُصَّ الكفَّارَ بصِفةِ عقوبةٍ لهم إلَّا والمؤمِنونَ بضِدِّ تلكَ الصِّفةِ[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ دَليلٌ على اختِلافِ النَّاسِ في ذلك الموقِفِ؛ وأنَّ يُسْرَ ذلك اليومِ وعُسرَه بحسَبِ حالِ الإنسانِ؛ فكلَّما كان الإنسانُ أشَدَّ إيمانًا وأشدَّ تقوى للهِ عزَّ وجلَّ، كان ذلك اليومُ أيسَرَ له، وكلَّما كان الإنسانُ أعتى وأكفَرَ كان أشَدَّ وأعظَمَ، والقاعدةُ: أنَّه إذا عُلِّق الحُكمُ على وصفٍ، كان أثَرُ ذلك الحُكمِ بحسَبِ ذلك الوَصفِ، يعني: أنَّ تأثيرَ الوَصفِ في الحُكمِ بحَسَبِ الوصفِ، فإذا كان العُسرُ معلَّقًا بالكُفرِ، فكُلَّما كان

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٧).

الكفرُ أشَدَّ كان العُسرُ أشَدَّ، وإذا عُلِّق اليُسرُ بالإيمانِ، صار كلَّما كان الإيمانُ أقوى كان اليُسرُ أقوى[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾ أنَّ عمومَ الظَّالمِين في يومِ القيامةِ يُؤمِنونَ بالحقِّ؛ لِقَولِه: ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾، فأقَرَّ بأنَّ الذِّكرَ قد جاءه، وأقَرَّ بأنَّ ما جاءه ذِكرٌ يَتذكَّرُ به المرءُ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ [الفرقان: ٢٢]، والمقصودُ: تأْييسُهم مِنَ الانتِفاعِ بأعمالِهم وبآلهتِهم، وتأكيدُ وعيدِهم. وأُدمَج في ذلك وَصْفَ بَعضِ شُؤونِ ذلك اليَومِ، وأنَّه يَومُ تَنزيلِ الملائكةِ بمَرْأى مِنَ النَّاسِ[٣].

- قَولُه: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ فيه إعادةُ لَفظِ (يوم) على طريقةِ الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ وإنْ كان ذلك يَومًا واحدًا؛ لِبُعْدِ ما بيْن المُعادِ ومكانِ الضَّميرِ[٤].

- قَولُه: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ لَمَّا كان انشِقاقُ السَّماءِ بسَببِ طُلوعِ الغَمامِ منها، جعَلَ الغَمامَ كأنَّه الَّذي تَشقَّقَ به السَّماءُ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ [المزمل: ١٨]. وقيل: الباءُ باءُ الحالِ، أي: مُتغيِّمةً[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٠).

- قَولُه: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ فيه تأكيدُ الفِعلِ (نُزِّلَ) بالمفعولِ المطْلَقِ ﴿تَنزِيلًا﴾؛ لإفادةِ أنَّه نزولٌ بالذَّاتِ[١]، وفيه دَلالةٌ على أنَّ الملائكةَ يَنزِلونَ شَيئًا فشَيئًا، لا يَنزِلون جُملةً[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ هو صَدْرُ الجُملةِ المعطوفةِ؛ فيَتعلَّقُ به ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾، وإنَّما قُدِّم عليه للاهتِمامِ به؛ لإثارةِ الطَّمعِ، وللتَّشويقِ إلى تَعيينِ إبَّانِه حتَّى إذا وردَ ما فيه خَيبةُ طَمَعِهم كان له وقْعُ الكآبةِ على نفوسِهم حينما يَسمَعونه. وتَكريرُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ للتَّأكيدِ والتَّهويلِ[٣].

- وفائدةُ التَّقييدِ بـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في قولِه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾: أنَّ ثبوتَ المُلكِ المذكورِ له تعالى خاصَّةً يَومَئذٍ، وأمَّا فيما عَداهُ مِن أيَّامِ الدُّنيا فيكونُ لِغَيرِه أيضًا تصرُّفٌ صُوريٌّ في الجُملةِ[٤]، ففي ذلك اليومِ لا مالكَ سِواهُ -لا في الصورةِ ولا في المعنى- فتخضَعُ له الملوكُ، وتَعْنُو له الوجوهُ، وتَذِلُّ له الجبابرةُ، بخلافِ سائرِ الأيَّامِ[٥]. وإيرادُه تعالى بعُنوانِ الرَّحمانيَّةِ؛ للإيذانِ بأنَّ اتِّصافَه تعالى بغايةِ الرَّحمةِ لا يُهوِّنُ الخَطْبَ على الكَفَرةِ؛ لعَدمِ استِحقاقِهم للرَّحمةِ[٦].

- قَولُه: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ اعتِراضٌ تَذْيِيليٌّ مُقرِّرٌ لِما قَبْلَه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣).

وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لمراعاةِ الفَواصلِ[١]. وقيل: تقديمُ ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ للحَصْرِ والقَصرِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ، أي: دُونَ المؤمنينَ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾

- قَولُه: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ عَضُّ اليدَينِ والأنامِلِ كِنايةٌ عنِ الغَيظِ والحَسرةِ؛ لأنَّها مِن رَوادِفِها، فيَذكُرُ الرَّادفةَ ويدُلُّ بها على المَردوفِ، فيَرتفِعُ الكلامُ به في طَبقةِ الفَصاحةِ، ويَجِدُ السَّامعُ عِندَه في نفْسِه مِنَ الرَّوعةِ والاستِحسانِ ما لا يَجِدُه عِندَ لفظِ المُكنَى عنه؛ فشأنُ مَن وقَع في غَيظٍ وحَسرةٍ ونَدامةٍ أنْ يَعَضَّ يَديهِ، ويأكُلَ بَنانَه كأنَّه لَمَّا لم يجِدْ شيئًا يُطفئُ فيه غيظَه، رَجَع على نفْسِه بذلك؛ فلذا يُكنَى به عنها؛ مِن إطلاقِ اللازمِ وإرادةِ الملزومِ، وذلك لا يَمنَعُ مِن وجودِ العَضِّ منه حقيقةً، بل وقوعُ ذلك هو الشأنُ الغالبُ[٣].

- والعَضُّ: الشَّدُّ بالأسنانِ على الشَّيءِ؛ لِيُؤْلِمَه أو ليُمْسِكَه، وحقُّه التَّعديةُ بنفْسِه -فيُقال: عَضَّ يَديهِ-، إلَّا أنَّه كثُرَتْ تَعديتُه بـ (على)؛ لإفادةِ التَّمكُّنِ مِنَ المَعضوضِ إذا قصَدوا عضًّا شديدًا، كما في هذه الآيةِ[٤].

- واللَّامُ في ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ يَجوزُ أن تكونَ للعهدِ، ويَجوزُ أن تكونَ للجِنسِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣، ٢١٤).

- قولُه: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ نداءٌ للكلامِ الدَّالِّ على التَّمنِّي، وهذا النِّداءُ يَزيدُ المُتمنَّى استِبعادًا[١]؛ نادَى ويْلَتَه -أي: هلَكَتَه- لِتَحضُرَ في ذلك الوقتِ؛ لأنَّه وقْتُها، وليس نِداؤُها رَغبةً في حُضورِها؛ فالهلاكُ لا يُرغَبُ فيه، وإنَّما نادى الهلاكَ لِيَحضُرَ؛ لِمَا حصَلَ له مِن اليأْسِ والقنوطِ مِن أسبابِ النَّجاةِ، فلمْ يَبْقَ له إلَّا الهلاكُ[٢].

- وجملةُ ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ حاليَّةٌ؛ فهو يعَضُّ حالةَ كونِه قائلًا: يا لَيْتني، فبيَّنَتْ هذه الجُملةُ ما يقولُ، كما بيَّنَت الَّتي قبْلَها ما يَعمَلُ، فصَوَّرتاهُ في حالِه الشَّنيعِ الفظيعِ[٣].

- وإنَّما عَدَلَ عنِ الإتيانِ بفِعلِ الاتِّباعِ ونَحوِه بأنْ يُقالَ: (يا لَيْتَني اتَّبعْتُ الرَّسولَ)، إلى هذا التَّركيبِ ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ الذي فيه إطْنابٌ؛ لأنَّ في هذا التَّركيبِ تَمثيلَ هَيئةِ الاقتِداءِ بهَيئةِ مُسايرةِ الدَّليلِ تمثيلًا مُحتويًا على تَشبيهِ دَعوةِ الرَّسولِ بالسَّبيلِ، ومُتضمِّنًا تَشبيهَ ما يَحصُلُ عن سُلوكِ ذلك السَّبيلِ مِنَ النَّجاةِ ببُلوغِ السَّائرِ إلى المَوضعِ المقصودِ؛ فكان حُصولُ هذه المعاني صائرًا بالإطنابِ إلى إيجازٍ، وأمَّا لفْظُ المتابعةِ فقد شاع إطلاقُه على الاقتِداءِ، فهو غيرُ مُشعِرٍ بهذا التَّمثيلِ[٤].

- والتَّنكيرُ في قولِه: ﴿سَبِيلٗا﴾ للإفرادِ، أي: سبيلًا واحدًا لا تعدُّدَ فيه، بخِلافِ ما كان عليه الظَّالمُ مِن سُبُلِ أهوائِه المُتعدِّدةِ المُتشعِّبةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

٤- قَولُه تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾

- قَولُه: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ تَحسُّرٌ بطريقِ نِداءِ الوَيلِ، والألِفُ عِوَضٌ عن ياءِ المتكلِّمِ، وهو تَعويضٌ مشهورٌ في نِداءِ المضافِ إلى ياءِ المُتكلِّمِ[١]. وهذا التَّمنِّي منه وإنْ كان مَسوقًا لإبرازِ النَّدمِ والحَسرةِ، لكنَّه مُتضمِّنٌ لنَوعِ تَعلُّلٍ واعتِذارٍ بإسنادِ جِنايتِه إلى الغَيرِ[٢].

- وكلمةُ (فُلان) كِنايةٌ عن الأَعلامِ؛ فإنْ أُريدَ بـ﴿ٱلظَّٰلِمُ﴾ عُقْبةُ -أي: ابنُ أبي مُعَيطٍ-؛ فمعنى قولِه: ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾: لَيْتَني لمْ أتَّخِذْ أُبَيًّا -أي: ابنَ خَلَفٍ- خَليلًا؛ فكَنَى عنِ اسمِه. وإنْ أُريدَ به الجِنسُ، فكلُّ مَنِ اتَّخَذ مِنَ المُضلِّينَ خليلًا كان لخَليلِه اسمٌ عَلَمٌ لا مَحالةَ، فجَعَله كِنايةً عنه؛ فعلى هذا الجملةُ مُعترِضةٌ مُذيِّلةٌ، وعلى التَّعيينِ يَجوزُ أن يكونَ حالًا[٣]. وقيل: (فُلانٌ) كِنايةٌ عنِ الشَّيطانِ[٤]. والدَّاعي إلى الكِنايةِ بـ(فُلانٍ) إمَّا قصْدُ إخفاءِ اسمِه خِيفةً عليه، أو خِيفةً مِن أهْلِهم، أو للجَهلِ به، أو لعدَمِ الفائدةِ لذِكْرِه، أو لقصْدِ نَوعِ مَن له اسمٌ عَلَمٌ. وهذانِ الأَخيرانِ هُمَا اللَّذانِ يَجْريانِ في هذه الآيةِ إنْ حُمِلَتْ على إرادةِ خُصوصِ عُقْبةَ وأُبَيٍّ، أو حُمِلَتْ على إرادةِ كلِّ مُشرِكٍ له خَليلٌ صَدَّه عنِ اتِّباعِ الإسلامِ. وإنَّما تَمنَّى ألَّا يكونَ اتَّخذَه خليلًا دُونَ تَمنِّي أن يكونَ عَصاهُ فيما سَوَّلَ له؛ قصْدًا للاشمِئْزازِ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠١، ١٠٢).

خُلَّتِه مِن أصْلِها، إذْ كان الإضلالُ مِن أحوالِها[١].

- وقيل: كَنَى (بفلانٍ)؛ لأنَّ لكلِّ ظالمٍ خليلًا له اسْمُه الخاصُّ؛ فلا يُمكِنُ التَّصريحُ بأسماءِ الجميعِ، فما بقِيَ إلَّا الكِنايةُ عنها بفُلانٍ[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ تعليلٌ لتَمنِّيه ألَّا يكونَ اتَّخَذ فُلانًا خَليلًا بأنَّه قد صَدَر عن خُلَّتِه أَعظَمُ خُسرانٍ لخليلِه؛ إذْ أَضَلَّه عنِ الحقِّ بعْدَ أن كاد يَتمكَّنُ منه[٣]، وتَصديرُه باللَّامِ القسَميَّةِ؛ للمُبالَغةِ في بيانِ خَطئِه، وإظهارِ ندَمِه وحَسْرتِه[٤].

- وجملةُ ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ بيانٌ لسببِ تَمنِّيه السابِقِ[٥].

- وقولُه: ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ ﴿إِذْ﴾ ظرْفٌ للزَّمنِ الماضي، أي: بعْدَ وقْتٍ جاءَني فيه الذِّكرُ، والإتيانُ بالظَّرفِ هنا دُونَ أن يُقالَ: (بعدَ ما جاءَني)، أو (بعدَ أنْ جاءَني)؛ للإشارةِ إلى شدَّةِ التَّمكُّنِ مِنَ الذِّكرِ؛ لأنَّه قد استَقرَّ في زمنٍ وتحقَّقَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ [التوبة: ١١٥]، أي: تَمَكَّنَ هَدْيُه منهم[٦].

- قَولُه: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ اعتِراضٌ مقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه؛ إمَّا مِن جهتِه تعالى، أو مِن تمامِ كلامِ الظَّالمِ، على أنَّه سَمَّى خليلَه شيطانًا بعْدَ وصْفِه بالإضلالِ الَّذي هو أخَصُّ الأوصافِ الشَّيطانيَّةِ؛ لأنَّه أضَلَّه كما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦).

يُضِلُّ الشَّيطانُ، ثمَّ خَذَله ولمْ يَنفَعْه في العاقبةِ، أو على أنَّه أرادَ بالشَّيطانِ إبليسَ؛ لأنَّه الَّذي حمَلَه على مُخالَّةِ المُضلِّينَ، ومُخالَفةِ الرَّسولِ الهادي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بوَسوَستِه وإغوائِه، ثمَّ خذَلَه. أو أرادَ الجِنسَ، وكلَّ مَن تَشَيْطَنَ مِنَ الجنِّ والإنسِ. لكنْ وصْفُه بالخِذلانِ يُشعِرُ بأنَّه كان يَعِدُه في الدُّنيا ويُمَنِّيه بأنْ يَنفَعَه في الآخِرةِ، وهو أَوْفَقُ بحالِ إبليسَ[١].

- وقيل: هو تَذْييلٌ مِن كلامِ اللهِ تعالى لا مِن كلامِ الظَّالمِ؛ تَنبيهًا للنَّاسِ على أنَّ كلَّ هذا الإضلالِ مِن عمَلِ الشَّيطانِ، فهو الَّذي يُسَوِّلُ لخَليلِ الظَّالمِ إضلالَ خَليلِه؛ لأنَّ الشَّيطانَ خَذولُ الإنسانِ، أي: مَجْبولٌ على شدَّةِ خَذْلِه... والخَذْلُ: ترْكُ نصْرِ المُستنجِدِ مع القدرةِ على نصْرِه، فإذا أَعانَ على الهزيمةِ فهو أشدُّ الخَذْلِ، وهو المقصودُ مِن صيغةِ المُبالَغةِ في وصْفِ الشَّيطانِ بخَذْلِ الإنسانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يَكيدُ الإنسانَ فيُورِّطُه في الضُّرِّ، فهو خَذولٌ[٢].

- وقيل: (أل) في (الشَّيْطَان) و(الإنْسَانِ) للجِنسِ؛ فيَدخُلُ في جِنسِ الشَّيطانِ خليلُ الظَّالمِ الَّذي صدَّه عن الذِّكرِ، وقرينُ خَليلِه مِن الجنِّ الَّذي سوَّل له ذلك وأعانَه، وقرينُه هو الَّذي زيَّنَه له ودعاهُ إليه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦، ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

الآيات (٢٠-٢٤)

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَهۡجُورٗا﴾: أي: مَتروكًا، والهَجرُ والهِجْرانُ: مُفارقةُ الإنسانِ غَيْرَه، وأصلُ (هجر) هنا: يدُلُّ على قَطيعةٍ وقَطْعٍ[١].

﴿جُمۡلَةٗ﴾: أي: دَفعةً، مجتمِعًا، في وقتٍ واحدٍ، لا كما أُنزِل نُجومًا مُتَفَرِّقةً، ويُقالُ لكلِّ جماعةٍ غيرِ منفصلةٍ: جُمْلَةٌ، وأصلُ (جمل) هنا: تجمُّعٌ[٢].

﴿تَفۡسِيرًا﴾: أي: بَيانًا، وأصلُ (فسر): يدُلُّ على بيانِ شَيءٍ وإيضاحِه[٣].

﴿يُحۡشَرُونَ﴾: أي: يُجمعونَ، والحشرُ: الجمعُ معَ سَوقٍ، وكلُّ جمعٍ حشرٌ، ويُطلَقُ أيضًا على البعثِ والانبعاثِ، أو الجمعِ بكثرةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، =

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: وقال الرَّسولُ لرَبِّه جَلَّ وعلا، مُشتَكيًا في الدُّنيا: يا رَبِّ، إنَّ الكُفَّارَ مِن قَومي ترَكوا هذا القُرآنَ وأعرَضوا عنه فلا يُؤمِنون به، ولا يَعمَلون بأحكامِه.

ثمَّ يقولُ الله تعالى مسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: وكما جعَلْنا لك -يا محمَّدُ- أعداءً مِن مُشرِكي قَومِك، كذلك جعَلْنا لكُلِّ نبيٍّ مِن الأنبياءِ أعداءً مِن الكُفَّارِ المُشرِكين مِن أقوامِهم؛ فاصبِرْ كما صَبَروا، وكفى برَبِّك -يا محمَّدُ- هاديًا وناصِرًا لك على أعدائِك.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى أيضًا بعضَ شبهاتِ المشركينِ، فيقولُ: وقال الكُفَّارُ: هلَّا نزَّل اللهُ عليك -يا محمَّدُ- القُرآنَ دَفعةً واحِدةً لا مُفَرَّقًا؟ ويرُدُّ عليهم سبحانَه فيقولُ: كذلك نزَّلنا عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- مُفَرَّقًا؛ لنقَوِّيَ به قَلبَك، وتزدادَ ثَباتًا ويَقينًا، وجعَلْنا بَعضَه يَنزِلُ في إثْرِ بَعضٍ على تُؤَدةٍ وتمَهُّلٍ، وبيَّنَّاه تبيينًا.

ولا يأتيك هؤلاء المُشرِكون بمَثَلٍ مِن الأمثالِ التي مِن جُملتِها اقتِراحاتُهم القبيحةُ، يُريدونَ به القَدْحَ في نبوَّتِك، إلَّا جِئْناك في مُقابَلتِه بالجوابِ الحَقِّ الثابتِ الذي يُبطِلُ شُبهَتَهم بأحسَنَ ممَّا جاؤوا به كَشفًا وبَيانًا.

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى سوءَ مصيرِهم، فيقولُ: الذين يُحشَرون يومَ القيامةِ مَسحوبينَ على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ أولئك شَرٌّ مَنزِلًا ومَكانًا في جهنَّمَ، وأضَلُّ النَّاسِ عن طريقِ الحَقِّ.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أكثَرَ الكُفَّارُ مِن الاعتراضاتِ الفاسِدةِ ووجوهِ التعَنُّتِ؛ ضاق صدرُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وشكاهم إلى اللهِ تعالى[١].

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾.

أي: وقال الرَّسولُ مُشتكيًا في الدُّنيا[٢] إلى رَبِّه: يا رَبِّ، إنَّ كُفَّارَ قَومي تَرَكوا القُرآنَ العظيمَ وهجَروه؛ لا يَسمَعونه ولا يتدَبَّرونَه، ولا يُؤمِنونَ به، ولا يَعمَلون بأحكامِه[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٥).

(٢) ممَّن اختار أنَّه يقولُ ذلك في الدُّنيا: الزمخشريُّ، وابنُ عطيَّةَ ونسَبَه للجمهور، والرازيُّ ونسَبَه لأكثرِ المفسِّرينَ، والنسفيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩)،))تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

وممَّن اختار أنَّ هذا القولَ يقولُه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الآخرةِ: ابنُ جريرٍ، والثعلبيُّ، والواحديُّ، والبغويُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٣٢)، ((الوجيز)) (ص: ٧٧٨) للواحدي، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٨).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ بهَجرِ القُرآنِ: أنَّهم يَتركونَه، ويُعرِضونَ عنه؛ لا يُؤمِنونَ به، ولا يَعمَلونَ بما فيه: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ، والنسفيُّ، والخازنُ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٤)، =

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا شكا عليه الصلاةُ والسلامُ قومَه؛ سلَّاه اللهُ تعالى وعزَّاه، وأمرَه بالصَّبرِ

= ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٠).

قال ابنُ كثير: (﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ يقولُ تعالى مُخبِرًا عن رَسولِه ونَبيِّه محمَّدٍ -صلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه دائِمًا إلى يومِ الدِّينِ- أنَّه قال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾، وذلك أنَّ المُشرِكينَ كانوا لا يُصغُونَ للقُرآنِ ولا يَسمَعونَه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وكانوا إذا تُلِيَ عليهم القُرآنُ أكثَروا اللَّغَطَ والكلامَ في غَيرِه؛ حتى لا يَسمَعوه، فهذا مِن هِجرانِه، وتَرْكُ عِلْمِه وحِفْظِه أيضًا: مِن هِجرانِه، وتَركُ الإيمانِ به وتَصديقِه: مِن هِجرانِه، وتَرْكُ تَدَبُّرِه وتَفَهُّمِه: مِن هِجرانِه، وتَركُ العَمَلِ به، وامتِثالِ أوامِرِه واجتنابِ زواجِرِه: مِن هِجرانِه، والعُدولُ عنه إلى غَيرِه؛ مِن شِعرٍ، أو قَولٍ، أو غِناءٍ، أو لَهْوٍ، أو كلامٍ، أو طريقةٍ مأخوذةٍ مِن غَيرِه: مِن هِجرانِه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨).

ومِمَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى أنَّهم جَعَلوه كالهَذَيانِ، وما لا يُنتفَعُ به مِن القَولِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والزجَّاجُ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٦٦).

قال الماوَرْديُّ: (قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها: أنَّهم هَجَروه بإعراضِهم عنه، فصار مَهجورًا. قاله ابنُ زيد. الثَّاني: أنَّهم قالوا فيه هُجْرًا، أي: قَبيحًا. قاله مجاهِدٌ. الثَّالثُ: أنَّهم جَعَلوه هَجْرًا مِنَ الكلامِ، وهو: ما لا نَفْعَ فيه مِنَ العَبَثِ والهَذَيانِ. قاله ابنُ قُتيبةَ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤٣).

والثَّباتِ، ووعدَه ورجَّاه[١]، وبيَّنَ أنَّ له أُسوةً بسائرِ الرسُلِ؛ فلْيَصبِرْ على ما يَلْقاهُ مِن قَومِه كما صَبَروا[٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: وكما جعَلْنا لك -يا محمَّدُ- أعداءً مِن مُشرِكي قَومِك، كذلك جعَلْنا لكُلِّ الأنبياءِ أعداءً مِن الكُفَّارِ المُشرِكين مِن أقوامِهم يُعارِضونَهم ويُؤذونَهم؛ فاصبِرْ كما صبَر أولئك الرسُلُ مِن قَبْلِك[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه جعَل لكُلِّ نبيٍّ عدوًّا مِن المجرمين، وهؤلاء المجرِمون يحاوِلون القضاءَ على الرِّسالةِ أو النبوَّةِ بواحدٍ مِن أمْرَينِ؛ إمَّا بإضلالِ النَّاسِ وصَدِّهم عمَّا جاءت به الرسُلُ، وإمَّا بقِتالِهم وإهلاكِهم، فيَعتَدُون على النَّاسِ بالقِتالِ- فقال الله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ في مقابلةِ محاولةِ الإضلالِ، ﴿وَنَصِيرًا﴾ في مُقابلةِ محاولةِ القضاءِ على الأنبياءِ وأُمَمِهم[٤].

وأيضًا لَمَّا كان هذا مَوطنًا تتعلَّقُ فيه النفوسُ متشوِّقةً إلى الهدايةِ بعْدَ هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١١٤).

الطَّبْعِ، والنُّصرةِ بعْدَ ذلك الجَعْلِ؛ كان كأنَّه قيل: لا تَحزَنْ؛ فلَنَجعلَنَّ لك وَلِيًّا ممَّن نَهْديه للإيمانِ، ولَننصرَنَّهم على عدوِّهم كما فعَلْنا بمَن قبْلَك، بل أعظم[١].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

أي: وكفى برَبِّك -يا محمَّدُ- هاديًا يَهديك إلى الحَقِّ وإلى مصالحِ الدِّينِ والدُّنيا، وناصِرًا لك على أعدائِك، يدفَعُ عنك كُلَّ مَكروهٍ في أمرِ الدِّينِ والدُّنيا؛ فلا تُبالِ بمَن عاداك، واصبِرْ وامضِ لتبليغِ رِسالةِ الله إليهم، متوكِّلًا عليه سبحانه[٢].

كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ [الأعراف: ١٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ سُبحانَه شِكايةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن هِجرانِ قَومِه للقُرآنِ، وقرَّرَ عداوتَهم له، ونُصرتَه عليهم؛ أتبَعَ ذلك بما يدُلُّ عليه، فقال عَطفًا على ما مضَى مِن الأشباهِ في الشُّبَهِ[٣]:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٨).

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: هلَّا نزَّل اللهُ على محمَّدٍ القُرآنَ دَفعةً واحِدةً، ولم يُنَزَّلْ مُفَرَّقًا[١]؟

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

أي: كذلك نزَّلنا عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- مُفَرَّقًا؛ لنقوِّيَ قَلبَك فتَعِيَه وتحفَظَه، وتَزدادَ يقينًا وطُمأنينةً وثَباتًا[٢].

﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

أي: أنزَلْناه مفرَّقًا على تُؤَدةٍ وتَمَهُّلٍ، شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، آياتٍ ثمَّ آياتٍ، وبيَّنَّاه تبيينًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ التَّرتيلَ بمعنى الترسُّلِ، والتَّمكُّثِ شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، آياتٍ ثمَّ آياتٍ، على تؤَدَةٍ وتَمهُّلٍ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، والزجَّاجُ، والزمخشريُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، السعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والنَّخَعيُّ، والحسن، وابن جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٣٢). =

كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا رَدَّ تعالى اعتراضاتِهم، وأبطَلَ شُبُهاتِهم؛ أخبرَ بأنَّه لا يَزالُ القرآنُ كذلك: يَدمغُ باطلَهم بحقِّه فيُزهِقُه، ويَصدَعُ غشاءَ تَمويهِهم بصادقِ بيانِه فيُمَزِّقُه؛ لِطمأنةِ قلْبِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم وتثبيتِه، والوعدِ له بدوامِ النَّصرِ والتأييدِ[1].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ولا يَذكُرُ مُشرِكو قُرَيشٍ شُبهةً أو اقتِراحًا يُعارِضون به الحَقَّ ويَطعنونَ به فيه، إلَّا أنزَلْنا مِن القُرآنِ ما يُبطِلُ شُبهَتَهم، ويَرُدُّ حُجَّتَهم بأحسَنَ مِمَّا جاؤوا به؛

= ومِمَّن اختار أنَّ الترتيلَ بمعنى التَّبيينِ: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٩).

وممَّن قال بذلك مِن السلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩).

قال العليمي: (﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾: أنزَلْنا بعضَه في إثرِ بعضٍ، وبيَّنَّاه تبيينًا). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣).

وقال الثعلبي: (والترتيلُ: التبيينُ في ترسُّلٍ وتثبُّتٍ). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٣٢).

وقال ابن عاشور: (والترتيلُ يوصَفُ به الكلامُ إذا كان حسَنَ التأليفِ، بيِّنَ الدَّلالةِ... والترتيلُ يجوزُ أن يكون حالةً لنزولِ القرآنِ، أي: نزلَّناه مفرَّقًا منسَّقًا في ألفاظِه ومعانيه، غيرَ متراكمٍ، فهو مفرَّقٌ في الزمانِ، فإذا كمل إنزالُ سورةٍ جاءت آياتُها مرتَّبةً متناسِبةً، كأنَّها أُنزلت جُملةً واحدةً، ومفرَّقٌ في التأليفِ بأنه مفصَّلٌ واضحٌ... ويجوزُ أن يرادَ بـ «رتلناه»: أمَرْنا بترتيلِه، أي: بقراءتِه مرَتَّلًا، أي: بتمهُّلٍ بألَّا يُعجِّلَ في قراءتِه؛ بأن تُبيَّنَ جميعُ الحروفِ والحركاتِ بمهلٍ، وهو المذكورُ في سورةِ «المزمل» في قولِه تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٢).

بيانًا ووضوحًا، وفصاحةً وتَفصيلًا[١].

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أبطلَ سبحانه شُبَهَهم؛ بَيَّنَ مآلَهم وجزاءَهم[٢]، فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾.

أي: الذين يُجمَعونَ يومَ القيامةِ قَهرًا يُساقونَ مَقلوبينَ على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ: أولئك شَرٌّ مُستقَرًّا ومُقامًا في جهنَّمَ، وأضَلُّ طَريقًا عن الحَقِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٧، ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١).

قال ابنُ القيمِ: (التفسيرُ الأحسَنُ: هو الألفاظُ الدالَّةُ على ذلك الحَقِّ، فهي تفسيرُه وبيانُه... فلا بدَّ مِن أن يكونَ التفسيرُ مُطابقًا للمُفَسَّرِ مُفهِمًا له، وكلَّما كان فَهْمُ المعنى منه أوضَحَ وأبْيَنَ، كان التفسيرُ أكمَلَ وأحسَنَ؛ ولهذا لا تجِدُ كلامًا أحسَنَ تفسيرًا ولا أتمَّ بيانًا مِن كلامِ الله سُبحانَه). ((الصواعق المرسلة)) (١/ ٣٣٠، ٣٣١).

وقال ابن عثيمين: (... فالمرادُ بالمثَلِ هنا الصِّفةُ، يعني: لا يأتونَك بصِفةٍ مِن القَولِ يُريدونَ بها إبطالَ دَعوتِك إلَّا جِئْناك بالحقِّ، إذَنْ فهُم يأتون بباطلٍ؛ لأنَّه قابَلَ قَولَهم بالحَقِّ، فهذا دليلٌ أيضًا على أنَّ كُلَّ شُبهةٍ يحتَجُّ بها المكَذِّبون للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهي باطِلٌ، ولكِنَّ هذا الباطِلَ باطِلٌ في ذاتِه؛ قد يظهرُ لبعضِ النَّاسِ بُطلانُه، وقد يَخفى على بعضِ النَّاسِ بُطلانُه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٣).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه لنبيِّه: هؤلاء المُشرِكون -يا محمَّدُ- القائلون لك: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ ومَن كان على مِثلِ الذي هم عليه من الكُفرِ بالله، الذين يُحشَرون يومَ القيامةِ على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ، فيُساقُونَ إلى جهنَّمَ: شَرٌّ مُستقَرًّا في الدُّنيا والآخرةِ مِن أهلِ الجنَّةِ في الجنَّةِ، وأضَلُّ منهم في الدُّنيا طريقًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٨).

عن قَتادةَ، قال: حدَّثَنا أنسُ بنُ مالكٍ، ((أنَّ رجُلًا قال: يا رَسولَ اللهِ، كيف يُحشَرُ الكافِرُ على وجهِه يَومَ القيامةِ؟ قال: أليس الَّذي أَمْشاهُ على رِجلَيهِ في الدُّنيا قادِرًا على أن يُمشِيَه على وجْهِه يَومَ القيامةِ؟)). قال قَتادةُ: بلى وعِزَّةِ رَبِّنا[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ فيه تَلويحٌ بأنَّ مِن حقِّ المؤْمنِ أنْ يكونَ كثيرَ التَّعاهُدِ للقُرآنِ؛ كَيْ لا يَندرِجَ تحتَ ظاهرِ النَّظمِ الكريمِ[٢].

٢- قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ شكَا نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم إلى ربِّه هَجْرَ قومِه -وهم كفَّارُ قريشٍ- لهذا القرآنِ العظيمِ، أي: تَرْكَهم لتصديقِه والعملِ به، وهذه شكوى عظيمةٌ، وفيها أعظَمُ تخويفٍ لمَن هجَر هذا القرآنَ العظيمَ، فلم يعمَلْ بما فيه مِن الحلالِ والحرامِ والآدابِ والمكارمِ، ولم يعتقِدْ ما فيه مِن العقائدِ، ويَعتبِرْ بما فيه مِن الزَّواجرِ والقصصِ والأمثالِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ ابتلاءُ اللهِ سُبحانَه وتعالى للمُؤمِنِ؛ فإنَّه إذا كان الإيمانُ قويًّا فإنه يَصمُدُ أمامَ هذه الشُّبُهاتِ، وأمامَ هذه العَداوةِ، وإذا كان ضعيفًا فإنه يتأثَّرُ، فهذا مِن حِكمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ أنَّ اللهَ يُقيِّضُ للإنسانِ ما يكونُ سببًا للحَيلولةِ بيْنه وبيْن دَعوتِه لِيَبلُوَهُ، قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ﴾ يعني: اطمأنَّ بحالِه التي هو عليها، ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ

---

(١) رواه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦) واللفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٨).

هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[الحج: ١١]: وإنْ أصابَته فِتنةٌ وأمرٌ يَشغَلُه انقلبَ على وَجهِه[١].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ وهذه العداوةُ التي ذكَرَها اللهُ تعالى تكونُ أيضًا لأتْباعِ الرُّسُلِ؛ لأنَّ هؤلاء عادَوُا الرسُلَ لدُعائِهم للحَقِّ، يعني: ما عادَوُا الرُّسُلَ لأشخاصِهم؛ ولهذا كان الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ قبْلَ البَعثةِ عندَ قريشٍ ليس عدوًّا، بل هم يُسمُّونَه الأمينَ، فما دامتِ العداوةُ مِن أجْلِ الدعوةِ إلى الدِّينِ فسوف تكونُ لكلِّ مَن دعا إلى الدِّينِ؛ لأنَّ الذي يَدعو مثلًا إلى شريعةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هو يدعو إلى ما دعا إليه النَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ، فلا بُدَّ أن يكونَ له أعداءٌ، كما كان للأنبياءِ أعداءٌ؛ وعليه فالواجِبُ على مَن دعا إلى الهُدى وأُوذيَ أن يَصبِرَ، وأن يَتأسَّى بما جرى للرسُلِ مِن قبْلِه، والرسُلُ أعظَمُ منزلةً عندَ اللهِ منه، ومع ذلك مَكَّنَ أعداءَهم ممَّا فعَلوه[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ دَليلٌ على أنَّه يَنبَغي لِمَن أراد حِفظَ شَيءٍ أنْ يَحفَظَ منه قَدْرًا قليلًا، أو شَيئًا بعْدَ شَيءٍ؛ لِيَرسَخَ في قلبِه، ويأمَنَ مِن نسيانِه[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾، أيْ: نزَّلْناه مُفرَّقًا، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ذلك مِن دَلائلِ أنَّه مِن عِندِ اللهِ؛ لأنَّ شأنَ كلامِ النَّاسِ إذا فُرِّقَ تأليفُه على أزمنةٍ مُتباعِدةٍ أنْ يَعتَورَه التَّفكُّكُ وعدَمُ تَشابُهِ الجُمَلِ[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠).

لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾ مِن محاسِنِ هذه الشَّريعةِ المطَهَّرةِ أنَّها نزلت بالتَّدريجِ المناسِبِ، ويُفيدُنا ذلك فائدةً عمليَّةً، وهي أن نقرأَ القرآنَ ونتفهَّمَه حتى تكونَ آياتُه على طَرفِ ألسنتِنا، ومعانيه نُصبَ أعيُنِنا؛ لِنُطبِّقَ آياتِه على أحوالِنا، ونُنزِلَها عليها، كما كانت تَنزِلُ على الأحوالِ والوقائعِ، فإذا حَدَثَ مرَضٌ قلبيٌّ أو اجتِماعيٌّ طلَبْنا دواءَه في القرآنِ، وطبَّقناه عليه، وإذا عَرَضَتْ شُبهةٌ أو ورَدَ اعتِراضٌ؛ طلَبْنا فيه الرَّدَّ والإبطالَ، وإذا نزلَتْ نازلةٌ طلَبْنا فيه حُكمَها، وهكذا نذهَبُ في تطبيقِه وتنزيلِه على الشُّؤونِ والأحوالِ إلى أقصى حَدٍّ يمكِنُنا[1].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾ في تَنَزُّلِ آياتِ القرآنِ على حسَبِ الوقائعِ دَليلٌ على أنَّه ينبغي للمتكَلِّمِ في العِلمِ -مِن مُحَدِّثٍ ومُعَلِّمٍ- كلَّما حَدَثَ مُوجِبٌ أو حَصَلَ مَوسِمٌ، أن يأتيَ بما يناسِبُ ذلك مِن الآياتِ القُرآنيَّةِ والأحاديثِ النَّبويَّةِ، وفيها قدوةٌ صالحةٌ لأئمَّةِ الجُمَعِ وخُطبائِها في توخِّيهم بخُطَبِهم الوقائعَ النازِلةَ، وتطبيقِهم خُطَبَهم على مقتضى الحالِ، وذِكرِ المواعِظِ الموافِقةِ لذلك[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾ أنَّه ينبغي أن نقتديَ بالقرآنِ فيما نأتي به مِن كلامٍ في مقامِ الحِجاجِ أو مقامِ الإرشادِ، فلْنَتوَخَّ دائمًا الحقَّ الثابتَ بالبرهانِ أو بالعِيانِ، ولْنُفَسِّرْه أحسَنَ التفسيرِ، ولْنَشرَحْه أكمَلَ الشرحِ، ولْنُقَرِّبْه إلى الأذهانِ غايةَ التقريبِ، وهذا يَستدعي صحَّةَ الإدراكِ، وجَودةَ الفَهمِ، ومتانةَ العلمِ؛ لِتَصَوُّرِ الحقِّ ومعرفتِه، ويَستدعي حُسْنَ البيانِ، وعلومَ اللسانِ لتصويرِ الحقِّ وتجليتِه والدفاعِ عنه، فللاقتداءِ بالقرآنِ في الإتيانِ بالحقِّ وأحسَنِ بيانٍ علينا أن نُحَصِّلَ هذه كلَّها، ونتدرَّبَ فيها، ونَتمرَّنَ عليها؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨١).

حتى نَبلُغَ إلى ما قُدِّرَ لنا منها، هذا ما على أهلِ الدعوةِ والإرشادِ وخدمةِ الإسلامِ والقرآنِ.

فأمَّا ما على عمومِ المسلمينَ مِن هذا الاقتداءِ: فهو دوامُ القصدِ إلى الإتيانِ بالحَقِّ، وبَذْلُ الجُهدِ في التعبيرِ بأحسَنِ لفظٍ وأقرَبِه، ومَن أخلَصَ قَصْدَه في شَيءٍ، وجعَلَه مِن دأبِه؛ أُعينَ -بإذنِ الله تعالى- عليه[١].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ يُؤخَذُ منه أنَّ كلَّ ذي باطلٍ نَجِدُ بيانَ باطلِه مِن الوحيِ المُنَزَّلِ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فما مِن شُبهةٍ إلى يومِنا هذا تَرِدُ إلَّا وفي كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما يَدْحَضُها[٢]. وإنَّك إذا تتبَّعْتَ آياتِ القرآنِ وجدْتَها قد أتتْ بالعَددِ الوافرِ مِن شُبَهِ الضَّالين واعتراضاتِهم، ونَقَضَتْها بالحقِّ الواضِحِ، والبيانِ الكاشفِ في أوجَزِ لفظٍ وأقْرَبِه وأبلَغِه، وهذا قِسْمٌ عظيمٌ جليلٌ مِن علومِ القرآنِ، يتحتَّمُ على رجالِ الدَّعوةِ والإرشادِ أن يكونَ لهم به فضلُ عنايةٍ، ومَزيدُ دِرايةٍ وخبرةٍ، ولا نحسَبُ شُبهةً تَرِدُ على الإسلامِ إلَّا وفي القرآنِ العظيمِ رَدُّها بهذا الوعدِ الصادقِ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ؛ فعلينا عندَ وُرودِ كلِّ شُبهةٍ مِن كلِّ ذي ضلالةٍ أن نَفزَعَ إلى آيِ القُرآنِ[٣].

١١- قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ فيما يذكُرُه الله تعالى من هذا الجزاءِ العادلِ تخويفٌ عظيمٌ لنا مِن سوءِ الأعمالِ التي تؤدِّي إلى سوءِ الجزاءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ في شكوى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مِن هجرةِ القرآنِ دَليلٌ على أنَّ ذلك من أصعبِ الأمورِ وأبغَضِها لديه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ كَراهةُ هَجْرِ المصحَفِ وعدَمِ تعهُّدِه بالقِراءةِ فيه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ حُجَّةٌ على مَن يَعدِلُ عن القُرآنِ في الاحتِجاجِ به، ويَعيبُ على مَن يدعو إليه[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۞ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بيَّنَ أنَّ مَن هَجَرَ القرآنَ فهو مِن أعداءِ الرَّسولِ، وأنَّ هذه العَداوةَ أمرٌ لا بُدَّ منه، ولا مَفَرَّ عنه[٤]، فهؤلاء الذين سمَّاهم اللهُ تعالى أعداءً لنبيِّه، ووَصَفَهم بالإجرامِ: هم أولئك الذين هَجَروا القرآنَ وصَدَّوا عنه؛ فهذا تخويفٌ عظيمٌ ووعيدٌ شديدٌ لكلِّ مَن كان هاجرًا للقرآنِ العظيمِ بوجهٍ مِن وجوهِ الهِجرانِ[٥]!

٥- هَجرُ القرآنِ أنواعٌ:

أحدُها: هَجرُ سَماعِه، والإيمانِ به، والإصغاءِ إليه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٩٦)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٦).

الثاني: هَجرُ العمَلِ به، والوقوفِ عند حَلالِه وحرامِه، وإنْ قرأَه وآمنَ به.

الثالثُ: هَجرُ تحكيمِه والتَّحاكُمِ إليه في أصولِ الدِّينِ وفُروعِه، واعتقادُ أنَّه لا يفيدُ اليقينَ، وأنَّ أدلَّتَه لفظيَّةٌ لا تُحَصِّلُ العِلمَ.

الرابعُ: هَجرُ تدبُّرِه وتفَهُّمِه، ومَعرفةِ ما أراد المتكلِّمُ به منه.

الخامسُ: هَجرُ الاستشفاءِ والتَّداوي به في جميعِ أمراضِ القَلبِ وأدوائِها، فيَطلبُ شفاءَ دائِه مِن غيرِه، ويَهجُرُ التداويَ به، وكلُّ هذا داخِلٌ في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾، وإنْ كان بعضُ الهَجرِ أهْوَنَ مِن بعضٍ[(١)].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ في حكايةِ الله تعالى لهذه الشكوى وعيدٌ كبيرٌ للهاجرينَ بإنزالِ العقابِ بهم؛ إجابةً لشكوى نبيِّه، ولَمَّا كان الهجرُ طبقاتٍ أعلاها عدَمُ الإيمانِ به، فلكلِّ هاجرٍ حظُّه مِن هذه الشكوى وهذا الوعيدِ[(٢)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أنَّ الحقَّ يَتبيَّنُ بضِدِّه؛ لأنَّ اللهَ جَعَل عدوًّا مِن المجرمين يُنابِذُ الدَّعوةَ، فمِنَ الحكمةِ في ذلك أنْ تَتبيَّنَ الدعوةُ؛ لأنَّه إذا لم يكنْ لها مُعارِضٌ ما تَبيَّنَتْ، لكنْ إذا كان لها مُعارِضٌ وكلَّما أُتِيَ بشُبهةٍ رُدَّ عليها، صار ذلك أبيَنَ وأوضَحَ[(٣)]، فمُعارَضةُ الباطلِ للحَقِّ ممَّا تَزيدُه وضوحًا وبيانًا وكمالَ استِدلالٍ، وبها يَتبيَّنَ ما يفعَلُ اللهُ بأهلِ الحقِّ مِن الكرامةِ، وبأهلِ الباطلِ مِن العُقوبةِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ عنايةُ اللهِ تعالى بالرَّسولِ، ووجْهُ ذلك: أنَّ كَوْنَ اللهِ يُسلِّي الرَّسولَ بما وقَعَ لغَيرِه، هذا دليلٌ على العنايةِ به. وكونُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم يحتاجُ إلى تلك التسليةِ يدُلُّ على أنَّ الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم بَشَرٌ، يَنتابُه ما ينتابُ البشَرَ مِن الحُزنِ والأسَى، فيَحتاجُ إلى التسليةِ، وإذا كان الرسولُ يحتاجُ إلى ذلك فمَن دونَه مِن بابِ أَولى؛ فالنَّظرُ إلى ما أصاب الغيرَ يُهَوِّنُ على النفْسِ ما يُصيبُها، وهو مِن مقتضياتِ الطبيعةِ البشريَّةِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ حُجَّةٌ على المُعتزلةِ والقدَريَّةِ[٢]، وردٌّ على زعمِهم أنَّ خالقَ الشرِّ غيرُه، تعالى شأنُه[٣]! ففي الآية حجَّةٌ على أنَّه تعالى خَلَقَ الخيرَ والشَّرَّ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا﴾ يدُلُّ على أنَّ تلك العداوةَ مِن جَعْلِ اللهِ؛ ولا شكَّ أنَّ تلك العداوةَ كفرٌ[٤].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فيه تَسليةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وحمْلٌ له على الاقتِداءِ بمَن قَبْلَه مِنَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسلامُ[٥].

١١- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فيه تنبيهٌ للمُشركينَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

ليَعرِضوا أحوالَهم على هذا الحُكمِ التَّاريخيِّ؛ فيَعلَموا أنَّ حالَهم كحالِ مَن كَذَّبوا مِن قَومِ نوحٍ وعادٍ وثَمودَ(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أنَّه قد وعَدَ اللهُ تعالى نبيَّه -بعْدَما أمَرَه بالتأسِّي والصَّبرِ-، بالهدايةِ والنَّصرِ؛ ففي هذا بِشارةٌ للدُّعاةِ مِن أُمَّتِه مِن بعْدِه، السَّائرينَ في الدَّعوةِ بالقرآنِ وإلى القرآنِ على نهْجِه: أن يَهديَهم ويَنصُرَهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] معهم بالفضلِ والنَّصرِ والتأييدِ، وهذا عامٌّ للمجاهِدينَ المُحسنينَ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ(٢).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ دليلٌ على أنَّ الأخذَ بالأسبابِ لا يؤثِّرُ في توكُّلِ المتوكِّلينَ، كما يزعُمُ جهَلةُ المتصوِّفةِ أنَّ طَلَبَ المكاسِبِ مُؤثِّرٌ في التوكُّلِ! ألَا يَعلمونَ أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه كان قادِرًا على تثبيتِ القُرآنِ جملةً واحدةً في قلْبِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؟! ولكنَّه لمَّا جَعَل سببَه الحِفظَ بصِفةٍ أجراه عليها(٣).

١٤- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ إثباتُ الحكمةِ في أفعالِ اللهِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ لأنَّ «اللامَ» للتَّعليلِ، والتَّعليلُ معناه الحِكمةُ؛ ففيه رَدٌّ على طائفةٍ مِن طوائفِ البدعِ، يَرَونَ أنَّ أفعالَ اللهِ سُبحانه وتعالى غيرُ مُعَلَّلةٍ، وأنَّه عزَّ وجلَّ يخلُقُ الخَلقَ ويُشَرِّعُ الشَّرائعَ لمجرَّدِ المشيئةِ لا لحِكمةٍ! فهذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧، ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٩).

الآياتُ تُفيدُ بيانَ الحِكمةِ مِن إنزالِ القُرآنِ مُفرَّقًا، وأنَّ أفعالَ اللهِ تعالى مُعَلَّلةٌ مَقرونةٌ بالحِكمةِ، لكنَّ هذه الحِكمةَ التي تكونُ لأفعالِ اللهِ عزَّ وجلَّ -سواءٌ كانت شرعيَّةً أو غيرَ شرعيَّةٍ- منها ما هو معلومٌ، ومنها ما هو مَجهولٌ لنا، ولكنَّها معلومةٌ عندَ اللهِ تعالى[١].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ دَلالةٌ على اعتِناءِ اللهِ بكِتابِه القُرآنِ وبرَسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيثُ جَعَلَ إنزالَ كتابِه جاريًا على أحوالِ الرَّسولِ ومَصالحِه الدِّينيَّةِ[٢]. وقولُه: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ كلمةٌ جامعةٌ؛ لأنَّ تَثبيتَ الفؤادِ يَقتَضي كلَّ ما به خَيرٌ للنَّفْسِ[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أنَّه لَمَّا كان البلاءُ والعَناءُ في سبيلِ التبليغِ متكَرِّرًا متجدِّدًا، كان مُحتاجًا إلى تجديدِ تقويةِ قلبِه، وكان ذلك مُقتضيًا لتفريقِ نزولِ الآيِ عليه[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ بيانُ حكمتينِ في إنزالِه مفرَّقًا:

الحكمةُ الأُولى: تثبيتُ قلبِه صلَّى الله عليه وسلَّم.

الحكمةُ الثانيةُ: تفريقُه مرتَّبًا على الوقائعِ.

وكان في تَينِك الحكمتينِ مَزيَّتانِ عظيمتانِ للقرآنِ العظيمِ على غيرِه مِن كُتُبِ اللهِ تعالى، فكان ما اعتَرَضوا به على أنَّه نقصٌ فيه عنها: هو كمالٌ له عليها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٨- كانتِ الوقائعُ تقعُ، والحوادثُ تَحدُثُ، والشُّبَهُ تَعرِضُ، والاعتراضاتُ تَرِدُ؛ فكانتِ الآياتُ تَنزِلُ بما تتطلَّبُه تلك الوقائعُ مِن بيانٍ، وما تقتضيه تلك الحوادثُ مِن أحكامٍ، وما تَستدعيه تلك الشُّبَهُ مِن رَدٍّ، وتلك الاعتراضاتُ مِن إبطالٍ وغيرِه مِن مقتضياتِ نزولِ الآياتِ المعروفةِ بـ «أسبابِ النزولِ»، وفي بيانِ الواقعةِ عندَ وقوعِها، وذِكْرِ حُكْمِ الحادثةِ عندَ حدوثِها، ورَدِّ الشبهةِ عندَ عُروضِها، وإبطالِ الاعتراضِ عندَ ورودِه: ما فيه مِن تأثيرٍ في النفوسِ، ووَقْعٍ في القلوبِ، ورسوخٍ في العقولِ، وجلاءٍ في البيانِ، وبلاغةٍ في التطبيقِ، واستيلاءٍ على السامعِينَ، وما كان هذا كلُّه لِيأتيَ لولا تفريقُ الآياتِ في التنزيلِ، وترتيلُها وتنضيدُها هذا الترتيلَ العجيبَ، وهذا التنضيدَ الغريبَ؛ الذي بَلَغَ الغايةَ مِن الحُسْنِ والمنفعةِ، حتى إنَّه لَيَصِحُّ أن يُعَدَّ وحْدَه وجهًا مِن وجوهِ الإعجازِ، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾[1].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ ردٌّ على المتكلِّفِينَ مِن الجَهْمِيَّةِ ونَحوِهم، ممَّن يرى أنَّ كثيرًا مِن نُصوصِ القرآنِ محمولةٌ على غيرِ ظاهرِها، ولها مَعانٍ غيرُ ما يُفهَمُ منها؛ فإذَن -على قولِهم- لا يكونُ القُرآنُ أحسَنَ تَفسيرًا مِن غيرِه، وإنما التَّفسيرُ الأحسَنُ -على زَعمِهم- تَفسيرُهم الذي حَرَّفوا له المعانيَ تَحريفًا[2]!

٢٠- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ فمُخالفو الرسُلِ -ومنهم مُخالِفو ما جاء به الكِتابُ والسُّنَّةُ- لا يأتون بقِياسٍ يَرُدُّون به بعضَ ما جاءتْ به الرسُلُ، فيكونُ قياسًا أقاموا به باطلًا، إلَّا جاء اللهُ -فيما بَعَثَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٣).

به الرسُلَ- بالحَقِّ، وبقياسٍ أحسَنَ تَفسيرًا، وكشفًا وإيضَاحا للحَقِّ[١].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أنَّ هؤلاء رفعوا وجوهَهم في الدنيا عنِ السجودِ للهِ، فأذلَّ اللهُ تلك الوجوهَ فمَشَوا عليها في المحشَرِ، ورفعوا رؤوسَهم كِبْرًا عن الحقِّ، فنكسَها اللهُ يومَ القيامةِ، ومَشَوا في طريقِ النظرِ والاستدلالِ مَشيًا مقلوبًا، فمشوا في الآخرةِ مَشيًا مقلوبًا؛ فكان ما نالَهم مِن سوءِ تلك الحالِ جزاءً وِفاقًا لِمَا أَتوا مِن قُبحِ الأعمالِ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[٢] [فصلت: ٤٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ عطْفٌ على قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ، مَسوقٌ لاستِعظامِ ما قالُوه، وبيانِ ما يَحِيقُ بهم في الآخرةِ مِنَ الأهوالِ والخُطوبِ. وإيرادُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعُنوانِ الرِّسالةِ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾؛ لتَحقيقِ الحقِّ، والرَّدِّ على نُحورِهم؛ حيثُ كان ما حُكِيَ عنهم قدْحًا في رسالتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣].

- وفي قولِه: ﴿يَٰرَبِّ﴾ إظهارٌ لعَظيمِ الْتِجائِه، وشِدَّةِ اعتِمادِه، وتَمامِ تَفويضِه لمالكِه، ومُدبِّرِ أمْرِه، ومُوالي الإنعامِ عليه[٤].

- وفي هذه الحِكايةِ ﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ تَعظيمٌ للشِّكايةِ، وتَخويفٌ وتَحذيرٌ لقَومِه؛ لأنَّ الأنبياءَ كانوا إذا التَجَؤوا إليه، وشَكَوا إليه

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٤/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٢).

قَومَهم، حَلَّ بهمُ العَذابُ ولمْ يُنظَروا[١]، وتَأكيدُه بـ (إنَّ) للاهتِمامِ به؛ ليكونَ التَّشكِّي أقْوى[٢].

- والتَّعبيرُ عن قُرَيشٍ بـ ﴿قَوۡمِي﴾؛ لزِيادةِ التَّذَمُّرِ مِن فِعلِهم معه وتَوبيخِهم؛ لأنَّ شأنَ قَومِ الرَّجُلِ أن يوافِقوه، ويُصَدِّقوا به، ويَقبَلوا ما جاء به[٣]. وأيضًا في التَّعبيرِ عنهم بـ (قَومِه) وإضافتِهم إليه، وفي التَّعبيرِ عن القُرآنِ باسمِ الإشارةِ القَريبِ (هَذَا): بَيانٌ لعظيمِ جُرْمِهم بتَرْكِهم للقُرآنِ، وهو قريبٌ منهم في مُتناوَلِهم، وقد أتاهُم به واحدٌ منهم، أقرَبُ النَّاسِ إليهم، فصَدُّوا وأبْعَدوا في الصَّدِّ عمَّن هو إليهم قريبٌ مِن قريبٍ، وهذا أقبَحُ الصَّدِّ وأظلَمُه[٤].

- وفِعلُ الاتِّخاذِ إذا قُيِّد بحالةٍ يُفيدُ شدَّةَ اعتِناءِ المُتَّخِذِ بتلك الحالةِ، بحيث ارتَكَب الفِعلَ لأجْلِها، وجعَلَه لها قَصْدًا؛ فقولُه: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ أشَدُّ مُبالَغةً في هَجرِهمُ القُرآنَ مِن أنْ يُقالَ: (إنَّ قَومي هجَروا القُرآنَ)[٥]؛ فأشارَ بصِيغةِ الافتِعالِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ إلى أنَّهم عالَجوا أنفسَهم في ترْكِه عِلاجًا كثيرًا، وأنَّهم جعَلوا الهَجْرَ مُلازِمًا له، ووصفًا مِن أوصافِه عندَهم، وذلك أعظَمُ مِن أنْ يُقالَ: هجَروه، الَّذي يُفيدُ وُقوعَ الهِجرانِ منهم، دونَ دَلالةٍ على الثُّبوتِ والمُلازَمةِ؛ لِما يَرَوْنَ مِن حُسنِ نَظْمِه، ويَذُوقون مِن لَذيذِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٠٧، ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

مَعانيه، ورائقِ أساليبِه، ولَطيفِ عَجائبِه، وبَديعِ غَرائبِه[١].

- واسمُ الإشارةِ في قولِه: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لتَعظيمِه، وأنَّ مِثلَه لا يُتَّخَذُ مَهْجورًا، بل هو جَديرٌ بالإقبالِ عليه، والانتِفاعِ به[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وُصِفَ أعداءُ الأنبياءِ بأنَّهم مِنَ المُجرِمينَ، أي: مِن جملةِ المُجرِمينَ؛ فإنَّ الإجرامَ أعَمُّ مِن عَداوةِ الأنبياءِ، وهو أَعظَمُها. وإنَّما أُريدَ هنا تحقيقُ انضِواءِ أعداءِ الأنبياءِ في زُمرةِ المُجرِمينَ؛ لأنَّ ذلك أَبلَغُ في الوصفِ مِن أن يقالَ: عَدُوًّا مُجرِمينَ[٣].

- قَولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ خبرٌ فيه وعْدٌ كَريمٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالهِدايةِ إلى مَطالِبِه كافَّةً، والنَّصرِ على أعدائِه[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ حِكايةٌ لاقتِراحِهمُ الخاصِّ بالقُرآنِ الكريمِ بعْدَ حِكايةِ اقتِراحِهم في حَقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإيرادُهم بعُنوانِ الكُفرِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ لذَمِّهم به، والإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ[٥]. وهو اعتِراضٌ آخَرُ مِن اعتِراضاتِهم

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥).

الباطلةِ، نسَقَه مع ما تقدَّمَ منها؛ لِيُجابَ عنه، ويُبيَّنَ خَطؤُهم فيه[١].

- قَولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةً وَٰحِدَةً﴾ لَمَّا كانوا -لشِدَّةِ ضَعفِهم- لا يَكادون يَسمَحون بتَسميةِ القرآنِ تَنزيلًا، فضْلًا عن أنْ يُسنِدوا إنزالَه إلى اللهِ سبحانه وتعالى؛ بَنَوْا للمَفعولِ في هذه الشُّبهةِ التي أَورَدُوها قولَهم: ﴿نُزِّلَ عَلَيۡهِ﴾[٢].

- والفِعلُ (نَزَّلَ) يأتي مُرادِفًا لـ(أنزَلَ)، والتَّضعيفُ أخو الهَمزةِ، ويأتي مُفيدًا للتَّكثيرِ، فيُفيدُ تَكرُّرَ النُّزولِ وتجديدَه، وهو هنا لا يصِحُّ حمْلُه على التَّكثيرِ المُفيدِ للتَّدريجِ؛ لئلَّا يُناقِضَ قولَهم: ﴿جُمۡلَةً وَٰحِدَةً﴾؛ فيكونُ مِن التَّضعيفِ المُرادِفِ للهمزةِ. والمُختارُ أنَّ (نزَّل) المُضاعَفَ يَرِدُ لكثرةِ الفِعلِ ولِقُوَّتِه؛ فجاء لكَثرتِه في آيةِ (آلِ عمرانَ): ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣]، وجاء لقُوَّتِه في هذه الآيةِ؛ لأنَّ إنزالَ الجُملةِ مرَّةً واحدةً أقوى مِن إنزالِ كلِّ جُزءٍ مِن الأجزاءِ بمُفرَدِه[٣].

- وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ استِئنافٌ واردٌ مِن جِهتِه تعالى لردِّ مقالتِهمُ الباطلةِ، وبيانِ الحِكمةِ في التَّنزيلِ التَّدريجيِّ[٤]. وعدَل فيه عن خِطابِهم إلى خِطابِ الرَّسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ؛ إعلامًا له بحِكمةِ تَنزيلِه مُفرَّقًا، وفي ضِمْنِه امتِنانٌ على الرَّسولِ بما فيه تَثبيتُ قلْبِه، والتَّيسيرُ عليه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥، ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩).

- قَولُه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ الأصْلُ: أنزلناهُ كذلك...، فأوجَزَ بحذْفِ المُتعلَّقِ؛ لوُجودِ ما يدُلُّ عليه مِن إعراضِهم. وفُصِلَ -أي: لم يُعطَفْ على ما قَبْلَه-؛ لأنَّه جوابٌ عن اعتراضِهم(١).

- ونكَّر ﴿تَرْتِيلًا﴾؛ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ؛ فالتَّنوينُ فيه تنوينُ تنويعٍ وتعظيمٍ، أي: نوعًا مِن التَّرتيلِ عظيمًا(٢).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ فَذْلَكَةٌ(٣) جامِعةٌ تَعُمُّ ما تَقدَّمَ، وما عسَى أنْ يأتُوا به مِنَ الشُّكوكِ والتَّمويهِ بأنَّ كلَّ ذلك مَدْحوضٌ بالحُجَّةِ الواضحةِ، الكاشفةِ لتُرَّهاتِهم؛ فإنَّه لَمَّا استَقصى أكثرَ مَعاذيرِهم وتَعلُّلاتِهم، وردَّ عليها وأبطَلها؛ أتَى بهذِه الآيةِ الجامِعةِ العامَّةِ(٤).

- وفيه مِنَ الدَّلالةِ على المُسارعةِ إلى إبطالِ ما أَتَوْا به، وتَثبيتِ فؤادِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما لا يَخفَى(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠).

(٣) الفَذْلكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغَ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلكةُ كلمة منحوتةٌ كـ(البَسملة) و(الحوقلة)، من قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُراد بالفذلكةِ: النتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فذلكةُ الحساب، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٦).

- وتَنكيرُ (مَثَل) في سياقِ النَّفيِ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ...﴾ للتَّعميمِ، أيْ: بكُلِّ مَثَلٍ[١].

- وتَعْديةُ فِعْلِ ﴿يَأْتُونَكَ﴾ إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لإفادةِ أنَّ إتيانَهم بالأمثالِ يَقصِدون به أن يُفحِموه. وجاءتْ صِيغةُ المضارعِ في قولِه: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾؛ لتَشمَلَ ما عسى أنْ يأتُوا به مِن هذا النَّوعِ[٢].

- والتَّعبيرُ بالمُضارعِ ﴿يَأْتُونَكَ﴾ يُفِيدُ الحُدوثَ وتجدُّدَ الإتيانِ منهم. والتَّعبيرُ بالماضي ﴿جِئْنَاكَ﴾ -معَ أنَّه في معنى المُستقبَلِ- يُفِيدُ تحقُّقَ المجيءِ، وهو المُناسِبُ لمَقامِ الوعدِ والتَّثبيتِ[٣].

- وقولُه: ﴿جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ مُقابِلٌ لقولِه: ﴿لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾، وفي هذه المقابَلةِ إشارةٌ إلى أنَّ ما يأتُون به باطلٌ. والتَّعبيرُ في جانبِ ما يؤيِّدُه اللهُ مِنَ الحُجَّةِ بـ﴿جِئْنَاكَ﴾ دُونَ: أَتَيْناك، كما عَبَّر عمَّا يَجيئون به بـ﴿يَأْتُونَكَ﴾: إمَّا لمُجرَّدِ التَّفنُّنِ، وإمَّا لأنَّ فِعلَ الإتيانِ إذا استُعمِلَ كثُرَ فيما يَسوءُ وما يُكرَهُ، كالوعيدِ والهِجاءِ، بخِلافِ فِعلِ المَجيءِ إذا استُعمِلَ؛ فأَكثَرُ ما يُستعمَلُ في وُصولِ الخَيرِ والوعدِ والنَّصرِ والشَّيءِ العظيمِ[٤].

- قَولُه: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أيْ: أحَقَّ في الاستِدلالِ؛ فالتَّفضيلُ للمُبالَغةِ؛ إذْ ليس في حُجَّتِهم حُسْنٌ أصلًا. أو يُرادُ بالحُسنِ ما يَبْدو مِن بَهْرَجةِ سَفسَطَتِهم وشُبَهِهم؛ فيَجيءُ الكشفُ عنِ الحقِّ أحسَنَ وقْعًا في نُفوسِ السَّامِعينَ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢١، ٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢، ٢٣).

مُغالَطاتِهم؛ فيكونُ التَّفضيلُ بهذا الوجهِ على حقيقتِه، فهذه نُكتةٌ مِن دَقائقِ الاستِعمالِ، ودَقائقِ التَّنزيلِ(١).

- قَولُه: ﴿تَفۡسِيرٗا﴾ في قولِه: ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ وُضِعَ موضعَ: معنًى ومؤدًّى، أي: أحسَنَ معنًى ومؤدًّى مِن سؤالِهم؛ فهو مِن وَضْعِ السَّببِ مَوضعَ المُسبَّبِ؛ لأنَّ التَّكشيفَ سببُ ظُهورِ المعنى وكشْفِه؛ ففيه المبالَغةُ مع الإيجازِ(٢).

٥- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ لتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولوعيدِ المُشركينَ وذَمِّهم؛ لأنَّه تعالى لَمَّا قال لرَسولِه صلواتُ اللهِ عليه مُسَلِّيًا: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ حرَّك منه صلواتُ اللهِ عليه بأنْ يَسألَ: فإذَنْ بماذا أُجيبُهم، وما يكونُ قَوْلي لهم؟ قيل: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾(٣). وفُصِلَتِ هذه الجُملةُ -أي: لم تُعطَفْ على ما قَبْلَها-؛ لأنَّها بَيانٌ لحالِهم في الآخرةِ، وهو غيرُ الموضوعِ المُتقدِّمِ(٤).

- والمرادُ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ القومُ الَّذينَ أَورَدوا هذه الأسئلةَ على سَبيلِ التَّعنُّتِ في قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الفرقان: ٣٢]؛ فالموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ واقعٌ موقعَ الضَّميرِ، كأنَّه قيل: هُم يُحشَرون على وُجوهِهم؛ فوُضِع المُظهَرُ مَوضِعَ المُضْمَرِ؛ إشعارًا بتَوهينِهم، وتَحقيرًا لشأنِهم، ولتَحصيلِ فائدةِ أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٤).

أصحابَ الضَّميرِ ثَبَتَ لهم مَضْمونُ الصِّلةِ، ولِيُبنَى على الصِّلةِ موقعُ اسمِ الإشارةِ، ومُقتضَى ظاهِرِ النَّظمِ أن يقالَ: (ولا يَأْتونَك بمَثَلٍ إلَّا جِئْناكَ بالحقِّ وأَحسَنَ تفسيرًا، هُمْ شَرٌّ مكانًا وأضَلُّ سبيلًا، ونَحشُرُهم على وُجوهِهم إلى جَهنَّمَ)، كما قال في سورةِ (الإسراء): ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء: ٩٧] عَقِبَ قولِه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. وأيضًا يُعْلَمُ مِنَ السِّياقِ بطريقِ التَّعريضِ أنَّ الَّذينَ يُحشَرون على وُجوهِهم هُمُ الذين يأْتُون بالأمثالِ تَكذيبًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإذْ كان قصْدُهم ممَّا يَأْتون به مِنَ الأمثالِ تَنقيصَ شأنِ النَّبيِّ، ذُكِروا بأنَّهم أهْلُ شَرِّ المكانِ وضَلالِ السَّبيلِ دُونَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

- قولُه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ عَقِبَ ما تَقدَّمَ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليهم -وهم ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ...﴾- حَقِيقُونَ بما بعْدَ اسمِ الإشارةِ، وهو أنَّهم ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وأَحْرياءُ بالمكانِ الأَشَرِّ والسَّبيلِ الأَضَلِّ؛ بسَببِ ما اتَّصفوا به، ممّا دلَّتْ عليه الصِّلةُ، وهو حَشْرُهم على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ، الذي ما أصابَهم إلَّا بما قدَّمتْ أيديهم، ولأجْلِ ما سَبَق مِن أحوالِهمُ الَّتي منها قولُهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]؛ فهم أَحِقَّاءُ بكونِهم شرًّا مكانًا وأضَلَّ سبيلًا؛ بسَببِ ما أدَّاهم إلى ذلك الحَشرِ؛ فاكتُفِيَ بذِكْرِ المُسبَّبِ عن السَّببِ[2].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣، ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤).

- وصِيغتَا التَّفضيلِ ﴿شَرٌّ﴾، و﴿أَضَلُّ﴾ في قولِه: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ مُستعمَلتانِ للمُبالَغةِ في الاتِّصافِ بالشَّرِّ والضَّلالِ. وتَعريفُ جُزْأَيِ الجملةِ يُفيدُ القَصْرَ، وهو قصْرٌ للمبالَغةِ بتَنزيلِهم مَنزِلةَ مَنِ انحصَرَ الشَّرُّ والضَّلالُ فيهم. ورُويَ: أنَّ الكفَّارَ قالوا للمسْلمينَ: هُم شَرُّ الخلْقِ، فنزلَتْ هذه الآيةُ؛ فيكونُ القصْرُ قصْرَ قلْبٍ، أيْ: هُم شَرٌّ مكانًا وأضَلُّ سبيلًا لا المسْلمون. وصِيغتَا التَّفضيلِ مَسْلوبتَا المُفاضَلةِ على كِلا الوَجهَينِ[١].

- وأيضًا لم يُذكَرْ مع أفعلِ التَّفضيلِ المُفضَّلُ عليه؛ لِيُفِيدَ أنَّ مكانَهم شرُّ مكانٍ مِن أمكنةِ الشَّرِّ، وسبيلَهم أضلُّ سبيلٍ مِن سُبُلِ الضَّلالِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٤).

الآيات (٣٥-٤٠)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَزِيرًا﴾: أي: عَونًا، مِن الوِزرِ: وهو الحِملُ الثَّقيلُ، كأنَّ الوَزيرَ يحمِلُ عَن السُّلطانِ الثِّقلَ والشُّغلَ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقلِ في الشَّيءِ[(١)].

﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾: أي: أهلَكْناهم بالعذابِ إهلاكًا، والدَّمارُ: الهلاكُ، والتَّدْميرُ: إدخالُ الهلاكِ على الشَّيءِ، وأصلُ (دمر): يَدُلُّ على الدُّخولِ في البيتِ وغَيرِه[(٢)].

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: أي: أعدَدْنا، قيل: هو أفْعَلْنا مِن العَتادِ، وهو ادِّخارُ الشَّيءِ قبْلَ الحاجةِ إليه، كالإعدادِ. وقيل: العَتادُ: المُعَدُّ الثابتُ اللازمُ. وأصلُ (عتد): يدُلُّ على حُضورٍ وقُرْبٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٦٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٦)، ((الغريبين =

﴿ٱلرَّسِّ﴾: أي: البئرِ العَظيمةِ، أو الأُخدودِ، أو الوادي، وقيل: الرَّسُّ: كلُّ محفورٍ، مِثلُ البئرِ والقبرِ ونحوِ ذلك، وأصلُ (رسس): يدُلُّ على ثباتٍ، وقيل: أصلُه: الأثرُ القليلُ الموجودُ في الشَّيءِ[١].

﴿وَقُرُونًا﴾: القرونُ: جمعُ قَرْنٍ، وهو: الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ، أو القَومُ المُقترِنونَ في زَمنٍ واحدٍ غيرِ مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ. وقيلَ: مدَّةُ القرنِ مئةُ سنةٍ. وقيل: ثمانونَ. وقيل: ثلاثون. وقيل غيرُ ذلك. والاقترانُ هو اجتِماعُ شيئينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٢].

﴿تَبَّرْنَا﴾: أي: أهلَكْنا ودمَّرْنا، وأصلُ (تبر): يدُلُّ على كَسرٍ وإهلاكٍ[٣].

﴿نُشُورًا﴾: أي: مَعادًا وبَعثًا، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشعُّبِه[٤].

= في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٢٢٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٤٥).

قال الراغب: (وقيل: أصْلُه: أعددنا، فأُبدِلَ مِن إحدَى الدَّالينِ تاءٌ). ((المفردات)) (ص:٥٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٣) و(٢١/ ٤١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى أحوالَ الذين كذَّبوا أنبياءَهم، فكانت عاقبتُهم الإهلاكَ والتدميرَ، فيقولُ: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ، وجعَلْنا معه أخاه هارونَ مُعينًا له في أمرِ الرِّسالةِ، فقُلْنا لهما: اذهَبا إلى فِرعَونَ وقَومِه، فكذَّبوهما فأهلَكْناهم بالغَرقِ، وأغرَقْنا كذلك قومَ نوحٍ لَمَّا كذَّبوا نوحًا، وجعَلْناهم عِظةً وعِبرةً للنَّاسِ، وأعدَدْنا للظَّالمين عذابًا موجِعًا مُؤلِمًا، وأهلَكْنا كذلك عادًا وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ؛ لكُفرِهم وتكذيبِهم، وأُمَمًا غيرَهم كثيرينَ لا يعلَمُهم إلَّا اللهُ، وكلًّا مِن هؤلاء المهلَكينَ وضَّحْنا له الأدلَّةَ على وحدانيَّتِنا، وكلًّا منهم أهلَكْنا إهلاكًا كاملًا.

ولقد مرَّ كفَّارُ قُريشٍ على قريةِ قَومِ لوطٍ الذين أمطر اللهُ عليهم حِجارةً مِن السَّماءِ، أفلمْ يَكونوا يرَونَ في أسفارِهم آثارَ إهلاكِنا هذه القريةَ، فيعتَبِروا ويتَّعظوا بما حلَّ بهم بسَبَبِ كُفرِهم وتكذيبِهم؟! بل كانوا يَرونَ عاقِبةَ أهلِ تلك القريةِ التي أهلَكْناها، ولكِنَّهم كانوا لا يُؤمِّلونَ وُقوعَ البَعثِ بعْدَ المَوتِ، فلا يَرجونَ ثوابًا، ولا يخافونَ عذابًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعْدَ أنْ تكلَّمَ سُبحانَه وتعالى في التَّوحيدِ، ونَفيِ الأندادِ، وإثباتِ النبوَّةِ، والجَوابِ عن شُبُهاتِ المنكِرينَ لها، وفي أحوالِ القيامةِ- شرَعَ في ذِكرِ القَصَصِ على السُّنَّةِ المعلومةِ[1].

وأيضًا لَمَّا تقَدَّمَ تكذيبُ قُريشٍ والكفَّارِ لِمَا جاء به رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٨).

وسلَّم؛ ذَكرَ تعالى ما فيه تسليةٌ للرَّسولِ، وإرهابٌ للمُكذِّبينَ، وتذكيرٌ لهم أنْ يصيبَهم ما أصاب الأُممَ السَّابقةَ مِن هلاكِ الاستِئصالِ لَمَّا كذَّبوا رسُلَهم، فناسَبَ أنْ ذَكرَ أوَّلًا مَن نزَلَ عليه كتابُه جُملةً واحدةً؛ ومع ذلك كفَروا وكذَّبوا به، فكذلك هؤلاء: لو نَزَلَ عليه القرآنُ دَفعةً لكَذَّبوا وكَفَروا كما كَذَّبَ قَومُ موسى[١].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

أي: ولقد آتَينا موسى التَّوراةَ[٢].

﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾.

أي: وجعَلْنا مع موسى أخاه هارونَ مُعينًا له يُقَوِّيه ويؤَيِّدُه[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى * وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَٰرُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى * كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٢٥ - ٣٦].

﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥).

أي: فقُلْنا لموسى وهارونَ: اذهَبا إلى فِرعَونَ وقَومِه القِبطِ الذين كذَّبوا بأدِلَّتِنا وبراهينِنا[١].

﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

أي: فكذَّب فِرعَونُ وقَومُه موسى وهارونَ، فأهلَكْناهم بالغَرقِ إهلاكًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ۞وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٦، ١٣٧].

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا هَدَّدَ سُبحانَه المكذِّبينَ بإهلاكِ الأوَّلينَ الذين كانوا أقوَى منهم وأكثَرَ، وقَدَّمَ قصَّةَ موسى عليه السَّلامُ- أتبَعَه أوَّلَ الأُممِ؛ لأنَّهم أوَّلُ، ولِمَا في عذابِهم مِن الهَولِ، ولِمناسبةِ ما بيْنَه وبيْنَ عذابِ القِبطِ، فقال[٣]:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥).

قال البقاعي: (﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: المرئيَّةِ والمسموعةِ مِن الأنبياءِ الماضينَ قبْلَ إتيانِكما في عِلمِ الشَّهادةِ، والمرئيَّةِ والمسموعةِ منكما بعْدَ إتيانِكما في عِلمِنا). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٥).

أي: وأغرَقْنا قَومَ نوحٍ لَمَّا كذَّبوا نوحًا، وجعَلْنا إغراقَهم بالطُّوفانِ عِبرةً للنَّاسِ وعِظةً(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: وأعدَدْنا في الآخرةِ للظَّالِمينَ مِن قَومِ نُوحٍ وغَيرِهم عذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا؛ جزاءً على ظُلمِهم(٢).

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه آخِرَ الأُمَمِ المهلَكةِ بعامَّةٍ وأوَّلَها، وكان إهلاكُهما بالماءِ- ذكَرَ مَن بيْنَهما ممَّن أُهلِكَ بغيرِ ذلك؛ إظهارًا للقُدرةِ والاختيارِ، وطوَى خبرَهم بغيرِ العذابِ؛ لأنَّه في سياقِ الإنذارِ، فقال(٣):

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٦).

قال القرطبي: (﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: علامةً ظاهرةً على قدرتِنا). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٤٠، ١٤١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

أي: وأهلَكْنا أيضًا عادًا قَومَ هُودٍ، وثمودَ قَومَ صالحٍ، وأصحابَ الرَّسِّ، ودمَّرْناهم لكُفرِهم وتكذيبِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۞ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ۞ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

﴿وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا﴾.

أي: ودمَّرْنا بين تلك الأُمَمِ الكافرةِ -التي سمَّيْناها- أُمَمًا أُخرى كثيرةً لا يعلَمُها إلَّا اللهُ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٣).

قال ابنُ جريرٍ في التعريفِ بأصحابِ الرسِّ: (الصَّوابُ مِن القولِ في ذلك قولُ مَن قال: هم قومٌ كانوا على بئرٍ؛ وذلك أنَّ الرَّسَّ في كلام العربِ: كُلُّ محفورٍ، مِثلُ البئرِ والقبرِ ونحوِ ذلك. ولا أعلَمُ قومًا كانت لهم قصَّةٌ بسببِ حُفرةٍ ذكَرَهم اللهُ في كتابِه إلَّا أصحابَ الأُخدودِ،... وإن يكونوا غيرَهم فلا نعرفُ لهم خبرًا إلَّا ما جاء مِن جملةِ الخبرِ عنهم أنَّهم قومٌ رَسُّوا نبيَّهم في حفرةٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٣، ٤٥٤).

وقال ابن عاشور: (اتَّفقوا على أنَّ الرَّسَّ بئرٌ عظيمةٌ، أو حَفيرٌ كبيرٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧).

وقال الشنقيطي: (وأمَّا أصحابُ الرَّسِّ فلم يأتِ في القرآنِ تفصيلُ قِصَّتِهم ولا اسمُ نبيِّهم، وللمفسِّرينَ فيهم أقوالٌ كثيرةٌ ترَكْناها؛ لأنَّها لا دليلَ على شَيءٍ منها). ((أضواء البيان)) (٦/ ٥٤). وتُنظَرُ أقوالُ المفسِّرينَ في أصحابِ الرَّسِّ في: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩). =

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قَدَّمَ سُبحانَه أنَّه يأتي في هذا الكتابِ بما هو الحقُّ في جوابِ أمثالِهم؛ بَيَّنَ أنَّه فعَلَ بالجَميعِ نحوًا مِن هذا، فقال تسليةً لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وتأسيةً وبيانًا لتشريفِه بالعَفوِ عن أمَّتِه[1]، وعدمِ استِئْصالِها بالعذابِ:

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾.

أي: وكلُّ الأُمَمِ الكافرةِ التي أهلَكْناها أقَمْنا عليها الحُجَّةَ، ووَضَّحْنا لها الأدِلَّةَ بذِكرِ الأمثالِ؛ لِيَعتبِروا بها ويتَّعِظوا[2].

= قال ابنُ كثير: (الأظهرُ: أنَّ القرنَ هم الأمَّةُ المتعاصِرون في الزَّمنِ الواحد، فإذا ذهبوا وخلَفَهم جيلٌ آخَرُ، فهم قرنٌ ثانٍ، كما ثبت في الصحيحينِ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «خيرُ [الناسِ] قَرني، ثمَّ الذين يلونَهم، ثمَّ الذين يلونَهم...» الحديثَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢).

وقال الشنقيطي: (والأظهرُ أنَّ القرونَ الكثيرَ: المذكورُ بعْدَ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، وقبْلَ أصحابِ الرَّسِّ، وقد دلَّت آيةٌ من سورة «إبراهيم» على أنَّ بعْدَ عادٍ وثمودَ خَلْقًا كفَروا وكذَّبوا الرسُلَ، وأنَّهم لا يعلَمُهم إلَّا اللهُ جلَّ وعلا. وتصريحُه بأنَّهم بعد عادٍ وثمودَ يوضِّحُ ما ذكَرْنا). ((أضواء البيان)) (٦/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾.

أي: وكُلُّ الأُمَمِ الكافرةِ الماضيةِ دمَّرْناها تدميرًا كامِلًا، واستأصَلْناها بالعذابِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا * وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٥ - ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان سَوقُ خبرِ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وأصحابِ الرَّسِّ وما بيْنَهما مِنَ

= (٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٤، ٥٥).

قال ابن عاشور: (والمَثَلُ: النَّظيرُ والمُشابِه، أي: بَيَّنَّا لهم الأشباهَ والنظائِرَ في الخيرِ والشَّرِّ؛ لِيَعرِضوا حالَ أنفُسِهم عليها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

وقال ابن عثيمين: (يعني: بيَّنَّا له الأمثالَ، يعني: الوقائعَ التي أوقعَها الله تعالى بمَن قبْلَهم، كلُّ أمَّةٍ تُنذَرُ بمَن قبْلَها، ويُضرَبُ لها المثَلُ، يقالُ: هذا مَثَلُ المكذِّبين، حصَلَ عليهم كَيْتَ وكَيْتَ، فكُلُّ أمَّةٍ أنذرَها اللهُ تمامَ الإنذارِ، بحيثُ لا يبقَى لها حُجَّةٌ؛ أمَّةُ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وغيرُها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٥).

القرونِ مقصودًا لاعتِبارِ قريشٍ بمصائِرِهم؛ نُقِل نَظْمُ الكلامِ هنا إلى إضاعَتِهم الاعتِبارَ بذلك وبما هو أظهَرُ منه لأنظارِهم، وهو آثارُ العذابِ الَّذي نَزَل بقريةِ قومِ لوطٍ[١].

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾.

أي: ولقد مرَّ كُفَّارُ قُرَيشٍ على قَريةِ قَومِ لُوطٍ الذين أهلَكَهم اللهُ بالحِجارةِ التي أمطَرَها عليهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر: ٧٤ - ٧٦].

﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾.

أي: أفلم يكُنْ كُفَّارُ قُرَيشٍ يَرَونَ في أسفارِهم آثارَ عَذابِ اللهِ على قريةِ قَومِ لوطٍ، فيَعتَبِروا ويتَّعِظوا بما حلَّ بأهلِها مِن العذابِ؛ بسبَبِ تكذيبِهم بالرَّسولِ، ومُخالفتِهم أوامِرَ اللهِ[٣]؟

قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢).

أي: ما كذَّب كفَّارُ قُرَيشٍ بمحمَّدٍ لكونِهم لم يَرَوا ما حلَّ بقومِ لوطٍ، وإنَّما كذَّبوا ولم يعتَبِروا؛ لأنَّهم لا يُؤمِّلون وقوعَ البَعثِ بعْدَ الموتِ، فلا يَرجونَ ثوابًا في الآخرةِ، ولا يخافونَ عذابًا فيها[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وقَولُه في موضعٍ آخَرَ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] لا يُنافي هذا؛ لأنَّهما إذا كانا مأمورَينِ فكُلُّ واحدٍ مأمورٌ، ويجوزُ أن يقالَ: أُمِرَ موسى أوَّلًا، ثمَّ لَمَّا قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ [طه: ٢٩] قال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾[2] [طه: ٤٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ إذا قيل: لماذا جُعِلَ قومُ نوحٍ مكذِّبينَ للرسُلِ مع أنَّهم كذَّبوا رسولًا واحدًا؟

فالجوابُ مِن أوجهٍ:

منها: أنَّهم استَنَدوا في تكذيبِهم رسولَهم إلى إحالةِ أنْ يُرسِلَ اللهُ بشَرًا؛ لأنَّهم قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]؛ فكان تكذيبُهم مستلزِمًا تكذيبَ عمومِ الرسُلِ.

ومنها: أنَّهم أوَّلُ مَن كَذَّبَ رسولَهم؛ فكانوا قدوةً للمكذِّبين مِن بعْدِهم[3].

ومنها: أنَّ تكذيبَه تكذيبٌ لباقي الرسلِ؛ لاشتراكِهم في المجيءِ بالتوحيدِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦).

فيكونُ هذا مِن بابِ الجنسِ؛ لأنَّ مَن كذَّب رسولًا فكأنَّما كذَّب جميعَ الرسُلِ؛ لأنَّ أعداءَ الرسلِ لا يُعادونَهم لشخصِهم، وإنَّما يعادونَهم لِما يَدْعونَ إليه، وما جاؤوا به، وهذا جنسٌ؛ فيكونُ تكذيبُهم لرسولٍ تكذيبًا لجميعِ الرسُلِ(١).

ومنها: أنَّ مَن كذَّب رسولًا فقد كذَّب جميعَ الرسُلِ؛ لأنَّهم لا يُفرَّقُ بيْنَهم في الإيمانِ، ولأنَّه ما مِن نبيٍّ إلَّا يُصدِّقُ سائرَ أنبياءِ الله، فمَن كذَّب منهم نبيًّا فقد كذَّب كلَّ مَن صدَّقه مِن النبِّيينَ(٢).

ومنها: أنَّه لطولِ مُكثِه في قومِه صار كأنَّه رسُلٌ كثيرونَ؛ لأنَّه لَبِث فيهم ألْفَ سَنةٍ إلَّا خمسينَ عامًا، وهذه مدَّةٌ تستوعبُ رسُلًا كثيرينَ، فكأنَّه لطولِ المُكثِ صار متعدِّدًا(٣).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ فأخبرَ سُبحانَه أنَّه ضرَبَ الأمثالَ لجميعِ هؤلاء الذين أُرسِلَ إليهم وأهلَكَهم، فلم يعاقِبْهم إلَّا بعْدَ أنْ أقام عليهم الحُجَّةَ(٤).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ في كلمةِ ﴿كَذَّبُوا۟﴾ إشكالٌ، وهو أنَّه يقتضي أنَّ التكذيبَ سابِقٌ للرِّسالةِ، فكيف يكونون مكذِّبين مع أنَّهم لم يأتِ إليهم رَسولٌ؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٧، ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٧، ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٢).

والجواب من أوجُهٍ:

منها: أنَّ الفعلَ الماضيَ هنا بمعنى المستقبَلِ، بمعنى: الذين يكَذِّبون بآياتِنا؛ لأنَّ الآياتِ لم تصِلْ إليهم بَعْدُ؛ فمعنى ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: يُكَذِّبون بها في المستقبَلِ.

ومنها: أن يُقالَ: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بحسَبِ عِلمِ الله عزَّ وجَلَّ، يعني: قدَّرْنا أنَّهم يُكَذِّبون.

ومنها: أنَّهم قد أُرسِلَ إليهم رسولٌ فكذَّبوه، وهذا يؤيِّدُه قَولُ المؤمِنِ مِن آلِ فِرعَونَ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

فإذا قيل: إنَّ يوسُفَ سابِقٌ جدًّا على موسى؟ فيُقالُ: لعلَّ آثارَ رسالتِه قد بَقِيت؛ ولهذا خاطبهم المؤمِنُ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾، ولم يُنكِروا؛ ما قالوا: ما جاءَنا، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ يعني: إلى الآنَ[(١)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ إيذانٌ بطولِ مُدَدِ هذه القُرونِ وكَثرتِها[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٣).

وقيل: قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وصْفٌ للقَومِ، وليس هو مِنَ المَقولِ لموسى وهارونَ؛ لأنَّ التَّكذيبَ حينَئذٍ لَمَّا يقَعْ منهم، ولكنَّه وصْفٌ لإفادةِ قُرَّاءِ القُرآنِ أنَّ موسى وهارونَ بلَّغا الرِّسالةَ، وأظهَرَ اللهُ منهما الآياتِ، فكَذَّب بها قَومُ فِرعونَ، فاستَحقُّوا التَّدميرَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥، ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

- قَولُه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ... ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ سِيقَتْ لتأكيدِ ما مرَّ مِنَ التَّسليةِ والوعدِ بالهدايةِ والنَّصرِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣١] بحِكايةِ ما جرَى بيْنَ مَن ذُكِر مِنَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وبيْنَ قَومِهم حكايةً إجماليَّةً كافيةً فيما هو المقصودُ، واللَّامُ جوابٌ لقَسَمٍ محذوفٍ، أي: وباللهِ لقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ[١].

- قَولُه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ حرْفُ التَّحقيقِ (قَدْ) ولامُ القسَمِ؛ لتأكيدِ الخَبرِ باعتِبارِ ما يَشتمِلُ عليه مِنَ الوعيدِ بتَدميرِهم. ولَمَّا جرَى الوعيدُ والتَّسليةُ بذِكرِ حالِ المكذِّبينَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ عَطَف على ذلك تَمثيلَهم بالأُممِ المُكذِّبينَ رُسُلَهم؛ لِيَحصُلَ مِن ذلك موعظةُ هؤلاءِ، وزيادةُ تَسليةِ الرَّسولِ، والتَّعريضُ بوَعدِه بالانتِصارِ له[٢].

- والتَّعرُّضُ في مَطلَعِ القصَّةِ لإيتاءِ الكِتابِ مع أنَّه كان بعْدَ مَهلِكِ القَومِ، ولمْ يكنْ له مَدخَلٌ في هَلاكِهم كسائرِ الآياتِ؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ ببُلوغِ نبيِّ الله موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غايةَ الكمالِ، ونَيْلِه نهايةَ الآمالِ، الَّتي هي إنجاءُ بَني إسرائيلَ مِن فِرعونَ، وإرشادُهم إلى الطَّريقِ الحقِّ بما في التَّوراةِ مِنَ الأحكامِ؛ إذْ به يَحصُلُ تأكيدُ الوَعدِ بالهدايةِ[٣].

- والتَّعرُّضُ هنا إلى تأييدِ موسى بهارونَ تَعريضٌ بالرَّدِّ على المشركينَ؛ إذْ قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٧]؛ فإنَّ موسى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٨).

لَمَّا اقتضَتِ الحِكمةُ تأييدَه لمْ يُؤيَّدْ بملَكٍ، ولكنَّه أُيِّدَ برسولٍ مِثْلِه[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ في الكَلامِ حذْفٌ، أي: فذَهَبَا وأَدَّيَا الرِّسالةَ، فكذَّبوهما، وقد حصَل بهذا النَّظمِ إيجازٌ عَجيبٌ اختُصرَتْ به القِصَّةُ؛ فذُكِر منها حاشِيَتاها: أوَّلُها وآخِرُها، وهما: الإنذارُ، والتَّدميرُ -أي: إلزامُ الحُجَّةِ ببَعثةِ الرسُلِ، واستِحقاقُ الأُممِ التَّدميرَ بتَكذيبِهم رُسُلَهم-؛ لأنَّهما المقصودُ بالقِصَّةِ؛ فدَلَّ بذِكرِهما على ما هو الغَرَضُ مِن القِصَّةِ الطَّويلةِ كلِّها، وهو أنَّهم قومٌ كذَّبوا بآياتِ اللهِ؛ فأرادَ إلزامَ الحُجَّةِ عليهم، فبَعَثَ إليهم رَسولَينِ فكَذَّبوهما، فأَهلَكهم[٢].

- قَولُه: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أُتبِع الفِعلُ بالمفعولِ المطْلَقِ؛ لِما في تَنكيرِ المصدرِ مِن تَعظيمِ التَّدميرِ، وهو الإغراقُ في اليَمِّ[٣].

- وبدأ بذِكرِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، مع أنَّه متأخِّرٌ بالنِّسبةِ إلى قَومِ نوحٍ؛ لأنَّ فِرعونَ أقربُ عهدًا، وأشَدُّ عُتُوًّا مِن قَومِ نوحٍ[٤]. وقيل: قَدَّمَ قصَّةَ موسى عليه السَّلامُ لِمناسبةِ الكتابِ في نفْسِه أوَّلًا، وفي تنجيمِه ثانيًا، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[٥] [الفرقان: ٣٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٥).

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

- قَولُه: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ فيه تقديمُ قَومِ نُوحٍ؛ للاهتمامِ؛ لأنَّ حالَهم هو محَلُّ العِبرةِ؛ فقُدِّم ذِكرُهم، ثمَّ أُكِّد بضَميرِهم؛ فإنَّ (قَوْمَ نُوحٍ) انتصَبَ بفِعلٍ مَحذوفٍ يُفسِّرُه ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾[(١)].

- قَولُه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فيه إظهارٌ في موقعِ الإضمارِ -حيثُ قيل: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ ﴾، عِوَضًا عن: أعتَدْنا لهم-؛ للإيذانِ بتَجاوُزِهمُ الحدَّ في الكُفرِ والتَّكذيبِ، ولإفادةِ أنَّ عذابَهم جزاءٌ على ظُلْمِهم بالشِّركِ وتَكذيبِ الرَّسولِ. أو هو عامٌّ يَتناوَلُهم بعُمومِه[(٢)].

وقد أفاد هذا الإظهارُ أيضًا: إرادةَ الشُّمولِ والعُمومِ؛ ليَشمَلَهم هم وغيرَهم، حتى الظَّالِمون مِن قريشٍ يدخُلون في هذا؛ لأنَّه إذا قال: (وأعتَدْنا لَهم عَذابًا أَلِيمًا) صار العذابُ الأليمُ لهم فقط، لكِنْ لَمَّا قال: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ صار لهم ولغيرِهم، وأفاد تسجيلَ هذا الوَصفِ عليهم، وهو الظُّلمُ؛ لأنَّه وصَفَهم بأنَّهم ظالِمون. وأفاد أيضًا إظهارَ الحكمةِ مِن هذه العقوبةِ، وهي أنَّهم كانوا ظالِمين، يعني: أعَدَّ لهم عذابًا أليمًا؛ لأنَّهم ظالِمون. مع ما فيه من تنبيهِ المخاطَبِ؛ لأنَّ تغيُّرَ السياقِ يوجِبُ انتباهَ المخاطَبِ[(٣)].

فقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ -على أنَّه وُضِع المُضمَرُ موضعَ المُظهَرِ- عطَفَه على (أَغْرَقْنَا)؛ ليَجمَعَ لهم نَكالَ الدَّارينِ، وعلى العمومِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٤٠).

مِن بابِ التَّذييلِ، فيَدْخلوا في العامِّ دُخولًا أَوَّليًّا[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا﴾

- قَولُه: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ قيل: هو عَطْفٌ على (هُم) في (جَعَلْنَاهُمْ)، أو على ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فقولُه: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في معنَى الوعيدِ، أي: ووعَدْنا الظَّالِمينَ، ثمَّ عَطَف عادًا وثمودَ عطْفَ الخاصِّ على العامِّ مُبالَغةً؛ لأنَّهم رُؤوسُ الظَّلَمةِ والأَوْحَديُّون فيه[٢]. وقيل: انتصَبَتِ الأسماءُ الأربعةُ -﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا﴾- بفِعلٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿تَبَّرۡنَا﴾، وفي تَقديمِها تَشويقٌ إلى معرفةِ ما سيُخبَرُ به عنها[٣].

- ولعلَّ الاكتِفاءَ في شؤونِ تلك القُرونِ بهذا البيانِ الإجماليِّ ﴿وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا﴾؛ لِمَا أنَّ كلَّ قَرنٍ منها لم يكنْ في الشُّهرةِ وغَرابةِ القصَّةِ بمَثابةِ الأُممِ المَذكورةِ[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلًّا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾

- انتَصَب ﴿تَتۡبِيرٗا﴾ على أنَّه مفعولٌ مطْلَقٌ مؤكِّدٌ لعامِلِه؛ لإفادةِ شدَّةِ هذا الإهلاكِ[٥].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾

- قَولُه: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ مَسوقةٌ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

لبيانِ مُشاهدتِهم لآثارِ هلاكِ بعضِ الأُممِ المُتَبَّرةِ، وعدَمِ اتِّعاظِهم بها. وتَصديرُها بالقسَمِ ﴿وَلَقَدْ﴾؛ لمَزيدِ تقريرِ مَضمونِها. وقيل: اقتِرانُ الخَبرِ بلَامِ القسَمِ؛ لإفادةِ معنَى التَّعجيبِ مِن عدَمِ اعتِبارِهم[١].

- والإتيانُ: المَجيءُ. وتَعديتُه في قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ...﴾ بـ (على)؛ لتَضمينِه معنَى: (مَرُّوا)؛ لأنَّ المقصودَ مِنَ التَّذكيرِ بمَجيءِ القريةِ التَّذكيرُ بمَصيرِ أهْلِها؛ فكأنَّ مَجيئَهم إيَّاها مُرورٌ بأهْلِها، فضُمِّنَ المَجيءُ معنَى المرورِ؛ لأنَّه يُشبِهُ المرورَ؛ فإنَّ المرورَ يَتعلَّقُ بالسُّكَّانِ، والمَجيءَ يَتعلَّقُ بالمكانِ[٢].

- ووصَف القَريةَ بـ ﴿ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾؛ لأنَّها اشتُهِرَتْ بمَضمونِ الصِّلةِ بيْن العربِ وأهْلِ الكِتابِ[٣].

- وقوله: ﴿مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾ فيه تَسميةُ العذابِ الَّذي نَزَل عليهم مِنَ السَّماءِ مطَرًا على طريقةِ التَّشبيهِ؛ لأنَّ حقيقةَ المطرِ ماءُ السَّماءِ[٤].

- تَفرَّعَ على تَحقيقِ إتيانِهم على القَريةِ مع عدَمِ انتِفاعِهم به قولُه: ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَا﴾، وهو استِفهامٌ صُوريٌّ عنِ انتِفاءِ رُؤيتِهم إيَّاها حينما يَأْتون عليها؛ لأنَّهم لَمَّا لمْ يتَّعِظوا بها كانوا بحالِ مَن يُسألُ عنهم: هل رأَوْها؟ فكان الاستِفهامُ لإيقاظِ العقولِ؛ للبحثِ عن حالِهم. وهو استِفهامٌ إمَّا مُستعمَلٌ في الإنكارِ والتَّهديدِ، وإمَّا مُستعمَلٌ في الإيقاظِ لمعرفةِ سببِ عدَمِ اتِّعاظِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وقيل: الاستِفهامُ معناه التَّعجُّبُ[١]. وقيل: هو تَوبيخٌ لهم على ترْكِهمُ التَّذكُّرَ عِندَ مُشاهَدةِ ما يُوجِبُه. والهمزةُ لإنكارِ نَفْيِ استِمرارِ رُؤيتِهم لها، وتقريرِ استِمرارِها حسَبَ استِمرارِ ما يُوجِبُها مِن إتيانِهم عليها. والفاءُ لعَطفِ مَدْخولِها على مُقَدَّرٍ يَقتضيه المَقامُ[٢].

- و(بلْ) في قولِه: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ إمَّا إضرابٌ عمَّا قَبْلَه مِن عدَمِ رؤيتِهم لآثارِ ما جَرَى على أهلِ القُرى مِنَ العُقوبةِ، وبيانٌ لكَونِ عدَمِ اتِّعاظِهم بسببِ إنكارِهم؛ لكَونِ ذلك عُقوبةً لِمعاصيهم، لا لعدَمِ رؤيتِهم لآثارِها، خَلَا أنَّه اكتَفى عنِ التَّصريحِ بإنكارِهم ذلك بذِكْرِ ما يَستلزِمُه مِن إنكارِهم للجَزاءِ الأُخْرويِّ، الذي هو الغايةُ مِن خلْقِ العالَمِ. وقد كُنيَ عن ذلك بعدَمِ النُّشورِ، أي: عدَمِ توقُّعِه، كأنَّه قيل: بل كانوا يُنكِرون النُّشورَ المُستتبِعَ للجزاءِ الأُخْرويِّ، ولا يرَوْنَ لنفْسٍ مِنَ النُّفوسِ نُشورًا أصلًا مع تَحقُّقِه حتْمًا، وشُمولِه للنَّاسِ عمومًا، واطِّرادِه وقوعًا؛ فكيف يَعترِفُون بالجزاءِ الدُّنيويِّ في حقِّ طائفةٍ خاصَّةً مع عدَمِ الاطِّرادِ والملازَمةِ بيْنَه وبيْنَ المعاصي حتَّى يَتذكَّروا ويَتَّعِظوا بما شاهَدوه مِن آثارِ الهلاكِ، وإنَّما يَحمِلونه على الاتِّفاقِ؟! وإمَّا انتِقالٌ مِنَ التَّوبيخِ بما ذُكِر مِن تَرْكِ التَّذكُّرِ إلى التَّوبيخِ بما هو أعظَمُ منه مِن عدَمِ توقُّعِ النُّشورِ[٣]. ويَجوزُ أن يكونَ (بلْ) للإضرابِ الانتِقاليِّ انتِقالًا مِن وصْفِ تَكذيبِهم بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعدَمِ اتِّعاظِهم بما حَلَّ بالمكذِّبينَ مِنَ الأُممِ، إلى ذِكرِ تَكذيبِهم بالبَعثِ؛ فيكونَ انتِهاءُ الكلامِ عِندَ قولِه: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾، وهو الَّذي يَجري

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢١٩، ٢٢٠).

على الوجهِ الأوَّلِ في الاستِفهامِ، وهو الإنكارُ والتَّهديدُ[١].

- وفي قولِه: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ وُضِعَ الرَّجاءُ مَوضِعَ التَّوقُّعِ؛ لأنَّه إنَّما يَتوقَّعُ العاقبةَ مَن يؤْمِنُ، فمِن ثَمَّ لم يَنظُروا ولم يَذَّكَّروا، ومَرُّوا بها كما مرَّتْ رِكابُهم[٢].

- وعُبِّر عن إنكارِهمُ البَعثَ بعدَمِ رَجائِه؛ لأنَّ مُنكِرَ البَعثِ لا يَرْجو منه نفعًا، ولا يَخشى منه ضُرًّا، فعُبِّر عن إنكارِ البَعثِ بأحدِ شِقَّيِ الإنكارِ؛ تَعريضًا بأنَّهم ليسوا مِثْلَ المؤْمنِينَ يَرْجون رحمةَ اللهِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٠، ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٠، ٣١).

الآيات (٤١-٤٤)

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَوَىٰهُ﴾: أي: ما تَميلُ إليه نفْسُه، والهَوى: مَيلُ النَّفسِ إلى الشَّهوةِ، قيل: سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يَهوِي بصاحِبِه في الدُّنيا إلى كلِّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاويةِ[(١)].

﴿وَكِيلًا﴾: أي: مانِعًا وحافِظًا، وأصلُ (وكل): يدُلُّ على اعتمادِ غَيرِك في أمرِك[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ الله تعالى عن استِهزاءِ المشركينَ بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وما كانوا يقولونَه عندَ رؤيتِهم له، فيقولُ تعالى: وإذا رآك -يا محمَّدُ- كُفَّارُ قرَيشٍ، يَسخَرون منك، ويَستَهزِئون بك، قائِلينَ: أهذا الذي يزعُمُ أنَّ اللهَ أرسلَه إلينا رَسولًا؟! لقد أوشَكَ أن يَصرِفَنا عن عبادةِ أصنامِنا لولا أن تمسَّكْنا بها وردَدْنا دعوتَه. ثمَّ يقولُ الله تعالى مهدِّدًا لهم: وسوف يعلَمُ هؤلاء الكُفَّارُ حينَ يرَونَ العذابَ مَن أبعَدُ طريقًا عن الحَقِّ، أهُم أمْ أنت؟!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

ثمَّ يقولُ تعالى مسلِّيًا نبيَّه، ومبيِّنًا حقيقةَ حالِ هؤلاء المشركينَ: أرأيتَ -يا محمَّدُ- مَنِ اتَّبَع هواهُ وانقاد له، أفأنت تكونُ عليه حَفيظًا؛ تمنَعُه مِنَ الضَّلالِ، وتَهديه إلى الحَقِّ؟! بل أتظُنُّ أنَّ أكثَرَ هؤلاء المُشرِكين يَسمَعون ما تُرشِدُهم إليه سماعَ تدَبُّرٍ وتعَقُّلٍ، أو يَعقِلونَه، حتى تطمَعَ في إيمانِهم؟! كلَّا، إنَّهم ليسوا كذلك؛ فما هؤلاء المُشرِكون في عدَمِ انتفاعِهم بما يقرَعُ قلوبَهم وأسماعَهم إلَّا كالبهائِمِ، بل هم أسوأُ حالًا منهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه مُبالَغةَ المُشرِكين في إنكارِ نبوَّتِه، وفي إيرادِ الشُّبُهاتِ في ذلك؛ بَيَّنَ بعْدَ ذلك أنَّهم إذا رأوُا الرسولَ اتَّخَذوه هُزُوًا، فلم يقتَصِروا على ترْكِ الإيمانِ به، بل زادوا عليه بالاستِهزاءِ والاستِحقارِ[(١)].

وأيضًا فإنَّ ما تقَدَّمتْ حكايتُه مِن صنوفِ أذاهم الرسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانت أقوالًا في مَغيبِه، فعَطَفَ عليها في هذه الآيةِ أذًى خاصًّا، وهو الأذَى حينَ يرَونَه[(٢)].

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾.

أي: وإذا رآك -يا محمَّدُ- كُفَّارُ قُرَيشٍ، لا يتَّخِذونَك إلَّا سُخريةً، فهم دائِبونَ على الاستِهزاءِ والسُّخريةِ بك[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾.

أي: ويقولُ كُفَّارُ قُرَيشٍ احتقارًا للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: أهذا الذي يزعُمُ أنَّ اللهَ أرسَلَه إلينا رسولًا مِن بينِ خَلقِه(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وقال سُبحانَه حاكيًا قولَهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨].

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾.

أي: يقولُ كُفَّارُ قُرَيشٍ: لقد أوشَكَ هذا الرَّسولُ أن يَصرِفَنا ويَصُدَّنا عن عبادةِ أصنامِنا بحُجَجِه وأدِلَّتِه، لولا أن ثبَّتْنا على عبادةِ آلهتِنا فتمسَّكْنا بها ولم نَقبَلْ دَعْوتَه(٢)!

= (ص: ٥٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٣).
قال السعدي: (وقالوا -على وجه الاحتقارِ والاستصغارِ-: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ أي: غيرُ مناسبٍ ولا لائقٍ أن يبعَثَ الله هذا الرجُلَ! وهذا مِن شِدَّةِ ظُلمِهم وعنادِهم وقَلبِهم الحقائِقَ؛ فإنَّ كلامَهم هذا يُفهِمُ أنَّ الرَّسولَ -حاشاه- في غايةِ الخِسَّةِ والحقارةِ، وأنَّه لو كانت الرِّسالةُ لغيره لكان أنسَبَ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٦، ٧].

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصفُوه بالإضلالِ في قَولِهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾؛ بَيَّن تعالى أنَّه سيَظهَرُ لهم مَنِ المُضِلُّ ومَنِ الضَّالُّ عندَ مُشاهَدةِ العذابِ الذي لا مَخلَصَ لهم منه، فقال[1]:

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

أي: وسوف يعلَمُ الكُفَّارُ حين يرَونَ عذابَ اللهِ النَّازِلَ بهم[2] مَن أخطأَ طريقَ

= كثير)) (٦/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩١، ٣٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٥٣٩).

(٢) قيل: المرادُ: عذابُ الآخرةِ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بن سليمان، وابن أبي زمنين، والواحدي، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٠).

وقيل: المرادُ به: ما وقع لهم يومَ بدرٍ. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٤).

قال ابن عاشور: (الأظهرُ أنَّ المرادَ عذابُ السَّيفِ النازِلُ بهم يومَ بدرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٤).

وقيل: يرونَ العذابَ في الدُّنيا والآخرةِ. وممَّن قال بذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٩٢).

وقيل: يرون العذابَ في الآخرةِ وعندَ الموتِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٧٠).

الهُدى: هم أم محمَّدٌ الذي دعاهم إلى توحيدِ اللهِ[(١)]؟!

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾.

أي: أرأيتَ -يا مُحمَّدُ- مَنِ اتَّبعَ هواه، وانقاد إليه وأطاعَه[(٢)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٣، ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أَتْبَاعُ الهوى دَرَجاتٌ: فمنهم المُشرِكون والذين يَعبُدون مِن دونِ اللهِ ما يَستحسِنون بلا عِلمٍ ولا بُرهانٍ، كما قال: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الفرقان: ٤٣]، أي: يتَّخِذُ إلهَه الذي يعبُدُه وهو ما يهواه من آلهةٍ، ولم يقُلْ: إنَّ هواه نفْسُ إلهِه، فليس كلُّ مَن يهوى شيئًا يَعبُده؛ فإنَّ الهوى أقسامٌ، بل المرادُ: أنَّه جعَلَ المعبودَ الذي يعبُدُه هو ما يهواه، فكانت عبادتُه تابعةً لهوى نفْسِه في العبادةِ؛ فإنَّه لم يَعبُدْ ما يجِبُ أن يُعبَدَ، ولا عبَدَ العبادةَ التي أُمِرَ بها. وهذه حالُ «أهلِ البدَعِ»؛ فإنَّهم عبَدوا غيرَ الله، وابتَدَعوا عباداتٍ زَعَموا أنَّهم يَعبُدون الله بها!). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٥٩٢).

وقال البقاعي: (أي: أنَّهم حقَّروا الإلهَ بإنزاله إلى رتبةِ الهوى، فهم لا يَعبُدون إلَّا الهوى، وهو مَيلُ الشهوةِ، ورميُ النفْسِ إلى الشَّيءِ، لا شبهةَ لهم أصلًا في عبادةِ الأصنام يرجِعون عنها إذا جَلَت، فهم لا يَنفكُّون عن عبادتِها ما دام هواهم موجودًا... فالمعنى: أنَّ هذا المذمومَ قصَر نفْسَه على تألُّهِ الهوى، فلا صلاحَ له ولا رشادَ، وقد يتألَّهُ لهوَى غيرِه. ولو قيل: مَنِ اتخذَ هواه إلهَه؛ لكان المعنى أنَّه قصَر هواه على الإلهِ، فلا غَيَّ له؛ لأنَّ هواه تابِعٌ لأمرِ الإلهِ، وقد يُشاركُه في تألُّهِ الإلهِ غيرُه. قال أبو حيَّان: والمعنى أنَّه لم يتخِذْ إلهًا إلَّا هواه. انتهى.

فلو عُكِس لقيل: لم يتَّخِذ هوًى إلَّا إلهَه، وهو إذا فعل ذلك فقد سلَبَ نفْسَه الهوى فلم يعمَلْ به إلَّا فيما وافَقَ أمرَ إلهِه، ومما يوضِّحُ لك انعكاسَ المعنى بالتقديمِ والتأخيرِ أنَّك لو قلتَ: فلانٌ اتَّخَذ عبدَه أباه؛ لكان معناه أنَّه عظَّم العبدَ، ولو قيل: إنه اتَّخَذ أباه عبدَه؛ لكان معناه أنَّه أهان =

= الأبَ، وسواءٌ في ذلك إتيانُك به هكذا على وِزانِ ما في القرآنِ أو نكَّرْت أحدَهما، فإنَّك لا تجِدُ ذَوقَك فيه يختلِفُ في أنه إذا قدَّم الحقيرَ شَرَّفه، وإذا قدَّم الشريفَ حَقَّره، وكذا لو قلتَ: اتَّخَذ إصطبلَه مَسجِدًا، أو صديقه أبًا، أو عكسْتَ، ولو كان التقديمُ بمجرَّدِ العنايةِ مِن غيرِ اختلافٍ في الدَّلالةِ قُدِّم في «الجاثية» الهوى؛ فإنَّ السياقَ والسباقَ له، وحاصِلُ المعنى أنَّه اضمحلَّ وَصفُ الإلهِ، ولم يبقَ إلا الهوى، فلو قُدِّم الهوى لكان المعنى أنَّه زال وغَلَبت عليه صِفةُ الإلهِ، ولم يكُنْ ينظُرُ إلَّا إليه، ولا حُكمَ إلَّا له، كما في الطينِ بالنسبة إلى الخَزفِ سواءٌ، والله أعلم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٩٢-٣٩٤).

وقال ابن عاشور: (قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ إذا أُجرِيَ على الترتيب كان معناه: جعَلَ إلهَه الشيءَ الذي يهوى عبادتَه، أي: ما يُحبُّ أن يكونَ إلهًا له، أي: لمجرَّدِ الشهوةِ، لا لأنَّ إلهَه مستحِقٌّ للإلهيَّةِ، فالمعنى: مَن اتَّخَذ ربًّا له محبوبَه؛ فإن الذين عبدوا الأصنامَ كانت شهوتُهم في أن يعبدوها، وليست لهم حُجَّةٌ على استِحقاقِها العبادةَ. فإطلاقُ إلهِه على هذا الوجهِ إطلاقٌ حقيقيٌّ. وهذا يناسِبُ قَولَه قبْلَه: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الفرقان: ٤٢]...، وإذا أُجريَ على اعتبار تقديمِ المفعولِ الثاني كان المعنى: مَنِ اتَّخَذ هواه قدوةً له في أعمالِه، لا يأتي عملًا إلَّا إذا كان وِفاقًا لشهوتِه؛ فكأنَّ هواه إلهَه ... وهذا المعنى أشمَلُ في الذمِّ؛ لأنَّه يشمَلُ عبادتَهم الأصنامَ، ويشملُ غيرَ ذلك مِن المنكَراتِ والفواحشِ مِن أفعالِهم. ونحا إليه ابنُ عباس، وإلى هذا المعنى ذهب صاحِبُ «الكشاف»، وابنُ عطية. وكِلا المعنيينِ يَنبغي أن يكونَ مَحملًا للآية). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٥).

وقال ابن عثيمين: (الصوابُ أنَّ الآية على ظاهرها، وأنَّ الإلهَ هو الهوى، ومعنى ذلك: أنَّه جعل المتبوعَ الهوى، وكونُ الإنسان يتبَعُ غيرَه، سواءٌ هوى نفْسِه أو كونُه يتبَعُ غَيرَه، هذا مِن اتخاذِه إلهًا... فإذَنْ نقولُ: الآيةُ على ظاهرِها، يعني: أنَّ الإلهَ هو الهوى نفْسُه، والهوى يقودُه إلى عبادة الشجَرِ والحجَرِ، ويقودُه إلى استحلالِ الزنا، وإلى استحلالِ الرِّبا، وإلى غيرِ ذلك؛ فعليه الأَولى جَعْلُ الآيةِ على ظاهرِها، وألَّا تُصرَفَ إلى المعبودِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٧٦).

وقال الماوَرْديُّ: (قولُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدُها: أنَّهم قَومٌ كان الرجُلُ منهم يَعبُدُ حجَرًا يَستحسِنُه، فإذا رأى أحسَنَ منه عبَدَه وترَكَ الأوَّلَ. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: أنَّه الحارثُ بنُ قَيسٍ، كان إذا هوى شيئًا عبَدَه. حكاه النقاشُ. =

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

أي: أفأنت -يا مُحمَّدُ- تكونُ على مَنِ اتَّبع هواه حَفيظًا تمنَعُه مِن الضَّلالِ، وتَهديه إلى الحَقِّ؟! كلَّا؛ فليست الهدايةُ والضَّلالةُ موكولتَينِ إليك، وإنَّما عليك البلاغُ[1].

كما قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾.

أي: بل[2] أتظُنُّ -يا مُحمَّدُ- أنَّ أكثَرَ هؤلاء المُشرِكين يَسمَعون الحَقَّ أو

= الثَّالثُ: أنَّه الذي يتَّبِعُ هواه في كلِّ ما دعا إليه. قاله الحسَنُ، وقَتادةُ. ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٩).

(٢) قال الشنقيطي: (﴿أَمْ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ هي المنقَطِعةُ، وأشهَرُ معانيها أنَّها جامعةٌ بين =

يَعقِلونَه، حتى تطمَعَ في إيمانِهم؟! فليسوا كذلك[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

أي: ما المُشرِكون إلَّا كالبهائِمِ، بل هم أسوأُ حالًا منهم[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

= معنى «بل» الإضرابيَّةِ، واستفهام الإنكار معًا، والإضرابُ المدلولُ عليه بها هنا إضرابٌ انتقاليٌّ. والمعنى: بل أتحسَبُ أنَّ أكثَرَهم يسمَعون أو يَعقِلون؟! أي: لا تعتَقِدْ ذلك ولا تظُنَّه؛ فإنَّهم لا يسمعون الحَقَّ ولا يعقِلونَه، أي: لا يُدرِكونه بعُقولِهم). ((أضواء البيان)) (٦/ ٥٩).
ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٩، ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨٠-١٨٢).
قال القرطبي: (﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ قَبولٍ، أو يفكِّرون فيما تقولُ فيعقلونه؛ أي: هُم بمنزلةِ مَن لا يعقلُ ولا يسمعُ. وقيل: المعنى: أنَّهم لمَّا لم يَنتفعوا بما يَسمعون فكأنَّهم لم يَسْمعوا). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦).
وقال ابن عاشور: (المرادُ مِن نفيِ أنَّ ﴿أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ نفيُ أثرِ السماعِ، وهو فَهْمُ الحقِّ؛ لأنَّ ما يُلقيه إليهم الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَرتابُ فيه إلَّا مَن هو كالذي لم يسمعْه، وهذا كقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٩).

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ * وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ والواجِبُ الذي يلزَمُ العمَلُ به: هو أن تكونَ جَميعُ أفعالِ المكَلَّفِ مُطابِقةً لِما أمَرَه به معبودُه جَلَّ وعلا، فإذا كانت جميعُ أفعالِه تابعةً لِما يَهواه، فقد صرفَ جميعَ ما يستحِقُّه عليه خالِقُه من العبادةِ والطاعةِ إلى هواه[1].

٢- أصلُ الطريقِ هو الإرادةُ والقَصدُ والعملُ، وذلك يَتضمَّنُ الحُبَّ، وكثيرًا ما يَعمَلُ السالكُ بمُقتضى ما يَجِدُه في قَلبِه مِنَ المَحبَّةِ، وما يُدرِكُه بذَوقِه مِن طَعمِ العِبادةِ، وهذا إذا لم يكُنْ موافِقًا لأمرِ الله ورسولِه فصاحِبُه في ضَلالٍ، وهو مِمَّنِ اتَّبَع هواه، قال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٨).

٥٠]؛ فجَعَل كلَّما خالَفَ الأمرَ فصاحِبُه مُتَّبِعٌ هواه، فما ثَمَّ واسِطةٌ، بل إمَّا الأمرُ وإمَّا الهوى(١).

٣- قال الله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ جعَلَ الأكثرينَ أضَلَّ سبيلًا مِنَ الأنعامِ؛ لأنَّ البهيمةَ يَهديها سائقُها فتَهْتدي وتَتَّبِعُ الطَّريقَ، فلا تَحيدُ عنها يمينًا ولا شِمالًا، والأكثرونَ يَدْعوهم الرسُلُ ويَهْدونهم السَّبيلَ فلا يَستجيبونَ ولا يَهتدونَ، ولا يُفَرِّقون بيْن ما يَضُرُّهم وبيْن ما يَنفَعُهم، والأنعامُ تُفَرِّقُ بيْن ما يَضُرُّها مِن النَّباتِ والطَّريقِ فتَجتنِبُه، وما يَنفَعُها فتُؤْثِرُه، واللهُ تعالى لم يَخلُقْ للأنعامِ قُلوبًا تَعقِلُ بها، ولا أَلْسِنةً تَنطِقُ بها، وأَعطى اللهُ ذلك لهؤلاء، ثمَّ لمْ يَنتفِعوا بما جعل لهم مِن العقولِ والقلوبِ والألْسِنةِ والأسماعِ والأبصارِ؛ فهُم أضَلُّ من البهائم، فإنَّ مَن لا يَهتدي إلى الرُّشْدِ وإلى الطَّريقِ -مع الدَّليلِ إليه- أضَلُّ وأسْوَأُ حالًا مِمَّن لا يَهتدي حيثُ لا دليلَ معه(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أخبَرَ عن المشركين أنَّهم متى رأَوُا الرسولَ أتَوا بنوعَينِ مِن الأفعالِ:

أحدُهما: أنَّهم يَستهزئون به، وفسَّرَ ذلك الاستهزاءَ بقَولِه: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾، وذلك جهلٌ عَظيمٌ؛ لأنَّ الاستهزاءَ إمَّا أن يقعَ بصورتِه أو بصِفتِه:

---

(١) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (١/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٢).

أمَّا الأولُ فباطِلٌ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان أحسَنَ منهم صورةً وخِلقةً، وبتقديرِ أنَّه لم يكُنْ كذلك لكنَّه عليه السَّلامُ ما كان يدَّعي التمييزَ عنهم بالصورةِ بل بالحُجَّةِ. وأمَّا الثَّاني فباطِلٌ؛ لأنَّه عليه السَّلامُ ادَّعى التميُّزَ عنهم في ظهورِ المعجزِ عليه دونَهم، وأنَّهم ما قدَروا على القَدحِ في حُجَّتِه ودَلالتِه، ففي الحقيقةِ هم الذين يستحقُّون أن يُهزأَ بهم، ثم إنَّهم لوقاحتِهم قلبوا القضيَّةَ، واستَهزؤوا بالرَّسولِ عليه السلام، وذلك يدُلُّ على أنه ليس للمُبطِلِ في كلِّ الأوقاتِ إلَّا السفاهةُ والوقاحةُ.

وثانيهما: أنَّهم كانوا يقولون فيه: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾، وذلك يدُلُّ على أمورٍ:

الأوَّل: أنَّهم سَمَّوا ذلك إضلالًا، وذلك يدُلُّ على أنَّهم كانوا مُبالِغين في تعظيمِ آلهتِهم، وفي استعظامِ صَنيعِه صلَّى الله عليه وسلَّم في صَرفِهم عنه، وذلك يدُلُّ على أنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ هذا هو الحقُّ، وقولُهم: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ يدُلُّ أيضًا على ذلك.

الثَّاني: يدُلُّ هذا القَولُ منهم على جِدِّ الرَّسولِ عليه السَّلامُ واجتهادِه في صَرفِهم عن عبادةِ الأوثانِ، ولولا ذلك لَما قالوا: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ وهكذا كان عليه السَّلامُ؛ فإنَّه في أوَّلِ الأمرِ بالَغَ في إيرادِ الدَّلائِلِ والجوابِ عن الشُّبُهاتِ، وتحمَّلَ ما كانوا يفعلونَه مِن أنواعِ السَّفاهةِ وسُوءِ الأدَبِ.

الثَّالث: أنَّ هذا يدُلُّ على اعترافِ القَومِ بأنَّهم لم يعتَرِضوا البتَّةَ على دلائِلِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وما عارَضوها إلَّا بمَحضِ الجُحودِ والتقليدِ؛

لأنَّ قولَهم: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ إشارةٌ إلى الجُحودِ والتَّقليدِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فيه وعيدٌ ودَلالةٌ على أنَّهم لا يَفوتُونَه وإنْ طالَتْ مدَّةُ الإمهالِ، ولا بدَّ للوعيدِ أن يَلحَقَهم؛ فلا يَغُرَّنَّهمُ التَّأخيرُ[٢].

٣- عبادةُ اللهِ تعالى إنَّما هي بطاعتِه وطاعةِ رُسُلِه، فإذا أمرَ اللهُ على ألْسِنةِ رُسُلِه بشَيءٍ، فعدَلَ عنه العبدُ إلى ما يُحبُّه هو؛ كان عابدًا لهواه، لا عابِدًا للهِ؛ قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[٣]، فالآيةُ فيها دَلالةٌ على أنَّ كُلَّ مَن قَدَّمَ هوى نفْسِه على هُدى ربِّه، فهو قد اتَّخذَه إلهًا؛ ولهذا يمكِنُنا أن نقولَ: إنَّ جميعَ المعاصي داخِلةٌ في الشِّركِ بهذا المعنى؛ حيث إنَّه قدَّمَها على مَرضاةِ اللهِ تعالى وطاعتِه، فجَعَلَ هذا شريكًا لله عزَّ وجلَّ في تعبُّدِه له، واتِّباعِه إيَّاه[٤]، ولا يعني ذلك أنَّ العاصيَ مشركٌ خرَج مِن المِلَّةِ بمعصيتِه.

٤- الإنسانُ إذا اعتبَرَ وتعَرَّف نفْسَه والنَّاسَ، رأى الواحِدَ يريدُ نفْسَه أن تُطاعَ وتَعلوَ بحسَبِ الإمكانِ، والنفوسُ مَشحونةٌ بحُبِّ العلُوِّ والرئاسةِ بحسَبِ إمكانِها، فتَجِدُه يوالي مَن يوافِقُه على هواه، ويُعادي مَن يخالِفُه في هواه، وإنَّما معبودُه ما يَهواه ويُريدُه؛ قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ٧).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢١٨).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ سؤالٌ: أنَّه سُبحانَه لَمَّا نفى عنهمُ السَّمعَ والعقلَ، فكيف ذَمَّهم على الإعراضِ عن الدِّينِ؟! وكيف بَعَثَ الرسولَ إليهم؛ فإنَّ مِن شرطِ التَّكليفِ العقلَ؟

الجوابُ: ليس المرادُ أنَّهم لا يَعقِلون، بل إنَّهم لا يَنتَفِعون بذلك العَقلِ، فهو كقَولِ الرجُلِ لغيرِه إذا لم يَفهَمْ: إنَّما أنت أعمى وأصَمُّ[1]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ سؤالٌ؛ لِمَ جُعِلوا أضَلَّ مِن الأنعامِ؟

الجوابُ مِن وجوهٍ:

أحدها: أنَّ الأنعامَ تَنقادُ لأربابِها وللَّذي يَعْلِفُها ويَتَعَهَّدُها، وتُمَيِّزُ بيْنَ مَن يُحْسِنُ إليها وبيْن مَن يُسيءُ إليها، وتَطلبُ ما يَنفعُها، وتَجتنبُ ما يضُرُّها، وهؤلاء لا يَنقادون لربِّهم، ولا يُميِّزونَ بيْنَ إحسانِه إليهم، وبيْن إساءةِ الشيطانِ إليهم الذي هو عدوٌّ لهم، ولا يَطلبون الثوابَ الذي هو أعظَمُ المنافعِ، ولا يَحترِزونَ مِن العقابِ الذي هو أعظَمُ المَضارِّ!

ثانيها: أنَّ قلوبَ الأنعامِ كما أنَّها تكونُ خاليةً عن العِلمِ فهي خاليةٌ عن الجهلِ الذي هو اعتِقادُ المعتقَدِ على خلافِ ما هو عليه مع التصميمِ، وأمَّا هؤلاء فقلوبُهم كما خَلَتْ عن العِلمِ فقد اتصفَتْ بالجهلِ؛ فإنَّهم لا يَعلمونَ، ولا يَعلمون أنهم لا يَعلمون، بل هم مُصِرُّون على أنَّهم يَعلمون.

ثالثها: أنَّ عدمَ عِلمِ الأنعامِ لا يَضُرُّ بأحدٍ، أمَّا جهلُ هؤلاء فإنَّه منشأٌ للضررِ العظيمِ؛ لأنَّهم يَصُدُّون الناسَ عن سبيلِ اللهِ، ويبغونها عِوَجًا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٣).

رابعها: أنَّ البهائمَ لا تَستحقُّ عقابًا على عدمِ العِلمِ، أمَّا هؤلاء فإنَّهم يَستحقُّون عليه أعظمَ العقابِ.

خامسها: أنَّ البهائمَ تُسبِّحُ اللهَ تعالى، على ما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨]، وقال: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١]، وإذا كان كذلك؛ فضلالُ الكفارِ أشَدُّ وأعظَمُ مِن ضلالِ هذه الأنعامِ[١].

سادسها: أن البهائمَ لم يَعرفوا، ولم يَكونوا أُعطوا آلةَ المعرفةِ، وأمَّا الكفارُ فلم يَعرفوا وقد أُعطوا آلةَ المعرفةِ؛ فهم أضَلُّ[٢]. والمحرومُ عن طلبِ المراتبِ العاليةِ إذا عَجَزَ عنه لا يكونُ في استحقاقِ الذَّمِّ كالقادر عليه التاركِ له لسوءِ اختيارِه[٣]!

سابعها: أنَّ البهائمَ لم تُفسِدْ ما لها مِن المعارفِ؛ فإنَّ الله تعالى أعطاها قدْرًا مِن المعارفِ فهي تَستعمِلُها، وأمَّا الكفارُ فقد أفسَدوا ما لهم مِن المعارفِ؛ فهم أضَلُّ وأقَلُّ مِن البهائمِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾

- قولُه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ الوصفُ بـ﴿هُزُوًا﴾ للمُبالَغةِ في استِهزائِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٢).

به، حتَّى كأنَّه نفْسُ الهُزُؤِ؛ لأنَّهم مَحَّضُوه لذلك. وإسنادُ ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾ إلى ضميرِ الجَمعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ جَماعاتِهم يَستهزِئون به إذا رأَوْه وهُم في مَجالِسِهم ومُنتَدياتِهم. وصِيغةُ الحَصرِ (إنْ... إلَّا)؛ للتَّشنيعِ عليهم بأنَّهمُ انحَصَر اتِّخاذُهم إيَّاه في الاستِهزاءِ به، يُلازِمونه ويَدْأبون عليه، ولا يَخلِطون معه شيئًا مِن تَذكُّرِ أقوالِه ودَعوتِه؛ فالاستِثناءُ مِن عُمومِ الأحوالِ المَنفيَّةِ، أيْ: لا يَتَّخِذونك في حالةٍ إلَّا في حالةِ الاستِهزاءِ[(١)].

- قولُه: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ مَقُولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: يَقولون. والإشارةُ بـ (هذا) للاستِحقارِ منهم، وإبرازِ بَعثِ اللهِ رَسولًا في مَعرِضِ التَّسليمِ بجَعْلِه صِلةً للمَوصولِ الَّذي هو صِفَتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع كَونِهم في غايةِ النَّكيرِ لبَعْثِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطريقِ التَّهكُّمِ والاستِهزاءِ والإنكارِ[(٢)].

٢- قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

- قولُهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أَسنَدوا مُقاربةَ الإضلالِ إلى الرَّسولِ دُونَ أنفسِهم؛ تَرفُّعًا على أن يَكونوا قارَبوا الضَّلالَ عن آلهتِهم، مع أنَّ مُقارَبَتَه إضلالَهم تَستلزِمُ اقترابَهم مِنَ الضَّلالِ[(٣)].

- وجوابُ (لولا) في قولِهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٣).

عَلَيْهَا﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ ما قَبلَ (لولا) عليه، وهو ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾؛ وفائدةُ نَسجِ الكلامِ على هذا المِنوالِ دُونَ أن يُؤْتَى بأداةِ الشَّرطِ ابتِداءً مَتْلوَّةً بجوابِها: قَصْدُ العِنايةِ والاهتِمامِ بالخَبرِ ابتِداءً بأنَّه حاصِلٌ، ثمَّ يؤْتَى بالشَّرطِ بعْدَه تَقييدًا لإطلاقِ الخَبرِ بعْدَ إطلاقِه[١].

- قولُه: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ...﴾ هذا جَوابُ قولِهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ المُتضمِّنِ أنَّهم على هُدًى في دِينِهم، وكان الجوابُ بقطْعِ مُجادلتِهم، وإحالَتِهم على حينِ رؤْيتِهمُ العذابَ يَنزِلُ بهم، فتَضمَّنَ ذلك وعيدًا بعذابٍ[٢]. ولَمَّا كان الجوابُ بالإعراضِ عنِ المُحاجَّةِ عبَّر بأُسلوبِ التَّهكُّمِ، بجعْلِ ما يَنكشِفُ عنه المستقبَلُ هو معرفةَ مَن هو أشدُّ ضلالًا مِنَ الفَريقَينِ، على طريقةِ المُجاراةِ، وإرخاءِ العِنانِ للمُخطِئِ إلى أن يَقِفَ على خطَئِه[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ استِئنافٌ خوطِبَ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما يَخطُرُ بنفْسِه مِنَ الحُزنِ على تَكرُّرِ إعراضِهم عن دَعْوتِه؛ إذْ كان حَريصًا على هُداهُم، والإلحاحِ في دَعْوتِهم، فأَعلَمَه بأنَّ مِثلَهم لا يُرجَى اهتداؤُه؛ لأنَّهم جَعَلوا هواهُم إلهَهُم، فالخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

- وقولُه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ فيه -على قَولٍ- تقديمُ المفعولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٣، ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٣٤، ٣٥).

الثَّاني ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ على الأوَّلِ ﴿هَوَىٰهُ﴾؛ للعنايةِ به، والأصلُ: اتَّخَذ الهوَى إلهًا[١]. وفيه -إلى جانبِ هذه النُّكتةِ- نُكتةٌ ثانيةٌ، وهي إفادةُ الحَصرِ؛ فإنَّ الكلامَ قبْلَ دُخولِ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ مُبتدَأٌ وخَبرٌ، المبتدَأُ (هَوَاهُ) والخبرُ (إِلَهَهُ)، وتَقديمُ الخبرِ -كما علِمْتَ- يُفيدُ الحَصرَ، فكأنَّه قال: أرأيتَ مَن لمْ يتَّخِذْ مَعبودَه إلَّا هَواهُ؛ فهو أبلَغُ في ذمِّه وتَوبيخِه[٢].

- قولُه أيضًا: ﴿أَتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، أيْ: مَنِ اتَّخَذ هَواه قُدوةً له في أعمالِه، لا يأتي عمَلًا إلَّا إذا كان وِفاقًا لشَهوتِه، فكأنَّ هَواهُ إلهُه. وعلى هذا يكونُ معنَى إلهِه شبيهًا بإلهِه في إطاعتِه على طريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ، وهذا المعنى أَشمَلُ في الذَّمِّ؛ لأنَّه يَشملُ عبادتَهمُ الأصنامَ، ويَشملُ غَيرَ ذلك مِنَ المُنكَراتِ والفَواحشِ مِن أفعالِهم[٣].

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ قيل: الاستِفهامُ للتَّقريرِ، والتَّعجيبِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن شَناعةِ حالِهم بعْدَ حِكايةِ قَبائِحِهم مِنَ الأقوالِ والأفعالِ، وبيانِ ما لهم مِنَ المَصيرِ والمآلِ، والتَّنبيهِ على أنَّ ذلك مِنَ الغَرابةِ بحيث يَجِبُ أن يُرى ويُتعجَّبَ منه[٤].

- قولُه: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ إنكارٌ واستِبعادٌ لكَونِه صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٠، ٢٢١).

عليه وسلَّمَ حفيظًا عليه يَزجُرُه عمَّا هو عليه مِنَ الضَّلالِ، ويُرشِدُه إلى الحقِّ طَوعًا أو كَرهًا. والفاءُ في ﴿أَفَأَنتَ﴾ لتَرتيبِ الإنكارِ على ما قبْلَه مِنَ الحالةِ المُوجِبةِ له[1].

- وإنْ كان مَجموعُ جُملتَيْ ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ كلامًا واحدًا متَّصِلًا ثانيهِ بأوَّلِه اتِّصالَ المفعولِ بعامِلِه؛ تَعيَّنَ فِعلُ «رأيْتَ» لأنْ يَكونَ فِعلًا قلْبيًّا بمعنَى العِلمِ، وكان الاستِفهامُ الَّذي في الجملةِ الأُولى بقولِه: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ إنكاريًّا كالثَّاني في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾، وكان مجموعُ الجُملتَينِ كلامًا على طريقةِ الإجمالِ، ثمَّ التَّفصيلِ. والمعنَى: أَرأيْتَكَ تكونُ وَكيلًا على مَنِ اتَّخَذ إلهَه هَواهُ؟ وتكونُ الفاءُ في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ﴾ فاءَ الجوابِ للمَوصولِ؛ لمُعاملَتِه مُعاملةَ الشَّرطِ، وهمزةُ الاستِفهامِ الثَّانيةُ تأكيدٌ للاستِفهامِ الأوَّلِ، كقولِه: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الإسراء: ٤٩] على قِراءةِ إعادةِ همزةِ الاستِفهامِ، وتكونُ جُملةُ ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ عِوَضًا عنِ المفعولِ الثَّاني لِفعلِ ﴿أَرَءَيْتَ﴾، والفِعلُ مُعلَّقٌ عنِ العملِ فيه؛ بسببِ الاستِفهامِ، على نحْوِ قولِه تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩]، وعليه لا يُوقَفُ على قوله: ﴿هَوَىٰهُ﴾، بلْ يوصَلُ الكلامُ. وإنْ كانتْ كلُّ جملةٍ مِنَ الجُملتَينِ مُستقِلَّةً عنِ الأُخرى في نظْمِ الكلامِ، كان الاستِفهامُ الَّذي في الجُملةِ الأُولى مُستعمَلًا في التَّعجيبِ مِن حالِ الَّذين اتَّخَذوا إلهَهم هَواهُم تَعجيبًا مَشوبًا بالإنكارِ، وكانتِ الفاءُ في الجُملةِ الثَّانيةِ للتَّفريعِ على ذلك التَّعجيبِ والإنكارِ، وكان الاستِفهامُ الَّذي في الجُملةِ الثَّانيةِ مِن قَولِه:

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١).

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ بمعنَى: أنَّك لا تَستطيعُ قَلْعَه عن ضَلالِه، كما أشار إليه قَولُه قبْلَه: ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1] [الفرقان: ٤٢].

- و(مَن) في قَولِه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ صادِقةٌ على الجَمْعِ المُتحدَّثِ عنه في قَولِه: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ [الفرقان: ٤٢]، ورُوعيَ في ضَمائرِ الصِّلةِ لفْظُ (مَن)؛ فأُفرِدَتِ الضَّمائرُ[2].

- وفي قَولِه: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ تَقديمُ المُسنَدِ إليه (أَنْت) على الخَبرِ الفِعليِّ؛ للتَّقوِّي؛ إشارةً إلى إنكارِ ما حَمَّل الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نفْسَه مِنَ الحِرصِ والحُزنِ في طلَبِ إقلاعِهم عنِ الهوَى[3]. ولَمَّا كان مُرادُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -حِرْصًا عليهم، ورَحمةً لهم- ردَّهُم عنِ الغَيِّ ولا بدَّ؛ عَبَّر بأداةِ الاستِعلاءِ في قَولِه: ﴿عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[4].

٤- قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

- قولُه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ عنِ التَّأْييسِ مِن اهتِدائِهم؛ لغلَبةِ الهوَى على عُقولِهم، إلى التَّحذيرِ مِن أن يُظَنَّ بهم إدراكُ الدَّلائلِ والحُجَجِ، وهذا تَوجيهٌ ثانٍ للإعراضِ عن مُجادلَتِهمُ الَّتي أَنبأَ عنها قَولُه تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، فـ (أَمْ) مُنقطِعةٌ للإضرابِ الانتِقاليِّ مِن إنكارٍ إلى إنكارٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٥، ٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩٤).

وهي مؤْذِنةٌ باستِفهامٍ عطَفَتْه على الاستِفهامِ الَّذي قبْلَها. والتَّقديرُ: أَمْ أَتَحسَبُ أنَّ أكثرَهم يَسمَعون أو يَعقِلون[١]؟

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ نُفيَ فَهمُ الأدِلَّةِ السَّمعيَّةِ والعَقليَّةِ عن (أكثَرِهم) دُونَ جميعِهم؛ لأنَّ هذا حالُ دَهْمائِهم ومُقَلِّدِيهم فقطْ، ومِنهم مَن عَقَل الحَقَّ وكابَرَ استِكبارًا، وخَوفًا على الرِّئاسةِ؛ ففيهم مَعشَرٌ عُقلاءُ يَفهَمون ويَستَدِلُّون بالكائناتِ، ولكنَّهم غَلَبَ عليهم حُبُّ الرِّئاسةِ، وأَنِفوا مِن أن يَعُودوا أتْباعًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُساوِينَ للمؤْمِنينَ مِن ضُعفاءِ قُرَيشٍ وعَبيدِهم مِثْلِ: عَمَّارٍ وبِلالٍ. وأيضًا تَخصيصُ الأَكثَرِ؛ لأنَّه كان مِنهم مَن آمَنَ[٢].

- وضَميرُ ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ لـ (مَن)، وجمْعُه باعتِبارِ معناها، كما أنَّ الإفرادَ في الضَّمائرِ الأُوَلِ باعتِبارِ لفْظِها[٣].

- وعَطْفُ ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ على ﴿يَسْمَعُونَ﴾؛ لنفْيِ أن يَكونوا يَعقِلون الدَّلائلَ غَيرَ المَقاليَّةِ، وهي دَلائلُ الكائناتِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لتَقريرِ النَّكيرِ وتَأكيدِه، وحَسْمِ مادَّةِ الحُسبانِ بالمرَّةِ[٥]. وقيل: مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١).

لأنَّ ما تَقدَّمَ مِن إنكارِ أنَّهم يَسمَعون يُثيرُ في نفْسِ السَّامِعينَ سؤالًا عن نفْيِ فَهمِهم لِما يَسمَعون مع سلامةِ حَواسِّ السَّمعِ منهم؛ فكان تَشبيهُهم بالأنعامِ تَبيينًا للجَمعِ بيْن حُصولِ اختِراقِ أصواتِ الدَّعوةِ آذانَهم مع عدَمِ انتِفاعِهم بها؛ لعدَمِ تَهَيُّئِهم للاهتِمامِ بها؛ فالغرضُ مِنَ التَّشبيهِ التَّقريبُ والإمكانُ[1].

- وقولُه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فيه تشبيهٌ لأكثرِ النَّاسِ بالأنعامِ، والجامعُ بيْن النوعينِ: التَّساوي في عدمِ قَبولِ الهدى والانقيادِ له[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٢).

الآيات (٤٥-٥٤)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَبَضْنَٰهُ﴾: أي: أزَلْناه ونسَخْناه، وأصلُ (قبض): يدُلُّ على شيءٍ مأخوذٍ[1].

﴿لِبَاسًا﴾: أي: ساتِرًا وغِشاءً، وأصلُ (لبس): يدُلُّ على مُخالَطةٍ ومُداخَلةٍ[2].

﴿سُبَاتًا﴾: أي: راحةً لأبدانِكم، وقَطعًا لأعمالِكم، وأصلُ (سبت): يدُلُّ على القَطعِ[3].

﴿نُشُورًا﴾: أي: يَقَظةً وحياةً، يَنتشِرونَ فيه، ويَبتَغونَ الرِّزقَ، ويَتصرَّفونَ في

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢).

حاجاتِهم، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه[١].

﴿بُشْرًا﴾: أي: مُبَشِّراتٍ بالغَيثِ، والبُشرى تُطلَقُ على الإِخْبار بِمَا يَسُرُّ، وما يُعطَى للمُبشَّرِ، وأصلُ (بشر): ظهورُ الشَّيءِ مع حُسْنٍ وجَمالٍ[٢].

﴿وَأَنَاسِيَّ﴾: الأناسيُّ: جَمعُ إنسيٍّ، وهو مرادِفُ إنسانٍ، مِثلُ كُرسيٍّ وكَراسيَّ، وأصلُ (أنس): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ، وكلِّ شَيءٍ خالَفَ طريقةَ التَّوحُّشِ[٣].

﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾: قسَّمْناه، يعني المطرَ: يَسقي أرضًا، ويتركُ أرضًا، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ[٤].

﴿كُفُورًا﴾: أي: جُحُودًا، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ[٥].

﴿مَرَجَ﴾: أي: خلَطَ أو خلَّى بيْنهما، وأصلُ (مرج): يدُلُّ على مجيءٍ وذَهابٍ واضطرابٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩١، ٩٣).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٦).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

﴿فُرَاتٌ﴾: الفُراتُ: الماءُ الشَّديدُ العُذوبةِ، قِيل: سُمِّي الماءُ الحُلوُ فُراتًا؛ لأنَّه يَفْرُتُ العطشُ، أي: يقطَعُه ويكسِرُه[١].

﴿أُجَاجٌ﴾: أي: شَديدُ المُلوحةِ، وأصلُ (أجج): يدُلُّ على الشِّدَّةِ[٢].

﴿بَرْزَخًا﴾: أي: حاجِزًا ومانِعًا؛ لئلَّا يَختلطَا، وكلُّ حاجزٍ بيْنَ شَيئينِ فهو برزخٌ[٣].

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: أي: حَرامًا مُحَرَّمًا على صاحبِه أنْ يُغَيِّرَه ويُفْسِدَه، أو مانِعًا مَمْنوعًا، وأصلُ (حجر): المَنعُ والإحاطَةُ على الشَّيءِ[٤].

﴿نَسَبًا﴾: النَّسبُ: اشتِراكٌ مِن جهةِ أحدِ الأبوَينِ، أي: أن يجتمعَ إنسانٌ مع آخَرَ في أبٍ أو أمٍّ، قرُبَ ذلك أو بعُدَ، وقيل: ﴿نَسَبًا﴾ أي: ذا نسبٍ، وهو ما لا يَحِلُّ نكاحُه، وأصلُ (نسب): اتِّصالُ شَيءٍ بشَيءٍ، ومنه النَّسَبُ؛ سُمِّيَ لِاتِّصالِه ولِلاتِّصالِ به[٥].

---

(١) ((أدب الكاتب)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((أدب الكاتب)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤، ٧٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨، ٢٢٠).
قال ابن فارس: (مِمَّا فيه حرفٌ زائدٌ «البرزَخُ»: الحائِلُ بيْنَ الشَّيئيْنِ، كأنَّ بيْنهما بَرازًا، أي: مُتَّسَعًا مِن الأرضِ، ثُمَّ صارَ كُلُّ حائِلٍ بَرْزَخًا، فالخاءُ زائِدَةٌ). ((مقاييس اللغة)) (١/ ٣٣٣).
وقال الراغب: (وقيل: أصلُه «برزه»، فعُرِّب). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ١١٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨، ٢٢٠).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) (٥/ ٤٢٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٠١)، =

﴿وَصِهْرًا﴾: الصِّهرُ: قرابةُ النِّكاحِ، وأهلُ بَيتِ المرأةِ، وأصلُ (صهر): يدُلُّ على قُربى[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى بعضَ مظاهرِ قدرتِه، ويمتَنُّ على عبادِه ببيانِ بعضِ النِّعمِ التي أنعَم بها عليهم، فيقول: ألمْ ترَ -يا محمَّدُ- إلى كيفيَّةِ بسْطِ رَبِّك الظِّلَّ على الأرضِ مِن بعْدِ طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، ولو شاء اللهُ لجعَلَ الظِّلَّ دائمًا لا يتحَرَّكُ، ثمَّ جعَلَ الشَّمسَ عندَ طلوعِها دالَّةً على الظِّلِّ، ثمَّ نقَصَ ذلك الظِّلَّ.

واللهُ سُبحانَه الذي جعَلَ لكم اللَّيلَ سِترًا يَستُرُكم بظَلامِه، وجعَل النَّومَ قاطعًا لحركتِكم لِتَستريحوا، وجعل النَّهارَ حياةً تنتَشِرونَ فيه لطلَبِ الأرزاقِ.

واللهُ وحْدَه الذي أرسَلَ الرِّياحَ تبَشِّرُ النَّاسَ بنُزولِ المطَرِ، وأنزَل مِن السَّماءِ ماءَ المطَرِ الطَّهورَ؛ ليُحييَ به أرضًا مُجدِبةً لا نباتَ فيها، ويَسقيَ به ما خلَقَه مِن الأنعامِ والنَّاسِ.

ولقد قسَّم سُبحانَه ماءَ المطَرِ بيْن النَّاسِ للتذكُّرِ والاعتِبارِ، فأبى أكثَرُ النَّاسِ إلَّا الكُفرَ باللهِ والجُحودَ، ولو شاء اللهُ تعالى لجعَلَ في كلِّ قَريةٍ رَسولًا يُنذِرُ النَّاسَ عَذابَ اللهِ ويدعوهم إليه؛ فلا تُطِعِ الكافرين -يا محمَّدُ- فيما يُريدونَه مِن عبادةِ آلهتِهم، أو تَرْكِ شَيءٍ مما أُرسِلتَ به، وجاهِدْهم بالقُرآنِ جِهادًا شديدًا.

واللهُ وحْدَه هو الذي أرسل البَحرينِ وخلَّاهما؛ أحدُهما شديدُ العذوبةِ، والآخَرُ شديدُ الملوحةِ، وهو بقدرتِه يَفصِلُ بيْنهما ويمنَعُهما التَّمازُجَ والاختِلاطَ.

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

وهو وحْدَه الذي خلَقَ مِن المَنيِّ إنسانًا، فجعَلَ ذلك الإنسانَ ذا نَسَبٍ وذا صِهرٍ، ولم يزَلْ سُبحانَه قَديرًا على كلِّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمّا بَيَّنَ سُبحانَه جهْلَ المُعرِضين عن دلائلِه، وفَسادَ طريقِهم في ذلك؛ ذَكَرَ بعْدَه أنواعًا مِن الدَّلائلِ الدالَّةِ على وجودِ الصَّانعِ، فقال تعالى[1]:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾.

أي: ألم تَرَ[2] -يا محمَّدُ- إلى هيئةِ بسْطِ رَبِّك الظِّلَّ على الأرضِ مِن بعْدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٤).

(٢) قال الشوكاني: (هذه الرُّؤيةُ إمَّا بَصَريَّةٌ، والمرادُ بها: ألم تُبصِرْ إلى صُنعِ رَبِّك؟ أو ألم تُبصِرْ إلى الظِّلِّ كيف مَدَّه ربُّك؟ وإمَّا قَلبيَّةٌ، بمعنى العِلمِ؛ فإنَّ الظِّلَّ مُتغيِّرٌ، وكُلُّ مُتغيِّرٍ حادثٌ، ولكُلِّ حادثٍ مُوجِدٌ. قال الزَّجَّاجُ: ألم تَرَ: ألم تَعلَمْ، وهذا مِن رؤيةِ القَلبِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٢)،

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الرؤيةَ رؤيةُ القلبِ، والمراد: ألمْ تَعلَمْ: الفرَّاءُ، والزجَّاجُ، وابنُ عطية، وأبو حيان، والعليمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٣٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الرؤيةَ بصَريَّةٌ، أي: ألمْ تَنظُرْ: البيضاويُّ، والنسفي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٩).

وجمَع السعديُّ بيْن القولينِ، فذكَر أنَّ المعنى: (ألم تشاهِدْ ببصرِك وبصيرتِك). ((تفسير =

طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، ولو شاء اللهُ لجعَلَ الظِّلَّ مَمدودًا دائِمًا لا يتحَرَّكُ بزيادةٍ ولا نُقصانٍ(١)؟!

= السعدي)) (ص: ٥٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٠، ٤٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٠).

ممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالظِّلِّ: مِن طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاج، والبَغَوي، والرسعني، والقرطبي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٠، ٤٦٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ عُمَرَ، وسعيدُ بنُ جُبَير، وأبو العاليةِ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، ومسروقٌ، والحسَنُ، وقتادةُ، وأبو مالِكٍ، ومجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّي، وأبو سِنانٍ الشَّيبانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٠١).

قال الواحديُّ: (والمفَسِّرون جميعًا قالوا في معنى الظِّلِّ هاهنا: إنَّه الظِّلُّ مِن وَقتِ طُلوعِ الفَجرِ إلى وَقتِ طُلوعِ الشَّمسِ). ((البسيط)) (١٦/ ٥١٧).

ونَسَب النَّسَفيُّ هذا القَولَ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٠).

قال البغوي: (وهو ما بيْنَ طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، جعَلَه ممدودًا؛ لأنَّه ظِلٌّ لا شَمسَ معه، كما قال في ظِلِّ الجنَّةِ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] لم يكُنْ معه شمسٌ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٧).

واعترض ابنُ عطيَّةَ على هذا المعنى بأنَّ ذلك في غيرِ نهارٍ، بل في بقايا اللَّيلِ، وهذا لا يُقالُ له ظِلٌّ، واختار أنَّ المرادَ بمَدِّ الظِّلِّ بإطلاقٍ هو بيْنَ أوَّلِ الإسفارِ إلى بُزوغِ الشَّمسِ، ومِن بَعدِ مَغِيبِها مُدَّةً يَسيرةً؛ فإنَّه في هذينِ الوقتَينِ على الأرضِ كُلِّها ظِلٌّ ممدودٌ على أنَّها نهارٌ، وفي سائِرِ أوقاتِ النَّهارِ ظِلالٌ مُتقَطِّعةٌ، والمَدُّ والقَبضُ مُطَّرِدٌ فيها. قال: (وهو عندي المرادُ في الآيةِ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٢).

وقيل: المرادُ به: ظِلُّ كُلِّ شاخصٍ؛ فإنَّه أوَّلَ ما تطلُعُ الشَّمسُ يكونُ الظِّلُّ طويلًا ممدودًا، ثم يُقبَضُ شيئًا فشيئًا. وهذا ظاهِرُ اختيار ابن القيِّمِ، وابنِ عاشور. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن =

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

أي: ثمَّ جعَلْنا الشَّمسَ عندَ طلوعِها دالَّةً على الظِّلِّ؛ فهو يَتبَعُها، ويتفاوَتُ بحَركتِها[1].

= القيم (٣/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٩-٤١).

وقيل: المرادُ بالظلِّ هنا: اللَّيلُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: أبو القاسم النيسابوريُّ، والبقاعي. يُنظر: ((إيجاز البيان)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٦١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩٧).

وممَّن ذهب إلى حملِ الآيةِ على جميعِ هذه المعاني: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩١-١٩٢).

قال ابنُ عثيمين: (المرادُ بالظِّلِّ على الخِلافِ ثلاثةُ آراءٍ: إمَّا أنَّه ما بينَ طُلوعِ الفَجرِ إلى طلوعِ الشَّمسِ... أو أنَّه اللَّيلُ كُلُّه، ويكونُ مَدُّه تطويلَه ثمَّ ينقُصُ، ففي هذا من قدرةِ الله تعالى: تغيُّرُ الفُصولِ بسبَبِ طولِ اللَّيلِ وقِصَرِه. أو أنَّ المرادَ به ظِلُّ كُلِّ شاخصٍ؛ فإنَّه أوَّلَ ما تطلُعُ الشَّمسُ يكونُ الظلُّ طويلًا ممدودًا، ثمَّ يُقبَضُ شيئًا فشَيئًا، ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ اللهُ سُبحانَه وتعالى ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، والسُّكونُ هنا يختلفُ معناه بحسَبِ اختلافِ معنى الظلِّ؛ فإذا قُلْنا: المرادُ بالظلِّ ما بينَ طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ، كان المرادُ بالسكونِ أنَّ الشمسَ تخرجُ دَفعةً واحدةً بدون أن يكونَ ظِلُّها شَيئًا فشَيئًا، وإذا قُلْنا: إنَّ المرادَ به اللَّيلُ، كان المرادُ بسكونِه أن يبقَى الليلُ دائمًا، لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، وإذا قلنا: إنَّ المرادَ بالظلِّ ظلُّ الشاخصِ، صار المرادُ بسكونِه أنَّ الشمسَ لا تتحرَّكُ، وتبقَى في مكانٍ واحدٍ، ويكونُ الظلُّ ساكنًا، لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ... [و] ما دام أنَّ هذه المعانيَ لا تتنافى، فالواجِبُ أن تُحمَلَ الآيةُ على الجميعِ، وهذه قاعدةٌ ... قرَّرها شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله: أنَّه إذا كانت الآيةُ تحتَمِلُ المعانيَ المذكورةَ فيها، فالواجِبُ أن تُحمَلَ على كلِّ هذه المعاني؛ لأنَّ كلامَ الله سُبحانه وتعالى لا يُحيطُ به شيءٌ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩١، ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤).

قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ جعْلُ الشَّمسِ دَليلًا على الظِّلِّ فيه دليلٌ ليس على مجرَّدِ وجودِ الظلِّ، بل دليلٌ على ما فيه مِن المصالحِ، وهي أيضًا مدلولٌ عليها به؛ فالشَّمسُ الآنَ يُستدَلُّ بها على ما في الظلِّ مِن المصالحِ، ويُستدَلُّ بالظِّلِّ على ما فيها من =

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

أي: ثمَّ نَقَصْنا ذلك الظِّلَّ الممدودَ بسُهولةٍ وتدريجٍ[1].

= المصالحِ أيضًا؛ لأنَّ غيبَ الشَّمسِ عن الأرضِ قد يؤثِّرُ، وبقاءَها دائمًا على وجهِ الأرضِ قد يؤثِّرُ، مِثلُ قولِ الله سُبحانَه وتعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۞ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢]، فكونُ هذا دليلًا على هذا، وهذا دليلًا على هذا: هو أيضًا مِن رحمةِ الله؛ لأنَّه لولا الشمسُ ما عرَفْنا فائدةَ الظلِّ، ولولا الظلُّ ما عرَفْنا فائدةَ الشَّمسِ، فكُلٌّ منهما في الحقيقةِ دالٌّ ومدلولٌ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٤).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٤)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٥٦، ٥٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٢).

قال الواحدي: (﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ الكنايةُ تعودُ إلى الظِّلِّ الذي سَبَق ذِكرُه، وهو: ظِلُّ الغَداةِ بإجماعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٦/ ٥٢٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿قَبَضْنَٰهُ﴾: الظِّلُّ: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقندي، والثعلبي، والماوَرْدي، والسمعاني، وابن الجوزي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٩٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٠٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٦١).

وقيل: المعنى: قَبَضْنا ذلك الدَّليلَ مِنَ الشَّمسِ على الظِّلِّ. ومِمَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٢).

وقال البقاعي: (﴿إِلَيْنَا﴾ أي: إلى الجهةِ التي نُريدُها، لا يقدِرُ أحَدٌ غَيرُنا أن يحوِّلَه إلى جهةٍ غَيرِها). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٩٨). =

= ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿يَسِيرًا﴾ أي: على مَهلٍ، قَبضًا خفيفًا، جُزءًا فجُزْءًا، وشيئًا بعْدَ شَيءٍ، لا دَفعةً واحدةً: السمرقنديُّ، والزمخشري، والخازن، وابن جُزي، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٩٤).

قال ابنُ قُتَيْبَةَ: (وقولُه: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: خفيًّا؛ لأنَّ الظلَّ بعْدَ غروبِ الشَّمسِ لا يذهَبُ كُلُّه دَفعةً واحدةً، ولا يُقبِلُ الظلامُ كُلُّه جملةً، وإنما يَقبِضُ الله جلَّ وعزَّ ذلك الظِّلَّ قَبضًا خفيًّا شَيئًا بعدَ شَيءٍ، ويُعقِبُ كُلَّ جزءٍ منه يَقبِضُه بجزءٍ مِن سوادِ الليلِ حتى يذهبَ كُلُّه. فدلَّ الله عز وجلَّ بهذا الوصفِ على قدرتِه ولطفِه في معاقبتِه بيْن الشمسِ والظلِّ واللَّيلِ؛ لمصالحِ عِبادِه وبلادِه. وبعضُهم يجعَلُ قبْضَ الظِّلِّ عندَ نَسخِ الشَّمسِ إيَّاه، ويجعلُ قَولَه: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: سهلًا خفيفًا عليه. وهو وجهٌ، غيرَ أنَّ التفسيرَ الأوَّلَ أجمَعُ للمعاني، وأشبَهُ بما أراد). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٩٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿يَسِيرًا﴾: أي: خفيًّا سريعًا: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٢).

وقال ابنُ جرير: (وقَولُه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: ثمَّ قَبَضْنا ذلك الدَّليلَ مِنَ الشَّمسِ على الظِّلِّ إلينا قَبضًا خَفِيًّا سَريعًا بالفَيءِ الذي نأتي به بالعَشِيِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٤).

وقال ابن عثيمين: (إذا قُلْنا: الظِّلُّ ما بيْنَ طُلوعِ الفَجرِ أو ما بيْنَ وَقتِ الإسفارِ إلى وَقتِ طُلوعِ الشَّمسِ، فإنَّه يُقبَضُ هذا الظِّلُّ شَيئًا فشَيئًا، لا يزالُ النُّورُ يَسطَعُ تدريجيًّا حتى تطلُعَ الشَّمسُ. هذه واحِدةٌ.

وإذا قُلْنا: المرادُ به اللَّيلُ، فهو أيضًا يُقبَضُ شَيئًا فشَيئًا، يعني: لا يكونُ اللَّيلُ في هذا اليومِ اثنَتَي عَشْرةَ ساعةً، ويكونُ تِسعَ ساعاتٍ في اليومِ الذي يليه، وإنَّما يُقبَضُ شيئًا فشيئًا.

كذلك إذا قُلْنا: إنَّ المرادَ بالظِّلِّ ظِلُّ الشَّاخِصِ، فهو نفْسُ الشَّيءِ؛ إنَّما يتناقَصُ شَيئًا فشَيئًا، وليس في الآيةِ إشكالٌ سِوى قَولِه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، ﴿إِلَيْنَا﴾ هذه الغايةُ فيها إشكالٌ؛ لأنَّه كان مِن المُمكِنِ أن يَقتَصِرَ على قَولِه: «ثمَّ قَبَضْناه قَبضًا يَسيرًا»، فما الحِكمةُ مِن هذه الغايةِ في قَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾؟ =

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

مُناسَبةُ الانتِقالِ مِن الاستِدلالِ باعتبارِ أحوالِ الظِّلِّ والضَّحاءِ إلى الاعتِبارِ بأحوالِ اللَّيلِ والنَّهارِ: ظاهِرةٌ؛ فاللَّيلُ يُشبِهُ الظِّلَّ في أنَّه ظُلمةٌ تَعقُبُ نورَ الشَّمسِ[1].

وأيضًا لَمَّا تضَمَّنتْ هذه الآيةُ اللَّيلَ والنهارَ؛ قال مُصَرِّحًا بهما دليلًا على الحَقِّ، وإظهارًا للنِّعمةِ على الخلْقِ[2]:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ﴾.

= بعضُهم يرى أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿قَبَضۡنَٰهُ﴾ أي: الشَّمسَ، باعتِبارِها دَليلًا، ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلًا﴾، أي: قَبَضْنا هذا الدَّليلَ ﴿إِلَيۡنَا قَبۡضًا يَسِيرًا﴾.

وعلى كلِّ حالٍ يُوجَدُ احتِمالُ أنَّه يَجعَلُ المرادَ بقولِه: ﴿قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا﴾ يعني: الدَّليلَ، أي: الشَّمسَ، ويكونُ المرادُ بالقَبضِ إليه ما أشار إليه النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قولِه في حديث أبي ذرٍّ: «فإنَّها تَذهَبُ حتى تسجُدَ تحتَ العَرشِ» [البخاري (٣١٩٩) ومسلم (٢٥٠)].

ويوجَدُ احتِمالٌ ثالِثٌ ذهب إليه الزمخشريُّ، وقال: إنَّ المرادَ بالقَبضِ هنا ما ذكَرَه اللهُ بقَوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ [التكوير: ١، ٢]، وإنَّ المرادَ به قَبضُ هذه النَّيِّراتِ -الشَّمسِ وغَيرِها- يومَ القيامةِ، وجَعَل اليسيرَ ليس صفةً للقَبضِ، يعني: أنَّه يكونُ شَيئًا فشَيئًا، بل هو صِفةٌ للفِعلِ، يعني أنَّه يسيرٌ عليه، كقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]، لكنِ الأخيرُ بَعيدٌ؛ لأنَّ الله تعالى إنما يمتَنُّ بذلك على أمرٍ يُدرِكُ الناسُ فائدتَه في الدُّنيا، وتمامَ قُدرةِ الله تعالى فيه، فيكونُ على هذا إمَّا أن يُقالَ: إنَّ الغايةَ التي ذكرها اللهُ سبحانه وتعالى إشارةٌ إلى أنَّ ذلك مِن تصرُّفِه وحْدَه، وأنَّ الأمرَ إليه وحْدَه لا إلى غَيرِه، فيكونُ دليلًا على عَظَمةِ اللهِ سبحانه وتعالى، أو أنَّ المرادَ بالقَبضِ إليه أنَّ الشَّمسَ تُقبَضُ إلى اللهِ، بمعنى أنَّها تذهَبُ وتسجُدُ تحت العَرشِ، كما جاء به الحديثُ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٥، ١٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩٩).

أي: واللهُ هو الذي جعَلَ لكم اللَّيلَ -أيُّها النَّاسُ- غِطاءً وسِترًا يَستُركم ويُغشِّيكم بظَلامِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١].

﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾.

أي: وجعَل اللهُ لكم النَّومَ قاطِعًا لحركتِكم وأشغالِكم، فتستريحُ به أبدانُكم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤، ٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٠).

قال ابنُ عثيمين: (وهل هو لباسٌ للأرضِ أو لباسٌ لنا؟ للجميعِ؛ لأنَّه يكسو الأرضَ، ويكسو الإنسانَ في الواقعِ، فهو كاسٍ للأرضِ، وكاسٍ أيضًا للإنسانِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٩، ٢٠٠).

قال الشنقيطي: (وأمَّا جَعلُه لهم النَّومَ سُباتًا، فأكثَرُ المفسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالسُّباتِ: الرَّاحةُ مِن تَعَبِ العَمَلِ بالنَّهارِ؛ لأنَّ النَّومَ يَقطَعُ العمَلَ النَّهاريَّ، فينقَطِعُ به التَّعبُ، وتحصُلُ الاستراحةُ كما هو معروفٌ...). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٠).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالسُّباتِ: الراحةُ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ، والرازيُّ، والقرطبيُّ، والنسفيُّ، والخازنُ، وابنُ كثيرٍ، وجلالُ الدينِ المحليُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩].

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾.

أي: وجعَل اللهُ لكم النَّهارَ حَياةً بعْدَ نَومِكم الذي يُشبِهُ الموتَ، ويَقَظةً تَنتَشِرون في ضيائِه لطَلَبِ الأرزاقِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

= وممَّن قال في الجملةِ: إنَّ المرادَ: يَسبُتُ النائمُ حتَّى لا يَعقِلَ كأنَّه مَيتٌ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بنُ سلام. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٨٤).

قال الزمخشريُّ: (والسُّباتُ: الموتُ. والمَسبوتُ: الميتُ؛ لأنَّه مقطوعُ الحياةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٣).

وقال الشنقيطيُّ: (وإيضاحُ كلامِه: أنَّ النُّشورَ هو الحياةُ بعد الموتِ...، وعليه فقولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي: حياةً بعد الموتِ، وعليه فالموتُ هو المعبَّرُ عنه بالسُّباتِ في قَولِه: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾، وإطلاقُ الموتِ على النَّومِ معروفٌ في القرآنِ العظيمِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦١)

وقال ابن عاشور: (وفسَّر الزمخشريُّ السُّباتَ بالموتِ على طريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، ناظرًا في ذلك إلى مُقابَلتِه بقولِه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥).

وقال البقاعي: (﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: نومًا وسكونًا وراحةً، عبارة عن كونِه موتًا أصغرَ طاويًا لِما كان مِن الإحساسِ، قطعًا عمَّا كان مِن الشُّعورِ والتقلُّبِ، دليلًا لأهلِ البصائرِ على الموتِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١].

وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أراد أن ينامَ قال: باسمِك اللَّهمَّ أموتُ وأَحْيَا. وإذا استيقَظَ مِن مَنامِه قال: الحمدُ لله الذي أحيانا بعْدَ ما أماتَنا، وإليه النُّشورُ))[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا دلَّ على عظَمتِه بتصَرُّفِه في المعاني بالإيجادِ والإعدامِ، وخَتَمَه بالإماتةِ والإحياءِ بأسبابٍ قريبةٍ؛ أتبَعَه التصرُّفَ في الأعيانِ بمِثلِ ذلك؛ دالًّا على الإماتةِ والإحياءِ بأسبابٍ بعيدةٍ، وبدأه بما هو قريبٌ لِلَطافتِه مِن المعاني، فقال[٢]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿بُشْرًۢا﴾ أي: تُبشِّرُ بالمطَرِ[٣].

٢- قراءةُ ﴿نَشْرًا﴾، قيل: المرادُ: يُرسِلُ الرِّياحَ حياةً، أي: تحيا بها البلادُ الميتةُ. وقيل: أي: تهبُّ مِن كُلِّ وجهٍ لجمعِ السَّحابِ الممطِرةِ. وقيل: النَّشْرُ مِن الرِّياحِ: الطيِّبةُ اللَّيِّنةُ التي تُنشئُ السَّحابَ[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٠).

(٣) قرأ بها عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٠٩)، ((الحجة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٤٥).

(٤) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠). =

٣- قراءةُ ﴿نُشْرًا﴾ جمعُ نُشُورٍ، قيل: المرادُ: تنشرُ السَّحابَ وتَبسُطُها في السَّماءِ، وقيل: ليِّنةً طيِّبةً. وقيل: متفرِّقةً، وهي الرِّياحُ التي تهبُّ مِن كُلِّ ناحيةٍ[١].

٤- قراءةُ ﴿نُشُرًا﴾ جمعُ نُشُورٍ، قيل: المرادُ: تنشرُ السحابَ، وتبسطُها في السماءِ. وقيل: متفرقةً[٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

أي: واللهُ وحْدَه الذي أرسَلَ الرِّياحَ فتبَشِّرُ النَّاسَ بمَجيءِ السَّحابِ ونُزولِ المطَرِ قبْلَ أن يفجَأَهم بنُزولِه[٣].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان السَّحابُ قريبًا مِن الرِّيحِ في اللَّطافةِ، والماءُ قريبًا منهما، ومُسَبَّبًا عمَّا تحمِلُه الريحُ مِن السَّحابِ؛ أتبَعَهما به، فقال[٤]:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٥٧)، ((الحجة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٤٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٨٥).

(١) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٤٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٠).

أي: وأنزَلْنا مِن السَّحابِ ماءَ المطَرِ، الطَّاهِرَ في نفْسِه، المطَهِّرَ لِغَيرِه[١].

﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

أي: لِنُحيِيَ بالمطَرِ أرضًا مُجدِبةً لا نباتَ فيها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾.

أي: ونُسقِيَ بالمطَرِ كَثيرًا مِمَّا خلَقْنا مِن الأنعامِ والنَّاسِ، فيَشرَبون مِن ماءِ المطَرِ، ويَسقُونَ به زُروعَهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٧، ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨، ٤٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، وعلَّلَه بحياةِ البَلدةِ المَيْتةِ، وسَقْيِ بعضِ الأنعامِ وبَعضِ الأَناسيِّ، عُرِف أنَّ ذلك كان بقَدْرِ الاحتِياجِ، ولا بدَّ مِن قادرٍ مُختارٍ عالِمٍ بجُزئيَّاتِ أحوالِ المَخلوقينَ، حتَّى يُحوِّلَ إلى كلٍّ مِن ذلك ما يَحتاجُ إليه[1]؛ فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾.

أي: ولقد قسَّمْنا ماءَ المطَرِ بيْن النَّاسِ؛ لأجْلِ أن يتذكَّروا ويعتَبِروا[2].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩، ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٢، ٦٣).

قال أبو حيان: (والضَّميرُ في ﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾ عائدٌ على الماءِ المنَزَّلِ مِن السَّماءِ، أي: جعَلْنا إنزالَ الماءِ تَذكِرةً بأن يُصرِّفَه عن بعضِ المواضِعِ إلى بعضٍ، وهو في كلِّ عامٍ بمقدارٍ واحدٍ، قاله الجمهورُ؛ منهم: ابنُ مسعود، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، فعلى هذا التأويلِ ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ هو قولُهم بالأنواءِ والكواكِبِ، قاله عِكرمةُ. وقيل: ﴿كُفُورًا﴾ على الإطلاقِ لَمَّا ترَكوا التذكُّرَ. وقال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا: عائدٌ على القرآنِ وإن لم يتقدَّمْ له ذِكرٌ؛ لوضوحِ الأمرِ، ويعضِّدُه: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾؛ لتوافُقِ الضَّمائرِ. وعلى أنَّه للمطَرِ يكونُ ﴿بِهِۦ﴾ للقرآنِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦).

ممَّن اختار أنَّ الضميرَ في قولِه: ﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾ يعودُ على المطرِ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والزجَّاجُ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحديُّ، والرازيُّ، وأبو حيَّان، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٢).

ونسَب السمعانيُّ هذا القولَ إلى أكثرِ أهلِ التفسيرِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥). =

﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾.

أي: فلمْ يتذكَّرْ أكثَرُ النَّاسِ بتَصريفِ اللهِ للمطَرِ، وأصَرُّوا على الكُفرِ باللهِ، وجُحودِ نِعَمِه، وإنكارِ قُدرتِه وحِكمتِه[1].

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٠٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٦٤).

قال الشنقيطيُّ: (المعنى: ولقد صرَّفْنا ماءَ المطرِ بيْن الناسِ؛ فأنزَلْنا مطرًا كثيرًا في بعضِ السِّنينَ على بعضِ البلادِ، ومنَعْنا المطرَ في بعضِ السِّنينَ عن بعضِ البلادِ، فيَكثُرُ الخِصبُ في بعضِها، والجدبُ في بعضِها الآخَرِ. وقولُه: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾، أي: صرَّفْناه بيْنَهم لأجْلِ أن يَتذكَّروا، أي: يتذكَّرَ الذين أخصبَتْ أرضُهم لكثرةِ المطرِ نعمةَ الله عليهم، فيَشكُروا له، ويتذكَّرَ الذين أجدبت أرضُهم ما نزَل بهم مِن البلاءِ، فيُبادِروا بالتَّوبةِ إلى الله جلَّ وعلا؛ ليَرحمَهم ويَسقيَهم). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٣).

وقال ابن عثيمين: (يعني: أنَّ الله تعالى غيَّرَ هذا المطرَ بالنسبةِ للنَّاسِ، ووزَّعه بيْنهم ما بيْن مُقِلٍّ ومُستكثِرٍ؛ فمِنهم مَن يكثُرُ المطرُ عندَه، ومِنهم مَن يقِلُّ، هذا بالنِّسبةِ للبينيَّةِ، كذلك أيضًا صرَّفه الله سبحانه وتعالى بيْنهم بالنِّسبةِ لكلِّ أحدٍ؛ أحيانًا يكونُ المطرُ كثيرًا في عامٍ، وقليلًا في عامٍ... ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ أي: نِعمةَ الله فيما إذا نزَلَ عليهم، و﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ يتَّعِظوا ويَذكُروا ما هم عليه مِن المعاصي والآثامِ فيما إذا لم ينزِلْ، وكذلك أيضًا ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ بذلك قدرةَ الله، حيث صرَفَ في محلٍّ دونَ محلٍّ. فالمهمُّ أنَّ تصريفَ هذا المطرِ في محلٍّ دونَ محلٍّ، أو في سَنةٍ دون سَنةٍ هذا لا شَكَّ أنَّه سَبَبٌ لِتَذكُّرِ الإنسانِ؛ إما تذَكُّر النعمةِ إذا كان ناسيًا، وإما تذكُّر النِّقمةِ ومعاصيه إذا كان ممتنعًا، وإما تذكُّر القدرةِ حينما يَعرفُ أنَّه في مكانٍ يكونُ غَزيرًا، وفي مكانٍ يكونُ قليلًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١٤، ٢١٥).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾: أي: القرآنَ. وممَّن اختاره: القرطبيُّ، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٧)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٢١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عطاءٌ الخُراسانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٠٧).

وقيل: ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾ أي: هذا القولَ، وهو ذكرُ إنشاءِ السَّحابِ، وإنزالِ المطرِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٨)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وعن زَيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ رضِيَ الله عنه، قال: ((صلَّى بنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ الصُّبحِ بالحُدَيْبِيَةِ في إثرِ السَّماءِ[1] كانت من اللَّيلِ، فلمَّا انصرفَ أقبَلَ على النَّاسِ، فقال: هل تَدرُونَ ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: قال: أصبَحَ مِن عِبادي مؤمِنٌ بي وكافِرٌ؛ فأمَّا مَن قال: مُطِرْنا بفَضلِ اللهِ ورحمتِه، فذلك مؤمِنٌ بي كافِرٌ بالكوكَبِ، وأمَّا مَن قال: مُطِرنا بنَوءِ[2] كذا

= (٦/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٣).

قال النحاسُ: (لا يُعلَمُ بينَ أهلِ التَّفسيرِ اختِلافٌ أنَّ الكُفرَ هاهنا قولُهم: مُطِرْنا بنَوءِ كذا وكذا، وأنَّ نظيرَه قَولُ المنجِّمِ: فعَلَ النَّجمُ كذا وكذا، وأنَّ كُلَّ مَن نَسَبَ إليها فعلًا، فهو كافرٌ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ١١٤).

قال ابنُ عثيمينَ: (ومِن الكُفرِ بهذا المطَرِ... أن يجعَلَ ذلك سببًا للأشَرِ والبطَرِ، مِثلَما يحصُلُ مِن بعض الناسِ: إذا نزلَتِ الأمطارُ وكثُرت الأبيارُ صارت سببًا لأشَرِه وبطَرِه وفُسوقِه، فهذا من أسبابِه. ومِن أسبابِ الكُفرِ أيضًا: أنَّه إذا امتنَع المطَرُ صار امتناعُه سببًا لقُنوطِ الإنسان مِن رحمةِ الله سبحانَه وتعالى، والقُنوطُ مِن رحمةِ الله مِن كبائرِ الذنوبِ، وليس بالأمرِ الهَيِّنِ؛ فلا يجوزُ للإنسانِ أن يَقنَطَ مِن رحمةِ الله، ولا أن يأمَنَ مَكرَ الله، لا هذا ولا هذا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١٦).

(١) إثرِ السَّماءِ أي: بعْدَ نُزولِ مطرٍ. والإثرُ: هو ما يعقُبُ الشيءَ، والسماءُ: المطرُ، وأُطلِق عليه سماءً؛ لكونِه ينزلُ مِن جهةِ السماءِ، وكلُّ جهةِ علوٍّ تُسمَّى سماءً. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٩٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٥٢٣).

(٢) مُطِرنا بنَوءِ كذا: أي: بسُقوطِ نَجمٍ وطُلوعِ نظيرِه، (والأنواءُ): ظهورُ الكواكبِ، أو منازل القَمَرِ في السَّماءِ، وكانت العربُ تزعُمُ أنَّ بسقوطِ المنزلةِ وطلوعِ رقيبِها يكونُ مطرٌ، ويَنسبونه إليها، فيقولون: مُطِرْنا بنَوءِ كذا. وإنَّما سُمِّيَ نَوءًا؛ لأنَّه إذا سقَطَ السَّاقِطُ منها بالمَغربِ ناء الطَّالع =

وكذا، فذلك كافِرٌ بي مؤمِنٌ بالكوكَبِ))[١].

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عَلِمَ تعالى ما كابَدَه الرَّسولُ مِن أذَى قَومِه؛ أعْلَمَه أنَّه تعالى لو أراد لَبعثَ في كلِّ قريةٍ نذيرًا فيُخَفِّفُ عنك الأمرَ، ولكنَّه أعظَمَ أجرَك وأجَلَّك؛ إذْ جعَلَ إنذارَك عامًّا للنَّاسِ كلِّهم، وخَصَّك بذلك؛ لِيَكثُرَ ثوابُك؛ لأنَّه على كثرةِ المجاهَدةِ يكونُ الثَّوابُ، ولِيَجمعَ لك حَسَناتِ مَن آمَنَ بك؛ إذْ أنت مُؤَسِّسُها[٢].

وأيضًا فهذه الآيةُ متَّصِلةٌ بقَولِه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢] الآيةَ، فبعْدَ أن بيَّنَ إبطالَ طَعنِهم، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان: ٣٢]، انتقَل إلى تنظيرِ القُرآنِ بالكتابِ الذي أوتيَه موسى عليه السَّلامُ وكيف استأصل اللهُ مَن كذَّبوه، ثمَّ استطرَد بذِكرِ أُمَمٍ كذَّبوا رسُلَهم، ثم انتقَل إلى استهزاءِ المُشرِكين بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأشار إلى تحرُّجِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن إعراضِ قَومِه عن دعوتِه، بقَولِه: ﴿ أَرَءَيْتَ

= بالمشرِقِ، أي: نهضَ وطلَعَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٤١٥) (٧/ ٢٩٠٦).

(١) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٧).

وقال ابن باديس: (لمَّا تبيَّن مِن الآياتِ المتقَدِّمةِ ما كان يُكابِدُه النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن أذيَّةِ قَومِه، وما كان يَلْقاه مِن مُكابرتِهم للحقِّ، وتعنُّتِهم بالباطلِ، وما كان يُعانيه مِن الجَهدِ الجَهيدِ في إنذارِهم، وتبليغِ دِينِ اللهِ تعالى إليهم، وهو في ذلك كلِّه جاهِدٌ في القيام بتبليغِ الأمانةِ، ناهِضٌ بأعباءِ الرِّسالةِ، ماضٍ في تلك السبيلِ، وليس معه مِن نذيرٍ، وقد كان ذلك مما تَتفسَّخُ له القُوى البشريَّةُ لولا تأييدٌ مِن اللهِ- فأراد تعالى في هذه الآيةِ أن يُثبِّتَه في مقامِه، ويُؤنِسَه في انفرادِه، فيُبيِّنَ له أنَّ تخصيصَه بالقيامِ هذا المقامَ العظيمَ هو لأجْلِ تعظيمِه وتكريمِه، وتخصيصِه بالأجرِ الكثيرِ، والثوابِ الذي ليس له مِن مثيلٍ). ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٥).

مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣]. وتسلْسَلَ الكلامُ بضَربِ المثَلِ بمَدِّ الظِّلِّ وقَبضِه، وبحالِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وبإرسالِ الرِّياحِ، أمارةً على رحمةِ غَيثِه الذي تحيا به المَواتُ، حتى انتهى إلى قَولِه: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٥١]، ويؤيِّدُ ما ذكَرْنا اشتِمالُ التَّفريعِ على ضميرِ القُرآنِ في قَولِه: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾، وممَّا يَزيدُ هذه الآيةَ اتِّصالًا بقَولِه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ [الفرقان: ٣٢]: أنَّ في بَعثِ نذيرٍ إلى كُلِّ قَريةٍ ما هو أشَدُّ مِن تنزيلِ القرآنِ مجزَّأً، فلو بعَثَ اللهُ في كلِّ قَريةٍ نَذيرًا لقال الذين كفَروا: لولا أُرسِلَ رسولٌ واحِدٌ إلى الناسِ جميعًا؛ فإنَّ مَطاعِنَهم لا تقِفُ[1].

﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ٥١ ﴾.

أي: ولو شِئْنا لجعَلْنا في كُلِّ مدينةٍ رَسولًا يُنذِرُ النَّاسَ عَذابَ اللهِ ويَدْعوهم إليه، ولكِنَّنا خَصَصْناك -يا محمَّدُ- بالرِّسالةِ إلى جميعِ النَّاسِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ الأنصاريِّ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُعطِيتُ خَمسًا لم يُعطَهنَّ أحَدٌ قَبلي:... وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥١، ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٤).

قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً))[١].

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سبحانَه لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم ما خَصَّصَه به مِن الكرامةِ؛ دعاه إلى مُقابَلةِ ذلك بعدَمِ طاعةِ أهلِ الكُفرِ، والثَّباتِ على جهادِهم بالقُرآنِ[٢].

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

أي: فلا تُطِعِ الكافرينَ -يا محمَّدُ- فيما يَدْعونَك إليه مِن عبادةِ آلهتِهم، أو في تَركِ شَيءٍ مِمَّا أُرسِلْتَ به[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ۞ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤].

﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾.

أي: وجاهِدِ الكافرينَ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ جِهادًا شَديدًا بكُلِّ طاقتِك بلا فُتورٍ؛ نُصرةً للحَقِّ، وقمعًا للباطِلِ[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((أضواء =

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذه الآيةُ عَودٌ إلى الاستِدلالِ على تفرُّدِه تعالى بالخَلقِ[(١)].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾.

أي: واللهُ وحْدَه هو الذي أرسَل البَحرينِ وخلَّاهما، لا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ[(٢)].

= البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٥).

قال الشنقيطيُّ: (اعلمْ أنَّ لفظةَ: مرَج، تُطلَقُ في اللُّغةِ إطلاقينِ:

الأوَّل: مرَج بمعنى: أرسَلَ وخلَّى، ... وعلى هذا، فالمعنى: أرسَل البحرينِ وخلَّاهما، لا يختلِطُ أحَدُهما بالآخَرِ.

والإطلاقُ الثَّاني: مرَج بمعنى: خلَط، ومنه قولُه تعالى: ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، أي: مختلِطٍ. فعلى القولِ الأوَّلِ: فالمرادُ بالبحرينِ: الماءُ العَذبُ في جميعِ الدُّنيا، والماءُ المِلحُ في جميعِها. وقولُه: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾، يعني به: ماءَ الآبارِ والأنهارِ والعيونِ في أقطارِ الدُّنيا. وقولُه: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أي: البحرُ المِلحُ؛ كالبحرِ المُحيطِ وغَيرِه مِنَ البحارِ الَّتي هي مِلحٌ أُجاجٌ، وعلى هذا التفسيرِ فلا إشكالَ.

وأمَّا على القولِ الثَّاني -بأنَّ مرَج بمعنى خلَط- فالمعنى: أنَّه يوجَدُ في بعضِ المواضعِ اختلاطُ الماءِ المِلحِ والماءِ العَذبِ في مجرًى واحدٍ، ولا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ، بل يكونُ بيْنهما حاجزٌ مِن قُدرةِ الله تعالى، وهذا محقَّقُ الوُجودِ في بعضِ البلادِ... فسبحانَه جلَّ وعلا ما أعْظَمَه، وما أكمَلَ قُدرتَه!). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٥).

ممَّن اختار في الجملةِ المعنى الأوَّلَ، أي: أرسَلَهما وخلَّاهما مُتجاورينِ مُتلاصقينِ: =

﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾.

أي: أحدُهما شَديدُ الحَلاوةِ، والآخَرُ شَديدُ الملوحةِ والمرارةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ [فاطر: ١٢].

﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ بقُدرتِه بيْنهما حاجِزًا، ومانِعًا حصينًا يمنَعُهما منعًا شديدًا مِن

= الزمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، وأبو السعود، وجلالُ الدينِ المحليُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٢). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٢).

وممَّن اختار المعنى الثَّانيَ -أنَّ مرَج بمعنى خلَط-: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعانيُّ، والبغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧١)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٦).

قال ابن عطية: (والذي أقولُ به في الآيةِ: إنَّ المقصدَ بها التَّنبيهُ على قدرةِ الله تعالى، وإتقانِ خَلقِه للأشياءِ في أنْ بَثَّ في الأرضِ مِياهًا عَذبةً كثيرةً مِن أنهارٍ وعُيونٍ وآبارٍ، وجعَلَها خِلالَ الأُجاجِ وجعَل الأُجاجَ خِلالَها، فتَلْقَى البحرَ قد اكتنَفَتْهُ المياهُ العَذبةُ في ضَفَّتَيه، وتَلْقى الماءَ العَذبَ في الجزائرِ ونَحوِها قد اكتنَفَه الماءُ الأُجاجُ، فبَثُّها هكذا في الأرضِ هو خلطُها، وهو قولُه: ﴿مَرَجَ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٤).

وقال القرطبيُّ: (مرَج: خلَّى وخلَط وأرسَل). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٣، ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٥).

الامتِزاجِ والاختِلاطِ ببَعضِهما[١].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى قُدرتَه في منْعِ الماءِ مِن الاختِلاطِ؛ أتبَعَه القُدرةَ على خَلطِه؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّه مُمتَنِعٌ؛ تقريرًا للفِعلِ بالاختيارِ، وإبطالًا للقَولِ بالطَّبائعِ[٢].

وأيضًا فمُناسَبةُ مَوقِعِ هذا الاستِدلالِ بعْدَ ما قبْلَه أنَّه استِدلالٌ بدَقيقِ آثارِ القُدرةِ في تكوينِ المياهِ وجعْلِها سببَ حياةٍ مُختلِفةِ الأشكالِ والأوضاعِ، ومِن أعظَمِها دقائقُ الماءِ الذي خُلِقَ منه أشرفُ الأنواعِ التي على الأرضِ، وهو نطفةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧١، ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٦).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا﴾ أي: بينَ العذْبِ والمالِحِ ﴿بَرْزَخًا﴾ أي: حاجِزًا، وهو اليَبَسُ مِن الأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٧).

وقال الشوكاني: (وقيلَ: معنَى «حِجْرًا مَحْجُورًا» ... أنَّها كلمةٌ يقولُها المُتَعَوِّذُ، كأنَّ كلَّ واحدٍ مِن البحرَيْنِ يَتَعَوَّذُ مِن صاحِبِه، ويقولُ له هذا القولَ. وقيلَ: حَدًّا محدودًا. وقيلَ: المرادُ مِن البحرِ العذْبِ: الأنهارُ العظامُ؛ كالنِّيلِ والفُراتِ وجَيْحونَ، ومِن البحرِ الأُجاجِ: البحارُ المشهورةُ، والبرزخُ بيْنَهما: الحائلُ مِن الأرضِ. وقيلَ: معنَى «حِجْراً مَحْجُورًا» حَرامًا مُحَرَّمًا أنْ يَعْذُبَ هذا المالِحُ بالعذْبِ، أو يُمَلَّحَ هذا العذْبُ بالمالِحِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٥).

وتقدَّم ذِكرُ المعنى الثَّاني وهو اختلاطُ الماءِ المِلحِ والماءِ العذبِ في مجرًى واحدٍ، دونَ امتزاجِ أحدِهما بالآخَرِ.

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٨).

الإنسانِ؛ بأنَّها سببُ تكوينِ النَّسلِ للبشَرِ؛ فإنَّه يكونُ أوَّلَ أمرِه ماءً، ثم يتخلَّقُ منه البَشرُ العظيمُ(١).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾.

أي: واللهُ وحْدَه هو الذي خلَقَ مِن المَنيِّ إنسانًا ذكَرًا أو أُنثى(٢).

﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾.

أي: فجعَلَ اللهُ الإنسانَ ذا نَسَبٍ، وذا صِهرٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالنَّسبِ سَبعةُ أصنافٍ مِن القرابةِ يجمعُها قولُه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء: ٢٣]، وأنَّ المرادَ بالصهرِ خمسٌ، يجمعُها قولُه تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٦). ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٣).

وقيل: المرادُ بالنَّسَبِ: الذي لا يحِلُّ نِكاحُه، والمرادُ بالصهرِ: الذي يحِلُّ نكاحُه؛ وممَّن ذهب إلى ذلك في الجملةِ: الفرَّاءُ -وقصَر الصِّهرَ على النَّسبِ الذي يحلُّ نكاحُه، كبناتِ العمِّ والخالِ وأشباهِهنَّ- والكرماني، وابن الجوزي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٢٧٠)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٨١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥).

وقيل: المعنى: فقسَّم البشَرَ قِسمَين: ذَوِي نَسَبٍ ذُكورًا يُنسَبُ إليهم، فيقال: فلانُ بنُ فلان، وفلانةُ بنتُ فلان. وذواتِ صِهرٍ، أي: إناثًا يُصاهَرُ بهنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في =

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

أي: ولم يَزَلْ رَبُّك -يا محمَّدُ- مُتَّصِفًا بكَمالِ القُدرةِ، ومِن ذلك قُدرتُه البالِغةُ على خَلقِ ما يشاءُ[1].

= الجملةِ: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، والقاسميُّ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٥).

وقيل: النَّسبُ أن يجتمِعَ إنسانٌ مع آخَرَ في أبٍ أو أمٍّ، قرُبَ ذلك أو بعُدَ، والصِّهرُ هو الاختِلاطُ بالنكاحِ. وممَّن اختاره: ابنُ عطية، وابنُ جُزي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥).

وقال القرطبي: (النَّسَبُ والصِّهرُ مَعنيانِ يعُمَّانِ كُلَّ قُربى تكونُ بينَ آدميَّينِ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٩).

وقال ابن عاشور: (﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾: مصدران سمِّي بهما صِنفانِ مِن القرابة، على تقدير: ذا نسَبٍ وصِهرٍ، وشاع ذلك في الكلامِ. والنسَبُ: لا يخلو مِن أُبوَّةٍ وبُنوةٍ وأُخوَّةٍ لأولئك، وبُنُوَّةٍ لتلك الأُخوَّةِ. وأمَّا الصِّهرُ فهو: اسمٌ لِما بيْن المرءِ وبيْن قَرابةِ زوجِه وأقاربِه مِن العَلاقةِ، ويُسمَّى أيضًا مُصاهرةً؛ لأنَّه يكونُ مِن جهتينِ، وهو آصرةٌ اعتباريَّةٌ تتقومُ بالإضافةِ إلى ما تُضافُ إليه، فصِهرُ الرجلِ قَرابةُ امرأتِه، وصِهرُ المرأةِ قَرابةُ زَوجِها؛ ولذلك يقال: صاهَرَ فُلانٌ فُلانًا: إذا تزوَّجَ مِن قرابتِه ولو قرابةً بعيدةً، كقرابة القبيلةِ. وهذا لا يخلو عنه البَشَرُ المتزوِّجُ وغيرُ المتزوِّجِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

وقال ابن عثيمين: (مِن كمالِ قُدرةِ الله سُبحانه وتعالى أنْ خلَقَ من الماءِ بَشَرًا، وقسَّمه إلى قسمينِ؛ هما: النَّسبُ، والصِّهرُ، أي الزوجيَّةُ، وهذه أسبابُ الصِّلةِ بين الناس؛ إمَّا صلةٌ بالوِلادة: النَّسَبُ، أو بالنِّكاحِ: وهو المصاهَرةُ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٢٤) بتصرف يسير.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦).

قال ابن عاشور: (﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، أي: عظيمَ القُدرةِ، إذ أوجَد مِن هذا الماءِ خَلقًا عَظيمًا صاحِبَ عَقلٍ وتَفكيرٍ، فاختَصَّ باتِّصالِ أواصِرِ النَّسَبِ وأواصِرِ الصِّهرِ، وكان ذلك أصلَ نظامِ الاجتِماعِ البشريِّ لتكوينِ القبائِلِ والشعوبِ وتعاوُنِهم ممَّا جاء بهذه الحضارةِ المرتقيةِ مع =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ ألَّا يَجعَلَ النِّعَمَ أُمورًا عاديَّةً لا بُدَّ منها، بل يُقَدِّرُها بضِدِّها، فمَثَلًا: طُلوعُ الشَّمسِ على هذه الأرضِ وغُروبُها أمرٌ مُعتادٌ، ومِن أجْلِ كَونِه مُعتادًا لا يُحِسُّ الإنسانُ بأنَّه نِعْمةٌ، لكِنْ قَدِّرْ هذا الشَّيءَ بضِدِّه ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، كذلك فإنَّ خُروجَ النَّفَسِ مِن جِسمِ الإنسانِ أمرٌ مُعتادٌ؛ ولهذا لا يُحِسُّ الإنسانُ بقَدْرِ هذه النِّعْمةِ، لكِنْ قَدِّرْ أنَّ اللهَ تعالى لو شاءَ لحَبَسَه، وحينَئِذٍ يتَبيَّنُ قَدْرُ النِّعْمةِ[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ هذه الآيةُ نصٌّ صريحٌ في أنَّ الجهادَ في الدعوةِ إلى اللهِ وإحقاقِ الحقِّ: هو مِن الدِّينِ، وأنَّ إبطالَ الباطلِ مِن شُبَهِ المشبِّهين، وضلالاتِ الضالِّين، وإنكارِ الجاحِدين: هو بالقرآنِ العظيمِ؛ ففيه بيانُ العقائدِ وأدلَّتِها، ورَدُّ الشُّبَهِ عنها، وفيه بيانُ الأخلاقِ محاسِنِها ومساويها، وطُرُقِ الوصولِ إلى التحلِّي بالأولى، والتخلِّي عن الثانيةِ ومعالجتِها، وفيه أصولُ الأحكامِ وعِلَلُها، وهكذا فيه كلُّ ما يَحتاجُ إليه المجاهِدُ به في دينِ اللهِ، فيُستفادُ منها -كما يُستفادُ مِن آياتٍ أخرى غيرِها- أنَّ على الدعاةِ والمرشِدين أنْ تكونَ دعوتُهم وإرشادُهم بالقرآنِ العظيمِ[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ عندَما يختلفُ عليك الدعاةُ الذين يَدَّعي كلٌّ منهم أنَّه يَدعوك إلى اللهِ تعالى، فانظُرْ مَن يَدعوك بالقرآنِ إلى القرآنِ -ومثلُه ما صَحَّ مِن السُّنَّةِ؛ لأنَّها تفسيرُه وبيانُه- فاتَّبِعْه؛ لأنه هو المُتَّبَعُ

= العصورِ والأقطارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٨).

للنَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في دعوتِه وجهادِه بالقرآنِ، والمُتمثِّلُ لِمَا دلَّتْ عليه أمثالُ هذه الآيةِ الكريمةِ مِن آياتِ القرآنِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ في مَدِّ الظِّلِّ وقَبضِه نِعمةُ مَعرفةِ أوقاتِ النَّهارِ للصَّلواتِ وأعمالِ النَّاسِ، ونِعمةُ التناوُبِ في انتِفاعِ الجماعاتِ والأقطارِ بفوائِدِ شُعاعِ الشَّمسِ وفوائِدِ الفَيءِ، ووراءَ ذلك عِبرةٌ عِلميَّةٌ كُبرى توضِّحُها قواعِدُ النِّظامِ الشَّمسيِّ، وحَركةُ الأرضِ حولَ الشَّمسِ، وظهورُ الظُّلمةِ والضِّياءِ، ونشَأ عن تداوُلِ الظُّلمةِ والنُّورِ نِظامُ اللَّيلِ والنَّهارِ، وعن ذلك نظامُ الفُصولِ، وخطوطُ الطولِ والعَرضِ للكُرةِ الأرضيَّةِ، وبها عُرِفت مناطِقُ الحرارةِ والبرودةِ.

ومِن وراءِ ذلك إشارةٌ إلى أصلِ المخلوقاتِ كيف طَرأَ عليها الإيجادُ بعْدَ أنْ كانت عَدَمًا، وكيف يَمتدُّ وُجودُها في طَورِ نَمائِها، ثمَّ كيف تعودُ إلى العدَمِ تدريجًا في طَورِ انحطاطِها إلى أنْ تصيرَ إلى العدمِ؟ فذلك ممَّا يشيرُ إليه ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، فيكونُ قد حصَلَ مِن التَّذكيرِ بأحوالِ الظِّلِّ في هذه الآيةِ -مع المِنَّةِ والدَّلالةِ على نظامِ القدرةِ- تقريبٌ لحالةِ إيجادِ النَّاسِ، وأحوالِ الشَّبابِ، وتقَدُّمِ السِّنِّ، وأنَّهم عَقِبَ ذلك صائرونَ إلى ربِّهم يومَ البعثِ مَصيرًا لا إحالةَ فيه ولا بُعْدَ -كما يزعمون-، فلمَّا صار قَبضُ الظِّلِّ مثلًا لمصيرِ النَّاسِ إلى اللهِ بالبَعثِ، وصَفَ القَبضَ بـ﴿يَسِيرًا﴾؛ تلميحًا إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] -على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ-، وفي هذا التَّمثيلِ إشارةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٩).

إلى أنَّ الحياةَ في الدُّنيا كظلٍّ يَمتدُّ ويَنقَبضُ، وما هو إلَّا ظِلٌّ، فهذان المحمَلانِ في الآيةِ مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ العلميَّةِ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ فيه الاستِدلالُ بالشَّيءِ على ضِدِّه (وبضِدِّه يُعرَفُ الضِّدُّ)، ويقولُ بعضُهم: (وبضِدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ)(٢)، والمرادُ بالاستِدلالِ بالشَّيءِ على ضِدِّه: النِّعَمُ؛ ففيه مَعرِفةُ قدْرِ النِّعَمِ بمَعرفةِ ضِدِّها، وأنَّ الإنسانَ يستَدِلُّ على مِقدارِ هذه النِّعمةِ بضِدِّها(٣).

٣- جمعَتِ الآيةُ الكريمةُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ استِدلالًا وامتِنانًا؛ فهي دَليلٌ على عِظَمِ قُدرةِ الخالقِ، وهي أيضًا تذكيرٌ بنِعَمِه؛ فإنَّ في اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ آياتٍ جَمَّةً لِما يدُلُّ عليه حُصولُ الظُّلمةِ مِن دِقَّةِ نظامِ دَوَرانِ الأرضِ حوْلَ الشَّمسِ، ومِن دِقَّةِ نِظامِ خَلقِ الشَّمسِ، ولِما يتوقَّفُ عليه وُجودُ النَّهارِ مِن تغيُّرِ دورانِ الأرضِ، ومِن فوائِدِ نورِ الشَّمسِ، ثمَّ ما في خلالِ ذلك مِن نظامِ النَّومِ المناسِبِ للظُّلمةِ حين ترتخي أعصابُ النَّاسِ فيَحصُلُ لهم بالنَّومِ تجَدُّدُ نشاطِهم، ومِن الاستعانةِ على التستُّرِ بظُلمةِ اللَّيلِ، ومِن نِظامِ النَّهارِ مِن تجَدُّدِ النَّشاطِ وانبعاثِ النَّاسِ للعَمَلِ وسآمتِهم مِنَ الدَّعةِ، مع ما هو ملائِمٌ لذلك مِن النُّورِ الذي به إبصارُ ما يَقصِدُه العامِلون(٤).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٣).

(٢) هذا عجُزُ بيتٍ للمتنبي، وهو:

ونَدِيمُهُم وبهم عَرَفْنا فَضْلَه ... وبِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأشياءُ

يُنظر: ((شرح ديوان المتنبي)) للعكبري (١/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥).

نُشُورًا ﴾، وقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [يونس: ٦٧]، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ، فانظُرْ إلى هاتين الآيتينِ وما تضَمَّنَتاه مِن العِبرِ والدَّلالاتِ على ربوبيَّةِ اللهِ وحِكمتِه؛ كيف جعل اللَّيلَ سَكنًا ولِباسًا يغشى العالَمَ فتَسكُنُ فيه الحَرَكاتُ، وتأوي الحيواناتُ إلى بيوتِها، والطيرُ إلى أوكارِها، وتستجِمُّ فيه النُّفوسُ وتستريحُ مِن كَدِّ السَّعيِ والتَّعَبِ؟! حتى إذا أخَذَت منه النُّفوسُ راحتَها وسُباتَها، وتطَلَّعَت إلى معايشِها وتصَرُّفِها، جاء فالِقُ الإصباحِ سُبحانَه وتعالى بالنَّهارِ يَقدُمُ جَيشَه بشيرُ الصَّباحِ، فهزَم تلك الظُّلمةَ، ومَزَّقَها كُلَّ مُمَزَّقٍ، وكشَفَها عن العالَمِ، فإذا هم مُبصِرون، فانتشر الحيوانُ، وتصَرَّف في معاشِه ومصالحِه، وخرجت الطيورُ مِن أوكارِها، فيا له مِن مَعادٍ ونشأةٍ دالٍّ على قدرةِ الله سُبحانَه على المعادِ الأكبرِ! وتكَرُّرُه ودوامُ مُشاهَدةِ النُّفوسِ له بحيثُ صار عادةً ومألَفًا منَعَها مِن الاعتِبارِ به والاستِدلالِ به على النَّشأةِ الثَّانيةِ وإحياءِ الخَلقِ بعْدَ موتِهم، ولا ضَعْفَ في قدرةِ القادِرِ التَّامِّ القُدرةِ، ولا قُصورَ في حكمتِه ولا في عِلمِه يوجِبُ تخلُّفَ ذلك، ولكِنَّ اللهَ يَهدي مَن يشاءُ، ويُضِلُّ مَن يشاءُ، وهذا أيضًا مِن آياتِه الباهرةِ: أن يُعميَ عن هذه الآياتِ الواضحةِ البَيِّنةِ مَن شاء مِن خَلقِه، فلا يهتديَ بها ولا يُبصِرَها، وبهذا وأمثالِه يُعرَفُ اللهُ عزَّ وجَلَّ، ويُشكَرُ ويُحمَدُ، ويُتضَرَّعُ إليه ويُسألُ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ النَّومَ واليقظةَ أُنموذجانِ للمَوتِ والنُّشورِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٦٤).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قُدرةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في إرسالِ الرِّياحِ؛ لأنَّ هذه الرِّياحَ لو اجتمَعَ الخلْقُ كلُّهم على أنْ يأتوا بواحدةٍ منها، ما استطاعوا إلى ذلك سَبيلًا، مع أنَّ هذه الرِّياحَ في بعضِ الأحيانِ تقتَلِعُ الأشجارَ، وتُدمِّرُ المنازِلَ، هذه القوَّةُ العظيمةُ لو أتيتَ بمولِّداتِ الدُّنيا كلِّها لِتَخلُقَ مِثلَ هذا الهواءَ، ما حَصَلَ هذا[١].

٧- إرسالُ المُبَشِّراتِ والمُقَدِّماتِ بيْن يدَيِ الأشياءِ لقوَّةِ الرَّجاءِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾[٢].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ هو أصلٌ في الطَّهارةِ بالماءِ[٣]، وفيه دَلالةٌ على أنَّ الماءَ يُطَهِّرُ مِن الحَدَثِ والنَّجاسةِ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ أنَّ الأصلَ في الماءِ الطَّهارةُ، ونحن نَعرفُ أنَّ الماءَ الموجودَ في الأرضِ كلُّه مِن السماءِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، فإذا كان مِن السَّماءِ فإنَّ الأصلَ فيما نَبَعَ مِن الأرضِ، أو فيما نَزَلَ مِن السَّماءِ أنْ يكونَ طَهورًا[٥]، فكلُّ ماءٍ نزَلَ مِن السَّماءِ فهو طَهورٌ[٦].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ حِكمةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بكَونِ المطرِ يَنزِلُ مِن السَّماءِ، لو كان هذا المطرُ -الذي تحيا به الأرضُ- يأتي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٧).
(٤) يُنظر: ((شرح العمدة - كتاب الطهارة)) لابن تيمية (ص: ٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١١).
(٦) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٠٦).

جريًا على سَطحِ الأرضِ ما كان فيه هذا النَّفعُ؛ لأنَّه لا يَصِلُ إلى قِمَمِ الجبالِ إلَّا بعدَ أنْ يُغرِقَ ما تحتَها، لكنَّه إذا نَزَلَ مِن فوقٍ أَتَى على قِمَمِ الجبالِ، وأَتَى على ما هو أسفَلَ منها، وهذا مِن حِكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بذلك[١].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا * لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ لِماءِ المطرِ خاصيَّةُ الإحياءِ لكُلِّ أرضٍ؛ لأنَّه لخُلوِّه مِن الجراثيمِ ومِن بعضِ الأجزاءِ المعدِنيَّةِ والترابيَّةِ التي تشتَمِلُ عليها مياهُ العُيونِ ومياهُ الأنهارِ والأوديةِ، كان صالحًا بكُلِّ أرضٍ وبكلِّ نباتٍ على اختِلافِ طِباعِ الأرَضينَ والمنابِتِ[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا * لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ إخبارٌ أنَّه سُبحانَه يَجعَلُ حياةَ بعضِ مخلوقاتِه ببَعضٍ[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ إيماءٌ إلى تقريبِ إمكانِ البَعثِ[٤].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ[٥].

١٥- نستفيدُ مِن قَولِه تعالى: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ إثباتَ الحِكمةِ في أفعالِ اللهِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ﴾، وهذه «اللامُ» هي لامُ التَّعليلِ، وهذا دليلٌ مِن مئاتِ الأدلَّةِ على إثباتِ الحِكمةِ؛ فيكونُ فيه رَدٌّ على طائفةٍ مِن طوائفِ المبتدِعةِ وهم الجهميَّةُ؛ لأنَّهم يَرَون أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١١).

فِعْلَ اللهِ لمجرَّدِ المشيئةِ ليس لعلَّةٍ، فإنَّه لا يُرَجِّحُ شيئًا على شَيءٍ لحِكمةٍ، إنَّما لمجرَّدِ المشيئةِ، ولا يَفعَلُ شيئًا إلَّا لمجرَّدِ المشيئةِ[١]!!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ جوازُ ذِكْرِ بَعضِ الفوائدِ، وأنَّ الاقتِصارَ على البَعضِ لا يُعَدُّ نقصًا، فهنا ذَكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى مِن فوائدِ المطرِ فائدتينِ فقط: إحياءَ الأرضِ، وسَقْيَ الأنعامِ والأناسيِّ، مع أنَّ للمَطرِ فوائدَ أُخرى؛ كالتطهُّرِ به مثلًا، فالتطهُّرُ به ليس سَقيًا، وليس إحياءً للأرضِ، وغير ذلك أيضًا مِن الفوائدِ، لكنَّه لَمَّا كان أشَدُّ ما يكونُ ضرورةً للمَطرِ هو إحياءَ الأرضِ بالنباتِ؛ لِيأكُلَ الناسُ والأنعامُ، وكذلك السَّقيُ؛ فالطعامُ والشرابُ ضرورةٌ مِن ضروريات الحياةِ بالنِّسبةِ للأنعامِ وبالنِّسبةِ للناسِ، فاقتصَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ على ذِكرِ هاتينِ الفائدتينِ فقط؛ لأنَّهما هما الفائدتان الضروريَّتانِ الحاصِلتان بنزولِ المطرِ[٢].

١٧- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يؤخَذُ مِن الآيةِ أنَّ الماءَ المنزَّلَ مِن السَّماءِ لا يختلفُ مِقدارُه، وإنما تختلفُ مقاديرُ توزيعِه على مواقعِ القَطرِ؛ فعن ابنِ عباس: (ما عامٌ أقَلَّ مطرًا مِن عامٍ، ولكنَّ اللهَ قَسَمَ ذلك بيْن عِبادِه على ما شاء. وتلا هذه الآيةَ)[٣]، فحصَلَ مِن هذا أنَّ المقدارَ الذي تفضَّل اللهُ به مِن المطَرِ على هذه الأرضِ لا تختَلِفُ كَمِّيَّتُه، وإنَّما يختَلِفُ توزيعُه. وهذه حقيقةٌ قَرَّرها عُلَماءُ حوادثِ الجوِّ في القرن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٧/ ٤٦٨)، والحاكم (٣٥٢٠)، والبيهقي (٦٧١٧) واللفظ له. صحَّحه الحاكم على شرط الشيخين، وصحَّحه الألباني على شرط الشيخين في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٢٤٦١).

الحاضِرِ، فهو من معجزاتِ القُرآنِ العلميَّةِ[١].

١٨- ثبوتُ الحكمةِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾، فـ «اللامُ» للتَّعليلِ[٢].

١٩- إبطالُ مذهَبِ الجبريَّةِ؛ لِقَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾، فجعَلَ هذا باختيارِهم؛ أبَوا إلَّا أن يكفُروا بذلك[٣].

٢٠- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ قولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ يدخُلُ فيه مَن قال: مُطِرْنا بنَوءِ كذا، ومَن قال: مُطِرْنا بالبُخارِ، يعني: أنَّ البحرَ يتصاعَدُ منه بُخارُ الماءِ ثمَّ يتجَمَّعُ، ثمَّ يَنزِلُ على الأرضِ بمُقتضى الطَّبيعةِ لا بفِعلِ فاعلٍ، وأنَّ المطَرَ منه[٤]!

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ أنَّ مِن إكرامِ اللهِ تعالى عبدَه تحميلَه أعباءَ الرِّسالةِ وحْدَه[٥].

٢٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ المرادُ مِن ذلك تعظيمُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ وذلك لوُجوهٍ:

أحدُها: كأنَّه تعالى بيَّن له أنَّه مع القُدرةِ على بَعثةِ رَسولٍ ونَذيرٍ في كُلِّ قَريةٍ، خَصَّه بالرِّسالةِ وفضَّلَه بها على الكُلِّ؛ ولذلك أتبَعَه بقَولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٥).

ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: لا تُوافِقْهم.

وثانيها: المرادُ: ولو شِئْنا لخفَّفْنا عنك أعباءَ الرِّسالةِ إلى كُلِّ العالَمينَ، ولَبَعَثْنا في كُلِّ قَريةٍ نَذيرًا، ولكِنَّا قصَرْنا الأمرَ عليك، وأجلَلْناك وفضَّلْناك على سائرِ الرُّسُلِ، فقابِلْ هذا الإجلالَ بالقوَّةِ في الدِّينِ.

وثالثها: أنَّ الآيةَ تقتضي مَزْجَ اللُّطفِ بالعُنفِ؛ لأنَّها تدُلُّ على القُدرةِ على أن يَبعَثَ في كُلِّ قريةٍ نَذيرًا مِثلَ محمَّدٍ، وقَولُه: ﴿وَلَوۡ﴾ يدُلُّ على أنَّه سُبحانَه لا يفعَلُ ذلك، فبالنَّظَرِ إلى الأوَّلِ يحصُلُ التأديبُ، وبالنظَرِ إلى الثاني يحصُلُ الإعزازُ[1].

٢٣- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ كما لا تجوزُ طاعةُ الكافرين في شيءٍ ممَّا يُمليه عليهم كُفرُهم؛ كذلك لا تجوزُ طاعةُ العصاةِ في شيءٍ ممَّا تُمليه عليهم معصيتُهم؛ لأنَّ الجميعَ فيه مخالفةٌ لدينِ اللهِ، وكما يُجاهَدُ أهلُ الكُفرِ بالقرآنِ العظيمِ الجهادَ الكبيرَ، كذلك يُجاهَدُ به أهلُ المعصيةِ؛ لأنَّه كتابُ الهدايةِ لكلِّ ضالٍّ، والدَّعوةِ لكل مُرشدٍ، وفي ذِكرِ الكافرين تنبيهٌ على العصاةِ مِن بابِ التَّنبيهِ بالأعلى على الأدنى؛ لاشتِراكِهم في العلَّةِ، وهي المخالَفةُ[2].

٢٤- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ النهيَ عن الشَّيءِ لا يقتضي كونَ المنهيِّ عنه مُشتغِلًا به[3].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ أنَّه قد سمَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٤).

تعالى الجهادَ بالقرآنِ جهادًا كبيرًا، وفي هذا مَنقبةٌ كبرى للقائمِين بالدَّعوةِ إلى اللهِ بالقُرآنِ العظيمِ، وفي ذلك نِعمةٌ عظيمةٌ مِن اللهِ عليهم حيثُ يَسَّرَهم لهذا الجهادِ، حتى لَيَصِحُّ أن يُسَمَّوا بهذا الاسمِ الشَّريفِ «مجاهدون»؛ فحُقَّ عليهم أنْ يُقَدِّروا هذه النِّعمةَ، ويُؤدُّوا شُكرَها بالقَولِ والعَمَلِ والإخلاصِ، والصَّبرِ والثَّباتِ واليقينِ[١].

٢٦- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ يدُلُّ على أنَّ الله سُبحانَه جعل الماءَ سَبَبَ الاجتِماعِ والتآلُفِ[٢].

٢٧- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ فيه إشارةٌ إلى المحرَّماتِ بالسَّبَبِ والنَّسَبِ، وأنَّ كُلَّ ذلك تولَّد مِن الماءِ[٣].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ بيانُ خطأِ مَن يُسمِّي أقاربَ الزَّوجِ أو الزَّوجةِ «أنسابي» لأنَّه تزوَّجَ منهم، وهذا خطأٌ على اللُّغةِ؛ فإنَّ الأنسابَ هم القَرابةُ مِن قِبَلِ الأبِ أو مِن قِبَلِ الأمِّ، والأرحامَ كذلك هم القَرابةُ مِن قِبَلِ الأبِ أو مِن قِبَلِ الأمِّ، وأمَّا أقاربُ الزَّوجينِ فإنهم يُسمَّون أصهارًا لا أنسابًا؛ فقد جَعَلَ اللهُ تعالى الصِّلةَ بيْن البشَرِ بهذينِ الأمْرينِ: النَّسبِ، والصِّهرِ، وهما قَسيمانِ، أي: أنَّ بعضَهما قسيمٌ للآخَرِ، ومُباينٌ له[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٥١٦).

ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، فيه انتِقالٌ مِن إثباتِ صِدْقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإثباتِ أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ أنزَلَه على رَسولِه، وصِفاتِ الرُّسلِ وما تَخلَّلَ ذلك مِنَ الوَعيدِ، وهو مِن هذا الاعتِبارِ متَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الفرقان: ٣٢] الآيةَ. وفيه انتِقالٌ إلى الاستِدلالِ على بُطلانِ شِرْكِهم، وإثباتِ الوَحدانيَّةِ للهِ، وهو مِن هذه الجهةِ متَّصِلٌ بقولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [الفرقان: ٣] الآيةَ[(١)].

- قولُه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ ...﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ[(٢)].

- وأصْلُ النَّظمِ: (ألمْ تَنظُرْ إلى الظِّلِّ كيف مَدَّه ربُّك؟)، فغُيِّرَ النَّظمُ فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؛ إشعارًا بأنَّه المعقولُ مِن هذا الكلامِ؛ لوُضوحِ بُرهانِه، وهو دَلالةُ حُدوثِه وتَصرُّفِه على الوجهِ النَّافعِ بأسبابٍ مُمكِنةٍ، على أنَّ ذلك فِعلُ الخالِقِ الحَكيمِ كالمُشاهَدِ المَرْئيِّ، فكيف بالمَحسوسِ منه؟! ولو قيل: (ألمْ تَرَ إلى الظِّلِّ كيف مَدَّه؟) كان الانتِقالُ مِنَ الأثرِ إلى المؤَثِّرِ، والَّذي عليه التِّلاوةُ عكْسُه، والمَقامُ يَقتَضِيه؛ لأنَّ الكلامَ في تَقريعِ القَومِ، وتَجهيلِهم في اتِّخاذِهمُ الهوَى إلهًا مع وُضوحِ هذه الدَّلائلِ؛ ولذلك جَعَل ما يدُلُّ على ذاتِه مُقدَّمًا على أفعالِه في سائرِ آياتِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾ [الفرقان: ٤٧]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الفرقان: ٤٨]، ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا﴾ [الفرقان: ٥١][(٣)]. وأيضًا لعلَّ تَوجيهَ الرُّؤيةِ إليه سبحانه وتعالى مع

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٨، ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٤٤، ٢٤٥).

أنَّ المرادَ تَقريرُ رؤْيَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لكيفيَّةِ مَدِّ الظِّلِّ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ نظَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غَيرُ مَقصورٍ على ما يُطالِعُه مِنَ الآثارِ والصَّنائعِ، بل مَطمَحُ أنظارِه مَعرِفةُ شُؤونِ الصَّانعِ المَجيدِ[١].

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ معَ الإضافةِ إلى ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ﴿رَبِّكَ﴾؛ لتَشريفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وللإيذانِ بأنَّ ما يَعقُبُه مِن آثارِ رُبوبيَّتِه ورحمتِه تعالى[٢].

- وقُوبِلَ قولُه: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ بقَولِه: ﴿سَاكِنًا﴾، ومقابِلُ السُّكونِ الحرَكةُ؛ فيكونُ إطلاقُ مَدِّ ظِلٍّ وبَسْطِه على الحركةِ مِن بابِ تَسميةِ الشَّيءِ باسمِ مُلابِسِه أو سببِه. وعَدَل عن (متحرِّكًا) إلى (مَدَّ)، وهو أَظهَرُ مِن (مَدَّ) في تَناوُلِه الانبِساطَ والامتِدادَ؛ ليُدمِجَ فيه معنَى الانتِفاعِ المقصودِ بالذَّاتِ، وهو معرفةُ أوقاتِ الصَّلَواتِ؛ فإنَّ اعتِبارَ الظِّلِّ فيها بالامتِدادِ دُونَ الانبِساطِ، وتَمَّمَ معنَى الإدماجِ بقَولِه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، أيْ: بالتَّدريجِ والمَهَلِ لمعرفةِ السَّاعاتِ والأوقاتِ، وفيه لَمحةٌ مِن معنَى قَولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٨][٣]؛ فلَمَّا كان مَدُّ الظِّلِّ يُشبِهُ صورةَ التَّحرُّكِ أَطلَقَ على انتِفاءِ الامتِدادِ اسمَ السُّكونِ بأنْ يُلازِمَ مِقْدارًا واحدًا لا يَنقُصُ ولا يَزيدُ. ودلَّتْ مُقابَلةُ قَولِه: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ بقَولِه: ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ على حالةٍ مَطْويَّةٍ مِنَ الكلامِ؛ وهي حالةُ عُمومِ الظِّلِّ جميعَ وجْهِ الأرضِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤١).

- وجُملةُ ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ جملةٌ معترِضةٌ للتَّذكيرِ بأنَّ في الظِّلِّ مِنَّةً[١]، وأيضًا قدِ اعترَضتْ بيْن المَعطوفَينِ؛ للتَّنبيهِ مِن أوَّلِ الأمرِ على أنَّه لا مَدخَلَ فيما ذُكِر مِنَ المَدِّ للأسبابِ العاديَّةِ، وإنَّما المؤثِّرُ فيه المَشيئةُ والقُدرةُ. ومَفعولُ المشيئةِ مَحذوفٌ، أي: ولو شاء سُكونَه لجَعَله ساكنًا، أي: ثابتًا على حالِه مِنَ الطُّولِ والامتِدادِ، وإنَّما عُبِّر عن ذلك بالسُّكونِ؛ لِما أنَّ مُقابِلَه الَّذي هو تَغيُّرُ حالِه حسَبَ تَغيُّرِ الأوضاعِ بيْن الظلِّ وبيْن الشَّمسِ يُرَى رأيَ العَينِ حرَكةً وانتِقالًا، وحاصِلُه: أنَّه لا يَعتَريهِ اختِلافُ حالٍ بألَّا تَنسَخَه الشَّمسُ[٢].

- وجُعِل امتِدادُ الظِّلِّ لاختِلافِ مَقاديرِه كامتِدادِ الطَّريقِ، وعلاماتُ مقاديرِه مثلَ صُوَى الطَّريقِ (أي: الأعلامِ المنصوبةِ التي يُستدلُّ بها عليه)، وجُعِلَتِ الشَّمسُ -مِن حيثُ كانتْ- سببًا في ظهورِ مَقاديرِ الظِّلِّ كالهادي إلى مَراحِلَ، بطريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ؛ فكما أنَّ الهادي يُخبِرُ السَّائرَ أين يَنزِلُ مِنَ الطَّريقِ، كذلك الشَّمسُ بتَسبُّبِها في مَقاديرِ امتِدادِ الظِّلِّ تُعرِّفُ المُستدِلَّ بالظِّلِّ بأوقاتِ أعمالِه ليَشرَعَ فيها. وتَعديةُ ﴿دَلِيلًا﴾ بحرف (على) تُفيدُ أنَّ دَلالةَ الشَّمسِ على الظِّلِّ هنا دَلالةُ تَنبيهٍ على شَيءٍ قد يَخفَى[٣].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ الالتِفاتُ إلى نُونِ العظَمةِ؛ لِمَا في الجَعْلِ المَذكورِ العاري عنِ التَّأثيرِ مع ما يُشاهَدُ بيْنَ الشَّمسِ والظِّلِّ مِنَ الدَّوَرانِ المُطَّردِ المُنبئِ عنِ السَّببيَّةِ: مِن مَزيدِ دَلالةٍ على عِظَمِ القُدرةِ، ودِقَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٢).

الحكمةِ، وهو السِّرُّ في إيرادِ كلمةِ التَّراخي[١]. وقيل: الالتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾؛ لأنَّ ضميرَ المتكلِّمِ أَدخَلُ في الامتِنانِ مِن ضَميرِ الغائبِ، فهو مُشعِرٌ بأنَّ هذا الجَعْلَ نِعمةٌ، وهي نعمةُ النُّورِ الَّذي به تَمييزُ أحوالِ المَرئيَّاتِ؛ وعليه فقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ارتِقاءٌ في المِنَّةِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، وأفادَتْ (ثُمَّ) أنَّ مَدلولَ المَعطوفِ بها مُتَراخٍ في الرُّتبةِ عن مَدلولِ المعطوفِ عليه، شأنُ (ثُمَّ) إذا عَطَفَتِ الجملةَ. ومعنَى تَراخي الرُّتبةِ أنَّها أبعَدُ اعتِبارًا، أي: أنَّها أرفَعُ في التَّأثيرِ أو في الوُجودِ؛ فإنَّ وُجودَ الشَّمسِ هو عِلَّةُ وُجودِ الظِّلِّ للأجسامِ الَّتي على الأرضِ، والسَّببُ أرفَعُ رُتبةً مِنَ المُسبَّبِ، أي: أنَّ اللهَ مَدَّ الظِّلَّ بأنْ جَعَل الشَّمسَ دليلًا على مَقاديرِ امتِدادِه[٣].

- وموقعُ (ثُمَّ) في هذَينِ المَوضعَينِ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ لبيانِ تَفاضُلِ الأمورِ الثَّلاثةِ (مَد الظِّل، وسُكونه، وقَبْضه): كأن الثَّاني أَعظَمُ مِنَ الأوَّلِ، والثَّالثَ أَعظَمُ منهما -لأنَّ في إزالةِ الظِّلِّ بالشَّمسِ دَليلًا على جُودِه؛ فلولا الشَّمسُ ما عُرِفَ الظِّلُّ-؛ تشبيهًا لتَباعُدِ ما بيْنَهما في الفضلِ بتَباعُدِ ما بيْنَ الحَوادثِ في الوقتِ، أو لتَفاضُلِ مَبادئِ أوقاتِ ظُهورِها. أو أنَّ «ثمَّ» تُفيدُ التَّراخيَ في الزَّمانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤١، ٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٣).

٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي الزَّمانيِّ؛ لِما أنَّ في بيانِ كَونِ القبضِ والمدِّ مُرتَّبَينِ دائِرَينِ على قُطبِ مَصالِحِ المَخلوقاتِ مَزيدَ دَلالةٍ على الحكمةِ الرَّبَّانيَّةِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ للتَّراخي الرُّتْبيِّ، أي: أزَلْناه بعْدَ ما أَنشَأْناهُ مُمتَدًّا، ومَحَوْناه بمَحْضِ قُدرتِنا ومَشيئتِنا عِندَ إيقاعِ شُعاعِ الشَّمسِ مَوقعَه، مِن غَيرِ أن يكونَ له تأثيرٌ في ذلك أصلًا، وإنَّما عَبَّر عنه بالقَبضِ المُنبئِ عن جمْعِ المُنبسِطِ وطَيِّه؛ لِمَا أنَّه قد عَبَّر عن إحداثِه بالمَدِّ الَّذي هو البَسْطُ طُولًا[1].

- وجُملةُ ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا...﴾ إلخ عطْفٌ على جُملةِ ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، أو على جُملةِ ﴿جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾؛ لأنَّ قَبضَ الظِّلِّ مِن آثارِ جعْلِ الشَّمسِ دليلًا على الظِّلِّ. و(ثمَّ) الثَّانيةُ مِثلُ الأُولى مُفيدةٌ التَّراخيَ الرُّتبيَّ؛ لأنَّ مَضمونَ جملةِ ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أهَمُّ في الاعتِبار بمَضمونِها مِن مَضمونِ ﴿جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾؛ إذْ في قَبضِ الظِّلِّ دَلالةٌ مِن دَلالةِ الشَّمسِ هي عكْسُ دَلالتِها على امتِدادِه؛ فكانت أَعجَبَ؛ إذْ هي عمَلٌ ضِدٌّ للعملِ الأوَّلِ، وصُدورُ الضِّدَّينِ مِنَ السَّببِ الواحدِ أَعجَبُ مِن صُدورِ أحدِهما السَّابقِ في الذِّكرِ[2].

- قولُه: ﴿إِلَيْنَا﴾ للتَّنصيصِ على كَونِ مَرجعِه إليه تعالى، كما أنَّ حُدوثَه منه عزَّ وجلَّ[3].

- قولُه: ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾ أفادَ قولُه: ﴿إِلَيْنَا﴾ وصِيغةُ الجَمعِ: القَبضَ التَّامَّ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٣).

كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[١] [فاطر: ٢].

- ومَوقعُ وصْفِ القَبضِ بـ (يَسيرٍ) هنا أنَّه أُريدَ أنَّ هذا القَبضَ يَحصُلُ ببُطْءٍ دُونَ طَفْرةٍ؛ فإنَّ في التَّريُّثِ تَسهيلًا لقَبضِه؛ لأنَّ العملَ المُجزَّأَ أَيسَرُ على النُّفوسِ مِنَ المُجتمِعِ غالِبًا، فأُطلِقَ اليُسرُ، وأُريدَ به لازِمُ معناهُ عُرْفًا، وهو التَّدريجُ ببُطْءٍ، على طريقةِ الكِنايةِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ بيانٌ لبعضِ بَدائعِ آثارِ قُدرتِه تعالى وحِكمتِه ورَوائعِ أحكامِ رحمتِه ونِعَمِه الفائِضةِ على الخَلْقِ. وتَلوينُ الخِطابِ لتَوفيةِ مَقامِ الامتِنانِ حقَّه، واللَّامُ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿جَعَلَ﴾، وتَقديمُها على مَفعولَيْهِ؛ للاعتِناءِ ببَيانِ كَونِ ما يَعْقُبُه مِن مَنافعِهم، وفي تَعقيبِ بَيانِ أحوالِ الظِّلِّ ببَيانِ أحكامِ اللَّيلِ -الَّذي هو ظِلُّ الأرضِ- مِن لُطْفِ المَسلَكِ ما لا مَزيدَ عليه[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ التِفاتٌ؛ حيث رَجَع أسلوبُ الكلامِ مِنَ المُتكلِّمِ إلى الغَيبةِ[٤].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ جُزْأَيِ الجُملةِ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ قَصْرُ إفرادٍ، أي: لا يَشْركُه غَيرُه في جَعْلِ اللَّيلِ والنَّهارِ، أمَّا كَونُ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤).

الجَعلِ المذكورِ بخَلْقِ اللهِ فهُم يُقِرُّون به، ولكنَّهم لَمَّا جَعَلوا له شُركاءَ على الإجمالِ أُبطِلَتْ شَرِكَتُهم بقَصرِ التَّصرُّفِ في الأزمانِ على اللهِ تعالى؛ لأنَّه إذا بَطَل تَصرُّفُهم في بعضِ الموجوداتِ اختَلَّتْ حقيقةُ الإلهيَّةِ عنهم؛ إذِ الإلهيَّةُ لا تَقبَلُ التَّجزئةَ[١].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾ شُبِّه ما يَستُرُ مِن ظَلامِ اللَّيلِ باللِّباسِ السَّاتِرِ، على طَريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا﴾ قيل: عبَّر عنِ النَّومِ بالسُّباتِ الَّذي هو الموتُ -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-؛ لِما بيْنهما مِنَ المُشابَهةِ التَّامَّةِ في انقطاعِ أحكامِ الحياةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أيْ: جعَل النَّهارَ زمانَ بَعثٍ ونُشورٍ مِن ذلك السُّباتِ كبَعثِ الموتَى؛ على حَذفِ المُضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه مقامَه، أو: جعَل النَّهارَ نفْسَ البَعثِ على طَريقِ المبالَغةِ[٤]. والنُّشورُ هنا الإحياءُ؛ شَبَّهَ اليَقظةَ به؛ لِيَتطابَقَ الإحياءُ مع الإماتةِ اللَّذَينِ يَتضمَّنُهما النَّومُ والسُّباتُ[٥].

- وإعادةُ فِعلِ (جَعَل) في قَولِه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ دُونَ أن يُعادَ في قَولِه: ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا﴾ مُشعِرةٌ بأنَّه تَنبيهٌ إلى أنَّه جَعْلٌ مُخالِفٌ لجَعلِ اللَّيلِ لِباسًا؛ وذلك أنَّه أخبَرَ عنه بقوله: ﴿نُشُورًا﴾، والنُّشورُ: بَعثُ الأمواتِ، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤، ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٤).

إدماجٌ[١] للتَّذكيرِ بالبَعثِ، وتَعريضٌ بالاستِدلالِ على مَن أَحالُوه بتَقريبِه بالهُبوبِ في النَّهارِ. والنُّشورُ: الحياةُ بعْدَ المَوتِ، وهو هنا يَحتمِلُ مَعنيَينِ: أن يكونَ مُرادًا به البُروزُ والانتِشارُ؛ فيكونَ ضِدَّ اللِّباسَ في قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾، فيكونَ الإخبارُ به عنِ النَّهارِ حقيقيًّا، والمِنَّةُ في أنَّ النَّهارَ يَنتشِرُ فيه النَّاسُ لحَوائجِهم واكتِسابِهم. ويحتمِلُ أن يكونَ مرادًا به بَعْثُ الأجسادِ بعْدَ مَوتِها؛ فيكونَ الإخبارُ على طريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قُدِّمَ الاعتِبارُ بحالةِ سَترِ اللَّيلِ على الاعتِبارِ بحالةِ النَّومِ؛ لرَعيِ مناسَبةِ اللَّيلِ بالظِّلِّ، بخِلافِ قَولِه في سُورةِ النَّبأ: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجًا ۞ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتًا ۞ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: ٨-١٠]؛ فإنَّ نِعمةَ النَّومِ أهَمُّ مِن نِعمةِ السَّترِ، ولأنَّ المناسَبةَ بيْنَ نِعمةِ خلْقِ الأزواجِ وبيْنَ النَّومِ أَشَدُّ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ فيه احتِباكٌ[٤]؛ حيثُ ذَكَر السُّباتَ أوَّلًا دليلًا على الحركةِ ثانيًا، والنُّشورَ ثانيًا

---

(١) الإدماجُ لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشَّيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِى ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥، ٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤٥).

(٤) الاحتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، =

دليلًا على الطَّيِّ والسُّكونِ أوَّلًا[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ استِدلالٌ على الانفِرادِ بالخَلْقِ، وامتِنانٌ بتكوينِ الرِّياحِ والسُّحبِ والمطرِ، ومَردودُ الاستِدلالِ قَصْرُ إرسالِ الرِّياحِ وما عُطِف عليه على اللهِ تعالى؛ إبطالًا لادِّعاءِ الشُّرَكاءِ له في الإلهيَّةِ بنَفيِ الشَّرِكةِ في التَّصرُّفِ في هذه الكائناتِ، وذلك ما لا يُنكِرُه المشْركونَ، ولكنَّهم لَمَّا جَعَلوا له شُركاءَ على الإجمالِ أُبطِلَت شَرِكتُهم بقَصرِ التَّصرُّفِ في الرِّياحِ على اللهِ تعالى؛ لأنَّه إذا بَطَل تَصرُّفُهم في بعضِ المَوجوداتِ اختلَّتْ حقيقةُ الإلهيَّةِ عنهم؛ إذِ الإلهيَّةُ لا تَقبَلُ التَّجزِئةَ[٢].

- وجملةُ ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ عطْفٌ على جملةِ ﴿أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ فهي داخلةٌ في حَيِّزِ القَصرِ، أي: وهو الَّذي أَنزَل مِنَ السَّماءِ ماءً طَهورًا[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ التِفاتٌ إلى نونِ العَظَمةِ؛ لإبرازِ كَمالِ العنايةِ بالإنزالِ؛ لأنَّه نتيجةُ ما ذُكِر مِن إرسالِ الرِّياحِ[٤]. وأيضًا الالتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في قَولِه: ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾، ﴿لِّنُحۡـِۧيَ﴾، ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ﴾، ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ﴾؛ لِمَا في إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ، وإحياءِ البلدِ المَيْتِ به، وسَقْيِه للنَّاسِ والدَّوابِّ، وتَصريفِ الماءِ: مِن مَزيدِ دَلالةٍ على عِظَمِ القُدرةِ، ودِقَّةِ الحِكمةِ،

= إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤).

ولأنَّ ضَميرَ المُتكلِّمِ أَدخلُ في الامتِنانِ مِن ضَميرِ الغائبِ؛ فهو مُشعِرٌ بأنَّ (الإنزالَ، والإحياءَ، والسَّقيَ، والتصريفَ) نِعمةٌ[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ وصَفَ الماءَ بالطَّهارةِ، وعلَّلَ إنزالَه بالإحياءِ والسَّقْيِ؛ لأنَّه لَمَّا كان سَقْيُ الأناسيِّ مِن جملةِ ما أنزَلَ له الماءَ، وصَفَه بالطَّهورِ إكرامًا لهم، وتَتْميمًا للمِنَّةِ عليهم، وبيانًا أنَّ مِن حقِّهم حينَ أرادَ اللهُ لهمُ الطَّهارةَ، وأَرادَهم عليها أن يؤْثِرُوها في بَواطِنِهم ثمَّ في ظَواهِرِهم، وأنَّ يَرْبَؤوا بأنفُسِهم عن مُخالَطةِ القاذُوراتِ كلِّها، كما رَبَأ بهم ربُّهُم. وقيل: الظَّاهرُ في قَولِه: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ أن يكونَ للمُبالَغةِ في طَهارتِه، وجِهةُ المُبالَغةِ: كَونُه لم يَشُبْهُ شَيءٌ بخِلافِ ما نَبَع مِنَ الأرضِ ونَحوِه؛ فإنَّه تَشوبُه أجزاءٌ أرْضيَّةٌ مِن مَقرِّه أو مَمَرِّه أو ممَّا يُطرَحُ فيه، ويَجوزُ أن يوصَفَ بالاسمِ وبالمَصدرِ[٢]. والطَّهورُ -بفَتحِ الطَّاءِ- مِن أمثلةِ المُبالَغةِ في الوَصفِ بالمصدرِ، ووصْفُ الماءِ بالطَّهورِ يَقتَضي أنَّه مُطهِّرٌ لغَيرِه؛ إذِ العُدولُ عن صيغةِ (فاعِلٍ) إلى صيغةِ (فَعولٍ) لزِيادةِ معنًى في الوَصفِ، فاقتِضاؤُه في هذه الآيةِ أنَّه مُطهِّرٌ لغَيرِه اقتِضاءٌ التِزاميٌّ؛ ليَكونَ مُستكمِلًا وصْفَ الطَّهارةِ القاصِرةِ والمُتعدِّيةِ، فيكونَ ذِكرُ هذا الوَصفِ إدماجًا لمِنَّةٍ في أثناءِ المِنَنِ المَقصودةِ، ويكونَ كقَولِه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]، وصَفَ الطَّهارةَ الذَّاتيَّةَ وتَطهيرَه، فيكونُ هذا الوَصفُ إدماجًا، ولولا ذلك لكان الأحَقَّ بمَقامِ الامتِنانِ وصْفُ الماءِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤١- ٤٢، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤).

بالصَّفاءِ أو نَحوِ ذلك[١].

٥- قوله تعالى: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾

- قولُه: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ لَمَّا كان المقصودُ بإحياءِ الأرضِ بالنَّباتِ إحياءَ البلادِ لإحياءِ أهْلِها؛ قال: ﴿بَلْدَةً﴾، ولو كان مِلْحًا أو مُرًّا أو مُكبرتًا لم تكنْ فيه قوَّةُ الإحياءِ. ولَمَّا كُرِه أن يُفهَمَ تَخصيصُ البلادِ، أُجريَ الوَصفُ باعتِبارِ المَوضعِ؛ لِيَعُمَّ كلَّ مكانٍ، فقال: ﴿مَّيْتًا﴾[٢].

- وقيل: ذكَّر الصِّفةَ ﴿مَّيْتًا﴾ مع أنَّ المَوصوفَ ﴿بَلْدَةً﴾ مؤنَّثٌ؛ لأنَّه أُريدَ به اسمُ المَيتِ، ووصْفُ البَلدةِ به وصْفٌ على معنَى التَّشبيهِ البَليغِ[٣]. وقيل: ذَكَّره نظرًا إلى معنَى البلدةِ وهو المكانُ، لا إلى لفْظِها، والسِّرُّ فيه تَخفيفُ اللَّفظِ. وقيل: التَّذكيرُ لأنَّ البَلدةَ بمعنَى البلدِ، ولأنَّه غَيرُ جارٍ على الفعلِ كسائرِ أَبنيةِ المُبالَغةِ؛ فأُجريَ مَجرَى الجامدِ[٤].

- قولُه: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ المَوصولُ (ما) للإيماءِ إلى علَّةِ الخَبرِ، أي: نُسْقِيَهم؛ لأنَّهم مَخلوقاتٌ؛ ففائدةُ هذا الحالِ الإشارةُ إلى رحمةِ اللهِ بها؛ لأنَّها خَلْقُه[٥].

- وفي قولِه: ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أنواعًا أُخرى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٧، ٤٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠١، ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٤، ٤٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨، ٤٩).

مِنَ الخَلائقِ تُسقَى بماءِ السَّماءِ، ولكنَّ الاقتِصارَ على ذِكرِ الأنعامِ والأناسيِّ؛ لأنَّهما مَوقِعُ المِنَّةِ؛ فالأنعامُ بها صَلاحُ حالِ البادينَ بألْبانِها وأَصوافِها وأَشعارِها ولُحومِها، وهي تَشرَبُ مِن مياهِ المطرِ مِنَ الأَحواضِ والغُدْرانِ[(١)].

وقيل: خَصَّ الأنعامَ بالذِّكرِ مِن بيْنِ ما خَلَق مِنَ الحَيوانِ الشَّاربِ بخِلافِ الأنعامِ؛ لأنَّ أهلَ القُرَى والأمصارِ يُقِيمون بقُربِ الأنهارِ والمَنابعِ، فبهم وبما لهم مِنَ الأنعامِ غُنْيَةٌ عن سُقْيَا السَّماءِ؛ فكان الإنعامُ عليهم بسَقيِ أنعامِهم كالإنعامِ بسَقْيِهم، والطَّيرُ والوَحْشُ وسائرُ الحيواناتِ بخِلافِ ذلك؛ إذ تُبعِدُ في طلَبِ الماءِ فلا يُعوِزُها الشُّربُ غالبًا، مع أنَّ مَساقَ الآياتِ الكريمةِ كما هو للدَّلالةِ على عِظَمِ القُدرةِ فهو لتَعدادِ أنواعِ النِّعمةِ، والأنعامُ -حيثُ كانتْ- قُنْيَةٌ للإنسانِ، وعامَّةُ مَنافِعِهم ومَعايشِهم مُتعلِّقةٌ بها[(٢)].

- وتَنكيرُ الأنعامِ والأَناسيِّ ووصْفُها بالكَثرةِ في قولِه: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾؛ لأنَّ عِلْيَةَ النَّاسِ وجُلَّهم قَريبونَ مِنَ الأوديةِ والأنهارِ ومَنابعِ الماءِ؛ ففيهم غُنْيَةٌ عن سَقيِ السَّماءِ، وأعقابُهم -وهُم كثيرٌ منهم- لا يُعيِّشُهم إلَّا ما يُنزِلُ اللهُ مِن رَحمتِه، وسُقْيَا سَمائِه[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا * لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ فقد قَدَّمَ حَياةَ الأرضِ وإسقاءَ الأنعامِ على إسقاءِ النَّاسِ، وإنْ كانوا أَشرَفَ محلًّا؛ لأنَّ حياةَ الأرضِ هي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨، ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩).

سبَبٌ لحَياةِ الأنعامِ والنَّاسِ؛ فلمَّا كانت بهذه المَثابةِ جُعِلَتْ مُقدَّمةً في الذِّكرِ، ولَمَّا كانتِ الأنعامُ مِن أسبابِ التَّعيُّشِ والحياةِ للنَّاسِ قدَّمَها في الذِّكرِ على النَّاسِ؛ لأنَّ حياةَ النَّاسِ بحياةِ أرْضِهم وأَنعامِهم، فقُدِّمَ سَقْيُ ما هو سبَبُ نَمائِهم ومَعاشِهم على سَقْيِهم، وهذا الوَجهُ مَبنيٌّ على تَقدُّمِ الأسبابِ على المُسبَّباتِ. ووجْهٌ آخَرُ: أنَّهم إذا وجَدوا ما يَسقي أرضَهم ومواشيَهم وجَدوا سُقياهُم، وهذا الوجهُ مَبنيٌّ على تقديمِ ما يَشتَدُّ فيه الاحتِياجُ إلى الماءِ، ويَكثُرُ به الانتِفاعُ؛ فإنَّ انتِفاعَ الإنسانِ بحياةِ الأرضِ أكثَرُ، واهتِمامَه بسُقياها أشَدُّ مِن سُقيَا الأنعامِ، ثمَّ اهتِمامُه بسُقْيا الأنعامِ أقدَمُ مِن سُقيا نفْسِه؛ لأنَّهم إذا ظَفِروا بما يكونُ سُقْيَا أرْضِهم ومواشيهم لَمْ يَعدَموا سُقياهم. وهذا الوجهُ أحسَنُ، ولمعنَى الإيغالِ[1] والتَّتميمِ[2] أجمَعُ؛ إذْ ليس اهتِمامُ مَن يَقرَبُ الأَوديةَ والأنهارَ ومَنابعَ الماءِ كاهتِمامِ مَن هو بعيدٌ منها؛ فعلى هذا المرادُ بالأناسيِّ: أصحابُ البَوادي والمُتبعِّدونَ مِن مَظانِّ الماءِ[3].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ فيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قَدَّم ذِكرَ الأنعامِ على الأَناسيِّ؛ لأنَّه اقتَضاهُ نَسْجُ الكلامِ على طريقةِ الإحكامِ في تعقيبِه بقَولِه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان: ٥٠]، ولو قُدِّمَ ذِكرُ (أَناسيَّ) لتَفكَّكَ النَّظمُ. ولم يُقدِّمْ ذِكرَ النَّاسِ في قَولِه تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣، عبس: ٣٢]؛ لانتِفاءِ الدَّاعي للتَّقديمِ؛ فجاءَ

---

(١) سبق تعريفه (ص: ١٢٦).

(٢) سبق تعريفه (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٥).

على أصلِ التَّرتيبِ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ جيءَ بالجملةِ القَسَميَّةِ، لإبطالِ زَعمِ مَن يَزعُمُ أنَّ ذلك بسببِ الأَنواءِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فيه توكيدُ الجُملةِ بلامِ القَسمِ و(قد) لتَحقيقِ التَّعليلِ؛ لأنَّ تَصرُّفَ المطرِ مُحقَّقٌ لا يَحتاجُ إلى التَّأكيدِ، وإنَّما الشَّيءُ الَّذي لم يَكُنْ لهم عِلمٌ به هو أنَّ مِن حِكمةِ تَصريفِه بيْن النَّاسِ أن يَذْكروا نِعمةَ اللهِ تعالى عليهم مع نُزولِه عليهم، وفي حالةِ إمساكِه عنهم؛ لأنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ لا يَقدُرُ قَدْرَ النِّعمةَ إلَّا عِندَ فَقدِها، فيَعلَموا أنَّ اللهَ هو الرَّبُّ الواحِدُ المُختارُ في خلْقِ الأسبابِ والمُسبَّباتِ[٣].

- ولَمَّا كان التَّذكُّرُ شاملًا لشُكرِ المُنعَمِ عليهم بإصابةِ المطرِ، ولتَفطُّنِ المَحرومينَ إلى سببِ حِرمانِهم إيَّاه لعلَّهم يَستَغفِرون، جيءَ في التَّعليلِ بفِعلِ ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾؛ لِيَكونَ علَّةً لحالَتَيِ التَّصريفِ بيْنهم[٤].

- وقوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ تَركيبٌ جرَى بمادَّتِه وهَيئتِه مَجرَى المَثَلِ في الإخبارِ عن تَصميمِ المُخبَرِ عنه على ما بعْدَ حَرْفِ الاستِثناءِ، وذلك يَقتَضي وُجودَ الصَّارفِ عنِ المُستثنَى، أي: فصَمَّموا على الكُفورِ لا يَرجِعون عنه؛ لأنَّ الاستِثناءَ مِن عُمومِ أشياءَ مُبهمَةٍ جُعِلَتْ كلُّها ممَّا تَعلَّقَ به الإباءُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩، ٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٠).

كأنَّ الآبِينَ قد عُرِضَتْ عليهم -مِنَ النَّاسِ أو مِن خَواطِرِهم- أمورٌ وراجَعوا فلمْ يَقبَلوا منها إلَّا الكُفورَ، وإنْ لم يَكُنْ هنالك عَرْضٌ ولا إباءٌ[١].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾

- الأصلُ في (بَعَث) و(أرسل) وأمثالِهما أنْ يَتعدَّى بـ (إلى)، وهنا قال: ﴿لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾؛ فجُعِلتِ القريةُ موضعًا للإرسالِ؛ فلم يُعَدَّ بـ (في) كما عُدِّي بـ (إلى)، ولم يُجعَلْ صِلةً مِثلَه، يعني: أنَّ «في» هنا ليستْ للتَّعديةِ، مِثل «إلى»، لكنها: ظرفٌ له، اقتطع «بَعَثْنا» مِن صِلتِه، وجُعِلَ مطلقًا[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ هذا النهيُ مرادٌ به تَهييجُه صلَّى الله عليه وسلَّم، وتَهييجُ المؤْمنينَ وتَحريكُهم على عَدمِ طاعةِ الكافِرينَ فيما يُريدونَهم عليه؛ والخِطابُ وإنْ كان له فالحُكمُ شاملٌ لِأُمَّتِه[٣].

- وتفريعُ قَولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ على جُملةِ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾؛ لأنَّها تَتضمَّنُ أنَّه مُرسَلٌ إلى المشْركينَ مِن أهلِ مكَّةَ، وهُم يَطلُبون منه الكَفَّ عن دَعوَتِهم، وعن تَنقُّصِ أصنامِهم. والنَّهيُ مُستعمَلٌ في التَّحذيرِ والتَّذكيرِ، وفِعلُ ﴿تُطِعِ﴾ في سِياقِ النَّهيِ يُفيدُ عُمومَ التَّحذيرِ مِن أَدْنى طاعةٍ لهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٣).

- قولُه: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ قيل: إنَّه أُمِر بالحِرصِ على الدَّعوةِ والمُبالَغةِ فيها، وعُبِّرَ عن ذلك بالجِهادِ -وهو الاسمُ الجامعُ لمُنتهَى الطَّاقةِ- وصِيغةِ المُفاعَلةِ فيه؛ ليُفيدَ مُقابلةَ مَجهودِهم بمَجهودِه فلا يَضعُفُ؛ ولذلك وُصِف بالجِهادِ الكَبيرِ، أي: الجامعِ لكلِّ مُجاهَدةٍ[1]. قيل: لأنَّ مُجاهَدةَ السُّفهاءِ بالحُجَجِ أكبَرُ مِن مُجاهَدةِ الأعداءِ بالسَّيفِ، أو لأنَّ مُخالفتَهم ومُعاداتِهم فيما بيْن أظهُرِهم مع عُتُوِّهم وظُهورِهم[2]، أو جعَلَه جِهادًا كبيرًا لِما يُحتمَلُ فيه مِنَ المَشاقِّ العِظامِ، أو لأنَّه جِهادٌ مع كلِّ الكَفرةِ؛ لأنَّه مَبعوثٌ إلى القُرى كافَّةً[3].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ جمَعَتْ هذه الآيةُ: استِدلالًا، وتَمثيلًا، وتَثبيتًا، ووعْدًا؛ فصريحُها استِدلالٌ على شَيءٍ عظيمٍ مِن آثارِ القُدرةِ الإلهيَّةِ، وهو التِقاءُ الأنهارِ والأَبحُرِ. وفي ضِمْنِها تَمثيلٌ لحالِ دَعوةِ الإسلامِ في مكَّةَ يوْمَئذٍ واختِلاطِ المؤْمنينَ مع المشْركينَ بحالِ تَجاوُزِ البَحرينِ: أحدِهما عَذْبٌ فُراتٌ، والآخَرِ مِلْحٌ أُجاجٌ. وتمثيلُ الإيمانِ بالعَذْبِ الفُراتِ، والشِّركِ بالمِلْحِ الأُجاجِ، وأنَّ اللهَ تعالى كما جَعَل بيْن البَحرَينِ بَرْزخًا يَحفَظُ العَذْبَ مِن أنْ يُكدِّرَه الأُجاجُ، كذلك حَجَز بيْن المُسلِمينَ والمُشركينَ فلا يَستطيعُ المُشرِكونَ أنْ يَدُسُّوا كُفرَهم بيْن المسْلمينَ. وفي هذا تَثبيتٌ للمسْلمينَ بأنَّ اللهَ يَحجُزُ عنهم ضُرَّ المُشركينَ، لقَولِه: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗى﴾ [آل عمران: ١١١]. وفي ذلك تَعريضٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٧).

كِنائيٌّ بأنَّ اللهَ ناصِرٌ لهذا الدِّينِ مِن أن يُكدِّرَه الشِّركُ؛ ولأجْلِ ما فيها مِنَ التَّمثيلِ والتَّثبيتِ والوعدِ كان لِمَوقِعِها عَقِبَ جملةِ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] أكمَلُ حُسنٍ[١].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ القَصرُ المُستفادُ هنا مِن تَعريفِ جُزأَيِ الجُملةِ، هو قَصرُ إفرادٍ، أي: لا يَشرَكُه غَيرُه في مَرْجِ البَحرَينِ؛ لَمَّا جَعَلوا له شُركاءَ على الإجمالِ أُبطِلَتْ شَرِكَتُهم بقَصرِ التَّصرُّفِ في مَرْجِ البَحرَينِ على اللهِ تعالى؛ لأنَّه إذا بَطَل تَصرُّفُهم في بعضِ الموجوداتِ اختلَّتْ حَقيقةُ الإلهيَّةِ عنهم؛ إذِ الإلهيَّةُ لا تَقبَلُ التَّجزِئةَ[٢].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ﴿مَّحْجُورًا﴾ وصْفٌ لـ ﴿حِجْرًا﴾ مُشتَقٌّ مِن مادَّتِه؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ المعنَى المُشتَقِّ منه، كما قالوا: لَيْلٌ أَلْيَلُ[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾

- عَبَّر بالضَّميرِ ﴿وَهُوَ﴾ -كما تقدَّمه- حَثًّا على استِحضارِ الأفعالِ والصِّفاتِ التي تقَدَّمتْ؛ لِتُعرفَ الحيثيَّةُ التي كُرِّرَ الضَّميرُ لأجلِها[٤].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ ...﴾ القَصرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ الجُزأَينِ قَصرُ إفرادٍ؛ لإبطالِ دَعْوى شَرِكةِ الأصنامِ للهِ في الإلهيَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٣، ٥٤).
وهذا المذكورُ مِن قبيلِ التفسيرِ الإشاريِّ، وهو مِن بابِ الاعتبارِ والقياسِ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

- والماءُ في قَولِه: ﴿خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ مُطلَقٌ دَلَّ على شائعٍ في جِنسِ الماءِ؛ فتَقييدُه بقَولِه: ﴿بَشَرًا﴾ دَلَّ على أنَّ المرادَ منه النُّطفةُ الواحدةُ، ثمَّ تَقسيمُه بقَولِه: ﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ دَلَّ على نَوعَينِ: ذكَرٍ وأُنثى، وإنَّما عَدَل عنِ الذَّكرِ والأُنثى؛ ليؤْذِنَ بالانشِعابِ نَصًّا؛ فالنُّطفةُ الواحدةُ نُطفةُ آدَمَ عليه السَّلامُ؛ فإذَنِ الآيةُ على وِزانِ قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[1] [النساء: ١].

- والتَّنوينُ في قَولِه: ﴿بَشَرًا﴾ للتَّعظيمِ[2].

- وفي ترَكيبِ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ مِن دَقيقِ الإيذانِ بأنَّ قُدرتَه راسِخةٌ واجِبةٌ له، مُتَّصِفٌ بها في الأَزَلِ بما اقتَضاهُ فِعلُ (كان)، وما في صِيغةِ (قَدير) مِنَ الدَّلالةِ على قوَّةِ القُدرةِ المُقتضيةِ تمامَ الإرادةِ والعِلمِ[3].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٦).

الآيات (٥٥-٦٢)

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ظَهِيرًا﴾: أي: مُظاهِرًا ومُعاوِنًا، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[(١)].

﴿خَبِيرًا﴾: أي: عالِمًا، والخُبْرُ: العِلمُ بالشَّيءِ، أو: هو العِلمُ بكُنْهِ المَعلوماتِ على حقائقِها، والخبيرُ في أسماءِ الله: الَّذي انتهَى عِلمُه إلى الإحاطَةِ ببَواطِنِ الأشياءِ وخَفاياها، كما أحاطَ بظَواهِرِها، وأصلُ (خبر) هنا: يدُلُّ على عِلمٍ[(٢)].

﴿نُفُورًا﴾: أي: هَرَبًا، وذَهابًا عن الحَقِّ، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٩)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٩٣)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، =

﴿بُرُوجًا﴾: أي: مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ[١]، وقيل: البُروجُ: الكواكبُ العِظامُ، وأصلُ البرجِ: القَصرُ والحِصْنُ، وبه سُمِّي بروجُ السماءِ لمنازِلِها المختصةِ بها[٢].

﴿خِلْفَةً﴾: أي: مُتعاقِبَينِ؛ يخلُفُ أحدُهما الآخَرَ، وأصلُ (خلف): يدُلُّ على

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٤).

(١) قال الخازن: (هي بروجُ الفَلَك الاثنا عشرَ بُرجًا، وهي: الحمَلُ، والثورُ، والجوزاءُ، والسرطانُ، والأسدُ، والسنبلةُ، والميزانُ، والعقربُ، والقوسُ، والجَدْي، والدلوُ، والحوتُ. وهذه البروجُ مَقسومةٌ على ثمانيةٍ وعشرين منزِلًا، لكلِّ برجٍ منزلان وثلثُ منزلٍ... وهذه البروجُ مقسومةٌ على ثلاثِ مئةٍ وستِّينَ درجةً، لكلِّ برجٍ منها ثلاثونَ درجةً تقطَعُها الشَّمسُ في كلِّ سَنةٍ مرَّةً، وبها تتِمُّ دورةُ الفَلَك، ويقطَعُها القمرُ في ثمانيةٍ وعشرينَ يومًا). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٠). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩).

وقال ابن عاشور: (أُطلِق البُرجُ على بقعةٍ معيَّنةٍ مِن سَمْتِ طائفةٍ مِن النجومِ غيرِ السيَّارةِ -وتُسمَّى النجومَ الثوابتَ- متجمعٍ بعضُها بقربِ بعضٍ على أبعادٍ بيْنَها، لا تتغيَّرُ فيما يُشاهَدُ مِن الجوِّ، فتلك الطائفةُ تكونُ بشكلٍ واحدٍ يشابهُ نُقطًا لو خُطِّطتْ بينَها خطوطٌ لخرجَ منها شِبهُ صورةِ حيوانٍ أو آلةٍ، سمُّوا باسمِها تلك النجومَ المشابهةَ لهيئتِها، وهي واقعةٌ في خطِّ سَيرِ الشمسِ... تخيَّلوا أنَّها منازلُ للشمسِ؛ لأنَّهم وقَّتوا بجهتِها سَمْتَ موقعِ الشمسِ مِن قُبةِ الجوِّ نهارًا فيما يخيَّلُ للناظرِ أنَّ الشمسَ تسيرُ في شبهِ قوسِ الدائرةِ، وجعلوها اثني عشرَ مكانًا بعددِ شهورِ السنةِ الشمسيَّةِ... فبما كان لها مِن النظامِ تسَنَّى أن تُجعلَ علاماتٍ لمواقيتِ حلولِ الفصولِ الأربعةِ، وحلولِ الأشهرِ الاثني عشرَ، فهُم ضبَطوا لتلك العلاماتِ حدودًا وَهْميَّةً عيَّنوا مكانَها في الليلِ مِن جهةِ موقعِ الشمسِ في النهارِ... وللتمييزِ بينَ تلك الطوائفِ مِن النجومِ جعلوا لها أسماءَ الأشياءِ التي شبَّهوها بها، وأضافوا البرجَ إليها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨، ٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

مَجيءِ شَيءٍ بعْدَ شَيءٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا موقفَ المشركينَ مِن هذه النِّعمِ العظيمةِ: ويعبُدُ هؤلاء المُشرِكون آلهةً مِن دونِ اللهِ لا تنفَعُهم ولا تضُرُّهم، وكان الكافِرُ مُظاهِرًا ومُعاوِنًا للشَّيطانِ وحِزبِه على عداوةِ الله؛ يُشرِكُ به ويعصيه، ويُوالي أعداءَه، ويُحارِبُ أولياءَه.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى الوظيفةَ التي مِن أجْلِها أرسَل رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقول تعالى: وما أرسَلْناك -يا محمَّدُ- إلى النَّاسِ إلَّا لتبشِّرَهم بثوابِ اللهِ إذا آمَنوا بالله، ولِتُنذِرَهم عِقابَه وغَضَبَه إنْ كَفَروا وكذَّبوا. ويأمرُ الله نبيَّه أن يقولَ لمَن أُرسِل إليهم: لا أسألُكم على تبليغِ رِسالةِ الله إليكم مالًا، لكِنْ مَن شاء منكم أن يتَّخِذَ إلى مَرضاةِ رَبِّه سَبيلًا، كالصَّدَقةِ في سبيلِ الله، فليفعَلْ.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يتوكَّلَ عليه، ويستعينَ به، فيقول: واعتَمِدْ على اللهِ الحيِّ الباقي الذي لا يموتُ، ونزِّهْه عن كلِّ نَقصٍ مُثنيًا عليه بصِفاتِ كَمالِه، وكفى برَبِّك خبيرًا عَليمًا بذُنوبِ عِبادِه، وسيُجازيهم عليها.

الذي خلق السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ في ستَّةِ أيَّامٍ، ثُمَّ علا على العَرشِ علُوًّا يليقُ بجَلالِه : الرَّحمنُ؛ فاسألْ -يا محمَّدُ- عن الرَّحمنِ عالِمًا يخبِرْك عنه.

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن جهالاتِ المشركينَ وسخافاتِهم، فيقول: وإذا قيل

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٦).

لهؤلاء المُشرِكين: اسجُدوا للرَّحمنِ، قالوا: لا نَعرِفُ الرَّحمنَ! أنسجُدُ لِما تأمُرُنا أنت أن نسجُدَ له مِن غيرِ أن نَعرِفَه، ومِن غيرِ أن نُؤمِنَ به؟ وزادهم الأمرُ بالسُّجودِ للرَّحمنِ نُفورًا عن الإيمانِ. ثمَّ يرُدُّ الله سبحانه عليهم بما يدُلُّ على عظيمِ قدرتِه، فيقولُ: تعاظَمَ اللهُ وجلَّ شأنُه وكثُرتْ خيراتُه؛ فهو الذي جعَل في السَّماءِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ، وخلَق فيها شَمسًا مُشرِقةً وقَمرًا مُضيئًا، وهو الذي جعل اللَّيلَ والنَّهارَ مُتعاقِبَين يخلُفُ أحدُهما الآخَرَ، لِمَن أراد أن يتَّعِظَ ويعتبِرَ، أو أراد شُكرَ اللهِ على نِعَمِه التي لا تُحصى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ٥٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عدَّدَ النِّعمَ، وبيَّنَ كمالَ قُدرتِه؛ عَجَّب مِن المشرِكين في إشراكِهم به مَن لا يقدِرُ على نَفعٍ ولا ضرٍّ، أي: إنَّ اللهَ هو الذي خلَقَ ما ذكَرَه، ثمَّ هؤلاء لجَهلِهم يعبُدونَ مِن دونِه أمواتًا جماداتٍ لا تنفَعُ ولا تضُرُّ[1]!

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡ ﴾.

أي: ويَعبُدُ المُشرِكون مِن دونِ اللهِ آلهةً لا تَنفَعُهم بشَيءٍ، ولا تضُرُّهم أبدًا، ويتركونَ عِبادةَ اللهِ الذي خلَقَهم، وأنعَمَ عليهم، ويَملِكُ نَفعَهم وضُرَّهم[2].

﴿ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ﴾.

أي: وكان الكافِرُ مُعينًا للشَّيطانِ وحِزبِه على عداوةِ اللهِ؛ يُشرِكُ به ويعصيه،

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦١)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

ويُوالي أعداءَه، ويُحارِبُ أولياءَه[١]!

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

تعلُّقُ ذلك بما تقدَّم هو أنَّ الكُفَّارَ يطلُبونَ العَونَ على اللهِ تعالى وعلى رَسولِه، واللهُ تعالى بَعَثَ رسولَه لِنَفعِهم؛ لأنَّه بعَثَه لِيُبَشِّرَهم على الطاعةِ، ويُنذِرَهم على المعصيةِ، فيَستحقُّوا الثوابَ، ويَحترِزوا عن العقابِ، فلا جهلَ أعظَمُ مِن جهلِ مَنِ استفرغَ جُهْدَه في إيذاءِ شخصٍ استفرغَ جُهْدَه في إصلاحِ مهمَّاتِه دينًا ودُنيا، ولا يسألُهم على ذلك البتَّةَ أجرًا[٢]!!

وأيضًا لَمَّا أفضى الكلامُ بأفانينِ انتِقالاتِه إلى التَّعجيبِ مِن استمرارِهم على أنْ يعبُدوا ما لا يَضُرُّهم ولا ينفَعُهم؛ أعقَبَ بما يُومِئُ إلى استِمرارِهم على تكذيبِهم محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم في دعوى الرِّسالةِ، بنِسبةِ ما بَلَّغَه إليهم إلى الإفكِ، وأنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ، وأنَّه سِحرٌ، فأُبطِلتْ دعاويهم كلُّها بوَصفِ النَّبيِّ بأنَّه مُرسَلٌ مِن الله، وقَصْرِه على صفتَيِ التَّبشيرِ والنِّذارةِ[٣].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦﴾.

أي: وما أرسَلْناك -يا محمَّدُ- إلى النَّاسِ إلَّا لتبشِّرَ مَن آمنَ بك واتَّبعَك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦، ٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٧).

بالخَيرِ والثَّوابِ في الدُّنيا والآخرةِ، وتُنذِرَ مَن كفَرَ بك وكذَّبَك وعصاك بالشَّقاءِ والعذابِ في الدُّنيا والآخرةِ[١].

﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وقَعَ جوابُهم عن قَولِهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ [الفرقان: ٧]، وكان قد بقيَ قولُهم: ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ﴾ [الفرقان: ٨]، أُشيرَ إلى مَزيدِ الاهتِمامِ بجوابِه بإبرازِه في صورةِ الجوابِ لِمَن كأنَّه قال: ماذا يُقالُ لهم إذا تظاهَروا وطَعَنوا في الرِّسالةِ بما تقدَّمَ وغَيرِه؟ فقال[٢]:

﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمَن أرسلْتُك إليهم: أنا لا أسألُكم على تبليغِ رسالةِ اللهِ إليكم مالًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقال سُبحانه: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠].

﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾.

أي: لكنْ مَن شاء مِنكم أن يتَّخِذَ طَريقًا يقرِّبُه إلى اللهِ، فليفعَلْ، ومِن ذلك أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

يُنفِقَ مِن مالِه في سبيلِ اللهِ[١].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه أنَّ الكُفَّارَ مُتظاهِرونَ على إيذائِه، فأمَرَه بألَّا يطلُبَ منهم أجرًا البتَّةَ- أمَرَه بأنْ يتوكَّلَ عليه في دفْعِ جَميعِ المَضارِّ، وفي جَلْبِ جميعِ المنافعِ[٢].

وأيضًا لَمَّا أخبرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه فَطَمَ نفْسَه عن سؤالِهم شَيئًا؛ أمَرَه تعالى بتفويضِ أمرِه إليه، وثِقَتِه به، والاعتِمادِ عليه؛ فهو المتكفِّلُ بنَصرِه وإظهارِ دينِه[٣].

وأيضًا لَمَّا كان المقصودُ رَدَّهم عن عِنادِهم، وكان ذلك في غايةِ الصُّعوبةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابنُ كثير: (﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا ومَسلَكًا ومَنهجًا يُقتَدى فيها بما جِئتُ به). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨).

وقال البقاعي: (﴿إِلَّا مَن﴾ أي: إلَّا أجرَ مَن ﴿شَآءَ أَن يَتَّخِذَ﴾ أي: يكَلِّفَ نفْسَه ويخالِفَ هواه، ويجعَلَ له ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ فإنَّه إذا اهتدى بهدايةِ رَبِّه، كان لي مِثلُ أجرِه، لا نفْعَ لي من جهتِكم إلَّا هذا، فإنْ سمَّيتم هذا أجرًا فهو مطلوبي، ولا مِريةَ في أنَّه لا يَنقُصُ أحدًا شيئًا مِن دنياه، فلا ضررَ على أحدٍ في طَيِّ الدُّنيا عنِّي، فأفاد هذا فائدتينِ؛ إحداهما: أنَّه لا طمعَ له أصلًا في شيءٍ يَنقُصُهم، والثانيةُ: إظهارُ الشَّفَقةِ البالِغةِ بأنَّه يَعتَدُّ بمنفعتِهم الموصلةِ لهم إلى ربِّهم ثوابًا لنَفْسِه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٠).

وكان هذا الكلامُ لا يَرُدُّ مُتعنِّتيهم -وهم الأغلبُ- الذين تُخشَى غائلتُهم؛ عطَفَ على ﴿قُلْ﴾ قولَه[١]:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾.

أي: واعتَمِدْ -يا محمَّدُ- في دينِك ودُنياك على اللهِ الذي له الحياةُ الكامِلةُ الدَّائِمةُ التي لا موتَ معها أبدًا، وفوِّضْ أمورَك كُلَّها إليه وحْدَه لا إلى غيرِه، لا سيَّما في مُواجهةِ المُشرِكين بالإنذارِ، وتبليغِهم رسالةَ الله إليهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨، ٩].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾.

أي: ونزِّهْ -يا محمَّدُ- ربَّك عن النَّقائِصِ والأندادِ والشُّرَكاءِ، مُثنيًا عليه بصِفاتِ كَمالِه، شاكرًا له على نِعَمِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

قال البقاعي: (﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ أي: فلا ضياعَ لِمَن توكَّل عليه أصلًا، بل هو المتولِّي لمصالحِه في حياتِه وبعْدَ مماتِه، ولا تلتَفِتْ إلى ما سِواه بوجهٍ؛ فإنَّه هالِكٌ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

قال ابن جُزَي: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: قُلْ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه. والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ عن كُلِّ ما لا يَليقُ به، ومعنى بحَمْدِه: أي: بحَمْدِه أقولُ ذلك. ويحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: سَبِّحْه مُتَلَبِّسًا بحَمْدِه؛ فهو أمرٌ بأن يَجمَعَ بينَ التَّسبيحِ والحَمدِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥). =

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان المُسَلَّى ربَّما وقَعَ في فِكرِه أنَّ مَن سَلَّاه إمَّا غيرُ قادرٍ على نَصرِه، أو غيرُ عالِمٍ بذُنوبِ خَصمِه، وكان السِّياقُ للشِّكايةِ مِن إعراضِ المبلَّغِينَ عن القُرآنِ، وما يَتبَعُ ذلك مِن الأذى- أشار بالعَطفِ على غيرِ مذكورٍ إلى أنَّ التقديرَ:

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ أن يقولَ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه: ابنُ عطية، وابنُ جزي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: سَبِّحْه مُتَلَبِّسًا بحَمْدِه -أي أن يقولَ: سُبْحانَ اللهِ، والحمدُ لِلهِ-: جلالُ الدينِ المحليُّ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٧).

وقال ابن كثير: (اقرنْ بيْنَ حمدِه وتسبيحِه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: نزِّهْه عن صفاتِ النُّقصانِ، مُثنيًا عليه بنعوتِ الكمالِ: البيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٧).

وممَّن فسَّر التَّسبيحَ بالتَّنزيهِ أيضًا: القرطبيُّ، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: اعبُدْهُ شُكرًا منك له على نِعَمِه: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٤٣).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: صَلِّ له شكرًا على نِعَمِه: البغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٧).

وقال الثعلبي: (اعبُدْه وصَلِّ له شكرًا منك له على نِعَمِه). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

وقال العليمي: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ صلِّ له شكرًا، ونَزِّهْه عن صفات النقصان). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٦).

وقال ابن عاشور: (وأمَّا أمْرُه بالتَّسبيحِ فهو تنزيهُ الله عمَّا لا يليقُ به، وأوَّلُ ذلك الشَّرِكةُ في الإلهيَّةِ، أي: إذا أهمَّك أمرُ إعراضِ المشركينَ عن دعوةِ الإسلامِ، فعليك نفْسَك، فنَزِّهِ اللهَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

«فكفى به لك نصيرًا»، وعطَفَ عليه[١]:

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

أي: وحَسْبُك -يا محمَّدُ- ربُّك الخَبيرُ بذُنوبِ عبادِه، فلا يخفى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيهم عليها يومَ القيامةِ؛ فليس عليك هُداهم، ولا حِفظُ أعمالِهم، فذلك كلُّه بيَدِ اللهِ وحْدَه[٢].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ سُبحانَه نبيَّه بالتوكُّلِ والتَّسبيحِ، وذكَرَ صفةَ الحياةِ الدَّائمةِ؛ ذَكَرَ ما دلَّ على القدرةِ التامَّةِ، وهو إيجادُ هذا العالَمِ[٣]، وأنَّه جديرٌ بأن يُخَصَّ بالتوكُّلِ، تبارَك وتعالى[٤].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: توكَّلْ على الحيِّ الذي خلَقَ السَّمواتِ السَّبْعَ والأرضَ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ في سِتَّةِ أيامٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٧).

قال ابن كثير: (والسِّتَّةُ الأيامِ هي: الأحدُ، والاثنينُ، والثُّلاثاءُ، والأربِعاءُ، والخميسُ، والجُمُعةُ =

= -وفيه اجتمَع الخَلْقُ كلُّه، وفيه خُلِق آدمُ عليه السلام. واختلَفوا في هذه الأيَّامِ: هل كلُّ يَومٍ منها كهذه الأيَّامِ كما هو المتبادرُ إلى الأذهانِ؟ أو كلُّ يَومٍ كألْفِ سَنةٍ كما نَصَّ على ذلك مجاهِدٌ، والإمامُ أحمدُ بنُ حَنبلٍ، ويُروى ذلك مِن روايةِ الضَّحَّاكِ عن ابنِ عبَّاسٍ؟ فأمَّا يومُ السَّبتِ فلمْ يقَعْ فيه خَلْقٌ؛ لأنَّه اليَومُ السابعُ، ومنه سُمِّيَ السبت، وهو القطعُ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦).

ممَّن اختار أنَّها مِقدارُ ستَّةِ أيَّامٍ مِن أيَّامِ الدُّنيا: الزمخشريُّ، وابنُ عطية -ونَسَبه للجمهورِ-، والبِقاعي، والألوسي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٤)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٣٥، ٢٣٦).

قال الألوسي عن هذا القول: (وهو الأنسَبُ بالمقامِ؛ لِما فيه مِن الدَّلالةِ على القُدرةِ الباهرةِ بخَلقِ هذه الأجرامِ العظيمةِ في مِثلِ تلك المُدَّةِ اليسيرةِ، ولأنَّه تعريفٌ لنا بما نعرِفُه). ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٦٢).

وقال ابنُ عثيمين عن القَولِ بأنَّ الأيامَ الستَّةَ هي مِن أيامِ الدُّنيا: (هذا هو القَولُ المشهورُ، وهو الراجِحُ، وأمَّا مَن قال: في ستةِ أيَّامٍ مِن أيَّامِ الآخرةِ، وإنَّ اليومَ كألْفِ سَنةٍ، أو مَن قال: إنَّ المرادَ بالأيَّامِ مُطلقُ الزمَنِ، أي: في لحظاتٍ- فذلك أيضًا قولٌ مرجوحٌ؛ لأنَّ القرآنَ إنَّما يخاطِبُ النَّاسَ بما يَعرِفونَ، فالصَّحيحُ أنَّ المرادَ سِتةُ أيامٍ مِن أيامِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٣٥، ٢٣٦).

وقال الشنقيطي: (العلماء يقولون: إنَّ هذه الأيَّامَ، المرادُ بها أوقاتُها؛ لأنَّه في ذلك الوقتِ لم يكُنْ هنالك يومٌ؛ لأنَّ اليومَ مِن طُلوعِ الشَّمسِ إلى غُروبِها، وإن لم يكُنْ هنالك شَمسٌ لا يُعرَفُ اليومُ، إلَّا أنَّ اللهَ قبْلَ أن يخلُقَ الشَّمسَ والقَمَرَ يعلمُ زمَنَ الأيَّامِ قبْلَ وُجودِ الشَّمسِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٤٤، ٣٤٥).

وقال الزمخشري: (أمَّا الدَّاعي إلى هذا العَدَدِ -أعني: السِّتَّةَ دونَ سائرِ الأعدادِ- فلا نشُكُّ أنَّه داعي حِكْمةٍ؛ لعِلْمنا أنَّه لا يُقدِّر تقديرًا إلَّا بداعي حِكمةٍ، وإن كنَّا لا نطَّلِعُ عليه، ولا نهتدي إلى معرفتِه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٨).

وقال البيضاوي: (ولعلَّ ذِكرَه زيادةُ تقريرٍ؛ لكونِه حقيقًا بأن يُتوكَّلَ عليه؛ من حيثُ إنَّه الخالِقُ للكُلِّ، والمتصَرِّفُ فيه، وتحريضٌ على الثباتِ والتأنِّي في الأمرِ؛ فإنَّه تعالى -مع كمالِ قدرتِه، وسرعةِ نفاذِ أمرِه في كلِّ مُرادٍ- خلَقَ الأشياءَ على تُؤَدةٍ وتدَرُّجٍ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٩).

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

أي: ثمَّ علا اللهُ الرَّحمنُ على عرشِه بعْدَ خَلْقِه السَّمواتِ والأرضَ عُلُوًّا يليقُ بجلالِه(١).

﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان العِلمُ لازمًا للمُلْكِ؛ سَبَّبَ عن ذلك قولَه(٢):

﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾.

أي: فاسألْ(٣) .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٠).

قال السعدي: (﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ﴾ بعْدَ ذلك ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ الذي هو سَقفُ المخلوقاتِ وأعلاها، وأوسَعُها وأجمَلُها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

وقال أبو عمرو الداني: (﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ تامٌّ، إذا ارتفَع ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بالابتِداءِ، وجُعِل الخبرُ فيما بعْدَه. فإنْ رُفِع بتقدير: هو الرَّحمنُ؛ كان الوقفُ على ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ كافيًا. وإن جُعِل بدَلًا مِنَ المُضمَرِ الذي في ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ لم يَكفِ الوقفُ على ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾، وكفى على ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾). ((المكتفى في الوقف والابتدا)) (ص: ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٥).

(٣) قيل: الخطابُ لمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسلامُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨١).

وقال الواحديُّ: (هذا الخِطابُ ظاهرُه للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ به غيرُه). ((الوسيط)) (٣/ ٣٤٤).

وقال أيضًا: (﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ فاسأَلْ -أيُّها الإنسانُ الذي لا تَعلَمُ صِفتَه- خَبيرًا يُخبِرْك بصِفاتِه). ((الوجيز)) (ص: ٧٨٢).

وقال أبو السعود: (وما قيل مِن أنَّ التَّقديرَ: إنْ شككتَ فيه فاسألْ به خَبيرًا، على أنَّ الخطابَ =

عن[١] الرَّحمنِ عالِمًا[٢] يُخبِرْك عنه وعن عَظَمتِه، وعن خَلقِه وسُلطانِه، وأفعالِه

= له صلَّى الله عليه وسلَّم والمرادَ غيرُه؛ بمعزلٍ مِن السَّدادِ، بل التَّقديرُ: إنْ شئتَ تحقيقَ ما ذُكِر أو تفصيلَ ما ذُكر، فاسألْ معنيًّا بهِ ﴿خَبِيرًا﴾. ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧).

(١) قال ابنُ عثيمين في بيانِ أوجُهِ التَّعْديةِ بالباءِ:

(الوَجهُ الأوَّلُ: أن تكونَ «الباءُ» بمعنى «عن»، وهذا واضِحٌ: فاسألْ عنه خَبيرًا.

الوَجهُ الثَّاني: أن تكونَ «الباء» متعلِّقةً بمحذوفٍ تقديرُه: مُعْتنيًا أو مُهتَمًّا به، حالٌ مِنَ الضَّميرِ المُستترِ في قولِه: ﴿فَسْـَٔلْ﴾. وعندي أيضًا أنَّه يوجدُ احتِمالٌ أنَّ المعنى: فاسألْ تُجَبْ به خَبيرًا، يعني كأنَّه ضُمِّنَ السُّؤالُ ما يدُلُّ على الجوابِ، مِثلُ ما قيلَ في: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]: سأل سائِلٌ وأُجيب بعَذابٍ واقعٍ، ويكونُ عَدَل عن «عن» إلى «الباء»؛ لأنَّ «عن» إنَّما تدُلُّ على مجرَّدِ السُّؤالِ، و «الباء» تدُلُّ على الإجابةِ أيضًا. وعلى كلِّ حالٍ فالمعنى أنَّ الرحمنَ الذي خلَق السَّمواتِ والأرضَ واستوى على العَرشِ اسألْ عنه خَبيرًا يُخبِرْك). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٣).

(٢) قيل: المرادُ بالخبير: اللهُ تعالى. وممَّن قال بذلك: السمعانيُّ، وأبو السعود، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٤).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٠).

قال أبو السعود: (﴿خَبِيرًا﴾ عظيمَ الشأنِ، محيطًا بظواهِرِ الأمورِ وبواطنِها، وهو اللهُ سبحانه؛ يُطلِعْك على جليَّةِ الأمرِ. وقيل: فاسألْ به مَن وَجَدَه في الكُتُبِ المتقدِّمةِ؛ لِيَصْدُقَك فيه). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧).

وقال السعدي: (﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يعني بذلك: نَفْسَه الكريمةَ؛ فهو الذي يعلَمُ أوصافَه وعَظَمَته وجَلالَه، وقد أخبَرَكم بذلك، وأبانَ لكم مِن عظمَتِه ما تَسعَدونَ به مِن معرفتِه، فعَرَفه العارفون وخضَعوا لجلالِه، واستكبَرَ عن عبادتِه الكافِرونَ واستنكَفوا عن ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

وقيل: المرادُ به: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلم. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩).

قال ابن كثير: (أي: استعلِمْ عنه مَن هو خبيرٌ به عالمٌ به، فاتَّبِعْه واقتَدِ به، وقد عُلِم أنَّه لا أحدَ =

وصفاتِ كَمالِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمّا ذَكَرَ إحسانَه إليهم، وإنعامَه عليهم؛ ذَكَرَ ما أبدَوْهُ مِن كفْرِهم في مَوضِعِ

= أعلَمُ بالله ولا أخبَرُ به مِن عبدِه ورسولِه محمدٍ -صلواتُ الله وسلامُه على سيِّدِ ولدِ آدمَ- على الإطلاقِ في الدُّنيا والآخرةِ، الذي لا ينطِقُ عن الهوى، إنْ هو إلا وحيٌ يُوحَى؛ فما قاله فهو حقٌّ، وما أخبَر به فهو صِدقٌ، وهو الإمامُ المحكَّمُ الذي إذا تنازَع الناسُ في شَيءٍ وجَب ردُّ نزاعِهم إليه، فما يوافِقُ أقوالَه وأفعالَه فهو الحقُّ، وما يخالِفُها فهو مردودٌ على قائِلِه وفاعِلِه، كائنًا مَن كان؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩).

وقيل: المرادُ: أهلُ العلمِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ الأنباري. يُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) (٢/ ٨٠٩).

قال ابن جُزي: (الأظهرُ أنَّ المُرادَ: اسألْ عنه مَن هو خبيرٌ عارفٌ به، وانتصَب ﴿خَبِيرًا﴾ على المفعوليَّةِ، وهذا الخبيرُ المَسؤولُ هو جِبريلُ عليه السَّلامُ، والعلماءُ، وأهلُ الكتابِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥).

وقال الرسعني: (إمَّا أن يُرادَ بالخِطابِ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أو غيرُه بخِطابِه؛ كقولِه تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤]: فإن كان المرادُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فالخبيرُ هو جبريلُ عليه السَّلامُ، في قولِ ابنِ عبَّاسٍ. وقال مجاهدٌ: هو اللهُ عزَّ وجلَّ، على معنى: فسَلْني؛ فإنِّي الخبيرُ. وإن أُريدَ به غيرُه فالمعنى: فاسألْ رجُلًا خبيرًا، أي: عالمًا بما تسألُه عنه. وقيل: الضميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ يرجِعُ إلى ما دَلَّ عليه ﴿فَسْـَٔلْ﴾، وهو السؤالُ... المعنى: فاسألْ بسؤالِك خبيرًا أيُّها الإنسانُ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٤٢).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٣).

شُكْرِهم، فقال[١]:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾.

أي: وإذا قيلَ لأولئك المُشرِكين: اسجُدوا للرَّحمنِ الذي أنعَمَ عليكم بالنِّعَمِ، ودفَعَ عنكم النِّقَمَ دونَ غيرِه؛ قالوا متعَجِّبين وكافرين بالله ومُنكِرين لاسمِه الرَّحمنِ: لا نعرِفُ الرَّحمنَ! أنطيعُك -يا محمَّدُ- فنَسجُدُ لله وحْدَه لمجرَّدِ قَولِك وأمْرِك بذلك[٢]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

قال ابنُ عثيمين: (هذا السجودُ يحتَمِلُ أن يرادَ به السجودُ الخاصُّ الذي هو خرورُ الإنسانِ على أعضائِه السبعةِ، ويحتمِلُ أنَّ المرادَ به السجودُ العامُّ الذي هو الخضوعُ المُطلَقُ؛ لأنَّ السجودَ يُطلَقُ بالمعنيين: السجودُ العامُّ الذي هو الخضوعُ والذُّلُّ مُطلقًا، أو السجودُ الخاصُّ على هذه الأعضاءِ المعروفةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٩).

وقيل: المعنى: صَلُّوا للرَّحمنِ. ومِمَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٣/ ١٣١).

واختار القاسميُّ أنَّ المرادَ بالسُّجودِ: الإذعانُ بالإيمانِ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٥).

قال ابن عاشور: (السجودُ الذي أُمِروا به سُجودُ الاعترافِ له بالوَحدانيَّةِ، وهو شِعارُ الإسلامِ، ولم يكنِ السُّجودُ مِن عبادتِهم، وإنَّما كانوا يَطوفون بالأصنامِ، وأمَّا سُجودُ الصَّلاةِ التي هي مِن قواعدِ الإسلامِ فليس مُرادًا هنا؛ إذ لم يكونوا ممَّن يُؤمَرُ بالصَّلاةِ، ولا فائدةَ في تكليفِهم بها قبْلَ أن يُسْلِموا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٢).

وذَكَر النَّسَفي أنَّ المعنى: صَلُّوا لله، واخضَعوا له. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٦).

قال الشنقيطي: (وما ذَكَرَه هنا مِن أنَّهم أُمِروا بالسُّجودِ له وحْدَه -جَلَّ وعلا- مذكورٌ في غيرِ هذا الموضِعِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقَولِه تعالى: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ﴾ [النجم: ٦٢]، =

كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

أي: وزاد المُشرِكينَ أمْرُهم بالسُّجودِ للرَّحمنِ كراهيةً وفِرارًا مِن الحَقِّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾.

= وقد وَبَّخَهم تعالى على عدَمِ امتِثالِ ذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق: ٢١]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٧٠).

وممَّن اقتصَر على تفسيرِ السجودِ في الآيةِ بالسجودِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والواحديُّ، والرازي، والخازن، والعليمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٥٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى سُبحانَه عنِ الكُفَّارِ مَزيدَ النُّفرةِ عن السُّجودِ؛ ذكَرَ ما لو تفكَّروا فيه لعَرَفوا وجوبَ السُّجودِ والعبادةِ للرَّحمنِ[١].

وأيضًا لَمَّا سألَ المُشرِكون بقَولِهم: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ كما يَسألون عنِ المجهولِ؛ ذكَرَ لهم القرآنُ ما يُعَرِّفُهم به مِن عظيمِ آياتِه، وجلائلِ إنعاماتِه التي هي مِن آثارِ رحمتِه، فذَكَرَ لهم بُروجَ السماءِ والشَّمسَ والقمرَ، ثمَّ ذَكَرَ لهم تعاقُبَ اللَّيلِ والنهارِ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سبحانَه حالَ النَّذيرِ الذي ابتدأَ به السورةَ في دعائِه إلى الرَّحمنِ -الذي لو لم يَدْعُ إلى عبادتِه إلَّا رحمانيَّتُه لكفى، فكيف بكلِّ جمالٍ وجلالٍ- فأنكروه؛ اقتضى الحالُ أن يُوصَلَ به إثباتُه بإثباتِ ما هم عالِمونَ به مِن آثارِ رحمانيَّتِه، ففَصَّلَ ما أُجمِلَ بعْدَ ذِكْرِ حالِ النَّذيرِ، ثمَّ مِن المُلْكِ، مُصَدِّرًا له بوَصفِ الحقِّ الذي جعَلَه مَطلِعَ السورةِ؛ رادًّا لِمَا تضمَّنَ إنكارُهم مِن نفيِه، فقال[٣]:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾.

أي: تعاظَمَ اللهُ، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ وثبتَتْ بَرَكاتُه، فهو الذي جعَلَ في السَّماءِ منازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٦١، ٢٦٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿سُرُجًا﴾ على الجَمعِ، قيل: المرادُ بها: ما أضاءَ مِن النُّجومِ، وقيل: المرادُ بها: الشَّمسُ، وإنَّما جاءت بصيغةِ الجَمعِ؛ لِتَعظيمِها[1].

---

(١) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٦٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٧).

قال ابن زنجلة: (ومَن قرأ ﴿سُرُجًا﴾: الشمسُ والقمرُ والكواكِبُ العِظامُ معها). ((حجة القراءات)) (ص: ٥١٢).

وقال السمعاني: (على هذه القراءةِ قد دخَل القمرُ في السُّرُجِ، إلَّا أنَّه خصَّه بالذِّكرِ لنوعِ فَضيلةٍ له، وهذا مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٨).

وقال ابن عثيمين: (فعَطفُ القمَرِ المنيرِ على السُّرجِ مِن بابِ عَطفِ المتغايرينِ، لا مِن بابِ عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فالقمَرُ ليس من السُّرُجِ؛ ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، فالشَّمسُ -بلا شكٍّ- سراجٌ، ولكنَّ القمرَ نورٌ؛ فعليه لا يكونُ منها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٦٣).

وقال البِقاعي: (قرأ حمزةُ والكسائيُّ بصيغةِ الجَمعِ؛ للتَّنبيهِ على عَظَمتِه في ذلك، بحيثُ إنَّه أعظَمُ مِن ألوفِ ألوفٍ مِن السُّرجِ، فهو قائمٌ مقامَ الوصفِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١٧).

٢- قِراءةُ ﴿سِرَٰجًا﴾ على الإفرادِ، والمرادُ: الشَّمسُ[(١)].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.

أي: وخلَقَ اللهُ في السَّماءِ شَمسًا مُشرِقةً تَبعَثُ النُّورَ والحرارةَ، وقمرًا مُضيئًا في اللَّيلِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الآيتينِ: الشَّمسَ والقمرَ؛ ذكَرَ ما هُما آيَتاهُ[(٣)].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾.

أي: واللهُ هو الذي جعَل اللَّيلَ والنَّهارَ بحيث يَخلُفُ أحدُهما الآخَرَ، فهُما يَتعاقبانِ أبدًا، ولا يجتَمِعانِ[(٤)].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٦٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٤، ٤٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٠)، ((السراج المنير)) للخطيب الشربيني (٢/ ٦٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦). =

كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

القِراءات ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿يَذْكُرَ﴾ على معنى: الذِّكرِ لله، وقيل: هي بمعنى ﴿يَذَّكَّرَ﴾[(١)].

٢- قراءةُ ﴿يَذَّكَّرَ﴾ أي: يَتذكَّرَ ويتَّعِظَ، ويعتبِرَ ويتفَكَّرَ في اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ[(٢)].

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

أي: جعَل اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ خِلفةً لِمَن أراد أن يتَّعِظَ ويعتبِرَ ويتفَكَّرَ في اختِلافِهما، أو أراد شُكرَ اللهِ على نِعَمِه، فيَعبُدُه فيهما، ويَستَدرِكُ ما فاته في

= وقال البقاعي: (﴿خِلْفَةً﴾ أي: ذوي حالةٍ معروفةٍ في الاختلاف؛ فيأتي هذا خَلفَ ذاك، بضِدِّ ما له مِن الأوصافِ، ويقومُ مقامَه في كثيرٍ مِن المراداتِ، والأشياءِ المقدَّراتِ، ويُعلَمُ قدرُ التسامُحِ فيها، ومَن فاته شَيءٌ مِن هذا قَضاهُ في ذاك). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١٨).

(١) قرأ بها حمزة، وخلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٧١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٣)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٤٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٩).

أحَدِهما فيَعمَلُه في وقتِ الآخَرِ[١].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الله عزَّ وجلَّ يَبسُطُ يَدَه باللَّيلِ لِيَتوبَ مُسيءُ النَّهارِ، ويَبسُطُ يدَه بالنَّهارِ لِيَتوبَ مُسيءُ اللَّيلِ، حتَّى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها))[٢].

وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن نام عن حِزبِه أو عن شَيءٍ منه، فقرأَه فيما بيْن صَلاةِ الفَجرِ وصَلاةِ الظُّهرِ؛ كُتِب له كأنَّما قَرأَه مِنَ اللَّيلِ))[٣].

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا فاتَتْه الصَّلاةُ مِن اللَّيلِ مِن وَجَعٍ أو غَيرِه، صلَّى مِنَ النَّهارِ ثِنْتَيْ عَشْرةَ ركعةً))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٥، ٦٦).

قال ابن عاشور: (التذكُّر: تفعُّلٌ مِن الذِّكر، أي: تكَلُّفُ الذِّكر. والذِّكرُ جاء في القرآن بمعنَى التأمُّل في أدلَّةِ الدِّينِ، وجاء بمعنى: تذكُّرِ فائتٍ أو مَنسيٍّ، ويجمَعُ المعنيَينِ استِظهارُ ما احتَجب عن الفِكرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٥).

وقال ابنُ عثيمين: (وأمَّا قَولُه: ﴿أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ فـ (أو) هنا هل هي للتقسيمِ والتنويعِ، بمعنى أن يجعلَ هذا قسيمًا للأوَّلِ، فتكونَ مانعةَ اجتماعٍ، أو هي مانعةُ خُلوٍّ؟

الجوابُ: مانعةُ خُلوٍّ؛ لأنَّ مانعةَ الاجتماعِ معناها أنَّه إذا وُجِدَ الأول امتنعَ الثاني، لكنْ مانعةُ الخلوِّ معناها إمَّا أن يوجَدَ هذا أو هذا، أو هما. ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ فهل يمكِنُ أن يجتَمِعا؟ نعَمْ؛ إذَنْ هي مانعةُ خُلوٍّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٦٦).

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٩).

(٣) رواه مسلم (٧٤٧).

(٤) رواه مسلم (٧٤٦).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ المرءَ الكاملَ لا يَثِقُ إلَّا باللهِ؛ لأنَّ التوكُّلَ على الأحياءِ المُعرَّضينَ للموتِ لا يَدومُ[(١)]؛ لأنَّه إذا مات المتوكَّلُ عليه صار المتوكِّلُ ضائِعًا، أمَّا هو سُبحانه وتعالى فإنَّه حيٌّ لا يموتُ، فلا يَضيعُ المتوكِّلُ عليه البتَّةَ[(٢)].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ دليلٌ على أنَّ واجبَ الدَّاعِيةِ أنْ يدعوَ إلى اللهِ، سواءٌ امتَثلَ المدعوُّ أم نفر[(٣)]، وألَّا يربطَ دعوتَه بنتائِجِها، بمعنى: أنَّه لا يقولُ: إنْ وجَدْتُ نتيجةً وإلَّا وقَفْتُ[(٤)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أنَّ عدَمَ استجابةِ المدعوِّين للدَّاعي لا يدُلُّ على فسادِ قصْدِه أو عمَلِه، ولا يدُلُّ أيضًا على تَقصيرِه، يعني: إذا دعا الإنسانُ ولكِنَّه لم يَنجَحْ، فلا يجوزُ لنا أن نَتَّهِمَه ونقولَ: هذا لو كانت نيَّتُه صالحةً لانتفَعَ الناسُ به! إذنْ هذه فائدةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّه ربَّما يكونُ مِن بَعضِ النَّاسِ اعتِراضٌ على الدَّاعي، يقولُ: هذا الدَّاعي نيَّتُه باطِلةٌ، لو أنَّ نيَّتَه صحيحةٌ ما نفَرَ النَّاسُ منه[(٥)]!

٤- إنَّ حياةَ الإنسانِ مِن بدايتِها إلى نهايتِها مَبنيَّةٌ على الأركانِ الثلاثةِ: الإرادةِ، والفِكرِ، والعمَلِ، وهي المذكوراتُ في قَولِه تعالى: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾؛ لأنَّ التذكُّرَ بالتفَكُّرِ، والشُّكرَ بالعملِ، فاستِفادةُ الإنسانِ ممَّا خَلَقَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهُ له وجَعَلَه لأجْلِه لا تكونُ إلَّا بهذه الثَّلاثةِ، وهذه الثَّلاثةُ متوقِّفةٌ على ثلاثةٍ أخرى لا بُدَّ للإنسانِ منها؛ فالعملُ متوقِّفٌ على البدَنِ، والفِكرُ متوقِّفٌ على العقلِ، والإرادةُ متوقِّفةٌ على الخُلُقِ، فالتَّفكيرُ الصحيحُ مِن العقلِ الصحيحِ، والإرادةُ القويةُ مِن الخُلُقِ المتينِ، والعملُ المفيدُ مِن البدنِ السليمِ؛ فلهذا كان الإنسانُ مأمورًا بالمحافظةِ على هذه الثلاثةِ: عقْلِه، وخُلُقِه، وبدنِه؛ ودَفْعِ المضارِّ عنها، فيُثَقِّفُ عقْلَه بالعلمِ، ويُقَوِّمُ أخلاقَه بالسلوكِ النبويِّ، ويقُوِّي بدنَه بتنظيمِ الغذاءِ، وتوقِّي الأذى، والتريُّضِ على العمَلِ[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: لِمن أراد أن يتذكَّرَ باللَّيلِ والنَّهارِ ويعتَبِرَ ويستَدِلَّ بهما على كثيرٍ مِن المطالِبِ الإلهيَّةِ، ويشكُرَ اللهَ على ذلك، ولِمَن أراد أن يذكُرَ اللهَ ويَشكُرَه وله وِردٌ مِن اللَّيلِ أو النَّهارِ، فمَن فاته وِردُه مِن أحَدِهما أدركَه في الآخَرِ، وأيضًا فإنَّ القُلوبَ تتقَلَّبُ وتنتَقِلُ في ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهارِ، فيَحدُثُ لها النَّشاطُ والكسَلُ، والذِّكرُ والغَفلةُ، والقَبضُ والبَسطُ، والإقبالُ والإعراضُ، فجعَل اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ يتواليانِ على العبادِ ويتكرَّران؛ ليَحدُثَ لهم الذِّكرُ والنَّشاطُ والشُّكرُ لله في وَقتٍ آخَرَ، ولأنَّ أورادَ العباداتِ تتكرَّرُ بتكَرُّرِ اللَّيلِ والنَّهارِ، فكلَّما تكرَّرت الأوقاتُ أحدَثَ للعبدِ هِمَّةً غيرَ هِمَّتِه التي كَسِلت في الوَقتِ المتقَدِّم، فزاد في تذكُّرِها وشُكرِها، فوظائِفُ الطَّاعاتِ بمنزلةِ سَقيِ الإيمانِ الذي يمُدُّه، فلولا ذلك لَذَوى غَرسُ الإيمانِ ويَبِسَ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ هذا مِن ألطَفِ خِطابِ القرآنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

وأشرفِ معانيه، وأنَّ المؤمنَ دائمًا مع اللهِ على نفْسِه وهواه وشَيطانِه وعدوِّ ربِّه، وهذا معنى كونِه مِن حزبِ اللهِ وجُندِه وأوليائِه؛ فهو معَ اللهِ على عدوِّه الداخلِ فيه والخارجِ عنه، يُحاربُهم ويُعاديهم ويُغضِبُهم له سُبحانَه، كما يكونُ خَواصُّ المِلكِ معه على حَربِ أعدائِه، والبعيدونَ منه فارِغونَ مِن ذلك، غيرُ مهتمِّينَ به، والكافِرُ معَ شيطانِه ونفْسِه وهواهُ على ربِّه. وعباراتُ السَّلَفِ على هذه تدورُ، فمعنى الآيةِ أنَّه يوالي عدُوَّه على معصيتِه والشِّركِ به، فيكونُ مع عدوِّه مُعينًا له على مَساخِطِ رَبِّه، فالمَعيَّةُ الخاصَّةُ التي للمؤمِنِ مع ربِّه وإلهِه قد صارت لهذا الكافِرِ والفاجِرِ مع الشيطانِ ومع نفْسِه وهواهُ وقُربانِه؛ ولهذا صدَّر الآيةَ بقَولِه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥]، وهذه العبادةُ هي الموالاةُ والمحبَّةُ والرِّضا بمعبوديهم، المتضَمِّنةُ لمعيَّتِهم الخاصَّةِ، فظاهَروا أعداءَ اللهِ على معاداتِه ومخالفتِه ومَساخِطِه، بخلافِ وليِّه سُبحانَه؛ فإنَّه معه على نفْسِه وشيطانِه وهواه، وهذا المعنى مِن كنوزِ القُرآنِ لِمَن فَهِمَه وعَقَلَه، وبالله التوفيقُ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ لَمَّا كان سياقُ السُّورةِ للإنذارِ -لِمَا ذُكِر فيها مِن سوءِ مقالِهم، وقُبْحِ أفعالِهم- حَسُنَ التعبيرُ في البِشارةِ بما يدُلُّ على كثرةِ الفِعلِ، ويُفهِمُ كثرةَ المفعولِ؛ بِشارةً بكثرةِ المطيعِ، وفي النِّذارةِ بما يقتضي أن يكونَ صفةً لازمةً، فقال: ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ أي: لكُلِّ مَن يؤمِنُ، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لكلِّ مَن يعصي[(٢)].

٣- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ سؤالٌ: أنَّ الأيَّامَ عِبارةٌ عن حرَكاتِ الشمسِ في السَّمواتِ، فقَبْلَ السَّمواتِ لا

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١١).

أيَّامَ، فكيف قال اللهُ: خَلَقَها في ستَّةِ أيَّامٍ؟

الجوابُ: يعني في مُدَّةٍ مِقدارُها هذه المدَّةُ[١].

٤- في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ سؤالٌ: لِمَ لمْ يَخلُقْها سُبحانَه في لحظةٍ وهو قادِرٌ على ذلك؟

والجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّه يَجِبُ على المُكَلَّفِ أن يَقطَعَ الطَّمَعَ عن مِثلِ هذا؛ فإنَّه بَحرٌ لا ساحِلَ له، مِن ذلك تَقديرُ الملائِكةِ الذين هم أصحابُ النَّارِ بتِسعةَ عَشَرَ، وحَملةِ العَرشِ بثَمانيةٍ، والشُّهورِ باثنَي عَشَرَ، والسَّمَواتِ بالسَّبْعِ، وعَدَدِ الصَّلواتِ، ومَقاديرِ النُّصُبِ في الزَّكَواتِ، والحُدودِ والكَفَّاراتِ؛ فالإقرارُ بأنَّ كُلَّ ما قاله اللهُ حَقٌّ: هو الدِّينُ، والواجِبُ تَركُ البَحثِ عن هذه الأشياءِ.

الثَّاني: ما جاء عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ: (إنَّما خَلَقَها في سِتَّةِ أيَّامٍ، وهو قادرٌ أنْ يُخلَقَها في لَحظةٍ واحِدةٍ؛ تَعليمًا لخلْقِه الرِّفقَ والتَثَبُّتَ)[٢].

٥- اسمُ الرَّحمنِ هو على وزنِ (فَعْلان) الذي يدُلُّ على سَعةِ هذا الوَصفِ، وثبوتِ جَميعِ معناه الموصوفِ به، ألا ترَى أنَّهم يقولونَ: (غَضبانُ) للمُمتلِئِ غَضَبًا، و: (نَدْمانُ وحَيرانُ وسَكْرانُ ولَهْفانُ)، لِمن مُلِئَ بذلك، فبناءُ (فَعلان) للسَّعةِ والشُّمولِ؛ ولهذا يَقرِنُ استِواءَه على العَرشِ بهذا الاسمِ كثيرًا، كقَولِه تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾، فاستوى على عرشِه باسمِ «الرَّحمنِ»؛ لأنَّ العرشَ محيطٌ بالمخلوقاتِ قد وَسِعَها،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٦٩).

والأثر ذكره الثعلبيُّ في ((تفسيره)) (٤/ ٢٣٨).

والرَّحمةَ محيطةٌ بالخَلقِ واسِعةٌ لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فاستوَى على أوسَعِ المخلوقاتِ بأوسعِ الصِّفاتِ؛ فلذلك وَسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، وفي الصَّحيحِ مِن حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلَّم: ((لَمَّا قضَى اللهُ الخَلْقَ كتَب في كتابٍ فهو عندَه موضوعٌ على العرشِ: إنَّ رحمتي تغلِبُ غَضَبي))[١]، وفي لفظٍ: ((فهو عندَه على العَرشِ))[٢]. فتأمَّلِ اختِصاصَ هذا الكِتابِ بذِكرِ الرَّحمةِ، ووضْعِه عندَه على العَرشِ، وطابِقْ بيْنَ ذلك وبيْن قَولِه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقَولِه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]؛ ينفَتِحْ لك بابٌ عظيمٌ مِن معرفةِ الربِّ تبارك وتعالى إنْ لم يُغلِقْه عنك التَّعطيلُ والتجَهُّمُ[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ بعد ذلك ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أثبَتَ اللهُ تعالى بهذه الآيةِ خَلْقَه للمخلوقاتِ، واطِّلاعَه على ظاهِرِهم وباطِنِهم، وعُلوَّه فوقَ العرشِ، ومباينتَه إيَّاهم[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أنَّ الاستِواءَ مِن الصِّفاتِ الفِعليَّةِ، ليس مِن الصِّفاتِ الذاتيَّةِ؛ لأنَّه مرتَّبٌ بعْدَ خلْقِ السَّمواتِ، يعني: حادِثًا[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أنَّه لا تُطلَبُ معرفةُ اللهِ إلَّا مِن اللهِ؛ مِن الخبيرِ به، وهو اللهُ سُبحانَه وتعالى -على قولٍ في التفسيرِ-. وهذه

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٦، ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٦).

الآيةُ تَشهَدُ لِمَا عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ مِن أنَّ أسماءَ اللهِ وصفاتِه توقيفيَّةٌ، لا يجوزُ لأحدٍ أن يُثبِتَ منها إلَّا ما أثبَتَه اللهُ ورسولُه، يعني: أنَّ وصْفَ اللهِ تعالى لا يكونُ إلَّا بحسَبِ ما عَلِمْناه منه، فلا يمكِنُ أن نَصِفَ اللهَ تعالى بما لم يَصِفْ به نفْسَه[١]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ أنَّ السُّجودَ مِن أسبابِ الرَّحمةِ، سواءٌ السجودُ العامُّ أو السُّجودُ الخاصُّ؛ فإنَّه مِن أسبابِ الرَّحمةِ؛ ولهذا لم يَقُلْ: «اسجُدوا للهِ»، بل قال: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾، يعني: لِتَصِلوا إلى رحمةِ هذا المَسجودِ له[٢].

١٠- مِن عادةِ الكُفَّارِ إنكارُ ما لا يَعرفونَ، سواءٌ كان عمليًّا أو اعتقاديًّا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾[٣].

١١- قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ إنَّ تعطيلَ الجَهميَّةِ وشِبهِهم أعظَمُ مِن تعطيلِ هؤلاء، فإذا كان هؤلاء كُفْرُهم بإنكارِ الرَّحمنِ، فكيف بمَن يُنكِرُ جميعَ الأسماءِ، مِن الجهميَّةِ ونحوِهم؟! ومعروفٌ أنَّ المعتزلةَ لا يُنكِرون الأسماءَ، لكنْ يُنكِرُها غُلاةُ الجهميَّةِ، ومعلومٌ أنَّ الذي يُنكِرُ الأسماءَ أعظَمُ مِن الذي يُنكِرُ اسمًا واحدًا، والكفَّارُ يُقِرُّون باللهِ ويُقِرُّون بالرَّحيمِ، لم يُنكِروا إلَّا الرَّحمنَ، قالوا: ما نعرفُ إلَّا رحمنَ اليمامةِ[٤]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ أنَّ المعاصيَ يَجُرُّ بعضُها بعضًا[٥].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٨).

أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أنَّه لَمَّا كان جَعلُ اللَّيلِ والنهارِ خِلفةً لأجلِ التذكُّرِ والعمَلِ، كان كلُّ واحدٍ منهما صالحًا للعمَلِ الذي يُعمَلُ في صاحبِه، فمَن فاته عَمَلٌ بالليلِ أتَى به في النَّهارِ، ومَن فاته عَمَلٌ بالنَّهارِ أتَى به في الليلِ، وهذا إذا كان مِن العاداتِ فهو على سبيلِ التدارُكِ، وإذا كان مِن العباداتِ فهو على سبيلِ القضاءِ[١]، وفيه حجَّةٌ في قضاءِ النَّوافلِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الواوُ للحالِ، وهذا مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن استِمرارِهم في الشِّركِ؛ أُعقِب ذِكرَ ما نَفَع اللهُ به النَّاسَ مِن إلطافِه بهم في تَصاريفِ الكائناتِ؛ إذْ جَعَل لهمُ اللَّيلَ والنَّهارَ، وخَلَق لهمُ الماءَ، فأنبَتَ به الزَّرعَ، وسَقَى به النَّاسَ والأنعامَ، مع ما قارَنَه مِن دَلائلِ القُدرةِ، بذِكرِ عبادتِهم ما لا يَنفَعُ النَّاسَ؛ عَوْدًا إلى حكايةِ شَيءٍ مِن أحوالِ مُشْركي مكَّةَ[٣].

- والتَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارعِ (يَعْبُدُونَ)؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ عبادتِهمُ الأصنامَ، وعدَمِ إجداءِ الدَّلائلِ[٤]. فالتعبيرُ بالمضارعِ فيه إشارةٌ إلى أنَّهم لو فعَلوا ذلك مرَّةً لكان في غايةِ العجبِ، فكيفَ وهو على سبيلِ التجديدِ والاستمرارِ؟! وهو مصوِّرٌ لحالِهم زيادةً في تبشيعِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٩).

- قولُه: ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ فيه نَفيُ الضُّرِّ بَعْدَ نَفيِ النَّفعِ؛ للتَّنبيهِ على انتِفاءِ شُبهةِ عَبَدةِ الأصنامِ في شِركِهِم؛ لأنَّ موجبَ العبادةِ إمَّا رَجاءُ النَّفعِ، وإمَّا اتِّقاءُ ضُرِّ المَعبودِ، وكِلاهما مُنتَفٍ عنِ الأصنامِ بالمُشاهَدةِ(١).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قُدِّمَ هنا النَّفعُ على الضُّرِّ، فقالَ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾، وعكَسَ ذلك في سُورةِ (يونسَ) فقالَ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وفائِدتُه: أنَّه في سُورةِ (يونسَ) بدَأَ بما هو أبلَغُ إذا ابتُدِئَ به؛ لأنَّ امتِلاكَ الضُّرِّ أَسهَلُ مِنَ امتِلاكِ النَّفعِ؛ فالواحدُ منَّا يَقدِرُ لغَيرِه مِنَ الضُّرِّ ما لا يَقدِرُ عليه مِنَ النَّفعِ، ويتَسهَّلُ عليه ضُرُّه ما لا يَتسهَّلُ عليه نفْعُه، أي: يَعبُدون أصنامًا لا تَقدِرُ على ما يَتسهَّلُ على الفاعِلينَ؛ فكيف ما يَتعذَّرُ؟! ثمَّ ذَكَر بَعدَه: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ لاستِيعابِ ما في البابِ. وأمَّا هنا في سورةِ (الفُرقانِ) فإنَّه تَبِعَ على ما قُدِّمَ فيه الأفضلُ على الأَنقصِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقولِه بعْدَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، فقَدَّمَ خِلطةَ النَّسبِ على خِلطةِ السَّببِ -وهي المُصاهَرةُ-، ثمَّ جاءَ بعدَ ذلك: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾؛ فقَدَّم النَّفعَ على الضُّرِّ اتِّباعًا لِمَا تقدَّمَ(٢).

- وأيضًا لَمَّا كان هذا السياقُ لِتَعدادِ نِعَمِه سُبحانَه، وكان الحامِلُ للإنسانِ على الإذعانِ رجاءَ الإحسانِ أو خوفَ الهَوانِ، وكان رجاءُ الإحسانِ مُقبِلًا به إلى المحسِنِ في السِّرِّ والإعلانِ- قَدَّمَ النفعَ فقال: ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٥٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٥).

بوَجهٍ، ولَمَّا كان الخوفُ إنَّما يوجِبُ الإقبالَ ظاهِرًا فقط؛ أتبَعَه قولَه: ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي: أصلًا في إزالةِ نعمةٍ مِن نِعَمِ اللهِ عنهم، فلا أسخَفَ عقلًا ممَّن يترُكُ مَن بيدِه كلُّ نفعٍ وضرٍّ، وهو يتقلَّبُ في نِعَمِه في يقظتِه ونومِه، وأمسِه ويومِه، ويُقبِلُ على مَن لا نَفعَ بيَدِه ولا ضُرَّ أصلًا[١]!

- قولُه: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ تَذْييلٌ لِما قَبلَه؛ فاللَّامُ في تَعريفِ الكافرِ للاستِغراقِ، أي: كُلُّ كافرٍ على ربِّه ظَهيرٌ. وجُعِل الخَبرُ عنِ الكافرِ خَبرًا لـ (كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّ اتِّصافَه بالخبرِ أمْرٌ مُتقرِّرٌ مُعتادٌ مِن كلِّ كافرٍ. وكذلك جُعِل المُشرِكُ في إشراكِه -مع وُضوحِ دَلالةِ عدَمِ استِئهالِ الأصنامِ للإلهيَّةِ- كأنَّه يَنصُرُ الأصنامَ على ربِّه الحقِّ[٢].

- قَولُه: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، فالسياقُ يقتضي أنْ يقولَ: (وكانوا على ربِّهم)، لكنْ قال: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ إشارةً إلى أنَّ هذه العبادةَ أوصلَتْهم إلى الكُفرِ، وأيضًا لفائدةِ التعميمِ[٣].

- وفي ذِكرِ الرَّبِّ تعالى: تَعريضٌ بأنَّ الكافرَ عاقٌّ لمَولاهُ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٥]. وهذا الكلامُ الواردُ في الرَّدِّ عليهم جامعٌ بيْن إبطالِ إنكارِهم لرِسالتِه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦، ٥٧).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٩).

وبيْن تأنيسِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه ليس بمُضِلٍّ، ولكنَّه مُبشِّرٌ ونَذيرٌ. وفيه تَعريضٌ بألَّا يَحزَنَ لتكذيبِهم إيَّاهُ[(١)].

- وهاهنا نُكتةٌ شَريفةٌ؛ وهي أنَّه تعالى لَمَّا خَصَّ ذِكرَ النَّذيرِ في فاتحةِ السُّورةِ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] أَمسَكَ عن ذِكرِ المؤْمنينَ، وحين قَرَنه بالبَشيرِ في هذه الآيةِ، أتَى بذِكرِ الفَريقَينِ -أَعْني: ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣]-؛ لتَكونَ الخاتِمةُ مُشتمِلةً على ذِكرِ الأولياءِ، فلا تَخْلو السُّورةُ مِن ذِكرِهم[(٢)].

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾

- قولُه: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ استِثناءٌ، وهو تأكيدٌ لنَفيِ أنْ يَكونَ يَسألُهم أجْرًا؛ لأنَّه استِثناءٌ مِن أحوالٍ عامَّةٍ مَحذوفٍ ما يدُلُّ عليها لقَصدِ التَّعميمِ، والاستِثناءُ مِعيارُ العُمومِ؛ فلذلك كثُرَ في كلامِ العربِ أن يُجعَلَ تأكيدُ الفِعلِ في صورةِ الاستِثناءِ، ويُسمَّى تأكيدَ المدحِ بما يُشْبِهُ الذَّمَّ، أو: تأكيدَ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه؛ فقَولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ مِن قَبيلِ التأكيدِ في الجُملةِ؛ لأنَّ الكلامَ على حذْفِ مُضافٍ يُناسِبُ أجْرًا؛ إذِ التَّقديرُ: إلَّا عمَلَ مَن شاءَ أن يَتَّخِذَ إلى ربِّه سبيلًا، وذلك هو اتِّباعُ دِينِ الإسلامِ. ولَمَّا كان هذا إجابةً لدَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَشبَهَ الأجرَ على تلك الدَّعوةِ، وقد يُسمَّى مِثلُ هذا الاستِثناءِ: الاستِثناءَ المُنقطِعَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٦١، ٢٦٢).

ويُقدِّرونه كالاستِدراكِ[١].

- وقدْ صَوَّرَ ذلك بصُورةِ الأجرِ مِن حيثُ إنَّه مَقصودُ الإتيانِ به، واستَثنَى منه قلعًا كُلِّيًّا لشَائبةِ الطَّمعِ، وإظهارًا لغايةِ الشَّفقةِ عليهم، حيثُ جَعَل ذلك مع كَونِ نَفعِه عائدًا إليهم، عائدًا إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- وجُعِل السَّبيلُ هنا إلى اللهِ؛ لأنَّه وسيلةٌ إلى إجابتِه فيما دَعاهُم إليه، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٣٩]. وذِكرُ وصْفِ الرَّبِّ دُونَ الاسمِ العَلَمِ؛ للإشارةِ إلى استِحقاقِه السَّيرَ إليه؛ لأنَّ العبدَ مَحقوقٌ بأن يَرجِعَ إلى ربِّه، وإلَّا كان آبِقًا[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ هذا أمرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو يَشمَلُ الأُمَّةَ ما لم يكنْ دَليلٌ على الخُصوصيَّةِ[٤]. وأصلُ الكلامِ: تَوكَّلْ عليَّ، ثمَّ حُوِّل إلى: تَوكَّلْ على اللهِ؛ فخَصَّ الحَيَّ الَّذي لا يَموتُ بالذِّكرِ؛ ليَكونَ تَعريضًا بأنَّ غيرَه لا يَصِحُّ أن يُتوكَّلَ عليه؛ أمَّا الأصنامُ فإنَّها أَمواتٌ لا يُكْفى أمْرُ مَن يَتوكَّلُ عليها، وأمَّا الأحياءُ الَّذين يَموتون فإنَّهم إذا ماتوا ضاعَ المُتوكِّلُ. أو نقولُ: إنَّ التَّركيبَ مِن بابِ تَرتيبِ الحُكمِ على الوَصفِ المُناسِبِ، وهو أنَّ المتوكِّلَ إذا عَلِم أنَّ المُتوكَّلَ عليه دائِمٌ باقٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٩).

يَعتَمِدُ عليه بشَراشِرِه -أي: بكُلِّيَّتِه-، ولا يَتوزَّعُ خاطِرُه إلى الغَيرِ بخِلافِه إذا لم يَكنْ كذلك؛ فإذَنْ لا يَصِحُّ التَّوكُّلُ إلَّا على الحَيِّ الَّذي لا يَموتُ، وهو اللهُ تعالى؛ فصَحَّ الحَصرُ[(١)].

- قولُه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ وصَفَ تعالى نفْسَه بالصِّفةِ الَّتي تَقتَضي التَّوكُّلَ في قَولِه: ﴿ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾؛ لأنَّ هذا المعنى يختصُّ به تعالى دُونَ كلِّ حَيٍّ، كما قال: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[(٢)] [القصص: ٨٨].

- قولُه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ وصْفٌ بالصِّفةِ الفِعليَّةِ بعدَ وصْفِه بالأبَديَّةِ الَّتي هي مِنَ الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ. والإشارةُ إلى اتِّصافِه بالعِلمِ الشَّاملِ؛ لتَقريرِ وُجوبِ التَّوكُّلِ عليه تعالى وتَأكيدِه؛ فإنَّ مَن أنشَأَ هذه الأجرامَ العِظامَ على هذا النَّمطِ الفائقِ، والنَّسَقِ الرَّائقِ، بتَدبيرٍ مَتينٍ، وتَرتيبٍ رَصينٍ، في أوقاتٍ مُعيَّنةٍ، مع كمالِ قُدرتِه على إبداعِها دَفعةً، لحِكَمٍ جليلةٍ، وغاياتٍ جميلةٍ، لا تَقِفُ على تفاصيلِها العُقولُ: أَحَقُّ مَن يُتوكَّلُ عليه، وأَوْلى مَن يُفوَّضُ الأمرُ إليه[(٣)].

- قولُه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ الحَيُّ الَّذي لا يَموتُ هو اللهُ تعالى، وعَدَل عنِ اسمِ الجلالةِ إلى هذَينِ الوَصفَينِ؛ لِما يؤْذِنُ به مِن تَعليلِ الأمرِ بالتَّوكُّلِ عليه؛ لأنَّه الدَّائمُ، فيُفيدُ ذلك معنَى حَصرِ التَّوكُّلِ في الكَونِ عليه؛ فالتَّعريفُ في الحَيِّ للكاملِ، أي: الكاملِ حياتُه؛ لأنَّها واجبةٌ باقيةٌ مُستمِرَّةٌ، وحياةُ غَيرِه مُعرَّضةٌ للزَّوالِ بالمَوتِ، ومُعرَّضةٌ لاختِلالِ أثَرِها

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧).

بالذُّهولِ كالنَّومِ ونَحوِه، فإنَّه مِن جِنسِ المَوتِ؛ فالتَّوكُّلُ على غَيرِه مُعرَّضٌ للاختِلالِ وللانخِرامِ. وفي ذِكرِ الوَصفَينِ تَعريضٌ بالمشرِكينَ؛ إذْ ناطُوا آمالَهم بالأصنامِ، وهي أمواتٌ غيرُ أَحياءٍ(١).

- ولَمَّا كان الوَكيلُ يَحمِلُ عن الموكِّلِ ثِقَلَ ما أظهَرَ له عَجْزَه فيه، ويَقومُ بأَعبائِه حتَّى يَصيرَ كمَنْ يَحمِلُ عن آخَرَ عَينًا مَحسوسةً لا يَصيرُ له عليه شَيءٌ منها أصلًا؛ عَبَّر بحرفِ الاستِعلاءِ تَمثيلًا لذلك، فقال: ﴿عَلَى ٱلْحَيِّ﴾(٢).

- قولُه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ الباءُ في ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ للمُصاحَبةِ، أي: سبِّحه تَسبيحًا مُصاحِبًا للثناءِ عليه بما هو أهلُه، وقد جَمَع له في هذا الأمرِ التَّخليةَ والتَّحليةَ، مُقدِّمًا التَّخليةَ؛ لأنَّ شأنَ الإصلاحِ أن يَبدَأَ بإزالةِ النَّقصِ(٣).

- قولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ اعتِراضٌ في آخِرِ الكلامِ، فيُفيدُ معنَى التَّذييلِ؛ لِما فيه مِنَ الدَّلالةِ على عمومِ عِلمِه تعالى بذُنوبِ الخَلْقِ، ومِن ذلك أحوالُ المُشركينَ الَّذين هُم غرَضُ الكلامِ؛ ففي (ذُنوبِ عِبادِهِ) عُمومانِ: عُمومُ ذُنوبِهم كلِّها؛ لإفادةِ الجَمعِ المُضافِ عمومَ إفرادِ المُضافِ، وعمومُ النَّاسِ؛ لإضافةِ (عِبادِ) إلى ضَميرِ الجلالةِ، أي: جميعِ عِبادِه، مع ما في صيغةِ (خَبير) مِن شدَّةِ العِلمِ، وهو يَستلزِمُ العُمومَ؛ فكان كعُمومٍ ثالثٍ(٤).

- والعِلمُ بالذُّنوبِ كِنايةٌ عن لازِمِه، وهو أنَّه يُجازيهم على ذُنوبِهم(٥).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ تَعريضٌ بتَسليةِ الرَّسولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٩، ٦٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٦٠).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما يُلاقيهِ مِن أَذاهُم، ووعيدٌ للكفَّارِ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ في ذِكرِ هذه الآيةِ زِيادةُ تَقريرٍ لكَونِه حَقيقًا بأنْ يُتوكَّلَ عليه؛ مِن حيثُ إنَّه الخالقُ للكلِّ والمُتصرِّفُ فيه، وتَحريضٌ على الثَّباتِ والتَّأنِّي في الأمرِ؛ فإنَّه تعالى مع كَمالِ قُدرتِه وسرعةِ نَفاذِ أمْرِه في كلِّ مُرادٍ خلَقَ الأشياءَ على تؤَدَةٍ وتَدرُّجٍ[٢].

- وأُجريَتْ هذه الصِّلةُ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ...﴾ وصْفًا ثانيًا لـ ﴿ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]؛ لاقتِضائِها سَعةَ العِلمِ، وسَعةَ القُدرةِ، وعَظيمَ المجدِ؛ فصاحبُها حَقيقٌ بأنْ يُتوكَّلَ عليه، ويُفوَّضَ أمْرُ الجزاءِ إليه. وهذا تَخلُّصٌ إلى العَودِ إلى الاستِدلالِ على تَصرُّفِ اللهِ تعالى بالخَلقِ[٣].

- وقولُه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ هو خَبرُ مبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: هو الرَّحمنُ - وذلك على قولٍ-، وهذا مِن حذْفِ المُسنَدِ إليه الغالِبِ في الاستِعمالِ عِندَ ما تَتقدَّمُ أَخبارٌ أو أوصافٌ لصاحبِها، ثمَّ يُرادُ الإخبارُ عنه بما هو إفصاحٌ عن وصْفٍ جامعٍ لِما مضَى أو أهَمَّ في الغرضِ ممَّا تَقدَّمَه؛ فإنَّ وصْفَ الرَّحمنِ أهَمُّ في الغرضِ المَسوقِ له الكلامُ، وهو الأمرُ بالتَّوكُّلِ عليه؛ فإنَّه وصْفٌ يَقتَضي أنَّه يُدبِّرُ أُمورَ مَن تَوكَّلَ عليه بقَويِّ الإسعافِ[٤].

- وفُرِّعَ على وَصْفِه بالرَّحمنِ قَولُه: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾؛ للدَّلالةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ في رَحمتِه مِنَ العَظَمةِ والشُّمولِ ما لا تَفِي فيه العِبارةُ، فيَعدِلُ عن زِيادةِ التَّوصيفِ إلى الحَوالةِ على عَليمٍ بتَصاريفِ رَحمتِه، مُجرِّبٍ لها، مُتلَقٍّ أحاديثَها ممَّن عَلِمَها وجرَّبَها[١]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- وتَنكيرُ ﴿خَبِيرًا﴾؛ للدَّلالةِ على العُمومِ، فلا يَظنُّ خبيرًا مُعَيَّنًا؛ لأنَّ النَّكِرةَ إذا تَعلَّقَ بها فِعلُ الأمرِ اقتَضَتْ عُمومًا؛ فقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يَجري مَجرَى المَثَلِ، ولَعلَّه مِن مُبتكَراتِ القُرآنِ، نَظيرَ قَولِ العربِ: «على الخَبيرِ سَقَطْتَ»، يَقولُها العارِفُ بالشَّيءِ إذا سُئِل عنه. والمَثَلانِ وإنْ تَساوَيَا في عددِ الحُروفِ المَنطوقِ بها؛ فالمَثَلُ القُرآنيُّ أَفصَحُ؛ لسَلامتِه مِن ثِقَلِ تَلاقي القافِ والطَّاءِ والتَّاءِ في (سقَطْتَ)، وهو أيضًا أَشرَفُ؛ لسَلامتِه مِن مَعنَى السُّقوطِ. وهو أَبلَغُ مَعنًى؛ لِما فيه مِن عُمومِ كلِّ خَبيرٍ، بخِلافِ قَولِهم: «على الخَبيرِ سقَطْتَ»؛ لأنَّها إنَّما يَقولُها الواحدُ المُعَيَّنُ[٢].

- والباءُ في قولِه: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يَجوزُ أن تَكونَ مُتعلِّقةً بـ﴿خَبِيرًا﴾، وتَقديمُ المَجرورِ للرَّعيِ على الفاصِلةِ، وللاهتِمامِ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ لَمَّا جَرَى وصْفُ اللهِ تعالى بالرَّحمن مع صِفاتٍ أُخَرَ؛ استَطرَدَ بذِكْرِ كُفرِ المُشركينَ بهذا الوَصفِ، والخَبرُ هنا مُستعمَلٌ كِنايةً في التَّعجُّبِ مِن عِنادِهم وبُهتانِهم، وليس المَقصودُ إفادةَ الإخبارِ عنهم بذلك؛ لأنَّه أمْرٌ مَعلومٌ مِن شأنِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٦١، ٦٢).

- قولُه: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ استَفهَمَ كُفَّارُ قُرَيشٍ عنِ الرَّحمنِ استِفهامَ مَن يَجهَلُه وهُم عالِمونَ به؛ فأَظهَروا التَّجاهُلَ بهذه الصِّفةِ الَّتي للهِ؛ مُغالَطةً منهم ووقاحةً، فقالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وهُم عارِفونَ به وبصِفتِه الرَّحمانيَّةِ، كما قال فِرعونُ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] حين قال له موسى: ﴿إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤] على سَبيلِ المُناكَرةِ، وهو عالِمٌ برَبِّ العالَمينَ[(١)]! فـ(ما) في قَولِه: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ استِفهاميَّةٌ، والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في الاستِغرابِ، يَعْنونَ تَجاهُلَ هذا الاسمِ؛ ولذلك استَفهَموا عنه بـ(ما) دُونَ (مَن)، باعتِبارِ السُّؤالِ عن معنَى هذا الاسمِ[(٢)].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ استِفهامُ إنكارٍ وامتِناعٍ[(٣)].

- ومَفعولُ ﴿تَأۡمُرُنَا﴾ في قولِه: ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه، تَقديرُه: يَأمُرُنا سُجودَه، نَحوَ قَولِهم: أَمَرْتُك الخَيرَ[(٤)].

- قولُه: ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ فيه إسنادُ زيادةِ النُّفورِ إلى القَولِ؛ لأنَّه سبَبُ تلك الزِّيادةِ، فهُم كانوا أصحابَ نُفورٍ مِن سُجودٍ للهِ، فلمَّا أُمِروا بالسُّجودِ للرَّحمن زادُوا بُعدًا مِنَ الإيمانِ، وهذا كقَولِه في سورةِ (نوح): ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾[(٥)] [نوح: ٦].

٧- قولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ؛ جُعِل تمهيدًا لقَولِه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٣).

ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ...﴾ الآياتِ[١] [الفرقان: ٦٣].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ على قِراءةِ (سُرُجًا) بالجَمعِ، وهو يَجمَعُ الأنوارَ؛ يكونُ خَصَّ القمرَ بالذِّكرِ تَشريفًا[٢]. وقولُه: (سُرُجًا) جَمعُ سِراجٍ؛ فيَشمَلُ مع الشَّمسِ النُّجومَ؛ فيكونُ امتِنانًا بحُسنِ مَنظرِها للنَّاسِ، كقَولِه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]. والكلامُ جارٍ على التَّشبيهِ البَليغِ؛ لأنَّ حقيقةَ السِّراجِ: المِصباحُ الزَّاهِرُ الضِّياءِ. والمقصودُ: أنَّه جَعَلَ الشَّمسَ مُزيلةً للظُّلْمةِ كالسِّراجِ، أو خَلَقَ النُّجومَ كالسِّراجِ في التَّلألُؤِ وحُسنِ المَنظرِ[٣].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾

- اختِيرَتْ لَفظةُ (الخِلْفةِ) هنا؛ لدَلالتِها على الهيئةِ، فتكونُ مُنبِّهةً على هيئةِ هذا الاختِلافِ؛ بالطُّولِ والقِصَرِ المُختلفينِ في جِهاتٍ مِن الأرضِ، وذلك مُنبِّهٌ على أسبابِ هذا الاختِلافِ مِن وضْعِ جِرمِ الأرضِ وجِرمِ الشَّمسِ، وذلك كلُّه مِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ عليه، وبتلك الهيئةِ مِنَ الاختلافِ المُقدَّرِ المُنظَّمِ عَظُمَت النِّعمةُ على البشرِ، وشَمِلَتْهم الرَّحمةُ؛ فكانتْ هذه اللَّفظةُ الواحدةُ مُنبِّهةً على ما في اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ مِن آيةٍ دالَّةٍ، ومِن نِعمةٍ عامَّةٍ؛ وهكذا جميعُ ألْفاظِ القرآنِ في انتِقائِها لِمواضعِها[٤].

- والجارُّ في ﴿لِّمَنْ أَرَادَ﴾ يتعلَّقُ بـ ﴿جَعَلَ﴾، وكان الجَعلُ لهما؛ لأنَّهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٣، ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٠).

المُستفيدانِ منه، ولم يُكرِّرِ الاسمَ الموصولَ؛ لأنَّ الشَّخصَ الواحدَ يُمكِنُ أنْ يتَّصِفَ بالصِّفتينِ معًا. وكرَّرَ فِعلَ الإرادةِ؛ لأنَّها لا بدَّ منها في التَّذكُّرِ وفي الشُّكرِ[(١)].

- قولُه: ﴿خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ جِيءَ في جانبِ المُتذكِّرينَ بقَولِه: ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾؛ لدَلالةِ المضارعِ على التَّجدُّدِ والحُدوثِ؛ فإنَّ الغَفلةَ مُستوليةٌ على الإنسانِ، والآياتُ المرئيَّةُ ما تَزالُ تُحدِثُ له التذكُّرَ وتُجدِّدُه له. واقتَصَر في جانبِ الشَّاكِرينَ على المصدرِ بقَولِه: ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾؛ لأنَّ الشُّكرَ يَحصُلُ دَفعةً. ولأجْلِ الاختِلافِ بيْن النَّظْمَينِ أُعيدَ فِعلُ (أَرَادَ)؛ إذْ لا يَلتئِمُ عَطْفُ ﴿شُكُورًا﴾ على ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾، وقيل: ﴿شُكُورًا﴾؛ لمُناسَبةِ رُؤوسِ الآيِ[(٢)].

- قولُه: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ نَشْرٌ لمعنَى اللَّفِّ[(٣)] في قَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٦).

(٣) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يشتملُ على متعدِّدٍ- ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنةَ إلا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجماليٌّ. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهين: الوجه الأوَّل: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّف، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنشر المرتَّبَ». الوجه الثاني: أن يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ«اللَّف والنَّشر المُشَوَّش»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾؛ فإنَّ مجرَّدَ الانتِقالِ والتَّغييرِ يدُلُّ على ناقِلٍ ومُغيِّرٍ عظيمِ القُدرةِ، وكَونَ ذلك الانتِقالِ مؤدِّيًا إلى النَّفعِ العظيمِ يدُلُّ على مُنعِمٍ واسعِ النِّعمةِ، وهُمَا يوجِبانِ المعرفةَ والعِبادةَ[1] [المرسلات: ٦].

و﴿أَوۡ﴾ للتنويعِ على معنى الاشتمالِ على هذينِ المعنيينِ، أو للتخييرِ على معنى الاستقلالِ بكلٍّ، ولا منعَ مِن الاجتماعِ. وفائدةُ هذا الأسلوبِ إفادةُ الاستقلالِ، ولو ذكَر الواوَ بدلَها لتُوُهِّمَ المعيةُ[2].

- وقوله: ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾ تَعريضٌ بأنَّ الَّذين قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ أبَوُا التَّفكُّرَ في آياتِ اللهِ جُحودًا وعِنادًا، وامتَنَعوا عنِ الشُّكرِ لآلائِه عُتُوًّا واستِكبارًا، وتَصريحٌ بأنَّ الَّذين تَوسَّموا بعِبادِ الرَّحمنِ على خِلافِ ذلك؛ ولذلك قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا﴾، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ ليُقابِلَ قولَهم: ﴿أَنَسۡجُدُ﴾، وقولَه: ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورًا﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤٢).

وتقدَّمت الإشارةُ إلى أنَّ (أو) مانعةُ خلوٍّ؛ فإمَّا أنْ يوجدَ هذا أو يُوجدَ هذا، ويمكنُ أن يجتمِعا. يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (٩/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٧٩).

الآيات (٦٢-٦٧)

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَوۡنٗا﴾: أي: بالرِّفْقِ والسَّكينةِ والوَقارِ، وأصلُ (هون): يدُلُّ على سُكونٍ أو سَكينةٍ أو ذُلٍّ[(١)].

﴿سَلَٰمٗا﴾: أي: سَدادًا مِن القَولِ ومَعروفًا، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على صِحَّةٍ وعافيةٍ[(٢)].

﴿غَرَامًا﴾: أي: دائِمًا لازِمًا، وأصلُ (غرم): يدُلُّ على مُلازَمةٍ[(٣)].

﴿وَمُقَامٗا﴾: أي: إقامةً، ويُعبَّرُ بالإقامةِ عن الدَّوامِ، وأصلُ (قوم): يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١٢) و(١٧/ ٤٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥).

انتِصابٍ أو عَزمٍ[١].

﴿يَقۡتُرُواْ﴾: يُضَيِّقوا ويَبخَلوا، والقَتْرُ: تقليلُ النَّفَقةِ، وأصلُ (قتر): يدُلُّ على تجميعٍ وتَضييقٍ[٢].

﴿قَوَامٗا﴾: أي: وسَطًا وعَدلًا، والقَوامُ هو الشَّيءُ بينَ الشَّيئَيْنِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا صفاتِ عِبادِه المؤمنينَ: وعِبادُ الرَّحمنِ هم الذين يَمشونَ على الأرضِ بسَكينةٍ ووَقارٍ ولِينٍ، وإذا خاطَبَهم السُّفَهاءُ بالسَّيِّئِ مِن القَولِ لم يُقابِلوهم بالمِثْلِ، بل قابَلوهم بالقَولِ الطيِّبِ، وهم الذين يُصَلُّون لله في اللَّيلِ ساجِدينَ وقائِمينَ، والذين يقولونَ خَوفًا مِن عِقابِ رَبِّهم: ربَّنا أبعِدْ عنَّا عذابَ جهنَّمَ؛ إنَّ عذابَها كان مُهلِكًا ومُلازِمًا لأهلِ النَّارِ لا يُفارِقُهم، إنَّها قَبُحَت مَنزِلًا ومُقامًا لِمن يُقيمُ فيها.

والذين إذا أنفَقوا لم يُبذِّروا ولم يُضيِّقوا ويَبخَلوا، وكان إنفاقُهم وسَطًا بيْن الإسرافِ والتَّقتيرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٣، ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٨).

سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تجاهَلَ المشرِكون الرحمنَ، واستكبَروا عن السجودِ له؛ عَرَّفَهم القرآنُ بالرحمنِ: بخَلْقِه، وتدبيرِه وإنعامِه -كما مضى في الآياتِ المتقدمةِ- ثم عَرَّفَهم بعِبادِه الذين عَرَفوه بذلك فآمنوا به وخضَعوا له، بما اشتملتْ عليه هذه الآياتُ مِن صفاتِهم، وكما كانت مخلوقاتُ الله المذكورةُ سابقًا دالَّةً عليه، ومعَرِّفةً به، بما فيها مِن آثارِ قدرتِه وآثارِ رحمتِه، كذلك كان عِبادُه المذكورون أدِلَّةً عليه ومعَرِّفين به؛ بأقوالهم وأفعالِهم، وهَديِهم وسلوكِهم، ومَظاهِرِ آثارِ رحمةِ الله عليهم، فذكَروا بعْدَ ذلك تلك المخلوقاتِ، وذُكِرت هي قبلَهم؛ لأنها كانت أدِلَّةً لهم، والدليلُ سابقٌ على المستدِلِّ سَبْقَ المُستفادِ منه على المستفيدِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سبحانه التذكُّرَ والشُّكرَ في اللَّيلِ والنهارِ في الآيةِ المتقدِّمةِ؛ ذَكَرَ صفاتِ المتذكِّرينَ الشاكرينَ، وما أثمَرَه لهم تَذكُّرُهم وشُكرُهم؛ ترغيبًا في التذكُّرِ والشُّكرِ[(٢)].

وأيضًا لَمَّا وَصَفَ الله سُبحانه الكُفَّارَ في هذه السُّورةِ بما وَصَفَهم به مِن الفَظاظةِ والغِلظةِ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وعداوتِهم له، ومُظاهَرتِهم على خالِقِهم، ونحوِ ذلك مِن جلافتِهم، وخَتَمَ بالتذكُّرِ والشُّكرِ، وكان التقديرُ: فعِبَادُ الشَّيطانِ لا يتذكَّرون ولا يشكُرون؛ لِما لهم مِن القسوةِ- عَطَفَ على هذا المُقَدَّرِ أضْدادَهم، واصفًا لهم بأضْدادِ أوصافِهم، مُبَشِّرًا لهم بضِدِّ جزائِهم، فقال تعالى[(٣)]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٠).

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾.

أي: وعِبادُ الرَّحمنِ هم الذين يَمشون بحِلْمٍ وسَكينةٍ، ووَقارٍ وتواضُعٍ، ورِفقٍ ولينٍ، مِن غَيرِ مَرَحٍ وتكبُّرٍ وتجبُّرٍ، وسَعيٍ للإفسادِ وارتكابِ المعاصي(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٦٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٨).

قال ابن كثير: (المرادُ بالهَونِ هاهنا السَّكينةُ والوقارُ، كما قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «إذا أتيتُمُ الصَّلاةَ فلا تأتُوها وأنتم تَسْعَونَ، وأْتُوها وعليكم السَّكينةُ، فما أدركتُم فصَلُّوا، وما فاتَكم فأتِمُّوا»[البخاري (٦٣٥)، ومسلم (٦٠٣)]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١، ١٢٢).

ويُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ١٦١).

وقال ابنُ جُزي: (﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾، أي: رِفقًا ولِينًا بحِلمٍ ووقارٍ، ويحتمِلُ أن يكون ذلك وَصْفَ مَشيِهم على الأرضِ، أو وصْفَ أخلاقِهم في جميعِ أحوالِهم، وعبَّرَ بالمَشيِ على الأرضِ عن جميعِ تصَرُّفِهم مدَّةَ حياتِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٦).

وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ قَولِه ﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ أنَّه مدحٌ لمِشْيةٍ بالأرجُلِ، وهو الذي حمَل عليه جمهورُ المفسِّرينَ... [و] تقييدُ المشيِ بأنَّه على الأرضِ؛ لِيَكونَ في وَصفِه بالهَونِ ما يقتضي أنَّهم يَمشون كذلك اختيارًا، وليس ذلك عندَ المشيِ في الصُّعُداتِ أو على الجنادِلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٨).

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿يَمۡشُونَ ﴾ عبارةٌ عن تصرُّفاتِهم في معاشرةِ النَّاسِ، وأنَّه ذكَر مِن ذلك المعظَمَ، لاسيَّما وفي ذلك الانتقالِ في الأرضِ معاشرةُ الناسِ وخلطتُهم. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ عطية، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٨).

وقال ابن عثيمين: (ثمَّ إنَّ هذا المَشيَ، هل هو المشيُ الحِسِّيُّ، أو يعُمُّ المشيَ الحسِّيَّ والمعنويَّ؟ الجوابُ: يَعُمُّهما جميعًا، حتَّى المشيَ المعنويَّ؛ بدليلِ قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾، وهذا مِن هَونِ المشيِ المعنويِّ؛ أنَّهم إذا خاطَبَهم الجاهلون لا يتسَرَّعون فيقابلونَه بمِثلِ جَهلِه، ولكِنَّهم يقولون: سلامًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧١).

طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩].

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

أنَّها بيانٌ لحالِ عِبادِ الرحمنِ في المُعامَلةِ مع غَيرِهم إِثْرَ بَيانِ حالِهم في أنفُسِهم[(١)].

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾.

أي: وإذا خاطَبَ السُّفَهاءُ عِبادَ الرَّحمنِ بما يَكرَهونَه، أجابوهم بقَولٍ سَدادٍ وصَوابٍ، ويَعفُون عنهم ويَصفَحون، فيَسْلَمون مِن الإثمِ، ومِن مُقابَلةِ جَهلِهم بالإساءةِ إليهم، ومِن تطاوُلِهم في أذيَّتِهم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧١).

قال ابنُ باديس: (﴿سَلَٰمًا ﴾ ... مفعولٌ مطلقٌ، والتقديرُ: قالوا قولًا سلامًا، أي: ذا سلامٍ، فيشملُ كلَّ قولٍ فيه سلامةٌ مِن الأذَى والمكروهِ؛ كسلام عليكم، ويغفرُ الله لكم، وسامحكم الله، ونحو ذلك. أو... مفعولٌ به، أي: قالوا هذا اللفظَ ﴿سَلَٰمًا ﴾ نفْسَه). ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٥).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: رَدُّوا معروفًا، وأجابوا بالسَّدادِ مِن الخِطابِ، ولم يقولوا إلَّا خيرًا: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، وابنُ جُزي، والنسفيُّ، والخازنُ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) =

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه وصْفَهم بالنَّهارِ مِن وَجهَينِ؛ أحدُهما: ترْكُ الإيذاءِ، بقَولِه: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، والثَّاني: تحمُّلُ الإيذاءِ، بقولِه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ

= (٢/ ٨٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٢).

قال السعدي: (﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: خاطَبوهم خِطابًا يَسْلَمون فيه مِنَ الإثمِ، ويَسلَمون مِن مُقابَلةِ الجاهلِ بجَهلِه. وهذا مدحٌ لهم بالحِلمِ الكثيرِ، ومُقابَلةِ المُسيءِ بالإحسانِ، والعفوِ عن الجاهلِ، ورَزانةِ العقلِ الذي أوصَلَهم إلى هذه الحالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

وممَّن اختار أنَّهم قالُوا هذا اللَّفظَ -أي: سلامًا-: ابنُ عطية، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٢١٧).

وقال القاسمي: (﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: إذا خاطَبَهم السُّفهاءُ بالقولِ السَّيِّئِ لم يُقابِلوهم بمِثلِه، بل قالوا كلامًا فيه سلامٌ مِن الإيذاءِ والإثمِ؛ سواء كان بصيغةِ السلام، كقولهم: «سلامٌ عليكم»، أو غيرِها ممَّا فيه لُطفٌ في القولِ، أو عفوٌ أو صفحٌ، وكَظمٌ للغَيظِ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٦).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى ﴿سَلَٰمًا﴾ أي: تسلُّمًا منكم لا نُجاهِلُكم، ومُتاركةً لا خَيرَ بيْننا ولا شَرَّ: المُبَرِّدُ، والزجَّاجُ، والزمخشريُّ، وأبو السعود، والشربيني. يُنظر: ((المقتضب)) للمبرِّد (٣/ ٢١٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٢).

وقال ابنُ عاشور: («السَّلامُ» يجوزُ أن يكونَ مصدرًا بمعنى السَّلامةِ، أي: لا خيرَ بيْننا ولا شرَّ؛ فنحن مُسلَّمون منكم. ويجوزُ أن يكونَ مرادًا به لفظُ التحيَّةِ، فيكونَ مُستعمَلًا في لازِمِه، وهو المتاركةُ؛ لأنَّ أصلَ استعمالِ لفظِ السَّلامِ في التحيَّةِ أنَّه يؤْذِنُ بالتأمينِ، أي: عدَمِ الإهاجةِ. والتأمينُ: أوَّلُ ما يَلقَى به المرءُ مَن يريدُ إكرامَه؛ فتكون الآيةُ في معنى قَولِه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٩).

قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾؛ شرحَ صِفتَهم في اللَّيلِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ سُبحانه فيما تقدَّمَ سلوكَهم مع الخَلقِ؛ ذَكَر في هذه الآيةِ سلوكَهم في القيامِ بعبادةِ الحقِّ، وفيما تَقَدَّمَ بيانُ حالِهم عندَ اختلاطِهم بالعِبادِ، وفي هذه بيانُ حالِهم عندَ تَفرُّدِهم لربِّ العبادِ[٢].

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

أي: وعِبادُ الرَّحمنِ هُمُ الذين يُصَلُّونَ في اللَّيلِ مُخلِصينَ لرَبِّهم، وهم في ذلك بيْنَ سُجودٍ وقِيامٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۞ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٦ - ١٨].

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠).

قال الزجاج: (كلُّ مَن أدركه اللَّيلُ فقد بات يبيتُ، نام أو لم ينَمْ... إنَّما المَبيتُ إدراكُ اللَّيلِ). ((معاني القرآن)) (٤/ ٧٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ سبحانه حُسنَ سلوكِهم مع الخَلقِ، واجتهادَهم في عبادةِ الحقِّ؛ ذَكَر خَوفَهم مِن ربِّهم، واعتمادَهم عليه في نجاتِهم، وعدَمَ اعتزازِهم بأعمالِهم، فهُم يَأتون ما يَأتون مِن مَحاسِنِ الأعمالِ، ولا يَعتمدون إلَّا على الكبيرِ المُتعالِ[(١)].

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾.

أي: والذين يقولونَ خَوفًا وحَذَرًا مِن عَذابِ اللهِ: ربَّنا ادفَعْ عنَّا عذابَ جَهنَّمَ، بتَوفيقِنا للطَّاعاتِ، واجتِنابِ المعاصي، وتَكفيرِ السَّيِّئاتِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۞ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۞ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ [المعارج: ٢٦ - ٢٨].

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

أي: إنَّ عذابَ جهنَّمَ مُلازِمٌ لأهلِ النَّارِ لا يُفارِقُهم، مُهلِكٌ لهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٤).

قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿كَانَ غَرَامًا﴾ فيه خمسةُ أقوالٍ تتقارَبُ معانيها: أحدُها: دائمًا،... والثاني: موجِعًا، رواه الضحَّاكُ عن ابنِ عبَّاسٍ. والثالث: مُلِحًّا، قاله ابنُ السائبِ، وقال ابنُ جُرَيج: لا يفارِقُ. والرابعُ: هلاكًا، قاله أبو عُبَيدة. والخامسُ: أنَّ الغَرامَ في اللُّغةِ: أشَدُّ العذابِ... قاله الزجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٧). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٨٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٥). =

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧].

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

أي: إنَّ جَهنَّمَ قَبُحَت مَنزِلًا يَستقِرُّ فيه أهلُها، وبِئسَت موضِعَ إقامةٍ يَمكُثونَ فيها[1].

= ممَّن اختار في الجملةِ أن ﴿غَرَامًا﴾ أي: ملازمًا كملازَمةِ الغَريمِ لغريمِه، مُلِحًّا، لازمًا، دائمًا، لا يفارِقُ صاحبَه: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، والسمعانيُّ، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والبيضاويُّ، والسمين الحلبيُّ، وابنُ كثير، وجلالُ الدينِ المحليُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٦).

وممَّن اختار أنَّ ﴿غَرَامًا﴾ أي: هلاكًا وخسرانًا مُلِحًّا لازمًا: الزمخشريُّ، والرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨١).

وقال ابن جرير: (﴿غَرَامًا﴾ مُلِحًّا دائمًا لازمًا، غيرَ مفارقٍ مَن عُذِّب به مِن الكفَّارِ، ومُهلِكًا له). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥).

قال ابن عاشور: (وجملة: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يجوزُ أن تكونَ حكايةً مِن كلامِ القائلينَ، ويجوزُ أن تكونَ مِن كلامِ اللهِ تعالى مُعترضةً بيْن اسمَيِ الموصولِ. وعلى كلٍّ فهي تعليلٌ لسؤالِ صَرْفِ عذابِها عنهم. والغرامُ: الهلاكُ المُلِحُّ الدَّائِمُ، وغلَبَ إطلاقُه على الشرِّ المستمِرِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى أفعالَهم وأقوالَهم؛ أتبَعَ ذلك بذِكرِ إنفاقِهم[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه أفعالَهم وأقوالَهم فيما بيْنهم وبيْن الخلْقِ والخالقِ؛ ذكَرَ أحوالَهم في أموالهم نظرًا إلى قول الكفرةِ ﴿ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ ﴾[الفرقان: ٨]، وهدايةً إلى طريق الغنى؛ لأنَّه ما عالَ مَنِ اقتصدَ، فقال[٢]:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ ﴾.

أي: والذين إذا أنفَقوا أموالَهم على أنفُسِهم وأهليهم وغَيرِهم، لم يُجاوِزوا الحَدَّ في إنفاقِها فيُبَذِّروا، ولم يُقصِّروا في النَّفَقةِ عن قَدرِ الحاجةِ فيَبخَلوا[٣].

= (٦/ ١٢٣)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠٠).

قال أبو حيان: (والظَّاهرُ أن التَّعليلينِ غيرُ مترادفينِ؛ ذكرَ أوَّلًا لُزومَ عذابِها، وثانيًا مَساءةَ مكانِها، وهما متغايرانِ، وإن كان يلزمُ مِن لزومِ العذابِ في مكانٍ ذَمُّ ذلك المكانِ. وقيل: هما مترادِفان، والظَّاهِرُ أنَّه مِن كلامِ الداعينَ وحكايةٌ لقولِهم. وقيل: هو مِن كلامِ الله). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨).

وقال ابن عاشور: (جملة: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ يجوزُ أن تكونَ حِكايةً لكلامِ القائلينَ؛ فتكونَ تعليلًا ثانيًا مؤكِّدًا لتعليلِهم الأوَّلِ، وأن تكونَ مِن جانب الله تعالى دونَ التي قبْلَها؛ فتكونَ تأييدًا لتعليلِ القائلينَ، وأن تكونَ مِن كلامِ الله مع التي قبْلَها؛ فتكونَ تكريرًا للاعتراضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٧، ٥٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ١٣٣، ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٣، ١٢٤)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

= السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٥، ٧٦).

قال ابن عطية: (الوجهُ أن يُقالَ: إنَّ النَّفَقةَ في المعصيةِ أمرٌ قد حظَرت الشريعةُ قليلَه وكثيرَه، وكذلك التعدِّي على مالِ الغيرِ، وهؤلاء الموصوفون منزَّهون عن ذلك، وإنَّما التأديبُ بهذه الآيةِ هو في نفقةِ الطاعاتِ وفي المباحات، فأدَبُ الشَّرعِ فيها ألَّا يُفَرِّطَ الإنسانُ حتى يضيِّعَ حَقًّا آخَرَ أو عيالًا ونحوَ هذا، وألَّا يضَيِّقَ أيضًا ويقتِّرَ حتى يُجيعَ العيال، ويُفرِطَ في الشُّحِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٠).

وقال السعدي: (﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟﴾ النفقاتِ الواجبةَ والمستحبَّةَ ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾ بأن يَزيدوا على الحدِّ فيَدخلوا في قسمِ التبذيرِ، وإهمالِ الحقوقِ الواجبةِ، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ فيدخلوا في بابِ البخلِ والشُّحِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

وقال ابن عاشور: (أُريدَ بالإنفاقِ هنا الإنفاقُ غيرُ الواجبِ، وذلك إنفاقُ المرءِ على أهلِ بيتِه وأصحابِه؛ لأنَّ الإنفاقَ الواجِبَ لا يُذَمُّ الإسرافُ فيه، والإنفاقَ الحرامَ لا يُحمَدُ مُطلقًا بَلْهَ أن يُذَمَّ الإقتارُ فيه، على أنَّ في قولِه: ﴿إِذَآ أَنفَقُوا۟﴾ إشعارًا بأنَّهم اختاروا أن يُنفِقوا ولم يكُنْ واجِبًا عليهم. والإسرافُ: تجاوُزُ الحَدِّ الذي يقتضيه الإنفاقُ بحسَبِ حالِ المنفِقِ وحالِ المنفَقِ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١).

وقال الشنقيطي: (واعلَمْ أنَّ أظهَرَ الأقوالِ في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ اللهَ مدَحَ عبادَه الصالحينَ بتوسُّطِهم في إنفاقِهم، فلا يجاوِزون الحدَّ بالإسرافِ في الإنفاق، ولا يَقتُرون، أي: لا يُضَيِّقون فيَبخَلون بإنفاقِ القَدرِ اللازمِ. وقال بعضُ أهلِ العلمِ: الإسرافُ في الآيةِ: الإنفاقُ في الحرامِ والباطِلِ، والإقتارُ: منعُ الحقِّ الواجبِ. وهذا المعنى وإن كان حقًّا فالأظهرُ في الآيةِ هو القَولُ الأوَّلُ... والظَّاهِرُ أنَّ التوسُّطَ في الإنفاقِ الذي مدَحَهم به شامِلٌ لإنفاقِهم على أهليهم، وإنفاقِهم المالَ في أوجُه الخيرِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٧٥، ٧٦).

وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ الإنفاقَ شامِلٌ للإنفاقِ على العيالِ والإنفاقِ في سبيلِ الله، وفي الزَّكَواتِ والصَّدَقات، والإنفاقِ في وجوهِ الخيرِ، وفي كُلِّ ما يكونُ إنفاقًا، قال: (لأنَّه لم يبيِّنِ المتعَلَّقَ، لم يقُلِ اللهُ: «أنفَقوا على عيالِهم»، بل أطلَق؛ فيشمَلُ كُلَّ ما أنفقوه؛ على العيالِ وعلى غيرِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٩، ٢٨٠).

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وعن عمَّارِ بنِ ياسرٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال في دعائه: ((وأسألُك القَصدَ[١] في الفَقرِ والغِنى))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((كُلوا واشرَبوا وتصَدَّقوا والبَسُوا، في غيرِ مَخِيلةٍ[٣]، ولا سَرَفٍ))[٤].

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

أي: وكان إنفاقُهم مُعتَدِلًا وسَطًا بيْنَ الإسرافِ والتَّقتيرِ[٥].

---

(١) أي: الاقتِصادَ والتوسُّطَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ١٧٣٥).

(٢) أخرجه النسائي (١٣٠٥) واللفظ له، وأحمد (١٨٣٢٥)، وابن حبَّان في ((صحيحه)) (١٩٧١).
وثَّق رجالَ إسنادِه الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (٢/ ٣٣٣)، وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٣٠٥).

(٣) مَخِيلةٍ: أي: كِبرٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٩٣).

(٤) أخرجه البخاريُّ معلَّقًا بصيغة الجزم قبلَ حديث (٥٧٨٣)، وأخرجه موصولًا النَّسائيُّ (٢٥٥٩) واللفظ له، وابن ماجه (٣٦٠٥)، وأحمد (٦٦٩٥).
حسَّنه ابنُ حجر في ((الأمالي المطلقة)) (٣٢)، وصحَّحه الهيتميُّ المكِّيُّ في ((الزواجر)) (٢/ ٣٥)، والصنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٤/ ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٢ - ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٥، ٧٦). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ قال: ﴿عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ تذكيرًا بما هم منه وما يَصيرون إليه، وحثًّا على السَّعيِ في معالي الأخلاقِ للترَقِّي عنه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ استِحبابُ الرِّفْقِ في المَشيِ، وكراهيةُ العُنفِ والاضْطِرابِ، ومِن العُنفِ الضَّربُ بالرِّجلِ والخَفقُ بالنَّعلِ، فإذا كانا بعُجْبٍ وخُيَلاءَ فهو حرامٌ[٢]. والمَشيُ الهَونُ مخالِفٌ لمَشْيِ المتجبِّرينَ المُعجَبين بنفوسِهم وقوَّتِهم. وهذا الهَونُ ناشئٌ عن التواضُعِ لله تعالى، والتخَلُّقِ بآدابِ النفْسِ العاليةِ، وزوالِ بطَرِ أهلِ الجاهليَّةِ، فكانت هذه المِشيةُ مِن خلالِ الذين آمنوا على الضِّدِّ مِن مَشيِ أهلِ الجاهليَّةِ... والتخَلُّقُ بهذا الخُلقِ مَظهرٌ مِن مَظاهِرِ التخَلُّقِ بالرَّحمةِ المناسِبِ لعبادِ الرَّحمنِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ ضِدُّ الشِّدَّةِ، فالهَونُ يناسِبُ ماهيَّتَها، وفيه سلامةٌ مِن صَدمِ المارِّينَ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ ليس مِن الهَونِ في المَشيِ التثاقُلُ والتماوُتُ فيه[٤]؛ تَصَنُّعًا ورياءً، فقد كان سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ

= قال ابنُ عطية: (القَوامُ، أي: المعتَدِلُ، والقَوامُ في كلِّ واحدٍ بحسَبِ عيالِه وحالِه، وخِفَّةِ ظَهرِه، وصَبرِه وجَلَدِه على الكَسبِ، أو ضِدِّ هذه الخصالِ، وخيرُ الأمورِ أوسَطُها). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٥).

صَلَّى الله عليه وسلَّم إذا مشَى كأنَّما يَنحَطُّ مِن صَبَبٍ[١]، وقد كَرِه بعضُ السَّلَفِ المشيَ بتَضعُّفٍ وتصَنُّعٍ، حتى رُوِيَ عن عُمَرَ أنَّه رأى شابًّا يَمشي رُوَيدًا، فقال: ما بالُك؟! أأنت مَريضٌ؟ قال: لا يا أميرَ المؤمِنينَ، فعلاه بالدِّرَّةِ، وأمَرَه أن يَمشيَ بقُوَّةٍ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ الإغضاءُ عنِ الجاهلِ، ومُقابَلةُ كلمتِه السيِّئةِ بالكلامِ الحسنِ، وكراهةُ مجاراتِه في خِطابِه ومُماثَلتِه، وإذا كان في ذلك فِتنةٌ أو مَفسَدةٌ محقَّقةٌ كان حرامًا[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ اشتمَلت الآيةُ على بيانِ الأدبِ في معاملةِ الجاهلينَ مِن أفرادِ النَّاسِ، سواءٌ أكانوا مسلمينَ أم غيرَهم، وما اشتملت عليه مِن الأدبِ قد جاء في آياتٍ كثيرةٍ، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]؛ فهو أدبٌ مشروعٌ مؤكَّدٌ، وحُكمٌ دائمٌ محكَمٌ، وهو في معاملاتِ الأفرادِ كما ترى، فلا ينافي ما شُرِعَ مِن الحربِ عندَ وجودِ أسبابِها، وتوفُّرِ شروطِها بينَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٣٧)، وأحمد (٧٤٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٤١٩٤)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٢/ ١٠٧)، وصحَّحه البَغَويُّ في ((شرح السنة)) (٦/ ٣٧٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٦٣٧)، وحسَّن الحديثَ لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٧٤٦).
وقوله: يَنحَطُّ مِن صَبَبٍ أي: مِن مَوضِعٍ مُنحَدِرٍ، والمعنى: يمشي مشيًا قويًّا سريعًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١، ١٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٥).

الأُمَمِ والجماعاتِ، وهي مِن الأمورِ العامَّةِ كما ترى[١].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ استُدِلَّ به على جَوازِ أنْ يُسَلَّمَ على الجاهلِ إذا كان كافرًا، كما قال إبراهيمُ لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧]، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤] ولم يَستثْنِ إلَّا قولَه لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤]، وهو سلامُ مُوادَعةٍ ومُتارَكةٍ؛ لا سلامُ تحيَّةٍ وكرامةٍ[٢]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

٧- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ القولُ السَّلامُ مَحمودٌ ومطلوبٌ في كلِّ حالٍ، وإنما خُصَّتْ حالةُ الخِطابِ بالجاهلِ؛ لأنَّها الحالةُ التي تَثورُ فيها ثائِرةُ الغضَبِ بما يكونُ مِن سَفَهِه ومهاترتِه، فعلى المؤمنِ أن يكونَ حاضِرَ البالِ بهذه الآيةِ عندَما تسوقُ إليه الأقدارُ جاهلًا فيُخاطبُه بما لا يُرضيه؛ حتى يَسلَمَ مِن شَرِّهِ، ويَكسِرَ مِن شِرَّتِه، فيَسلَمَ له عِرْضُه ومروءتُه ودينُه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٦).

ثم قال بعد ذلك: (فبطَلَ قولُ مَن زعمَ أنَّ هذه الآيةَ بالنِّسبةِ لغيرِ المسلمِ مَنسوخةٌ بآيةِ السيفِ؛ لأنَّ هذه الآيةَ ثابتٌ حُكمُها في حالٍ، وآيةَ السيفِ ثابتٌ حُكمُها في حالٍ أخرى؛ فلا تَنْسَخُ إحداهما الأخرى، وما أكثرَ ما قُتِلَتْ أحكامٌ بآيةِ السيفِ هذه، وهي عندَ التحقيقِ غيرُ معارِضةٍ لها؛ لمُبايَنةِ حالِها لحالِها).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٧).

وذلك بِناءً على الوجهِ الثاني في الآيةِ، وهو أنَّه يقولُ للجاهلِ هذا اللَّفظَ نفْسَه ﴿سَلَٰمًا﴾، على أنَّه مفعولٌ به. ويُنظر المصدر السابق أيضًا (ص: ١٩٥).

قال ابنُ عثيمين: (وليس المرادُ ﴿سَلَٰمًا﴾ يعني: السلامُ عليكم، كما يظُنُّ بعضُ العامَّةِ؛ ولذلك تسلَّط الفعلُ عليها فنصَبها، ولو كان المرادُ بالسلامِ الجملةَ السلاميَّةَ لقال: «قالوا: سلامٌ»). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٢).

وقال السمين: (ورَجَّح سيبويه أنَّ المرادَ بالسَّلام السَّلامةُ لا التسليمُ؛ لأنَّ المؤمنين لم يُؤْمَروا قَطُّ بالتسليمِ على الكفرة، وإنما أُمِروا بالمُسالَمةِ). ((الدر المصون)) (ص: ٣٧١٦).

ويَسلَمَ ذلك الجاهلُ أيضًا مِن اللَّجاجِ في الشَّرِّ والتمادي فيه، فيكونُ المؤمِنُ بقولِه «السَّلام» وتأدُّبِه بأدبِ القرآنِ قد حَصَّلَ السَّلامةَ للجَميعِ[(١)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ التَّحريضُ على قيامِ اللَّيلِ[(٢)].

٩- قَولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ المُرادُ مِن قولِهم ذلك: فزَعُهم منها، ووَجَلُهم الشديدُ المُستتبِعُ لِتَمسُّكِهم بالتَّقوى، واعتِصامِهم بالسَّببِ الأقوى، لا مجرَّدُ قلقلةِ اللِّسانِ، بلا تأثُّرٍ مِن الجَنانِ؛ فإنَّهم لم يَبتَهلوا إلى المولى ويَتعَوَّذوا به مِن سَعيرِها، إلَّا لعِلمِهم بسوءِ حالِها. ومُقتضى العلمِ بالشَّيءِ إيفاؤُه حقَّه، والعملُ بموجَبِه[(٣)].

١٠- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ إنَّ جهنَّمَ هي أقبَحُ مُستقَرٍّ، وأقبَحُ مُقامٍ، وإنَّ الدنيا هي مَطيَّةُ الآخرةِ، فمَن ساء مُستقَرُّه ومُقامُه في الدنيا، ساء كذلك مُستقَرُّه ومُقامُه في الآخرةِ، وإنَّ مُلازَمةَ العذابِ في الآخرةِ على قَدْرِ مُلازمةِ المعاصي في الدُّنيا؛ فمَن لازَمَها بالكفرِ ومات عليه دامتْ له تلك الملازَمةُ، ومَن لازَمَها بالإصرارِ على الكبائرِ كانت له على حسَبِ تلك الملازمةِ؛ فعلى العاقلِ أن يُحسنَ مَقَرَّه ومُقامَه، وأن يَجتنبَ كلَّ موطنٍ تَلحَقُه فيه المَلامةُ، وأن يَجتنبَ مجالسَ السُّوءِ والبدعةِ، ويلازِمَ مجالسَ الطاعةِ والسُّنَّةِ، وأن يُسرعَ بالتوبةِ مفارِقًا الذنوبَ، وألَّا يُصِرَّ على شَيءٍ مِن القبائحِ والعُيوبِ، وأن يكونَ سريعَ الرُّجوعِ إلى اللهِ، ولو عَظُمَ ذَنبُه وبَلْواه؛ فاللهُ يحِبُّ التوَّابينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٧).

ويَغفِرُ للأوَّابينَ[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ ذمُّ الإسرافِ والإقتارِ في النَّفَقةِ، ومدحُ التوسُّطِ[٢]، فلَمَّا كان المالُ هو أعزَّ شيءٍ في هذه الدنيا، وهو أعظَمُ سببٍ لِنَيلِ مُبتغياتِها؛ وُصِفوا بأنَّهم في تصرُّفاتِهم فيه على أكمَلِ حالٍ، وهي حالةُ العَدلِ التي أثمرَتْها لهم الصَّلاةُ؛ فلا يُمسِكونَه عن حقٍّ، ولا يَبذُلونَه في باطلٍ[٣]، وكان التوسُّطُ في الإنفاقِ هو حالَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فكان مُقتَصِدًا في حالِ فَقرِه وغِناهُ؛ فإن كان فقيرًا لم يقتِّرْ خوفًا مِن نَفادِ الرِّزقِ، ولم يُسرِفْ فيَحمِل ما لا طاقةَ له به، كما أدَّب اللهُ تعالى نبيَّه بذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وإن كان غنيًّا لم يحمِلْه غِناهُ على السَّرَفِ والطُّغيانِ، بل يكونُ مقتَصِدًا أيضًا، وإن كان المؤمِنُ في حالِ غِناهُ يَزيدُ على نفَقتِه في حالِ فَقرِه، كما قال بعضُ السَّلَفِ: (إنَّ المؤمِنَ يأخُذُ عن الله أدبًا حَسَنًا؛ إذا وسَّع الله عليه وسَّعَ على نفْسِه، وإذا ضيَّقَ عليه ضَيَّق على نفْسِه، ثمَّ تلا قَولَه تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الطلاق: ٧]). لكِنْ يكونُ في حال غِناهُ مقتَصِدًا غيرَ مُسرِفٍ، كما يفعلَهُ أكثَرُ أهلِ الغنى الذين يُخرِجُهم الغِنى إلى الطُّغيانِ، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾[٤] [العلق: ٦، ٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٧، ١٦٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ فأثنَى على عِبادِه بالإعراضِ عن الجاهلينَ ومُتارَكتِهم، وهذا ممَّا يدُلُّ على قُبحِ الجَهلِ عندَه عزَّ وجَلَّ، وبُغضِه للجَهلِ وأهلِه، وهو كذلك عندَ النَّاسِ؛ فإنَّ كُلَّ أحدٍ يتبرَّأُ منه، وإن كان فيه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ بيانُ أنَّ هؤلاء يُطيلون القيامَ والسُّجودَ، فما دام بياتُهم على هذا الوَصفِ فمعناه أنَّهم يُطيلون القيامَ والسُّجودَ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ دليلٌ على أنَّ البيتوتةَ هو ضِدُّ الظُّلولِ بالنَّهارِ، لا أنَّه النومُ، وكيف يكونُ نومًا وهو يقولُ: «سُجَّدًا وقيامًا»[٣]؟!

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ زعَم قَومٌ أنَّ أكمَلَ أحوالِ العابدِ أن يعبُدَ اللهَ تعالى لا طمعًا في جنَّتِه، ولا خوفًا مِن نارِه! وهذه الآيةُ وغيرُها ردٌّ قاطعٌ عليهم، ومثلُها قولُ إبراهيمَ -عليه وعلى آلِه الصلاةُ والسلامُ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وفي نصوصٍ لا تُحصى كَثرةً، وزعموا أنَّ كمالَ التعظيمِ لله ينافيه أن تكونَ العبادةُ معها خوفٌ مِن عقابِه، أو طمَعٌ في ثوابِه! وأخطؤوا فيما زعموا؛ فإنَّ العبادةَ مَبْناها الخضوعُ والذُّلُّ والافتقارُ، والشعورُ بالحاجةِ والاضْطِرارِ، وإظهارُ العبدِ

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥١٣) وسبَق نحوُه مِن كلامِ الزَّجَّاجِ.

هذه العبوديةَ بأتمِّها، ومِن أتمِّ مَظهرٍ لها أن يخافَ ويطمَعَ، كما يذِلُّ ويخضَعُ؛ ففي إظهارِ كَمالِ نَقصِ العبوديَّةِ القيامُ بحَقِّ الإجلالِ والتعظيمِ للربوبيَّةِ؛ ولهذا كان الأنبياءُ -عليهم وآلِهم الصلاةُ والسلامُ- هم أشَدَّ الخلقِ تعظيمًا لله، وأكثَرُهم خوفًا مِن الله، وتعوُّذًا مِن عذابِ الله، وسؤالًا لِما عندَ الله، وكفَى بهم حُجَّةً وقدوةً!

وإنَّ هذه المقالةَ تكادُ تُفضي إلى طرحِ الرجاءِ والخَوفِ، وعليهما مبنى الأعمالِ؛ لِما فيهما مِن ظهورِ العبوديَّةِ بالذُّلِّ والاحتياجِ، ومِثلُ هذه المقالةِ إنما يجُرُّ إليها الغُلوُّ وقلَّةُ الفقهِ في الدينِ، وفي الكتابِ والسُّنةِ، وما كان عليه هَدْيُ السابقينَ الأوَّلينَ[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ دليلٌ على أنَّ الدُّعاءَ عبادةٌ يُثابُ عليه الدَّاعي، ألَا ترى أنَّ اللهَ تعالى جعَلَه في جملةِ ما مدَحَ به عِبادَه في هذا المدحِ؟! ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فسَمَّاه عبادةً[2].

٦- هذه الآيةُ الكريمةُ -التي هي قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ ...﴾ الآيةَ- بيَّنَت أحدَ رُكنَي ما يسمَّى الآنَ بالاقتِصادِ، وإيضاحُ ذلك أنَّه لا خِلافَ بيْن العُقَلاءِ أنَّ جميعَ مسائِلِ الاقتصادِ على كَثرتِها واختِلافِ أنواعِها راجِعةٌ بالتَّقسيمِ الأوَّلِ إلى أصلَينِ لا ثالثَ لهما؛ الأوَّلُ منهما: اكتِسابُ المال. والثَّاني منهما: صَرفُه في مَصارِفِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾

- قولُه تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبيانِ أوصافِ خُلَّصِ عِبادِ الرَّحمنِ وأحوالِهمُ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ بعْدَ بيانِ حالِ النَّافِرينَ عن عبادتِه والسُّجودِ له[(١)]. وقيل: إنَّه عطْفُ جُملةٍ على جملةٍ؛ فالجملةُ المعطوفةُ هي: (عِبَادُ الرَّحْمَنِ) إلخ، والجملةُ المَعطوفُ عليها جُملةُ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ ... ﴾ [الفرقان: ٦٢]؛ فبِمُناسَبةِ ذِكرِ مَن أرادَ أنْ يَذَّكَّرَ تُخُلِّصَ إلى خِصالِ المؤْمنينَ أتْباعِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى تَستكمِلَ السُّورةُ أغراضَ التَّنويهِ بالقُرآنِ ومَن جاءَ به ومَنِ اتَّبَعوه. وهذا مِن أبدَعِ التَّخلُّصِ؛ إذْ كان مُفاجئًا للسَّامعِ، مُطمِعًا أنَّه استِطرادٌ عارِضٌ كسَوابقِه؛ حتَّى يُفاجِئَه ما يؤْذِنُ بالخِتامِ، وهو: ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي ... ﴾ الآيةَ[(٢)] [الفرقان: ٧٧].

- وقيل: وُصِلَتِ الجُملةُ بما قبْلَها بالواوِ؛ لاشتِراكِهما في القَصدِ، وهو التَّعريفُ بالرَّحمنِ وبعِبادِه[(٣)].

- قولُه: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ... ﴾ أضافَهم إلى الرَّحمنِ؛ تَخصيصًا وتَشريفًا وتَفضيلًا وتَقريبًا، أو لأنَّهمُ الرَّاسِخونَ في عِبادتِه، على أنَّ (عِبَاد) جَمعُ عابدٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٦، ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٣، ١٩٤).

كتاجِرٍ وتِجَارٍ. وفيه تَعريضٌ بأُولئِكَ المُتجاهِلينَ المُتكبِّرينَ المُبعَدِينَ[١].

وأضافهم إلى وَصفِ الرَّحمةِ الأبلَغِ الذي أنكرَه أولئك؛ تبشيرًا لهم[٢]، وإشارةً إلى أنَّهم إنَّما وصَلوا إلى هذه الحالِ بسببِ رحمتِه[٣]، فعبادتُهم للهِ كانت مِن مقتضياتِ رحمتِه، ومِن ناحيةٍ أُخرَى أنَّهم يَرجونَ بهذه العبادةِ رحمةَ ربِّهم، لا يرجونَ بذلك دُنيا، ولا دفْعَ مَذمَّةٍ عنهم، وإنَّما يرجون بهذا رحمةَ الله[٤]. ثمَّ وصفَهم بضِدِّ ما وَصَف به المتكبِّرين عن السُّجودِ؛ إشارةً إلى أنَّهم تخلَّقوا مِن هذه الصِّفةِ التي أُضيفوا إليها بأمرٍ كبيرٍ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ﴾[٥].

- وأيضًا في تَعريفِ القرآنِ لعِبادِ الرَّحمنِ بعْدَ تَعريفِه بالرَّحمنِ: تَشريفٌ كَبيرٌ لهم، وتَبكيتٌ لأولئك المُتجاهِلين المُتكبِّرين[٦].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ ﴿هَوۡنٗا﴾ حالٌ، أو صِفةٌ للمَشيِ، بمعنَى: هَيِّنِينَ. أو: مَشْيًا هَيِّنًا، إلَّا أنَّ في وضعِ المَصدرِ مَوضِعَ الصِّفةِ مُبالَغةً[٧].

- وإذا كان المرادُ مِن عِبادِ الرَّحمنِ أصحابَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ كان الخَبرُ في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ إلى آخِرِ المَعطوفاتِ، وكان قَولُه الآتي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥]

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩١).

استِئنافًا لبَيانِ كَونِهم أَحْرياءَ بما بعْدَ اسمِ الإشارةِ. وإذا كان المرادُ مِن عِبادِ الرَّحمنِ جميعَ المؤْمنينَ المتَّصِفينَ بمَضمونِ تلك الصِّلاتِ؛ كانتْ تلك المَوصولاتُ وصِلاتُها نُعوتًا لـ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾، وكان الخبرُ اسمَ الإشارةِ في قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ [الفرقان: ٧٥] إلخ[١].

- قولُه: ﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ تركيبٌ كِنائيٌّ، أُرِيدَ به معناهُ، ولازِمُ معناهُ؛ فهم يَمْشُون هيِّنِينَ برِفْقٍ وتثبُّتٍ، لا يَضْرِبون بأقدامِهم ولا يَخفِقون بنِعالِهم أشَرًا وبطَرًا، هذا أصْلُ المعنى، وهو مُرادٌ. ومُرادٌ أيضًا لازِمُه؛ وهو: سُهولتُهم، وتواضُعُهم، وعدَمُ تكبُّرِهم، ورِفْقُهم في الأمورِ، وبُعدُهم عن الإفسادِ. ومُرادٌ لازمٌ آخَرُ أيضًا: وهو سَيْرُهم في الحياةِ، وتصرُّفُهم في جميعِ الأمورِ، ومُعامَلتُهم للنَّاسِ، فإذا كانوا أهْلَ رِفْقٍ وسُهولةٍ في مِشيَتِهم في الأرضِ، فكذلك هم أهْلُ رِفْقٍ وسُهولةٍ في الأمورِ الأخرى ممَّا ذكَرْنا؛ لأنَّ الرِّفقَ والسُّهولةَ خُلُقٌ فيهم، فكما هو في المشْيِ هو في غيرِه. وكانتِ الصِّلةُ بالمُضارِعِ؛ لِيُفِيدَ التَّجدُّدَ؛ فإنَّ المشْيَ في الأرضِ ضَروريٌّ للإنسانِ[٢].

- وفي الإطنابِ بصِفاتِهمُ الطَّيِّبةِ تَعريضٌ بأنَّ الَّذين أبَوُا السُّجودَ للرَّحمنِ وزادَهُم نُفورًا هُم على الضِّدِّ مِن تِلك المَحامِدِ؛ تعَريضًا تُشعِرُ به إضافةُ (عِبَاد) إلى (الرَّحْمَنِ)[٣].

- قولُه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ ذِكْرُهم بصِفةِ الجاهِلينَ دُونَ غَيرِها ممَّا هو أشَدُّ مَذَمَّةً -مِثلَ الكافِرينَ-؛ لأنَّ هذا الوَصفَ يُشعِرُ بأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٦، ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٧).

الخِطابَ الصَّادرَ منهم خِطابُ الجَهالةِ والجَفْوةِ[١].

- ولأجْلِ المناسَبةِ بيْن الصِّيغتَينِ -﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، ﴿خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾- عُطِفَتْ هذه الجُملةُ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ على الصِّلةِ الأُولى، ولم يُكرَّرِ اسمُ المَوصولِ كما كُرِّر في الصِّفاتِ بعْدَها[٢]؛ فقولُهم للجاهلينَ: (سَلامًا) مِن مُقْتضى هَوْنِهم ورِفْقِهم؛ فلذلك قُرِنَ به، وعُطِفَ عليه[٣].

- وكان المعطوفُ على الصِّلةِ -﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾- بصُورةِ الشَّرطِ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ﴾؛ لأنَّ خِطابَ الجاهلينَ لهم ليس ممَّا يكونُ دائمًا. وكان التَّعليقُ بـ (إذا)؛ لأنَّ مُخاطَبةَ الجاهلينَ لهم بالسُّوءِ أمْرٌ مُحقَّقٌ. ومتى سلِمَ أهْلُ العلْمِ والدِّينِ مِن الجاهلينَ؟! ولم يَذكُرْ ما يُخاطِبُهم به الجاهلونَ؛ للعلْمِ بأنَّ خِطابَ الجاهلِ -أي: السَّفيهِ- لا يكونُ إلَّا سوءًا ممَّا يُمْلِيه عليه جهْلُه وسفَهُه[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ بيانٌ لحالِهم في مُعامَلتِهم مع ربِّهم[٥].

- وإعادةُ لفْظُ الموصولِ ﴿الَّذِينَ﴾؛ لتأكيدِ أنَّهم يُعرَفون بهذه الصِّلةِ، ولاستقلالِ الحالةِ الثَّانيةِ عن الأُولى[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٤، ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٨).

- وتَخصيصُ البَيْتوتةِ؛ لأنَّ العبادةَ باللَّيلِ أَبعَدُ عنِ الرِّياءِ[١].

- وقُدِّمَ الجارُّ ﴿لِرَبِّهِمْ﴾؛ لِيُفِيدَ تَخصيصَ عِبادتِهم بربِّهم، ويُفِيدَ الكلامُ عِبادتَهم وإخلاصَهم[٢]، وأنَّهم لا يقومون رياءً ولا سُمعةً، وإنما يقومون لله وحْدَه[٣].

- قولُه: ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ قُدِّم السُّجودُ وإنْ كان مُتأخِّرًا في الفِعلِ؛ لأجْلِ مُناسَبةِ الفَواصلِ، مع الإشارةِ إلى الاهتِمامِ بالسُّجودِ، وأيضًا لفَضلِ السُّجودِ؛ لأنَّ السُّجودَ أقرَبُ أحوالِ العَبدِ للربِّ، وأَقرَبُ ما يَكونُ العبدُ فيها مِنَ اللهِ وهو ساجِدٌ[٤].

- وأيضًا لَمَّا كان السُّجودُ أشَدَّ أركانِ الصَّلاةِ تقريبًا إلى اللهِ، لكَونِه أَنْهى الخُضوعِ مع أنَّه الَّذي أَباهُ الجاهِلونَ؛ قدَّمَه لذلك، فقال: ﴿سُجَّدًا﴾، وأَتْبَعَه ما هو تِلْوُه في المَشقَّةِ تحقيقًا، فقال: ﴿وَقِيَامًا﴾[٥].

- وفي الإطنابُ في التَّعبيرِ عنِ الصَّلاةِ برُكْنَيْها في قولِه: ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾: تَنويهٌ بكِلَيْهِما[٦].

- ولم يَذكُرِ اللهُ الرُّكوعَ، ولم يَذكُرِ القُعودَ؛ لأنَّ القيامَ أَشرَفُ ما في الصَّلاةِ مِن حيث ذِكْرُه، أي: مِن حيث الذِّكرُ الَّذي هو القُرآنُ، والسُّجودُ أَشرَفُ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠).

في الصَّلاةِ مِن حيث الحالُ والهَيْئةُ، قال صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أَقرَبُ ما يَكونُ العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ))[١]، فذَكَر القيامَ لشَرَفِه بذِكرِه، أي: بما يُقالُ فيه، وذَكَر السُّجودَ لشَرَفِه بهَيْئتِه؛ فدَلَّ لذلك على أنَّ هذا أَفضَلُ حالاتِ الصَّلاةِ، وهو كذلك[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ عَقَّبَ وصْفَهم بإحياءِ اللَّيلِ ساجِدينَ وقائِمينَ بذِكرِ دَعوتِهم هذه؛ إيذانًا بأنَّهم مع اجتِهادِهم خائِفونَ مُبتهِلونَ إلى اللهِ في صَرفِ العذابِ عنهم؛ لعدَمِ اعتِدادِهم بأعمالِهم ووُثوقِهم على استِمرارِ أحوالِهم، كقَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾[٣] [المؤمنون: ٦٠].

- والتَّعليلانِ: قيل: يَصِحُّ أن يَكونَا مُتَداخِلَينِ -أي: يكونَ قَولُه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا﴾ تَعليلًا لقَولِه: ﴿ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾، وقَولُه: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ﴾ تَعليلًا لقَولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾- أو مُترادِفَينِ؛ أي: يَكونَا تَعليلَينِ لقَولِه: ﴿رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ تَعليلٌ للجُملةِ الدُّعائيَّةِ، وفُصِلَت عنها لكَمالِ الانقطاعِ بيْنهما، وجُملةُ ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مُؤكِّدةٌ لمَضمونِ الجُملةِ قبْلَها مع اختلافٍ في المعنى؛ فإنَّ ما أفادَتْه الأُولى مِن

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٤، ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨).

فَداحةِ عَذابِها ومُلازَمتِه، أكَّدتْه الثَّانيةُ بما أفادَتهُ مِن مُقامِه ومُستقَرِّها، ففُصِلَت عنها؛ لِمَا بيْنهما مِن كَمالِ الاتِّصالِ، نَظِيرُ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]. والتَّأكيدُ فيها بـ (إنَّ)؛ لأنَّه قد لُوِّحَ وأُشِيرَ في الكلامِ السَّابقِ إلى هذا الخبرِ، وشأْنُ السَّامعِ لهذا أنْ يَستشرِفَ له استشرافَ المُتردِّدِ الطَّالبِ، فيُنزَّلُ مَنزِلةَ المُتردِّدِ، فيُؤكَّدُ له الخبرُ. ووجْهُ التَّلويحِ بهذا الخبرِ: أنَّه لمَّا سُئِلَ صرْفَ عذابِ جهنَّمَ، كان هذا مُشيرًا إلى قُبْحِ هذا العذابِ وشِدَّتِه. فهذا نظيرُ ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[1] [هود: ٣٧].

- وقيل: يَجوزُ أن تكونَ جُملةُ ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ حِكايةً لكلامِ القائِلينَ؛ فتكونَ تعليلًا ثانيًا مؤكِّدًا لتَعليلِهمُ الأوَّلِ. وأن تَكونَ مِن جانبِ اللهِ تعالى دُونَ الَّتي قَبْلَها؛ فتكونَ تأييدًا لتَعليلِ القائِلينَ. وأنْ تكونَ مِن كلامِ اللهِ مع الَّتي قَبلَها؛ فتكونَ تَكريرًا للاعتِراضِ[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ إشارةٌ إلى كَونِها مَضرَّةً خالِصةً عن شَوائِبِ النَّفعِ. وقوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ إشارةٌ إلى كَونِها دائمةً[3].

- ويَظهَرُ أنَّ قَولَه: ﴿وَمُقَامًا﴾ مَعطوفٌ على سبيلِ التَّوكيدِ؛ لأنَّ الاستِقرارَ والإقامةَ كأنَّهما مُترادِفانِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾

- أفادَ قَولُه: ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ أنَّ الإنفاقَ مِن خِصالِهم؛ فكأنَّه قال: والَّذين يُنفِقونَ، وإذا أَنفَقوا... إلخ[1].

- قولُه: ﴿وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ ﴿قَوَامٗا﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ، فلو قيل: (وكان بيْن ذلك) لكان كافيًا، ولكنْ أكَّدَ بـ ﴿قَوَامٗا﴾؛ لِمَا فيه مِن صَريحِ اللَّفظِ المُفهِمِ للعَدْلِ. والإنفاقُ يكونُ ولا يكونُ، والشَّأنُ أنْ يكونَ؛ ولهذا عُلِّقَ، وكان التَّعليقُ بـ (إذا). وقدَّمَ نفْيَ السَّرَفِ على نفْيِ التَّقتيرِ؛ لأنَّ الإسرافَ شرُّهما؛ ففيه مُجاوَزةُ الحدودِ، وضَياعُ المالِ، وفي التَّقتيرِ مَفسدَتُه مع بقاءِ المالِ، فيُنفِقُه في الخَيرِ، وقد يَبْقى لغيرِه فيَنتفِعُ به[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢١٧).

الآيات (٦٨-٧١)

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَثَامًا﴾: أي: عُقوبةً ونَكالًا، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على بُطءٍ وتأخُّرٍ، والإثمُ مشتقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه[١].

﴿مُهَانًا﴾: أي: ذليلًا مُبعَدًا، وأصلُ (هون): يدُلُّ على ذِلَّةٍ[٢].

﴿مَتَابًا﴾: أي: رجوعًا، وأصلُ (توب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا * يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ﴾

﴿يُضَٰعَفۡ﴾: مضارعٌ مجزومٌ بَدَلُ اشتِمالٍ مِنْ ﴿يَلۡقَ﴾؛ إذ كان مِن مَعناه؛ لأنَّ مُضاعَفةَ العذابِ لُقِيُّ الأثامِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٦)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٠٣).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وعِبادُ الرَّحمنِ هم الذين لا يُشرِكونَ باللهِ غَيرَه، ولا يَقتُلون نفْسًا حرَّم اللهُ قَتلَها إلَّا بسبَبٍ شَرعيٍّ، ولا يقَعون في فاحِشةِ الزِّنا، ومَن يفعَلْ ذلك الذي نَهَينا عنه مِمَّا تقدَّمْ، يجِدْ عِقابًا شَديدًا؛ يُضاعَفْ له العذابُ يومَ القيامةِ، ويَبْقَ في ذلك العذابِ ذليلًا مُهانًا، إلَّا مَن تاب وآمنَ وعَمِلَ أعمالًا صالِحةً؛ فأولئك يجعَلُ اللهُ مكانَ سَيِّئاتِهم حَسَناتٍ بفَضلِه وكَرَمِه، وكان اللهُ تعالى واسِعَ المَغفِرة والرَّحمةِ لِمَن تاب إليه وأناب، ومَن تاب عن المعاصي وداوَمَ على العمَلِ الصالحِ لِيَستدرِكَ ما فاته منه؛ فإنَّه يكونُ قد تاب ورجعَ إلى الله تعالى رُجوعًا صحيحًا مَقبولًا منه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه ما تَحَلَّوا به مِن أصولِ الطَّاعاتِ بما لهم مِن العَدلِ والإحسانِ بالأفعالِ والأقوالِ في الأبدانِ والأموالِ؛ أتبَعَه ما تَخَلَّوا عنه مِن أمَّهاتِ المعاصي التي هي الفَحشاءُ والمُنكَرُ[1].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: (أنَّ ناسًا مِن أهلِ الشِّركِ كانوا قد قَتَلوا وأكثَروا، وزَنَوا وأكثَروا، فأتَوا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتدعو إليه لَحَسَنٌ، لو تخبِرُنا أنَّ لِما عَمِلْنا كفَّارةً، فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٥).

مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴾، ونزلت: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣])[١].

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

أي: والذين لا يَدْعون مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ، بل يُخلِصون العبادةَ للهِ وحْدَه، ولا يُشرِكون به شَيئًا[٢].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((سألتُ، أو سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: أيُّ الذنبِ عند الله أكبَرُ؟ قال: أن تجعَلَ لله ندًّا وهو خلَقَك. قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ثمَّ أن تقتُلَ ولَدَك خَشيةَ أن يَطعَمَ معك، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أن تُزانيَ بحَليلةِ جارِك. قال: ونزَلَت هذه الآيةُ تصديقًا لِقَولِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾))[٣].

﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا نفى عنهم ما يُوجِبُ قتْلَ أنفُسِهم بخَسارتِهم إيَّاها؛ أتبَعَه نفيَ قتْلِ غَيرِهم[٤].

---

(١) رواه البخاري (٤٨١٠) واللفظ له، ومسلم (١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

قال ابن عثيمين: (و﴿لَا يَدۡعُونَ﴾... يعني: لا يدْعون دعاءَ مسألةٍ، ولا يَدْعون دعاءَ عبادةٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٨٢).

(٣) رواه البخاري (٤٧٦١) واللفظ له، ومسلم (٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٤).

﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: ولا يَقتُلون مَن حرَّم اللهُ قَتْلَهم إلَّا بسبَبٍ شَرعيٍّ يخوِّلُ قَتْلَهم[١].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((أُمِرتُ أن أقاتِلَ النَّاسَ حتى يشهَدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رَسولُ الله، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزَّكاةَ، فإذا فعَلوا ذلك عَصَموا منِّي دماءَهم وأموالَهم إلَّا بحَقِّ الإسلامِ[٢]، وحِسابُهم على اللهِ))[٣].

﴿وَلَا يَزۡنُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ سُبحانَه القتلَ الجليَّ؛ أتبَعَه الخفيَّ بتضييعِ نَسَبِ الولَدِ، فقال: ﴿وَلَا يَزۡنُونَ﴾ أي: رحمةً لِمَا قد يحدُثُ مِن ولَدٍ؛ إبقاءً على نَسَبِه، ورحمةً للمَزْنيِّ بها ولأقاربِها أنْ تُنتَهكَ حُرُماتُهم، مع رحمتِه لنَفْسِه، على أنَّ الزِّنا جارٌّ أيضًا إلى القَتلِ والفِتَنِ، وفيه التسبُّبُ لإيجادِ نَفْسٍ بالباطلِ، كما أنَّ القتلَ تَسَبُّبٌ إلى إعدامِها بذلك[٤].

﴿وَلَا يَزۡنُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).
قال ابنُ عثيمين: (والنَّفسُ التي حرَّم اللهُ: أربعةُ أنفُسٍ: المسلمُ، والذمِّيُّ، والمعاهَدُ، والمستأمِنُ. هذه هي الأنفُسُ التي حرَّم اللهُ، فهذه الأربعةُ أنفُسٍ مُحرَّمةٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٨٤).

(٢) إلَّا بحَقِّ الإسلامِ: أي: مِن قَتْلِ نَفْسٍ، أو حَدٍّ، أو غَرامةٍ بمُتْلَفٍ، أو تَركِ صَلاةٍ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١/ ١٠٨).

(٣) رواه البخاري (٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٦).

أي: ولا يقَعونَ في الزِّنا فيأتونَ الفَرْجَ الحرامَ بلا نِكاحٍ ولا مِلكِ يَمينٍ[١].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لمَّا ذَكَر في صدرِ الآيةِ نَفْيَ تلك المعاصي عن عبادِ الرحمنِ -الذي يُفيدُ النهيَ عنها-؛ ذَكَرَ هذا الوعيدَ لبيانِ سوءِ عاقبتِها، وقُبحِ أثَرِها[٢].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

أي: ومَن يفعَلْ تلك الأفعالَ؛ مِن الشِّركِ باللهِ، وقَتلِ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ، والزِّنا- يجِدْ جزاءَه وعِقابَه في الآخرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤٨).

قال ابنُ عاشور: (المتبادِرُ مِن الإشارةِ أنَّها إلى المجموعِ، أي: مَن يفعَلْ مجموعَ الثلاثِ. ويُعلَمُ أنَّ جزاءَ من يفعَلُ بعضَها ويتركُ بعضًا عدا الإشراكِ: دونَ جزاءِ من يفعَلُ جميعَها، وأنَّ البعضَ أيضًا مراتِبُ، وليس المرادُ: من يفعلْ كُلَّ واحدةٍ مِمَّا ذُكِرْ يلقَ أثامًا؛ لأنَّ لُقِيَّ الآثامِ بُيِّن هنا بمُضاعفةِ العذابِ والخلودِ فيه، وقد نَهَضت أدِلَّةٌ مُتظافرةٌ من الكتابِ والسنَّةِ على أنَّ ما عدا الكُفرَ من المعاصي لا يوجِبُ الخلودَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

وممَّن قال بأنَّ الجزاءَ هنا على المجموعِ، أي: ما ذُكِر مِن الشِّركِ بالله، وقتلِ النفْسِ بغيرِ حقٍّ، والزِّنا: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، والنسفيُّ، وأبو حيَّان، وابنُ جُزي، والقاسميُّ، والألوسيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤٨)، =

﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾.

أي: يُغلِّظِ اللهُ له عذابَه يومَ القيامةِ ويُكَرِّرْه[1].

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٩١، ٢٩٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٥٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٤/ ٣٠١).

وممن ذهَب إلى أنَّ المرادَ: ومَن يفعَلْ شَيئًا ممَّا ذُكِر: مكِّي، والماوردي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٥٨)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

قال البقاعي: (ولا يُقالُ: إنَّ الإشارةَ تَرجِعُ إلى المجموعِ؛ فالتهويلُ خاصٌّ بمَن ارتكَبَ مجموعَ هذه الذُّنوبِ؛ لأنَّا نقول: السِّياقُ يأباه؛ لأنَّ تكرارَ «لا» أفاد -كما حقَّقه الرَّضِيُّ- وُرودَ النَّفيِ على وقوعِ الخِصالِ الثلاثِ حالَ الاجتِماعِ والانفرادِ، فالمعنى: لا يوقِعون شَيئًا منها، فكان معنى ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾: ومَن يفعَلْ شَيئًا من ذلك؛ لِيَرِدَ الإثباتُ على ما وردَ عليه النَّفيُ، فيحصُلَ التناسُبُ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

قال الزمخشري: (إذا ارتكب المُشرِكُ معاصيَ مع الشِّركِ، عُذِّب على الشِّركِ وعلى المعاصي جميعًا؛ فتُضاعَفُ العقوبةُ لمُضاعَفةِ المعاقَبِ عليه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٤).

وقال ابن عثيمين: (إنما ضُوعِفَ له العذابُ لأنَّه فعَل ثلاثةَ أسبابٍ للعذابِ، وهي: الإشراكُ بالله، وقتلُ النفْسِ، والزِّنا، ومعلومٌ أنَّ الأسبابَ إذا اجتمعَت صار لكلِّ واحدٍ منها أثَرُه، فمَن فعَل شيئًا واحدًا مِن الثلاثةِ فعليه إثمُه، ومَن فعَل اثنين فعليه إثمُهما، ومَن فعَل ثلاثًا فعليه إثمُهن. فهذا وجْهُ التضعيفِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٩٢). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

وقال البقاعي: (ومُضاعَفةُ العذابِ -والله أعلمُ- إتيانُ بعضِه في إثرِ بَعضٍ بلا انقِطاعٍ، كما كان يُضاعِفُ سيِّئتَه كذلك). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٢٧).

﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾.

أي: ويَبْقَ المُشرِكُ العاصي في العذابِ المُضاعَفِ إلى الأبَدِ ذَليلًا حَقيرًا[١].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى عظائمَ الذنوبِ وأكبرَ كبائرِها، وتَوَعَّدَ بالوعيدِ الشَّديدِ عليها؛ عَقَّبَها بذِكْرِ التوبةِ منها، ورَغَّبَ فيها؛ لِيُنَبِّهَ عِبادَه على طريقِ الرجوعِ إليه، وأنَّ مَن تاب منهم إلى اللهِ تاب اللهُ عليه[٢].

سَببُ النُّزولِ:

عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: ((نزَلَت هذه الآيةُ بمكَّةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٢، ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٥).

قال السعدي: (الوعيدُ بالخلودِ لمن فعلها كلَّها ثابتٌ لا شكَّ فيه، وكذا لمن أشرَك بالله، وكذلك الوعيدُ بالعذابِ الشديدِ على كلِّ واحدٍ مِن هذه الثلاثةِ؛ لكونِها إمَّا شركٌ وإما مِن أكبرِ الكبائرِ، وأمَّا خلودُ القاتلِ والزاني في العذابِ، فإنَّه لا يتناوَلُه الخلودُ؛ لأنَّه قد دلَّت النصوصُ القرآنيةُ والسنَّةُ النبويَّةُ أنَّ جميعَ المؤمنينَ سيخرجون من النارِ، ولا يخلدُ فيها مؤمنٌ ولو فعَل مِن المعاصي ما فعَل). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

وأيضًا قيل: يُرادُ مِن الخُلودِ المُكثُ الطويلُ الصادقُ بالخلودِ الأبَديِّ وغيرِه، ويكونُ لِمَن أشرَك باعتبارِ فَردِه الأوَّلِ، ولِمَنِ ارتكَب إحدى الكبيرتينِ الأخيرتينِ باعتبارِ فَردِه الآخرِ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٤).

مُهَانًا ﴾ فقال المُشرِكون: وما يُغْني عنَّا الإسلامُ، وقد عدَلْنا باللهِ، وقد قتَلْنا النفْسَ التي حرَّم اللهُ، وأتَيْنا الفواحِشَ؟! فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾))[1].

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾.

أي: إلَّا مَن تاب مِن الشِّركِ وقتْلِ النَّفسِ المحرَّمةِ والزِّنا، فنَدِمَ على ذلك وأقلَعَ عنه، وآمَنَ بما وجَبَ عليه الإيمانُ به، وعَمِلَ أعمالًا صالِحةً بإخلاصٍ لله ومُتابعةٍ لِرَسولِه- فأولئك يجعَلُ اللهُ مكانَ سَيِّئاتِهم حَسَناتٍ بفَضلِه ورَحمتِه[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٨٥٥)، ومسلم (٣٠٢٣) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦ - ١٢٨)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٦، ٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٣).

قال ابن جرير: (قَوْلُهُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ اختَلَف أهلُ التَّأويلِ في تأويلِ ذلك؛ فقالَ بعضُهم: معناه: فأولئك يُبَدِّلُ اللهُ بقبائحِ أعمالِهم في الشِّركِ محاسِنَ الأعمالِ في الإسلامِ، فيُبَدِّلُه بالشِّركِ إيمانًا، وبقِيلِ أهلِ الشِّركِ بالله قِيلَ أهلِ الإيمانِ به، وبالزِّنا عِفَّةً وإحصانًا... وقال آخرونَ: بل معنَى ذلك: فأولئك يبدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهم في الدُّنيا حسناتٍ لهم يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١٦، ٥١٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّ اللهَ يبدِّلُ سيِّئاتِهم حسناتٍ يومَ القيامةِ: الثعلبيُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ، وابنُ كثير، وجلال الدين المحليُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: سَلمانُ الفارسيُّ، وسعيدُ بنُ المسيِّبِ، ومَكحولٌ، وعليُّ ابن الحسينِ، وعمرُو بنُ ميمونٍ، والحسَنُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٣٠).

قال ابن كثير: (... تلك السيِّئاتُ الماضيةُ تنقلِبُ بنفْسِ التَّوبةِ النَّصوحِ حسناتٍ، وما ذاك إلَّا أنَّه كُلَّما تذَكَّر ما مضى نَدِم واسترجَع واستغفَر، فيَنقلِبُ الذنبُ طاعةً بهذا الاعتِبارِ. فيومَ القيامةِ =

= وإنْ وجَدَه مكتوبًا عليه لكنَّه لا يضُرُّه، ويَنقلِبُ حسنةً في صحيفتِه، كما ثبتَت السُّنَّةُ بذلك، وصحَّت به الآثارُ المَرويَّةُ عن السلَفِ رحمهم اللهُ تعالى). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٧).

وقال السمعاني: (قال الحسَنُ البَصريُّ ومُجاهِدٌ وجماعةٌ: هذا في الدُّنيا. ومعناه: تَبديلُ الكُفرِ بالإيمانِ، والشِّركِ بالإخلاصِ، والمَعصيةِ بالطَّاعةِ. وقال سعيدُ بنُ المُسيِّبِ وجماعةٌ: هذا في الآخرةِ، واللهُ تعالى يُبدِّلُ سَيِّئاتِ التَّائبِ بالحَسناتِ في صحيفتِه. وقد ورد في القولِ الثاني خبرٌ صحيحٌ ... عن أبي ذَرٍّ، أن النبيَّ قال: «يؤتَى بالمؤمِنِ يومَ القيامة فيُعرَضُ عليه صِغارُ ذنوبِه، ويخبَّأُ عنه كِبارُها، فيُسألُ ويعترِفُ وهو مشفِقٌ من الكبائرِ، فيقولُ الله تعالى: أعطوه مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حَسنةً، فيقولُ: يا ربِّ، إنَّ لي ذنوبًا ولا أراها هاهنا؟ فضَحِك رسولُ الله حتى بدت نَواجِذُه». أخرجه مسلم في صحيحه. وعن أبي هريرة أنه قال: يُعطى المؤمِنُ صَحيفتَه يومَ القيامةِ، فيَقرأُ بَعضَها وإذا هي سيِّئاتٌ، فإذا وصَل إلى الحَسَناتِ ينظُرُ نظرةً فيما قبْلَها، فإذا هي كلُّها صارت حسناتٍ. وقد أنكر جماعةٌ مِن المتقدِّمينَ أن تنقَلِبَ السيِّئةُ حسنةً، منهم الحسنُ البصريُّ وغيرُه، وإذا ثبت الخبَرُ عن النبيِّ لم يَبْقَ لأحدٍ كلامٌ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤).

وقال ابن القيم: (فهذا حديثٌ صحيحٌ، ولكِنْ في الاستدلالِ به على صِحَّةِ هذا القول نظَرٌ؛ فإنَّ هذا قد عُذِّب بسيِّئاتِه ودخَل بها النارَ، ثمَّ بعْدَ ذلك أُخرِجَ منها، وأُعطِيَ مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةً، صَدقةً تصَدَّقَ الله بها عليه ابتِداءً بعددِ ذنوبِه، وليس في هذا تبديلُ تلك الذنوبِ بحسناتٍ؛ إذ لو كان كذلك لَما عوقِب عليها كما لم يعاقَبِ التائِبُ، والكلامُ إنَّما هو في تائبٍ أُثبِتَ له مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةٌ، فزادت حسناتُه، فأين في هذا الحديثِ ما يدُلُّ على ذلك؟

والناسُ استقبَلوا هذا الحديثَ مستدِلِّينَ به في تفسيرِ هذه الآيةِ على هذا القولِ، وقد عَلِمتَ ما فيه، لكنْ للسَّلَفِ غَورٌ ودقَّةُ فَهمٍ لا يُدرِكُها كثيرٌ مِن المتأخِّرينَ. فالاستدلالُ به صحيحٌ بعْدَ تمهيدِ قاعدةٍ إذا عُرِفت عُرِف لُطفُ الاستدلالِ به ودقَّتُه، وهي أنَّ الذنبَ لا بدَّ له مِن أثرٍ، وأثرُه يرتفِعُ بالتوبة تارةً، وبالحسناتِ الماحيةِ تارةً، وبالمصائبِ المكَفِّرةِ تارةً، وبدخولِ النَّارِ ليتخلَّصَ مِن أثرِه تارةً، وكذلك إذا اشتَدَّ أثَرُه، ولم تَقْوَ تلك الأمورُ على مَحوِه، فلا بدَّ إذنْ مِن دخولِ النارِ؛ لأنَّ الجنةَ لا يكونُ فيها ذرَّةٌ مِن الخبيثِ، ولا يدخلُها إلَّا مَن طاب مِن كلِّ وجهٍ، فإذا بقِيَ عليه شيءٌ مِن خَبَثِ الذُّنوبِ أُدخِلَ كِيرَ الامتحانِ؛ ليَخلُصَ ذهَبُ إيمانِه مِن خَبَثِه، فيصلُحَ حينَئذٍ لدارِ المَلِكِ.

إذا عُلِمَ هذا فزوالُ موجبِ الذنبِ وأثرِه تارةً يكونُ بالتوبةِ النصوحِ، وهي أقوى الأسبابِ، وتارةً يكونُ باستيفاءِ الحقِّ منه وتطهيرِه في النارِ، فإذا تطهَّر بالنارِ وزال أثرُ الوسَخِ والخَبَثِ عنه، =

= أُعطيَ مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، فإذا تطهَّر بالتوبةِ النصوحِ وزال عنه بها أَثَرُ وسَخِ الذنوبِ وخَبَثِها، كان أَوْلى بأن يُعطى مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةً؛ لأنَّ إزالةَ التوبةِ لهذا الوسخِ والخبَثِ أعظمُ من إزالةِ النارِ، وأحَبُّ إلى الله، وإزالةُ النَّارِ بَدَلٌ منها، وهي الأصلُ؛ فهي أَولى بالتبديلِ ممَّا بعْدَ الدخولِ). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣١٠، ٣١١).

وممَّن اختار أنَّ التَّبديلَ في الدُّنيا، وأنَّ المعنى: فأولئك يبَدِّلُ اللهُ سيِّئاتِهم حَسَناتٍ، بنَقلِهم عمَّا يَسخَطُه اللهُ مِن الأعمالِ إلى ما يَرضى، ويكونُ ذلك سببًا لِرَحمتهم: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، السمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والواحدي، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١٩، ٥٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحسَنُ البصريُّ في روايةٍ، وعطاءُ بن أبي رباح، وقتادةُ، والضحَّاكُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٣٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٣٠).

قال البغوي: (ذهَب جماعةٌ إلى أنَّ هذا التَّبديلَ في الدُّنيا. قال ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحَسَنُ، ومجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ، والضحَّاكُ: يُبَدِّلُهم اللهُ بقبائِحِ أعمالِهم في الشِّركِ محاسِنَ الأعمالِ في الإسلامِ؛ فيُبَدِّلُهم بالشِّركِ إيمانًا، وبقَتلِ المؤمِنينَ قَتلَ المُشرِكينَ، وبالزِّنا عِفَّةً وإحصانًا. وقال قومٌ: يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهم التي عَمِلوها في الإسلامِ حَسَناتٍ يومَ القيامةِ. وهو قَولُ سَعيدِ بنِ المُسَيِّبِ، ومَكحولٍ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٨).

وقال ابنُ القيم: (وأصلُ القولَينِ أنَّ هذا التبديلَ هل هو في الدنيا أو يومَ القيامةِ؟ فمَن قال: إنَّه في الدُّنيا؛ قال: هو تبديلُ الأعمال القبيحةِ والإراداتِ الفاسدةِ بأضْدادِها، وهي حَسَناتٌ، وهذا تبديلٌ حقيقةً ... الصوابُ إن شاء الله في هذه المسألةِ أن يُقال: لا ريبَ أنَّ الذنْبَ نفْسَه لا ينقلِبُ حَسنةً، والحسنةُ إنَّما هي أمرٌ وجوديٌّ يقتضي ثوابًا؛ ولهذا كان تاركُ المنهيَّاتِ إنَّما يُثابُ على كفِّ نفْسِه وحَبْسِها عن مُواقَعةِ المنهيِّ، وذلك الكفُّ والحبسُ أمرٌ وجوديٌّ، وهو متعلَّقُ الثَّوابِ ... وإذا كانت الحسَنةُ لا بدَّ أن تكونَ أمرًا وجوديًّا فالتَّائِبُ مِن الذُّنوبِ التي عَمِلها قد قارَن كلَّ ذَنبٍ منها ندمًا عليه، وكفَّ نفْسَه عنه، وعَزَم على تركِ معاودتِه، وهذه حَسَناتٌ بلا ريبٍ، وقد محَتِ التوبةُ أثرَ الذَّنبِ، وخَلَفَه هذا النَّدمُ والعزمُ، وهو حسنةٌ قد بَدَّلت تلك السيِّئةَ حَسنةً... فإذا كانت كلُّ سيئةٍ مِن سيِّئاتِه قد تاب منها فتوبتُه منها حسَنةٌ حَلَّت مكانَها، فهذا معنى التَّبديلِ، =

= لا أنَّ السيِّئةَ نفْسَها تنقلِبُ حسنةً. وقال بعضُ المفَسِّرينَ في هذه الآيةِ: يُعطيهم بالنَّدَمِ على كلِّ سيِّئةٍ أساؤوها حسنةً، وعلى هذا فقد زال -بحمدِ الله- الإشكالُ، واتَّضَح الصَّوابُ، وظهَر أنَّ كلَّ واحدةٍ مِنَ الطائفتَينِ ما خرجت عن موجبِ العلمِ والحُجَّةِ. وأمَّا حديثُ أبي ذَرٍّ -وإن كان التبديلُ فيه في حَقِّ المُصِرِّ الذي عُذِّب على سيِّئاته- فهو يدُلُّ بطَريقِ الأَولى على حصولِ التبديلِ للتائبِ المقلِعِ النادِمِ على سيئاتِه؛ فإنَّ الذُّنوبَ التي عُذِّب عليها المصِرُّ لَمَّا زال أثرُها بالعقوبةِ بَقِيَت كأنْ لم تكُنْ، فأعطاه الله مكانَ كُلِّ سيئةٍ منها حسَنةً؛ لأنَّ ما حصَل له يومَ القيامةِ مِن النَّدَمِ المُفرِطِ عليها مع العُقوبةِ، اقتضى زوالَ أثرِها وتبديلَها حَسَناتٍ، فإنَّ النَّدَمَ لم يكُنْ في وقتٍ ينفَعُه، فلمَّا عوقِبَ عليها وزال أثَرُها بدَّلها اللهُ له حسناتٍ، فزوالُ أثَرِها بالتَّوبةِ النصوحِ أعظَمُ من زوالِ أثَرِها بالعُقوبةِ، فإذا بُدِّلت بعْدَ زوالِها بالعقوبةِ حَسَناتٍ فلأَنْ تُبدَّلَ بعْدَ زوالِها بالتَّوبةِ حَسَناتٍ أَولى وأَحرى). ((طريق الهجرتين)) (ص: ٢٤٥-٢٥٠). ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٠ - ٣١٢).

وممَّن جمَع بيْن القولينِ: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٦).

قال السعدي: (تتبدَّلُ أفعالُهم وأقوالُهم التي كانت مُستَعِدَّةً لعملِ السيِّئاتِ، تتبدَّلُ حَسَناتٍ، فيتبدَّلُ شِركُهم إيمانًا، ومعصيتُهم طاعةً، وتتبدَّلُ نفْسُ السيِّئاتِ التي عمِلوها ثمَّ أحدَثوا عن كلِّ ذنْبٍ منها توبةً وإنابةً وطاعةً، تُبدَّلُ حسناتٍ كما هو ظاهِرُ الآيةِ، وورد في ذلك حديثُ الرجُلِ الذي حاسبه اللهُ ببعضِ ذنوبِه فعدَّدها عليه، ثم أُبدِلَ مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، فقال: يا ربِّ، إنَّ لي سيئاتٍ لا أراها هاهنا. واللهُ أعلمُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

وقال ابنُ عثيمين: (التبديل: جَعْلُ شَيءٍ مكانَ شَيءٍ، وهذا التبديلُ هل هو تبديلٌ قَدَريٌّ أو تبديلٌ جزائيٌّ؟

اختلَف في ذلك أهلُ العِلمِ؛ فمِنهم مَن قال: إنَّه تبديلٌ قدَريٌّ، ومنهم مَن قال: إنَّه تبديلٌ جزائيٌّ، كيف ذلك؟ الذين يقولون: إنَّه تبديلٌ قدَريٌّ يقولون: إنَّ معنى تبديلِ السَّيِّئاتِ حَسَناتٍ أنَّه لَمَّا آمَن وعَمِل عمَلًا صالحًا صار بدَلَ الشِّركِ إيمانٌ، وصار بدَلَ الزنا وقَتلِ النَّفسِ عمَلٌ صالحٌ، معناه: أنَّ هذا الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالحَ صار بدلًا عن الكُفرِ والزِّنا وقَتلِ النَّفسِ، فالمعنى أنَّ إيمانَه وعمَلَه الصَّالحَ الذي فعَلَه هو الحَسَناتُ التي أبدَل اللهُ السيِّئاتِ بها؛ فيكونُ هذا التبديلُ قدَريًّا.

وقيل: بل هو جزائيٌّ، بمعنى أن هذه المعاصيَ نفْسَها تكونُ حَسَناتٍ، يُبدِّلُ الله السيِّئاتِ السابقةَ يجعَلُها حسَناتٍ، بالإضافةِ إلى حَسَناتِه الأخيرةِ التي قُدِّرت له ففعَلَها، وكيف ذلك؟ يقولون: =

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صَلَّى الله عليه وسَلَّم: ((إنِّي لأعلَمُ آخِرَ أهلِ الجنَّةِ دُخولًا الجنَّةَ، وآخِرَ أهلِ النَّارِ خُروجًا منها: رجُلٌ يؤتَى به يومَ القيامةِ، فيُقالُ: اعرِضوا عليه صِغارَ ذُنوبِه، وارفَعوا عنه كِبارَها، فتُعرَضُ عليه صِغارُ ذُنوبِه، فيُقال: عَمِلتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وعَمِلتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، فيقولُ: نعَمْ، لا يَستطيعُ أن يُنكِرَ، وهو مُشفِقٌ مِن كِبارِ ذُنوبِه أن تُعرَضَ عليه، فيُقالُ له: فإنَّ لك مكانَ كُلِّ سَيِّئةٍ حَسَنةً، فيقولُ: ربِّ، قد عَمِلتُ أشياءَ لا أراها هاهنا! فلقد رأيتُ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ضَحِك حتى بَدَت نَواجِذُه))[1].

وعن أبي طويلٍ شَطبٍ الممدودِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه أتى رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: ((أرأيتَ رجُلًا عَمِلَ الذُّنوبَ كُلَّها، فلم يترُكْ منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترُكْ حاجَةً ولا داجَةً[2] إلَّا أتاها، فهل له مِن توبةٍ؟ قال: فهل أسلَمْتَ؟ قال: أمَّا أنا فأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، وأنَّك رَسولُ الله، قال: نعَمْ، تفعَلُ الخَيراتِ، وتَترُكُ السيِّئاتِ، فيَجعَلُهنَّ اللهُ لك خيراتٍ كُلَّهنَّ، قال: وغَدَراتي وفَجَراتي؟! قال: نعَمْ، قال: الله أكبَرُ! فما زال يُكبِّر حتى

= لأنَّ هذه السيِّئاتِ لَمَّا تاب منها صار له بكلِّ توبةٍ مِن هذه السيِّئاتِ حَسَنةٌ، فأُبدِلت السيِّئاتُ حَسَناتٍ بالتوبةِ منها، ولأنَّه كلَّما تذكَّر ما سبَق مِن أعمالِه السيِّئةِ أحدَثَ لها توبةً؛ فصارت هذه الأعمالُ السابقةُ حسناتٍ بالتوبةِ منها. والصحيحُ شُمولُ الآيةِ لهذا ولهذا، وأنَّ الآيةَ شاملةٌ للأمْرينِ؛ فإنَّ مَن تاب وآمَن وعَمِل عملًا صالحًا تبدَّلت سيئاتُه السابقةُ فصارت حسناتٍ، لكنَّها ليست هي الأُولى نفْسَها، وكذلك إذا تاب منها جُوزِيَ على هذه التوبةِ بالثَّوابِ؛ فصارت السيِّئاتُ بالتَّوبةِ منها حَسَناتٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٥، ٣٠٦).

(١) رواه مسلم (١٩٠).

(٢) حاجَةً ولا داجَةً: أي: ما تَركْتُ شَيئًا دعَتْني إليه نَفْسي إلَّا رَكِبْتُه مِن الذُّنوبِ. وداجةً: في هذا الموضِعِ: إتْباعٌ. وقيل: الدَّاجَةُ: ما لا يُذكَرُ؛ احتِقارًا له، أي: قد قَضَيتُ الحوائِجَ التي لها مَوقِعٌ مِن قلبي، وقَضَيتُ ما لا يُذكَرُ؛ احتِقارًا له. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٤١٠)، ((الزاهر في معاني كلمات الناس)) للأنباري (٢/ ٢٢٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٥٠٦).

توارى))[١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: ولم يَزَلِ اللهُ يستُرُ ذُنوبَ التَّائبينَ مِن عبادِه، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها ويَرحَمُهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أفادتِ الآيةُ السابقةُ أنَّ التوبةَ تمحو السيِّئاتِ، جاءتْ هذه الآيةُ إثرَها تُبَيِّنُ ما لأهلِها مِن جزيلِ الإنعاماتِ، وعظيمِ الدرجاتِ[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في ((الآحاد والمثاني)) (٢٧١٨)، والبزَّار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (١/ ٣٦)، والطبراني (٧/ ٣١٤) (٧٢٣٥).
جوَّد إسنادَه وقوَّاه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ١٢٨)، وقال ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٤٤): حسنٌ صحيحٌ غريب. وصحَّحه الألباني في ((الترغيب والترهيب)) (٣١٦٤).
قال ابن حَجر: (قال البغويُّ: أظنُّ أنَّ الصوابَ عن عبد الرحمن بن جُبَيرٍ أنَّ رجُلًا أتىَ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم طويلًا شَطبًا، والشَّطبُ يعني في اللغة: الممدودَ، يعني: فظنَّه الراوي اسمًا، فقال فيه: عن شَطبٍ أبي طويلٍ). ((الإصابة في تمييز الصحابة)) (٣/ ٢٨٣). ويُنظر: ((معجم الصحابة)) للبغوي (٣/ ٣٢٣)، ((الاستيعاب)) لابن عبد البر (٢/ ٧٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٩، ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).
وقال السعدي: (﴿رَّحِيمًا﴾ بعبادِه؛ حيثُ دعاهم إلى التوبةِ بعْدَ مبارزتِه بالعظائمِ، ثم وفَّقهم لها، ثم قَبِلها منهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٨).

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾.

أي: ومَن تاب إلى اللهِ وعَمِلَ بعْدَ تَوبتِه الأعمالَ الصَّالحةَ، فإنَّه يَرجِعُ إلى اللهِ رُجوعًا صَحيحًا حَسَنًا، مَقبولًا مَرضِيًّا(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- مَن راضَ نفْسَه على الطاعةِ، ودانتْ نفْسُه بالإخباتِ والانقيادِ للأوامرِ الشرعيَّةِ؛ ضَعُفَتْ منه أو زالتْ دواعي الشَّرِّ والفسادِ؛ فانكفَّ عنِ المعصيةِ، لذا قدَّم الله تعالى إثباتَ الطاعاتِ في قولِه: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ ... ﴾ على انتفاءِ المعاصي في قولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ ... ﴾؛ تنبيهًا على ذلك، ومِن هنا نعلَمُ أنَّ على المسلمِ الذي يعملُ لتزكيةِ نفْسِه أن يُواظِبَ على الطاعاتِ بأنواعِها، وأن يجتهِدَ في حصولِ الأُنسِ بها، والخشوعِ فيها؛ فإنَّ ذلك -زيادةً على ما يثبِّتُ فيه مِن أصولِ الخَيرِ- يَقلَعُ منه أصولَ الشَّرِّ، ويُميتُ منه بواعثَه(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ يُذَكِّرُنا القرآنُ بمضاعَفةِ العذابِ على كبائرِ الآثامِ؛ لِنَذكُرَ عندما تُحدِّثُنا أنفُسُنا بالمعصيةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢١٩).

سوءَ عاقبتِها، وتَعَدُّدَ شرورِها، وتَشَعُّبَ مفاسِدِها، ومُضاعَفةَ العذابِ بحسَبِ ذلك عليها؛ لِنَزدجِرَ ونَنكَفَّ، فنَسلَمَ مِن الشَّرِّ المتراكمِ، والعذابِ المضاعَفِ، ونفوزَ بأجرِ التذكُّرِ، وثمرةِ التذكيرِ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: فلْيعلَمْ أنَّ توبتَه في غايةِ الكمالِ؛ لأنَّها رجوعٌ إلى الطريقِ الموصِلِ إلى اللهِ الذي هو عينُ سعادةِ العبدِ وفلاحِه؛ فلْيُخلِصْ فيها، ولْيُخَلِّصْها مِن شوائبِ الأغراضِ الفاسدةِ، فالمقصودُ مِن هذا الحَثُّ على تكميلِ التوبةِ، وإيقاعُها على أفضلِ الوجوهِ وأَجَلِّها؛ لِيَقدَمَ على مَن تاب إليه فيوفِّيَه أجرَه بحسَبِ كمالِها[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ دعا اللهُ بهذا عبادَه المذنبِينَ حتى لا يَتَسَرَّبَ القنوطُ إلى قلوبِهم -وهو مُحَرَّمٌ عليهم- ولا يَحُولَ بيْنهم وبيْنَ خالقِهم ذنْبٌ وإنْ عَظُمَ، ورغَّبَهم في التَوبةِ بأنَّها رجوعٌ إليه وكفَى، وأنَّ الرجوعَ إليه فيه مِن الخَيرِ والشرفِ فوقَ ما تُصَوِّرُه الألفاظُ، فما أحلَمَه مِن ربٍّ كريمٍ، وما أرحمَه بعبادِه المذنِبين! فهذا داعي اللهِ فأجيبوه، وهذا بابُ اللهِ فَلِجُوه؛ فإنَّكم مهما رجعتُم إليه لا تُطرَدوا، ومهما قصَدتُم إليه تُقبَلوا وتُكْرَموا[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قامتِ الشَّريعةُ على المحافظةِ على حقوقِ اللهِ وحقوقِ عبادِه، وحَقُّ اللهِ على عبادِه أنْ يَعبُدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا، فمَن دعا مع اللهِ غيرَه، وأشركَ به سِواه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٩).

فقد أبطَلَ حقَّ اللهِ، وأعدمَ عبادتَه، ومَن قتَلَ النَّفْسَ فقد تعدَّى على أولِ حقٍّ جَعَلَه اللهُ لعبادِه بفضلِه -وهو حقُّ الوجودِ- وعَمِلَ على إبطالِ وجودِهم، وفناءِ نوعِهم، وزوالِ عبادتِهم؛ فلهذا قُرِنَ قَتلُ النَّفسِ بدعاءِ غيرِ اللهِ معه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ هذه أكبَرُ الكبائرِ، وأعظَمُها ضَررًا، وأشَدُّها فسادًا للعالَمِ، وإذا تأمَّلَ العاقِلُ فَسادَ الوجودِ رآه مِن هذه الجِهاتِ الثَّلاثِ[٢]، وهي: الكفرُ، ثم قتلُ النفْسِ بغَيرِ الحقِّ، ثمَّ الزنا، كما رتَّبها الله[٣]؛ فالشِّركُ فيه فَسادُ الأديانِ، والقَتلُ فيه فَسادُ الأبدانِ، والزِّنا فيه فَسادُ الأعراضِ[٤].

٣- أصولُ المعاصي كلِّها؛ كبارِها وصغارِها، ثلاثةٌ: تعلُّقُ القلبِ بغيرِ الله، وطاعةُ القوَّةِ الغضبيَّةِ، والقوَّةِ الشَّهوانيَّةِ، وهي: الشِّركُ، والظُّلْمُ، والفواحِشُ؛ فغايةُ التعلُّقِ بغيرِ الله شِركٌ، وأن يُدعَى معه إلهٌ آخَرُ، وغايةُ طاعةِ القوَّةِ الغضبيَّةِ القَتلُ، وغايةُ القوةِ الشهوانيَّةِ الزِّنا؛ ولهذا جمَع الله سُبحانَه بينَ الثلاثةِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾، وهذه الثلاثةُ يدعو بعضُها إلى بعضٍ؛ فالشركُ يدعو إلى الظُّلمِ والفواحشِ، كما أنَّ الإخلاصَ والتوحيدَ يَصرِفُهما عن صاحبِه؛ قال تعالى: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فالسوءُ: العِشقُ، والفحشاءُ: الزِّنا، وكذلك الظُّلمُ يدعو إلى الشركِ والفاحشةِ؛ فإنَّ الشِّركَ أظلَمُ الظُّلمِ، كما أنَّ أعدلَ العدلِ التوحيدُ؛ فالعدلُ قرينُ التوحيدِ، والظلمُ قرينُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

الشركِ؛ ولهذا يجمع سُبحانَه بيْنهما: أمَّا الأولُ، ففي قولِه تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨]، وأما الثاني فكقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، والفاحشةُ تدعو إلى الشِّركِ والظُّلمِ، ولا سيَّما إذا قَوِيت إرادتُها ولم تحصُلْ إلا بنوعٍ مِن الظُّلمِ والاستعانةِ بالسِّحرِ والشيطانِ، وقد جمَع سُبحانَه بينَ الزنا والشِّركِ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٣]، فهذه الثلاثةُ يجُرُّ بعضُها إلى بعضٍ، ويأمُرُ بعضُها ببعضٍ؛ ولهذا كلَّما كان القلبُ أضعَفَ توحيدًا وأعظَمَ شِركًا، كان أكثَرَ فاحشةً، وأعظَمَ تعلُّقًا بالصُّوَرِ وعِشقًا لها(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّه ليس بعْدَ الكُفرِ أعظَمُ مِن قَتلِ النَّفسِ بغيرِ الحَقِّ، ثمَّ الزِّنا؛ ولهذا ثَبَت في حَدِّ الزِّنا القَتلُ لِمَن كان مُحصَنًا، أو أقصَى الجَلدِ لِمن كان غيرَ مُحصَنٍ(٢).

٥- قال الله تعالى: ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ مضاعفةُ العذابِ: أن يُعَذَّبَ على كلِّ جُرْمٍ ممَّا ذُكِرَ عذابًا مُناسبًا؛ ولا يُكتفَى بالعذابِ الأكبرِ عن أكبرِ الجرائمِ، وهو الشِّركُ؛ تنبيهًا على أنَّ الشِّركَ لا يُنجي صاحبَه مِن تَبِعةِ ما يَقترفُه مِن الجرائمِ والمفاسدِ؛ وذلك لأنَّ دعوةَ الإسلامِ للناسِ جاءتْ بالإقلاعِ عن الشركِ وعن المفاسدِ كلِّها، وهذا معنى قولِ مَن قال مِن العلماءِ بأنَّ الكفارَ مخاطَبون

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٦).

بفروعِ الشريعةِ، يَعنون خطابَ المؤاخَذةِ على ما نُهوا عن ارتكابِه، وليس المرادُ أنهم يُطْلَبُ منهم العملُ؛ إذْ لا تُقْبَلُ منهم الصالحاتُ بدونِ الإيمانِ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ التَّوبةَ تمحو آثامَ كلِّ ذنبٍ مِن هذه الذُّنوبِ المعدودةِ، ومنها قتلُ النَّفْسِ بدونِ حقٍّ، وهو المعروفُ مِن عُموماتِ الكتابِ والسُّنَّةِ(٢)، فالآيةُ فيها دَلالةٌ على صحَّةِ توبةِ القاتلِ، ولا تعارُضَ بينَ هذه وبينَ آيةِ (النساء): ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]؛ فإنَّ هذه وإن كانت مدَنيَّةً إلَّا أنَّها مطلقةٌ، فتُحمَلُ على مَن لم يتُبْ؛ لأنَّ هذه مقيدةٌ بالتوبةِ، ثم قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. وقد ثبتت السنَّةُ الصحيحةُ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بصحَّةِ توبةِ القاتلِ(٣)، فالقاتِلُ إذا تاب لا يستحِقُّ الوعيدَ بنَصِّ القُرآنِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦، ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٢٦٦).

قال ابن تيميَّة: (قاتِلُ النَّفسِ بغير حقٍّ عليه حقَّان: حقٌّ لله بكَونِه تعدَّى حدودَ الله، وانتهَك حُرُماتِه. فهذا الذنْبُ يغفرُه الله بالتوبةِ الصحيحةِ. والحقُّ الثاني: حقُّ الآدميِّينَ، فعلى القاتلِ أن يُعطيَ أولياءَ المقتولِ حقَّهم، فيُمكِّنَهم مِن القِصاصِ، أو يصالحَهم بمالٍ، أو يطلُبَ منهم العفوَ، فإذا فعَل ذلك فقد أدَّى ما عليه مِن حقِّهم، وذلك مِن تمامِ التوبةِ.

وهل يبقَى للمَقتولِ عليه حقٌّ يطالبُه به يومَ القيامةِ؟ على قولينِ للعُلَماءِ في مذهبِ أحمدَ وغَيرِه، ومَن قال: يبقَى له فإنَّه يستكثرُ القاتِلُ مِن الحَسَناتِ حتى يعطيَ المقتولَ مِن حَسَناتِه بقَدْرِ حقِّه، ويبقَى له ما يبقَى، فإذا استكثرَ القاتِلُ التائبُ مِن الحسناتِ رُجِيَت له رحمةُ الله، وأنجاه مِن النَّارِ). ((الفتاوى الكبرى)) (٣/ ٤٠٧، ٤٠٨). =

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المنتَقِلَ مِن الضَّلالِ إلى الهُدى يُضاعَفُ له الثَّوابُ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ سؤالٌ؛ ما فائدةُ هذا التَّكريرِ مع ما سَبَقَ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾؟

الجوابُ مِن وجهينِ:

الأولُ: أنَّ هذا ليس بتَكريرٍ؛ لأنَّ الأولَ لَمَّا كان في تلك الخصالِ بَيَّنَ تعالى أنَّ جميعَ الذُّنوبِ بمنزلتِها في صِحَّةِ التَّوبةِ منها.

الثاني: أنَّ التَّوبةَ الأُولى رجوعٌ عن الشِّركِ والمعاصي، والتَّوبةَ الثَّانيةَ رُجوعٌ

= وأمَّا ما ورد عن ابنِ عبَّاسٍ، وزَيدِ بنِ ثابتٍ: أنَّ القاتِلَ لا تَوبةَ له، فقد حُمِلَ على التَّغليظِ؛ فقد رُوِيَ عنهما أنَّ له توبةً، أو: أنَّه لا توبة له بالنِّسبةِ لحقِّ المقتولِ؛ فإنَّه لا يمكنُ استحلالُه.

أمَّا إن مات القاتِلُ مِن غيرِ توبةٍ فإنَّه تحتَ مشيئةِ الله تعالى؛ إنْ شاء غَفَر له، وأرضى خَصْمَه، وإنْ شاء عذَّبه على فِعْلِه، ثم يُدخِلُه الجنَّةَ بإيمانِه؛ فضلًا منه ورَحمةً. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (١/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٣٣٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٠).

قال القرطبي: (ثمَّ إنَّ الجَمعَ بيْنَ آيةِ «الفُرقانِ» وهذه الآيةِ -أي: قَولِه: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]- مُمكِنٌ، فلا نَسْخَ ولا تعارُضَ؛ وذلك أن يُحمَلَ مُطلَقُ آيةِ «النساء» على مُقَيَّدِ آيةِ «الفرقان»، فيكونَ معناه: فجزاؤُه كذا إلَّا مَن تاب، لا سيَّما وقد اتَّحَد المُوجِبُ، وهو القَتلُ، والموجَبُ وهو التوعُّدُ بالعِقابِ. وأمَّا الأخبارُ فكثيرةٌ؛ كحَديثِ عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ الذي قال فيه: «تُبايِعوني على ألَّا تُشرِكوا باللهِ شَيئًا، ولا تَزْنُوا، ولا تَسرِقوا، ولا تَقتُلوا النَّفْسَ التي حرَّم اللهُ إلَّا بالحَقِّ، فمَن وَفَى منكم فأجرُه على اللهِ، ومَن أصاب شيئًا مِن ذلك فعُوقِبَ به فهو كفَّارةٌ له، ومَن أصاب مِن ذلك شَيئًا فسَتَرَه اللهُ عليه فأمْرُه إلى اللهِ؛ إنْ شاء عفا عنه، وإنْ شاء عَذَّبَه»). ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٣٣٤).

(١) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (١/ ٢٠٩).

إلى اللهِ تعالى للجَزاءِ والمكافأةِ، كقَولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، أي: مَرجِعي[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾

- هذا شروعٌ في نفي أُمَّهاتِ المعاصي عنهم بعدَما أثبَت لهم أصولَ الطاعاتِ؛ إظهارًا لكمالِ إيمانِهم، وتنبيهًا على أنَّ الإيمانَ الكاملَ هو ما تثبتُ معه الطاعاتُ، وتنْتَفي المعاصي، وذلك هو غايةُ الامتثالِ للأوامرِ والنَّواهي، وإشعارًا بأنَّ الأجرَ المذكورَ موعودٌ للجامعِ بينَ ذلك، وفيه تعريضٌ بما كان عليه المشركونَ مِن الاتِّصافِ بهذه المعاصي؛ مِن دعائِهم آلهتَهم معَ الله، وقتلِهم النفسَ، وارتكابِهم فاحشةَ الزِّنا. كأنَّه قيل: والذين برَّأهم الله وطهَّرهم ممَّا أنتم عليه، ولذلك عقَّبه بالوعيدِ تهديدًا لهم؛ فقال: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾[(٢)].

- والتَّصريحُ بوصفِ عباد الرحمن بنَفيِ الإشراكِ -معَ ظُهورِ إيمانِهم-؛ لإظهارِ كمالِ الاعتِناءِ بالتَّوحيدِ والإخلاصِ، وتَهويلِ أمْرِ القَتلِ والزِّنا بنَظْمِهما في سِلْكِه[(٣)].

- وقد جُمِع في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩).

ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ التَّخلِّي عن هذه الجَرائمِ الثَّلاثِ في صِلَةِ مَوصولٍ واحدٍ، ولم يُكرَّرِ اسمُ المَوصولِ كما كُرِّر في ذِكرِ خِصالِ تَحلِّيهم؛ للإشارةِ إلى أنَّهم لَمَّا أَقلَعوا عنِ الشِّركِ، ولمْ يَدْعوا مع اللهِ إلهًا آخَرَ؛ فقد أَقلَعوا عن أشدِّ القبائحِ لُصوقًا بالشِّركِ، وذلك قَتْلُ النَّفْسِ والزِّنا. فجُعِل ذلك شَبِيهَ خَصلةٍ واحدةٍ، وجُعِل في صِلَةِ مَوصولٍ واحدٍ. وقد يكونُ تَكريرُ (لا) مُجْزِئًا عن إعادةِ اسمِ المَوصولِ، وكافيًا في الدَّلالةِ على أنَّ كلَّ خَصلةٍ مِن هذه الخِصالِ مُوجِبةٌ لمُضاعَفةِ العذابِ[1].

- قولُه: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ وَصْفُ النَّفْسِ بـ ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بيانٌ لحُرمةِ النَّفْسِ الَّتي تَقرَّرَتْ مِن عهْدِ آدَمَ فيما حكَى اللهُ مِن مُحاوَرةِ ولَدَيْ آدَمَ بقَولِه: ﴿قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧] الآياتِ، فتَقرَّرَ تحريمُ قتْلِ النَّفْسِ مِن أقدَمِ أزمانِ البَشرِ، ولم يَجْهَلْه أحدٌ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ، فذلك معنَى وصْفِ النَّفْسِ بالمَوصولِ في قَولِه: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّه وصَف النَّفْسَ بالاسمِ الموصولِ المعروفِ الصِّلةِ؛ لأنَّ تَحريمَ اللهِ لها أمرٌ مَركوزٌ في النُّفوسِ، معروفٌ للبشَرِ بما جاءَهم مِن جَميعِ الشَّرائعِ[2].

- وكان النَّفيُ للفعلِ بصِيغَةِ المُضارِعِ ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى استمرارِ ذلك النَّفيِ[3].

- قولُه: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، أي: التي حرَّمَها، بمعنى: حَرَّم قتْلَها، فحُذِف

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٣، ٧٤).

(٢) يُنظر: ، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٠).

المُضافُ، وأُقيمَ المُضافُ إليه مقامَه؛ مُبالَغةً في التَّحريمِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ مِن بَلاغةِ القرآنِ: أنَّه إذا أمَرَ بشَيءٍ ذكَرَ فائدتَه وثمرتَه للعِبادِ في الدَّارينِ، وكذلك إذا نهَى عن شَيءٍ ذكَرَ مضرَّتَه، وسُوءَ عاقبتِه عليهم فيهما؛ فلمَّا ذكَرَ في صدْرِ الآيةِ نفْيَ تلك المعاصي عن عِبادِ الرَّحمنِ الَّذي يُفِيدُ النَّهيَ عنها؛ ذَكَر هذا الوعيدَ؛ لبَيانِ سُوءِ عاقبتِها، وقُبْحِ أثَرِها[٢].

- الإشارةُ بأداةِ البُعدِ في قولِه: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ أي: الفعلَ العظيمَ القُبحِ، مع قُربِ المذكوراتِ؛ دلَّ على أنَّ البعدَ في رُتَبِها[٣].

- والتَّنوينُ في قَولِه: ﴿أَثَامٗا﴾ للتَّفخيمِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾

- قولُه: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تَضعيفُ العذابِ: مُضاعَفتُه؛ لانضِمامِ المعصيةِ إلى الكُفرِ، ويَجوزُ أنْ تَكونَ مضاعَفةُ العذابِ مُستعمَلةً في معنى قُوَّتِه، أي: يُعَذَّبُ عذابًا شديدًا، وليستْ لتكريرِ عذابٍ مُقدَّرٍ[٥].

- قولُه: ﴿مُهَانًا﴾ حالٌ قُصِد منها تَشنيعُ حالِهم في الآخِرةِ[٦].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٥).

سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

- قولُه: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ رُوعِيَتِ الحالةُ الأُولى فذُكِرَتِ التَّوبةُ، والثَّانيةُ فذُكِرِ الإيمانُ، والثَّالثةُ فذُكِرِ العملُ الصَّالحُ؛ لأنَّ العاصيَ يكونُ في غَمَراتِ مَعصيتِه، فإذا ذكَرَ اللهَ، ووفَّقَه اللهُ، أَسِفَ على حالِه، ورجَعَ إلى ربِّه، وهذه أوَّلُ الدَّرجاتِ في تَوبتِه، فإذا استشعَرَ قلْبُه اليقينَ، واطمأَنَّ قلْبُه بذِكْرِ اللهِ؛ صمَّمَ على الإعراضِ عن المعصيةِ، والإقبالِ على الطَّاعةِ، فإذا كان صادقًا في هذا العزمِ، فلا بُدَّ أن يَظهَرَ أثرُ ذلك على عمَلِه[1].

- وعَطْفُ ﴿وَءَامَنَ ﴾ على ﴿مَن تَابَ ﴾؛ للتَّنويهِ بالإيمانِ، ولِيُبْنَى عليه قَولُه: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، وهو شرائعُ الإسلامِ؛ تحريضًا على الصَّالحاتِ، وإيماءً إلى أنَّها لا يُعتَدُّ بها إلَّا مع الإيمانِ، كما قال تعالى في سورة (البلد): ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البلد: ١٧]، وقال في عكسِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـًٔا﴾[2] [النور: ٣٩].

- وقولُه: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فيه ذِكرُ المَوصوفِ مع جرَيانِ الصَّالحِ والصَّالحاتِ مَجرَى الاسمِ؛ للاعتِناءِ والتَّنصيصِ على مُغايَرتِه للأعمالِ السَّابقةِ[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيثُ قال هنا: ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، وقال في سورةِ (طه): ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [طه: ٨٢]؛ وذلك لأنَّه في سُورةِ (طه)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).

أَوْجَزَ في ذِكرِ المعاصي فأَوجَزَ في التَّوبةِ، وأطالَ في الفُرقانِ فأطالَ في التَّوبةِ[١].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ...﴾ كلامٌ مَسوقٌ لبيانِ فضْلِ التَّوبةِ المَذكورةِ، واسمُ الإشارةِ أفادَ التَّنبيهَ على أنَّهم أَحْرياءُ بما أخبَرَ عنهم به بعْدَ اسمِ الإشارةِ؛ لأجْلِ ما ذُكِر مِنَ الأوصافِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٢]. واسمُ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المَوصولِ (مَن)، والجَمعُ باعتِبارِ معناهُ، كما أنَّ الإفراد في الأفعالِ الثَّلاثةِ -(تَابَ)، و(آمَنَ)، و(عَمِلَ)- باعتِبارِ لفْظِه[٣].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ ...﴾ ذكَر الاسمَ الأعظمَ؛ تعظيمًا للأمرِ، وإشارةً إلى أنَّه سبحانَه لا منازعَ له[٤].

- ولم تَتعرَّضِ الآيةُ لمِقدارِ الثَّوابِ، وهو مَوكولٌ إلى فضلِ اللهِ؛ ولذلك عَقَّبَ هذا بقَولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ المُقتضِي أنَّه عظيمُ المغفرةِ[٥].

- قولُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ اعتِراضٌ تَذْييليٌّ مُقرِّرٌ لِما قَبْلَه مِنَ المَحوِ والإثباتِ[٦].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ تعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ[٧]؛ فهو تَذْييلٌ لِما قبْلَه[٨].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).

(٨) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٩٥).

- والتَّوكيدُ بـ (إنَّ)؛ لتَحقيقِ مَضمونِ الخبرِ[١].

- وقد وقَعَ الإخبارُ عنِ التَّائبِ بأنَّه تائبٌ؛ إذِ المَتابُ مَصدرٌ مِيميٌّ بمعنَى التَّوبةِ، فيَتعيَّنُ أن يُصرَفَ إلى معنًى مُفيدٍ، فيَجوزُ أن يكونَ المُقصودُ هو قَولَه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ فيكونَ كِنايةً عن عظيمِ ثَوابِه. ويَجوزُ أن يكونَ المقصودُ ما في المضارعِ مِنَ الدَّلالةِ على التَّجدُّدِ، أي: فإنَّه يَستمِرُّ على تَوبتِه، ولا يَرتَدُّ على عَقِبَيْهِ؛ فيكونَ وعْدًا مِنَ اللهِ تعالى أن يُثبِّتَه على القَولِ الثَّابتِ إذا كان قد تابَ وأيَّدَ تَوبتَه بالعملِ الصَّالحِ. ويَجوزُ أن يكونَ المقصودُ ما للمفعولِ المُطلَقِ مِن معنَى التَّأكيدِ، أي: مَن تاب وعمِلَ صالحًا فإنَّ تَوبتَه هي التَّوبةُ الكاملةُ الخالِصةُ للهِ[٢].

- وخالَفَ جوابُ الشَّرطِ -وهو ﴿يَتُوبُ﴾- فِعلَ الشَّرطِ -وهو ﴿تَابَ﴾- بمُتعلَّقِه -وهو ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾- ومَعمولِه -وهو ﴿مَتَابًا﴾-، وعُبِّرَ بالمُضارعِ في الجوابِ؛ لِيُفيدَ التَّجدُّدَ باعتِبارِ تجدُّدِ المَثوباتِ للرَّاجعينَ إلى اللهِ[٣].

- وتَنوينُ ﴿مَتَابًا﴾ تَنوينُ تَفخيمٍ وتَعظيمٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٧٧، ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧٢-٧٧)

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامُۢا ٧٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡغُرۡفَةَ﴾: أي: الدَّرَجةَ الرَّفيعةَ في الجنَّةِ، والغرفةُ: كلُّ بناءٍ عالٍ مرتفعٍ، وأصلُ (غرف): يدُلُّ على رَفعِ الشَّيءِ[1].

﴿قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾: أي: ما تَقَرُّ به أعْيُنُنا، قيل: أصلُه مِن القُرِّ، أي: البَردِ، فَقَرَّتْ عينُه، قيل: معناه بَرَدَتْ فصَحَّتْ، وقيل: هو مِن القَرارِ، والمعنى: أعطاه اللهُ ما تَسكُنُ به عينُه، فلا يطمَحُ إلى غيرِه، وقيل: أقرَّ الله عينَه، أي: أنامَها[2].

﴿وَيُلَقَّوۡنَ﴾: أي: يُستقبَلونَ، وتَتَلَقَّاهُم الملائِكةُ، يُقال: تَلَقَّاهُ كذا، أي: لَقِيَه، ولَقِيتُه بكذا: إذا استَقْبلتَه به، وأصلُ (لقي) هنا يدُلُّ على المُلاقاةِ، وتوافِي شيئَيْنِ متقابلَيْنِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٩)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٥٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٣، ٧٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، =

﴿يَعۡبَؤُاْ﴾: أي: يُبالي، وأصلُ (عبأ): يدُلُّ على اجتِماعٍ في ثِقلٍ[١].

﴿لِزَامٗا﴾: أي: مُلازِمًا، وقيل: جَزاءً، وقيل: هلاكًا، وأصلُ (لزم): يدُلُّ على مُصاحبةِ الشَّيءِ للشَّيءِ دائِمًا[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومِن صِفةِ عِبادِ الرَّحمنِ أيضًا أنَّهم لا يَحضُرونَ مواضِعَ الباطِلِ، وإذا مرُّوا باللَّغْوِ -مِن غيرِ قَصدٍ منهم- أعرَضوا عنه؛ وهم الذين إذا ذُكِّروا بآياتِ رَبِّهم لم يُعرِضوا عنها صامِّينَ آذانَهم وعامِينَ عنها، والذين يَدْعونَ رَبَّهم: ربَّنا هَبْ لنا مِن أزواجِنا وذرِّيَّاتِنا ما تَقَرُّ به أعيُنُنا برؤيتِهم على طاعتِك في الدُّنيا، وبدُخولِ جَنَّتِك في الآخرةِ، واجعَلْنا قُدوةً في الخَيرِ للمُتَّقينَ مِن عبادِك؛ فهؤلاء المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ يَجزيهم اللهُ الغُرَفَ العاليةَ في الجِنانِ بسَبَبِ صَبرِهم في الدُّنيا، ويُستقبَلون بالتحيَّةِ والسَّلامِ، ماكثينَ في تلك الغُرَفِ أبدًا، حَسُنَت لهم قرارًا ومُقامًا.

قُلْ -يا محمَّدُ: لولا دعاؤُكم اللهَ تعالى لَما اكتَرَث بكم، فقد كذَّبتُم -أيُّها المُشرِكون- بالحَقِّ، فسوف يكونُ العذابُ مُلازِمًا لكم في الدُّنيا والآخرةِ؛ جزاءَ تكذيبِكم.

= ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٤٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٥).

(١) ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٦) (ص: ٢٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٦)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

عَقَّبَ سُبحانه ترْكَهم الزِّنا بالإعراضِ أصلًا عن اللَّغوِ الذي هو أعظَمُ مقَدِّماتِ الزِّنا[١].

وأيضًا لَمَّا وَصَفَهم سُبحانه بالصِّفاتِ المتقَدِّمةِ الدالَّةِ كلِّها على كَمالِ أخلاقِهم، واستقامةِ أعمالِهم في ظواهرِهم وبواطنِهم بانبِنائِها على قوَّةِ إيمانِهم، وصحَّةِ عِلْمِهم؛ فكانوا أهلَ الحقِّ المتَّصِفين به في عِلْمِهم وعَمَلِهم، القائمينَ عليه في جميعِ أحوالِهم- وَصَفَهم هنا ببُعدِهم عن الباطلِ ومَشاهِدِه، ومجانبتِهم لأهلِه[٢].

وأيضًا لَمَّا وَصَفَ سُبحانَه وتعالى عبادَه بأنهم تَحَلَّوا بأصولِ الفضائلِ، وتَخَلَّوا عن أمَّهاتِ الرَّذائلِ، ورَغَّبَ في التَّوبةِ؛ لأنَّ الإنسانَ لِعَجزِه لا يَنفَكُّ عن النَّقصِ- مَدَحَهم بصفةٍ أخرى، وهي الصفةُ المذكورةُ في قَولِه تعالى[٣]:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾.

أي: والذين لا يَحضُرون شَيئًا مِن الباطِلِ، ويجتنبونَ جميعَ المجالِسِ المشتمِلةِ على أقوالٍ أو أفعالٍ محرَّمةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٤٧٩ - ٤٨٣)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٣/ ١٢٤٤، =

= ١٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٠، ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

قال ابن عاشور: (فِعلُ «شَهِد» يُستعملُ بمعنى «حضَر»، وهو أصلُ إطلاقِه؛ كقولِه تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويُستعملُ بمعنَى: أخبَر عن شَيءٍ شَهِدَه وعَلِمَه؛ كقولِه تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]. والزُّورُ: الباطلُ مِن قَولٍ أو فعلٍ، وقد غلَب على الكذبِ... فيَجوزُ أن يكونَ معنَى الآيةِ: أنَّهم لا يَحضُرونَ مَحاضرَ الباطلِ الَّتي كان يَحضُرُها المشركون، وهي مَجالسُ اللَّهوِ والغِناءِ والغِيبةِ ونَحوِها، وكذلك أعيادُ المشركين وألعابُهم؛ فيكونَ الزُّورُ مفعولًا به لـ﴿يَشۡهَدُونَ﴾. وهذا ثَناءٌ على المؤمنينَ بمُقاطَعةِ المشركينَ وتجنُّبِهم... ويجوزُ أن يكونَ فِعلُ ﴿يَشۡهَدُونَ﴾ بمعنَى الإخبارِ عمَّا عَلِموه، ويكونَ الزُّورُ منصوبًا على نزعِ الخافضِ، أي: لا يَشهَدون بالزُّورِ، أو مفعولًا مُطلقًا لبيانِ نوعِ الشَّهادةِ، أي: لا يَشهدون شهادةً هي زُورٌ لا حقٌّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨، ٧٩).

وقال ابن الفَرَس: (الزُّورُ: كلُّ الباطلِ، فأعظَمُه: الشِّركُ، وبه فسَّرَ الضحَّاكُ وابنُ زَيدٍ. ومنه: الغِناءُ، وبه فسَّر مجاهِدٌ. ومنه: الكذِبُ، وبه فسَّر ابنُ جُرَيجٍ. و﴿يَشۡهَدُونَ﴾ على القولينِ الأوَّلينِ مِنَ المُشاهَدةِ، وعلى القولِ الثالثِ مِنَ الشَّهادةِ لا مِن المشاهَدةِ، فالمُرادُ: الشَّهادةُ بالزُّورِ، وهو قولُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ وغيرِه). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٠٠). ويُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالزُّورِ: الشِّركُ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ أبي زمنين، والسمعانيُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٩).

ونسَبَ الواحديُّ هذا القولَ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) (١٦/ ٦٠١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالزُّورِ: الكذِبُ: أي: لا يَشهدون بالزُّورِ أو شهادةَ الزُّورِ: ابنُ جُزي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٢).

قال ابن تيميَّةَ: (قال قومٌ: إنَّ المُرادَ: شَهادةُ الزُّورِ الَّتي هي الكذبُ، وهذا فيه نظَرٌ؛ فإنَّه تعالى قال: ﴿لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾، ولم يقُلْ: لا يَشهدون بالزُّورِ. والعربُ تقولُ: شهِدتُ كذا: إذا حضَرْتَه... وأمَّا: شَهِدتُ بكذا، فمعناه: أخبرتُ به). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٤٨٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: لا يَشهدون شَيئًا مِن الباطلِ؛ لا شِركًا، ولا غِناءً، ولا كَذِبًا ولا غيرَه مِن الباطلِ: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٩)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وعن أبي بَكْرَةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا عندَ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: ألَا أُنَبِّئُكم بأكبَرِ الكبائِرِ -ثلاثًا-؟ الإشراكُ باللهِ، وعُقوقُ الوالِدَينِ، وشَهادةُ الزُّورِ أو قَولُ الزُّورِ، وكان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مُتَّكِئًا فجلَسَ، فما زال يُكَرِّرها حتَّى قُلْنا: لَيْتَهُ سَكَت))(١).

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا نفَى عنهم سبحانَه -فيما تَقَدَّمَ- حضورَ مَشاهِدِ الزُّورِ؛ أخبرَ هنا أنَّهم لا يَقِفون عندَ اللَّغوِ عندَما يَمُرُّون عليه؛ تَرَقِّيًا في وصْفِهم بالبُعدِ عن الباطلِ والإثمِ

= الثعالبي)) (٤/ ٢٢٠).

قال السعدي: (أي: لا يحضُرون الزُّورَ، أي: القولَ والفِعلَ المحَرَّمَ، فيجتنبون جميعَ المَجالسِ المشتَمِلةِ على الأقوالِ المحرَّمةِ أو الأفعالِ المحرَّمةِ... وإذا كانوا لا يَشهَدون الزُّورَ فمِن بابِ أَولى وأَحرى ألَّا يقولوه ويفعلوه، وشهادةُ الزُّورِ داخلةٌ في قَولِ الزورِ، تدخُلُ في هذه الآيةِ بالأولويَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨، ٧٩).

وقال ابن عثيمين: (فالزُّورُ: كُلُّ مَيلٍ قوليٍّ أو فعليٍّ؛ إن كان قولًا وُصِف بالكَذِب، وإن كان فِعلًا وُصِف بالباطِلِ. فكلُّ قولٍ أو فعلٍ مائلٍ عن الطريقِ فإنَّه زورٌ؛ فالكَذِبُ زورٌ، والشَّتمُ واللَّعنُ والغِيبةُ زورٌ أيضًا، والغَصبُ والسَّرِقةُ والزِّنا وغيرُ ذلك: زورٌ أيضًا، لكن قد نُسَمِّيه باطلًا إذا كان فِعلًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣١٥).

وقال السيوطي: (قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ هو شامِلٌ لكُلِّ باطلٍ؛ فمِنه الشِّركُ، وبه فسَّره الضحَّاكُ، واللَّهوُ والغناءُ، وبه فسَّر ابنُ الحنفيَّةِ، والكَذِبُ، وبه فسَّر قَتادةُ، والنِّياحةُ، وبه فسَّر الحسَنُ). ((الإكليل)) (ص: ١٩٨).

(١) رواه البخاري (٦٩١٩)، ومسلم (٨٧) واللفظ له.

والعبثِ، ومجانبةِ أهلِه[١].

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

أي: وإذا صادَف أنْ مَرُّوا باللَّغوِ[٢] فسَمِعوه أو رَأَوْهُ -مِن غَيرِ قَصدٍ منهم-،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٢).

(٢) قال السعدي: (﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ وهو الكلامُ الذي لا خيرَ فيه، ولا فيه فائدةٌ دينيَّةٌ ولا دنيويَّةٌ؛ ككلامِ السفهاءِ ونحوِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٩).

وقال ابن جُزي: (اللَّغوُ: هو الكلامُ القبيحُ على اختِلافِ أنواعِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧).

وقال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ اللَّغوُ الصوابُ أنَّه ليس الكلامَ القبيحَ؛ لأنَّ الكلامَ القبيحَ داخِلٌ في الزُّورِ، لكنِ المُرادُ باللَّغوِ: ما لا فائدةَ فيه، فكلُّ ما لا فائدةَ فيه فهو لَغْوٌ؛ وذلك لأنَّه لا يُقصَدُ، وما لا يُقصدُ فهو لَغْوٌ، ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]، فاللَّغوُ ما لا فائدةَ فيه؛ سواءٌ كان قولًا أو فعلًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣١٦).

وقيل في معنى اللَّغوِ أيضًا: هو ما كان المشركونَ يَقولونَه للمؤمنينَ، ويُكَلِّمونَهم به مِن الْأَذَى، وقيل: اللَّغوُ هو ما كان المشركونَ فيه مِن الباطِلِ، وقيل: هو المعاصي كُلُّها... إلى غيرِ ذلك.

قال ابنُ جريرٍ بعْدَ أن ذكَر الخلافَ في معنَى اللَّغوِ: (وأَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ أخبَرَ عن هؤلاءِ المؤمنينَ الَّذينَ مَدَحهم بأنَّهم إذا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كرامًا، واللَّغوُ في كلامِ العربِ هو كُلُّ كلامٍ أو فِعلٍ باطلٍ لا حقيقةَ له ولا أصلَ، أو ما يُستقبَحُ... فلا وجْهَ إذْ كان كلُّ ذلك يَلْزَمُه اسمُ اللَّغْوِ أن يُقالَ: عُنيَ به بعضُ ذلك دونَ بعضٍ، إذ لم يَكُنْ لخصوصِ ذلك دَلالةٌ مِن خبرٍ أو عقلٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٣- ٥٢٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ اللَّغوَ: كلُّ ما يَنبغي أن يُلغى ويُطَّرَحَ، وكلُّ سَقَطٍ مِن قولٍ أو فعلٍ: الزجَّاجُ، والزمخشريُّ، وابنُ عطية، وابنُ الفَرَس، والرازيُّ، والقرطبيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، والخازنُ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٤٤).

أعرَضوا عنه، وأكرَموا أنفُسَهم عن الخَوضِ والمشاركةِ فيه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصَفَهم سبحانَه -فيما تَقَدَّمَ- بإعراضِهم عن الباطلِ، ومجانبتِهم لأهلِه، وبُعْدِهم عنه؛ وَصَفَهم هنا بإقبالِهم على الحقِّ، وإكبابِهم عليه، متفهِّمِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٠، ٨١)، ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٩).

قال الرسعني: (﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ أي: مرُّوا مرَّ الكرماءِ، مُعرضينَ عنهم، مُكرمينَ أنفسَهم عن التوقُّفِ عليهم، والخوضِ معهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٥٨).

وقال البقاعي: (﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ أي: آمِرينَ بالمعروفِ، ناهينَ عن المنكَرِ -إن تعلَّقَ بهم أمرٌ أو نهيٌ- بإشارةٍ أو عبارةٍ، على حسَبِ ما يَرَونَه نافعًا، أو مُعرِضينَ إن كان لا يصلُحُ شَيءٌ من ذلك؛ لإثارةِ مَفسدةٍ أعظَمَ مِن ذلك أو نحوِه؛ رحمةً لأنفُسِهم وغيرِهم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٣٣).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣١٦، ٣١٧).

وقال ابن جرير: (فتأويلُ الكلامِ: وإذا مَرُّوا بالباطِلِ فسَمِعوه أو رَأَوْه، مَرُّوا كِرامًا؛ مُرورُهم كِرامًا في بعضِ ذلك بأنْ لا يَسْمَعوه، وذلك كالغناءِ. وفي بعضِ ذلك بأنْ يُعْرِضوا عنه ويصفحُوا، وذلك إذا أُوذُوا بإسماعِ القبيحِ مِن القولِ. وفي بعضِه بأنْ يَنْهَوْا عن ذلك، وذلك بأنْ يَرَوْا مِن المُنكَرِ ما يُغَيَّرُ بالقولِ فَيُغَيِّرُوه بالقولِ، وفي بعضِه بأنْ يُضارِبوا عليه بالسُّيوفِ، وذلك بأنْ يَرَوْا قومًا يَقْطَعونَ الطَّريقَ على قومٍ، فيَستَصْرِخُهم المُرادُ ذلك منهم، فيُصْرِخونَهم، وكلُّ ذلك مُرورُهم كِرامًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٥).

مُستبصِرينَ[١].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣﴾.

أي: والذين إذا ذكَّرَهم مُذَكِّرٌ بآياتِ رَبِّهم[٢]، لم يُقابِلوها بالإعراضِ عنها، والصَّمَمِ عن سَماعِها، وصَرفِ النَّظَرِ والقلوبِ عنها، كالكُفَّارِ الذين إن ذُكِّروا بها أنكَروا وكَذَّبوا، وأقاموا على كُفرِهم، كأنَّهم لا يَسمَعونَ ولا يُبصِرونَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٣).

(٢) قيل: المرادُ بقولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾: القرآنُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زمنين، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والنسفيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥١).

وقيل: المرادُ بها: عمومُ الآياتِ، شَرعيَّةً كانت أو كونيَّةً. وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٢).

وقال الشوكاني: (﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: بالقرآنِ، أو بما فيه موعظةٌ وعِبرةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٧، ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣١، ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٠، ٨١).

قال الزمخشري: (﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ ليس بنَفيٍ للخُرورِ، وإنَّما هو إثباتٌ له، ونَفيٌ للصَّمَمِ والعَمَى، كما تقولُ: لا يَلقاني زيدٌ مُسَلِّمًا، هو نَفيٌ للسَّلامِ لا للِّقاءِ. والمعنى: أنَّهم إذا ذُكِّرُوا بها أكَبُّوا عليها حِرصًا على استِماعِها، وأقبَلوا على المُذَكِّرِ بها، وهُم في إكبابِهم عليها سامِعون بآذانٍ واعيةٍ، مُبصِرونَ بعُيونٍ راعيةٍ، لا كالذين يُذَكَّرونَ بها فتراهم مُكِبِّينَ عليها مُقبِلينَ على مَن يُذَكِّرُ بها، مُظهِرينَ الحِرصَ الشَّديدَ على استِماعِها، وهم كالصُّمِّ العُميانِ؛ حيث لا يَعُونَها، ولا يَتبَصَّرونَ ما فيها، كالمُنافِقينَ وأشباهِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٥).

وقال ابن عطية: (قولُه: ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ يحتَمِلُ تأويلينِ:

أحدُهما: أن يكونَ المعنى: لم يكُنْ خرورُهم بهذه الصِّفةِ، بل يكون سُجَّدًا وبُكِيًّا، وهذا كما تقولُ: لم يخرجْ زيدٌ للحربِ جَزِعًا، أي: إنما خرَج جريئًا مُقْدِمًا. وكأنَّ الذي يَخِرُّ أصَمَّ =

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصَفَهم سبحانه في الآياتِ المتقدِّمةِ بما دلَّ على أنَّهم أهلُ خَيرٍ وكمالٍ في أنفُسِهم؛ وَصَفَهم في هذه بما دلَّ على محبَّتِهم الخَيرَ والكمالَ لغَيرِهم مِن قرابتِهم: أزواجِهم، وذُرِّيَّتِهم، ومَن سِواهم[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

أي: والذين يَدْعُونَ اللهَ قائلينَ: ربَّنا أصلِحْ أزواجَنا وأولادَنا وأحفادَنا، فنُسَرَّ في الدُّنيا برُؤيتِهم على طاعتِك، وفي الآخرةِ بدُخولِ جَنَّتِك[2].

= وأعمى هو المنافِقُ أو الشاكُّ.

والتأويلُ الثاني ذهب إليه الطبريُّ، وهو: أنَّ ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ هي صِفةٌ للكافِرِ، وهي عبارةٌ عن إعراضِهم وجهدِهم في ذلك، وقَرَنَ ذلك بقَولِه: قعَد فلان يشتُمُني، وقام فلانٌ يبكي، وأنت لم تَقصدِ الإخبارَ بقعودٍ ولا قيامٍ، وإنما هي توطئاتٌ في الكلامِ والعبارةِ. ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٨).

وقال ابن عاشور: (يجوزُ أن يكونَ الخرورُ واقِعًا منهم أو مِن بَعضِهم حقيقةً؛ لأنَّهم يكونون جلوسًا في مجتمعاتِهم ونَواديهم، فإذا دعاهم الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الإسلامِ طأطؤوا رؤوسَهم وقَرَّبوها مِن الأرض؛ لأنَّ ذلك للقاعد يقومُ مقامَ الفرارِ، أو سَترِ الوجهِ... وقريبٌ مِن هذا المعنى قولُه تعالى حكايةً في سورة نوح: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٠، ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير =

﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

أي: واجعَلْنا قُدوةً للذين يمتَثِلونَ أوامِرَك، ويجتَنِبونَ نواهيَك، فيَقتَدون بنا في الخَيرِ[1].

= البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٢).

قال ابن العربي: (معناه: أنَّ النفوسَ تتمنَّى، والعيونَ تمتدُّ إلى ما ترى مِن الأزواجِ والذُّرِّيَّةِ، حتى إذا كانت عندَه زوجةٌ اجتمعت له فيها أمانيه مِن جمالٍ وعِفَّةٍ ونظَرٍ وحَوطةٍ، أو كانت عندَه ذريَّتُه محافِظينَ على الطاعة، معاوِنينَ له على وظائفِ الدِّينِ والدُّنيا؛ لم يلتَفِتْ إلى زوجِ أحدٍ، ولا إلى ولَدِه؛ فتسكُنُ عينُه عن الملاحظةِ، وتزولُ نفْسُه عن التعلُّقِ بغيرِها؛ فذلك حينَ قُرَّةِ العَينِ، وسُكونِ النَّفسِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٥٥، ٤٥٦). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٢).

لكن قال الرازي: (لا شُبْهَةَ أنَّ المرادَ أنْ يكونَ قُرَّةَ أعينٍ لهم في الدِّينِ لا في الأمورِ الدُّنيويَّةِ مِن المالِ والجمالِ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٦).

وقال الزمخشري: (﴿مِنۡ﴾ في قولِه: ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا﴾ ... يحتمِلُ أن تكونَ بيانيَّةً... وأن تكونَ ابتدائيَّةً). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦).

وقال أبو حيان: (قُرَّةُ العينِ فيمَنْ ذكروا رُؤْيَتُهم مُطيعينَ لِلَّهِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢).

وقال الرازي: (فيه وجهان؛ أحدُهما: أنَّهم سألوا أزواجًا وذرِّيَّةً في الدُّنيا يُشارِكونهم، فأحَبُّوا أن يكونوا معهم في التمسُّكِ بطاعةِ الله، فيَقْوى طمَعُهم في أن يَحصُلوا معهم في الجنَّةِ؛ فيَتكامَلَ سرورُهم في الدُّنيا بهذا الطمعِ، وفي الآخرةِ عندَ حصولِ الثَّوابِ. والثَّاني: أنَّهم سألوا أن يُلحِقَ اللهُ أزواجَهم وذريَّتَهم بهم في الجنَّةِ؛ لِيَتِمَّ سرورُهم بهم). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٦، ٤٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

ممَّن اختار أنَّ معنى قولِه: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: يَقتدون بنا في الدِّينِ، ويأتمون بنا في الخَيرِ: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وابن جزي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير البغوي)) =

كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

= (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٤).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، والربيعُ بنُ أنسٍ: أئمَّةً يُقتدى بنا في الخيرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣).

قال السعدي: (من المعلومِ أنَّ الدُّعاءَ بحُصولِ شَيءٍ: دُعاءٌ به وبما لا يَتِمُّ إلَّا به، وهذه الدَّرَجةُ دَرَجةُ الإمامةِ في الدِّينِ التي لا تَتِمُّ إلَّا بالصَّبرِ واليَقينِ، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]، فهذا الدُّعاءُ يَستلزِمُ مِن حُصولِ الأعمالِ الصَّالحةِ، والصَّبرِ على طاعةِ الله، وعن معصيتِه، وعلى أقدارِه المؤلِمةِ، ومن العِلمِ النَّافِعِ التامِّ الرَّاسخِ الذي يُوصِلُ صاحِبَه إلى درجةِ اليَقينِ- خَيرًا كثيرًا، وعَطاءً جزيلًا). ((تيسير اللطيف المنان)) (ص: ٦٧).

وقيل: معنى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾: نأتَمُّ بهم، ويأتَمُّ بنا مَن بَعْدَنا. وممَّن قال به مِن السلَفِ: مجاهدٌ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦).

وعن مجاهدٍ -في روايةٍ أخرى-، قال: (اجعَلْنا مؤتَمِّينَ بهم، مُقتَدينَ بهم). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٢).

قال ابنُ القيِّم عن تفسير مجاهدٍ المذكورِ: (أَشكَلَ هذا التفسيرُ على مَن لم يَعرِفْ قَدْرَ فَهمِ السلَفِ وعُمقَ عِلمِهم، وقال: يجبُ أن تكونَ الآيةُ على هذا القولِ مِن بابِ المقلوبِ، على تقديرِ: واجعَلِ المتَّقينَ لنا أئمَّةً، ومَعاذَ اللهِ أن يكونَ شَيءٌ مقلوبًا على وَجهِه! وهذا مِن تمامِ فَهمِ مجاهدٍ رحمه الله؛ فإنَّه لا يكونُ الرجُلُ إمامًا للمتَّقينَ حتى يأتمَّ بالمتَّقينَ، فنَبَّهَ مجاهدٌ على هذا الوجهِ الَّذي يَنالون به هذا المطلوبَ، وهو اقتِداؤُهم بالسلَفِ المتَّقينَ مِن قَبْلِهم، فيَجعَلُهم الله أئمَّةً للمتَّقينَ مِن بَعدِهم. وهذا مِن أحسَنِ الفَهمِ في القرآنِ وألطَفِه، ليس مِن باب القلبِ في شَيءٍ، فمَنِ ائتَمَّ بأهلِ السنَّةِ قبْلَه، ائتَمَّ به مَن بعْدَه ومَن معه). ((رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه)) (ص: ١٢، ١٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عَدَّدَ سُبحانَه صِفاتِ المتَّقينَ المخلِصينَ؛ بَيَّنَ بعْدَ ذلك أنواعَ إحسانِه إليهم، وهي مجموعةٌ في أمْرينِ: المنافعِ، والتَّعظيمِ؛ فالمنافِعُ في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾، والتعظيمُ في قَولِه تعالى: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

أي: عِبادُ الرَّحمنِ المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ يُثيبُهم اللهُ الغُرَفَ العاليةَ في الجنَّةِ[2]؛ بسبَبِ صَبرِهم في الدُّنيا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٧).

(٢) قيل: الغرفةُ: المنزلةُ الرَّفيعةُ، والدرجةُ العاليةُ في الجنَّةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغويُّ، والخازنُ، وجلال الدين المحليُّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٤٦).

وقال الزمخشري: (المرادُ: يُجْزَونَ الغُرُفاتِ، وهي العَلاليُّ في الجنَّةِ، فوَحَّدَ اقتِصارًا على الواحدِ الدالِّ على الجنسِ، والدَّليلُ على ذلك قولُه: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥٢).

وقال الشنقيطي: (الظاهرُ أنَّ المرادَ بالغُرفةِ في هذه الآية الكريمةِ جِنسُها الصادِقُ بغُرَفٍ كثيرةٍ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨١).

وقيل: هي الجنَّةُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثيرٍ، وقال: (قال أبو جَعفرٍ الباقِرُ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ: سُمِّيَتْ بذلك؛ لارتِفاعِها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣).

قال الماوَرْديُّ: (قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ فيها وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ الغُرفةَ الجنَّةُ، قاله الضحَّاكُ. الثَّاني: أنَّها أعلى مَنازِلِ الجنَّةِ وأفضَلُها، كما أنَّ الغُرفةَ أعلى مَنازِلِ الدُّنيا). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان المَنزِلُ لا يَطيبُ إلَّا بالكرامةِ والسَّلامةِ؛ قال تعالى[(١)]:

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا﴾.

أي: ويُستقبَلُ عِبادُ الرَّحمنِ في الغُرَفِ بالتحيَّةِ والسَّلامِ عليهم[(٢)].

= كثير)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨١).

قال القرطبي: (﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ خبرُ «عِبَادُ الرَّحْمَنِ»... وما تخلَّل بيْن المبتدأِ وخبَرِه أوصافُهم مِن التحلِّي والتخلِّي، وهي إحدى عَشْرةَ: التواضُعُ، والحِلمُ، والتهجُّدُ، والخوفُ، وتركُ الإسرافِ والإقتارِ، والنزاهةُ عن الشِّركِ والزِّنا والقتلِ، والتوبةُ، وتجنُّبُ الكَذِب، والعفوُ عن المسيءِ، وقَبولُ المواعظ، والابتهالُ إلى الله). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

قال البغوي: (وقوله: ﴿تَحِيَّةً﴾، أي: مُلْكًا. وقيل: بقاءً دائمًا، ﴿وَسَلَـٰمًا﴾ أي: يُسلِّمُ بعضُهم على بعضٍ. وقال الكَلْبيُّ: يُحيِّي بعضُهم بعضًا بالسلامِ، ويُرسِلُ الرَّبُّ إليهم بالسَّلامِ. وقيل: سلامًا: أي سلامةً مِنَ الآفاتِ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٠).

وقال البقاعي: (﴿فِيهَا تَحِيَّةً﴾ أي: دُعاءً بالحياةِ مِن بعضِهم لبعضٍ، ومِن الملائكةِ الذين لا يُرَدُّ دعاؤُهم، ولا يُمترَى في إخبارِهم؛ لأنَّهم عن الله يَنطِقون، وذلك على وجهِ الإكرامِ والإعظامِ مكانَ ما أهانهم عبادُ الشيطان. ﴿وَسَلَـٰمًا﴾ أي: مِن الله، ومِن الملائكة وغيرِهم، وسلامةً مِن كلِّ آفةٍ مكانَ ما أصابوهم بالمصائبِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٣٧).

وقال السعدي: (﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا﴾ مِن رَبِّهم، ومِن ملائكتِه الكرامِ، ومِن بعضٍ على بعضٍ، ويَسلَمونَ مِن جميعِ المنغِّصاتِ والمكدِّراتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

وقال ابنُ عثيمين: (قولُه: ﴿تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا﴾ هل هما مُترادِفان أو مُتغايران؟ =

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَعَدَ سُبحانَه بالمنافِعِ أولًا، وبالتَّعظيمِ ثانيًا؛ بيَّنَ أنَّ مِن صفتِهما الدَّوامَ[1].

وأيضًا لَمَّا كان ما سبَقَ ناطِقًا بدوامِ حياتِهم، سالِمِين بصَريحِه، وبعَظيمِ شَرَفِهم بلازِمِه؛ دلَّ على أنَّهم لا يَبرَحون عنه، بقَولِه[2]:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

= التحيَّةُ أعمُّ؛ فكُلُّ سَلامٍ تحيَّةٌ، ثم أيضًا التحيَّةُ كما تكونُ بالقَولِ تكونُ بالفعلِ؛ ولهذا يُقالُ: حيَّاه بالتُّحَفِ وبطِيبِ المنزلِ، وما أشبَهَ ذلك. قولُه: ﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ يعني: أنَّهم يُلَقَّونَ بالتحيَّةِ قولًا، وبالسلامةِ بقاءً، يعني: يبقَونَ سالمينَ، وهذه المعاني ثابتةٌ بالنِّسبةِ لأهلِ الجنةِ؛ فإنَّهم يُحَيَّون بأنواعِ التحياتِ المَرْضيَّةِ المُفرِحةِ المسِرَّةِ، وكذلك أيضًا يَسلَمونَ من كلِّ الآفاتِ... يُحيِّي بعضُهم بعضًا، ويحَيِّيهم الله سبحانه وتعالى، وكذلك الملائكةُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٣٧).

أي: ماكِثينَ في الغُرَفِ، لا يموتونَ، ولا يُخرَجونَ منها[١].

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

أي: حَسُنَت تلك الغُرَفُ قرارًا لأهلِها، ومكانَ إقامةٍ لهم[٢].

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا استَوعبتِ السورةُ أغراضَ التَّنويهِ بالرِّسالةِ والقرآنِ، وما تضمَّنَتْه مِن توحيدِ اللهِ، ومِن صفةِ كبرياءِ المعانِدِين وتعلُّلَاتِهم، وأحوالِ المؤمنين، وأُقيمتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٥)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٤٦).

قال أبو منصور: (﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾): تأويلُه -واللهُ أعلم- أي: حَسُنت لهم الجنَّةُ مُستقَرًّا ومُقامًا؛ حتى لا يَمَلُّوا فيها ولا يَسْأموا، ولا تأخُذَهم الوحشةُ والكآبةُ؛ كنَعيمِ الدُّنيا يُمَلُّ ويُسأَمُ عندَ الكثرةِ وطُولِ المُقامِ). ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٧).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: حسُنت منظرًا، وطابت مَقِيلًا ومَنزِلًا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣).

وقال القاسمي: (﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾؛ لسَلامةِ أهلِها عن الآفاتِ، وخلودِهم أبَدَ الآبادِ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٤٦).

وقال ابن عثيمين: (المستَقَرُّ باعتِبارِ المكانِ، والمُقامُ باعتبارِ ما يحصُلُ لهم مِن النعيمِ والسرورِ والتحيَّةِ وغيرِ ذلك، تقولُ: مُقامي فيكم سرورٌ، أو مُقامي في هذا المكان حُزنٌ، أو ما أشبَهَ ذلك. ويمكنُ أيضًا أن يُقالَ: المقامُ بالنِّسبةِ للزمنِ، يعني: أنَّ الله أثنى عليها مكانًا وزمنًا، وكَوْنُنا نُحاوِلُ أن يكونَ بينَ اللفظينِ تغايرٌ أَولى مِن الترادُفِ؛ لأنَّنا إذا قُلْنا بالترادُفِ في هذا وغيرِه صار في المسألةِ تَكرارٌ، والأصلُ عدمُ التَّكرارِ؛ فحاوِلْ ما استطعْتَ أن تجعلَ اللَّفظينِ متغايرينِ إذا أمكَنَ في كلِّ آيةٍ في آياتِ القرآنِ، وغيرِ القرآنِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤١، ٣٤٢).

الحُجَجُ الدامغةُ للمعرِضِينَ؛ خُتِمَتْ بأمرِ اللهِ رسولَه عليه الصلاةُ والسلامُ أنْ يُخاطِبَ المشركينَ بكلمةٍ جامعةٍ يُزالُ بها غرورُهم وإعجابُهم بأنفُسِهم؛ فبَيَّنَ لهم حقارتَهم عندَ اللهِ تعالى، وأنَّه ما بَعَثَ إليهم رسولَه وخاطبَهم بكتابه إلَّا رحمةً منه بهم لإصلاحِ حالِهم، وقطعًا لعُذْرِهم، فإذا كذَّبوا فسوف يَحُلُّ بهم العذابُ(١).

وأيضًا لَمَّا كان اللهُ تعالى قد أضاف هؤلاءِ العِبادَ إلى رحمتِه، واختَصَّهم بعبوديَّتِه لِشرَفِهم وفَضلِهم؛ رُبَّما توهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّه: وأيضًا غيرُهم لِمَ لا يدخُلُ في العبوديَّةِ؟! فأخبَرَ تعالى أنَّه لا يُبالي ولا يَعبَأُ بغيرِ هؤلاء، وأنَّه لولا دعاؤُكم إيَّاه دُعاءَ العبادةِ ودُعاءَ المسألةِ، ما عبأَ بكم ولا أحَبَّكم، فقال(٢):

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمَن أُرسِلتَ إليهم: لولا دُعاؤُكم إيَّاه لَمَا بالى، ولا اكتَرَث بكم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٥، ٥٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٨) و (٢٧/ ٤٣٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

قال الشنقيطي: (العُلماءُ اختلَفوا في المصدَرِ في قَولِه: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾: هل هو مُضافٌ إلى فاعِلِه، أو إلى مَفعولِه، وعلى أنَّه مُضافٌ إلى فاعِلِه فالمخاطَبونَ بالآيةِ داعُونَ لا مَدْعُوُّونَ، أي: ما يَعبَأُ بكم ربِّي لولا دعاؤُكم، أي: عبادتُكم له. وأمَّا على أنَّ المصدرَ مُضافٌ إلى مَفعولِه فالمُخاطَبونَ بالآيةِ مَدْعُوُّونَ لا داعُونَ، أي: ما يَعبَأُ بكم لولا دعاؤُه إيَّاكم إلى توحيدِه وعبادتِه على ألْسِنَةِ رُسُلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨١). =

= وممَّن اختار أنَّ المصدرَ مُضافٌ إلى فاعِلِه، أي: لولا أنَّكم تَدْعونَه: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، وأبو السعود، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٥، ٥٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٨) و (٢٧/ ٤٣٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

قال الشنقيطي: (أشهَرُ الأقوالِ وأكثَرُها قائِلًا، وهو أنَّ المعنى: لولا دعاؤُكم، أي: عبادتُكم له وحْدَه ... واعلَمْ أنَّ قَولَ مَن قال: لولا دعاؤُكم، أي: دعاؤُكم إيَّاي لأغفِرَ لكم، وأُعطيَكم ما سألتُم: راجِعٌ إلى القَولِ الأوَّلِ؛ لأنَّ دُعاءَ المسألةِ داخِلٌ في العبادةِ، كما هو معلومٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨٣).

وقال ابنُ القيم في قولِه تعالى: ﴿دُعَآؤُكُمْ﴾: (المرادُ به نوعَا الدُّعاءِ، وهو في دُعاءِ العبادَةِ أظهرُ، أي: ما يَعْبَأُ بكم لولا أنَّكم تَعبدونه، وعِبادَتُه تَستلْزِمُ مسألَتَه؛ فالنَّوعانِ داخِلانِ فيه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٣). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٢).

وقال السعدي: (﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ إيَّاه دعاءَ العبادةِ، ودعاءَ المسألةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

وقال الشنقيطي: (وعلى هذا القولِ فالخِطابُ عامٌّ للكافرينَ والمؤمنينَ، ثُمَّ أفرَد الكافرينَ دونَ المؤمِنِينَ بقولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ...﴾ الآيةَ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨٢).

وذكَر الشنقيطي قولينِ آخَرينِ مبنيَّينِ أيضًا على كونِ المصدرِ مُضافًا إلى فاعِلِه:

الأول: أنَّ المعنَى: لولا دُعاؤُكم أيُّها الكفَّارُ له وحْدَه عندَ الشَّدائدِ والكروبِ، أي: ولو كنتُم تَرجِعونَ إلى شِرْكِكم، إذا كَشَف الضُّرَّ عنكم.

وممَّن اختار هذا المعنى، وهو أنَّ الخطابَ للمشركينَ، وأنَّ المرادَ دعاؤُهم عندَ الشدائدِ: جلال الدين المحليُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٥).

الثاني: أنَّ معنَى ﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي﴾، أي: ما يصنَعُ بعذابِكم، لولا دُعاؤُكم معه آلِهةً أُخرى.

وقال عن هذا القولِ الأخيرِ: (ولا يخفَى بُعْدُ هذا القولِ، وأنَّ فيه تقديرَ ما لا دليلَ عليه، ولا حاجةَ إليه). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨٢).

وقيل: إنَّ المصدرَ في قولِه: ﴿دُعَآؤُكُمْ﴾ مُضافٌ إلى مفعولِه، فالمخاطَبونَ بالآيةِ مَدعُوُّونَ، فالمعنى: ما يصنَعُ بكم ربِّي لولا دعاؤُه إيَّاكم إلى الإيمانِ به وتوحيدِه وعبادتِه. وممَّن قال =

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

أي: فقد كذَّبتُم -أيُّها المُشرِكونَ- بالحَقِّ، فسوف يكونُ العذابُ مُلازِمًا لكم في الدُّنيا والآخرةِ؛ جزاءَ تكذيبِكم[1].

= بذلك: الفرَّاءُ، وابنُ العربي، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٧٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨١ - ٨٥).

وقال البقاعي: (أي: أيُّها الكافِرون... ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي: نداؤُكم له في وقتِ شدائدِكم الذي أنتم تبادِرونَ إليه فيه؛ خضوعًا له به ليُنجيَكم، فإذا فعلتُم ذلك أنقَذكم مما أنتم فيه؛ معاملةً لكم معاملةَ مَن يبالي بالإنسانِ، ويعتدُّ به ويُراعيه، ولولا دعاؤُه إيَّاكم لتَعبُدوه؛ رحمةً لكم؛ لِتَزْكُوا أنفسُكم، وتَصْفوا أعمالُكم، ولا تكونوا حطبًا للنارِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٣٨).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٤، ٣٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٥، ٨٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٤).

قال ابن جُزي: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: سوف يكونُ العذابُ لِزامًا ثابتًا، وأضمَرَ العَذابَ، وهو اسمُ كان؛ لأنَّه جزاءُ التَّكذيبِ المتقَدِّم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧).

وقال البيضاوي: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يكونُ جزاءُ التَّكذيبِ لازِمًا يَحيقُ بكم لا محالةَ، أو أثَرُه لازِمًا بكم حتى يَكُبَّكم في النَّارِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢).

وقال ابنُ جرير: (يكونُ تَكذيبُكم رَسولَ رَبِّكم، وخِلافُكم أمرَ بارِئِكم: عَذابًا لكم مُلازِمًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٧).

وقال القرطبي: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: يكونُ تكذيبُكم مُلازِمًا لكم. والمعنى: فسوف يكونُ جزاءُ التَّكذيبِ... وحَسُنَ إضمارُ التكذيبِ؛ لتقَدُّمِ ذِكرِ فِعلِه؛ لأنَّك إذا ذكَرْتَ الفِعلَ دَلَّ بلَفظِه على مَصْدَرِه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٥).

وقال ابنُ جُزي: (واختُلِفَ: هل يُرادُ بالعَذابِ هنا القَتلُ يومَ بَدرٍ، أو عذابُ الآخرةِ؟). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧).

وقال القرطبي: (جمهورُ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ باللِّزامِ هنا: ما نَزَل بهم يومَ بَدرٍ، وهو قَولُ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ، وأُبَيِّ بنِ كَعبٍ، وأبي مالِكٍ، ومجاهِدٍ، ومُقاتِلٍ، وغَيرِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٥).

=

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: (خمسٌ قد مَضَيْنَ: الدُّخَانُ، والقَمَرُ، والرُّومُ، والبَطشةُ، واللِّزامُ[١] ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامٗا﴾)[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ ولم يَقُلْ: بالزُّورِ؛ لأنَّ ﴿يَشۡهَدُونَ﴾ بمعنى: «يَحضُرونَ»، فمدَحَهم على تَركِ حُضورِ مجالسِ الزُّورِ، فكيف بالتكَلُّم به وفِعلِه[٣]؟!

٢- لا يجوزُ الاستِماعُ إلى الكلامِ الفاحشِ؛ لأنَّ اللهَ وصَفَ عِبادَ الرحمنِ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾، فكلُّ شيءٍ حرامٍ لا تستمِعْ إليه، ولا تقرَأْه[٤].

٣- بعْدَما ذكَرَ تعالى مِن صِفاتِ عِبادِ الرَّحمنِ ما ذكَرَ، ذكَرَ استماعَهم للتَّذكيرِ،

= وقال ابنُ كثير: (﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامٗا﴾ أي: فسوف يكونُ تكذيبُكم لِزامًا لكم، يعني: مُقتَضِيًا لهلاكِكم وعَذابِكم ودَمارِكم في الدُّنيا والآخِرةِ، ويَدخُلُ في ذلك يومُ بَدرٍ، كما فَسَّره بذلك عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ، وأُبَيُّ بنُ كَعبٍ، ومحمَّدُ بنُ كَعبٍ القُرَظيُّ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وغيرُهم. وقال الحَسَنُ البَصريُّ: ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامٗا﴾ يعني: يومَ القيامةِ. ولا مُنافاةَ بَينَهما). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٤).

(١) الدُّخانُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الدخان: ١٠].

والقَمَرُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

والرُّومُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢].

والبَطْشةُ: المشارُ إليها في قَولِه جَلَّ وعَلَا: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [الدخان: ١٦]، وهو القَتلُ يومَ بَدرٍ.

واللِّزامُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: (﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامٗا﴾). قيل: يَدخُلُ في ذلك يومُ بَدرٍ. وقيل: يعني: يَومَ القيامةِ؛ لأنَّه لتحقُّقِ وقوعِه عُدَّ ماضيًا. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٧٧).

(٢) رواه البخاري (٤٧٦٧) واللفظ له، ومسلم (٢٧٩٨).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٦٨).

فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾؛ تنبيهًا على أنَّ التَّذكيرَ مُحتاجٌ إليه في كلِّ حالٍ، فإذا كان الموصوفونَ بتلك الصِّفاتِ يَحتاجون إليه فغيرُهم أَولى؛ وذلك لأنَّ الغفلةَ مِن طَبْعِ الإنسانِ، ودوامُ الغفلةِ صدَأُ القلوبِ، وصِقالُها هو التَّذكيرُ[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ كما تُقْبَلُ كلمةُ الحقِّ مِن كلِّ قائلٍ، كذلك يُقْبَلُ التذكيرُ مِن كلِّ مُذَكِّرٍ، ولو كان المذكَّرُ مِن أكملِ العِبادِ، والمذكِّرُ مِن أوساطِهم أو أدناهم، وفي عِبادِ الرحمنِ المذكورِينَ؛ في استِماعِهم إذا ذُكِّروا مِن أيِّ مُذَكِّرٍ: القدوةُ الحسنةُ[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ فيه تقبيحٌ لعدَمِ التفهُّمِ والتدبُّرِ للآياتِ، وتحذيرٌ منه، وتنبيهٌ على أنَّ الانتِفاعَ بالقرآنِ الذي تتفتَّحُ به البصائرُ، وتتَّسِعُ به المدارِكُ، وتتهذَّبُ به الأخلاقُ، وتتزَّكى به النفوسُ، وتتقوَّمُ به الأعمالُ، وتستقيمُ به الأحوالُ: إنَّما يكونُ بتفهُّمِه وتدَبُّرِه، دونَ مجردِ الانكبابِ عليه بلا تَفَهُّمٍ ولا تدبُّرٍ[٣]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ سؤالُ العبدِ مِن ربِّه أن يَهَبَ له مِن الزَّوجِ والذرِّيَّةِ ما تَقَرُّ به عَيْنُه، وهذا يقتضي سَعْيَه بقَدْرِ استِطاعتِه لتحصيلِ ذلك فيهما؛ لِيَقومَ بالسَّببينِ المشروعينِ مِن السعيِ والدعاءِ؛ فعليه أنْ يختارَ ويجتهِدَ عندما يريدُ التزوُّجَ، وأنْ يَقصِدَ إلى ذاتِ الدِّينِ، وفي اختيارِه واجتهادِه في جانبِ الزوجةِ سَعْيٌ في اختيارِ الولدِ؛ فإنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٥).

الزوجةَ الصالحةَ شأنُها أن تُربِّيَ أولادَها على الخَيرِ والصَّلاحِ، ثمَّ عليه أنْ يقومَ بتعليمِ زوجِه وأولادِه، وتهذيبِهم وإرشادِهم، فيكونَ قد قام بما عليه في الابتِداءِ والاستِمرارِ، مع دوامِ التضرُّعِ إلى اللهِ تعالى والابتهالِ[١].

٧- قال عكرمةُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾: (لم يُريدوا بذلك صباحةً ولا جمالًا، ولكنْ أرادوا أن يكونوا مُطيعينَ)[٢].

وقال الحسنُ في هذه الآيةِ: (واللهِ ما شيءٌ أحبَّ إلى المرءِ المسلمِ مِن أنْ يرَى ولدًا أو والدًا أو حميمًا أو أخًا مُطيعًا للهِ عزَّ وجلَّ)[٣].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ طَلَبُ الرُّتَبِ العُليا في الخَيرِ والكمالِ، والسَّبْقُ إليها، والتقدُّمُ فيها: هو ممَّا يَدْعونا إليه اللهُ، ويُرَغِّبُنا بمِثلِ هذه الآيةِ فيه، كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]؛ لأنَّ طَلَبَ الكمالِ كمالٌ، ولأنَّ مَن كانت غايتُه الرُّتَبَ العليا إنْ لم يَصِلْ إلى أعلاها لم يَنحَطَّ عن أدناها، وإنْ لم يُساوِ أهلَها لم يَبْعُدْ عنها، ومَن لم يَطْلُبِ الكمالَ بقِيَ في النقصِ، ومَن لم تكن له غايةٌ ساميةٌ قَصَّرَ في السَّعيِ، وتوانَى في العملِ؛ فالمؤمنُ يَطلُبُ أسمَى الغاياتِ، حتى إذا لم يَصِلْ لم يَبْعُدْ، وحتى يكونَ في مَظِنَّةِ الوصولِ بصحَّةِ القصدِ، وصِدْقِ النِّيَّةِ[٤].

٩- هذا الدعاءُ ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ يتضمَّنُ ثلاثةَ أمورٍ: العِلمَ، والتَّقوى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٨).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٨٤).

(٣) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦/ ٤٠٢) (٨٦٦٨)، ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٨).

والتأثيرَ؛ لأنَّ مَن لم يكُنْ عالِمًا لم يكُنْ قُدوةً، ومن لم يكُنْ مُتَّقيًا لم يكُنْ قدوةً، ومَن لم يكُنْ مؤثِّرًا لم يكُنْ قُدوةً أيضًا، والتأثيرُ بالقولِ والفعلِ له دَورٌ كبيرٌ، تَجِدُ مثَلًا رجُلينِ مُتقارِبينِ في العِلمِ، لكنْ أحدُهما يَصرِفُ اللهُ القلوبَ إليه فيَتَّخِذونه قُدوةً، والآخَرُ لا يحصُلُ له هذا الأمرُ؛ فلهذا نقولُ: نَزيدُ على العِلمِ والتَّقوى التأثيرَ، والتأثيرُ -كما هو معروفٌ- يكونُ سببُه قوَّةَ البيانِ والفصاحة، إذا كان التأثيرُ بالقولِ، ويكونُ سببُه أيضًا الاستِقامةَ وحُسْنَ السُّلوكِ إذا كان تأثيرًا بالفعلِ. وعلى كلِّ حالٍ فلا تتِمُّ الإمامةُ إلَّا بهذه الأمورِ الثَّلاثةِ: العِلمِ، والتَّقوى، والتَّأثيرِ بالقولِ أو بالفعل[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ دَلالةٌ على السَّببِ الذي أفضَى بهم إلى هذا الجزاءِ العظيمِ، وهو أعمالُهم، ودَلالةٌ على السببِ الذي تَمَكَّنوا به مِن القيامِ بهذه الأعمالِ، وهو الصَّبرُ، فلا يَنهَضُ بامتِثالِ المأموراتِ وترْكِ المنهيَّاتِ إلَّا مَن صَبَرَ، والصبرُ خُلُقٌ مِن الأخلاقِ التي تتربَّى وتنمو بالمِرانِ والدَّوامِ؛ فواجبٌ على المكلَّفِ أنْ يَجعَلَ تربيةَ نَفْسِه عليه وتعويدَها به مِن أكبرِ هَمِّه؛ إذْ لا يقومُ بالتكاليفِ الشرعيةِ إلَّا به، بل ولا يستطيعُ الحياةَ في هذه الدارِ الدُّنيا الموضوعةِ على المحنةِ والابتلاءِ إلَّا إذا تمسَّك بسببِه[2].

١١- قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴾ لَمَّا ذَكَرَ سبحانَه في الآياتِ المتقَدِّمةِ صفاتِهم وأعمالَهم؛ ذَكَر ما أَعَدَّ لهم مِن عظيمِ الجزاءِ على تلك الأعمالِ؛ تنبيهًا على ما وَضَعَه تعالى -بمشيئتِه وحكمتِه ورحمتِه- مِن الارتباطِ بيْن هذه الأعمالِ وهذا الجزاءِ، وإفضائِها إليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٢).

إفضاءَ السببِ لمسبَّبِه؛ لِيَسعَى الراجونَ لهذا الجزاءِ مِن طريقِ هذه الصفاتِ وهذه الأعمالِ، كما يُسعَى لسائرِ المسَبَّباتِ مِن طريقِ أسبابِها، وتُؤتَى جميعُ الأمورِ مِن أبوابِها، وفي هذا حَثٌّ لأهلِ هذه الأعمالِ على التمسُّكِ بما هم به عامِلون، وتنبيهٌ لأهلِ الغرورِ على بُطلانِ ما هم به مُغترُّون، والكَيِّسُ مَن دانَ نَفْسَه وعَمِلَ لِمَا بعْدَ الموتِ، والعاجزُ مَن أتبَعَ نَفْسَه هواها، وتمنَّى على اللهِ الأمانيَّ[1].

١٢- قد أفادت الآياتُ السَّابقةُ كَمالَ حالِ عِبادِ الرَّحمنِ في نفوسِهم وعُقولِهم، وأخلاقِهم وأعمالِهم، وأفادت عظيمَ مَنزلتِهم عندَ ربِّهم، ورفيعَ ما أعَدَّ لهم مِن درجاتِهم؛ جزاءً على صالحاتِهم وحَسَناتِهم، وجاءتْ هذه الآيةُ ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾ لِتُفيدَ أنَّ ذلك المقامَ العظيمَ -الذي كان عندَ ربِّهم- إنَّما هو بسبَبِ عبادتِهم، وتُعلِنَ للنَّاسِ أنَّ عبادتَهم هي الشَّيءُ الوحيدُ الذي يكونُ لهم به قدْرٌ وقيمةٌ عندَ ربِّهم، وبدونها لا يكونُ لهم وزنٌ عندَ خالقِهم، ولا يكونون شيئًا يُبالى به، وأنَّ مَن كَذَّبَ وخَلَعَ بتكذيبِه رِبقةَ العبادةِ، فقد حَقَّتْ عليه كلمةُ العذابِ، وهو واقعٌ به لا محالةَ[2].

١٣- قال الله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ﴾، قد بُيِّنَ لك الطريقُ الذي يُوصِلُك إلى مولاك، ويُرقيك في مراتبِ كمالِك وعُلاك، وما هو إلَّا عبادةُ ربِّك، فكُنْ عبدًا له في اختيارِك واضْطِرارِك، وفي جميعِ أحوالِك، واحذَرْ أنْ تعتمدَ على شَيءٍ غَيرِ عبادتِه، واحذَرْ أنْ تتوجَّهَ بشَيءٍ مِن عبادتِك لغيرِه، ومِن عبادتِك -بل هو أصلُ عبادتِك- دعاؤُك وسؤالُك واستِغاثتُك؛ فإيَّاك إيَّاك أنْ تتوجَّهَ منه بشَيءٍ لغيرِه، فكُنْ دائمًا عبدًا للهِ، وكُنْ دائمًا عبدًا له

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٣).

وحْدَه؛ فذلك حَقُّه عليك، وذلك هو السببُ الوحيدُ الذي يُنجيك ويُعليك[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ فيه ثَناءٌ على المؤْمنينَ بمقاطَعةِ المشركينَ وتَجنُّبِهم[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم لا يَقصِدون حُضورَه ولا سماعَه، ولكنْ عندَ المصادَفةِ -التي مِن غيرِ قصدٍ- يُكرِمون أنفُسَهم عنه[٣].

٣- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ ما أحسَنَ اقترانَ هذا الوصفِ مع قَولِه: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾! لا يَختلِطُ جِدُّهم بهَزْلٍ، وحقُّهم بباطِلٍ، فإذا اعتَراهُمُ الهَزْلُ تَنزَّهوا عنه كلَّ تَنزُّهٍ، وإذا اشتَغَلوا بالحقِّ لا يَحومُ الباطلُ حَوْلَه[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ الدُّعاءُ بصَلاحِ الزَّوجاتِ والأولادِ والذريَّةِ[٥].

٥- قد فُطِرَ الإنسانُ على محبَّتِه لنفْسِه؛ لِتَحمِلَه هذه الفِطرةُ على المُحافظةِ عليها، والدِّفاعِ عنها، وتكميلِها بكلِّ وُجوهِ الكَمالِ، وكان مِن مُقْتضى هذه المحبَّةِ رغْبتُه في الوجودِ والبقاءِ، وممَّا هو قوَّةٌ في وُجودِه ومُظهِرٌ لبقائِه: أنْ يَرى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

النَّاسَ على فِكْرِه وصِفاتِه وأحوالِه؛ فيَرى نفْسَه مُمثَّلةً في غيرِه، وأفكارَه وصِفاتِه وأحوالَه باقيَّةً ببقاءِ النَّاسِ؛ فالخيرُ الكاملُ مِن طبْعِه، ومِن مُقْتضى فِطرتِه أنَّه يُحِبُّ انتشارَ الخيرِ والكمالِ في النَّاسِ. والشِّرِّيرُ النَّاقصُ مِن طبْعِه، ومِن مُقْتضى فِطرتِه أنَّه يُحِبُّ انتشارَ الشَّرِّ والنَّقصِ فيهم؛ فلذا كان لازمًا لتَتميمِ وصْفِ عِبادِ الرَّحمنِ ذِكْرُ محبَّتِهم الخيرَ والكمالَ لغَيرِهم، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾.

وقد تخفَى عليك دخيلةُ نَفْسِ الإنسانِ، فيُمكِنُك أن تَعْرِفَها بما يجري به لسانُه؛ فإذا جَرَتْ كلماتُه بمحبَّةِ انتشارِ الخَيرِ والكمالِ فهو مِن أهلِهما، وإذا جَرَتْ بالضِّدِّ فهو على الضِّدِّ؛ فما يُحِبُّ الإنسانُ انتشارَه هو الدليلُ على صِفاتِ نَفْسِه، وهو ميزانٌ تَزِنُه به في الشَّرِّ والخَيرِ، والنَّقصِ والكمالِ[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ ﴾ فيه جوازُ الدُّعاءِ بالولدِ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ ﴾ أنَّ التزوُّجَ وطَلَبَ النَّسْلِ هو السُّنَّةُ؛ سُنَّةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وسُنَّةُ أصحابِه عليهم الرِّضوانُ، وسُنَّةُ عِبادِ الرحمنِ، وليس مِن شريعتِه الحنيفيَّةِ السَّمْحةِ الرَّهبانيَّةُ والتَّبَتُّلُ، وقد رأى قومٌ مِن الزهَّادِ رُجحانَ الانقِطاعِ إلى العبادةِ على التزوُّجِ، والاشتغالِ بالسَّعيِ على الزوجِ والذريَّةِ، فردَّ عليهم أئمَّةُ الدِّينِ والفتوى بأنَّ في التزوُّجِ اتِّباعًا للسُّنَّةِ، وفي السَّعيِ على الأهل ما هو مِن أعظَمِ العبادةِ، وفي التزوُّجِ تكثيرَ سَوادِ الأمَّةِ والمدافعينَ عن المِلَّة والقائمينَ بمصالحِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٢).

الدِّينِ والدنيا، وفي هذا ما فيه مِن الأجرِ والمثوبةِ، وفي التبتُّلِ مخالفةَ السنَّةِ، وانقِطاعَ النسلِ، وضَعفَ الأمَّةِ، وتعطيلَ المصالحِ، وخرابَ العُمرانِ، وكفَى بهذا كلِّه شرًّا وفَسادًا[١]!

٨- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ ما تقَرُّ به الأعينُ يحصُلُ به الفرَحُ والسرورُ؛ فالفرَحُ والسرورُ بما هو خيرٌ وطاعةٌ، مِن حيثُ إنَّه نعمةٌ مِن اللهِ وفَضلٌ: محمودٌ ومَشروعٌ[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ حُجَّةٌ على أنَّ فِعلَ العبدِ مخلوقٌ للهِ تعالى؛ لأنَّ الإمامةَ في الدِّينِ لا تكونُ إلَّا بالعلمِ والعمَلِ، فدلَّ على أنَّ العِلمَ والعمَلَ إنَّما يكونان بجَعلِ اللهِ تعالى وخَلقِه[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ دليلٌ على أنَّ حُبَّ المنزلةِ الرَّفيعةِ والإشارة به إلى مُحِبِّهِ في الدِّينِ، ليس بمُنكَرٍ إذا أحبَّه المُحِبُّ جلالةً للإسلامِ، وظُهورًا لنعمةِ اللهِ عليه فيه، بل هو طاعةٌ؛ إذْ قد أثنى اللهُ على طالِبيه فيما دَعَوه به، كما ترى[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ دَليلٌ على فضيلةِ الإمامةِ في الدِّينِ، ومنها إمامةُ المساجِدِ؛ فإنَّ الإمامَ في المسجدِ إمامٌ للمتَّقينَ؛ لأنَّ الذين يأتون للصَّلاةِ متَّقونَ إنْ شاء اللهُ، فهو إمامٌ لهم، فيدُلُّ ذلك على فَضيلةِ تولِّي الإمامةِ في المساجِدِ، وفَضلُ الإمامةِ في المساجِدِ مَعلومٌ، ولو لم يكُنْ منها إلَّا أنَّ الإنسانَ يكونُ قُدوةً، وأنَّ الإمامةَ تُعينُه على أداءِ الصَّلاةِ، فالإمامُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥١٨).

لا تفوتُه الصَّلاةُ كُلَّ يَومٍ، وغيرُه تفوتُه أو يفوتُه بعضُها، كذلك الإمامُ إذا تكَلَّم يُسمَعُ له أكثَرَ، وكم مِن إنسانٍ ما برَز وظهرَ إلَّا بسبَبِ إمامتِه، لا سيَّما إذا تولَّى الخَطابةَ(١).

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ مِن الدِّينِ الاقتداءُ بأهلِ العلمِ والعمَلِ والاستقامةِ في الهَدْيِ والسَّمتِ(٢).

١٣- قال الله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ لا يكونُ الإمامُ إلَّا تقيًّا فاق غيرَه في التقوى(٣).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أنَّ اقتداءَ المتَّقين بأئمَّتِهم إنَّما هو في التقوى؛ لأنَّهم ما كانوا أئمةً إلَّا بها، فالآيةُ أفادتْ أنَّ المتَّقين يَقتدون بأئمَّتِهم، وأنَّ أئمَّتَهم متَّقون مِثْلَهم، وأكمَلُ منهم تَقوى، وأنَّ اقتداءَهم بهم في التقوى لا في غيرِها، فمَن حاد عنها فلا إمامةَ له(٤).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ كمالُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه لا يَعبَأُ بأحَدٍ مِن خلقِه مهما كَثُروا عَددًا وعُدَّةً(٥).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ﴾ عِظَمُ فضيلةِ الدُّعاءِ(٦).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ﴾ أنَّ الدُّعاءَ مانِعٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٦).

(٦) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

مِن العُقوبةِ[١]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

١٨- الأمنُ مِن عذابِ اللهِ وحُصولُ السَّعادةِ إنَّما هو بطاعتِه تعالى؛ لِقَولِه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي: لو لم تَدْعُوه كما أمَرَ فتُطيعوه فتَعبُدوه وتُطيعوا رسُلَه؛ فإنَّه لا يَعبأُ بكم شَيئًا[٢].

١٩- قَولُه تعالى: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ، وفيه أيضًا إثباتُ الموانِعِ لِمَا انعقَدَ سبَبُه، وإثباتُ الأسبابِ لِمَا لم يوجَدْ حتَّى يكونَ[٣].

٢٠- قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ لَمَّا كانت مقاديرُ العِبادِ عندَ ربِّهم بحسَبِ عبادتِهم، فالأنبياءُ عليهم السلامُ أعلى النَّاسِ منزلةً عندَ اللهِ؛ فهم أعظمُهم عبادةً للهِ، وهم أتقاهم له، وأشدُّهم خشيةً منه[٤].

٢١- قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ في قَولِه: ﴿لِزَامًا﴾ تنبيهٌ على ضَعفِهم وعَجزِهم، وذُلِّهم وقَهرِهم؛ لأنَّ الملزومَ لا يكونُ إلَّا كذلك، فأَسْرُهم يومَ بدرٍ مِن أفرادِ هذا التَّهديدِ؛ فقد انطبقَ آخِرُ السُّورةِ على أوَّلِها بالإنذارِ بالفُرقانِ لِمَن أنكَرَ حقيقةَ الرَّحمنِ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٣٩).

- قولُه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ إذا فُسِّر قولُه: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ بأنَّهم يَنفِرون عن مَحاضرِ الكذَّابينَ والخَطَّائينَ، على أنَّ ﴿يَشْهَدُونَ﴾ بمعنى يَحضُرون؛ كانت كالتَّتميمِ له، وإذا فُسِّر بأنَّهم لا يَشهَدونَ شَهادةَ الزُّورِ كانت كالتَّكميلِ له، ويجوزُ أن يكونَ تَتميمًا على تفسيرِ ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾: لم تُسفِّهْهُم المعاصي؛ لأنَّ مَن وقَفَ مواقفَ السُّفهاءِ سُفِّهَ، ويكونُ قدْحًا في عدالتِه[1]؛ فمِن بلاغةِ القرآنِ: أنْ تأتِيَ مِثلُ هذه الآياتِ بوُجوهٍ مِن الاحتمالاتِ مُتناسِباتٍ غيرَ مُتناقضاتٍ؛ فتكونَ الآيةُ الواحدةُ بتلك الاحتمالاتِ كأنَّها آياتٌ، فهذه الآيةُ باحتمالِها معنيينِ -الَّذين لا يَحضُرون مجالِسَ الزُّورِ، أو الَّذين لا يَشهَدُون شَهادةَ الزُّورِ ولا يُخبِرون إلَّا بالحقِّ الواقعِ- مُفيدةٌ تنزُّهَهم عن شُهودِ الباطلِ، وعن شَهادتِه[2].

- قولُه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ مَعنَى المُرورِ باللَّغوِ: المرورُ بأصحابِه اللَّاغينَ في حالِ لَغْوِهم؛ فجُعِل المرورُ بنَفْسِ اللَّغوِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ أصحابَ اللَّغوِ مُتلبِّسونَ به وقتَ المُرورِ[3]، وقدْ أخبَرَ هنا أنَّهم لا يَقِفون عندَ اللَّغوِ عندما يَمُرُّون عليه؛ تَرَقِّيًا في وصْفِهم بالبُعدِ عن الباطلِ والإثمِ والعبثِ، ومُجانبةِ أهْلِه[4]. وتَخصيصُ المرورِ بالذِّكرِ؛ للإيذانِ بأنَّ ذلك دأبُهم وعادتُهم[5].

- وإعادةُ فِعلِ ﴿مَرُّوا﴾؛ لبِناءِ الحالِ عليه، وذلك مِن مَحاسنِ الاستِعمالِ[6].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٩، ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٢).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٩).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾

- قولُه: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، أي: أكَبُّوا عليها سامِعينَ بآذانٍ واعيةٍ، مُبصِرينَ ناظِرينَ لها بعُيونٍ راعيةٍ؛ وإنما عَبَّر عن ذلك بنَفيِ الضِّدِّ تَعريضًا بما يَفعَلُه الكفرةُ والمُنافِقون[١].

- قولُه: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ عبَّر بـ (إذا)؛ لأنَّ التَّذكيرَ ممَّا هو واقعٌ مُحقَّقٌ كالَّذي يُسمَعُ مِن القرآنِ في الصَّلاةِ، ومِن الخُطَبِ في الجُمَعِ[٢].

- قولُه: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ بُنِيَ الفِعلُ للمُفعولِ، ولم يُبيِّنِ المُذكِّرَ (الفاعِل)؛ إشارةً إلى أنَّهم يَقْبَلون الحقَّ لأنَّه حقٌّ، لا مِن أجْلِ مَن قال به، فهُم لا يَقبَلون التَّذكيرَ لأجْلِ شَخصِ المُذكِّرِ، أو يَرُدُّونه مِن أجْلِ شخصِ المُذكِّرِ، وإنَّما يَقبَلونه لأنَّه تَذكيرٌ؛ لأنَّ التذكيرَ بالآياتِ يَجِبُ قَبولُه مِن أيِّ مُذكِّرٍ كانَ، وهذه هي الفائدةُ في حَذْفِ الفاعلِ[٣].

- قولُه: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أُريدَ تمييزُ المؤْمنينَ بمُخالَفةِ حالةٍ هي مِن حالاتِ المشركينَ، وتلك هي حالةُ سماعِهم دَعوةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وما تَشتمِلُ عليه مِن آياتِ القُرآنِ، وطلَبِ النَّظرِ في دَلائلِ الوَحدانيَّةِ؛ فلذلك جيءَ بالصِّلةِ مَنفيَّةً لتحصيلِ الثَّناءِ عليهم، مع التَّعريضِ بتَفظيعِ حالِ المُشركينَ؛ فإنَّ المُشرِكينَ إذا ذُكِّروا بآياتِ اللهِ خَرُّوا صُمًّا وعُمْيانًا، كحالِ مَن لا يُحِبُّ أن يرَى شيئًا فيَجعَل وجْهَه على الأرضِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٠).

- قولُه: ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ حالانِ مِن ضَميرِ ﴿يَخِرُّوا﴾، مرادٌ بهما التَّشبيهُ بحذْفِ حرْفِ التَّشبيهِ، أي: يَخِرُّون كالصُّمِّ والعُميانِ في عدَمِ الانتِفاعِ بالمَسموعِ مِنَ الآياتِ، والمُبصَرِ منها، ممَّا يُذَكَّرونَ به؛ فالنَّفيُ -على هذا- مُنصَبٌّ إلى الفِعلِ وإلى قَيْدِه، وهو استِعمالٌ كثيرٌ في الكلام. وقيل غيرُ ذلك[١].

- وفيها تَنديدٌ وتَقريعٌ للكافِرينَ؛ لأنَّهم صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ؛ لا يَتجاوَزُ آذانَهم ما يَسمَعون، ولا يَنتفِعونَ بما يَقرؤون، ولا يَعتَبِرون بما يُشاهِدون[٢].

- وقَيَّده بهاتينِ الحاسَّتينِ؛ لأنَّهما الوسيلةُ إلى وُصولِ الشَّيءِ إلى القلبِ؛ إذ الأشياءُ إمَّا مرئيَّةٌ فوسيلتُها النظَرُ، وإمَّا مسموعةٌ فوسيلتُها السَّمعُ، فنفَى أن يكونوا صُمًّا، ونفَى أن يكونوا عُميانًا[٣].

- قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ صِفةٌ سلبيَّةٌ، ولم يَقُلْ: (إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم أَقبَلوا عليها مُبصِرينَ سامِعينَ)، معَ أنَّ الصِّفاتِ الثبوتيَّةَ أبلَغُ في الثَّناءِ؛ وذلك لأنَّ هذه السورةَ مِن أوَّلِها إلى آخِرِها في مُجادَلةِ المُنكِرينَ لِمَا جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهم إذا كانوا مُنكِرين فإنَّهم يَخِرُّون على الآياتِ صُمًّا وعُميانًا، فهذا -واللهُ أعلمُ- وجْهُ المناسبةِ في العُدولِ عن ذِكْرِ الصِّفةِ الثبوتيَّةِ إلى ذِكْرِ الصِّفةِ السَّلبيَّةِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٣).

- إعادةُ المَوصولِ في المواقعِ السَّبعةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا ...﴾ مع كِفايةِ ذِكرِ الصِّلاتِ بطَريقِ العَطفِ على صِلَةِ المَوصولِ الأوَّلِ؛ للإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدٍ ممَّا ذُكِر في حَيِّزِ صِلَةِ المَوصولاتِ المذكورةِ وصْفٌ جليلٌ على حِيالِه، له شأنٌ خطيرٌ، حَقيقٌ بأنْ يُفرَدَ له مَوصوفٌ مُستقِلٌّ، ولا يُجعلَ شَيءٌ مِن ذلكَ تَتِمَّةً لغَيرِه. وتَوسيطُ العاطفِ بيْن المَوصولاتِ؛ لتَنزيلِ اختِلافِ الصِّفاتِ مَنزلةَ اختِلافِ الذَّواتِ[1]، وتَنبيهًا على أنَّ كلَّ واحدةٍ منها تَستقِلُّ بالقَصدِ؛ لعِظَمِ خطَرِها، وكِبَرِ أثَرِها[2].

- قولُه: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾، أي: هَبْ لنا أزواجًا وذُرِّيَّاتٍ مُطيعِينَ لك، ولَمَّا كانت طاعتُهم سببًا لسُرورِهم؛ وُضِع المُسبَّبُ مَوضَعَ السَّببِ للمُبالَغةِ، وأنَّ المطلوبَ الأوَّليَّ بالأولادِ طاعةُ اللهِ، وجُعِل هذا الدُّعاءُ مِن جُملةِ صِفاتِ الكَمَلةِ مِنَ المؤْمنينَ؛ للدَّلالةِ على عِظَمِ منزلةِ مَن يَطلُبُ النِّكاحَ لذلك، وهذا بالنِّسبةِ إلى الدَّاعي، فكيف بمَن يتَّصِفُ بذلك[3]؟

- و(مِنْ) في قَولِه: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِنَا﴾ يحتمِلُ أن تكونَ بَيانيَّةً، كأنَّه قيل: هَبْ لنا قُرَّةَ أعْيُنٍ، ثمَّ بُيِّنَتِ القُرَّةُ وفُسِّرَتْ بقَولِه: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾. ومعناه: أنْ يَجعَلَهمُ اللهُ لهم قُرَّةَ أَعْيُنٍ، وهو مِن قَولِهم: رأيتُ منك أَسَدًا، أي: أنتَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠١).

أَسَدٌ. وأن تكونَ ابتِدائيَّةً، على معنَى: هَبْ لنا مِن جِهَتِهم ما تَقَرُّ به عُيونُنا مِن طاعةٍ وصلاحٍ[(١)].

- وقدَّمَ الأزواجَ على الذُّرِّيَّةِ؛ لأنَّهم أَلْصَقُ، ولأنَّهم الأصلُ[(٢)].

- وقولُه: ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ تَركيبٌ كِنائيٌّ؛ فإذا كانتِ القُرَّةُ مِن (القُرِّ) فهي كِنايةٌ عن السُّرورِ؛ لأنَّ العَيْنَ في حالةِ السُّرورِ باردةٌ، وإذا سالَتْ منها دُموعٌ في حالةِ الفرحِ كانت باردةً؛ فقُرَّةُ أعينِهم على هذا كِنايةٌ عن سُرورِهم بأزواجِهم وذُرِّيَّتِهم، بما هم عليه مِن الخَيرِ والكمالِ، وإعانتِهم لهم عليهما. وإذا كانت القُرَّةُ مِن القُرورِ، فهي كِنايةٌ عن سُكونِ النَّفْسِ بحُصولِها على ما يُرْضِيها مِن الأزواجِ والذُّرِّيَّةِ[(٣)].

- في قولِه تعالى: ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ نُكتَتانِ؛ الأُولى: التَّنكيرُ، وإنَّما جُنِح إليه لأجْلِ تَنكيرِ القُرَّةِ، والمُضافُ لا يُمكِنُ تَنكيرُه إلَّا بتَنكيرِ المُضافِ إليه؛ لِيَكونَ السُّرورُ غَيرَ مُتَناهٍ ولا محدودٍ. وإنَّما قَلَّل الأعْيُنَ -أي: جُمِع جَمْعَ القِلَّةِ-؛ لأنَّ أَعْيُنَ المُتَّقينَ قِلَّةٌ بالإضافةِ إلى غَيرِهم، يدُلُّ على ذلك قَولُه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[(٤)] [سبأ: ١٣]. وهناك وجْهٌ آخَرُ لعلَّه أَبلَغُ ممَّا تَقدَّمَ، وهو أنَّ المَحكيَّ كلامُ كلِّ أحدٍ مِنَ المُتَّقينَ، فكأنَّه قال: يَقولُ كلُّ واحدٍ مِنَ المُتَّقينَ: اجعَلْ لنا مِن ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ؛ فإنَّ المتَّقينَ وإنْ كانوا بالإضافةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥١).

إلى غَيرِهم قليلًا فإنَّهم في أنفُسِهم على كَثرةٍ مِنَ العددِ، والمُعتبَرُ في إطلاقِ جَمعِ القِلَّةِ أن يكونَ المجموعُ قليلًا في نفْسِه، لا بالنِّسبةِ والإضافةِ[١].

- قولُه: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ كالتَّكميلِ للدُّعاءِ، أي: اجعَلْنا كامِلينَ في أنفُسِنا، ومُكمِّلينَ لغَيرِنا، وفي جَعلِ المُقتدينَ مُتَّقِينَ إشارةٌ إلى عُلُوِّ درجةِ الإمامِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الإمامُ هو المُتَّبَعُ المُقتَدَى به، وأُفرِدَ (إمامًا)؛ إمَّا اكتِفاءً بالواحدِ عنِ الجَمعِ، ويدُلُّ على الجنسِ ولا لَبْسَ، وإمَّا لأنَّه مَصدَرٌ في أصْلِه، وإمَّا لأنَّ المعنى: واجعَلْ كلَّ واحدٍ منَّا إمامًا، وإمَّا لاتِّحادِهم واتِّفاقِ كَلِمَتِهم قالوا: واجعَلْنا إمامًا واحدًا، وقيل غيرُ ذلك. وحَسَّنَ الإفرادَ مِن جِهةِ اللَّفظِ: وُقوعُه فاصلةً على وَزنِ ما قَبْلَها وما بَعْدَها. ومِن جِهةِ المعنى: أنَّ أئمَّةَ الهُدَى كنَفْسٍ واحدةٍ؛ لاتِّحادِ طَريقِهم بالسَّيرِ على الصِّراطِ المستقيمِ، واتِّحادِ وِجهتِهم بالقَصدِ إلى اللهِ تعالى وحْدَه[٣].

- ومَدارُ الكُلِّ صُدورُ هذا الدُّعاءِ إمَّا عنِ الكُلِّ بطريقِ المَعيَّةِ وأنَّه محالٌ؛ لاستِحالةِ اجتِماعِهم في عصرٍ واحدٍ، فما ظَنُّك باجتِماعِهم في مجلسٍ واحدٍ، واتِّفاقِهم على كلمةٍ واحدةٍ؟! وإمَّا عنْ كلِّ واحدٍ منهُم بطريقِ تَشريكِ غَيرِه في استِدعاءِ الإمامةِ، وأنَّه ليس بثابتٍ جَزْمًا، بلِ الظَّاهرُ صُدورُه عنهم بطريقِ الانفِرادِ، وأنَّ عِبارةَ كلِّ واحدٍ منهم عِندَ الدُّعاءِ: (واجعَلْني للمتَّقينَ إمامًا)،

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٣، ١٣٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٣)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٦).

خَلَا أنَّه حُكيَتْ عِباراتُ الكلِّ بصيغةِ المُتكلِّم مع الغَيرِ؛ للقَصدِ إلى الإيجازِ، على طريقةِ قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[1] [المؤمنون: ٥١].

٤- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المتَّصفينَ بما فُصِّل في حينِ صِلَةِ المَوصولاتِ الثَّمانيةِ من حيثُ اتِّصافُهم به. وفيه دَلالةٌ على أنَّهم مُتميِّزونَ بذلك أكمَلَ تَميُّزٍ، مُنتَظِمونَ بسببِه في سِلكِ الأمورِ المُشاهَدةِ، وما فيه مِن معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الفضلِ. والجملةُ مُستأنَفةٌ مُبيِّنةٌ لِما لهُم في الآخرةِ مِنَ السَّعادةِ الأبَديَّةِ، إثْرَ بَيانِ ما لهُم في الدُّنيا مِنَ الأعمالِ السَّنِيَّةِ[2].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ التَّصديرُ باسمِ الإشارةِ للتَّنبيهِ على أنَّ ما يَرِدُ بعْدَه كانوا أَحْرياءَ به؛ لأجْلِ ما ذُكِر قبلَ اسمِ الإشارةِ من صِفاتٍ[3].

- جُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ...﴾ مُستأنَفةٌ؛ فإنَّ تلك الصِّفاتِ والأعمالَ تُشوِّقُ السَّامعَ إلى معرفةِ مآلِهم، وثمرةِ أعمالِهم، فيَسأَلُ عنهما؛ فكانت الجُملةُ جوابًا لذلك السُّؤالِ المُقدَّرِ[4].

- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ يدُلُّ على أنَّهم يُجْزَون غُرفةً واحدةً، وقد جاءتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خِلافِ ذلك؛ كقَولِه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤١).

تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠]، وكقَولِه: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

والجوابُ: أنَّ الغُرفةَ هنا بمعنَى الغُرَفِ؛ اسمُ جِنسٍ أُريدَ به الجَمْعُ. وقيل: إنَّ المرادَ بالغُرفةِ الدَّرجةُ العُلْيا في الجنَّةِ؛ وعليه فلا إشكالَ. وقيل: الغُرفةُ الجنَّةُ؛ سُمِّيَتْ غُرفةً لارتِفاعِها[(١)].

- قولُه: ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ لم يؤْتَ بمُتعَلِّقِ ﴿صَبَرُوا۟﴾؛ لئلَّا يُقتصَرَ عليه، فيَتناوَلُ كلَّ مَصبورٍ عليه إلى أن يُحاطَ به[(٢)]، ولِيَعُمَّ جميعَ أنواعِ المشاقِّ[(٣)].

- فإنْ قيل: قد تَقرَّرَ أنَّ اسمَ الإشارةِ إذا عُقِّب به مَن أَجرى عليه الأوصافَ دَلَّ على أنَّ المَذكورَ قَبْلَه جَديرٌ بما بعْدَه لأجْلِ تلك الأوصافِ الجاريةِ عليه، فإذَنِ السَّببُ في أنَّهم يُجْزَونَ الغُرفةَ تلك الأوصافُ الَّتي أُجريَتْ على عِبادِ الرَّحمنِ، فكان مِن حقِّ الظَّاهرِ أنْ يُجاءَ بدَلَ ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾: بما فَعَلوا؛ كِنايةً عن تلك المَذكوراتِ بأسْرِها، فما فائدةُ العُدولِ؟

فالجوابُ: الإيذانُ بأنَّ مِلاكَ العِباداتِ الصَّبرُ، وأنَّ حَبْسَ النَّفْسِ على طاعةِ اللهِ هي الطَّلِبةُ، وقَطْعَها عن مُشتَهياتِها هي المَرامُ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٤)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٥٧٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٤).

- قولُه: ﴿يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاءَ قَولُه: ﴿ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ مُفرَدًا، وجاء في سورةِ (سبأ) بالجَمعِ: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]؛ وفائدةُ العُدولِ في هذا المَقامِ إلى المُفرَدِ ﴿يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ فلاتِّحادِ تَرتُّبِ الحُكمِ على الأوصافِ المُشترَكةِ، بخِلافِه في (سبأ)؛ فإنَّه مُرتَّبٌ على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ مُطْلقًا. ولا ارتيابَ في التَّفاوُتِ في الأعمالِ، فناسَبَ الجَمعُ؛ ليَتفاوَتَ الجزاءُ بحسَبِ العامِلينَ. وأمَّا على قراءةِ الإفرادِ في سورةِ (سبأ)[1] فيُقالُ: إنَّ المرادَ مِنَ الإفرادِ الجِنسُ؛ ليتوافَقَ القِراءتانِ. ويُمكِنُ أن يُقالَ: القَرينةُ هي إثباتُ الغُرفةِ الواحدةِ للجَماعةِ[2].

- قولُه تعالى: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾، جُمِع بيْن التَّحيَّةِ والسَّلامِ، مع أنَّهما بمعنًى؛ لقَولِه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾ [الأحزاب: ٤٤]؛ لأنَّ المُرادَ هنا بالتَّحيَّةِ: سَلامُ بعضِهم على بعضٍ، أو سلامُ الملائكةِ، وبالسَّلامِ: سلامُ اللهِ عليهم؛ لقَولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨]، أو المرادُ بالتَّحيَّةِ: إكرامُ اللهِ لهم بالهَدايا والتُّحَفِ، وبالسَّلامِ: سَلامُه عليهم بالقَولِ. ولو سُلِّمَ أنَّهما بمعنًى، فساغَ الجَمْعُ بيْنَهما؛ لاختِلافِهما لفظًا[3].

٥- قولُه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾

- جُملةُ ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ مُستأنَفةٌ بَيانيَّةٌ؛ لأنَّ مَن عرَفَ حالتَهم مِن الحياةِ والسَّلامةِ والبقاءِ يَتشَوَّفُ لمعرفةِ حالِ مكانِ هذه الحياةِ السَّالمةِ

(١) قرأ بالإفرادِ حمزةُ، والباقون بالجمعِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥١).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٤).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٦).

الباقيةِ، فيَسأَلُ عنه؛ فوقعَتْ جُملةُ ﴿حَسُنَتْ﴾ موقعَ الجوابِ عن هذا السُّؤالِ المُقدَّرِ. وهي إنشائيَّةٌ أفادتْ إنشاءَ مدْحِ الغُرفِ بالحُسنِ، وتَعظيمِ ذلك الحُسنِ[١].

- وقدَّمَ المُستقَرَّ؛ لأنَّ أوَّلَ الحُلولِ استِقرارٌ، والمُقامَ ببَقاءِ الاستِقرارِ واستِمرارِ المُكثِ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾

- قولُه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ (ما) يَجوزُ أن تكونَ استفهاميَّةً فيها معنَى النَّفيِ، كأنَّه قيل: وأيُّ عبءٍ يَعبَأُ بكم لولا دُعاؤُكم؟! ويجوزُ أن تكونَ نافيةً[٣]، وتَركيبُ: ما يَعبَأُ به، يدُلُّ على التَّحقيرِ، وضِدُّه (عَبَأَ به) يُفيدُ الحَفاوةَ. فأصلُ ﴿مَا يَعْبَؤُا۟﴾: ما يَحمِلُ عِبْئًا؛ تمثيلًا بحالةِ المُتعَبِ مِنَ الشَّيءِ، فصار المقصودُ: ما يَهتَمُّ وما يَكتَرِثُ، وهو كِنايةٌ عن قِلَّةِ العنايةِ[٤].

- وجَوابُ ﴿لَوْلَا﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ ما تقدَّمَ، وتقديرُ الكلامِ: لولا دُعاؤُكم ما عبَأَ بكم. وجُملةُ ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ واقعةٌ موقعَ التَّعليلِ لكلامٍ مُقدَّرٍ تَقديرُه -واللهُ أعلَمُ-: لا يَعبَأُ بكم فقد كذَّبْتم، أي: لأنَّكم قد كذَّبْتم، فالفاءُ تَعليليَّةٌ. وأمَّا جُملةُ ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ فمُتَسبِّبةٌ عمَّا قبْلَها؛ فالفاءُ فيها سَببيَّةٌ. وضَميرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٥).

﴿يَكُونُ﴾ عائدٌ على العذابِ المفهومِ مِن المقامِ[١].

- وفائدةُ قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ الإيذانُ بأنَّ مَناطَ فَوزِ أحدِهما، وخُسرانِ الآخَرِ -مع الاتِّحادِ الجِنسيِّ المُصحِّحِ للاشتِراكِ في الفَوزِ- ليس إلَّا اختلافَهما في الأعمالِ[٢]. وأيضًا فيه تهديدٌ للمُشركينَ[٣].

- وحُذِفَ مُتعلِّقُ الدُّعاءِ؛ لظُهورِه مِن قَولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾، أي: الدَّاعيَ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤]، وذلك على أنَّ الدُّعاءَ المرادُ به: الدعوةُ إلى الإسلامِ.

- قولُه: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ تُرِكَ اسمُ كان غَيرَ مَنطوقٍ به بعْدَما عُلِم أنَّه ممَّا تُوعِّدَ به؛ للإيذانِ بغايةِ ظُهورِه، وتَهويلِ أمْرِه، وللتَّنبيهِ على أنَّه ممَّا لا يَكتنِهُه البيانُ، كما تَقولُ للجاني: قد فعلْتَ كذا فسوف تَتحمَّلُ ما فعلْتَ[٥].

- واللِّزامُ: مَصدَرُ لازَمَ، وقد صِيغَ على زِنَةِ المُفاعَلةِ لإفادةِ اللُّزومِ، أي: عدَمِ المُفارَقةِ؛ فالإخبارُ باللِّزامِ مِن بابِ الإخبارِ بالمَصدرِ للمُبالَغةِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ بيْنَ المُكذِّبينَ والعذابِ مُلازَمةً مِن الطَّرفينِ: فهُم بتَكذيبِهم قد ألْزَموا أنفُسَهم العذابَ، فلازَمَهم العذابُ. وقد اجتَمَع فيه مُبالَغتانِ: مُبالَغةٌ في صيغتِه تُفيدُ قوَّةَ لُزومِه، ومُبالَغةٌ في الإخبارِ به تُفيدُ تَحقيقَ ثُبوتِ الوَصفِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٦، ٨٧)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٤).

- وهذه الخاتمةُ ناظرةٌ إلى الفاتحةِ، أي: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، المعنى: قد أَنذَرَ وبالَغَ فيه، وبيَّن بالآياتِ الظَّاهرةِ، والبَراهينِ الباهِرةِ، تَصريحًا وتَعريضًا: أنَّ الحكمةَ في الإيجادِ مَعرفةُ الخالِقِ وعبادتُه؛ أمَّا تَصريحًا ففي قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وأمَّا تَعريضًا ففي عَدِّ فضائِلِ المؤْمنينَ، وإذا أَعلَمَكُم رَسولي أنَّ حُكْمي ذلك، وأنِّي لا أعتَدُّ بعِبادي إلَّا بعِبادتِهم، فقد خالَفْتُم أنتُم بتكذيبِكم كِتابي ورَسولي حِكمتي في الإيجادِ، فسوف يَلزَمُكُم أثَرُ تَكذيبِكُم، وهو الاستِئصالُ يَومَ بَدْرٍ، والعذابُ السَّرْمَدُ في النَّارِ يَومَ القِيامةِ[1].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ العِشرونَ

ويليه المجلدُ الحادي والعِشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سُورةِ الشُّعَراءِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٨).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ الفُرقانِ..... ٧
أسماءُ السُّورةِ:..... ٧
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:..... ٨
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:..... ٨
مَقاصِدُ السُّورةِ:..... ٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ:..... ٩
الآيات (١-٣) ١١
غَريبُ الكَلِماتِ:..... ١١
المعنى الإجماليُّ:..... ١٢
تَفسيرُ الآياتِ:..... ١٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:..... ١٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:..... ٢٠
بلاغةُ الآياتِ:..... ٢٨
الآيات (٤-٦) ٣٩
غَريبُ الكَلِماتِ:..... ٣٩
المعنى الإجماليُّ:..... ٤٠
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٤١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:..... ٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:..... ٤٦
بلاغةُ الآياتِ:..... ٤٧
الآيات (٧-١٠)..... ٥٣

غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٣
المعنى الإجماليُّ: ٥٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٤
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٠
بلاغةُ الآياتِ: ٦٣
الآيات (١١-١٦) ٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٧
المعنى الإجماليُّ: ٦٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٣
بلاغةُ الآياتِ: ٧٦
الآيات (١٧-١٩) ٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٨٤
المعنى الإجماليُّ: ٨٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٩١
بلاغةُ الآياتِ: ٩٣
الآيات (٢٠-٢٤) ١٠١
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٠١
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٠٢
المعنى الإجماليُّ: ١٠٣
تَفسيرُ الآياتِ: ١٠٣

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١١٦
بلاغةُ الآياتِ: ١٢٠
الآيات (٢٥-٢٩) ١٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٢٩
المعنى الإجماليُّ: ١٢٩
تَفسيرُ الآياتِ: ١٣٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٤٠
بلاغةُ الآياتِ: ١٤٢
الآيات (٣٠-٣٤) ١٤٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٤٩
المعنى الإجماليُّ: ١٥٠
تَفسيرُ الآياتِ: ١٥١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٦٢
بلاغةُ الآياتِ: ١٦٨
الآيات (٣٥-٤٠) ١٧٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٧٧
المعنى الإجماليُّ: ١٧٩
تَفسيرُ الآياتِ: ١٧٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٨٧
بلاغةُ الآياتِ: ١٨٩

الآيات (٤١-٤٤) ١٩٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٩٧
المعنى الإجماليُّ: ١٩٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٩٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٠٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ: ٢٠٦
بلاغةُ الآياتِ: ٢١٠
الآيات (٤٥-٥٤) ٢١٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢١٨
المعنى الإجماليُّ: ٢٢١
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٢٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٤٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ: ٢٤٥
بلاغةُ الآياتِ: ٢٥٣
الآيات (٥٥-٦٢) ٢٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٧٢
المعنى الإجماليُّ: ٢٧٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٩٤
بلاغةُ الآياتِ: ٢٩٩
الآيات (٦٣-٦٧) ٣١٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣١٢
المعنى الإجماليُّ: ٣١٣

تَفسيرُ الآياتِ: ٣١٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٢٩
بلاغةُ الآياتِ: ٣٣١
الآيات (٦٨-٧١) ٣٣٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٣٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٣٩
المعنى الإجماليُّ: ٣٤٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٤٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٥٣
بلاغةُ الآياتِ: ٣٥٨
الآيات (٧٢-٧٧) ٣٦٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٦٤
المعنى الإجماليُّ: ٣٦٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٨٧
بلاغةُ الآياتِ: ٣٩١
الفهرس ٤٠٦

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

٣٥ درس

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الشعراء

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الحادي والعشرون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الشعراء)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر للقرآن الكريم: المجلد الحادي والعشرون: سورة الشعراء/

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٢ هـ

٤٠٠ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٤-٨٥-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣٢ ١٤٤٢/٨١٢

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٨١٢

ردمك: ٤-٨٥-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ – ٢٠٢١ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣ / فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الشعراء)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الحادي والعشرون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ
سُورَةِ الشُّعَراءِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الشُّعَراءِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السورةُ بسُورةِ (الشُّعَراءِ)[١].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الشُّعراءِ مكِّيَّةٌ[٢].

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ المقاصدِ التي تَضمَّنَتها سورةُ الشُّعراءِ:

١- التَّنويهُ بالقرآنِ الكريمِ، والتَّعريضُ بعَجزِ المشركينَ عن مُعارَضتِه[٣].

٢- تَسليةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا يُلاقيه مِن إعراضِ قَومِه[٤].

---

(١) سُمِّيت سورةَ الشعراءِ؛ لأنَّها تفرَّدت من بينِ سور القرآنِ بذكرِ كَلمةِ الشعراء، فاختُتِمت بذِكرِهم في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٩).

وقد ورَدتْ تسميتُها بذلك في بعضِ الآثارِ عن ابنِ عبَّاسٍ وابنِ الزُّبَيرِ رضي الله عنهم. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٨٨).

(٢) القولُ بأنَّها مكيةٌ كلها نسَبه ابنُ عطيةَ إلى جمهورِ الناسِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٤).

وقيل: السورةُ مكيةٌ غيرَ آيتينِ، فإنَّهما مدنيَّتانِ: قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ ...﴾ الآيةَ، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ...﴾.

وقيل: مكيَّةٌ إلَّا أربعَ آياتٍ منها نزَلْت بالمدينةِ، من قَولِه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] إلى آخِرِها. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٦٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبِقَاعي (١٤/ ١).

(٤) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٤). =

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ الموضوعاتِ التي تناولَتها سورةُ الشُّعراءِ:

١- بيانُ سموِّ منزلةِ القرآنِ، وذكرُ موقفِ المشركينَ مِن الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتسليتُه عمَّا يُلاقيه مِن إعراضٍ منهم.

٢- ذِكرُ جُملةٍ مِن خَبَرِ الرسُلِ مع أقوامِهم وما لاقَوه منهم.

٣- ذكرُ جانبٍ مِن قِصَّةِ نبيِّ الله موسى وأخيه هارونَ عليهما السلامُ، معَ فرعونَ، وقصةِ السَّحَرةِ، وما آلَ إليه الأمرُ مِن غرقِ فرعونَ وجنودِه، ونجاةِ موسَى عليه السلامُ ومَن معه.

٤- ذكرُ جانبٍ مِن دعوةِ نبيِّ الله إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأبيه وقومِه.

= قال الطِّيبي: (إذا أمعَنْتَ النظرَ فيما اشتمَلَتْ عليه هذه السُّورةُ الكريمةُ، وجدْتَه نازلًا تَسليةً لقلْبِ الحبيبِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه مِن تَكذيبِ القومِ إيَّاهُ، والطَّعنِ فيما أُنزِلَ إليه، والاستهزاءِ به؛ ألَا ترَى كيف ذيَّلَ كلَّ قصَّةٍ مِن القَصَصِ المذكورةِ فيها بقولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وجُعِلَ كالتَّخلُّصِ إلى قصَّةٍ أُخرى، وكالمُهتمِّ بشأْنِه، فيَرجِعُ إليه إذا وجَدَ له مَجالًا، يعني: لا تتحسَّرْ على إصرارِهم على الكُفرِ، وتَكذيبِهم ما أنزَلْنا عليك؛ إنَّ ربَّك عزيزٌ يَنتقِمُ منهم، ويَرحَمُ عليك بأنْ يُقدِّرَ لك مَن يُؤمِنُ بك إنْ لم يُؤمِنْ هؤلاء. ومِن ثَمَّ قرَنَ معه وقدَّمَ عليه كلَّ مرَّةٍ قولَه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾...، يعني: لك التَّأسِّي بربِّك مع كِبريائِه وجَلالِه، وبالأنبياءِ عليهم السَّلامُ السَّالفةِ؛ ولذلك بدَأَ سُبحانه وتعالى بأمْرِ نفْسِه، وذكَرَ أنَّه تعالى أنزَلَ عليهم دليلَ السَّمعِ، فأعْرَضوا وكذَّبوا واسْتَهْزؤوا، ونصَبَ لهم الدَّلائلَ الظَّاهرةَ، وأراهم آياتٍ يَفتَحُ بها أعيُنَهم: مِن إنباتِ كلِّ صِنْفٍ بهيجٍ، وما الْتَفَتوا ولا رفَعوا له رأْسًا، ثمَّ فصَلَ ذلك بتلك الفاصلةِ، وقرَنَها بتلك القرينةِ، وثنَّى بقصَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ، وختَمَها أيضًا بتلك الفاصلةِ والقرينةِ، وثلَّثَ بقصَّةِ الخليلِ عليه السَّلامُ وختَمَها بهما، وهلُمَّ جرًّا، إلى آخرِ السُّورةِ...، كأنَّ التَّنزيلَ بجُملتِه نازلٌ لِتَسكينِ بادرتِه، وتَسلِّي حُزنِه، وتَثبيتِ خَلَدِه، ورِباطةِ جأْشِه، وتَهذيبِ أخلاقِه، وإرشادِ أُمَّتِه). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣١٧، ٣١٨).

٥- ذكرُ جانبٍ مِن قِصَّةِ نبيِّ الله نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ودعوتِه قَومَه، وما آلَ إليه الأمرُ مِن إغراقِ المكَذِّبينَ، وتنجيةِ المؤمنينَ.

٦- ذكرُ قِصَّةِ نبيِّ الله هودٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ودعوتِه لقومِه؛ وبيانُ العاقبةِ التي انتهَى إليها المكَذِّبون منهم.

٧- ذكرُ قِصَّةِ نبيِّ الله صالحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ودعوتِه لِقَومِه، وما ترتَّب على عَقرِهم الناقةَ مِن نزولِ العذابِ بهم.

٨- ذكرُ قِصَّةِ نبيِّ الله لوطٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ودعوتِه لِقَومِه، وما حصل منهم مِن إعراضٍ، فنجَّاه اللهُ منهم وأهلَكَهم.

٩- ذكرُ قِصَّةِ نبيِّ الله شُعَيبٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع قَومِه، وما لَحِقهم مِن العذابِ جرَّاءَ تكذيبِهم.

١٠- التنويهُ بنزولِ القُرآنِ الكريمِ، وشهادةُ أهلِ الكتابِ له، وأنَّه مُنزَّهٌ عن أن يكونَ شِعرًا أو مِن أقوالِ الشياطينِ، وأمرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإنذارِ عَشيرتِه، وبيانُ أنَّ العَذابَ مُنقَلَبُ الذين يَظلِمون.

الآيات (١-٩)

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ۝٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَٰخِعٞ﴾: أي: قاتِلٌ، قيل: البَخْعُ: أن يبلُغَ بالذَّبحِ البِخاعَ، وهو عِرقٌ مستبطِنُ القَفا، وذلك أقصَى حدِّ الذَّبحِ[(١)]، وأصلُ (بخع): يدُلُّ على القَتلِ[(٢)].

﴿خَٰضِعِينَ﴾: أي: ذَليلينَ، وأصلُ (خضع): يدُلُّ على تَطامُنٍ في الشَّيءِ[(٣)].

﴿مُحۡدَثٍ﴾: أي: مُجَدَّدٍ إنزالُه، وأصلُ (حدث): يدُلُّ على كَونِ الشَّيءِ بعدَ أنْ

---

(١) قال ابنُ الأثير: (ذَكَره [أي الزمخشري] في كتابِ الفائقِ فِي غريبِ الحديثِ، وكتابِ الكشَّافِ في تفسيرِ القرآنِ، ولم أجدْه لغيرِه وطالما بحثْتُ عنه في كتب اللُّغةِ والطِّبِّ والتَّشريحِ فلم أجدِ البخاعَ -بالباءِ- مذكورًا في شيءٍ منها). ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) (١/ ١٠٢). وأجاب عن ذلك الألوسي وابنُ عاشورٍ بأنَّ الزمخشريَّ ثقةٌ في هذا البابِ واسعُ الاطلاعِ، حجةٌ فيما أثبتَه من ذلك. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦).

لم يكُنْ[١].

﴿زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾: أي: صِنفٍ ونوعٍ حسنٍ، وكلُّ شيءٍ شرُف في بابِه فإنَّه يُوصَفُ بالكرمِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأت السُّورةُ بالحُروفِ المقطَّعةِ، التي تُبيِّنُ إعجازَ القرآنِ؛ وتُبرزُ عجزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بالإتيانِ بشيءٍ مِن مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثون بها!

ثمَّ قال الله تعالى: تلك آياتُ القُرآنِ الواضِحِ، المُظهرِ للحَقِّ.

ثمَّ خاطَب الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بما يُسلِّيه عن تكذيبِ المشركينَ له، فقال: لعلَّك -يا محمَّدُ- مُهلِكٌ نفْسَك غمًّا وأسَفًا؛ بسَبَبِ تَكذيبِ الكافرينَ لك، وعَدَمِ إيمانِهم بدَعوتِك، إنْ نَشَأْ ننزِّلْ على هؤلاء المُشرِكين مُعجِزةً ظاهِرةً مِن السَّماءِ تُلجِئُهم إلى الإيمانِ، فيَنقادوا للحَقِّ مقهورين.

ثمَّ بيَّن سبحانَه ما عليه هؤلاءِ الكافرونَ مِن عنادٍ وجحودٍ، وبيَّن سوءَ عاقبتِهم، فقال: كُلَّما جاءهم قُرآنٌ مُحدَثٌ تَنزيلُه عليك -أيُّها الرَّسولُ- أعرَضوا عنه فلم يُؤمِنوا به، فقد كذَّب هؤلاء الكُفَّارُ بالقُرآنِ الذي جاءهم مِن عندِ الله، فسيأتيهم عاقِبةُ ما كذَّبوا واستَهزؤوا به.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٢)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٨٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٢٨)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٨٥، ٧٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٧١).

ثمَّ وبَّخهم سبحانَه على غفلتِهم عن التفكُّرِ في هذا الكونِ، فقال: أوَلم يَرَ أولئك المُشركون إلى ما أنبَتْنا في الأرضِ مِن الأصنافِ الكثيرةِ الكريمةِ الطيِّبةِ النَّافعةِ، إنَّ في ذلك لَدَلالةً على كَمالِ قُدرةِ الله تعالى، وما كان أكثَرُ هؤلاء المُشركين مُؤمِنينَ، وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- لهو الغالِبُ القاهِرُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الواسِعُ الرَّحمةِ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعُقوبتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿طسٓمٓ ١﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها[1].

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾.

أي: تلك آياتُ القرآنِ البَيِّنِ، الواضِحِ صِدقُه، المُظهِرِ ببَيانِه ما فيه مِن الهُدى والحَقِّ[2].

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى أنَّه بيَّن الأمورَ قال بعْدَه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقَاعي (١٤/ ١-٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٤-١٧).

منبِّهًا بذلك على أنَّ الكتابَ وإنْ بلَغَ في البيانِ كلَّ غايةٍ فغيرُ مُدخِلٍ لهم في الإيمانِ؛ لِمَا أنَّه سبَقَ حُكْمُ اللهِ بخِلافِه، فلا تُبالغْ في الحزنِ والأسَفِ على ذلك؛ لأنَّك إنْ بالَغْتَ فيه كنتَ بمنزلةِ مَن يَقتُلُ نفْسَه ثمَّ لا يَنتفعُ بذلك أصلًا، فصَبَّرَه وعَزَّاهُ وعرَّفَه أنَّ غَمَّه وحزنَه لا نفعَ فيه، كما أنَّ وُجودَ الكِتابِ على بيانِه ووُضوحِه لا نفعَ لهم فيه[١].

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾.

أي: لعلَّك[٢] -يا محمَّدُ- مُهلِكٌ نفْسَك غمًّا وأسَفًا؛ لعَدَمِ إيمانِ قَومِك بما جِئتَهم به مِن الحَقِّ، فلا تُهلِكْ نفْسَك بحُزنِك عليهم؛ فما عليك إلَّا البلاغُ، واللهُ يَهدي مَن يشاءُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٩٠).

(٢) قال ابن عطية: (وخُوطِب بـ «لعل» على ما في نفوسِ البشَرِ مِن توقُّعِ الهلاكِ في مِثلِ تلك الحالِ، ومعنى الآيةِ أي: لا تهتَمَّ -يا محمَّدُ- بهم، وبلِّغْ رسالتَك، وما عليك مِن إيمانِهم؛ فإنَّ ذلك بيدِ الله، لو شاء لآمَنوا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٤).

وقال ابن عاشور: (و«لعَلَّ» إذا جاءت في ترجِّي الشيءِ المَخُوفِ سُمِّيت إشفاقًا وتوقُّعًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٣).

وقال ابن عثيمين: («لعلَّ»... هنا للإشفاقِ، مثلُ أن تقولَ: «لعلَّ الحبيبَ هالكٌ»، فلا يمكِنُ أن يكونَ قَصدُك ترجِّيَ أن يَهلِكَ حَبيبُك، لكِنَّك تُشفِقُ. واللهُ تعالى أشفقَ على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أن يُهلِكَ نفْسَه -يقتُلها مِن الغَمِّ- بسببِ عدَمِ إيمانِهم، والرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُعاني مِن عدمِ إيمانِهم، ومِن المشقَّةِ الشَّديدةِ، ويَحزَنُ، ويَضيقُ صَدرُه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩).

وقال البِقاعي: (فكان كأنَّه قيل: هذا الكتابُ في غايةِ البيانِ في نفْسِه والإبانةِ للغيرِ، و... أنَّه ليس عليك إلَّا البلاغُ، أتخافُ وتُشفِقُ على نفْسِك من الهلاك غمًّا؛ تأسفًا على عدمِ إيمانِهم، =

كما قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [لقمان: ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨].

﴿ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤ ﴾.

أي: لو شِئْنا لأنزَلْنا على هؤلاءِ الكُفَّارِ مُعجزةً ظاهِرةً مِن السَّماءِ تَضطرُّهم إلى الإيمانِ، فينقادوا للحَقِّ قَهرًا، ولكِنْ أراد اللهُ بحكمتِه أن يكونَ إيمانُ كُلِّ أحدٍ اختياريًّا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠].

﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ٥ ﴾.

أي: وإذا أتى الكُفَّارَ قُرآنٌ حَديثُ النُّزولِ مِن الرَّحمنِ؛ لِيَتذكَّروا ويتَّعِظوا

= والحالُ أنَّا لو شئنا لهديناهم طَوعًا أو كَرهًا، والظَّاهِرُ أنَّ جملةَ الإشفاقِ في موضِعِ حالٍ مِن اسمِ الإشارةِ، كما أنَّ الآية التي بعْدَها في موضعِ الحالِ منها، أي: نحن نشيرُ إلى الآياتِ المبيِّنةِ لمُرادِنا فيهم، والحالُ أنَّك -لمزيدِ حِرصِك على نفعِهم- بحالٍ يُشفِقُ فيها عليك مَن لا يعلَمُ الغَيبَ مِن أن تقتُلَ نفْسَك غمًّا لإبائِهم الإيمانَ، والحالُ أنَّا لو شِئْنا أتَيْناهم بما يَقهَرُهم ويُذِلُّهم للإيمانِ وغيرِه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٥، ٩٦).

ويتَّبِعوه، أعرَضوا عنه، فلم يُؤمِنوا به ولم يتدَبَّروه[١]!

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

أي: فقد كذَّب الكُفَّارُ بالقُرآنِ الذي جاءهم مِن عندِ اللهِ، فسيأتيهم في المُستقبَلِ صِدقُ أخبارِ القُرآنِ الذي استَهزؤوا به؛ من هَلاكِهم، ونَصرِ اللهِ نَبيَّه، والبَعثِ في الآخرةِ، ودُخولِهم النَّارَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٦، ٦٧].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان إعراضُهم عن الإيمانِ باللهِ الخالقِ لهذا الوجودِ، وتكذيبُ ما جاءَتْهم به رسُلُه؛ مِن أعظمِ الكفرِ، وكانوا يجعلونَ الأصنامَ آلهةً؛ نَبَّهَ تعالى على قدرتِه، وأنَّه الخالقُ المنشئُ الذي يَستحِقُّ العبادةَ، فقال تعالى[٣]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٥، ٩٦).

قال ابن عثيمين: (وهذا الإعراضُ معنويٌّ وحِسيٌّ، يشملُ الأمْرين؛ فهم مُعرِضون وإن حَضَروا بأبدانهم، ومُعرِضون أيضًا بأبدانِهم يقومون عنه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]، فهم معرضون -والعياذُ باللهِ- في قلوبهم وأبدانِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٠)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيميَّة (١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤١).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

أي: أولم يَرَ[1] أولئك المُشركون إلى الأرضِ، فيتفكَّروا في كثرةِ ما أنبَتْنا فيها مِن الأصنافِ الطيِّبةِ الحَسَنةِ النَّافعةِ[2]؟!

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان ما سبَقَ باهرًا للعَقلِ، مُنَبِّهًا له في كلِّ حالٍ على عَظيمِ اقتِدارِ صانِعِه، وبَديعِ اختيارِه؛ وصَلَ به قولَه[3]:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

أي: إنَّ في إحياءِ الأرضِ وإنباتِها بعدَ مَوتِها لَدَلالةً على قُدرةِ اللهِ على إحياءِ

---

(١) قال ابنُ عثيمين: (تحتَمِل المعنيَين؛ الرؤيةَ الحِسِّيةَ: إذا نظَر بعَينِه هو. والعِلميَّةَ: إذا عَلِمَ بذلك مِن غيرِه؛ لأنَّ هناك أشياءَ لا نعلَمُها ممَّا يَنبتُ في الأرض، يعني: لا نراها ولكِنَّنا نُخبَرُ بها، فالأولَى أن يقال: إنه شامِلٌ للنظرِ بالعَينِ، والنظَرِ بالقلبِ الذي هو العِلمُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٢).

ممَّن اختار أنَّ المعنَى: أوَ لم يَنظُروا: السمرقنديُّ، والكرماني، والبيضاوي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٨٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير الشوكاني (٤/ ١١٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٦١).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ نبَّه على عظَمتِه وقدرتِه، وأنَّهم لو رأوا بقلوبِهم، ونظَروا ببصائرِهم لعَلِموا أنَّه الذي يَستحقُّ أنْ يُعبَدَ؛ إذ هو القادرُ على كلِّ شيءٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠، ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١).

الموتى[١].

كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٦].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: وما أكثَرُ هؤلاء المُشركين بمؤمنينَ باللهِ تعالى وآياتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩).

قال البقاعي: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرِ العَظيمِ مِن الإنباتِ، وما تقَدَّمَه مِن العِظاتِ على كثرتِه ﴿لَآيَةً﴾ أي: عَلامةً عظيمةً جدًّا لهم على تمامِ القُدرةِ على البَعثِ وغَيرِه، كافيةً في الدعاءِ إلى الإيمانِ، والزَّجرِ عن الطُّغيانِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٦).

قال ابن عثيمين: (قال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فلا ينتَفِعُ بالآيةِ إلَّا المؤمِنُ، فإذا لم ينتفعْ بها أحدٌ ما صارت بالنسبةِ إليه آيةً؛ ولهذا قيَّدَها بقَولِه: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: لا ينتَفِعونَ بها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٥).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

أي: وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- لهُو القويُّ الغالِبُ، القاهِرُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعِقابِه، ويقبَلُ تَوبةَ مَن آمَنَ به، وينَجِّي أولياءَه مِن عَذابِه[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

لا يَنبغي أنْ نَجزَعَ إذا ذكَّرْنا إنسانًا ووجَدْناه يُعانِدُ أو يُخاصِمُ أو يقولُ: «أنا أعمَلُ ما شئتُ» أو ما أشبهَ ذلك؛ قال الله تعالى لنبيِّه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ لا تُهْلِكْ نفسَك إذا لم يؤمِنوا؛ إيمانُهم لهم، وكُفرُهم ليس عليك[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ﴾ دليلٌ على إثباتِ الحِكمةِ؛ لأنَّ اللهَ لم يُنَزِّلْ هذه الآيةَ؛ لأنَّه لو أنزَلها لكان الإيمانُ اضطراريًّا، والإيمانُ الاضطراريُّ لا مَدحَ فيه ولا ثناءَ، بل لا يَنفَعُ صاحبَه؛ فلهذا إذا آمَنَ الإنسانُ عندَ ملاقاةِ الموتِ ما نفعَه، وبعدَ طلوعِ الشَّمسِ مِن مغربِها ما نفعَه! نعم، لا يَنفَعُ إلَّا إذا كان الإيمانُ اختياريًّا، ولَمَّا نَتَقَ اللهُ الجبلَ فوقَ بني إسرائيلَ آمَنوا، ولكنَّ هذا الإيمانَ لا شَكَّ أنَّه ضعيفٌ؛ لأنَّه إيمانٌ اضطراريٌّ، فمِنْ حكمةِ اللهِ سبحانه وتعالى أنَّه لم يُنَزِّلْ هذه الآيةَ ليَكونَ الإيمانُ عن اختيارٍ، لا عن اضطرارٍ[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٤).

إنْ قيل: لِماذا لم يُرِهم آيةً كما أُرِيَ بنو إسرائيلَ نَتْقَ الجبَلِ فوقَهم كأنَّه ظُلَّةٌ؟

الجواب: كان بنو إسرائيلَ مُؤمِنينَ بموسى وما جاء به، فلم يكنْ إظهارُ الآياتِ لهم لإلجائِهم على الإيمانِ، ولكِنَّه كان لزيادةِ تثبيتِهم، كما قال إبراهيمُ عليه السلامُ: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[(١)] [البقرة: ٢٦٠].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ الأسبابَ مؤثِّرةٌ؛ لأنَّه إذا نزلَتِ الآيةُ خَضَعوا، وهذا دليلٌ على ثبوتِ الأسبابِ وأنَّها مؤثِّرةٌ[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أنَّه تعالى وصَفَ الكُفَّارَ بالإعراضِ أوَّلًا، وبالتَّكذيبِ ثانيًا، وبالاستِهزاءِ ثالثًا؛ وهذه درجاتُ مَن أخذَ يترقَّى في الشَّقاوةِ؛ فإنَّه يُعرِضُ أولًا، ثم يُصَرِّحُ بالتَّكذيبِ والإنكارِ إلى حيثُ يَستهزئُ به ثالثًا[(٣)].

٥- قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أنواعُ النَّباتِ المذكورةُ في هذه الآيةِ دالَّةٌ على وَحدانيَّةِ اللهِ؛ لأنَّ هذا الصُّنعَ الحَكيمَ لا يَصدُرُ إلَّا عن واحدٍ لا شريكَ له. وهذا دَليلٌ مِن طريقِ العقْلِ، ودليلٌ أيضًا على إمكانِ البعثِ؛ لأنَّ الإنباتَ بعدَ الجَفافِ مثيلٌ لإحياءِ الأمواتِ بعدَ رُفاتِهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا﴾ [يس: ٣٣]. وهذا دَليلٌ تقْريبيٌّ للإمكانِ؛ فكان في آيةِ الإنباتِ تَنبيهٌ على إبطالِ أصْلَيْ عدَمِ إيمانِهم؛ وهما: أصْلُ الإشراكِ باللهِ، وأصلُ إنكارِ البعثِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٠، ١٠١).

٦- قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإنْ قيل: حين ذُكِرَ الأزواجُ ودَلَّ عليها بكلمتَي الكثرةِ والإحاطةِ، وكانت بحيث لا يُحصيها إلَّا عالِمُ الغَيبِ، كيف قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ وهلَّا قال: (آيات)؟

فالجوابُ من عدَّةِ أوجُهٍ:

الأول: أن يكونَ ذلك مُشارًا به إلى مصدرِ ﴿أَنْبَتْنَا﴾، فكأنَّه قال: إنَّ في الإنباتِ لآيةً أيَّ آيةٍ، فالمُشارُ إليه واحدٌ، وهو الإنباتُ، وإنِ اختلَفَت مُتعلَّقاتُه.

الثاني: أن يُرادَ: إنَّ في كُلِّ واحدةٍ مِن تلك الأزواجِ لَآيةً؛ فيَكونَ على التَّوزيعِ[(١)].

الثالث: لعلَّه وحَّدها على كثرتِها إشارةً إلى أنَّ الدَّوالَّ عليه متساويةُ الأقدامِ في الدَّلالةِ، فالراسخون تُغنيهم واحدةٌ، وغيرُهم لا يَرجعون لشيءٍ[(٢)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ خَتَمَ اللهُ تعالى بعِزَّتِه ورحمتِه؛ لِيَجمعَ بيْنَ الترغيبِ والترهيبِ؛ التَّرهيبِ بالعِزَّةِ، والتَّرغيبِ بالرَّحمةِ[(٣)].

٨- في قوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الجمعُ هنا بينَ هاتينِ الصِّفتينِ «العِزَّةِ، والرَّحمةِ» للتناسُبِ البالغِ؛ لأنَّ مِن اجتماعِهما يحصلُ الكمالُ، فهو بعِزَّتِه ذو رحمةٍ؛ فلو قارنَّا بينَ العزةِ والرحمةِ في صفاتِ المخلوقينَ لوجَدْنا أنَّهما لا يجتمعان في الغالبِ؛ وأنَّ العزيزَ الذي يَرى نفْسَه قاهرًا: في الغالبِ لا تكونُ فيه رحمةٌ، فاجتماعُ الصِّفتينِ يحصلُ بهما كمالٌ على الكمالِ، عِزَّةٌ ورحمةٌ، ثم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٧).

اجتماعُهما كمالٌ، فيكونُ مع العِزَّةِ رحيمًا لا يُؤاخِذُ ولا يَنتقِمُ؛ ولهذا لم يُعَجِّلِ اللهُ سبحانه وتعالى العقوبةَ للظالمِ، ولكنَّه بحكمتِه يُمْلي له حتَّى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ المقصودُ بهذه الحروفِ المُقطَّعةِ: التَّعريضُ بإلْهابِ نُفوسِ المُنكِرينَ لِمُعارَضةِ بعضِ سُورِ القرآنِ بالإتيانِ بمِثْلِه في بَلاغتِه وفصاحتِه، وتحدِّيهم بذلك، وتسجيلِ عجْزِهم عن ذلك[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

- قولُه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الإشارةُ بـ ﴿تِلْكَ﴾ إلى الحاضرِ في الأذهانِ مِن آياتِ القرآنِ المُنزَّلِ مِن قبْلُ، وبيَّنَه الإخبارُ عن اسمِ الإشارةِ بأنَّها آياتُ الكتابِ[٣]، وما في اسمِ الإشارةِ مِن معنى البُعدِ؛ للتَّنبيهِ على بُعدِ منزلةِ المُشارِ إليه في الفَخامةِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ الكلامُ استئنافٌ بَيانيٌّ، وقَع جوابًا عمَّا يُثيرُه مَضمونُ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ مِن تساؤُلِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في نفْسِه عن استمرارِ إعراضِ المُشركينَ عن الإيمانِ وتصديقِ القرآنِ. وحُوِّلَ الخِطابُ مِن تَوجيهِه إلى المعاندينَ إلى تَوجيهِه للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهو نوعٌ مِن الالْتفاتِ؛ فيه الْتفاتٌ مِن أُسلوبٍ إلى أُسلوبٍ، والْتفاتٌ عمَّن كان الكلامُ مُوجَّهًا إليه بتَوجيهِ الكلامِ إلى شخصٍ آخَرَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤١) و(١٩/ ٩٣).

- قولُه: ﴿لَعَلَّكَ﴾ (لعلَّ) للإشفاقِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١]، وهو حثٌّ على ترْكِ الأسفِ مِن ضَلالِهم، على طريقةِ تَمثيلِ شأْنِ المُتكلِّمِ الحاثِّ على الإقلاعِ بحالِ مَن يَستقرِبُ حُصولَ هَلاكِ المُخاطَبِ إذا استمرَّ على ما هو فيه مِن الغَمِّ[٢].

- قولُه: ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ جِيءَ بمُضارعِ الكَونِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه لا يأسَفُ على عدَمِ إيمانِهم ولو استمرَّ ذلك في المُستقبَلِ؛ فيكونُ انتفاؤُه فيما مَضى أوْلى بألَّا يُؤسَفَ له. وعدَلَ عن (ألَّا يُؤمِنوا) إلى ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ في فِعلِ الكونِ دَلالةً على الاستمرارِ، زِيادةً على ما أفادَتْه صِيغةُ المُضارعِ، فتأكَّدَ استمرارُ عدَمِ إيمانِهم الَّذي هو مَوردُ الإقلاعِ عن الحُزنِ له[٣].

- وضَميرُ ﴿يَكُونُوا۟﴾ عائدٌ إلى معلومٍ مِن مقامِ التَّحدِّي الحاصلِ بقولِه: ﴿طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ١، ٢]؛ للعلْمِ بأنَّ المُتحدَّيْنَ هم الكافِرونَ المُكذِّبون[٤].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿مُؤْمِنِينَ﴾؛ إمَّا لأنَّ المُرادَ: مُؤمنينَ بما جئتَ به مِن التَّوحيدِ والبعثِ، وتَصديقِ القرآنِ وتصديقِ الرَّسولِ، وإمَّا لأنَّه أُريدَ بـ ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ المعنى اللَّقبيُّ، أي: ألَّا يَكونوا في عِدادِ الفريقِ المعروفِ بالمؤمنينَ، وهم أمَّةُ الإسلامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقد جاء في سُورةِ (الكهفِ): ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦] بحرْفِ نفْيِ الماضي وهو (لَمْ)؛ لأنَّ سُورةَ (الكهفِ) مُتأخِّرةُ النُّزولِ عن سُورةِ (الشُّعراءِ)؛ فعدَمُ إيمانِهم قد تقرَّرَ حينَئذٍ، وبلَغَ حدَّ المأْيوسِ منه[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم ... ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتَعليلِ ما يُفْهَمُ مِن الكلامِ مِن النَّهيِ عن التَّحسُّرِ المذكورِ، ببَيانِ أنَّ إيمانَهم ليس ممَّا تعلَّقتْ به مَشيئةُ اللهِ تعالى حتْمًا؛ فلا وجْهَ للطَّمعِ فيه، والتَّألُّمِ مِن فَواتِه[٢].

- وهو استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾؛ لأنَّ التَّسليةَ على عدَمِ إيمانِهم تُثيرُ في النَّفسِ سُؤالًا عن إمهالِهم دونَ عُقوبةٍ لِيُؤمِنوا، كما قال موسى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾[يونس: ٨٨]، فأُجيبَ بأنَّ اللهَ قادرٌ على ذلك. فهذا الاستئنافُ اعتراضٌ بيْنَ الجُملتينِ المعطوفةِ إحداهما على الأُخرى[٣].

- وجِيءَ بحرْفِ (إنْ) الَّذي الغالبُ فيه أنْ يُشعِرَ بعدَمِ الجزْمِ بوُقوعِ الشَّرطِ؛ للإشعارِ بأنَّ ذلك لا يَشاؤُه اللهُ لحِكمةٍ اقتضَتْ ألَّا يَشاءَه[٤].

- ومفعولُ ﴿نَّشَأۡ﴾ محذوفٌ، يدُلُّ عليه جوابُ الشَّرطِ على الطَّريقةِ الغالبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٩٥).

في حذْفِ مفعولِ فِعلِ المشيئةِ. والتَّقديرُ: إنْ نشَأْ تَنزيلَ آيةٍ نُنزِّلْها[١]، وقيل: إنْ نشَأْ إيمانَهم[٢].

- وتَقديمُ الظَّرفينِ -﴿عَلَيۡهِم﴾ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾- على المفعولِ الصَّريحِ ﴿ءَايَةً﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[٣].

- قولُه: ﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أصْلُ الكلامِ: فظَلُّوا لها خاضعينَ، فأُقحِمَتِ الأعناقُ لبَيانِ مَوضعِ الخُضوعِ، وتُرِكَ الكَلامُ على أصْلِه، كقولِه: ذهبَتْ أهلُ اليمامةِ، كأنَّ الأهلَ غيرُ مذكورٍ. أو لَمَّا وُصِفَت بالخُضوعِ الَّذي هو للعُقلاءِ قيل: ﴿خَٰضِعِينَ﴾، كقولِه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. وقيل: أعناقُ النَّاسِ: رُؤساؤهم ومُقدَّمُوهم، شُبِّهوا بالأعناقِ كما قيل لهم: هم الرُّؤوسُ والنَّواصي والصُّدورُ. وقيلَ: جماعاتُ النَّاسِ[٤]. وفائدةُ الوجْهِ الأوَّلِ -وهو إقحامُ العُنقِ- تصويرُ حالةِ الخضوعِ؛ إدخالًا للرَّوعةِ. والوجْهُ الثَّاني مِن بابِ إجراءِ ما لا يَعقِلُ مُجرى العُقلاءِ؛ مُبالغةً لِخُضوعِهم، فكأنَّه سَرى منهم إليها. والثَّالثُ مِن إطلاقِ الجُزءِ على الكلِّ؛ فإنَّ المُتكبِّرَ إنَّما يَظهَرُ تجبُّرُه في عُنقِه، ولَيِّه له[٥].

- وفُرِّعَ على تَنزيلِ الآيةِ ما هو في مَعنى الصِّفةِ لها، وهو جُملةُ ﴿فَظَلَّتۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٣، ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٠، ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣١٦).

أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾ بفاءِ التَّعقيبِ[١].

- قولُه: ﴿فَظَلَّتْ﴾ معطوفٌ على المُضارعِ ﴿نُنَزِّلْ﴾ الَّذي لو استُعمِلَ بدَلَه الماضي لكانَ صحيحًا[٢]، وفائدةُ وضْعِ ﴿نُنَزِّلْ﴾ مَوضِعَ (أنزَلْنا): استحضارُ صُورةِ إنزالِ تلك الآيةِ العظيمةِ المُلْجِئةِ إلى الإيمانِ، وحُصولِ خُضوعِ رِقابِهم عندَ ذلك في ذِهنِ السَّامعِ؛ لِيَتعجَّبَ منه، وإلَّا لم يصِحَّ عطْفُ الماضي على المُستقبَلِ بحرفِ التَّعقيبِ، أو جَعْلُ الماضي مُسبَّبًا عن المُستقبَلِ[٣]. وقيل: فائدةُ عَطفِ ﴿فَظَلَّتْ﴾ -وهو ماضٍ- على المضارعِ ﴿نُنَزِّلْ﴾: التفنُّنُ بيْنَ الصِّيغتَينِ، وتقريبُ زَمنِ مُضيِّ المُعقَّبِ بالفاءِ مِن زَمَنِ حُصولِ الجزاءِ، بحيثُ يكونُ حصولُ خُضوعِهم للآيةِ بمَنزلةِ حُصولِ تَنزيلِها؛ فيتِمُّ ذلك سريعًا حتَّى يُخيَّلَ لهم مِن سُرعةِ حُصولِه أنَّه أمرٌ مضَى؛ فلذلك قال: ﴿فَظَلَّتْ﴾، ولم يقُلْ: (فتَظَلُّ)، وهذا قريبٌ من استِعمالِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وكِلاهما للتهديدِ[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بَيانٌ لشِدَّةِ شَكيمتِهم، وعدَمِ ارْعِوائِهم عمَّا كانوا عليه مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ بغيرِ ما ذُكِرَ مِن الآيةِ المُلْجِئةِ؛ لِصَرْفِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الحِرصِ على إسلامِهم، وقَطْعِ رجائِه عنه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٥).

(٢) قال النحاسُ: (﴿فَظَلَّتْ﴾ معناه فتظَلّ؛ لأنَّ الماضيَ يأتي بمعنى المستقبَلِ في المجازاةِ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣١٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٥، ٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤).

- قولُه: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ...﴾ فيه دَلالةٌ على فَضْلِه وشَرفِه، وشَناعةِ ما فعَلوا به. والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرَّحمةِ؛ لِتَغليظِ شَناعتِهم، وتَهويلِ جِنايتِهم؛ فإنَّ الإعراضَ عمَّا يأْتيهم مِن جَنابِه عزَّ وجلَّ على الإطلاقِ شَنيعٌ قبيحٌ، وعمَّا يأْتيهم بمُوجَبِ رَحمتِه تعالى لِمَحضِ مَنفعتِهم أشنَعُ وأقبَحُ[١].

- وقولُه: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم ...﴾ فيه التعبيرُ بالمُضارِعِ (يأتي)؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ[٢].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ مُؤكِّدةٌ لعُمومِ نفْيِ الأحوالِ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ جاء قولُه هنا: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بذِكْرِ اسمِ (الرَّحمنِ) دونَ وصْفِ (الرَّبِّ) كما في سُورةِ (الأنبياءِ): ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]. ووَجْهُه: أنَّ السِّياقَ هنا لِتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على إعراضِ قَومِه؛ فكان في وصْفِ مُؤْتي الذِّكْرِ بـ(الرَّحمنِ) تَشنيعٌ لحالِ المُعرِضينَ، وتَعريضٌ لِغَباوتِهم أنْ يُعرِضوا عمَّا هو رَحمةٌ لهم، فإذا كانوا لا يُدْرِكون صَلاحَهم، فلا تَذهَبْ نفْسُك حَسراتٍ على قومٍ أضاعوا نفْعَهم، وأنت قد أرشدْتَهم إليه وذَكَّرْتَهم، كما قال المَثَلُ[٤]: لا يَحزُنْك دمٌ هَراقَه أهْلُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((الأمثال)) للقاسم بن سلَّام (ص: ٣٣١)، ((مجمع الأمثال)) للميداني (٢/ ٢٣١)، ((المستقصى في أمثال العرب)) للزمخشري (٢/ ٢٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٨).

- وقيلَ: خُصَّتْ سُورةُ (الأنبياءِ) بقولِه: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ بالإضافةِ؛ لأنَّ (الرَّحمنَ) لم يأْتِ مُضافًا، ولِمُوافقةِ ما بعْدَه، وهو قولُه: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ﴾ [الأنبياء: ٤]، وخُصَّتْ سُورةُ (الشُّعراءِ) بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ لِيَكونَ كلُّ سُورةٍ مَخصوصةً بوصْفٍ مِن أوصافِه؛ وليس في أوصافِ اللهِ تعالى اسمٌ أشبَهُ باسمِ (اللهِ) مِن (الرَّحمنِ)؛ لأنَّهما اسمانِ ممنوعانِ أنْ يُسمَّى بهما غيرُ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ ولِمُوافقةِ ما بعْدَه، وهو قولُه: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩]؛ لأنَّ (الرَّحمنَ) و(الرَّحيمَ) مِن مَصدرٍ واحدٍ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- وفي الإتيانِ بفِعلِ ﴿كَانُوا۟﴾ وخبَرِه دُونَ أنْ يُقالَ: (إلَّا أعْرَضوا): إفادةُ أنَّ إعراضَهم راسخٌ فيهم، وأنَّه قديمٌ مُستمِرٌّ؛ إذ أخبَرَ عنهم قبْلَ ذلك بقولِه: ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، فانتِفاءُ كونِ إيمانِهم واقعًا هو إعراضٌ منهم عن دَعوةِ الرَّسولِ الَّتي طريقُها الذِّكْرُ بالقرآنِ، فإذا أتاهُم ذِكْرٌ بعدَ الذِّكْرِ الَّذي لم يُؤمِنوا بسَببِه، وجَدَهم على إعراضِهم القديمِ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ، أي: إلَّا يَكونوا عنه مُعرِضينَ، تدُلُّ على أنَّ دَيْدَنَهم وعادتَهم الإعراضُ عن ذِكْرِ اللهِ، أي: هذِه عادتُهم، فلا تأسَفْ لعدَمِ إيمانِهم بآياتِ الكتابِ المُبينِ، وما يَجيئُهم منها مِن بَعْدُ، فسيُعرِضون عنه؛ لأنَّهم عُرِفوا بالإعراضِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٩٦١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٧).

- وتَقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ على الخبرِ؛ لرِعايةِ الفاصلةِ(١).

- وهذه الآيةُ مُتَّصِلةٌ معنًى بقولِه تعالى: ﴿طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ١، ٢]؛ فإنَّه تعالى أعلَمَ أوَّلًا: أنَّه أنزَلَ هذا الكتابَ الكريمَ في نِهايةٍ مِن الوُضوحِ والبَيانِ، وأنَّهم ما رَفَعوا له رأسًا، ثمَّ نبَّهَ ثانيًا على أنَّ هذا الكتابَ مع وُضوحِ آياتِه إنَّما أُنزِلَ على سبيلِ التَّدرُّجِ؛ لِيَكونَ أدخَلَ في التَّذكيرِ، وأنجَعَ في الاتِّعاظِ به، وهم مع ذلك قابَلوا كلَّ حِصَّةٍ منه بتَكذيبٍ واستِهزاءٍ، كلُّ ذلك تَسليةً لحَبيبِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لئلَّا يَذهَبَ بنفْسِه حَسَراتٍ؛ ولذلك أوقَعَ قولَه تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ...﴾ الآيتينِ اعتراضًا، يعني: انظُرْ إليهم وإلى ما فعَلوا بمِثْلِ هذا الكتابِ الكريمِ وبمُنزِلِه، على أنَّه قادرٌ على أنْ يَقْسِرَهم على الإيمانِ وهم مُهانون خاضِعون، فأشْفِقْ على نفْسِك أنْ تَقتُلَها حَسرةً على ما فاتَك مِن إسلامِهم(٢).

٦- قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ خُولِفَ بيْنَ الألفاظِ -وهي الإعراضُ والتَّكذيبُ والاستهزاءُ- والغرضُ واحدٌ، وهو الإعراضُ؛ وذلك لاختلافِ الأغراضِ، كأنَّه قِيل: حِينَ أعْرَضوا عن الذِّكْرِ فقد كذَّبوا به، وحينَ كذَّبوا به فقد خفَّ عندَهم قَدْرُه، وصار عُرضةً للاستهزاءِ والسُّخريةِ؛ لأنَّ مَن كان قابلًا للحقِّ مُقبلًا عليه، كان مُصدِّقًا به لا مَحالةَ ولم يُظَنَّ به التَّكذيبُ، ومَن كان مُصدِّقًا به كان مُوقِّرًا له؛ فعدَل في قولِه: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عمَّا يَقْتضيهِ سائرُ ما سلَفَ مِن الإعراضِ والتَّكذيبِ؛ للإيذانِ بأنَّهما كانا مُقارنَينِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣١٧، ٣١٨).

للاستِهزاءِ[١]؛ فالمقصودُ التَّدرُّجُ مِن غَرضٍ إلى غرضٍ، وتصويرُ معنَى ما صدَرَ منهم مِن الاستهزاءِ، وأنَّه نَتيجةُ التَّكذيبِ المُسبَّبِ عن الإعراضِ؛ فالفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ عاطفةٌ، وفي قولِهم: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ سَببيَّةٌ فصيحةٌ؛ لأنَّ مدْخولَها وعيدٌ للمُستهزِئ، والوعيدُ مَسبوقٌ بحُصولِ الاستهزاءِ[٢]. وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ فَصيحةٌ، أي: فقد تَبيَّنَ أنَّ إعراضَهم إعراضُ تكذيبٍ، بعْدَ الإخبارِ عنهم بأنَّ سُنَّتَهم الإعراضُ عن الذِّكْرِ الآتي بعضُه عقِبَ بعضٍ؛ فإنَّ الإعراضَ كان لأنَّهم قد كذَّبوا بالقُرآنِ. والفاءُ في قولِه: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ لترتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها، وتَعقيبِ الإخبارِ بالوعيدِ بعْدَ الإخبارِ بالتَّكذيبِ[٣].

- وقيل: في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ احتِباكٌ[٤]؛ حيثُ ذَكَر التكذيبَ أولًا دليلًا على حذْفِه ثانيًا، والاستهزاءَ ثانيًا دليلًا على حَذْفِ مِثْلِه أولًا[٥].

- والسِّينُ والفاءُ في قولِه: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ لتَأكيدِ مَضمونِ الجُملةِ وتَقريرِه[٦].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وعيدٌ لهم وإنذارٌ بأنَّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٨).

(٤) الاحْتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤).

سيَعلمون إذا مسَّهم عذابُ اللهِ ما الشَّيءُ الَّذي كانوا يَستهزِئون به[١]. وأنباؤُه: ما سيَحيقُ بهم مِن العُقوباتِ العاجلةِ والآجلةِ، عبَّرَ عنها بذاكَ؛ إمَّا لكَونِها ممَّا نبَّأَ بها القُرآنُ الكريمُ، وإمَّا لأنَّهم بمُشاهَدتِها يَقِفُون على حقيقةِ حالِ القُرآنِ، كما يقِفُون على الأحوالِ الخافيةِ عنهم باستماعِ الأنباءِ، وفيه تَهويلٌ له؛ لأنَّ النَّبأَ لا يُطلَقُ إلَّا على خبرٍ خطيرٍ، له وقْعٌ عظيمٌ[٢].

- وأُوثِرَ إفرادُ فِعلِ (يأْتيهم)، مع أنَّ فاعلَه جمْعُ تَكسيرٍ لغيرِ مُذكَّرٍ حقيقيٍّ يجوزُ تأْنيثُه؛ لأنَّ الإفرادَ أخفُّ في الكلامِ؛ لكثرةِ دَوَرانِه[٣].

- و(ما) في قولِه: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ موصولةً؛ فيجوزُ أنْ يكونَ ماصَدَقَها[٤] القرآنَ، وذلك كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾ [البقرة: ٢٣١]. وجِيءَ في صِلَتِه بفِعلِ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ دونَ (يُكذِّبون)؛ لتَحصُلَ فائدةُ الإخبارِ عنهم بأنَّهم كذَّبوا به واسْتَهْزؤوا به، وتكون الباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ لتَعديةِ فِعلِ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، والضَّميرُ المجرورُ عائدًا إلى (ما) الموصولةِ، وأنباؤُه: أخبارُه بالوعيدِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ماصَدَقَ (ما): جِنسَ ما عُرِفوا باستهزائِهم به، وهو التَّوعُّدُ؛ كانوا يقولون: متى هذا الوعدُ؟ ونحوَ ذلك. وإضافةُ ﴿أَنۢبَٰٓؤُاْ﴾ إلى ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ على هذا إضافةٌ بَيانيَّةٌ، أي: ما كانوا به يَستهزِئون الَّذي هو أنباءُ ما سيَحُلُّ بهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٠).

(٤) الماصَدَق -عند المناطقة-: الأفرادُ التي يتحقَّقُ فيها معنى الكليِّ، ويقابلُه: المفهومُ، وهو: مجموعُ الصفاتِ والخصائصِ الموضحةِ لمعنًى كليٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحبنكة (ص: ٤٥، ٤٦).

وجمْعُ الأنباءِ على هذا باعتبارِ أنَّهم اسْتَهْزؤوا بأشياءَ كثيرةٍ؛ منها البعثُ، ومنها العذابُ في الدُّنيا، ومنها نصْرُ المُسلمينَ عليهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، ومنها فتْحُ مكَّةَ، ومنها عذابُ جهنَّمَ، وشجرةُ الزَّقُّومِ. ويجوزُ كونُ (ما) مصدريَّةً، أي: أنباءُ كونِ استهزائِهم، أي: حُصوله، وضميرُ ﴿بِهِۦ﴾ عائدًا إلى معلومٍ مِن المقامِ، وهو القرآنُ أو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

- وإقحامُ فِعلِ ﴿كَانُوا۟﴾ هنا؛ لإفادةِ أنَّ استهزاءَهم راسخٌ فيهم، وأنَّه قديمٌ مُستمرٌّ. وأُوثِرَ الإتيانُ بالفِعلِ المضارعِ -وهو ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾- دونَ اسمِ الفاعلِ كالَّذي في قولِه: ﴿كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥]؛ لأنَّ الاستهزاءَ يتجدَّدُ عندَ تجدُّدِ وَعيدِهم بالعذابِ، وأمَّا الإعراضُ فمُتمكِّنٌ منهم(٢).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث جاء قولُه هنا: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وفي سُورةِ (الأنعام) قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٥]. ووجْهُه: أنَّ سُورةَ الأنعامِ مُتقدِّمةٌ في النُّزولِ على (الشُّعراءِ)، فاستوفَى فيها اللَّفْظَ؛ فقيَّدَ التَّكذيبَ بقولِه: ﴿بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، ثمَّ قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ على التَّمامِ، وحذَف مِن (الشُّعراءِ)، وهو مرادٌ؛ إحالةً على الأوَّلِ، فذَكَرَ فيها: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ مُطلقًا؛ لأنَّ تَقييدَه في هذه السُّورةِ يدُلُّ عليه، ثمَّ اقتصَرَ على السِّينِ هنا بدلَ (سوف)؛ لِيتَّفِقَ اللَّفظانِ فيه على الاختصارِ(٣). ولَمَّا كان فِعلُ الاستقبالِ المقرونُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٧).

بـ (سوف) أبعَدَ زمانًا مِن المقرونِ بالسِّينِ، تَعيَّن الأوَّلُ فيما نزل أوَّلًا، والثاني فيما نزَل آخِرًا[١].

٧- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ الواوُ عاطفةٌ على جُملةِ ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥]؛ فالهمزةُ الاستفهاميَّةُ منه مُقدَّمةٌ على واوِ العطفِ لفظًا؛ لأنَّ للاستفهامِ الصَّدارةَ، والاستفهامُ إنكارٌ على عدَمِ رُؤيتِهم ذلك؛ لأنَّ دَلالةَ الإنباتِ على الصَّانعِ الواحدِ دَلالةٌ بيِّنةٌ لكلِّ مَن يراهُ، فلمَّا لم يَنتفِعوا بتلك الرُّؤيةِ نُزِّلَت رُؤيتُهم مَنزلةَ العدَمِ، فأنكَرَ عليهم ذلك[٢].

- وقيل: الهَمزةُ للإنكارِ التَّوبيخيِّ، والواوُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ، أي: أفَعَلوا ما فَعَلوا مِن الإعراضِ عن الآياتِ، والتَّكذيبِ والاستهزاءِ بها، ولم ينظرُوا ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾[٣]!

- قولُه: ﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لِمَا في الأرضِ مِن الآياتِ الزَّاجرةِ عن الكُفرِ، الدَّاعيةِ إلى الإيمانِ[٤].

- و(مِن) تَبعيضيَّةٌ. ومَوردُ التَّكثيرِ الَّذي أفادَتْه (كم) هو كثرةُ الإنباتِ في أمكنةٍ كثيرةٍ، ومَوردُ الشُّمولِ المُفادِ مِن (كل) هو أنواعُ النَّباتِ وأصنافُه؛ وفي الأمْرينِ دَلالةٌ على دَقيقِ الصُّنعِ. واستُغْنِيَ بذِكْرِ أبعاضِ كلِّ زوجٍ عن ذِكْرِ مُميِّزِ (كم)؛ لأنَّه قد عُلِمَ مِن التَّبعيضِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٠، ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠١).

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ جَمَعَ بيْنَ (كم) و(كل)، ولم يقُلْ: كم أنبَتْنا فيها مِن زوجٍ كريم؛ لأنَّ (كل) دلَّت على الإحاطةِ بأزواجِ النَّباتِ على سبيلِ التَّفصيلِ، و(كم) دلَّت على أنَّ هذا الذي أحاط بأزواج النبات متكاثرٌ، مُفرِطُ الكثرةِ، فالمحيطُ: الكلُّ، والمحاطُ به: الأصنافُ، فهذا معنى الجمْعِ بيْنَهما، وبه نبَّهَ على كَمالِ قُدرتِه[1]؛ فمَقامُ بَيانِ كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى يَقْتضي إيرادَ ما يَستوعِبُ الأصنافَ كلَّها مع بَيانِ تكاثُرِها، ولا يَحصُلُ ذلك إلَّا بالجمْعِ بيْن (كم) و(كل)[2]؛ ففي الآيةِ فنُّ التَّتميمِ[3].

- وأيضًا في قولِه: ﴿كَرِيمٍ﴾ فنُّ التَّتميمِ، فتمَّمَ وصْفَه الزَّوجَ بالكريمِ؛ وذلك لأمْرينِ:

أ- أنَّ النَّباتَ على نوعينِ: نافعٍ وضارٍّ، فدلَّ بكلمةِ ﴿كَرِيمٍ﴾ أنَّه يَقصِدُ النَّوعَ النَّافعَ؛ لاختصاصِه بالدَّلالةِ على القُدرةِ والنِّعمةِ معًا، فذكَرَ كثرةَ ما أنبَتَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤١، ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٢١).

(٣) التَّتميم: من أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو: هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو: هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التتميم قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العزةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

الأرضِ مِن جميعِ أصنافِ النَّباتِ النَّافعِ، وخلَّى ذِكْرَ الضَّارِّ.

ب- أنَّه يَقصِدُ كِلَا النَّوعينِ النَّافعِ والضَّارِّ، ويَصِفُهما جميعًا بالكرَمِ؛ تَنبيهًا على أنَّه ما أنبَتَ شيئًا إلَّا لفائدةٍ؛ لأنَّ الحكيمَ لا يَفعَلُ فِعلًا إلَّا لغرضٍ صحيحٍ ولِحكمةٍ بالغةٍ، وإنْ غفَلَ عنها الغافلونَ، ولم يَتوصَّلْ إلى مَعرفتِها العاقلونَ[1].

- قولُه: ﴿زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ هذا مِن إدماجِ[2] الامتِنانِ في ضِمْنِ الاستِدلالِ؛ لأنَّ الاستدلالَ على بَديعِ الصُّنعِ يَحصُلُ بالنَّظرِ في إنباتِ الكريمِ وغيرِه؛ ففي الاستِدلالِ بإنباتِ الكريمِ مِن ذلك وفاءٌ بغَرضِ الامتنانِ مع عدَمِ فَواتِ الاستدلالِ. وأيضًا فنظَرُ النَّاسِ في الأنواعِ الكَريمةِ أنفَذُ وأشهَرُ؛ لأنَّه يَبتدِئُ بطَلبِ المنفعةِ منها، والإعجابِ بها؛ فإذا تطلَّبَها وقَعَ في الاستدلالِ؛ فيكونُ الاقتصارُ على الاستِدلالِ بها في الآيةِ مِن قَبيلِ التَّذكيرِ للمُشركينَ بما هم مُمارِسون له، وراغِبون فيه[3].

- وهذا الاستدلالُ لَمَّا كان عقليًّا اقتصَرَ عليه، ولم يُكرِّرْ بغيرِه مِن نوعِ الأدلةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦، ٥٧).

(٢) الإدماجُ لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مبالغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠١).

العقليَّةِ، كما كُرِّرَت الدَّلائلُ الحاصلةُ مِن العِبرةِ بأحوالِ الأُمَم، مِن قولِه: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ [الشعراء: ١٠]، إلى آخرِ قِصَّةِ أصحابِ الأَيْكةِ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

- التَّأكيدُ بحرْفِ (إنَّ)؛ لِتَنزيلِ المُتحدَّث عنهم مَنزلةَ مَن يُنكِرُ دَلالةَ ذلك الإنباتِ وصِفاتِه على ثُبوتِ الوَحدانيَّةِ، الَّتي هي باعثُ تَكذيبِهم الرَّسولَ لمَّا دَعاهم إلى إثباتِها[٢].

- واسمُ الإشارةِ فيه مِن معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِه في الفضْلِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (كانَ) صِلَةٌ مُقحمةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى: وما أكثرُهم مُؤمِنين[٤].

- وأسنَدَ نفْيَ الإيمانِ إلى أكثرِهم؛ لأنَّ قليلًا منهم يُؤمِنون حينَئذٍ، أو بعْدَ ذلك[٥].

٩- قولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

- في التَّعرُّضِ لوَصْفِ الرُّبوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مِن تَشريفِه والعِدَةِ الخَفيَّةِ بالانتقامِ مِن الكفَرةِ: مَا لا يَخْفى[٦].

- قولُه: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ لَمَّا كان المَوضِعُ مَوضعَ بَيانِ القُدرةِ، قدَّمَ صِفَةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٥).

العِزَّةِ على صِفةِ الرَّحمةِ؛ فالرَّحمةُ إذا كانت عن قُدرةٍ كانت أعظَمَ وقْعًا[١]، ولأنَّه لو لم يُقَدِّمْهُ لكان رُبَّما قيلَ: إنَّه رَحِمَهم لِعَجْزِه عن عقوبتِهم! فأزال هذا الوهمَ بذِكْرِ العزيزِ وهو الغالبُ القاهرُ، والمرادُ أنَّهم مع كفرِهم وقدرةِ اللهِ على أنْ يُعَجِّلَ عقابَهم لا يَتْرُكُ رحمتَهم بما تقدَّمَ ذِكْرُه مِن خَلْقِ كلِّ زوجٍ كريمٍ مِن النَّباتِ، ثم مِن إعطاءِ الصحةِ والعقلِ والهدايةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تذييلٌ لهذا الخبَرِ بوصْفِ اللهِ بالعِزَّةِ، أي: تَمامِ القُدرةِ، فتَعلَمون أنَّه لو شاءَ لعجَّلَ لهم العِقابَ، وبوصْفِ الرَّحمةِ إيماءٌ إلى أنَّ في إمهالِهم رَحمةً بهم؛ لعلَّهم يَشكُرون، ورحيمٌ بكَ؛ قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨]. وفي وصْفِ الرَّحمةِ إيماءٌ إلى أنَّه يَرحَمُ رُسلَه بتأْييدِه ونصْرِه[٣].

- وقد ختَمَ كلَّ استدلالٍ جِيءَ به على المُشركينَ المُكذِّبين بتَذييلٍ واحدٍ؛ هو قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ تَسجيلًا عليهم بأنَّ آياتِ الوَحدانيَّةِ وصِدْقِ الرُّسلِ عديدةٌ كافيةٌ لمَن يتطلَّبُ الحقَّ، ولكنَّ أكثرَ المُشركينَ لا يُؤمِنون، وأنَّ اللهَ عزيزٌ قادرٌ على أنْ يُنزِلَ بهم العذابَ، وأنَّه رحيمٌ برُسلِه، فناصِرُهم على أعدائِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٩١).

الآيات (١٠-٢٢)

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ
عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا
فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا
وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي: اتَّخذْتَهم عبيدًا، وعَبَّدتُ فلانًا: إذا ذلَّلْتَه، وإذا اتَّخَذْتَه عبدًا، وأصلُ (عبد): يدُلُّ على لِينٍ وذُلٍّ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

قولُه: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ فيه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه في محلِّ رفعٍ عطفُ بيانٍ أو بدَلٌ مِن (تلك). الثاني: أنَّه في محلِّ نصبٍ مفعولٌ مِنْ أجلِه. الثالثُ: أنَّه بدَلٌ من (ها) في ﴿تَمُنُّهَا﴾. الرابعُ: أنه في مَوضعِ نصبٍ على تقديرِ (لِأَن عَبَّدْتَ)، ثمَّ حُذِفَ الحرفُ، وحَذْفُه مع (أنْ) كَثيرٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٦١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٨٧)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٢٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥١٨).

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى جانبًا مِن قصةِ موسى عليه السلامُ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ كلَّم رَبُّك موسى وأمَرَه أن يذهَبَ إلى القَومِ الظَّالمين؛ قَومِ فِرعَونَ، وأنْ يقولَ لهم: ألَا تتَّقون اللهَ وتتركونَ ظُلمَ عِبادِه؟! فقال موسى: ربِّ، إنِّي أخافُ أن يكَذِّبَني فِرعونُ وقَومُه، ويَضيقُ صَدري بسَبَبِ تكذيبِهم إيَّاي، ويُحبَسُ لساني عن مُخاطبةِ فِرعَونَ، فلا يُبينُ ما أرسَلْتَني به، فأرسِلْ أخي هارونَ رَسولًا معي يُعينُني، وإنَّ لِقَومِ فِرعَونَ علَيَّ ذَنبًا؛ لقَتلي رجُلًا منهم، فأخافُ أن يقتُلوني به.

فقال الله لِموسى: كلَّا، لن يَقتُلوك، فاذهَبْ أنت وأخوك إليهم بمُعجزاتِنا، إنِّي معكما مؤيِّدٌ وحافِظٌ، أسمَعُ ما يدورُ بيْنَكم، فأْتِيَا فِرعونَ فقُولا له: إنَّا مُرسَلانِ لك مِن رَبِّ العالَمينَ، بأنْ تُطلِقَ بني إسرائيلَ، وتترُكَهم يأتون معنا إلى الأرضِ المقَدَّسةِ لِعبادةِ اللهِ وحْدَه.

ثمَّ يحكي سبحانَه ما دارَ بينَ موسَى وفرعونَ مِن محاوراتٍ، فيقولُ: قال فِرعَونُ لِموسى: ألم نرَبِّك بيْنَنا صغيرًا، ومكثْتَ عندَنا سِنينَ كَثيرةً مِن عُمُرِك، ثمَّ قتَلْتَ رجُلًا منَّا وأنت جاحِدٌ لنِعمتِنا عليك؟! فقال موسى: إنَّما قتلْتُه خطأً، وقد كنتُ مِن الجاهلينَ لم يُوحَ إلَيَّ بعْدُ، فهَرَبتُ منكم خَوفًا مِن أن تقتُلوني، فأعطاني ربِّي عِلمًا وفَهمًا، وجعَلَني رَسولًا إليكم، وتَمُنُّ علَيَّ بهذه المنَّةِ أنْ سخَّرْتَ بني إسرائيلَ، وجعلْتَهم لك عَبيدًا، ولم تَستعبِدْني، فهذه ليست نِعمةً، فكيف تَمُنُّ علَيَّ بها؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى تكذيبَ قُرَيشٍ بما جاءَهم مِن الحقِّ وإعراضَهم عنه، ذَكَرَ قصَّةَ موسى عليه السلامُ، وما قاسى مع فرعونَ وقومِه؛ ليَكونَ ذلك مَسلاةً لِمَا كان يَلْقاه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن كُفَّارِ قريشٍ؛ إذْ كانت قريشٌ قد اتخذَتْ آلهةً مِن دونِ اللهِ، وكان قومُ فرعونَ قد اتَّخَذوه إلهًا، وكان أتْباعُ مِلَّةِ موسى عليه السلامُ هم المجاوِرينَ مَن آمَنَ بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فلذا بَدَأَ بقصَّةِ موسى عليه السَّلامُ، ثمَّ ذَكَر بعدَ ذلك ما يأتي ذِكْرُه مِن القَصَصِ[١].

وأيضًا لَمَّا اقتضى وصْفُ العِزَّةِ الإهلاكَ، ووصْفُ الرحمةِ الإمهالَ، وكان الأوَّلُ مقدَّمًا، وكانت عادتُهم تقديمَ ما هم به أهمُّ، وهو لهم أعْنى؛ خِيْفَتْ غائلتُه، فأَتْبَعَ ذلك أخبارَ هذه الأممِ دَلالةً على الوصفين معا ترغيبًا وترهيبًا، ودَلالةً على أنَّ الرحمةَ سبقَتِ الغضبَ -وإنْ قُدِّمَ الوصفُ اللائقُ به-؛ فلا يُعَذِّبُ إلَّا بعْدَ البيانِ، مع طولِ الإمهالِ[٢].

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ كلَّم اللهُ موسى وأمَرَه أن يذهَبَ إلى الظَّالِمين لأنفُسِهم بالكُفرِ والمعاصي، والظَّالِمين لبني إسرائيلَ باستعبادِهم واضْطِهادِهم وسَومِهم سوءَ العَذابِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٣، ١٠٤).

قال الشوكاني: (ووَصْفُهم بالظُّلمِ؛ لأنَّهم جَمَعوا بينَ الكفرِ الَّذي ظَلَموا به أنفسَهم، وبينَ =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: ٢٩ - ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٥ - ١٧].

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾.

أي: اذهَبْ إلى القَومِ الظَّالمينَ، وهم قَومُ فِرعونَ القِبطُ، فقُلْ لهم: ألَا تتَّقونَ الله[1]

= المعاصي الَّتي ظَلَموا بها غيرَهم؛ كاستِعبادِ بني إسرائيلَ، وذبحِ أبنائِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٠).

(١) قال ابن عثيمين: (يحتملُ أنَّه مِن المرسَلِ به، يعني: يقولُ لهم: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾. ويحتملُ أنَّه مِن كلامِ الله سبحانَه وتعالى لِموسى؛ ليُبيِّنَ له حالَهم، وأنَّهم يتجنَّبون التقْوى، وأنَّ الأليَقَ بهم أن يتَّقوا اللهَ سبحانه وتعالى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٤٠).

وممَّن قال بأنَّها أمرٌ لموسَى بأن يقولَ لهم ذلك: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، ومكي، وابن عطية، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٥). =

وتخافونَ عِقابَه، فتُؤمِنوا به وتَتركوا ظُلْمَ عِبادِه[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۞ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۞ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٧ - ١٩].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾.

أي: قال موسى: ربِّ إنِّي أخافُ أن يكَذِّبَني فِرعَونُ وقَومُه، ولا يصَدِّقوا أنِّي رَسولُك إليهم[(٢)].

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾.

= وممَّن ذهب إلى القولِ الثاني، وهو ظاهرُ اختيارِه في الجملةِ: الزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٢).

قال الشنقيطي: (﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، أي: بسببِ أنِّي قتلْتُ منهم نفْسًا، وفرَرتُ منهم لَمَّا خِفتُ أن يقتلوني بالقتيلِ الذي قتلتُه منهم. ويوضِّح هذا المعنى الترتيبُ بالفاءِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]؛ لأنَّ مَن يخافُ القتلَ فهو يتوقَّعُ التكذيبَ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨٧).

وقال ابن عثيمين: (هذا جوابُ موسى عليه الصلاةُ والسلامُ لله مبيِّنًا له حالَه حتى يكونَ الأمرُ لدى موسى واضحًا، فينشَطَ ويَقوى، وليس المرادُ بهذا معارضةَ أمرِ الله؛ فإنَّ موسى لن يُعارِضَ أمرَ الله عزَّ وجلَّ، ولكِنْ يريدُ أن يَستبينَ الأمرَ؛ ماذا تكونُ حالُه مع فِرعونَ وقد اتَّصَف بهذه الصِّفةِ، وهي الخوفُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٤٣).

أي: ويَضيقُ صَدري بسَبَبِ تكذيبِهم إيَّاي، فلا ينشَرِحُ[(١)].

﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾.

أي: ويَنحَبِسُ لساني عندَ مُخاطَبةِ فِرعَونَ[(٢)]، فلا أستطيعُ أن أُبينَ له ما أرسَلْتَني به[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٤٤، ٤٥).

(٢) قال ابن عثيمين في قوله: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ وما كان في لسانِ موسى عليه السلامُ مِن عُقدةٍ قال: (يحتملُ أنَّ العُقدةَ [أي: التي كانت في لسانِه] معنويَّةٌ، بمعنى أنَّه لا يستطيع التعبيرَ بانطلاقٍ وفصاحةٍ. وقوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه: ٢٧، ٢٨]، وقول فرعون في وصفه ﴿ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] يحتمِلُ -وهو الأقربُ- أن تكونَ فيه لُثغةٌ، إمَّا سرعة القولِ بنُطقِ الحروفِ، بحيث تتابَعُ الحروفُ حتى لا تفهَمَ؛ لأنَّ مِن الناس مَن يكونُ كذلك، ليس في لسانِه عُقدةٌ حِسِّيَّةٌ، لكنْ تترادفُ الحروفُ في كلامِه بحيث لا تدري ما يقولُ. أو لأنَّه فيه لُثْغةٌ لا تتبيَّنُ الحروف مِن كلامِه، وكل هذا محتملٌ، وهذه العقدةُ ليست كما ذُكِرَ مِن الجَمرةِ، وأنَّ لها أثرًا حِسيًّا يمنعُه مِن الكلام، بل هي أثَرٌ خِلْقي، يعني بأصلِ الخِلقةِ. ويحتملُ أنَّها جَهلُ البيان، يعني: ليس فصيحًا في خِطابِه وبيانِه وإقناعِه، لكنِ الأوَّلُ أَولى، وأنَّها عقدةٌ معنويَّةٌ، وذلك بصفةِ الكلامِ، بحيث لا تتبيَّنُ الحروفُ في كلامِه؛ إمَّا لعجَلتِه، وإما للثغتِه، أو غير ذلك). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٤٥، ٤٦).

وقال ابن عاشور: (وعَطْفُ ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ على ﴿يَضِيقُ صَدْرِي﴾ يُنبِئُ بأنَّه أراد بضيقِ الصَّدرِ تكاثُرَ خواطِرِ الاستدلالِ في نفْسِه على الَّذين كذَّبوه لِيُقْنِعَهم بصِدقِه، حتَّى يُحِسَّ كأنَّ صدرَه قد امتلأ، والشَّأنُ أنَّ ذلك يَنقُصُ شيئًا بعدَ شيءٍ بمِقدارِ ما يُفصِحُ عنه صاحِبُه مِن إبلاغِه إلى السَّامعينَ، فإذا كانت في لسانِه حُبْسةٌ وعِيٌّ بَقِيَت الخواطِرُ مُتلَجْلِجةً في صدرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٦).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٦).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۞ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۞ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۞ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه: ٢٥ - ٢٨].

﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾.

أي: فأوحِ -يا رَبِّ- إلى أخي هارونَ؛ لِيَكونَ رَسولًا معي فيُعينَني[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۞ هَٰرُونَ أَخِي ۞ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۞ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۞ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۞ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۞ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ۞ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٩ - ٣٦].

﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤﴾.

أي: ولِقَومِ فِرعَونَ دَعوى ذنْبٍ يَطلُبونَني بها؛ لِقَتلي منهم رجُلًا، فأخشَى أن يقتُلوني به[(٢)].

﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ١٥﴾.

﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

أي: قال اللهُ لموسى: لن يَقتُلَك قَومُ فِرعَونَ، فاذهَبْ أنت وأخوك هارونُ إليهم بمُعجِزاتِنا الدَّالَّةِ على صِدْقِكما[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧).

قال ابن عاشور: (قوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ ليس هلَعًا وفرَقًا مِن الموتِ؛ فإنَّه لَمَّا أصبَح في مقامِ الرِّسالةِ ما كان بالذي يُبالي أن يموتَ في سبيلِ الله، ولكِنَّه خَشِيَ العائقَ مِن إتمامِ ما عُهِدَ إليه ممَّا فيه له ثوابٌ جزيلٌ ودرجةٌ عُلْيا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٧، ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٢، ٩٣)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

أي: إنِّي معكما بالتَّأييدِ والحِفظِ، أسمَعُ ما ستَقولانِ لفِرعَونَ وقَومِه، وما سيَرُدُّون به عليكما[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٥، ٤٦].

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: فَأْتِيا -أنت وهارون- إلى فِرعَونَ فقُولَا له: إنَّا مُرسَلانِ إليك مِن خالِقِ ومالِكِ ومُدَبِّرِ العالَمينَ[2].

= كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٨).

قال ابن عطية: (أُمِرَ موسى وهارونُ بخطابٍ لموسى فقط؛ لأنَّ هارونَ ليس بمُكلَّم بإجماع، ولكِنْ قال لموسى: اذهَبا، أي: أنت وأخوك، والآياتُ تعُمُّ جميعَ ما بعَثَهما الله به، وأعظَمُ ذلك العصا... ولا خِلافَ في أنَّ موسى عليه السلامُ هو الذي حمَّله اللهُ أمرَ النبوَّةِ كُلِّها، وأنَّ هارونَ كان نبيًّا رسولًا، مُعِينًا له وزيرًا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٧، ٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٩، ٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠).

وذهَب ابنُ جريرٍ والزجَّاجُ -ونسبه الواحديُّ لجميع النحْويِّينَ- إلى أنَّ الرسولَ هاهنا بمعنى الرِّسالةِ. أي: نحن ذَوو رسالةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٠، ٣١). =

كما قال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦].

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: إنَّا رَسولُ رَبِّ العالَمينَ إليك بأنْ تُطلِقَ -يا فِرعَونُ- بني إسرائيلَ مِن قَهرِك وعَذابِك، وتترُكَهم يسيرونَ معنا إلى الأرضِ المقَدَّسةِ؛ لِيَعبُدوا اللهَ ويُقيموا دينَه(١).

كما قال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه: ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٤-١٠٥].

= وذهَب الأخفشُ وابنُ قُتَيْبةَ إلى أنَّ ﴿رَسُولُ﴾ هنا مفردٌ بمعنَى الجَمعِ، مثل: العدُوِّ والضَّيفِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ [الشعراء: ٧٧]، وقولِه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ [الحجر: ٦٨]. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٦١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٦).

قال البِقاعي: (﴿إِنَّا رَسُولُ﴾ أفرَده مُريدًا به الجِنسَ الصَّالحَ للاثنين؛ إشارةً بالتَّوحيدِ إلى أنَّهما في تعاضُدِهما واتِّفاقِهما كالنَّفسِ الواحدةِ، ولا تخالُفَ؛ لأنَّه إمَّا وقَع مرَّتين كُلُّ واحدةٍ بلَونٍ، أو مرَّةً بما يُفيدُ التثنيةَ والاتِّفاقَ، فساغ التعبيرُ بكلٍّ منهما، ولم يُثَنِّ هنا؛ لأنَّ المقامَ لا اقتضاءَ له للتَّنبيهِ على طلَبِ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المؤازَرةَ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٩).

وقال ابن عثيمين: (ووجهٌ ثالثٌ أن يقالَ: إنَّ الأصلَ في الرِّسالة موسى، وهو واحِدٌ، وهارونُ مُعينٌ ووزيرٌ، وإلَّا فالأصلُ أنَّ موسى هو الرسولُ، كما يوجَدُ في آياتٍ كثيرةٍ ذِكرُ موسى بدُونِ ذِكرِ هارونَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٧، ١٨].

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾.

أي: قال فِرعَونُ لموسى: ألم نَقُمْ بتربيتِك منذُ كنتَ صَغيرًا في المَهدِ[١]؟

﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

أي: ومَكثْتَ عندَنا سِنينَ كثيرةً مِن عُمُرِك تتنعَّمُ بخَيراتِنا[٢]!

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾.

أي: وقتلْتَ رجُلًا منَّا مِن القِبطِ كما تَعلَمُ[٣].

﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: والحالُ أنَّك مِن الجاحِدينَ لنِعمَتِنا عليك؛ حيث جازَيْتَنا على تَربيتِنا لك بقَتلِ رجُلٍ مِنَّا[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٦، ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٨، ٨٩). =

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: قال موسى مُجيبًا لفِرعَونَ: قتلتُ القِبطيَّ خَطأً وأنا مِن الجاهِلينَ، قبْلَ أن يُوحيَ اللهُ إلَيَّ بالرِّسالةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥، ١٦].

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾.

أي: فخرجتُ مِن بينِكم هاربًا منكم؛ خَوفًا مِن أن تقتُلوني بذلك القِبطيِّ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠، ٢١].

﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾.

= قال البغوي: (قال أكثرُ المفسِّرينَ: معنَى قولِه: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني: مِن الجاحِدينَ لنعمتي، وحَقِّ تربيتي، يقولُ: ربَّيْناكَ فينا فكافأْتَنا أنْ قتلْتَ مِنَّا نفْسًا، وكفَرْتَ بنِعمتِنا). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٧، ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠).

أي: فأعطاني ربِّي عِلمًا[(١)].

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

أي: وجعَلَني ربِّي مِن جُملةِ رُسُلِه؛ لأُبلِّغَكم رسالتَه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٦٩).

قال الألوسي: (﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ أي: نبوَّةً أو عِلمًا وفَهمًا للأشياءِ على ما هي عليه، والأوَّلُ مرويٌّ عن السُّدِّي، وتأوَّل بعضُهم ذلك بأنَّه أراد عِلمًا هو مِن خواصِّ النبوَّةِ، فيكونُ الحُكمُ بهذا المعنى أخَصَّ منه بالمعنى الثاني). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٦٩).

ممن اختار أنَّ الحكمَ هنا بمعنى العلمِ والفهمِ في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والثعلبيُّ، والرازي، وجلالُ الدينِ المحليُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٩٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨١).

وقال البقاعي: (﴿حُكْمًا﴾ أي: علمًا أعملُ به عملَ الحكَّامِ الحكماءِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٢).

وقال الشنقيطي: (قولُه: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾، قال بعضُهم: الحُكمُ هنا هو النبوَّةُ، وممَّن يُروى عنه ذلك السُّدِّيُّ. والأظهَرُ عندي: أنَّ الحُكمَ هو العِلمُ الذي علَّمَه الله إيَّاه بالوحْيِ. والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٦/ ٩١).

وذكر ابنُ عثيمين أن تفسيرَ الحُكمِ بالعلمِ تفسيرٌ له بلازمِه؛ لِأَنَّ مِن لازِمِ الحكمِ العلمَ. ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٦٤، ٦٥).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالحكمِ: النبوةُ: يحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والواحدي، والبغوي، والخازنُ، والعليمي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٨).

وممن اختار أنَّ المرادَ: النبوةُ والعلمُ: السمعاني، والنسفي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥٨).

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وتَمُنُّ عليَّ -يا فِرعَونُ- بتربيتِك لي وإنعامِك علَيَّ، وقد اتَّخَذْتَ قَومي بني إسرائيلَ عَبيدًا لك، فكيف تَمُنُّ علَيَّ بهذه النِّعمةِ أنِ استَعبدْتَ بني إسرائيلَ ولم تَستعبِدْني، فهذه ليست نِعمةً(١)؟!

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢، ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٦٦).

قال يحيى بن سلام: (﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢] موسى بقَولِه لفِرعونَ أراد ألَّا يُسوِّغَ عدوَّ اللهِ ما امتَنَّ به عليه، فقال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢] فاتخذْتَ قَومي عبيدًا وكانوا أحرارًا، وأخذْتَ أموالَهم، فأنفقْتَ علَيَّ مِن أموالِهم وربَّيْتني بها، فأنا أحَقُّ بأموالِ قَومي منك). ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٤٩٩، ٥٠٠).

وقال الزمخشري: (كرَّ على امتنانِه عليه بالتربية، فأبطَلَه مِن أصلِه، واستأصَلَه مِن سِنْخِه [أي: أساسِه]، وأبى أن يسمِّيَ نعمَتَه إلَّا نِقمةً؛ حيث بيَّن أنَّ حقيقةَ إنعامِه عليه تعبيدُ بنى إسرائيلَ؛ لأنَّ تعبيدَهم وقَصْدَهم بذبحِ أبنائِهم هو السببُ في حصولِه عندَه وتربيتِه، فكأنَّه امتَنَّ عليه بتعبيدِ قَومِه إذا حَقَّقْتَ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٦).

وقال ابنُ كثير: (أي: وما أحسَنْتَ إليَّ وربَّيْتَني مقابلَ ما أسأتَ إلى بني إسرائيلَ، فجعَلْتَهم عبيدًا وخَدَمًا، تُصَرِّفُهم في أعمالِك ومشاقِّ رعيَّتِك، أفَيَفي إحسانُك إلى رجُلٍ واحدٍ منهم بما أسأْتَ إلى مجموعِهم؟! أي: ليس ما ذكَرْتَه شيئًا بالنِّسبةِ إلى ما فعلْتَ بهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٨).

وقال ابنُ عثيمين: (فكأنَّه يقولُ: تَرْكُ الظُّلمِ بالنِّسبةِ إليَّ لا يُعَدُّ نعمةً؛ لأنَّ الإنسانَ ليس مستحِقًّا له حتى نقولَ: إنَّه عفا عنه وترَكَه... لكِنْ هناك احتِمالٌ آخَرُ، فالإساءةُ إلى قَومِه إساءةٌ له، فكأنَّه يؤكِّدُ نفْيَ النعمةِ، يعني: أين النِّعمةُ وأنت قد عبَّدْتَ بني إسرائيلَ وهم قَومي، فإذا قُدِّرَ أنِّي سَلِمتُ مِن التعبيدِ والظلْمِ، فأنا فَردٌ مِن قبيلةٍ، وقَومي قد عبَّدْتَهم، فأين النِّعمةُ؟!... يعني: يقولُ: أين النِّعمةُ التي أنعمْتَ بها علَيَّ وأنت تُعَبِّدُ بني إسرائيلَ؛ لأنَّ تعبيدَ بني إسرائيلَ خِلافُ النعمةِ في الواقعِ، ومِن المعلومِ أنَّ موسى مِن بني إسرائيلَ، فتعبيدُ بني إسرائيلَ -وهم قومُه- إذلالٌ له، وهذا معنًى جيِّدٌ في الحقيقةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٦٧، ٦٨). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ لم يكنْ ذلك استِعفاءً مِن الرِّسالةِ، بل طَلَب مَن يُعينُه؛ ففي هذا دَليلٌ على أنَّ مَن لا يستَقِلُّ بأمرٍ، ويخافُ مِن نفْسِه تقصيرًا: أن يأخُذَ مَن يستعينُ به عليه[1]، ولا يلحَقُه في ذلك لَومٌ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ دَليلٌ على مَبدأِ تشجيعِ الإنسانِ في مُهمَّتِه، فهنا التَّشجيعُ حَصَلَ مِن ثلاثِ جهاتٍ: إبطالُ الخوفِ بقَولِه: ﴿كَلَّا﴾، واستِصحابُ الدَّليلِ بقولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، والعلمُ بالمُدافِعِ،

= وذهَب الفَرَّاءُ وابنُ جرير إلى أنَّ هذا الكلامَ مِن موسى عليه السلامُ على جهةِ الإقرارِ بالنِّعمةِ، كأنَّه يقولُ: نعمْ، تربيتُك نعمةٌ علَيَّ مِن حيث عبَّدْتَ غيري وترَكْتَني، ولكنْ لا يمنعُ ذلك صحَّةَ رسالتي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٩، ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٥).

(١) قال ابن القيِّم ناقلًا عن غيرِه: (إذا تحرَّكت النفْسُ لعملٍ مِن الأعمالِ وهَمَّ به العبدُ، وقَف أوَّلًا ونظَر: هل ذلك العملُ مقدورٌ له، أو غيرُ مقدورٍ ولا مستطاعٍ؟ فإن لم يكُنْ مقدورًا لم يُقدِمْ عليه، وإن كان مقدورًا وقَف وقفةً أخرى ونظَر: هل فِعلُه خيرٌ له مِن تركِه، أو تركُه خيرٌ له مِن فعلِه؟ فإن كان الثانيَ ترَكه ولم يُقدِمْ عليه، وإن كان الأوَّلَ وقَف وقفةً ثالثةً ونظَر: هل الباعثُ عليه إرادةُ وجهِ الله عزَّ وجلَّ وثوابِه، أو إرادةُ الجاهِ والثناءِ والمالِ مِن المخلوقِ؟ فإن كان الثانيَ لم يُقدِمْ وإنْ أفضَى به إلى مطلوبِه؛ لئلَّا تعتادَ النفسُ الشركَ، ويخِفَّ عليها العملُ لغيرِ الله، فبقَدْرِ ما يخفُّ عليها ذلك يثقُلُ عليها العملُ لله تعالى، حتى يصيرَ أثقلَ شيءٍ عليها، وإن كان الأوَّلَ وقَف وقفةً أخرى ونظَر: هل هو مُعانٌ عليه، وله أعوانٌ يساعدونَه وينصرونَه إذا كان العملُ محتاجًا إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكُنْ له أعوانٌ أمسَك عنه، كما أمسَك النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن الجهادِ بمكَّةَ حتى صار له شوكةٌ وأنصارٌ، وإن وجَده مُعانًا عليه فلْيُقْدِمْ عليه؛ فإنَّه منصورٌ، ولا يفوتُ النجاحُ إلَّا مَن فوَّت خصلةً مِن هذه الخِصالِ، وإلَّا فمع اجتماعِها لا يفوتُه النجاحُ). ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) (١/ ٨١، ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٢).

وهو قولُه: ﴿مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، فكلُّ شيءٍ يَحتاجُ إلى تَشجيعٍ، فينبغي للإنسانِ أنْ يُظهِرَ تشجيعَ صاحبِه حتى يَنشَطَ ويؤدِّيَ الرسالةَ على الوجهِ الأكملِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه أنَّ القومَ والأهلَ وما أشبَهَ ذلك، إذا أُضيفتْ دخَلَ فيها مَن أُضيفتْ له(٢)، ويؤخَذُ ذلك مِن قَولِه: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾، ثمَّ قال هنا: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾؛ فدلَّ ذلك على أنَّ فِرعَونَ منهم(٣).

٢- إثباتُ النِّداءِ للهِ سُبحانه وتعالى؛ لقولِه: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ﴾ فيكونُ كلامُه بصوتٍ على هذا؛ وأنَّه بحَرفٍ؛ قال تعالى: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ كلُّها حروفٌ(٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دليلٌ على فضْلِ اللهِ سُبحانه وتعالى على الخَلقِ لإرسالِه الرُّسُلَ؛ فإرسالُ الرُّسُلِ دَليلٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٥٢).

(٢) قال ابن القيِّم: (الرجُلُ حيثُ أُضيفَ إلى آلِه دخَل فيه هو؛ كقولِه تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقولِه تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]. وقولِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «اللهمَّ صلِّ على آلِ أبي أوفى». وهذا إذا لم يُذكَرْ معه مَن أُضيف إليه الآلُ، وأمَّا إذا ذُكر معه فقد يُقالُ: ذُكِر مفردًا وداخلًا في الآلِ، وقد يُقالُ: ذِكرُه مفردًا أغنى عن ذِكرِه مضافًا، والأهلُ بخلافِ ذلك، فإذا قلتَ: جاء أهلُ زيدٍ؛ لم يدخُلْ فيهم...). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١).

فضْلِ اللهِ على الخَلْقِ، وعنايتِه بهم؛ لأنَّ الخلْقَ مهما أُوتوا مِن ذكاءٍ لا يُمكِنُهم أنْ يُدرِكوا ما يَجِبُ للهِ سُبحانَه وتعالى على التَّفصيلِ، والعاقِلُ يُدرِكُ ما يجِبُ لله على وَجهِ الإتمام، فإدراكُه أنَّ له الكمالَ المُطلَقَ، وأنَّه المُستحِقُّ العبادةَ على وَجهِ التَّفصيلِ لا يمكِنُ إلَّا عن طريقِ الرُّسُلِ؛ ولهذا قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾[1] [النساء: ١٦٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ دَليلٌ على أنَّه لا بأسَ في الإجمالِ في الكلام؛ بشرطِ أنْ يأتيَ التَّفصيلُ، وفائدةُ الإجمالِ ثمَّ التفصيلِ بعْدَه الاهتِمامُ، فيكونُ مُتَشوِّفًا ومتطلِّعًا لهذا المُجمَلِ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ...﴾ إلى آخرِ الآياتِ سؤالٌ، وهو: كيف ساغَ لِموسى عليه السَّلامُ أنْ يأمُرَه ربُّه بأمرٍ فلا يَقبَلَه بسَمعٍ وطاعةٍ مِن غيرِ توقُّفٍ وتشبُّثٍ بعِلَلٍ، وقد عَلِمَ أنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بحالِه؟!

أُجيبَ: بأنَّه قد امتثلَ وتقبَّلَ، ولكِنَّه التمَسَ مِن ربِّه أن يُعَضِّدَه بأخيه؛ حتى يتعاونَا على تنفيذِ أمرِه، وتبليغِ رسالتِه، فمَهَّدَ قبْلَ التماسِه عُذرًا فيما التمَسَه، ثمَّ التمسَ بعْدَ ذلك، وتمهيدُ العُذرِ في التِماسِ المُعينِ على تنفيذِ الأمرِ ليس بتوقُّفٍ في امتثالِ الأمرِ، ولا بتعَلُّلٍ فيه، وكفى بطَلَبِ العَونِ دليلًا على التقَبُّلِ، لا على التعَلُّلِ[3].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ فيه جوازُ الخَوفِ الطبيعيِّ، وأنَّه ليس بشِركٍ[4]، فقد خاف موسى أنْ يَقْتلوه به، فدلَّ هذا على أنَّ الخوفَ قد يصحَبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٤٨). =

الأنبياءَ والفضلاءَ والأولياءَ معَ معرفتِهم بالله، وأنَّه لا يقعُ شَيءٌ إلَّا بمشيئتِه وقُدرتِه؛ إذْ قد يسَلِّطُ مَن شاء على مَن شاء[١].

٧- جوازُ بيانِ الإنسانِ حالَه إذا لم يَقصِدْ به الشَّكوى؛ لِقولِه تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾، فإنَّ هذا وَصفٌ له في الضَّعْفِ، وعدَمِ التحَمُّلِ نفسيًّا بضِيقِ الصَّدرِ، وعدمِ الكلامِ المتقَنِ؛ لكونِه لا يَنطلِقُ لسانُه[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ جوازُ ذِكرِ الوسائلِ التي تَستوجِبُ القَبولَ في الدُّعاءِ؛ حيث ذَكَر معلوماتٍ كثيرةً؛ بكونِه يَضيقُ صَدرُه، ولا يَنطَلِقُ لسانُه، وهذا مِن بابِ التوسُّلِ الزَّائدِ، فذِكرُ حالِه مِن الوسائلِ التي تستوجِبُ قَبولَ دُعائِه[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ إثباتُ المَعِيَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ، وفي الحقيقةِ معناها: المُصاحبةُ المطْلَقةُ، ولكِنَّها في كلِّ شَيءٍ بحسَبِه، فنقولُ مثلًا:

= فالخوفُ الطبيعيُّ الأصلُ أنَّه مباحٌ لوجودِ أسبابِه، بل مشروعٌ، كخَوفِ الإنسانِ مِن اللصوصِ فيُغلِق بابَه، ويحفظ متاعَه، ومِن السباعِ والحياتِ والعقاربِ فيأخذ حذرَه بالأسبابِ الشرعيةِ المباحةِ.

وقد يكونُ الخوفُ محرَّمًا إن كان الخوفُ مِن شيءٍ لا يؤثِّرُ على الإنسانِ، فيحملُه ذلك الخوفُ على تركِ واجبٍ أو فعلِ محرَّمٍ.

وقد يكونُ شركًا ويسمَّى خوفَ السرِّ،كالخوفِ مِن أصحابِ القبورِ أو غيرِهم مِن الغائبينَ، واعتقادِ نفعِهم وضرِّهم بقدرتِهم الخاصَّةِ. يُنظر: ((فتح المجيد شرح كتاب التوحيد)) لعبد الرحمن بن حسن (ص: ٣٤٤)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٨/ ٢٨١)، ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٧).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

سقاني لبنًا معه ماءٌ، فهذه تقتضي الامتزاجَ والاختلاطَ، فتفسيرُ مَعِيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالإحاطةِ عِلمًا وقُدرةً وسُلطانًا، وبصرًا وسمعًا، وغيرَ ذلك مِن معاني الرُّبوبيَّةِ: ليس تفسيرُها بذلك مِن بابِ التَّأويلِ، بل مِن بابِ ذِكرِ الحقيقةِ؛ لأنَّها بحسَبِ ما تُضافُ إليه(١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ حُجَّةٌ واضِحةٌ على مَن يُنكِرُ صِفةَ السَّمعِ للهِ سُبحانَه(٢).

١١- قال الله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في الآيةِ دَليلٌ على أنَّه ينبغي أنْ يُخاطَبَ الإنسانُ بما تقتضيه حالُه؛ فمُنكِرُ الرُّبوبيَّةِ نخاطبُه بإثباتِ الرُّبوبيةِ، ومُنكِرُ الألوهيَّةِ نخاطبُه بإثباتِ الألوهيةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ سؤالٌ؛ كيف قال موسى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ والنَّبيُّ لا يكونُ ضالًّا(٤)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٥٥).

(٤) يُطلَقُ الضلالُ في القرآنِ وفي لغةِ العربِ ثلاثةَ إطلاقاتٍ، ومنها إطلاقُه على: الذهابِ عن معرفةِ حقيقةِ الشيءِ، فكلُّ مَن لم يعرفْ حقيقةَ شيءٍ تقولُ العربُ: «ضلَّ»، وهذا ليس مِن الضلالِ في الدِّينِ، وإنَّما هو الذهابُ عن عِلمِ معرفةِ الشيءِ. وهذا الإطلاقُ كثيرٌ في القرآنِ، ومنه على أصحِّ التفسيراتِ: قولُه تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] أي: ذاهبًا عمَّا تعلَمُه الآنَ مِن العلومِ والأسرارِ، فهداك إليه بالوحيِ؛ لأنَّه لا يُعلَمُ إلَّا بالوحيِ. ومنه بهذا المعنى: قولُ أولادِ يعقوبَ في حقِّ أبيهم: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]، يَعنون: لفي ذهابٍ عن حقيقةِ الأمرِ، حيثُ فضَّل ابنَيْنِ على عشَرةِ بَنينَ، وحيث رجا يوسفَ أنَّه حيٌّ وهو قد مات، فهو ذاهبٌ عن علمِ الحقيقةِ في زعمِهم. ومِن الضلالِ بهذا =

الجوابُ: أراد به: وأنا مِن الجاهلين، أو مِن الناسينَ، كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أو مِن المخطئينَ لا مِن المتعمدين، كما يقالُ: «ضَلَّ عن الطريقِ» إذا عَدَلَ عن الصواب إلى الخطأ[١].

وعلى هذا فيكونُ الضَّلالُ ينقَسِمُ إلى قِسمَينِ؛ الأوَّلُ: ضَلالٌ يُذَمُّ عليه الفاعِلُ أو الضالُّ، والثَّاني: ضَلالٌ لا يُذَمُّ عليه. والضَّلالُ الذي حصَل أو الذي اتَّصَف به موسى حين قَتْلِه القِبطيَّ ضَلالٌ لا يُلامُ عليه؛ لأنَّه لم يأتِه وَحْيٌ ولا رِسالةٌ حينَئذٍ، فهو مَعذورٌ[٢].

١٣- قال الله تعالى: ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، في قَولِه: ﴿مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ولم يقُل: وجعلَني رَسولًا، كالتَّنبيهِ لفرعَونَ أنَّه ليس ببِدْعٍ مِن الرُّسُلِ، وأنَّه لم يأتِ بأمرٍ جَديدٍ، بل إنَّ أمامَه رسُلًا، وقد ذكَرَ الله تعالى في سُورةِ (غافرٍ) أنَّ الرجُلَ المؤمِنَ يقولُ لهم: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ [غافر: ٣٤]، فكأنَّه يقولُ له: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ الذين عندَك خبَرُهم، فلستُ ببِدعٍ مِن الرُّسُلِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

= المعنى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] أي: لا يخفَى عليه عِلمُ شيءٍ، ولا تذهبُ عليه حقيقةُ شيءٍ. ومنه بهذا المعنى قولُه تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ أي: تذهَبَ عن عِلمِ حقيقةِ المشهودِ به بنسيانٍ ونحوِه، ﴿فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾[البقرة: ٢٨٢]. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٢٩)، (٢/ ١٩٧، ١٩٨).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٥).

- كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَقريرِ ما قبْلَه؛ مِن إعراضِهم عن كلِّ ما يأْتيهم مِن الآياتِ التَّنزيليَّةِ وتكذيبِهم بها، إثْرَ بَيانِ إعراضِهم عمَّا يُشاهِدونه مِن الآياتِ التَّكوينيَّةِ[١].

- وهو شُروعٌ في عدِّ آياتٍ على صِدْقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بذِكْرِ عواقبِ المُكذِّبين برُسلِهم؛ لِيَحذَرَ المُخاطَبون بالدَّعوةِ إلى الإسلامِ مِن أنْ يُصِيبَهم ما أصاب المُكذِّبين. وفي ضِمنِ ذلك تَبيينٌ لبعضِ ما نادَى به الرُّسلُ مِن البراهينِ. وإذ قد كانت هذه الأدلَّةُ مِن المَثُلاتِ قُصِدَ ذِكْرُ كثيرٍ اشتُهِرَ منها، ولم يُقتصَرْ على حادثةٍ واحدةٍ؛ لأنَّ الدَّلالةَ غيرَ العقليَّةِ يَتطرَّقُها احتِمالُ عدَمِ المُلازَمةِ بأنْ يكونَ ما أصاب قَومًا مِن أولئك على وجْهِ الصُّدفةِ والاتِّفاقِ، فإذا تبيَّنَ تكرُّرُ أمثالِها ضَعُفَ احتمالُ الاتِّفاقيَّةِ؛ لأنَّ قِياسَ التَّمثيلِ[٢] لا يُفِيد القطْعَ إلَّا بانضمامِ مُقوِّماتٍ له مِن تواتُرٍ وتكرُّرٍ[٣].

- وإنَّما ابتُدِئَ بذِكْرِ قصَّةِ مُوسى ثمَّ قصَّةِ إبراهيمَ، على خلافِ تَرتيبِ حكايةِ القَصصِ الغالبِ في القرآنِ مِن جَعْلِها على تَرتيبِ سَبْقِها في الزَّمانِ؛ لعلَّه لأنَّ السُّورةَ نزَلَت للرَّدِّ على المُشركينَ في إلْحاحِهم على إظهارِ آياتٍ مِن خوارقِ العاداتِ في الكائناتِ، زاعمينَ أنَّهم لا يُؤمِنون إلَّا إذا جاءتْهم آيةٌ؛ فضرَبَ لهم المَثلَ بمُكابَرةِ فِرعونَ وقومِه في آياتِ مُوسى، وعطَفَ ﴿وَإِذْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٥).

(٢) قياسُ التَّمثيلِ: هو: حَملُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المُشتَرَكَ الكُلِّيَّ، مثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ: هو القياسُ الأُصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٢، ١٠٣).

نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ عطْفَ جُملةٍ على جُملةٍ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الشعراء: ٧] بتَمامِها[١].

- و(إذ) مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بمُضمَرٍ خُوطِبَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، أي: واذكُرْ لأولئك المُعرِضينَ المُكذِّبين وقْتَ نِدائه تعالى إيَّاهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذكِّرْهم بما جَرى على قومِ فرعونَ بسَببِ تكذيبِهم إيَّاه؛ زجرًا لهم عمَّا هُم عليه مِن التَّكذيبِ، وتحذيرًا مِن أنْ يَحِيقَ بهم مِثلُ ما حاقَ بأضرابِهم المُكذِّبينَ الظَّالِمين[٢]. وفي هذا المُقدَّرِ تَذكيرٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بما يُسلِّيه عمَّا يَلْقاهُ مِن قَومِه[٣].

- وتَوجيهُ الأمْرِ بالذِّكرِ إلى الوقتِ، مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما وقَعَ فيه مِن الحوادثِ؛ للمُبالَغةِ في إيجابِ ذِكْرِها؛ لِمَا أنَّ إيجابَ ذِكْرِ الوقتِ إيجابٌ لذِكْرِ ما وقَعَ فيه، ولأنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ عليها، فإذا استُحضِرَ كانت حاضرةً بتَفاصيلِها كأنَّها مُشاهَدةٌ عِيانًا[٤].

- قولُه: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾الإتيانُ المأمورُ به هو ذَهابُه لِتَبليغِ الرِّسالةِ إليهم، وهذا إيجازٌ يُبيِّنُه قولُه: ﴿ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦] إلى آخِرِه[٥].

- قولُه: ﴿ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ ﴾ سجَّلَ عليهم بالظُّلمِ بأنْ قدَّمَ ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، ثمَّ عطَفَهم عليهم عطْفَ البَيانِ؛ كأنَّ معنَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٧٩) و(٦/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٤).

﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وتَرجمَتَه ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾، وكأنَّهما عبارتانِ تَعتقِبانِ على مُؤدًّى واحدٍ؛ إنْ شاء ذاكِرُهم عبَّر عنهم بالقومِ الظَّالمينَ، وإنْ شاء عبَّرَ بقومِ فِرعونَ(١).

- واستِحضارُ قومِ فِرعونَ بوَصْفِهم بالقومِ الظَّالمينَ: إيماءٌ إلى عِلَّةِ الإرسالِ. وفي هذا الإجمالِ تَوجيهُ نفْسِ مُوسى لترقُّبِ تَعيينِ هؤلاء القومِ بما يُبيِّنُه، وإثارةٌ لِغَضبِ مُوسى عليهم؛ حتَّى يَنضَمَّ داعي غضَبِه عليهم إلى داعي امتِثالِ أمْرِ اللهِ الباعِثِ إليهم، وذلك أوقَعُ لكلامِه في نُفوسِهم. وفيه إيماءٌ إلى أنَّهم اشْتُهِروا بالظُّلمِ(٢).

- والمقصودُ مِن سَوقِ هذه القِصَّةِ هو الموعظةُ بعاقِبةِ المُكذِّبينَ؛ وذلك عندَ قولِه تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٣- ٦٨]. وأمَّا ما تقدَّمَ ذلك مِن قولِه: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ إلخ، فهو تفصيلٌ لأسبابِ الموعظةِ؛ بذِكْرِ دَعوةِ مُوسى إلى ما أُمِرَ بإبلاغِه، وإعراضِ فرعونَ وقَومِه، وما عقِبَ ذلك إلى الخاتمةِ(٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، فقد عدَلَ هنا عن ذِكْرِ ما ابتُدِئَ به نِداءُ مُوسى ممَّا هو في سُورةِ (طه) بقولِه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ إلى قولِه: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ١٢- ٢٣]؛ لأنَّ المقامَ هنا يَقْتضي الاقتصارَ على ما هو شرحُ دَعوةِ قَومِ فِرعونَ وإعراضِهم؛ للاتِّعاظِ بعاقبتِهم. وأمَّا مقامُ ما في

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٣، ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٠٣).

سُورةِ (طه)؛ فلِبَيانِ كرامةِ مُوسى عندَ ربِّه ورسالتِه معًا، فكان مقامَ إطنابٍ، مع ما في ذلك مِن اختلافِ الأسلوبِ في حِكايةِ القصَّةِ الواحدةِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ فيه الاقتصارُ على ذِكْرِ قومِه؛ للإيذانِ بشُهرةِ أنَّ نفْسَه أوَّلُ داخلٍ في الحُكمِ[٢].

- وفي تَكريرِ كلمةِ (قوم) موقعٌ مِن التَّأكيدِ؛ فلمْ يقُلْ: ائتِ قومَ فِرعونَ الظَّالمينَ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال هنا: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾، وقال في سورةِ (طه): ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]، وقال في سورةِ (القَصص): ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢]؛ فهنا في سورةِ (الشعراء) ذكَرَ قومَ فِرعونَ من دُونِه، ومعلومٌ أنَّه منهم، ومُخاطَبٌ بمثْلِ خِطابِهم، فإذا اتَّقَوا وآمَنُوا، كان فرعونُ وحْدَه لا يَقدِرُ على مُخالَفَتِهم، فترَكَ ذِكْرَه؛ لأنَّه في هذه الحالةِ في حُكْمِ التَّابعِ لهم، وخِطابُهم خِطابُه. وفي سورةِ (طه) ذكَرَ فِرعونَ وحْدَه؛ لأنَّ قومَه تبَعٌ له، وكأنَّهم مذكورونَ معه. أمَّا ما في سورةِ (القصص) فإنَّ الحِكايةَ أتَتْ على فِرعونَ وملَئِه، فبيَّنَت ما انطوَتْ عليه الآياتُ قبْلُ مِنْ ذكْرِ بعضٍ، والاكتفاءِ به عن بعضٍ، وهذا كما قال في موضعٍ لمُوسى وحْدَه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٢٤]، وفي موضعٍ: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٤).

١٠]؛ لأنَّ هارونَ تابعٌ له، وداخِلٌ في حُكْمِه، وأبانَ ذلك في موضعٍ فقال: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، وقال في (طه): ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[(١)] [طه: ٤٧].

- جُملةُ ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ مَستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّه لَمَّا أمَرَه بالإتيانِ إليهم لدَعوتِهم، ووصَفَهم بالظَّالمينَ، كان الكلامُ مُثيرًا لسُؤالٍ في نفْسِ مُوسى عليه السلامُ عن مدَى ظُلْمِهم؛ فجِيءَ بما يدُلُّ على توغُّلِهم في الظُّلم ودوامِهم عليه؛ تقويةً للباعثِ لمُوسى عليه السلامُ على بُلوغِ الغايةِ في الدَّعوةِ، وتَهيئةً لِتلقِّيه تكذيبَهم بدونِ مُفاجأةٍ؛ فيكونُ (ألَا) مِن قولِه: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ مُركَّبًا مِن حرفينِ: همزةِ الاستفهامِ، و(لا) النَّافيةِ. والاستفهامُ لإنكارِ انتفاءِ تَقْواهم، وتعجيبِ مُوسى مِن ذلك؛ فإنَّ مُوسى كان مُطَّلِعًا على أحوالِهم؛ إذ كان قد نشَأَ فيهم، وقد علِمَ مظالِمَهم، وأعظَمُها الإشراكُ وقتْلُ أنبياءِ بني إسرائيلَ. ويجوزُ أنْ يكونَ (ألَا) كلمةً واحدةً؛ هي أداةُ العرضِ والتَّحضيضِ، فتكونَ جُملةُ ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ بَيانًا لجُملةِ ﴿ٱئْتِ﴾، والمعنى: قلْ لهم: ألَا تتَّقون، فحكَى مَقالتَه بمعناها لا بلَفْظِها، وذلك واسعٌ في حِكايةِ القولِ[(٢)].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ فِعلِ ﴿يَتَّقُونَ﴾؛ لِظُهورِ أنَّ المُرادَ: ألَا يتَّقونَ عواقبَ ظُلْمِهم[(٣)].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٩٥، ٨٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٤، ١٠٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٥).

نشَأَ مِن حِكايةِ ما مَضى؛ كأنَّه قِيل: فماذا قال مُوسى عليه السَّلامُ؟ فقِيل: قال مُتضرِّعًا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ...﴾[١].

- وفي افتِتاحِ مُراجعَتِه بنِداءِ اللهِ بوصْفِ الرَّبِّ مُضافًا إليه: تَحنينٌ واستسلامٌ[٢]. وجعَلَ نفْسَه خائفًا مِن التَّكذيبِ؛ لأنَّه لمَّا خُلِعَت عليه الرِّسالةُ عن اللهِ، وقَرَ في صَدْرِه الحِرصُ على نَجاحِ رِسالتِه؛ فكان تَكذيبُه فيها مَخُوفًا منه[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَضِيقُ... وَلَا يَنْطَلِقُ﴾ جاء الفِعلانِ مرفوعينِ عطْفًا على ﴿فَأَخَافُ﴾؛ ولذلك حقَّقهُ بحرْفِ التَّأكيدِ؛ لأنَّه أيقَنَ بحُصولِ ذلك؛ لأنَّه جِبلِّيٌّ عندَ تلقِّي التَّكذيبِ، ولأنَّ أمانةَ الرِّسالةِ والحرصَ على تَنفيذِ مُرادِ اللهِ يُحدِثُ ذلك في نفْسِه لا مَحالةَ، وإذ قد كان انحِباسُ لِسانِه يقينًا عندَه؛ لأنَّه كان كذلك، مِن أجْلِ ذلك التَّيقُّنِ كان فِعلَا ﴿يَضِيقُ... وَلَا يَنْطَلِقُ﴾ معطوفينِ على ما هو مُحقَّقٌ عنده، وهو حصولُ الخوفِ مِن التَّكذيبِ، ولم يكونَا معطوفينِ على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾ المَخُوفِ منه المُتوقَّعِ، على أنَّ كونَه مُحقَّقَ الحُصولِ يَجعَلُه أحْرى مِن المُتوقَّعِ[٤].

- وهذا الكلامُ كَلامٌ مُختصَرٌ، وقد بسَطَه في غَيرِ هذا الموضعِ، وقد أحسَنَ في الاختصارِ؛ حيثُ قال: ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾؛ فجاء بما يتضمَّنُ معنى الاستنباءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٧).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا في سُورةِ (الشُّعراءِ): ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ فكَنَّى عن العُقدةِ بما يَقْرُبُ مِن الصَّريحِ، وفي (القَصصِ): ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤] فكَنَّى عن العقدةِ كنايةً مبهَمةً؛ لأنَّ الأولَ يدُلُّ على ذلك، وفي سورةِ (طه) قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ [طه: ٢٧] صَرَّحَ بالعُقدةِ؛ لأنَّها السابقةُ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حَيثُ قال هنا في (الشُّعراءِ): ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾، وقال في سُورةِ (طه): ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَـٰرُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩، ٣٠] صَرَّحَ بالوزيرِ؛ لأنَّه الأولُ في الذِّكْرِ، وكنَّى عنه هنا في (الشُّعراءِ) فقال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾، أي: لِيأتيَني؛ فيكونَ لي وزيرًا، وفي (القَصصِ): ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ [القصص: ٣٤]، أي: اجْعَلْه لي وزيرًا؛ فكَنَّى عنه بقولِه: ﴿رِدْءًا﴾؛ لبيانِ الأولِ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾، أي: ولهم عليَّ تَبِعةُ ذنْبٍ، وهي قَوَدُ ذلك القتْلِ، فأخافُ أنْ يَقْتلوني به؛ فحُذِفَ المُضافُ. أو سمَّى تَبِعةَ الذنْبِ ذنْبًا كما سُمِّيَ جزاءُ السَّيِّئةِ سَيِّئةً[٣]. وسمَّاهُ ذنْبًا بحسَبِ ما في شرعِ القبْطِ؛ فإنَّه لم يكُنْ يومَئذٍ شرعٌ إلهيٌّ في أحكامِ قتْلِ النَّفسِ. ويصِحُّ أنْ يكونَ سمَّاهُ ذنْبًا؛ لأنَّ قتْلَ أحدٍ في غيرِ قِصاصٍ ولا دفاعٍ عن نفْسِ المُدافعِ يُعتبَرُ جُرْمًا في قوانينِ

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٧).

جماعاتِ البشرِ مِن عهْدِ قتَلَ أحدُ ابنَيْ آدمَ أخاهُ[١].

- وحُذِفَت ياءُ المُتكلِّمِ مِن ﴿يَقْتُلُونِ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ[٢].

- وفيه: تَعريضٌ بسُؤالِ النَّصرِ والتَّأييدِ، وأنْ يَكْفِيَه شرَّ عدُوِّه؛ حتَّى يُؤدِّيَ ما عهِدَ اللهُ إليه على أكمَلِ وجْهٍ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾

- ﴿كَلَّا﴾ حَرفُ إبطالٍ، والإبطالُ لقولِه: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]، أي: لا يَقْتلونك. وفي هذا الإبطالِ استجابةٌ لِمَا تضمَّنَه التَّعريضُ بالدُّعاءِ حينَ قال: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]. وقولُه: ﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ تَفريعٌ على مُفادِ كلمةِ (كلَّا)[٤].

- قولُه: ﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وجَّه الخِطابَ إليهما بطريقِ التَّغليبِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ رَمزٌ إلى أنَّها تَدفَعُ ما يَخافُه[٦]. وفيه: وعدٌ بالتَّأييدِ بمُعجزاتٍ تَظهَرُ عندَ الحاجةِ[٧].

٧- قولُه: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ أمْرَهما بالذَّهابِ إلى فِرعونَ يُثيرُ في النفْسِ أنْ يَتعامَى فِرعونُ عن الآياتِ، ولا يَرْعوي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٨).

عندَ رُؤيتِها عن إلْحاقِ أذًى بهما؛ فأُجيبَ بأنَّ اللهَ معهما، ومُستمِعٌ لكلامِهما وما يُجيبُ فِرعونُ به[١]، ولازمُ ذلك تأييدُهما، وكفُّ فِرعونَ عن أذاهُما.

- قولُه: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ تَعليلٌ للرَّدعِ عن الخَوفِ، ومَزيدُ تَسليةٍ لهما بضَمانِ كَمالِ الحِفظِ والنُّصرةِ[٢].

- وقولُه: ﴿مَعَكُم﴾ قِيل: هو على ظاهِرِه مِن الجَمْعِ، والمُرادُ مُوسى وهارونُ ومَن أُرْسِلَا إليه، حيثُ كان الموعدُ بمَحْضَرٍ من فِرعونَ؛ فاعتُبِرَ هاهنا في المعيَّةِ[٣].

- وقولُه: ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ أشدُّ مُبالَغةً مِن (سامِعون)؛ لأنَّ أصلَ الاستماعِ أنَّه تكلُّفُ السَّماعِ، ولازمُ ذلك العِنايةُ واللُّطفُ. والجمْعُ بيْن قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وقولِه: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾: تأكيدٌ للطَّمأنةِ، ورِباطةٌ لِجأْشِهما[٤].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ الفاءُ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها مِن الوعدِ الكريمِ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ وحَّدَ كلِمةَ رسولٍ في قولِه: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وثنَّاها في قولِه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. ووجْهُه: أنَّ الرَّسولَ يكونُ بمعنى المُرسَلِ، وبمعنى الرِّسالةِ، فجُعِلَ ثَمَّ بمعنى المُرسَلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٧).

فلم يكُنْ بُدٌّ مِن تَثْنيتِه، وجُعِلَ هاهنا بمعنى الرِّسالةِ، فجاز التَّسويةُ فيه -إذا وُصِفَ به- بيْن الواحدِ والتَّثنيةِ والجمْعِ، كما يُفعَلُ بالوَصفِ بالمصادرِ. ويجوزُ أنْ يُوحَّدَ؛ لأنَّ حُكْمَهما -لِتَسانُدِهما، واتِّفاقِهما على شريعةٍ واحدةٍ، واتِّحادِهما لذلك، وللأُخوَّةِ- كان حُكْمًا واحدًا؛ فكأنَّهما رسولٌ واحدٌ. أو أُرِيدَ أنَّ كلَّ واحدٍ منَّا رسولٌ. أو أفرَدَهُ نظرًا إلى مُوسى؛ لأنَّه الأصلُ، وهارونُ تَبَعٌ له[١].

- وخِطابُهما فِرعونَ بأنْ وصَفَا اللهَ بصِفَةِ ربِّ العالَمينَ: مُجابَهةٌ لفِرعونَ بأنَّه مَربوبٌ وليس بربٍّ، وإثباتُ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى للعالَمينَ يَقْتضي وَحدانيَّةَ اللهِ تعالى؛ لأنَّ العالَمينَ شاملٌ جميعَ الكائناتِ؛ فيَشملُ معبوداتِ القِبْطِ؛ كالشَّمسِ وغيرِها، فهذه كلمةٌ جامعةٌ لِمَا يجبُ اعتقادُه يومَئذٍ[٢]. ونقْضٌ لما كان أبرَمَهُ فرعونُ مِن ادِّعاءِ الألوهيَّةِ[٣].

٩- قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾ طُوِيَ مِن الكلامِ ذَهابُ مُوسى وهارونَ إلى فِرعونَ، واستِئذانُهما عليه، وإبلاغُهما ما أمَرَهما اللهُ أنْ يقولَا لفِرعونَ؛ إيجازًا للكلامِ. وهذا النَّوعُ مِن الاختصارِ كثيرٌ في التَّنزيلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٤، ٣٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٧، ٤٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٠).

- ووجَّهَ فِرعونُ خِطابَه إلى مُوسى وحْدَه؛ لأنَّه علِمَ مِن تَفصيلِ كلامِ مُوسى وهارونَ أنَّ مُوسى هو الرَّسولُ بالأصالةِ، وأنَّ هارونَ كان عَونًا له على التَّبليغِ؛ فلمْ يَشتغِلْ بالكلامِ مع هارونَ(١).

- وأعرَضَ فِرعونُ عن الاعتِناءِ بإبطالِ دَعوةِ مُوسى، فعدَلَ إلى تَذكيرِه بتربيتِه فيهم، وتَخويفِه مِن جِنايتِه؛ حُسبانًا بأنَّ ذلك يَقتلعُ الدَّعوةَ مِن أصْلِها، ويكُفُّ مُوسى عنها، وقصْدُه مِن هذا الخِطابِ إفحامُ مُوسى؛ كي يَتلعثَمَ مِن خشيةِ فِرعونَ؛ حيث أوجَدَ له سببًا يتذرَّعُ به إلى قتْلِه، ويكونُ مَعذورًا فيه؛ حيث كفَرَ نِعمةَ الولايةِ بالتَّربيةِ، واقترَفَ جُرمَ الجِنايةِ على الأنفُسِ(٢).

- قولُه: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ الاستفهامُ تقريريٌّ. وجعَلَ التَّقريرَ على نفْيِ التَّربيةِ مع أنَّ المقصودَ الإقرارُ بوُقوعِ التَّربيةِ؛ مُجاراةً لحالِ مُوسى في نظَرِ فِرعونَ؛ إذ رأى في هذا الكلامِ جُرأةً عليه، لا تُناسِبُ حالَ مَن هو مَمنونٌ لأُسرتِه بالتَّربيةِ؛ لأنَّها تَقْتضي المحبَّةَ والبِرَّ، فكأنَّه يُرْخِي له العِنانَ بتَلقينِ أنْ يَجحَدَ أنَّه مُربًّى فيهم، حتَّى إذا أقَرَّ ولم يُنكِرْ، كان الإقرارُ سالمًا مِن التَّعلُّلِ بخَوفٍ أو ضغْطٍ؛ فهذا وجْهُ تَسليطِ الاستِفهامِ التَّقريريِّ على النَّفيِ في حينِ أنَّ المُقرَّرَ به ثابتٌ. والتَّقريرُ مُستعمَلٌ في لازمِه؛ وهو أنْ يُقابِلَ المُقرَّرَ عليه بالبِرِّ والطَّاعةِ، لا بالجَفاءِ. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ الاستفهامُ إنكاريًّا عليه؛ لأنَّ لِسانَ حالِ مُوسى في نظَرِ فِرعونَ حالُ مَن يَجحَدُ أنَّه مُربًّى فيهم، ومَن يظُنُّ نِسيانَهم لفِعْلَتِه، فأنكَرَ فِرعونُ عليه ذلك. وكِلا الوجهينِ لا يَخلو مِن تَنزيلِ مُوسى مَنزلةَ مَن يَجحَدُ ذلك(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١١١).

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

- وبَّخَه بما جَرى على يَدِه مِن قتْلِ نفْسٍ منهم، وعظَّمَ ذلك وفظَّعَه، وعبَّرَ عنها بالمَوصولِ ﴿ٱلَّتِي﴾؛ لعِلْمِ مُوسى بها، وفي ذلك تهويلٌ للفَعلةِ، وفي العُدولِ عن ذِكْرِ فَعلةٍ مُعيَّنةٍ إلى ذِكْرِها مُبهمةً مُضافةً إلى ضَميرِه، ثمَّ وصْفِها بما لا يَزيدُ على معنَى الموصوفِ: تَهويلٌ مُرادٌ به التَّفظيعُ، وأن ذلك لِفَظاعتِه ممَّا لا يُنطَقُ به إلَّا مَكنيًّا عنه، وأنَّها مُشتهِرةٌ مَعلومةٌ، مع تَحقيقِ إلْصاقِ تَبِعَتِها به؛ حتَّى لا يجِدَ تنصُّلًا منها[1].

١١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾

- ابتدَأَ بالإقرارِ بفَعلتِه؛ ليَعلَمَ فِرعونُ أنَّه لم يَجِدْ لكلامِه مدخلَ تأثيرٍ في نفْسِ مُوسى. وأخَّرَ مُوسى الجوابَ عن قولِ فِرعونَ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]؛ لأنَّه علِمَ أنَّ القصْدَ منه الإقصارُ مِن مُواجَهتِه بأنَّ ربًّا أعلى مِن فِرعونَ أرسَلَ مُوسى إليه. وابتدَأَ بالجوابِ عن الأهمِّ مِن كلامِ فِرعونَ، وهو ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ [الشعراء: ١٩]؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّه أدخَلُ في قَصْدِ الإفحامِ، ولِيُظهِرَ لفِرعونَ أنَّه لا يَوْجَلُ مِن أنْ يُطالِبوه بثأرِ ذلك القَتيلِ؛ ثِقةً بأنَّ اللهَ يُنجِّيه مِن عُدوانِهم[2].

- وقيل: أجابَ مُوسى عن كَلامِه الأخيرِ المُتضمِّنِ للقتلِ؛ إذ كان الاعتذارُ فيه أهَمَّ مِن الجوابِ في ذِكْرِ النِّعمةِ بالتَّربيةِ؛ لأنَّه فيه إزهاقُ النَّفْسِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٦).

- وقدَّمَ ﴿فَعَلْتُهَآ﴾ على (إذنْ)؛ مُبادَرةً بالإقرارِ؛ ليَكونَ كِنايةً عن عدَمِ خَشيتِه مِن هذا الإقرارِ[١].

- كلمةُ (إذنْ) هنا قيل: هي حرفُ جوابٍ وجزاءٍ، ومعنى الجزاءِ في قولِه: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أنَّ قولَ فرعونَ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ قصَد به إفحامَ مُوسى وتَهديدَه، فجعَلَ مُوسى الاعترافَ بالفَعلةِ جزاءً لذلك التَّهديدِ على طَريقةِ القولِ بالمُوجَبِ[٢]، أي: لا أتهيَّبُ ما أردْتَ[٣].

- وجوابُ مُوسى فيه اعترافٌ بظاهرِ التَّقريرِ، وإبطالٌ لِمَا يَستتْبِعُه مِن جَعْلِه حُجَّةً لتكذيبِه برسالتِه عن اللهِ؛ ولذلك قابَلَ قولَ فِرعونَ: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩] بقولِه: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ إبطالًا لأنْ يكونَ يومَئذٍ كافرًا، ولذلك كان هذا أهَمَّ بالإبطالِ. وبهذا يَظهَرُ وجْهُ الاسترسالِ في الجوابِ بقولِه: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١]، أي: فكان فِراري قد عقِبَه أنَّ اللهَ أنعَمَ عليَّ، فأصلَحَ حالي وعلَّمَني، وهَداني وأرسَلَني؛ فليس ذلك مِن مُوسى مُجرَّدَ إطنابٍ، بل لأنَّه يُفيد معنَى أنَّ الإنسانَ ابنُ يَومِه لا ابنُ أمْسِه، والأحوالُ بأواخرِها، فلا عجَبَ فيما قصدْتُ؛ فإنَّ اللهَ أعلَمُ حيثُ يَجعَلُ رِسالاتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٣).

(٢) القولُ بالموجَبِ: هو عبارةٌ عن تسليمِ مقتضَى ما جعَله المستدِلُّ دليلًا لحُكمٍ، مع بقاءِ الخلافِ بيْنَهما فيه. أو: تسليمُ الدَّليلِ معَ بقاءِ النزاعِ، ومعنى ذلك: أن يسلمَ الخصمُ الدليلَ الذى استدلَّ به المستدِلُّ، إلَّا أنَّه يقولُ: هذا الدليلُ ليس فى محلِّ النزاعِ، إنَّما هو في غيرِه؛ فيبقَى الخلافُ بيْنَهما. يُنظر: ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٨٩)، ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) للإسنوي (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٢- قولُه تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ جمعَ الضَّميرَ في ﴿مِنكُمْ﴾ و ﴿خِفْتُكُمْ﴾ مع إفرادِه في ﴿تَمُنُّهَا﴾ و ﴿عَبَّدتَّ﴾؛ لأنَّ الخوفَ والفِرارَ لم يكونَا منه وحْدَه، ولكنْ منه ومِن مَلَئِه المُؤتمرينَ بقتْلِه؛ بدليلِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠]، وأمَّا الامتنانُ فمِنْهُ وحْدَه، وكذلك التَّعبيدُ(١).

١٣- قولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

- قولُه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ...﴾ عادَ إلى أوَّلِ الكلامِ، فكَرَّ على امتنانِه عليه بالتَّربيةِ فأبطَله، وأبى أنْ يُسمِّيَه نِعمةً؛ فقولُه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ إشارةٌ إلى النِّعمةِ الَّتي اقتضاها الامتنانُ في كلامِ فِرعونَ؛ إذ الامتنانُ لا يكونُ إلَّا بنِعمةٍ. ثمَّ إنْ جعلْتَ جُملةَ ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ بَيانًا لاسمِ الإشارةِ، كان ذلك لزيادةِ تَقريرِ المعنى، مع ما فيه مِن قلْبِ مقصودِ فِرعونَ، وهو على حدِّ قولِه تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]؛ إذ قولُه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بَيانٌ لقولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ في مَحلِّ نصْبٍ على نزْعِ الخافضِ، وهو لامُ التَّعليلِ، والتَّقديرُ: لأنْ عبَّدْتَ بني إسرائيلَ. وقيل: الكلامُ استفهامٌ بحذْفِ الهمزةِ، وهو استفهامُ إنكارٍ. وكلامُ مُوسى على التَّقاديرِ الثَّلاثةِ نقْضٌ لامتنانِ فِرعونَ؛ بقلْبِ النِّعمةِ نِقمةً، بتَذكيرِه أنَّ نِعمةَ تَربيتِه ما كانت إلَّا بسَببِ إذلالِ بني إسرائيلَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٨).

الآيات (٢٢-٢٧)

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِلْمَلَإِ﴾: أي: أشرافِ النَّاسِ ووُجوهِهم؛ لأنَّهم يَملؤون العيونَ منظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجَلالًا، وأصلُ (ملأ): يدُلُّ على الكَمالِ في الشَّيءِ[1].

﴿أَرْجِهْ﴾: أي: أخِّرْهُ، وأصلُ الإرجاءِ: التَّأخيرُ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى حاكيًا تعنُّتَ فرعونَ في محاورتِه لموسى عليه السلامُ وتمرُّدَه: قال فِرعَونُ مُنكِرًا مَعرفتَه برَبِّه: وما رَبُّ العالَمينَ الذي أرسلَك كما تزعُمُ يا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٧).

موسى؟! قال موسى: هو خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، ومالِكُ كُلِّ ذلك إنْ كنتُم تُوقِنون. قال فِرعَونُ لِمَن حَوْلَه مِن الملأ: ألَا تَستَمِعون إلى ما يقولُه موسى؟! قال موسى: اللهُ هو ربُّكم وربُّ آبائِكم مِن قَبْلِكم. قال فِرعَونُ معانِدًا للحقِّ، قادحًا بمَن جاء به: إنَّ موسى -الذي يزعُمُ أنَّه رسولٌ إليكم- مجنونٌ!

قال موسى: هو ربُّ المشرِقِ والمَغرِبِ وما بيْنَهما إنْ كنتُم تَعقِلون.

قال فِرعَونُ مُهدِّدًا موسى عليه السلامُ بعدَ أنْ عجَز عن دفعِ حُجَّتِه: لَئِنِ اتَّخذْتَ مَعبودًا غيري لأُصَيِّرَنَّك مِن المَسجونينَ. قال موسى: أتَسجُنُني ولو أتيتُك بمُعجزةٍ ظاهرةٍ تُبَيِّنُ صِحَّةَ ما جِئتُك به؟ قال فِرعَونُ لموسى: فأْتِ بمُعجِزتِك هذه إنْ كنتَ صادقًا. فرَمى موسى عصاهُ على الأرضِ فانقَلَبت حيَّةً ضَخمةً ظاهِرةَ الوُضوحِ، وأخرَج يَدَه مِن فَتحةِ قَميصِه العُلويَّةِ فإذا هي بَيضاءُ تَلمَعُ، فقال فِرعونُ لِمَن حوْلَه: إنَّ هذا لساحِرٌ ذو عِلمٍ بالسِّحرِ، يريدُ أن يُخرِجَكم مِن أرضِكم بسِحرِه، فماذا تُشيرون علَيَّ مِن الرأيِ في شأنِه؟ فقالوا له: أخِّرْ موسى وأخاه هارونَ وأمهِلْهما، وابعَثْ في مُدُنِ المَملكةِ مَن يَجمَعون السَّحَرةَ إليك؛ يأتوك بكُلِّ ساحرٍ عليمٍ ماهرٍ؛ لِيُعارِضوا ما جاء به موسى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي: قال فِرعَونُ مُنكِرًا مَعرِفتَه باللهِ: وما ربُّ العالَمين الذي تَزعُمُ -يا موسى- أنَّه أرسَلَك، وأنَّه يَستَحِقُّ العبادةَ[1]؟!

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٦/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣، ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٦٩، ٧٠).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩].

وقال سُبحانَه حاكِيًا قَولَ فِرعَونَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: قال موسى: هو خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ، ومالِكُهنَّ ومُدبِّرُهن وما بيْنَهنَّ، فإن كنتُم تُوقِنون حقًّا[1] فأيقِنوا بأنَّ اللهَ هو الخالِقُ؛ لظهورِ ذلك بلا خَفاءٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: قال فِرعَونُ للَّذين حوْلَه مِن أشرافِ قَومِه: ألَا تَستَمِعون إلى ما يقولُه موسى، وتَعجَبون مِن قَولِه[3]؟!

---

(١) قال ابن الجوزي: (في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ قولان؛ أحدُهما: أنَّه خَلَقَ السمواتِ والأرضَ. والثاني: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أنَّ ما تُعاينونه كما تُعاينونه، فكذلك فأيقِنوا أنَّ ربَّ العالَمينَ ربُّ السَّمواتِ والأرضِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٣٨).

وقال ابن عثيمين: (التقدير: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: مِن ذوي الإيقانِ، فأيقِنوا بذلك؛ لأنَّه لا أحدَ يقدِرُ على خلقِ السمواتِ والأرضَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٨)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (خاطَبه موسى بما بيَّن له أنه أعرَفُ مِنْ أنْ يُنكَرَ، وأعظمُ مِنْ أنْ يُجحَدَ). ((منهاج السنة النبوية)) (١/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ٧٢، ٧٣).

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: قال موسى: اللهُ الذي أدعوكم إلى عبادتِه هو ربُّكم الذي خلَقَكم وخلَقَ آباءَكم الذين مِن قَبْلِكم، ومالِكُكم ومدبِّرُ شؤونِكم، فكيف يمكِنُ أن يكونَ مَن سِوى اللهِ ربًّا[1]؟!

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: قال فِرعَونُ مُتهَكِّمًا: إنَّ موسى الذي يزعُمُ أنَّه رسولٌ إليكم لا عَقلَ له، ويقولُ ما لا نعلَمُ حَقيقتَه[2]!

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: قال موسى لفِرعَونَ وقَومِه: الَّذي أدعوكم إلى عبادتِه هو رَبُّ المشرِقِ والمَغرِبِ وما بيْنَهما وما يَحدُثُ فيهما، وليس مُلكُه ناقِصًا كمُلكِكم، فإن كانت لكم عُقولٌ تَعرِفونَ بها صِحَّةَ كلامي، فآمِنوا باللهِ وحْدَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٧٤).

قال ابن جُزَي: (زاد موسى في إقامةِ الحُجَّةِ بقولِه: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ لأنَّ وجودَ الإنسانِ وآبائِه أظهَرُ الأدلَّةِ عندَ العقلاءِ، وأعظَمُ البراهينِ؛ فإنَّ أنفُسَهم أقرَبُ الأشياءِ إليهم، فيَستدِلُّون بها على وجودِ خالِقِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٨، ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٣، ٥٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٧٧، ٧٨).

قال ابنُ كثير: (أي: هو الذي جعَل المشرِقَ مَشرِقًا تطلُعُ منه الكواكِبُ، والمغربَ مغرِبًا =

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قامت على فِرعونَ الحُجَّةُ بالبيانِ والعقلِ، وغُلِبَ وانقطَعَت حُجَّتُه، عدَل إلى استعمالِ جاهِه وقُوَّتِه وسُلطانِه، وأراد أن يَقهرَ موسَى بيَدِه وسلطانِه، وظنَّ أنَّه ليس وراءَ هذا المقامِ مقالٌ، واعتقدَ أنَّ ذلك نافعٌ له ونافِذٌ في موسى عليه السَّلامُ، فقال ما أخبَرَ الله تعالى عنه[1]، عادلًا عن الحِجَاجِ -بعْدَ الخوضِ فيه- إلى المغالَبةِ الَّتي هي أبْيَنُ علاماتِ الانقطاعِ[2]:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩﴾.

أي: قال فِرعَونُ متهدِّدًا موسى عليه السَّلامُ: لئِنْ أصرَرْتَ -يا موسى- على عبادةِ مَعبودٍ غيري، لأُصَيِّرَنَّك مِن جُملةِ المحبوسينَ المعذَّبينَ في سُجوني[3].

﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا رأى موسى عليه السَّلامُ مِن مكابرةِ فرعونَ عن الاعترافِ بدَلالةِ النَّظَرِ

= تغرُبُ فيه الكواكِبُ؛ ثوابتُها وسيَّاراتُها، مع هذا النظامِ الذي سخَّرها فيه وقَدَّرها، فإنْ كان هذا الذي يزعُمُ أنَّه ربُّكم وإلهُكم صادقًا، فلْيَعكِسِ الأمرَ، ولْيجعَلِ المشرِقَ مَغرِبًا، والمغرِبَ مَشرِقًا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (فبيَّن له موسى أنَّكم الذين سُلِبْتُم العقلَ النَّافعَ، وأنتم أحَقُّ بهذا الوَصفِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٢).

ما لا مَطمَعَ معه إلى الاسترسالِ في الاستِدلالِ؛ لأنَّه مُتعامٍ عن الحَقِّ- عَدَلَ موسى إلى إظهارِ آيةٍ مِن خَوارقِ العادةِ دَلالةً على صِدقِه، وعرَضَ عليه ذلك قبْلَ وُقوعِه؛ لِيَسُدَّ عليه منافِذَ ادِّعاءِ عدَمِ الرِّضا بها[١].

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: قال موسى عليه السَّلامُ لفِرعَونَ: أتسجُنُني حتَّى وإنْ أتيتُك بمُعجزةٍ ظاهرةٍ وبُرهانٍ قاطعٍ يُبينُ لك صِدقي وصِحَّةَ ما جِئتُ به[٢]؟!

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: قال فِرعَونُ لموسى عليه السَّلامُ: فأْتِ بهذا الشَّيءِ المُبينِ إن كنتَ صادقًا في دعْواك[٣].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ موسى عليه السَّلامُ وفِرعونَ: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٥، ١٠٦].

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: فرمَى موسى عَصاهُ إلى الأرضِ، فانقلَبَت حَيَّةً ضَخمةً في غايةِ الوضوحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٤، ٥٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٢١)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٤/ ١٣٢).

قال ابن عجيبة: (قال فرعونُ: فأْتِ به إن كنتَ مِن الصادقينَ فيما قُلْتَ مِن الإتيانِ بالشيءِ الواضحِ على صدقِ دعْواك، أو: مِن الصادقينَ في دعوَى الرسالةِ). ((البحر المديد)) (٤/ ١٣٢).

وقال البِقاعي: (أي: فيما ادَّعيتَ مِن الرسالةِ والبَيِّنةِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٨).

لِمَن يَراها[١].

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣﴾.

أي: وأخرَج موسى يَدَه -مِن فَتحةِ قَميصِه العُلويَّةِ مِن جِهةِ العُنُقِ- بيضاءَ تلمَعُ لجَميعِ الناظرينَ إليها في مجلِسِ فِرعَونَ[٢].

﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ٣٤﴾.

قال فِرعَونُ للأشرافِ الذين مِن حَولِه: إنَّ هذا لساحِرٌ بارِعٌ، ذو عِلمٍ ودِرايةٍ فائِقةٍ بالسِّحرِ، يُخيِّلُ إلى النَّاسِ أنَّ عصاهُ تنقَلِبُ حَيَّةً، وأنَّ يَدَه تَصيرُ بَيضاءَ[٣]!

﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ٣٥﴾.

﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٣).

قال ابن جرير: (فتحوَّلَتْ ثعبانًا، وهي الحيَّةُ الذَّكَر). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

وقال ابن عاشور: (الثعبانُ: الحيَّةُ الضخمةُ الطويلةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٣). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٣، ١٢٤).

قال البغوي: (أدخَلَ يدَه في جَيبِه ثمَّ نزَعها منه، وقيلَ: أخْرَجها مِن تحتِ إبْطِه فإذا هي بيضاءُ لها شعاعٌ غَلَب نورَ الشَّمسِ، وكان موسَى آدمَ اللَّونِ، ثُمَّ أدخَلها جَيْبَه فصارَتْ كما كانت). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٩).

وقال البقاعي: (أي: بياضًا تتوفَّرُ الدَّواعي على نظَرِه؛ لخروجِه عن العادةِ بأنَّ له نورًا كنورِ الشَّمسِ يَكادُ يَغْشى الأبصارَ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

أي: يريدُ أن يُخرِجَكم مِن أرضِكم مِصرَ بسِحرِه[١].

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

أي: قال فِرعَونُ لِمَن حَولَه: فماذا تُشيرونَ عليَّ مِن الرأيِ في شَأنِه، وما نفعَلُه به[٢]؟!

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾.

أي: قال الأشرافُ لفِرعَونَ مُشيرينَ عليه: أخِّرْ موسى وأخاه هارونَ وأمهِلْهما[٣].

﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾.

أي: وابعَثْ -يا فِرعَونُ- في مُدُنِ مملكتِك مَن يجمَعونَ منها السَّحَرةَ إليك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

قال الرازي: (والمعنى: يريدُ أن يُخرِجَكم مِن أرضِكم بما يُلقيه بينَكم مِن العداواتِ، فيفَرِّق جَمْعَكم، ومعلومٌ أنَّ مُفارقةَ الوطنِ أصعَبُ الأمورِ، فنفَّرَهم عنه بذلك، وهذا نهايةُ ما يفعلُه المبطِلُ في التنفيرِ عن المحِقِّ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٠١).

وقال ابن كثير: (أي: أراد أن يَذهَبَ بقلوبِ النَّاسِ معه بسبَبِ هذا، فيَكثُرَ أعوانُه وأنصارُه وأتباعُه، ويَغلِبَكم على دولتِكم، فيأخُذَ البلادَ منكم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المعنى: يريدُ موسى أن يُخرِجَ خدَمَكم وعبيدَكم بني إسرائيلَ مِن أرضِكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٦، ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٨٥، ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٧)، ((بدائع الفوائد)) =

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: يأتوك بجَميعِ السَّحَرةِ المَهَرةِ؛ ليُعارِضوا ما جاء به موسى[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ أنَّ الواجِبَ على مَن يدعو غيرَه إلى اللهِ تعالى ألَّا يُجيبَ عنِ السَّفاهةِ؛ لأنَّ موسى عليه السَّلامُ لَمَّا قال له فرعونُ: إنَّه مجنونٌ! لم يَعْدِلْ عن ذِكرِ الدَّلالةِ، وكذلك لَمَّا توعَّدَه أنْ يَسجُنَه[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ظاهِرُ هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ فرعونَ لا يعلمُ شيئًا عن رَبِّ العالَمينَ، وكذلك قولُه تعالَى عنه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]، وقولُه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقولُه: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، ولكنَّ اللهَ جلَّ وعلَا بيَّن أنَّ سؤالَ فِرعونَ في قولِه: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وقولِه: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ تجاهُلُ عارِفٍ[(٣)] أنَّه عبدٌ مَربوبٌ لِرَبِّ العالَمينَ،

= لابن القيم (٤/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٠٠).

(٣) تَجاهُل العارِف: له عِدَّةُ تعريفاتٍ، وتَرجِعُ كلُّها إلى: سَوْقِ المعلومِ مَساقَ غيرِه لنُكتةٍ؛ فمِن =

بقوله تعالَى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقوله تعالَى عن فِرْعونَ وقومِه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[(١)] [النمل: ١٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ... ﴾، مِن دقائقِ هذه المجادَلةِ أنَّ الاستِفسارَ مُقَدَّمٌ في المناظَراتِ؛ ولذلك ابتدأَ فرعونُ بالسُّؤالِ عن حقيقةِ الذي أرسَلَ موسى عليه السَّلامُ، وكان جوابُ مُوسى عليه السَّلامُ بَيانًا لحقيقةِ ربِّ العالَمينَ بما يَجعَلُ وصْفَه بربِّ العالمينَ نصًّا لا يَحتمِلُ غيرَ ما أرادهُ مِن ظاهرِه؛ فأتى بشَرْحِ اللَّفظِ بما هو تفصيلٌ لمعناهُ؛ إذ قال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ [الشعراء: ٢٤]، فبِذِكْرِ السَّمواتِ والأرضِ وبعُمومِ ما بيْنَهما حصَلَ بَيانُ حقيقةِ المسؤولِ عنه بـ (ما)، ومَرجِعُ هذا البيانِ إلى أنَّه تعريفٌ لحقيقةِ الرَّبِّ بخصائصِها؛ لأنَّ ذلك غايةُ ما تصِلُ إليه العقولُ في مَعرفةِ اللهِ أنْ يُعرَفَ بآثارِ خلْقِه[(٢)].

٣- قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ

= تعريفاتِه أنَّه: سؤالُ المتكلِّمِ عمَّا يَعلمُه حقيقةً تجاهُلًا؛ لنُكتةٍ بلاغيَّة. ومنها أنَّه: إخراجُ ما يَعرِفُ صِحَّتَه مخرجَ ما يَشُكُّ فيه؛ ليَزيدَ بذلك تأكيدًا. وقيل: هو إخراجُ الكلامِ مخرجَ الشكِّ في اللَّفظِ دون الحقيقةِ؛ لضربٍ مِن المسامحةِ وحسْمِ العنادِ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(١) يُنظر: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (ص: ٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٧).

تَعۡقِلُونَ﴾، فإنْ قيل: كيف قال أوَّلًا: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، ثمَّ قال آخِرًا: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؟

فالجوابُ: أنَّه لايَنَ أوَّلًا طمعًا في إيمانِهم، فلمَّا رأى منهم العنادَ والمغالطةَ وبَّخَهم بقَولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، وجعَل ذلك في مقابلةِ قَولِ فِرعَونَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾[1]. فلَمَّا دعاهُ موسى صلَّى الله عليه وسلَّم باللِّينِ فأساءَ الأدبَ عليه في الجوابِ الماضي، خَتَمَ هذا البُرهانَ بقَولِه: ﴿إِنۡ كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: فأنتم تَعلمونَ ذلك، فخَيَّرَهم بيْنَ الإقرارِ بالجُنونِ أو العَقلِ بما أشار إليه مِنَ الأدِلَّةِ في مقابَلةِ ما نَسَبوه إليه مِنَ الجُنونِ بسُكوتِهم وقَولِ عَظيمِهم بغيرِ شُبهةٍ؛ ردًّا لهم عن الضَّلالةِ، وإنقاذًا مِن واضِحِ الجَهالةِ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ أنَّ جوابَ موسى بما يُبَيِّنُ حقيقةَ ربِّ العالَمينَ تضمَّنَ تنبيهًا على أنَّ الاستدلالَ على إثباتِ الخالقِ الواحِدِ يحصُلُ بالنظَرِ في السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما؛ نظرًا يؤدِّي إلى العِلمِ بحقيقةِ الرَّبِّ الواحِدِ، الممتازةِ عن حقائقِ المخلوقاتِ؛ ولهذا أتبَعَ بيانَه بقَولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إنْ كنتُم مُستعدِّينَ للإيقانِ، طالبِينَ لمعرفةِ الحقائقِ غيرَ مكابرِينَ[3].

٥- قال تعالى عن فرعونَ: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾ فقولُ فرعونَ ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾ على طريقِ التهكُّمِ إشارةٌ إلى أنَّ الرَّسولَ يَنبغي أن يكونَ أعقَلَ النَّاسِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦).

٦- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في رُبوبيَّته سُبحانَه للمَشارِقِ والمغارِبِ تنبيهٌ على ربوبيَّته للسَّمواتِ وما حَوَتْه مِنَ الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ، وربوبيَّته لِما بيْنَ الجِهتَينِ، وربوبيَّته للَّيلِ والنَّهارِ وما تضَمَّناه[١].

٧- قال تعالى حِكايةً عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فموسى عليه السَّلامُ أُسلوبُه أُسلوبُ حَكيم؛ أتَى أولًا بالربوبيَّةِ العامَّةِ للسَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، ثمَّ أتى بالربوبيَّةِ الخاصَّةِ لفِرعَونَ الذي يدَّعي أنَّه رَبُّه، وقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّكم أنتم أتيتُم مِن آبائِكم، ومَن أتى مِن أبٍ فكيف يمكِنُ أن يكون ربًّا وهو مخلوقٌ مِن نُطفةٍ؟! فكأنَّه يقولُ: ارجِعوا إلى أصلِكم، فاللهُ تعالى ربُّكم أنتم الذين تَدَّعون أنَّكم أربابٌ، وربُّ آبائِكم الأوَّلينَ الذين أتيتُم منهم، فيُذَكِّرُهم بأصلِهم؛ لِيَذكُروا أنَّهم كانوا مُحْدَثِينَ، وأنَّهم لا يَصلُحونَ لأن يَكونوا أربابًا، وهذا مِن حُسنِ الجَوابِ، وفي الحقيقةِ كُلُّ جوابٍ يقولُه موسى فهو حُجَّةٌ قاطِعةٌ تَدمَغُهم، ولكِنْ -والعياذُ باللهِ- مَن لم يُوَفَّقْ للحَقِّ فإنَّه لا ينتَفِعُ به، ويَستكبِرُ عنه[٢].

٨- إنَّ المُبطِلينَ إذا غُلِبوا وقامتْ عليهمُ الحُجَّةُ هَمُّوا بالعُقوبةِ، كما قال فرعونُ لموسى عليه السَّلامُ -وقد أقام عليه الحُجَّةَ-: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[٣].

٩- في قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ أنَّه يجوزُ للمَسؤولِ أن يَعْدِلَ في حجَّتِه مِن مثالٍ إلى مثالٍ لإيضاحِ الكلامِ، ولا يدُلُّ ذلك على الانقِطاعِ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٥، ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٠٠).

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ بَياضَها كان شيئًا يَجتمِعُ النَّظَّارةُ على النَّظرِ إليه؛ لخُروجِه عنِ العادةِ، وكان بياضًا نوريًّا[١].

١١- قَولُه تعالى حكايةً عن فرعونَ: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ استدلَّ به الأصوليُّونَ على أنَّه لا يُشترَطُ في الأمرِ العُلوُّ ولا الاستِعلاءُ[٢].

١٢- قال الله تعالى حِكايةً عن فِرعَونَ مُخاطِبًا السَّحَرةَ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ أظهَرَ فِرعَونُ للسَّحَرةِ المَيلَ إلى ما يقولونَه؛ تألُّفًا لهم، واستِجلابًا لمَودَّتِهم؛ لأنَّه قد أشرَف ما كان فيه مِن دَعوى الربوبيَّةِ على الزَّوالِ، وقارَب ما كان يغَرِّرُ به عليهم الاضمِحلالَ، وإلَّا فهو أكبَرُ تِيهًا وأعظَمُ كِبْرًا مِن أن يخاطِبَهم مِثلَ هذه المُخاطَبةِ المُشعِرةِ بأنَّه فَردٌ مِن أفرادِهم، وواحِدٌ منهم، مع كَونِه قبْلَ هذا الوَقتِ يدَّعي أنَّه إلهُهم، ويُذعِنون له بذلك، ويصَدِّقونَه في دَعْواه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- إظهارُ اسمِ فِرْعونَ، مع أنَّ طريقةَ حِكايةِ المُقاوَلاتِ والمُحاوَرةِ يُكْتفى فيها بضَميرِ القائلينَ بطريقةِ (قال، قال)، أو (قال، فقال)، فعدَلَ عن تلك الطَّريقةِ إلى إظهارِ اسْمِه؛ لإيضاحِ صاحبِ هذه المقالةِ؛ لِبُعدِ ما بيْنَ قولِه هذا وقولِه الآخرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٦).

- قولُه: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سُؤالُ إنكارٍ لأنْ يكونَ للعالَمينَ ربٌّ سِواهُ، حسَبَما يُعرِبُ عنه قولُه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقولُه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، ويَنطِقُ به وعيدُه عندَ تَمامِ أجوبةِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١]. أو: سُؤالٌ على سَبيلِ المُباهَتةِ والمُكابَرةِ والمُرادَّةِ، وكان عالمًا باللهِ، ويدُلُّ عليه: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ولكنَّه تعامَى عن ذلك طلَبًا للرِّياسةِ ودَعوى الإلهيَّةِ، واستفهَمَ بـ (ما) استفهامًا عن مَجهولٍ مِن الأشياءِ[٢]. أو: استفهامٌ مَشوبٌ بتعجُّبٍ وإنكارٍ على طَريقِ الكِنايةِ. وكان جوابُ مُوسى عليه السَّلامُ بَيانًا لحقيقةِ ربِّ العالَمينَ؛ ولهذا أتبَعَ بَيانَه بـ ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾

- عرَّفَه بأَظهرِ خَواصِّه وآثارِه لَمَّا امتَنَع تعريفُ الأفرادِ إلَّا بذِكرِ الخَواصِّ والأفعالِ[٤].

- قولُه: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ تَعيينُ ما أَرادَ بالعالَمينَ وتَفصيلُه؛ لزيادةِ التَّحقيقِ والتَّقريرِ، وحسْمِ مادَّةِ تَزويرِ اللَّعينِ وتَشكيكِه بحمْلِ العالَمينَ على ما تحتَ مملكتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٩).

- وجاء قولُه: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ على التَّثنيةِ، والعائدُ عليه الضَّميرُ مَجموعٌ اعتِبارًا للجِنسَينِ: جِنسِ السَّماءِ، وجِنسِ الأرضِ(١).

- وضميرُ الجَمعِ في ﴿كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ مُرادٌ به: جميعُ حاضِري مَجلِسِ فِرعونَ، أرادَ موسى تَشريكَهم في الدَّعوةِ؛ تَقَصِّيًا لكمالِ الدَّعوةِ(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أَعرَضَ فِرعونُ عن خِطابِ موسى، واستَثارَ نُفوسَ المَلأِ مِن حَولِه، وهُم أهلُ مَجلِسِه، فاستَفهَمَهمُ استِفهامَ تَعجُّبٍ مِن حالِهم: كيف لمْ يَستمِعوا ما قاله موسى؟! فنَزَّلَهم مَنزِلةَ مَن لم يَستمِعْه؛ تَهييجًا لنُفوسِهم؛ كيْ لا تَتمكَّنَ منهم حُجَّةُ موسى، فسَلَّطَ الاستِفهامَ على نَفيِ استِماعِهم. وهذا التَّعجُّبُ مِن حالِ استِماعِهم وسُكوتِهم يَقتَضي التَّعجُّبَ مِن كلامِ موسى بطريقِ فَحْوى الخِطابِ(٣)؛ فهو كِنايةٌ عن تَعجُّبٍ آخَرَ(٤).

- ولكَونِ خِطابِ فِرعونَ لمَن حَوْلَه يَتضمَّنُ جوابًا عن كلامِ موسى؛ حُكيَ كلامُ فِرعونَ بالصِّيغةِ الَّتي اعتِيدتْ في القُرآنِ حكايةُ المُقاوَلاتِ بها، كأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٨).

(٣) فحْوَى الخطابِ: ويسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ، وهو إثباتُ حكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولى؛ كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظمُ مِن التَّأْفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كان دونَ القنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٨).

يُجيبُ موسى عن كلامِه[١].

- قولُه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ إغراءٌ به وتَعجُّبٌ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

- كَلامُ موسى هذا في مَعرِضِ الجَوابِ عن تَعجُّبِ فِرعونَ مِن سُكوتِ مَن حوْلَه؛ فلذلك كانت حِكايتُه قَوْلَه على الطَّريقةِ الَّتي تُحكَى بها المُقاوَلاتُ. ولَمَّا كان في كلامِ فِرعونَ إعراضٌ عن مُخاطبةِ موسى، إذْ تَجاوَزَه إلى مُخاطَبةِ مَن حوْلَه؛ وجَّهَ موسى خِطابَه إلى جميعِهم[٣].

- وعمَّ أوَّلًا بقولِه: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، وخصَّ ثانيًا بذِكْرِ أنفُسِهم وآبائِهم؛ لأنَّ أقرَبَ ما ينظُرُ فيه العاقلُ نفسُه، وما نشَأ عنه، وتولَّد منه، ولِيَكونَ أوضَحَ لهم في بيانِ بُطْلانِ دَعْوى فِرعونَ الإلهيَّةَ؛ إذْ كان آباؤُهمُ الأوَّلونَ تَقدَّموا فِرعونَ في الوُجودِ، فمُحالٌ أن يَكونَ وهو في العَدَمِ إلهًا لهم. معَ ما في ذلك مِن تنبيهِهم على نِعَمِ الله تعالى عليهم، وإحسانِه إليهم[٤].

- وفي قَولِه: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دَلالةٌ على إماتَتِهم بعْدَ إيجادِهم[٥].

- وهذا بعَينِه طريقةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع نُمْرُوذَ؛ فإنَّه استَدلَّ أوَّلًا بالإحياءِ والإماتةِ -وهو الَّذي ذَكَرَه موسى عليه السَّلامُ هاهنا بقولِه: ﴿رَبُّكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٩، ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٨، ١١٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٠).

وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾-؛ فأجابه نُمْروذُ بقَولِه: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]! فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾، وهو الَّذي ذَكَرَه مُوسى عليه السَّلامُ هاهنا بقولِه: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ ﴾[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴾

- في قولِه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴾ أكَّدَ كلامَه بحرفَي التَّأكيدِ (إنَّ - واللَّام)؛ لأنَّ حالةَ موسى لا تؤْذِنُ بجُنونِه، فكان وصْفُه بالمَجنونِ مُعرَّضًا للشَّكِّ؛ ولِيَفتِنَهم بذلك، ويَصرِفَهم عن قَبولِ الحقِّ. وقصَدَ بإطلاقِ وصْفِ الرَّسولِ على موسى التَّهكُّمَ به؛ بقرينةِ رَمْيِه بالجُنونِ المُحقَّقِ عِندَه. وأضافَ الرَّسولَ إلى المُخاطَبينَ؛ تنزيهًا لنفْسِه واستبعادًا أن يَكونَ مقصودًا بالخِطابِ، وأكَّد التَّهكُّمَ والاستبعادَ بوصْفِه بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ ﴾؛ فإنَّ مَضمونَ المَوصولِ وصِلَتِه هو مَضْمونُ ﴿رَسُولَكُمُ ﴾؛ فكان ذِكرُه كالتَّأكيدِ، وتَنصيصًا على المقصودِ؛ لزيادةِ تَهييجِ السَّامِعينَ؛ كيْلَا يَتأثَّروا أو يَتأثَّرَ بعضُهم بصِدْقِ موسى[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾

- قال ذلك موسى عليه السَّلامُ؛ تَكميلًا لجَوابِه الأوَّلِ، وتفسيرًا له، وتنبيهًا على جهلِهم وعدَمِ فَهمِهم لمعنَى مَقالتِه؛ فإنَّ بيانَ رُبوبيَّتِه تعالى للسَّموات والأرضِ وما بيْنَهما وإنْ كان مُتضمِّنًا لبيانِ رُبوبيَّتِه تعالى للخافِقَينِ وما

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٩، ١٢٠).

بيْنَهما، لكنْ لمَّا لمْ يكُنْ فيه تَصريحٌ باستِنادِ حرَكاتِ السَّمواتِ وما فيها وتَغيُّراتِ أحوالِها وأوضاعِها، وكَونِ الأرضِ تارةً مُظلِمةً وأُخرى مُنوِّرةً؛ إلى الله تعالى- أرشدَهُم إلى طريقِ مَعرفةِ رُبوبيَّتِه تعالى لِما ذَكَر؛ فإنَّ ذِكرَ المَشرقِ والمَغربِ مُنبئٌ عن شُروقِ الشَّمسِ وغُروبِها المنُوطَينَ بحرَكاتِ السَّمواتِ وما فيها على نَمَطٍ بديعٍ تَترتَّبُ عليه هذه الأوضاعُ الرَّصينةُ، وكلُّ ذلك أمورٌ حادثةٌ مُفتقِرةٌ إلى مُحْدِثٍ قادرٍ عليمٍ حكيمٍ، لا كذَواتِ السَّمواتِ والأرضِ الَّتي رُبَّما يَتوهَّمُ جهَلةُ المُتَوهِّمينَ باستِمرارِها استِغناءَها عنِ المُوجِدِ المُتصرِّفِ[١].

أو: خصَّصَ المَشرِقَ والمَغربَ؛ لأنَّ طُلوعَ الشَّمسِ مِن أحَدِ الخافقَينِ وغُروبَها في الآخَرِ على تقديرٍ مُستقيمٍ في فُصولِ السَّنةِ، وحسابٍ مُستَوٍ مِن أَظهَرِ ما استُدِلَّ به[٢].

- وتَكريرُ لفظِ الرَّبِّ وإعادتُه في كلِّ مرَّةٍ؛ لتَعظيمِ ما نَسَبوا إليه[٣].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيه إيذانٌ بغايةِ وُضوحِ الأمرِ، بحيثُ لا يَشتَبِهُ على مَن له عقْلٌ في الجُملةِ، وتَلويحٌ بأنَّهم بمَعزلٍ مِن دائرةِ العقلِ، وأنَّهمُ المُتَّصِفون بما رَمَوه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ به مِنَ الجُنونِ[٤].

- والتَّذييلُ بجملةِ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تَنبيهٌ لنَظرِهمُ العقليِّ؛ ليُعاوِدوا النَّظرَ فيُدْرِكوا وجْهَ الاستِدلالِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢١).

- وفي قولِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ تعريضٌ بفِرعونَ أنَّ الرَّبَّ يَنبَغي أن يكونَ قادرًا على ما في يَدِه وتحتَ تَصرُّفِه، وأنتُم تَعلَمون أنَّ مَشارقَ الأرضِ وَمغارِبَها ليستْ في تَصرُّفِه، ولا يَملِكُ منها على شيءٍ، ولا أَحاطَ منها عِلمًا بشيءٍ. وذَيَّلَه بقَولِه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ ردًّا لنِسبتِه الجُنونَ إليه، على طريقِ المُشاكَلةِ المَعنويَّةِ[1].

- ومِن اللَّطائِفِ والمُناسَبةِ الحَسَنةِ: أنَّ موسى عليه السَّلامَ قال أوَّلًا: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، وآخِرًا: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ فجَعَلَ ذلك مُقابِلَ قَولِ فِرعونَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾؛ لأنَّ الجُنونَ يُقابِلُه العقلُ؛ فكانَ موسى يقولُ لهم قَولًا لَيِّنًا ابتِداءً فلاطَفَهم أوَّلًا، فلمَّا رأى منهمُ المُكابرةَ وشدَّةَ الشَّكيمةِ في العِنادِ، وقِلَّةَ الإصغاءِ إلى عرْضِ الحُجَجِ، ووصَفوه بالجُنونِ؛ خاشَنَهم في القولِ، وعارَضَ قَولَ فِرعونَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: إنْ كنتُم أنتُمُ العُقلاءَ، أي: فلا تَكونوا أنتُمُ المَجانينَ[2].

٧- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾

- اللَّامُ في قَولِه: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا﴾ موَطِّئةٌ للقسَمِ. والمعنى: أنَّ فِرعونَ أكَّدَ وَعيدَه بما يُساوي اليَمينَ المُجمَلةَ الَّتي تؤْذِنُ بها اللَّامُ الموَطِّئةُ في اللُّغةِ العربيَّةِ، كأنْ يَكونَ فِرعونُ قال: علَيَّ يمينٌ، أو بالأَيمانِ، أو أُقْسِمُ[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٤٢، ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥١، ١٥٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢١، ١٢٢).

- قولُه: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، أي: لأَسجُنَنَّكَ، فسَلَكَ فيه طريقةَ الإطنابِ؛ لأنَّه أَنسَبُ بمَقامِ التَّهديدِ؛ لأنَّه يُفيدُ معنَى: لأَجعَلَنَّكَ واحدًا ممَّن عرَفْتَ أنَّهم في سِجني، ومِثلُ هذا التَّركيبِ يُفيدُ تَمكُّنَ الخبرِ مِنَ المُخبَرِ عنه[1].

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾

- قيل: الواوُ في قولِه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ عاطِفةٌ، وهي تَستَدعي مَعطوفًا عليه، وهو ما سبَقَ في أوَّلِ المُكالَمةِ بيْنَ نبيِّ اللهِ تعالى وعدُوِّه، والهمزةُ مُقحَمةٌ بيْنَ المَعطوفِ والمَعطوفِ عليه؛ للتَّقريرِ[2]. وقيل: استَفهَمَه استِفهامًا مَشوبًا بإنكارٍ واستغرابٍ على تَقديرِ عدَمِ اجتِزاءِ فِرعونَ بالشَّيءِ المُبينِ، وأنَّه ساجِنُه لا مَحالةَ إنْ لم يَعترِفْ بإلهيَّةِ فِرعونَ؛ قَطْعًا لمَعذرتِه مِن قبْلِ الوُقوعِ. وهذا التَّقديرُ دلَّتْ عليه (لو) الوَصْليَّةُ، الَّتي هي لفَرضِ حالةٍ خاصَّةٍ. فالواوُ في قولِه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ واوُ الحالِ، والمُستفهَمُ عنه بالهمزةِ مَحذوفٌ، دَلَّ عليه أنَّ الكلامَ جوابُ قَولِ فِرعونَ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٢٩]، والتقدير: أتَجعَلُني مِنَ المَسجونينَ والحالُ لو جِئتُكَ بشيءٍ مُبينٍ؟ إذِ القَصدُ الاستِفهامُ عنِ الحالةِ الَّتي تَضمَّنَها شرْطُ (لو) بأنَّها أَوْلى الحالاتِ بألَّا يَثبُتَ معها الغرضُ المُستفهَمُ عنه على فرْضِ وُقوعِها، وهو غرضُ الاستِمرارِ على التَّكذيبِ، وهو استِفهامٌ حقيقيٌّ، وليستِ الواوُ مؤَخَّرةً عن همزةِ الاستِفهامِ؛ لأنَّ لحَرفِ الاستِفهامِ الصَّدارةَ، بل هي لعَطفِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٠، ٤١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٤٨).

الاستِفهامِ[١].

- وتصديرُ المَجيءِ بما ذُكِر مِن كَلمةِ (لَوْ) دون (أنْ) ليس لبَيانِ استبعادِه في نفْسِه، بل بالنِّسبةِ إلى فِرعونَ، والمعنى: أَتَفْعَلُ بي ذلك حالَ عدَمِ مَجيئي بشَيءٍ مُبينٍ وحالَ مَجيئي به[٢]؟

- قولُه: ﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾ فيه التَّعبيرُ عنِ المُعجزةِ بـ (شيءٍ مبينٍ)؛ للتَّهويلِ[٣].

٩- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- في قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ في كلامِ فِرعونَ ما يَقتَضي أنَّ فرْضَ صِدْقِ موسى فرْضٌ ضعيفٌ، كما هو الغالبُ في شرطِ (إنْ)، مع إيهامِ أنَّه إنْ جاء بشَيءٍ مُبينٍ يُعتبَرُ صادقًا فيما دَعَا إليه، فبَقيَ تحقيقُ أنَّ ما سيَجيءُ به موسى مُبينٌ أو غَيرُ مُبينٍ. وهذا قدِ استَبْقاهُ كلامُ فِرعونَ إلى ما بعْدَ الوُقوعِ والنُّزولِ؛ ليتأتَّى إنكارُه إنِ احتاجَ إليه[٤].

- قولُه: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيه إيجازٌ بالحَذفِ؛ حيثُ حُذِف الجزاءُ؛ لأنَّ الأمرَ بالإتيانِ به يدُلُّ عليه[٥].

- وأُدمِجَ في سِياقِ هذا التَّركيبِ معنَى أنَّ المعجزةَ تَصديقٌ مِنَ اللهِ تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤١).

لمُدَّعي النُّبوَّةِ، والحكيمُ لا يُصَدِّقُ الكاذبَ[١].

١٠- قولُه تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ فيه إيثارُ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على كَمالِ سُرعةِ الانقلابِ، وثَباتِ وَصْفِ الثُّعبانيَّةِ فيها، كأنَّها في الأصلِ كذلك[٢].

- ووصَفَ ﴿ثُعْبَانٌ﴾ بأنَّه ﴿مُّبِينٌ﴾ الَّذي هو اسمُ فاعلٍ مِن الفعلِ (أَبانَ) القاصرِ الَّذي بمعنَى بانَ بمعنَى ظهَرَ، فـ﴿مُّبِينٌ﴾ دالٌّ على شدَّةِ الظُّهورِ؛ مِن أجْلِ أنَّ زيادةَ المَبْنَى تدُلُّ على زيادةِ المَعنى، أي: ثُعبانٌ ظاهرٌ أنَّه ثُعبانٌ، لا لَبْسَ فيه ولا تَخْييلَ[٣].

- إنْ قيلَ: كيف قال هاهنا: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، وفي آيةٍ أُخرى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠]، وفي آيةٍ ثالثةٍ: ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل: ١٠]، والجانُّ مائِلٌ إلى الصِّغَرِ؛ والثُّعبانُ مائِلٌ إلى الكِبَرِ؟

جوابُه: أمَّا الحيَّةُ فهي اسمُ الجِنسِ، ثمَّ إنَّها لكِبَرِها صارَتْ ثُعْبانًا، وشَبَّهَها بالجانِّ لِخِفَّتِها وسُرعتِها؛ فصَحَّ الكلامانِ. ويحتمِلُ أنَّه شبَّهَها بالشَّيطانِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]. ويحتمِلُ أنَّها كانت أوَّلًا صغيرةً كالجانِّ، ثمَّ عَظُمَتْ فصارَتْ ثُعبانًا[٤].

١١- قولُه تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٠١).

- نَزْعُ اليدِ: إخراجُها مِنَ القميصِ؛ فلذلك استَغنى عن ذِكرِ المَنزوعِ منه؛ لظُهورِه[١].

- -ودلَّتْ (إذا) المُفاجِئةُ على سُرعةِ انقلابِ لَونِ يدِه بَياضًا[٢].

- والتَّعريفُ في ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ للاستِغراقِ العُرْفيِّ، أي: لجَميعِ النَّاظِرينَ في ذلك المَجلِسِ. وهذا يُفيدُ أنَّ بَياضَها كان واضِحًا بَيِّنًا مُخالِفًا لَوْنَ جِلْدِه بصورةٍ بعيدةٍ عن لَونِ البَرَصِ[٣].

١٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ نَظيرُ هذه الآيةِ في سُورةِ (الأعرافِ)، سِوى أنَّ في هذه الآيةِ أنَّ هذا قولُ فِرعونَ للمَلأِ، وفي آيةِ (الأعرافِ): ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، والجَمعُ بيْنَهما: أنَّ فِرعونَ قالَه لمَن حَولَه، فأَعادُوه بلَفظِه؛ للموافَقةِ التَّامَّةِ، بحيث لمْ يَكتَفوا بقولِ: نعَمْ، بل أَعادُوا كلامَ فِرعونَ؛ لِيَكونَ قَولُهم على تمامِ قَولِه[٤]، والتقديرُ في آيةِ سورةِ (الأعرافِ): «قال المَلأُ مِن قَومِ فِرعونَ وفِرعونُ بعضُهم لبعضٍ»؛ فحُذِفَ فِرعونُ لاشتِمالِ المَلأِ مِن قَومِ فِرعونَ على اسمِه، كما قال: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٥٠] أي: آلَ فرعونَ وفرعونَ؛ فحُذِفَ «فرعونُ» لأنَّ آلَ فِرعونَ اشتَملَ على اسمِه؛ فالقائلُ هو فِرعونُ نفْسُه؛ بدليلِ الجَوابِ وهو ﴿أَرْجِهْ﴾ بلفظِ التَّوحيدِ، والمَلأُ هُمُ المَقولُ لهم؛ إذْ ليس في الآيةِ مُخاطَبون بقَولِه: ﴿يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ غيرَهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢١٦).

١٣- قولُه تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ حكايةً عن فرعونَ، وقال في سورةِ (الأعرافِ): ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ حكايةً عن ملأِ فرعونَ؛ وذلك لأنَّ آيةَ (الأعرافِ) بُنِيَتْ على الاقتِصارِ، ولأنَّ لَفْظَ السَّاحرِ في قَولِه: ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ يدُلُّ على السِّحْرِ[(١)].

وقيل: الفرقُ أنَّ فرعونَ أراد أن يشدَّهم، وأن يُغريَهم بما يقابِلون به موسَى عليه الصلاة والسلامُ[(٢)]، ففِرعونُ كان أشَدَّهم تَمرُّدًا، وأوَّلَهم تَجبُّرًا، وأبلَغَهم فيما يُرَدُّ به الحَقُّ، فذكَر السَّببَ الَّذي يَصِلُ به إلى الإخراجِ، أما المَلأُ فلم يَبْلُغوا مَبلَغَ فِرعونَ في إبطالِ ما أورَدَه موسى عليه السَّلامُ، ولمْ يَجْفوا في الخِطابِ جَفاءَه[(٣)].

١٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قالَ هنا: ﴿وَٱبْعَثْ﴾، وفي سورةِ (الأعرافِ) قال: ﴿وَأَرْسِلْ﴾ [الأعراف: ١١١]؛ لأنَّ الإرسالَ يُفيدُ معنَى البَعثِ؛ ويَتضمَّنُ نَوعًا مِنَ العُلوِّ؛ لأنَّه يَكونُ مِن فَوقٍ؛ فخُصَّتْ سورةُ (الأعرافِ) به لَمَّا الْتَبَسَ؛ لِيُعْلَمَ أنَّ المُخاطَبَ به فِرعونُ دُونَ غَيرِه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٥١-٦٥٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٥، ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢١٧).

وقيل: إنَّ (أَرسِلْ) و(ابْعَثْ) بمعنًى واحدٍ؛ وإنَّما عُبِّر بكلِّ واحدٍ في مَوضِعٍ؛ تَكثيرًا للفائدةِ في التَّعبيرِ عنِ المُرادِ بلَفظيْنِ مُتَساويَيْنِ معنًى[١]. وقيل غير ذلك[٢].

١٥- قولُه تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ قابَلوا قولَه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ﴾، بقَولِهم: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾، فجاؤُوا بكلمةِ الاستِغراقِ والبِناءِ الَّذي للمُبالَغةِ؛ ليُطامِنوا مِن نفْسِه، ويُسكِّنوا بعضَ قَلَقِه[٣].

- وأيضًا في قولِه هنا في (الشُّعراءِ): ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قالَه في سورةِ (الأعرافِ): ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٢]؛ لأنَّه راعَى ما قبْلَه في هذه السُّورةِ -(الأعرافِ)- وهو قولُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، وفي (الشُّعراءِ) قال: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ بالاتفاقِ على قراءتِها بالألِفِ بعدَ الحاءِ المشدَّدةِ، وهو جوابٌ لقولِ فرعونَ فيما استشارهم فيه مِن أمرِ موسَى بعدَ قولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فأجابوه بما هو أبلغُ مِن قولِه؛ رعايةً لمرادِه بخلافِ التي في (الأعراف)، فإنَّ ذلك جوابٌ لقولِهم، فتناسَب اللفظانِ، وقُرِئَ في سُورةِ (الأعرافِ) ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ أيضًا؛ طلبًا للمُبالَغةِ، ومُوافَقةً لِمَا في (الشُّعراءِ)[٤]. وقيل: السَّحَّارُ مُرادِفٌ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٥٤، ٦٥٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢١٧).

للسَّاحرِ في الاستِعمالِ؛ لأنَّ صيغةَ فعَّالٍ هنا للنَّسَبِ دَلالةً على الصِّناعةِ، مِثلُ: النَّجَّارِ والقَصَّارِ؛ ولذلك أُتبِعَ في السُّورتَينِ بوَصْفِ ﴿عَلِيمٍ﴾، أي: قَويِّ العِلمِ بالسِّحرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٥).

الآيات (٢٨ - ٥١)

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤٠ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤١ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٢ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٤٣ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ٤٥ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٤٨ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٩ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ٥٠ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِمِيقَٰتِ﴾: الميقاتُ: الوقتُ المضروبُ، أو: القدرُ المحدَّدُ للفعلِ مِن الزمانِ أو المكانِ، وأصلُ (وقت): يدُلُّ على حَدِّ شَيءٍ في زَمانٍ[١].

﴿تَلۡقَفُ﴾: أي: تَبتَلِعُ، يقالُ: لَقِفتُ الشَّيءَ: إذا تناولْتَه بسُرعةٍ، سواءٌ في ذلك تناوُلُه بالفَمِ أو اليَدِ[٢].

﴿يَأۡفِكُونَ﴾: أي: يَكذِبون[٣] ويزَوِّرون، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٣) قال ابن عثيمين: (الإفكُ: الكَذِبُ، وهذا كَذِبٌ بالفعلِ وليس بالقولِ، والكذبُ الفِعليُّ هو إظهارُ الإنسانِ الفعلَ بخلافِ الحقيقةِ، فهؤلاءِ أظهروا الحبالَ والعِصيَّ حَيَّاتٍ، لكنَّها ليستْ =

وصَرفِه عن جِهتِه[١].

﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾: أي: مُخالفًا في قَطعِ ذلك منكم؛ يَدِه اليُمنى ورِجلِه اليُسرى، والعكس، يخالِفُ بيْنَ قَطعِهما[٢].

﴿لَا ضَيْرَ﴾: أي: لا ضَرَرَ، مِن: ضارَّه يَضُوره ويَضِيرُه، بمعنى: ضَرَّه، والضَّيْرُ: المَضَرَّةُ، وأصلُ (ضرر): خِلافُ النَّفعِ[٣].

﴿مُنقَلِبُونَ﴾: أي: راجِعونَ، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على صَرفِ الشَّيءِ مِن وجهٍ إلى وَجهٍ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فجَمَعَ الحاشِرون السَّحَرةَ للوَقتِ المحَدَّدِ لاجتِماعِهم، وقيلَ لأهلِ مِصرَ: هل أنتم مُجتَمِعون؛ لِتَنظُروا لِمَن يكونُ النَّصرُ والغَلَبةُ، لعَلَّنا نتَّبِعُ السَّحَرةَ إنْ كانوا سيَغلِبون موسى؟ فلمَّا جاء السَّحَرةُ فِرعَونَ قالوا له: هل لنا مِن أجرٍ عِندَك إنْ غَلَبْنا موسى؟ قال فِرعَونُ لهم: نعم، وتكونون أيضًا مِن

= كذلك، وإنَّما هي حبالٌ وعِصيٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- الشعراء)) (ص: ١٠٢) بتصرف.

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

المقرَّبين عندي، فلمَّا اجتمَعَ السَّحَرةُ بموسى قال لهم: اطرَحوا ما تُريدونَ طَرحَه، فألقى السَّحَرةُ حِبالَهم وعِصِيَّهم الَّتي أعَدُّوها للسِّحرِ، وقالوا: بعَظَمةِ فِرعَونَ وقُدرتِه، إنَّا لنحن الغالِبون لموسى.

فألقى موسى عصاهُ فابتلَعَت ما ألقاه السَّحَرةُ مِن الحِبالِ والعِصيِّ الَّتي خيَّلوا للنَّاسِ أنَّها حيَّاتٌ، وخَدَعوهم بذلك، فلمَّا رأى السَّحَرةُ ذلك عَرَفوا صِدقَ موسى عليه السَّلامُ، وأنَّ ما جاءهم به حَقٌّ ليس سِحرًا ولا تَمويهًا، فخرُّوا ساجدينَ لله تعالى، وقالوا: آمنَّا برَبِّ العالَمينَ؛ ربِّ موسى وهارونَ. فلمَّا رآهم فِرعونُ على هذه الحالِ قال لهم: آآمنتُم بأنَّ ما جاء به موسى حقٌّ، واتبَعْتُموه قبْلَ أنْ آذَنَ لكم؟! إنَّ موسى لَرئيسُكم وكبيرُكم الذي علَّمكم السِّحرَ، فلَسَوف تَعلَمونَ.

ثمَّ توعَّدهم فِرعونُ، فقال: لَأُقطِّعَنَّ مِن كُلِّ واحدٍ منكم يدَه ورِجلَه مِن جِهَتينِ مختَلِفَتينِ، ولأُصَلِّبَنَّكم جميعًا. فقال السَّحَرةُ له: لا ضرَرَ علينا مِن عقابِك، فسنصبِرُ عليه؛ لأنَّنا إلى اللهِ راجِعونَ، فيُجازينا على إيمانِنا وصَبرِنا، إنَّا نرجو أن يغفِرَ لنا ربُّنا ذُنوبَنا؛ لأنَّنا كُنَّا أوَّلَ المؤمنينَ بالحَقِّ لَمَّا جاءَنا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ ﴾.

أي: فجَمَع الحاشِرون السَّحَرةَ مِن المُدُنِ للوَقتِ المحَدَّدِ لاجتِماعِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ۝ قَالَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٥).

مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٧ - ٥٩].

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: وقيلَ لأهلِ مِصرَ: هل أنتم مُجتَمِعون لِتَنظُروا إلى ما يَفعَلُ الفريقانِ، ولِمَن تكونُ الغَلَبةُ[1]؟

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: لعَلَّنا[2] نتَّبِعُ السَّحَرةَ إن كانوا سيَغلِبون موسى[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٥).

(٢) قيل: لعلَّ هنا: بمعنى كَيْ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جريرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

وقيل: لعَلَّ هنا للترجِّي. وممَّن ذهب إلى ذلك: البيضاوي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ٩٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧، ٥٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦).

قال ابن جرير: (يقولُ: كَيْ نتَّبِعَ السَّحَرةَ إن كانوا هم الغالبينَ موسى... فغيرُ معقولٍ أن يقولَ مَن كان على دينٍ: أنظُرُ إلى حُجَّةِ مَن هو على خِلافي لعلِّي أتَّبِعُ دينَه، وإنَّما يقالُ: أنظُرُ إليها كيْ أزدادَ بصيرةً بدِيني، فأُقيمَ عليه). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧، ٥٦٨).

وقال ابن عطية: (قولُه: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ ليس معناه نتبعُهم في السِّحرِ، إنَّما أراد نتَّبِعُهم في نُصرةِ دينِنا ومِلَّتِنا، والإبطالِ على معارضتِنا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٠).

وقال البقاعي: (وزيَّن لهم هذا القائلُ البقاءَ على ما كانوا عليه مِن الباطِلِ بذِكرِ جانبِ السَّحَرةِ، وإن كان شَرَطَ فيه الغَلَبةَ، ولم يسمَحْ بذِكرِ جانبِ موسى عليه السَّلامُ، فقال: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾؛ لأنَّ مَن امتثَل أمرَ المَلِكِ كان حالُه حالَ مَن يُرجى منه اتِّباعُ حِزبِه ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ﴾ أي: خاصَّةً ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أي: غَلَبةً لا يُشَكُّ في أنَّها ناشِئةٌ عن مكنةٍ، ونُعرِضُ عن أمرِ موسى الذي ينازِعُ الملِكَ في أمرِه، وهذا مرادُهم في الحقيقةِ، وعبَّرَ بهذا كنايةً عنه؛ لأنَّه أدَلُّ على عظمةِ =

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

أي: فلمَّا حضَرَ السَّحَرةُ قالوا لفِرعَونَ: هل ستُعطينا أجرًا إن غلَبْنا موسى[1]؟

﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: قال فِرعَونُ لهم: نعمْ، سأُعطيكم أُجرتَكم إنْ غلبْتُم موسى، وأَزيدُكم على ذلك أنْ أجعَلَكم مِن المقرَّبينَ لدَيَّ[2].

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

أي: قال موسى للسَّحَرةِ: اطرَحوا في الأرضِ ما تُريدونَ طَرحَه كائنًا ما كان[3].

﴿ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ ﴾.

= المَلِكِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣١).

وقال ابن عاشور: (رَجَوا اتِّباعَ السَّحَرةِ، أي: اتِّباعَ ما يؤيِّدُه سِحرُ السَّحَرةِ، وهو إبطالُ دينِ ما جاء به موسى، فكان قولُهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ كنايةً عن رجاءِ تأييدِهم في إنكارِ رسالةِ موسى فلا يتَّبِعونَه، وليس المقصودُ أن يصيرَ السَّحَرةُ أئمَّةً لهم؛ لأنَّ فِرعَونَ هو المتَّبَعُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٨، ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٩٧).

قال البيضاوي: (لم يُرِدْ به أمرَهم بالسِّحرِ والتمويهِ، بل الإذن في تقديمِ ما هم فاعِلوه لا محالةَ؛ توسُّلًا به إلى إظهارِ الحقِّ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٨).

أي: فطرَح السَّحَرةُ الحِبالَ والعِصيَّ الَّتي أعَدُّوها للسِّحرِ، وخيَّلوا للنَّاسِ أنَّها حَيَّاتٌ تَسعَى[١].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾.

أي: وقال السَّحَرةُ: بعَظَمةِ فِرعَونَ وقُوَّتِه وقُدرتِه وقَهرِه وشِدَّةِ سُلطانِه[٢]، إنَّا لَنَحْنُ الغالِبونَ موسى[٣].

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: فألقَى موسَى عصاهُ فأخَذَتْ تبتَلِعُ بسُرعةٍ جميعَ ما ألقاه السَّحَرةُ مِن الحِبالِ والعِصيِّ التي أوهَموا النَّاسَ أنَّها حيَّاتٌ وخَدَعوهم بذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٩)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

(٢) قال ابن عاشور: (الباءُ في قولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ كالباء في «باسم الله»، أرادوا التيَمُّنَ بقدرةِ فِرعونَ، قاله ابنُ عطيَّةَ. وقيل: الباءُ للقَسَم: أقسَموا بعزَّةِ فِرعَونَ على أنَّهم يغلبونَ؛ ثِقةً منهم باعتقادِ ضلالِهم أنَّ إرادةَ فِرعونَ لا يغلِبُها أحدٌ؛ لأنَّها إرادةُ آلهتِهم. وهذا الذي نحَاه المفسِّرون). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٠).

وقال ابنُ عثيمين: (وقالوا لَمَّا ألقَوها: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾، والباءُ للسببيَّةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٣).

قال البقاعي: (﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: يَصرِفونَه عن وَجهِه وحقيقتِه التي هي الجماديَّةُ، بحِيَلِهم وتخييلِهم إلى ظنِّ أنَّه حيَّاتٌ تسعى). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٣).

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ٤٦﴾.

أي: فلمْ يَتمالَكِ السَّحَرةُ أنفُسَهم لَمَّا شاهدوا ذلك، وعَلِموا أنَّه صُنعُ صانعٍ حَكيمٍ، لا مِن صُنعِ البَشَرِ، ولا مِن تَمويهِ السَّحَرةِ، فرَأَوا عظيمَ قدرةِ الله سبحانَه، وعرَفوا صدقَ موسَى عليه السلامُ، وأنَّ ما جاءهم به حقٌّ، فسَجَدوا لله تعالى مُسرِعينَ بلا تردُّدٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١٨ - ١٢٠].

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾.

أي: قال السَّحَرةُ عندَما سَجَدوا لله: آمَنَّا بخالقِ ومالكِ ومدَبِّرِ السمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، الَّذي دعَانا موسَى إلى عبادتِه[2].

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٤٨﴾.

أي: ربِّ موسى وهارونَ، الذي أيَّدَهما بهذه المُعجزةِ العظيمةِ، الدَّالَّةِ على صِدقِهما[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٩، ٥٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٥، ١١٦).

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا خاف فِرعَونُ اتِّباعَ النَّاسِ لهم؛ لِمَا يَرَون ممَّا هالَهم مِن أمرِهم، وكان قد تَقدَّمَ ما يُعرِّفُ أنَّ المنكِرَ عليهم فِرعونُ نفْسُه؛ قال تعالى مُخبِرًا عنه[1]:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.

أي: قال فِرعَونُ لِلَّذين كانوا سَحَرَتَه فآمَنوا: أصدَّقْتُم بأنَّ ما جاء به موسى حقٌّ وانقَدْتُم له قبلَ أنْ آذَنَ لكم بذلك[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾.

أي: إنَّ موسى لَرئيسُكم الذي علَّمَكم صناعةَ السِّحرِ، ولذلك آمنْتُم به، وتَواطأْتُم على ما فعَلْتُم[3]!

كما قال تعالى حاكيًا قولَ فِرعَونَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الشعراء)) (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٠٨).

قال القرطبي: (أي: رئيسُكم في التَّعليم، وإنَّما غَلَبكم؛ لأنَّه أحذَقُ به منكم. وإنَّما أراد فرعونُ بقَولِه هذا ليشَبِّهَ على النَّاسِ؛ حتى لا يَتَّبِعوهم فيُؤمنوا كإيمانِهم، وإلَّا فقد عَلِم فِرعونُ أنَّهم لم يتعَلَّموا مِن موسى، بل قد عَلِموا السِّحرَ قبْلَ قدومِ موسى وولادتِه). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٤).

مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣].

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: قال فِرعَونُ متهدِّدًا: فلَسوفَ تعلَمونَ ما أفعلُه بكم مِن العِقابِ(١).

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾.

أي: لأُقطِّعنَّ مِن كُلِّ ساحرٍ منكم يدَه ورِجلَه مِن جِهَتينِ مختَلِفتَينِ(٢).

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: ولأُصَلِّبَنَّكم جميعًا على جُذوعِ النَّخلِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٠٩).

قال ابنُ جرير: (﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عندَ عِقابي إيَّاكم وَبالَ ما فعلْتُم، وخطأَ ما صنعْتُم مِن الإيمانِ به). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٠٩، ١١٠).

قال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾ يعني: مُتخالِفةً؛ إذا قطَعَ اليدَ اليُمنى قطَعَ الرِّجلَ اليسرى، وإذا قطعَ اليدَ اليُسرى قطع الرِّجلَ اليمنى، وليس معنى: ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾ أني أخالِفُ بيْنَكم؛ فمنكم مَن أقطَعُ يديه، ومنكم مَن أقطَعُ رِجلَيه، بل هذا واقعٌ على محلٍّ واحدٍ، فالخِلافُ في محلٍّ واحدٍ، يعني: كُلُّ واحدٍ منكم أقطَعُ يدَه ورِجلَه متخالفتَينِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١١٠).

قال ابن عاشور: (والصَّلْبُ: ربطُ الجسمِ على عُودٍ مُنتَصِبٍ أو دَقُّه عليه بمساميرَ... والمبالَغةُ راجِعةٌ إلى الكيفيَّةِ أيضًا بشِدَّةِ الدَّقِّ على الأعوادِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٥).

فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ٧١].

﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

أي: قال السَّحَرةُ المؤمِنونَ لفِرعَونَ: لا ضرَرَ علينا فيما يُصيبُنا مِن عذابِك المنقَطِعِ، ولا نُبالي به؛ لأنَّنا إلى اللهِ راجِعون، فيُجازينا أحسَنَ الجَزاءِ على إيمانِنا، وصَبرِنا على عذابِك[1].

كما قال تعالى: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۞ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

أي: إنَّنا نرجو أن يستُرَ رَبُّنا ذُنوبَنا، ويتجاوَزَ عن مؤاخَذتِنا بها؛ بسبَبِ كَونِنا أوَّلَ مَن آمَنَ بموسى عندَ ظُهورِ آيتِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٠، ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٩).

المرادُ مِن قولِهم: ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مِن آلِ فِرعَونَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ١١٦).

قال البيضاوي: (﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ ﴾ لِأن كنَّا ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مِن أتباعِ فِرعَونَ، أو مِن أهلِ المشهَدِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٩).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ﴾ أنَّ الإيمانَ إذا صَدَقَ صار أقوى مِن العاطِفةِ، فحُبُّ النفْسِ أمرٌ فِطريٌّ؛ ولكنَّ الإيمانَ يؤدِّي إلى أنْ تَرخُصَ النفْسُ عندَ المرءِ بجانبِ دِينِه[١].

٢- السَّبقُ إلى الإيمانِ وإلى العَمَلِ الصَّالحِ مَنقَبةٌ، ومِن أسبابِ الرُّتَبِ العاليةِ والرِّفعةِ والمَغفرةِ؛ لذا قال سَحرةُ فِرعَونَ: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فكان قَولُهم هذا من بابِ التحَدُّثِ بنِعمةِ الله، الذي يَرَونَه سببًا ووسيلةً لِمَغفرةِ الذُّنوبِ، ولم يكُنْ قَولُهم مِن بابِ الإدلالِ على اللهِ والمِنَّةِ عليه بكَونِهم أوَّلَ المؤمِنينَ؛ ولهذا أيضًا قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]، فالسَّبقُ إلى الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ له مَزِيَّتُه، ولصاحِبِه مَرتبةٌ عاليةٌ[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ مِن إظهارِ التعَصُّبِ ما لا يخفَى؛ لأنَّ الواجِبَ عليهم أن يقولوا: لعَلَّنا نتَّبِعُ الغالِبَ، لا أن يقولوا: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾، فقد يكونُ الحَقُّ مع موسى، وقد يكونُ الحَقُّ مع السَّحَرةِ، فلو وُفِّقوا لقالوا: لعَلَّنا نتَّبِعُ الغالِبَ أو الحَقَّ، ولكِنَّهم قالوا: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾، ثمَّ استدرَكوا فقالوا: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، وهذا ما يُسمَّى بـ(التحَفُّظ) -في لغةِ العصرِ- يعني: كأنَّهم حَكَموا بأنَّ الغَلَبَ للسَّحَرةِ، لكنْ مع تحفُّظٍ لقَولِهم: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[٣]؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩١).

فلذلك ما أفاد فيهم ذلك إلَّا قيامَ الحُجَّةِ عليهم[١].

٢- قولُهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ إنَّ هذا شأنُ المغرورينَ بهواهُم، العُمي عن النظَرِ في تقَلُّباتِ الأحوالِ: أنَّهم لا يَفرِضونَ مِن الاحتِمالاتِ إلَّا ما يوافِقُ هواهم، ولا يأخُذونَ العُدَّةَ لاحتِمالِ نَقيضِه[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾، فأمَرهم موسَى عليه السلامُ بالإلقاءِ؛ لأنَّه علِم أنَّهم لا بدَّ أن يُلقوا تلك الحبالَ والعِصيَّ، وإنَّما وقَع التخييرُ في التقديم والتأخيرِ، فأذِن لهم في التقديمِ؛ لتَظهرَ معجزتُه أيضًا بغلَبِهم؛ لأنَّه لو ألقَى أوَّلًا لم يكنْ له غلَبٌ وظهورٌ عليهم، فلهذا المعنَى أمَرهم بالإلقاءِ أوَّلًا[٣]، وهو بمنزلةِ تَقريرِ شُبهةِ المُلحِدِ ممَّن يتَصدَّى لإبطالِها بعدَ تقريرِها[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ﴾ أنَّ كلَّ مَن حلَفَ بغيرِ اللهِ -كأن يقولَ: وحياةِ فلانٍ، وحقِّ رأسِه، ونحوِ ذلك- فهو تابِعٌ لهذه الجاهليَّةِ[٥]، فهذا القَسَمُ ﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ﴾ مِن نوعِ أقسامِ الجاهليَّةِ، وقد سلَك كثيرٌ مِن المُسلمينَ في الأَيمانِ ما هو أشنَعُ مِن أيمانِهم؛ لا يَرضَونَ بالقَسَمِ باللهِ تعالى وصِفاتِه عزَّ وجلَّ، ولا يَعتَدُّونَ بذلك حتى يحلِفَ أحَدُهم بنِعمةِ السُّلطانِ أو برأسِه، أو برأسِ المُحلِّفِ أو بلِحْيتِه أو بترابِ قبرِ أبيه، فحينَئذٍ يَستوثِقُ منه! ولهم أشياءُ يُعظِّمونَها ويحلِفون بها غيرُ ذلك، ولا يَبعُدُ أن يكونَ الحَلِفُ بالله تعالى كَذِبًا أقَلَّ إثمًا مِن الحَلِفِ بها صِدقًا، وهذا ممَّا عَمَّت به البَلوى، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ تعالى

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣).

العليِّ العظيم[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ أنَّ الحقَّ إذا تَبيَّنَ كان أعلَمَ النَّاسِ به مَن يَعرِفُ الباطلَ؛ فإنَّ أوَّلَ مَن تَبيَّنَ له أنَّ ما جاء به موسى عليه السلامُ هو الحقُّ، وأنَّه ليس بسِحرٍ: هم السَّحرةُ الذين عَرَفوا السِّحرَ وباطِلَه؛ فالذي يَعرِفُ الحقَّ هو الذي يَعرِفُ الباطِلَ، أمَّا مَن لا يَعرِفُ الباطلَ فإنَّه قد تلتَبِسُ عليه الأمورُ؛ ولهذا قيل: «بِضِدِّها تَتبيَّنُ الأشياءُ»[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ هذه الحادِثةُ الخارِقةُ للعادةِ فيها إثباتُ الصَّانعِ، وإثباتُ نُبُوَّةِ أنبيائه؛ فإنَّ حُدوثَ هذا الحادِثِ على هذا الوَجهِ في مِثلِ ذلك المقامِ يُوجِبُ عِلمًا ضَروريًّا أنَّه مِن القادِرِ المُختارِ؛ لتَصديقِ موسى عليه السلامُ، ونَصرِه على السَّحَرةِ[٣].

٧- أخبَرَ اللهُ تعالى في غيرِ مَوضِعٍ مِن القرآنِ عن سُجودِ سَحَرةِ فِرعَونَ، كما قال الله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٠- ١٢٢]، وذلك سُجودٌ مع إيمانِهم، وهو مِمَّا قَبِلَه اللهُ منهم، وأدخَلَهم به الجنَّةَ، ولم يَكونوا على طَهارةٍ، وشَرعُ مَن قَبْلَنا شَرعٌ لنا ما لم يَرِدْ شَرعُنا بنَسخِه، ولو قُرِئَ القُرآنُ على كُفَّارٍ فسَجَدوا لله سُجودَ إيمانٍ باللهِ ورَسولِه محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو رأَوا آيةً مِن آياتِ الإيمانِ فسَجَدوا لله مُؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه؛ لنَفَعهم ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ٣٥٣).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عَبَّروا بالطَّمَعِ؛ إشارةً إلى أنَّ جميعَ أسبابِ السَّعادةِ منه تعالى[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾

- دلَّتِ الفاءُ على أنَّ جَمْعَ السَّحرةِ وقَعَ في أَسرَعِ وقتٍ عَقِبَ بعْثِ الحاشِرينَ؛ حِرصًا مِنَ الحاشِرينَ والمَحشورينَ على تنفيذِ أمْرِ فِرعونَ. وبُنِيَ (جُمِعَ- وقِيلَ) لِما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لعدَمِ تَعيُّنِ جامِعينَ وقائِلينَ، أي: جمَعَ مَن يَجمَعُ، وقال القائِلون[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ﴾ استِبطاءٌ لهم في الاجتِماعِ؛ حثًّا على مُبادرتِهم إليه؛ فالاستِفهامُ مُستعمَلٌ في طلَبِ الإسراعِ بالاجتِماعِ، بحيث نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يُسألُ سؤالَ تَحقيقٍ عن عزْمِه على الاجتِماعِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ ليس غرَضُهمُ اتِّباعَ السَّحرةِ، وإنَّما الغرَضُ الكُلِّيُّ: ألَّا يَتَّبِعوا موسى، فساقُوا الكلامَ مَساقَ الكِنايةِ؛ لأنَّهم إذا اتَّبَعوهم لَمْ يَكونوا مُتَّبِعينَ لموسى عليه السَّلامُ؛ فجاء الكلامُ حَمْلًا لهم على الاهتِمامِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٥).

والجِدِّ في المُغالَبةِ[١].

- وقد جِيءَ في شرْطِ ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ بحرف (إنْ)؛ لأنَّها أصلُ أدواتِ الشَّرطِ، ولم يكنْ لهم شَكٌّ في أنَّ السَّحرةَ غالِبون[٢]. وقيل: عبَّر بأداةِ الشكِّ؛ إظهارًا للإنصافِ، واستِجلابًا للناسِ، معَ تقديرِهم لقطعِهم بظَفَرِ السحَرةِ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾

- تقدَّمَ نَظيرُها في سورةِ (الأعرافِ) بقولِه: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ [الأعراف: ١١٣] وبطرْحِ همزةِ الاستِفهامِ؛ إذْ قال هناك: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ [الأعراف: ١١٣]، وهو تَفنُّنٌ في حِكايةِ مَقالَتِهم عِندَ إعادتِها؛ لئلَّا تُعادَ كما هي، وبدُونِ كلمةِ (إذَنْ)، فحَكَى هنا ما في كلامِ فِرعونَ مِن دَلالةٍ على جزاءِ مَضمونِ قَولِهم: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣] زيادةً على ما اقتَضاه حرفُ (نعَمْ) مِن تقريرِ استِفهامِهم عنِ الأجرِ. فتقديرُ الكلامِ: إنْ كنتُم غالِبينَ إذًا إنَّكم لَمِنَ المُقرَّبينَ. وهذا وقَعَ الاستِغناءُ عنه في سورةِ (الأعرافِ)، فهو زيادةٌ في حكايةِ القصَّةِ هنا. وكذلك شأنُ القرآنِ في قَصصِه، ألَّا يَخْلوَ المُعادُ منها عن فائدةٍ غَيرِ مَذكورةٍ في مَوضعٍ آخَرَ منه؛ تَجديدًا لنَشاطِ السَّامعِ[٤].

- وساقوه مساقَ الاستفهامِ؛ أدبًا معه، وقالوا: ﴿إِن كُنَّا﴾ بأداةِ الشكِّ معَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦).

جزمِهم بالغلَبةِ؛ تخويفًا له بأنَّه إن لم يُحسِنْ في وعدِهم لم ينصَحوا له[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴾

- حُكِيَ كلامُ موسى في ذلك الجَمعِ بإعادةِ فِعْلِ (قال) مَفصولًا بطَريقةِ حِكايةِ المُحاوَراتِ؛ لأنَّه كان المقصودَ بالمُحاورةِ؛ إذْ هُم حَضَروا لأجْلِه[٢].

- وبيْنَ قَولِه: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ ﴾ وقَولِه: ﴿ لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ كلامٌ مَحذوفٌ، وهو ما ثَبَتَ في (الأعرافِ) مِن تَخييرِهم إيَّاه في البُداءةِ مَن يُلْقي[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ وقَعَ في سورةِ (الأعرافِ): ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ * قَالَ أَلۡقُواْ ﴾ [الأعراف: ١١٥، ١١٦]، واختُصِر هنا تَخييرُهم موسى في الابتِداءِ بالأعمالِ، وذُكِر هنا مَفعولُ ﴿أَلۡقُواْ﴾، واختُصِر في سورةِ (الأعرافِ)[٤].

- وفِعلُ الأمرِ في قوله: ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ مستعمَلٌ في التسويةِ المرادِ منها الاختيارُ، وإظهارُ قلَّةِ الاكتراثِ بأحدِ الأمْرينِ[٥].

- وفي كلامِ موسى عليه السَّلامُ استِخفافٌ بما سيُلْقُونه؛ لأنَّه عَبَّرَ عنه بصِيغةِ العُمومِ، أي: ما تَستَطيعونَ إلقاءَه[٦].

٦- قولُه تعالى: ﴿ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦، ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٥٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٢٧).

- قولُه: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ عَدَلوا عنِ الخِطابِ إلى اسمِ الغَيبةِ؛ تعظيمًا[١].

- وقُرِنَتْ حكايةُ قولِ السَّحرةِ بالواوِ خِلافًا للحِكاياتِ الَّتي سبقَتْها؛ لأنَّ هذا قَولٌ لم يُقصَدْ به المُحاوَرةُ، وإنَّما هو قَولٌ ابتَدَؤوا به عِندَ الشُّروعِ في السِّحْرِ[٢].

- وجملةُ ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ استِئْنافُ إنشاءٍ عن قَولِهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾؛ كأنَّ السَّامعَ -وهو موسى أو غيرُه- يقولُ في نفْسِه: ماذا يؤَثِّرُ قَولُهم: بعِزَّةِ فِرعونَ؟ فيَقولون:... وقد أفادَتْ جملةُ ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ بما فيها مِنَ المؤَكِّداتِ مُفادَ القَسَمِ[٣].

٧- قولُه تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: تَلقَفُ ما يَقلِبونه عن وَجْهِه وحَقيقتِه بسِحْرِهم وكَيدِهم، ويُزوِّرونه فيُخيِّلون في حِبالِهم وعِصِيِّهم أنَّها حَيَّاتٌ تَسعَى؛ بالتَّمويهِ على النَّاظِرينَ. أو تَلْقَفُ إفْكَهم، فسمَّى تِلك الأشياءَ إفكًا؛ مُبالَغةً[٤].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ أي: فخَرُّوا ساجِدينَ، وإنَّما عُبِّر عنِ الخُرورِ بالإلقاءِ؛ لأنَّه ذُكِر مع الإلقاءاتِ، فسُلِك به طريقُ المُشاكَلةِ[٥]، وفيه أيضًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٨). =

أنَّهم حينَ رأَوْا ما رأَوْا، لمْ يَتَمالَكوا أنْ رَموا بأنفُسِهم إلى الأرضِ ساجِدينَ، كأنَّهم أُخِذوا فطُرِحوا طَرْحًا[١]، واندفَعوا بدُونِ شعورٍ ولا اختيارٍ، حتى سجَدوا مؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ عَطفُ بَيانٍ أو بدَلٌ مِن ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ للتَّوضيحِ، ودفْعِ تَوهُّمِ إرادةِ فِرعونَ، حيثُ كان قَومُه الجَهَلةُ يُسمُّونَه بذلك، وللإشعارِ بأنَّ المُوجِبَ لإيمانِهم به تعالى ما أجْراه على أيدِيهما مِنَ المُعجِزةِ القاهِرةِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أضافوا الرَّبَّ سُبحانَه إلى مُوسَى وهارُونَ؛ لأنَّهما القائمانِ بالدَّعوةِ في تِلكَ الحالِ، وفيه تبكيتٌ لفِرعونَ بأنَّه ليس برَبٍّ، وأنَّ الربَّ في الحقيقةِ هو هذا[٤].

- وخُصَّ موسَى وهارونُ عليهما السَّلامُ بالذِّكْرِ أيضًا تفضيلًا وتشريفًا[٥]، فربوبيَّةُ موسى وهارونَ لها اختِصاصٌ زائِدٌ على الرُّبوبيَّةِ العامَّةِ للخَلقِ؛ فإنَّ

= والمشاكلة: لُغةً: هي المماثلةُ، واصطلاحًا: هي ذِكرُ الشيءِ بغيرِ لفظِه؛ لوُقوعِه في صُحبتِه، كقولِه تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فالجزاءُ عن السيئةِ في الحقيقةِ غيرُ سيئةٍ، والأصلُ: وجزاءُ سيئةٍ عقوبةٌ مِثلُها. يُنظر: ((خِزانة الأدب)) للحموي (٢/ ٢٥٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٥، ١١٦).

(٥) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨٦).

مَن أعطاه اللهُ مِن الكَمالِ أكثَرَ مِمَّا أعطى غيرَه، فقد رَبَّه ورَبَّاه رُبوبيَّةً وتَربيةً أكمَلَ مِن غَيرِه[١].

١٠- قولُه تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

- بالَغَ في التَّنفيرِ مِن جِهةِ قَولِه: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ موهِمًا أنَّ مُسارعتَهم للإيمانِ دَليلٌ على مَيلِهم إليه قَبْلُ، وبقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ صرَّحَ بما رمَزَه أوَّلًا مِن مُواطَأتِهم وتَقصيرِهم؛ لِيَظهَرَ أمْرُ كبيرِهم، وبقَولِه: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حيث أوعَدَهم وعيدًا مُطْلَقًا، وبتَصريحِه بما هدَّدَهم به مِنَ العذابِ[٢].

- قال الله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ إنْ قيل: في سورةِ (الأعرافِ): ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وهنا: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾؟

فالجوابُ: في الأصلِ بيْنَهما فَرقٌ: آمَنَ به: أقَرَّ به واعترفَ بالإيمانِ الكامِلِ، وآمَنَ له: مضَمَّنةٌ معنَى انقادَ. فإذا جمعْتَ بينَ الآيتَينِ هنا صارتْ أبلَغَ، يعني: كأنَّهم آمَنوا إيمانًا به، ثمَّ آمَنوا له فانقادُوا له[٣].

١١- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ جاء قَولُه: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ بحذْفِ لامِ التَّأكيدِ، وفي سُورةِ (الزُّخْرُف) قال: ﴿وَيَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٣، ١٤] بإثباتِها. ووجْهُه: أنَّ ما هنا كلامُ السَّحرةِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٠٨، ١٠٩).

حينَ آمَنوا، ولا عُمومَ فيه، فناسَبَ عدَمُ التَّأكيدِ، وما في سُورةِ (الزُّخرُفِ) عامٌّ لِمَن رَكِبَ سفينةً أو دابَّةً؛ فناسَبَه التَّأكيدُ[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ تَعليلٌ لنَفيِ الضَّيرِ، وهي القَرينةُ على المُرادِ مِنَ النَّفيِ[٢].

١٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تعليلٌ ثانٍ لنَفيِ الضَّيرِ. وقيل: هو تَعليلٌ للعِلَّةِ المُتقدِّمةِ[٣]. وقيل: بيانٌ للمَقصودِ مِن جملةِ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، وعلَّلوا ذلك الطَّمعَ بأنَّهم كانوا أوَّلَ المُؤمنينَ باللهِ بتَصديقِ موسى عليه السَّلامُ، وفي هذا دَلالةٌ على رُسوخِ إيمانِهم باللهِ ووعْدِه[٤].

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٨، ١٢٩).

الآيات (٥٢-٦٨)

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾
فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾
فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ
إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ
فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ
أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ لَشِرْذِمَةٌ ﴾: أي: طائِفةٌ. وكُلُّ بقيَّةٍ قليلةٍ فهى شِرذِمةٌ، مِن شَرَمْتُ الشَّيءَ: إذا مزَّقْتَه، فكأنَّها طائفةٌ تمزَّقت عن الجماعةِ الكثيرةِ، فالذالُ فيها زائِدةٌ[١].

﴿ لَغَآئِظُونَ ﴾: أي: مُغضِبون، والغَيظُ: أشَدُّ الغَضَبِ، وأصلُ (غيظ): يدُلُّ على كَربٍ يلحَقُ الإنسانَ مِن غَيرِه[٢].

﴿ حَـٰذِرُونَ ﴾: أي: مُستَعِدُّون ومتيقِّظون، وأصلُ (حذر): يدُلُّ على التحَرُّزِ والتيقُّظِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٨٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧)، ((تذكرة =

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: أي: مَساكِنَ حِسانٍ، والمقامُ: محَلُّ القيامِ، والكَريمُ: النَّفيسُ[١].

﴿مُّشْرِقِينَ﴾: أي: مُصبِحينَ، وقتَ شُروقِ الشَّمسِ، وأصلُ (شرق): يدُلُّ على إضاءةٍ وفَتحٍ[٢].

﴿تَرَٰٓءَا﴾: أي: تقابَلَ وتلاقى، وأصلُ (رأى): يدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ[٣].

﴿فَٱنفَلَقَ﴾: أي: انشقَّ، وانْفَرَق، والفَلْقُ: شقُّ الشيءِ، وإبانةُ بعضِه عن بعضٍ، وأصلُ (فلق): يدُلُّ على فُرْجةٍ وبَيْنونةٍ في الشَّيءِ[٤].

﴿فِرْقٍ﴾: أي: جُزءٍ وقِطعةٍ، والفَرْقُ: الفَلْقُ مِن الشَّيْء إذا انفلَقَ وانقطَعَ، وكُلُّ شَيءٍ انقطع مِن شَيءٍ فهو فِرْقٌ منه وقِطعةٌ منه، وأصلُ (فرق): يدُلُّ على تمييزٍ وتَزييلٍ بيْنَ شَيئَينِ[٥].

﴿كَٱلطَّوْدِ﴾: أي: الجَبَلِ، أو الجبلِ العظيمِ[٦].

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٢).

(١) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٤٧٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٥٩)، ((تفسير غريب ما في الصحيحين)) للحميدي (ص: ٤٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، =

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾: أي: قرَّبْنا، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على اندِفاعٍ وتقَدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى ما أمَر به نبيَّه موسَى عليه السلامُ، وما حلَّ بفرعونَ وقومِه مِن هلاكٍ، فيقولُ: وأوحى اللهُ تعالى إلى موسى أن يسيرَ ببني إسرائيلَ ليلًا؛ لأنَّ فِرعَونَ وجُنودَه سيتَّبِعونَهم لِيَحُولوا بيْنَهم وبيْنَ الخُروجِ مِن مِصرَ، ولَمَّا عَلِمَ فِرعَونُ بخُروجِ موسى ومعه بنو إسرائيلَ، أرسَل مَن يجمَعُ له الجنودَ مِن المدائنِ المتعَدِّدةِ في مملكتِه، وبعْدَ أنِ اكتمَلَ عدَدُ جُنودِه أخَذ يهَوِّنُ مِن شأنِ موسى ومَن تَبِعَه، فقال: إنَّ بني إسرائيلَ الذين خرَجوا بدُونِ إذْني لَطائفةٌ ضعيفةٌ وقليلةٌ، وإنَّهم مُغضِبون لنا أشدَّ الغضَبِ، وقد أخَذْنا حِذْرَنا منهم، وتأهَّبْنا لهم بالقُوَّةِ والسِّلاحِ.

ثمَّ يذكرُ سُبحانَه عاقِبةَ فِرعَونَ وقَومِه، فيقولُ: فأخرَجْنا فِرعَونَ وقَومَه مِن بساتينَ وعيونٍ عَذبةِ الماءِ كانوا يَشرَبونَ منها، وأموالٍ كانت مملوكةً لهم، ومساكِنَ حَسَنةٍ كانوا يُقيمون فيها، كذلك وأورَثْنا تلك الجنَّاتِ والعُيونَ والكُنوزَ والمساكِنَ بني إسرائيلَ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه بعدَ ذلك ما حدثَ مِن فِرعَونَ وقَومِه، وما قاله بنو إسرائيلَ عندَما شاهَدوهم، فيقولُ: فلَحِقَ فِرعَونُ وجُنودُه بني إسرائيلَ وقتَ شُروقِ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٩).

الشَّمسِ، فلمَّا رأى كُلُّ فريقٍ خَصمَه قال أصحابُ موسى: سيُدرِكُنا فِرعَونُ وجُنودُه ولا نستطيعُ الفِرارَ؛ فهم خَلْفَنا والبَحرُ أمامَنا. فقال موسى واثِقًا مِن نُصرةِ الله له: ليس الأمرُ كما تَظنُّون؛ لأنَّ ربِّي معي بنَصرِه وتأييدِه، وسيَهديني لطَريقِ النَّجاةِ والفَوزِ.

فأوحى اللهُ تعالى إلى موسى عليه السَّلامُ، فقال له: اضرِبْ بعصاكَ البَحرَ، فضرَب موسى بعَصاهُ البَحرَ فانشَقَّ، فكانت كلُّ قِطعةٍ مِن الماءِ كالجبَلِ الشامِخِ الكبيرِ، وقرَّبْنا هنالك فِرعَونَ وجُنودَه مِن موسى وقَومِه، فدخَلوا وراءَهم في الطَّريقِ المنشَقِّ مِن البَحرِ؛ ليَلحَقوا بهم، فأنجَينا موسى ومَن معه مِن الغَرَقِ، وأغرَقْنا فِرعَونَ وقَومَه أجمعينَ.

إنَّ في قصَّةِ موسى وفِرعَونَ لَعِظةً وعِبرةً عَظيمةً، وما كان أكثَرُ قَومِ فِرعَونَ مُؤمنينَ بالله، وإنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- لَهُوَ العزيزُ القاهِرُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعِبادِه، فلا يعاجِلُهم بعَذابِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٥٢ ﴾.

أي: وأوحَيْنا إلى موسى أنْ سِرْ بعِبادي بني إسرائيلَ ليلًا، وسيتَّبِعُكم فِرعَونُ وجُنودُه؛ لِيَحُولوا بيْنَكم وبيْنَ الخُروجِ مِن أرضِ مِصرَ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ۞ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

مُّتَّبَعُونَ * وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٢ - ٢٤].

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: فأرسَلَ فِرعَونُ مَن يجمَعُ له مِن مدُنٍ كَثيرةٍ جُنودًا؛ ليَلحَقوا بني إسرائيلَ فيَرُدُّوهم(١).

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: إنَّ بني إسرائيلَ لَطائِفةٌ ضَعيفةٌ وقَليلةٌ(٢).

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١١٩).

قال ابن كثير: (فلمَّا أصبحوا وليس في ناديهم داعٍ ولا مجيبٌ، غاظ ذلك فِرعَونَ واشتَدَّ غَضَبُه على بني إسرائيلَ؛ لِما يريدُ اللهُ به مِن الدَّمارِ، فأرسَل سريعًا في بلادِه حاشرين). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٢٠، ١٢١).

وممَّن اختار أنَّ هذا الكلامَ لفِرعَونَ: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والبغوي، والبيضاوي، والنسفي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٠).

قال الطِّيبي: (قولُه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ يوهمُ قِلَّةَ الاحتفالِ بهم، وأنَّ قتالَهم إنَّما هو لأجْلِ أنَّهم لنا غائظون، ومِن عادتِنا الحذرُ على دولتِنا بحُسنِ الحِفظِ، وحمايةِ حَوزةِ المملكةِ، ولقد كذَب وكان فؤادُه مملوءًا رعبًا). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٩٥).

وقيل: هو مِن كلامِ مَن أرسلهم فرعونُ لحشرِ الجنودِ. وممَّن اختار ذلك: البِقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٨، ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكرَ ما يمنَعُ الخَوفَ مِن اتِّباعِهم؛ ذكَرَ ما يوجِبُ الحثَّ عليه، ويحَذِّرُ مِن التقاعُسِ عنه، فقال[١]:

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

أي: وإنَّ بني إسرائيلَ مُغضِبون لنا أشدَّ الغضَبِ[٢].

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿حَٰذِرُونَ﴾ بألِفٍ بعْدَ الحاءِ، ذَوو أداةٍ مِن السلاحِ وقوةٍ، أي: قد أخَذْنا حِذْرَنا من بني إسرائيلَ، وتأهَّبْنا لهم بسِلاحِنا، وقيل: رجلٌ حاذرٌ فيما يستقبلُ، لا في وقتِه[٣].

٢- قِراءةُ ﴿حَذِرُونَ﴾ بحذفِ الألفِ، أي: متيَقِّظون وخائِفون مِن شَرِّ بني

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣١).

قال الرسعني: (﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ لِمُراغمتِهم إيَّانا، وقِلَّةِ اهتمامِهم بأمرِنا). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٨٤).

وقال السمعاني: (وكان غيظُه منهم بخروجِهم مِن غيرِ أمرِه، واستعارتِهم الحُليَّ مِن قَومِه، ومُضِيِّهم بها). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٦).

(٣) قرأ بها عاصم، وحمزة، والكسائي، وابن ذكوان عن ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٦٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٢٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٧).

إسرائيلَ، ومِن عادَتِنا الحَذَرُ في كُلِّ وَقتٍ. فقيل: رجلٌ حذِرٌ: إذا كان الحذرُ لازمًا له كالخِلقةِ، وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ(١).

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦﴾.

أي: وإنَّنا كُلَّنا مستعِدُّون بالقوَّةِ والسِّلاحِ لحَربِ بني إسرائيلَ، وقد أخَذْنا حِذْرَنا منهم(٢).

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان التَّقديرُ: فأطاعوا أمرَه، ونَفَروا على كلِّ صَعبٍ وذَلولٍ؛ عطَف عليه قولَه مُعلِمًا بما آلَ إليه أمرُهم(٣):

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ٥٧﴾.

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٦٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٢٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٧، ٥١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠١).

قال ابن عثيمين: (واجتماعُ القِراءتَينِ يُفيدُ المعنيينِ جميعًا، أي: إنَّنا متيقِّظون، ولِتيقُّظِنا كنَّا مستعِدِّينَ، فهاتانِ القِراءتانِ تُفيدانِ معنيَينِ؛ المعنى الأول: التيقُّظُ، وهو استعدادٌ نفْسيٌّ، والمعنى الثاني: الاستعدادُ الحِسيُّ؛ لقولِه: ﴿حَٰذِرُونَ﴾؛ لأنَّ الحاذِرَ اسمُ فاعلٍ، وهو الذي فعَل ما يَحذَرُ به، وهو الاستعدادُ فقط. فإن قيل: ألَا تَشملُ (حاذرون) كِلا المعنيَينِ؟

فالجواب: لا؛ لأنَّ الإنسانَ قد يستعِدُّ ويُحسِنُ الإعدادَ والأجهزةَ، لكِنْ لا يكونُ متيقِّظًا، فقط يستعِدُّ ولا يتيقَّظُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١).

أي: فأخرَجْنا فِرعَونَ وقَومَه مِن بساتينَ كَثيرةِ الأشجارِ والزُّروعِ، وعُيونِ الماءِ[١].

كما قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٧].

﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: وأخرَجْناهم من أموالِهم ومساكِنِهم الحسَنةِ التي كانوا يتنعَّمون فيها[٢].

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: كذلك[٣] وأورَثْنا الجنَّاتِ والعُيونَ والكُنوزَ والمساكِنَ التي كانت لفِرعَونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٢).

قال ابن عاشور: (الكنوز: الأموالُ المدَّخرةُ. والمَقامُ: أصلُه محلُّ القيامِ، أو مصدرُ قامَ. والمعنى على الأوَّلِ: مساكِنُ كريمةٌ، وعلى الثاني: قيامُهم في مجتمَعِهم، والكريمُ: النفيسُ في نوعِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٢).

(٣) قال ابن جرير: (قَولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يقولُ: هكذا أخرَجْناهم مِن ذلك، كما وصَفْتُ لكم في هذه الآيةِ والَّتي قبْلَها). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٨، ٥٧٩).

وقال البقاعي: (﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثلَ ذلك الإخراجِ العجيبِ الذي أراده فرعونُ مِن قومِه في السرعةِ والكمالِ والهَيبةِ، أخرَجْناهم نحن بأنْ يسَّرْنا له ولهم ذلك، ووفَّرْنا لهم الأسبابَ؛ لِما اقتضَتْه حِكمتُنا. أو مِثلَ ذلك الخروجِ الذي قصَصْناه عليك أخرَجْناهم، أي: كان الواقعُ مِن خروجِهم مطابقًا لِما عبَّرْنا به عنه. أو الأمرُ الذي قصَصْناه كلَّه كما قُلْنا. وأوَّلُها أقعَدُها وأحسَنُها وأجوَدُها). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٤٢).

وقال ابن عثيمين: (﴿كَذَٰلِكَ﴾ تكون خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، يعني: إخراجنا لهم كان كذلك. أو يكونُ التقدير: الأمرُ كذلك...، فهي جملةٌ مستقِلَّةٌ عمَّا قبْلَها وعمَّا بعْدَها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٢٧).

وقَومِه بني إسرائيلَ[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

قيل: ردَّ اللهُ بني إسرائيلَ إلى مِصرَ بعدَ خروجِهم منها فأعطاهم جميعَ ما كان لقومِ فرعونَ مِن الخَيراتِ والنِّعَم. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٤).

قال الألوسي: (قال الواحدي: إنَّ الله تعالى ردَّ بني إسرائيلَ إلى مصرَ بعدَما أغرَق فِرعونَ وقومَه، فأعطاهم جميعَ ما كان لقومِ فِرعونَ مِن الأموالِ والعقارِ والمساكنِ،... وظواهرُ كثيرٍ مِن الآياتِ تقتضي ما ذكره الواحديُّ. والله تعالى أعلَمُ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٨٢، ٨٣).

وقال أيضًا: (قوله تعالى في سورةِ الشعراء: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ظاهرٌ في أن بني إسرائيلَ رجَعوا إلى مصرَ بعدَ هلاكِ فرعونَ، وملَكوها، وبه قال الحسنُ... وقيل: لم يَرِدْ في مشهورِ التواريخِ أنَّ بني إسرائيلَ رجَعوا إلى مصرَ، ولا أنَّهم ملَكوها قطُّ... وأخَذ جمعٌ بقولِ الحسنِ، وقالوا: لا اعتبارَ بالتواريخِ، وكذا الكتبُ التي بيدِ اليهودِ اليومَ؛ لِما أنَّ الكذبَ فيها كثيرٌ، وحسْبُنا كتابُ الله تعالى، وهو سبحانَه أصدقُ القائلينَ، وكتابُه جلَّ وعلا مأمونٌ مِن تحريفِ المحرِّفينَ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٢٢) بتصرف.

وقال طنطاوي: (لا مانعَ مِن عودةِ الضميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾ إلى الجناتِ والعيونِ والكنوزِ التي أخرَج اللهُ تعالى منها فِرعونَ وقومَه، بأنْ عاد موسى ومَن معَه إلى مِصرَ -لفترةٍ معيَّنةٍ- بعْدَ هلاكِ فرعونَ ومَلَئِه، ثمَّ خرَجوا منها بعدَ ذلك مواصِلينَ سيرَهم إلى الأرضِ المقدَّسةِ التي أمرَهم موسَى عليه السلامُ بدُخولِها). ((التفسير الوسيط)) (١٠/ ٢٥١).

وقيل: إنَّ بني إسرائيل لم يَرِثوا مُلكَ فِرعَونَ في مِصرَ، ولكنَّهم وَرِثوا مُلكًا مِثلَه في أرضِ الشامِ، والمقصودُ نوعُ المُلكِ والنِّعمةِ الذي زالَ عن فِرعونَ وملَئِه ووَرِثَه بنو إسرائيلَ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جُزَي، والمراغي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩١)، ((تفسير المراغي)) (١٩/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٣) و(٢٥/ ٣٠٣).

وذهب محمد رشيد رضا إلى أنَّ المعنى: أنَّ بني إسرائيلَ وَرِثوا مُلكَ فِرعونَ في أرضِ الشامِ؛ لأنَّ الشامَ كانت تابعةً لِمصرَ في عهدِ فِرعونَ. يُنظر: ((تفسير المنار)) (٩/ ٨٦).

وقال ابن عجيبة: (التحقيقُ أنَّهم ملَكوا التصَرُّفَ في مِصرَ، ووصَلتْ حكومتُهم إليها، ولم يَرجِعوا إليها، والله تعالى أعلَمُ). ((البحر المديد)) (٤/ ١٣٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: فلَحِقَ فِرعَونُ وجنودُه بني إسرائيلَ وقْتَ شُروقِ الشَّمسِ[(١)].

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

أي: فلمَّا رأى كلٌّ مِن جمعِ موسى وجَمعِ فِرعَونَ الآخَرَ، قال أصحابُ موسى:

= وقال ابنُ عاشور: (وقيل: ضميرُ ﴿وَأَوْرَثْنَهَا﴾ عائدٌ إلى خصوصِ الكنوزِ؛ لأنَّ بني إسرائيلَ استعاروا ليلةَ خروجِهم مِن جيرانِهم المصريِّينَ مَصوغَهم مِن ذهبٍ وفِضَّةٍ، وخرَجوا به كما تقدَّم في سورة طه [يعني في قَولِه تعالى: ﴿حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا﴾ [طه: ٨٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

قال ابن عاشور: (يجوز أن يكونَ معناه: قاصدين جهةَ الشَّرقِ، يقال: أشرَقَ: إذا دخلَ في أرضِ الشَّرقِ، كما يقال: أنجَدَ وأتْهَم وأعْرَقَ وأشأَمَ، ويُعلَمُ مِن هذا أنَّ بني إسرائيلَ توجَّهوا صَوْبَ الشَّرقِ، وهو صَوبُ بحرِ القُلْزُمِ، وهو البحرُ الأحمرُ،... وهو شرقيَّ مِصرَ. ويجوزُ أن يكونَ المعنى: داخلينَ في وقتِ الشروقِ، أي: أدرَكوهم عندَ شروقٍ بعْدَ أن قضَوا ليلةً أو ليالِيَ مَشيًا، فما بصُرَ بعضُهم ببعضٍ إلَّا عندَ شروقِ الشمسِ بعدَ ليالي السَّفرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٤).

وقال ابن عثيمين: (وكِلا المعنيَينِ صحيحٌ؛ فمُشرِقٌ: متَّجِهٌ نحوَ المشرقِ باعتبارِ المكانِ، ومُشرِقٌ: وقت الشُّروقِ باعتبارِ الزمانِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٣١).

سيُدرِكُنا فِرعَونُ وجنودُه، ولا نَستطيعُ الفِرارَ؛ فالبَحرُ أمامَنا، وهم خَلْفَنا[١].

﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾.

أي: قال موسى مُطَمْئِنًا قومَه: ليس الأمرُ كما ذكَرتُم مِن أنَّنا مُدرَكون؛ لأنَّ ربِّي معي بنَصرِه وتأييدِه، وسيَهديني لطَريقِ النَّجاةِ[٢].

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حَكَى سُبحانَه عن موسَى عليه السَّلامُ قولَه: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[الشعراء: ٦٢]، بَيَّنَ تعالى بَعْدَه كيف هَداه ونجَّاه، وأهلَكَ أعداءَه بذلك التدبيرِ الجامعِ لِنعَمِ الدِّينِ والدُّنيا، فقال[٣]:

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ﴾.

أي: فأوحى اللهُ إلى موسى، فقال له: اضرِبْ بعَصاك البَحرَ الذي أمامَك[٤].

﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

أي: فضرَبَ موسَى بعصاه البحرَ، فانشَقَّ، فكانت كلُّ قِطعةٍ مِن الماءِ كالجبَلِ الكبيرِ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٣، ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٩٢)، ((الوجيز)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧].

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: وقرَّبْنا فِرعَونَ وجُنودَه مِن البَحرِ، وأدخَلْناهم في ذلك الطَّريقِ المنشَقِّ لِنُغرِقَهم[(١)].

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

أي: وأنجَيْنا مِن الغرَقِ موسى والذين معه كُلَّهم، وسلَّمْناهم مِن عدُوِّهم[(٢)].

= للواحدي (ص: ٧٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

قال البقاعي: (﴿كَٱلطَّوْدِ﴾ أي: الجبَلِ في إشرافِه وطولِه وصلابتِه بعدمِ السَّيلانِ ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ المتطاوِلِ في السماءِ، الثابتِ لا يتزلزَلُ؛ لأنَّ الماءَ كان منبَسِطًا في أرضِ البحرِ، فلما انفرَقَ وانكشَفَت فيه الطرُقُ انضَمَّ بعضُه إلى بعضٍ، فاستطال وارتفَعَ في السَّماءِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٤٤).

وقال ابنُ عثيمين: (ظاهِرُه أنَّه عريضٌ؛ لأنَّ الطودَ العظيمَ يتناوَلُ الكِبَرَ والارتفاعَ والعَرْضَ... وقولُه: ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ظاهِرُه أنَّ الماءَ لم يتغيَّرْ، يعني: لم يتجمَّدْ بالمعنى المعروفِ فيكونَ أبيضَ جامدًا، ولكنَّه بقِي جامدًا على طبيعتِه أسودَ، وهذا أعظَمُ مما لو تجمَّد وهو على غيرِ طبيعتِه، لصارت فيه آيةٌ واحدةٌ، وهي سرعةُ التجمُّدِ بهذه اللحظةِ، فكوْنُه لا يسيلُ وهو جامِدٌ أمرٌ طبيعيٌّ عاديٌّ، لكِنْ كونُه يبقَى مائعًا ولكِنْ لا يسيلُ، فهذا أبلَغُ مِن ذلك. ففيه آيتان: أنَّه لا يسيلُ، وأنَّه لا يسيلُ وهو على طبيعتِه، والله تعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: ثمَّ أغرَقْنا فِرعَونَ وقَومَه كُلَّهم في البَحرِ، فلمْ يُفلِتْ منهم أحَدٌ[١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

أي: إنَّ في قِصَّةِ موسى وفِرعَونَ لَعِظةً وعِبرةً عَظيمةً، ودَلالةً واضِحةً للنَّاسِ على صِدقِ الرَّسولِ، وحِكمةِ اللهِ وتَوحيدِه، وقُدرتِه العظيمةِ على إهلاكِ الكافرين وإنجاءِ المؤمِنينَ[٢].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِ فِرعَونَ مؤمنينَ بالله، فلم يُؤمِنْ منهم إلَّا قِلَّةٌ قَليلةٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٤، ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ هنا قومُ فرعونَ: مقاتلُ بن سليمان، والواحدي، والقرطبي، والبقاعي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الشوكاني: (ليس المرادُ أكثرَ مَن كان معَ فرعونَ عندَ لحاقِه بموسَى؛ فإنَّهم هلَكوا في البحرِ جميعًا، بل المرادُ مَن كان معه مِن الأصلِ، ومَن كان متابعًا له ومنتسبًا إليه، هذا غايةُ ما يمكنُ أن يُقالَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٩).

وذهب ابنُ جريرٍ ومكِّيٌّ إلى أنَّ المعنى: وما كان أكثَرُ قومِك -يا محمَّدُ- مؤمنينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣١٤). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦٨﴾.

أي: وإنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- لَهُوَ العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعَذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يبيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلَّا بعدَ إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه ينجِّي أتْباعَ رسُلِه[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ تحذيرٌ للطُّغاةِ مِن أن تزولَ نِعَمُهم بسبَبِ طُغيانِهم؛ ففي عصرِنا هذا فتَح اللهُ على النَّاسِ مِن أنواعِ النَّعيمِ ما لم يكن مَوهومًا مِن قَبلُ -وبالأَولى ليس معلومًا- فيُخشَى أن يُخرَجَ هؤلاء مِن هذا النَّعيمِ إذا طَغَوا وعَتَوا عن أمرِ اللهِ سُبحانَه وتعالى[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ * قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المُعايَنَةَ والتَّجرِبةَ أقوَى في نُفوسِ البشَرِ، وقلوبَهم إليها أشدُّ طُمأنينةً -صالحةً كانت النَّفسُ أو طالحةً-؛ لأنَّها على ذلك مجبولةٌ، لا تقدِرُ أن تُغيِّرَه مِن أنفُسِها؛ لأنَّ موسى خاف عَصاهُ حينَ تحوَّلتْ ثُعبانًا في بُدُوِّ أمرِه، وخاف

= وقال ابن عثيمين: (والأَولى أن يُقال: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أنَّه يَعودُ على الذين نزَل عليهم القرآنُ، لا على بني إسرائيلَ، أو آلِ فِرعَونَ). ((تفسير ابن عثيمين-سورة الشعراء)) (ص: ١٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٢٦).

حِبالَ السَّحَرةِ وعِصِيَّهم يومَ ألقَوْها، فلمَّا تَمكَّنَ في النبوَّةِ، وكثُرَتْ آياتُ اللهِ الجميلةُ عندَه، وعاينَها منه وَقتًا بعدَ وقتٍ؛ أيقنَ أنَّه لا يُسلِمُه لشِدَّةٍ، وقد سَلَّمَه منها مرَّةً بعدَ أخرى؛ فقال ما قال ثقةً بربِّه، وتوكُّلًا عليه[١].

٣- أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى كما يهدي إلى الطَّريقِ المعنويِّ يهدي أيضًا إلى الطَّريقِ الحِسِّيِّ؛ لِقَولِه: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾، وليس المرادُ هنا هدايةَ العِلمِ والتَّوفيقِ للعَمَلِ الصَّالحِ، وإنَّما المرادُ الهدايةُ لطريقِ النَّجاةِ التي يَنجو بها، فهَداه اللهُ سُبحانَه وتعالى[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ * وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ قد يُؤخَذُ مِن حيثُ يَرى أنَّه علا وظهَرَ؛ فإنَّ فِرعَونَ بَعَث في المدائنِ حاشِرينَ، يَدعوهم إلى قتالِ موسى وقَومِه، فخَرجوا تابعينَ لهم على أنَّهم سيُدركونَهم، فصار في هذا الخروجِ حَتْفُهم وهلاكُهم، ونظيرُه في هذه الأُمَّةِ ما صنعتْ قُرَيشٌ حين خرجتْ إلى بدْرٍ، وكان أبو جَهلٍ يقولُ: (واللهِ لا نَرجِعُ حتى نَقْدَمَ بدرًا فنَسقيَ فيها الخُمورَ، وتَعزِفَ علينا القِيانُ[٣]، ونَشرَبَ الخُمورَ؛ حتى تسمَعَ بنا العرَبُ، فلا يَزالون يَهابونَنا أبدًا)[٤]، فأُخِذوا مِن حيثُ أَتَوا[٥]!

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٣٤).

(٣) القَيْنَة: الأَمَةُ غَنَّت أو لم تُغَنِّ، والماشِطةُ، وكثيرًا ما تُطْلَقُ على المُغَنِّيةِ مِن الإماءِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) (٤/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((السيرة النبوية)) لابن هشام (١/ ٦١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٢٦).

٢- قولُه: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أي: إنَّا مِن عادتِنا التيقُّظُ للحَوادِثِ، والحَذَرُ مِمَّا عسى أن يكونَ لها مِن سيِّئِ العواقِبِ، وهذا أصلٌ عظيمٌ مِن أصولِ السياسةِ، وهو سَدُّ ذرائعِ الفَسادِ -ولو كان احتِمالُ إفضائِها إلى الفَسادِ ضعيفًا-، فالذرائعُ المُلغاةُ في التَّشريعِ في حُقوقِ الخُصوصِ غيرُ مُلغاةٍ في سياسةِ العُمومِ؛ ولذلك يقولُ عُلماءُ الشريعةِ: إنَّ نَظَرَ وُلاةِ الأمورِ في مصالحِ الأُمَّةِ أوسَعُ مِن نَظَرِ القُضاةِ، فالحذَرُ أوسعُ مِن حِفظِ الحُقوقِ، وهو الخَوفُ مِن وقوعِ شَيءٍ ضارٍّ يمكِنُ وقوعُه، والترصُّدُ لِمنعِ وقوعِه، والمحمودُ منه هو الخَوفُ مِن الضَّارِّ عندَ احتِمالِ حُدوثِه دونَ الأمرِ الذي لا يمكِنُ حُدوثُه؛ فالحذَرُ منه ضَربٌ مِن الهوَسِ[(١)].

٣- قَوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ فيه بيانُ عُقوبةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى للطَّاغينَ، وذلك بإزالةِ النِّعَمِ عنهم؛ إمَّا بإخراجِهم منها، وإمَّا بإزالتِها هيَ[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ...﴾ أنَّ العُقوبةَ بعدَ التَّنعيمِ أشدُّ؛ ولذلك نُصَّ عليها، فما قال: «فأخرَجْناهم مِن أماكِنِهم» فقط، أو مِن ديارِهم، ولكنْ بَيَّنَ على سبيلِ التَّعيينِ ما هم فيه مِن النَّعيمِ؛ لأنَّ الأخذَ بالعُقوبةِ بعدَ النَّعيمِ يكونُ أشَدَّ[(٣)].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قال مجاهدٌ: (سَمَّاها كُنوزًا؛ لأنَّه لم يُعْطَ حقُّ اللهِ منها، وما لم يُعْطَ حقُّ اللهِ منه فهو كَنْزٌ، وإنْ كان ظاهِرًا)[(٤)].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فيه مِن الإشكالِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٨). ويُنظر أيضًا: ((مصنف ابن أبي شيبة)) (٢/ ٤١١) (١٠٥٢١).

عليه وسلَّم يقولُ: ((أُحِلَّتْ لِيَ الغنائمُ، ولم تَحِلَّ لأحدٍ قَبْلي))[١]، وهنا أورَثَ اللهُ ديارَ فِرعَونَ وقومِه وأموالَهم بني إسرائيلَ!

والجوابُ: أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أهلَكَ فِرعَونَ في البَحرِ بدونِ حربٍ، والغَنيمةُ هي ما أُخِذَ مِن مالِ الكفَّارِ بقتالٍ وما أُلحِقَ به، هذا تعريفُها شَرعًا، وهذا ما أُخِذَ بقتالٍ، فهؤلاء هَلَكوا فبقِيتْ ديارُهم لبني إسرائيلَ، وحتى لو لم يَسكُنْها بنو إسرائيلَ لَسكَنَها آخَرون غيرُهم، فالمسألةُ هذه ما غَنِمُوها بأيديهم، ولكِنَّها مِن اللهِ عزَّ وجلَّ لهلاكِ هؤلاء، يعني: كان الأمرُ أنَّهم لَمَّا هَلَكوا صارتْ إرثًا لبني إسرائيلَ إرثًا قَدَريًّا؛ لأنَّه لا بُدَّ أنْ يكونَ كذلك[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ فيه قوَّةُ يقينِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فقد قال ذلك في هذا المقام المُحْرِجِ الذي لا يرى الإنسانُ فيه إلَّا أنَّه هالِكٌ؛ ولهذا قال أصحابُه: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾[٣]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ دَليلٌ على أنَّ لكلِّ شيءٍ سَببًا، حتى الآياتُ التي يَجعلُها اللهُ على يدِ الشَّخصِ لها سببٌ؛ فإنَّ اللهَ تعالى لم يَفلِقِ البحرَ إلَّا بعدَ أنْ أوحَى إلى موسَى أنِ اضربِ البحرَ بعصاك، فضَربَه فانفلَقَ[٤]. فأرادَ تعالى أن يَجعَلَ هذه الآيةَ متَّصِلةً بموسى، ومُتعلِّقةً بفِعلٍ فعَلَه، ولكنَّه بقُدرةِ اللهِ؛ إذْ ضرْبُ البحرِ بالعَصا لا يوجِبُ انفِلاقَ البَحرِ بذاتِه، ولو شاءَ تعالى لفلَقَه دُونَ ضرْبِه بالعَصا[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١) واللفظ له، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٠).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تمامُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بفَلْقِ البحرِ وتيبيسِه في الحالِ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أنَّ كلَّ شيءٍ يَمتَثِلُ لأمرِ اللهِ، وأنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على قَلْبِ الأمورِ عن طبائعِها، فضلًا عن تَغَيُّرِ صِفاتِها؛ فهذه النارُ التي مِن طبيعتِها الإحراقُ والحرارةُ كانت بَرْدًا وسلامًا على إبراهيمَ في الحالِ، وهذا الماءُ الذي مِن طبيعتِه الإغراقُ والسَّيلانُ صار آمنًا لا يَسيلُ بالنِّسبةِ لبني إسرائيلَ[٢]!

١١- يَذكرُ سُبحانَه في هذه السورةِ قصَّةَ موسى وإبراهيمَ، ونوحٍ وعادٍ، وثمودَ ولوطٍ وشعيبٍ، ويَذكرُ لكلِّ نبيٍّ إهلاكَه لمُكَذِّبيهم، والنَّجاةَ لهم ولأتبَاعِهم، ثم يَختمُ القِصَّةَ بقَولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فخَتَمَ القصةَ باسمين مِن أسمائِه تقتضيهما تلك الصفةُ، وهو «العزيزُ الرحيمُ»، فانتَقَم مِن أعدائِه بعِزَّتِه، وأنجى رُسُلَه وأتباعَهم برحَمتِه[٣].

١٢- مِن آياتِ الأنبياءِ إهلاكُ اللهِ لمُكَذِّبيهم، ونَصرُه للمؤمنينَ بهم، فهذا مِن أعلامِ نُبُوَّتِهم، ودلائلِ صِدقِهم؛ كإغراقِ اللهِ قومَ نوحٍ لَمَّا كذَّبوه، وكإهلاكِه قومَ عادٍ بالرِّيحِ الصَّرصَرِ، وإهلاكِ قومِ صالحٍ بالصَّيحةِ، وإهلاكِ قومِ شُعيبٍ بالظُّلَّةِ، وإهلاكِ قومِ لوطٍ بقَلْبِ مدائنِهم، ورجمِهم بالحجارةِ، وكإهلاكِ قومِ فِرعَونَ بالغَرَقِ، وقد ذكر اللهُ القَصَصَ في القرآنِ في غيرِ موضعٍ، وبيَّنَ أنَّها مِن آياتِ الأنبياءِ الدالَّةِ على صِدقِهم كما يذكُرُه في هذه السورةِ، لَمَّا ذكر قِصَّةَ موسى قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٩٨).

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾، ثمَّ ذكَرَ قِصَّةَ إبراهيمَ وقال في آخِرِها: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٣]، وكذلك ذكَرَ مِثلَ ذلك في قِصَّةِ نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، ولوطٍ، وشُعَيبٍ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ هذه قِصَّةٌ أُخرى مِن أحوالِ موسى عليه السَّلامُ في دَعوةِ فِرعونَ؛ فالواوُ لعَطفِ القصَّةِ، ولا تُفيدُ قُرْبَ القصَّةِ مِنَ القصَّةِ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ تَعليلٌ للأمرِ بالإسراءِ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ ظاهرُ ترتيبِ الجُمَلِ يَقتَضي أنَّ الفاءَ للتَّعقيبِ على جملةِ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ ﴾ [الشعراء: ٥٢]، وأنَّ بيْنَ الجُمْلتَينِ مَحذوفًا، تَقديرُه: فأَسرَى موسى عليه السَّلامُ وخَرَج بهم، فأَرسَلَ فِرعونُ حاشِرينَ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴾ مَقُولٌ لقَولٍ مَحذوفٍ؛ لأنَّ ﴿حَٰشِرِينَ ﴾ يَتضمَّنُ معنَى النِّداءِ، أي: يقولون: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴾[٥].

- وفي قولِه: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴾ ذكَرَهم بالاسمِ الدَّالِّ على القِلَّةِ،

---

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٠).

ثمَّ جعَلَهم قليلًا بالوَصفِ، ثمَّ جَمَعَ القليلَ فجَعَل كلَّ حِزبٍ منهم قليلًا، واختارَ جَمْعَ السَّلامةِ الَّذي هو للقِلَّة. وقيل: جُمِعَ «قليلًا» بالواوِ والنُّونِ؛ لموافَقةِ رُؤوسِ الآيِ، وإنْ أَفرَدَها جازَ؛ لأنَّ لفْظَ «الشِّرذِمةِ» مُفرَدٌ[1]. ولَمَّا كانت قِلَّتُهم إنَّما هي بالنِّسبةِ إلى كَثرةِ آلِ فِرعونَ وقوَّتِهم، وما لَهم عليهم مِن هَيبةِ الاستِعبادِ، وكان التَّعبيرُ بالشِّرذِمةِ موهِمًا لأنَّهم في غايةِ القِلَّةِ- أزالَ هذا الوَهمَ بالتَّعبيرِ بالجَمعِ دُونَ المُفرَدِ؛ ليُفيدَ أنَّه خَبرٌ بعدَ خَبرٍ، لا صِفةٌ، وأنَّ التَّعبيرَ بالشِّرذِمةِ إنَّما هو للإشارةِ إلى تَفرُّقِ القلوبِ. والجَمعُ ولا سيَّما ما للسَّلامةِ مع كَونِه أيضًا للقِلَّةِ أدَلُّ على أنَّهم أَوْزاعٌ. وفيه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّهم مع ضَعفِهم بقِلَّةِ العَددِ آيسونَ مِن إسعافٍ بمَدَدٍ، وليس لهم أُهْبَةٌ لقتالٍ؛ لعدَمِ العُدَّةِ؛ لأنَّهم لمْ يَكونوا قطُّ في عِدادِ مَن يُقاتِلُ، كما تقولُ لمَن تَزْدَريهِ: هو أَقَلُّ مِن أن يَفعَلَ كذا، فقال: ﴿قَلِيلُونَ﴾، أي: بالنِّسبةِ إلى ما لنا مِنَ الجُنودِ الَّتي لا تُحصَى، وإنْ كانوا في أنفُسِهم كَثيرينَ، فلا كَثرةَ لهم تَمنعُكُم أيُّها المَحشورونَ مِنَ اتِّباعِهم[2].

- وفي اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إيماءٌ إلى تَحقيرٍ لشأنِهم، أكَّدَه التَّصريحُ بأنَّهم شِرْذِمةٌ قَليلون، والشِّرْذِمةُ: الطَّائفةُ القليلةُ مِنَ النَّاسِ؛ فإتْباعُه بوصْفِ ﴿قَلِيلُونَ﴾ للتَّأكيدِ؛ لدفْعِ احتِمالِ استِعمالِها في تَحقيرِ الشَّأنِ أو بالنِّسبةِ إلى جُنودِ فِرعونَ. و﴿قَلِيلُونَ﴾ خبرٌ ثانٍ عنِ اسمِ الإشارةِ، فهو وصْفٌ في المَعنى لمَدلولِ هؤلاءِ، وليس وصْفًا لشِرْذِمة، ولكنَّه مؤكِّدٌ لمَعْناها؛ ولهذا جِيءَ به

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٤، ٣١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٨، ٣٩).

بصيغةِ جمْعِ السَّلامةِ، الَّذي هو ليس مِن جُموعِ الكَثْرةِ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ فيه تَقديمُ ﴿لَنَا﴾ على ﴿لَغَآئِظُونَ﴾؛ لرِعايةِ الفاصِلةِ[٢]، وللحصرِ، واللامُ للتقويةِ، أو تنزيلِ المتعدِّي منزلةَ اللازمِ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ هذا حثٌّ لأهلِ المَدائنِ على أن يَكونوا حَذِرينَ على أبلَغِ وجْهٍ؛ إذْ جَعَل نفْسَه معهم في ذلك بقَولِه: ﴿لَجَمِيعٌ﴾، وذلك كِنايةٌ عن وُجوبِ الاقتِداءِ به في سياسةِ المَملَكةِ[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾، وما بيْنَهما اعتِراضٌ؛ لأنَّ الإتْباعَ عَقِبَ الإخراجِ، لا الإيراثِ[٥].

٧- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ قالُوه بالتَّأكيدِ؛ لشدَّةِ الاهتِمامِ بهذا الخَبرِ، وهو مُستعمَلٌ في معنَى الجَزَعِ[٦]. وكذلك جاؤُوا بالجملةِ الاسميَّةِ مؤكَّدةً بحرفَي التَّأكيدِ؛ للدَّلالةِ على تَحقُّقِ الإدراكِ واللَّحاقِ وتَنَجُّزِهما[٧].

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ زجَرَهم ورَدَعَهم بحَرْفِ الرَّدْعِ ﴿كَلَّآ﴾، واقتَصَر مُوسَى عليه السَّلامُ على نفْسِه في قَولِه: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣١).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٣، ١٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٥).

لأنَّهم لمْ يَكونوا عالِمينَ بما ضَمِنَ اللهُ له مِن مَعِيَّةِ العنايةِ؛ فإذا عَلِموا ذلك عَلِموا أنَّ هِدايتَه تَنفَعُهم؛ لأنَّه قائِدُهم، والمُرسَلُ لفائِدتِهم. ووجْهُ اقتِصارِه على نفْسِه أيضًا: أنَّ طريقَ نَجاتِهم بعدَ أنْ أَدركَهُم فِرعونُ وجُنْدُه لا يَحصُلُ إلَّا بفِعلٍ يَقطَعُ دابِرَ العدُوِّ، وهذا الفعلُ خارِقٌ للعادةِ؛ فلا يَقَعُ إلَّا على يَدِ الرَّسولِ. وهذا وجْهُ اختِلافِ المَعِيَّةِ بيْنَ ما في هذه الآيةِ وبيْنَ ما في قَولِه تعالى في قِصَّةِ الغارِ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]؛ لأنَّ تلك مَعِيَّةُ حِفظِهما كِلَيْهِما بصرْفِ أَعيُنِ الأعداءِ عنهما[١].

- وقدَّم مَعيَّةَ اللهِ؛ لأنَّها أقوى في تَثبيتِ قَومِه، وكلُّ إنسانٍ يكونُ اللهُ معه فلن يَضُرَّه شَيءٌ، ثمَّ قال أيضًا مؤكِّدًا أثَرَ هذه المعيَّةِ: ﴿سَيَهْدِينِ﴾، والسِّينُ تدُلُّ على التَّحقيقِ والقُربِ[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾

- قولُه: ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ الفاءُ فصيحةٌ، أي: فضَرَبَ فانفلَقَ؛ ففيه إيجازٌ بالحَذْفِ[٣].

ومِن عادةِ العربِ الحَسَنةِ في خِطابِها أنهم يَحذِفونَ مِن الكلامِ ما يكونُ المذكورُ دليلًا عليه؛ اختِصارًا، ومِن ذلك هذه الآيةُ، فمَعلومٌ أنَّ المرادَ «فضَرَبَ فانفَلَقَ»، لكنْ لم يُحتَجْ إلى ذِكرِ ذلك في اللَّفظِ؛ إذْ كان قولُه: ﴿أَنِ ٱضْرِب﴾ ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ دليلًا على أنَّه ضُرِبَ فانفلَقَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٦٦).

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾

- في الكلامِ إيجازٌ بالحذْفِ، تَقديرُه: ودخَلَ موسى وبَنو إسرائيلَ البحرَ، وأنجَيْنا...[١].

١١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تَذييلٌ[٢]، وتَسليةٌ لحبيبِه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ ما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن معنَى البُعدِ؛ لتَهويلِ أمْرِ المُشارِ إليه وتَفظيعِه، كتَنكيرِ الآيةِ في قَولِه تعالى: ﴿لَآيَةً﴾، أي: أيَّةُ آيةٍ، أو: آيةً عظيمةً لا تَكادُ توصَفُ[٤].

- وقولُه: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما أكثَرُهم مؤْمنينَ، على أنَّ (كانَ) صِلَةٌ؛ فيَكونُ كقَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وهو إخبارٌ منه تعالى بما سيَكونُ مِنَ المُشركينَ -على أحدِ الأقوالِ- بعْدَما سمِعُوا الآياتِ النَّاطقةَ بالقصَّةِ؛ تَقريرًا لِما مَرَّ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۞ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ ...﴾ [الشعراء: ٥- ٦]. وإيثارُ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على استِقرارِهم على عدَمِ الإيمانِ، واستِمرارِهم عليه. ويَجوزُ أن يُجعلَ (كان) بمعنَى (صَار)، كما فُعِل ذلك في قَولِه تعالَى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فالمَعْنى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٦).

وما صار أَكثَرُهم مؤْمنِينَ مع ما سمِعُوا مِنَ الآيةِ العظيمةِ الموجِبةِ له بما ذُكِر مِنَ الطَّرفَينِ، فيَكونَ الإخبارُ بعدَم الصَّيرورةِ قبْلَ الحدوثِ؛ للدَّلالةِ على كمالِ تَحقُّقِه وتَقرُّرِه، كقَولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ...﴾ [النحل: ١] الآيةَ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٦).

الآيات (٦٩-٨٩)

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا
فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣ قَالُواْ
بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ
ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ
يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١
وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي
بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥
وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨
إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَٰكِفِينَ﴾: أي: مُقيمينَ، والعُكُوفُ: الإقبالُ على الشَّيءِ ومُلازمتُه على سَبيلِ التَّعظيمِ له، وأصلُ (عكف): يدُلُّ على الإقبالِ والحَبسِ(١).

﴿لِسَانَ صِدۡقٖ﴾: أي: ذِكرًا وثناءً حَسَنًا، وأصلُ (صدق): يدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ قَولًا وغيرَه(٢).

﴿تُخۡزِنِي﴾: أي: تَفضَحْني وتُذِلَّني، وأصلُ الخزيِ: الإبعادُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٩) و(٥/ ٢٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((تذكرة =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

الاستِثناءُ في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ﴾ فيه وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّه مُنقطِعٌ، أي: لكِنْ من أتى اللهَ بقَلبٍ سليمٍ فإنَّه ينفعُه ذلك... الثاني: أنَّه متَّصِلٌ.

وفي إعرابِ (مَن) وَجهانِ:

أحدُهما: أنَّه بَدَلٌ مِن المفعولِ المَحذوفِ، أو مُستثنًى منه؛ إذ التقديرُ: لا ينفَعُ مالٌ ولا بَنونَ أحدًا من النَّاسِ إلَّا مَن كانت هذه صِفتُه.

والثاني: أنَّ (مَن) مفعولٌ به لـ ﴿يَنفَعُ﴾، أي: لا ينفَعُ المالُ والبَنونَ إلَّا هذا الشَّخصَ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى جانبًا مِن قصةِ إبراهيمَ عليه السلامُ، فيقولُ: واقرأْ -يا مُحمَّدُ- على قَومِك خَبَرَ إبراهيمَ حينَ قال لأبيه وقَومِه: ما هذا الذي تَعبُدونَه؟

قالوا: نَعبُدُ أصنامًا فنظَلُّ مُقيمينَ على عِبادتِها. قال لهم إبراهيمُ: هل تسمَعُ أصنامُكم دُعاءَكم حينَ تَدْعونَها، أو تنفَعُكم أو تضُرُّكم أنتم أو أعداءَكم؟ قال قومُ إبراهيمَ: لا، ولكِنَّنا وجَدْنا آباءَنا يَعبُدونَها، فنحن نعبُدُها مِثلَهم.

قال إبراهيمُ لهم: أرأيتُم هذه الأصنامَ التي تَعبُدونَها أنتم وأجدادُكم الماضون، فإنَّهم كُلَّهم عدوٌّ لي إلَّا رَبَّ العالَمينَ، الذي خلقَني فهو يُرشِدُني، والذي يَرزُقُني

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٧).

(١) يُنظر: ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٣٢)، ((المجتبى)) للخراط (٣/ ٨٤١).

الطَّعامَ والشَّرابَ، وإذا مَرِضتُ فهو وَحْدَه الذي يُعافيني، وهو وحْدَه الذي يُميتُني ثمَّ يَبعثُني يومَ القيامةِ، والذي أرجو أن يغفِرَ لي ذُنوبي يومَ القيامةِ.

ثمَّ أتْبَع إبراهيمُ عليه السلامُ ذلك بالتوجُّهِ إلى الله بالدعاءِ قائلًا: ربِّ أعطِني فَهمًا وعِلمًا، واجعَلْني مع الصَّالحينَ، واجعَلْ لي ثناءً حَسنًا في العالَمينَ مِن بَعدي، واجعَلْني ممَّن تُورِثُهم الجنَّةَ في الآخرةِ، واغفِرْ لأبي؛ لأنَّه كان مِن الضالِّينَ، ولا تَفْضَحْني حينَ تَبعَثُ عِبادَك؛ يومَ لا ينفَعُ أحدًا مالُه ولا أبناؤُه، إلَّا مَن لَقِيَ اللهَ يومَ القيامةِ بقَلبٍ سَليمٍ خالصٍ مِن الشِّركِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

اعلَمْ أنَّه تعالى ذكَرَ في أوَّلِ السُّورةِ شِدَّةَ حُزنِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بسبَبِ كُفرِ قَومِه، ثمَّ إنَّه ذكَرَ قِصَّةَ موسى عليه السَّلامُ؛ لِيَعرِفَ محمَّدٌ أنَّ مِثلَ تلك المِحنةِ كانت حاصِلةً لموسى عليه السَّلامُ، ثمَّ ذكَرَ عَقِبَها قِصَّةَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لِيَعرِفَ مُحمَّدٌ أيضًا أنَّ حُزنَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ بهذا السبَبِ كان أشَدَّ مِن حُزنِه؛ لأنَّ مِن عَظيمِ المِحنةِ على إبراهيمَ عليه السَّلامُ أن يرى أباه وقومَه في النَّارِ، وهو لا يتمَكَّنُ مِن إنقاذِهم[1]!

وأيضًا لَمَّا كانت العَرَبُ لها خُصوصيَّةٌ بإبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ أمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يتلوَ عليهم قَصَصَه، وما جرَى له مع قَومِه، ولم يأتِ في قِصَّةٍ مِن قِصَصِ هذه السُّورةِ أمْرُه عليه السَّلامُ بتلاوةِ قِصَّةٍ إلَّا في هذه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٢).

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ ﴾.

أي: واقرأْ -يا مُحمَّدُ- على قَومِك خبَرَ إبراهيمَ العَظيمَ[١].

﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ ﴾.

أي: حينَ قال إبراهيمُ لأبيه وقَومِه المُشرِكين: أيُّ شَيءٍ تعبدونَ، وتُواظِبونَ على عبادتِه[٢]؟

﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١ ﴾.

أي: قال المُشرِكون لإبراهيمَ: نعبُدُ أصنامًا، فنُقيمُ على عبادتِها وَقتًا طَويلًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٥٠).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ نبَّه المشركين على فَرطِ جَهلِهم؛ إذ رَغِبوا عن اعتقادِ إبراهيمَ ودينِه، وهو أبوهم). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٩).

وقال السعدي: (أي: واتلُ -يا محمَّدُ- على النَّاسِ نبأَ إبراهيمَ الخليلِ، وخبَرَه الجليلَ في هذه الحالةِ بخصوصِها، وإلَّا فله أنباءٌ كثيرةٌ، ولكِنْ مِن أعجبِ أنبائِه وأفضَلِها هذا النبأُ المتضَمِّنُ لرسالتِه ودعوتِه قَومَه، ومحاجَّتِه إيَّاهم، وإبطالِه ما هم عليه؛ ولذلك قيَّده بالظَّرفِ فقال: ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ ... ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

وقال ابن عاشور: (ونبأُ إبراهيمَ: قصَّتُه المذكورةُ هنا، أي: اقرأْ عليهم ما ينزِلُ عليك الآنَ مِن نبأِ إبراهيمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٩).

قال مكي: (لا يكونُ «ظلَّ» إلا بالنَّهارِ، كما أنَّ «باتَ» بالليلِ، واشتقاقُه مِن «الظلِّ»، و«الظلُّ» إنَّما يكونُ بالنَّهارِ؛ فلذلك لم يقَعْ «ظل» إلَّا بالنَّهارِ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (٧/ ٤٩٢٦).

وقال الزمخشري: ((إنما قالوا: نَظَلُّ؛ لأنَّهم كانوا يعبُدونَها بالنَّهارِ دونَ اللَّيلِ). ((تفسير =

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: هل تَسمَعُ أصنامُكم دُعاءَكم حينَ تَدْعونَها[١]؟

﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

أي: أو هل تنفَعُكم أو تُوقِعُ الضَّرَرَ عليكم أو على أعدائِكم[٢]؟!

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

أي: قال قَومُ إبراهيمَ: لا تَسمَعُنا الأصنامُ، ولا تنفَعُنا ولا تضُرُّنا، ولكِنَّنا وجَدْنا آباءَنا يَعبُدونَها ويَعكُفونَ عليها، فنحنُ نقتَدي بهم[٣]!

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ: أفرأيتُم -أيُّها القَومُ- هذه الأصنامَ التي كنتُم تَعبدونَها أنتم وأجدادُكم الماضُونَ الأوَّلونَ[٤].

= الزمخشري)) (٣/ ٣١٨).

وقال ابن عاشور: (... هم كانوا صابئةً يعبدون الكواكبَ، وجعلوا الأصنام رموزًا على الكواكب تكونُ خَلَفًا عنها في النهارِ، فإذا جاء الليلُ عبدوا الكواكِبَ الطالعةَ... وكانت الأممُ الوَثَنيةُ تَعبُدُ الوثَنَ؛ لرجاءِ نفعِه أو لدَفعِ ضَرِّه، ولذلك عَبَد بعضُهم الشياطينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٠، ٥٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٥٥، ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٠). =

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٧﴾.

أي: فإنَّها كُلَّها عدوٌّ لي لا أعبُدُها، وأتبرَّأُ منها، إلَّا رَبَّ العالَمينَ؛ فإنِّي أعبُدُه وحْدَه[١].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ٧٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى سُبحانَه عن إبراهيمَ عليه السلامُ أنَّه استثنى ربَّ العالَمينَ؛ حكَى عنه أيضًا ما وَصَفَه به ممَّا يستَحِقُّ العبادةَ لأجْلِه[٢].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ٧٨﴾.

أي: الذي أوجَدني وحْدَه مِنَ العَدَمِ، ويُرشِدُني لِمَصالحي في دِيني ودُنياي[٣].

= قال الألوسي: (﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أي: أنظَرْتُم فأبصَرْتُم أو تأمَّلتُم فعَلِمتُم أيُّ شيءٍ استدَمْتُم على عبادتِه، أو أيُّ شَيء تعبدونَه). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٩٣).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥٤٩).

قال ابن عطية: (لفظةُ عدوٍّ تقع للجَميعِ والمفرَدِ، والمؤنَّثِ والمذكَّرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٤).

وقال ابن الجوزي: (في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قولان؛ أحدُهما: أنَّه استثناءٌ مِن الجنسِ؛ لأنَّه علِمَ أنَّهم كانوا يعبدونَ اللهَ مع آلهتِهم، قاله ابن زيد. والثاني: أنَّه مِن غير الجنسِ، فالمعنى: ولكِنْ رَبُّ العالَمينَ ليس كذلك، قاله أكثَرُ النَّحْويِّينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤١).

ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٣٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٢).

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾.

أي: والذي يُغَذِّيني وحْدَه بالطَّعامِ والشَّرابِ[١].

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾.

أي: وإذا سَقِمَ بَدَني واعتَلَّتَ صِحَّتي فهو وحْدَه الذي يُعافيني[٢].

﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾.

أي: وهو وحْدَه الذي يَقبِضُ رُوحي عند انقضاءِ أجلي، ثمَّ يبعَثُني يومَ القيامةِ ليُجازيَني[٣].

﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ البعثَ؛ ذَكَرَ ما يترتَّبُ عليه، فقال[٤]:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

أي: وهو وحْدَه الذي أرجو أن يغفِرَ لي ذُنوبي يومَ القيامةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٢)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٧)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٧).

قال ابنُ عطيةَ: (قولُهُ: ﴿خَطِيٓـَٔتِى﴾ ذهب فيه أكثَرُ المفسِّرينَ إلى أنَّه أراد كَذِباتِه الثَّلاثَ؛ =

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، ابنُ جُدْعانَ كان في الجاهليَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطعِمُ المِسكينَ، فهل ذاك نافِعُه؟ قال: لا ينفَعُه؛ إنَّه لم يَقُلْ يومًا: ربِّ اغفِرْ لي خطيئتي يومَ الدِّينِ))[1].

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾.

أي: ربِّ أعطِني فَهمًا، وعِلمًا كثيرًا[2].

= قولُه: «هي أختي»، في شأنِ سارَةَ، وقولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقَولُه: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وقالت فِرقةٌ: أراد بـ «الخطيئة» اسمَ الجنسِ، فدعا في كُلِّ أمْرٍ مِن غيرِ تعيينٍ. وهذا أظهَرُ عندي؛ لأنَّ تلك الثَّلاثَ قد خَرَّجها كثيرٌ مِن العلماء على المعاريضِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٥).

(١) رواه مسلم (٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

قال ابن الجوزي: (﴿حُكْمًا﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: النبوَّةُ، قاله أبو صالحٍ، عن ابنِ عباسٍ. والثاني: اللُّبُّ، قاله عِكْرِمةُ. والثالث: الفَهمُ والعلمُ، قاله مقاتلٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤١). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٩).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بالحُكمِ: العِلمُ والفَهمُ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمعانيُّ، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: النُّبوَّةُ: يحيى بنُ سلَّام، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٢٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الحكمةُ والنبوةُ: ابنُ عطية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٥). =

﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: واجعَلْني معَ الصَّالحينَ في الدُّنيا والآخرةِ[1].

= وقال ابنُ عاشور: (الحُكمُ: هو الحِكمةُ والنبوَّةُ... وقد كان إبراهيمُ حين دعا نبيًّا؛ فلذلك كان السؤالُ طلبًا للازديادِ؛ لأنَّ مراتِبَ الكمالِ لا حَدَّ لها بأن يُعطى الرِّسالةَ مع النبوَّةِ، أو يُعطى شريعةً مع الرِّسالةِ، أو سَأل الدَّوامَ على ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الكمالُ في العِلمِ والعَملِ: البيضاويُّ، والشربيني، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٠).

قال البقاعي: (﴿هَبۡ لِي حُكۡمٗا﴾ أي: عملًا متقنًا بالعلمِ، وأصلُه بناءُ الشيءِ على ما تُوجِبُه الحكمةُ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٥٤).

وقال أبو حيان: (والظاهرُ أنَّ الحكمَ هو الفصلُ بينَ الناسِ بالحقِّ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالصالحينَ: الأنبياءُ والمرسَلونَ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والثعلبي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٦٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

قيل: المرادُ: في المنزلةِ والدَّرجةِ، وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٧).

وقال ابن جرير: (﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يقولُ: واجعَلْني رسولًا إلى خَلقِك؛ حتى تُلحِقَني بذلك بعِدادِ مَن أرسَلْتَه مِن رُسلِك إلى خَلقِك، واتَّمَنْتَه على وحْيِك، واصطَفَيْتَه لنفْسِك). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٣). ويُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٢٠).

وقيل: المرادُ بالصالحينَ: أهلُ الجنةِ، وممَّن اختاره: يحيى بنُ سلام. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٠٨).

واختار ابنُ عاشورٍ أنَّ لفظَ الصَّالحينَ يَعُمُّ جميعَ الصَّالحينَ مِن الأنبياءِ والمرسلينَ، والشُّهداءِ والصَّالحينَ. ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٥). =

﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الصَّالحُ قد لا يَظهرُ عملُه، وكان إظهارُ اللهِ له مَجلَبةً للدُّعاءِ وزيادةً في الأجرِ؛ قال[1]:

﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾.

أي: واجعَلْ لي ثناءً حَسَنًا دائمًا، فأُذكَرَ مِن بَعدي، ويَقتديَ النَّاسُ بي[2].

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨ - ١١١].

﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥﴾.

= وقيل: معنى ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾: أي: وفِّقْني للكمالِ في العملِ؛ لأنتظِمَ به في عِدادِ الكاملينَ في الصلاحِ، الراسخينَ فيه. وممَّن اختار هذا القولَ في الجملةِ: الرازيُّ، والبيضاوي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٥، ١٤٦).

قال ابن عطية: (لسانُ الصِّدقِ في الآخِرينَ: هو الثناءُ وتخليدُ المكانةِ، بإجماعٍ مِن المفسِّرينَ، وكذلك أجاب اللهُ دَعْوتَه؛ فكلُّ مِلَّةٍ تتمَسَّكُ به وتعَظِّمُه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٥).

وقال القرطبيُّ: (وقد فعَل اللهُ ذلك؛ إذ ليس أحدٌ يصَلِّي على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا وهو يصلِّي على إبراهيمَ، وخاصَّةً في الصَّلواتِ، وعلى المنابرِ، التي هي أفضلُ الحالاتِ، وأفضَلُ الدَّرَجاتِ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا طَلَبَ عليه السَّلامُ سَعادةَ الدُّنيا، وكان لا نفْعَ لها إلَّا باتِّصالِها بسَعادةِ الآخرةِ التي هي الجنةُ؛ طَلَبها بقَولِه[١]:

﴿ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥ ﴾.

أي: واجعَلْني ممَّن تُورِثُهم الجنَّةَ في الآخِرةِ[٢].

﴿ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا دعا لنفْسِه، ثنَّى بأحقِّ الخَلقِ ببرِّه، فقال[٣]:

﴿ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦ ﴾.

أي: واغفِرْ لأبي؛ لأنَّه مِنَ الضَّالِّينَ عن طَريقِ الحَقِّ، فلا تُعاقِبْه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

قال ابنُ جرير: (يعني إبراهيمُ صلواتُ الله عليه بقَولِه: ﴿ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الشعراء: ٨٥] أورِثْني -يا رَبِّ- مِن منازِلِ مَن هَلَك مِن أعدائِك المشركينَ بك مِن الجنَّةِ، وأسْكِنِّي ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٥).

وقال البقاعي: (شبَّه إدخالَها بالإرثِ الذي يحصُلُ بغيرِ اكتسابٍ مِن الوارِثِ، وهو أقوى أسبابِ المِلْكِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٦، ١٤٧).

قال السعدي: (هذا الدعاءُ بسببِ الوعدِ الذي قال لأبيه: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٧]، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ=

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: ولا تَفْضَحْني يومَ القيامةِ حينَ تَبعَثُ عِبادَك لفصلِ القضاءِ[١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((يَلقَى إبراهيمُ أباه آزَرَ يومَ القيامةِ، وعلى وَجهِ آزَرَ قَتَرةٌ وغَبَرةٌ، فيقولُ له إبراهيمُ: ألم أقُلْ لك: لا تَعصِني؟ فيقولُ أبوه: فاليومَ لا أعصيك. فيقولُ إبراهيمُ: يا رَبِّ، إنَّك وعَدْتَني ألَّا تُخزيَني يومَ يُبعَثونَ، فأيُّ خزيٍ أخزَى مِن أبي الأبعَدِ[٢]؟! فيقولُ الله

= فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

وذهب السمرقنديُّ إلى أنَّ هذا الدُّعاءَ مِن إبراهيمَ كان في حياةِ أبيه، والمرادُ هدايتُه إلى الحَقِّ، يعني: إنَّه كان مِن المشركينَ في الحالِ، كقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] يعني: مَن هو في الحالِ صبيٌّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٨).

وقال الواحدي: (هذا الاستغفارُ منه لأبيه إنَّما كان قبْلَ أن يتبرَّأَ منه). ((البسيط)) (١٧/ ٧٤).

وقال البيضاوي: (إنْ كان هذا الدُّعاءُ بعْدَ مَوتِه، فلعلَّه... لم يُمنَعْ بَعدُ مِن الاستغفارِ للكُفَّارِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٢).

وقال الألوسي: (حاصِلُه: وفِّقْه للإيمانِ، كما يلوحُ به تعليلُه بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، وهذا ظاهِرٌ إذا كان هذا الدعاءُ قبلَ موتِه، وإنْ كان بعْدَ الموتِ فالدُّعاءُ بالمغفرةِ على ظاهِرِه، وجاز الدعاءُ بها لمُشرِكٍ، واللهُ تعالى لا يغفِرُ أن يُشرَكَ به؛ لأنَّه لم يوحَ إليه عليه السَّلامُ بذلك إذ ذاك، والعَقلُ لا يَحكُمُ بالامتناعِ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٥)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

قال الشوكاني: (﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا تَفضَحْني على رؤوسِ الأشهادِ بمُعاتَبتي، أو: لا تُعَذِّبْني يومَ القيامةِ، أو: لا تُخزِني بتعذيبِ أبي، أو ببَعْثِه في جملةِ الضَّالِّينَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٣).

وقال السعدي: (﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: بالتوبيخِ على بعضِ الذُّنوبِ، والعقوبةِ عليها والفضيحةِ، بل أسعِدْني في ذلك اليومِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

(٢) قيل: وصَف إبراهيمُ عليه السلامُ نفْسَه بالأبعدِ على طريقِ الفرضِ إذا لم تُقبَلْ شفاعتُه في أبيه. =

تعالى: إنِّي حرَّمتُ الجنَّةَ على الكافرينَ. ثمَّ يُقالُ: يا إبراهيمُ، ما تحتَ رِجْلَيْك؟ فينظُرُ فإذا هو بذِيخٍ مُلتَطِخٍ[١]، فيُؤخَذُ بقوائِمِه فيُلقى في النَّارِ))[٢].

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نَبَّهَ على أنَّ المقصودَ هو الآخرةُ، صَرَّحَ بالتَّزهيدِ في الدُّنيا بتحقيرِ أجَلِّ ما فيها، فقال[٣]:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: يومَ لا ينفَعُ العَبدَ فيه مالُه ولا أبناؤُه[٤].

= وقيل: الأبعدُ صفةُ أبيه، أي: أنَّه شديدُ البعدِ مِن رحمةِ الله؛ لأنَّ الفاسقَ بعيدٌ منها، فالكافرُ أبعدُ. وقيل: الأبعد بمعنى البعيدِ، والمرادُ الهالكُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٠٠).

(١) الذِّيخُ: ذكَرُ الضِّباعِ، وأراد بالتلطُّخِ التلَطُّخَ برَجيعِه أو بالطِّينِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٧٤).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ...﴾ مِن كلامِ إبراهيمَ عليه السلامُ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ جرير، واختاره أبو حيَّان، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٧).

قال أبو حيان: (والظَّاهِرُ أن هذه الجُمَلَ كُلَّها متعلِّقةٌ بقولِ إبراهيمَ؛ أخبَرَ بما أعلَمَه اللهُ مِن أحوالِ يومِ القيامةِ، وما يكونُ فيها مِن حالِ قَومِه). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧١).

وذهب السمرقنديُّ وابنُ عطيَّةَ إلى أنَّ كلامَ إبراهيمَ انقطع عندَ قَولِه: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، ثمَّ إنَّ الله وصَف ذلك اليومَ فقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ...﴾. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) =

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

أي: إلَّا مَن لَقِيَ اللهَ يومَ القيامةِ وقَلبُه خالِصٌ مِنَ الشِّركِ والشَّكِّ، والعقائِدِ الباطِلةِ، والأوصافِ الذَّميمةِ، والإراداتِ الفاسدةِ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- إنَّما قال إبراهيمُ عليه السلامُ: ﴿عَدُوٌّ لِّيٓ﴾؛ تصويرًا للمسألةِ في نفْسِه، وأَراهُم بذلك أنَّها نصيحةٌ نَصَح بها نفْسَه أوَّلًا، وبَنَى عليها تَدبيرَ أمْرِه؛ لِيَنظُروا فيَقولوا: ما نَصَحَنا إبراهيمُ إلَّا بما نَصَح به نفْسَه، وما أرادَ لنا إلَّا ما أرادَ لرُوحِه؛ لِيَكونَ أَدْعى لهم إلى القَبولِ، وأَبعَثَ على الاستِماعِ منه، ولو قال: فإنَّه عدُوٌّ لكم، لم يكنْ بتلك المَثابةِ، ولأنَّه دَخَل في بابٍ مِنَ التَّعريضِ، وقد يَبلُغُ التَّعريضُ للمَنصوحِ ما لا يَبلُغُه التَّصريحُ؛ لأنَّه يَتأمَّلُ فيه، فرُبَّما قادَه التَّأمُّلُ إلى التَّقبُّلِ(٢).

٢- قَولُ الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أضافَ

= (٢/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٤، ١١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٤، ٣٣٧)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢١، ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٩)، ((كلمة الإخلاص)) لابن رجب (ص: ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

قال ابن رجب: (القَلبُ السَّليمُ هو الذي ليس فيه شَيءٌ مِن محبَّةِ ما يكرَهُه الله، فدخَل في ذلك سلامتُه مِن الشِّركِ الجَليِّ والخَفيِّ، ومِن الأهواءِ والبِدَعِ، ومِن الفُسوقِ والمعاصي؛كبائِرِها وصغائِرِها، الظَّاهرةِ والباطنةِ، كالرِّياءِ، والعُجْبِ، والغِلِّ، والغِشِّ، والحِقدِ، والحسدِ، وغيرِ ذلك). ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٥٤). ويُنظر: ((جامع العلوم والحِكَم)) لابن رجب (١/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٨، ٣١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٩٠).

المرضَ إلى نفْسِه والشِّفاءَ إلى ربِّه -وإنْ كان المرضُ والشفاءُ كلُّه مِن اللهِ، وعن قَدَرِه وقضائِه وخَلْقِه-؛ استعمالًا لحُسنِ الأدبِ، فمِن الأدبِ إضافةُ نوعِ الحسنةِ إلى الله، ونوعِ السيئةِ إلى النفْسِ، وقد تأدَّب العارفونَ مِن عبادِ الله سُبحانَه وتعالى بهذا الأدبِ، فأضافوا إليه النِّعَمَ والخَيراتِ؛ وأضافوا الشرورَ إلى محَلِّها، كما قال الخَضِرُ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، وكما قالت الجنُّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، وقال تعالى آمِرًا للمصلِّي أن يقولَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، فأسندَ الإنعامَ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى، والغَضَبُ حُذِفَ فاعِلُه أدبًا، وأُسنِدَ الضَّلالُ إلى العَبيدِ(١).

٣- قولُه تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ قال إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ذلك؛ هَضْمًا لنفْسِه، وتعليمًا للأُمَّةِ أنْ يَجتنِبُوا المعاصيَ، ويَكونوا على حَذَرٍ وطلَبِ مَغفرةٍ لِما يَفرُطُ منهم، وتَلافيًا لِما عَسَى يَندُرُ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ الصَّغائرِ، وتَنبيهًا لأبيهِ وقَومِه على أنْ يَتأمَّلوا في أمْرِهم، فيَقِفُوا على أنَّهم مِن سوءِ الحالِ في درجةٍ لا يُقادَرُ قَدْرُها؛ فإنَّ حالَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مع كَونِه في طاعةِ اللهِ تعالى وعبادتِه في الغايةِ القاصيةِ حيثُ كانت بتلك المَثابةِ، فما ظَنُّكِ بحالِ أولئك المَغمُورينَ في الكُفرِ وفُنونِ المعاصي والخَطايا(٢)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ تخويفٌ للمُؤمنينَ شديدٌ لأنْ يَعمَلوا ولا يَتَّكِلوا؛ إذ كان خليلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طامعًا في غُفرانِ خطيئتِه، غيرَ حاتمٍ[١] بها على ربِّه، فمَنْ بعْدَه مِن المؤمنينَ أَحرى أنْ يكونَ أشدَّ خوفًا مِن خطاياه[٢]، فقد أوقَفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نفْسَه على الطَّمعِ في المغفرةِ؛ وهذا دليلٌ على شدَّةِ خَوفِه مع مَنزلتِه وخُلَّتِه[٣].

٥- يُستفادُ مِن قَولِه: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ...﴾ أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ ثناءَه على اللهِ تعالى، ذَكَر بعْدَ ذلك دُعاءَه ومسألتَه، وذلك تنبيهٌ على أنَّ تقديمَ الثَّناءِ على الدُّعاءِ مِن المهمَّاتِ[٤].

٦- قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في هذا دَليلٌ على التَّرغيبِ في العَمَلِ الصَّالحِ الذي يُكسِبُ الثَّناءَ الحَسَنَ[٥]، واستِحبابِ اكتِسابِ ما يُورِثُ الذِّكرَ الجَميلَ[٦].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ أنَّ كلَّ إنسانٍ مُفتَقِرٌ إلى الدُّعاءِ حتى الأنبياءَ؛ لأنَّ إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسلامُ دعا اللهَ سُبحانَه وتعالى بذلك[٧].

---

(١) الحتمُ: اللازمُ الواجبُ الذي لا بُدَّ مِن فِعلِه. يُقالُ: حَتَمْتُ عليه الشيءَ: أوجَبْتُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٦، ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥١٤).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٥٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٥٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ...﴾ إلى آخِرِ القصةِ، أخلى سُبحانَه قِصَّةَ أبي العَرَبِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مِن ذِكْرِ الإهلاكِ؛ إشارةً إلى البِشارةِ بالرِّفقِ ببَنيه العَرَبِ في الإمهالِ، كما رَفَقَ بهم في الإنزالِ والإرسالِ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ * أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾ التقَدُّمُ لا يدُلُّ على الصِّحَّةِ، ولا ينقَلِبُ به الباطِلُ حَقًّا[٢].

٣- قولُه تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ * أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾ في وصْفِهم بالأَقدَمِينَ دَلالةٌ على تَقادُمِ عِبادةِ الأصنامِ فيهم[٣].

٤- قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إنْ قيل: كيف وصَفَ الأصنامَ بالعَداوةِ، وهي جماداتٌ لا تَعقِلُ؟

فالجوابُ: أنَّ معناه فإنَّهم عدوٌّ لي يومَ القيامةِ لو عبَدْتُهم في الدُّنيا. وقيل: إنَّ الكُفَّارَ لَمَّا عَبَدوها ونزَّلوها مَنزِلةَ الأحياءِ العُقَلاءِ، أطلقَ إبراهيمُ لَفظَ العَداوةِ عليها. وقيل غيرُ ذلك[٤].

٥- إذا كان الحُبُّ أصلَ كُلِّ عَمَلٍ مِن حَقٍّ وباطلٍ، فأصلُ الأعمالِ الدينيَّةِ حُبُّ اللهِ ورَسولِه، كما أنَّ أصْلَ الأقوالِ الدِّينيةِ تصديقُ اللهِ ورَسولِه، وكُلُّ إرادةٍ تمنَعُ كَمالَ الحُبِّ لله ورَسولِه، وتُزاحِمُ هذه المحبَّةَ؛ أو شُبهةٍ تَمنَعُ كَمالَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٧).

التَّصديقِ: فهي مُعارِضةٌ لأصلِ الإيمانِ أو مُضعِفةٌ له، فإنْ قَوِيَت حتى عارَضَتْ أصلَ الحُبِّ والتَّصديقِ، كانت كُفرًا أو شِركًا أكبَرَ، وإنْ لم تعارِضْه قَدَحت في كمالِه، وأثَّرَت فيه ضَعفًا وفُتورًا في العزيمةِ والطَّلَبِ، وهي تَحجُبُ الواصِلَ، وتقطَعُ الطَّالِبَ، وتَنكُسُ الرَّاغِبَ؛ فلا تَصِحُّ الموالاةُ إلَّا بالمعاداةِ، كما قال تعالى عن إمامِ الحُنَفاءِ المحبِّينَ إنَّه قال لِقَومِه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فلمْ يصِحَّ لخليلِ اللهِ هذه الموالاةُ والخُلَّةُ إلَّا بتحقيقِ هذه المعاداةِ، فإنَّه لا ولاءَ إلَّا بالبراءةِ مِن كُلِّ معبودٍ سِواهُ؛ قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[1] [الممتحنة: ٤].

٦- إنَّ مَن تَفَرَّدَ بخَلْقِ العبدِ وبهدايتِه وبرَزْقِه، وإحيائِه وإماتتِه في الدنيا، وبمغفرةِ ذنوبِه في الآخرةِ؛ مُستحِقٌّ أنْ يُفرَدَ بالإلهيَّةِ والعبادةِ، والسؤالِ والتضرُّعِ إليه والاستكانةِ له، وقد استدَلَّ إبراهيمُ الخليلُ عليه السَّلامُ بتفرُّدِ الله بهذه الأمورِ على أنَّه لا إلهَ غيرُه، وأنَّ كُلَّ ما أُشرِك معه فباطِلٌ، فقال لِقَومِه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[2].

٧- قولُ الله تعالى إخبارًا عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٨).

فيه ردٌّ على المُعتَزلةِ والقدَريَّةِ فيما يَزعمون أنَّ أفعالَ العِبادِ لا صُنعَ فيها الْبَتَّةَ، ولا يقولونَ: إنَّ أفعالَهم وإن كانت منسوبةً إليهم فهم في الحقيقةِ ميسَّرونَ لها، أفيَشُكُّ أحدٌ أنَّ إبراهيمَ صلَّى الله عليه وسلَّم كان يتناوَلُ مأكولَه ومَشروبَه بيَدِه، ويرفَعُه إلى فيه، ويبتَلِعُه بحَلقِه، ويكونُ فِعلُه بها منسوبًا إليه، وقد قال كما ترَى: إنَّ الله مُطعِمُه وساقيه، فما يُنكَرُ أن تكونَ هدايةُ إبراهيمَ وغيرِه وإنْ كانت منسوبةً إليهم، فاللهُ هاديهم كما هو مُطعِمُهم وساقيهم، وضَلالُ مَن ضَلَّ وإنْ كان منسوبًا إليه فالله مُضِلُّه وخاذِلُه، كما هو مميتُه ومُحْييه[1]؟!

٨- قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ... ﴾ إلى آخرِ كلامِ الخليلِ، وقد أشارَ في هذه النُّعوتِ إلى ما هو مِن تَصرُّفاتِ اللهِ في العالَمِ الحِسِّيِّ، بحيثُ لا يَخفَى عن أحدٍ؛ قَصْدًا لاقتِصاصِ إيمانِ المُشرِكينَ إنْ رامُوا الاهتِداءَ. وفي تلك النُّعوتِ إشارةٌ إلى أنَّها مُهيِّئاتٌ للكمالِ النَّفسانيِّ؛ فقد جمَعَتْ كلماتُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ -مع دَلالتِها على انفرادِ اللهِ بالتَّصرُّفِ في تلك الأفعالِ الَّتي هي أصلُ أطوارِ الخَلْقِ الجُسْمانيِّ- دَلالةً أُخرى على جميعِ أُصولِ النِّعَمِ مِن أوَّلِ الخَلْقِ إلى الخَلْقِ الثَّاني وهو البَعثُ، فذَكَر خَلْقَ الجسدِ، وخَلْقَ العقلِ، وإعطاءَ ما به بَقاءُ المَخلوقِ، وهو الغِذاءُ والماءُ، وما يَعتَري المَرءَ مِن اختِلالِ المِزاجِ وشِفائِه، وذَكَر المَوتَ الَّذي هو خاتمةُ الحياةِ الأُولى، وأَعقَبَه بذِكرِ الحياةِ الثَّانيةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ المَوتَ حالةٌ لا يَظهَرُ كَونُها نِعمةً إلَّا بغَوصِ فِكْرٍ، ولكنَّ وراءَه حياةً هي نعمةٌ لا مَحالَةَ لِمَنْ شاءَ أنْ تكونَ له نِعمةً[2].

٩- قَولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ فيه جَوازُ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٤).

الصَّغائرِ على الأنبياءِ[١]، والقَولُ بأنَّ الأنبياءَ معصومون عن الكبائرِ دونَ الصَّغائرِ هو قَولُ أكثرِ عُلَماءِ الإسلامِ وجميعِ الطَّوائفِ، حتى إنَّه قَولُ أكثرِ أهلِ الكلامِ وأكثرِ أهلِ التَّفسيرِ والحَديثِ، والفُقَهاءِ، بل لم يُنقَلْ عن السَّلَفِ والأئمَّةِ والصَّحابةِ والتَّابعينَ وتابعيهم إلَّا ما يُوافِقُ هذا القَولَ، وقد اتَّفَق سلَفُ الأمَّةِ وأئمَّتُها ومَن اتَّبَعَهم على ما أخبَرَ الله به في كتابِه وما ثبَت عن رَسولِه مِن تَوبةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ مِن الذُّنوبِ التي تابوا منها، وهذه التَّوبةُ رَفَع اللهُ بها دَرَجاتِهم؛ فإنَّ اللهَ يحِبُّ التَّوابينَ ويحِبُّ المتطَهِّرينَ، وعِصمَتُهم هي مِن أن يُقَرُّوا على الذُّنوبِ والخَطأِ؛ فإنَّ مَن سِوى الأنبياءِ يجوزُ عليهم الذَّنبُ الخَطأُ مِن غيرِ تَوبةٍ، والأنبياءُ عليهم السَّلامُ يَستدرِكُهم اللهُ فيتوبُ عليهم ويبَيِّنُ لهم، وقد ذكَرَ الله تعالى مِن تَوبةِ الأنبياءِ واستغفارِهم؛ كقَولِه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقَولِ نوحٍ عليه السلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وقَولِ إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقَولِه سُبحانَه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] إلى غيرِ ذلك[٢].

١٠- روى أشهَبُ عن مالكٍ قال: (قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ لا بأسَ أن يحِبَّ الرجُلُ أن يُثنَى عليه صالِحًا، ويُرى في عمَلِ الصَّالحينَ، إذا قصَدَ به وجْهَ الله تعالى)[٣]، فالآيةُ فيها دَلالةٌ على جوازِ حُبِّ الإنسانِ الثناءَ الحسَنَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣١٩)، ((جامع الرسائل لابن تيمية)) (١/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٣٠).

١١- قال اللهُ تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى في كتابِه خمسةَ أشياءَ مُضافةً إلى الصِّدقِ؛ وهي: لِسانُ الصِدْقِ، كما هنا، وقدَمُ الصِّدقِ، كما في سورة (يونسَ) [الآية: ٢]، ومُدخَلُ الصِّدقِ، ومُخرَجُ الصِّدقِ، كما في سورةِ (الإسراءِ) [الآية: ٨٠]، ومَقعَدُ الصِّدقِ، كما في سورة (القمر) [الآية: ٥٥]، وحقيقةُ الصِّدقِ في هذه الأشياءِ: هو الحقُّ الثَّابتُ، المتَّصِلُ باللهِ، المُوصِلُ إلى اللهِ -وهو ما كان به وله، مِن الأقوالِ والأعمالِ-، وجزاءُ ذلك في الدُّنيا والآخرةِ[(١)].

١٢- قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ داعيًا رَبَّه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾؛ لأنَّ الذِّكرَ الجَميلَ قائِمٌ مَقامَ الحياةِ الشَّريفةِ، بل الذِّكرُ أفضَلُ مِن الحياةِ؛ لأنَّ أثَرَ الحياةِ لا يحصُلُ إلَّا في مَسكَنِ ذلك الحيِّ، أمَّا أثَرُ الذِّكرِ الجَميلِ فإنَّه يحصُلُ في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ زمانٍ[(٢)].

١٣- مِن أعظَمِ نِعَمِ اللهِ على العَبدِ أن يرفَعَ له بينَ العالَمينَ ذِكْرَه، ويُعليَ قَدْرَه؛ ولهذا خَصَّ أنبياءَه ورُسُلَه مِن ذلك بما ليس لِغَيرِهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص: ٤٥، ٤٦]، أي: خصَصْناهم بخَصِيصةٍ، وهو الذِّكرُ الجَميلُ الذي يُذكَرون به في هذه الدَّارِ -على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ-، وهو لِسانُ الصِّدقِ الذي سأله إبراهيمُ الخَليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيثُ قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، وقال سُبحانه وتعالى عنه وعن بَنيه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم: ٥٠]، وقال لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَرَفَعۡنَا

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٥).

لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، فأتْباعُ الرُّسُلِ لهم نصيبٌ مِن ذلك بحسَبِ ميراثِهم مِن طاعتِهم ومُتابعتِهم، وكلُّ مَن خالَفهم فإنَّه بعيدٌ مِن ذلك بحسَبِ مُخالفتِهم ومَعصيتِهم(١).

١٤- إنْ قيل: لمَ خَصَّ أباه بسُؤالِ المغفرةِ له في قولِه: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؟

فالجوابُ: للمَوعِدةِ التي وعَدَها إيَّاه، على أنَّه قد قيل: إنَّ أمَّه كانت مُؤمِنةً(٢).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ دليلٌ على فضيلةِ القَلبِ السليم؛ لأنَّه سببٌ لاستفادةِ الإنسانِ مِن مالِه وبَنيه، وهذا بِناءً على أنَّ الاستثناءَ متَّصِلٌ(٣).

١٦- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ لا يكونُ القَلبُ سَليمًا إذا كان حَقودًا حَسودًا، مُعجَبًا مُتكَبِّرًا، وقد شرَطَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في الإيمانِ أن يحِبَّ لأخيه ما يحِبُّ لنَفْسِه، والله الموفِّقُ برَحمتِه(٤).

١٧- ممَّا أكرَمَ اللهُ تعالى به خليلَه، ونبَّهَ على جلالةِ محَلِّه في الإخلاصِ: أنْ حَكَى استِثناءَه هذا حكايةَ راضٍ بإصابتِه فيه في قولِه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، ثمَّ جَعَلَه صِفةً له في قَولِه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٥) [الصافات: ٨٣، ٨٤].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٥٩).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ قُدِّمَتْ هنا قِصَّةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ على قِصَّةِ نوحٍ على خِلافِ المُعتادِ في تَرتيبِ قَصصِهم في القُرآنِ؛ لشدَّةِ الشَّبهِ بيْنَ قَومِ إبراهيمَ وبيْن مُشركي العربِ في عبادةِ الأصنامِ الَّتي لا تَسمَعُ ولا تُبصِرُ، وفي تَمسُّكِهم بضَلالِ آبائِهم، وأنَّ إبراهيمَ دعاهُم إلى الاستِدلالِ على انحِطاطِ الأصنامِ عن مَرتبةِ استِحقاقِ العِبادةِ؛ لِيَكونَ إيمانُ النَّاسِ مُستندًا لدليلِ الفِطرةِ، وفي أنَّ قَومَ إبراهيمَ لمْ يُسلَّطْ عليهم مِن عذابِ الدُّنيا مِثلُ ما سُلِّطَ على قَومِ نُوحٍ وعلى عادٍ وثَمودَ وقَومِ لُوطٍ وأهلِ مَدْيَنَ؛ فأَشْبَهوا قُرَيشًا في إمهالِهم، فرسالةُ محمَّدٍ وإبراهيمَ صلى اللهُ عليهما قائِمتانِ على دِعامةِ الفِطرةِ في العقلِ والعملِ، أي: في الاعتِقادِ والتَّشريعِ؛ فإنَّ اللهَ ما جَعَل في خلْقِ الإنسانِ هذه الفِطرةَ ليُضيِّعَها ويُهْمِلَها، بل لِيُقيمَها ويُعْمِلَها. فلمَّا ضَرَب اللهُ المَثَلَ للمُشركينَ لإبطالِ زَعْمِهم أنَّهم لا يؤْمِنونَ حتَّى تأتيَهمُ الآياتُ كما أُوتيَ موسى، فإنَّ آياتِ موسى -وهي أَكثَرُ آياتِ الرُّسُلِ السَّابقينَ- لم تَقضِ شيئًا في إيمانِ فِرعونَ وقَومِه لَمَّا كان خُلُقُهمُ المُكابرةَ والعِنادَ- أَعقَبَ ذلك بضَربِ المَثَلِ بدَعوةِ إبراهيمَ المُماثِلةِ لدَعوةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النِّداءِ على إعمالِ دَليلِ النَّظرِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أُمِر الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتِلاوَتِه؛ للإشارةِ إلى أنَّ الكلامَ المُتضمِّنَ نَبأَ إبراهيمَ هو آيةٌ مُعجِزةٌ، وما تَضمَّنَتْه مِن دليلِ العقلِ على انتِفاءِ إلهيَّةِ الأصنامِ الَّتي هي كأصنامِ العربِ آيةٌ أيضًا؛ فحَصَل مِن مجموعِ ذلك آيتانِ دالَّتانِ على صِدْقِ الرَّسولِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٣٧، ١٣٨).

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ صُوريٌّ؛ فإنَّ إبراهيمَ يَعلَمُ أنَّهم يَعبُدون أصنامًا، ولكنَّه أرادَ بالاستِفهام: افتِتاحَ المُجادَلةِ معهم؛ فأَلْقى عليهم هذا السُّؤالَ؛ لِيَكونوا هُمُ المُبتدِئينَ بشرحِ حقيقةِ عِبادتِهم ومَعبوداتِهم، فتَلُوحَ لهم مِن خلال شرحِ ذلك لَوائحُ ما فيه مِن فسادٍ؛ لأنَّ الَّذي يَتصدَّى لشرحِ الباطلِ يَشعُرُ بما فيه مِن بُطلانٍ عِندَ نَظْمِ مَعانيهِ أَكثَرَ ممَّا يَشعُرُ بذلك مَن يَسمَعُه؛ ولأنَّه يَعلَمُ أنَّ جَوابَهم يَنشأُ عنه ما يُريدُه مِنَ الاحتِجاجِ على فسادِ دينِهم[١]. وقيل: الاستِفهامُ بمعنَى التَّحقيرِ والتَّقريرِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث جاءَ قَولُه هنا: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ بدُونِ ذِكرِ (ذا)، وفي (الصَّافات) بذِكرِه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٨٥]؛ ووجْهُه: أنَّ (ما) لمُجرَّدِ الاستِفهام، فأجابُوا بقَولِهم: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ [الشعراء: ٧١]، و(ماذا) فيه مُبالَغةٌ؛ لتَضمُّنِه معنَى التَّوبيخِ، فلمَّا وَبَّخَهم ولمْ يُجيبُوه، زادَ على التَّوبيخِ فقال: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧]؛ فذَكَر في كلِّ سورةٍ ما يُناسِبُ ما ذُكِر فيها[٣]. وقيل: هذه هي المُحاجَّةُ الأُولى في مَلأِ أبيه وقَومِه أَلْقى فيها دَعْوتَه في صورةِ سؤالِ استِفسارٍ غَيرِ إنكارٍ؛ استِنزالًا لطائرِ نُفورِهم، وأمَّا قَولُه في الآيةِ الأُخرى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات ٨٥، ٨٦] فذلك مَقامٌ آخَرُ له في قَومِه كان بعْدَ الدَّعوةِ الأُولى المَحكيَّةِ في سورةِ (الشعراء)؛ ولأجْلِ ذلك كان الاستِفهامُ مُقترنًا بما يَقتَضي التَّعجُّبَ مِن حالِهم بزيادةِ كَلِمةِ (ذا) بعدَ (ما) الاستِفهاميَّةِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٢).

سورةِ (الصافاتِ). وكَلِمةُ (ذا) إذا وقعَتْ بعدَ (ما) تَؤولُ إلى معنَى اسمِ المَوصولِ؛ فصارَ المعنى في سورةِ (الصافاتِ): ما هذا الَّذي تَعْبُدونه؛ فصارَ الإنكارُ مُسلَّطًا إلى كَونِ تلك الأصنامِ تُعبَدُ(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ أَتَوْا في جَوابِهم بفِعلِ ﴿نَعۡبُدُ﴾، مع أنَّ الشَّأنَ الاستِغناءُ عنِ التَّصريحِ؛ إذْ كان جَوابُهم عن سُؤالٍ فيه: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾؛ فلا حاجةَ إلى تَعيينِ جِنسِ المَعبوداتِ فيَقولوا: أصنامًا، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ [سبأ: ٢٣]؛ فعَدَلوا عن سُنَّةِ الجَوابِ إلى تَكريرِ الفِعلِ الواقعِ في السُّؤالِ؛ ابتِهاجًا بهذا الفِعلِ، وافتِخارًا به؛ ولذلك عَطَفوا على قَولِهم: ﴿نَعۡبُدُ﴾ ما يَزيدُ فِعلَ العبادةِ تأكيدًا بقَولِهم: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾. وفي فِعلِ (نَظَلُّ) دَلالةُ الاستِمرارِ جَميعَ النَّهارِ. وصِلَةُ العُكوفِ كَلِمةُ (على)؛ فلم يَقُلْ: (فنَظَلُّ عليها)، وإنما أَوردَه باللَّامِ ﴿فَنَظَلُّ لَهَا﴾؛ لإفادةِ معنًى زائدٍ، كأنَّهم قالوا: فنَظَلُّ لأجْلِها مُقْبِلينَ على عبادتِها، أو مُستَديرينَ حَوْلَها، وهذا أيضًا مِن جملةِ إطنابِهم(٢). أو عَدَّى العُكوفَ باللَّامِ؛ لأنَّ المعنى: (لها قانِتون)(٣).

- والتَّنْوينُ في ﴿أَصۡنَامٗا﴾ للتَّعظيمِ؛ ولذا عُدِلَ عن تَعريفِها، وهُم يَعْلَمون أنَّ إبراهيمَ يَعرِفُها، ويَعلَمُ أنَّهم يَعبُدونها، واسمُ (الأصنام) عِندَهم اسمٌ عظيمٌ؛ فَهُمْ يَفتَخِرونَ به، على عَكسِ أهلِ التوحيدِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٨٩).

(٣) يُنظر ((شرح العمدة - كتاب الصيام)) لابن تيمية (٢/ ٧٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٩).

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ استِئنافٌ مَبْنيٌّ على سؤالٍ نَشأَ مِن تَفصيلِ جَوابِهم[١].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ لافتِتاحِ المُجادَلةِ معهم؛ ولأجْلِ ذلك كان الاستِفهامُ مُقترِنًا بما يَقتَضي التَّعجُّبَ مِن حالِهم[٢]. ولَمَّا كان شأنُ الرَّبِّ أنْ يُلجَأَ إليه في الحاجةِ، وأن يَنفَعَ أو يَضُرَّ؛ أَلْقَى إبراهيمُ عليهمُ استِفهامًا عن حالِ هذه الأصنامِ: هل تَسمَعُ دُعاءَ الدَّاعِينَ؟ وهل تَنفَعُ أو تَضُرُّ؟ تَنبيهًا على دليلِ انتِفاءِ الإلهيَّةِ عنها[٣].

- وجُعِل مفعولُ ﴿يَسْمَعُونَكُمْ﴾ ضَميرَ المُخاطَبينَ؛ تَوسُّعًا بحَذفِ مُضافٍ، تَقديرُه: هل يَسمَعون دُعاءَكم؟ أو التَّقديرُ: يَسْمَعونَكم تَدْعُون؛ حُذِفَ لدَلالةِ قَولِه: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ عليه[٤].

- وصِيغةُ المُضارِعِ مع (إذْ) في قولِه: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ على حِكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ لاستِحضارِ صورتِها؛ كأنَّه قيل لهم: استَحضِرُوا الأحوالَ الماضيةَ الَّتي كنتُم تَدْعونها فيها، وأَجيبُوا: هل سمِعُوا أو أَسْمَعوا قطُّ؟! وهذا أَبلَغُ في التَّبكيتِ[٥].

- قولُه: ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ الحذفُ هنا مراعاة للفواصلِ، وللعُمومِ، ويصيرُ: إمَّا:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٧، ٢٤٨).

أو يَضرُّونَكم إن لم تعبُدوهم، أو: أو يَضرُّونَ عَدُوَّكم إذا عبَدْتُموهم[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ هذا منهم حَيْدةٌ عن جَوابِ الاستِفهامِ، و(بل) هنا إضرابُ انتِقالٍ عن جَوابِه لِما سألَ، وأَخْذٌ في شَيءٍ آخَرَ لَمْ يَسألْهم عنه؛ انقِطاعًا وإقرارًا بالعجزِ[٢].

- وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ تَشبيهُ فِعلِ الآباءِ بفِعلِهم، وهو نَعْتٌ لمَصدرٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: يَفْعَلون فِعلًا كذلك الفِعلِ. وقُدِّم الجارُّ والمَجرورُ على ﴿يَفۡعَلُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بمَدلولِ اسمِ الإشارةِ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾ جملةٌ مُفرَّعةٌ على جُمَلِ كَلامِ القَومِ المُتضمِّنةِ عِبادتَهمُ الأصنامَ، وأنَّهم مُقتَدونَ في ذلك بآبائِهم؛ فالفاءُ في ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾ للتَّفريعِ، ومِثلُ هذا التَّركيبِ يُستعمَلُ في التَّنبيهِ على ما يَجِبُ أن يُعلَمَ؛ على إرادةِ التَّعجُّبِ ممَّا يُعلَمُ مِن شَأنِه[٤].

٧- قولُه تعالى: ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾ فيه عَطْفُ ﴿ءَابَآؤُكُمُ﴾ على ﴿أَنتُمۡ﴾؛ لزِيادةِ إظهارِ قلَّةِ اكتِراثِه بتلك الأصنامِ، معَ العِلمِ بأنَّ الأَقدَمينَ عَبَدوها؛ فتَضمَّنَ ذلك إبطالَ شُبهتِهم في استِحقاقِها العِبادةَ. ووصْفُ الآباءِ بالأَقدميَّةِ؛ إيغالٌ في قلَّةِ الاكتِراثِ بتَقليدِهم؛ لأنَّ عُرْفَ الأُمَمِ أنَّ الآباءَ كلَّما تَقادَمَ عَهْدُهم كان تَقليدُهم آكَدَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٤٠، ١٤١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٤١).

٨- قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ للتَّفريعِ على ما اقتَضَتْه جُملةُ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ مِنَ التَّعجيبِ مِن شأنِ عِبادتِهم إيَّاها. ويَجوزُ جعْلُ الرُّؤيةِ بَصَريَّةً لها مفعولٌ واحدٌ، وجَعْلُ الاستِفهامِ تَقريريًّا، والكلامُ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ لشَيءٍ يُريدُ المُتكلِّمُ الحديثَ عنه؛ لِيَعِيَه السَّامعُ حقَّ الوَعْيِ. أو فاءٌ فصيحةٌ بتَقديرِ: إنْ رأيْتُموهُم فاعلَموا أنَّهم عدُوٌّ لي[(١)].

- والتَّعبيرُ عنِ الأصنامِ بضَميرِ جمْعِ العُقلاءِ ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ دُونَ (فإنَّها)، جرْيٌ على غالبِ العِباراتِ الجاريةِ بيْنَهم عنِ الأصنامِ؛ لأنَّهم يَعتَقِدونها مُدْرِكةً[(٢)].

٩- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ صِفَةٌ لـ ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧]، والفاءُ في قولِه: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ للعَطفِ. ويَجوزُ أن يَكونَ قولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ مُبتدَأً مُستأنَفًا به، ويَكونَ ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ خبرًا عنِ ﴿ٱلَّذِى﴾، والفاءُ فيه للسَّببيَّةِ، وزِيدَتِ الفاءُ في الخَبرِ؛ لمُشابَهةِ المَوصولِ للشَّرطِ. وإنَّما وصَفَه تعالَى بذلك وبما عطَفَه عليه مع اندِراجِ الكُلِّ تحتَ رُبوبيَّتِه تعالى للعالَمينَ؛ تَصريحًا بالنِّعَمِ الخاصَّةِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتَفصيلًا لها؛ لكَونِها أَدخَلَ في اقتِضاءِ تخصيصِ العبادةِ به تعالى، وقَصْرِ الالتِجاءِ في جَلْبِ المَنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنْيَويَّةِ ودفْعِ المَضارِّ العاجِلةِ والآجِلةِ عليه تعالى[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٢).

- وفي قولِه: ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ تَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبرِ الفِعليِّ دُونَ أن يقولَ: (فيَهدينِ)؛ لتَخصيصِه بأنَّه مُتولِّي الهِدايةِ دُونَ غَيرِه؛ لأنَّ المَقامَ لإبطالِ اعتِقادِهم تَصرُّفَ أصنامِهم بالقَصرِ الإضافيِّ، وهو قَصْرُ قَلْبٍ[١].

- واختِلافُ النَّظمِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ -حيث قال: ﴿خَلَقَنِي﴾ فذَكَره بلفظِ الماضي، وقال: ﴿يَهۡدِينِ﴾ فذَكَرَه بلفظِ المستقبَلِ-؛ لتَقدُّمِ الخَلْقِ واستِمرارِ الهِدايةِ؛ فخَلْقُ الذاتِ لا يَتجدَّدُ في الدُّنيا، بل لَمَّا وَقَعَ بقيَ إلى الأمدِ المعلومِ، أمّا هدايتُه تعالى فهي ممَّا يَتكررُ كلَّ حينٍ وأَوانٍ؛ سواءٌ كان ذلك هدايةً في المنافعِ الدُّنيويَّةِ، أو في المنافعِ الدِّينيَّةِ، فبَيَّنَ بذلك أنَّه سُبحانَه هو الذي خَلَقَه بسائرِ ما تكاملَ به خلْقُه في الماضي دَفْعةً واحدةً؛ وأنَّه يَهديه إلى مصالحِ الدِّينِ والدُّنيا بضُروبِ الهداياتِ في كلِّ لحظةٍ ولمحةٍ[٢].

- ولَمَّا كان الخَلقُ لا يُمْكِنُ أنْ يَدَّعِيَه أحدٌ لم يُؤَكِّدْ فيه بـ(هو)، فلمْ يَكُنِ التَّركيبُ (الَّذي هو خَلَقني)، ولمَّا كانت الهدايةُ قد يُمكِنُ ادِّعاؤُها -والإطعامُ والسَّقْيُ كذلك- أكَّد بـ﴿هُوَ﴾[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾ مُبتدَأٌ مَحذوفُ الخبرِ؛ لدَلالةِ ما قبْلَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٢).

وقصرُ القلبِ: هو أنْ يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ معيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٥).

عليه، وكذا اللَّذانِ بعْدَه. وهذا على الوَجهِ بأنَّ قولَه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ مُبتدَأٌ[١].

- وتقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبرِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾، وقَولِه: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾؛ للرَّدِّ على زعْمِهم أنَّ الأصنامَ تُقدِّرُ لهم تَيسيرَ ما يَأكُلونَ وما يَشرَبونَ، وبها بُرْؤُهم إذا مَرِضوا[٢].

١١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ عطْفٌ على ﴿يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾؛ لأنَّه مِن رَوادِفِهما، مِن حَيثُ إنَّ الصِّحَّةَ والمرضَ في الأغلَبِ يَتْبَعانِ المَأكولَ والمَشروبَ[٣].

- وقيل: عَطَف ﴿إذا مَرِضْتُ﴾ على ﴿يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾؛ لأنَّه لم يَكُنْ حينَ قال ذلك مريضًا، فإنَّ (إذا) تُخلِّصُ الفعلَ بعْدَها للمُستقبَلِ، أي: إذا طَرأَ علَيَّ مرَضٌ. فأمَّا قَولُه: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ فلمْ يَأتِ فيه بما يَقتَضي الحَصرَ؛ لأنَّهم لم يَكونوا يَزْعُمون أنَّ الأصنامَ تُميتُ، بل عمَلُ الأصنامِ قاصِرٌ على الإعانةِ أوِ الإعاقةِ في أعمالِ النَّاسِ في حياتِهم[٤].

- ولم يَنسبِ المرضَ إليه تعالى؛ لأنَّ المقصودَ تَعديدُ النِّعَم، ولا يُنتقَضُ بإسنادِ الإماتةِ إليه؛ فإنَّ الموتَ مِن حيثُ إنَّه لا يُحَسُّ به لا ضَرَرَ فيه، وإنَّما الضَّررُ في مُقدِّماتِه وهي المرضُ، ثمَّ إنَّه لأهلِ الكمالِ وُصْلةٌ إلى نَيلِ المَحابِّ الَّتي تُستحقَرُ دُونَها الحياةُ الدُّنيويَّةُ، وخَلاصٌ مِن أنواعِ المِحَنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٣).

والبَلِيَّاتِ؛ ولأنَّ المرضَ في غالبِ الأمرِ إنَّما يَحدُثُ بتَفريطٍ مِنَ الإنسانِ في مَطاعِمِه ومَشارِبِه، وغَيرِ ذلك. ولذا قال: ﴿مَرِضْتُ﴾ دُونَ: (أَمرَضَني)[١].

وقيل: يُفرَّقُ بينَ نِسبةِ المَوتِ ونِسبةُ المرضِ في مُقتَضى الأدبِ: بأنَّ المَوتَ قد عُلِم واشتهرَ أنَّه قَضاءٌ مَحتومٌ مِنَ اللهِ تعالى على سائرِ البشرِ، وحُكْمٌ عامٌّ لا يُخَصُّ، ولا كذلك المرَضُ؛ فكمْ مِن مُعافى منه قد بَغَتَه الموتُ؛ فالتَّأسِّي بعُمومِ المَوتِ لعلَّه يُسقِطُ أثَرَ كَونِه بَلاءً؛ فيَسوغُ في الأدبِ نِسْبَتُه إلى اللهِ تعالى. وأمَّا المرضُ فلمَّا كان ممَّا يُخَصُّ به بعضُ البشرِ دُونَ بعضٍ، كان بَلاءً مُحقَّقًا؛ فاقتَضى العُلُوُّ في الأدبِ مع اللهِ تعالى أن يَنسبَه الإنسانُ إلى نفْسِه باعتِبارِ ذلك السَّببِ الَّذي لا يَخْلو منه، ويؤيِّدُ ذلك: أنَّ كلَّ ما ذَكَره مع المرضِ أَخبَرَ عن وُقوعِه بَتًّا وجَزْمًا؛ لأنَّه أمْرٌ لا بدَّ منه، وأمَّا المرضُ فلمَّا كان قد يَتَّفِقُ وقد لا، أورَدَه مَقرونًا بشرط (إذا)، فقال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾، وكان مُمكِنًا أن يقولَ: والَّذي يُمْرِضُني فيَشفِيني، كما قال في غَيرِه، فما عَدَل عنِ المُطابَقةِ المُجانِسةِ المَأثورةِ إلَّا لذلك[٢].

- ولَمَّا كان قَولُه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ واردًا على الاستِدراجِ، وإرخاءِ العِنانِ؛ جاءَ قَولُه: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَخلُّصًا منه إلى التَّمكُّنِ مِن إجراءِ الأوصافِ الَّتي يُصحِّحُ بها معنَى الإلهيَّةِ مِن كَونِه خالقًا رازقًا، مُحْيِيًا ومُمِيتًا، مُعاقِبًا ومُثِيبًا؛ تربيةً لمعنَى النُّصحِ والاستِدراجِ، وبَعْثًا على التَّفكُّرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٥، ١٦٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٧٤).

والتَّدبُّرِ، وأمَّا ذِكرُ المرضِ والشِّفاءِ في قولِه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾؛ فكالمُتابِعِ لمعنَى الإطعامِ والسَّقي؛ ولذلك تُرِك فيهما المَوصولُ إلى الشَّرطِ والجَزاءِ، فرُوعيَتْ فيهما تلك النُّكتةُ[١].

١٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ فيه مُراعاةُ حروفِ العَطفِ؛ فقد قال: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[الشعراء: ٧٩ - ٨١]، فالأوَّلُ عطَفَه بالواوِ الَّتي هي لمُطْلَقِ الجَمعِ، وتقديمُ الإطعامِ على الإسقاءِ، والإسقاءِ على الإطعامِ جائزٌ لولا مُراعاةُ حُسنِ النَّظمِ. ثمَّ عَطَفَ الثَّاني بالفاءِ؛ لأنَّ الشِّفاءَ يعقبُ المرضَ بلا زَمانٍ خالٍ مِن أحدِهما. ثمَّ عَطَفَ الثَّالثَ بـ(ثُمَّ)؛ لأنَّ الإحياءَ يَكونُ بعدَ المَوتِ بزمانٍ؛ ولهذا جِيءَ في عطْفِه بـ(ثُمَّ) الَّتي هي للتَّراخي[٢].

- وحُذِفَتْ ياءاتُ المُتكلِّمِ مِن (يَهْدِين، ويَسْقِين، ويَشْفِين، ويُحْيِين)؛ لأجْلِ التَّخفيفِ، ورِعايةِ الفاصِلةِ؛ لأنَّها يُوقَفُ عليها، وفواصِلُ هذه السُّورةِ أكثَرُها بالنُّونِ السَّاكنةِ[٣].

- وفي هذِه الآياتِ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ أدْخَلَ (هُوَ) في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾، وقَولِه: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، بخِلافِ قَولِه: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى﴾ منها، فلم يَقُلْ: (والَّذي هو يُميتُني)، كما قال: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى﴾؛ ووَجهُ ذلك: أنَّه لو جاء: (والَّذي يُطْعِمُني ويَسْقِين، وإذا مرِضْتُ يَشْفِين)، لَكان مَعلومًا أنَّ مُرادَه اللهُ تعالى، وذِكرُ (هو) تَوكيدًا لمعنَى الكلامِ، وتَخصيصِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٤).

الفِعلِ به دُونَ غَيرِه، واحتاجَ ذِكرُ الإطعامِ والشِّفاءِ إلى هذا التَّوكيدِ؛ لأنَّهما ممَّا يَدَّعي الخَلْقُ فِعلَه، فيُقالُ: فُلانٌ يُطعِمُ فُلانًا، والطَّبيبُ يُداوي ويُسبِّبُ الشِّفاءَ؛ فكانت إضافةُ هذَينِ الفِعلَينِ إلى اللهِ تعالى مُحتاجةً إلى لفظِ التَّوكيدِ بخلافِ المَوتِ والحياةِ؛ لأنَّ أحدًا لا يَدَّعي فِعْلَهما كما يَدَّعي الأَوَّلَينِ؛ فافترَقَا لهذا الشَّأنِ[(١)].

١٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ هذا الكلامُ خبرٌ يَتضمَّنُ تَعريضًا بالدُّعاءِ[(٢)].

- وفيه تَكريرُ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾ في المَواقعِ الثَّلاثةِ مع كِفايةِ عَطْفِ ما وَقَع في حَيِّزِ الصِّلةِ مِنَ الجُمَلِ السِّتِّ على صِلَةِ المَوصولِ الأوَّلِ؛ للاهتِمامِ، وللإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدةٍ مِن تِلكَ الصِّلاتِ نَعتٌ جليلٌ له تعالى، مُستقِلٌّ في استِيجابِ الحُكمِ، حقيقٌ بأنْ تَجريَ عليه تعالى بحِيالِها، ولا تُجعلَ مِن رَوادِفِ غَيرِها[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ عَلَّقَ مَغفرةَ الخطيئةِ بيَومِ الدِّينِ، وإنَّما تُغفَرُ في الدُّنيا؛ لأنَّه اليَومُ الَّذي يَظهَرُ فيه أثَرُ العَفوِ، وهو الآنَ خَفيٌّ لا يُعْلَمُ[(٤)]؛ ولأنَّ في ذلك تَهويلًا له، وإشارةً إلى وُقوعِ الجزاءِ فيه إنْ لم تُغفَرْ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ٩٦٧، ٩٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٥، ١٦٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٠).

١٤- قولُه تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾

- لَمَّا كان آخِرُ مَقالِه في الدَّعوةِ إلى الدِّينِ الحَقِّ مُتضمِّنًا دُعاءً بطَلبِ المغفرةِ؛ تَخلَّصَ منه إلى الدُّعاءِ بما فيه جَمْعُ الكمالِ النَّفْسانيِّ بالرِّسالةِ، وتبليغِ دَعوةِ الخَلقِ إلى اللهِ؛ فإنَّ الحُجَّةَ التي قامَ بها في قومِه بوحيٍ مِن اللهِ؛ فكان حينَئذٍ في حالِ قُربٍ مِن اللهِ، وجَهَر بذلك في ذلك الجَمعِ؛ لأنَّه عَقِبَ الانتِهاءِ مِن أَقدَسِ واجبٍ وهو الدَّعوةُ إلى الدِّينِ؛ فهو ابتِهالٌ أَرْجى للقَبولِ. ونَظيرُ ذلك دُعاؤُه عِندَ الانتِهاءِ مِن بِناءِ أساسِ الكعبةِ المَحْكيِّ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ إلى قَولِه: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ إلى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1] [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

- ولفظُ ﴿الصَّالِحِينَ﴾ يَعُمُّ جميعَ الصَّالِحينَ مِنَ الأنبياءِ والمُرسَلينَ؛ فيَكونُ قد سأل بُلوغَ دَرَجاتِ الرُّسُلِ أُولي العَزمِ نُوحٍ وهُودٍ وصَالحٍ والشُّهداءِ والصَّالِحينَ، فجَعَل الصَّالِحينَ آخِرًا؛ لأنَّه يَعُمُّ؛ فكان تَذْييلًا[2].

١٥- قولُه تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ إضافةُ ﴿لِسَانَ﴾ إلى ﴿صِدْقٍ﴾ مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ؛ ففيه مُبالَغةُ الوَصفِ بالمصدرِ، أي: لِسانًا صادِقًا. و(الصِّدقُ) هنا كِنايةٌ عنِ المَحبوبِ المَرغوبِ فيه؛ لأنَّه يُرغَبُ في تَحقُّقِه ووُقوعِه في نفْسِ الأمرِ[3].

١٦- قولُه تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ سَأل المَغفرةَ لأبيه قبْلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٤، ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٤٦).

سؤالِ ألَّا يُخزيَه اللهُ يومَ القِيامةِ؛ لأنَّه أرادَ ألَّا يَلحَقَه يومَئذٍ شَيءٌ يَنكسِرُ منه خاطِرُه، وقد اجتَهَد في العملِ المُبلِّغِ لذلك، واستَعانَ اللهَ على ذلك، وما بَقِيَتْ له حَزازةٌ إلَّا حَزازةُ كُفْرِ أبيه، فسَألَ المغفرةَ له؛ لأنَّه إذا جِيءَ بأبيه مع الضَّالِّينَ لَحِقَه انكسارٌ، ولو كان قد استُجيبَ له بقيَّةُ دَعَواتِه؛ فكان هذا آخِرَ شَيءٍ تَخوَّفَ منه لَحاقَ مَهانةٍ نفْسيَّةٍ مِن جِهةِ أصْلِه لا مِن جهةِ ذاتِه[1].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ تَعليلٌ لطلَبِ المغفرةِ لأبيه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّه سألَ له مَغفرةً خاصَّةً، وهي مغفرةُ أَكبَرِ الذُّنوبِ، أي: الإشراكِ باللهِ، وهو سؤالٌ اقتضاهُ مَقامُ الخُلَّةِ، وقد كان أبوه حيًّا حينَئذٍ. ولعلَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ عَلِمَ مِن حالِ أبيه أنَّه لا يُرجَى إيمانُه بما جاء به ابنُه، أو أنَّ اللهَ أوْحَى إليه بذلك. ويجوزُ أنَّه لم يَتقرَّرْ في شَرْعِ إبراهيمَ حينَئذٍ حِرمانُ المشركينَ مِن المغفرةِ؛ فيكون ذلك مِن معنى قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُ﴾ [التوبة: ١١٤]. ويجوزُ أنْ يكونَ طلبُ الغُفرانِ له كِنايةً عن سَببِ الغُفرانِ، وهو هِدايتُه إلى الإيمانِ[2].

١٧- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ فيه إضمارٌ قبْلَ الذِّكرِ -حيثُ لم يُذْكَرِ المَبعُوثونَ قبْلُ-؛ لِما في عُمومِ البَعثِ مِنَ الشُّهرةِ الفاشيةِ المُغْنِيةِ عنه[3].

١٨- قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ...﴾ على القولِ بأنَّه مِن كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فيَكونُ بدَلًا مِن ﴿يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾؛ جِيءَ به تَأكيدًا للتَّهويلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٥٠).

وتَمهيدًا لِما يَعقُبُه مِنَ الاستِثناءِ، وهو مِن أَعَمِّ المَفاعيلِ، وقُصِد به إظهارُ أنَّ الالتِجاءَ في ذلك اليَومِ إلى اللهِ وحْدَه، ولا عَوْنَ فيه بما اعتادَه النَّاسُ في الدُّنيا مِن أسبابِ الدَّفعِ عن أنفُسِهم. وقيل: إنَّ الآياتِ الَّتي أوَّلُها: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢] مُنقطِعةٌ عن كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وهي إخبارٌ مِنَ اللهِ تعالى صِفةً لليَومِ الَّذي وقَفَ إبراهيمُ عِندَه في دُعائِه ألَّا يُخزَى فيه؛ فيَكونُ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ﴾ استِئنافًا خبرًا لمُبتدأٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: هو يومٌ لا يَنفَعُ مالٌ ولا بَنونَ. ويَظهَرُ على هذا الوجهِ أن يَكونَ المُرادُ بـ﴿مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الإشارةَ إلى إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وصَفَه بمِثلِ هذا في آيةِ سورةِ (الصَّافَّاتِ)، في قَولِه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾، أي: شِيعةِ نُوحٍ ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1] [الصافات: ٨٣، ٨٤].

- والاقتِصارُ على المالِ والبَنِينَ في نَفْيِ النَّافِعِينَ جرَى على غالبِ أحوالِ القَبائلِ في دِفاعِ أحدٍ عن نفْسِه بأنْ يُدافعَ إمَّا بفِدْيةٍ وإما بنَجْدةٍ (وهي النَّصرُ)؛ فالمالُ وسيلةُ الفِديةِ، والبَنونَ أحَقُّ مَن يَنصُرونَ أباهُم، واقتَضى ذلك أنَّ انتِفاءَ نَفْعِ ما عدَا المالَ والبَنِينَ مِن وسائلِ الدِّفاعِ حاصِلٌ بالأَوْلى؛ بحُكمِ دَلالةِ الاقتِضاءِ[2] المُستنِدةِ إلى العُرْفِ؛ فالكلامُ مِن قَبيلِ الاكتِفاءِ[3].

- وحُذِف مَفعولُ ﴿يَنفَعُ﴾؛ لقَصدِ العُمومِ، كحَذفِه في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] أي: يَدْعو كلَّ أحَدٍ؛ فتَحصَّلَ أنَّ التَّقديرَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٧).

(٢) دلالةُ الاقتِضاءِ: هي دَلالةُ اللفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصِّدقِ أو الصِّحةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٨).

يَومَ لا يَنفَعُ أحدًا شيءٌ يَأتي به للدَّفعِ عن نفْسِه[١].

١٩- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

- السَّليمُ هو السَّالمُ، وجاء على هذا المثالِ لأنَّه للصِّفاتِ، كالطويلِ والقصيرِ والظريفِ، فالسليمُ: القلبُ الذي قد صارتِ السَّلامةُ صفةً ثابتةً له، كالعليمِ والقديرِ، وأيضًا فإنَّه ضدُّ المريضِ والسَّقيمِ والعليلِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ...﴾ إلى قولِه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قابَلَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ في دُعائِه النِّعَمَ الخَمسَ الَّتي أَنعَمَ اللهُ بها عليه المَذكورةَ في قَولِه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٢] الرَّاجِعةَ إلى مَواهِبَ حِسِّيَّةٍ، بسُؤالِ خَمسِ نِعَمٍ راجعةٍ إلى الكَمالِ النَّفْسانيِّ، كما أَوْمأَ إليه قَولُه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، وأَقحَمَ بيْن طلَباتِه سُؤالَه المَغفرةَ لأبيهِ؛ لأنَّ ذلك داخِلٌ في قَولِه: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾[٣] [الشعراء: ٨٧].

- وفي الآياتِ مِن قَولِه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٩] أنواعٌ شَتَّى من البَلاغةِ:

منها: حُسْنُ النَّسَقِ[٤]؛ فإنَّه قَدَّم الخَلْقَ الَّذي يَجِبُ تقديمُ الاعتِدادِ به مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٥).

(٤) حُسنُ النَّسَق: هو عبارةٌ عن أن يأتيَ المتكلِّمُ بالكلِماتِ مِن النثرِ والأبياتِ مِن الشِّعرِ مُتتاليات مُتلاحِماتٍ تلاحُمًا سليمًا مستحسَنًا، لا مَعيبًا مستهجنًا، وأن تكونَ كلُّ واحدةٍ منها قابلةً لأنْ تَستقِلَّ بنفْسِها لو أُفرِدَتْ. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٦٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٦٢).

الخالقِ على المَخلوقِ، واعترافِ المَخلوقِ بنِعمتِه؛ فإنَّه أوَّلُ نعمةٍ، وفي إقرارِ المخلوقِ بنِعمةِ الإيجادِ مِنَ العدَمِ إقرارُه بقُدرةِ الخالقِ على الإيجادِ والاختراعِ وحِكمتِه، ثمَّ ثَنَّى بنِعمةِ الهِدايةِ الَّتي هي أَوْلى بالتَّقديمِ بعْدَ نِعمةِ الإيجادِ مِن سائرِ النِّعَمِ، ثمَّ ثلَّثَ بالإطعامِ والإسقاءِ اللَّذَينِ هُمَا مادَّةُ الحياةِ، وبهما مِنَ اللهِ استمرارُ البقاءِ إلى الأجَلِ المَحْتومِ، وذَكَر المرضَ وأسنَدَه إلى نفْسِه؛ أدبًا مع ربِّه، ثمَّ أَعقَبَ ذِكرَ المرضِ بذِكرِ الشِّفاءِ مُسندًا ذلك الى ربِّه، ثمَّ ذَكَر الإماتةَ مُسندًا فِعلَها الى ربِّه؛ لتَكميلِ المدحِ بالقُدرةِ المُطْلَقةِ على كلِّ شيءٍ مِنَ الإيجادِ والإعدامِ، ثمَّ أَردَفَ ذِكرَ المَوتِ بذِكرِ الإحياءِ بعدَ الموتِ، وفيه -مع الإقرارِ بهذه النِّعمةِ، والاعترافِ بالقُدرةِ- الإيمانُ بالبعثِ، وكلُّ هذه المعاني جُمَلُ ألفاظِها مَعطوفٌ بعضُها على بعضٍ بحُروفٍ مُلائِمةٍ لمعاني الجُمَلِ المَعطوفةِ.

ومنها: صِحَّةُ التَّقسيمِ[1]؛ فقد استَوعبَتْ هذه الآياتُ أقسامَ النِّعَمِ الدُّنْيَويَّةِ والأُخْرَويَّةِ؛ مِنَ الخَلْقِ والهِدايةِ، والإطعامِ والإسقاءِ، والمرضِ والشِّفاءِ، والموتِ والحياةِ، والإيمانِ بالبعثِ، وغُفرانِ الذَّنبِ[2].

(١) صِحَّةُ التَّقسيمِ: وهو أنْ يَستوعِبَ الكلامُ جميعَ أقسامِ المعنى الذي أخَذ المتكلِّمُ فيه. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٥٥، ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٩١، ٩٢).

الآيات (٩٠-١٠٤)

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾: أي: قُرِّبَت وأُدنِيَت، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على اندِفاعٍ وتقَدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[(١)].

﴿وَبُرِّزَتِ﴾: أي: أُظهِرَت وكُشِفَت، والبَرازُ: الفَضاءُ، وأصلُ (برز): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿ٱلْجَحِيمُ﴾: أي: النارُ، والجُحْمةُ: شِدَّةُ تأجُّجِ النَّارِ، والجاحِمُ: المكانُ الشديدُ الحرِّ، وبذلك سُمِّيت الجحيمُ، وأصلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها[(٣)].

﴿لِلْغَاوِينَ﴾: أي: للضَّالِّينَ والكافِرين، والغَيُّ: جَهلٌ مِن اعتقادٍ فاسِدٍ، والانهماكُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩)، ((مجمل اللغة)) لابن فارس (ص: ١٧٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٨٧).

في الباطلِ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمرِ[١].

﴿فَكُبْكِبُواْ﴾: أي: جُمِعوا وطُرِحوا، والكَبْكَبةُ: تَدَهْورُ الشَّيءِ في هُوَّةٍ، وأصلُ الكبِّ: إسقاطُ الشَّيءِ على وجْهِه[٢].

﴿يَخْتَصِمُونَ﴾: أي: يختَلِفون ويَتنازَعون، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على مُنازَعةٍ[٣].

﴿شَٰفِعِينَ﴾: الشَّفاعَةُ: الانْضِمامُ إلى آخَرَ نُصْرةً له، وسؤالًا عنه، وشَفَعَ لِفُلانٍ: إذا جاء مُلتَمِسًا مَطْلَبَه، ومُعِينًا له؛ فأصلُ الشَّفْعِ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه[٤].

﴿حَمِيمٍ﴾: أي: قَريبٍ مُشفِقٍ، وهو أخصُّ مِن الصَّديقِ، وحميمُ الرَّجُلِ: خاصَّتُه، مِنْ (حَمَّ): إذا دنا وقَرُبَ، وأصلُ (حمم) هنا: الدنوُّ والحضورُ[٥].

﴿كَرَّةً﴾: أي: رَجعةً إلى الدُّنيا، مِنَ الكَرِّ: وهو الرُّجوعُ[٦].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا مَشهدًا مِن مَشاهدِ يومِ القيامةِ: وقُرِّبتِ الجنَّةُ يومَ القيامةِ للمُتَّقينَ، وأُظهِرَت النَّارُ للضالِّين عن الحَقِّ، وقيل لهم: أين ما كنتُم تَعبُدون في

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٧، ٥٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٥) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٤٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٥).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).

الدُّنيا مِن دونِ الله تعالى، هل يَدفَعون عنكم أو عن أنفُسِهم عذابَ اللهِ؟!

فطُرِحوا في جهنَّمَ جَميعًا: المعبودون، والعابِدون، وأتباعُ إبليسَ. وقال العابِدون لمَعبوديهم في النَّارِ وهم يختَصِمون: واللهِ قد كنَّا في الدُّنيا في ضَلالٍ واضِحٍ عن الحَقِّ حينَ سوَّيْناكم برَبِّ العالَمينَ فعَبَدْناكم، وما أغْوانا عن الهُدى إلَّا الضَّالُّون، فما لنا مِن شُفَعاءَ يَشفَعون لنا، ولا صديقٍ خالصِ الوُدِّ، فلو أنَّ لنا رُجوعًا إلى الدُّنيا فنُؤمِنَ بالله! إنَّ في ذلك لَعِظةً وعِبرةً، وما كان أكثَرُهم مؤمِنين، وإنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ لأعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

أي: وقُرِّبتِ الجنَّةُ يومَ القيامةِ للذين اتَّقَوا عذابَ اللهِ في الدُّنيا؛ بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق: ٣١].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ [التكوير: ١٣].

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥١).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي: قُرِّبت وأُدنِيتْ ليَدخُلوها). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٥).

وقال ابن عاشور: (والمعنى: أنَّ المتَّقينَ يجِدون الجنَّةَ حاضِرةً، فلا يَتجشَّمون مشقَّةَ السَّوقِ إليها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥١).

وقال الزجاج: (وقوله: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ معناه قُرِّبَتْ، وتأويلُه أنَّه قرُبَ دُخولُهم إيَّاها، ونظَرُهم إليها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٩٤).

أي: وأُظهِرَت النَّارُ يومَ القيامةِ للذين ضَلُّوا في الدُّنيا عن الحَقِّ[١].

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾.

أي: وقيل للغاوينَ توبيخًا لهم: أين مَعبوداتُكم التي كنتُم تعبُدونَها في الدُّنيا مِن دونِ اللهِ، وتزعُمونَ أنَّها تنفَعُكم وتشفَعُ لكم[٢]؟!

﴿... هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

أي: هل تُنقِذُكم مَعبوداتُكم مِن عذابِ اللهِ، أو تُنقِذُ أنفُسَها منه[٣]؟!

﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾.

أي: فطُرِح في جهنَّمَ المعبودونَ وعابِدوهم بعضُهم على بعضٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

قال القرطبي: (أي: تظهَرُ جهنَّمُ لأهلِها قبْلَ أن يَدخُلوها حتى يَستشعِروا الرَّوعَ والحَزنَ، كما يستشعِرُ أهلُ الجنَّةِ الفَرَحَ لِعلمِهم أنَّهم يَدخلونَ الجنَّةَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٧، ٥٩٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٢).

قال ابن عاشور: (قال: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾، أي: كُبْكِبت الأصنامُ في جهنَّمَ. ومعنى ﴿فَكُبْكِبُوا۟﴾: كُبُّوا فيها كَبًّا بعدَ كَبٍّ، فإنَّ «كُبكِبوا» مُضاعَفُ «كُبُّوا» بالتكريرِ، وتكريرُ اللَّفظِ مفيدٌ تكريرَ المعنى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٢).

وقال ابنُ عثيمينَ: (قولُه: ﴿فَكُبْكِبُوا۟﴾ بمعنى: أُلقُوا، ولكِنَّ هذا التَّكرارَ يدُلُّ على معنًى أدَقَّ =

قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩].

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: وطُرِحَ في جهنَّمَ جَميعُ مَن كانوا أعوانًا وأتباعًا لإبليسَ في الدُّنيا مِن الإنسِ والجِنِّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

أي: قال أهلُ النَّارِ لِمَعبوداتِهم وهم في النَّارِ يتخاصَمونَ، ويجادِلُ بعضُهم بعضًا[(٢)].

= مِن الإلقاءِ فقط، يعني: كأنهم يُكَبُّون فيها على وجوهِهم، وأيضًا بدون ترتيبٍ، وبدونِ نظام، كأنَّما يُحْثَون حَثْيًا -والعياذُ بالله- ويُلقَوْن!). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٢).

قال ابن عثيمين: (ولكِنْ قَولُه: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ هذا، هل هو مِن بابِ عطفِ المتغايرينِ، وأنَّ الغاويَ ليس مِن جنودِ إبليسَ، أم أنَّه مِن بابِ عَطفِ المترادِفَين؟

نقولُ: الأصلُ في العطفِ التغايرُ، والظاهِرُ أنَّ الغاويَ هو الفاسِدُ في نفْسِه، وأنَّ جنودَ إبليسَ على اسمِهم جنودٌ يَنصُرونَه ويَدْعون لِما يَدْعو إليه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٢)، ((تفسير =

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ ﴾.

أي: واللهِ إنَّنا كُنَّا في الدُّنيا في ذَهابٍ واضحٍ عن الحَقِّ[(١)].

﴿ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨ ﴾.

أي: حينَ سوَّيْناكم برَبِّ العالَمينَ، فعَبدْناكم وأطَعْناكم كما يُعبَدُ اللهُ ويُطاعُ[(٢)].

﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٩ ﴾.

أي: وما صرَفَنا وأغْوانَا عن الحَقِّ إلَّا الضالُّونَ[(٣)].

= السمعاني)) (٤/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٦٤).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذِكرُه: قال هؤلاء الغاوونَ والأندادُ التي كانوا يعبدونَها مِن دُونِ الله، وجنودُ إبليسَ، وهم في الجحيم يختَصِمون). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٣، ١٥٤).

قال ابنُ القيم: (مِن المعلوم أنَّهم إنَّما سَوَّوْهم به سبحانَه في الحُبِّ والتألُّه والعبادةِ، وإلَّا فلمْ يقُلْ أحَدٌ قَطُّ: إنَّ الصَّنمَ أو غيرَه مِن الأندادِ مساوٍ لربِّ العالَمينَ في صفاتِه وفي أفعالِه، وفي خلقِ السَّمواتِ والأرض، وفي خَلقِ عبادِه أيضًا! وإنَّما كانت التسويةُ في المحبَّةِ والعبادةِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٤٤٩). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٤).

قال ابنُ عثيمين بعدَ أن ذكَر المعنيَينِ المحتملينِ للآيةِ: أنَّ المرادَ بالمجرمينَ: الشياطينُ، أو الأوَّلونَ الذين اقتَدَوا بهم، قال: (لا يَبعُدُ أن يُرادَ بالآياتِ المعنيانِ جميعًا؛ فإنَّهم ضَلُّوا بأمْرين: الأوَّل: بمَن يَدْعونهم -وهم أحياءٌ- إلى الضَّلالِ. =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [سبأ: ٣٣].

﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

أي: فما لنا مِن شُفَعاءَ يَشفَعونَ لنا عندَ اللهِ؛ لِيَعفوَ عنَّا، ويُخرِجَنا مِنَ النَّارِ[(١)]!

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

أي: ولا صديقٍ، مُشفِقٍ، صادِقٍ في وُدِّه[(٢)].

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

أي: فلو أنَّ لنا رَجعةً إلى الدُّنيا فنُؤمِنَ باللهِ ونعمَلَ بطاعتِه، فنَسلَمَ مِن عقابِ

= والثاني: بمَن يقلِّدونهم، وهؤلاء مِن الأمواتِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٠)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

قال البقاعي: (ولَمَّا كان الصَّديقُ قد لا يكونُ أهلًا لأنْ يَشفَعَ، قالوا تأسُّفًا على أقَلِّ ما يمكِنُ: ﴿وَلَا صَدِيقٍ﴾ أي: يَصدُقُ في وُدِّنا؛ ليفعَلَ ما ينفَعُنا، ولَمَّا كان أصدَقَ الصَّداقةِ ما كان مِن القريبِ، قال: ﴿حَمِيمٍ﴾ أي: قريبٍ، وأصلُه المُصافي الذي يُحرِقُه ما يُحرِقُك). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٥٩).

وقال السعدي: (﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي: قريبٍ مُصافٍ ينفَعُنا بأدنى نفعٍ، كما جرَتِ العادةُ بذلك في الدُّنيا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

الآخرةِ، ونَستحِقَّ ثوابَها[١]!

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

أي: إنَّ في ذلك المذكورِ مِن قِصَّةِ إبراهيمَ وقَومِه لَعِظةً وعِبرةً ودَلالةً واضِحةً على توحيدِ اللهِ وبُطلانِ الشِّركِ، وأنَّ اللهَ يعَذِّبُ يومَ القيامةِ مَن أشرَكَ به[٢].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولم يكُنْ أكثَرُهم[٣] مؤمنينَ بتوحيدِ اللهِ، مع وضوحِ المُعجِزاتِ، ونُزولِ الآياتِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).

(٣) قيل: المرادُ بهم: قومُ إبراهيمَ. وهو ظاهرُ اختيارِ البيضاوي، والبقاعي، والقاسمي، وابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).
قال الرازي: (والأكثرونَ مِن المفسِّرينَ حمَلوه على قومِ إبراهيمَ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥١٩).
وقيل: المرادُ بهم: مَن كانوا في عهدِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهم: قريشٌ ومَن دانَ بدينِهم. وممَّن قال بذلك: الشوكانيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾.

أي: وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ، المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه فلا يُعاجِلُهم بعذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يُبيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلَّا بعْدَ إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجي أتْباعَ رُسُلِه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ فرَّقَ اللهُ سُبحانَه وتعالى بيْنَ التَّعبيرَينِ في إزلافِ الجنةِ وإظهارِ النارِ، وهو دليلٌ على أنَّ الرحمةَ سبقتِ الغضبَ؛ لأنَّ الجنةَ تُدنَى للمؤمنينَ، أمَّا أولئك فتَظْهَرُ لهم، فيَرَوْنها مِن بعيدٍ، ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]؛ لأجْلِ أنْ يكونوا في خَوفٍ وذُعْرٍ مِن قَبْلِ أنْ يَصِلوا إليها[2]. ففي اختلافِ الفِعلينِ ترجيحٌ لجانبِ الوعدِ على الوعيدِ؛ حيثُ قال في حقِّ المتَّقين: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ أي: قُرِّبَت، وفي حقِّ الغاوين: ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أي: أُظهِرَت، ولا يلزَمُ مِن الظهورِ القُربُ[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ﴾ دليلٌ على التَّعذيبِ البدنيِّ والقلبيِّ لأصحابِ النارِ؛ البَدَني: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾، والقَلبي: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾[4].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ أنَّ هذه الأصنامَ تُلْقَى في جهنَّمَ، كما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٠، ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٦١).

في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، لكنْ إذا كان الذي يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ ممَّا كُلِّفَ، فإنْ رَضِيَ بعبادتِهم فهو معهم، وإنْ لم يَرضَ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أي: لا يَدخُلون النارَ[(١)].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ إذا قيل: ما فائدةُ إدخالِ الأصنامِ النَّارَ معَ أنَّها لا تفهمُ؟

فالجواب: أنَّ في ذلك إهانةً لعابديها؛ ففيه مِن الإهانةِ، وبيانِ أنهَّا لا تنفَعُ ما هو ظاهِرٌ[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ جنودُ إبليسَ هم الذين يَتَّبِعونه، ويُغوونَ الناسَ، فكلُّ مَن سعَى في إغواءِ الناسِ، والإفسادِ بيْنَهم، فهو مِن جنودُ إبليسَ، ومعلومٌ أنَّ جنودَ إبليسَ على عكسِ جنودِ الرحمنِ؛ فجنودُ الرحمنِ يَدْعُون إلى الخَيرِ، ويأمُرون بالمعروفِ، ويَنهَون عن المنكَرِ، وأولئك يَدْعُون إلى الشَّرِّ، ويأمُرون بالمنكَرِ، ويَنهَون عن المعروفِ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ كلَّ مَن نَصَرَ أحدًا فهو مِن جُنودِه، ولو بالاتِّباعِ؛ فإنَّه يكونُ مِن جُندِه؛ ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ: ((المرءُ معَ مَن أَحَبَّ))[(٣)]، ومَن أحبَّ شخصًا أطاعَه واتَّبَعه، فمَنِ اتَّبَعَ الشيطانَ لم يكُنْ مِن أتْباعِه فحَسْبُ، بل مِن جنودِه المُناصرين له؛ لِقَولِه: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾؛ وذلك لأنَّ المُتَّبِعَ للشَّخصِ مُقَوٍّ له، وناصرٌ له، وناشرٌ لِمَا يريدُ، فيكون كالجُنديِّ المُسَخَّرِ له[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦١).

(٣) رواه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص:١٦٢، ١٦٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ دليلٌ على نَدَمِ أهلِ النارِ ندمًا عظيمًا، حينَ قالوا وهم يختَصِمون -يُخاصِمُ بعضُهم بعضًا: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وهنا أَقسموا وأكَّدوا: ﴿تَٱللَّهِ﴾ قَسَمٌ، ﴿إِن كُنَّا﴾ إنْ مخففةٌ مِن الثقيلةِ، وتفيدُ التوكيدَ، واللامُ في ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ كذلك[١].

٧- في قَولِهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه نفيُ تشبيهِ المخلوقِ بالخالقِ، وأنَّ اللهَ تبارك وتعالى لا شَبيهَ له[٢]، فقد اعترَفوا أنَّهم كانوا فى أعظمِ الضلالِ وأبْيَنِه، إذْ جعَلوا للهِ شبهًا وعِدْلًا مِن خلْقِه، سوَّوْهم به فى العبادةِ والتعظيمِ[٣].

٨- في قَولِهم: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى بيانِ الضَّلالِ؛ إذ لا يمكنُ التسويةُ بيْنَ مَن هذا وصْفُه «ربُّ العالَمينَ» وبيْنَ مَن لم يَستحِقَّ مِن هذا الوَصفِ شيئًا، وهذه الأصنامُ لا تستحِقُّ وصفًا مِن الرُّبوبيَّةِ إطلاقًا، فضلًا عنِ الرُّبوبيَّةِ العامَّةِ لجَميعِ العالَمينَ[٤].

٩- قال بعضُ العُلَماءُ: (في سورةِ الشُّعراءِ ثلاثُ آياتٍ مُتواليات رَدٌّ على ثلاثِ فِرَقٍ: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ردٌّ على المشَبِّهةِ[٥]، ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٨، ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٦٨).

(٥) المشبهةُ: هُمُ الذين يُشَبِّهونَ الخالِقَ سبحانَه بالمخلوقِ، وهم صنفانِ: صنفٌ شبَّهوا ذاتَ الباري بذاتِ غيرِه، وصنفٌ آخرونَ شبَّهوا صِفاتِه بصِفاتِ غيرِه! يُنظر: ((الفَرْق بين الفِرَق)) لعبد القاهر البغدادي (ص: ٢١٤)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ٨٤).

ردٌّ على المُجبرةِ[١]، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ ردٌّ على المُرجِئة)[٢].

١٠- قولُهم: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يُستفادُ منه سَبُّ هؤلاء بعضِهم بعضًا؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، فهذا قَدْحٌ فيهم مِن جهةِ أنَّهم أضَلُّوهم، ومِن جهةِ أنَّهم مُجرِمون[٣].

١١- قولُهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ يُؤخَذُ منه انتفاءُ الشَّفاعةِ عن المكذِّبين للرُّسُلِ؛ وأنَّه لا يُشفَعُ لهم[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه يُشَفِّعُ غيرَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ قَومًا مِن المؤمنين بعضَهم في بعضٍ، وأنَّ الصَّديقَ يَشفَعُ لصديقِه[٥]، فالآيةُ فيها إثباتُ الشَّفاعةِ للمؤمنينَ، ويُؤخَذُ مِن قَولِهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾، فنَفَوا أنْ يكونَ لهم شافِعون، ومفهومُ هذا أنَّ المؤمنينَ لهم شفاعةٌ، كأنَّهم لَمَّا رأَوْا أنَّ المؤمِنينَ يَشفعونَ بعضُهم لبعضٍ، قالوا: نحنُ ما لنا مِن شافِعين، ولا صديقٍ حَميمٍ[٦].

---

(١) المجبرةُ أو الجبريَّةُ أو القدريَّةُ المجبرةُ، وهم غلاةُ الجهميَّةِ الذين يقولون: إنَّ العبدَ مجبورٌ على أفعالِه، فلا فعلَ له، ولا اختيارَ! وهم أصنافٌ متعدِّدةٌ. يُنظر: ((المِلَل والنِّحَل)) للشَّهْرَسْتاني (١/ ٨٥، ٨٦)، ((اعتقادات فرق المسلمين والمشركين)) للرازي (ص: ٦٧)، ((الدرر السنية في الأجوبة النجدية)) (١/ ٤٩٠)، ((الدرة البهية)) للسعدي (ص: ٢٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٩).
والمرجئة: فرقةٌ كانت ترى تأخيرَ العمَلِ عن النيةِ والعَقدِ، ويقولون: لا تضرُّ مع الإيمانِ معصيةٌ، كما لا تنفَعُ مع الكفرِ طاعةٌ! يُنظر: ((الملل والنحل)) للشهرستاني (١/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٣٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٧٣).

١٣- قولُهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه دَليلٌ على النَّدَم البالغ الذي يُصيبُ هؤلاء في ذلك اليوم، وتمنِّيهم لو أنَّهم رجَعوا إلى الدنيا؛ لِقَوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذا التمنِّي ليس بصحيح؛ فإنَّهم لو رجعوا لَمَا كانوا مُؤمِنينَ، والدَّليلُ قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[1] [الأنعام: ٢٨].

١٤- في قَولِه تعالى إخبارًا عن أهلِ النَّار: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن يَخلُدُ في النارِ فبِكُفره لا بذَنْبه؛ إذ لو خُلِّد بذَنبه لقالوا -واللهُ أعلمُ: «فنكونَ مِن الصالحِينَ»، وهو ردٌّ على المعتزلةِ في بابِ الوَعيدِ[2].

١٥- قالوا: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ ولم يقولوا: (لَيْتَ)؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تذَلُّلٍ وخُضوعٍ، و (لو) للتمنِّي أقَلُّ مِن (ليت)؛ لأنَّ (ليت) صريحةُ الطَّلَب، و (لو) فيها نوعٌ مِن اللِّينِ والعَرْضِ، والمقامُ هنا يقتَضيه؛ لأنَّهم في مَقام ذُلٍّ -والعياذُ باللهِ- وخُضوعٍ، على أنَّه في سورةِ (الأنعام) يقولونَ: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

فيُقال: الجَمعُ بيْنَهما أنَّ لهم حالاتٍ؛ فأحيانًا يقولونَ بهذا، وأحيانًا يقولونَ بهذا، والظَّاهِرُ أنَّ (ليت) هي الأُولى، يعني: كأنَّه يكونُ بالأوَّلِ بعَزمٍ على التمَنِّي، ثمَّ إذا لم يحصُلْ لهم رجَعوا إلى الخُضوعِ والخُنوعِ والعَرْضِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عطْفٌ على ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٧٥، ١٧٦).

وصيغةُ الماضي فيه وفيما بعْدَه مِنَ الجُمَلِ المُنتظمةِ معه في سِلكِ العَطفِ: ﴿بُرِّزَتِ﴾ و﴿فَكُبْكِبُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقُّقِ الوُقوعِ وتَقرُّرِه، وإنْ كان لم يَقَعْ، كما أنَّ صيغةَ المُضارعِ في المَعطوفِ عليه؛ للدَّلالة على استِمرارِ انتِفاءِ النَّفعِ ودَوامِه حسَبَما يَقتَضيهِ مَقامُ التَّهويلِ والتَّفظيعِ[1].

- وقيل: الظَّاهرُ أنَّ الواوَ في قَولِه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ واوُ الحالِ، والعاملُ فيها: ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ﴾ [الشعراء: ٨٨]، أي: يومَ عدَمِ نَفْعِ مَن عَدَا مَن أتَى اللهَ بقلبٍ سليمٍ، وقد أُزلِفَتِ الجنَّةُ للمُتَّقينَ. والخروجُ إلى تَصويرِ هذه الأحوالِ شيءٌ اقتَضاهُ مَقامُ الدَّعوةِ إلى الإيمانِ بالرَّغبةِ والرَّهبةِ؛ لأنَّه ابتَدأَ الدَّعوةَ بإلقاءِ السُّؤالِ على قَومِه فيما يَعبُدونَ؛ إيقاظًا لبَصائرِهم، ثمَّ أعقَبَ ذلك بإبطالِ إلهيَّةِ أصنامِهم، والاستِدلالِ على عدَمِ استِئْهالِها الإلهيَّةَ بدليلِ التَّأمُّلِ، وهو أنَّها فاقدةٌ السَّمعَ والبَصرَ، وعاجزةٌ عنِ النَّفعِ والضُّرِّ، ثمَّ طالَ دليلَ التَّقليدِ الَّذي نَحا إليه قَومُه لَمَّا عَجَزوا عن تأييدِ دِينِهم بالنَّظرِ؛ فلمَّا نهَضَتِ الحُجَّةُ على بُطلانِ إلهيَّةِ أصنامِهم، انتَصَبَ لبيانِ الإلهِ الحقِّ رَبِّ العالَمينَ، الَّذي له صِفاتُ التَّصرُّفِ في الأجسامِ والأرواحِ، تَصرُّفَ المُنعِمِ المُتوحِّدِ بشَتَّى التَّصرُّفِ، إلى أنْ يأتيَ تَصرُّفُه بالإحياءِ المؤَبَّدِ، وأنَّه الَّذي نَطمَعُ في تَجاوُزِه عنه يَومَ البَعثِ، فلْيَعْلَموا أنَّهم إنِ استَغفَروا اللهَ عمَّا سَلَفَ مِنهم مِن كُفرٍ فإنَّ اللهَ يَغفِرُ لهم، وأنَّهم إنْ لم يُقْلِعوا عنِ الشِّركِ لا يَنفَعُهم شيءٌ يَومَ البعثِ، ثمَّ صَوَّرَ لهم عاقبةَ حالَيِ التَّقوى والغَوايةِ، بذِكرِ دارِ جزاءِ الخَيرِ، ودارِ جزاءِ الشَّرِّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٠).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾

- لمَّا كان قومُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مُستمرِّينَ على الشِّركِ، ولم يكنْ يومَئذٍ أحدٌ مؤمِنًا غيرُه وغيرُ زَوجِه وغيرُ لوطٍ ابنِ أخيهِ- كان المَقامُ بذِكرِ التَّرهيبِ أجْدَرَ؛ فلذلك أطنَبَ في وَصْفِ حالِ الضَّالِّينَ يومَ البَعثِ، وسُوءِ مَصيرِهم، حيثُ يَندَمونَ على ما فَرَّطوا في الدُّنيا مِنَ الإيمانِ والطَّاعةِ، ويَتَمنَّوْنَ أن يَعودوا إلى الدُّنيا ليَتَدارَكوا الإيمانَ، ولاتَ ساعةَ مَندَمٍ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ...﴾ فيه ذِكرُ ما يُقالُ للغاوينَ؛ للإنحاءِ عليهم، وإظهارِ حَقارةِ أصنامِهم. وفي الاقتِصارِ على ذِكرِ هذا دُونَ غَيرِه ممَّا يُخاطَبونَ به يومَئذٍ مُناسَبةٌ لمَقامِ طلَبِ الإقلاعِ عن عِبادةِ تلك الأصنامِ. وأُسنِدَ فِعلُ القَولِ إلى غَيرِ مَعلومٍ؛ لأنَّ الغرضَ تَعلَّقَ بمعرفةِ القَولِ لا بمعرفةِ القائلِ[٢].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ على سَبيلِ التَّوبيخِ[٣]. وقيل: الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ استِفهامٌ عن تَعيينِ مكانِ الأصنامِ إنْ لم تَكنْ حاضِرةً، أو عن عمَلِها إنْ كانت حاضرةً في ذلك المَوقفِ؛ تَنزيلًا لعدَمِ جَدْواها فيما كانوا يَأمُلونَه منها مَنزلةَ العدَمِ؛ تَهكُّمًا وتَوبيخًا وتَوقيفًا على الخَطأِ[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٠، ١٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥١).

- قولُه: ﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ سؤالُ تَقريعٍ وتَبكيتٍ، لا يُتوقَّعُ له جَوابٌ[١]؛ فالاستِفهامُ في قَولِه: ﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ﴾ فيه إنكارُ أنْ تكونَ الأصنامُ نُصَراءَ[٢].

- وفي معنَى قَولِه: ﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ التَّرقِّي والمُبالَغةُ، أي: كيفَ يُخلِّصونَكم مِن عذابِ النَّارِ؟! بل كيف يَقدِرونَ على خَلاصِ أنفُسِهم منها؟! فوُضِع ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ -وهو مِن انتَصَرَ منه، أي: انتَقَمَ- مَوضِعَ الاستِخلاصِ؛ مُبالغةً وتَهكُّمًا[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾

- قولُه: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ الكَبْكَبةُ: تَكريرُ الكَبِّ، جُعِل التَّكريرُ في اللَّفظِ دليلًا على التَّكريرِ في المعنى، كأنَّ مَن أُلقِيَ في النَّارِ يَنكَبُّ مرَّةً بعْدَ أُخرى حتَّى يَستقِرَّ في قَعرِها[٤].

- قولُه: ﴿هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ في تأخيرِ ذِكرِ الغاوينَ عن ذِكرِ آلهَتِهم: رَمزٌ إلى أنَّهم يُؤَخَّرون عنها في الكَبْكَبةِ؛ ليُشاهِدوا سُوءَ حالِها؛ فيَزْدادوا غَمًّا إلى غَمِّهم[٥].

- وضمائرُ ﴿يَنصُرُونَكُمۡ... و: يَنتَصِرُونَ... و: فَكُبۡكِبُواْ﴾ عائدةٌ إلى ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾، بتَنزيلِها مَنزِلةَ العُقلاءِ[٦].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٢).

- قولُه: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيدٌ للضَّميرِ وما عُطِفَ عليه[١]. وقيل: تأكيدٌ لـ ﴿وَجُنُودُ﴾ إنْ جُعِل مُبتدَأً خبرُه ما بعْدَه، أو للضَّميرِ وما عُطِف عليه، وكذا الضَّميرُ المُنفصِلُ وما يَعودُ إليه[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سؤالٍ نشأَ مِن حِكايةِ حالِهم، كأنَّه قيل: ماذا قالوا حينَ فُعِل بهم ما فُعِل؟ فقيل:...[٣]. ويَجوزُ أن يَكونَ هذا مِن حِكايةِ كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ أَطنَبَ به المَوعظةَ؛ لتَصويرِ هَوْلِ ذلك اليَومِ؛ فتكونَ الجُملةُ حالًا، أو تَكونَ مُستأنَفةً استِئنافًا بيانيًّا. ويجوزُ أن يكونَ حِكايةُ كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ انتهَتْ عِندَ قَولِه تعالى: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٥] أو عِندَ قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]، ويكونَ هذا الكلامُ مَوعظةً مِنَ الله للسَّامِعينَ مِنَ المُشركينَ، وتَعليمًا منه للمؤْمنينَ؛ فتكونَ الجملةُ استِئنافًا مُعترِضًا بيْنَ ذِكرِ القصَّةِ والَّتي بعْدَها، وهو استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عن قَولِه: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾ [الشعراء: ٩٤]؛ لأنَّ السَّامعَ بحيثُ يَسألُ عن فائدةِ إيقاعِ الأصنامِ في النَّارِ، مع أنَّها لا تَفْقَهُ ولا تُحِسُّ، فبُيِّنَ له ذلك[٤].

٨- قولُه تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿تَٱللَّهِ﴾ جِيءَ في القَسمِ بالتَّاءِ دُونَ الواوِ والباءِ؛ لأنَّ التَّاءَ تَختَصُّ بالقسَمِ في شيءٍ مُتعجَّبٍ منه؛ فهم يَعجَبونَ مِن ضلالِهم؛ إذ ناطوا آمالَهم المعونةَ والنَّصرَ بحجارةٍ لا تُغني عنهم شيئًا[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٢، ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٥٣).

- وفي قولِهم: ﴿إِنۡ كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أفادُوا تَمكُّنَ الضَّلالِ منهم باجتِلابِ حرفِ الظَّرفيَّةِ (في) المُفيدِ لمعنَى المُلابَسةِ؛ لأنَّ المَظروفَ شديدُ المُلابَسةِ لظَرفِه، وأكَّدوا ذلك بوَصفِهمُ الضَّلالَ بـ (المُبينِ)، وفي هذا تَسفيهٌ منهم لأنفُسِهم؛ إذْ تَمشَّى عليها هذا الضَّلالُ الَّذي ما كان له أن يَروجَ على ذي مُسْكةٍ مِن عقلٍ[١].

- وأيضًا وصْفُهم للضَّلالِ بالوُضوحِ في قولِهم: ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾؛ للإشباعِ في إظهارِ ندَمِهم وتَحسُّرِهم، وبيانِ عِظَمِ خَطَئِهم في رأيِهم، مع وُضوحِ الحقِّ، كما يُنْبِئُ عنه تَصديرُ قَسَمِهم بحرفِ التَّاءِ المُشعِرةِ بالتَّعجُّبِ[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- عُبِّرَ بصِيغةِ المُضارعِ ﴿نُسَوِّيكُم﴾؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ الماضيةِ العجيبةِ حينَ يَتوجَّهون إلى الأصنامِ بالدُّعاءِ والنُّعوتِ الإلهيَّةِ[٣].

- والخِطابُ في ﴿نُسَوِّيكُم﴾ للأصنامِ على جِهةِ الإقرارِ، والاعترافِ بالحَقِّ، وللمُبالَغةِ في التَّحسُّرِ والنَّدامةِ؛ مِن تَوجيهِ المُتندِّمِ الخِطابَ إلى الشَّيءِ الَّذي لا يَعقِلُ، وكان سببًا في الأمرِ الَّذي جَرَّ إليه النَّدامةَ؛ بتَنزيلِه مَنزلةَ مَن يَعقِلُ ويَسمَعُ. والمقصودُ مِن ذلك: المُبالَغةُ في تَوبيخِ نفْسِه[٤].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ بَيانٌ لسببِ ضَلالِهم بعْدَ اعترافِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٤).

بصُدورِه عنهم[١].

- وفيه أَوْفَرُ نَصيبٍ مِنَ التَّعريضِ بالَّذينَ قالوا: ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾[٢] [الشعراء: ٧٤].

١١- قولُه تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ هذا الخبرُ مُستعمَلٌ في التَّحسُّرِ والتَّأسُّفِ والتَّوجُّعِ[٣].

- وقيل: جُمِعَ الشَّافعُ وأُفرِدَ الصَّديقُ؛ لكَثرةِ الشُّفعاءِ في العادةِ وقلَّةِ الصَّديقِ، أو لأنَّ الصَّديقَ الواحدَ يَسعى أكثَرَ ممَّا يَسعى الشُّفعاءُ. ويَجوزُ أن يُريدَ بالصَّديقِ: الجَمعَ؛ إذْ يُقالُ: هُمْ صديقٌ، أي: أصدقاءُ؛ فأُطلِقَ (الصَّديق) على الجَمعِ كـ (العَدُوِّ)؛ لأنَّه في الأصلِ مَصدرٌ[٤]. وقيل: المُرادُ نَفْيُ جِنسِ الشَّفيعِ وجِنسِ الصَّديقِ؛ لوُقوعِ الاسمَينِ في سِياقِ النَّفيِ المؤكَّدِ بـ﴿مِن﴾ الزَّائدةِ، وفي ذلك السِّياقِ يَستَوي المُفرَدُ والجَمعُ في الدَّلالةِ على الجِنسِ؛ وإنَّما خولِفَ بيْن اسمَيْ هذَينِ الجِنسَينِ في حِكايةِ كلامِهم -إذْ جِيءَ بـ﴿شَٰفِعِينَ﴾ جَمْعًا، وبـ﴿صَدِيقٍ﴾ مُفرَدًا-؛ لأنَّهم أَرادوا بالشَّافِعينَ: الآلِهةَ الباطلةَ، وكانوا يَعْهَدونَهم عَديدينَ؛ فجرَى على كلامِهم ما هو مُرتَسِمٌ في تَصوُّرِهم. وأمَّا الصَّديقُ فإنَّه مَفروضٌ جِنسُه دُونَ عددِ أفرادِه؛ إذْ لم يَعنُوا عددًا مُعَيَّنًا، فبَقيَ على أصلِ نَفيِ الجِنسِ، وعلى الأصلِ في الألفاظِ؛ إذْ لم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري-مع الحاشية)) (٣/ ٣٢٢، ٣٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٤).

يَكُنْ داعٍ لغَيرِ الإفرادِ. والَّذي يَبْدو أنَّه أُوثِرَ جَمعُ ﴿شَٰفِعِينَ﴾؛ لأنَّه أَنسَبُ بصورةِ ما في أذهانِهم، وأمَّا إفرادُ ﴿صَدِيقٍ﴾؛ فلأنَّه أُريدَ أنْ يُجرَى عليه وصْفُ حَميم، فلو جِيءَ بالمَوصوفِ جَمْعًا لاقتَضى جمْعَ وصْفِه، وجَمْعُ حَميم فيه ثِقَلٌ لا يُناسِبُ منتهَى الفَصاحةِ، ولا يَليقُ بصورةِ الفاصِلةِ، مع ما حَصَلَ في ذلك مِنَ التَّفنُّنِ الَّذي هو مِن مَقاصِدِ البُلَغاءِ[١].

- وقولُهم: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ تَتميمٌ[٢]، أثارَه ما يَلْقَونه مِن سوءِ المُعامَلةِ مِن كلِّ مَن يَمُرُّون به أو يَتَّصِلون، ومِنَ الحِرمانِ الَّذي يُعامِلُهم كلُّ مَن يَسألُونه الرِّفقَ بهم، حتَّى عَلِموا أنَّ جميعَ الخَلْقِ تَتبرَّأُ منهم[٣].

١٢- قولُه تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فرَّعوا على هذا التَّحسُّرِ والنَّدامةِ تَمنِّي أنْ يُعادُوا إلى الدُّنيا؛ ليَتَدارَكوا أمْرَهم في الإيمانِ باللهِ وحْدَه[٤]. وهو تَمَنٍّ للرَّجعةِ، أُقيمَ فيه (لو) مقامَ (لَيْتَ)؛ لتَلاقيهما في معنَى التَّقديرِ. وقيل: يَجوزُ أن تَكونَ على أصْلِها، ويُحذَفَ الجوابُ، وهو: لَفَعَلْنا كَيْتَ وكَيْتَ[٥].

- وفي الآياتِ مِن قَولِه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٧٠- ١٠٢] تخلُّصٌ حَسَنٌ[٦]؛ فما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٥).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٣).

(٦) حُسنُ التخلُّصِ: هو الانتقالُ ممَّا ابتُدِئ به الكلامُ إلى المقصودِ، أو مِن موضوعٍ إلى موضوعٍ آخَرَ بأُسلوبٍ حسَنٍ مستطابٍ، على وجهٍ سهلٍ دقيقِ المعنى، بحيثُ لا يشعُرُ السامعُ بالانتقالِ مِن المعنى الأوَّلِ إلَّا وقد وقَعَ عليه الثاني؛ لشدَّةِ الالتئامِ بيْنَهما. =

أَحسَنَ ما رتَّبَ إبراهيمُ كلامَه مع المُشرِكينَ، حينَ سألَهم أوَّلًا عمَّا يَعبُدونَ سؤالَ مُقرِّرٍ لا مُستفهِمٍ، ثمَّ أَنحَى على آلهتِهم، فأَبطَلَ أمْرَها بأنَّها لا تَضُرُّ ولا تَنفَعُ، ولا تُبصِرُ ولا تَسمَعُ، وعلى تَقليدِهم آباءَهم الأَقدَمينَ، فكَسَره وأَخرَجه مِن أن يَكونَ شُبهةً، فضْلًا أن يَكونَ حُجَّةً، ثمَّ صَوَّرَ المسألةَ في نفْسِه دُونَهم، حتَّى تَخلَّص منها إلى ذِكرِ اللهِ عزَّ وعلا؛ فعَظَّمَ شأنَه، وعَدَّدَ نِعمتَه، مِن لَدُنْ خَلْقِه وإنشائِه، إلى حينِ وفاتِه، معَ ما يُرجَى في الآخِرةِ مِن رَحمتِه، ثمَّ أتبَعَ ذلك أنْ دعاهُ بدعَواتِ المُخلِصينَ، وابتَهَلَ اليه ابتِهالَ الأَوَّابينَ، ثمَّ وصَلَه بذِكرِ يَومِ القِيامةِ، وثَوابِ اللهِ وعِقابِه، وما يُدفَعُ إليه المُشرِكون يَومَئذٍ مِنَ النَّدمِ والحسَرةِ على ما كانوا فيه مِنَ الضَّلالِ، وتَمنِّي الكَرَّةِ إلى الدُّنيا؛ ليؤْمِنوا ويُطيعوا[1].

١٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

- في ذلك مَسلاةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في تَكذيبِ قَومِه إيَّاهُ عليه السَّلامُ[2].

- وهو تكريرٌ ثالثٌ لهاتِه الجُملةِ؛ تَعدادًا على المُشرِكينَ، وتَسجيلًا لتَصميمِهم[3].

= وحسنُ التخلُّصِ متشابهٌ جدًّا معَ الاستطرادِ، إلَّا أنَّ بينَهما فرقًا دقيقًا؛ بيانُه: أنَّ التخلُّصَ تركُ ما كان الكلامُ فيه بالكليةِ، والإقبالُ على ما تُخُلِّص إليه. والاستطرادُ مرورٌ بذكرِ الأمرِ الذي استُطرِد إليه مرورًا كالبرقِ الخاطِفِ، ثم ترْكُه والعودةُ إلى ما كان فيه، كأنَّ المتكلِّمَ لم يقصِدْه، وإنَّما عرَض عُروضًا. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٧٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٩٢، ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).

الآيات (١٠٥-١٢٢)

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾: أي: أهلُ الضَّعَةِ والخَساسةِ، والرَّذْلُ والرُّذالُ: المرغوبُ عنه لرَداءتِه، وأصلُه: الدُّونُ مِن كلِّ شَيءٍ(١).

﴿ٱلْمَرْجُومِينَ﴾: جمعُ مَرْجوم، والرَّجْمُ الرَّميُ بالرِّجام، وهي الحجارةُ، ويُطلَقُ الرَّجمُ على القَتلِ بالحجارةِ، ثمَّ أُطْلِق على كلِّ قتلٍ، وإنْ لم يكُنْ بالحجارةِ، والرَّجمُ: السَّبُّ والشَّتمُ؛ لأنَّه رَميٌ بالقَولِ القَبيحِ، والرَّجمُ: أصلُه الرَّميُ(٢).

﴿فَٱفْتَحْ﴾: أي: احكُمْ واقْضِ، ومنه قيل للقاضي: الفَتَّاحُ. والفَتحُ والفِتاحةُ: الحُكْمُ. وأصلُ (فتح): يدُلُّ على خِلافِ الإغلاقِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج =

﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾: أي: السَّفينةِ المملوءةِ، وأصلُ (فلك): يدُلُّ على استدارةٍ في شَيءٍ، وأصلُ (شحن): يدُلُّ على المَلءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى جانبًا مِن قِصَّةِ نوحٍ عليه السَّلامُ مع قَومِه، فيقولُ: كذَّبَتْ قَومُ نُوحٍ رسُلَ اللهِ أجمَعينَ؛ لأنَّ تكذيبَهم لنُوحٍ بمنزلةِ التَّكذيبِ لجَميعِ الرُّسُلِ، حينَ قالَ لهم أخوهم في النَّسَبِ نوحٌ: ألَا تتَّقونَ اللهَ وتَحذَرونَ عِقابَه، فتُخلِصوا له العِبادَةَ وتَترُكوا عبادةَ غَيرِه؟! إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه، فاتَّقوا عِقابَ الله، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أجرًا، ما ثَوابي إلَّا على اللهِ رَبِّ العالَمينَ، فاتَّقوا عِقابَ الله، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه.

فقال كُبراءُ قَومِه: أنؤمِنُ لك -يا نوحُ- والحالُ أنَّ الذين اتَّبَعوك هم ضُعَفاؤنا وفُقَراؤنا؟! فأجابهم نوحٌ قائلًا: وما عِلمي بما كان يَعمَلُ أتْباعي؟ ما حِسابُهم إلَّا على ربِّي؛ فهو أعلَمُ ببواطِنِهم وبأحوالِهم مِنِّي، لو كنتُم مِن أهلِ الفَهمِ والشُّعورِ بحقائِقِ الأمورِ لَما عِبتُموهم، ولستُ بطاردِ هؤلاء المؤمِنينَ الذين اتَّبَعوني؛ فما أنا إلَّا نذيرٌ أوضِّحُ إنذاري لكم جميعًا. فأجابه المُشرِكون قائلينَ: لئِنْ لم تَكُفَّ -يا نوحُ- عن دَعوتِك لنا، لَنَرجُمَنَّك، فقال نوحٌ: ربِّ إنَّ قَومي كذَّبوني، فاحكُمْ بيْني وبيْنَهم حُكمًا تُنجِّي به أهلَ الحَقِّ، وتَمحَقُ به أهلَ الباطِلِ، ونجِّني وأتْباعي

= (٤/ ٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (٨/ ٥٣٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٥١) و(٤/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٢).

مِن المؤمنينَ.

فاستجاب اللهُ تعالى له، وأخبَر سبحانَه أنَّه أنجاه ومَن كان معه في السَّفينةِ المملوءةِ بهم وبِغَيرِهم، ثمَّ أغرَقَ بعْدَ إنجائِهم مَن بَقِيَ على كُفرِه فلم يركَبِ السَّفينةَ.

ثمَّ قال: إنَّ في ذلك الذي ذكَرْناه لَعِظةً وعِبرةً ودَلالةً على وحدانيَّةِ الله تعالى وقُدرتِه، وما كان أكثَرُ قَومِ نُوحٍ مُؤمنينَ بالله، وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ لأعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعَذابِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٠٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قَصَّ سُبحانَه على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خبَرَ موسى وإبراهيمَ عليهما السلامُ تسليةً له فيما يَلْقاه مِن قَومِه؛ قَصَّ عليه أيضًا نبأَ نوحٍ عليه السَّلامُ، فقد كان نبَؤُه أعظَمَ مِن نبأِ غَيرِه؛ لأنَّه كان يدعوهم ألْفَ سَنَةٍ إلَّا خمسينَ عامًا، ومعَ ذلك كذَّبَه قومُه[1].

وأيضًا لَمَّا أَتَمَّ سُبحانَه قصَّةَ الأبِ الأعظمِ الأقرَبِ؛ أتْبَعَها -دَلالةً على وصْفَي العِزَّةِ والرَّحمةِ- قصَّةَ الأبِ الثاني، مُقَدِّمًا لها على غيرِها؛ لِمَا له مِن القِدَمِ في الزَّمانِ؛ إعلامًا بأنَّ البلاءَ قديمٌ، ولأنَّها أدَلُّ على صِفتَيِ الرَّحمةِ والنِّقمةِ التي هي أثَرُ العِزَّةِ، بطُولِ الإملاءِ لهم على طولِ مدَّتِهم، ثمَّ تعميمِ النِّقمةِ مع كونِهم جميعَ أهلِ الأرضِ، فقال[2]:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦١).

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

أي: كَذَّبت قَومُ نُوحٍ[١] بجَميعِ رُسُلِ الله[٢].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

أي: حينَ قال لهم نوحٌ -وهو أخوهم في النَّسَبِ-: ألَا تتَّقون اللهَ وتَحذَرونَ عِقابَه، فتُوحِّدوا اللهَ، وتَترُكوا عبادةَ الأصنامِ[٣]؟!

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾.

أي: إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه الذي بعَثَني به إليكم، فأُبلِّغُكم رسالةَ الله بلا زيادةٍ أو نُقصانٍ[٤].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.

أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه[٥].

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

---

(١) قال ابن جُزَي: (أسنَد الفعلَ إلى القومِ، وفيه علامةُ التأنيثِ؛ لأنَّ القومَ في معنَى الجماعةِ والأمَّةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٣).
وقال البقاعي: (﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهم أهلُ الأرضِ كُلُّهم مِن الآدَميِّينَ قبْلَ اختِلافِ الأُمَمِ بتفَرُّقِ اللُّغاتِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤).

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾.

أي: وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ ثوابٍ وجَزاءٍ[(١)].

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ما أرجو ثَوابي إلَّا مِنَ اللهِ الخالِقِ الرَّازِقِ، المالِكِ المدَبِّرِ لجميعِ العالَمينَ[(٢)].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١١٠﴾.

أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه؛ فقد بانَ لكم صِدقي[(٣)].

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١).

قال السعدي: (كرَّر ذلك عليه السلام لتكريرِه دعوةَ قومِه، وطولِ مكثِه في ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت: ١٤]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤).

وقال ابن عثيمين: (وقولُه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرَّر تأسيسًا؛ لأنَّه بناهُ على قَولِه: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني: فإذا انتفى ذلك فأنتم اتَّقوا الله وأطيعوني، فيكون هذا تأسيسًا، ولا يُستفادُ المعنى المقصودُ منه لو حُذِف. والفرقُ بيْنَ التأكيدِ والتأسيسِ: أنَّ التأكيدَ لو حُذِفَ لاستُفيد المعنى منه ممَّا بقيَ دُونَ التأكيدِ، أي: أنَّ المؤكِّدَ لا يُستفادُ منه سِوى التأكيدِ، فلا يَحمِلُ معنًى جديدًا. أمَّا التأسيسُ فيَحمِلُ معنًى جديدًا، وهو: وعلى أنَّني لا أريدُ الأجرَ، وإنَّما ألتَمِسُ الثوابَ مِن الله، فيَجِبُ عليكم أن تتَّقوا الله وتطيعوني). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٩٣).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿وَأَتْبَاعُكَ﴾ والتقديرُ: أنؤمِنُ لك وإنَّما أتْباعُك الأرذَلون، أو أنؤمِنُ لك نحنُ وأتْباعُك الأرذَلون، فنُساويَهم فنكونَ مَرذولينَ مِثلَهم(١)؟!

٢- قراءةُ ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ أي: وتَبِعَك الأرذَلون(٢).

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾.

أي: قال كُبَراءُ قَومِ نُوحٍ المتكَبِّرون عن اتِّباعِ الحَقِّ: أنؤمِنُ لك -يا نوحُ- ونتَّبِعُك، والحالُ أنَّه قد اتَّبَعك الضعفاءُ والفقراءُ وأسافلُ الناسِ دُونَ ذَوي الشَّرفِ، فكيفَ نتساوى معهم في اتِّباعِك(٣)؟!

كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا

---

(١) قرأ بها يعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٢٧)، ((المحتسب)) لابن جني (٢/ ١٣١).

(٢) قرأ بها الباقونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٩، ١٦٠).
الأرذلون: قيل: المرادُ بهم: أصحابُ الحِرَفِ الدَّنيَّةِ، وقيل: المساكينُ الذين ليس لهم مالٌ ولا عزٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٠٠).
قال ابن عثيمين: (المعنى: أنَّهم قالوا: لو كان أتْباعُك الملأَ والأشرافَ لاتَّبَعْناك، لكِنْ أتباعُك أراذِلُ النَّاسِ، مِن الفُقراء والسُّوقةِ، والذين لا يُقَدِّرون الأمورَ ولا يَعرفونَها! فهُم أراذِلُهم مِن حيث المالُ -على زعمِهم-. ويمكِنُ أن نقولَ: إنَّهم أراذِلُهم مِن حيث الثقافةُ أيضًا والجاهُ والشرفُ، فهم أرذَلُ الأراذِلِ عندَهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٩٥).

نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧].

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: وما عِلمي بما كان يعمَلُ أتْباعي؟ فأنا لم أُكلَّفِ العِلمَ بأعمالِهم وأحوالِهم الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، وإنَّما أمَرني اللهُ أنْ أدعُوَهم إلى الإيمانِ، وأقبَلَ منهم إقرارَهم وتَصديقَهم وانقيادَهم، وأكتفيَ بذلك دونَ النظَرِ إلى بواطِنِهم وحِرَفِهم وصَنائِعِهم[1].

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

أي: ما حِسابُ أتْباعي إلَّا على ربِّي؛ فهو الذي يعلَمُ السِّرَّ والعلانيةَ، وليس علَيَّ مَعرفةُ أعمالِهم وبواطِنِهم، وإنَّما علَيَّ التَّبليغُ، ولو كنتُم تَعلَمون أنَّ حِسابَهم على اللهِ وحْدَه، وتَشعُرونَ بالأمرِ على حقيقتِه، لَما عِبتُموهم، ولمْ تَسْألوني عنهم؛ فإنْ كان ما جئتُكم به هو الحَقَّ فاتَّبِعوه[2].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُمِرتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦١).

قال القرطبي: (وكأنَّهم قالوا: إنَّما اتَّبَعك هؤلاء الضعفاءُ طمعًا في العِزَّةِ والمالِ، فقال: إنِّي لم أقفْ على باطنِ أمْرِهم، وإنَّما إليَّ ظاهِرُهم. وقيل: المعنَى: إنِّي لم أعلَمْ أنَّ الله يَهْديهم ويُضِلُّكم، ويُرشِدُهم ويُغويكم، ويوفِّقُهم ويَخذُلُكم). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦١، ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٩٧).

قال البقاعي: (﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي: لو كان لكم نوعُ شعورٍ لَعَلِمتُم ذلك فلمْ تقولوا ما قلتُم ممَّا هو دائرٌ على أمورِ الدُّنيا فقط، ولا نظَرَ له إلى يومِ الحسابِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٦٥).

أن أقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشهَدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ الله، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزَّكاةَ، فإذا فَعَلوا ذلك عَصَموا مِنِّي دماءَهم وأموالَهم إلَّا بحَقِّ الإسلامِ[١]، وحِسابُهم على اللهِ))[٢].

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أفهَمَ قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ رَدَّ ما أفهمَه قولُهم مِن طَردِهم؛ صَرَّحَ به في قَولِه[٣]:

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤﴾.

أي: ولن أطرُدَ مَن آمَنَ بالله واتَّبَعني[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩].

﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥﴾.

أي: ما بعَثَني اللهُ إلَّا نذيرًا أُوضِّحُ إنذارَه لكم جميعًا؛ غنيِّكم وفَقيرِكم، شريفِكم ووضيعِكم[٥].

---

(١) إلَّا بحَقِّ الإسلامِ: كقَتلٍ لنَحوِ زِنا مُحصَنٍ، وقَطعٍ لِنَحوِ سَرِقةٍ، وتَغريمِ مالٍ لِنَحوِ إتلافِ مالِ الغيرِ المحترَمِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (١/ ٨١).

(٢) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ١٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤).

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦﴾.

أي: قال المُشرِكون مِن قَومِ نُوحٍ: لئِنْ لم تترُكْ -يا نوحُ- دَعوتَك لنا، لَنَرجُمَنَّكَ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمرجومينَ: المقتولون: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقندي، والبقاعي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٨١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمرجومين: المقتولون بالحجارةِ: السمعانيُّ، والنسفي، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

قال السعدي: (أي: لَنَقتُلَكَ شرَّ قتلةٍ؛ بالرميِ بالحجارةِ، كما يُقتَلُ الكلبُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

وذكَر القائلون بهذا القولِ أيضًا أن القتلَ بالحجارةِ هو أشدُّ قتلٍ؛ لذلك أوعدوه به، أمَّا الشتمُ فقد كان منهم، فلا يحتمِلُ الوعيدُ به. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٧١).

ومِن المفسِّرينَ مَن اقتصَر على تفسيرِ ﴿ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ بقولِه: أي: بالحجارةِ. ومنهم: الزجاجُ، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٦).

وقال ابن عثيمين: (الظاهرُ والأقربُ أنَّهم يقصِدون رجْمَه بالحجارةِ؛ لأنَّ الرجمَ بالقولِ قليلُ الاستعمالِ، ثمَّ إنَّ التهديدَ به مِن هؤلاء الذين يَرَوْنَ أنَّهم يَتكلمون مِن مصدرِ القوَّةِ ليس بلائقٍ في المقامِ، فالصوابُ أنَّهم يُهدِّدونه بالرجمِ بالحجارةِ، والله أعلَمُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٠١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣١١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمرجومينَ: المشتومونَ: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٣٠)، ((الوجيز)) =

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أَيِسَ منهم بما سمِعَ مِن المبالَغةِ بالتأكيدِ في قولِهم، ورأى بما يُصَدِّقُه مِن فعْلِهم، قال تعالى مُخبرًا عنه جوابًا لسُؤالِ مَن يريدُ تَعَرُّفَ حالِه بعدَ ذلك[1]:

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧﴾.

أي: قال نوحٌ: رَبِّ إنَّ قَومي كذَّبوني فيما جئتُهم به مِن الحَقِّ، فلا نيَّةَ لهم في اتِّباعِه[2]!

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر: ٩، ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ [نوح: ٥-٩].

﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾.

﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾.

= للواحدي (ص: ٧٩٣).

وممَّن قال بهذا القول مِن السلفِ: الضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ، والحسَنُ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣١١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٣).

أي: فاحكُمْ بيْني وبيْنَ قَومي حُكمًا مِن عندِك، تستأصِلُ وتُهلِكُ به المُبطِلَ[١].

﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ونجِّني وأتْباعي المؤمِنينَ مِن عذابِك الذي تُنزِلُه على المُبطِلينَ[٢].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾.

أي: فأنجَيْنا نوحًا ومَن حُمِلَ معه في السَّفينةِ المملوءةِ بالنَّاسِ والحيواناتِ والطُّيورِ وغَيرِها[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

أي: ثمَّ[٤] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٩٥).
قال ابن عثيمين: (سُمِّي الحُكمُ فتحًا؛ لأنَّه ينفتِحُ به الأمرُ ويتبيَّنُ، فينفصِلُ هذا عن هذا، وهذا الفتحُ بأن ينجيَه ومَن معه مِن المؤمنينَ، ويُهلِكَهم؛ أمَّا نجاتُه ومَن معه مِن المؤمنينَ فمُصرَّحٌ بها، وأمَّا إهلاكُهم فلا نجاةَ إلَّا مِن هَلَكةٍ، هذا هو الفتحُ الذي سأله نوحٌ أن يُهلِكَ اللهُ تعالى قومَه، وأن ينجيَه هو ومَن معه مِن المؤمنينَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٩٥).

(٤) قال القرطبي: (﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي: بعْدَ إنجائِنا نوحًا ومَنْ آمَنَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١).
=

أغرَقْنا جميعَ الكافرين الذين بَقُوا، فلمْ يَركَبوا السَّفينةَ[١].

كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً﴾.

أي: إنَّ في إنجاءِ نوحٍ وأتباعِه المؤمنينَ، وإهلاكِ المكَذِّبين به، لَعِظةً وعِبرةً ودَلالةً واضِحةً على توحيدِ اللهِ، وصِدقِ رُسُلِه، وبُطلانِ الشِّركِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِ نوحٍ مُؤمِنينَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

= وقال البقاعي: (﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي: بعْدَ حَملِه الذي هو سببُ إنجائِه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: أكثَرُ قَومِ نوحٍ: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقندي. يُنظر: المصدران السابقان.

وقيل: المعنى: ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِك يا محمَّدُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢١٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٣، ٢٥٦).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

أي: وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعَذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يُبَيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلَّا بعْدَ إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجِّي أتْباعَ رُسُلِه[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى حكايةً عن نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فالرُّسُلُ إنَّما يَأمُرونَ الناسَ ويَنهَوْنَهم لِمَا يَرجونَه مِن ثوابِ اللهِ، لا لِمَا يَنالونَه مِن الأجرِ، وفي هذا دليلٌ على وجوبِ إصلاحِ النيَّةِ لِمَن قام مقامَ الرُّسُلِ بالدعوةِ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى[٢].

٢- في قوله تعالى حكايةً عن نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ عمَلَ الإنسانِ لِينالَ الثوابَ ليس أمرًا ممقوتًا، بل هو طريقُ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وأتباعِهم[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ أي: المؤخَّرون في الحالِ والمآلِ، والأحوالِ والأفعالِ، فيكونَ إيمانُنا بك سببًا لاستوائِنا معهم؟! فلو طرَدْتَهم لم يكُنْ لنا عذرٌ في التخلُّفِ عنك، ولا مانعٌ مِن اتِّباعِك! فكان ما مُتِّعوا به مِن العَرَضِ الفاني مانعًا لهم عن السَّعادةِ الباقيةِ، وأمَّا الضُّعَفاءُ فانكِسارُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢١٢، ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قُلوبِهم، وخُلوُّها عن شاغلٍ؛ موجِبٌ لإقبالِها على الخَيرِ، وقَبولِها له؛ لأنَّ الله تعالى عندَ المُنكَسِرةِ قلوبُهم، وهكذا قالت قريشٌ في أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما زالت أتْباعُ الرُّسُلِ كذلك حتى صارت مِن سماتِهم وأماراتِهم، كما قال هِرَقْلُ في سؤالِه عن أتْباعِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١]، فكان مِثالُ المُستكبِرين مِثالَ شَخصٍ كان آخَرُ دُونَه بدَرجةٍ، فأصبحَ فوقَه بدرجةٍ، فأَنِفَ مِن أن يرتقيَ إلى درجتِه لئلَّا يُساويَه، ورَضِيَ لنفْسِه أن يكونَ دُونَه! فما أسخَفَ عقْلَه، وما أكثَرَ جَهْلَه[٢]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّه ينبغي موالاةُ المؤمِنينَ، والقربُ منهم، وأنَّ هذا دأبُ الأنبياءِ، فينبغي للإنسانِ أن يُقَرِّبَ منه كلَّ مؤمنٍ، وأنْ يختارَ لنفْسِه أصلحَ الأصحابِ[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه التواضعُ للمُؤمِنينَ، وعدمُ إبعادِهم، ولو كانوا مَن كانوا فيما بينَ النَّاسِ، والصبرُ على ما يَجِدُ منهم مِن الجَفاءِ؛ فالرسولُ -عليه الصلاةُ والسلامُ- أشرَفُ الخلْقِ جاهًا عندَ اللهِ، وأعظمُهم منزلةً، عاتَبَه اللهُ في رجُلٍ أعمى، فقال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ * وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾[٤] [عبس: ١ - ٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ قومَ نوحٍ كَذَّبوا جماعةً مِنَ المرسَلينَ؛ مع أنَّهم إنَّما كَذَّبوا رسولًا واحدًا -وهو نوحٌ عليه وعلى نبيِّنا

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٩).

الصَّلاةُ والسَّلامُ-: بدليلِ قولِه تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ إلى قولِه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾.

والجوابُ عن هذا مِن وجهَين:

الأول: أنَّ الرُّسُلَ عليهم صَلواتُ اللهِ وسلامُه لَمَّا كانت دعوتُهم واحدةً -وهي: لا إلهَ إلَّا اللهُ- صار مُكَذِّبُ واحدٍ منهم مُكذِّبًا لجَميعِهم، كما يدُلُّ لذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقولُه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقد بيَّنَ تعالى أنَّ مُكَذِّبَ بعضِهم مُكَذِّبٌ للجميعِ بقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، ويأتي مِثلُ هذا الإشكالِ، والجوابُ في قولِه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾ [الشعراء: ١٢٣، ١٢٤] إلى آخرِه، وقولِه: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴾ [الشعراء: ١٤١، ١٤٢]، وكذلك في قصةِ لوطٍ وشُعيبٍ، على الجميعِ وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ[(١)].

وأيضًا لأنَّ تكذيبَهم لم يكُنْ لأجْلِ ذاتِه، ولكنَّه كان لإحالتِهم أنْ يُرسِلَ اللهُ بشَرًا، وأنْ تكونَ عِبادةُ أصنامِهم ضَلالًا؛ فكان تكذيبُهم إيَّاه مُقتضيًا تَكذيبَ كُلِّ رسولٍ؛ لأنَّ كلَّ رسولٍ يقولُ مِثلَ ما قاله نوحٌ عليه السَّلامُ؛ ولذلك تكرَّر في قولِه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣] وما بعْدَه، وقد حُكِيَ تكذيبُهم أنْ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٤).
ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤).

يكونَ الرَّسولُ بشَرًا في قولِه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾[1] [الأعراف: ٦٣].

الثاني: أنَّه أرادَ الجِنسَ، كقولِك: فلانٌ يركبُ الخيلَ، وإنَّما لم يركَبْ إلَّا فرَسًا واحدًا[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، قولُه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ أي: في النَّسَبِ، وإنَّما ابتعثَ اللهُ الرسُلَ مِن نَسَبِ مَن أُرسِلَ إليهم؛ لئلَّا يشمَئِزُّوا مِن الانقيادِ له، ولأنَّهم يَعرِفونَ حقيقَتَه، فلا يحتاجونَ أنْ يبحَثوا عنه[3].

٣- قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حكايةُ الأمرِ بالتقوَى والإطاعةِ، ونفيِ سؤالِ الأجرِ في هذه القصةِ، والقصصِ التي تَلَتْها، وتصديرُها بذلك؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مَبْنى البَعثةِ هو الدُّعاءُ إلى توحيدِ الله، ومعرفةِ الحقِّ، والطَّاعةِ فيما يُقرِّبُ المَدْعُوَّ إلى الثَّوابِ، ويُبْعِدُه مِنَ العِقابِ، وأنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مُجمِعونَ على ذلك، وإنِ اختلَفوا في بعضِ فُروعِ الشَّرائعِ المختلِفةِ باختلافِ الأزمنةِ والأعصارِ، وأنَّهم مُتنزِّهونَ عن المطامعِ الدَّنِيَّةِ، والأغراضِ الدُّنيويَّةِ بالكُلِّيَّةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٣).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٠٧).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ بيانُ أنَّ أهلَ الرئاسةِ والشَّرَفِ يكونونَ أبعَدَ عن الانقيادِ إلى عبادةِ اللهِ وطاعتِه؛ لأنَّ حبَّهم للرئاسةِ يمنعُهم ذلك، بخِلافِ المُستضعَفينَ(١).

٥- قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ معلومٌ أنَّ اتِّباعَ الأرذَلينَ له لا يقدَحُ في صِدقِه، لكِنْ كَرِهوا مُشاركةَ أولئك، كما طلَب المُشرِكون مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إبعادَ الضُّعَفاءِ؛ كسعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، وابنِ مسعودٍ، وخَبَّابِ بنِ الأرَتِّ، وعمَّارِ بنِ ياسرٍ، وبلالٍ، ونحوِهم، وكان ذلك بمكَّةَ قبْلَ أن يكونَ في الصَّحابةِ أهلُ الصُّفَّةِ(٢)، فأنزَل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾(٣) [الأنعام: ٥٢، ٥٣].

٦- قال تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾، مع أنَّ دعاءَه: ﴿وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨]، فكَلِمةُ: ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أعَمُّ، فما الحِكمةُ في ذلك؟

الجواب: ذلك لأنَّه صَحِبَ معه بعضَ الحيواناتِ والمخلوقاتِ، وأخَذ مِن كُلٍّ زوجَينِ، فهذه لا تُلصَقُ في الإيمانِ أو عَدَمِه. وقد نقولُ: لعلَّ نوحًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -فيما يظهرُ- حينَ دعا ما كان يدورُ في ذِهنِه أنَّ اللهَ يُنجِّي هذه

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٣٠).

(٢) يُنظر ما تقدم في تفسير سورة الأنعام (٥/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٥٣).

وسببُ النزولِ المذكورُ أخرجه مسلم (٢٤١٣).

المخلوقاتِ الأُخرَى، لذا قال: ﴿وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

٧- قولُه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ قولُه: ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ حيثُ أتَى في غَيرِ فاصلةٍ استُعمِلَ جَمْعًا، كقولِه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل: ١٤]، وحيثُ كان فاصلةً استُعمِلَ مُفردًا؛ لمُراعاةِ الفَواصلِ؛ كهذا الموضِعِ، والذي في سُورةِ (يس)[٢]، فلو كان جمعًا لقال: (المشحونةِ)، أو (المشحوناتِ).

٨- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الآيةُ في قصَّةِ نوحٍ: دلالَتُها على أنَّ اللهَ لا يُقِرُّ الذين يُكذِّبون رُسُلَه، ففي قصَّتِه آيةٌ للمُشرِكينَ مِن قريشٍ، وهم يعلمون قِصَّةَ نوحٍ والطُّوفانِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ استِئنافٌ لِتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ناشئٌ عن قولِه: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٤] [الشعراء: ١٠٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ خَصَّ بالذِّكرِ في هذه السُّورةِ هذا الموقفَ مِن مَواقفِه؛ لأنَّه أنسَبُ بغرضِ السُّورةِ في تَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذِكْرِ مُماثِلِ حالِه مع قومِه[٥].

- يجوزُ أنْ يكونَ لفظُ (ألَا) في قولِه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ مُرَكَّبًا مِن حرفَينِ: همزةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٥٨).

استِفهامٍ دخلَتْ على (لا) النَّافيةِ؛ فهو استِفهامٌ عنِ انتفاءِ تَقْواهم، مُستعمَلٌ في الإنكارِ، وهو يقْتضي امتناعَهم مِنَ الامتثالِ لدَعوتِه. ويجوزُ أنْ يكونَ (أَلَا) حرْفًا واحدًا، هو حَرفُ التَّحضيضِ، وهو يَقتَضي تباطُؤَهم عن تَصديقِه[١].

- قولُه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ فيه إيجازٌ بالحَذفِ؛ فمُتعلَّقُ التَّقوى مَحذوفٌ، فقيل: أَلَا تتَّقونَ عذابَ الله وعقابَه على شركِكم؟ وقيل: أَلَا تتَّقونَ مخالفةَ أمرِ الله، فتتركوا عبادتَكم للأصنامِ[٢]؟

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تَعليلٌ للإنكارِ، أو للتَّحضيضِ في الآيةِ السَّابقةِ، وتأكيدُه بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ) مع عدَمِ سَبْقِ إنكارِهم أمانتَه؛ لأنَّه توقَّعَ حُدوثَ الإنكارِ؛ فاستَدلَّ عليهم بتَجربةِ أمانتِه قبْلَ تبليغِ الرِّسالةِ؛ فإنَّ الأمانةَ دَليلٌ على صِدقِه فيما بلَّغَهم مِن رِسالةِ اللهِ[٣].

- وفي حِكايةِ استِدلالِ نُوحٍ بأمانتِه بينَ قومِه في هذه القِصَّةِ المَسوقَةِ مَثَلًا للمشركينَ في تَكذيبِهم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: تَعريضٌ بهم؛ إذْ كذَّبوه بعْدَ أنْ كانوا يدْعونَه الأمينَ[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ تأكيدٌ لقولِه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وهو اعتراضٌ بينَ الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ[٥].

- قولُه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيه تَقديمُ الأمرِ بتَقوَى اللهِ على الأمْرِ بطاعتِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٥٨، ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٥٩).

لأنَّ تقْوَى اللهِ سببٌ لطاعةِ نوحٍ عليه السَّلامُ[١]، فتقوَى اللهِ علَّةٌ لطاعتِه، فقَدَّمَ العلَّةَ على المعلولِ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- في هذه الآياتِ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ذُكِرتْ هذه الآياتُ في خمْسةِ مواضعَ: في قصَّةِ نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، ولوطٍ، وشُعيبٍ عليهم السَّلامُ، ثمَّ كُرِّرَ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ في قِصَّةِ نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ؛ فصارتْ ثمانيةَ مَواضعَ، وليس في قِصَّةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾؛ لِذِكْرِها في مواضعَ، وليستْ في قِصَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّه ربَّاه فِرعونُ؛ حيثُ قال: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾ [الشعراء: ١٨]، ولا في قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ أباهُ في المُخاطَبينَ؛ حيثُ يقولُ: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ [الشعراء: ٧٠]، وهو ربَّاه، واستحْيَا مُوسى وإبراهيمُ عليهما السَّلامُ أنْ يقولَا: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ وإنْ كانا مُنزَّهَينِ مِن طلَبِ الأُجرةِ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

- قولُه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ الفاءُ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها، مِن تَنَزُّهِه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- عنِ الطَّمعِ، كما أنَّ نَظيرتَها السَّابقةَ لتَرتيبِ ما بعْدَها على أمانتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٢١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٤).

- وكرَّر الأمْرَ بالتَّقوى والطَّاعةِ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ ليُؤكِّدَ عليهم، ويُقرِّرَ ذلك في نُفوسِهم، وإنِ اختلَفَ التَّعليلُ؛ جعَلَ الأوَّلَ مَعلولًا لأمانتِه، والثَّانيَ لانتفاءِ أخْذِ الأجْرِ[١]. وليُنبِّهَ على دَلالةِ كلِّ واحدٍ مِن أمانتِه، وحَسْمِ طَمَعِه على وُجوبِ طاعتِه فيما يَدْعوهم إليه؛ فكَيْفَ إذا اجتَمَعا[٢]؟! أو كرَّر جُملةَ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ لزيادةِ التَّأكيدِ؛ فيكونُ قَدِ افتتَحَ دعوتَه بالنَّهيِ عن تَرْكِ التَّقوى، ثمَّ علَّلَ ذلك، ثمَّ أعادَ ما تقْتضيه جُملةُ الاستفتاحِ، ثمَّ علَّلَ ذلك بقولِه: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾، ثمَّ أعادَ جُملةَ الدَّعوةِ في آخِرِ كلامِه؛ إذْ قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ذُكِر مُكرَّرًا في ثَلاثةِ مواضعَ: في قصَّةِ نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ؛ تأكيدًا، وخُصَّتِ الثَّلاثةُ بالتَّأكيدِ دونَ قصَّةِ لُوطٍ وشعيبٍ؛ اكتفاءً عنه في قصَّةِ لوطٍ بقولِه: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]، وفي قصَّةِ شُعيبٍ بقولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤]؛ لاستِلزامِهما له[٣].

- وحُذِفَتِ الياءُ مِن ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في الموضعَينِ كما حُذِفَتْ في قولِه: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤] في أوائلِ السُّورةِ؛ لمُراعاةِ الفاصلةِ[٤].

٧- قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ لِما يُثيرُه قولُه: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ﴾ [الشعراء: ١٠٥] مِن استِشرافِ السَّامعِ لمعرفةِ ما دارَ بيْنَهم وبينَ نُوحٍ مِن حِوارٍ؛ ولذلك حُكِيَتْ مُجادَلَتُهم بطريقةِ: قالوا، وقال[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والاستفهامُ في ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ جَوابٌ عمَّا أُشِيرَ إليه مِن قولِهم: إنَّ أتْباعَه لم يُؤمِنوا عن نظَرٍ وبَصيرةٍ[٢]. وفي جوابِ نُوحٍ عليه السَّلامُ هذا عن كلامِ قومِه حُسنُ بلاغةٍ في لَفظِه ومعناهُ؛ فأمَّا لَفظُه: فاقترانُ أوَّلِه بالواوِ يَجعلُه في حُكمِ المعطوفِ على كَلامِ قَومِه؛ تَنبيهًا على اتِّصالِه بكلامِهم، وذلك كِنايةٌ عن مُبادرتِه بالجوابِ كما في قولِه تعالى حِكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤] بعْدَ قولِه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]. وأمَّا معناهُ: فهو استِفهامٌ مُؤْذِنٌ بأنَّ قومَه فصَّلوا إجْمالَ وصْفِهم أتْباعَه بالأرذَلينَ؛ بأنْ بيَّنوا أوصافًا مِن أحوالِ أهلِ الحاجةِ الَّذينَ لا يَعْبأُ النَّاسُ بهم؛ فأتَى بالاستِفهامِ عن عِلمِه استِفهامًا مُستعمَلًا في قِلَّةِ الاعتناءِ بالمُستفهَمِ عنه، وهو كِنايةٌ عن قِلَّةِ جَدْواه؛ لأنَّ الاستفهامَ عنِ الشَّيءِ يُؤْذِنُ بالجَهلِ به، والجَهلُ تُلازِمُه قِلَّةُ العِنايةِ بالمجهولِ، وضَعْفُ شأْنِه؛ كما يُقالُ لك: يُهدِّدُكَ فلانٌ؛ فتقولُ: وما فلانٌ؟! أي: لا يُعْبأُ به[٣].

- و ﴿كَانُوا۟﴾ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مَزيدةٌ بينَ (ما) الموصولةِ وصِلتِها؛ لإفادةِ التَّأكيدِ، والمعنى: أيُّ شَيءٍ عِلْمي بما يعملونَ؟ وليس المُرادُ بما كانوا عمِلوهُ مِن قبْلُ[٤].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٦١).

- القَصرُ في قولِه: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ قَصْرُ مَوصوفٍ على الصِّفةِ[١]، والموصوفُ هو ﴿حِسَابُهُمْ﴾، والصِّفةُ هي ﴿عَلَىٰ رَبِّي﴾؛ لأنَّ المجرورَ الخبرَ في قُوَّةِ الوصفِ، ومعناه: حسابُهم مَقصورٌ على الاتِّصافِ بمدلولِ ﴿عَلَىٰ رَبِّي﴾، أي: لا يَتجاوزُ إلى الاتِّصافِ بكوْنِ حِسابِهم علَيَّ أنا. وهو ردٌّ لِمَا تضمَّنَه كلامُ قَومِه مِن مُطالَبتِه بإبعادِ الذينَ آمَنوا؛ لأنَّهم لا يَستحِقُّونَ أنْ يكونوا مُساوينَ لهم في الإيمانِ الذي طلَبَه نُوحٌ مِن قَومِه[٢]!

- وقولُه: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ تَجهيلٌ لهم، ورَغْمٌ لغُرورِهم، وإعجابِهمُ الباطِلِ، وجوابُ (لو) محذوفٌ دلَّ عليه ما قبْلَه[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جوابٌ لِمَا أَوْهَمَ قولُهم مِن استدعاءِ

---

(١) وهو أيضًا قَصْرُ إفرادٍ إضافيٌّ.

والقَصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شيءٍ بشيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالقصرُ الإضافيُّ: أنْ يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قَصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالينَ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ، مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ويَنقسمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثَلاثةِ أقسامٍ: قصْرُ الموصوفِ على الصِّفةِ قَصْرَ إفرادٍ، وقصرَ قَلْبٍ، وقصرَ تعيينٍ.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٢).

(٢) يُنظرُ: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٢).

طرْدِهم، وتوقيفِ إيمانِهم عليه؛ حيثُ جَعلوا اتِّباعَهم المانعَ عنه[١].

١١- قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ استِئنافٌ في معنى التَّعليلِ[٢].

- والقصْرُ إضافيٌّ، وهو قصْرُ مَوصوفٍ على صِفَةٍ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ في سُورةِ (هودٍ) حِكايةُ مَوقفٍ لنُوحٍ عليه السَّلامُ مع قومِه شبيهٍ بما حُكِيَ هُنا في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ * وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ...﴾ [هود: ٢٥ - ٢٩]، وبينَ الحكايتَينِ اختِلافٌ ما؛ فلعلَّهما مَوقفانِ، أو هما كلامانِ في موقفٍ واحدٍ؛ حُكِيَ أحدُهما هُنالِكَ، والآخَرُ هنا على عادةِ قَصصِ القرآنِ؛ فما في إحدى الآيتَينِ مِن زِيادةٍ يُحْمَلُ على أنَّهُ مُكمِّلٌ لِمَا في الأخرى[٤].

١٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ تَمهيدٌ للدُّعاءِ عليهم، وهو خبَرٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُستعمَلٌ في إنشاءِ التَّحسُّرِ، واليأسِ مِن إقلاعِهم عن التَّكذيبِ[١].

- وحذْفُ الياءِ مِن قولِه: ﴿كَذَّبُونِ﴾ للفاصِلةِ؛ كما تقدَّم في قولِه: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[٢] [الشعراء: ١٤].

١٣- قولُه تعالى: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ الفتْحُ: الحُكْمُ، وتأكيدُهُ بـ﴿فَتْحًا﴾؛ لإرادةِ حُكْمٍ شديدٍ، وهو الاستئصالُ؛ ولذلك أَعْقَبَه بالاحتراسِ بقولِه: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] [الشعراء: ١١٨].

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حِكايةٌ إجماليَّةٌ لدُعائِه المُفصَّلِ في سُورةِ نوحٍ عليه السَّلامُ[٤]. ودَعا لنفْسِه ولِمَن آمَنَ به بالنَّجاةِ، وفي ذلك إشعارٌ بحُلولِ العذابِ بقَومِه[٥].

١٤- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ لَمَّا كان إغراقُهم كلِّهم مِنَ الغرائبِ، عظَّمَه بأداةِ البُعدِ ومَظهَرِ العَظمةِ؛ فقال: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٣).

الآيات (١٢٣-١٤٠)

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رِيعٍ﴾: أي: مكانٍ مُرتَفعٍ مِن الأرضِ، وأصلُ (ريع): يدُلُّ على ارتِفاعٍ وعُلوٍّ[1].

﴿ءَايَةً﴾: أي: بناءً عاليًا، وأعلامًا طِوالًا، وأصلُ الآيةِ: العَلامةُ[2].

﴿تَعْبَثُونَ﴾: أي: تَلعَبون، وأصلُ (عبث): يدُلُّ على الخَلطِ[3].

﴿مَصَانِعَ﴾: أي: مَنازِلَ، وحُصونًا، وقُصورًا مُشَيَّدةً، وقيل: صهاريجُ [أحواض]

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٨)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٧/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٣).

عَميقةٌ تُتَّخَذُ للماءِ، وأصلُ (صنع): يدُلُّ على عَمَلِ الشَّيءِ[١].

﴿تَخْلُدُونَ﴾: أي: تُقيمون فلا تموتونَ، وأصلُ (خلد): يدُلُّ على الثَّباتِ والمُلازَمةِ[٢].

﴿بَطَشْتُم﴾: أي: عاقبتُم وضَربتُم، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وغَلَبةٍ[٣].

﴿جَبَّارِينَ﴾: أي: قتَّالينَ بغيرِ حَقٍّ، وأصلُ (جبر): يدُلُّ على العُلُوِّ والقَهرِ[٤].

﴿أَوَعَظْتَ﴾: الوَعظُ: زجْرٌ مُقترِنٌ بتخويفٍ، وتذكيرٌ بالخَيرِ وما يَرِقُّ له القَلبُ[٥].

﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: عادتُهم وشأنُهم ودينُهم، وأصلُ (خلق) هنا: تقديرُ الشَّيءِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

(٦) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٤).

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى تعالى جانبًا مِن قصةِ هودٍ عليه السلامُ معَ قومِه، فيقولُ: كذَّبَتْ قبيلةُ عادٍ رُسلَ اللهِ بتكذيبِهم رَسولَهم هودًا -فتَكذيبُهم له تكذيبٌ لِغَيرِه- حينَ قال لهم هودٌ، وهو أخوهم في النَّسَبِ: ألَا تتَّقون اللهَ، إنِّي لكم رسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه، فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم ثوابًا ولا جزاءً؛ فما ثوابي إلَّا مِن اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

أتَبْنون بكُلِّ مَكانٍ مُرتَفعٍ مِن الأرضِ بناءً عاليًا؛ عَبَثًا وفَخرًا، وتَصنَعون بناياتٍ مُحكَمةً كأنَّكم تَخلُدونَ في الدُّنيا، وإذا أخَذتُم النَّاسَ آذَيْتُموهم ظُلمًا وعُدوانًا! فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه وأطيعوني، واتَّقوا اللهَ الذي أعطاكم ما تَعلَمونَ مِن النِّعَمِ؛ أعطاكم أنعامًا وبنينَ، وبَساتينَ وعيونَ ماءٍ، إنِّي أخافُ عليكم مِن الله عذابَ يومٍ عَظيمِ الأهوالِ.

فقال له قَومُه: سواءٌ عندَنا وَعْظُك لنا وعَدَمُه، فلن نؤمِنَ بك، ما هذا الذي نحن عليه إلَّا عادةُ آبائِنا الأوَّلينَ، ونحن تابِعونَ لهم، وما نحن بمعَذَّبينَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى إصرارَهم على التكذيبِ، وسوءَ عاقبتِهم، فيقولُ: فكذَّب هؤلاء المُشرِكون رَسولَهم، فأهلَكْناهم أجمَعينَ. إنَّ في إهلاكِنا قَومَ هُودٍ لَعِظةً وعِبرةً، وما كان أكثَرُ قَومِ هودٍ مُؤمِنينَ، وإنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعذابِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٢٣﴾.

أي: كذَّبَتْ قبيلةُ عادٍ بجَميعِ رُسُلِ الله[١].

كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود: ٥٩].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

أي: كذَّبوا هودًا -وهو أخوهم في النَّسَبِ- حينَ قال لهم: ألَا تتَّقون اللهَ، وتحذَرون عِقابَه، فتُوحِّدوه، وتَتركوا عبادةَ الأصنامِ[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾.

أي: إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه الذي بعثَني به إليكم، فأبَلِّغُكم رسالتَه بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧-٦٨].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٧).

قال السعدي: (أي: كذَّبت القبيلةُ المسمَّاةُ عادًا، رسولَهم هودًا، وتكذيبُهم له تكذيبٌ لِغَيرِه؛ لاتِّفاقِ الدَّعوةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه[١].

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٧﴾.

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾.

أي: وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ ثوابٍ وجَزاءٍ[٢].

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ما أرجو ثَوابي إلَّا مِن الله الخالِقِ الرَّازِقِ، المالِكِ المدَبِّرِ لجميعِ العالَمينَ دونَ غَيرِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [هود: ٥١].

﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا فَرَغَ مِن الدُّعاءِ إلى الأصلِ -وهو الإيمانُ بالرَّسولِ والمُرسِلِ-؛ أتبَعَه إنكارَ بعضِ ما هم عليه ممَّا أوجبَه الكفرُ، وأوجبَ الاشتغالُ به الثباتَ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

قال ابن عثيمين: (يعني: فلأنِّي رسولٌ أمينٌ افعَلوا ما آمرُكم به مِن التقوَى، وأحُثُّكم عليه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١).

الغَيِّ، فقال[١]:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

أي: قال هودٌ لِقَومِه: أتَبْنونَ بكُلِّ مَكانٍ مُرتَفِعٍ بناءً عاليًا مُرتَفِعًا[٢]؛ دَلالةً على قوَّتِكم وشِدَّتِكم، وتتَّخِذونَ ذلك فَخرًا وإظهارًا للقُدرةِ والعَظَمةِ، مِن غيرِ حاجةٍ ونفعٍ حقيقيٍّ يعودُ عليكم[٣]؟!

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((مرَّ عليَّ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ونحن نعالجُ خُصًّا[٤] لنا وَهَى[٥]، فقال: ما هذا؟ فقُلْنا: خُصٌّ لنا وهَى، فنحن نُصلِحُه، فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ما أرَى الأمرَ إلَّا أعجَلَ مِن ذلك))[٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٩).

(٢) قال ابن دُرَيْد: (الرِّيعُ: العُلُوُّ من الأرضِ حتى يمتَنِعَ أن يُسْلَكَ). ((جمهرة اللغة)) (٢/ ٧٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٦ - ٦١٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢١٩، ٢٢٠).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّهم بَنَوْا تلك الأبنيةَ علاماتٍ للمسافرينَ، وهو أمرٌ نافعٌ، لكنْ لَمَّا كان قصدُهم ببنائِها الرِّياءَ صار وُجودُها شبيهًا بالعبثِ؛ لعدَمِ قصدِهم رضا الله. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٥، ١٦٦).

(٤) الخصُّ: بيتٌ يُعملُ مِن الخَشبِ والقَصبِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٧).

(٥) أي: خرِب أو كاد. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٢٣٤).

(٦) أخرجه أبو داود (٥٢٣٦) واللفظ له، والترمذي (٢٣٣٥)، وابن ماجه (٤١٦٠)، وأحمد (٦٥٠٢).

قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ. وأخرجه ابن حبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٩٩٦)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٠)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٢٣٦).

وعن قيسِ بن أبي حازم، قال: (دخَلْنا على خَبَّابٍ نَعودُه، وقد اكتوى سَبْعَ كَيَّاتٍ، فقال: إنَّ أصحابَنا الذينَ سَلَفوا مَضَوا ولم تَنقُصْهم الدُّنْيا، وإنَّا أصَبْنا ما لا نجِدُ له مَوضِعًا إلَّا التُّرابَ، ولولا أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نهَانا أن ندعوَ بالموتِ لدَعوتُ به. ثمَّ أتَيْناه مرَّةً أخرى وهو يَبني حائِطًا له، فقال: إنَّ المُسلِمَ لَيُؤجَرُ في كُلِّ شَيءٍ يُنفِقُه، إلَّا في شَيءٍ يَجعلُه في هذا التُّرابِ[(١)])[(٢)].

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

أي: وتَصنَعونَ بِناياتٍ مُحكَمةً[(٣)]، .....

---

(١) أي: الذي يُوضَعُ في البنيانِ، وهو محمولٌ على ما زاد على الحاجةِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ١٢٩).

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٢).

قال ابن حجر: (هذا كلُّه محمولٌ على ما لا تمَسُّ الحاجةُ إليه ممَّا لا بدَّ منه للتوطُّنِ، وما يقي البردَ والحَرَّ). ((فتح الباري)) (١١/ ٩٣).

(٣) قيل: المصانعُ: هي الصهاريجُ والخزَّاناتُ والأحواضُ التي تجمعُ الماءَ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: الزجَّاجُ، والسمعانيُّ، والزمخشري، وجلال الدين المحلي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٩٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١١).

وقيل: هي الحصونُ. وممَّن قال بذلك: العليمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٨٣).

قال ابنُ قُتَيْبةَ: («المَصَانعُ» البناءُ... وكأنَّ المعنى: أنَّهم كانوا يَستوثِقون في البناءِ والحُصونِ، ويذهبونَ إلى أنَّها تحَصِّنُهم مِن أقدارِ الله عزَّ وجلَّ). ((غريب القرآن)) (ص: ٣١٩).

وقيل: هي القصورُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، وابن أبي زمنين، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٦٧).

قال ابن عطية: («المصانع» جمعُ مصنع، وهو ما صُنع وأُتقِنَ في بنائِه مِن قصرٍ مَشيدٍ ونحوِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (ص: ١٣٠٤). =

كأنَّكم تَخلُدونَ في الدُّنيا[١]!

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والحسنُ، والكلبي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٤).

وممَّن جمَع بيْنَ هذَينِ القولَينِ في الجملةِ: الواحديُّ، فقال: (قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ [الشعراء: ١٢٩] المصانعُ: التي يتخِذُها الناسُ مِن الأبنيةِ والآبارِ). ((الوسيط)) (٣/ ٣٥٩).

قال ابنُ جرير: (الصوابُ من القولِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّ المصانعَ جمعُ مَصنعةٍ، والعربُ تُسمِّي كلَّ بناءٍ مَصنعةً، وجائزٌ أن يكونَ ذلك البناءُ كان قصورًا وحُصونًا مُشَيَّدةً، وجائزٌ أن يكونَ كان مآخِذَ للماءِ، ولا خبَرَ يقطَعُ العُذرَ بأيِّ ذلك كان، ولا هو مما يُدرَكُ مِن جهةِ العقلِ. فالصوابُ أنْ يُقالَ فيه ما قال اللهُ: إنَّهم كانوا يتَّخِذونَ مصانعَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١١، ٦١٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٢، ١٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٦).

واختلف المفسِّرون في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾؛ فقيل: هي على بابِها للترجِّي. وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشورٍ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٣).

وقيل: هي للتَّشبيهِ، بمعنى: كأنَّ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحديُّ -ونسبَه إلى أكثَرِ المفسِّرينَ-، والبغويُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٤).

قال الواحديُّ: (﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: كأنَّكم تَخلُدونَ، قاله أكثَرُ المفسِّرينَ، والمعنى: أنَّهم كانوا يَستوثِقونَ المصانعَ كأنَّهم يَخلُدونَ فيها ولا يموتونَ، و«لعلَّ» يأتي في الكلامِ بمعنى «كأنَّ»). ((الوسيط)) (٣/ ٣٥٩).

وقيل: هي للتَّعليلِ بمعنى (كَيْ)، وممَّن ذهب إلى ذلك: الفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ كثير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٣).

قال الرازي: (إنَّما صار مذمومًا؛ لدَلالتِه على الأملِ الطويلِ، والغَفلةِ عن أنَّ الدنيا دارُ ممَرٍّ، لا دارُ مقَرٍّ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٢٣). =

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ أنَّ عمَلَهم عمَلُ مَن لا يترقَّبُ الموتَ؛ أتبَعَه ما يدُلُّ على أنَّهم لا يَظنُّونَ الجزاءَ، فقال[1]:

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

أي: وإذا أخَذْتُم النَّاسَ وقَهَرْتُموهم، فإنَّكم تُفرِطون في أذيَّتِهم عُدوانًا وظُلمًا، كأنْ يَقتُلوهم، أو يَضرِبوهم بقَسوةٍ بغيرِ حَقٍّ[2].

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾.

أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه؛ فقد بانَ لكم صِدقي[3].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

= قال ابنُ قُتَيْبَةَ: (وكأنَّ المعنى: أنَّهم كانوا يَستوثِقونَ في البناءِ والحصونِ، ويذهبون إلى أنَّها تُحَصِّنُهم مِن أقدارِ الله عزَّ وجلَّ). ((غريب القرآن)) (ص: ٣١٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٨، ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

أي: واتَّقوا الله الذي أعطاكم ما تعلَمونَ مِن النِّعَمِ والخَيراتِ المُتتابِعةِ[١].

﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

أي: أعطاكم اللهُ ما تَعلمونَ مِن المواشي[٢]، والأبناءِ الذُّكورِ[٣].

﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

أي: وأعطاكم اللهُ ما تعلمون مِنَ البساتينِ، وعُيونِ الماءِ[٤].

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

قال البقاعي: (﴿بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي: ليس فيه نوعُ خَفاءٍ حتى تُعذَروا في الغَفلةِ عن تقييدِه بالشُّكرِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣).

قال السعدي: (﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ ﴾ مِن إبلٍ وبقَرٍ وغَنَمٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٥).

والعيونُ قيل: هي الأنهارُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٥).

وقال ابن عثيمين: (فالعيونُ هي التي تنبُعُ مِن الأرضِ، والأنهارُ كما هو معروفٌ لا تنبُعُ مِن الأرضِ، وإنَّما تأتي مِن الأمطارِ والسيولِ وغيرِها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٨).

وقال الشوكاني: (أنهار، وأبيار). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٨).

أي: إنِّي أخافُ أن يُصيبَكم مِنَ الله عذابُ يومٍ عظيمِ الأهوالِ، إنْ أصرَرْتُم على الكُفرِ والتَّكذيبِ[1].

﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

أي: قال قَومُ هودٍ لِنبيِّهم: يستوي عندَنا وَعْظُك لنا وتَركُك له، فلن نؤمِنَ بك، ولن نترُكَ دينَنا[2].

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٠).

قال ابن عاشور: (والعذابُ يجوزُ أن يريدَ به عذابًا في الدُّنيا توعَّدهم اللهُ به على لسانِه، ويجوزُ أن يريدَ به عذابَ يومِ القيامةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٣٠، ٢٣١).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: العذابُ في الدُّنيا: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٩).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: العذابُ في الدُّنيا والآخرةِ: السمرقنديُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والعليمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

قال ابن عاشور: (الوعظُ: التخويفُ والتَّحذيرُ مِن شَيءٍ فيه ضُرٌّ... ومعنى: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ أم لم تكُنْ في عدادِ الموصوفينَ بالواعظينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧١).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿خَلْقُ﴾ قيل: بمعنى: كَذِب، أي: ما هذا الذي أَتَيْتَنا به مِن الدِّينِ ووعَدْتَنا مِن البَعثِ والعذابِ إلَّا كَذِبُ الأوَّلينَ، ومِن أحاديثِهم المُختَلَقة. وقيل: المرادُ إنكارُهم البَعثَ، أي: خُلِقْنا كما خُلِق الأوَّلون مِن قَبْلِنا، فنحنُ مِثلُهم نحيا ونموتُ ولا نُبعَثُ[(١)]!

٢- قِراءةُ ﴿خُلُقُ﴾ بمعنى: عادةِ آبائِنا الأوَّلينَ[(٢)].

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣٧﴾.

أي: ما هذا الذي نحن عليه إلَّا عادةُ آبائِنا الأوَّلين، ونحنُ تابعونَ لهم، سالِكونَ وراءَهم[(٣)].

---

(١) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وأبو عَمرٍو، والكسائيُّ، ويعقوبُ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((تحبير التيسير)) لابن الجزري (ص: ٤٨٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٤)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٦٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٨)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٥١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((تحبير التيسير)) لابن الجزري (ص: ٤٨٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٢٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٨)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٤).
ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: عادةُ الأوَّلينَ وطبيعتُهم ودأبُهم: ابنُ جرير، والزجَّاجُ، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨٨). =

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

أي: ولن يُعَذِّبَنا اللهُ في الدُّنيا، ولن يبعَثَنا بعدَ مَوتِنا لِيُعذِّبَنا في الآخرةِ[١].

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾.

أي: فكذَّب المُشرِكون مِن قَومِ عادٍ رَسولَهم هودًا، فأهلَكْناهم في الدُّنيا[٢].

= قال الواحديُّ: (وله [أي: القولِ بأنَّ المرادَ: العادةُ] تأويلان؛ أحدُهما: أنَّهم قالوا: ما هذا الذي نحن فيه إلَّا عادةُ الأوَّلينَ مِن قَبْلِنا، يعيشون ما عاشوا، ثمَّ يموتونَ، ولا بَعثَ ولا حِسابَ. والثاني: ما هذا الذي أنكَرْتَ علينا مِن الشأنِ والبَطشِ إلَّا عادةُ مَن قبْلَنا؛ فنحن على ما كانوا عليه نَقتدي بهم). ((البسيط)) (١٧/ ١٠١).

وقال ابنُ كثيرٍ: (﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾... يَعْنونَ: دينَهم وما هم عليه مِنَ الأمرِ هو دينُ الأوائلِ مِنَ الآباءِ والأجدادِ، ونحنُ تابعونَ لهم، سالِكونَ وراءَهم، نعيشُ كما عاشوا، ونموتُ كما ماتوا، ولا بعثَ ولا معادَ؛ ولهذا قالوا: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٤).

وقال السعدي: (أي: هذه الأحوالُ والنِّعَمُ ونحوُ ذلك عادةُ الأوَّلينَ؛ تارةً يَستغنون، وتارةً يَفتَقِرون، وهذه أحوالُ الدَّهرِ، لا أنَّ هذه مِحَنٌ ومِنَحٌ مِن الله تعالى، وابتلاءٌ لعبادِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٢).

وقال ابن عاشور: (الإشارةُ تنصرِفُ إلى ما هم عليه الَّذي نَهاهم عنه رسولُهم. ويجوزُ أنْ يَكونوا أرادوا ما يَدْعو إليه رسولُهم: أي: ما هو إلَّا مِن خُلُقِ أناسٍ قبْلَه، أي: مِن عقائدِهم وما راضوا عليه أنفسَهم، وأنَّه عَبَر عليها وانْتَحَلها، أي: ما هو بإذْنٍ مِن الله). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٧٥).

قال السعدي: (﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ وهذا إنكارٌ منهم للبعثِ، أو تنزُّلٌ مع نبيِّهم وتهكُّمٌ به، إنَّنا على فرضِ أنَّنا نُبعَثُ، فإنَّنا كما أُدِرَّتْ علينا النِّعمُ في الدُّنيا، كذلك لا تَزالُ مستمرَّةً علينا إذا بُعِثْنا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

أي: إنَّ في إهلاكِ قَومِ هُودٍ لَعِظةً وعِبرةً ودَلالةً واضِحةً على صِدقِ رسولِه[(١)].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولم يكُنْ أكثرُ قَومِ هُودٍ مُؤمِنينَ حقًّا، معَ وجودِ الآياتِ المُقتَضيةِ لإيمانِهم[(٢)].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

أي: وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ، المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعَذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يُبَيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلَّا بعد إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجِّي أتْباعَ رُسُلِه[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

يكونَ غرَضُه مِن عمَلِه -ولا سيَّما العمَلِ الجبَّارِ العظيمِ- أنْ يكونَ غرضُه غرَضًا صحيحًا، لا عبثًا ومُباهاةً؛ لِقَولِه: ﴿تَعْبَثُونَ﴾، وهذا هو مَحَطُّ الانتقاد، ليس بأنْ يَبنوا ﴿بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾، ولكنْ كَوْنُ ذلك عبثًا هو مَحَلُّ الانتقادِ، ومَحَطُّ اللَّومِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ حاصلُ الأمرِ في هذه الأمورِ الثلاثةِ: أنَّ اتِّخاذَ الأبنيةِ العاليةِ يدُلُّ على حُبِّ العُلوِّ، واتخاذَ المصانعِ يدُلُّ على حُبِّ البقاءِ، والجبَّاريَّةَ تدُلُّ على حُبِّ التفرُّدِ بالعُلوِّ، فيَرجِعُ الحاصلُ إلى أنَّهم أحَبُّوا العلوَّ، وبقاءَ العلوِّ، والتفرُّدَ بالعلوِّ، وهذه صفاتُ الإلهيَّةِ، وهي ممتنعةُ الحصولِ للعبدِ؛ فدلَّ ذلك على أنَّ حُبَّ الدنيا قد استولى عليهم بحيثُ استغرَقوا فيه، وخرَجوا عن حَدِّ العبوديَّةِ، وحاموا حولَ ادِّعاءِ الرُّبوبيَّةِ، وكلُّ ذلك يُنَبِّهُ على أنَّ حُبَّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ، وعنوانُ كلِّ كُفرٍ ومَعصيةٍ[2].

٣- إنَّ اتخاذَ المباني الفَخمةِ للفَخرِ والخُيَلاءِ والزِّينةِ، وقَهرَ العبادِ بالجَبَروتِ: مِن الأمورِ المذمومةِ الموروثةِ عن الأُمَمِ الطَّاغيةِ، كما قال اللهُ في قِصَّةِ عادٍ، وإنكارِ هودٍ عليهم؛ قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أنَّ الدَّاعيةَ ينبغي له أنْ يُذَكِّرَ المدعوَّ بنِعَمِ اللهِ عليه، والحكمةُ مِن تذكيرِه بالنِّعَمِ: أنَّ النِّعَمَ تستوجِبُ الشكرَ، وطاعةَ الرحمنِ، وتَضمَنُ ذلك عقلًا؛ لأنَّ مَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تيسير اللطيف المنان)) للسعدي (١/ ١٩٣).

أَحسَنَ إليك، فإنَّه مِن المستحسَنِ عقلًا أنْ تُطيعَه بما يأمُرُك به[١].

٥- ينبغي للدَّاعيةِ -مع قَرْنِ دعوتِه بذِكرِ النِّعَمِ- أنْ يَقْرِنَها بالتَّخويفِ، ويُؤخَذُ مِن قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، وينبغي إذا كان المقامُ أنسَبَ أنْ يكونَ غيرَ مُصَرِّحٍ بذلك؛ لقَولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ كالمتوقِّعِ له غيرِ الجازمِ به، فلم يَقُلْ: إنَّكم ستُصابونَ بيومٍ عظيمٍ؛ لأنَّ المقامَ يقتضي ذلك، ولكلِّ مقامٍ مقالٌ[٢]، وأيضًا أبرَزَ تحذيرَهم من عذابِ اللهِ في صُورةِ الخوفِ لا على سَبيلِ الجزمِ؛ إذْ كان راجيًا لإيمانِهم[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ أنَّ التكذيبَ سببٌ للإهلاكِ، فينبغي للمؤمنِ الذي يَعتبرُ بقَصصِ الأنبياءِ السابقينَ أنْ يَحذرَ مِن هذا التكذيبِ؛ لأنَّه إنْ فعَلَ أُهلِكَ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ جوازُ وصفِ الإنسانِ بالثَّناءِ على نَفْسِه للمَصلحةِ، وهذا أيضًا وَرَدَ عن النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ أنَّه قال: ((أنا سيِّدُ ولدِ آدَمَ يومَ القيامةِ))[٥]، وورَدَ أيضًا عن الصحابةِ مِثلُ هذا المَدحِ في قولِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه: (لو أعلَمُ أحدًا أعلَمَ مِنِّي بكتابِ اللهِ -تَبلُغُه الإبلُ- لرَكِبتُ إليه)[٦]، لكنْ بشرطِ أنْ يكونَ غرضُ الإنسانِ مِن ذلك المصلحةَ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٣٨).

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ دليلٌ على إخلاصِ الرُّسُلِ للهِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الاحتِسابُ؛ احتسابُ الإنسانِ عَمَلَه على اللهِ، فليس هذا للإدلالِ على اللهِ بهذا العَمَلِ، والمِنَّةِ عليه به، ولكنَّ الاحتسابَ به عليه لرَجاءِ ثوابِه[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ كلَّ مَن عَمِيَ عن الحُجَّةِ، وترَكَ تَبَصُّرَ البَيانِ، وعَوَّلَ على عَقْلِ غيرِه: أهلَكَه؛ إذْ لا يُعلَمُ أحَدٌ مِمَّن هَلَكَ مِن القرونِ الخاليةِ إلَّا صادًّا عن بيانِ الرُّسُلِ، مُعَوِّلًا على الآباءِ الماضِينَ، واختيارِ عقولِهم على عقولِ أنفُسِهم، ألَا ترى أنَّ عادًا أَهملوا مَوعِظةَ هودٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَركوا الإصغاءَ إليه مُطْمَئِنِّينَ إلى ما كان آباؤُهم يقولونَ؟! ويأمُلون أنَّهم إذا ماتوا لم يُبعَثوا، ولم يُحاسَبوا[٣]!

٥- قال الله تعالى: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾، في قوله: ﴿تَعۡبَثُونَ﴾ أنَّ هؤلاء الذين يحاولون أنْ يَصِلوا إلى الكواكبِ مثلُ قومِ عادٍ تمامًا، فالطريقةُ هي الطريقةُ -وإنْ كان الأسلوبُ مختلفًا-، يعني: يفعلون هذه الأشياءَ عبثًا؛ إذْ لا يستفيدونَ منها فيما خُلِقَ لهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩]، فالذي في الأرضِ هو الذي خُلِق لنا، فانتفِعوا به مباشرةً، أمَّا الذي في السماءِ فمُسَخَّرٌ لمصالِحِنا؛ ولكنَّنا لا ننتفعُ به مباشرةً! فالذي يُنتفعُ به مباشرةً هو ما في الأرضِ، ولهذا يقولُ بعضُ الناسِ: «لماذا تحاولونَ أنْ تَصِلوا للسَّماءِ، وأنتم عاجزونَ عن حَلِّ مشاكِلِكم في الأرضِ؟!»، وهذا صحيحٌ، لكنَّهم يعملونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٣٣).

هذا لمجرَّدِ العَبَثِ والفخرِ؛ وأنَّهم أقوياءُ، مع أنَّ قومَ هودٍ -وهؤلاءِ القومُ أيضًا المعاصرون- يَخسَرون لأجْلِ هذه الأمورِ خسائرَ باهظةً! فصارت عبثًا؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ يُتعِبُ الإنسانُ فيه جسْمَه ومالَه وفِكْرَه بدونِ فائدةٍ فهو عبثٌ، ولا فائدةَ منه[١].

٦- البِناياتُ للقُصورِ والحُصونِ والدُّورِ وغَيرِها مِن الأبنيةِ: إمَّا أن تُتَّخَذَ مساكِنَ للحاجةِ إليها، والحاجاتُ تتنوَّعُ وتختَلِفُ، فهذا النوعُ مِن الأمورِ المباحةِ، وقد يُتوسَّلُ به بالنيَّةِ الصالحةِ إلى الخيرِ، وإمَّا أن تكونَ البناياتُ حُصونًا واقيةً لشُرورِ الأعداءِ، وثُغورًا تُحفَظُ بها البلادُ ونحوُها مما ينفَعُ المسلمينَ، ويقيهم الشَّرَّ؛ فهذا النوعُ يدخُلُ في الجهادِ في سَبيلِ الله، وهو داخِلٌ في الأمرِ باتِّخاذِ الحَذَرِ مِن الأعداءِ، وإمَّا أن تكونَ للفَخرِ والخُيَلاءِ والبَطشِ بعبادِ اللهِ، وتبذيرِ الأموالِ التي يتعيَّنُ صَرفُها في طُرُقٍ نافعةٍ؛ فهذا النوعُ هو المذمومُ الذي أنكرَه اللهُ على عادٍ وغَيرِهم؛ قال الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[٢].

٧- هذه النِّعَمُ التي يُمِدُّ اللهُ بها العبدَ تستوجِبُ تقوى اللهِ؛ لقولِه: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾، فقولُه: ﴿الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ كالتَّعليلِ للأمرِ بالتقوى، أتَى به إقامةً للحُجَّةِ عليهم؛ لأنَّ مَن أمَدَّك بهذه النِّعمِ كان أولَى بأنْ تتَّقيَه[٣].

٨- قَولُه تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يدُلُّ على أنَّ هذا الرَّبعَ الخاليَ الآنَ من الماءِ أنَّه كان فيه بساتينُ، وكان فيه أنهارٌ، ولعَلَّ هذا يُوحي به أيضًا قَولُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((لا تقومُ السَّاعةُ حتى تعودَ أرضُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تيسير اللطيف المنان)) للسعدي (١/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٧، ٢٢٩).

العَرَبِ مُروجًا وأنهارًا))[١]، فإنَّ قَولَه: ((حتى تعودَ)) العَودُ بعْدَ البَدءِ، فهذه الجنَّاتُ ليست مجرَّدَ بساتينَ فقط؛ لأنَّه لا يُسمَّى البُستانُ جنَّةً إلَّا إذا كان كثيرَ الأشجارِ والزُّروعِ، حيث يَجُنُّ مَن فيه ويَستُرُه[٢].

٩- الإنسانُ قد لا يَكتَرِثُ بالواعِظِ؛ لكَوْنِه مِن غيرِ أهلِه، وقد لا يَكتَرِثُ به عِنادًا، وهؤلاء لَمَّا قالوا: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ دلَّ ذلك على أنَّهم مُعانِدونَ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافَ تَعدادٍ لأخبارِ التَّسليةِ للرَّسولِ، وتَكريرِ الموعظةِ للمُكذِّبينَ بعْدَ جُملةِ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٤] [الشعراء: ١٠٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيه حَذْفُ ياءِ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ لمراعاةِ الفاصلةِ[٥].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَتَبْنُونَ﴾ استفهامُ إنكارٍ وتَوْبيخٍ[٦]، ولَمَّا صار أثَرُ البِناءِ شاغِلًا عن المقصدِ النافعِ للحياةِ في الآخرةِ، نُزِّلَ فِعلُهمُ المُفْضي إلى العَبَثِ منزلةَ الفِعلِ الذي أُريدَ منه العبثُ عندَ الشُّروعِ فيه؛ فأنكَرَ عليهمُ البِناءَ بإدخالِ همزةِ الإنكارِ على فعْلِ (تَبْنُونَ)، وقُيِّدَ بجملةِ ﴿تَعْبَثُونَ﴾ التي هي

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٧٠١) (١٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٦٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٦٥، ١٦٦).

في موضِعِ الحالِ مِن فاعِلِ (تَبْنُونَ)، مع أنَّهم لَمَّا بَنَوْا ذلك ما أرادوا بفِعلِهم عبثًا؛ فمَناطُ الإنكارِ مِنَ الاستفهامِ الإنكاريِّ هو البناءُ المُقَيَّدُ بالعبَثِ؛ لأنَّ الحُكمَ إذا دخَلَ على مُقَيَّدٍ بقَيْدٍ انصرَفَ إلى ذلك القَيْدِ، وكذلك المعطوفُ على الفعلِ المستفهَمِ عنه -وهو جملةُ ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾- هو داخِلٌ في حَيِّزِ الإنكارِ، ومُقَيَّدٌ بجملةِ الحالِ المُقَيَّدِ بها المعطوفُ عليه[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَصَانِعَ﴾ مصدرٌ ميميٌّ وُصِفَ به؛ للمبالَغةِ[٢].

- قولُه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ على القولِ بأنَّ (لعلَّ) على بابِها مِنَ الرَّجاءِ، فكأنَّه تعليلٌ للبِناءِ والاتِّخاذِ. وقيل: معناهُ الاستفهامُ على سبيلِ التوبيخِ والهُزْءِ بهم، أي: هل أنتم تَخْلُدون[٣]؟!

٥- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ وقَعَ فِعلُ ﴿بَطَشْتُمْ﴾ الثاني جوابًا لـ (إذا)، وهو مُرادفٌ لفِعلِ شرْطِها؛ لحُصولِ الاختلافِ بيْنَ فعلِ الشرطِ وفعلِ الجوابِ بالعُمومِ والخُصوصِ، وإنَّما يُقصَدُ مِثلُ هذا النَّظْمِ لإفادةِ الاهتمامِ بالفِعلِ؛ إذْ يحصُلُ مِن تكريرِه تأكيدُ مدلولِه[٤]. وقيل: أتَى بالجَزاءِ نفْسَ الشرْطِ؛ للمبالَغةِ[٥].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٦، ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٩٦).

- لَمَّا أفاد الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾ [الشعراء: ١٢٨] معنى الإنكارِ على ما قارَنَ بِناءَهُمُ الآياتِ واتِّخاذَهُمُ المصانعَ وعلى شِدَّتِهم على الناسِ عِندَ الغضبِ؛ فرَّعَ عليه أمْرَهم باتِّقاءِ اللهِ، وحصَلَ معَ ذلك التفريعِ تكريرُ جملةِ الأمرِ بالتَّقْوى والطاعَةِ[١].

- وحَذْفُ ياءِ المتكلِّم مِن ﴿أَطِيعُونِ﴾؛ لرِعايةِ الفاصلةِ[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾

- أُعيدَ فِعلُ ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ وهو مُستغنًى عنه لو اقتُصِرَ على المَوصولِ وصفًا لاسمِ الجلالةِ؛ لأنَّ ظاهِرَ النَّظْمِ أنْ يُقالَ: (فاتَّقوا اللهَ الذي أمَدَّكم بما تعلمونَ)؛ فعُدِلَ عن مُقتضى الظاهِرِ، وبُنِيَ الكلامُ على عطْفِ الأمرِ بالتَّقوى على الأمرِ الذي قبْلَه؛ تأكيدًا له، واهتمامًا بالأمرِ بالتقْوى، مع أنَّ ما عرَضَ مِنَ الفصلِ بيْنَ الصِّفةِ والموصوفِ بجملةِ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ قضَى بأنْ يُعادَ اتِّصالُ النَّظمِ بإعادةِ فِعلِ (اتَّقُوا)[٣].

- وقيل: إنَّما أُتِيَ بفعلِ (اتَّقُوا) مَعطوفًا، ولم يُؤْتَ به مَفصولًا -أي: غيرَ مَعطوفٍ-؛ لِمَا في الجُملةِ الثانيةِ مِنَ الزِّيادةِ على ما في الجُملةِ الأولى مِنَ التذكيرِ بإنعامِ اللهِ عليهم؛ فعُلِّقَ بفعلِ التقْوى في الجُملةِ الأُولى اسمُ الذاتِ المقدَّسةِ؛ للإشارةِ إلى استحقاقِه التقْوى لِذاتِه، ثمَّ عُلِّقَ بفعلِ التقوى في الجملةِ الثانيةِ اسمُ الموصولِ بصِلَتِه الدالَّةِ على إنعامِه؛ للإشارةِ إلى استحقاقِه التقوى؛ لاستحقاقِه الشكرَ على ما أنعَمَ به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ولَمَّا نبَّهَهم ووَبَّخَهم على أفعالِهِمُ القبيحةِ، أمَرَهم ثانيًا بتقوى اللهِ وطاعةِ نبيِّهِ، ثمَّ أمَرَهم ثالثًا بالتقوى؛ تنبيهًا لهم على إحسانِه تعالى إليهم، وسُبوغِ نعمتِه عليهم، وأبرَزَ صِلةِ (الذي) مُتعلِّقةً بعِلْمِهم؛ تنبيهًا لهم وتحريضًا على الطاعةِ والتقْوى؛ إذْ شُكْرُ المحسِنِ واجبٌ، وطاعتُه مُتعيِّنةٌ، ومُشيرًا إليهم بأنَّ مَن أمَدَّ بالإحسانِ هو قادرٌ على سَلْبِه، وعلى تعذيبِ مَن لم يَتَّقِه؛ إذْ هذا الإمدادُ ليس مِن جِهتِكم، وإنَّما هو مِن تفَضُّلِه تعالى عليكم؛ بحيثُ أتبعَكم إحسانَه شيئًا بعْدَ شيءٍ[(١)].

٨- قولُه تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾

- أجْمَلَها أوَّلًا، ثمَّ فصَّلها بقولِه: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ...﴾ بإعادةِ الفعلِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ؛ فإنَّ التَّفصيلَ بعْدَ الإجمالِ والتَّفسيرَ إثْرَ الإبهامِ أدْخَلُ في ذلك[(٢)]. وهذا التفصيلُ بعْدَ الإجمالِ واردٌ على المبالَغةِ في التنبيهِ على نِعَمِ اللهِ تعالى[(٣)].

- وقد جاء في ذِكْرِ النِّعمةِ بالإجمالِ الذي يُهيِّئُ السامعينَ لتلقِّي ما يَرِدُ بعْدَه؛ فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾، ثمَّ فصَّلَ بقولِه: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، وأُعيدَ فِعلُ ﴿أَمَدَّكُم﴾ في جُملةِ التفصيلِ؛ لزيادةِ الاهتمامِ بذلك الإمدادِ؛ فهو للتوكيدِ اللَّفظيِّ، وهذه الجملةُ بمنزلةِ بَدَلِ البعضِ مِن جُملةِ ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾؛ فإنَّ فعلَ ﴿أَمَدَّكُم﴾ الثاني وإنْ كان مُساويًا لـ ﴿أَمَدَّكُم﴾ الأوَّلِ؛ فإنَّما صار بدلًا مِنه باعتبارِ ما تعلَّقَ به مِن قولِه: ﴿بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ...﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٩٩).

إلخ الذي هو بعضٌ ممَّا تعلمونَ، وكِلا الاعتبارَيْنِ -التوكيدُ والبدلُ- يَقتضي الفَصْلَ؛ فلأجْلِه لم تُعطَفِ الجملةُ[١].

- وبَدَأَ تَعدادَ النِّعَمِ بذِكْرِ الأَنعام؛ لأنَّها أَجَلُّ نعمةٍ على أهلِ ذلك البلدِ؛ لأنَّ منها أقواتَهم ولِباسَهم، وعليها أسفارَهم، وكانوا أهلَ نُجْعةٍ[٢]؛ فهي سببُ بقائِهم، وعطَفَ عليها البنينَ؛ لأنَّهم نعمةٌ عظيمةٌ؛ بأنَّها أُنْسُهم وعَوْنُهم على أسبابِ الحياةِ، وبقاءِ ذِكْرِهم بعْدَهم، وكثرةِ أُمَّتِهم[٣]. وقيل: قَرَنَ البَنينَ بالأنعامِ؛ لأنَّهُمُ الذينَ يُعينونَهم على حِفْظِها، والقِيامِ عليها[٤].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾

- بالَغَ في تَنبيهِهم على نِعَمِ اللهِ؛ حَيثُ أَجْمَلَها، ثمَّ فصَّلَها مُستشهِدًا بعِلْمِهم؛ وذلك أنَّه أيقظَهم عن سِنَةِ غفلتِهم عنها حينَ قال: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾، ثمَّ عدَّدَها عليهم، وعرَّفَهُمُ المُنعِمَ بتَعديدِ ما يَعلَمونَ مِن نِعمتِه، وأنَّه كما قدَّرَ أنْ يتفضَّلَ عليكم بهذه النِّعمةِ، فهو قادرٌ على الثَّوابِ والعِقابِ؛ فاتَّقُوهُ[٥].

- قولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾ كرَّرَه مُرتَّبًا على إمدادِ اللهِ تعالى إيَّاهم بما يَعرِفونَه مِن أنواعِ النِّعَمِ؛ تَعليلًا وتنبيهًا على الوعْدِ عليه بدَوامِ الإمدادِ، والوَعيدِ على تركِه بالانقطاعِ، ثمَّ فصَّلَ بعضَ تِلك النِّعَمِ، كما فصَّلَ بعضَ مَساويهِمُ المدلولِ عليها إجمالًا بالإنكارِ في ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ مُبالَغةً في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٠).

(٢) النُّجْعةُ بالضَّمِّ: طلبُ الكلإِ في مَوْضِعِه، ومساقطِ الغَيثِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٢٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٢/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٦).

الإيقاظِ، والحثِّ على التقوى؛ فقال: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، ثمَّ أَوْعَدَهم فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فإنَّه كما قَدَرَ على الإنعامِ قَدَرَ على الانتقامِ[١].

- وعطَفَ الجنَّاتِ والعُيونَ على الأنعامِ والبَنينَ؛ لأنَّها بها رفاهيةُ حالِهم، واتِّساعُ رِزْقِهم، وعَيْشُ أنعامِهم[٢]، والإمدادُ بها مِن إتمامِ النِّعمةِ[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ تعليلٌ لإنكارِ عدَمِ تَقْواهم[٤].

١١- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ آثَرَ ذلك التعبيرَ ولم يقُلْ: (أَوَعَظْتَ أمْ لم تَعِظْ)، مع أنَّه أَخْصَرُ والمعنى واحدٌ في الظاهِرِ؛ لأنَّ المعنى ليس بواحدٍ، وبيْنَهما فَرْقٌ؛ لأنَّ المرادَ: سَواءٌ علينا أَفَعَلْتَ هذا الفِعلَ الذي هو الوعْظُ، أم لم تكُنْ أصلًا مِن أهلِه ومُباشِريه؛ فهو أبلَغُ في قِلَّةِ اعتِدادِهم بوعظِه مِن قولِكَ: أمْ لم تَعِظْ[٥]؛ فأَتَوْا في طرَفِ الإثباتِ بالفعلِ الصَّريحِ الذي دَلَّ على حُصولِه منه مرَّةً، وفي النَّفيِ باسمِ الفاعلِ على الاستغراقِ؛ نَفَوْا أنْ يَكونَ مِن زُمْرةِ مَن حصَلَ منهم هذا الفِعلُ، واستَهْزَؤوا فيه، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧١).

سَواءٌ علينا أَجَدَّدْتَ الوعْظَ، أمِ اسْتمرَرْتَ على ما كُنتَ عليه مِنَ الإمساكِ عنه، والخُمولِ فيه[١].

- وتقديرُ الكلام: (أَوَعَظْتَ أمْ لم تَعِظْ، أو أَكُنْتَ واعظًا تَستحِقُّ أنْ يَنصرِفَ الناسُ إليك، ويأخُذوا مِنكَ، أم لم تكُنْ واعِظًا)، فحذَفَ مِن كلِّ واحدةٍ ما يُقابِلُها؛ اختِصارًا للوُضوحِ، وهذه غايةُ ما يكونُ مِن بلاغةِ القرآنِ، وبالنِّسبةِ لهم غايةُ ما يكونُ مِنَ الاستكبارِ، وعدَمِ الاكتراثِ بوعظِهم[٢].

- وقيل: عَادَلَ ﴿أَوَعَظْتَ﴾ بقولِه: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾، وإنْ كان قد يُعادِلُه: أمْ لم تَعِظْ، كما قال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: ٢١]؛ لأجْلِ الفاصلةِ، كما عادَلَتْ في قولِه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]، ولم يأتِ التَّركيبُ: أمْ صَمَتُّمْ، وكثيرًا ما يَحْسُنُ مع الفواصلِ ما لا يَحْسُنُ دونَه[٣].

- وجعَلوا قولَه وعْظًا؛ إذْ لم يَعتقِدوا صِحَّةَ ما جاء به، وأنَّه كاذبٌ فيما ادَّعاهُ، وقولُهم ذلك على سبيلِ الاستِخفافِ، وعدَمِ المبالاةِ بما خوَّفَهم به[٤].

١٢- قولُه تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تعليلٌ لمضمونِ جُملةِ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧١).

١٣- قولُه تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

- الفاءُ في ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فَصيحةٌ، أي: فتبيَّنَ أنَّهم بقولِهم: سَواءٌ علينا ذلكَ أَوَعَظْتَ... إلخ، قد كذَّبوه؛ فأهلَكْناهُم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٣).

الآيات (١٤١-١٥٩)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا
هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟
أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ
﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا
شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾
فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طَلْعُهَا﴾: أي: ما يَطلُعُ منها، وهو الثَّمَرُ، سُمِّي طَلْعًا؛ لطُلوعِه كُلَّ سَنةٍ، وأصلُ (طلع): يدُلُّ على ظُهورٍ وبُروزٍ[1].

﴿هَضِيمٌ﴾: أي: يانعٌ لَيِّنٌ نَضيجٌ، والهَضيمُ: هو المتكَسِّرُ مِن لِينِه ورطوبتِه، مِن قَولِهم: هضم فلانٌ فُلانًا حَقَّه: إذا انتقَصَه، فكذلك الهَضمُ في الطَّلعِ، إنَّما هو التنَقُّصُ منه مِن رطوبتِه ولِينِه؛ إمَّا بمَسِّ الأيدي، وإمَّا بركوبِ بَعضِه بعضًا، وأصلُ (هضم): يدُلُّ على كَسْرٍ، وضَغْطٍ، وتداخُلٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٩)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٩، ٦٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٢).

﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: أي: تَنجُرونَ وتَصنَعونَ، والنَّحتُ: بَريُ الحجَرِ والخَشَبِ وتَسويتُهما على تقديرٍ مَخصوصٍ[١].

﴿فَرِهِينَ﴾: أي: حاذِقينَ بنَحتِها، وأصلُ (فره): يدُلُّ على أشَرٍ وحِذْقٍ[٢].

﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾: أي: الذين بُولغَ في سِحْرِهم مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ حتى غَلَب على عُقولِهم. وقيل: أي: مِن ذَوي السَّحْرِ، أي: الرِّئةِ، فهو كنايةٌ عن كونِه مِنَ الأناسيِّ. وأصلُ (سحر) هنا: يدُلُّ على خَدْعٍ وشِبْهِه، وعلى عُضوٍ مِنَ الأعضاءِ[٣].

﴿شِرْبٌ﴾: أي: حَظٌّ ونَصيبٌ مِن الماءِ، والشُّربُ: تناوُلُ كلِّ مائعٍ، ماءً كان أو غيرَه[٤].

﴿فَعَقَرُوهَا﴾: أي: فنَحَروها وقَتَلوها، وأصلُ العَقْرِ: ضَرْبُ قوائمِ البعيرِ بالسيفِ، وهو قائِمٌ، ثمَّ جُعِل النَّحرُ عقرًا؛ لأنَّ العَقْرَ سببٌ لنحرِه، وناحِرُ البعيرِ يعقِرُه ثمَّ ينحرُه، واستُعمِل العقرُ أيضًا في القتلِ والهلاكِ، وأصلُ (عقر): يدُلُّ على جَرحٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣) و(١٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٩، ٣٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

(٣) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٨).

(٥) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١/ ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثر =

المعنى الإجماليُّ:

يحكي اللهُ تعالى جانبًا مِن قصةِ صالحٍ عليه السلامُ معَ قومِه، فيقولُ: كذَّبتْ قَبيلةُ ثمودَ بجَميعِ رُسُلِ الله، إذْ قال لهم أخوهم في النَّسَبِ صالحٌ: ألَا تتَّقون اللهَ، وتخافونَ عِقابَه، إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه، أبَلِّغُكم إيَّاه بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ، فاتَّقوا عِقابَ اللهِ وسَخَطَه، وأطيعوني، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم جَزاءً ولا ثوابًا؛ ما ثَوابي إلَّا على اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

أتَظُنُّون أن تُترَكوا متنعِّمينَ في هذه الخَيراتِ آمِنينَ؛ في بَساتينَ وعُيونِ ماءٍ، وزُروعٍ ونَخلٍ ثَمَرُها لَيِّنٌ ناضِجٌ، وتَنحِتون من الجِبالِ بُيوتًا لكم حاذِقينَ بنَحتِها؟! فاتَّقوا عِقابَ اللهِ وسخَطَه وأطيعوني، ولا تُطيعوا أمرَ المُسرِفين المُتجاوِزين الحَدَّ في الكُفرِ والعِصيانِ، الذين يُفسِدون في الأرضِ ولا يُصلِحون أنفُسَهم ولا غَيرَهم.

قال قومُ صالحٍ ردًّا عليه: إنَّما أنت مِن المسحورينَ، تَهذي بكَلامٍ لا معنى له، ما أنت إلَّا بشَرٌ مِثلُنا، فأْتِ بحجَّةٍ تدُلُّ على صِحَّةِ قَولِك إن كنتَ مِن الصَّادقين حَقًّا.

فقال صالِحٌ لهم: هذه ناقةٌ جعَلَها الله لكم آيةً تدُلُّ على صِدقي، لها حَظٌّ من الماءِ في يومٍ لا تُشارِكونها فيه، ولكم حظٌّ مِن الماء في يومٍ لا تشارِكُكم هي فيه، ولا تمَسُّوا هذه الناقةَ بأذًى فيُصيبَكم عذابُ يومٍ عظيمِ الشَّدائدِ.

فما كان مِن قَومِ صالحٍ إلَّا أن ذَبَحوا النَّاقةَ فأصبَحوا نادِمينَ على فِعلِهم، فأهلَكَهم اللهُ بالعذابِ الذي حذَّرَهم إيَّاه نبيُّهم.

= (٣/ ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

إنَّ في إهلاكِ قَومِ صالحٍ لَعِظةً وعِبرةً ودَلالةً على صِدقِ صالحٍ، وما كان أكثَرُ قَومِ صالحٍ مُؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه، وإنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ لأعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعذابِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

أي: كذَّبتْ قبيلةُ ثَمودَ بجَميعِ رُسُلِ اللهِ[١].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾.

أي: حينَ قال لهم صالِحٌ -وهو أخوهم في النَّسَبِ، فهم يَعرِفون صِدقَه وأمانَتَه وشَفَقتَه عليهم-: ألَا تتَّقون اللهَ، وتَحذَرونَ عِقابَه[٢]؟

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

أي: إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه الذي بعَثَني به إليكم، فأُبلِّغُكم ما أُرسِلتُ به بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ[٣].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾﴾.

أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٥ ﴾.

﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ ﴾.

أي: وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ ثوابٍ وجَزاءٍ[١].

﴿ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

أي: ما أرجو ثوابي إلَّا مِن اللهِ الخالِقِ الرازِقِ، المالِكِ المدبِّرِ لجميعِ العالَمينَ دونَ خَلقِه[٢].

﴿ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ثبتَتِ الأمانةُ، وانتفَى مُوجبُ الخيانةِ؛ شرَعَ يُنكِرُ عليهم أكْلَ خَيرِه، وعبادةَ غيرِه، فقال مخوِّفًا لهم مِن سَطَواتِه، ومرغِّبًا في المزيدِ مِن خَيراتِه، مُنكِرًا عليهم إخلادَهم إلى شَهوةِ البَطنِ، واستنادَهم إلى الرَّفاهيةِ، والرِّضا بالفاني[٣]:

﴿ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ ﴾.

أي: أتظُنُّون أنَّ اللهَ يترُكُكم تتنعَّمون في هذه الخَيراتِ آمنينَ لا تخافونَ[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٣، ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٤١).

قيل: المرادُ بقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾: أي: مِن الموتِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٣). =

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان للتَّفسيرِ بعْدَ الإجمالِ شأنٌ؛ بَيَّنَ ما أجمَلَ بقَولِه، مُذَكِّرًا لهم بنعمةِ اللهِ ليَشكُروها[١]:

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧﴾.

أي: في بَساتينَ وعُيونِ ماءٍ[٢].

﴿وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨﴾.

أي: وفي زُروعٍ ونَخلٍ طلْعُها[٣] .....

= وقيل: ﴿ءَامِنِينَ﴾: أي: مِن العذابِ. وممَّن قال بذلك: السمعانيُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٦١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣٠).

وقيل: ﴿ءَامِنِينَ﴾: أي: مِن الموتِ والعذابِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبي، والنسفي، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٩).

وقال ابنُ جريرٍ ومكِّيٌّ: ﴿ءَامِنِينَ﴾: لا تخافونَ شيئًا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٣٧).

وقال السعدي: (أتحسبونَ أنَّكم تُترَكون في هذه الخيراتِ والنِّعم سُدًى، تتنعَّمون وتتمتَّعون كما تتمتَّعُ الأنعامُ، وتُترَكون سدًى لا تُؤمَرونَ ولا تُنْهَوْن، وتَستعِينونَ بهذه النِّعم على معاصي الله؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٤٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٣)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٣٣٧).

(٣) قيل: المرادُ: الثمَرُ الذي تُطلِعُه. وممَّن قال بذلك: ابنُ الجوزي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير =

لَيِّنٌ رَطْبٌ(١).

= ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٤، ٧٥).

وقيل: هو وعاءٌ يَطلُعُ مِن النخلِ فيه ثمرُ النخلةِ. وممَّن قال بذلك: القرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٥).

وقال ابن عطية: (و«الطلع»: الكُفُرَّى، وهو عنقودُ التمرِ قبلَ أن يخرجَ مِن الكُمِّ في أوَّلِ نباتِه، فكأنَّ الإشارةَ إلى أنَّ طلعَها يثمرُ ويرطبُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨، ٦٢٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٩٦)، ((التفسير المظهري)) (٧/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

قال ابن الجوزي: (في الهضيم سَبعةُ أقوال؛ أحدُها: أنَّه الذي قد أينَعَ وبلغ، رواه العَوْفي عن ابن عبَّاس. والثاني: أنَّه الذي يتهشَّم تهشُّمًا [أي: يتفَتَّتْ]، قاله مجاهد. والثالث: أنَّه الذي ليس له نوًى، قاله الحسن. والرابع: أنه المذنِّبُ مِن الرُّطَب [أي: الذي أرطبَ مِن قِبَلِ ذَنَبه]، قاله سعيدُ ابنُ جُبَيْر. والخامس: اللَّيِّن، قاله قَتادةُ، والفَرَّاءُ. والسادس: أنَّه الحَمْلُ الكثيرُ الذي يركَبُ بَعضُه بعضًا، قاله الضَّحَّاكُ.

والسابع: أنَّه الطَّلْعُ قبل أن ينشقَّ عنه القِشرُ وينفَتِح، يريدُ أنَّه منضِمٌّ مكتَنِزٌ، ومنه قيل: رجُلٌ أهضَمُ الكَشْحَينِ: إذا كان منضمَّهما، قاله ابنُ قُتَيْبَةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٥).

ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٩٦).

وممَّن اختار أنَّ الهضيمَ بمعنى اللَّيِّنِ الرَّطبِ النَّضيجِ: الواحديُّ، وابنُ عطية، وابنُ جُزَي، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عِكْرِمةُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٥).

وقال ابنُ جرير: (الهَضيمُ: هو المتكَسِّرُ مِن لِينِه ورطوبتِه، وذلك مِن قَولِهم: هضَم فلانٌ فُلانًا حَقَّه: إذا انتقَصَه وتحيَّفَه، فكذلك الهَضمُ في الطَّلعِ، إنَّما هو التنَقُّصُ منه مِن رطوبتِه ولِينِه؛ إمَّا بمَسِّ الأيدي، وإمَّا بركوبِ بَعضِه بعضًا، وأصلُه مفعولٌ صُرِفَ إلى فعيلٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٠).

وقال البقاعي: (﴿هَضِيمٌ﴾ أي: جوادٌ كريمٌ، مِن قَولِهم: يدٌ هَضومٌ، إذا كانت تجودُ بما لديها، وتفسيرُه بذلك يجمَعُ أقوالَ العلماءِ، وإليه يرجِعُ ما قال أبو عبدِ الله القزازُ: معناه أنه قد هَضَم =

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللَّطيفَ مِن أحوالِهم؛ أتبَعَه الكثيفَ مِن أفعالِهم[١].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿فَٰرِهِينَ﴾ أي: حاذِقينَ بنَحتِها[٢].

٢- قِراءةُ ﴿فَرِهِينَ﴾ أي: أَشِرين بَطِرينَ. وقيل: القراءتانِ بمعنًى واحدٍ[٣].

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

أي: وتَنحِتون مِنَ الجِبالِ بُيوتًا لكم حاذِقينَ بنَحتِها[٤].

= -أي: ضغَطَ- بعضُه بعضًا لتراكُمِه؛ فإنَّه لا يكونُ كذلك إلا وهو كثيرٌ متُقارِبُ النَّضدِ، لا فُرَجَ بيْنَه، ولطيفٌ لَيِّنٌ هشٌّ طَيِّبُ الرائحةِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٧٤، ٧٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٥).

(٢) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكسائيُّ، وخلفٌ، وابنُ عامرٍ. يُنظر: ((المبسوط)) لابن مهران (ص: ٣٢٨)، ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٢٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٩).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((المبسوط)) لابن مهران (ص: ٣٢٨)، ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٨٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٢٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢١، ٦٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

قال ابن كثير: (قَولُه: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ قال ابنُ عباسٍ، وغيرُ واحدٍ: يعني: حاذقينَ. وفي روايةٍ عنه: شَرِهينَ أَشِرينَ. وهو اختيارُ مجاهدٍ وجماعةٍ. ولا منافاةَ بيْنَهما؛ فإنَّهم كانوا يتَّخِذون تلك البيوتَ المنحوتةَ في الجبالِ أَشَرًا وبطَرًا وعَبثًا، مِن غيرِ حاجةٍ إلى =

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ صالح عليه السلامُ لِقَومِه: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

وقال سبحانه: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٩].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾.

أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه؛ فقد بانَ لكم صِدقي[(١)].

﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

أي: ولا تَنقادوا لأمرِ المُسرِفين، الذين تمادَوا وتجاوَزوا الحَدَّ في الكُفرِ باللهِ ومَعصيتِه[(٢)].

= سكناها، وكانوا حاذِقينَ مُتقِنينَ لِنَحتِها ونَقشِها، كما هو المشاهَدُ مِن حالِهم لِمَن رأى منازِلَهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٦).

وقال البقاعي: (﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ أي: مُظهرين النشاطَ والقوَّةَ؛ تعظُّمًا بذلك وبطَرًا، لا لحاجتِكم إلى شيءٍ من ذلك). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٧٥).

وقال ابنُ عثيمينَ: (وكلمةُ: (فَرِهينَ) يعني: بَطِرين، فهي صفةٌ مشبَّهة، و ﴿فَٰرِهِينَ﴾ بالمدِّ اسمُ فاعلٍ، والمراد به الحِذْقُ. واختلافُ القراءتينِ يكونُ فيه فائدةٌ، وهي اجتماعُ المعنيَينِ مِن هذه الكلمةِ؛ فيكونونَ متَّصِفينَ بالأمْرينِ: بالبطَرِ بناءً على قراءةِ القَصْرِ، وبالحِذْقِ بناءً على قراءةِ المدِّ، وهذا مِن فوائدِ تنوُّعِ القراءةِ؛ لأنَّ تنوعَ القراءةِ له فوائدُ كثيرةٌ، منها أنْ تكونَ الكَلِمةُ جامعةً لِمَعنيينِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ٢٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٦). =

﴿ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢ ﴾.

أي: الذين يُفسِدون في الأرضِ بالكُفرِ والظُّلم والمعاصي والدَّعوةِ إلى ذلك، ولا يُصلِحونَ أنفُسَهم بالعَمَلِ الصَّالحِ، ولا يأمُرونَ غَيرَهم بالصَّلاحِ[1].

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا دعا إلى اللهِ تعالى بما لا خلَلَ فيه، فعَلِموا أنَّهم عاجِزونَ عن الطَّعنِ في شَيءٍ منه؛ عَدَلوا إلى التَّخييلِ على عُقولِ الضُّعَفاءِ[2].

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ ﴾.

أي: قال قومُ صالحٍ: إنَّما أنت مِن المسحورينَ الذين بُولغَ في سِحرِهم مرَّةً بعْدَ مرَّة، فلا عقْلَ لك، وإنَّما تَهذِي بما لا مَعنى له[3].

= قيل: عنى بالمسرفينَ: كُبَراءَهم وأئمَّتَهم في الكُفرِ والضَّلالِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عطية، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٦).

وقيل: المرادُ بالمُسرفين: التِّسعةُ الرَّهطِ الذين وصَفَهم اللهُ تعالى بقَولِه: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾ [النمل: ٤٨]. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، وذكره السعديُّ احتمالًا. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٦، ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤ ﴾.

﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا ﴾.

أي: ما أنت إلَّا آدميٌّ مِثلُنا، فكيف خَصَّك اللهُ بالرِّسالةِ مِن بيْنِنا حتى نتَّبِعَك[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ * فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ * أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ [القمر: ٢٣ - ٢٥].

﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

أي: فأْتِ بحُجَّةٍ تدُلُّ بوُضوحٍ على صحَّةِ ما تقولُ إن كنتَ مِن الصَّادقينَ في أنَّك رَسولٌ مِن اللهِ إلينا حَقًّا[2].

﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥ ﴾.

أي: قال صالحٌ لِقَومِه: هذه ناقةٌ جعَلَها الله لكم آيةً تدُلُّ على صِدقي، لها حَظٌّ ونَصيبٌ مِن الماءِ في يومٍ لا تُشارِكونَها فيه، ولكم حظٌّ ونَصيبٌ مِن الماء في يومٍ لا تُشارِكُكم فيه[3].

كما قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٧).

وقال سُبحانَه: ﴿ وَيَـٰقَوۡمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ ﴾ [هود: ٦٤].

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦ ﴾.

أي: ولا تمَسُّوا النَّاقةَ بأيِّ أذًى كائنًا ما كان؛ فإنَّكم إن فعلتُم يُصيبُكم مِنَ اللهِ عذابُ يومٍ عظيمِ الأهوالِ[1].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ صالحٍ لِقَومِه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [الأعراف: ٧٣].

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ١٥٧ ﴾.

أي: فقتَلَ قَومُ صالحٍ النَّاقةَ، فأصبَحوا نادِمينَ على ذلك حينَ أيقَنوا بالعَذابِ[2].

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ ﴾.

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾.

أي: فأهلَكَهم اللهُ بالعذابِ الذي توعَّدَهم به نبيُّهم[3].

كما قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئۡتِنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٠). ممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ: عذابُ الدُّنيا: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٨، ٦٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان في النَّاقةِ وفي حُلولِ مخايلِ العذابِ أعظَمُ دليلٍ على صِدْقِ الرَّسولِ الدَّاعي إلى اللهِ؛ قال[1]:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾.

أي: إنَّ في إهلاكِ قَومِ صالحٍ لَعِظةً، وعِبرةً، ودَلالةً على صِدقِ رَسولِه[2].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِ صالحٍ مُؤمِنينَ[3].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان رُبَّما تُوُهِّمَ أنَّه سُبحانَه غيرُ متَّصِفٍ بالعِزَّة؛ لعدَمِ قَسْرِهم على الإيمانِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).

أو بالرَّحمةِ؛ لإهلاكِهم- قال[١]:

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

أي: وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ، المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعَذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يُبَيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلَّا بعْدَ إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجِّي أتْباعَ رُسُلِه[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ... ﴾ في هذه الآية دَلالةٌ على عِظَمِ نِعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّها تستوجِبُ الشُّكرَ العظيمَ للهِ سُبحانَه وتعالى، وأنَّه هو مُعطي الأمانِ وآخِذُه؛ لِقَولِه: ﴿ءَامِنِينَ﴾[٣]، ففي تذكيرِهم بنعمةِ الله عليهم بما مكَّن لهم مِن خَيراتٍ حَثٌّ على العملِ لاستبقاءِ تلك النِّعَمِ؛ بأنْ يَشكروا اللهَ عليها[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴾ تَسليةٌ لكلِّ داعيةٍ إذا دعا إلى حَقٍّ، فقُوبِل بإعراضٍ ورفْضٍ لِما معه مِن الحقِّ، وأنَّ الواجبَ عليه أن يَصبِرَ، وأن يقولَ: جرَى للأنبياءِ مِثلُ هذا وأشدُّ، وهم أشرفُ عندَ اللهِ مِنِّي[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ثَمودُ قد كذَّبوا المرسَلينَ؛ لأنَّهم كذَّبوا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٥٧).

صالحًا، وكذَّبوا هودًا؛ لأنَّ صالحًا وعَظَهم بِعَادٍ في قولِه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وبتكذيبِهم كذَّبوا بنوحٍ أيضًا؛ لأنَّ هودًا ذَكَّرَ قومَه بمصيرِ قومِ نوحٍ في آيةِ ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾[1] [الأعراف: ٦٩].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ دَليلٌ على عدمِ البقاءِ في حالِ الرَّفاهيةِ عقابًا لِمَن التَزَموا شِرْكَهم، أي: إنَّه لا يمكِنُ أنْ يُترَكوا بدونِ رُسُلٍ وشُكْرٍ للنِّعمةِ[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾ فيه عِظَمُ نِعمةِ الأمنِ؛ فإنَّ نعمةَ الأمنِ قد تقابِلُ نعمةَ الشِّبَعِ والرِّيِّ[3].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ ...﴾ فيه بيانُ قوَّةِ قومِ صالحٍ؛ إذ بَلَغوا مِن القوَّةِ أنْ كانوا يَنحِتونَ بيوتَهم في الجِبالِ، وأيُّ قوةٍ بعدُ[4]؟!

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾ فيه دَليلٌ على دِقَّةِ قَومِ صالحٍ في العَمَلِ، والحِذقِ في الهندسةِ؛ لأنَّ (فارهين) بمعنى حاذِقينَ[5].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ سؤالٌ: لِمَ أخَذَهم العذابُ وقد نَدِموا؟

جوابُه مِن وجهَين:

الأولُ: أنَّه لم يكن نَدَمُهم نَدَمَ التائبينَ، لكنْ نَدَمُ الخائفينَ مِن العذابِ العاجلِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الثاني: أنَّ الندمَ، وإنْ كان نَدَمَ التَّائبينَ، ولكنْ كان ذلك في غيرِ وقتِ التوبةِ، بل عندَ معاينةِ العذابِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ...﴾ الآية[١] [النساء: ١٨].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ استئنافُ تَعدادٍ وتكريرٍ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾

- يجوزُ أنْ يكونَ هذا القولُ إنكارًا ونفْيًا لِأَنْ يُترَكُوا مُخَلَّدِينَ في نَعيمِهم لا يُزالونَ عنه، وأنْ يكونَ تَذكيرًا بالنِّعمةِ في تَخليةِ اللهِ إيَّاهم وما يتنعَّمونَ فيه مِنَ الجنَّاتِ وغيرِ ذلك، مع الأمنِ والدَّعَةِ[٣]. وقيل: تَخويفٌ لهم؛ بمعنى: أَتَطمعونَ أنْ تُقَرُّوا في النِّعَمِ على معاصيكُم؟ وقيل: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ استفهامٌ في معنى التوبيخِ[٤].

- ونُزِّلَ حالُهم مَنزلةَ مَن يظُنُّ الخُلودَ، ودوامَ النعمةِ؛ فخاطبَهم بالاستفهامِ الإنكاريِّ التوبيخيِّ ﴿أَتُتْرَكُونَ...﴾، وهو في المعنى إنكارٌ على ظنِّهم ذلك، وسلَّطَ الإنكارَ على فِعلِ التَّرْكِ؛ لأنَّ ترْكَهم على تلك النِّعَمِ لا يكونُ؛ فكان إنكارُ حُصولِه مُستلزِمًا إنكارَ اعتقادِه، وهذا الكلامُ تعليلٌ للإنكارِ الذي في قولِه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ الإنكارَ عليهم دوامَ حالِهم يَقْتضي أنَّهم مُفارِقونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨١).

هذه الحياةَ، وصائرونَ إلى اللهِ[١].

- وقولُه: ﴿هَٰهُنَآ﴾ إشارةٌ إلى بِلادِهم، أي: في جَميعِ ما تُشاهِدونَه، وهذا إيجازٌ بَديعٌ[٢].

- وقولُه: ﴿ءَامِنِينَ﴾ حالٌ مُبيِّنةٌ لبَعضِ ما أجْمَله قولُه: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾؛ وذلك تَنبيهٌ على نِعمةٍ عَظيمةٍ لا يَدُلُّ عليها اسمُ الإشارةِ؛ لأنَّها لا يُشارُ إليها، وهي نعمةُ الأمنِ التي هي مِن أعظمِ النِّعَمِ، ولا يُتذَوَّقُ طعمُ النِّعَمِ الأُخرى إلَّا بها[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾

- قولُه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ إجمالٌ، ثمَّ تفصيلٌ في قولِه: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[٤]؛ فالتفصيلُ واردٌ على المبالَغةِ في التنبيهِ على نِعَمِ اللهِ تعالى[٥].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾

- جاء قولُه: ﴿وَنَخْلٍ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾، وإنْ كانتِ الجنَّةُ تتناوَلُ النخلَ أوَّلَ شيءٍ، ويُطلِقونَ الجنَّةَ ولا يُريدونَ بها إلَّا النخلَ؛ فأفرَدَ ﴿وَنَخْلٍ﴾ بالذِّكْرِ بعْدَ اندراجِه في لفظِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ تَنبيهًا على انفرادِه عن شَجرِ الجنَّةِ بفضلِه، أو أرادَ بـ﴿جَنَّٰتٍ﴾ غيرَ النخلِ مِنَ الشَّجرِ؛ لأنَّ اللَّفظَ صالحٌ لهذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٤، ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٩٩).

الإرادةِ، ثمَّ عطَفَ عليه ﴿وَنَخۡلٖ﴾[١]. وقيل: خُصَّ النَّخلُ بالذِّكرِ مع أنَّه ممَّا تشملُه الجنَّاتُ؛ لقَصدِ بيانِ جَودتِه بأنَّ طَلْعَه هَضيمٌ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَتَنۡحِتُونَ﴾ عَطْفٌ على ﴿ءَامِنِينَ﴾ -أي: وناحِتِينَ- عَبَّرَ عنه بصِيغةِ المضارعِ؛ لاستِحضارِ الحالةِ في نَحتِهم بُيوتًا مِنَ الجبالِ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾

- أفاد قولُه: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ أنَّ فسادَهم فَسادٌ مُصْمَتٌ ليس معه شيءٌ مِنَ الصَّلاحِ، كما تَكونُ حالُ بعضِ المفسدينَ مخلوطةً ببعضِ الصَّلاحِ[٤]؛ فالتركيبُ مِن بابِ الطَّرْدِ والعَكسِ، وفائدتُه: التوكيدُ والمبالَغةُ[٥]؛ فإنَّه لَمَّا كانتْ دَلالةُ قولِه: ﴿يُفۡسِدُونَ﴾ دَلالةَ المطلَقِ، أتَى بقولِه: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾؛ فنفى عنهُمُ الصَّلاحَ، وهو نفْيٌ لمطلَقِ الصَّلاحِ؛ فيَلْزَمُ منه نفيُ الصلاحِ كائنًا ما كان؛ فلا يحصُلُ منهم صلاحٌ الْبَتَّةَ[٦].

- وأيضًا قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وصْفٌ موضِّحٌ لإسرافِهم؛ ولذلك عُطِفَ ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ على ﴿يُفۡسِدُونَ﴾؛ لبيانِ خُلوصِ إفسادِهم عن مُخالَطةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١١٥).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٢).

الإصلاحِ[١].

- وكذلك وَصَفَهم بأنَّهم يُفسِدونَ في الأرضِ؛ فالإسرافُ مَنوطٌ بالفسادِ، وعطْفُ ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ على جُملةِ ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تأكيدٌ لوقوعِ الشيءِ بنفْيِ ضدِّه؛ فكأنَّه قيل: الذينَ إنَّما هم مُفسِدونَ في الأرضِ، فعُدِلَ عن صِيغةِ القصْرِ؛ لِئَلَّا يحتملَ أنَّه قصْرُ مُبالَغةٍ؛ لأنَّ نفيَ الإصلاحِ عنهم يؤكِّدُ إثباتَ الإفسادِ لهم؛ فيتقرَّرُ ذلك في الذِّهْنِ، ويتأكَّدُ معنى إفسادِهم بنفْيِ ضدِّه[٢].

٧- قولُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ قولُه: ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أبلَغُ في الاتِّصافِ بالتَّسحيرِ مِن أنْ يُقالَ: (إنَّما أنتَ مُسَحَّرٌ)[٣].

٨- قولُه تعالى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- لَمَّا تَضمَّنَ قولُهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ تكذيبَهم إيَّاهُ، أيَّدوا تكذيبَه بأنَّه بشَرٌ مِثْلُهم، وذلك -في زعْمِهم- يُنافي أنْ يكونَ رسولًا مِنَ اللهِ؛ لأنَّ الرسولَ -في زعْمِهم- لا يكونُ إلَّا مَخلوقًا خارقًا للعادةِ؛ كأنْ يكونَ ملَكًا أو جِنِّيًّا؛ فجُملةُ ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في حُكْمِ التأكيدِ بجُملةِ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ باعتبارِ مَضمونِ الجُملتَينِ[٤].

- قولُه تعالَى في قصَّةِ صالحٍ عليه السلامُ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قالَه فيها بلا «واوٍ»، وقالَه في قصَّةِ شُعيبٍ عليه السلامُ بـ«واوٍ»؛ لأنَّه هُنا بَدَلٌ ممَّا قبْلَه، وهناك مَعطوفٌ على ما قبْلَه، وخُصَّتِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأُولى بالبَدلِ؛ لأنَّ صالحًا قَلَّلَ في الخِطابِ؛ فقَلَّلوا في الجوابِ، وأكْثَرَ شُعيبٌ في الخِطابِ؛ فأَكْثَروا في الجوابِ[١].

- قولُه: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فرَّعوا على تَكذيبِه المطالَبَةَ بأنْ يأتيَ بآيةٍ على صِدقِه، أي: أنْ يأتيَ بخارقِ عادةٍ يدُلُّ على أنَّ اللهَ صدَّقَه في دعوَى الرِّسالةِ عنه، وفَرَضوا صِدقَه بحرفِ (إن) الشرطيَّةِ الغالبِ استعمالُها في الشَّكِّ[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ في الكلامِ إيجازٌ بالحَذفِ، تقديرُه: قال: آتِي بها، قالوا: ما هي؟ قال: هذه ناقةٌ...[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إنَّما عَظُمَ اليومُ لحُلولِ العذابِ فيه، ووَصْفُ اليومِ به أبلَغُ مِن وَصْفِ العذابِ؛ لأنَّ الوقتَ إذا عَظُمَ بسببِه كان موقِعُه مِنَ العِظَمِ أشدَّ؛ فهو مِن بابِ الكِنايةِ[٤].

١١- قولُه تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أُسنِدَ العَقْرُ إلى كُلِّهم؛ لأنَّ عاقِرَها إنَّما عقَرَها برِضاهُم ورأيِهم؛ ولذلك عمَّهُمُ العذابُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٩).

- والفاءُ في ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ فَصيحةٌ، أي: فعقَروها؛ فَرَأَوُا العذابَ فنَدِموا، فأخَذَهُمُ العذابُ[1].

١٢- قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۖ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

- عطَفَ قولَه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ بفاءِ التَّعقيبِ على ﴿نَٰدِمِينَ﴾؛ لأنَّ العذابَ قد حَلَّ بهم سَريعًا[2].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٨).

الآيات (١٦٠-١٧٥)

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَتَأْتُونَ﴾: أي: أتَنكِحونَ، والإتيانُ يُقالُ للمَجيءِ بالذَّاتِ وبالأمرِ وبالتَّدبيرِ[(١)].

﴿وَتَذَرُونَ﴾: أي: تَترُكون وتَدَعون، وفلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه؛ لقِلَّةِ اعتِدادِه به[(٢)].

﴿عَادُونَ﴾: أي: مُتجاوِزون لحُدودِ اللهِ، ومُعتَدون، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تجاوُزٍ في الشَّيءِ[(٣)].

﴿ٱلْقَالِينَ﴾: أي: المُبغِضينَ المُنكِرين، وأصلُ القلي: شِدَّةُ البُغضِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٣، ٩٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٠،٦٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣١)، =

﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: الباقينَ في العَذابِ، والغابرُ مِن الأضْدادِ؛ يُقالُ: غابرٌ للباقي، و: غابرٌ للماضي، وأصلُ (غبر): يدُلُّ على البَقاءِ(١).

﴿فَسَآءَ﴾: أي: قَبُحَ، والسُّوءُ: اسمٌ جامعٌ للآفاتِ، وأصلُ (سوء): يدُلُّ على قُبحٍ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يَحكي الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ لوطٍ عليه السلامُ مع قَومِه، فيقولُ: كذَّبتْ قَومُ لُوطٍ بجَميعِ رسُلِ اللهِ بتَكذيبِهم نبيَّهم لوطًا، حينَ قال لهم أخوهم لوطٌ: ألَا تتَّقون اللهَ، إنِّي لكم رسولٌ مِن الله، أمينٌ على وَحْيه، فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم جزاءً ولا ثوابًا؛ ما ثوابي إلَّا على اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى أنَّ نبيَّه لوطًا عليه السلامُ نهَى قومَه عن أبرزِ الرذائلِ المتفشِّيةِ فيهم، وأنَّه قال لهم: أتُواقِعونَ الذُّكورَ مِن النَّاسِ ولم يَسبِقْكم إلى فعلِ ذلك أحدٌ مِن الخَلقِ، وتَتركونَ ما خلَقَه لكم ربُّكم مِن نِسائِكم؟! بل أنتم قَومٌ مُجاوِزونَ الحَدَّ في معصيةِ اللهِ. فقال قَومُ لوطٍ له متوعِّدينَ: لَئِنْ لم تَنْتَهِ -يا لوطُ- عن

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٤).

إنكارِك علينا إتيانَ الذُّكورِ، لَتكونَنَّ مِن المطرودينَ مِن قَريتِنا. قال لوطٌ لهم: إنِّي لِما تَعمَلونَه مِن الفاحِشةِ مِن المُبغِضين التَّارِكين، ثمَّ دعا ربَّه عزَّ وجلَّ قائلًا: رَبِّ نجِّني وأهلي مِن العذابِ الذي تُنزِلُه على قَومي، فأجاب الله تعالى دعاءَه، قال سبحانَه: فنجَّيْناه وأهلَه كُلَّهم، إلَّا زوجَتَه العَجوزَ أهلَكْناها مع قَومِها الباقينَ في العذابِ، ثمَّ أهلَكْنا قومَ لُوطٍ، وأنزَلْنا عليهم حجارةً مِن السَّماءِ، فبِئسَ مطَرُ القَومِ الذين أنذَرَهم نبيُّهم.

إنَّ في إهلاكِ قَومِ لُوطٍ لَدَلالةً واضِحةً على صِدقِ رَسولِه، وعِبرةً لِمن يعتبِرُ، وما كان أكثَرُ قَومِ لوطٍ مُؤمِنينَ، وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعذابِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

أي: كذَّبت جماعةُ قَومِ لُوطٍ[(١)] بجَميعِ رُسُلِ اللهِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ [الحج: ٤٢، ٤٣].

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾.

أي: حينَ قال لهم أخوهم لوطٌ[(٣)]: .....

---

(١) القومُ في معنى الجماعةِ أو الأُمَّةِ أو القبيلةِ؛ لذا قال: ﴿كَذَّبَتْ﴾ بالتأنيثِ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٧).

(٣) قال البقاعي: (﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ أي: في السُّكنى في البلدِ، لا في النسَبِ؛ لأنَّه ابنُ أخي إبراهيمَ عليه السلامُ، وهما مِن بلادِ الشرقِ مِن بلادِ بابلَ، وكأنَّه عبَّرَ بالأُخوَّةِ؛ لاختيارِه لمجاورتِهم، =

أَلَا تتَّقون اللهَ، وتَحذَرونَ عِقابَه[١]؟

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

أي: إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحْيِه الذي بعَثَني به إليكم، فأبلِّغُكم ما أُرسِلتُ به إليكم بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ[٢].

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه[٣].

﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ ﴾.

أي: وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ ثوابٍ وجَزاءٍ[٤].

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

أي: ما أرجو ثَوابي إلَّا مِن اللهِ الخالِقِ الرَّازِقِ، المالكِ المدَبِّرِ لجميعِ العالَمينَ

= ومناسبتِهم بمُصاهرتِهم، وإقامتِه بيْنَهم في مدينتِهم مدَّةً مديدةً، وسنينَ عديدةً، وإتيانِه بالأولادِ مِن نسائِهم، مع موافقتِه لهم في أنَّه قُرَويٌّ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((حاشية الخفاجي)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

دونَ خَلقِه[١].

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٥﴾.

أي: أتَنكِحونَ الذُّكورَ مِن النَّاسِ؟! لم يَسبِقْكم إلى ابتِداعِ هذه الفاحشةِ أحدٌ[٢]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

قال البيضاوي: (﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أتأتون -مِن بينِ مَن عَداكم مِن العالَمينَ- الذُّكْرانَ، لا يُشارِكُكم فيه غيرُكم، أو: أتأتونَ الذُّكرانَ مِن أولادِ آدمَ مع كثرتِهم، وغلبةِ الإناثِ فيهم كأنهنَّ قد أعوَزْنَكم، فالمرادُ بـ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على الأوَّلِ كلُّ مَن يُنكَحُ، وعلى الثاني الناسُ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٧).

قال الشوكاني: (﴿ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهم بنو آدمَ، أو كلُّ حيوانٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣١).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بـ (العالَمينَ): الناسُ مِن بني آدمَ: ابنُ جرير، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، والألوسي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٧٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٥٩).

وقال الزمخشري: (أراد بـ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: الناسَ، أي: أتأتونَ مِن بينِ أولادِ آدمَ عليه السلامُ -على فَرطِ كثرتِهم، وتفاوتِ أجناسِهم، وغلَبةِ إناثِهم على ذكورِهم في الكثرةِ- ذُكْرانَهم، كأنَّ الإناثَ قد أعوَزْنَكم!). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٩).

وقال ابن عاشور: (فالمعنى: مفصولينَ مِن العالَمينَ، لا يماثِلُكم في ذلك صِنفٌ مِن العالَمينَ. وهذا المعنى جوَّزه في «الكشَّاف» ثانيًا، وهو أوفَقُ بمعنى: العالَمينَ، الذي المختارُ فيه أنَّه جمعُ (عالَم)، بمعنى النوعِ مِن المخلوقاتِ... والمعنى: أتأتون الذُّكرانَ مخالِفينَ جميعَ العالَمينَ مِن الأنواعِ التي فيها ذكورٌ وإناثٌ؛ فإنَّها لا يوجَدُ فيها ما يأتي الذكورَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٩).

=

كما قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١].

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾.

أي: وتَترُكونَ ما خلَقَه لكم ربُّكم مِن نسائِكم[(١)]، وقد أَحَلَّ لكم الاستِمتاعَ بهنَّ[(٢)]!

= وقال البقاعي: (ولعلَّهم كانوا يفعلون بالذُّكورِ مِن غيرِ الآدميِّينَ؛ توغُّلًا في الشَّرِّ، وتجاهرًا بالتهتُّكِ؛ لقولِه: ﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: كُلِّهم، أو يكونُ المعنى: مِن بيْنِ الخلائقِ، أي: أنَّكم اختصَصْتُم بإتيانِ الذُّكرانِ، لم يفعَلْ هذا الفِعلَ غيرُكم مِن الناكحينَ مِن الخَلقِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٨١).

وقال ابنُ كثير: (نهاهم عن معصيةِ الله، وارتكابِ ما كانوا قد ابتدعوه في العالَم، ممَّا لم يسبِقْهم الخلائقُ إلى فِعلِه، مِن إتيانِ الذُّكرانِ دونَ الإناثِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٧).

(١) قال أبو حيان: (﴿مِّنْ﴾ إمَّا للتَّبيينِ لقولِه: ﴿مَا خَلَقَ﴾، وإمَّا للتبعيضِ: أي: العضوِ المخلوقِ للوطءِ، وهو الفرْجُ، وهو على حذفِ مضافٍ، أي: وتذرونَ إتيانَ. فإن كان ﴿مَا خَلَقَ﴾ لا يُرادُ به العضوُ، فلا بدَّ مِن تقديرِ مضافٍ آخَرَ، أي: وتَذَرونَ إتيانَ فروجِ ما خلَق). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٣).

ممَّن قال: إنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾: فروجُ النساءِ: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، وابن أبي زمنين، والواحدي، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣١).

وممَّن قال في الجملةِ: إنَّ (مِنْ) هنا: بيانيَّةٌ، والمعنى تأتون الذكورَ، وتَدَعون النِّساءَ: أبو حيان، وأبو السعود، والبقاعي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٠).

وقال السمرقندي: (﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ يعني: مِن نسائِكم). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٨٥)، ((الوسيط)) =

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾.

أي: بل أنتم قَومٌ مُجاوِزونَ الحَدَّ في معصيةِ اللهِ، وتَتجاوَزونَ ما أحَلَّه لكم ربُّكم إلى ما حَرَّمه عليكم[1].

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ١٦٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا اتضحَ الحقُّ، وعُرِفَ المرادُ -وكان غريبًا عندَهم- وتَشَوَّفَ السَّامعُ إلى جوابِهم؛ استُؤنِفَ الإخبارُ عنه، فقيل إعلامًا بانقطاعِهم، وأنَّهم عارفون أنَّه لا وجْهَ لهم في ذلك أصلًا؛ لعدولِهم إلى الفُحشِ[2]:

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ١٦٧﴾.

أي: قال قَومُ لوطٍ: لئِنْ لم تترُكْ -يا لوطُ- نَهْيَك وإنكارَك علينا إتيانَ الذُّكورِ،

= للواحدي (٣/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٠).

قال البقاعي: (﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ أي: تركتُم الأزواجَ بتعدِّي الفعلِ بهنَّ، وتجاوُزِه إلى الفعلِ بالذُّكرانِ، وليس ذلك ببِدْعٍ مِن أمرِكم؛ فإنَّ العدوانَ -الذي هو مجاوَزةُ الحَدِّ في الشرِّ- وَصْفٌ لكم، أنتم عريقونَ فيه؛ فلذلك لا تَقِفونَ عندَ حَدٍّ حَدَّه اللهُ تعالى). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٨٢).

وقال ابنُ عثيمين: (قولُه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ «بل» للإضرابِ، والإضرابُ هنا كأنَّه قال: لا تأتون الذُّكرانَ فِطرةً ولا عملًا عاديًّا محبوبًا إلى الفِطَرِ، ولكِنَّ الذي حمَلكم على هذا هو العدوانُ المجَرَّدُ -والعياذُ باللهِ- متجاوزينَ الحلالَ إلى الحرام، فبَيَّن لهم لوطٌ عليه الصلاةُ والسلامُ أنَّ ما فعَلوه أمرٌ مُستنكَرٌ عقلًا، ومستنكَرٌ شرعًا وعُرفًا؛ لأنَّ العدوانَ لا شَكَّ أنَّ كُلَّ أحدٍ يُنكِرُه، وهؤلاء مُعتَدُونَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٢).

لَتكونَنَّ مِن المطرودينَ مِن قَريتِنا[١].

كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ١٦٨﴾.

أي: قال لوطٌ لِقَومِه: إنِّي لِما تَعمَلونَه مِن الفاحِشةِ مِن المُبغِضينَ له أشَدَّ البُغضِ، التَّاركينَ فِعْلَه، المنكِرينَ له[٢].

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ١٦٩﴾.

أي: قال لوطٌ داعيًا رَبَّه: ربِّ نجِّني وأهلي مِن عذابِ قَومي حينَ تُنزِلُه عليهم[٣].

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٧٠﴾.

أي: فنجَّينا مِنَ العذابِ لوطًا وأهلَه كُلَّهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٢، ٢٦٣).
قال ابنُ عاشور: (هدَّدوه بالإخراجِ مِن مدينتِهم؛ لأنَّه كان مِن غيرِ أهلِ المدينةِ، بل كان مُهاجِرًا بيْنَهم، وله صِهرٌ فيهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤١)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۞ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤، ٣٥].

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت زوجتُه مُندَرِجةً في الأهلِ، وكان ظاهرُ دعائِه دخولَها في التَّنجيةِ، وكانت كافرةً؛ استُثنِيَتْ في قَولِه[1]:

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

أي: إلَّا زَوجتَه العَجوزَ فلم نُنْجِها، وهَلَكَت مع قَومِها الباقينَ في العَذابِ[2].

= (٦/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالغابرينَ: الباقون في العذاب: مقاتلُ بن سليمان، والواحدي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، وقتادةُ، وعبدُ الرحمن بنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٠٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣١٧).

قال ابنُ عطية: (وقَولُه ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ معناه: في الباقينَ؛ فإمَّا أنْ يريدَ في الباقينَ مِن لِدَاتِها وأهلِ سِنِّها، وهذا تأويلُ أبي عبيدةَ، وإمَّا أنْ يريدَ في الباقينَ في العذابِ النازلِ بهم، وهذا تأويلُ قتادةَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤١). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٨٩).

وقال ابنُ عثيمين: (الغابِرُ: يُطلَقُ على مَعانٍ؛ منها: الباقي، ومنها: الماضي أيضًا، فيكونُ مِن =

كما قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾[الأعراف: ٨٣].

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر نجاتَه المفهِمةَ لهلاكِهم؛ صَرَّح به على وجهٍ هَوَّلَه بأداةِ التَّراخي؛ لِما عُلِمَ غيرَ مَرَّةٍ أنَّه كان عَقِبَ خُروجِه، لم تَتخلَّلْ بيْنَهما مُهلةٌ، فقال[1]:

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾.

أي: ثمَّ أهلَكْنا قومَ لوطٍ[2].

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾.

أي: وأنزَلْنا عليهم حِجارةً مِن السَّماءِ[3].

= الأضْدادِ، وهي الكلماتُ التي تَصلُحُ للشَّيءِ ولِضِدِّه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٥).

قال الشوكاني: (الغابِر يكونُ بمعنَى الماضي، ويكونُ بمعنَى الباقي، فالمعنَى: إلَّا عجوزًا في الباقينَ في العذابِ، أوِ الماضِينَ الَّذينَ قد هَلَكوا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

قال ابن عاشور: (التَّدميرُ: الإصابةُ بالدَّمارِ، وهو الهلاكُ؛ وذلك أنَّهم استُؤْصِلوا بالخَسفِ وإمطارِ الحجارةِ عليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

وبنحوِ ذلك قال الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٣).

وقال السمعاني: (التدميرُ: هو الإهلاكُ بوَصْفِ التَّنكيلِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

أي: فبئسَ المطَرُ الذي أمطَرْناه على قَومِ لوطٍ الذين أنذَرَهم نبيُّهم عذابَ اللهِ فكَذَّبوه[١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان في جَريِ المكذِّبينَ والمصَدِّقينَ على نظامٍ واحدٍ مِن الهَلاكِ والنَّجاةِ أعظمُ عبرةٍ وأكبرُ موعظةٍ؛ أشار إلى ذلك بقَولِه[٢]:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً﴾.

أي: إنَّ في إهلاكِ قَومِ لوطٍ لَدَلالةً واضِحةً على صِدقِ رَسولِه، وعِبرةً وعِظةً لِمُرتكِبِ الفواحِشِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٥ - ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧].

= السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٤).

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان مَن أتى بعْدَ هذه الأمم -كقُريشٍ ومَن تَقَدَّمَهم- قد عَلِموا أخبارَهم، وضَمُّوا إلى بعضِ الأخبارِ نظرَ الدِّيارِ، والتوسُّمَ في الآثارِ؛ قال مُعَجِّبًا مِن حالِهم في ضلالِهم[1]:

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِ لوطٍ مُؤمِنينَ[2].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٧٥﴾.

أي: وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعَذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يُبَيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلَّا بعد إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجِّي أتْباعَ رُسُلِه[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ينبغي لمُعَلِّمِ النَّاسِ إذا ذَكَر لهم الأبوابَ الممنوعةَ أنْ يَفتحَ لهم الأبوابَ الجائزةَ؛ حتى يَخرجَ الناسُ مِن هذا إلى هذا؛ فبعضُ الناسِ يَذكُرُ الأشياءَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).

قال القرطبي: (لم يكن فيها مؤمِنٌ إلَّا بيتُ لوطٍ وابنَتاه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٥).

الممنوعةَ يقولُ: «هذا حرامٌ، هذا حرامٌ»، ولا يُبيِّنُ لهم الأبوابَ الجائزةَ، وانظرْ إلى لوطٍ عليه الصلاةُ والسلامُ قال لقَومِه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾؛ نهاهم عن الممنوعِ، وأرشدَهم إلى الجائزِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يُبغِضَ ما أبغضَه اللهُ؛ لأنَّ هذه طريقةُ الرُّسُلِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ هذا حالُ أهلِ الفجورِ؛ أنَّه إذا كان بيْنَهم مَن ينهاهم طلَبوا نفْيَه وإخراجَه[٣]! فالآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّ عادتَهم المستمِرَّةَ نفْيُ مَن اعترَض عليهم[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ التَّائبَ مِن عملِ قومِ لوطٍ مِن الجانبينِ، إنْ تابَ تابَ اللهُ عليه؛ فإنَّهم كانوا يفعلونَ الفاحشةَ بعضُهم ببعضٍ، ومعَ هذا فقد دعاهم جميعَهم إلى تقوى الله والتَّوبةِ منها، فلو كانت توبةُ المفعولِ به أو غيرِه لا تُقْبَلُ، لم يأمُرْهم بما لا يُقبَلُ[٥]! والخِطابُ وإن كان للفاعِلِ فإنَّه إنَّما خُصَّ به؛ لأنَّه صاحِبُ الشَّهوةِ والطَّلَبِ في العادةِ، بخلافِ المفعولِ به؛ فإنَّه لم تُخلَقْ فيه شَهوةٌ لذلك في الأصلِ، وإن كانت قد تَعرِضُ له لمَرضٍ طارئٍ، أو أجرٍ يأخُذُه مِن الفاعِلِ، أو

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٢).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٠٨).

لغَرضٍ آخَرَ. والله سُبحانَه وتعالى أعلَمُ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنبيهٌ على أنَّ هذا الفعلَ الفظيعَ مخالِفٌ للفِطرةِ، ولا يقعُ مِن الحيوانِ العَجَم! -وذلك على قولٍ في التفسيرِ- فهو عملٌ ابتدعوه ما فَعَله غيرُهم، ونحوُه قولُه تعالى في الآيةِ الأخرى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] [العنكبوت: ٢٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ أنَّ مِن بني آدمَ مَن تُقلَبُ طبيعتُه وتُصرَفُ حتى يَستحسِنَ الخبيثَ؛ لأنَّ هؤلاء هذا حالُهم[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ فيه دليلٌ على تحريمِ أدبارِ الزوجاتِ والمملوكاتِ، ومَن أجاز ذلك قد أخطأَ خطأً عظيمًا[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ فيه زيادةُ الإنكارِ فيما إذا كان للإنسانِ مندوحةٌ عن الحرامِ[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ إيماءٌ إلى الاستِدلالِ بالصَّلاحيةِ الفِطريةِ لعَمَلٍ على بُطلانِ عَمَلٍ يُضادُّه؛ لأنَّه مُنافٍ للفِطرةِ، فهو مِن تغييرِ الشَّيطانِ وإفسادِه لسُنَّةِ الخلْقِ والتَّكوينِ، قال تعالى حكايةً

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٧).

عنه: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾[(١)] [النساء: ١١٩].

٨- قولُه تعالى: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ فيه جوازُ الاستِمتاعِ بالزَّوجةِ استمتاعًا مُطلَقًا ما عدا: الدبرَ، والفرجَ في الحيضِ[(٢)].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ فيه أنه يبتدئُ باللِّينِ في تغييرِ المنكَرِ، فإنْ لم يَنفَعِ انتقلَ منه إلى ما هو أشدُّ؛ ولذلك انتقلَ لوطٌ مِن قولِه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾ إلى قَولِه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ في مقامِ الذمِّ؛ تغليظًا للإنكارِ بعدَ لينِه[(٣)].

١٠- أنَّ مَن تجاوزَ الحلالَ إلى الحرامِ فهو عادٍ ظالمٌ لنَفْسِه ولغيرِه؛ لِقَولِه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[(٤)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ المعانِدينَ للرُّسُلِ إنَّما يَلجؤونَ إلى قوَّتِهم وسُلطتِهم، لا إلى العَقلِ والإقناعِ، وقال ذلك قومُ نوحٍ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، وكذلك أيضًا قاله فرعونُ لِموسى عليه السلامُ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقاله آزَرُ لابنِه إبراهيمَ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]، كلُّ هذا ممَّا يدُلُّ على أنَّ هؤلاء الذين يُهَدِّدُون بالسُّلطةِ لا بالإقناعِ والعقلِ؛ هؤلاء لا حُجَّةَ لهم[(٥)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أنَّه لا غِنى لأحدٍ عن دُعاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٠، ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهِ، وأمَّا قولُ بعضِ العارفِينَ الجاهلِين: «عِلْمُه بحالي، يُغني عن سؤالي»[(١)]! فهذا قولٌ باطلٌ؛ فاللهُ يَعلَمُ بحالِ كلِّ أحدٍ، ومع ذلك ما زالتِ الرُّسلُ وأتْباعُهم يَدْعونَ اللهَ تبارك وتعالى[(٢)].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أنَّ القُرْبَ مِن الأنبياءِ والأولياءِ لا يُغْني الإنسانَ شيئًا؛ لأنَّ هذه زوجةُ نبيٍّ، ومع ذلك هَلَكَت مع مَن هَلكَ، فكَوْنُ الإنسانِ قريبًا مِن إنسانٍ وَلِيٍّ للهِ، لا يفيدُه شيئًا؛ فأبو لهبٍ عمُّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومع ذلك ما نَزَلَ مِن القرآنِ في أحدٍ مُعَيَّنٍ مِن الكُفَّارِ سِوى أبي لهبٍ عمِّ النَّبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ! وما نَزَل القرآنُ في تسميةِ شخصٍ بعَيْنِه مِن المسلمينَ إلَّا في زَيدِ بنِ حارثةَ -مَوْلًى مِن المَوالي- مِن أبعَدِ ما يكونُ عن الرَّسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ، وبهذا يَتبيَّنُ أنَّ قُربَ النَّسَبِ وقُربَ المُصاهَرةِ وغيره لا يُغْني عن الإنسانِ شيئًا[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ جُعِلَ لُوطٌ عليه السَّلامُ أخًا لقومِه، ولم يكُنْ مِن نسَبِهم، وإنَّما كان نزيلًا فيهم، وهو ابنُ أخي إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ولكنَّه لَمَّا استوطَنَ بلادَهم، وعاشَرَ فيهم، وحالَفَهم، وظاهَرَهم؛ جُعِلَ أخًا لهم، وقال تعالى في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ [ق: ١٣]، وهذا مِن

(١) قال ابن تيميَّةَ: (وما يُروى أنَّ الخليلَ لَمَّا أُلقِيَ في المنْجَنيقِ قال له جبريلُ: سَلْ، قال: «حسْبي مِن سؤالي، عِلْمُه بحالي» ليس له إسنادٌ معروفٌ، وهو باطلٌ، بل الذي ثَبَت في الصحيحِ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه قال: «حسْبيَ اللهُ ونِعمَ الوكيلُ»). ((مجموع الفتاوى)) (١/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٨، ٢٦٩).

إطلاقِ الأُخُوَّةِ على مُلازَمةِ الشَّيءِ ومُمارَستِه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ استِفهامُ إنكارٍ وتقريعٍ وتوبيخٍ[٢].

- والإتيانُ هنا: كِنايةٌ عن وَطْءِ الرجالِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ هو على حذْفِ مُضافٍ، أي: وتَذَرونَ إتيانَ، فإنْ كان ما خلَقَ لا يُرادُ به العُضوُ؛ فلا بُدَّ مِن تَقديرِ مضافٍ آخَرَ، أي: وتَذرونَ إتيانَ فُروجِ ما خلَقَ[٤]؛ ففي قولِه: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ﴾ إبهامٌ قد أراد به أَقْبالَهنَّ، وفي ذلك مُراعاةٌ للحِشمةِ والتصَوُّنِ[٥].

- وكلمةُ (مِن) في قولِه: ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ للبَيانِ -إنْ أُريدَ بها جنسُ الإناثِ. وللتبعيضِ -إنْ أُريدَ بها العضوُ المباحُ منهُنَّ-؛ تَعريضًا بأنَّهم كانوا يفعلونَ ذلك بنسائِهم أيضًا[٦]. وقيل: يتعيَّنُ حَمْلُ (مِن) على البعضيَّةِ؛ فيكونُ المنكَرُ عليهم أمرَيْنِ، كلُّ واحدٍ منهما مُستقِلٌّ بالإنكارِ؛ أحدُهما: إتيانُ الذُّكْرانِ، والثاني: مُجانَبةُ إتيانِ النساءِ في المأتَى؛ رغبةً في إتيانِهنَّ في غيرِه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٢١، ١٢٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري – حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣٣٠).

- و﴿بَلۡ﴾ لإضرابِ الانتِقالِ مِن مَقامِ الموعظةِ والاستدلالِ إلى مَقامِ الذَّمِّ؛ تغليظًا للإنكارِ بعْدَ لينِه[١].

- وجاء تَصديرُ الجُملةِ بضَميرِ الخِطابِ ﴿أَنتُمۡ﴾؛ تَعظيمًا لقُبحِ فِعلِهم، وتنبيهًا على أنَّهم هم مختصُّونَ بذلك، كما تقولُ: أنتَ فعلتَ كذا، أي: لا غيرُكَ[٢].

- والإتيانُ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (بلْ كنتُمْ عادينَ): مبالَغةٌ في تَحقيقِ نسبةِ العُدوانِ إليهم. وفي جعْلِ الخبرِ ﴿قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ دُونَ اقتصارٍ على ﴿عَادُونَ﴾: تَنبيهٌ على أنَّ العُدوانَ سَجِيَّةٌ فيهم، حتَّى كأنَّه مِن مُقَوِّماتِ قوميَّتِهم[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، فقولُهم هذا كقَولِ قَومِ نُوحٍ لنُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، إلَّا أنَّ هؤلاءِ قالوا: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾، فهدَّدوهُ بالإخراجِ مِن مَدينتِهم؛ لأنَّه كان مِن غيرِ أهلِ المدينةِ، بلْ كان مُهاجِرًا بيْنَهم، وله صِهْرٌ فيهم[٤].

- ولَمَّا كان لِمَا له مِن العَظَمةِ بالنبُوَّةِ والأفعالِ الشَّريفةِ التي توجِبُ إجلالَه وإنكارَ كلِّ مَن يَسمَعُهم أنْ يَخرجَ مِثلُه، زادوا في التأكيدِ فقالوا: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق))(١٩/ ١٨٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٢).

- وصِيغةُ ﴿مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أبلَغُ مِن (لَنُخْرِجَنَّكَ)؛ فهي تُفيدُ أنَّه معدودٌ في زُمْرتِهم، ومشهورٌ بأنَّه مِن جُملتِهم[1]، كأنَّهم يُهدِّدونَه بما هو أعظَمُ ترويعًا له، يعني: إنَّنا أخرَجْنا غيرَك، وستكونُ أنت مِن جملةِ المُخرَجينَ؛ لأنَّ لنا قدرةً وسلطةً على إخراجِك[2].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾

- قولُه: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أبلَغُ -أيْ: أقْوَى- مِن أنْ يقولَ: (إنِّي لِعَمَلِكُمْ قالٍ)؛ لدَلالتِه على أنَّه مَعدودٌ في زُمرتِهم، ومشهورٌ بأنَّه مِن جُملتِهم. ويجوزُ أنْ يُريدَ: مِنَ الكاملينَ في قِلاكُمْ. والتَّعريفُ في اللَّامِ على الأوَّلِ: للعَهدِ، وعلى الثاني: للجِنسِ[3].

- والعُدولُ إلى الصِّفةِ في قَولِه: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ عُدولٌ عن الجُملةِ الفعليَّةِ إلى الصِّفةِ، وكثيرًا ما ورد في القرآنِ -خُصوصًا في هذه السُّورةِ- العُدولُ عن التعبيرِ بالفِعلِ إلى التَّعبيرِ بالصِّفةِ المشتقَّةِ، ثمَّ جَعْلُ الموصوفِ بها واحدًا مِن جمعٍ؛ كقولِ فِرعونَ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وأمثالُه كثيرةٌ، والسِّرُّ في ذلك أنَّ التعبيرَ بالفعلِ إنَّما يُفْهِمُ وُقوعَه خاصَّةً، وأمَّا التعبيرُ بالصِّفةِ ثمَّ جَعْلُ الموصوفِ بها واحدًا مِن جمْعٍ؛ فإنَّه يُفهِمُ أمرًا زائدًا على وُقوعِه، وهو أنَّ الصِّفةَ المذكورةَ كالسِّمَةِ للمَوصوفِ ثابتةَ العُلوقِ به، كأنَّها لقَبٌ، وكأنَّه مِن طائفةٍ صارَتْ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٠).

هذا النوعِ المخصوصِ المشهورِ ببعضِ السِّماتِ الرديئةِ، استمِعْ إلى قولِه تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧] كيف ألحقَهم لقبًا رديئًا، وصيَّرهم مِن نوعِ رَذْلٍ مشهورٍ بِسِمةِ التخلُّفِ، حتَّى صارت له لقبًا لاصقًا به، وهذا عامٌّ في كلِّ ما يَرِدُ عليكَ ووَرَدَ فيما مضَى مِن أمثالِ ذلكَ؛ فتدبَّرْه، واقْدُرْه قَدْرَه[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾، أي: مِن عَذابِ ما يَعملونَه؛ ففي الكَلامِ إيجازٌ بالحَذْفِ، وفيه تَعريضٌ بعَذابٍ سيَحِلُّ بهم[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ للتَّعقيبِ، أي: كانتْ نَجاتُه عَقِبَ دُعائِه[٣].

٨- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ لأنَّ إهلاكَ المكذِّبينَ أجدَرُ بأنْ يُذْكَرَ في مَقامِ الموعظةِ مِن ذِكْرِ إنجاءِ لوطٍ والمؤمنينَ[٤].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾

- سُمِّيَ ما أصابَهم مِنَ الحجارةِ مطرًا؛ لأنَّهُ نزَلَ عليهم مِنَ الجوِّ[٥].

- وفي قولِه: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تَسجيلٌ عليهم بأنَّهم أُنذِروا فلَمْ يَنتذِروا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٢١، ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٧٦-١٩١)

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لْـَٔيْكَةِ﴾: أي: الشَّجَرِ المُلتَفِّ المُجتَمِعِ، وأصلُ (أيك): يدُلُّ على اجتماعِ شَجَرٍ[(١)].

﴿ٱلْمُخْسِرِينَ﴾: أي: النَّاقِصينَ الكَيلَ، وأصلُ (خسر): يدُلُّ على نَقصٍ[(٢)].

﴿بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾: أي: المِيزانِ العَدلِ السَّوِيِّ، وأصلُ (قسط) هنا: يدُلُّ على العَدلِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥، ٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾: أي: لا تَنقُصوا، والبَخسُ: نَقصُ الشَّيءِ على سَبيلِ الظُّلمِ، وأصلُ (بخس): يدُلُّ على نَقصٍ[١].

﴿تَعۡثَوۡاْ﴾: أي: تُفسِدُوا، مِن العُثُوِّ: وهو أشَدُّ الفَسادِ[٢].

﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾: أي: الخَلْقَ، يُقالُ: جُبِلَ فُلانٌ على كذا، أي: خُلِقَ[٣].

﴿كِسَفًا﴾: أي: قِطَعًا، الواحِدةُ كِسْفةٌ، وأصلُ (كسف): يدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[٤].

﴿يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾: الظُّلَّةُ: سحابةٌ تُظِلُّ، وأكثرُ ما يُقالُ فيما يُستوخَمُ ويُكرهُ، أرسَل اللهُ سُبحانَه سحابةً فهَرَبوا إليها لِيَستظِلُّوا بها، فلمَّا صاروا تحتَها صِيحَ بهم فهَلَكوا، وأصلُ (ظلل): يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشَيءٍ[٥].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٥٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩).

﴿إِنْ﴾ مخفَّفةٌ مِن الثَّقيلةِ، واللامُ في ﴿لَمِنَ﴾ هي الفارِقةُ -أي: تفرقُ بينَ (إن) النافيةِ و(إن) المخفَّفةِ مِن الثقيلةِ-، أي: وإنَّ الشَّأنَ نظُنُّك مِن الكاذبينَ في الدعوى. خلافًا للكوفيِّينَ؛ فـ ﴿إِنْ﴾ عندَهم نافيةٌ بمعنى (ما)، واللامُ في ﴿لَمِنَ﴾ بمعنى (إلَّا) أي: ما نظُنُّك إلَّا مِنَ الكاذبينَ. وعلى كِلا الوَجهينِ فـ (مِنَ الكاذبينَ) متعلِّقٌ بمحذوفٍ مَفعولٌ به ثانٍ لـ (نظُنُّ)[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى جانبًا مِن قصةِ شُعَيبٍ عليه السلامُ، وهي آخرُ القصصِ المذكورةِ في هذه السورةِ، فيقولُ: كذَّب أصحابُ الشَّجَرِ الملتَفِّ المُرسَلينَ، حينَ قال لهم رَسولُهم شُعَيبٌ: ألَا تتَّقونَ الله، وتَحذَرونَ سَخَطَه؟! إنِّي لكم رسولٌ مِن الله، أمينٌ على وحيِه، فأبلِّغُكم به بلا زيادةٍ ولا نقصٍ، فاتَّقوا عِقابَ الله وأطيعوني، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم ثوابًا ولا جَزاءً، ما ثوابي إلَّا على اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

ثمَّ يَذكرُ الله تعالى أنَّ نبيَّه شعيبًا عليه السلامُ نهَى قومَه عن أبرزِ الرذائلِ المتفشِّيةِ فيهم، وأنَّه قال لهم: أَتِمُّوا -أيُّها النَّاسُ- الحَقَّ كاملًا عندَ الكَيلِ، ولا تكونوا ممَّن يَنقُصُ النَّاسَ حُقوقَهم، وَزِنوا للنَّاسِ بالميزانِ العادلِ المُستقيمِ الذي لا انحرافَ فيه، ولا تَنقُصوا النَّاسَ شَيئًا مِن حُقوقِهم، ولا تُفسِدوا في الأرضِ، واتَّقوا اللهَ الذي خلَقَكم أنتم والخَلقَ الأوَّلينَ مِن قَبْلِكم.

قال قومُ شُعَيبٍ له: إنَّما أنت مِن المسحورينَ، فتَهذِي بما لا معنى له، وما أنت إلَّا بشَرٌ مِثلُنا، وإنَّا لَنظُنُّك مِن الكاذبينَ في زَعمِك أنَّك مُرسَلٌ مِن عندِ اللهِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١١٧)، ((الجدول)) لمحمود صافي (١٩/ ١٢٠).

فأنزِلْ علينا قِطَعًا مِن السَّماءِ تُهلِكُنا إن كنتَ صادِقًا فيما تقولُ!

قال شُعَيبٌ لهم: ربِّي أعلَمُ بما تَعمَلونَه مِن الشِّركِ والمعاصي، وهو مُجازيكم عليها، ومُعَذِّبُكم بها إنْ شاء.

فكذَّب قَومُ شُعَيبٍ نبيَّهم، فأخَذَهم اللهُ بعذابٍ أظَلَّهم فهَلَكوا مِن تحتِه، إنَّ ذلك العذابَ كان عذابَ يومٍ شَديدِ الأهوالِ.

إنَّ في إهلاكِ قَومِ شُعَيبٍ لَدَلالةً واضِحةً على صِدقِ شُعَيبٍ، وعِبرةً وعِظةً لِمن يعتبِرُ، وما كان أكثَرُ قَومِ شُعَيبٍ مُؤمِنينَ، وإنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ لأعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعذابِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦﴾.

أي: كذَّب أصحابُ الشَّجَرِ المُلتَفِّ[(١)] بجَميعِ رُسُلِ اللهِ[(٢)].

---

(١) قال القرطبي: (الأيْكُ: الشجَرُ الملتَفُّ الكثيرُ، الواحدةُ: أَيْكةٌ. ومَن قرأ: «أصحابُ الأيْكةِ» فهي الغَيْضةُ. ومَن قرأ: «لَيْكة» فهو اسمُ القريةِ. ويُقالُ: هما مِثلُ بَكَّةَ ومكَّةَ، قاله الجوهريُّ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٤).

وقال أيضًا: (لا نعلَمُ بيْنَ أهلِ اللغةِ اختلافًا أنَّ الأَيْكةَ الشَّجَرُ الملتَفُّ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

قال ابن تيميَّةَ: (ذكَرَ اللهُ سُبحانه وتعالى قِصَّةَ شُعَيبٍ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غيرِ موضعٍ مِن كتابِه، وإرسالَه إلى أهلِ مَدْيَنَ، وقال في موضعٍ آخَرَ: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦]، فأكثَرُ الناسِ يقولون: إنَّهم أهلُ مَدْيَنَ، ومِن الناسِ مَن يَجعلُها قصَّتينِ). ((جامع الرسائل)) (١/ ٦١).

وممَّن قال بأنَّ أصحابَ الأيْكةِ هم أهلُ مَدْيَنَ: ابنُ كثيرٍ، والسعديُّ. وعزاه الشنقيطيُّ إلى =

= أكثرِ أهلِ العلم. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨، ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٧٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٣).

قال ابن كثير: (أصحابُ الأيكةِ هم أهلُ مَدْيَنَ على الصَّحيحِ، وكان نبيُّ الله شعيبٌ مِن أنفُسِهم، وإنَّما لم يقُلْ هنا: «أخوهم شعيبٌ»؛ لأنَّهم نُسِبوا إلى عبادةِ الأيْكةِ، وهي شجرةٌ. وقيل: شجَرٌ ملتَفٌّ كالغَيضةِ كانوا يَعبُدونها... والصَّحيحُ أنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ، وُصِفوا في كلِّ مقامٍ بشَيءٍ؛ ولهذا وعَظَ هؤلاء وأمَرَهم بوفاءِ المكيالِ والميزانِ، كما في قصَّةِ مَدْيَنَ سواءً بسواءٍ؛ فدلَّ ذلك على أنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨، ١٥٩).

وقال أيضًا: (لَمَّا قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، لم يقُلْ: «إذْ قال لهم أخوهم شُعَيبٌ»، وإنَّما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، فقطَع نِسبةَ الأُخوَّةِ بيْنَهم؛ للمعنى الذي نُسِبوا إليه، وإن كان أخاهم نسَبًا. ومِن الناسِ مَن لم يتفطَّنْ لهذه النكتةِ، فظنَّ أنَّ أصحابَ الأيْكةِ غيرُ أهلِ مَدْيَنَ، فزعَم أنَّ شُعَيبًا عليه السَّلامُ بعَثه اللهُ إلى أُمَّتينِ). ((تفسير ابن كثير)). (٦/ ١٥٨، ١٥٩).

وممَّن قال بأنَّ أصحابَ الأيْكةِ هم غيرُ أهلِ مَدْيَنَ، وقد أُرسِل شعيبٌ إلى هؤلاء وهؤلاء: مقاتلُ ابنُ سليمانَ، واستظهره ابنُ عاشور، ورجَّحه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ٢٧٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ، والربيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨١١).

قال ابن عاشور: (الأظهرُ أنَّ أهلَ الأيْكةِ قبيلةٌ غيرُ مَدْيَنَ... والذي يشهدُ لذلك ويرجِّحُه أنَّ القرآنَ لَمَّا ذكَر هذه القصةَ لأهلِ مَدْيَنَ وصَف شعيبًا بأنَّه أخوهم، ولَمَّا ذكَرها لأصحابِ الأيْكةِ لم يَصِفْ شعيبًا بأنَّه أخوهم؛ إذ لم يكنْ شعيبٌ نسيبًا ولا صهرًا لأصحابِ الأيْكةِ، وهذا إيماءٌ دقيقٌ إلى هذه النكتةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٣، ١٨٤).

وقال ابن عثيمين: (وممَّا يدُلُّ على أنَّهم ليسوا أصحابَ مَدْيَنَ أنَّ العذابَ الذي أُخِذوا به غيرُ العذابِ الذي أُخِذ به أصحابُ مَدْيَنَ؛ فأصحابُ مَدْيَنَ أُخِذوا بالصَّيحةِ، وهؤلاء أُخِذوا بعذابِ الظُّلَّةِ... وهل معنى هذا أنَّ شعيبًا أُرسِلَ مرَّتينِ؟

الجوابُ: لا، بل أُرسِلَ مرَّةً واحدةً، لكنْ إلى قومَينِ؛ إلى هؤلاء وهؤلاء، ويجوزُ أن يكونَ هذا مِن بابِ التَّبَعِ، يعني: هذه القريةُ صغيرةٌ مثلًا، وكانت تابعةً لبلدتِه، ويدُلُّك على هذا أنَّ عمَلَهم واحدٌ؛ عَمَل هؤلاء، وعَمَل أهلِ مَدْيَنَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧٤).

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

أي: حينَ قال لهم شُعَيبٌ: ألَا تتَّقونَ اللهَ، وتَحذَرونَ عِقابَه[١]؟

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

أي: إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه الذي بعَثَني به إليكم، فأبلِّغُكم ما أُرسِلتُ به إليكم بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ[٢].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾﴾.

أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه[٣].

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَدَّمَ ما هو المقصودُ بالذاتِ، عَطَفَ على خبرِ «إنَّ» قولَه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ نفيًا لِمَا يُنَفِّرُ عنه[٤].

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

أي: وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ ثوابٍ وجَزاءٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) =

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ما أرجو ثوابي إلَّا مِن اللهِ الخالِقِ الرَّازِقِ، المالِكِ المدَبِّرِ لجميعِ العالَمينَ دونَ خَلقِه[١].

﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١﴾.

﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾.

أي: قال شُعَيبٌ لِقَومِه: أتِمُّوا للنَّاسِ حقَّهم كامِلًا عندَ الكَيلِ[٢].

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَهم بالإيفاءِ؛ نهاهم عن النقصِ على وجْهٍ أعمَّ، فقال[٣]:

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾.

أي: ولا تكونوا ممَّن يَنقُصُ النَّاسَ حُقوقَهم[٤].

= للبقاعي (١٤/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧).

قال البقاعي: (﴿مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ أي: الذين يُخسِرون... بنَقصِ الكَيلِ، أو غيرِه من أنواعِ النَّقصِ مِن كُلِّ ما يوجِبُ الغَبْنَ، فتكونوا مشهورينَ بذلك بينَ مَن يَفعَلُه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٨٧).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧٧).

﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمرَ بالإيفاءِ؛ بيَّنَ أنَّه كيف يُفعَلُ[(١)].

وأيضًا لَمَّا أمرَ بوفاءِ الكَيلِ؛ أتبَعَه بمِثلِ ذلك في الوَزنِ، ولم يجمَعْهما؛ لِما للتَّفريقِ مِن التَّعريفِ بمزيدِ الاهتمامِ، فقال[(٢)]:

﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾.

أي: وَزِنوا للنَّاسِ -إذا وزَنْتُم لهم- بالميزانِ العادِلِ، الذي لا مَيْلَ ولا انحرافَ فيه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩].

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمرَ بالوفاءِ في الوزنِ؛ أتبَعَه نهيًا عن تركِه عامًّا -كما فَعَل في الكيلِ-

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧).

قال ابنُ عاشور: (القِسْطاسُ: بضَمِّ القاف وبكسرها من أسماءِ العَدلِ، ومِن أسماء الميزانِ، ... وإن كان الوصفُ بـ ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ يرجِّحُ أنَّ المقصودَ به الميزانُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٥).

وقال ابن عثيمين: (الفَرقُ بيْنَ الوَزنِ وبينَ الكَيلِ: أنَّ ما قُدِّرَ بالحجمِ فهو كَيْلٌ؛ لأنَّ المِكْيالَ تضَعُ فيه الشيءَ فيكونُ حجمُه هكذا، وأمَّا ما يقَدَّرُ بالثِّقلِ فيُسمَّى وزنًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧٧).

لِيكونَ آكَدَ، فقال[١]:

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾.

أي: ولا تَنقُصوا النَّاسَ شَيئًا مِن حُقوقِهم[٢].

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

أي: ولا تَسْعَوْا في الأرضِ بمعصيةِ اللهِ، وتُكثِروا فيها الفَسادَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥، ٨٦].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٨٤﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٣).

قال ابن عاشور: (بخسُ أشياءِ النَّاسِ: غَبنُ منافِعِها، وذَمُّها بغيرِ ما فيها؛ لِيَضْطَرُّوهم إلى بَيْعِها بغَبنٍ... والبَخسُ: النَّقصُ والذمُّ... ومِن بَخسِ الأشياءِ أن يقولوا للذي يَعرِضُ سِلعةً سليمةً للبيعِ: إنَّ سِلعَتَك رديئةٌ؛ لِيَصرِفَ عنها الرَّاغبينَ فيَشتريَها برُخصٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٥). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٨).

قال الشوكاني: (والعثيُّ في الأرضِ: يشمَلُ كُلَّ ما يقعُ فيها مِن الإضرارِ بالنَّاسِ، فيدخُلُ فيه ما في السِّياقِ مِن نقصِ المكيالِ والميزانِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقدَّم أمْرُه عليه السَّلامُ إيَّاهم بتقوى الله؛ أمَرَهم ثانيًا بتقوى مَن أوجَدَهم، وأوجَدَ مَن قبْلَهم؛ تنبيهًا على أنَّ مَن أوجدَهم قادِرٌ على أنْ يُعَذِّبَهم ويُهلِكَهم[١].

وأيضًا لَمَّا وَعَظَهم فأبلَغَ في وعظِهم بما خَتَمه بالنَّهيِ عن الفسادِ؛ خَوَّفَهم مِن سَطَواتِ اللهِ تعالى بما أحَلَّ بمَن هو أعظمُ منهم، فقال[٢]:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾.

أي: واتَّقوا اللهَ الذي خلَقَكم، وخَلَق الخَلْقَ الأوَّلينَ مِن قَبْلِكم[٣].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الحاصِلُ ممَّا مضى الإعلامَ بالرسالةِ، والتحذيرَ مِن المخالفةِ؛ لأنَّها تؤدِّي إلى الضَّلالةِ، إلى أن خَتَمَ ذلك بالإشارةِ بالتعبيرِ بالجِبِلَّةِ إلى أنَّ عذابَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٥).

قال السعدي: (﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: الخليقةَ الأوَّلينَ، فكما انفرد بخَلقِكم، وخَلْقِ مَن قبْلَكم مِن غيرِ مُشارِكٍ له في ذلك، فأفرِدوه بالعبادةِ والتوحيدِ، وكما أنعَمَ عليكم بالإيجادِ والإمدادِ بالنِّعَمِ، فقابلوه بشُكرِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧).

وقال ابنُ عثيمين: (ذكَّرهم الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ بالذي خَلَقَهم، وخَلَقَ الخَلْقَ الأوَّلَ أيضًا؛ إشارةً إلى أنَّكم ستَزولون كما زال مَن قبْلَكم، فأنتم مخلوقونَ مِنَ العدَمِ، وتعودونَ إلى العدَمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٨).

تعالى عظيمٌ، لا يستعصي عليه صغيرٌ ولا كبيرٌ- أجابوه بالقَدحِ في الرِّسالةِ أولًا، وباستِصغارِ الوعيدِ ثانيًا[١].

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ ﴾.

أي: قال قَومُ شُعَيبٍ له: إنَّما أنت مِنَ المسحورينَ الذين بُولِغَ في سِحرِهم مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ، فلا عَقلَ لك، وإنَّما تَهذي بما لا مَعنى له[٢].

كما قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾ [هود: ٩١].

﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ ﴾.

﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾.

أي: وما أنت إلَّا آدميٌّ مِثلُنا، فكيف خَصَّك اللهُ بالرِّسالةِ مِن بيْنِنا حتى نتَّبِعَك[٣]؟!

﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾.

أي: ونحن نظُنُّك[٤] مِنَ الكاذِبينَ[٥] .....

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧).

(٤) قال ابن عاشور: (أُطلِقَ الظَّنُّ على اليقين... وهو إطلاقٌ شائعٌ، كقَولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ ﴾ [البقرة: ٤٦]، وقرينتُه هنا دخولُ اللام على المفعولِ الثاني لـ (ظَنَّ)؛ لأنَّ أصْلَها لامُ قَسَم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٦).

(٥) و ﴿إِنْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ﴾ -على مذهبِ الكوفيِّينَ- بمعنى (ما) النافية. أي: وما نظُنُّك إلَّا مِن الكاذبينَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، والبقاعي. يُنظر: =

في زَعمِك أنَّك رَسولٌ مِن عندِ اللهِ[١].

﴿ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧ ﴾.

أي: فأنزِلْ علينا قِطَعًا مِن السَّماءِ تُهلِكُنا، إنْ كُنتَ صادِقًا في أنَّك رَسولٌ مِن عندِ اللهِ[٢].

﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨ ﴾.

= ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٩).

قال البقاعي: (والذي يقتضيه السياقُ ترجُّحُ مذهبِ الكوفيِّينَ هنا في أنَّ ﴿إِنْ﴾ نافيةٌ؛ فإنَّهم أرادوا بإثباتِ الواوِ في ﴿وَمَآ﴾ المبالغةَ في نفْيِ إرسالِه بتَعدادِ ما يُنافيه، فيكونُ مرادُهم أنَّه ليس لنا ظنٌّ يتوجَّهُ إلى غيرِ الكذبِ، وهو أبلغُ مِن إثباتِ الظنِّ به، ويؤيِّدُه تسبيبُهم عنه سؤالَه استهزاءً به، وتعجيزًا له إنزالَ العذابِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٨٩، ٩٠).

وقيل: المرادُ بها (إنْ) المخفَّفةُ مِن الثقيلةِ. وممَّن اختار ذلك: الشوكانيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧٩، ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٩).

قال السعدي: (هذا جراءةٌ منهم وظُلمٌ، وقَولٌ زُورٌ، قد انطَوَوْا على خلافِه؛ فإنَّه ما مِن رسولٍ مِن الرُّسُلِ واجَهَ قومَه ودعاهم، وجادَلهم وجادَلوه، إلَّا وقد أظهَرَ اللهُ على يديه مِن الآياتِ ما به يتيقَّنونَ صِدقَه وأمانتَه، خصوصًا شُعَيبًا عليه السلامُ، الذي يُسمَّى خطيبَ الأنبياء؛ لحُسنِ مراجعتِه قَومَه، ومجادلتِهم بالتي هي أحسَنُ؛ فإنَّ قومَه قد تيقَّنوا صِدقَه، وأنَّ ما جاء به حقٌّ، ولكِنَّ إخبارَهم عن ظَنٍّ كَذِبه كَذِبٌ منهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٠).

قال الرازي: (وهُم إنَّما طَلَبوا ذلك؛ لاستِبعادِهم وُقوعَه، فظَنُّوا أنَّه إذا لم يَقَعْ ظَهَر كذِبُه). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٢٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا طَلَبوا منه ما طلبوا؛ أحالَ عِلْمَ ذلك إلى اللهِ تعالى، وأنَّه هو العالِمُ بأعمالِكم، وبما تَستوجِبون عليها مِن العِقابِ، فهو يعاقِبُكم بما شاء[١].

وأيضًا لَمَّا كان عذابُ العاصي يتوقَّفُ على العِلمِ المُحيطِ بأعمالِه، والقُدرةِ على نَكالِه؛ استأنَفَ تعالى الحِكايةَ عنه في تَنبيهِه لهم على ذلك بقَولِه[٢]:

﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨ ﴾.

أي: قال شُعَيبٌ لِقَومِه: ربِّي أعلَمُ بما تَعمَلونَه مِنَ الشِّركِ والمعاصي، ونَقصِ الكَيلِ والميزانِ، وهو مُجازيكم بأعمالِكم، ومُعذِّبُكم بها إنْ شاء، وما علَيَّ إلَّا تبليغُكم[٣].

كما قال اللهُ تعالى لنبيِّه مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحج: ٦٨].

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مَحَطُّ كلامِهم كلِّه على تكذيبِهم له مِن غيرِ قدْحٍ في قُدرةِ الخالقِ؛ سَبَّبَ العذابَ عن تكذيبِهم، فقال[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٠، ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٠، ٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩١).

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾.

أي: فكذَّب قومُ شُعَيبٍ نبيَّهم، فأهلَكَهم اللهُ بعذابٍ أظلَّهم، فهلَكوا مِن تحتِه[1].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الحالُ مُوجِبًا للسؤالِ عن يومِ الظُّلَّةِ، قال تعالى مُهَوِّلًا لأمرِه، ومعظِّمًا لقَدْرِه[2]:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

أي: إنَّ عذابَ يومِ الظُّلَّةِ الذي أصاب قَومَ شُعَيبٍ كان عذابَ يومٍ عَظيمِ الأهوالِ[3].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٧).

قال ابن القيم: (أخبَر تعالى عن العذابِ الذي أصاب به قَومَ شُعيبٍ بثلاثة أمورٍ، كُلُّها مؤنَّثةُ اللفظِ؛ أحدُها: الرَّجفةُ في قَولِه في «الأعراف»: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨]. الثاني: الظُّلَّةُ بقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء: ١٨٩]. الثالثُ: الصَّيحةُ: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [هود: ٦٧]. وجمع لهم بيْنَ الثلاثةِ؛ فإنَّ الرجْفةَ بدأَتْ بهم، فأصحَروا [خرَجوا] إلى الفضاءِ خوفًا مِن سقوطِ الأبنيةِ عليهم، فصهَرَتْهم الشمسُ بحَرِّها، ورُفِعَت لهم الظُّلَّةُ، فأُهرِعوا إليها يَستظِلُّون بها مِن الشَّمسِ، فنزَل عليهم منها العذابُ وفيه الصَّيحةُ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٢٦).

وقال ابنُ عاشور: (كان العذابُ مِن جنسِ ما سألوه، ومِن إسقاطِ شَيءٍ مِن السَّماءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٣، ١٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٧٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان لتوالي الإخبارِ بإهلاكِ هذه القُرونِ، وإبادةِ مَن ذُكِرَ مِن تلك الأممِ، مِن الرُّعبِ ما لا يبلغُ وصْفُه، ولا يمكِنُ لغيرِه سُبحانَه شرحُه؛ قال تعالى مشيرًا إليه تحذيرًا مِن مِثلِه[١]:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

أي: إنَّ في إهلاكِ قَومِ شُعَيبٍ لَدَلالةً واضِحةً على صِدقِ رَسولِه، وعِبرةً وعِظةً لِمن ينقُصُ في الكَيلِ والوَزنِ[٢].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِ شُعَيبٍ مُؤمِنينَ[٣].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

أي: وإنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ، المُنتقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِّلُ معهم ما يُبَيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قَومًا إلَّا بعْدَ إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجِّي أتْباعَ رُسُلِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٧، ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ خاطَب كلُّ رسولٍ به قومَه؛ إزاحةً للتهمةِ، وتمحيضًا للنصيحةِ؛ فإنَّها لا تنجعُ ما دامَت مشوبةً بالمطامعِ[١].

٢- قال الله تعالى حكايةً عن شعيبٍ عليه السلامُ: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ۞ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ۞ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ سلَكَ شُعَيبٌ عليه السَّلامُ في نهيِهم عن الفَسادِ مَسلَكَ التدرُّجِ، وهذا مِن أساليبِ الحِكمةِ في تهيئةِ النُّفوسِ بقَبولِ الإرشادِ والكَمالِ، فابتَدأ بنَهيِهم عن نوعٍ مِن الفسادِ فاشٍ فيهم، وهو التَّطفيفُ، ثمَّ ارتقَى فنهاهم عن جِنسِ ذلك النَّوعِ، وهو: أكلُ أموالِ النَّاسِ، ثمَّ ارتقَى فنهاهم عن الجِنسِ الأعلى للفَسادِ الشَّاملِ لجميعِ أنواعِ المفاسدِ، وهو: الإفسادُ في الأرضِ كُلِّه[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ إنَّما لم يَقُلْ هنا: أخوهم شُعَيبٌ؛ لأنَّهم نُسِبوا إلى عبادةِ الأَيْكةِ[٣]، وذلك على اعتبارِ أنَّ مَدْيَنَ هم أصحابُ الأيْكةِ.

وقيل: لم يقُلْ: (أخوهم)؛ لأنَّه لم يكُنْ مِن أصحابِ الأيْكةِ في النَّسَبِ، فلمَّا ذكَر مَدْيَنَ قال ﴿أَخَاهُمۡ شُعَيۡبًا﴾؛ لأنَّه كان منهم[٤]، وذلك على اعتبارِ أنَّ مَدْيَنَ غيرُ أصحابِ الأيكةِ. وقيل غيرُ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨، ١٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٥).

٢- قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إنَّما كان جوابُ هؤلاء الرُّسُلِ واحِدًا على صيغةٍ واحدةٍ؛ لأنَّهم مُتَّفِقونَ على الأمرِ بالتَّقوى، والطَّاعةِ، والإخلاصِ في العبادةِ، والامتِناعِ مِن أخذِ الأجرِ على تبليغِ الرِّسالةِ[١].

٣- الكَيلُ على ثلاثةِ أضرُبٍ: وافٍ، وطفيفٍ، وزائدٍ، فأمَرَ بالواجبِ الذي هو الإيفاءُ بقَولِه تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾، ونهى عن المُحَرَّمِ الذي هو التَّطفيفُ بقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾، ولم يَذكُرِ الزَّائدَ؛ لأنَّه إنْ فَعَلَه فقد أحسَنَ، وإنْ لم يَفعَلْه فلا إثمَ عليه[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ هذا عامٌّ في كلِّ حقٍّ يَثبُتُ لأحدٍ ألَّا يُهضَمَ، وفي كلِّ مِلْكٍ ألَّا يُغصَبَ عليه مالِكُه، ولا يُتحَيَّفَ منه، ولا يُتصَرَّفَ فيه إلَّا بإذنِه تصرُّفًا شرعيًّا[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الوفاءَ في العُقودِ هو ممَّا جاء في الشَّرائعِ السَّماويَّةِ السَّابقةِ واللَّاحِقةِ[٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى صِفةَ إهلاكِهم في ثلاثةِ مَواطِنَ، كُلُّ موطنٍ بصِفةٍ تُناسِبُ ذلك السِّياقَ؛ ففي (الأعرافِ) ذكَرَ أنَّهم أخذَتْهم الرَّجفةُ، فأصبحوا في دارِهم جاثمينَ؛ وذلك لأنَّهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤٠٢).

[الأعراف: ٨٨]، فأرجَفوا بنبيِّ اللهِ ومَن اتَّبَعه، فأخذَتْهم الرَّجفةُ. وفي سورةِ (هودٍ) قال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: ٩٤]؛ وذلك لأنَّهم استَهزَؤوا بنبيِّ اللهِ في قولِهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، قالوا ذلك على سبيلِ التهَكُّم والازْدِراءِ، فناسَب أن تأتيَهم صَيحةٌ تُسكِتُهم، فقال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾. وهاهنا قالوا: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، على وجهِ التعَنُّتِ والعنادِ، فناسَب أن يَحِقَّ عليهم ما استبعَدوا وُقوعَه: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[١].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كَرَّرَ سُبحانَه الخِتامَ بهذا الكَلامِ في هذه السُّورةِ ثمانيَ مرَّاتٍ؛ فلعلَّ مِن أسرارِه الإشارةَ إلى سبْقِ الرَّحمةِ للغَضَبِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ استِئنافٌ مِن كَلامِه، انتَقلَ به مِن غَرضِ الدَّعوةِ الأصليَّةِ بقولِه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٧] إلى آخِرِه، إلى الدعوةِ التفصيليَّةِ بوَضْعِ قوانينِ المعامَلةِ بيْنَهم؛ فقدْ كانوا مع شِرْكِهم باللهِ يُطفِّفونَ المِكيالَ والميزانَ، ويَبخَسونَ أشياءَ الناسِ إذا ابتاعوها مِنهم، ويُفسِدونَ في الأرضِ[٣].

- وصَوْغُ ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ أبلَغُ مِن (لا تكونوا مُخْسِرينَ)؛ لأنَّه يدُلُّ على الأمْرِ بالتبرُّؤِ مِن أهلِ هذا الصَّنيعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ هذا تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصِ بعضِ الموادِّ بالذِّكْرِ؛ لغايةِ انهماكِهم فيها[١].

- وفي الكلامِ تَرَقٍّ؛ ذكَرَ أوَّلًا الأمْرَ بإيفاءِ الكيلِ، وأكَّدَهُ بقولِه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ على الطَّردِ والعكسِ، ثمَّ ترقَّى إلى الأمْرِ بالعدلِ في الموازينِ؛ فإنَّها أكثرُ استعمالًا مِنَ المكاييلِ، ثمَّ جاء بهذا العامِّ، ثمَّ بأعمَّ منه: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾؛ فإنَّ بخْسَ الأشياءِ أعَمُّ مِن أنْ يكونَ في المِكيالِ أو الميزانِ، والعُثُوَّ أعمُّ مِن تنقيصِ الحُقوقِ وغيرِه مِن أنواعِ الفسادِ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ مَن أوْجَدهم قادرٌ على أنْ يُعذِّبَهم ويُهلِكَهم، وعطَفَ عليهم ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾؛ إيذانًا بذلك[٣].

- وأكَّدَ قولَه في صَدرِ خِطابِه ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بقولِه هُنا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وزاد فيه دليلَ استحقاقِه التقْوى بأنَّ اللهَ خلَقَهم، وخلَقَ الأُمَمَ مِن قبْلِهم، وباعتِبارِ هذه الزِّيادةِ أدخَلَ حرفَ العَطفِ على فِعلِ (اتَّقُوا)، ولو كان مُجرَّدَ تأكيدٍ لم يَصِحَّ عطْفُه. وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ إيماءٌ إلى نَبْذِ اتِّقاءِ غيرِه مِن شُركائِهم[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ نَفَوْا رِسالتَه عَنِ اللهِ كِنايةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٥).

وتَصريحًا؛ فزَعَموهُ مَسحورًا، أي: مُختلَّ الإدراكِ والتصوُّراتِ مِن جَرَّاءِ سِحرٍ سُلِّطَ عليه، وذلك كنايةٌ عن بُطلانِ أنْ يكونَ ما جاء به رسالةً عن اللهِ. وفي صيغةِ ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ مُبالَغةٌ؛ فهي تُفيدُ أنَّه معدودٌ في زُمرتِهم، ومَشهورٌ بأنَّه مِن جُملتِهم[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ جاء هُنا بالواوِ، وفي قِصَّةِ ثمودَ: ﴿مَا أَنْتَ﴾ بغيرِ واوٍ؛ فإنْ قيل: هلِ اختلَف المعنى بإدخالِ الواوِ هاهُنا، وتَرْكِها في قصَّةِ ثمودَ؟

فالجوابُ: إذا أُدخِلَتِ الواوُ فقدْ قُصِدَ معنَيانِ كِلاهما مُنافٍ للرِّسالةِ عِندَهم: التَّسحيرُ والبشريَّةُ، وأنَّ الرسولَ لا يَجوزُ أنْ يَكونَ مُسَحَّرًا، ولا يَجوزُ أنْ يَكونَ بَشرًا؛ فهي للدَّلالةِ على أنَّ كُلًّا مِنَ التَّسحيرِ والبشريَّةِ مُنافٍ للرِّسالةِ؛ مبالغةً في التَّكذيبِ. وإذا تُرِكَتِ الواوُ فلَمْ يُقصَدْ إلَّا معنًى واحدٌ، وهو كونُه مُسَحَّرًا، ثمَّ قُرِّرَ بكَونِه بشرًا مِثلَهم[2]. وقيل: الإتيانُ بواوِ العَطفِ في قولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يجعَلُ كونَه بشرًا إبطالًا ثانيًا لرِسالتِه، وتَرْكُ العطفِ في قصَّةِ ثمودَ يجعَلُ كونَه بشرًا حُجَّةً على أنَّ ما يَصدُرُ منه ليس وَحْيًا، بلْ هو مِن تأثيرِ كونِه مسحورًا؛ فمآلُ معنى الآيتَينِ مُتَّحِدٌ، ولكنْ طريقُ إفادتِه مختلِفٌ، وذلك على حسَبِ أُسلوبِ الحِكايتَيْنِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٦).

- فإنْ قيل: هذا بَيانُ خاصيَّةِ التَّركيبِ؛ فما بيانُ الأبلغيَّةِ، واختِصاصِ الواوِ بموضعٍ دونَ مَوضعٍ؟

فالجوابُ: أنَّ التركيبَ بدونِ الواوِ في قِصَّةِ ثمودَ يُفيدُ التوكيدَ والتقريرَ، والقطعَ بأنَّه بَشرٌ مِثلُهم، أي: لا يَنبغي أنْ نؤمِنَ برسالاتِكَ إلَّا بشيءٍ تمتازُ به عنَّا؛ ولهذا قالوا: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، والقومُ أَنْصَفوا في الطلَبِ؛ ولهذا قال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرۡبٌ﴾. وأمَّا قومُ شُعيبٍ عليه السَّلامُ فإنَّهم أثبتوا له شيئَيْنِ: كَوْنَه مُسَحَّرًا، وكونَه بشرًا مِثلَهم، كلُّ واحدٍ منهما مُستقِلٌّ في المنْعِ مِن كونِه رسولًا؛ يعني: نحنُ وأنتَ في عدمِ صلاحيةِ الرِّسالةِ لكَونِنا بشَرًا سواءٌ، ولك المزيةُ علينا في كونِكَ مُسَحَّرًا دونَنا، ثمَّ أكَّدوا ذلك بقولِهم: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، والظَّنُّ بمعنى اليقينِ؛ ولذلك أدخَلَ «إنْ» واللَّامَ، ولَمَّا كان هذا الرَّدُّ أبلَغَ مِنَ الأوَّلِ ما طلَبوا البرهانَ كما طلَبوا؛ حيثُ قالوا: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، بل قطَعوا بما يدُلُّ على اليأسِ مِن إيمانِهم بقولِهم: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ استهزاءً كما قطَع قريشٌ بقولِهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1] [الأنفال: ٣٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لَعلَّه جوابٌ لِمَا أشْعَر به الأمْرُ بالتَّقوى مِنَ التَّهديدِ[2]. والأمْرُ في قولِه: ﴿فَأَسۡقِطۡ﴾ أمْرُ تعجيزٍ[3].

٧- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ جاء جوابُ شُعيبٍ بإسنادِ العِلمِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤١٢، ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٧).

إلى اللهِ؛ فهو العالِمُ بما يَستحِقُّونه مِنَ العَذابِ ومِقدارِه، وكلمةُ ﴿أَعْلَمُ﴾ هُنا مُبالَغةٌ في العالِمِ، وليس هو بتَفضيلٍ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

- بيَّنَ اللهُ تعالى استِمرارَهم على ما كانوا عليه بقولِه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ﴾، أي: استمَرُّوا على ذلك، وكَذَّبوه تَكذيبًا بعْدَ تَكذيبٍ، هذا معنى الفاءِ والتكريرِ في ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، واتَّصلَ بذلك ﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾[٢].

- وقولُه: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الفاءُ فصيحةٌ، أي: فتبيَّنَ مِن قولِهم: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أنَّهم كذَّبوهُ، أي: تبيَّنَ التكذيبُ والثباتُ عليه بما دلَّ عليه ما قصَدوه مِن تعجيزِه؛ إذْ قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[٣] [الشعراء: ١٨٧].

- وفي إعادةِ فِعلِ التكذيبِ إيقاظٌ للمشركينَ بأنَّ حالَهم كحالِ أصحابِ شُعيبٍ؛ فيوشِكُ أنْ يكونَ عِقابُهم كذلك[٤].

- قولُه: ﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ في إضافةِ العذابِ إلى يومِ الظُّلَّةِ دونَ نفْسِها: إيذانٌ بأنَّ لهم يَومَئذٍ عذابًا آخَرَ غيرَ عذابِ الظُّلَّةِ[٥].

- وقِصَّةُ شُعيبٍ آخِرُ القصصِ السَّبْعِ التي أُوحيَتْ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، المذكورةِ على سَبيلِ الاختِصارِ؛ تَسليَةً له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٣).

وتَهديدًا للمُكذِّبينَ به[١]، ولصرفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الحِرصِ على إسلامِ قومِه، وقَطْعِ رجائِه عنه، ودفْعِ تحسُّرِه على فواتِه؛ تحقيقًا لمضمونِ ما مرَّ في مَطلَعِ السورةِ الكريمةِ مِن قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا۟ ...﴾ [الشعراء: ٥ -٦] الآيةَ؛ فإنَّ كلَّ واحدةٍ مِن هذه القصصِ ذِكرٌ مُستقِلٌّ، مُتجدِّدُ النُّزولِ، قد أتاهم مِن جهتِه تعالى بموجَبِ رحمتِه الواسعةِ، وما كان أكثرُهم مؤمنينَ بَعْدَما سمِعوها على التَّفصيلِ قصَّةً بعدَ قصَّةٍ، لا بأنْ يتدبَّروا فيها، ويَعتبروا بما في كلِّ واحدةٍ منها مِنَ الدَّواعي إلى الإيمانِ، والزَّواجرِ عن الكُفرِ والطُّغيانِ، ولا بأنْ يَتأمَّلوا في شأنِ الآياتِ الكريمةِ النَّاطقةِ بتلك القصصِ على ما هي عليه، مع عِلمِهم بأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يسمَعْ شيئًا منها مِن أحدٍ أصلًا، واستمَرُّوا على ما كانوا عليهِ مِنَ الكُفرِ والضَّلالِ كأنْ لم يَسمَعوا شيئًا يزجُرُهم عن ذلكَ[٢]!

٩- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كَرَّرَ هذا القولَ في هذه السُّورةِ في أوَّلِ كلِّ قِصَّةٍ وآخِرِها؛ لأنَّ كلَّ قصَّةٍ منها كتنزيلٍ برأسِه، وفيها مِنَ الاعتبارِ مِثلُ ما في غيرِها؛ فكانتْ كلُّ واحدةٍ منها تُدْلِي بحَقٍّ في أنْ تُفتتَحَ بما افتُتِحَتْ به صاحبتُها، وأنْ تُختتَمَ بما اختُتِمَتْ به، ولأنَّ في التكريرِ تقريرًا للمعاني في الأنفُسِ، وتَثبيتًا لها في الصُّدورِ؛ فإنَّه لا طَريقَ إلى تَحفُّظِ العلومِ إلَّا تَرديدُ ما يُرادُ تحفُّظُه منها، وكلَّما زاد تَرديدُه كان أمكَنَ له في القلبِ، وأرسَخَ في الفَهْمِ، وأثبَتَ للذِّكْرِ، وأَبْعَدَ مِنَ النِّسيانِ. ولأنَّ هذه القصصَ طُرِقَتْ بها آذانٌ وُقْرٌ عن الإنصاتِ للحَقِّ، وقُلوبٌ غُلْفٌ عن تدبُّرِه؛

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٣).

فَكُوثِرَتْ بالوعظِ والتذكيرِ، ورُوجِعَتْ بالترديدِ والتكريرِ؛ لعلَّ ذلك يفتَحُ أُذُنًا، أو يَفْتُقُ ذِهنًا، أو يَصْقُلُ عَقلًا طال عهْدُه بالصَّقْلِ، أو يَجْلو فَهْمًا قد غطَّى عليه تراكُمُ الصَّدَأِ[(١)].

- وكرَّرَ ما كرَّرَ في أوائلِ هذه القصصِ؛ تَنبيهًا على أنَّ طريقةَ الأنبياءِ واحدةٌ لا اختلافَ فيها، وهي الدعاءُ إلى توحيدِ اللهِ وعبادتِه، ورفْضِ ما سِواهُ، وأنَّهم ورسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُشترِكونَ في ذلك، وأنَّ ما جاء به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو ما جاءتْ به الرسُلُ قبْلَه، وتلك عادةُ الأنبياءِ[(٢)].

- وأيضًا جاءَتِ الألفاظُ في دُعاءِ كلِّ واحدٍ مِن هؤلاءِ الأنبياءِ واحدةً بعَيْنِها؛ إذْ كان الإيمانُ المدعوُّ إليه معنًى واحدًا بعَيْنِه[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٨)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٣٠-١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٧، ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٨).

الآيات (١٩٢-٢٠٩)

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زُبُرِ﴾: أي: كُتُب، جمعُ زَبورٍ، وهو: كلُّ كتابٍ ذي حِكمةٍ، مأخوذٌ مِن الزَّبْرِ، وهو الكِتابةُ والقِراءةُ[١].

﴿ٱلْأَعْجَمِينَ﴾: الأعجَمُ: مَن في لِسانِه عُجمةٌ، عربيًّا كان أو غيرَ عربيٍّ، وأصلُ (عجم): يدُلُّ على سُكوتٍ وصَمتٍ[٢].

﴿سَلَكْنَٰهُ﴾: أي: أدخَلْناه، وأصلُ (سلك): يدُلُّ على نفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ[٣].

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فجأةً، والبَغتُ: مُفاجأةُ الشَّيءِ مِن حيثُ لا يُحتسَبُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢١)، ((تفسير الطبري)) (١٧/ ٦٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((تفسير الطبري)) (٩/ ٢١٤)، ((مقاييس =

﴿مُنظَرُونَ﴾: أي: مُؤخَّرٌ عنا العذابُ، وممدودٌ في آجالِنا، والنَّظَرُ: الانتظارُ. يُقالُ: نظرْتُه وانتظَرْتُه وأنْظَرْتُه، أي: أخَّرْتُه، وأصلُ (نظر): تأمُّلُ الشَّيءِ ومُعاينَتُه[١].

﴿مَّتَّعْنَٰهُمْ﴾: أي: عمَّرْناهم، وأصلُ الإمتاعِ: الإطالةُ، يُقالُ للشيءِ الطويلِ: ماتعٌ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على منفعةٍ، وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ[٢].

﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾: أي: ما نَفَعهم وما دفَعَ عنهم، يُقالُ: أغْناني كذا، وأغْنَى عنه كذا: إذا كفاه، وأصلُ (غني) هنا: يدُلُّ على الكِفايةِ[٣].

﴿ذِكْرَىٰ﴾: أي: تَذكيرٌ، والذِّكرى: كثرةُ الذِّكرِ، وهو أبلَغُ مِن الذِّكْرِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى مصدرَ القرآنِ، والنازلَ به، والنازلَ عليه، وحكمةَ الإنزالِ، واللغةَ التي نزَل بها، فيقولُ: وإنَّ القرآنَ وحْيٌ مُنزَّلٌ مِن اللهِ ربِّ العالَمينَ، نزَل به على قَلبِك -يا مُحمَّدُ- جِبريلُ الأمينُ على الوَحيِ؛ لِتُنذِرَ به النَّاسَ، بلُغةٍ عربيَّةٍ واضحةِ البيانِ.

= اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٧/ ٦٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٠).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٧).

ثمَّ يبيِّنُ سبحانَه ما يدُلُّ على صِدقِ هذا القرآنِ ومَن جاء به، فيقولُ: وإنَّ هذا القُرآنَ لَمذكورٌ خَبَرُه في كتُبِ الأنبياءِ السَّابقينَ. أوَلَمْ يكُنْ لهؤلاء المُشرِكين المكَذِّبينَ عَلامةً على صِحَّةِ ما جئْتَهم به -يا مُحمَّدُ- عِلمُ عُلَماءِ بني إسرائيلَ صِدْقَ ذلك، ووجودُه في كُتُبِهم؟!

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى جحودَ الكافرينَ وعنادَهم، فيقولُ: ولو نزَّلْنا هذا القُرآنَ على رجُلٍ أعجميٍّ لا يَنطِقُ بالعربيَّةِ، فقرأه على مُشركي قَومِك بغيرِ لغةِ العربِ؛ لَما آمَنوا به، ولَقالوا: ما نَفْقَهُ قولَه! كذلك أدخَلْنا القُرآنَ في قُلوبِ المُشرِكين، فكَذَّبوا به، ولا يؤمِنون به حتى يرَوُا العذابَ الأليمَ مِن الله، وهو آتِيهم فجأةً، فيقولونَ حينَ يَرَون العذابَ: هل نحن مؤخَّرون ومُمهَلونَ يا رَبَّنا؟!

أيَستعجِلُ هؤلاء المجرِمون بعذابِنا؟ أخبِرْني إنْ أمهَلْناهم يتمَتَّعون في الدُّنيا سِنينَ كثيرةً، ثمَّ جاءهم بعْدَ تمتُّعِهم تلك السِّنينَ عذابُ اللهِ الذي كانوا يُوعَدون به، فماذا ينفَعُهم تمتُّعُهم في الدُّنيا، وإمهالُنا لهم؟!

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سُنَّتَه التي لا تتخلَّفُ، فيقولُ: وما أهلَكْنا قريةً مِن القُرى الظَّالِمةِ إلَّا بعْدَ إرسالِ رسُلِ الله المُنذِرينَ لهم، بعَثْنا هؤلاء الرسُّلَ تذكِرةً لأهل القرى، وما كُنَّا ظالِمين لهم بعْدَما أقَمْنا الحُجَّةَ عليهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ختمَ سُبحانَه ما اقتصَّه مِن خبرِ الأنبياءِ؛ ذَكَرَ بعدَ ذلك ما يدُلُّ على نبوَّتِه صلَّى الله عليه وسلَّم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٠).

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢﴾.

أي: وإنَّ القرآنَ وحْيٌ مِن اللهِ الذي ربَّى جميعَ العالَمينَ بنِعَمِه، وهداهم لمصالِحِهم برَحمتِه[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠].

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣﴾.

أي: نزَل بالقُرآنِ جِبريلُ المؤتمَنُ على وَحيِ اللهِ إلى أنبيائِه؛ فهو لا يَزيدُ فيه ولا يَنقُصُ منه شيئًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤﴾.

أي: نزَل جبريلُ بالقُرآنِ على قَلبِك -يا محمَّدُ- لِتَعِيَهُ وتحفَظَه، فتكونَ ممَّن يُنذِرُ النَّاسَ به[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

قال ابن عطية: (﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ جبريلُ عليه السلامُ، بإجماعٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٢).

وحكَى الإجماعَ أيضًا: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٢، ٦٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٥).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

أي: بلُغةٍ عَربيَّةٍ واضحةِ المعاني[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧].

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾.

أي: وإنَّ هذا القُرآنَ مَذكورٌ خبَرُه في كتُبِ الأنبياءِ السَّابقةِ المبشِّرةِ به، ممَّا يدُلُّ على صِحَّتِه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٧، ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يرجعُ إلى القرآنِ، أي: ذِكر القرآنِ، وخبره، وإنزاله، وهو قولُ أكثرِ المفسِّرينَ. =

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾.

أي: أوَلَمْ يكُنْ للمُشرِكين المكَذِّبين دَلالةً على صِحَّةِ ما جاء به الرَّسولُ مِن الوَحيِ؛ أنَّ العُلَماءَ مِن بني إسرائيلَ يَعلَمونَ صِدقَ ذلك، ويَجِدونَ ذِكرَه في كُتُبِهم التي يَدرُسونَها(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

= يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٨).

وقيل: الضميرُ يرجِعُ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أي: أمْره، ونعته، وصفة أُمَّتِه. وممَّن اختار ذلك في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٨٧).

وقال الزجاج: (وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تأويلُه -والله أعلَمُ- أنَّ ذِكرَ محمَّدٍ عليه السَّلامُ وذِكرَ القرآنِ في ﴿زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٨، ٢٨٩).

قال ابن تيميَّةَ: (علماءُ بني إسرائيلَ يَعلمونَ ذِكرَ إرسالِ محمَّدٍ ونزولَ الوحْيِ عليه... ويعلمونَ المعانيَ التي فيه أنَّها موافِقةٌ لأقوالِ الرُّسلِ قبْلَه في الخبرِ والأمرِ؛ فإنَّه أخبَرَ عن توحيدِ الله وصفاتِه، وعرشِه وملائكتِه، وخَلْقِه السَّمواتِ والأرضَ، وغيرِ ذلك بمِثلِ ما أخبَرَتْ به الرُّسلُ قبْلَه، وأمَرَ بتوحيدِ الله وعبادتِه وحْدَه لا شريكَ له، وبالعَدلِ والصِّدقِ والصَّلاةِ والزكاةِ، ونهى عن الشِّركِ والظُّلْمِ والفواحِشِ، كما أمرت ونهَت الرسُلُ قبْلَه). ((الجواب الصحيح)) (٥/ ٣٤٠، ٣٤١).

وقال ابن عاشور: (وفعلُ: ﴿يَعْلَمَهُۥ﴾ شامِلٌ للعِلمِ بصِفةِ القرآنِ، أي: تحقُّق صِدْقِ الصِّفاتِ الموصوفِ بها مَن جاء به، وشامِلٌ للعِلمِ بما يتضَمَّنُه ما في كُتُبِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٢).

وقال جلَّ وعزَّ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٠].

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا فَرغَ مِن الاستِدلالِ بتعجيزِهم؛ فضَحَ نيَّاتِهم بأنَّهم لا يُؤمِنون به في كلِّ حالٍ[1].

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

أي: ولو نزَّلْنا القُرآنَ على رجُلٍ مِن الأعاجِمِ لا يُحسِنُ التحَدُّثَ بالعربيَّةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالأعجَمينَ: الأعاجِمُ مِن بني آدمَ، وهم مَن لا يعرِفُونَ العربيَّةَ: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور، ونسَبه السمعانيُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: قَتادةُ، والأوزاعي، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٢٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٢٣).

وقيل: المراد: البهائِمُ التي لا تنطِقُ. وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ جريرٍ، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٥، ٦٤٧)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٣٥٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: عبد الله بن مطيع، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٢١).

وقال البقاعيُّ: (﴿ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ الذين لا يعرِفون شيئًا مِن لسانِ العرَبِ مِن البهائمِ أو الآدميِّينَ، جمعُ أعجَمَ، وهو مَن لا يفصِحُ وفي لسانِه عُجمةٌ، والأعجميُّ مِثلُه بزيادةِ تأكيدِ ياء النِّسبةِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٠٠، ١٠١). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

أي: فقرَأ القُرآنَ على كُفَّارِ العَرَبِ بغيرِ لُغةِ العربِ، لَما آمَنوا بأنَّه مِن عندِ اللهِ، ولَقالوا: لا نَفْقَهُ قولَك[1]!

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

أي: كذلك[2] .....

= وقال ابنُ جُزَي: (﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ...﴾ جمعُ أعجمَ، وهو الذي لا يتكلَّمُ، سواءٌ كان إنسانًا أو بهيمةً أو جمادًا... ومعنى الآيةِ: أنَّ القرآنَ لو نزَل على مَن لا يتكلَّمُ، ثمَّ قرأه عليهم لا يُؤمنوا؛ لإفراطِ عنادِهم، ففي ذلك تسليةٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم على كفرِهم به مع وضوحِ برهانِه). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ١٣٠٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بن سليمان، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: فقرَأ القُرآنَ على كُفَّارِ العَرَبِ باللُّغةِ العربيَّةِ معَ كَونِه لا يُحسِنُ العربيَّةَ، لَما آمَنوا بأنَّه مِن عندِ اللهِ؛ لشِدَّةِ تعَنُّتِهم وكُفرِهم. وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والبِقاعي، وأبو السعود، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٣).

قال ابن عثيمين: (المعنى أنَّه لو نزَّل اللهُ هذا القرآنَ على بعضِ الأعجَمينَ إنْ كان بلُغتِهم فإنَّهم لن يُؤمِنوا به؛ لأنَّهم لم يفهَموه، وهو بلُغةِ العَجَم، وإن كان باللغةِ العربيَّةِ ما آمنوا أيضًا؛ أَنَفةً مِن أن يتَّبعوا رجُلًا أعجميًّا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٠).

(٢) قال ابنُ جُزي: (﴿كَذَٰلِكَ﴾: مِثْلَ هذا السَّلْكِ سَلَكْناهُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٦). =

أدخَلْنا القُرآنَ في قُلوبِ المُشرِكين فكَذَّبوا به[١]!

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾.

أي: لا يُؤمِنونَ بالقُرآنِ حتى يَرَوا عذابَ اللهِ فيُؤمِنوا به حينَ لا ينفَعُهم الإيمانُ[٢].

= وقال السمينُ الحلبي: (قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ ﴾: أي: مِثلَ ذلك، أو الأمرُ كذلك). ((الدر المصون)) (٨/ ٥٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٥٦، ٥٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٩٨).

وممَّن قال بأنَّ الضمير عائدٌ إلى القرآنِ، أي: كذلك أدخَلْنا القرآنَ في قلوبِ المجرمينَ حتى فهِموا معانيَه، وقامَتْ عليهم الحُجَّةُ بمعرفتِهم صِدقَه، ومع ذلك كفروا به: القرطبيُّ، وابن القيم، والسمين الحلبي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: التكذيبُ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

قال ابنُ القيم: (الظاهرُ أنَّ الضميرَ في قولِه: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ هو الضميرُ في قوله: ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾، فلا يصِحُّ أن يكونَ المعنى: لا يؤمنون بالشِّركِ والتكذيبِ والاستهزاءِ، فلا تصِحُّ تلك الأقوالُ إلَّا باختلافِ مفسِّرِ الضميرَينِ، والظاهرُ اتِّحادُه؛ فالذينَ لا يؤمنونَ به هو الذي سلكَه في قلوبِهم، وهو القرآنُ. فإنْ قيل: فما معنى سَلْكِه إيَّاه في قلوبِهم وهم يُنكِرونَه؟ قيل: سَلكه في قلوبِهم بهذه الحالِ، أي: سلَكْناه غيرَ مؤمنينَ به، فدخَل في قلوبهم مُكَذَّبًا به، كما دخَل في قلوبِ المؤمنينَ مُصَدَّقًا به، وهذا مرادُ مَن قال: إنَّ الذي سلَكه في قلوبِهم هو التكذيبُ والضلالُ، ولكِنْ فَسَّر الآيةَ بالمعنى؛ فإنَّه إذا دخَل في قلوبِهم مكَذِّبينَ به، فقد دخَل التكذيبُ والضلالُ في قلوبِهم. فإنْ قيل: فما معنى إدخالِه في قلوبِهم وهم لا يؤمنونَ به؟ قيل: لِتَقومَ عليهم بذلك حُجَّةُ الله، فدخَل في قلوبِهم وعَلِموا أنَّه حَقٌّ، وكَذَّبوا به، فلمْ يدخُلْ في قلوبهم دُخولَ مُصَدَّقٍ به مؤمَنٍ به مَرضيٍّ به، وتكذيبُهم به بعدَ دخولِه في قلوبِهم أعظَمُ كُفرًا مِن تكذيبِهم به قبْلَ أن يدخُلَ في قلوبِهم؛ فإنَّ المكَذِّبَ بالحقِّ بعدَ معرفتِه له شَرٌّ مِن المكَذِّبِ به ولم يعرِفْه. فتأمَّلْه؛ فإنَّه مِن فقهِ التفسيرِ. والله الموفِّقُ للصوابِ). ((شفاء العليل)) (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٠٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا * وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ [الكهف: ٥٧، ٥٨].

﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٠٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان إتيانُ الشَّرِّ فُجاءةً أشَدَّ، وكان أخْذُه لهم عَقِبَ رؤيتِهم له مِن غيرِ مُهلةٍ يحصلُ فيها نوعُ استعدادٍ أصلًا- دلَّ على ذلك مصَوِّرًا لحالِه بقولِه، دالًّا بالفاءِ على الأشَدِّيةِ والتَّعقيبِ[1]:

﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٠٢﴾.

أي: فيأتيَ المكَذِّبينَ بالقُرآنِ عَذابُ الله فَجأةً بلا مُقَدِّماتٍ، وهم لا يَشعُرونَ بمَجيئِه[2].

= كثير)) (٦/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩١).

قال الشنقيطي: (هؤلاء الكُفَّارُ الذين ذكَرَ الله جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمة أنَّهم لا يؤمنون حتى يَرَوُا العذابَ الأليمَ، هُمُ الذين حَقَّتْ عليهم كَلِمةُ العذابِ، وسبَقَ في عِلمِ الله أنَّهم أشْقياءُ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٩٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٥). =

﴿فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ أنَّهم لا يُؤمِنون به حتى يَروُا العذابَ الأليمَ، وأنَّه يأتيهم العذابُ بغتةً؛ أتبعَه بما يكونُ منهم عندَ ذلك على وجهِ الحَسرةِ، فقال[1]:

﴿فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣﴾.

أي: فيقولَ المُجرِمونَ حينَ يأتيهم العَذابُ فَجأةً: هل نحن مؤخَّرون ومُمهَلُون لِنَتوبَ إلى اللهِ، فنُؤمِنَ ونعمَلَ صالِحًا[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ٢٠٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حقَّقَ سُبحانَه أنَّ حالَهم عندَ الأخذِ الجؤارُ بالذُّلِّ والصَّغارِ به؛ تسبَّبَ عنه ما يستَحِقُّون باستعجالِه مِن الإنكار[3].

وأيضًا لَمَّا أوعدَهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالعذابِ، قالوا: إلى متى

= قال ابن عاشور: (قولُه: ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾ صالحٌ للعذابين: عذابُ الآخرةِ يأتي عَقِبَ الموت، والموتُ يحصُلُ بغتةً، وعذابُ الدنيا بالسَّيفِ يحصُلُ بغتةً حينَ الضَّربِ بالسَّيفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٢).

تُوعِدُنا بالعَذابِ؟ ومتى هذا العذابُ؟ قال اللهُ تعالى[١]:

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

أي: أيَستعجِلُ هؤلاء المُجرِمونَ بعَذابِنا الذي لا يَنْبغي أن يُستهانَ به[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧١، ٧٢].

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان استعجالُهم بالعذابِ مُقتَضيًا أنَّهم في مُهلةٍ منه ومُتعةٍ بالسَّلامةِ، وأنَّ ذلك يَغُرُّهم بأنَّهم في مَنجاةٍ مِن الوعيدِ الذي جاءَهم على لسانِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ جابههم بجُملةِ[٣]:

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

أي: هَبْ أنَّ الأمرَ كما يعتَقِدونَ مِن طُولِ عَيشِهم، فأخبِرْني إنْ أمهَلْناهم وأبقَيناهم يتمتَّعونَ في الدُّنيا سِنينَ كَثيرةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٣، ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦﴾.

أي: ثمَّ جاءهم بعْدَ تلك السِّنينَ الكثيرةِ عذابُ الله الذي كانوا يوعَدُون به على كُفرِهم وتكذيبِهم[1].

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾.

أي: فماذا ينفَعُهم حينَها تمتُّعُهم في الدُّنيا، وتأخيرُنا عذابَهم سِنينَ كَثيرةً[2]؟!

= (٦/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٣).

قال أبو السعودِ: (الخطابُ لكُلِّ مَن يصلُحُ له كائنًا مَن كان). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٦).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٣).

ممَّن اختار أنَّ (ما) استفهاميَّةٌ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٣).

قال ابن عثيمين: (الأبلَغُ أن تكونَ استفهاميَّةً بمعنى النفْيِ؛ لأنَّ الاستفهامَ الذي بمعنى النفْيِ يَتضمَّنُ النفْيَ وزيادةً؛ إذ إنَّه مُشرَبٌ معنَى التحدِّي). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٤، ٢٩٥).

وقال السعدي: (﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ مِن اللذَّاتِ والشَّهَواتِ، أيْ: أيُّ شيءٍ يُغني عنهم ويُفيدُهم، وقد مضَت وبطَلَت واضْمَحَلَّتْ، وأعقَبَت تَبِعاتِها، وضُوعِفَ لهم العذابُ عندَ طولِ المدَّةِ؟! القصدُ أنَّ الحذَرَ مِن وُقوعِ العذابِ واستحقاقِهم له، وأمَّا تعجيلُه وتأخيرُه فلا أهميَّةَ تحتَه، ولا جَدْوَى عندَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

وقيل: (ما) نافيةٌ، وهو ظاهرُ اختيارِ الواحديِّ، والبغوي، والبيضاوي، والخازن، والعليمي. =

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُؤتَى بأنعَمِ أهلِ الدُّنيا مِن أهلِ النَّارِ يومَ القيامةِ، فيُصبَغُ في النَّارِ صَبغةً، ثمَّ يُقالُ: يا ابنَ آدَمَ، هل رأيتَ خيرًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بك نعيمٌ قطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا رَبِّ! ويُؤتَى بأشَدِّ النَّاسِ بُؤسًا في الدُّنيا مِن أهلِ الجنَّةِ، فيُصبَغُ صَبغةً في الجنَّةِ، فيُقالُ له: يا ابنَ آدَمَ، هل رأيتَ بؤسًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بك شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا ربِّ، ما مرَّ بي بؤسٌ قطُّ، ولا رأيتُ شِدَّةً قطُّ))[1].

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨ ﴾.

أي: وما أهلَكْنا قريةً مِن القُرى الماضيةِ إلَّا بعْدَ قيامِ الحُجَّةِ على أهلِها بإرسالِ رسُلٍ يُنذِرونَهم سَخَطَ اللهِ وعَذابَه إنِ استمَرُّوا على كُفرِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٠٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا بيَّن أنَّ أولئك المُشركينَ المُستهزئينَ لا يُؤمِنونَ بالكتابِ ولا بالرَّسولِ حتَّى يرَوُا العذابَ الأليمَ حينَ لا تَنفعُهم الآياتُ؛ أتَى بهذه الآيةِ بَيانًا لِاستحقاقِهم

= يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٠٣).

(١) رواه مسلم (٢٨٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

العذابَ والاستئصالَ، وأنْ يُجْعَلوا نَكالًا وعِبرةً لغيرِهم، كما جَرَت سُنَّةُ اللهِ تعالى في الأممِ السَّالفةِ، والقرونِ الخاليةِ[١].

﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٠٩﴾.

أي: بعَثْنا الرُّسُلَ المُنذِرينَ تذكرةً لأهلِ القُرى، وتنبيهًا لهم قبْلَ إهلاكِهم، وما كنَّا ظالِمين لهم بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليهم، وإنذارِهم، والإعذارِ إليهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- يكفي في الزُّهدِ في الدُّنيا قَولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾[٣].

٢- ما مضى مِن العُمُرِ وإنْ طالتْ أوقاتُه فقد ذهبتْ لَذَّاتُه، وبقيتْ تَبِعاتُه،

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥١، ٦٥٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).
قال ابن عثيمين: (قال المفسِّرُ [جلال الدين المحلي]: «﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في إهلاكِهم بعْدَ إنذارِهم»، وهذا صحيحٌ، ويحتمل: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: مُهلِكينَ بدُونِ إنذارٍ، والمعنى صحيحٌ على هذا الوجهِ، وعلى الوجهِ الذي ذكره المفسِّرُ؛ فالله تعالى إذا أهلكهم بعدَ إنذارِهم وقد عَصَوا، فهو لم يَظلِمْهم، وكذلك لا يمكنُ أن يُهلِكَ مَن لا يُنذَرَ؛ لأنَّ ذلك ظُلمٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٦).

وكأنَّه لم يكُنْ إذا جاء الموتُ وميقاتُه؛ قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾. تلا بعضُ السَّلَفِ هذه الآيةَ وبكى، وقال: (إذا جاء الموتُ لم يُغْنِ عن المرءِ ما كان فيه مِن اللذَّةِ والنَّعيمِ)[١]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ﴾ «تنزيلُ»: مصدرٌ بمعنى اسمِ المفعولِ، أي: لَمُنَزَّلٌ؛ لأنَّ القرآنَ نفْسَه ليس تنزيلًا، بلِ التنزيلُ فِعلُ اللهِ، والقرآنُ عبارةٌ عن شيءٍ مُنَزَّلٍ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[٢] [الفرقان: ١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ تأمَّلْ كيف اجتمعَتْ هذه الفضائلُ الفاخرةُ في هذا الكتابِ الكريمِ؛ فإنَّه أفضَلُ الكتُبِ، نَزَلَ به أفضلُ الملائكةِ، على أفضَلِ الخلْقِ، على أفضَلِ بَضْعةٍ فيه -وهي قلبُه-، على أفضلِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ، بأفضلِ الألسنةِ وأفصحِها وأوسَعِها، وهو اللسانُ العربيُّ المُبينُ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَولُه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه الرُّبوبيَّةُ العامَّةُ إشارةٌ إلى أنَّه مِن مُقتضى ربوبيَّتِه أنْ يكونَ مُنَزِّلًا لعبادِه هذا الكتابَ المفيدَ لهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ سؤالٌ: إنْ قيل: قال: ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، وهو إنما نَزَلَ عليه؟!

الجوابُ: أنَّه خصَّه بالذِّكرِ؛ لِيُؤَكِّدَ أنَّ ذلك المُنَزَّلَ محفوظٌ، والمُرسَلَ متمكِّنٌ مِن قلْبِه لا يجوزُ عليه التغيرُ، ولأنَّ القلبَ هو المخاطَبُ في الحقيقةِ؛ لأنَّه موضعُ التمييزِ والاختيارِ، وأمَّا سائرُ الأعضاءِ فمُسَخَّرةٌ له، ويدُلُّ على ذلك الكِتابُ والسُّنةُ؛ فمِن الكتابِ قَولُه تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، واستحقاقُ الجزاءِ ليس إلَّا على ما في القَلبِ؛ قال الله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

ومِن السُّنةِ قَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألَا وإنَّ في الجسَدِ مُضْغةً إذا صلَحَت صلَحَ الجَسدُ كُلُّه، وإذا فسَدَت فسَدَ الجسَدُ كُلُّه، ألَا وهي القَلبُ))[١]، ولأنَّ القَلبَ مَحَلُّ العَقلِ والفَهمِ، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾[٢] [الحج: ٤٦].

٥- قولُه تعالى: ﴿ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ هو جبريلُ عليه الصلاةُ والسلامُ، وقد وُصِفَ بالرُّوحِ؛ لأنَّه يَنْزِلُ بما فيه الحياةُ؛ وهو الوحيُ الذي به حياةُ القلوبِ[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ في قَولِه: ﴿ٱلۡأَمِينُ﴾ إشارةٌ إلى كَونِه معصومًا مِن كلِّ دَنَسٍ، فلا يُمكِنُ منه خيانةٌ[٤]. ووُصِفَ جبريلُ بالأمانةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٣).

والحديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (١/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٦).

لأنَّ المقامَ يقتضيه، وأمانةُ جبريلَ عليه الصلاةُ والسلامُ مِن عِدَّةِ أوجهٍ بالنسبةِ للقرآنِ:

أولًا: أمينٌ؛ بحيثُ لا يَنْزِلُ به إلَّا على مَن أُمِرَ به، وعلى هذا فيكونُ قولُ الرافضةِ -قَبَّحَهم اللهُ-: «إنْ جبريلَ أُمِر أن يَنزِلَ بالقرآنِ على عليٍّ؛ ولكنَّه خانَ فنَزَلَ به على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ» منافيًا لوصفِ جبريلَ عليه السلامُ بالأمانةِ!

ثانيًا: مقتضَى الأمانةِ أنْ يَنزِلَ به كما سَمِعه مِن اللهِ؛ لا يَزيدُ فيه ولا يَنقُصُ، ولا يُقَدِّمُ ولا يُؤَخِّرُ.

ثالثًا: أنْ يَنزِلَ به في الوقتِ الذي أُمِر بإنزالِه فيه؛ فلا يتأخَّرُ إذا أُوحيَ إليه به إلَّا بإذنِ اللهِ.

فهذه الأوصافُ الثلاثةُ مِن مقتضَى أمانةِ جبريلَ عليه الصلاةُ والسَّلامُ[(١)].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ تقريرٌ لحقِّيَّةِ تلك القصصِ، وتنبيهٌ على إعجازِ القرآنِ، ونُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّ الإخبارَ عنها ممَّنْ لم يتعلَّمْها لا يكونُ إلَّا وَحْيًا مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ[(٢)].

٨- قَولُه تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ يَدخُلُ تحتَ الإنذارِ فيه: الدُّعاءُ إلى كلِّ واجبٍ مِن علمٍ وعَمَلٍ، والمنعُ مِن كلِّ قبيحٍ؛ لأنَّ في الوجهينِ جميعًا يَدخُلُ الخوفُ مِن العقابِ[(٣)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ تقريعٌ عظيمٌ لِمَن يَعرِفُ لسانَ العربِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٢).

ولا يؤمِنُ بالتَّنزيلِ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ دَلالةٌ على وجوبِ فَهْمِ القرآنِ على ما يَقتَضيه ظاهرُه باللِّسانِ العربيِّ، إلَّا أنْ يمنعَ منه دَليلٌ شرعيٌّ[٢].

١١- قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ فلُغةُ العَرَبِ أفصَحُ اللُّغاتِ وأوسَعُها لاحتمالِ المعاني الدَّقيقةِ الشَّريفةِ مع الاختِصارِ؛ فإنَّ ما في أساليبِ نَظمِ كَلامِ العَرَبِ مِن علاماتِ الإعرابِ، والتَّقديمِ والتأخيرِ، والكنايةِ وغيرِ ذلك، وما في سَعةِ اللُّغةِ مِن الترادُفِ، وأسماءِ المعاني المقيَّدةِ، وما فيها من المحَسِّنات- ما يَلِجُ بالمعاني إلى العُقولِ سَهلةً مُتمَكِّنةً، فقدَّر اللهُ تعالى هذه اللُّغةَ أن تكونَ هي لُغةَ كتابِه الذي خاطبَ به النَّاسَ كافَّةً[٣]. ومِن الدعواتِ المستنكَرةِ في عَصرِنا الحاضرِ دعواتُ مَن يريدون أنْ يُذيبوا اللغةَ العربيَّةَ، مطالبينَ بجَعْلِ اللُّغةِ العاميَّةِ مكانَ اللُّغةِ العربيةِ في المُكاتباتِ والمراسلاتِ وغيرِهما! وأقبَحُ مِن ذلك مَن يحاولون أنْ يَتكلَّموا باللُّغةِ الأعجميَّةِ في أكثرِ محادثاتِهم، ويَفتخرونَ بلغةِ الإنجليزِ وغيرِهم، وتجدُهم يَتَشَدَّقون بالكلامِ بها[٤]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دليلٌ واضحٌ على عنايةِ اللهِ تعالى بهذا القُرآنِ وتشريفِه وتعظيمِه؛ حيثُ ذُكِرَ في كلِّ كتابٍ سَبَق[٥].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دليلٌ على أنَّه لو جاء هذا الكتابُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٧).

لوَجَبَ على جميعِ مَن يَدِينون بالكتبِ السابقةِ أنْ يؤمِنوا به[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ * أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دَلالةٌ على أنَّه ما كان مِن العِلْمِ المَوروثِ عن نبيِّنا محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فلنا أنْ نستشهِدَ عليه بما عندَ أهلِ الكتابِ[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أنَّ الشَّرائعَ لا تَلزَمُ إلَّا بعدَ العِلمِ، وأنَّه ما دام الإنسانُ غيرَ عالِمٍ بالشَّرعِ فإنَّه لا يُكَلَّفُ به[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى لا يُعَذِّبُ أحدًا ولا يُهلِكُه إلَّا بذَنْبِه، وبعْدَ إرسالِ الرَّسولِ إليه[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الله سبحانه وتعالى قادِرٌ على أنْ يُعَذِّبَ المطيعَ وإن أطاعَ، فهذا ليس مُستحيلًا، ولكِنَّه تبارك وتعالى مُنَزَّهٌ عنه؛ لكَمالِ عَدْلِه، وهذا فيه الرَّدُّ على الجهميَّةِ الذين يقولون: إنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى يَستحيلُ في حقِّه الظُّلمُ، يستحيلُ لِذاتِه، ومُحالٌ لذاتِه[٥]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عَوْدٌ إلى ما افتُتِحَتْ به السورةُ مِنَ التَّنويهِ بالقرآنِ، وكَوْنِه الآيةَ العُظمى بما اقتضاهُ قولُه: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٤٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٨).

ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ٢]؛ لتُختَتَمَ السورةُ بإطنابِ التَّنويهِ بالقُرآنِ، كما ابتُدِئَتْ بإجمالِ التَّنويهِ به، والتنبيهِ على أنَّه أعظَمُ آيةٍ اختارها اللهُ أنْ تكونَ معجزةَ أفضلِ المرسَلينَ؛ فضميرُ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى معلومٍ مِنَ المقام -وهو القرآنُ- بعْدَ ذِكْرِ آياتِ الرسلِ الأوَّلينَ، أي: إنَّه ليس بكهانةٍ ولا سِحرٍ، بلْ هو مِن عِندِ اللهِ، وكأنَّه عاد أيضًا إلى ما افتتَحَ به السورةَ مِن إعراضِ المشركينَ عمَّا يأتيهم مِنَ الذِّكْرِ؛ ليتناسبَ المفتتَحُ والمختتَمُ؛ فبواوِ العطفِ اتَّصلتِ الجملةُ بالجُمَلِ التي قبْلَها، وبضميرِ القرآنِ اتَّصلَ غرضُها بغرضِ صدرِ السورةِ؛ فجُملةُ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معطوفةٌ على الجُملِ التي قبْلَها المحكيَّةِ فيها أخبارُ الرسلِ المماثِلةِ أحوالُ أقوامِهم لحالِ قومِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما أيَّدَهُمُ اللهُ به مِنَ الآياتِ؛ ليُعْلَمَ أنَّ القرآنَ هو آيةُ اللهِ لهذه الأمَّةِ؛ فعطْفُها على الجُملِ التي مِثلُها عطْفُ القصَّةِ على القصَّةِ لتلك المناسَبةِ، ولكنَّ هذه الجملةَ مُتَّصلةٌ في المعنى بجُملةِ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ٢]؛ بحيثُ لولا ما فَصَلَ بيْنَها وبينَ الأخرى مِن طولِ الكلامِ لكانتْ معطوفةً عليها[١].

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ﴾ فيه التأكيدُ بـ(إنَّ) وَلامِ الابتداءِ؛ لرَدِّ إنكارِ المنكرينَ، و(التنزيلُ) مصدرٌ بمعنى المفعولِ؛ للمُبالَغةِ في الوصفِ، حتَّى كأنَّ المنزَّلَ نفْسُ التنزيلِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ بيانٌ لتنزيلِ ربِّ العالَمينَ، أي: كان تنزيلُه على هذه الكيفيَّةِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ فيه توجيهُ الخِطابِ إلى النبيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٨).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ في التنويهِ بالقرآنِ تسليةً له على ما يُلاقيهِ مِن إعراضِ الكافرينَ عن قَبولِه وطاعتِهم فيه[١].

- وعبَّر بحرفِ الاستِعلاءِ (على) في قولِه: ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّمكُّنِ مِمَّا سُمِّيَ بقَلْبِ النَّبيِّ[٢].

- قولُه: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿نَزَلَ بِهِ﴾، أي: أنزلَه لتُنذِرَهم بما في تضاعيفِه مِنَ العُقوباتِ الهائلةِ، وجاء النَّظْمُ الكريمُ بهذا، ولم يُعبِّرْ مثلًا بقولِه: (لتكونَ مُنذِرًا)؛ للدَّلالةِ على انتظامِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في سلكِ أولئك المنذِرينَ المشهورينَ في حقِّيَّةِ الرِّسالةِ، وتقرُّرِ وقوعِ العذابِ المُنذَرِ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ عِلَّةٌ في التنزيلِ أو النُّزولِ، اقتُصِرَ عليها؛ لأنَّ ذلك أزْجَرُ للسامعِ، وإنْ كان القرآنُ نزلَ للإنذارِ والتبشيرِ[٤]، ولأنَّها أخصُّ بغرضِ السورةِ؛ فإنَّها افتُتِحَتْ بذِكْرِ إعراضِهم وبإنذارِهم[٥].

٤- قولُه تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ أي: نزَّلَه باللِّسانِ العربيِّ؛ فالأصلُ التعريفُ فيه، وأنَّه للعهْدِ، وأُوثِرَ التنكيرُ في التنزيلِ؛ ليُؤْذِنَ بالتعظيمِ والتفخيمِ[٦].

- وقولُه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ هو أيضًا مُتعلِّقٌ بـ﴿نَزَلَ بِهِ﴾، وتأخيرُه؛ للاعتناءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٨، ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٠).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤١٨).

بأمْرِ الإنذارِ، وللإيماءِ إلى أنَّ مدارَ كونِه مِن جُملةِ المنذِرينَ المذكورينَ عليهِمُ السلامُ مُجرَّدُ إنزالِه عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لا إنزالُه باللِّسانِ العربيِّ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تنويهٌ آخَرُ بالقرآنِ بأنَّه تُصدِّقُه كُتبُ الأنبياءِ الأوَّلينَ بموافقتِها لِمَا فيه، وخاصَّةً في إخبارِه عن الأُمَمِ وأنبيائِها[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تنويهٌ ثالثٌ بالقرآنِ، وحُجَّةٌ على التنويهِ الثاني به الذي هو شهادةُ كُتبِ الأنبياءِ له بالصِّدقِ، بأنَّ علماءَ بَني إسرائيلَ يَعلَمونَ ما في القرآنِ ممَّا يَختصُّ بعِلمِهم؛ فباعتبارِ كَوْنِ هذه الجملةِ تنويهًا آخَرَ بالقرآنِ عُطِفَتْ على الجملةِ التي قبْلَها، ولولا ذلك لكان مقتضى كونِها حُجَّةً على صِدقِ القرآنِ ألَّا تُعطَفَ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تقريرٌ لكونِه دليلًا على صِحَّةِ القرآنِ أو نُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤]، وهو بيانٌ لِعنادِهم، وتقريرٌ بأنَّ كلًّا مِنَ القصصِ مُستقلَّةٌ[٥].

- وهمزةُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ للإنكارِ والنفيِ، والواوُ للعطفِ على مُقَدَّرٍ يَقتضيه المقامُ؛ كأنَّهُ قيل: أَغَفَلُوا عن ذلك، ولم يكُنْ لهم آيةٌ دالَّةٌ على أنَّه تنزيلٌ مِن ربِّ العالَمينَ، وأنَّه في زُبُرِ الأوَّلينَ؟! على أنَّ ﴿لَّهُمْ﴾ مُتعلِّقٌ بالكونِ، قُدِّم على اسمِه وخبرِه؛ للاهتمامِ به، أو بمحذوفٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٠، ١٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤١٧).

هو حالٌ مِن ﴿ءَايَةً﴾، قُدِّمَتْ عليها؛ لكونِها نكِرةً، و ﴿ءَايَةً﴾ خبرٌ للكونِ قُدِّمَ على اسمِه الذي هو قولُه تعالى: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ للاعتناءِ والتشويقِ إلى المؤخَّرِ(١).

٧- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ في لفظِ (البعضِ) إشارةٌ إلى كونِ ذلك واحدًا مِن عُرْضِ تلك الطَّائفةِ كائنًا مَن كان(٢).

٨- قولُه تعالى: ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾

- أظهَرَ اللهُ بُهتانَهم في هذه الآيةِ بأنَّهم إنَّما قالوا ذلك حيثُ جاءهم بالقرآنِ رسولٌ عربيٌّ، وأنَّه لو جاءهم بهذا القرآنِ رسولٌ أعجميٌّ لا يَعرِفُ العربيَّةَ بأنْ أوحى اللهُ بهذه الألفاظِ إلى رسولٍ لا يفهمُها، ولا يُحسِنُ تأليفَها، فقرأَهُ عليهم، وفي قراءتِه وهو لا يُحسِنُ اللُّغةَ أيضًا خارِقُ عادةٍ؛ لو كان ذلك لَمَا آمَنوا بأنَّه رسولٌ، مع أنَّ ذلك خارِقٌ للعادةِ -وذلك على أحدِ القولينِ في تفسيرِ الآيةِ-؛ فزيادةُ قولِه: ﴿عَلَيْهِم﴾ زيادةُ بيانٍ في خَرْقِ العادةِ، يعني: أنَّ المشركينَ لا يُريدونَ ممَّا يُلْقُونَه مِنَ المطاعِنِ البحثَ عن الحقِّ، ولكنَّهم أصَرُّوا على التكذيبِ، وطَفِقوا يتحمَّلونَ أعذارًا لتكذيبِهم؛ جُحودًا للحقِّ، وتستُّرًا مِنَ اللائِمينَ(٣).

- وجُملةُ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] إلى قولِه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]؛ لأنَّ قولَه: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤] أفاد أنَّه أُوتِيَه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٣).

مِن عِندِ اللهِ، وأنَّه ليس مِن قوْلِ النبيِّ، لا كما يقولُ المشركونَ: ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾[١] [الطور: ٣٣].

٩- قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ بيانيَّةٌ، أي: إنْ سألتَ عن استمرارِ تكذيبِهم بالقرآنِ في حينِ أنَّه نزَلَ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، فلا تعجَبْ؛ فكذلك السُّلوكِ سَلَكْناهُ في قُلوبِ المشركينَ؛ فهو تشبيهٌ للسُّلوكِ المأخوذِ مِن (سَلَكْنَاهُ) بنفْسِه لغرابتِه، أي: هو سلوكٌ لا يُشبِهُه سُلوكٌ، وهو أنَّه دخَلَ قُلوبَهم بإبانتِه، وعرَفوا دلائلَ صِدقِه مِن أخبارِ علماءِ بَني إسرائيلَ، ومع ذلك لم يؤمِنوا به[٢]، وذلك على أحدِ القولينِ في تفسيرِ الآية.

- وفيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ تقدَّمَ نظيرُ أوَّلِ هذه الآيةِ في سورةِ (الحِجْرِ)، إلَّا أنَّ آيةَ (الحِجْرِ) قيل فيها: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ﴾ [الحجر: ١٢]، وفي هذه الآيةِ قيل: ﴿سَلَكۡنَٰهُ﴾؛ فوجْهُ اختيارِ المضارعِ في آيةِ (الحِجْرِ): أنَّهُ دالٌّ على التجدُّدِ؛ لئلَّا يُتَوَهَّمَ أنَّ المقصودَ إبلاغٌ مضَى؛ وهو الذي أُبْلِغَ لِشيَعِ الأوَّلينَ لِتَقَدُّمِ ذِكْرِهم؛ فيُتَوَهَّمَ أنَّهمُ المرادُ بالمجرمينَ مع أنَّ المرادَ كفَّارُ قريشٍ، وأمَّا هذه الآيةُ فلَمْ يَتَقَدَّمْ فيها ذِكْرٌ لغيرِ كفَّارِ قريشٍ؛ فناسَبَها حكايةُ وقوعِ هذا الإبلاغِ مُنذُ زمنٍ مضى؛ وهم مُستمِرُّونَ على عدمِ الإيمانِ[٣].

- وعبَّر عَنِ المشركينَ بـ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ لأنَّ كُفرَهم بعْدَ نُزولِ القرآنِ إجرامٌ[٤].

١٠- قولُه تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾

- جملةُ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ مستأنَفةٌ، مَسوقةٌ لبيانِ أنَّهم لا يتأثَّرونَ بأمثالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٩٥).

تلك الأمورِ الداعيةِ إلى الإيمانِ به، بلْ يَستمرُّونَ على ما هُمْ عليه. وقيل: موقعُ هذه الجملةِ مِن قولِه: ﴿سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ موقعُ الموضِّحِ والمُلخِّصِ؛ لأنَّه مَسوقٌ لثباتِه مُكذَّبًا مجحودًا في قُلوبِهم؛ فأُتْبِعَ بما يُقرِّرُ هذا المعنى مِن أنَّهم لا يَزالونَ على التكذيبِ به وجُحودِه حتَّى يُعاينوا الوعيدَ. ويجوزُ أنْ يكونَ حالًا، أي: سَلَكْناهُ فيها غيرَ مُؤْمَنٍ به[١].

- والغايةُ في ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ تهديدٌ بعذابٍ سيحُلُّ بهم، وحثٌّ على المبادَرةِ بالإيمانِ قبْلَ أنْ يحُلَّ بهِمُ العذابُ[٢].

١١- قولُه تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

- معنى التعقيبِ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ... فَيَقُولُوا۟﴾ ليس ترادُفَ رؤيةِ العذابِ ومفاجأتِه، وسؤالِ النظرةِ فيه في الوجودِ، وإنَّما المعنى ترتُّبُها في الشِّدَّةِ؛ كأنَّه قيل: لا يؤمنونَ بالقرآنِ حتَّى تكونَ رؤيتُهم للعذابِ، فما هو أشدُّ منها؛ وهو لُحوقُه بهم مفاجأةً، فما هو أشدُّ منه؛ وهو سؤالُهُمُ النظرةَ[٣]. وقيل: الأوْجَهُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ بدَلَ اشتمالٍ مِن جملةِ ﴿يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، وأُدْخِلَتِ الفاءُ فيها لبيانِ صورةِ الاشتمالِ، أي: إنَّ رؤيةَ العذابِ مُشتمِلةٌ على حُصولِه بَغتةً، أي: يَرَوْنَه دَفْعةً دونَ سَبْقِ أشراطٍ له[٤].

١٢- قولُه تعالى: ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ يقولونَ هذا تحسُّرًا على ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٧، ٣٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٥).

فات مِنَ الإيمانِ، وتمنِّيًا للإمهالِ لتَلافي ما فرَّطوهُ؛ فالاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ للتحسُّرِ والتأسُّفِ، أُتْبِعَ قولُه: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ بما يكونُ منهم عِندَ ذلك على وجهِ الحسرةِ ﴿فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾، كما يستغيثُ إليه المرءُ عِندَ تعذُّرِ الخلاصِ؛ لأنَّهم يعلمونَ في الآخرةِ أنْ لا ملجَأَ، لكنَّهم يقولونَ ذلك استرواحًا، أو يقولونَ: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ على جِهةِ التمنِّي منهم والرغبةِ؛ فـ (هَلْ) مُستعمَلةٌ في استفهامٍ مُرادٍ به التمنِّي، وجِيءَ بعْدَها بالجملةِ الاسميَّةِ الدالَّةِ على الثباتِ، أي: تَمَنَّوْا إنظارًا طويلًا يتمكَّنونَ فيه مِنَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ، أو يطلبونَ الرَّجْعةَ حينَ يَبْغَتُهم عذابُ الساعةِ، فلا يُجابون إليها[1].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَيَقُولُواْ﴾ لإفادةِ التعقيبِ في الوجودِ، وهو صادقٌ بأسرعِ تعذيبٍ؛ فتكونُ خَطِرةً في نُفوسِهم قبْلَ أنْ يَهْلِكوا في الدُّنيا، أو يقولونَ ذلك ويُردِّدونَه يومَ القيامةِ حينَ يَرَوْنَ العذابَ، وحينَ يُلْقَوْنَ فيه[2].

١٣- قولُه تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا تبْكيتٌ لهم بإنكارٍ وتهكُّمٍ، ومعنى التَّبكيتِ: أنَّه لمَّا قيلَ: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ عقَّبَ ذلك بقولِه: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ إسكاتًا لهم مع إنكارٍ وتهكُّمٍ، أي: كيف يَستعجِلونَ ما حالُه ما ذُكِرَ، وهي أنَّه ما يأْتيهم بَغتةً، ويسْألون عندَ ذلك الإمهالَ فلا يُمْهَلون؟! والعاقلُ لا يَستعجِلُ ما فيه دَمارُه. وهذا معنى التَّبكيتِ؛ لأنَّه كلامٌ جارٍ على العُرفِ والعادةِ، والعاقلُ لا يَدفَعُ الكلامَ المُنصِفَ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا حِكايةَ توبيخٍ يُوبَّخون به عندَ استنظارِهم يَومَئذٍ، و﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ على هذا الوجْهِ مُضارِعٌ وقَعَ موقعَ الماضي على حِكايةِ الحالِ الماضيةِ في

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٥).

الدُّنيا، وكان مِن حَقِّ الظَّاهرِ: أفبعذابِنا اسْتعجَلْتُم؟!

وفيه وجْهٌ آخرُ مُتَّصلٌ بما بعْدَه -أي: بقولِه: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾-؛ وذلك أنَّ استعجالَهم بالعذابِ إنَّما كان لاعتِقادِهم أنَّه غيرُ كائنٍ ولا لَاحِقٍ بهم، وأنَّهم مُمَتَّعون بأعمارٍ طوالٍ في سلامةٍ وأمْنٍ؛ فقال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أشَرًا وبطَرًا واستهزاءً، واتِّكالًا على الأملِ الطَّويلِ، ثمَّ قال: هَبْ أنَّ الأمرَ كما يَعتقِدون مِن تَمتيعِهم وتَعميرِهم، فإذا لَحِقَهم الوعيدُ بعْدَ ذلك ما يَنفعُهم حينَئذٍ ما مضى مِن طُولِ أعمارِهم، وطِيبِ مَعايشِهم. أي: أنْ يَتِمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾، ثمَّ يُبْتدَأُ مِن قولِه: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ على تأويلِ: أتَسْتهزِئون فتَستعجلون بعذابِنا؟! فالفاءُ في ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ عطْفٌ على هذا المُقدَّرِ، وفي ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ للتَّسبيبِ، أي: استِهزاؤُهم ذلك سببٌ لأنْ يُتعجَّبَ منهم، ويُقالَ لكلِّ سامعٍ: أرأيْتَ إنْ مَتَّعناهم سِنينَ؛ فإذَنِ الهمزةُ في ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ جِيء بها لمزيدِ الإنكارِ والتَّعجُّبِ، وعلى الأوَّلِ الفاءُ في ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ عاطِفةٌ؛ عطَفَت (رأيتَ) على مُقدَّرٍ، أي: أُخبِرَ فيَتعجَّب؟ والهمزةُ غيرُ مُقْحمةٍ؛ فتكونُ الجُملةُ مُستقلَّةً[1].

- والفاءُ في قولِه: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ للعطفِ على مُقدَّرٍ يقْتضيه المقامُ، أي: أيكونُ حالُهم كما ذُكِرَ مِن الاستنظارِ عندَ نُزولِ العذابِ الأليمِ، فيَسْتعجلونَ بعذابِنا، وبيْنَهما مِن التَّنافي ما لا يَخْفى على أحدٍ، وأيَغْفُلون عن ذلك مع تحقُّقِه وتقرُّره فيَستعجلونَ... إلخ؟! وإنَّما قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ (بعذابِنا)؛ للإيذانِ بأنَّ مصَبَّ الإنكارِ والتَّوبيخِ كونُ المُستعجَلِ به عذابَه تعالى، مع ما فيه مِن رِعايةِ الفواصلِ، وللاهتمامِ به في مَقامِ الإنذارِ، أي: ليس شأْنُ مِثلِه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٢٥، ٤٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٣).

أنْ يُستعجَلَ؛ لفَظاعتِه[١].

- ونَشأَ عن قولِه: ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ تَقديرُ جوابٍ عن تكرُّرِ سُؤالِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، حيثُ جعَلوا تأخُّرَ حُصولِ العَذابِ دَليلًا على انتفاءِ وُقوعِه؛ فأعقبَ ذلك بقولِه: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾؛ فالفاءُ في قولِه: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ تفيدُ تَعقيبَ الاستفهامِ عَقِبَ تكرُّرِ قولِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ [يونس: ٤٨] ونَحوِه، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التعجُّبِ مِن غُرورِهم، أي: أيستعجلونَ بعَذابِنا؟ فما تأخيرُه إلَّا تمتيعٌ لهم[٢].

١٤- قولُه تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَفَرَءَيْتَ﴾ لَمَّا كانَتِ الرُّؤيةُ مِن أقوى أسبابِ الإخبارِ بالشَّيءِ وأَشهرِها، شاعَ استعمالُ (أَرَأَيْتَ) في معنى (أَخْبِرْني)، والخِطابُ لكلِّ مَن يَصلُحُ له كائنًا مَن كانَ، والفاءُ لترتيبِ الاستخبارِ على قولِهم: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾، وما بيْنَهما اعتراضٌ؛ للتوبيخِ والتبكيتِ، وهي متقدِّمةٌ في المعنى على الهمزةِ، وتأخيرُها عنها صورةً؛ لاقتضاءِ الهمزةِ الصَّدارةَ؛ أي فأخْبِرْني...[٣].

- والاستفهامُ في ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ ﴾ للتَّقريرِ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴾ مُعترِضةٌ، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ دلَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٦).

عليه ما سَدَّ مَسَدَّ مفعولَيْ (رَأَيْتَ)[١].

١٥- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ معطوفٌ على جُملةِ الشرطِ المُعترِضةِ، و(ثُمَّ) فيه للترتيبِ والمُهْلةِ، أي: جاءهم بعْدَ سِنينَ، وفيه رمْزٌ إلى أنَّ العذابَ جَائِيهم، وحَالٌّ بهم لا مَحالةَ، و ﴿مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ موصولٌ وصِلتُه، والعائدُ محذوفٌ تقديرُه: يوعَدونَه[٢].

١٦- قولُه تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾

- على القولِ بأنَّ (ما) استفهاميَّةٌ؛ فالاستفهامُ في قولِه: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ والنفيِ، أي: لم يُغْنِ عنهم شيئًا. وقيل: إنَّ (ما) نافيةٌ، والأوَّلُ هو الأَوْلَى؛ لكونِه أوفَقَ لصورةِ الاستخبارِ، وأدلَّ على انتفاءِ الإغناءِ على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه؛ كأنَّ كلَّ مَن مِن شأنِه الخِطابُ قد كُلِّفَ أنْ يُخبرَ بأنَّ تمتيعَهم ماذا أفادَهم؟ وأيُّ شيءٍ أغنى عنهم؟ فلَمْ يَقدِرْ أحدٌ على أنْ يُخبرَ بشيءٍ مِن ذلك أصلًا[٣].

- و﴿مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ موصولٌ وصِلتُه، والعائدُ محذوفٌ تقديرُه: يُمَتَّعُونَه[٤].

١٧- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ الاستثناءُ هنا استثناءٌ مِن أحوالٍ مَحذوفةٍ، والتَّقديرُ: وما أهلَكْنا مِن قريةٍ في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالٍ لها مُنذِرونَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٩٦، ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٩٧، ١٩٨).

- وفي قولِه: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ عُبِّرَ عن الرُّسلِ بصِفةِ الإنذارِ؛ لأنَّه المُناسِبُ للتَّهديدِ بالإهلاكِ[١]. وجُمِعَ ﴿مُنذِرُونَ﴾؛ لأنَّ ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ عامٌّ في القُرى الظَّالمةِ، كأنَّه قيلَ: وما أهلَكْنا القُرى الظَّالمةَ[٢].

١٨- قولُه تعالى: ﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فنُهلِكُ غيرَ الظَّالمينَ قبْلَ الإنذارِ، والتَّعبيرُ عن ذلك بنفْيِ الظَّالميَّةِ؛ لبَيانِ كَمالِ نَزاهتِه تعالى عن ذلك بتَصويرِه بصُورةِ ما يَستحيلُ صُدورُه عنه تعالى مِن الظُّلمِ[٣].

- ومُفادُ جُملةِ ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ الإعذارُ لكفَّارِ قُريشٍ، والإنذارُ بأنَّهم سيحُلُّ بهم هَلاكٌ. وحُذِفَ مفعولُ ﴿ظَالِمِينَ﴾؛ لقَصْدِ تَعميمِه، كقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٤] [الكهف: ٤٩].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٨).

الآيات (٢١٠-٢٢٠)

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَمَعْزُولُونَ﴾: أي: ممنوعونَ، يُقالُ: عزَلَ الشَّيءَ: إذا نحَّاه في جانبٍ، وأصلُ (عزل): يدُلُّ على تنحيةٍ وإمالةٍ[١].

﴿عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾: أي: أهلَك وقَومَك الأقربينَ نَسَبًا، وأصلُ العِشرةِ والعَشيرةِ: مِن المخالَطةِ والمداخَلةِ[٢].

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾: أي: وألِنْ جانِبَك وكلامَك، وتواضَعْ لهم، وارفُقْ بهم[٣].

﴿بَرِيٓءٌ﴾: فعيلٌ بمعنى فاعلٍ مِن (برِئ)، بمعنى التفصِّي والتنزُّهِ ونفي المخالطةِ، فالبريءُ: الخليُّ عن التلبُّسِ بشيءٍ وعن مخالطتِه، وأصلُ (برأ) هنا: يدُلُّ على التباعُدِ مِن الشيءِ ومزايلتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٧/ ٦٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٧/ ٦٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢١)، =

المعنى الإجماليُّ:

يُؤكِّدُ الله تعالى على أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِه، ويردُّ على شبهاتِ المشركينِ، فيقولُ: وما تنزَّلت الشَّياطينُ بهذا القُرآنِ على مُحمَّدٍ، ولا يَنْبغي لهم ذلك ولا يَسْتطيعونَه؛ لأنَّهم مَحجوبونَ عن سَماعِ القُرآنِ في السَّماءِ.

ثمَّ ينهَى سبحانَه عن الشركِ، فيقولُ: فلا تَدْعُ مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ فتُعذَّبَ مع المعَذَّبينَ.

ويأمرُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ يجهرَ بدعوتِه، وبأن يتوكَّلَ عليه وحْدَه، فيقولُ: وأنذِرْ قَومَك الأقرَبينَ عذابَ الله إنْ لم يؤمِنوا، وألِنْ جانِبَك لِمَنِ اتَّبَعك مِن المؤمِنينَ، وارفُقْ بهم، فإنْ عصاك قومُك الأقربَون فقُلْ لهم: إنِّي بريءٌ ممَّا تعمَلون مِن شِركٍ وعِصيانٍ، واعتَمِدْ على اللهِ العزيزِ القاهرِ الذي لا يُغلَبُ، الرَّحيم الذي لا يَعجَلُ بالعُقوبةِ، الذي يراك حينَ تقومُ إلى صلاتِك، ويراك وأنت تتقَلَّبُ في الصَّلاةِ معَ المصَلِّينَ بينَ القيامِ والرُّكوعِ والسُّجودِ، إنَّ اللهَ هو السَّميعُ العليمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا احتَجَّ تعالى على صدْقِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم بكونِ القرآنِ تنزيلَ ربِّ العالَمينَ، وإنَّما يُعرَفُ ذلك لوقوعِه مِن الفصاحةِ في النهايةِ القصوى، ولأنَّه مُشتَمِلٌ على قَصَصِ المتقدِّمينَ مِن غيرِ تفاوتٍ، مع أنَّه عليه السَّلامُ لم يَشتغِلْ بالتعَلُّمِ والاستفادةِ، فكان الكفَّارُ يقولون: لِمَ لا يجوزُ أنْ يكونَ هذا مِن إلقاءِ

= ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٢) و(١١/ ١٧٦).

الجِنِّ والشياطينِ كسائرِ ما يَنزِلُ على الكَهَنةِ؟! فأجاب اللهُ تعالى عنه بأنَّ ذلك لا يَتسَهَّلُ للشياطينِ؛ لأنَّهم مَرجومون بالشُّهُبِ، معزولون عنِ استِماعِ كلامِ أهلِ السَّماءِ[١].

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠﴾.

أي: وما نزَلَت الشَّياطينُ بالقُرآنِ على محمَّدٍ، بل نزَل به عليه جبريلُ الأمينُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥].

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ٢١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان لا يلزَمُ مِن عَدَمِ التلَبُّسِ بالفِعلِ عَدَمُ الصَّلاحيةِ له؛ قال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾ أي: ما يصِحُّ وما يُتصَوَّرُ منهم النُّزولُ بشَيءٍ منه، ولَمَّا كان عدَمُ الانتفاءِ لا يلزَمُ منه عدَمُ القُدرةِ؛ قال: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: النُّزولَ به وإن اشتَدَّت مُعالجتُهم، على تقديرِ أن يكونَ لهم قابليَّةٌ لذلك[٣].

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ٢١١﴾.

أي: ولا يَنبغي ولا يَصِحُّ للشَّياطينِ أن ينزِلوا بالقُرآنِ؛ لأنَّهم لا يُريدونَه؛ لِمُخالفتِه أحوالَهم ومقاصِدَهم، وحتى لو أرادوا إنزالَه فإنَّهم لا يستطيعونَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٤)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٣٤٨، ٣٤٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٦، ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦-١٠].

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

أي: لأنَّهم محجوبون مِن سَماعِ القُرآنِ في السَّماءِ[(١)].

كما قال الله سبحانه وتعالى حاكيًا قَولَ الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨، ٩].

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ نزولَ القرآنِ مِن عندِه، وحقَّق صدقَه بأنَّه مذكورٌ في كتبِ الأنبياءِ السالفينَ، وشهِد به علماءُ بني إسرائيلَ، وأنحَى على المشركينَ بإبطالِ ما ألصقوه بالقرآنِ مِن بهتانِهم؛ لا جَرَمَ اقتضَى ذلك ثبوتَ ما جاء به القرآنُ،

= قال ابنُ تيمية: (بيَّن قولُه: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾ أنَّهم لا يريدونَ تنزيلَه، وبقولِه: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أنَّهم عاجِزونَ عن تنزيلِه). ((الجواب الصحيح)) (٥/ ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٥).

قال الواحدي: (حِيلَ بيْنَهم وبينَ السَّمعِ بالملائكةِ والشُّهُبِ، وهو قَولُه: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾). ((الوسيط)) (٣/ ٣٦٤).

وأصلُ ذلك هو إبطالُ دينِ الشركِ الذي تقلَّدَتْه قريشٌ وغيرُها، وناضَلتْ عليه بالأكاذيبِ؛ فناسَبَ أن يتفرَّعَ عليه النهيُ عن الإشراكِ بالله، والتحذيرُ منه[1].

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾.

أي: فلا تدْعُ مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ تَعبُدُه وتسألُه، فتكونَ مُعَذَّبًا مِن المعَذَّبينَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

قيل: الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ جرير، والبقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٠٢).

قال ابن عثيمين: (قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ الخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا يلزَمُ مِن النَّهيِ عنه إمكانُ وقوعِه، كما أنَّ الله تعالى يأمُرُ المؤمنينَ بالثَّباتِ على الإيمانِ، وينهاهم عن الشِّركِ، وهو لم يقَعْ منهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٠٢).

وقال الخازن: (الخطابُ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ به غيرُه؛ لأنَّه معصومٌ مِن ذلك). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣٢).

وقال الشوكاني: (خِطابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بهذا معَ كونِه منزَّهًا عنه، معصومًا منه؛ لحثِّ العبادِ على التوحيدِ، ونهيِهم عن شوائبِ الشركِ، وكأنَّه قال: أنتَ أكرَمُ الخَلقِ علَيَّ، وأعزُّهم عندي، ولو اتخَذْتَ معي إلهًا لعذبْتُك، فكيف بغيرِك مِن العبادِ؟!). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٨).

وقال الشنقيطي: (النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يُخاطَبُ بمِثلِ هذا الخِطابِ، والمرادُ التشريعُ لأمَّتِه). ((أضواء البيان)) (٦/ ١٠٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٥).

وقيل: الخِطابُ لغيرِ مُعَيَّنٍ، يشملُ كلَّ مَن يسمعُ هذا الكلامَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: أبو حيَّان، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٠).

وقال مكِّي: (﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أي: قلْ يا محمدُ لِمَن كفَر: لا تَدْعُ مع اللهِ إلهًا آخَرَ). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦].

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا سلَّى الله تعالى رسولَه أوَّلًا، ثمَّ أقام الحُجَّةَ على نبوَّتِه ثانيًا، ثمَّ أورد سؤالَ المنكِرينَ وأجاب عنه ثالثًا؛ أمَره بعْدَ ذلك بما يَتعلَّقُ ببابِ التبليغِ والرِّسالةِ[1].

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

أي: وحذِّرْ قَومَك الأقرَبينَ إليك نَسَبًا مِن عذابِ اللهِ إنْ لم يؤمِنوا، وقدِّمْ إنذارَهم على إنذارِ غيرِهم، ولا تُحابِهم لِقُربِهم[2].

= ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (٨/ ٥٣٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٣٢).

قال ابن كثير: (هذه النِّذارةُ الخاصَّةُ لا تنافي العامَّةَ، بل هي فردٌ مِن أجزائها، كما قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦]، وقال: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]... وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]... وفي صحيح مُسلم: «والذي نفْسي بيَدِه، لا يسمَعُ بي أحدٌ مِن هذه الأمَّةِ؛ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثمَّ لا يؤمنُ بي، إلَّا دخل النَّارَ»). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٦). ويُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠٠).

وقال ابن عثيمين: (هذا في أوَّلِ الدَّعوةِ، أُمِرَ أن يُنذِرَ عَشيرتَه الأقربينَ؛ لأنَّهم أحقُّ النَّاسِ ببرِّه، ولأنَّهم بمقتضى القَرابةِ -لا بمقتضى الواقعِ- أقرَبُ الناسِ إلى الإيمانِ به، ولأنَّهم أيضًا =

عن ابنِ عباسٍ رَضيَ الله عنهما، قال: ((لَمَّا نزلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعِدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الصَّفا فجعَل ينادي: يا بني فِهْرٍ، يا بني عَدِيٍّ -لبُطونِ قُريش- حتى اجتَمَعوا، فجعَل الرجُلُ إذا لم يستطِعْ أن يخرُجَ أرسَلَ رَسولًا؛ لِيَنظُرَ ما هو، فجاء أبو لهبٍ وقُرَيشٌ، فقال: أرَأَيْتَكم لو أخبَرْتُكم أنَّ خَيلًا بالوادي تريدُ أن تُغيرَ عليكم، أكنتُم مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: نعَمْ، ما جرَّبْنا عليك إلَّا صِدقًا، قال: فإنِّي نذيرٌ لكم بيْنَ يَدَيْ عذابٍ شديدٍ، فقال أبو لهبٍ: تبًّا لك سائِرَ اليوم، ألهذا جمَعْتَنا؟! فنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١، ٢]))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا أُنزِلَت هذه الآيةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قُرَيشًا، فاجتَمَعوا فعَمَّ وخَصَّ، فقال: يا بَني كَعبِ بنِ لُؤَيٍّ، أنقِذوا أنفُسَكم مِنَ النَّارِ، يا بَني مُرَّةَ بنِ كَعبٍ، أنقِذوا أنفُسَكم مِن النَّارِ، يا بني عَبدِ شَمسٍ، أنقِذوا أنفُسَكم مِن النَّارِ، يا بني عبدِ مَنافٍ، أنقِذوا أنفُسَكم مِنَ النَّارِ، يا بني هاشِمٍ، أنقِذوا أنفُسَكم مِنَ النَّارِ، يا بني عبدِ المطَّلِبِ، أنقِذوا أنفُسَكم مِن النَّارِ، يا فاطمةُ، أنقِذي نفْسَكِ من النَّارِ؛ فإنِّي لا أملِكُ لكم مِنَ الله شيئًا، غيرَ أنَّ لكم رَحِمًا سأَبُلُّها بِبَلالِها[٢]))[٣].

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

= بمقتضى القرابةِ هم أشَدُّ النَّاسِ غَيرةً عليه، ولأنَّهم أيضًا بصِلةِ القرابةِ هم أعظَمُ النَّاسِ حَقًّا عليه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٠٤).

(١) رواه البخاري (٤٧٧٠) واللفظ له، ومسلم (٢٠٨).

(٢) سأَبُلُّها بِبَلالِها بفتحِ الباءِ الثانيةِ وكسرِها، والبلالُ: الماءُ، أي: أصِلُها بصلتِها، شُبِّهت قطيعةُ الرحمِ بالحرارةِ، ووصلُها بإطفاءِ الحرارةِ ببرودةٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٨٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٢٢).

(٣) رواه البخاري (٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٤) واللفظُ له.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانتِ النِّذارةُ إنَّما هي للمُتَولِّينَ؛ أمَر بضِدِّها لأضْدادِهم[١]، فبَعْدَ أنْ أمَره بإنذارِ المشركينَ مِن قومِه؛ أمَره بالرِّفقِ بالمؤمنينَ[٢]، فقال:

﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ ﴾.

أي: وألِنْ جانِبَك لأتْباعِك المؤمِنينَ، وتواضَعْ لهم، وارفُقْ بهم، وتودَّدْ إليهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإنذارُ يترتَّبُ عليه إمَّا الطاعةُ وإمَّا العصيانُ، جاء التَّقسيمُ عليهما، فكأنَّ المعنى: أنَّ مَنِ اتَّبَعَك مؤمِنًا فتواضَعْ له؛ فلذلك جاء قسيمُه: «فإنْ عصَوْك فتَبَرَّأْ منهم ومِن أعمالِهم»[٤].

﴿ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦ ﴾.

أي: فإنْ خالَفَ أمرَك قَومُك الأقرَبون ولم يتَّبِعوك، فقُلْ لهم: إنِّي بَريءٌ مِمَّا تَعمَلونَ مِن شِرْكِكم وعِصيانِكم[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٩/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩)، ((منع جواز المجاز)) للشنقيطي (ص: ٣٠، ٣١).

(٤) يُنظر: ((البحر المحيط)) لأبي حيان (٨/ ١٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾.

= (٦/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿عَصَوْكَ﴾: مَن أُمِر بإنذارِهم مِن عشيرتِه: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن الجوزي، وابن عطية، والنسفي، وأبو حيان، وجلال الدين المحلي، والشربيني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٣٣).

قال أبو حيان: (وقيل: الضميرُ يعودُ على مَن اتَّبَعه مِن المؤمنينَ، أي: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ -يا محمَّدُ- في الأحكامِ وفروعِ الإسلام، بعْدَ تصديقِك والإيمانِ بك ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا منكم، أي: أظهِرْ عدَمَ رضاك بعَمَلِهم، وإنكارَك عليهم). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٧).

وهذا القولُ هو ظاهرُ اختيارِ ابنِ تيميَّةَ، واختاره السعديُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

قال السعدي: (﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ في أمرٍ مِن الأمورِ، فلا تتبرَّأْ منهم، ولا تترُكْ معاملتَهم بخَفضِ الجَناحِ، ولِينِ الجانبِ، بل تبرَّأْ مِن عملِهم، فعِظْهم عليه وانصحْهم، وابذُلْ قدرتَك في ردِّهم عنه، وتوبتِهم منه، وهذا لدفعِ احترازٍ وهْمٍ مِن يتوهَّمُ أنَّ قولَه: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ للمؤمنينَ، يقتضي الرِّضاءَ بجميعِ ما يصدُرُ منهم، ما داموا مؤمنينَ، فدفَع هذا بهذا، والله أعلم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

وقال الشوكاني: (﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي: خَالَفوا أمْرَكَ ولم يَتَّبعوكَ... وهذا يدُلُّ على أنَّ المرادَ بالمؤمنينَ المشارفونَ للإيمانِ، المصدِّقونَ باللِّسانِ؛ لأنَّ المؤمنينَ الخلَّصَ لا يَعْصونَه ولا يُخالِفونَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٨).

وذكر ابنُ عثيمين أنَّ المرادَ: عشيرتُه أو غيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٠٦).

واختار العمومَ أيضًا ابنُ كثير، فقال: (ومَن عصاه مِن خَلقِ الله كائنًا مَن كان فليتبرَّأْ منه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التبَرُّؤُ يُؤذِنُ بحُدوثِ مجافاةٍ وعَداوةٍ بيْنَه وبيْنَهم؛ ثَبَّتَ اللهُ جأشَ رسولِه بألَّا يَعبَأَ بهم، وأنْ يتوكَّلَ على ربِّه فهو كافيه[1]، فقال تعالى:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾.

أي: واعتَمِدْ في جميعِ أمورِك على اللهِ العزيزِ في نِقمتِه مِن أعدائِه، فلا يُقهَرُ ولا يُغالَبُ؛ الرَّحيمِ الذي يقبَلُ التَّوبةَ مِن عبادِه، ولا يَعجَلُ بالعُقوبةِ ولا يَخذُلُ أولياءَه، وفوِّضْ أمورَك إليه؛ لِيَحفَظَك ويَنصُرَك[2].

﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ ﴾.

أي: توكَّلْ على اللهِ الذي يراك حينَ تقومُ إلى صَلاتِك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦٥، ٦٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠٣).

قال القرطبي: (أي: حينَ تقومُ إلى الصَّلاةِ، في قولِ أكثَرِ المفَسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤٤).

وقال ابن عاشور: (القيامُ: الصلاةُ في جَوفِ الليلِ، غلَب هذا الاسمُ عليه في اصطلاحِ القرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٤).

وقال ابن كثير: (قال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ يعني: إلى الصَّلاةِ. وقال عِكْرِمةُ: يرى قيامَه وركوعَه وسجودَه. وقال الحسَنُ: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾: إذا صلَّيتَ وحْدَك. وقال الضحَّاكُ: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي: مِن فراشِك أو مجلِسِك. وقال قَتادةُ: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ ﴾: قائِمًا وجالِسًا وعلى حالاتِك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧١).

وقال الشنقيطي: (أي: الذي يراك حينَ تقومُ إلى صلاتِك، وحينَ تقومُ مِن فِراشِك ومَجلِسِك). ((أضواء البيان)) (٦/ ١٠٣).

كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾.

أي: ويَراك وأنت معَ المصَلِّينَ تتقَلَّبُ في الصَّلاةِ قائِمًا وراكِعًا وساجِدًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت هذه الأحوالُ مُشتَمِلةً على الأقوالِ، وكان قد قَدَّمَ الرُّؤيةَ المتضَمِّنةَ للعِلمِ؛ عَلَّلَ ذلك بالتَّصريحِ به مقرونًا بالسَّمعِ، فقال[٢]:

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لجَميعِ الأصواتِ، العليمُ بجميعِ الأعمالِ والأحوالِ والنيَّاتِ، ومِن ذلك سَماعُه لتلاوةِ محمَّدٍ، وذِكرِه في صلاتِه، العليمُ بما يعمَلُ فيها وبما في قَلبِه مِن الإيمانِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦٩، ٦٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠٣).
قال الواحدي: (﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: ويرى رُكوعَك وسُجودَك وقيامَك مع المصَلِّينَ في الجماعةِ. والمعنى: يراك إذا صَلَّيتَ وحْدَك، ويراك إذا صلَّيتَ في الجماعةِ راكعًا وساجِدًا وقائِمًا، هذا قَولُ أكثَرِ المفسِّرينَ). ((الوسيط)) (٣/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دليلٌ على أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يُرشِدَ ويَعِظَ الأقربَ منه فالأقربَ، وهو مَسؤولٌ سؤالًا مُباشِرًا بالنِّسبةِ إلى أهلِه(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه وظيفةُ المسلم مع إخوانِه؛ أنْ يكونَ هَيِّنًا لَيِّنًا بالقَولِ وبالفِعلِ؛ لأنَّ هذا ممَّا يُوجِبُ المودَّةَ والأُلفةَ بينَ النَّاسِ، وهذه الأُلفةُ والمودَّةُ أمرٌ مطلوبٌ للشَّرعِ؛ ولهذا نهَى النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن كُلِّ ما يُوجِبُ العداوةَ والبَغضاءَ، مِثلُ البَيعِ على بَيعِ المُسلِمِ، والسَّوْمِ على سَومِ المُسلِمِ(٢)، وغيرِ ذلك ممَّا هو معروفٌ لكثيرٍ مِن النَّاسِ(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ هذه أخلاقُه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أكمَلُ الأخلاقِ التي يحصُلُ بها مِن المصالحِ العظيمةِ، ودفْعِ المَضَارِّ ما هو مُشاهَدٌ، فهل يليقُ بمؤمنٍ باللهِ ورسولِه، ويدَّعي اتِّباعَه

= قال البقاعي: (شمولُ العلمِ يستلزمُ تمامَ القدرةِ، فصار كأنَّه قال: إنَّه السميعُ العليمُ البصيرُ القديرُ؛ تثبيتًا للمتوكِّلِ عليه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١١٠، ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢١٣٩)، ومسلم (١٤١٢) من حديث عبد الله بن عُمرَ رضي الله عنهما. وما أخرجه البخاري (٢٧٢٧)، ومسلم (١٤٠٨/ ٣٨) و(١٤١٣) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

والسَّومُ صورتُه: أن يأخُذَ شيئًا ليشتريَه، فيقولَ له: رُدَّه لأبيعَك خيرًا منه بثمنِه أو مِثلَه بأرخَصَ، أو يقولَ للمالكِ: استردَّه لأشتريَه منك بأكثرَ، ومحلُّه بعدَ استقرارِ الثمنِ، وركونِ أحدِهما إلى الآخَرِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٥٤٤).

والاقتِداءَ به أنْ يكونَ كَلًّا على المُسلمينَ، شَرِسَ الأخلاقِ، شديدَ الشَّكيمةِ عليهم، غليظَ القلبِ، فَظَّ القَولِ فظيعَه؟!

وإنْ رأى منهم معصيةً أو سوءَ أدبٍ هَجَرَهم ومقَتَهم وأبغضَهم، لا لِينَ عندَه، ولا أدبَ لديه ولا توفيقَ! قد حَصَّلَ مِن هذه المعاملةِ مِن المفاسدِ وتعطيلِ المصالحِ ما حَصَّلَ، ومع ذلك تجدُه محتَقِرًا لِمَنِ اتَّصفَ بصفاتِ الرَّسولِ الكريمِ، وقد رماه بالنِّفاقِ والمُداهَنةِ، وقد كمَّل نفْسَه ورَفَعَها، وأُعجِبَ بعمَلِه، فهل هذا إلَّا مِن جهْلِه وتزيينِ الشَّيطانِ وخَدْعِه له[1]؟!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إرشادٌ إلى ألَّا تتعالى على المؤمنينَ، ولا ترتَفِعَ في الجوِّ، بل اخفِضِ الجَناحَ، حتى وإنْ كنتَ تستطيعُ أنْ تطيرَ في الجوِّ، فاخفِضْ جَناحَك لِمَن اتَّبَعك مِن المؤمنينَ، وأمَّا مَن خالَفَك وعصاك فأقِمْ عليه العُقوبةَ اللائقةَ به؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يَقُلْ: «اخفِضْ جناحَك لكلِّ أَحَدٍ»، بل قال: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

٥- أعظَمُ مُساعدٍ للعبدِ على القيامِ بما أُمِرَ به: الاعتِمادُ على ربِّه، والاستِعانةُ بمولاهُ على توفيقِه للقيامِ بالمأمورِ؛ فلذلك أمَرَ اللهُ تعالى بالتوكُّلِ عليه، فقال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾[3].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ * إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، فاستِحضارُ العبدِ رُؤيةَ اللهِ له في جَميعِ أحوالِه، وسَمْعَه لكُلِّ ما ينطِقُ به، وعِلمَه بما ينطوي عليه قَلبُه مِن الهَمِّ والعَزمِ والنيَّاتِ:

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

ممَّا يُعينُه على مَنزلةِ الإحسانِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّ القرآنَ تَفِرُّ منه الشَّياطينُ، وأنَّه لا يمكِنُ أنْ تَقرَبَه، وقد أخبَرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في بعضِ الآياتِ أنَّها تَطْرُدُ الشَّياطينَ، كما في (البَقَرةِ) وفي (آيةِ الكرسيِّ) وما أشبَهَ ذلك[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ كلَّما انقادَ للشَّيطانِ ابتعدَ عن فَهمِ القُرآنِ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾؛ لأنَّهم شياطينُ، فمَن كان شَيطانًا -والشَّيطانُ مِن بني آدمَ هو الذي يتلقَّى ما تأمُرُه الشَّياطينُ به- فإنَّه يُعزَلُ أيضًا عن فَهمِ القُرآنِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ في هذا إبطالٌ للكهانةِ مِن أصْلِها[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ لم يَقُلْ: «مُعذَّبًا، أو ستُعَذَّب»؛ إشارةً إلى أنَّ المُشرِكين الكُفَّارَ كثيرون، والذي يدعو مع اللهِ إلهًا آخَرَ يكونُ منهم[٥].

٥- السِّرُّ في الأمرِ بإنذارِ الأقرَبينَ أوَّلًا في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أنَّ الحُجَّةَ إذا قامتْ عليهم تَعَدَّتْ إلى غيرِهم، وإلَّا فكانوا عِلَّةً للأبعَدينَ في الامتِناعِ، وأيضًا ألَّا يأخُذَه ما يأخُذُ القَريبَ للقَريبِ مِن العَطفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٠٣).

والرأفةِ، فيُحابيَهم في الدَّعوةِ والتَّخويفِ؛ فلذلك نُصَّ له على إنذارِهم[١]، وإنْ كان مأمورًا بإنذارِ النَّاسِ كافَّةً، كما قال: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢]؛ لأنَّ في إنذارِهم -وهم عشيرتُه- عدَمَ مُحاباةٍ ولُطفٍ بهم، وأنَّهم والنَّاسَ في ذلك شرَعٌ واحدٌ[٢] في التَّخويفِ والإنذارِ، فإذا كانتِ القرابةُ قد خُوِّفوا وأُنْذِروا مع ما يَلْحقُ الإنسانَ في حقِّهم مِن الرَّأفةِ؛ كان غيرُهم في ذلك أوكَدَ وأدْخَلَ. أو لأنَّ البُداءةَ تكونُ بمَن يَلِيه ثمَّ مَن بعْدَه، كما قال: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾[٣] [التوبة: ١٢٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ تحقيقَ الإيمانِ إنَّما يكونُ في اتِّباعِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنه لَمَّا قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾، فهو إذا أنذَرَ إمَّا أنْ يُتَّبَعَ وإمَّا ألَّا يُتَّبَعَ[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ كَونَه سُبحانَه سَميعًا أمرٌ مُغايرٌ لعِلْمِه بالمَسموعاتِ، وإلَّا لكان لفْظُ العليمِ مفيدًا فائدتَه[٥]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ردٌّ لِمَا زعَمَه الكفَرةُ في حقِّ القرآنِ الكريمِ مِن أنَّه مِن قَبيلِ ما يُلقيه الشَّيطانُ على الكَهنةِ، بعْدَ تحقيقِ الحقِّ ببَيانِ أنَّه نزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ؛ فقولُه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَإِنَّهُۥ

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٠٣).

(٢) أي: مُتساوونَ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢١/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٧).

لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، وما بيْنَهما اعتراضٌ، استدعاهُ تَناسبُ المعاني، وأخْذُ بعضِها بحُجَزِ بَعضٍ؛ تفنُّنًا في الغرَضِ، وهذا رَدٌّ على قولِهم في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هو كاهنٌ، وزعْمِهم أنَّ الَّذي يأْتِيه شيطانٌ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾

- مفعولُ ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾ محذوفٌ، أي: ما يَستطيعونَهُ[٢]؛ ولعلَّ ذلك لرِعايةِ الفاصِلةِ.

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ استِئنافٌ؛ فكان كالفَذْلَكةِ[٣] لِمَا قبْلَه، وهو بعُمومِه يَتنزَّلُ مَنزلةَ التَّذييلِ[٤].

- وأُعيدَت الضَّمائرُ بصِيغةِ العُقلاءِ ﴿لَهُمۡ .. يَسۡتَطِيعُونَ .. إِنَّهُمۡ .. لَمَعۡزُولُونَ﴾ بعْدَ أنْ أُضمِرَ لهم بضَميرِ غيرِ العقلاءِ في قولِه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ﴾؛ اعتبارًا بمُلابسةِ ذلك للكُهَّانِ[٥].

- وما أحسَنَ ما تَرتَّبَ نَفْيُ هذه الجُملِ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٨، ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٩).

(٣) الفَذْلكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغَ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و (الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحساب، أي: مُجمَلُ تفاصيله، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٩، ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٩٩).

وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾؛ حيثُ نَفى أوَّلًا تَنزيلَ الشَّياطينِ به، والنَّفيُ في الغالبِ يكونُ في المُمكنِ، وإنْ كان هنا لا يُمكِنُ مِن الشَّياطينِ التَّنزُّلُ بالقرآنِ، ثمَّ نفَى انبغاءَ ذلك والصَّلاحيَّةَ، أي: ولو فُرِضَ الإمكانُ لم يَكونوا أهْلًا له، ثمَّ نفَى قُدرتَهم على ذلك، وأنَّه مُستحيلٌ في حقِّهم التَّنزُّلُ به؛ فارْتَقى مِن نفْيِ الإمكانِ إلى نفْيِ الصَّلاحيَّةِ، إلى نفْيِ القُدرةِ والاستطاعةِ، وذلك مُبالَغةٌ مُترتِّبةٌ في نَفْيِ تَنزيلِهم به، ثمَّ علَّلَ انتفاءَ ذلك عن استماعِ كلامِ أهلِ السَّماءِ: بأنَّهم مَرْجومون بالشُّهبِ[(١)].

٤- قولُه تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ فيه تَوجيهُ الخِطابِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مع ظُهورِ استحالةِ صُدورِ المُنْهَى عنه عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَهييجًا وحثًّا على ازديادِ الإخلاصِ، ولُطفًا لسائرِ المُكلَّفينَ؛ ببَيانِ أنَّ الإشراكَ مِن القُبْحِ والسُّوءِ بحيث يُنْهَى عنه مَن لا يُمكِنُ صُدورُه عنه، فكيف بمَن عدَاهُ[(٢)]؟! ولأنَّه المُبلِّغُ عن اللهِ تعالى، فللاهتمامِ بهذا النَّهيِ وقَعَ تَوجيهُه إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مع تحقُّقِ أنَّه مُنْتَهٍ عن ذلك؛ فتعيَّنَ أنْ يكونَ النَّهيُ للَّذين هم مُتلبِّسونَ بالإشراكِ، والمقصودُ مِن مِثلِ ذلك الخِطابِ غيرُه ممَّن يَبلُغُه الخِطابُ؛ فالمعنى: فلا تَدْعوا مع اللهِ إلهًا آخَرَ، فتَكونوا مِن المُعذَّبينَ. وفي هذا تعريضٌ بالمُشركينَ أنَّهم سيُعذَّبون؛ للعِلْمِ بأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابَه غيرُ مُشركينَ. وقيل: هو خِطابٌ لغيرِ مُعيَّنٍ؛ فيَعُمُّ كلَّ مَن يَسمعُ هذا الكلامَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٠).

٥- قولُه تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾[الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]؛ فهو تَخصيصٌ بعدَ تَعميمٍ؛ للاهتمامِ بهذا الخاصِّ. ووجْهُ الاهتمامِ أنَّهم أَوْلَى النَّاسِ بقَبولِ نُصحِه، وتعزيزِ جانبِه، ولئلَّا يَسبقَ إلى أذهانِهم أنَّ ما يُلْقِيه الرَّسولُ مِن الغِلظةِ في الإنذارِ وأهوالِ الوعيدِ لا يقَعُ عليهم؛ لأنَّهم قرابةُ هذا المُنذِرِ وخاصَّتُه. وأنَّ فيه تَعريضًا بقلَّةِ رَعْيِ كثيرٍ منهم حقَّ القرابةِ؛ إذ آذاهُ كثيرٌ منهم وعصَوهُ، مثلُ أبي لَهبٍ؛ فلا يَحْسَبوا أنَّهم ناجونَ في الحالتينِ، وأنْ يَعلَموا أنَّهم لا يُكتَفى مِن مُؤمنِهم بإيمانِه حتَّى يضُمَّ إليه العملَ الصَّالحَ، فهذا ممَّا يَدخلُ في النِّذارةِ. والعشيرةُ: هم الأدْنونَ مِن القبيلةِ، فوصْفُ الأقربينَ تأكيدٌ لمعنى العشيرةِ، واجتلابٌ لقُلوبِهم إلى إجابةِ ما دَعاهم إليه، وتعريضٌ بأهلِ الإدانةِ منهم[(١)].

٦- قولُه تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ مُعترِضٌ بيْنَ الجُملتينِ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ و: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾؛ ابتدارًا لكرامةِ المؤمنينَ قبْلَ الأمْرِ بالتَّبرُّؤِ مِن الَّذين لا يُؤمِنون -على أحدِ القولينِ في المرادِ بقولِه: ﴿عَصَوْكَ ﴾-، وبعْدَ الأمْرِ بالإنذارِ الَّذي لا يَخْلو مِن وقْعٍ أليمٍ في النُّفوسِ[(٢)].

- قولُه: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كِنايةٌ عن التَّواضُعِ[(٣)].

- قولُه: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المُتَّبِعون للرَّسولِ هم المُؤمنونَ، والمُؤمِنون هم المُتبِعون للرَّسولِ؛ فوجْهُ تَسميتِهم قبْلَ الدُّخولِ في الإيمانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٠- ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٧).

(مؤمنين): مُشارفَتُهم ذلك، أو أنْ يُريدَ بالمُؤمنينَ المُصدِّقينَ بألْسِنَتِهم، وهم صِنفانِ: صِنفٌ صَدَّق واتَّبَع رسولَ اللهِ فيما جاء به، وصِنْفٌ ما وُجِدَ منه إلَّا التَّصديقُ فحسْبُ، ثمَّ إمَّا أنْ يَكونوا مُنافقينَ أو فاسقينَ، والمُنافِقُ والفاسقُ لا يُخفَضُ لهما الجَناحُ؛ فـ(مِن) على الأوَّلِ: بَيانٌ. وعلى الثَّاني: تَبعيضٌ، ومَوقعُه مَوقعُ البدلِ ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾، والتَّقديرُ: واخفِضْ جَناحَك لبعضِ المؤمنينَ. والَّذي هو أجْرى على أفانينِ البلاغةِ: أنْ يُحمَلَ الكلامُ على أُسلوبِ وضْعِ المُظهَرِ موضِعَ المُضمرِ، وأنَّ الأصلَ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ * وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ (منهم)؛ فعُدِلَ إلى ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لِيَعُمَّ، ولِيُؤذِنَ أنَّ صِفةَ الإيمانِ هي الَّتي تَستحِقُّ أنْ يُكرَمَ صاحبُها، ويُتواضَعَ لأجْلِها لِمَن اتَّصَف بها، سواءٌ كان مِن عَشيرتِك أو مِن غَيرِهم[1]. وقيل: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بَيانٌ لـ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾؛ فإنَّ المُرادَ المُتابَعةُ في الدِّينِ، وهي الإيمانُ. والغرضُ مِن هذا البَيانِ: التَّنويهُ بشأْنِ الإيمانِ، كأنَّه قيلَ: واخفِضْ جَناحَك لهم؛ لأجْلِ إيمانِهم. وجَبْرٌ لخاطِرِ المؤمنينَ مِن قَرابتِه[2].

- وأيضًا في قولِه: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ لعلَّه احتُرِزَ بالتَّعبيرِ بصِيغةِ الافتعالِ عن مثْلِ أبي طالبٍ ممَّن لم يُؤمِنْ، أو آمَن ظاهرًا وكان منافقًا، أو ضعيفًا بالإيمانِ فاسقًا؛ وحُقِّقَ المُرادُ بقولِه: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: الَّذين صار الإيمانُ لهم صِفةً راسخةً، سواءٌ كانوا مِن الأقربينَ أو الأبعدينَ[3].

٧- قولُه تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تفريعٌ على جُملةِ ﴿وَأَنذِرْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٩).

عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾، أي: فإنْ عصاك عَشيرتُك، فما عليك إلَّا أنْ تَتبرَّأَ مِن عمَلِهم، وإنَّما أُمِرَ بأنْ يقولَ لهم ذلك؛ لإظهارِ أنَّهم أهْلٌ للتَّبرُّؤِ مِن أعمالِهم، فلا يَقتصِرُ على إضمارِ ذلك في نفْسِه[١].

٨- قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

- ﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾ هو عطْفٌ على جوابِ الشَّرطِ، أي: قُلْ: إنِّي بَرِيءٌ وتوكَّلْ، وعطْفُه على الجوابِ يَقْتضي تَسبُّبَه على الشَّرطِ كتَسبُّبِ الجوابِ، وهو يَستلزمُ البِدارَ به[٢].

- وناسَبَ الوصفُ بالعزيزِ -وهو الَّذي لا يُغالَبُ-، وبالرَّحيم -وهو الَّذي يَرحمُك- وهاتانِ الصِّفتانِ هما اللَّتانِ جاءتا في أواخرِ قصصِ هذه السُّورةِ. فالتَّوكُّلُ على مَن هو بهَذينِ الوَصفينِ كافِيهِ شَرَّ مَن يُبغِضُه مِن هؤلاء وغَيرِهم؛ فهو يَقهَرُ أعداءَك بعِزَّتِه، ويَنصرُك عليهم برَحمتِه[٣].

- وعلَّقَ التَّوكُّلَ بالاسمينِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وما تبِعَهُما مِن الوصفِ بالمَوصولِ، وما ذيَّلَ به مِن الإيماءِ إلى أنَّه يُلاحِظُ قولَه ويَعلمُ نِيَّتَه؛ إشارةً إلى أنَّ التَّوكُّلَ على اللهِ يأْتي بما أومَأَتْ إليه هذه الصِّفاتُ ومُسْتَتبعاتُها بوصْفِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّه بعِزَّتِه قادرٌ على تغلُّبِه على عدُوِّه الَّذي هو أقْوى منه، وأنَّه برَحمتِه يَعصِمُه منهم. وقد لُوحِظَ هذانِ الاسمانِ غيرَ مرَّةٍ في هذه السُّورةِ لهذا الاعتبارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٤).

- قولُه: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لعلَّ السِّرَّ في تَقديم هذا الاسم على الوصفين الأخيرين ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ اقتضاءُ مَقام التَّسلِّي عن المَشاقِّ اللَّاحقةِ مِن القوم إليه؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، كأنَّه قِيلَ: فإنْ لم يَنتفِعوا بإنذارِك، ولم يَنجَعْ فيهم وَعْظُك تبرَّأْ منهم، وكِلْ أمْرَك وأمْرَهم إلى العزيزِ الغالبِ القاهرِ، واشتغِلْ بدَعوةِ مَن يَقبَلُ دعوتَك، وبلِّغْ إليهم ما أُنزِلَ إليك مِن الرَّحمةِ مِن ربِّك، واخفِضْ جناحَك لهم رَحمةً؛ لأنَّك رَحمةٌ مُهْداةٌ إلى الخلْقِ، وتفرَّغْ لعِبادةِ ربِّك باللَّيلِ والنَّهارِ[1].

٩- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾

- وَصْفُه تعالى بـ ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ مَقصودٌ به لازمُ معناهُ؛ وهو أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمَحلِّ العِنايةِ منه؛ لأنَّه يَعلمُ توجُّهَه إلى اللهِ ويَقبَلُ ذلك منه، فالمُرادُ مِن قولِه: ﴿يَرَىٰكَ﴾ رُؤيةٌ خاصَّةٌ، وهي رُؤيةُ الإقبالِ والتَّقبُّلِ، كقولِه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[2] [الطور: ٤٨].

١٠- قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾

- إنَّما وصَفَ اللهُ تعالى ذاتَه بعلْمِه بحالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الَّتي بها يَستأهِلُ ولايتَه بعْدَ أنْ عبَّرَ عنه بما يُنبِئُ عن قَهرِ أعدائِه ونصْرِ أوليائِه مِن وصفَيِ العزيزِ الرحيمِ؛ تَحقيقًا للتَّوكُّلِ، وتَوطينًا لقلْبِه عليه[3].

- والقيامُ: الصَّلاةُ في جَوفِ اللَّيلِ، والتَّقلُّبُ في السَّاجدينَ: هو صَلاتُه في

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٨).

جماعاتِ المُسلمينَ في مَسجدِه. وهذا يَجمعُ معنى العنايةِ بالمسلمينَ تَبعًا للعِنايةِ برسولِهم، فهذا مِن بَرَكتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقد جمَعَها هذا التَّركيبُ العجيبُ الإيجازِ[1].

١١- قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

- مَوقعُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ مَوقعُ التَّعليلِ للأمْرِ بـ ﴿قُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، وللأمْرِ بـ ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ فصِفةُ (السَّميعِ) مُناسِبةٌ للقولِ، وصِفةُ (العليم) مُناسِبةٌ للتَّوكُّلِ، أي: إنَّه يَسمعُ قولَك ويَعلمُ عزْمَك. وضميرُ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ للتَّقويةِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٢١-٢٢٧)

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَفَّاكٍ﴾: أي: كذَّابٍ، والإِفْكُ هو أشدُّ الكَذِبِ، وإنَّما سُمِّي إفكًا؛ لأنَّه مصروفٌ عن الحقِّ، والإفكُ: كُلُّ مَصروفٍ عن وجْهِه الذي يحِقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[1].

﴿أَثِيمٍ﴾: أي: كثيرِ الإثمِ، مُتجاوِزٍ في الظُّلمِ، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتأخُّرِ؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخيرِ، متأخِّرٌ عنه[2].

﴿يَهِيمُونَ﴾: أي: يَذهَبون على غيرِ قَصدٍ، كما يذهَبُ الهائمُ على وَجهِه، فيَخوضون في كلِّ نوعٍ مِن الكَلامِ، وأصلُ (هيم): يدُلُّ على عَطَشٍ شديدٍ[3].

﴿مُنقَلَبٍ﴾: أي: مَرجِعٍ ومَعادٍ، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على صَرفِ الشَّيءِ عن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٨).

وجهٍ إلى وجهٍ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾

قولُه: ﴿أَيَّ﴾: مَنصوبٌ على المَصدَرِ، والنَّاصبُ له ﴿يَنقَلِبُونَ﴾؛ قُدِّمَ عليه لصَدارةِ الاستفهام، وهو مُعَلِّقٌ لـ (يعلم)، سادٌّ مَسَدَّ مفعولَيْها، ولا يجوزُ نَصبُ ﴿أَيَّ﴾ بـ (سيعلَمُ)؛ لأنَّ الاستفهامَ لا يعمَلُ فيه ما قبْلَه؛ لأنَّ له صدْرَ الكلامِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى أنَّه مِن المحالِ أنْ تتنزَّلَ الشياطينُ على الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: هل أُخبِرُكم بالذين تتنزَّلُ عليهم الشَّياطينُ؟ تتنزَّلُ على كُلِّ كذَّابٍ كثيرِ الآثام، يَستَرِقُ هؤلاء الشَّياطينُ ما يَسمَعونَه في السَّماءِ، ثمَّ يُلقونَه إلى أوليائِهم مِن الكَهَنةِ، وأكثَرُهم كاذِبون فيما يُخبِرونَ به.

ثمَّ يُبطِلُ الله تعالى شبهةً أخرَى مِن شبهاتِهم، وهي زعمُهم أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم شاعرٌ، فيقولُ: والشُّعَراءُ يتَّبِعُهم الغاوُون الضالُّونَ، ألم تَرَ أنَّ هؤلاء الشُّعَراءَ يتكَلَّمون بالباطلِ في كلِّ وجهٍ مِن أوجُهِ الكلام، خائضينَ حائرينَ لا يَثْبُتونَ على حالٍ، وأنَّهم يقولون ما لا يَفعَلونَه في الواقعِ، إلَّا مَن آمَنَ منهم، وعَمِلَ صالِحًا، وذكَرَ اللهَ كثيرًا، وهجا بالحَقِّ مَن ظلَمَ؛ انتصارًا لنَفْسِه وللمُسلمينَ؛ فهؤلاء ليسوا مِن الشُّعراءِ المذمومينَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٧/ ٦٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٤).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٠٥)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٦٧).

ثمَّ يختمُ الله سبحانَه السورةَ بقولِه متوعِّدًا: وسيعلَمُ الذين ظَلَموا بالشِّركِ والاعتداءِ على النَّاسِ المصيرَ الذي يصيرونَ إليه بعْدَ مَوتِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه وتعالى أنَّ القُرآنَ لا يصِحُّ أنْ يكونَ ممَّا تنَزَّلتْ به الشَّياطينُ؛ أكَّدَ ذلك بأنْ بَيَّنَ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَصِحُّ أنْ يَتنزَّلوا عليه[1].

وأيضًا لَمَّا سفَّهَ قولَهم في القرآنِ: إنَّه قولُ كاهنٍ، فردَّ عليهم بقولِه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠]، وأنَّه لا يَنْبغي للشَّياطينِ، ولا يسْتطيعونَ مِثْلَه، وأنَّهم حِيلَ بيْنَهم وبيْنَ أخبارِ أوليائِهم؛ عاد الكلامُ إلى وصْفِ حالِ كُهَّانِهم؛ لِيُعلَمَ أنَّ الَّذي رَمَوا به القرآنَ لا يَنْبغي أنْ يَلتبِسَ بحالِ أوليائِهم[2].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه أنَّ القرآنَ مُنافٍ لأقوالِ الشياطينِ، وبَيَّنَ أنَّ حالَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وحالَ أتْباعِه مُنافيةٌ لأحوالِهم، وأحوالِ مَن يأتونَه مِن الكُهَّانِ بما ذَكَره سُبحانَه مِن فِعلِه صلَّى الله عليه وسلَّم وفِعلِ أشياعِه رضيَ اللهُ عنهم مِن الإقبالِ على اللهِ، والإعراضِ عمَّا سِواه، فعُلِمَ أنَّ بيْنَهم وبيْنَهم بَونًا بعيدًا، وفَرقًا كبيرًا شديدًا، وأنَّ حالَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم موافِقٌ لحالِ الرُّوحِ الأمينِ النازلِ عليه بالذِّكرِ الحكيمِ- تشوَّفتِ النَّفْسُ إلى معرفةِ أحوالِ إخوانِ الشَّياطينِ، فقال محرِّكًا لِمَن يريدُ ذلك، متمِّمًا لدفعِ اللَّبسِ عن كَونِ القرآنِ مِن عندِ اللهِ[3]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١١).

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾.

أي: هل أُخبِرُكم[١] بصِفةِ الذينَ تتنزَّلُ عليهم الشَّياطينُ[٢]؟

﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾.

أي: تتنَزَّلُ بكَثرةٍ على كُلِّ كثيرِ الكَذِبِ في أقوالِه، كثيرِ الآثامِ في أفعالِه[٣].

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

أي: يَستَرِقُ الشَّياطينُ بعضَ ما يَسمَعونَه مِن الملائكةِ في السَّماءِ، فيُلقونَه إلى أوليائِهم مِن الكَهَنةِ الأفَّاكين الآثِمينَ قبْلَ أن يُرجَمُوا بالشُّهُبِ[٤]، وأكثَرُهم

---

(١) قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أيُّها الناسُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٠).
وقال ابنُ كثير: (يقولُ تعالى مخاطِبًا لِمن زعَم مِن المشركين أنَّ ما جاء به الرسولُ ليس حقًّا، وأنَّه شيءٌ افتعله مِن تِلقاءِ نفْسِه، أو أنَّه أتاه به رَئِيٌّ مِن الجنِّ، فنزَّه اللهُ سبحانه جَنابَ رسولِه عن قولِهم وافترائِهم، ونبَّه أنَّ ما جاء به إنَّما هو الحقُّ مِن عندِ الله، وأنَّه تنزيلُه ووحْيُه، نزَل به مَلَكٌ كريمٌ أمينٌ عظيمٌ، وأنَّه ليس مِن قَبيلِ الشياطينِ؛ فإنَّهم ليس لهم رغبةٌ في مثلِ هذا القرآنِ العظيمِ، وإنَّما يَنزلون على مَن يُشاكلُهم ويشابهُهم مِن الكهَّانِ الكذبةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٢).
ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٦).
قال ابن عاشور: (﴿كُلِّ﴾ هنا مُستعمَلةٌ في معنى التكثيرِ، أي: على كثيرٍ مِنَ الأفَّاكينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٦).

(٤) قال الشوكاني: (الشَّياطينُ كانت تَستَرِقُ السَّمعَ ثمَّ يأتون إليهم فيُلقونَه إليهم، وهو معنى قَولِه: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: ما يَسمَعونَه ممَّا يَستَرِقونَه، فتكونُ جملةُ ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ على هذا راجعةً إلى الشياطينِ في محلِّ نصبٍ على الحالِ، أي: حالِ كَونِ الشياطينِ مُلقينَ السمعَ، أي: ما =

كاذِبونَ فيما يُخبِرونَ به مِن الغُيوبِ[١].

= يَسمَعونه مِن الملأِ الأعلى إلى الكُهَّانِ. ويجوزُ أن يكونَ المعنى: إنَّ الشياطينَ يُلْقون السَّمعَ: أي: يُنصِتونَ إلى الملأِ الأعلى لِيَسترِقوا منهم شيئًا، ويكونَ المرادُ بالسَّمع على الوجهِ الأوَّلِ المسموعَ، وعلى الوجهِ الثاني: نفْسَ حاسَّةِ السَّمعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٩).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: يُلْقون ما سمِعوه مِن الملائكةِ ممَّا استَرَقوا سَمْعَه مِن السماءِ إلى الكَهَنةِ: الفرَّاءُ، وابنُ جرير، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والعليمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

وقيل: المعنى: تُلْقي الشياطينُ بآذانِهم إلى السمعِ في السماءِ لكلامِ الملائكةِ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٠).

وقيل: المعنى: يُلْقي الأفَّاكون السمعَ إلى الشياطينِ فيَتلَقَّوْن منهم ظُنونًا وأماراتٍ لنُقصانِ عِلمِهم، فيَضُمُّون إليها على حسَبِ تخيُّلاتِهم خرافاتٍ وأشياءَ لا يُطابِقُ أكثرُها الواقعَ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: البيضاويُّ، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧١، ٦٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿ يُلْقُونَ ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ يعودُ إلى الشياطينِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

وقيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿ يُلْقُونَ ﴾: وقولِه: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ يعودُ إلى كلِّ أفَّاكٍ أثيم. وممَّن قال بذلك: البيضاويُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٦).

وقيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿ يُلْقُونَ ﴾: يعودُ إلى الشياطينِ، وفي قَولِه تعالى: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ يعودُ إلى أوليائِهم مِن الكَهَنةِ الأفَّاكينَ الآثِمين. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، =

كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ [الحجر: ١٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ الله عنه، قال: إنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا قضى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبت الملائِكةُ بأجنِحَتِها خُضْعانًا لِقَولِه، كأنَّه سِلسلةٌ على صَفوانٍ[١]، فإذا فُزِّعَ[٢] عن قُلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا للَّذي قال: الحَقَّ، وهو العَليُّ الكبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقُ السَّمعِ، ومُستَرِقُ السَّمعِ هكذا بعضُه فوقَ بَعضٍ -ووصَفَ سُفْيانُ بكَفِّه فحَرَفَها وبَدَّد بيْنَ أصابِعِه- فيسمَعُ الكَلِمةَ فيُلْقيها إلى مَن تحتَه، ثمَّ يُلقيها الآخَرُ إلى مَن تحتَه، حتَّى يُلقيَها على لسانِ الساحِرِ أو الكاهِنِ، فرُبَّما أدرَكَ الشِّهابُ قبْلَ أن يُلقِيَها، ورُبَّما ألْقاها قبْلَ أن يُدرِكَه، فيَكذِبُ معها مِئةَ كَذْبةٍ، فيُقالُ: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟! فيُصَدَّقُ بتلك الكَلِمةِ التي سَمِعَ مِنَ السَّماءِ))[٣].

وعن عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها، قالت: ((سَأل أُناسٌ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الكُهَّانِ، فقال لهم رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ليسُوا بشَيءٍ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، فإنَّهم يحَدِّثونَ أحيانًا بالشَّيءِ يكونُ حَقًّا! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: تلك الكَلِمةُ مِنَ الحَقِّ يَخطَفُها الجِنِّيُّ، فيَقُرُّها في أُذُنِ وليِّه قَرَّ الدَّجاجةِ[٤]، فيَخلِطون فيها أكثَرَ مِن مِئةِ كَذْبةٍ))[٥].

= والزمخشري، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣٤).

(١) صَفوانٍ: هو الحَجَرُ الأملَسُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ١٩٢).

(٢) فُزِّعَ أي: أُزيلَ الخَوفُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ١٩٢).

(٣) رواه البخاري (٤٨٠٠).

(٤) القَرُّ: ترديدُك الكلامَ في أذُنِ المخاطَبَ حتى يفهَمَه، وقَرُّ الدجاجةِ: صَوتُها إذا قطَّعَتْه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٩).

(٥) رواه البخاري (٦٢١٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢٨).

وعن عائشةَ رَضيَ الله عنها، أنَّها سَمِعَت رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ الملائكةَ تَنزِلُ في العَنانِ -وهو السَّحابُ-، فتذكُرُ الأمرَ قُضِي في السَّماءِ، فتَستَرِقُ الشَّياطينُ السَّمعَ فتَسمَعُه، فتُوحيه إلى الكُهَّانِ، فيَكذِبون معها مِئةَ كَذبةٍ مِن عندِ أنفُسِهم))[١].

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال الكُفَّارُ: لِمَ لا يجوزُ أن يُقالَ: إنَّ الشَّياطينَ تَنزِلُ بالقُرآنِ على محمَّدٍ، كما أنَّهم يَنزِلون بالكَهانةِ على الكَهَنةِ، وبالشِّعرِ على الشُّعَراءِ؟! ثمَّ إنَّه سُبحانَه فَرَّق بيْنَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبيْنَ الكَهَنةِ؛ فذكَرَ هاهنا ما يدُلُّ على الفَرقِ بيْنَه عليه السَّلامُ وبينَ الشُّعَراءِ[٢].

وأيضًا لَمَّا نزَّه اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن نُزولِ الشَّياطينِ عليه؛ برَّأه أيضًا مِن الشِّعرِ، فقال[٣]:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾.

أي: والشُّعَراءُ يتَّبِعُهم غُواةُ الإنسِ والجِنِّ، الضَّالُّونَ المتَّبِعون أهواءَهم وشَهَواتِهم، وليس القرآنُ شِعرًا، ولا محمَّدٌ بشاعرٍ. وأتباعُه هم المُهتَدون[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٣، ٦٧٦)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١٨، ١٩) و(٢٨/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٣، ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٨، ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣١١).=

كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤١ - ٤٣].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضيَ الله عنه، قال: بَيْنَا نحن نسيرُ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعَرْجِ[(١)] إذْ عَرَضَ شاعِرٌ يُنشِدُ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((خُذوا الشَّيطانَ أو أمسِكوا الشَّيطانَ؛ لَأَنْ يَمتلئَ جَوفُ رجُلٍ قَيْحًا[(٢)] خيرٌ له مِن أن يمتلئَ شِعرًا))[(٣)].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لَأَنْ يَمتلئَ جَوفُ الرَّجُلِ قَيحًا يَريهِ[(٤)] خَيرٌ مِن أنْ يَمتلئَ شِعرًا))[(٥)].

= قال ابن عاشور: (الغاوي: المتَّصِفُ بالغَيِّ والغَوايةِ، وهي الضَّلالةُ الشَّديدةُ، أي: يَتَّبِعُهم أهلُ الضَّلالةِ والبِطالةِ الرَّاغبون في الفِسقِ والأذى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٨، ٢١٠).

وقال ابن عطية: (كلُّ شاعرٍ في الإسلامِ يهجو ويمدَحُ مِن غيرِ حَقٍّ، ولا يرتَدِعُ عن قولٍ دَنيءٍ؛ فهم داخِلون في هذه الآيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٧).

وقال ابن عبد البر: (لا يُنكِرُ الشِّعرَ الحَسَنَ أحَدٌ مِن أُولي العِلمِ ولا مِن أُولي النُّهَى... وليس أحدٌ مِن كبارِ الصَّحابةِ وأهلِ العِلمِ ومَوضِعِ القُدوةِ إلَّا وقد قال الشِّعرَ وتمثَّلَ به، أو سَمِعَه فرَضِيَه، وذلك ما كان حِكمةً أو مُباحًا مِن القَولِ، ولم يكُنْ فيه فُحشٌ ولا خَنًا، ولا لِمُسلم أذًى، فإنْ كان ذلك فهو والمنثورُ مِن الكلامِ سَواءٌ؛ لا يحِلُّ سَماعُه ولا قَولُه). ((التمهيد)) (٢٢/ ١٩٤).

(١) العَرْجُ: قريةٌ قَريبةٌ مِن المدينةِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٥).

(٢) قَيحًا: أي: صديدًا ودَمًا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٧/ ٣٠١٧).

(٣) رواه مسلم (٢٢٥٩).

(٤) يريه: أي: يأكُلُ جَوفَه ويُفسِدُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٤).

(٥) رواه البخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٢٥٧) واللَّفظُ له.

قال القرطبي: (هذا الحديثُ أحسَنُ ما قيل في تأويلِه: إنَّه الذي قد غَلَب عليه الشِّعرُ، وامتلأ =

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾.

أي: ألم تَرَ أنَّ الشُّعَراءَ يتكَلَّمونَ بالباطِلِ في كُلِّ لَغوٍ ووَجهٍ مِن أوجُهِ القَولِ؛ كالمَدحِ والهِجاءِ، والرِّثاءِ والفَخرِ والغَزَلِ، يَمضُون فيه خائِضينَ حائرينَ، لا يَثْبُتونَ على حالٍ(١)؟!

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾.

أي: وأنَّ الشُّعَراءَ يقولون الكَذِبَ، فيتكَلَّمونَ بما لا يَفعَلونَه في الواقِعِ(٢).

= صدرُه منه دونَ علمِ سِواه، ولا شيءٍ مِن الذِّكرِ، ممَّن يخوضُ به في الباطِلِ، ويَسلُكُ به مسالِكَ لا تُحمَدُ له، كالمُكثِرِ مِن اللَّغَطِ والهَذْرِ والغِيبةِ وقَبيحِ القولِ، ومَن كان الغالِبُ عليه الشِّعرَ لزِمَتْه هذه الأوصافُ المذمومةُ الدنيَّةُ؛ لحُكمِ العادةِ الأدبيَّةِ، وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاريُّ في صَحيحِه لَمَّا بوَّبَ على هذا الحديثِ: بابُ ما يُكرَهُ أن يكون الغالِبُ على الإنسانِ الشِّعرَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣١٢).

قال ابن جرير: (هذا مَثَلٌ ضَرَبه الله لهم في افتِنانِهم في الوجوهِ التي يفتنُّونَ فيها بغيرِ حَقٍّ، فيَمدَحون بالباطِلِ قَومًا، ويهجُون آخَرينَ كذلك بالكَذِبِ والزُّورِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٩).

قال القرطبي: (يقولُ: أكثَرُهم يكذِبونَ، أي: يدُلُّون بكلامِهم على الكرَمِ والخيرِ، ولا يفعلونَه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٢).

وقال ابنُ كثيرٍ: (قال عليُّ بنُ أبي طَلْحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ: «أكثرُ قولِهم يَكذِبون فيه». وهذا الذي قاله ابنُ عباسٍ رضي الله عنه هو الواقعُ في نفْسِ الأمرِ؛ فإنَّ الشعراءَ يتبجَّحون بأقوالٍ وأفعالٍ لم تَصدُرْ منهم ولا عنهم، فيتكَثَّرونَ بما ليس لهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٤).

وقال السعدي: (هذا وصْفُ الشعراءِ؛ أنَّهم تخالِفُ أقوالُهم أفعالَهم، فإذا سمِعتَ الشاعرَ =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

أي: إلَّا[1] الشُّعَراءَ المؤمِنينَ الذين عَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ، وذكَروا اللهَ ذِكرًا كَثيرًا[2].

= يتغزَّلُ بالغزلِ الرقيقِ، قلتَ: هذا أشدُّ الناسِ غرامًا، وقلبُه فارغٌ مِن ذاك، وإذا سمِعتَه يمدحُ أو يذمُّ، قلتَ: هذا صدقٌ، وهو كذبٌ، وتارةً يتمدَّحُ بأفعالٍ لم يَفعلْها، وتُروكٍ لم يَترُكْها، وكرَم لم يحُمْ حوْلَ ساحتِه، وشجاعةٍ يعلو بها على الفُرسانِ، وتراه أجبَنَ مِن كلِّ جبانٍ، هذا وصْفُهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٠).

وقال ابنُ عاشور: (في هذا إبداءٌ للبَونِ الشاسعِ بيْنَ حالِ الشُّعراءِ، وحالِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي كان لا يقولُ إلَّا حقًّا، ولا يصانعُ، ولا يأتي بما يُضَلِّلُ الأفهامَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٠).

(١) قال ابن عاشور: (بهذا الاستثناءِ تعيَّن أنَّ المذمومينَ هم شُعَراءُ المُشركينَ الذين شغَلَهم الشِّعرُ عن سَماعِ القرآنِ، والدُّخولِ في الإسلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٨، ٦٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٥، ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٠).

قال الواحدي: (أي: لم يَشغَلْهمُ الشِّعرُ عن ذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولم يجعَلوا الشِّعرَ هَمَّهم). ((البسيط)) (١٧/ ١٥١).

وقال ابن كثير: (قيل: معناه: ذكَروا الله كثيرًا في كلامِهم. وقيل: في شِعرِهم. وكلاهما صحيحٌ مُكَفِّرٌ لِما سبَق). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٦).

وقال البِقاعي: (لم يَشغَلْهم الشِّعرُ عن الذِّكرِ، بل بَنَوا شِعرَهم على أمرِ الدِّينِ، والانتصارِ =

عن أبي هُريرةَ رَضيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أصْدَقُ كَلِمةٍ قالها شاعِرٌ كَلِمةُ لَبِيدٍ: ألَا كُلُّ شَيءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ. وكاد أُمَيَّةُ ابنُ أبي الصَّلْتِ أن يُسلِمَ))(١).

وعن سَلَمةَ بنِ الأكْوَعِ رَضيَ الله عنه، قال: ((خرَجْنا مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى خَيْبَرَ، فسِرْنا ليلًا، فقال رجُلٌ مِن القَومِ لعامِرِ بنِ الأكوَعِ: ألَا تُسمِعُنا مِن هُنَيْهاتِك(٢)؟ قال: وكان عامِرٌ رجُلًا شاعِرًا، فنزل يَحْدو بالقَومِ يقولُ:

اللَّهمَّ لولا أنت ما اهتَدَيْنا ... ولا تصَدَّقْنا ولا صَلَّيْنا
فاغفِرْ فِداءً لك ما اقتَفَيْنا(٣) ... وثبِّتِ الأقدامَ إنْ لاقَيْنا
وألْقِيَنْ سَكينةً علينا ... إنَّا إذا صِيحَ بنا أتَيْنا(٤)
وبالصِّياحِ عَوَّلوا علينا(٥)

= للشَّرعِ، فصار لذلك كله ذِكرًا لله). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١١٥).

وقال ابن عاشور: (معنى: ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: كان إقبالُهم على القُرآنِ والعبادةِ أكثَرَ مِن إقبالِهم على الشِّعرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١١).

(١) رواه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) واللفظُ له.

(٢) هُنَيهاتِك: أي: أراجيزِك، والأُرْجوزةُ: القصيدةُ مِن الرَّجَزِ. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (٣/ ١٧٣٦)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٩).

(٣) فِداءً لك: رُوي بالرفع: «فداءٌ» على المبتدأ، وخبرِه، أي: نفسي فداءٌ أو فداءٌ نفسي لك، وبالنصبِ على المصدرِ. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٦/ ١٨٢).

قيل: كأنَّه قال: نفسي مبذولةٌ لرِضاك، أو هذه الكلمةُ وقعَتْ خطابًا لسامعِ الكلامِ، وقيل: هي دعاءٌ، أي: افدِنا مِن عقابِك على ما اقترَفْنا مِن ذنوبِنا، كأنَّه قال: اغفِرْ لنا، وافْدِنا منك فداءً لك: أي: مِن عندِك، فلا تعاقبنا به. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٥٤٣).

واقتفينا أي: اكتسبنا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٦٧).

(٤) أي: جِئْنا إذا دُعينا إلى القتالِ أو إلى الحقِّ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٤٦٦).

(٥) أي: قصَدونا بالدُّعاءِ بالصَّوتِ العالي واستغاثوا علينا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٤٦٦).

فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَن هذا السائِقُ؟! قالوا: عامِرُ بنُ الأكوَعِ، فقال: يَرحَمُه اللهُ))[١].

وعن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ مِن الشِّعرِ حِكمةً))[٢].

﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾.

أي: وهَجَوا شُعَراءَ المُشرِكينَ الذين هَجَوْهم ظُلمًا، فرَدُّوا عليهم بالحَقِّ؛ انتِصارًا للمُسلمينَ، فهؤلاء المُستَثنَونَ ليسوا مِن الشُّعَراءِ المَذمومينَ[٣].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضيَ الله عنه: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دخَل مكَّةَ في عُمرةِ القَضاءِ، وعبدُ اللهِ بنُ رَواحةَ بيْنَ يديه يمشي، وهو يقولُ:

خَلُّوا بَني الكُفَّارِ عن سَبيلِهْ ... اليَومَ نَضرِبْكُم على تَنزيلِهْ
ضَربًا يُزيلُ الهامَ عن مَقيلِهْ[٤] ... ويُذهِلُ الخليلَ عن خَليلِهْ[٥]

فقال له عُمَرُ: يا ابنَ رَواحةَ، بيْنَ يَدَيْ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وفي

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٨).

(٢) رواه البخاري (٦١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١١، ٢١٢).

قال الشوكاني: (يدخُلُ في هذا مَن انتصَر بشِعره لأهلِ السُّنَّةِ، وكافَحَ أهلَ البدعةِ، وزيَّفَ ما يقولُه شُعراؤُهم؛ مِن مدحِ بدعتِهم، وهَجوِ السُّنَّةِ المطَهَّرةِ، كما يقعُ ذلك كثيرًا مِن شُعَراءِ الرافضةِ ونحوِهم؛ فإنَّ الانتصارَ للحَقِّ بالشِّعرِ، وتزييفَ الباطِلِ به: مِن أعظَمِ المجاهدةِ، وفاعِلُه مِن المجاهدينَ في سبيلِ الله، المنتصرينَ لدِينِه، القائمينَ بما أمَرَ الله بالقيامِ به). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٠).

(٤) الهامُ: جمعُ هامةٍ، وهي أعلَى الرأسِ. ومَقيلِه: أي: مَوضِعِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٣٤).

(٥) أي: يُنسي ذلك الضربُ الخليلَ عن خليلِه. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٨/ ١١٢).

حَرَم الله تقولُ الشِّعرَ؟! فقال له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: خَلِّ عنه يا عُمَرُ؛ فلَهِيَ أسرَعُ فيهم مِن نَضْحِ النَّبْلِ[١]))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ الله عنه: ((أنَّ عُمَرَ مَرَّ بحَسَّان وهو يُنشِدُ الشِّعرَ في المسجِدِ، فلَحَظ إليه، فقال: قد كنتُ أُنشِدُ وفيه مَن هو خيرٌ منك، ثمَّ التَفَتَ إلى أبي هُريرةَ فقال: أَنشُدُك اللهَ، أسَمِعْتَ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: أجِبْ عنِّي، اللَّهُمَّ أيِّدْه برُوحِ القُدُسِ؟ قال: اللَّهُمَّ نَعَمْ))[٣].

وعن عائِشةَ رَضيَ الله عنها: ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: اهجُوا قُرَيشًا؛ فإنَّه أشَدُّ عليها مِن رَشْقٍ[٤] بالنَّبْلِ، فأرسَلَ إلى ابنِ رَواحةَ فقال: اهجُهم، فهجاهم فلمْ يُرْضِ، فأرسَلَ إلى كعبِ بنِ مالكٍ، ثمَّ أرسَلَ إلى حسَّان بنِ ثابتٍ، فلمَّا دخل عليه، قال حسَّان: قد آنَ لكم أن تُرسِلوا إلى هذا الأسَدِ الضَّارِبِ بذَنَبِه[٥]، ثمَّ أدلَعَ[٦] لِسانَه فجعَل يُحَرِّكُه! فقال: والذي بعَثَك بالحَقِّ، لأَفْرِيَنَّهم بلِساني فَرْيَ الأَديمِ[٧]، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا تَعجَلْ؛ فإنَّ أبا

---

(١) نضْحِ النبلِ: أي: رمْيِه، والمراد: أن أشعارَه تُؤثِّرُ فيهم تأثيرًا أسرعَ مِن تأثيرِ النبلِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٣٠١٨)، ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٨/ ١١٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٤٧) واللفظ له، والنسائي (٢٨٧٣).

قال الترمذي: حسنٌ صَحيحٌ غريبٌ مِن هذا الوجه. وأخرجه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (٥٧٨٨). وصحَّح الحديثَ ابنُ حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٥/ ١٤٨)-، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٨٤٧).

(٣) رواه مسلم (٢٤٨٥).

(٤) رشْق أي: رمْي. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٧/ ٥٢٨).

(٥) المرادُ بذَنَبِه هنا: لِسانُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٤٩).

(٦) أدلَعَ لسانَه: أي: أخرَجَه عن الشَّفَتين. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٤٩).

(٧) أي: لأمزقَنَّ أعراضَهم تمزيقَ الجلدِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٤٩).

بكرٍ أعلَمُ قُرَيشٍ بأنسابِها، وإنَّ لي فيهم نسَبًا، حتى يُلَخِّصَ[١] لك نَسَبي، فأتاه حَسَّان، ثمَّ رجَعَ فقال: يا رَسولَ اللهِ، قد لخَّصَ لي نسَبَك، والذي بعثَك بالحَقِّ لأَسُلَّنَّك منهم كما تُسَلُّ الشَّعرةُ مِن العَجينِ[٢]! قالت عائشةُ: فسَمِعْتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ لحسَّان: إنَّ رُوحَ القُدُسِ لا يَزالُ يؤيِّدُك ما نافَحْتَ[٣] عن اللهِ ورَسولِه! وقالت: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: هَجاهم حسَّان فشَفَى واشتَفَى[٤]!)). قال حسَّان:

هجَوْتَ محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاءُ
هجوتَ محمدًا برًّا حنيفًا ... رسولَ الله شيمتُه الوفاءُ
فإنَّ أبي ووالِدَه وعِرضي ... لعِرضِ محمَّدٍ منكم وقاءُ
ثَكِلتُ بُنَيَّتي[٥] إن لم ترَوْها ... تُثيرُ النَّقعَ مِنْ كَنَفَيْ كَداءِ[٦]
يُباريـن الأعِنَّةَ مُصعِداتٍ[٧] ... على أكتافِها الأسَلُ الظِّمَاءُ[٨]

(١) يُلخِّص أي: يبيِّن. يُنظر: ((مطالع الأنوار على صحاح الآثار)) لابن قرقول (٢/ ٤٥٠).

(٢) أي: لأخلصَنَّ نسبَك مِن نسبِهم، بحيثُ يختصُّ الهجوُ بهم دونَك، كما أنَّ الشعرةَ إذا سُلَّت مِن العجينِ لا يبقَى منها شيءٌ فيه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٤٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٥٥٤).

(٣) نافحْتَ: أي: دافَعْتَ. والمنافَحةُ والمكافحةُ: المدافَعةُ والمضاربةُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٨٩).

(٤) فشفَى واشتَفَى: أي: شفَى المؤمنينَ، واشتفَى هو بما ناله مِن أعراضِ الكفارِ، ومزَّقها ونافَح عن الاسلام والمسلمينَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٤٩).

(٥) الثكل: فقْدُ الولدِ. وبُنَيَّتي: تصغيرُ بنتٍ. والمعنى: الدعاءُ على نفْسِه إن لم يغزُ قريشًا. يُنظر: ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) للمازَري (٦/ ٤٢٨).

(٦) كَنَفَيْ كَدَاءٍ: أي: جانِبَي كَدا، وكَدَاءُ: ثَنِيَّةٌ على بابِ مكَّةَ، وهي التي يقالُ لها الحَجُونُ، وعلى هذه الروايةِ في هذا البيتِ إقواءٌ مخالفٌ لباقيها، وفي بعض النسخ: غايتُها كَداءُ، وفي بعضِها: موعِدُها كَداءُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٥٠).

(٧) مُصعِداتٍ: أي: مُقبِلاتٍ إليكم متوجِّهاتٍ. يُنظر: ((إكمال المُعْلِم)) للقاضي عياض (٧/ ٥٣١).

(٨) الأسَلُ: الرِّماحُ، والظِّماءُ: الرِّقاقُ أو العاطِشةُ بدماءِ الأعادي. يُنظر: ((إكمال المعلم)) =

تَظَلُّ جيادُنا مُتَمَطِّرَاتٍ[١] تُلَطِّمُهن بالخُمُرِ النِّسَاءُ[٢]
فإن أعرضتُمو عنَّا اعتمَرْنا وكان الفتحُ وانكَشَف الغِطاءُ
وإلَّا فاصبروا لضِرابِ يومٍ يُعِزُّ اللهُ فيه مَن يشاءُ
وقال الله قد أرسلتُ عبدًا يقول الحقَّ ليس به خَفاءُ
وقال اللهُ قد يسَّرتُ جندًا هم الأنصار عُرضَتُها[٣] اللقاءُ
لنا في كلِّ يومٍ مِن مَعَدٍّ[٤] سِبابٌ أو قِتالٌ أو هِجاءُ
فمَن يهجو رسولَ اللهِ منكم ويمدَحُه وينصُرُه سَواءُ
وجبريلٌ رسولُ اللهِ فينا ورُوحُ القُدسِ ليس له كِفاءُ[٥]

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أباح سُبحانَه الانتِصارَ مِن الظَّالم، وكان البادئُ -إذا اقتصَرَ المجيبُ على جوابِه- أظلَمَ، كان إذا تجاوَز جديرًا بأنْ يعتديَ فيندَمَ- حَذَّرَ اللهُ الاثنينِ[٦].

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ سبحانه في هذه السورةِ ما يُزيلَ الحزنَ عن قلْبِ رسولِه

= للقاضي عياض (٧/ ٥٣١).

(١) مُتَمَطِّراتٍ: أي: سِراعًا يُسابِقُ بَعضُها بعضًا. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (٧/ ٥٣١).

(٢) أي: تمسحُهنَّ النساءُ بخمرِهنَّ (جمعُ خِمارٍ): أي: يُزِلْنَ عنهنَّ الغبارَ، وهذا لعزَّتِها، وكرامتِها عندَهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٥١).

(٣) عُرضَتُها: أي: مقصودُها ومَطلوبُها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٥١).

(٤) يعني بمَعَدٍّ: قريشًا، نسَبهم لمعدِّ بنِ عدنانَ. يُنظر: ((المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم)) للمازَري (٦/ ٤٣٠).

(٥) رواه مسلم (٢٤٩٠).

وكِفاءُ: أي: مُماثِلٌ ومُقاوِمٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٥١).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٠).

صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الدلائلِ العقليَّةِ، ومِن أخبارِ الأنبياءِ المتقدمينَ، ثمَّ ذَكَرَ الدلائلَ على نبوَّتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وردَّ على المشركينَ في تسميتِهم له تارةً بالكاهنِ، وتارةً بالشاعرِ! وبَيَّنَ الفَرْقَ بيْنَه وبينَ الكاهنِ أوَّلًا، ثمَّ بَيَّنَ الفرقَ بينَه وبينَ الشاعرِ ثانيًا؛ خَتَم السورةَ بهذا التهديدِ العظيمِ، يعني: أنَّ الذين ظَلَموا أنفُسَهم، وأعرَضوا عن تدبُّرِ هذه الآياتِ؛ والتأمُّلِ في هذه البيِّناتِ فإنَّهم سيَعلَمون بعْدَ ذلك أيَّ مُنقلَبٍ يَنقلِبونَ[1].

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

أي: وسيَعلَمُ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ والمعاصي، والاعتِداءِ على حُقوقِ العبادِ؛ المآلَ السَّيِّئَ الذي سيَصيرون إليه بعْدَ مَوتِهم؛ فإنَّ مصيرَهم إلى النَّارِ[2].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إلى آخرِ الآياتِ، فيه ذمُّ الشِّعرِ والمُبالغةِ في المَدحِ والهَجوِ وغَيرِهما مِن فُنونِه، وجوازُه في الزُّهدِ والأدَبِ ومَكارمِ الأخلاقِ، وجوازُ الهَجوِ لِمَن ظُلِمَ انتِصارًا[3].

٢- في قَولِه تعالى عن الشُّعراءِ: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٣، ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠٨).
قال القرطبي: (في هذا تهديدٌ لِمَنِ انتصَرَ بظُلم، أي: سيَعلمُ الظَّالِمون كيف يَخلُصون مِن بينِ يَدَيِ الله عزَّ وجَلَّ؛ فالظَّالمُ ينتظِرُ العقابَ، والمظلومُ ينتَظِرُ النُّصرةَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٠).

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ دَليلٌ على أنَّ مَن تَجنَّبَ الكَذِبَ المَحْضَ في شِعْرِه ولم يَتشبَّعْ به، فقولُه للشِّعرِ مُباحٌ لا حَرَجَ عليه[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الباديَ بالهِجاءِ ظالِمٌ، والمجيبَ مُنتصِرٌ، وأنَّ الانتصارَ يكونُ باللِّسانِ كما يكونُ باليَدِ[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ كان السَّلَفُ الصَّالحُ يتواعَظونَ بهذه الآيةِ؛ لأنَّك لا تجدُ أهيَبَ منها، ولا أهوَلَ ولا أوجَعَ لقُلوبِ المتأمِّلينَ، ولا أصدَعَ لأكبادِ المتدبِّرينَ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ * يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ * وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ إنَّ ظاهِرَ القُرآنِ ليس فيه أنَّ الشُّعَراءَ تتنَزَّلُ عليهم الشَّياطينُ إلَّا إذا كان أحدُهم كذَّابًا أثيمًا؛ فالكذَّابُ في قَولِه وخَبرِه، والأثيمُ في فِعلِه وأمرِه؛ وذاك -واللهُ أعلمُ- لأنَّ الشِّعرَ يكونُ مِن الشَّيطانِ تارةً، ويكونُ مِن النَّفْسِ أُخرى، كما أنَّه إذا كان حَقًّا يكونُ مِن رُوحِ القُدُسِ، كما قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا دعا لحسَّان بنِ ثابتٍ: ((اللَّهُمَّ أيِّدْه برُوحِ القُدُسِ))[4].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٥١).
والحديث تقدَّم تخريجُه (ص: ٣٨٠).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الكَهَنةَ كذَّابون أفَّاكون، لا يُغتَرُّ بتلك الكلمةِ مِن أقاويلِهم التي يُلقيها إليهم أولياؤُهم مِن الشَّياطينِ[١]!

٣- قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ إنَّما قال: ﴿تَنَزَّلُ﴾؛ لأنَّها أكثَرُ ما تكونُ في الهواءِ، وأنَّها تمُرُّ في الرِّيحِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ سؤالٌ: كيف قال: «أكثَرُهم» بعْدَما حَكَمَ بأنَّ كلَّ أفَّاكٍ أثيمٌ، أي: فاجرٌ؟!

الجوابُ: الضميرُ في «أكثرهم» للشياطينِ لا للأفَّاكينَ، ولو سُلِّمَ؛ فالأفَّاكون هم الذين يُكثِرون الكذبَ؛ لا أنَّهم الذين لا ينطِقونَ إلَّا بالكذبِ[٣]، فأراد أنَّ هؤلاء الأفَّاكينَ قَلَّ مَن يَصدُقُ منهم فيما يحكي عن الجنِّ، وأكثرُهم يفتري عليهم[٤]. وقيل: (كُل) مُستعمَلةٌ في معنى التَّكثيرِ[٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إلى آخرِ الآياتِ دَلالةٌ على أنَّ للشِّعرِ حالتَين: حالةً مذمومةً، وحالةً مأذونةً؛ فتَعَيَّنَ أنَّ ذَمَّه ليس لكونِه شِعرًا، ولكنْ لِمَا حُفَّ به مِن معانٍ وأحوالٍ اقتَضَتِ المذمَّةَ، فانفتحَ بالآيةِ للشِّعرِ بابُ قَبولٍ ومدْحٍ، فحَقَّ على أهلِ النَّظَرِ ضبطُ الأحوالِ التي تأوي إلى جانبِ قَبولِه أو إلى جانبِ مدْحِه، والتي تأوي إلى جانبِ رفْضِه، وقد أومأَ إلى الحالةِ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٦).

الممدوحةِ قولُه: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾، وإلى الحالةِ المأذونةِ قولُه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1]. فليس كُلُّ الشِّعرِ مَذمومًا، بل منه ما هو مباحٌ كما ثبَت في الصَّحيحِ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّ مِن الشِّعرِ لَحِكمةً))[2]، فاللهُ تعالى قد استثنَى مِن الشُّعَراءِ المذمومينَ مَن ذكَرَه؛ فدلَّ ذلك على أنَّه ليس كلُّ الشُّعَراءِ مَذمومينَ[3].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ قَولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ يدُلُّ على أنَّ اتِّباعَ الشُّعَراءِ مِن اتِّباعِ الشَّيطانِ؛ بدليلِ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾[4] [الحجر: ٤٢].

٧- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ الذين استثناهم سُبحانَه مِن عُمومِ الشُّعَراءِ المذمومينَ وَصَفهم بأمورٍ أربعةٍ:

أحدُها: الإيمانُ، وهو قولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وثانيها: العملُ الصالحُ، وهو قَولُه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وثالثُها: أنْ يكونَ شِعْرُهم في التَّوحيدِ والنبوَّةِ ودَعوةِ الحقِّ، وهو قَولُه: ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾.

ورابعُها: ألَّا يَذْكروا هَجْوَ أحدٍ إلَّا على سبيلِ الانتصارِ ممَّن يَهجوهم، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١١).

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((الاستغاثة في الرد على البكري)) لابن تيمية (ص: ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠٤).

قَولُه: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾، قال اللهُ تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، ثم إنَّ الشَّرطَ فيه ترْكُ الاعتداءِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾[١] [البقرة: ١٩٤].

٨- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أنَّه يكفي الشَّاعرَ في التفصِّي عن ذمِّ هذه الآيةِ له ألَّا يَغلِبَ عليه الشِّعرُ، فيَشغَلَه عن الذِّكرِ حتى يكونَ مِن الغاوينَ[٢].

٩- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ هذا يشيرُ إلى أنَّ الشَّاعِرَ يَقِلُّ ذِكرُه للهِ، فما امتلأَ قلبُه مِن الشِّعرِ إلَّا بَعُدَ عنه ذِكْرُ اللهِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ استحالةِ تَنزُّلِ الشيَّاطينِ على رسُولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بعْدَ بَيانِ امتناعِ تَنزُّلِهم بالقرآنِ[٤].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ﴾ استفهامُ توقيفٍ وتقريرٍ[٥].

- والجُملةُ مُتَّصلةٌ في المعنى بجُملةِ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠]، أي: ما تنزَّلتِ الشَّياطينُ بالقرآنِ على محمَّدٍ، هل أُنبِّئكم على مَن تنزَّلُ الشَّياطينُ؟ وأُلْقِيَ الكلامُ إليهم في صورةِ استِفهامِهم عن أنْ يُعرِّفَهم بمَن تَتنزَّلُ عليه الشَّياطينُ، استفهامًا فيه تعريضٌ بأنَّ المُستفهَمَ عنه ممَّا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٩).

يَسوؤُهم لذلك، ويُحتاجُ فيه إلى إذْنِهم بكشْفِه.

وهذا الاستفهامُ صُوريٌّ مُستعمَلٌ كِنايةً عن كونِ الخبرِ ممَّا يُستأذَنُ في الإخبارِ به. واختِيرَ له حرفُ الاستفهامِ الدَّالُّ على التَّحقيقِ -وهو (هلْ)-؛ لأنَّ (هل) في الاستفهامِ بمعنى (قد)، والاستفهامُ مُقدَّرٌ فيها بهمزةِ الاستفهامِ، فالمعنى: أُنبِّئُكم إنباءً ثابتًا مُحقَّقًا، وهو استفهامٌ لا يُترقَّبُ منه جوابُ المُسْتفهَمِ؛ لأنَّه ليس بحقيقيٍّ؛ فلذلك يَعقبُه الإفضاءُ بما استُفْهِمَ عنه قبْلَ الإذنِ مِن السَّامعِ[(١)].

- وفِعلُ ﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾ مُعلَّقٌ عن العَملِ[(٢)] بالاستِفهامِ في قولِه: ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾[(٣)]، وهو أيضًا استِفهامٌ صُوريٌّ معناه الخبرُ كِنايةً عن أهمِّيَّةِ الخبرِ، بحيث إنَّه ممَّا يُستفهَمُ عنه المُتحسِّسونَ ويَتطلَّبونَه، فالاستفهامُ مِن لوازمِ الاهتمامِ[(٤)].

- قولُه: ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ على عامِلِه؛ للاهتِمامِ بالمُتنزَّلِ عليه، وأصْلُ التَّركيبِ: مَن تَنزَّلُ عليه الشَّياطينُ، فلمَّا قُدِّمَ المجرورُ دخَلَ حرْفُ (على) على اسمِ الاستفهامِ، وهو (مَن)؛ لأنَّ ماصَدَقَها[(٥)] هو المُتنزَّلُ عليه[(٦)].

٢- قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ فرَّقَ بيْنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٥).

(٢) التَّعليقُ: هو إبطالُ العمَلِ لفظًا لا محلًّا؛ لمَجيءِ ما له صدرُ الكلامِ بعدَه. يُنظر: ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٢/ ٥٠).

(٣) قال السمين الحلبي: (قولُه: ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿تَنَزَّلُ﴾ بعدَه، وإنما قُدِّمَ؛ لأنَّ له صدَر الكلامِ، وهو مُعَلِّقٌ لِما قبْلَه مِنْ فعلِ التنبئةِ؛ لأنَّها بمعنى العِلمِ). ((الدر المصون)) (٨/ ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٥).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٣٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٥).

آياتِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠]، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢٢١]، مع أنَّهنَّ أخواتٌ؛ لأنَّه أُريدَ التَّفريقُ بيْنهنَّ بآياتٍ ليَستْ في معناهنَّ؛ لِيُرجَعَ إلى المَجيءِ بهنَّ، وتطْريةِ ذِكْرِ ما فيهنَّ كرَّةً بعدَ كرَّةٍ؛ فيُدَلَّ بذلك على أنَّ المعنى الَّذي نزَلْنَ فيه مِن المعاني الَّتي اشتَدَّتْ كراهةُ اللهِ لخلافِها. ومثالُه: أنْ يُحدِّثَ الرَّجلُ بحديثٍ، وفي صَدرِه اهتمامٌ بشَيءٍ منه وفضْلُ عِنايةٍ، فتَراهُ يُعيدُ ذِكْرَه، ولا يَنفكُّ عن الرُّجوعِ إليه[1]، فهذه الآياتُ الثَّلاثُ نازِلةٌ في شأْنِ القُرآنِ، وفيما يَنْبغي أنْ يُقالَ فيه وما لا يَنْبغي، ولم تَجِئْ على نَسَقٍ واحدٍ، حيثُ لم يقُلْ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، ولم تَجِئْ واردةً على وَتيرةٍ واحدةٍ، بل فُرِّقَ بيْنهنَّ بآياتٍ مُتباعدةِ المعاني؛ ووجْهُ ذلك: أنَّها كالتَّراجيعِ للمَعاني الَّتي تخلَّلتْ بيْنهنَّ؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كالتَّرجيعِ مِن قَصصِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ إلى ما بُدِئَ منه في فاتحةِ السُّورةِ مِن ذِكْرِ الكتابِ، وتَكذيبِ القَومِ له، وقولَه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ مَذكورٌ بعدَ إهلاكِ القُرى المُنذَرةِ، وقولَه: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ مَسوقٌ بعدَ النَّهيِ عن ادِّعاءِ غيرِ اللهِ تعالى إلهًا، وكلُّ هذه الآياتِ مُتدانيةُ المعاني في نفْسِها، لكنَّها تَبعُدُ مُناسبَتُها ظاهرًا عن معنى تلك الآياتِ الثَّلاثِ، والتَّرجيعُ -كما عُلِمَ- يَسْتدعي شِدَّةَ الاتِّصالِ بما رُجِعَ به إليها؛ فدلَّ ذلك على شِدَّةِ الكراهيةِ لِمَا نزَلَت الآياتُ فيه، وهو إنكارُ قُريشٍ أنَّ القرآنَ ليس مِن عندِ اللهِ، وأنَّه مِن جِنسِ ما كان يَنزِلُ على الكَهنةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٠).

والشُّعراءِ[١].

- وقولُه: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ قَصْرٌ لِتَنزُّلِهم على كلِّ مَن اتَّصَفَ بالإفكِ الكثيرِ، والإثمِ الكبيرِ مِن الكَهنةِ والمُتنبِّئةِ، وتَخصيصٌ له بهم بحيث لا يَتخطَّاهم إلى غيرِهم، وحيثُ كانت ساحةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُنزَّهةً عن أنْ يَحُومَ حوْلَها شائبةُ شَيءٍ مِن تلك الأوصافِ؛ اتَّضَحَ استحالةُ تَنزُّلِهم عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- قولُه: ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، الأفَّاكُ: الكثيرُ الإفكِ، وهو الكذبُ، والأثيمُ: كثيرُ الإثمِ، وهما صِيغتَا مُبالَغةٍ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿يُلْقُونَ .. وَأَكْثَرُهُمْ﴾ جُمِعَ الضَّميرُ؛ لأنَّ كلَّ أفَّاكٍ فيه عُمومٌ وتحْتَه أفرادٌ[٤].

- وإلْقاءُ السَّمعِ هو شِدَّةُ الإصغاءِ -على أحدِ المعنيَينِ- حتَّى كأنَّه إلْقاءٌ للسَّمعِ مِن مَوضعِه؛ شبَّهَ تَوجيهَ حاسَّةِ السَّمعِ إلى المسموعِ الخفيِّ بإلقاءِ الحجَرِ مِن اليدِ إلى الأرضِ أو في الهواءِ[٥].

- ولَمَّا كان حالُ الكُهَّانِ قد يَلتبِسُ على ضُعفاءِ العقولِ ببعضِ أحوالِ النُّبوَّةِ في الإخبارِ عن غيْبٍ، وأسجاعُهم قد تلْتبِسُ بآياتِ القرآنِ في بادئِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٤٢، ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٦).

النَّظرِ: أطْنَبَتِ الآيةُ في بَيانِ ماهيَّةِ الكهانةِ، وبيَّنَتْ أنَّ قُصاراها الإخبارُ عن أشياءَ قليلةٍ قد تَصدُقُ؛ فأينَ هذا مِن هدْيِ النَّبيِّ والقرآنِ وما فيه مِن الآدابِ والإرشادِ والتَّعليمِ، والبلاغةِ والفصاحةِ، والإعجازِ؟! ولا تَصدِّيَ منه للإخبارِ بالمُغيَّباتِ، كما قال: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأنعام: ٥٠] في آياتٍ كثيرةٍ مِن هذا المعنى(١).

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ استئنافٌ أبطَلَ كونَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شاعرًا، وقرَّره بـ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾؛ فهو استئنافٌ مَسوقٌ لإبطالِ ما قالُوا في حقِّ القُرآنِ العَظيمِ مِن أنَّه مِن قَبيلِ الشِّعرِ، وأنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الشُّعراءِ، ببَيانِ حالِ الشُّعراءِ المُنافيةِ لحالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بعْدَ إبطالِ ما قالوا: إنَّه مِن قَبيلِ ما يُلْقي الشَّياطينُ على الكَهنةِ مِن الأباطيلِ(٢).

- وكان ممَّا افتراه المشركون بُهتانًا وزُورًا: أنْ قالوا في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هو شاعرٌ، فلمَّا أبطَلت الآياتُ السابقةُ ما افتَرَوه، وكان منها قولُهم: هو كاهِنٌ؛ لم يَبْقَ إلَّا إبطالُ قولِهم: هو شاعرٌ، وكان بيْنَ الكِهانةِ والشِّعرِ جامعٌ في خَيالِ المُشركينَ؛ إذ كانوا يَزعُمون أنَّ للشَّاعرِ شَيطانًا يُمْلي عليه الشِّعرَ، وربَّما سمَّوهُ الرَّئيَّ؛ فناسَبَ أنْ يُقارَنَ بيْنَ تَزييفِ قولِهم في القرآنِ: هو شِعرٌ، وقولِهم في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هو شاعرٌ، وبيْن قولِهم: هو قولُ كاهنٍ، كما قُرِنَ بيْنهما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۞ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١-٤٢]؛ فعطَفَ هنا قولَه: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ على جُملةِ ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾(٣) [الشعراء: ٢٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٧).

- ولَمَّا كان حالُ الشُّعراءِ في نَفْسِ الأمرِ مُخالِفًا لحالِ الكُهَّانِ -إذ لم يكُنْ لِمَلَكةِ الشِّعرِ اتِّصالٌ ما بالنُّفوسِ الشَّيطانيَّةِ، وإنَّما كان ادِّعاءُ ذلك مِن اختلاقِ بعضِ الشُّعراءِ أشاعوهُ بيْنَ عامَّةِ العرَبِ-: اقتَصرَتِ الآيةُ على نفْيِ أنْ يكونَ الرَّسولُ شاعرًا، وأنْ يكونَ القرآنُ شِعرًا، دونَ تعرُّضٍ إلى أنَّه تَنزيلُ الشَّياطينِ، كما جاء في ذِكرِ الكهانةِ[1].

- وأَدْمَجَتِ الآيةُ حالَ مَن يتَّبِعُ الشُّعراءَ بحالِهم؛ تَشويهًا للفريقينِ، وتَنفيرًا منهما؛ فكانتْ هذه الآيةُ نفْيًا للشِّعرِ أنْ يكونَ مِن خُلقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وذمًّا للشُّعراءِ الَّذين تَصَدَّوا لهجائِه؛ فقولُه: ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ ذمٌّ لِأتْباعِهم، وهو يَقْتضي ذمَّ المَتبوعينَ بالأَحرى، وفيه كِنايةٌ عن تَنزيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يكونَ منهم؛ فإنَّ أتْباعَه خِيرةُ قومِهم، وليس فيهم أحدٌ مِن الغاوينَ؛ فقدِ اشتمَلَتْ هذه الجُملةُ على تَنزيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَنزيهِ أصحابِه، وعلى ذَمِّ الشُّعراءِ وذَمِّ أتْباعِهم، وتَنزيهِ القرآنِ عن أن يكونَ شِعرًا[2].

- وقولُه: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ فيه تَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾؛ لمُجرَّدِ التَّقوِّي والاهتِمامِ بالمُسنَدِ إليه لِلَفْتِ السَّمعِ إليه، والمقامُ مُستغْنٍ عن الحَصرِ؛ لأنَّه إذا كانوا يتَّبِعُهم الغاوونَ فقد انتَفَى أتْباعُهم عن الصَّالحينَ؛ لأنَّ شأْنَ المجالسِ أنْ يتَّحِدَ أصحابُها في النَّزعةِ. وقيل: التقديمُ للحَصْرِ، أي: لا يَتَّبِعُهم إلَّا الغاوونَ؛ لأنَّه أصرحُ في نَفْيِ اتِّباعِ الشُّعراءِ عن المُسلِمينَ؛ فتقديمُ المُسنَدِ إليه على الخَبرِ الفِعليِّ يُفيدُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٠٨).

تَخصيصَه بالخبَرِ، أي: قصْرَ مضمونِ الخبرِ عليه، فهو قصرٌ إضافيٌّ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ استِشهادٌ على أنَّ الشُّعراءَ إنَّما يتَّبِعُهم الغَاوُونَ، وتَقريرٌ له. والخِطابُ لكُلِّ مَن تَتأتَّى منه الرُّؤيةُ؛ للقَصْدِ إلى أنَّ حالَهم مِن الجَلاءِ والظُّهورِ بحيثُ لا تَختصُّ برُؤيةِ راءٍ دُونَ راءٍ[٢].

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تقْريريٌّ، وأُجْريَ التَّقريرُ على نفْيِ الرُّؤيةِ؛ لإظهارِ أنَّ الإقرارَ لا مَحيدَ عنه، والخِطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ. وجُملةُ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ وما عُطِفَ عليها مُؤكِّدةٌ لِمَا اقتَضَتْه جُملةُ ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، مِن ذَمِّ الشُّعراءِ بطريقِ فَحوى الخِطابِ[٣].

- قولُه: ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ذِكْرُ الوادي والهُيومِ فيه تَمثيلٌ لذَهابِهم في كلِّ شِعْبٍ مِن القولِ، واعتِسافِهم، وقِلَّةِ مُبالاتِهم بالغُلوِّ في المنطقِ، ومُجاوزةِ حَدِّ القَصْدِ فيه[٤]، فمُثِّلَت حالُ الشُّعراءِ بحالِ الهائمينَ في أوديةٍ كثيرةٍ مُختلفةٍ؛ لأنَّ الشُّعراءَ يَقولونَ في فُنونٍ مِن الشِّعرِ: مِن هجاءٍ واعتداءٍ على أعراضِ النَّاسِ، ومِن نَسيبٍ وتَشْبيبٍ بالنِّساءِ، ومَدْحِ مَن يَمْدحُونه رَغبةً في عَطائِه، وإنْ كان لا يَستحِقُّ المدْحَ، وذَمِّ مَن يَمنعُهم وإنْ كان مِن أهْلِ الفَضلِ، وربَّما ذمُّوا مَن كانوا يَمْدحونَه، ومدَحوا مَن سبَقَ لهم ذَمُّه؛ فمُثِّلُ حالُ الشُّعراءِ بحالِ الإبلِ الرَّاعيةِ في الأوديةِ مُتحيِّرةً؛ لأنَّ الشُّعراءَ في

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٠، ٢٠١).

حِرْصٍ على القولِ لاختلابِ النُّفوسِ[١].

- وقد كُنِّيَ باتِّباعِ الغاوينَ إيَّاهم عن كَونِهم غاوينَ، وأُفِيدَ بتَفظيعِ تَمثيلِهم بالإبلِ الهائمةِ تَشويهُ حالتِهم، وأنَّ ذلك مِن أجْلِ الشِّعرِ[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ كأنَّه لَمَّا كان إعجازُ القرآنِ مِن جِهةِ اللَّفظِ والمعنى، وقد قَدَحوا في المعنى بأنَّه ممَّا تنزَّلتْ به الشَّياطينُ، وفي اللَّفظِ بأنَّه مِن جِنسِ كلامِ الشُّعراءِ؛ تَكلَّمَ في القِسْمَينِ وبيَّن مُنافاةَ القُرآنِ لهما، ومُضادَّةَ حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لحالِ أربابِهما[٣].

٧- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ ختَمَ هذه السُّورةَ الجَليلةَ بآيةٍ ناطقةٍ بما لا شَيءَ أهيَبَ منه وأهوَلَ، ولا أنْكى لقُلوبِ المُتأمِّلينَ، ولا أصدَعَ لأكبادِ المُتدبِّرينَ؛ وذلك قولُه: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ وما فيه مِن الوَعيدِ البليغِ، وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ وما فيه مِن الإطلاقِ والتَّعميمِ، وقولُه: ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وما فيه مِن الإيهامِ والتَّهويلِ[٤]؛ فهذه الآيةُ تحذيرٌ عن غَمْصِ الحُقوقِ، وحثٌّ على استِقصاءِ الجُهْدِ في النُّصحِ للأُمَّةِ، وهي ناطقةٌ بأهيَبِ مَوعظةٍ وأهوَلِ وعيدٍ لِمَن تَدبَّرَها؛ لِمَا اشتَمَلَتْ عليه مِن حَرفِ التَّنفيسِ (السين) المُؤْذِنِ بالاقترابِ، ومِن اسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ المُؤذِنِ بأنَّ سُوءَ المُنقلَبِ يَترقَّبُ الظَّالمينَ لأجْلِ ظُلْمِهم، ومِن الإبهامِ في قولِه: ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾؛ إذ تُرِكَ تبْيينُه بعِقابٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧١).

مُعيَّنٍ؛ لتَذْهبَ نُفوسُ المُوعَدِينَ في كلِّ مذهبٍ مُمكِنٍ مِن هَولِ المُنقلَبِ، وهو على الإجمالِ مُنقلَبُ سُوءٍ[١].

- قوله: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ ناسَبَ ذِكْر الظُّلم أنْ يُنتقلَ منه إلى وَعيدِ الظَّالمينَ، وهم المُشرِكون الَّذين ظَلَموا المسلمينَ بالأذى والشَّتْمِ بأقوالِهم وأشعارِهم[٢].

- وجُعِلَتْ هذه الآيةُ في مَوقعِ التَّذييلِ؛ فاقتضَتِ العُمومَ في مُسمَّى الظُّلمِ الشَّاملِ للكُفرِ، وهو ظُلْمُ المرْءِ نفْسَه، ولِلْمعاصي القاصِرةِ على النَّفْسِ كذلك، وللاعتداءِ على حُقوقِ النَّاسِ[٣].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الحادي والعشرونَ

ويليه المجلدُ الثاني والعشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ النملِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

الفهرس

سورةُ الشُّعَراءِ ٧
أسماءُ السُّورةِ ٧
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنِيِّ: ٧
مقاصِدُ السُّورةِ ٧
موضوعاتُ السُّورةِ ٨
الآيات (١-٩) ١٠
غَريبُ الكَلِماتِ ١٠
المعنى الإجماليُّ ١١
تَفسيرُ الآياتِ ١٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٨
بلاغةُ الآياتِ ٢١
الآيات (١٠-٢٢) ٣٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٧
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٧
المعنى الإجماليُّ ٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ٣٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥١
بلاغةُ الآياتِ ٥٥
الآيات (٢٣-٣٧) ٧٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٧٠
المعنى الإجماليُّ ٧٠
تَفسيرُ الآياتِ ٧١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٧٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٨
بلاغةُ الآياتِ ٨٢
الآيات (٣٨ - ٥١) ٩٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٩٦
المعنى الإجماليُّ ٩٧
تَفسيرُ الآياتِ ٩٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٠٦
بلاغةُ الآياتِ ١٠٩
الآيات (٥٢-٦٨) ١١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١١٦
المعنى الإجماليُّ ١١٨
تَفسيرُ الآياتِ ١١٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٣٠

بلاغةُ الآياتِ ١٣٤
الآيات (٦٩-٨٩) ١٤٠
غَريبُ الكَلِماتِ ١٤٠
مُشكِلُ الإعرابِ ١٤١
المعنى الإجماليُّ ١٤١
تَفسيرُ الآياتِ ١٤٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٥٦
بلاغةُ الآياتِ ١٦٢
الآيات (٩٠-١٠٤) ١٧٨
غَريبُ الكَلِماتِ ١٧٨
المعنى الإجماليُّ ١٧٩
تَفسيرُ الآياتِ ١٨٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٨٦
بلاغةُ الآياتِ ١٩٠
الآيات (١٠٥-١٢٢) ١٩٩
غَريبُ الكَلِماتِ ١٩٩
المعنى الإجماليُّ ٢٠٠
تَفسيرُ الآياتِ ٢٠١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢١٢
بلاغةُ الآياتِ ٢١٦
الآيات (١٢٣-١٤٠) ٢٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٢٤
المعنى الإجماليُّ ٢٢٦
تَفسيرُ الآياتِ ٢٢٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٣٩
بلاغةُ الآياتِ ٢٤٢
الآيات (١٤١-١٥٩) ٢٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٥٠
المعنى الإجماليُّ ٢٥٢
تَفسيرُ الآياتِ ٢٥٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٦٣
بلاغةُ الآياتِ ٢٦٥
الآيات (١٦٠-١٧٥) ٢٧١
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٧١
المعنى الإجماليُّ ٢٧٢
تَفسيرُ الآياتِ ٢٧٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٨٣
بلاغةُ الآياتِ ٢٨٦
الآيات (١٧٦-١٩١) ٢٩١

غَريبُ الكَلِماتِ ٢٩١
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٩٢
المعنى الإجماليُّ ٢٩٣
تَفسيرُ الآياتِ ٢٩٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٠٦
بلاغةُ الآياتِ ٣٠٨
الآيات (١٩٢-٢٠٩)..... ٣١٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٣١٥
المعنى الإجماليُّ ٣١٦
تَفسيرُ الآياتِ ٣١٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٣٠
بلاغةُ الآياتِ ٣٣٤
الآيات (٢١٠-٢٢٠)..... ٣٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٤٦
المعنى الإجماليُّ ٣٤٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٤٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٥٩
بلاغةُ الآياتِ ٣٦٠
الآيات (٢٢١-٢٢٧)..... ٣٦٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٦٨
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٦٩
المعنى الإجماليُّ ٣٦٩
تَفسيرُ الآياتِ ٣٧٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٨٤
بلاغةُ الآياتِ ٣٨٧
الفهرس ٣٩٩

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة النمل

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة القصيم

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثاني والعشرون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة النمل)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثاني والعشرون - سورة النمل/

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ - الظهران، ١٤٤٢ هـ

٤٣٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٥-٨٨-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣٢ ١٤٤٢/٣٧٥٠

رقم الإيداع: ٥-٨٨-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

ردمك: ١٤٤٢/٣٧٥٠

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة النمل)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثاني والعشرون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ النَّملِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ النَّملِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ سُورةَ (النَّملِ)[١].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ النَّملِ مكِّيَّةٌ[٢]، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

الحديثُ عن أدلَّةِ وحدانيَّةِ الله تعالى وقدرتِه، وعن مظاهرِ فضلِه تعالى على عبادِه[٤].

موضوعاتُ السورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- الإشارةُ والتنبيهُ إلى إعجازِ القُرآنِ الكريمِ، ببلاغةِ نَظمِه وعلوِّ معانيه؛

---

(١) سُمِّيت هذه السورةُ بسورةِ (النَّملِ)؛ ووجهُ التسميةِ بذلك أنَّ لفظَ النَّملِ لم يُذكَرْ في سورةٍ مِنَ القرآنِ غيرِها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٥).

وقد ورَدت بعضُ الآثارِ عن الصحابةِ فيها تسميتُها بهذا الاسمِ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٦).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: القرطبي، وأبو حيان، والفيروزابادي، والبِقاعيُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ٢٩٦).

وعِظَمِ شأنِه.

٢- بيانُ صفاتِ المؤمنينَ وجزائِهم، وصفاتِ الخاسرينَ وجزائِهم.

٣- ذِكرُ شَيءٍ من قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ.

٤- ذِكرُ قِصَّةِ سُليمانَ عليه السَّلامُ مع النَّملةِ، ومع الهُدهدِ، ومع ملكةِ سَبأٍ وقَومِها.

٥- ذِكرُ قِصَّةِ صالحٍ عليه السَّلامُ مع قَومِه.

٦- ذِكرُ قِصَّة لوطٍ عليه السَّلامُ مع قَومِه.

٧- بيانُ البراهينِ الدالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ، وإبطالُ دينِ المشركين وعبادتِهم لغيرِ الله، وإثباتُ البَعثِ.

٨- إخبارُ القُرآنِ الكريمِ عن أنباءِ السَّابقين، وأنَّه مُهيمِنٌ على الكتُبِ السَّابقةِ.

٩- خَتْمُ السُّورةِ بذِكرِ بعضِ أشراطِ الساعةِ، وبَعضِ مشاهِدِ القيامةِ، وما يَنتظِرُ المكَذِّبين بالسَّاعةِ في ذلك اليومِ العظيمِ.

الآيات (١-٦)

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زَيَّنَّا﴾: أي: حَسَّنَّا، وأصلُ (زين): يدُلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[١].

﴿يَعۡمَهُونَ﴾: أي: يَتمادَونَ، ويَتردَّدونَ متحَيِّرينَ، وأصلُ (عمه): يدُلُّ على حَيرةٍ وتردُّدٍ[٢].

﴿لَتُلَقَّى﴾: أي: تأخُذُ وتتلَقَّنُ، والإلقاءُ: طَرحُ الشَّيءِ حيثُ تَلْقاه، أي: تراه، ثمَّ صار اسمًا لكلِّ طرحٍ، وأصلُ (لقي) هنا: يدُلُّ على طرحِ شَيءٍ[٣].

﴿لَّدُنۡ﴾: بمعنى: عِندَ، وهو أبلَغُ مِن عندَ وأخَصُّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٢)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأت السُّورةُ ببَعضِ الحُروفِ المقَطَّعةِ، التي تُبيِّنُ إعجازَ القرآنِ، وتُبرزُ عجزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بالإتيانِ بشَيءٍ مِن مِثلِه، مع أنَّه مرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثون بها. تلك الآياتُ آياتُ القرآنِ وهو نفْسُه كتابٌ ظاهرٌ صِدقُه، ومُظهِرٌ كذلك الحقَّ ببيانِه، هُدًى للمُؤمِنينَ، وبِشارةٌ لهم.

ثمَّ وصَف سبحانَه هؤلاءِ المؤمنينَ، فقال: هؤلاء المؤمِنونَ هم الذين يُقيمون الصَّلاةَ بأركانِها وشُروطِها وحُدودِها، ويُعطونَ الزَّكاةَ، وهم بالآخرةِ يُؤمِنونَ إيمانًا يقينيًّا.

ثمَّ قال تعالى، مبَيِّنًا ما عليه غيرُ المؤمنينَ مِن ضلالٍ وحَيرةٍ: إنَّ الذين لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ حسَّنَّا لهم أعمالَهم السيِّئةَ فرَأَوْها حَسَنةً؛ جزاءً لهم على كُفرِهم، واستحبابِهم العمَى على الهدَى، فهم يَتردَّدُون حائِرينَ في ضلالِهم، ولا يَهتَدونَ للحَقِّ.

ثمَّ أخبَر عن سوءِ عاقبتِهم، فقال: أولئك لهم أشدُّ العذابِ، وهم في الآخرةِ هم الأخسَرون؛ لأنَّهم اشترَوا الضَّلالةَ بالهدى.

ثُمَّ مَهَّد سبحانَه لِمَا سيَذكُرُه بعدَ ذلك مِن الأخبارِ العجيبةِ بقولِه: وإنَّك تتلقَّى هذا القُرآنَ -يا محمَّدُ- وتتلقَّنُه مِن جبريلَ المُرسَلِ إليك مِن قِبَلِ الحَكيمِ الذي يضَعُ الأشياءَ في مَواضِعِها الصَّحيحةِ، العليمِ الذي يعلَمُ ظاهِرَ الأمورِ وباطِنَها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١﴾.

﴿طسٓ﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن معارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثونَ بها[١].

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: تلك[٢] الآياتُ العَظيمةُ العاليةُ المقامِ: آياتُ القُرآنِ وكِتابٍ واضحٍ صِدقُه، وأنَّه مِن عندِ اللهِ، ومُظهِرٍ الحقَّ ببَيانِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) قيل: المشارُ إليه جميعُ القرآن. وممَّن قال بذلك: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٩).

قال الزجاج: (معنى ﴿تِلْكَ﴾ أنَّهم كانوا وُعِدوا بالقرآنِ في كتبِهم، فقيل لهم هَذِه «تلك» الآياتُ التي وُعِدتُم بها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٠٧).

وقيل: المشارُ إليه سورةُ النمل. وممَّن قال بذلك: القرطبي، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٨٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١).

وقال الزمخشري: (و﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى آياتِ السورةِ، والكتابُ المبينُ: إمَّا اللَّوحُ، وإبانتُه: أنَّه قد خُطَّ فيه كُلُّ ما هو كائنٌ، فهو يبيِّنُه للناظرين فيه إبانةً. وإمَّا السُّورةُ. وإمَّا القرآنُ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٦). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٤، ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢، ١٣).

ذكر ابنُ عثيمينَ أنَّ كلمةَ ﴿مُّبِينٍ﴾ يجوزُ أن تكونَ مِن (أبان) اللازمِ بمعنى (بان)، ومِن (أبان) المتعدِّي بمعنى (أظهر) وأنَّ هذا مِن المشتركِ المستعمَلِ في معنييه على وجهٍ لا تعارضَ فيه، قال: (فالقرآنُ بيِّنٌ والقرآنُ أيضًا مظهِرٌ. وعلى هذا التفسيرِ تكونُ دلالةُ ﴿مُّبِينٍ﴾ على أنَّ القرآنَ بيِّنٌ دلالةَ مطابقةٍ، يعني: إذا جعَلْنا ﴿مُّبِينٍ﴾ مستعملةً في المعنيينِ فالدلالةُ مطابقةٌ، لكن لو =

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

أي: هُدًى[١] للمُؤمِنينَ يَهديهم إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ، وهو بِشارةٌ لهم بالخَيرِ والثَّوابِ في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان وصْفُ الإيمانِ خفيًّا، وصَفَهم بما يُصدِّقُه مِن الأمورِ الظاهرةِ، فقال[٣]:

= قلنا: إنَّ «مُبينٍ» بمعنى: مظهِرٍ فدلالتُه على كونِه بيِّنًا مِن بابِ دلالةِ الالتزامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢).

(١) و﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ قيل: هما حالانِ مِنَ الآياتِ أو مِنَ الكتابِ، أي: تلك آياتٌ هاديةٌ ومبشِّرةٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ في محلِّ رفعٍ على الابتداءِ، أي: هو هُدًى، أو هما خبرانِ آخَرانِ لِـ﴿تِلْكَ﴾، أو هما مصدرانِ منصوبانِ بفعلٍ مُقَدَّرٍ، أي: يَهدي هدًى ويُبشِّرُ بُشْرَى. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٦-١٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٦).

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: إنَّ القرآنَ هُدًى وبُشرَى للمُؤمِنينَ الذين يُحافِظونَ على أداءِ الصَّلَواتِ[١] بأركانِها وشُروطِها وحُدودِها[٢].

﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: ويُعطُونَ الزَّكاةَ المفروضةَ عليهم مُستحقِّيها[٣].

---

(١) قيل: المرادُ بها: الصلاةُ المفروضةُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير يحيى ابن سلام)) (٢/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨).
وقيل: الصلاةُ هنا تشمَلُ الفرائِضَ والنوافِلَ. وممَّن قال بذلك: السعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).
قال البقاعي: (﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: بجميعِ حُدودِها الظَّاهرةِ والباطِنةِ؛ مِن المواقيتِ، والطَّهاراتِ، والشُّروطِ والأركانِ، والخُشوعِ والخُضوعِ، والمراقبةِ والإحسانِ؛ إصلاحًا لِما بيْنَهم وبيْنَ الخالقِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٢٦).
وقال ابنُ عثيمين: (وإقامةُ الصَّلاةِ نوعان: نوعٌ لا بدَّ منه، وهو الإتيانُ بالأركانِ والواجباتِ والشُّروطِ، ونوعٌ يكونُ على وجهِ الكمالِ، وهو الإتيانُ بالمكَمِّلاتِ مِن السُّنَن وغَيرِها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سُلَيمان)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢).
وممن قال بأنَّ المرادَ بالزكاةِ هنا: الصدقةُ المفروضةُ: مقاتل بن سُلَيمان، ويحيى بن سلام، وابن جرير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سُلَيمان)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير يحيى ابن سلام)) (٢/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢).
قال ابن عطية: (الزكاةُ هنا يحتَمِلُ أن تكونَ غيرَ المفروضةِ؛ لأنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ قديمةٌ، ويحتَمِلُ =

﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

أي: وهم يُؤمِنونَ إيمانًا يقينيًّا بالدَّارِ الآخرةِ، ووقوعِ البَعثِ والجزاءِ يومَ القيامةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٢- ٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾.

= أن تكونَ المفروضةَ مِن غيرِ تفسيرٍ [أي: مِن غيرِ تفصيلٍ لأحكامِها]. وقيل: الزكاةُ هنا بمعنى الطهارةِ مِن النقائِصِ، وملازمةِ مكارمِ الأخلاقِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٨).

وقال ابن عثيمين: (السورةُ -كما تقدَّم- مكيَّةٌ، فهل معنى ذلك أنَّ الزكاةَ فُرِضَت بمكَّةَ أو في المدينةِ؟

المعروفُ عندَ أهلِ العلمِ أنَّها فُرِضتْ في المدينةِ، ولكنَّ الصحيحَ أنها فُرِضَت بمكَّةَ، ولكِنْ تقديرُ أنصبائِها وبيانُ الأموالِ على وجهِ التفصيلِ كان ذلك في المدينةِ، هذا هو الصَّحيحُ، وهو الذي به تجتَمِعُ الأدلَّةُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨).

قال السعدي: (يقينُهم بالآخرةِ يقتضي كمالَ سَعيِهم لها، وحَذَرَهم من أسبابِ العذابِ ومُوجِباتِ العقابِ، وهذا أصلُ كُلِّ خيرٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٦، ١٢٧).

وقال ابنُ عثيمين: (كُلُّ ما أخبر اللهُ تعالى به ممَّا يكونُ في هذا اليومِ، أو أخبَرَ به رسولُه؛ فإنَّه داخِلٌ في الآخرةِ، بل إنَّ شيخَ الإسلامِ رَحِمَه الله يقولُ: إنَّه يدخُلُ في الإيمانِ باليومِ الآخِرِ كُلُّ ما أخبر به النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ممَّا يكونُ بعدَ الموتِ. فعلى هذا يكونُ المرادُ بالآخرةِ: ما بعْدَ الدُّنيا؛ فتشمَلُ عذابَ القبرِ ونعيمَ القبرِ، وتشمَلُ كذلك الموازينَ في يومِ القيامةِ، والحوضَ المورودَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ...). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٤، ٢٥). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٣/ ١٤٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه ما للمُؤمِنينَ مِن البُشرى، أتبَعَه بما على الكُفَّارِ مِن سوءِ العذابِ، فقال[١]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

أي: إنَّ الذين لا يُؤمِنونَ بالدَّارِ الآخرةِ، ووُقوعِ البَعثِ بعْدَ الموتِ، والجزاءِ على الأعمالِ يَومَ القيامةِ: حسَّنَّا لهم أعمالَهم السيِّئةَ القبيحةَ، وحَبَّبْناها إليهم، وسَهَّلْنا عليهم فِعلَها؛ جزاءً لهم على كُفرِهم[٢].

كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۞ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

وقال الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٨-١٠].

﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.

أي: فهُم في ضَلالِهم وأعمالِهم الخَبيثةِ القَبيحةِ يَتردَّدُون حائِرينَ، لا يَهتَدونَ للحَقِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن =

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا خَصَّ المؤمنينَ بما عُلِمَ منه أنَّ لهم حُسنَ الثَّوابِ، وأنَّهم في الآخرةِ هم الفائِزونَ؛ ذكَرَ ما يَختصُّ به هؤلاء مِن ضدِّ ذلك، فقال[1]:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

أي: أولئك لهم أشدُّ العذابِ وأسوَؤُه وأعظمُه[2].

= عطية)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).

ممن اختار أنَّ المرادَ سوءُ العذابِ في الدُّنيا، وهو القتلُ يومَ بدرٍ: ابنُ جرير، والواحدي، والزمخشري -وزاد على القتلِ الأسْرَ-، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٢).

قال ابن عاشور: (والظَّاهرُ أنَّ المرادَ به عذابُ الدُّنيا، وهو عذابُ السَّيفِ وخِزيُ الغَلَبِ يومَ بدرٍ وما بعْدَه؛ بقرينةِ عطفِ: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٢).

وقال ابنُ جزي: (ويحتملُ أن يريدَ عذابَ الآخرةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٨).

وممن اختار أنَّ المرادَ به: سوءُ العذابِ في الدُّنيا والآخرةِ: أبو حيان، وابنُ كثيرٍ، والبِقاعيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣).

﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

أي: وهم يومَ القيامةِ المُختَصُّونَ بأنَّهم أشدُّ النَّاسِ خَسارةً؛ لفَواتِ المَثوبةِ، واستِحقاقِ العُقوبةِ باشترائِهم الضَّلالةَ بالهُدى[1].

كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ * لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٥، ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ * وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤- ٤٦].

ثُمَّ مَهَّد سبحانَه مُقَدِّمةً نافعةً لِمَا سيَذكُرُه بعدَ ذلك مِن الأخبارِ العجيبةِ[2]، فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصَف الله تعالى القرآنَ بما اقتضَى بيانَ أهلِ الفَوزِ والخُسرانِ، وكان حاصِلُ حالِ الكَفَرةِ أنَّهم يتلَقَّونَ كُفرَهم الذي هو في غايةِ السَّفَهِ إمَّا عن الشَّياطينِ الذين هم في غايةِ الشَّرِّ، وإمَّا عن آبائِهم الذين هم في غايةِ الجَهلِ؛ وصَفَ النبيَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٥).

صلَّى الله عليه وسلَّمَ بضِدِّ حالِهم، فذكَر جلالةَ المنَزَّلِ عليه والمُنزِّلِ؛ ليكونَ أدعى إلى قَبولِه، فقال[١]:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

أي: وإنَّك لَتَتلقَّى القُرآنَ -يا محمَّدُ- فتأخُذُه وتتلقَّنُه وتَعلَمُه بواسطةِ جبريلَ مِن عندِ مَن له كَمالُ الحِكمةِ في خَلقِه وشَرعِه، فيَضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها الصَّحيحةِ اللَّائقةِ بها، ومَن له كَمالُ العِلمِ، فيَعلَمُ أسرارَ الأمورِ وظاهِرَها وباطِنَها، ومصالِحَ عبادِه؛ وإذا كان القرآنُ مِن عندِ الحكيمِ العليمِ عُلِم أنَّه كُلَّه حِكمةٌ وعِلمٌ، وصَلاحٌ للعبادِ في دُنياهم وأُخراهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٤- ١٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ إقناعُ النَّاسِ بما يقضيه اللهُ تبارك وتعالى مِن قَضاءٍ قَدَريٍّ أو قَضاءٍ شَرعيٍّ، وجْهُ ذلك: أنَّنا إذا عَلِمنا أنَّه صادِرٌ عن حكمةٍ فإنَّنا نُسَلِّمُ ونَرضى، ولا نقولُ: لِمَ وكيف؟ فإنْ عَلِمْنا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٥)، ((تفسير العز بن عبد السلام)) (٢/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٣).

الحِكمةَ فلا شَكَّ أنَّه يَزيدُنا طُمأنينةً، وإذا لم نَعلَمْ؛ فإنَّنا نجزِمُ أنَّه لحِكمةٍ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ سؤالٌ: أنَّه إنْ قلتَ: الكتابُ المبينُ هو القرآنُ، فكيف عَطَفَه عليه مع أنَّ العطفَ يقتضي المغايرةَ؟

الجوابُ: المغايرةُ تصْدُقُ بالمغايرةِ لفظًا ومعنًى، وباللَّفظِ فقط، وهو هنا مِن الثاني، وقيل غير ذلك[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ سؤالٌ: كيف صحَّ أنْ يُشارَ لاثنين -أحدِهما مؤنَّثٌ والآخَرِ مُذَكَّرٌ- باسمِ الإشارةِ المؤنثِ! ولو قلتَ: (تلك هندٌ وزيدٌ) لم يَجُزْ؟!

الجوابُ مِن ثلاثةِ أوجهٍ:

أحدها: أنَّ المرادَ بالكتاب هو الآياتُ؛ لأنَّ الكتابَ عبارةٌ عنِ الآياتِ المجموعةِ، فلمَّا كانا شيئًا واحدًا صحَّتِ الإشارةُ إليهما بإشارةِ الواحدِ المؤنَّثِ.

الثاني: أنَّه على حذْفِ مضافٍ، أي: (وآياتُ كتابٍ مبينٍ).

الثالث: أنَّه لَمَّا وَلِيَ المؤنَّثَ ما تصحُّ الإشارةُ به إليه اكتُفيَ به وحَسُنَ، ولو وَلِيَ المذكَّرَ لم يَحْسُنْ، أَلَا ترى أنَّك تقولُ: (جاءتني هندٌ وزيدٌ) ولو أُخِّرَتْ هندٌ لم يَجُزْ تأنيثُ الفعلِ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٧).

ويُنظرُ ما سيأتي في البلاغةِ مِن تفصيلٍ.

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤١).

٣- قال الله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في التَّصريحِ بهذا الحالِ تلويحٌ بأنَّ القرآنَ فِتنةٌ وإنذارٌ للكافرين(١).

٤- القرآنُ هدًى للناسِ، والمرادُ هدايةُ الإرشادِ، فكلُّ الناسِ يَسترشِدون به لو شاؤوا، يعني أنَّ القُرآنَ لا نَقصَ في دَلالتِه، لكنَّ هدايةَ التوفيقِ خاصَّةٌ بالمؤمِنينَ؛ قال تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

٥- قال الله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لَمَّا كان الشيءُ قد يَهدي إلى مقصودٍ يُكَدِّرُ حالَ قاصدِه، قال نافيًا لذلك، وعَطَفَ عليه بالواوِ دَلالةً على الكمالِ في كلٍّ مِن الوصفَينِ: ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ أي: عَظيمةً(٣).

٦- قال الله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يُستفادُ مِن ذلك أنَّه كلَّما كَمَلَ الإيمانُ في العبدِ كَمَلَ اهتداؤه بالقُرآنِ؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ زاد بزيادةِ ذلك الوَصفِ، ونَقَصَ بنَقصِه(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أنَّ الأعمالَ مِن الإيمانِ، وأنَّ تضييعَ الصَّلاةِ والبُخلَ بالزكاةِ يُنافي الإيمانَ؛ لأنَّ اللهَ جَعَلَ مِن أوصافِ المؤمنينَ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزكاةِ، فمَن لم يكُنْ يُقيمُ الصَّلاةَ ولم يُؤتِ الزكاةَ فهو ناقِصُ الإيمانِ، وقد يكونُ مَعدومَ الإيمانِ بالكليَّةِ، كما في ترْكِ الصَّلاةِ(٥)، على خلافٍ بينَ أهلِ العلمِ في ذلك.

٨- في قَولِه تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥، ٢٦).

ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا آمَنَ بالشَّرائعِ المنزَّلةِ فهو كاملُ الإيمانِ، وإنْ لم يُدرِكِ الفرائضَ المتأخِّرةَ؛ فالذين ماتوا مِن الصحابةِ قبْلَ فرْضِ الصِّيامِ إسلامُهم كاملٌ، بل إنَّ الرجُلَ يمكِنُ أنْ يؤمِنَ ويموتَ قبلَ أن يُصلِّيَ صلاةً واحدةً، ويكونُ بذلك كاملَ الإيمانِ، يعني: إيمانُه كاملٌ وإنْ كان غيرُه -الذي أَدركَ- أكمَلَ منه، لكنَّه هو بالنِّسبةِ إليه لا يُقالُ: إيمانُه ناقصٌ، أي: نقصًا يُخِلُّ به[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أنَّ مَحَلَّ الثَّناءِ على المُصَلِّينَ هو في إقامتِها والإتيانِ بها على الوَجهِ الأكمَلِ[٢].

١٠- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أشارت الآيةُ إلى معنًى دقيقٍ جدًّا، وهو أنَّ تفاوُتَ الناسِ في قَبولِ الخيرِ كائِنٌ بمقدارِ رسوخِ ضدِّ الخيرِ في نفوسِهم، وتَعَلُّقِ فِطرتِهم به؛ وذلك من جرَّاءِ ما طرأ على سَلامةِ الفِطرةِ التي فطَرَ اللهُ النَّاسَ عليها مِن التطَوُّرِ إلى الفَسادِ[٣].

١١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، فأحيانًا يَحذِفُ فاعِلَ التَّزيينِ، وأحيانًا يَنسُبُه إلى سَبَبِه ومَن أجراه على يَدِه، وأحيانًا يُضيفُه اللهُ إليه، وهذا التَّزيينُ منه سُبحانَه خَلقًا ومشيئةً، وهو منه حَسَنٌ؛ إذ هو ابتلاءٌ واختبارٌ؛ ليتميَّزَ المطيعُ منهم من العاصي، والمؤمِنُ مِن الكافِرِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وهو من الشَّيطانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٠).

قَبيحٌ، وأيضًا فتزيينُه سُبحانَه للعَبدِ عَمَلَه السَّيِّئَ: عُقوبةٌ منه له على إعراضِه عن توحيدِه وعبوديَّتِه، وإيثارِ سَيِّئِ العمَلِ على حَسَنِه؛ فإنَّه لا بدَّ أن يُعَرِّفَه سُبحانَه السَّيِّئَ مِن الحَسَنِ، فإذا آثرَ القبيحَ واختاره وأحبَّه ورَضِيَه لنَفسِه، زيَّنه سُبحانَه له وأعماه عن رؤيةِ قُبحِه بعد أن رآه قبيحًا، وكُلُّ ظالمٍ وفاجرٍ وفاسِقٍ لا بدَّ أن يرُيهَ اللهُ تعالى ظُلمَه وفُجورَه وفِسقَه قَبيحًا، فإذا تمادى عليه ارتفَعَت رؤيةُ قُبحِه مِن قَلبِه، فربَّما رآه حسَنًا عُقوبةً له؛ فتزيينُ الرَّبِّ تعالى عَدلٌ، وعُقوبتُه حِكمةٌ، وتزيينُ الشَّيطانِ إغواءٌ وظُلمٌ، وهو السَّبَبُ الخارجُ عن العبدِ، والسَّبَبُ الداخِلُ فيه حُبُّه وبُغضُه وإعراضُه، والرَّبُّ سُبحانَه خالِقُ الجميعِ، والجميعُ واقعٌ بمشيئتِه وقُدرتِه، ولو شاء لهدى خَلْقَه أجمعين، والمعصومُ مَن عَصمَه اللهُ، والمخذولُ من خذَلَه اللهُ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] [الأعراف: ٥٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ حُجَّةٌ قاطعةٌ مُسكِتةٌ على المعتزلةِ والقدَريَّةِ؛ إذْ قد أخبرَ عن نَفسِه جلَّ جلالُه أنَّه مُزيِّنُ أعمالِ الكُفَّارِ -نصًّا بلا تأويلٍ- ففيه دَليلٌ على أنَّ ما أخبرَ مِن تزيينِ الشَّيطانِ فهو تَبَعٌ لتزيينِه سُبحانَه -كما أنَّ مَشيئةَ عبادِه في المعصيةِ تابعةٌ لمشيئتِه فيهم- إذ مُحالٌ أنْ تكونَ مشيئةُ الخالقِ تَبَعًا لمشيئةِ مخلوقٍ، أو تزيينُه تبعًا لتزيينِ الشَّيطانِ، فإمَّا أنْ يجعلوهما تَبَعًا ويَكفُروا، أو يَجحَدوا هذه الآيةَ فيَكفروا أيضًا، وإمَّا أنْ يُقِرُّوا بما قُلْناه ويُسَلِّمُوا، ويَكِلوا عِلمَ العدلِ فيه إلى مَن لم يَتعبَّدْهم بمعرفتِه، ولم يُلْزِمْهُم مزاحمتَه في سِرِّه[2]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٣، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٤٠).

عُقوبةُ مَن لم يؤمِنْ بالآخرةِ بهذه العُقوبةِ العظيمةِ، وهي تزيينُ الأعمالِ السيِّئةِ لا الحَسَنةِ، وكلَّما ضعُف الإيمانُ بالآخرةِ ازداد تزيينُ القبيحِ في عينِ الإنسانِ، وكلَّما ازداد إيمانُه بالآخرةِ عرَف القبائحَ وكرِهها واتَّضح له الحقُّ؛ لأنَّ الإيمانَ بالآخرةِ يَستلزِمُ أنَّ الإنسانَ يرَى الحقَّ حقًّا، ويرَى الباطلَ باطلًا، فلا يُزَيِّنُ له الباطِلُ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[1]!

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العمَلِ؛ لأنَّهم لَمَّا لم يُوقِنوا بالآخرةِ -مع وضوحِها- اشتبَه عليهم الحقُّ مع وضوحِه[2].

١٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ في قَولِه: ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فيه نسبةُ الأفعالِ للعبدِ، ففيه ردٌّ على الجَبْريَّةِ؛ لأنَّ الجَبْريَّةَ لا يَنسُبون العملَ للإنسانِ إلَّا على سبيلِ المجازِ؛ إذْ إنَّهم يَرَون أنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على العَمَلِ[3]! والحقُّ أنَّ الأعمالَ حادثةٌ بمشيئةِ الله وقُدْرَتِه وخَلْقِه، ومَفعولةٌ للفاعِلِ مُباشَرةً، والعبدُ فاعلٌ لفِعلِه حقيقةً لا مجازًا، فتُنسَبُ لله عزَّ وجلَّ تقديرًا وخَلْقًا، وتُنسَبُ إلى الفاعلِ كَسبًا وعَمَلًا[4].

١٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ في قَولِه: ﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أنَّ عدمَ الإيمانِ بالآخرةِ سببٌ للحَيرةِ، وعلى هذا فالإيمانُ بالآخرةِ سببٌ لليقينِ والنورِ، وهذا أيضًا أمرٌ مُشاهَدٌ، والإنسانُ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٩، ٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧٢).

يصابُ بعدمِ اليقينِ إلَّا بسببِ أعمالِه، ونقْصِ إيمانِه، وكلَّما قَوِيَ الإيمانُ فإنَّ معرفةَ الإنسانِ تزدادُ حتى في الأمورِ غيرِ العِلميَّةِ الشَّرعيةِ، فيُعطيه اللهُ تبارك وتعالى فِراسةً يَتبيَّنُ بها الأشياءَ[١].

١٧- قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ في قَولِه: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ الرَّدُّ على الخوارجِ والمُعتَزلةِ؛ لأنَّنا لو قلنا: إنَّ أهلَ الكبائرِ الذين يؤمِنون بالآخرةِ مُخَلَّدون في النَّارِ لاتَّصفوا بهذا الوَصفِ وكانوا مِن الأخسَرينَ، مع أنَّ اللهَ إنما حَصَرَ الأخسرَ في الذين لا يُؤمِنون بالآخرةِ[٢].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ؛ لأنَّه نَزَل مِن لَدُنْه، والقرآنُ صِفةُ المتكَلِّمِ[٣].

١٩- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ في قَولِه: ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ سؤالٌ: وهو أنه قَدَّمَ (الحكيمَ) على (العليمِ)؛ وأكثرُ ما يَرِدُ في القرآنِ تقديمُ (العليمِ) على (الحكيمِ)! فما الجوابُ؟

الجوابُ: أنَّه قَدَّمَ اسمَ الحكيمِ -الذي يدُلُّ على وصفِ اللهِ تعالى بالحكمةِ في هذا المقامِ- لأنَّ ما يُلَقَّاه الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن القرآنِ مُشتمِلٌ على التشريعِ الذي يَحتاجُ إلى بيانِ الحِكمةِ فيه حتى يَقتَنِعَ به المرءُ؛ فلذلك قُدِّمَتِ الحِكمةُ على العلمِ، أمَّا العلمُ فإنَّه مفهومٌ مِن كلمةِ (تُلَقَّى)؛ إذْ إنَّه إذا لُقِّيَ القرآنَ فقد عُلِّمَ؛ لذلك صار العِلمُ في المرتبةِ الثانيةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢).

٢٠- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ تجدُ في القرآنِ أنَّ الحكيمَ مَقرونٌ بالعليمِ كثيرًا، فما الحِكمةُ مِن الجمعِ بيْنَهما؟

الجوابُ مِن أوجهٍ:

الأول: أنَّ الحِكمةَ قد تخفَى على بعضِ النَّاسِ، فخَفاؤُها علينا لا يقتضي أنَّها ليست معلومةً عندَ الله، فكأنَّه جمَع بيْنَهما لِيَتبيَّنَ أنَّ هذه الحِكمةَ مَعلومةٌ عند الله، فهو حَكيمٌ عليمٌ يضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها، وإن خَفِيَ علينا ذلك. فلا نقولُ: إنَّه إذا شَرَع اللهُ شَيئًا أو قضى بشَيءٍ، فهذا ليس عن علمٍ، بل هو عن عِلمٍ، حتى لو فُرِض أنَّنا نحن لم نعلَمْ حِكمَتَه ووجهتَه[١].

الثاني: أنَّ وجهَ الجمعِ بينهما -معَ أنَّ وصفَه نفسَه سبحانَه بكونِه حكيمًا يُعلمُ منه كونُه عليمًا- أنَّ العلمَ الذي يدخُلُ في الحكمةِ هو العلمُ العمليُّ، وهو الذي يتعلَّقُ بكيفيةِ عملٍ، والعلمُ أعمُّ منه، فكأنَّه قيل: مصيبٌ في أفعالِه، لا يفعلُ شيئًا إلا على وَفْقِ علمِه، عليمٌ بكلِّ شيءٍ، سواءٌ كان ذلك العلمُ مؤديًا إلى العملِ أم لا[٢]، فجُمِع بيْنَهما لِعمومِ العِلمِ، ودَلالةِ الحِكمةِ على إتقانِ الفعلِ، والإشعارِ بأنَّ علومَ القرآنِ منها ما هو كالعقائدِ والشَّرائعِ، ومنها ما ليس كذلك؛ كالقَصصِ، والإخبارِ عن المغَيَّباتِ[٣].

الثالث: أنه سبحانه يَذكرُ هذين الاسمينِ (الحكيم العليم) عندَ ذِكرِ مصدرِ خلقِه وشرعِه؛ تنبيهًا على أنَّهما إنَّما صدَرا عن حكمةٍ مقصودةٍ مقارِنةٍ للعلمِ المحيطِ التامِّ[٤]، فصِفَتَا الحكمةِ والعِلمِ هما مَصدرُ الخَلقِ والأمرِ، فجميعُ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٣/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٠٠).

خلَقَه سبحانه صادرٌ عن عِلمِه وحِكمتِه، وكذلك أمرُه وشرعُه مصدرُه عن عِلمِه وحِكمتِه.

الرابع: أنَّ العِلمَ والحِكمةَ مُتضَمنانِ لجميعِ صِفاتِ الكمالِ؛ فالعِلمُ يَتضمَّنُ الحياةَ ولَوازِمَ كمالِها مِن القَيُّوميَّةِ والقُدرةِ والبقاءِ والسَّمعِ والبصرِ، وسائرَ الصِّفاتِ الَّتي يَستلزِمُها العِلمُ التَّامُّ، والحِكمةُ تَتضمَّنُ كمالَ الإرادةِ والعدلِ والرَّحمةِ والإحسانِ والجُودِ والبرِّ، ووضْعِ الأشياءِ في مَواضِعِها على أحسَنِ وُجوهِها، وتَتضمَّنُ إرسالَ الرُّسلِ، وإثباتَ الثَّوابِ والعِقابِ[1].

الخامس: أنَّ اقترانَهما يحصُلُ منه صِفةُ كمالٍ أخرى، وذلك قَدْرٌ زائدٌ على مُفرَدَيْهِما، وهكذا عامَّةُ الصِّفاتِ المُقترِنةِ والأسماءِ المُزدوَجةِ في القُرآنِ؛ كالغَنيِّ الحميدِ، العفُوِّ القديرِ، الحميدِ المَجيدِ؛ فإنَّ الغِنى صِفةُ كمالٍ، والحمدَ كذلك، واجتماعُ الغِنى مع الحمدِ كمالٌ آخَرُ؛ فلَهُ ثَناءٌ مِن غِناهُ، وثَناءٌ مِن حمدِه، وثَناءٌ مِن اجتِماعِهما، وكذلك العفُوُّ القديرُ، والحميدُ المَجيدُ، والعزيزُ الحكيمُ، فتأمَّلْهُ؛ فإنَّه مِن أشرَفِ المَعارِفِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾

- ﴿طسٓ﴾ في افْتتاحِ السُّورةِ بالحروفِ المُقطَّعةِ: تَعريضٌ بالتَّحدِّي بإعجازِ القرآنِ، وأنَّه مُؤْتلِفٌ مِن حُروفِ كلامِهم[3].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿تِلۡكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ مع قُربِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛

(١) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٧).

لِلإيذانِ ببُعدِ مَنزلَتِه في الفضلِ والشَّرفِ[١].

- وإضافةُ الآياتِ إلى القرآنِ والكتابِ المُبينِ في قولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾: على سَبيلِ التَّفخيمِ لها والتَّعظيمِ؛ لأنَّ المُضافَ إلى العظيمِ يَعظُمُ بالإضافةِ إليه[٢].

- ولما كان في التنكيرِ نوعٌ مِن الفخامةِ، وفي التعريفِ نوعٌ آخرُ، وكان الغرضُ الجمعَ للاستيعابِ الكاملِ؛ عرَّف القرآنَ ونكَّر الكتابَ، وقدَّم المعرفَ لزيادةِ التنويهِ، ولمَّا عقَّبه سبحانَه بالحديثِ عن الخصوصِ هاهنا قدَّم كونَه قرآنًا؛ لأنَّه أدلُّ على خصوصِ المنزَّلِ على محمدٍ صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم للإعجازِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ نكَّرَ الكتابَ المُبينَ؛ لِيُبْهَمَ بالتَّنكيرِ؛ فيَكونَ أفخَمَ له[٤]. ولقد فخَّمَ شأْنَه الجليلَ بما جَمعَ فيه مِن وصْفِ القُرآنيَّةِ المُنبئةِ عن كَونِه بَديعًا في بابِه، مُمتازًا عن غيرِه بالنَّظمِ المُعجزِ، كما يُعْرِبُ عنه قولُه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، ووَصْفِ الكتابيَّةِ المُعربةِ عن اشتمالِه على صِفاتِ كَمالِ الكُتبِ الإلهيَّةِ، فكأنَّه كلُّها[٥].

- وعَطْفُ الكِتابِ على القرآنِ مع أنَّه هو القرآنُ نفْسُه في قولِه: ﴿تِلْكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧١).

ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ﴾ مِن بابِ عطْفِ إحدى الصِّفتينِ على الأُخرى؛ لِتَغايُرِهما في المدلولِ عليه بالصِّفةِ، مِن حيث إنَّ مَدلولَ القرآنِ الاجتماعُ، ومَدلولَ الكتابِ الكتابةُ؛ لأنَّ القرآنَ هو المُنزَّلُ المُبارَكُ المُصدِّقُ لِمَا بيْن يدَيهِ، فكان حُكْمُه حُكْمَ الصِّفاتِ المُستقلَّةِ بالمدْحِ، فكأنَّه قيل: تلك الآياتُ آياتُ المُنزَّلِ المُبارَكِ، وآيُ كتابٍ مُبينٍ. وقِيلَ: القرآنُ والكتابُ اسمانِ عَلَمانِ على المُنزَّلِ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فحيث جاء بلفظِ التَّعريفِ فهو العَلَمُ، وحيث جاء بوصْفِ النَّكرةِ فهو الوصْفُ[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث خالَفَتْ آيةُ سُورةِ (النَّملِ) هنا ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ﴾ سابِقَتَها في سُورةِ (الشُّعراءِ) في قولِه: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [الشعراء: ٢] بثلاثةِ أشياءَ: بذِكْرِ اسمِ القرآنِ، وبعطْفِ ﴿وَكِتَابٖ﴾ على القرآنِ، وبتَنكيرِ (كِتَابٍ)؛ فأمَّا ذِكْرُ اسمِ (القرآنِ)؛ فلأنَّهُ عَلَمٌ للكتابِ الَّذي أُنزِلَ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ للإعجازِ والهُدى، وهذا العلَمُ يُرادِفُ الكتابَ المُعرَّفَ بلامِ العهْدِ المَجْعولَ عَلَمًا بالغَلَبةِ على القُرآنِ، إلَّا أنَّ اسمَ القرآنِ أَدخَلُ في التَّعريفِ؛ لأنَّه عَلَمٌ مَنقولٌ. وأمَّا (الكتابُ) فعَلَمٌ بالغَلبةِ؛ فالمُرادُ بقولِه: ﴿وَكِتَابٖ مُّبِينٖ﴾ القرآنُ أيضًا. ولمَّا كان في كلٍّ مِن ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ﴾ شائبةُ الوصْفِ؛ فالأوَّلُ باشتقاقِه مِن القراءةِ، والثَّاني بوَصْفِه بـ ﴿مُّبِينٖ﴾، كان عطْفُ أحدِهما على الآخَرِ راجعًا إلى عطْفِ الصِّفاتِ بعضِها على بَعضٍ، وإنَّما لم يُؤْتَ بالثَّاني بدَلًا؛ لأنَّ العطْفَ أعلَقُ باستقلالِ كِلَا المُتعاطفَينِ بأنَّه مَقصودٌ في الكلامِ بخِلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٦، ٣٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٦٤).

البدَلِ[١].

- ونَظيرُ هذه الآيةِ آيةُ سُورةِ (الحِجْرِ) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]؛ فإنَّ (قرآن) في تلْك الآيةِ في معنَى عطْفِ البَيانِ مِن الكتابِ، ولكنَّه عطْفٌ لقَصْدِ جمْعِهما بإضافةِ (آياتٍ) إلَيْهما، وإنَّما قُدِّمَ في هذه الآيةِ القرآنُ وعُطِفَ عليه (كِتَابٍ مُبينٍ) على عكْسِ ما في طالعةِ سُورةِ (الحِجْرِ)؛ لأنَّ المقامَ هنا مَقامُ التَّنويهِ بالقُرآنِ ومُتَّبعيهِ المُؤمنينَ؛ فلذلك وُصِفَ بأنَّه ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢]، فكان الأهمُّ هنا للوحْيِ المُشتمِلِ على الآياتِ هو استحضارَهُ باسْمِه العَلَمِ المنقولِ مِن مَصدرِ القِراءةِ؛ لأنَّ القِراءةَ تُناسِبُ حالَ المُؤمنينَ به والمُتقبِّلينَ لآياتِه؛ فهُمْ يَدْرُسونَها؛ ولأجْلِ ذلك أُدخِلَتِ اللَّامُ لِلَمْحِ الأصْلِ؛ تَذكيرًا بأنَّه مَقروءٌ مَدْروسٌ. ثمَّ عُطِفَ عليه (كِتَابٍ مُبينٍ)؛ لِيَكونَ التَّنويهُ به جامعًا لِعُنوانَيْه، ومُستكمِلًا للدَّلالةِ بالتَّعريفِ على معنَى الكمالِ في نَوعِه مِن المَقروءاتِ، والدَّلالةِ بالتَّنكيرِ على معنَى تَفخيمِه بيْن الكُتبِ. وأمَّا ما في أوَّلِ سُورةِ (الحِجرِ) فهو مَقامُ التَّحسيرِ للكافرينَ مِن جرَّاءِ إعراضِهم عن الإسلامِ؛ فناسَبَ أنْ يُبْتَدَؤوا باسمِ الكتابِ المُشتقِّ مِن الكتابةِ دونَ القرآنِ؛ لأنَّهم بمَعزلٍ عن قِراءتِه، ولكنَّه مكتوبٌ، وحُجَّةٌ عليهم باقيةٌ على مَرِّ الزَّمانِ[٢].

- وقِيل: إنَّ تقدُّمَ (القُرآن) على (الكِتاب) هاهنا، وتأخُّرَه في (الحِجْرِ) لا فرْقَ بيْنَهما إلَّا ما بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه مِن التَّقدُّمِ والتَّأخُّرِ، جريًا على قاعدةِ العربِ في تفنُّنِهم في الكلامِ، وهذا كالمُتعاطِفَينِ في نحوِ: ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢١٧، ٢١٨).

جاء زيدٌ وعمرٌو. فتارةً يَظهَرُ ترجيحٌ كقولِه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وتارةً لا يَظهَرُ كقولِه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾[(١)] [الأعراف: ١٦١].

وقِيل: قُدِّمَ الوصفُ الأوَّلُ هاهنا؛ نظَرًا إلى تَقدُّمِ حالِ القُرآنيَّةِ على حالِ الكتابيَّةِ، وعُكِسَ في سُورةِ (الحِجرِ)؛ لأنَّ المُرادَ تفخيمُه مِن حيثُ اشتِمالُه على كمالِ جنسِ الكُتبِ الإلهيَّةِ حتَّى كأنَّه كلُّها، ومِن حيثُ كَوْنُه ممتازًا عن غيرِه نسيجَ وحْدِه بديعًا في بابِه، ولِمَا أنَّ الإشارةَ إلى امتيازِه عن سائرِ الكُتبِ بعْدَ التَّنبيهِ على انطوائِه على كَمالاتِ غيرِه مِن الكُتبِ- أَدخَلُ في المدْحِ؛ كيْلَا يُتوَهَّمَ مِن أوَّلِ الأمْرِ أنَّ امتيازَهُ عن غيرِه لاستقلالِه بأوصافٍ خاصَّةٍ به مِن غيرِ اشتمالِه على نُعوتِ كَمالِ سائرِ الكُتبِ الكريمةِ[(٢)].

- و﴿مُّبِينٖ﴾ اسمُ فاعلٍ مِن (أبان) القاصرِ بمعنَى (بان) -على قولٍ-؛ لأنَّ وصْفَه بأنَّه بيِّنٌ واضحٌ: له حَظٌّ مِن التَّنويهِ به ما ليس مِن الوصْفِ بأنَّه مُوضِّحٌ مُبيِّنٌ؛ فالمُبينُ أفادَ مَعنيينِ؛ أحدَهما: أنَّ شواهدَ صِدْقِه وإعجازِه وهدْيِه واضحةٌ لكلِّ مُتأمِّلٍ، وثانِيَهما: أنَّه مُرشِدٌ ومُفصِّلٌ[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ﴾ في حيِّزِ النَّصبِ على الحاليَّةِ مِن الآياتِ، على أنَّهما مَصدرانِ أُقِيمَا مُقامَ الفاعلِ؛ للمُبالَغةِ، كأنَّهما نفْسُ الهُدَى والبِشارةِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٣) و (٦/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٨).

- قولُه: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تَخصيصُ المُؤمنينَ بالذِّكْرِ؛ لِكَونِهم المُنتفعينَ به دونَ غيرِهم[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

- وَصْفُ المُؤمنينَ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾؛ لِتَمييزِهم عن غَيرِهم؛ لأنَّهم عُرِفُوا يَومَئذٍ بإقامةِ الصَّلاةِ، وإعطاءِ الصَّدقاتِ للفُقراءِ والمساكينِ؛ فقد عرَّفَ اللهُ الكُفَّارَ بقولِه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، على القولِ بأنَّ الزكاةَ هنا زكاةُ المالِ. ولأنَّ في الصِّلةِ إيماءً إلى وجْهِ بِناءِ الإخبارِ عنهم بأنَّهم على هُدًى مِن ربِّهم ومُفلِحون[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ صِفَةٌ مادحةٌ لهم، وتَخصيصُ الصَّلاةِ والزَّكاةِ بالذِّكْرِ؛ لأنَّهما قَرينَتَا الإيمانِ، وقُطْرَا العِباداتِ البَدنيَّةِ والماليَّةِ، مُستتبِعانِ لسائرِ الأعمالِ الصَّالحةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ مِن جُملةِ صِلَةِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾؛ فيكونَ مِن تَتِمَّةِ الصِّلةِ، والواوُ حاليَّةٌ أو عاطفةٌ له على الصِّلةِ الأُولى، وتَغييرُ نَظْمِه للدَّلالةِ على قوَّةِ يَقينِهم وثَباتِه، وأنَّهم أوحَديُّونَ فيه. ويَحتمِلُ أنْ تَتِمَّ الصِّلةُ عندَه، ويكونَ جُملةً اعتراضيَّةً، كأنَّه قِيلَ: وهؤلاء الَّذينَ يُؤمِنون ويَعملُون الصَّالحاتِ مِن إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، هم المُوقِنون بالآخرةِ حقَّ الإيقانِ، لا مَن عداهُم؛ لأنَّ تَحمُّلَ مَشاقِّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٢).

العباداتِ لخَوفِ العقابِ ورَجاءِ الثَّوابِ، وهذا الاحتمالُ يدُلُّ عليه أنَّه عُقِدَ جُملةً ابتدائيَّةً، وكُرِّرَ فيها المُبتدَأُ الَّذي هو (هُمْ) -وتكريرُ الضَّميرِ للاختِصاصِ- حتَّى صار معناها: وما يُوقِنُ بالآخرةِ حقَّ الإيقانِ إلَّا هؤلاء الجامعونَ بيْن الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ؛ لأنَّ خوفَ العاقبةِ يَحمِلُهم على تحمُّلِ المَشاقِّ، وإيقاعُ الضَّميرِ مُبتدأً يُفيدُ الحصرَ. ولَمَّا كان جَدوى الاعتراضِ تأكيدُ معنَى المُعترضِ فيه، ودلَّ مفهومُ قولِه: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ على أنَّ مَن أيقَنَ بالآخرةِ حقَّ الإيقانِ لا بُدَّ أنْ يَخافَ تَبعاتِها، ومَن خاف تَحمَّلَ المَشاقَّ والمتاعبَ، وكان بهذا الاعتبارِ مُؤكِّدًا لقولِه: ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ صحَّ كونُه مُعترضًا. وقولُه: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ الضَّميرُ الأوَّلُ وُضِعَ مَوضِعَ اسمِ الإشارةِ، وصار مِثلَ قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ إلى قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ٣- ٥]، وفائدتُه: الإشعارُ بأنَّ ما يَرِدُ عَقيبَ اسمِ الإشارةِ فالمَذْكورونَ قبْلَه أهلٌ لِاكتسابِه؛ مِن أجْلِ الخِصالِ الَّتي عُدِّدَت لهم، فالمعنى: هم أحِقَّاءُ بأنْ يُوقِنوا بالآخرةِ؛ لأنَّهم هم الَّذين جَمَعوا بيْن الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ. وهذه المعاني مِن التَّخصيصِ والتَّوكيدِ والتَّعليلِ إنَّما يُفيدُها التَّركيبُ إذا جُعِلَ مُعترِضًا؛ لاستقلالِه، وأمَّا إذا أُدخِلَ في حيِّزِ الصِّلةِ بأنْ جُعِلَ حالًا أو عطْفًا على ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النمل: ٣] على التَّأويلِ، لم يُحتَجْ إلى هذه العبارةِ، فتَفوتَ تلك الفوائدُ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٥٥، ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٦٤، ١٦٥).

- وتَقديمُ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لرِعايةِ الفاصلةِ، وللاهتمامِ بها[١].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وقولِه: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ ممَّا يَتجدَّدُ ولا يَستغرِقُ الأزمانَ؛ فجاءتِ الصِّلةُ معهما فِعْلًا في قولِه: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولمَّا كان الإيمانُ بالآخرةِ بما هو ثابتٌ عندَهُم مُسْتقِرُّ الدَّيمومةِ، جاءتِ الجُملةُ اسميَّةً، وأُكِّدَ المُسنَدُ إليه فيها بتَكرارِه، فقِيل: ﴿هُمۡ يُوقِنُونَ﴾، وجاء خبَرُ المبتدأِ فِعْلًا؛ لِيدُلَّ على الدَّيمومةِ[٢]. وعلى القولِ بأنَّهما عطْفٌ على الصِّلةِ، وليستْ مِن الصِّلةِ؛ فخُولِفَ بيْنَ أُسلوبِها وأُسلوبِ الصِّلةِ، فأُتِيَ له بجُملةٍ اسميَّةٍ؛ اهتمامًا بمَضمونِها ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾؛ لأنَّه باعثٌ على فِعلِ الخيراتِ، على أنَّ ضميرَ (هم) الثَّاني يجوزُ أنْ يُعتبَرَ ضَميرَ فصْلٍ دالًّا على القصْرِ، أي: ما يُوقِنُ بالآخرةِ إلَّا هؤلاء. والقصْرُ إضافيٌّ بالنِّسبةِ إلى مُجاوريهم مِن المُشركينَ، وإلَّا فإنَّ أهلَ الكتابِ يُوقِنون بالآخرةِ، إلَّا أنَّهم غيرُ مَقصودٍ بيانُ حالِهم للمُخاطَبينَ مِن الفريقينِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ لِبَيانِ سَببِ استمرارِهم على ضَلالِهم؛ فكونُ الكتابِ المبينِ هُدًى وبُشرَى للَّذين يُوقِنون بالآخرةِ يُثيرُ سُؤالًا في نفْسِ السَّامعِ عن حالِ أضْدادِهم الَّذين لا يُوقِنون بالآخرةِ: لماذا لا يَهْتدون بهَدْيِ هذا الكتابِ البالغِ حدًّا عظيمًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٣/ ٢٩٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٩).

في التَّبيُّنِ والوُضوحِ؟ فلا جَرَمَ أنْ يَصلُحَ المَقامُ للإخبارِ عمَّا صرَفَ هؤلاء الأضْدادَ عن الإيمانِ بالحياةِ الآخرةِ؛ ذلك بأنَّ اللهَ يَعلمُ خُبْثَ طوايَاهُم، فحرَمَهُم التَّوفيقَ، ولم يَصرِفْ إليهم عِنايةً تَنْشُلُهم مِن كَيْدِ الشَّيطانِ لِحكمةٍ عَلِمَها اللهُ مِن حالِ ما جُبِلَت عليه نُفوسُهم؛ فوقَعَ هذا الاستئنافُ بتَوابعِه مَوقعَ الاعتراضِ بيْن أخبارِ التَّنويهِ بالقرآنِ بما سبَقَ، والتَّنويهِ به بمَن أُنزِلَ عليه بقولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾[1] [النمل: ٦].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ فيه تأْكيدُ الخبرِ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لِلاهتمامِ به؛ لأنَّه بحيث يَلتبِسُ على النَّاسِ سبَبُ افتراقِ النَّاسِ في تَلقِّي الهُدى بيْن مُبادِرٍ ومُتقاعِسٍ ومُصِرٍّ على الاستمرارِ في الضَّلالِ[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ في مُجيءِ المُسنَدِ إليه مَوصولًا ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: إشارةٌ إلى أنَّ الصِّلةَ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ عِلَّةٌ في المُسنَدِ ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾[3]، وأيضًا أشارَ جَعْلُ صِلَةِ الموصولِ مُضارعًا إلى أنَّ الحُكْمَ مَنوطٌ بالاستمرارِ على عَدمِ الإيمانِ، وأَوْمَأَ جَعلُ الخبرِ ﴿زَيَّنَّا﴾ ماضيًا إلى أنَّ هذا التَّزيينَ حُكمٌ سبَقَ وتقرَّرَ مِن قبْلُ، وحسْبُك أنَّه مِن آثارِ التَّكوينِ بحَسَبِ ما طرَأَ على النُّفوسِ مِن الأطوارِ[4]!

- قولُه: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يَتحيَّرون ويَتردَّدون على التَّجدُّدِ والاستمرارِ في الاشتغالِ بها، والانهماكِ فيها، مِن غيرِ مُلاحظةٍ لِمَا يَتْبَعُها مِن نفْعٍ وضُرٍّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٢١).

والفاءُ لتَرتيبِ المُسبَّبِ على السَّببِ[١].

- وأيضًا فُرِّعَ على تَزيينِ أعمالِهم لهم أنَّهم في عَمَهٍ مُتمكِّنٍ منهم بصَوغِ الإخبارِ عنهم بذلك بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، وأفادَتْ صِيغَةُ المُضارعِ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أنَّ العَمَهَ مُتجدِّدٌ مُستمِرٌّ فيهم، أي: فهمْ لا يَرجِعون إلى اهتداءٍ؛ لأنَّهم يَحْسَبون أنَّهم على صَوابٍ[٢].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّ وِزانَ فاتحةِ هذه السُّورةِ إلى هاهنا وِزانُ فاتحةِ سُورةِ (البقرةِ)؛ فقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: ٦]، وقولُه: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ كقولِه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، والتَّركيبُ مِن بابِ تَحقيقِ الخَبرِ، وأنَّ المعنى استمرارُهم على الكُفرِ، وأنَّهم بحيث لا يُتوقَّعُ منهم الإيمانُ ساعةً فساعةً، أمَارةٌ لِرَقْمِ الشَّقاوةِ عليهم في الأزَلِ، والختْمِ على قُلوبِهم، وأنَّه تعالى زيَّنَ لهم سُوءَ عَمَلِهم؛ فهمْ لذلك في تِيهِ الضَّلالةِ يَتردَّدون، وفي بَيداءِ الكُفرِ يَعْمَهون. دلَّ على هذا التَّأويلِ إيقاعُ لَفظِ المُضارعِ في صِلَةِ الموصولِ، والماضي في خَبرِ الموصولِ، وترتُّبُ ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ بالفاعليَّةِ، واختصاصُ الخِطابِ بما يَدلُّ على الكِبرياءِ والجبروتِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ قُصِد باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ زيادةُ تَمييزِهم؛ فَضْحًا لِسُوءِ حالِهم، مع ما يُنَبِّهُ إليه اسمُ الإشارةِ في مِثْلِ هذا المَقامِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٥٧، ٤٥٨).

مِن أنَّ استحقاقَهم ما يُخْبَرُ به عنهم ناشِئٌ عمَّا تقدَّمَ اسمَ الإشارةِ، كما في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ في سُورةِ (البقرةِ) [الآية: ٥]، وعُزِّز ما نُبِّهَ عليه باسمِ الإشارةِ، فأعقِبَ باسمِ الموصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لِمَا فيه مِن الإيماءِ إلى وجْهِ بناءِ الخبرِ[١].

- وجِيءَ بلامِ الاختصاصِ في ﴿لَهُمۡ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم في حالتِهم هذه قدْ هُيِّئَ لهم سُوءُ العذابِ؛ فلِكَونِ نَوالِ العذابِ الأوَّلِ إيَّاهم قابلًا للتَّخلُّصِ منه بالإيمانِ قُبَيلَ حُلولِه بهم، جِيءَ في جانبِه بلامِ الاختِصاصِ، المُفيدةِ كَوْنَه مُهيَّأً تَهْيئةً -وذلك على القولِ بأنَّ العذابَ في الدُّنيا-، أمَّا أصالةُ جَزاءِ الآخرةِ إيَّاهم فلا مَندوحةَ لهم عنه إنْ جاؤوا يومَ القيامةِ بكُفْرِهم[٢].

- قولُه: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ صِيغَ الخبَرُ عنهم بالخُسرانِ في صِيغةِ الجُملةِ الاسميَّةِ، وقُرِنَ بضَميرِ الفصْلِ ﴿هُمُ﴾؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ مَضمونِ الجُملةِ، وعلى انحصارِ مَضمونِها فيهمْ[٣].

- وتقديم ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ للفاصلةِ، أو للحصرِ؛ لأنَّ الأخسَريَّةَ والأشَدِّيَّةَ بالنِّسبةِ إليها لا إلى ما في الدُّنيا[٤].

- وإنَّما تكرَّرَتْ لفظةُ (هم)؛ للإيذانِ بتَحقيقِ الخَسارِ، والأصلُ فيها: وهم في الآخرةِ الأخسَرون، لكنْ لَمَّا أُريدَ تأكيدُ ذلك جيءَ بتَكريرِ هذه اللَّفظةِ[٥].

- وجاء المُسنَدُ ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ اسمَ تَفضيلٍ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم أوْحدونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((المثل السائر)) للضياء ابن الأثير (٢/ ١٥١).

في الخُسرانِ لا يُشْبِهُه خُسرانُ غيرِهم؛ لأنَّ الخُسرانَ في الآخرةِ مُتفاوِتُ المِقدارِ والمُدَّةِ، وأعظَمُه فيهما خُسرانُ المُشركينَ[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ؛ سِيقَ بعْدَ بَيانِ بعضِ شُؤونِ القرآنِ الكريمِ؛ تَمهيدًا لِمَا يَعْقُبُه مِن قَصصِ الأممِ الخاليةِ، وما في ذلك مِن لطائفِ حِكْمتِه ودقائقِ عِلْمِه تعالى[٢]؛ ففيه نَوعٌ مِن التَّخلُّصِ والانتقالِ إلى نَوعٍ آخَرَ مِن الإعجازِ، وهو الإخبارُ عن المُغَيَّباتِ، ومِن مَدْحِ الكتابِ إلى قَصصِ الأنبياءِ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ عُطِفَ على جُملةِ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [النمل: ١]، وهو انتقالٌ مِن التَّنويهِ بالقرآنِ إلى التَّنويهِ بالَّذي أُنزِلَ عليه بأنَّ القُرآنَ آياتٌ دالَّةٌ على أنَّه كِتابٌ مُبينٌ، وذلك آيةٌ على أنَّه مِن عندِ اللهِ، ثمَّ بأنَّه آيةٌ على صِدْقِ مَن أُنزِلَ عليه؛ إذ أنبَأَهُ بأخبارِ الأنبياءِ والأُمَمِ الماضينَ الَّتي ما كان يَعلمُها هو ولا قومُه قبْلَ القرآنِ، وما كان يَعلمُ خاصَّةَ أهلِ الكتابِ إلَّا قليلًا منها أكثَرُه مُحرَّفٌ[٤].

- وتَصديرُ قولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ بحَرْفَي التَّأكيدِ: (إنَّ)، واللَّامِ في ﴿لَتُلَقَّى﴾؛ لإبرازِ كَمالِ العنايةِ بمَضمونِه[٥]؛ فتأكيدُ الخبرِ لمُجرَّدِ الاهتمامِ؛ لأنَّ المُخاطَبَ هو النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو لا يَتردَّدُ في ذلك. أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣).

يكونُ التَّأكيدُ مُوجَّهًا إلى السَّامعينَ مِن الكفَّارِ على طَريقةِ التَّعريضِ[١].

- وبُنِيَ الفِعلُ ﴿لَتُلَقَّى﴾ للمفعولِ، وحُذِفَ الفاعلُ، وهو جِبريلُ عليه السَّلامُ؛ للدَّلالةِ عليه في قولِه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣][٢]، أو بُنِيَ الفِعلُ إلى غيرِ مَذكورٍ؛ للعِلْمِ بأنَّه اللهُ جلَّ جلالُه أو جِبريلُ عليه السَّلامُ، والمعنى واحدٌ: وهو أنَّك مُؤْتًى الوحْيَ مِن لَدُنْ حكيمٍ عليمٍ[٣].

- وفي إقحامِ ﴿لَّدُنْ﴾ بيْن ﴿مِن﴾ و﴿حَكِيمٍ﴾: تَنبيهٌ على شِدَّةِ انتسابِ القرآنِ إلى جانبِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ أصْلَ (لدُنْ) الدَّلالةُ على المكانِ مِثْلَ (عندَ)، ثمَّ شاعَ إطلاقُها على ما هو مِن خصائصِ ما تُضافُ هي إليه؛ تَنويهًا بشأنِه[٤].

- وفي تَنكيرِ ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ إيذانٌ بتَعظيمِ هذا الحكيمِ العليمِ؛ كأنَّه قِيلَ: مِن حَكيمٍ أيِّ حَكيمٍ، وعَليمٍ أيِّ عليمٍ، والتَّنوينُ للتَّعظيمِ[٥]. وفي تَفخيمِهما تَفخيمٌ لشأْنِ القرآنِ، وتَنصيصٌ على عُلوِّ طَبقتِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ في مَعرفتِه والإحاطةِ بما فيه مِن الجلائلِ والدَّقائقِ؛ فإنَّ مَن تلقَّى العلومَ والحِكَمَ مِن مِثْلِ ذلك الحكيمِ العليمِ يكونُ عَلَمًا في رَصانةِ العلْمِ والحِكمةِ[٦].

- وكذلك في الوصفينِ الشَّريفينِ مُناسبةٌ للمعطوفِ عليه وللمُمهَّدِ إليه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣).

فإنَّ ما في القُرآنِ دَليلٌ على حِكمةِ مَن أَوحَى به وعِلْمِه، وأنَّ ما يُذكَرُ هنا مِن القَصصِ وما يُستخلَصُ منها مِن المَغازي والأمثالِ والموعظةِ مِن آثارِ حِكمةِ وعِلْمِ حَكيمٍ عليمٍ، وكذلك ما في ذلك مِن تَثبيتِ فُؤادِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٤).

الآيات (٧-١٤)

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ءَانَسْتُ﴾: أي: أبصَرتُ مِن بعيدٍ، والإيناسُ: الرُّؤيةُ والعِلمُ والإحساسُ بالشَّيءِ[(١)].

﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾: أي: بشُعلةِ نارٍ فِي رَأسِ عُودٍ، والقَبَسُ: المتناوَلُ مِن الشُّعلةِ[(٢)].

﴿تَصْطَلُونَ﴾: أي: تَستَدفِئون، والصَّلا: النَّارُ العظيمةُ، والصِّلاءُ: ما يُصطَلى به، وأصلُ (صَلَى) هنا: النَّارُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٦).

﴿جَآنٌّ﴾: جِنسٌ مِن الحيَّاتِ خَفيفٌ سَريعٌ، وسمِّيت الحيةُ بذلك تشبيهًا لها بالواحدِ مِنَ الجانِّ، وأصلُ (جنن): السَّترُ والتَّستُّرُ[١].

﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾: أي: جرَى هارِبًا، والإدبارُ: الذَّهابُ إلى جِهةِ الخَلفِ[٢].

﴿يُعَقِّبۡ﴾: أي: يَرجِعْ، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعْدَ غيرِه[٣].

﴿جَيۡبِكَ﴾: أي: طَوقِ قميصِك[٤]، وهو مدخَلُ الرأسِ منه المفتوحُ إلى الصَّدرِ، وهو مِن الْجَوْبِ: وهو الْقَطْعُ[٥].

﴿سُوٓءٖ﴾: أي: عَيبٍ أو آفةٍ، وفُسِّرَ بالبَرَصِ، والسُّوءُ: كلُّ ما يَغمُّ الإنسانَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣).

(٤) قال الألوسي: (أي: جيبِ قميصِك، وهو مدخَلُ الرَّأسِ منه المفتوحُ إلى الصدرِ، لا ما يوضَعُ فيه الدراهمُ ونحوُها كما هو معروفٌ الآنَ؛ لأنَّه مُوَلَّدٌ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٢).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

﴿مُبۡصِرَةً﴾: أي: بَيِّنةً، واضِحةَ الدَّلالةِ، وأصلُ البصَرِ: العِلمُ بالشَّيءِ[١].

﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾: أي: تيقَّنَتْها، مِن اليَقينِ، وهو أبلَغُ عِلمٍ وأوكَدُه، وأصلُه: يدُلُّ على زَوالِ الشَّكِّ[٢].

﴿وَعُلُوّٗا﴾: أي: تكبُّرًا واستِعلاءً، وأصلُه: يدُلُّ على السُّموِّ والارتفاعِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۞ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

قولُه: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ استِثناءٌ مُنقَطِعٌ، و(إلَّا) بمعنى (لكنْ)، و﴿مَن﴾ مُستثنى في مَحَلِّ نَصبٍ، أو مُبتدَأٌ خبَرُه ﴿فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، والجُملةُ الاسميَّةُ في محلِّ نَصبٍ على الاستثناءِ المُنقَطِع. وقيلَ: الاستِثناءُ هنا متَّصِلٌ. وقيل غيرُ ذلك[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ موسَى عليه السلامُ، فيقولُ: اذكُرْ -يا محمَّدُ-

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٢٧).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٧٧)، ((الجدول)) لمحمود صافي (١٩/ ١٤٤).

حينَ قال موسى لأهلِه: إنِّي أبصَرتُ نارًا، سآتيكم منها بخبَرٍ، أو آتيكم بشُعلةٍ أقتَبِسُها مِن تلك النَّارِ؛ كي تستَدفِئوا بها مِن البردِ.

ثمَّ ذكَر سبحانَه ما حدَث عندَما اقترَب موسى عليه السَّلامُ مِن النَّارِ، فقال: فلمَّا جاء مُوسى إلى النَّارِ ناداه اللهُ تعالى بأنْ بُورِكَ مَن في النَّارِ، وبُورِكَ مَنْ حَوْلَها، وتنزيهًا لله رَبِّ العالَمينَ مِن كُلِّ نَقصٍ وسُوءٍ.

يا موسى، إنَّه أنا اللهُ المستحِقُّ للعبادةِ وَحْدي، الغالِبُ الذي لا يُقهَرُ، الحَكيمُ في تدبيرِه، وارْمِ عَصاك، فرماها فانقلَبَت ثُعبانًا عظيمًا، فلمَّا رآها موسى تتحَرَّكُ بسُرعةٍ وكأنَّها حَيَّةٌ صَغيرةٌ، هرب منها مُسرِعًا ولم يرجِعْ، فقُال الله تعالى له: يا موسَى لا تخَفْ؛ لأنِّي لا يخافُ عندي المُرسَلون، لكِنْ مَن ظلَم نفْسَه بارتكابِ السُّوءِ ثمَّ تاب وعَمِلَ صالِحًا بعْدَ عَمَلِه السيِّئِ، فإنِّي غفورٌ لِذَنْبِه، ورحيمٌ به.

ثمَّ أرشَد الله تعالى موسَى عليه السَّلامُ إلى معجزةٍ أخرَى، فقال: وأَدْخِلْ يدَك يا موسى في جَيبِ قَميصِك ثمَّ أخرِجْها، تخرُجْ بيضاءَ مِن غيرِ بَرَصٍ ولا آفةٍ، وهي آيةٌ مِن جملةِ تِسعِ آياتٍ، نُرسِلُك بها إلى فِرعَونَ وقَومِه؛ لأنَّهم كانوا قَومًا كافرينَ باللهِ.

ثمَّ قال تعالى مبيِّنًا موقفَ فِرعونَ وقومِه مِن هذه المعجزاتِ: فلمَّا جاءت فِرعَونَ وقَومَه آياتُنا التِّسعُ المُظهِرةُ للحَقِّ، الواضِحةُ الدَّلالةِ على صِدقِ موسى ورسالتِه، قالوا: هذا سِحرٌ واضِحٌ، وأنكروا الآياتِ أن تكونَ مِن عندِ اللهِ مع تيقُّنِ قُلوبِهم أنَّها مِن عِندِه سُبحانَه؛ اعتِداءً وتكبُّرًا، فانظرْ -يا محمَّدُ- كيف كانت عاقِبةُ هؤلاء المُفسِدينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال الله تعالى في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] فوصَف نفسَه بتَمامِ الحِكمةِ وشُمولِ العِلمِ؛ دلَّ على كلٍّ مِن الوَصفَينِ، وعلى إبانةِ القُرآنِ وما له مِن العَظَمةِ التي أشار إليها أوَّلَ السُّورةِ بما يأتي في السُّورةِ مِن القَصَصِ وغيرِها[1].

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾.

أي: اذكُرْ -يا محمَّدُ- حين قال موسَى لأهلِه -وهو مسافِرٌ مِن مَدْيَنَ إلى مِصرَ في لَيلةٍ مُظلِمةٍ باردةٍ: إني أبصَرْتُ نارًا[2].

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾.

أي: سآتيكم مِنَ النَّارِ بخبَرٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٤، ٢٢٥).

قال ابن عاشور: (الإيناسُ: الإحساسُ والشُّعورُ بأمرٍ خفيٍّ، فيكونُ في المرئيَّاتِ وفي الأصواتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٥).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ هذه الآيةَ متَّصِلةٌ بقولِه تعالى قبْلَها: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ والمعنى: عليم حينَ قال موسى لأهلِه: إنِّي أبصرتُ نارًا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).

قيل: المرادُ: بخبرٍ عن الطريقِ. وممَّن قال بذلك: السمعانيُّ، والزمخشري، والرازي، والبيضاوي، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والألوسي، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير =

﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾.

أي: أو أجيئُكم بشُعلةٍ أقتَبِسُها مِن تلك النَّارِ؛ كي تستَدفِئوا بها مِن البَردِ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه: ١٠].

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾.

أي: فلمَّا جاء مُوسى إلى النَّارِ[2].....

= الجلالين)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠).

قال ابن عثيمين: (فالخبرُ الذي يريدُ هو خبرُ مَن يَدُلُّه على الطَّريقِ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسلامُ كان قد ضَلَّها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠).

وقيل: المرادُ بالخبر: خبَرُ المكان الذي تَلوحُ منه النَّارُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٥).

قال ابنُ عاشور: (ولعلَّه ظنَّ أنَّ هنالك بيتًا يرجو استضافتَهم إيَّاه وأهلَه تلك اللَّيلةَ). ((المصدر السابق)).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨، ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٥).

(٢) والمرادُ بالنَّارِ: النُّورُ، وممَّن قال بذلك: يحيى بن سلام، وابن عطية، والقرطبي، والبِقاعي، والعُلَيْمي، وجعله الواحديُّ مذهبَ المفسِّرين، ونسَبَه البَغَويُّ لأكثرِهم. يُنظر: ((تفسير يحيى ابن سلام)) (٢/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٧، ١٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١١٤)، ((الوسيط)) =

ناداه الله تعالى[(١)] .....

= للواحدي (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٠).

وممَّن قال مِن السَّلفِ أنَّ المرادَ بالنَّارِ النُّورُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بن جُبَيرٍ في رواية، وعِكْرِمةُ، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٤٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٣).

قال الواحدي: (مذهبُ المفسِّرينَ أنَّ المرادَ بالنَّارِ هو النورُ، وذلك أنَّ موسى رأى نورًا عظيمًا فظنَّه نارًا؛ لذلك ذُكِر بلفظِ النَّارِ). ((الوسيط)) (٣/ ٣٦٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٩).

قالوا: لأنَّ النَّارَ لا تخلُو من النُّورِ، والعربُ تضَعُ أحدَهما موضِعَ الآخَرِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٨).

والمرادُ بالنُّور هو حِجابُ النُّورِ؛ فعن أبي عُبَيْدَةَ، عن أبي موسى رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، يَخفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُه، حِجابُه النُّورُ، لو كشَفَها لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِه كلَّ شَيءٍ أدرَكَه بصَرُه))، ثمَّ قرأ أبو عُبَيْدَةَ: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨].

أخرجه ابن ماجه (١٩٦)، وأحمد (١٩٥٨٧)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (١٦٣). وقال الأرناؤوط في تحقيق ((المسند)): إسناده صحيح. والحديث أصلُه في ((صحيح مسلم)) (١٧٩) دون قراءة أبي عبيدةَ. وفي روايةِ أحمدَ: ((النار)) بدل ((النور))، والمرادُ واحدٌ.

وينظر: رسالة ((إزالة الإشكال عن آية بورك من في النار)) لمنصور العيدي (ص: ٩).

وقيل: هي نارٌ، كما هو ظاهِرُ اللَّفظِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: السمرقنديُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٧، ٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ في روايةٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠، ١١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٤٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٣).

(١) المنادِي هو الله تبارك وتعالى. وممَّن نصَّ على ذلك: ابن عطية، والقرطبي، وابنُ تيميَّة، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيميَّة (٥/ ٤٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٥/ ٤٦٣)، =

بأنْ بُورِكَ[(١)] مَنْ في تلكَ النَّارِ[(٢)]، .....

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٥، ٥٦).

(١) قيل: ﴿بُورِكَ﴾ أي: قُدِّس، وقيل: أي: تبارك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦).

وقال ابن عطية: (وقوله: ﴿بُورِكَ﴾ معناه: قُدِّسَ وضُوعِفَ خيرُه ونُمِيَ، والبَرَكةُ مُختصَّةٌ بالخيرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٠).

وقال البقاعي: (﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ أي: ثبَت تثبيتًا يحصُلُ منه مِن النَّماءِ والطَّهارةِ وجميعِ الخَيراتِ ما لا يُوصَفُ). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٢).

(٢) المرادُ بقولِه تعالى: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾؛ هو الله سبحانَه وتعالى عنَى به نفْسَه، وكانت النَّارُ نورَه تعالَى ذِكرُه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠).

ممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، والحسنُ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ، وأبو صَخْرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٤٥).

فاللهُ تعالى دنا مِن موسى عليه السَّلامُ لَمَّا كلَّمه مِن الشَّجرةِ، وقرَّبَه نَجيًّا، فناداه وناجاه، وهو سبحانه فوقَ العرشِ ويَقرُبُ مِن خَلْقِه كيف شاء، وقُربُه ودُنُوُّه مِن بعضِ مخلوقاتِه لا يَستلزِمُ أن تخلوَ ذاتُه مِن فوقِ العرشِ، ولا يُفهمُ مِن كلامِ السَّلفِ أنَّ الله تعالى قد حلَّ في مخلوقٍ أو أحاط به مخلوقٌ ونحو ذلك مما لا يليقُ نسبتُه لله سبحانَه وتعالى. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٥/ ٤٦٠، ٤٦٣)، ((إزالة الإشكال)) لمنصور العيدي (ص: ٢٣).

وهو سبحانَه (يفعلُ ما يَشاءُ، ولا يُشْبِهُ شيئًا مِن مخلوقاتِه، ولا يحيطُ به شيءٌ مِن مَصْنوعاتِه، وهو العليُّ العظيمُ، المبايِنُ لجميعِ المخلوقاتِ، ولا يَكْتَنِفُه الأرضُ وَالسَّمواتُ، بل هو الأحدُ الصَّمَدُ، المُنَزَّهُ عن مُماثلةِ المُحْدَثاتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠).

قال البَغَويُّ: (ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ والحسَنِ في قولِه: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ يعني: قُدِّس مَن في النَّارِ، وهو اللهُ، عنَى به نفْسَه، على معنَى أنَّه نادى موسى منها، وأسمَعه كلامَه مِن جِهتِها). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩١). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٨٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٣٢).

ونسَبَ السَّمْعانيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: نورُ الربِّ سُبحانَه. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٨). =

= وقيل: المُرادُ بمَن في النَّارِ: موسى عليه السَّلامُ، وممَّن اختار هذا القولَ: السَّمَرْقَنْديُّ، والثَّعلبيُّ، والواحديُّ، والرازيُّ، والعُلَيميُّ، والشربينيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦).

قال الواحدي: (واختَلَفوا فيمَن في النَّارِ؛ فالأحسَنُ: أنَّ الآيةَ مِن بابِ حَذفِ المضافِ، على تقديرِ: بُورِكَ مَن في طلَبِ النَّارِ، وهو موسى عليه السَّلامُ، وكأنَّه تحيَّةٌ مِنَ الله عزَّ وجلَّ لموسى بالبَرَكةِ، كما حيَّا إبراهيمَ بالبَرَكةِ على ألسِنَةِ الملائكةِ حينَ دخَلوا عليه). ((البسيط)) (١٧/ ١٦٤).

وقيل: التَّقديرُ: مَن في مكانِ النَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٨).

وعلى هذا القولِ فالفائدةُ مِن حذفِ كلمةِ مكانٍ شَيْئانِ:

الأوَّل: القُربُ التَّامُّ منها.

والثَّاني: أنَّ شُعاعَ النَّارِ قد وصَل هذا القريبَ منها؛ لأنَّ النَّارَ كما هو معروفٌ لها شُعاعٌ، والإنسانُ القريبُ منها يكونُ في نفْسِ الشُّعاعِ؛ فكأنَّه لقُربِه ووُصولِ شُعاعِ النَّارِ إليه صار كأنَّه فيها نفْسِها، وإلَّا فليس هو في نفْسِ الشُّعلةِ، هذا لا يُمكِنُ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٧).

وقال السَّمْعانيُّ: (فإنْ قيل: لم يكُنْ موسَى في النَّارِ. قُلْنا: قد كان قَريبًا مِنَ النَّارِ، والعربُ تُسمِّي مَن قَرُب مِن الشَّيءِ: في الشَّيءِ، يقولونَ: إذا بلَغْتَ ذاتَ عِرْقٍ فأنت في مكَّةَ؛ قالوا هذا لأجْلِ القُربِ مِن مكَّةَ، وموسى قد كان قَرُب مِنَ النَّارِ، فجَعَله كأنَّه في النَّارِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٨).

وقيل: المُرادُ بمَن في النَّارِ: الملائكةُ، وممن قال به: مقاتلُ بن سليمان، والفَرَّاء -ونسَبه إليه السمعاني-، والبَغَوي، والنسفي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٧)، ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٤).

قال الشنقيطيُّ: (وأقربُ الأقوالِ في معنَى الآيةِ إلى ظاهرِ القرآنِ العظيم قولُ مَنْ قالَ: إنَّ في النَّارِ الَّتي هي نورٌ ملائكةً، وحَوْلَها ملائكةٌ ومُوسَى، وأنَّ معنَى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: الملائكةُ الَّذينَ هم في ذلك النُّورِ، ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أي: وبُورِكَ الملائكةُ الَّذينَ هم حَوْلَها، وبُورِكَ مُوسَى؛ لأنَّه حَوْلَها معهم. ومِمَّنْ يُروَى عنه هذا: السُّدِّيُّ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٣٣). =

وبُورِكَ مَنْ حَوْلَها[(١)].

= وقيل: هذه البَرَكةُ راجعةٌ إلى النَّارِ نفْسِها. والمعنَى: بُورِكَتِ النَّارُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٨).

قال الثعلبي: (وتقديرُ هذا التَّفسيرِ أنَّ «مَن» تأتي في الكلامِ بمعنى «ما» ... و«ما» قد تكونُ صِلَةً في كثيرٍ مِن المواضِعِ؛ كقَولِه: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ [ص: ١١]، و ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠]. فمعنى الآيةِ: بُورِكَ في النَّارِ، وفيمَن حَوْلَها، وهم الملائكةُ وموسى عليه السَّلامُ، فسَمَّى النَّارَ مُبارَكةً، كما سمَّى البُقْعةَ مُبارَكةً فقال: ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠]). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٩٠).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه ومُجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١).

وذكر الشنقيطيُّ أنَّه بعيدٌ عن ظاهِرِ القرآنِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩- ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٧- ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٣، ٤٣٤).

المرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: موسى والملائكةُ. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، وابنُ عاشور، والشِّنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٤).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ هم الملائكةُ وموسى، في قولِ الجميعِ). ((البسيط)) (١٧/ ١٦٨).

وممن قال به مِن السَّلفِ: محمد بنُ كَعْب. ينظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٤١).

وقيل: المراد بقولِه تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: الملائكةُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيْمانَ، والفرَّاءُ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والثَّعلبيُّ، والواحديُّ، والرازيُّ، والبِقاعي، والشربيني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٧)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦، ٢٢٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، والحسنُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٤٧). =

﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وتنزيهًا لله رَبِّ العالَمينَ مِن كُلِّ نَقصٍ وسُوءٍ وعَيبٍ[(١)].

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾.

أي: يا موسى، إنَّه أنا اللهُ المستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدي، القويُّ الغالِبُ الذي لا يُقهَرُ، الحكيمُ في أمرِه وقَولِه وفِعلِه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۞ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي

= قال ابن عاشور: («ومَن حَوْلَ النَّارِ» هو جبريلُ الذي أُرسِلَ إليه بما نودِيَ به، والملائكةُ الذين وكِّلَ إليهم إنارةُ المكانِ وتقديسُه، إنْ كان النِّداءُ بغيرِ واسطةِ جبريلَ، بل كان مِن لَدُنِ اللهِ تعالى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦، ٢٢٧).

وقال البقاعي: (... ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ مِن جميعِ الملائكةِ -عليهم السَّلامُ- وتلك الأراضي المقدَّسة على ما أراد اللهُ في ذلك الوقتِ وفي غيرِه.

وحُقَّ لتلك الأراضي أن تكونَ كذلك؛ لأنَّها مَبعَثُ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومَهبِطُ الوحيِ عليهم، وكِفاتُهم أحياءً وأمواتًا). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٣٢).

وقيل: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ المرادُ به: موسى عليه السَّلامُ. وممَّن اختاره: النَّسَفي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٢).

وقيل: هو عامٌّ في كلِّ مَن كان في تلك الأرضِ وفي ذلك الوادي وحوالَيْهما مِن أرضِ الشَّام. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٣).

قال السعدي: (ومِن حِكمتِه أنْ أَرسَلَ عبْدَه موسى بنَ عِمْرانَ الَّذي عَلِم اللهُ منه أنَّه أهلٌ لرسالتِه ووَحْيِه وتكليمِه. ومِن عِزَّتِه أن تعتمِدَ عليه ولا تَستوحِشَ مِن انفرادِك وكثرةِ أعدائِك وجبروتِهم؛ فإنَّ نواصيَهم بيدِ الله، وحرَكاتِهم وسكونَهم بتدبيرِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٣، ١٤].

﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠﴾.

﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾.

أي: وارْمِ عصاك، فرماها فانقلَبَت ثُعبانًا عظيمًا، فلمَّا رآها موسَى تتحَرَّكُ وتَضطرِبُ بخِفَّةٍ وسُرعةٍ، وكأنَّها حيَّةٌ صَغيرةٌ؛ هرَب منها مُسرِعًا ولم يرجِعْ ولم يلتَفِتْ(١).

﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

أي: فقُلْنا: يا موسى، لا تخَفْ مِمَّا ترى(٢)؛ لأنِّي لا يَخافُ عندي الرُّسلُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢).

(٢) قال القرطبي: (﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ أي: مِن الحيَّةِ وضررِها). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٧).

قال الشوكاني: (﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أيْ: لا يَخافُ عِنْدي مَنْ أرسَلْتُه برِسالَتي، فلا تَخَفْ أنت. قِيلَ: ونَفْيُ الخوفِ عن المرسلينَ ليسَ فِي جميعِ الأوقاتِ، بل في وقتِ الخطابِ لهم، لأنَّهم إذْ ذاكَ مُستغرقونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٧).

ممن اختار القولَ الأولَ، أي: لا يخافُ عندي رسلي وأنبيائي: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والزجاج، وابن الجوزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأٓمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

أي: لَكِنْ[1] مَن ظلَمَ نفْسَه بارتكابِ السُّوءِ، والوُقوعِ في الذَّنبِ، ثمَّ تاب

= قال ابنُ جرير: (﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ يقولُ: إنِّي لا يَخافُ عندي رُسلي وأنبيائي الذين أختصُّهم بالنبوَّةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦).

وقال الواحدي: (قال ابنُ عباسٍ: لا يخافُ عندي مَن أرسلتُه برسالتي، والمعنَى: لا يُخيف الله الأنبياءَ، أي: إذا أمَّنهم فلا يخافونَه، فيكف يخافُ الحيةَ؟! فنهَى عن الخوفِ مِن الحيةِ، ونبَّه على أمنِ المرسلينَ عندَ الله ليُعلمَ أنَّ مَن أمَّنه الله مِن عذابِه بالنبوةِ ودرجةِ الرسالةِ لا يستحقُّ أن يخافَ الحيةَ). ((البسيط)) (١٧/ ١٧٣).

وقال القاسمي: (﴿لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: لحِفْظي لهم وعِنايتي بهم وعِصْمتي إياهم مما يُؤْذيهم). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٨٧).

وقال النيسابوري: (وسببُ نفيِ الخوفِ عن الرسلِ مشاهدةُ مزيدِ فضلِ الله وعنايتِه في حقِّهم). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٢٩٤).

وممن ذهب إلى أنَّ قولَه: ﴿لَدَىَّ﴾ يعني: حينَ الوحيِ وتلَقِّي الرِّسالةِ في حضرةِ الربِّ تعالى: البقاعي، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٩).

قال السعدي: (﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لأنَّ جميعَ المخاوفِ مُندَرِجةٌ في قضائه وقَدَرِه، وتصريفِه وأمْرِه، فالذين اختصَّهم اللهُ برسالتِه واصْطَفاهم لوَحْيِه لا ينبغي لهم أن يخافوا غيرَ اللهِ، خصوصًا عندَ زيادةِ القُربِ منه، والحُظوةِ بتكليمِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).

وقال الكرماني: (قوله: (لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ)، أي، في الموضعِ الذي يُوحي فيه إليهم؛ لأنَّ المرسلينَ أخوفُ مِن الله). ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٨٤٣).

وممن اختار أنَّ معنى: ﴿لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: إذا أمَّنتهم: السمعاني، والبغوي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١١٦).

قال البغوي: (﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، يريدُ إذا آمَنهم لا يخافونَ، أمَّا الخوفُ الذي هو شرطُ الإيمانِ فلا يفارقُهم). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩١).

(١) الاستثناءُ هنا منقطِعٌ بمعنى: لَكِنْ. وممَّن قال بذلك: القرطبيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، وابن =

= عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٣).

قال ابنُ عثيمين: (إنَّ موسى عليه الصلاةُ والسلامُ لَمَّا قال الله له: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لعلَّه تذكَّرَ أنَّه قد وقع منه خطيئةٌ، والخطيئةُ أنَّه قتَل نفْسًا، وكأنَّه عندَما يتذكَّرُ هذا قد يستبعِدُ في نفْسِه أن يكونَ مِن الرُّسلِ، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾؛ لِيُذَكِّرَه بما مَنَّ به عليه مِن التَّوبةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٢).

وقال أيضًا: (الاستثناءُ في ﴿إِلَّا﴾ هنا منقطعٌ؛ لأنَّه يشمَلُ الرُّسلَ وغيرَ الرُّسلِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٤).

وقيل: المعنى: لَكِنْ مَن ظلَمَ مِن سائرِ النَّاسِ، لا مِنَ المُرسَلينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٩).

وقيل: الاستثناءُ هنا متَّصِلٌ. والمعنى: لا يَخافُ لدَيَّ المُرسَلون إلَّا مَن ظلَم منهم. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨، ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٩).

قال الشوكاني: (والمعنَى: إلَّا مَن ظَلَم مِن المرسَلينَ، بإتيانِ الصَّغائرِ الَّتي لا يَسلَمُ منها أحدٌ. واختارَ هذا النَّحَّاسُ، وقالَ: عَلِم مَن عصَى منهم، فاسْتَثْناه فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ وإنْ كنتُ قد غَفَرْتُ له؛ كآدَمَ وداودَ ... وموسَى بقتلِه القبْطِيِّ. ولا مانِعَ مِن الخَوفِ بعْدَ المغفرةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٧). ويُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦١).

وقال السمعاني: (وقَولُه: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ فيه أقوالٌ؛ أحدُها: ولا مَن ظَلَم ثمَّ بدَّل حُسنًا بعْدَ سوءٍ، أي: تاب ونَدِم. وهذا القولُ ضعيفٌ عندَ أهلِ النَّحوِ. والقولُ الثَّاني: أنَّ معنى الآيةِ: إنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ المرسَلونَ، وإنَّما يَخافُ غيرُ المرسَلينَ، إلَّا مَن ظَلَم ثمَّ بدَّل حُسنًا بعْدَ سوءٍ فإنَّه لا يَخافُ. والقولُ الثَّالثُ: أنَّ الاستثناءَ هاهنا منقطِعٌ، ومعناه: لَكِن مَن ظلَم فخافَ فإنْ بدَّل حسنًا بعْدَ سوءٍ فإنَّه لا يخافُ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٠).

وقال النَّحَّاسُ: (فإنْ قال قائلٌ: فما معنى الخَوفِ بعْدَ التَّوبةِ والمغفرةِ؟

قيل له: هذه سبيلُ العلماءِ بالله جلَّ وعزَّ؛ أن يكونوا خائفينَ مِن معاصيه، وَجِلينَ، وهم أيضًا لا يَأْمَنون أن يكونَ قد بقِيَ مِن أشراطِ التَّوبةِ شَيءٌ لم يأتوا به، فهم يخافونَ مِن المطالبةِ به). ((إعراب القرآن)) (٣/ ١٣٧). =

وعَمِلَ صالِحًا بعْدَ عَمَلِه السيِّئِ؛ فإنِّي غفورٌ لِذَنْبِه -أستُرُه عليه، وأتجاوَزُ عن مؤاخَذتِه به-، ورحيمٌ به[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أراه سُبحانَه تلك الخارِقةَ فيما كان في يدِه بقَلْبِ جوهرِها إلى جوهرِ شَيءٍ آخَرَ حيوانيٍّ، أراه آيةً أُخرى في يدِه نفْسِها بقَلْبِ عَرَضِها الذي كانت عليه إلى عَرَضٍ آخرَ نُورانيٍّ؛ فقال[٢]:

﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾.

أي: وأدخِلْ يدَك في جَيبِ قَميصِك ثمَّ أخرِجْها، تخرُجْ بَيضاءَ اللَّونِ مِن غَيرِ بَرَصٍ أو غيرِه مِنَ الآفاتِ[٣].

= وقال ابنُ القيِّم: (الخوفُ ثابتٌ له حالَ ظلمِه وحالَ تبديلِه الحسنَ بعدَ السوءِ، أمَّا حالَ ظلمِه فظاهرٌ، وأمَّا حالَ التَّبديلِ فلأنَّه يخافُ أنَّه لم يَقُمْ بالواجبِ، وأنَّه لم يُقبَلْ منه ما أتَى به... فمَن ظلَمَ ثمَّ تاب فهو أَوْلَى بالخَوفِ، وإنْ لم يكُنْ خَوْفٌ عليه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٧١).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠، ٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٤)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ۝ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ [طه: ٢٢، ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ۝ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣١، ٣٢].

﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ﴾.

أي: وهي آيةٌ مِن جُملةِ تِسعِ آياتٍ[(١)].....

= النسفي)) (٢/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٦، ٧٧).

(١) قوله: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾ (في) بمعنى (من). وقيل: بمعنى (مع). يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٥).

قال ابنُ عطيةَ في بيانِ الآياتِ التِّسعِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ من سورة الإسراء: (اتَّفَق المتأوِّلونَ والرُّواةُ أنَّ الآياتِ الخَمسَ التي في سورةِ الأعرافِ هي مِن هذه التِّسعِ، وهي: الطُّوفانُ، والجَرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادعُ، والدَّمُ، واختلَفوا في الأربَعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٨).

وقال الواحدي: (قال المفسِّرون: هي الطوفانُ، والجرادُ، والقُمَّلُ، والضفادعُ، والدَّمُ، والعصا، ويدُه، والسِّنونَ، ونقصٌ مِن الثَّمَراتِ). ((الوسيط)) (٣/ ١٣٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٧، ٧٨).

ونسَبه الشوكانيُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١١).

وذكر ابنُ كثير الخلافَ في عدِّ الآياتِ التِّسعِ في آيةِ الإسراءِ، وأنَّ منهم مَن قال: إنَّها (العصا، واليَدُ، والسِّنونَ، والبَحرُ، والطُّوفانُ، والجرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادعُ، والدَّمُ؛ آياتٌ مُفَصَّلاتٌ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. وقال محمَّدُ بنُ كعبٍ: هي اليدُ، والعصا، والخمسُ في الأعرافِ، والطمسةُ، والحجرُ. وقال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والشعبيُّ، وقَتادةُ: هي يدُه، وعصاه، [والسِّنون]، ونقصُ الثمراتِ، والطوفانُ، والجرادُ، والقمَّلُ، والضَّفادعُ، والدَّمُ. وهذا القولُ =

نُرسِلُك بها إلى فِرعَونَ وقَومِه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ...﴾ [هود: ٩٦، ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

أي: فأرسَلْناك بتلك الآياتِ إليهم؛ لأنَّهم كانوا قَومًا كافرينَ باللهِ، خارجينَ عن طاعتِه[٢].

= ظاهرٌ جليٌّ حسنٌ قويٌّ. وجعَل الحسنُ البصريُّ «السنينَ ونقصَ الثمراتِ» واحدةً، وعندَه أنَّ التاسعةَ هي: تلقُّفُ العصا ما يَأْفِكون... فهذه الآياتُ التِّسعُ التي ذكَرَها هؤلاء الأئمَّةُ، هي المرادةُ هاهنا، وهي المَعنيَّةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٠- ١٢] فذَكَرَ هاتينِ الآيتَينِ: العصا واليَدَ، وبيَّنَ الآياتِ الباقياتِ في «سورة الأعراف» وفصَّلَها. وقد أُوتيَ موسى عليه السَّلامُ آياتٍ أُخَرَ كثيرةً؛ منها: ضَرْبُه الحَجَرَ بالعصا، وخروجُ الأنهارِ منه، ومنها تظليلُهم بالغَمامِ، وإنزالُ المَنِّ والسَّلْوى، وغيرُ ذلك ممَّا أُوتيَه بنو إسرائيلَ بعْدَ مُفارقتِهم بلادَ مِصرَ، ولكِنْ ذَكَرَ هاهنا التِّسعَ الآياتِ التي شاهَدَها فِرعَونُ وقَومُه مِن أهلِ مِصرَ، وكانت حُجَّةً عليهم، فخالفوها وعانَدوها كُفرًا وجُحودًا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤، ١٢٥). ويُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٥٧، ٥٨) و (٩/ ٩٥، ٣٤٥-٣٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٩).

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣﴾.

أي: فلمَّا جاءت فِرعَونَ وقَومَه آياتُنا التِّسعُ مضيئةً ظاهِرةً واضِحةَ الدَّلالةِ على صِدقِ موسى ورسالتِه، واحدةً بعْدَ أُخرَى؛ قالوا: هذا الذي أَرانا موسى سِحرٌ واضِحٌ لا يخفَى على أحَدٍ[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۞ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۞ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ۞ وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۞ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّٰحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ۞ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧-٥٠].

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾.

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨٣).
قال ابن عثيمين: (فهذه الآياتُ هي بنفْسِها ظاهرةٌ وواضِحةٌ، والذي يَراها يُبصِرُ بها؛ ولهذا نقول: ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ يعني: أنَّها باصرةٌ بنفْسِها، ومُوجِدةٌ للإبصارِ في غيرِها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨٣).

أي: وكذَّب فِرعَونُ وقَومُه بالآياتِ، وأنكروا بألسِنتِهم أن تكونَ مِن عندِ اللهِ، مع تيقُّنِ قُلوبِهم أنَّها مِن عندِ اللهِ تيقُّنًا تامًّا لا شَكَّ فيه، ولكِنَّهم كذَّبوا وأنكروا؛ اعتِداءً وتكبُّرًا عن اتِّباعِ الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أي: فانظُرْ(٢) -يا محمَّدُ- إلى نهايةِ أمرِ الذين يُفسِدونَ في الأرضِ بالشِّركِ والمعاصي، كيف أهلَكَهم اللهُ ودمَّرَهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢، ٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨٨).

(٢) قال ابنُ عثيمين: (قولُه: ﴿فَٱنظُرْ﴾... المرادُ: نظَر اعتبارٍ؛ لأنَّ نظرَ الإبصارِ هنا متعذِّرٌ؛ لسَبقِ زمَنِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٩٠-٩٢).

قال ابنُ كثير: (فحوى الخطابِ [وهو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريق الأَولى] يقولُ: احذَروا -أيُّها المكَذِّبون بمحمَّدٍ- الجاحِدون لِما جاء به مِن ربِّه: أن يصيبَكم ما أصابَهم بطريقِ الأَولى والأحرى؛ فإنَّ محمدًا -صلواتُ الله وسلامُه عليه- أشرَفُ وأعظَمُ مِن موسى، وبرهانَه أدَلُّ وأقوى مِن بُرهانِ موسى؛ بما آتاه اللهُ مِن الدَّلائلِ المقتَرِنةِ بوجودِه في نفسِه وشمائِلِه، وما سبَقَه من البِشاراتِ مِن الأنبياءِ به، وأخْذِ المواثيقِ له، عليه مِن رَبِّه أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨١).

وقال السعدي: (﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أسوأَ عاقبةٍ؛ دمَّرَهم اللهُ، وغرَّقهم في البَحرِ، وأخزاهم، وأورَثَ مساكِنَهم المُستضعَفينَ مِن عبادِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، وقال جلَّ ثناؤُه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، وقال سُبحانَه: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، في هذا خدمةُ الرَّجُلِ أهْلِه، وكان نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّمَ في بيتِه في مِهْنةِ أهْلِه[١]، أي: في خِدمتِهم. ومِن ذلك قولُه: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٥].

وخِدمةُ الرَّجُلِ أهْلَه إحسانٌ وصِلةٌ وتَواضُعٌ، وما هذا مِن أخلاقِ الجبَّارينَ المتكبِّرينَ، وعلى الحقيقةِ سيِّدُ القَومِ خادمُهم؛ لأنَّه فاز بالمناقبِ الدِّينيَّةِ، وأفادهم أعراضًا دُنيويَّةً[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أنَّه ينبغي إيناسُ المستوحِش، فينبغي أنْ تقولَ له أو تَفعَلَ معه ما يُؤنِسُه؛ لِيطمئنَّ، ويكونَ قابلًا لِمَا يُلقى إليه؛ لأنَّ المستوحِشَ لا يَقبَلُ ما يُلقَى إليه، بمعنى: أنَّه لا يتمكَّنُ مِن قَبولِه؛ فإنَّ إثباتَ البَرَكةِ لِمَن في النَّارِ ومَن حَوْلَها يَزدادُ به طمأنينةً بلا شَكٍّ؛ ولهذا أوَّلَ ما خاطبَه اللهُ في هذه الآيةِ قال: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في قَولِه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أنَّ

---

(١) رواه البخاري (٦٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٠).

تَعيينَ الشَّخصِ بالنِّداءِ له فائدةٌ، وهي: التَّطمينُ والإيناسُ؛ لأنَّك إذا قلتَ: (يا فلانُ) طمأنْتَه بلا شكٍّ؛ لأنَّه يقولُ: هذا يعرفُني، ما ينالُني بسوءٍ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أنَّه ينبغي لِمَن أراد تعيينَ نفْسِه أنْ يُبيِّنَ اسمَه، فلم يَقُلْ مثلًا: (أنا مُكَلِّمُك)، (أنا)، أو ما أشبَهَ ذلك، بل بَيَّنَ مَن الذي يُكَلِّمُه[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أنَّه ينبغي الاحترازُ في الكَلامِ عندَما يُوهِمُ الشَّيءُ أمرًا يُحترَزُ منه؛ لقَولِه: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، ففي الآيةِ دَليلٌ على مبدأِ الاحترازِ في الكلامِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أنَّ الاتِّصافَ بهذين الوصفَينِ (الظُّلم والعُلوِّ) يَجعَلُ الإنسانَ مِن الأُمَّةِ الفِرعونيَّةِ، وما مِن صفةٍ يَخرجُ بها العبدُ عن سواءِ السبيلِ إلَّا وله فيها إمامٌ مِن أهلِ الكُفرِ؛ ولهذا أخبَرَ النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّنا سنَركَبُ سَننَ مَن كان قَبْلَنا[٤]؛ فجَحْدُ الحقِّ مِن الأئمَّةِ فيه فرعونُ وقَومُه، والحسدُ مِن الأئمَّةِ فيه اليَهودُ، وهكذا[٥].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الوصفُ إذا كان مَذمومًا وفِرعونيًّا؛ فإنَّ عكسَه محمودٌ، والعكسُ هو التواضعُ للحقِّ وقَبولُه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه.

وما أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وأحمد (٢١٨٩٧) من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٩٤).

هذا لا شكَّ أنَّه ممدوحٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى إذا أثنَى بالسُّوءِ على وصْفٍ، فإنَّ ضِدَّه يُثنَى عليه بالحُسنِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ذَمُّ التَّرَفُّعِ عن الحقِّ؛ لِقَولِه: ﴿وَعُلُوًّا﴾، ومِنَ النَّاسِ مَن إذا عُرِضَ عليهم الدَّليلُ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ ترَكوه تقليدًا لإمامٍ يَرَوْنَ أنَّه أكثرُ عِلمًا، وهذه الطريقةُ مذمومةٌ أيضًا، وإن كانت عن حُسنِ نيَّةٍ[٢]!

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ حُسنُ خُلُقِ موسى صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ وذلك لمكالَمتِه لأهلِه ومُراجعتِه إيَّاهم بما يَهُمُّهم قبْلَ ذهابِه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ دَليلٌ على أنَّ الزَّوجةَ مِن الأهلِ، وهذا هو القَولُ الصَّحيحُ، فعلى هذا آلُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَدخُلُ فيهم أزواجُه؛ لأنَّ الزَّوجةَ مِن الأهلِ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أنَّ الأحوالَ البشريةَ تطرأُ حتَّى على الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ؛ فإنَّ موسى في تلك اللَّيلةِ كان قد ضَلَّ الطريقَ ولم يَهتدِ إليه، وقد أصابَه البرْدُ هو وأهله، والأنبياءُ والرُّسلُ لا يختَلِفون عن غيرِهم إلَّا في الرِّسالةِ؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أَنَاْ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [فصلت: ٦]، فالأوَّلُ: المماثَلةُ في البشريَّةِ، والثَّاني: الاختصاصُ بالوحيِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يُلامُ على اتِّخاذِ الوقايةِ الدَّافعةِ أو الرَّافعةِ، وهذه الوقايةُ دافِعةٌ رافِعةٌ؛ رافعةٌ للبرْدِ السَّابقِ، ودافعةٌ للبرْدِ اللَّاحِقِ، بل إنَّه رُبَّما يُؤمَرُ به أمرَ إيجابٍ أو أمرَ استِحبابٍ حسَبَ ما تقتضيه الحالُ التي يريدُ أنْ يَرفَعَها أو يدفَعَها[٢].

٥- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أنَّ هذا التَّبريكَ تبريكُ ذوَاتٍ لا تبريكُ مكانٍ، بدليلِ ذِكرِ (مَن) الموصولةِ في الموضِعَين[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ المنادي لموسَى هو الله ربُّ العالمينَ لا غيرُه، وإذا كان المنادي هو اللهَ رَبَّ العالَمينَ، وقد ناداه مِن مَوضِعٍ مُعَيَّنٍ وقَرَّبَه إليه؛ دَلَّ ذلك على ما قاله السَّلَفُ مِن قُربِه ودنُوِّه مِن موسى عليه السَّلامُ، وهو سبحانه يَقرُبُ مِن خَلقِه كيف شاء[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ دَليلٌ على تكليمِه سبحانَه لموسى بصَوتٍ مَسموعٍ؛ فالنِّداءُ لا يكونُ إلَّا صَوتًا مَسموعًا، ولا يُعقَلُ في لغةِ العربِ لفظُ النِّداءِ بغيرِ صوتٍ مسموعٍ، لا حقيقةً ولا مَجازًا[٥].

٨- ثَناءُ اللهِ سبحانه وتعالى على نفْسِه، وأنَّ ذلك مِن كمالِه؛ فإنَّه أثنى على نفسِه بقَولِه: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أثنى على نفْسِه بنفيٍ وإثباتٍ؛ النفيُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٦٠- ٤٦٤).

(٥) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٣/ ٩٧).

(سُبْحَانَ اللهِ)، والإثباتُ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ومِن هنا نَعرِفُ أنه لا يَتِمُّ كمالُ الأوصافِ إلَّا بهذينِ الأمْرينِ، وهما: النَّفيُ والإثباتُ؛ لأنَّ إثباتَ الكَمالاتِ فقط لا يدُلُّ على نفيِ النَّقائِصِ، ونفْيَ النَّقائصِ فقط لا يدُلُّ على إثباتِ الكَمالاتِ، وباجتِماعِهما يحصلُ الكمالُ المطلَقُ؛ ولهذا قالوا: لا بُدَّ مِن تخليةٍ وتحليةٍ[١].

٩- إثباتُ الحُكْمِ المطلَقِ لله سبحانَه وتعالى؛ لِقَولِه: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ الحكيمَ هو ذو الحُكْمِ والحِكمةِ[٢].

١٠- كانت معجزةُ كلِّ نبيٍّ في زمانِه بما يُناسِبُ أهلَ ذلك الزَّمانِ؛ فذكَروا أنَّ موسى عليه السَّلامُ كانت مُعجزتُه ممَّا يُناسِبُ أهلَ زمانِه، فكانوا سحَرةً أذكياءَ، فبُعِث بآياتٍ بهَرَتِ الأبصارَ، وخضَعَتْ لها الرِّقابُ[٣]؛ فقولُه تعالى: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ وقولُه: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ دلَّ على حِكمةِ اللهِ تعالى في آياتِ الرُّسلِ، وأنَّها تُناسِبُ العصرَ الذي بُعِثوا فيه؛ فلذلك أُوتيَ موسى صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن الآياتِ ما يَقضي على سِحْرِهم[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أنَّ هذه العصا لم تكُنْ مجرَّدَ حيوانٍ يتحرَّكُ! ولكنَّها أبلَغُ مِن ذلك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، ومعلومٌ أنَّ الجانَّ بنَفْسِه مُرَوِّعٌ، فالحيَّةُ بنفْسِها مروِّعةٌ، فإذا كانت مِن عظيمِ الحَيَّاتِ صارتْ أشَدَّ وأبلَغَ[٥].

١٢- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ والجانُّ هو الحيَّةُ الصغيرةُ، وقد جاءت آيةٌ أخرى تدُلُّ على خِلافِ ذلك، وهي قولُه تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٤).

(٣) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٤٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٨، ٨٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٨).

هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ١٠٧]، وهذه الآيةُ تدُلُّ على شَبَهِ العصا بالثُّعبانِ، وهو لا يُطلَقُ إلَّا على الكبيرِ مِن الحيَّاتِ.

والجوابُ عن هذا: أنَّه شَبَّهها بالثعبانِ في عِظَمِ خِلقتِها، وبالجانِّ في اهتِزازِها وخِفَّتِها، وسرعةِ حرَكتِها؛ فهي جامعةٌ بيْنَ العِظَمِ وخِفَّةِ الحركةِ على خِلافِ العادةِ[(١)].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ جوازُ أنْ يعتريَ الأنبياءَ الخَوفُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾، وأنَّ ذلك لا يُعَدُّ نقصًا فيهم؛ لأنَّه مِن مقتضى الطبيعةِ البشريَّةِ، وهذا الذي يكونُ مِن مقتضى الطبيعةِ البشريَّةِ لا يُلامُ عليه أحدٌ، فالأنبياءُ يَجوعون ويَعطَشون، ويَبْرُدون ويمرَضون، ويموتون أيضًا؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾[(٢)] [الكهف: ١١٠].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ جوازُ توجيهِ الأحكامِ الشرعيَّةِ إلى الأمورِ الفِطريَّةِ، يعني -مثلًا- أنت إذا قلتَ لإنسانٍ: (لا تَخَفْ)، والخَوفُ طبيعيٌّ، فكيف يَدفَعُه عنه؟ فهل يَتوجَّهُ الحُكْمُ إلى مِثْلِ هذه الأمورِ الطبيعيَّةِ؟

نقولُ: نعم يمكنُ؛ لأنَّ الخوفَ -وإنْ كان أمرًا طبيعيًّا غيرَ شعوريٍّ؛ لأنَّه يأتي الإنسانَ بغيرِ اختيارِه- لكِنَّه يمكنُه معالجتُه بالمدافعةِ؛ ولهذا جاء رجلٌ إلى الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فقال: أوصني، فقال: ((لا تغضَبْ))[(٣)]، والغضبُ مِن طبيعةِ الإنسانِ، لكنْ معنى (لا تغضَبْ): يعني: حاولْ أنْ تُقَلِّلَ مِن

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦١١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

غضَبِك، وأنْ تكونَ دائمًا هادئًا، ثمَّ إنْ غضِبتَ فلا تُنْفِذْ مقتضَى هذا الغضَبِ، فإذَن الأمورُ الطبيعيَّةُ البشريَّةُ التي هي مقتضى الطبيعةِ البشريَّةِ يجوزُ أنْ يُوَجَّهَ الحُكمُ إليها أمرًا أو نهيًا، ويكونُ ذلك مِن بابِ مُدافَعتِها قبْلَ وُجودِها، أو مِن بابِ تقليلِ آثارِها، فلا يقالُ: إنَّ الإنسانَ أُمِرَ بما لا يستطيعُ، فأُمِرَ بعدمِ الغضَبِ وهو لا بُدَّ أنْ يغضَبَ، وأُمِرَ بعدمِ الخَوفِ وهو لا بُدَّ أنْ يَخافَ ممَّا هو مَخُوفٌ[1]!

١٥- في قَولِ الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أنَّ أخْذَ الأحكامِ مِن مُقتضى أسماءِ اللهِ تعالى وصفاتِه؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: أغفِرُ له، وهذا حُكمٌ، وأخذُ الأحكامِ مِن مُقتضى الأسماءِ والصِّفاتِ هذا مِن أحسَنِ ما يكونُ مِن الاستِدلالِ. ذُكِرَ أنَّ رجلًا قَرَأ عندَ أعرابيٍّ: (والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما جزاءً بما كَسَبَا نكالًا مِن اللهِ واللهُ غفورٌ رحيمٌ)! فقال الأعرابيُّ -وهو لم يَقرأِ القرآنَ: أعِدِ الآيةَ؛ أخطأتَ فيها، فأعادها مرَّةً ثانيةً، وقال: (والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما جزاءً بما كَسَبَا نكالًا مِن اللهِ واللهُ غفورٌ رحيمٌ)! قال له: أعِدِ الآيةَ، فأعادها في الثَّالثةِ على الصَّوابِ، قال: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، قال: الآنَ؛ فإنَّه عَزَّ وحَكَمَ فقَطَعَ، ولو غَفَرَ ورَحِمَ ما قَطَعَ. وهذا صَحيحٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٠). ويُنظر أيضًا: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب الحنبلي (١/ ٣٦٤).

والقاعدةُ: أنَّ متعلقَ الخطابِ إذا كان مقدورًا حُمل عليه، وإن كان غيرَ مقدورٍ صُرف الخطابُ لثمرته أو سببِه. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٧٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٤).

وتُنظر قصَّةُ الأعرابيِّ في: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٦)، ((الوافي بالوَفَيَات)) للصَّفَدي (٢٧/ ٢٢٧)، ((خِزانة الأدب)) للحَمَوي (١/ ١٧٦)، ((الكشكول)) للعاملي (٢/ ١١٢).

١٦- أنَّه مِن الفَصاحةِ والبلاغةِ قَرنُ الحُكم بتعليلِه؛ لِقَولِه: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ﴾، وتعليلُ هذا الحُكمِ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾، وإنَّ قَرْنَ الحُكْمِ بتعليلِه له فوائدُ؛ منها:

الأُولى: بيانُ حِكمةِ اللهِ سُبحانَه في تشريعِه وقضائِه.

الثَّانية: التعميمُ بعُمومِ العلَّةِ.

الثالثةُ: أنَّ المخاطَبَ يَزدادُ طمأنينةً إذا عَلِمَ حِكمةَ الحُكمِ[(١)].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ أنَّ الفِسقَ يُطلَقُ على الكُفرِ، والفِسقُ نوعان: فِسقٌ مُطلَقٌ، ومُطلَقُ الفِسقِ؛ فالفِسقُ المطلقُ هو الكُفرُ، ومُطلَقُ الفِسقِ هو العصيانُ مِن المؤمِنينَ؛ إذْ إنَّ أصلَ الفِسقِ هو الخُروجُ عن الطَّاعةِ، فإنْ كان خُروجًا كاملًا شاملًا فهو فِسقٌ مُطلَقٌ، وإنْ كان بعضَ خروجٍ فهو مُطلَقُ فِسقٍ[(٢)].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: (هذه)؛ لأنَّه -واللهُ أعلمُ- رَدٌّ على الجائي بالآياتِ، أو يكونُ المرادُ بقولِهم: ﴿هَٰذَا﴾ أي: الذي نراه، ثم قال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ بردِّه على الآياتِ[(٣)].

وقيل: إنَّه قال هنا: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ مِن أجْلِ أن يَشمَلَ كلَّ ما جاء؛ حتى يَشمَلَ موسى نفْسَه، واتِّهامَه بالسِّحرِ[(٤)].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ مبالَغةُ صاحبِ الباطلِ بدعْواه؛ حيث قالوا: ﴿سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ يعني: بيِّنًا ظاهرًا، ما فيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨٦).

إشكالٌ، وهكذا المُدَّعي يأتي بالكَلِماتِ التي تُشَبِّهُ على الخلْقِ حتى يَصِلَ إلى ما يريدُ مِن الباطلِ[١].

٢٠- نصوصُ القُرآنِ في غيرِ موضِعٍ تدُلُّ على أنَّ الكُفَّارَ كانوا في الدُّنيا مُصَدِّقينَ بالرَّبِّ، حتى فِرعَونُ -الذي أظهَرَ التَّكذيبَ- كان في باطنِه مُصَدِّقًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٢].

٢١- مَن عَرَفَ اللهَ بقلبِه ولم يُقِرَّ بلِسانِه، لم يكنْ مُؤمِنًا، كما قال الله تعالى عن قَومِ فِرعَونَ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٣].

٢٢- قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ لَمَّا كان الجَحدُ معناه إنكارُ الشَّيءِ مع العلمِ به؛ حقَّقَ ذلك بقَولِه: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾[٤].

٢٣- الجَحدُ لا يكونُ إلَّا بعدَ الاعترافِ بالقَلبِ أو اللِّسانِ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٥].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بيانُ شأْنِه سُبحانَه في كلِّ مَن أنعمَ عليه بنِعمةٍ فكَفَرَها؛ فإنَّه يَسْلُبُه إيَّاها بعدَ أنْ كانت نصيبَه وحظَّه، فهم جَحَدوا بآياتِ اللهِ بعدَ أنْ تيقَّنوا صِحَّتَها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١١٨).

(٦) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٨٠).

٢٥- المعرفةُ بالحقِّ إذا كانت مع الاستِكبارِ عن قَبولِه والجَحدِ له، كانت عَذابًا على صاحِبِها، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

٢٦- قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مجرَّدُ عِلْمِ القلبِ بالحقِّ إنْ لم يقترِنْ به عمَلُ القلبِ بموجَبِ عِلمِه -مثلُ: محبَّةِ القلبِ له، واتِّباعِ القلبِ له- لم ينفَعْ صاحبَه، بل أشدُّ الناسِ عذابًا يومَ القيامةِ عالِمٌ لم يَنفَعْه اللهُ بعلْمِه[2].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ دليلٌ على فضيلةِ التأمُّلِ والتفكُّرِ في أخبارِ مَن مضى، وأنَّ دراسةَ علمِ التاريخِ مِن الأشياءِ التي جاء بها الشَّرعُ؛ فإنَّنا لا يمكنُ أنْ ننظُرَ كيف كان عاقبتُهم إلَّا بدراسةِ أخبارِهم وتَتَبُّعِها، فعِلْمُ التاريخِ إذَن مِن الأمورِ المقصودةِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، ومُناسَبةُ مَوقعِها إفادةُ تَنظيرِ تَلقِّي النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ القرآنَ بتلقِّي مُوسى عليه السَّلامُ كلامَ اللهِ؛ إذ نُودِيَ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، وذلك مِن بَديعِ التَّخلُّصِ إلى ذِكْرِ قَصصِ هؤلاءِ الأنبياءِ عَقِبَ التَّنويهِ بالقرآنِ، وأنَّه مِن لَدُنْ حَكيمٍ عليمٍ، والمعنى: أنَّ اللهَ يقُصُّ عليك مِن أنباءِ الرُّسلِ ما فيه مَثَلٌ لك ولقَومِك، وما يُثبِّتُ به فُؤادَك.

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٩٦).

وفي ذلك انتقالٌ لنَوعٍ آخَرَ مِن الإعجازِ؛ وهو الإخبارُ عن المُغَيَّباتِ[١].

- و﴿إِذْ﴾ مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بمُضمَرٍ خُوطِبَ به النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأُمِرَ بتِلاوةِ بعضٍ مِن القرآنِ الَّذي يُلقَّاهُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن لَدُنْه عزَّ وجلَّ؛ تَقريرًا لِمَا قبْلَه، وتَحقيقًا له، أي: اذكُرْ لهم وقتَ قولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأهلِه...[٢].

- وجُملةُ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ﴾ تَمهيدٌ لجُملةِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ...﴾ إلخ [النمل: ٨]، وزمانُ قولِ مُوسى لأهلِه هذه المقالةَ هو وقْتُ اجتِلابِه للمُبادَرةِ بالوحيِ إليه؛ فهذه القصَّةُ مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ لحالِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مع قَومِه، ابْتُدِئَت بما تقدَّمَ رِسالةَ مُوسى مِن الأحوالِ؛ إدْماجًا للقصَّةِ في الموعظةِ[٣].

- والسِّينُ في قولِه: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ إمَّا للدَّلالةِ على نَوعِ بُعْدِ مسافةِ النَّارِ في الجملةِ حتَّى لا يَستَوحِشوا إنْ أبطأ عنهم؛ لأنَّ السِّينَ حرفُ تنفيسٍ، أي: توسيعٌ لمدَّةِ الفعلِ الضَّيِّقةِ بنقلِه مِن الحالِ إلى الاستِقبالِ. وإمَّا لأنَّه قد يُمكِنُ أنْ يُبطِئَ لما قدَّرَ أنَّه قد يَعرِضُ له ما يُبْطِئُه، وإنْ لم تَطُلِ المسافةُ[٤]. وقد يُقالُ: إنَّ السِّينَ لِما فيها مِن تقريبِ المدَّةِ أتى بها دُونَ (سوف)؛ لدفعِ الاستيحاشِ عن أهلِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٣).

- وإنْ صحَّ أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ لم يكُنْ معه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا امرأتُه؛ فيكونُ عُبِّرَ في قولِه: ﴿سَٰتِيكُم﴾ بالجمْعِ؛ لَمَّا كنَّى عنها بالأهلِ، أو للتَّعظيمِ؛ مُبالَغةً في التَّسليةِ[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء هنا: ﴿سَٰتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾، وهو خبرٌ، وفي (طه): ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠]، وفي القَصصِ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: ٢٩]، وهو تَرجٍّ، ومعنى التَّرجِّي مُخالِفٌ لمعنى الخبرِ، ولكنَّ الرَّجاءَ إذا قَوِيَ جازَ للرَّاجِي أنْ يُخبرَ بذلك، وإنْ كانت الخَيبةُ يجوزُ أنْ تقَعَ. وآثَرَ (أو) على الواوِ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ رائعةٍ؛ فإنَّ (أو) تُفيدُ التَّخييرَ، وقد بنى الرَّجاءَ على أنَّه إنْ لم يَظفَرْ بحاجتَيهِ جميعًا لم يَعدَمْ واحدةً منهما: إمَّا هِدايةَ الطَّريقِ، وإمَّا اقتباسَ النَّارِ؛ هضْمًا لنفْسِه، واعترافًا بقُصورِه نحوَ ربِّه. وما أدراهُ حينَ قال ذلك أنَّه ظافِرٌ على النَّارِ بحاجَتيهِ الكُلِّيَّتينِ جميعًا، وهما العِزَّانِ: عِزُّ الدُّنيا، وعِزُّ الآخرةِ[2].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، وقال في سُورةِ (طه): ﴿بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠]، وفي سُورةِ القصصِ: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]؛ لأنَّ الجَذوةَ مِن النَّارِ: خَشبةٌ في رأْسِها قَبَسٌ به شِهابٌ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٤٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٧٣).

فهي في السُّورِ الثَّلاثِ عبارةٌ عن مُعَبَّرٍ واحدٍ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- ابتداءُ خِطابِ اللهِ مُوسى بذلك عندَ مَجيئِه: بِشارةٌ له بأنَّه قد قُضِيَ أمْرٌ عظيمٌ تَنتشِرُ منه في أرضِ الشَّامِ كلِّها البَرَكةُ، وتأنيسٌ له، ومُقدِّمةٌ لِمُناجاتِه[٢].

- وأنَّثَ ضَميرَ ﴿جَآءَهَا﴾ جرْيًا على ما تَقدَّمَ مِن تَسميةِ النُّورِ نارًا بحَسَبِ ما لاحَ لِمُوسى[٣].

- وقولُه: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ على القَولِ بأنَّ المُرادَ به مُوسى عليه السَّلامُ؛ فإنَّه لَمَّا حلَّ في مَوضعِ النُّورِ صار مُحيطًا به، فتلك الإحاطةُ تُشبِهُ إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ، فعُبِّرَ عنه بـ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ وهو نفْسُه. والعُدولُ عن ذِكْرِه بضَميرِ الخِطابِ -كما هو مُقْتضى الظَّاهرِ- أو باسمِه العَلَمِ -إنْ أُريدَ العدولُ عن مُقْتضى الظَّاهرِ-؛ لأنَّ في معنى صِلَةِ الموصولِ إيناسًا له وتلطُّفًا. وهذا الكلامُ خبرٌ هو بِشارةٌ لِمُوسى عليه السَّلامُ ببَركةِ النُّبوَّةِ[٤].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث جاء هنا ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ﴾، وفي (القصصِ) و(طه): ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ﴾ [طه: ١١] [القصص: ٣٠]؛ لأنَّه قال في هذه

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السُّورةِ: ﴿سَءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: ٧]، فكُرِّرَ ﴿آتِيكُمْ﴾، فاسْتُثْقِلَ الجمعُ بيْنَهما وبينَ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾، فعُدِلَ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ بعدَ أنْ كانَا بمعنًى واحدٍ، وأمَّا في السُّورتينِ فلمْ يكنْ إلَّا ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ [طه: ١٠] [القصص: ٢٩]، ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾[١] [طه: ١١] [القصص: ٣٠].

- وقولُه: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَعجيبٌ لمُوسى مِن ذلك الأمرِ العظيمِ، وهو إحداثُ أمْرٍ دينيٍّ مِن تَكليمِه واستِنبائِه، وإعلامٌ له بأنَّ مُريدَ ذلك الأمرِ هو ربُّ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، فأعظِمْ بأمْرٍ مُريدُه مَن هو ربُّ العالَمينَ! فقولُه: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كالتَّذييلِ والتَّأكيدِ لِمَا تضمَّنَ قولُه: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مِن المعاني؛ تَنبيهًا على جَلالةِ الأمْرِ الحادثِ[٢].

- وهو عطْفٌ على ما نُودِيَ به مُوسى على صَريحِ معناهُ؛ إخبارًا بتَنزيهِ اللهِ تعالى عمَّا لا يَليقُ بإلهيَّتِه مِن أحوالِ المُحْدَثاتِ؛ لِيَعلَمَ مُوسى أمْرينِ؛ أحدهما: أنَّ النِّداءَ وحْيٌ مِن اللهِ تعالى، والثَّاني: أنَّ اللهَ مُنزَّهٌ عمَّا عسَى أنْ يَخطُرَ بالبالِ أنَّ جلالتَه في ذلك المكانِ[٣].

- وفي حَذْفِ مُتعلَّقِ التَّنزيهِ إيذانٌ بالعُمومِ المُناسِبِ لمَصدرِ التَّنزيهِ، وهو عمومُ الأشياءِ الَّتي لا يَليقُ إثباتُها للهِ تعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٦٥، ٤٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ آثارِ البَرَكةِ المذكورةِ[١].

- قولُه: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صِفتانِ للهِ مُمَهِّدَتانِ لِمَا أراد أنْ يُظهِرَهُ؛ تَنبيهًا على فَخامتِه، يُريدُ: أنا القويُّ القادرُ على ما يَبعُدُ مِن الأوهامِ؛ كقلْبِ العصَا حيَّةً، الفاعلُ كلَّ ما أفعَلُه بحِكمةٍ بالغةٍ، وتَدبيرٍ رَصينٍ[٢].

- قولُه: ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تَقديمُ هذا بيْنَ يدَيْ ما سيُلْقَى إليه مِن الأمرِ لإحداثِ رباطةِ جأْشٍ لمُوسى؛ لِيَعلَمَ أنَّه خُلِعَت عليه النُّبوَّةُ؛ إذْ أُلْقِيَ إليه الوحْيُ، ويَعلَمَ أنَّه سيَتعرَّضُ إلى أذًى وتألُّبٍ عليه، وذلك كِنايةٌ عن كَونِه سيَصيرُ رسولًا، وأنَّ اللهَ يُؤيِّدُه ويَنصُرُه على كلِّ قَويٍّ، ولِيَعلَمَ أنَّ ما شاهَدَ مِن النَّارِ وما تلقَّاهُ مِن الوحْيِ، وما سيُشاهِدُه مِن قلْبِ العصَا حيَّةً: ليس بعَجيبٍ في جانبِ حِكمةِ اللهِ تعالى. فتلك ثَلاثُ كِناياتٍ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾

- فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَ﴾، وفي القَصصِ: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣١]؛ لأنَّه قال في هذه السُّورةِ: ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٧).

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾، فحِيلَ بيْنَهما بهذه الجُملةِ، فاسْتُغْنِيَ عن إعادةِ (أنْ)، وفي القصصِ: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣٠، ٣١]، فلم يكُنْ بيْنَهما جُملةٌ أُخرى عُطِفَ بها على الأوَّلِ؛ فحَسُنَ إدخالُ (أنْ)[١].

- وقيل: لأنَّ ما هنا تقدَّمَهُ فِعلٌ بعْدَ (أنْ)، وهو ﴿بُورِكَ﴾؛ فحَسُنَ عطْفُ الفِعلِ عليه، وما هناك لم يَتقدَّمْه فِعلٌ بعْدَ (أنْ)؛ فذُكِرَتْ (أنْ) لِتكونَ جُملةُ (أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) مَعطوفةً على جُملةِ ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾[٢].

- وقيل: بلْ قولُه: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ مَعطوفٌ على قولِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، عطفَ جُملةِ الأمْرِ على جُملةِ الخبرِ[٣].

- والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ فَصيحةٌ؛ تُفصِحُ عن جُملةٍ قد حُذِفَت؛ ثِقةً بظُهورِها، ودَلالةً على سُرعةِ وُقوعِ مَضمونِها، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف: ٣١] بعْدَ قولِه تعالى: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾؛ كأنَّه قِيلَ: فألْقاهَا فانْقلَبَتْ حيَّةً تسْعى، فأبصَرَها، فلَّما أبصَرَها مُتحرِّكةً بسُرعةٍ واضْطِرابٍ...[٤].

- قولُه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ شبَّهَ العَصَا حالةَ اهْتزازِها بالجانِّ -قيل: وهو صِغارُ الحيَّاتِ-؛ شبَّهها بها في سُرعةِ اضْطِرابِها وحَركَتِها، مع عِظَمِ

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

جُثَّتِها[١]؛ فالتَّشبيهُ في سُرعةِ الاضطرابِ؛ لأنَّ الحيَّاتِ خَفيفةُ التَّحرُّكِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ لعلَّ قصْدَ إفادةِ قوَّةِ تولِّيهِ لَمَّا رأى عَصاهُ تَهتزُّ هو الدَّاعي لتَأكيدِ فِعلِ ﴿وَلَّىٰ﴾ بقولِه: ﴿مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾؛ فقولُه: ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ تأكيدٌ لشِدَّةِ تَولِّيهِ، أي: ولَّى تَولِّيًا قويًّا لا تَردُّدَ فيه[٣].

- وقولُه: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: قُلْنا له... والنَّهيُ عن الخوفِ مُسْتعمَلٌ في النَّهيِ عن استِمرارِ الخوفِ؛ لأنَّ خوفَه قد حصَلَ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾، وقال في سورة (القَصصِ): ﴿أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡ﴾ [القصص: ٣١]؛ فخُصَّتْ هذه السُّورةُ بقولِه: (لَا تَخَفْ)؛ لأنَّه بُنيَ على ذِكرِ الخَوفِ كلامٌ يَليقُ به، وهو قولُه: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، وفي سُورةِ (القَصصِ) اقتُصِر على قولِه: ﴿لَا تَخَفۡ﴾، ولم يُبْنَ عليه كَلامٌ فَزيدَ قبْلَه ﴿أَقۡبِلۡ﴾؛ لِيَكونَ في مُقابلةِ ﴿مُدۡبِرٗا﴾، أي: أقْبِلْ آمِنًا غيرَ مُدْبِرٍ ولا تَخَفْ؛ فخُصَّتْ هذه السُّورةُ به[٥].

- قولُه: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن الخوفِ، وتَحقيقٌ لِمَا يَتضمَّنُه نَهْيُه عن الخَوفِ مِن انتفاءِ مُوجِبه. وهذا كِنايةٌ عن تَشريفِه بمَرتبةِ الرِّسالةِ؛ إذ عُلِّلَ بأنَّ المُرسَلينَ لا يَخافون لَدى اللهِ تعالى[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٨، ٢٢٩).

- قوله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هذا تَعليمٌ لِمُوسى عليه السَّلامُ التَّخلُّقَ بخُلقِ المُرسَلينَ مِن رِباطةِ الجأْشِ، وليس في النَّهي حَطٌّ لمَرتبةِ مُوسى عليه السَّلامُ عن مَراتبِ غيرِه مِن المُرسَلينَ، وإنَّما هو جارٍ على طريقةِ: مِثلُك لا يَبخَلُ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ عَطْفٌ على قولِه تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ [النمل: ١٠]، وما بيْنَهما اعتراضٌ، بعْدَ أنْ أَراهَ آيةَ انقلابِ العصَا ثُعبانًا أَراهُ آيةً أُخرى؛ لِيَطمئِنَّ قلْبُه بالتَّأييدِ[٢].

- قِيل: في الكلامِ حَذْفٌ، تقديرُه: وأدخِلْ يدَكَ في جَيبِك تَدخُلْ، وأخرِجْها تَخرُجْ، فحُذِفَ مِن الأوَّلِ ما أُثبِتَ مُقابِلُه في الثَّاني، ومِن الثَّاني ما أُثبِتَ مُقابِلُه في الأوَّلِ[٣]. وعلى هذا فيكونُ مِن الاحتباكِ.

- قولُه: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ، وحرْفُ الجرِّ فيه يَتعلَّقُ بمَحذوفٍ، والمعنى: اذهَبْ في تِسعِ آياتٍ إلى فِرعونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: وألْقِ عصاكَ، وأدخِلْ يدَكَ في تِسعِ آياتٍ؛ فعَلى هذا هو حالٌ مِن المفعولِ، وهو ﴿يَدَكَ﴾، أي: أدخِلْ يدَكَ في جَيبِك تَخرُجْ بيضاءَ مُسفِرةً في تِسعِ آياتٍ، مَعدودةً في جُملَتِهنَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٦)، ((حاشية =

- قوله: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾ ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ صِفةٌ لـ ﴿ءَايَٰتٍ﴾، أي: آياتٍ مَسوقةٍ إلى فِرْعونَ، وفي هذا إيذانٌ بكلامٍ مَحذوفٍ إيجازًا؛ وهو أمْرُ اللهِ مُوسى بأنْ يَذهَبَ إلى فرعونَ كما بُيِّنَ في سُورةِ (الشُّعراءِ)[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قال هنا بلفْظِ: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾، وفي (القَصصِ) بلفظِ: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [القصص: ٣٢]؛ لأنَّ (الملأَ) أشرافُ القومِ، وكانوا في هذه السُّورةِ موصوفينَ بما وصَفهم الله به مِن قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ * وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ الآيةَ [النمل: ١٤، ١٥]، فَلَمْ يُسَمِّهم مَلأً، بل سمَّاهم قَومًا، وفي (القَصَصِ) لم يَكونوا موصوفينَ بتلكَ الصِّفاتِ فسمَّاهم مَلأً، وعقَّبه: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]؛ فناسَبَ ذِكْرُ القَومِ هنا، وذِكْرُ المَلأِ هناك[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ تَعليلٌ للإرسالِ، أي: خارجينَ عن الحُدودِ في الكُفْرِ والعُدوانِ[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أُوجِزَ بَقيَّةُ القصَّةِ، وانتُقِلَ إلى العِبرةِ بتَكذيبِ فِرعونَ وقَومِه الآياتِ؛ لِيُعْتَبَرَ بذلك حالُ الَّذين كذَّبوا بآياتِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وقُصِدَ مِن هذا الإيجازِ طَيُّ

= الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٥).

بِساطِ القِصَّةِ؛ لِيُنتقَلَ منها إلى قِصَّةِ داودَ، ثمَّ قِصَّةِ سُليمانَ عليهما السَّلامُ المبسوطةِ في هذه السُّورةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ قُوبِلَ بيْن المُبصِرةِ والمُبينِ؛ فكما وَصَفَ ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ بقولِه: ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾، قُوبِلَ وَصْفُ السِّحرِ بالمبينِ؛ للتَّطابُقِ بيْن اللَّفظينِ. ويَجوزُ أنْ يُعتبَرَ معنى التَّضادِّ مِن كَونِهما وَصْفينِ للمُتضادَّينِ: الآياتِ والسِّحرِ؛ فيُفِيدُ بُلوغَ كلٍّ مِن الحقِّ والباطلِ غايتَه[٢].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ في هذا تَمثيلٌ لكُفَّارِ قُريشٍ؛ إذ كانوا مُفسدينَ مُستعلِينَ، وتَحذيرٌ لهم أنْ يَحُلَّ بهم مِثلُ ما حَلَّ بمَن كان قبْلَهم[٣].

- قولُه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ فائدةُ ذِكْرِ الأنفُسِ: أنَّهم جَحَدوها بألْسِنَتِهم، واستَيْقَنوها في قُلوبِهم وضَمائرِهم[٤].

- والسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾؛ للمُبالَغةِ[٥]، والاستيقانُ أبلَغُ مِن الإيقانِ[٦].

- ويَحسُنُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾ حاليَّةً؛ فقولُه: ﴿ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ نَشْرٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٢).

على تَرتيبِ اللَّفِّ[١]؛ فالظُّلمُ في الجَحدِ بها، والعُلوُّ في كَونِهم مُوقِنين بها[٢].

- وجُعِل ما هو مَعلومٌ مِن حالِهم فيما لَحِقَ بهم مِن العَذابِ بمَنزلةِ الشَّيءِ المُشاهَدِ للسَّامِعينَ، فأمَر بالنَّظرِ إليه بقولِه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، والخِطابُ لغَيرِ مُعيَّنٍ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ تَسليةً له بما حلَّ بالمُكذِّبينَ بالرُّسلِ قبْلَه؛ لأنَّ في ذلك تَعريضًا بتَهديدِ المشركينَ بمِثْلِ تلك العاقبةِ. و﴿كَيۡفَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مُجرَّدًا عن معنَى الاستِفهامِ مَنصوبًا على المفعوليَّةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ استِفهامًا مُعلِّقًا فِعلَ النَّظرِ عن العَملِ، والاستِفهامُ حينَئذٍ للتَّعجُّبِ[٣].

- قولُه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي: ما آلَ إليه فِرعونُ وقومُه

---

(١) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا، بأن يُؤتَى بلفظٍ يشتملُ على متعدِّدٍ، ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجماليٌّ. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهين؛ الوجه الأوَّل: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِ، ويُسَمَّى (اللَّفَّ والنَّشرَ المرتَّبَ). الوجه الثاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ(اللَّف والنَّشر المُشَوَّش)، أو (المعكوس). يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ٢٣١، ٢٣٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن الإغراقِ على الوَجْهِ الهائلِ الَّذي هو عِبرةٌ للعالَمينَ؛ وإنَّما لم يُذكَرْ تَنبيهًا على أنَّه عُرضةٌ لكلِّ ناظرٍ، مَشهورٌ فيما بيْنَ كلِّ بادٍ وحاضرٍ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٥).

الآيات (١٥ - ١٩)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾: أي: نُطْقَه، وكلامَه، فجعَله كمَنطقِ الرجُلِ إذ فُهِم، والنُّطقُ هو الأصواتُ المُقَطَّعةُ التي يُظهِرُها اللِّسانُ، وتَعِيها الآذانُ، وتُعرَفُ بها المعاني، وأصلُ (نطق) هنا: كلامٌ أو ما أشْبَهَه(١).

﴿يُوزَعُونَ﴾: أي: يُدفَعونَ، ويُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم، وأصلُ (الوَزْع): الكفُّ والمنعُ(٢).

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾: أي: لا يَقتُلَنَّكم ولا يكسِرَنَّكم، مِن الحَطمِ: وهو كَسرُ الشَّيءِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٨٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٢).

﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾: أي: ألهِمْني، و(الإيزاع): الإغراءُ بالشَّيءِ، يُقالُ: أوزَعْتُه بكذا، أي: أغرَيْتُه به، و: فلانٌ مُوزَعٌ بكذا، ومُولَعٌ به، بمعنًى واحدٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا جانبًا ممَّا أنعَم به على نَبيَّيْنِ مِن أنبيائِه، وهما داودُ وسُلَيمانُ عليهما السَّلامُ: ولقد آتَيْنا داودَ وسُلَيمانَ ابنَه عِلمًا، وقالا: الحَمدُ لله الذي فضَّلَنا على كثيرٍ مِن عبادِه المؤمِنينَ، ووَرِثَ سُلَيمانُ أباه داودَ في النُّبوَّةِ والعِلمِ والملكِ، وقال لبني إسرائيلَ: يا أيُّها النَّاسُ، عَلَّمَنا اللهُ كلامَ الطُّيورِ، وأعطانا مِن كُلِّ النِّعَمِ، إنَّ هذا لَهُوَ الفَضلُ الظَّاهِرُ الواضِحُ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى مظاهرَ ملكِ سليمانَ، فيقولُ: وجُمِعَ لسُلَيمانَ عساكِرُه مِنَ الجِنِّ والإنسِ والطُّيورِ، فهم يُنظَّمونَ في مَسيرِهم، فيُرَدُّ أوَّلُهم على آخِرِهم؛ لِيَبقَوا مُجتَمِعينَ مُرتَّبينَ، حتى إذا مرَّ سُلَيمانُ وجُنودُه بوادِي النَّملِ، قالت نملةٌ منهم لَمَّا رأتِ الجَيشَ: يا أيُّها النَّملُ ادخُلوا بيوتَكم مُسرِعينَ؛ لا يَهشِمنَّكم سُلَيمانُ وجَيشُه وهم لا يَشعُرونَ بذلك. فتبسَّم سُلَيمانُ ضاحِكًا مِن كَلامِ النَّملةِ، وقال: ربِّ ألهِمْني شُكرَ نِعمَتِك الَّتي أنعَمْتَ بها علَيَّ وعلى والدَيَّ، وأنْ أعمَلَ عَمَلًا صالِحًا مَرْضيًّا، وأدخِلْني برَحمتِك في عبادِك الصَّالحينَ في جَنَّتِك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تمَّ بقصَّةِ موسى عليه السلامُ الدَّليلُ على حِكمتِه تعالى، توقَّعَ السَّامعُ الدَّلالةَ على عِلمِه سبحانه[١].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾.

أي: ولقد أعطَيْنا داودَ وابنَه سُلَيمانَ عِلمًا[٢].

﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: وقال داودُ وسُلَيمانُ: الحَمدُ لله الَّذي فضَّلَنا على كثيرٍ مِن عِبادِه المُؤمِنينَ، بما اختَصَّنا به[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

قيل: المرادُ: عِلمُ كَلامِ الطَّيرِ والدَّوابِّ، وغيرِ ذلك ممَّا خصَّهما اللهُ بعِلمِه. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٩).

قال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرون: عِلْمًا بالقَضاءِ، وبكلامِ الطَّيرِ والدوابِّ، وتسبيحِ الجبالِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٥).

ممَّن قال: المرادُ: العِلمُ بالقضاءِ، وبكلامِ الطَّيرِ والدَّوابِّ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨١).

ومِن المفسِّرينَ مَن زاد إلى ما سبق: تسبيحَ الجبالِ؛ منهم: البَغَويُّ، وابنُ عادل، والعُلَيْمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ١٢٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١١٨).

وقال ابنُ عثيمين: (العِلمُ الَّذي مَنَّ اللهُ به على داودَ وسُلَيْمانَ وأثنى عليهما به هو عِلمُ الشَّريعةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٣٨١)، ((البسيط)) =

﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان كلٌّ منهما عليهما السَّلامُ قد أُوتيَ ما ذُكِرَ، أشار إلى فضْلِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ بأنَّه جَمَع إلى ما آتاه ما كان مُنِحَ به أبوه، فقال[1]:

﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾.

أي: ووَرِثَ سُلَيمانُ أباه داودَ في النُّبوَّةِ والعِلمِ ومُلكِ بني إسرائيلَ[2].

= للواحدي (١٧/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

قال ابن جرير: (يقول جَلَّ ثناؤه: وقال داودُ وسُليمانُ: الحمدُ لله الذي فضَّلَنا بما خَصَّنا به مِن العِلمِ الذي آتاناه دونَ سائرِ خَلقِه مِن بني آدمَ في زمانِنا هذا، على كثيرٍ مِن عبادِه المؤمنينَ به في دَهرِنا هذا). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤).

وقال الواحدي: (﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا﴾ أي: بالنُّبوَّةِ والكتابِ، وإلانةِ الحديدِ، وتسخيرِ الشَّياطينِ والجِنِّ والإنسِ، والمُلكِ الذي أعطاهما اللهُ وفضَّلهما به). ((البسيط)) (١٧/ ١٨٠).

ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٨٠، ١٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

مِنَ المفسِّرينَ مَن قصَرَ الوِراثةَ على العِلمِ والمُلكِ، ومنهم: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٨١).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ﴾ أباه داودَ العِلمَ الذي كان اللهُ آتاهُ في حياتِه، والمُلكَ الذي كان خَصَّه به على سائرِ قَومِه، فجعَلَه له بعدَ أبيه داودَ دُونَ سائرِ ولَدِ أبيه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤). =

﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾.

أي: وقال سُلَيمانُ لِبَني إسرائيلَ مُتحَدِّثًا بنِعمةِ الله عليه: يا أيُّها النَّاسُ، علَّمَنا اللهُ كلامَ الطُّيورِ، وفهَّمَنا معانيَ أصواتِها[1]!

= ومنهم مَن زاد النُّبوَّةَ إلى العِلمِ والمُلكِ، ومنهم: الثعلبيُّ، والبَغَويُّ، وابن الجوزي، والخازن، وابن جُزَي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٩).

ومِن المفسِّرينَ مَن قصَر الوراثةَ على النُّبوَّةِ والمُلكِ، ومنهم: الزمخشريُّ، وابن عطية، والنسفي، وابن كثير، والعليمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٢)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١١٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٦).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: في المُلْكِ والنُّبوَّةِ، وليس المرادُ وراثةَ المالِ؛ إذ لو كان كذلك لم يُخَصَّ سُلَيمانُ وحْدَه مِن بينِ سائرِ أولادِ داودَ، فإنَّه قد كان لداودَ مئةُ امرأةٍ. ولكِنَّ المرادَ بذلك وراثةُ المُلكِ والنُّبوَّةِ؛ فإنَّ الأنبياءَ لا تُورَثُ أموالُهم، كما أخبَر بذلك رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٢).

وقال ابن القيِّم: (وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ فهو ميراثُ العِلمِ والنُّبوَّةِ لا غيرُ، وهذا باتِّفاقِ أهلِ العِلمِ مِن المفسِّرينَ وغيرِهم). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٦٧). ويُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

ذهب مقاتِلُ بنُ سُلَيمان، وابنُ العربي، وابنُ كثير، وابنُ عاشور: إلى أنَّ سُليمانَ كان يعلَمُ منطِقَ الطُّيورِ والحيواناتِ كلِّها. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سُلَيمان)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٥٥، ٢٨٥٧)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٧).

قال ابن كثير: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ يعني: أنَّه عليه السَّلامُ كان يَعرِفُ ما تَتخاطَبُ به الطُّيورُ بلُغاتِها، ويُعَبِّرُ للنَّاسِ عن مَقاصِدِها وإراداتِها... وكذلك ما عَداها مِن الحَيَواناتِ، وسائرِ صُنوفِ المخلوقاتِ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٣٢٤، ٣٢٥). =

﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: وأعطانا اللهُ مِن كُلِّ النِّعَمِ والخَيراتِ(١).

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أي: إنَّ هذا الذي أُوتِيناهُ لهو الفَضلُ الظَّاهِرُ الواضِحُ(٢).

= وقال الشوكاني: (قال جماعةٌ مِن المفسِّرينَ: إنَّه عُلِّمَ مَنطِقَ جميعِ الحيواناتِ، وإنَّما ذُكِرَ الطَّيرُ؛ لأنَّه كان جندًا مِن جُندِه، يسيرُ معه لتظليلِه مِن الشَّمسِ. وقال قَتادةُ والشَّعْبيُّ: إنَّما عُلِّمَ مَنطِقَ الطَّيرِ خاصَّةً، ولا يُعترَضُ ذلك بالنَّملةِ؛ فإنَّها مِن جملةِ الطَّيرِ، وكثيرًا ما تخرُجُ لها أجنحةٌ فتَطيرُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٠). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

قال البقاعي: (﴿وَأُوتِينَا﴾ ممَّن له العَظَمةُ بأيسَرِ أمرٍ مِن أمْرِه ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: يكملُ به ذلك من أسبابِ المُلكِ والنُّبوَّةِ وغَيرِهما، وعبَّرَ بأداة الاستغراقِ تعظيمًا للنِّعمةِ، كما يُقالُ لِمن يَكثُرُ تَرَدُّدُ الناس إليه: فلانٌ يَقصِدُه كُلُّ أحدٍ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٤٠).

وقال ابن كثير: (﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مِن كلِّ ما يَحتاجُ الملكُ إليه؛ مِنَ العُدَدِ، والآلاتِ، والجُنودِ، والجُيوشِ، والجماعاتِ مِنَ الجِنِّ، والإنسِ، والطُّيورِ، والوُحوشِ، والشَّياطينِ السَّارِحاتِ، والعُلومِ، والفُهومِ، والتَّعبيرِ عن ضمائرِ المخلوقاتِ، مِنَ النَّاطِقاتِ والصَّامِتاتِ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٣٢٥).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ عمومٌ معناه الخصوصُ، والمرادُ بهذا اللَّفظِ التَّكثيرُ). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ١٣١٥).

وقال ابنُ عثيمين: (اللهُ سبحانه وتعالى أعطى سليمانَ مِن كُلِّ شَيءٍ يَتِمُّ به المُلكُ... إذا قَيَّدْنا ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يتِمُّ به المُلكُ؛ فـ ﴿مِن﴾ لبيان الجنس، وإذا قُلْنا: إنَّ ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ عامٌّ لكُلِّ شَيءٍ؛ فإنَّ ﴿مِن﴾ تكونُ للتَّبعيضِ؛ لأنَّهما ما أُعطُوا كُلَّ شَيءٍ، بل بعضَ كُلِّ شَيءٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢). =

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان ما سبَقَ مجرَّدَ خبرٍ؛ أتبَعَه ما يُصَدِّقُه، فقال[١]:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧﴾.

أي: وجُمِعَ لسُلَيمانَ عَساكِرُه الكثيرةُ المتنَوِّعةُ مِن الجنِّ والإنسِ والطُّيورِ[٢]، فهم يُنظَّمونَ في مَسيرِهم، فيُرَدُّ أوَّلُهم على آخِرِهم؛ لِيَبقَوا مُجتَمِعين مُرتَّبينَ[٣].

= قال البقاعي: (﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الذي أُوتيناه ﴿لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: البَيِّنُ في نفْسِه لكُلِّ مَن ينظُرُه، الموضِّحُ لعلُوِّ قَدْرِ صاحِبِه، ووحدانيَّةِ مُفيضِه ومُؤتِيه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤١).

(٢) قال ابن عثيمين: (سكت عن بقيَّةِ الحيواناتِ، فهل هي داخِلةٌ في جنودِه أو لا؟ قد نقولُ: إنَّها داخِلةٌ مِن بابِ الأَولى، وقد نقولُ: ليست بداخلةٍ. ما وجْهُ قولِنا: مِن بابِ الأَولى؟ وجهُ قولِنا أن نقولَ: إذا كان الطَّيرُ -وهو لا يمكِنُ السَّيطرةُ عليه لطيرانِه- يُحشَرُ ويُجمَعُ، فغيرُه مِن بابِ أَولى، وقد تقولُ: إنَّه ليس بلازمٍ؛ لأنَّه يمكنُ أنَّ سُلَيمانَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ لا يَستخدِمُ مِن الحيواناتِ سِوى الطَّيرِ، وإذا لم يستخدِمْ سِواها فلا حاجةَ له في أن يجمَعَ الباقيَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥، ٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١١).

قال ابن كثير: (يُخبِرُ تعالى عن عبدِه ونبيِّه وابنِ نبيِّه سُلَيمانَ بنِ داودَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، أنَّه رَكِبَ يومًا في جيشِه جميعِه مِنَ الجنِّ والإنسِ والطَّيرِ؛ فالجنُّ والإنسُ يَسيرون معه، والطَّيرُ سائرةٌ معه تُظِلُّه بأجنحتِها مِنَ الحرِّ وغيرِه، وعلى كلٍّ مِن هذه الجُيوشِ الثَّلاثةِ وَزَعةٌ، أي: نُقَباءُ يَرُدُّون أوَّلَه على آخِرِه، فلا يَتقدَّمُ أحدٌ عن مَوضِعِه الَّذي يسيرُ فيه، ولا يَتأخَّرُ عنه). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٣٢٥، ٣٢٦).

وقال أبو السعود: (﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُحبَسُ أوائلُهم على أواخِرِهم، أي: يُوقَفُ سُلَّافُ العَسكرِ حتى يلحَقَهم التَّوالي فيَكونوا مجتَمِعينَ لا يتخَلَّفُ منهم أحدٌ؛ وذلك للكثرةِ العظيمةِ، =

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾.

أي: فساروا حتى إذا مرَّ سُلَيمانُ وجنودُه بوادي النَّملِ[(١)] قالتْ نملةٌ منهم[(٢)] محذِّرةً لهم بعْدَ أن رأتِ الجَيشَ[(٣)]: يا أيُّها النَّملُ ادخُلوا بيوتَكم مُسرِعينَ

= ويجوزُ أن يكونَ ذلك لترتيبِ الصُّفوفِ، كما هو المعتادُ في العساكِرِ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٧).

وقال ابن عاشور: (الوَزْعُ: الكَفُّ عمَّا لا يُرادُ، فشَمِلَ الأمرَ والنَّهيَ، أي: فهم يُؤمَرونَ فيأتَمِرون، ويُنهَون فيَنتَهونَ، فقد سَخَّر اللهُ له الرعيَّةَ كُلَّها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٠).

(١) قال ابنُ عاشور: (وادي النَّملِ يجوزُ أن يكونَ مرادًا به الجنسُ؛ لأنَّ للنَّملِ شُقوقًا ومسالِكَ هي بالنِّسبةِ إليها كالأوديةِ للساكنينَ مِن النَّاسِ، ويجوزُ أن يُرادَ به مكانٌ مُشتَهِرٌ بالنَّملِ غَلَب عليه هذا المضافُ، كما سُمِّيَ وادي السِّباعِ: مَوضِعٌ معلومٌ بينَ البصرةِ ومكَّةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٠).

وقال ابنُ عثيمينَ: (قَولُه: ﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ ظاهِرُ الكلامِ أنَّ هذا الواديَ معروفٌ بهذا اللَّقَبِ، أي: أنَّه يُسمَّى واديَ النَّملِ، ويحتَمِلُ -لكن خلاف الظاهر- أن يكونَ هذا الوادي واديًا فيه نَملٌ، يعني: يكونُ التَّقديرُ: حتَّى إذا أتَوا على وادٍ فيه نملٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١٤).

(٢) قال ابن عاشور: (...كلمة نملةٍ لا تدُلُّ إلا على فردٍ واحدٍ مِن هذا النَّوعِ، دونَ دَلالةٍ على تذكيرٍ ولا تأنيثٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤١).

وقال الرسعني: (ظاهرُ القرآنِ يدلُّ على أنَّها كانت أُنثَى). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٤٥).

يُنظر تفصيلُ الخلافِ في ذلك: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٧٢).

(٣) قال ابنُ العربي: (لا خِلافَ عند العُلَماءِ في أنَّ الحيواناتِ كُلَّها لها أفهامٌ وعُقولٌ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٧٢).

مُحتَرِزينَ[١].

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: لا يَكسِرَنَّكم ويَهشِمَنَّكم سُلَيمانُ وجَيشُه حينَ يمُرُّونَ بِواديكم، وهم لا يَشعُرونَ بذلك التَّحطيمِ ولا يَقصِدونَه[٢].

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

أي: فتبسَّم سُلَيمانُ ضاحِكًا[٣]؛ .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٢)، ((الفواتح الإلهية)) لعلوان (٢/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

قال السعدي: (فنصحَتْ هذه النَّملةُ وأسمَعَت النَّملَ؛ إمَّا بنَفسِها، ويكونُ الله قد أعطى النَّملَ أسماعًا خارِقةً للعادةِ؛ لأنَّ التَّنبيهَ للنَّملِ الذي قد ملأ الواديَ بصَوتِ نملةٍ واحدةٍ: مِن أعجَبِ العجائبِ. وإمَّا بأنَّها أخبَرت مَن حوْلَها مِن النَّملِ ثمَّ سرى الخبَرُ مِن بَعضِهنَّ لبعضٍ، حتى بلَغ الجميعَ، وأمرَتْهنَّ بالحَذَرِ، والطَّريقِ في ذلك وهو دخولُ مَساكِنِهنَّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

(٣) قيل: المرادُ: أنَّه شرَع في الضَّحِك آخِذًا فيه، ولكِنْ لم يبلُغْ حَدَّ القهقهةِ وكَمالِ الضَّحِكِ. وممَّن قال بذلك: الزمخشري، والرازي، والنيسابوري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٠٠).

وقيل: كان أوَّلُه التبسُّمَ، وآخرُه الضَّحِكَ، وممَّن اختاره: الكرماني، وجلال الدين المحلي، وابن عجيبة. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٨٤٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٦)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٤/ ١٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢٤). =

تعجُّبًا وسُرورًا مِن كَلامِ النَّملةِ[(١)].

= وقيل: المرادُ: بيانُ أنَّه تبسَّمَ تبسُّمَ الضاحِكِ، وليس تبسُّمَ المُغضَب، فأكَّد هذا المعنى وحقَّقَه بقَولِه: ﴿ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾. وممَّن قال بذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٤٤).

قال ابن عثيمين: (ويحتملُ أن يكونَ معنى قولِه: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ أنَّه ضَحِك مُتبَسِّمًا، يعني أنَّه ما ظهَر له صوتٌ ولكنَّه تبسَّم تبسُّمًا، والله أعلم. وعلى هذا التَّقديرِ تكونُ ﴿ضَاحِكًا﴾ حالًا مبيِّنةً للنَّوعِ، يعني أنَّ ضَحِكَه كان تبسُّمًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢٤).

وممَّن اختار هذا المعنى: الزجاجُ، والسمعاني، والبغوي، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

قال السعدي: (وهذا حالُ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ؛ الأدبُ الكامِلُ، والتعَجُّبُ في موضِعِه، وألَّا يَبلُغَ بهم الضَّحِكُ إلَّا إلى التبسُّم، كما كان الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ جُلُّ ضَحِكِه التبَسُّم؛ فإنَّ القهقهةَ تدُلُّ على خِفَّةِ العَقلِ وسُوءِ الأدبِ، وعَدَمَ التبسُّم والعَجَبِ ممَّا يُتعجَّبُ منه: يدُلُّ على شَراسةِ الخُلُقِ والجبروتِ. والرُّسلُ مُنزَّهونَ عن ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣). ويُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ١٧٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٩٥-٢٩٧).

قال ابنُ حجرٍ في بيانِ الفرقِ بينَ التبسم والضحكِ والقهقهةِ: (قال أهلُ اللُّغةِ: التبسُّمُ مبادئُ الضَّحِكِ، والضَّحِكُ انبساطُ الوجهِ حتَّى تظهَرَ الأسنانُ مِنَ السُّرورِ، فإنْ كان بصَوتٍ وكان بحيثُ يُسمَعُ مِن بُعدٍ فهو القَهْقَهةُ، وإلَّا فهو الضَّحِكُ، وإنْ كان بلا صَوتٍ فهو التبسُّمُ). ((فتح الباري)) (١٠/ ٥٠٤). ويُنظر: ((فقه اللغة وسر العربية)) للثعالبي (ص: ٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

قال ابنُ عطية: (وكان تبسُّمُه سُرورًا، واختُلِفَ بِمَ كان؛ فقالت فِرقةٌ: بنِعمةِ الله في إسماعِه وإفهامِه ونحوِ ذلك، وقالت فرقةٌ: بثناءِ النَّملةِ عليه وعلى جنودِه في أن نَفَت عنهم تعمُّدَ القَبيحِ مِن الفِعلِ، فجعلَتِ الحَطْمَ وهم لا يَشعُرونَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٤).

وقال البيضاوي: (تبسَّم ضاحِكًا مِن قَولِها؛ تعجُّبًا مِن حَذَرِها وتحذيرِها، واهتدائِها إلى مصالحِها، وسرورًا بما خصَّه الله تعالى به مِن إدراكِ هَمسِها، وفَهْمِ غَرَضِها). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧).

وقال السعدي: (﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ إعجابًا منه بفصاحتِها ونصحِها وحُسنِ تعبيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣). =

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾.

أي: وقال سُلَيمانُ: ربِّ ألهِمْني ووفِّقْني إلى شُكرِ نِعمتِك عليَّ وعلى والدَيَّ، بحيثُ أكونُ مُلازِمًا لشُكرِ نِعَمِك الدينيَّةِ والدُّنيويَّةِ علينا[١].

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا عُلِمَ مِن كلامِه أنَّ الشَّاكرَ هو المُستغرِقُ في الثَّناءِ على المُنعِم بما يجبُ عليه مِن العَمَلِ بحَسَبِ ما يَقدِرُ عليه، وكان ذلك العَمَلُ ممَّا يجوزُ أنْ يكونَ زُيِّنَ لذلك العبدِ كونُه حَسَنًا، وهو ليس كذلك- قال عليه السَّلامُ مشيرًا إلى هذا المعنى[٢]:

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

أي: وأن أعمَلَ في بقيَّةِ عُمري عَمَلًا خالِصًا لك، مُتَّبِعًا فيه شَرْعَك، مُوافِقًا لِمَرضاتِك[٣].

= وقال ابنُ عاشور: (إنما تعجَّب مِن أنَّها عرَفت اسمَه، وأنَّها قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فوَسَمَتْهُ وجندَه بالصَّلاحِ والرَّأفةِ، وأنَّهم لا يَقتلون ما فيه رُوحٌ لغيرِ مصلحةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣١-١٣٣).

﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: وأدخِلْني في الآخرةِ برَحمتِك -لا بعَمَلي- في جملةِ عِبادِك الصَّالحينَ في جَنَّتِك[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في الآيةِ دَليلٌ على شَرَفِ العِلمِ وإنافةِ محَلِّه، وتقَدُّمِ حمَلَتِه وأهلِه، وأنَّ نِعمةَ العِلمِ مِن أجَلِّ النِّعَمِ، وأجزَلِ القِسَمِ، وأنَّ مَن أُوتِيَه فقد أُوتِيَ فَضلًا على كثيرٍ مِن عبادِ الله، كما قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١][2]، فقد ابتُدِئَ الحديثُ عن المُلْكِ العظيمِ بذِكْرِ العلمِ، وقُدِّمَتِ النِّعمةُ به على سائرِ النِّعَمِ؛ تنويهًا بشأنِ العلمِ، وتنبيهًا على أنَّه هو الأَصلُ الذي تنبني عليه سعادةُ الدُّنيا والأخرى، وأنه هو الأساسُ لكلِّ أمْرٍ مِن أمورِ الدِّينِ والدُّنيا، وأنَّ الممالكَ إنَّما تنبني عليه وتُشادُ، وأنَّ المُلْكَ إنما يُنَظَّمُ به ويُساسُ، وأنَّ كلَّ ما لم يُبْنَ عليه فهو على شفَا جُرُفٍ هارٍ، وأنَّه هو سياجُ المملكةِ ودِرْعُها، وهو سلاحُها الحقيقيُّ، وبه دفاعُها؛ وأنَّ كلَّ مملكةٍ لم تُحْمَ به فهي عرضةٌ للانقراضِ والانقضاضِ[3].

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَأُوتِينَا مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: الأنبياء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٤).

كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَذْكُرُ اللهُ تعالى لنا في شأنِ هذا النَّبيِّ الكريم ما أعطاه مِن علم، وما مَكَّنَه منه مِن عظيمِ الأشياءِ؛ ترغيبًا لنا في طَلَبِ العلم، والسَّعي في تحصيلِ كلِّ ما بنا حاجةٌ إليه مِن أمورِ الدُّنيا، وتشويقًا لنا إلى ما في هذا الكونِ مِن عوالمِ الجمادِ، وعوالمِ الأحياءِ، وبعثًا لِهِمَمِنا على التحلِّي بأسبابِ العظَمةِ مِن العلمِ والقوَّةِ، وحثًّا لنا على تشييدِ الملْكِ العظيمِ الفخمِ على سَنَنِ مُلْكِ النُّبوَّةِ، فقد كان سليمانُ عليه السلام نبيًّا، وما كان ملْكُه ذلك إلَّا بإذنِ اللهِ ورِضاه، فهو -فيما ذَكَره اللهُ مِن أمْرِه- قدوةٌ، وأيُّ قدوةٍ! مثلُ سائرِ الأنبياءِ والمرسَلينَ عليهم الصلاةُ والسلامُ أجمعينَ[(١)].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الآيةِ التَّذكيرُ بالتَّواضُعِ، وأن يعتَقِدَ العالِمُ أنَّه وإنْ فُضِّلَ على كثيرٍ فقد فُضِّلَ عليه مِثلُهم[(٢)]؛ فلا يتكبَّرْ، ولا يفتَخِرْ، ويَشكرُ اللهَ تعالى على ما آتاه مِن فضلِه، وينفعُ به المسلمينَ، كما نَفَعه اللهُ تعالى به[(٣)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ مِن أدبِ مَقامِ الفَرَحِ بنعمةِ اللهِ وحمْدِه عليها: ذِكْرَ نعمتِه العامَّةِ عليه وعلى غيرِه، والإشارةَ إلى مَن فُضِّلوا عليه؛ فيَكبَحُ مِن نفْسِه بتذكيرِها بقصورِها، ويُرضي اللهَ باعترافِه لذي الفضلِ بفَضْلِه، وحِكمةِ اللهِ وعدْلِه، وبوُقوفِه كواحدٍ ممن أَنْعَمَ عليهم مِن عبادِه[(٤)].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٥).

أنَّ الإنسانَ إذا رأى أنَّه أفضَلُ مِن غيرِه بنِعمةِ اللهِ عليه، فإنَّ هذا لا يُنافي التواضعَ، ولا يعني أنَّه تَرَفَّعَ وتكَبَّرَ! بل إنَّ الإنسانَ لا يمكِنُ أنْ يُدرِكَ نعمةَ اللهِ عليه حتى يعْرِفَ ضِدَّها في غيرِه، فإذا رأى مثلًا إنسانًا مُبْتَلًى في بدنِه -واللهُ تعالى قد عافاه-؛ عرَف فضلَ نعمةِ اللهِ، فيقولُ: الحمدُ للهِ الذي عافاني ممَّا ابتَلاهُ به، وفضَّلني عليه، ولا يُعَدُّ هذا مِن بابِ التَّرَفُّعِ والاستِهانةِ بالغيرِ، ولهذا قالا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إنْ كان قولُهما هذا جَهْرًا -وهو الظَّاهرُ- كان حُجَّةً على أنَّه يجوزُ للعالِمِ أنْ يَذكُرَ مَرتبَتَهُ في العلْمِ لِفَوائدَ شرعيَّةٍ تَرجِعُ إلى أنْ يَحذَرَ النَّاسُ مِن الاغترارِ بمَن ليستْ له أهْلِيَّةٌ مِن أهْلِ الدَّعوى الكاذبةِ والجَعْجعةِ الجالِبةِ، وهذا حُكمٌ يُستنبَطُ مِن الآيةِ؛ لأنَّ شرْعَ مَن قبْلَنا شَرعٌ لنا، وإنْ قالاهُ في سِرِّهما لم يكُنْ فيه هذه الحُجَّةُ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تحريضٌ للعالِمِ أنْ يحمدَ اللهَ تعالى على ما آتاه مِن فضْلِه[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مشروعيَّةُ التحَدُّثِ بنعمةِ اللهِ، لكنْ لا على سبيلِ الافتِخارِ والعلوِّ على الغَيرِ، فالإنسانُ إذا تحدَّثَ بنعمةِ اللهِ غيرَ مفتخِرٍ بها، فإنَّه لا بأسَ بذلك، بل قد يكونُ هذا مشروعًا؛ لأنه ثناءٌ على اللهِ سُبحانه وتعالى بما أنعَمَ به عليه[4].

٩- لا يُسنِدُ عِبادُ الله الصالحونَ ما يَعمَلونَه إلى أنفُسِهم، ولكِنَّهم يُسنِدونَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٤).

إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وإلى فَضْلِه؛ ولهذا لَمَّا قالت النَّملةُ حينَ أقبلَ سُلَيمانُ بجُنودِه على وادي النَّملِ، وقد قامت خطيبةً فَصيحةً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾- قال سليمانُ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ عِظَةٌ بالغةٌ؛ فإنَّ هذه نملةٌ وَفَتْ لقَومِها، وأَدَّتْ نحوَهم واجبَها؛ فكيف بالإنسانِ العاقلِ فيما يجبُ عليه نحوَ قومِه؟! هذه عِظَةٌ بالغةٌ لِمَن لا يَهتمُّ بأمورِ قَومِه، ولا يؤدِّي الواجبَ نحوَهم، ولِمَن يرى الخطرَ داهمًا لقومِه، فيَسكتُ ويَتعامى! ولِمَن يقودُ الخطرَ إليهم، ويَصُبُّه بيَدِه عليهم! فما أحْوَجَنا -معشرَ المسلمينَ- إلى أمثالِ هذه النَّملةِ[2]!

١١- في قولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أنَّ عاطفةَ (الجنسيَّةِ) غريزةٌ طبيعيَّةٌ؛ فهذه النَّملةُ لم تَهتَمَّ بنَفسِها فتنجوَ بمفردِها، ولم يُنْسِها هولُ ما رأتْ مِن عظَمةِ ذلك الجندِ إنذارَ بني جنْسِها؛ إذْ كانت تُدرِكُ بفِطرتِها أنْ لا حياةَ لها بدُونِهم، ولا نجاةَ لها إذا لم تَنجُ معهم، فأنذرَتْهم في أشدِّ ساعاتِ الخطرِ أبلغَ الإنذارِ، ولم يُنْسِها الخوفُ على نفْسِها وعلى بني جنْسِها مِن الخطرِ الدَّاهِمِ أنْ تَذكُرَ عُذْرَ سليمانَ وجُنْدِه؛ فهذا يُعَلِّمُنا أنْ لا حياةَ للشخصِ إلَّا بحياةِ قَومِه، ولا نجاةَ له إلَّا بنجاتِهم؛ وأنْ لا خيرَ لهم فيه إلَّا إذا شَعَرَ بأنَّه جزءٌ منهم. ومَظْهَرُ هذا الشُّعورِ أن يَحرِصَ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٣).

خيرِهم كما يَحرِصُ على نفْسِه، وألَّا يكونَ اهتمامُه بها دونَ اهتمامِه بهم[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ أنَّ نِعَمَ اللهِ على العبدِ تُدخِلُ عليه السُّرورَ بجِبِلَّةِ الفِطرةِ. والفرحُ بنعمةِ اللهِ مِنَ الاعترافِ بفَضْلِه، والإكبارِ لنوالِه، ومِن أدَبِ العبدِ حينَئذٍ أنْ يَسألَ اللهَ التَّوفيقَ لشُكرِ تلك النِّعمةِ بصرْفِها في الطَّاعةِ، والتَّوفيقَ بشُكرِها بما يقومُ به مِن أعمالٍ صالحةٍ في رِضا اللهِ، كما فَعَلَ سُليمانُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[٢].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ هذا مِن تمامِ برِّ الوالِدَينِ، كأنَّ هذا الولدَ خاف أنْ يكونَ والداه قَصَّرا في شُكْرِ الربِّ عزَّ وجلَّ، فسألَ اللهَ أنْ يُلهِمَه الشُّكرَ على ما أنعمَ به عليه وعليهما؛ لِيقومَ بما وَجَبَ عليهما مِن الشُّكرِ إنْ كانا قَصَّرا[٣]، فقَولُه: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ تنبيهٌ على برِّ الوالدَين في سُؤالِ القيامِ عنهم بما لم يَبلُغاه مِن الشُّكرِ[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ دليلٌ على الاعترافِ بنعمةِ اللهِ، وأنَّه ليس مِن الافتخارِ؛ لأنَّ سُلَيمانَ عليه السلام ذَكَر نعمةَ اللهِ عليه؛ لكنَّه لا يقصدُ بذلك الافتخارَ والعُلوَّ على غيرِه! وقد قال اللهُ تعالى للرَّسولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٤).

(٣) هذه الفائدةُ للوزيرِ ابنِ هبيرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس))، كما في: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب الحنبلي (٢/ ١٤٧).
والقاعدةُ: أنَّ النِّعمةَ الحاصلةَ للآباءِ واصلةٌ للأبناءِ؛ ولهذا يمتَنُّ الله عزَّ وجلَّ كثيرًا على بني إسرائيلَ بما أنعَم على آبائِهم، فالشُّكرُ على هذا شكرٌ على إنعامٍ نالَه الأبناءُ وإنْ حصَل لآبائِهم. ويُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٣١٦- ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٥).

صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]؛ لكنْ لا على سبيلِ الافتخارِ والعلوِّ! لأنَّها حينَئذٍ تنقلبُ إلى نقمةٍ(١).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أنَّ الغايةَ التي يسيرُ إليها الأنبياءُ ومَن تَبِعَهم هي رضا اللهِ؛ لأنَّ المقصودَ مِن عَملِ الإنسانِ الوُصولُ إلى رِضا اللهِ سبحانه وتعالى، بل إنَّ رِضا اللهِ غايةٌ فَوقَ كُلِّ شَيءٍ؛ قال الله سبحانَه وتعالى في امتِداحِ المؤمنينَ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧١، ٧٢] يعني: أكبَرُ مِن كُلِّ شَيءٍ، وإذا حلَّ على الإنسانِ رِضا الله فهذا غايةُ ما يريدُ(٢)! وشُعورُ العبْدِ برِضَا اللهِ عنه هو أعظَمُ لَذَّةٍ رُوحيَّةٍ تَعجزُ عن تَصويرِها الألْسُنُ؛ فالغايةُ الَّتي يَسْعى إليها السَّاعونَ ويَعمَلُ لها العاملونَ هي رِضَا اللهِ، فالعملُ الصَّالحُ تَرتضيهِ العُقولُ، وتَستعذِبُه الفِطَرُ، ولكنَّه لا يُفيدُ صاحبَه إذا لم يَبْغِ به مَرضاةَ اللهِ؛ ولهذا قال سُليمانُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قولُه: ﴿وَقَالَا﴾ أفاد أنَّ قولَهما متسَبَّبٌ وناشئٌ عنِ العلمِ، لكِنَّه لو قيلَ: (فقالا) -بالفاء- لَمَا أفاد أنَّ غيرَ القولِ تَسَبَّبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٥).

منهما عنِ العلم، فلَمَّا عَطَفَ بالواو دَلَّ على أنَّ هنالك أعمالًا كثيرةً عظيمةً كانت منهما في طاعةِ اللهِ وشُكرِه نشأتْ عنِ العلمِ، وعليها عُطِفَ قولُهما هذا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أنَّه يجوزُ لِمَن أنعَمَ اللهُ عليه بنعمةٍ، وفَضَّلَه بفضيلةٍ أن يَفرَحَ بتلك النعمةِ، ويُظهِرَ فَرَحه بها، في مَعرِضِ حَمْدِ اللهِ عليها، مِن حيثُ إنها كرامةٌ مِن اللهِ؛ لا مِن حيثُ إنَّها مَزيَّةٌ مِن مزاياه فاق بها سِواه! مِثلُ فِعْلِ هذين النبيَّينِ الكريمَينِ، وكما قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾[٢] [يونس: ٥٨]، ويَشرُفُ الفرَحُ بشَرَفِ المفروحِ به؛ فالفرحُ بفضلِ الله ورحمتِه في أفضَلِ رُتَبِ الفرحِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا﴾ أنَّ الشُّكرَ يكونُ بالقَولِ، كما هو أيضًا بالفِعلِ؛ فيكونُ بالقولِ وبالفعلِ، ويكونُ أيضًا بالعَقيدةِ، أي: بالاعتقادِ، فالشُّكرُ له ثلاثةُ محلَّاتٍ: القلبِ واللِّسانِ والجَوارحِ[٤].

٤- تواضُعُ داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ، ومعرفتُهما للحَقيقةِ؛ لِقَولِه: ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فما ذكَرا التَّفضيلَ المطْلَقَ على جمَيعِ المؤمنينَ، بل على كثيرٍ مِن عِبادِه المؤمِنينَ[٥].

٥- أنَّ مَن عَلِمَ لغةَ غيرِه فله ميزةٌ على غَيرِه؛ لأنَّه تَمَدَّحَ بقَولِه: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾، إذَن: تَعَلُّمُ اللُّغةِ غيرِ العربيَّةِ هو في الحقيقةِ مِن نعمةِ اللهِ على العبدِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٣).

لكنْ إنِ استعملَها مكانَ اللُّغةِ العربيَّةِ فإنَّه مُخطِئٌ[١]، وكان عُمَرُ رضيَ الله عنه يَضرِبُ على ذلك، وإنِ استعملَها لِمصلحةٍ دينيَّةٍ فهذا له أجرٌ في ذلك، كما لو استعملَها في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وتفهيمِ الخلْقِ الذين لا يَفهَمونَ اللُّغةَ العربيَّةَ؛ فهي وَسيلةٌ. المهمُّ: أنَّه لا شكَّ أنَّ الإنسانَ الذي يَتعلَّمُ لغةَ غيرِه فله ميزةٌ على غيرِه في هذا، ولكنْ كونُه محمودًا أو غيرَ محمودٍ يَرجعُ إلى ما يُتوصَّلُ به بهذه اللُّغةِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى حكايةً عن سليمانَ عليه السَّلامُ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، وكذا في قولِه: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: ٣٦]: ذِكرُ الرجُلِ مناقِبَ نفْسِه -إذا كان ذلك لغرضٍ صحيحٍ-، ومِثلُه قولُ هودٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وقولُ نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وقولُ يعقوبَ عليه السَّلامُ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]، وقولُ شعيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، وقولُ يوسفَ عليه السَّلامُ: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]. وذِكرُ سليمانَ عليه السلام ما آتاه الله وسيلةٌ إلى المهابةِ الموجبةِ لطاعتِه فيما يدعو إليه مِن طاعةِ الله، وذِكرُ الرسل أمانتَهم ونصحهم ترغيبٌ في إجابتهم إلى ما دعَوا إليه[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أنَّ سُليمانَ لم يَرِثْ مِن داودَ ما وَرِثَه منه لأنَّه ابنُه، وإنَّما كان ذلك تفضُّلًا مِنَ اللهِ ونِعمةً؛ ولهذا لَمَّا دعا سليمانُ الناسَ لم يَذكُرْ لهم أُبُوَّةَ داودَ، وإنَّما ذَكَرَ لهم

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٥٢٠-٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٩٣).

ما كان به أهلًا لمقامِه ممَّا خَصَّه اللهُ به مِن علمٍ وقوَّةٍ، ومظاهرِ المُلكِ، ومُعجِزةِ النُّبوَّةِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ أنَّ الطيرَ تَنْطِقُ[٢]، وفيه دَلالةٌ على أنَّ البهائمَ لها لغةٌ معروفةٌ فيما بيْنَها مِن جنْسِها[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ حِكمةُ اللُّغةِ العربيَّةِ الشَّريفةِ؛ حيثُ سَمَّتْ أصواتَ الحيواناتِ نطقًا، كما سَمَّتْ -في المتعارَفِ- اللَّفظَ الذي يُعَبَّرُ به عمَّا في الضميرِ نطقًا؛ لأنَّ الأصواتَ لغيرِ الإنسانِ تقومُ مقامَ الألفاظِ للإنسانِ، فهي طريقُ تفاهمِها، وطريقُ فَهْمِ ما يمكِنُ للإنسانِ فَهْمُه عنها، فللَّهِ هذه اللُّغةُ! ما أعمَقَ غَوْرَها، وما أدقَّ تعبيرَها[٤]!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ جمْعَ الجنودِ وتدريبَها هو مِن واجباتِ المُلوكِ؛ ليكونَ الجنودُ مُتعَهِّدينَ لأحوالِهم وحاجاتِهم؛ لِيشعروا بما يَنقُصُهم، ويتذَكَّروا ما قد يَنسَونَه عند تشَوُّشِ الأذهانِ عندَ القِتالِ وعندَ النَّفيرِ[٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ جوازُ استِعمالِ السَّاقَةِ في الجُندِ والجيشِ، بأنْ يكونَ لهم سائِقٌ كما أنَّ لهم قائدًا دَليلًا[٦].

١٢- نَستفيدُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٥٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١٣).

﴿يُوزَعُونَ﴾ صورةً تامَّةً لنظامِ الجُنديَّةِ في مُلكِ سليمانَ؛ فقد كان الجنودُ يُسَرَّحُون مِن الخدمةِ ويُجمَعون عندَ الحاجةِ، وكانت أعيانُهم معروفةً مضبوطةً، وكانت لهم هيئةٌ تعْرِفُهم وتضْبِطُهم وتجْمَعُهم عندَ الحاجةِ، وكان لهم ضبَّاطٌ يتولَّون تنظيمَهم، وكان النظامُ محكَمًا لضبطِ تلك الكثرةِ، ومنْعِها مِن الاضطرابِ والاختلالِ والفوضى، تَعرِضُ علينا الآيةُ هذه الصُّورةَ التاريخيَّةَ والواقعيَّةَ؛ تعليمًا لنا، وتربيةً على الجُنديَّةِ المضبوطةِ المنظَّمةِ، ولا شكَّ أنَّ الخُلفاءَ الأوَّلينَ قد عَمِلوا على ذلك في تنظيمِ جيوشِهم، إنَّ مِثْلَ هذه الآيةِ كان له الأثرُ البليغُ السَّريعُ في نفوسِ العربِ لَمَّا أسلَموا؛ فسُرعانَ ما تحوَّلوا إلى جنودٍ مُنَظَّمةٍ ممَّا لم يكُنْ معروفًا عندَهم في الجاهليَّةِ، وبَقِيَتِ الآيةُ -على الدَّهرِ- مُذَكِّرةً لنا بأنَّ النِّظامَ أساسُ كلِّ مجتَمَعٍ واجتماعٍ، وأنَّ القوَّةَ والكثرةَ وحْدَهما لا تُغْنيانِ بدونِ نظامٍ، وأنَّ النِّظامَ لا بُدَّ له مِن رجالٍ أكْفَاءٍ يقومون به، ويَحمِلونَ الجُموعَ عليه، وأولئك هم الوازِعون[(١)].

١٣- قولُه تعالى: ﴿يُوزَعُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّهم مع كثْرتِهم وتَفاوُتِهم لم يَكونوا مُهْمَلينَ ومُبْعَدِينَ كما يكونُ الجيشُ الكثيرُ المُتأذِّي بمَعرَّتِهم، بلْ كانوا مَسُوسِينَ ومَقْموعينَ[(٢)].

١٤- قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ قال أهلُ التَّفسيرِ: عَلِمَ النَّملُ أنَّ سُلَيمانَ مَلِكٌ ليس له جَبريَّةٌ وظُلْمٌ، ومعنى الآيةِ: أنَّكم لو لم تَدخُلوا المساكِنَ وَطِئُوكم، ولم يَشعُروا بكم، ولو عَرَفوا لم يَطَؤوا[(٣)]، ففي قولِه: ﴿وَهُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٦).

لَا يَشْعُرُونَ﴾ دَلالةٌ على عِلمِ النَّملِ بأنَّهم لو شَعروا بهم ما آذَوْهم؛ لأنَّهم أتْباعُ نبيٍّ، فهُم رُحماءُ(١).

١٥- قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ نظيرُ قَولِ النَّملةِ في جُندِ سُلَيمانَ: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ قَولُ اللهِ تعالى في جُندِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الفتح: ٢٥]؛ التفاتًا إلى أنَّهم لا يَقصِدونَ هَدرَ مُؤمِنٍ. إلَّا أنَّ المُثنِيَ على جُندِ سُلَيمانَ هي النَّملةُ بإذنِ الله تعالى، والمُثنِيَ على جُندِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ هو اللهُ عزَّ وجَلَّ بنَفْسِه؛ لِمَا لجنودِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِنَ الفَضلِ على جُندِ غَيرِه مِن الأنبياءِ، كما لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ فَضلٌ على جميعِ النبيِّينَ صَلَّى الله عليهم وسلَّم أجمعينَ(٢).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ إضافةُ المكانِ إلى سكانِه، كما يُقالُ الآنَ في الأحياءِ في البلدِ: هذا حيُّ بني فلانٍ، كما هو معروفٌ مِن قديمِ الزمانِ أنَّ الأحياءَ تُضافُ إلى ساكنيها(٣)، وذلك على أحدِ القولَينِ في التَّفسيرِ.

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ أنَّ للحشراتِ نطقًا؛ وأنَّ قولَها أيضًا مسموعٌ؛ يَسمَعُه بنو جنسِها؛ لأنَّه لو لم يكونوا يَسمَعونها لم يكن في قَولِها فائدةٌ، فهم يَسمَعون قولَها، وقد يُسْمِعُه اللهُ تبارك وتعالى مَن يشاءُ(٤).

١٨- قَولُه تعالى: ﴿مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ هي قُرى النَّملِ التي يَسكُنُها تحتَ وجهِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢٢). ويُنظر أيضًا: ((الحيوان)) للجاحظ (٤/ ٢٦٣، ٢٦٤).

الأرض، المُحكمةُ الوضعِ والتركيبِ والتَّقسيمِ؛ ولذلك قيلَ فيها: (مساكن)، ولم يَقُلْ: (غيران)[١].

١٩- قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ فيه تعيينُ المساكِنِ وهي الملاجئُ، وهذا مِثلُ صَفَّاراتِ الإنذارِ عندَ النَّاسِ، فإذا صفرت صفَّارةُ الإنذارِ لا يذهبون إلى السُّطوحِ، ولكن يذهبونَ إلى الملاجئِ، وهي أيضًا أرشدَتْهم إلى ملاجِئِهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾، ثمَّ فيه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ هذه المساكِنَ كما أنَّها أكنانٌ يَكتَنُّ بها الإنسانُ فهي أيضًا حصونٌ يَحترِزُ بها الإنسانُ؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾[٢] [المرسلات: ٢٥، ٢٦].

٢٠- رُبَّما ذُكِر لِما لا يعقِلُ فِعلٌ يكونُ الأغلبُ فيه أن يكونَ لِمَا يعقِلُ، فيُجعَلُ لفظُه كلفظِ ما يعقِلُ تشبيهًا، قال تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾، ولم يقُلْ: ادخُلْن مساكنَكنَّ لا يحطمنَّكنَّ؛ لأنَّه أخبَر عنهنَّ بالخطابِ الذي يكونُ لِما يعقِلُ، ومِن ذلك أيضًا قولُه عزَّ وجلَّ حكايةً عن يوسفَ عليه السلامُ: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، فجمَع الشَّمسَ والقمرَ والكواكبَ بالياءِ والنونِ؛ وذلك لأنَّه وصَفها بالسجودِ الذي يكونُ مما يعقِلُ، ولو أجراها على معناها وحقِّها مِن اللفظِ لقال: رأيتُها لي ساجداتٍ[٣].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (٢/ ٤٧)، ((شرح كتاب سيبويه)) للسيرافي (١/ ١٥٤، ١٥٥)، ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ٢٠٣) و (٢/ ٤٩).

سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ تَنويهٌ برَأْفتِه وعَدْلِه الشَّاملِ لكلِّ مَخلوقٍ لا فسادَ منه، أجْراهُ اللهُ على نَملةٍ؛ لِيَعلَمَ شَرفَ العدْلِ ولا يَحتقِرَ مواضِعَهُ، وأنَّ وليَّ الأمرِ إذا عَدَلَ سَرَى عدلُه في سائرِ الأشياءِ، وظهَرتْ آثارُه فيها، حتى كأنَّه معلومٌ عندَ ما لا إدراكَ له، فتسيرُ جَميعُ أمورِ الأمَّةِ على عَدلٍ[1].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ أنَّه لا بأسَ بالتبَسُّمِ والضَّحِكِ عندَ قيامِ أسبابِهما مِنَ التعَجُّبِ وغيرِه[2]. فيجوزُ ذلك عندَ وجودِ سببِه؛ فهذا مِن فعلِ نبيٍّ، وفعلُ الأنبياءِ حُجَّةٌ -حتَّى وإنْ كان غيرَ نبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّمَ-؛ إلَّا ما وردَ شرعُنا بنسخِه، فهذا لا يُعتبرُ، والدَّليلُ على أنَّ فِعلَ الأنبياءِ حُجَّةٌ قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقولُه: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[3] [يوسف: ١١١].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ طلَب سُلَيمانُ عليه السَّلامُ ما يكونُ وسيلةً إلى ثوابِ الآخرةِ أوَّلًا، ثمَّ طلب ثوابَ الآخرةِ ثانيًا؛ أمَّا وسيلةُ الثَّوابِ فهي أمْرانِ:

أحدُهما: شُكرُ النِّعمةِ السَّالفةِ، والثاني: الاشتغالُ بسائرِ أنواعِ الخِدمةِ؛ أمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٧٦)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٣).

قال ابن عثيمين: (يقولون: إنَّ الضَّحِكَ ثلاثةُ أنواعٍ: ابتِدائيٌّ ووسَطٌ وانتِهائيٌّ؛ الابتِدائيُّ التبسُّمُ، والوسَطُ الضَّحِكُ، والمنتهي القَهْقَهةُ، والقهقهةُ لا تليقُ بالإنسانِ العاقلِ الرَّزينِ، والتبسُّمُ هو أكثَرُ ضَحِكِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، والضَّحِكُ يكونُ مِنَ الأنبياءِ أحيانًا، فهنا تبسَّمَ ضاحكًا...). ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٤).

الاشتغالُ بشُكرِ النِّعمةِ السَّالفةِ، فهي قَولُه تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، وأمَّا الاشتغالُ بسائرِ أنواعِ الخِدمةِ، فقَولُه: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

وأمَّا طلَبُ ثوابِ الآخرةِ فقَولُه: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ رَدٌّ على المُعتزلةِ والقدَريَّةِ؛ إذْ كان سُلَيمانُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَسألُ اللهَ أن يُلهِمَه الشُّكرَ، ويُنهِضَه للعَمَلِ الصالحِ، ويُدخِلَه برحمتِه في صالحِ عبادِه. وهل يخلو مِن أنْ يكونَ دعا بما هو مُستَغنٍ به فيُنسبَ إلى أنَّ دعاءَه حَشْوٌ، ومعاذَ اللهِ! أو دعا وهو يُوقِنُ أنَّه لا يَقدِرُ على شَيءٍ البَتَّةَ إلَّا به أو بمعونتِه، فإذا عَدِمَه لم يَقدِرْ؟ فكيف يزعمونَ أنَّ العبدَ قادرٌ على عملِه مُنفرِدًا به، ونبيُّ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَبرأُ مِنَ الحَولِ والقوَّةِ هذا التبرُّؤَ، ويَستَلْهِمُ اللهَ جلَّ جلالُه ما لا يَتِمُّ أمرُه إلَّا به[2]؟!

٢٥- أنَّ نِعمةَ اللهِ على الوالِدَينِ نِعمةٌ على الولَدِ؛ لِقَولِه: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، ولا سيَّما نعمةُ الإسلامِ؛ فإنَّها مِن أكبرِ النِّعَمِ على الولدِ؛ فلو مات طِفلٌ وأبواه كافِران، لكان هذا الطِّفلُ في الدُّنيا في حكمِ الكافرينَ، وفي الآخرةِ اللهُ أعلمُ بحالِه، ولو مات طفلٌ بيْنَ أبوينِ مُسلِمَينِ لكان هذا الطِّفلُ مُسلمًا في الدُّنيا والآخرةِ، وعلى هذا فنِعمةُ اللهِ على الوالدينِ -ولا سيَّما في الدِّينِ- نعمةٌ على الولدِ، وهذا هو وَجهُ قَولِه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٤).

وأيضًا فإنَّ نعمةَ اللهِ على الولدِ هي نعمةٌ على والديه؛ فهو مِن أثَرِهما، ومِثْلُ حسناتِه في ميزانِهما؛ لأنَّهما أصلُ ذلك وسببُه، ويدعو له الناسُ؛ فيَدْعُون لهما كُلَّما دَعَوا له، ويقولون: رضيَ اللهُ عنك وعن والِدَيك، ويدعو هو لهما، وقد يُؤْذَنُ له فيَشْفَعُ لهما، فالنِّعمةُ على الوالدِ هي نعمةٌ مُزدَوجةٌ بيْنَهما؛ ولهذا ذَكَرَ سُليمانُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ نعمةَ اللهِ على والديه مع نعمتِه عليه(١).

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنَّ مِن العقلِ والعَدلِ والشَّرعِ إضافةَ المِنَّة إلى المانِّ بها؛ لِقَولِه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ وهذا اعترافٌ، وأبلغُ مِن أنْ يقولَ الإنسانُ: أوزِعْني أنْ أشكرَ النِّعمةَ فقط؛ لأنَّ قَولَه: ﴿نِعْمَتَكَ﴾ واضحٌ جدًّا في خُضوعِ هذا الإنسانِ بهذه النِّعمةِ العَظيمةِ التي أنعَمَ اللهُ بها عليه، فهذه فيها دليلٌ أنَّه مِن العَقلِ والعَدلِ والشَّرعِ إضافةُ المِنَّةِ إلى المانِّ بها، حتى ولو كان آدميًّا(٢).

٢٧- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، في قَولِه: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ أنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ كغَيرِهم مُفتَقِرونَ إلى توفيقِ اللهِ، وأنَّهم بِدُونِ توفيقِ اللهِ سبحانه وتعالى ما يَسيرون سيرًا يُرضِي اللهَ(٣)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٧).
وقال الرازي: (ولَمَّا كان الإنعامُ على الآباءِ إنعامًا على الأبناءِ؛ لأنَّ انتسابَ الابنِ إلى أبٍ شَريفٍ نعمةٌ مِن الله تعالى على الابنِ- لا جَرَمَ اشتغَلَ بشُكرِ نِعَمِ اللهِ على الآباءِ بِقَولِه: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢٨- قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ العملُ غيرُ الصَّالحِ ليس فيه فائدةٌ، بل هو دائرٌ بينَ أمْرَينِ: إمَّا الإثم، وإمَّا السَّلامةِ فقط، فإنْ صدرَ عن علم فهو إثمٌ، وإنْ صدَرَ عن جَهلٍ فالإنسانُ سالمٌ، ولكِنْ لا فائدةَ له فيه؛ كما لو صلَّى الإنسانُ مَثلًا صلاةً باطِلةً بحَدَثٍ، فإنَّه إن تعَمَّد ذلك كان آثمًا، وإنْ كان جاهِلًا لم تُفِدْه في إبراءِ الذِّمَّةِ، ويُطالَبُ بإعادتِها، أمَّا الأجرُ فقد يؤجَرُ عليها مِن أجْلِ النِّيَّةِ والعملِ الذي حَصَل والمشَقَّةِ، ولكِنْ مِن حيثُ الفائدةُ لا يَستفيدُ منها في إبراءِ ذِمَّتِه، ولا تَسقُطُ عنه[١].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ؛ لأنَّه أضاف العمَلَ إليه، وقولُه: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ معناه أنَّه يمكنُ أنْ يعملَ غيرَ صالحٍ؛ فهو مُختارٌ[٢].

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنَّ دخولَ الجنةِ هو برحمتِه وفضْلِه سُبحانَه، لا باستِحقاقٍ مِن جانبِ العبدِ[٣]، فالإنسانُ لا يَصِلُ إلى غايتِه ومقصودِه إلَّا برحمةِ اللهِ في كلِّ شيءٍ -الجنَّةِ وغيرِ الجنَّةِ- يعني: إذا لم يَرحمْك اللهُ فلن تَنالَ شيئًا أبدًا[٤]، فهذه الآيةُ مُناديةٌ بأعلَى صوتٍ، وأوضَحِ بيانٍ بأنَّ دُخولَ الجنَّةِ الَّتي هيَ دارُ المؤمِنينَ بالتَّفضُّلِ مِنَ الله، لا بالعملِ من العِبادِ، كما قال الصادقُ المصدوقُ فيما ثَبَت عنه فِي الصَّحِيحِ: ((سَدِّدُوا وقارِبوا واعْلَموا أنَّه لن يدخُلَ أحدٌ الجنَّةَ بعملِه، قالوا: ولا أنت يا رسولَ اللَّهِ؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٥).

قالَ ولا أنا إلَّا أنْ يتغَمَّدَني اللَّهُ برحمته))[١]، فإذا لم يَكُنْ إلَّا تفضُّلُ الله الواسعُ فتركُ طلبِه منه عجزٌ، والتَّفريطُ في التَّوسُّلِ إليه بالإيصالِ إليه تضييعٌ[٢].

٣١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جوازُ التوسُّلِ بصِفاتِ اللهِ؛ لقولِه: ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾[٣].

٣٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في قَولِه: ﴿فِي عِبَادِكَ﴾ أنَّ العبادةَ مَرتَبةٌ شَريفةٌ عظيمةٌ يَسألُها حتَّى الأنبياءُ؛ ولهذا يَذكُرُ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ بوصفِ العبوديَّةِ في أعلَى مقاماتِه؛ عندَ إنزالِ القرآنِ، وعندَ الدفاعِ عنه، وما أشبَهَ ذلك[٤].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ﴾ سؤالٌ: وهو أنَّه قال اللهُ تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] فأفاد أنَّ الأعمالَ سببٌ في دخولِ الجنَّةِ، وفي هذه الآيةِ: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ﴾ أفاد أنَّ الدخولَ بالرَّحمةِ!

الجوابُ: لا مُنافاةَ بيْنَهما؛ فالأعمالُ سببٌ شرعيٌّ لدُخولِ الجنَّةِ، والهدايةُ إليه والتَّوفيقُ فيه وقَبولُه: هو رحمةٌ مِن اللهِ جزاءً؛ لأنَّه لا يَنتفعُ به؛ إذْ هو الغَنيُّ عن خلْقِه، وإنما تفضَّلَ فجعلَه سببًا في نَيلِ ثوابِه، ثم تفضَّلَ فجَعَلَ الجزاءَ مُضاعَفًا، ووفَّى الصَّابرينَ أجرَهم بغيرِ حسابٍ[٥]!

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ١٣٦). ويُنظر أيضًا: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٨٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٦) و(٦/ ٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٥). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٧٠، ٧١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٨٧، ٨٨).

٣٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنَّ الصَّالحينَ -بما امتازوا به مِن كَمالٍ- صاروا كأنَّهم في حِمًى خاصٍّ بهم، لا يَدخُلُ عليهم فيه إلَّا مَن كان مِثْلَهم، فلهُم مقامُهم في الرَّفيقِ الأعلى، ولهم مَنازِلُهم في الجنَّةِ، ولهم ذِكرُهم الطَّيِّبُ عندَ اللهِ وعندَ العِبادِ، وهذه المنازلُ والمقاماتُ لا يَدخُلُها العبدُ إلَّا برحمةٍ مِن اللهِ بتيسيرٍ لأسبابِها، وتفضُّلٍ عظيمٍ[(١)].

٣٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنَّ الأرواحَ النُّورانيَّةَ الطَّاهرةَ السَّاميةَ لا لَذَّةَ لها حقيقيَّةً في هذا العالَمِ الفاني المادِّي المنحَطِّ، وإنَّما لَذَّتُها الحقيقيَّةُ في عالَمِها العالي الأقدَسِ، وفي الرَّفيقِ الأعلى الأطْهَرِ، وفي معاشرةِ أمثالِها مِنَ النُّفوسِ الطَّيِّبةِ الزَّكيَّةِ في ذلك القُدسِ الأَسْنى؛ فهي دائمةُ الشَّوقِ إليه، والانجذابِ نحوَه؛ ولذا كان مِن دعواتِ الأنبياءِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ- الدُّخولُ في الصَّالحينَ، واللُّحوقُ بهم، مِثلُ قولِ سُليمانَ هنا، وقولِ إبراهيمَ: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]، وقولِ يوسفَ: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[(٢)] [يوسف: ١٠١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِتَقريرِ ما سبَقَ مِن أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ يُلقَّى القرآنَ مِن لَدُنْ حكيمٍ عليمٍ؛ فإنَّ قِصَّتَهما عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن جُملةِ القرآنِ الكريمِ، لُقِّيَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن لَدُنْهُ تعالى كقِصَّةِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٦).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ تَصديرُه بالقسَم؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بتَحقيقِ مضمونِه[١]. وقيل: افتِتاحُ الجُملةِ بلامِ القَسمِ وحَرفِ التَّحقيقِ (قد)؛ لتَنزيلِ المُخاطَبينَ به مَنزلةَ مَن يَتردَّدُ في ذلك؛ لأنَّهم جَحَدوا نُبوَّةَ مِثلِ داودَ وسُليمانَ؛ إذ قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[٢] [سبأ: ٣١].

- وفي قولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ تَقديمُ ذِكْرِ داودَ لِيُبْنَى عليه ذِكْرُ سُليمانَ؛ إذ كان مُلْكُه وَرِثَه مِن أبيهِ داودَ، ولأنَّ في ذِكْرِ داودَ مَثَلًا لإفاضةِ الحِكمةِ على مَن لم يكُنْ مُتصدِّيًا لها، وما كان مِن أهلِ العلْمِ بالكتابِ أيَّامَ كان فيهم أحبارٌ وعلماءُ. فما كان عجَبٌ في نُبوَّةِ محمَّدٍ الأُمِّيِّ بيْن الأُمِّيِّينَ؛ لِيَعلَمَ المُشركونَ أنَّ اللهَ أعْطى الحِكمةَ والنُّبوَّةَ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ولم يكُنْ يَعلَمُ ذلك مِن قبْلُ، ولكنْ في قَومِه مَن يَعلمُ ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩]؛ فهذه القصَّةُ تَتَّصِلُ بقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]؛ فيصِحُّ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾ مَعطوفًا على ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ [النمل: ٧] إذا جعَلْنا (إذ) مفعولًا لفِعلِ (اذْكُرْ) مَحذوفٍ. ويصِحُّ أنْ تكونَ الواوُ للاستئنافِ، فالجُملةُ مُستأنَفةٌ. ومُناسَبةُ الذِّكْرِ ظاهرةٌ. وبعْدُ ففي كلِّ قصَّةٍ مِن قَصصِ القرآنِ عِلْمٌ وعِبْرةٌ وأُسوةٌ[٣].

- وفي فِعلِ ﴿ءَاتَيْنَا﴾ ما يُؤْذِنُ بأنَّه عِلْمٌ مُفاضٌ مِن عندِ اللهِ؛ لأنَّ الإيتاءَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٣٣، ٢٣٤).

أخَصُّ مِن (علَّمْناهُ)؛ فلذلك استُغْنِيَ هنا عن كلمةِ (مِن لَدُنَّا)[١].

- وتَنكيرُ ﴿عِلْمًا﴾ لإفادةِ التَّعظيمِ والتَّكثيرِ؛ فظاهرُ قولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ في سِياقِ الامتنانِ تَعظيمُ العِلْمِ الَّذي أُوتَياهُ، كأنَّه قال: (علْمًا أيَّ علْمٍ)، وهو كذلك؛ فإنَّ عِلْمَهما كان ممَّا يُستغرَبُ ويُستعظَمُ، ومِن ذلك عِلْمُ مَنطقِ الطَّيرِ وسائرِ الحيواناتِ، على أنَّ كلَّ عِلْمٍ بالإضافةِ إلى عِلْمِ اللهِ قليلٌ ضَئيلٌ. وقِيل: قال: ﴿عِلْمًا﴾؛ لأنَّه طائفةٌ مِن العِلْمِ، فالتَّنوينُ على هذا للتَّقليلِ، وهو أوْفَقُ بكونِ القائلِ هو اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ كلَّ عِلمٍ عندَه سبحانه قليلٌ. وعلى الوجهِ الأولِ التَّنوينُ للتَّعظيمِ والتَّكثيرِ، وهو أوفقُ بامتِنانِه جلَّ جلالُه؛ فإنَّه سبحانه الملكُ العظيمُ، فاللَّائقُ بشأنِه الامتِنانُ بالعظيمِ الكثيرِ؛ فلِكُلٍّ وِجْهةٌ، وكِلاهما مُناسِبٌ للمقامِ[٢].

- قولُه: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الظَّاهرُ أنَّ حِكايةَ قَولَيْهما وقَعَتْ بالمعنى، بأنْ قال كلُّ واحدٍ منهما: (الحمْدُ للهِ الَّذي فضَّلَني)؛ فلمَّا حُكِيَ القَولانِ جُمِعَ ضَميرُ المُتكلِّمِ ﴿فَضَّلَنَا﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ كلُّ واحدٍ شكَرَ اللهَ على مَنْحِه ومنْحِ قَريبِه، على أنَّه يَكثُرُ استعمالُ ضَميرِ المُتكلِّمِ المُشارِكِ لا لِقَصْدِ التَّعظيمِ، بلْ لإخفاءِ المُتكلِّمِ نفْسِه بقَدْرِ الإمكانِ تَواضعًا، كما قال سُليمانُ عقِبَ هذا: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ١٦]. وقولُه: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٦، ٢١٧)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٨١).

عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كِنايةٌ عن تَفضيلِهما بفضائلَ غيرِ العلْم؛ فإنَّه قال: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومنهم أهلُ العِلْم وغيرُهم، وتَنويهٌ بأنَّهما شاكرانِ نِعمتَه؛ ولأجْلِ ذلك عُطِفَ قولُهما هذا بالواوِ دونَ الفاءِ؛ لأنَّه ليس حمْدًا لِمُجرَّدِ الشُّكرِ على إيتاءِ العِلْم[1].

- وأيضًا على أنَّ عِبارةَ كلٍّ منهما (فضَّلني)، إلَّا أنَّه عبَّر عنهما عندَ الحِكايةِ بصِيغةِ المُتكلِّم مع الغيرِ إيجازًا؛ فإنَّ حِكايةَ الأقوالِ المُتعدِّدةِ سواءٌ كانتْ صادرةً عن المُتكلِّم أو عن غيرِه بعِبارةٍ جامعةٍ للكُلِّ ممَّا ليس بعَزيز، وبهذا ظهَرَ حُسْنُ مَوقعِ العطْفِ بالواوِ؛ إذ المُتبادَرُ مِن العطْفِ بالفاءِ ترتُّبُ حَمْدِ كلٍّ منهما على إيتاءِ ما أُوتِيَ كلٌّ منهما، لا على إيتاءِ ما أُوتِيَ نفْسُه فقط[2].

- وقِيل: عطْفُ قولِه: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بالواوِ إشعارٌ بأنَّ ما قالاهُ بعضُ ما أحدَثَ فيهما إيتاءُ العلْم وشَيءٌ مِن مَواجِبِه؛ فأُضمِرَ ذلك، ثمَّ عُطِفَ عليه التَّحميدُ، كأنَّه قال: ولقدْ آتَيْناهما عِلْمًا، فعَمِلَا به، وعلَّماهُ وعرَفَا حقَّ النِّعمةِ فيه والفضيلةَ[3].

- وفي قولِهما: ﴿ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جعَلَا تَفضيلَهما على كثيرٍ مِن المُؤمنينَ دونَ جَميعِ المُؤمنينَ؛ إمَّا لأنَّهما أرادَا بالعِبادِ المُؤمنينَ كلَّ مَن ثبَتَ له هذا الوصفُ مِن الماضينَ، وفيهم مُوسى وهارونُ، وكثيرٌ مِن الأفضلِ والمُساوي، وإمَّا لأنَّهما اقْتصَدَا في العبارةِ؛ إذ لم يُحِيطَا بمَن نالهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٣، ٢٥٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٩٥).

التَّفضيلُ، وإمَّا لأنَّهما أرادَا بالعِبادِ أهْلَ عصْرِهما؛ فعبَّرَا بـ﴿كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ﴾ تواضُعًا للهِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ ...﴾ طُوِيَ خبَرُ مُلْكِ داودَ وبَعضِ أحوالِه إلى وَفاتِه؛ لأنَّ المقصودَ هو قصَّةُ سُليمانَ[٢].

- قولُه: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ على القولِ بأنَّ سليمانَ عُلِّم منطقَ جميعِ الطيورِ والحيواناتِ فإنَّما نصَّ على الطَّيرِ؛ لأنَّه كان جُندًا مِن جُنودِه، يَحتاجُ إليه في التَّظليلِ مِن الشَّمسِ، وفي البعثِ في الأمورِ[٣]، وأيضًا الاقتصارُ على مَنطِقِ الطَّيرِ إيجازٌ؛ لأنَّه إذا عُلِّمَ مَنطِقَ الطَّيرِ -وهي أبعدُ الحيوانِ عن الرُّكونِ إلى الإنسانِ، وأسْرَعُها نُفورًا منه- عُلِمَ أنَّ مَنطِقَ ما هو أكثرُ اختلاطًا بالإنسانِ حاصلٌ له بالأحرى، كما يَدُلُّ عليه قولُه تعالى فيما يأْتي قريبًا: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]؛ فتدُلُّ هذه الآيةُ على أنَّه عُلِّمَ مَنطِقَ كلِّ صِنْفٍ مِن أصنافِ الحيوانِ[٤]. وقيلَ: ذكَرَ سُليمانُ عليه السَّلامُ مَنطِقَ الطَّيرِ -وهو قد عُلِّمَ مَنطِقَ غيرِ الطَّيرِ أيضًا؛ فقد فَهِمَ نُطْقَ النَّملةِ-؛ لأنَّ الحيواناتِ -غَيرُ الإنسانِ- مَراتبُ: الزَّاحفةُ، والماشيةُ، والطَّائرةُ، وأشْرفُها الطَّائرةُ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٧).

لكن قال الألوسي: (لا يخفَى أنَّ الآيةَ لا تدلُّ على ذلك، فيحتاجُ القولُ به إلى نقلٍ صحيحٍ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٧).

فاقتَصَرَ على الطَّيرِ تَنبيهًا بالأعلى على الأَدْنى[١].

- قولُه: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ ظاهرُه العمومُ، والمُرادُ الخصوصُ، أي: مِن كلِّ شَيءٍ يَصلُحُ لنا ونَتمنَّاهُ، وأُرِيدَ به كثرةُ ما أُوتِيَ؛ فكأنَّه مُستغرِقٌ لجميعِ الأشياءِ[٢]؛ فالمُرادُ بـ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ كلُّ شَيءٍ مِن الأشياءِ المُهمَّةِ؛ ففي ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ عُمومانِ: عمومُ (كلّ)، وعمومُ النَّكرةِ، وكِلاهُما هنا عُمومٌ عُرفيٌّ؛ فـ(كلّ) مُستعمَلةٌ في الكثرةِ، و(شَيءٌ) مُستعمَلٌ في الأشياءِ المُهمَّةِ ممَّا له عَلاقةٌ بمَقامِ سُليمانَ[٣].

- وبُنِيَ الفِعلانِ ﴿عُلِّمْنَا﴾ و(أُوتِينَا) للمفعولِ، وحُذِفَ الفاعلُ؛ للعِلْمِ به، وهو اللهُ تعالى؛ فإنَّ هذا التَّعليمَ ليس مِن مُعتادِ البشرِ، ولا مِن طُرقِهم[٤].

- وضَميرُ ﴿عُلِّمْنَا﴾ و(أُوتِينَا) جاء به على صِيغَةِ المُتكلِّمِ المُشاركِ؛ إمَّا لأنَّه أرادَ نفْسَه وأباهُ، وإمَّا لِقَصْدِ التَّواضُعِ؛ كأنَّ جماعةً عُلِّمُوا وأُوتُوا وليس هو وحْدَه، وإمَّا لأنَّه لمَّا كان مَلِكًا مُطاعًا خاطَبَ أهْلَ طاعتِه ومَمْلكتِه بحالِه الَّتي هو عليها، لا على سبيلِ التَّعاظُمِ والتَّكبُّرِ[٥]. وقِيل: عبَّرَ سُليمانُ عليه السَّلامُ عن نفْسِه بنُونِ العظمةِ، ونوَّهَ بذلك الفضلِ المُبينِ، وما كان عليه السَّلامُ لِيَتعظَّمَ بسُلطانٍ، ولا لِيَتطاوَلَ بفضْلٍ؛ فالأنبياءُ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ-

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٧، ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٨). ويُنظر أيضًا: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٦).

أشدُّ الخَلْقِ تواضُعًا للهِ، وأرحَمُهم بعبادِهِ، وإنَّما أرادَ تَعظيمَ نِعمةِ اللهِ في عُيونِ النَّاسِ، وتَفخيمَ مُلْكِ النُّبوَّةِ في قُلوبِ الرَّعيَّةِ؛ لِيَمْلأَ نُفوسَهم بالجَلالِ والهَيبةِ، فيَدْعُوهم ذلك إلى الإيمانِ والطَّاعةِ؛ فيَنتظِمَ المُلْكُ، ويَهنَأَ العيشُ، وتَمتدَّ بهم أسبابُ السَّعادةِ إلى خيرِ الدُّنيا والآخرةِ، وهذا هو الَّذي توخَّاهُ سُليمانُ عليه السَّلامُ مِن المصلحةِ بإظهارِ العَظَمةِ. ولذا لم يقُلْ: (عَلِمْتُ)، ولا: (لي) و(عندي كلُّ شَيءٍ)، ولم يقُلْ: (فَضْلِي)؛ فهو فضْلُ مَن علَّمَهُ وآتاهُ، فضَّلَه به عمَّنَ سِواهُ[١].

- والتَّأكيدُ في قولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) وَلَامِه الَّذي هو في الأصْلِ لامُ قَسمٍ، وبضَميرِ الفصْلِ (هو): مَقصودٌ به تَعظيمُ النِّعمةِ؛ أداءً للشُّكرِ عليها بالمُستطاعِ مِن العبارةِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ فيه تَرتيبُ الجُنودِ في الذِّكرِ؛ مُراعاةً للأقْوى؛ فأعْلَاهم في ذلك الجنُّ، ثمَّ الإنسُ، ثمَّ الطَّيرُ[٣]؛ فتَقديمُ الجنِّ على الإنسِ في البَيانِ؛ للمُسارَعةِ إلى الإيذانِ بكَمالِ قُوَّةِ مُلكِه وعِزَّةِ سُلطانِه مِن أوَّلِ الأمْرِ؛ لِمَا أنَّ الجنَّ طائفةٌ عاتيةٌ، وقَبيلةٌ طاغيةٌ ماردةٌ، بعيدةٌ مِن الحشْرِ والتَّسخيرِ[٤].

- واقتُصِرَ على الجنِّ والطَّيرِ؛ لغَرابةِ كَونِهما مِن الجُنودِ؛ فلذلك لم يُذْكَرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٧).

الخيلُ، وهي مِن الجيشِ[١].

- وفي قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ تجدُ المعنى لا يستقيمُ إلَّا على ما جاء عليه مِن بناءِ الفعلِ على الاسم؛ فإنَّه لا يخفَى على مَن له ذوقٌ أنَّه لو جِيء في ذلك بالفعلِ غير مبنيٍّ على الاسم فقيل: (وحُشِر لسليمانَ جنودُه مِن الجنِّ والإنسِ والطيرِ فيُوزَعون)؛ لوجَد اللفظَ قد نبا عن المعنى، والمعنى قد زالَ عن صورتِه والحالِ التي ينبغي أن يكونَ عليها[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ (حتَّى) هنا هي الَّتي يُبْتدَأُ بها الكلامُ، ومع ذلك هي غايةٌ لِما قبْلَها كالَّتي في قولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٤٠]، وهي هاهنا غايةٌ لِمَا يُنْبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ مِن السَّيرِ، كأنَّه قِيلَ: فسارُوا حتَّى إذا أتَوا... إلخ[٣]، ففيه إيجازٌ بالحذفِ؛ لأنَّ (حتَّى) للغايةِ؛ فلا بُدَّ أنْ يكونَ هناك شيءٌ محذوفٌ قبْلَها[٤].

- والإتيانُ بـ (إذا) وجَوابِها في قولِه: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾؛ لإفادةِ أنَّ قولَها كان بسَببِ إتيانِهم عندَ أوَّلِ ما أتَوْا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((دلائل الإعجاز)) لعبد القاهر (ص: ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٢).

- وفي قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ عُدِّيَ ﴿أَتَوۡاْ﴾ بحَرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾؛ لأنَّ الإتيانَ كان مِن فوق. أو يُرَادُ قطْعُ الوادي وبُلوغُ آخرِه، كأنَّهم أرادوا أنْ يَنزِلوا أُخرياتِ الوادي، مِن قولِهم: أتى على الشَّيءِ؛ إذا أنفَذَهُ وبلَغَ آخِرَه[1].

- قولُه: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ﴾ إنْ جُعِلَت (لا) فيه ناهيةً، كانت الجُملةُ مُستأنَفةً؛ تَكريرًا للتَّحذيرِ، ودَلالةً على الفزَعِ؛ لأنَّ المُحذِّرَ مِن شَيءٍ مُفزِعٍ يأْتي بجُمَلٍ مُتعدِّدةٍ للتَّحذيرِ؛ مِن فَرْطِ المخافةِ، والنَّهيُ عن حَطْمِ سُليمانَ إيَّاهنَّ كِنايةٌ عن نَهْيِهنَّ عن التَّسبُّبِ فيه، وإهمالِ الحَذرِ منه، فالمعنى: لا تَكونوا حيثُ أنتم فيَحطِمَكم، كما يُقالُ: لا أعْرِفنَّك تَفعلُ كذا، أي: لا تَفعَلْه فأعْرِفَك بفِعْلِه، والنُّونُ توكيدٌ للنَّهيِ. وكان الأصلُ: (لا يَحْطِمَنَّكُم جُنودُ سُليمانَ)؛ فجاء بقولِه: ﴿سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٨]، لِيَكونَ أبلَغَ؛ للإجمالِ والتَّفصيلِ والتَّكريرِ مع التَّبيينِ. وإنْ جُعِلَت (لا) نافيةً، كانت الجُملةُ واقعةً في جوابِ الأمرِ؛ فكان لها حُكْمُ جوابِ شَرطٍ مُقدَّرٍ؛ فالتَّقديرُ: إنْ تَدخُلوا مَساكِنَكم لا يَحطِمَنَّكم سُليمانُ، أي: يَنتَفِ حَطْمُ سُليمانَ إيَّاكنَّ، وإلَّا حَطَمَكم[2].

- قولُه: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ الْتفاتٌ حَسنٌ، أي: مِن عَدْلِ سُليمانَ وأتْباعِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٢).

ورَحمتِه ورِفْقِه: ألَّا يَحطِمَ نَملةً فما فوقَها، إلَّا بأَلَّا يكونَ لهم شُعورٌ بذلك[١]، وهذه الجُملةُ ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ حالٌ مِن فاعلِ ﴿يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾، مُفيدةٌ لِتَقييدِ الحَطْمِ بحالِ عَدمِ شُعورِهم بمَكانِهم، حتَّى لو شَعَروا بذلك لم يَحْطِمُوا، وأرادتْ بذلكَ الإيذانَ بأنَّها عارفةٌ بشُؤونِ سُليمانَ وسائرِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن عِصْمتِهم عن الظُّلمِ والإيذاءِ. وقِيل: الجُملةُ استئنافٌ، أي: فَهِمَ سُليمانُ ما قالَتْه، والقومُ لا يَشْعُرون بذلك[٢].

- وما أحسَنَ ما أتَتْ به هذه النَّملةُ في قولِها، وأغْرَبَه وأفصَحَه، وأجْمَعَه للمعاني! أدرَكَتْ فَخامةَ مُلْكِ سُليمانَ؛ فنادَتْ وأمَرَتْ وأنذَرَتْ[٣]، وقد اشتمَلَ قولُها في هذه الآيةِ على أحَدَ عشَرَ نوعًا مِن البلاغةِ يَتولَّدُ بعضُها مِن بعضٍ؛ أوَّلُها: النِّداءُ بـ (يا). وثانيها: كنَّتْ بـ (أيُّ). وثالثُها: نبَّهَت بـ (ها) التَّنبيهِ. ورابعُها: سمَّت بقولِها: ﴿ٱلنَّمۡلُ﴾. وخامسُها: أمَرَتْ بقولِها: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾. وسادسُها: نصَّتْ بقولِها: ﴿مَسَٰكِنَكُمۡ﴾. وسابعُها: حذَّرت بقولِها: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾. وثامنُها: خَصَّصَت بقولِها: ﴿سُلَيۡمَٰنُ﴾. وتاسعُها: عمَّمَت بقولِها: ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾. وعاشِرُها: أشارَتْ بقولِها: ﴿وَهُمۡ﴾. وحادي عَشَرَها: عذَرَتْ بقولِها: ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾!

وأدَّتْ خمْسَ حقوقٍ: حقَّ الله، وحقَّ رسولِه، وحقَّها، وحقَّ رعيَّتِها، وحقَّ جُنودِ سُلَيمانَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٢٢٧)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٨٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٨٥).

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

- قوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ لَمَّا كان التَّبسُّمُ يكونُ للاستهزاءِ وللغضَبِ، كما يقولونَ: تَبسَّمَ تبسُّمَ الغَضبانِ، وتبسَّمَ تَبسُّمَ المُستهزِئِ، وكان الضَّحِكُ إنَّما يكونُ للسُّرورِ والفَرحِ؛ أتى بقولِه: ﴿ضَاحِكًا﴾[(١)].

- ولأجْلِ أنَّ قولَه: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ كان مَبْنيًّا على أمْرينِ: على شُهرةِ حالِه وحالِ جُنودِه في بابِ التَّقوى، وعلى إدراكِه بسَمعِه ما همسَ به بعضُ الحُكْلِ[(٢)] ومِن إحاطتِه بمعناهُ؛ أرَدَفه بقولِه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾؛ لأنَّهما نِعمتانِ جَليلتانِ مُوجِبتانِ شُكْرَ مُنعِمِهما[(٣)].

- ولَمَّا سأَلَ ربَّه شيئًا خاصًّا، وهو شُكرُ النِّعمةِ، سأَلَ شيئًا عامًّا، وهو أنْ يَعمَلَ عملًا يَرْضاهُ اللهُ تعالى، فانْدرَجَ فيه شُكرُ النِّعمةِ؛ فكأنَّه سأَلَ إيزاعَ الشُّكرِ مرَّتينِ[(٤)].

- قولُه: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ وَصْفٌ مُؤكِّدٌ، وقد يكونُ للتَّقييدِ؛ لأنَّ العملَ الصَّالحَ يَرْضَى عنه اللهُ، وإنَّما ذَكَرَ الوَصفَ؛ لِيُفيدَ أنَّ رِضَا اللهِ مَقصودٌ بالعملِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٣). ويُنظر أيضًا: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ١٧٥) و(٣/ ٥٠٤).

(٢) الحُكْلُ: ما لا يُسمَعُ له صَوتٌ؛ كالذَّرِّ والنَّملِ. يُنظر: ((الحيوان)) للجاحظ (٤/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٦٧٢)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَهْ (٣/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٢).

الصَّالحِ[١]، وأنَّ العملَ الصالحَ قد لا يرضاه المنعِمُ لنقصٍ في العاملِ[٢].

- قولُه: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: اجْعَلني مِن أهْلِ الجنَّةِ، فهو كِنايةٌ[٣]. والإدخالُ في العِبادِ الصَّالحينَ بمَعنى جَعلِه واحدًا منهم؛ فشبَّه إلْحاقَه بهم في الصَّلاحِ بإدخالِه عليهم في زُمْرتِهم، وسُؤالُه ذلك مُرادٌ به الاستِمرارُ والزِّيادةُ مِن رَفْعِ الدَّرجاتِ؛ لأنَّ لعبادِ اللهِ الصَّالحينَ مَراتبَ كثيرةً[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٤).

الآيات (٢٠-٢٨)

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَتَفَقَّدَ﴾: التفَقُّدُ: تَطَلُّبُ المفقودِ، وكُلُّ شَيءٍ غاب عنك ثم تَتَبَّعْتَه طالبًا له قُلْتَ: تَفَقَّدتُه، بُنِيَ على: تفعَّلَ؛ لأنَّه تكَلُّفٌ في الطَّلَبِ، وأصلُ (فقد): يدُلُّ على ذَهابِ شَيءٍ وضَياعِه[1].

﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾: أي: بعُذرٍ وحجةٍ، وأصل (سلط): القوَّةُ والقهرُ[2].

﴿فَمَكَثَ﴾: أي: انتظَر، والمكثُ: يدُلُّ على ثباتٍ مع انتظارٍ وتوقُّفٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

﴿أَحَطتُ﴾: أي: عَلِمتُ، وأصلُ ذلك راجعٌ إلى معنَى الحائطِ؛ لإحاطتِه بما يَدورُ عليه[١].

﴿عَرْشٌ﴾: أي: العرشُ: سريرٌ وكرسيٌّ للمَلِكِ، وأصلُه يَدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ مَبْنيٍّ[٢].

﴿ٱلْخَبْءَ﴾: أي: الغائِبَ المستورَ، يُقالُ: خبأتُ الشَّيءَ خبْأً: إذا أخفَيتَه، وأصلُ (خبأ): يدُلُّ على سَترِ الشَّيءِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾

(ألَّا) بتشديدِ اللامِ أصلُها (أنْ لا)، فأُدغِمَت النُّونُ في اللامِ، و ﴿يَسْجُدُوا﴾ فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ بـ(أن) المصدريَّةِ، بدلٌ مِن ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾، والتَّقديرُ: وزيَّنَ لهم الشيطانُ عدَمَ السُّجودِ لله تعالى. وقيل: (لا) زائدةٌ، و(أنْ) وما دخَلت عليه في تأويلِ مَصدرٍ بدلٌ من ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾، والتقديرُ: فصَدَّهم عن السُّجودِ لله تعالى. وقيل: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ مفعولٌ له متعلِّقٌ بـ(زَيَّن)، أي: زَيَّن لهم لِئلَّا يَسجدُوا. أو متعلِّقٌ بـ(صَدَّهم)، أي: صَدَّهم عن السَّبيلِ لئلَّا يَسجُدوا. وقيل: هو في محلِّ رَفْعٍ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، على تقديرِ: هي ألَّا يَسجُدوا، أو دأبُهم ألَّا يسجدوا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣).

وقيل غيرُ ذلك.

وقُرِئَ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ بتخفيفِ اللَّام[١]، وكان حَقُّ الخَطِّ على هذه القراءةِ أن يكونَ (ألَا يا اسْجُدوا) و (ألَا) للاستفتاحِ والتَّنبيهِ، و (يا) أيضًا حرفُ تنبيهٍ، وقد جُمِعَ بيْنَهما تأكيدًا. وقيل: (يا) حرفُ نداءٍ، والمنادى مَحذوفٌ، أي: يا هؤلاءِ، و(اسجُدوا) فِعلُ أمرٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وتعاهَدَ سُليمانُ عليه السَّلامُ الطَّيرَ فلم يرَ الهُدهدَ، وعندَها قال: لِماذا لا أرى الهدهُدَ، أم هو غائِبٌ؟ واللهِ لَأُعَذِّبَنَّه عذابًا شديدًا، أو لأذبحنَّه، أو لَيأتيَنِّي بحُجَّةٍ ظاهرةٍ أعذِرُه بها. وما هو إلَّا زمنٌ يَسيرٌ ثمَّ جاء الهدهدُ إلى سُليمانَ، فقال له: عَلِمتُ بشَيءٍ لا تَعلَمُه، وأتيتُك مِن بلادِ سَبأٍ باليَمَنِ بخَبرٍ حقٍّ! إنِّي وجدتُ امرأةً تملِكُ أهلَ سَبأٍ، وأُعطيَتْ مِن كلِّ شَيءٍ، ولها سريرُ مُلكٍ عَظيمٌ؛ وجَدْتُها وقَومَها يَسجُدونَ للشَّمسِ مِن دونِ الله، وحسَّن الشيطانُ لهم عبادةَ الشَّمسِ وغَيرَها من الأعمالِ السَّيِّئةِ، فصرَفَهم الشَّيطانُ عن الطَّريقِ المستقيمِ، فهم لا يهتدون لطَريقِ الحَقِّ؛ ألَّا يَسجُدوا لله الَّذي يُخرِجُ المخبوءَ في السَّمواتِ وفي الأرضِ، ويَعلَمُ ما تُخفونَه في صُدورِكم، وما تُظهِرونَه مِن أقوالِكم وأفعالِكم! اللهُ لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو، ربُّ العرشِ العظيمِ.

قال سُليمانُ للهُدهدِ: سنَنظُرُ في عُذرِك؛ لنعلَمَ هل صدقْتَ أم أنَّك كاذِبٌ،

---

(١) سيأتي بيانُ القراءاتِ في هذه الآيةِ.

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٠٨)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٠٢).

اذهَبْ إليهم بهذه الرِّسالةِ المكتوبةِ فأَلْقِها إليهم، ثمَّ انصَرِفْ عنهم إلى موضِعٍ قَريبٍ وانظُرْ جَوابَهم وما يتراجَعون به بيْنَهم مِنَ الكَلامِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠﴾.

أي: وتعاهَدَ سُلَيمانُ الطَّيرَ[١]، فقال حينَ لم يَرَ الهدهُدَ: ما لي لا أرَى الهُدهُدَ[٢]؟ أهو حاضِرٌ فأخطأَه بَصَري، أمْ أنَّه غاب بلا إذْني فلم يَحضُرْ[٣]؟!

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾.

أي: قال سُلَيمانُ متغيِّظًا: واللهِ لأُعَذِّبَنَّ الهُدهُدَ عذابًا شديدًا؛ لغيابِه بلا إذْنٍ[٤].

---

(١) قيل: ظاهِرُ الآية يفيدُ أنه تفقَّد جميعَ الطَّيرِ. وممَّن قال بذلك: ابن عطية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

(٢) قولُه: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ قيل: هذا مِن مقلوبِ الكلامِ، أي: ما لِلهُدهدِ لا أراه، وجاز مِثلُ ذلك لوُضوحِ المعنَى، كما تقولُ العربُ: ما لي أراكَ مكتئبًا، أي: ما لَكَ؟
وقيل: لا حاجةَ إلى ادِّعاءِ القلبِ، بل هو استفهامٌ عن المانعِ له مِن رؤيةِ الهدهدِ، كأنَّه قال: ما ليَ لا أَراه، هل ذلك لساترٍ يستُرُه عنِّي، أو لشَيءٍ آخَرَ؟ يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٦).
قال السعدي: (﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ دونَ القتلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤). =

﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾.

أي: أو[١] لأقتُلَنَّه[٢].

﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: أو[٣] ليأتينِّي بحُجَّةٍ واضحةٍ تبيِّنُ عُذرَه في غيابِه[٤].

﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾.

﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾.

أي: فبَقِيَ الهدهُدُ غائبًا زمنًا يَسيرًا[٥]، ثمَّ جاء إلى سُلَيمانَ فقال له: عَلِمتُ

= وقال ابنُ عثيمين: (فالصَّوابُ أنَّ هذا التعذيبَ الذي قاله سليمانُ غيرُ معلومٍ لنا، إنَّما هو عذابٌ شديدٌ، والله تبارك وتعالى لم يُبيِّنْه، ولكنْ يكفي أن نعرِفَ أنَّه شديدٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٢).

(١) قال ابن عثيمين: (﴿أَوۡ﴾ هذه للتَّنويعِ؛ يعني: إمَّا هذا، أو هذا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٥).

(٣) قال البقاعي: (أي: لَيكونَنَّ أحَدُ هذه الثلاثةِ الأشياءِ، أو تكونُ ﴿أَوۡ﴾ الثَّانيةُ بمعنى (إلَّا أنْ)، فيكون المعنى: ليكونَنَّ أحَدُ الأمْرَينِ: التَّعذيبُ أو الذَّبحُ، إلَّا أن يأتيَني ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أي: حُجَّةٍ واضحةٍ في عُذرِه، فكأنَّه قال: واللهِ لَيُقيمَنَّ عُذرَه، أو لأفعلَنَّ معه أحَدَ الأمْرَينِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٤٩، ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٣).

(٥) قال ابن عاشور: (المُكثُ: البقاءُ في المكانِ وملازمتُه زمَنًا ما... و﴿غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ صفةٌ لاسمِ زمانٍ أو اسمِ مكانٍ محذوفٍ منصوبٍ على الظَّرفيةِ، أي: مكَثَ زمنًا غيرَ بعيدٍ، أو في مكانٍ غيرِ بعيدٍ، وكِلا المعنيينِ يقتضي أنَّه رجَعَ إلى سُلَيمانَ بعد زمنٍ قليلٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٨).

بشَيءٍ لا تعلَمُه أنتَ[١]!

﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

أي: وأتيتُك مِن بلادِ سَبَأٍ باليمَنِ بخَبَرٍ حقٍّ، وصِدقٍ لا شكَّ فيه[٢].

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾.

أي: قال الهدهدُ: إنِّي وجدتُ امرأةً تملِكُ أهلَ سَبأٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٠، ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٨).

ممَّن قال بأنَّ قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ﴾ عائدٌ على الهدهدِ: البيضاويُّ، والنسفي، وابن كثير، والشوكاني، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. ونسَبَه القرطبيُّ للأكثَرِ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٢).

وقيل: المَكثُ هنا عائدٌ على سُلَيمانَ عليه السَّلامُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٩٣).

قال القرطبيُّ: (الضميرُ في «مكث» يحتملُ أن يكونَ لِسُليمانَ، والمعنى: بقِيَ سليمانُ بعدَ التفقُّدِ والوعيدِ غيرَ طويلٍ، أي: غيرَ وقتٍ طويلٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

قال الشوكاني: (سبأٌ: اسمٌ لمدينةٍ باليمنِ كانت فيها بِلْقِيسُ، وهو أيضًا اسمُ رجُلٍ مِن قَحْطانَ، وهو سبأُ بنُ يَشْجُبَ بنِ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطانَ...). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤). =

﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

أي: وأُعطيَتْ هذه الملِكةُ مِن كلِّ شَيءٍ[(١)].

﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾.

أي: وسريرُ مُلكِها الذي تجلِسُ عليه ضَخمٌ، عَظيمُ القَدرِ، بديعٌ، حَسَنُ المنظَرِ[(٢)].

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وجَدْتُ هذه الملِكةَ وقَومَها يَسجُدونَ للشَّمسِ فيَعبُدونَها مِن دونِ الله

= قال ابن باديس: (هي بِلْقِيسُ بإجماعِ المفسِّرينَ والمؤرِّخينَ). ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٣).

قال ابن تيميَّةَ: (﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فإنَّ كلَّ أحدٍ يعلَمُ بعَقلِه أنَّ المرادَ: أُوتيَت مِن جنسِ ما يُؤْتاهُ مِثلُها). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٣٦١).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ عمومٌ يُرادُ به الخصوصُ فيما يحتاجه الملكُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠١).

وقيل: المعنَى: أُوتِيَتْ مِن كلِّ شَيءٍ في زمانِها شيئًا، فحَذَف (شيئًا)؛ لأنَّ الكلامَ قد دلَّ عليه. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٣).

قال السعدي: (وعِظَمُ العُروشِ يدُلُّ على عَظمةِ المملكةِ، وقوَّةِ السُّلطانِ، وكثرةِ رجالِ الشُّورى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

المستَحِقِّ وَحْدَه للعبادةِ[١]!

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

أي: وحسَّن الشَّيطانُ لهؤلاء القَومِ المُشرِكينَ عبادةَ الشَّمسِ وغَيرَها مِن قبائِحِ الأعمالِ، فصاروا يظنُّونَها حَسَنةً[٢].

﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾.

أي: فصرَفَهم بذلك التَّزيينِ عن اتِّباعِ الطَّريقِ المستقيمِ، فهم لا يَهتَدونَ لطَريقِ الحَقِّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥﴾.

﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿أَلَا يَا﴾ بتخفيفِ اللَّامِ، ويجوزُ الوقفُ عليها، والابتداءُ بـ (اسْجُدُوا)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٤).

بهمزةٍ مضمومةٍ، على أنَّ معنى (ألا) تنبيهٌ واستِفتاحٌ، و (يا) بعدَها حرفُ نداءٍ، أو تنبيهٌ كُرِّر للتَّوكيدِ، و (اسجُدوا) فِعلُ أمرٍ، والمعنى: ألَا يا هؤلاءِ اسجدُوا. وقيل: هو فعلٌ مضارعٌ حُذِفت منه نونُ الرَّفعِ بلا ناصبٍ ولا جازمٍ، وحذفُها بلا موجبٍ لغةٌ صحيحةٌ[١].

٢- قِراءةُ ﴿أَلَّا﴾ بتشديدِ اللَّام، وجَعْلِ (أن) النَّاصبةِ مُدغَمةً في (لا) النَّافية، و﴿يَسْجُدُوا۟﴾ بالياءِ في أوَّلِها، أي: لئلَّا يَسجُدوا، والمعنى: صَدَّهم الشَّيطانُ عن الهُدى؛ لئلَّا يَسجُدوا لله. وقيل: المعنى: وزيَّن لهم الشَّيطانُ ألَّا يسجُدوا لله. وقيل: (لا) صِلةٌ للتأكيدِ، والمعنى: فصَدَّهم عن السَّبيلِ عدَمُ سُجودِهم لله. أو المعنى: فهُم لا يهتدون لِأَنْ يَسجُدوا لله، أي: للسُّجودِ للهِ[٢].

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ألَّا[٣] يَسجُدوا لله الذي يُخرِجُ المخبوءَ في السَّمواتِ، كالمطَرِ، والمخبوءَ في الأرضِ، كالنَّباتِ والثِّمارِ والكنوزِ والمعادنِ، وكالأمواتِ الذين يُخرِجُهم مِن قُبورِهم[٤].

---

(١) قرأ بها الكسائي وأبو جعفر ورويس. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١٢- ١١٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٧١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١٠).

(٣) تقدَّم ذكرُ الأوجهِ المتعدِّدة في معناها بحسَبِ قراءاتها وإعرابِها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١-٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠٩، ١١٠). =

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

أي: ويعلَمُ ما تُضمِرونَه في صُدورِكم، وما تُظهِرونَه مِن أقوالِكم وأفعالِكم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ * سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[الرعد: ٩، ١٠].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: اللهُ لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو وَحْدَه، مالِكُ العَرشِ العَظيمِ الذي لا يُشبِهُه عَرشُ مَلِكةِ سَبأٍ ولا غَيرُه مِن العُروشِ؛ فهذا المَلِكُ العَظيمُ السُّلطانِ هو مَن تنبغي عبادتُه وطاعتُه وَحْدَه[(٢)].

= قال القرطبي: (قراءةُ التَّشديدِ في ﴿أَلَّا﴾ تعطي أنَّ الكلامَ للهدهدِ، وقراءةُ التخفيفِ تمنعُه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٧).

وقال الشوكاني: (وعلى هذه القراءةِ [أي: التشديد] تكونُ جملةُ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ معترِضةً مِن كلامِ الهدهدِ، أو مِن كلامِ سليمانَ، أو مِن كلامِ الله سبحانه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٥).

وقال ابن كثير: (وهذا مناسِبٌ مِن كلامِ الهدهدِ، الَّذي جَعَل اللهُ فيه مِن الخاصِّيَّةِ ما ذَكَره ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه، مِن أنَّه يَرَى الماءَ يجري في تخومِ الأرضِ ودواخِلِها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٤).

قال القرطبي في قولِه تعالى: ﴿تُخْفُونَ﴾ ﴿تُعْلِنُونَ﴾: (قراءةُ العامَّةِ فيهما بياءٍ، وهذه القراءةُ تعطي أنَّ الآيةَ مِن كلامِ الهدهدِ، وأنَّ اللهَ تعالى خصَّه مِن المعرفةِ بتوحيدِه ووجوبِ السُّجودِ له، وإنكارِ سجودِهم للشَّمسِ، وإضافتِه للشَّيطانِ، وتزيينِه لهم، ما خصَّ به غيرَه من الطُّيورِ وسائرِ الحَيوانِ، مِن المعارفِ اللَّطيفةِ الَّتي لا تكادُ العقولُ الرَّاجحةُ تهتدي لها. وقرأ الجحدري وعيسى بنُ عمر وحفصُ والكِسائيُّ: ﴿تُخْفُونَ﴾ و﴿تُعْلِنُونَ﴾ بالتَّاءِ على الخطابِ، وهذه القراءةُ تعطي أنَّ الآيةَ مِن خطابِ الله عزَّ وجلَّ لأمَّةِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

أي: قال سُلَيمانُ للهُدهُدِ: سنَنظُرُ في عُذرِك لنعلَمَ هل صدقْتَ فيه فنَعذِرَك، أم أنَّك كاذِبٌ مِنَ الكاذبينَ[1]؟

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾.

أي: قال سُليمانُ للهُدهُدِ: اذهَبْ إلى أهلِ سبَأٍ بهذه الرِّسالةِ المكتوبةِ، فارْمِها إليهم[2].

﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾.

أي: ثمَّ انصَرِفْ وتَنَحَّ عنهم إلى موضِعٍ قَريبٍ مِن ملِكةِ سَبأٍ وقَومِها، وانظُرْ جوابَهم وما يتراجَعون به بيْنَهم مِن الكَلامِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧١).
قال البقاعي: (شرَعَ فيما يختبرُه به، فكتب له كتابًا على الفورِ في غايةِ الوجازةِ؛ قصدًا للإسراعِ في إزالة المنكَرِ على تقديرِ صِدقِ الهدهدِ، بحسَبِ الاستطاعةِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٥٥).
وقال ابنُ عثيمين: (إذا قال قائلٌ: قَولُه: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا ﴾ يقتضي أنَّه صَدَّقَه؛ لأنَّ قَولَه: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ يدُلُّ على أنَّه صَدَّقَه في ذلك؛ ولهذا كَتَب لهم. أو يقالُ: هذا مِن جملةِ الاختبارِ، يعني: أنَّه إذا كان كاذبًا فسيقولُ: ما وجدْتُ أحدًا، مثلًا، فيكونُ هذا مِن جملةِ وسيلةِ الاختبارِ العائدةِ على قَولِه: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾. وقد يقالُ: إنَّ في قَولِه: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾ تقديرًا: فنظَرَ وتحقَّق صِدقَه فأعطاه الكتابَ. والله أعلمُ بما جرى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩).
=

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ هذا التفقُّدُ منه أدَبٌ للمُلوكِ والأكابرِ في تَفَقُّدِ جُندِهم، واستِشفافِ أمرِهم، ومُقابلةِ مَن أخَلَّ منهم بشَرطِه مِن الإنكارِ بما يستحِقُّه[١]، ففي هذه الآيةِ دَليلٌ على تفَقُّدِ الإمامِ أحوالَ رعيَّتِه، والمحافظةِ عليهم. فانظُرْ إلى الهدهُدِ مع صِغَرِه كيف لم يَخْفَ على سُلَيمانَ حالُه[٢]. ومِن حقِّ الرعيةِ على راعيها أنْ يَتَفَقَّدَها، ويَتَعَرَّفَ أحوالَها؛ إذْ هو مسؤولٌ عنِ الجليلِ والدَّقيقِ منها، يُباشِرُ بنَفْسِه ما استطاع مباشرتَه منها، ويضَعُ الوسائلَ التي تُطْلِعُه على ما غاب عليه منها، ويُنيطُ بأهلِ الخبرةِ والمقدرةِ والأمانةِ تَفَقُّدَ أحوالِها حتى تكونَ أحوالُ كلِّ ناحيةٍ معروفةً مباشرةً لِمَن كُلِّفَ بها، فهذا سليمانُ -على عَظمةِ ملْكِه، واتِّساعِ جيْشِه، وكثرةِ أتْباعِه- قد تولَّى التفقُّدَ بنَفْسِه، ولم يُهْمِلْ أمْرَ الهدهدِ على صِغَرِه وصِغَرِ مكانِه! وقد كان عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه يقول: (لو ماتتْ سَخْلَةٌ[٣] على شاطِئِ الفُراتِ ضيعةً لخِفْتُ أنْ أُسألَ عنها)[٤]! وهذا التفقُّدُ والتَّعرُّفُ هو على كلِّ راعٍ في الأممِ، والجماعاتِ، والأُسَرِ، والرفاقِ، وكلِّ مَن كانت له رعيةٌ[٥].

= قال السيرافي: (قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ ليس التولِّي الانصرافَ عنهم، وإنَّما معناه: تنحَّ عنهم بعدَ إلقاءِ الكتابِ إليهم، بحيثُ يكونُ منك بمرأًى ومسمعٍ، فانظُرْ ماذا يرجِعون مِن جوابِ الكتابِ). ((شرح كتاب سيبويه)) (٢/ ٣٣٤).

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ١٠٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٧٨).

(٣) السَّخْلَةُ: تُطلَقُ على الذَّكرِ والأنثى من أولادِ الضَّأنِ والمَعزِ ساعةَ تُولَدُ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٦٩).

(٤) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٦/ ١٣٧)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧٤١٥)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٣٥/ ٢١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٦).

٢- قيلَ: إنَّما قال سُلَيمانُ عليه السَّلامُ: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؛ لأنَّه اعْتَبَر حالَ نفْسِه؛ إذْ عَلِم أنَّه أُوتِيَ المُلْكَ العَظيمَ، وسُخِّر له الخَلقُ، فقد لَزِمه حَقُّ الشُّكرِ بإقامةِ الطَّاعةِ، وإدامةِ العدلِ، فلمَّا فَقَدَ نعمةَ الهدهدِ تَوَقَّع أنْ يكونَ قَصَّر في حَقِّ الشُّكرِ، فلأجْلِه سُلِبها، فجَعَل يَتَفَقَّدُ نفْسَه، فقالَ: ﴿مَا لِيَ﴾. وهذا يفعلُه بعضُ الشيوخِ إذا فقَدوا ما لهم[١]، تَفَقَّدوا أعمالَهم، هذا في الآدابِ، فكيفَ بنا اليومَ ونحنُ نُقَصِّرُ في الفرائضِ[٢]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ أنَّ جِرْمَ الهدهدِ صغيرٌ، وما كُلِّفَ إلَّا بما يستطيعُه مِن الوقوفِ في مكانِه، والبقاءِ في مَركزِه، ولكنَّ جُرْمَه بإخلالِه بهذا الواجبِ كان جُرمًا كبيرًا، فإنَّ الخللَ الصغيرَ مَجْلبةٌ للخَللِ الكبيرِ، فقُدِّرَتْ عقوبتُه على حسَبِ كِبَرِ ذنْبِه، لا على حَسَبِ صِغَرِ ذاتِه[٣]، قال العلماءُ: وهذا يدُلُّ على أنَّ الحَدَّ على قَدرِ الذَّنْبِ، لا على قَدرِ الجَسَدِ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ﴾ أنَّ استعمالَ ضميرِ الجمعِ للمخاطَبِ المُعَظَّمِ ليس بلازمٍ، وليس مِن شأنِ خطابِ الأنبياءِ والسَّلفِ أنَّه عندَما يكونُ الإنسانُ معظَّمًا أن يقولَ: أتيتُكم، جئتُكم، وما أشبهَ ذلك[٥].

---

(١) في ((أحكام القرآن)) لابن العربي: (آمالهم)، وفي إحدَى نسخِ ((تفسير القرطبي)) (مالهم).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٧٩).

قال ابن باديس: (مثل هذه المعاني الدَّقيقةِ القرآنيَّةِ الجليلةِ النَّفيسةِ مِن مثلِ هذا الإمامِ الجليلِ مِن أجَلِّ علومِ القرآنِ وذخائرِه؛ إذْ هي مَعانٍ صحيحةٌ في نفْسِها، ومأخوذةٌ مِن التَّركيبِ القرآنيِّ أخذًا عربيًّا صحيحًا، ولها ما يَشهدُ لها مِن أدلَّةِ الشَّرعِ. وكلُّ ما استجمَع هذه الشُّروطَ الثَّلاثةَ فهو صحيحٌ مقبولٌ). ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٨).

٥- قال الله تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ في الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الصَّغيرَ يقولُ للكبيرِ والمتعلِّمُ للعالِمِ: عندي ما ليس عندَك، إذا تحقَّق ذلك وتيقَّنه؛ هذا عُمَرُ بنُ الخطَّابِ -مع جلالتِه رَضِيَ الله عنه وعِلمِه- لم يكُنْ عندَه علمٌ بالاستئذانِ[١]، وكان عِلمُ التيمُّمِ عند عمَّارٍ وغيرِه، وغاب عن عُمَرَ[٢] وابنِ مَسعودٍ[٣]. وكان حُكمُ الإذنِ في أن تنفرَ الحائِضُ عندَ ابنِ عبَّاسٍ[٤]، ولم يعلَمْه زيدُ[٥] بنُ ثابتٍ[٦]! فللصَّغيرِ أنْ يقولَ للكبيرِ، وللحقيرِ أنْ يقولَ للجليلِ: عَلِمتُ ما لم تَعلمْ! وعندي ما ليس عندَك! إذا كان مِن ذلك على يقينٍ، وكان لِقَصدٍ صحيحٍ، ومِن ذلك قولُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأبيه: ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ [مريم: ٤٣]. ومِن أدبِ مَن قيلَ له ذلك -ولو كان كبيرًا جليلًا- أنْ يَتقبَّلَ ذلك، ولا يُبادِرَ بردِّه، وعليه أنْ يَنظُرَ فيه لِيعرفَ مِقدارَ صِدْقِ قائلِه، فيَقبلَه أو يَرُدَّه بعْدَ النَّظرِ والتَّأمُّلِ؛ إذْ قد يكونُ في أصغرِ مخلوقاتِ اللهِ وأحقَرِها مَن يُحيطُ علمًا بما لم يُحِطْ مِثلُ سليمانَ عليه السَّلامُ في علْمِه وحكمتِه، واتِّساعِ مُدركاتِه! وكفَى بمِثْلِ هذا زاجرًا لكُلِّ ذي علمٍ عنِ الإعجابِ بعلْمِه، والاعتزازِ بسَعةِ اطِّلاعِه، والترفُّعِ عنِ الاستفادةِ ممَّن دونَه[٧]. وقد سُئِلَ بعضُ أهلِ العِلمِ عن مسألةٍ فقال: لا أعلَمُها، فقال أحَدُ تلامذتِه: أنا أعلَمُ هذه المسألةَ، فغَضِبَ الأستاذُ وهَمَّ به، فقال له: أيُّها

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٦٢٤٥)، ومسلم (٢١٥٣).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٣٨).

(٣) يُنظر ما أخرجه مسلم (٣٦٨).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٢٩)، ومسلم (١٣٢٨).

(٥) يُنظر ما أخرجه مسلم (١٣٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٧).

الأستاذُ، لَسْتَ أعلَمَ مِن سُليمانَ بنِ داودَ ولو بلغْتَ في العلم ما بلغْتَ، ولستُ أنا أجهَلَ مِن الهُدهدِ، وقد قال لسُلَيمانَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾! فلم يَعتِبْ عليه، ولم يعنِّفْه(١).

٦- في قَولِه تعالى عن سُلَيمانَ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أنَّ سُلَيمانَ لَمَّا توعَّد الهدهدَ بأنْ يعَذِّبَه عذابًا شديدًا أو يذبَحَه إنَّما نجا منه بالعِلمِ، وأقدَمَ عليه في خطابه له بقَولِه: أحطتُ بما لم تُحِطْ به خُبْرًا، وهذا الخِطابُ إنما جرَّأه عليه العِلمُ، وإلَّا فالهدهدُ مع ضَعفِه لا يتمكَّنُ مِن خطابِه لسُليمانَ مع قوَّتِه بمِثلِ هذا الخِطابِ لولا سلطانُ العِلمِ(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: أنَّ اللهَ قد ألهَمَ الحيواناتِ إلى ما قد يخفَى عن بعضِ العُقَلاءِ؛ فهذا الهُدْهُدُ بيْنَ الهَداهِدِ له إلهامٌ خاصٌّ، يقتضيه تخصيصُه بهذا الموقفِ، واتِّصالُه بسليمانَ عليه السَّلامُ. وزمنُ الأنبياءِ زمنُ خرْقِ العوائدِ، وظهورِ الآياتِ، وقد كان في حُسْنِ بيانِه، وترتيبِ أخبارِه، وبديعِ تهَدِّيه عبارةً بالغةً لأولي الألبابِ؛ فقد تَحَصَّنَ بالعِلمِ، ونَوَّهَ بالنَّبأِ المتيقَّنِ، وفَصَّلَ النَّبأَ فشَرَحَ حاليها الدُّنيويَّةَ والدِّينيَّةَ، وتَنَقَّلَ مِن تشويقٍ إلى تشويقٍ أبلَغَ منه، فكان مُتثبِّتًا فيما أَخبرَ، بارعًا فيما صَوَّرَ، مستَدِلًّا فيما قَرَّر وفيما أَنْكَر، بصيرًا بكيدِ الشيطانِ للإنسانِ، خبيرًا بترتيبِ الأدلَّةِ وحُسْنِ الاستنتاجِ، وفيما ذَكَر اللهُ لنا مِن هذه العِبَرِ البالغةِ مِن هذا الحيوانِ الأعجمِ حَثٌّ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لنا على أنْ نَسْلُكَ عندَما نُخبرُ ونُبَيِّنُ، أو نبحثُ وننظرُ، أو نستَدِلُّ ونرتِّبُ ونُعَلِّلُ؛ أنْ نَسْلُكَ هذا المسلَكَ، وإذا كان اللهُ تعالى قد بَعَثَ غرابًا لِيتعلَّمَ منه ابنُ آدمَ كيف يواري سَوْءةَ أخيه؛ فكذلك ذَكَرَ لنا أمْرَ هذا الهُدْهُدِ الممتازِ بيْنَ الهَداهِدِ؛ لِنقتَديَ به؛ تنبيهًا لنا على أخْذِ العلمِ مِن كلِّ أحدٍ، وللاستِفادةِ مِن كلِّ مخلوقٍ، وللشُّعورِ دائمًا بالنَّقصِ؛ للسَّلامةِ مِن شَرِّ أدواءِ الإنسانِ: العُجْبِ، والكِبْرِ، والغرورِ، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[(١)] [يوسف: ٧٦].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أنَّ استحسانَ المرءِ لأعمالِه هو أصلُ ضلالِه، وتزيينُ الشيطانِ لتلك الأعمالِ هو أحدُ أسلحةِ الشيطانِ؛ فعلى المرءِ أنْ يتَّهِمَ نفْسَه في كلِّ ما تدعوه إليه، وأنْ يَزِنَ جميعَ أعمالِه بميزانِ الشرعِ الدَّقيقِ، خصوصًا ما تشتدُّ رغبتُه فيه، ويَعظُمُ حُسنُه في عينيه[(٢)]!

٩- في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ النَّهيُ عن استِحسانِ القبائحِ، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقال سبحانَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤]. واستحسانُ المرءِ للقبائحِ وسيلةٌ إلى العملِ بها[(٣)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ مِن أساليبِ الهدايةِ القرآنيةِ إلى العُلومِ الكونيَّةِ أن يَعرِضَ علينا القرآنُ صُوَرًا مِن العالَمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٠٤).

العُلويِّ والسُّفليِّ في بيانٍ بديعٍ جذَّابٍ؛ يُشوِّقُنا إلى التأمُّلِ فيها، والعُمقِ في أسرارِها، وهنا يَذكُرُ لنا ما خَبَّأه في السَّمواتِ والأرضِ لنشتاقَ إليه، وننبعثَ في البحثِ عنه، واستجلاءِ حقائقِه ومنافِعِه، بدافعِ غريزةِ حُبِّ الاستطلاعِ، ومعرفةِ المجهولِ، وبمِثلِ هذا انبعثَ أسلافُنا في خِدمةِ العلمِ، واستثمارِ ما في الكَونِ إلى أقصَى ما استطاعوا، ومَهَّدوا بذلك السَّبيلَ لِمَن جاء بعدَهم، ولن نَعِزَّ عزَّهم إلَّا إذا فهمنا الدِّينَ فهْمَهم، وخَدَمنا العِلمَ خِدمَتَهم[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ تحذيرُ العبدِ مِن المخالفةِ علنًا أو سِرًّا؛ لأنَّك إذا عَلِمْتَ بأنَّ اللهَ يعلمُ ما تُخفي وما تُعْلِنُ، يَلزَمُ مِن ذلك ألَّا تُخالِفَه، والإنسانُ لو عَلِم أنَّ المُعظَّمَ عندَه يعلَمُ بأفعالِه لتَرَك ما لا يُرضيه، لو عَلِمْتَ مثلًا أنَّ أباك أو الرجلَ الذي تحترمُه يَعْلَمُ بما تفعلُ؛ فهل تَفْعَلُ ما يخالِفُ رضاه؟ لا تفعلُ، لا سيَّما إذا كان محبوبًا لديك ومُعَظَّمًا، فإذا كان كذلك فالربُّ مِن بابِ أَولى، ولهذا ينبغي لك كلَّما دعَتْك نفسُك إلى معصيةٍ، بل إلى مخالفةٍ بتركِ أمرٍ أو فعلِ نهيٍ، يجبُ عليك أن تتذكَّرَ هذا الأمرَ؛ أنَّ الله سبحانَه وتعالى يعلمُ مخالفتَك، فيلزمُ مِن هذا أن ترتدعَ[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أنَّه ينبغي التثبُّتُ في الخبرِ، لا سيما عندَ قيامِ الشُّبهاتِ، وما هي الشبهةُ القائمةُ هنا؟ أنَّ الهدهدَ قال ذلك مُدافَعةً، وأنَّه كان بعيدًا؛ لأنَّه قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، لكن لَمَّا كان هذا مقامَ دفاعٍ فإنه ينبغي أنْ يَتثبَّتَ الإنسانُ أكثرَ؛ ولهذا قال: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ مع أنَّه قال: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٧).

١٣- قال الله تعالى: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ قال وهبٌ: (أمرُه بالتولِّي حسنُ أدبٍ ليتنحَّى حسَبَ ما يُتَأَدَّبُ به مع الملوكِ، بمعنى: وكن قريبًا بحيثُ تسمَعُ مراجعاتِهم)[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ أنَّ تَفَقُّدَ سليمانَ عليه السَّلامُ للطيرِ، وفقْدَه الهدهدَ: يدلُّ على كَمالِ حزْمِه وتدبيرِه للمُلْكِ بنفْسِه، وكمالِ فِطنتِه حتى فَقَدَ هذا الطائرَ الصغيرَ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ أنَّ هذا الهدهدَ كان مِن جنودِ سليمانَ التي حُشِرَتْ له، وقد كان في مكانِه الذي عُيِّنَ له وأُقِيمَ فيه، فلما فارقَ وتَرَكَ الفُرجةَ في صفِّه، وأَوقعَ الخللَ في جنْسِه، استحقَّ العقابَ الصارمَ الذي لا هَوادةَ فيه، وهذا أصلٌ في صرامةِ أحكامِ الجُنديَّةِ وشدَّتِها؛ لِعظَمِ المسؤوليةِ التي تحمَّلَتْها، وتوقُّفِ سلامةِ الجميعِ على قيامِها بها، وعِظَمِ الخطرِ الذي يَعُمُّ الجميعَ إذا أخَلَّتْ بها[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ جوازُ عقابِ الجنديِّ إذا خالفَ ما عُيِّنَ له مِن عملٍ، أو تَغيَّبَ عنه[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ جوازُ تأديبِ الحيواناتِ والبهائمِ بالضَّربِ عند تجاوزِها المعتادَ في أحوالِها، كتَقصيرِها في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٦).

المشيِ وإسراعِها ونحوِ ذلك[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ هذه الآيةُ دَليلٌ على أنَّ الطَّيرَ كانوا مكَلَّفين؛ إذ لا يُعاقَبُ على تَركِ فِعلٍ إلَّا مَن كُلِّفَ ذلك الفِعلَ[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ في هذا ردٌّ على مَن قال: إنَّ الأنبياءَ تعلَمُ الغَيبَ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أنَّه كان في جوابِ الهدهدِ حجةٌ بيِّنةٌ لسببِ غيابِه، وذلك لأنَّه لم يذهبْ عابثًا، ولا لغرضٍ خاصٍّ به، وإنما ذَهَبَ مُستطلِعًا مكتشِفًا، فحَصَّلَ علمًا، وجاء بخبرٍ عظيمٍ في زمنٍ قصيرٍ، فرَجَحَتْ هذه الفوائدُ العظيمةُ بتركِه لمركزِه في الجندِ، فسقطتْ عنه المؤاخذةُ. فإنْ قيلَ: إنَّ أصلَ مفارقتِه لمركزِه دون استئذانٍ كان مخالفةً يَستوجبُ عليها العُقوبةَ؟

فالجوابُ: أنَّ هذه المخالفةَ كانت لقَصدٍ حَسَنٍ وهو الاستطلاعُ، وأثمرتْ خيرًا، فاستَحقَّ العفوَ عن تلك المخالفةِ التي كانت عن نظَرٍ، ولم تكُنْ عن تهاونٍ وانتهاكٍ للحُرْمَةِ، وهذه الآيةُ مأخذٌ مِن مآخذِ الأصلِ القائلِ: (إنَّ المخالِفَ للأمرِ عن غيرِ انتهاكٍ للحُرمَةِ لا يُؤاخَذُ بتلك المُخالفةِ)[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ ضَعفُ إدراكِ الإنسانِ مهما بلَغَ مِن المُلكِ ومِن القوةِ، ويدلُّ لهذا قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]؛ فإنَّ هذا يُبيِّنُ ضَعفَ الإنسانِ، فهو ضعيفٌ في كلِّ شيءٍ؛ في

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٦).
(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٠).

القوى العقليةِ، والقوى الجِسميةِ. وكلُّ ما يمكنُ أن يُوصَفَ بالقوَّةِ والضَّعفِ، فإنَّ حالَ الإنسانِ فيه الضَّعفُ(١).

٩- ليس مِن شرْطِ الأفضلِ ألَّا يُنبِّهَهُ المفضولُ لأمرٍ مِن الأمورِ؛ فقد قال الهدهدُ لسُلَيمانَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، وقد قال موسى للخَضِرِ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾(٢) [الكهف: ٦٦].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ إبطالٌ لقَولِ الرَّافضةِ: إنَّ الإمامَ لا يخفى عليه شيءٌ، ولا يكونُ في زمانِه مَن هو أعلمُ منه(٣).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ دَليلٌ واضحٌ على قَبولِ خبرِ الواحدِ مِن أيِّ جنسٍ كان مِن النَّاسِ وغيرِهم، إذا عُرِفَ صِدقُه، ألَا ترى أنَّ سليمانَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إنما كَفَّ عن عذابِه حيثُ أتاه بسُلطانٍ مبينٍ -الذي كان استثنى- فهَلَّا عَذَّبَه لو لم يَقبَلْ خبرَه، وقال له: أنت واحدٌ لا أقبَلُ خبرَك عن سَبَأٍ حتى يُخبِرَ به معك غيرُك مِن الطَّيرِ؟! وليس في قَولِه: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ما يُوهِنُ ما قُلْناه، ألَا ترى ائتَمَنَه في حَملِ كتابِه ورَدِّ جوابِه وهو واحِدٌ(٤)؟!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أنَّه ينبغي للمتكلِّمِ أن يُؤكِّدَ الخبرَ للمخاطَبِ عندَ الحاجةِ إليه؛ لِقَولِه: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٨).

١٣- قَولُه تعالى: ﴿مِن سَبَإٍ﴾ صُرِفَ؛ لأنَّه في الأصلِ اسمُ رجُلٍ غَلَبَ على اسمِ بلدٍ[١].

١٤- قَولُه: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ﴾ لا يدلُّ على جوازِ أنْ تكونَ المرأةُ ملكةً؛ لأنَّ ذلك كان مِن فعلِ قومِ بلقيسَ، وهم كفَّارٌ، فلا حجَّةَ في ذلك، وفي الحديثِ أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لما بلَغه أنَّ أهلَ فارسَ قد ملَّكوا عليهم بنتَ كِسرَى قال: ((لن يُفلِحَ قومٌ ولَّوْا أمرَهم امرأةً))[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٌ﴾ وصفُ العرشِ بالعظمةِ دَليلٌ على أنَّ مِثلَ هذه الأوصافِ تَصِحُّ للهِ تعالى ولغيرِه، ولكنَّ اتِّصافَ اللهِ بها لا يُماثلُه شيءٌ مِن اتِّصافِ المخلوقِ بها؛ فإنَّ صفاتِ الخالقِ تليقُ به، وصفاتِ المخلوقِ تليقُ به[٣].

١٦- إنْ قيل: كيف استعظَمَ عَرشَها مع ما كان يرى مِن مُلكِ سُلَيمانَ؟

فالجوابُ: أنَّه يجوزُ أن يستصغِرَ حالَها إلى حالِ سُلَيمانَ، فاستعظم لها ذلك العَرشَ، ويجوزُ ألَّا يكونَ لسُلَيمانَ مِثلُه وإن عَظُمَت مَملكتُه في كلِّ شَيءٍ، كما يكونُ لِبَعضِ أمراءِ الأطرافِ شَيءٌ لا يكونُ مِثلُه للمَلِكِ الذي يملِكُ عليهم أمْرَهم ويَستخدِمُهم[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ الخلْقَ مفطورون على إنكارِ الشِّركِ؛ لأنَّ الهدهدَ أنكرَ عليهم شِرْكَهم، مع أنَّ الهدهدَ

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ١٠٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٧). والحديث أخرجه البخاري (٤٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٥٤).

ليس مِن العُقلاءِ، لكنَّ جميعَ الحيواناتِ بل والمخلوقاتِ غيرِ الحيواناتِ مفطورةٌ على توحيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[1] [الإسراء: ٤٤].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ الإنسانَ يُذَمُّ على فِعلِه أو يُمدَحُ على فِعْلِه؛ لأنَّ الهدهدَ ساق ذلك على سبيلِ الذَّمِّ، والغَرَضُ مِن ذِكْرِ هذه الفائدةِ: الوصولُ إلى أنَّ فِعلَ الإنسانِ باختيارِه؛ إذ لو كان مُجبَرًا عليه لم يَصِحَّ أن يكونَ مَحَلًّا للذَّمِّ أو للمَدحِ؛ لأنَّ الذي يُجبَرُ على العَمَلِ لا يُمدَحُ عليه إنْ كان خَيرًا، ولا يُذَمُّ عليه إنْ كان سُوءًا، ولكِنَّه هو فَعَلَه. ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: إبطالُ قولِ الجبريةِ الذين يقولون: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عملِه؛ لأنَّه إذا كان مُجبَرًا لم يكن أهلًا للثَّناءِ في الخيرِ أو في الشَّرِّ[2].

١٩- قال الله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ * أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾ النَّهيُ عن السجودِ للشَّمسِ هو نهيٌ عمَّا هو دونها بطريقِ الأَولى مِن الكَواكبِ والأشجارِ وغيرِ ذلك؛ فالشمسُ أعظمُ ما يُرى في عالَمِ الشَّهادةِ، وأَعَمُّه نفعًا وتأثيرًا[3].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أنَّ الأعمالَ السيئةَ مِن تزيينِ الشيطانِ، وهنا سؤالٌ: وهو كيف يُجمَعُ بين هذه الآيةِ وبين قَولِه تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [النمل: ٤] فأضاف اللهُ التَّزيينَ إليه، وهنا أضافه إلى الشَّيطانِ، وفي آيةٍ ثالثةٍ: ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡ﴾ [التوبة: ٣٧] مبنيًّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٤٦).

للمجهولِ؟!

والجوابُ: هذه لا تُعارِضُ الآياتِ الأخرى، فيضافُ إلى اللهِ تقديرًا، وإلى الشَّيطانِ مُباشَرةً[١].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أنَّ سبيلَ اللهِ سبحانه وتعالى واحدٌ، وسُبُلَ الشَّرِّ متعَدِّدةٌ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ ولهذا قال العلماءُ: الإسلامُ ملةٌ، والكُفرُ مِلَلٌ؛ الكُفرُ: يهوديةٌ، نصرانيةٌ، وثنيَّةٌ، ومجوسيَّةٌ، إلى آخرِه. مِلَلٌ لأنَّها سُبُلٌ متعددةٌ، وأمَّا الحقُّ فسبيلُه واحدٌ[٢].

٢٢- قال الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أنَّه إذا زُيِّنَ للإنسانِ سُوءُ عمَلِه فَصُدَّ بذلك عن السَّبيلِ -والعياذُ باللهِ سُبحانَه وتعالى- فإنَّه لا يهتدي ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾، وهذا هو البلاءُ: أنَّ الإنسانَ يرى القَبيحَ حَسَنًا، فهذا لا يَكادُ يُقلعُ، لكِنْ مَن كان يرَى القبيحَ قَبيحًا فإنَّه يمكِنُه أن يُقلِعَ[٣].

٢٣- قال تعالى عن الهُدهُدِ يخاطِبُ نبيَّ اللهِ سُلَيمانَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٢، ٢٤] في هذا السِّياقِ عَشرُ قَضايا يُدرِكُها الهُدهُدُ ويُفصِحُ عنها لنبيِّ الله سُلَيمانَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأولى: إدراكُه أنَّه أحاط بما لم يكُنْ في عِلمِ سُلَيمانَ.

الثانية: معرفتُه لسبأٍ بِعَينِها دونَ غَيرِها، ومجيئُه منها بنبأٍ يقينٍ لا شَكَّ فيه.

الثالثة: معرفتُه لتوليةِ المرأةِ عليهم مع إنكارِه ذلك عليهم.

الرابعة: إدراكُه ما أوتِيَتْه سبأٌ مِن متاعِ الدُّنيا مِن كُلِّ شَيءٍ.

الخامسة: أنَّ لها عرشًا عظيمًا.

السادسة: إدراكُه ما هم عليه من السُّجودِ للشَّمسِ مِن دُونِ الله.

السابعة: إدراكُه أنَّ هذا شِركٌ بالله تعالى.

الثامنة: أنَّ هذا مِن تزيينِ الشَّيطانِ لهم أعمالَهم.

التاسعة: أنَّ هذا ضلالٌ عن السَّبيلِ القويمِ.

العاشرة: أنَّهم لا يهتدونَ.

وقد اقتنع سُلَيمانُ بإدراكِ الهُدهدِ لهذا كُلِّه، فقال له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧]، وسَلَّمه رسالةً، وبعثه سفيرًا إلى بلقيسَ وقَومِها: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨]، وكانت سِفارةً مُوفَّقةً(١).

٢٤- إنْ قيل: كيف خَفِيَ على سُليمانَ مكانُ تلك المملكةِ العظيمةِ؟

والجوابُ: لعَلَّ اللهَ تعالى أخفَى عنه ذلك لمصلحةٍ عَلِمَها، كما أخفَى مكانَ يوسُفَ على يعقوبَ عليهما السَّلامُ(٢).

٢٥- قولُه: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ إلى قولِه: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ

(١) يُنظر: ((تتمه أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٤).

لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قد جمَعَ هذا القولُ الَّذي أُلْقِيَ إلى سُليمانَ أُصولَ الجُغرافيَّةِ السِّياسيَّةِ مِن صِفَةِ المكانِ والأدْيانِ، وصِبْغَةِ الدَّولةِ وثَروتِها، ووقَعَ الاهتمامُ بأخبارِ مَمْلكةِ سبَأٍ؛ لأنَّ ذلك أهمُّ لمُلْكِ سُليمانَ؛ إذ كانت مُجاورةً لِمَمْلكتِه؛ فأُمورُ هذه المَمْلكةِ أَجْدى بعَمَلِه[1].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ هذان الوصفانِ -إخراجُ الخبءِ، والعلمُ بما يُبطِنُ العبدُ وما يُعلِنُه- لا يكونان لأحدٍ مِن المخلوقين، لا للشَّمسِ ولا لغيرِ الشَّمسِ، وإنما ذلك خاصٌّ باللهِ تبارك وتعالى؛ ولهذا جَعَلَه الهدهدُ مِن الأسبابِ التي تَستلزمُ أنْ تكونَ العبادةُ للهِ وحدَه؛ لأنَّه العالِمُ بها، ولا يمكِنُ أن يُؤتَى بوَصفٍ يَستلزِمُ العبادةَ إلَّا إذا كان خاصًّا بالله؛ لأنَّه يُؤتَى بهذا الوَصفِ استدلالًا على بُطلانِ عبادةِ ما سواه، ولو كان ممَّا يمكِنُ أن يكونَ لله، لم يكُنْ ذلك دليلًا على اختِصاصِ الله تعالى بالعبوديَّةِ؛ إذ قد يقولُ العابدُ للشَّيءِ: وهذا وصفٌ أيضًا موجودٌ في معبودي، فأنا أعبُدُه! فالمهِمُّ أنَّه لا يمكِنُ أن تُقامَ الحُجَّةُ إلَّا بدليلٍ خاصٍّ بالمحتَجِّ له، يعني: أنَّه لا يمكِنُ أن تقيمَ الحُجَّةَ بأنَّ العبادةَ لله وحده إلَّا بوصفٍ خاصٍّ باللهِ[2].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ الظواهرَ دلائلُ البواطنِ؛ فالمرءُ يُعرَفُ مِن سُبُحاتِ وَجهه وفلتاتِ لسانِه، وكثيرًا ما تدلُّ كلماتُه على مِهنتِه أو فكرتِه وعقيدتِه، كما تدلُّ هيئتُه أو لِبْستُه وشمائلُه؛ وما يباشرُه المرءُ تنطبعُ به نفْسُه، ويصطبغُ خيالُه، فيجري على لسانِه في تشبيهاتِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٥٨).

وتمثيلاتِه وفنونِ قولِه، فقد تختلِفُ العباراتُ عن شيءٍ واحدٍ في وقتٍ واحدٍ باختلافِ نفسياتِ المتكلِّمين عليه، وقد عُرِفَ الهدهدُ بينَ الطيورِ بثقوبِ البصرِ، والاهتداءِ إلى الماءِ في جَوفِ الأرضِ، خصوصًا هدهدُ سليمانَ الممتازُ بين الهداهدِ، فلمَّا استدلَّ ذَكرَ مِن صُنعِ اللهِ ما هو أقربُ إليه، وأغلبُ عليه، وهو إخراجُ الخبءِ الذي منه الماءُ المخبوءُ في جَوفِ الأرضِ[(١)].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ دَلالةَ الصَّنعَةِ على الصانعِ نظريةٌ عقليةٌ قطعيةٌ؛ فكلُّ ذي صَنعةٍ في مُكْنتِه أنْ يَستدِلَّ بصنعتِه على وجودِ خالقِ هذا العالَمِ وكمالِه، يُشاهِدُ أنَّ صنعتَه ما كانت إلَّا به، وبما له مِن قُدرةٍ فيها وعِلْمٍ بها؛ فهداه ذلك إلى أنَّ هذا العالَمَ ما كان إلَّا مِن خالقٍ قادرٍ عالِمٍ، فالهدهدُ ذَكَرَ ما هو مِن عَمَلِه في الاستدلالِ على وجودِ الخالقِ تعالى ووحدانيَّتِه، ومِثلُه كلُّ ذي صنعةٍ.

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدُلُّ على أنَّه الواحِدُ[(٢)]

٢٩- قولُه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فيه سَعَةُ علمِ اللهِ، واستدلَّ به الشافعيُّ على ثبوتِ القَدَرِ؛ فثبوتُ علمِ اللهِ تعالى لأفعالِ العبدِ دَليلٌ على تقديرِه لها[(٣)].

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ سؤالٌ؛ مِن أين للهدهدِ التهدي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٩).

والبيت لأبي العتاهية. يُنظر: ((التمثيل والمحاضرة)) للثعالبي (ص: ١١)، ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (١٣/ ٤٥٣)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١٤/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٥٩). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ٣٤٩)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (ص: ٢٤٧).

إلى معرفةِ اللهِ، ووجوبِ السجودِ له، وإنكارِ السجودِ للشمسِ، وإضافتِه إلى الشيطانِ وتزيينِه؟!

الجوابُ: أنه لا يَبْعُدُ أنْ يُلْهِمَه اللهُ ذلك كما ألهمَه وغيرَه مِن الطيورِ وسائرِ الحيوانات المعارفَ اللطيفةَ التي لا يكادُ العقلاءُ الرجاح العقول يهتدون لها، خصوصًا في زمانِ نبيٍّ سُخِّرَتْ له الطيورُ، وعُلِّمَ منْطِقَها، وجُعِلَ ذلك معجزةً له[١]. فضلًا عن إخبارِ الله عزَّ وجلَّ أنَّه ما مِن شيءٍ إلا يُسبِّحُ بحمدِه سبحانَه؛ ومِن ذلك الطيرُ.

٣١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ قَبولُ الوالي عُذرَ رعيَّتِه، ورَدُّ العُقوبةِ عنهم، وامتحانُ صدْقِهم فيما اعتَذَروا به[٢].

٣٢- في قَولِه تعالى على لِسانِ سُلَيمانَ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أنَّ الحيواناتِ تَعقِلُ ما يُوَجَّهُ إليها مِن الأمرِ والنَّهيِ والاختبارِ والفَحصِ؛ لِقَولِه: ﴿ٱذْهَب﴾، وقَولِه: ﴿فَأَلْقِهْ﴾، وقَولِه: ﴿تَوَلَّ﴾، وقَولِه: ﴿فَٱنظُرْ﴾ كلُّ هذه أوامرُ للهدهدِ؛ مما يدلُّ على أنَّ هذه الحيواناتِ تَعقِلُ، ولكنْ ليس معنى قولنا: (إنها تَعقِلُ) أنْ تكونَ عاقلةً لكلِّ أحدٍ، صحيحٌ أنَّها تَعْقِلُ عقلًا محدودًا بالنِّسبةِ لعامَّةِ النَّاسِ؛ ولهذا تُزجَرُ البَهيمةُ فتَنزَجِرُ، وتدعوها فتُقْبِلُ، ولكنْ ليس هذا كمِثلِ تسخيرِها لسليمانَ عليه الصلاةُ والسلامُ؛ فإنَّ تسخيرَها لسليمانَ أنَّها تُنَزَّلُ منه منزلةَ الإنسانِ العاقلِ الفاهمِ مِن كلِّ وجهٍ[٣].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على إرسالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧١).

الكُتُبِ إلى المُشركين مِن الإمام، يُبَلِّغُهم الدَّعوةَ، ويدعوهم إلى الإسلام، وقد كتب رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى كسرى وقيصرَ وغَيرِهما مِن مُلوكِ العَربِ[١].

٣٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ أنَّه ينبغي تَحَسُّسُ الأخبارِ عندَ الحاجةِ لذلك، وهذا ما يُسمَّى بالمتابعةِ؛ لقوله: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾، فإنه إذا تولى وجَعَلَ يَنْظُرُ لا بُدّ أنْ تتبيَّنَ له الأخبارُ، فلو أنَّه ما تولَّى عنهم فألقاه وبقيَ فقد لا يتكلَّمون بالأشياءِ التي يتكلَّمون بها إذا كان حاضرًا لديهم، لكنْ إذا تولَّى عنهم حينئذٍ وجَدوا لأنفسهم مجالًا للكلامِ حسبَ ما يريدون، وهذا مِن السياقِ[٢].

٣٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ إرسالُ الطَّيرِ بالكُتُبِ[٣].

٣٦- تَخصيصُ سُليمانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الهُدهدَ بالرِّسالةِ في قولِه: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾ دونَ سائرِ ما تحْتَ مُلكِه مِن أُمَناءِ الجنِّ الأقوياءِ على التَّصرُّفِ والتَّعرُّفِ؛ لِمَا عايَنَ فيه مِن مَخايلِ العِلْمِ والحِكمةِ وصِحَّةِ الفراسةِ، ولئلَّا يَبْقى له عُذْرٌ أصلًا[٤]. ولأنَّه الذي وقَفَ على حالِهم.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ في الكلامِ مَحذوفٌ، أي: فَقَدَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣).

الهُدهدَ حينَ تفقَّدَ الطَّيرَ، فقالَ: ...[١]. ومَقصدُ الكلامِ: الهُدهدُ غابَ، ولكنَّه أخَذَ اللَّازمَ عن مَغيبِه، وهو ألَّا يَراهُ؛ فاسْتَفهَمَ على جِهةِ التَّوقيفِ عن اللَّازمِ، وهذا ضَربٌ مِن الإيجازِ، والاستِفهامُ الَّذي في قولِه: ﴿مَالِيَ﴾ نابَ مَنابَ الألِفِ الَّتي تَحتاجُها (أمْ)، فعلى ذلك (أَمْ) مُتَّصلةٌ[٢]. وقيل: الأصحُّ أنَّ (أَمْ) مُنقطعةٌ[٣]؛ لأنَّها لم تقَعْ بعدَ هَمزةِ الاستِفهامِ الَّتي يُطلَبُ بها تَعيينُ أحدِ الشَّيئينِ؛ كأنَّه لَمَّا لمْ يَرَهُ ظنَّ أنَّه حاضرٌ، ولا يَراهُ لساترٍ أو غيرِه، فقال: ما لِيَ لا أَراهُ، ثمَّ احتاطَ، فَلَاحَ له أنَّه غائبٌ، فأضْرَبَ عن ذلك وأخَذَ يَقولُ: أهو غائِبٌ؛ كأنَّه يَسأَلُ عن صِحَّةِ ما لَاحَ له؛ فأفادَتْ (أم) هنا إضرابَ الانتقالِ مِن استِفهامٍ إلى استِفهامٍ آخَرَ[٤].

- وقيل: ﴿كَانَ﴾ هاهنا بمعنى صار؛ لأنَّه لم يستفهِمْ وهو حاضِرٌ، إنما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٣).
ممَّن ذهب في الجملة إلى أنَّ أمْ هنا متصلةٌ: ابنُ جرير، وهو ظاهر كلام ابن عطية، وذهب إليه البقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

(٣) وممَّن ذهب إلى أن ﴿أَمْ﴾ هنا منقطعة: المُبَرِّد، والزجاج، والزمخشري، والبيضاوي، وابن عثيمين، والمعنى عند الزجاج: بل كان مِن الغائبينَ. والمعنى عند المبردِ، والزمخشري، والبيضاوي، وابن عثيمين: بل أكان من الغائبين؟ يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٩٧، ١٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٥، ٢٤٦).

استفهَمَ عنه وهو غائِبٌ، وإذا حُمِلَت (كان) على لفظِها صار المعنى أنَّه استفهمَ عنه وهو حاضِرٌ، ولم يكُنْ كذلك، بل كان غائبًا وقت الاستفهامِ، فـ﴿كَانَ﴾ محمولةٌ على معنى صار، وبذلك يتِمُّ المعنى[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أكَّدَ عَزْمَه على عِقابِه بتأْكيدِ الجُملتينِ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ ﴿لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ باللَّام المُؤكِّدةِ الَّتي تُسمَّى لامَ القسَمِ، وبنُونِ التَّوكيدِ؛ لِيَعلَمَ الجُندُ ذلك، حتَّى إذا فقَدَ الهُدهدَ ولم يَرجِعْ، يكونُ ذلك التَّأكيدُ زاجرًا لباقي الجُندِ عن أنْ يأْتوا بمِثلِ فِعْلتِه، فيَنالَهم العِقابُ. وتأكيدُ جُملةِ ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾؛ لإفادةِ تَحقيقِ أنَّه لا مَنْجَى له مِن العِقابِ إلَّا أنْ يأتِيَ بحُجَّةٍ تُبرِّرُ تَغيُّبَه؛ لأنَّ سِياقَ تلك الجُملةِ يُفيدُ أنَّ مَضمونَها عَديلُ العُقوبةِ؛ فلمَّا كان العِقابُ مُؤكَّدًا مُحقَّقًا فقد اقْتَضَى تأْكيدَ المُخْرِجِ منه؛ لئلَّا يُبرِّئَه منه إلَّا تَحقُّقُ الإتيانِ بحُجَّةٍ ظاهرةٍ؛ لئلَّا تُتَوَهَّمَ هَوادةٌ في الإدلاءِ بالحُجَّةِ؛ فكان تأكيدُ العديلِ كتأْكيدِ مُعادِلِه[٢].

- وفي قولِه: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ بدَأَ أوَّلًا بأخفِّ العِقابينِ، وهو التَّعذيبُ، ثمَّ أتْبعَهُ بالأشدِّ، وهو إذهابُ المُهجَةِ بالذَّبْحِ[٣]. وقِيل: قدَّمَ التَّعذيبَ؛ لأنَّه أشدُّ مِن القتْلِ، وحالةُ الغضَبِ تَقْتضي تقديمَ الأشدِّ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾

(١) يُنظر: ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٨).

- قولُه: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ الفاءُ لتَفريعِ الحِكايةِ، عَطَفَتْ جُملةً على جُملةٍ[١].

- وفي قولِه: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ وَصَف مُكْثَه بقِصَرِ المدَّةِ؛ للدَّلالة على إسراعِه خوفًا مِن سُليمانَ، ولِيُعلَمَ كيف كان الطَّيرُ مُسخَّرًا له، ولبَيانِ ما أُعْطِيَ مِن المُعجزةِ الدَّالَّةِ على نُبوَّتِه وعلى قُدرةِ اللهِ تعالى[٢]؛ فـ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾، أي: قريبٌ قُربًا يُوصَفُ بضِدِّ البُعدِ، أي: يُوشِكُ أنْ يكونَ بعيدًا. وهذا وجْهُ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾؛ لأنَّ (غَيرَ) تُفيدُ دفْعَ تَوَهُّمِ أنْ يكونَ بعيدًا، وإنَّما يُتَوَهَّمُ ذلك إذا كان القُرْبُ يُشبِهُ البُعْدَ[٣].

- وفي الكَلامِ حَذْفٌ؛ فإنْ كان ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ زَمانًا، فالتَّقديرُ: فجاء سُليمانُ، فسأَلَهُ: ما غيَّبَك؟ فقال: أحطْتُ... وإنْ كان مَكانًا، فالتَّقديرُ: فجاء فوقَفَ مكانًا قَريبًا مِن سُليمانَ، فسَأَلَهُ: ما غيَّبَك[٤]؟

- قولُه: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ الفاءُ في ﴿فَقَالَ﴾ عاطفةٌ على (مكَثَ)، وجعَلَ القولَ عَقيبَ المُكثِ؛ لأنَّه لَمَّا حضَرَ صدَرَ القولُ مِن جِهَتِه؛ فالتَّعقيبُ حقيقيٌّ[٥].

- قولُه: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ وَصْفُ النَّبأِ بـ ﴿يَقِينٍ ﴾ تَحقيقٌ لكَونِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٩).

ما سيُلْقَى إليه شَيئًا مُحقَّقًا لا شُبْهةَ فيه؛ فوُصِفَ بالمصدرِ للمُبالَغةِ[١].

- قولُه: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ إنَّما قالَ ذلكَ حتَّى تَتشوَّفَ النَّفْسُ إلى مَعرفةِ ذلك المُبْهَم ما هو. ولَمَّا أبهَمَ في قولِه: ﴿بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، انتقَلَ إلى ما هو أقلُّ منه إبْهامًا، وهو قولُه: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾؛ إذ فيه إخبارٌ بالمكانِ الَّذي جاء منه، وأنَّه له عِلْمٌ بخَبرٍ مُسْتيقِنٍ له[٢]. فعبَّر عنه بما ذُكِرَ؛ لِتَرويجِ كلامِه عنده عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتَرغيبِه في الإصغاءِ إلى اعتذارِه واستمالةِ قلْبِه نحوَ قَبولِه؛ فإنَّ النَّفسَ للاعتذارِ المُنْبئِ عن أمْرٍ بَديعٍ أقْبَلُ، وإلى تَلقِّي ما لا تَعلمُهُ أمْيَلُ[٣].

وقيل: هذا وَحْيٌ لِسُليمانَ أجْراهُ اللهُ على لِسانِ الهُدهدِ؛ فابْتِداؤهُ بـ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ تَنبيهٌ لِسُليمانَ بأنَّ في مَخلوقاتِ اللهِ مَمالكَ ومُلوكًا تُداني مُلْكَه أو تَفوقُه في بعضِ أحوالِ المُلْكِ، جعَلهُ اللهُ مَثَلًا له، كما جَعَلَ عِلْمَ الخَضِرِ مَثَلًا لِمُوسى عليه السَّلامُ؛ لئلَّا يَغتَرَّ بانتهاءِ الأمرِ إلى ما بلَغَهُ هو. وفيه استدعاءٌ لإقبالِه على ما سيُلْقَى إليه بجملتِه؛ لأهميَّةِ هذا المَطلعِ في الكلامِ؛ فإنَّ مَعرفةَ أحوالِ المَمالكِ والأُمَمِ مِن أهمِّ ما يُعْنى به مُلوكُ الصَّلاحِ؛ لِيَكونوا على استعدادٍ بما يُفاجِئُهم مِن تِلْقائِها، ولتكونَ مِن دَواعي الازديادِ مِن العمَلِ النَّافعِ للمَمْلكةِ بالاقتداءِ بالنَّافعِ مِن أحوالِ غَيرِها، والانقباضِ عمَّا في أحوالِ المملكةِ مِن الخَلَلِ بمُشاهَدةِ آثارِ مِثْلِه في غيرِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٩).

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ استِئنافٌ ببَيانِ ما جاء به مِن النَّبأ، وتَفصيلٌ له بَعدَ الإجمالِ. وإدخالُ (إنَّ) في صَدرِ هذه الجُملةِ لأهميَّةِ الخبَرِ؛ إذ لم يكُنْ مَعهودًا في بني إسرائيلَ أنْ تكونَ المرأةُ مَلِكًا. وتَنكيرُ ﴿ٱمۡرَأَةٗ﴾ وهو مفعولٌ أوَّلُ لـ ﴿وَجَدتُّ﴾ له حُكْمُ المبتدأ، فهو كالابتداءِ بالنَّكرةِ إذا أُريدَ بالنَّكرةِ التَّعجُّبُ مِن جِنْسِها، كقولِهم: بقرةٌ تكلَّمَت؛ لأنَّ المُرادَ حِكايةُ أمْرٍ عَجيبٍ عندهم؛ أنْ تكونَ امرأةٌ مَلِكةً على قومٍ؛ ولذلك لم يقُلْ: وجَدْتُهم تَملِكُهم امرأةٌ[1]، وأيضًا عبَّرَ بالمُضارعِ ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾؛ تَصويرًا للحالِ العجيبِ، وهو أنْ تَتولَّى مُلْكَهم امرأةٌ[2].

- وإيثارُ ﴿وَجَدتُّ﴾ على (رأيتُ)؛ للإيذانِ بكَونِه عندَ غَيبتِه بصَددِ خِدْمتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بإبرازِ نفْسِه في مَعرضِ مَن يَتفقَّدُ أحوالَها ويَتعرَّفُها كأنَّها طِلْبتُه وضالَّتُه؛ لِيَعرِضَها على سُليمانَ عليه السَّلامُ[3].

- وبِناءُ الفِعلِ (أُوتِيَتْ) للمَفعولِ؛ لأنَّ الغرَضَ لا يَتعلَّقُ بتَعْيينِ أسبابِ ما نالَتْه، بلِ المقصودُ ما نالَتْه، على أنَّ الوَسائلَ والأسبابَ شَتَّى؛ فمنه ما كان إرثًا مِن الملوكِ الَّذين سَلَفوهَا، ومنه ما كان كَسْبًا مِن كَسْبِها واقتنائِها، ومنه ما وَهَبَها اللهُ مِن عَقْلٍ وحِكمةٍ، وما منَحَ بلادَها مِن خَصْبٍ ووَفرةِ مِياهٍ؛ فليس

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨١).

المُرادُ خُصوصَ ما آتاها اللهُ في أصْلِ خِلْقَتِها وخِلْقةِ أُمَّتِها وبلادِها؛ ولذا فلم يَتعيَّنِ الفاعلُ عُرْفًا. وكلٌّ مِن عندِ اللهِ(١).

- قولُه: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ وصَفَ العَرشَ بذلكَ بيْنَ يَديهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لتَرغيبِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الإصغاءِ إلى حَديثِه، وتَوجيهِ عَزيمتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نحوَ تَسخيرِها؛ ولذلك عقَّبَه بما أوجَبَ غَزْوَها مِن كُفرِها وكُفْرِ قَومِها(٢).

- والهُدهدُ الَّذي شاهَدَ مُلْكَ سُليمانَ وعظَمَتَه، قد استعظَمَ مُلْكَها وعَرشَها، وعَظمةُ العرشِ عُنوانُ عَظمةِ المُلْكِ؛ فلذا خصَّصَهُ الهُدهدُ بالذِّكْرِ، ورغَّبَ سُليمانَ في الإتيانِ به(٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ...﴾ أعقَبَ التَّنويهَ بشأْنِها بالحَطِّ مِن حالِ اعتِقادِهم؛ إذ هم يَسْجُدون، أي: يَعبُدون الشَّمسَ؛ ولأجْلِ الاهتِمامِ بهذا الخبَرِ أُعِيدَ فِعلُ ﴿وَجَدتُّهَا﴾؛ إنكارًا لكَونِهم يَسْجُدون للشَّمسِ، فذلك مِن انحطاطِ العقليَّةِ الاعتقاديَّةِ؛ فكان انحطاطُهم في الجانبِ الغيبيِّ مِن التَّفكيرِ، وهو ما يَظهَرُ فيه تَفاوُتُ عرضِ العُقولِ علَى الحَقائقِ؛ لأنَّه جانبٌ مُتمحِّضٌ لعَملِ الفِكْرِ، لا يُسْتعانُ فيه بالأدلَّةِ المَحسوسةِ؛ فلا جَرَمَ أنْ تَضِلَّ فيه عُقولُ كثيرٍ مِن أهلِ العقولِ الصَّحيحةِ في الشُّؤونِ الخاضعةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٣).

للحواسِّ[١].

- وجُملةُ ﴿وَجَدتُّهَا﴾ مُستأنفةٌ للبَيانِ، جوابًا على تَقْديرِ سُؤالٍ؛ فالكلامُ السَّابقُ بيَّن حالَتَها مِن ناحيةِ الدُّنيا، فتَشوَّفَتْ نفْسُ السَّامعِ إلى مَعرفةِ حالَتِها مِن ناحيةِ الدِّينِ[٢].

- قولُه: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أفادَتِ الفاءُ في ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ أنَّ عَدمَ اهتدائِهم مُسبَّبٌ عن صَدِّ الشَّيطانِ لهم، وصَدَّه مُسبَّبٌ عن تَزيينِه لأعمالِهم[٣].

- وما أحسَنَ انتقالاتِ هذه الأخبارِ بعدَ تَهدُّدِ الهُدهدِ وعِلْمِه بذلك؛ حيثُ أخبَرَ أوَّلًا باطِّلاعِه على ما لم يَطَّلِعْ عليه سُليمانُ؛ تَحصُّنًا مِن العُقوبةِ بزِينةِ العِلْمِ الَّذي حصَلَ له، فتَشوَّفَ السَّامعُ إلى عِلْمِ ذلك. ثمَّ أخبَرَ ثانيًا بتَعلُّقِ ذلك العِلْمِ؛ وهو أنَّه مِن سبَأٍ، وأنَّه أمْرٌ مُتيقَّنٌ لا شكَّ فيه، فازْدادَ تَشوُّفُ السَّامعِ إلى سَماعِ ذلك النَّبأِ. ثمَّ أخبَرَ ثالثًا عن المُلْكِ الَّذي أُوتِيَتْه امرأةٌ، وكان سُليمانُ عليه السَّلامُ قد سأَلَ اللهَ أنْ يُؤتِيَهُ مُلْكًا لا يَنْبَغي لأحدٍ مِن بَعدِه. ثمَّ أخبَرَ رابعًا ما ظاهِرُه الاشتراكُ بيْنه وبيْن هذه المرأةِ الَّتي ليس مِن شأْنِها ولا شأْنِ النِّساءِ أنْ تَملِكَ فُحولَ الرِّجالِ، وهو قولُه: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقولُه: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، قيل: وكان سُليمانُ له بِساطٌ قد صُنِعَ له، وكان عظيمًا. ولَمَّا لم يَتأثَّرْ سُليمانُ للإخبارِ بهذا كلِّه؛ إذ هو أمْرٌ دُنياويٌّ، أخبَرَهُ خامِسًا بما يَهُزُّه لِطَلبِ هذه المَلِكةِ، ودُعائِها إلى الإيمانِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وإفرادِ اللهِ بالعِبادةِ؛ فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ بَدلُ بَعضٍ مِن ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾[النمل: ٢٤]؛ خُصِّصَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه أصلُ كُفْرِهم، ومَبعثُ فَسادِ أعمالِهم[٢].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وَصْفٌ له تعالى بما يُوجِبُ اختصاصَه باستِحقاقِ السُّجودِ مِن التَّفرُّدِ بكَمالِ القُدرةِ والعِلْمِ؛ حثًّا على سُجودِهم، ورَدًّا على مَن يَسجُدُ لغَيرِه. وتَخصيصُ هذا الوَصْفِ بالذِّكْرِ بصَددِ بَيانِ تَفرُّدِه تعالى باستِحقاقِ السُّجودِ له مِن بيْنِ سائرِ أوصافِه المُوجِبةِ لذلك؛ لِمَا أنَّه أرْسَخُ في مَعرفتِه والإحاطةِ بأحكامِه بمُشاهَدةِ آثارِه الَّتي مِن جُمْلَتِها ما أوْدَعَهُ اللهُ تعالى في نفْسِه مِن القُدرةِ على مَعرفةِ الماءِ تحتَ الأرضِ[٣].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ ﴿ٱلْخَبْءَ﴾: مَصدرُ خبَأَ الشَّيءَ، إذا أخْفاهُ؛ أُطلِقَ هنا على اسمِ المفعولِ -أي: المَخبوء- على طَريقةِ المُبالَغةِ في الخَفاءِ كما هو شأْنُ الوَصْفِ بالمصدرِ. ومُناسَبةُ وُقوعِ الصِّفةِ بالموصولِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ لحالةِ خَبرِ الهُدهدِ ظاهرةٌ؛ لأنَّ فيها اطِّلاعًا على أمْرٍ خَفِيٍّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٥).

- وأيضًا قولُه: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ...﴾ مُؤذِنٌ بصِفَةِ القُدرةِ، وقولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ مُؤذِنٌ بعُمومِ صِفَةِ العِلْمِ[١].

- قولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ عَطْفٌ على ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾؛ لِتَرتُّبِه عليه تَرتُّبَ المدلولِ على دَليلِه؛ فإخراجُ الخَبْءِ لا يكونُ إلَّا مِن العالِمِ بذلك الخَبْءِ، الَّذي أحاطَ عِلْمُه به في حالِ سَتْرِه، وفي حالِ ظُهورِه؛ فيَدلُّ ذلك على شُمولِ عِلْمِه لِمَا ظهَرَ وما بطَنَ، ومنه ما يُخْفون وما يُعلِنون[٢].

- وذِكْرُ (مَا تُعْلِنُونَ) لتَوسيعِ دائرةِ العلْمِ، أو للتَّنبيهِ على تَساويهِما بالنِّسبةِ إلى العِلْمِ الإلهيِّ[٣].

٧- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾

- مَجيءُ جُملةِ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ عقبَ قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥]: استئنافٌ، وهو بمَنزلةِ النَّتيجةِ للصِّفاتِ الَّتي أُجْرِيَت على اسمِ الجلالةِ، وهو المقصودُ مِن هذا التَّذييلِ، أي: ليس لغَيرِ اللهِ شُبْهةُ إلَهيَّةٍ[٤].

وقِيل: إنَّه مِن تَمامِ كلامِ الهُدهدِ؛ كأنَّه اسْتدرَكَ ورَدَّ العَظمةَ مِن عَرشِ بِلْقيسَ إلى عَرشِ اللهِ تعالى[٥].

- قولُه: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ خَصَّ العرشَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه أعظَمُ المخلوقاتِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٢).

وما عدَاهُ في ضِمْنِه[١].

- وكذلك قولُه: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فيه تَعريضٌ بأنَّ عَظَمةَ مُلْكِ بِلْقيسَ، وعِظَمَ عَرشِها ما كان حَقيقًا بأنْ يَغُرَّها بالإعراضِ عن عِبادةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ هو ربُّ المُلْكِ الأعظَم، فتَعريفُ العَرشِ؛ للدَّلالةِ على معنى الكَمالِ. ووَصْفُه بـ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾؛ للدَّلالةِ على كَمالِ العِظَمِ في تَجسُّمِ النَّفاسةِ[٢].

- وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ وَحدانيَّتَهُ في الأُلوهيَّةِ فلا يُعبَدُ سِواهُ، ذَكَرَ وَحدانيَّتَهُ في الرُّبوبيَّةِ، بانفِرادِه بالخَلْقِ والمُلْكِ والتَّصرُّفِ والتَّدبُّرِ لهذا المخلوقِ العَظيمِ، ونبَّه به على ما دونَهُ مِن المخلوقاتِ. ولَمَّا كان الحَديثُ على عَظَمةِ مُلْكِ العِبادِ: مُلْكِ النُّبوَّةِ وغيرِه، ذكَرَ عَظمةَ مُلْكِ اللهِ الَّتي تَصغُرُ إزاءَها كُلُّ عَظمةٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ هذا مِن جُملةِ الكلامِ الَّذي أُلْقِيَ على لِسانِ الهُدهدِ؛ فالواوُ للعَطْفِ. أو أن يكونَ كلامًا آخَرَ مِن القُرآنِ ذُيِّلَ به الكلامُ المُلْقَى إلى سُليمانَ؛ فالواوُ للاعتراضِ بيْن الكلامِ المُلْقَى لسُليمانَ وبيْن جَوابِ سُليمانَ، والمقصودُ: التَّعريضُ بالمُشركينَ[٤].

- وما حُكِيَ مِن الهُدهدِ مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ إلى ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ليس داخلًا تحتَ قولِه: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، وإنَّما هو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٤).

مِن العلومِ والمعارفِ الَّتي اقْتبَسَها مِن سُليمانَ عليه السَّلامُ؛ أوردَهُ بَيانًا لِمَا هو عليهِ، وإظْهارًا لِتَصلُّبِه في الدِّينِ؛ وكلُّ ذلكَ لِتَوجيهِ قلْبِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ نحوَ قَبولِ كَلامِه، وصَرْفِ عِنانِ عَزيمتِه عليه السَّلامُ إلى غَزْوِها وتَسخيرِ ولَايتِها[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ كلامِ الهُدهدِ؛ كأنَّه قيلَ: فماذا فعَلَ سُليمانُ عليه السَّلامُ عندَ ذلكَ؟ فقيل: قال...[٢].

- والسِّينُ في قولِه: ﴿سَنَنظُرُ﴾ للتَّأكيدِ[٣].

- قولُه: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ كان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يقولَ: (... أم كذَبْتَ)، وإيثارُ مَا عليهِ النَّظمُ الكريمُ؛ للإيذانِ بأنَّ كَذِبَه في هذه المادَّةِ يَستلزِمُ انتظامَه في سِلْكِ المَوسومينَ بالكذِبِ الرَّاسخينَ فيه؛ فإنَّ مَساقَ هذه الأقاويلِ المُلفَّقةِ على تَرتيبٍ أنيقٍ يَسْتَميلُ قُلوبَ السَّامعينَ نحوَ قَبولِها مِن غيرِ أنْ يكونَ لها مِصْداقٌ أصلًا -لا سيَّما بيْن يَدَي نَبيٍّ عظيمِ الشَّأنِ- لا يَكادُ يَصدُرُ إلَّا عمَّن له قدَمٌ راسخٌ في الكذِبِ والإفكِ. وأيضًا في هذا النَّظمِ مُراعاةٌ للفواصلِ[٤]. وفي ذلك إيذانٌ بتَوضيحِ تُهْمَتِه بالكذبِ؛ لِيَتخلَّصَ مِن العِقابِ، وإيذانٌ بالتَّوبيخِ والتَّهديدِ وإدخالِ الرَّوعِ عليه، بأنَّ كَذِبَه أرجَحُ عندَ المَلِكِ؛ ليكونَ الهُدهدُ مُغلِّبًا الخوفَ على الرَّجاءِ، وذلك أدْخَلُ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٦).

التَّأديبِ على مِثْلِ فِعلَتِه وفي حِرْصِه على تَصديقِ نفْسِه، بأنْ يُبلِّغَ الكتابَ الَّذي يُرسِلُه معه[١].

٩- قولُه تعالى: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لجُملةِ ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾؛ لأنَّ فيما سيَنكشِفُ بعدَ تَوجيهِ كِتابِه إلى مَلَكةِ سبأٍ ما يُصدِّقُ خبَرَ الهُدهدِ إنْ جاء مِن المَلِكةِ جَوابٌ عن كِتابِه، أو يُكذِّبُ خبَرَ الهُدهدِ إنْ لم يَجِئْ منها جوابٌ[٢].

- قولُه: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾ يَقْتَضي كلامًا مَحذوفًا؛ وهو أنَّ سُليمانَ فكَّرَ في الاتِّصالِ بيْن مَمْلكتِه وبيْن مَمْلكةِ سبأٍ، فأحضَرَ كِتابًا، وحمَّلَه الهُدهدَ[٣].

- قولُه: ﴿فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ قالَه على لفْظِ الجمْعِ؛ لأنَّه قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ﴾ [النمل: ٢٤]، فقال: فألْقِه إلى الَّذين هذا دِينُهم؛ اهتمامًا منه بأمْرِ الدِّينِ، واشْتغالًا به عن غَيرِه. وبَنى الخِطابَ في الكتابِ على لفْظِ الجمْعِ لذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣).

الآيات (٢٩-٣٧)

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِىَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾: أي: وُجوهُ النَّاسِ وأشرافُهم، والمَلَأُ: جماعةٌ يجتَمِعون على رأيٍ، ويملؤون العيونَ مَنظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجَلالًا، وأصلُه يدُلُّ على: المساواةِ والكَمالِ في الشَّيءِ[1].

﴿أَفْتُونِى﴾: أي: أجيبوني، وأشيروا عليَّ، ونبئوني ما أفعلُ، والفُتْيا والفَتْوَى: الجوابُ عمَّا يُشكلُ مِن الأحكامِ، وأصلُ (فتى) هنا: يدلُّ على تَبْيينِ حكمٍ[2].

﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ﴾: أي: أصحابُ شِدَّةٍ فِي الحَربِ، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

الشِّدَّةِ وما ضارَعَها[١].

﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾: أي: لا طاقةَ لهم على استقبالِها ودفاعِها، وأصلُ (قبل): يدُلُّ على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[٢].

﴿صَٰغِرُونَ﴾: أي: عاجِزونَ أذِلَّاءُ، وأصلُ الصِّغرِ: يَدُلُّ على قِلَّةٍ وحقارةٍ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾

قولُه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟﴾: فيه أوجُهٌ؛ **أحدُها**: أنَّ (أنْ) مفَسِّرةٌ، وجملةُ النَّهيِ بعدَه (لا تَعلُوا) تفسيريَّةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ.

والثاني: أنَّ (أنْ) مصدريَّةٌ و(لا) نافيةٌ، والمصدرُ المؤوَّلُ في محلِّ رفعٍ بدلٌ من ﴿كِتَٰبٌ﴾.

والثالث: أنَّ المصدرَ المؤوَّلَ في موضعِ رفعٍ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو ألَّا تعلوا.

والرابع: أنَّه منصوبٌ على نزعِ الخافضِ، أي: بألَّا تعلُوا[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١٣٠)، =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما كان مِن ملكةِ سبأٍ بعدَ أنْ وصَلها كتابُ سليمانَ عليه السلامُ: قالت ملِكةُ سَبأٍ لأشرافِ قَومِها بعد أن قرأَتْ كِتابَ سُلَيمانَ: يا أيُّها الأشرافُ، لقد أُلقِيَ إليَّ كتابٌ جَليلُ القَدرِ من سُلَيمانَ، وإنَّه: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، لا تتكبَّرُوا عليَّ بل انقادُوا لِما آمُرُكم به، وأقبِلوا إليَّ مُنقادينَ لله بالطَّاعةِ والوحدانيَّةِ، ثمَّ قالت لأشرافِ قَومِها: يا أيُّها الأشرافُ أشيروا عليَّ؛ فما كنتُ أقطَعُ أمرًا دونَكم، فقالوا: نحن أصحابُ قوَّةٍ وشدَّةٍ في الحَربِ، والرأيُ إليك في قِتالِ سُلَيمانَ أو مُسالَمتِه، فانظُري فيما تأمُرينَنا به، فقالت: إنَّ الملوكَ إذا دخَلوا مدينةً خرَّبوها، وذلُّوا أهلَها، وتلك عادتُهم، وإني باعِثةٌ إلى سُلَيمانَ وقَومِه بهديةٍ عَظيمةٍ؛ لأنظُرَ بمَ ترجِعُ رسُلي مِن خبرِ سُلَيمانَ؟

فلما جاءت رسُلُها إلى سُلَيمانَ بالهدايا أنكر عليهم، وقال لهم: أتعطونَني مالًا لأتركَكُم على شِركِكم، فما أعطاني اللهُ أفضَلُ ممَّا أعطاكم، بل أنتم الذين تَفرحَون بالهدايا التي تُهدَى إليكم، ارجِعْ إلى قَومِك فإنْ لم يأتوا إليَّ مُسلِمين فسأرسِلُ إليهم جُنودًا لا طاقةَ لهم بقتالِهم، ولنُخرجَنَّهم من أرضِهم أذلَّةً مُهانينَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: قالت مَلِكةُ سَبأٍ لأشرافِ قَومِها بعد أن قرأتْ كِتابَ سُلَيمانَ: يا أيُّها الأشرافُ والسَّادةُ، لقد رُميَ إليَّ[1] كتابٌ حَسَنٌ منظرُه، جليلٌ قدْرُه، شريفٌ

= ((مشكل إعراب القرآن)) لمكِّي (٢/ ٥٣٤)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٠٩).

(١) قال ابن عثيمين: (ما قالتْ: ألقى الهُدهدُ؛ لأنَّ الظَّاهرَ أنَّه مرَّ ثمَّ حذَفه عليها، وليس معناه أنَّه =

كاتِبُه[١].

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾.

أي: قَرَأت ملِكةُ سَبأٍ الكِتابَ على قَومِها فقالت: إنَّ الكِتابَ مِن سُلَيمانَ، وإنَّه بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ[٢].

﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾.

﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾.

= جاء ووقَف بيْنَ يدَيْها وأعطاها الكِتابَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٣).

وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ قولِها: ﴿أُلۡقِيَ إِلَيَّ﴾ أنَّ الكتابَ سُلِّمَ إليها دُونَ حضورِ أهلِ مجلِسِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٨).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦، ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٧، ٢٥٨).

قال ابن عاشور: (وصْفُ الكتابِ بالكريمِ ينصَرِفُ إلى نفاستِه في جنسِه... بأن كان نفيسَ الصحيفةِ، نفيسَ التخطيطِ، بهيجَ الشَّكلِ، مستوفيًا كلَّ ما جرت عادةُ أمثالِهم بالتأنُّق فيه. ومن ذلك أن يكونَ مختومًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٨).

وقال ابنُ عثيمين: (الكريمُ معناه: المتضَمِّنُ للمعاني العظيمةِ المؤثِّرةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٨).

قال ابن عاشور: (يحتمِلُ أن يكونَ قد تُرجِمَ لها قبل أن تخرُجَ إلى مجلِسِ مَشورتِها، ويحتَمِلُ أن تكونَ عارفةً بالعبرانية، ويحتَمِلُ أن يكونَ الكتابُ مكتوبًا بالعربيَّةِ القَحطانيَّةِ؛ فإنَّ عظمةَ مُلكِ سُلَيمانَ لا تخلو من كتَّابٍ عارفينَ بلغاتِ الأُمَمِ المجاوِرةِ لمَملكتِه، وكونُه بلغتِه أظهَرُ وأنسَبُ بشِعارِ الملوكِ، وقد كتب النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ للملوكِ باللُّغةِ العربيَّةِ. أمَّا الكلامُ المذكورُ في هذه الآية فهو ترجمةُ الكِتابِ إلى اللغةِ العربيةِ الفُصحى بتضمينِ دقائِقِه وخصوصيَّاتِ اللُّغةِ التي أنشِئَ بها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٨، ٢٥٩).

أي: ألَّا تتكبَّرُوا وتمتَنِعوا عليَّ، بل اخضَعوا لي، وانقادُوا لِما آمُرُكم به[١].

﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

أي: وأقْبِلوا إليَّ مُنقادين مُذعِنين لله بالوحدانيَّةِ والطاعةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

قال السمعاني: (وقوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: هو مِنَ الإسلامِ، والآخَرُ: مِنَ الاستِسلام). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٤).

ممَّن اختارَ القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والخازن، والعليمي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٧٤)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩).

قال الألوسي: (والدَّعوةُ على الأوَّلِ [أي أنَّ المرادَ: وأْتوني مؤمنينَ] دعوةُ النُّبوَّةِ، وعلى الثَّاني [أي أنَّ المرادَ: وأْتوني مُنقادينَ مُستَسلِمينَ] دعوةُ الملْكِ. واللَّائقُ بشأنِه عليه السَّلامُ هو الأوَّلُ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٩١).

وقال أبو السعود: (على أنَّ الإيمانَ مستتبِعٌ للانقياد حتمًا). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣).

وقال ابن عاشور: (إطلاقُ اسمِ الإسلامِ على الدينِ يدُلُّ على أنَّ سليمانَ إنما دعا ملِكةَ سبأٍ وقومَها إلى نبذِ الشِّركِ، والاعترافِ للهِ بالإلهية والوحدانية، ولم يدعُهم إلى اتِّباعِ شريعة التوراة؛ لأنَّهم غيرُ مخاطبين بها، وأمَّا دعوتُهم إلى إفراد الله بالعبادةِ والاعترافِ له بالوحدانيةِ في الإلهية؛ فذلك ممَّا خاطب الله به البشَرَ كُلَّهم، وشاع ذلك فيهم من عهدِ آدم ونوح وإبراهيم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٠). =

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾.

أي: قالت مَلِكةُ سَبَأٍ لأشرافِ قَومِها: يا أيُّها الأشرافُ، أشيروا عليَّ، وبيِّنُوا لي: ماذا أفعَلُ في هذا الأمرِ[1]؟

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾.

أي: ما كنتُ لأستبدَّ برأيي في أمرٍ عامٍّ ومُهمٍّ، حتى تحضُروا عندي وتُشيروا عليَّ فيه[2].

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

= وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ أي أنَّ المرادَ: وأْتوني مستسلِمينَ: السمرقنديُّ، والبِقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٩١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: الكلبي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩).

وقال ابن عثيمين: (هل يلزَمُ مِن إتيانِهم مُستسلِمينَ له أن يكونوا مُسلِمين لله؟ لا يلزَمُ، لكِنْ يلزَمُ مِن كونِهم مُسلِمين لله أن يَستسلِموا له، وأن يأتوا مُطيعين غيرَ مُخالِفين). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٦).

وممَّن جمَع بيْنَ القَولَينِ: السعديُّ، فقال: (﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ أي: لا تَكونوا فَوقي، بلِ اخضَعوا تحتَ سُلطاني، وانقادُوا لأوامري، وأَقْبِلوا إلَيَّ مسلمينَ. وهذا في غايةِ الوجازةِ، مع البيانِ التَّامِّ؛ فإنَّه تضَمَّنَ نَهْيَهم عن العُلوِّ عليه والبقاءِ على حالِهم التي هم عليها، والانقيادَ لأمرِه، والدُّخولَ تحتَ طاعتِه، ومجيئَهم إليه، ودعوتَهم إلى الإسلامِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩)، ((فتح البيان)) للقنوجي (١٠/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٣، ٢٦٤).

﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾.

أي: قال الأشرافُ الذين استشارَتْهم مَلِكةُ سَبأٍ: نحن أصحابُ قوَّةٍ بالمالِ والرِّجالِ والعَتادِ، وأصحابُ شدَّةٍ وعزمٍ في الحَربِ، فإن شئتِ أن نحارِبَ سُلَيمانَ فلا مانعَ لدينا[1].

﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾.

أي: وقد فوَّضْنا الرأيَ إليكِ في قتالِ سُلَيمانَ أو مُسالَمتِه، ففكِّري فيما تأمُرينَنا به، ونحن على استعدادٍ لطاعتِك، وتنفيذِ أوامِرِك[2].

﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤﴾.

﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾.

أي: قالت مَلِكةُ سَبأٍ: إنَّ الملوكَ إذا دخَلوا مدينةً بالقَهرِ والغَلَبةِ، نَهَبوها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٢، ١٨٣).

قال أبو حيان: (قالوا: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾، وذلك مِن حُسنِ مُحاورتِهم؛ إذ وكَّلوا الأمرَ إليها، وهو دَليلٌ على الطاعةِ المُفرِطةِ، أي: نحن ذكَرْنا ما نحن عليه، ومع ذلك فالأمرُ مَوكولٌ إليكِ، كأنَّهم أشاروا أوَّلًا عليها بالحَربِ، أو أرادوا: نحن أبناءُ الحَربِ لا أبناءُ الاستشارةِ، وأنتِ ذاتُ الرأيِ والتَّدبيرِ الحَسَنِ؛ فانظُري ماذا تأمُرين به، نرجِعْ إليك، ونتَّبِعْ رأيَكِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٦).

وخرَّبوها[١].

﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ﴾.

أي: وأهانوا كُبَراءَها وأشرافَها، باستِعبادِهم، أو إذلالِهم بالقَتلِ والأسرِ والنَّفيِ، وغيرِ ذلك من فنونِ الإهانةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٥).

قال البقاعي: (﴿قَالَتۡ﴾ جوابًا لما أحسَّت في جوابِهم مِن مَيلِهم إلى الحَربِ: إنَّ الصوابَ مِن غيرِ ارتيابٍ أن نحتالَ في عدمِ قَصدِ هذا المَلِكِ المطاعِ، ثمَّ عَلَّلت هذا الذي أفهَمَه سياقُ كلامِها بقَولِها: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ﴾ أي: مُطلقًا، فكيف بهذا النافِذِ الأمرِ، العظيمِ القَدرِ؟!). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٥٩، ١٦٠).

وقال ابن عثيمين: (والملوكُ إذا دخَلوا قريةً أفسَدوها؛ لأنَّ عندهم من العلُوِّ والغَلَبةِ والاستكبارِ ما يُوجِبُ أن يَفتِكوا بأهلِ البلَدِ الذي يدخلونَه، وليس المرادُ هنا بالإفسادِ الإفسادَ المعنويَّ، يعني: بإفسادِ الأخلاقِ مثلًا، المرادُ... الإفسادُ بالتخريبِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٤).

قال ابن عاشور: (أبدتْ لهم رأيَها مفضِّلةً جانبَ السِّلمِ على جانبِ الحربِ، وحاذِرةً مِن الدُّخولِ تحت سلطةِ سليمانَ اختيارًا؛ لأنَّ نهايةَ الحربِ فيها احتمالُ أن ينتصرَ سليمانُ، فتصيرَ مملكةُ سبأٍ إليه، وفي الدُّخولِ تحتَ سلطةِ سليمانَ إلقاءٌ للمملكةِ في تصرُّفِه، وفي كِلا الحالين يحصلُ تصرُّفُ ملكٍ جديدٍ في مدينتِها، فعَلِمَتْ بقياسِ شواهدِ التاريخِ وبخبرةِ طبائعِ الملوكِ إذا تصرَّفوا في مملكةِ غيرِهم أن يقلبوا نظامَها إلى ما يُسايرُ مصالحَهم واطمئنانَ نفوسِهم مِن انقلابِ الأمَّةِ المغلوبةِ عليهم في فُرَصِ الضَّعفِ، أو لوائحِ الاشتغالِ بحوادثَ مهمَّةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٥).

وقال ابنُ عثيمين: (وقَولُها: ﴿أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ﴾ سواءٌ كانت هذه العزَّةُ تعودُ إلى المُلْكِ، أو تعودُ إلى الجاهِ والشَّرَفِ، أو إلى العِلمِ أحيانًا، فإنَّهم يُسلَّطون على الأعِزَّةِ؛ لأنَّ لهم الكَلِمةَ فيما سبق، =

﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾.

أي: وتلك عادةُ الملوكِ إذا دخَلوا مدينةً بالقَهرِ والغَلَبةِ: أن يُفسِدوها، ويُذِلُّوا أعزَّةَ أهلِها[1].

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَت ما في المصادمةِ مِن الخطرِ؛ أتبَعَتْه بما عَزَمَتْ عليه مِن المسالَمةِ بقَولِها[2]:

= فهم الذين دبَّروا هذه الحروبَ ثم هُزِموا، فتكونُ رحى الحربِ عليهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٥).

قيل: إنَّ هذه الجُملةَ ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ مِن كلامِ الله تعالى؛ تصديقًا وتأكيدًا لِقَولِها. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والزجاج، والواحدي، وابنُ كثير، ونسَبه السمعاني إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٥).

وعلى ذلك فهذه الجملةُ مِن (الموصولِ لفظًا، المفصولِ معنى)، أو ما يُسمَّى عندَ بعضِ العلماءِ: (المدرج). يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٢٩٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٣٠٩).

وقيل: إنَّ هذه الجملةَ من بقيَّةِ كلامِ ملِكةِ سبأٍ، وليست معتَرِضةً من كلامِ الله سبحانَه. وممَّن اختار ذلك: الزمخشري، والبيضاوي، واستظهره أبو حيان، والسمين الحلبي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٧).

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: قالت مَلِكةُ سَبأٍ: وإنِّي باعثةٌ رسُلًا إلى سُلَيمانَ وقَومِه بهديَّةٍ عظيمةٍ(١)، فناظِرةٌ(٢) ما سترجِعُ به رسُلي من خبرِ وحالِ سُلَيمانَ وقَومِه، وهل يقبَلُ هديَّتَنا ومهادنَتَنا، أو يُصِرُّ على أمرِه بالإتيانِ إليه مُسلِمينَ(٣).

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

---

(١) قال أبو حيان: (قد طوَّلوا في قَصَصِها بما لم يثبُتْ في القرآنِ ولا الحديثِ الصَّحيحِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٥٥).

(٢) قولها: ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ يحتملُ أن يكونَ مِنَ النَّظرِ، يعني: أنظُرُ بعْدَ إرسالِ الهديَّةِ: بِمَ يرجِعُ المُرسَلون؟ ويحتملُ أن يكونَ من الانتظار، ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ أي: فمُنتظِرةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٨).

ممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، وابن كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٨).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثاني: القرطبيُّ، والنسفي، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٠٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢، ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٩٦، ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٦، ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٨-١٩٠).

واختُلِف فيما قصَدت بهديتِها؛ فقيل: قصَدت الملاطفةَ والاستنزالَ، ذكَره قَتادةُ. وقيل: قصَدت اختبارَ نُبوَّتِه مِن مُلكِه، وأنَّها اختبرتْه بالقَبولِ والرَّدِّ، فقالت: إنْ قَبِل الهديَّةَ فهو مَلِكٌ، فقاتِلوه على ملكِكم، وإن لم يقبَلِ الهديَّةَ فهو نبيٌّ، لا طاقةَ لكم بقتالِه، قاله ابنُ عبَّاسٍ وزهيرٌ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٠٩).

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾.

أي: فلمَّا وصَلَ وَفدُ مَلِكةِ سَبأٍ إلى سُلَيمانَ بالهَدايا، أنكرَ عليهم عدَمَ مجيئِهم إليه مُسلِمين كما أمَرَهم، وقال لهم مُتغيِّظًا: أتُعطونني مالًا لأترَكَكم على شِركِكم[1]؟!

﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾.

أي: فما أعطاني اللهُ من النبُوَّةِ والمُلكِ والأموالِ ونعيمِ الدُّنيا: أفضَلُ مِمَّا أعطاكم[2].

﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾.

أي: أنا لا أفرَحُ بهديَّتِكم هذه، ولا أقبَلُ منكم إلَّا الإسلامَ، ولكِنْ أنتم الذين تفْرَحونَ بما يُهْدَى إليكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٧، ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٤).

قال الرازي: (أمَّا قولُه: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ ففيه ثلاثةُ أوجهٍ؛ أحدُها: أنَّ ... المعنَى أنَّ اللهَ تعالَى آتاني الدِّينَ الَّذي هو السَّعادةُ القُصْوى، وآتاني مِنَ الدُّنيا ما لا مَزيدَ عليه، فكيف يُستمالُ مِثْلي بمِثلِ هذه الهديَّةِ؟! بل أنتم تفرحونَ بما يُهْدَى إليكم، لكنَّ حالي خلافُ حالِكم.

وثانيها: بل أنتم بهديَّتِكم هذه الَّتي أهدَيْتُموها تفرحونَ مِن حيثُ إنَّكم قدَرْتُم على إهداءِ مِثْلِها.

وثالثُها: كأنَّه قال: بل أنتم مِن حَقِّكم أنْ تأخُذوا هديَّتَكم وتَفْرَحوا بها). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٥٥).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: بل أنتم تفرحون بالهَديَّةِ الَّتي تُهدى إليكم: مقاتلُ بن سليمان، وابن =

﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧ ﴾.

﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾.

أي: قال سُلَيمانُ لأميرِ الوفدِ: ارجِعْ إلى مَن أرسَلَك بهذه الهَديَّةِ، فإنْ لم يأتُوا إليَّ مُسلِمينَ فسأُرسِلُ إليهم جُنودًا لا طاقةَ لهم بقِتالِهم(١).

﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾.

أي: ولَنُخرِجنَّهم من أرضِهم أذلَّاءَ مُهانينَ إنْ لم يأتوني مُسلِمينَ(٢).

= جرير، والسمرقندي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والخازن، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٤).

وممَّن اختار أن هذا توبيخٌ لهم بفرحهم بهذه الهَديَّةِ فرَحَ فخرٍ وخُيلاءٍ وامتِنانٍ واعتدادٍ بها: أبو السعود، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٢)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٧/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠١، ٢٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٩).

قال ابنُ عُثيمين: (قولُه: ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ﴾ فنحتَلُّ بلادَهم ونخرِجُهم منها أذِلَّةً ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ الفَرقُ بين الذِّلَّةِ والصَّغارِ: الذِّلَّةُ: الذُّلُّ في النفْسِ، والصَّغارُ: في البدنِ، يعني: يكون مُستَسْلِمًا باطنًا بالذُّلِّ؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٥]، فالخشوعُ بمعنى الصَّغارِ، والذُّلُّ: هو ذُلُّ النفْسِ. والعياذُ بالله). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٨).

وقال العسكري: (الصَّغارُ هو الاعترافُ بالذُّلِّ، والإقرارُ به، وإظهارُ صِغَرِ الإنسانِ). ((الفروق اللغوية)) (ص: ٢٤٩). ويُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٨٥).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ المشاورةُ والاستعانةُ بالآراءِ في الأمورِ المهمَّةِ[١]، فهي مع أنَّها مَلِكةٌ، ولها تمامُ السُّلطةِ؛ فمع ذلك لم تستغْنِ عن المُشاورةِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أنَّه إذا قَدَّمَ المستشارُ مشورتَه لإنسانٍ أكبرَ منه قدرًا أو فهمًا أو عِلمًا؛ أنَّ له أن يقولَ مثلَ هذا تأدُّبًا، وصاحِبُه بالخيارِ: إنْ شاء أخَذَ بمشورتِه، وإنْ شاء لم يأخُذْ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِىَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ دَليلٌ على جوازِ الغِلظةِ في القَولِ إذا كانتِ المصلحةُ فيه؛ لأنَّ هذا الأسلوبَ مِن سُلَيمانَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أُسلوبٌ قويٌّ؛ إذْ إنَّ الاستفهامَ في قَولِه: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ للتَّوبيخِ والتعجيبِ، يعني أنَّه يُوَبِّخُهم على فِعلِهم، ويَتَعَجَّبُ مِن فِعلِهم: كيف يُمِدُّونه بمالٍ وهو مَلِكٌ ومعروفٌ ومشهورٌ[٤]؟!

والعاقلُ يعرفُ مظانَّ الغضبِ لله تعالى فيغضبُ فيها، ويعرفُ مظانَّ التلطفِ فيتلطَّفُ فيها، ألَا ترَى أنَّ سليمانَ عليه السلامُ قال: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]، فلمَّا لم تُجِبْهُ بلقيسُ وغالَطَتْه بالهدية قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨١).

قال ابنُ عاشور: (شأن القرآنِ فيما يَذكرُه مِن القَصَصِ أنْ يذكرَ المهمَّ منها للمَوعِظةِ أو للأُسوةِ... فلذلك يُستروَحُ مِن سياقِ هذه الآيةِ حسنُ الشُّورَى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: (المصدر السابق)) (ص: ١٩٥).

وجميعُ الرُّسلِ إذا استُقرِئ أمرُهم في بَدءِ الإرسالِ وجدْتَ فيه الرِّفقَ واللينَ والشفقةَ على قومِهم، فإذا أصرُّوا وعانَدوا أغلَظوا لهم حينَئذٍ؛ لِما ركَّب الله تعالى في رسلِه مِن العقولِ الوافرةِ، والأحلامِ الكاملةِ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، حيثُ يجعلُ رسالتَه بخلافِ الغبيِّ الذي يلينُ في مواطنِ الإغلاظِ، ويُغلظُ في مظانِّ اللين، معتقدًا أنَّه مقتدٍ بالرسلِ في غلظتِهم ولينِهم! فنعوذُ باللهِ مِن الجهلِ بمظانِّ خطابِه، ومِن تحريفِ كلامِه، وتنزيلِه على غيرِ مرادِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ أنَّ كَرَمَ كلِّ شيءٍ بحسبِه، فالكرمُ بالمالِ معناه: بذْلُه بسخاءٍ، والكريمُ مِن المالِ يُطلَقُ على الجيدِ منه، كما قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((وإياك وكرائمَ أموالِهم))[٢]، وكذلك أيضًا يُوْصَفُ بالكَرَمِ ما يتضمَّنُ الشيءَ المهمَّ؛ كما في هذا الوصفِ في كتابِ سُلَيمانَ عليه الصلاةُ والسلامُ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ استحبابُ ابتداءِ الكتبِ بالبَسملةِ كاملةً[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ سؤالٌ؛ لِمَ قَدَّمَ سُلَيمانُ اسمَه على البسملةِ؟

الجوابُ: أنه لم يقعْ منه ذلك! بلِ ابتدأَ الكتابَ بالبسملةِ، وإنما كَتَب اسمَه

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٩٤، ١٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩) مطولًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

عنوانًا بعدَ ختْمِه لأنَّ بلقيسَ إنما عرَفتْ كونَه مِن سُلَيمانَ بقراءةِ عنوانِه كما هو المعهودُ، ولذلك قالتْ: (إِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) أي: إنَّ الكتابَ، فالتقديمُ واقعٌ في حكايةِ الحالِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ دَليلٌ على قُوَّةِ سُلَيمانَ عليه الصَّلاةُ والسلامُ؛ لأنه لم يَقُلْ: (وأسلِموا)، بل قال: ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ فطَلَبَ منهم أنْ يأتوا إليه وهم على الإسلامِ[٢].

٥- استعمالُ الإيجازِ إذا لم يكنْ فيه تقصيرٌ؛ لأنَّ هذا الكتابَ الذي كتَبه سُلَيمانُ هو في غايةِ ما يكونُ مِن الإيجازِ؛ جملتان فقط: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، ولكنْ بشرطِ أَلَّا يكونَ الإيجازُ مُخِلًّا بالمقصودِ، فإنْ كان مُخِلًّا بالمقصودِ صار تقصيرًا[٣].

٦- قولُه: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ فيه عرضُ الإسلامِ على الكفَّارِ، وفي هذا إحسانٌ إليهم بالتوسُّلِ إلى نقلِهم مِن الكفرِ إلى الإيمان، ومِن أسبابِ السَّخطِ إلى أسبابِ الرِّضوانِ[٤].

٧- قولُه: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، جمَعَ فيه سُليمانُ بيْنَ دَعوتِها إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٦).

قال ابن عاشور: (وقَولُه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ هو مِن كلامِ المَلِكةِ ابتدأتْ به مخاطَبةَ أهلِ مَشورتِها؛ لإيقاظِ أفهامِهم إلى التدبُّرِ في مغزاه؛ لأنَّ اللائقَ بسُليمانَ ألَّا يقَدِّمَ في كتابِه شَيئًا قبل اسمِ الله تعالى، وأنَّ معرفةَ اسمِ سُليمانَ تُؤخَذُ مِن خَتْمِه، وهو خارِجُ الكتابِ؛ فلذلك ابتدأتْ به أيضًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٩). ويُنظر: ((صبح الأعشى)) للقَلْقَشَنْدي (٦/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٩٤).

مُسالَمَتِه وطاعتِه، وذلك تَصرُّفٌ بصِفَةِ المُلْك، وبيْن دَعوةِ قَومِها إلى اتِّباعِ دِينِ التَّوحيدِ، وذلك تصرُّفٌ بالنُّبوَّةِ؛ لأنَّ النَّبيَّ يُلْقِي الإرشادَ إلى الهُدى حيثما تَمكَّنَ منه، كما قال شُعيبٌ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، وهذا نَظيرُ قولِ يُوسفَ لصاحِبَي السِّجْنِ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] الآيةَ. وإنْ كان لم يُرسَلْ إليهم؛ فالأنبياءُ مأْمُورون أمْرًا عامًّا بالإرشادِ إلى الحقِّ، وكذلك دُعاءُ سُليمانَ هنا(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ جوازُ الاختبارِ والامتحانِ، وأنَّ ذلك لا يُعَدُّ خديعةً إذا أراد الإنسانُ أنْ يَمتحِنَ غيرَه بشيءٍ مِن الأشياءِ؛ لأنَّه يريدُ أنْ يستظهِرَ به حالَه، وهذا لا مانعَ منه(٢).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ العَمَلُ بالقرائنِ، لأنَّها أرادتْ أنْ تُوصِلَ هذه الهديةَ؛ لِتختبرَ مرادَ سُلَيمان: هل يريدُ المالَ فقط فتكفيه هذه الهديةُ، أو يريدُهم أن يُسلِموا فلا تنفَعُ فيه هذه الهديةُ، ولا يَكُفُّ عن طلبِه الأولِ، وهو قَولُه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾(٣).

١٠- وقولُه تعالى إخبارًا عن بِلْقيسَ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ يَدلُّ على تَعدُّدِ رُسُلِها إلى سُليمانَ، وقولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ بإفرادِ فاعلِ ﴿جَآءَ﴾، وقولُه تعالى -إخبارًا عن سُليمانَ أنَّه قال-: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ﴾ الآيةَ؛ يَدلُّ على أنَّ الرَّسولَ واحدٌ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩١).

وهذا ليس على إطلاقِه، إنَّما هو مقيَّدٌ بالمصلحةِ والفائدةِ المترتِّبةِ على هذا الاختبارِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩١).

والظَّاهرُ في الجوابِ هو ما ذَكَرَه غيرُ واحدٍ: مِن أنَّ الرُّسُلَ جَماعةٌ وعليهم رئيسٌ منهم، فالجمْعُ نظَرًا إلى الكلِّ؛ والإفرادُ نَظرًا إلى الرَّئيسِ؛ لأنَّ مَن معه تَبَعٌ له، والعِلْمُ عندَ اللهِ تعالى[١].

أو يُقالُ: إنَّ قَولَه تعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ معناه: فلما جاء الرَّسولُ، دلَّ عليه قولُه: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ [النمل: ٣٥]، فالإرسالُ يقتضي رسولًا، والرَّسولُ لفظُه مُفرَدٌ ويَصدُقُ بالواحِدِ والجماعةِ.

وأيضًا: فإنَّ هدايا الملوكِ يَحمِلُها رَكبٌ، فيجوزُ أن يكونَ فاعِلُ ﴿جَآءَ﴾ الرَّكبَ المعهودَ في إرسالِ هدايا أمثالِ الملوكِ[٢].

١١- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾، قال: ﴿جَآءَ﴾ وهو مفردٌ مع أنَّهم كانوا جماعةً؛ لأنَّ الذي خاطَب سليمانَ وقدَّم الهديةَ هو رئيسُهم، وفيه أنَّ مِن المستحسَنِ أنْ يَتقدَّمَ الرئيسُ -رئيسُ الوفدِ أو القومِ- بالكلامِ أو الفعلِ إذا كان مكلَّفًا بالفعلِ، المهمُّ أنْ يكونَ المتقدِّمُ الرَّئيسَ؛ لأنَّ تقَدُّمَ الجَميعِ دَفعةً واحِدةً غيرُ لائقٍ؛ لضياعِ المسؤوليةِ، فلا بدَّ أن يتقَدَّمَ واحِدٌ، وكلَّما حُصِرَ الأمرُ كان أقرَبَ إلى الفَهمِ وإلى حصولِ المقصودِ؛ لِقَولِه: ﴿قَالَ﴾[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ دَليلٌ على أنَّه يجوزُ للإنسانِ أنْ يَتحدَّثَ بنعمةِ اللهِ على سبيلِ الافتخارِ معَ العدوِّ، ولذلك تجوزُ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٤).

الخُيَلاءُ في الحربِ، مع أنَّ الخُيَلاءَ مُحرَّمَةٌ ومِن الكبائرِ، لكنْ في الحربِ لإغاظةِ العدوِّ فلا بأسَ بها[١].

١٣- قوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ فيه إظهارُ القوَّةِ للأعداءِ، وتخويفُ أهلِ الحربِ وإرهابُهم، فهذا التَّهديدُ والوعيدُ لا شكَّ أنَّه مَظهَرُ قوَّةٍ، فيكونُ داخلًا في قَولِه تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ فإنَّ قولَه: ﴿مِّن قُوَّةٖ﴾ نكرةٌ تشملُ كلَّ ما يمكِنُ مِن القوى -سواءً كانتِ القوةُ قوليةً أو ماديةً أو معنويةً- المهمُّ أنَّ جميعَ القوى في معاملةِ الأعداءِ ينبغي للمرءِ أنْ يَستعمِلَها[٢].

١٤- قَولُه: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ﴾ فيه الرَّدُّ على الجبريةِ، وأنَّ الإنسانَ يَفعَلُ باختيارِه[٣].

١٥- قَولُه: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ فيه كثرةُ جنودِ سُلَيمانَ؛ لأنَّ هذه المِلكةَ لها العرشُ العظيمُ، وعندها القومُ المطيعون الذَّليلون لأوامرِها، ومع ذلك فيقولُ: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، وجنودُه ثلاثةُ أصنافٍ: الجنُّ والإنسُ والطيرُ، هذه كلُّها يَمكن أنْ يُسلِّطَها عليهم، ولا قِبَلَ لهم بها، فالحاصِلُ: أنَّ الجنودَ التي لسُلَيمان لا يمكِنُ لهؤلاء أن يقابِلوها لا كميَّةً ولا كيفيَّةً[٤].

١٦- قال الله تعالى: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ﴾ لَمَّا كان الذُّلُّ قد يكونُ لمجرَّدِ الانقيادِ لا على سَبيلِ الهوانِ، حقَّقَ المرادَ بقَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠١).

﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: لا يَملِكون شيئًا مِن المنَعةِ إنْ لم يُقِرُّوا بالإسلامِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ غرابةَ قصَّةِ إلْقاءِ الكتابِ إليها يُثيرُ سُؤالًا عن شأْنِها حين بلَغَها الكِتابُ[٢].

- وقد طُوِيَت أخبارٌ كَثيرةٌ دَلَّ عليها ما بيْن الخَبرينِ المذكورينِ مِن اقْتضاءِ عِدَّةِ أحداثٍ؛ إذ التَّقديرُ: فأخَذ الهُدهُدُ الكِتابَ وذهَبَ به إلى سبَأٍ، فلمَّا ألْقاهُ إلى المرأةِ وهي في مَجلسِ مُلْكِها وقرَأَتْه؛ ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ ...﴾ إلخ، وإنَّما طُوِيَ ذِكْرُه؛ إيذانًا بكَمالِ مُسارَعتِه إلى إقامةِ ما أُمِرَ به مِن الخدمةِ، وإشعارًا باستغنائِه عن التَّصريحِ به؛ لغَايةِ ظُهورِه[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ استِئنافٌ وتَبْيينٌ لِمَا أُلْقِيَ إليها؛ كأنَّه قِيل لها: ممَّن هو؟ وما هو؟ فقالت:...؛ فأَبْهَمَتْ أوَّلًا ثمَّ فسَّرَت[٤].

- قولُه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ استِفتاحٌ شريفٌ بارِعُ المعنى، مَبدوءٌ به في الكُتبِ في كلِّ لُغةٍ، وكلِّ شَرعٍ[٥].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ التَّأكيدُ بـ (إنَّ) في

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المثل السائر)) للضياء ابن الأثير (٢/ ٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٤).

الموضعينِ يُتَرجِمُ عمَّا في كلامِهما باللُّغةِ السَّبائيَّةِ مِن عباراتٍ دالَّةٍ على اهتمامِها بمُرسِلِ الكتابِ وبما تَضمَّنَه الكتابُ، اهتمامًا يُؤَدَّى مِثْلُه في العربيَّةِ الفُصْحى بحَرفِ التَّأكيدِ الَّذي يَدلُّ على الاهتمامِ في مَقامٍ لا شكَّ فيه[١].

٣- قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ نَهْيٌ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ؛ ولذلك أتْبَعَتْه مَلِكةُ سبأٍ بقولِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾[٢] [النمل: ٣٢].

- وقولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ كَلامٌ في غايةِ الوَجازةِ، مع كَمالِ الدَّلالةِ على المقصودِ؛ لاشتِمالِه على البَسملةِ الدَّالَّةِ على ذاتِ الخالِقِ تعالى وصِفاتِه صَريحًا أو الْتِزامًا، والنَّهيِ عن التَّرفُّعِ الَّذي هو أُمُّ الرَّذائلِ، والأمْرِ بالإسلامِ الجامعِ لِأمَّهاتِ الفَضائلِ، وليس الأمْرُ فيه بالانقيادِ قبْلَ إقامةِ الحُجَّةِ على رِسالتِه حتَّى يكونَ استدعاءً للتَّقليدِ؛ فإنَّ إلْقاءَ الكتابِ إلَيها على تلك الحالةِ مِن أعظمِ الدَّلالةِ[٣].

- وكان كتابُ سُليمانَ وَجيزًا؛ لأنَّ ذلك أنسَبُ بمُخاطَبةِ مَن لا يُحسِنُ لُغةَ المُخاطِبِ، فيَقتصِرُ له على المقصودِ؛ لإمكانِ تَرجمَتِه وحُصولِ فَهْمِه، فأحاطَ كِتابُه بالمقصودِ، وهو تَحذيرُ مَلَكةِ سبأٍ مِن أنْ تُحاوِلَ التَّرفُّعَ على الخُضوعِ إلى سُليمانَ والطَّاعةِ له[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٠).

- قولُه: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا[١]، وكُرِّرت حِكايةُ قولِها: ﴿قَالَتۡ﴾؛ للإيذانِ بغايةِ اعتِنائِها بما في حَيِّزِه مِن قولِها[٢].

- قولُها: ﴿أَفۡتُونِي﴾ عبَّرَتْ عن الجَوابِ بالفَتوى الَّتي هي الجَوابُ في الحَوادثِ المُشكلةِ غالبًا؛ تَهْويلًا للأمْرِ، ورَفْعًا لِمَحلِّهم بالإشعارِ بأنَّهم قادِرونَ على حَلِّ المُشكِلاتِ المُلمَّةِ[٣].

- وصِيغةُ ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً﴾ تُؤْذِنُ بأنَّ ذلك دأْبُها وعادتُها معهم؛ فكانتْ عاقلةً حَكيمةً مُسْتَشيرةً، لا تُخاطِرُ بالاستِبدادِ بمَصالحِ قَومِها، ولا تُعرِّضُ مُلْكَها لِمَهاوي أخطاءِ المُستبدِّين[٤].

- وفي قولِها: ﴿حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ كِنايةٌ عن معنى: تُوافِقُوني فيما أقْطَعُه، أي: يَصدُرُ منها في مَقاطعِ الحُقوقِ والسِّياسةِ: إمَّا بالقَولِ، كما جَرَى في هذه الحادثةِ، وإمَّا بالسُّكوتِ وعَدمِ الإنكارِ؛ لأنَّ حُضورَ المعدودِ للشُّورَى في مكانِ الاستشارةِ مُغْنٍ عن استشارتِه؛ إذ سُكوتُه مُوافقةٌ[٥]، وأيضًا فِعلُ ﴿تَشۡهَدُونِ﴾ هنا مُستعمَلٌ كِنايةً عن المُشاورةِ؛ لأنَّها يَلزَمُها الحُضورُ غالبًا؛ إذ لا تَقَعُ مُشاورَةٌ مع غائبٍ[٦].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ﴾ استِئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ قولِها؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٣).

كأنَّه قِيلَ: فماذا قالوا في جوابِها؟ فقيل: قالوا: ...[١].

- وهو جوابٌ بأُسلوبِ المُحاورةِ؛ فلذلك فُصِلَ عمَّا قبْلَه ولم يُعطَفْ عليه، كما هي طريقةُ المُحاوَراتِ[٢].

- وفي قولِهم: ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ إيجازٌ عجيبٌ؛ فهو -أوَّلًا- يَدلُّ على تَعظيمِ المَشورةِ، وتَعظيمِ بِلْقيسَ أمْرَ المُستشارِ. ويَدلُّ -ثانيًا- على تَعظيمِهم أمْرَها وطاعتَها. وفي قولِهم: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ وقولِهم: ﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ إيجازٌ يُسكِرُ الألبابَ؛ فإنَّ الكلامَ قد يُفسِدُه الاختصارُ، ويُعْمِيه التَّخفيفُ منه والإيجازُ، وهذا ممَّا يَزيدُه الاختصارُ بَسْطًا؛ لِتَمكُّنِه ووُقوعِه مَوقِعَه، ويَتضمَّنُ الإيجازُ منه تَصرُّفًا يَتجاوَزُ مَحلَّه ومَوضِعَه[٣].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿تَأْمُرِينَ﴾ ومُتعلَّقُه؛ لظُهورِهما مِن المَقامِ، والتَّقديرُ: ما تأْمُرينَنا به، أي: إنْ كان رأْيُكِ غيرَ الحربِ، فمُري به نُطِعْكِ[٤].

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾

- قولُها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ فيه افتِتاحُ الجُملةِ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بالخبرِ وتَحقيقِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((إعجاز القرآن)) للباقلاني (ص ١٩٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٦٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٥)

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٦).

- قولُها: ﴿إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ...﴾ استِدلالٌ بشواهدِ التَّاريخِ الماضي، وجُملةُ ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ استِدلالٌ على المُستقبَلِ بحُكمِ الماضي على طَريقةِ الاستِصحابِ، وهو كالنَّتيجةِ للدَّليلِ الَّذي في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾، وهذا الكلامُ مُقدِّمةٌ لِمَا ستُلْقِيه إليهم مِن عَزْمِها، ويَتضمَّنُ تَعليلًا لِمَا عَزَمَتْ عليه[1].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيدٌ لِمَا وصَفَتْ مِن حالِهم، وتَقريرٌ بأنَّ ذلك مِن عاداتِهم الثَّابتةِ المُستمرَّةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ هذا الكلامُ خبرًا عن اللهِ تعالى؛ فيَعترِضُ بيْن جُمَلِ ما يُحْكَى تَصديقًا لها. ويَجوزُ أنْ يكونَ مِن الحِكايةِ على معنى: إنَّ الملوكَ تأثيرُهم في القُرَى الَّتي يَدخُلونها تَخريبُها، وكذلك يَفعَلُ هؤلاء، يعني: سُليمانُ عليه السَّلامُ وخَيلُه؛ فعَلَى الوجهينِ الأوَّلينِ تكونُ الجُملةُ تَذييلًا[2].

٧- قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ تَقْريرٌ لرَأْيِها بعْدَما زَيَّفَتْ آراءَهم، وأتتْ بالجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ، المُصدَّرةِ بحَرفِ التَّحقيقِ؛ للإيذانِ بأنَّها مُزْمِعةٌ على رأْيِها، لا يَلْوِيها عنه صارفٌ، ولا يَثْنيها عاطفٌ[3].

- ومفعولُ ﴿مُرْسِلَةٌ﴾ مَحذوفٌ تقديرُه: مُرسِلةٌ إليهم كتابًا ووَفْدًا مَصحوبًا بهَديَّةٍ؛ إذ لا بُدَّ أنْ يكونَ الوفدُ مَصحوبًا بكتابٍ تُجيبُ به كِتابَ سُليمانَ؛ فإنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٢١، ٥٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٤).

الجوابَ عن الكتابِ عادةٌ قديمةٌ[١].

- قولُه: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾ اسمُ فاعلٍ مِن (نَظَرَ) بمعنَى: انْتظَرَ، أي: مُترقِّبةٌ -على أحدِ القولينِ في معناها-؛ فتكونُ جُملةُ ﴿بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ مُبيِّنةً لجُملةِ ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾، أو مُستأنفةً. وأصْلُ النَّظمِ: فناظِرةٌ ما يَرجِعُ المُرسَلون به، فغُيِّرَ النَّظمُ؛ لمَّا أُريدَ أنَّها مُتردِّدةٌ فيما يَرجِعُ به المُرسَلون[٢].

٨- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ في الكَلامِ حَذْفٌ تَقديرُه: فأرْسَلَتِ الهديَّةَ، فلمَّا جاء...[٣]

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ إنكاريٌّ؛ لأنَّ حالَ إرسالِ الهديَّةِ، والسُّكوتِ عن الجوابِ يَقْتَضي مَحاولةَ صَرفِ سُليمانَ عن طَلبِ ما طلَبَه بما بُذِلَ له مِن المالِ؛ فيَقْتَضي أنَّهم يَحسَبونه مُحتاجًا إلى مِثْلِ ذلك المالِ، فيَقتنعُ بما وُجِّهَ إليه. وفيه تَوبيخٌ لهم بذلك[٤].

- وتَنكيرُ مالٍ في قولِه: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ للتَّحقيرِ[٥].

- قولُه: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ الفاءُ لِتَفريعِ الكلامِ الَّذي بعْدَها على الإنكارِ السَّابقِ، أي: أنكَرْتُ عليكم ظَنَّكم فَرَحي بما وَجَّهْتُم إليَّ؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٥).

ما أعْطاني اللهُ خيرٌ ممَّا أعْطاكم، أي: هو أفضلُ منه في صِفاتِ الأموالِ مِن نَفاسةٍ ووَفْرةٍ. وسَوقُ التَّعليلِ يُشعِرُ بأنَّه عَلِمَ أنَّ المَلِكةَ لا تَعلَمُ أنَّ لَدى سُليمانَ مِن الأموالِ ما هو خيرٌ ممَّا لَدَيْها؛ لأنَّه لو كان يَظنُّ أنَّها تَعلمُ ذلك لَمَا احتاجَ إلى التَّفريعِ. وهذا مِن أسرارِ الفرْقِ في الكلامِ البليغِ بيْن الواوِ والفاءِ في هذه الجُملةِ؛ فلو قال: (وما آتاني اللهُ خيرٌ ممَّا آتاكم)، لكانَ مُشعِرًا بأنَّها تَعلَمُ ذلك؛ لأنَّ الواوَ تكونُ واوَ الحالِ[1].

- وقيل: الفاءُ هاهنا في قولِه: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ مُستعمَلٌ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ، كأنَّه قال: لا أقبَلُ إمدادَك بمالٍ، فقال المُخاطَبُ: لِمَ لا تَقبَلُ؟ فأُجيبَ: لأنِّي أغْنَى منك؛ فلمَّا كان هذا الجوابُ مُرتَّبًا على السُّؤالِ، ومُعَقبًا له، تُرِكَ السُّؤالُ وجِيءَ بالفاءِ. وقيل: الفاءُ للتَّسبيبِ؛ فالمُنكَرُ الجُملةُ الأُولى، والثَّانيةُ عِلَّةُ الإنكارِ، ولا يجِبُ أنْ تكونَ العلَّةُ مَعلومةً عندَ المُخاطَبِ، فيَجِبُ الإعلامُ والتَّوبيخُ على الجَهلِ به، كأنَّه قال: لا أحتاجُ إلى ما آتَيْتُمونِيهِ؛ لأنِّي غنِيٌّ، كما يُقال: أُنكِرُ عليك ما فعلْتَ؛ فإنِّي غَنِيٌّ عنه[2].

- قولُه: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ لَمَّا أنكَرَ عليهم نَبِيُّ اللهِ إمدادَهم بالمالِ، وعلَّلَ الإنكارَ بكَونِه غنيًّا عنه، أضرَبَ عن ذلك إلى بَيانِ السَّببِ الَّذي حَمَلَهم عليه، وهو أنَّهم غيرُ عالمينَ بحالِه، وأنَّه غنِيٌّ عن ذلك، ثمَّ ترقَّى إلى الأخْذِ فيما هو الأهمُّ مِن ذلك الإنكارِ، وهو الإعلامُ بأنَّ ما جَعَلوه سببًا للإمدادِ أقبَحُ مِن ذُلِّ الجهْلِ؛ وذلك أنَّ قُصارى أمْرِهم الفرحُ بما

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٢٦، ٥٢٧).

يُهْدى إليهم، فقاسُوا حالَ نَبيِّ اللهِ بحالِهم في أنْ ليس له الرِّضا والفرحُ إلَّا بالحُظوظِ العاجلةِ. هذا إذا قُدِّرت الإضافةُ إلى المُهدى إليه، أمَّا إذا جُعِلَت الإضافةُ إلى المُهدي -أي: الفاعلِ- بأنْ يُقالَ: وأنتم بهَديَّتِكم هذه تَفْرحون فرَحَ افتخارٍ، فيكونُ المعنى: الَّذي مَنَحنى اللهُ مِن الدِّينِ والمُلْكِ الواسعِ خيرٌ ممَّا آتاكُم، فلا أفرَحُ بمِثلِ هذه المُحقَّراتِ الَّتي تَفتخِرون بها؛ فأَولى الضَّميرَ حرفَ الإضرابِ لِيُفيدَ: أنتم خُصوصًا تَفْرحون. ويجوزُ على هذا أنْ يُعتبَرَ معنى تَقوِّي الحُكمِ مِن التَّركيبِ، فيُفيدُ مُطلَقَ الرَّدِّ، أي: أنتم لا بُدَّ لكم أنْ تَفرَحوا بمِثلِ هذه المُحقَّراتِ، أي: تُمِدُّونَني بمالٍ وتَزْعُمون أنَّ مِن عادتي أنْ أفرَحَ بأخْذِ الهديَّةِ! بلْ أنتم مِن حَقِّكم أنْ تَفرَحوا به، فخُذوها وافْرَحوا. وهو على هذا الوجهِ كِنايةٌ[(١)].

٩- قوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾

- وعَدمُ وُقوعِ جَوابِ القسَمِ في قولِه: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ...﴾؛ لأنَّه كانَ مُعلَّقًا بشَرطٍ قد حُذِفَ عندَ الحِكايةِ؛ ثِقةً بدَلالةِ الحالِ عليهِ، كأنَّه قِيلَ: ارْجِعْ إليهم، فلْيَأتُوا مُسلمينَ، وإلَّا فلَنأتِيَنَّهم[(٢)].

- وعبَّرَ بجمْعِ القلَّةِ ﴿أَذِلَّةٗ﴾؛ تأكيدًا لِذِلَّتِهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٦).

الآيات (٢٨-٤٤)

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ
أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ
أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ
ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا
عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ
هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ
﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن
قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عِفْرِيتٌ﴾: العِفريتُ: المارِدُ الشَّديدُ، النَّافِذُ في الأمرِ، المبالغُ فيه مع خُبثٍ ودَهاءٍ، وأصلُ (عفر) هنا: يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ(١).

﴿يَرْتَدَّ﴾: أي: يَرجِعُ، والارتِدادُ: الرُّجوعُ(٢).

﴿طَرْفُكَ﴾: أي: بصَرُك ونظرُك، والطَّرْفُ: تحريكُ الجَفنِ، وعُبِّرَ به عن النَّظرِ؛ إذ كان تحريكُ الجَفنِ لازِمُه النَّظَرُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤).

﴿نَكِّرُواْ﴾: أي: غيِّروا، وتَنكيرُ الشَّيءِ: جَعلُه بحيثُ لا يُعرَفُ، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المعرفةِ التي يَسكُنُ إليها القَلبُ[١].

﴿ٱلصَّرۡحَ﴾: أي: القَصْرَ، وكُلُّ بناءٍ عالٍ: فهو صَرحٌ[٢].

﴿لُجَّةٞ﴾: أي: غَمرةً عَظيمةً مِن ماءٍ، واللُّجَّةُ: الماءُ المجتمعُ كالبحرِ، ولُجَّةُ البحرِ: تردُّدُ أمواجِه، وأصلُه مِنَ اللَّجَجِ: وهو تردُّدُ الشَّيءِ بعضِه على بعضٍ[٣].

﴿مُّمَرَّدٞ﴾: أي: مُمَلَّسٌ، مِن قَولِهم: شَجرةٌ مَرداءُ: إذا لم يكُنْ عليها وَرَقٌ، وأصلُ المرودةِ: المَلاسةُ والاستواءُ[٤].

﴿قَوَٰرِيرَ﴾: أي: زُجاجٍ[٥].

المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: قال سُلَيمانُ للمَلَأِ مِن حَولِه: يا أيُّها الأشرافُ، أيُّكم يأتيني بكرسيِّ مُلْكِ مَلِكةِ سَبَأٍ قبلَ أن تحضُرَ إلينا هي وقَومُها موحِّدينَ طائِعينَ؟ قال

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤٠).

مارِدٌ مِن الجِنِّ: أنا أُحضِرُ لك عَرْشَها قبل أن تقومَ مِن مجلِسِك، وإنِّي لَقويٌّ عليه أمينٌ على ما فيه. قال الذي عنده علمٌ بكتابِ الله: أنا أُحضِرُ لك العَرشَ قبل أن يرجِعَ إليك بَصَرُك إذا نظَرْتَ إلى شيءٍ! فأتاه بالعَرشِ بقُدرةِ اللهِ.

فلمَّا رآه سُلَيمانُ مُستقِرًّا بين يديه، قال: هذا الذي أنا فيه مِن عَطاءِ ربِّي؛ لِيَختبِرَني أأشكُرُ نِعمَتَه أم أكفُرُها، ومَن شَكَرَ نعمةَ اللهِ عليه فإنَّما ينفَعُ نَفسَه بذلك الشُّكرِ، ومن كَفَرَ نعمةَ اللهِ عليه فإنَّ ربِّي غنيٌّ عن شُكرِه، كريمٌ متفضِّلٌ بإنعامِه.

قال سُلَيمانُ: غيِّروا معالمَ عَرشِها؛ لِننظُرَ أتعرِفُ أنَّه عَرشُها أم لا؟ فلمَّا جاءت مَلِكةُ سَبأٍ إلى سُلَيمانَ قيل لها: أعرشُكِ مثلُ هذا العَرشِ؟! قالت: كأنَّه هو. فقال سُلَيمانُ: قد آتانا اللهُ العِلمَ مِن قَبلِها وكنَّا طائعينَ مُسلِمين لله تعالى، ومنَعَها عن الإسلامِ عِبادتُها الشَّمسَ مِن دونِ اللهِ؛ لأنَّها كانت من قومٍ كافرينَ بالله تعالى.

وقيل لمَلِكةِ سَبأٍ: ادخُلي هذا البناءَ العاليَ، فلمَّا رأَتْه وقد صُنِعَت أرضُه مِن زُجاجٍ شفَّافٍ، حَسِبَته ماءً، وأظهَرَت ساقَيها حتى تخوضَ في الماءِ دونَ أن تبتلَّ ثيابُها. قال سليمانُ لها: ليس هذا ماءً، بل هو بناءٌ مملَّسٌ مبنيٌّ مِن زُجاجٍ! قالت مَلِكةُ سَبَأٍ: ربِّ إني ظلمتُ نفسي بعبادةِ غَيرِك، وانقَدْتُ واستسلمْتُ مع سُلَيمانَ، طائعةً لك وَحدَك.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨﴾.

أي: قال سُلَيمانُ لجُلَسائِه الحاضرينَ عِندَه من الجِنِّ والإنسِ: يا أيُّها الأشرافُ، أيُّكم يُحضِرُ لي كرسيَّ المُـلْكِ لمَلِكةِ سبأٍ قبل أن تحضُرَ إلينا هي وقَومُها مسلِمينَ[1]؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣، ٦٥، ٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٢)، =

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٠).

قال ابنُ عطية: (ظاهِرُ هذه الآياتِ أنَّ هذه المقالةَ مِن سليمانَ عليه السلام بعد مجيءِ هديَّتِها وردِّه إيَّاها، وقد بعث الهدهد بالكتاب، وعلى هذا جمهورُ المفسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٠).

قال البيضاوي: (أراد بذلك أن يُريَها بعضَ ما خصَّه اللهُ تعالى به مِن العجائِبِ الدالَّةِ على عِظَمِ القُدرةِ، وصِدقِه في دعوى النبوَّةِ؛ ويختبِرَ عَقلَها بأن ينكِّرَ عَرشَها فينظُرَ أتعرِفُه أم تُنكِره؟). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠).

وقيل غيرُ ذلك في غرضِ سليمانَ عليه السَّلامُ من إحضارِ عرشِها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٥)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٢).

واختلف أهلُ التفسير في قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾؛ فقال بعضُهم: معناه: قبْلَ أن يأتوني مُستَسلِمينَ طَوعًا.

وقال آخَرون: بل معنى ذلك: قبْلَ أن يأتوني مسلمينَ الإسلامَ الَّذي هو دينُ الله. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مُسْلِمِينَ﴾: مؤمنينَ موحِّدينَ: مقاتلُ بن سليمان، والزجاج، والسمرقندي، والثعلبي، البغوي، والبيضاوي، والشربيني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٠٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ جُرَيج، وعطاء الخراساني، والسُّدِّيُّ، وزهير بن محمد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المراد: منقادينَ طائعينَ مُستَسلِمينَ: ابنُ جرير، والسمعاني، وجلال الدين المحلي، والبقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٣). =

﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩﴾.

﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾.

أي: قال مارِدٌ قَوِيٌّ وشديدٌ مِن الجِنِّ: أنا أُحضِرُ لك عَرْشَها قبل أن تنهَضَ مِن مجلِسِك[1].

﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾.

أي: وإنِّي قَوِيٌّ على حَملِ العَرشِ، أمينٌ على ما فيه[2].

﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ ٤٠﴾.

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٥٩).

قال ابن جرير: (أولَى التَّأويلين في قولِه ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ ... قولُ ابنِ عبَّاسٍ... أنَّ معناه طائعينَ، لأنَّ المرأةَ لم تأتِ سليمانَ إذْ أتَتْه مسلِمةً، وإنَّما أسلَمَتْ بعدَ مَقْدَمِها عليه، وبعدَ مُحاوَرةٍ جَرَتْ بيْنَهما ومُساءَلةٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٦، ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

قال السعدي: (الظَّاهِرُ أنَّ سُلَيمانَ إذ ذاك في الشَّامِ، فيكونُ بيْنَه وبين سبأٍ نحوُ مسيرةِ أربعةِ أشهُرٍ: شهرانِ ذَهابًا، وشهران إيابًا، ومع ذلك يقولُ هذا العِفريتُ: أنا ألتزِمُ بالمجيءِ به -على كِبَرِه وثِقَلِه وبُعْدِه- قبل أن تقومَ مِن مجلِسِك الذي أنت فيه. والمعتادُ مِن المجالِسِ الطويلةِ أن تكونَ مُعظَمَ الضُّحى نحوَ ثُلُثِ يَومٍ، هذا نهايةُ المعتادِ، وقد يكونُ دونَ ذلك أو أكثَرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٠).

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾.

أي: قال الذي عنده[١] علمٌ بكتابِ اللهِ[٢]: أنا أُحضِرُ لك العَرشَ قبل أن يَرجِعَ إليك بَصَرُك إذا نظَرْتَ إلى شيءٍ مدَّ بصرِك[٣].

---

(١) قال ابن عطية: (اختلف المفسِّرون في الذي عندَه عِلمٌ من الكتابِ مَن هو: فجمهورُ النَّاسِ على أنَّه رجلٌ صالحٌ من بني إسرائيلَ اسمه آصف بن برخيا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦١).

وقال ابن تيميَّة: (أتَتْهُ به الملائِكةُ، كذلك ذكره المفسِّرون عن ابنِ عبَّاسٍ وغيرِه: أنَّ الملائكةَ أتته به أسرعَ ممَّا كان يأتي به العِفريتُ). ((النبوات)) (٢/ ١٠٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٣).

وقال السَّعدي: (قال المفسِّرون: هو رجلٌ عالمٌ صالحٌ عند سليمانَ يقالُ له: آصف بن برخيا، كان يعرِفُ اسمَ الله الأعظَمَ الذي إذا دعا اللهَ به أجاب، وإذا سأل به أُعطيَ... ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ بأن يدعوَ الله بذلك الاسمِ فيَحضُرَ حالًا، وأنَّه دعا اللهَ فحضرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٩، ٧٠).

قال أبو حيان بعد أن ذكَر الخلافَ في اسمِه: (وهذه أقوالٌ مضطربةٌ، وقد أبهَم الله اسمَه، فكان ينبغي ألَّا يُذكرَ اسمُه حتَّى يُخبرَ به نبيٌّ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٠).

(٢) قال البقاعي: (كأنَّه الذي كان شهيرًا في ذلك الزمان، ولعلَّه التَّوراةُ والزَّبورُ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٨، ٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٢).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: قبْلَ أن يَرجِعَ بصرُك إذا نظرتَ إلى شَيءٍ مدَّ بصرِك: ابنُ جرير، والرسعني، وابن جُزَي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والبقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٧١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢١٥).

قال ابن عاشور: (وارتِدادُ الطَّرْفِ حقيقتُه: رُجوعُ تحديقِ العَينِ مِن جِهةٍ منظورةٍ تُحُوِّلَ عنها لحظةً). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧١). =

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

أي: فأتى العرشُ بقُدرةِ اللهِ، فلمَّا رآه سُلَيمانُ ثابتًا ثُبوتًا حقيقيًّا بينَ يدَيه، قال: هذا التمَكُّنُ والمُلكُ والسُّلطانُ الذي أنا فيه حتى حُمِلَ إليَّ العَرشُ في قَدْرِ ارتدادِ الطَّرفِ- مِن عَطاءِ رَبِّي عليَّ؛ لِيَختبرَني أأشكُرُ نِعمَتَه، أم أكفُرُها فلا أشكُرُه[1].

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾.

= وقال البيضاوي: (الطَّرفُ: تحريكُ الأجفانِ للنظَّرِ، فوُضِع مَوضعَه، ولَمَّا كان الناظرُ يوصَفُ بإرسالِ الطَّرفِ... وُصِف بِرَدِّ الطَّرفِ، والطَّرْفُ بالارتدادِ، والمعنى: أنَّك تُرسِلُ طَرْفَك نحوَ شَيءٍ فقَبْلَ أن تَرُدَّه أُحضِرُ عرشَها بيْنَ يدَيْك، وهذا غايةٌ في الإسراع، ومَثَلٌ فيه). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦١).

وقيل: الطَّرفُ: تحريكُ الأجفانِ وفتحُها للنَّظرِ إلى شَيءٍ، وارتدادُه: انضمامُها. وممَّن اختاره: أبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦١).

وقيل: قولُه: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ معناه: قبل أن يَنتهيَ إليك الذي وقَع عليه مُنتهى بصَرِك وهو جاءٍ إليك، وبعبارةٍ أخرى: قبْلَ أن يَصِلَ إليك مَن كان منك على مَدِّ بصَرِك. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقندي، ومكِّي، وابن أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٣٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٠٢).

قال ابن الجوزي: (وفي قولِه تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: قبْلَ أن يأتيَك أقصى ما تنظُرُ إليه، قاله سعيد بن جُبَير. والثاني: قبل أن ينتهيَ طَرْفُك إذا مدَدْتَه إلى مداه، قاله وَهْبٌ. والثَّالث: قبْلَ أن يَرتَدَّ طَرْفُك حسيرًا إذا أدمْتَ النَّظرَ، قاله مجاهد. والرَّابع: بمقدارِ ما تفتَحُ عَيْنَك ثمَّ تَطرِفُ، قاله الزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٣، ٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢٠).

أي: ومَن شَكَرَ نعمةَ اللهِ عليه فإنَّما ينفَعُ نَفسَه في دُنياه وآخِرتِه[١].

كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الروم: ٤٤، ٤٥].

وقال عز وجل: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

أي: ومن كَفَرَ نِعمةَ اللهِ عليه ولم يَشكُرْ، فإنَّ ربِّي غَنيٌّ عن شُكرِه، ولا حاجةَ به إليه، كريمٌ في نفسِه وإن لم يُعبَدْ، فعظَمتُه لا تفتَقِرُ إلى أحدٍ؛ ومُتفَضِّلٌ بإنعامِه على جميعِ خَلقِه حتَّى على مَن يكفُرُ به[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

قال القرطبي: (لا يَرجِعُ نَفعُ ذلك إلَّا إلى نفْسِه؛ حيث استوجَبَ بشُكرِه تمامَ النِّعمةِ ودوامَها والمزيدَ منها). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٢).

قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: أنَّه قد يُبقي النِّعمةَ على مَن كَفَرها؛ تكرُّمًا منه أحيانًا، وأحيانًا استِدراجًا...؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

وقد يُبقي اللهُ تعالى النِّعَمَ مع الكُفرِ تربيةً، بحيث إنَّ الإنسانَ يفتَحُ الله عليه التأمُّلَ فيَخجَلُ مِن الله عزَّ وجلَّ أن يكونَ هو يبادِرُ اللهَ تعالى بالمعاصي، والله تبارك وتعالى يُدِرُّ عليه النِّعَمَ، فيرتدِعُ، وهذا هو ظاهِرُ قَولِه: ﴿كَرِيمٌ﴾؛ لأنَّ الكرمَ في مقابِلِ الكُفرِ لا يكونُ إلَّا حيث يكونُ ذلك الكرمُ من مصلحةِ الكافرِ بها، وإلَّا ما ظهر آثارُ الكرمِ، بل ظهر آثارُ الحِكمةِ، لو قال: حكيمٌ، صار =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾.

أي: قال سُلَيمانُ: غيِّروا مَعالِمَ وهيئةَ عَرْشِ ملِكةِ سَبَأٍ؛ لِنَنظُرَ: أتعرِفُ أنَّه عَرشُها أم تكونُ مِن الذين لا يَعرِفون أنَّه هو[1]؟

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾.

= هذا يشمَلُ مَن تدرَّج اللهُ به حتى أهلَكَه، لكِنْ كريمٌ: ما يَتِمُّ الكرمُ للكافِرِ بالنعمةِ إلَّا حيث كان إبقاءُ النِّعمةِ عليه مصلحةً له لأجلِ أن يعودَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٢٢٣، ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٥، ٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٧)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ١٩٨).

قال ابن جُزَي: (﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ يحتملُ أن يريدَ: تهتدي لمعرفةِ عرشِها، أو للجوابِ عنه إذا سُئلَتْ، أو للإيمانِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٢).

وقال الرازي: (واختَلفوا في ﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ على وجهَينِ؛ أحدهما: أتَعرِفُ أنَّه عرشُها أمْ لا؟ ... الثَّاني: أتَعرِفُ به نُبُوَّةَ سُلَيمانَ أمْ لا؛ ولذلك قال: ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، وذلك كالذَّمِّ، ولا يليقُ إلَّا بطريقةِ الدَّلالةِ، فكأنَّه عليه السَّلامُ أحَبَّ أن تَنظُرَ فتَعرِفَ به نُبوَّتَه مِن حيثُ صار متنقلًا مِن المكانِ البعيدِ إلى هناك، وذلك يدُلُّ على قدرةِ الله تعالى، وعلى صِدقِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، ويَعرِف بذلك أيضًا فضلَ عقلِها؛ لأغراضٍ كانت له، فعندَ ذلك سألها). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٥٨).

أي: فلمَّا جاءت مَلِكةُ سَبَأٍ إلى سُلَيمانَ، ورأت عَرْشَها بعدَ تغييرِه، قيلَ لها[١]: هل عرشُكِ الذي تركتِهِ في بلادِكِ مِثلُ هذا العَرشِ الذي رأيتِه[٢]؟!

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾.

أي: قالت مَلِكةُ سَبَأٍ: هذا العَرشُ يُشبِهُ جِدًّا عرشي الذي تركتُه في بلادي[٣]!

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

أي: قال سُلَيمانُ: وآتانا اللهُ العِلمَ مِن قَبلِ مِلكةِ سَبَأٍ، وكنَّا طائِعين ومُنقادِين له سُبحانَه[٤].

---

(١) قال الشوكاني: (القائِلُ هو سُليمانُ، أو غيرُه بأمرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٣).
وقال ابنُ عثيمين: (ولم يبيَّنْ؛ لأنَّ المقصودَ معنى هذا القولِ دونَ قائلِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٣، ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٧)، ((الانتصاف فيما تضمنه الكشاف)) لابن المُنَيِّر (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٥).
قيل: قائلُ ذلك هو سليمانُ عليه السَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابن جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والزمخشري، وابن جزي، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة. وذهب إليه أيضًا مقاتلُ بنُ سليمان، يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٠٨).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ، وزهيرُ بنُ محمد. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٩). =

= قيل: المرادُ بالعلمِ هنا: العِلمُ بالله وبقدرتِه على فِعلِ ما يَشاءُ. وممَّن قال بذلك في الجملة: ابنُ جرير، ومكي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٩٣).

وقيل: المعنى: علِمْنَا حالَها وأمْرَها وحالَ عَرشِها قبل أن تعلَمَ. وممَّن قال بذلك: السمعاني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠١).

وقيل: العِلمُ هنا: يشمَلُ العلمَ الشرعيَّ، ويشمَلُ العلمَ بقواعدِ المُلكِ ومثبِّتاتِه، وما أشبَهَ ذلك. وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٥).

وقال ابن عاشور: (معنى: ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ إنْ حُمِلَ على ظاهِرِه أنَّ قَومَهم بني إسرائيلَ كانوا أسبَقَ في معرفةِ الحِكمةِ وحضارةِ المُلكِ مِن أهلِ سبأٍ؛ لأنَّ الحِكمةَ ظهَرت في بني إسرائيلَ مِن عَهدِ موسى؛ فقد سَنَّ لهم الشريعةَ، وأقام لهم نظامَ الجماعةِ، وعَلَّمَهم أسلوبَ الحضارةِ بتَخطيطِ رُسومِ مَساكِنِهم وملابِسِهم، ونظامِ الجَيشِ والحَربِ، والمواسِمِ والمحافِلِ. ثم أخذَ ذلك يرتقي إلى أن بلغَ غايةً بعيدةً في مُدَّةِ سُلَيمان- فبهذا الاعتبارِ كان بنو إسرائيلَ أسبَقَ إلى علمِ الحِكمةِ قَبلَ أهلِ سبأٍ؛ وإن أريدَ بـ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ القبليَّةُ الاعتباريَّةُ، وهي الفَضلُ والتفوُّقُ في المزايا -وهو الأليقُ بالمعنى- كان المعنى: إنَّا أوسَعُ وأقوى منها عِلمًا... فكان الأرجَحُ أن يكونَ معنى ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ أنَّا فائتونَها في العِلمِ، وبالِغون ما لم تبلُغْه. وزادوا في إظهارِ فَضلِهم عليها بذِكرِ الناحيةِ الدينيةِ، أي: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ دونَها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٤).

وذهب الواحدي، وأبو السعود، وجوَّزه الزمخشري، وذكره السعدي احتِمالًا: إلى أن هذا من قَولِ المِلكة، أي: قالت: وأُوتينا العِلمَ بالله وقُدرتِه وصِحَّةِ نبوَّةِ سليمانَ مِن قبْلِ هذه الآيةِ التي رأيْناها في إحضارِ العَرشِ، وكنَّا مُنقادينَ له قبلَ مجيئِنا. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

وجوَّز ابنُ عاشور أنَّ هذا مِن قولِ الملأِ مِن بني إسرائيلَ مِن قَومِ سُليمانَ، أي: قال بعضُهم لبعضٍ: أُوتينا العِلمَ والحِكمةَ من قبْلِ أهلِ سبأٍ بما هو أكثَرُ مِمَّا أُوتوا، وكنَّا مُسلمينَ لله دونهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٣، ٢٧٤).

وذهب الزمخشريُّ وابن جُزَي إلى أنَّ هذا مِن كلامِ سليمان ومَلَئِه. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣).

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٤٣﴾.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ومنَع ملِكةَ سَبَأٍ عن الإسلامِ عبادتُها الشَّمسَ مِن دونِ اللهِ[1]!

﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾.

أي: لأنَّها كانت مِن قَومٍ راسِخينَ في الكُفرِ باللهِ، فنشَأتْ بينَهم على الشِّركِ بالله سبحانَه، وقلَّدَتْهم في دينِهم[2].

﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤﴾.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَ﴾.

أي: قيل لِملِكةِ سَبَأٍ: ادخُلي هذا البِناءَ المُرتَفعَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).
قال ابن جرير: (ولو قيل: معنى ذلك: وصدَّها سليمانُ ما كانت تعبدُ من دون الله، بمعنى: منَعها وحال بيْنَها وبيْنَه؛ كان وجهًا حسنًا. ولو قيل أيضًا: وصدَّها اللهُ ذلك بتوفيقِها للإسلامِ؛ كان أيضًا وجهًا صحيحًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٧، ٢٣٨).
قال أبو السعود: (أي: أنَّها كانت من قومٍ راسخين في الكُفرِ؛ ولذلك لم تكُنْ قادرةً على إظهارِ إسلامِها وهي بيْنَ ظهرانَيْهم إلى أن دخَلَت تحتَ مملكةِ سُليمانَ عليه السَّلامُ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٢٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١٣٨)، ((غرائب التفسير)) للكرماني (٢/ ٨٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤، ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَا﴾.

أي: فلمَّا رأَتْه الملِكةُ -وهو مبنيٌّ بالزُّجاجِ وتحتَه ماءٌ- حَسِبَتْه ماءً، وأظهَرَت ساقَيها حتى تخوضَ في الماءِ مِن غيرِ أن تبتلَّ ثيابُها[١].

﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ﴾.

أي: قال سُلَيمانُ لها: هذا الذي حَسِبْتِه لجَّةً إنَّما هو بناءٌ مملَّسٌ مبنيٌّ من زُجاجٍ[٢].

﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾.

أي: قالت ملِكةُ سبأٍ: ربِّ إنِّي ظَلَمتُ نفسي بعبادةِ غَيرِك، والسُّجودِ للشَّمسِ مِن دونِك[٣].

﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وأذعنتُ وانقدْتُ واستسلمْتُ مع سُلَيمانَ، طائعةً لله تعالى، متابِعةً لسُلَيمانَ ومُقتَدِيةً به في عبادةِ اللهِ وَحدَه لا شريكَ له، خالِقِ كُلِّ شَيءٍ ومالِكِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٣)، ((غرائب التفسير)) للكرماني (٢/ ٨٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال ابنُ عاشور: (بهَرَها ما رأتْ مِن آياتٍ عَلِمَت منها أنَّ سُلَيمانَ صادِقٌ فيما دعاها إليه، وأنَّه مؤيَّدٌ من الله تعالى، وعلِمَتْ أنَّ دينَها ودينَ قَومِها باطِلٌ، فاعترفت بأنها ظَلَمَت نفسَها في اتِّباعِ الضَّلالِ بعبادةِ الشَّمسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٦).

ومدبِّره[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ أنَّه يجوزُ للإنسانِ أنْ يَصِفَ نفْسَه بما اتَّصفَ به مِن صفاتِ الكمالِ؛ ترغيبًا، كقَولِه: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ أو ترهيبًا، كقَولِه: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ بشَرطِ أنْ يكونَ ذلك حقيقةً، والأصلُ في ذلك أنَّه مباحٌ، والمباحُ تعتريه الأحكامُ الخَمسةُ؛ فقد يكونُ مَطلوبًا إمَّا وجوبًا وإما استِحبابًا إذا اقتَضَت الحالُ البيانَ؛ كأن يكونَ مِن أجلِ أن يمنَعَ مَن ليس بأهلٍ مِن مباشرةِ هذا العمَلِ، فحينئذٍ يجبُ أن يبَيِّنَ نفسَه، أو يكونَ مِن بابِ التحَدُّثِ بنِعمةِ الله؛ وقد يكونُ مَذمومًا كأن يكونَ لغَرضٍ سَيِّئٍ، أو يكونَ مجَرَّدَ دعوى[٢].

٢- أنَّ كلَّ وِلايةٍ وعَمَلٍ لا بُدَّ فيه مِن ركنينِ: القوَّةِ والأمانةِ: القُوَّةِ على ذلك العملِ، والأمانةِ فيه؛ فالعملُ الذي يَتطلَّبُ العلمَ لابُدَّ أنْ يكونَ المتولِّي له عالِمًا، والذي يعتَمِدُ قوةَ البدنِ لا بُدَّ أنْ يكونَ متولِّيه قويَّ البدنِ، ولا بُدَّ أنْ يكونَ أمينًا؛ لأنَّ مَن ليس بأمينٍ لا يمكنُ أنْ يُنفِّذَ العملَ على الوجهِ المَرْضيِّ، ويدلُّ على هذينِ الركنينِ قولُ العفريتِ مِن الجنِّ لسليمانَ عليه السلامُ لَمَّا قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٩).

قال ابن عاشور: (سكت القرآنُ عن بقيَّةِ خَبَرِها ورجوعِها إلى بلادِها، وللقصَّاصينَ أخبارٌ لا تصِحُّ... ولا أصلَ لِما يذكُرُه القصَّاصون وبعضُ المفسِّرينَ مِن أنَّ سُليمانَ تزوَّج بِلْقيسَ، ولا أنَّ له ولدًا منها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٨).

مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[(١)].

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ في قَولِه: ﴿عِلْمٌ﴾ تنبيهٌ على أنَّه اقتدرَ على ذلك بقوَّةِ العلم؛ لِيفيدَ ذلك تَعظيمَ العلمِ والحثَّ على تعَلُّمِه، وبيَّن أنَّ هذا الفَضلَ إنَّما هو للعِلمِ الشَّرعيِّ، فقال: ﴿مِّنَ الْكِتَابِ﴾[(٢)].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ لم يغترَّ عليه السَّلامُ بمُلكِه وسُلطانِه وقُدرتِه كما هو دأبُ الملوكِ الجاهلينَ، بل عَلِمَ أنَّ ذلك اختبارٌ مِن رَبِّه، فخاف ألَّا يقومَ بشُكرِ هذه النِّعمةِ[(٣)]. فلم يَشتغِلْ سليمانُ حين أُحضِرَ له العَرشُ بأن يبتهِجَ بسُلطانِه ولا بمقدرةِ رِجالِه، ولكِنَّه انصَرَف إلى شُكرِ الله تعالى على ما منَحَه من فضلٍ، وأعطاه مِن جُندٍ مُسخَّرين بالعِلمِ والقوَّةِ، فمزايا جميعِهم وفَضلُهم راجِعٌ إلى تفضيلِه[(٤)].

٥- منفعةُ الشُّكرِ تَرجِعُ إلى العبدِ في الدُّنيا والآخِرة، لا إلى اللهِ. والعبدُ هو الذي ينتَفِعُ بشُكرِه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [النمل: ٤٠]، فشُكرُ العبدِ إحسانٌ منه إلى نفسِه في الدُّنيا والآخِرة؛ فلا يُذَمُّ ما أتَى به مِن ذلك، وإن كان لا يُحسِنُ مُقابَلةَ المُنعَمِ به، ولا يستطيعُ شُكرَه، فإنَّه إنما هو مُحسِنٌ إلى نفسِه بالشُّكرِ، لا أنَّه مُكافِئٌ به لِنعَمِ الرَّبِّ، فالربُّ تعالى لا يستطيعُ أحدٌ أن يكافِئَ نِعَمَه أبدًا، ولا أقَلَّها، ولا أدنَى نعمةٍ مِن نِعَمِه؛ فإنَّه تعالى هو المنعِمُ

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٥/ ٢٧١).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٢).

المتفَضِّلُ، الخالِقُ للشُّكرِ والشَّاكِرِ وما يَشكُرُ عليه، فلا يستطيعُ أحدٌ أن يحصِيَ ثناءً عليه؛ فإنه هو المحسنُ إلى عَبدِه بنِعَمِه، وأحسَنَ إليه بأن أوزَعَه شُكْرَها؛ فشُكرُه نِعمةٌ مِن اللهِ أنعم بها عليه، تحتاجُ إلى شكرٍ آخَرَ. وهلُمَّ جرًّا[١].

٦- قَولُ الله تعالى حِكايةً عن سُلَيمانَ: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ فيه أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يتحَدَّثَ بنعمةِ اللهِ تعالى عليه[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ أنَّ البيئةَ لها تأثيرٌ؛ فهؤلاء القومُ أثَّروا عليها فصارتْ كافرةً تعبدُ مع اللهِ غيرَه[٣].

٨- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن مُصاحبةِ الأشرارِ؛ حتى لو كانوا مِن أقاربِك، فلا ينبغي أنْ تصاحِبَهم، وإذا كان لهم حقٌّ عليك بالقرابةِ فأعطِهم حقَّهم الذي لهم، ولكنْ لا تكُنْ مخالِطًا لهم ومُصاحِبًا لهم؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((المرءُ على دِينِ خليلِه؛ فلْينظرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ))[٤]، وهذا شيءٌ واقعٌ يَشهدُ له التاريخُ السابقُ والحديثُ[٥].

٩- قَولُه تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ فيه فضلُ الاعترافِ بالذُّنوبِ، لعَلَّامِ الغُيوبِ، وهو استِكانةٌ موجِبةٌ لعطفِه ولُطفِه، بغَفْرِ الذُّنوبِ وسَترِ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩).

(٤) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والتِّرمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٨٤١٧)، والحاكم (٤/ ١٨٨) (٧٣١٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

صححه الحاكم، وحسَّنه ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٥١)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٣٣)، وصحَّح إسناده النَّووي ((رياض الصالحين)) (١٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٩).

العُيوبِ، وهذا دأبُ المُصْطَفَيْنَ مِن عِبادِ الله؛ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، وعلَّمَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضيَ الله عنه دعاءً يدعو به في صلاتِه، قال: ((قُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي ظلَمتُ نفْسي ظُلمًا كثيرًا، ولا يغفرُ الذُّنوبَ إلَّا أنت، فاغفِرْ لي مغفرةً مِن عِندِكَ، وارحَمْني؛ إنَّك أنت الغفورُ الرَّحيمُ))(١)، وقال صلَّى الله عليه وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ الله عنها: ((إنَّ العبدَ إذا اعترَفَ بذَنْبِه، ثمَّ تاب؛ تاب اللهُ عليه))(٢).

١٠- مَكانُ العِبرةِ مِن هذه القصَّةِ: الاتِّعاظُ بحالِ هذه الملِكةِ؛ إذ لم يَصُدَّها عُلوُّ شأْنِها وعَظَمةُ سُلطانِها -مع ما أُوتِيَتْه مِن سَلامةِ الفِطرةِ وذَكاءِ العقلِ- عن أنْ تَنظُرَ في دَلائلِ صِدْقِ الدَّاعي إلى التَّوحيدِ، وتُوقِنَ بفَسادِ الشِّركِ، وتَعترِفَ بالوَحدانيَّةِ للهِ، فما يكونُ إصرارُ المُشركينَ على شِرْكِهم بعدَ أنْ جاءهُم الهَدْيُ الإسلاميُّ إلَّا لِسَخافةِ أحلامِهم، أو لِعَمايتِهم عن الحقِّ، وتَمسُّكِهم بالباطلِ وتَصَلُّبِهم فيه(٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ دَليلٌ على جوازِ

(١) رواه البخاري (٨٣٤، ٦٣٢٦، ٧٣٨٧)، ومسلم (٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٦٧).
والحديث رواه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٧).

الاستعانةِ ببَعضِ الأتْباعِ في مقاصِدِ الملوكِ[١].

٢- جوازُ الخطابِ إلى المُبْهَم إذا كان يَتعيَّنُ بعدَ ذلك، يعني: يجوزُ الخطابُ إلى المُبهَم حُكمًا أو خَبرًا قبلَ أن يَتعيَّنَ الحُكمُ؛ لقولِه: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ ما قال: ائتِني يا فلانُ. وهذا النوعُ مِن الخطابِ تترتبُ عليه فوائدُ كثيرةٌ حُكميَّةٌ وخَبَريَّةٌ؛ فمنها مثلًا: يجوزُ أنْ يقولَ: زوَّجْتُك إحدى ابنتيَّ هاتين، ثم يختار إحداهما، مِثلَما فَعَل صاحِبُ مَديَنَ مع موسى، ومنها: أنَّه يجوزُ أنْ يقولَ: بِعْتُك إحدى هاتينِ السِّلعتَينِ بكذا، فيختار إحداهما، ومنها: بِعتُك هذا بعشرةٍ نقدًا أو بعشرينَ نسيئةً، فيختارُ أحدَ الثمنين[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ دليلٌ على أنَّه قد يُخَصُّ بعضُ أتْباعِ الأنبياءِ بشيءٍ لا يكونُ لغيرِهم[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أنَّه يجوزُ للإنسانِ أمامَ عدوِّه أنْ يُظهِرَ العَظَمةَ؛ لأنَّ سُلَيمانَ أراد بإحضارِ هذا العرشِ إظهارَ عظمتِه وقُدرتِه، وأنَّه استطاع أنْ يأتيَ بعَرشِها المُحَصَّنِ بلا شكٍّ؛ لأنَّه -كما جرتِ العادةُ- قصورُ الملوكِ لا بُدَّ أنْ تكونَ مُحَصَّنَةٌ وعليها حَرَسٌ، لا سيما مِثلُ العرشِ[٤]!

٥- في تَقديمِ القُوَّةِ على الأمانةِ في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ دَليلٌ على أنَّها أهمُّ مِن الأمانةِ؛ لأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٥).

كم مِن إنسانٍ أمينٍ ولا يُخشى منه الخِيانةُ أبدًا، لكِنَّه ضَعيفٌ لا يُنتِجُ ولا يُثمِرُ! وكم مِن إنسان قويٍّ في أداءِ عملِه، لكنه ضعيفٌ في أمانتِه، فالثاني أحسنُ لإقامةِ العَمَلِ؛ ولهذا تجدُ كثيرًا مِن الناسِ الذين لديهم قوةٌ وحَزمٌ وتصرُّفٌ، تجدُهم يُنتِجون مِن الأعمالِ أكثرَ بكثيرٍ مِن قَومٍ ضُعَفاءَ وعندَهم أمانةٌ[١].

٦- في قَولِ الله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ قوةُ الجِنِّ؛ لأنَّه سوف يأتي بهذا العرشِ العظيمِ يحمِلُه مِن سبأٍ مِن اليمنِ إلى الشامِ، وأيضًا فيه دليلٌ على سرعتِهم، وهي مِن أوصافِ القوةِ؛ لِقَولِه: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وهذه سرعةٌ فائقةٌ وعظيمةٌ، ومعلومٌ أنهم عندهم سرعةٌ عظيمةٌ، بدليلِ أنهم يَسترِقُونَ السمعَ مِن السماءِ، ولا يصلُ إلى السماءِ إلَّا مَن كان عنده سُرعةٌ هائلةٌ عظيمةٌ[٢] فالآية فيها قدرةُ الجِنِّ -بإقدارِ اللهِ- على ما يَبعُدُ فِعلُه مِن الإنسِ[٣].

٧- قَولُه: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ فيه أنَّ سُلَيمانَ عليه الصلاةُ والسلامُ قد رَتَّبَ شؤونَ حياتِه ورَتَّبَ أوقاتَه حتى أصبحتْ معلومةً للناسِ، فلا شكَّ أن قيامَه مِن مقامِه مُقَدَّرٌ بمدةٍ معلومةٍ، ولولا ذلك ما قيل مثلُ هذا الكلامِ، وما كان لذكرِه فائدةٌ[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هذه المناظرةُ بينَ العفريتِ مِن الجِنِّ والذي عنده علمٌ مِن

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٥/ ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢١٢).

الكتاب تَرمُزُ إلى أنَّه يتأتى بالحِكمةِ والعِلمِ ما لا يتأتَّى بالقوَّةِ، وأنَّ الحِكمةَ مكتَسَبةٌ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الكراماتِ امتِحانٌ وابتلاءٌ -كالمُلْكِ والسُّلطانِ والمالِ- فالنِّعَمُ ابتلاءٌ مِن اللهِ وامتحانٌ يَظهَرُ بها شُكرُ الشَّكورِ وكُفرُ الكَفورِ[٢].

١٠- في قَولِه: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ﴾ إثباتُ التَّعليلِ لأحكامِ اللهِ سبحانه وتعالى الكونيَّةِ، كما ثَبَتَ ذلك في الأحكامِ الشرعيَّةِ؛ يؤخَذُ مِن (اللام) لأنَّها للتَّعليلِ، ويَتَفَرَّعُ على هذه الفائدةِ: الرَّدُّ على الجهميَّةِ الذين يقولون: إنَّ فِعْلَ اللهِ تعالى ليس مُعَلَّلًا، إنما يَفْعَلُ لمجرَّدِ المشيئةِ؛ إذا شاء فَعَلَ لحكمةٍ ولغيرِ حكمةٍ[٣]!

١١- قولُه تعالى حِكايةً عن سليمانَ: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ فيه اختبارُ المرءِ بما يُظْهِرُ حقيقةَ أمْرِه[٤].

١٢- في قَولِه: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أنَّه يجوز اختبارُ الإنسانِ وإنْ كان المختبِرُ يعلمُ مآلَه، وبالنسبةِ للهِ فهذا أمرٌ واقعٌ، لكنْ بالنسبةِ للإنسانِ فهذا يُنظَرُ فيه إلى المصلحةِ، قد يكونُ مُحَرَّمًا كما لو أردتَ أنْ تُظهِرَ ضَعفَه أمامَ الناسِ وتُخجِّلَه، وقد يكونُ واجبًا كما لو كان إنسانًا داعيةً إلى ضَلالةٍ وأردتَ أنْ تختبرَه لِيتبيَّنَ أمرُه للنَّاسِ، وأنت تعرفُ أنه ليس عنده جوابٌ لِمَا اختبرْتَه به، لكنْ تريدُ أنْ تُظْهِرَ للناسِ أمْرَه؛ فهو بالنسبةِ للهِ سبحانه وتعالى ممدوحٌ كلُّه؛ لأنَّ اللهَ يَعْلَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المآلَ، لكنْ بالنسبةِ للإنسانِ فاختبارُه عمَّا يُعْلَمُ مآلُه: على حسبِ المصلحةِ والفائدةِ[١].

١٣- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ قد يُقالُ: أليس اللهُ تعالى يعلَمُ بما يَؤولُ إليه الأمرُ؟ إذن: ما فائدةُ الاختبارِ وهو يَعلَمُ؟

الجوابُ: ليترتَّبَ الجزاءُ على ظاهرِ الحالِ؛ لأنَّ الله لو جازى الإنسانَ على ما يَعلَمُ مِن حالِه قبل أن يبلُوَه، لكان ذلك ظُلمًا في ظاهرِ الحالِ، فإذا ابتلاه فأطاع أو عصاه تبيَّن الأمرُ، فتكونُ الفائدةُ عَظيمةً، وهي ظهورُ أثَرِ هذا الشَّيءِ للنَّاسِ، وأنَّه ليس بظُلم مِن الله تعالى إذا خالف، وأيضًا ظهورُ نعمةِ الله على العبدِ العاملِ إذا أطاع حيثُ يشكُرُ اللهُ سَعيَه. فالحاصِلُ: أنَّ الابتلاءَ بمِثلِ هذه الأمورِ فائدتُه: أن يَجريَ الجزاءُ على ظاهرِ الحالِ، لا على عِلمِ الله[٢]، وإذا كان اللهُ سبحانه وتعالى -وهو أحكمُ الحاكمين- لا يَحْكُمُ بمجردِ العلمِ حتَّى تظهرَ الآثارُ؛ فالقاضي مِن بابِ أَولى، ولهذا ذَكَر أهلُ العلمِ أنه لا يجوزُ للقاضي أنْ يحكمُ بعِلْمِه؛ لقول النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إنما أقضي بنحوٍ مما أسمعُ))[٣].

١٤- قولُه: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ فيه الرَّدُّ على الجَبْريةِ؛ لأنَّه أضافَ الشُّكرَ إلى نفْسِه[٤].

١٥- في قَولِه: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ بيانُ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٩).

والحديث أخرجه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٠).

عَمَلَ الإنسانِ يعودُ نفعُهُ عليه، وأنَّ اللهَ غنيٌّ عن الخَلْقِ[١].

١٦- أنَّ الشَّاكرَ يُثابُ؛ لِقَولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ ولم يَقُلْ: (عن نفْسِه)، فدلَّ ذلك على أنَّ للشاكرِ ثوابًا يُجازى به، وهو كذلك[٢].

١٧- قولُه: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ فيه امتحانُ الغيرِ بما يُعْرَفُ به ذكاؤه وفِطنتُه[٣]، واختبارُ الأفهامِ للمصالحِ جائزٌ؛ كاختبارِ فَهْمِ اليتيمِ لحِفظِ مالِه والقيامِ بمصالِحه؛ فإنَّه وسيلةٌ إلى دفْعِ مالِه إليه، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[٤] [النساء: ٦].

١٨- قَولُه: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ في هذا الامتحانِ إشارةٌ إلى أنها إذا كانت تعرِفُ عرْشَها مع تغييرِه، وتنكيرِه، فإنه لا شكَّ أنَّ مَعرفتَها بأنَّ اللهَ تعالى هو المستحِقُّ للعبادةِ مِن بابِ أَولى، فهذا وجهٌ مِن أوجهِ الاختبارِ في هذه القصَّةِ[٥].

١٩- في قَوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ التوريةُ في الكلامِ؛ وهو أنْ يُظْهِرَ الإنسانُ شيئًا غيرَ ما يريدُ؛ فإنَّ قولَهم: ﴿أَهَٰكَذَا﴾ توريةٌ، لأنَّ حقيقةَ الأمرِ أنَّ العرشَ الذي بين أيديهم هو عرْشُها، فكان مقتضى الاستفهامِ أنْ يقولوا: (أهذا عرْشُك؟) لكنْ أَتوا بصيغةِ التوريةِ لإبعادِ الأمرِ، لأنَّ كونَه عرْشَها قد تتسرعُ وتقولُ: لا؛ لأنها تستبعدُ أنْ يكونَ العرشُ قد حَضَرَ في هذه المدةِ وعليه الحرسُ وعليه المغاليقُ! فقيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٦).

٢٠- قال الله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ المذاهِبُ الفاسِدةُ والعقائدُ الباطلةُ تُسيطِرُ على عَقلِ العاقِلِ، وتُذهِبُ لُبَّ اللَّبيبِ وبصيرةَ قَلبه حتى يُقَيَّضَ له من الأسبابِ المباركةِ ما يبيِّنُ له الحَقَّ، ويمُنُّ عليه باتِّباعِه، وإلَّا فقد كان لها مِن الذَّكاءِ والفِطنةِ ما به تَعرِفُ الحَقَّ مِن الباطِلِ[١].

٢١- ما يُدْرَكُ بالحواسِّ قد يَقَعُ فيه الخطأُ، والرؤيةُ قد تكذِبُ؛ لقوله: ﴿حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ﴾؛ فإنَّ هذا -كما هو الواقعُ- صَرْحٌ ممرَّدٌ مِن قواريرَ، وتنظرُ إليه نَظَرَ العينِ ومع ذلك تحسبُه لُجَّةً! فدلَّ هذا على أنَّ ما يُدْرَكُ بالحواسِّ قد يَقَعُ فيه الخطأُ، قد يرى الإنسانُ الشيءَ المتحرِّكَ ساكنًا؛ والساكنَ متحرِّكًا، والأبيضَ أسودَ، والرجلَ امرأةً[٢]!

٢٢- أنَّ المرأةَ مِن قديمِ الزمانِ شيمَتُها التستُّرُ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَا﴾ دليلٌ على أنَّ الأصلَ أنَّها مَستورةٌ، وهو كذلك، بخلافِ الرجُلِ؛ فإنَّ ((إزْرة المسلمِ إلى نصفِ السَّاقِ))[٣]، أما في هذا العصر فقد أصبحَ الأمرُ بالعَكسِ عندَ كثيرٍ مِن المسلمينَ، فأصبحَ الرجالُ ثيابُهم مُسبَلَةٌ، والنِّساءُ ثيابهنَّ قصيرةٌ، وهذا خلافُ الفِطرةِ التي فَطَرَ اللهُ عليها الخلْقَ[٤]!

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ أنَّ اللهَ تبارك وتعالى

---

(١) يُنظر: ((تيسير اللطيف المنان)) للسعدي (١/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٤٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٩٣) واللَّفظُ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٩٧١٧)، وابنُ ماجه (٣٥٧٣)، وأحمد (١١٣٩٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
صحَّحه ابنُ دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١١٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٠٩٣)، وصَحَّح إسنادَه النووي في ((المجموع)) (٤/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٤٨).

قد يَهَبُ المرءَ ما يُوجِبُ له أنْ يُسلِمَ، بل قد يُيَسِّرُ له الأسبابَ التي تُوجِبُ إسلامَه بكلِّ سهولةٍ؛ فهذه المرأةُ -حسبَ القصةِ- ما وجدنا أنها دُعِيَتْ وأُكِّدَ عليها وبُيِّنَ لها الخطأُ إلَّا في قَولِه في أوَّلِ القصَّةِ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]، لكنْ لَمَّا شاهدتْ ما شاهدتْ مِن عظمةِ مُلْكِ سليمانَ وقوَّتِه، عرَفَتْ أنَّه لا بُدَّ أنْ تُسلِمَ، وهي تتذكرُ كتابَه الذي قال فيه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[1].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ دينَ الأنبياءِ كلِّهم الإسلامُ[2].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ أنَّ المعاصيَ ظلمٌ للنَّفْسِ، ووجهُ ذلك أنَّ الإنسانَ مؤتمَنٌ على نفْسِه؛ مِن حيثُ السلوكُ والسِّيرةُ، ومِن حيثُ التَّصرُّفُ في مالِه، ومِن حيثُ التَّصرُّفُ في بدَنِه؛ ولهذا نُهيَ عن إضاعةِ المالِ، ونُهيَ عن قتْلِ النَّفْسِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[النساء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وأُمِرَ بالأكلِ وبالشُّربِ وباللِّباسِ، وبالوقايةِ مِن الحَرِّ والوقايةِ مِن البرْدِ، كلُّ هذا مِن أجلِ حفْظِ النَّفْسِ التي هي أمانةٌ عندك؛ فالإنسانُ ليس حُرًّا يتصَرَّفُ كما يشاءُ في بدَنِه، أو في سُلوكِه، أو في مالِه، بل هو مُقَيَّدٌ[3].

٢٦- قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اعترَفَتْ بأنَّها ظلَمَتْ نفْسَها في اتِّباعِ الضَّلالِ بعِبادةِ الشَّمسِ، وهذا دَرجةٌ أُولى في الاعتقادِ، وهو دَرجةُ التَّخليةِ، ثمَّ صَعِدَت إلى الدَّرجةِ الَّتي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٥٠).

فوقَها، وهي درجةُ التَّحلِّي بالإيمانِ الحقِّ، فقالت: (أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، فاعترَفَتْ بأنَّ اللهَ هو ربُّ جميعِ الموجوداتِ، وهذا مقامُ التَّوحيدِ، وفي قولِها: ﴿مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ إيمانٌ بالدِّينِ الَّذي تَقلَّدَهُ سُليمانُ، وقد أرادتْ جمْعَ معاني الدِّينِ في هذه الكلمةِ؛ لِيَكونَ تَفصيلُها فيما تَتلقَّاهُ مِن سُليمانَ مِن الشَّرائعِ والأحكامِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لذِكْرِ بعضِ أجزاءِ القصَّةِ، وطُوِيَ خبَرُ رُجوعِ الرُّسلِ والهديَّةِ، وعَلِمَ سُليمانُ أنَّ ملِكةَ سبأٍ لا يَسَعُها إلَّا طاعتُه ومَجيئُها إليه، أو ورَدَ له منها أنَّها عزَمَتْ على الحضورِ عندهُ عمَلًا بقولِه: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١][٢]؛ ففي الكلامِ حَذْفٌ تقديرُه: فرَجعَ المُرسَلُ إليها بالهديَّةِ، وأخبَرَها بما أقسَمَ عليه سُليمانُ، فتَجهَّزَت للمسيرِ إليه؛ إذ عَلِمَت أنَّه نَبيٌّ، ولا طاقةَ لها بقتالِ نَبيٍّ[٣].

- وتَقْييدُ الإتيانِ به بقولِه: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾؛ لِمَا أنَّ ذلكَ أبدعُ وأغربُ وأبعدُ مِن الوقوعِ عادةً، وأدلُّ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وصِحَّةِ نُبوَّتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ ولِيَكونَ اختبارُها وإطْلاعُها على بَدائعِ المُعجزاتِ في أوَّلِ مَجيئِها[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٦).

- وجُملةُ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ واقعةٌ مَوقعَ جوابِ المُحاورةِ؛ ففُصِلَت -أي: لم تُعطَفْ على ما قبْلَها- على أُسلوبِ المُحاوَراتِ[١].

- قولُه: ﴿عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ لمَّا كان العِفريتُ قد يُوصَفُ به الإنسُ، خُصَّ هنا بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾

- جُملةُ ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ واقعةٌ مَوقعَ جوابِ المُحاوَرةِ؛ ففُصِلَت -أي: لم تُعطَفْ على ما قبْلَها- على أُسلوبِ المُحاوَراتِ[٣]، أيضًا فُصِلَ عمَّا قبْلَه؛ للإيذانِ بما بيْنَ القائلينِ ومَقالَيْهما، وكيْفيَّتيْ قُدرتِهما على الإتيانِ به مِن كَمالِ التَّبايُنِ. أو لإسقاطِ الأوَّلِ عن دَرجةِ الاعتبارِ[٤].

- وتَنكيرُ ﴿عِلْمٌ﴾؛ للتَّفخيمِ[٥].

- قولُه: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ الطَّرْفُ: تَحريكُ الأجفانِ وفتْحُها للنَّظرِ إلى شَيءٍ، وارتدادُه: انضمامُها -على قولٍ في التفسيرِ-، ولكونِه أمرًا طبيعيًّا غيرَ مَنوطٍ بالقصْدِ، أُوثِرَ (الارتدادُ) على الرَّدِّ؛ فقال: ﴿يَرْتَدَّ﴾، ولم يقُل: (يُرَدَّ). ولَمَّا لم يكُنْ بيْن هذا الوعدِ وإنجازِه مُدَّةٌ ما كما في وَعْدِ العِفْريتِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٦، ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٨٧).

اسْتُغْنِيَ عن التَّأكيدِ؛ فلم يُؤكِّدْه هنا بقولِه: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾، كما ذكَرَ العِفريتُ في وَعْدِه[1].

- قولُه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ طُوِيَ عندَ الحِكايةِ ذِكرُ الإتيانِ به؛ للإيذانِ بأنَّه أمرٌ مُتحقِّقٌ، غَنِيٌّ عنِ الإخبارِ بِهِ، وجِيءَ بالفاءِ الفصيحةِ، لا داخلةٌ على جُملةٍ مَعطوفةٍ على جُملةٍ مُقدَّرةٍ دالَّةٍ على تَحقُّقِه فقطْ، كما في قولِه عَزَّ وجلَّ: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] ونظائِرِه، بلْ داخلةٌ على الشَّرطيَّةِ، حيثُ قِيلَ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، أيْ: رأَى العرشَ حاضرًا لدَيْهِ، كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف: ٣١]؛ للدَّلالةِ على كَمالِ ظُهورِ ما ذُكِرَ مِن تَحقُّقِه واستغنائِه عن الإخبارِ به ببَيانِ ظُهورِ ما يَترتَّبُ عليه مِن رُؤيةِ سُليمانَ عليه السَّلامُ إيَّاهُ، واستغنائِه أيضًا عن التَّصريحِ به؛ إذِ التَّقديرُ: فأتاهُ به، فرآهُ، فلمَّا رآهُ... إلخ، فحُذِفَ ما حُذِفَ لِمَا ذُكِرَ؛ وللإيذانِ بكَمالِ سُرعةِ الإتيانِ به؛ كأنَّه لم يَقَعْ بيْنَ الوعدِ به وبيْنَ رُؤيتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاه شَيءٌ ما أصلًا. وفي تَقْييدِ رُؤيتِه باستقرارِه عندَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ تأكيدٌ لهذا المَعْنى؛ لإيهامِه أنَّه لم يَتوسَّطْ بينَهما ابتداءُ الإتيانِ أيضًا، كأنَّه لم يَزَلْ مَوجُودًا عندَهُ، معَ ما فيه مِن الدَّلالةِ على دَوامِ قَرارِه عندَهُ مُنتظمًا في سِلكِ مُلْكِه[2].

- قولُه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ لمَّا ذكَرَ الفضلَ أضافَهُ إلى اللهِ بعُنوانِ كونِه ربَّه؛ لإظهارِ أنَّ فضْلَه عليه عظيمٌ؛ إذ هو عبْدُ ربِّه؛ فليس إحسانُ اللهِ إليه إلَّا فضْلًا مَحْضًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٢).

- وفي العُدولِ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ -دونَ أنْ يقولَ: (فإنَّه غنيٌّ كريمٌ)-: تأكيدٌ للاعترافِ بتَمحُّضِ الفضْلِ المُستفادِ مِن قولِه: ﴿فَضْلِ رَبِّي﴾[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ هذا مِن جُملةِ المُحاوَرةِ الَّتي جرَتْ بيْن سُليمانَ عليه السَّلامُ وبيْن مَلَئِه؛ ولذلك لم يُعْطَفْ على ما قبْلَه؛ لأنَّه جَرى على طريقةِ المُقاوَلةِ والمُحاوَرةِ[٢].

- وفي هذا محذوفٌ تقديرُه: فلمَّا جاء به قال: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾؛ لأنَّ تنكيرَه لم يكُنْ إلَّا بعدَ أنْ جِيء به إليه، وقد أغنَى عن المحذوفِ صدرُ الكلامِ وآخرُه، وكان ذلك دليلًا عليه[٣].

- قولُه: ﴿قَالَ﴾، أي: سُليمانُ عليه السَّلامُ؛ كُرِّرَتِ الحِكايةُ مع كَونِ المَحْكيِّ سابقًا ولاحقًا مِن كلامِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ تَنْبيهًا على ما بيْن السَّابقِ واللَّاحقِ مِن المُخالَفةِ؛ لِمَا أنَّ الأوَّلَ مِن بابِ الشُّكرِ للهِ تعالى، والثَّانيَ أمْرٌ لِخَدَمِه[٤].

- وقولُه: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أبلَغُ في انتفاءِ الاهتداءِ مِن: (لا تَهْتدي)؛ لأنَّ ما عليه النَّظمُ الكريمُ فيه دَلالةٌ على انتظامِها في سِلْكِ المَوسومينَ بعَدمِ الهِدايةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المثل السائر)) لابن الأثير (٢/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٣).

٥- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ شُروعٌ في حِكايةِ التَّجربةِ الَّتي قصَدَها سُليمانُ عليه السَّلامُ[١].

- ودلَّ قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ أنَّ المَلِكةَ لمَّا بلَغَها ما أجابَ به سُليمانُ رُسُلَها، أزْمَعَتِ الحُضورَ بنفْسِها لَدَى سُليمانَ داخلةً تحتَ نُفوذِ مَمْلكتِه، وأنَّها تَجهَّزتْ للسَّفرِ إليه بما يَليقُ بمِثْلِها؛ ففي الكلامِ حَذْفٌ إيجازًا[٢].

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿قِيلَ﴾ للمفعولِ؛ إذ لا يَتعلَّقُ غرَضٌ بالقائلِ، والظَّاهرُ أنَّ الَّذي قال ذلك هو سُليمانُ عليه السَّلامُ[٣].

- قولُه: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ لم يأْتِ التَّركيبُ: (أهذا عَرْشُك)، بلْ جاء: حَرفُ التَّنبيهِ، وكافُ التَّشبيهِ، واسمُ الإشارةِ؛ لئلَّا يكونَ تلْقينًا لها[٤].

- وفي قولِها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ وعُدولِها عن مُطابَقةِ الجوابِ للسُّؤالِ، بأنْ تقولَ: (هكذا هو) نُكتةٌ حَسَنةٌ، ولعلَّ قائلًا يقولُ: كِلَا العِبارتينِ تَشبيهٌ؛ إذ كافُ التَّشبيهِ فيهما جميعًا، وإنْ كانت في إحداهما داخلةً على اسمِ الإشارةِ، وفي الأُخرى داخلةً على المُضْمَرِ، وكِلاهما -أي: اسمُ الإشارةِ والمُضمَرُ- واقعٌ على الذَّاتِ المُشبَّهةِ، وحينئذٍ تَسْتوي العبارتانِ في المعنَى، ويَفضُلُ قولُها (هكذا هو) بمُطابَقتِه للسُّؤالِ، فلا بُدَّ في اختيارِ ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ مِن حِكمةٍ!

فالجوابُ: أنَّ حِكمتَه -واللهُ أعلَمُ-: أنَّ ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ عبارةُ مَن قَرُبَ عندَهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٨).

الشَّبهُ حتَّى شكَّكَ نفْسَه في التَّغايُرِ بيْن الأمرينِ؛ فكادَ يقولُ: هو هو، وتلك حالُ بِلْقيسَ. وأمَّا (هكذا هو)، فعبارةُ جازمٍ بتَغايُرِ الأمرينِ، حاكمٍ بوُقوعِ الشَّبهِ بيْنهما لا غيرُ؛ فلهذا عدَلَتْ إلى العبارةِ المذكورةِ في التِّلاوةِ؛ لِمُطابَقتِها لحالِها[١].

- وفي ذِكْرِ فِعلِ الكونِ ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾: دَلالةٌ على تَمكُّنِهم مِن الإسلامِ منذُ القِدَمِ[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيه حَذْفُ مُتعلَّقِ الصَّدِّ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه في قولِه: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، وما كانت تَعبُدُه هو الشَّمسُ[٣].

- وفي ذِكْرِ فِعلِ الكونِ مرَّتينِ في ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾: دَلالةٌ على تَمكُّنِها مِن عِبادةِ الشَّمسِ، وكان ذلك التَّمكُّنُ بسَببِ الانحدارِ مِن سُلالةِ المُشركينَ؛ فالشِّركُ مُنْطبِعٌ في نفْسِها بالوراثةِ؛ فالكُفْرُ قد أحاطَ بها بتَغلْغُلِه في نفْسِها وبنَشأَتِها عليه، وبكَونِها بيْن قومٍ كافرينَ؛ فمِن أين يَخلُصُ إليها الهُدى والإيمانُ[٤]؟!

٧- قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣٦٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٧٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٧٤، ٢٧٥).

- قولُه: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ لِجُزءٍ مِن القصَّةِ، وطُوِيَ ذِكْرُ تَرحُّلِها إلى وُصولِها في ذِكْرِ ما يَدلُّ عليه؛ مِن حُلولِها أمامَ صَرْحِ سُليمانَ للدُّخولِ معه إليه، أو الدُّخولِ عليه وهو فيه[١].

- قولُه: ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ﴾ في الكلامِ حَذْفٌ، تَقديرُه: فدَخَلتْه امتثالًا للأمْرِ[٢].

- وفي قولِها: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الْتفاتٌ إلى الاسمِ الجليلِ، ووَصْفُه برُبوبيَّةِ العالمينَ؛ لإظهارِ مَعرفتِها بأُلوهيَّتِه تعالَى وتَفرُّدِه باستحقاقِ العِبادةِ برُبوبيَّتِه لجميعِ المَوجُوداتِ، الَّتي مِن جُملتِها ما كانتْ تَعبُدُه قبْلَ ذلكَ مِن الشَّمسِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٩).

الآيات (٤٥-٥٢)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾: أي: تَطَيَّرنا وتشاءَمْنا، وأَصْلُه: التَّفاؤُلُ بالطَّيْرِ، ثمَّ استُعمِلَ في كلِّ ما يُتفاءَلُ به ويُتشاءَمُ، واشتِقاقُه مِنَ الطَّيرِ، كالغُرابِ وما أشبَهَه[1].

﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾: أي: شُؤمُكم وحَظُّكم مِنَ الشَّرِّ[2].

﴿تُفْتَنُونَ﴾: أي: تُبتَلَوْن وتُختبَرون، وأصلُ الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهَبِ النَّارَ لتظهَرَ جودتُه مِن رداءتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٢، ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٩، ٢٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨)، =

﴿رَهۡطٖ﴾: أي: أنفُس، والرَّهْطُ: الجماعةُ والعِصابةُ دُونَ العَشَرةِ، وقيل: ما فوقَ العَشَرةِ إلى الأربعينَ، وأصْلُه: يدُلُّ على تجمُّعٍ في النَّاسِ وغَيرِهم[١].

﴿تَقَاسَمُواْ﴾: أي: تحالَفُوا باللهِ، وحلفَ بعضُهم لبعض، وأصلُه مِنَ القَسامةِ، وهي أيمانٌ تُقْسَمُ على أولياءِ المقتولِ، ثمَّ صار اسمًا لكلِّ حَلِفٍ[٢].

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾: أي: لَنَقْتُلَنَّهم ليلًا، والتَّبييتُ يُقالُ لكلِّ فِعلٍ دُبِّرَ باللَّيلِ[٣].

﴿مَهۡلِكَ﴾: أي: إهلاكَهم ومَوتَهم، وأصلُ الهلاكِ: السُّقوطُ[٤].

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾: المكرُ: صرْفُ الغيرِ عمَّا يَقصِدُه بحيلةٍ، أو: إيصالُ الشَّرِّ إلى الغيرِ بطريقٍ خفيٍّ، وأصلُ المكرِ: الاحتيالُ والخِداع[٥].

﴿دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾: أي: أهْلَكْناهم، وأخَذْناهم بعقوبتِنا إيَّاهم، والتَّدميرُ: إدخالُ الهلاكِ على الشَّيءِ[٦].

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٧)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٢، ٦٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٣٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٠)، ((المفردات)) =

﴿خَاوِيَةٌ﴾: أي: خَرابًا خالِيةً قد سقَط بَعضُها على بَعضٍ، وأصلُ الخَواءِ: الخَلاءُ والسُّقوطُ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾

قولُه: ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ في محلِّ هذا المصدَرِ المؤوَّلِ أوجُهٌ؛ أحدُها: أن يكونَ منصوبًا على نزعِ الخافضِ، أي: لأنَّا دمَّرْناهم، و(كان) تامَّةٌ، و (عاقبةُ) فاعِلٌ بها، و (كيف) حالٌ. أو (كان) ناقصةٌ، و (عاقبةُ) اسمُها، و(كيف) خبَرُها. الثَّاني: أن يكونَ بدلًا مِن (عاقبة)، أي: كيف كان تدميرُنا إيَّاهم. الثَّالثُ: أن يكونَ خبَرَ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: العاقبةُ أنَّا دمَّرْناهم. الرَّابع: أن يكونَ المصدَرُ المؤوَّلُ خبرًا لـ (كان)، والعاقِبةُ اسمها، و(كيف) في محلِّ نصبٍ حالٌ، والتَّقديرُ: فانظرُ -يا محمَّدُ- على أيِّ حالٍ كان عاقِبةُ أمرِهم تدميرَهم. وقُرِئَ: ﴿إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ بالكسرِ على الاستِئْنافِ[٢]، وهو تفسيرٌ للعاقبةِ[٣].

= للراغب (ص: ٣١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٢) قرأ بفتحِ الهمزةِ: عاصمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ ويعقوبُ وخلَفٌ، والباقون بالكسرِ. يُنظر: ((السبعة في القراءات)) لابن مجاهد (ص: ٤٨٣، ٤٨٤)، ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٨)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٢٩٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٢٤)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكِّي (٢/ ٥٣٧)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٢٦).

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ اللهُ تعالى جانبًا مِن قصَّةِ صالحٍ عليه السَّلامُ مع قومِه، فيقولُ سبحانَه: لقد أرسَلْنا إلى قبيلةِ ثمودَ أخاهم ونبيَّهم صالِحًا، فأمَرَهم بعبادةِ اللهِ وحْدَه لا شَريكَ له؛ فإذا هم فريقان: مؤمِنونَ به، وكافِرون، كلٌّ منهم يختَصِمُ في شأنِ الدِّينِ، فقال لهم صالحٌ: يا قومِ، لِمَ تستعجِلونَ عذابَ اللهِ ولا تَرجُونَ رَحمتَه، هلَّا تَطلُبونَ مِن اللهِ أن يغفِرَ لكم؛ لعَلَّه يرحَمُكم؟! فقالوا له: تشاءَمنا بك وبمَن معك مِنَ المؤمِنينَ! فقال صالحٌ لهم: ما أصابَكم مِن مكروهٍ فهو مِن عندِ اللهِ بسبَبِ ذُنوبِكم، بل أنتم قومٌ مختَبَرون بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ مِن رَبِّكم.

ثمَّ يحكي الله تعالى ما قابل به رؤساءُ ثَمودَ دعوةَ نبيِّهم صالحٍ عليه السَّلامُ مِن عنادٍ وإصرارٍ على التخلُّصِ منه ومِن أهلِه، فيقولُ تعالى: وكان في مدينةِ ثمودَ تِسعةُ أشخاصٍ يُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي، ولا يُصلِحون، فقال بعضُهم لبعضٍ: تحالَفوا باللهِ على اغتيالِ صالحٍ وأهلِه ليلًا، ثمَّ بعدَ أن نقتُلَه وأهلَه نقولُ لِمَن يطالِبُ بدَمِه: ما حضَرْنا هلاكَ صالحٍ وأهلِ بيتِه، وإنَّا لَصادِقون في ذلك!

ومكَرَ هؤلاءِ الرَّهطُ، فمكَرَ اللهُ بهم مَكْرًا أعظَمَ مِن مَكْرِهم، وهم لا يَشعرونَ! فانظُرْ -يا محمَّدُ- كيف كان عاقِبةُ مكرِ هؤلاء المُفسِدين مِن قومِ صالحٍ؛ أنَّا أهلَكْناهم وأهلَكْنا جميعَ قومِهم المُشركين، فتلك مساكِنُ ثمودَ قد صارت خَرابًا خاليةً مِن أهلِها؛ بسَبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم. إنَّ في ذلك لَعِبرةً وعِظةً لِقَومٍ يَعلَمونَ، وأنجَيْنا صالحًا والمؤمِنينَ به مِن قَومِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه قِصَّةَ موسى وداودَ وسُليمانَ -وهم مِن بني إسرائيلَ-؛ ذَكرَ قصةَ مَن هو مِن العربِ؛ يُذَكِّرُ بها قريشًا والعربَ، ويُنبِّهُهم أنَّ مَن تقدَّمَ مِن الأنبياءِ مِن العربِ كان يدعو إلى إفرادِ اللهِ تعالى بالعبادةِ؛ لِيَعلموا أنَّهم في عبادةِ الأصنامِ على ضلالةٍ، وأنَّ شأنَ الأنبياءِ -عربِهم وعجمِهم- هو الدُّعاءُ إلى عبادةِ اللهِ[1].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا إلى قبيلةِ ثمودَ أخاهم في النَّسَبِ صالِحًا، فأمَرَهم بعبادةِ اللهِ وحْدَه لا شَريكَ له[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: ٦١].

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

أي: فإذا قومُ صالحٍ فَريقانِ: مُؤمِنون وكافِرون، يختَصِمون في الدِّينِ، وكلٌّ يقولُ بأنَّ الحقَّ معه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٨).

قال ابن عاشور: (والانتقالُ مِن ذكرِ ملكِ سليمانَ وقِصَّةِ ملكةِ سبأٍ إلى ذكرِ ثمودَ ورسولِهم دونَ ذكرِ عادٍ؛ لمناسبةِ جوارِ البلادِ؛ لأنَّ ديارَ ثمودَ كانت على تُخومِ مملكةِ سليمانَ، وكانت في طريقِ السَّائرِ مِن سبأٍ إلى فِلَسْطِينَ، ألا ترَى أنَّه أعقبَ ذكرَ ثمودَ بذكرِ قومِ لوطٍ وهم أدنَى إلى بلادِ فلسطينَ، فكان سياقُ هذه القصصِ مُناسبًا لسياقِ السَّائرِ مِن بلادِ اليمنِ إلى فِلَسطِينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

أي: قال صالحٌ: يا قومِ، لأيِّ شَيءٍ تَطلُبونَ عذابَ اللهِ، ولا تَطلُبونَ رحمتَه[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال القرطبي: (قالَ مُجاهِدٌ: بالعذابِ قبلَ الرَّحمةِ، المعنى: لِمَ تؤخِّرون الإيمانَ الذي يجلِبُ إليكم الثَّوابَ، وتقَدِّمون الكفرَ الذي يوجِبُ العقابَ؟! فكان الكفَّارُ يقولون؛ لفرطِ الإنكارِ: ايتِنا بالعذابِ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤).

وقال السعدي: (﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: لِمَ تبادِرونَ فِعلَ السَّيِّئاتِ وتحرِصونَ عليها قبلَ فِعلِ الحسَناتِ التي بها تحسُنُ أحوالُكم وتصلحُ أمورُكم الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ؟! والحالُ أنَّه لا مُوجِبَ لكم إلى الذَّهابِ لِفِعلِ السَّيِّئاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (إنَّ صالحًا تلَطَّف بقَومِه وترَفَّقَ بهم في الخِطابِ، فوقَفَهم على خطيئتِهم في استِعجالِ العذابِ قبلَ الرَّحمةِ، والمعصيةِ لله تعالى قبلَ الطَّاعةِ، وفي أن يكونَ اقتِراحُهم وطلبُهم يقتضي هلاكَهم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٣).

وذكر ابن عثيمين أنَّ الاستعجالَ على نوعَين:

أحدُهما: استعجالٌ بالقَولِ؛ بأنْ يقولوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

والثاني: استعجالٌ بالفِعلِ والحالِ؛ بأنْ يَسلُكوا مسْلَكًا يكونُ به العذابُ، وذلك بالمعاصي؛ فإنَّ المعصيةَ استعجالٌ بالعذابِ بلا شكٍّ. فالاستعجالُ يكونُ بقالِ الإنسانِ وحالِه. يُنظر: =

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أي: قال صالحٌ لِقَومِه: هلَّا تَطلُبونَ مِن اللهِ أن يغفِرَ لكم كُفرَكم ومعاصيَكم؛ كي يرحَمَكم[1]؟

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾.

أي: قال مُشرِكو ثمودَ لنبيِّهم صالحٍ: تشاءَمْنا بك وبمَن معك مِنَ المؤمِنينَ؛ فنحن تُصيبُنا المصائِبُ والمكارِهُ بسَبَبِكم[2]!

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: فقال صالحٌ لِقَومِه: ما يُصيبُكم مِن مكروهٍ فإنَّما جاءَكم مِن عندِ اللهِ وحْدَه، ووقَعَ عليكم بإذنِه؛ بسَبَبِ ذُنوبِكم[3].

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال البقاعي: (﴿لَوْلَا﴾ أي: هلَّا، ولِمَ لا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: تَطلُبونَ غُفرانَ الَّذي له صِفاتُ الكمالِ لذُنوبِكم السَّالفةِ، بالرُّجوعِ إليه بالتوبةِ بإخلاصِ العبادةِ له ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لِتكونوا على رجاءٍ مِن أن تُعامَلوا مِن كُلِّ مَن فيه خيرٌ معاملةَ المرحومِ؛ بإعطاءِ الخيرِ، والحمايةِ مِنَ الشَّرِّ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٧٥).

وقال السمعاني: (والاستغفارُ هاهنا بمعنَى التَّوبةِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١٧).

قال الشنقيطي: (كان قومُ صالحٍ إذا نزَل بهم قَحطٌ أو بلاءٌ أو مصائِبُ، قالوا: ما جاءَنا هذا إلَّا مِن شؤمِ صالحٍ ومَن آمنَ به). ((أضواء البيان)) (٦/ ١١٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن =

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

أي: بل أنتم قَومٌ يَختبِرُكم ربُّكم بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والخيرِ والشَّرِّ(١).

= كثير)) (٦/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي: تُبتلَونَ وتُختبرون وتُمتحنون: الزَّجَّاجُ، والسمعاني، وابن عطية، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: تُختبرون بالخيرِ والشَّرِّ، وبتَعاقُبِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ: الرَّسْعَنيُّ، والبيضاوي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال السعدي: (﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والخيرِ والشَّرِّ؛ لِيَنظُرَ هل تُقلِعون وتَتوبون أمْ لا؟). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: بل أنتم قومٌ تُختبرون؛ يَختبِرُكم ربُّكم إذ أرسَلني إليكم، أتُطيعونه أمْ تَعصونه: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٤٤).

وقيل: المرادُ: تُبتلَون بذُنوبِكم. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٦).

وقال ابن كثير: (الظاهِرُ أنَّ المرادَ بقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي: تُستدرَجون فيما أنتم فيه مِن الضَّلالِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٨).

وقال ابنُ عثيمين: (هنا الإضرابُ انتقاليٌّ؛ لأنَّه عندَ الله يفتِنُهم بما حصَل ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾. ووجهُ الفتنةِ:

أوَّلًا: أنَّهم نسَبوا هذا إلى صالحٍ ومَن معه، وهذه فتنةٌ عظيمةٌ ضَلَّ بها هؤلاء.

ثانيًا: أنَّه أصابهم مع مجيءِ صالحٍ إليهم، فظَنُّوا أو ادَّعَوا أنَّ أسبابَ ذلك صالحٌ ومَن معه، ففُتِنوا بذلك فابتَعَدوا عن الحقِّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٧٠).

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وكان في مدينةِ ثمودَ تِسعةُ أنفُسٍ[١] يُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي، ولا يُصلِحونَ فيها بوجهٍ مِن الوجوهِ[٢].

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾.

أي: قال التِّسعةُ المُفسِدون في الأرضِ بعضُهم لبعضٍ: تحالَفوا باللهِ وتعاهَدوا على اغتيالِ صالحٍ وأهلِه ليلًا[٣].

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

---

(١) قال أبو حيَّان: (اتَّفق المفسِّرون على أنَّ المعنى: تسعةُ رجالٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال ابن جرير: (وإنَّما خصَّ اللهُ جلَّ ثناؤه هؤلاء التِّسعةَ الرَّهْطِ بالخبرِ عنهم أنَّهم كانوا يُفسِدون في الأرضِ ولا يُصلِحون، وإن كان أهلُ الكفرِ كلُّهم في الأرضِ مفسدينَ؛ لأنَّ هؤلاء التِّسعةَ هم الذين سَعَوْا -فيما بلَغَنا- في عَقْرِ النَّاقةِ، وتعاوَنوا عليه، وتحالَفوا على قتلِ صالحٍ مِن بينِ قَومِهم ثمودَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨، ٨٩). ويُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٣١٣).

وقال ابن كثير: (وإنَّما غلَب هؤلاء على أمرِ ثمودَ؛ لأنَّهم كانوا كبراءَ فيهم ورؤساءَهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال ابن عاشور: (﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾... والمعنى: أنَّهم يُغيرون على بيتِه ليلًا فيَقتُلونه وأهلَه غدْرًا مِن حيثُ لا يُعرَفُ قاتلُه، ثمَّ ينكرونَ أن يكونوا هم قتَلوهم، ولا شَهِدوا مَقتلَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٣).

أي: ثمَّ بعدَ أن نقتُلَ صالحًا وأهلَه خُفيةً نقولُ لِقَريبِ صالحٍ الذي له حَقُّ المطالَبةِ بدَمِه[١]: ما حضَرْنا هلاكَ صالحٍ وأهلِ بيتِه، وإنَّا لَصادِقونَ في ذلك[٢]!

﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠ ﴾.

أي: ودبَّر التِّسعةُ المفسِدونَ تدبيرًا لِقَتلِ صالحٍ وأهلِه، ومَكَرْنا بهم مكرًا أعظَمَ مِن مَكْرِهم، وهم لا يَعلَمونَ كيفيَّةَ تدبيرِنا إهلاكَهم[٣].

ثم شرَع تعالى في بَيانِ ما تَرتَّبَ على ما بَاشرُوه مِنَ المَكْرِ[٤]، فقال:

﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥١ ﴾.

﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ ﴾.

أي: فانظُرْ -يا محمَّدُ- كيف كان آخِرُ أمرِ مَكرِ المُفسِدينَ مِن قَومِ صالحٍ حينَ أرادوا قَتْلَه وأهلِه[٥].

---

(١) قال ابن عثيمين: (ووليُّ الدَّمِ عندَنا في الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ هم الوَرَثةُ بفَرضٍ أو تعصيبٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال ابن جرير: (معنى مَكرِ اللهِ بمَن مكَرَ به...: أخْذُه مَن أخَذَه منهم على غِرَّةٍ، أو استِدراجُه مَن استَدرَجَ منهم على كُفرِه به ومعصيتِه إيَّاه، ثمَّ إحلالُه العقوبةَ به على غِرَّةٍ وغَفلةٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٣).

وقال السعدي: (﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ بنصرِ نبيِّنا صالحٍ عليه السَّلامُ، وتيسيرِ أمرِه، وإهلاكِ قَومِه المكَذِّبينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٥].

﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

أي: كان عاقِبةُ مَكرِ المُفسِدينَ مِن قَومِ صالحٍ أنَّا أهلَكْناهم وأهلَكْنا جميعَ قَومِهم المُشرِكينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤].

﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥٢﴾.

﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾.

= (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢١).

قال ابن جرير: (فانظُرْ -يا محمَّدُ- بعينِ قلبِك إلى عاقبةِ غدْرِ ثَمودَ بنبيِّهم صالح، كيف كانت؟ وما الَّذي أورَثها اعتِداؤُهم وطغيانُهم وتكذيبُهم؟ فإنَّ ذلك سُنَّتُنا فيمَنْ كذَّبَ رُسُلَنا، وطغَى علينا مِن سائرِ الخَلقِ؛ فحَذِّرْ قَومَك من قُرَيشٍ أن ينالَهم بتكذيبِهم إيَّاك ما نالَ ثمودَ بتكذيبِهم صالحًا مِنَ المَثُلاتِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٤، ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٠، ١٢١).

قال ابن عثيمين: (﴿دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ مِن التَّدمير، وهو أبلَغُ مِن الإهلاكِ؛ لأنَّ التَّدميرَ يُوحي بغِلَظِ هذا الإهلاكِ وعظَمتِه، وهو كذلك؛ فإنَّ قَومَ صالحٍ أُخِذوا -والعياذُ بالله- بأمْرَينِ: بصَيحةٍ ورَجفةٍ؛ صِيحَ بهم، وارتجفَتْ بهم الأرضُ حتَّى انهدمَ عليهم بناؤُهم، وتقَطَّعت قلوبُهم في أجوافِهم. نسألُ اللهَ العافيةَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٩٨).

أي: فتلك مَساكِنُ ثمودَ قد صارت خَرابًا خاليةً مِن أهلِها؛ بسَبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم بشِركِهم وتكذيبِ رَسولِهم، وقَتْلِهم ناقةَ اللهِ[(١)].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ في ذلك[(٢)] لَعِبرةً وعِظةً ودَلالةً على الحَقِّ لِمَن يَعلَمونَ قُدرةَ اللهِ وحِكمَتَه وغيرَ ذلك مِنَ الحقائِقِ[(٣)].

كما قال تعالى عنهم: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۖ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٨].

﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: وأنجَيْنا مِن سَخَطِنا وعَذابِنا صالِحًا والمؤمِنينَ به مِن قَومِه، الَّذين كانوا يَتَّقون سَخَطَ اللهِ وعذابَه، فيَتجنَّبونَ الشِّركَ والمعاصيَ، ويَعمَلونَ بطاعةِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٠).

(٢) قيل: الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ تعودُ إلى إهلاكِ ثمودَ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، ومكِّي بن أبي طالب، والواحديُّ، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٠).

وقيل: الإشارةُ تعودُ إلى جميعِ قصَّةِ ثمودَ قومِ صالحٍ. وممَّن قال بهذا: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٠).

قال القاسمي: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: بأنَّهم ما أُخِذوا إلَّا لظُلمِهم، وأنَّ عاقبةَ الظُّلمِ الدَّمارُ والبَوارُ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٩٧).

وقال ابنُ عثيمين: (يعلَمونَ قُدرةَ الله وحِكمتَه وما جرى للأمَمِ، كلُّ هذا جائزٌ؛ لأنَّ الذي لا يدري بماذا يعتبرُ؟ لكن الذي يدري هو الذي يعتبرُ). ((تفسير ابن عثيمين-سورة النمل)) (ص: ٣٠٦).

تعالى ويخافونَه[١].

كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ * وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾[هود: ٦٦ - ٦٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ أنَّ مِن مقتضَى النُّصحِ أنْ تؤكِّدَ ما ينبغي تأكيدُه للمخاطَبِ مِن الأخبارِ المهمَّةِ؛ لِيكونَ المخاطَبُ على يقينٍ منها، ووجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ ذَكَر أنَّه أَرْسَل إلى ثمودَ أخاهم صالحًا، وأكَّدَ هذا الخبرَ بقَولِه: ﴿وَلَقَدْ ﴾[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ دليلٌ قاطعٌ على أنَّ الكذبَ قبيحٌ عندَ الكفرةِ الَّذين لا يَعرِفون الشَّرعَ ونواهيَه، ولا يَخْطُرُ ببالِهم إلَّا أنَّهم قَصدوا قتْلَ نبيِّ اللهِ؛ ولم يَرضوا لأنفُسِهم أنْ يَكونوا كاذبين حتَّى سَوَّوْا للصِّدقِ في خَبَرِهم حيلةً يَتفصَّون[٣] فيها عن الكذبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٠).

قال ابن جرير: (... فكذلك ننجِّيك -يا محمَّدُ- وأتباعَك، عند إحلالِنا عقوبَتَنا بمُشرِكي قَومِك، مِن بينِ أظهُرِهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٥٤).

(٣) تَفصَّى مِن الشَّيءِ وعنه: تخلَّصَ منه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٦)، ((المعجم الوسيط)) (٢/ ٦٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٦٦).

٣- قال الله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ ينظُرَ ويتأمَّلَ في الأمورِ ويَعتبِرَ؛ لا سيَّما في أمورِ المكذِّبين[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أنَّ العقوبةَ تَعُمُّ، ولكنْ كما قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا أراد الله بقَومٍ عذابًا، أصاب العذابُ مَن كان فيهم، ثُمَّ بُعِثوا على أعمالِهم))[٢]، وهذا مشاهَدٌ، سواءٌ كانتِ العقوبةُ مِنَ اللهِ -يعني: مِن فِعلِ اللهِ-، أو مِن فعلِ العبادِ؛ فيُسَلِّطُ اللهُ تعالى بعضَ عبادِه على بعضٍ؛ فيُدَمِّرُ هذا المتسَلِّطُ على الصَّالحِ والطَّالحِ، ولكنْ يُبعَثُ النَّاسُ يومَ القيامةِ على أعمالِهم ونِيَّاتِهم[٣]، أو يُنزِلُ اللهُ تعالى كارثةً مِن عندِه -كالفيضاناتِ والرِّياحِ وغيرِها- فتُدَمِّرُ الصَّالحَ والطَّالحَ، ويومَ القيامةِ يُبعثون على نِيَّاتهم؛ ولذلك يجبُ أنْ يكونَ خوفُ الإنسانِ مِن معاصي غيرِه كخوفِه مِن معاصي نفْسِه؛ لأنَّ العقوبةَ واحدةٌ؛ إذا نزلَتْ عَمَّتْ[٤].

٥- قال تعالى: ﴿دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ فالتَّدميرُ مِن أسبابِه الظُّلْمُ، فالباءُ في قولِه: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ للسَّببيَّةِ، وفيه التَّحذيرُ مِن الظُّلمِ؛ سواءٌ كان متعدِّيًا -بظُلمِ الغيرِ-، أو لازمًا -بظُلمِ النفْسِ وحْدَها-[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ فَضيلةُ العِلمِ، وفيه أيضًا الحَثُّ على العِلمِ؛ لأنَّه إذا ثَبَتَ فَضْلُه فمعنى ذلك أنَّ اللهَ ذَكَره لنا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٠٨)، ومسلم (٢٨٧٩) من حديث ابن عمر رضيَ الله عنهما.

(٣) ينظر ما أخرجه البخاري (٢١١٨)، ومسلمٌ (٢٨٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٧).

لِنَتعلَّمَ[١]، وفيه مِن الحَثِّ على مَعرفةِ أخبارِ الأُمَمِ والعِلمِ بها ما هو ظاهِرٌ؛ لأنَّ بها يتَّعِظُ النَّاسُ، وكذلك أيضًا الأخبارُ الواقعةُ في زمنِ الإنسانِ ينبغي أن يتَّخِذَ مِن حوادِثِها عِظةً وعِبرةً[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الحَثُّ على الإيمانِ والتقوى؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ عاقلٍ ينبغي له أنْ يَسلُكَ أسبابَ النجاةِ، فيكونُ في الإخبارِ عن نجاتِهم الحَثُّ على السَّببِ الذي به نَجَوا، فقولُه: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حُكْمٌ مُعَلَّقٌ بوصفٍ، والحكمُ إذا عُلِّقَ بوصفٍ دَلَّ ذلك على عِلِّيَّةِ هذا الوصفِ وتأثيرِه في الحكمِ[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أنَّه يصِحُّ إطلاقُ الأُخُوَّةِ النَّسَبيَّةِ بينَ المسلمِ والكافرِ، فلا يُقالُ: إذا انتَفَتِ الأخوَّةُ الإيمانيَّةُ انتفتِ الأُخوةُ النَّسَبيَّةُ، بل إذا انتفَى أحدُهما يبقَى الآخَرُ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أنَّ كلَّ مُتَصَدٍّ للدَّعوةِ إلى اللهِ فلا بُدَّ أنْ يَجِدَ خصومًا؛ لأنَّه إذا كانت الدَّعوةُ في ابتدائِها مع مَن جاء بها وهو الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ تُلاقي ذلك؛ فما بالُك بانتهائِها[٥]؟!

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٣). ويُنظر أيضًا: ((البحر المحيط في أصول الفقه)) للزركشي (٧/ ١٦٧)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٣٠٤، ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٦).

فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ فيه الخِصامُ لإظهارِ الحقِّ، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]. والخِصامُ لإظهارِ الحقِّ أكرِمْ به مِن خِصام؛ يُثبَتُ به الحقُّ، ويُدحَضُ به الباطلُ، وهو إحسانٌ إلى المخاصَم بإنقاذِه مِنَ النَّارِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أنَّ الاستغفارَ سببٌ لرفعِ العُقوبةِ وجلْبِ الرَّحمةِ، وقد قال نوحٌ لقَومِه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢]، وهذه رحمةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ نتيجةَ الاستِغفارِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إثباتُ الحِكمةِ للهِ تعالى؛ لِقَولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، فالرَّحمةُ لها سببٌ، وكونُ اللهِ تبارك وتعالى يَقْرِنُ أفعالَه بأسبابِها يدُلُّ على كمالِ الحكمةِ؛ لأنَّ مَن يَفعلُ أفعالًا عُنجُهيَّةً[٣] ليس لها أسبابٌ، فهذا سفيهٌ، لكنَّ عليه أنْ يَربِطَ الأفعالَ بأسبابِها[٤].

٦- قَولُهم حينَ أُصيبوا بالجَدبِ والقَحطِ: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، مع أنَّ هذا الأمرَ مِن اللهِ سُبحانَه وتعالى، وليس بأسبابِ النَّبيِّ، فيه بيانُ مَسلَكِ المكذِّبينَ للرُّسُلِ؛ أنَّهم يَسلُكونَ مَسالِكَ التَّشبيهِ والتَّمويهِ؛ وهكذا أهلُ الباطلِ يُشَبِّهونَ ويُلَبِّسونَ على النَّاسِ بمثلِ هذه الأمورِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٦٠).

(٣) العُنْجُهِيَّةُ: الجَفاء والكِبْر. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٦/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ أنَّه مِن الحكمةِ أنْ يُرَدَّ الباطِلُ بالحقِّ بدونِ سكوتٍ، وأنَّه ينبغي أنْ يكونَ الرَّدُّ مِن جنسِ الإيرادِ؛ فهنا تطيَّروا بصالحٍ ومَن معه، فبيَّن أنَّ طِيَرَتَهم وشُؤمَهم بسبَبِ أعمالِهم؛ ولذا قال: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ﴾، فاللَّفظُ مِثلُ اللَّفظِ، فينبغي أنْ يكونَ الجوابُ مِثلَ الإيرادِ، ويتحرَّى المجيبُ حتَّى اللَّفظَ، وأيضًا ينبغي لِمَن رَدَّ على غيرِه أو أبطلَ قولَه أنْ يأتيَ بأمرٍ لا جِدالَ فيه؛ لأنَّ صالحًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لو قال: هذا الجدبُ ليس مِنِّي، وأنا ما أتيتُ بسببِه، وما أشبَهَ ذلك؛ لكان هذا فيه مجالٌ للأخذِ والرَّدِّ، ولكنْ ينبغي أنْ يختارَ المجيبُ الجوابَ الذي لا كلامَ بعْدَه[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ المصائبَ التي تُصيبُ الإنسانَ إنَّما هي مِن اللهِ تعالى، ولا يُنافي هذا قولَه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، ولا قولَه: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]؛ لأنَّ نِسبةَ هذه الأمورِ إلى اللهِ نِسبةُ خَلْقٍ وإيجادٍ، ونِسبتَها إلى المخلوقِ نِسبةُ تسبُّبٍ، فهي تُضافُ إلى النَّاسِ إضافةَ الشَّيءِ إلى سببِه، وتُضافُ إلى اللهِ سُبحانه وتعالى إضافةَ المخلوقِ إلى خالقِه، وعلى هذا يَزولُ إشكالُ كثيرٍ مِن الآياتِ الَّتي ظاهرُها التَّعارُضُ في هذا البابِ[2].

٩- قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ القَسَمُ باللهِ يدُلُّ على أنَّهم كانوا يَعترِفون باللهِ، ولكنَّهم يُشرِكونَ به الآلهةَ[3].

١٠- قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٣).

شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ دلَّتْ هذه الآيةُ الكريمةُ على أنَّ نبيَّ الله صالحًا -عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ- نفَعَه اللهُ بنُصرةِ وليِّه، أي: أوليائِه؛ لأنَّه مُضافٌ إلى معرفةٍ، ووجْهُ نُصرتِهم له: أنَّ التِّسعةَ المذكورينَ في قَولِه تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ تحالفُوا باللهِ أن يَقتلوه ليلًا ويقتلوا أهلَه معه، ثُمَّ يقولوا لأوليائِه وعصَبتِه: ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾ أي: ولا مَهلِكَه هو، وهذا يدُلُّ على أنَّهم لا يَقدِرونَ أن يقتُلوه علَنًا؛ لِنُصرةِ أوليائِه له، وإنكارُهم شهودَ مَهلِكِ أهلِه دليلٌ على خَوفِهم من أوليائِه[1].

١١- قولهم: ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾ فيه أنَّ البيِّنةَ على المدَّعِي واليمينَ على مَن أنكَرَ؛ لأنَّه لولا أنَّ هذا القَولَ يُبرِّئُهم ما صَحَّ أنْ يَتَّفِقوا على اتِّخاذِه حُجَّةً؛ يقتُلونه ويقولون: ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾، فلمَّا اتَّفَقوا على هذا دلَّ على أنَّ الإنكارَ يُبرَّأُ به المدَّعَى عليه[2]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وَصْفُ اللهِ تعالى بالمَكرِ، لكنَّه ليس على سَبيلِ الإطلاقِ، بل على سَبيلِ التَّقييدِ، فيُقالُ مثلًا: هو ماكِرٌ بأعدائِه أو بمن يَستحِقُّ المكرَ، أو ما أشبَهَ ذلك ممَّا يجعَلُ المَكْرَ صفةَ كمالٍ؛ لأنَّ المكرَ ليس بصِفةِ كَمالٍ على الإطلاقِ، ولا بصِفةِ نَقصٍ على الإطلاقِ[3]؛ فإنَّه إيصالُ الشَّرِّ إلى الغَيرِ بطَريقٍ خَفيٍّ، وكذلك الكَيدُ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١٩).

واستظهر الشنقيطيُّ أنَّ هذه النُّصرةَ عَصبيَّةٌ نَسَبيَّةٌ لا تمُتُّ إلى الدِّينِ بصِلةٍ، وأنَّ أولياءَه ليسوا مُسلِمينَ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٦).

والقاعدةُ: أنَّ الصِّفةَ إذا كانت كمالًا في حالٍ ونقصًا في حالٍ، لم تكُنْ جائزةً في حقِّ اللهِ =

والمخادعةُ، ولكِنَّه نوعانِ؛ قَبيحٌ: وهو إيصالُ ذلك لِمن لا يستحِقُّه، وحَسَنٌ: وهو إيصالُه إلى مُستحِقِّه عقوبةً له؛ فالأوَّلُ مَذمومٌ، والثَّاني ممدوحٌ، والرَّبُّ تعالى إنَّما يَفعلُ مِن ذلك ما يُحمَدُ عليه عدلًا منه وحِكمةً، وهو تعالى يأخُذُ الظَّالِمَ والفاجِرَ مِن حيثُ لا يحتَسِبُ، لا كما يفعَلُ الظَّلَمةُ بعبادِه[1].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أنَّ العقوباتِ إنَّما تأتي بأسبابٍ مِن المرءِ، حيثُ جَعَل هذا التَّدميرَ عاقبةَ مَكْرِهم[2].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الظُّلمَ يُورِثُ أهلَه الهلاكَ، ويُعقِبُ ديارَهم الخَرابَ[3]؛ فالله تعالى لَمَّا خَصَّ عمَلَهم بوصفِ الظُّلمِ مِن بينِ عِدَّةِ أحوالٍ يشتَمِلُ عليها كُفرُهم -كالفسادِ-؛ كان ذلك إشارةً إلى أنَّ لِلظُّلْمِ أثرًا في خرابِ بلادِهم، وهذا معنى ما رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما أنَّه قال: (أجِدُ في كتابِ اللهِ أنَّ الظُّلمَ يُخرِبُ البيوتَ، وتلا: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾)[4].

= ولا مُمتنِعةً على سبيلِ الإطلاقِ، فلا تُثْبَتُ له إثباتًا مُطْلَقًا، ولا تُنْفَى عنه نفيًا مُطلقًا، بل لا بُدَّ مِنَ التَّفصيلِ، فتجوزُ في الحالِ الَّتي تكونُ كمالًا، وتمتنعُ في الحالِ الَّتي تكونُ نقصًا. يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٢٠).

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٧١). ويُنظر أيضًا: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٧٩-٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٥، ٢٨٦).
ويُنظر لأثر ابن عباس: ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (١/ ١٤٤)، ((المجالسة وجواهر العلم)) للدِّينَوري (٥/ ٢٢٣).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الرَّدُّ على مَن يُنكِرون الحِكمةَ، مِثلُ الجهميَّةِ[١].

١٦- بيانُ عدلِ اللهِ سبحانه وتعالى؛ حيث أهلكَ مَن يَستحِقُّ الإهلاكَ، وأنجَى مَن يَستحِقُّ الإنجاءَ؛ لقوله: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ هذا مَثَلٌ ثالثٌ ضَرَبه اللهُ لحالِ المُشركينَ مع المُؤمنينَ، وجعَلَه تَسليةً لرَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنَّ له أُسوةً بالرُّسلِ والأنبياءِ مِن قبْلِه[٣].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ عطْفٌ على قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥]، وهو مَسوقٌ لِمَا سِيقَ هو له مِن تقريرِ أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُلقَّى القرآنَ مِن لَدُنْ حكيمٍ عليمٍ؛ فإنَّ هذه القصَّةَ أيضًا مِن جُملةِ القرآنِ الكريمِ الَّذي لُقِّيَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ[٤].

- واللَّامُ في (لَقَدْ) جَوابُ قَسمٍ مَحذوفٍ، أيْ: وباللهِ لقدْ أرْسَلْنا، ولامُ القَسَمِ هذه لتَأكيدِ الإرسالِ باعتبارِ ما اتَّصلَ به مِن بَقيَّةِ الخبرِ؛ فإمَّا أنْ يكونَ التَّأكيدُ لِمُجرَّدِ الاهتمامِ، وإمَّا أنْ يُبْنَى على تَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزلةَ مَن يَتردَّدُ فيما تَضمَّنَه الخبرُ مِن تكذيبِ قَومِه إيَّاهُ، واستِخفافِهم بوَعيدِ ربِّهم على لِسانِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٨).

- وقُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ على المفعولِ ﴿صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّ ما حَلَّ بالقومِ أهَمُّ ذِكْرًا في هذا المَقامِ؛ فالمجرورُ هنا هو مَحلُّ العِبرةِ، وأمَّا المفعولُ فهو مَحلُّ التَّسليةِ، والتَّسليةُ غرَضٌ تَبَعِيٌّ[١].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ فيه العطْفُ بالفاءِ الَّتي تَقْتَضي التَّعقيبَ لا المُهلةَ؛ فكان المعنى: أنَّهم بادَرُوا بالاختصامِ، مُتعقِّبًا دُعاءَ صالحٍ إيَّاهم إلى عِبادةِ اللهِ[٢].

- والإتيانُ بحَرفِ المُفاجأةِ (إذَا) كِنايةٌ عن كَونِ انقسامِهم غَيرَ مَرْضِيٍّ، فكأنَّه غيرُ مُترقَّبٍ؛ ولذلك لم يَقَعِ التَّعرُّضُ لإنكارِ كَونِ أكثرِهم كافرينَ؛ إشارةً إلى أنَّ مُجرَّدَ بَقاءِ الكُفرِ فيهم كافٍ في قُبْحِ فِعلِهم، وحالُهم هذا مُساوٍ لحالِ قُريشٍ تُجاهَ الرِّسالةِ المُحمَّديَّةِ[٣].

- وأُوثِرَ ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ على (يَختصمانِ) -وإنْ كان مِن حيث التَّثنيةُ جائزًا فَصيحًا-؛ لِمُناسَبةِ الفواصلِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لَمَّا كان الاختصامُ بيْن الفريقينِ في شأْنِ صالحٍ ابتداءً؛ جِيءَ بجَوابِ صالحٍ عمَّا تَضمَّنَه اختِصامُهم مِن مُحاوَلتِهم إفحامَه بطَلَبِ نُزولِ العذابِ، فمَقولُ صالحٍ هذا ليس هو ابتداءَ دَعوتِه؛ فإنَّه تقدَّمَ قولُه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النمل: ٤٥]، ولكنَّه جوابٌ عمَّا تَضمَّنَه اختِصامُهم معه؛ ولذلك جاءت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٨).

جُملةُ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ مَفْصولةً غيرَ مَعطوفةٍ؛ جرْيًا على طريقةِ المُحاوَرةِ؛ لأنَّها حِكايةُ جَوابٍ عمَّا تَضمَّنَه اختصامُهم[1].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ إنكارٌ لأخْذِهم بجانبِ العذابِ دونَ جانبِ الرَّحمةِ[2]، وظاهرُ هذا الاستفهامِ أنَّه استفهامٌ عن عِلَّةِ اسْتِعجالِهم، وإنَّما هو استفهامٌ عن المَعلولِ؛ كِنايةً عن انتفاءِ ما حقُّه أنْ يكونَ سببًا لاستِعجالِ العذابِ؛ فالإنكارُ مُتوجِّهٌ للاستعجالِ لا لِعِلَّتِه[3].

- قولُه: ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بـ(السَّيِّئةِ) الحالةَ السَّيِّئةَ في مُعامَلتِهم إيَّاهُ بتكذيبِهم إيَّاهُ، والمُرادُ بـ(الحَسَنةِ) ضِدَّ ذلك، أي: تَصديقَهم لِمَا جاء به؛ فالاستِعجالُ المُبادَرةُ، والباءُ للمُلابَسةِ، ومَفعولُ ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: تَستَعجلونَني مُتلبِّسينَ بسَيِّئةِ التَّكذيبِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بـ(السَّيِّئةِ) الحالةَ السَّيِّئةِ الَّتي يَترقَّبون حُلولَها، وهي: ما سألوا مِن تَعجيلِ العذابِ المَحْكيِّ عنهم في سُورةِ (الأعرافِ) في قولِه: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وبـ(الحَسَنةِ) ضِدَّ ذلك، أي: حالةَ سَلامتِهم مِن حُلولِ العذابِ؛ فـ(السَّيِّئةُ) مفعولُ ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾، والباءُ مَزيدةٌ؛ لتَأكيدِ اللُّصوقِ، مِثلَ ما في قولِه تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، والمعنى: إنكارُ جَعْلِهم تأخيرَ العذابِ أمارةً على كذِبِ الوعيدِ به، وأنَّ الأَولى بهم أنْ يَجْعَلوا امتدادَ السَّلامةِ أمارةً على إمهالِ اللهِ إيَّاهم، فيَتَّقُوا حُلولَ العذابِ، أي: لِمَ تَبْقَونَ على التَّكذيبِ مُنتظرينَ حُلولَ العذابِ، وكان الأجدرُ بكم أنْ تُبادِرُوا بالتَّصديقِ مُنتظرينَ عَدَمَ حُلولِ العذابِ بالمرَّةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٨٠).

وعلى كِلَا الوجهَينِ فجوابُ صالح عليه السَّلامُ إيَّاهم جارٍ على الأُسلوبِ الحكيمِ بجَعْلِ يَقينِهم بكَذِبِه مَحمولًا على تَردُّدِهم بيْنَ صِدْقِه وكَذِبِه[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث اقتُصِرَ هنا على مُراجَعةِ صالحٍ قومَه في شأْنِ غُرورِهم بظَنِّهم أنَّ تأخُّرَ العذابِ أمارةٌ على كَذِبِ الَّذي تَوعَّدَهم به؛ فإنَّهم قالوا -كما حُكِيَ عنهم في سُورةِ (الأعرافِ)-: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]؛ لأنَّ الغرَضَ هنا مَوعظةُ قُريشٍ في قولِهم: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢] بحالِ ثَمودَ المُساوي لحالِهم؛ لِيَعلَموا أنَّ عاقبةَ ذلك مُماثِلةٌ لِعاقبةِ ثَمودَ لِتَماثُلِ الحالينِ؛ قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾[٢] [العنكبوت: ٥٣].

- قولُه: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ في هذا التَّحضيضِ تَنبيهٌ على الخطأِ منهم في استِعجالِ العُقوبةِ، وتَجْهيلٌ لهم في اعتقادِهم[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ هذا مِن مُحاوَرتِهم مع صالحٍ؛ فلذلك فُصِلَ عمَّا قبْلَه، ولم يُعطَفْ فِعلَا القولِ، وجاء على سَننِ حِكايةِ أقوالِ المُحاوَراتِ[٤].

- قولُه: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ عبَّر عمَّا حلَّ بهم بقولِه: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ﴾؛ مُشاكَلةً لقولِهم: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، ومُخاطَبةً لهم بما يَفهَمون لإصلاحِ اعتقادِهم؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٠).

بقَرينةِ قَولِهم: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ﴾[(١)].

- قولُه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ إضرابٌ مِن بَيانِ طائرِهم الَّذي هو مَبدَأُ ما يَحِيقُ بهم إلى ذِكْرِ ما هو الدَّاعي إليه[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ صِيغَ الإخبارُ عنهم بأنَّهم مَفتونونَ بتَقديمِ المُسنَدِ إليه ﴿أَنتُمۡ﴾ على الخبرِ الفِعليِّ ﴿تُفۡتَنُونَ﴾؛ لِتَقوِّي الحُكْمِ بذلك، وصِيغَ المُسنَدُ فِعلًا مُضارِعًا؛ لِدَلالتِه على تَجدُّدِ الفُتونِ واستِمرارِه. وغلَّبَ جانبَ الخِطابِ في قولِه: ﴿تُفۡتَنُونَ﴾ على جانبِ الغَيبةِ -مع أنَّ كِلَيْهما مُقْتضى الظَّاهرِ-؛ تَرجيحًا لِجانبِ الخِطابِ؛ لأنَّه أدَلُّ مِن الغَيبةِ[(٣)].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ فيه مِن البلاغةِ ما يُعرَفُ بالتَّمامِ أو التَّتميمِ[(٤)]؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَكَانَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨١).

(٤) التَّتميم: من أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثِّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١، ٢٤٠، ٢٤١).

فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ شأْنُهم الإفسادُ البحْتُ، ولكنَّ قولَه: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لا يَدفَعُ أنْ يَندُرَ منهم أو مِن أحدِهم بعضُ الصَّلاحِ؛ فتَمَّمَ الكلامَ بقولِه: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ دَفْعًا لتلك النُّدرةِ أنْ تَقَعَ، أو أنْ يُخالِجَ بعضَ الأذهانِ شَكٌّ في أنَّها سَتقَعُ، وبذلك قطَعَ كلَّ رَجاءٍ في إصلاحِ أمْرِهم وحُسْنِ حالِهم[1].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ...﴾ استئنافٌ ببَيانِ بعضِ ما فَعَلوا مِن الفسادِ[2]. وقِيل: إنَّ ﴿قَالُوا۟﴾ صِفةٌ لـ﴿تِسْعَةُ﴾، أو خبرٌ ثانٍ لـ (كَانَ)، أو هو الخبرُ لـ (كَانَ)، و﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ (كَانَ) ظَرفًا لَغْوًا[3]، ولا يَحسُنُ جَعلُ الجُملةِ استئنافًا؛ لأنَّها المقصودُ مِن القصَّةِ، والمعنى: قال بعضُهم لبعضٍ[4].

- قولُه: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾، أي: ما حضَرْنا هلاكَهم، على أن ﴿مَهْلِكَ﴾ مصدرٌ كمَرجِع، أو مكانَ هلاكِهم على أنَّه للمكانِ، أو زمانَ هلاكِهم على

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٠).

(٣) الظَّرفُ اللَّغْوُ: هو الفَضلةُ الَّذي يتعلَّقُ بمذكورٍ في الكلام، ولا يكون حالًا ولا صِفةً ولا صِلةً ولا خَبرًا؛ لأنَّ مُتعَلَّقَه لا يكونُ محذوفًا، ولا مِن الأفعالِ العامَّةِ. يُنظر: ((شرح قواعد الإعراب)) لشيخ زاده (١/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٢).

أنَّه لِلزَّمانِ. والمرادُ: نفْيُ شُهودِ الهلاكِ الواقعِ فيه، واختاروا نفْيَ شهودِ مَهلكِ أهلِه على نفْيِ قتْلِهم إيَّاهُم؛ قصدًا لِلمُبالَغةِ، كأنَّهم قالوا: ما شَهِدْنا ذلك فضلًا عن أن نتَولَّى إهلاكَهم. ويُعلَمُ مِن ذلك نفْيُ قتْلِهم صالحًا عليه السَّلامُ أيضًا؛ لأنَّ مَن لم يَقتُلْ أتباعَه كيف يَقتُلُه[1]؟! وقيل: في الكلام حَذْفُ مَعطوفٍ، يَدُلُّ عليه ما قبْلَه، والتَّقديرُ: ما شَهِدْنا مَهلِكَ أهْلِه ومَهْلِكَهُ، ودلَّ عليه قولُهم: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث لم يُذْكَرْ هذا الجزءُ مِن قصَّةِ ثَمودَ في غيرِ هذه السُّورةِ، ولعلَّ سَببَ ذِكْرِه هنا: أنَّ نُزولَ هذه السُّورةِ كان في وقْتٍ تآمَرَ فيه المُشركونَ على الإيقاعِ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو التَّآمُرُ الَّذي حكاهُ اللهُ في قولِه: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]؛ فضرَبَ اللهُ لهم مَثَلًا بتَآمُرِ الرَّهطِ مِن قَومِ صالحٍ عليه ومَكْرِهم، وكيف كان عاقبةُ مَكْرِهم؛ ولذلك تَرى بيْنَ الآيتَينِ تَشابُهًا، وتَرى تَكريرَ ذِكْرِ مَكْرِهم ومَكْرِ اللهِ بهم، وذِكْرِ أنَّ في قِصَّتِهم آيةً لِقَومٍ يَعْلَمون[3].

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾ سمَّى اللهُ تآمُرَهم مَكْرًا؛ لأنَّه كان تَدبيرَ ضُرٍّ في خَفاءٍ، وأُكِّدَ مَكْرُهم بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿مَكۡرٗا﴾؛ للدَّلالةِ على قُوَّتِه في

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٥١، ٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٣، ٢٨٤).

جِنْسِ المَكرِ. وتَنوينُه -أي: تَنكيرُه- للتَّعظيمِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أُكِّدَ مَكْرُ اللهِ وعُظِّمَ كما أُكِّدَ مَكْرُهم وعُظِّمَ، وذلك بما يُناسِبُ جِنسَه؛ فإنَّ عذابَ اللهِ لا يُدانيه عذابُ النَّاسِ، فعَظيمُه أعظَمُ مِن كلِّ ما يُقدِّرُه النَّاسُ[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ في اقترانِه بفاءِ التَّفريعِ: إيماءٌ إلى أنَّ الاعتبارَ بمَكْرِ اللهِ بهم هو المقصودُ مِن سَوقِ القصَّةِ؛ تَعريضًا بأنَّ عاقبةَ أمْرِه مع قُريشٍ أنْ يَكُفَّ عنه كَيْدَهم ويَنصُرَه عليهم، وفي ذلك تَسليةٌ له على ما يُلاقِيه مِن قَومِه[٣].

- وعلى قِراءةِ الجمهورِ: ﴿إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ -بكسْرِ الهمزةِ- فتكونُ الجُملةُ مُستأنَفةً استئنافًا بَيانيًّا لِمَا يُثيرُه الاستفهامُ في قولِه: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ مِن سُؤالٍ عن هذه الكيفيَّةِ. والتَّأكيدُ للاهتمامِ بالخبرِ. وعلى قِراءةِ ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ -بفتْحِ الهمزةِ- فيكونُ المصدرُ (تَدْميرهم) بدَلًا مِن ﴿عَاقِبَةُ﴾، والتَّأكيدُ أيضًا للاهتمامِ[٤].

- وضَميرُ الغَيبةِ في ﴿دَمَّرْنَاهُمْ﴾ للرَّهطِ، وعُطِفَ (قَوْمَهُمْ) عليهم؛ لِمُوافَقةِ الجزاءِ للمَجْزِيِّ عليه؛ لأنَّهم مَكَروا بصالحٍ وأهْلِه، فدمَّرَهُم اللهُ وقَومَهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٨٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٨- قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٖ يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ جُملةٌ مُقرِّرةٌ لِمَا قبْلَها[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٖ يَعْلَمُونَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ الجُمَلِ المُتعاطِفةِ[٢]، وفيها تَعريضٌ بأنَّ المُشركينَ الَّذين سِيقَتْ إليهم هذه الموعظةُ إنْ لم يَتَّعِظوا بها فهُمْ قومٌ لا يَعْلَمون[٣].

- وفي ذِكْرِ لفظِ ﴿لِّقَوْمٖ يَعْلَمُونَ﴾ دُونَ أن يُقالَ: لِلَّذينَ يَعلمون، أو: للعالِمينَ: إيماءٌ إلى أنَّ مَن يَعتبرُ بهذه الآيةِ مُتمكِّنٌ في العِلم، والعِلمُ سَجِيَّةٌ فيه، حتَّى كأنَّه مِن صِفَتِه القوميَّةِ التي تميِّزُه عن قومٍ آخَرينَ[٤].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾

- زيادةُ فِعلِ الكونِ في قولِه: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مُتمكِّنونَ مِن التَّقوى[٥].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قالهُ في سُورةِ (فصِّلَت): ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨]، و(نجَّينا) و(أَنجَينا) بمعنًى واحدٍ، وخُصَّتْ هذه السُّورةُ بـ(أَنْجَيْنَا)؛ لِمُوافقتِه لِمَا بعدَه، وهو: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ [النمل: ٥٧]، وبعدَه: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ [النمل: ٥٨]

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٩) و (١٩/ ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٨٧).

﴿وَأَنزَلَ﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ [النمل: ٦٠]، كلُّه على لَفْظِ (أَفْعَل)، وخُصَّ ما في (حم فُصِّلت) بـ(نَجَّيْنَا)؛ لِمُوافَقتِه ما قبْلَه: ﴿وَزَيَّنَّا﴾ [فصلت: ١٢]، وبعْدَه: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ﴾ [فصلت: ٢٥]، وكلُّه على لَفْظِ (فَعَّلْنا)[1].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٤).

الآيات (٥٤-٥٨)

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: أي: الفَعلةَ القَبيحةَ الشَّنيعةَ، وهي إتيانُ الذُّكورِ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ[١].

﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: الباقينَ في عذابِ اللهِ، والغابرُ مِن الأضْدادِ؛ يُقالُ: غابرٌ للباقي، وغابرٌ للماضي، وأصلُ (غبر) هنا: يدُلُّ على البَقاءِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ لوطٍ عليه السلامُ مع قومِه، فيقولُ سبحانَه: واذكُرْ لُوطًا حينَ قال لقَومِه: أتفعَلونَ الفَعلةَ القَبيحةَ الشَّنيعةَ وأنتم تعلَمون أنَّها فاحِشةٌ؟! ثمَّ فسَّر هذه الفاحشةَ، فقال: أتأتونَ الرِّجالَ شَهوةً مِن دونِ النِّساءِ الَّتي أحَلَّها اللهُ لكم؟! بل أنتم قومٌ سُفَهاءُ جاهِلون. فلمْ يكُنْ لِقَومِه جَوابٌ إلَّا أن قال

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((الأضداد)) لابن الأنباري (ص: ١٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

بَعضُهم لبَعضٍ: أخرِجوا لوطًا وأهلَ بيتِه مِن قَريتِكم؛ لأنَّهم يَتنزَّهون عن إتيانِ الرِّجالِ!

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى ما آلَ إليه أمرُ الفريقَينِ، فيقولُ: فأنجَيْنا لوطًا وأهلَ بيتِه إلَّا امرأتَه قَضَيْنا أنَّها مِن الباقينَ في العذابِ، وأمطَرْنا على قَومِ لُوطٍ مَطرًا مِن حِجارةٍ، فبِئسَ هذا المطَرُ الَّذي أمطَرْناه عليهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ لُوطًا[1] حينَ قال لِقَومِه: أتَفعَلونَ الفَعلةَ المتناهِيةَ في القُبحِ، والخطيئةَ الفَظيعةَ الشَّنيعةَ[2] -وهي إتيانُ الذُّكورِ في أدبارِهم- والحالُ أنَّكم تُبصِرونَ[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٤).

قال القرطبي: (﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ أي: وأرسَلْنا لوطًا، أو: اذكرْ لوطًا). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

(٢) قال الواحدي: (يعني: اللِّواطَ، في قَولِ ابنِ عباسٍ، والكلبيِّ، ومقاتلٍ، والجميعِ). ((البسيط)) (١٧/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

قيل: معنى قولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾: تعلمونَ أنَّها فاحشةٌ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والثعلبي، والواحديُّ، والبغوي، وابن عطية، والقرطبي، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة. =

كما قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨].

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

أي: قال لُوطٌ لِقَومِه: أئنَّكم لَتَأتونَ الذُّكورَ في أدبارِهم؛ لأجْلِ الشَّهوةِ، وتَترُكونَ إتيانَ فروجِ النِّساءِ الَّتي أحَلَّها اللهُ لكم[1]؟!

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

أي: بل أنتم قومٌ سُفَهاءُ جَهَلةٌ، مُتجاوِزونَ لحُدودِ الله، مُتجرِّئُون على محارِمِه[2].

= وقيل: المعنى: تفعلون ذلك علنًا يرى بعضُكم بعضًا. وممَّن قال بذلك في الجملة: ابنُ كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

قال البقاعي: (﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: لكم عقولٌ تعرفون بها المحاسِنَ والمقابِحَ، ورُبَّما كان بعضُهم يفعلُه بحضرةِ بعضٍ، كما قال: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فيكونُ حينَئذٍ مِن البصرِ والبصيرةِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٨١).

وقال ابنُ عثيمين: (لو أنَّنا فسَّرنا الإبصارَ هنا بالإبصارِ الحِسِّيِّ بالعينِ، والإبصارِ المعنويِّ بالقلبِ؛ لكان ذلك جائزًا، وفي الحقيقةِ أنَّ بشاعةَ هذا الشيءِ بالقَلبِ أمرٌ معلومٌ بالفِطرةِ، وكونُهم يفعلونَه وهم يُشاهِدُ بعضُهم بعضًا هذا أشَدُّ وأعظَمُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٥، ٣١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٩، ٣٢٠).

قال الزمخشري: (﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾... تفعلونَ فِعلَ الجاهلينَ بأنَّها فاحشةٌ مع عِلمِكم =

كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾.

أي: فلمْ يكُنْ لِقَومِ لُوطٍ جَوابٌ ولا حُجَّةٌ حينَ أنكَرَ عليهم فِعلَ الفاحِشةِ إلَّا أن قال بعضُهم لبعضٍ: أخرِجوا لوطًا وأهلَ بَيتِه مِن قَريتِكم(١).

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

أي: أخرِجوهم؛ لأنَّ لوطًا وأهلَ بيتِه أُناسٌ يَتنزَّهون عمَّا نفعلُه مِن إتيانِ الرِّجالِ في أدبارِهم؛ فلا ينبغي أن يُقيموا في بلادِكم(٢)!

= بذلك. أو: تجهلونَ العاقبةَ. أو: أراد بالجهلِ: السَّفاهةَ والمجانةَ الَّتي كانوا عليها). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٤).

وقال ابنُ جرير: (ما ذلك منكم إلَّا لأنَّكم قَومٌ سُفَهاءُ جَهَلةٌ بعظيمِ حَقِّ الله عليكم، فخالفْتُم لذلك أمْرَه، وعَصَيْتُم رَسولَه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٩، ٣٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٢).

قال ابنُ كثير: (أي: يتحَرَّجون مِن فِعلِ ما تفعلونَه، ومِن إقرارِكم على صنيعِكم؛ فأخرِجوهم مِن بينِ أظهُرِكم؛ فإنَّهم لا يَصلُحون لمجاورتِكم في بلادِكم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠). =

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

أي: فأنجَينا لوطًا وأهلَ بيتِه مِن أنْ يَصِلوا إليهم بأذًى، أو يَلحَقَهم شَيءٌ مِن عذابِنا، إلَّا امرأتَه الكافِرةَ، قَضَيْنا أنَّها مِنَ الباقينَ في العذابِ؛ لتَهلِكَ مع قَومِها[1].

كما قال تعالى: ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۞ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٠ - ١٧٢].

= وقال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ هل هم أرادوا الحقيقةَ، وأنَّ هذا الفعلَ خبيثٌ، وهؤلاء يريدون التطَهُّرَ منه؟ أو أرادوا: يَتطهَّرون بزَعمِهم، وأنَّ هذا الفِعلَ ليس نجسًا، لكنَّ هؤلاء يُريدون أن يتطَهَّروا منه؟ الأقربُ الأخيرُ؛ لأنَّه هو مقتضى حالِهم؛ فمقتضى حالِهم أنَّهم رأوا هذا المنكَرَ مَعروفًا، وهذه الفاحِشةَ يَسيرةً؛ فتمَسَّكوا بها!). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).

قال ابن كثير: (كانت رِدْءًا لهم؛ على دينِهم، وعلى طريقتِهم، في رضاها بأفعالِهم القبيحةِ... لا أنَّها كانت تفعَلُ الفواحِشَ؛ تَكرمةً لنبيِّ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، لا كرامةً لها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠).

وقال أيضًا: (... إنَّ اللهَ لا يُقَدِّرُ على نبيِّه أن تَبغيَ امرأتُه، كما قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه مِن أئمَّةِ السَّلفِ والخلَفِ: «ما بَغَتِ امرأةُ نبيٍّ قَطُّ». ومَن قال خِلافَ هذا فقد أخطأ خطأً كبيرًا). ((البداية والنهاية)) (١/ ٤٢٢).

ممَّن اختار أنَّ معنَى ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقينَ في العَذابِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زمنين، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٩٨).

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٥٨﴾.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ مَّطَرٗا﴾.

أي: وأمطَرْنا على قَومِ لوطٍ مَطَرًا مِن حِجارةٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ * لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ * فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢ - ٣٦].

﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾.

أي: فبِئسَ المطَرُ هذا الذي أمطَرْناه على قَومِ لُوطٍ الَّذين أنذَرَهم نبيُّهم عذابَ اللهِ، فعَصَوه وكذَّبوه(٢)!

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أنَّه لا يُنجي مِن عذابِ اللهِ الاتِّصالُ بأهلِ الصَّلاحِ، فلا يقولُ الإنسانُ مثلًا: أنا أخي صالحٌ أو وليٌّ أو ما أشبَهَ ذلك، فهو يَعصِمُني مِن عذابِ اللهِ؛ فهذه امرأةُ لوطٍ لم ينفَعْها أنَّها امرأةُ نبيٍّ! ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٧، ٣٢٨).

[التحريم: ١٠]، فمَن أتى بأسبابِ الهلاكِ هَلَكَ، وإنْ كان بيْنَ قومٍ صالحينَ[١]؛ ففيه تنبيهٌ على أنَّ العذابَ يُدفَعُ بالطَّاعةِ لا بالوسيلةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أنَّ الرُّسلَ يُرسَلون إلى قومِهم، ولم يُبْعَثْ أحدٌ إلى عُمومِ النَّاسِ إلَّا رسولُ اللهِ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ فيه بيانُ عِظَمِ اللِّواطِ وقُبْحِه، ووجوبِ الإنكارِ على مَن أتَى به[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنَّ الفواحشَ تَقْبُحُ بحسَبِ ما يَقترِنُ بها؛ فإنَّ هذه الفاحشةَ مُنكَرةٌ، ولكنَّها إذا كانت علنًا وجهرًا يَظهرُ النَّاسُ بعضُهم أمامَ بعضٍ فيها صارت أَقبَحَ وأعظمَ؛ ولهذا أتى بالجملةِ الحاليَّةِ في قَولِه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[٥] -وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ-؛ فإنَّ التَّجاهُرَ بالمعصيةِ معصيةٌ؛ لأنَّه يدُلُّ على استِحسانِها، وذلك استِخفافٌ بالنَّواهي[٦].

٤- قال الله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لَمَّا كان قولُه: ﴿شَهْوَةً﴾ رُبَّما أوهَمَ أنَّهم لا غنَى بهم عن إتيانِهم؛ لِلشَّهوةِ الغالبةِ؛ لِكَونِ النِّساءِ لا تكفيهم- لذلك نفَى هذا بقَولِه: ﴿بَلْ﴾ أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

إنَّكم لا تأتونَهم لِشَهوةٍ مُحوجةٍ ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾[١]!

٥- قولُه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ فيه أنَّ هذه الشَّهوةَ إنَّما تَصدُرُ عن جَهلٍ، لا بمقتضى الطَّبيعةِ، وإنَّما هي عن سفَهٍ في الإنسانِ؛ كأنَّه قال: «إتيانُكم إيَّاهم شهوةً ليس له محلٌّ، ولكنَّ الذي أوجبَ ذلك لكم أنَّكم قومٌ ذَوو جَهلٍ، أي: سَفَهٍ[٢]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ﴾ أنَّ قولَ البعضِ إذا رَضِيَه الباقون فهو للجَميعِ، ومِن المعلومِ أنَّ هذا القولَ ليس للجَميعِ؛ لأنَّهم عندَما يقولون: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ﴾ فبعضُهم يُخاطِبُ بعضًا، ولكنَّ الكَلِمةَ إذا جاءت مِن بعضِ القَومِ ورَضِيَها الآخَرونَ، فإنَّها تُنسَبُ إليهم؛ ولهذا يُخاطِبُ اللهُ اليهودَ في عهدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بما فَعَله أسلافُهم، وفي سورةِ (البقرةِ) كثيرٌ مِن ذلك، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣]، فموسى الَّذي أُوتيَ الكتابَ والفُرقانَ جاء لأسلافِهم، وليس لهم[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ دَليلٌ على أنَّ المرأةَ مِن الأهلِ؛ لأنَّ الإنسانَ يأهَلُها ويأوي إليها، وكذلك هي بالنِّسبةِ إليه؛ فالزَّوجةُ مِن أهلِ الإنسانِ، كما أنَّ أقاربَه مِن أولادِه وآبائِه هم أيضًا مِن الأهلِ[٤].

٨- بيانُ سَبْقِ التَّقديرِ للحوادثِ، وأنَّ تقديرَ اللهِ تعالى سابقٌ على أفعالِه؛ لِقَولِه: ﴿قَدَّرۡنَٰهَا﴾؛ لأنَّ معنى ﴿قَدَّرۡنَٰهَا﴾ أي: جعَلْناها بتقديرِنا السَّابقِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٥).

٩- قال الله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗا﴾ في هذا دَليلٌ على أنَّ المطرَ ليس خاصًّا بالماءِ، بل كلُّ ما حُصِبَ به الإنسانُ مَن فوقٍ يُسمَّى مطرًا؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗا﴾، والمطرُ الذي أصابهم هو حجارةُ السِّجِّيلِ، كما قال اللهُ تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾[(١)] [هود: ٨٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗا﴾ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يُعَذِّبُ كلَّ إنسانٍ بذنْبه، ووجْهُ مناسَبةِ العقوبةِ للجريمةِ أنَّ هذا المطرَ جَعَل عاليَ بلادِهم سافِلَها، كما أنَّ أولئك سَفُلوا بأخلاقِهم حتَّى كانوا يَستَعمِلونَ هذه الفاحِشةَ، ويَذَرونَ ما خَلَقَ لهم ربُّهم مِن أزواجِهم، وهذا بلا شكٍّ انقلابٌ في فِطَرِهم؛ ولذلك عُوقِبوا بهذه الجريمةِ -والعياذُ باللهِ[(٢)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ سؤالٌ: وهو أنَّ هذا المطرَ مِن اللهِ سُبحانَه وتعالى، والثَّناءُ عليه بالقُبْحِ وبالشَّرِّ ألَا يُنافي قولَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((والشَّرُّ ليس إليك))[(٣)]؟!

والجوابُ: لا ينافيه، والجمعُ أنَّ هذا السُّوءَ ليس في فِعلِ اللهِ، ولكنَّه في مَفعولِه، فهذا المطرُ هو الذي أُثْنِيَ عليه بالسُّوءِ ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، وأمَّا فِعلُ اللهِ فإنَّه ليس بِشَرٍّ، بل هو مِن كمالِ العَدلِ والقوَّةِ والسُّلطانِ؛ حيثُ عاقبَ المجرِمين بما يَستحِقُّون، وعُقوبةُ المجرمِ بما يَستحِقُّ لا شكَّ أنَّها ليست بظُلمٍ، وليست بسَيِّئةٍ، ولا يُثنى على فاعِلِها بالسُّوءِ، فتبيَّن بهذا أنَّه لا ينافي قولَ الرسولِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٨). ويُنظر أيضًا: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦).

(٣) أخرجه مسلم (٧٧١) مطولًا من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((والشَّرُّ ليس إليكَ))[(١)].

١٢- مما يُتَنَبَّهُ له أنَّه لم يَرِدْ في قصَّةِ لوطٍ عليه السَّلامُ أكثرُ مِن نَهْيِه لهم عن هذه الفاحشةِ؛ فلا يخلو حالُهم مِن أمْرَين: إمَّا أنَّهم كانوا لا يُشرِكون باللهِ تعالى شيئًا، ولكنَّهم لَمَّا ابتكَروا هذه المعصيةَ، وجاهَروا بها مُصِرِّينَ عليها؛ أُخِذوا بالعذابِ لذلك، ولِكفرِهم بتكذيبِهم رسولَهم -كما صَرَّحَتْ به آيةُ الشُّعراءِ-.

وإمَّا أنَّهم كانوا مشركين، ولكنَّه عليه السلامُ لَمَّا رآهم قد سَفَلوا إلى رتبةِ البَهيميَّةِ رَتَّبَ دعاءَهم منها إلى رتبةِ الإنسانيَّةِ، ثمَّ إلى رتبةِ الوحدانيَّةِ، ويدُلُّ على هذا التَّقديرِ الثَّاني قولُه -مشيرًا إلى أنَّ اللهَ تعالى أهلَكهم وجميعَ مَن كَفَر مِن قبْلِهم، ولم تُغْنِ عنهم معبوداتُهم شيئًا-: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٥).

ذكَر الرازي أنَّ لوطًا عليه السَّلامُ كان له قومٌ وهو كان مِن قومِ إبراهيمَ وفي زمانِه، وإبراهيمُ سَبَقه بذلك واجتَهَد فيه حتَّى اشتهرَ الأمرُ بالتَّوحيدِ عندَ الخَلقِ مِن إبراهيمَ، فلم يَذكُرْه عن لوطٍ، وإنَّما ذَكَر منه ما اختصَّ به مِن المنعِ عن الفاحشةِ وغيرِها، وإنْ كان هو أيضًا يأمُرُ بالتَّوحيدِ؛ إذْ ما مِنْ رسولٍ إلَّا ويكونُ أكثرُ كلامِه في التَّوحيدِ. ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٤).

وقال ابنُ تيميَّةَ عن قومِ لوطٍ عليه السَّلامُ: (وكانوا كفَّارًا مِن جهاتٍ: مِن جهةِ استِحلالِ الفاحشةِ، ومِن جهةِ الشِّركِ، ومِن جهةِ تكذيبِ الرُّسلِ، ففعَلوا هذا وهذا، ولكنَّ الشِّركَ والتَّكذيبَ مشتركٌ بيْنَهم وبيْن غَيرِهم، والَّذي اختصُّوا به الفاحشةُ؛ فلهذا عُوقِبوا عقوبةً تَخُصُّهم لم يُعاقَبْ غيرُهم بمِثْلِها). ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) (١/ ٣٩١).

لكنْ ذكَرَ في كتاب ((النبوات)) (١/ ٢١٢) أنَّهم لم يَكونوا مشركين، وإنَّما كان ذنْبُهم استِحلالَ الفاحشةِ وتوابعَ ذلك؛ ولذا لم يُذَكَّروا بالتَّوحيدِ، بخلافِ سائرِ الأمَمِ.

- قولُه: ﴿وَلُوطًا﴾ أي: واذكُرْ لوطًا، أو: وأرسَلْنا لُوطًا؛ لِدَلالةِ قولِه فيما سبق: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ [النمل: ٤٥] عليه. وعلى الوجهَينِ هو مِن عطفِ قصَّةٍ على قصَّةٍ، وليس معطوفًا على ﴿صَٰلِحًا﴾ مع تبادُرِه، ولا على قولِه قبْلَه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النمل: ٥٣] مع قُربِه؛ لأنَّه غيرُ مستقيم؛ لأنَّ صالحًا بدَلٌ أو عطفُ بيانٍ لـ ﴿أَخَاهُمْ﴾ [النمل: ٤٥]، وقد قُيِّد بقَيدٍ مُقَدَّمٍ عليه، وهو ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ [النمل: ٤٥]، فلو عُطِف عليه تقيَّد به، ولا يصحُّ؛ لأنَّ لوطًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يُرسَلْ إلى ثمودَ[١].

وقيل: عطَفَ (لُوطًا) على ﴿صَٰلِحًا﴾ في قولِه السَّابقِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [النمل: ٤٥]، ولم يَذكُرِ المُرسَلَ إليهم هنا كما ذكَرَ في قصَّةِ ثمودَ؛ لعَدمِ تَمامِ المُشابَهةِ بيْن قومِ لوطٍ وبيْن قُريشٍ فيما عدَا التَّكذيبَ والشِّركَ[٢].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ مِن فاعلِ (تأتُون)، مُفيدةٌ لتأكيدِ الإنكارِ وتَشديدِ التَّوبيخِ؛ فإنَّ تعاطيَ القبيحِ مِن العالِمِ بقُبْحِه أقبحُ وأشنعُ[٤]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

- وتعقيبُ قصَّةِ ثمودَ بقصَّةِ قومِ لوطٍ جارٍ على مُعتادِ القرآنِ في تَرتيبِ قَصصِ هذه الأُمَمِ؛ فإنَّ قومَ لوطٍ كانوا مُتأخِّرينَ في الزَّمنِ عن ثمودَ. وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

الذي يَسْتثيرُ سؤالًا هنا: هو الاقتصارُ على قصَّةِ قومِ لوطٍ دونَ قصَّةِ عادٍ وقصَّةِ مَدْينَ؛ وذلك لمُناسَبةِ مُجاورةِ دِيارِ قومِ لوطٍ لممْلكةِ سُليمانَ، ووُقوعِها بيْنَ دِيارِ ثمودَ وبيْن فِلَسطينَ، وكانت دِيارُهم ممَرَّ قُريشٍ إلى بلادِ الشَّام، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لمَّا أنكَرَ تعالى عليهم فِعلَهم على الإجمالِ، وسمَّاهُ فاحشةً، وقيَّدَه بالحالِ المُقرِّرةِ لجِهَةِ الإشكالِ تَتْميمًا للإنكارِ بقولِه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ أراد مَزيدَ ذلك التَّوبيخِ والإنكارِ، فكشَفَ عن حقيقةِ تلك الفاحشةِ مُفَصِّلًا، ففيه تعْيينٌ بعدَ إبهامٍ؛ فقد أبهَمَ أوَّلًا في قولِه: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، ثمَّ عيَّنَها. وصرَّحَ بذِكْرِ ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ مُحلًّى بلامِ الجنْسِ، مُشيرًا به إلى أنَّ الرُّجوليَّةَ مُنافيةٌ لهذه الحالةِ، وقيَّده بالشَّهوةِ التي هي أخَسُّ أحوالِ البَهيميَّةِ، وضَمَّ إليه ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾، وأذِنَ له بأنَّ ذلك ظُلمٌ فاحشٌ، ووَضْعٌ للشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه، ثمَّ أضرَبَ عن الكلِّ بقولِه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، أي: كيف يُقالُ لمَن يَرتكِبُ هذه الشَّنعاءَ: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟! فأَولى حرفَ الإضرابِ ضَميرَ (أَنْتُمْ)، وجعَلَهم قومًا جاهلينَ، والْتفَتَ في ﴿تَجْهَلُونَ﴾ مُوبِّخًا مُعيِّرًا[2].

- قولُه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ الهمزةُ للاستفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ، وهذا تَثنيةٌ للإنكارِ، وتَكريرٌ للتَّوبيخِ، وبَيانٌ لِمَا يأْتونَه مِن الفاحشةِ بطريقِ التَّصريحِ، وأيضًا كرَّرَ التَّوبيخَ زِيادةً في التَّقبيحِ واستسماجِ هذه الفِعلةِ الشَّنعاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٤٧، ٥٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٥).

المُخالِفةِ لنَواميسِ الطَّبيعةِ[١].

- وتَحليةُ جُملةِ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ بحَرفَي التَّأكيدِ (إنَّ واللَّام)؛ للإيذانِ بأنَّ مَضمونَها ممَّا لا يُصدِّقُ وُقوعَه أحدٌ؛ لكَمالِ بُعْدِه مِن العُقولِ. وإيرادُ المفعولِ بعُنوانِ الرُّجوليَّةِ؛ لتَربيةِ التَّقبيحِ وتحقيقِ المُبايَنةِ بيْنَها وبيْن الشَّهوةِ التي عُلِّلَ بها الإتيانُ[٢].

- قولُه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث تقدَّمَ في (الأعرافِ): ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]؛ فهنا جِيءَ بالاستفهامِ الإنكاريِّ، وما في (الأعرافِ) جاء الخبرُ المُستعمَلُ في الإنكارِ؛ فيجوزُ أنْ يكونَ اختلافُ الحكايةِ لاختلافِ المَحكيِّ؛ بأنْ يكونَ لُوطٌ قد قال لهم المقالتَينِ في مَقامينِ مُختلفينِ. ويجوزُ أنْ يكونَ اختلافُ الحِكايةِ تفنُّنًا مع اتِّحادِ المعنى. وكِلَا الأُسلوبينِ يقَعُ في قَصصِ القرآنِ؛ لأنَّ في تَغييرِ الأسلوبِ تجديدًا لنَشاطِ السَّامعِ. وعلى قِراءةِ ما في سُورةِ (الأعرافِ) بهمْزتينِ؛ فتَستوي الآيتانِ على هذه القِراءةِ[٣].

- قولُه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ﴿أَنتُمْ قَوْمٌ﴾ خبرٌ موَطِّئٌ، وإنَّما الخبرُ في الحقيقةِ هو الجملةُ الَّتي وُصِف بها ﴿قَوْمٌ﴾، والخبرُ الموَطِّئُ هو الَّذي لا يُفيدُ بانفرادِه ممَّا بَعْدَه، كالحالِ الموَطِّئةِ في نحو: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]. ألا تَرى أنَّك لو اقتَصَرْتَ على ﴿قَوْمٌ﴾ هنا لم تحصُلْ به فائدةٌ، وإنَّما الفائدةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨)، يُنظر ما تقدم في تفسير سورة الأعراف، الآية ٨١ (٦/ ٣١٩).

مقرونةٌ بصِفَتِه، فالخبرُ الموَطِّئُ كالزِّيادةِ في الكلامِ. فـ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ فِعلُ خِطابٍ وُصِفَ به اسمُ غَيْبةٍ كما تَرى، ولم يأتِ بالياءِ وِفاقًا لـ﴿قَوۡمٌ﴾، ولكنَّه جاء وَفْقَ المبتَدَأِ الَّذي هو ﴿أَنتُمۡ﴾ في الخِطابِ، ولو قيل: بل أنتُم قَومٌ، لم يحصُلْ بهذا الخبرِ فائدةٌ[1].

- وفي إقحامِ لَفظِ (قوم) إيماءٌ إلى تَمكُّنِ صِفَةِ الجهْلِ منهم حتَّى كأنَّها مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[2].

- قولُه: ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ صِفةٌ لـ﴿قَوۡمٌ﴾، والموصوفُ لَفظُه لفظُ الغائبِ، ولكنَّها قُرِئَت بالتَّاءِ للمُخاطَبِ دونَ الياءِ الَّتي للغائبِ، وكذلك ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]؛ لأنَّه اجتمَعَت الغَيبةُ والمُخاطَبةُ، فغُلِّبَت المُخاطَبةُ؛ لأنَّها أقْوى وأرسَخُ أصلًا مِن الغَيبةِ[3]، فهذا مِن بابِ التَّغليبِ -وهو مِن أنواعِ تخريجِ الكلامِ على خِلافِ مُقتضَى الظَّاهِرِ-؛ حيث رُجِّح أحدُ الأمْرَينِ على الآخَرِ تغليبًا للمُخاطَبينَ على الغائبينَ، أو لِتَغليبِ جانبِ المعنَى على اللَّفظِ. ولعلَّه مِنَ الالتِفاتِ[4].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث وقَعَ في (الأعرافِ): ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] ولم يُذكَرْ هنا؛ لأنَّ ما يجْري في القصَّةِ لا يَلزَمُ ذِكرُ جَميعِه. وكذلك القولُ في عَدمِ ذِكرِ ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((أمالي ابن الشجري)) (٣/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ١٦٤)، ((عروس الأفراح)) للبهاء السبكي (٢/ ٣١٨، ٣١٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٥٥).

في سُورةِ (الأعرافِ) مع ذِكْرِه هنا، ونظيرُ بقيَّةِ الآيةِ تقدَّمَ في سُورةِ (الأعرافِ)، إلَّا أنَّ الواقعَ هنا ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، فوصَفَهم بالجَهالةِ، وهي اسمٌ جامعٌ لأحوالِ أفَنِ الرَّأيِ وقساوةِ القلْبِ، وفي (الأعرافِ) وصَفَهم بأنَّهم قومٌ مُسرِفون؛ وذلك يُحمَلُ على اختلافِ المقالتينِ في مَقامينِ[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تقدَّمَ نظيرُ هذه الآياتِ في سُورةِ (الأعرافِ)، وخالَفَتْها هذه بوُقوعِ العطْفِ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ دونَ الواوِ، وبقولِه: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ عِوَضَ ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ [الأعراف: ٨٢]، وبقولِه: ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ عِوَضَ ﴿كَانَتْ﴾ [الأعراف: ٨٣]، وبقولِه: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ عِوَضَ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]؛ فأمَّا مَوقعُ الفاءِ هنا فهو لتَعقيبِ الجُملةِ المعطوفةِ بالفاءِ على التي قبْلَها تَعقيبَ جُزءِ القصَّةِ على أوَّلِه، فلا تُفيدُ إلَّا تَعقيبَ الإخبارِ، وهي في ذلك مُساويةٌ للواوِ، ولكنْ أُوثِرَ حرفُ التَّعقيبِ في هذه الآيةِ؛ لكَونِها على نَسجِ ما حُكِيَت به قصَّةُ ثمودَ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥]؛ فالاختلافُ بيْن هذه الآيةِ وآيةِ (الأعرافِ) تفنُّنٌ في الحكايةِ، ومُراعاةٌ للنَّظيرِ في النَّسجِ، وهذا مِن أساليبِ قَصصِ القرآنِ. وكذلك قولُه: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ دونَ ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ [الأعراف: ٨٢]؛ لأنَّ المَحكيَّ مِن كلامِ القومِ هو تآمُرُهم على إخراجِ آلِ لوطٍ، فما هنا حِكايةٌ بمُرادِفِ كَلامِهم، وما في (الأعرافِ) حِكايةٌ بالمعنى، والغرَضُ هو التَّفنُّنُ أيضًا. وكذلك الاختلافُ بيْنَ ﴿قَدَّرْنَاهَا﴾ هنا وبيْن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

﴿كَانَتۡ﴾ في [الأعراف: ٨٣]. وأمَّا الاختلافُ بيْنَ ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ وبيْن ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]؛ فهُما عِبرتانِ بحالِهم تفرَّعَتَا على وصْفِ ما حلَّ بهم، فوُزِّعَت العِبرتانِ على الآيتينِ؛ لئلَّا يَخلُوَ تَكريرُ القصَّةِ مِن فائدةٍ[١].

- قولُه: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ﴾ قِيل: أَظْهَرَ ما أضْمَرَه في (الأعرافِ): ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾ [الأعراف: ٨٢]؛ لأنَّ الإظهارَ أَلْيقُ بسُورةِ العلمِ والحِكمةِ وإظهارِ الخَبْءِ[٢].

- وقالوا: ﴿مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾ ولم يقولوا: (مِن القَريةِ)؛ لأنَّ قولَهم: ﴿مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾ يُوجِبُ الحَمِيَّةَ والعصبيَّةَ حتى يُخرجوهم، كأنَّهم قالوا: هذه القريةُ لكم، أخرجوا هذا الرجُلَ، وكذلك ففي قَولِه: ﴿ءَالَ لُوطٖ﴾ يعني: هؤلاء ليسوا منكم؛ فلا وجْهَ لكونِكم تَسكُتونَ عنهم[٣]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥، ٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٣).

الآيات (٥٩-٦٤)

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾: أي: اختارَ، واجتبَى، وأصلُ (صفو): خلوصُ الشَّيءِ مِن كلِّ شَوبٍ[1].

﴿حَدَآئِقَ﴾: أي: بساتينَ، وقيل: بساتين نخلٍ، واحدُها: حديقةٌ، والحديقةُ كلُّ بستانٍ عليه حائطٌ، وقيل: هي قطعةٌ مِن الأرضِ ذاتُ ماءٍ، سُمِّيت تشبيهًا بحدقةِ العينِ في الهيئةِ، وحصولِ الماءِ فيها، وأصلُ (حدق): الشَّيءُ يحيطُ بشَيءٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥).

﴿ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾: أي: ذاتَ حسنٍ، والبهجةُ: حُسنُ اللونِ، وظُهورُ السُّرورِ، وأصلُ (بهج): سرورٌ ونضرةٌ[١].

﴿يَعۡدِلُونَ﴾: أي: يَعدِلونَ عن الحقِّ ويَجورونَ عليه ويتكبَّرونَ -مِن قولِهم: عَدَل عن الحقِّ: إذا جارَ-، أو: يَعدِلونَ باللهِ غيرَه، أي: يجعلونَ له عديلًا، ومثيلًا، وشريكًا، والعدالةُ: لفظٌ يَقتضي معنى المساواةِ، وأصلُ (عدل): يدُلُّ على استواءٍ[٢].

﴿قَرَارًا﴾: أي: مستقَرًّا، وسكنًا، وأصلُ (قرر) هنا: يدُلُّ على التَّمكُّنِ[٣].

﴿خِلَٰلَهَآ﴾: أي: فيما بيْنَها، ووسطَها، وخِلالُ الشَّيءِ: مُنْفَرَجُ ما بيْنَ أجزائِه، والخَلَلُ: فُرجةٌ بينَ الشَّيئينِ، وأصلُ (خلل): يرجِعُ إمَّا إلى دِقَّةٍ أو فُرْجةٍ[٤].

﴿رَوَٰسِيَ﴾: أي: جبالًا ثوابتَ، وأصلُ (رسي): يدُلُّ على ثباتٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٢٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥١، ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ: الحمدُ لله وَحْدَه، وسَلامٌ مِن اللهِ على عِبادِه الَّذينَ اختارهم، ونجَّاهم مِن العَذابِ، وسلَّمَهُم مِن العُيوبِ والذُّنوبِ، آللهُ الَّذي له صِفاتُ الكَمالِ والجلالِ خيرٌ أمْ تلك المعبوداتُ الَّتي لا تَنفعُ ولا تَضُرُّ؟!

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى ما يدُلُّ على وحدانيَّتِه، وكمالِ قدرتِه، وسَعةِ فضلِه على عبادِه، فيقولُ: آلهتُكم -الَّتي لا خيرَ فيها أصلًا- خيرٌ أم اللهُ الَّذي خلقَ السَّمواتِ والأرضَ، وأنزَل مِن السَّحابِ مطَرًا فأنبَتْنا بسبَبِه حدائقَ ذاتَ منظَرٍ حسَنٍ مُبهِجٍ، ما كان لكم أن تُنبِتوا شجَرَ تلك الحدائقِ؟! أمع اللهِ معبودٌ آخَرُ يَفعَلُ مِثلَ ذلك حتى تُشرِكوا به في عبادتِه؟! بل هم مُقِرُّون بذلك، وأنَّه لا إلهَ مع اللهِ، ولكِنَّهم يَعدِلون به سبحانَه غيرَه فيُشرِكونَ، مع عِلمِهم بأنَّ اللهَ هو المتفرِّدُ بالخَلقِ!

ثمَّ يلفِتُ اللهُ تعالى أنظارَهم إلى حقائقَ كونيَّةٍ أُخرَى يُشاهِدونها ويُحِسُّونَها، فيقولُ: آلهتُكم خيرٌ أم اللهُ الَّذي جعَلَ الأرضَ ساكِنةً لا تَضطرِبُ، وأجرى في خِلالِها أنهارًا، وجعلَ لها جِبالًا تُثبِّتُها، وجعَل بيْنَ البحارِ المِلْحةِ والأنهارِ العَذبةِ مانِعًا بقُدرتِه؛ لئلَّا يختَلِطَ ماءاهما؟! أمع اللهِ معبودٌ آخَرُ يَفعلُ تلك الأشياءَ حتَّى تُشرِكوا به في عبادتِه؟! بل أكثَرُهم لا يَعلمونَ حقَّ الله عليهم!

ثمَّ يلفِتُ اللهُ تعالى أنظارَهم إلى ما يَشعُرونَ به في خاصَّةِ أنفُسِهم، فيقولُ: آلهتُكم خيرٌ أم اللهُ الذي يُجيبُ المكروبَ المجهودَ إذا دعاه، ويُزيلُ الضُّرَّ والكربَ إنْ شاء، ويَستخلِفُكم في الأرضِ؟! أمع اللهِ معبودٌ آخَرُ يفعلُ تلك الأشياءَ حتَّى تُشرِكوا به في عبادتِه؟! قليلًا ما تَتذكَّرون عَظَمةَ اللهِ ونِعَمَه عليكم!

ثمَّ يلفِتُ الله تعالى أنظارَهم إلى بعضِ نعمِه سبحانَه عليهم، فيقولُ: آلهتُكم

خيرٌ أم اللهُ الذي يُرشِدُكم إلى الطَّريقِ في ظُلماتِ البَرِّ والبَحرِ بما خَلَق لكم مِن العَلاماتِ، والذي يُرسِلُ الرِّياحَ مُبشِّرةً بالمطرِ؟! أمع الله معبودٌ آخَرُ فعَل ذلك حتى تُشرِكوا به في عبادتِه؟! تنزَّه الله وتقدَّسَ عن شِركِهم!

ثمَّ يقولُ: آلهتُكم خيرٌ أم اللهُ الذي أوجدَ الخَلقَ مِنَ العدَمِ ثمَّ بعد فَنائِهم يُعيدُهم، والَّذي يَرزقُكم مِن السَّماءِ والأرضِ؟! أمع الله معبودٌ آخَرُ يقدِرُ على ذلك حتَّى تُشرِكوا به في عبادتِه؟!

قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكين: هاتوا دَليلَكم وحُجَّتَكم على صِحَّةِ عِبادتِكم غيرَ اللهِ، إنْ كنتُم صادِقينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَمَّ بهذه القَصَصِ استنتاجُ ما أراد سبحانَه مِن الدَّليلِ على حِكمتِه وعِلمِه، ومُباينتِه للأصنامِ في قُدرتِه وحِلْمِه؛ أمَرَ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأن يَحمدَه شُكرًا على ما عَلِمَ، ويُقَرِّرَهم بعجزِ أصنامِهم ردًّا لهم عنِ الجهلِ بأوضحِ طريقٍ وأقربِ متناوَلٍ، فقال[1]:

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ[2]: جميعُ المحامِدِ يَستحِقُّها اللهُ تعالى وَحْدَه؛ لكَمالِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٤).

(٢) قال القرطبي: (قال الفرَّاءُ: قال أهل المعاني: قِيلَ لِلُوطٍ: «قُل الحمدُ لله» على هلاكِهم. وخالَف جماعةٌ مِنَ العُلماءِ الفَرَّاءَ في هذا، وقالوا: هو مُخاطَبةٌ لنبيِّنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أي: قل: الحمدُ لله على هلاكِ كُفَّارِ الأُمَمِ الخاليةِ. قال النحَّاسُ: وهذا أَوْلى؛ لأنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ =

أفعالِه وصِفاتِه، وعظيمِ نِعَمِه وهِباتِه؛ ومِن جُملةِ ذلك إهلاكُ أعدائِه المكذِّبين للرُّسُلِ.

وسَلامٌ[(١)] مِن اللهِ على عِبادِه الَّذينَ اصْطَفاهم[(٢)] ونجَّاهم مِن العَذابِ، وسلَّمَهم

= على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وكلُّ ما فيه فهو مخاطَبٌ به عليه السَّلامُ إلَّا ما لم يصِحَّ معناه إلَّا لغيرِه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٩٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ١٤٨).

(١) قيل: هي مِن ضِمنِ ما أُمِر به عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فأُمِرَ بأن يحمدَ الله، وأن يُسلِّمَ على عِبادِه المُصْطفَينَ. وممَّن قال بذلك: الزمخشريُّ، والرسعني، وابن كثير، والعليمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦).

وقيل: يحتملُ أنَّ قولَه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ جملةٌ مستقِلَّةٌ، وتكونُ خبرًا مِنَ الله تعالى، فيكونُ المأمورُ به الحمدَ، والوقْفُ التامُّ عليه. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٧٠، ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣٢).

قال ابنُ القيِّم: (وفصْلُ الخطابِ في ذلك أن يُقالَ: الآيةُ تتضَمَّنُ الأمْرَينِ جميعًا، وتَنتظِمُهما انتظامًا واحِدًا؛ فإنَّ الرَّسولَ هو المبلِّغُ عن اللهِ كلامَه، وليس فيه إلَّا البلاغُ، والكلامُ كلامُ الرَّبِّ تبارك وتعالى؛ فهو الذي حَمِد نفْسَه وسلَّم على عبادِه، وأمرَ رسولَه بتبليغِ ذلك؛ فإذا قال الرَّسولُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ كان قد حمِدَ اللهَ وسَلَّم على عبادِه بما حَمِدَ به نفْسَه وسلَّم به هو على عِبادِه؛ فهو سلامٌ مِن الله ابتِداءً، ومِنَ المُبلِّغِ بلاغًا، ومِنَ العبادِ اقتداءً وطاعةً؛ فنحن نقولُ كما أمرنا ربُّنا تبارك وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾. ونظيرُ هذا قولُه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فهو توحيدٌ منه لنفْسِه، وأمرٌ للمُخاطَبِ بتوحيدِه؛ فإذا قال العبدُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ كان قد وحَّد اللهَ بما وحَّد به نفْسَه، وأتى بلفظةِ ﴿قُلْ﴾ تحقيقًا لهذا المعنى، وأنَّه مُبلِّغٌ مَحْضٌ، قائلٌ لِما أُمِرَ بقولِه. والله أعلم). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ١٧٢).

(٢) قيل: المرادُ بهم هنا: الأنبياءُ والرُّسلُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بن سليمان، والقرطبي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦). =

مِن العُيوبِ، والإصرارِ على الذُّنوبِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٧).

وقيل: المرادُ بهم: أصحابُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ، وسُفْيانُ الثَّوْريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٧).

قال ابن كثير بعدَ أن ذكَر القولَينِ السَّابقَينِ: (ولا مُنافاةَ؛ فإنَّهم إذا كانوا مِن عِبادِ الله الَّذين اصطفى، فالأنبياءُ بطريقِ الأَوْلى والأحْرى). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١).

وممَّن اختار أنَّهم الأنبياءُ والمؤمنون: يحيى بن سلام، والكرماني، وابن عطية، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٥٤)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٨٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣٢).

قال الشوكاني: (والأولَى حملُه على العمومِ، فيدخُلُ في ذلك الأنبياءُ وأتْباعُهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٨).

وقال ابن جُزَي: (واللَّفظُ يَعُمُّ الملائكةَ والأنبياءَ والصَّحابةَ والصَّالحينَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٠)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٣٤، ٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٥٠٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٧١، ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).

ٱلْكَبِيرُ ۞ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۞ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۞ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: ٣٢ - ٣٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا إذا صلَّينا خَلْفَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قُلْنا: السَّلامُ على جِبريلَ وميكائيلَ، السَّلامُ على فلانٍ وفلانٍ، فالتَفَت إلينا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ فقال: إنَّ اللهَ هو السَّلامُ، فإذا صلَّى أحَدُكم فلْيَقُل: التَّحيَّاتُ لله، والصَّلَواتُ والطَّيِّباتُ، السَّلامُ عليك -أيُّها النَّبيُّ- ورَحمةُ اللهِ وبَرَكاتُه، السَّلامُ علينا وعلى عِبادِ الله الصَّالحينَ؛ فإنَّكم إذا قُلْتُموها أصابَتْ كلَّ عبدٍ للهِ صالحٍ في السَّماءِ والأرضِ- أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورَسولُه))[1].

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ: هلِ اللهُ المتَّصِفُ بصِفاتِ الكَمالِ والجَلالِ والإكرامِ خيرٌ، أمْ تلك الأصنامُ وغيرُها مِن المعبوداتِ الَّتي لا تنفَعُ ولا تضُرُّ، ومع ذلك يعبُدُها المُشرِكون مع اللهِ[2]؟!

(١) رواه البخاري (٨٣١) واللفظ له، ومسلم (٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).

قال ابن جزي: (ودُخولُ «خيرٍ» الَّتي يُرادُ بها التَّفضيلُ إنَّما هو لِتَبكيتِهم وتعنيفِهم؛ لأنَّه معلومٌ أنَّه لا خيرَ فيما أشركوا أصلًا). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ١٣٣٦).

قال ابن عثيمين: (﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ في كلِّ شيءٍ؛ في صِفاتِه، وفي ثَوابِه وجزائِه لِمَن يَعبدُه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣٣).

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

أي: آللهُ الَّذي تفرَّد بخَلقِ السَّمواتِ والأرضِ خيرٌ، أم الَّذي لا يَقدِرُ على فِعلِ ذلك مِن المعبوداتِ الباطلةِ[1]؟!

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾.

أي: وأنزَل اللهُ لأجْلِكم مِن السَّحابِ مطَرًا فأنبَتْ بسَبَبِه بساتينَ ذاتَ مَنظرٍ حَسَنٍ يَبتَهِجُ ويُسَرُّ بها مَنْ يراها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٠، ١٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١، ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٦).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه للمُشرِكين به مِن قُريش: أعِبادةُ ما تَعبدون مِن أوثانِكم الَّتي لا تضُرُّ ولا تنفَعُ خيرٌ، أم عبادةُ مَن خلق السَّمواتِ والأرضِ؟... «مَنْ» الَّتي في ﴿أَمَّنْ﴾ و«ما» مبتدَأٌ في قَولِه: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، والآياتُ بعدَها إلى قَولِه: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٤] بمعنى «الَّذي» لا بمعنى الاستفهامِ؛ وذلك أنَّ الاستفهامَ لا يدخُلُ على الاستفهامِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٠-١٠٤).

وقال ابن كثير: (قولُه هاهنا: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: ﴿أَمَّنْ﴾ في هذه الآياتِ كُلِّها تقديرُه: أمَنْ يفعَلُ هذه الأشياءَ كَمَن لا يَقدِرُ على شَيءٍ منها؟ هذا معنى السياقِ وإن لم يُذكَرِ الآخَرُ؛ لأنَّ في قوَّةِ الكلامِ ما يُرشِدُ إلى ذلك، وقد قال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).

قال ابن عثيمين: (نزولُه مِن السَّماءِ أعَمُّ وأقَلُّ ضررًا؛ إذْ لو كان يَخرجُ مِن الأرضِ ما وَصَلَ إلى قممِ الجبالِ إلَّا وقد أغرقَ ما تحتَه، فلهذا صار ينزِلُ مِن فوقٍ؛ لِيَكونَ أكمَلَ وأعَمَّ وأقَلَّ ضررًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٣٤٨).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١٤ - ١٦].

﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾.

أي: ممتَنِعٌ عليكم غايةَ الامتناعِ إنباتُ شَجَرِ تلك الحدائِقِ، فلا تَقدِرونَ على ذلك، وإنَّما يَقدِرُ عليه اللهُ وَحْدَه[١].

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٧٠].

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثَبَتَ أنَّه المتفرِّدُ بالألوهيَّةِ؛ حَسُنَ موقعُ الإنكارِ والتَّقريرِ، فقال[٢]:

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

أي: أمَع اللهِ معبودٌ آخَرُ يُنزِلُ لكم المطَرَ، ويُنبِتُ لكم الشَّجَرَ حتَّى يُشرَكَ به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٨).

في عبادتِه[١]؟! والجوابُ لا؛ لأنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه[٢].

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

أي: بل المُشرِكون قومٌ يَعدِلُون عن الحقِّ مع عِلمِهم بأنَّ اللهَ هو المتفرِّدُ بالخَلقِ، فيَجعَلونَ للهِ عِدْلًا ونَظيرًا مع عِلمِهم بالفَرقِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾.

أي: آللهُ الَّذي جعَلَ الأرضَ مُستَقِرَّةً ساكِنةً لا تَضطرِبُ خيرٌ، أمْ تلك المعبوداتُ العاجِزةُ عن فِعلِ ذلك[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).
قال ابن تيمية في: (وهذا استفهامُ إنكارٍ، وهم مقِرُّونَ بأنَّه لم يفعَلْ هذا إلهٌ آخرُ معَ الله. ومَن قال مِن المفسِّرينَ: إنَّ المرادَ: هل معَ الله إلهٌ آخرُ؟ فقد غلِط؛ فإنَّهم كانوا يجعَلون معَ الله آلهةٌ أخرَى، كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ...﴾ [الأنعام: ١٩] ...). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٧٦). ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١، ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣). =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤].

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾.

أي: وأجرى في خِلالِ الأرضِ أنهارًا جاريةً بالماءِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾.

أي: وجعلَ للأرضِ جبالًا تُثبِّتُها[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾.

= قال ابن عاشور: (جعَل الأرضَ ثابتةً قارَّة غيرَ مضطربةٍ، وهذا تدبيرٌ عجيبٌ، ولا يُدرَكُ تمامُ هذا الصُّنعِ العجيبِ إلَّا عندَ العلمِ بأنَّ هذه الأرضَ سابحةٌ في الهواءِ متحرِّكةٌ في كلِّ لحظةٍ، وهي مع ذلك قارَّةٌ فيما يبدو لِسُكَّانِها، فهذا تدبيرٌ أعجَبُ، وفيه مع ذلك رحمةٌ ونعمةٌ، ولولا قرارُها لكان النَّاسُ عليها متزلزلينَ مُضطربينَ، ولكانت أشغالُهم مُعنتةً لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).

قال ابن عثيمين: (هل المرادُ أرسى الأرضَ بها أو أرسى الجبالَ، أي: أثبَتَها؟

كِلا المعنيَين، فإذَن هي رَواسٍ بنفْسِها، وهي أيضًا مُرْسيَةٌ؛ ولهذا سمَّاها الله أوتادًا: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧]، بمنزلةِ أوتادِ الخيمةِ تُمسِكُها وتَضبِطُها، وهذه الجبالُ راسيةٌ بنَفْسِها؛ ولذلك على كثرةِ العواصِفِ والقواصِفِ تجدُها ثابتةً لا تتغيَّرُ؛ فهي راسيةٌ، وكذلك أيضًا مُرْسيَةٌ للأرضِ، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٥٥).

أي: وجعَلَ بيْنَ البحارِ المِلْحةِ والأنهارِ العَذْبةِ مانِعًا بقُدرتِه؛ لئَلَّا يختَلِطَ الماءُ العذبُ بالماءِ المِلْحِ، فيُفسِدَ أحدُهما الآخَرَ، فتَفُوتَ المنفعةُ المقصودةُ منهما(١).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).

قال ابنُ عثيمين: (بعضُهم قال: إنَّ الحاجزَ هو اليابسُ مِن الأرضِ الَّذي يَحولُ بيْنَ البحرِ وبيْنَ النَّهرِ؛ لأنَّ النَّهرَ له مجرًى خاصٌّ، والبحرَ له مجرًى خاصٌّ، ولو شاء اللهُ تعالى لمزَجَهما، ولكِنْ جعَلَ لهذا مجاريَه، وجعَل لهذا مجاريَه.

وبعضُهم يقول: إنَّه حاجزٌ غيرُ مَرئيٍّ، وليس هو اليابسَ، وإنَّه يوجَدُ في نفْسِ البحارِ أنهارٌ عذبةٌ حلوةٌ، ومع ذلك لا تختَلِطُ فتَفسُدَ بالمِلحِ ويَفسُدَ المِلحُ بها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٥٥، ٣٥٦).

وقال ابن كثير: (الحكمةُ الإلهيَّةُ تقتضي بقاءَ كلٍّ منهما على صفتِه المقصودةِ منه؛ فإنَّ البحرَ الحلوَ هو هذه الأنهارُ السارحةُ الجاريةُ بينَ الناسِ، والمقصودُ منها: أن تكونَ عذبةً زُلالًا تَسقي الحيوانَ والنَّباتَ والثِّمارَ منها. والبحارَ المالحةَ هي المحيطةُ بالأرجاءِ والأقطارِ مِن كلِّ جانبٍ، والمقصودُ منها: أن يكونَ ماؤُها مِلْحًا أُجاجًا، لئلَّا يفسَدَ الهواءُ بريحِها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣).

وقال أيضًا: (إذ لو كان [أي: البحر] حُلوًا لأنتَنَ الجوُّ وفسَدَ الهواءُ؛ بسبب ما يموت فيه من الحيوانات العِظامِ، فكان يؤدِّي إلى تفاني بني آدمَ وفسادِ معايشِهم، فاقتضت الحكمةُ البالغةُ أن يكون على هذه الصِّفةِ لهذه المصلحة...). ((البداية والنهاية)) (١/ ٤٨، ٤٩)

وقد كشفتْ وسائلُ العِلمِ الحديثةُ بعْدَ إقامةِ مئاتِ المحطَّاتِ البحريَّةِ، والتقاطِ صوَرٍ بالأقمارِ الصِّناعيَّةِ عن هذا القانونِ الَّذى يَحكُمُ العَلاقةَ المائيَّةَ بيْنَ كلِّ مائَيْنِ مُتجاورَينِ؛ فالبحارُ والأنهارُ تلتقي مع وُجودِ حاجزٍ يمنعُ الاختلاطَ الكاملَ والامتِزاجَ بيْنَهما، وأنَّه لا تَبغي مياهُ بحرٍ على مياهِ بحرٍ آخَرَ فتُغَيِّرَها. يُنظر: ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٢٠٧، ٢٠٨).

وقال سُبحانَه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢١].

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

أي: أمَعَ اللهِ معبودٌ آخَرُ فعَلَ تلك الأشياءَ، فاستحقَّ أن يُعبَدَ[١]؟!

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: بل أكثَرُهم[٢] لا يَعلَمونَ ما يجبُ لله، ولا يَعلَمونَ ضَرَرَ الإشراكِ به، ولا نَفْعَ توحيدِه، وأشركوا باللهِ؛ تقليدًا لآبائِهم، واتِّباعًا لكُبَرائِهم[٣].

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٢) قيل: المرادُ: أكثَرُ المشركين. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤).

وقيل: المرادُ: أكثرُ الخَلقِ لا يَعلمون. وممَّن قال بهذا المعنى: البقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

قال البقاعي: (﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليس لهم نوعٌ مِن العِلمِ، بل هم كالبهائمِ؛ لإعراضِهم عن هذا الدَّليلِ الواضحِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٩٠).

وقال ابن عثيمين: (الصَّوابُ أنَّه نقصٌ في العِلمِ مطلقًا، بما تدُلُّ عليه هذه الآياتُ العظيمةُ مِن الرَّحمةِ والحكمةِ والقدرةِ والسُّلطانِ، فتخصيصُ ذلك بالتَّوحيدِ فيه نظرٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٥٧).

أي: آللهُ الَّذي يُعطي المحتاجَ ما يَسألُه مِن الأشياءِ العَسِرةِ الحُصُولِ، ويُزيلُ الضرَّ والكَربَ إنْ شاء، ويَستخلِفُكم في الأرضِ(١)؛ خيرٌ أمْ تلك المعبوداتُ العاجزةُ عن تحقيقِ ذلك(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧].

وعن أبي تَميمةَ الهُجَيميِّ، عن رجُلٍ مِن بَلْهُجَيم قال: قلْتُ: يا رسولَ اللهِ، إلامَ تدعو؟ قال: ((أدعو إلى اللهِ وحْدَه، الَّذي إنْ مسَّك ضُرٌّ فدَعَوْتَه كشَفَ

---

(١) قيل: المعنى: ويَستخلِفُ بعْدَ أمرائِكم في الأرضِ منكم خُلفاءَ أحياءً يَخلُفونَهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢).

وقيل: المعنى: يجعلُكم سكانَ الأرضِ بأن يُهلِكَ قومًا أو قَرنًا ويُنشئَ آخرينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابن القيم، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٤)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩١٠).

قال ابنُ عاشور: (﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: يجعَلُكم تَعمُرونَ الأرضَ وتجتَنونَ منافِعَها، فضُمِّنَ الخُلفاءُ معنى المالكينَ، فأُضيفَ إلى الأرضِ على تقديرِ: مالِكينَ لها، والمُلْكُ يَستلزِمُ الانتِفاعَ بما يُنتفَعُ به منها. وأفاد خلفاءُ بطريقِ الالتزامِ معنى الوراثةِ لِمن سبَقَ؛ فكُلُّ حَيٍّ هو خَلَفٌ عن سَلَفِه، والأُمَّةُ خَلَفٌ عن أمَّةٍ كانت قَبْلَها جيلًا بعدَ جيلٍ. وهذا كقَولِه تعالى حكايةً لِقَولِ نوحٍ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢، ١٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤، ١٥).

عنك، والَّذي إنْ ضلَلْتَ بأرضٍ قَفرٍ[١] دَعَوْتَه رَدَّ عليك، والَّذي إنْ أصابَتْك سَنَةٌ[٢] فدعَوْتَه أنبَتَ عليك))[٣].

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

أي: أمَعَ اللهِ معبودٌ آخَرُ يُجيبُ المُضطَرَّ، ويَكشِفُ السُّوءَ، ويَستخلِفُكم في الأرضِ[٤]؟!

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: قليلًا ما تَتذكَّرون عَظَمةَ اللهِ ونِعَمَه وحُجَجَه؛ لإعراضِكم وغَفلتِكم؛ فلِذا أشرَكْتُم باللهِ[٥]!

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

---

(١) قَفرٍ، أي: فلاةٍ خاليةٍ مِن الماءِ والشَّجرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٣٤٥).

(٢) سَنَةٌ: أي: عامٌ مُقحِطٌ لم تُنبِتُ فيه الأرضُ شَيئًا. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٦/ ٣٥٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٦٣٦) واللفظ له، وأبو داود (٤٠٨٤).

الحديث صححه ابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٥/ ٣٢٢)-، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٠٨٤)، وحسن إسناده الذهبي في ((المهذب)) (٨/ ٤٢٥٣)، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣٤/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦).

وقال ابن عثيمين: (والتَّذكُّرُ بمعنى الاتِّعاظِ؛ لأنَّ الإنسانَ يَذكُرُ فينتَفِعُ بذِكرِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٩).

﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾.

أي: آللهُ الَّذي يُرشِدُكم الطَّريقَ إذا ضَلَلْتُم في ظُلُماتِ الأرضِ والبَحرِ في أسفارِكم -بتيسيرِه وبما خَلَق لكم من العَلاماتِ- خيرٌ أمِ المعبوداتُ الباطلةُ العاجزةُ عن فِعلِ ذلك(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾.

أي: والَّذي يُرسِلُ الرِّياحَ مُبشِّرةً بالمطرِ قبْلَ نزولِه خيرٌ أم مَن لا يَقدِرُ على ذلك(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

أي: أمَع اللهِ معبودٌ آخَرُ يهديكم في أسفارِكم، ويُرسِلُ الرِّياحَ مُبشِّرةً بنُزولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٣، ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢، ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

قال القرطبي: (﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ أي: قُدَّامَ المطَرِ، باتِّفاقِ أهلِ التَّأويلِ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٥).

المطَرِ؛ فاستحَقَّ العبادةَ مع اللهِ، أمْ هو اللهُ وحْدَه الَّذي فعَل ذلك، ثمَّ عبَدْتُم غيرَه[١]؟!

﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: تعاظَمَ اللهُ وتنزَّه عن الشِّركِ، وعن مُساواتِه بالمعبوداتِ الباطِلةِ العاجِزةِ النَّاقِصةِ[٢].

﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤﴾.

﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

أي: آللهُ الَّذي ابتَدأ كلَّ مخلوقٍ فأوجَدَه مِنَ العدَمِ، ثمَّ بعْدَ فنائِه يُعيدُه كهَيْئَتِه قبْلَ أن يُفنِيَه، وذلك يومَ البعثِ والنُّشورِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان إيجادُ بني آدمَ إنعامًا إليهم وإحسانًا، ولا تتِمُّ النِّعمةُ إلَّا بالرِّزقِ؛ قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢، ٢٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم ...﴾[١].

وأيضًا لَمَّا كان الإمطارُ والإنباتُ مِن أدَلِّ ما يكونُ على الإعادةِ، قال مشيرًا إليهما على وجهٍ عَمَّ جميعَ ما مضى[٢]:

﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ومَن يُعطيكم مِنَ السَّماءِ المطَرَ، ومِنَ الأرضِ النَّباتِ[٣]- خيرٌ أم مَن لا يقدِرُ على فِعلِ ذلك[٤]؟!

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

أي: أمَعَ اللهِ مَعبودٌ آخَرُ يَقدِرُ على ابتِداءِ الخَلقِ وإعادتِه، ورزْقِكم مِنَ السَّماءِ والأرضِ[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٩٩، ٢٠٠).

(٣) اقتصَر أكثرُ المفسِّرينَ على المطرِ والنباتِ.

قال ابنُ عطية: (والرزقُ مِنَ السَّماءِ بالمطرِ، ومِن الأرضِ بالنَّباتِ، هذا مشهورُ ما يُحِسُّه البشَرُ، وكمْ لله مِن لُطفٍ خفيٍّ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٧).

ومِنَ المفسِّرينَ مَن ذكَر ما هو أعَمُّ مِن ذلك؛ قال البقاعي: (﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: بالمطَرِ والحَرِّ والبردِ وغيرِها ممَّا له سببٌ في التَّكوينِ أو التَّلوينِ. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بالنَّباتِ والمعادِنِ والحيوانِ وغيرِها ممَّا لا يعلَمُه إلَّا اللهُ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٠٠). ويُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٥)، ((مجموع =

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: هاتوا دليلَكم وحُجَّتَكم على صِحَّةِ عبادتِكم غيرَ اللهِ، إن كنتُم صادقينَ في دعواكم أنَّ مع اللهِ إلهًا آخَرَ يَستحِقُّ العبادةَ[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فأمَر رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يستفتحَ بتحميدِه والسَّلامِ على أنبيائِه والمُصطفَينَ مِن عبادِه. وفيه تعليمٌ حَسَنٌ، وتوقيفٌ على أدَبٍ جميلٍ، وبَعْثٌ على التيمُّنِ بالذِّكْرَين، والتبَرُّكِ بهما، والاستِظهارِ بمكانِهما على قَبولِ ما يُلقى إلى السَّامعينَ وإصغائِهم إليه، وإنزالِه مِن قلوبِهم المنزلةَ الَّتي يَبغيها المُسمِعُ. ولقد توارَثَ العُلماءُ والخُطَباءُ والوُعَّاظُ كابرًا عن كابرٍ هذا الأدبَ؛ فحَمِدوا اللهَ عزَّ وجلَّ،

= الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).
قال ابنُ عثيمين: («البرهانُ» هو الدَّليلُ، وخَصَّه بعضُهم بالدَّليلِ القاطِعِ، وقالوا: إنَّ الدليلَ إنْ كان قطعيًّا في دَلالتِه فهو بُرهانٌ، وإنْ كان ظنيًّا فهو دليلٌ وليس ببُرهان، ولكِنَّ الظاهِرَ مِن الآياتِ الكريمةِ أنَّ البرهانَ في القرآنِ دَليلٌ؛ سواءٌ كان قطعيًّا كما قال أهلُ المنطِق، أمْ غيرَ قَطعيٍّ؛ فعلى هذا يكونُ قَولُه سُبحانَه وتعالى: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ شامِلًا للقَطْعيِّ والظَّنِّيِّ؛ لأنَّهم ليس عندَهم لا دليلٌ قطعيٌّ ولا ظنِّيٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٨٠). ويُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٥١)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٠).

وصَلَّوا على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أمامَ كُلِّ عِلمٍ مُفادٍ، وقبْلَ كلِّ عِظةٍ وتَذكِرةٍ، وفي مُفتَتَحِ كُلِّ خُطبةٍ، وتَبِعَهم المترَسِّلون فأجْرَوا عليه أوائِلَ كُتُبِهم في الفُتوحِ والتَّهاني وغيرِ ذلك مِنَ الحوادِثِ الَّتي لها شأنٌ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أنَّه يجبُ على المرءِ ألَّا يَلتفتَ في كشْفِ السوءِ إلَّا إلى اللهِ؛ وألَّا يَتعلَّقَ بأحدٍ سِواه؛ لأنَّه لا يَكشفُ السُّوءَ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى، وتَعَلُّقُ المرءِ بغيرِه خِذلانٌ له، فمَن تَعَلَّقَ شيئًا وُكِلَ إليه، والتَّعلُّقُ بالله والتَّوكُّلُ عليه لا يُنافيه فِعلُ الأسبابِ إنْ كان المرءُ يعتقِدُ أنَّ الأسَّبابَ بتَقديرِ اللهِ، وأنَّها ليست فاعلةً بذاتِها[٢]، فالتَّوكُّلُ هو اعتِمادُ القلبِ على الرَّبِّ فيما يُنِيلُه مِن خيرٍ أو يُزيلُه مِن ضرٍّ، وتعاطي الأسبابِ مع تحقيقِ ذلك لا يَقدَحُ فيه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يَعتمِدَ على اللهِ في الهدايةِ إلى الطَّريقِ الحِسِّيِّ، كما يَعتمِدُ عليه في الهدايةِ إلى الطَّريقِ المعنويِّ، فكما أنَّك تقولُ: «ربِّ اغفرْ لي وارحَمْني واهدِني» تُريدُ الهدايةَ المعنويَّةَ، كذلك أيضًا اعتَمِدْ على ربِّك في الهدايةِ الحِسِّيَّةِ، ولا تعتَمِد أيضًا على الأسبابِ[٤]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لم يَقُلْ سبحانه: «قُلِ الحمدُ للهِ على

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٧٥).

هذا»، بل قال: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ لِيَكونَ اللهُ تبارك وتعالى محمودًا على كلِّ حالٍ، ومِن جملةِ ما يُحمَدُ عليه إهلاكُ المكذِّبينَ للرُّسلِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى له أنْ يَتمدَّحَ بنَفْسِه ويدعوَ النَّاسَ إلى ذلك، أمَّا غيرُه فليس مِن اللَّائقِ أن يقولَ للنَّاسِ: احمَدوني وأثنُوا علَيَّ! ومعلومٌ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أهلٌ لذلك، ولأنَّ المصلحةَ لنا، واللهُ تعالى لا يَنتفعُ بطاعةِ الطَّائعينَ، ولا يتضرَّرُ بمعصيةِ العاصينَ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ أنَّ الذين اصطفاهمُ اللهُ قد بَرِئوا ممَّا يُلصَقُ بهم؛ فإنَّ هذا السَّلامَ يَتضَمَّنُ سلامتَهم ممَّا وُصِفوا به وقُدِحَ فيهم به، ويتضَمَّنُ أيضًا سلامتَهم مِن عقوبةِ اللهِ؛ فالسَّلامةُ هنا شامِلةٌ للسَّلامةِ ممَّا يتعلَّقُ بفِعلِ اللهِ كالعُقوبةِ، أو بفعلِ الخلْقِ كالقَدْحِ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ حكمةُ اللهِ تعالى في تعليقِ الأحكام بأسبابِها؛ فإنَّ السَّلامةَ هنا مُعَلَّقةٌ على الاصطفاءِ، وهكذا أحكامُ اللهِ الكونيَّةُ والقَدَريَّةُ كلُّها مربوطةٌ بأسبابِها؛ وذلك لِثُبوتِ الحكمةِ في أحكامِ اللهِ؛ إذْ إنَّ اللهَ لا يَفعلُ شيئًا إلَّا لحكمةٍ(٤).

٥- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ فيه قيامُ الأفعالِ الاختياريَّةِ باللهِ سُبحانَه وتعالى؛ فإنَّ الاصطفاءَ مِن الأفعالِ، واللهُ تبارك وتعالى قائمٌ به الأفعالُ الاختياريَّةُ، فهو سبحانَه يَصطفي مِن عبادِه ما شاء، ومَن يختارُهم هم الذين قاموا بطاعتِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فمَن قام بطاعةِ اللهِ اصطفاه اللهُ، ومَن عصى اللهَ فهو بعيدٌ مِن الاصطفاءِ[١].

٦- التَّنَزُّلُ مع الخَصمِ يَرِدُ كثيرًا في الأمورِ المُتيَقَّنةِ، كقَولِه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، ومعلومٌ أنَّه لا نِسبةَ، وأنَّ اللهَ خيرٌ ممَّا يُشرِكون، ولكنَّ هذا مِن باب مُحَاجَّةِ الخَصمِ لإدحاضِ حُجَّتِه[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أنَّ مِن أساليبِ المناظرةِ إلزامَ الخَصمِ بما يُقِرُّ به؛ لأنَّ هؤلاء لا يمكِنُ أنْ يقولوا: إنَّ آلهتَهم خيرٌ أبدًا؛ ولهذا أعقبَها بقَولِه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إلى آخرِه ممَّا هو مِن أفعالِ الرُّبوبيَّةِ الَّتي لا يمكِنُ لهم أن يَدَّعوا أنَّ آلهتَهم تَفعَلُها[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أنَّ للهِ سبحانه وتعالى الخيريَّةَ المطْلَقةَ في كلِّ شَيءٍ؛ في صِفاتِه، وفي أفعالِه المتعَلِّقةِ بعابديه[٤].

٩- كثيرًا ما يكرِّرُ الله تعالى في القرآنِ نوعينِ مِن الاستدلالِ: الأولُ يسمَّى دليلَ الاختراعِ والإنشاءِ، ويتضمَّنُ أصلَ الخلقِ والإيجادِ. والثاني يسمَّى دليلَ العنايةِ والحكمةِ، ويتضمَّن الحِكمَ المشهودةَ في خلقِه، كقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣]، فذكَر خلقَ السمواتِ والأرضِ، ثمَّ ذكَر منافعَ المخلوقاتِ وحِكمَها، ونظيرُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قولُه تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ ...﴾ إلى آخر الآيات[(١)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ إلى آخرِ الآياتِ الَّتي تُختَمُ كلُّ آيةٍ منها بقولِه تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: دَلالةٌ على وجوبِ إفرادِ اللهِ سبحانه وتعالى بالأُلوهيَّةِ؛ لأنَّ الإقرارَ بالرُّبوبيَّةِ يَستلزِمُ الإقرارَ بالألوهيَّةِ ولا بُدَّ؛ فإنَّه إذا كان هو المنفرِدَ بما ذُكِر، فإنَّه المنفَرِدُ بالأُلوهيَّةِ[(٢)]. والقرآنُ مملوءٌ مِن تقريرِ توحيدِ الألوهيَّةِ وبيانِه وضربِ الأمثالِ له، ومِن ذلك أنَّه يُقرِّرُ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ، ويُبيِّنُ أنَّه لا خالقَ إلَّا اللهُ، وأنَّ ذلك مُستلزِمٌ ألَّا يُعبَدَ إلَّا اللهُ، فيجعلُ الأوَّلَ دليلًا على الثَّاني؛ إذ كانوا يُسلِّمون في الأوَّلِ ويُنازِعون في الثَّاني، فيُبيِّنُ لهم سبحانه أنَّكم إذا كنتم تَعلمون أنَّه لا خالقَ إلَّا اللهُ وحْدَه، وأنَّه هو الَّذي يأتي العِبادَ بما يَنفعُهم، ويَدفعُ عنهم ما يَضُرُّهم، لا شريكَ له في ذلك؛ فلِمَ تَعبدون غيرَه، وتجعلون معه آلهةً أخرى؟!

فقولُ الله تعالى في آخرِ كلِّ آيةٍ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: أإله مع اللهِ فعَل هذا؟ وهذا استفهامُ إنكارٍ يَتضمَّنُ نفْيَ ذلك، وهم كانوا مُقِرِّينَ بأنَّه لم يَفعلَ ذلك غيرُ الله، فاحتجَّ عليهم بأنَّ مَن فعَل لهم هذا وحْدَه فهو الإلهُ لهم وحْدَه، فإنْ كان معه رَبٌّ فعَل هذا فينبغي أن تعبدوه، وإن لم يكُنْ معه رَبٌّ فعَل هذا فكيف تجعلون معه إلهًا آخَرَ[(٣)]؟!

---

(١) ينظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٥، ٧٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم =

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ لأنَّ الباءَ للسَّبَبيَّةِ، وإثباتُ الحكمةِ؛ لأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى رَبَطَ الأسبابَ بمُسبَّباتِها شرعًا وقدَرًا، وجعَل بعضَ المخلوقاتِ سببًا لبعضٍ، وهذا مِن الحكمةِ: ألَّا تأتيَ الأمورُ على وجْهِ المُصادَفاتِ أو بدُونِ أسبابٍ تقتضيها، فإثباتُ الأسبابِ يَتضمَّنُ إثباتَ الحكمةِ[1].

١٢- قولُه تعالى: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ فيه التَّنَزُّهُ في الحدائقِ؛ والابتهاجُ بها، وأنَّ الإنسانَ لا يُلامُ على ذلك، ولا يُقالُ: هذا مِن فضولِ الأفعالِ! فإنَّ النَّفْسَ إذا لم تُمَرَّنْ على هذا وهذا فإنها تَمَلُّ وتَكِلُّ، ولا تأتي بالأمورِ على وجْهِها[2].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ أكثرَ الخلْقِ -على قولٍ في التَّفسيرِ- لا يَعلمون ما في هذه الآياتِ مِن العِبَرِ، ثم إنَّ نفْيَ العلمِ قد يكونُ نفيًا لأصْلِه وقد يكونُ نفيًا لثمرتِه وفائدتِه، والأمرُ كلُّه واقعٌ؛ فمِنَ الناسِ مَن ليس عندَه علمٌ أصلًا ولا يُفَكِّرُ في هذه الآياتِ، ويرَى أنَّها ظواهرُ طبيعيَّةٌ؛ ليس للهِ تعالى فيها أيُّ شأنٍ! ومنهم مَن يعلمُ ولكنْ لا ينتفِعُ[3].

١٤- كثيرًا ما يجمعُ اللهُ سُبحانَه في القرآنِ بيْنَ الخَلقِ والهِدايةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ الآياتِ، ثمَّ قال: ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾، وقولِه تعالى في أوَّلِ سورةٍ أنزلَها على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ

= (١/ ٤١٣، ٤١٤)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (ص: ٨٥).

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٢٣٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٩).

ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥]، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨ - ١٠]، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢، ٣]، فالخَلْقُ إعطاءُ الوُجودِ العينيِّ الخارجيِّ، والهُدى إعطاءُ الوُجودِ العِلميِّ الذِّهنيِّ؛ فهذا خَلْقُه، وهذا هُداهُ وتعليمُه(١).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أنَّ اللهَ تبارك وتعالى يُجيبُ دَعوةَ المُضْطَرِّ، وهذا دليلٌ على أنَّ رحمةَ اللهِ سَبَقَتْ غضَبَه(٢)، فكلَّما اشتدتِ الأمورُ فانتظرِ الفرَجَ مِن اللهِ سبحانه وتعالى(٣)، ولا فرقَ بينَ أنْ يكونَ المُضْطَرُّ مؤمِنًا أو كافرًا؛ يؤخَذُ ذلك مِن العمومِ وعدمِ التَّقييدِ؛ لأنَّه ما قُيِّدَ بأنَّه مُسلِمٌ، بل أُطلِقَ وعُمِّمَ(٤)، لكنَّ إجابةَ المضطرِّ المتحتمةَ مشروطةٌ بما إذا دعاه؛

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)) لابن القيم (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٧).

قال القرطبي: (ضَمِن اللهُ تعالى إجابةَ المضطرِّ إذا دعاه، وأخبَر بذلك عن نفْسِه، والسَّببُ في ذلك أنَّ الضرورةَ إليه باللجأ يَنشأُ عن الإخلاصِ، وقطْعِ القلبِ عمَّا سِواه، وللإخلاصِ عندَه سبحانه موقعٌ وذِمَّةٌ، وُجِد مِن مؤمنٍ أو كافرٍ، طائعٍ أو فاجرٍ، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فأجابهم عندَ ضرورتِهم ووُقوعِ إخلاصِهم، مع عِلمِه أنَّهم يَعودونَ إلى شِركِهم وكفرِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٣).

لقوله: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، وأمَّا إذا لم يَدْعُه فقد يُزيلُ ضرورتَه وقد لا يُزيلُها[١].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أنَّه ينبغي إقامةُ الحُجَّةِ على الخصمِ بما يَعترِفُ به؛ لأنَّ إجابةَ المضطرِّ يُقِرُّ بها هؤلاء المكذِّبونَ، فهُم إذا ركِبوا في الفُلكِ وأصابَتْهمُ الضَّرَّاءُ والأمواجُ دعَوُا اللهَ مُخلِصينَ له الدِّينَ؛ فأجاب دعاءَهم، مع أنَّه يعلمُ أنَّهم سيُشرِكونَ إذا خرجوا، وأنَّ إيمانَهم هذا إيمانُ ضرورةٍ فقط! فهُم عندَ الضرورةِ ما يَدْعُون إلَّا اللهَ، فإذا كنتم تَعرِفون أنَّكم لا تَدْعون إلَّا اللهَ عندَ الضَّرورةِ؛ فكيف تعبدون غيرَه عندَ السَّعَةِ[٢]؟!

١٧- ذَمَّ الله سبحانه الكفَّارَ وعاتَبَهم بأنَّهم في وقتِ الشَّدائدِ والأهوالِ خاصَّةً يُخْلِصونَ العبادَةَ له وحدَه، ولا يصْرِفونَ شيئًا مِن حَقِّه لمخلوقٍ، وفي وقتِ الأمنِ والعافيةِ يُشرِكونَ به غيرَه في حقوقِه الواجبةِ له وحدَه، الَّتي هي عبادَتُه وحدَه في جميعِ أنواعِ العبادَةِ، ويُعْلَمُ مِن ذلك أنَّ بعضَ جهلةِ المُتسَمِّينَ باسمِ الإسلامِ أسوأُ حالًا مِن عَبَدَةِ الأوثانِ، فإنَّهم إذا دَهَمَتْهم الشَّدائدُ، وغَشِيَتْهم الأهوالُ والكروبُ الْتَجَؤوا إلى غيرِ اللَّهِ ممَّن يعتقدونَ فيه الصَّلاحَ، في الوقتِ الَّذي يُخْلِصُ فيه الكفَّارُ العبادَةَ لِلَّهِ، معَ أنَّ اللَّهَ جلَّ وعَلا أوضحَ في غيرِ موضعٍ أنَّ إجابةَ المضطَرِّ وإنجاءَه مِن الكربِ مِن حُقوقِه الَّتي لا يُشارِكُه فيها غيرُه.

ومِن أوضحِ الأدلَّةِ في ذلك قولُه تعالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّنْ خَلَقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٩).
وأورد بعضُهم سؤالًا وهو أنَّ الآيةَ تعُمُّ كلَّ مُضْطَرٍّ؛ ومع ذلك فكم مِن مُضْطَرٍّ يدعو فلا يُجابُ. وأُجيبَ عن ذلك: بأنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ للجنسِ لا للاستغراقِ؛ ولا يَلزَمُ منه إجابةُ كلِّ مُضطرٍّ. يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٦٩). وأيضًا قد لا يُجابُ المضطرُّ لوجودِ مانعٍ، أو لحكمةٍ اقتَضَتْ ذلك.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٧).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۞ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۞ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ...﴾ الآياتِ، فتَراه جلَّ وعَلا في هذه الآياتِ الكريماتِ جَعَل إجابةَ المضطَرِّ إذا دعا، وكَشْفَ السُّوءِ عنه مِن حَقِّه الخالصِ الَّذي لا يشارِكُه فيه أحدٌ؛ كخلْقِه السَّمواتِ والأرضَ، وإنزالِه الماءَ مِن السَّماءِ، وإنباتِه به الشَّجَرَ، وجَعلِه الأرضَ قرارًا، وجعلِه خِلالَها أنهارًا، وجعلِه لها رواسِيَ، وجَعْلِه بينَ البحريْنِ حاجزًا، إلى آخَرِ ما ذَكَر في هذه الآياتِ مِنْ غرائِبِ صُنْعِه وعجائِبِه الَّتي لا يشارِكُه فيها أحدٌ؛ سبحانَه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا[(١)].

١٨- قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ في قَولِه: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ أنَّ الدُّعاءَ مِن أسبابِ رفْعِ البلاءِ، وهذا أمرٌ مُجَرَّبٌ ومُشاهَدٌ، ولا سيَّما الأدعيةُ الَّتي جاءتْ بها السُّنَّةُ؛ فإنَّها خيرٌ وبَرَكةٌ، ولها ثمرةٌ ظاهِرةٌ[(٢)].

١٩- الهدايةُ في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ تشمَلُ الهدايةَ بالأسبابِ الَّتي تَوَصَّلَ النَّاسُ إليها اليومَ؛ لأنَّ اللهَ أطلقَ الهدايةَ، فبأيِّ سببٍ كانت فهي مِن اللهِ[(٣)].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ فيه إطلاقُ الصِّفةِ على آثارِها؛ فالمطرُ ليس رَحمةَ اللهِ، ولكِنَّه أثرٌ مِن آثارِ الرَّحمةِ، واللهُ سبحانه وتعالى يُطلِقُ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٧٧).

الرَّحمةَ على ما كان مِن آثارِها؛ قال اللهُ تعالى للجنَّةِ: ((أنتِ رحمَتي، أرحَمُ بكِ مَن أشاءُ))[١].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ سؤالٌ؛ كيف قيلَ لهم: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهم مُنكِرون للإعادةِ؟!

الجوابُ: كانوا معترِفينَ بالابتِداءِ، ودَلالةُ الابتداءِ على الإعادةِ دَلالةٌ ظاهرةٌ قويَّةٌ؛ فلمَّا كان الكلامُ مقرونًا بالدَّلالةِ الظَّاهرةِ صاروا كأنَّهم لم يَبْقَ لهم عذرٌ في الإنكارِ[٢].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ كلَّ مُدَّعٍ دعوى محتاجٌ إلى تثبيتِها، وإقامةِ البرهانِ عليها[٣].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّه لا بأسَ للإنسانِ أنْ يَتدَرَّجَ مع خصْمِه؛ وأن يَتحدَّاه بما يُقِرُّ به، وهذا غايةُ الإنصافِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٧٧).

والحديث أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) مطولًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ابن القيم: (الرحمةُ المضافةُ إلى الله تعالى نوعانِ: أحدهما: مضافٌ إليه إضافةَ مفعولٍ إلى فاعله، والثاني: مضافٌ إليه إضافةَ صفةٍ إلى الموصوفِ). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٦٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٩)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٨٣).

يُشْرِكُونَ ﴾ أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنْ يَتلُوَ هذه الآياتِ النَّاطقةَ بالبراهينِ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه على كلِّ شَيءٍ وحِكمتِه، وأن يَستفتِحَ بتَحميدِه والسَّلامِ على أنبيائِه والمُصطفَينَ مِن عِبادِه. وقِيل: هو مُتَّصِلٌ بما قبْلَه؛ أُمِرَ الرَّسولُ بالحمْدِ على ما احتوَتْ عليه القِصصُ السَّابقةُ مِن نجاةِ الرُّسلِ مِن العذابِ الحالِّ بقَومِهم، وعلى ما أعْقَبَهم اللهُ على صَبرِهم مِن النَّصرِ ورفعةِ الدَّرجاتِ، وعلى أنْ أهلَكَ الأعداءَ الظَّالمينَ؛ فأُمِرَ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بحمْدِ اللهِ على ذلك باعتبارِ ما أفادَهُ سَوقُ تلك القِصصِ مِن الإيماءِ إلى وَعدِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بالنَّصرِ على أعدائِه؛ فعلى الأوَّلِ قولُهُ: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ اقتضابٌ، وهو أنْ يَقتضِبَ خُطبةً، ويَجعَلَها تحْميدةً لتلاوتِه الآياتِ النَّاطقةَ بالبراهينِ، وهي قولُه: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ الآياتِ. وعلى الثَّاني: تخلُّصٌ، أي: جعَلَ التَّحميدَ على الهالكينَ مِن كُفَّارِ الأممِ، والصَّلاةَ على الأنبياءِ وأشياعِهم ذَريعةً إلى الشُّروعِ في قصَّتِه مع مُشْركي قَومِه، وأنَّ له ولهم أُسوةً بالأنبياءِ الماضيةِ والأُمَمِ الخاليةِ[1].

- وأصلُ (سَلَامٌ): سلَّمْتُ سلامًا، مقصودٌ منه الإنشاءُ؛ فحُذِفَ الفِعلُ وأُقِيمَ مَفعولُه المطلَقُ بدلًا عنه، وعُدِلَ عن نصْبِ المفعولِ المُطلَقِ إلى تَصييرِه مبتدأً مَرفوعًا؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ والدَّوامِ[2].

- قولُه: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ استفهامٌ فيه تبْكيتٌ وتوبيخٌ وتَهكُّمٌ بحالِهم، وتَنبيهٌ على مَوضعِ التَّبايُنِ بيْنَ اللهِ تعالى وبيْنَ الأوثانِ؛ إذ معلومٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦، ٧).

عندَ مَن له عقْلٌ أنَّه لا شِركةَ في الخيريَّةِ بيْن اللهِ تعالى وبيْنَهم، وكثيرًا ما يَجيءُ هذا النَّوعُ مِن أفعلِ التَّفضيلِ حيث يُعلَمُ ويُتحَقَّقُ أنَّه لا شِركةَ فيها، وإنَّما يُذكَرُ على سبيلِ إلْزامِ الخَصمِ وتَنبيهِه على خطَأِ مُرتكَبِه. والاستفهامُ في نَحوِ هذا يَجيءُ لبَيانِ فسادِ ما عليه الخَصمُ؛ فيُستعمَلُ في الإلجاءِ وإلْزامِ المُخاطَبِ بالإقرارِ بالحقِّ، وتَنبيهِه على خَطئِه، وإلْزامِه الإقرارَ بحَصرِ التَّفضيلِ في جانبٍ واحدٍ، وانتفائِه عن الآخَرِ[(١)].

- وأيضًا قولُه: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ دليلٌ إجماليٌّ يُقصَدُ به ابتداءُ النَّظرِ في التَّحقيقِ بالإلهيَّةِ والعِبادةِ. وقد ناسَبَ إجمالَه أنَّه دليلٌ جامعٌ لِمَا يأْتي مِن التَّفاصيلِ؛ فلذلك جِيءَ فيه بالاسمِ الجامعِ لمعاني الصِّفاتِ كلِّها، وهو اسمُ الجَلالةِ، فقِيلَ: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ﴾. وجِيءَ فيما بعدُ بالاسمِ الموصولِ؛ لِمَا في صِلاتِه مِن الصِّفاتِ. وجاء ﴿خَيۡرٌ﴾ بصِيغةِ التَّفضيلِ؛ لقَصدِ مُجاراةِ مُعتقَدِهم أنَّ أصنامَهم شُركاءُ اللهِ في الإلهيَّةِ بحيثُ كان لهم حَظٌّ وافرٌ مِن الخيرِ في زَعمِهم، فعُبِّرَ بـ ﴿خَيۡرٌ﴾؛ لإيهامِ أنَّ المقامَ لإظهارِ رُجحانِ إلهيَّةِ اللهِ تعالى على أصنامِهم؛ استدراجًا لهم في التَّنبيهِ على الخطأِ، مع التَّهكُّمِ بهم؛ إذ آثَرُوا عِبادةَ الأصنامِ على عِبادةِ اللهِ. والعاقلُ لا يُؤثِرُ شيئًا على شَيءٍ إلَّا لداعٍ يدْعو إلى إيثارِه، ففي هذا الاستفهامِ عن الأفضلِ في الخيرِ: تَنبيهٌ لهم على الخطأِ المُفرِطِ والجهْلِ المُورِّطِ؛ لِتَنفتِحَ بصائرُهم إلى الحقِّ إنْ أرادوا اهتداءً. والاستفهامُ على حَقيقتِه؛ بقَرينةِ وُجودِ (أَم) المُعادِلةِ للهمزةِ؛ فإنَّ التَّهكُّمَ يُبْنى على الاستعمالِ الحقيقيِّ. وهذا الكلامُ كالمُقدِّمةِ للأدلَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣).

الآتيةِ جميعِها على هذا الدَّليلِ الإجماليِّ[(١)].

٢- قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ (أمْ) مُنقطِعةٌ بمعنى (بلْ)؛ للإضرابِ الانتقاليِّ مِن غرَضٍ إلى غرضٍ مع مُراعاةِ وُجودِ معنى الاستفهامِ أو لَفظِه بعدَها؛ لأنَّ (أَمْ) لا تُفارِقُ معنى الاستفهامِ. انتقَلَ بهذا الإضرابِ مِن الاستفهامِ الحقيقيِّ التَّهكُّميِّ إلى الاستفهامِ التَّقريريِّ، ومِن المُقدِّمةِ الإجماليَّةِ -وهي قولُه: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]- إلى الغرضِ المقصودِ، وهو الاستدلالُ؛ عدَّدَ اللهُ الخيراتِ والمنافعَ مِن آثارِ رَحمتِه ومِن آثارِ قُدرتِه؛ فهو استدلالٌ مَشوبٌ بامتنانٍ؛ لأنَّه ذكَّرَهم بخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، فشملَ ذلك كلَّ الخلائقِ التي تحْتوي عليها الأرضُ مِن النَّاسِ والعَجْماواتِ؛ فهو امتنانٌ بنِعمةِ إيجادِهم، وإيجادِ ما به قِوامُ شُؤونِهم في الحياةِ، وبسابقِ رَحمتِه، كما عدَّدَها في مَوضعٍ آخَرَ عليهم بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]، فالاستفهامُ تقريرٌ، كما دلَّ عليه قولُه في نِهايتِه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، فهو تقريرٌ لإثباتِ أنَّ الخالقَ والمُنبتَ والرَّازقَ هو اللهُ، وهو مَشوبٌ بتَوبيخٍ؛ فلذلك ذُيِّلَ بقولِه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[(٢)].

- و(أَمْ) مُنقطعةٌ وما فيها مِن كلمةِ (بَلْ) للإضرابِ والانتقالِ مِن التَّبكيتِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٠، ١١).

تَعريضًا إلى التَّصريح به خِطابًا على وجْهٍ أظهرَ منه؛ لمَزيدِ التَّأكيدِ والتَّشديدِ، هذا على قراءةِ ﴿يُشْرِكُونَ﴾. وأمَّا على قراءةِ ﴿تُشْرِكُونَ﴾ -بتاء الخطابِ[1]- فلِتَثنيةِ التَّبكيتِ وتَكريرِ الإلزامِ، كنظائرِها الآتيةِ، والهمزةُ لتَقريرِهم، أي: حمْلِهم على الإقرارِ بالحقِّ على وجْهِ الاضطرارِ؛ فإنَّه لا يَتمالَكُ أحدٌ ممَّن له أدْنى تَمييزٍ، ولا يَقدِرُ على ألَّا يَعترِفَ بخيريَّةِ مَن خلَقَ جميعَ المخلوقاتِ، وأفاضَ على كلٍّ منها ما يَليقُ به مِن منافعِه مِن أخسِّ تلك المخلوقاتِ وأدْناها، بلْ بأنْ لا خيرَ يُرى فيه بوَجهٍ مِن الوُجوهِ قطْعًا[2].

- قولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ ذكَرَ إنزالَ الماءِ؛ لأنَّه مِن جُملةِ ما خلَقَه اللهُ، ولقَطعِ شُبهةِ أنْ يقولوا: إنَّ المُنبتَ للشَّجرِ الذي فيه رِزقُنا هو الماءُ، اغترارًا بالسَّببِ؛ فبُودِروا بالتَّذكيرِ بأنَّ اللهَ خلَقَ الأسبابَ وهو خالِقُ المُسبَّباتِ بتقْديرٍ وحِكمةٍ؛ فقد يَنزِلُ الماءُ بإفراطٍ، فيَجرُفُ الزَّرعَ والشَّجرَ أو يَقتُلُهما؛ ولذلك جُمِعَ بيْن قولِه: ﴿وَأَنزَلَ﴾ وقولِه: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾؛ تَنبيهًا على إزالةِ الشُّبهةِ[3].

- قولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فيه تقديمُ صِلتَي الإنزالِ ﴿لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على مَفعولِه ﴿مَآءً﴾؛ للتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[4].

- قولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ فيه الْتفاتٌ إلى خِطابِ الكَفرةِ؛ لتَشديدِ التَّبكيتِ

---

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء ﴿تُشْرِكُونَ﴾. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٨)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣).

والإلزامِ[١]، وللتَّعريضِ بأنَّهم ما شَكَروا نِعمةَ اللهِ[٢].

- وقال: ﴿لَكُم﴾، أي: لأجْلِكم، على سبيلِ الامتنانِ، وأنَّ ذلك مِن أجْلِكم[٣].

- وقولُه: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّم بنُونِ العظمةِ؛ لتَأكيدِ اختصاصِ الفِعلِ بحُكمِ المُقابَلةِ بذاتِه تعالى، والإيذانِ بأنَّ إنباتَ تلك الحدائقِ المُختلفةِ الأصنافِ والأوصافِ، والألوانِ والطُّعومِ، والرَّوائحِ والأشكالِ -مع ما لَها مِن الحُسنِ البارعِ، والبهاءِ الرَّائعِ- بماءٍ واحدٍ: أمرٌ عظيمٌ، لا يَكادُ يَقدِرُ عليه إلَّا هو وحْدَه عزَّ وجَلَّ؛ ورشَّحَ هذا الاختصاصَ بقولِه: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾[٤]؛ فمِن لطائفِ الالتفاتِ هنا: التَّنصيصُ على أنَّ المقصودَ إسنادُ الإنباتِ إليه؛ لئلَّا يَنصرِفَ ضميرُ الغائبِ إلى الماءِ؛ لأنَّ التَّذكيرَ بالمُنبِتِ الحقيقيِّ الذي خلَقَ الأسبابَ أَلْيقُ بمَقامِ التَّوبيخِ على عَدمِ رِعايتِهم نِعَمَه[٥].

- ولَمَّا كان خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ وإنزالُ الماءِ مِن السَّماءِ، لا شُبهةَ للعاقلِ في أنَّ ذلك لا يكونُ إلَّا للهِ، وكان الإنباتُ ممَّا قد يَتسبَّبُ فيه الإنسانُ بالبَذرِ والسَّقيِ والتَّهيئةِ، ويَسوغُ لفاعلِ السَّببِ نِسبةُ فِعلِ المُسبَّبِ إليه؛ بيَّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ١٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١).

تعالى اختصاصَه بذلك بطريقِ الالتفاتِ وتأكيدِ ذلك بقولِه: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾؛ فالمُتسبِّبُ لذلك قد لا يأْتي على وَفْقِ مُرادِه، ولو أتَى فهو جاهلٌ بطبْعِه ومِقدارِه وكيفيَّتِه؛ فكيف يكونُ فاعلًا لها[1]؟!

- وفي قولِه: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ قُدِّمَ خبرُ كان ﴿لَكُمْ﴾ على الاسمِ ﴿أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾؛ للاهتمامِ بنفْيِ مِلْكِ ذلك[2].

- قولُه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ هو كالنَّتيجةِ للجُملةِ قبْلَها؛ لأنَّ إثباتَ الخلْقِ والرَّزقِ والإنعامِ للهِ تعالى بدَليلٍ لا يَسَعُهم إلَّا الإقرارُ به يَنتجُ أنَّه لا إلهَ فعَل ذلك معه. والاستفهامُ إنكاريٌّ[3]، وهو تَبكيتٌ لهم بنفْيِ الأُلوهيَّةِ عمَّا يُشْرِكونه به تعالى في ضِمْنِ النَّفيِ الكُلِّيِّ على الطَّريقةِ البُرهانيَّةِ بعدَ تَبكيتِهم بنَفْيِ الخيريَّةِ عنه بما ذُكِرَ مِن التَّرديدِ؛ فإنَّ أحدًا ممَّن له تَمييزٌ في الجُملةِ كما لا يَقدِرُ على إنكارِ انتفاءِ الخيريَّةِ عنه بالمرَّةِ، لا يَكادُ يَقدِرُ على إنكارِ انتفاءِ الأُلوهيَّةِ عنه رأسًا، لا سيَّما بعدَ مُلاحظةِ انتفاءِ أحكامِها عمَّا سِواهُ تعالى، وهكذا الحالُ في المواقعِ الأربعةِ الآتيةِ[4].

- قولُه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (بلْ) للإضرابِ عن الاستفهامِ الإنكاريِّ تُفيدُ معنى (لكنَّ) باعتبارِ ما تَضمَّنَه الإنكارُ مِن انتفاءِ أنْ يكونَ مع اللهِ إلهٌ فعَل ما ذُكِر، فكان حقُّ النَّاسِ ألَّا يُشركوا معه في الإلهيَّةِ غيرَه؛ فجيءَ بالاستدراكِ؛ لأنَ المُخاطَبينَ بقولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ وقولِه: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ لم يَنتفِعوا بالدَّليلِ مع أنَّه دليلٌ ظاهرٌ مَكشوفٌ؛ فهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١١، ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٤).

مُكابِرون في إعراضِهم عن الاهتداءِ بهذا الدَّليلِ، فهم يَعدِلون باللهِ غيرَه، أو يَعدِلون عن الحقِّ، مِن (عدَلَ) الذي يُعدَّى بـ (عن)، وأيًّا ما كان فالمقصودُ تَوبيخُهم على الإشراكِ مع وُضوحِ دَلالةِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما يَنزِلُ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ مِن الماءِ. ولَمَّا كانت تلك الدَّلالةُ أوضَحَ الدَّلالاتِ المحسوسةِ الدَّالَّةِ على انفرادِ اللهِ بالخلْقِ، وصَفَ الذين أشْرَكوا مع اللهِ غيرَه بأنَّهم في إشراكِهم مُعرِضون إعراضَ مُكابَرةٍ عُدولًا عن الحقِّ الواضحِ؛ قال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1] [لقمان: ٢٥].

- والإخبارُ عنهم بالمُضارِعِ في قولِه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾؛ لإفادةِ أنَّهم مُستمِرُّون على شِركِهم، لم يَستنيروا بدليلِ العقلِ، ولا أقْلَعوا بعدَ التَّذكيرِ بالدَّلائلِ. وفي الإخبارِ عنهم بأنَّهم ﴿قَوْمٌ﴾ إيماءٌ إلى تمكُّنِ صِفةِ العُدولِ عن الحقِّ منهم، حتَّى كأنَّها مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[2].

٣- قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ (أَمْ) للإضرابِ الانتقاليِّ، وهذا انتقالٌ مِن الاستدلالِ المَشوبِ بالامتنانِ إلى الاستدلالِ المُجرَّدِ بدلائلِ قُدرتِه وعِلْمِه؛ بأنْ خلَقَ المخلوقاتِ العظيمةَ، وبتَدبيرِه نِظامَها حتَّى لا يَطْغَى بعضُها على بعضٍ، فيَختلَّ نِظامُ الجميعِ. ولأجْلِ كونِ الغرضِ مِن هذا الاستِدلالِ إثباتَ عِظَمِ القُدرةِ وحِكمةِ الصُّنعِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢).

لم يَجِئْ خلالَه بخِطابٍ للمُشركين كما جاء في قولِه في الآيةِ قبْلَها: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النمل: ٦٠] الآيةَ، وإنْ كان هذا الصُّنعُ العجيبُ لا يَخْلو مِن لُطفٍ بالمخلوقاتِ أرادَه خالِقُها، ولكنَّ ذلك غيرُ مقصودٍ بالقَصدِ الأوَّلِ مِن سَوقِ الدَّليلِ هنا(١).

- قولُه: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ القرارُ: مَصدرُ قَرَّ: إذا ثبَتَ وسكَنَ. ووصَفَ الأرضَ به للمُبالَغةِ، أي: ذاتَ قرارٍ(٢).

- قولُه: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ وما بعْدَه مِن الجُملِ الثَّلاثِ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ و﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ و﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: الأظهرُ أنَّ كلَّ واحدةٍ منها إضرابٌ وانتقالٌ مِن التَّبكيتِ بما قبْلَها إلى التَّبكيتِ بوَجْهٍ آخَرَ أدخَلُ في الإلزامِ بجِهَةٍ مِن الجِهاتِ(٣).

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ هذا الجَعلُ كِنايةٌ عن خلْقِ البحرينِ أيضًا؛ لأنَّ الحَجزَ بيْنَهما يَقْتضي خلْقَهما، وخلْقَ المُلوحةِ والعُذوبةِ فيهما(٤).

- والجَعلُ في المواقعِ الثَّلاثةِ ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾: إبْداعيٌّ. وتأخيرُ مَفعولِه عن الظَّرفِ؛ للتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ(٥). ولَمَّا كانت كلُّ واحدةٍ منه عظيمةً مُستقِلَّةً، تَكرَّرَ فيها العاملُ في قولِه: ﴿وَجَعَلَ﴾؛ فكانت مِن عطْفِ الجُمَلِ المُستقِلِّ كلُّ واحدةٍ منها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢، ١٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٥).

بالامتنانِ، ولم يُشْرَكْ في عاملٍ واحدٍ فيكونَ مِن عطْفِ المُفرداتِ[١].

- قولُه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، وذُيِّلَ به وبالاستدراكِ بجُملةٍ مُماثلةٍ لِمَا ذُيِّلَ به الاستدلالُ الذي قبْلَها على طريقةِ التَّكريرِ؛ تَعديدًا للإنكارِ، وتَمهيدًا للتَّوبيخِ بقولِه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[٢].

- وأُوثِرَ هنا في قولِه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ نفْيُ صِفةِ العلْمِ عن أكثرِ المُشركين -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لقِلَّةِ مَن يَنظُرُ في دقائقِ هذه المصنوعاتِ وخصائصِها منهم؛ فإنَّ اعتيادَ مُشاهَدتِها مِن أوَّلِ نشأةِ النَّاظرِ يُذهِلُه عمَّا فيها مِن دَلائلِ بَديعِ الصُّنعِ، فأكثَرُ المُشركين يَجهَلُ ذلك، ولا يَهْتدي بما فيه، أمَّا المؤمنون فقد نبَّهَهم القرآنُ إلى ذلك، فهمْ يَقرَؤون آياتِه المُتكرِّرِ فيها الاستدلالُ والنَّظرُ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فيه ارتقاءُ الاستدلالِ مِن التَّذكيرِ بالتَّصرُّفِ الرَّبَّانيِّ في ذواتِ المخلوقاتِ إلى التَّذكيرِ بتَصرُّفِه في أحوالِ النَّاسِ التي لا يَخْلو عنها أحدٌ في بعضِ شُؤونِ الحياةِ؛ وذلك حالُ الاضطرارِ إلى تَحصيلِ الخيرِ، وحالُ انتيابِ السُّوءِ، وحالُ التَّصرُّفِ في الأرضِ ومَنافعِها؛ فهذه ثلاثةُ الأنواعِ لأحوالِ البشرِ؛ وهي: حالةُ الاحتياجِ، وحالةُ البُؤسِ، وحالةُ الانتفاعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣، ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ هو كلُّ ما يَسوءُ، وهو عامٌّ في كلِّ ضُرٍّ، انتقَلَ مِن حالةِ المُضطَرِّ -وهو خاصٌّ- إلى أعمَّ، وهو ما يَسوءُ، سواءٌ كان المكشوفُ عنه في حالةِ الاضطرارِ أو فِيما دُونَها[١].

- قولُه: ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: يَكشِفُ السُّوءَ عن المُستاءِ إذا دعاهُ، فحُذِفَ مِن الجُملةِ المعطوفةِ؛ لدَلالةِ ما ذُكِرَ مع الجُملةِ المعطوفِ عليها[٢].

- قولُه: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ لِمَا اقْتضَتْه الخِلافةُ مِن تَجدُّدِ الأبناءِ عقِبَ الآباءِ، والأجيالِ بعدَ الأجيالِ، وما اقْتضَتْه الاستِجابةُ وكشْفُ السُّوءِ مِن كثرةِ الدَّاعينَ والمُستائين: عُبِّر في أفعالِ الجَعلِ التي تعلَّقَت بها بصِيغةِ المُضارِعِ الدَّالِّ على التَّجدُّدِ، بخلافِ أفعالِ الجَعلِ الأربعةِ الَّتي في الآيةِ قبْلَها[٣].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، تَكريرًا لِمَا تقدَّمَ عقِبَ الأدلَّةِ السَّابقةِ؛ زِيادةً في تَعدادِ خَطئِهم[٤].

- قولُه: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ انتصَبَ ﴿قَلِيلٗا﴾ على الحالِ مِن ضَميرِ الخِطابِ في قولِه: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: فعَلَ ذلك لكم وأنتم في حالِ قِلَّةِ تَذكُّرِكم؛ فتُفيدُ الحالُ معنى التَّعجُّبِ مِن حالِهم[٥]. والقليلُ هنا مُكنًّى به عن المَعدومِ؛ لأنَّ التَّذكُّرَ المقصودَ مَعدومٌ منهم، والكِنايةُ بالقليلِ عن المعدومِ مُستعمَلةٌ في كلامِهم. وهذه الكِنايةُ تلْميحٌ وتَعريضٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥، ١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: إنْ كُنتم تَذكَّرون؛ فإنَّ تَذكُّرَكم قليلٌ[١].

- وفي تَذييلِ الكلامِ بنفْيِ التَّذكُّرِ عنهم: إيذانٌ بأنَّ مَضمونَه مَركوزٌ في ذِهنِ كلِّ ذَكِيٍّ وغبيٍّ، وأنَّه مِن الوضوحِ بحيثُ لا يَتوقَّفُ إلَّا على التَّوجُّهِ إليه وتَذَكُّرِه[٢].

- و(ما) مَزيدةٌ لتأكيدِ معنى القِلَّةِ التي أُرِيدَ بها العدَمُ، أو ما يَجْري مَجراهُ في الحقارةِ وعَدمِ الجدْوى[٣].

- وقرَأَ الجمهورُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ -معَ اختلافٍ في تخفيفِ الذالِ وتشديدِها-، وقُرِئَ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ بياءِ الغَيبةِ[٤] على الالتفاتِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ ففي قِراءةِ الجمهورِ نُكتةُ تَوجيهِ الخِطابِ إلى المشركين مُكافَحةً لهم، وفي القِراءةِ الأُخرى نُكتةُ الإعراضِ عنهم؛ لأنَّهم اسْتأْهَلوا الإعراضَ بعدَ تَذكُّرِهم[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ...﴾ (أمْ) بمعنى (بلْ)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٥).

(٤) قرأ أبو عمرو وهشام وروح ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ بياءِ الغَيبةِ، وقرأ الباقون ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦).

لإضرابِ الانتقالِ مِن نَوعِ دلائلِ التَّصرُّفِ في أحوالِ عامَّةِ النَّاسِ إلى دَلائلِ التَّصرُّفِ في أحوالِ المُسافِرينَ منهم في البَرِّ والبحرِ؛ فإنَّهم أدْرى بهذه الأحوالِ وأقدَرُ؛ لِمَا في خلالِها مِن النِّعمةِ والامتنانِ[١].

- قولُه: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ ذِكْرُ الهدايةِ في ظُلماتِ اللَّيلِ في البَرِّ والبحرِ، وإضافةُ الظُّلماتِ إلى البَرِّ والبحرِ على معنى (في). والهُدى في هذه الظُّلماتِ بسَيرِ النُّجوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]؛ فاللهُ الهادي للسَّيرِ في تلك الظُّلماتِ بأنْ خلَقَ النُّجومَ على نِظامٍ صالحٍ للهدايةِ في ذلك، وبأنْ ركَّبَ في النَّاسِ مَدارِكَ للمعرفةِ بإرصادِ سَيرِها وصُعودِها وهُبوطِها، وهَداهُم أيضًا بمَهابِّ الرِّياحِ، وخوَّلَهم مَعرفةَ اختلافِها بإحساسِ جَفافِها ورُطوبتِها، وحرارتِها وبَرْدِها؛ وبهذه المُناسَبةِ أُدمِجَ الامتنانُ بفوائدِ الرِّياحِ في إثارةِ السَّحابِ الذي به المطَرُ، وهو المَعنيُّ برَحمةِ اللهِ[٢].

- قولُه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قولُه: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تَقريرٌ وتَحقيقٌ لقولِه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في مَوقعِ الإضمارِ؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ[٣].

- وذُيِّلَ هذا الدَّليلُ بتَنزيهِ اللهِ تعالى عن إشراكِهم معه آلهةً، فقال: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّ هذا خاتمةُ الاستِدلالِ عليهم بما لا يُنازِعون في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٥).

أنَّه مَن تَصرُّفِ اللهِ؛ فجِيءَ بعْدَه بالتَّنزيهِ عن الشِّركِ كلِّه، وذلك تَصريحٌ بما أشارت إليه التَّذييلاتُ السَّابقةُ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ انتقالٌ إلى الاستدلالِ بتَصرُّفِ اللهِ تعالى بالحياةِ الأُولى والثَّانيةِ، وبإعطاءِ المَددِ لدَوامِ الحياةِ الأُولى مدَّةً مُقدَّرةً، وفيه تَذكيرٌ بنِعمةِ الإيجادِ ونِعمةِ الإمدادِ[٢].

- قولُه: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الاستفهامُ تَقريريٌّ؛ لأنَّهم لا يُنكِرون أنَّه يَبدَأُ الخلْقَ وأنَّه يَرزُقُهم. وأُدمِجَ في خلالِ الاستفهامِ قولُه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ لأنَّ تَسليمَ بَدئِه الخلْقَ يُلجِئُهم إلى فَهمِ إمكانِ إعادةِ الخلْقِ التي أحالُوها. ولَمَّا كان إعادةُ الخلْقِ مَحلَّ جَدلٍ، وكان إدْماجُها إيقاظًا وتَذكيرًا؛ أُعيدَ الاستفهامُ في الجُملةِ التي عُطِفَت عليه بقولِه: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولأنَّ الرِّزقَ مُقارِنٌ لبَدءِ الخلْقِ، فلو عُطِفَ على إعادةِ الخلْقِ لَتُوهِّمَ أنَّه يَرزُقُ الخلْقَ بعدَ الإعادةِ، فيَحسَبوا أنَّ رزقَهم في الدُّنيا مِن نِعَمِ آلهتِهم! وإذ قد كانوا مُنكرِين للبعثِ؛ ذُيِّلَت الآيةُ بأمْرِ التَّعجيزِ بالإتيانِ ببُرهانٍ على عَدمِ البعْثِ[٣].

- قولُه: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أمْرٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بتَبْكيتِهم إثرَ تَبكيتٍ، وفي إضافةِ البُرهانِ إلى ضَميرِهم تَهكُّمٌ بهم؛ لِمَا فيه مِن إيهامِ أنَّ لهم بُرهانًا، وأنَّى لهُم ذلكَ[٤]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧، ١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٦).

- وفي قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلى قولِه هنا: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ فيما خُتِمَت به هذه الآياتُ بعْدَ قولِه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؛ حيث ناسَبَ ختْمُ كلٍّ استفهامٍ بما تَقدَّمَه؛ فلمَّا ذكَرَ إيجادَ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ، وما امتَنَّ به مِن إنزالِ المطرِ وإنباتِ الحدائقِ، اقْتَضى ذلك ألَّا يُعبَدَ إلَّا مُوجِدُ العالَمِ، والمُمتَنُّ بما به قِوامُ الحياةِ؛ فختَمَ بقولِه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، أي: عن عِبادتِه، أو يَعدِلون به غيرَه ممَّا هو مَخلوقٌ مُختَرَعٌ. ولَمَّا ذكَرَ جَعْلَ الأرضِ مُستقَرًّا، وتَفجيرَ الأنهارِ، وإرساءَ الجِبالِ، وكان ذلك تنْبيهًا على تَعقُّلِ ذلك والفِكرِ فيه؛ ختَمَ بقولِه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ إذ كان فيهم مَن يَعلَمُ ويفُكِّرُ في ذلك. ولَمَّا ذكَرَ إجابةَ دُعاءِ المُضطرِّ، وكشْفَ السُّوءِ، واستخلافَهم في الأرضِ؛ ناسَبَ أنْ يَستحضِرَ الإنسانُ دائمًا هذه المِنَّةَ، فختَمَ بقولِه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ إشارةً إلى تَوالي النِّسيانِ إذا صار في خيرٍ، وزالَ اضطرارُه، وكُشِفَ السُّوءُ عنه. ولَمَّا ذكَرَ الهِدايةَ في الظُّلماتِ، وإرسالَ الرِّياحِ بُشرًا، ومَعبوداتُهم لا تَهدِي ولا تُرسِلُ، وهم يُشرِكون بها اللهَ، قال: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، واعتقَبَ كلَّ واحدةٍ مِن هذه الجُمَلِ قولُه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، على سبيلِ التَّوكيدِ والتَّقريرِ أنَّه لا إلهَ إلَّا هو تعالى[1].

- وجِماعُ ما تقدَّمَ في هذه الآياتِ مِن قولِه: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٤]:

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) (١/ ٩٧٩- ٩٨٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٥٠- ٥٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٠).

أنَّها أجْمَلَتِ الاستِدلالَ على أحقِّيَّةِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ وحْدَه، ثمَّ فصَّلَت ذلك بآياتِ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ فابتَدأَتْ بدليلٍ قريبٍ مِن بُرهانِ المُشاهَدةِ، وهو خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ وما يأْتي منهما مِن خيرٍ للنَّاسِ. ودليلِ كيفيَّةِ خلْقِ الكُرةِ الأرضيَّةِ وما على وَجْهِها منها، وهذا مُلحَقٌ بالمُشاهَداتِ. وانتقَلَتْ إلى استدلالٍ مِن قَبيلِ الأصولِ الموضوعةِ؛ وهو ما تَمالَأَ عليه النَّاسُ مِن اللَّجَأِ إلى اللهِ تعالى عندَ الاضطرارِ. وانتقَلَتْ إلى الاستدلالِ عليهم بما مكَّنَهم مِن التَّصرُّفِ في الأرضِ؛ إذ جعَلَ البشرَ خُلفاءَ في الأرضِ، وسخَّرَ لهم التَّصرُّفَ بوُجوهِ التَّصاريفِ المُعينةِ على هذه الخلافةِ، وهي تكوينُ هِدايتِهم في البَرِّ والبحرِ؛ وذلك جامعٌ لأصولِ تَصرُّفاتِ الخلافةِ المذكورةِ في الارتحالِ والتِّجارةِ والغزْوِ. وختَمَ ذلك بكلمةٍ جامعةٍ لِنِعمتَيِ الإيجادِ والإمدادِ، وفي مَطاويها جوامعُ التَّمكُّنِ في الأرضِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨، ١٩).

الآيات (٦٥-٧٠)

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱدَّٰرَكَ﴾: أي: تكامَلَ وتدارَكَ واستحكَمَ، وأصلُ (درك): يدُلُّ على لُحوقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ، ووُصولِه إليه[١].

﴿عَمُونَ﴾: أي: جاهِلونَ، جمعُ عَمٍ، وهو صفةٌ على وزنِ فَعِلٍ مِن العمَى، والعَمى يُقالُ في افتقادِ البصَرِ والبصيرةِ، وأصلُ (عمي): يدُلُّ على سَترٍ وتغطيةٍ[٢].

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: الأساطيرُ: الأباطيلُ والتُّرَّهاتُ، جمعُ أُسْطورَةٍ، وهي: ما سُطِر مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكذبِهم، وقيل: ما سطَره الأوَّلونَ مِن الكتبِ، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٨).
وادَّارك: أصلُه تدارَك، فأُدغمَتِ التَّاءُ في الدَّالِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٣٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾

﴿مَن﴾: فاعِلُ ﴿يَعۡلَمُ﴾، و ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾: مَفعولُه، و ﴿ٱللَّهُۚ﴾: بدَلٌ مِن ﴿مَن﴾، ومعناه: لا يعلم أحدٌ. وهو استثناءٌ متَّصِلٌ على رأي المحقِّقينَ، واقِعٌ من كلام منفيٍّ؛ فلذلك جاء اسمُ الجلالةِ مرفوعًا على اللُّغةِ الفصحى، ولو كان الاستثناءُ مُنقطِعًا لكانت اللُّغةُ الفصحى بنصبِ المستثنَى. وقيل: الاستثناءَ في ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ استِثناء منقطعٌ جاء على لغةِ تميمٍ فرُفِعَ[1].

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٢٧)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٠٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩٣).

قال ابن القيم: (﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هاهنا أبلَغُ صيغ العموم، وليس المرادُ بها مُعَيَّنًا، فهي في قوَّةِ «أحد» المنفيِّ بقولِك: «لا يعلَمُ أحدٌ الغيبَ إلَّا اللهُ»، وأتى في هذا بذِكرِ السَّمواتِ والأرضِ؛ تحقيقًا لإرادة العمومِ والإحاطةِ، فالكلامُ مؤدٍّ معنَى: «لا يَعلَمُ أحدٌ الغَيبَ إلَّا الله». وإنَّما نشأ الوهمُ مِن ظنِّهم أنَّ الظَّرفَ هاهنا للتَّخصيصِ والتَّقييدِ، وليس كذلك، بل هو لتحقيقِ الاستغراقِ والإحاطةِ ... فهكذا قولُه: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لتحقيقِ الاستِغراقِ المقصودِ بالنَّفيِ). ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٣).

وقال ابن تيمية: (ولا يجوزُ أن يقالَ: هذا استثناءٌ منقطِعٌ؛ لأنَّ المستثنى مرفوعٌ، ولو كان منقطِعًا لكان منصوبًا. والمرفوعُ على البدَلِ، والعاملُ فيه هو العاملُ في المبدَلِ منه، وهو بمنزلةِ المفرَّغ، كأنَّه قال: «لا يَعْلَمُ الغَيبَ إلَّا اللهُ»، فيلزمُ أنَّه داخلٌ في ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾... ولفظ «السَّمَاءِ» يَتناوَلُ كلَّ ما سما، ويدخُلُ فيه السَّمواتُ والكرسِيُّ والعرشُ وما فوقَ ذلك؛ لأنَّ هذا في جانبِ النَّفْيِ، وهو لم يقُلْ هنا: «السَّمَوَات السَّبْع»، بل عمَّ بلفظِ « السَّمواتِ». وإذا كان لفظُ «السَّماءِ» قد يُرادُ به السَّحابُ، ويُرادُ به الفُلكُ، ويرادُ به ما فوقَ العالَمِ، ويُرادُ به العلُوُّ مطلقًا؛ =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى -آمِرًا رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ معلِّمًا لجميع الخلقِ-: قُلْ -يا محمَّدُ: لا يَعلَمُ أحدٌ في السَّمواتِ وفي الأرضِ الغيبَ إلَّا اللهُ وحْدَه، وما يَدرُونَ متى يَبعثُ اللهُ الخلْقَ، بل تكامَلَ عِلمُهم يومَ القيامةِ وعَلِموا حقَّ ما وُعِدوا به في الدُّنيا، بل المُشرِكون في الدُّنيا في شكٍّ مِن وقوعِ القيامةِ ومَجيئِها، بل هم في الدُّنيا بأمرِ الآخرةِ وحُدوثِها جاهِلون.

ثمَّ يَذكرُ الله تعالى ما كان عليه المشركونَ مِن إنكارٍ للبعثِ، فيقولُ تعالى: وقال الكُفَّارُ: أئِذا صِرْنا وآباؤُنا ترابًا في القبورِ أئِنَّا لمُخرَجون يومَ القيامةِ أحياءً؟!

لقد وُعِدْنا وأسلافُنا بالبَعثِ بعْدَ الموتِ ولم يقَعْ شَيءٌ مِن ذلك، ما هذا الوعدُ إلَّا أحاديثُ باطِلةٌ سطَّرها الأقدَمون في كتُبِهم!

ثمَّ يوجِّهُ اللهُ تعالى نبيَّه أنْ يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: سِيروا في الأرضِ فانظُروا عاقِبةَ الكُفَّارِ الَّذين كذَّبوا فأهلَكَهم اللهُ؛ لعلَّكم تَعتَبِرون. ولا تَحزَنْ -يا محمَّدُ- على هؤلاء المُشرِكين، ولا يَضِقْ صدرُك بسبَبِ مَكرِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أبطلَتِ الآياتُ السَّابقةُ إلهيَّةَ أصنامِ المشركين بالأدلَّةِ المتظاهِرةِ، فانقطعَ دابرُ عقيدةِ الإشراكِ؛ ثُنِيَ عِنَانُ الإبطالِ إلى أثَرٍ مِن آثارِ الشِّركِ، وهو ادِّعاءُ

= فـ «السَّمواتُ» جمعُ «سماءٍ»، وكلُّ مَن فيما يُسمَّى «سَماءً»، وكلُّ مَن فيما يُسمَّى «أرضًا»). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١٠٩).

عِلمِ الغَيبِ بالكَهانةِ وإخبارِ الجِنِّ، كما كان يَزعمُه الكُهَّانُ والعَرَّافون وسَدَنةُ الأصنام، ويؤمِنُ بذلك المشركون[١].

وأيضًا بعْدَما حقَّقَ تَفرُّدَه تعالى بالأُلوهيَّةِ ببَيانِ اختِصاصِه بالقُدرةِ الكاملةِ التَّامَّةِ، والرَّحمةِ الشَّاملةِ العامَّةِ؛ عقَّبَه بذِكْرِ ما هو مِن لَوازِمِه، وهو اختِصاصُه بعِلمِ الغَيبِ؛ تَكميلًا لِمَا قبْلَه، وتَمهيدًا لِمَا بعْدَه[٢].

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ: لا يَعلَمُ أحدٌ في السَّمواتِ وفي الأرضِ الغيبَ الذي استأثَرَ اللهُ بعِلمِه، إلَّا اللهُ وحْدَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (مَنْ زعَمَ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يُخبِرُ بما يكونُ في غدٍ فقد أعظَمَ على اللهِ الفِرْيةَ، واللهُ يقولُ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾)[٤].

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾.

أي: وما يدري أحدٌ متى يَبعثُ اللهُ الخلْقَ مِن قبورِهم يومَ القيامةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٤) رواه مسلم (١٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن =

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦ ﴾.

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿أَدْرَكَ﴾ قيل: معنى الآيةِ على هذه القراءةِ: بل أدرَك عِلمُهم البعثَ في الآخرةِ حينَ يُبعَثُون، فلا يَنفعُهم عِلمُهم حينَئذٍ، فأمَّا في الدُّنيا فإنَّهم في شكٍّ مِن الآخرةِ. وقيل: المعنى: هل أدرَك عِلمُهم عِلمَ الآخرةِ؟ أي: لم يَعْلَموا حدوثَها وكَوْنَها. وقيل: المعنى: انتهَى وفنيَ. وقيل غيرُ ذلك[(١)].

٢- قراءةُ ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾: ومعنَى الآيةِ على هذه القراءةِ: بل تكامَل عِلمُهم يومَ القيامةِ بأنَّ كلَّ ما وُعِدوا به حقٌّ. وقيل: المعنى: بل تدارَكَ ظَنُّهم وحَدْسُهم في الحُكمِ على الآخرةِ؛ فتارةً يقولونَ: إنَّها كائنةٌ، وتارةً يقولونَ: لا تكونُ. وقيل: القراءتانِ بمعنًى واحدٍ. وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾.

أي: بل تكامَلَ عِلمُهم يومَ القيامةِ بأنَّ كُلَّ ما وُعِدوا به في الدُّنيا حَقٌّ واقِعٌ[(٣)].

= كثير)) (٦/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٩٤).

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٢٧)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٢). =

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَا﴾.

أي: بل المُشرِكون في الدُّنيا في شكٍّ مِن وجودِ الآخرةِ ووُقوعِ القيامةِ، فهُم لا يُوقِنونَ بالبَعثِ بعدَ الموتِ[1].

﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾.

أي: بل هم في الدُّنيا جاهِلون جَهلًا تامًّا بأمرِ الآخرةِ ووقوعِها، وما يكونُ فيها مِنَ الحِسابِ والجَزاءِ[2].

= وممَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: بل تكامَلَ عِلمُ المشركين يومَ القيامةِ حينَ عايَنوها بأنَّ كلَّ ما وُعِدوا به في الدُّنيا حقٌّ وواقعٌ في الآخرة: مقاتلُ بن سليمان، والزَّجَّاج، والأزهري، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

ذكر الماوَرْديُّ الخِلافَ في قولِه: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وأنَّ فيه قولَين:

الأول: أنَّها صِفةُ ذمٍّ، فيكون المعنى: اضمحلَّ عِلمُهم، أو ضَلَّ وغابَ، أو لم يُدرِكْ عِلمُهم.

والثاني: أنَّها صفةُ حمدٍ لعِلمِهم، وإنْ كانوا مذمومينَ، فيكون المعنى على ذلك: أدرَكَ عِلمُهم، أو اجتَمع عِلمُهم، أو تلاحَقَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٢٤).

فعلى القولِ الأوَّلِ يكونُ المعنى: بل تَتابَعَ عِلمُ هؤلاء المشركين بشؤونِ البعثِ حتَّى اضمحَلَّ وفنيَ، ولم يَبْقَ لهم عِلمٌ بشَيءٍ ممَّا سيكونُ فيها قطعًا مع توافُرِ أسبابِه ومَباديه مِنَ الدَّلائلِ، وتكونُ (في) بمعنى الباءِ.

وعلى القولِ الثَّاني يكونُ المعنى: بل تكامَلَ عِلمُهم بشؤونِ الآخرةِ، حينَ يُعاينون ما أُعِدَّ لهم فيها مِن عذابٍ، بعدَ أن كانوا يُنكِرون البعثَ والحسابَ في الدُّنيا. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٢٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ٣٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١١)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

قال أبو علي الفارسي: (العَمِي عن عِلمِ الشَّيءِ أبعَدُ منه مِن الشَّاكِّ فيه؛ لأنَّ الشَّكَّ قد يَعرِضُ عن ضربٍ مِن النَّظَرِ، والعَمِي عن الشَّيءِ: الَّذي لم يُدرِكْ منه شيئًا). ((الحجة للقراء السبعة)) (٥/ ٤٠١).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقدَّمَ أنَّ الله تعالى مُنفَرِدٌ بعِلمِ الغَيبِ -ومِن جملتِها وقتُ السَّاعةِ، وأنَّهم لا شعورَ لهم بوقتِها، وأنَّ الكفَّارَ في شكٍّ منها عَمُونَ- ناسبَ ذِكرُ مقالاتِهم في استبعادِها[1]!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ ﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ: أئذا صِرْنا وآباؤنا ترابًا في القُبورِ أئنَّا لَمُخرَجونَ يومَ القيامةِ أحياءً بعدَ مَوتِنا؟! هذا شَيءٌ لا يكونُ أبدًا[2].

﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ ﴾.

﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ ﴾.

أي: قال المُشرِكون: لقد جاءَنا مِنْ قبْلِ محمَّدٍ مَن وَعَدنا وأسلافَنا بالبَعثِ كما وعَدَنا محمَّدٌ، ولم نَرَ لذلك حقيقةً[3]!

﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾.

أي: ما هذا الوَعدُ بالبَعثِ بعدَ الموتِ إلَّا أحاديثُ باطِلةٌ، وحِكاياتٌ مُختلَقةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

قال القرطبي: (كان الأنبياءُ يقرِّبون أمرَ البَعثِ مُبالَغةً في التَّحذيرِ، وكُلُّ ما هو آتٍ فقريبٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٩).

سطَّرها الأقدَمون في كتُبِهم، وتلقَّفها مَن بعْدَهم، ولا صحَّة لذلك[١].

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: سافِروا في الأرضِ فانظُروا آثارَ الكُفَّارِ الَّذين كذَّبوا رُسلَ اللهِ، فأهلَكَهم اللهُ في آخِرِ أمرِهم؛ لِتَعتَبِروا وتَحذَروا أن يصيبَكم ما أصابَهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١٠، ١١].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا دَهَم النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِنَ الأسفِ على جلافتِهم في عَماهم عن السَّبيلِ الَّذي هدَى إليه الدَّليلُ، ما لا يعْلَمُه إلَّا اللهُ؛ قال[٣]:

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ولا تحزَنْ -يا محمَّدُ- على هؤلاء المُشرِكين، وإعراضِهم عنك، وتكذيبِهم بما جِئتَهم به مِن الحَقِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾ [يونس: ٦٥].

﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانوا لا يَقتَصِرون على التَّكذيبِ، بل يَبْغون للمؤمنينَ الغوائِلَ، ويَنصِبون الحبائِلَ؛ قال[1]:

﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾.

أي: ولا يَضِقْ صدرُك -يا محمَّدُ- بسبَبِ مَكرِ الكافرين بك؛ فإنَّ مكرَهم يعودُ وَبالًا عليهم، واللهُ حافِظُك، وناصِرُك عليهم، ومُظهِرٌ دينَك[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فيه أنَّ السَّائِرَ في الأرضِ يجبُ عليه أنْ يكونَ سيْرُه على سبيلِ التفكُّرِ والاتِّعاظِ، لا سيَّما إذا كان هذا المخاطَبُ مُعانِدًا؛ لأنَّ الآيةَ هنا ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يُخاطِبُ المعانِدين الجاحِدين؛ فإنه يجِبُ عليه أنْ يسيرَ وينظُرَ؛ لأنَّ هذا طريقٌ

= كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

إلى هدايتِه[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ هذا الأمرُ يكونُ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ولِغَيرِه؛ فكُلُّ مَن يدعو إلى شَريعةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فإنَّنا نوجِّهُ إليه هذا الخِطابَ، ونقولُ: إذا رأيتَ النَّاسَ لم يقبلوا فلا تحزَنْ، ولا تكُنْ في ضَيقٍ مِمَّا يَمكُرونَ، وإلَّا فإنَّ أعداءَ الرُّسلِ سوف يَمكُرونَ بالدُّعاةِ إلى دينِ الرُّسلِ، يَبُثُّونَ ضِدَّهم الدِّعاياتِ، وسوف يُؤْذونَهم بالقَولِ، ويُسمِعونَهم ما يَكرَهون، ورُبَّما يُؤذونَهم بالفِعلِ، والإنسانُ عليه أن يَصبِرَ.

فالدَّاعي إلى اللهِ إذا بَذَل ما يجبُ عليه، فلا ينبغي أنْ يَحزَنَ لمخالفةِ الناسِ؛ لأنَّه إذا حَزِنَ فإنَّه يَيأسُ ويَستحسِرُ، ولا يَنشرِحُ صدرُه، ولا تَنبسِطُ نفْسُه، ويَعوقُه ذلك عن الدَّعوةِ إلى اللهِ، لكنْ على الدَّاعي أن يدعوَ إلى الله، ويسيرَ في طريقِه على حسَبِ ما أُمِر، فإنِ اهتدى النَّاسُ فلَه ولهم، وإنْ لم يَهتدوا فلَه وعليهم[٢].

٣- الحُزنُ لم يَأمرِ اللهُ به ولا رَسولُه، بل قد نُهِيَ عنه في مواضِعَ -وإن تَعلَّق أمرُ الدِّينِ به- كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، وكقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]؛ وذلك أنَّه لا يَجلِبُ منفعةً، ولا يَدفَعُ مَضرَّةً، ولا فائدةَ فيه، وما لا فائدةَ فيه لا يأمرُ اللهُ به[٣]. ولم يأتِ الحزنُ في القرآنِ إلَّا منهيًّا عنه، أو مَنفيًّا؛ فالمنهيُّ عنه كما في الآيتَينِ السَّابقتَينِ، والمنفيُّ كقولِه تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. وسِرُّ ذلك أنَّ الحزنَ مُوقِفٌ غيرُ مسَيِّرٍ، ولا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((التحفة العراقية)) لابن تيمية (ص: ٤٢).

مصلحةَ فيه للقلبِ، وأحَبُّ شَيءٍ إلى الشَّيطانِ أن يَحزُنَ العبدَ لِيَقطعَه عن سَيرِه، ويوقِفَه عن سلوكِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ دَلالةٌ على أنَّه تعالى هو المنفرِدُ بعِلمِ الغَيبِ[٢]، فكلُّ إنسانٍ يدَّعي عِلْمَ الغيبِ فإنَّه كافرٌ، وكلُّ إنسانٍ يُصدِّقُه في ذلك فإنَّه كافرٌ؛ لأنَّ الله تعالى يقولُ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾[٣].

٢- قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ هذا هو الغيبُ المُطْلَقُ عن جميعِ المخلوقينَ الَّذي اللهُ قال فيه: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾. والغيبُ المُقَيَّدُ: ما عَلِمه بعضُ المخلوقاتِ مِن الملائكةِ أو الجنِّ أو الإنسِ وشَهِدوه، فإنَّما هو غيبٌ عمَّن غاب عنه، ليس هو غيبًا عمَّن شهِده. والناسُ كلُّهم قد يَغيبُ عن هذا ما يَشهَدُه هذا، فيكونُ غيبًا مقيَّدًا، أي: غيبًا عمَّن غاب عنه مِن المخلوقينَ، لا عمَّن شَهِده، ليس غيبًا مُطْلَقًا غاب عن المخلوقينَ قاطبةً[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ الذي لا يريدُ الحقَّ يكونُ له -باعتبارِ قَبولِه- مراتِبُ بعضُها أشدُّ مِن بعضٍ، أي: أنَّه ينتَقِلُ مِن الأدنَى إلى الأعلَى؛ ولهذا قال أهلُ العِلمِ: إنَّ المعاصيَ بريدُ الكُفرِ، أي: أنَّه ينتَقِلُ بها الإنسانُ مِن مرحلةٍ إلى مرحلةٍ كما ينتَقِلُ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠٠، ٥٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٠).
(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٩٩).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١١٠).

البريدُ، فالإنسانُ إذا فعَلَ مَعصيةً -سواءٌ كانت اعتقاديَّةً أو عمليَّةً- فإنَّ الشيطانَ يتدرَّجُ به مِن الأدنَى إلى الأعلَى حتَّى يَصِلَ -والعياذُ بالله- إلى الكُفرِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ تلبيسُ أهلِ الضَّلالِ للحقِّ بالباطلِ؛ لأنَّهم أنكَروا البعثَ، واحتجُّوا بشُبهةٍ لا تُغْنيهم مِن الحقِّ شيئًا، حيثُ يقولون: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ نُخرَجُ؟! فهذه الشُّبهةُ إنَّما تَنطَلي على الجُهَّالِ، أمَّا على أهلِ العلمِ والبصيرةِ فلا تنطَلي[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أنَّ العِبرةَ بالعاقبةِ لا بالمبتدأ؛ لقَولِه: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾، فإذا رأيتَ هذا المجرمَ قد نُعِّمَ فلا تَظُنَّ أنَّه على حقٍّ، بلِ المعتبَرُ العاقِبةُ، وستكونُ عاقبتُه وَخيمةً[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ سؤالٌ: لِمَ لَمْ يقُلْ: «كيف كانت عاقبةُ المجرمين»؟

الجوابُ: لأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقيٍّ، ولأنَّ المعنى: كيف كان آخِرُ أمْرِهم[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ سؤالٌ: لِمَ لَمْ يقلْ: «عاقبةُ الكافرين»؟ الجوابُ: الغرضُ أنْ يَحصلَ التَّخويفُ لكلِّ العُصاةِ[٥].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ فيه عنايةُ اللهِ تعالى بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بالتَّسليةِ والتَّفريجِ عنه؛ وجْهُ ذلك: أنَّ نهيَه عن أنْ يكونَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٦٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ضَيْقٍ معناه: أنَّ مَكرَهم لا يَضُرُّه، وإنْ ضاقت به نفْسُه؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ﴾ أي: لا يهمَّك أمْرُهم، ولا تَضِقْ منه؛ فإنَّ لَدَيْنا ما هو أعظمُ؛ قال تعالى: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾[1] [الأنفال: ٣٠].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾

- أبطلَتْ هذه الآيةُ مَزاعمَ مُشركي قُريشٍ إبطالًا عامًّا، مِعيارُه الاستثناءُ بقولِه: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهو عامٌّ مُرادٌ به الخُصوصُ، أي: خصوصُ الكُهَّانِ وسَدنةِ بُيوتِ الأصنامِ؛ وإنَّما سُلِكَ مَسلكُ العمومِ لإبطالِ ما عسَى أنْ يُزعَمَ مِن ذلك، ولأنَّ العمومَ أكثرُ فائدةً وأوجَزُ؛ فإنَّ ذلك حالُ أهلِ الشِّركِ مِن بيْنِ مَن في السَّمواتِ والأرضِ؛ فالقصدُ هنا تَزييفُ آثارِ الشِّركِ، وهو الكِهانةُ ونَحوُها. وإذ قد كانت المخلوقاتُ لا يَعْدُون أنْ يَكونوا مِن أهلِ السَّمواتِ أو مِن أهلِ الأرضِ -لانحصارِ عوالِمِ الموجوداتِ في ذلك-؛ كان قولُه: ﴿لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ﴾ في قوَّةِ: لا يَعلَمُ أحدٌ الغيبَ، ولكنْ أُطنِبَ الكلامُ؛ لقَصدِ التَّنصيصِ على تَعميمِ المخلوقاتِ كلِّها؛ فإنَّ مَقامَ عِلمِ العقيدةِ مَقامُ بَيانٍ يُناسِبُه الإطنابُ[2].

- وهو سُبحانَه قال: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن﴾، ولم يقُلْ: «ما»؛ فإنَّه لَمَّا اجتمَع ما يَعقِلُ وما لا يَعقِلُ، غُلِّب ما يَعقِلُ، وعُبِّر عنه بـ «مَن»؛ لِتكونَ أبلَغَ؛ فإنَّهم مع كَونِهم مِن أهلِ العِلمِ والمعرفةِ لا يَعلَمُ أحدٌ منهم الغَيبَ إلَّا اللهُ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١١٠).

- قولُه: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ لَمَّا نَفى عِلمَ الغَيبِ عنهم على العموم، نَفى عنهم هذا الغيبَ المخصوصَ، وهو وقتُ السَّاعةِ والبعثِ، فصار مُنتفِيًا مرَّتينِ؛ إذ هو مُندرِجٌ في عمومِ الغَيبِ، ومَنصوصٌ عليه بخُصوصِه[١].

- وأيضًا أردَفَ هذا الخبرَ بإدماجِ انتفاءِ عِلْمِ هؤلاء الزَّاعمينَ عِلْمَ الغَيبِ أنَّهم لا يَشعُرون بوَقتِ بَعثِهم، بلْ جَحَدوا وُقوعَه؛ إثارةً للتَّذكيرِ بالبعثِ؛ لشِدَّةِ عِنايةِ القرآنِ بإثباتِه وتَسفيهِ الذين أنْكَروه؛ فذلك مَوقعُ قولِه: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، أي: إنَّ الذين يَزعُمون عِلْمَ الغيبِ ما يَشعُرون بوَقتِ بَعثِهم، وهذا تَعييرٌ للمُشرِكين؛ فإنَّهم لا يُؤمِنون بالبعثِ، بَلْهَ شُعورِهم بوَقتِه[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾

- (بَلْ) للإضرابِ الانتقاليِّ مِن الإخبارِ عنهم بـ(مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)، وهو ارتقاءٌ إلى ما هو أغرَبُ وأشدُّ؛ لَمَّا نفَى عنهم عِلْمَ الغيبِ، وأكَّدَ ذلكَ بنَفْيِ شُعورِهم بوَقْتِ مآلِهم لا مَحالةَ؛ بُولِغَ في تأْكيدِه وتَقريرِه بأنْ أضرَبَ عنْه، فقال: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ...﴾، وبيَّن أنَّهم في جَهلٍ أفحَشَ مِن جَهلِهم بوقْتِ بَعْثِهم، حيثُ لا يَعلَمونَ أحوالَ الآخرةِ مُطلقًا، مع تعاضُدِ أسبابِ مَعرِفتِها، وهذا على أنَّ معنى ﴿ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: تَدارَكَ وتتابَعَ عِلْمُهم في شأنِ الآخرةِ التي ما ذُكِرَ مِن البعثِ حالٌ مِن أحوالِها حتَّى انقطَعَ، ولم يَبْقَ لهم عِلمٌ بشَيءٍ ممَّا سيَكونُ فيها قطْعًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠).

- وقيل: الإضرابُ في قولِه: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ ...﴾ إضرابٌ عن نفْيِ الشُّعورِ بوقْتِ القيامةِ عنهم إلى وَصْفِهم باستحكامِ عِلمِهم في أمْرِ الآخرةِ؛ تَهكُّمًا بهم، فيكونُ وصْفًا لهُم بالجهْلِ مُبالَغةً[1].

- وهذه الإضراباتُ الثَّلاثُ ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾ ما هي إلَّا تَنزيلٌ لأحوالِهم؛ وَصَفَهم أوَّلًا بأنَّهم لا يَشعُرون وقْتَ البعثِ، ثمَّ بأنَّهم اضْطَرَبَ عِلمُهم في الآخرةِ، أو تَقلَّدَ خَلَفُهم ما لَقَّنَه سَلَفُهم، أو أنَّهم انْتَفى عِلْمُهم في الآخرةِ -على بعضِ الأقوالِ في التَّفسيرِ-، ثمَّ بأنَّهم يَخبِطون في شَكٍّ ومِرْيةٍ، فلا يُزيلونه، والإزالةُ مُستطاعةٌ! ثمَّ بما هو أسْوَأُ حالًا، وهو العَمَى، وأنْ يكونوا مِثلَ البَهيمةِ قد عَكَفوا هَمَّهمْ على بَطْنِهم وفُروجِهم، لا يَخطُرُ ببالِهم حقًّا ولا باطلًا، ولا يُفكِّرون في عاقبةٍ؛ فجاءتْ هذه الانتقالاتُ مُتدرِّجةً مُتصاعِدةً، حتَّى لو قِيل: (بلِ ادَّاركَ عِلْمُهم في الآخرةِ، فهمْ في شَكٍّ منها، فهمْ منها عَمُون) لَحصَلَ المرادُ، ولكنْ جاءت طريقةُ التَّدرُّجِ بالإضرابِ الانتقاليِّ أجزَلَ وأبهَجَ وأروَعَ، وأدلَّ على أنَّ كلًّا مِن هذه الأحوالِ المُترتِّبةِ جَديرٌ بأنْ يَعتبِرَ فيه المُعتبِرُ باستقلالِه، لا بكونِه مُتفرِّعًا على ما قبْلَه[2].

- قولُه: ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾ جِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ الخبرِ ودَوامِه، وجِيءَ بالظَّرفيةِ (مِن)؛ للدَّلالةِ على إحاطةِ الشَّكِّ بهم. و﴿عَمُونَ ﴾ مِن العَمى، صاغوا -أي: العَربُ- له مِثالَ المُبالَغةِ؛ للدَّلالةِ

(١) يُنظَر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢، ٢٣).

على شِدَّةِ العمَى، وهو تَشبيهُ عَدَمِ العلْمِ بالعَمى، وعادِمِ العلْمِ بالأعْمى[١].

- قولُه: ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ في الكلامِ مُضافٌ مَحذوفٌ، تَقديرُه: مِن إنكارِ وُجودِها عَمُونَ؛ فالمَجرورُ مُتعلِّقٌ بـ﴿عَمُونَ﴾. وقُدِّمَ على مُتعلَّقِه؛ للاهتمامِ بهذا المُتعلِّقِ، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[٢].

- قولُه: ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ جعَلَ الآخرةَ مَبدَأَ عَماهُم ومَنشَأَه -على أنَّ معنى «من» في ﴿مِّنۡهَا﴾ في الموضعَينِ الابتِداءُ-؛ فلذلك عدَّاهُ بـ (مِن) دونَ (عنْ)؛ لأنَّ الكفْرَ بالعاقبةِ والجزاءِ هو الذي جَعَلَهم كالبَهائمِ لا يَتدبَّرون ولا يَتبصَّرون، ومَن لم يَصرِفْهُ خَوفُ العاقبةِ فعَل ما يقتضيه هَواهُ وشَهوتُه، ودخَل في زُمرةِ البهائمِ. وفي هذا شائبةٌ مِن معنى السَّببيَّةِ، وأنَّ الكفرَ بالآخرةِ سببٌ للعمى[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ بَيانٌ لِجَهلِهم بالآخرةِ وعَمَهِهم منها بحِكايةِ إنكارِهم للبَعثِ[٤]. وأعقَبَ وَصْفَ عَمايةِ الزَّاعمينَ عِلْمَ الغَيبِ بذِكْرِ شُبهتِهم التي أرَتْهم البعثَ مُستحيلَ الوُقوعِ؛ ولذلك أُسنِدَ القَولُ هنا إلى جميعِ الَّذين كَفَروا دونَ خُصوصِ الَّذين يَزعُمون عِلْمَ الغيبِ؛ ولذلك عُطِفَت الجُملةُ بالواوِ؛ لأنَّها غايرَتِ الَّتي قبْلَها بأنَّها أعَمُّ[٥].

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ...﴾ فيه التَّعبيرُ عنهم باسمِ الموصولِ؛ لِمَا في الموصولِ مِن الإيماءِ إلى علَّةِ قَولِهم هذه المقالةَ، وهي ما أفادَتْه الصِّلةُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢، ٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٧٢، ٥٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤).

كَونِهم كافرينَ؛ فكأنَّه قِيل: وقالوا بكُفرِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ إلى آخِرِه[١].

- قولُه: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ الاستفهامُ بمَعنى الإنكارِ؛ أتَوا بالإنكارِ في صُورةِ الاستِفهامِ لتَجهيلِ مُعتقِدِ ذلك، وتَعجيزِه عن الجوابِ بزَعمِهم. والتَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ لِمُجاراةِ كلامِ المردودِ عليه بالإنكارِ، والتَّأكيدُ تَهكُّمٌ[٢].

- وتَكريرُ حرفِ الاستِفهامِ بإدخالِه على (إذا) و(إنَّ) جميعًا إنكارٌ على إنكارٍ، وجحودٌ عَقِيبَ جُحودٍ، ومُبالَغةٌ في كَونِ ذلك لا يكونُ، ودليلٌ على كُفرٍ مُؤكَّدٍ مُبالَغٍ فيه[٣]؛ فتَكريرُ الهمزةِ في ﴿أَئِنَّا﴾ لِلمُبالَغةِ والتَّشديدِ في الإنكارِ. وأيضًا تَحليةُ الجُملةِ بـ (إنَّ) واللَّامِ لتَأكيدِ الإنكارِ، لا لإنكارِ التَّأكيدِ كما يُوهِمُه ظاهرُ النَّظمِ؛ فإنَّ تَقديمَ الهمزةِ لاقتضائِها الصَّدارةَ[٤].

- وتَقْييدُ الإخراجِ بوَقتِ كونِهم تُرابًا في قولِه: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ ليس لتَخصيصِ الإنكارِ بالإخراجِ حينَئذٍ فقط؛ فإنَّهم مُنكِرون للإحياءِ بعدَ الموتِ مُطلقًا وإنْ كان البَدَنُ على حالِه، بلْ لتَقويةِ الإنكارِ بتَوجيهِه إلى الإخراجِ في حالةٍ مُنافيةٍ له[٥].

٤- قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتَقريرِ الإنكارِ، وتَصديرُه بالقسَمِ ﴿لَقَدْ﴾؛ لمَزيدِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

التَّأكيدِ[١].

- وقد تقدَّمَ في سُورةِ (المؤمنون) حِكايةُ مِثلِ هذه المقالةِ عن الذين كَفَروا، إلَّا أنَّ اسمَ الإشارةِ الأوَّلَ ﴿هَٰذَا﴾ وقَعَ مُؤخَّرًا عن ﴿نَحْنُ﴾ في سُورةِ (المؤمنون) إذ فيها: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ [المؤمنون: ٨٣]، ووقَعَ مُقدَّمًا عليه هنا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، وتَقديمُه وتأخيرُه سواءٌ في أصلِ المعنى؛ لأنَّه مفعولٌ ثانٍ لـ ﴿وُعِدْنَا﴾ وقَعَ بعْدَ نائبِ الفاعلِ في الآيتينِ. ووَجْهُ تَقديمِه على تَوكيدِ الضَّميرِ الواقعِ نائبًا عن الفاعلِ: أنَّ التَّقديمَ دليلٌ على أنَّ المُقدَّمَ هو الغرضُ المُعتمَدُ بالذِّكرِ وبسَوقِ الكلامِ لأجْلِه؛ فإنَّ ما وقَعَ في سُورةِ (المؤمنون) كان بوَضعِ المنصوبِ بعدَ المرفوعِ، وذلك مَوضِعُه. وأمَّا ما في سُورةِ (النَّملِ)؛ فقُدِّمَ المنصوبُ على المرفوعِ لكونِه فيها أهَمَّ؛ يَدُلُّك على ذلك أنَّ الذي قبْلَه: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾، والذي قبْلَ آيةِ سُورةِ (المؤمنون): ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ [المؤمنون: ٨٢]؛ فالجِهةُ المنظورُ فيها في سُورةِ (المؤمنون) هي كونُ أنفُسِهم تُرابًا وعظامًا، والجِهةُ المنظورُ فيها هنا في سُورةِ (النَّملِ) هي كونُ أنفُسِهم وكونُ آبائهم تُرابًا، لا جزءَ هناك مِن بناهم (جمعُ بِنْيَةٍ) باقيًا على صُورتِه الَّتي كان عليها وهو حيٌّ. ولا شُبهةَ أنَّها أدخَلُ عندَهم في تَبعيدِ البعثِ؛ فاسْتلزَمَ زِيادةَ الاعتِناءِ بالقصْدِ إلى ذِكْرِه، فصيَّرَه هذا العارِضُ أهَمَّ؛ فقد حكَتْ كلُّ آيةٍ أُسلوبًا مِن مقالِهم، وحصَلَ في الاختلافِ بيْنَ أُسلوبِ الآيتينِ تفنُّنٌ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٦٩)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي =

- قولُه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تَقريرٌ إثرَ تَقريرٍ[(١)].

٥- قولُه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تَهديدٌ لهم على التَّكذيبِ، وتَخويفٌ بأنْ يَنزِلَ بهم مِثلُ ما نزَلَ بالمُكذِّبين قبْلَهم، وأراد بالمُجرِمينَ: الكافرين، وإنَّما عُبِّرَ عن الكُفرِ بلَفظِ الإجرامِ؛ ليَكونَ لُطفًا للمُسلِمينَ في تَركِ الجرائمِ وتخوُّفِ عاقبتِها؛ ألَا تَرى إلى قولِه: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وقولِه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾[(٢)] [نوح: ٢٥].

- وفُصِلَت هذه الجُملةُ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ -أي: لم تُعطَفْ على ما قبْلَها-؛ لأنَّها أمْرٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَ لهم هذه الكلمةَ[(٣)].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وقال في سُورةِ (الأنعام): ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، والمُناسَبةُ في الموضعينِ هي الموعظةُ بحالِ المُكذِّبين؛ لأنَّ إنكارَهم البعثَ تَكذيبٌ للرَّسولِ وإجرامٌ، والوعيدُ بأنْ يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم، إلَّا أنَّها هنالك عُطِفَت بـ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟﴾

= جعفر الغرناطي (٢/ ٣٦٩)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٢/ ١٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٧٣، ٥٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥، ٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦).

[الأنعام: ١١]، وهنا بالفاءِ ﴿فَٱنظُرُواْ﴾، وذُكِرَ هنالك عاقبةُ المُكذِّبين، وذُكِرَ هنا عاقبةُ المُجرِمين، والمُكذِّبون مُجرِمون؛ والاختلافُ بيْنَ الحكايتينِ للتَّفنُّنِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦).

الآيات (٧١-٧٥)

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَدِفَ لَكُم﴾: أي: اقتَرَب لكم، ودنا منكم، وأصلُ (ردف): يدُلُّ على اتِّباعِ الشَّيءِ[1].

﴿تُكِنُّ﴾: أي: تُخفي، مِن أكننتُ الشَّيءَ: إذا ستَرْتَه وصُنتَه، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن استبعادِ المشركينَ ليومِ القيامةِ، فيقولُ: ويَقولُ المُشرِكون: متى هذا الوعدُ بالعذابِ إن كنتُم صادقين في قَولِكم؟!

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه بالرَّدِّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: قد دنا لكم بعضُ ما كنتُم تَستَعجِلونَه مِن العذابِ.

ثمَّ يبيِّنُ سبحانَه بعضَ مظاهرِ فضلِه على النَّاسِ وشمولِ عِلمِه، فيقولُ: وإنَّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

ربَّك -يا محمَّدُ- لَذو فَضلٍ على النَّاسِ بعدَم تَعجيلِ عِقابِهم، والإحسانِ إليهم مع ظُلمِهم، ولكنَّ أكثَرَهم لا يَشكُرونَ اللهَ على ما أنعَمَ عليهم.

وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- لَيعلَمُ ما يُخفونَه في صُدورِهم وما يُظهِرونَه، وما مِن شَيءٍ غائبٍ في السَّماءِ والأرضِ إلَّا يَعلَمُه اللهُ، وهو مُثبَتٌ في اللَّوحِ المَحفوظِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾.

أي: ويقولُ المُشرِكون: متى سيأتينا عَذابُ اللهِ -يا محمَّدُ- إنْ كنتُم صادِقينَ فيما تَعِدونَنا به مِن العذابِ[1]؟!

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا استعجلَتْ قُرَيشٌ بأمرِ الساعةِ، أو بالعذابِ الذي وُعِدوا به، وسألوا عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

وممَّن فسَّر الوعدَ المذكورَ بالعذابِ: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ أيضًا: مقاتلُ بنُ سليمان، ويحيى بنُ سلام. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٦١).

وقيل: المرادُ به: وُقوعُ البعثِ بعدَ الموتِ ومجيءُ يومِ القيامةِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: السمرقنديُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: العذابُ، والسَّاعةُ، والبعثُ، والمجازاةُ: ابنُ عطية، والبِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٧٢).

وقتِه على سبيلِ الاستِهزاءِ، قيل له: (قلْ: عسى أنْ يكونَ رَدِفَكم بعضُه)[١].

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: قد دنا لكم[٢] بعضُ العذابِ الَّذي تَستعجِلونَ وُقوعَه[٣].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

أي: وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- لَذو فَضلٍ كبيرٍ على النَّاسِ، بإمهالِهم والإحسانِ إليهم مع ظُلمِهم أنفُسَهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٥).

(٢) قال ابن عطية: (ورَدِفَ معناه: قرُب وأَزِفَ، قاله ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه، ولكنَّها عبارةٌ عمَّا يجيءُ بعْدَ الشَّيءِ قريبًا منه، ولِكَونِه بمعنَى هذه الأفعالِ الواقعةِ تعدَّى بحرفٍ، وإلَّا فبابُه أن يَتجاوَزَ بنفْسِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٩).

وقال ابن كثير: (إنَّما دخَلت «اللام» في قولِه: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾؛ لأنَّه ضُمِّن معنى «عَجِل لكم»، كما قال مجاهدٌ في روايةٍ عنه: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾: عجِل لكم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩).

وقال البِقاعي: (ولَمَّا قصَر الفعلَ وضمَّنه معنى ما يَتعدَّى باللَّامِ لأجْلِ الاختصاصِ قال: ﴿لَكُم﴾، أي: لأجْلِكم خاصَّةً). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (وهذا إشارةٌ إلى ما سيحُلُّ بهم يومَ بدرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

وممَّن قال بنحوِ ذلك: الواحديُّ، والزمخشري، والقرطبي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن =

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ اللهَ على نِعَمِه، ويُشرِكون معه غيرَه في العبادةِ، ويَستعجِلونَ عَذابَه[1].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإمهالُ قد يكونُ مِن الجَهلِ بذُنوبِ الأعداءِ، قال نافيًا لذلك[2]:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٤﴾.

أي: وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- لَيعلَمُ ما يُخفونَه في قُلوبِهم، وما يُظهِرونَه مِن أقوالِهم وأفعالِهم، لا يخفَى عليه منها شَيءٌ[3].

﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٧٥﴾.

= كثير)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٢٨).

قال البقاعي: (﴿صُدُورُهُمۡ﴾ أي: النَّاسِ كلِّهم، فضلًا عن قومِك). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢١١).

وقال الألوسي: (﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾ أي: ما تُخفيه مِن الأسرارِ الَّتي مِن جُملتِها عداوتُك ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ أي: وما يُظهِرونَه مِن الأقوالِ والأفعالِ الَّتي من جُملتِها ما حُكيَ عنهم؛ فليس تأخيرُ عُقوبتِهم لخَفاءِ حالِهم عليه سُبحانَه؛ فيُجازيهم على ذلك). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٢٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٥).

أي: وما مِن شَيءٍ مَخفيٍّ عن العبادِ في السَّماءِ والأرضِ إلَّا يَعلَمُه اللهُ، وهو مثبَتٌ في كتابٍ واضحٍ بيِّنٍ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

قال القرطبي: (ما مِن خَصلةٍ غائبةٍ عن الخَلقِ إلَّا واللهُ عالِمٌ بها، قد أثبَتَها في أمِّ الكتابِ عندَه، فكيف يخفى عليه ما يُسِرُّ هؤلاء وما يُعلِنونَه؟! وقيل: أيْ: كُلُّ شَيءٍ هو مُثبَتٌ في أمِّ الكتابِ، يُخرِجُه للأجَلِ المؤجَّلِ له، فالَّذي يَستعجِلونَه مِن العذابِ له أجَلٌ مَضروبٌ لا يتأخَّرُ عنه ولا يتقَدَّمُ عليه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١).

قال البيضاوي: (﴿مُّبِينٍ﴾ بيِّنٌ، أو مُبينٌ ما فيه لِمَن يُطالِعُه). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٧).

وقال ابنُ عجيبة: (المُبينُ: الظَّاهِرُ البَيِّنُ لِمَن ينظُرُ فيه مِن الملائكةِ. أو: مُبينٌ لِما فيه مِن تفاصيلِ المقدوراتِ. والله تعالى أعلمُ). ((البحر المديد)) (٤/ ٢١٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٦).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مُّبِينٍ﴾: بيِّنٌ ظاهرٌ: مقاتلُ بن سليمان، وابن أبي زمنين، والواحدي، والزمخشري، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٢٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٧٣).

قال ابن جرير: (يعني بقولِه: ﴿مُّبِينٍ﴾ أنَّه يَبينُ لِمَنْ نَظَر إليه، وقَرَأ ما فيه مِمَّا أثْبَت فيه رَبُّنا جلَّ ثَناؤُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٦).

وقال ابن عاشور: (والمُبينُ: المُفَصَّلُ؛ لأنَّ الشَّيءَ المُفَصَّلَ يكونُ بَيِّنًا واضحًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٩).

أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تحذيرُ هؤلاء -وغيرِهم أيضًا- مِن أنْ يُكِنُّوا في صدورِهم ما لا يَرضاه اللهُ، لأنَّ إخبارَ اللهِ بأنَّه يَعْلَمُ ذلك معناه التَّحذيرُ؛ أنْ نَحْذَرَ مِن أنْ نُكِنَّ في صُدورِنا ما لا يرضاه اللهُ عزَّ وجلَّ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إبطالُ قَولِ مَن قال: «إنَّه لا نعمةَ للهِ على الكفارِ»[(٢)]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أنَّ البلاءَ مُوكَلٌ بالمنطقِ، وأنَّ الإنسانَ إذا استعجلَ الشَّرَّ وَقَعَ فيه؛ لِقَولِه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾، وعسى -كما قال ابنُ عبَّاسٍ- إذا جاءتْ في كلامِ اللهِ فهي للوُجوبِ[(٣)]؛ لأنَّ معناها التوقُّعُ، وأنَّ هذا أمرٌ قد حان وقتُه؛ إذْ إنَّ التَّرجِّيَ بالنِّسبةِ إلى اللهِ غيرُ ممكنٍ؛ لأنَّ التَّرجِّيَ طلبُ ما فيه عُسرٌ، ولا شَيءَ عسيرٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤١٦). وينظر أيضًا: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ١٢٢-١٢٥)

٣- قَولُه تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ فيه سَعَةُ حِلْمِ اللهِ، فقد قال: ﴿بَعۡضُ﴾ دونَ الجميعِ، وهذا مِن حِلْمِ اللهِ تعالى على عبادِه[١].

٤- العقلُ يدُلُّ على وجوبِ شُكرِ المُنعِم؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ وهذا على سبيلِ الذَّمِّ، فيكونُ مَن لا يَشكرُ مذمومًا عقلًا ونقلًا[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ أشار بصِفةِ الرُّبوبيَّةِ المضافةِ إلى نبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى إمهالِهم؛ إحسانًا إليه، وتَشريفًا له[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ فيه أنَّ عِلْمَ اللهِ تعالى بما بَطَن كعِلْمِه بما ظَهَر؛ لقولِه: ﴿مَا تُكِنُّ﴾ و﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾، فلا فرقَ بيْنَ هذا وهذا عندَ اللهِ؛ فالآيةُ فيها بيانُ سَعَةِ عِلمِ اللهِ، وأنَّه لا يخفى عليه شَيءٌ[٤].

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ فيه كتابةُ اللهِ تعالى كلَّ شيءٍ في اللَّوحِ المحفوظِ، ويَلزمُ مِن الكتابةِ العِلمُ؛ لأنَّه لا يُكتبُ المجهولُ[٥]! فالآيةُ فيها إثباتُ مرتبتَينِ مِن مراتبِ القضاءِ والقَدَرِ؛ هما: العِلمُ، والكتابةُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)). ويُنظر أيضًا: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٩)، ((أعلام السنة المنشورة)) لحافظ حكمي (ص: ٧٨ - ٨٩).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ الرَّدُّ على القَدَرِيَّةِ الَّذين يُنكِرون القَدَرَ، ويقولون: إنَّ اللهَ لا يعلمُ ما يَعمَلُه العبادُ إلَّا بعدَ وُقوعِه منهم[١]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ فيه التَّعبيرُ بالمُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ ذلك القولِ منهم، أي: لم يَزالوا يقولونَ[٢].

- قولُه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الاستِفهامُ بـ﴿مَتَىٰ﴾ تَهكُّمٌ منهم؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أمَر اللهُ نَبيَّه بالجوابِ عن قولِهم؛ لأنَّ هذا مِن عِلْمِ الغَيبِ الَّذي لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ ومَن أطْلَعه على شَيءٍ منه مِن عِبادِه المُصطفَينَ. والجوابُ جارٍ على الأسلوبِ الحكيمِ بحمْلِ استِفهامِهم على حقيقةِ الاستفهامِ؛ تَنبيهًا على أنَّ حقَّهم أنْ يَسألوا عن وَقتِ الوعيدِ؛ لِيَتقدَّموه بالإيمانِ[٤].

- قولُه: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ...﴾ (عسى) و(لعلَّ) و(سوف) في وَعدِ الملوكِ ووَعيدِهم يَدُلُّ على صِدقِ الأمرِ وجِدِّه وما لا مَجالَ للشَّكِّ بعْدَه، وإنَّما يَعْنُون بذلك: إظهارَ وَقارِهم، وأنَّهم لا يَعجَلون بالانتقامِ؛ لإدلالِهم بقَهْرِهم وغَلَبتِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ووُثوقِهم أنَّ عَدُوَّهم لا يَفوتُهم، وأنَّ الرَّمزةَ إلى الأغراضِ كافيةٌ مِن جِهَتِهم؛ فعلى ذلك جَرى وعْدُ اللهِ ووَعيدُه[١].

- وإيثارُ ما عليهِ النَّظمُ الكريمُ على أنْ يُقالَ: (عَسى أنْ يَرْدَفَكم...) إلخ؛ لِكَونِه أدَلَّ على تَحقُّقِ الوعدِ[٢].

- قولُه: ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ فيه حذْفُ مُتعلَّقِ ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ، والتَّقديرُ: تَستعجِلون به[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ مَوقِعُ هذا مَوقعُ الاستِدراكِ على قولِه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢]، أي: إنَّ تأخيرَ العذابِ عنهم هو مِن فضْلِ اللهِ عليهم. وهذا خبرٌ خاصٌّ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ تَنبيهًا على أنَّ تأخيرَ الوعيدِ أثَرٌ مِن آثارِ رَحمةِ اللهِ؛ لأنَّ أزمنةَ التَّأخيرِ أزمنةُ إمهالٍ، فهُم فيها بنِعمةٍ؛ لأنَّ اللهَ ذو فضْلٍ على النَّاسِ كلِّهم[٤].

- والتَّعبيرُ بـ ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾ يدُلُّ على أنَّ الفضلَ مِن شُؤونِه. وتَنكيرُ ﴿فَضۡلٍ﴾؛ للتَّعظيم. والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) واللَّام منظورٌ فيه إلى حالِ النَّاسِ لا إلى حالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فالتَّأكيدُ واقعٌ مَوقعَ التَّعريضِ بهم، بقَرينةِ قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾. و(لكنَّ) استِدراكٌ ناشئٌ عن عُمومِ الفضلِ منه تعالى؛ فإنَّ عُمومَه وتَكرُّرَه يَستحِقُّ بأنْ يَعلَمَه النَّاسُ، فيَشْكُروه، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٨).

يَشْكُرون كهؤلاء الَّذين قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [النمل: ٧١]؛ فإنَّهم يَستعجِلون العذابَ تَهكُّمًا وتَعجيزًا في زَعمِهم، غيرَ قادرينَ قَدْرَ نِعمةِ الإمهالِ(١).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [النمل: ٧٣] يُثيرُ سُؤالًا في نُفوسِ المؤمنينَ أنْ يَقولوا: إنَّ هؤلاء المُكذِّبين قد أضْمَروا المكْرَ وأعْلَنوا الاستِهزاءَ، فحالُهم لا يَقْتضي إمهالَهم. فيُجابُ بأنَّ الذي أمْهَلَهم مُطَّلِعٌ على ما في صُدورِهم وما أعْلَنوه، وأنَّه أمْهَلَهم مع عِلْمِه بهم؛ لِحكمةٍ يَعلَمُها. وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم يُكِنُّون أشياءَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وللمؤمنينَ. وهذا الاستئنافُ لَمَّا كان ذا جِهةٍ مِن معنَى وَصْفِ اللهِ بإحاطةِ العِلْم، عُطِفَت جُملتُه على جُملةِ وَصْفِ اللهِ بالفضلِ؛ فحصَلَ بالعطْفِ غرَضٌ ثانٍ مُهِمٌّ، وحصَلَ معنى الاستئنافِ البَيانيِّ مِن مَضمونِ الجُملةِ(٢).

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) واللَّام في قولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ...﴾ مَنظورٌ فيه إلى حالِ النَّاسِ لا إلى حالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فالتَّأكيدُ واقعٌ مَوقِعَ التَّعريضِ بهم. ويجوزُ أنْ يكونَ لتَنزيلِ السَّائلِ مَنزلةَ المُتردِّدِ؛ وذلك تَلويحٌ بالعِتابِ(٣).

- وفي قولِه: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أسنَدَ الإعلانَ إلى ذَواتِهم؛ لأنَّ الإعلانَ مِن أفعالِ الجَوارحِ. ولَمَّا كان المُضمَرُ في الصَّدرِ هو الدَّاعيَ لِمَا يَظهَرُ على الجَوارحِ، والسَّببَ في إظهارِه؛ قُدِّمَ الإكنانُ على الإعلانِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٦).

وقيل: إنَّما قُدِّمَ الإسرارُ على الإعلانِ؛ للإيذانِ بافْتِضاحِهم، ووُقوعِ ما يَحْذَرونه مِن أوَّلِ الأمرِ، والمُبالَغةِ في بَيانِ شُمولِ عِلْمِه تعالى المُحيطِ لجَميعِ المعلوماتِ، كأنَّ عِلْمَه بما يُسِرُّونه أقْدَمُ منه بما يُعْلِنونه، مع كَونِهما في الحقيقةِ على السَّوِيَّةِ[١].

- وفيه: إيذانٌ بأنَّ لهم قبائحَ غيرَ ما يُظْهِرونَه، وأنَّه تعالى يُجازِيهم على الكلِّ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤]، وهو في معنَى التَّذييلِ للجُملةِ المذكورةِ؛ لأنَّها ذُكِرَ منها عِلْمُ اللهِ بضَمائرِهم، فذُيِّلَ ذلك بأنَّ اللهَ يَعلَمُ كلَّ غائبةٍ في السَّماءِ والأرضِ، وإنَّما جاء مَعطوفًا؛ لأنَّه جديرٌ بالاستِقلالِ بذاتِه مِن حيثُ إنَّه تَعليمٌ لِصِفةِ عِلْمِ اللهِ تعالى، وتَنبيهٌ لهم مِن غَفْلتِهم عن إحاطةِ عِلْمِ اللهِ لِمَا تُكِنُّ صُدورُهم وما يُعلِنون[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما مِن شَيءٍ سِرٍّ في السَّمواتِ والأرضِ وعلانيةٍ؛ فاكْتَفَى بذِكْرِ السِّرِّ عن مُقابِلِه. وسُمِّيَ الشَّيءُ الذي يَغِيبُ ويَخفى (غائبةً) و(خافيةً)؛ فكانتِ التَّاءُ فيهما بمَنزلتِها في (العاقبةِ) و(العافيةِ). ويجوزُ أنْ يَكونَا صِفَتينِ، وتاؤهما للمُبالَغةِ، كأنَّه قال: وما مِن شَيءٍ شديدِ الغَيبوبةِ والخفاءِ، إلَّا وقد عَلِمَه اللهُ وأحاط به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١١٨، ٦/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧).

الآيات (٧٦-٨٢)

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلصُّمَّ﴾: جمعُ الأصَمِّ، وهو الَّذي لا يسمَعُ، والصَّمَمُ: فِقدانُ حاسَّةِ السَّمعِ، وبه يُوصَفُ مَن لا يُصغِي إلى الحقِّ ولا يَقْبَلُه، وأصلُ (صمم): يدُلُّ على تضامِّ الشَّيءِ، وزوالِ الخرقِ والسمِّ (الثقبِ)[١].

﴿دَآبَّةً﴾: كلُّ شيءٍ دبَّ على وجهِ الأرضِ فهو دابَّةٌ، ويُطْلَقُ عُرفًا على الخَيلِ والحِمارِ والبغلِ، ويُستعملُ في كلِّ حيوانٍ، وأصلُ (دبب): حركةٌ على الأرضِ أخَفُّ مِنَ المشيِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مادحًا كتابَه الكريمَ: إنَّ هذا القرآنَ يُبيِّنُ لبني إسرائيلَ الحَقَّ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

في أكثَرِ ما يختَلِفون فيه، ولو اتَّبَعوه لاهتَدَوا به، وإنَّ هذا القرآنَ لَهُدًى ورحمةٌ للمُؤمنينَ.

ثمَّ يقولُ تعالى: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- سيَحكُمُ بيْنَ عبادِه المُختَلفينَ يومَ القيامةِ بحُكمِه العادِلِ، وهو العزيزُ في انتِقامِه، الغالِبُ القاهِرُ لعبادِه، العليمُ بكُلِّ شَيءٍ مِن أعمالِ العبادِ ونيَّاتِهم وغيرِ ذلك؛ فاعتَمِدْ -يا محمَّدُ- على اللهِ وَحْدَه، وفَوِّضْ جميعَ أمورِك إليه؛ إنَّك على الحقِّ الظَّاهِرِ الواضحِ.

إنَّك -يا محمَّدُ- لا تستطيعُ هدايةَ هؤلاءِ الكفَّارِ الَّذين أعرَضوا كلَّ الإعراضِ عن قَبولِ الحقِّ وسماعِه، فحالُهم كحالِ الموتَى الَّذين لا يُدرِكون، وكحالِ الصُّمِّ الَّذين لا يَسمعونَ. وما أنتَ -يا محمَّدُ- بهادي الكُفَّارِ الَّذين عَمُوا عن الحَقِّ، فرادِّهِم عن ضَلالِهم؛ إنَّك ما تُسمِعُ الحقَّ إلَّا الَّذين يُؤمِنون بآياتِنا، ويَنقادونَ للعَمَلِ بها خاضِعينَ مُخلِصينَ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى بعضَ أشراطِ السَّاعةِ وعلاماتِها، فيقولُ: وإذا نزَل الوعدُ بعذابِ هؤلاء الكافرينَ أخرَجْنا لهم دابَّةً مِنَ الأرضِ تُخاطِبُ الكافرينَ بأنَّ النَّاسَ كانوا لا يُؤمِنون بآياتِ اللهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى المبدأَ والمعادَ؛ ذَكَر ما يَتعلَّقُ بالنُّبوَّةِ، وكان المعتمَدُ الكبيرُ في إثباتِ نبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ هو القرآنَ، ومِن جملةِ إعجازِه إخبارُه بما

تضمَّنَ مِن القَصَصِ الموافقِ لِمَا في التَّوراةِ والإنجيلِ[١].

وأيضًا فللآيةِ مُناسَبةٌ بقولِه: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥]؛ فإنَّ القرآنَ وحْيٌ مِن عندِ اللهِ إلى رسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فكلُّ ما فيه فهو مِن آثارِ عِلْمِ اللهِ تعالى، فإذا أراد اللهُ تَعليمَ المسلمينَ شيئًا ممَّا يَشتمِلُ عليه القرآنُ، فهو العِلْمُ الحقُّ إذا بلَغَتِ الأفهامُ إلى إدراكِ المُرادِ منه. ومِن ذلك ما اشتمَلَ عليه القرآنُ مِن تَحقيقِ أُمورِ الشَّرائعِ الماضيةِ والأُمَمِ الغابرةِ ممَّا خَبَطَتْ فيه كُتبُ بني إسرائيلَ خبْطًا، ولِمَا في القرآنِ مِن الأصولِ الصَّريحةِ في الإلهيَّاتِ ممَّا يَكشِفُ سُوءَ تأويلِ بني إسرائيلَ لِكَلِماتِ كِتابِهم[٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: إنَّ هذا القُرآنَ يُبيِّنُ لبني إسرائيلَ الحَقَّ في أكثَرِ ما يختَلِفونَ فيه، فلو اتَّبَعوه لاهتَدَوا[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ * قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٣).
وممَّا اختلفوا فيه: أمرُ عيسى عليه السَّلامُ، وقِصَّةُ عُزَيرٍ، وأحوالُ الجنَّةِ والنَّارِ، إلى غيرِ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٢).

تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۞ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۞ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۞ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٢ - ٦٨].

وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤].

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بان بما سبَق دليلُ عِلْمِه؛ أتْبَعه دليلَ فضْلِه وحِلْمِه[1].

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾.

أي: وإنَّ القرآنَ لهُدًى مِن كلِّ ضلالةٍ، ومُوصِلٌ إلى المقصودِ، ورحمةٌ للمُؤمِنينَ العامِلينَ به، في دينِهم ودُنياهم وأُخْراهم[2].

كما قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا سَبَق ذِكْرُ المشركين بطَعْنِهم في القرآنِ، وتكذيبِهم بوعيدِه، وذِكْرُ بني

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

إسرائيلَ بما يقتضي طعْنَهم فيه، وذِكْرُ المؤمنينَ بأنَّهم اهتَدَوْا به؛ وكان لهم رحمةً فهُم مُوقِنونَ بما فيه؛ تَمَخَّض الكلامُ عن خلاصةٍ هي افتراقُ الناسِ في القرآنِ فريقَينِ: فريقٍ طاعِنٍ، وفريقٍ موقنٍ، فلا جَرَمَ اقتضى ذلك حدوثَ تدافُعٍ بيْنَ الفريقينِ، وهو ممَّا يُثيرُ في نفوسِ المؤمنينَ سؤالًا عن مدَى هذا التَّدافُعِ والتَّخالُفِ بينَ الفريقينِ، ومتى يَنكشِفُ الحقُّ[(١)]؟

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ سبحانه دليلَ فَضلِه؛ أتبَعَه دليلَ عَدلِه، فقال مستأنِفًا لجوابِ مَن ظَنَّ أنَّ فضْلَه دائمُ العمومِ على الفريقَينِ[(٢)]:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- سيَحكُمُ يومَ القيامةِ بيْنَ عِبادِه المُختَلِفينَ[(٣)] بحُكمِه العادِلِ، ويُجازيهم بما يَستحِقُّون[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٣).

(٣) قيل: المرادُ بهم هنا: بنو إسرائيلَ الذين اختلفوا. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والقرطبي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٠، ٤٣١).

وقال يحيى بن سلام: (قولُه عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ بيْنَ المؤمنينَ والكافرين في الآخرةِ؛ فيُدخِلُ المؤمنينَ الجنَّةَ، ويُدخِلُ الكافرين النَّارَ). ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٦٣).

وقال السعدي: (إنَّ اللهَ تعالى سيَفصِلُ بيْنَ المُختصِمينَ، وسيَحكُمُ بيْنَ المُختلِفينَ بحُكمِه العدل، وقضائِه القِسْط، فالأمورُ وإنْ حصَل فيها اشتباهٌ في الدُّنيا بيْنَ المُختلفينَ لخفاءِ الدَّليلِ أو لبعضِ المَقاصِدِ، فإنَّه سيَبينُ فيها الحقُّ المُطابِقُ للواقِعِ حينَ يَحكُمُ اللهُ فيها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٠، ٤٣١).

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان القضاءُ يَقتضي تنفيذَ ما يَقضي به، والعِلمَ بما يَحكُمُ به؛ جاءت هاتان الصِّفتانِ عقِبَه[1]، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو العزيزُ في انتِقامِه، الغالِبُ القاهِرُ لعبادِه، المُمتَنِعُ عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، العليمُ بكلِّ شَيءٍ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِ العبادِ ونيَّاتِهم وغيرِ ذلك، ويَعلَمُ ما يحكُمُ به بيْنَهم، ويُجازيهم بما يَستَحِقُّونَ[2].

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثَبَت له العِلمُ والحِكمةُ، والعَظَمةُ والقُدرةُ؛ تسَبَّب عن ذلك قَولُه[3]:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: فاعتَمِدْ -يا محمَّدُ- على اللهِ وَحْدَه، وثِقْ به، وفوِّضْ جميعَ أمورِك إليه[4].

﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾.

أي: إنَّك -يا محمَّدُ- على الحقِّ الظَّاهِرِ الواضِحِ غايةَ الوُضوحِ، فلا خَفاءَ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٦).

ولا اشتِباهَ، وإنْ خالَفَك مَنْ خالَفَك فلا يَحزُنْك تكذيبُ المُعرِضينَ وخِلافُهم، ولا يَضُرَّك ضَلالُهم، وامْضِ لِما أُمِرْتَ به؛ فإعراضُهم ليس عن خَلَلٍ في دعوتِك، وإنَّما الخَلَلُ في عقولِهم وإدراكِهم[1].

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أي: إنَّك -يا محمَّدُ- لا تَهدي الكُفَّارَ الَّذين ماتت قلوبُهم بعْدَ أن خَتَم اللهُ عليها، فلا تَقدِرُ على إسماعِهم سَماعَ هُدًى ونَفعٍ وقَبولٍ يَستَجيبون معه للحَقِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المُرادَ بـ﴿ٱلْمُبِينِ﴾: الواضحُ البَيِّنُ الظَّاهرُ: مقاتلُ بن سليمان، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٢٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٩٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٩).

وقيل: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ أي: المُظهِر لِمَن تدبَّرَ وجْهَ الصَّوابِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢).

قال البِقاعي: (﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: البَيِّنِ في نفْسِه، الموضحِ لغيرِه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢١٤).

لكنْ ذكر ابنُ عثيمين أنَّ الأنسَبَ تفسيرُ ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ بالبَيِّنِ، على أنَّه مِن بانَ يَبينُ فهو بَيِّنٌ، فهذا الحقُّ بَيِّنٌ ظاهرٌ، لا تفسيرُه على أنَّه مِن أبانَ يُبينُ فهو مُبينٌ بمعنَى مُظهِر. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٩، ٤٤٠).

ويَنقادونَ إليه، إلَّا أن يَشاءَ اللهُ هِدايتَهم[١].

كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يَسْمَعُ الصُّمُّ﴾ بالرَّفعِ، بجَعلِ المُعرِضينَ هم الفاعلينَ، أي: لا يَنقادُون للحقِّ؛ لِعنادِهم[٢].

٢- قِراءةُ ﴿تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ بالنَّصبِ، على الخِطابِ لِرَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أي: إنَّك -يا محمَّدُ- لا تَقدِرُ أن تُسمِعَ دُعاءَك الصُّمَّ المُعرِضينَ عنك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٩٨)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((أهوال القبور)) لابن رجب (ص: ٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٤ - ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٤٥).

قيل: المرادُ أنَّهم موتى القلوبِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٤).

وقيل: هذا تشبيهٌ بالموتى في عدَمِ سماعِهم. وممَّن قال بذلك: ابنُ تيميَّةَ، والبِقاعي. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٤).

(٢) قرأ بها ابنُ كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٤٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٦)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٦٥، ١٦٦).

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾.

أي: ولا تَقدِرُ -يا محمَّدُ- أن تُسمِعَ الحَقَّ الكفَّارَ الَّذين أصَمَّ اللهُ آذانَهم، إذا أعرَضوا عن سَماعِ الحَقِّ وتدَبُّرِه[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾.

أي: وما أنتَ -يا محمَّدُ- بهادي الكُفَّارِ الَّذين عَمُوا عن الحَقِّ، فتُخرِجَهم مِنَ الكُفرِ إلى الإيمانِ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

أي: لا تَقدِرُ -يا محمَّدُ- على أن تُفهِمَ الحَقَّ أحَدًا إلَّا الذين يُؤمِنونَ بآياتِنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٨، ١١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

فيَسمَعونَها ويتفكَّرونَ فيها، ويَنقادونَ للعَمَلِ بها بإخلاصٍ وخُضوعٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٦].

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا فَرَغ سُبحانَه مِن عظيمِ زجْرِهم بتَسليتِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ في أمْرِهم، وخَتَم بالإسلام؛ عَطَفَ عليه ذِكْرَ ما يُوعَدونَ مِمَّا تقَدَّمَ استِعجالُهم له استهزاءً به، وبدَأَ منه بالدَّابَّةِ الَّتي تُميِّزُ المسلمَ مِن غَيرِه[٢].

وأيضًا فبَعْدَ أنْ ذكَرَ سُبحانَه ما يدُلُّ على كمالِ عِلمِه وقُدرتِه، وأبانَ بعدَئذٍ إمكانَ البَعثِ والحَشرِ والنَّشرِ، ثمَّ فَصَّل القَولَ في إعجازِ القُرآنِ، ونبَّه بذلك إلى إثباتِ نبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ- أردَفَ ذلك ذِكرَ مُقَدِّماتِ القيامةِ وما يحدُثُ مِنَ الأهوالِ حينَ قيامِها[٣].

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وإذا حلَّ الوَعدُ بالعذابِ والسَّخَطِ على الكافِرينَ[٤]، أخرَجْنا لهم دابَّةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ٢١).

(٤) وممَّن قال: إنَّ المرادَ بوُقوعِ القولِ: هو حلولُ العذابِ والسَّخَطِ: السمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٩). =

مِنَ الأرضِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ:

= وممَّن اقتصر في تفسيرِه على العذابِ: مقاتلُ بن سليمان، والسمعاني، وابن عطية، وابن جُزَي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٨).

وممَّن قال مِن السلفِ: إنَّ المرادَ: العذابُ: ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وابنُ جريجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٩).

قال ابنُ جزي: (﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إذا حانَ وقتُ عذابِهم الَّذي تضَمَّنه القولُ الأزَليُّ مِنَ الله في ذلك، وهو قضاؤُه، والمعنَى: إذا قرُبَتِ السَّاعةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٧).

وقال الشوكاني: (واختُلِفَ في معنَى وُقوعِ القولِ عليهم؛ فقالَ قتادةُ: وَجَب الغضبُ عليهم. وقالَ مجاهدٌ: حَقَّ القولُ عليهم بأنَّهم لا يؤمنونَ. وقيلَ: حَقَّ العذابُ عليهم. وقيلَ: وجَب السُّخْطُ. والمعاني مُتقاربةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٤).

ثمَّ قال مستكملًا باقيَ الأقوالِ: (وقيلَ: المرادُ بالقولِ ما نَطَق به القرآنُ مِنْ مجيءِ السَّاعةِ، وما فيها مِن فنونِ الأهوالِ الَّتي كانوا يَستعجِلونها، وقيل: وَقَع القولُ بموتِ العلماءِ وذهابِ العلمِ. وقيلَ: إذا لم يأمُروا بالمعروفِ ويَنهَوْا عن المنكَرِ). ((المصدر السابق)). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٢٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٩).

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

قال ابن عاشور: (رُوِيَت في وَصفِ هذه الدَّابَّةِ ووقتِ خروجِها ومكانِه: أخبارٌ مُضطَرِبةٌ ضَعيفةُ الأسانيدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٩).

((ثلاثٌ إذا خرَجْنَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إيمانُها لم تكُنْ آمَنَت مِن قَبْلُ أو كَسَبَت في إيمانِها خيرًا: طُلوعُ الشَّمسِ مِن مَغرِبِها، والدَّجَّالُ، ودابَّةُ الأرضِ))(١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((بادِروا بالأعمالِ سِتًّا: الدَّجَّالَ، والدُّخَانَ، ودابَّةَ الأرضِ، وطُلوعَ الشَّمسِ مِن مَغرِبِها، وأمْرَ العامَّةِ(٢)، وخُوَيْصَّةَ أحَدِكم(٣))(٤).

وعن حُذيفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفاريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: اطَّلَعَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ علينا ونحن نَتَذاكَرُ، فقال: ((ما تَذاكَرون؟ قالوا: نَذْكُرُ السَّاعةَ، قال: إنَّها لن تَقومَ حتَّى تَرَوْنَ قَبْلَها عَشْرَ آياتٍ، فذكَرَ: الدُّخَانَ، والدَّجَّالَ، والدَّابَّةَ، وطُلوعَ الشَّمسِ مِن مَغرِبِها، ونُزولَ عيسى ابنِ مريمَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ويَأجوجَ ومَأجوجَ، وثلاثةَ خُسوفٍ: خَسفٌ بالمشرِقِ، وخَسفٌ بالمغرِبِ، وخَسفٌ

---

(١) رواه مسلم (١٥٨).

قال الشنقيطي: (طلوعُ الشَّمسِ والدَّابَّةُ مُترادِفانِ، بيْنَهما قليلٌ، جاء في بعضِ الأحاديثِ أنَّ الشَّمسَ إذا طلَعت مِن مَغْرِبِها خرَجت الدَّابَّةُ ضُحًى [ينظر ما أخرجه مسلم (٢٩٤١) من حديث عبد الله بن عَمرٍو رضي الله عنهما، مرفوعًا]،... قال بعضُ العلماءِ: والحكمةُ في إتيانِ الدَّابَّةِ بعدَ الشَّمسِ: أنَّ الشمسَ إذا طلَعت مِن مَغرِبِها خُتِم على الأعمالِ، ولم يُقبَلْ مِن كافرٍ إيمانٌ، ولم يُقبلْ مِن عاصٍ توبةٌ، وانقطع تجديدُ إيمانٍ جديدٍ، أو تَوبةٍ جديدةٍ، فيُرسِلُ اللهُ بعدَ ذلك الدَّابَّةَ، فتَكتُبُ على جبهةِ كلِّ إنسانٍ: «سعيد» أو «شقي» يَعرِفُه مَن يَراه؛ لِتُبيِّنَ حالَ النَّاسِ عندَ انقطاعِ أعمالِهم: مَن هو الكافرُ منهم، ومَن هو السعيدُ؟). ((العذب النمير)) (٢/ ٥٩٧).

(٢) أمْر العامَّةِ: قيل: أي: الفِتنة الَّتي تَعُمُّ النَّاسَ، وقيل: القيامة؛ لأنَّه يَعُمُّ الخلائقَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٨٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٥٠).

(٣) خُوَيْصَّة: تصغيرُ خاصَّة، أي: الوقعة الَّتي تخُصُّ أحدَكم؛ قيل: يريدُ الموتَ، وقيل: هي ما يختصُّ به الإنسانُ مِن الشَّواغلِ المُتعلِّقةِ في نفْسِه ومالِه وما يهتَمُّ به، وصُغِّرَتْ؛ لاستِصغارِها في جنبِ سائرِ الحَوادثِ مِنَ البعثِ والحسابِ وغيرِ ذلك. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) (٨/ ٣٤٥٠).

(٤) رواه مسلم (٢٩٤٧).

بجزيرةِ العرب، وآخِرُ ذلك نارٌ تخرُجُ مِنَ اليَمَنِ، تَطرُدُ النَّاسَ إلى مَحْشَرِهم))[١].

﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

أي: تخاطِبُ الدَّابَّةُ الكافرينَ[٢] بأنَّ[٣] النَّاسَ لا يُؤمِنونَ بآياتِ اللهِ تعالى إيمانًا

---

(١) رواه مسلم (٢٩٠١).

(٢) ممَّن نصَّ على أنَّ معنى ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾: تُحَدِّثُهم: مقاتلُ بن سليمان، والفَرَّاء، والسمرقندي، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٧)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٥٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عليُّ بنُ أبي طالب، وابنُ عباسٍ في روايةٍ، وقَتادةُ، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠).

وقيل: معنى ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾: تَجرَحُهم، مِنَ الكَلْم: وهو الجَرْحُ، والتَّشديدُ على معنى التَّكثيرِ. وممَّن ذكر هذا المعنى: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٥).

وأنكر ابنُ عثيمين هذا المعنى وردَّه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٥٩).

وذكر الأزهريُّ أن قراءة (تَكْلِمُهُم) مِن الكَلْم: شاذَّةٌ لا يُعرَّجُ عليها. يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٤٧)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ١٤٧)، ((الكامل في القراءات)) للهذلي (ص: ٦١٣).

قال ابن كثير: (وقال ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ: تَجْرَحُهم. وعنه روايةٌ: قالَ: كُلًّا تَفعَلُ، يعني هذا وهذا. وهو قولٌ حسنٌ، ولا مُنافاةَ، واللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٢٦).

(٣) اختلف المفسِّرون في تفسير قَولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ ...﴾ فقيل: هو مِن كلامِ الدَّابَّةِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والسعدي، ونسبه ابن عثيمين إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٦٠).

وممَّن رُويَ عنه أنَّه قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عليُّ بنُ أبي طالب، وابنُ عباس، وقتادة، وعطاء الخراساني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠). =

تامًّا لا شكَّ فيه ولا شُبهةَ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إنَّما قصَّ عليهم أكثَرَ ما اختَلَفوا، وهو ما في بيانِ الحَقِّ منه نفعٌ للمُسلِمينَ، وأعرَض عمَّا دُونَ ذلك، وأكثَرُ الَّذي يختَلِفونَ فيه هو ما جاء في القُرآنِ مِن إبطالِ قَولِهم فيما يَقتضي إرشادُهم إلى الحَقِّ أن يُبيَّنَ لهم، وغيرُ الأكثَرِ ما لا مَصلَحةَ في بيانِه لهم[٢]، وما لا فائدةَ مِن ذِكْرِه، أو ما لا داعيَ

= لكنْ قال ابنُ كثيرٍ: (وفي هذا القولِ نظرٌ لا يخفَى). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠).

وممَّن جعَله تعليلًا لخروج الدَّابَّةِ، أي: أنَّنا أخرَجْناها؛ لأنَّ النَّاسَ كانوا بآياتِنا لا يوقِنون: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٨).

وفي ﴿أَنَّ﴾ قراءاتان: قراءةٌ بفتحِ الهمزةِ، وقرأ بها عاصمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ، وقراءةٌ بكسر الهمزة، وقرأ بها الباقون، قال السمرقنديُّ: (فمَن قرَأ بالنَّصبِ، يكونُ حكايةَ قولِ الدَّابَّةِ، ومعناه: تُكلِّمُهم بأنَّ النَّاسَ كانوا بآياتِنا لا يوقِنونَ، أي: لا يؤْمِنون بآياتِ ربِّهم، وهي خروجُ الدَّابَّةِ. ومَن قرَأ بالكسرِ يكونُ بمعنَى الابتِداءِ، ويتِمُّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾، ثمَّ يقولُ الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٢). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٠٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٨)، ((المحتسب)) لابن جِنِّي (٢/ ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٢٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

مِنَ المفسِّرينَ مَن قصَرَ معنى الآياتِ هنا على خروجِ الدَّابَّةِ. ومنهم: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٢).

وقال ابنُ جُزَي: (يحتَمِلُ قَولُه: ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ بخروجِ الدَّابَّةِ، ولا يوقِنونَ بالآخِرةِ وأمورِ الدِّينِ، وهذا أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٠، ٣١).

لذِكْرِه، ويُستفادُ مِن ذلك أنَّه ينبغي أنْ يُعتنَى بما هو مهِمٌّ؛ ويُترَكَ ما لا فائدةَ منه؛ لأنَّه إضاعةٌ للوقتِ، وتطويلٌ للكلامِ بلا فائدةٍ؛ لأنَّه لم يَقُصَّ عليهم جميعَ ما يَختلفون فيه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ بيانُ أنَّ المُحِقَّ حقيقٌ بنُصرةِ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يُخذَلُ[٢]. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الَّذي يَعلَمُ أنَّ الحقَّ في جانِبِه حقيقٌ بأنْ يَثِقَ بأنَّ اللهَ مُظهِرٌ حقَّه ولو بعْدَ حينٍ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أنَّ كَوْنَ العبدِ على الحقِّ يقتضي تحقيقَ مقامِ التَّوكُّلِ على اللهِ، والاكتِفاءَ به، والإيواءَ إلى رُكنِه الشَّديدِ؛ فإنَّ اللهَ هو الحقُّ، وهو وَلِيُّ الحقِّ وناصرُه ومُؤيِّدُه، وكافي مَن قام به[٤].

٤- في ذِكْرِ أمْرِه سُبحانَه بالتَّوكُّلِ، مع إخبارِه بأنَّه على الحقِّ في قَولِه تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾، دَلالةٌ على أنَّ الدِّينَ بمَجموعِه في هذَينِ الأمْرينِ: أنْ يَكونَ العبدُ على الحقِّ في قولِه وعملِه واعتقادِه ونيَّتِه، وأنْ يكونَ متَوكِّلًا على اللهِ واثقًا به؛ فالدِّينُ كلُّه في هذَينِ المقامَينِ[٥].

٥- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ فيه شهادةُ اللهِ تعالى لِمَا جاء به الرسولُ بأنَّه حَقٌّ، ومِن هذه الفائدةِ نستفيدُ فائدةً أخرى، وهي: التَّرغيبُ في سُلوكِ طريقِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ما دام حقًّا؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ عاقلٍ يختارُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٢٧).

الحقَّ على الباطلِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ تعالى، والشَّاهدُ قولُه: ﴿يَقُصُّ﴾؛ والقصصُ لا يكونُ إلَّا قولًا، فإذا كان القرآنُ هو الذي يَقُصُّ؛ فهو كلامُ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو الذي قَصَّ هذه القصصَ؛ قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣]؛ وحينَئذٍ يكونُ القرآنُ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أنَّه يجوزُ أنْ يُخَصَّ طائفةٌ ممَّن يُخاطَبون؛ مِن أجْلِ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم؛ فإنَّ ﴿ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وغيرِهم، لكنَّ بني إسرائيلَ اعتنى بهم هنا؛ لأنَّ الموضوعَ فيما يتعلَّقُ بهم[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّه لا يَنالُ هذا الهدى وتلك الرَّحمةَ إلَّا المؤمنون، ولا مُعارَضةَ بيْنَ هذه الآيةِ وبيْنَ قولِه تعالى في وصْفِ القرآنِ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

والجمعُ بيْنَهما: أنَّ الإثباتَ هنا والإثباتَ هناك مُختَلِفَا الجهةِ؛ فهناك ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ بمعنى: دليلٍ لهم، فهو دليلٌ لكلِّ الناسِ، فهو نَفْسُه صالحٌ للهدايةِ لجميعِ البشرِ، ففي حالةِ العمومِ معناه: دالٌّ، ومَوضِعُ دَلالةٍ، وفي حالةِ التَّقييدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٢٤).

بالمؤمنينَ والمُتَّقينَ: فمعناه أنَّهم المُنتفِعونَ به، المُوَفَّقونَ للاهتِداءِ به[١].

فالهدى يُستعمَلُ في القرآنِ استِعمالَين: أحدُهما عامٌّ، والثَّاني خاصٌّ؛ أمَّا الهدى العامُّ فمعناه إبانةُ طريقِ الحقِّ وإيضاحُ المَحَجَّةِ، سواءٌ سَلَكها المُبَيَّنُ له أمْ لا، ومنه بهذا المعنى قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]، أي: بَيَّنَّا لهم طريقَ الحقِّ على لسانِ نبيِّنا صالح عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ، مع أنَّهم لم يَسلُكوها؛ بدليلِ قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

ومنه أيضًا قولُه تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، أي: بَيَّنَّا له طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ؛ بدليلِ قولِه: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وأمَّا الهدى الخاصُّ فهو تفضُّلُ اللهِ بالتَّوفيقِ على العبدِ، ومنه بهذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ الآيةَ [الأنعام: ٩٠]، وقولُه سُبحانَه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فإذا عَلِمتَ ذلك، فاعلَمْ أنَّ الهدى الخاصَّ بالمُتَّقينَ والمؤمنينَ هو الهدى الخاصُّ، وهو التفضُّلُ بالتَّوفيقِ عليهم، والهدى العامَّ للنَّاسِ هو الهدى العامُّ، وهو إبانةُ الطَّريقِ وإيضاحُ المَحَجَّةِ، وبهذا يرتفِعُ الإشكالُ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا، كان أقوى اهتِداءً بالقُرآنِ، وهذا مأخوذٌ مِن قاعدة: «إنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ، قَوِيَ ذلك الحُكمُ بقوَّةِ ذلك الوصفِ، وضَعُفَ بضَعفِ ذلك الوصفِ»، فما دامتِ الهدايةُ والرَّحمةُ مُعَلَّقةً بوصفِ الإيمانِ؛ فكلَّما ازداد هذا الوصفُ ازداد الهدى وازدادتِ الرَّحمةُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٢٨، ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٢٩).

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾؛ في قَولِه: ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أضاف الحُكْمَ إلى اللهِ سبحانه وتعالى لأمورٍ:

الأمرِ الأولِ: أنه حُكْمٌ متضمنٌ للعدلِ.

والأمرِ الثاني: أنه حُكْمٌ لا يُعَقَّبُ، بل لا بُدَّ أنْ ينفُذَ[١].

والأمرِ الثالثِ: الإصلاحُ، يعني ما دام حُكْمًا مضافًا إلى اللهِ سبحانه وتعالى -وقد عُلِمَ أنَّه سبحانه وتعالى حكيمٌ-؛ فإنَّ هذا الحُكْمَ لا بُدَّ أنْ يكونَ مناسبًا وموافقًا لمحَلِّه، وكلُّ حُكْمٍ وافقَ مَحَلَّه فهو إصلاحٌ، وهذا بخلافِ حُكمِ غيرِه[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يؤخَذُ مِن جمْعِ هذَينِ الوصفَينِ لله سُبحانَه وتعالى عَقِبَ ذِكرِ الحُكمِ: تمامُ حُكْمِ الله، حيث كان مَبنيًّا على العِزَّةِ والعِلمِ؛ فبالعِزَّةِ يَكونُ التَّنفيذُ، وبالعِلمِ يكونُ الصَّوابُ، فمِن شُروطِ الحُكمِ العِلمُ والعِزَّةُ؛ فالعِلمُ لِيَحكُمَ بالصَّوابِ، والعِزَّةُ لِينفذَ ما حكَم به، وإنَّ خَلَلَ الحُكمِ يأتي إمَّا مِنَ الجهلِ، وإمَّا مِنَ الضَّعفِ؛ إمَّا لجهلِ الحاكمِ فيحكُم بغيرِ الصَّوابِ، وإمَّا لِضَعفِه فلا يستطيع أن ينفذَ[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، في قَولِه: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ سؤالٌ: ما الحِكمةُ في تقديم «العِزَّةِ» هنا على «العلم»، مع أنَّ العِلمَ سابقٌ مِن حيثُ التَّرتيبُ الحُكمِيُّ؛ إذ إنَّه يَعلمُ ثمَّ يَحكمُ ثمَّ يُنَفِّذُ، والعِزَّةُ تَتعلَّقُ بالتَّنفيذِ الَّذي يكونُ بعدَ الحُكمِ؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٣٥).

الجوابُ: لأنَّ المقامَ هنا يقتضي بيانَ قوَّةِ حُكمِ اللهِ سُبحانه وتعالى، وأنَّ هذا الحُكمَ لا بُدَّ أنْ يُنَفَّذَ؛ لِكَونِه صادرًا عن عزيزٍ، فكان مِن المناسِبِ تقديمُ «العِزَّةِ» على «العِلمِ»[(١)].

٨- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ فيه فضيلةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ حيثُ كان مَسلَكُه الحقَّ المبينَ؛ ، فهذا فيه شهادةٌ مِن اللهِ وتزكيةٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[(٢)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أنَّ كلَّ ما خالَفَ ما كان عليه الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فهو باطلٌ؛ لأنَّنا لو قُلْنا: إنَّه حقٌّ لَلَزِم الجمْعُ بينَ النَّقيضَينِ! فلا بُدَّ أنَّ أحدَهما هو الحقُّ؛ ولهذا يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، ويقولُ تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ -إحداها- ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، فإنْ كانتِ المخالَفةُ تامَّةً فهو باطلٌ كلُّه، وإنْ كانتِ المخالفةُ جزئيَّةً كان فيه مِن الباطلِ بقدرِ ما خالفَ ما كان عليه الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[(٣)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أنَّ بيانَ الحقِّ لا يَلْزَمُ منه أنْ يكونَ بَيِّنًا لكلِّ أحدٍ، فإنَّ الخفافيشَ تَعمى بضياءِ النَّهارِ! فلا يلزمُ مِن كَونِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على الحقِّ المبينِ ألَّا يُعرِضَ عنه أحدٌ! ولهذا أعقبَه بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، يعني: لا تَظُنَّ أنَّ هؤلاء الَّذين أَعرَضوا أَعرَضوا لأنَّك على باطلٍ، بل لِعَدَمِ قابليَّةِ المَحَلِّ، وكما هو معروفٌ أنَّ الشَّيءَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

-وإنْ كان تامًّا- إذا لم يَجِدْ محلًّا قابلًا لم يكُنْ له تأثيرٌ، فما كان عليه الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن الحقِّ المُبينِ، وهو حقٌّ مُبيْن بلا شكٍّ؛ بَيِّنٌ ظاهرٌ، وعدَمُ سماعِ هؤلاء له ليس لخللٍ فيه؛ فالسَّببُ تامٌّ، لكنَّ الخللَ في المَحَلِّ، فهو غيرُ قابلٍ لهذا الحقِّ(١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ حَسُنَ جعْلُه سببًا للأمرِ بالتَّوكُّلِ؛ لأنَّ الإنسانَ ما دام يَطْمَعُ في أحدٍ أنْ يأخُذَ منه شَيئًا فإنَّه لا يقوى قلْبُه على إظهارِ مُخالَفتِه، فإذا قَطَعَ طمَعَه عنه قَوِيَ قلْبُه على إظهارِ مخالَفتِه، فاللهُ سبحانه وتعالى قَطَعَ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ عنهم بأنْ بَيَّنَ له أنَّهم كالموتى وكالصُّمِّ وكالعُمْيِ؛ فلا يَفهَمون ولا يَسمَعون ولا يُبصِرون ولا يَلتَفِتون إلى شَيءٍ مِنَ الدَّلائلِ، وهذا سببٌ لقوَّةِ قلْبِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على إظهارِ الدِّينِ كما ينبغي(٢).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ بيانُ أنَّ مُجَرَّدَ دعائك وتبليغك وحِرصِك على هُدى النَّاسِ، ليس بموجِبٍ ذلك، وإنَّما يَحصُلُ ذلك إذا شاء اللهُ هُداهم، فشَرَح صدورَهم للإسلامِ(٣).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا وَلَّى مُدْبِرًا عن الشَّرعِ فإنَّه قد يُعاقَبُ بالصَّمَمِ عن سَماعِ الحقِّ، بحيثُ إنَّه لا يَنتَفِعُ بمَوعظةٍ ولا نصيحةٍ، وهذا هو الغالِبُ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٥٣).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَملِكُ هدايةَ الخلْقِ، ولا يُعارِضُ هذا قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ لأنَّ الهدايةَ المُثبَتةَ غيرُ الهدايةِ المنفيَّةِ؛ الهدايةُ المُثبَتةُ هدايةُ الدَّلالةِ والعِلمِ والبيانِ، فالرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُعَلِّمٌ ومُبَيِّنٌ ودالٌّ للخلْقِ على الحقِّ، وأمَّا التَّوفيقُ لذلك فهو بيدِ اللهِ، فالجمْعُ بيْنَ الهدايةِ المُثْبَتةِ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، والمَنْفيَّةِ عنه أن نقولَ: ما أُثبِتَ للرَّسولِ فهو هدايةُ العِلمِ والبيانِ، وما نُفيَ عنه فهو هدايةُ التَّوفيقِ والعملِ، فلا يستطيعُ هذا أبدًا[١].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أنَّه كُلَّما قَوِيَ إيمانُ الإنسانِ بآياتِ اللهِ قوِيَ انتفاعُه بها؛ لأنَّه عُلِّقَ على وصْفِ الإيمانِ بهذه الآياتِ؛ فكُلَّما قَوِيَ هذا الوصفُ قَوِيَ الانتفاعُ[٢].

١٦- قال الله تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ في قَولِه: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أنَّ الإيمانَ يَستلزِمُ الإسلامَ[٣].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنَّ مِن أشراطِ الساعةِ الكبرى خروجَ الدَّابَّةِ[٤].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ﴾ بيانُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ كانت هذه الدَّابَّةُ تُكَلِّمُ الناسَ بكلامٍ يَفهمونه؛ مع أنَّ الحيواناتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٢).

تَتكلَّمُ بكلامٍ لا يَفْهَمُه الإنسُ إلَّا مَن عَلَّمَه اللهُ تعالى مَنْطِقَها، كما في قصَّةِ سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أنَّ عدَمَ اليقينِ بآياتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى سببٌ للـهَلاكِ، وأنَّه لا يكفي التَّردُّدُ أو الإيمانُ الضَّعيفُ، بل لا بُدَّ مِن إيقانٍ؛ فالمترَدِّدُ بما يجبُ الإيمانُ به ليس بمؤمِنٍ، فلا بُدَّ مِن اليقينِ بما يجبُ الإيمانُ به[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إبطالٌ لقولِ الذين كَفَروا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨]، ومَوقِعُ هذه الآيةِ استكمالُ نَواحي هَدْيِ القرآنِ للأُمَمِ؛ فإنَّ السُّورةَ افتُتِحَتْ بأنَّه هُدًى وبُشرى للمؤمنينَ، وأنَّ المشركين الَّذين لا يُؤمِنون بالآخرةِ يَعْمَهون في ضَلالِهم، فلمْ يَنتفِعوا بهَدْيِه؛ فاسْتَكمَلَتْ هذه الآيةُ ما جاء به مِن هَدْيِ بني إسرائيلَ لِمَا يُهِمُّ ممَّا اخْتَلفوا فيه[٣].

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) مَنظورٌ فيه إلى حالِ النَّاسِ لا إلى حالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فالتَّأكيدُ واقعٌ مَوقِعَ التَّعريضِ بهم[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تَعريضٌ كالتَّذييلِ[٥]، وهذا راجعٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٨٠).

إلى قولِه في طالعِ السُّورةِ: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢]؛ ذُكِرَ هنا لاستيعابِ جِهاتِ هَدْيِ القرآنِ[١].

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) واللَّام أيضًا مَنظورٌ فيه إلى حالِ النَّاسِ لا إلى حالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فالتَّأكيدُ واقعٌ مَوقِعَ التَّعريضِ بهم[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ، فيُعلَمُ أنَّ القضاءَ يَقْتضي مُختَلِفينَ، وأنَّ كلمةَ (بيْن) تَقْتضي مُتعدِّدًا، فأفاد أنَّ اللهَ يَقْضي بيْنَ المؤمنينَ بالقرآنِ والطَّاعنينَ فيه قضاءً يُبيِّنُ المُحِقَّ مِنَ المُبطِلِ. وهذا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وللمؤمنينَ عن اسْتبطائِهم النَّصرَ؛ فإنَّ النَّبيَّ أوَّلُ المؤمنينَ، وإنَّما تَقلَّدَ المؤمنون ما أنْبَأَهم به؛ فالقضاءُ للمؤمنينَ قضاءٌ له بادئَ ذي بَدْءٍ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في تَوجيهِ الخِطابِ إلى جنابِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وإسنادِ القضاءِ إلى اللهِ في شأْنِه بعُنوانِ أنَّه ربٌّ له: إيماءٌ بأنَّ القضاءَ سَيكونُ مُرْضِيًا له وللمؤمنينَ -فجُعِلَ الرَّسولُ في هذا الكلامِ بمَقامِ المُبلِّغِ، وجُعِلَ القضاءُ بيْنَ أُمَّتِه مؤمنِهم وكافرِهم-، وتَعجيلٌ لِمَسَرَّةِ الرَّسولِ بهذا الإيماءِ[٤].

- وإسنادُ القضاءِ إلى اللهِ، وتَعليقُ حُكمٍ مُضافٍ إلى ضَميرِه به في قولِه: ﴿يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، يعني: أنَّ ربَّك يَقْضي بيْنَهم بحُكْمِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المعروفِ المُشتهِرِ، اللَّائقِ بعُمومِ عِلْمِه واطِّرادِ عَدْلِه. أو يكونُ الحُكْمُ بمعنى الحِكمةِ، وهو إطلاقٌ شائعٌ؛ قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، ولم يكُنْ يَحيى عليه السلامُ حاكِمًا، وإنَّما كان حَكيمًا نَبيًّا؛ فيكونُ المعنى على هذا: إنَّ ربَّك يَقْضي بيْنَهم بحِكمتِه، أي: بما تَقْتضيهِ الحِكمةُ، أي: مِن نَصْرِ المُحِقِّ على المُبطِلِ. ومآلُ التَّأويلَينِ إلى معنًى واحدٍ، وبه يَظهَرُ حُسنُ مَوقِعِ الاسمينِ الجليلينِ في تَذييلِه بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ فإنَّ العزيزَ لا يُصانِعُ، والعِليمَ لا يَفوتُه الحقُّ، ويَظهَرُ حُسنُ مَوقِعِ التَّفريعِ بقولِه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ كأنَّه قِيل له صَلَواتُ اللهِ عليه: أَعرِضْ عنهم وتارِكْهم؛ لأنَّك بالَغْتَ في الإنذارِ وأعْذَرْتَ، وأنَّهم لا يُؤمِنون الْبَتَّةَ، ولم يَبْقَ لك إلَّا الاستِنصارُ، والتَّوكُّلُ على الغالبِ القاهرِ لأعدائِه، النَّاصرِ والمُتولِّي لِأوليائِه؛ لأنَّ الأصلَ: فتَوَكَّلْ عليه؛ لقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾؛ فوُضِعَ اسمُ الذَّاتِ ﴿ٱللَّهِ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ فأفاد في هذا المقامِ هذا المعنى[2].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لتَرتيبِ الأمْرِ على ما ذُكِرَ مِن شُؤونِه عزَّ وجلَّ؛ فإنَّها مُوجِبةٌ للتَّوكُّلِ عليه، وداعيةٌ إلى الأمْرِ به[3]، وفُرِّعَت الفاءُ على الإخبارِ بأنَّ ربَّ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَقْضي بيْنَ المُختلِفينَ في شأْنِ القرآنِ أمْرًا للرَّسولِ بأنْ يَطْمئِنَّ بالًا، ويَتوكَّلَ على ربِّه فيما يَقْضي به؛ فإنَّه يَقْضي له بحَقِّه، وعلى مُعانِدِه بما يَستحِقُّه؛ فالأمْرُ بالتَّوكُّلِ مُستعمَلٌ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٢، ٣٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٩).

كِنايتِه وصَريحِه؛ فإنَّ مِن لازِمِه أنَّه أدَّى رِسالةَ ربِّه، وأنَّ إعراضَ المُعرِضينَ عن أمْرِ اللهِ ليس تَقصيرًا مِن الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ. وهو معنًى تكرَّرَ في القرآنِ؛ كقولِه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ﴾ [الكهف: ٦]، وقولِه: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾[١] [النمل: ٧٠].

- قولُه: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ التَّوكُّلُ: تَفعُّلٌ مِن: وكَلَ إليه الأمْرَ: إذا أسنَدَ إليه تَدبيرَه ومُباشَرتَه؛ فالتَّفعُّلُ للمُبالَغةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جِيءَ في فِعلِ التَّوكُّلِ بعُنوانِ اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ ذلك الاسمَ يَتضمَّنُ معانيَ الكمالِ كلَّها، ومِن أعلاها العدْلُ في القضاءِ ونَصرُ المُحِقِّ، وذلك بعْدَ أنْ عُجِّلَتْ مَسرَّةُ الإيماءِ إلى أنَّ القضاءَ في جانبِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بإسنادِه القضاءَ إلى عُنوانِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ الرَّسولِ[٣].

- وجاءت جُملةُ ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ مَجيءَ التَّعليلِ للأمْرِ بالتَّوكُّلِ على اللهِ؛ إشعارًا بأنَّه على الحقِّ، فلا يَترقَّبُ مِن تَوكُّلِه على الحَكَمِ العدْلِ إلَّا أنْ يكونَ حُكمُه في تأْييدِه ونفْعِه، وشأْنُ (إنَّ) إذا جاءت في مَقامِ التَّعليلِ أنْ تكونَ بمعنى (الفاءِ)؛ فلا تُفيدُ تأْكيدًا، ولكنَّها للاهتِمامِ[٤].

- ووَقَعت ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ مَوقِعًا لم يُخاطِبِ اللهُ تعالى أحدًا مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٣، ٣٤).

رُسلِه بمِثْلِه؛ فكان ذلك شَهادةً لرسولِه بالعَظَمةِ الكاملةِ المُنزَّهةِ عن كلِّ نقْصٍ؛ لِمَا دلَّ عليه حرفُ (على) مِن التَّمكُّنِ، وما دلَّ عليه اسمُ (الحقِّ) مِن معنًى جامعٍ لحقائقِ الأشياءِ، وما دلَّ عليه وصْفُ (مُبين) مِن الوُضوحِ والنُّهوضِ[(١)].

٥- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ جوابًا عمَّا يَخطُرُ في بالِ السَّامعِ عقِبَ قولِه: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، مِن التَّساؤلِ عن إعراضِ أهْلِ الشِّركِ لِمَا عليه الرَّسولُ مِن الحقِّ المُبينِ[(٢)].

- وهو أيضًا تعليلٌ آخَرُ للأمْرِ بالتَّوكُّلِ على اللهِ -الذي هو عبارةٌ عن التَّبتُّلِ إلى اللهِ تعالَى، وتَفويضِ الأمرِ إليهِ، والإعراضِ عن التَّشبُّثِ بما سِواهُ-؛ فمَوقِعُ حرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) فيه كمَوقعِه في التَّعليلِ بالجُملةِ التي قبْلَه، وهذا عُذْرٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وتَسليةٌ له، ولكونِه تَعليلًا لجانبٍ مِن التَّركيبِ -وهو الجانبُ الكِنائيُّ- غيرَ الذي عُلِّلَ بجُملةِ ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]؛ لم تُعطَفْ هذه الجُملةُ على التي قبْلَها؛ تَنبيهًا على استِقلالِها بالتَّعليلِ[(٣)].

- قولُه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ شُبِّهوا بالمَوتى وهم أحياءٌ صِحاحُ الحَواسِّ؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا ما يُتْلى عليهم مِن آياتِ اللهِ لا تَعِيهِ آذانُهم، فكانت حالُهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٤).

-لانتفاءِ جَدْوى السَّماعِ- كحالِ المَوتى الَّذين فَقَدوا الحياةَ، وكذلك تَشبيهُهم بالصُّمِّ الَّذين يُنعَقُ بهم فلا يَسْمَعون. ولعلَّ المُرادَ تَشبيهُ قُلوبِهم بالمَوتى فيما ذُكِرَ مِن عدَمِ الشُّعورِ؛ فإنَّ القلبَ مَشْعَرٌ مِن المُشاعرِ أُشيرَ إلى بُطلانِه بالمرَّةِ، ثمَّ بُيِّن بُطلانُ مَشْعَرَيِ الأُذنِ والعَينِ، كما في قولِه تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وإلَّا فبَعْدَ تَشبيهِ أنفُسِهم بالمَوتى لا يَظهَرُ لتَشبيهِهم بالصُّمِّ والعُمْيِ مَزيدُ مَزِيَّةٍ[١].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ لَمَّا كان المَيتُ لا يُمكِنُ أنْ يَسمَعَ لم يُذكَرْ له مُتعلَّقٌ، بلْ نفَى الإسماعَ، أي: لا يقَعُ منك إسماعٌ لهم الْبَتَّةَ؛ لعَدمِ القابليَّةِ. وأمَّا الأصَمُّ فقد يكونُ في وقْتٍ يُمكِنُ إسماعُه وسماعُه؛ فأتى بمُتعلَّقِ الفِعلِ، وهو الدُّعاءُ[٢].

- وقولُه: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ مِن بابِ التَّتميمِ[٣]؛ فتَقييدُ الصُّمِّ بزَمانِ تَوَلِّيهم مُدْبرينَ؛ لأنَّ تلك الحالةَ أوغَلُ في انتفاءِ إسماعِهم؛ لأنَّ الأصمَّ إذا كان مُواجِهًا للمُتكلِّمِ قد يَسمَعُ بعضَ الكلامِ بالصُّراخِ ويَستفيدُ بَقيَّتَه بحَركةِ الشَّفتينِ، فأمَّا إذا ولَّى مُدبِرًا فقد ابتَعَدَ عن الصَّوتِ، ولم يُلاحِظْ حَركةَ الشَّفتينِ؛ فذلك أبعَدُ له عن السَّمعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠).

(٣) تقدم تعريفه.

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠)، ((الجدول في إعراب =

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ شُبِّهوا بالعُمْي حيثُ يَضِلُّون الطَّريقَ، ولا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يَنزِعَ ذلك عنهم، وأنَّ يَجعَلَهم هُداةً بُصراءَ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ففي الآيةِ حَصرٌ مُستفادٌ مِن تَقديمِ الضَّميرِ (أنت) وذِكْرِ حَرفِ النَّفيِ (ما) بعْدَه[1].

- وعُدِلَ في هذه الجُملةِ عن صِيغتَيِ النَّفْيَيْنِ السَّابقَينِ في قولِه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠] الواقعَينِ على مُسندَينِ فِعليَّينِ، إلى تَسليطِ النَّفيِ هنا على جُملةٍ اسميَّةٍ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ النَّفيِ. وأُكِّدَ ذلك الثَّباتُ بالباءِ المَزيدةِ لتأكيدِ النَّفيِ. ووَجْهُ إيثارِ هذه الجُملةِ بهذينِ التَّحقيقينِ: هو أنَّه لَمَّا أفْضى الكلامُ إلى نفْيِ اهتِدائِهم، وكان اهتِداؤُهم غايةَ مَطمَحِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ كان المَقامُ مُشعِرًا ببَقيَّةٍ مِن طَمَعِه في اهتدائِهم حِرْصًا عليهم؛ فأُكِّدَ له ما يَقلَعُ طمَعَه، وهذا كقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِى مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾[2] [ق: ٤٥].

- وقولُه: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لِتَرقُّبِ السَّامعِ

= القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٥، ٣٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٧).

مَعرفةَ مَن يَهْتَدون بالقرآنِ[١]. وإيرادُ الإسماعِ في النَّفيِ والإثباتِ دونَ الهِدايةِ مع قُرْبِها، بأنْ يُقالَ: إنْ تَهْدي إلَّا مَن يُؤمِنُ... إلخ؛ لِمَا أنَّ طريقَ الهِدايةِ هو إسماعُ الآياتِ التَّنزيليَّةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أُوثِرَ التَّعبيرُ بالمُضارِعِ؛ لِيَشمَلَ مَن آمَنوا مِن قبْلُ؛ فيُفِيد المُضارِعُ استمرارَ إيمانِهم ومَن سيُؤْمِنون[٣].

- وفرَّعَ على قولِه: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قولَه: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ المُفيدَ للدَّوامِ والثَّباتِ؛ لأنَّهم إذا آمَنوا فقد صار الإسلامُ راسخًا فيهم، ومُتَمَكِّنًا منهم، وكذلك الإيمانُ حين تُخالِطُ بَشاشَتُه القلوبَ[٤]. وقيل: هو تَعليلٌ لإيمانِهم بها، كأنَّه قِيلَ: فإنَّهم مُنقادونَ للحقِّ، وقيلَ: مُخلِصون للهِ تعالى[٥].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ بَيانٌ لِمَا أُشِيرَ إليه بقولِه تعالى: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢] مِن بقيَّةِ ما يَستعجِلونَهُ مِن السَّاعةِ ومَباديها[٦]. وانتِقالٌ إلى التَّذكيرِ بالقيامةِ وما ادُّخِرَ لهم مِن الوعيدِ؛ فهذه الجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُمَلِ قبْلَها عطْفَ قِصَّةٍ على قِصَّةٍ[٧].

- وقولُه: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ فيه التَّعبيرُ عن وُقوعِه بصِيغةِ الماضي؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٨).

لتَقريبِ زَمنِ الحالِ مِن المُضِيِّ، أي: أشرَفَ وُقوعُه، على أنَّ فِعلَ المُضِيِّ مع (إذا) يَنقلِبُ إلى الاستِقبالِ[١].

- قولُه: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ المُرادُ بـ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ ما نطَقَ مِن الآياتِ الكريمةِ بمَجيءِ السَّاعةِ وما فيها مِن فُنونِ الأَهوالِ التي كانُوا يَستعجِلُونها، وبوُقوعِه قِيامُها وحُصولُها -وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ-؛ عبَّرَ عن ذلكَ به للإيذانِ بشِدَّةِ وقْعِها وتأْثيرِها، وإسنادُه إلى القولِ؛ لِمَا أنَّ المُرادَ بَيانُ وُقوعِها مِن حيثُ إنَّها مِصْداقٌ للقولِ النَّاطقِ بمَجيئِها[٢].

- قولُه: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ في التَّعبيرِ عنها باسمِ الجِنسِ ﴿دَآبَّةً﴾ وتأكيدِ إبهامِه بالتَّنوينِ التَّفخيميِّ، مِنَ الدَّلالةِ على غَرابةِ شأنِها، وخُروجِ أوصافِها عن طَورِ البَيانِ: ما لا يَخْفى[٣].

- وجُملةُ ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ تَعليلٌ لإظهارِ هذا الخارقِ للعادةِ؛ حيث لم يُوقِنِ المُشركون بآياتِ القرآنِ، فجُعِلَ ذلك إلجاءً لهم حينَ لا يَنفَعُهم[٤]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

- وفي قولِه: ﴿كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وصَفَهم بعَدمِ الإيقانِ بها مع أنَّهم كانُوا جاحِدينَ بها؛ للإيذانِ بأنَّه كان مِن حقِّهم أنْ يُوقِنوا بها ويَقْطَعوا بصِحَّتِها، وقد اتَّصَفوا بنَقيضِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠١).

الآيات (٨٢-٨٥)

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَوْجًا﴾: أي: زُمْرةً وجماعةً، والفَوجُ: الجماعةُ مِن الناسِ، وأصلُ (فوج): يدُلُّ على تجمُّعٍ[(١)].

﴿يُوزَعُونَ﴾: أي: يُدفَعونَ، ويُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم، وأصلُ (الوَزْع): الكفُّ والمنعُ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبَيِّنًا بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ نجمَعُ من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

قال الشنقيطيُّ: (﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُرَدُّ أوَّلُهم إلى آخِرِهم، ويلحقُ آخِرُهم بأوَّلِهم، حتَّى يجتمِعوا جميعًا، ثمَّ يُدفَعون في النَّارِ، وهو مِن قولِ العربِ: وَزَعْتُ الجَيشَ؛ إذا حبسْتَ أوَّلَه على آخِرِه حتَّى يَجتمِعَ. وأصلُ الوَزْعِ: الكَفُّ، تقولُ العربُ: وَزَعَه يَزَعُه وَزْعًا فهو وازِعٌ له؛ إذا كفَّه عن الأمرِ... وبما ذكَرْنا تَعلَمُ أنَّ أصلَ معنَى ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: يُكَفُّ أوَّلُهم عن التَّقدُّمِ، وآخِرُهم عن التَّأخُّرِ حتَّى يَجتمِعوا جميعًا. وذلك يدُلُّ على أنَّهم يُساقُون سَوقًا عنيفًا، يُجمَعُ به أوَّلُهم مع آخِرِهم). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٥).

كلِّ أمةٍ جماعةً كثيرةً ممَّن يُكذِّبُ بآياتِ القُرآنِ وحُجَجِه، فيُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم حتَّى يجتَمِعوا جَميعًا، فلمَّا جاؤوا قال اللهُ لهم مُوبِّخًا: أكذَّبتُم بآياتي وأنتم جاهِلونَ بها لم تَعرِفوها حقَّ مَعرفتِها، أم ما الَّذي كنتُم تَعملونَه؟!

ونزَل عذابُ اللهِ وغضَبُه يومَ القيامةِ على أولئك المكَذِّبينَ؛ بسَبَبِ ظُلمِهم، فهم لا يَنطِقونَ بحُجَّةٍ أو عُذرٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن فِعلِ الدَّابَّةِ التَّمييزُ بيْنَ المؤمِنِ والكافِرِ بما لا يَستطيعون دَفْعَه، تلاه بتمييزِ كُلِّ فَريقٍ منهما عن صاحِبِه بجَمعِهم يومَ القيامةِ في ناحيةٍ، وسَوقِهم مِن غيرِ اختلاطٍ بالفريقِ الآخَرِ، فقال عاطفًا على العامِلِ في ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾[1]:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾.

أي: واذكُرْ[2] يومَ نَجمَعُ مِن كُلِّ أمَّةٍ مِن الأُمَمِ جماعةً كثيرةً مِمَّن[3] يُكذِّبُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٨).

(٢) قال الشوكاني: (﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ العاملُ في الظَّرفِ، فِعلٌ محذوفٌ خُوطِب به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ...، ومعنَى الآيةِ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ نجمعُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ...). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٧).

(٣) قيل ﴿مِن﴾ هنا بيانيَّةٌ، فيكونُ فَوجُ كُلِّ أمةٍ هو جماعةَ المكذِّبينَ منها، أي: يُحشَرُ مِن الأمَّةِ كُفَّارُها، ويبقَى صالحوها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٦٧).

وقيل: يجوزُ جَعْلُ (مِن) تبعيضيَّةً؛ بأن يكونَ المعنى إخراجَ فَوجٍ مِن المكذِّبينَ مِن كُلِّ أمَّةٍ، وهذا الفَوجُ هو زُعَماءُ المكَذِّبين وأئمَّتُهم، فيكونون في الرَّعيلِ الأوَّلِ إلى العذابِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٠).

بآياتِ القُرآنِ وحُجَجِنا الدَّالَّةِ على الحَقِّ[١].

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

أي: فيُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم، فيَجتَمِعونَ جميعًا[٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾.

أي: فلمَّا جاؤوا إلى الموضِعِ الذي أراده اللهُ لِتَبكيتِهم، قال لهم مُوبِّخًا: أكذَّبتُم بآياتِ كِتابي وحُجَجي، والحالُ أنَّكم جاهِلونَ بها لم تَعرِفوها حقَّ مَعرِفتِها[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٨، ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

قيل: المرادُ: يُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم لِيَجتَمِعوا ثُمَّ يُساقون إلى النَّارِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والرازي، والعليمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٢٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٧١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥).

وقيل: إنَّما يُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم حتَّى يَجتمِعوا ثُمَّ يُساقون إلى مَوضِعِ الحِسابِ لِيَعُمَّهم السُّؤالُ والتَّوبيخُ واللَّومُ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، والنسفي، وأبو السعود، والألوسي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير =

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: أم ما الَّذي كنتُم تَعمَلونَه[١]؟!

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾.

أي: ووجَبَ عذابُ اللهِ وغَضَبُه يومَ القيامةِ على أولئك المكَذِّبينَ؛ بسَبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم في الدُّنيا بتكذيبِهم آياتِ اللهِ سُبحانَه[٢].

﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾.

أي: فلا يَستطيعُ أولئك المكَذِّبونَ أن يَنطِقوا بحُجَّةٍ أو عُذرٍ يَدفَعُ عنهم العَذابَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٥ - ٣٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذه الآيةُ تُوجِبُ أنَّ الإنسانَ لا يُكذِّبُ إلَّا بخبرٍ يعلَمُ ويَعرِفُ أنَّه كَذِبٌ،

= ابن عاشور)) (٢٠/ ٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٠، ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٢).

والخبَرُ المجهولُ يَسكُتُ عنه، كقَولِه تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، فلا يُكذِّبُ به ولا يَقْفُوه ويَتْبَعُه، كما أمَر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ فيما حدَّثَنا أهلُ الكِتابِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ سؤالٌ: هذه الآيةُ يدُلُّ ظاهرُها على أنَّ الحشرَ خاصٌّ بهؤلاءِ الأفواجِ المكَذِّبةِ، وقولُه بعدَ هذا بقليلٍ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] يدُلُّ على أنَّ الحشرَ عامٌّ، كما صرَّحتْ به الآياتُ القرآنيةُ عن كثرةٍ؟

الجوابُ: أنَّ قولَه: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] يُرادُ به الحشرُ العامُّ، وقولَه: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ﴾ أي: بعْدَ الحشرِ العامِّ يَجمَعُ اللهُ المكذِّبين للرُّسُلِ مِن كلِّ أُمَّةٍ؛ لأجْلِ التَّوبيخِ المنصوصِ عليه بقَولِه: ﴿أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فالمرادُ بالفَوجِ مِن كلِّ أُمَّةٍ: الفَوجُ المكذِّبُ للرُّسلِ يُحشَرُ للتَّوبيخِ حَشرًا خاصًّا؛ فلا يُنافي حشرَ الكلِّ لفَصلِ القَضاءِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا﴾ عِظَمُ الإمامةِ في السُّوءِ، كما أنَّها أيضًا عَظيمةٌ في الخيرِ؛ فالإمامُ في الخَيرِ له أجرُ مَن اتَّبَعَه، والإمامُ في الشَّرِّ عليه وِزرُ مَن اتَّبعَه؛ فالإمامةُ في الخَيرِ أو في الشَّرِّ هي أمرٌ عَظيمٌ، وخيرُ النَّاسِ مَن دَلَّهم إلى الخَيرِ، وشَرُّ النَّاسِ مَن دَلَّهم على الشَّرِّ[٣]، وذلك على أحدِ الأقوالِ

---

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيميَّة (٨/ ٢٨٨).

ويُنظر ما أخرجه البخاري (٤٤٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٢).

في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ فيه مِن الدَّلالةِ على كَثرةِ عَدَدِهم وتَباعُدِ أطْرافِهم ما لا يَخْفى[١].

٤- في قَولِ الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إثباتُ الكلامِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم﴾، وأنَّه بحَرفٍ؛ لأنَّ الجُمَلَ الَّتي هي مَقولُ القولِ حُروفٌ، وأنَّه بصوتٍ؛ لأنَّهم لولا أنَّهم يَسمَعونَ لم يكُنْ لهذا فائدةٌ، ولا سماعَ إلَّا بصَوتٍ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ ذَمٌّ لِمَن كذَّبَ بما لم يُحِطْ بعِلمِه[٣]، والتَّكذيب يزدادُ قُبْحُه إذا لم يُحِطِ الإنسانُ علمًا بما كَذَّبَ به[٤].

٦- قَولُه تعالى: ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ فيه إثباتُ السَّبَبِ؛ لأنَّ الباءَ هنا للسَّببيَّةِ، وإثباتُ الأسبابِ هو مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وأنَّ الأمورَ مَقرونةٌ بأسبابِها[٥].

٧- قولُه تعالَى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ ظاهرُه أنَّ الكفَّارَ لا يَنطقونَ يومَ القيامةِ، كما يُفهَمُ ذلك مِن قولِه تعالَى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦]، وقولِه تعالَى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ الآيةَ [الإسراء: ٩٧]، مع أنَّه بَيَّنَتْ آياتٌ أُخَرُ مِن كتابِ اللهِ أنَّهم يَنطِقونَ يومَ القيامةِ ويَعتذِرونَ؛ كقولِه تعالَى عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧٦).

كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقولِه تعالَى عنهم: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ﴾ [النحل: ٢٨]، وقولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ الآيةَ [السجدة: ١٢]، وقولِه تعالَى عنهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧]، وقولِه تعالَى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ ﴾ [الزخرف: ٧٧]؟

فالجوابُ عن ذلك: أنَّ القيامةَ مواطِنُ؛ ففي بعضِها يَنطِقونَ، وفي بعضِها لا يَنطِقونَ، فإثباتُ النُّطقِ لهم ونفْيُه عنهم كِلاهما منزَّلٌ على حالٍ ووقتٍ غيرِ حالِ الآخَرِ ووقتِه.

وقيل: إنَّ نُطقَهم المُثبَتَ لهم خاصٌّ بما لا فائدةَ لهم فيه، والنُّطْقَ المَنفِيَّ عنهم خاصٌّ بما لهم فيه فائدةٌ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ بَيانٌ إجماليٌّ لحالِ المُكذِّبينَ عندَ قِيامِ السَّاعةِ بعدَ بَيانِ بعضِ مَبادِيها[(٢)]. وتَوجيهُ الأمْرِ بالذِّكرِ إلى الوقتِ -مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما وقَعَ فيه مِن الحوادثِ-؛ لِمَا أنَّ إيجابَ ذِكْرِ الوقتِ إيجابٌ لذِكْرِ ما وقَعَ فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ، ولأنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ عليها، فإذا استُحضِرَ كانت حاضرةً بتَفاصيلِها كأنَّها مُشاهَدةٌ عِيانًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٣، ١٤٤)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ على وَجْهِ انتصابِ (يَوْمَ) على أنَّه ظرفٌ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم﴾ [النمل: ٨٤]؛ فيكونُ مُقدَّمًا عليه للاهتمامِ به[١].

٢- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ لم يُذكَرِ المَوضِعُ الذي جاؤوه؛ لِظُهورِه، وهو مكانُ العذابِ، أي: جهنَّم، كما قال في الآيةِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾[٢] [فصلت: ٢٠].

- قولُه: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ فيه التِفاتٌ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ؛ لتَربيةِ المَهابةِ[٣].

- يجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ تَوبيخيًّا مُستعمَلًا في لازِمِه، وهو الإلجاءُ إلى الاعترافِ بأنَّ المُستفهَمَ عنه واقعٌ منهم تَبْكيتًا لهم، ولهذا عُطِفَ عليه قولُه: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ فحَرْفُ (أَمْ) فيه بمَعنى (بلْ) للانتقالِ، ومُعادِلُ همْزةِ الاستفهامِ المُقدَّرةِ مَحذوفٌ؛ دلَّ عليه قولُه: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، والتَّقديرُ: أكذَّبْتُم بآياتي أمْ لم تُكذِّبوا، فماذا كُنتم تَعمَلون إنْ لم تُكذِّبوا؛ فإنَّكم لم تُوقِنوا، فماذا كُنتم تَعمَلون في مدَّةِ تَكريرِ دَعوتِكم إلى الإسلامِ؟ ومِن هنا حصَلَ الإلجاءُ إلى الاعترافِ بأنَّهم كذَّبوا. ومِن لطائفِ البلاغةِ أنَّه جاء بالمُعادِلِ الأوَّلِ مُصرَّحًا به؛ لأنَّه المُحقَّقُ منهم، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٢).

﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي﴾، وحُذِفَ مُعادِلُه الآخَرُ؛ تَنبيهًا على انتفائِه، كأنَّه قيل: أهوَ ما عُهِدَ منكم مِن التَّكذيبِ أمْ حدَثَ حادثٌ آخَرُ؟ فجُعِلَ هذا المُعادِلُ مُتردِّدًا فيه، وانتَقَلَ الكلامُ إلى استفهامٍ، وهذا تبْكيتٌ لهم. ويجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ تَقْريريًّا، وتكونَ (أَمْ) مُتَّصِلةً، وما بعْدَها هو مَعادِلَ الاستفهامِ باعتبارِ المعنى، كأنَّه قيل: أكذَّبْتم أمْ لم تُكَذِّبوا، فماذا كُنتم تَعمَلون إنْ لم تُكذِّبوا؛ فإنَّكم لم تَتَّبِعوا آياتي[١]؟!

- وفِعلُ ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي﴾ هو صَدرُ الجُملةِ في التَّقديرِ، وما قبْلَه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ مُقدَّمٌ مِن تأخيرٍ للاهتمامِ، والتَّقديرُ: وقال: أكذَّبْتُم بآياتي يومَ نَحشُرُ مِن كلِّ أُمَّةٍ فوجًا، وحين جاؤوا...[٢].

- قولُه: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ أي: لم يُحِطْ عِلْمُكم بها؛ فعُدِلَ عن إسنادِ الإحاطةِ إلى العلْمِ إلى إسنادِها إلى ذواتِ المُخاطَبينَ؛ لِيَقَعَ تأكيدُ الكلامِ بالإجمالِ في الإسنادِ، ثمَّ التَّفصيلِ بالتَّمييزِ. وإحاطةُ العِلْمِ بالآياتِ مُستعمَلةٌ في تَمكُّنِ العِلمِ، حتَّى كأنَّه ظَرفٌ مُحيطٌ بها، وهذا تَعييرٌ لهم وتَوبيخٌ بأنَّهم كذَّبوا بالآياتِ قبْلَ التَّدبُّرِ فيها[٣].

- وأيضًا جُملةُ ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ، مُفيدةٌ لزيادةِ شَناعةِ التَّكذيبِ وغايةِ قُبْحِه، ومُؤكِّدةٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ

---

(١) يُنظر: ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٢).

الواوُ للحالِ، والمعنى: يُقال لهم: أكذَّبْتم بآياتي وقد وقَعَ القولُ عليهم. وهذا القولُ هو القولُ السَّابقُ في آيةِ ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٨٢]؛ فإنَّ ذلك القولَ مُشتمِلٌ على حوادثَ كثيرةٍ، فكُلَّمَا تحقَّق شَيءٌ منها فقد وقَعَ القولُ، والتَّعبيرُ بالماضي ﴿وَقَعَ﴾ هنا على حَقيقتِه، وأُعِيدَ ذِكْرُه تَعظيمًا لِهَولِه. ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ عاطفةً، والقولُ هو القولَ الأوَّلَ، وعُطِفَت الجُملةُ على الجُملةِ المُماثِلةِ لها؛ لِيُبْنَى عليها سبَبُ وُقوعِ القولِ، وهو أنَّه بسَببِ ظُلْمِهم، ولِيُفرَّعَ عليه قولُه: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾. والتَّعبيرُ بفِعلِ المُضِيِّ على هذا الوجْهِ؛ لأنَّه مُحقَّقُ الحصولِ في المُستقبَلِ، فجُعِلَ كأنَّه حصَلَ ومَضى(١).

- وجُملةُ ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ مُفرَّعةٌ على ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾، أي: وقَعَ عليهم وُقوعًا يَمنَعُهم الكلامَ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨٦-٨٨)

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿الصُّورِ﴾: أي: القرنُ يَنفخُ فيه إسرافيلُ[١].

﴿دَاخِرِينَ﴾: أي: صاغِرينَ أذِلَّاءَ، وأصلُ (دخر): يدُلُّ على الذُّلِّ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى منبِّهًا على قدرتِه التَّامَّةِ، وسلطانِه العظيمِ: ألم يَرَ أولئك المكَذِّبون بآياتِنا أنَّا جعَلْنا اللَّيلَ مُظلِمًا؛ لِيَستريحوا فيه مِنَ النَّصَبِ والتَّعَبِ، وجعَلْنا النَّهارَ ضياءً؛ لِيَنتَشِروا فيه طَلبًا لمعايشِهم؟ إنَّ في خَلقِ اللَّيلِ والنَّهارِ واختِلافِهما لَدَلالاتٍ لِقَومٍ يُؤمِنونَ باللهِ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى أهوالَ يومِ القيامةِ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُنفَخُ في البُوقِ فيَفزَعُ كُلُّ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ إلَّا مَن شاء اللهُ، وكُلُّهم جاؤوا اللهَ خاضِعينَ ذليلينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥).

وترى الجبالَ تَظُنُّها ثابتةً، ولكِنَّها في الحقيقةِ تتحرَّكُ كالسَّحابِ، خَلْقَ اللهِ الَّذي أجاد وأحكَمَ كُلَّ شَيءٍ، إنَّ اللهَ يعلَمُ ما تفعَلون وسيُجازيكم عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خوَّفَهم اللهُ سُبحانَه وتعالى بأحوالِ القيامةِ؛ ذَكَرَ كلامًا يَصلُحُ أنْ يكونَ دليلًا على التَّوحيدِ وعلى الحَشرِ وعلى النُّبوَّةِ؛ مبالغةً في الإرشادِ إلى الإيمانِ والمنعِ مِن الكُفرِ، فقال[1]:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾.

أي: ألم يَرَوا[2] أنَّا جعَلْنا اللَّيلَ مُظلِمًا لِتَسكُنَ فيه أبدانُهم عن الحَركةِ، ويَستريحوا فيه مِن النَّصَبِ والتَّعَبِ؛ وجعَلْنا النَّهارَ ضياءً لِيَنتشِروا فيه؛ طلبًا لمعايشِهم وغيرِها، فجعَلْناهما مختَلِفَينِ ومُتعاقِبَينِ لمصالحِهم[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٣).

(٢) قيل: المرادُ: ألم يَرَ أولئك المكَذِّبون بآياتِنا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠، ١٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٧٣).

وذهَب مقاتلُ بنُ سليمانَ والسمرقنديُّ إلى أنَّ المرادَ كفَّارُ مكةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٤).

والرُّؤيةُ هنا قيل: يجوزُ أن تكونَ عِلميَّةً، ويجوزُ أن تكونَ بصَريَّةً. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٣).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: الرُّؤيةُ العِلميَّةُ والبصَريَّةُ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتًا ۞ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ٩ - ١١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾.

أي: إنَّ في خَلقِ اللَّيلِ والنَّهارِ واختِلافِهما على تلك الصِّفةِ لَدَلالاتٍ لِقَومٍ يُؤمِنونَ باللهِ، ومِن ذلك الدَّلالةُ على توحيدِه وقُدرتِه على إحياءِ الموتى[1].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦].

﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الحَشرَ الخاصَّ، والدَّليلَ على مُطلَقِ الحَشرِ والنَّشرِ؛ ذكَرَ الحَشرَ العامَّ؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّه إنما يُحشَرُ الكافِرُ، فقال مُشيرًا إلى عُمومِهم بالموتِ كما عَمَّهم بالنَّومِ، وعُمومِهم بالإحياءِ كما عَمَّهم بالإيقاظِ[2]:

﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

= كثير)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢١).

أي: واذكُرْ[١] يومَ يَنفُخُ المَلَكُ بأمرِ اللهِ في البُوقِ[٢] فيَنزعِجُ ويَرتاعُ كُلُّ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ، إلَّا مَن شاء اللهُ ألَّا يَفزَعَ[٣].

---

(١) قال الألوسي: (و«يَوْمَ» منصوبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ، خُوطِب به نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أي: اذكُرْ يومَ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٣٦).

(٢) ممَّن اختار أنَّهما نفختان: نفخةُ الفزعِ والصَّعقِ، ونفخة البَعثِ: القرطبيُّ، وابن حجر، وابن باز، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٤٦)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن باز (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة النمل)) (ص: ٤٨٦).

ومنهم مَن رجَّح أنَّها ثلاثُ نَفَخاتٍ: نفخةُ الفَزَعِ أوَّلًا، وهي للأحياءِ الذين بَقُوا في آخِرِ ساعاتِ الدُّنيا، ثمَّ نفخةُ الصَّعقِ والموتِ لهم، ثمَّ نفخةُ البعثِ والقيامِ مِن القبورِ لرَبِّ العالمينَ، وهي لجميعِ الخلائق. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ تيميَّةَ، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٨).

ومنهم مَن رجَّح أنَّ النَّفَخاتِ أربعٌ: اثنتان قبْلَ يومِ القيامةِ، واثنتانِ في يومِ القيامةِ؛ فأمَّا النَّفختانِ قبْلَ القيامةِ فهُما نفخةٌ للموتِ، ونفخةٌ للبعثِ -قيل: هما المذكورتان في سورةِ (يس)-. وأمَّا النَّفختانِ يومَ القيامةِ: فنَفخةُ الفَزَعِ والصَّعقِ الَّتي يغشى فيها الخلائقُ -ولا يموتون- إلَّا مَن شاء اللهُ، ثمَّ نفخةٌ أخرى لقيامِهم وإفاقتِهم. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٢٢، ٢٢٣) و (١٦/ ٥٥١، ٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٤، ١٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٩، ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٦).

قيل: إنَّ الَّذين استثناهم اللهُ تعالى في هذا الموضِعِ مِن أن يَنالَهم الفَزَعُ يومَئذٍ: هم الشُّهداءُ؛ وذلك أنَّهم أحياءٌ عندَ ربِّهم يُرزَقون، وإن كانوا في عِدادِ الموتى عندَ أهلِ الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى ذلك: القرطبيُّ، وابن كثير، ونسبه الرسعني لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٠٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو هريرةَ، وابنُ عبَّاس، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٢).

وقيل: الاستثناءُ مجمَلٌ يبيِّنُه قولُه تعالى بعْدَه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] إلى =

﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾.

أي: وكُلُّ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ جاؤوا إلى اللهِ بذُلٍّ وخُضوعٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى دخورَهم، أتبَعَه بدُخُورِ ما هو أعظمُ منهم، بقَولِه تعالى[(٢)]:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾.

أي: وترَى[(٣)] .....

= قولِه: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٦).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤١).

قال ابن عثيمين: (وهذا المبهَمُ في الآيةِ الصَّحيحُ أنَّه ليس معلومًا لنا؛ ولذلك أشكَلَ على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: هل كان موسى ممَّن صَعِقَ أو ممَّن استثنى اللهُ، فدَلَّ هذا على أنَّه ليس معلومًا للنَّاسِ مَن هم المُستثنَون، وهذا يرجِعُ إلى كمالِ ربوبيَّةِ الله سُبحانَه وتعالى). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٤٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٧٧).

(٣) قيل: المخاطَبُ هو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والثعلبي، =

الجِبالَ تظُنُّها ثابتةً ساكِنةً، ولكِنَّها في الحقيقةِ تتحرَّكُ كالسَّحابِ[(١)].

= ومكِّي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٩).

وقيل: المخاطَبُ هو الإنسانُ عُمومًا. وممَّن قال بهذا: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٩٤).

وقال القاسمي: (إنه خِطابٌ لجَنابِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وإيذان الأمرِ له بالأصالةِ مع اشتراكِ غيرِه في هذه الرُّؤيةِ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٤، ١٤٥).

ممَّن ذهب إلى أنَّ هذا الأمرَ يقَعُ يومَ القيامةِ: ابنُ عطية، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٩٤).

وممَّا يدُلُّ على أنَّ قولَه: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يكونُ يومَ القيامةِ، أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿فَفَزِعَ﴾، وذلك المعطوفُ عليه مُرَتَّبٌ بالفاءِ على قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآيةَ، أي: ويومَ يُنفَخُ في الصُّورِ، فيَفزَعُ مِن في السَّمواتِ وتَرى الجِبالَ؛ فدلَّتْ هذه القرينةُ القُرآنيَّةُ الواضحةُ على أنَّ مَرَّ الجبالِ مَرَّ السَّحابِ كائنٌ يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ، لا الآنَ. فالجبالُ في الدُّنيا راكدةٌ ثابتةٌ، أرساها اللهُ وجعَلَها أوْتادًا للأرضِ، وأمَّا يومَ القيامةِ فتَسيرُ الجبالُ وتذهَبُ وتَضمَحِلُّ؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، وهذا المعنى هو الغالبُ في القرآنِ؛ لأنَّ جميعَ الآياتِ الَّتي فيها حرَكةُ الجبالِ كلُّها في يومِ القيامةِ.

وأمَّا قولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، فقد جاء نحوُه في آياتٍ كثيرةٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقولِه تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وتسييرُ الجبالِ وإيجادُها ونصْبُها قبْلَ تسييرِها، كلُّ ذلك =

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

أي: ذلك مِن فِعْلِ وخَلْقِ اللهِ الذي أجاد وأوثَقَ وأحكَمَ كُلَّ شَيءٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يعلَمُ ما تَفعلونَه مِن خيرٍ وشرٍّ، وسيُجازيكم على جَميعِ أعمالِكم؛ فلْتَحذَروا مُخالَفةَ أمرِه(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أنَّه ينبغي للعاقلِ أنْ يَعتبرَ بهذه الآياتِ، وأنَّ الاعتبارَ بها مِن الإيمانِ؛ لقولِه تعالى

= صُنْعٌ مُتْقَنٌ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٤، ١٤٥)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٦)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن باز (٢٧/ ٣٢٤).

وذهب بعضُ المفسِّرينَ المعاصرين -كابن عاشور، والشعراوي، والجزائري- إلى أنَّ هذا واقعٌ في الدُّنيا، وأنَّه إشارةٌ إلى دوَرانِ الأرضِ حولَ الشَّمسِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٨ - ٥٠)، ((تفسير الشعراوي)) (١٧/ ١٠٨٥٧ - ١٠٨٥٩)، ((أيسر التفاسير)) للجزائري (٤/ ٤٧).

ونسَبَ القاسميُّ هذا القولَ إلى بعضِ علماءِ الفلكِ، وذكر ما احتجُّوا به على قولِهم. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٠٨-٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

بعدَها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ تحذيرُ المرءِ أن يَعمَلَ ما يُخالِفُ حُكمَ اللهِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ سؤالٌ: لَمَّا قال: ﴿جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، فلِمَ لم يَقُلْ: «والنَّهارَ لِيُبصِروا فيه»؟!

الجوابُ: لأنَّ السُّكونَ في اللَّيلِ هو المقصودُ مِن اللَّيلِ، وأمَّا الإبصارُ في النَّهارِ فليس هو المقصودَ، بل هو وسيلةٌ إلى جَلبِ المنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ الانتفاعَ بالآياتِ هو بقَدْرِ ما مع الإنسانِ مِن الإيمانِ؛ لأنَّها رُتِّبَت على وصْفٍ، والمرتَّبُ على وصفٍ يَزيدُ بزيادتِه، ويَنقُصُ بنُقصانِه[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه كمالُ الرُّبوبيَّةِ والسُّلطانِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ ووجْهُ ذلك أنَّ العظيمَ إذا أَبْهَم ما يَتَصَرَّفُ به دلَّ هذا على أنه لا مُعارِضَ له[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ سؤالٌ: كيف قال ﴿دَٰخِرِينَ﴾ أي: صاغِرينَ أَذِلَّاءَ بعْدَ البعثِ، مع أنَّ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءَ والصَّالحينَ يأتون عَزيزينَ مُكرَّمينَ؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٨٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٩٢).

الجوابُ: المرادُ صَغارُ العبوديَّةِ والرِّقِّ وذُلُّهما، لا ذُلُّ المعاصي والذُّنوبِ، وذلك يَعُمُّ الخلْقَ كلَّهم، كما في قولِه تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾[1] [مريم: ٩٣].

٥- قال تعالى: ﴿وَكُلُّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ (كُلٌّ) لَفْظُها لفظُ واحدٍ، ومعناها معنى جمْعٍ؛ فلذلك عاد إليها ضميرُ جمْعٍ هنا: ﴿وَكُلُّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾، وعاد إليها ضميرُ واحدٍ في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وأُفرِدَ خبَرُها في قولِه تعالى: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٥]، وجُمِع في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَكُلُّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾[2].

٦- قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ بظاهرِها على أنَّ الجبالَ يَظُنُّها الرَّائي ساكنةً وهي تسيرُ، وقد جاءتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على أنَّ الجبالَ راسيةٌ، والرَّاسي هو الثابتُ في مَحَلٍّ، كقولِه تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، وقولِه: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل: ١٥]، وقولِه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [الحجر: ١٩]، وقولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧]!

ووجْهُ الجمعِ ظاهرٌ، وهو أنَّ قولَه: ﴿أَرۡسَىٰهَا﴾ ونحوَه يعني في الدُّنيا، وقولَه: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يعني: في الآخرةِ؛ بدليلِ قولِه: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ثمَّ عَطَف على ذلك قولَه: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ﴾. وممَّا يدُلُّ على ذلك النُّصوصُ القرآنيَّةُ على أنَّ سيرَ الجبالِ في يومِ القيامةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، وقولِه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ٥٩).

فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[١] [النبأ: ٢٠].

٧- قوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فيه جوازُ إضافةِ الصُّنعِ إلى اللهِ، ولا يؤخَذُ منه إثباتُ اسمِ الصانعِ للهِ، لكنْ يُخبَرُ به عن اللهِ، فيقالُ: إنَّ اللهَ تعالى صانِعُ كلِّ شيءٍ -على سبيلِ الخبريَّةِ-، وأمَّا إثباتُ اسمِ الصَّانعِ فلا[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ إثباتُ الحِكمةِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه لا إتقانَ إلَّا بحكمةٍ، فلا يمكِنُ أنْ يُتقَنَ الشَّيءُ إلَّا بعِلمٍ مِن المُتقِنِ كيف يُتقِنُه، والثَّاني: بحِكمةٍ؛ بحيثُ يُنزِلُ كلَّ شيءٍ مَنزلتَه، وإلَّا فاتَ الإتقانُ، فلا يُتقِنُ الشَّيءَ مَن لا يَعلَمُ كيف يُتقِنُه، فهذا ليس بمُمكنٍ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ قطعُ اعتراضِ كلِّ معترِضٍ على ما يَحدثُ في الكونِ مِن تدبيراتٍ أو تشريعاتٍ، ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ أتقَنَه، واللهُ تبارك وتعالى أعلَمُ وأحكمُ مِن عبادِه، فأنت متى عَلِمْتَ هذا الشَّيءَ انقطعَ عنك كلُّ اعتراضٍ، سواءٌ سَمِعتَه مِن غيرِك أو أورَدْتَه على نفْسِك[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ كمالُ عِلمِ اللهِ سبحانه وتعالى، وذلك بالخبرةِ الَّتي هي أخَصُّ مِن مُطلَقِ العِلمِ؛ لأنَّ الخبرةَ هي العِلمُ ببواطنِ الأمورِ[٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ سؤالٌ؛ وهو أنَّه كان مقتضى

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٠٣).

السِّياقِ ألَّا تُخْتَمَ الآيةُ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾، بل تُخْتَمُ بقولِه: «إنَّه عليمٌ حكيمٌ» أو «إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ» وما أشبَهَ ذلك؛ لقولِه: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾، وهذا يقتضي أنْ تُخْتَمَ الآيةُ بما يدُلُّ على القدرةِ والحكمةِ؛ ولكنها خُتِمَتْ بما يدُلُّ على العِلمِ والخبرةِ -العِلمِ بما يفعلُ العِبادُ-. فما الجوابُ عن هذا العدولِ؛ عن الأوَّلِ إلى الثَّاني؟

الجوابُ -واللهُ أعلمُ-: أنَّ الحكمةَ مِن ذلك هي أنَّ قولَه: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ جملةٌ معترِضةٌ بالنِّسبةِ للمعنى، لا بالنِّسبةِ للإعرابِ، وأنَّ المقامَ يقتضي الإخبارَ بأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يَعْلَمُ ما يَفعلون؛ لأنَّ يومَ القيامةِ هو يومُ الجزاءِ، والجزاءُ مُرَتَّبٌ على العِلمِ؛ فلهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾، نظيرُه قولُه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧]، فيكونُ هنا ذِكْرُ العلمِ بما يفعلُ النَّاسُ في سياقِ يومِ القيامةِ للإشارةِ إلى أنَّ هذا اليومَ هو يومُ الجزاءِ الَّذي يجبُ على المرءِ أن يَعمَلَ له ويَحتاطَ له[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾ [النمل: ٨٥]، أي: بما أشْرَكوا، فذَكَّرَهم بدَلائلِ الوَحدانيَّةِ بذِكْرِ أظْهَرِ الآياتِ وأكثَرِها تَكرارًا على حَواسِّهم، وأجدَرِها بأنْ تكونَ مُقنِعةً في ارْعوائِهم عن شِرْكِهم. وهي آيةٌ مُلازِمةٌ لهم طولَ حَياتِهم، تَخطُرُ ببالِهم مرَّتينِ كلَّ يومٍ على الأقلِّ. وفيها تَذكيرٌ بتَمثيلِ الموتِ والحياةِ بعْدَه، بسُكونِ اللَّيلِ وانبثاقِ النَّهارِ عَقِبَه.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٩٨).

والجُملةُ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ [النمل: ٨٥] وجُملةِ ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [النمل: ٨٧]؛ لِيُتَخلَّلَ الوعيدُ بالاستِدلالِ.

- والاستفهامُ في ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ كِنايةٌ عن التَّعجُّبِ مِن حالِهم؛ لأنَّها لِغَرابتِها تَستلزِمُ سُؤالَ مَن يَسأَلُ عن عَدمِ رُؤيتِهم؛ فهذه عَلاقةُ أو مُسوِّغُ استِعمالِ الاستفهامِ في التَّعجُّبِ(١).

- والرُّؤيةُ في قولِه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يجوزُ أنْ تكونَ قلْبيَّةً، وجُملةُ ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ سادَّةً مَسَدَّ المفعولينِ، أي: كيف لم يَعلَموا أنَّا جعَلْنا اللَّيلَ لِيَسكُنوا فيه والنَّهارَ مُبصِرًا، مع أنَّ ذلك واضحُ الدَّلالةِ على هذا الجَعلِ؟! واختِيرَ مِن أفعالِ العِلْمِ فِعلُ الرُّؤيةِ؛ لِشَبَهِ هذا العِلمِ بالمعلوماتِ المُبصَرةِ. ويجوزُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ بَصَريَّةً، والمصدرُ المُنسبِكُ مِن الجُملةِ مَفعولَ الرُّؤيةِ، والمعنى: كيف لم يُبصِروا جَعْلَ اللَّيلِ للسُّكونِ والنَّهارِ للإبصارِ، مع أنَّ ذلك بمَرأًى مِن أبصارِهم؟! والجَعلُ مُرادٌ منه أثَرُه، وهو اضطرارُ النَّاسِ إلى السُّكونِ في اللَّيلِ وإلى الانتشارِ في النَّهارِ؛ فجُعِلَت رُؤيةُ أثَرِ الجَعلِ بمَنزلةِ رُؤيةِ ذلك الجَعلِ، وهذا واسعٌ في العربيَّةِ: أنْ يُجعَلَ الأثرُ مَحَلَّ المُؤثِّرِ، والدَّالُّ مَحَلَّ المَدلولِ(٢).

- وجاء ما في اللَّيلِ مِن الخُصوصيَّةِ بصِيغةِ التَّعليلِ باللَّامِ بقولِه: ﴿لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، وما في النَّهارِ بصِيغةِ مَفعولِ الجَعلِ بقولِه: ﴿مُبْصِرًا﴾؛ تفنُّنًا، ولِمَا يُفيدُه ﴿مُبْصِرًا﴾ مِن المُبالَغةِ، والمعنى على التَّعليلِ، والمفعولُ واحدٌ في المآلِ؛ ففي الآيةِ ما يُعرَفُ في عِلْمِ البديعِ بالاحتِباكِ؛ حيثُ حُذِفَ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٢، ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٤٣).

كُلِّ جُملةٍ ما دلَّ عليه المذكورُ في الجُملةِ الأخرى، مع التَّقابُلِ؛ إذ المعنى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ مُظلِمًا ﴿لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾، فالَّذي حُذِفَ مِن هذا (مُظلِمًا)، وذُكِرَ مُقابِلُه ﴿مُبْصِرًا﴾، وحُذِفَ مِن قولِه: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ (لِيَنتشِروا ولِيَتصَرَّفوا فيه)، وذُكِرَ مُقابِلُه ﴿لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾[1].

- وجُعِلَ الإبصارُ للنَّهارِ، وهو لأهلِه؛ تنبيهًا على كمالِ هذه الصِّفةِ فيه[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تَعليلٌ للتَّعجُّبِ مِن حالِهم؛ إذ لم يَستدِلُّوا باختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ على الوَحدانيَّةِ ولا على البعثِ[3].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ؛ للإشعارِ ببُعدِ دَرجتِه في الفضلِ[4].

- ووَجْهُ جَعلِ ذلك آياتٍ، ولم يُجعَلْ آيتينِ، وكَوْنُ الآياتِ في ذلك كثيرةً -كما اقتضاهُ الجمْعُ-: هو أنَّ في نِظامِ اللَّيلِ آياتٍ على الانفرادِ بخلْقِ الشَّمسِ وخلْقِ نُورِها الخارقِ للظُّلماتِ، وخلْقِ الأرضِ، وخلْقِ نِظامِ دَورانِها اليوميِّ تُجاهَ أشِعَّةِ الشَّمسِ، وهي الدَّورةُ التي تُكوِّنُ اللَّيلَ والنَّهارَ، وفي خلْقِ طبْعِ الإنسانِ بأنْ يَتلقَّى الظُّلمةَ بطَلبِ السُّكونِ؛ لِمَا يَعْتري الأعصابَ مِن الفُتورِ دونَ بعضِ الدَّوابِّ التي تَنشَطُ في اللَّيلِ؛ كالهَوامِّ والخفافيشِ، وفي ذلك أيضًا دَلالةٌ على تعاقُبِ الموتِ والحياةِ. فتلك آياتٌ، وفي كلِّ آيةٍ منها دقائقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٣).

ونُظُمٌ عظيمةٌ، لو بُسِطَ القولُ فيها لَأوعَبَ مُجلَّداتٍ مِن العلوم. وفي جَعلِ النَّهارِ مُبصِرًا آياتٌ كثيرةٌ على الوَحدانيَّةِ ودِقَّةِ صُنعٍ تُقابِلُ ما تقدَّمَ في آياتِ جَعلِ اللَّيلِ سكنًا. وفيه دَلالةٌ على أنْ لا إحالةَ ولا استبعادَ في البعثِ بعدَ الموتِ، وأنَّه نظيرُ بَعثِ اليقظةِ بعدَ النَّومِ، وفي جليلِ تلك الآياتِ ودَقيقِها عِدَّةُ آياتٍ[١].

- ومعنى ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾: لِناسٍ شأْنُهم الإيمانُ والاعترافُ بالحُجَّةِ؛ ولذلك جُعِلَ الإيمانُ صِفةً جاريةً على (قوم)؛ لأنَّ إناطةَ الحُكْمِ بلفظِ (قوم) يُومِئُ إلى أنَّ ذلك الحُكْمَ مُتمكِّنٌ منهم، حتَّى كأنَّه مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم، أي: في ذلك آياتٌ لِمَن شِعارُهم التَّدبُّرُ والإنصافُ، أي: فهؤلاء ليسوا بتِلك المنزلةِ. ولِكَونِ الإيمانِ مَقصودًا به أنَّه مَرْجُوٌّ منهم، جِيءَ فيه بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ إذ ليس المقصودُ: إنَّ في ذلك لآياتٍ لِلَّذِينَ آمَنوا؛ لأنَّ ذلك حاصلٌ بالفَحوى والأَولويَّةِ، فصار المعنى: إنَّ في ذلك لآياتٍ للمُؤمنينَ ولِمَن يُرجَى منهم الإيمانُ عندَ النَّظرِ في الأدلَّةِ[٢].

- ولَمَّا كان لا يَنتفِعُ بالفِكرِ في هذه الآياتِ إلَّا المؤمنون؛ خُصُّوا بالذِّكْرِ، وإنْ كانت آياتٍ لهم ولغَيرِهم[٣]. وكذلك لِمَّا كان مِن مَباني السُّورةِ تَخصيصُ الهِدايةِ بالمؤمنينَ؛ خَصَّهم بالآياتِ لاختِصاصِهم بالانتفاعِ بها، وإنْ كان الكلُّ مُشترِكينَ في كَونِها دَلالةً لهم[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ خُولِفَ بيْنَ ما هنا وبيْنَ ما في سُورةِ (يُونسَ)؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٢).

إذْ قال هنا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وقال في سُورةِ (يُونسَ): ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧]. ووَجْهُه: أنَّ آيةَ سُورةِ (يُونسَ) مَسوقةٌ مَساقَ الاستدلالِ والامتنانِ؛ فخاطَبَ بها جميعَ النَّاسِ مِن مُؤمنٍ وكافرٍ؛ فجاءتْ بصِيغةِ الخِطابِ، وجُعِلَتْ دَلالتُها لكلِّ مَن يَسمَعُ أدلَّةَ القرآنِ، فمنهم مُهتَدٍ وضالٌّ؛ ولذلك جِيءَ فيها بفِعْلِ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ المُؤْذِنِ بالامتثالِ والإقبالِ على طَلَبِ الهُدى. وأمَّا هذه الآيةُ فمَسوقةٌ مَساقَ التَّعجيبِ والتَّوبيخِ، فجُعِلَ ما فيها آياتٍ لِمَنِ الإيمانُ مِن شأْنِهم؛ لِيُفيدَ بمَفهومِه أنَّه لا تَحصُلُ منه دَلالةٌ لِمَن ليس مِن شأْنِهم الإنصافُ والاعترافُ؛ ولذلك أُوثِرَ فيه فِعلُ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ عطْفٌ على ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ [النمل: ٨٣]؛ عاد به السِّياقُ إلى المَوعظةِ والوعيدِ؛ فإنَّهم لَمَّا ذُكِّرُوا بـ (يومَ يُحشَرون إلى النَّارِ)، ذُكِّروا أيضًا بما قبْلَ ذلك، وهو يومُ النَّفخِ في الصُّورِ؛ تَسجيلًا عليهم بإثباتِ وُقوعِ البَعثِ، وإنذارًا بما يَعقُبُه ممَّا دلَّ عليه قولُه: ﴿أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾، وقولُه: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾[2].

- وجِيءَ بصِيغةِ الماضي ﴿فَفَزِعَ﴾ مع أنَّ النَّفخَ مُستقبَلٌ؛ للإشعارِ بتَحقُّقِ الفزَعِ، وأنَّه واقعٌ لا مَحالةَ؛ لأنَّ الفعلَ الماضي يدُلُّ على وُجودِ الفعلِ وكَونِه مقطوعًا به، فصِيغةُ الماضي كِنايةٌ عن التَّحقُّقِ، وقرينةُ الاستقبالِ ظاهرةٌ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المُضارِعِ في قولِه: ﴿يُنفَخُ﴾[(١)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفي (الزُّمَر): ﴿فَصَعِقَ﴾ [الزمر: ٦٨]؛ فخُصَّتْ هذه السُّورةُ بقولِه: ﴿فَفَزِعَ﴾ مُوافَقةً لقولِه: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، وخُصَّتِ سُورةُ (الزُّمَر) بقولِه: ﴿فَصَعِقَ﴾ مُوافَقةً لقولِه: ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]؛ لأنَّ معناه: مات[(٢)].

- ولعلَّ تأخيرَ بَيانِ الأحوالِ الواقعةِ عندَ ابتداءِ النَّفخةِ عن بَيانِ ما يقَعُ بعْدَها مِن حَشرِ المُكذِّبينَ مِن كلِّ أُمَّةٍ -يعني في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٣ - ٨٥]-؛ لِتَثنيةِ التَّهويلِ بتكريرِ التَّذكيرِ؛ إيذانًا بأنَّ كلَّ واحدٍ منهما طامَّةٌ كُبْرى وداهيةٌ دَهْياءُ، حقيقةٌ بالتَّذكيرِ على حِيالِها، ولو رُوعِيَ التَّرتيبُ الوُقوعيُّ لَرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ الكلَّ داهيةٌ واحدةٌ قد أُمِرَ بذِكْرِها[(٣)].

- وحُذِفَ الضَّميرُ مِن (كُلٍّ)، والتَّقديرُ: وكلُّهم، كما قال: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[(٤)] [مريم: ٩٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٦)، ((المثل السائر)) للضياء ابن الأثير (٢/ ١٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٣، ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ٣٥٠).

- والتَّعبيرُ بالمُضِيِّ في ﴿أَتَوْهُ﴾؛ للإشعارِ بتَحقُّقِ الإتيانِ، فكأنَّه قد وقَع حتَّى عُبِّر عنه بلفظِ الماضي[(١)].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾

- قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ مَنشأُ الحِسْبانِ المَذكورِ أنَّ الأجرامَ المُجتمِعةَ المُتكاثِرةَ العددِ على وجهِ الالتِصاقِ إذا تحرَّكَتْ نحوَ سَمْتٍ لا تَكادُ تَبينُ حرَكتُها، والمشهورُ في وجْهِ الشَّبَهِ السُّرعةُ[(٢)].

- قد أُدمِجَ في هذا التَّشبيهِ حالُ الجِبالِ بحالِ السَّحابِ في تَخلْخُلِ الأجزاءِ وانتفاشِها، كما في قولِه تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[(٣)] [القارعة: ٥].

- في قولِه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ طِباقٌ عجيبٌ بيْنَ الجُمودِ والحركةِ السَّريعةِ؛ حيث جُعِلَ ما يَبْدو لِعَينِ النَّاظرِ كالجبلِ في جُمودِه ورُسوخِه، ولكنَّه سريعٌ يمُرُّ مُرورًا حَثيثًا كما يمُرُّ السَّحابُ[(٤)].

- وقولُه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مَصدرٌ مؤكِّدٌ لمَضمونِ ما قبْلَه[(٥)]، أي: صنَعَ اللهُ ذلك

---

(١) يُنظر: ((عروس الأفراح)) للبهاء السبكي (١/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٦٤).

(٥) وهو مِن إضافةِ المصدرِ المؤكدِ إلى الفاعلِ، أي: صَنَعَ اللهُ صُنْعًا، كقولِه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، فإنَّه لَمَّا قال جلَّ وعزَّ: ﴿مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾، وقال: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾؛ عُلِم أنَّه خَلْقٌ وصُنْعٌ، ولكنَّه وكَّدَ وثبَّتَ للعِبادِ. ومِثلُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ [النساء: ١٢٢]، أي: وَعَدَ اللهُ وعدًا حقًّا. يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (١/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ٣٥٩).

صُنعًا، على أنَّه عبارةٌ عمَّا ذُكِرَ مِن النَّفخِ في الصُّورِ وما ترتَّبَ عليهِ جميعًا، قُصِدَ به التَّنبيهُ على عِظَمِ شأْنِ تلك الأفاعيلِ وتَهويلُ أمْرِها، والإيذانُ بأنَّها ليستْ بطريقِ إخلالِ نِظامِ العالَمِ وإفسادِ أحوالِ الكائناتِ بالكُلِّيَّةِ مِن غيرِ أنْ يَدعوَ إليها داعيةٌ أو يكونَ لها عاقبةٌ، بلْ هي مِن قَبيلِ بدائعِ صُنعِ اللهِ تعالى المَبْنيَّةِ على أساسِ الحِكمةِ المُستتبِعةِ للغاياتِ الجميلةِ، الَّتي لِأجْلِها رُتِّبَت مُقدِّماتُ الخلْقِ ومَبادئُ الإبداعِ على الوجهِ المَتينِ والنَّهجِ الرَّصينِ[١].

- ووَصْفُ اللهِ تعالى بـ﴿ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ تَعميمٌ؛ قُصِدَ به التَّذييلُ، أي: ما هذا الصُّنعُ العجيبُ إلَّا مُماثِلًا لأمثالِه مِن الصَّنائعِ الإلهيَّةِ الدَّقيقةِ الصُّنعِ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ تَعليلٌ لِكَونِ ما ذُكِرَ صُنْعًا مُحْكَمًا له تعالى، ببَيانِ أنَّ عِلمَهُ تعالى بظَواهرِ أفعالِ المُكلَّفينَ وبواطنِها ممَّا يَدْعو إلى إظهارِها، وبَيانِ كَيفيَّاتِها على ما هي عليه مِن الحُسنِ والسُّوءِ، وتَرتيبِ أجْزِيَتِها عليها بعْدَ بَعثِهم وحَشْرِهم، وجَعْلِ السَّمواتِ والأرضِ والجِبالِ على وَفْقِ ما نطَقَ به التَّنزيلُ؛ لِيَتحقَّقُوا بمُشاهَدةِ ذلك أنَّ وعْدَه حقٌّ لا ريبَ فيه[٣]. وقيل: قولُه: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ تَذييلٌ أو اعتراضٌ في آخرِ الكلامِ؛ للتَّذكيرِ والوعظِ والتَّحذيرِ، عقبَ قولِه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾؛ لأنَّ إتقانَ الصُّنعِ أثَرٌ مِن آثارِ سَعةِ العلْمِ، فالَّذي بعِلْمِه أتقَنَ كلَّ شَيءٍ هو خبيرٌ بما يَفعَلُ الخلْقُ؛ فلْيَحْذَروا أنْ يُخالِفوا عن أمْرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥١).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ تَنبيهٌ على الشُّروعِ في الحسابِ والأخذِ في الجزاءِ على سبيلِ الاستئنافِ، وأنَّه جوابٌ لقولِ مَن يَسألُ: فماذا يكونُ بعْدَ هذه القَوارِعِ؟ فقِيل: إنَّ اللهَ خبيرٌ بعَمَلِ العامِلينَ، فيُجازِيهم على أعمالِهم؛ حَسَنِها وسَيِّئِها[1].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٩٥).

الآيات (٨٩-٩٢)

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَكُبَّتْ﴾: أي: أُلقِيَتْ وطُرِحَتْ، والكبُّ: إسقاطُ الشَّيءِ على وجْهِه، وأصلُ (كَبَبَ): يدُلُّ على جَمعٍ وتَجمُّعٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا جزاءَ مَن أحسَن، وجزاءَ مَن أساء: مَن جاء يومَ القيامةِ بالحَسَنةِ فله ثوابٌ عظيمٌ عندَ اللهِ، وهم آمِنون مِنَ الفَزَعِ الواقِعِ يومَ القيامةِ، ومَن جاء يومَ القيامةِ بالسَّيِّئةِ فيُلْقَوْنَ على وُجوهِهم في النَّارِ، ويُقالُ لهم: لا تُجْزَوْنَ إلَّا بأعمالِكم الَّتي كنتُم تعمَلونها في الدُّنيا.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه أنْ يُبيِّنَ منهجَه في دعوتِه، فيقولُ: وقلْ -يا محمَّدُ- لقَومِك مِن قُرَيش: إنَّما أمَرَني اللهُ أن أعبُدَه وَحْدَه، هو رَبُّ هذه البَلْدةِ -مكَّةَ- الَّذي جعَلَها حَرَمًا آمِنًا، وله كُلُّ الأشياءِ خَلْقًا وملكًا وتصَرُّفًا، وأمَرَني أن أكونَ مِن المُستسلِمينَ له بالتَّوحيدِ، وأن أقرأَ القُرآنَ وأتَّبعَ ما فيه، فمَنْ آمَنَ بالقُرآنِ واتَّبَع الحَقَّ فإنَّما ثوابُ اهتدائِه راجِعٌ إليه، ومَن كفَرَ بالقُرآنِ وأعرَضَ، فقُلْ له:

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٥).

إنَّما أنا مِن المُنذِرينَ عذابَ اللهِ وسَخَطَه.

ثمَّ يقولُ الله تعالى: وقُلْ -يا محمَّدُ-: الحمدُ لله، سيُريكم في الدُّنيا آياتِ عَذابِه ودَلائلَ وحدانيَّتِه وقدرتِه، فتَعرِفونَها، وما ربُّك بغافِلٍ عمَّا تعمَلونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تكلَّمَ سُبحانَه في علاماتِ القيامةِ؛ شرَحَ بعْدَ ذلك أحوالَ المكلَّفِينَ بعدَ قيامِ القيامةِ، فقال تعالى[1]:

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾.

أي: مَن جاء يومَ القيامةِ بالحَسَنةِ[2] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٤).

(٢) والمرادُ بالحَسَنةِ هنا: الحَسَنةُ الكامِلةُ، وهي الإيمانُ والتَّوحيدُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، والبقاعي. وحكى القرطبيُّ الإجماعَ عليه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الله بن مسعود، وابن عباس، وأبو هريرة، وعلي ابن الحسين، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وعطاء، ومجاهد، وأبو صالح، ومحمد بن كعب، والنَّخَعي، والضَّحَّاك، والزُّهْريُّ، وعِكْرِمةُ، وزيد بن أسلَمَ، وقَتادةُ، وإبراهيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٣٤).

قال القرطبي: (هو إجماعٌ مِن أهل التَّأويلِ في أنَّ الحَسَنةَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ السَّيِّئةَ: الشِّركُ، في هذه الآيةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٥).

قال ابنُ تيميَّةَ معلِّلًا هذا القولَ، وأنَّهم إنَّما (قالوه؛ لأنَّ أعمالَ البرِّ داخلةٌ في التَّوحيدِ؛ فإنَّ عبادةَ اللهِ بما أمَر به كما قالَ: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ الآيةَ [البقرة: ١١٢]. وقالَ تعالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾ الآيةَ [إبراهيم: ٢٤]. =

فله ثَوابٌ عظيمٌ عندَ اللهِ[(١)].

= فالكلمةُ الطَّيِّبةُ التَّوحيدُ، وهي كالشَّجرةِ، والأعمالُ ثمارُها في كلِّ وقتٍ، وكذلك السَّيِّئةُ هي العملُ لغيرِ اللهِ، وهذا هو الشِّركُ؛ فإنَّ الإنسانَ حارثٌ همَّامٌ، لا بُدَّ له مِنْ عملٍ، ولا بُدَّ له مِن مقصودٍ يعملُ لأجلِه. وإنْ عَمِل للهِ ولغيرِه فهو شركٌ. والذُّنوبُ مِنَ الشِّركِ؛ فإنَّها طاعةٌ للشَّيْطانِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٤٤٠).

وقيل: المرادُ بالحَسَنةِ هنا: جِنسُ الحَسَناتِ، فأيُّ حَسنةٍ مِن الحسناتِ فهي مرادةٌ في الآيةِ. وممَّن قال بذلك: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٥). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٥، ١٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٥)، ((جامع العلوم والحِكَم)) لابن رجب (٢/ ٢٠٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٦).

اختلف المفسِّرون في معنى قَولِه تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾؛ فقيل: خيرٌ هنا صيغةُ تفضيلٍ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ رجب، والنيسابوري، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٠٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٦).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: عبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدٍ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٣٠). ونسَبَه ابنُ الجَوزيِّ لِزَيدِ بنِ أسلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٣).

وقيل في بيانِ الخَيريَّةِ: إنَّها بمُضاعَفةِ الحَسَناتِ، وبأنَّ العَمَلَ مُنقَضٍ والثَّوابَ دائمٌ، ولأنَّ العَمَلَ فِعلُ العبدِ، والثَّوابَ فِعلُ اللهِ تعالى. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٤٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٥، ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٦، ٥٠٧).

وقيل: خيرٌ هنا ليست صيغةَ تفضيلٍ، وإنَّما المعنى: أنَّ مَن جاء بالحَسَنةِ فله منها خيرٌ حاصِلٌ بسَبَبِها. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عباس، والحسن، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، وقتادة، =

﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾.

أي: وهم آمِنونَ يومَ القيامةِ مِن الفَزَعِ الحاصِلِ للخَلقِ(١).

كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وقال سُبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

= وابن جُرَيج، وعِكْرِمة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٦).

قيل: يحتَمِلُ أنَّهم لا يفزَعون مطلقًا، ويحتَمِلُ أنهم يَفزَعون ولكِنَّهم آمِنون، فيَكونُ هذا الفزَعُ مجرَّدَ شعورٍ بما يُفزَعُ منه فقط. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٨، ٥٠٩).

ممَّن اختار أنَّهم آمِنُونَ مِن فزَعِ يومِ القيامةِ وأهوالِه: الماتريدي، والسمرقندي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٦).

وذكر ابنُ جريرٍ أنَّهم يَأْمَنون مِن فزَعِ الصَّيحةِ الكبرى، وهي النَّفخُ في الصُّورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩).

وممَّن قال بأنَّهم يَأمنون وإن كانوا يَفزَعون مع الخَلقِ: الرازي، والبيضاوي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١).

وذكر الرازيُّ أنَّ الفزعَ المنفيَّ هو الخَوفُ مِنَ العذابِ، أمَّا الفزعُ المُثبَتُ في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فهو ما لا يخلو منه أحدٌ عندَ الإحساسِ لشِدَّةٍ تقعُ، وهو يَفجأ مِن رعبٍ وهَيْبة، وإن كان المُحسِنُ يَأمن وُصولَ ذلك الضَّررِ إليه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٥).

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾.

أي: ومَن جاء يومَ القيامةِ بالسَّيِّئةِ(١) فيُلْقَوْنَ في النَّارِ على وُجوهِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: يُقالُ لهم(٣): .....

---

(١) المرادُ بالسيِّئةِ هنا: الشِّركُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، والبقاعي، وحكى القرطبيُّ الإجماعَ عليه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوجيز)) (ص: ٨١١)، ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: أبو هريرة، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وأنس بن مالك، وأبو وائل، وعطاء، والحسن، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، وعِكْرِمة، والنَّخَعي، وأبو صالح، والزُّهْري، وزيد بن أَسْلَمَ، ومحمد بن كعب القُرَظي، والسُّدِّيُّ، وقتادة، والضَّحَّاك، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٣٥).

وقيل: المرادُ: جِنسُ السِّيئاتِ عُمومًا، فتشمَلُ أيَّ عَمَلٍ سَيِّئٍ. وممَّن قال بذلك: السعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٢، ٥٣).

قال ابنُ عثيمين بناءً على القولِ بأنَّ المرادَ بالسَّيِّئةِ جنسُ السيئاتِ: (إنَّ قَولَه: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ لا يلزمُ منه الخلودُ، بل قد تُكَبُّ وُجوهُهم في النَّارِ ثمَّ يَنجُون. فإذا قال قائلٌ: إذا كانوا عُصاةً فإنَّ مَوضِعَ السُّجودِ لا تأكُلُه النَّارُ، فكيف نقولُ: كُبَّت وُجوهُهم في النَّارِ؟ قُلنا: إذا كُبَّ على وجهِه أصابَتْه النَّارُ إلَّا موضِعَ السُّجودِ، وهذا لا يَمنَعُ أن يُكَبَّ على وجهِهِ وتُحمى مواضِعُ السُّجودِ مِن النَّارِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥١٣).

(٣) قيل: يجوزُ أن يكونَ مِن قَولِ الله. ويجوزُ أن يكونَ مِن قَولِ الملائكةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٥).

وذكر البغويُّ أنَّه مِن قَولِ خَزَنةِ جَهنَّمَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٠). =

لا تُجازَونَ إلَّا بحَسَبِ أعمالِكم الَّتي كنتُم تَعمَلونَها في الدُّنيا[١].

كما قال تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [يس: ٥٤].

﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أَتَمَّ سبحانه الدِّينَ بذِكرِ الأصولِ الثَّلاثةِ: المبدأِ والمعادِ، والنُّبوَّةِ، ومقَدِّماتِ القيامةِ وأحوالِها، وبعضِ صفتِها وما يكونُ مِن أهوالِها، وذلك كمالُ ما يَتعلَّقُ بأصولِ الدِّينِ على وجوهٍ مُرَغِّبةٍ أتَمَّ ترغيبٍ، مُرَهِّبةٍ أعظَمَ ترهيبٍ؛ أوجَبَ هذا التَّرغيبُ والتَّرهيبُ لكلِّ سامعٍ أن يقولَ: فما الذي نعملُ؟ ومَن نعبُدُ؟ فأجابَه المخاطَبُ بهذا الوحيِ، المأمورُ بإبلاغِ هذه الجوامِعِ، الدَّاعي لِمَن سمِعَه، الهادي لِمَنِ اتَّبَعَه؛ بأنَّه يَرضى له ما رَضيَ لنَفْسِه، وهو ما أمَرَه به ربُّه، فقال[٢]:

﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِقَومِك مِن قُرَيشٍ: إنَّما أمرَني اللهُ أن أعبُدَ رَبَّ هذه البلدةِ

= وذكر ابنُ جريرٍ أنَّ هذا يُقالُ لهم ذلك وقتَ كَبِّهم في النَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥١٣، ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٧).

-مكَّةَ- الذي جعَلَها حَرَمًا آمِنًا؛ حرَّم فيها على خَلقِه أن يَسفِكوا دمًا حرامًا، أو يَظلِموا أحدًا، أو يَصيدوا فيها، أو يَقطَعوا شَجَرَها[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١١، ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يومَ افتتَحَ مَكَّةَ: لا هِجرةَ، ولكِنْ جِهادٌ ونِيَّةٌ، وإذا استُنفِرتُم فانفِروا[٢]؛ فإنَّ هذا بلدٌ حَرَّمَ اللهُ يومَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، وهو حرامٌ بحُرمةِ الله إلى يومِ القيامةِ، وإنَّه لم يَحِلَّ القِتالُ فيه لأحدٍ قَبْلي، ولم يَحِلَّ لي إلَّا ساعةً مِن نهارٍ؛ فهو حرامٌ بحُرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامةِ: لا يُعضَدُ شَوكُه[٣]، ولا يُنفَّرُ صَيدُه، ولا يَلتَقِطُ لُقَطَتَه إلَّا مَن عَرَّفها، ولا يُختَلى خَلَاها[٤]، قال العبَّاسُ: يا رسولَ اللهِ، إلَّا الإذخِرَ؛ فإنَّه لِقَيْنِهم[٥] ولِبُيوتِهم، قال: إلَّا الإذخِرَ))[٦].

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٦).

(٢) إذا استُنفِرتُم فانفِروا: أي: إذا طُلِبَ منكم النُّصرةُ، فأجيبوا وانفِروا خارجينَ إلى الإعانةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٩٢).

(٣) لا يُعضَدُ شَوكُه: أي: لا يُقطَعُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٣٠٤).

(٤) لا يُختلى خَلاها: أي: لا يُقطَعُ نباتُها الرَّطبُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٣٠٩).

(٥) قَيْنِهم: هو الحَدَّاد والصَّائِغُ، ومعناه: يَحتاجُ إليه القَيْنُ في وَقودِ النَّارِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ١٢٧).

(٦) رواه البخاري (١٨٣٤) واللفظ له، ومسلم (١٣٥٣).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت إضافةُ البلدةِ إليه إنَّما هي لمحضِ التَّشريفِ، قال احتراسًا عمَّا لعلَّه يُتَوَهَّمُ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ أي: مِن غيرِها ممَّا أشرَكْتُموه به وغيره خلْقًا ومُلْكًا ومِلْكًا[1]!

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾.

أي: ولله- رَبِّ مَكَّةَ- الأشياءُ كُلُّها خَلقًا ومِلكًا وتصرفًا[2].

﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

أي: وأمَرَني اللهُ أن أكونَ مِن المُستسلِمينَ له بالتَّوحيدِ، المنقادينَ له بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه[3].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ ما أُمِرَ به في نَفْسِه؛ أتبَعَه ما تَعُمُّ فائِدتُه غيرَه، فقال[4]:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٨).

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾.

أي: وأمَرَني اللهُ أن أقرأَ القرآنَ وأتَّبِعَ ما فيه[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [الأحزاب: ٢].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤].

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾.

أي: فمَنْ آمَنَ بالقُرآنِ وعَمِلَ به واتَّبَع الحَقَّ الَّذي فيه، فإنَّما ثَوابُ ذلك ونَفْعُه يعودُ إليه[2].

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ [يونس: ١٠٨].

﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١).

قال أبو السعود: (﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي: أواظِبَ على تلاوتِه؛ لتنكَشِفَ لي حقائقُه الرَّائِعةُ المخزونةُ في تضاعيفِه شَيئًا فشيئًا، أو على تلاوتِه على النَّاسِ بطريقِ تكريرِ الدَّعوةِ وتثنيةِ الإرشادِ؛ فيكونَ ذلك تنبيهًا على كفايتِه في الهدايةِ والإرشادِ مِن غيرِ حاجةٍ إلى إظهارِ مُعجزةٍ أخرى). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١).

أي: ومَن كفَرَ بالقُرآنِ وأعرَضَ عن العمَلِ بما فيه، فقُلْ له: إنَّما أنا مِن الرُّسُلِ المخَوِّفِينَ عذابَ اللهِ وسَخَطَه وعواقِبَ ضَلالِكم؛ فليس علَيَّ إلَّا البلاغُ المُبينُ، وقد أبلَغْتُكم وخوَّفتُكم، وهدايتُكم ليسَت بيدي، ولا وَبالُ ضَلالِكم علَيَّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: المتَّصِفُ بالكَمالِ هو اللهُ تعالى الذي أنعَمَ علينا وهدانا، وبيَّن آياتِه وأقام الحُجَّةَ على عبادِه، سيُريكم في الدُّنيا آياتِ عذابِه ودلائِلَ وحدانيَّتِه وقُدرتِه، فيتبيَّنُ لكم صِدقُ ما أخبَرَكم اللهُ به، وصِدقُ ما دَعوتُكم إليه وتوعَّدتُكم به[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٨، ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٣٧، ٥٣٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالآياتِ آياتُ عذابِه وسخطِه: ابنُ جريرٍ، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٨٠).

وممَّن اختار أنَّ الآياتِ المرادُ بها العذابُ في الدُّنيا: مقاتلُ بن سليمان، والثعلبي، وهو =

كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى ﴿تَعْمَلُونَ ﴾ قراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿تَعْمَلُونَ ﴾ على الخِطابِ. قيل: المعنى: عمَّا تعمَلُه أنت وأتْباعُك

= ظاهر اختيار مكِّي، واختاره البغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: العذابُ في الدُّنيا والآخرةِ: ابنُ عطية، والبِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٦٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الآياتُ في الأنفُسِ وفي جميعِ ما خلَقَ اللهُ: الزجَّاجُ، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٠).

قال القرطبي: (﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: في أنفُسِكم وفي غيرِكم، كما قال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣]. ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: دَلائلَ قُدرتِه ووَحْدانيَّتِه في أنفُسِكم وفي السَّمواتِ وفي الأرضِ، نظيرُه قولُه تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦).

واختار ابنُ عثيمينَ العُمومَ، وأنَّ الآياتِ تشملُ الآياتِ الدَّالَّةَ على صِدقِ ما وعَدَ به الرَّسولُ وما تَوعَّدَ به مِنَ الآياتِ الكونيَّةِ، وتشملُ أيضًا الآياتِ الشَّرعيَّةَ الدَّالَّةَ على كمالِ شريعتِه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٣٨).

-يا محمَّدُ- مِن الطَّاعةِ، وما يَعمَلُه أولئك المُشرِكون مِن المعصيةِ[١].

٢- قِراءةُ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أي: ما يَعمَلُه أولئك المُشرِكون المكَذِّبون[٢].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وما ربُّك بغافلٍ عمَّا تعملونَه، بل هو شَهيدٌ على كلِّ أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها، ولا يَحزُنْك -يا محمَّدُ- تكذيبُهم لك؛ فإنِّي لهم بالمِرْصادِ، ولك الغَلَبةُ والنَّصرُ، ولهم الذُّلُّ والخِزْيُ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الثوابَ أفضَلُ مِن العَمَلِ[٤]، وذلك على أحدِ القولَينِ في التَّفسيرِ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ سؤالٌ، وهو: كيف يُؤتَى بالحَسَناتِ وهي أعمالٌ مَضَتْ، والأعمالُ مَعانٍ وليست أجسامًا؟!

الجواب: أنَّ اللهَ تبارك وتعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ، يَقْلِبُ هذه المعانيَ إلى

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، وحفصٌ، وأبو جعفرٍ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٤٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٥١٠).

أجسامٍ مِثلَما قَلَبَ الموتَ -وهو معنًى- إلى جسم، وهو الكَبشُ[١]؛ فاللهُ تعالى على كلِّ شَيءٍ قديرٌ، قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأصحابِه: ((مَن تَعُدُّون المُفلِسَ فيكم؟ قالوا: مَن لا دِرْهمَ عندَه ولا مَتاعَ، فقال: المُفلِسُ مَن يأتي يومَ القيامةِ بحَسَناتٍ أمثالِ الجِبالِ...)) إلى آخرِ الحديثِ[٢]، فالمجيءُ بالأعمالِ يومَ القيامةِ ليس بمُمتَنِعٍ؛ لأنَّ الله تعالى على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ أنَّ العِبرةَ بالمجيءِ بالحَسَنةِ لا بعَمَلِها؛ وذلك لأنَّ عامِلَ الحسنةِ في الدُّنيا قد لا يأتي بها يومَ القيامةِ؛ حيثُ يحصلُ ما يُبطِلُها؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فقد يعمَلُ الإنسانُ الحَسَنةَ، لكنْ يأتي بشَيءٍ يُبْطِلُها فلا يأتي بها يومَ القيامةِ، والمدارُ على الإتيانِ بها يومَ القيامةِ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ سؤالٌ: أليس قال تعالى في أوَّلِ الآيةِ: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فكيف نفى الفَزَعَ هاهنا؟!

الجوابُ: أنَّ الفزعَ الأوَّلَ لا يَخلو منه أحدٌ عندَ الإحساسِ بشدَّةٍ تقعُ أو هَولٍ يَفجَأُ إلَّا ما استُثنِي -وإنْ كان المحسِنُ آمنًا مِن لَحاقِ الضَّررِ-، وأمَّا الثَّاني فهو الخَوفُ مِن العَذابِ[٥].

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٧٨).

٥- أنَّ مَن جاء بالسَّيِّئةِ فإنه لا يأمنُ مِن الفَزَعِ، وهو مأخوذٌ مِن مَفهومِ قولِه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ يعني: أمَّا مَن جاء بالسَّيِّئةِ فإنَّه لا يأمنُ؛ ولهذا تُكَبُّ وُجوهُهم في النارِ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فيه كمالُ عَدْلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ فالمعنى: ما ظَلَمْناكم، بل أنتم الَّذين ظلَمْتُم أنفُسَكم، فعَمِلتُم ما استَحْقَقْتُم به هذا العذابَ[٢].

٧- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أنَّ عذابَ أهلِ النارِ -والعياذُ باللهِ- عذابٌ نفْسيٌّ وبَدَنيٌّ؛ بَدَنيٌّ حيثُ تُكَبُّ وجوهُهم في النَّارِ، ونفْسيٌّ حيثُ يُوَبَّخون ويُقرَعون: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ وجوبُ العبادةِ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِقَولِه: ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ﴾، كما تجبُ العبادةُ على غيرِه، ويجبُ عليه هو -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنْ يَشهدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّه رسولُ اللهِ، فهذا مقتضى الإسلامِ، وفي الآية بُطلانُ القولِ بأنَّ الوليَّ يَصِلُ إلى دَرَجةٍ يَسقطُ بها عنه التَّكليفُ، وهذا موجودٌ عندَ الصُّوفيةِ وغيرِهم؛ يقولون: هذه العباداتُ التي نُكَلَّفُ بها وسائِلُ إلى غايةٍ، والغايةُ: اليقينُ، قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، فإذا وَصَلَ الإنسانُ إلى اليقينِ سقطتْ عنه العبادةُ! فإذا كان الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أُمِرَ أن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يعبُدَ اللهَ، فغَيرُه من بابِ أَولى[١].

٩- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ في قَولِه: ﴿حَرَّمَهَا﴾ تعديدُ نِعمتِه على قُرَيشٍ في رَفعِ الله تعالى عن بلَدِهم الغاراتِ والفِتَنَ الشَّائعةَ في جميعِ بلادِ العَرَبِ[٢].

١٠- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ فيه فضيلةُ مكَّةَ مِن وَجهَينِ: مِن إضافةِ الرُّبوبيَّةِ إليها ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾، ومِن كونِه تعالى حَرَّمَها ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾؛ ففيه فضيلةُ مكَّةَ على سائرِ البلادِ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ سؤالٌ: وهو أنَّ الذي حَرَّمَ مكةَ هو اللهُ، ألَا يُعارِضُ ذلك ما ثَبَت عن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن قولِه: ((إنَّ إبراهيمَ حَرَّمَ مكَّةَ))[٤]؟!

الجوابُ: أنَّه أُضيفَ في هذه الآيةِ التَّحريمُ إلى اللهِ تعالى من حيثُ ذلك بقَضائِه وسابِقِ عِلمِه، وأضافه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى إبراهيمَ عليه السلامُ في قَولِه: ((إنَّ إبراهيمَ حرَّم مكَّةَ)) مِن حيث كان ظهورُ ذلك بدُعائِه ورَغبتِه وتبليغِه لأمَّتِه؛ فليس بيْنَ الآيةِ والحديثِ تعارُضٌ[٥].

١٢- في قَولِه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ الرَّدُّ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ الذين يقولون: إنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٢٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢١٢٩)، ومسلم (١٣٦٠) من حديث عبد الله بن زيدٍ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٢٣).

الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه، فإنَّه على قَولِهم يَخرجُ بعضُ الأشياءِ عن مُلْكِ اللهِ! واللهُ تعالى يقولُ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾[1].

١٣- في قَولِه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ ثم قولِه بعدَ ذلك: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ سؤالٌ، وهو: أليسَتِ العبادةُ هي الإسلامَ؟

الجوابُ: بلى، العبادةُ هي الإسلامُ، لكنَّه قال: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾، والعِبادةُ هي التَّذلُّلُ له بالطَّاعةِ، ثمَّ قال: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أيْ: أنْ أُحَقِّقَ هذه العِبادةَ بالاستِسلامِ التَّامِّ لأوامرِ الله تبارك وتعالى، فالإنسانُ قد يكونُ عابدًا في الأصلِ لَكِنِ الانقيادُ التَّامُّ بجميعِ مشروعاتِ الإسلامِ يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، أي: مِنَ المُنقادينَ لحُكمِ الله سبحانه وتعالى انقيادًا تامًّا، لا مُعارَضةَ عندَهم ولا استكبارَ[2].

١٤- أنَّ الإسلامَ والإيمانَ شَيءٌ واحدٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ لا شكَّ أنَّ ما أُمِرَ به هو أعلى الحالاتِ، وهو الإيمانُ. والإسلامُ عندَ الإطلاقِ يشملُ الإيمانَ، والإيمانُ عند الإطلاقِ يشملُ الإسلامَ، وأمَّا عندَ التَّقييدِ وأن يُقرَنَ بيْنَهما فإنَّ الإيمانَ يكونُ ما وقَرَ في القَلبِ، والإسلامَ ما قامت به الجوارِحُ؛ لأنَّ الإسلامَ مِنَ الاستِسلامِ، وهو عدَمُ المعارَضةِ، بل الموافَقةُ؛ فالمنافِقون الَّذين لا يُظهِرونَ مُعارَضةً نُسَمِّيهم مُسلِمينَ، لكِنْ لا نُسَمِّيهم مُؤمِنينَ؛ لعدَمِ وُجودِ الإيمانِ في قلوبِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٢٠، ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٢٧).

١٥- في قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ هناك مُسلِمينَ، فهل اليهودُ والنَّصارى مسلمون؟

الجواب: حينَ كانت شرائعُهم قائمةً فهم مسلمون، أمَّا بعدَ أن نُسِختْ فإنَّهم إذا لم يَلتزموا بالشَّريعةِ النَّاسخةِ لم يكونوا مُسلِمينَ، فالإسلامُ هو الدِّينُ عندَ الله في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وبعدَ بَعثةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا إسلامَ إلَّا باتِّباعِ شريعتِه، وإلَّا فأصلُ الإسلام -كما هو معروفٌ- مِنَ الاستِسلام، وهو الانقيادُ، وهذا يشملُ كلَّ انقيادٍ لله سبحانه وتعالى، سواءٌ في عصرِ هذه الأُمَّةِ أو قبْلَها، فنوحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يقولُ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، مِثلَما قيل للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وقال عن يعقوبَ: إنَّه قال لِبَنِيه: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقالت بِلْقيسُ: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] [النمل: ٤٤].

١٦- قَولُه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فيه وُجوبُ تبليغِ القرآنِ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2].

١٧- حقيقةُ التِّلاوةِ في قولِه: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وغيرِه مِنَ المَواضِعِ كقولِه تعالي: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١] هي التِّلاوةُ المُطْلَقةُ التَّامَّةُ، وهي تلاوةُ اللَّفظِ والمعنى؛ فتِلاوةُ القرآنِ تَتناوَلُ تِلاوةَ لفظِه ومعناه، وتِلاوةُ اللَّفظِ جُزءُ مُسمَّى التِّلاوةِ المُطْلَقةِ، وحقيقةُ اللَّفظِ إنَّما هي الاتِّباعُ، فتِلاوةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٣٦).

اللَّفظِ وسيلةٌ وطريقٌ، والمقصودُ التِّلاوةُ الحقيقيَّةُ، وهي تلاوةُ المعنى واتِّباعُه؛ تصديقًا بخبرِه، وائْتِمارًا بأمرِه، وانتهاءً عن نَهْيِه، وائتمامًا به، حيثُما قادك انقَدْتَ معه، فتِلاوةُ المعنى أشرَفُ مِن مجرَّدِ تلاوةِ اللَّفظِ، وأهلُها هم أهلُ القرآنِ الَّذين لهم الثَّناءُ في الدُّنيا والآخرةِ؛ فإنَّهم أهلُ مُتابَعةٍ وتِلاوةٍ حقًّا[١].

١٨- قولُه تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أي: أُواظِبَ على تِلاوتِه على النَّاسِ بطَريقِ تَكريرِ الدَّعوةِ وتَثنيةِ الإرشادِ؛ فيكونُ ذلك تَنبيهًا على كِفايتِه في الهِدايةِ والإرشادِ مِن غَيرِ حاجةٍ إلى إظْهارِ مُعجزةٍ أُخرى[٢]؛ ففيه فَضيلةُ القرآنِ وشَرَفُه[٣].

١٩- كان ما أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَه للمُعاندين مُشتمِلًا على أنَّ اللهَ هداهُ للدِّينِ الحقِّ مِن التَّوحيدِ وشرائعِ الإسلامِ، وأنَّ اللهَ هدَى به النَّاسَ بما أنزَلَ اللهُ عليه مِن القرآنِ المَتلُوِّ، وأنَّه جعَله في عِدادِ الرُّسلِ المُنذِرينَ؛ فكان ذلك مِن أعظَمِ النِّعمِ عليه في الدُّنيا، وأبْشَرِها بأعظَمِ دَرجةٍ في الآخرةِ؛ مِن أجْلِ ذلك أُمِرَ بأنْ يَحمَدَ اللهَ بالكلمةِ الَّتي حمِدَ اللهُ بها نفْسَه، وهي كلمةُ (الحمدُ للهِ) الجامعةُ لِمَعانٍ مِن المحامِدِ؛ قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ كلامٌ

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٢). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٨).

مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّمهيدِ لِختامِ السُّورةِ بإجمالِ مَصيرِ المُحسِنِ والمُسيءِ[١].
وقِيل: بَيانٌ لِمَا أُشِيرَ إليه بإحاطةِ عِلْمِه تعالى بأفْعالِهم مِن تَرتيبِ أَجْزِيتِها عليها[٢].

- قولُه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ...﴾ بَيانٌ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]؛ لأنَّ الفزَعَ مُقتَضٍ الحشرَ والحضورَ للحسابِ[٣].

- وقَوله: ﴿فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ فأضاف الفَزَعَ إلى يومِ القيامةِ؛ لأنَّه فَزَعٌ لا نظيرَ له في الدُّنيا[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ خُصَّتِ الوُجوهُ بالذِّكرِ هنا؛ لأنَّها أشرَفُ الأعضاءِ، ويلْزَمُ مِن كَبِّها في النَّارِ كبُّ الجميعِ. أو عُبِّرَ بالوجْهِ عن جُملةِ الإنسانِ، كما يُعبَّرُ عنها بالرَّأسِ والرَّقَبةِ، كما قال: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾ [الشعراء: ٩٤]، فكأنَّه قِيل: فكُبُّوا في النَّارِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ذِكْرُ الوُجوهِ إيذانًا بأنَّهم يُكَبُّون على وُجوهِهم فيها مَنكوسينَ. ويجوزُ أنْ يكونَ ذلك كِنايةً عن طرْحِهم في النَّارِ[٥].

- في قولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ * وَمَن

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥١، ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٣).

جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ احتباكٌ[١]؛ حيث ذَكَرَ الخيريَّةَ والأمْنَ أوَّلًا دليلًا على حذْفِ المِثْلِ؛ وعلى الخوفِ ثانيًا، وذَكَر الكَبَّ في النَّارِ ثانيًا دليلًا على الإكرامِ عنه أوَّلًا[٢].

- قولُه: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تَذييلٌ للزَّواجرِ المُتقدِّمةِ؛ فالخِطابُ للمُشركين الذين يسْمَعون القرآنَ على طَريقةِ الالتفاتِ مِن الغَيبةِ بذِكْرِ الأسماءِ الظَّاهرةِ -وهي مِن قَبيلِ الغائبِ- وذِكْرِ ضَمائرِها ابتداءً مِن قولِه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠] وما بعْدَه مِن الآياتِ إلى هنا. ومُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: هلْ يُجْزَون إلَّا ما كانوا يعْمَلون؛ فكانت هذه الجُملةُ كالتَّلخيصِ لِمَا تقدَّمَ، وهو أنَّ الجزاءَ على حسَبِ عقائدِهم وأعمالِهم، وما العقيدةُ إلَّا عمَلُ القلْبِ؛ فلذلك وُجِّهَ الخِطابُ إليهم بالمُواجَهةِ. ويجوزُ أنْ تكونَ مَقولًا لقولٍ مَحذوفٍ يُوجَّهُ إلى النَّاسِ يَومَئذٍ، أي: يُقالُ لكلِّ فريقٍ: هلْ تُجْزَون إلَّا ما كُنتم تعْمَلون[٣]؟

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ استفهامٌ في مَعنى النَّفيِ؛ بقَرينةِ الاستثناءِ. ولعلَّ أصلَ ذلك أنَّه استفهامٌ عن النَّفيِ لقَصدِ التَّقريرِ بالنَّفيِ، والتَّقديرُ: هلْ لا تُجْزَون إلَّا ما كُنتم تعْمَلون، فلمَّا اقترَن به الاستثناءُ

---

(١) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٣).

غالبًا والحرفُ الزَّائدُ في النَّفيِ في بعضِ المواضعِ، حَذَفوا النَّافيَ، وأشْرَبوا حرفَ الاستفهامِ معنى النَّفيِ؛ اعتمادًا على القرينةِ، فصار مُفادُ الكلامِ نفْيًا، وانسلَخَتْ (هل) عن الاستفهامِ، فصارت مُفيدةً النَّفيَ[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هذه الخاتمةُ كالمُتارَكةِ للمُشركينَ، وهي خاتمةٌ تُدهِشُ العقولَ، وتُحيِّرُ الأفهامَ؛ فإنَّه تعالى لَمَّا ختَمَ الآياتِ الواردةَ في أمْرِ البعثِ والحشرِ على أتمِّ ما يَنْبغي بقولِه: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على الحصرِ، ووضَعَ مَوضِعَ حَرفِ النَّفيِ الاستفهامَ تأكيدًا؛ أمَرَ حَبيبَه صلواتُ اللهِ عليه بخُوَيْصَّةِ نفْسِه مِن الاشتغالِ بعِبادةِ ربِّه، فاختار له مِن الأمكنةِ أفضَلَ البِقاعِ، وخصَّها مِن الأوصافِ ما كلُّ وَصفٍ دونَها، وجعَلَ دخولَ كلِّ شَيءٍ تحتَ مَلكوتِه كالتَّابعِ لدُخولِها تحتَه. ومِن المِلَّةِ خيرَ المِلَلِ وأقْومَها؛ ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. ومِن الكُتبِ أسْمى الكُتبِ وأسْناها؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ثمَّ أمَرَ بعدَ ذلك كلِّه بالتَّحميدِ حمْدًا على ما أولاهُ مِن نِعَمِ التَّبليغِ، واستفراغِ الطَّوقِ والجُهدِ فيه، ومِن اختصاصِ اللهِ بالعِبادةِ في أشرَفِ البقاعِ، ومِن الدُّخولِ في المِلَّةِ الحنيفيَّةِ، ومِن تِلاوةِ هذا الكتابِ الكريمِ، ثمَّ طبَعَ الكتابَ بالتَّهديدِ بقولِه: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣]، يعني: حينَ أعْرَضوا عن واعظِ اللهِ، وأمَرْنا الرَّسولَ بالمُتارَكةِ، سنَفرُغُ لهم وحْدَنا، ونُلجِئُهم إلى المعرفةِ والإقرارِ بآياتِنا حينَ لا تَنفَعُهم المعرفةُ، كقولِه تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۞ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣١، ٣٢]، واللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٤).

يقولُ الحقَّ، وهو يَهْدي السَّبيلَ[١].

- وقد اسْتُؤنِفَ الكلامُ استئنافًا يكونُ فَذْلَكَةَ الحسابِ، وخِتامًا للسُّورةِ وفصْلَ الخِطابِ؛ أفسَدَ به على المُشركينَ ازدهاءَهم بما يَحسَبون أنَّهم أفْحَموا الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بما ألْقَوه عليه، ويَزيدُ الرَّسولَ تَثبيتًا وتطْمينًا بأنَّه أرْضى ربَّه بأداءِ أمانةِ التَّبليغِ؛ وذلك بأنْ أمَرَ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يقولَ لهم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾، فهذا تلْقينٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ. والجُملةُ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ما عُطِفَ عليه في هذه الآيةِ مرَّتينِ، وهو ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ٩٢، ٩٣]؛ فإنَّ الأوَّلَ مُفرَّعٌ عليه، فهو مُتَّصلٌ به، والثَّانيَ معطوفٌ على أوَّلِ الكلامِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ فيه افتتاحُ الكلامِ بأداةِ الحصْرِ؛ لإفادةِ حَصرٍ إضافيٍّ باعتبارِ ما تَضمَّنَتْه مُحاوَراتُهم السَّابقةُ مِن طَلبِ تعجيلِ الوعيدِ، وما تَطاوَلوا به مِن إنكارِ الحشرِ[٣].

- وأدْمَجَ في خلالِ هذا الكلامِ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾؛ تَنويهًا بشأْنِ مكَّةَ، وتَعريضًا بهم بكُفرِهم بالَّذي أسْكَنَهم بها وحرَّمَها، فانتَفَعوا بتَحريمِها، وأشْعَرَهم بأنَّهم لا يَملِكُون تلك البلدةَ؛ فكاشَفَهم اللهُ بما تُكِنُّه صُدورُهم مِن خواطرِ إخراجِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ مِن مكَّةَ؛ وذلك مِن جُملةِ ما اقتضاهُ قولُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦٠١، ٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُعۡلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤]؛ فلهذه النُّكتِ أُجْرِيَ على اللهِ صِلَةُ حرَمِ تلك البلدةِ، دونَ أنْ يكونَ المَوصولُ للبلدةِ؛ فلذا لم يَقُلْ: الَّتي حرَّمَها اللهُ؛ لِمَا تَتضمَّنُه الصِّلةُ مِن التَّذكيرِ بالنِّعمةِ عليهم، ومِن التَّعريضِ بضَلالِهم؛ إذ عَبَدوا أصنامًا لا تَملِكُ مِن البلدةِ شيئًا، ولا أكسَبَتْها فضْلًا ومَزيَّةً، وهذا كقولِه: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾[1] [قريش: ٣].

- قولُه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ البلدةُ هي مكَّةُ المُعَظَّمةُ، وتَخصيصُها بالإضافةِ؛ لتَفخيمِ شأْنِها، وإجلالِ مكانِها، والتَّعرُّضُ لتَحريمِه تعالى إيَّاها: تَشريفٌ لها بعدَ تَشريفٍ، وتعظيمٌ إثْرَ تَعظيمٍ، مع ما فيه مِن الإشعارِ بعلَّةِ الأمرِ ومُوجِبِ الامتثالِ به، ومِن الرَّمزِ إلى غايةِ شَناعةِ ما فعَلُوا فيها؛ ألَا تَرى أنَّهم مع كَونِها مُحرَّمةً مِن أنْ تُنتهَكَ حُرمَتُها باختِلاءِ خَلاها، وعَضدِ شَجَرِها، وتَنفيرِ صَيدِها، وإرادةِ الإلحادِ فيها بوَجهٍ مِن الوجوهِ؛ قد استمَرُّوا فيها على تَعاطِي أفجَرِ أفرادِ الفُجورِ، وأشنعِ آحادِ الإلحادِ؛ حيثُ ترَكُوا عِبادةَ ربِّها، ونصَبُوا فيها الأوثانَ وعكفُوا على عِبادتِها[2]؟!

- وإنَّما اختَصَّها مِن بيْنِ سائرِ البلادِ بإضافةِ اسْمِه إليها؛ لأنَّها أحَبُّ بِلادِه إليه، وأكرَمُها عليه، وأعظَمُها عندَه، وأشار إليها إشارةَ تَعظيمٍ لها وتقْريبٍ، دالًّا على أنَّها مَوطِنُ نبيِّه ومَهْبطُ وَحْيِه، ووصَفَ ذاتَه بالتَّحريمِ الَّذي هو خاصُّ وَصْفِها، فأجزَلَ بذلك قَسْمَها في الشَّرفِ والعُلوِّ، وجعَلَ دُخولَ كلِّ شيءٍ تحتَ رُبوبيَّتِه ومَلكوتِه كالتَّابعِ لدُخولِها تحتَهما؛ فأضافَ الرَّبَّ إلى البلدةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦).

إضافةَ تمْليكٍ، وهو بمعنى مالكٍ، ثمَّ عقَّبَ ذلك بقولِه: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ على وَجهِ التَّتميم؛ لِيُؤذِنَ بالفرْقِ بيْنَ المِلْكين، وأنَّ أحدَهما كالتَّابع، والآخَرَ كالمتبوع. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ مَلِكًا قد ملَكَ مِثلَ هذه البلدةِ عظيمُ الشَّأنِ قد ملَكَها، وملَكَ إليها كلَّ شَيءٍ[1]. وقيل: تحتَ قولِه: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ فائدةٌ أُخرى سِوى ذلك؛ ففيهِ احتراسٌ بَديعٌ، فقد أضاف سُبحانه اسْمَه إلى مكَّةَ تَشريفًا لها وذِكرًا لتَحريمِها، ولَمَّا أضاف اسمَه إلى البلدةِ المَخصوصةِ بهذا التَّشريفِ أتبَعَ ذلك إضافةَ كلِّ شَيءٍ سِواها إلى مِلْكِه؛ قطْعًا لتَوهُّمِ اختصاصِ ملكِه بالبلدةِ المُشارِ إليها، وتَنبيهًا على أنَّ الإضافةَ الأُولى إنَّما قُصِدَ بها التَّشريفُ، لا لأنَّها مِلكُ اللهِ تعالى خاصَّةً[2].

- والعُدولُ عن ذِكرِ مكَّةَ باسْمِها العَلمِ إلى طَريقةِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾؛ لِمَا تَقْتضيهِ الإشارةُ مِن التَّعظيمِ[3].

- قولُه: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فيه تَكريرُ (أُمِرْتُ)؛ للإشارةِ إلى الاختلافِ بيْن الأمْرَينِ؛ فإنَّ الأوَّلَ أمْرٌ يَعمَلُه في خاصَّةِ نفْسِه، وهو أمْرُ إلْهامٍ؛ إذ عصَمه اللهُ مِن عِبادةِ الأصنامِ مِن قبْلِ الرِّسالةِ. والأمْرُ الثَّاني أمْرٌ يَقْتضي الرِّسالةَ، وقد شمَلَ دعوةَ الخلْقِ إلى التَّوحيدِ. ولهذه النُّكتةِ لم يُكرِّرْ (أُمِرْت) في قولِه: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النمل: ٩٢]؛ لأنَّ كلًّا مِن الإسلامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٨، ٣٨٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٦).

والتِّلاوةِ مِن شُؤونِ الرِّسالةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ تَنويهٌ بهذه الأُمَّةِ؛ إذ جعَلَ اللهُ رسولَه مِن آحادِها، وذلك نُكتةُ العُدولِ عن أنْ يقولَ: (أن أكونَ مُسلمًا)[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فيه حذْفُ مُتعلَّقِ التِّلاوةِ؛ لظُهورِه، أي: أنْ أتلُوَ القرآنَ على النَّاسِ.

- قولُه: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ فرَّعَ على التِّلاوةِ ما يَقْتضي انقسامَ النَّاسِ إلى مُهتَدٍ وضالٍّ، أي: مُنتفِعٍ بتِلاوةِ القرآنِ عليه وغيرِ مُنتفِعٍ، مُبيِّنًا أنَّ مَن اهْتَدى فإنَّما كان اهتداؤُه لفائدةِ نفْسِه. وهذا زِيادةٌ في تَحريضِ السَّامعينَ على الاهتداءِ بهَدْيِ القرآنِ؛ لأنَّ فيه نَفْعَهم كما آذنَتْ به اللَّامُ[٣].

- قولُه: ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ فيه إظهارُ فِعلِ القولِ؛ لتَأكيدِ أنَّ حظَّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن دَعوةِ المُعرضين الضَّالِّين أنْ يُبلِّغَهم الإنذارَ؛ فلا يَطْمَعوا أنْ يَحمِلَه إعراضُهم على أنْ يُلِحَّ عليهم في قَبولِ دَعوتِه[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنْ يَحمَدَ اللهَ بالكلمةِ التي حمِدَ اللهُ بها نفْسَه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ثمَّ استأنَفَ بالاحتراسِ ممَّا يَتوهَّمُه المُعاندون حين يسْمَعون آياتِ التَّبرُّؤِ مِن مَعرفةِ الغيبِ، وقصْرِ مَقامِ الرِّسالةِ على الدَّعوةِ إلى الحقِّ مِن أنْ يكونَ في ذلك نقْضٌ للوعيدِ بالعذابِ؛ فختَمَ الكلامَ بتَحقيقِ أنَّ الوعيدَ قريبٌ لا مَحالةَ، وأنَّ اللهَ لا يُخلِفُ وعْدَه، فتَظهَرُ لهم دَلائلُ صِدقِ اللهِ في وعْدِه؛ ولذلك عبَّرَ عن الوعيدِ بالآياتِ إشارةً إلى أنَّهم سيَحُلُّ بهم ما فيه تَصديقٌ لِمَا أخْبَرَهم به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ حينَ يُوقِنون أنَّ ما كان يقولُ لهم هو الحقُّ؛ فمعنى ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾: تَعرِفون دَلالتَها على ما بلَّغَكم الرَّسولُ مِن النِّذارةِ؛ لأنَّ المعرفةَ لَمَّا عُلِّقَت بها بعُنوانِ أنَّها آياتُ اللهِ، كان مُتعلَّقُ المعرفةِ هو ما في عُنوانِ الآياتِ مِن معنى الدَّلالةِ والعلامةِ[1].

- قولُه: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ تَهديدٌ لأعدائِه بما سَيُريهم اللهُ مِن آياتِه التي تُلجِئُهم إلى المعرفةِ والإقرارِ بأنَّها آياتُ اللهِ، وذلك حينَ لا تَنفعُهم المعرفةُ. وقيل: هو كقولِه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] الآيةَ، وكلُّ عمَلٍ يَعمَلونه فاللهُ عالِمٌ به، غيرُ غافلٍ عنه؛ لأنَّ الغفلةَ والسَّهوَ لا يَجوزانِ على اللهِ[2].

- قولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كلامٌ مَسوقٌ مِن جِهتِه تعالى بطَريقِ التَّذييلِ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، مُتضمِّنٌ للوعدِ والوعيدِ، كما يُنبِئُ عنه إضافةُ الرَّبِّ إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وتَخصيصُ الخِطابِ أوَّلًا به صلَّى الله عليه وسلَّمَ وتَعميمُه ثانيًا للكَفَرةِ تغْليبًا. وعلى قِراءةِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ على الغَيبةِ فهُو وَعيدٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧٧).

مَحضٌ، والمعنى: وما ربُّك بغافلٍ عن أعمالِهم، فسَيُعذِّبُهم الْبتَّةَ[١].

- وقولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن تَمامِ ما أُمِرَ الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنْ يقولَه للمُشرِكين، وفيه زِيادةُ إنذارٍ بأنَّ أعمالَهم تَستوجِبُ ما سيَرونَه مِن الآياتِ. والمُرادُ: ما يَعمَلونه في جانبِ تلقِّي دَعوةِ رَسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وقُرآنِه؛ لأنَّ نفْيَ الغفلةِ عن اللهِ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بأنَّه منهم بالمرصادِ، لا يُغادِرُ لهم مِن عمَلِهم شيئًا. وعلى قِراءةِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بياءِ الغَيبةِ، فهو عطْفٌ على (قُلْ)، والمقصودُ تَسليةُ الرَّسولِ عليه السَّلامُ بعْدَما أُمِرَ به مِن القولِ بأنَّ اللهَ أحْصى أعمالَهم، وأنَّه مُجازِيهم عنها؛ فلا يَيأْسُ مِن نَصرِ اللهِ[٢].

- وقد جاءت هذه الآيةُ خاتمةً جامعةً بالِغةً أقصَى حَدٍّ مِن بلاغةِ حُسنِ الخِتامِ[٣].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّاني والعشرونَ

ويليه المجلدُ الثَّالثُ والعشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ القَصصِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

أسماءُ السُّورةِ ٧
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ٧
موضوعاتُ السورةِ ٧
الآيات (١-٦) ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٩
المعنى الإجماليُّ ١٠
تَفسيرُ الآياتِ ١٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩
بلاغةُ الآياتِ ٢٦
الآيات (٧-١٤) ٤٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٠
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٢
المعنى الإجماليُّ ٤٢
تَفسيرُ الآياتِ ٤٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦١
بلاغةُ الآياتِ ٦٨
الآيات (١٥ - ١٩) ٨١

غَريبُ الكَلِماتِ ٨١
المعنى الإجماليُّ ٨٢
تَفسيرُ الآياتِ ٨٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٩٧
بلاغةُ الآياتِ ١٠٩
الآيات (٢٠-٢٨) ١٢١
غَريبُ الكَلِماتِ ١٢١
مُشكِلُ الإعرابِ ١٢٢
المعنى الإجماليُّ ١٢٣
تَفسيرُ الآياتِ ١٢٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٣٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٣٨
بلاغةُ الآياتِ ١٤٨
الآيات (٢٩-٣٧) ١٦١
غَريبُ الكَلِماتِ ١٦١
مُشكِلُ الإعرابِ ١٦٢
المعنى الإجماليُّ ١٦٣
تَفسيرُ الآياتِ ١٦٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٧٤

بلاغةُ الآياتِ ١٧٩
الآيات (٣٨-٤٤) ١٨٧
غَريبُ الكَلِماتِ ١٨٧
المعنى الإجماليُّ ١٨٨
تفسيرُ الآياتِ ١٨٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٠٣
بلاغةُ الآياتِ ٢١١
الآيات (٤٥-٥٣) ٢١٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٢١٨
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٢٠
المعنى الإجماليُّ ٢٢١
تَفسيرُ الآياتِ ٢٢١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٣٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٣٢
بلاغةُ الآياتِ ٢٣٧
الآيات (٥٤-٥٨) ٢٤٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٤٧
المعنى الإجماليُّ ٢٤٧
تَفسيرُ الآياتِ ٢٤٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٥٢

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٥٣
بلاغةُ الآياتِ ٢٥٦
الآيات (٥٩-٦٤) ٢٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٦٣
المعنى الإجماليُّ ٢٦٥
تَفسيرُ الآياتِ ٢٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٨١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٨٢
بلاغةُ الآياتِ ٢٩٠
الآيات (٦٥-٧٠) ٣٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٠٦
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٠٧
المعنى الإجماليُّ ٣٠٨
تَفسيرُ الآياتِ ٣٠٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣١٦
بلاغةُ الآياتِ ٣١٨
الآيات (٧١-٧٥) ٣٢٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٢٦
المعنى الإجماليُّ ٣٢٦
تَفسيرُ الآياتِ ٣٢٧

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٣١
بلاغةُ الآياتِ ٣٣٣
الآيات (٧٦-٨٢) ٣٣٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٣٧
المعنى الإجماليُّ ٣٣٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٣٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٥٢
بلاغةُ الآياتِ ٣٥٨
الآيات (٨٣-٨٥) ٣٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٦٧
المعنى الإجماليُّ ٣٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٦٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٧٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٧١
بلاغةُ الآياتِ ٣٧٣
الآيات (٨٦-٨٨) ٣٧٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٧٧
المعنى الإجماليُّ ٣٧٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٧٨

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٨٤
بلاغةُ الآياتِ ٣٨٧
الآيات (٨٩-٩٣) ٣٩٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٩٦
المعنى الإجماليُّ ٣٩٦
تَفسيرُ الآياتِ ٣٩٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٠٧
بلاغةُ الآياتِ ٤١٣
الفهرس ٤٢٥

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة القصص و سورة العنكبوت

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الإمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثالث والعشرون

الدرر السنية
www.dorar.net

نسخة إلكترونية

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة القصص وسورة العنكبوت)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثالث والعشرون - سورة القصص وسورة العنكبوت/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ - الظهران، ١٤٤٢ هـ

٦٨٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٨٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٤٨٩٧

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٤٨٩٧

ردمك: ٢-٨٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة القصص وسورة العنكبوت)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثالث والعشرون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ القَصَصِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ القَصَصِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (القَصَصِ)[١].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ القَصَصِ مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الاتِّفاقُ على ذلك[٣].

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بـ(سورة القَصَص)؛ لوُقوعِ لَفظِ القَصَصِ فيها عندَ قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ [القصص: ٢٥] أي: قَصَّ موسى على الرَّجُلِ الصَّالحِ ما لَقِيَه في مِصرَ قبلَ خروجِه منها، ولا يُعرَفُ لهذه السُّورةِ اسمٌ آخَرُ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦١).

قال ابنُ عاشور: (فلمَّا حُكِيَ في السُّورةِ ما قَصَّه موسى كانت هاتِه السُّورةُ ذاتَ قَصَصٍ لحكايةِ قَصَصٍ، فكان القَصَصُ متوَغِّلًا فيها. وجاء لفظُ القصَصِ في سورة «يوسُفَ»، ولكِنَّ سورةَ «يوسُفَ» نزَلَتْ بعدَ هذه السُّورةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦١).

وقد وردَتْ بعضُ الآثارِ فيها تسميةُ هذه السُّورةِ بهذا الاسمِ؛ منها ما أخرجه النَّحَّاسُ (ص: ٦١٢)، وابنُ الضُّرَيْسِ، وابنُ مَرْدَوَيْهِ -كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٨٩)-، عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما.

وكذلك ما أخرجه ابنُ مَرْدَوَيْهِ -كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٨٩)- عن عبد الله بنِ الزُّبَيرِ رضيَ الله عنهما.

(٢) وقيل: مكِّيَّةٌ إلَّا آيةً واحدةً نزلت بالجُحْفةِ، وهي قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]. وقيل: مكِّيَّةٌ إلا الآياتِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢] إلى قَولِه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]؛ فمَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٩)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩١).

(٣) ممَّن نقل الاتِّفاقَ على ذلك: الفيروزابادي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٣).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصدِ هذه السُّورةِ:

١- بيانُ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى في إهلاكِ الظَّالِمينَ والمغرورين، حتَّى ولو سانَدَتْهم جميعُ قُوى الأرضِ[(١)].

٢- تَثبيتُ المؤمِنينَ، وتَقويةُ عزائِمِهم، وتَبشيرُهم بأنَّ العاقِبةَ لهم[(٢)].

٣- التَّواضُعُ لله، المُستَلزِمُ لرَدِّ الأمرِ كُلِّه إليه[(٣)].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ موضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- التَّنويهُ بشأنِ القُرآنِ، والتَّعريضُ بأنَّ بُلَغاءَ المُشرِكينَ عاجِزونَ عن الإتيانِ بسورةٍ مِثلِه.

٢- ذِكرُ طُغيانِ فِرعَونَ وإفسادِه، ووعْدُ اللهِ بإنقاذِ المُضطهَدِينَ، وعُقوبةِ المفسِدينَ.

٣- ذِكرُ ميلادِ موسى عليه السَّلامُ، ورعايةِ اللهِ له وحِفظِه، وإيتائِه الحُكْمَ والعِلمَ.

٤- حديثُ القِبطيِّ والإسرائيليِّ، وهِجرةُ موسى عليه السَّلامُ مِن مِصرَ إلى مَدْينَ، وسَقْيُه للمَرأتينِ، وزواجُه مِن ابنةِ الرَّجُلِ الصَّالحِ مُقابِلَ العَمَلِ لديه، ثمَّ خروجُه مِن مَدْينَ، وظُهورُ آثارِ النُبُوَّةِ، وتأييدُ الله له بالمُعجِزاتِ، وبَعْثُه وأخيه

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣٣).

هارونَ عليه السَّلامُ إلى فِرعَونَ.

٥- تسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا أصابَه مِن قَومِه، وبيانُ ما يدُلُّ على أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ الله، وأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يستطيعُ أن يَهديَ مَن يحِبُّه، وأنَّ الهدايةَ بيدِ الله وحْدَه، وحكايةُ جانبٍ مِن أقوالِ المشركينَ مع الرَّدِّ عليها، وحكايةُ جانبٍ مِن المصيرِ السَّيِّئِ الَّذي ينتظرُهم يومَ القيامةِ.

٦- قِصَّةُ قارونَ، وبَغيُه على قَومِ موسى عليه السَّلامُ، واغترارُه بمالِه، وعاقِبةُ البَغيِ والتَّكَبُّرِ.

٧- خُتِمت السُّورةُ بالأمرِ بإخلاصِ العبادةِ لله، والنَّهيِ عن الإشراكِ به.

الآيات (١-٦)

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ
بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ
طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ
عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ
لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شِيَعًا﴾: أي: فِرَقًا وأصنافًا، وأصلُ (شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ ومُساعفةٍ[1].

﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾: أي: يَتركُهنَّ أحياءً فلا يقتُلهنَّ، مِن الحياةِ، وهي خِلافُ الموتِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

تبدأُ السُّورةُ ببَعضِ الحُروفِ المقَطَّعةِ، التي تُبيِّنُ إعجازَ القرآنِ، وتُبرِزُ عجزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بالإتيانِ بشَيءٍ مِن مِثلِه، مع أنَّه مرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثون بها.

تلك الآياتُ العظيمةُ آياتُ القُرآنِ الواضحِ الجليِّ، المظهرِ الحقَّ مِن الباطلِ.

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى ما سيَقُصُّه على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذه السُّورةِ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٩).

فيقول: نحن نقُصُّ عليك -يا محمَّدُ- في هذا القُرآنِ مِن خبَرِ موسى وفِرعَونَ بالحَقِّ الَّذي لا شَكَّ فيه لِقَومٍ يُؤمِنون.

إنَّ فِرعَونَ طغى وتكبَّرَ في أرضِ مِصرَ، وجعل أهلَ مملكتِه فِرَقًا وأصنافًا مختلفةً، يستعبِدُ بني إسرائيل ويُهينُهم ويُذِلُّهم؛ بذبحِ أبنائِهم الذُّكورِ، وتَرْكِ إناثِهم أحياءً، إنَّه كان مِن المُفسِدين.

ونريدُ أن نُنعِمَ على بني إسرائيلَ المُستضعَفينَ في الأرضِ، فنُهلِكَ أعداءَهم، ونجعَلَهم أئمَّةً متَّبَعينَ، ونجعَلَهم الوارثينَ لفِرعَونَ وآلِه مِن بعدِ إهلاكِهم، ونمكِّنَ لبني إسرائيلَ في أرضِ مِصرَ، ونُريَ فِرعَونَ وهامانَ وجُنودَهما ما كانوا يخافونَه مِن زوالِ مُلكِهم على أيدي بني إسرائيلَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿طسٓمٓ ١﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن معارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[1].

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾.

أي: تلك الآياتُ العَظيمةُ العاليةُ آياتُ القُرآنِ الواضحِ الجليِّ، المظهِرِ الحقَّ مِن الباطلِ، ولكلِّ أمرٍ يحتاجُ إليه العبادُ؛ مِن معرفةِ ربِّهم، وحقوقِه، وأوليائِه وأعدائِه، ووقائعِه وأيامِه، إلى غيرِ ذلك، الكاشفِ عن حقائقِ الأمورِ، ومنها أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

نُبوَّةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حقٌّ، وأنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللهِ[١].

﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

أي: نقرأُ ونقُصُّ عليك -يا محمَّدُ- في هذا القُرآنِ مِن[٢] خبَرِ موسى وفِرعَونَ بالصِّدقِ الَّذي لا شَكَّ فيه، لِقَومٍ يُؤمِنونَ بهذا القُرآنِ، فهُم به يهتَدونَ ويعتَبِرونَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف: ٣].

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ طغَى وتجبَّر وتكبَّر في الأرضِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧، ٨).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿ تِلْكَ ﴾ أي: هذه ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي: الواضحِ الجَليِّ، الكاشفِ عن حقائقِ الأمورِ، وعِلْمِ ما قد كان وما هو كائنٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠).

(٢) قال الألوسي: (الظَّاهِرُ أنَّ ﴿مِن﴾ تبعيضيَّةٌ، وجوَّز بعضُهم كونَها بيانيَّةً، وكَوْنَها صِلةً على رأيِ الأخفَشِ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٥٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٩، ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠).

قال الماوَرْديُّ: (وهذه الأرضُ أرضُ مِصرَ؛ لأنَّ فِرعَونَ مَلَكَ مِصرَ، ولم يَملِكِ الأرضَ =

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾.

أي: وجعَلَ فِرعَونُ أهلَ مملكتِه أقسامًا وأصنافًا متفرِّقةً[١].

= كُلَّها، ومِصرُ تُسمَّى الأرضَ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٣٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٧٧).

قال ابن عاشور: (يجوزُ أن تجعَلَ المرادَ بالأرضِ جميعَ الأرضِ، يعني: المشهورَ المعروفَ منها، فإطلاقُ الأرضِ كإطلاقِ الاستِغراقِ العُرفيِّ...، فالمعنى: أرضُ مملكتِه، وكان عُلُوِّه أقوى مِن عُلوِّ ملوكِ الأرضِ وسادةِ الأقوامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٧).

وقال الماوَرْدي: (قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحدُها: ببَغْيِه في استِعبادِ بني إسرائيلَ وقتْلِ أولادِهم، قاله قَتادةُ. الثَّاني: بكُفرِه وادِّعاءِ الرُّبوبيَّةِ. الثَّالثُ: بمُلكِه وسُلطانِه... وفي عُلوِّه وجهانِ؛ أحدُهما: هو لِظُهورِه في غلَبتِه. الثَّاني: كِبْرُه وتَجَبُّرُه). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٣٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣٩).

وقال الواحديُّ: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾... قال المفسِّرون: استكبرَ وتجبَّر وبغى، وتعظَّمَ وطغى. كلُّ هذا مِن ألفاظِهم). ((البسيط)) (١٧/ ٣٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فِرَقًا وأصنافًا في أنواعِ الخدمةِ والتَّسخيرِ. وممَّن اختار هذا القولَ: الواحديُّ، والبغوي، والرسعني، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٣).

وقيل: جعَلَهم شِيعًا، أي: فِرَقًا على أهواءٍ مختلفةٍ، وألقَى بيْنَهم التَّشاحنَ، وأغرَى بينَ القبطِ وبني إسرائيلَ، وشتَّت كلمتَهم؛ لِيَتمكَّنَ مِن التسلُّطِ عليهم. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٠٥). =

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾.

أي: يستعبِدُ فِرعَونُ منهم بني إسرائيلَ(١)، ويُهينُهم ويُذِلُّهم(٢).

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾.

أي: يأمُرُ بذَبحِ أبناءِ بني إسرائيلَ الذُّكورِ(٣)، .....

= وقيل: المُرادُ بالشِّيَعِ ما فسَّره بقولِه: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أي: يستخدمُهم ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٨).

(١) قال ابن عاشور: (الطَّائفةُ المُستضعَفةُ هي طائفةُ بني إسرائيلَ، وضميرُ ﴿مِّنْهُمْ﴾ عائدٌ إلى ﴿أَهْلَهَا﴾ لا إلى ﴿شِيَعًا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨).

قيل: إنَّه كان يَستعمِلُهم في أخَسِّ الأعمالِ، ويُسَخِّرُهم في الأعمالِ الشاقَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨).

(٣) واختُلِف في السَّببِ الَّذي مِن أجْلِه أمَر فرعونُ بتذبيحِ أبنائِهم:

فقيل: خوفًا مِن أن يَكثُروا فيَغمُروا بلادَه، فيَصيرَ النُّفوذُ والمُلكُ إليهم. وممَّن قال بذلك: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٩).

ويُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٣٤).

وقيل: لأنَّ المنجِّمينَ في ذلك العصرِ أخبَروه أنَّه يَذهَبُ مُلْكُه على يدِ مولودٍ مِن بني إسرائيلَ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٣). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠، ٢٢١).

وضعَّف الرازيُّ إسنادَ مِثلِ هذا الخبرِ إلى المنجِّمينَ والكهَنةِ، وذكر أنَّ الأَولى بالقَبولِ أن يكونَ بعضُ الأنبياءِ قبْلَ موسى هم الَّذين بشَّروا بهذا، فوصَل إلى مَسامعِ فِرعونَ ما بشَّروا به. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٨).

قال ابن كثير: (وكانت القِبْطُ قد تَلقَّوْا هذا [أي: ذهابَ ملكِ فرعونَ وهلاكَه على يدِ هذا المولودِ] مِن بَني إسرائيلَ فيما كانوا يَدرُسونَه مِن قولِ إبراهيمَ الخليلِ، حينَ وَرَد الدِّيارَ المِصريَّةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢١). =

ويَترُكُ إناثَهم أحياءً[١].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ كان مِن المفسِدينَ في الأرضِ، بالكُفرِ والعِصيانِ، والتجبُّرِ وعَمَلِ السُّوءِ؛ ومِن ذلك سَعيُه بالتَّفريقِ بينَ الخَلقِ[٢].

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ

= وقال ابن عثيمين: (ولا يَبعُدُ أن يكونَ الأمْرانِ جميعًا قد صارَا عِلَّةً لهذا الفعلِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٣).

وقال الواحدي: (قوله: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ [القصص: ٤]، والمرادُ بذلك: أنَّه يأمرُ بالذبحِ فيُمتَثَلُ أمرُه). ((البسيط)) (٣/ ٩٣).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٩، ٧٠).

قيل: هذا بيانٌ لمجمَلِ قولِه تعالى: ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةً مِّنۡهُمۡ﴾. وممَّن نصَّ على ذلك: الواحديُّ، والبقاعي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٠).

والمقصدُ مِن استحياءِ النساءِ: قيل: يَتركونَهُنَّ أحياءً للخدمةِ. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، والنسفي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (١/ ٥١)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٧٦).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ إهانةً لهم واحتقارًا، وخوفًا مِن أن يوجَدَ منهم الغلامُ الَّذي كان قد تَخوَّفَ هو وأهلُ مملكتِه مِن أن يوجَدَ منهم غلامٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠).

وقيل: يَستَحْيُونَ النِّساءَ للاسترقاقِ والاستِخدامِ. واختاره الماوَرْديُّ، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٩).

وقيل: هذا الاستِحْياءُ للإناثِ كان المقصدُ منه خبيثًا، وهو أن يَعتَدوا على أعراضِهنَّ ولا يجِدْنَ بُدًّا مِن الإجابةِ بحُكمِ الأسرِ والاسترقاقِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨، ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣).

ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ونريدُ أن نتفضَّلَ ونُنعِمَ على بني إسرائيلَ الَّذين استضعَفَهم فِرعَونُ في الأرضِ، فنُهلِكَ أعداءَهم، ونُزيلَ السُّوءَ عنهم[١].

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾.

أي: ونجعَلَ بني إسرائيلَ أئمَّةً[٢] متَّبَعينَ، يُقتدَى بهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٠).

(٢) قيل: أئمَّةً: أي: في الدِّين، وقادةً في الخيرِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: مقاتلٌ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٣٣).

وقيل: المعنى: وُلاةً ومُلوكًا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٨٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٣).

وقال الشوكاني: (﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي: قادةً في الخيرِ ودعاةً إليه، وولاةً على الناسِ وملوكًا فيهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٣).

قال ابن عاشور: (فأمَّا جَعْلُهم أئمَّةً فذلك بأن أخرَجَهم مِن ذُلِّ العبوديَّةِ، وجعَلَهم أُمَّةً حُرَّةً مالِكةً أمرَ نفْسِها، لها شريعةٌ عادلةٌ، وقانونُ مُعامَلاتِها، وقوَّةٌ تَدفَعُ بها أعداءَها، ومملكةٌ خالصةٌ لها، وحضارةٌ كاملةٌ تَفوقُ حضارةَ جيرتِها، بحيث تَصيرُ قُدوةً للأُمَمِ في شؤونِ الكمالِ وطلَبِ الهَناءِ، فهذا معنَى جَعْلِهم أئمَّةً، أي: يَقتدي بهم غيرُهم، ويَدْعون النَّاسَ إلى الخيرِ، وناهيك بما بلغه مُلكُ بني إسرائيلَ في عهدِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٠).

كما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾.

أي: ونجعَلَ بني إسرائيلَ وارِثينَ لملكِ فِرعَونَ وأرضِه مِن بعدِ إهلاكِنا له[١].

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾[الأعراف: ١٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩].

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ونُوطِّئَ لبني إسرائيلَ في الأرضِ، ونجعَلَهم مُقتَدِرينَ على التَّصرُّفِ والاستقرارِ فيها[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣). =

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾.

أي: ونريدُ أن نُريَ فِرعَونَ وهامانَ[١] وجُنودَهما ما كانوا يخافونَه مِن زَوالِ مُلكِهم على أيدي بني إسرائيلَ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ مَن علا في الأرضِ، وطَلَبَ العُلُوَّ على الخلْقِ؛ فهو شبيهٌ بفِرعَونَ ووارثُه، وبئسَ الرَّجُلُ مَن كان فِرعَونُ إمامَه[٣]!

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تمهيدُ القِصَّةِ بعُلُوِّ فِرعَونَ وفسادِ أعمالِه يشيرُ إلى أنَّ ذلك هو سببُ الانتقامِ منه، والأخْذِ بنصرِ المستضعَفينَ؛ لِيَحذرَ الجبابرةُ سوءَ عاقبةِ ظُلمِهم، ولِيَرجوَ الصابرون على الظُّلمِ أنْ تكونَ العاقبةُ لهم[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أنَّ العُلُوَّ في

= قيل: الأرضُ هنا هي أرضُ مِصرَ والشَّامِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، وأبو السعود. يُنظر: المصادر السابقة.

(١) قال ابن عطية: (وهامانُ هو وزيرُ فِرعونَ، وأكبرُ رجالِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٦).
وممَّن ذكر أنَّه كان وزيرَ فِرعَونَ: البِقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٥).

الأرضِ، والعُتُوَّ على الخلْقِ، والسَّعْيَ بيْنَهم بالتَّفريقِ: يُعَدُّ مِن الإفسادِ، وذلك من قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، ويَتَّضِحُ مِن الآيةِ أنَّه مَن كان على نقيضِ ذلك؛ مِن التَّواضُعِ للحقِّ والخلْقِ، وجَمْعِ شمْلِ الأُمَّةِ، وقَصْرِ عُدوانِه عنها: يكونُ مِن المصلِحينَ، وكما قيلَ: «وبضِدِّها تتميَّزُ الأشياءُ»[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ أنَّ الأُمَّةَ المُستضعَفةَ -ولو بلغتْ في الضَّعْفِ ما بلغَتْ- لا ينبغي لها أنْ يستوليَ عليها الكَسلُ عن طَلَبِ حقِّها، ولا الإياسُ مِن ارتقائِها إلى أعلَى الأمورِ، خصوصًا إذا كانوا مظلومين، كما استنقذَ اللهُ أُمَّةَ بني إسرائيلَ -الأُمَّةَ الضَّعيفةَ- مِن أسْرِ فِرعَونَ ومَلَئِه، ومَكَّنَهم في الأرضِ، ومَلَّكَهم بلادَهم[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ إظهارُ أنَّ العُلُوَّ الحقَّ للهِ تعالى وللمؤمِنينَ، وأنَّ عُلُوَّ فِرعَونَ لم يُغْنِ عنه شَيئًا في دفْعِ عواقبِ الجَبروتِ والفسادِ؛ لِيَكونَ ذلك عِبرةً لجبابرةِ المُشرِكين مِن أهلِ مكَّةَ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أنَّ هذا القرآنَ مكتوبٌ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾، ومعلومٌ أنَّ كتابةَ القرآنِ مُتحقِّقةٌ في ثلاثةِ أماكنَ: في اللَّوحِ المحفوظِ، وفي صُحُفِ الملائكةِ، وفي المصاحفِ الَّتي بينَ أيدينا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ آياتِ اللهِ تعالى وعِبَرَه وأيَّامَه في الأمم السَّابقةِ إنَّما يَستفيدُ بها ويَستنيرُ المؤمِنون، فعلى حَسَبِ إيمانِ العبدِ تكونُ عِبرَتُه، وإنَّ اللهَ تعالى إنَّما يَسوقُ القَصَصَ لأجْلِهم، وأمَّا غيرُهم فلا يَعبَأُ اللهُ بهم، وليس لهم منها نورٌ وهدًى[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا﴾ أنَّ بني إسرائيلَ هم مِن أهلِ مصرَ، مع أنَّهم في الأصلِ مِن أهلِ الشَّام، فيتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّ مَن سَكَنَ أرضًا وأقامَ فيها -وإنْ لم يكُنْ مِن أهلِها في الأصلِ- نُسِبَ إليها، وصار مِن أهلِها[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أنَّ تفريقَ الأُمَّةِ سببٌ لفَشَلِها وذُلِّها، وفِرعَون هو أوَّلُ مَن جَعَل أهلَ الأرضِ شِيَعًا؛ حتى يَسُودَ عليهم[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وقولِه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]، وقولِه: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]؛ دَلالةٌ على أنَّ الأفعالَ قد تكونُ قبيحةً مذمومةً قبْلَ مجيءِ الرَّسولِ إلى النَّاسِ، فقد أخبرَ سُبحانَه عن فِرعَونَ أنَّه ظالمٌ وطاغٍ ومُفسِدٌ هو وقَومُه -وهذه أسماءُ ذَمِّ الأفعالِ-؛ والذَّمُّ إنَّما يكونُ في الأفعالِ السَّيِّئةِ القبيحةِ؛ إلَّا أنَّهم لا يَستحِقُّونَ العذابَ إلَّا بعدَ مجيءِ الرَّسولِ إليهم؛ لقولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٤] [الإسراء: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٣٧).

٦- النَّاسُ أربَعةُ أقسامٍ:

القِسْمُ الأوَّلُ: يُريدونَ العُلُوَّ على النَّاسِ والفسادَ في الأرضِ، وهو مَعصيةُ اللهِ، وهؤلاء الملوكُ والرُّؤساءُ المُفسِدونَ؛ كفِرعَونَ وحِزبِه. وهؤلاء هم شِرارُ الخَلقِ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ ...))، ثمَّ قال: ((الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ))[1]. فبطَرُ الحَقِّ: دَفْعُه وجَحْدُه. وغَمْطُ النَّاسِ: احتِقارُهم وازدِراؤُهم، وهذا حالُ مَن يريدُ العلُوَّ والفَسادَ.

والقِسْمُ الثَّاني: الَّذين يريدونَ الفَسادَ بلا علُوٍّ؛ كالسُّرَّاقِ، والمجرِمينَ مِن سَفِلةِ النَّاسِ.

والقِسمُ الثَّالثُ: يريدونَ العُلُوَّ بلا فسادٍ؛ كالَّذين عندَهم دِينٌ يُريدون أن يَعلُوا به على غيرِهم مِنَ النَّاسِ.

وأمَّا القِسمُ الرَّابعُ: فهُم أهلُ الجنَّةِ الَّذين لا يريدونَ علوًّا في الأرضِ ولا فَسادًا، مع أنَّهم قد يكونونَ أعلَى مِن غَيرِهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] [المنافقون: ٨].

٧- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وكم ممَّن يريدُ العُلوَّ ولا

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٩٢).

يَزيدُه ذلك إلَّا سُفولًا؟! وكم ممَّن جُعِلَ مِن الأعلَينَ، وهو لا يريدُ العلُوَّ ولا الفَسادَ؟! وذلك لأنَّ إرادةَ العُلوِّ على الخَلقِ ظُلْمٌ؛ لأنَّ النَّاسَ مِن جِنسٍ واحدٍ؛ فإرادةُ الإنسانِ أن يكونَ هو الأعلَى، ونظيرُه تحتَه: ظُلْمٌ، ومع أنَّه ظُلمٌ فالنَّاسُ يُبغِضونَ مَن يكون كذلك ويُعادونَه؛ لأنَّ العادلَ منهم لا يحِبُّ أن يكونَ مَقهورًا لِنَظيرِه، وغيرُ العادلِ منهم يُؤْثِرُ أن يكونَ هو القاهِرَ، ثمَّ إنَّه مع هذا لا بُدَّ له -في العَقلِ والدِّينِ- مِن أن يكونَ بَعضُهم فوقَ بَعضٍ، كما أنَّ الجَسَدَ لا يَصلُحُ إلَّا برأسٍ؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فجاءت الشَّريعةُ بصَرفِ السُّلطانِ والمالِ في سَبيلِ الله. فإذا كان المقصودُ بالسُّلطانِ والمالِ هو التقرُّبَ إلى اللهِ، وإنفاقَ ذلك في سَبيلِه؛ كان ذلك صلاحًا للدِّينِ والدُّنيا، وإن انفرَدَ السُّلطانُ عن الدِّينِ، أو الدِّينُ عن السُّلطانِ؛ فسَدَت أحوالُ النَّاسِ[1].

٨- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أرادَ فرعونُ بحَوْلِه وقوَّتِه أنْ ينجوَ مِن موسَى، فما نَفَعه ذلك مع قَدَرِ الملِكِ العظيمِ الَّذي لا يُخالَفُ أمرُه القَدَريُّ، بل نَفَذ حُكمُه، وجرَى قَلَمُه في القِدَمِ بأنْ يكونَ إهلاكُ فِرعونَ على يَدَيه، بل يكونُ هذا الغلامُ الَّذي احترَزْتَ مِن وُجودِه، وقتلْتَ بسببِه ألوفًا مِنَ الوِلْدانِ إنَّما مَنْشَؤُه ومَرْباهُ على فِراشِكَ وفي دارِك، وغذاؤُه مِن طعامِكَ وشرابِكَ، وأنت تُرَبِّيه وتُدلِّلُه وتتَفَدَّاه، ثمَّ يكونُ حَتْفُك وهلاكُكَ وهلاكُ جنودِك على يدَيه؛ لِتَعلَمَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٩٣).

أنَّ ربَّ السَّمواتِ العُلا هو القادرُ الغالبُ العظيمُ، العزيزُ القويُّ الشَّديدُ المِحالِ، الَّذي ما شاءَ كان، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ[(١)].

٩- أنَّ مَنِ استُضعِفَ لقيامِه بالحقِّ، فلا بُدَّ أنْ تكونَ العاقبةُ له؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ وإنْ كان في سياقِ بني إسرائيلَ، فغيرُهم داخلٌ في العمومِ اللَّفظيِّ إذا قُلْنا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ في أيِّ مكانٍ وزمانٍ، أو العمومِ المعنويِّ وذلك بقياسِ غيرِهم عليهم.

فإن قيل: إنَّ هناك أُناسًا استُضعِفوا بالحقِّ، وقُتِلوا، أو طُرِدوا، أو ما أشبَهَ ذلك؛ فأين العاقبةُ الَّتي تزعمون؟!

فالجوابُ: أنَّ العاقبةَ لا تكونُ للشَّخصِ الجسديِّ فقط! بل تكونُ أيضًا لِلشَّخصِ المعنويِّ؛ فمقالتُه هذه لا بُدَّ أنْ تُنْصَرَ، فالنَّصرُ لقائلِ الحقِّ في حياتِه، أو لمقالتِه بعدَ وفاتِه[(٢)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ الإشارةُ إلى حكمةِ قولِه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] في جانبِ بني إسرائيلَ، و قولِه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] في جانبِ فِرعَونَ؛ إذْ كانوا فَرِحينَ باستخدامِ بني إسرائيلَ، وتدبيرِ قطْعِ نسْلِهم[(٣)]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أنَّ المسلمينَ إذا استَولَوا على بلادِ الكفَّارِ مَلَكوها، والوارثُ يَمْلِكُ ما وَرِثَ، فهُمُ الَّذين يَجعلُهم اللهُ الوارثينَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢١)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٣٤، ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٥).

ولهذا قال أهلُ العلمِ: «إنَّ الأراضيَ تُمْلَكُ»[(١)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ تمكينَ الإنسانِ في الأرضِ هو مِن نعمةِ اللهِ عليه؛ لأنَّ هذا مِن جملةِ ما أُنعِمَ به على بني إسرائيلَ: أنْ مَكَّنَهم في الأرضِ[(٢)].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ أنَّ الحَذَرَ لا يُنجي مِن القَدَرِ[(٣)].

١٤- هنا إشكالٌ، وهو: كيف أَراهم اللهُ تعالى ما كانوا يَحذَرونَ مع أنَّهم هلَكوا؟

والجوابُ: أنَّهم أدركوا ذلك في آخرِ لحظاتِ حياتِهم، وقبْلَ خروجِ الرُّوحِ، وذلك ظاهرٌ في قولِ فِرعَونَ عندَما أدرَكَه الغرقُ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].

وقال بعضُهم في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾: ليس المرادُ الهلاكَ، بل المرادُ: بما كانوا يَحذرون مُنازعةَ آلِ فِرعَونَ؛ فإنَّ بني إسرائيلَ لَمَّا بُعِث موسى استَقْوَوْا، وقِصَّةُ السَّحَرةِ واضحةٌ في هذا، لَمَّا اجتَمَعوا واجتمَعَ النَّاسُ في يومِ عيدِهم، وفي الضُّحى في رابعةِ النَّهارِ، وصارت الهزيمةُ على آلِ فِرعَونَ، هزيمةً حِسِّيَّةً ومعنويَّةً: هُزِموا حِسًّا بأنَّ عصا موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جعلَتْ تَلْقَفُ ما يَأْفِكون، وهُزِموا معنًى بأنَّ السَّحرةَ أنفُسَهم آمَنوا، وصرَّحوا للمَلأِ بأنَّ فِرعَونَ هو الَّذي أكرَهَهم على السِّحرِ، وبَيَّنوا أنَّ الرَّبَّ الحقيقيَّ هو ربُّ موسى وهارُونَ سُبحانَه وتعالى، فهذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٥).

هزيمةٌ معنويَّةٌ، بالإضافةِ إلى الهزيمةِ الحِسِّيَّةِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ المُشارُ إليه ما هو مَقروءٌ يومَ نُزولِ هذه الآيةِ مِن القُرآنِ؛ تَنويهًا بشأْنِ القرآنِ، وأنَّه شأنٌ عظيمٌ[٢].

- وفي الإشارةِ إليه بالبُعدِ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ﴾ بيانُ عِظَمِ القرآنِ وعُلُوِّهِ[٣].

- وحَذْفُ مُتَعَلَّقِ ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يُستفادُ منه عمومُ إبانةِ القرآنِ لكلِّ شيءٍ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ هذه الجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، ومهَّدَ لـ ﴿ نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ بقولِه: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ ﴾؛ للتَّشويقِ لهذا النَّبأِ؛ لِمَا فيه مِن شتَّى العِبَرِ بعَظيمِ تَصرُّفِ اللهِ في خلْقِه[٥].

- وفي قولِه: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ ﴾ جُعِلَت التِّلاوةُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه الَّذي يَتلقَّى ذلك المَتلُوَّ. وعُبِّرَ عن هذا الخبرِ بالنَّبأِ؛ لإفادةِ أنَّه خبرٌ ذو شأْنٍ وأهمِّيَّةٍ[٦].

- قولُه: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيه تَخصيصُ المؤمنينَ بذلكَ مع عُمومِ الدَّعوةِ والبَيانِ للكلِّ؛ لأنَّهم المُنتفِعونَ بِه[٧]. والمُرادُ بـ (قومٍ يُؤمِنون) قومُ الإيمانُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٣، ٦٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٦٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير أبي =

شأْنُهم وسَجيَّتُهم. وللإشارةِ إلى معنى تَمكُّنِ الإيمانِ مِن نُفوسِهم أُجْرِيَ وَصفُ الإيمانِ على كلمةِ (قَوم)؛ لِيُفِيدَ أنَّ كَوْنَهم مُؤمِنينَ هو مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم. وجِيءَ بصِيغَةِ المُضارِعِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ إيمانَهم مَوجودٌ في الحالِ، ومُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ. وفي هذا إعراضٌ عن العَبْءِ بالمُشرِكين في سَوقِ هذه القصَّةِ بما يُقصَدُ فيها مِن العِبرةِ والموعظةِ؛ فإنَّهم لم يَنتفِعوا بذلك، وإنَّما انتفَعَ بها مَنْ آمَنَ ومَنْ سيُؤمِنُ بعدَ سماعِها[1].

- واللَّامُ في ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لامُ التَّعليلِ، أي: نَتلو عليك لأجْلِ قومٍ يُؤمِنون؛ فكانتِ الغايةُ مِن تِلاوةِ النَّبأِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هي أنْ يَنتفِعَ بذلك قومٌ يُؤمِنون؛ فالنَّبيُّ يُبلِّغُ ذلك للمؤمِنين[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ابتُدِئَت القصَّةُ بذِكْرِ أسبابِها؛ لتَكونَ عِبرةً للمُؤمِنينَ يَتَّخِذون منها سُننًا يَعلَمون بها عِلَلَ الأشياءِ ومَعلولاتِها، ويَسيرون في شُؤونِهم على طَرائقِها؛ فلولا تجبُّرُ فِرعونَ -وهو مِن قَبيحِ الخِلالِ- ما حلَّ به وبقَومِه الاستِئصالُ، ولَمَا خرَجَ بنو إسرائيلَ مِن ذُلِّ العُبوديَّةِ. وهذا مِصداقُ المثَلِ: مصائبُ قومٍ عندَ قومٍ فوائدُ، وقولِه تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وصُوِّرَت عَظَمةُ فِرعونَ في الدُّنيا بقولِه: ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لِتَكونَ العِبرةُ بهَلاكِه بعدَ ذلك العُلوِّ أكبَرَ العِبَرِ[3].

= حيان)) (٨/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٦٦).

- قولُه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ جُملةٌ مُسْتأنَفةٌ، وهي جاريةٌ مجرَى التَّفسيرِ؛ كالتَّفسيرِ للمُجمَلِ الموعودِ، كأنَّ قائلًا قال: وكيف كان نَبؤُهما؟ فقال:...، وهذه الجُملةُ وما عُطِفَ عليها بيانٌ لجُملةِ ﴿نَتْلُواْ﴾ [القصص: ٣]، أو بيانٌ لـ﴿نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٣]؛ فقُدِّمَ له الإجمالُ؛ للدَّلالةِ على أنَّه نبأٌ له شأنٌ عظيمٌ، وخَطرٌ بما فيه مِن شَتَّى العِبَرِ[١].

- وتَصديرُ الجُملةِ بحَرفِ التَّأكيدِ؛ للاهتِمامِ بالخَبرِ، وللاعتناءِ بتَحقيقِ مَضمُونِ ما بعدَه، أي: إنَّه تَجبَّر وطغَا في أرضِ مِصرَ، وجاوَزَ الحُدودَ المَعهودةَ في الظُّلمِ والعُدوانِ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ احتِباكٌ[٣]؛ فقد ذَكَر العُلُوَّ أوَّلًا دليلًا على السُّفولِ ثانيًا؛ والافتِراقَ ثانيًا دليلًا على الاجتماعِ أوَّلًا[٤].

- ومِن البَلاغةِ اختِيارُ قولِه: ﴿شِيَعًا﴾ هنا؛ لِيَدُلَّ على أنَّه جعَلَ أهلَ بلادِ القِبطِ فِرَقًا ذاتَ نَزعاتٍ تَتشيَّعُ كلُّ فِرقةٍ إليه، وتُعادي الفِرقةَ الأخرى؛ لِيَتِمَّ له ضَربُ بعضِهم ببعضٍ، وقد أغْرى بيْنَهم العداوةَ؛ لِيَأمَنَ تألُّبَهم عليه، كما

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٦).

(٣) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِنَ الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِنَ الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٠).

يُقال: فرِّقْ تَحكُمْ، وهي سِياسةٌ لا تَليقُ إلَّا بالمكرِ بالضِّدِّ والعَدوِّ، ولا تَليقُ بسِياسةِ وَليِّ أمْرِ الأُمَّةِ الواحِدةِ[١]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

- جُملةُ ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أُبدِلَتْ مِن جُملةِ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ بَدلَ اشتِمالٍ؛ لأنَّه ما فعَلَ ذلك بهم إلَّا لأنَّه عَدَّهم ضُعفاءَ، أي: أذِلَّةً، فكان يَسومُهم العذابَ، ويُسخِّرُهم للأعمالِ الشَّاقَّةِ[٢].

- قَولُه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ صِفةُ الكِبْرِ هي أمُّ المفاسدِ وجِماعُها؛ ولذلك قُدِّمتْ على ما يُذكَرُ بعدَها، ثمَّ أُعقِبَت بأنَّه كان مِن المُفسِدين[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ إذ ليس في ذلك إلَّا مُجرَّدُ الفَسادِ. وقولُه: ﴿مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: الكامِلينَ في الفَسادِ، والمعدودينَ في زُمْرَتِهم، وهو دالٌّ على شِدَّةِ تَمكُّنِ الإفسادِ مِن خُلقِه ممَّا لو قِيل: كان فاسدًا، ولِفِعلِ الكونِ إفادةُ تمكُّنِ خَبرِ الفِعلِ مِن اسمِه؛ فحصَلَ تأكيدٌ لمَعنى تَمكُّنِ الإفسادِ مِن فِرعونَ؛ ذلك أنَّ فِعلَه هذا اشتَمَلَ على مَفاسدَ عظيمةٍ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

- عُطِفَت جُملةُ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ ...﴾ على جُملةِ ﴿إِنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٦٧، ٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨).

فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ لمُناسَبةِ ما في تلك الجُملةِ مِن نَبأ تَذبيح الأبناءِ، واستِحياءِ النِّساءِ؛ فذلك مِن عُلوِّ فِرعونَ في الأرضِ، وهو بَيانٌ لـ﴿نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ ﴾؛ فإنَّ إرادةَ اللهِ الخيرَ بالَّذين استَضْعَفهم فِرعونُ مِن تَمام نَبأ مُوسى وفِرعونَ، وهو مَوقِعُ عِبرةٍ عظيمةٍ مِن عِبَرِ هذه القصَّةِ. وجِيءَ بصِيغَةِ المُضارِعِ ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ في حِكايةِ إرادةٍ مَضَتْ؛ لاستِحضارِ ذلك الوقتِ كأنَّه في الحالِ؛ لأنَّ المعنى: أنَّ فِرعونَ يَطْغى عليهم، واللهُ يُرِيدُ في ذلك الوقتِ إبطالَ عمَلِه، وجَعْلَهم أمَّةً عَظيمةً[١].

- ونُكتةُ إظهارِ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ دونَ إيرادِ ضَميرِ الطَّائفةِ؛ للتَّنبيهِ على ما في الصِّلةِ مِن التَّعليلِ؛ فإنَّ اللهَ رَحيمٌ بعِبادِه، ويَنصُرُ المُستضعفينَ المظلومينَ الَّذين لا يَسْتطيعون حِيلةً ولا يَهتَدون سَبيلًا[٢]. وأيضًا لإبانةِ قَدْرِ النِّعمةِ في المِنَّةِ بذِكْرِ حالتِهم السَّابقةِ المُباينةِ لها[٣].

- وخُصَّ بالذِّكرِ مِن المَنِّ أربعةُ أَشياءَ، عُطِفَت على فِعلِ ﴿نَّمُنَّ﴾ عطْفَ الخاصِّ على العامِّ؛ وهي: جَعلُهم أئمَّةً، وجَعلُهم الوارثينَ، والتَّمكينُ لهم في الأرضِ، وأنْ يكونَ زوالُ مُلكِ فِرعونَ على أيدِيهم، في نِعَمٍ أُخرَى جمَّةٍ، ذُكِرَ كثيرٌ منها في سُورةِ البقرةِ[٤].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ تَعريفُ الجِنسِ المفيدُ أنَّهم أهلُ الإرثِ الخاصِّ، وهو إرثُ السُّلطةِ في الأرضِ بعدَ مَن كان قبْلَهم مِن أهْلِ السُّلطانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وقيل: ﴿وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ لجَميعِ ما كان مُنتظِمًا في سلْكِ مُلكِ فِرعونَ وقومِه وِراثةً مَعهودةً فيما بيْنَهم، كما يُنبِئُ عنه تَعريفُ ﴿ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾. وتأخيرُ ذِكْرِ وِراثتِهم له عن ذِكْرِ جَعلِهم أئمَّةً -مع تَقدُّمِها عليه زَمانًا-؛ لانحِطاطِ رُتبتِها عن الإمامةِ، ولئلَّا يَنفصِلَ عنه ما بعْدَه مع كَونِه مِن رَوادفِه، أي: قولُه تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ فيه احتباكٌ[2]، حيثُ ذَكَرَ الاستِضعافَ أوَّلًا دليلًا على القوَّةِ ثانيًا، وإراءةَ المحذورِ ثانيًا دليلًا على إرادةِ المحبوبِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك أنه ذَكَرَ المُسَلِّي والمُرجِّي ترغيبًا في الصبرِ وانتظارِ الفرجِ[3].

- وخُصَّ هامانُ بالذِّكْرِ -وهو وزيرُ فِرعونَ وأحدُ رِجالِه-؛ لِنَباهتِه في قَومِه ومَحلِّه مِن الكُفرِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣).

(٢) تقدم تعريفه قريبًا.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٦).

الآيات (٧-١٢)

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْيَمِّ﴾: أي: البَحرِ، ويُطلَقُ اليَمُّ على ما كان ماؤُه مِلحًا، وعلى النَّهرِ الكبيرِ العَذبِ الماءِ، والمرادُ هنا نهرُ النِّيلُ[(١)].

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾: يُقالُ: قَرَّتْ عينُه تَقَرُّ: سُرَّتْ، وقيل لِمَن يُسَرُّ به: قُرَّةُ عينٍ، وأصلُه مِن القُرِّ، أي: البَردِ، فقَرَّتْ عينُه، قيل: معناه بَرَدَتْ فصَحَّتْ، وقيل: هو مِن القَرارِ، والمعنى: أعطاه اللهُ ما تَسكُنُ به عينُه، فلا يطمَحُ إلى غيرِه، وقيل: أقرَّ الله عينَه، أي: أنامَها[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((الغريبين =

﴿رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾: أي: شَدَدْنا عليه وثبَّتْناه، وألهَمْناها الصَّبرَ، وأصلُ (ربط): يدُلُّ على شدٍّ وثباتٍ[١].

﴿قُصِّيهِ﴾: أي: تتبَّعي أثَرَه، والقَصُّ: تتبُّعُ الأثَرِ، وأصلُ (قصص): يدُلُّ على تتبُّعِ الشَّيءِ[٢].

﴿عَن جُنُبٍ﴾: أي: عن بُعدٍ، وأصلُ (جنب): يدُلُّ على بُعدٍ[٣].

﴿يَكْفُلُونَهُۥ﴾: أي: يَضُمُّونَه إليهم، وأصلُ (كفل): يدُلُّ على تضمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مفصِّلًا الحديثَ عن موسَى عليه السلامُ: وأوحَيْنا إلى أمِّ موسى أن أرضِعي موسى، فإذا خِفْتِ عليه مِن فِرعَونَ وجُندِه فضَعِيه في تابوتٍ

= في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٥٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٣، ٧٣٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦).

وألْقيه في نهرِ النِّيلِ، ولا تخافي على موسى مِن الغَرَقِ، ولا تحزني على فِراقِه؛ إنَّا رادُّوه إليكِ، وجاعِلوه من رسُلِ اللهِ.

فأخَذ آلُ فِرعَونَ موسى؛ لِيَكونَ عدوًّا لهم وحَزَنًا بزَوالِ مُلكِهم على يديه، إنَّ فِرعَون وهامانَ وجنودَهما كانوا عصاةً آثمينَ.

وقالت امرأةُ فِرعَونَ: هذا الطِّفلُ سرورٌ لي ولك يا فِرعَونُ، لا تقتُلوه؛ لعلَّه ينفَعُنا أو نجعَلُه لنا ولدًا، وهم لا يَعلَمونَ أنَّ هلاكَهم سيَكونُ على يدَيْ هذا الطِّفلِ!

وأصبَحَ فؤادُ أمِّ موسى فارغًا مِن كلِّ شيءٍ إلَّا مِن أمرِ موسى! وقد قارَبَتْ أن تُظهِرَ للنَّاسِ ما تكتُمُه في قَلبِها مِن شأنِ موسى، لولا أن ثبَّتْنا قَلْبَها لِتَكونَ مِن المؤمنينَ بوعدِ اللهِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى ما فعَلَتْه أمُّ موسى بعدَ ذلك، فيقولُ: وقالت لأختِ موسى: اذهَبي فتتَبَّعي أثَرَ موسى؛ لِتَعلمي خبَرَه. فذهَبَتْ أختُه فرَأَتْه مِن بعيدٍ، وهم لا يَعلمونَ أنَّها أختُ موسى، وأنَّها تُراقِبُه.

ثمَّ يخبِرُ تعالى عن مَظهرٍ مِن مظاهرِ حكمتِه وقدرتِه وتدبيرِه لِكَيْ يعودَ موسَى عليه السَّلامُ إلى أمِّه، فيقولُ: ومنَعْنا موسى مِن الرَّضاعِ مِن أيِّ مُرضِعٍ غيرِ أُمِّه، فقالت أختُ موسى لآلِ فِرعَونَ: هل أدُلُّكم على أهلِ بَيتٍ يَضُمُّون هذا الطِّفلَ، ويقومون بحَضانتِه وإرضاعِه، وهم مُخلِصون في ذلك، مُشفِقون عليه؟

فردَدْنا موسى إلى أمِّه لِكَيْ تُسَرَّ به، ولا تحزَنَ على فِراقِه، ولِتَعلَمَ أنَّ ما وعَدَها اللهُ به مِن ردِّ موسى إليها حَقٌّ، ولكنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾.

أي: وأوحَيْنا[1] إلى أمِّ موسى أن أرضِعي موسى ما دُمتِ آمِنةً عليه[2].

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾.

أي: فإذا خِفْتِ على موسى مِن فِرعَونَ وجُندِه، فاطرَحيه في نهرِ النِّيلِ بعدَ وَضعِه في التَّابوتِ[3].

كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: ٣٨، ٣٩].

﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾.

أي: ولا تخافي على موسى مِن الهَلاكِ من الغَرَقِ أو غيرِه، ولا تحزني على

---

(١) قال السمعاني: (أكثرُ المفَسِّرينَ على أنَّ معنى قولِه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ هو إلهامُها، وألقَى هذا المعنى في قَلبِها. وقال بعضُهم: رَأَتْ ذلك رُؤْيا. وقال بعضُهم: هو الوَحْيُ حقيقةً، وأتاها المَلَكُ بهذا مِن الله، إلَّا أنَّها لم تكُنْ نبيَّةً). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٢).
وقال ابنُ عطية: (أجمَع الكُلُّ على أنَّها لم تكُنْ نبيَّةً). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).
قال السمعاني: (اليمُّ: البَحرُ، والمرادُ منه هاهنا على قَولِ جميع المفسِّرينَ هو النِّيلُ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٣).

فِراقِه[١].

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الخَوفُ عمَّا يَلْحَقُ المتوقَّعَ، والحزنُ عمَّا يَلْحَقُ الواقعَ؛ عَلَّلَ نَهْيَه عن الأمْرَينِ بقَولِه[٢]:

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

أي: إنَّا رادُّو ابنِك موسى إليكِ، وجاعِلوه مِن رُسلِ اللهِ إلى عِبادِه[٣].

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

أي: فأخَذ آلُ فِرعَونَ موسى؛ لِيَكونَ[٤] عدوًّا لهم في دينِهم، وحَزَنًا يَحزُنُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).

(٤) اختلف المفسِّرون في اللَّام مِن قَولِه تعالى: ﴿لِيَكُونَ﴾؛ فقيل: هي لامُ العاقبةِ والصَّيرورةِ، أي: أخَذوه فكان عاقبةُ أمرِهم أنْ صار موسى عدوًّا لهم وحَزَنًا. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن العربي، والقرطبي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٧)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).

قال ابن تيميَّة: (لام العاقبةِ إنَّما تجيءُ في حقِّ مَن لا يكونُ عالمًا بعواقبِ الأمورِ ومصايرِها، =

بزَوالِ مُلكِهم، وهَلاكِهم على يديه[(١)].

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ وهامانَ وجُنودَهما كانوا عُصاةً آثِمينَ[(٢)].

= فيفعلُ الفعلَ الَّذي له عاقبةٌ لا يَعلَمُها؛ كآلِ فِرعونَ، فأمَّا مَن يكونُ عالمًا بعواقبِ الأفعالِ ومصايرِها فلا يُتصَوَّرُ منه أن يَفعلَ فِعلًا له عاقبةٌ لا يَعلَمُ عاقبتَه، وإذا عَلِم أنَّ فِعلَه له عاقبةٌ فلا يقصدُ بفعلِه ما يعلمُ أنَّه لا يكونُ؛ فإنَّ ذلك تَمَنٍّ وليس بإرادةٍ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ١٨٧).

وقال أيضًا: (لام الصَّيرورةِ إمَّا أن تكونَ لِمَن لا يُريدُ الغايةَ، وذلك إنَّما يكونُ لجهلِ الفاعلِ بالغايةِ؛ كقولِه: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾. وإمَّا لعجزِه عن دفْعِها، وإنْ كان كارهًا لها). ((بيان تلبيس الجهمية)) (١/ ٢١٧).

وقيل: اللَّامُ هنا للتَّعليلِ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ القيم، وابن كثير، ورجَّحه الشنقيطيُّ وردَّ القولَ الآخَر. يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٠).

قال ابن كثير: (قال محمَّدُ بنُ إسحاقَ وغيرُه: «اللَّامُ» هنا لامُ العاقبةِ، لا لامُ التَّعليلِ؛ لأنَّهم لم يُريدوا بالتقاطِه ذلك. ولا شكَّ أنَّ ظاهرَ اللَّفظِ يقتضي ما قالوه، ولكِنْ إذا نُظِرَ إلى معنى السياقِ فإنَّه تبقى اللَّامُ للتَّعليلِ؛ لأنَّ معناه: أنَّ الله تعالى قيَّضَهم لالتقاطِه؛ لِيَجعَلَه لهم عدوًّا وحَزَنًا، فيَكونَ أبلَغَ في إبطالِ حَذَرِهم منه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٩، ١٦١، ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٠، ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥).

قيل: هذه الجملةُ تعليلٌ للجملةِ السَّابقةِ، أي: يكونُ موسى عدوًّا وحَزَنًا لهم؛ لأنَّهم كانوا خاطِئينَ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤).

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ﴾.

أي: وقالت امرأةُ فِرعَونَ: هذا الطِّفلُ سُرورٌ لي ولك يا فِرعَونُ[1].

﴿لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾.

أي: لا تَقتُلوه؛ لعلَّه ينفَعُنا فنَنالَ منه خيرًا، أو نجعَلُه لنا ولدًا فنتبَنَّاه[2]!

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

أي: وفِرعَونُ وآلُه لا يَعلَمونَ ما هو كائِنٌ مِن أنَّ هلاكَهم على يَدَيْ هذا الطِّفلِ[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٧، ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).
قيل: المرادُ: نجعَلُه مِن الخَدَمِ الَّذين يَسْعَون في نفعِنا وخِدمتِنا، أو نرقِّيه لمنزلةٍ أعلى فنجعَلُه ولدًا نُكرِمُه ونُجِلُّه. وممَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩).
قال الرسعني: (قال المفسِّرونَ: كان فرعونُ لا يُولَدُ له إلَّا البناتُ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥١٢).
وقال ابن عثيمين: (قد يدُلُّ تبنِّيها لموسى على أنَّها كانت عاقرًا لا تلِدُ، وقد لا يدُلُّ على ذلك؛ فالمرأةُ قد تتَّخِذُ الولدَ زيادةً على ما عندَها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٥، ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠).
وظاهرُ هذه الجملةِ أنَّها مِن كلامِ الله تعالى. وممَّن نصَّ على ذلك: القرطبيُّ، والسعدي، وابن عثيمين ونسبه الواحدي لأكثرِ المفسرين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير =

﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠ ﴾.

﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾.

أي: وأصبحَ[1] قلبُ أمِّ موسى فارغًا مِن كلِّ شيءٍ إلَّا مِن أمرِ موسى، فلا تفكِّرُ فيما سِواه، ولا تَحمِلُ همًّا غيرَه[2].

= السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣٨).

وقيل: هذا مِن تمامِ كلامِ المرأةِ، والمعنى: وبنو إسرائيلَ لا يَدْرون أنَّا التقَطْناه. واستبَعْده الشوكانيُّ جدًّا. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٥).

(١) قال القرطبيُّ: (في قولِه تعالى: ﴿ وَأَصۡبَحَ ﴾ وجهان؛ أحدُهما: أنَّها ألقَتْه ليلًا فأصبَح فؤادُها في النَّهارِ فارغًا. الثَّاني: ألقَتْه نهارًا، ومعنى: ﴿ وَأَصۡبَحَ ﴾ أي: صار). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٢، ٤٣).

وممَّن قال بهذا المعنى لفراغِ فؤادِها: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٦).

قال الرسعني: (قال ابنُ عبَّاسٍ وجمهورُ المفسِّرينَ: أصبَح قلبُها فارِغًا مِن كُلِّ شَيءٍ إلَّا مِن ذِكرِ موسى). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ إضافةً إلى ابنِ عبَّاسٍ: ابنُ مسعودٍ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقتادةُ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، ومطَرٌ الوَرَّاقُ، وأبو عبيدةَ، والحسنُ البصريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣).

وقيل في معنى فراغِ فؤادِها غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٨-١٧٠)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٦).

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾.

أي: قاربَتْ أمُّ موسَى أن تُظهِرَ للنَّاسِ ما تكتُمُه في قَلْبِها مِن شأنِ موسَى[١].

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: كادت أمُّ موسى أن تُظهِرَ ما تُخفيه لو لا أن ثبَّتْنا قَلْبَها؛ لِتَكونَ مِنَ المُؤمِنينَ بوَعدِ اللهِ، الموقِنينَ به[٢].

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٠، ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ الهاءُ ترجعُ إلى موسى. واختُلف متى أرادت هذا على ثلاثةِ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه حين فارَقَتْه كادت تقولُ: يا بُنَيَّاه. وهو قولُ ابنِ عبَّاسٍ. قال قتادةُ: وذلك مِن شدَّةِ وجْدِها.

والثَّاني: حين حُمِلت لِرَضاعِه كادت تقولُ: هو ابني. قاله السُّدِّيُّ.

والثَّالثُ: أنَّه لَمَّا كَبِر وسَمِعَت النَّاسَ يقولون: موسى بنُ فِرعون، كادت تقولُ: لا، بل هو ابني. قاله ابنُ السَّائبِ.

وقيل: الهاءُ ترجعُ إلى الوحيِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٢، ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

قولُه تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: المرادُ: لِتَكونَ مِن المؤمنينَ المُوقِنينَ بما وعَدَها اللهُ به مِن شأنِ موسى. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبِقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٥-٤٦).

أي: وقالت أمُّ موسى لأختِ موسى: اذهَبي فتَتبَّعي أثَرَ موسى، وابحَثي عنه؛ لِتَعلَمي خبَرَه[١].

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾.

أي: فذهبَتْ تَتبَعُ أثَرَه، فرَأَتْه مِن بعيدٍ، وكأنَّها لا تَقصِدُه[٢].

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: وقَومُ فِرعَونَ لا يعلَمونَ أنَّها أختُ موسى، وأنَّها تُراقِبُه[٣].

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾.

أي: ومَنَعْنا موسى مِن قَبْلُ[٤] مَنْعًا قَدَريًّا أن يَقبَلَ الرَّضاعَ مِن أيِّ مُرضِعٍ غيرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٢).

قال البقاعي: (ليس لهم شعورٌ؛ لا بنَظَرِها، ولا بأنَّها أختُه، بل هم في صِفةِ الغَفلةِ الَّتي هي في غايةِ البُعدِ عن رُتبةِ الإلهيَّةِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٥٠).

(٤) قال الشوكاني: (ومعنَى ﴿مِن قَبْلُ﴾: مِن قبْلِ أنْ نَرُدَّه إلى أُمِّه، أو مِن قبلِ أنْ تأتيَه أُمُّه، أو مِن قبلِ قَصِّها لأثَرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٦). =

أمِّه[١].

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

أي: فقالت أختُ موسى لآلِ فِرعَونَ: هل أدُلُّكم على أهلِ بَيتٍ يَضُمُّونَ هذا الطِّفلَ، ويَضْمَنونَ لكم القيامَ بحَضانتِه ومَصالِحِه وإرضاعِه، وهم مُخلِصون في ذلك، مُشفِقون عليه، لا يُقَصِّرون في إرضاعِه وتربيتِه[٢]؟

= وممَّن اختار الأوَّلَ: مقاتلُ بن سليمان، ومكِّي، وابنُ الجوزي، والرسعني، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥١٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: من قَبلِ مَجيءِ أمِّه: السمرقنديُّ، والثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٥٩).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: مِن قبلِ قَصِّها أثرَه: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والعليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥١٦).

وقيل: المرادُ: مِن قَبلِ التِقاطِ آلِ فِرعَونَ له. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٤).

قال ابن عاشور: (وهو إيذانٌ بأنَّ ذلك التَّحريمَ ممَّا تعلَّقَ به عِلمُ الله وإرادتُه في الأزَلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٣، ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٣، ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٤).

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾.

أي: فردَدْنا موسى إلى أمِّه؛ لكيْ تُسَرَّ به وتفرَحَ، ولا تحزَنَ على فِراقِه[1]!

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

أي: ولِتَعلَمَ أمُّ موسى عِلمًا هو عينُ اليقينِ أنَّ ما وعَدَها اللهُ مِن ردِّ موسى إليها، وجَعْلِه رَسولًا: صِدقٌ ثابِتٌ لا بدَّ مِن وُقوعِه[2].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَهم[3] لا يَعلَمونَ أنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ كائنٌ، ولا يُصَدِّقونَ به، ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٠)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٧-٥٩).

(٣) قيل: المرادُ: أكثَرُ المشركين. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٠٠).

وقيل: المرادُ: أكثَرُ آلِ فِرعَون. وممَّن قال بذلك: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٨).

وقيل: المرادُ: أكثَرُ أهلِ مِصرَ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٩).

وقيل: المرادُ: أكثرُ النَّاسِ. وممَّن قال بهذا المعنى: جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٩).

قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ قيل: لا يَعلمونَ ما يُرادُ بهم. وقيل: لا يَعلمون مِثلَ عِلمِها. وقيل: لا يَعلمون أنَّ وعدَ الله حقٌّ. وقيل: لا يعلمونَ أنَّ اللهَ وعَدَها بأنْ يَرُدَّه إليها. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) =

يَعلَمونَ حِكَمَه العَظيمةَ في أفعالِه وقَدَرِه سُبحانَه[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ دَليلٌ على أنَّه ينبغي أنْ تُستعمَلَ الأساليبُ التي تُحَقِّقُ المقصودَ؛ فإنَّ هذا القولَ منها -سواءٌ كانت تتوقَّعُ ذلك أو لا تتوقَّعُه- لا بُدَّ أنْ يكونَ سببًا في مُوافقةِ فِرعَونَ لِمَا بَلَغَه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أنَّ العبدَ -ولو عَرَفَ أنَّ القضاءَ والقَدَرَ ووَعْدَ اللهِ نافِذٌ لا بُدَّ منه- فإنَّه لا يُهمِلُ فِعلَ الأسبابِ الَّتي أُمِرَ بها، ولا يكونُ ذلك منافيًا لإيمانِه بخَبَرِ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ قد وَعَدَ أُمَّ موسى أنْ يَرُدَّه عليها، ومع ذلك اجتهدتْ على رَدِّه، وأرسلتْ أختَه لِتَقُصَّه وتطلُبَه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ...﴾ تعليمُ أنَّ اللهَ بالِغٌ أمْرَه بتهيئةِ الأسبابِ المُفضيةِ إليه، ولو شاء اللهُ لأهْلَكَ فِرعَونَ ومَن معه بحادثٍ سماويٍّ، ولَمَا قَدَّرَ لإهلاكِهم هذه الصُّورةَ المرَتَّبةَ، ولأَنْجى موسى وبني إسرائيلَ إنجاءً أسرَعَ، ولكِنَّه أراد أنْ يَحصُلَ ذلك بمشاهَدةِ تنقُّلاتِ الأحوالِ، ابتِداءً مِن إلقاءِ موسى في اليَمِّ، إلى أنْ رَدَّه إلى أُمِّه؛ فتكونَ في ذلك

= (٤/ ١٢٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٩، ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

عِبرةٌ للمُشركين الَّذين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ولِيَتوسَّموا مِن بَوارقِ ظهورِ النَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وانتقالِ أحوالِ دعوتِه في مَدارِجِ القوَّةِ: أنَّ ما وَعَدَهم به واقِعٌ بأَخَرةٍ[١]، فاللهُ تعالى إذا أراد أمرًا هَيَّأَ أسبابَه، وأتَى بها شَيئًا فشَيئًا بالتَّدريجِ؛ لا دَفْعةً واحدةً[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أنَّ اللهَ يُقدِّرُ على عبْدِه بعضَ المَشاقِّ لِيُنيلَه سرورًا أعظَمَ مِن ذلك، أو يَدفعَ عنه شرًّا أكثرَ منه، كما قَدَّرَ على أُمِّ موسى ذلك الحُزنَ الشَّديدَ، والهمَّ البليغَ، الَّذي هو وسيلةٌ إلى أنْ يَصِلَ إليها ابنُها على وجهٍ تَطمئِنُّ به نفْسُها، وتَقَرُّ به عينُها، وتَزدادُ به غِبْطةً وسرورًا[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ سؤالٌ؛ إن قيل: ما فائدةُ وحْيِ اللهِ تعالى إلى أُمِّ موسى بإرضاعِه؛ مع أنها تُرضِعُه طبعًا وإنْ لم تُؤْمَرْ بذلك؟!

الجوابُ: أَمَرها بإرْضاعِه لِيألَفَ لبنَها؛ فلا يَقْبَلَ ثديَ غيرِها بعدَ وقوعِه في يدِ فِرعَونَ، فلو لم يأمُرْها به؛ رُبَّما كانت تُسترضَعُ له مُرضِعةٌ فيَفوتُ المقصودُ[٤].

وأيضًا: أمَرَها اللهُ بإرضاعِه لِتَقْوَى بِنْيَتُه بِلِبانِ أُمِّه؛ فإنَّه أسعَدُ بالطِّفلِ في أوَّلِ عُمُرِه مِن لِبانِ غيرِها، ولِيَكونَ له مِنَ الرَّضاعةِ الأخيرةِ قبْلَ إلقائِه في اليَمِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٧).

قُوتٌ يَشُدُّ بِنْيَتَه فيما بيْنَ قَذْفِه في اليَمِّ وبيْن التِقاطِ آلِ فِرعونَ إيَّاهُ وإيصالِه إلى بيتِ فِرعونَ وابتِغاءِ المَراضِعِ ودَلالةِ أُختِه إيَّاهم على أُمِّه إلى أن أُحضِرَتْ لإرضاعِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ أنَّ الخَوْفَ الطَّبيعيَّ مِن الخلْقِ لا يُنافي الإيمانَ، ولا يُزيلُه، كما جرى لأمِّ موسى ولموسى مِن تلك المخاوفِ[٢].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ هذا مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على كمالِ قُدرةِ الله عزَّ وجَلَّ، وأنَّ اللهَ إذا حَمى أحدًا، فإنَّ الأسبابَ المؤدِّيةَ إلى الهلاكِ لا تؤثِّرُ؛ لأنَّ قُدرةَ اللهِ فوقَ الأسبابِ، فإن إلقاءَه في البحرِ معناه استعجالُ الهلاكِ له، وكذلك أن يعيشَ بينَ أحضانِ فِرعَونَ، الَّذي كان يَتتبعُ أولادَ بني إسرائيلَ، فيقتلُ أبناءَهم، فهذا مِن آياتِ الله عزَّ وجلَّ، وكذلك فإنَّ النَّارَ مُحرِقةٌ بلا شَكٍّ، ولكن صارتْ على إبراهيمَ بَردًا وسَلامًا[٣].

٦- إن قيل: ما وجْهُ الجمعِ بيْنَ إثباتِ الخَوفِ في قولِه: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾، ثمَّ نفْيِه بقولِه: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾؟

والجوابُ: أنَّ المعنَى: فإذا خِفتِ عليه القتلَ، فألْقيه في اليَمِّ، ولا تخافي عليه الغرَقَ، فاندفَعَ ما يُتوَهَّمُ مِن تناقضٍ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أنَّه ينبغي طَمْأنةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٧، ٤٢٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٨٥).

المحزونِ ببشارتِه بمُستقبَلِه[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾ أنَّ أتْباعَ الرَّجُلِ وحاشيتَه هم مِن آلِه[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ تعليلٌ لقضاءِ الله سُبحانَه بالتِقاطِه وتقديرِه له -على أحدِ القولَين في اللَّام-؛ فإنَّ التقاطَهم له إنَّما كان بقضائِه وقدرِه، فهو سُبحانَه قدَّر ذلك وقضَى به؛ لِيَكونَ لهم عدوًّا وحزنًا، وذَكَرَ سُبحانَه فِعْلَهم دونَ قضائِه؛ لأنَّه أبلَغُ في كَونِه حَزَنًا لهم وحسرةً عليهم؛ فإنَّ مَنِ اختارَ أخْذَ ما يكونُ هلاكُه على يديه إذا أُصيبَ به كان أعظَمَ لحُزْنِه وغَمِّه وحسرتِه مِن ألَّا يكونَ فيه صُنْعٌ ولا اختيارٌ، فإنَّه سُبحانَه أراد أنْ يُظهِرَ لِفرعَونَ وقَومِه ولغيرِهم مِن خلْقِه كمالَ قدرتِه وعِلْمِه وحكمتِه الباهرةِ، وأنَّ هذا الَّذي يُذَبِّحُ فِرعَونُ الأبناءَ في طلبِه هو الَّذي يَتولَّى تربيتَه في حِجْرِه وبيتِه باختيارِه وإرادتِه، ويكونُ في قبضتِه وتحتَ تصَرُّفِه! فذِكْرُ فِعْلِهم به في هذا أبلَغُ وأعجبُ مِن أنْ يَذْكُرَ القضاءَ والقَدَرَ، وقد أعلَمَنا سُبحانَه أنَّ أفعالَ عبادِه كلَّها واقعةٌ بقضائِه وقدَرِه[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ أنَّ الإنسانَ قد يسعى لِمَا فيه حتْفُه؛ لأنَّ هؤلاء سَعَوا فيما فيه حتْفُهم؛ فقد التَقَطوا هذا الطِّفلَ الَّذي سيكونُ عدوًّا لهم وحَزَنًا[٤].

١١- إنَّ إصابةَ قومِ فِرعَونَ بَغتةً مِن قِبَلِ مَن أَمَّلوا منه النَّفعَ: أشدُّ عِبرةً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦).

للمعتبِرِ، وأوقعُ حسرةً على المستبصِرِ، وأدَلُّ على أنَّ انتقامَ اللهِ يكونُ أعظَمَ مِن انتقامِ العدُوِّ، كما قال: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ مع قولِه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1].

١٢- وجودُ الصَّالِحينَ مِن بيْنِ المفسِدينَ يُخَفِّفُ مِن لَأْوَاءِ فسادِ المفسِدينَ؛ فإنَّ وجودَ امرأةِ فِرعَونَ كان سببًا في صَدِّ فِرعَونَ عن قتْلِ الطِّفلِ، فقالتِ امرأتُه: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[2].

١٣- أنَّ الإنسانَ يكونُ على حالٍ، فإذا نَزَلَ به البلاءُ تَغَيَّرَ حالُه؛ فهذه أُمُّ موسى كانت في البدايةِ مُطمئنَّةً، ولذلك وضعتْه في التَّابوتِ، ثمَّ وضعَتْه في اليَمِّ، وهذا يدُلُّ على أعلى درجاتِ الطُّمأنينةِ، ولكنَّها أصبحتْ بعدَما فارقَتْه كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، فقد صار قلْبُها الآنَ فارغًا، وأصبحتْ قَلِقةً، كأنَّه ليس في الدُّنيا سِوى ابنِها! فالواقعُ أنَّ الإنسانَ له حالٌ قبْلَ نزولِ البلاءِ، وله حالٌ بعدَ نزولِه؛ ولهذا لا ينبغي للإنسانِ أنْ يُعَرِّضَ نفْسَه للبلاءِ[3].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ دليلٌ على أنَّ ما تقتضيه الطَّبيعةُ البشريَّةُ لا يُؤاخَذُ به المرءُ، ووجْهُ ذلك: أنَّ فؤادَ أُمِّ موسى كان ينبغي ألَّا يكونَ فارغًا مِن ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ومِن الدَّارِ الآخرةِ! لكنَّه أصبحَ فارغًا، ليس فيه شيءٌ أبدًا لِذِكْرِه سِوى ذِكْرِ موسى، وهذا مقتضى الطبيعةِ البشريَّةِ؛ لأنَّ الأمورَ العظيمةَ التي تَنزِلُ بالمرءِ تُنسيه كلَّ شيءٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨).

١٥- أنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُصُ، وأنَّ مِن أعظمِ ما يَزيدُ به الإيمانُ، ويَتِمُّ به اليقينُ: الصَّبرَ عندَ المُزعِجاتِ، والتَّثبيتَ مِن اللهِ عند المُقلِقاتِ، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لِيَزدادَ إيمانُها بذلك، ويَطمئِنَّ قلْبُها[١].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ استمرارَ الجَزَعِ مع العبدِ دليلٌ على ضَعفِ إيمانِه[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ مِن أعظمِ نِعَمِ اللهِ على عبْدِه، وأعظَمِ معونةٍ للعبدِ على أمورِه: تثبيتَ اللهِ إيَّاه، ورَبْطَ جأْشِه وقلْبِه عندَ المَخاوِفِ، وعندَ الأمورِ المُذهِلةِ؛ فإنَّه بذلك يَتمكَّنُ مِن القَولِ الصَّوابِ، والفعلِ الصَّوابِ، بخلافِ مَن استمرَّ قلَقُه ورَوعُه وانزعاجُه؛ فإنَّه يضيعُ فِكرُه، ويَذهَلُ عقلُه، فلا يَنتفِعُ بنفْسِه في تلك الحالِ[٣].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ دليلٌ على أنَّ المرءَ مُفتقِرٌ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى في كلِّ أحوالِه؛ ولا سيَّما عندَ نزولِ الحوادثِ، ولولا معونةُ اللهِ ما فَعَل الإنسانُ شيئًا، فلا صَبَرَ على بلاءٍ، ولا شَكَرَ عندَ الرخاءِ[٤].

١٩- قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في قَولِه: ﴿لِتَكُونَ مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٨).

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دليلٌ على إثباتِ العِلَلِ والأسبابِ[١].

٢٠- قولُه تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لا يخفَى ما يسبقُ إلى الذِّهن مِن أنَّ المرأةَ ليست مِن الرِّجالِ، وهو تعالى لم يقُلْ: (مِن المؤمناتِ).

الجواب: هو إطباقُ أهلِ اللِّسانِ العربيِّ على تغليبِ الذَّكرِ على الأُنثَى في الجَمعِ[٢].

٢١- قال الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ التَّحريمُ هنا هو التَّحريمُ الكَونيُّ، ويقابلُه التَّحريمُ الدِّينيُّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾[٣] [المائدة: ٣].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ ﴾ جوازُ أخْذِ الأُجرةِ على الكَفالةِ والرَّضاعِ، والدَّلالةِ على مَن يَفعلُ ذلك[٤].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ جوازُ خروجِ المرأةِ في حوائجِها، وتكليمِها للرِّجالِ مِن غيرِ محذورٍ، كما جرى لأختِ موسى هنا، وابنتَيْ صاحبِ مَدْيَنَ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾[٥] [القصص: ٢٣].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ إيماءٌ إلى تذكيرِ المؤمنينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بأنَّ نصْرَهم حاصلٌ بعدَ حينٍ، ووعيدٌ للمُشركينَ بأنَّ وعيدَهم لا مَفَرَّ لهم منه[١].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أنَّ اللهَ مِن رحمتِه بعبدِه الضعيفِ الذي يريدُ إكرامَه، أنَّه يُريه مِن آياتِه، ويُشهدُه مِن بيِّناتِه ما يَزيدُ به إيمانُه، كما رَدَّ اللهُ موسى على أُمِّهِ؛ لِتَعلمَ أنَّ وعْدَ اللهِ حَقٌّ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ [القصص: ٥]؛ إذ الكلُّ مِن أجزاءِ النَّبأِ. وتَتضمَّنُ هذه الجُملةُ تَفصيلًا لمُجمَلِ قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ [القصص: ٥]؛ فإنَّ الإرادةَ لَمَّا تعلَّقَت بإنقاذِ بني إسرائيلَ مِن الذُّلِّ، خلَقَ اللهُ المُنقِذَ لهم[٣].

- وقولُه: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الأمْرُ بإرضاعِه يُؤذِنُ بجُمَلٍ طُوِيَتْ؛ وهي أنَّ اللهَ لَمَّا أراد ذلك قدَّرَ أنْ يكونَ مظهرُ ما أرادهُ هو الجنينَ الَّذي في بطْنِ أُمِّ مُوسى، ووَضَعَتْه أُمُّه، وخافَتِ اعتِداءَ أنصارِ فِرعونَ على وَلِيدِها، وتحيَّرَت في أمْرِها، فأُلْهِمَت أو أُرِيَتْ ما قَصَّه اللهُ هنا وفي مواضعَ أُخرى[٤].

- قَولُه: ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ لقائلٍ أنْ يقولَ: ما الفرقُ بيْن الخَوفِ والحُزنِ حتَّى عُطِفَ أحدُهما على الآخَرِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٣).

والجوابُ: أن هذا مِن بابِ الإطنابِ، بلْ هو قِسمٌ نادرٌ مِن أجمَلِ أقسامِه؛ وهو أنْ يُذكَرَ الشَّيءُ فيُؤتَى فيه بمَعانٍ مُتداخِلةٍ، إلَّا أنَّ كلَّ معنًى مُختَصٌّ بخَصيصةٍ ليست للآخَرِ؛ فالخوفُ هو غمٌّ يُصيبُ الإنسانَ لأمْرٍ يُتوقَّعُ نُزولُه في المُستقبَلِ، أمَّا الحُزنُ فهو غَمٌّ يُصيبُه لأمْرٍ وقَعَ فِعلًا ومَضى؛ فنُهِيَتْ عنهما جميعًا[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ في مَوقعِ العِلَّةِ للنَّهْيَينِ -النَّهي عن الخَوفِ، والنَّهي عن الحُزنِ-؛ لأنَّ ضَمانَ رَدِّه إليها يَقْتضي أنَّه لا يَهلِكُ، وأنَّها لا تَشتاقُ إليه بطولِ المَغيبِ. وأمَّا قولُه: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فإدْخالٌ للمَسرَّةِ عليها[٢].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إيثارُ الجُملةِ الاسميَّةِ، وتَصديرُها بحَرفِ التَّحقيقِ (إنَّ)؛ للاعتناءِ بتَحقيقِ مَضمونِها، أي: إنَّا فاعِلونَ لِرَدِّه وجَعلِه مِن المُرسَلينَ لا مَحالةَ[٣].

- وأيضًا هذه الآيةُ مِن مُعجزاتِ الإيجازِ؛ لاشْتمالِها على خَبرَيْنِ، وأمْرَينِ، ونَهيَينِ، وبِشارتيْنِ، في أسهَلِ نَظْمٍ، وأسلَسِ لَفظٍ، وأوجَزِ عِبارةٍ؛ فالخبَرانِ هما: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ وقولُه: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾؛ لأنَّه يُشعِرُ بأنَّها ستَخافُ عليه. والأمْرانِ هما: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ و(أَلْقِيهِ). والنَّهيانِ: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾. والبِشارتانِ: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٤، ٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٨٦). =

٢- قولُه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾ فَصيحةٌ مُفصِحةٌ عن عَطْفِه على جُملةٍ مُترتِّبةٍ على ما قبْلَها مِن الأمْرِ بالإلقاءِ؛ قد حُذِفَت تَعويلًا على دَلالةِ الحالِ، وإيذانًا بكَمالِ سُرعةِ الامتثالِ، أي: فألْقَتْهُ في اليَمِّ بعْدَما جَعلَتْهُ في التَّابوتِ حسبَما أُمِرَت، فالْتقَطَه آلُ فِرعونَ[١].

- قولُه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ جُعِلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نَفْسَ الحَزنِ؛ إيذانًا بقُوَّةِ سببيَّتِه لِحُزْنِهم[٢]. ولَمَّا كانت عاقبةُ أمْرِه إهلاكَهم، وكان العاقلُ -لا سيَّما المُتحذلِقُ- لا ينبغي له أنْ يُقْدِمَ على شَيءٍ حتى يَعلَمَ عاقبتَه -فكيف إذا كان يدَّعي أنَّه إلهٌ-؛ عَبَّرَ سُبحانَه بلامِ العاقبةِ الَّتي معناها التَّعليلُ تهكُّمًا بفِرعَون[٣].

- ويحتملُ في قولِه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ أنْ يكونَ في الكَلامِ حذْفٌ، أي: فكان لهم عدُوًّا وحَزنًا، أي: لأنَّهم كانوا خاطِئينَ، لم يَرجِعوا إلى دِينِه، وتَعمَّدوا الجرائمَ والكُفرَ باللهِ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ اعتراضيَّةٌ

= قال الماوَرْدي: (وحكَى الأصمعيُّ قال: سمِعتُ جاريةً أعرابية تُنشِدُ:...، قال: فقلتُ: قاتلَكِ اللهُ! ما أفصحَكِ! فقالت: أوَ يُعَدُّ هذا فصاحةً مع قولِه تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ ...﴾ الآيةَ، فجمَع في آيةٍ واحدةٍ بيْنَ أمْرَينِ، ونَهيَينِ، وخبَرَينِ، وبِشارتَينِ؟!). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣، ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٧).

واقعةٌ بيْنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه، مُؤكِّدةٌ لمَعنى خَطئِهم. أو لبَيانِ المُوجِبِ لِمَا ابْتُلُوا به[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ أُضِيفَ الجُندُ هنا وفيما قبْلُ إلى فِرعونَ وهامانَ، وإنْ كان هامانُ لا جُنودَ له؛ لأنَّ أمْرَ الجُنودِ لا يَستقيمُ إلَّا بالملِكِ والوَزيرِ؛ إذ بالوزيرِ تُحصَّلُ الأموالُ، وبالمَلِكِ وقَهرِه يُتوصَّلُ إلى تَحصيلِها، ولا يكونُ قِوامُ الجُندِ إلَّا بالأموالِ[٢].

- وما أحسَنَ نَظْمَ هذا الكَلامِ عندَ المُرتاضِ بعِلمِ مَحاسنِ النَّظمِ؛ وذلك أنَّ قولَه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٤] وقولَه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ [النمل: ٥] تَفصيلٌ لقولِه: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ [النمل: ٣]، وما أجمَلَ ثمَّ فصَّلَ وخَصَّ بلفظِ الإنباءِ إلَّا لاشتِمالِ هذا المُنبَّأِ به على أمْرٍ له شأْنٌ، وليس ذلك إلَّا لبَيانِ أنَّ ما قدَّرَه اللهُ كائنٌ لا مَحالةَ، وأنَّ الحَذرَ لا يُغْني عن القدَرِ، وإذا جاء القَضاءُ عَمِيَ البصرُ؛ فإنَّ فِرعونَ وقومَه لَمَّا قُضِيَ هلاكُهم على يَدِ الكليمِ عليه السَّلامُ واجْتَهدوا في الدَّفعِ، فَعَلوا ما لا طائلَ تحتَه، بلْ عَكَسوا؛ حيث أُفنِيَ البريءُ مِن قَتْلِ الأبناءِ، ورُبِّيَ مَن عليه دمارُه، فسُلِبَت عُقولُهم، فالْتَقَطوه لِيَكونَ لهم عدُوًّا وحَزنًا وهم لا يَشعُرون؛ فحسُنَ لذلك أنْ يؤكِّدَ بقولِه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [النمل: ٨] على التَّفصيلِ؛ لِيُؤذِنَ بأنَّ ذلك الجَمَّ الغفيرَ بعدَ ذلك التَّحذيرِ زَلُّوا عن دَفعِ التَّقديرِ؛ فاللَّامُ في قولِه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٧، ٢٨٨).

وَحَزَنًا ﴾ [النمل: ٨] مُجْرًى على حَقيقتِه. وتَمامُ تَقريرِه أن يُقالَ: إنَّا أرَدْنا أنْ نَمُنَّ على المُستضعَفينَ، وأنْ نَجعَلَهم الوارثينَ، وأنْ نُرِيَ فِرعونَ وهامانَ وجُنودَهما ما كانوا يَحذَرون؛ فدبَّرْنا ما دَبَّرْنا: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [النمل: ٧]، فامتثَلَتْ أمْرَنا وألْقَتْه في اليَمِّ، وألقاهُ اليمُّ بالسَّاحلِ، فقَضَينا على آلِ فِرعونَ الْتقاطَه؛ لِيَظهَرَ مِن لَطيفِ تَقديرِنا عَداوتُه وسَببُ حُزنِه، وهم لا يَشعُرون بذلك. فما أحسَنَ نَظْمَ هذا الكلامِ، وما أظْهَرَه مِن سُلطانٍ على القَولِ بالقضاءِ والقدَرِ[1]!

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ ﴾ (قُرَّةُ العينِ) كِنايةٌ عن السُّرورِ، وهي كِنايةٌ ناشِئةٌ عن ضِدِّها، وهو سُخنةُ العينِ التي هي أثَرُ البُكاءِ اللَّازمِ للأسفِ والحزنِ؛ فلمَّا كُنِيَ عن الحزنِ بسُخنةِ العينِ في قولِهم في الدُّعاءِ بالسُّوءِ: أسخَنَ اللهُ عَينَه، أتْبَعوا ذلك بأنْ كَنَوْا عن السُّرورِ بضِدِّ هذه الكِنايةِ، فقالوا: قُرَّةُ عَينٍ، وأقرَّ اللهُ عَينَه، فحَكَى القرآنُ ما في لُغةِ امرأةِ فِرعونَ مِن دَلالةٍ على معنى المَسَرَّةِ الحاصلةِ للنَّفْسِ ببَليغِ ما كَنَى به العربُ عن ذلك، وهو ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ ﴾. ومِن لَطائفِه في الآيةِ: أنَّ المَسرَّةَ المَعْنيَّةَ هي مَسرَّةٌ حاصلةٌ مِن مَرأى مَحاسنِ الطِّفلِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾[2] [طه: ٣٩].

- وابتَدَأتْ بنفْسِها في ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى ﴾ قبْلَ ذِكرِ فِرعونَ؛ إدلالًا عليه لِمكانَتِها عندَه، أرادتْ أنْ تَبتدِرَه بذلك حتَّى لا يَصدُرَ عنه الأمرُ بقتْلِ الطِّفلِ[3].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٧٩).

- وضَميرُ الجمْعِ في قولِها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ يَجوزُ أنْ يُرادَ به فِرعونُ؛ نَزَّلَتْه مَنزلةَ الجَماعةِ على وَجهِ التَّعظيم. ويجوزُ أنْ يُرادَ به خِطابُ فِرعونَ داخلًا فيه أهلُ دَولتِه، وهذا أحسَنُ؛ لأنَّ فيه تمْهيدًا لإجابةِ سُؤلِها حينَ أسْنَدَت مُعظمَ القتلِ لأهلِ الدَّولةِ، وجعَلَت لفِرعونَ منه حظَّ الواحدِ مِن الجماعةِ؛ فكأنَّها تُعرِّضُ بأنَّ ذلك يَنْبغي ألَّا يكونَ عن رأْيِه، فتُهَوِّن عليه عُدولَه في هذا الطِّفلِ عمَّا تقرَّرَ مِن قتْلِ الأطفالِ. وقِيل: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ الْتفاتٌ عن خِطابِ فِرعونَ إلى خِطابِ المُوكَّلينَ بقَتْلِ أطفالِ بني إسرائيلَ؛ فمَوقِعُ جُملةِ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ مَوقعُ التَّمهيدِ والمُقدِّمةِ للعَرْضِ، ومَوقِعُ جُملةِ ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ مَوقعُ التَّفريعِ عن المُقدِّمةِ؛ ولذلك فُصِلَت عنها، أي: لم تُعْطَفْ[1].

- قولُه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في مَوقعِ العِلَّةِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾؛ فاتِّصالُها بها كاتِّصالِ جُملةِ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ بها، ولكنَّ نظْمَ الكلامِ قَضَى بهذا التَّرتيبِ البليغِ بأنْ جُعِلَ الوازعُ الطَّبيعيُّ عن القَتْلِ -وهو وازعُ المحبَّةِ- هو المُقدِّمةَ؛ لأنَّه أشدُّ تعلُّقًا بالنَّفْسِ؛ فهو يُشبهُ المعلومَ البديهيَّ. وجُعِلَ الوازعُ العَقليُّ بعدَ النَّهيِ عِلَّةً؛ لاحتِياجِه إلى الفِكرِ، فتَكونُ مُهلةُ التَّفكيرِ بعدَ سَماعِ النَّهيِ المُمهَّدِ بالوازعِ الطَّبيعيِّ، فلا يُخْشى جِماحُ السَّامعِ مِن النَّهيِ ورَفْضُه إيَّاه[2].

- قولُه: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جُملةٌ اعتراضيَّةٌ، واختِيرَ ﴿يَشْعُرُونَ﴾ هنا؛ لأنَّه مِن العِلْمِ الخَفِيِّ، أي: لا يَعلَمون هذا الأمرَ الخَفيَّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٨٠).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

- جُملةُ ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ تكونُ -على تَفسيرِ أنَّ فؤادَها فارِغٌ مِن الخَوفِ والحزنِ، فأصبَحَت واثقةً بحُسنِ عاقبتِه- استئنافًا بَيانيًّا لِمَا اقتضاهُ فِعلُ (أصبَحَ) مِن أنَّها كانتْ على حالةٍ غيرِ حالةِ فَراغٍ، فبُيِّنَتْ بأنَّها كادَتْ أنْ تُظهِرَ أمْرَ ابنِها مِن شِدَّةِ الاضْطِرابِ؛ فإنَّ الاضطرابَ يَنُمُّ بها. وعلى تَفسيرِ أنَّ فُؤادَها فارِغًا مِن كلِّ شَيءٍ إلَّا ذِكْرَ مُوسى؛ تكونُ جُملةُ ﴿إِن كَادَتۡ﴾ بمَنزلةِ عطْفِ البَيانِ على معنى ﴿فَٰرِغًا﴾، وهي دَليلٌ على الاستِثناءِ المحذوفِ[1].

- قولُه: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ الرَّبطُ على القَلبِ: كِنايةٌ عن قَرارِه واطمئنانِه؛ شُبِّه بما يُربَطُ مَخافةَ الانفِلاتِ[2].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ فيه التَّعبيرُ عنها بأُخُوَّتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ دونَ أنْ يُقالَ: (لِبنتِها)؛ للتَّصريحِ بمَدارِ المحبَّةِ المُوجِبةِ للامتِثالِ بالأمْرِ[3].

- قولُه: ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ﴾ بصُرَ بالشَّيءِ: صار ذا بصَرٍ به، أي: باصِرًا له؛ فهو يُفيدُ قوَّةَ الإبصارِ، أي: قوَّةَ استعمالِ حاسَّةِ البصرِ، وهو التَّحديقُ إلى المُبصَرِ، فـ (بَصُرَ) أشدُّ مِن (أبصَرَ)؛ فالباءُ الدَّاخلةُ على مَفعولِه باءُ السَّببيَّةِ؛ للدَّلالةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥).

شِدَّةِ العِنايةِ برُؤيةِ المَرئيِّ حتَّى كأنَّه صار باصِرًا بسَببِه. ويجوزُ جَعْلُ الباءِ زائدةً لتأكيدِ الفِعلِ، فتُفيدُ زِيادةَ مُبالَغةٍ في مَعنى الفِعلِ[١].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَقَالَتْ﴾ فَصيحةٌ تُؤذِنُ بجُملةٍ مُقدَّرةٍ، أي: فأظْهَرَت أُختُه نفْسَها، كأنَّها مرَّت بهم عن غيرِ قَصْدٍ[٢].

- وقد عرَضَت سَعْيَها في ذلك بطَريقِ الاستِفهامِ المُستعمَلِ في العرْضِ فقالتْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾؛ تلطُّفًا مع آلِ فِرعونَ، وإبعادًا للظِّنَّةِ عن نفْسِها[٣].

- والعُدولُ عن الجُملةِ الفِعليَّةِ إلى الاسميَّةِ في قولِه: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾؛ لقَصدِ تأْكيدِ أنَّ النُّصحَ مِن سَجاياهم، وممَّا ثبَتَ لهم؛ فلذلك لم يُقَلْ: (ويَنصَحون له) كما قِيل: ﴿يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾؛ لأنَّ الكَفالةَ أمْرٌ سَهلٌ، بخِلافِ النُّصحِ والعِنايةِ[٤].

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ في الكَلامِ حَذْفٌ، تَقديرُه: فمَرَّتْ بهم إلى أُمِّه، فكلَّمُوها في إرضاعِه، أو فجاءتْ بأُمِّه إليهم، فكَلَّمُوها في شأْنِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فأرضَعَتْه، فالْتقَمَ ثَدْيَها...[١].

- وقولُه: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فيه تأكيدُ حَرفِ (كي) بمُرادِفِه -وهو لامُ التَّعليلِ-؛ للتَّنصيصِ مِن أوَّلِ وَهلةٍ على أنَّه مَعطوفٌ على الفِعلِ المُثبَتِ ﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، لا على الفِعلِ المَنْفيِّ ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٥).

الآيات (١٤-١٧)

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: الأَشَدُّ: استحكامُ قوَّةِ شبابِه وسِنِّه، قيل: هو جمعُ شَدٍّ، وقيل: جمعُ شِدَّةٍ، وقيل: هو جمعٌ لا واحدَ له، وقد اختُلف في وقتِ بُلوغِ الأشُدِّ، وأصلُ (بلغ): وصولٌ إلى شَيءٍ، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ[1].

﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾: أي: تمَّ خَلْقُه، واعتدلَ، واستَحْكَم شبابُه واستقرَّ، فلم تكُنْ فيه زيادةٌ، وقيل: بلَغ أربعينَ سنةً، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بيْنَ شيئينِ[2].

﴿شِيعَتِهِۦ﴾: أي: أصحابِه وأتباعِه، وأصلُ (شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ ومُساعَفةٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥، ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١) و (٣/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٧).

﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ﴾: أي: طلَبَ غَوْثَه ونَصْرَه، وأصلُ (غوث): يدُلُّ على النُّصرةِ عندَ الشِّدَّةِ[1].

﴿فَوَكَزَهُۥ﴾: أي: دفَعَه وضرَبَه بجُمْعِ كَفِّه في صَدرِه[2].

﴿ظَهِيرًا﴾: أي: مُساعِدًا ومُعِينًا، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا آخَرَ مِن حياةِ موسَى عليه السَّلامُ، فيقولُ: ولَمَّا بلَغَ موسى عليه السَّلامُ مُنتهى قوَّتِه، واكتمَلَ خَلْقُه واستحكَمَ؛ آتَيْناه حُكمًا ومَعرِفةً قبْلَ النُّبوَّةِ، وكذلك نجزي كُلَّ مَن أحسَنَ عمَلَه.

ودخل موسى المدينةَ في وقتٍ لا يشعُرُ فيه أحدٌ بدُخولِه، فوجَد فيها رجُلينِ يتقاتلانِ؛ أحدُهما مِن شيعتِه بني إسرائيلَ، والآخرُ قِبطيٌّ مِن قَومِ فِرعَونَ، فطلَب الرَّجلُ الإسرائيليُّ مِن موسى أن يُعينَه ويَنصُرَه على خَصمِه القِبطيِّ، فضرَبَ موسى القِبطيَّ بجُمْعِ كَفِّه فقتَلَه بتلك الضَّربةِ!

قال موسى: هذا القَتلُ مِن إغواءِ الشَّيطانِ لي ووسوَستِه؛ إنَّ الشَّيطانَ عدوٌّ يسعى في إضلالِ الإنسانِ، ظاهِرُ العداوةِ والإضلالِ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١).

قال موسى: ربِّ إنِّي ظَلمتُ نفْسي، فاغفِرْ لي ذنْبي، فغفَرَ اللهُ له ذَنْبَه؛ لأنَّه هو الغَفورُ الرَّحيمُ.

قال موسى: ربِّ بسبَبِ إنعامِك علَيَّ فلن أكونَ مُعِينًا للمجرمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾.

أي: ولَمَّا بلغَ موسى عليه السَّلامُ مُنتهى شِدَّتِه وقوَّتِه، وتناهى شبابُه، واكتَمَل خَلْقُه واستحكَمَ؛ آتَيْناه حُكمًا[1] .....

(١) قال الماوَرْدي: (في الحُكم أربعةُ أقاويلَ؛ أحدُها: أنَّه العقلُ، قاله عِكْرِمةُ. الثَّاني: النُّبوَّةُ، قاله السُّدِّيُّ. الثَّالثُ: القوَّةُ، قالَه مجاهدٌ. الرَّابعُ: الفقهُ، قاله ابنُ إسحاقَ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالحُكم هنا: الفَهمُ في الدِّين: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٠١).

وقيل: المرادُ به: الحِكمةُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عطية، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٧).

وقيل: المرادُ به: الفِقهُ والعقلُ. وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، والسمعاني، والبَغويُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٦).

وقيل: المرادُ به: النُّبوَّةُ. وممَّن قال بذلك: النسفيُّ. ينظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٣).

ممَّن اختار أنَّ إيتاءَه الحُكمَ والعِلمَ كان قبلَ النُّبوَّةِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والبغوي، والعليمي، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٢).

وعِلمًا قبْلَ النُّبوَّةِ[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: وكما جازَيْنا موسى بإيتائِه الحُكْمَ والعِلمَ بسَبَبِ إحسانِه، نُثيبُ أيضًا كُلَّ مَن أحسَنَ عمَلَه في عبادةِ اللهِ، أو في إحسانِه للخَلقِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ بتهيُّئِه لنُبوَّتِه؛ أخبَرَ بما هو سَبَبٌ لِهجرتِه إلى مَدْيَنَ، وتوالي الأحداثِ الجِسامِ عليه[٣]:

﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾.

أي: ودخَل موسى مدينةً في مِصرَ في وقتٍ لا يَشعُرُ فيه أهلُها بدُخولِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٠ - ١٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٨)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٦٦، ٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٥)، ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

أي: فوجَدَ موسى في المدينةِ رجُلينِ يتضارَبانِ ويتنازَعانِ؛ أحدُهما مِن بني إسرائيلَ، والآخَرُ قِبطيٌّ مِن قَومِ فِرعَونَ[١].

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

أي: فطلَبَ الرَّجلُ الإسرائيليُّ مِن موسى أن يُعينَه ويَنصُرَه على خَصمِه الرَّجلِ القِبطيِّ[٢].

﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾.

أي: فضرَبَ موسى القِبطيَّ بجُمْعِ كَفِّه (بقبضةِ يدِه)[٣].

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

أي: فقتَلَه بتلك الضَّربةِ[٤].

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

= (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٦٩-٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٨).

قال السعدي: (استغاثتُه لموسى دليلٌ على أنَّه بلغ موسى عليه السَّلامُ مَبلغًا يُخافُ منه، ويُرجَى مِن بيتِ المملكةِ والسُّلطانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

أي: قال موسى: هذا القَتلُ قد وقَع بسبَبِ إغواءِ الشَّيطانِ لي، وتَزيينِه ووَسوستِه[١].

﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ عدُوٌّ يسعَى في إضلالِ بني آدَمَ عن الحَقِّ، ظاهِرُ العداوةِ والإضلالِ لهم[٢].

وفي حديثِ الشَّفاعةِ الطَّويلِ عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((... فيأتونَ موسى فيقولونَ: يا موسى، أنتَ رسولُ اللهِ، فَضَّلَك اللهُ برِسالتِه وبكَلامِه على النَّاسِ، اشفَعْ لنا إلى ربِّك، ألَا ترى إلى ما نحنُ فيه؟ فيقولُ: إنَّ ربِّي قد غَضِبَ اليومَ غضَبًا لم يَغضَبْ قَبْلَه مِثْلَه، ولن يغضَبَ بعْدَه مِثلَه، وإنِّي قد قتلتُ نفْسًا لم أُومَرْ بقَتلِها، نفْسي نفْسي نفْسي، اذهَبوا إلى غيري، اذهَبوا إلى عيسى...))[٣].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٣) رواه البخاري (٤٧١٢) واللفظ له، ومسلم (١٩٤).

قال الشوكاني: (موسى عليه السَّلامُ ما زال نادمًا على ذلك، خائفًا مِن العقوبةِ بسببِه، حتى إنَّه يومَ القيامةِ عندَ طلَبِ النَّاسِ الشَّفاعةَ منه يقولُ: «إنِّي قتلتُ نفسًا لم أُومَرْ بقَتلِها»، كما ثبَت ذلك في حديثِ الشَّفاعةِ الصَّحيحِ... ولا شَكَّ أنَّهم معصومون مِن الكبائرِ، والقَتلُ الواقعُ منه لم يكُنْ عن عَمدٍ، فليس بكبيرةٍ؛ لأنَّ الوَكْزةَ في الغالبِ لا تَقتُلُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٩).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٠).

أي: قال موسى: ربِّ إنِّي ظَلمتُ نفْسي بقَتلِ نَفْسٍ لم تأمُرْني بقَتلِها، فاستُرْ ذَنْبي، ولا تؤاخِذْني به[١].

﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: فغَفَر اللهُ لموسى ذنْبَه، ولم يُعاقِبْه عليه؛ لأنَّ اللهَ هو الغفورُ لِذُنوبِ عبادِه، الرَّحيمُ بهم[٢].

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: قال موسى: ربِّ بسبَبِ إنعامِك عليَّ[٣] فأُعاهِدُك ألَّا أكونَ مُعينًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٢).

قال الألوسي: (ترتيبُ «غفَرَ» على ما قبْلَه بالفاءِ يُشعِرُ بأنَّ المرادَ: غفَرَ له لاستِغفارِه. وجملةُ ﴿إِنَّهُۥ...﴾ إلخ كالتَّعليلِ للعِلِّيَّةِ، أي: إنَّه تعالى هو المبالِغُ في مغفرةِ ذنوبِ عبادِه ورحمتِهم؛ ولذا كان استغفارُه سببًا للمغفرةِ له). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٤).

(٣) قيل: المرادُ بالإنعام هنا: العفوُ عن قتلِ تلك النَّفْسِ، والمغفرةُ وعدَمُ المُعاقَبةِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والثعلبي، والسمعاني، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٠٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٧). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

وقيل: المرادُ بالإنعام هنا: المعرفةُ والحِكمةُ والتَّوحيدُ. وممَّن قال بذلك: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٢).

وقيل: الجاهُ والعِزُّ والمَنَعةُ. وممَّن قال بذلك: ابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥).

قال الشوكاني: (والمرادُ بما أنعَمَ به عليه: هو ما آتاه مِن الحُكمِ والعِلمِ، أو بالمغفرةِ، أو الجميعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٩).

للمجرمين[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ إثباتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

قال الألوسي: (والمجرمين جمعُ مُجرِمٍ، والمرادُ به: مَن أوقَعَ غيرَه في الجُرمِ، أو مَنْ أدَّتْ مُعاونَتُه إلى جُرمٍ؛ كالإسرائيليِّ الَّذي خاصمَه القِبطيُّ فأدَّتْ مُعاوَنتُه إلى جُرمٍ في نظَرِ موسى عليه السَّلامُ... وجُوِّز أن يُرادَ بذلك الكفَّارُ، وعنى بهم مَنِ استغاثه ونحوَه؛ بناءً على أنَّه لم يكُنْ أسلَمَ. وقيل: أراد بالمجرمين فِرعونَ وقَومَه، والمعنى: أُقسِمُ بإنعامِكَ عليَّ لَأَتُوبَنَّ فلن أكونَ مُعينًا للكفَّارِ بأنْ أصحَبَهم وأُكثِّرَ سَوادَهم، وقد كان عليه السَّلامُ يَصحَبُ فِرعونَ ويَركبُ برُكوبِه؛ كالولدِ مع الوالدِ، وكان يُسمَّى ابنَ فِرعونَ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: المشركين الكافرين: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٨٠).

قال الواحدي: (﴿فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] قال ابنُ عبَّاسٍ: عَوْنًا للكافرين. وهذا يدُلُّ على أنَّ الإسرائيليَّ الذي أعانه موسى كان كافرًا، وهو قولُ مُقاتلٍ). ((الوسيط)) (٣/ ٣٩٣).

وممَّن اختار أنَّ الإسرائيليَّ الَّذي نصَرَه موسى عليه السَّلامُ كان كافرًا: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ، وابن الجوزي، والخازن، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٨٠).

قيل: وإنَّما ذكَر تعالى أنَّه مِن شِيعَتِه؛ لأنَّه كان إسرائيليًّا، ولم يُرِدِ الموافقةَ في الدِّينِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٢).

العَداوةِ والوَلايةِ، وهو أصلٌ في الدِّينِ؛ فإنَّ وَلايةَ المؤمنينَ مِن واجبِ المؤمنِ، والبراءةَ مِن الكُفَّارِ مِن واجبِ المؤمنِ؛ قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤]، فهذا أمرٌ لا بُدَّ منه، فلا بُدَّ أنْ يَتبرَّأَ الإنسانُ مِن كلِّ كافرٍ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ندَمُ موسى عليه السَّلامُ حمَلَه على الخُضوعِ لربِّه، والاستغفارِ عن ذَنْبٍ باءَ به عندَه تعالى، فغفرَ اللهُ خطأه ذلك. قال قَتادةُ: (عرَفَ -واللهِ- المَخرَجَ فاستغفرَ)[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيه فضلُ الاعترافِ بالذُّنوبِ، لعَلَّامِ الغُيوبِ، وهو استِكانةٌ موجِبةٌ لعطفِه ولُطفِه، بغَفْرِ الذُّنوبِ وسَترِ العُيوبِ، وهذا دأبُ المُصْطَفَيْنَ مِن عِبادِ الله؛ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]. وعلَّمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضيَ الله عنه دعاءً يدعو به في صلاتِه، قال: ((قُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي ظلَمتُ نفْسي ظُلمًا كثيرًا، ولا يغفرُ الذُّنوبَ إلَّا أنت، فاغفِرْ لي مغفرةً مِن عِندِكَ، وارحَمْني؛ إنَّك أنت الغفورُ الرَّحيمُ))[٣]، وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ الله عنها: ((إنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٠).

(٣) رواه البخاري (٨٣٤، ٦٣٢٦، ٧٣٨٧)، ومسلم (٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.

العبدَ إذا اعترَفَ بذَنْبِه، ثمَّ تاب؛ تاب اللهُ عليه))[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ هذا وعدٌ مِن موسى عليه السَّلامُ؛ بسبَبِ مِنَّةِ الله عليه: ألَّا يُعِينَ مُجرمًا، كما فعَلَ في قَتلِ القِبطيِّ، وهذا يُفيدُ أنَّ النِّعَمَ تقتضي مِن العبدِ فِعْلَ الخيرِ، وترْكَ الشَّرِّ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ قال الحسَنُ: (مَن أحسنَ عبادةَ الله فِي شَبيبتِه، لقَّاه الله الحِكمةَ عند كِبَرِ سِنِّه)[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ ﴾ جوازُ دفْعِ الصائلِ ولو أدَّى إلى قتْلِه[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ﴾ جوازُ الاستغاثةِ بالمخلوقِ فيما يَقدِرُ عليه، أمَّا ما لا يَقدِرُ عليه فلا يجوزُ؛ وعليه فلا تجوزُ الاستغاثةُ بالأمواتِ[٥].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ ﴾ إنَّما أغاثه؛ لأنَّ نَصرَ المظلومِ دِينٌ في المِلَلِ كُلِّها، وفَرضٌ في جميعِ الشَّرائِعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٦٧).
والحديث رواه البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٢).

(٦) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٩٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أنَّ المعاصيَ مِن أوامرِ الشَّيطانِ وأعمالِه[١].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ لَمَّا كان الشيطانُ عدوًّا للإنسانِ، وكانت له مَسالكُ إلى النُّفوسِ؛ استدلَّ موسى عليه السَّلامُ بفِعلِه المؤدِّي إلى قتْلِ نَفْسٍ أنَّه فِعلٌ ناشِئٌ عن وَسوسةِ الشَّيطانِ، ولولاها لكان عَمَلُه جاريًا على الأحوالِ المأذونةِ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الأصلَ في النَّفْسِ الإنسانيَّةِ هو الخيرُ، وأنَّه الفِطرةُ، وأنَّ الانحرافَ عنها يحتاجُ إلى سَبَبٍ غيرِ فِطريٍّ، وهو تخلُّلُ نَزْغِ الشَّيطانِ في النَّفْسِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ أنَّ قتْلَ الكافرِ الذي له عَهدٌ بعَقدٍ أو عُرْفٍ: لا يجوزُ؛ فإنَّ موسى عليه السَّلامُ عَدَّ قَتْلَه القِبطيَّ الكافِرَ ذنْبًا، واستغفرَ اللهَ منه[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ إثباتُ أنَّ الرُّسلَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ قد يُخطِئون، لكِنْ لا يقعُ منهم فَسادُ الأخلاقِ وشُربُ الخمورِ وما أشبهَ ذلك، أمَّا الغَيرةُ والحَميَّةُ فهذا قد يقَعُ منهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٤).

الأنبياءُ معصومون مِنَ الوُقوعِ في الكبائرِ، ومِن فِعلِ الصَّغائرِ الَّتي فيها نقصٌ أو شَيْنٌ أو خِسَّةٌ، وقد نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ. أمَّا ما عدا ذلك مِنَ الصَّغائرِ فمَذهَبُ مُعظَمِ الفُقهاءِ والمُحَدِّثينَ والمتكلِّمينَ مِنَ السَّلفِ والخلَفِ على جوازِ وُقوعِها منهم، فإنْ وقَع منهم شَيءٌ مِن ذلك فإنَّهم يَتدارَكونه بصِدقِ الإنابةِ إلى الله حتَّى يَبْلُغوا بذلك درجةً أعلى مِن درجةِ مَن لم =

٩- قد أخبَر سُبحانَه أنَّ الصِّدِّيقينَ المتَّقينَ لهم أعمالٌ سيِّئةٌ يُكفِّرُها، ولا رَيْبَ أنَّها ظُلْمٌ للنَّفْسِ، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥]، وقال موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وقال آدمُ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال يونسُ عليه السَّلامُ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ١٠-١١]. فظُلْمُ النَّفْسِ لا يُنافي الصِّدِّيقيَّةَ والولايةَ، ولا يُخرِجُ العبدَ عن كَونِه مِنَ المتَّقينَ، بل يجتمِعُ فيه الأمْرانِ: يكونُ وليًّا لله صِدِّيقًا مُتَّقيًا، وهو مُسيءٌ ظالمٌ لنفْسِه. ونُكتةُ المسألةِ أنَّ الاصطِفاءَ والولايةَ والصِّدِّيقيَّةَ وكَوْنَ الرَّجُلِ مِنَ الأبرارِ ومِنَ المُتَّقينَ ونحو ذلك كلُّها مراتبُ تَقْبَلُ التَّجزُّؤَ والانقِسامَ، والكمالَ والنُّقْصانَ، كما هو ثابتٌ باتِّفاقِ المسلمينَ في أصلِ الإيمانِ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ جوازُ التَّوسُّلِ إلى اللهِ سُبحانه وتعالى بحالِ الدَّاعي[٢]، فالطَّالبُ السَّائلُ تارةً يَسألُ بصيغةِ الطَّلَبِ، وتارةً يَسألُ بصيغةِ الخبَرِ؛ إمَّا بوصفِ حالِه، وإمَّا بوصفِ حالِ المسؤولِ، وإمَّا بوصفِ الحالَينِ. وقولُه: ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ فيه وصْفُ حالِ النَّفْسِ، والطَّلَبُ[٣].

= يقَعْ منه ذلك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ٣٠٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٥٤)، ((أضواء البيان) للشنقيطي (٤/ ١٠٥).

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٥).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٢٣، ٢٢٥).

١١- ينبغي على العَبدِ إضافةُ السَّيِّئاتِ إلى نفْسِه، مع عِلْمِه بأنَّ اللهَ خالِقُ كلِّ موجودٍ مِن الأعيانِ والصِّفاتِ، والحَركاتِ والسَّكَناتِ، كما قال موسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾، وقال آدمُ عليه السَّلامُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال الخليلُ عليه السَّلامُ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وقيل لخاتَمِ الرُّسلِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وأمثالُ هذا كثيرٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ إثباتُ أنَّ الدُّعاءَ سببٌ، خِلافًا لِمَن أنكَرَ سَببيَّتَه[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا يجوزُ مُعاوَنةُ الظَّلَمةِ والفَسَقةِ[٣]، وعلى أنَّ مُظاهَرةَ المجرمِ تُنافي الشُّكرَ، فهي مُحرَّمةٌ؛ لأنَّها إجرامٌ حقيقةً، بل تكونُ مُساعَدةُ المجرمِ بمنعِ إجرامِه؛ ولذلك قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((انصُرْ أخاك ظالِمًا أو مَظلومًا. فقال رجُلٌ: يا رسولَ الله، أنصُرُه إذا كان مظلومًا، أفرأيتَ إذا كان ظالِمًا، كيفَ أنصُرُه؟ قال: تَحْجُزُه -أو تَمنَعُه- مِنَ الظُّلْمِ؛ فإنَّ ذلك نصْرُه))[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٩).

والحديث أخرجه البخاري (٦٩٥٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

هذا اعتِراضٌ بيْنَ أجزاءِ القصَّةِ المُرتَّبةِ على حسَبِ ظُهورِها في الخارجِ. وهذا الاعتِراضُ نشَأَ عن جُملةِ ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣]؛ فإنَّ وعْدَ اللهِ لها قد حُكِيَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، فلمَّا انتَهَى إلى حِكايةِ رَدِّه إلى أُمِّه بقولِه: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص: ١٣] إلى آخِرِه، كَمَّلَ ما فيه وفاءُ وَعْدِ اللهِ إيَّاها بهذا الاستِطرادِ في قولِه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾؛ وإنَّما أُوتِيَ الحُكْمَ -أي: النُّبوَّةَ، على أحدِ الأقوالِ- بعدَ خُروجِه مِن أرضِ مَدْينَ[(١)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تقدَّمَ نَظيرُ هذه الآيةِ في سُورةِ (يُوسفَ) إلَّا قولَه: ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾؛ ووجهُ ذلك أنَّ الأشُدَّ كَمالُ القوَّةِ، وأنَّ الاستواءَ كَمالُ البِنْيةِ؛ ولهذا أُريدَ لمُوسى الوصْفُ بالاستواءِ، ولم يُوصَفْ يُوسفُ إلَّا ببُلوغِ الأشُدِّ خاصَّةً؛ لأنَّ مُوسى كان رجُلًا طُوالًا، كما في الحَديثِ: ((كأنَّه مِن رِجالِ شَنُوءةَ))[(٢)]؛ فكان كاملَ الأعضاءِ، ولذلك كان وَكْزُه القِبطيَّ قاضيًا على المَوكوزِ[(٣)]. وقيل غيرُ ذلك[(٤)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ طُوِيَت أخبارٌ كَثيرةٌ تُنْبِئُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٩)، ومسلم (١٦٥) من حديث ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.
وطُوال: معناه: طويل، وهما لغتان. وشَنُوءة: حيٌّ مِنَ اليَمنِ، مَعرفون بالطُّولِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٢٢٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار)) للكرماني (ص: ١٩٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٤).

عنها القصَّةُ؛ وذلك أنَّ مُوسى يَفَعَ وشَبَّ في قَصرِ فِرعونَ، فكان مَعدودًا مِن أهلِ بيتِ فِرعونَ. وجُملةُ ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] عطْفَ جُزءِ القصَّةِ على جُزءٍ آخَرَ منها[١].

- قولُه: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ المقصودُ مِن ذِكْرِ هذا الوقتِ الإشارةُ إلى أنَّ قتْلَه القِبطيَّ لم يَشعُرْ به أحدٌ؛ تَمهيدًا لقولِه بعدُ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩] الآياتِ، ومُقدِّمةً لذِكْرِ خُروجِه مِن أرضِ مِصرَ[٢].

- والإشارتانِ في قولِه: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ تَفصيلٌ لِمَا أُجمِلَ في قولِه: ﴿رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾[٣].

- جُملةُ ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ كأنَّ سائلًا سَألَ: ماذا كان مِن أمْرِ مُوسى حينَ فُوجِئَ بمَوتِ القِبطيِّ؟ وحِكايةُ ذلك للتَّنبيهِ على أنَّ مُوسى لم يَخطُرْ ببالِه حينَئذٍ إلَّا النَّظرُ في العاقبةِ الدِّينيَّةِ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ تَعليلٌ لكَونِ شِدَّةِ غَضبِه مِن عَمَلِ الشَّيطانِ؛ إذ لولا الخاطرُ الشَّيطانيُّ لَاقتصَرَ على زَجْرِ القِبطيِّ، أو كَفِّه عن الَّذي مِن شِيعَتِه[٥].

- ومُتعلِّقُ ﴿عَدُوٌّ﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ المقامِ، أي: عدُوٌّ لآدَمَ وذُرِّيَّةِ آدَمَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ رُتِّبَ على الإخبارِ عنه بالعَداوةِ وَصْفُه بالإضلالِ؛ لأنَّ العَدُوَّ يَعمَلُ لإلحاقِ الضُّرِّ بعَدُوِّه[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- تَوسيطُ الفِعلِ ﴿قَالَ﴾ بينَ كلامَيْ موسى عليه السَّلامُ؛ لإبانةِ ما بيْنَهما مِن المُخالَفةِ مِن حَيثُ إنَّه مُناجاةٌ ودُعاءٌ، بخِلافِ الأوَّلِ[٢].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥ﴾ للتَّعقيبِ، أي: استجابَ استغفارَه، فعجَّلَ له بالمغفرةِ[٣].

- وجُملةُ ﴿فَغَفَرَ لَهُۥ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ وجُملةِ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [القصص: ١٧]؛ كان اعتراضُها إعلامًا لأهْلِ القرآنِ بكرامةِ مُوسى عليه السَّلامُ عندَ ربِّه[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَغَفَرَ لَهُۥ﴾؛ علَّلَ المغْفرةَ له بأنَّه شَديدُ الغُفرانِ، ورحيمٌ بعِبادِه، مع تأْكيدِ ذلك بصِيغةِ القصْرِ (تَعريف المُبتدَأ والخَبر)؛ إيماءً إلى أنَّ ما جاء به هو مِن ظُلمِ نفْسِه[٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ﴾ إعادةُ الفِعلِ (قال) أفاد تأكيدًا لفِعلِ ﴿قَالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦، ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩١، ٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٩٢).

رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [القصص: ١٦]؛ أُعِيدَ القولُ للتَّنبيهِ على اتِّصالِ كلامِ مُوسى؛ حيث وقَعَ الفصْلُ بيْنَه بجُملتَيْ ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1] [القصص: ١٦].

- قولُه: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ قَسَمًا جوابُه مَحذوفٌ، تَقديرُه: أُقسِمُ بإنعامِك علَيَّ بالمغفرةِ لَأَتُوبَنَّ، فلنْ أكونَ ظَهيرًا للمُجرمينَ، وأنْ يكونَ استِعطافًا؛ كأنَّه قال: ربِّ اعْصِمني بحَقِّ ما أنعَمْتَ علَيَّ مِن المغفرةِ، فلنْ أكونَ -إنْ عصَمْتني- ظهيرًا للمُجرمين. ويجوزُ أنْ تكونَ الباءُ للسَّببيَّةِ؛ فحينَئذٍ لا يكونُ قَسَمًا، ولا استِعطافًا؛ فالمعنى: بسَببِ ما أنعمْتَ علَيَّ مِن القوَّةِ أشكُرُك، فلنْ أستعمِلَ القوَّةَ إلَّا في مُظاهَرةِ أوليائِك[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٢).

الآيات (١٨-٢١)

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَتَرَقَّبُ﴾: أي: ينتظرُ سوءًا يَنالُه منهم، أو ينتظرُ الأخبارَ، والترقُّبُ: انتظارُ المكروهِ، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتصابٍ لمراعاةِ شَيءٍ[١].

﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: أي: يستغيثُ به، ويطلُبُ ما يُزيلُ ما يَصرُخُ بسببِه مِن الضرِّ، وأصلُ (صرخ): يدُلُّ على صَوتٍ رفيعٍ[٢].

﴿لَغَوِيٌّ﴾: أي: لَمُضِلٌّ، والغَوِيُّ: الشَّديدُ الغَوايةِ، وهي الضَّلالُ، وسُوءُ النَّظَرِ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٣)، ((تذكرة الاريب)) لابن الجوزي (٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).

﴿يَبۡطِشَ﴾: البَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، وأصلُ (بطش): أخْذُ الشَّيءِ بقَهرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبةٍ[١].

﴿جَبَّارًا﴾: الجبارُ: القاتلُ ظُلمًا بغيرِ حقٍّ، والَّذي لا يَتواضعُ لأمرِ اللهِ، ويُقالُ لِمَن يَجبُرُ نقيصتَه بادِّعاءِ منزلةٍ مِنَ التَّعالي لا يَستحِقُّها، وأصلُ الجَبْرِ: إصلاحُ الشَّيءِ بضربٍ مِن القهرِ، وقد يقالُ الجبرُ تارةً في الإصلاحِ المجرَّدِ، وتارةً في القهرِ المجرَّدِ، وأصلُ (جبر): جنسٌ مِن العظمةِ والعُلُوِّ والاستقامةِ[٢].

﴿ٱلۡمَلَأَ﴾: أي: أشرافَ النَّاسِ ووجوهَهم ورؤساءَهم، ويُقالُ: فلانٌ مِلءُ العيونِ، أي: معظَّمٌ عندَ مَن رآه، كأنَّه ملأَ عينَه مِن رؤيتِه، وأصلُ (ملأ): يدُلُّ على الكمالِ في الشَّيءِ[٣].

﴿يَأۡتَمِرُونَ﴾: أي: يَتشاورونَ، ويأمُرُ بَعضُهم بَعضًا، يُقالُ: ائتمَرَ القَومُ في كذا وتآمَروا: إذا شاوَرَ بعضُهم بعضًا، وأصلُه مِن الأمرِ الَّذي هو ضِدُّ النَّهيِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما كان مِن أمرِ موسى عليه السَّلامُ: فأصبَحَ موسى في المدينةِ الَّتي قَتَل فيها القِبطيَّ خائفًا يُراقِبُ ما يتحدَّثُ به النَّاسُ في شأنِه، فإذا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ٣١٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ١٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠).

بالرَّجُلِ الإسرائيليِّ الَّذي طلب منه النُّصرةَ على القِبطيِّ بالأمسِ يَصرُخُ طالِبًا منه أن يَنصُرَه على قِبطيٍّ آخَرَ! فقال موسى للإسرائيليِّ الَّذي استغاث به: إنَّك لَظاهِرُ الغَوايةِ، كثيرُ الاقتتالِ لِمَن لا تُطيقُ دَفعَ شَرِّه!

فلمَّا أراد موسى أن يأخُذَ القِبطيَّ الذي هو عدوٌّ له وللإسرائيليِّ ويَضربَه، قال: يا موسى، أتُريدُ أن تقتُلَني اليَومَ كما قتلْتَ القِبطيَّ بالأمسِ؟! ما تريدُ إلَّا أن تكونَ قاهِرًا متكَبِّرًا في الأرضِ، وما تريدُ أن تكونَ مِن المُصلِحينَ.

وجاء رجُلٌ مِن آخِرِ المدينةِ مُسرِعًا إلى موسى، قال له ناصِحًا: يا موسى، إنَّ أشرافَ قَومِ فِرعَونَ يَتشاوَرونَ في قَتلِك، فاخرُجْ مِن هذه المدينةِ، إنِّي لك مِن النَّاصِحينَ.

فخرَج موسى مِنَ المدينةِ خائفًا يَتلفَّتُ خَشيةَ أن يلحَقوا به فيَقتُلوه، وقال داعيًا ربَّه: رَبِّ نجِّني مِن قَومِ فِرعَونَ الظَّالمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكرَ سُبحانَه القَتلَ، وأتبَعَه ما هو الأهَمُّ مِن أمْرِه بالنَّظَرِ إلى الآخرةِ؛ ذَكَر ما تسبَّبَ عنه مِن أحوالِ الدُّنيا، فقال[1]:

﴿ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ ﴾.

أي: فأصبَحَ موسى في المدينةِ -التي قُتِلَ فيها القِبطيُّ- خائفًا أن يُؤخَذَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩).

بجنايتِه، يُراقِبُ الأخبارَ، وينتَظِرُ ما يتحدَّثُ به النَّاسُ في شأنِه[١]!

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾.

أي: فتفاجَأ موسى بالرَّجُلِ الإسرائيليِّ الَّذي طلَبَ منه النُّصرةَ على الفِرعَونيِّ بالأمسِ يَصرُخُ ويَصيحُ به اليَومَ، طالِبًا أن يَنصُرَه على فِرعَونيٍّ آخَرَ[٢]!

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

أي: قال موسى للإسرائيليِّ الَّذي استغاث به: إنَّك ظاهِرُ الغَوايةِ، كَثيرُ المُخاصَمةِ والمُنازَعةِ لِمَن لا تُطيقُ دَفْعَ شَرِّه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨٠).

قال ابن كثير: (يخبرُ تعالى أنَّ موسَى أصبَح بمدينةِ مصرَ خائفًا أي: مِن فرعونَ وملئِه، أن يعلموا أنَّ هذا القتيلَ الذي رُفِع إليه أمرُه إنَّما قتَله موسى في نصرةِ رجلٍ مِن بني إسرائيلَ، فتقوَى ظنونُهم أنَّ موسى منهم، ويترتَّبُ على ذلك أمرٌ عظيمٌ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٤٢).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى ﴿يَتَرَقَّبُ﴾: يَنتظِرُ الأخبارَ، ويُراقِبُ ما يُقالُ في شأنِه، وما يَتحدَّثُ به النَّاسُ ممَّا هم صانِعون في أمرِه وأمرِ قتيلِه: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٤١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٣).

وقيل: المرادُ: يَنتظِرُ سُوءًا يَنالُه منهم بسببِ قتلِه القِبطيَّ. وممَّن اختاره في الجملةِ: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرسعني، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾.

﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا﴾.

أي: فلمَّا أراد موسى أن يأخُذَ القِبطيَّ الذي هو عدوٌّ له وللإسرائيليِّ بعُنفٍ وشِدَّةٍ، ويَضرِبَه[1].

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِ﴾.

أي: قال[2]: .....

= (١٣/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).

قال السمعاني: (قولُه: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾ الأكثرونَ أنَّ هذا قاله موسَى للإسرائيليِّ... ويُقالُ: إنَّ هذا قالَه للقبطيِّ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٩).

وممَّن نصَّ على أنَّ الخِطابَ هنا للاسرائيليِّ: ابنُ جرير، والبقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).

(٢) قيل: القائِلُ هو الإسرائيليُّ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والواحديُّ -وحكَى فيه الإجماعَ-، وابنُ الجوزي، وابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، وقَتادةُ، وابنُ جُرَيجٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٥٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٤٠١). =

يا موسى، أتُريدُ أن تقتُلَني اليومَ كما قتَلْتَ القِبطيَّ بالأمسِ[(١)]؟!

﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ما تُريدُ -يا موسى- بقَتلِك النَّاسَ ظُلمًا بغيرِ حَقٍّ إلَّا أن تكونَ قاهِرًا غالِبًا، تأخُذُ النَّاسَ بالشِّدَّةِ والقوَّةِ، فلا يكونُ فوقَك أحَدٌ[(٢)]!

﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾.

= قال ابنُ الجوزي: (هذا قَولُ الإسرائيليِّ مِن غيرِ خِلافٍ عَلِمناه بيْنَ المفسِّرين، قالوا: لَمَّا رأى الإسرائيليُّ غَضَبَ موسى عليه حينَ قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ورآه قد هَمَّ أن يبطِشَ بالفِرعَونيِّ، ظنَّ أنه يُريدُه، فخاف على نفْسِه فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي﴾؟!). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٨).

قال جمهورُ المفسِّرينَ -كما نسَبه إليهم الشوكاني-: ولم يَكُنْ قد عَلِم أحدٌ مِن أصحابِ فرعونَ أنَّ موسَى هو الَّذي قَتَل القِبطيَّ بالأمسِ حتَّى أفشَى عليه الإسرائيليُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠).

وقيل: القائلُ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسًۢا بِٱلۡأَمۡسِ﴾ هو القِبطيُّ. وممَّن استظهر هذا القَولَ: الرازيُّ، والشوكانيُّ، وقال به السعديُّ، ورجَّحه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨٤، ٨٥).

قال الشوكاني: (وهذا هو الظَّاهرُ، وقد سبَقَ ذِكرُ القِبطيِّ قبلَ هذا بلا فَصلٍ؛ لأنَّه هو المرادُ بقولِه: ﴿عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾، ولا مُوجبَ لمُخالفةِ الظَّاهرِ حتَّى يَلزَمَ منه أنَّ المؤمنَ بموسى المُستغيثَ به المَرَّةَ الأُولى والمرَّةَ الأُخرى هو الَّذي أفشى عليه. وأيضًا أنَّ قولَه: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لا يَليقُ صُدورُ مِثلِه إلَّا مِن كافرٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨٥).

أي: وما تريدُ أن تكونَ ممَّن يعملُ في الأرضِ بما فيه صلاحُ أهلِها مِنْ طاعَةِ اللَّهِ، وما هكذا يكونُ الإصلاحُ(١).

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾.

أي: وجاء رجُلٌ مِن آخِرِ المدينةِ وأبعَدِها يمشي مُسرِعًا إلى موسى(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٤).
وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى: ﴿مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ أيْ: مِنَ الَّذينَ يُصلِحونَ بيْنَ النَّاسِ بالقولِ والفعلِ، فتدفَع التَّخاصُمَ بالَّتي هي أحسَنُ: القرطبيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).
وممن اختار أنَّ معنى: ﴿مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ أي: المطيعين لله: مقاتل بن سليمان، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٢).
وقال ابنُ جرير: (ما تريدُ أنْ تكونَ مِمَّنْ يعملُ في الأرضِ بما فيه صلاحُ أهلِها، مِنْ طاعَةِ اللَّهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨٧، ٨٨).
قال ابنُ عاشور: (الظَّاهرُ أنَّ ﴿أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ هو ناحيةُ قُصورِ فِرعونَ وقومِه؛ فإنَّ عادةَ الملوكِ السُّكنَى في أطْرافِ المُدُنِ؛ تَوقِّيًا مِن الثَّوراتِ والغاراتِ؛ لِتكونَ مَساكنُهم أسعَدَ بخُروجِهم عندَ الخوفِ. وقد قِيل: الأطرافُ منازِلُ الأشرافِ... وبهذا يَظهَرُ وجْهُ ذِكْرِ المكانِ الَّذي جاء منه الرَّجلُ، وأنَّ الرَّجلَ كان يَعرِفُ مُوسى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٥).
وقال ابنُ عثيمين: (قد يكونُ هذا الإسراعُ... حتى يَسبِقَ مَن أُرسِلَ إلى موسى لِيَقتُلَه، وقد =

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ﴾.

أي: قال ناصِحًا لموسى: يا موسَى، إنَّ الأشرافَ والرُّؤساءَ مِن قَومِ فِرعَونَ يَتشاوَرونَ في قَتلِك، ويأمُرُ بَعضُهم بَعضًا بذلك[١].

﴿فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

أي: فاخرُجْ مِن هذه المدينةِ، إنِّي مِن النَّاصِحينَ لك في أمرِك بالخُروجِ منها[٢].

﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾.

أي: فخرَج موسى مِنَ المدينةِ وهو خائِفٌ مِن قَومِ فِرعَونَ، يتلفَّتُ ويَنظُرُ: هل يَلحَقونَ به ويدركونَه[٣]؟!

= يكونُ خَوفًا مِن تنفيذِ ما ائتَمَروا عليه في شأنِه، والأخيرُ هو الأفضَلُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

قال القِنَّوْجي: (﴿يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ﴾ أي: يتشاورونَ في قتلِك ويتآمَرونَ بسببِك، وإنَّما سُمِّي التَّشاورُ ائتمارًا؛ لأنَّ كلًّا مِن المتشاورين يأمرُ الآخَرَ ويأتمرُ به). ((تفسير القنوجي)) (١٠/ ١٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٤).

قال الواحديُّ: (معنَى الائتمارِ في كلامِ العربِ: المُشاوَرةُ، وهو يعودُ إلى أن يأمُرَ بعضُهم بعضًا). ((البسيط)) (١٧/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: قال موسى داعيًا رَبَّه، وهو هارِبٌ مِن مدينةِ فِرعَونَ: رَبِّ خَلِّصْني مِن قَومِ فِرعَونَ الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بالكُفرِ، وإرادةِ قَتلي على ما وقَع منِّي مِن قتلٍ بالخَطأِ[1]!

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- النَّميمةُ مَفسَدةٌ محرَّمةٌ، لكنَّها جائزةٌ أو مأمورٌ بها إذا اشتملَتْ على مصلحةٍ للمَنْمومِ إليه، مثالُه: إذا نُقِل إلى مسلمٍ أنَّ فلانًا عزَم على قتلِه في ليلةِ كذا وكذا، أو على أخذِ مالِه في يومِ كذا وكذا، أو على التعرُّضِ لأهلِه في وقت كذا وكذا، فهذا جائزٌ، بل واجبٌ؛ لأنَّه توسُّلٌ إلى دفعِ هذه المفاسدِ عن المسلمِ، وإنْ شئتَ قلْتَ: لأنَّه سبُّبٌ إلى تحصيلِ مصالحِ أضْدادِ هذه المفاسدِ. ويدُلُّ على ذلك كلِّه قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ الآيةَ[2]، فإخبارُ الرَّجُلِ غيرَه بما قيلَ فيه على وجهِ التَّحذيرِ له مِن شَرٍّ يقعُ فيه: لا يكونُ ذلك نميمةً، بل قد يكونُ واجبًا، كما أخبَرَ ذلك الرَّجلُ موسى ناصِحًا له ومُحذِّرًا[3].

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ

= (٦/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٢، ٢٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((قواعد الأحكام في مصالح الأنام)) للعز بن عبد السلام (١/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٣).

يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ المُسارَعةُ إلى النُّصحِ في الدِّماءِ، وكذلك المُسارَعةُ في كلِّ أمرٍ دينيٍّ يُخافُ فَوْتُه. وقد تجبُ المُسارَعةُ؛ كالمُسارَعةِ في النُّهوضِ إلى القتال، وكما لو رأَيْنا مَن يَقتُلُ مسلِمًا لو تَبَطَّأْنا عليه لَقَتَلَه، فالمُسارَعةُ إلى تخليصِه واجبةٌ؛ إذْ ليستِ الأناةُ محمودةً في كلِّ شَيءٍ، بل لها مَواطِنُ تُحمَدُ فيها، ومَواطِنُ تُذَمُّ فيها، وكذلك المُسارَعةُ واللِّينُ والغِلظةُ وغيرُها[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أنَّ مَن قَتَل النُّفوسَ بغيرِ حقٍّ، وزَعَمَ أنَّه يريدُ الإصلاحَ في الأرضِ، وتَهييبَ أهلِ المعاصي، فإنَّه كاذبٌ في ذلك، وهو مُفسِدٌ، كما حكى اللهُ قولَ القِبطيِّ -على أحدِ القولينِ-: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ على وجهِ التَّقريرِ له، لا الإنكارِ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾ وصفه بالرُّجوليَّةِ؛ لأنَّه خالَفَ الطَّريقَ، فسلَك طريقًا أقرَبَ مِن طريقِ الَّذين بُعِثوا وراءَه، فسبَق إلى موسَى[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا﴾ أنَّه إذا خاف الإنسانُ القَتلَ والتَّلَفَ في الإقامةِ، فإنَّه لا يُلقي بيدِه إلى التَّهلُكةِ، ولا يَستَسلِمُ لذلك، بل يذهَبُ عنه، كما فَعَلَ موسى عليه السَّلامُ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا﴾ أنَّه عندَ تزاحُمِ المفسدتَينِ -إذا كان لا بُدَّ

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

مِن ارتكابِ إحداهما- أنَّه تُرتكَبُ الأخَفُّ منهما والأسلَمُ، كما أنَّ موسى -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لَمَّا دار الأمرُ بيْنَ بقائِه في مِصرَ ولكنَّه يُقتلُ، أو يذهَبُ إلى بعضِ البُلْدانِ البعيدةِ الَّتي لا يَعرِفُ الطَّريقَ إليها، وليس معه دليلٌ يدُلُّه غير ربِّه -ولكنَّ ذلك يكونُ أقرَبَ للسَّلامةِ مِن بقائِه- اختار موسى ما هو أقرَبُ لسلامتِه[1].

٥- قال موسى عليه السلامُ: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وصَفَهم بالظُّلْم؛ لأنَّهم مُشرِكون، ولأنَّهم رامُوا قتْلَه قِصاصًا عن قتْلٍ خطَأٍ، وذلك ظُلْمٌ؛ لأنَّ الخطَأَ في القتْلِ لا يَقْتضي الجزاءَ بالقتْلِ في نَظَرِ العقلِ والنَّقلِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ الاستِصراخُ: المُبالَغةُ في الصُّراخِ، أي: النِّداءِ، وهو المُعبَّرُ عنه في القصَّةِ الماضيةِ بالاستِغاثةِ؛ فخُولِفَ بيْنَ العِبارتينِ للتَّفنُّنِ[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾

- أشارَ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ ...﴾ إلى المبادَرةِ إلى إصراخِه، قيل: أثبَتَ الحرْفَ الَّذي أصلُه المصدرُ؛ تأكيدًا لمعنَى الإرادةِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٩٤).

فقال: ﴿أَنۡ أَرَادَ﴾[١]. وقيل: إنَّما زادَ (أنْ) للإشعارِ بأنَّ مُوسى عليه السَّلامُ لم تكُنْ مُسارعتُه الى قَتْلِ الثاني كما كانتْ مُسارعتُه إلى قَتْلِ الأوَّلِ، بل كان عِندَه إبطاءٌ في بَسْطِ يَدِه إليه؛ فعبَّرَ القرآنُ عن ذلك الإبطاءِ بزِيادةِ (أنْ)[٢].

- والتَّنوينُ في ﴿عَدُوّٞ﴾ للتَّفخيمِ، أي: عَدوٌّ عظيمُ العَداوةِ، ولإرادةِ ذلك لم يُضِفْهُ[٣].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾

- فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾، وفي سُورةِ (يس) في قصَّةٍ أُخرَى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]؛ فقَدَّمَ في الأُولى ﴿رَجُلٞ﴾ على ﴿مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾، وفي الثَّانيةِ أَخَّرَها؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ قِصَّةَ سُورةِ (القصص) فيها اهتمامٌ بالخبرِ الَّذي جاء به ذلك الرَّجلُ؛ فقُدِّمَ ذِكْرُه على ذِكْرِ المكانِ، فكَوْنُه جاء مِنَ الأقصَى أو مِن الأدنَى لا يُؤَثِّرُ، أمَّا في قصَّةِ الرُّسُلِ الثَّلاثةِ في سُورةِ (يس) ففيها اهتمامٌ بكونِ هذا الرَّجلِ بعيدًا عن الرُّسلِ، وما جاء إلَّا لِيُؤكِّدَ صِحَّةَ ما جاؤوا به قبْلَه؛ فلَمَّا كان الأمرُ في سُورةِ (القَصصِ) مُهِمًّا يَحتاجُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩، ٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢٠/ ٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).

إلى مَزيدِ عزْمٍ، وعِظَمِ قوَّةٍ؛ قَدَّمَ فاعلَ المَجيءِ على مُتعلَّقِه، بخلافِ ما في سورةِ (يس).

- وقيل: الفائدةُ في تَقديمِ ذِكْرِ الرَّجلِ في (القَصصِ) وتأْخيرِه في (يس): أنَّ ذِكْرَ الأوصافِ قبْلَ ذِكْرِ الموصوفِ أبلَغُ في المدْحِ مِن تَقديمِ ذِكْرِه على وَصْفِه؛ فإنَّ النَّاسَ يقولونَ: الرَّئيسُ الأجَلُّ فُلانٌ؛ فالَّذي زِيدَ في مَدْحِه -وهو صاحبُ (يس)- أمَرَ بالمعروفِ، وأعانَ الرُّسلَ، وصبَرَ على القتْلِ، والآخَرُ إنَّما حذَّرَ مُوسَى مِن القتْلِ، فسَلِمَ مُوسَى بقَبولِه مَشورتَه؛ فالأوَّلُ هو الآمِرُ بالمعروفِ والنَّاهي عن المُنكَرِ، والثَّاني هو ناصحُ الآمرِ بالمعروفِ؛ فاستحَقَّ الأوَّلُ الزِّيادةَ. وذُكِرَ (أقصى المدينةِ)؛ لأنَّ الرَّجلينِ جاءَا مِن بُعدٍ في الأمرِ بالمعروفِ، ولم يَتقاعَدا لبُعدِ الطَّريقِ[(١)].

- ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾ قيل: ضُمِّن معنى (يَهُمُّون)؛ فعُدِّي بالباءِ، فكأنَّه قيل: يأتمرونَ ويَهمُّون بقتلِك[(٢)].

- قولُه: ﴿فَٱخْرُجْ﴾ مُتعلَّقُ الخُروجِ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ المقامِ عليه، أي: فاخرُجْ مِن المدينةِ[(٣)].

- قولُه: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ تَعليلٌ لأمْرِه بالخُروجِ. وتَقديمُ المجرورِ ﴿لَكَ﴾؛ لرِعايةِ الفاصلةِ[(٤)].

---

(١) هذه الفائدةُ للوزيرِ ابنِ هُبَيْرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس))، كما في: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٢-٢٥)

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تِلْقَآءَ﴾: أي: تُجاهَ ونَحوَ، والتِّلْقاءُ: جِهةُ اللِّقاءِ والمُقابَلةِ، وأصلُ (لقي): يدُلُّ على توافي شَيئينِ[(١)].

﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: قَصْدَ الطَّريقِ ووسَطَه، وأصلُ السَّواءِ: الوَسَطُ، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ وامتدادِه[(٢)].

﴿وَرَدَ﴾: أي: بلَغَ ووصَلَ، والوُرودُ: قَصْدُ الماءِ، ثمَّ يُستعمَلُ في غيرِه، وأصلُ (ورد): يدُلُّ على الموافاةِ إلى الشَّيءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٧).

﴿أُمَّةَ﴾: أي: جماعةً، والأُمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يَجمَعُهم أمرٌ ما؛ إمَّا دِينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أو اختيارًا، وأصلُ (أمم): الأصلُ والمرجِعُ، والجماعةُ والدِّينُ[١].

﴿تَذُودَانِ﴾: أي: تَكُفَّانِ، وتَحبِسانِ غَنَمَهما، والذَّوْدُ أكثرُ ما تُستعمَلُ في الغَنَمِ والإبلِ، وأصلُه يدُلُّ على تنحيةِ الشَّيءِ عن الشَّيءِ[٢].

﴿خَطْبُكُمَا﴾: أي: أمْرُكما وشأنُكما، والخطبُ: الأمرُ يقعُ؛ وإنَّما سُمِّيَ بذلك لِمَا يقعُ فيه مِن التَّخاطُبِ والمراجعةِ، وأصلُ (خطب): يدُلُّ على الكلامِ بينَ اثنينِ[٣].

﴿يُصْدِرَ﴾: أي: يرجِعَ ويَفرُغَ، وأصلُ (صدر): يدُلُّ على خِلافِ الوِرْدِ[٤].

﴿ٱلرِّعَآءُ﴾: جمعُ راعٍ، وأصلُ (رعي): يدُلُّ على مُراقَبةٍ وحِفظٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٩).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولَمَّا خرجَ موسى مِن مِصرَ وتوجَّهَ إلى مَدْيَنَ، قال: عسى أن يُرشِدَني ربِّي إلى الطَّريقِ الموصِلِ إلى مَدْينَ.

ولَمَّا وصَلَ ماءَ مَدْينَ وجَدَ على الماءِ جماعةً كثيرةً مِن النَّاسِ يَسْقونَ مواشِيَهم، ووجَدَ مِن دُونِهِمُ امرأتَينِ تَمنعانِ غَنَمَهما؛ لئلَّا تختَلِطَ بأغنامِ النَّاسِ.

قال موسى للمرأتَينِ: ما شأنُكما؟! قالَتا: لا نَسْقي غنَمَنا إلَّا بعد أن يَصرِفَ الرُّعاةُ مواشيَهم، وأبونا شيخٌ كبيرٌ لا يستطيعُ سَقْيَ الغَنَمِ بنَفْسِه.

فسقَى موسى لهما غنَمَهما بلا أُجرةٍ، ثمَّ انصرَفَ إلى الظِّلِّ، فقال: ربِّ إنِّي مُحتاجٌ إلى أيِّ شَيءٍ أنزَلْتَه إلَيَّ مِن أيِّ خيرٍ كان.

فجاءت إحدى المرأتينِ إلى موسى تمشي مُستَحِيةً، قالت لموسى عليه السَّلامُ: إنَّ أبي يدعوك لِيُكافِئَك على سَقْيِك لنا الغَنَمَ.

فلمَّا جاء موسى إلى أبيها وقَصَّ عليه خبَرَه مع فِرعَونَ وقَومِه، قال له الأبُ: لا تخَفْ؛ فقد نجَوتَ مِن هؤلاءِ القَومِ الظَّالمينَ؛ إذ لا حُكمَ لهم بأرضِنا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾.

أي: ولَمَّا خرَجَ موسى مِن مِصرَ، وقَصَد جِهةَ مَدْينَ بلا دليلٍ يَهديه، وخَشِيَ أن يَضِلَّ الطَّريقَ؛ قال: عسى[1] أن يُبَيِّنَ لي ربِّي الطَّريقَ المُوصِلَ بسُهولةٍ ويُسرٍ إلى مَدْينَ[2].

---

(١) قال البقاعي: (﴿عَسَىٰ﴾ أي: خليقٌ وجديرٌ وحقيقٌ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٠، ٣٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٢، ٢٠٣)، =

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾.

أي: ولَمَّا بلَغَ موسى ماءَ مَدْينَ وجَدَ على الماءِ جماعةً كثيرةً مِن النَّاسِ يَسقُونَ مَواشِيَهم[(١)].

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾.

أي: ووجَدَ مِن دونِ[(٢)] .....

= ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ موسى أراد بدُعائِه الهدايةَ إلى الطَّريقِ الحِسِّيةِ المُوصِلةِ إلى مَدْيَنَ: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والواحدي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، والسُّدِّيُّ، وقتادةُ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٣، ٢٠٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٦٠، ٢٩٦١)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٥).

وقيل: أراد موسى سَبيلَ الهدى إلى الحَقِّ. وممَّن استَحْسَنَه ومال إليه: ابنُ عطيَّة، واستظهَرَه ابنُ جُزَي، واختاره ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

قال الثعلبي: (﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ وهو بئرٌ كانت لهم). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٤٣). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦).

(٢) قال الشوكاني: (﴿مِن دُونِهِمُ﴾ أي: مِن دونِ النَّاسِ الَّذينَ يَسْقونَ ما بيْنَهم وبينَ الجِهةِ الَّتي جاءَ منها. وقيلَ: معناه: في مَوضعٍ أسفلَ مِنهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩١). =

تلك الجَماعةِ امرأتينِ تَحبِسانِ غَنَمَهما عن النَّاسِ[١].

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾.

أي: قال موسى للمَرأتينِ: ما شأنُكما تكُفَّانِ غنَمَكما، ولا تَسقيانِ مع النَّاسِ[٢]؟!

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾.

أي: قالَتَا لموسى: عادَتُنا أنَّنا لا نَسْقي أغنامَنا إلَّا بعدَ أن يَصرِفَ الرُّعاةُ مواشِيَهم[٣].

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

= وممَّن اختار أنَّ المرادَ: في مَوضعٍ أسفَلَ مِن موضعِ الجماعةِ، ومكانٍ أسفَلَ مِن مكانِهم: الزمخشريُّ، والرازي، والرسعني، والبيضاوي، والبقاعي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٨٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿مِن دُونِهِمُ﴾ أي: مِن سِواهم: الواحديُّ، والسمعاني، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٧، ٢١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

قال الماوَرْديُّ: (وفي امتناعِهما مِن السَّقيِ حتَّى يُصدِرَ الرِّعاءُ وجهانِ؛ أحدُهما: تصَوُّنًا عن الاختلاطِ بالرِّجالِ. الثَّاني: لِضَعفِهما عن المزاحمةِ بماشيتِهما). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٦).

ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١١)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

أي: وأبونا كبيرٌ في السِّنِّ، يَضعُفُ عن سَقيِ الغَنَمِ بنَفْسِه[١].

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾.

أي: فسقَى موسى للمَرأتَينِ غَنَمَهما بلا أُجرةٍ؛ رأْفةً ورحمةً بهما[٢].

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

قال القرطبي: (أكثَرُ النَّاسِ على أنَّهما ابنتا شُعَيبٍ عليه السَّلامُ، وهو ظاهِرُ القرآن). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧٠).

وممَّن قال بأنَّه ليس بشُعَيبٍ النَّبيِّ: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٦١-٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٤).

قال السعدي: (وهذا الرَّجلُ أبو المرأتينِ؛ صاحِبُ مَدْينَ: ليس بشُعَيبِ النَّبيِّ المعروفِ، كما اشتَهَر عند كثيرٍ مِن النَّاسِ؛ فإنَّ هذا قَولٌ لم يَدُلَّ عليه دليلٌ، وغايةُ ما يكونُ أنَّ شُعَيبًا عليه السَّلامُ قد كانت بلَدُه مَدْيَنَ، وهذه القضيَّةُ جَرَت في مَدْيَنَ، فأين الملازَمةُ بيْنَ الأمْرَينِ؟! وأيضًا فإنَّه غيرُ معلومٍ أنَّ موسى أدرك زمانَ شُعَيبٍ، فكيف بشَخصِه؟! ولو كان ذلك الرَّجلُ شُعَيبًا لذكَرَه اللهُ تعالى، ولَسَمَّتْه المرأتانِ. وأيضًا فإنَّ شُعَيبًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد أهلك الله قَومَه بتكذيبِهم إيَّاه، ولم يَبْقَ إلَّا مَن آمَنَ به، وقد أعاذ الله المؤمِنينَ أن يَرضَوا لِبنْتَي نبيِّهم بمنَعِهما عن الماءِ، وصَدِّ ماشيتِهما حتَّى يأتيَهما رجُلٌ غريبٌ فيُحسِنَ إليهما، ويَسقيَ ماشيتَهما! وما كان شُعيبٌ لِيَرضى أن يرعَى موسى عندَه ويكونَ خادِمًا له، وهو أفضَلُ منه وأعلى درَجةً. والله أعلم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠١).

أي: ثمَّ انصرَفَ موسى إلى ظِلٍّ هناك[١].

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

أي: فقال: ربِّ، إنِّي مُحتاجٌ إلى أيِّ شَيءٍ أنزَلْتَه إلَيَّ مِن أيِّ خيرٍ كان[٢].

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾.

أي: فجاءت إحدى المرأتَينِ إلى موسى، وهي تَمشي مُسْتحِيةً مُستَتِرةً، غيرَ مُتَبخترةٍ ولا مُبْدِيةٍ زِينةً[٣].

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

أي: قالت لِموسى عليه السَّلامُ: إنَّ أبي يَدْعوك لِيُكافِئَك؛ جزاءً على سَقْيِك أغنامَنا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٢).

وحكى السمعانيُّ والقرطبيُّ إجماعَ المفسِّرينَ على أنَّ موسى عليه السَّلامُ طلَبَ مِن الله الطَّعامَ لجُوعِه. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٨)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (٨/ ٥٥١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٨).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فلمَّا جاء موسى إلى أبيها وحدَّثَه بأخبارِه وأنبائِه مع فِرعَونَ وقَومِه، وسببِ خُروجِه مِن مِصرَ؛ قال له الأبُ: لا تخَفْ؛ فقد نجَوْتَ مِن فِرعَونَ وقَومِه الظَّالمينَ؛ إذْ لا سُلطانَ لهم بأرضِنا(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أنَّ النَّاظِرَ في العِلمِ عندَ الحاجةِ إلى التَّكلُّمِ فيه، إذا لم يَترجَّحْ عندَه أحدُ القَولَينِ فإنَّه يَستهدي ربَّه، ويَسألُه أنْ يَهديَه الصَّوابَ مِن القَولَينِ، بعدَ أنْ يَقصِدَ بقلبِه الحقَّ ويبحَثَ عنه؛ فإنَّ اللهَ لا يُخَيِّبُ مَن هذه حالُه، كما خَرَجَ موسى تِلْقاءَ مَدْيَنَ، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ في القِصَّةِ ترغيبٌ في الخَيرِ، وحَثٌّ على المعاونةِ على البِرِّ، وبَعْثٌ على بَذْلِ المعروفِ مع الجُهدِ(٣).

٣- أنَّه لا ينبغي أنْ يُحكَمَ على الأمورِ إلَّا بعدَ معرفةِ الأسبابِ؛ فإنَّ موسى لم يَحكُمْ على المرأتينِ بأيِّ حُكمٍ إلَّا بعدَ أنْ سألَهما، قال: ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾، يعني:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٤، ١٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٧).

لِماذا تَذُودانِ غنَمَكما عن السَّقي[١]؟

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أنَّ الرَّحمةَ بالخلْقِ، وإحسانَ المرء إلى مَن يَعرِفُ ومَن لا يعرِفُ: مِن أخلاقِ الأنبياءِ[٢]، ومِنَ الإحسانِ سقْيُ الماشيةِ الماءَ، وإعانةُ العاجزِ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ دليلٌ على أنَّ شكوى الضُّرِّ إلى الله مُباحةٌ، وسُؤالَه الغَوثَ جائزٌ، وليس على مَن أصابه ذلك أنْ ينتظِرَ إتيانَه مِن اللهِ قبْلَ المسألةِ؛ اعتمادًا على أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه يَعلَمُ حالَه فيأتيه برزقِه؛ لأنَّه -وإنْ كان كذلك- فلم يَحْظُرِ المسألةَ، بل نَدَبَ إليها، وعَمِلَ بها نبيُّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما ترى، فقال: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، وقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٤] [غافر: ٦٠].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ بيانُ كمالِ خُلُقِ هاتينِ المرأتينِ؛ حيثُ جاءت إحداهما تمشي غيرَ مُسرِعةٍ ولا مُهَرْوِلةٍ، بل تمشي بهُدوءٍ، وهذا دليلٌ على كمالِ أدَبِها، وكذلك كونُها على استحياءٍ فيه أيضًا مِن كمالِ الأدبِ[٥]، وعن عمرَ رضي الله عنه قال: (جاءَت تمشي على استحياءٍ، قائلةً بثوبِها على وجهِها، ليست بسَلْفَعٍ[٦]، خرَّاجةٍ ولَّاجةٍ)[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠١).

(٦) السلفع: هي الجريئةُ على الرِّجالِ. ينظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٩٠).

(٧) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٨/ ٢١٩)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٩/ ٢٩٦٥). =

٧- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ أنَّ الحياءَ -خصوصًا مِن الكرامِ- هو مِن الأخلاقِ الممدوحةِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ أنَّ المكافأةَ على الإحسانِ لم تَزَلْ دأبَ الأُمم السَّابقينَ[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ كمالُ الأدبِ في الأساليبِ، وإزالةُ الوحشةِ عنِ المخاطَبِ، لا سيَّما في المكانِ الذي تعتريه الوَحشةُ. وكما ينبغي أن يكونَ ذلك في اللَّفظِ، ينبغي أن يكونَ ذلك في حالِ المرءِ، بحيثُ يقابِلُ غَيرَه بالبشرِ والسَّماحةِ وانطلاقِ الوَجهِ؛ ولهذا كان من أوصافِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه كان دائمَ البشرِ، كثيرَ التبَسُّمِ. وضِدُّه العُبوسُ والتَّقطيبُ وعدمُ الانشراحِ؛ فإنَّ هذا يوجِبُ لِغَيرِك أن يَنفِرَ منك[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ أسْنَدَتِ الدَّعوةَ إلى أبيها، وعلَّلَتْها بالجزاءِ؛ لئلَّا يُوهِمَ كلامُها رِيبةً، وفيه مِن الدَّلالةِ على كَمالِ العقلِ والحياءِ والعِفَّةِ ما لا يَخْفَى[٤]، وفيه مِن كمالِ الذَّكاءِ؛ لأنَّ نِسبةَ الدَّعوةِ إلى الأبِ أقرَبُ إلى إجابةِ موسى للدَّعوةِ؛ حيثُ يكونُ الدَّاعي له رجُلًا[٥]، .....

= وصحح إسناده ابن كثير في ((تفسيره)) (٦/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠١).

وأيضًا فإنَّما بيَّنَت له الغرَضَ مِن دَعوتِه؛ مُبادرةً بالإكرام[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ أنَّ قَصَّ الأخبارِ لا يُعَدُّ شِكايةً؛ فلو قصَصْتَ على إنسانٍ ما جرى عليك مِن المصائِبِ، لا يُعتبَرُ ذلك مِن الشِّكايةِ إليه؛ ولهذا يقالُ: هذا إخبارٌ؛ فالمريضُ يقولُ -مثلًا- لِمَن سألَه عن حالِه: إنِّي مريضٌ، فهذا إخبارٌ لا شكوى. والفرقُ بيْنَهما أنَّ الشَّكوى تتضمَّنُ طَلَبَ إزالةِ الشَّيءِ، والتَّضَجُّرَ منه، وأمَّا الخبرُ فإنَّه مجرَّدٌ عن ذلك؛ فهو مجرَّدُ إخبارٍ عن أمرٍ وَقَع[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البِشارةُ بالأمنِ، وتسكينُ الخائفِ، وقد قالت الملائكةُ لإبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، وبِشارةُ الخائفِ وتطمينُه ضرْبٌ مِنَ الإحسانِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- يُستفادُ مِن سؤالِ موسى عليه الصَّلاة والسَّلامُ في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَا﴾ جوازُ مكالَمةِ الأجنبيَّةِ فيما يَعُنُّ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ مُباشَرةُ المرأةِ الأعمالَ، والسَّعيُ في طُرُقِ المعيشةِ، ومُعالجتُها أمورَ مالِها، وظُهورُها في مجامِعِ النَّاسِ إذا كانت تَستُرُ ما يَجِبُ سَترُه[٥]، معَ عدمِ مزاحمةِ الرِّجالِ، وأن يكونَ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠١).

للحاجةِ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، قَولُه: ﴿فَقَالَ رَبِّ﴾ فيه أنَّه ينبغي تقديمُ الدُّعاءِ بذِكْرِ الرَّبِّ، والدُّعاءُ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ هو أكثرُ ما يُتقبَّلُ به الدُّعاءُ[٢]. ويَكثُرُ في القرآنِ مجيءُ النِّداءِ باسمِ الرَّبِّ المُقتضِي للقيامِ بأمورِ العِبادِ وإصلاحِها؛ فكأنَّ العبدَ مُتعلِّقٌ بمَن شأنُه التَّربيةُ والرِّفقُ والإحسانُ، قائلًا: يا مَن هو المُصلِحُ لِشُؤوننا على الإطلاقِ أتِمَّ لنا ذلك بكذا، وهو مُقتضى ما يَدعو به، وإنَّما أتَى «اللَّهُمَّ» في مَواضِعَ قليلةٍ، ولِمَعانٍ اقتَضَتْها الأحوالُ[٣]، فيُصَدَّرُ الدُّعاءُ المُتضَمِّنُ لِلثَّناءِ والطَّلبِ بلَفْظةِ «اللَّهُمَّ»، وأمَّا الدُّعاءُ المُجَرَّدُ فيُصَدَّرُ بلَفظِ الرَّبِّ، وسِرُّ ذلك أنَّ اللهَ تعالى يُسألُ برُبوبيَّتِه المُتضَمِّنةِ قُدرتَه وإحسانَه وتربيتَه عبْدَه وإصلاحَ أمْرِه، ويُثنَى عليه بإلهيَّتِه المُتضَمِّنةِ إثباتَ ما يجبُ له مِنَ الصِّفاتِ العُلى، والأسماءِ الحُسْنى. وتدبَّرْ طريقةَ القُرآنِ، تَجِدْها كما ذكرتُ لك[٤].

٤- مِن أنواعِ التَّوسُّلِ الجائزةِ الشَّرعيَّةِ: التَّوسُّلُ إلى اللهِ تبارك وتعالى بذِكْرِ حالِ الدَّاعي، وأنَّه مُحتاجٌ ومُضْطَرٌّ إلى اللهِ، وهو ممَّا يُستجلَبُ به رحمةُ اللهِ -عزَّ وجلَّ- وفَضْلُه وإحسانُه، وهو مِن جُملةِ التَّوسُّلِ المَشروعِ في الدُّعاءِ، كما في قَولِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فهنا سأل اللهَ تبارك وتعالى بوَصفِ حالِه، وأنَّه مُحتاجٌ مُفتَقِرٌ إلى اللهِ تبارك وتعالى[٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب) (٥/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٩٤).

(٣) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٩٣، ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٦٦) و(١٢/ ١٨٣، ١٨٤).

وهو مُتضَمِّنٌ لِسُؤالِ اللهِ إنزالَ الخَيرِ إليه[١]؛ فدلَّ على جوازِ الاقتِصارِ في الدُّعاءِ على ذِكْرِ حالِ الدَّاعي بدونِ طَلَبٍ[٢].

٥- في قَولِ موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: (وكان قد بلَغ به الجُوعُ ما بلغَ، وإنَّه لأَكْرَمُ الخَلقِ يَومَئذٍ على اللهِ). وفي هذا مُعتبَرٌ وحاكِمٌ بهَوانِ الدُّنيا على اللهِ تعالى[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ عُلُوُّ اللهِ؛ فإنَّه لا يكونُ إنزالُه للشَّيءِ إلَّا إذا كان عاليًا؛ فهو سُبحانه وتعالى عالٍ بذاتِه وصفاتِه، فعُلُوُّه نَوعانِ: عُلُوُّ ذاتٍ، وعُلُوُّ صِفةٍ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أنَّ العبدَ إذا فَعَلَ العملَ للهِ تعالى، ثمَّ حَصَلَ له مكافأةٌ عليه مِن غيرِ قصْدٍ بالقَصدِ الأولِ؛ أنَّه لا يُلامُ على ذلك، كما قَبِلَ موسى مجازاةَ صاحِبِ مَدْيَنَ عن معروفِه الَّذي لم يَبْتَغِ له، ولم يَستشرِفْ بقَلبِه عِوَضًا[٥].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ فيه استِخدامُ الوالدِ لأولادِه[٦].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ سؤالٌ؛ كيف ساغ لموسى -عليه السلامُ- أنْ يَعملَ بقولِ امرأةٍ؛ وأنْ

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٦) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٨٣).

يمشيَ معها وهي أجنبيَّةٌ؛ فإنَّ ذلك يُورِثُ التُّهمةَ العظيمةَ؟!

الجوابُ: أنَّ الخبرَ يُعمَلُ فيه بقولِ امرأةٍ، فإنَّ الخبرَ يُعملُ فيه بقولِ الواحدِ -حرًّا كان أو عبدًا؛ ذكرًا كان أو أنثى-، وما كانت مُخبِرةً إلَّا عن أبيها، وأمَّا المشْيُ مع المرأةِ مع الاحتياطِ والتَّورُّعِ فلا بأسَ به[١].

١٠- قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ﴾ مِن عَجيبِ صُنعِ اللهِ: أنَّ هذا الكلامَ جاء مُطابقًا لسُؤالِ موسى؛ فموسى قد دعا ربَّه عندَما خَرَجَ خائفًا مِنَ المدينةِ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]، فجاء الجوابُ هنا مِن هذا الرَّجُلِ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ فقولُه: ﴿لَا تَخَفْ﴾ إجابةٌ لِقَولِه: ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، وقولُه: ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إجابةٌ لِقَولِه: ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وهكذا تكونُ إجابةُ اللهِ تعالى للمُضْطَرِ مُطابِقةً تمامًا لسُؤالِه؛ إذْ لا سُلطانَ لفِرعَونَ على مَدْيَنَ، وهذا هو الظَّاهرُ[٢].

١١- قال: ﴿مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ولم يقُلْ: (نجوتَ مِن الظالم) فدلَّ على أنَّ جنودَ الظَّالمِ ظَلَمةٌ، فالطَّاعةُ فيما فيه ظُلْمٌ محرمةٌ، وهي طاعةٌ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ عَطْفٌ على جُمَلٍ مَحذوفةٍ؛ إذِ التَّقديرُ: ولَمَّا خرَجَ مِن المدينةِ هائمًا على وَجْهِه، فاتَّفقَ أنْ كان مَسيرُه في طَريقٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٤).

يُؤدِّي إلى أرضِ مَدْيَنَ، حينَئذٍ قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾

- تُرِكَ المفعولُ غيرَ مَذكورٍ في قوله: ﴿يَسۡقُونَ﴾ و﴿تَذُودَانِ﴾؛ لأنَّ الغرَضَ هو الفِعلُ لا المفعولُ؛ ألَا تَرى أنَّه إنَّما رحِمَهما لأنَّهما كانتَا على الذِّيادِ، وهم على السَّقيِ، ولم يَرْحَمْهما؛ لأنَّ مَذُودَهما غنَمٌ ومَسْقِيَّهم إبلٌ مَثلًا، وكذلك قولُهما: ﴿لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ المقصودُ فيه السَّقيُ لا المَسقِيُّ. وهذا مِن تَنزيلِ الفِعلِ المُتعدِّي مَنزلةَ اللَّازمِ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾

- قَولُه: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ اقترانُ فِعلِ (سقى) بالفاءِ يُؤْذِنُ بأنَّه بادَرَ فسَقى لهنَّ، وذلك بفَورِ وُرودِه[٣]. وحُذِفَ مَفعولُه أيضًا؛ لِمَا أنَّ الغرَضَ هو بَيانُ السَّقيِ لا ما يُسْقَى[٤].

- والتَّولِّي: الرُّجوعُ على طريقِه، وذلك يُفيدُ أنَّه كان جالسًا مِن قبْلُ في ظِلٍّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨).

فرجَع إليه. ويَظهَرُ أنَّ ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ مُرادِفُ (ولَّى)، ولكنَّ زِيادةَ المَبْنى مِن شأْنِها أنْ تَقتضِيَ زِيادةَ المعنى، فيكون (تولَّى) أشَدَّ مِن (ولَّى)[١].

- قولُه: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أعقَبَ إيواءَه إلى الظِّلِّ بمُناجاتِه ربَّه، إذ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ لَمَّا استراح مِن مَشقَّةِ الـمَـتْحِ -أي: استخراجِ الدَّلوِ مِن البئرِ وجَذبِها- والسَّقيِ لِماشيةِ المَرأتينِ، والاقتِحامِ بها في عَددِ الرِّعاءِ العَديدِ، ووَجَد بَرْدَ الظِّلِّ؛ تَذكَّرَ بهذه النِّعمةِ نِعَمًا سابقةً أسْداها اللهُ إليه؛ مِن نَجاتِه مِن القَتْلِ، وإيتائِه الحِكمةَ والعِلْمَ، وتَخليصِه مِن تَبِعةِ قتْلِ القِبطيِّ، وإيصالِه إلى أرضٍ مَعمورةٍ بأُمَّةٍ عظيمةٍ بعدَ أنْ قَطَعَ فَيافِيَ ومَفازاتٍ؛ تَذكَّرَ جميعَ ذلك وهو في نِعمةِ بَرْدِ الظِّلِّ، والرَّاحةِ مِن التَّعبِ، فجاء بجُملةٍ جامعةٍ للشُّكرِ والثَّناءِ والدُّعاءِ، وهي: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ فقولُه: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ شُكرٌ على نِعَمٍ سلَفَت، وثَناءٌ على اللهِ بأنَّه مُعطِي الخيرِ. والخيرُ: ما فيه نفْعٌ ومُلاءمةٌ لِمَن يَتعلَّقُ هو به؛ فمنه خيرُ الدُّنيا، ومنه خيرُ الآخرةِ الَّذي قد يُرى في صُورةِ مَشَقَّةٍ؛ فإنَّ العِبرةَ بالعواقبِ، وقد أراد النَّوعينِ، كما يَرمُزُ إلى ذلك التَّعبيرُ عن إيتائِه الخيرَ بفِعلِ ﴿أَنزَلْتَ﴾ المُشعِرِ برِفعةِ المُعطِي، فأوَّلُ ذلك إيتاءُ الحِكمةِ والعِلْمِ[٢].

- قولُه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، أي: إنِّي لأيِّ شَيءٍ أنزَلْتَ إلَيَّ: قليلٍ أو كثيرٍ، غَثٍّ أو سَمينٍ، لـ ﴿فَقِيرٌ﴾؛ فـ (ما) مَوصوفةٌ، والتَّنكيرُ للشُّيوعِ. ويَحتمِلُ أنْ يُريدَ: أي: إنِّي فقيرٌ مِنَ الدُّنيا؛ لِأجْلِ ما أنزَلْتَ إلَيَّ مِن خيرِ الدِّينِ، والغرَضُ منه إظهارُ التَّبجُّحِ والشُّكرِ على ذلك؛ فـ (ما) على هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠١، ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٠٢).

التَّأويلِ مَوصولةٌ، و(مِن) بَيانٌ، والتَّنكيرُ في (خيرٍ) للنَّوعِ والتَّعظيمِ. وفائدةُ الماضي في (مَا أَنْزَلْتَ) على التَّأويلِ الأوَّلِ للاستِعطافِ، أي: ربِّ إنِّي سائلٌ الآنَ ما كُنتُ أعْهَدُه في الأيَّامِ الماضيةِ ممَّا أسُدُّ به جَوعَتي مِن قليلٍ أو كثيرٍ، غثٍّ أو سَمينٍ؛ لأنِّي مُحتاجٌ إليه[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ في الكلامِ حَذفٌ، والتَّقديرُ: فذهَبَتا إلى أبيهما مِن غيرِ إبطاءٍ في السَّقيِ، وقَصَّتا عليه أمْرَ الَّذي سقَى لهما، فأمَرَ إحداهما أنْ تَدعُوَه له، فجاءَتْه إحداهما[٢].

- وأشْعَرَت فاءُ التَّعقيبِ في قولِه: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ باستِجابةِ اللهِ له بأنْ ألْهَمَ أباهما أنْ يُرسِلَ وراءَه؛ لِيُنزِلَه عندَه، ويُزوِّجَه بنتَه، فذلك يَضمَنُ له أُنسًا في دارِ غُربةٍ، ومَأوًى وعَشيرًا صالحًا. وتُؤذِنُ الفاءُ أيضًا بأنَّ شُعيبًا -على قولٍ في التَّفسيرِ- لم يَتريَّثْ في الإرسالِ وراءَه، فأرسَلَ إحدى البِنتَينِ اللَّتينِ سَقَى لهما، فجاءتْه وهو لم يَزُلْ عن مكانِه في الظِّلِّ[٣].

- وذكَرَ ﴿تَمۡشِي﴾؛ لِيَبْنِيَ عليه قولَه: ﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾، وإلَّا فإنَّ فِعلَ (جاءَتْه) مُغْنٍ عن ذِكْرِ ﴿تَمۡشِي﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ولَمَّا كان الحياءُ كأنَّه مَرْكِبٌ لها؛ وهي متمكِّنةٌ منه مالِكةٌ لزِمامه؛ عَبَّرَ بأداةِ الاستِعلاءِ؛ فقال: ﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ أي: حياءٍ موجودٍ منها؛ لأنها كُلِّفَتِ الإتيانَ إلى رجُلٍ أجنبيٍّ تُكَلِّمُه وتُماشيه[١].

- قولُه: ﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ الاستحياءُ مُبالَغةٌ في الحياءِ، مِثلُ الاستجابةِ. وتَنكيرُ ﴿ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾؛ للتَّفخيم[٢].

- قولُه: ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ استئافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ مَجيئِها إيَّاه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ كأنَّه قِيلَ: فماذا قالتْ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟ فقيلَ: قالتْ:...[٣].

- وتأكيدُ الجُملةِ في قولِه: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ﴾ حِكايةٌ لِمَا في كَلامِها مِن تَحقيقِ الخبرِ؛ للاهتِمامِ به، وإدخالِ المَسرَّةِ على المُخبَرِ به[٤].

- قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لَمَّا كان مِن المعلومِ أنَّه لا عِيشةَ لخائفٍ؛ فكان أهَمُّ ما إلى الإنسانِ الأمانَ؛ قدَّمَ له التَّأمينَ، يعني: تقديمَ قولِه: ﴿لَا تَخَفۡ﴾ قبْلَ قولِه: ﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥].

- وجُملةُ ﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن الخَوفِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٥).

الآيات (٢٦-٢٨)

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾: الاستِئجارُ: طَلَبُ الشَّيءِ بالأُجرةِ، وأصلُ (أجر) هنا: يدُلُّ على الكِراءِ على العَمَلِ[1].

﴿حِجَجٍ﴾: أي: سِنينَ، جمعُ حِجَّةٍ، وأصلُ (حج): يدُلُّ على قَصدٍ، لَمَّا كان الحَجُّ في السَّنةِ لا يكونُ إلَّا مرَّةً واحدةً، فكأنَّ العامَ سُمِّيَ بما فيه مِن الحَجِّ حِجَّةً[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما أشارَتْ به إحدَى الفتاتينِ على أبيها: قالت إحدى المرأتَينِ: يا أبتِ استأجِرْ هذا الرَّجُلَ؛ لِرَعيِ غَنَمِنا وسَقْيِها، إنَّ خيرَ مَن تستأجِرُه القويُّ الأمينُ. قال الأبُ لموسى: إنِّي أريدُ أنْ أُزَوِّجَك إحدى ابنَتَيَّ هاتينِ على أن ترعَى لي الغنَمَ ثمانيَ سِنينَ، فإنْ أتممْتَ المدَّةَ إلى عشْرِ سِنينَ فذلك تفضُّلٌ وإحسانٌ منك، وما أُريدُ أن أُكَلِّفَك ما يَشُقُّ عليك، ستَجِدُني إن شاء الله مِن

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٨).

الصَّالحينَ.

قال موسى له: ذلك الذي اتَّفَقْنا عليه واجِبٌ بيْني وبيْنَك، على كُلِّ واحدٍ مِنَّا الوفاءُ لصاحِبِه بما أوجَبَ له على نفْسِه، أيَّ الأجلينِ -الثَّماني أو العَشر سِنينَ- قضَيْتُ، فليس لك أن تَظلِمَني وتُطالِبَني بأكثَرَ مِن ذلك، واللهُ على ما قُلْنا حفيظٌ وشاهِدٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾.

أي: قالت إحدَى المرأتينِ اللَّتينِ سقَى لهما موسى عليه السَّلامُ: يا أبتِ استأجِرْ هذا الرَّجُلَ؛ لِرَعيِ غَنَمِنا وسَقْيِها[1].

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

أي: إنَّ خيرَ مَن تَستأجِرُه القَويُّ على عَمَلِه، الأمينُ الَّذي لا يَخونُ ما ائتُمِنَ عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

قال ابن الجوزي: (وإنَّما سمَّتْه قويًّا، لرفعِه الحجَرَ على رأسِ البئرِ. وقيل: لأنَّه استقَى بدَلْوٍ لا يُقِلُّها إلَّا العددُ الكثيرُ مِن الرِّجالِ، وسمَّتْه أمينًا؛ لأنَّه أمَرَها أن تمشيَ خلفَه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (٤/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٩).

وقيل: الأمانةُ والقوةُ أُخِذَتا مِن سَقْيِه، فأمَّا القوَّةُ فعُرِفتْ مِن نزعِه الدَّلْوَ، وأمَّا الأمانةُ فلِكَونِه =

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾.

أي: قال أبو المرأتَينِ لِموسى: إنِّي أُريدُ أن أزَوِّجَك إحدى ابنتَيَّ هاتينِ على أن ترعى لي الغَنَمَ ثمانيَ سِنينَ[(١)].

﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ﴾.

أي: فإنْ أتممْتَ رعْيَ أغنامي عَشْرَ سِنينَ، فهذه الزِّيادةُ تفَضُّلٌ وإحسانٌ منك، وليسَت بواجبةٍ عليك[(٢)].

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾.

أي: وما أُريدُ أن أكَلِّفَك ما يَشُقُّ عليك[(٣)].

= يَسْقي سقيًا كاملًا، فيدَعُ الغنَمَ حتَّى تَروَى، ولأنَّه لم يأخذْ شيئًا منها. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٩، ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١١٣).

قال السَّعدي: (﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ فأُحَتِّمَ عَشْرَ السِّنينَ، أو ما أُريدُ أن أستأجِرَك لأُكَلِّفَك أعمالًا شاقَّةً، وإنَّما استأجِرُك لعمَلٍ سَهلٍ يسيرٍ لا مشَقَّةَ فيه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: ستَجِدُني إن شاء اللهُ مِنَ الصَّالحينَ في حُسنِ المعاملةِ والصُّحبةِ، ولِينِ الجانبِ، والوفاءِ بالمعاهدةِ(١).

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾.

أي: قال موسى لأبي المرأتينِ: ذلك الذي قُلْتَه وشارَطْتَني عليه قد رَضِيتُ به، وتمَّ فيما بيْني وبيْنَك، لا يَخرُجُ كِلانا عنه؛ لا أنا عمَّا شَرَطْتَ علَيَّ، ولا أنت عمَّا شرَطْتَ على نفْسِك، وعلى كلِّ واحدٍ مِنَّا الوفاءُ لصاحِبِه(٢).

﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّ﴾.

أيْ: أيَّ أجَلٍ مِن الأجَلَينِ قَضَيتُ -أطولَهما الذي هو العَشرُ، أو أقصَرَهما الَّذي هو الثَّمانِي- فليس لك أن تَظلِمَني وتعتدِيَ علَيَّ، فتُطالِبَني بأكثَرَ مِن ذلك(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٩).
قال الزمخشري: (المرادُ باشتراطِ مَشيئةِ الله فيما وعَدَ مِن الصَّلاحِ: الاتِّكالُ على توفيقِه فيه ومعونتِه، لا أنَّه يَستعمِلُ الصَّلاحَ إنْ شاء الله، وإنْ شاء استعمَلَ خِلافَه!). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

أي: واللهُ على ما قُلْنا وتعاقَدْنا عليه حَفيظٌ وشاهدٌ علينا، مُراقِبٌ لنا؛ فليس لأيٍّ مِنَّا الخروجُ عن شَيءٍ ممَّا اتفَقْنا عليه[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾ مشورةُ الأدنَى للأعلَى؛ لِقَولِها: ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾؛ لأنَّ الأمرَ هنا ليس للإلزام، ولكنْ للمَشورةِ والعَرْضِ؛ فقد يكونُ الأدنَى أعلَى مِن الأعلَى في بعضِ الأمورِ، كما أنَّ المفضولَ قد يكونُ أفضلَ مِن الفاضلِ في بعضِ الأمورِ[٢]، ويُستفادُ بيانُ أنَّ مَشورةَ الإنسانِ على أبيه لا تُعَدُّ مِنَ التَّنقُّصِ له[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾ تَلَطُّفُ هذه المرأةِ في مُخاطبةِ أبيها؛ لِقَولِها: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، ولهذا قالوا: لا ينبغي للإنسانِ أنْ يُناديَ والدَه باسمِه، كأنْ يقولَ مثلًا: يا عبدَ الرَّحمنِ! يا عبدَ العزيزِ! وما أشبَهَ ذلك، حتى إنَّ بعضَهم يقولُ: إذا نادى أباه باسمِه يُعَزَّرُ؛ لأنه نوعٌ مِن الاحتقارِ له، وأمَّا الخبرُ عنه باسمِه فلا بأسَ، مِثْلَ أنْ يقولَ: قال فُلانٌ، فلا حَرَجَ؛ ولهذا كثيرًا ما نَسمَعُ في الأحاديثِ أنَّ ابنَ عُمَرَ يقولُ: «قال عُمَرُ» وما أشبَهَ ذلك، وهذا لا بأسَ به، بخِلافِ النداءِ؛ فالنِّداءُ له حالٌ، والخبرُ له حالٌ أخرى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الاستِثناءُ في غيرِ الدُّعاءِ[١]، وقد قال إسماعيلُ لأبيه إبراهيمَ عليهما السَّلامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وقال موسى للخَضِرِ عليهما السَّلامُ: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ [الكهف: ٦٩]. والاستِثناءُ في غيرِ الدُّعاءِ توحيدٌ وتفويضٌ إلى الله، وبَراءةٌ مِنَ الحَوْلِ والقوَّةِ[٢].

٤- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنَّه لا ينبغي للمَرءِ أنْ يَعزِمَ على فِعلِ الشَّيءِ إلَّا مَقرونًا بالمشيئةِ، بل إنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى نهى نبيَّه أن يَعزِمَ على فِعلِ الشَّيءِ بدونِ قَرْنِه بالمشيئةِ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٣] [الكهف: ٢٣، ٢٤].

٥- أنَّ مِن مكارِمِ الأخلاقِ أنْ يُحسِنَ المرءُ خُلُقَه لأجيرِه وخادمِه، ولا يَشُقَّ عليه بالعَمَلِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فصاحِبُ مَدْيَنَ قد رَغَّب موسى عليه السَّلامُ في سهولةِ العملِ، وفي حُسنِ المعامَلةِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ الرَّجُلَ الصَّالحَ ينبغي له أن يُحسِنَ خُلُقَه مهما أمْكَنَه، وأنَّ الَّذي يُطلَبُ منه أبلَغُ مِن غيرِه[٤].

---

(١) عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا دعا أحدُكم فلْيَعْزِمِ المسألةَ، ولا يَقُولَنَّ: اللَّهُمَّ إنْ شِئتَ فأَعْطِني؛ فإنَّه لا مُسْتَكْرِهَ له)). رواه البخاري (٦٣٣٨)، ومسلم (٢٦٧٨).

وعن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((لا يَقُولَنَّ أحدُكم: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي إنْ شِئتَ، اللَّهُمَّ ارحَمْني إنْ شِئتَ، لِيَعْزِمِ المسألةَ؛ فإنَّه لا مُكْرِهَ له)). رواه البخاري (٦٣٣٩) واللفظ له ومسلم (٢٦٧٩).

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٠٣، ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥، ٦١٩).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- العِبرةُ مِن سِياقةِ هذا الجُزءِ مِن القِصَّةِ المُفتتَح بقَولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: ٢٢] إلى قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ [القصص: ٢٨] هو ما تضمَّنَتْه مِن فضائِلِ الأعمالِ، ومناقِبِ أهلِ الكمالِ، وكيف هيَّأَ الله تعالى موسى لِتَلَقِّي الرِّسالةِ بأنْ قَلَّبَه في أطوارِ الفَضائِلِ، وما تتضَمَّنُه مِن خِصالِ المروءةِ والفُتوَّةِ التي استكَنَّتْ في نفْسِه؛ مِن فِعلِ المعروفِ، وإغاثةِ الملهوفِ، والرَّأفةِ بالضَّعيفِ، والزُّهدِ، والقَناعةِ، وشُكرِ رَبِّه على ما أسدى إليه، ومِن العَفافِ، والرَّغبةِ في عِشرةِ الصَّالحينَ، والعملِ لهم، والوَفاءِ بالعَقدِ، والثَّباتِ على العَهدِ، حتَّى كان خاتِمةَ ذلك تشريفُه بالرِّسالةِ؛ لِيَعتبِرَ المُشرِكون بذلك -إن كان لهم اعتِبارٌ- في مُقايَسةِ تلك الأحوالِ بأجناسِها مِن أحوالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فيَهتَدوا إلى أنَّ ما عَرَفوه به مِن زَكيِّ الخِصالِ قبْلَ رِسالتِه، وقَويمِ سيرتِه، وزَكاءِ سَريرتِه، وإعانتِه على نوائِبِ الحَقِّ، وتزَوُّجِه بأفضَلِ امرأةٍ مِن نِساءِ قَومِه: إنْ هي إلَّا خِصالٌ فاذَّةٌ فيه بيْنَ قَومِه، وإنْ هي إلَّا بَوارِقُ لانهطالِ سَحابِ الوَحيِ عليه. واللهُ أعلَمُ حيثُ يجعَلُ رِسالاتِه؛ ولِيأتسيَ المُسلِمونَ بالأُسوةِ الحَسَنةِ مِن أخلاقِ أهلِ النُّبوَّةِ والصَّلاحِ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ أنَّ هذين الوَصفَينِ ينبغي اعتبارُهما في كلِّ مَن يَتولَّى للإنسانِ عَمَلًا بإجارةٍ أو غَيرِها؛ فإنَّ الخَللَ لا يكونُ إلَّا بفَقْدِهما أو فَقْدِ إحداهما، وأمَّا باجتماعِهما فإنَّ العَمَلَ يتمُّ ويَكمُلُ[(٢)]. فهذا الكلامُ كلامٌ جامِعٌ للمَقصودِ؛ لأنَّ مَنِ اجتمَعَت فيه الكفاءةُ والأمانةُ جَديرٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٠، ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

بتَفويضِ الأشغالِ إليه، والتَّعويلِ في النُّهوضِ بأعبائِها عليه[١].

٣- في تقديمِ القوَّةِ على الأمانةِ في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ دَليلٌ على أنَّها أهَمُّ مِن الأمانةِ؛ لأنَّه كم مِن إنسانٍ أمينٍ، ولا يُخشى منه الخيانةُ أبدًا، لكِنَّه ضعيفٌ لا يُنتِجُ ولا يُثمِرُ! وكم مِن إنسانٍ قويٍّ في أداءِ عمَلِه، لكِنَّه ضعيفٌ في أمانتِه! فالثَّاني أحسَنُ لإقامةِ العَمَلِ؛ ولهذا تجدُ كثيرًا مِن الناس -الَّذين لَدَيْهم قوَّةٌ وحزمٌ وتصرُّفٌ- تجدُهم يُنتِجونَ مِن الأعمالِ أكثرَ بكثيرٍ مِن قَومٍ ضُعَفاءَ وعِندَهم أمانةٌ[٢]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ دَليلٌ على أنَّ ظاهِرَ عَمَلِ الطَّاعةِ في الإنسانِ يُستدَلُّ به على عدالتِه وأمانتِه[٣].

٥- الزَّواجُ مِن سُنَنِ المُرسَلينَ، كما قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]، وكما فعَلَ صاحِبُ مَدْينَ مع موسى بنِ عِمْرانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ قال له: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾[٤].

٦- في قولِه تعالى: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: اعتِبارُ الإيجابِ والقَبولِ في عقْدِ النِّكاحِ[٥]: الإيجابِ مِن صاحِبِ مَدْيَنَ؛ لِقَولِه: ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ [القصص: ٢٧]، والقَبولِ مِن موسى، بقَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٥/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٥٦).

(٤) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٧٦).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٣).

﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾، ومعناه: إنِّي مُوافِقٌ وقابِلٌ[١].

٧- قال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ احتَجَّ بها بعضُهم على جوازِ أنْ يُكتَبَ في الصَّدَاقِ «أنكَحْتُه إيَّاها»، خلافًا لِمَنِ اختارَ «أنكحتُها إيَّاه» قائلًا: لأنَّه إنَّما يملكُ النِّكاحَ عليها لا عليه[٢]!

٨- قَولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ اليَسارَ لا يُعتبَرُ في الكفاءةِ؛ فإنَّ موسى عليه السَّلامُ كان حينَئذٍ فَقيرًا[٣].

٩- قال صاحِبُ مَدْيَنَ لموسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ ولم يقُلْ: (أنكَحْتُك على أن تَأْجُرَني)، وهذا يدُلُّ على أنَّ العُقودَ تنعقدُ بما دلَّ عليها؛ لأنَّ الإرادةَ عن الشَّيءِ ليست هي الشَّيءَ؛ ولذلك فلو قال الرَّجُلُ لامرأتِه: أُريدُ أنْ أُطَلِّقَكِ، فلا يكونُ طلاقًا؛ لأنَّ الإرادةَ غيرُ الفِعلِ، لكِنْ هذا يدُلُّ على القَولِ الرَّاجِحِ، وهو أنَّ العُقودَ تنعَقِدُ بما دلَّ عليها، وليس لها صِيغةٌ مُعَينةٌ، حتى إنَّه رُبَّما تنعقِدُ بالفِعلِ كما في انعقادِ البَيعِ بالمُعاطاةِ[٤].

١٠- قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ ...﴾ الآيةَ. فيه عَرْضُ الوليِّ ابنتَه على الرَّجلِ، وهذه سُنَّةٌ قائمةٌ؛ عرَضَ صالحُ مَدْيَنَ ابنتَه على صالحِ بني إسرائيلَ، وعرَض عمرُ بنُ الخطَّابِ ابنتَه حفصةَ على أبي بكرٍ وعثمانَ، قال ابنُ عمرَ: لَمَّا تأيَّمَتْ حفصةُ قال عمرُ لعثمانَ: إنْ شِئْتَ أنكحْتُك حفصةَ بنتَ عمرَ...

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٤). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١١٦).

الحديثَ[١]. فمِنَ الحسَنِ عَرْضُ الرَّجُلِ وليَّتَه على الرَّجلِ الصَّالحِ؛ اقتِداءً بالسَّلفِ الصَّالحِ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ دليلٌ على أنَّ وَلِيَّ البنتِ في التَّزويجِ أبوها[٣]، فالإنكاحُ إلى الوَليِّ، لا حقَّ للمرأةِ فيه، خِلافًا لأبي حَنيفةَ في بعضِ صُوَرِه، بأنْ تكونَ بالغةً عالِمةً بمصالحِ نفْسِها؛ فإنَّها تَعقِدُ على نفْسِها بمَحضَرٍ مِن الشُّهودِ[٤]!

١٢- قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ﴾ استدَلَّ مالكٌ بهذه الآيةِ على إنكاحِ البكرِ بغيرِ استئمارٍ؛ لأنَّه لم يَذكُرْ فيها استِئْمارًا[٥]، وهو أخذٌ بظاهرِ الآيةِ[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٩).

لا يصِحُّ النِّكاحُ بدونِ وليٍّ، وهو مذهبُ الجمهورِ. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٢٢٠)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٧/ ٥٠)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٤٨).

وذلك خلافًا للحنفيَّةِ. يُنظر: ((فتح القدير)) للكمال ابن الهُمام (٣/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٠٧).

قال ابن العربي: (وقال به الشَّافعيُّ، وكثيرٌ مِنَ العلماءِ. وقال أبو حنيفةَ: إذا بلغَتِ الصَّغيرةُ فلا يُزَوِّجُها أحدٌ إلَّا برضاها؛ لأنَّها بلغَتْ حدَّ التَّكليفِ، فأمَّا إذا كانت صغيرةً فإنَّه يُزَوِّجُها بغيرِ رِضاها؛ لأنَّه لا إذْنَ لها، ولا رِضاءَ، بغيرِ خِلافٍ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٠٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٩).

ثمَّ قال: (ولِمَن يَمنَعُ ذلك أن يقولَ: إنَّ عدَمَ التَّعرُّضِ له لا يَقتضي عدَمَ وُقوعِه). ((المصدر السابق)).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ أنَّه تجوزُ الإجارةُ بالمَنفعةِ، ولو كانتِ المنفعةُ بُضعًا[١].

١٤- قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ دلَّ على أنَّه يجوزُ أن يُشْرَطَ لِلْوَليِّ منفعةٌ وعلى أنَّ عَقدَ النِّكاحِ لا تُفسِدُه الشُّروطُ التي لا يُوجِبُها العَقدُ[٢].

١٥- قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ استُدِلَّ به على صِحَّةِ الإجارةِ بالطُّعمةِ والكِسوةِ،كما جرَتْ به العادةُ[٣].

١٦- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ فيه جوازُ الإجارةِ على كلِّ عملٍ معلومٍ في نفعٍ معلومٍ أو زمنٍ مسمًّى، وأنَّ مَرَدَّ ذلك إلى العُرفِ[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإجارةَ على ما لا يمكِنُ أن يَخلُصَ مِن المجهولِ، وليس في وُسْعِ الأجيرِ والمستأجِرِ: جائزةٌ حلالٌ لا يُفسِدُها المجهولُ الَّذي لا يمكِنُ تَعريتُها منه؛ إذ لو جَهِدَ الرَّاعي أو صاحِبُ الغنَمِ أنْ يُسَمِّيَا موضِعَ المَرْعَى والمسرَحِ، ومِقدارَه، والسَّقْيَ وأورادَه؛ ما قَدَروا عليه بوجهٍ مِن الوُجوهِ[٥].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ أنَّه يجوزُ أنْ يَجعلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تيسير اللطيف المنان)) للسعدي (١/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٦١).

الإنسانُ العَمَلَ عَمَلين: عَمَلًا واجبًا، وعَمَلًا تبرُّعًا؛ فيجوزُ للإنسانِ أنْ يَطلُبَ استئجارَ شَيءٍ ما -مثلًا- عَشْرَ سنَواتٍ بالأجْرِ، وسَنَتينِ تبَرُّعًا مِن صاحبِها برَغبتِه ومَشيئتِه(١).

١٩- قَولُ الله تعالى حِكايةً عن صاحِبِ مَدْيَنَ مُخاطِبًا موسى عليه السَّلامُ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ليس هذا مِن تزكيةِ النَّفْسِ المَنهيِّ عنه؛ لأنَّ المَنْهيَّ عنه ما قَصَد به قائلُه الفَخرَ والتَّمَدُّحَ؛ فأمَّا ما كان لغَرَضٍ في الدِّينِ أو المعامَلةِ، فذلك حاصِلٌ لداعٍ حَسَنٍ، كما قال يوسُفُ عليه السَّلامُ: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾(٢) [يوسف: ٥٥].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ العُقودَ ليست لها صِيَغٌ مُعَيَّنةٌ، فتَنعَقِدُ بما دَلَّتْ عليها، وكذلك الفُسوخُ، وكذلك الوِلاياتُ؛ كلُّ التصَرُّفاتِ مِن عُقودٍ وفُسوخٍ ووِلاياتٍ فإنَّها تَصِحُّ بما دلَّ عليها، ولا يُشتَرطُ لها لَفظٌ مُعَيَّنٌ، بل تجري على ما يَتعارَفُه النَّاسُ بيْنَهم(٣).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ أنَّ العُقودَ عهودٌ في الحقيقةِ، وهو كذلك؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يَعقِدُ مع شخصٍ فَقَدِ التزَمَ ألَّا يَخونَه، والتزمَ أنْ يفيَ له بمقتضى هذا العَقدِ؛ فيكونُ بذلك عهدًا(٤).

٢٢- جوازُ عقْدِ الإجارةِ وغيرِها مِن العقودِ مِن دونِ إشهادٍ؛ لِقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩). =

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ جوازُ تخصيصِ العموم لغَرَض، أي: جوازُ تعليقِ الشَّيءِ العامِّ بأمرٍ خاصٍّ بغَرَضٍ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يقتضي تخصيصَ وكالةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بما قالاهُ فقط، ولكِنَّ الأمرَ ليس كذلك، إنَّما خُصِّصَ هذا لغَرَضِ العنايةِ به[1].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ جوازُ إشهادِ اللهِ على العَقدِ، ولكنْ شرعًا لا يُقتصَرُ على ذلك، لكنْ باطنًا فيما بيْنَهم وبيْنَ اللهِ يُكتفى به؛ ويستفيدُ الرَّجُلُ إذا أشهدَ اللهَ أو جَعَلَه الوكيلَ الحفيظَ المراقِبَ أنْ يُذَكِّرَ بانتقامِ اللهِ منه إذا خالَفَ أو خان؛ فمَن أشهدَ اللهَ ثمَّ خان فقد استَخَفَّ به، وهي كذلك في حقِّ المخلوقينَ، فما بالُك أنْ تكونَ في حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ[2]؟!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ حُذِفَ ما لَقِيَه مُوسى مِن الجَزاءِ بإضافتِه وإطعامِه، وانتُقِلَ منه إلى عَرضِ

= واستُدِلَّ بالآيةِ أيضًا على عدمِ اشتراطِ الإشهادِ في النِّكاحِ؛ لأنَّه اكتفَى بشهادةِ الله، ولم يُشهِدْ أحدًا مِن الخلْقِ. يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٤). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥٠٩).

لكنَّ مذهبَ الجمهورِ مِنَ الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ عدَمُ صحَّةِ عَقدِ النِّكاحِ بدونِ شُهودٍ. يُنظر: ((الفتاوى الهندية)) (١/ ٢٦٧)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٧/ ٤٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٦٥).

أمَّا المالكيَّةُ فيَرَوْنَ أنَّ الإشهادَ واجبٌ وهو مندوبٌ عندَ العقدِ، فإن لم يحصُلِ الإشهادُ عندَ العقدِ فإنَّه يكونُ واجبًا عندَ البناءِ، وإن بنى بها بدونِ إشهادٍ فُسِخَ النِّكاحُ بطلقةٍ مِن قِبَلِ الحاكِمِ. يُنظر: ((الشرح الكبير للدردير وحاشية الدسوقي)) (٢/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إحدَى المرأتينِ على أبيها أنْ يَستأجِرَه للعملِ في ماشِيَتِه؛ إذ لم يكُنْ لهم ببَيتِهم رجُلٌ يقومُ بذلك، وقد كبِرَ أبوهما، فلمَّا رأتْ أمانتَه ووَرَعَه رأتْ أنَّه خيرُ مَن يُسْتأجَرُ للعملِ عندَهم؛ لقُوَّتِه على العملِ وأمانتِه[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ تَعليلٌ جارٍ مَجرى الدَّليلِ على أنَّه حَقيقٌ بالاستِئجارِ[٢]. وهو أيضًا كلامٌ حكيمٌ جامعٌ؛ لأنَّه إذا اجتَمَعتْ هاتانِ الخَصْلتانِ -الكِفايةُ والأمانةُ- في القائمِ بالأمرِ، فقد فرَغَ البالُ، وتمَّ المُرادُ، وقد اسْتغْنَتْ بإرسالِ هذا الكلامِ الذي سِياقُه سِياقُ المثَلِ والحِكمةِ أنْ تقولَ: استأْجِرْه لِقُوَّتِه وأمانتِه. وهو أيضًا أجمَلُ في مَدْحِ النِّساءِ للرِّجالِ مِن المدْحِ الخاصِّ، وأبْقَى للحِشْمةِ، وخُصوصًا إنْ كانتْ فَهِمَتْ أنَّ غرَضَ أبيها أنْ يُزَوِّجَها منه[٣].

- وأيضًا مَجيءُ هذا العمومِ ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ عقِبَ الحديثِ عن شخصٍ مُعيَّنٍ يُؤذِنُ بأنَّ المُتحدَّثَ عنه ممَّن يَشمَلُه ذلك العمومُ؛ فكان ذلك مُصادِفًا المَحَزَّ مِن البلاغةِ؛ إذ صار إثباتُ الأمانةِ والقوَّةِ لهذا المُتحدَّثِ عنه إثباتًا للحُكمِ بدليلٍ، فتَقديرُ معنى الكلامِ: استأْجِرْه؛ فهو قويٌّ أمينٌ، وإنَّ خيرَ مَنِ استأْجَرَ مُستأْجِرٌ القَويُّ الأمينُ؛ فكانت الجُملةُ مُشتمِلةً على خُصوصيَّةِ تَقديمِ الأهَمِّ، وعلى إيجازِ الحذْفِ، وبذلك استوَفَتْ غايةَ مُقْتضى الحالِ؛ فكانتْ بالِغةً حدَّ الإعجازِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري – حاشية ابن المنير)) (٣/ ٤٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٦).

- وجُعِلَ ﴿خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ اسمًا لـ (إنَّ)، وجُعِلَ ﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ خبرًا، مع صِحَّةِ جَعلِ ﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ هو اسم (إنَّ) -فإنَّهما مُتساويانِ في المعرفةِ- مِن حيثُ إنَّ المُرادَ بالتَّعريفِ في الموصولِ المُضافِ إليه ﴿خَيْرَ﴾، وفي المُعرَّفِ باللَّامِ هنا: العُمومُ في كِلَيهما؛ فأُوثِرَ بالتَّقديمِ في جُزأَيِ الجُملةِ ما هو أهَمُّ وأولَى بالعِنايةِ، وهو: خيرُ أجيرٍ؛ لأنَّ الجُملةَ سِيقَتْ مَساقَ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾، فوَصْفُ الأجيرِ أهَمُّ في مَقامِ تَعليلِها، ونفْسُ السَّامعِ أشدُّ تَرقُّبًا لحالِه. أو هو مِن القَلْبِ للمُبالَغةِ. ولَمَّا كان مُقْتضى الحالِ -أي: شَيخوختُه وحياؤُهما- هو الَّذي أوجَبَ قَيِّمًا يَهتَمُّ بها، ومُستأْجَرًا يَستأجِرونه لها؛ كان ذلك مطلوبًا لِذَاتِه، وكانت القوَّةُ والأمانةُ تابعتينِ له تُعرَفُ بالذَّوقِ. أو يُقال: إنَّ الفاصلةَ هي التي استَدْعَت تأخيرَ ﴿ٱلْأَمِينُ﴾، و﴿ٱلْأَمِينُ﴾ اسْتَدْعى مُقارَنةَ ﴿ٱلْقَوِىُّ﴾ معه[1].

- ووَرَدَ الفِعلُ ﴿ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ بلَفظِ الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّه أمْرٌ قد جُرِّبَ وعُرِفَ[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾

- في قولِه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ إيجازٌ بَليغٌ؛ فحَقيقةُ: شقَقْتُ عليه، وشقَّ عليه الأمْرُ: أنَّ الأمرَ إذا تَعاظَمَك، فكأنَّه شقَّ عليك ظنُّك باثنَينِ؛ تقولُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٣، ٤٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٥، ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٦).

تارةً: أُطِيقُه، وتارةً: لا أُطِيقُه، فهو مُترجِّحٌ بيْن اليأسِ والرَّجاءِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ وقَعَتْ (ما) في ﴿أَيَّمَا﴾ صِلَةً للتَّأكيدِ؛ لِيَصيرَ الموصولُ شَبيهًا بأسماءِ الشَّرطِ؛ لأنَّ تأكيدَ (ما) في اسمِ الموصولِ مِن الإبهامِ يُكسِبُه عُمومًا، فيُشْبِهُ الشَّرطَ؛ فلذلك جُعِلَ له جوابٌ كجَوابِ الشَّرطِ[٢].

- وقولُه: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أبلَغُ في إثباتِ الخِيَرةِ، وتَساوي الأجَلَينِ في القضاءِ مِن أنْ يُقالَ: (إنْ قضَيْتُ الأقصَرَ فلا عُدوانَ علَيَّ)[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠).

الآيات (٢٩-٣٥)

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ءَانَسَ﴾: أي: أبصَرَ وأحَسَّ، والإيناسُ: الرُّؤيةُ، والإحساسُ بالشَّيءِ، وأصلُ (أنس): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ[1].

﴿ٱلطُّورِ﴾: الطُّورُ اسمُ جبلٍ مخصوصٍ، وقيل: اسمٌ لكلِّ جبلٍ، وقيل: هو الجبلُ المنبِتُ دونَ غيرِه، وأصلُ (طور): يدُلُّ على الامتدادِ في شَيءٍ مِن مكانٍ أو زمانٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢، ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩).

﴿جَذْوَةٍ﴾: أي: قِطعةٍ غَليظةٍ مِنَ الحَطَبِ فيها نارٌ لا لهبَ فيها[١].

﴿تَصْطَلُونَ﴾: أي: تَستَدفِئونَ، والصَّلا: النَّارُ العظيمةُ، وأصلُ (صلى) هنا: النَّارُ[٢].

﴿شَٰطِئِ﴾: أي: جانِبِ[٣].

﴿ٱلْبُقْعَةِ﴾: أي: القطعةِ مِن الأرضِ المتميِّزةِ عن غيرِها، وأصلُ (بقع): مُخالَفةُ الألوانِ بعضِها بعضًا[٤].

﴿جَآنٌّ﴾: جِنسٌ من الحيَّاتِ خَفيفٌ سَريعٌ، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَتْرٍ[٥].

﴿يُعَقِّبْ﴾: أي: يَرجِعْ، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعدَ غيرِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٣)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤)، ((غريب =

﴿ٱسۡلُكۡ﴾: أي: أدْخِلْ، وأصلُ (سلك): يدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ[١].

﴿جَيۡبِكَ﴾: أي: جَيبِ قَميصِك، وهو مَدخَلُ الرَّأسِ منه المفتوحُ إلى الصَّدرِ[٢].

﴿جَنَاحَكَ﴾: أي: يَدَك، وأصلُ (جنح): يدُلُّ على المَيلِ، وسُمِّيَ الجناحانِ جَناحَينِ؛ لِمَيلِهما في الشِّقَّينِ[٣].

﴿ٱلرَّهۡبِ﴾: أي: الخَوفِ والرَّهبةِ، والرَّهْبةُ والرَّهْبُ: مخافةٌ مع تحرُّزٍ واضْطِرابٍ، وأصلُ (رهب): يدُلُّ على خَوفٍ[٤].

﴿فَذَٰنِكَ﴾: أي: العصا واليدُ، وذانِك: اسمُ إشارةٍ، تثنيةُ (ذاك)، وبالتَّشديدِ (ذَانِّكَ) تثنيةُ (ذلك)[٥].

﴿رِدۡءٗا﴾: أي: مُعينًا، يُقالُ: فلانٌ رِدْءٌ لفُلانٍ: أي: يَنصُرُه ويَشُدُّ ظَهرَه، وأصلُه مِن قَولِهم: ردأتُ الحائِطَ: إذا دعَمْتَه بخَشَبٍ أو نحوِه؛ لئلَّا يَسقُطَ[٦].

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩١، ٤٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨١).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٩)، =

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾: أي: سنُعينُك، ونقَوِّيك، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ، والعَضُدُ: ما بيْنَ المِرفَقِ إلى الكَتِفِ، وكلُّ مُعينٍ فهو عضُدٌ، وعاضَدَني فلانٌ، أي: عاوَنَني، وشَدُّ العَضُدِ مَثَلٌ في التَّقويةِ والإعانةِ؛ وذلك أنَّ مَن قَوَّيتَ عَضُدَه فقد أعَنْتَه(١).

﴿سُلْطَٰنًا﴾: أي: حُجَّةً، وبُرهانًا، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقهرُ، مِنَ التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فلمَّا أنهى موسى سَنواتِ رَعْيِه للغنَم، وسار بأهلِه إلى مِصرَ؛ أبصَرَ مِن جهةِ الجبَلِ نارًا مُضيئةً، فقال لأهلِه: الزَموا مكانَكم؛ فإنِّي أبصَرْتُ نارًا، سأذهَبُ إليها؛ لعلِّي أرجِعُ إليكم مِن عندِها بخبرٍ يدُلُّنا على الطَّريقِ، أو آتي بقِطعةٍ مُشتعِلةٍ مِن النَّارِ؛ لِتَستدفِئوا بها مِن البَردِ.

فلمَّا أتَى موسى إلى النَّارِ ناداه اللهُ مِن عن يمينِ موسى في البُقعةِ المبارَكةِ مِن ناحيةِ الشَّجَرةِ، فقال له: يا موسى، إنِّي أنا اللهُ ربُّ العالَمينَ الَّذي يكَلِّمُك، واطرَحْ عَصاك. فألقى موسى عصاهُ، فلمَّا رآها تتحرَّكُ بسُرعةٍ كأنَّها حيَّةٌ، ولَّى مُسرِعًا ولم يلتَفِتْ؛ لشِدَّةِ خَوفِه، فقال اللهُ له: يا موسى، ارجِعْ ولا تخَفْ؛ إنَّك

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٩) و(٤/ ٣٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥١) و(١٧/ ٣٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧).

مِنَ الآمِنينَ، أدخِلْ يَدَك في جَيبِك -وهو فَتحةُ الثَّوبِ مكانَ دُخولِ الرَّأسِ- تخرُجْ بَيضاءَ بياضًا عظيمًا مِن غيرِ عَيبٍ أو مَرَضٍ، واضمُمْ يَدَك إلى صَدرِك؛ فيذهَبَ ما أصابك مِن الخَوفِ، فهاتان آيتانِ مِن رَبِّك إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه؛ إنَّهم كانوا قومًا كافرينَ خارِجينَ عن طاعةِ الله.

قال موسى: ربِّ إنِّي قتَلْتُ مِن قَومِ فِرعَونَ نفْسًا، فأخافُ أن يقتُلوني، وأخي هارونُ هو أفصَحُ مني لِسانًا، وأحسَنُ بيانًا؛ فاجعَلْه رَسولًا معي إلى فِرعَونَ، ومُعينًا لي على دَعوتِهم؛ إنِّي أخافُ أن يكَذِّبوني.

قال اللهُ له: سنُقَوِّيك بإرسالِ أخيك معك، ونجعَلُ لكما حُجَّةً على فِرعَونَ وقَومِه، وتمتَنِعانِ منهم بسبَبِ آياتِنا؛ فلا يُصيبونَكما بضَرَرٍ، أنتما وأتباعُكما غالِبونَ لهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾.

أي: فلمَّا أنهى موسى سَنَواتِ رَعْيِه للغَنَمِ، وسار بزَوجِه إلى مِصرَ؛ أبصَرَ مِن جِهةِ الجَبَلِ نارًا مُضيئةً[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٤، ٢٣٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

قال السعدي: (﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ يحتمِلُ أنَّه قضَى الأجلَ الواجبَ، أو الزائدَ عليه، كما هو الظنُّ بموسى ووفائِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)

ممن اختار أنَّه قضَى العشرَ سنين: مقاتلُ بن سليمان، ومكي، وابنُ كثير، والشوكاني، والشنقيطي، ونسبه ابنُ عثيمين إلى أكثرِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٣)، =

عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: (سألَني يهوديٌّ مِن أهلِ الحِيرةِ: أيَّ الأجَلَينِ قضى موسى؟ قلتُ: لا أدري، حتَّى أقدَمَ على حَبرِ العَربِ فأسألَه، فقَدِمتُ فسألتُ ابنَ عبَّاسٍ، فقال: قضى أكثَرَهما وأطْيَبَهما؛ إنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا قال فعَلَ)[1].

﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾.

أي: قال موسى لامرأتِه: أقيموا مَكانَكم؛ فإنِّي أبصَرْتُ نارًا، سأذهَبُ إليها راجيًا أن أرجِعَ إليكم مِن عندِها بخبَرٍ عن الطَّريقِ[2].

= ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٤).

وممن اختار هذا القولَ مِن السلف: ابنُ عبَّاسٍ، ثبَت ذلك عنه، وأخرَجه البخاريُّ في ((صحيحه)) (٢٦٨٤) بسندِه عن سعيدِ بنِ جبيرٍ عندَما سأَله يهوديٌّ: أيَّ الأجلينِ قضَى موسَى؟ فسأَل سعيدُ ابنُ جُبيرٍ ابنَ عبَّاسٍ رضِي الله عنهما، فأجابَه بأنَّ موسى عليه السلامُ قضَى أكثرَهما.

وذكَر ابنُ كثيرٍ أنَّه قد يُستفاد هذا أيضًا مِن الآيةِ الكريمةِ مِن قولِه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ أي: الأكملَ منهما. ينظر:((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤).

وأيضًا فهذا هو الظنُّ بموسَى عليه السلامُ وكرمِه ووفائِه. ينظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٤).

ويحتملُ أنَّه قضَى الأجلَ الواجبَ ثماني سنين؛ فإنَّه هو الواجبُ عليه، وموسَى كان في اشتياقٍ إلى بلادِه بمصرَ، وقد قال فيما سبَق معتذرًا ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّ﴾، وهذه جملةٌ قد تشيرُ إلى أنَّه يريدُ أن يقتصرَ على الأجلِ الواجبِ، وإلا فمِن المعلومِ أنَّه إذا قضَى الأجلَ الواجبَ فإنَّه لا أحدَ يلومُه، أو يعتدي عليه. ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٤).

قال البقاعي: (والظَّاهِرُ أنَّه مكَثَ عندَه بعدَ الأجَلِ أيضًا مدَّةً؛ لأنَّه عطف بالواو قَولَه: ﴿وَسَارَ﴾، ولم يجعَلْه جوابًا لِلَمَّا). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٧٧).

(١) رواه البخاري (٢٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن =

﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

أي: أو آتيكم مِن النَّارِ بقِطعةِ حَطَبٍ مُشتَعلةٍ، راجيًا أن تَستدفِئوا بها مِن البَردِ[1].

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾.

أي: فلمَّا أتَى موسَى إلى النَّارِ الَّتي أبصَرَها عندَ الجَبَلِ، ناداه اللهُ تعالى مِن جانِبِ الوادي الواقِعِ على يمينِ موسى عليه السَّلامُ[2].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥، ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

= كثير)) (٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٥، ١٣٦).

واختار الزَّجَّاجُ ومكِّيٌّ أنَّ معنى ﴿لَعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: لعلِّي أعلَمُ لِمَ أُوقِدَتْ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٢٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٩، ٢٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٤٠، ١٤١).

قال ابنُ كثير: (أي: مِن جانِبِ الوادي ممَّا يلي الجبَلَ عن يمينِه، مِن ناحيةِ الغَربِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، فهذا ممَّا يُرشِدُ إلى أنَّ موسى قصَدَ النَّارَ إلى جهةِ القِبْلةِ، والجَبَلَ الغربيَّ عن يمينِه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٢).

﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

أي: ناداه في قِطعةِ الأرضِ الَّتي أحَلَّ اللهُ فيها البَرَكةَ[١] مِن ناحيةِ الشَّجَرةِ الَّتي في جانِبِ الوادي الأيمَنِ[٢].

﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: نادَى اللهُ موسَى فقال له: يا موسَى، إنَّ الَّذي يُكَلِّمُك هو أنا اللهُ ربُّ جميعِ الخلائِقِ، الَّذي لا إلهَ غيري[٣].

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

أي: واطرَحْ عصاك الَّتي معك على الأرضِ[٤].

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾.

---

(١) قال الواحدي: (﴿ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ بتكليمِ الله سُبحانَه فيها موسى عليه السَّلامُ، وإتيانِه النُّبوَّةَ). ((الوجيز)) (ص: ٨١٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٤١-١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن فورك)) (١/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٤٩).

أي: فألقَى موسَى عصاه، فلمَّا رآها تتحرَّكُ وتَضْطَرِبُ كأنَّها حيَّةٌ في سُرعةِ حَرَكتِها، وشِدَّةِ اهتزازِها؛ هرَبَ منها مُسرِعًا ولم يَرجِعْ أو يلتَفِتْ؛ لشِدَّةِ خَوفِه[١].

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾.

أي: قال اللهُ له: يا موسى، عُدْ إلى مكانِك ولا تخَفْ؛ إنَّك في أمنٍ مِن أن ينالَك مَكروهٌ[٢].

﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٣٢﴾.

﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾.

أي: أدخِلْ يَدَك في فَتحةِ قَميصِك -وهي الفتحةُ العُلويَّةُ مكانَ دُخولِ الرَّأسِ- فإذا أخرَجْتَها تخرُجُ بيضاءَ بياضًا عظيمًا مِن غيرِ عَيبٍ أو مَرَضٍ[٣]!

﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾.

أي: واضمُمْ يَدَك إلى صَدرِك؛ فيذهَبَ ما أصابَك مِن الخَوفِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، (نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٤٩، ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٤١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٥٦، ١٥٧).

=

﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾.

أي: فهاتانِ آيَتانِ وحُجَّتانِ مِن رَبِّك -تَحَوُّلُ عَصاكَ إلى حَيَّةٍ، وخُروجُ يَدِك مِن جَيبِك بَيضاءَ مِن غيرِ سُوءٍ- تَدُلَّانِ على الحَقِّ، أُرسِلُك بهما إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه وكُبَرائِهم(١).

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾.

أي: أُرسِلُك بهاتينِ الآيَتَينِ؛ لأنَّ فِرعَونَ ومَلأَه قَومٌ مَطبوعونَ على الكُفرِ، مُتَّصِفونَ بالخُروجِ عن طاعةِ اللهِ(٢).

كما قال تعالى لموسى عليه السَّلامُ: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣﴾.

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ ضَمُّ اليَدِ إلى الصَّدرِ؛ لإذهابِ خَوفِه: يحيى بنُ سلام، وابن جرير، والسمعاني، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الواحدي: (وقوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ قال مجاهدٌ: اضمُمْ إليك يدَك مِنَ الفَرَقِ. وهذا قولُ جميعِ المفسِّرينَ؛ قالوا: لَمَّا ألقى موسى عصاه فصارتْ جانًّا رَهِبَ وفَزِعَ، فأمَرَه الله أن يَضُمَّ إليه جَناحَه؛ لِيَذهَبَ عنه الفَزَعُ). ((البسيط)) (١٧/ ٣٨٥).

وقيل: المرادُ ضَمُّ يَدِه الَّتي صارت بيضاءَ إلى جَسدِه؛ لِتَعودَ إلى لَونِها الطَّبيعيِّ. وممَّن قال بهذا: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٨١).

قال العُلَيمي: (إذا هالَكَ أمرُ يدِك، وما تَرَى مِن شعاعِها، فأدخِلْها في جيبِك، تَعُدْ إلى حالتِها الأُولَى). ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٦، ٢٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٥٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ تضمَّنَ ذلك أنْ يذهَبَ موسى بهذينِ البُرهانَينِ إلى فِرعَونَ وقَومِه؛ فعندَ ذلك طَلَبَ مِن اللهِ تعالى ما يُقوِّي قلْبَه، ويُزيلُ خَوفَه، فقال[1]:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: قال موسى: ربِّ إنِّي قَتلْتُ مِن قَومِ فِرعَونَ نفْسًا، فأخافُ -إنْ رأَوْني وحيدًا بلا ظَهيرٍ ومُعينٍ يُبَيِّنُ لهم ما أُريدُ مِن القَولِ- أن يَقتُلوني قبلَ أن أتمكَّنَ مِن دَعوتِهم إلى الحَقِّ[2].

﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾.

أي: وأخي هارونُ هو أحسَنُ مِنِّي بيانًا؛ فاجعَلْه رَسولًا معيَ إلى فِرعَونَ وقَومِه، ووزيرًا ومُعِينًا لي على دَعوتِهم، يُبَيِّنُ ما أقولُ لهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٣)، ((الفواتح الإلهية)) للشيخ علوان (٢/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).
قال الرازي: (أجمَع المفسِّرون على أنَّ المرادَ منه قَتْلُ ذلك القِبطيِّ بذلك الوَكزِ). ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٩، ٢٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((الفواتح الإلهية)) للشيخ علوان (٢/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).
قال ابنُ عاشور: (معنى تصديقِه إيَّاه: أن يكونَ سَببًا في تصديقِ فِرعَونَ وَملَئِه إيَّاه؛ بإبانتِه عن الأدلَّةِ الَّتي يُلقيها موسى في مقامِ مُجادَلةِ فِرعَونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٦). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٩).

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ موسى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۝ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۝ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾ [طه: ٢٧ - ٣٥].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

أي: أيِّدْني بأخي هارونَ؛ لأنِّي أخافُ ألَّا يُصَدِّقَني فِرعَونُ وقَومُه[١].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ١٢، ١٣].

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٣٥﴾.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾.

أي: قال اللهُ لِموسى: سنُقوِّيك ونُعينُك بإرسالِ أخيك معك[٢].

﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

أي: ونجعَلُ لكما حُجَّةً على فِرعَونَ وقَومِه، ومَهابةً في قُلوبِهم منكما، فيكونُ لكما الظُّهورُ والغَلَبةُ عليهم، وتَمتَنِعانِ منهم؛ بسَبَبِ آياتِنا، فلا يؤذونَكما[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((تفسير المظهري)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٨، ١٦٩). =

﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾

أي: أنتما وأتْباعُكما المنصورونَ على فِرعَونَ ومَلَئِه، القاهِرونَ لهم[1].

= اختلَف المفسِّرون في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ على عدَّةِ أقوالٍ؛ منها: أنَّ المعنى: تمتنعانِ منهم بآياتِنا وحُجَجِنا، فلا يَصِلُون إليكما. وممَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: القرطبيُّ، وابن كثير، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٩-١٧١).

وقيل: هو مُتعلِّقٌ بما بعْدَه، فالمعنى: بآياتِنا أنتما ومَنِ اتَّبَعكما الغالِبون، أي: تَغلِبون بآياتِنا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٢٧٢).

قال ابن كثير: (ووجَّه ابنُ جريرٍ على أنَّ المعنى: ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾، ثمَّ يَبتدئُ فيقولُ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، تقديرُه: أنتُما ومَنِ اتَّبَعكما الغالِبون بآياتِنا. ولا شكَّ أنَّ هذا المعنى صحيحٌ، وهو حاصلٌ مِنَ التَّوجيهِ الأوَّلِ، فلا حاجةَ إلى هذا، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧).

وقيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، تقديرُه: ونجعَلُ لَكما سُلطانًا بآياتِنا، فلا يَصِلُون إليكما. وممَّن جوَّز هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٧).

وقيل: عنى بالآياتِ هنا: سائرَ مُعجزاتِ موسى عليه السَّلامُ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨).

قال ابن عاشور: (وعلى الوُجوهِ كلِّها فالآياتُ تشمَلُ خوارِقَ العاداتِ المُشاهَدةَ؛ مِثلُ: الآياتِ التِّسعِ، وتشمَلُ المعجزاتِ الخفيَّةَ؛ كصَرفِ قَومِ فِرعَونَ عن الإقدامِ على أذاهما معَ ما لَدَيْهم من القُوَّةِ، وما هم عليه مِن العَداوةِ، بحيث لولا الصَّرفةُ مِن اللهِ لأهلَكوا موسى وأخاه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال سُبحانَه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ سؤالٌ: أنَّ قولَه: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ خطابُ جماعةِ الذكورِ؛ فما وجهُ خِطابِ المرأةِ بخِطابِ جماعةِ الذُّكورِ؟

الجوابُ عن هذا مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّل: أنَّ الإنسانَ يُخاطِبُ المرأةَ بخِطابِ الجماعةِ؛ تعظيمًا لها، ونظيرُه قولُ الشَّاعرِ[(١)]:

فإنْ شِئتِ حَرَّمتُ النِّساءَ سِواكُمُ

الثَّاني: أنَّ معها خادمًا، والعرَبُ رُبَّما خاطبَتِ الاثنينِ خِطابَ الجماعةِ.

الثَّالثِ: أنَّه كان له مع زوجتِه ولَدانِ له[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ دَليلٌ على حُسنِ مُعاملةِ موسى لأهلِه؛ إذْ جَعَلَ يَتطلَّبُ لهم ما يُدفِّئُهم، وقد قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((خَيرُكم خَيرُكم لأهلِه، وأنا خَيرُكم لأهلي))[(٣)].

---

(١) ينظر: ((ديوان العرجي)) (ص ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٩). =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ أنَّ اتِّخاذَ الأعْوانِ هو مِن أسبابِ النَّجاةِ، وهذا أمرٌ مَعلومٌ مِن قديمِ الزَّمانِ وحَديثِه؛ أنَّه كلَّما كان الإنسانُ معه مَن يُعينُه ويُساعِدُه، كان ذلك أقرَبَ إلى نجاحِه مِن انفرادِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ﴾ إثباتُ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى قد يُقَدِّرُ للمَرءِ مِن الأسبابِ ما يُوصِلُه إلى الكَمالِ؛ ذلك أنَّ رَعْيَ الغَنَمِ فيه مَصلَحةٌ لِرعايةِ الخلْقِ فيما بَعدُ؛ ولهذا أخبرَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه ((ما بَعَثَ اللهُ نبيًّا إلَّا رعَى الغَنَمَ))[٢]، فإذا كان الإنسانُ يَتعوَّدُ الرِّعايةَ ومَسؤوليةَ الرَّعيَّةِ، فإنَّ هذا فيه تَوطِئةٌ لِمَا يُوكَلُ إليه فيما بَعْدُ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ للرَّجُلِ أن يذهَبَ بأهلِه حيثُ شاء؛ لِما له عليها مِن فَضلِ القواميَّةِ، وزيادةِ الدَّرجةِ، إلَّا أن يلتَزِمَ لها أمرًا؛ فالمؤمِنونَ عند شُروطِهم، و((أحَقُّ الشُّروطِ أن تُوفُوا به ما استَحلَلْتُم به الفُروجَ))[٤].

= والحديث أخرجه الترمذي (٣٨٩٥)، وابن حبان (٤١٧٧) واللَّفظُ لهما، والبيهقيُّ (١٦١١٧) مختصرًا، مِن حديثِ عائشةَ رضي الله عنها.

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ صحيحٌ)، وصحَّح إسنادَه الطبريُّ في ((تهذيب الآثار- مسند عمر)) (١/ ٤٠٨)، وصحَّحه الشَّوكانيُّ في ((فتح القدير)) (١/ ٦٣٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٨٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥١١). =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ -حتَّى قبْلَ النُّبوَّةِ- هم كغيرِهم مِن البشَرِ؛ يُحِسُّون بآلامِ البَردِ، وكذلك بآلامِ الجوعِ وغيرِه، ويَهتَدون إلى الطَّريقِ، وقد يَضِلُّون عنه، فهنا فائدتانِ شَرعيَّتانِ:

الأُولى: أنَّهم لا يَعلمونَ الغَيبَ؛ إذْ لو كانوا يَعلمونَ الغيبَ ما ضَلُّوا عن الطَّريقِ.

الثَّانيةُ: أنَّهم لا يَملِكونَ لأنفُسِهم نفعًا ولا ضَرًّا، فإذا كانوا لا يَملكون ضَرًّا ولا نفعًا لأنفُسِهم، فلِغَيرِهم مِن بابِ أَولى، وهذا مُصَرَّحٌ به في قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال اللهُ تعالى لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ۞ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾[1] [الجن: ٢١، ٢٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى إذا أراد أمرًا هَيَّأَ أسبابَه؛ فإنَّ اللهَ لَمَّا أراد أنْ يوحِيَ إلى نبيِّه موسى عليه السَّلامُ في ذلك المكانِ، هَيَّأَ له أسبابًا تُوصِلُه إلى النَّارِ الَّتي رآها وقَصَدَها[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أنَّ اتِّخاذَ الأسبابِ لا يُنافي التَّوكُّلَ، بل هو مِن تمامِ التَّوكُّلِ، ومِن

= والحديث أخرجه البخاري (٢٧٢١) واللفظ له، ومسلم (١٤١٨) من حديثِ عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تمامِ معرفةِ الإنسانِ باللهِ سُبحانَه وتعالى، لكنَّ المحظورَ أنْ يَعتمِدَ الإنسانُ على السَّبَبِ، ويَظُنَّ أنَّه هو الغايةُ[١]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ إثباتُ كلامِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ المُناديَ في قَولِه: ﴿نُودِيَ﴾ هو اللهُ؛ لِقَولِه تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[٢] [النازعات: ١٦]. والنِّداءُ لا يكونُ إلَّا صَوتًا مَسموعًا، ولا يُعقَلُ في لُغةِ العَرَبِ لفظُ النِّداءِ بغيرِ صَوتٍ مَسموعٍ، لا حَقيقةً ولا مَجازًا[٣]، وفيه رَدٌّ على الأشاعرةِ الَّذين يقولون: «إنَّ كَلامَ اللهِ هو المعنى القائمُ بنَفْسِه»، ولا شكَّ أنَّ المعنى القائمَ بالنَّفْسِ لا يُسمَّى كلامًا، ولا يُسمَعُ، وكلامُ اللهِ تعالى يُسمَعُ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ الرَّدُّ على الجَهميَّةِ والمُعتَزِلةِ الَّذين يقولون: «إنَّ كلامَ اللهِ مخلوقٌ»، ووجْهُ ذلك: أنَّه ثَبَتَ أنَّ النِّداءَ مِن اللهِ سُبحانه وتعالى، والنِّداءُ قَولٌ، والقَولُ لا يُؤخَذُ إلَّا بقائلٍ؛ فيكونُ القَولُ قولَ اللهِ، وكلُّ صفةٍ مِن صفاتِ اللهِ فإنَّها غيرُ مخلوقةٍ؛ لأنَّها وصْفٌ لِمَنِ اتَّصفَ بها، فإذا كانت وَصْفًا للخالقِ فهي غيرُ مَخلوقةٍ[٥].

٨- قولُه تعالى: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه إثباتُ أنَّ كلامَ اللهِ سُبحانَه وتعالى بحرفٍ؛ لأنَّ هذه جُمَلٌ مُكَوَّنةٌ مِن حروفٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٣/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ أنَّه يجوزُ على الأنبياءِ ما يجوزُ على غَيرِهم مِن الخَوفِ الطَّبيعيِّ، مع أنَّ موسى عليه السَّلامُ -كما هو معلومٌ- كان مِن الرِّجالِ الأقوياءِ، لكِنَّه يَعتريه ما يعتري غيرَه مِن البَشَرِ[(١)].

١٠- قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾، قولُه: ﴿أَقۡبِلۡ﴾ يقتضي الأمرَ بإقبالِه، ويجبُ عليه الامتثالُ، ولكن قد يكونُ إقبالُه وهو لم يزلْ في الأمرِ المخوفِ، فقال: ﴿وَلَا تَخَفۡ﴾، ولكن يبقَى احتمالٌ، وهو أنَّه قد يُقبِلُ وهو غيرُ خائفٍ، ولكن لا تحصُلُ له الوقايةُ والأمنُ مِن المكروهِ، فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾، فحينئذٍ اندفَع المحذورُ مِن جميعِ الوجوهِ، فأقبَل موسى عليه السلامُ غيرَ خائفٍ ولا مرعوبٍ، بل مطمئنًّا، واثقًا بخبرِ ربِّه، قد ازداد إيمانُه، وتمَّ يقينُه، فهذه آيةٌ، أراه الله إيَّاها قبلَ ذهابِه إلى فرعونَ، ليكونَ على يقينٍ تامٍّ، فيكونَ أجرأَ له، وأقوَى وأصلبَ[(٢)].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ رُبَّما إذا استعمل أحَدٌ ذلك على سبيلِ الاقتداءِ، فوضَعَ يَديه على فؤادِه؛ فإنَّه يَزولُ عنه ما يجدُ أو يَخِفُّ، إن شاء اللهُ، وبه الثِّقةُ[(٣)]، قال ابنُ عبَّاس: (ليس مِن أحدٍ يَدخُلُه رُعبٌ بعدَ موسَى، ثمَّ يُدخِلُ يدَه فيَضعُها على صدرِه؛ إلَّا ذهَب عنه الرُّعبُ)[(٤)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١٧٩).

قال ابن كثير: (وهذا وإن كان خاصًّا به، إلَّا أنَّ ببركةِ الإيمانِ به حقَّ الإيمانِ ينتفعُ مَن استعمَل ذلك على وجهِ الاقتداءِ بالأنبياءِ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٥٧).

اللهَ تعالى يُعطي الأنبياءَ مِن الآياتِ ما يُناسِبُ الوقتَ وحالَ المُرسَلِ إليهم؛ لأنَّ هذا مِن الحِكمةِ أنْ تأتيَ الآياتُ مُطابِقةً للواقعِ[١]، فموسى عليه السَّلامُ كانت مُعجِزتُه ممَّا يُناسِبُ أهلَ زمانِه، فكانوا سَحَرةً أذكياءَ، فبُعِث بآياتٍ بَهَرَتِ الأبصارَ، وخضعَتْ لها الرِّقابُ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُجَدِّدُ لهذه الأُمَّةِ دينَها كُلَّما خرَجوا عنه؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ يُرسِلُ الرُّسلَ عندَ الحاجةِ إليهم، وعندَما لا يكونُ هناك رسولٌ -كحالِ أُمَّتِنا- يَبعثُ دُعاةً صالحينَ مُصلِحينَ للخَلْقِ[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أنَّ الخَوفَ الطَّبيعيَّ لا يُنافي مقامَ الرِّسالةِ[٤]، وإنَّما هو مُباحٌ في الأصلِ، لكنْ إنْ حمَل على ترْكِ واجبٍ أو فِعلِ محرَّمٍ؛ فهو محرَّمٌ، وإنِ استَلزَمَ شيئًا مباحًا كان مباحًا[٥].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ أنَّ فَصاحةَ اللِّسانِ لها تأثيرٌ قَويٌّ في القَبولِ أو الرَّفضِ، وقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ مِن البَيانِ لَسِحْرًا))[٦].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ فَضيلةُ موسى عليه الصَّلاةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٦٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٧).

والحديث أخرجه البخاري (٥٧٦٧) من حديثِ عبدِ الله بنِ عُمرَ رضي الله عنهما.

والسَّلامُ؛ لإقرارِه بالفَضلِ لأخيه[١]!

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ أنَّ الخَبرَ يَزدادُ ثبوتًا وتَبيينًا بتَعَدُّدِ مُخبِريه؛ ولهذا طلَب موسى عليه السَّلامُ من الله أن يُرسِلَ معه هارُونَ؛ لِتزدادَ رسالتُه قوَّةً ووُضوحًا عندَ آلِ فِرعَونَ؛ لأنَّ الرِّسالةَ خبرٌ، فإذا كان معه مَن يُقَوِّيه على هذا الخَبرِ ويُثَبِّتُه ويُصَدِّقُه، فإنه يكونُ أقوى، والآيةُ شاهِدٌ له[٢].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ استَجابَ اللهُ له دَعْوَتَيه، وزادَهُ تَفضُّلًا بما لم يَسأَلْه؛ فاستِجابةُ الدَّعوةِ الثَّانيةِ بقولِه: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، واستِجابةُ الأُولى بقولِه: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾، والتَّفضُّلُ بقولِه: ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾، فأعطَى مُوسى ما يُماثِلُ ما لهارونَ مِن المَقدِرةِ على إقامةِ الحُجَّةِ؛ إذ قال: ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾[٣].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ أنَّ التمَسُّكَ بشريعةِ اللهِ سببٌ للغلبةِ، فإذا كان هذا في بني إسرائيلَ: أنَّه مَن اتَّبَعَ موسى عليه السَّلامُ فهو الغالبُ؛ فمِن بابِ أَولى مَن اتَّبَعَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فإنَّه غالِبٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، ومعنى ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾: يُعلِيَه؛ لأنَّ الظَّهرَ والظُّهورَ كلُّه يدُلُّ على الغَلَبةِ[٤].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧٣).

يُنصَرُ ويَغلِبُ باتِّبَاعِ الرُّسُلِ، وأنَّه لا طريقَ إلى النَّصرِ والغَلَبةِ إلَّا بالدُّخولِ في طريقِ الرُّسلِ، واتِّباعِهم، وعليه فتكونُ مِن هذه قاعدةُ: (كلُّ مَن كان للرَّسولِ أتبَعَ، كان إلى النَّصرِ أقربَ؛ وكلُّ مَن كان مِن اتِّباعِ الرَّسولِ أبْعَدَ، كان عن النَّصرِ أبعَدَ)؛ لأنَّه مِن المعلومِ في القواعدِ المقرَّرةِ: (أنَّ الحُكمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ كان ثبوتُه -قوَّةً وضَعفًا، ووُجودًا وعدمًا- بحَسَبِ ذلك الوَصفِ)[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ لم يَذكُرِ القرآنُ أيَّ الأجلَينِ قَضى مُوسى؛ إذ لا يَتعلَّقُ بتَعيينِه غرَضٌ في سِياقِ القصَّةِ[٢].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ فَصيحةٌ، أي: فعَقَدَا العَقدينِ، وباشَرَ مُوسى ما الْتزَمَهُ، فلمَّا أتمَّ الأجَلَ...[٣].

- قَولُه: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ الجَذوةُ: العودُ الغليظُ، قيل: مُطلقًا، وقيل: المُشتعِلُ؛ فإنْ كان الأوَّلَ؛ فوَصْفُ الجَذوةِ بأنَّها مِن النَّارِ وصْفٌ مُخصِّصٌ، وإنْ كان الثَّانيَ فهو وصْفٌ كاشفٌ، و(مِن) على الأوَّلِ بَيانيَّةٌ، وعلى الثَّاني تَبعيضيَّةٌ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١١).

- التَّعريفُ في ﴿ٱلشَّجَرَةِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وعُدِلَ عن التَّنكيرِ؛ للإشارةِ إلى أنَّها شَجرةٌ مَقصودةٌ، وليس التَّعريفُ للعهْدِ؛ إذ لم يَتقدَّمْ ذِكْرُ الشَّجرةِ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى في سُورةِ (النَّملِ): ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [النمل: ٨]، وقال في (طه): ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۞ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١- ١٢]، وقال هاهنا: ﴿نُودِيَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولا مُنافاةَ بيْنَ هذه الأشياءِ؛ فهو تعالى ذَكَرَ الكُلَّ، إلَّا أنَّه حَكَى في كُلِّ سُورةٍ بَعضَ ما اشتَمَلَ عليه ذلك النِّداءُ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾ فَصيحةٌ مُفصِحةٌ عن جُمَلٍ قد حُذِفَت؛ تَعويلًا على دَلالةِ الحالِ عليها، وإشعارًا بغايةِ سُرعةِ تَحقُّقِ مَدلولاتِها، أي: فألْقاها، فصارت ثُعبانًا، فاهتزَّتْ...[٣].

- قَولُه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡ﴾ زِيادةُ ﴿أَقۡبِلۡ﴾ هنا -وهي تَصريحٌ بمَضمونِ قولِه: (لَا تَخَفْ) في سُورةِ (النَّملِ) ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]-؛ لأنَّه لَمَّا أدْبَر خَوفًا مِن الحيَّةِ كان النَّهيُ عن الخَوفِ يدُلُّ على معنى طَلبِ إقبالِه؛ فكان الكلامُ هنالك إيجازًا، وكان هنا مُساواةً[٤]؛ تفنُّنًا في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢).

(٤) المساواةُ: هي أن يكونَ اللَّفظُ مُساويًا للمعنى بحيثُ لا يَزيدُ عليه ولا يَنقُصُ عنه، بأن يكونَ لِكُلِّ معنًى قصَدَه المتكلِّمُ لفظٌ يدُلُّ عليه، ظاهرٌ أو مُقَدَّرٌ، فإذا نقَصَتِ الألفاظُ عن عددِ المعاني =

حِكايةِ القصَّتينِ. وكذلك زِيادةُ ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ هنا، ولم يُحْكَ في سُورةِ (النَّملِ)، وهو تأكيدٌ لِمُفادِ ﴿وَلَا تَخَفْ﴾. وفيه زِيادةُ تَحقيقِ أمْنِه بما دلَّ عليه التَّأكيدُ بـ(إنَّ)، وجَعْلِه مِن جُملةِ الآمِنينَ؛ فإنَّه أشَدُّ في تَحقيقِ الأمْنِ مِن أنْ يُقالَ: إنَّك آمِنٌ[1]؛ وذلك لِيَتذكَّرَ أنَّ هناك آمِنينَ، فإذا كان هناك آمِنونَ فإنَّه لا غَرابةَ أنْ تأْمَنَ؛ فالإنسانَ إذا ذُكِّرَ بما حدَثَ لغَيرِه صار أشدَّ طُمأنينةً في حُصولِ ذلك الشَّيءِ، ونَظيرُه بالعَكْسِ، هو قولُ فِرعونَ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، ولم يقُلْ: لأسجُنَنَّك؛ لأجْلِ أنْ يُرْهِبَه بأنَّ عندَه مَن هو مَسجونٌ، وأنَّه ليس يُعجِزُنا أنْ نَسجُنَك. والحاصلُ: أنَّ مِثلَ هذا يُقالُ مِن أجْلِ أنْ يَتذكَّرَ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ هناك أناسًا آمِنينَ، فيَأمَنَ أكثرَ[2].

٤- قولُه تَعالَى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

- قد جُعِلَ الجَناحُ -وهو اليَدُ- في أحدِ الموضِعَين مَضمومًا، وفي الآخَرِ مَضمومًا إليه؛ وذلك قولُه هنا: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾، وقولُه في سُورةِ

= مع إيفائِها بجميعِ تلك المعاني، فذلك (الإيجازُ). وإذا زادَتِ الألفاظُ على عددِ المعاني مع عدَمِ زيادةِ المعاني، فذلك (الإطنابُ).

قيل: ومِن المساوةِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]. يُنظر: ((نقد الشعر)) لقدامة بن جعفر (ص: ٥٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٧٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٣٠)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٨٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٥١).

(طه): ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢]؛ لأنَّ المُرادَ بالجَناحِ المضمومِ هو اليَدُ اليُمْنى، وبالمَضمومِ إليه اليدُ اليُسرى، وكلُّ واحدةٍ مِن يُمْنى اليدينِ ويُسراهما جَناحٌ(١).

- قولُه: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾، أي: انْكفِفْ عن التَّخوُّفِ مِن أمْرِ الرِّسالةِ. وفي الكلامِ إيجازٌ، وهو ما دَلَّ عليه قولُه بعْدَه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]، فقولُه: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ في معنَى قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾(٢) [القصص: ٣٥].

- قولُه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: كائنانِ منه، وكذلك قولُه: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: مُرْسَلانِ، أو واصِلانِ إليهم(٣). وقيل: يتعلَّقُ بمَحذوفٍ دَلَّ عليه المعنى، تَقديرُه: اذهَبْ إلى فِرعونَ...(٤).

- قولُه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾؛ لِتَضمُّنِها أنَّهم بحيث يُقرَعونَ بالبراهينِ، فبيَّنَ أنَّ سببَ ذلك تَمكُّنُ الكُفرِ مِن نُفوسِهم حتَّى كان كالجِبِلَّةِ فيهم، وبه قِوامُ قَوْمِيَّتِهم؛ لِمَا يُؤذِنُ به قولُه: ﴿كَانُواْ﴾، وقولُه: ﴿قَوۡمٗا﴾(٥).

- قولُه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٢١، ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٥).

ٱلشَّجَرَةِ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ [القصص: ٣٠ - ٣٢]، تقدَّمَ مِثلُ هذا في سُورةِ (النَّملِ)، إلَّا مُخالفةَ ألْفاظٍ؛ مِثلُ ﴿أَتَىٰهَا﴾ هنا و﴿جَآءَهَا﴾ [النمل: ٨] هناك، ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ هنا، ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٩] هناك، بضَميرٍ عائدٍ إلى الجَلالةِ هنالك، وضَميرُ الشَّأنِ هنا، وهما مُتساويانِ في المَوقعِ؛ لأنَّ ضَميرَ الجلالةِ شأْنُه عظيمٌ. وقولُه هنا: ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقولُه هنالك: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، وهذا يَقْتضي أنَّ الأوصافَ الثَّلاثةَ قِيلَت له حينَئذٍ. والقولُ في نُكتةِ تَقديمِ صِفةِ اللهِ تعالى قبْلَ إصدارِ أمْرِه له بإلقاءِ العصَا: أنَّ وصْفَ ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ جميعَ الخلائقِ مُسَخَّرةٌ له؛ لِيَثْبُتَ بذلك قلْبُ مُوسى مِن هَولِ تلقِّي الرِّسالةِ. ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ﴾ هنا، ﴿وَأَلۡقِ﴾ هناك [النمل: ١٠]، و﴿ٱسۡلُكۡ﴾ هنا، ﴿وَأَدۡخِلۡ﴾ هناك [النمل: ١٢]، وتلك المُخالَفةُ تفنُّنٌ في تَكريرِ القصَّةِ؛ لِتُجدِّدَ نَشاطَ السَّامعِ لها، وإلَّا زِيادةَ ﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ جَرَى التَّأكيدُ على الغالبِ في استِعمالِ أمثالِه مِن الأخبارِ الغريبةِ؛ لِيَتحقَّقَ السَّامعُ وُقوعَها، وإلَّا فإنَّ اللهَ قد عَلِمَ ذلك لَمَّا قال له: (اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)، والمعنى: فأخافُ أنْ يَذكُروا قَتْليَ القِبطيَّ فيَقْتُلوني؛ فهذا كالاعتِذارِ، وهو يَعلَمُ أنَّ رِسالةَ اللهِ لا يُتخلَّصُ منها بعُذرٍ، ولكنَّه أرادَ أنْ يَكونَ في أمْنٍ إلهيٍّ مِن أعدائِه؛ فهذا تَعريضٌ بالدُّعاءِ، ومُقدِّمةٌ لطَلبِ تأْييدِه بهارونَ أخيه[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١١٥).

إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ هذا سُؤالٌ صَريحٌ يدُلُّ على أنَّ مُوسى لا يُريدُ بالأوَّلِ التَّنصُّلَ مِن التَّبليغِ، ولكنَّه أراد تأْييدَه بأخيه. وإنَّما عيَّنَه ولم يَسأَلْ مُؤيِّدًا ما؛ لعِلْمِه بأمانتِه وإخلاصِه للهِ ولأخيهِ، وعِلْمِه بفَصاحةِ لِسانِه[١].

- وجُملةُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ تَعليلٌ لسُؤالِ تأْييدِه بهارونَ؛ فهذه مَخافةٌ ثانيةٌ مِن التَّكذيبِ، والأُولى مَخافةٌ مِن القتْلِ[٢]. ولَمَّا كان جُلُّ غَرضِه عليه السَّلامُ الدِّينَ، وكان يُؤْثِرُه على حَظِّ نفْسِه؛ جاء بـ (إنَّ) في هذا التَّعليلِ، وبالفاءِ في الأوَّلِ ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾؛ لأنَّه تَعليلٌ لتَصديقِ القَومِ، كأنَّه قِيل: أرْسِلْه معي رِدْءًا لِأنْ يُصدِّقَني قَومي؛ لأنِّي أخافُ أنْ يُكذِّبونِي[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

- قَولُه: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ لَمَّا أكَّدَ أمْرَ الطَّلبِ بهارونَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، أكَّد له سُبحانَه أمْرَ الإجابةِ بقولِه مُستأنِفًا: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ﴾، وذَكَر أَوْلَى الأعضاءِ بمُزاولةِ المَكارِهِ، فقال: ﴿عَضُدَكَ ﴾؛ فشَدُّ عَضُدِه كِنايةٌ عن تَقويتِه؛ لأنَّ اليَدَ تشتَدُّ بشِدَّةِ العَضُدِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٨٦)، ((تفسير الألوسي)) (٢٠/ ٧٨).

الآيات (٣٦-٤٢)

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾: أي: العاقِبةُ المحمودَةُ أو خاتمةُ الخَيرِ، وعاقبةُ كلِّ شَيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطْلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شَيءٍ، وإتيانُه بعْدَ غيرِه[1].

﴿صَرۡحٗا﴾: أي: قَصرًا عاليًا مُرتفِعًا، وأصلُ (صرح): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبُروزِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢).

﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾: أي: فألقَيْناهم، وأصلُ (نبذ): يدُلُّ على إلقاءِ الشَّيءِ وطَرحِه[١].

﴿ٱلْيَمِّ﴾: البحرِ[٢].

﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾: أي: المَوسُومينَ بحالةٍ مُنكَرةٍ، أو المُبعَدِينَ المَطرودينَ، أو المُشَوَّهينَ، والقبيحُ: ما يَنْبو عنه البصرُ مِن الأعيانِ، وما تَنبو عنه النَّفْسُ مِنَ الأعمالِ والأحوالِ، والقبحُ: الإبعادُ، وأصلُ (قبح): يدُلُّ على خلافِ الحُسْنِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: فلمَّا جاء موسى فِرعَونَ وقومَه بالمُعجزاتِ والحُجَجِ الظَّاهرةِ، قالوا: ما هذا إلَّا سِحرٌ باطِلٌ مُختلَقٌ، وما سَمِعْنا بمِثلِ هذا في آبائِنا الأوَّلينَ!

قال موسى مُجيبًا لهم: ربِّي أعلَمُ بالَّذي جاء بالحقِّ والهُدى مِن عندِه، وبمَن تكونُ له العاقِبةُ المحمودةُ في الدُّنيا والآخرةِ: نحنُ أمْ أنتم؛ إنَّه لا يَفوزُ الظَّالِمون.

وقال فِرعَونُ لِسادةِ قَومِه: لا أعلَمُ لكم إلهًا غيري! فأَوقِدِ النَّارَ يا هامانُ على الطِّينِ لِتَجفيفِه فيكونَ آجُرًّا تَبني لي به بِناءً مرتفعًا؛ لَعَلِّي أنظُرُ إلى إلهِ موسى، وإنِّي لأَظُنُّ موسى كاذبًا في زَعمِه!

وتكبَّرَ فِرعَونُ وجُنودُه في الأرضِ عُدوانًا وظُلمًا مِن غيرِ بُرهانٍ، وظَنُّوا أنَّهم لا يَرجِعونَ إلينا فنُحاسِبُهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٩).

فأخَذْنا فِرعَونَ وجُنودَه فألْقَيْناهم في البَحرِ فأغرَقْناهم أجمَعين، فانظُرْ كيف كانت نهايةُ الظَّالمينَ؟

وجعَلْنا فِرعونَ وقَومَه في الدُّنيا أئمَّةً مَتبوعينَ يَدْعونَ النَّاسَ إلى أعمالِ أهلِ النَّارِ، ويومَ القيامةِ لا يُنصَرون، وأتْبَعْناهم في الدُّنيا لَعنةً، ويومَ القيامةِ هم مِن المَمقوتينَ المُستقذَرةِ أفعالُهم وأشكالُهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾.

أي: فلمَّا جاء موسى فِرعَونَ وقومَه بالمعجزاتِ والحُجَجِ الظَّاهِرةِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على صِدقِه، وصِحَّةِ ما جاء به مِن الحَقِّ، قال فِرعَونُ وقَومُه: ما هذا الَّذي جاء به موسى إلَّا سِحرٌ باطِلٌ افتراه واختَلَقه؛ فهو تخييلٌ لا حقيقةَ له، وليس مُعجِزةً إلهيَّةً كما يزعُمُ[1]!

كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧].

﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧٥، ١٧٦).
قال ابنُ عاشور: (الآياتُ البيِّناتُ هي خوارِقُ العاداتِ الَّتي أظهَرَها، أي: جاءهم بها آيةً بعدَ آيةٍ في مواقِعَ مختلِفةٍ، قالوا عندَ كلِّ آيةٍ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨، ١١٩).

أي: وما سَمِعْنا مَن يدعو آباءَنا إلى مِثلِ ما تَدعو إليه[١].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ تعالى بقَولِهم، عَطَفَ عليه الإخبارَ بقَولِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِيوازِنَ السَّامِعُ بيْنَ الكلامَينِ، ويَتبصَّرَ بعقلِه ما الفاسِدُ منهما؛ «فبِضِدِّها تَتبيَّنُ الأشياءُ»[٢].

وأيضًا لَمَّا قالوا قولًا صريحًا في تكذيبِه، واستَظْهَروا على قَولِهم بأنَّ ما جاء به موسى شَيءٌ ما عَلِمَه آباؤُهم، أجاب موسَى كلامَهم بمِثلِه في تأييدِ صِدقِه؛ فإنَّه يَعلَمُه اللهُ، فما عِلْمُ آبائِهم في جانبِ عِلمِ اللهِ بشَيءٍ، فلمَّا تمسَّكوا بعِلمِ آبائِهم تمسَّك موسى بعِلمِ الله تعالى[٣].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾.

أي: وقال موسى مُجيبًا لهم: ربِّي أعلَمُ بالَّذي جاء بالحقِّ والرَّشادِ مِن عندِه: نحنُ أو أنتم[٤].

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦).

أي: وربِّي أعلَمُ بمَن تكونُ له العاقِبةُ المحمودةُ في الدَّارِ الدُّنيا والآخرةِ: نحنُ أو أنتم[١].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: إنَّه لا يفوزُ الظَّالِمون بالعاقبةِ الحَميدةِ والبَقاءِ في النَّعيمِ[٢].

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾.

أي: وقال فِرعَونُ لِسادةِ قَومِه: يا أيُّها الأشرافُ، لا أعلَمُ أنَّ لكم معبودًا غيري

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٤).

قيل: الظالِمون هنا بمعنى: الكافرين أو المشركين. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٧٨).

وقيل: يُحمَلُ معنى ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ على العمومِ؛ لِيَشمَلَ كُلَّ ظالمٍ، سواءٌ وقَع في الكُفرِ أو فيما هو دُونَه مِن أنواعِ الظُّلْمِ، فينتفي عنه مِنَ الفَلاحِ بحسَبِ ظُلْمِه، أمَّا الظُّلْمُ الأكبرُ فيَفوتُ به الفلاحُ كلُّه. وذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٥).

كما يزعُمُ موسى؛ فلا إلهَ في الحقيقةِ سِوايَ[١]!

كما قال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۞ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤].

﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾.

أي: قال فِرعَونُ: فأوقِدِ النَّارَ يا هامانُ على الطِّينِ؛ لِتَجفيفِه، فيكونَ آجُرًّا تبني لي به بناءً مُرتَفِعًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۞ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾.

أي: ابنِ لي صَرْحًا لعلِّي أنظُرُ إلى معبودِ موسى الَّذي يَدْعونا إلى عبادتِه، وأقِفُ على شَأنِه[٣].

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

أي: وإنِّي لأظُنُّ موسى كاذِبًا في زَعمِه أنَّ للخَلقِ إلهًا غيري[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٩٣، ٥٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٧٢، ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨).

﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ ﴾.

﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾.

أي: واستعظَمَ فِرعَونُ وجُنودُه وتعالَوا في الأرضِ[1] عن اتِّباعِ الهُدى؛ عُدوانًا وظُلمًا مِن غيرِ حُجَّةٍ أو بُرهانٍ[2].

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴾.

أي: وظنَّ فِرعَونُ وجُنودُه أنَّهم لا يُبعَثونَ بعدَ الموتِ فيَرجِعونَ إلينا للحِسابِ والجَزاءِ؛ فلذا تَجرَّؤوا على الاستكبارِ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ[3].

﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ ﴾.

﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾.

---

(١) المرادُ بالأرضِ: الأرضُ المعهودةُ، أي: أرضُ مِصرَ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، وابن الجوزي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عثيمين، ونسبه الألوسيُّ للأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩١، ١٩٢).

قال السعدي: (استكبَروا على عِبادِ الله، وسامُوهم سُوءَ العذابِ، واستكبَروا على رُسلِ الله، وما جاؤوهم به مِن الآياتِ، فكذَّبوها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦).

أي: فأخَذْنا فِرعَونَ وجُنودَه أخْذَ قَهرٍ ونِقمةٍ، فطرَحْناهم في البَحرِ، فأغرَقْناهم أجمَعينَ[١].

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فانظُرْ[٢] كيف كان آخِرُ أمرِ فِرعَونَ وقَومِه الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بالكُفرِ باللهِ، وتَكذيبِ رَسولِه؛ كان شَرًّا وخسارةً وهلاكًا لهم[٣]!

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مَن سَنَّ سُنَّةً حسنةً كان له أجْرُها وأجرُ مَن عَمِلَ بها إلى يَومِ القيامةِ، ومَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئةً كان عليه وِزْرُها وَوِزْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يومِ القيامةِ[٤]؛ قال اللهُ تعالى[٥]:

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٧).
والبحرُ الذي هلَك فيه فِرعَون هو البحرُ الأحمرُ (القُلْزُم)، ونسَبَ ذلك ابنُ عطيَّةَ إلى أكثرِ الناسِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٣).

(٢) قيل: الخطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وقيل: الخِطابُ لكُلِّ مَن يصِحُّ توجيهُ الخِطابِ إليه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٥).

(٤) يُنظر ما أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جَرِيرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٠٢).

أي: وجعَلْنا فِرعَونَ وقَومَه في الدُّنيا زُعماءَ مَتبوعينَ على الكُفرِ، يَدْعُونَ النَّاسَ إلى أعمالِ أهلِ النَّارِ[١].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الغالِبُ مِن حالِ الأئمَّةِ النُّصرةَ، وكان قد أخبَرَ عن خِذْلانِهم في الدُّنيا؛ قال[٢]:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

أي: ويَومَ القيامةِ لا يَنصُرُ أحَدٌ فِرعَونَ وقَومَه، ولا يدفَعُ عنهم عذابَ اللهِ تعالى[٣].

﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾.

أي: وجعَلْنا اللَّعنةَ تَتبَعُهم بعْدَ هَلاكِهم؛ يَلعَنُهم اللهُ، ويَلعَنُهم العِبادُ؛ فهُم مَطرودونَ مِن رَحمةِ اللهِ تعالى[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً﴾ [هود: ٩٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩٩، ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧).

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾.

أي: ويومَ القيامةِ هم مِنَ المُهلَكِينَ المَمقوتينَ، المُبعَدينَ المَخْزِيِّينَ، المُستقذَرةِ أفعالُهم، الشَّنيعةِ أحوالُهم وأقوالُهم، مع قُبحِ وُجوهِهم وأشكالِهم[١].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أنَّه لا ينبغي للمَرءِ أنْ يَثْنِيَه عن قَولِ الحَقِّ ردُّه أو وصْفُه هو بالعُيوبِ؛ لأنَّ موسى لم يتوقَّفْ عنِ الدَّعوةِ حينَما قالوا له هذا، بل استمَرَّ في الدَّعوةِ، وبه قامتِ الحُجَّةُ، مع أنَّه هُدِّدَ بالسَّجنِ، ولكنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يُبَالِ بها؛ فينبغي للدَّاعي إلى اللهِ أن يَصبرَ ما دام يَعلَمُ أنَّه على الحَقِّ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ التَّحذيرُ مِن الظُّلمِ، والتَّرغيبُ في العدلِ؛ لأنَّ التَّحذيرَ مِنَ الشَّيءِ ترغيبٌ في ضِدِّه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أنَّ مَن استكبَرَ عنِ الحقِّ فيه شَبَهٌ مِن فِرعَونَ وجنودِه[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أنَّه يُطلَبُ مِنَ المَرءِ -إمَّا وُجوبًا أو استِحبابًا- أن يَتأمَّلَ في عاقبةِ الظَّالِمينَ، وأنَّه ينبغي لنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧).
قال البقاعي: (﴿مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾، أي: المُبْعَدينَ أيضًا، المَخْزِيِّينَ، مع قُبحِ الوُجوهِ والأشكالِ، والشَّناعةِ في الأقوالِ والأفعالِ والأحوالِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٣).

أن نَتَّعِظَ بعاقبةِ هؤلاء، فلا نَظلِمَ مِثْلَهم؛ لأنَّه ما دام عاقبةُ الظالمِ الهلاكَ، فإنَّ الإنسانَ يخشى أنْ يَهلِكَ إذا ظَلَمَ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ ما أُقيمَ عليه البُرهانُ حقٌّ، وإنْ لم يَسبِقْ به قَولٌ متقَدِّمٌ، وأنَّ الرَّادَّ لِمَا لم يَسبِقْ به قولٌ مُتَشَبِّهٌ بهؤلاء القَومِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ التَّنَزُّلُ مع الخَصمِ على وجْهٍ لا يكونُ فيه تقويضٌ لدعوى المدَّعي[٣].

٣- مَن دعا على أخيه -وهو ظالمٌ له-؛ فإنَّ اللهَ لا يُجيبُ دعاءَه؛ لأنَّه لو أُجيبَ لكان نصرًا له؛ وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٤].

٤- قولُه: ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾ فيه إسنادُ الفعلِ إلى الآمرِ به لِمَن كانت له سُلطةُ الأمرِ، فمعلومٌ أنَّ هامانَ لم يُباشِرِ البناءَ، بل باشرَه العمَّالُ؛ ولكنَّه نُسِبَ الفعلُ إليه لأنَّه الآمِرُ به، والفقهاءُ رحمهم اللهُ اعتبَروا هذا، فقالوا: لو أَمَرَ بالقتلِ غيرَ مُكَلَّفٍ، فقَتَل؛ فالقَوَدُ على الآمِرِ؛ لأنه هو السَّببُ، والحُكمُ إليه[٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٩).

مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ حُجَّةٌ على مَن يزعُمُ أنَّ اللهَ بنَفْسِه في الأرضِ، حالٌّ في كُلِّ مَكانٍ، ويُنكِرُ كَيْنونتَه بنَفْسِه في السَّماءِ، وعِلمَه في الأرضِ؛ إذ مُحالٌ أن يقولَ فِرعَونُ هذا القَولَ إلَّا وقد دَلَّه موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ إلهَه في السَّماءِ دونَ الأرضِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّهم كانوا عارِفينَ باللهِ تعالى، إلَّا أنَّهم كانوا يُنكِرون البعثَ؛ فلأجْلِ ذلك تَمَرَّدوا وطَغَوا[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ حِكمةُ اللهِ سُبحانه وتعالى؛ حيثُ كان إهلاكُ فِرعَونَ وقَومِه بالماءِ الذي كان يَفتخِرُ به بقَولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]! فإنَّ هذا الَّذي كان يَفتخِرُ به كان مَحَلَّ هلاكِه[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إشارةٌ عظيمةٌ بأعظَمِ بِشارةٍ بأنَّ كلَّ ظالمٍ تكونُ عاقِبتُه هكذا إنْ صابَرَه المظلومُ المُحِقُّ، ورابَطَه حتَّى يَحكُمَ اللهُ وهو خيرُ الحاكِمينَ[٤].

٩- اللهُ سُبحانَه وتعالى هو الَّذي جَعَلَ العبدَ فاعلًا، كما قال: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، فهو سُبحانَه الَّذي جعَلَ أئمَّةَ الهدى يَهْدُونَ بأمرِه؛ وجعَلَ أئمَّةَ الضَّلالِ والبِدَعِ يَدْعونَ إلى النَّارِ[٥]، وفيه رَدٌّ على المعتَزِلةِ؛ لأنَّ جَعْلَه لهم أئمَّةً لا يخلو مِن أنْ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٨).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣٦).

يكونَ خَلْقًا أو صَيْرورةً، وكِلاهما حُجَّةٌ عليهم خانِقةٌ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإمامةَ تكونُ في الشَّرِّ كما تكونُ في الخَيرِ؛ لأنَّ معناها أن يَصيرَ المرءُ قُدوةً يُؤتَمُّ به فيما يكونُ مُقيمًا عليه[٢]، وفَرْقٌ بيْنَ مَن يَقودُ النَّاسَ بأمرِ اللهِ أو مَن يَقودُونَهم بشريعتِه، وبيْنَ مَن يَدْعون إلى النَّارِ[٣]! فمِن أعظَمِ العُقوباتِ أنْ يكونَ الإنسانُ إمامًا في الشَّرِّ، وذلك بحسَبِ مُعارَضَتِه لآياتِ اللهِ وبيِّناتِه، كما أنَّ أعظَمَ نِعمةٍ أنعَمَ اللهُ بها على عبدِه أن يَجعَلَه إمامًا في الخَيرِ هاديًا مَهْدِيًّا[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أنَّ الدُّعاءَ إلى النارِ -وإلى الخَيرِ أيضًا- كما يكونُ بالقولِ يكونُ بالفعلِ، وقد يكونُ ما هو بالقولِ أقوى، وقد يكونُ ما هو بالفعلِ أقوى، إنَّما على كلِّ حالٍ الدُّعاءُ بهذا وبهذا ثابتٌ؛ فإنَّ فرعونَ وقومَه كانوا يَدْعون النَّاسَ بمقالِهم وبحالِهم[٥].

١٢- قولُه تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فيه تحقيرُ الدُّنيا، فالدُّنيا مؤنَّثُ «أدنى»، وهي مِن الدُّنوِّ الحِسِّيِّ والمَعنويِّ؛ أمَّا الدُّنوُّ الحِسِّيُّ فلِسَبْقِها على الآخرةِ، فهي أدنَى إلى المخلوقِينَ مِنَ الآخرةِ، وأمَّا الدُّنوُّ المعنويُّ فلِمَا تَتضَمَّنُه مِنَ النَّقصِ في جميعِ كمالاتِها، فما مِن كمالٍ في الدُّنيا إلَّا وهو ناقصٌ، والآنَ لو تأمَّلْتَ جميعَ المَضارِّ والمنافعِ الدُّنيويَّةِ تجدُها مَشُوبةً بالضَّررِ والخطرِ -حتَّى الزَّمانُ-، كما قال الشاعرُ:

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) .

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠١).

فـيَـومٌ عـلـيـنـا، ويـومٌ لنا ويـومٌ نُسـاءُ، ويـومٌ نُسَـرُّ[١]

١٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ صريحٌ في أنَّ فِرعَونَ عدوُّ اللهِ في الآخرةِ،كما كان عدوَّه في الدنيا، ففيه ردٌّ على مَن يقولُ: إنَّه مات مؤمنًا، وإنَّه لا صريحَ في القرآنِ بأنَّه مِن أهلِ النارِ[٢]! وقد قال تعالى في حقِّ فِرعونَ وقَومِه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۞ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٨، ٩٩]، وقال سُبحانَه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ طُوِيَ ما بيْنَ نِداءِ اللهِ إيَّاه وبيْنَ حُضورِه عندَ فِرعونَ مِن الأحداثِ؛ لعَدَمِ تعلُّقِ العِبرةِ به[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ أُسنِدَ المَجيءُ بالآياتِ إلى مُوسى عليه السَّلامُ وحْدَه دونَ هارونَ؛ لأنَّه الرَّسولُ الأصليُّ الَّذي تأْتي المُعجزاتُ على يَدَيه، بخِلافِ قولِه: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ في سُورةِ (الشُّعراءِ) [١٥]، وقولِه: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]؛ إذ جعَلَ تَعلُّقَ الآياتِ بضَميرَيْهما؛ لأنَّ معنى المُلابَسةِ معنًى مُتَّسِعٌ؛ فالمُصاحِبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠٤).
والبيت للنَّمرِ بنِ تَوْلب، يُنظر ((ديوانه)) (ص: ٦٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨).

لصاحبِ الآياتِ هو مُلابِسٌ له[١].

- قولُه: ﴿سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾، أي: سِحرٌ تَعمَلُه أنتَ، ثمَّ تَفْتريه على اللهِ. أو: سِحرٌ ظاهرٌ افتراؤُه. أو: مَوصوفٌ بالافتراءِ كسائرِ أنواعِ السِّحرِ، وليس بمُعجزةٍ مِن عندِ اللهِ؛ فعلى هذا الوَجْهِ ﴿مُّفْتَرًى﴾ باقٍ على إطلاقِه، وهو صِفةٌ مُؤكِّدةٌ، وعلى الوجْهِ الأوَّلِ صِفةٌ مُخصِّصةٌ مُقيِّدةٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الإشارةُ إلى ادِّعاءِ الرِّسالةِ مِن عِندِ اللهِ؛ لأنَّ ذلك هو الَّذي يُسمَعُ، وأمَّا الآياتُ فلا تُسمَعُ؛ فمَرجِعُ اسْمَي الإشارةِ في قَولِه: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مُختلِفٌ، أي: ما سَمِعْنا مَن يَدْعو آباءَنا إلى مِثْلِ ما تَدْعو إليه؛ فالكَلامُ على حَذْفِ مُضافٍ دَلَّ عليه حَرْفُ الظَّرفيَّةِ، أي: في زمَنِ آبائِنا[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كان مُقْتضى الاستِعمالِ أنْ يُحكَى كلامُ مُوسى بفِعلِ القولِ غيرِ مَعطوفٍ بالواوِ شأْنَ حِكايةِ المُحاوَراتِ، فخُولِفَ ذلك هنا بمَجيءِ حَرفِ العطْفِ؛ لأنَّه قُصِدَ هنا التَّوازُنُ بيْنَ حُجَّةِ مَلأِ فِرعونَ وحُجَّةِ مُوسى؛ لِيَظهَرَ للسَّامعِ التَّفاوُتُ بيْنَهما في مُصادَفةِ الحقِّ، ويَتبصَّرَ فسادَ أحدِهما وصِحَّةَ الآخَرِ، وبضِدِّها تَتبيَّنُ الأشياءُ؛ فلهذا عُطِفَت الجُملةُ جرْيًا على الأصلِ غيرِ الغالبِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ فيه خُصوصيَّةً غيرَ المَعهودةِ في مِثْلِه؛ فتكونُ مَعرفةُ التَّفاوُتِ بيْنَ المُحتَجِّينَ مُحالةً على النَّظرِ في مَعناهما. وعلى القِراءةِ بدُونِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨، ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٩).

واوٍ[١] على أصلِ حِكايةِ المُحاوَراتِ، وقد حصَلَ مِن مَجموعِ القِراءتَينِ الوفاءُ بحقِّ الخُصوصيَّتَينِ مِن مُقْتضى حالَي الحِكايةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ ...﴾ عَبَّرَ عن اللهِ تَعالَى بوَصفِ الرُّبوبيَّةِ مُضافًا إلى ضَميرِه؛ للتَّنصيصِ على أنَّ الَّذي يَعلَمُ الحقَّ هو الإلهُ الحقُّ، لا آلِهتُهم المزعومةُ[٣].

- وعَبَّرَ في جانبِ (مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى) بفِعلِ المُضِيِّ، وفي جانبِ (مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ) بالمُضارِعِ؛ لأنَّ المَجيءَ بالهُدى المُحقَّقِ والمزعومِ أمْرٌ قد تَحقَّقَ ومَضى، سواءٌ كان الجائيَ به مُوسى أمْ آباؤُهم الأوَّلون وعُلماؤُهم. وأمَّا كِيانُ عاقبةِ الدَّارِ لِمَنْ فمَرْجُوٌّ لَمَّا يَظهَرْ بعْدُ؛ ففي قولِه: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ إشهادٌ للهِ تعالى وكلامٌ مُنصِفٌ[٤].

- وفي قولِه: ﴿أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قالَه هنا بزِيادةِ الباءِ، وقاله بعْدُ بدُونِها في قولِه: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [القصص: ٨٥]؛ تقْويةً للعاملِ هنا بحسَبِ الظَّاهرِ؛ لِضَعفِه عن العَملِ، وحَذَفه بَعْدُ؛ اكتِفاءً بدَلالةِ الأوَّلِ عليه[٥].

- وفي قولِه: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ تَفويضٌ إلى ما سيَظهَرُ مِن نَصرِ أحدِ

---

(١) قرأ بها ابنُ كثيرٍ بدونِ واوٍ، وقرأ الباقون بالواو. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٩، ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣١).

الفريقَينِ على الآخَرِ، وهو تَعريضٌ بالوعيدِ بسُوءِ عاقِبَتِهم[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ كلامُ فِرعونَ المَحْكيُّ هنا واقعٌ في مَقامٍ غيرِ مَقامِ المُحاوَرةِ مع موسى؛ فهو كلامٌ أقبَلَ به على خِطابِ أهلِ مجلِسِه إثرَ المُحاورةِ مع موسى؛ فلذلك حُكِيَ بحَرفِ العطفِ (الواو)؛ عَطفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ؛ فهذه قصَّةُ مُحاوَرةٍ بيْنَ فِرعونَ ومَلَئِه في شأنِ دَعوةِ مُوسى؛ فهي حقيقةٌ بحَرفِ العطفِ[٢].

- قولُه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ قيل: نَفَى عِلمَه بذلك؛ إظهارًا للنَّصَفةِ، وأنَّه ما قَصَد غِشَّهم، وذلك منه واضحٌ في أنَّه قَصَد تَشكيكَهُم؛ إشارةً منه إلى أن انتِفاءَ عِلمِه بوُجودِه ما هو إلَّا لانتِفاءِ وُجودِه[٣]، فعَبَّرَ بنَفْيِ عِلمِه عن نفْيِ المعلومِ؛ تدليسًا على مَلَئِه، وتلبيسًا على عُقولِهمُ السَّخيفةِ، ففِرعونُ كان يَدَّعي الإلهيَّةَ، ويُعامِلُ عِلمَه مُعاملةَ عِلمِ اللهِ تعالى في أنَّه لا يَعزُبُ عنه شَيءٌ؛ فمِن ثَمَّ طَغَى وتَكبَّرَ[٤].

- ولم يقُلْ: (ما وجَدْتُ لكُم)؛ لأنَّه لو قال: ما وجَدْتُ لكم، لكَذَّبوه؛ إذْ سيُحاجُّونَه بأنَّه لم يَذهَبْ لأيِّ مَكانٍ، ولم يُفارِقْهُم، فلمْ يَذهَبْ لِيَطلُبَ اللهَ ولم يَجِدْه، فنَفَى أنْ يَكونَ عالِمًا بذلك، فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾؛ لأجْلِ أن يُفرِّعَ عليه، ثمَّ قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ فتَتِمَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٤، ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري – حاشية ابن المنير)) (٣/ ٤١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٠).

له حيلتُه؛ يَقولُ: أنا لا أَعلَمُ لكُم مِن إلهٍ غَيري، لكنْ لا مانعَ مِن أن نَبحَثَ[١].

- وإنَّما قال: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ ولم يقُلْ: اطبُخْ لي الآجُرَّ واتَّخِذْه؛ لأنَّ هذه العِبارةَ أَحسَنُ طِباقًا لفَصاحةِ القرآنِ وعُلوِّ طَبقتِه، وأَشبَهُ بكَلامِ الجبابرةِ. كأنَّه قال: أَوقِدْ لي على هذا الشَّيءِ المُسمَّى بالطِّينِ؛ كأنَّه شَيءٌ حَقيرٌ لا يَصلُحُ مِن مِثلِ الملوكِ أن يُتلفَّظَ به، ويَدخُلُ في تَسميتِه في زُمرةِ العامَّةِ، أو أنَّ كلمةَ الآجُرِّ ونَحوِها -كالقَرْمَدِ، والطُّوبِ- كلماتٌ مُبتذَلةٌ، فذَكَر بلفظِ الطِّينِ. وأظهَرُ مِن هذا: أنَّ العُدولَ إلى الطِّينِ؛ لأنَّه أَخَفُّ وأَفصَحُ. أو عَبَّرَ عنِ الآجُرِّ بالطِّينِ؛ لأنَّه قِوامُ صُنعِ الآجُرِّ، وهو طِينٌ معروفٌ، وكأنَّه لم يَأمُرْه ببناءٍ مِن حَجَرٍ وكِلْسٍ؛ قَصدًا للتَّعجيلِ بإقامةِ هذا الصَّرحِ المُرتفعِ؛ إذْ ليس مطلوبًا طولُ بقائِه بإحكامِ بنائِه على مَرِّ العُصورِ، بلِ المرادُ سُرعةُ الوُصولِ إلى ارتفاعِه؛ كَيْ يَشهَدَه النَّاسُ، ويَحصُلَ اليأسُ، ثمَّ يُنقَضَ مِنَ الأساسِ[٢].

- وأَمْرُ هامانَ -وهو وزيرُه ورَديفُه- بالإيقادِ على الطِّينِ مُنادًى باسمِه بـ (يا) في وسَطِ الكلامِ: دليلُ التَّعظيمِ والتَّجبُّرِ؛ فهامانُ كان حاضرًا بيْنَ المَلأِ، وداخلًا في الخِطابِ؛ بل هو المُخاطَبُ الأوَّلُ لكَونِه وزيرَه ومُشيرَه؛ فاختِصاصُه مِن بيْنِهم بالنِّداءِ، ثمَّ بـ (يا) الدَّالَّةِ على البَعيدِ، ثمَّ تصريحُه باسمِه- ما كان إلَّا إظهارًا للكبرياءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٢، ١٢٣)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لصافي (٢٠/ ٢٦٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٢، ٦٣).

- وأراد بقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أن يَأمُرَ هامانُ العَمَلةَ أن يَطبُخوا الطِّينَ ليَكونَ آجُرًّا ويَبنُوا به؛ فكُنِّيَ عن البناءِ بمُقدِّماته، وهي إيقادُ الأفرانِ لتَجْفيفِ الطِّينِ المُتَّخَذِ آجُرًّا[1]. وابتَدأَ بأمْرِه بأوَّلِ أشغالِ البناءِ؛ للدَّلالةِ على العنايةِ بالشُّروعِ مِن أوَّلِ أوقاتِ الأمرِ؛ لأنَّ ابتِداءَ البناءِ يَتأخَّرُ إلى ما بعْدَ إحضارِ مَوادِّه؛ فلذلك أمَرَه بالأخذِ في إحضارِ تلك المَوادِّ الَّتي أوَّلُها الإيقادُ، أي: إشعالُ التَّنانيرِ لطَبخِ الآجُرِّ[2].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ بحذْفِ ﴿أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وقال في (غافر) بذِكْرِه؛ لأنَّ ما هنا تَقدَّمَه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ مِن غَيرِ ذِكرِ أرضٍ وغَيرِها؛ فناسَبَه الحذْفُ، وما هناك تَقدَّمَه ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]؛ فناسَبَه مُقابَلتُه بالسَّماءِ في قولِه: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[3] [غافر: ٣٦، ٣٧].

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أقوَى مِن: (كاذِبًا)؛ فهو يدُلُّ على أنَّه يَعُدُّه مِنَ الطَّائفةِ الَّذينَ شأْنُهمُ الكذِبُ[4].

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ مَعلومٌ بالفَحْوى مِن كُفرِهم باللهِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٣).

وإنَّما صَرَّح به؛ لأهمِّيَّةِ إبطالِه؛ فلا يُكتفَى فيه بدَلالةِ مفهومِ الفَحْوى[(١)]، ولأنَّ في التَّصريحِ به تعريضًا بالمُشركينَ في أنَّهم وإيَّاهُم سواءٌ، فلْيَضَعوا أنفُسَهم في أيِّ مَقام مِن مَقاماتِ أهلِ الكُفرِ. ومعنَى ذلك: ظَنُّوا أنْ لا بَعْثَ ولا رُجوعَ؛ لأنَّهم كَفروا بالمَرجوعِ إليه؛ فذَكَر ﴿إِلَيْنَا﴾ لحِكايةِ الواقعِ، وليس بقَيدٍ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المعنَى: وظَنُّوا أنَّهم في مَنَعةٍ مِن أنْ يَرجِعوا في قَبضةِ قُدرتِنا، كما دَلَّ عليه قولُه في سُورةِ (الشُّعراءِ): ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٤، ٢٥] استِعجابًا مِن ذلك. وعلى هذا الاحتِمالِ فالتَّعريضُ بالمُشركينَ باقٍ على حالِه؛ فإنَّهم ظَنُّوا أنَّهم في مَنَعةٍ مِنَ الاستِئْصالِ، فقالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[(٢)] [الأنفال: ٣٢].

- وقُدِّم ﴿إِلَيْنَا﴾ على عامِلِه ﴿يُرْجَعُونَ﴾؛ لأجْلِ الفاصلةِ[(٣)].

٥- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ الدُّعاءُ إلى النَّارِ هو الدُّعاءُ إلى العملِ الَّذي يوقِعُ في النَّارِ؛ فهي دَعوةٌ إلى النَّارِ بالمآلِ. ومناسَبةُ عطْفِ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ هي أنَّ الدُّعاءَ يَقتَضي جُندًا وأتْباعًا يَعتَزُّون بهم في الدُّنيا، ولكنَّهُم لا يُجْدُونَ عنهُم يَومَ

---

(١) فَحْوى الخِطاب: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به لِلمَسكوتِ عنه بطريقِ الأولَى، وهو نوعان: تنبيهٌ بالأقَلِّ على الأكثَرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نبَّه بالنَّهيِ عن قولِ أُفٍّ على النَّهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك. وتنبيهٌ بالأكثَرِ على الأقَلِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٤، ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٢٤).

القيامةِ؛ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾[١] [البقرة: ١٦٧].

٦- قوله تعالى: ﴿ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴾

- الإشارةُ إلى الدُّنيا بـ﴿هَٰذِهِ﴾؛ لتَهوينِ أمْرِ الدُّنيا بالنِّسبةِ للآخِرةِ[٢].

- ولم يَقُلِ: (الحياة)؛ لأنَّ السِّياقَ لتحقيرِ أمْرِهم، ودناءةِ شأنِهم[٣].

- والتَّخالُفُ بيْن صِيغتَيْ قَولِه: ﴿ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ ﴾ وقَولِه: ﴿هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴾؛ لأنَّ اللَّعنةَ في الدُّنيا قد انتَهى أمْرُها بإغراقِهم، أو لأنَّ لَعْنَ المؤْمِنينَ إيَّاهُم في الدُّنيا يَكونُ في أحيانٍ يَذْكُرونَهم، فكِلَا الاحتِمالَينِ لا يَقتَضي الدَّوامَ؛ فجِيءَ معه بالجملةِ الفِعليَّةِ. وأمَّا تقبيحُ حالِهم يَومَ القِيامةِ فهو دائمٌ معهم، مُلازِمٌ لهم، فجِيءَ في جانبِه بالاسميَّةِ المُقتضيةِ الدَّوامَ والثَّباتَ. وضَميرُ (هُم) في قولِه: ﴿هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴾ ليس ضَميرَ فصْلٍ، ولكنَّه ضميرُ مبتدَأٍ، وبه كانتِ الجُملةُ اسميَّةً دالَّةً على ثَباتِ التَّقبيحِ لهم يَومَ القِيامةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٧).

الآيات (٤٢-٤٦)

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْقُرُونَ﴾: جمعُ قَرْنٍ، والقرنُ: القَومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المقترِنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْرِ مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، وقيل: مُدَّةُ القرنِ مِئةُ سنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِنَ الاقترانِ، وهو اجتِماعُ شيئَينِ، أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[(١)].

﴿بَصَآئِرَ﴾: أي: ضياءً، وقيل: عبرةً، وقيل: دلالاتٍ، جمعُ بصيرةٍ؛ سُمِّيَ بصيرةً اشتِقاقًا مِن بَصَرِ العَينِ[(٢)].

﴿ثَاوِيًا﴾: أي: مُقيمًا، والثَّواءُ: الإقامةُ مع الاستِقرارِ، وأصلُه: يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٩).

الإقامةِ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما امتَنَّ به على نبيِّه موسى عليه السَّلامُ: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ مِن بعدِ ما أهلَكْنا واستأْصَلْنا الأمَمَ الماضيةَ الَّتي كذَّبَت رُسُلَها؛ آتَيْناه التَّوراةَ ضياءً لبني إسرائيلَ وهُدًى ورَحمةً لهم؛ لِيَتذَكَّروا.

ثمَّ يقولُ تعالى منَبِّهًا على بُرهانِ نُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حيثُ أخبَرَ بهذه الغُيوبِ الماضيةِ: وما كنتَ -يا محمَّدُ- حاضِرًا بجانبِ الغربيِّ الَّذي كلَّمْنا فيه موسى وأوحَيْنا إليه، وما كنتَ مُشاهِدًا لِما جرى هناك، ولكنَّا خلَقْنا أُمَمًا مِن بَعدِ موسى، فطالت مُدَّةُ انقِطاعِ الوَحيِ، فنُسِيَ عَهدُ الله؛ فأرسَلْناك -يا محمَّدُ- رسولًا للنَّاسِ.

وما كنتَ -يا محمَّدُ- مُقيمًا في أهلِ مَدْيَنَ؛ فتقرأَ على أهلِ مكَّةَ خَبرَهم وما وقَعَ لهم مع موسى، ولكِنَّا أرسَلْناك وأنزَلْنا عليك هذه الأخبارَ في القرآنِ، ولولا ذلك لَمَا عَلِمْتَها.

وما كنتَ -يا محمَّدُ- بجانِبِ الجبَلِ حينَ كلَّمْنا موسى وأوحَيْنا إليه، ولكنَّا أوحَيْنا إليك ما جرى؛ رحمةً منَّا، لتُحَذِّرَ قومَك الَّذين لم يأتِهم رَسولٌ مِن قَبْلِك؛ لِيَتذَكَّروا ويُنيبوا إلى اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى ما آلَ إليه فِرعونُ وقَومُه مِن غَضَبِ اللهِ عليهم، وإغراقِه لهم؛ ذَكَرَ ما امتَنَّ به على رَسولِه موسى عليه السَّلامُ[١].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

أي: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ مِن بَعدِ ما أهلَكْنا بعذابِ الاستِئصالِ الأُمَمَ الماضيةَ الَّتي كذَّبتْ رُسُلَها؛ كقَومِ نُوحٍ، وعادٍ، وثَمودَ، وغيرِهم[٢].

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: آتَيْنا موسى التَّوراةَ ضِياءً لبني إسرائيلَ يُبصِرون به ما ينفَعُهم، وهُدًى إلى الحَقِّ مِن الضَّلالةِ، ورَحمةً لهم؛ لِيَتذكَّروا ويَتَّعِظوا[٣].

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن سُبحانَه في هذه السُّورةِ مِن غرائبِ أمرِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وخَفيِّ أحوالِه ما بَيَّنَ، وكانت هذه الأخبارُ لا يَقدِرُ أهلُ الكتابِ على إنكارِها نوعًا مِن الإنكارِ، وكان مِنَ المشهورِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يَعرِفْها ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٩)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ١٠٠، ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٩).

سِواها مِن غيرِ الواحدِ القهَّارِ؛ أشار إلى ذلك سُبحانَه بقَولِه[١]:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾.

أي: وما كنتَ حاضِرًا -يا محمَّدُ- في المكانِ[٢] الَّذي كلَّمْنا فيه موسى وأوحَيْنا إليه[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٢).

(٢) قال أبو حيَّان: (﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾: مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفَتِه عندَ قَوم، ومِن حذفِ المَوصوفِ وإقامةِ الصِّفةِ مقامَه عندَ قومٍ. فعلى القَولِ الأوَّلِ أصْلُه: بالجانبِ الغربيِّ، وعلى الثَّاني أصْلُه: بجانبِ المكانِ الغربيِّ، والتَّرجيحُ بيْنَ القولَينِ مذكورٌ في النَّحوِ. و﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ قال قَتادةُ: غَرْبيِّ الجبَلِ. وقال الحسَنُ: بعَثَ اللهُ موسى بالغَربِ. وقال أبو عُبَيدةَ: حيثُ تَغرُبُ الشَّمسُ والقمرُ والنُّجومُ. وقيل: هنا جبلٌ غربيٌّ. وقيل: الغَربيِّ مِنَ الوادي. وقيل: مِنَ البحرِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٨).

ممَّن اختار أنَّه مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفتِه، والمرادُ: الجانبُ الغَربيُّ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٠). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٦٣).

وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ: بجانبِ غَربيِّ الجبلِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والسمرقندي، والثعلبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير يحيى ابن سلام)) (٢/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦١٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٥١).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: بجانبِ الجبلِ الغربيِّ، فيكونُ مِن حذفِ المَوصوفِ وإقامةِ صفتِه قيامَه: الزَّجَّاجُ، والرسعنيُّ، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٤٦)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٠).

﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

أي: وما كُنتَ مُشاهِدًا بعينيك تفاصيلَ ما جرَى هنالِك[١].

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾.

أي: ولكنَّا خلَقْنا أُمَمًا مِن بَعدِ موسى، فطالت مدَّةُ انقِطاعِ الوَحيِ، فنُسيَ عَهدُ الله، وتُرِك أمْرُه، واندرَس العِلمُ؛ فأرسَلْنا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَفَى العِلمَ بتفاصيلِ ما جرَى بطريقِ الشُّهودِ؛ نفَى سببَ العلمِ بذلك[٣]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٥، ٢١٦).

قال القرطبي: (﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي: مِن بَعدِ موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ حتَّى نَسُوا ذِكرَ الله، أي: عهْدَه وأمْرَه. نظيرُه: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]. وظاهرُ هذا يوجِبُ أن يكونَ جرى لِنَبيِّنا عليه السَّلامُ ذِكرٌ في ذلك الوقتِ، وأنَّ الله سيَبعَثُه، ولكنْ طالَتِ المُدَّةُ، وغلَبَتِ القَسْوةُ، فنسيَ القَومُ ذلك. وقيل: آتَيْنا موسى الكِتابَ، وأخَذْنا على قَومِه العُهودَ، ثمَّ تَطاوَلَ العهدُ فكفروا، فأرسَلْنا محمَّدًا مجَدِّدًا لِلدِّينِ، وداعيًا الخَلْقَ إليه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٤).

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾.

أي: وما كُنتَ -يا محمَّدُ- مقيمًا ومُستقِرًّا زمنًا طويلًا في أهلِ مَدْيَنَ؛ فتقرأَ على أهلِ مكَّةَ خبَرَ ما وقعَ مِن شأنِ موسى في مَدْيَنَ(١).

﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾.

أي: لم يقَعْ ذلك، ولكِنَّا أرسَلْناك وأوحَيْنا إليك في القُرآنِ بتلك الأخبارِ الماضيةِ(٢).

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾.

أي: وما كُنتَ -يا محمَّدُ- بجانِبِ الجَبَلِ حينَ كلَّمْنا موسى وأوحَيْنا إليه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣١، ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧).

قيل: النِّداءُ المذكورُ لموسى في هذه الآيةِ وقَع حينَ ناداه الله لِميقاتِ الأربعينَ لَيلةً وأنزَل إليه الألواحَ، وهو غيرُ النِّداءِ الأوَّلِ حينَ أوحى إليه في ابتِداءِ الأمرِ. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٨).

قال القرطبي: (قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ أي: كما لم تحضُرْ جانِبَ المكانِ =

كما قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾.

أي: ما كُنتَ حاضِرًا بجانِبِ الطُّورِ، ولكِنَّا أوحَيْنا إليك ما جرى؛ رحمةً منَّا بك وبالعِبادِ[١].

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ تعالى أنَّ نبيَّه محمَّدًا عليه السَّلامُ لم يكُنْ في تلك الأحوالِ حاضرًا؛ بَيَّنَ تعالى أنَّه بَعَثه وعَرَّفه هذه الأحوالَ؛ رحمةً للعالَمينَ، ثمَّ فَسَّرَ تلك الرَّحمةَ بأنْ قال[٢]:

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾.

أي: لتُحذِّرَ العَرَبَ الَّذينَ لم يأتِهم رَسولٌ مِن قَبْلِك، مِن الكُفرِ والشِّركِ والضَّلالِ[٣].

= الغربيِّ إذْ أرسَل اللهُ موسَى إلى فِرعونَ، فكذلك لم تحضُرْ جانبَ الطُّورِ إذْ نادَيْنا موسى لَمَّا أتى الميقاتَ مع السَّبعينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٢).

وقال ابنُ كثيرٍ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾: (هذا -والله أعلمُ- أشبَهُ بقولِه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾. ثُمَّ أخبَر هاهنا بصيغةٍ أُخرَى أخَصَّ مِن ذلك، وهو النِّداءُ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشُّعراء: ١٠]، وقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النَّازعات: ١٦]، وقال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٩٥، ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٤).

كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٢، ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: لِيَتذكَّروا خطَأَ ما هم عليه مِن الكُفرِ والشِّركِ والضَّلالِ، ويتَّعِظوا ويُنيبوا إلى اللهِ؛ فيُطيعوه ويَعبُدوه وَحْدَه لا شريكَ له[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ موسى عليه السَّلامُ لَمَّا ذهبَ إلى فِرعَونَ لم تكُنِ التَّوراةُ قد نَزَلتْ، وإنَّما أُنزلتِ التَّوراةُ بعد أنْ غَرِقَ فِرعَونُ، وخَلَصَ موسى عليه السلامُ ببني إسرائيلَ، فاحتاجوا إلى شريعةٍ يَعمَلونَ بها[(٢)].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هذا دَليلٌ على أنَّه بعدَ نزولِ التَّوراةِ انقطعَ الهلاكُ العامُّ، وشُرِعَ جهادُ الكُفَّارِ بالسَّيفِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٥٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١) و (٥/ ٤٧٥، ٤٧٦) و (٦/ ٢٣٩، ٥٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧). =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أنَّ الكتبَ النَّازِلةَ مِن السَّماءِ أنوارٌ للنَّاسِ يَهتَدونَ بها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾[1].

٤- في قولِه تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إثباتُ الحكمةِ في أفعالِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وكذلك في شرائعِه؛ لأنَّ «لعل» معناها التَّعليلُ، والَّذين أنكَروا الحكمةَ هم الجَهْميَّةُ؛ حيثُ يقولون: إنَّ اللهَ تعالى ليست له حِكمةٌ فيما يَفعلُ وما يَشاءُ؛ وإنَّما هو لِمُجَرَّدِ المشيئةِ[2]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يُقبَلُ خبرُه إلَّا إذا كان حاضِرًا يَسمَعُ، أو شاهِدًا يَرى؛ لِقَولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾، وقولِه أيضًا: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ فإنَّ الذي يمكِنُ أنْ يُخبِرَ هو مَن حَضَرَ فسَمِعَ، أو مَن قَرُبَ فشاهَدَ، أمَّا الإخبارُ دُونَ شهادةٍ، أو شهودٍ أو حُضورٍ؛ فمثلُ هذا لا يُقبَلُ، وهذا أمرٌ معلومٌ مِن الشَّرعِ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ دَلالةٌ على رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ حيثُ أخبرَ بذلك تفصيلًا مُطابِقًا، وتأصيلًا مُوافِقًا؛ قَصَّه قصًّا صَدَّقَ به المرسَلينَ، وأيَّدَ به الحقَّ المُبينَ، مِن غيرِ حضورِ شَيءٍ مِن تلك الوَقائِعِ، ولا مُشاهَدةٍ لموضِعٍ واحدٍ مِن

= قال ابنُ عثيمين: (استنبَط بعضُ العلماءِ مِن قولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أنَّه لم تهلِكْ أُمَّةٌ على العُمومِ بعدَ نزولِ التَّوراةِ... وهذا الاستنباطُ ليس ببعيدٍ؛ لأنَّ الواقعَ يُصَدِّقُه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٤).

تلك المَواضِع، ولا تلاوةِ دَرسٍ فيها شَيءٌ مِن هذه الأمور، ولا مُجالَسةِ أحدٍ مِن أهلِ العلم، إنْ هو إلَّا رسالةُ الرَّحمنِ الرَّحيم، ووحْيٌ أنزلَه عليه الكريمُ المنَّانُ؛ لِيُنذِرَ به قومًا جاهلينَ، وعن النُّذُرِ والرُّسُلِ غافِلينَ(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أنَّ الوحْيَ يُسمَّى قضاءً(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ذِكرُ إهلاكِ القُرونِ الأُولى إدماجٌ(٣) للنَّذارةِ في ضِمنِ الاستِدلال. وجُملةُ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ تَخلُّصٌ مِن قصَّةِ بَعثةِ موسى عليه السَّلامُ إلى تأييدِ بَعثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ثُمَّ إنَّ القُرآنَ أعرَضَ عن بَيانِ حِكمةِ الفِترَةِ الَّتي تَسبِقُ إرسالَ الرُّسلِ، واقتَصَر على بيانِ الحِكمةِ في الإرسالِ عَقِبَها؛ لأنَّه المُهِمُّ في مَقامِ نَقْضِ حُجَّةِ المُبطِلينَ للرِّسالةِ، أو اكتِفاءً بأنَّ ذلك أمْرٌ واقعٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩). ويُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٣).

(٣) الإدماجُ: هو أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجَتِ المبالغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

لا يُستطاعُ إنكارُه، وهو المقصودُ هنا[١].

- وإنَّما أَوقعَ ﴿بَصَآئِرَ﴾ حالًا مِنَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ ليُؤْذِنَ بشِدَّةِ احتِياجِ القَومِ إلى ما تُفتَحُ به قُلوبُهمُ العَمياءُ، وإنَّما أردَفَها بقَولِه: ﴿وَهُدًى﴾؛ ليُنبِّهَ على أنَّهم كانوا يَخبِطونَ في ضَلالٍ، وعَقَّبَهما بقولِه: ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ ليُناديَ بأنَّهم كانوا بُعَداءَ مِن رحمةِ اللهِ، وما عَمِلوا بمُقتضَى الكِتابِ؛ لأنَّهم لو عَمِلوا به لوَصَلوا إلى رحمةِ اللهِ؛ فألفاظُ الآيةِ كلُّها تعريضاتٌ باليهودِ، ودَلَّ على مكانِ التَّعريضِ قَولُه: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ فيه تأكيدُ الجُملةِ بلامِ القَسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قد)؛ لِتَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ المُنكِرينَ لوُقوعِ ذلك، حتَّى يُحتاجَ معهم إلى التَّأكيدِ بالقَسَمِ، فمَوقعُ التَّأكيدِ هو قولُه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾[٣].

- والتَّعرُّضُ لبَيانِ كَونِ إيتاءِ التَّوراةِ بعْدَ إهلاكِ القُرونِ الأُولى؛ للإشعارِ بمساسِ الحاجةِ الدَّاعيةِ إليه؛ تمهيدًا لما يَعقُبُه مِن بيانِ الحاجةِ الدَّاعيةِ إلى إنزالِ القُرآنِ الكريمِ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّ إهلاكَ القُرونِ الأُولَى مِن مُوجِباتِ اندِراسِ مَعالِمِ الشَّرائعِ، وانطِماسِ آثارِها وأحكامِها، المؤَدِّيَينِ إلى اختلالِ نظامِ العالَمِ، وفَسادِ أحوالِ الأُمَمِ، المُستدعِيَينِ للتَّشريعِ الجديدِ بتقريرِ الأُصولِ الباقيةِ على مَرِّ الدُّهورِ، وترتيبِ الفروعِ المُتبدِّلةِ بتَبدُّلِ العُصورِ، وتَذكيرِ أحوالِ الأُممِ الخاليةِ الموجِبةِ للاعتِبارِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٨، ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٦، ٤١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٦، ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٩).

كأنَّه قيلَ: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ على حينِ حاجةٍ إلى إيتائِها[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لَمَّا بَطَلَتْ شُبهتُهم الَّتي حاوَلوا بها إحالةَ رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، نَقَل الكلامَ إلى إثباتِ رِسالتِه بالحُجَّةِ الدَّامِغةِ، وذلك بما أَعلَمَه اللهُ به مِن أخبارِ رِسالةِ موسى عليه السَّلامُ، ممَّا لا قِبَلَ له بعِلمِه، لولا أنَّ ذلك وَحْيٌ إليه مِنَ اللهِ تعالى؛ فهذا تَخلُّصٌ مِنَ الاعتِبارِ بدَلالةِ الالتِزامِ في قِصَّةِ موسى إلى الصَّريحِ مِن إثباتِ نُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أعجَبُ احتِراسٍ وقَع في القرآنِ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال حكايةً عن موسى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، فلمَّا نفى سُبحانَه عن رسولِه أن يكونَ بالمكانِ الَّذي قضى لموسى فيه الأمرَ عرَّف المكانَ بالغربيِّ، ولم يقُلْ في هذا الموضعِ: الأيمَن، كما قال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]؛ أدبًا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَنفيَ عنه كَوْنَه بالجانبِ الأيمَنِ، أو يَسلُبَ عنه لَفْظًا مُشتَقًّا مِنَ اليُمنِ أو مُشارِكًا لِمادَّتِه، ولَمَّا أخبَر عن موسى عليه السَّلامُ ذكَرَ الجانبَ الأيمَنَ؛ تشريفًا لموسى، فراعى في المَقامَينِ حُسْنَ الأدَبِ معهما؛ تعليمًا للأُمَّةِ، وهو أصلٌ عظيمٌ في الأدبِ في الخِطابِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ شُروعٌ في بيانِ أنَّ إنزالَ القرآنِ الكريمِ أيضًا واقعٌ في زمانِ شدَّةِ مساسِ الحاجةِ إليه، واقتِضاءِ الحِكمةِ له البَتَّةَ. وقد

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٩، ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٦).

صُدِّرَ بتحقيقِ كَونِه وَحْيًا صادقًا مِن عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ ببيانِ أنَّ الوُقوفَ على ما فُصِّل مِنَ الأحوالِ لا يَتسنَّى إلَّا بالمُشاهَدةِ أو التَّعلُّمِ ممَّن شاهَدَها، وحيثُ انتَفَى كِلاهُما تَبيَّنَ أنَّه بوَحْيٍ مِن علامِ الغُيوبِ لا مَحالةَ، على طريقةِ قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ...﴾ الآيةَ[1] [آل عمران: ٤٤].

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ بدَأَ أوَّلًا بنَفْيِ شَيءٍ خاصٍّ، وهو أنَّه لم يَحضُرْ وقْتَ قَضاءِ اللهِ لموسى الأمرَ، ثمَّ ثنَّى بكَونِه لم يكُنْ مِنَ الشَّاهِدينَ، أي: مِنَ الشَّاهِدينَ بجَميعِ ما أعلَمْناك به؛ فهو نفْيٌ لشَهادتِه جَميعَ ما جرَى لموسى؛ فكان عُمومًا بعْدَ خُصوصٍ[2].

وقيل: إنَّما قال: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ لأنَّ مَن كان في الجانبِ قد يَرى، وقد لا يَرى، فإذا قال قائلٌ: لماذا لم يُقتصَرْ على قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾؟

الجوابُ: لأنَّ الإنسانَ قد يُشاهِدُ مِن بُعْدٍ ولكنْ قليلٌ، فهنا تضمَّنَ أنه قريبٌ، وأنَّه شاهدٌ، ففَرْقٌ بيْنَ أنْ نقولَ: ما كنتَ شاهدًا، أي: ما كنتَ حاضرًا مُشاهِدًا بعينِك -ولو كنتَ بعيدًا-، ولهذا ليس في الآيةِ الكريمةِ تَكرارٌ؛ ولكنْ فيها شَيءٌ مِن التَّوكيدِ، يعني: لا حَضَرَ، ولا نَظَرَ، فيكونُ ما أخبَرَ به عن ذلك مِن بابِ الوحْيِ، لا مِن بابِ المشاهَدةِ، ولا مِن بابِ السَّماعِ؛ ولكنَّه وحْيٌ أُوحيَ إليه[3].

- قَولُه: ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ فسمَّى اللهُ تعالى الوحيَ «الأمر» بـ «ال» الدَّالةِ على العظَمةِ والكمالِ، ولا ريبَ أنَّ أعظمَ الأمورِ ما جاءتْ به الرُّسلُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥، ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٣).

مِن وحْيِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ لِمَا فيه مِن مصلحةِ البلادِ والعبادِ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ خَفيَ اتِّصالُ هذا الاستِدراكِ بالكلامِ الَّذي قَبْلَه، وكيف يَكونُ استِدراكًا وتعقيبًا للكلامِ الأوَّلِ برفْعِ ما يُتوهَّمُ ثُبوتُه؟ فبيانُه أنَّ قولَه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ مَسوقٌ مَساقَ إبطالِ تَعجُّبِ المُشركينَ مِن رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حينَ لم يَسبِقْها رِسالةُ رَسولٍ إلى آبائِهمُ الأوَّلينَ، فذَكَّرَهم بأنَّ اللهَ أرسَلَ موسى كذلك بعْدَ فَترةٍ عظيمةٍ، وأنَّ الَّذينَ أُرسِل إليهم موسى أثارُوا مِثلَ هذه الشُّبهةِ، فقالوا: (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) [القصص: ٣٦]، فكما كانتْ رسالةُ مُوسى عليه السَّلامُ بعْدَ فَترةٍ مِنَ الرُّسلِ، كذلك كانت رسالةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فالمعنَى: فكان المُشركونَ حَقيقِينَ بأنْ يُنَظِّروا رسالةَ محمَّدٍ برسالةِ موسى. ولكنَّ اللهَ أنشأَ قُرونًا -أي: أُمَمًا- بيْنَ زمَنِ موسى وزمَنِهم، فتَطاوَلَ الزَّمَنُ، فنَسيَ المُشركونَ رسالةَ موسى، فقالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [ص: ٧]. وحُذِف بقيَّةُ الدَّليلِ، وهو تقديرُ: فنَسُوا؛ للإيجازِ؛ لظُهورِه مِن قَولِه: ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾، كما قال تعالى عن اليَهودِ حينَ صارُوا ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال عن النَّصارَى: ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٤]، وقال لأُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، فضَميرُ الجَمعِ في قَولِه: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ عائدٌ إلى المُشركينَ، لا إلى القُرونِ. فتَبيَّنَ أنَّ الاستِدراكَ مُتَّصِلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٤).

بقَولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣]، وأنَّ ما بيْنَ ذلك وبيْنَ هذا استِطرادٌ. وهذا أحسَنُ في بيانِ اتِّصالِ الاستِدراكِ، وهو بهذا مُخالِفٌ لمَوقعِ الاستِدراكَينِ الآتِيَينِ بعْدَه؛ مِن قَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]، وقولِه: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[1] [القصص: ٤٦].

- وقيلَ: اتَّصَلَ هذا الاستِدراكُ بالكلامِ قَبْلَه؛ لأنَّه ليس الاعتِبارُ بصُورةِ النَّفيِ والإثباتِ، وإنَّما المُعتبَرُ المعنَى؛ فإنَّه تعالى لَمَّا نفَى عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أوَّلًا كَوْنَه بجانبِ الغَربيِّ، وكَوْنَه مُشاهِدًا لِلوَحيِ إلى موسى عليه السَّلامُ وقَضاءِ الأمرِ له؛ مِنَ المُكالَمةِ وكِتْبةِ التَّوراةِ وغَيرِهما، والمرادُ نفْيُ عِلمِه بذلك- أثبَتَ له العِلمَ ثانيًا بتِلك القِصَّةِ وبسائرِ قِصَصِ الأنبياءِ؛ فكأنَّه قيل: ما كنتَ داريًا بذلك بطريقٍ مِن طُرُقِ العِلمِ؛ لكنْ جعَلْناك داريًا بطريقِ الوَحيِ، بأنْ أرسَلْناك أحْوَجَ ما يكونُ النَّاسُ إلى إرسالِك؛ لفُتورِ الوَحيِ مدَّةً مُتطاوِلةً؛ فوُضِع قَولُه: ﴿أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ مَوضِعَ: (أرسَلْناكَ وكَسَبْنا لك العِلمَ)؛ وَضْعًا للسَّببِ مَوضعَ المُسبَّبِ؛ لأنَّ إطالةَ فَترةِ الوَحيِ واندِراسِ العُلومِ سببٌ لإرسالِ الرُّسُلِ وكَسْبِهمُ العُلومَ[2].

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ تكريرٌ للدَّليلِ بمثَلٍ آخَرَ، مِثلُ ما في قَولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾[3] [القصص: ٤٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٠، ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٧)، ((المثل السائر)) للضياء ابن الأثير (٢/ ٢٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣١).

- وعُدِل عن أن يُقالَ: (ولكنَّا أوحَيْنا بذلك)، إلى قَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾؛ لأنَّ المَقصَدَ الأهمَّ هو إثباتُ وُقوعِ الرِّسالةِ مِنَ اللهِ للرَّدِّ على المُشركينَ في قَولِهم وقَولِ أمثالِهم: (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) [القصص: ٣٦]. وتُعلَمُ رسالةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بدَلالةِ الالتزامِ[١] مع ما يأتي مِن قَولِه: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ [القصص: ٤٦] الآيةَ، فالاحتِجاجُ والتَّحدِّي في هذه الآيةِ والآيةِ الَّتي قَبْلَها تَحَدٍّ بما عَلِمَه النَّبيُّ علَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن خبَرِ القصَّةِ الماضيةِ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ جانبُ الطُّور: هو جانبُ الغَربيِّ -وذلك على قولٍ-، وهو الجانبُ الأَيمَنُ المُتقدِّمُ وصْفُه بذَيْنِكَ الوَصفَينِ؛ فعُرِّيَ هنا عنِ الوَصفِ؛ لأنَّه صار معروفًا. وحُذِف مفعولُ النِّداءِ؛ لظُهورِ أنَّه نِداءُ مُوسى مِن قِبَلِ اللهِ تعالى[٣].

- والاستِدراكُ في قَولِه: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ ناشِئٌ عن دَلالةِ قَولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، على معنَى: ما كان عِلمُك بذلك لحُضورِكَ، ولكنْ كان عِلمُك ﴿رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ فانتِصابُ ﴿رَّحۡمَةٗ﴾ مؤْذِنٌ بأنَّه مَعمولٌ لعاملِ نَصبٍ مأخوذٍ مِن سِياقِ الكلامِ: إمَّا على تَقديرِ كَونٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه نَفْيُ الكَونِ في قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، والتَّقديرُ: ولكنْ كان عِلمُك رحمةً مِنَّا، وإمَّا على المفعولِ المُطْلَقِ

(١) دلالةُ الالتزامِ: هي دلالةُ اللفظِ على لازمِه، كدلالةِ الأسدِ على الشجاعةِ. يُنظر: ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) للإسنوي (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٢، ١٣٣).

الآتي بدَلًا مِن فِعلِه، والتَّقديرُ: ولكنْ رَحِمْناك رَحمةً بأنْ عَلَّمْناك ذلك بالوَحيِ رحمةً؛ بقَرينةِ قَولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾. ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿رَّحْمَةً﴾ منصوبًا على المفعولِ لأجْلِه، معمولًا لفِعلِ ﴿لِتُنذِرَ﴾؛ فيَكونَ فِعلُ ﴿لِتُنذِرَ﴾ مُتعلِّقًا بكَوْنٍ مَحذوفٍ هو مَصَبُّ الاستِدراكِ. وفي هذه التَّقاديرِ توفيرُ مَعانٍ، وذلك مِن بليغِ الإيجازِ[١]. وقد اكتُفيَ عن ذِكرِ المُستدرَكِ هاهنا بذِكْرِ ما يوجِبُه مِن جِهَتِه تعالى، كما اكتُفيَ عنه في الأوَّلِ بذِكرِ ما يُوجِبُه مِن جِهةِ النَّاسِ، وصُرِّح به فيما بيْنَهما؛ تَنصيصًا على ما هو المقصودُ، وإشعارًا بأنَّه المرادُ فيهما أيضًا. ولله دَرُّ شأنِ التَّنزيلِ[٢].

- والالتِفاتُ في قولِه: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ إلى اسمِ الرَّبِّ؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الرَّحمةِ، وتَشريفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالإضافةِ[٣].

- وعُدِل عن: (رحمةً مِنَّا)، إلى ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بالإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِما يُشعِرُ به معنَى الرَّبِّ المُضافِ إلى ضميرِ المُخاطَبِ مِنَ العنايةِ به عنايةَ الرَّبِّ بالمَربوبِ[٤].

- قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ القَومُ: قُرَيشٌ والعرَبُ؛ فهُمُ المُخاطَبونَ ابتِداءً بالدِّينِ، وكُلُّهم لم يأتِهم نَذيرٌ قبْلَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنَّما اقتُصِر على قُرَيشٍ أو على العرَبِ دُونَ سائرِ الأُمَمِ الَّتي بُعِث إليها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ المِنَّةَ عليهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٣، ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٤).

أَوْفَى؛ إذْ لم تَسبِقْ لهم شَريعةٌ مِن قَبْلُ، فكان نِظامُهم مُختَلًّا غَيرَ مَشوبٍ بأَثارةٍ مِن شَريعةٍ مَعصومةٍ؛ فكانوا في ضرورةٍ إلى إرسالِ نذيرٍ، وللتَّعريضِ بكُفرانِهم هذه النِّعمةَ[١].

- وتغييرُ التَّرتيبِ الوُقوعيِّ بيْن قَضاءِ الأمرِ والثَّواءِ في أهْلِ مَدْيَنَ والنِّداءِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ كُلًّا مِن ذلك بُرهانٌ مُستقِلٌّ على أنَّ حكايتَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للقصَّةِ بطريقِ الوَحيِ الإلهيِّ. ولو ذُكِر أوَّلًا نَفْيُ ثَوائِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أهلِ مَدْيَنَ، ثمَّ نَفْيُ حُضورِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِندَ النِّداءِ، ثمَّ نفْيُ حُضورِه عِندَ قضاءِ الأمرِ -كما هو الموافِقُ للتَّرتيبِ الوُقوعيِّ- لَرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ الكُلَّ دليلٌ واحدٌ على ما ذُكِرَ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦، ١٧).

الآيات (٤٧-٥٠)

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَظَٰهَرَا﴾: أي: تَعاوَنا، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله سبحانه مُبطِلًا ما يَتعلَّلُ به المُشرِكون مِن معاذيرَ: ولولا أن يُعذِّبَ اللهُ مُشرِكي قُرَيشٍ بسَبَبِ كُفرِهم، فيقولوا: ربَّنا هلَّا أرسلْتَ إلينا رَسولًا قبْلَ أن تعَذِّبَنا؛ فنتَّبِعَ آياتِك ونكونَ مِنَ الموحِّدينَ المؤمِنينَ- لَعاجَلْناهم بالعذابِ، فلمَّا جاءهم القرآنُ مِن عندِنا قالوا: هلَّا أُوتيَ محمَّدٌ القرآنَ جُملةً واحِدةً كما أُوتيَ موسى التَّوراةَ دَفعةً واحِدةً، وهلَّا أُوتيَ مُعجزاتٍ كالَّتي أُوتيَها موسى؟! أوَلَمْ يَكفُروا بالتَّوراةِ والمُعجزاتِ الَّتي آتاها اللهُ موسى مِن قَبْلُ؟! قالوا: التَّوراةُ والقرآنُ سِحْرانِ تَعاوَنَا وتَناصَرَا على إضلالِ النَّاسِ بسِحْرِهما، وصدَّق كلٌّ منهما الآخَرَ، وقالوا: إنَّا بكُلٍّ مِنَ التَّوراةِ والقُرآنِ كافِرونَ!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٦).

قُلْ -يا محمَّدُ- لكفَّارِ قُرَيشٍ: فهاتوا إذَنْ كتابًا مُنزَّلًا مِن عندِ اللهِ هو أهدى للحَقِّ منهما؛ فأعمَلَ به، إنْ كنتُم صادقينَ في دَعْواكم.

فإنْ لم يَستَجيبوا لك ويتَّبِعوا الحَقَّ، فاعلَمْ -يا محمَّدُ- أنَّهم يتَّبِعونَ أهواءَهم، ولا أحَدَ أضَلُّ عن الحَقِّ ممَّن اتَّبَع هَوى نفْسِه وترَك هُدى اللهِ، إنَّ اللهَ لا يهدي القومَ الظَّالمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان انتفاءُ إنذارِهم قَبْلَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نافيًا للحُجَّةِ في عذابِهم بما أوجبَه اللهُ -وله الحُجَّةُ البالِغةُ، لا يُسألُ عمَّا يَفعَلُ- على نَفْسِه الشَّريفةِ؛ فَضلًا منه ورحمةً؛ ذَكَر أنَّ إرسالَه ممَّا لا بُدَّ منه لذلك، فقال[1]:

﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾.

أي: ولولا أن يُعذِّبَ اللهُ مُشركي قُرَيشٍ بسَبَبِ كُفرِهم ومعاصيهم قبْلَ إرسالِك -يا محمَّدُ-، فيقولوا محتَجِّينَ: يا رَبَّنا، هلَّا أرسَلْتَ إلينا رَسولًا قبْلَ أن تعَذِّبَنا؛ فنتَّبِعَ آياتِ القُرآنِ، ونَكونَ مِنَ الموحِّدينَ المُؤمِنينَ بك وبرَسولِك- لَعاجَلْناهم بالعذابِ، ولَكِنَّا أقَمْنا الحُجَّةَ عليهم بإرسالِك إليهم[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى سُبحانَه عنهم أنَّهم عندَ الخَوفِ قالوا: «هلا أرسلْتَ إلينا رَسولًا فنتَّبِعَ آياتِك»؛ بَيَّنَ أيضًا أنَّه بعْدَ الإرسالِ إلى أهلِ مكَّةَ ﴿قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، فهؤلاء قبْلَ البَعثةِ يَتعلَّقون بشُبهةٍ، وبعدَ البَعثةِ يَتعلَّقونَ بأُخرى؛ فظهرَ أنَّه لا مَقصودَ لهم سِوى الزَّيغِ والعِنادِ(١).

وأيضًا لَمَّا بَهَرتْهم آياتُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لم يَجِدوا مِن المعاذيرِ إلَّا ما لَقَّنَهم اليَهودُ؛ وهو أن يقولوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾(٢).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾.

أي: فلمَّا جاء كُفَّارَ قُرَيشٍ القُرآنُ الَّذي أُنزِلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه

= (٦/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٥، ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٧).

وسلَّمَ، قالوا: هلَّا أُوتيَ مُحمَّدٌ القُرآنَ جُملةً واحِدةً، كما أُوتيَ موسى التَّوراةَ دَفعةً واحِدةً، وهلَّا أُوتيَ مُعجِزاتٍ كالَّتي أُوتِيَها موسى؛ مِثلُ العصا الَّتي تَنقَلِبُ حَيَّةً، واليَدِ الَّتي تَخرُجُ بَيضاءَ(١)!

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: أوَلَمْ يَكفُرْ كُفَّارُ قُرَيشٍ بالتَّوراةِ والمُعجِزاتِ الَّتي آتاها اللهُ موسى مِن قَبْلِ بَعثةِ مُحمَّدٍ؟! فكيف يَطلُبونَ مِن مُحمَّدٍ مِثلَ ما أُوتيَ موسى(٢)؟!

﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٢٧-٢٢٩).

قال ابن عثيمين: (والحقُّ بمعنى: الشَّيءِ الثَّابتِ، وهو بالنِّسبةِ للأخبارِ: الصِّدقُ، وبالنِّسبة للأحكامِ: العدلُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤١١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٥).

ممَّن قال بأنَّ الضميرَ هنا عائِدٌ إلى كُفَّارِ قُرَيشٍ: الواحديُّ، والسمعانيُّ، والرازيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: الضَّميرُ يعودُ على اليهودِ في زمَنِ النَّبيِّ، أي: أوَلَمْ يكفُرِ اليَهودُ بما أُوتيَ موسى مِن قَبْلِك، فلَمْ يُؤمِنوا بها؟ وممَّن قال بهذا القَولِ: ابنُ جرير، وابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٠).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ على اليهودِ في زمَنِ موسى. وممَّن قال بهذا القولِ: الزمخشريُّ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٩، ٤٢٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٤٧).

وقال البقاعي: (﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ﴾ أي: العَرَبُ ومَن بلغَتْهم الدَّعوةُ مِن بني إسرائيلَ، أو مَن شاء اللهُ منهم، أو أبناءُ جِنسِهم ومَن كان مِثلَهم في البشَريَّةِ والعَقلِ في زمنِ موسى عليه السَّلامُ ﴿بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٠٩).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿سِحْرَانِ﴾ على معنى: أنَّهم يَقصِدون التَّوراةَ والقُرآنَ[١].

٢- قِراءةُ ﴿سَاحِرَانِ﴾ على معنى: أنَّهم يَقصِدونَ موسى ومحمَّدًا، وقيل: موسى وهارونَ. عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾.

أي: قال كُفَّارُ قُرَيش: التَّوراةُ والقُرآنُ سِحرانِ تَعاوَنَا وتَناصَرَا على إضلالِ النَّاسِ بسِحْرِهما، وصدَّق كُلٌّ منهما الآخَرَ[٣].

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَضَمَّنَ قولُهم ذلك الكُفرَ؛ صَرَّحوا به[٤].

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) قرأ بها عاصم، وحمزة، والكِسائي، وخلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤١، ٣٤٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٤٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٥)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٨)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١١٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٠).

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: إنَّا بكُلٍّ مِنَ التَّوراةِ والقُرآنِ كافِرونَ لا نُؤمِنُ بهما[١].

﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أجاب اللهُ تعالى عن شُبَهِهم؛ ذَكَر الحُجَّةَ الدَّالَّةَ على صِدقِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال[٢]:

﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لكُفَّارِ قُرَيشٍ: فهاتُوا إذَن كِتابًا مُنزَّلًا مِن عندِ اللهِ أكثَرَ هِدايةً للحَقِّ منهما؛ فأعمَلَ به[٣].

﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾.

أي: إنْ كُنتُم صادقينَ في دَعْواكم أنَّ التَّوراةَ والقُرآنَ سِحرانِ، وأنَّ الحقَّ في غَيرِهما[٤]!

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٥).
وذهب ابنُ جرير إلى أنَّ المعنى: وقالت اليهودُ: إنَّا بكُلِّ كِتابٍ في الأرضِ -مِن توراةٍ، وإنجيلٍ، وزَبورٍ، وفُرقانٍ- كافِرونَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٠). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦١٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٥)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ٢٠٠).

هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾.

أي: فإنْ لم يأتِ الزَّاعِمونَ أنَّ التَّوراةَ والقُرآنَ سِحرانِ بكتابٍ أهدَى منهما، ويتَّبِعوا الحَقَّ؛ فاعلَمْ -يا مُحمَّدُ- أنَّهم يُؤْثِرونَ أهواءَهم وما تستَحسِنُه نفوسُهم ويُحَبِّبُه لهم الشَّيطانُ، ولا يتَّبِعونَ الحَقَّ، ولا حُجَّةَ لهم على ما يَزعُمونَ مِن الكَذِبِ والباطِلِ[(١)].

﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ولا أحَدَ أضَلُّ عن الحَقِّ ممَّن اتَّبَع هوى نفْسِه، وتَرَك الهُدى بغيرِ بَيانٍ وحُجَّةٍ مِن عندِ اللهِ[(٢)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُوَفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ والهُدى القَومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم وغَيرَهم، وصار ذلك وَصفًا لازِمًا لهم، ومِن جُملةِ ذلك الانهِماكُ في مُتابعةِ الهوى[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤١).

قال ابن عاشور: (المرادُ بالظَّالمينَ: الكامِلونَ في الظُّلْمِ، وهو ظُلْمُ الأنفُسِ وظُلمُ النَّاسِ، وأعظَمُه الإشراكُ وإتيانُ الفَواحِشِ والعُدوانُ... وهم مع ذلك مُتفاوِتونَ في انتفاءِ هُدى الله عنهم على تَفاوُتِهم في التَّصلُّبِ في ظُلمِهم، فقد يَستمِرُّ أحدُهم زمانًا على ضَلالِه ثمَّ يُقَدِّرُ اللهُ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أنَّه ينبغي في مَقام المُناظَرةِ والمُجادَلةِ أنْ يُفحَمَ الخَصمُ بإبطالِ قَولِه بقَولِه أو بفِعلِه، فيُبطَلُ قَولُه بما جرى منه هو؛ لأنَّ ما جرى منه لا يُمكِنُ أنْ يُنكِرَه، ولو أنكَرَه ما قُبِلَ؛ فكَونُنا نقيمُ الحُجَّةَ على الخَصمِ مِن فِعلِه وقَولِه- هذا أبلغُ في إفحامِه[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أنَّه ينبغي عندَ المناظرةِ إبطالُ قَولِ الخَصمِ بالأمرِ الواقعِ؛ فإنَّ الآياتِ الَّتي جاء بها موسى وأبطلَها هؤلاء: كُذِّبَتْ وما آمَنَ بها البشرُ، إذَنْ فالمدارُ ليس على جِنسِ الآياتِ، ولكنَّ المدارَ على حالِ المخاطَبِ، وإلَّا فالآياتُ قائمةٌ بَيِّنَةٌ، لكنْ ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[2] [يونس: ١٠١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ طَمْأنةُ أتْباعِ الرُّسُلِ، وتَثبيتُهم على أنَّهم سيَنالُهم مِن ألقابِ السُّوءِ ومِن المُعاداةِ مِثلُ ما نال الرُّسلَ؛ فعليهم أن يُقابِلوا ذلك بالصَّبرِ والثَّباتِ والقوَّةِ، لا أنْ يُخذَلوا، بل عليهم أنْ يكونوا كما كان مَتبوعُهم الَّذي أمَرَه اللهُ قائلًا: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل

= له الهدى... ولأجْلِ هذا التَّفاوُتِ في قابليَّةِ الإقلاعِ عن الضَّلالِ استمَرَّتْ دَعوةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيَّاهم للإيمانِ في عُمومِ المَدْعوِّينَ؛ إذْ لا يَعلَمُ إلَّا اللهُ مَدى تَفاوُتِ النَّاسِ في الاستِعدادِ لقَبولِ الهُدى، فالهُدى المَنْفيُّ عن أن يَتعلَّقَ بهم هنا هو الهدى التَّكوينيُّ، وأمَّا الهُدى بمعنى الإرشادِ فهو مِن عُمومِ الدَّعوةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾[1] [الأحقاف: ٣٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّه مِن العَدلِ التَّنزُّلُ مع الخَصمِ إلى حالٍ يُقِرُّ بها؛ فإنَّه مِن المعلومِ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَعلَمُ أنَّه لا يُمكِنُ أنْ يأتوا بما طُلِبَ منهم، وذلك حينَ طُلِبَ منهم أنْ يأتوا بكتابٍ أهدَى مِن التَّوراةِ والقرآنِ، أي: أنتم ائْتُوا بكتابٍ أهدَى مِن التَّوراةِ والقرآنِ وأنا ألتَزِمُ باتِّباعِه، فإذا لم يأتوا فمعناه: ألزِمْهم أن يَتَّبِعوا التَّوراةَ والقرآنَ[2].

٥- عدمُ مجادَلةِ المتَّبِعِ هواه المُكابِرِ؛ فليس هناك سبيلٌ لإقناعِه، فهو يريدُ أنْ يَنتصِرَ لنفْسِه فقط، ويَتَّبِعَ هواه! فما دام الرَّجُلُ صاحِبَ هوًى، فالجِدالُ معه لا فائدةَ منه؛ قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾[3].

٦- ليس لأحدٍ أن يعمَلَ في الدِّينِ إلَّا ما شرَعَه اللهُ ورسولُه، دونَ ما يشتهيه ويَهْواه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[4].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على بُطلانِ قَولِ الَّذين يقولونَ: إنَّ أعمالَ المُشركينَ قبْلَ البَعثةِ ليست قَبيحةً لِذَاتِها، بل إنَّما قَبُحَت بالنَّهيِ فقط؛ وبُطلانِ قَولِ الَّذين يقولونَ: إنَّها قَبيحةٌ ويَستحِقُّونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٥، ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ١٠١).

عليها العُقوبةَ عَقلًا بدُونِ البَعثةِ- فنَظَمَت الآيةُ بُطلانَ قَولِ الطَّائفَتينِ، ودلَّت على القَولِ الوَسَطِ: أنَّ هذه الأعمالَ قَبيحةٌ في نفْسِها، ولا يَستحِقُّونَ العِقابَ إلَّا بعد إقامةِ الحُجَّةِ بالرِّسالةِ؛ فلا تَلازُمَ بيْنَ ثُبوتِ الحُسْنِ والقُبْحِ العقليَّينِ، وبينَ استِحقاقِ الثَّوابِ والعِقابِ؛ فالأدلَّةُ إنَّما اقتَضَتِ ارتباطَ الثَّوابِ والعِقابِ بالرِّسالةِ، وتَوَقُّفَهما عليها، ولم تَقتَضِ تَوَقُّفَ الحُسنِ والقُبحِ بكلِّ اعتِبارٍ عليها، وفَرْقٌ بيْنَ الأمْرَينِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أنَّ ما خالفَ ما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فهو باطلٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، فكلُّ خبرٍ يَتضمَّنُ تكذيبَ خبرِ اللهِ ورسولِه فهو الكذبُ، وإذا شَرَّعَ الإنسانُ قوانينَ مخالِفةً للشَّرعِ؛ قُلْنا: هذا باطلٌ وضلالٌ؛ لأنَّ الحقَّ فيما جاء به الشَّرعُ فقط[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ أنَّ قُرَيشًا كان عندَهم بعضُ المعلوماتِ عن الرُّسلِ السَّابِقينَ، حيثُ قالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ وقد حصَلوا على هذا العلمِ عن طريقِ اليهودِ[٣].

٤- أنَّ أهلَ الباطلِ يُلَقِّبون أهلَ الحقِّ بألقابِ السُّوءِ؛ تنفيرًا للناسِ عن قَبولِ ما جاؤوا به، يُؤخَذُ هذا مِن قولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ﴾ أو ﴿سَاحِرَانِ﴾ على القراءةِ الأُخرَى، فسَواءٌ وَصَفوا ما جاءَتْ به الرُّسلُ بالسِّحرِ، أو وَصَفوا الرُّسلَ أنفُسَهم بالسِّحرِ؛ فإنَّ المقصودَ بذلك تنفيرُ الناسِ عن قَبولِ ما جاءتْ به الرُّسلُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٢).

٥- التَّحدِّي يَكونُ بالوَصفِ كما يكونُ بالفِعلِ؛ فقولُه تعالى: ﴿فَأْتُوا﴾ تَحَدٍّ بفِعلٍ ما هم بآتينَ به، وقولُه: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ تَحَدٍّ بالوَصفِ؛ أي: إنْ كان ما أنتم عليه حقًّا فأْتُوا بهذا، وإلَّا فأنتم مِن الكاذِبينَ؛ ولهذا قال: ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بيانُ أنَّه سُبحانَه لم يُنزِلْ كتابًا أهدى مِن التَّوراةِ والقُرآنِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ أنَّه لا يَلزَمُ الإنسانَ الانتِقالُ عمَّا كان عليه إلى غَيرِه إلَّا إذا كان أهدَى منه[٣].

٨- جوازُ التَّعليقِ بالشَّرطِ فيما هو مُحقَّقُ الوُقوعِ، وهذا في قَولِه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ هذا مُحقَّقُ الوُقوعِ؛ فليس فيه احتمالُ أنْ يَستَجيبوا، فيجوزُ تعليقُ الشَّيءِ المحقَّقِ بالشَّرطِ، ولو كان مُحقَّقًا أنَّه لن يكونَ، وكذلك لو كان محقَّقًا أنَّه كائنٌ؛ فإنَّ الانتِفاءَ هنا كائنٌ لا محالةَ، ومع ذلك عُلِّقَ بالشَّرطِ، وفي الحديثِ عن النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: ((وإنَّا إنْ شاء اللهُ بكم لاحِقون))[٤] في قَولِه لأهلِ المقابرِ، ومعلومٌ أنَّ هذا الأمرَ مُحقَّقٌ[٥].

٩- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ جعَل سُبحانَه وتعالى المتَّبَعَ قِسْمَينِ لا ثالثَ لهما؛ إمَّا ما جاءَ به الرسولُ، وإمَّا الهوَى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٩) مطولًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٩).

فمَنِ اتَّبَع أحدَهما لم يُمكِنْه اتِّباعُ الآخَرِ، فاللهُ سُبحانَه وتعالى جعَل الهوَى مُضادًّا لِما أنزَلَه على رَسولِه، وجعَلَ اتِّباعَه مُقابِلًا لِمُتابَعةِ رُسُلِه، وقَسَّم النَّاسَ إلى قِسمَينِ: أتْباعِ الوَحيِ، وأتْباعِ الهوى، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ(١).

١٠- جميعُ المعاصي إنَّما تنشأُ مِن تَقديمِ هوى النُّفوسِ على مَحبَّةِ اللهِ ورَسولِه، وقد وصَف اللهُ المُشرِكينَ باتِّباعِ الهوى في مواضِعَ مِن كِتابِه؛ قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾. وكذلك البِدَعُ إنَّما تنشأُ مِن تقديمِ الهوَى على الشَّرعِ؛ ولهذا يُسمَّى أهلُها أهلَ الأهواءِ(٢).

١١- اتِّباعُ الأهواءِ في الدِّياناتِ أعظَمُ مِن اتِّباعِ الأهواءِ في الشَّهواتِ؛ فإنَّ الأوَّلَ حالُ الَّذين كفَروا مِن أهلِ الكِتابِ والمُشرِكينَ، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقالَ تعالَى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]؛ ولهذا كان مَن خرَج عن موجَبِ الكِتابِ والسُّنَّةِ مِن العُلَماءِ والعبَّادِ يُجعلُ مِن أهلِ الأهواءِ، كما كان السَّلَفُ يُسَمُّونَهم أهلَ الأهواءِ؛ وذلك أنَّ كُلَّ من لم يتَّبِعِ العِلمَ فقد اتَّبَع هواه، والعِلمُ بالدِّينِ لا يكونُ إلَّا بهُدَى الله الَّذي بعَثَ به رَسولَه؛ ولهذا قال تعالى في مَوضِعٍ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال في موضِعٍ آخَرَ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ

(١) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٠٤، ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٩٧).

بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[(١)] [القصص: ٥٠].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ كلَّ مَن لم يَستجِبْ للرَّسولِ، وذَهَب إلى قَولٍ مُخالِفٍ لِقَولِ الرَّسولِ؛ فإنَّه لم يَذهَبْ إلى هدًى، وإنَّما ذَهَبَ إلى هوًى[(٢)].

١٣- اختِلافُ النَّاسِ في الضَّلالِ والهدى وتفاوتُهم فيهما؛ فليسوا على حَدٍّ سَواءٍ في الضَّلالِ، كما أنَّهم ليسُوا على حَدٍّ سَواءٍ في الهُدى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[(٣)].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دَليلٌ على أنَّ الهوى قد يكونُ في الحَقِّ أيضًا إذا كان فيه هُدًى مِن اللهِ[(٤)].

١٥- أصْلُ الهوى محبَّةُ النَّفْسِ، ويَتبَعُ ذلك بُغضُها؛ ونَفْسُ الهوى -وهو الحُبُّ والبُغضُ الَّذي في النَّفْسِ- لا يُلامُ عليه المرءُ؛ فإنَّ ذلك قد لا يُملَكُ، وإنَّما يُلامُ على اتِّباعِه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[(٥)] [ص: ٢٦].

١٦- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ الظُّلمَ سببٌ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٣٢). ويُنظر أيضًا: ((ذم الهوى)) لابن الجوزي (ص: ١٢، ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٧٠).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٣٢).

لحرمانِ الظَّالمِ مِن الهُدى[١].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ردٌّ على القَدَريَّةِ الذين يُنكِرونَ قَدَرَ اللهِ بالنِّسبةِ للأفعالِ، فيَرَون أنَّ الإنسانَ يُمكِنُ أن يهتديَ بنَفْسِه، وليس لله تبارك وتعالى عليه أيُّ سُلطةٍ[٢]!

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ردٌّ على الجَبْريةِ الجَهْميَّةِ -الذين يقولون بعَكسِ القَدَريَّةِ- يقولون بأنَّ اللهَ تعالى نَسَبَ هؤلاء بفِعلِهم إلى الظُّلْم، ولو كانوا مُجبَرينَ عليه لكانت نِسبةُ الظُّلمِ إليهم ظُلمًا، واللهُ تبارك وتعالى لا يَظْلِمُ أحدًا[٣]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ لَمَّا كانتْ أَكثَرُ الأعمالِ تُزاوَلُ بالأيدي- جُعِل كلُّ عمَلٍ مُعبَّرًا عنه باجتِراحِ الأيدي، وتَقديمِ الأيدي، وإنْ كان مِن أعمالِ القُلوبِ، وهذا مِنَ الاتِّساعِ في الكَلامِ، وتَصييرِ الأقَلِّ تابِعًا للأكثَرِ، وتغليبِ الأكثَرِ على الأقَلِّ[٤].

- قولُه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ إنْ قيلَ: كيف استَقامَ هذا المعنَى وقد جُعِلَتِ العُقوبةُ هيَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩، ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩، ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٠).

السَّببَ في الإرسالِ لا القَولُ؛ لدُخولِ حَرفِ الامتِناعِ عليها دُونَه؟

فالجوابُ: القولُ هو المقصودُ بأنْ يَكونَ سببًا لإرسالِ الرُّسلِ، ولكنَّ العُقوبةَ لَمَّا كانت هيَ السَّببَ للقَولِ، وكان وُجودُه بوُجودِها- جُعِلَتِ العقوبةُ كأنَّها سَببُ الإرسالِ بواسطةِ القَولِ؛ فأُدخِلَتْ عليها (لولا)، وجِيءَ بالقولِ معطوفًا عليها بالفاءِ المُعطِيةِ معنَى السَّببيَّةِ، ويَؤُولُ مَعناهُ إلى قَولِك: ولولا قَولُهم هذا إذا أصابَتْهم مُصيبةٌ لَمَا أَرسَلْنا، ولكنِ اختيرَتْ هذه الطَّريقةُ لنُكتةٍ؛ وهي: أنَّهم لو لم يُعاقَبوا مثَلًا على كُفرِهم وقد عايَنوا ما أُلجِئُوا به إلى العِلمِ اليقينِ- لم يَقولوا: لولا أَرسَلْتَ إلينا رسولًا، وإنَّما السَّببُ في قَولِهم هذا هو العِقابُ لا غيرُ، لا التَّأسُّفُ على ما فاتَهم مِنَ الإيمانِ بخالِقِهم. وفي هذا مِنَ الشَّهادةِ القَويَّةِ على استِحكامِ كُفرِهم ورُسوخِه فيهم ما لا يَخفَى، كقَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾[1] [الأنعام: ٢٨].

- وأيضًا في عطْفِ سَببِ السَّببِ على السَّببِ الأصليِّ في قولِه: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾: مَزيدُ العِنايةِ بسَببِ السَّببِ؛ لكَوْنِه مَقصودَ السِّياقِ. وأيضًا في هذا النَّظمِ تنبيهٌ على سَببيَّةِ كلٍّ واحدٍ منهما: أمَّا الأوَّلُ ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم﴾؛ فلاقترانِه بحَرفِ التَّعليلِ وهو ﴿أَن﴾. والثَّاني ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ بالفاءِ، ولا يُعطى هذا المعنَى إلَّا مِنَ المَتْلُوِّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري – حاشية ابن المنير)) (٣/ ٤١٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٧١، ٧٢).

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤]، وقولُه: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥]، وقولُه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦]: تَخلُّصاتٌ مِن ذِكرِ مُوسى إلى إثباتِ نُبوَّةِ سيِّدنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإلزامِ الحُجَّةِ على المُعانِدينَ مِن أهلِ الكِتابِ والمُشركينَ. يعني: إنَّك تُخبِرُ عن هذه الغُيوبِ، وهُم عالِمون أنَّك أُمِّيٌّ لم تَقرأْ، ولم تَأخُذْ مِن أحَدٍ، ولا أنتَ حَضَرْتَ هناك فتُخبِرُ عنها؛ بحيثُ لم تَخرِمْ حَرفًا، ولم يكُنْ ذلك إلَّا مِن طَريقِ الوَحيِ، كما قال: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [القصص: ٤٦]، والقومُ الَّذين ما أَتاهُم مِن نَذيرٍ هُم مُشركو العرَبِ، ولا بدَّ مِن إرسالِك إليهم؛ وإلَّا فلَهُم أن يَقولوا -إذا عُوقِبوا بما قَدَّموا مِنَ الشِّركِ والمعاصي-: هَلَّا أَرسَلْتَ إلينا رسولًا فنَتَّبِعَ آياتِك؟ ويَعضُدُ هذا التَّرتيبَ الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ [القصص: ٤٨]، ووضْعُ المُظهَرِ -وهو ﴿ٱلْحَقُّ﴾- موضعَ المُضمَرِ؛ فإنَّ فيه الإشعارَ بقطْعِ الحُجَّةِ، وأنَّه المؤيَّدُ بالمُعجزاتِ القاهرةِ، والآياتِ الباهرةِ، والهادي إلى ما يُزلِفُهم إلى المَقامِ الأَسْنى، والدَّرَجاتِ الحُسنى، ويُبعِدُهم عمَّا يوقِعُهم في وَرَطاتِ الرَّدى، ونحوها ممَّا يَدخُلُ تحتَ معنَى الحقِّ، أي: فلمَّا جاءَهُم مِثلُ هذا الحقِّ السَّاطعِ، والنُّورِ اللَّامعِ، عِندَما كانوا أفقرَ شيءٍ إلَيهِ- تَعامَوْا وتَصامُّوا، واقترَحُوا عليه مِنَ الآياتِ ما ظَهَر به عِنادُهُم وتَمرُّدُهم؛ فقالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾[1] [القصص: ٤٨].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٨، ٤١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٧٢).

- قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الفاءُ فَصيحةٌ، وتَقديرُ الكَلام: فإنْ كان مِن مَعذِرتِهم أنْ يَقولُوا ذلك، فقد أَرسَلْنا إليهم رَسولًا بالحَقِّ، فلمَّا جاءَهمُ الحقُّ لَفَّقوا المَعاذيرَ، وقالوا: لا نؤْمِنُ به حتَّى نُؤتَى مِثلَ ما أُوتيَ موسَى[١].

- والهَمزةُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّقريريِّ[٢].

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ استِئنافٌ مَسُوقٌ لتقريرِ كُفرِهمُ المُستفادِ مِنَ الإنكارِ السَّابقِ، وبيانِ كيفيَّتِه[٣].

- قولُه: ﴿سِحْرَانِ﴾ بتقديرِ مُضافٍ، بمعنَى: ذَوَا سِحْرٍ، أو جَعَلوهُمَا سِحْرَينِ مُبالَغةً في وصْفِهما بالسِّحرِ[٤].

- قولُه: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ فيه تَصريحٌ بكُفرِهم بهما، وتأكيدٌ لكُفرِهم المفهومِ مِن تَسميتِهما سِحرًا؛ وذلك لغايةِ عُتوِّهم وتَماديهم في الكفرِ والطُّغيانِ[٥].

- وتقديمُ المعمولِ في قَولِه: ﴿بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ يُفيدُ الحصرَ؛ مع أنَّهم كفَروا بهما وبغيرِهما، لكنِ المقصودُ بهذا الحصرِ إغاظةُ الخَصمِ، كأنَّهم يقولون: (لو آمَنَّا بكلِّ شَيءٍ ما كَفَرْنا إلَّا بهما!)[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ مِثلُ هذا الشَّرطِ ممَّا يأتي به مَن يُدِلُّ بوُضوحِ حُجَّتِه، وسُنوحِ مَحَجَّتِه؛ لأنَّ الإتيانَ بما هو أَهدَى مِنَ الكِتابَينِ أمْرٌ بيِّنُ الاستِحالةِ، فيُوسِّعُ دائرةَ الكلامِ للتَّبكيتِ والإفحامِ. وفي إيرادِ كلمةِ ﴿إِن﴾ مع امتِناعِ صِدْقِهم: نَوعُ تَهكُّمٍ بهم[١].

- ووصْفُ الكِتابِ بأنَّه ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إدماجٌ[٢] لمَدحِ القُرآنِ والتَّوراةِ بأنَّهما كِتابانِ مِن عِندِ اللهِ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- جِيءَ بحَرفِ (إنْ) الغالِبِ في الشَّرطِ المَشْكوكِ على طريقةِ التَّهكُّمِ، أو لأنَّها الحَرفُ الأصليُّ[٤].

- قولُه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾ أي: فإنْ لم يَفعلُوا ما كَلَّفْتَهم مِنَ الإتيانِ بكِتابٍ أَهدَى مِنهُما، وإنَّما عُبِّر عنه بالاستِجابةِ؛ إيذانًا بأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على كَمالِ أمْنٍ مِن أمْرِه، كأنَّ أمْرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لهُم بالإتيانِ بما ذُكِر دُعاءٌ لهم إلى أمْرٍ يُريدُ وُقوعَه[٥].

وفِعلُ الاستِجابةِ يَقتَضي دُعاءً، ولا دُعاءَ في قَولِه: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٠).

(٢) تقدم تعريفه: (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨).

ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾ [القصص: ٤٩]، بل هو تَعجيزٌ؛ فالتَّقديرُ: فإنْ عَجَزوا ولم يَستَجيبوا لدَعْوَتك بعْدَ العَجزِ، فاعلَمْ أنَّما يَتَّبِعونَ أهواءَهم. وقَولُه: ﴿أَتَّبِعۡهُ﴾ جوابُ ﴿فَـأۡتُواْ﴾، أي: إنْ تَأْتُوا به أتَّبِعْه، وهو مُبالَغةٌ في التَّعجيزِ؛ لأنَّه إذا وَعَدهم بأن يتَّبِعَ ما يأْتُون به فهو يَتَّبِعُهم أنفُسَهم، وذلك ممَّا يوفِّرُ دَواعيَهُم على مُحاوَلةِ الإتيانِ بكِتابٍ أهْدَى مِن كِتابِه لوِ استَطاعوه، فإنْ لم يَفعَلوا فقد حَقَّ علَيهِمُ الحقُّ، ووجَبَتْ عليهِمُ المَغلوبيَّةُ؛ فكان ذلك أدَلَّ على عَجزِهم، وأَثبَتَ في إعجازِ القرآنِ. وهذا مِنَ التَّعليقِ على ما تَحقَّقَ عدَمُ وُقوعِه؛ فالمُعلَّقُ حِينَئذٍ مُمتنِعُ الوُقوعِ؛ كقوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]. ولكَونِه مُمتنِعَ الوُقوعِ أمَر اللهُ رسولَه أنْ يَقولَه. وقد فُهِم مِن قَولِه: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾ ومِن إقحامِ ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾ أنَّهم لا يَأْتون بذلك البتَّةَ، وهذا مِنَ الإعجازِ بالإخبارِ عن الغَيبِ[1].

- قوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ (أنَّما) المفتوحةُ الهمزةِ تُفيدُ الحَصرَ، مِثلَ (إنَّما) المكسورةِ الهمزةِ، فالتَّقديرُ: فاعلَمْ أنَّهم ما يَتَّبِعون إلَّا أهواءَهُم. وإقحامُ فِعلِ ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾؛ للاهتِمامِ بالخبرِ الَّذي بَعدَه[2].

- وجاءَ في آخِرِ الكَلامِ قولُه: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وهو تَذييلٌ عجيبٌ؛ أنَّه لا أحَدَ أشَدُّ ضَلالًا مِن أحَدٍ اتَّبَعَ هَواهُ المُنافي لهُدى اللهِ. و(مَنْ) اسمُ استِفهامٍ عن ذاتٍ مُبهَمةٍ، وهو استِفهامُ الإنكارِ؛ فأفادَ الانتِفاءَ؛ فصار معنَى الاسميَّةِ الَّذي فيه في معنَى نَكِرةٍ في سِياقِ النَّفيِ أفادَتِ العُمومَ؛ فشَمِلَ هؤلاءِ الَّذينَ اتَّبَعوا أهواءَهم وغَيْرَهم، وبهذا العُمومِ صار تَذييلًا، وهو كقَولِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٩، ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤٠).

تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾[١] [البقرة: ١٤٠].

- قولُه: ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تقييدُ اتِّباعِ الهوَى بعدَمِ الهُدى مِنَ اللهِ تعالى؛ لزِيادةِ التَّقريعِ، والإشباعِ في التَّشنيعِ والتَّضليلِ، وإلَّا فمُقارَنتُه لهِدايتِه تعالى بَيِّنةُ الاستِحالةِ. وقيل: هذا الحالُ قَيْدٌ في اتِّباعِ الهوَى؛ لأنَّه قد يَتَّبِعُ الإنسانُ ما يَهْواهُ ويَكونُ ذلك الَّذي يَهْواهُ فيه هُدًى مِنَ اللهِ؛ لأنَّ الأهواءَ كلَّها تَنقسِمُ إلى ما يَكونُ فيه هُدًى، وما لا يَكونُ فيه هُدًى؛ فلذلك قُيِّد بهذه الحالِ[٢].

- وجَعَل الهُدَى مِنَ اللهِ؛ لأنَّه حقُّ الهُدَى؛ لأنَّه واردٌ مِنَ العالِمِ بكلِّ شيءٍ، فيَكونُ معصومًا مِنَ الخلَلِ والخَطأ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ذَيَّل هذا التَّذييلَ -﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾- بما هو تَمامُه؛ إذْ فيه تَعيينُ هذا الفريقِ المُبهَمِ الَّذي هو أشَدُّ الضَّالِّينَ ضلالًا؛ فإنَّه الفريقُ الَّذين كانوا قَومًا ظالِمينَ، أي: كان الظُّلْمُ شأْنَهم، وقِوامَ قَوْميَّتِهم؛ ولذلك عَبَّر عنهُم بالقَومِ[٤].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ احتباكٌ[٥]؛ حيثُ أثبتَ أوَّلًا اتِّباعَ الهوى دليلًا على حذْفِه ثانيًا، وثانيًا الظُّلْمَ دليلًا على حذْفِه أوَّلًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٢٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٢).

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: لا أحدَ أضَلُّ، وهو استِفهامٌ مَنفيٌّ، وقال في آيةٍ أُخرى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٥]؛ والجَمْعُ بيْنَهُما: أنَّ آيةَ (الأحقافِ) في مَقامِ الدُّعاءِ؛ وهذه الآيةَ في مَقامِ الاتِّباعِ؛ فقد تَكونُ كلُّ آيةٍ لها مَعنًى لا يَتعلَّقُ بالثَّاني، فضلالُ الغايةِ باعتِبارِ ما هو مِن جِنسِها[1]، هذا وجْهٌ. وهناك وجْهٌ آخَرُ: وهو أنَّهُما في مرتبةٍ واحدةٍ في الضَّلالِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ لا يَمنعُ أنْ يوجَدَ شَيءٌ يُساويهِ في ذلك؛ فيَكونُ كلٌّ مِنَ الأمْرَينِ قد بَلَغ الغايةَ في الضَّلالِ[2].

---

(١) أي: أنَّ كلَّ موضعٍ يختصُّ بالمذكورِ معه؛ ففي المفترينَ: لا أحدَ أظلمُ ممَّن افترَى على الله كذبًا. وفي المانعينَ: لا أحدَ أظلمُ ممَّن منَع مساجدَ الله... وفي المُعرِضينَ: لا أحدَ أظلَمُ ممن ذُكِّر بآياتِ ربِّه ثمَّ أعرَض عنها... وهكذا. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٨).
والقاعدةُ: «أنَّ نفْيَ التَّفضيلِ لا يَستلزِمُ نفْيَ المُساواةِ»، فغايةُ ما يدُلُّ عليه نفي التَّفضيلُ هو أنَّه لا مَزيدَ على وصْفِ المذكورِ، إلَّا أنَّ ذلك لا يعني أنَّه لا يُعادِلُه ويُساويه أحدٌ في تلك المرتبةِ أو الصِّفةِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٥٢٨، ٥٢٩).

الآيات (٥١-٥٦)

﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾: أي: أنزَلْنا القرآنَ يَتْبَعُ بعضُه بعضًا، فاتَّصَل عندَهم، وأصلُ (وصل): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ حتَّى يَتعلَّقَ به[1].

﴿وَيَدْرَءُونَ﴾: أي: يَدفَعونَ، وأصلُ (درء): يدُلُّ على دَفعِ الشَّيءِ[2].

﴿ٱللَّغْوَ﴾: أي: الباطِلَ مِنَ الكَلامِ، وأصلُ (لغو): يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[3].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٠٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٥).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مؤكِّدًا على قطعِ أعذارِ المشركينَ وحُجَجِهم: ولقد أنزَلْنا القُرآنَ يَتبَعُ بَعضُه بعضًا، وبيَّنَّا فيه الوَعدَ والوَعيدَ؛ ليتَّعِظَ كُفَّارُ العَرَبِ وأهلُ الكتابِ ويَعتَبِروا.

ثمَّ يمدحُ الله تعالى طائفةً مِن أهلِ الكتابِ آمنَتْ، فيقولُ: الَّذين آتَيْناهم التَّوراةَ والإنجيلَ مِن قَبلِ القُرآنِ يُؤمِنونَ بالقُرآنِ، وإذا سَمِعوه يُتلى عليهم قالوا: آمَنَّا به؛ لأنَّه حَقٌّ مِن عندِ رَبِّنا، إنَّا كُنَّا مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ على محمَّدٍ موحِّدينَ لله.

ثمَّ يُبيِّنُ ما أعدَّه لهم، فيقولُ: أولئك يُؤتيهم اللهُ ثوابَهم مُضاعَفًا، ومِن صفاتِهم أنَّهم يَدفَعونَ السَّيِّئةَ بالحسَنةِ، ويُنفِقونَ ممَّا رزَقَهم الله، وإذا سَمِعوا الكلامَ الباطِلَ أعرَضوا عن الاستِماعِ له، وقالوا: لنا دينُنا، ولكم دينُكم، لن نُؤذيَكم بقَولٍ أو فِعلٍ؛ فلا نُريدُ مُجادَلةَ السُّفَهاءِ!

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا أنَّ الهِدايةَ منه وحْدَه: إنَّك -يا محمَّدُ- لا تَهدي مَن أحبَبْتَ لاتِّباعِ الحَقِّ، ولكنَّ الله وحْدَه يَهدي مَن يشاءُ أنْ يَهديَه، وهو أعلَمُ بمَن سبَقَ في عِلمِه أنَّه يَستحِقُّ الهدايةَ ويَقبَلُها، فيُوَفِّقُه لها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

أي: ولقد أتبَعْنا القُرآنَ بَعضَه بَعضًا وشَيئًا فشَيئًا لكُفَّارِ العَربِ وأهلِ الكِتابِ، وبَيَّنَّا فيه الوَعدَ والوَعيدَ، والتَّرغيبَ والتَّرهيبَ، والمواعِظَ، وأخبارَ الماضينَ؛ لِيَعتبِروا ويتَّعِظوا[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٥، ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي =

عن رِفاعةَ القُرَظيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (نَزَلت هذه الآيةُ في عَشَرةِ رَهْطٍ أنا أحَدُهم: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾)[1].

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾.

أي: الَّذين آتَيْناهم التَّوراةَ والإنجيلَ مِن قبْلِ القُرآنِ يُؤمِنونَ بالقُرآنِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١].

= (١٤/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤٢).

(١) أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (٥/ ٥٣) (٤٥٦٣)، وأبو نُعَيم في ((معرفة الصحابة)) (٢٧٣٢) واللَّفظُ لهما، وابن مَنْدَه في ((معرفة الصحابة)) (ص: ٦٣٢) باختلاف يسير.
وثَّق رجالَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٩١)، وصَحَّح إسنادَه ابنُ العراقي في ((طرح التثريب)) (٧/ ٩٤)، وجوَّد إسنادَه السيوطي في ((الدر المنثور)) (٦/ ٤٢٢)، والشوكانيُّ في ((تفسيره)) (٤/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٦، ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤٥-٢٤٩).
قال الشنقيطي: (... قد كان في اليهودِ قَومٌ هم على دِينِ موسى حتَّى ماتوا على ذلك، وقَومٌ كانوا على دين موسى وآمَنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وهؤلاء الَّذين كانوا على دينِ موسى وأدرَكوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فآمَنوا به هم الَّذين ذكَر الله في سورةِ «القصص» أنَّ لهم أجْرَهم مرَّتَينِ: أجْرَ إيمانِهم الأوَّلِ، وأجرَ إيمانِهم الثَّاني). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٩٤).
قال ابن الجوزي: (﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وفيهم ثلاثةُ أقوالٍ:
أحدها: أنَّهم مؤمنو أهلِ الكتابِ، رواه العوفيُّ عن ابنِ عباسٍ، وبه قال مجاهدٌ.
والثاني: مسلمو أهلِ الإنجيلِ...
والثالث: مسلمو اليهودِ، كعبدِ الله بنِ سلامٍ، وغيرِه، قاله السُّديُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٧).

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾.

أي: وإذا سَمِعوا القُرآنَ يُتلَى عليهم قالوا: آمَنَّا بالقُرآنِ؛ لأنَّه حَقٌّ نزَل مِن عندِ رَبِّنا بالخَبرِ الصَّادِقِ، والحُكْمِ العادِلِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٣، ٨٤].

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾.

أي: إنَّا كنَّا مِن قبْلِ نُزولِ القُرآنِ على محمَّدٍ مُوحِّدينَ للهِ، مُنقادينَ لطاعتِه، مُؤمِنينَ بنُبوَّةِ محمَّدٍ؛ فلهذا بادَرْنا إلى الإذعانِ للحَقِّ، وآمَنَّا بهذا القُرآنِ(٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٥١، ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠).

أي: أولئك الَّذين تقدَّمَت صِفتُهم -الَّذين يُؤمِنونَ بكِتابِهم وبالقُرآنِ-، يؤتيهم اللهُ ثوابَهم مُضاعَفًا؛ بسبَبِ صَبرِهم على العَمَلِ بهما، وعلى ما يَلْقَونَه مِنَ الأذَى[١].

عن أبي موسى الأَشْعَريِّ رضيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ثَلاثةٌ يُؤْتَونَ أجْرَهم مرَّتَينِ: رجُلٌ مِن أهلِ الكِتابِ آمَنَ بنَبيِّه، وأدرَكَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فآمَنَ به، واتَّبَعَه وصَدَّقَه؛ فله أجْرانِ، وعبدٌ مَمْلوكٌ أدَّى حَقَّ اللهِ تعالى وحَقَّ سَيِّدِه، فله أجْرانِ، ورجُلٌ كانت له أَمَةٌ فغَذَّاها فأحسَنَ غِذاءَها، ثمَّ أدَّبَها فأحسَنَ أدَبَها، ثمَّ أعتَقَها وتزَوَّجَها؛ فله أجْرانِ))[٢].

وعن أبي سُفيانَ رضيَ الله عنه: أنَّه جاء في الكتابِ الَّذي بعَثَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى هِرَقْلَ: ((بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، مِن محمَّدٍ عبدِ اللهِ ورَسولِه إلى هِرَقْلَ عَظيمِ الرُّومِ: سلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهدَى، أمَّا بعْدُ، فإنِّي أدعوك بدِعايةِ الإسلامِ؛ أسلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أجرَك مرَّتينِ...)) الحديثَ[٣].

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم يَدفَعونَ السَّيِّئةَ بالحَسَنةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٥٧، ٢٥٨).

(٢) رواه البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤) واللفظ له.

(٣) رواه البخاري (٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠). =

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

أي: وممَّا رَزَقْناهم مِنَ الأموالِ يُنفِقونَ في أوجُهِ البرِّ والخَيرِ(١).

= قيل: المعنى: يَدفَعونَ بما يَعملون مِن الحَسَناتِ ما سبَق أنْ عَمِلوه مِنَ السَّيِّئاتِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ؛ فقال: يَدفعونَ بشَهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ الشِّركَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٣٩).

وقيل: المعنى: أنَّهم لا يُقابِلونَ المُسيءَ إليهم بإساءةٍ، ولكنْ يُقابِلونَه بالإحسانِ إليه بالقَولِ الحميدِ، والفِعلِ الجميلِ. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعيدُ بنُ جُبَير، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٩١).

وممَّن ذهب إلى الجَمعِ بيْنَ كِلا المعنَيَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٣).

وقال ابنُ عجيبة: (﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يَدفَعونَ الخَصلةَ القَبيحةَ بالخَصلةِ الحَسَنةِ؛ يَدفَعونَ الأذى بالسِّلمِ، والمعصيةَ بالطَّاعةِ). ((البحر المديد)) (٤/ ٢٦١).

قال ابن عثيمين: (والحَسَنةُ الَّتي تَدرَأُ السَّيِّئةَ تنقَسِمُ إلى قِسمَينِ: قِسمٌ يُزيلُ السَّيِّئةَ مِن بابِ المُقابَلةِ، وقِسمٌ آخَرُ يُزيلُ السَّيِّئةَ مِن بابِ المحوِ والإزالةِ؛ فإن كانت الحسنةُ المَدْروءُ بها السَّيِّئةُ مِن بابِ التَّوبةِ، فهو مِن بابِ المحوِ والإزالةِ، وإن كانت حسنةً أخرى، كما لو دفَعَ السَّيِّئاتِ بالصَّلاةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]؛ فهذا الدَّرءُ مِن بابِ المُقابَلةِ، أي: إنَّ ثَوابَ الحَسَنةِ يُقابَلُ بعقوبةِ السَّيِّئةِ مِن بابِ الموازَنةِ؛ فإذا رجَحَ ثَوابُ الحسنةِ انمَحَت السَّيِّئةُ، وإلَّا فلا. والأوَّلُ أكمَلُ؛ لأنَّه إذا حصَل صارت الحَسَنةُ الثَّانيةُ زيادةَ رِفعةٍ في الدَّرَجاتِ، وليست بمقابَلةٍ بالسَّيِّئةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤).

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه كيفيَّةَ اشتِغالِهم بالطَّاعاتِ والأفعالِ الحَسَنةِ؛ بَيَّنَ كيفيَّةَ إعراضِهم عن الجُهَّالِ، فقال[1]:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

أي: وإذا سَمِعوا الكَلامَ الباطِلَ[2] أعرَضوا عن الاستِماعِ والإصغاءِ له، ولم يَلتَفِتوا إليه، ولم يَرُدُّوا على مَن آذاهم بالكَلامِ القَبيحِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

أي: وقالوا: لنا دِينُنا الَّذي رَضِينا به لأنفُسِنا، ولكم دِينُكمُ الَّذي رَضيتُم به لأنفُسِكم، وسيُجازي اللهُ كُلًّا مِنَّا على عَمَلِه ثَوابًا أو عِقابًا، لا على عَمَلِ غَيرِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٨).

(٢) قال ابن عطية: (اللَّغوُ سَقَطُ القولِ، والقولُ يَسقُطُ لِوُجوهٍ يَعِزُّ حصْرُها؛ فالفُحشُ لَغْوٌ، والسَّبُّ لغوٌ، واليمينُ لغوٌ -حسَبَ الخِلافِ فيها-، وكلامُ مُستمِعِ الخُطبةِ لغوٌ. والمرادُ مِن هذا في هذه الآيةِ ما كان سبًّا وأذًى، فأدَبُ أهلِ الإسلامِ الإعراضُ عنه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٢).
وقال ابن عثيمين: (الأصحُّ أنَّه يَشمَلُ كلَّ كلامٍ لا خيرَ فيه، سواءٌ كان فيه أذًى وشرٌّ، أم لم يكُنْ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٠، ٢٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠).

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦].

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

أي: أنتم سالِمونَ مِن أن نُؤذِيَكم بقَولٍ أو فِعلٍ، لا نُريدُ مُجادَلةَ السُّفَهاءِ المُخالِفينَ للحَقِّ، والمُعتَدِينَ على الخَلقِ؛ ولا نُصاحِبُهم، ولا نُحِبُّ طَريقَتَهم[1].

كما قال تعالى في صِفاتِ عِبادِ الرَّحمنِ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن المُسَيِّبِ بنِ حَزْنٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ أبا طالبٍ لَمَّا حَضَرتْه الوفاةُ دخَل عليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وعِندَه أبو جَهلٍ، فقال: أيْ عَمِّ، قُلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ كَلِمةً أُحاجُّ لك بها عندَ اللهِ، فقال أبو جَهلٍ وعبدُ اللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ: يا أبا طالبٍ، تَرغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطَّلِبِ؟! فلَمْ يَزالَا يُكَلِّمانِه حتَّى قال آخِرَ شَيءٍ كلَّمَهم به: على مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لَأَسْتَغفِرَنَّ لك ما لم أُنْهَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧٠-٢٧٢).
قال العُلَيمي: (﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلامُ توديعٍ ومُتارَكةٍ، وليس هو سلامَ التَّحيَّةِ). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٠٦). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٥١).

عنه، فنزلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾))[١].

وعن أبي هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لعَمِّه عندَ الموتِ: ((قُلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، أَشهَدْ لك بها يَومَ القيامةِ، فأبَى، فأنزَل اللهُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ الآيةَ))[٢].

﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾.

أي: إنَّك -يا مُحمَّدُ- لا تُوفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ مَن أحبَبْتَه[٣].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

أي: ولكِنَّ اللهَ وحْدَه هو مَن يُوَفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ مَن يَشاءُ أن يَهدِيَه[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٤) واللفظ له، ومسلم (٢٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧٨، ٢٧٩).

قال الزجاج: (أجمَع المفَسِّرون أنَّها نزلَتْ في أبي طالبٍ، وجائزٌ أن يكونَ ابتداءُ نُزولِها في أبي طالبٍ، وهي عامَّةٌ؛ لأنَّه لا يَهدي إلَّا اللهُ، ولا يُرشِدُ ولا يوفِّقُ إلَّا هو، وكذلك هو يُضِلُّ مَن يشاءُ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٤٩).

وقال ابنُ حجرٍ: (لم تختلِفِ النقلةُ في أنَّها نزَلت في أبي طالبٍ، واختلَفوا في المرادِ بمتعلقِ ﴿أَحۡبَبۡتَ﴾؛ فقيل: المرادُ: أحببْتَ هِدايتَه، وقيل: أحببْتَه هو لقرابتِه منك). ((فتح الباري)) (٨/ ٥٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠).

كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

أي: واللهُ أعلَمُ بمَن سبَقَ في عِلمِه أنَّه يَستَحِقُّ الهِدايةَ ويَقبَلُها؛ فيُوَفِّقُه لاتِّباعِ الحَقِّ[(١)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- جوازُ ثناءِ المرءِ على نَفْسِه بالصِّفاتِ المحمودةِ؛ لِقَولِه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾، وهذا أمرٌ واقعٌ مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومِن الصَّحابةِ، ومِن أهلِ العلمِ؛ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أنا النَّبيُّ لا كَذِب، أنا ابنُ عبدِ المطَّلِب))[(٢)]، فيجوزُ للإنسانِ أنْ يُثنيَ علي نَفْسِه بصِفاتِ الحَمدِ، ولكن ذلك مشروطٌ بشَرطينِ:

الشَّرطُ الأولُ: ألَّا يُريدَ بذلك الافتِخارَ على غيرِه، ووجهُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه إذا قَصَد بذلك الافتخارَ والعُلُوَّ على النَّاسِ، فهذا قَصدٌ مُحَرَّمٌ؛ ولهذا قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فَخرَ))[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٢، ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٤٨) مطوَّلًا واللَّفظُ له، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد (١٠٩٨٧) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٤٨)، وصحَّحه لغيرِه شعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠٩٨٧).

الشَّرطُ الثَّاني: أنْ يكونَ في ذلك مَصلَحةٌ؛ لأنَّه إذا لم تكُنْ فيه مَصلَحةٌ كان لَغوًا مِن القَولِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ فضيلةُ الصَّبرِ، طالما أنَّ الصبرَ سببٌ للأجرِ؛ فلا شكَّ أنَّه صفةٌ حميدةٌ وفاضلةٌ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أنَّه ينبغي مُقابَلةُ المُسيءِ بالإحسانِ، فالحَسَناتُ يُذْهِبنَ السَّيِّئاتِ؛ فالآيةُ عامَّةٌ لِدَرْئِهم سَيِّئاتِهم بحَسَناتِهم، ودَرئِهم سيِّئاتِ غَيرِهم بالإحسانِ إليهم، لكنَّ دَرْءَ سيِّئاتِ الآخَرين بالإحسانِ إليهم ثَقيلٌ على المرءِ جدًّا؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٣] [فصلت: ٣٥].

٤- مِن أسبابِ دَفعِ شرِّ الحاسدِ عن المحسودِ -وهو مِن أصعبِ الأسبابِ على النفسِ وأشقِّها عليها، ولا يُوفَّقُ له إلَّا مَن عظُم حظُّه مِن الله- إطفاءُ نارِ الحاسدِ والباغي والمؤذي بالإحسانِ إليه، فكلَّما ازداد أذًى وشرًّا وبغيًا وحسدًا، ازددْتَ إليه إحسانًا، وله نصيحةً، وعليه شفقةً. وما أظنُّك تصدِّقُ بأنَّ هذا يكونُ، فضلًا عن أنْ تتعاطاه، فاسمَعِ الآنَ قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وقولَه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٤] [فصلت: ٣٤- ٣٦]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٤٣).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فيه فضيلةُ الإنفاقِ مِن رزقِ اللهِ[١].

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ أنَّه ينبغي الإعراضُ عن اللَّغوِ، وهو الكَلامُ الذي لا فائدةَ فيه، ولا خيرَ منه، والفِعلُ يُقاسُ عليه؛ فلا ينبغي للإنسانِ أن يُمضيَ وَقتَه في أفعالٍ لا خيرَ فيها[٢]، فقد أثنى الله سبحانه على مَن أعرَضَ عن اللَّغوِ إذا سمِعه، وهذه الآيةُ معناها عامٌّ مُتناوِلٌ لِكُلِّ مَن سمِع لَغْوًا فأعرَضَ عنه، وقال بلسانِه أو بقلبِه لأصحابِه: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أنَّه لا ينبغي للعاقلِ طَلَبُ السُّفَهاءِ، فَضلًا عن الجُلوسِ معهم؛ لأنَّ طَلَبَهم في الحقيقةِ يؤدِّي إلى الجُلوسِ معهم، والجلوسُ مع الجاهِلينَ إثمٌ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]؛ فلا ينبغي للإنسانِ أنْ يَتطلَّبَ أهلَ السَّفَهِ ويجلِسَ إليهم، أو على الأقلِّ يأنَس بما يفعَلونَ؛ فإنَّ هذا مِن الصِّفاتِ الَّتي ليس عليها أهلُ الخَيرِ والإيمانِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ الحِكمةَ مِنَ الوَحيِ: التَّذكُّرُ والاتِّعاظُ[٥].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إثباتُ العِلَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٤).

في أحكامِ اللهِ الكَونيَّةِ والشَّرعيَّةِ، وأنَّه لا يَفعلُ شيئًا ولا يُشَرِّعُه إلَّا لحِكمةٍ، وقد خالَفَ في ذلك الأشاعرةُ، والجَهْميَّةُ هم الأصلُ، قالوا: أفعالُ الله لا تُعلَّلُ، وأحكامُه لا تُعلَّلُ[1]، و(لعلَّ) في كلامِ الله سُبحانَه وتعالى للتَّعليلِ مُجَرَّدةٌ عن معنى التَّرجِّي؛ فإنَّها إنَّما يُقارِنُها معنى التَّرجِّي إذا كانت مِنَ المخلوقِ، وأمَّا في حقِّ مَن لا يَصِحُّ عليه التَّرجِّي فهي للتَّعليلِ المَحْضِ[2].

٣- إنَّ الله تعالى حيثُ قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لم يكونوا إلَّا مَمْدوحينَ مُؤمنين، وإذا أراد ذمَّهم والإخبارَ عنهم بالعنادِ وإيثارِ الضَّلالِ أتى بلفظِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ، فالأولُ كقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ...﴾ الآيات. وكقولِه تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، فهذا في سياقِ مدحِهم والاستشهادِ بهم، ليس في سياقِ ذمِّهم والإخبارِ بعنادِهم وجحودِهم.

وأمَّا الثاني فكقولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۞ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٤، ١٤٥]؛ فهذا شهادتُه سبحانَه للذين أوتوا الكتابَ، والأولُ شهادتُه للذين آتاهم الكتابَ بأنَّهم مؤمنونَ. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ [النساء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٦).

٢٠] ، وهذا خطابٌ لمَن لم يُسلِمْ منهم، وإلا فلم يُؤمَرْ صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ هذا لمَن أسلمَ منهم، وصدَّق به.

ولهذا لا يذكُرُ سبحانَه الذين أُوتوا نصيبًا مِن الكتابِ إلَّا بالذمِّ أيضًا، كقولِه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [النساء: ٤٤] ، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ الآية [النساء: ٥١]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[(١)] [آل عمران: ٢٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ سؤالٌ: أنَّ التقديمَ يُفيدُ الاختِصاصَ، وهنا لا يتأتَّى ذلك؛ لأنَّهم لو خَصُّوا إيمانَهم بهذا الكتابِ فقط لَزِمَ كُفْرُهم بما عَداه، وهو عكسُ المرادِ! وقد أبدَى أهلُ البيانِ هذا في قولِه: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، فقالوا: لو قُدِّمَ «به» لأوهَمَ الاختِصاصَ بالإيمانِ باللهِ وحْدَه دونَ ملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخرِ، وهذا بعَيْنِه جارٍ هنا!

والجوابُ: أنَّ الإيمانَ بغيرِه معلومٌ؛ فانصَبَّ الغرضُ إلى الإيمانِ بهذا[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ إثباتُ عدْلِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ حيثُ لم يُضَيِّعْ أجرَهم الأوَّلَ بالأجرِ الثَّاني؛ ولا الأجرَ الثَّانيَ بالأجرِ الأوَّلِ[(٣)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أنَّ الثَّوابَ على قَدْرِ العملِ؛ قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٥).

شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فهؤلاء كان ثوابُهم مرَّتَين؛ لأنَّهم عَمِلوا مرَّتَين[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أنَّ المُنفِقَ لم يُنْفِقْ ممَّا صَنَعَه أو اكتسبَه بنَفْسِه، ولكنْ يُنفِقُ مِن رزقِ اللهِ، فاللهُ هو الَّذي رَزَقَك، وهو الَّذي أَمَرَك، فأنت في الحقيقةِ خادمٌ، عبدٌ متصرِّفٌ حسَبَ أمرِ سيِّدِك، قال لك: اكتسِبْ؛ فاكتسَبْتَ، قال لك: أنفِقْ؛ فأنفَقْتَ[٣].

٩- قَولُهم: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ هذا مِن أحسَنِ ما يُجابُ به السُّفَهاءُ، وهو أقرَبُ لإصلاحِهم، وأسلَمُ مِن تَزايُدِ سَفَهِهم[٤].

١٠- أنَّ الإنسانَ إذا جَدَّ واجتهَدَ في دعوةِ النَّاسِ إلى الهُدى فلمْ يَهتَدوا؛ فإنَّ عليه أنْ يَتلوَ هذه الآيةَ، وهي: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، وإلَّا فكثيرٌ مِنَ النَّاسِ الآنَ عندَهم أقارِبُ -إمَّا معهم في البُيوتِ، أو خارجَ البُيوتِ- يَدْعونهم إلى الهدَى فلا يَهْتَدونَ! فنقولُ: الحمدُ لله أنْ بَيَّنَ سُبحانَه وتعالى أنَّ هذا الأمرَ ليس إلينا، إنَّما هو إليه سُبحانَه، وإنِ اهتَدَوا فلَهُم ولنا ثَوابُ دَلالتِهم، وإنْ لم يَهتَدُوا فلَنا ثَوابُ الدَّلالةِ والدَّعوةِ، وعليهم وِزْرُ الغَيِّ[٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ إشكالٌ مِن جِهةِ أنَّ ظاهِرَه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُحِبُّ أبا طالبٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٢).

وجوابُ ذلك:

إمَّا أن يُقالَ: إنَّه على تقديرِ أنَّ المفعولَ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ «مَن أحببتَ هِدايتَه»، لا مَن أحبَبْتَه هو.

أو يُقالَ: إنَّه أحَبَّ عمَّه مَحَبَّةً طبيعيَّةً كمَحبَّةِ الابنِ أباه ولو كان كافِرًا.

أو يُقالَ: إنَّ ذلك قبْلَ النَّهي عن محبَّةِ المُشرِكينَ. والأوَّلُ أقرَبُ، أي: مَن أحبَبْتَ هدايتَه لا عَيْنَه، وهذا عامٌّ لأبي طالبٍ وغيرِه[1].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ خانِقةٌ لهم مِن جِهَتينِ:

إحداهما: نِسبةُ الهِدايةِ إليه جَلَّ وتعالى جُملةً، كما هو في سائرِ القُرآنِ.

والأخرى: أنَّ قولَهم في تأويلِ الهِدايةِ: إنَّها البيانُ لا الاضْطِرارُ إليها- خطأٌ لا مَحالةَ؛ بدَلالةِ هذه الآيةِ مِن حيثُ لا يُنكِرونَ، لو أنصَفوا واستَبْصَروا؛ فإنَّا لا نَشُكُّ -ولا هُم- أنَّ اللهَ جلَّ جَلالُه قد بَيَّنَ لكُلِّ مَن خاطَبَه بالإيمانِ طَريقَ الهِدايةِ، ورَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد بَيَّنَها لكُلِّ مَن أُرسِلَ إليه، وأحَبَّها له، وأنَّه لم يَحرِصْ على إيمانِ عمِّه إلَّا وقد بَيَّنَ له طَريقَ الهِدايةِ مرَّةً بعْدَ أخرى؛ فهل تَكونُ الهِدايةُ الَّتي لم يَقْدِرْ عليها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِعَمِّه إلَّا هدايةَ الاضْطِرارِ والإجبارِ، لا هِدايةَ البيانِ الَّتي قد كان فَرَغ منها، وأدَّى أمْرَ اللهِ إلى أهلِه فيها[2]؟

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ مع

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٧١).

قَولِه سُبحانَه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢] إيهامُ تَعارُضٍ.

وجوابُه: أنَّه لا تَناقُضَ في الآيتَينِ؛ إذ المُرادُ بالهِدايةِ التي نفاها الله عن نبيِّه صلى الله عليه وسلم في الآيةِ الأُولى هِدايةُ التَّوفيقِ، وهي الهدايةُ المستلزمةُ للاهتداءِ، فلا يتخلَّفُ عنها، وهذه لا يقدِرُ عليها ولا يَملِكُها إلَّا اللهُ وحْدَه، والمرادُ بالهدايةِ المثبتَةِ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم في الآيةِ الثَّانيةِ هِدايةُ الدَّلالةِ والبيانِ والإرشادِ، وهذه تكونُ مِنَ الله تعالى ومِن غيرِه، فتَكونُ مِنَ الرُّسلِ ووَرَثَتِهم مِنَ العلماءِ الرَّبَّانيِّينَ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ﴾ اللَّامُ و(قَدْ) كِلاهُما للتَّأكيدِ ردًّا عليهم؛ إذ جَهِلُوا حِكمةَ تَنْجيمِ نُزولِ القُرآنِ، وذُكِرَتْ لَهُمْ حِكمةُ تَنْجيمِه هنا بما يَرْجِعُ إلى فائدتِهم بقولِه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وذُكِرَ في سورةِ (الفُرقانِ) حِكمةٌ أُخرى راجِعةٌ إلى فائدةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢]، وفُهِمَ مِن ذلك أنَّهم لم يَتَذَكَّروا[(٢)].

- و(وَصَّلَ) قيل: إنَّه مُضمَّنٌ معنى «بَيَّنَ»؛ ففيه أنَّ الوَحيَ مُشتمِلٌ على غايةِ البَيانِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٧١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤٤).

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾.

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ لَمَّا أفْهَمَ قولُه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١] أنَّهم لم يَفْعَلُوا، ولم يَكونُوا عندَ رَجاءِ الرَّاجي؛ عَقَّبَ ذلك بهذه الجُملةِ المُستأْنَفةِ استِئْنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّها جوابٌ لسؤالِ مَنْ يَسألُ: هلْ تَذَكَّرَ غيرُهم بالقرآنِ، أو استَوى النَّاسُ في عدَمِ التَّذكُّرِ به؟

فأُجيبَ: بأنَّ الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ مِن قَبْلِ نُزولِ القرآنِ يُؤمِنونَ به إيمانًا ثابتًا[١].

- قولُه: ﴿هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ فيه تَقديمُ المُسنَدِ إليه: ﴿هُم﴾، على الخبَرِ الفِعليِّ: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لِتَقَوِّي الخَبرِ، وأيضًا ضَميرُ الفَصْلِ ﴿هُم﴾ مُفيدٌ للقَصْرِ الإضافيِّ، أيْ: هُمْ يُوقِنونَ، بخِلافِ هؤلاءِ الَّذينَ وصَّلْنا لهمُ القَولَ. ومَجيءُ المُسنَدِ: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ مُضارِعًا؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ إيمانِهم وتجدُّدِه[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ فيه حِكايةُ إيمانِهم بالمُضِيِّ في قولِه: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾، مع أنَّهم يَقولونَ ذلكَ عند أوَّلِ سَماعِهم القرآنَ؛ لأنَّ المُضِيَّ مُستعمَلٌ في إنشاءِ الإيمانِ مِثلَ استِعمالِه في صِيَغِ العُقودِ، أو للإشارةِ إلى أنَّهم آمَنوا به مِن قبْلِ نُزولِه، أيْ: آمَنُوا بأنَّه سيَجيءُ رسولٌ بكتابٍ مُصَدِّقٍ لِمَا بيْنَ يدَيْه؛ يعني: إيمانًا إجْماليًّا يَعقُبُه إيمانٌ تفصيليٌّ عندَ سَماعِ آياتِه[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ استِئْنافٌ لِبَيانِ ما أوْجَب إيمانَهم به، وقولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ استِئنافٌ آخَرُ؛ للدَّلالةِ على أنَّ إيمانَهم به ليس ممَّا أَحْدَثوه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤٣، ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤٤).

حينَئذٍ، وإنَّما هو أمرٌ تقادَمَ عَهْدُه لَمَّا رأَوْا ذِكْرَه في الكُتبِ المُتقَدِّمةِ، وكَوْنَهم على دِينِ الإسلامِ قبْلَ نُزولِ القرآنِ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ التَّعبيرُ عنهم باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هنا؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أَحْرِياءُ بما سيُذْكَرُ بعدَ اسمِ الإشارةِ؛ مِن أجْلِ الأوصافِ الَّتي ذُكِرَتْ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٢]، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للدَّلالةِ على عُلُوِّ رُتْبتِهم، وبُعْدِ مَنزلَتِهم في الشَّرَفِ والفضيلةِ[٣].

- قولُه: ﴿يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ أيْ: يُؤْتَونَ أجْرَيْنِ على إيمانِهم، أيْ: يُضاعَفُ لهمُ الثَّوابُ لأجْلِ أنَّهم آمَنوا بكِتابِهم مِن قَبْلُ، ثمَّ آمَنوا بالقُرآنِ؛ فعَبَّرَ عن مُضاعَفةِ الأجرِ ضِعْفَيْنِ بالمرَّتَينِ؛ تَشبيهًا للمُضاعَفةِ بتَكريرِ الإيتاءِ، وإنَّما هو إيتاءٌ واحدٌ. وفائدةُ هذا إظهارُ العِنايةِ حتَّى كأنَّ المُثيبَ يُعطي، ثمَّ يُكرِّرُ عَطاءَه[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

- قولُه: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ أيْ: أعمالُنا مُستَحَقَّةٌ لنا، وهو كِنايةٌ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٤، ١٤٥).

مُلازَمَتِهم إيَّاها، وقولُهم: ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ تَتْميمٌ[١]، على حدِّ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[٢] [الكافرون: ٦].

- وقد أَنطَقَهُمُ اللهُ بحكمةٍ جَعَلَها مُستأْهِلةً لأنْ تُنظَمَ في سِلْكِ الإعجازِ، فأَلْهَمهم تلك الكَلِماتِ، ثمَّ شَرَّفَها بأنْ حِيكَتْ في نَسْجِ القرآنِ، ولعلَّ القرآنَ غيَّرَ مَقالَتَهم بالتَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ لِتكونَ مُشتمِلةً على الخُصوصيَّةِ المُناسِبةِ للإعجازِ؛ لأنَّ تأخيرَ الكلامِ الَّذي فيه المُتارَكةُ إلى آخِرِ الخِطَابِ أَوْلَى؛ لِيَكونَ فيه بَراعةُ المَقْطَعِ[٣].

- قولُه: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ تَعليلٌ للمُتارَكةِ، أيْ: لِأَنَّا لا نُحِبُّ مُخالَطةَ أهلِ الجَهالةِ باللهِ وبدِينِ الحقِّ، وأهْلِ خُلُقِ الجهلِ الَّذي هو ضِدُّ الحِلْمِ؛ فاستُعمِلَ الجهلُ في مَعنَيَيْهِ المُشتَرَكِ فيهما[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾

---

(١) التَّتميم: من أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و (٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١، ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- جملةُ ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ استِئْنافٌ ابتِدائيٌّ، وافتِتاحُها بحرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) اهتِمامٌ باستِدْعاءِ إقبالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على عِلْمِ ما تضَمَّنَتْه، وهو كِنايةٌ عن الأمرِ بالتَّفويضِ في ذلك إلى اللهِ تعالى[١].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ مَفعولُ فِعْلِ المَشيئةِ مَحْذوفٌ؛ لِدَلالةِ ما قَبْلَه عليه، أي: مَن يَشاءُ اهتِداءَه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤٨).

الآيات (٥٧-٥٩)

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُتَخَطَّفۡ﴾: أي: نُؤخَذْ لقِلَّتِنا، والتَّخَطُّفُ: الانتِزاعُ بسُرعةٍ، وأصلُ (خطف): يدُلُّ على استِلابٍ في خِفَّةٍ[(١)].

﴿يُجۡبَىٰٓ﴾: أي: يُجمَعُ ويُجلَبُ، مِن قَولِهم: جَبَيتُ الماءَ في الحَوضِ: إذا جمَعْتَه فيه، والاجتباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطِفاءِ، وأصلُه: يدُلُّ على جَمعِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿بَطِرَتۡ﴾: أي: أشِرَتْ وطَغَتْ وبَغَتْ، وأصلُ (بطر): يدُلُّ على الطُّغيانِ في النِّعمةِ[(٣)].

﴿أُمِّهَا﴾: أي: أصلِها وأعظمِها، قيل: المرادُ مكَّةُ، ويُقالُ لكلِّ ما كان أصلًا

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٠٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٤)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ٢٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

لوجودِ شيءٍ أو تربيتِه أو إصلاحِه أو مبدئِه: أمٌّ، وأصلُ (أمم) هنا: الأصلُ والمرجعُ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾

قَولُه: ﴿مَعِيشَتَهَا﴾: فيه أوجُهٌ:

أحَدُها: أنَّه مفعولٌ به على تَضمينِ ﴿بَطِرَتْ﴾ معنى «خَسِرَت».

الثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ على نَزعِ الخافِضِ «في»، أي: في مَعيشتِها.

الثَّالِثُ: أنَّه منصوبٌ على التمييزِ عندَ مَن يُجَوِّزُ تعريفَه، وهو قَريبٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يَذْكُرُ الله تعالى بعضَ الأعذارِ الواهيةِ التي تعلَّق بها المشركونَ في عدَمِ اتِّباعِ الهُدى، ويَرُدُّ عليها، فيقولُ: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: إنْ نُؤمِنْ بك -يا محمَّدُ- ونَعْبُدِ اللهَ وحْدَه، يُخرِجْنا مُشرِكو العرَبِ مِن مكَّةَ، أو يَقتُلونا؛ لِمُخالَفتِنا دينَهم. أوَلَمْ نجعَلْ لأهلِ مكَّةَ بلدًا آمِنًا مِن انتِهاكِ حُرمتِه بقِتالٍ وغَيرِه، تُجلَبُ إليه الثَّمَراتُ المتنَوِّعةُ مِن مختَلَفِ البلادِ، عطاءً من عِندِنا؟ ولكِنَّ أكثَرَ كُفَّارِ مكَّةَ لا يَعلمونَ، ويَكفُرون ولا يَشكُرونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٠٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٢٨)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكِّي (٢/ ٥٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٨٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٠٥).

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه الأسبابَ الَّتي تؤدِّي إلى الهلاكِ وزَوالِ النِّعَم، مُعَرِّضًا بأهلِ مَكَّةَ، فيقولُ: وما أكثَرَ القُرى الَّتي أهلَكْناها لَمَّا طغى أهلُها وتكَبَّروا! فتلك بيوتُهم لم يَسْكُنْها أحدٌ مِن بعدِ هَلاكِهم إلَّا قليلًا مِنَ السُّكنَى لبَعضِ مَن يَمُرُّ بها، وكنَّا نحن الوارِثينَ لِمَساكِنِهم.

ولم يكُنْ ربُّك -يا محمَّدُ- لِيُهلِكَ القُرى حتَّى يَبعَثَ في أصْلِها الَّذي تتبَعُه هذه القُرى رَسولًا يَتْلو عليهم آياتِ اللهِ، ولم نكُنْ مُهلِكينَ القُرى إلَّا وأهلُها ظالِمونَ مُستَحِقُّون للهَلاكِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ذَكَرَ اللهُ سُبحانَه بعضَ شُبَهِ المشركينَ وأجاب عنها بالأجوبةِ الواضِحةِ، وبَيَّنَ أنَّ وُضوحَ الدَّلائلِ لا يكفي ما لم يَنضَمَّ إليه هِدايةُ اللهِ تعالى؛ حكَى عنهم شُبهةً أخرى مُتعَلِّقةً بأحوالِ الدُّنيا[1]، فقال تعالى:

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: إنْ نُؤمِنْ بك -يا مُحمَّدُ- فنَعبُدِ اللهَ وَحْدَه، ينتَزِعْنا مُشرِكو العَرَبِ سَريعًا مِن مكَّةَ، فيُخرِجونا منها أو يَأْسِرونا أو يَقتُلونا؛ لِمُخالَفتِنا دينَهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٩)، ((تفسير =

﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾.

أي: أوَلَمْ نجعَلْ لأهلِ مكَّةَ بلَدًا حرَّمْنا على النَّاسِ انتِهاكَ حُرمتِه بقِتالٍ وغيرِه، فجعَلْناه آمِنًا[1]؟

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَفَ سُبحانَه الحَرَمَ بالأمنِ؛ أتْبَعَه بما تَطلُبُه النَّفْسُ بعْدَه، فقال[2]:

﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

أي: تُجمَعُ وتُجلَبُ إليه الثَّمَراتُ الكَثيرةُ المُتنوِّعةُ مِن البُلدانِ المُختَلِفةِ[3].

= السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٨).

قال ابنُ جُزَي: (والهُدى هو الإسلامُ، ومعناه: الهُدى على زَعمِك. وقيل: إنَّهم قالوا: قد عَلِمْنا أنَّ الَّذي تقولُ حَقٌّ، ولكِنْ إنِ اتَّبَعْناك تَخَطَّفَتْنا العرَبُ، أي: أهلَكونا بالقِتالِ؛ لِمُخالَفةِ دينِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٥، ٢٨٦).

قال ابن كثير: (فقال الله تعالى مجيبًا لهم: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يعني: هذا الَّذي اعتَذَروا به كَذِبٌ وباطِلٌ؛ لأنَّ اللهَ جعَلَهم في بلدٍ أمينٍ، وحَرَم مُعَظَّمٍ آمِنٍ منذُ وُضِعَ، فكيف يكونُ هذا الحَرَمُ آمِنًا في حالِ كُفرِهم وشِرْكِهم، ولا يكونُ آمِنًا لهم وقد أسلَموا وتابَعوا الحقَّ؟!). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٨، ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾.

أي: عَطاءً خاصًّا مِن عِندِنا[١].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ كُفَّارِ مكَّةَ لا يَعلَمونَ أنَّ مَن رزَقَهم وأمَّنَهم فيما مضَى حالَ كُفرِهم يَرزُقُهم لو أسلَموا، ويمنَعُ الكُفَّارَ عنهم حالَ إسلامِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ٣، ٤].

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

ذَكَر سُبحانَه إهلاكَ القُرى السَّابقةِ لأجْلِ أن يُقالَ لِقُرَيشٍ: «الكفرُ لا يمنَعُ الخَوفَ، ولا يمنَعُ العُقوبةَ»، بل إنَّه سببُ العُقوبةِ، فأنتم تقولونَ: «إنَّنا إذا آمَنَّا تخطَّفَنا النَّاسُ»! هذا ليس بالحقيقةِ، بل العكسُ هو الحَقيقةُ؛ ولهذا قال: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَا﴾، فكأنَّ اللهَ يُدَلِّلُ لتكذيبِ هؤلاء بأنَّ الكُفرَ

= (٦/ ٢٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٦، ٢٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٩، ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٧).

أهلَكَ الأُمَمَ السَّابقةَ الَّتي بَطِرَتْ مَعيشتَها[١].

وأيضًا لَمَّا قال الكُفَّارُ: «إنَّا لا نُؤمِنُ؛ خَوفًا مِن زَوالِ نِعمةِ الدُّنيا»؛ بَيَّن اللهُ تعالى لهم أنَّ الإصرارَ على عدَمِ قَبولِ الإيمانِ هو الَّذي يُزيلُ هذه النِّعَمَ؛ لا الإقدامَ على الإيمانِ[٢]!

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾.

أي: وما أكثَرَ القُرَى الَّتي طغَى أهلُها بالنِّعَمِ وتكَبَّروا بها، وألْهَتْهم وأشْغَلَتْهم عن شُكرِ رَبِّهم؛ فكَفَروا به، فأهلَكَهم وأزال عنهم نِعَمَه[٣]!

كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣].

﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَسَبَّبَ عن الإخبارِ السَّابقِ تَشَوُّفُ النَّفْسِ إلى آثارِ هذه الدِّيارِ؛ سَبَّبَ عنه الإشارةَ بأداةِ البُعدِ إلى مَنازِلِهم؛ تَنبيهًا على كَثرتِها، وسُهولةِ الوُصولِ إليها في كلِّ مكانٍ؛ لِكَونِها بحيثُ يُشارُ إليها، وعلى بُعْدِ رُتبتِها في الهلاكِ دليلًا على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٦، ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٩، ٢٩٠).

الجُملةِ التي قَبْلَها، فقال: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾، ولَمَّا كان المعنى أنَّها خاويةٌ على عروشِها؛ وَصَل به قولَه: ﴿لَمْ تُسْكَن﴾[١].

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: فتلك بُيوتُ القَومِ الَّذين أهلَكْناهم لم يَسكُنْها أحَدٌ مِن بعْدِ هلاكِهم إلَّا قَليلًا مِن السُّكْنى حينَ يَنزِلُ بعضُ المارَّةِ فيما بَقِيَ منها[٢].

﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

أي: وكُنَّا نحنُ الوارِثينَ لِمَساكِنِهم، ولم يَملِكْها أحدٌ مِن بَعْدِهم[٣].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أُعْقِبَ الاعتِبارُ بالقُرَى المُهْلَكةِ ببيانِ أشراطِ هلاكِها وسببِه؛ استِقصاءً للإعذارِ لِمُشركي العَربِ[٤].

وأيضًا فإنَّ الله سبحانَه لَمَّا ذَكَر أنَّه أهْلَك تلك القُرَى بسببِ بَطَرِ أهلِها، فكأنَّ سائلًا أورَدَ سؤالًا: لماذا ما أهلَك اللهُ الكفَّارَ قبْلَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع أنَّهم كانوا مُستغرِقينَ في الكفرِ والعِنادِ؟ فأجاب عن هذا السُّؤالِ بقولِه[٥]:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧).

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾.

أي: ولم يكُنْ ربُّك -يا محمَّدُ- لِيُهلِكَ القُرى حتَّى يَبعَثَ في أعظَمِها وأصْلِها الَّذي تَتْبَعُه القُرى رَسولًا يَتْلو على أهلِها آياتِ اللهِ الدَّالَّةَ على صِدقِ رِسالتِه، فيُقيمَ الحُجَّةَ عليهم[1].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٢، ١٥٣).

قال ابنُ عطيَّة: (إن كانتِ الإرادةُ بـ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ المُدُنَ الَّتي في عصرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فـ «أُمُّ القُرى» مكَّةُ، وإن كانتِ الإرادةُ القُرى بالإطلاقِ في كلِّ زمَنٍ؛ فـ ﴿أُمِّهَا﴾ في هذا المَوضِعِ: أعظَمُها وأفْضَلُها الَّذي هو بمَثابةِ مكَّةَ في عصرِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإن كانتْ أمَّ القرى كلِّها أيضًا مِن حيثُ هي أوَّلُ ما خُلِقَ مِن الأرضِ، ومِن حيثُ فيها البيتُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بـأُمِّ القُرى: مكَّةُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزجاج، والقرطبي، وابن كثير، وابن عاشور. ونسَبَه الواحديُّ لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٩٧).

قال ابن عاشور: (وقُرى بِلادِ العَرَبِ كثيرةٌ؛ مِثلُ مكَّةَ، وجدَّةَ، ومِنًى، والطَّائفِ، ويَثْرِبَ، وما حَوْلَها مِنَ القُرى؛ وكذلك قُرى اليَمَنِ، وقُرى البَحرَينِ. وأُمُّ القُرى هي القريةُ العظيمةُ منها، وكانت مكَّةُ أعظَمَ بلادِ العربِ شُهرةً، وأَذْكَرَها بيْنَهم، وأكثَرَها مارَّةً وزُوَّارًا؛ لِمكانِ الكعبةِ فيها، والحجِّ لها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٢). =

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾.

أي: وما كُنَّا لِنُهلِكَ القُرى إلَّا وأهلُها مُستَحِقُّون للهَلاكِ؛ بسبَبِ اتِّصافِهم بالظُّلمِ -بالكُفرِ وغيرِه- وذلك مِن بَعْدِ الإعذارِ إليهم(١).

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ دَلالةٌ على صِحَّةِ الحِجاجِ الَّذي يُتوصَّلُ به إلى إزالةِ شُبهةِ المُبطِلينَ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أنَّ فِعلَ العبدِ خَلْقُ اللهِ تعالى، وبيانُه أنَّ

= وممَّن اختار أنَّ القرَى على عُمومِها، وأنَّ المرادَ بأُمِّها: أعْظَمُها: الواحديُّ، والبيضاوي، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

قال ابن كثير: (وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ أي: أصْلِها وعَظيمتِها؛ كأُمَّهاتِ الرَّساتِيقِ والأقاليم. حكاه الزمخشريُّ وابنُ الجوزي وغيرُهما، وليس ببعيدٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦).

تلك الأرزاقَ إنَّما كانت تَصِلُ إليهم؛ لأنَّ النَّاسَ كانوا يَحمِلونَها إليهم، فلو لم يكُنْ فِعلُ العبدِ خَلْقًا للهِ تعالى لَمَا صَحَّتْ تلك الإضافةُ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ وهي مكَّةُ -على قولٍ في التفسيرِ- ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ النبيَّ الأُميَّ، وهو محمَّدٌ، صلواتُ الله وسلامُه عليه، المبعوثُ مِن أمِّ القُرَى، رسولٌ إلى جميعِ القُرَى، مِن عربٍ وأعجامٍ، كما قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾[٢] [هود: ١٧].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بظُلمِه، وإقامةِ الحُجَّةِ عليه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿نُتَخَطَّفْ﴾ التَّخطُّفُ مُبالَغةٌ في الخَطْفِ، وهو انتِزاعُ شَيءٍ بسُرعةٍ[٤].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ استِفْهامُ إنكارٍ أنْ يكونَ اللهُ لم يُمَكِّنْ لهم حَرَمًا، ووَجْهُ الإنْكارِ أنَّهم نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَنْفي أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٨).

ذلكَ الحَرَمَ مِن تَمْكينِ اللهِ، فاستُفْهِموا على هذا النَّفْيِ استِفهامَ إنكارٍ، وهذا الإنكارُ يَقتضي تَوبيخًا على هذه الحالةِ الَّتي نُزِّلوا لأجْلِها مَنزِلةَ مَن يَنفي أنَّ اللهَ مَكَّنَ لهم حَرَمًا[١].

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حَصَل في خلالِ الرَّدِّ لقَولِهم إدْماجٌ[٢] للامْتِنانِ عليهم بهذه النِّعمةِ؛ ليَحْصُلَ لهم وازِعانِ عن الكُفْرِ بالمُنْعِمِ؛ وازِعُ إبْطالِ مَعْذِرتِهم عن الكُفرِ، ووازِعُ التَّذْكيرِ بنِعْمةِ المَكْفورِ به[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نَفْيُ العِلْمِ عن أكثَرِهم؛ لأنَّ بعضَهم أصحابُ رأْيٍ، فلو نَظَروا وتَدَبَّروا لَمَا قالوا مَقالتَهم تلكَ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَخْويفِ أهْلِ مكَّةَ مِن سُوءِ مَغَبَّةِ مَنْ كانوا في نِعمةٍ، فغَمَطُوها وقابَلُوها بالأَشَرِ والبَطَرِ[٥].

وقيل: هو عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص: ٥٧]، باعتِبارِ ما تَضَمَّنَتْه مِنَ الإنكارِ والتَّوبيخِ؛ فإنَّ ذلك يَقتضي التَّعرُّضَ للانتِقامِ شأنَ الأُمَمِ الَّتي كَفَرَتْ بنِعَمِ اللهِ؛ فهو تَخْويفٌ لقُريشٍ مِنْ سُوءِ عاقبةِ أقوامٍ كانوا في مِثْلِ حالِهم مِنَ الأمنِ والرِّزقِ، فغَمَطُوا النِّعمةَ، وقابَلُوها بالبَطَرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٥٤).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٠).

- قولُه: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ الإشارةُ بـ(تِلْكَ) إلى مَساكِنِهم الَّذي بُيِّنَ به اسمُ الإشارةِ؛ لأنَّه في قوَّةِ تلكَ المَساكِنِ، وبذلك صارَتِ الإشارةُ إلى حاضِرٍ في الذِّهْنِ مُنَزَّلٍ مَنزِلةَ الحاضرِ بمَرْأَى السَّامِعِ[١].

- وقولُه: ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أيْ: لم يَتْرُكوا فيها خَلَفًا لهم، وذلك كنايةٌ عن انقِراضِهم على بَكْرةِ أبيهم[٢].

- وقولُه: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ احتِراسٌ، أيْ: إلَّا إقامةَ المارِّينَ بها المُعتَبِرينَ بهَلاكِ أهلِها، والسَّكَنُ القليلُ هو مُطلَقُ الحُلولِ بغيرِ نيَّةِ إطالةٍ؛ فهي إلْمامٌ لا سُكْنَى؛ فإطلاقُ السُّكْنَى على ذلك مُشاكَلةٌ لِيَتأتَّى الاستِثْناءُ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ قَصْرُ إرْثِ تلكَ المَساكِنِ على اللهِ تعالى، أيْ: لا يَرِثُها غيرُنا، وهو كِنايةٌ عن حِرْمانِ تلكَ المَساكِنِ مِنَ السَّاكِنِ، وتلكَ الكِنايةُ رمْزٌ إلى شِدَّةِ غَضَبِ اللهِ تعالى على أهْلِها الأوَّلينَ؛ بحيثُ تَجاوَزَ غضَبُه السَّاكِنينَ إلى نَفْسِ المَساكِنِ، فعاقَبَها بالحِرمانِ مِن بَهْجةِ المَساكِنِ؛ لأنَّ بَهجةَ المَساكِنِ سُكَّانُها[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ بيانٌ للعِنايةِ الرَّبَّانيَّةِ إثْرَ بَيانِ إهْلاكِ القُرى المَذكورةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥١، ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠).

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا ...﴾ المُرادُ بإهْلاكِ القُرى: إهْلاكُ أهلِها، وإنَّما عُلِّقَ الإهلاكُ بالقُرى؛ للإشارةِ إلى أنَّ شِدَّةِ الإهلاكِ بحيثُ يأتي على الأُمَّةِ وأهلِها، وهو الإهلاكُ بالحَوادثِ الَّتي لا تَستَقِرُّ معها الدِّيارُ، بخِلافِ إهلاكِ الأُمَّةِ؛ فقد يكونُ بطاعُونٍ ونحوِه، فلا يَترُكُ أثرًا في القُرى[1].

وقيل: خُصَّتِ القُرى بالذِّكْرِ؛ لأنَّ العِبْرةَ بها أظْهَرُ؛ لأنَّها إذا أُهْلِكَتْ بَقِيَتْ آثارُها وأَطْلالُها، ولم يَنقَطِعْ خَبَرُها مِنَ الأجيالِ الآتيةِ بعْدَها، ويُعْلَمُ أنَّ الخِيامَ مِثْلُها بحُكْمِ دَلالةِ الفَحْوى[2].

- وإفراغُ النَّفْيِ في صيغةِ (ما كان فاعِلًا) ونَحْوِه مِن صِيَغِ الجُحُودِ؛ كما في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ...﴾؛ يُفيدُ رُسوخَ هذِه العادةِ واطِّرادَها[3].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ في إسنادِ الخبَرِ إلى اللهِ بعُنوانِ رُبوبيَّتِه للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ﴿رَبُّكَ﴾؛ إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ بهذا الإنذارِ هم أُمَّةُ محمَّدٍ الَّذينَ كَذَّبوا -أي: مِن أمةِ الدعوةِ-؛ فالخِطابُ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ لهذا المَقصدِ؛ ولهذا وقَعَ الالتِفاتُ عنه إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ في قولِه: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الآياتِ مِن عندِ اللهِ، وأنَّ الدِّينَ دينُ اللهِ[4]. وقيل: الالتِفاتُ إلى نُونِ العَظَمةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥٢).

وقد تقدم تعريف فحوى الخطاب (ص: ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥٣).

لتَربيةِ المَهابةِ، وإدخالِ الرَّوْعةِ[١].

- وحصَلَ في هذه الجُملةِ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ تفنُّنٌ في الأساليبِ؛ إذْ جَمَعَتِ الاسمَ الظَّاهرَ، وضمائرَ الغَيْبةِ والخِطابِ والتَّكَلُّمِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٣).

الآيات (٦٠-٦٧)

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ٦٤ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ٦٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَمَتَٰعُ﴾: المتاعُ: المتعةُ، والانتفاعُ، وأصلُ (متع): المنفعةُ، وامتِدادُ مدَّةٍ في خيرٍ[(١)].

﴿أَغۡوَيۡنَآ﴾: أي: أضْلَلْنا، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشْدِ[(٢)].

﴿فَعَمِيَتۡ﴾: أي: خَفِيَتْ والْتَبَسَتْ، وأصلُ (عمي): يدُلُّ على سَترٍ وتَغطيةٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٩).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى حقارةَ الدُّنيا وما فيها مِن متاعٍ بالنِّسبةِ لِما أعَدَّه للمؤمنينَ في الآخرةِ مِنَ النَّعيمِ العظيمِ، فيقولُ: وما آتاكم اللهُ مِنَ النِّعَمِ واللَّذَّاتِ فإنَّما هو متاعٌ تتمَتَّعونَ به في حياتِكم الدُّنيا، ثمَّ لا يلبَثُ أن يَزولَ، وما عندَ اللهِ في الجنَّةِ خَيرٌ وأدوَمُ لأهلِه؛ فإنَّه ثوابٌ لا ينفَدُ، أفلا تَعقِلون؟!

ثمَّ يَنفي التَّسويةَ بينَ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ، فيقولُ: أفمَن وعَدْناه الجنَّةَ، فهو لاقٍ ما وُعِدَه، وصائرٌ إلى ثوابِ اللهِ في الآخرةِ، كمَنْ هو كافرٌ مُكَذِّبٌ بلِقاءِ اللهِ، مُؤْثِرٌ لَذَّةَ العاجلةِ، مُمَتَّعٌ في الحياةِ الدُّنيا فحسْبُ، ثمَّ هو يومَ القيامةِ مِن المُحضَرينَ للجَزاءِ؟!

ثمَّ يحكي الله تعالى جانبًا مِن أحوالِ المشركينَ يومَ القيامةِ، وما يُوبِّخُهم به، فيقولُ: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ فيَقولُ لهم: أين شُرَكائيَ الَّذين كنتُم في الدُّنيا تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لي في العبادةِ؟ قال الدُّعاةُ إلى الكُفرِ والضَّلالِ الَّذين وجَبَ عليهم عذابُ اللهِ وغَضَبُه: يا ربَّنا، هؤلاء الَّذين دَعَوْناهم إلى الباطِلِ فأطاعونا، أضلَلْناهم مِثلَما كُنَّا ضالِّينَ، تَبَرَّأْنا إليك منهم؛ فما كانوا في الدُّنيا يَعبُدونَنا، إنَّما كانوا يَتَّبِعون أهواءَهم!

وقيل للمُشرِكين: ادعُوا الَّذين كنتُم تَعبدونَهم وتَزعُمونَهم شُرَكاءَ لله؛ لِيَنفَعوكم اليومَ، فدعاهم المُشرِكون فلمْ يُجيبوهم، ورأَوْا جميعًا -التَّابعُ منهم والمَتبوعُ- العذابَ الَّذي سيَحُلُّ بهم. لو أنَّ المُشرِكين كانوا في الدُّنيا مُهتَدينَ للحَقِّ، لَمَا اتَّبَعوا شُرَكاءَ مِن دونِ الله.

واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ، فيَقولُ لهم: ماذا أَجبتُمُ المُرسَلينَ؟ هل آمَنتُم بهم واتَّبَعتُموهم، أمْ كفَرْتُم بهم وكذَّبْتُموهم؟ فخَفِيَتِ الحُجَجُ عليهم

يومَ القيامةِ ولم يَهتَدوا إلى جوابٍ صحيح، فهم لا يَسألونَ أحدًا عمَّا يُجيبونَ به اللهَ فيما سألهَم عنه. فأمَّا مَن تاب وآمَنَ وعَمِلَ عمَلًا صالِحًا، فهو في الآخرةِ مِنَ الفائزينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذا هو الجوابُ الثَّالثُ عن شُبْهَتِهم الَّتي حاصلُها أنْ قالوا: تَرَكْنا الدِّينَ لِئَلَّا تَفُوتَنا الدُّنيا، فبَيَّن تعالى أنَّ ذلك خطأٌ عظيمٌ؛ لأنَّ ما عندَ اللهِ خَيْرٌ وأبقَى[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَّرهم اللهُ بنِعَمِه عليهم تذكيرًا أُدْمِجَ في خلالِ الرَّدِّ على قولِهم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ﴾ بقولِه: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القَصَص: ٥٧]؛ أعْقَبه بأنَّ كلَّ ما أُوتُوه مِن نعمةٍ هو مِن متاعِ الحياةِ الدُّنيا، وزينَتِها، وأمَّا ما عندَ اللهِ مِن نعيمِ الآخرةِ فهو خيرٌ مِن ذلك وأبقَى؛ لئلَّا يَحْسَبوا أنَّ ما هم فيه مِنَ الأمنِ والرِّزْقِ هو الغايةُ المطلوبةُ فلا يَتَطَلَّبوا ما به تحصيلُ النَّعيمِ العظيمِ الأبَدِيِّ، وتحصيلُه بالإيمانِ[2].

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَا﴾.

أي: وما آتاكم اللهُ مِن الأموالِ والأولادِ وغَيرِها مِنَ النِّعَمِ واللَّذَّاتِ، فإنَّما هو مَتاعٌ تَتمَتَّعونَ به في حياتِكم الدُّنيا، وتَتزيَّنونَ به فيها، ثمَّ يَزولُ عنكم سريعًا، ولا يَنفَعُكم بشَيءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤).

كما قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [سبأ: ٣٧].

وعن المُستَورِدِ بنِ شَدَّادٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثلُ ما يَجعَلُ أحَدُكم إِصبَعَه هذه في اليَمِّ؛ فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟!))[(١)].

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾.

أي: وما عندَ اللهِ في الجنَّةِ أفضَلُ وَصفًا وكَمِّيَّةً مِن مَتاعِ الدُّنيا وزينتِها، وأدوَمُ لأهلِه؛ لأنَّه ثوابٌ لا يَنفَدُ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقال سُبحانَه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحى: ٤].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

أي: أفلا تَتدَبَّرونَ -أيُّها النَّاسُ- بعُقولِكم، فتَعرِفونَ بها أنَّ ثوابَ الآخِرةِ الباقيةِ خَيرٌ مِن نَعيمِ الدُّنيا الفانيةِ[(٣)]؟!

---

(١) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تَفاوُتَ ما بيْنَ ما أُوتوه مِنَ المتاعِ والزِّينةِ، وما عندَ اللهِ مِنَ الثَّوابِ؛ قال: أفَبَعْدَ هذا التَّفاوُتِ الظَّاهرِ يُسوى بيْنَ أبناءِ الآخرةِ وأبناءِ الدُّنيا(١)؟!

وأيضًا لَمَّا أنبأهمُ اللهُ بأنَّ ما هم فيه مِنَ التَّرَفِ إنْ هو إلَّا مَتاعٌ قليلٌ، قابَلَ ذلك بالنَّعيمِ الفائقِ الخالدِ الَّذي أعَدَّ للمُؤمِنينَ(٢).

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ ﴾.

أي: أفمَنْ وعَدْناه على طاعتِه إيَّانا الجنَّةَ، فآمَنَ بما وعَدْناه وأطاعَنا، فهو لاقٍ ما وُعِدَ، وصائِرٌ إلى ثَوابِ اللهِ في الآخرةِ لا مَحالةَ(٣).

﴿ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾.

أي: كمَن هو كافرٌ مُكَذِّبٌ بلِقاءِ اللهِ ووَعْدِه ووَعيدِه، مُؤْثِرٌ اللَّذَّةَ العاجِلةَ على الآجِلةِ، فهو مُمَتَّعٌ في الحياةِ الدُّنيا فحَسْبُ، ثمَّ هو يومَ القيامةِ إذا ورَدَ على اللهِ مِنَ المُحضَرينَ للجَزاءِ(٤)؟!

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثَبَتَ أنَّ الكُفَّارَ يومَ القيامةِ قد عَرَفوا بُطْلانَ ما كانوا عليه، وعَرَفوا صِحَّةَ التَّوحيدِ والنُّبوَّةِ بالضَّرورةِ؛ قال لهم: أينَ ما كنتُم تَعبُدونَه وتَجعَلونَه شَريكًا في العبادةِ، وتَزعُمونَ أنَّه يَشفَعُ؟ أين هو لِيَنصُرَكم ويُخَلِّصَكم مِن هذا الَّذي نزَلَ بكم[1]؟

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ أنَّ المُمَتَّعينَ في الدُّنيا يُحضَرونَ إلى النَّارِ؛ ذَكَرَ شَيئًا مِن أحوالِ يومِ القيامةِ[2].

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ فيَقولُ لهم يومَ القيامةِ: أين شُرَكائيَ الَّذين كُنتُم في الدُّنيا تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لي في العبادةِ، وأنَّهم يَنفَعونَكم ويَنصُرونَكم ويَشفَعونَ لكم[3]؟

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٦).

أي: قال الَّذين وجَبَ عليهم عذابُ اللهِ وغَضَبُه مِنَ الدُّعاةِ إلى الكُفرِ والضَّلالِ: يا ربَّنا، هؤلاءِ التَّابِعونَ لنا الَّذينَ دعَوْناهم إلى الباطِلِ فأطاعونا، أضْلَلْناهم مِثلَما كنَّا ضالِّينَ(١).

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

أي: تبَرَّأْنا إليك مِنَ الَّذينَ أطاعونا وممَّا اختارُوه مِنَ الكُفرِ؛ هَوًى منهم للباطِلِ، ومَقْتًا للحَقِّ، فما كانوا في الدُّنيا يَعبُدونَنا، إنَّما كانوا يَتَّبِعونَ أهواءَهم وشَهَواتِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ۞ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۞ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).
قال ابنُ الجوزي: (﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجَبَ عليهم العذابُ، وهم رُؤساءُ الضَّلالةِ، وفيهم قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّهم رُؤوسُ المشركين، والثَّاني: أنَّهم الشياطين). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٤، ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٦].

﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ﴾.

أي: وقيلَ للمُشرِكينَ: ادعُوا الَّذينَ كُنتُم تَعبدونَهم في الدُّنيا، وتَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لله؛ لِيَنفعوكم ويَنصُروكم[(١)].

﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾.

أي: فدعاهم المُشرِكونَ فلمْ يُجيبوهم، ولم يَنفَعوهم بشَيءٍ[(٢)].

﴿ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾.

أي: ورأى المُشرِكونَ بأعيُنِهم -التَّابِعُ منهم والمَتبوعُ- العذابَ الَّذي سيَحُلُّ بهم[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا قَولُه: ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ ﴾ فهذا دعاءُ المسألةِ، يُبَكِّتُهم اللهُ ويُخزيهم يومَ القيامةِ، بإرائِهم أنَّ شُرَكاءَهم لا يَستجيبونَ لهم دَعوَتَهم، وليس المرادُ: اعبُدوهم. وهو نظيرُ قَولِه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ ﴾ [الكهف: ٥٢]). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۞ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٢، ٥٣].

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾.

أي: لو أنَّ المُشرِكينَ كانوا في الدُّنيا مُهتَدينَ للحَقِّ؛ لَمَا اتَّبَعوا شُرَكاءَ مِن دونِ اللهِ، ولَمَا رأَوُا العَذابَ في الآخرةِ[1].

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أشار إلى أنَّه لا خَلاصَ مِن ذلك الرَّدَى إلَّا بالهُدى؛ أتْبَعَه الإعلامَ بأنَّه لا يُمكِنُ أحدًا هناك أن يَفعَلَ ما قد يَروجُ على سائلِه، كما يُفعَلُ في هذه الدَّارِ مِن إظهارِ ما لم يكُنْ، فقال مُكرِّرًا لتَهويلِ ذلك اليَومِ وتبشيعِه، وتعظيمِه وتفظيعِه، سائلًا عن حقِّ رُسلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بعْدَ السُّؤالِ عن حقِّه سُبحانَه، مُناديًا بعَجزِ الشُّرَكاءِ في الأُخرَى كما كانوا عاجِزينَ في الأُولى[2]:

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ، فيَقولُ لهم: ماذا أجَبْتُمُ المُرسَلينَ الَّذين أرسَلْتُهم إليكم؟ هل آمَنْتُم بهم واتَّبَعْتُموهم، أو كفَرْتُم بهم وكذَّبْتُموهم ولم تُطيعوهم[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

كما قال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾[الأعراف: ٦].

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ ﴾.

أي: فخَفِيَت الحُجَجُ على المُشرِكينَ يومَ القيامةِ، ولم يَهتَدوا إلى جوابٍ صَحيحٍ حينَ يَسألُهم اللهُ عن حالِهم في الدُّنيا مع الرُّسلِ، فيَسكُتون حَيارَى لا يَقدِرونَ على الإجابةِ بشَيءٍ(١).

﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

أي: فلا يَسألونَ أحدًا عمَّا يُجيبونَ به اللهَ فيما سألَهم عنه(٢).

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عُلِمَ حالُ مَن أصَرَّ على كُفْرِه وعَمِلَ سَيِّئًا بطَريقِ العِبارةِ، وأُشيرَ إلى حالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٩٦).

قال القاسمي: (﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي: لا يَسألُ بعضُهم بعضًا عن الجوابِ؛ لِفَرْطِ الدَّهشةِ، أو لِعلمِه بأنَّه مِثلُه في العجزِ عن الجَوابِ، أو لعَجزِهم عن النُّطقِ، وكَوْنِهم مَختومًا على أفواهِهم). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٣١).

وقال ابنُ جرير: (وقولُه: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ قيل: فهم لا يَتساءَلونَ بالأنسابِ والقرابةِ... وقيلَ: معنَى ذلك: فعَمِيَتْ عليهم الحُجَجُ يومئذٍ، فسَكَتوا، فهم لا يَتساءَلونَ في حالِ سُكوتِهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٧).

مَن تاب فوُعِدَ الوعدَ الحسَنَ بألطَفِ إشارةٍ؛ تَسَبَّبَ عن ذلك: التشَوُّفُ إلى التَّصريحِ بحالِهم[١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه حالَ المعَذَّبينَ مِن الكفَّارِ، وما يَجري عليهم مِنَ التَّوبيخِ؛ أَتْبَعَه بذِكْرِ مَن يَتوبُ منهم في الدُّنيا؛ ترغيبًا في التَّوبةِ، وزجرًا عن الثَّباتِ على الكفرِ، فقال[٢]:

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

أي: فأمَّا مَن تاب مِنَ الشِّركِ، وآمَنَ باللهِ ورُسُلِه، وعَمِلَ عَمَلًا صالِحًا بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ فإنَّه يكونُ في الآخرةِ مِنَ الفائِزينَ النَّاجينَ مِن العَذابِ، الخالدينَ في الجنَّةِ[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ هذا حَضٌّ مِن اللهِ لِعبادِه على الزُّهدِ في الدُّنيا، وعَدَمِ الاغترارِ بها، وعلى الرَّغبةِ في الأُخرَى، وجَعْلِها مَقصودَ العَبدِ ومَطلوبَه، ويُخبِرُهم أنَّ جميعَ ما أُوتِيَه الخَلقُ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، والحيواناتِ والأمتعةِ، والنِّساءِ والبَنينَ، والمآكِلِ والمشارِبِ واللَّذَّاتِ: كُلُّها متاعُ الحياةِ الدُّنيا وزينتُها، أي: يُتمتَّعُ به وقتًا قَصيرًا مَتاعًا قاصِرًا محشوًّا بالمنَغِّصاتِ، ممزوجًا بالغُصَصِ. ويُزَيَّنُ به زمانًا يسيرًا للفَخرِ والرِّياءِ، ثمَّ يزولُ ذلك سريعًا، وينقضي جميعًا، ولم يَستَفِدْ صاحِبُه

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٩٧-٢٩٩).

منه إلَّا الحسرةَ والنَّدمَ، والخَيبةَ والحرمانَ[١]!

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكونُ لكم عقولٌ، بها تَزِنونَ أيُّ الأمورِ أَوْلَى بالإيثارِ، وأيُّ الدَّارَينِ أحَقُّ للعملِ لها؟ فدَلَّ ذلك أنَّه بحَسَبِ عَقْلِ العبدِ فإنَّه يُؤْثِرُ الأُخرَى على الدُّنيا، وأنَّه ما آثَرَ أحَدٌ الدُّنيا إلَّا لِنَقصٍ في عقْلِه؛ ولهذا نبَّه العُقولَ على الموازَنةِ بيْنَ عاقبةِ مُؤْثِرِ الدُّنيا ومُؤثِرِ الآخِرةِ، فقال: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾[٢].

٣- طالبُ العلمِ يجبُ عليه أنْ يَتلقَّى المسائلَ بدَلائلِها، وهذا هو الَّذي يُنجيه عندَ الله سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ اللهَ سيَقولُ له يومَ القيامةِ: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؟ ولن يقولَ: «ماذا أجبتُم المؤلِّفَ الفُلانيَّ»! فإذَنْ لا بُدَّ أنْ نعرفَ ماذا قالتِ الرُّسلُ لِنَعمَلَ به، ولكنَّ التَّقليدَ عندَ الضَّرورةِ جائزٌ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فإذا كُنَّا لا نستطيعُ أن نعرفَ الحقَّ بدليلِه فلا بُدَّ أن نسألَ[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أمَّا أنَّه خيرٌ؛ فلِوَجهَينِ؛ أحدِهما: أنَّ المنافعَ هناك أعظَمُ، وثانيهما: أنَّها خالِصةٌ عن الشوائبِ؛ ومنافعُ الدُّنيا مَشوبةٌ بالمَضارِّ؛ بل المَضارُّ فيها أكثرُ.

وأمَّا أنَّها أبقَى فلِأنَّها دائمةٌ غيرُ مُنقطِعةٍ، ومَنافِعُ الدُّنيا منقطعةٌ، ومتى قُوبِلَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٢١).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١/ ١٦).

المُتناهي بغيرِ المتناهي كان عدمًا؛ فكيف ونصيبُ كلِّ أحدٍ -بالقياسِ إلى منافعِ الدُّنيا كلِّها- كالذَّرَّةِ بالقياسِ إلى البحرِ؟! فظَهَر مِن هذا أنَّ منافعَ الدُّنيا لا نِسبةَ لها إلى مَنافعِ الآخرةِ الْبَتَّةَ، فكان مِن الجهلِ العظيمِ ترْكُ منافعِ الآخرةِ لاسْتِبقاءِ منافعِ الدُّنيا(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إثباتُ صِفةِ الكلامِ له سُبحانَه مِن وجهَينِ: النِّداءِ والقَولِ، وهذه الآياتُ -الَّتي فيها إثباتُ كلامِه سُبحانَه- تدُلُّ بمجموعِها على أنَّ اللهَ يَتكلَّمُ بكلامٍ حقيقيٍّ، متى شاءَ، بما شاءَ، بحرفٍ وصَوتٍ مسموعٍ، لا يُماثِلُ أصواتَ المخلوقينَ(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وقولُه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: النِّداءُ الأوَّلُ عن سؤالِ التَّوحيدِ، والثَّاني فيه إثباتُ النُّبوَّاتِ(٣)، فالنَّاسُ يُسألونَ عن إيمانِهم بالرُّسلِ، كما يُسألونَ عن التَّوحيدِ(٤).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أنَّه لا يُغني أحَدٌ عن أحدٍ يومَ القيامةِ، ولا يُنقِذُه ممَّا وَقَع فيه(٥).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٩٤)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٥).

ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ فضيلةُ هذه الأوصافِ الثَّلاثةِ: التَّوبةِ، والإيمانِ، والعملِ الصَّالحِ، وأنَّها سببٌ للفلاحِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أنَّ العملَ لا يَنفعُ إلَّا إذا كان صالِحًا، وهو ما جَمَعَ شَرطينِ؛ هما: الإخلاصُ، والمتابعةُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ ...﴾ فيه الْتِفاتٌ مِنَ الغَيبةِ في قَولِه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا﴾ [القصص: ٥٧] إلى الخِطابِ بقولِه: ﴿أُوتِيتُم﴾؛ لأنَّ ما تَقدَّمَ مِنَ الكلامِ أَوْجَب تَوجيهَ التَّوبيخِ مُواجَهةً إليهم[٣].

- وفي قَولِه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيثُ قالَه هنا بالواوِ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾، وفي سُورةِ (الشُّورَى) قال: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٣٦] بالفاءِ؛ لأنَّ ما هنا لم يَتَعَلَّقْ بما قبْلَه كبيرَ تعلُّقٍ، فناسَبَ الإتيانُ به بالواوِ المُقْتَضِيةِ لمُطْلَقِ الجَمْعِ، وما هناك مُتعلِّقٌ بما قبْلَه أشَدَّ تعلُّقٍ؛ لأنَّه عَقَّبَ ما لهم مِنَ المَخافَةِ بما لهم مِنَ الأمَنَةِ، فناسَبَ الإتيانُ به بالفاءِ المُقْتَضِيةِ للتَّعقيبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار)) للكرماني (ص: ١٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٢).

- وأيضًا قولُه: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَا﴾ قالَهُ هنا بزيادةِ: ﴿وَزِينَتُهَا﴾، وفي (الشُّورَى) بحَذْفِه؛ لأنَّ ما هنا -لسَبْقِهِ- قُصِدَ فيه ذِكْرُ جميعِ ما بُسِطَ مِنْ رِزْقِ أعْراضِ الدُّنيا، فذَكَرَ ﴿وَزِينَتُهَا﴾ مع المَتاعِ؛ لِيَسْتَوْعِبَ جميعَ ذلك؛ إذِ المتاعُ ما لا بُدَّ منه في الحياةِ؛ مِنْ مَأكولٍ، ومَشْروبٍ، ومَلْبُوسٍ، ومَسْكَنٍ، ومَنْكُوحٍ، والزِّينةُ ما يَتجَمَّلُ به الإنسانُ وقد يُسْتَغنى عنه؛ كالثِّيابِ الفاخرةِ، والمراكبِ الرَّائقةِ، والدُّورِ المجصَّصةِ، والأطعمةِ الملبَّقةِ (اللَّيِّنةِ)، وحذَفَه في (الشُّورى) اختِصارًا، أو لأنه لم يُقصَدِ الاستيعابُ، بلْ ما هو مطلوبُهم في تلك الحالةِ مِن النَّجاةِ والأمْنِ في الحياةِ، فلم يُحْتَجْ إلى ذِكْرِ الزِّينةِ[1].

- وقيل: إنَّ سُورةَ (القصصِ) تضمَّنت ذِكْرَ قارونَ وما أُوتِيَه مِن المالِ الَّذي هو زينةُ الحياةِ الدُّنيا، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]، ثمَّ أخبَرَ تعالى عن زَهْوِه واختيالِه بمالِه وظَنِّه استِحقاقَه إيَّاه، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩]، حتَّى قال مَن غفَلَ عن آخرتِه ولم يَعلَمْ ما أعدَّ اللهُ فيها للمؤمنينَ: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ [القصص: ٧٩]، فقدَّم سُبحانَه للمُعتبِرينَ مِن عِبادِه المؤمنينَ، وتنبيهًا للغافِلينَ؛ لتَحصُلَ السَّلامةُ للسُّعداءِ ممَّن عصَمَ بما ابْتَلى به قارونَ؛ فقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ -أي: للمؤمنينَ- ﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠]، وقد أخبَرَهم سُبحانَه في موضعٍ آخَرَ أنَّ الدُّنيا وحياتَها غُرورٌ، وأخبَرَهم أنَّ الآخرةَ هي دارُ القرارِ، وبعْدَ تَحذيرِ المؤمنينَ ورَدَت قِصَّةُ قارونَ، فالتَحمَتِ الآيةُ بتلك القِصَّةِ،

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار)) للكرماني (ص: ١٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٢).

وقيلَ هنا: ﴿وَزِينَتُهَا﴾، كما قيل في تلك: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩]، ومَنِ الَّذي يَعدِلُ عمَّا عندَ اللهِ سُبحانَه إلى ما جعَلَه تعالى سببًا لإهلاكِ المشركينَ؟! فتناسَبَ هذا كلُّه وتلاءَمَ.

ولم يقَعْ في آيةِ (الشُّورى) ذِكْرُ (وزينتُها)؛ إذ لم يَرِدْ فيها ما ورَدَ هنا ممَّا اسْتَدعَى هذه المناسبةَ، ولم يَرِدْ في سُورةِ (الشُّورى) مِن أوَّلِها إلى آخرِها ذِكْرُ بسْطِ حالٍ دُنياويٍّ لأحدٍ، بلْ تضمَّنَت حقارةَ الدُّنيا ونَزارةَ رِزْقِها، وأنَّه مَقْدورٌ غيرُ مبسوطٍ، وتلك حالُ الأكثرِ، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٢٧]، وقال عندَ ذِكرِ مَنِ اختارَ الدُّنيا ومالَ إليها: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠]، فقال: ﴿مِنْهَا﴾ بأداةِ التَّبعيضِ، فلم يقَعْ في هذه السُّورةِ ما يَسْتدعي ذِكْرَ الزِّينةِ الماليَّةِ؛ فلذلك لم تُذْكَرْ، واللهُ أعلَمُ[1].

- وأيضًا عُقِّبَت الآيةُ هنا بقولِه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠]، وفي سُورةِ (الشُّورى) بقولِه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦]؛ وذلك لأنَّ قولَه تعالى في آيةِ (القصص): ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مُلتحِمٌ أوضحَ الْتِحامٍ بما اتَّصلَ به مِن قولِه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]، فكأنْ قد قِيل بعْدَ قولِه: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠]، وكأنْ قد قيل: أفلا تعقِلون ما بيْنَ الأمْرَينِ؟! ثمَّ أخبرَ بقولِه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ في العذابِ الذي لا آخِرَ له، فقولُه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مِن تَمامِ ما قبْلَه، وذلك بَيِّنُ التَّناسُبِ.

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٨٤، ٣٨٥).

ولَمَّا ورَدَ قبْلَ آيةِ (الشُّورى): ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقولُه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ إلى قولِه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [الشورى: ١٣ - ١٥]، وقولُه: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨]، وقولُه: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ [الشورى: ٢٢]، وقولُه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [الشورى: ٣١]؛ ناسبَ هذا المتقدِّمَ مِن التَّخويفِ ما يُنبِّئُ المؤمنينَ المستجيبينَ بأصنافِ قولِه: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾؛ فقولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الشورى: ٣٦] أي: بكلِّ هذا، وبما يجبُ الإيمانُ به، وعَلِمُوا انفرادَه سُبحانَه بالخلْقِ والأمْرِ، فتوكَّلوا عليه؛ فأُعْقِبَت كلُّ آيةٍ منها بما يُناسِبُها، ووردَتْ على ما يجبُ، واللهُ أعلَمُ[(١)].

- قولُه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ استِفْهامٌ تَوْبيخيٌّ وتَقْريريٌّ على عدَمِ عَقْلِ المُخاطَبينَ، تَفرَّعَ على الخبَرِ السَّابقِ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾؛ لأنَّهم لَمَّا لم يَسْتَدِلُّوا بعُقولِهم على طريقِ الخَيرِ نُزِّلُوا مَنزِلةَ مَنْ أفْسَدَ عَقْلَه، فسُئِلُوا: أهُمْ كذَلكَ[(٢)]؟

- وقُرِئَ قولُه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: (أَفَلَا يَعْقِلُونَ) بيَاءِ الغَيْبةِ[(٣)] على الالْتِفاتِ عن خِطابِهم؛ لِتَعَجُّبِ المُؤمنينَ مِنْ حالِهم، وقيلَ: لأنَّهم لَمَّا كانوا لا يَعْقِلونَ نُزِّلوا مَنزلةَ الغائبِ؛ لبُعْدِهم عن مَقامِ الخِطابِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٢)، ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص: ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير أبي =

٢- قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ هذه الآيةُ كالنَّتيجةِ للَّتي قَبْلَها؛ ولذلكَ رُتِّبَتْ عليها بالفاءِ، وهي أيضًا تقريرٌ وإيضاحٌ للَّتي قَبْلَها؛ أمَّا كَونُها تقريرًا فإنَّه ضَرَبَ المَعْنَيينِ -﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾- مَثَلًا في هذه الآيةِ، وأخْرَجَهما مُخْرَجَ المُشَبَّهِ والمُشَبَّهِ به، وأدْخَلَ همزةَ الإنكارِ على فاءِ التَّعْقيبِ العاطفةِ لهذه الجملةِ على الأُولَى: ﴿أَفَمَن﴾، فموقِعُ هذه الفاءِ أنَّه قد ذَكَر في الآيةِ الَّتي قبْلَها مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا وما عِنْدَ اللهِ وتَفاوُتَهما، ثمَّ عقَّبَه بقولِه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ...﴾ على معنى: أبَعْدَ هذا التَّفاوُتِ الظَّاهرِ يُسوَّى بيْنَ أبناءِ الآخِرَةِ وأبناءِ الدُّنيا؟! فهو تَرْتيبُ إنكارِ التَّشابُهِ بينَ أهلِ الدُّنيا وأهلِ الآخرةِ على ما قَبْلَها مِنْ ظُهورِ التَّفاوُتِ بيْنَ مَتاعِ الحياةِ الدُّنيا وبينَ ما عِنْدَ اللهِ تعالى.

وأمَّا البَيانُ فإنَّهُ تعالى ذَكَر أنَّ ما أُوتُوا مِنْ شيءٍ فهو تمتُّعٌ وزينةٌ أيامًا قَلائلَ، ولم يُبَيِّنْ في تلكَ الآيةِ مآلَها وسُوءَ مغَبَّتِها؛ فبَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ المَآلَ أنَّهم يَحْضُرونَ النَّارَ، وذَكَر فيها أنَّ ما عِنْدَ اللهِ خيرٌ وأبْقى، ولم يُبَيِّنِ العاقبةَ فيه؛ فبَيَّنَ في هذه أنَّ المَوْعودَ الجنَّةُ[1]؛ فمَوْقِعُ فاءِ التَّفْريعِ هنا: أنَّ ممَّا أَوْمَأَ إليه قولُه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٦٠] ما كان المُشركونَ يَتَبَجَّحُونَ به على المُسلمينَ مِنْ وَفْرةِ الأموالِ ونَعيمِ التَّرَفِ، في حينِ كان مُعظَمُ المُسلمينَ فُقراءَ ضُعَفاءَ؛ فيَظْهَرُ مِنْ آياتِ القُرآنِ أنَّ المُشركينَ كان مِن دأْبِهمُ التَّفاخُرُ بما هم فيه مِنَ النِّعمةِ، وهي تُفيدُ مع ذلكَ تحقيقَ مَعنى الجملةِ الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ الثانيةَ زادَتِ الأُولى بَيانًا بأنَّ ما أُوتُوهُ زائِلٌ زَوالًا مُعَوَّضًا بضِدِّ المتاعِ والزِّينةِ، وذلكَ

= حيان)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٨٧، ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١).

قولُه: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾[١].

- والاستِفْهامُ في قَولِه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾ مُستعمَلٌ في إنكارِ المُشابَهةِ والمُماثَلةِ الَّتي أفادَها كافُ التَّشْبيهِ؛ فالمَعنى: أنَّ الفريقَينِ ليسُوا سواءً؛ إذْ لا يَستَوي أهلُ نعيمٍ عاجلٍ زائلٍ، وأهلُ نعيمٍ آجلٍ خالدٍ[٢].

- وجملةُ ﴿فَهُوَ لَقِيهِ﴾ مُعترِضةٌ؛ لِبَيانِ أنَّه وعْدٌ مُحقَّقٌ، وقولُه: ﴿فَهُوَ لَقِيهِ﴾ أيْ: مُدْرِكُه لا مَحالةَ لامْتِناعِ الخُلْفِ في وَعْدِه تعالى؛ جِيءَ بالجُملةِ الاسْمِيَّةِ المُفيدةِ لتحقُّقِه البَتَّةَ، وعُطِفَتْ بالفاءِ المُنْبِئةِ عن مَعنى السَّبَبِيَّةِ؛ لأنَّ لِقاءَ المَوْعودِ مُسَبَّبٌ عن الوَعْدِ الَّذي هو الضَّمانُ في الخيرِ[٣].

- وجُملةُ ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ فهيَ مِن تَمامِ صِلَةِ المَوصولِ، داخلٌ معه في حَيِّزِ الصِّلةِ، مُؤكِّدٌ لإنكارِ التَّشابُهِ، ومُقرِّرٌ له؛ كأنَّه قِيلَ: كمَنْ متَّعْناهُ مَتاعَ الحياةِ الدُّنْيا، ثم نُحْضِرُه أو أحْضَرْناه يومَ القيامةِ النَّارَ أوِ العذابَ. وإيثارُ الجُملةِ الاسْمِيَّةِ؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ حَتْمًا. وفي جَعْلِه مِن جُملةِ المُحْضَرينَ مِن التَّهويلِ ما لا يَخْفى[٤].

- و(ثُمَّ) قيلَ: للتَّراخي في الزَّمانِ، وقيلَ: للتَّراخي الرُّتَبي؛ لبيانِ أنَّ رُتبةَ مَضْمُونِها في الخَسارةِ أعظَمُ مِن مضمونِ الَّتي قبْلَها، أيْ: لم تَقْتَصِرْ خَسارتُهم على حِرْمانِهم مِن نعيمِ الآخرةِ، بل تَجاوَزَتْ إلى التَّعويضِ بالعَذابِ الأليمِ؛ فـ (ثُمَّ) لتَراخي حالِ الإحْضارِ عن حالِ التَّمْتيعِ، لا لِتَراخِي وقتِه عن وقتِه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤، ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١).

وذلك لأنَّه أبلَغُ وأكثرُ إفادةً؛ لأنَّ تأخُّرَ زمانِ الإحْضارِ عن زمانِ التَّمْتيعِ ظاهرٌ بَيِّنٌ، لا يَحتاجُ إلى التَّنْبيهِ عليه[1].

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أيْ: مِنَ المُحْضَرينَ للجَزاءِ؛ على ما دَلَّ عليه التَّوبيخُ في ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠]، والمُقابَلَةُ في قَولِه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا...﴾ المُقْتَضِيةُ أنَّ الفريقَ المُعَيَّنَ مَوْعُودونَ بضِدِّ الحَسَنِ؛ فحُذِف مُتعلَّقُ المُحْضَرينَ اختِصارًا[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تَخلُّصٌ مِن إثباتِ بَعثةِ الرُّسُلِ وبَعْثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى إبْطالِ الشُّركاءِ للهِ؛ فالجملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾[القصص: ٦١]، مُفيدةٌ سببَ كَونِهم مِنَ المُحْضَرينَ، أيْ: لأنَّهم اتَّخَذُوا مِن دونِ اللهِ شُركاءَ، وزَعَموا أنَّهم يَشْفَعُونَ لهم، فإذا هم لا يَجِدونَهم يومَ يُحضَرونَ للعذابِ، فيَجوزُ أنْ يكونَ مَبدأُ الجُملةِ قولَه: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾، فيَكونَ عَطْفًا على جُملةِ: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]، أيْ: يُحْضَرونَ ويُنادِيهم فيقولُ: أينَ شُركائي... إلخ، ويَجوزُ جَعْلُ مَبدأِ الجُملةِ قولَه: (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ)، وجَعْلُه عَطْفَ مُفرداتٍ؛ فيَكونُ (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ) عَطْفًا على ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]؛ فيَكونُ (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ) عَيْنَ يومِ القيامةِ، وكان حقُّه أنْ يأتيَ بدَلًا مِن يومِ القيامةِ، لكنَّه عدَلَ عن الإبْدالِ إلى العَطْفِ؛ لاخْتِلافِ حالِ ذلكَ اليومِ باخْتِلافِ العُنوانِ، فنُزِّلَ مَنزِلةَ يومٍ مُغايِرٍ؛ زيادةً في تَهْويلِ ذلكَ اليومِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٥).

ويَجُوزُ جَعْلُ (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ) مَنصوبًا بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ بعْدَ واوِ العطفِ بتَقْديرِ: (اذْكُرْ)، أو بتَقْديرِ فِعْلٍ دَلَّ عليه مَعنى النِّداءِ. واستِفْهامُ التَّوبيخِ مِن حُصُولِ أمْرٍ فَظيعٍ، تقْديرُه: يومَ يُنادِيهِمْ يكونُ ما لا يُوصَفُ مِن الرُّعْبِ[(١)].

- قولُه: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ الاستِفْهامُ بكلمةِ (أينَ) ظاهِرُه استِفْهامٌ عنِ المكانِ الَّذي يُوجَدُ فيه الشُّركاءُ، ولكنَّه مُستَعْمَلٌ كنايةً عن انْتِفاءِ وُجودِ الشُّركاءِ المَزْعومينَ يَومَئذٍ، فالاستِفْهامُ مُستَعْمَلٌ في الانْتِفاءِ[(٢)]، وقال: ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ بِناءً على زَعْمِهم، وفيه تهكُّمٌ بهم[(٣)].

- ومَفْعولَا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ مَحْذُوفانِ؛ دَلَّ عليهما ﴿شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، أيْ: تَزْعُمونَهم شُركائِيَ، وهذا الحَذْفُ اختِصارٌ؛ لدَلالةِ الكَلامِ عليهما[(٤)].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾

- جُرِّدَتْ جُملةُ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ عن حَرْفِ العَطْفِ؛ لأنَّها وَقَعَتْ في مَوقِعِ المُحاوَرةِ؛ فهي جوابٌ عن قولِه تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢][(٥)].

- وقيلَ: إنَّ قولَه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ استِئْنافٌ مَبنيٌّ على حكايةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٧).

السُّؤالِ؛ كأنَّه قيلَ: فمَاذَا صدَرَ عنهُم حينَئذٍ؟ فقيلَ: قالَ...[١].

- قولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ وهمْ شُركاؤُهم مِنَ الشَّياطينِ، أو رُؤَساؤُهمُ الَّذينَ اتَّخذُوهمْ أربابًا مِن دُونِ اللهِ تعالى، وتَخْصيصُهم بهذا الحُكْم -مع شُمولِه للأتْباعِ أيضًا- لأصالَتِهم في الكُفرِ واستِحْقاقِ العذابِ، ومُسارَعَتُهم إلى الجوابِ مع كَوْنِ السُّؤالِ للعَبَدَةِ؛ إمَّا لِتَفَطُّنِهم أنَّ السُّؤالَ عنهم لاستِحْضارِهم وتَوْبيخِهم بالإضْلالِ، وجَزْمِهم بأنَّ العَبَدَةَ سيَقولونَ: هؤلاءِ أضَلُّونا، وإمَّا لأنَّ العَبَدَةَ قد قالُوه اعتِذارًا، وهؤلاءِ إنَّما قالوا ما قالوا ردًّا لقولِهم، إلَّا أنَّه لم يُحْكَ قولُ العَبَدَةِ إيجازًا؛ لِظُهورِه[٢].

- وفي قَولِهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ ابتَدَؤُوا جَوابَهم بتَوْجيهِ النِّداءِ إلى اللهِ بعُنوانِ أنَّه ربُّهم؛ نداءً أُريدَ منه الاستِعطافُ بأنَّه الَّذي خلَقَهم؛ اعترافًا منهم بالعُبوديَّةِ، وتَمْهيدًا للتَّنصُّلِ مِن أنْ يَكُونوا هُمُ المُخْتَرِعينَ لدِينِ الشِّرْكِ؛ فإنَّهم إنَّما تَلَقَّوْه عن غيرِهم مِن سَلَفِهم، والإشارةُ بـ (هؤلاءِ) إلى بقيَّةِ المُنادَينَ معهم؛ قَصْدًا لأنْ يَتَميَّزوا عمَّنْ سِواهُمْ مِن أهلِ المَوقِفِ، وذلكَ بإلهامٍ مِنَ اللهِ؛ ليَزْدادوا رُعبًا، وأن يكونَ لهم مَطْمَعٌ في التَّخليصِ[٣].

- وفيه حَذْفُ مَفعولِ فِعْلِ ﴿أَغۡوَيۡنَآ﴾ الأوَّلِ -وهو العائدُ مِنَ الصِّلةِ إلى المَوصولِ- لكَثرةِ حَذْفِ أمْثالِه؛ لأنَّ اسمَ المَوصولِ (الَّذينَ) مُغْنٍ عن ذِكْرِه ودالٌّ عليه؛ فكان حَذْفُ العائدِ اختِصارًا، وذِكْرُ مَفعولِ فِعْلِ ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾ الثَّاني اهتِمامًا بذِكْرِه؛ لعدَمِ الاستِغْناءِ عنه في الاستِعْمالِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٧، ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥٩).

- وقولُهم: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ هو الجوابُ حَقيقةً، وما قبْلَه تمهيدٌ له، وهو اسْتِئنافٌ للدَّلالةِ على أنَّهم غَوَوْا باخْتِيارِهم، وأنَّهم لم يَفْعَلوا بهم إلَّا وَسْوَسةً وتَسْويلًا، وما أكْرَهوهم على الغَيِّ بالقَسْرِ والإلْجاءِ، ولكنَّهم غَوَوْا باخْتِيارِهم غَيًّا مِثْلَ غَيِّنا باخْتِيارِنا[1]؛ فجُملةُ ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ استِئْنافٌ بَيانيٌّ لجُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾؛ لأنَّ اعْترافَهم بأنَّهم أغْوَوْهُم يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ مُتعَجِّبٍ: كيفَ يَعْتَرِفونَ بمِثْلِ هذا الجُرْمِ؟ فأرادوا بَيانَ الباعثِ لهم على إغْواءِ إخْوانِهم، وهو أنَّهم بَثُّوا في عامَّةِ أتْباعِهم الغَوايةَ المُستقِرَّةَ في نُفُوسِهم، وظَنُّوا أنَّ ذلكَ الاعترافَ يُخفِّفُ عنهم مِن العذابِ؛ بقَرينةِ قولِهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾، وإنَّما لم يَقْتَصِرْ على جُملةِ: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾؛ لقَصْدِ الاهتمامِ بذِكْرِ هذا الإغْواءِ بتَأكيدِه اللَّفظيِّ، وبإجْمالِه في المرَّةِ الأُولى، وتَفْصيلِه في المرَّةِ الثانيةِ؛ فلَيسَتْ إعادةُ فِعْلِ (أَغْوَيْنَا) لمجَرَّدِ التَّأكيدِ[2].

- وفيه احتباكٌ[3]، حيثُ حُذِفَ أوَّلًا (فغَوَوا)؛ لدَلالةِ ﴿غَوَيْنَا﴾ عليه، وثانيًا (لَمَّا أغْوانا مَن قَبْلَنا)؛ لدَلالةِ ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ عليه[4].

- وإخلاءُ الجُملتَيْنِ ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ مِنَ العاطفِ؛ لِكَونِهما مُقرِّرتَينِ لمَعنى الجملةِ الأُولى[5]، وجملةُ ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ استِئْنافٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١، ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٨).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٢٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢).

والمُتَبَرَّأُ منه هو مَضمونُ جملةِ: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾؛ فهي بَيانٌ لإجْمالِ التَّبَرُّؤِ[١].

- وتقديمُ ﴿إِيَّانَا﴾ على ﴿يَعۡبُدُونَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (يَعْبُدُونَنَا)؛ للاهْتِمامِ بهذا التَّبَرُّؤِ، مع رعايةِ الفاصِلةِ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ أمْرٌ على سَبيلِ التَّهكُّمِ والاسْتِهْزاءِ بهم، أو التَّبْكيتِ لهم؛ لأنَّه يَعلَمُ أنه لا فائدةَ في دُعائِهم[٣].

- قولُه: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ فيه إسنادُ فِعْلِ القَوْلِ ﴿وَقِيلَ﴾ إلى المَفعولِ؛ لأنَّ الفاعلَ مَعلومٌ ممَّا تَقَدَّمَ، أيْ: وقالَ اللهُ. وإضافةُ الشُّركاءِ إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّهمُ الَّذينَ ادَّعَوْا لهمُ الشَّركةَ كما في آيةِ (الأنعامِ): ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۖ﴾[٤] [الأنعام: ٩٤].

- قولُه: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عطْفًا على جملةِ: ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾، والرُّؤيةُ بَصَريَّةٌ، والعذابُ عذابُ الآخرةِ، أيْ: أحْضَرَ لهم آلةَ العذابِ ليَعْلَمُوا أنَّ شُركاءَهم لا يُغْنُونَ عنهم شيئًا، وعلى هذا تكونُ جُملةُ: ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ مُستأْنَفةً ابتِدائيَّةً مُستَقِلَّةً عن جملةِ: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٠).

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الواوُ للحالِ، والرُّؤيةُ أيضًا بصَريَّةً، والعذابُ عذابَ الآخرةِ، أيْ: وقد رأَوُا العذابَ فارْتَبَكوا في الاهْتِداءِ إلى سبيلِ الخَلاصِ، فقيلَ لهم: ادْعُوا شُركاءَكُم لخَلاصِكُم، وتكونَ جملةُ: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ كذلكَ مُسْتَأْنَفةً ابتِدائيَّةً.

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الرُّؤيةُ عِلْميَّةً، وحُذِفَ المفعولُ الثَّاني اختِصارًا، والعذابُ عذابَ الآخرةِ، والمَعنى: وعَلِمُوا العذابَ حائقًا بهم، والواوُ للعطفِ أوِ الحالِ، وجملةُ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ مُستَأْنَفَةٌ استِئْنافًا بيانيًّا، كأنَّ سائلًا سأَلَ: ماذا صَنَعُوا حينَ تَحَقَّقُوا أنَّهمْ مُعَذَّبونَ؟ فأُجيبَ: بأنَّهم لو أنَّهم كانُوا يَهْتَدونَ سبيلًا لَسَلَكُوه، ولكنَّهم لا سَبيلَ لهم إلى النَّجاةِ. وعلى هذه الوُجوهِ الثلاثةِ تكونُ (لو) حرفَ شرطٍ، وجوابُها مَحذوفًا دَلَّ عليه حَذْفُ مفعولِ ﴿يَهْتَدُونَ﴾، أيْ: يَهتَدُونَ خَلاصًا أو سبيلًا، والتَّقديرُ: لَتَخَلَّصُوا منه. وعلى الوُجوهِ الثلاثةِ فَفِعْلُ ﴿كَانُوا﴾ مَزيدٌ في الكلامِ لِتَوكيدِ خبَرِ (أنَّ)، أيْ: لو أنَّهم يَهْتَدونَ اهتِداءً مُتمَكِّنًا مِن نُفوسِهم، وفي ذلك إيماءٌ أنَّهم حينَئذٍ لا قَرارةَ لنُفوسِهم، وصيغةُ المضارعِ في ﴿يَهْتَدُونَ﴾ دالَّةٌ على التَّجدُّدِ، فالاهتِداءُ مُنقَطِعٌ عنهُمْ، وهو كنايةٌ عن عدَمِ الاهْتِداءِ مِن أصْلِه.

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ (لو) للتَّمَنِّي المُستَعْمَلِ في التَّحسُّرِ عليهم، والمرادُ اهْتِداؤُهم في حياتِهمُ الدُّنيا؛ كَيْلا يقَعُوا في هذا العذابِ، وفِعْلُ ﴿كَانُوا﴾ حينَئذٍ في مَوقعِه الدَّالِّ على الاتِّصافِ بالخبَرِ في الماضي، وصِيغةُ المُضارعِ في ﴿يَهْتَدُونَ﴾ لقَصْدِ تجدُّدِ الهُدى المُتحَسَّرِ على فَواتِه عنهم؛ فإنَّ الهُدَى لا يَنْفَعُ صاحبَه إلَّا إذا استَمَرَّ إلى آخِرِ حياتِه.

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ المرادُ بالعذابِ عذابَ الدُّنيا، والكلامُ على حَذْفِ مُضافٍ تقديرُه: ورَأَوْا آثارَ العذابِ، والرُّؤيةُ بصَريَّةٌ، أيْ: وَهُمْ رأَوُا العذابَ في حياتِهم،

أيْ: رأَوْا آثارَ عذابِ الأُمَمِ الَّذينَ كذَّبُوا الرُّسُلَ، وهذا في مَعنى قولِه تعالى في سورة (إبراهيم): ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، وجملةُ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ شَرْطٌ، جَوابُه مَحذوفٌ دَلَّ عليه: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾، أيْ: بالاتِّعاظِ وبالاسْتِدلالِ بحُلولِ العذابِ في الدُّنيا على أنَّ وَراءَه عذابًا أعْظَمَ منه، لاهْتَدَوْا فأقْلَعوا عنِ الشِّرْكِ، وصدَّقوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ وهذا لأنَّهُ يُفيدُ مَعنًى زائدًا على ما أفادَتْه جملةُ ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾.

فهذه عِدَّةُ مَعانٍ يُفيدُها لَفْظُ الآيةِ، وكلُّها مَقْصودةٌ؛ فالآيةُ مِن جَوامعِ الكَلِمِ[(١)].

٦- قولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ هو كقولِه: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص: ٦٢]؛ كُرِّر الحديثُ عنه باعتِبارِ تعدُّدِ ما يَقَعُ فيه؛ لأنَّ مَقامَ المَوعِظةِ يَقتَضي الإطْنابَ في تَعْدادِ ما يُستحَقُّ به التَّوبيخُ، وكُرِّرَتْ جملةُ (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ)؛ لأنَّ التَّكْرارَ مِن مُقتَضياتِ مَقامِ المَوعظةِ، وهذا تَوْبيخٌ لهُمْ على تَكْذيبِهم الرُّسُلَ بعدَ انقِضاءِ تَوبيخِهم على الإشْراكِ باللهِ[(٢)].

- والاستِفهامُ بـ ﴿مَاذَآ ﴾ صُوريٌّ، مَقْصودٌ منه إظْهارُ بَلْبَلَتِهم[(٣)].

٧- قولُه تعالى: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أصْلُه: (فعَمُوا عنِ الأَنْباءِ)، وقد عَكَسَ هنا؛ للمُبالَغةِ، والتَّنبيهِ على أنَّ ما يَحْضُرُ الذِّهْنَ يفيضُ عليه، ويَصِلُ إليه مِنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٠، ١٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦١، ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦٢).

خارجٍ، فإذا أَخْطَأَه لم يَكُنْ له حيلةٌ إلى اسْتِحضارِه، وتَعْدِيةُ الفِعْلِ بـ (على)؛ لِتَضَمُّنِه مَعنى الخَفاءِ والاشْتِباهِ[١].

- وأتَى بلَفْظِ الماضي ﴿ فَعَمِيَتْ ﴾؛ لِتَحقُّقِ وُقوعِه[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ تَخَلَّلَ بينَ حالِ المُشركينَ ذِكْرُ حالِ الفريقِ المُقابِلِ -وهو فريقُ المُؤمنينَ- على طريقةِ الاعْتِراضِ؛ لأنَّ الأحوالَ تَزْدادُ تميُّزًا بذِكْرِ أضْدادِها، والفاءُ في ﴿ فَأَمَّا ﴾ للتَّفريعِ على ما أفادَه قولُه: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ ﴾ [القصص: ٦٦] مِنْ أنَّهم حَقَّ عليهم العذابُ[٣].

- ولَمَّا كانتْ (أَمَّا) تُفيدُ التَّفصيلَ -وهو: التَّفكيكُ والفَصْلُ بيْنَ شَيئَينِ أو أشياءَ في حُكمٍ- فهي مُفيدةٌ هنا أنَّ غيرَ المُؤمنينَ خاسِرونَ في الآخرةِ، وذلكَ ما وَقَعَ الإيماءُ إليه بقولِه: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [القصص: ٦٦]؛ فإنه يَكتَفي بتَفْصيلِ أحدِ الشَّيئينِ عن ذِكْرِ مُقابِلِه[٤].

- قولُه: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ التَّوبةُ هنا: الإقْلاعُ عن الشِّركِ، والنَّدَمُ على تقَلُّدِه، وعَطْفُ الإيمانِ عليها؛ لأنَّ المَقصودَ حُصولُ إقْلاعٍ عن عقائدِ الشِّرْكِ، وإحْلالِ عَقائدِ الإسلامِ مَحلَّها؛ ولذلكَ عَطَفَ عليه: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾؛ لأنَّ بعضَ أهْلِ الشِّرْكِ كانوا شاعِرينَ بفَسادِ دينِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ (عَسَى) للتَّحقيقِ على عادةِ الكرامِ، أو للتَّرجِّي مِنْ قِبَلِ التَّائبِ، بمعنى: فلْيَتَوَقَّعِ الإفْلاحَ؛ فهي تَرَجٍّ لتَمْثيلِ حالِهم بحالِ مَنْ يُرجى منه الفَلاحُ[1].

- وقولُه: ﴿أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ أشَدُّ في إثباتِ الفَلاحِ مِن: (أَنْ يُفْلِحَ)؛ لأنَّه يُفيدُ أنَّهم مِن جُملةِ المفلحينَ وزُمْرَتِهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٤).

الآيات (٦٨-٧٠)

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾: أي: الاختيارُ، وأصلُ (خير): العَطفُ والميلُ[١].

﴿تُكِنُّ﴾: أي: تُخفي، وتَستُرُ، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى أنَّ مَرَدَّ الأمورِ جميعِها إليه، وأنَّه هو صاحبُ الخَلقِ والأمرِ، فيقولُ: وربُّك -يا مُحمَّدُ- يخلُقُ ما يشاءُ خَلْقَه، ويختارُ ما يَشاءُ مِن الأمورِ والأشياءِ، ما كان للنَّاسِ أن يَختاروا على اللهِ أن يفعَلَ ما يَشاؤونَ، بل اللهُ وَحْدَه يَختارُ ما يشاءُ، تَنَزَّهَ اللهُ وتقدَّس عَمَّا يُشرِكون، وربُّك -يا مُحمَّدُ- يَعلَمُ ما تُخفي صدورُ عبادِه وما يُظهِرونَه مِن الأقوالِ والأفعالِ، وهو اللهُ لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو، هو وحْدَه المُستَحِقُّ للحَمدِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وله وحْدَه الحُكمُ في الدُّنيا والآخرةِ، وإليه وحْدَه تُرَدُّون بعدَ مَوتِكم فيُحاسِبُكم.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذا متَّصِلٌ بذِكرِ الشُّركاءِ الَّذين عبَدوهم واختاروهم للشَّفاعةِ، أي: الاختيارُ إلى اللهِ تعالى في الشُّفعاءِ لا إلى المشركينَ[١].

وأيضًا بعدَ أن وبَّخهم فيما سلَف على اتِّخاذِهم الشُّركاءَ، وذكَر أنَّه يَسألُهم عنهم يومَ القيامةِ تهكُّمًا بهم وتقريعًا لهم- أردَفَ ذلك بتجهيلِهم على اختيارِ ما أشرَكوه، واصطفائِهم إيَّاه للعبادةِ، وأبانَ لهم أنَّ تمييزَ بعضِ المخلوقاتِ عن بعضٍ، واصطفاءَه على غيرِه مِن حقِّ الله لا مِن حقِّكم أنتم[٢].

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾.

أي: وربُّك -يا مُحمَّدُ- يخلُقُ ما يَشاءُ خَلْقَه، ويختارُ ما يَشاءُ مِن الأمورِ والأشياءِ، فيَصطفي مَن يشاءُ للرِّسالةِ والهِدايةِ، ويُفضِّلُ مَن يشاءُ مِنَ الملائكةِ والنَّاسِ، والأمكِنةِ والأزمِنةِ، وغَيرِ ذلك[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۞ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النور: ٤٥، ٤٦].

وعن واثِلةَ بنِ الأَسْقَعِ رضيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((إنَّ اللهَ اصطفَى كِنانةَ مِن ولَدِ إسماعيلَ، واصطفَى قُرَيشًا مِن كِنانةَ، واصطفَى مِن قُرَيشٍ بني هاشِمٍ، واصطفاني مِن بني هاشِمٍ))(١).

﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾.

أي: ما كان للنَّاسِ أن يَختاروا على اللهِ أن يَفعَلَ ما يَشاؤونَ، بل اللهُ يختارُ وَحْدَه ما يَشاءُ(٢).

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: تَنزَّهَ اللهُ وتقدَّسَ وارتفَعَ عن شِركِ المُشرِكينَ وكَذِبِهم عليه؛ فهو وَحْدَه

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥١، ١٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٣٨، ٤٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١، ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠٢).

قال ابن عطية: (ويحتَمِلُ أن يريدَ: ويختارُ اللهُ تعالى الأديانَ والشَّرائعَ، وليس لهم الخِيَرةُ في أن يَميلوا إلى الأصنامِ ونَحوِها في العبادةِ، ويؤيِّدُ هذا التأويلَ قَولُه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٦).

المتفرِّدُ بالخَلقِ والاختيارِ دونَ آلهتِهم الَّتي لا تَخلُقُ ولا تَختارُ شَيئًا[١].

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

أي: وربُّك -يا مُحمَّدُ- يَعلَمُ ما تُخفي وتُضمِرُ نفوسُ عبادِه، وما يُظهِرونَه مِن الأقوالِ والأفعالِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ [الأنعام: ٣].

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه فَسادَ طريقِ المُشرِكينَ مِن قَولِه: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ ﴾ [القصص: ٦٢] خَتَم الكلامَ في ذلك بإظهارِ هذا التَّوحيدِ، وبيانِ أنَّ الحَمدَ والثَّناءَ لا يَليقُ إلَّا به[٣].

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

أي: وهو اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه، لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو دونَ ما سِواه[٤].

﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

أي: هو وَحْدَه المُستَحِقُّ للحَمدِ في الدُّنيا والآخِرةِ على أفعالِه وإحسانِه، وأسمائِه وصِفاتِه[١].

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

أي: وللهِ وَحْدَه الحُكمُ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ ففي الدُّنيا يَحكُمُ بينَ عِبادِه بِشَرْعِه وقَدَرِه، وفي الآخرةِ يَقضي بيْنَهم بعَدْلِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تُرَدُّونَ بعدَ مَوتِكم، فيُحاسِبُكم في الآخرةِ، ويُجازي كُلًّا منكم بعمَلِه مِن خيرٍ أو شَرٍّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ التَّحذيرُ والتَّرغيبُ؛ تحذيرُ الإنسانِ أنْ يُضمِرَ أو يُعلِنَ سوءًا؛ لأنَّ اللهَ يَعلَمُ به، وتَرغيبُه في أن يُضمِرَ أو يُعلِنَ خيرًا؛ لأنَّ اللهَ يَعلَمُه، واللهُ أعلمُ بما أضمَرَ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، ومعناه أنَّه لن يَضيعَ؛ فهو مَعلومٌ، كما قال اللهُ تبارك وتعالى في آياتٍ كثيرةٍ إنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨٤)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

يَعلَمُ، ويُخبِرُ يومَ القيامةِ عمَّا عَمِلَ هؤلاء[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ الآيةُ تعليلٌ لبُطلانِ آلهةِ المُشرِكينَ، وإثباتٌ للألوهيَّةِ للهِ، وذلك عن طريقِ إثباتِ الخَلْقِ؛ فإنَّ الخالِقَ هو الَّذي يجِبُ أنْ يُعبَدَ؛ لقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، فإنَّ هذا الوصفَ تعليلٌ للأمرِ؛ فإنَّ الخالقَ يجبُ أن يكونَ هو الإلهَ المعبودَ، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]، فإذا كانوا لا يَخلُقون فكيف يَستحِقُّون أن يُعبَدوا؟ قال إبراهيمُ لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]. فهنا قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لإلزامِ هؤلاءِ المشركينَ بعبادتِه سُبحانَه وَحْدَه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لمْ يَقُلْ: «مَن يشاءُ» لِيَشملَ الأعيانَ والأوصافَ، فاللهُ تعالى خالِقُ كلِّ شيءٍ: الأعيانِ والأوصافِ؛ ولهذا فإنَّ مِن مَذهَبِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّ اللهَ تعالى خالقٌ للعبدِ، ولأفعالِ العبدِ -الَّتي هي أوصافُه-، فاللهُ تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٩).

وقال ابنُ القيمِ: («ما» اسمٌ مبهَمٌ في غايةِ الإبهامِ، حتَّى إنَّها تقعُ على كلِّ شَيءٍ، وتقعُ على ما ليس بشَيءٍ، ألَا تراكَ تقولُ: إنَّ اللهَ يعلمُ ما كان وما لم يكُنْ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٣١).

ويُنظر: ((نتائج الفكر)) للسهيلي (ص: ١٣٩).

٣- إثباتُ الإرادةِ للهِ سُبحانَه وتعالى؛ لِقَولِه: ﴿وَيَخْتَارُ﴾، والإرادةُ هنا إنْ نظَرْنا إلى قرْنِها بالخَلْقِ قُلْنا: هي الكَونيَّةُ، وإنْ نظَرْنا إلى لفْظِها -بقَطعِ النَّظَرِ عن اقترانِها بالخَلْقِ- قُلْنا: إنَّها شامِلةٌ لِلْكَونيَّةِ وللشَّرعيَّةِ؛ لأنَّه سُبحانَه وتعالى يَختارُ كَونًا وشَرْعًا ما يَشاءُ، وهذا العُمومُ أَولى[1].

٤- احتجَّ الجَبريَّةُ بقولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ على مذهبِهم، فقالوا: هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ الإنسانَ لا اختيارَ له، وأنَّه مُجبَرٌ على فِعْلِه!

والجوابُ عن ذلك: أنَّ معنَى الآيةِ: ما كان للنَّاسِ أن يَختاروا على اللهِ أن يَفعَلَ ما يَشاؤونَ، بل اللهُ يختارُ وَحْدَه ما يَشاءُ[2]، فليس في الآيةِ نفْيٌ لأصلِ صِفةِ الاختيارِ عن الإنسانِ.

ويُجابُ أيضًا بأنَّ المرادَ: ما كان لهم الخِيَرةُ المُطْلَقةُ، أي: الَّتي تكونُ بدُونِ اللهِ، فالنَّفيُ مُسَلَّطٌ هنا على الخِيَرةِ المُطلَقةِ؛ لأنَّ الآياتِ تَشهدُ بأنَّ الإنسانَ يختارُ، وله إرادةٌ ومشيئةٌ، ومنها قولُه تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقولُه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، فهو سُبحانَه وتعالى أثبَتَ للإنسانِ مَشيئةً.

والواقعُ أيضًا يَشهَدُ بأنَّ للإنسانِ خِيَرةً، فالإنسانُ يُفَرِّقُ بيْنَ الفِعلِ الاختياريِّ، والفِعلِ غيرِ الاختياريِّ؛ فالإنسانُ إذا نَزَل مِنَ السَّطحِ بالدَّرَجِ فنُزولُه اختياريٌّ، ولكنْ إذا دَفَعَه أحَدٌ مِن أعلى الدَّرَجِ فتدحرَجَ، فنُزولُه غيرُ اختياريٍّ، والعُلماءُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١، ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١).

يقولون في كثيرٍ مِن الكَفَّاراتِ: يُخَيَّرُ بينَ كذا وكذا[١]، لكنَّ مشيئةَ الإنسانِ تابعةٌ لمشيئةِ الله عزَّ وجلَّ؛ قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٢] [التكوير: ٢٨، ٢٩].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ انفرادُ اللهِ عزَّ وجلَّ بالإرادةِ المُطْلَقةِ؛ فلا مُعَقِّبَ لحُكْمِه، ولا رادَّ لِقَضائِه[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ سؤالٌ: هَلَّا اكتفى بقَولِه تعالى: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾ عن قَولِه: ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾؟

الجوابُ: أنَّ عِلْمَ الخَفيِّ لا يَستلزِمُ عِلْمَ الجَليِّ؛ إمَّا لبُعْدٍ، أو لَغَطٍ، أو اختِلاطِ أصواتٍ يَمنعُ تمييزَ بعضِه عن بعضٍ، أو غيرِ ذلك؛ لهذا قال: ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ سؤالٌ: أنَّ الحمدَ في الدُّنيا ظاهرٌ؛ فما الحمدُ في الآخرةِ؟

الجوابُ: أنَّهم يَحمَدونَه بقَولِهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، والتَّوحيدُ هناك على وَجهِ اللَّذَّةِ لا الكُلْفةِ، وفي الحَديثِ ((يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ))[٥]. وفي حديثِ الشَّفاعةِ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ويُلهِمُني مَحامِدَ أَحْمَدُه بها لا تَحْضُرُني الآنَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١١٤).

والحديث أخرجه مسلم (٢٨٣٥) مطولًا من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

فأحْمَدُه بتلك المحامِدِ))[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ ظهورُ كمالِ صفاتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى في الدُّنيا والآخرةِ، لأنَّ الحمدَ وصفُ المحمودِ بالكمالِ[٢].

٩- اختِصاصُ اللهِ تعالى بالحُكمِ؛ وأنه وحْدَه هو الحاكمُ؛ لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، وما ذُكِرَ مِن إثباتِ الحُكمِ لغيرِه فهو أمرٌ مُقَيَّدٌ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كالتَّذْييلِ، وبيانِ أنَّه هو الَّذي يَخْلُقُ ما يَشاءُ؛ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ، ويَهدِي مَنْ يَشاءُ، ليس لأحدٍ أنْ يَتَصَرَّفَ في مُلكِه ويُشارِكَه في خَلْقِه؛ ولهذا خَتَمَه بقولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٤].

- قولُه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ الابْتِداءُ بقولِه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ تَمهيدٌ للمَقصودِ، وهو قولُه: ﴿وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، أيْ: كمَا أنَّ الخَلْقَ مِنْ خَصائصِه، فكذلكَ الاخْتِيارُ[٥].

- وقولُه: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بيانٌ لقولِه: ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ لأنَّ مَعناهُ: ويَخْتارُ ما يَشاءُ؛ ولهذا لم يَدْخُلِ العاطِفُ[٦]، وهو استِئْنافٌ مُؤكِّدٌ لمعنَى

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠) واللَّفظُ له، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢).

القَصْرِ؛ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أنَّ الجُملةَ قَبْلَه مُفيدةٌ مُجرَّدَ التَّقَوِّي. وصِيغةُ (ما كانَ) تدُلُّ على نَفْيٍ للكَونِ يُفيدُ أَشَدَّ ممَّا يُفيدُ لو قِيلَ: ما لهمُ الخِيرَةُ[١].

- واللَّامُ في ﴿لَهُمُ﴾ للمِلْكِ، أيْ: ما كانوا يَمْلِكونَ اختيارًا في المَخلوقاتِ حتَّى يقولوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، ونَفْيُ المِلْكِ عنهم مُقابِلٌ لقولِه: ﴿مَا يَشَآءُ﴾؛ لأنَّ ﴿مَا يَشَآءُ﴾ يُفيدُ مَعنى مِلْكِ الاخْتِيارِ. وفي ذِكْرِ اللهِ تعالى بعُنوانِ كَوْنِه ربًّا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إشارةٌ إلى أنَّه اخْتارَه لأنَّه ربُّه وخالِقُه، فهو قد عَلِمَ اسْتِعْدادَه لقَبولِ رسالَتِه[٢].

- قولُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ؛ لإنْشاءِ تَنزيهِ اللهِ وعُلُوِّه على طريقةِ الثَّناءِ عليه بتنَزُّهِه عن كلِّ نَقْصٍ، وهي مُعترضةٌ بينَ المُتعاطفَيْنِ[٣].

- وأُضِيفَ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ إلى اسمِه العَلَمِ دُونَ أنْ يُقالَ: (وسُبحانَه)، بَعْدَ أنْ قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ﴾ [القصص: ٦٩]؛ لأنَّ اسمَ الجلالةِ مُخْتَصٌّ به تعالى، وهو مُستَحِقٌّ للتَّنْزيهِ بذاتِه؛ لأنَّ استِحْقاقَ جَميعِ المَحامِدِ ممَّا تَضمَّنَه اسمُ الجلالةِ في أصْلِ معناهُ قبْلَ نَقْلِه إلى العَلَمِيَّةِ[٤].

- ووَجْهُ تَقْييدِ التَّنزيهِ والتَّرفيعِ بـ(مَا يُشْرِكُونَ): أنَّه لم يَجترِئْ أحَدٌ أنْ يَصِفَ اللهَ تعالى بما لا يَليقُ به ويَسْتحيلُ عليه إلَّا أهْلُ الشِّرْكِ بزَعْمِهم أنَّ ما نسَبُوه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦٥، ١٦٦).

إلى اللهِ إنَّما هو كَمالٌ، مِثْلُ اتِّخاذِ الوَلَدِ، أو هو ممَّا أنبَأَهُم اللهُ به، وزَعَموا أنَّ الآلهةَ شُفَعاؤُهمْ عندَ اللهِ، وقالوا في التَّلْبِيَةِ: لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لكَ، إلَّا شَرِيكًا هو لكَ، تَمْلِكُه وما مَلَكَ[١]! وأمَّا ما عَدَا ذلك فهُم مُعترِفُون بالكَمالِ للهِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ عَطْفٌ على ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، أيْ: هو خالِقُهُم ومُرَكِّبُهُم على النِّظامِ الَّذي تَصْدُرُ عنه الأفعالُ والاعتِقاداتُ؛ فَضميرُ ﴿صُدُورُهُمْ﴾ عائدٌ إلى (ما) مِنْ قولِه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [القصص: ٦٨] باعتِبارِ معناها، أيْ: ما تُكِنُّ صُدورُ المَخْلوقاتِ وما يُعلِنونَ. وحيثُ أُجرِيَتْ عليهِمْ ضَمائرُ العُقلاءِ، فَقَدْ تَعيَّنَ أنَّ المَقصودَ البَشَرُ مِنَ المَخْلوقاتِ، وهمُ المَقصودُ مِنَ العُمومِ في ﴿مَا يَشَآءُ﴾ [القصص: ٦٨]؛ فبِحَسَبِ ما يَعْلَمُ منهم يختارُهم ويُجازيهم؛ فحَصَل بهذا إيماءٌ إلى عِلَّةِ الاخْتِيارِ، وإلى الوَعْدِ والوَعيدِ، وهذا مُنتَهَى الإيجازِ[٣].

- وفي إحْضارِ الجلالةِ بعُنوانِ ﴿وَرَبُّكَ﴾: إيماءٌ إلى أنَّ ممَّا تُكِنُّهُ صُدورُهُمْ: بُغْضَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] الآيةَ، والمَقصودُ هو قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، وإنَّما قَدَّمَ عليه ما هو دَليلٌ على أنَّه المُنفَرِدُ بالحُكْمِ مع إدْماجِ صِفاتِ عَظَمَتِه الذَّاتيَّةِ المُقتَضِيةِ افْتِقارَ الكُلِّ إليه؛ ولذلكَ ابتُدِئَتِ الجملةُ بضَميرِ الغائِبِ؛ ليَعودَ إلى المُتحدَّثِ عنه بجَميعِ

(١) يُنظر ما رواه مسلم (١١٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨] إلى هُنا، أي: الموصوفُ بتِلْكَ الصِّفاتِ العظيمةِ، والفاعلُ لتلكَ الأفعالِ الجَليلةِ، والمَذكورُ بعُنوانِ ﴿وَرَبُّكَ﴾ هو المُسمَّى الله اسمًا جامِعًا لجَميعِ معاني الكَمالِ[١].

- وأفادَ جَعْلُ اسم ﴿ٱللَّهِ﴾ خبرًا لـ ﴿وَهُوَ﴾ أنَّهُ المُستأثِرُ بالإلهيَّةِ المُختَصُّ بها؛ ولهذا كان ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تَقْريرًا له[٢].

- وقولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبرٌ ثانٍ عن ضَميرِ الجلالةِ، وفي هذا الخبرِ الثَّاني زِيادةُ تَقريرٍ لمَدلولِ الخبرِ الأوَّلِ؛ فإنَّ اسمَ الجلالةِ اختُصَّ بالدَّلالةِ على الإلهِ الحقِّ، إلَّا أنَّ المُشركينَ حرَّفوا أو أثْبَتوا الإلهيَّةَ للأصنام، مع اعترافِهم بأنَّها إلهيَّةٌ دونَ إلهيَّةِ اللهِ تعالى؛ فكان مِن حقِّ النَّظَرِ أن يُعْلَمَ أنْ لَا إلَهَ إلَّا هو؛ فكان هذا إبْطالًا للشِّرْكِ بعدَ إبْطالِه بحِكايةِ تَلاشيه عن أهْلِ مِلَّتِه يومَ القيامةِ بقولِه: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾[٣] [القصص: ٦٤].

- وأخْبَرَ عن اسْمِ الجَلالةِ خَبرًا ثانيًا بقولِه: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾، وهو اسْتِدلالٌ على انْتِفاءِ إلهيَّةِ غيرِه؛ بحُجَّةِ أنَّ الناسَ مُؤمِنَهُم وكافِرَهُم لا يَحمَدُونَ في الدُّنيا إلَّا اللهَ؛ فلا تَسْمَعُ أحدًا مِنَ المُشركينَ يقولُ: الحَمْدُ للعُزَّى مثلًا؛ فاللَّامُ في ﴿لَهُ﴾ لِلْمِلْكِ، أيْ: لا يَمْلِكُ الحمدَ غيرُه. وتَقْديمُ المَجرورِ (لَهُ)؛ لإفادةِ الاخْتِصاصِ، وهو اخْتِصاصٌ حَقيقيٌّ. وتعريفُ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ تعريفُ الجنسِ المفيدُ للاسْتِغراقِ، أيْ: لَهُ كلُّ حَمْدٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قولِه: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ إدْماجٌ[١]؛ فإنَّ هذِه الآيةَ أُدْمِجَتْ فيها المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انْفِرادَه سُبحانَه بالحَمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحْمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في وَصْفِ ذاتِه بالانْفِرادِ والحمدِ، وهذِه -وإنْ خَرَجَ الكلامُ فيهما مَخْرَجَ المُبالَغةِ في الظَّاهِرِ- فالأمرُ فيها حَقيقةٌ في الباطنِ؛ لأنَّهُ أَوْلَى بالحمدِ في الدَّارَيْنِ[٢].

- وقولُه: ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ اللَّامُ فيه أيضًا للمِلْكِ، والتَّقديمُ للاخْتِصاصِ أيضًا، وحَذْفُ المُتعلَّقِ بالحُكمِ؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عليه، أيْ: له الحُكْمُ في الدَّارَينِ[٣].

- وأمَّا جملةُ: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فمَسُوقةٌ مَساقَ التَّخصيصِ بَعْدَ التَّعميمِ؛ بَعْدَ أنْ أُثبِتَ للهِ كلُّ حَمدٍ وكلُّ حُكمٍ، أيْ: إنَّكم تَرْجِعونَ إليه في الآخِرةِ فتُمَجِّدُونَه، ويُجري عليكم حُكْمَه، والمَقصودُ بهذا إلْزامُهم بإثْباتِ البَعْثِ[٤].

- وتَقديمُ المجرورِ في ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ، وللاهتِمامِ بالانتهاءِ إليه، أي: إلى حُكْمِه[٥].

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٢٨٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧١-٧٥)

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَرْمَدًا﴾: أي: دائِمًا، وأصلُه مِن (سرد): إذا وَصَلَ -والميمُ فيه زائدةٌ-، فكأنَّه زمانٌ متَّصِلٌ بَعضُه ببَعضٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُذكِّرَ النَّاسَ بمظاهرِ قدرتِه، وعظيمِ نعمتِه، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: أخبِروني إنْ جعَلَ اللهُ عليكم اللَّيلَ دائِمًا مُستمِرًّا بلا نهارٍ، مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بنهارٍ تُبصِرونَ فيه؟ أفلا تَسمَعونَ سَماعَ فَهمٍ وقَبولٍ؟! وقُلْ لهم: أخبِروني إنْ جعَلَ اللهُ عليكم النَّهارَ دائِمًا مستَمِرًّا بلا ليلٍ، مَن إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بليلٍ تستَقِرُّونَ فيه وتستريحونَ؟ أفلا تَرَوْنَ ذلك بأبصارِكم فتُوحِّدونَ الله؟!

ومِن رحمةِ اللهِ بكم -أيُّها النَّاسُ- أنْ خلَقَ لكم اللَّيلَ والنَّهارَ يَتعاقَبانِ على الدَّوامِ؛ لمصالِحِكم، فجعَلَ اللهُ اللَّيلَ مُظلِمًا؛ لِتَسكنوا فيه وتَستريحوا، وجعَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٨).

النَّهارَ مُضيئًا؛ لطلَبِ معايشِكم وأرزاقِكم، ولِتَشكروه على إنعامِه عليكم بهما.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى بعضَ مَشاهِدِ القيامةِ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ فيَقولُ لهم: أين الَّذين كنتُم في الدُّنيا تَزعُمونَهم شُرَكائي في العبادةِ؟

وأحضَرْنا مِن كلِّ قومٍ نبيَّهم؛ لِيَشهَدَ عليهم بالتَّبليغِ، فقُلْنا لكلِّ أُمَّةٍ كذَّبَت نبيَّها: هاتوا حُجَّتَكم على صِحَّةِ إشراكِكم بالله، فعَلِموا حينَئذٍ أنَّ اللهَ هو المستحِقُّ وحْدَه للعبادةِ، وأنَّ ما جاءت به رُسُلُه صِدْقٌ وحَقٌّ، وغاب عنهم ما كانوا يَفتَرونَه على اللهِ في الدُّنيا مِن أنَّ معه شُرَكاءَ، فلَمْ يَنفعوهم في الآخرةِ بشَيءٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: أخْبِروني إنْ جعَلَ اللهُ عليكم اللَّيلَ دائِمًا مُستَمِرًّا بلا نهارٍ يأتي بعْدَه إلى يومِ القيامةِ[(١)].

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾.

أي: مَن مَعبودٌ غيرُ اللهِ يَقدِرُ على أن يأتيَكم بنَهارٍ مُنيرٍ تُبصِرونَ فيه[(٢)]؟

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧٠).

أي: أفلا تَسْمَعونَ ذلك سَماعَ فَهمٍ وقَبولٍ وانقيادٍ، وتتفكَّرونَ فيه فتَتَّعِظونَ، وتَستَدِلُّونَ بذلك على توحيدِ اللهِ واستِحقاقِه للعِبادةِ وَحْدَه[1]؟!

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: أخبِروني إنْ جعَلَ اللهُ عليكم النَّهارَ دائِمًا مُستَمِرًّا بلا لَيلٍ يأتي بعْدَه إلى يومِ القيامةِ[2].

﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾.

أي: مَن مَعبودٌ غيرُ اللهِ يَقدِرُ على أنْ يأتيَكم بلَيلٍ تَستَقِرُّونَ فيه وتَستريحونَ[3]؟

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

أي: أفلا تَرَونَ ذلك بأبصارِكم، فتَعلَمونَ أنَّ اللهَ هو المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه، وأنَّ عِبادةَ مَنْ سِواه ضَلالٌ مُبينٌ[4]؟!

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨).

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

أي: ومِن رَحمةِ اللهِ بكم -أيُّها النَّاسُ- أنْ خَلَقَ لكم اللَّيلَ والنَّهارَ مختلِفَينِ بالظُّلمةِ والضِّياءِ، يَتعاقَبانِ على الدَّوامِ لِمَصالحِكم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾.

أي: جعَلَ اللهُ اللَّيلَ مُظلِمًا؛ لِتَسكُنوا فيه، وتَستريحوا مِن تَعَبِ أعمالِكم في النَّهارِ(٢).

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ النَّهارَ مُضيئًا؛ لِطَلَبِ مَعايِشِكم وأرزاقِكم(٣).

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ لكم اللَّيلَ والنَّهارَ؛ لِتَشكُروه على إنعامِه عليكم بهما، وتَعبُدوه وَحْدَه فيهما(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢).

شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا هجَّنَ طريقةَ المُشرِكين أوَّلًا، ثُمَّ ذَكَر التَّوحيدَ ودلائِلَه ثانيًا؛ عاد إلى تَهجينِ طريقتِهم مرَّةً أخرى، وشَرَحَ حالَهم في الآخرةِ، فقال[1]:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ، فيقولُ لهم يومَ القيامةِ: أين شُرَكائيَ الَّذين كُنتُم في الدُّنيا تدَّعُونَ كَذِبًا أنَّهم شُرَكائي في العبادةِ، وأنَّهم يَنفَعونكم ويَنصُرونكم[2]؟

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾.

أي: وأخرَجْنا وأحضَرْنا مِن كلِّ قَومٍ نبيَّهم؛ لِيَشهَدَ على أمَّتِه بالتَّبليغِ وبما أجابَتْه في دَعوتِه إلى الحَقِّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٥، ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٦، ٣٤٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالشَّهيدِ هنا: النَّبيُّ أو الرَّسولُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، =

كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾.

أي: فقُلْنا لكلِّ أمَّةٍ كذَّبَت نبيَّها: هاتُوا حُجَّتكم على صِحَّةِ إشراكِكم باللهِ[1].

﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾.

أي: فعَلِموا حينَئذٍ أنَّ اللهَ هو المُستَحِقُّ وَحْدَه للعبادةِ، وأنَّ ما جاءت به رُسُلُه صِدقٌ وحَقٌّ مِن عِندِه[2].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

= والواحدي، والسمعاني، والقرطبي، وابن جُزَي، والبِقاعي. يُنظر: المصادر السابقة، و((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٥٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ومُجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٠٤).

وقال الواحدي: (شهيدُها: رسولُها الَّذي يَشهدُ عليها بالبلاغِ، وبما كان منها؛ في قولِ ابنِ عبَّاسٍ والمفسِّرينَ)). ((البسيط)) (١٧/ ٤٤٥).

وقيل: هم الشُّهداءُ الَّذين يَشهَدون على النَّاسِ في كلِّ زمانٍ، ويَدخُلُ في جُملتِهِمُ الأنبياءُ، قال الرازيُّ: (وهذا أقرَبُ؛ لأنَّه تعالى عَمَّ كلَّ أُمَّةٍ وكلَّ جماعةٍ بأن يَنزِعَ منهم الشَّهيدَ، فيَدخُلُ فيه الأحوالُ الَّتي لم يوجَدْ فيها النَّبيُّ، وهي أزمنةُ الفَتراتِ، والأزمنةُ الَّتي حصلَتْ بعدَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّمَ). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣).

وقيل: المرادُ بالشُّهَداءِ هنا: رُؤساءُ مُنتخَبونَ مِن رُؤساءِ المكَذِّبينَ يَتصَدَّونَ للمُجادَلةِ نيابةً عن إخوانِهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: السعديُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢).

أي: وغاب عن المُشركينَ واضمَحَلَّ ما كانوا يَختَلِقونَه على اللهِ في الدُّنيا مِن أنَّ معه شُرَكاءَ، فلَمْ يَنفَعوهم في الآخِرةِ بشَيءٍ[(١)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ إلى قَولِه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تَنبيهٌ إلى أنَّ العَبدَ ينبغي له أنْ يَتدبَّرَ نِعَمَ اللهِ عليه، ويَستبصِرَ فيها، ويَقيسَها بحالِ عَدَمِها؛ فإنَّه إذا وازَنَ بيْنَ حالةِ وُجودِها وبينَ حالةِ عَدَمِها، تَنَبَّه عَقلُه لِمَوضعِ المِنَّةِ، بخِلافِ مَن جرى مع العوائِدِ، ورأى أنَّ هذا أمرٌ لم يَزَلْ مُستمِرًّا ولا يزالُ، وعَمِيَ قلْبُه عن الثَّناءِ على اللهِ بنِعَمِه، ورُؤْيةِ افتِقارِه إليها في كلِّ وقتٍ؛ فإنَّ هذا لا يُحْدِثُ له فِكرةَ شُكرٍ ولا ذِكْرٍ[(٢)].

٢- الحَثُّ على التَّبَصُّرِ في آياتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ لِقَولِه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لأنَّ هذا يُفيدُ حَثَّ الإنسانِ أن يتبَصَّرَ فيما جعَلَه اللهُ عزَّ وجَلَّ في هذه الآياتِ؛ حتَّى يَستَدِلَّ بها على كَمالِ قُدرةِ الخالِقِ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا ...﴾ هو مِن أبدَعِ الاستِدلالِ؛ حيثُ اختيرَ للاستِدلالِ على وحدانيَّةِ اللهِ هذا الصُّنعُ العَجيبُ المتكرِّرُ كلَّ يومٍ مرَّتينِ، والَّذي يَستوي في إدراكِه كلُّ مميِّزٍ، والَّذي هو أجلَى مَظاهِرِ التَّغَيُّرِ في هذا العالَمِ؛ فهو دَليلُ الحُدوثِ، وهو ممَّا يَدخُلُ في التَّكيُّفِ به جميعُ الموجوداتِ في هذا العالَمِ حتَّى الأصنامُ؛ فهي تُظْلِمُ وتَسْوَدُّ أجسامُها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٢٢).

بظَلام اللَّيلِ، وتُشْرِقُ وتُضيءُ بضياءِ النَّهارِ، وكان الاستِدلالُ بتعاقُبِ الضِّياءِ والظُّلمةِ على النَّاسِ أقوى وأوضَحَ مِنَ الاستِدلالِ بتَكوينِ أحدِهما لو كان دائمًا؛ لأنَّ قُدرةَ خالقِ الضِّدَّينِ، وجاعلِ أحدِهما يَنْسَخُ الآخَرَ كلَّ يوم: أظهَرُ منها لو لم يَخلُقْ إلَّا أقواهما وأنفعَهما، ولأنَّ النِّعمةَ بتَعاقُبِهما دومًا أشدُّ مِن الإنعامِ بأفضَلِهما وأنفَعِهما؛ لأنَّه لو كان دائمًا لكان مَسؤومًا[1]، ولحَصَلتْ منه طائفةٌ مِن المنافِعِ وفُقِدَت مَنافِعُ ضِدِّهِ؛ فالتَّنَقُّلُ في النِّعَمِ مَرغوبٌ فيه، ولو كان تنَقُّلًا إلى ما هو دُونٌ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ أنَّه لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يُغَيِّرَ سُنَّةَ اللهِ في الكَونِ، فلو جَعَله سَرْمَدًا ما استطاع أحدٌ أنْ يُزيلَه[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ بيانُ نِعمةِ اللهِ على العبادِ بضياءِ النَّهارِ، فكم تَستَهلِكُ الأُمَّةُ مِن طاقةٍ في إضاءةِ اللَّيلِ الَّذي لا يكونُ مثلَ إضاءةِ النَّهارِ؟ وبهذا نَعرِفُ قدْرَ نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بهذا الضِّياءِ الَّذي يَصِلُ إلى النَّاسِ بكَمِّيَّاتٍ كبيرةٍ[4].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أنَّ نَومَ اللَّيلِ أفيَدُ للجسمِ مِن نَومِ النَّهارِ؛ حيثُ جَعَلَ اللهُ اللَّيلَ محَلَّ سَكَنٍ ووَقْتَه، وهذا أمرٌ مُشاهَدٌ[5].

٥- قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وقَولُه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ إنَّما قاله؛ لأنَّ

---

(١) أي: مُمَلًّا، يقالُ: سَئِم مِن الشَّيءِ، أي: مَلَّهُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لأبي عبد الله الرازي (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٢).

الغرَضَ مِن ذلك الانتِفاعُ بما يَسمَعونَ ويُبصِرونَ مِن جِهةِ التَّدَبُّرِ، فلمَّا لم يَنتَفِعوا نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن لا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّه وإنْ كان السُّكونُ في النَّهارِ مُمكِنًا، وابتغاءُ فَضلِ اللهِ باللَّيلِ مُمكِنًا، فإنَّ الأَلْيَقَ بكلٍّ واحدٍ منهما ما ذَكَرَه اللهُ تعالى به؛ فلِهذا خَصَّه به[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّ اللَّيلَ للسَّكَنِ، والنَّهارَ لطَلَبِ المعاشِ؛ فقَولُه: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ في اللَّيلِ، وقَولُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ في النَّهارِ، وتتفَرَّعُ على هذه المسألةِ فائدةٌ في القِسمةِ بيْنَ الزَّوجَتَينِ: إذا كانت للإنسانِ زَوجتانِ، وأراد أنْ يَقْسِمَ بيْنَهما؛ فإنَّ مدارَ القَسْمِ على اللَّيلِ لِمَن معاشُه في النَّهارِ، والنَّهارِ لِمَن معاشُه في اللَّيلِ، فإذا أَشْكَلَ علينا الأمرُ فالعِمادُ هو اللَّيلُ؛ لأنَّه محَلُّ السَّكَنِ[٣].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ؛ حيثُ قال: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾ أي: لِتَطلُبوا؛ فالرِّزقُ لا يأتي مِن السَّماءِ ويَنزِلُ، بل لا بُدَّ فيه مِن طَلَبٍ، وإذا لم تفعَلْ هذا السَّبَبَ الذي تحصُلُ به على الرِّزقِ، لم يَحصُلِ الرِّزقُ؛ لأنَّ اللهَ تبارك وتعالى حكيمٌ رَبَطَ الأسبابَ بمُسَبَّباتِها[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّ الرِّزقَ هو مِن اللهِ عزَّ وجلَّ وفَضْلِه وعَطائِه؛ فليس حاصِلًا بمجَرَّدِ كَدِّ الإنسانِ وكَدْحِه؛ فكم مِن إنسانٍ يَكُدُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٩).

ويَكدَحُ، ومع ذلك يكونُ رِزقُه ضَيِّقًا! وكم مِن إنسانٍ يَفْعَلُ أسبابًا أقَلَّ ممَّا فَعَله الأوَّلُ، ثمَّ يُوَسَّعُ له في الرِّزقِ[١]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ انتقالٌ مِن الاستِدلالِ على انفرادِه تعالَى بالإلهيَّةِ بصِفاتِ ذاتِه، إلى الاستِدلالِ على ذلكَ ببَديعِ مَصْنوعاتِه، وفي ضِمْنِ هذا الاستِدلالِ إدماجُ الامْتِنانِ على النَّاسِ، وللتَّعريضِ بكُفرِ المُشركينَ جَلائلَ نِعَمِه. وسِيقَ إليهم هذا الاستِدلالُ بأُسلوبِ تَلقينِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَقولَه لهم؛ اهتمامًا بهذا التَّذكيرِ لهذا الاستِدلالِ، ولاشْتِمالِه على ضِدَّينِ مُتعاقِبَيْنِ، حتَّى لو كانتْ عُقولُهم قاصِرةً عن إدراكِ دَلالةِ أحَدِ الضِّدَّينِ لَكانَ في الضِّدِّ الآخرِ تَنْبيهٌ لهم، ولو قَصَّرُوا عن حِكمةِ كُلِّ واحدٍ منهما كان في تعاقُبِهما ما يَكْفي للاستدلالِ. وجِيءَ في الشَّرطَينِ بحرفِ (إن)؛ لأنَّ الشَّرطَ مَفْروضٌ فرضًا مُخالفًا للواقعِ، وعُلِمَ أنَّه قَصَد الاستِدلالَ بعِبْرةِ خَلْقِ النُّورِ؛ فلِذلكَ فُرِضَ استِمرارُ اللَّيلِ، والمقصودُ ما بَعْدَه، وهو قولُه: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ تَقريريٌّ، والاستِفهامُ في ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ إنكاريٌّ، وهم مُعتَرِفونَ بهذا الانتفاءِ، وأنَّ خالِقَ اللَّيلِ والنَّهارِ هو اللهُ تعالى لا غيرُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٨، ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦٩).

- قولُه: ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ صِفةٌ أُخرى لـ﴿إِلَٰهٌ﴾، عليها يَدورُ أمْرُ التَّبْكيتِ والإلزامِ؛ كما في قولِه تعالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١]، وقولِه تعالَى: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] ونَظائرِهما، غَيرَ أنَّه قُصِدَ بيانُ انتفاءِ المَوصوفِ بانتفاءِ الصِّفةِ، ولم يُقَلْ: (هل إلَهٌ... إلخ)؛ لإيرادِ التَّبكيتِ والإلزامِ على زَعْمِهم[١].

- قولُه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ الهَمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

- قولُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ كرَّرَ الأمرَ بالقَولِ في مَقامِ التَّقريرِ؛ لأنَّ التَّقريرَ يُناسِبُه التَّكريرُ، مِثْلَ مَقامِ التَّوبيخِ ومَقامِ التَّهويلِ[٣].

- ووَصْفُ اللَّيلِ بـ﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ إدماجٌ[٤] للمِنَّةِ في أثناءِ الاستِدلالِ؛ للتَّذكيرِ بالنِّعْمةِ المُشتَمِلةِ على نِعَمٍ كثيرةٍ، وتلكَ هي نِعمةُ السُّكونِ فيه؛ فإنَّها تَشْملُ لَذَّةَ الرَّاحةِ، ولَذَّةَ الخَلاصِ مِن الحَرِّ، ولَذَّةَ استعادةِ نشاطِ المَجموعِ العَصبيِّ الَّذي به التَّفكيرُ والعملُ، ولَذَّةَ الأمنِ مِن العدوِّ. ولم يُوصَفِ الضِّياءُ بشَيءٍ؛ لكثرةِ مَنافعِه، واختِلافِ أنواعِها[٥]، فلمْ يَقُلْ: (بنَهارٍ تَتَصَرَّفونَ فيه)، كما قيلَ: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾، بل ذَكَرَ الضياءَ -وهو ضَوْءُ الشَّمسِ-؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠).

(٤) تقدم تعريفه: (ص: ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠).

لأنَّ المنافعَ الَّتي تَتَعَلَّقُ به مُتكاثِرةٌ، ليس التَّصرُّفُ في المَعاشِ وَحْدَه، والظَّلامُ ليس بتلكَ المنزلَة، ومِن ثَمَّةَ قَرَنَ بالضِّياءِ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؛ لأنَّ السَّمعَ يُدرِكُ ما لا يُدْرِكُه البصرُ مِنْ ذِكْرِ مَنافعِه، ووَصْفِ فوائدِه، وقَرَنَ باللَّيلِ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لأنَّ غيرَكَ يُبْصِرُ مِن مَنفعةِ الظلامِ ما تُبْصِرُه أنتَ مِنَ السُّكونِ ونحوِه[١].

- وعَبَّرَ بالضِّياءِ دونَ النهارِ؛ لأنَّ ظُلمةَ اللَّيلِ قد تَخِفُّ قليلًا بنورِ القَمرِ؛ فكانَ ذِكْرُ الضِّياءِ إيماءً إلى ذلك[٢].

- وفيه احتِباكٌ[٣]؛ حيثُ ذَكَرَ الضِّياءَ أوَّلًا دليلًا على حذفِ الظَّلامِ ثانيًا؛ واللَّيْلَ والسُّكونَ ثانيًا دليلًا على حذفِ النهارِ والانتشارِ أوَّلًا[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ خَتَمَ آيةَ اللَّيلِ بقولِه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وآيةَ النَّهارِ بقولِه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لمُناسَبةِ اللَّيلِ المُظْلِمِ السَّاكنِ للسَّماعِ، ومُناسَبَةِ النهارِ النَّيِّرِ للإبصارِ[٥].

- وقُدِّمَ اللَّيلُ على النَّهارِ؛ ليَسْتَريحَ الإنسانُ فيه، فيَقومَ إلى تَحصيلِ ما هو مُضطَرٌّ إليه مِن عبادةٍ وغيرِها بنَشاطٍ وخِفَّةٍ، ألَا تَرَى أنَّ الجنةَ نهارُها دائمٌ؛ إذْ لا تَعَبَ فيها يحتاجُ إلى لَيْلٍ يَستريحُ أهلُها فيه[٦]؟ ولأنَّ ذَهابَ اللَّيلِ بطُلوعِ الشَّمسِ أكثرُ فائِدةً مِن ذَهابِ النَّهارِ بدُخولِ اللَّيلِ[٧]، ولأنَّ تَقديمَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٨، ٤٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٢٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٤).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٦).

اللَّيلِ على النَّهارِ جارٍ على ما بَنَتِ العَرَبُ عليه حِسابَ شُهورِها مِن تقديمِ اللَّيلِ، وجَعْلِ النَّهارِ تابِعًا له، ولم يَرِدْ في كتابِ اللهِ تعالى على كثرةِ تَردادِه إلَّا ذلك[١]، ولأنَّ آيةَ اللَّيلِ عَدَميَّةٌ، وهي أسبَقُ[٢].

- وفي تَعْدِيةِ فِعْلِ ﴿يَأْتِيكُم﴾ في المَوضعَيْنِ إلى ضميرِ المُخاطَبينَ؛ إيماءٌ إلى أنَّ إيجادَ الضِّياءِ وإيجادَ اللَّيلِ نِعمةٌ على النَّاسِ، وهذا إدماجٌ للامتنانِ في أثناءِ الاستدلالِ على الانْفرادِ بالإلهيَّةِ، وإذْ قد استَمَرَّ المُشركونَ على عِبادةِ الأصنامِ بعدَ سُطُوعِ هذا الدَّليلِ، وقد عَلِموا أنَّ الأصنامَ لا تَقْدِرُ على إيجادِ الضِّياءِ؛ جُعِلُوا كأنَّهم لا يَسْمَعُونَ هذه الآياتِ الَّتي أقامتِ الحُجَّةَ الواضحةَ على فَسادِ مُعتَقَدِهم، ففُرِّعَ على تلكَ الحُجَّةِ الاستفهامُ الإنكاريُّ عن انتفاءِ سَماعِهم بقولِه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، أي: أفلا تَسْمَعُونَ الكلامَ المُشتَمِلَ على التَّذكيرِ بأنَّ اللهَ هو خالِقُ اللَّيلِ والضِّياءِ، ومِنه هذه الآيةُ، وليس قولُه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ تَذْييلًا[٣].

- وتَفَرَّعَ على هذا الاستدلالِ أيضًا تَنْزيلُهم مَنزِلةَ مَن لا يُبْصرونَ الأشياءَ الدَّالَّةَ على عظيمِ صُنْعِ اللهِ وتفرُّدِه بصُنْعِها، وهي منهم بمَرأَى الأعيُنِ، وناسَبَ السَّمعَ دَليلُ فَرْضِ سَرْمَدَةِ اللَّيلِ؛ لأنَّ اللَّيلَ لو كانَ دائمًا لم تكُنْ للنَّاسِ رُؤيةٌ؛ فإنَّ رُؤيةَ الأشياءِ مَشْروطةٌ بانتشارِ شَيءٍ مِن النورِ على سَطْحِ الجسمِ المَرئيِّ؛ فالظُّلْمةُ الخالصةُ لا تُرى فيها المَرْئيَّاتُ؛ ولذلكَ جِيءَ في جانِبِ فَرْضِ دَوامِ اللَّيلِ بالإنكارِ على عدَمِ سَماعِهم، وجِيءَ في جانِبِ فَرْضِ دوامِ النَّهارِ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠).

بالإنكارِ على عدَمِ إبصارِهم، وليس قولُه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تَذْييلًا[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تَصريحٌ بنِعمةِ تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ على النَّاسِ بقولِه: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وذلكَ ممَّا دلَّتْ عليه الآيةُ السَّابقةُ بطريقِ الإدماجِ بقولِه: ﴿يَأْتِيكُم﴾، وبقولِه: ﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (مِنْ) هنا للسَّببِ، أي: وبسببِ رحمتِه إيَّاكُم جَعَل لكمُ اللَّيلَ والنَّهارَ، ثمَّ علَّلَ جَعْلَ كلٍّ واحدٍ منهُما؛ فبَدَأَ بعلَّةِ الأوَّلِ، وهو اللَّيلُ، وهو ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، ثمَّ بعلَّةِ الثَّاني وهو: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، ثمَّ بما يُشْبِهُ العلَّةَ لِجَعْلِ هذَينِ الشَّيئينِ وهو: (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، أي: هذه الرَّحمةَ والنِّعمةَ، وهذا النَّوعُ مِن عِلْمِ البديعِ يُسمَّى التَّفسيرَ، وهو أنْ تَذْكُرَ أشياءَ ثم تُفسِّرَها بما يُناسِبُها[٣].

- وقدَّمَ المَجرورَ (مِنْ رَحْمَتِه) على عامِلِه ﴿جَعَلَ﴾؛ للاهتِمامِ بمِنَّةِ الرحمةِ[٤].

- والضَّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ عائدٌ على اللَّيلِ، وفي ﴿فَضْلِهِۦ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ عائدًا على اللهِ، والتَّقديرُ: مِنْ فَضْلِه، أي: مِن فَضْلِ اللهِ فيه، أي: في النهارِ، وحُذِف لِدَلالةِ المَعنى، ولدَلالةِ لفظِ ﴿فِيهِ﴾ السَّابقِ عليه. ويَحتَمِلُ أن يَعودَ على النَّهارِ، أي: مِن فَضْلِ النهارِ، ويكونَ أضافَه إلى ضَميرِ النَّهارِ لَمَّا كانَ الفضلُ حاصلًا فيه أُضيفَ إليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢١، ٣٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٢).

- وسَلَك في قولِه: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ طريقةَ اللَّفِّ والنَّشْرِ المرَتَّبِ[(١)]؛ فإنَّ قولَه: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ يَعودُ إلى ﴿ٱلَّيْلَ﴾، ويَعودُ قولُه: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إلى (النَّهارِ)، والتَّقديرُ: ولِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِه فيه؛ فحُذِفَ الضَّميرُ وجارُه إيجازًا؛ اعتمادًا على المُقابَلةِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الابتغاءُ مِن فَضْلِ اللهِ كنايةٌ عنِ العملِ والطَّلبِ

---

(١) اللَّف والنَّشْر: هو أن يُذكرَ شَيئانِ أو أشياءُ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكَرُ أشياءُ على عدَد ذلك، كلُّ واحدٍ يَرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفَوَّضُ إلى عقلِ السَّامِعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به.
فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحِقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دُونَ تعيينٍ؛ مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.
واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلِّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كما في قولِه تعالى هنا: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
وغيرُ المرتَّب -وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس»-: هو أن يأتيَ النَّشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّلٌ، وجاء بعْدَها نَشْرٌ غيرُ مُرتَّب؛ فجُملةُ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى ومتعلِّقةٌ بها، وجملةُ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ ومُتعلِّقةٌ بها، وجملةُ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ ومتعلِّقةٌ بها.
يُنظر في تفصيلِ أقسامِه وأمثلةٍ على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٧٠).

لتحصيلِ الرِّزْقِ؛ قال تعالَى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[1] [المزمل: ٢٠].

- قولُه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عُطِفَ على العِلَّتَينِ رجاءُ شُكْرِهم على هاتينِ النِّعمتينِ اللَّتين هُما مِن جملةِ رحمتِه بالناسِ؛ فالشأنُ أنْ يَتَذَكَّروا بذلكَ مَظاهرَ الرَّحمةِ الرَّبَّانيَّةِ، وجلائلَ النِّعَمِ، فيَشكُروه بإفرادِه بالعبادةِ، وهذا تعريضٌ بأنَّهم كَفَروا فلمْ يَشْكُروا[2].

- وفي هذه الآيةِ ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ما يُعرَفُ بصِحَّةِ المُقابَلاتِ[3]، حيثُ جاءَ اللَّيلُ والنَّهارُ في صَدْرِ الكلامِ، وهما ضِدَّانِ، وجاء السُّكونُ والحركةُ في عَجُزِه، وهما ضِدَّانِ، ومُقابَلةُ كلِّ طَرَفٍ منه بالطَّرَفِ الآخَرِ على التَّرتيبِ، وعَبَّرَ سُبحانَه عن الحركةِ بلفظِ الإرداف[4]؛ فاسْتَلْزَمَ الكلامُ ضَرْبًا مِن المَحاسِنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧٢).

(٣) صِحَّة المُقابلاتِ: عِبارةٌ عن توخِّي المتكلِّمِ ترتيبَ الكلامِ على ما يَنبغي، فإذا أَتَى بأشياءَ في صَدْرِ كلامِه قابَلَها في عَجُزِه بأَضْدادِها أو بأَغْيارِها مِن المُخالِفِ والمُوافِقِ على التَّرتيبِ؛ بحيثُ يُقابَلُ الأوَّلُ بالأوَّلِ، والثَّاني بالثَّاني، ولا يَخْرِمُ مِن ذلك شيئًا في المُخالِفِ والمُوافِقِ، ومتى أَخَلَّ بالتَّرتيبِ كان الكلامُ فاسِدَ المُقابَلةِ، وهذه الآيةُ مِن مُعجِزِ هذا البابِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٧٩)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ١٢٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٧٠).

(٤) الإرداف: هو أنْ يُريدَ المُتكلِّمُ معنًى، فلا يُعبِّرُ عنه بلَفظِه الموضوعِ له، ولا بلفظِ الإشارةِ الدَّالِّ على المعاني الكثيرةِ، بلْ بلَفظٍ هو رِدفُ المعْنى الخاصِّ وتابِعُه، قَريبٍ مِن لَفظِ المعْنى الخاصِّ قُرْبَ الرَّديفِ مِن الرِّدفِ. ومثالُه قولُه تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ مِنَ الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، وحقيقةُ ذلك: وهلَكَ مَن قضَى اللهُ هلاكَه، ونجا مَن قضى نجاتَه، وإنَّما عُدِل عن هذه =

زائدًا على المُقابَلةِ، والَّذي أَوْجَب العُدولَ عن لفظِ الحركةِ إلى لفظِ ابتغاءِ الفضلِ: كَوْنُ الحركةِ تكونُ لِمَصلحةٍ ولِمَفْسَدةٍ، وابتغاءُ الفضلِ حَركةٌ للمَصلحةِ دونَ المَفْسدةِ، والآيةُ سِيقَتْ للاعتدادِ بالنِّعَمِ؛ فوَجَب العُدولُ عن لَفظِ الحركةِ إلى لفظٍ هو رِدْفُه وتابعُه؛ لِيَتمَّ حُسْنُ البيانِ، فتَضَمَّنَتْ هذه الكلماتُ -الَّتي هي بَعْضُ آيةٍ- عِدَّةً مِن المنافعِ والمصالحِ، الَّتي لو عُدِّدَتْ بألفاظِها المَوضوعةِ لها لاحْتاجَتْ في العبارةِ عنها إلى ألفاظٍ كثيرةٍ؛ فحَصَل بهذا الكلامِ بهذا السَّببِ عِدَّةُ ضُروبٍ مِن المَحاسِنِ؛ فقد جَعَل سُبحانَه العِلَّةَ في وُجودِ اللَّيلِ والنَّهارِ حُصولَ مَنافعِ الإنسانِ، حيث قال: ﴿لِتَسْكُنُواْ﴾ و(لِتَبْتَغُوا) بلامِ التَّعليلِ؛ فجَمَعَتْ هذه الكَلِماتُ المُقابَلةَ والتَّعليلَ، والإشارةَ والإردافَ، والائْتِلافَ[1] وحُسْنَ النَّسَقِ[2] .....

= الحقيقةِ إلى لفظِ الإردافِ مِن الإيجازِ، والتَّنبيهِ على أنَّ هلاكَ الهالكِ ونجاةَ النَّاجي كان بأمرِ آمرٍ مُطاعٍ، وقضاءِ مَن لا يُرَدَّ قضاؤُه، والأمرُ يَستلزِمُ آمرًا، وقضاؤُه يدُلُّ على قدرةِ الآمرِ به، وطاعةُ المأمورِ تدُلُّ على قدرةِ الآمرِ وقَهرِه، وأنَّ الخَوفَ مِن عِقابِه ورجاءَ ثَوابِه يَحُضَّانِ على طاعةِ الآمرِ، ولا يَحصُلُ ذلك كلُّه مِنَ اللَّفظِ الخاصِّ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٠٧)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٣٠٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٦٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٨٠).

(١) الائتلاف: هو أن يكونَ اللَّفظُ مع اللَّفظِ المُجاوِرِ له في الكلامِ مؤتلِفَين، وهذا يَلزَمُ منه أن تكونَ الألفاظُ في الكلامِ مُتآلِفةً يُلائمُ بعضُها بعضًا، بحيثُ تكونُ كلُّ لفظةٍ لا يَصلُحُ مكانَها غيرُها. يُنظر: ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٤٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٥٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥٢٠).

(٢) حُسْنُ النَّسَقِ: هو عبارةٌ عن أن يأتيَ المتكلِّمُ بالكلماتِ مِن النَّثرِ والأبياتِ مِن الشِّعرِ مُتتاليات مُتلاحماتٍ تلاحُمًا سليمًا مُستحسَنًا، لا مَعيبًا مُستهجَنًا، وأن تكونَ كلُّ واحدةٍ منها قابلةً لأنْ تَستقِلَّ بنفْسِها لو أُفرِدَتْ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٢٥)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٣٨٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٦٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٦٢).

وحُسْنَ البيانِ[١]؛ لمَجيءِ الكلامِ فيها مُتلاحِمًا، آخِذَةً أعناقُ بعضِه بأعناقِ بعضِه، ثمَّ أخْبَرَ بالخبَرِ الصَّادقِ أنَّ جميعَ ما عدَّدَه مِن النِّعَمِ الَّتي هي مِن لَفْظَي الإشارةِ والإردافِ بعضُ رحمتِه؛ حيثُ قال بحرفِ التبْعيضِ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾، وكلُّ هذا في بَعضِ آيةٍ عِدَّتُها إحْدَى عَشْرةَ لفظةً، فالْحَظْ هذه البلاغةَ الظَّاهرةَ، والفصاحةَ المُتظاهِرةَ[٢]!

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تَقْريعٌ بعدَ تَقْريعٍ، وَسَلَكَتْ هذه الآيةُ طَريقةَ اللَّفِّ في تَكريرِ التَّوبيخِ باتِّخاذِ الشُّركاءِ؛ للإشعارِ والإيذانِ بأنَّه لا شَيءَ أَجْلَبُ لغضَبِ اللهِ مِن الإشراكِ به، كما لا شَيءَ أَدْخَلُ في مَرْضاتِه مِن توحيدِه سُبحانَه. أو الأوَّلُ لتقريرِ فَسادِ رأيِهم، والثَّاني لبيانِ أنَّه لم يَكُنْ عن سَنَدٍ، وإنَّما كان مَحضَ تَشَهٍّ وهوًى[٣]. أو كُرِّرَ هنا على جهةِ الإبلاغِ والتَّأكيدِ[٤]. وقيل: كُرِّرَتْ جُملةُ (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ) مرَّةً ثانيةً؛ لأنَّ التَّكريرَ مِن مُقتضياتِ مَقامِ التَّوبيخِ؛ فلذلكَ لم يقُلْ: (ويومَ نَنْزِعُ مِنْ كلِّ أُمَّةٍ شهيدًا)، فأُعيدَ ذِكْرُ أنَّ اللهَ يُناديهم بهذا الاستفهامِ التَّقريعيِّ، ويَنْزِعُ مِن كلِّ أمَّةٍ

---

(١) حُسْنُ البيانِ: حقيقتُه: إخراجُ المعنى في أحسَنِ الصُّورِ الموضحةِ له، وإيصالُه إلى فَهْمِ المُخاطَبِ بأقرَبِ الطُّرقِ وأسهلِها، وقد تأتي العبارةُ عنه مِن طريقِ الإيجازِ، وقد تأتي مِن طريقِ الإطنابِ؛ بحسَبِ ما تقتضيه الحالُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٨٩)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٤٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ١٢٩، ١٣٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٢).

شهيدًا، فظاهرُ الآيةِ أنَّ ذلكَ النِّداءَ يُكرَّرُ يومَ القيامةِ. ويَحتَمِلُ أنَّه إنَّما كُرِّرَتْ حِكايتُه، وأنَّه نِداءٌ واحدٌ يقَعُ عقِبَه جوابُ الَّذينَ حَقَّ عليهم القولُ مِن مُشركي العربِ، ويَقَعُ نَزْعُ شهيدٍ مِن كلِّ أمةٍ عليهم؛ فهو شاملٌ لمُشركي العربِ وغيرِهم مِن الأُممِ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

- جِيءَ بفعلِ المُضِيِّ في (نَزَعْنَا)؛ إمَّا للدَّلالةِ على تَحقيقِ وُقوعِه، حتَّى كأنَّه قد وَقَعَ، وإمَّا لأنَّ الواوَ للحالِ، فهو حالٌ مِن فاعِلِه بإضمارِ (قد)[٢].

- والالْتِفاتُ إلى نونِ العظَمةِ في قولِه: ﴿وَنَزَعْنَا﴾؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتِناءِ بشأنِ النَّزعِ وتَهْويلِه[٣]، أو لإظهارِ عَظَمةِ التَّكلُّمِ[٤].

- وعُطِفَ ﴿فَقُلْنَا﴾ على ﴿وَنَزَعْنَا﴾؛ لأنَّه المَقْصودُ[٥].

- قولُه: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ الأمرُ مُستَعْمَلٌ في التَّعجيزِ؛ فهو يَقتضي أنَّهم على الباطلِ فيما زَعَمُوه مِن الشُّركاءِ[٦].

- قوله: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿عَنْهُم﴾ مُتعلِّقٌ بفعلِ (ضَلَّ)، والمرادُ: ضَلَّ عن عقولِهم وعن مقامِهم، وعُلِّقَ بالضَّلالِ ضميرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧٣).

ذواتِهم؛ ليَشْمَلَ ضَلالَ الأمْرَينِ، فيُفيدَ أنَّهم لم يَجِدُوا حُجَّةً يُرَوِّجُونَ بها زَعْمَهم إلهيَّةَ الأصنامِ، ولم يَجِدوا الأصنامَ حاضرةً للشَّفاعةِ فيهم، فوَجَموا عن الجوابِ، وأيْقَنُوا بالمُؤاخَذةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٣).

الآيات (٧٦-٧٨)

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَبَغَىٰ﴾: أي: تكبَّرَ، وتجاوَزَ حَدَّه، وأصلُه: يدُلُّ على جِنسٍ مِنَ الفَسادِ[1].

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾: أي: تُثقِلُهم وتُميلُهم بثِقْلِها، يُقالُ: ناءَ به الحِملُ: إذا أثقَلَه حتَّى أمالَه. والعُصبةُ: الجماعةُ الكَثيرةُ، وقيل: هم مِن الرِّجالِ عَشَرةٌ. وأصلُ (نوء): يدُلُّ على نُهوضٍ بثِقلٍ، وأصلُ (عصب): يدُلُّ على رَبطِ شَيءٍ بشَيءٍ، فسُمِّيَتْ العصبةُ بذلك؛ لأنَّها قد عُصِبَتْ، أي: كأنَّها رُبِطَ بعضُها ببعضٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا قصَّةَ قارونَ: إنَّ قارونَ كان مِن قَومِ موسى الإسرائيليِّينَ، فتكبَّر على قَومِه واحتقَرَهم بسبَبِ غِناه، وقد آتاه اللهُ أموالًا كثيرةً مُدَّخَرةً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٤)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (١/ ١٧٦، ٢٩٠) و (٣/ ٢٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((أمالي القالي)) (٢/ ١٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣٦) و(٥/ ٣٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٠).

لا يَستطيعُ حَمْلَ مفاتيحِها الجَماعةُ الأشِدَّاءُ مِن الرِّجالِ؛ فهي تُميلُهم بثِقْلِها، إذ قال له قَومُه: لا تفرَحْ وتَبطَرْ؛ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحينَ البَطِرينَ، واطلُبْ ثوابَ الآخرةِ فيما آتاك اللهُ إيَّاه، فاستَعمِلْه في طاعةِ اللهِ، وأنفِقْ منه في الخَيرِ، ولا تترُكْ حظَّك مِن الدُّنيا أن تعمَلَ فيها لآخِرتِك، وأحسِنْ في عبادةِ اللهِ وإلى خَلْقِ اللهِ، كما أحسَنَ اللهُ إليك، ولا تطلُبِ الفَسادَ في الأرضِ بَغيًا وتكَبُّرًا؛ إنَّ اللهَ لا يحِبُّ المفسِدينَ.

قال قارونُ: إنَّما أُوتِيتُ هذه الكُنوزَ؛ لأنِّي أهلٌ لذلك! أوَلَمْ يعلَمْ أنَّ اللهَ قد أهلك مِن قَبْلِه مِن الأُمَمِ الماضيةِ مَن كان أقوى منه وأكثَرَ جَمعًا للأموالِ؟! ولا يُسألُ المُجرِمونَ عن ذُنوبِهم، بل يُعاقِبُهم اللهُ تعالى عليها؛ لِعلمِه بها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنْ ذكَر سبحانَه حديثَ أهلِ الضَّلالةِ وما يَلْقَونَه مِن الإهانةِ والاحتقارِ يومَ القيامةِ، ومُناداتَهم على رؤوسِ الأشهادِ بما يَفضَحُهم، ويُبيِّنُ لهم سوءَ مَغَبَّتِهم؛ أعْقَبه بقصصِ قارونَ، لِيُبيِّنَ عاقبةَ أهلِ البغْيِ والجبروتِ في الدُّنيا والآخرةِ[1].

وأيضًا لهذه القصَّةِ اتِّصالٌ بانتهاءِ قِصَّةِ جُندِ فِرعونَ المنتهيةِ عندَ قولِه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ الآيةَ[2] [القصص: ٤٦].

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٤).

أي: إنَّ قارونَ كان مِن بني إسرائيلَ مِن عَشيرةِ موسى، فتكبَّرَ على قَومِه، وتَجاوَزَ الحدَّ في احتِقارِهم؛ بسَبَبِ غِناه[١].

كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ بَغْيَه؛ ذَكَرَ سببَه الحقيقيَّ، فقال[٢]:

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾.

أي: وآتَيْنا قارونَ أموالًا كثيرةً مُدَّخَرةً يُثقِلُ حَمْلُ مَفاتيحِها الجَماعةَ الأشِدَّاءَ مِن الرِّجالِ، وتُميلُهم بثِقْلِها؛ لِكَثرتِها[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٩، ٣١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٦).

قال الرَّسْعَنيُّ: (اختلَفوا في قَرابتِه مِن موسى؛ فقال ابنُ عبَّاسٍ وقَتادةُ ومُقاتلٌ وأكثَرُ المفسِّرينَ: كان ابنَ عمِّ موسى). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٦٥).

وقال ابن كثير: (وهكذا قال إبراهيمُ النَّخَعيُّ، وعبدُ اللهِ بنُ الحارثِ بنِ نَوْفَلٍ، وسِماكُ بنُ حربٍ، وقَتادةُ، ومالكُ بنُ دينارٍ، وابنُ جُرَيْجٍ، وغيرُهم: أنَّه كان ابنَ عمِّ موسَى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣١٢ - ٣١٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٦، ١٧٧).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المفاتحَ هنا: جمعُ مِفتاحٍ، وهي الأداةُ الَّتي يُفتحُ بها: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والألوسي، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) =

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾.

أي: إذ[1] قال له قَومُه ناصِحينَ: لا تَفرَحْ بهذه الدُّنيا وتَبطَرْ بما أُوتيتَ فيها مِن الكُنوزِ[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

= (١٨/ ٣١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٦، ١٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: خَيْثَمةُ، ومُجاهدٌ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٢).

وذهب مقاتلُ بنُ سليمانَ، والفَرَّاءُ، والزجَّاجُ، والواحِديُّ -ونَسَبه للأكثرينَ- إلى أنَّ المَفاتحَ هي خزائنُ الأموالِ نَفْسُها، لا ما تُفتحُ به. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٥)، ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٣١٠)، ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (٤/ ١٥٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو صالحٍ، والضَّحَّاكُ، وأبو رَزِينٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣١٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٠٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٢).

قال ابنُ تيميَّةَ: (الكنوزُ إمَّا أن يكونَ هو كَنَزَها، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤]، وإمَّا أن يكونَ اطَّلَع على كنائِزَ مدفونةٍ، وهو الرِّكازُ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٩/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(١) قال أبو حيان: (قال الحوفي: النَّاصِبُ له محذوفٌ، تقديرُه: «اذكُرْ»... ويظهَرُ أن يكونَ تقديرُه: فأظهَرَ التَّفاخُرَ والفَرَحَ بما أُوتيَ من الكنوزِ إذ قال له قَومُه: لا تَفرَحْ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٥).

وقال ابنُ عاشور: (﴿إِذْ﴾ ظرفٌ مَنصوبٌ بفِعلِ «بغى عليهم»، والمقصودُ مِن هذا الظَّرفِ القِصَّةُ، وليس القَصدُ به توقيتَ البَغيِ؛ ولذلك قَدَّره بعضُ المفَسِّرينَ مُتعَلِّقًا بـ «اذكر» محذوفًا، وهو المعنيُّ في نظائِرِه مِنَ القَصَصِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحينَ بزينةِ الدُّنيا، البَطِرينَ بما أُوتُوا مِن مَتاعِها الفاني[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

وقال سبحانه: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد: ٢٦].

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَهَوه عن الفَرَحِ المُطغِي، أمَروه بأنْ يَطْلُبَ فيما آتاه اللهُ مِن الكُنوزِ وسَعةِ الرِّزقِ ثوابَ الدَّارِ الآخرةِ، بأنْ يَفعَلَ فيه أفعالَ البِرِّ، ويجعلَه زادَه إلى الآخِرةِ[٢].

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾.

أي: واطلُبْ -يا قارونُ- ثوابَ الآخرةِ ونَعيمَها بما آتاك اللهُ مِنَ الدُّنيا، ووهَبَك مِن أموالِها، فاستَعْمِلْه في طاعةِ اللهِ والتَّقَرُّبِ إليه، والإنفاقِ في أوجُهِ الخَيرِ[٣].

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

قال ابنُ الجوزي: (﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ يعني: الأَشِرينَ، ولم يُرِدِ الفرحَ بنعمةِ الله تعالى). ((صفة الصفوة)) (١/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٨).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سبَقَ شديدَ المشَقَّةِ على النُّفوسِ، مع ما فيه مِن شائبةِ الاتِّهامِ؛ قالوا[1]:

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: لا تَترُكْ حظَّك مِن الدُّنيا أن تعمَلَ فيها لآخِرتِك[2].

﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٦٩).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: لا تَترُكْ حظَّك مِن الدُّنيا أن تعمَلَ فيها لآخرتِك؛ لأنَّ حقيقةَ نَصيبِ الإنسانِ مِن الدُّنيا ما عَمِلَ فيها لآخِرتِه: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، والزجَّاج، وابن أبي زمنين، والسمعاني، والخازن، ونسَبَه الواحديُّ والرَّسْعَنيُّ لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٦٩).

وممَّن يُروى عنه هذا القولُ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وعَوْنُ بنُ عبدِ الله، ومجاهدٌ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٤٣).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: ولا تَترُكْ حظَّك مِنَ التَّنعُّم بما أحلَّ اللهُ لك في الدُّنيا؛ مِنَ المآكِلِ والمَشارِبِ، والملابِسِ والمساكِنِ، والمَناكِحِ وغَيرِها: ابنُ العربيِّ، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤٣-٣٤٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٥٧).

قال الشوكانيُّ عن هذا القولِ: (وهذا أَلْصَقُ بِمعنَى النَّظمِ القرآنيِّ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٥).

أي: وأحسِنْ -يا قارونُ- في عبادةِ اللهِ وإلى خَلْقِ اللهِ، كما أحسَنَ اللهُ إليك بالرِّزقِ الواسِعِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانتِ النَّفْسُ مِن شأنِها -إنْ لم تُزَمَّ بزِمامِ الشَّرعِ- الإسرافُ والإجحافُ، قالوا[(٢)]:

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولا تَطلُبْ -يا قارونُ- الفسادَ في الأرضِ بالمعاصي والبَغيِ والتكَبُّرِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤٧).

قيل: المرادُ بالإحسانِ هنا: الإحسانُ إلى عِبادِ الله. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن جُزَي، وابن كثير، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

وقيل: المرادُ بالإحسانِ هنا: طاعةُ الله وعبادتُه. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: البَغَويُّ، والقُرطُبيُّ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٤).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (أحسِنْ بأداءِ ما افترَضَ الله عليك، كما في إحسانِه إليك). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٦٩).

وممَّن ذهب هنا إلى الجمعِ بيْنَ الإحسانِ في عبادةِ الله والإحسانِ إلى خَلْقِ الله: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفسِدينَ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي، والبَغيِ والظُّلمِ[(١)].

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾.

أي: قال قارونُ: إنَّما أُوتيتُ هذه الكُنوزَ؛ لأنِّي أهلٌ لذلك[(٢)].

= البغوي)) (٣/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤، ٢٥٥).

قال الماوَرْديُّ: (قولُه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ...﴾ فيه خمسةُ أوجُه؛ أحَدُها: أي: بقوَّتي وعِلمي، قاله يحيى بنُ سلَّام. الثَّاني: على خيرٍ وعِلمٍ عندي، قاله قَتادةُ. الثَّالثُ: لِرضا الله عنِّي، ومعرفتِه باستِحقاقي، قاله ابنُ زَيدٍ. الرَّابعُ: على عِلمٍ بوجْهِ المكاسِبِ، قاله ابنُ عيسى. الخامسُ: العِلمُ بصَنعةِ الكيمياءِ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٦٨).

ممَّن قال في الجملةِ: إنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ أي: على عِلمٍ مِنَ الله بحالي وفَضلي عليكم، واستِحقاقي لذلك المالِ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زَيدٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠١٢).

وممَّن قال: إنَّ المرادَ: إنَّما نِلْتُ هذا المالَ؛ بسَبَبِ ما لَدَيَّ مِن العِلمِ والمعرفةِ: البِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣، ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨١). =

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٩، ٥٠].

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾.

أي: أوَلَمْ يعلَمْ قارونُ أنَّ اللهَ قد أهلَكَ مِن قَبْلِه مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ مَن كان أقوى منه وأكثَرَ جَمعًا للأموالِ؟ فلا مانِعَ إذَنْ مِن إهلاكِ قارونَ، كما أُهلِكَ مَن هو مِثلُه أو أعظَمُ، وقد فَعَل ما يُوجِبُ الهلاكَ[(١)]!

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

أي: ولا يُسألُ المُجرِمونَ عن ذُنوبِهم، فيُعاقِبُهم اللهُ تعالى عليها مِن غيرِ أن يَستَعلِمَهم عنها؛ لعِلْمِه بها كُلِّها[(٢)].

= قال ابنُ كثير: (وقد رُوي عن بعضِهم أنَّه أراد: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: أنَّه كان يُعاني عِلمَ الكيمياءِ، وهذا القولُ ضعيفٌ؛ لأنَّ علمَ الكيمياءِ في نفسِه علمٌ باطلٌ؛ لأنَّ قلبَ الأعيانِ لا يقدِرُ أحدٌ عليها إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ٣٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).
قال البقاعي: (﴿قُوَّةً﴾ أي: في البدَنِ، والمعاني مِنَ العِلمِ وغَيرِه، والأنصارِ والخَدَمِ، ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ في المالِ والرِّجالِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٦، ٣٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مِن حُسْنِ الدَّعوةِ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى أنَّه إذا ذُكِرَ الحُكمُ تُذكَرُ العِلَّةُ؛ تخويفًا أو تَرغيبًا، إنْ كان مَنصوحًا بطلَبٍ تُذكَرُ العِلَّةُ ترغيبًا، وإنْ كان منصوحًا بنَهيٍ فإنَّها تُذكَرُ تخويفًا، كما في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾، وقولِه: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾، فينبغي للدَّاعي أنْ يُذَكِّرَ المدعُوَّ بنِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ الإنسانَ إذا ذُكِّرَ بالنِّعمةِ فقد يَخْجَلُ مِن اللهِ فلا يَعْصيه، أمَّا إذا ذُكِرَ له الأمرُ والنَّهيُ مجرَّدًا عن الأسبابِ والوسائلِ الَّتي تحمِلُه على الفِعلِ أو التَّركِ؛ فإنَّ هذه الدَّعوةَ تكون قاصِرةً؛ فالَّذي ينبغي للدَّاعي أنْ يُذَكِّرَ المرءَ المَدْعُوَّ بما يقتضي إقبالَه وقَبولَه[1].

٢- قال تعالى: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ الفرَحُ المنهيُّ عنه هو المفرطُ منه، أي: الذي تمحَّض للتَّعلُّقِ بمتاعِ الدُّنيا ولَذَّاتِ النَّفْسِ به؛ لأنَّ الانكبابَ على ذلك يُميتُ مِن النَّفْسِ الاهتمامَ بالأعمالِ الصَّالحةِ والمنافسةَ لاكتسابِها، فيَنحدِرُ به التَّوغُّلُ في الإقبالِ على اللَّذَّاتِ إلى حَضيضِ الإعراضِ عن الكمالِ النَّفْسانيِّ، والاهتِمامِ بالآدابِ الدِّينيَّةِ، والمُبالَغةُ في الفرَحِ تَقتضي شدَّةَ الإقبالِ على ما يُفرَحُ به، وهي تَستلزِمُ الإعراضَ عن غيرِه[2]. ومتى كان الفرَحُ باللهِ، وبما مَنَّ اللهُ به، مُقارنًا لِلخَوفِ والحذَرِ؛ لم يَضُرَّ صاحبَه، ومتى خلا عن ذلك ضرَّه، ولا بُدَّ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أنَّه ينبغي لِمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤١، ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٠٨).

آتاه اللهُ مالًا أنْ يُحسِنَ النِّيَّةَ والقَصدَ في بَذْلِه، وقد أشار إلى ذلك النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حينَ قال لسعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ: ((إنَّك لن تُنفِقَ نَفَقةً تَبتَغي بها وَجْهَ اللهِ إلَّا أُجِرْتَ عليها، حتَّى ما تَجعَلُ في فِي امرأتِك))[(١)]، فقد قيَّدَها بقَولِه: ((تبتغي بها وَجْهَ اللهِ))[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ أنَّ مَن اعتقَدَ أنَّ ما رزقَه اللهُ هو مِن كَسْبِه، ولم يَنسبِ الفضلَ لله؛ فهو مُشابِهٌ لقارونَ في عدَمِ اعترافِه بنِعمةِ اللهِ؛ فالإنسانُ الَّذي يقولُ: حَصَّلْتُ هذا بيَدي، وبمَعرِفتي بالأمورِ والمكاسِبِ، نقولُ له: أنت مُشابِهٌ لقارونَ[(٣)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾، وقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩] النَّهيُ عن إضافةِ النِّعَمِ إلى أسبابِها دُونَ المُنعِمِ بها. وإضافةُ النِّعَمِ إلى أسبابِها جَحْدٌ لإنعامِ الله، وكذلك إضافةُ النِّعَمِ إلى غيرِه ممَّن يَعجِزُ عنها. ولا بأسَ بإضافتِها إلى الأسبابِ مع مُلاحَظةِ كَوْنِها أسبابًا، وأنَّ المُنعِمَ بها هو اللهُ وحْدَه؛ فإنَّا قد أُمِرْنا بشُكرِ الأسبابِ أيضًا؛ قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾[(٤)] [لقمان: ١٤].

٦- لِيَحذَرِ الإنسانُ كُلَّ الحَذَرِ مِن طُغيانِ «أنا»، و «لي»، و«عندي»؛ فإنَّ هذه الألفاظَ الثَّلاثةَ ابتُلِيَ بها إبليسُ، وفِرعَونُ، وقارونُ؛ فـ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢] لإبليسَ، و﴿لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ [الزخرف: ٥١] لِفرعَونَ، و ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ

(١) أخرجه البخاري (٥٦) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٧).

(٤) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٥١).

عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ لِقارونَ، وأحسنُ ما وُضِعت «أنا» في قولِ العبدِ: أنا العبدُ المذنبُ، المستغفِرُ، المعترِفُ ونحوِه. «ولي»، في قولِه: لي الذنبُ، ولي الجرمُ، ولي المسكنةُ. «وعندي» في قولِه[1]: ((اغْفِرْ لي جِدِّي، وهَزلي، وخَطئي، وعَمدي، وكلُّ ذلك عِندي)) [2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أنَّ القَوميَّةَ لا تنفَعُ أصحابَها، إنَّما النَّافِعُ هو الإيمانُ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ فهذا الرَّجلُ مِن قَومِ موسى، ومع ذلك بغَى عليهم[3]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾ أنَّ الغِنى سَبَبٌ للطُّغيانِ؛ لأنَّ قارونَ إنَّما بغَى وطغَى بسببِ ما آتاه اللهُ تعالى مِن المالِ[4].

٣- الإيتاءُ المضافُ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى يكونُ كَوْنيًّا، ويكونُ شَرعيًّا؛ مِثالُ الكَونيِّ قَولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾، ومِثالُ الشَّرعيِّ قَولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾[5] [الإسراء: ٢].

٤- جاء الفَرَحُ في القُرآنِ على نَوعينِ: مُطلَقٌ، ومُقَيَّدٌ:

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٣٩٩)، ومسلم (٢٧١٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٢/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٨٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (واللهُ سُبحانَه قد بيَّنَ في كتابِه في كلِّ واحدةٍ مِنَ: «الكَلِماتِ» و«الأمرِ» و«الإرادةِ» و«الإذنِ» و«الكتابِ» و«الحُكمِ» و«القضاءِ» و«التَّحريمِ» ونحوِ ذلك ما هو دينيٌّ مُوافِقٌ لِمحَبَّةِ الله ورِضاهُ وأمرِه الشَّرعيِّ، وما هو كَوْنيٌّ موافِقٌ لمَشيئتِه الكَونيَّةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٢٤).

فالمُطلَقُ: جاء في الذَّمِّ، كقَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

والمقَيَّدُ نوعانِ أيضًا:

الأولُ: مُقيَّدٌ بالدُّنيا يُنسي صاحِبَه فضْلَ اللهِ ومِنَّتَه، فهو مذمومٌ، كقَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

والثاني: مُقيَّدٌ بفَضلِ اللهِ وبِرَحمتِه، وهو نوعانِ أيضًا:

فَضلٌ ورحمةٌ بالسَّبَبِ، وفَضلٌ بالمُسَبَّبِ؛ فالأوَّلُ: كقَولِه تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، والثَّاني: كقَولِه تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠]؛ فالفَرَحُ باللهِ وبرَسولِه، وبالإيمانِ وبالسُّنَّةِ، وبالعِلمِ وبالقرآنِ: مِن أعلى مقاماتِ العارفينَ؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]. فالفَرَحُ بالعِلمِ والإيمانِ والسُّنَّةِ: دَليلٌ على تعظيمِه عندَ صاحِبِه، ومحبَّتِه له، وإيثارِه له على غيرِه؛ فإنَّ فَرَحَ العبدِ بالشَّيءِ عندَ حُصولِه له: على قَدْرِ محبَّتِه له، ورغبتِه فيه، فمَن ليس له رغبةٌ في الشَّيءِ لا يُفرِحُه حُصولُه له، ولا يَحزُنُه فَواتُه؛ فالفَرَحُ تابعٌ للمحَبَّةِ والرَّغبةِ[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ يُؤخَذُ منه إثباتُ المحبَّةِ للهِ، مع أنَّ المرادَ نَفْيُ المحبَّةِ، ولكِنْ ما نفاها عن هؤلاء إلَّا وهي ثابتةٌ لضِدِّه؛ ولهذا استدَلَّ العلماءُ بأنَّ المؤمنينَ يَرونَ ربَّهم بقَولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٤٩، ١٥٠).

[المطففين: ١٥]، قالوا: فلمَّا حُجِبَ هؤلاء عن ربِّهم؛ دلَّ على أنَّ غَيرَهم غيرُ محجوبينَ، فلو كان الكُلُّ محجوبينَ ما كان لِتَخصيصِ هؤلاء فائِدةٌ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ هذه الجملةُ المرادُ منها أنَّ اللهَ لا يُحِبُّ، ولازمُها أنه يَكرَهُ، وإنْ كانتِ القِسمةُ العقليَّةُ لا تقتضي ذلك؛ فنَفْيُ المحبَّةِ لا يَلْزَمُه إثباتُ الكُرهِ، لكنَّ السِّياقَ يقتضيه، لأنّ كلَّ شَيءٍ نفَى اللهُ عنه حُبَّه نَجِدُ أنَّه ممَّا يَكرَهُه اللهُ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فالظَّاهرُ مِن السِّياقاتِ أنَّ المرادَ إثباتُ الكراهةِ، لكنَّه أتَى بنَفْيِ المحَبَّةِ؛ لأنَّ المَحَبَّةَ محبوبةٌ؛ فكأنَّ هذا الَّذي أحَبَّ الفسادَ أو أحَبَّ الفرحَ وما أشبَهَ ذلك يُقابَلُ بنقيضِ قَصْدِه[٢].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ في قَولِه: ﴿نَصِيبَكَ﴾ إضافةُ النَّصيبِ إلى ضَميرِه؛ ففيه دَلالةٌ على أنَّه حَقُّه، وأنَّ للمَرءِ الانتِفاعَ بمالِه فيما يُلائِمُه في الدُّنيا خاصَّةً ممَّا ليس مِن القُرُباتِ، ولم يكُنْ حَرامًا[٣]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ﴾ فيه تحريمُ نيَّةِ الفَسادِ في الأرضِ؛ وإذا حُرِّمَتْ نِيَّةُ الفَسادِ، فالفسادُ نَفْسُه مِن بابِ أولَى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥٢).

٩- كُلُّ مَن عصى اللهَ فقد طلَبَ الفَسادَ في الأرضِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالمعصيةِ[(١)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ بَيانُ أنَّ عَطاءَه سُبحانَه ليس دليلًا على حُسْنِ حالةِ المُعْطَى[(٢)].

١١- قال تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، وقال سبحانَه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خِلافِ ذلك؛ منها قَولُه تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، فهذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ اللهَ يَسألُ جَميعَ النَّاسِ يومَ القيامةِ، ونَظيرُها قَولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

والجوابُ عن هذا مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّلُ: وهو أوجَهُها؛ لِدَلالةِ القُرآنِ عليه، وهو أنَّ السُّؤالَ قِسمانِ: سؤالُ تَوبيخٍ وتَقريعٍ، وأداتُه غالِبًا: (لِـمَ)؛ وسُؤالُ استِخبارٍ واستِعلامٍ، وأداتُه غالِبًا: (هل)؛ فالمُثبَتُ هو سُؤالُ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والمنفيُّ هو سؤالُ الاستِخبارِ والاستِعلامِ.

الوجهُ الثاني: أنَّ في القيامةِ مواقِفَ مُتعَدِّدةً؛ ففي بعضِها يُسأَلونَ، وفي بَعضِها لا يُسأَلونَ.

الوجهُ الثالثُ: أنَّ إثباتَ السُّؤالِ مَحمولٌ على السُّؤالِ عن التَّوحيدِ وتصديقِ

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

الرُّسُلِ، وعَدَمَ السُّؤالِ مَحمولٌ على ما يَستلزِمُه الإقرارُ بالنُّبُوَّاتِ مِن شرائِعِ الدِّينِ وفُروعِه، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ لذِكْرِ قِصَّةٍ ضُرِبَتْ مثلًا لحالِ بعضِ كُفَّارِ مَكَّةَ، وهم سادَتُهم؛ مِثلَ: الوليدِ بنِ المُغيرةِ، وأبي جهلِ بنِ هشام، ولها مَزيدُ تعلُّقٍ بجملةِ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَا﴾، إلى قولِه: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾(٢) [القصص: ٦٠، ٦١].

- وافتِتاحُ الجُملةِ بحرفِ التوكيدِ (إنَّ) يَجوزُ أنْ يكونَ لإفادةِ تأكيدِ خبَرِ (إنَّ) وما عُطِفَ عليه وتَعلَّقَ به ممَّا اشْتَمَلَتْ عليه القِصَّةُ، وهو سُوءُ عاقبةِ الَّذين تَغُرُّهم أموالُهم وتَزْدَهيهم؛ فلا يَكترِثونَ بشُكرِ النِّعمةِ، ويَسْتخِفُّونَ بالدِّينِ، ويَكْفُرونَ بشرائعِ اللهِ؛ لظُهورِ أنَّ الإخبارَ عن قارونَ بأنَّه ﴿مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ ليس مِن شأنِه أن يَتَرَدَّدَ فيه السَّامعُ حتَّى يُؤكَّدَ له؛ فمَصَبُّ التَّأكيدِ هو ما بعْدَ قولِه: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡ﴾... إلى آخرِ القصَّةِ المُنتَهيةِ بالخَسْفِ. ويَجوزُ أن تكونَ (إنَّ) لمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخبرِ، ومَناطُ الاهتمامِ هو مَجموعُ ما تَضَمَّنَتْه القصَّةُ مِن العِبَرِ، الَّتي منها أنَّه مِن قومِ مُوسى، فصار عدوًّا له

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٠٠، ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٤).

ولأتْباعِه؛ فأمْرُه أغْرَبُ مِن أمْرِ فِرعونَ. وعَدَل عن أنْ يُقالَ: (كان مِن بَني إسرائيلَ)؛ لِمَا في إضافةِ ﴿قَوْمِ﴾ إلى ﴿مُوسَىٰ﴾ مِن الإيماءِ إلى أنَّ لقارونَ اتِّصالًا خاصًّا بمُوسى؛ فهو اتِّصالُ القَرابةِ[١].

- وفي الإخبارِ عنه بأنَّه مِن قومِ موسى تمهيدٌ للكِنايةِ بهذا الخبَرِ، عن إرادةِ التَّنظيرِ بما عَرَضَ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن بَغْيِ بَعضِ قَرابتِه مِن المُشركينَ عليه[٢].

- وجُملةُ ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ مُعترِضةٌ بينَ جملةِ ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ وجملةِ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾، والفاءُ فيها للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ؛ للتَّعجُّبِ مِنْ بَغيِ أحَدٍ على قَومِه[٣].

- قولُه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ بُولِغَ في وَصْفِ كُنوزِ قارونَ؛ حيثُ ذَكَرها جَمْعًا، وجَمَع المفاتحَ أيضًا، وذَكَر النَّوْءَ والعُصْبةَ وأُولِي القُوَّةِ، وهذه المُبالَغةُ في القُرآنِ مِنْ أحسَنِ المُبالَغاتِ وأغرَبِها عندَ الحُذَّاقِ؛ وهي أنْ يُتقصَّى جميعُ ما يَدُلُّ على الكَثرةِ وتعدُّدِ ما يَتَعَلَّقُ بما يَمْلِكُه[٤].

- في قولِه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ حُسْنُ تُعليلٍ بجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾؛ لأنَّ الفرَحَ المَحضَ في الدُّنيا -مِن حيثُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٥، ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٢٩٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٨٠).

إنَّها دُنْيا- مَذْمومٌ على الإطلاقِ، وأيُّ فَرَحٍ بشَيءٍ زائلٍ، وظِلٍّ حائلٍ[١]؟!

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ الجُملتَين الحافتَينِ بها، والواوُ اعتراضيَّةٌ، والنَّهيُ في ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾ مُستَعْملٌ في الإباحةِ، والنِّسيانُ كِنايةٌ عن التَّرْكِ. وهذا احتِراسٌ في الموعظةِ خَشْيَةَ نُفورِ المَوعوظِ مِن موعظةِ الواعظِ؛ لأنَّهم لَمَّا قالوا لِقارونَ: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾؛ أوْهَموا أنْ يَتْرُكَ حُظوظَ الدُّنيا؛ فلا يَستَعمِلُ مالَه إلَّا في القُرُباتِ؛ فأُفيدَ أنَّ له استِعمالَ بعضِه فيما هو مُتَمَحِّضٌ لنَعيمِ الدُّنيا إذا آتَى حَقَّ اللهِ في أموالِه، فقيلَ: أرادُوا أنَّ لكَ أنْ تأخُذَ ما أَحَلَّ اللهُ لكَ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ تَتْميمٌ[٣] لا بُدَّ منه؛ لأنَّه إذا لم يَغْتَنِمْها ليَعْمَلَ للآخِرةِ، لم يكنْ له نَصيبٌ في الآخِرةِ[٤]، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

- قولُه: ﴿وَأَحۡسِن﴾ الإحسانُ داخلٌ في عُمومِ ابتِغاءِ الدَّارِ الآخِرةِ، ولكنَّه ذُكِرَ هنا ليَبْنِيَ عليه الاحتِجاجَ بقولِه: ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾، وحُذِفَ مُتعلَّقُ الإحسانِ لتَعْميمِ ما يُحْسِنُ إليه؛ فيَشملُ نفسَه وقَومَه ودوابَّه ومخلوقاتِ اللهِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٨، ١٧٩).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٢٩٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٨٢).

الدَّاخِلةَ في دائرةِ التَّمكُّنِ مِن الإحسانِ إليها[١].

- وعَطَفَ ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للتَّحذيرِ مِنْ خَلْطِ الإحسانِ بالفَسادِ؛ فإنَّ الفسادَ ضِدُّ الإحسانِ؛ فالأمرُ بالإحسانِ يَقتضي النَّهيَ عن الفسادِ، وإنَّما نَصَّ عليه؛ لأنَّه لَمَّا تَعدَّدتْ مَواردُ الإحسانِ والإساءةِ فقد يَغيبُ عن الذِّهْنِ أنَّ الإساءةَ إلى شَيءٍ مع الإحسانِ إلى أشياءَ يُعتبَرُ غيرَ إحسانٍ[٢].

- وجملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ عِلَّةٌ للنَّهيِ عن الإفسادِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾

- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ جوابٌ عن مَوعظةِ واعظِيه مِن قَومِه، وقد جاء على أُسلوبِ حِكايةِ المُحاوَراتِ؛ فلمْ يُعْطَفْ، وهو جوابُ مُتصَلِّفٍ -أي: مُتكبِّرٍ- حاوَلَ به إفحامَهم، وأنْ يَقْطَعوا مَوعظتَهم؛ لأنَّها أَمَرَّتْ بَطَرَه وازْدِهاءَه[٤].

- و(إنَّما) أداةُ الحَصْرِ، وبُنِيَ الفِعلُ للنائبِ ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾؛ للعِلْمِ بالفاعلِ مِن كلامِ واعِظيه[٥].

- وقولُه: ﴿عِندِيٓ﴾ صِفةٌ لـ﴿عِلۡمٍ﴾ -على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ- ؛ تأكيدًا لتَمكُّنِه مِن العِلْمِ وشُهرَتِه به[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٨١).

- قوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ إقبالٌ على خِطابِ المسلمينَ. والهمزةُ في ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّعجُّبيِّ؛ تعجيبًا مِن عدَمِ جَرْيِهِ على موجَبِ عِلْمِه بأنَّ اللهَ أَهْلَكَ أُمَمًا على بَطَرِهِمُ النِّعمةَ، وإعجابِهم بقوَّتِهم، ونِسيانِه، حتَّى صارَ كأنَّه لم يَعْلَمْه؛ تعجُّبًا مِن فَواتِ مُراعاةِ ذلكَ منه مع سَعَةِ عِلْمِه بغَيْرِه[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ ...﴾ تعجُّبٌ وتوبيخٌ على اغترارِه بقُوَّتِه وكَثرةِ مالِه مع عِلْمِه بذلك؛ لأنَّه قَرَأَه في التَّوراةِ، وسَمِعَه مِن حُفَّاظِ التَّواريخِ، أو رَدٌّ لادِّعائِه للعِلْمِ وتعَظُّمِه به بنَفْيِ هذا العِلمِ عنه[2]. وقيل: الظَّاهرُ أنَّ قولَه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ تَقريرٌ لعِلمِه ذلك، وتنبيهٌ على خَطَئِه في اغْتِرارِه، أي: قد عَلِمَ أنَّ اللهَ قد أهْلَكَ مِن القُرونِ قَبْلَه مَن هو أقوى منه وأغْنى؛ لأنَّه قد قَرَأَه وأخْبَرَ به مُوسى وسَمِعه، كأنَّه قيلَ: أوَلَمْ يَعْلَمْ في جُملةِ ما عِندَه مِنَ العِلْمِ هذا؛ حتى لا يَغْتَرَّ بكثرةِ مالِه وقوَّتِه؟ ويَجوزُ أنْ يكونَ نعتًا لعِلْمِه بذلكَ؛ لأنَّه لَمَّا قال: أُوتيتُه على عِلْمٍ عندي، فتَنَفَّحَ بالعلمِ وتَعَظَّمَ به، قيلَ: أعِنْدَهُ مِثلُ ذلكَ العِلمِ الَّذي ادَّعاهُ؟ وأُرِيَ نفْسَه به مُستَوْجِبةً لكلِّ نعمةٍ، ولم يَعْلَمْ هذا العِلمَ النَّافعَ حتَّى يَقِيَ نفْسَه مَصارِعَ الهالِكينَ[3]!

- قولُه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: ولا يُسألُ سُؤالَ استعلامٍ -فإنه تعالَى مُطَّلِعٌ عليها- أو مُعاتَبةٍ؛ فإنَّهم يُعَذَّبونَ بها بَغْتةً؛ كأنَّهُ لَمَّا هدَّدَ قارونَ بذِكْرِ إهلاكِ مَن قَبْلَه ممَّن كانوا أقوَى منه وأغنَى؛ أكَّدَ ذلك بأنْ بَيَّنَ أنه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨١، ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٦).

لم يَكُنْ مُطَّلِعًا على ما يَخُصُّهم، بلِ اللهُ مُطَّلِعٌ على ذُنوبِ المُجرمينَ كلِّهم، مُعاقِبُهم عليها لا مَحالةَ[١].

- والواوُ في قَولِه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ عاطفةٌ؛ لِتَربطَ الجُملةَ بما قَبْلَها على سَبيلِ التَّهديدِ والوعيدِ، أي: إنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على ذُنوبِ المجرمينَ لا يَحتاجُ إلى سُؤالٍ عنها[٢].

- وقيل: قولُه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ تَذْييلٌ للكلامِ؛ فهو استئنافٌ وليس عَطفًا على أنَّ اللهَ قد أهلَكَ مَن قبْلَهُ، والسُّؤالُ المنفيُّ: السُّؤالُ في الدُّنيا، وليس سؤالَ الآخِرةِ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ السُّؤالُ كِنايةً عن عدَمِ الحاجةِ إلى السُّؤالِ عن ذُنوبِهم؛ فهو كنايةٌ عن عِلْمِ اللهِ تعالَى بذُنوبِهم، وهو كِنايةٌ عن عِقابِهم على إجرامِهم؛ فهي كِنايةٌ بوَسائطَ، والكلامُ تهديدٌ للمُجرمينَ؛ ليَكونوا بالحذَرِ مِنْ أن يُؤْخَذوا بَغْتةً، ويَحتَمِلُ أن يكونَ السُّؤالُ بمَعناه الحقيقيِّ، أي: لا يُسأَلُ المجرمُ عن جُرْمِه قبْلَ عِقابِه؛ لأنَّ اللهَ قد بَيَّنَ للنَّاسِ على ألْسِنةِ الرُّسُلِ بحَدَّيِ الخَيرِ والشَّرِّ، وأَمْهَلَ المجرمَ؛ فإذا أَخَذَهُ أَخَذَهُ بَغْتةً، وهذا كقولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[٣] [الأنعام: ٤٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٢).

الآيات (٧٩-٨٤)

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾: أي: يُوفَّقُ لها، وأصلُ (لقي) هنا: يدُلُّ على تَوافِي شَيئَيْنِ[1].

﴿وَيْكَأَنَّ﴾: (وَيْ) كَلِمةُ تنبيهٍ وتنَدُّمٍ على أمرٍ سبَقَ، يقولُها المُتنَدِّمُ عندَ إظهارِ ندامتِه، ويَقولُها المنَدِّمُ لِغَيرِه، والمنبِّهُ له، و(كَأَنَّ) للتَّشبيهِ، ووقَع التَّشبيه هنا على أحَدِ مَعنَيينِ؛ أحدهما: أنَّهم أوقعوا التَّشبيهَ على ما في عِلمِهم وعُرفِهم. الثَّاني: أن يكونَ التَّشبيهُ ليس على أصلِه، بل المرادُ به التَّحقيقُ، أي: إنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ، وإنَّ الأمرَ لا يُفلِحُ الكافِرونَ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٧٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٥)، ((التذييل والتكميل)) لأبي حيان الأندلسي (٥/ ٢٠). =

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، يقال: قَدَرْتُ عليه الشَّيءَ: إذا ضيَّقْتَه، كأنَّما جعَلْتَه بقَدْرٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾

﴿وَيْكَأَنَّ﴾ فيه أقوالٌ؛ الأوَّلُ: أنَّ (وَيْ) كلمةٌ برأسِها، وهي اسمُ فِعلٍ معناها: أعجَبُ، والكافُ في (كأنَّ) للتَّعليلِ، وأنَّ وما في حَيِّزِها مجرورةٌ بها، أي: أعجَبُ لأنَّ الله يَبسُطُ. الثَّاني: أنَّ (وي) كلمةُ تنبيهٍ وتندُّمٍ على أمرٍ سبَق، وهي منفصِلةٌ مِن (كأنَّ)، لكنْ وُصِلَت في الخطِّ لكثرةِ الاستعمالِ، ومعنى (كأنَّ الله يبسطُ الرِّزقَ) وإنْ كان لفظُه لفظَ التَّشبيهِ، فمعناه التَّحقيقُ، أي: تَنَبَّهْ، إنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ، أي: تنَبَّهْ لِبَسْطِ اللهِ الرِّزقَ. الثَّالثُ: أنَّ (ويْكأنَّ) كلَّها كلمةٌ مُتَّصِلةٌ بسيطةٌ، ومعناها: ألم تَرَ. الرَّابعُ: أنَّ (ويكَ) كَلِمةٌ برأسِها، والكافَ حرفُ خِطابٍ، و (أنَّ اللهَ يبسطُ الرزقَ) معمولٌ لمحذوفٍ، أي: اعلَمْ أنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ، وأنَّ (وَيْكَ) بمعنى (وَيْلَكَ)، وحُذِفتِ اللامُ لكثرةِ استعمالِ هذه اللفظةِ في الكلامِ[٢].

= ويُنظر أيضًا: ((الكتاب)) لسيبويه (٢/ ١٥٤، ١٥٥)، ((شرح كتاب سيبويه)) للسيرافي (٢/ ٤٨٠-٤٨٢)، ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ١٨٣-١٨٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥٧)، ((المحتسب)) لابن جني (٢/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠١)، ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ١٨٣-١٨٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٢٧)، ((ارتشاف الضَّرَب)) لأبي حيان الأندلسي (٥/ ٢٢٩٢)، ((التذييل والتكميل)) لأبي حيان الأندلسي (٥/ ٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٩٧).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فخرَجَ قارونُ على قَومِه مِن بَني إسرائيلَ في زِينةٍ عَظيمةٍ، فقال الَّذينَ يُريدونَ الحياةَ الدُّنيا مِن ضِعافِ الإيمانِ حينَ رأَوْا زينةَ قارونَ: يا لَيْتَ لنا مِثلَ الَّذي أُوتِيَه قارونُ؛ إنَّه لَذو نَصيبٍ وافرٍ مِن مَتاعِ الدُّنيا!

فقال لهم أهلُ العِلمِ: ويْلَكم، نعيمُ الجنَّةِ الَّذي أعَدَّه اللهُ في الآخرةِ لِمَن آمَنَ وعَمِلَ صالحًا: خيرٌ مِن مُلكِ قارونَ، ولا يُوفَّقُ لذلك إلَّا الصَّابِرونَ!

فخَسَفْنا بقارونَ وبدارِه في باطِنِ الأرضِ، فلمْ يكُنْ لقارونَ جماعةٌ يَمنعونَه مِن عذابِ اللهِ، وما كان مِنَ المنتَصِرينَ بنَفْسِه أو قوَّتِه.

وأصبَحَ الَّذين تمَنَّوا مِن قَبْلُ أن يكونَ لهم ما لِقارونَ يقولونَ: ويْكَأنَّ اللهَ يوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يشاءُ مِن عبادِه، ويُضيِّقُه على مَن يَشاءُ، لولا أنْ منَّ اللهُ علينا لَكُنَّا قد طَغَيْنا مِثلَ طُغيانِ قارونَ، فخَسَفَ اللهُ بنا كما خَسَفَ به، ويْكَأنَّه لا يَفوزُ الكافِرونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى سُنَّةً مِن سُنَنِه الَّتي لا تتخلَّفُ، فيقولُ: تلك الدَّارُ -وهي الجنَّةُ- نجعَلُها لِلَّذينَ لا يُريدونَ تكبُّرًا في الأرضِ، ولا إفسادًا فيها بالمعاصي، والعاقِبةُ المحمودةُ في الدُّنيا والآخرةِ للمُتَّقينَ.

مَن جاء يومَ القيامةِ بالحَسَنةِ، فله ثوابٌ عظيمٌ عندَ اللهِ، ومَن جاء يومَ القيامةِ بالسَّيِّئةِ فلا يُثابُ إلَّا جزاءَ ما عَمِلَ، ولا يُظلَمُ بعِقابِه على ما لم يَعمَلْ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى قارونَ ونَعْتَه، وما آتاه مِن الكُنوزِ، وفَرَحَه بذلك فرَحَ البَطِرينَ، وادِّعاءَه أنَّ ما أُوتيَ مِن ذلك إنَّما أُوتيَه على عِلْمٍ- ذَكَرَ ما هو ناشئٌ عن التكبُّرِ والسُّرورِ بما أُوتيَ، فقال[١]:

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ ﴾.

أي: فخرَج قارونُ على قَومِه مِن بني إسرائيلَ مُتجَمِّلًا في زينةٍ عَظيمةٍ[٢].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ ﴾.

أي: قال ضِعافُ الإيمانِ الَّذين يُريدونَ الحَياةَ الدُّنيا، حينَ رأَوْا زينةَ قارونَ: يا لَيْتَ لنا مِثلَ الَّذي أُوتِيَه قارونُ مِن زينةِ الحياةِ الدُّنيا ومَتاعِها[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

قال ابنُ عاشور: (الزِّينةُ: ما به جمالُ الشَّيءِ والتَّباهي به مِنَ الثِّيابِ والطِّيبِ والمراكبِ والسِّلاحِ والخدَمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٣).

قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا ...﴾... هذا التَّركيبُ مُتكرِّرٌ في القرآنِ الكريم، والنَّحْويُّون اختلَفوا فيه على هذَينِ الوجهَينِ؛ منهم مَن يقولُ: هو لِمُجَرَّدِ التَّنبيهِ، وليس هناك نداءٌ ولا مُنادى، ومنهم مَن يقولُ: هو لِلنِّداءِ، وأنَّ المُنادى محذوفٌ، فالتَّقديرُ -مثلًا- هنا: يا قَوْمَنا، لَيْتَ لنا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥٩).

ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٤)، ((همع الهوامع)) للسيوطي (١/ ٢٨)، ((شرح التصريح على التوضيح)) لخالد لأزهري (١/ ٣١)، ((حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٥٤).

﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

أي: قالوا: إنَّ قارونَ لَصاحِبُ نَصيبٍ كبيرٍ وافرٍ مِن مَتاعِ الدُّنيا(١).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

أي: وقال أهلُ العِلمِ النَّافِعِ العارِفونَ بحَقيقةِ الدُّنيا للَّذينَ تَمَنَّوا مِثلَ ما أُوتيَ قارونُ: وَيْلَكم(٢)! نَعيمُ الجنَّةِ الَّتي أعَدَّها اللهُ في الآخرةِ لِمَن آمَنَ باللهِ ورُسُلِه، وعَمِلَ الأعمالَ الصَّالحاتِ: خَيرٌ ممَّا أُوتيَ قارونُ مِن زينةِ الدُّنيا(٣).

كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

أي: ولا يُوفَّقُ للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ والزُّهدِ في الدُّنيا الموصِلِ لثَوابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٠).

(٢) قال الزمخشري: («ويلك»: أصلُه الدُّعاءُ بالهلاكِ، ثم استُعْمِل في الزَّجرِ والرَّدعِ والبعثِ على تركِ ما لا يُرتضَى). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالثَّوابِ هنا: الأُخرويُّ: ابنُ جريرٍ، والقُرطُبيُّ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ به: الثَّوابُ العاجِلُ في الدُّنيا بلَذَّةِ العبادةِ، ومحبَّةِ الله تعالى، والإنابةِ إليه، والإقبالِ عليه. والثَّوابُ الآجِلُ في الجنَّةِ وما فيها من النَّعيمِ. وممَّن قال بذلك: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

الآخرةِ إلَّا الصَّابِرونَ على الطَّاعاتِ، وعن المعاصي، وعلى أقدارِ الله المؤلِمةِ؛ كالفَقرِ[١].

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

أي: فغيَّبْنا قارونَ ودارَه في باطِنِ الأرضِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ الضَّميرَ في قوله تعالى: ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ يعودُ إلى القوَّةِ في الدِّينِ بالإيمانِ والعمَلِ الصالحِ، بحيثُ يُؤْثِرُ صاحِبُها الآخرةَ على الدُّنيا: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ عطيَّة، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

وقيل: الضَّميرُ عائدٌ إلى الكَلِمةِ أو الوصيَّةِ الَّتي قالها الَّذين أُوتوا العِلمَ: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: لا يوفَّقُ لِقَولِ ذلك إلَّا الصَّابرون. وممَّن قال بهذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ جَرير، والزَّجَّاجُ، والثَّعلبيُّ، ومكِّي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٥٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٦٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٧٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٢٠).

قال ابن كثير مُعلِّقًا على هذا القولِ الذي اختاره ابنُ جريرٍ: (وكأنَّه جعَل ذلك مقطوعًا مِن كلام أولئك، وجعَلَه مِن كلامِ الله عزَّ وجلَّ وإخبارِه بذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى الجنَّةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ، وابنُ السَّائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠١٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((بَيْنَما رجُلٌ يَجُرُّ إزارَه مِنَ الخُيَلاءِ[١]، خُسِفَ به؛ فهو يَتجَلْجَلُ[٢] في الأرضِ إلى يَومِ القيامةِ))[٣].

وعن أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((بَيْنَما رجُلٌ يمشي في حُلَّةٍ[٤]، تُعجِبُه نَفْسُه، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ[٥]؛ إذ خَسَفَ اللهُ به؛ فهو يَتجَلْجَلُ إلى يومِ القيامةِ))[٦].

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فلمْ يكُنْ لِقارونَ جَماعةٌ يمنَعونَ عنه عذابَ اللهِ حينَ نَزَل به[٧].

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

أي: ولم ينتَصِرْ لِنَفْسِه فيَمنَعَ العذابَ بقُوَّتِه حينَ خُسِفَ به[٨]!

---

(١) الخيلاء: البَطَرُ والكِبْرُ والزَّهْوُ والتَّبَختُرُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٦٠).

(٢) يَتجَلْجَلُ: أي: يَتحرَّكُ وينزلُ مُضْطَرِبًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٦٤).

(٣) رواه البخاري (٣٤٨٥).

(٤) الحُلَّة: ثَوبانِ أحَدُهما فوقَ الآخَرِ، وقيل: لا تُسمَّى حُلَّةً إلَّا أن تكونَ ثَوبَينِ مِن جنسٍ واحدٍ، وقيل: إزارٌ ورِداءٌ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٤٣٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢٦٠).

(٥) مُرَجِّل: مِنَ التَّرجيلِ -بالجيم-، وهو تسريحُ شَعرِ الرَّأسِ، والجُمَّة: مجتمعُ شعرِ الرَّأسِ، وهو أكبَرُ مِنَ الوَفرةِ، ويُقالُ: هو الشَّعرُ الَّذي يتدلَّى مِنَ الرَّأسِ إلى المَنكِبَينِ وإلى أكثَرَ مِن ذلك. ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري)) للعيني (٢١/ ٢٩٨).

(٦) رواه البخاري (٥٧٨٩) واللفظ له، ومسلم (٢٠٨٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا صَدَرَ منهم تمنِّي حالِ قارونَ، وشاهَدوا الخسفَ؛ كان ذلك زاجرًا لهم عن حُبِّ الدُّنيا، وداعيًا إلى الرِّضا بقَدَرِ اللهِ، فتنبَّهوا لخطَئِهم[1].

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾.

أي: وأصبحَ الَّذين رَغِبوا مِن قَبْلُ وطَمِعوا في أن تكونَ لهم حالُ قارونَ ومَنزِلتُه في الدُّنيا يقولونَ: ويْكَأنَّ[2] اللهَ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عبادِه بحِكمتِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٩).

(٢) قيل: معناها: (ألم تَرَ) أو (ألم تعلَمْ). وممَّن قال بذلك في الجملةِ: البخاريُّ، وابن جرير. يُنظر: ((صحيح البخاري)) كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ الآيةَ (٤/ ١٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤١، ٣٤٢).

قال السمعانيُّ: (ومِن المعروفِ في التَّفاسيرِ عن العلماءِ المتقدِّمينَ: ويْكأنَّ اللهَ: ألم تَرَ أنَّ اللهَ، وحُكيَ مِثلُ هذا عن أبي عُبَيدةَ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦١). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٤).

وقيل: معناها: التَّندُّم والتَّوجُّعُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والقرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

وقيل: معناها: ويْلَكَ اعلَمْ أنَّ، ولكِنْ خُفِّفَت، فقيل: «ويْكَ»، ودلَّ فتحُ «أنَّ» على حذفِ «اعلَمْ». وممَّن ذكَر هذا القولَ: ابنُ كثير، وقال: (الظَّاهر أنَّه قويٌّ). يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٨).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٤، ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) =

لا لِفَضلِ مَنزِلتِه أو لكَرامتِه عليه، سواءٌ كان فَطِنًا وحاذِقًا في أسبابِ الرِّزقِ أمْ لا، ويُضيِّقُه على مَن يشاءُ منهم بحِكمتِه لا لِهَوانِه عندَه، سواءٌ كان فَطِنًا حاذِقًا أمْ لا؛ فاللهُ يُعطي ويمنَعُ، ويُضَيِّقُ ويُوسِّعُ، ويَخفِضُ ويَرفَعُ، وله سُبحانَه الحِكمةُ البالِغةُ التَّامَّةُ[١].

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾.

أي: لولا أنَّ اللهَ تفضَّل علينا بأنْ صرَف عنَّا ما تمنَّيْناه مِن حالِ قارونَ، لَكُنَّا قد طغَيْنا مِثلَ طُغيانِه؛ فخَسَف اللهُ بنا كما خَسَفَ به[٢].

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

أي: ويْكأنَّه لا يَنجَحُ ولا يَفوزُ الكافِرونَ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ[٣].

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

= (١٣/ ٣١٨، ٣١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٣٨، ٥٣٩).

قال ابنُ عاشور بعدَ ذِكْرِه عدَّةَ أقوالٍ: (ومعنى الآيةِ على الأقوالِ كُلِّها: أنَّ الَّذين كانوا يَتَمَنَّون منزلةَ قارونَ نَدِموا على تمنِّيهم لَمَّا رأَوْا سوءَ عاقبتِه، وامتلَكَهم العَجَبُ مِن تلك القِصَّةِ، ومِن خَفيِّ تصَرُّفاتِ الله تعالى في خَلقِه، وعَلِموا وُجوبَ الرِّضا بما قُدِّر للنَّاسِ مِن الرِّزقِ؛ فخاطَبَ بعضُهم بعضًا بذلك وأعلَنوه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٩ - ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٨، ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٦٠-٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٦، ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن قَولِ أهلِ العلمِ والإيمانِ ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾؛ ذَكَر مَحَلَّ الثوابِ، وهو الدَّارُ الآخرةُ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَر تعالى قارونَ وما أُوتيَه مِن الدُّنيا، وما صار إليه عاقبةُ أمرِه، وأنَّ أهلَ العِلمِ قالوا: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ رغَّب تعالى في الدَّارِ الآخرةِ، وأخبَر بالسَّببِ الموصلِ إليها، فقال[٢]:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

أي: نعيمُ الجنَّةِ في الآخرةِ نَجعَلُه للَّذين لا يُريدونَ أيَّ تكبُّرٍ في الأرضِ عن الحَقِّ برَدِّه، أو على الخَلقِ بظُلمِهم، ولا يُريدونَ أيَّ عَمَلٍ بمعاصي اللهِ سُبحانَه[٣].

عن عِيَاضٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام فينا رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذاتَ يَومٍ خَطيبًا، فقال: إنَّ اللهَ أوحى إلَيَّ أنْ تواضَعوا حتَّى لا يَفخَرَ أحَدٌ على أحدٍ، ولا يَبغِيَ أحدٌ على أحدٍ))[٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ، قال رجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يحِبُّ أن يكونَ ثَوبُه حَسَنًا ونَعلُه حَسنةً! قال: إنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٩، ١٩٠).

(٤) رواه مسلم (٢٨٦٥).

الحَقِّ[١]، وغَمْطُ النَّاسِ[٢]))[٣].

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: والعاقِبةُ المحمودةُ في الدُّنيا والآخرةِ لِلَّذينَ يَتَّقونَ سَخَطَ اللهِ وعَذابَه؛ بِفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه، فيَنصُرُهم اللهُ في الدُّنيا، ويُدخِلُهم الجنَّةَ في الآخِرةِ[٤].

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه أنَّ الدَّارَ الآخرةَ ليست لِمَن يريدُ علوًّا في الأرضِ ولا فَسادًا، بل هي للمتَّقين؛ بَيَّنَ بعدَ ذلك ما يحصُلُ لهم[٥].

وأيضًا لَمَّا تَحَرَّرَ الفَرقُ بيْنَ أهلِ الدَّارَينِ، وكان لا بُدَّ مِن إتيانِ الآخرةِ، وعُلِمَ أنَّ الآخرةَ إنَّما هي جزاءُ الأعمالِ؛ فاستُؤنِفَ تفصيلُ ذلك -جوابًا لِمَن كأنَّه قال: ما لِمَنْ أحسَنَ ومَن أساءَ عندَ القدومِ؟- بقَولِه[٦]:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

---

(١) بَطَرُ الحَقِّ: أي: دَفعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتجبُّرًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٢) غَمْطُ النَّاسِ: أي: احتقارُهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٣) رواه مسلم (٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٢)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٧٦ - ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٣).

أي: مَن جاء يومَ القيامةِ بالحَسَنةِ، فله ثوابٌ عَظيمٌ عندَ اللهِ[١].

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر جزاءَ الإحسانِ؛ أعقَبَ بضِدِّ ذلك، مع مُقابَلةِ فضْلِ اللهِ تعالى على المُحسِنِ بعَدْلِه مع المُسيءِ، على عادةِ القرآنِ مِن قَرْنِ التَّرغيبِ بالتَّرهيبِ، فقال[٢]:

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ومَن جاء يومَ القيامةِ بالسَّيِّئةِ[٣] فلا يُثابُ أصحابُها إلَّا جَزاءَ ما عَمِلوه بلا زيادةٍ، ولا يُظلَمونَ بتَعذيبِهم على ما لم يَعمَلوا[٤].

كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- العاقِلُ يَغبِطُ مَن أنفَقَ مالَه في سبيلِ الخَيراتِ، ونَيلِ عُلُوِّ الدَّرَجاتِ، والجاهِلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٠)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٠٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥١٩).

وقد تقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الآيةِ في سورة النملِ الآية (٨٩) مع بيان الخلافِ الواقع في تفسير الحَسَنة، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩١).

(٣) تقدَّم تفسيرُ نظيرِها في سورةِ النمل الآية (٨٩) مع بيان الخلافِ الواقِعِ في تفسيرِ السَّيِّئةِ.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٥)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٧).

يَغبطُ مَن أنفقَ مالَه في الشَّهَواتِ، وتوصَّلَ به إلى اللَّذَّاتِ المحَرَّماتِ؛ قال الله تعالى حاكيًا عن قارونَ: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠] إلى قولِه: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾[(١)] [القصص: ٨٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ عُبِّرَ بالجَمعِ تَرغيبًا في التَّعاوُنِ؛ إشارةً إلى أنَّ الدِّينَ لصُعوبتِه لا يَستَقِلُّ به الواحِدُ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ التَّحذيرُ مِن التَّعالي والبَغيِ على الخلْقِ[(٣)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗا ﴾ مَدْحُ مَن لا يريدُ العلوَّ في الأرضِ ولا الفَسادَ، وهو أعظمُ مِن مَدْحِ مَن لا يَعلو ولا يُفسِدُ، ووجْهُ ذلك: أنَّ انتفاءَ الإرادةِ يَلزَمُ منه انتفاءُ الفِعلِ، أمَّا انتفاءُ الفِعلِ فلا يَلزَمُ منه انتفاءُ الإرادةِ؛ فقد يريدُ الإنسانُ العلوَّ والفسادَ ولكنْ لا يَعلو ولا يُفسدُ؛ لعدَمِ تَمَكُّنِه، أو لسَبَبٍ مِن الأسبابِ، أمَّا الَّذي لا يريدُ فهو أكمَلُ[(٤)].

٥- طلَبُ شرَفِ الدُّنيا والرِّفعةِ فيها، والرِّياسةِ على النَّاسِ والعُلوِّ في الأرضِ أضَرُّ على العبدِ مِن طلَبِ المالِ، وضرَرُه أعظَمُ، والزُّهدُ فيه أصعَبُ؛ فإنَّ المالَ

(١) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٧٧).

يُبذَلُ في طلبِ الرِّياسةِ والشَّرَفِ.

والحِرصُ على الشَّرَفِ على قِسْمَينِ:

أحدهما: طلَبُ الشَّرفِ بالولايةِ والسُّلطانِ والمالِ. وهذا خطرٌ جدًّا، وهو الغالبُ، يمنعُ خيرَ الآخرةِ وشرَفَها، وكرامتَها وعِزَّها؛ قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ...﴾ الآيةَ. وقَلَّ مَن يَحرِصُ على رياسةِ الدُّنيا بطلَبِ الولاياتِ فوُفِّقَ؛ بل يُوكَلُ إلى نفْسِه.

الثَّاني: طلَبُ الشَّرفِ والعُلوِّ على النَّاسِ بالأمورِ الدِّينيَّةِ؛ كالعِلمِ والعملِ والزُّهدِ، فهذا أفحَشُ مِنَ الأوَّلِ وأقبَحُ وأشَدُّ فسادًا وخطرًا؛ فإنَّ العِلمَ والعملَ والزُّهدَ إنَّما يُطلبُ بها ما عندَ الله مِنَ الدَّرَجاتِ العُلَى والنَّعيمِ المُقيمِ، ويُطلَبُ بها ما عندَ الله والقُربُ منه والزُّلْفى لَديه[1].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يؤخَذُ منه فضيلةُ التَّقْوى[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ذَمَّ سُبحانَه وتعالى مُتَمَنِّي الدُّنيا والغِنى والسَّعةِ فيها، ومَدَح مَن أنْكَر عليهم وخالفَهم، فقال تعالى عن أغنى أهلِ زَمانِه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٧٠-٧١، ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٢).

قَـٰرُونُ﴾ أنَّ ذوي النَّظَرِ القاصرِ يَتمنَّونَ مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا[١].

٣- قالوا: ﴿يَـٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَـٰرُونُ﴾ ولم يَقولوا: يا لَيْتَ لنا ما أُوتيَ قارونُ، بل قالوا: مِثلَه؛ قيل: لأنَّهم لو قالوا: لَيْتَ لنا ما أُوتيَ قارونُ، كان ذلك حسَدًا؛ لأنَّهم يَتمَنَّوْنَ بذلك زَوالَ النِّعمةِ عنه[٢].

٤- قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ إنَّما لم يُوصَفوا بإرادةِ ثَوابِ الآخِرةِ؛ تَنْبيهًا على أنَّ العِلْمَ بأحوالِ النَّشْأتينِ يَقتضِي الإعراضَ عن الأُولى، والإقبالَ على الثَّانيةِ حتمًا، وأنَّ تَمَنِّي المُتَمَنِّينَ ليس إلَّا لعدمِ عِلْمِهم بهما كما يَنبغي[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ﴾ إيثارُ ثَوابِ الآجِلِ على العاجِلِ هي حالةُ العُلَماءِ، فمَن كان هكذا فهو عالِمٌ، ومَن آثَرَ العاجِلَ على الآجِلِ فليس بعالِمٍ[٤]، فأهلُ العلمِ الَّذين يَعلمونَ حقائقَ الأمورِ يَدرونَ أنَّ هذه الدُّنيا ليست بشَيءٍ، وأنَّ ثوابَ الآخرةِ أعظَمُ وأجَلُّ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ إخبارٌ أنَّه ما يُلَقَّى الأعمالَ الصَّالحةَ وجزاءَها والحُظوظَ العظيمةَ إلَّا أهلُ الصَّبرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦).

(٤) هذه الفائدةُ للوزيرِ ابنِ هبيرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس))، كما في ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٣).

(٦) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٥٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ إنَّما كانت عقوبتُه بالخَسفِ؛ لأنَّه كان باغيًا عاليًا متكبِّرًا، فأُخِذَ بما يُناسِبُ حالَه، فالعالي أشدُّ عقُوبةٍ له أنْ يُنزَلَ مِن مكانتِه العاليةِ؛ ولهذا كانتِ العقوبةُ مُناسِبةً للعَمَلِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وممَّن خَسَفَ اللهُ به الأرضَ قارونُ ودارُه[١]، فإنَّه لَمَّا انتَهَتْ بقارونَ حالةُ البَغيِ والفَخرِ، وازَّيَّنتِ الدُّنيا عندَه، وكَثُرَ بها إعجابُه؛ بَغَتَه العذابُ؛ جزاءً مِن جنسِ عَمَلِه، فكما رَفَعَ نفْسَه على عبادِ اللهِ، أنزَلَه اللهُ أسفَلَ سافلينَ هو وما اغترَّ به مِن دارِه وأثاثِه ومَتاعِه[٢]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أنَّ هذا الخَسفَ خارِقٌ للعادةِ؛ لأنَّه لم يتناوَلْ غيرَ قارونَ ومَن ظاهَرَه، وغيرَ دارِ قارونَ؛ فهو معجزةٌ لموسى عليه السَّلامُ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى إذا أنزَلَ العقوبةَ بأحدٍ؛ فليس له ناصرٌ دونَ اللهِ، ولو عَظُمَتْ قوَّتُه، وكَثُرَ جندُه[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ سؤالٌ: ألَا يُشْكِلُ على هذا ما كان عليه أهلُ الكفرِ مِن النَّعيمِ والتَّرفِ في الدُّنيا؟

الجوابُ: لا يُشْكِلُ؛ لأنَّهم لم يُفلحوا، حتَّى وإنْ نُعِّمُوا في الدُّنيا فلا يُفيدُهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٦).

النَّعيمُ، وهم إذا ماتوا انتقَلوا إلى الجحيم، فهذا النَّعيمُ في الحقيقةِ يكونُ وبالًا عليهم؛ لأنَّه يَتحوَّلُ بعدَ ذلك إلى عذابٍ[١].

١١- قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فمَن أرادَ العُلوَّ في الأرضِ والفَسادَ لم يكُنْ مِن أهلِ السَّعادةِ في الآخِرةِ[٢].

١٢- قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لَمَّا كان المقصودُ الأعظمُ طَهارةَ القلبِ الَّذي عنه يَنشأُ عَمَلُ الجَوارحِ، قال: ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾، ولم يَقُلْ: «يَتعاطَونَ» مثلًا؛ تعظيمًا لضَرَرِ الفَسادِ بالتَّنفيرِ مِن كلِّ ما كان منه تَسَبُّبٌ؛ إعلامًا بأنَّ النُّفوسَ ميَّالةٌ إليه، نزَّاعةٌ له، فمهما رَتَعَتْ قريبًا منه اقتحمَتْه لا محالةَ[٣].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ فيه أنَّ النِّيَّةَ لها أثرٌ؛ فالإرادةُ بمعنى النِّيَّةِ[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ لم يُعَلِّقْ تعالى الوعدَ بتركِ العلوِّ والفَسادِ، ولكنْ بتركِ إرادتِهما ومَيلِ القلوبِ إليهما، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [هود: ١١٣]، فعَلَّقَ الوعيدَ بالرُّكونِ[٥].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ العاقبةُ هي النِّهايةُ الَّتي تَعقُبُ ما سَبَقَها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٥٠٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢١).

وهذه للمُتَّقينَ، فمَن كان مُتَّقيًا لله عزَّ وجلَّ فالعاقبةُ له في كلِّ حالٍ، ولكنَّها تكونُ له باعتبارِ شخصِه وعملِه أحيانًا، وتكونُ له باعتبارِ عملِه دونَ شخصِه، فالإنسانُ المتَّقي للهِ عزَّ وجلَّ لا بُدَّ أنْ تكونَ العاقبةُ له، حتَّى لو اعتدَى عليه مَن يعتدي؛ فإنَّ العاقبةَ له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1] [الأنبياء: ١٠٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أنَّ جَزاءَ الحسنةِ خيرٌ منها بالكَمِّيَّةِ والكيفيَّةِ؛ أمَّا الكَمِّيَّةُ فالحسنةُ بعَشرِ أمثالِها، وأمَّا الكيفيَّةُ فإنَّ جزاءَ الحَسَنةِ دائمٌ، وفِعْلَ الحسنةِ ليس بدائمٍ؛ فالفعلُ ينتهي بموتِ الإنسانِ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[2] [الأعلى: ١٦، ١٧].

١٧- ثوابُ اللهِ سبحانه وتعالى دائرٌ بينَ العَدلِ والفَضلِ، وهذان قِسْمانِ: الفَضلُ بالنِّسبةِ للمُحسِنينَ، كما قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ﴾، والعَدلُ بالنِّسبةِ للمُسيئينَ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أمَّا الجَورُ فهذا ممتنِعٌ في حقِّ اللهِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، فجزاءُ اللهِ تعالى دائرٌ بيْنَ الفضلِ والعدلِ؛ فهو محمودٌ على كلِّ حالٍ؛ لأنَّه إمَّا عَدْلٌ، وإمَّا فَضْلٌ[3].

١٨- قال الله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿مَن جَاءَ﴾ في الموضِعَينِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٢).

إشارةٌ إلى أنَّ المدارَ على مجيءِ الإنسانِ بذلك، لا على عَمَلِه؛ فقد يعمَلُ الحَسَنةَ ثمَّ يَرِدُ عليها ما يُبطِلُها، فمثلًا: هناك إنسانٌ عَمِلَ صَدَقةً، ثم مَنَّ بها أو آذَى مَن تصَدَّقَ عليه، فلا تكونُ هذه صَدقةً، بل تَبطُلُ، ولا يُثابُ عليها يومَ القيامةِ. وإنسانٌ آخَرُ عَمِلَ سَيِّئةً، لكِنَّه تاب منها، فذَهَبت السَّيِّئةُ، فلا يأتي بها يومَ القيامةِ[1].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أنَّ عدَمَ مُضاعَفةِ السَّيِّئةِ عامٌّ في مكَّةَ وفي غيرِها، ووجْهُه: أنَّ الآيةَ عامَّةٌ ليس فيها استِثناءٌ، ثمَّ إنَّ سورةَ (القَصَص) مكِّيَّةٌ؛ نزلتْ بمكَّةَ، والآيةُ نزلتْ بمكَّةَ، ولم يَستثنِ شيئًا، لكنَّ السَّيِّئةَ في مكَّةَ تكونُ عقوبتُها أشدَّ وأبلغَ إيلامًا؛ فالسَّيِّئةُ لا تكونُ عشرَ سيِّئاتٍ، لكِنَّ جزاءَها يكونُ أشدَّ؛ فهي تُضاعَفُ لا مِن جهةِ الكَمِّيَّةِ، ولكِنْ مِن جهةِ الكيفيَّةِ، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2] [الحج: ٢٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ دلَّتِ الفاءُ على أنَّ خروجَه بينَ قومِه في زينَتِه بعدَ ذلكَ كلِّه كان مِن أجْلِ أنَّه لم يُقَصِّرْ عن شَيءٍ مِن سيرَتِه، ولم يَتَّعِظْ بتلكَ المواعظِ ولا زمنًا قصيرًا، بل أعْقَبَها بخُروجِه هذه الخِرْجةَ المَليئةَ صَلَفًا وازْدِهاءً[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٠، ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٢، ١٨٣).

- وإنَّما فُصِلَتْ جملةُ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ولم تُعطَفْ على الَّتي قَبْلَها؛ لأنَّها تَتَنَزَّلُ مَنزلةَ بدَلِ الاشتمالِ؛ لِمَا اشتَمَلَتْ عليه الزِّينةُ مِن أنَّها ممَّا يَتَمَنَّاهُ الرَّاغبونَ في الدُّنيا، وذلكَ جامِعٌ لأحوالِ الرَّفاهيةِ، وعلى أخْصَرِ وَجهٍ؛ لأنَّ الَّذين يُريدونَ الحياةَ الدُّنيا لهم أميالٌ مُختلفةٌ، ورَغباتٌ مُتفاوِتةٌ؛ فكلٌّ يَتَمَنَّى أُمنيَّةً ممَّا تَلبَّسَ به قارونُ مِن الزِّينةِ، فحَصَل هذا المَعنى مع حُصولِ الإخبارِ عن انْقِسامِ قومِه إلى مُغتَرِّينَ بالزَّخارفِ العاجلةِ عن غيرِ عِلْمٍ، وإلى عُلماءَ يُؤْثِرونَ الآجِلَ على العاجلِ. ولو عُطِفَتْ جملةُ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بالواوِ وبالفاءِ لَفاتتْ هذه الخُصوصيَّةُ البَليغةُ؛ فصارتِ الجملةُ إمَّا خبَرًا مِن جملةِ الأخبارِ عن حالِ قَومِه، أو جُزءَ خبرٍ مِن قِصَّتِه[1].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ تعليلٌ لتَمنِّيهم، وتأكيدٌ له[2]، والتَّوكيدُ كِنايةٌ عن التَّعجُّبِ؛ حتَّى كأنَّ السَّامعَ يُنكِرُ حَظَّه فيُؤكِّدُه المتكلِّمُ[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ فهي مُشارِكَةٌ لها في مَعناها؛ لأنَّ ما تَشتَمِلُ عليه خِرْجةُ قارونَ وما تدُلُّ عليه مَلامِحُه مِن فتنةٍ ببَهْرَجَتِه وبِزَّتِه؛ دالَّةٌ على قِلَّةِ اعتِدادِه بثوابِ اللهِ، وعلى تَمَحُّضِه للإقبالِ على لَذَائذِ الدُّنيا ومَفاخِرِها الباطلةِ؛ ففي كلامِ الَّذينَ أُوتوا العِلْمَ تَنبيهٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٣).

ذلكَ، وإزالةٌ لِمَا تَستَجلِبُه حالةُ قارونَ مِن نُفوسِ المُبْتَلَينَ بزَخارِفِ الدُّنيا[١].

- وتقديمُ المُسنَدِ إليه في قولِه: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾؛ ليَتَمَكَّنَ الخبرُ في ذِهْنِ السامِعينَ؛ لأنَّ الابتداءَ بما يَدُلُّ على الثَّوابِ المُضافِ إلى أَوْسَعِ الكُرَماءِ كَرَمًا؛ ممَّا تَسْتَشْرِفُ إليه النَّفْسُ[٢].

- وعُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى المَوصوليَّةِ في قولِه: ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ دونَ: (خَيْرٌ لَكُمْ)؛ لِمَا في الإظهارِ مِن الإشارةِ إلى أنَّ ثوابَ اللهِ إنَّما يَنالُه المؤمنونَ الَّذين يَعمَلون الصَّالحاتِ، وأنَّه على حَسَبِ صِحَّةِ الإيمانِ ووفْرَةِ العمَلِ، مع ما في الموصولِ مِن الشُّمولِ لِمَنْ كان منهم كذلكَ ولغَيْرِهم ممَّن لم يَحْضُرْ ذلك المَقامَ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾

- دَلَّتِ الفاءُ في قولِه: ﴿فَخَسَفْنَا﴾ على تَعْقيبِ ساعةِ خُروجِ قارونَ في ازْدِهائِه، وما جَرَى فيها مِن تَمَنِّي قومٍ أنْ يكونوا مِثْلَه، وما أنْكَر عليهم عُلَماؤُهم مِن غَفْلَتِهم عن التَّنافُسِ في ثوابِ الآخرةِ بتَعْجيلِ عِقابِه في الدُّنيا بمَرْأًى مِنَ الَّذينَ تَمَنَّوْا أنْ يَكونوا مِثْلَه[٤].

- قولُه: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ﴾ (مِنْ) صِلةٌ، أي: مِن جماعةٍ تُفيدُ استِغْراقَ الفِئاتِ، وإذا انْتَفَتِ الجُملةُ، ولم يُقْدَرْ على نَصْرِه؛ فانتِفاءُ الواحدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٨٥).

عن نُصْرتِه أبلَغُ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ ... ﴾ (أَصْبَحَ) إذا حُمِلَ على ظاهِرِه دلَّ على أنَّ الخَسْفَ به وبِدارِه كان ليلًا، وهو أفْظَعُ العذابِ؛ إذِ اللَّيلُ مَقَرُّ الرَّاحةِ والسُّكونِ، والأمسُ يَحتمِلُ أنْ يُرادَ به الزَّمانُ الماضي، ويَحتمِلُ أن يُرادَ به ما قبْلَ يومِ الخَسْفِ، وهو يومُ التَّمنِّي، ويدُلُّ عليه العطفُ بالفاءِ الَّتي تَقْتَضِي التَّعقيبَ في قولِه: ﴿ فَخَسَفْنَا ﴾؛ فيَكونُ فيه اعتِقابُ العذابِ خروجَه في زينَتِه، وفي ذلك تعجيلُ العذابِ[٢].

- قوله: ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ فائدةُ البيانِ بقولِه: ﴿ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ الإيماءُ إلى أنَّه في بَسْطَةِ الأرزاقِ وقَدْرِها مُتصَرِّفٌ تصرُّفَ المالِكِ في مِلْكِه؛ إذِ المَبْسوطُ لهم والمَقْدورُ عليهم كلُّهم عَبيدُه؛ فحَقُّهمُ الرِّضا بما قسَمَ لهم مَولاهُم[٣].

- وأعادَ ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ بعدُ؛ لاتِّصالِ كلٍّ منهما بما لم يتَّصِلْ به الآخَرُ[٤]. وقيل: إنَّ قولَه: ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ تكريرٌ للتَّعجُّبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٨).

٥- قولُه تعالَى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ انْتَهَتْ قِصَّةُ قارونَ بما فيها مِنَ العِبَر مِن خَيرٍ وشرٍّ، فأُعقِبَتْ باستِئنافِ كلامٍ عنِ الجَزاءِ على الخيرِ وضِدِّه في الحياةِ الأبَديَّةِ، وأنَّها مُعَدَّةٌ لِلَّذينَ حالُهم بضِدِّ حالِ قارونَ، مع مُناسَبةِ ذِكْرِ الجَنَّةِ بعُنوانِ الدَّارِ لذِكْرِ الخَسْفِ بدارِ قارونَ؛ للمُقابَلةِ بيْنَ دارٍ زائلةٍ ودارٍ خالدةٍ، وابتُدِئَ الكلامُ بابْتِداءٍ مُشَوِّقٍ وهو اسمُ الإشارةِ إلى غيرِ مَذكورٍ مِن قَبْلُ؛ لِيَسْتَشْرِفَ السَّامعُ إلى مَعرفةِ المُشارِ إليه فيَعْقُبُه بيانُه بالاسمِ المُعَرَّفِ باللامِ[١].

- قولُه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ إشارةُ تَعظيمٍ وتفخيمٍ لها؛ كأنَّه قيلَ: تلكَ الَّتي سَمِعتَ خبَرها وبلغَك وَصْفُها[٢]. والآخِرةُ: مُرادٌ به الدَّائِمةُ، أي: الَّتي لا دارَ بعْدَها؛ فاللَّفظُ مُستَعْمَلٌ في صَريحِ مَعناهُ وكِنايتِه[٣].

- وفي تَعليقِ المَوعِدِ بتَرْكِ إرادةِ العُلوِّ والفسادِ ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ لا بتَرْكِ أنفُسِهما؛ مَزيدُ تَحذيرٍ منهما[٤].

- ومَعنى ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾ قيل: هي كِنايةٌ عن: (لا يَفْعلونَ)؛ لأنَّ مَن لَا يُريدُ الفِعلَ لا يَفْعَلُه إلَّا مُكْرَهًا[٥].

- وجاءَ التركيبُ بـ (لا) في قولِه: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾؛ فدَلَّ على أنَّ كُلَّ واحدٍ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٠).

العُلُوِّ والفسادِ مَقصودٌ، لا مجموعُهما[١].

- قولُه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تَذْييلٌ، وهو مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ...﴾، وبه صارتْ جملةُ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ...﴾ كلُّها تَذْييلًا؛ لِمَا اشتَمَلَتْ عليه مِن إثباتِ الحُكْمِ للعامِّ بالمَوصولِ مِن قولِه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والمُعرَّف بلامِ الاستِغراقِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

- تَتَنَزَّلُ جُملةُ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ مَنزِلةَ بدَلِ الاشتِمالِ لجُملةِ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ العاقِبةَ ذاتُ أحوالٍ مِن الخَيرِ، ودَرَجاتٍ مِن النَّعيمِ، وهي على حَسَبِ ما يَجيءُ به المُتَّقونَ مِن الحَسَناتِ، فتَفاوُتُ درجاتِهم بتفاوُتِها، واختيارُ فِعْلِ ﴿عَمِلُوا۟﴾ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ لِما فيه مِن التَّنْبيهِ على أنَّ عمَلَهم هو عِلَّةُ جَزائِهم؛ زِيادةٌ في التَّنبيهِ على عَدْلِ اللهِ تعالَى[٣].

- و(مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ) مَاصَدَقُه[٤]: ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، و﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الثَّاني هو عَيْنُ (مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ)؛ فكانَ المَقامُ مَقامَ الإضمارِ بأنْ يُقالَ: ومَنْ جاءَ بالسَّيئةِ فلا يُجْزَوْنَ... إلخ، ولكنَّه عَدَل عن مُقتَضَى الظاهرِ؛ لأنَّ في التَّصريحِ بوَصْفِهم بـ ﴿عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تَكْريرًا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٠، ١٩١).

(٤) الماصَدَق عندَ المَناطِقةِ: الأفرادُ الَّتي يَتحقَّقُ فيها معنَى الكُلِّيِّ، ويُقابِلُه (المفهوم). يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لأحمد مختار (٢/ ١٢٨٤).

لإسنادِ عَمَلِ السَّيِّئاتِ إليهم؛ لقَصْدِ تَهجينِ هذا العمَلِ الذَّميمِ، وتَبْغيضِ السَّيِّئةِ إلى قُلوبِ السَّامِعينَ مِن المُؤمنينَ(١).

- وفي قولِه: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ استِثناءٌ مُفَرَّغٌ -ناقصٌ مَنفيٌّ- عن فِعْلِ ﴿يُجْزَى﴾ المَنْفِيِّ المُفيدِ بالنَّفْيِ عُمومَ أنواعِ الجَزاءِ، والمستثنَى تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: جزاءٌ شِبْهُ الَّذي كانوا يَعْمَلونَه(٢).

- قولُه: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلَّا مِثْلَ ما كانوا يَعمَلون؛ فحُذِفَ المِثْلُ، وأُقيمَ مُقامَه ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ مُبالَغةً في المُماثَلةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧).

الآيات (٨٥-٨٨)

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾: أي: لا يَصْرِفُنَّكَ، والصُّدودُ والصَّدُّ قد يكونُ انصِرافًا عن الشَّيءِ وامتناعًا؛ إذا كان لازمًا غيرَ مُتَعَدٍّ، وقد يكونُ صَرفًا ومنعًا؛ إذا كان مُتعدِّيًا، بمعنى: يصَدُّون غيرَهم، وأصلُ (صدد): إعراضٌ وعدولٌ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مُبَشِّرًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ اللهَ الَّذي أنزَلَ عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- وأوجَبَ عليك تِلاوتَه وتَبليغَه والعملَ به؛ سوف يَرُدُّك إلى مكَّةَ مِن بعدِ خُروجِك منها.

ثمَّ يأمُرُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يرُدَّ على دعاوى المشركينَ، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ مِن قَومِك: ربِّي أعلَمُ بمَن جاء بالحقِّ مِن عندِه ومَن هو في ضَلالٍ واضِحٍ.

ثمَّ يُذكِّرُ الله تعالى نبيَّه بنعمتِه العظيمةِ عليه وعلى العبادِ إذْ أرْسَله إليهم، فيقولُ: وما كنتَ تظُنُّ أن يُنزِلَ اللهُ عليك القُرآنَ، لكنَّ اللهَ أنزَلَه عليك رحمةً منه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨ب/ ١٣٩).

سُبحانَه؛ فلا تَكونَنَّ -يا محمَّدُ- مُعينًا للكافرينَ، ولا يَصرِفَنَّك هؤلاء الكفَّارُ عن آياتِ القُرآنِ بعدَ أن أنزَلْناها إليك، وادْعُ النَّاسَ إلى عبادةِ رَبِّك، ولا تَكونَنَّ مِنَ المُشرِكينَ، ولا تَعبُدْ مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ؛ فإنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ، كُلُّ شَيءٍ فانٍ إلَّا ذاتَ اللهِ سُبحانَه وبِحَمدِه، وله وَحْدَه الحُكْمُ بيْنَ عِبادِه، وإليه وحْدَه تُرَدُّونَ بعدَ مَوتِكم للجَزاءِ والحِسابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح سُبحانَه لرَسولِه أمْرَ القيامةِ واستَقصَى في ذلك؛ شَرَحَ له ما يتَّصِلُ بأحوالِه[1].

وأيضًا بعدَ أنْ ذكر قصصَ موسى وقَومِه مع قارونَ، وبيَّن بَغْيَ قارونَ واستِطالتَه عليهم، ثمَّ هلاكَه، ونُصرةَ أهلِ الحقِّ عليه؛ أردَف هذا قصصَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه مع قومِه، وإيذائِهم إيَّاه، وإخراجِهم له مِن مَسقِطِ رأسِه، ثمَّ إعزازِه إيَّاه بالإعادةِ إلى مكَّةَ، وفتْحِه إيَّاها منصورًا ظافرًا[2].

وأيضًا لَمَّا قَرَّرَ ذِكْرَ الآخرةِ الَّتي هي المرجِعُ، وكَرَّرَه، وأثبَتَ الجزاءَ فيها، وأنَّ العاقبةَ للمُتَّقينَ؛ أتْبَعَه ما هو في بيانِ ذلك كالعلَّةِ؛ فقال مستأنِفًا مقَرِّرًا مؤكِّدًا لِمَا تقرَّرَ في أذهانِهم مِن إنكارِ الآخرةِ وما يقتضيه حالُ خروجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ١٠٤).

مِن مكَّةَ المُشرَّفةِ مِن استبعادِ رَدِّه إليها[١]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ الَّذي أنزل عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- وأوجَبَ عليك تِلاوتَه وتَبليغَه والعملَ به: لَرادُّك إلى مكَّةَ مِن بَعدِ خُروجِك منها[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٥، ٣٥١، ٣٥٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥٧، ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٤-٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨٣-٣٨٥).

قال الزَّجَّاجُ: (معنَى ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: أنزلَه عليك وألْزَمَك، وفرَضَ عليك العملَ بما يُوجِبُه القرآنُ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٥٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: مكَّة: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والفَرَّاءُ، والسمرقندي، والواحدي، والرازي، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والألوسي، ونسبه السمعانيُّ للأكثَرينَ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١١)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٣٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ يومُ القيامةِ، وأنَّ المَعادَ هو البعثُ: الماتُريديُّ، وابنُ كثير، والسعدي، وابن عثيمين، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ للجمهورِ، ونسَبَه مكِّيٌّ للزَّجَّاجِ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٨٧). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٥٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: المقامُ المحمودُ: أبو السُّعودِ، والشربينيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٤١).

قال البِقاعي: (﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: مَرجِعٍ عظيمٍ يا لَه مِن مرجعٍ! يُجزى فيه كلُّ أحدٍ بما عمِل، =

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

وجهُ تَعَلُّقِ هذه الآيةِ بما قبْلَها أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا وَعَد رسولَه الرَّدَّ إلى مَعادٍ، قال: ﴿قُل﴾ للمشركينَ ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ يعني: نفْسَه، وما يَستحِقُّه مِنَ الثَّوابِ في المعادِ، والإعزازِ بالإعادةِ إلى مكَّةَ، ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ يَعْنيهم وما يَستحِقُّونَ مِنَ العقابِ في مَعادِهم[1].

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: ربِّي أعلَمُ بالَّذي جاء بالحَقِّ مِن عِندِه أنا أو أنتم، وأعلَمُ بمَن هو منَّا ومِنكم في ضَلالٍ واضِحٍ[2].

= فيَبعَثُك ربُّك فيه -ثوابًا على إحسانِك في العملِ- مقامًا محمودًا يَغبِطُك فيه الأوَّلونَ والآخِرونَ، بما عانَيْتَ في أمرِه مِن هذه المشَقَّاتِ الَّتي لا تَحمِلُها الجبالُ، ولولا الرَّدُّ إلى إلى هذا المَعادِ لكانت هذه التَّكاليفُ -الَّتي لا يعملُ أكثرُهم بأكثَرِها، ولا يُجازى على المخالفةِ فيها- مِنَ العبثِ المعلومِ أنَّ العاقلَ مِنَ الآدَميِّينَ مُتنزِّهٌ عنه، فكيف بأحكَمِ الحاكِمينَ؟! فاجتهِدْ فيما أنت فيه لعِزِّ ذلك اليومِ؛ فإنَّ العاقبةَ لك). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٧٥).

وقال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذكَر ما جاء عن ابنِ عبَّاسٍ مِن رواياتٍ في معنى ذلك، ومنها أنَّ المرادَ: لَرادُّك إلى الجنَّةِ، وفي روايةٍ: إلى يومِ القيامةِ، وفي روايةٍ: إلى الموتِ، وفي روايةٍ: إلى مكَّةَ- قال: (وجْهُ الجَمعِ بينَ هذه الأقوالِ: أنَّ ابنَ عبَّاسٍ فسَّر ذلك تارةً برُجوعِه إلى مكَّةَ، وهو الفَتحُ الَّذي هو عندَ ابنِ عبَّاسٍ أمَارةٌ على اقترابِ أجَلِه... وفسَّر ابنُ عبَّاسٍ تارةً أخرى قولَه: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ بالموتِ، وتارةً بيومِ القيامةِ الَّذي هو بعدَ الموتِ، وتارةً بالجنَّةِ الَّتي هي جزاؤُه ومَصيرُه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ٢٨٢).

﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان رجوعُه صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى مكَّةَ غايةَ البُعدِ؛ لكثرةِ الكفَّارِ، وقِلَّةِ الأنصارِ؛ قرَّبه تعالى بقولِه مُعلِمًا أنَّ كثيرًا مِن الأمورِ تكونُ على غيرِ رجاءٍ، بل وعلى خِلافِ القياسِ[1].

﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾.

أي: وما كُنتَ -يا مُحمَّدُ- تَظُنُّ أن يُنزِلَ اللهُ عليك القُرآنَ، لكِنَّ اللهَ أنزله عليك رحمةً منه بك وبِعبادِه[2].

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَسَبَّبَ عمَّا تَقَدَّمَ الاجتِهادُ في تحريكِ الهِمَمِ إلى العُكوفِ على أمْرِ اللهِ؛ طَمَعًا فيما عِندَه سُبحانَه مِن الثَّوابِ، وشُكرًا على إنزالِ الكِتابِ- قال في سياقِ التَّأكيدِ؛ لأنَّ الطَّبعَ البَشريَّ يقتضي إدراكَ مُظاهَرةِ الكُفَّارِ لأمرٍ مِن التَّوفيقِ عَظيمٍ؛ لِكَثرتِهم وقُوَّتِهم وعِزَّتِهم[3]:

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٩).

أي: فلا تَكونَنَّ -يا مُحمَّدُ- مُعينًا للكافِرينَ[(١)].

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾.

أي: ولا يَصرِفَنَّك الكُفَّارُ -يا مُحمَّدُ- بكَذِبِهم وأذاهم ومَكرِهم عن آياتِ القُرآنِ بعدَ أن أنزَلْناها إليك؛ لِتَتلوَها عليهم، وتعمَلَ بها؛ فلا تُبالِ بهم، ولا تتأثَّرْ بمُخالفتِهم لك، واتِّباعِ أهوائِهم، وامْضِ لِما أُمِرْتَ به[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۞ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣، ٧٤].

وقال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٥، ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩٨).

قال جلال الدين المحلي: (﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أصْلُه يَصُدُّونَنَّكَ، حُذِفَت نُونُ الرَّفعِ للجازمِ، والواوُ للفاعلِ؛ لالْتِقائِها مع النُّونِ السَّاكنةِ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٢٠).

أي: لَمَّا دخلت (لا) النَّاهيةُ على (يَصُدُّونَنَّكَ) وجَب حذفُ النُّونِ الأولى للجزمِ، فصارت: يَصُدونَّك، فلمَّا حُذِفَتِ النُّونُ الأُولى الْتَقَتْ واوُ الفاعلِ السَّاكنةُ مع النُّونِ المُشَدَّدةِ، وهي عبارةٌ عن نُونَينِ: الأُولى ساكنةٌ والثَّانيةُ مُتحرِّكةٌ، وإذا الْتَقى ساكِنانِ وجَب حذْفُ الأوَّلِ منهما. يُنظر: ((تفسير العثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩٧). ويُنظر أيضًا: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٩١) و(٨/ ٧٠١).

﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

أي: وادْعُ النَّاسَ -يا مُحمَّدُ- إلى رَبِّك؛ لِعبادتِه وَحْدَه لا شَريكَ له[١].

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

أي: ولا تَكونَنَّ -يا مُحمَّدُ- مَعدودًا مِنَ المُشرِكينَ[٢].

﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨﴾.

﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٨١).

قال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاس: هو مُخاطَبةٌ لأهلِ دينِه. يعني: أنَّ هذا الخِطابَ وإن كان ظاهِرُه له، فالمرادُ به أهلُ دينِه، أي: لا تُظاهِروا الكفَّارَ ولا توافِقوهم، وكذلك قولُه: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: لا تَعبُدْ معه غيرَه. قال ابنُ عبَّاس: هذا تخويفٌ للمشركين، وأمَّا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقد عصَمَه الله مِن أن يَتَّخِذَ معه إلهًا آخَرَ. يريدُ: أنَّه إذا نُهيَ عن عبادةِ غيرِ الله، كان ذلك تخويفًا لِمَن عبَدَ معه غيرَه. وهذا فائدةُ النَّهيِ عن عبادةِ غيرِه بعدَ أن عُصِم عن ذاك، وحُكِم له بالنُّبوَّةِ في سابقِ الحُكم). ((البسيط)) (١٧/ ٤٧٨).

وقال السمعاني: (وقَوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: اثْبُتْ على التَّوحيدِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦٣).

وقال ابن جرير: (﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ يقولُ: ولا تَترُكَنَّ الدُّعاءَ إلى رَبِّك، وتبليغَ المشركينَ رسالَتَه، فتكونَ مِمَّنْ فَعَلَ فِعْلَ المشركينَ بمعصيَتِه رَبَّه، وخِلافِه أمْرَه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣).

أي: ولا تَعبُدْ -يا مُحمَّدُ- مع اللهِ مَعبودًا غَيْرَه، وأخلِصْ عِبادتَك للهِ وَحْدَه[١].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ وَحْدَه، وكُلُّ مَعبودٍ سِواه فهو باطِلٌ[٢].

﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾.

أي: كلُّ شَيءٍ فانٍ إلَّا ذاتَ اللهِ تعالى، وكُلُّ عَمَلٍ باطلٌ إلَّا ما أُريدَ به وَجْهُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٨١، ٣٨٢).

ممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالوَجهِ هنا: الذَّاتُ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠٥، ٤٠٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٧).

وفي قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ إن أُريدَ بالوَجهِ الذَّاتُ، بمعنى: أنَّ الله تعالى يبقى هو نفْسُه مع إثباتِ الوَجهِ لله، فهذا صَحيحٌ، ويكون هنا عبَّرَ بالوجهِ عن الذَّاتِ لِمَن له وَجهٌ، ويكون المرادُ بالآيةِ: إلَّا ذاتَه المتَّصِفةَ بالوَجهِ.

وإنْ أُريدَ بتفسيرِ الوجهِ بالذَّاتِ: أنَّ الوَجهَ عبارةٌ عن الذَّاتِ بدونِ إثباتِ الوَجهِ، فهذا غيرُ مَقبولٍ، وهو تحريفٌ. يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٤٣).

وقيل: المرادُ به: إخلاصُ العَمَلِ لله تعالى، فكُلُّ عَمَلٍ باطِلٌ إلَّا ما أُريدَ به وَجهُه سبحانه. ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ لجمهورِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٨٣).

قال ابن تيميَّة: (قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يَقْتَضي أظهرَ الوجهَيْنِ، وهو أنَّ كلَّ شيءٍ هالِكٌ إلَّا ما كان لوجهِه مِن الأعيانِ والأعمالِ وغيرِهما). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٤٢٧). =

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أصدَقُ كَلِمةٍ قالها الشَّاعِرُ كَلِمةُ لَبيدٍ:

أَلَا كُلُّ شَيءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ))(١).

وعن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((قال اللهُ تبارك وتعالى: أنا أغْنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ، مَن عَمِلَ عمَلًا أشرَكَ فيه معيَ غَيري ترَكْتُه وشِرْكَه))(٢).

﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾.

= وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، والثَّوريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١).

وقال ابن كثير: (وقولُه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾: إخبارٌ بأنَّه الدَّائمُ الباقي الحيُّ القَيُّومُ، الَّذي تموتُ الخلائقُ ولا يموتُ، كما قال تعالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، فعبَّر بالوجهِ عن الذاتِ، وهكذا قولُه هاهنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلَّا إيَّاه... وقال مجاهدٌ والثَّوريُّ في قَولِه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أيْ: إلَّا ما أُريدَ به وجهُه،... وهذا القولُ لا ينافِي القولَ الأوَّلَ؛ فإنَّ هذا إخبارٌ عن كلِّ الأعمالِ بأنَّها باطِلةٌ إلَّا ما أُريدَ بها وجهُ اللهِ عزَّ وجلَّ مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ المطابقةِ للشَّريعةِ. والقولُ الأوَّلُ مُقتضاهُ أنَّ كلَّ الذَّواتِ فانيةٌ وهالكةٌ وزائلةٌ إلَّا ذاتَه تعالَى؛ فإنَّه الأوَّلُ الآخِرُ، الَّذي هو قبْلَ كلِّ شَيءٍ، وبعدَ كلِّ شيءٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١).

وقال البقاعي: (لعلَّه عَبَّرَ عن الذَّاتِ بالوجهِ؛ لِيشملَ ما قُصِدَ به مِن العملِ الصَّالحِ، مع ما هو معروفٌ مِن تسويغِه لذلك بكَونِه أشرَفَ الجملةِ، وبكونِ النَّظرِ إليه هو الحامل على الطَّاعةِ بالاستحياءِ، وما في معناه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٨٢).

(١) رواه البخاري (٣٨٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٢٥٦).

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).

أي: لله وَحْدَه الحُكمُ بينَ عِبادِه في الدُّنيا والآخرةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تُرَدُّونَ بعدَ مَوتِكم، فيُجازي كُلًّا مِنكم بعَمَلِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ دَلالةٌ على نُبُوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه أَخبرَ عن الغيبِ ووَقَعَ ما أخبَرَ به، فيكونُ مُعجِزًا[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ فيه إثباتُ عِلْمِ اللهِ، وأنَّه أكمَلُ العُلومِ؛ لأنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ اسمُ تفضيلٍ؛ فيقتضي أنْ يكونَ أفضلَ العُلومِ[٤].

٣- في قولِه تعالى: ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أنَّ ما عدا الهدَى فهو ضلالٌ؛ وأنَّه ليس ثمَّةَ واسطةٌ بينَ الهدَى والضلالِ، ومِن شواهدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٨).

قال ابنُ عثيمين: (الصَّحيحُ أنَّه يشملُ الحُكمَ الكونيَّ والشَّرعيَّ، وله القَضاءُ النَّافِذُ على كلِّ أحدٍ، وله أيضًا الفَصلُ بيْنَ الخَلقِ بالأحكامِ الشَّرعيةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨٨).

هذا الأمرِ قولُه تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، ومِثْلُ قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١] [سبأ: ٢٤].

٤- بيانُ تكذيبِ الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]؛ فالكُفَّارُ يقولونَ: إنَّما يُعَلِّمُ محمَّدًا القُرآنَ بشرٌ. فلو كان الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتعلَّمُ مِن بَشَرٍ لكان متطلِّعًا لهذا القرآنِ، واللهُ يقولُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، فالرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما كان يَتَطَلَّبُ الرسالةَ، ولا خطرتْ له على بالٍ[٢].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أنَّ هذا القرآنَ الذي جاء به محمدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رحمةٌ للخلْقِ، رحمةٌ في الدنيا والآخرةِ، ففي الدنيا تستقرُّ الأمورُ، وتصْلُحُ أحوالُهم، ويَعلو أمْرُهم، وفي الآخرةِ يكونون في جناتِ النعيمِ، فهذا القرآنُ رحمةٌ أولًا وآخرًا، وهو أعظمُ نعمةٍ مِن اللهِ سبحانه وتعالى، وأعظمُ مِن نزولِ المطرِ الذي تحيا به الأرضُ؛ لأنَّ القرآنَ تحيا به القلوبُ، وتصْلُحُ به الأعمالُ، وبحياة القلوبِ والأعمالِ تحيا الأرضُ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣] [الأعراف: ٩٦].

٦- قَولُه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ فيه إثباتُ ربوبيَّةِ اللهِ الخاصَّةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فهذا يقتَضي ربوبيَّةً خاصَّةً، كما أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ له عُبوديةٌ خاصَّةٌ. فعبوديَّتُه خاصةٌ، وربوبيَّةُ اللهِ له خاصَّةٌ أيضًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٥).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ تحريمُ مُظاهرةِ الكُفَّارِ -أي: مُعاونتِهم-؛ لأنَّ النَّهيَ للتَّحريم، لا سيَّما وقد أُكِّدَ بنونِ التَّوكيدِ[١].

٨- إذا قيل: ما الفائدةُ مِن قَولِه: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، وأصلُ النَّهي ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا يَقَعُ إلَّا إذا كانت نازِلةً؟ فهل هذا الكَلامُ لَغوٌ لا فائدةَ منه؟

الجوابُ: لا، ليس لَغوًا لا فائدةَ منه، بل فيه فائدةٌ، وهو تذكيرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحالِ الإنزالِ، حتى يكونَ ذلك أثبَتَ له؛ فإنَّها إذا كانت أُنزِلَت إليه مِن عندِ الله فإنَّه لا يُمكِنُ لأحدٍ أن يَصُدَّه عنه[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ سؤالٌ: أنَّ هذا لا يَقَعُ منه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فما فائدةُ ذلك النَّهيِ؟

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

أولًا: أنَّه ذُكِرَ للتَّهييجِ والإلهابِ، وقَطعِ أطماعِ المُشركينَ عن مُساعدتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لهم، وإظهارِ أنَّ المنهيَّ عنه في القُبحِ والشَّرِّيةِ بحيثُ يُنهَى عنه من لا يُمكِنُ صُدورُه عنه أصلًا[٣].

ثانيًا: أنَّ الخطابَ وإنْ كان معه، لكِنَّ المرادَ غيرُه، كما في قَولِه تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٤] [الزمر: ٦٥] فهذه الأوامرُ والنواهي وإن كان خِطابُها مُتَوجِّهًا إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فالمقصودُ بها أتباعُه، ولعَلَّها إنَّما وُجِّهَت إليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٨، ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢٣).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ أمرَ الرئيسِ أدعى لأتباعِه إلى القَبولِ[١].

ثالثًا: أنَّ النهيَ عن الشيءِ قد يُوَجَّه إلى مَن لم يقعْ منه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فمن المعلومِ أنهم لم يصدُّوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن آياتِ الله! وأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يقَعْ منه شركٌ! والغرضُ مِن توجيهِ النهيِ إلى مَن لا يقعُ منه: التنديدُ بمَن وقعَ منهم؛ والتحذيرُ مِن منهاجهم[٢].

١٠- قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا النفيُ لا يَتعارضُ مع ما قَبْلَه ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾! لأنَّ ما قَبْلَه باعتبارِ أنَّه إلهٌ باطلٌ، والثاني باعتبارِ أنَّه إلهٌ حقٌّ؛ فلا إلهَ حقٌّ إلَّا اللهُ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أنَّ اللهَ تعالى شَيءٌ، لأنَّه استثنَى مِن قولِه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ استثناءً يُخرِجُ ما لولاه لوَجَبَ أو لَصَحَّ دخولُه تحتَ اللَّفظِ؛ فوَجَبَ كونُه شيئًا، يؤكِّدُه ما في سورةِ الأنعامِ، وهو قولُه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾[٤] [الأنعام: ١٩]، فيصحُّ إطلاقُ لفظةِ (شيء) على الله عَزَّ وجلَّ أو على صفةٍ مِن صفاتِه، لكن لا يقالُ: (الشيء) اسمٌ مِن أسمائِه تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (المقدمة/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ٢١٧).

قال البخاري: (باب ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾. وسَمَّى اللَّهُ تعالَى نفْسَه شيئًا، وسمَّى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ القرآنَ شيئًا وهو صِفةٌ مِن صِفاتِ اللهِ. وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾). (كتاب بَدْء الوحي) من ((صحيح البخاري)) (٩/ ١٥١).

١٢- خُلِقت الجَنَّةُ وما فيها، وخُلِقَت النَّارُ وما فيها؛ خلَقَهما اللهُ عَزَّ وجَلَّ وخَلَقَ الخَلْقَ لهما، ولا يَفْنَيانِ ولا يفنى فيهما ما فيهما أبدًا، فإذا احتَجَّ مُبتَدِعٌ أو زنديقٌ بقَولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ وبنَحوِ هذا مِن مُتشابهِ القُرآنِ، قيل له: كُلُّ شَيءٍ مِمَّا كَتَب اللهُ عليه الفَناءَ والهلاكَ هالِكٌ، والجنَّةُ والنَّارُ خَلَقهما اللهُ للبَقاءِ لا للفَناءِ ولا للهَلاكِ، وهما مِنَ الآخرةِ لا مِنَ الدُّنيا[١].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إثباتُ صِفةِ الوَجهِ لله عزَّ وجَلَّ، وهو ثابتٌ بالقُرآنِ والسُّنَّةِ وإجماعِ السَّلَفِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الآيةُ ابتِداءُ كَلامٍ؛ للتَّنويهِ بشأنِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَثْبيتِ فُؤادِه، ووعْدِه بحُسْنِ العاقبةِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وإنَّ إنكارَ أهلِ الضَّلالِ رسالتَه لا يَضيرُه؛ لأنَّ اللهَ أعْلَمُ بأنَّه على هدًى، وأنَّهم على ضلالٍ بعدَ أنْ قَدَّمَ لذلكَ مِن أحوالِ رِسالةِ موسى عليه السَّلامُ ما فيه عبرةٌ بالمقارنةِ بينَ حالَي الرَّسولَينِ وما لَقِياهُ مِن المُعْرِضينَ[٣].

- وافتِتاحُ الكَلامِ بحَرْفِ التأكيدِ للاهتِمامِ به، وجيءَ بالمُسنَدِ إليه اسمٌ مَوصولٌ (الَّذي) دونَ اسمِه تعالَى العلَمِ؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن الإيماءِ إلى وَجْهِ بناءِ الخبَرِ، وأنَّه خبَرُ الكَرامةِ والتَّأْييدِ، أي: إنَّ الذي أعطاكَ القُرآنَ ما كان إلَّا مُقَدِّرًا نَصْرَكَ وكرامتَكَ؛ لأنَّ إعطاءَ القرآنِ شيءٌ لا نظيرَ له؛ فهو دَليلٌ على

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩١، ١٩٢).

كَمالِ عِنايةِ اللهِ بالمُعطَى، وفيه إيماءٌ إلى تَعظيمِ شَأْنِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- قولُه: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أي: مَعادٍ ليس لغَيرِكَ مِن البَشَرِ، وتَنكيرُ المعادِ لذلكَ. وقيلَ: المرادُ به مَكَّةُ، ووجْهُه أنْ يُرادَ ردُّه إليها يومَ الفَتْحِ؛ ووجْهُ تَنكيرِه أنَّها كانتْ في ذلكَ اليومِ مَعادًا له شأنٌ، ومَرجِعًا له اعتِدادٌ؛ لغَلَبَةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليها، وقَهْرِه لأهلِها، ولِظُهورِ عزِّ الإسلامِ وأهلِه، وذُلِّ الشِّرْكِ وحِزْبِه[٢]. وقيل: والتَّنكيرُ في مَعادٍ للتعظيمِ كما يَقْتَضِيه مَقامُ الوَعْدِ والبِشارَةِ، والمَعادُ يَجوزُ أنْ يكونَ مُستعمَلًا في مَعنَى آخِرِ أحوالِ الشَّيءِ وقَرارِه الذي لا انتقالَ منه تَشبيهًا بالمكانِ العائدِ إليه، بَعْدَ أنْ صَدَر منه، أو كِنايةً عنِ الأَخارَةِ، فيَكونُ مُرادًا به الحياةُ الآخرةُ؛ فتَنكيرُ ﴿مَعَادٍ﴾ أَفَادَ أنَّه عظيمُ الشأنِ، وتَرتُّبُه على الصِّلةِ أفاد أنَّه لا يُعطَى لغيرِه مِثْلُه؛ كما أنَّ القُرآنَ لم يُفْرَضْ على أحَدٍ مثلِه، ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالمَعادِ مَعْناهُ المَشهودُ القريبُ مِن الحَقيقةِ، وهو ما يَعودُ إليه المرءُ إنْ غابَ عنه، فيُرادُ به هنا بلَدُه الذي كانَ به وهو مَكَّةُ، وهذا الوجهُ يَقتَضي أنَّه كِنايةٌ عن خُروجِه منه ثم عَودُه إليه؛ لأنَّ الرَّدَّ يَستَلْزِمُ المُفارقَةَ، وإذ قدْ كانتِ السُّورةُ مكيَّةً ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مَكَّةَ؛ فالوَعْدُ بالرَّدِّ كِنايةٌ عن الخُروجِ منْهُ قَبْلَ أن يُرَدَّ عليه[٣].

- وجُملةُ ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ بالنِّسبةِ إلى الوَجْهِ الأولِ بمَنزلةِ التَّفْريعِ على جُملةِ ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أي: رادُّكَ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٣١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٢، ١٩٣).

يومِ المعادِ؛ فمُظْهِرٌ المُهْتديَ والضَّالِّينَ؛ فيكونُ عِلْمُ اللهِ بالمُهتدي والضالِّ مُكَنًّى به عنِ اتِّضاحِ الأمرِ بلا رَيْبٍ؛ لأنَّ عِلْمَ اللهِ تعالَى لا يَعْتَرِيه تَلْبيسٌ، وتكونُ هذه الكِنايةُ تَعْريضًا بالمشركينَ أنَّهم الضالُّونَ، وأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو المُهتَدِي، ولهذه النُّكتةِ عَبَّرَ عنْ جانبِ المُهتَدِي بفِعْلِ ﴿مَن جَآءَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ المُهتَدِيَ هو الَّذي جاءَ بِهَدْيٍ لم يَكُنْ مَعروفًا مِنْ قَبْلُ؛ كما يَقْتَضِيه: جاءَ بكذا. وبالنسبةِ إلى الوَجْهِ الثاني تكونُ بمَنزلةِ المُوادَعَةِ والمُتارَكَةِ وقَطْعِ المُجادَلَةِ، فالمعنى: عُدْ عن إثباتِ هُداكَ وضَلالِهم، وكِلْهم إلى يومِ ردِّكَ إلى مَعادِك يومَ يَتَبَيَّنُ أنَّ اللهَ نَصَرَكَ وخَذَلَهم، وعلى المَعْنَيَيْنِ؛ فجملة ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ ...﴾ مُستَأْنَفَةٌ استِئنافًا بيانيًّا عن جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ جوابًا لسؤالِ سائلٍ يُثيرُه أحَدُ المَعْنَيَينِ، وفي تقديمِ جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ على جملةِ ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ إعدادٌ لصَلاحِيَةِ الجملةِ الثانيةِ للمعنيَيْنِ المذكورَينِ؛ فهذا مِن الدَّلالةِ على مَعاني الكلامِ بمَواقعِه، وتَرتيبِ نِظامِه، وتقديمِ الجملِ عنْ مَواضِعِ تأخيرِها لتَوْفيرِ المعاني[1].

- وعَبَّر عن جانبِ الضَّالِّينَ بالجُملةِ الاسميةِ ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ المُقْتَضِيَةِ ثَباتَ الضَّلالِ المُشْعِرِ بأنَّ الضَّلالَ هو أَمْرُهم القديمُ الراسخُ فيهم، مع ما أفادَه حَرْفُ الظَّرفيةِ (في) مِن انغماسِهم في الضَّلالِ وإحاطَتِه بهم، ويكونُ المَعنى حينَئذٍ على حَدِّ قولِه تعالَى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]؛ لظُهورِ أنَّ المُبَلِّغَ لهذا الكلامِ لا يُفرَضُ في حَقِّه أنْ يكونَ هو الشِّقَّ الضالَّ؛ فيَتَعَيَّنُ أنَّ الضالَّ مَن خالَفَه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٣، ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٩٣).

- قولُه: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ تقريرٌ للوعيدِ السَّابقِ، وكذا قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾[1].

- قوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ في ذلكَ مُتارَكَةٌ للكفَّارِ وتوبيخٌ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾

- جُملةُ ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ عَطْفٌ على جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ ...﴾ إلخ؛ باعتبارِ ما تضمَّنَتْه مِن الوعدِ بالثَّوابِ الجزيلِ، أو بالنَّصرِ المُبينِ، أي: كما حمَّلك تبليغَ القرآنِ؛ فكانَ ذلكَ علامةً على أنَّهُ أَعَدَّ لكَ الجزاءَ بالنَّصْرِ في الدُّنيا والآخرةِ، كذلك إِعطاؤُه إياكَ الكتابَ عن غيرِ ترقُّبٍ منكَ، بل بمَحْضِ رحمةِ ربِّك، أي: هو كذلكَ في أنَّه علامةٌ لك على أنَّ اللهَ لا يَتْرُكُ نصرَك على أعدائِكَ؛ فإنَّه ما اختارَكَ لذلكَ إلَّا لأنَّه أَعَدَّ لكَ نصرًا مُبينًا، وثوابًا جزيلًا، وهذا أيضًا مِن دَلالةِ الجُملةِ على مَعنًى غيرِ مُصَرَّحٍ به، بل على مَعنًى تعريضيٍّ بدَلالةِ مَوقعِ الجُملةِ[3].

- قولُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ الظَّهيرُ: المُعينُ، والمُظاهَرَةُ: المُعاوَنَةُ، وهي مَراتبُ؛ أعْلاها: النُّصْرَةُ، وأَدْناها: المُصانَعَةُ والتسامُحُ؛ لأنَّ في المُصانَعَةِ على المَرغوبِ إعانةً لراغبِه، فلَمَّا شَمِلَ النَّهْيُ جميعَ أكوانِ المُظاهَرَةِ لهمُ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٩٤).

اقْتَضَى النَّهْيَ عن مُصانَعَتِهم والتسامُحِ معهم، وهو يَستَلْزِمُ الأمرَ بضِدِّ المُظاهَرَةِ؛ فيكونُ كِنايةً عنِ الأمرِ بالغِلْظَةِ عليهم؛ كصَريحِ قولِه تعالَى: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ٧٣]، وهذا المَعنى يُناسِبُ كَوْنَ هذه الآياتِ آخِرَ ما نَزَلَ قَبْلَ الهِجرةِ وبعدَ مُتارَكَتِه المشركينَ ومُغادَرَتِه البَلدَ الذي يَعْمُرونَه، وقيل: النَّهْيُ للتَّهْييجِ لإثارةِ غَضَبِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليهم، وتَقْوِيَةِ داعي شِدَّتِه معهم. ووَجْهُ تأويلِ النَّهْيِ بصَرْفِه عن ظاهِرِه أو عن بَعضِ ظاهِرِه؛ هو أنَّ المَنْهِيَّ عنه لا يُفْرَضُ وُقوعُه مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى يُنْهَى عنه؛ فكان ذلك قرينةً على أنَّه مُؤَوَّلٌ. وتَوجيهُ النَّهْيِ إليه عنْ أنْ يَصُدُّوه عن آياتِ اللهِ في قولِه: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كِنايةٌ عن نَهْيِه عن أن يَتَقَبَّلَ منهم ما فيه صَدٌّ عن آياتِ اللهِ؛ كما يقولُ العربُ: لا أعْرِفَنَّك تفعلُ كذا، كَنَّوْا به عن: أنه لا يَفْعَلُه، فيَعْرِفُ المُتكلِّمُ الناهي فعلَه. والمقصودُ تَحْذيرُ المُسلمينَ مِن الرُّكونِ إلى الكافرينَ في شَيءٍ مِن شُؤونِ الإسلامِ؛ فإنَّ المشركينَ يُحاوِلونَ صَرْفَ المُسلمينَ عن سَماعِ القرآنِ؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾، وقيل: هو للتَّهْييجِ أيضًا، وتأويلُ هذا النَّهْيِ آكَدُ مِن تأويلِ قولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

- قولُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ تفريعٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[القصص: ٨٥]، وما عُطِفَ عليها وما تَخَلَّلَ بينَهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٥، ١٩٦).

ممَّا اقْتَضى جميعُه الوعدَ بنَصْرِه، وظُهورَ أَمْرِه وفَوزَه في الدُّنيا والآخِرةِ، وأنَّه جاء مِن اللهِ إلى قَومٍ هم في ضَلالٍ مُبينٍ، وأنَّ الذي رحِمَه فآتاهُ الكتابَ على غيرِ ترقُّبٍ منه لا يَجْعَلُ أمْرَه سُدًى، فأعْقَب ذلك بتَحْذيرِه مِنْ أدنَى مُظاهَرةٍ للمُشركينَ، فإنَّ فِعْلَ الكَونِ لَمَّا وَقَع في سِياقِ النَّهيِ -وكان سِياقُ النَّهْيِ مِثْلَ سِياقِ النَّفْيِ؛ لأنَّ النَّهْيَ أَخُو النَّفْيِ في سائرِ تَصاريفِ الكلامِ- كانَ وُقوعُ فِعْلِ الكَوْنِ في سِياقِه مُفيدًا تَعميمَ النَّهْيِ عنْ كلِّ كَونٍ مِن أَكْوانِ المُظاهَرَةِ للمُشركينَ[1].

- والتَّقييدُ بالبَعْديَّةِ في قَولِه: ﴿بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَ﴾ لتَعليلِ النَّهْيِ، والأمرُ في قولِه: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ مُستَعْمَلٌ في الأمرِ بالدَّوامِ على الدَّعوةِ إلى اللهِ، لا إلى إيجادِ الدعوةِ؛ لأنَّ ذلكَ حاصِلٌ، أي: لا يَصْرِفُكَ إعراضُ المشركينَ عن إعادةِ دَعْوتِهم إعذارًا لهم، ويجوزُ أنْ يكونَ الدُّعاءُ مُستَعمَلًا في الأكمَلِ مِن أنواعِه، أي: إنَّك بعدَ الخُروجِ مِن مَكَّةَ أشَدُّ تَمكُّنًا في الدعوةِ إلى اللهِ ممَّا كنتَ مِنْ قَبْلُ؛ لأنَّ تَشْغيبَ المُشركينَ عليه كان يُرنِّقُ صَفاءَ تفرُّغِه للدعوة، وجميعُ هذه النَّواهي والأوامرِ داخِلَةٌ في حَيِّزِ التَّفْريعِ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾. أمَّا قولُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ فإنْ حُمِلَتْ (مِن) فيه على مَعنى التَّبْعيضِ؛ كان النَّهْيُ مُؤَوَّلًا بمِثْلِ ما أَوَّلُوا به النَّهْيَيْنِ اللَّذينِ قَبْلَهُ أنه للتَّهْييجِ، أو أنَّ المقصودَ به المُسلمونَ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ هذا النَّهْيُ مُوَجَّهٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٩٦).

في الظاهرِ، والمَقصودُ به إبطالُ الشِّرْكِ وإظهارُ ضَلالِ أهلِه؛ إذْ يَزْعُمون أنهم مُعترِفونَ بإلهيَّةِ اللهِ تعالَى، وأنَّهم إنما اتَّخَذوا له شُركاءَ وشُفعاءَ؛ فبَيَّنَ لهم أنَّ اللهَ لا إلَهَ غيرُه، وأنَّ انفرادَه بالإلهيَّة في نفْسِ الأمرِ يَقضي ببُطلانِ الإشْراكِ في الاعتقادِ ولو أَضْعَفَ إشراكٍ؛ فجُملةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في مَعنى العِلَّةِ للنَّهْي الذي في الجُملةِ قَبْلَها[1].

- وجملةُ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ علَّةٌ ثانيةٌ للنَّهْي؛ لأنَّ هَلاكَ الأشياءِ التي منها الأصنامُ وكلُّ ما عُبِدَ مع اللهِ وأُشْرِكَ به، دَليلٌ على انتفاءِ الإلهيَّةِ عنها؛ لأنَّ الإلهيَّةَ تُنافي الهلاكَ، وهو العدَمُ[2].

- وجملةُ ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تَذْييلٌ؛ فلذلكَ كانتْ مَفْصُولةً عمَّا قبْلَها، أي: لم تُعطَفْ عليها. وتقديمُ المجرورِ باللَّامِ ﴿لَهُ﴾ لإفادةِ الحَصرِ، والمَحْصورُ فيه هو الحُكمُ الأتَمُّ، أي: الذي لا يَرُدُّه رادٌّ[3].

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ بـ (إلى) للاهتِمامِ بالخبَرِ؛ لأنَّ المشركينَ نَفوا الرُّجوعَ مِن أصلِه، ولم يَقولوا بالشَّرِكةِ في ذلكَ حتَّى يكونَ التَّقديمُ للتَّخْصيصِ[4].

- والمَقصودُ مِن تَعدُّدِ هذه الجُملةِ إثباتُ أنَّ اللهَ مُنفَرِدٌ بالإلهيَّةِ في ذاتِه، وهو مدَلْولُ جُملةِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وذلك أيضًا يدُلُّ على صِفةِ الأوليَّةِ، وأنَّه الأوَّلُ الَّذي ليس قبْلَه شَيءٌ؛ لأنه لَمَّا انْتَفَى جِنْسُ الإلهيَّةِ عن غيرِه تعالَى؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَعَيَّن أنَّه لم يُوجِدْه غيرُه؛ فثَبَت أنَّ الله تعالى قبْلَ كلِّ شَيءٍ، وأنَّه باقٍ لا يَعْتَرِيهِ العدَمُ، وذلك مَدْلولُ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، وأنَّه تعالَى مُنفَرِدٌ في أفعالِه بالتصرُّفِ المُطلَق الذي لا يَرُدُّه غيرُه، فيَتَضَمَّنُ ذلك إثباتَ الإرادةِ والقدرةِ. وفي كلِّ هذا رَدٌّ على المشركينَ الَّذين جَوَّزُوا شَرِكَتَهُ في الإلهيَّةِ، وأَشْرَكوا معه آلهتَهم في التصرُّفِ بالشفاعةِ والغَوْثِ، ثمَّ أَبْطَلَ إنكارَهمُ البعثَ بقولِه: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٧).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ العَنكَبوتِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ العَنكَبوتِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (العَنكَبوتِ)[١].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ العَنكبوتِ مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ سُورةِ العَنكَبوتِ:

ذِكرُ الابتلاءِ والامتحانِ، وبيانُ حالِ أهلِ البلوَى في الدُّنيا والآخِرةِ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرَزِ مَوضوعاتِ سُورةِ العَنكبوتِ:

١- بيانُ حَقيقةِ الإيمانِ، وسُنَّةِ الابتلاءِ والفِتنةِ، ومَصيرِ المؤمِنينَ والمُنافِقينَ والكافِرين، والوصيَّةُ بالوالِدَينِ، وبيانُ حالِ المُنافِقينَ، وبيانُ فِتنةِ الإغواءِ والإغراءِ مِنَ الَّذين كفَروا.

٢- بيانُ طَرَفٍ مِن أخبارِ الرُّسُلِ مع أقوامِهم، ومنها قِصَّةُ نُوحٍ، وإبراهيمَ،

---

(١) سُمِّيت سورةَ العنكبوتِ؛ لتكَرُّرِ ذِكْرِها فيه. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٩). وقد ورَدت في تسميتِها بذلك بعضُ الآثارِ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٤٤٩).

(٢) وقيل: السُّورةُ مكِّيَّةٌ إلَّا الآياتِ (١-١١) فمدَنيَّةٌ. وقيل: إنَّها مدَنيَّةٌ إلَّا الآياتِ مِن (١-١٠) فنزلتْ بمكَّةَ. وقيل: مدنيَّةٌ كُلُّها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٨).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الفيروزابادي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٤٧).

ولُوطٍ، وشُعَيبٍ، وهُودٍ، وصالحٍ، وموسى عليهم صلَواتُ الله وسلامُه، ثمَّ اختِتامُ هذه القصصِ ببيانِ العاقبةِ السَّيِّئةِ الَّتي لَحِقَتِ المكذِّبينَ مِن أقوامِ هؤلاء الرُّسلِ.

٣- ضرْبُ المثَلِ لحالِ الكفَّارِ بالعَنكبوتِ الَّتي اتخذَتْ بيتًا هو أَوْهَنُ البُيوتِ.

٤- توجيهُ الأمرِ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَتلوَ الكِتابَ، وأن يُقيمَ الصَّلاةَ.

٥- النَّهيُ عن مُجادَلةِ أهلِ الكتابِ إلَّا بالحُسنى إلَّا الَّذين ظَلَموا منهم، وإرشادُ المؤمنينَ إلى ما يَقولون لهم.

٦- إقامةُ بعضِ الأدِلَّةِ على أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ الله.

٧- بيانُ بعضِ ما عليه المشركونَ مِن تناقُضاتٍ، فهُم يَعترِفون أنَّ الله خالقُ السَّمواتِ والأرضِ، ومع ذلك يُشرِكون! وإذا كانوا في السُّفُنِ، وأحاطتْ بهم الأمواجُ أخلَصوا الدُّعاءَ لله، ثمَّ إذا نجَّاهم إلى البَرِّ أشركوا!

٨- وعْدُ المؤمنينَ الَّذين جاهَدوا في الله بالهدايةِ، وحُسنِ العاقبةِ.

الآيات (١-٧)

﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٤ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُفۡتَنُونَ﴾: أي: يُختَبَرونَ، ويُمتَحنونَ، والفِتْنةُ مأخوذةٌ مِنَ الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه(١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾

قولُه تعالى: ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾: مَصدَرٌ مُؤَوَّلٌ سَدَّ مَسَدَّ مَفعولَي (حَسِبَ). و﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ مَنصوبٌ على نزعِ الخافِضِ، وهو الباءُ، أو اللَّامُ، أي: بأن يَقولوا، أو لِأن يقولوا. وقيل: بدَلٌ مِنْ ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾(٢).

المعنى الإجماليُّ:

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بالحروفِ المقَطَّعةِ؛ لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ إذ تُبرِزُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بالإتيانِ بشَيءٍ مِن مِثلِه، مع أنَّه مُرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٣، ٦٢٤).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥٩)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٢٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥).

العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثون بها!

ثمَّ قال تعالى: أحَسِبَ النَّاسُ إذا آمَنوا أنَّهم يُترَكُونَ مِن غيرِ أن يُمتحَنوا؟! ولقد اختبَرْنا الَّذين مِن قَبْلِهم وابتَلَيْناهم، فلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الصَّادقينَ في إيمانِهم مع البلاءِ، ولَيَعلَمَنَّ الكاذبينَ في دَعْوى الإيمانِ عِلمَ مُشاهَدةٍ يَترتَّبُ عليه جزاؤُهم، بل أَظَنَّ الَّذين يَرتَكِبونَ السَّيِّئاتِ أنَّهم يُعجِزونَنا ويُفلِتونَ مِنَّا فلا نُعَذِّبُهم؟! فما أسْوأَه مِن ظَنٍّ، وما أفسَدَه مِن اعتقادٍ!

ثمَّ ذكَر الله تعالى ما يُشعِرُ المؤمنينَ بالطُّمأنينةِ، ويُدخِلُ عليهم السُّرورَ، فقال: مَن كان يَطمَعُ في لقاءِ اللهِ يومَ القيامةِ فإنَّ القيامةَ واقِعةٌ لا مَحالةَ، واللهُ وَحْدَه هو السَّميعُ العَليمُ، ومَن جاهَدَ نفْسَه على فِعلِ ما أمَرَه اللهُ وترْكِ ما نهاه عنه، فإنَّما نَفْعُ ذلك لنَفْسِه في الدُّنيا والآخرةِ؛ إنَّ اللهَ غنيٌّ عن جميعِ خَلْقِه. والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ لَنُكَفِّرنَّ عنهم سيِّئاتِهم، ولا نؤاخِذُهم بها، ولَنُثيبَنَّهم بأحسَنِ ما كانوا يَعمَلونَه مِنَ الطَّاعاتِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓمٓ ١﴾.

هذه الحروفُ المقَطَّعةُ الَّتي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مُرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[1].

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

أي: أظَنَّ النَّاسُ أنَّهم يَسْلَمونَ مِن الفِتنةِ إذا آمَنوا فيُترَكُونَ مِن غَيرِ أن يُمتحَنوا[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بَلاءً؟ قال: الأنبياءُ، ثمَّ الأمثَلُ فالأمثَلُ، فيُبتلَى الرَّجُلُ على حَسَبِ دِينِه؛ فإنْ كان دينُه صُلْبًا اشتَدَّ بَلاؤُه، وإنْ كان في دينِه رِقَّةٌ ابتُلِيَ على حَسَبِ دينِه، فما يَبرَحُ البلاءُ بالعبدِ حتَّى يَترُكَه يمشي على الأرضِ ما عليه خَطيئةٌ))[٢].

وعن حُذَيْفةَ رَضيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((تُعرَضُ الفِتَنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٨٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٣)، ((اختيار الأولى)) لابن رجب (ص: ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) واللَّفظُ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٤٨١)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد (١٤٩٤).

قال الترمذيُّ: (حسَنٌ صحيحٌ)، وكذا قال الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٣٩٨)، وذكر ثبوتَه ابنُ القيِّم في ((طريق الهجرتين)) (١٩٣)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/ ٥٢).

على القُلوبِ كالحَصيرِ عُودًا عُودًا[١]، فأيُّ قلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ[٢] فيه نُكتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قَلبٍ أنكَرَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بَيضاءُ، حتَّى تَصيرَ على قَلبينِ: على أبيضَ مِثلِ الصَّفا[٣]، فلا تَضُرُّه فِتنةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا[٤]، كالكُوزِ مُجَخِّيًا[٥]، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلَّا ما أُشرِبَ مِن هَواهُ))[٦].

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: ولقد اختبَرْنا الماضِينَ مِن قَبلِ هذه الأُمَّةِ وابتَلَيْناهم[٧].

عن خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((شَكَوْنا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو مُتوَسِّدٌ بُرْدةً[٨] له في ظِلِّ الكَعبةِ، قُلْنا له: ألَا تَستَنصِرُ لنا؟ ألَا تدعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه فيُشَقُّ باثنَتَينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دِينِه،

(١) أي: تَظهَرُ بها فِتنةٌ بعدَ أخرى، كما يُنسَجُ الحَصيرُ عُودًا عُودًا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٨/ ٣٣٧٨).

(٢) نُكِتَ: أي: نُقِطَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).

(٣) الصَّفا: أي: الحَجَرِ الأملَسِ الَّذي لا يَعلَقُ به شَيءٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).

(٤) مِرْبادًّا: أي: صار كلَونِ الرَّمادِ، مِنَ الرُّبْدةِ: لَونٌ بيْنَ السَّوادِ والغُبْرةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٨/ ٣٣٧٨).

(٥) مُجَخِّيًا: أي: مائِلًا مَنكوسًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٣).

(٦) رواه مسلم (١٤٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٤).

(٨) أي: كِساءً مُخَطَّطًا، والمعنى: جاعِلٌ البُرْدةَ وِسادةً له، مِن تَوسَّدَ الشَّيءَ: جعَلَه تحتَ رأسِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٤٧).

ويُمْشَطُ بأمْشاطِ الحديدِ ما دُونَ لَحمِه مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ لا يَخافُ إلَّا اللهَ أو الذِّئبَ على غَنَمِه، ولَكِنَّكم تَستَعجِلونَ))[1].

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

أي: فلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الصَّادِقينَ في إيمانِهم الثَّابِتينَ عليه مع البلاءِ، ولَيَعْلَمَنَّ الكاذِبينَ في دَعْوى الإيمانِ، عِلمَ رؤيةٍ ومُشاهَدةٍ يَترتَّبُ عليه الجزاءُ، ويُظهِرُه لعِبادِه، وقد كان عَلِمَه في الأزَلِ[2].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤، ١٥).

قال ابن جُزَي: (﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أي: يعلمُ صدقَهم علمًا ظاهرًا في الوجودِ، وقد كان علِمه في الأزلِ، والصِّدقُ والكذِبُ في الآيةِ يعني بهما: صِحَّةَ الإيمانِ والثُّبوتَ عليه، أو ضِدَّ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٢).

وقال البخاري في ((صحيحه)) (٦/ ١١٣): (﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾: عَلِمَ اللهُ ذلك، إنَّما هي بمنزلةِ: فلِيَميزَ اللهُ؛ كقولِه: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١١٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أُعْقِب تَثْبيتُ المؤمِنينَ على ما يُصيبُهم مِن فُتونِ المشركينَ وما في ذلك مِنَ الوعدِ والوعيدِ، بزَجْرِ المشركينَ على ما يَعملونَه مِنَ السَّيِّئاتِ في جانبِ المؤمنينَ، وأعظَمُ تلك السَّيِّئاتِ فُتونُهم المسلمينَ[١].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾.

أي: بل[٢] أظَنَّ الَّذين يَرتَكِبونَ السَّيِّئاتِ[٣] أنَّهم يُعجِزونَنا ويُفلِتونَ مِنَّا، فلا نُعَذِّبُهم[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦).

(٢) قال السمينُ الحلبيُّ: (﴿أَمْ﴾ هذه مُنقطِعةٌ، فتُقدَّرُ بـ «بل» والهمزةِ عندَ الجمهورِ، والإضرابُ انتِقالٌ لا إبطالٌ). ((الدر المصون)) (٩/ ٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨).

وقيل: ﴿أَمْ﴾ مُعادلةٌ للألفِ في قولِه: ﴿أَحَسِبَ﴾ [العنكبوت: ٢]. وممَّن اختاره: ابنُ عطية، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣٠).

(٣) قيل: المرادُ بالسَّيِّئاتِ هنا: الكُفرُ والشِّركُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٠).

وقيل: السَّيِّئاتُ هنا: فِتنةُ المؤمِنينَ وتَعذيبُهم والتَّنكيلُ بهم؛ فالَّذين يَعملونَ السَّيِّئاتِ هم الفاتِنونَ للمُؤمِنينَ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦).

وقال ابنُ عطيَّة: (لفظُ الآيةِ يَعُمُّ كلَّ عاصٍ وعاملِ سَيِّئةٍ مِن المسلمينَ وغيرِهم... ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الكفرُ وما اشتمَلَ عليه، ويَدخُلُ في ذلك المعاصي مِن المؤمنينَ مع الأعمالِ الصَّالحاتِ واجتنابِ الكبائرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٦، ٣٠٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا * وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧، ٥٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

أي: بِئسَ ما يَظُنُّه المُشرِكونَ مِن أنَّهم يُعجِزونَ اللهَ ويُفلِتونَ منه، فلا يُؤاخِذُهم بسَيِّئاتِهم الَّتي عَمِلوها، وهو القاهِرُ القادِرُ على كُلِّ شَيءٍ، فما أسْوَأَه مِن ظَنٍّ، وما أفسَدَه مِن اعتقادٍ[1]!

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾.

أي: مَن كان يَطمَعُ في لِقاءِ اللهِ يومَ القيامةِ، فإنَّ القيامةَ واقِعةٌ قَريبًا لا مَحالةَ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨، ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٤٦٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو السَّميعُ لجَميعِ الأصواتِ، العَليمُ بكُلِّ الكائناتِ؛ فهو السَّميعُ لِقَولِ مَن قال: آمَنَّا بالله، العليمُ بصِدقِ أو كَذِبِ دَعواهم، ويَعلَمُ مَن كان صادِقًا في رَجاءِ لِقائِه، فيُثيبُه ويَمنَحُه ما يَرجوه[١].

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَثَّ اللهُ تعالى على العَمَلِ؛ بيَّن أنَّه ليس إلَّا لِنَفعِ العامِلِ[٢]، فقال:

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾.

أي: ومَن بَذَلَ جُهدَه في حَمْلِ نفْسِه على فِعْلِ ما أمَرَه اللهُ، وتَرْكِ ما نهاه عنه؛ وتحمَّلَ المَشاقَّ في سَبيلِ اللهِ، وقِتالِ أعدائِه، ومُجاهَدةِ شَيطانِه- فإنَّما نَفْعُ ذلك وثَوابُه لِنَفْسِه في الدُّنيا والآخِرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٦).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ۞ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٤٤، ٤٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غَنيٌّ عن جَميعِ خَلْقِه، فلا تَنفَعُه أعمالُهم وعِبادتُهم، كما لا تَضُرُّه مَعصيتُهم[(١)].

عن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روَى عن اللهِ تبارَكَ وتعالى أنَّه قال: ((... يا عِبادي إنَّكم لن تَبلُغوا ضَرِّي فتَضُرُّوني، ولن تَبلُغوا نَفعي فتَنفَعوني، يا عِبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أتقَى قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شَيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجَرِ قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ، ما نقَص ذلك مِن مُلكي شَيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسألتَه، ما نقَصَ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يَنقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البَحرَ))[(٢)].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى إجمالًا أنَّ مَن يَعملُ صالحًا فلِنَفْسِه؛ بيَّن مفصِّلًا بعضَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦١)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٩٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦٧))، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٣).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

التَّفصيلِ جزاءَ المطيعِ، الصَّالحِ عمَلُه؛ فقال[١]:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وثَبَتوا على إيمانِهم عندَ البَلاءِ، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ لَنُبطِلَنَّ سَيِّئاتِهم، ولَنعفُونَّ عن مؤاخَذتِهم بها[٢].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ولَنُثيبَنَّ أولئك المؤمِنينَ الَّذين يَعمَلونَ الصَّالِحاتِ بأحسَنِ ما كانوا يَعمَلونَه مِن الطَّاعاتِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٨٣٠).

قال الزمخشري: (إمَّا أن يريدَ قَومًا مُسلِمينَ صالحينَ قد أساؤوا في بعضِ أعمالِهم، وسيِّئاتُهم مَغمورةٌ بحَسَناتِهم، فهو يُكَفِّرُها عنهم، أي: يُسقِطُ عِقابَها بثوابِ الحسَناتِ... وإمَّا قومًا مُشرِكينَ آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، فاللهُ عزَّ وجَلَّ يُكفِّرُ سيِّئاتِهم بأن يُسقِطَ عِقابَ ما تقدَّمَ لهم مِنَ الكُفرِ والمعاصي). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- لا بُدَّ أنْ يُبتلَى المرءُ في أمرِ اللهِ ونَهْيِه؛ تارةً يَترُكُ ما يَهوى، وتارةً يَفعَلُ ما يَكرهُ، كما يُبتلَى في الحوادِثِ المقدَّرةِ بمِثلِ ذلك، وقد قال سُبحانَه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[1].

٢- إنَّ المؤمنَ لا بدَّ أن يُفتنَ بشَيءٍ مِن الفِتَنِ المؤلِمةِ الشَّاقَّةِ عليه؛ ليُمتحَنَ إيمانُه، كما قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا

= ممَّن اختار أنَّ قولَه تعالى: ﴿أَحۡسَنَ﴾: يعودُ إلى العمَلِ، أي: نُجازيهم بأحسَنِ أعمالِهم، الَّتي هي الطَّاعاتُ: الواحديُّ، والقرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٣٥).

قال السعدي: (﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وهي أعمالُ الخَيرِ؛ مِن واجباتٍ ومستحَبَّاتٍ، فهي أحسَنُ ما يعملُ العبدُ؛ لأنَّه يعملُ المباحاتِ أيضًا وغيرَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦).

وقيل: ﴿أَحۡسَنَ﴾ يعودُ إلى الجزاءِ، أي: يجازيهم اللهُ أحسَنَ جزاءٍ على ما عَمِلوه. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٢).

قال ابن عثيمين: (وأحسَنُ جزاءٍ بيَّنه الله تعالى في قولِه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، فهذا الجزاءُ أحسَنُ جزاءٍ؛ لأنَّ الجزاءَ غايتُه أن يكونَ مِثلَما فعَلَ الفاعلُ، لكن هنا يُجازَى بأحسَنَ وأعظَمَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٠).

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٠٤).

يُفۡتَنُونَ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾، ولكن الله يَلطُفُ بعبادِه المؤمنينَ في هذه الفِتَنِ، ويُصَبِّرُهم عليها، ويُثَبِّتُهم فيها، ولا يُلقيهم في فتنةٍ مُهلِكةٍ مُضِلَّةٍ تَذهَبُ بدينِهم، بل تَمُرُّ عليهم الفِتَنُ وهم منها في عافيةٍ[1].

٣- الفِتنةُ كِيرُ القُلوبِ، ومَحَكُّ الإيمانِ، وبها يتبيَّنُ الصَّادِقُ مِنَ الكاذِبِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾، فالفِتنةُ قَسَّمت النَّاسَ إلى صادقٍ وكاذبٍ، ومؤمنٍ ومنافقٍ، وطَيِّبٍ وخبيثٍ؛ فمَن صبَرَ عليها كانت رحمةً في حَقِّه، ونجا بصبرِه مِن فِتنةٍ أعظَمَ منها، ومَن لم يصبِرْ عليها وقعَ في فتنةٍ أشَدَّ منها؛ فالفِتنةُ لا بُدَّ منها في الدُّنيا والآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ۞ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤]، فالنَّارُ فِتنةُ مَن لم يصبِرْ على فِتنةِ الدُّنيا، ومَن صبَر كانت الفِتنةُ مُمَحِّصةً له، ومُخَلِّصةً مِنَ الذُّنوبِ، كما يُخلِّصُ الكِيرُ خَبَثَ الذَّهبِ والفِضَّةِ[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ فيه أنَّ هذه سُنَّةٌ قَديمةٌ جاريةٌ في الأُمَمِ كُلِّها؛ فلا ينبغي أن يُتوَقَّعَ خِلافُها[3].

٥- قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾، وقال أيضًا: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ

---

(١) يُنظر: ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٨).

وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ﴾ [التوبة: ١٦]. في هذه الآياتِ سِرٌّ لطيفٌ، وعِبرةٌ وحكمةٌ، وذلك أنَّ أبانا آدَمَ كان في الجنَّةِ يأكُلُ منها رَغَدًا حيثُ شاءَ في أتَمِّ نعمةٍ، وأكمَلِ سُرورٍ، وأرْغَدِ عَيشٍ، ولو تَناسَلْنا فيها لَكُنَّا في أرغَدِ عَيشٍ وأتمِّ نعمةٍ، ولكنَّ إبليسَ عليه لعائنُ اللهِ احتالَ بمَكْرِه وخِداعِه على أبَوَيْنا حتَّى أخرَجَهما مِنَ الجنَّةِ إلى دارِ الشَّقاءِ والتَّعبِ، وحينَئذٍ حكَم اللهُ تعالَى أنَّ جنَّتَه لا يَدخُلُها أحدٌ إلَّا بعدَ الابتلاءِ بالشَّدائدِ وصعوبةِ التَّكاليفِ؛ فعلى العاقلِ مِنَّا معاشِرَ بني آدمَ أنْ يَتصَوَّرَ الواقعَ، ويَعلَمَ أنَّنا في الحقيقةِ سَبْيٌ سَباه إبليسُ بمكرِه وخِداعِه مِنْ وطنِه الكريمِ إلى دارِ الشَّقاءِ والبلاءِ، فيُجاهِدَ عدوَّه إبليسَ ونفْسَه الأمَّارةَ بالسُّوءِ حتَّى يَرجِعَ إلى الوطنِ الأوَّلِ الكريمِ؛ ولهذه الحكمةِ أكثرَ اللهُ تعالَى في كتابِه مِن ذِكرِ قِصَّةِ إبليسَ مع آدمَ لِتكونَ نُصْبَ أعيُنِنا دائمًا[1].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ هذه الآيةُ وإن كانت واردةً في شأنِ المُشرِكينَ المُؤْذِينَ للمُؤمِنينَ -على أحدِ الأقوالِ-؛ فهي تُشيرُ إلى تحذيرِ المُسلِمينَ مِن مُشابهتِهم في اقترافِ السَّيِّئاتِ، استِخفافًا بوعيدِ اللهِ عليها؛ لأنَّهم في ذلك يأخُذونَ بشَيءٍ مِن مُشابهةِ حِسْبانِ الانفِلاتِ، وإن كان المؤمِنُ لا يَظُنُّ ذلك، ولكِنَّه يُنَزَّلُ مَنزِلةَ مَن يَظُنُّه؛ لإعراضِه عن الوعيدِ حين يَقتَرِفُ السَّيِّئةَ[2].

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٧).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ * وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يُوجِبُ إكثارَ العبدِ من العَمَلِ الصَّالحِ، وإتقانَه له؛ وذلك لأنَّ مَن يَفعلُ فِعلًا لأجْلِ مَلِكٍ، ويَعلَمُ أنَّ المَلِكَ يَراه ويُبصِرُه؛ يُحسِنُ العملَ ويُتقِنُه، وإذا عَلِمَ أنَّ نَفْعَه له، ومُقَدَّرٌ بقَدْرِ عَمَلِه؛ يُكثِرُ منه، فإذا قال اللهُ: (إنَّه سميعٌ عَليمٌ)، فالعَبدُ يُتقِنُ عَمَلَه ويُخلِصُه له، وإذا قال بأنَّ جِهادَه لِنَفْسِه، يُكثِرُ منه[1].

٨- مَن آمَنَ بالرُّسُلِ وأطاعَهم عاداه أعداؤُهم وآذَوْهُ، فابتُلِيَ بما يؤْلِمُه، وإنْ لم يؤْمِنْ بهم ولم يُطِعْهم عُوقِبَ في الدُّنيا والآخرةِ، فحصَلَ له ما يؤْلِمُه، وكان هذا المؤْلِمُ له أعظَمَ ألَمًا وأَدْوَمَ مِن ألَمِ اتِّباعِهم؛ فلا بُدَّ مِن حصولِ الألمِ لكلِّ نفْسٍ آمنَتْ أو رَغِبَتْ عن الإيمانِ، لكنَّ المؤْمِنَ يَحصُلُ له الألمُ في الدُّنيا ابتداءً، ثمَّ تَكونُ له العاقبةُ في الدُّنيا والآخرةِ، والمُعْرِضَ عن الإيمانِ تَحصُلُ له اللَّذَّةُ ابتِداءً، ثمَّ يَصيرُ إلى الألمِ الدَّائمِ.

ولَمَّا كان الألمُ لا مَحِيصَ منه الْبَتَّةَ، عَزَّى اللهُ سبحانَه مَنِ اختار الألمَ اليسيرَ المُنقطِعَ على الألمِ العظيمِ المُستمِرِّ، بقولِه: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، فضرَبَ لمُدَّةِ هذا الألمِ أجَلًا لا بُدَّ أنْ يأتيَ، وهو يومُ لقائِه، فيَلْتَذَّ العبدُ أعظَمَ اللَّذَّةِ بما تحَمَّلَ مِنَ الألمِ مِنْ أجْلِه وفي مَرْضاتِه، وتَكونُ لَذَّتُه وسُرورُه وابتِهاجُه بقَدْرِ ما تحمَّلَ مِنَ الألمِ في اللهِ وللهِ[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ مَن لم يُجاهِدْ فإنَّ ضَرَرَه على نفْسِه؛ لأنَّه إذا كانت منفعةُ الجهادِ له؛ فمَضَرَّةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٣-١٥).

تَركِه عليه[١].

١٠- قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ قيل: هذا تَعزيةٌ للمُشتاقينَ وتَسليةٌ لهم، أي: أنا أعلَمُ أنَّ مَن كان يرجو لقائي فهو مُشتاقٌ إلَيَّ؛ فقد أجَّلْتُ له أجَلًا يكونُ عن قَريبٍ، فإنَّه آتٍ لا مَحالةَ، وكُلُّ آتٍ قريبٌ، وفيه لطيفةٌ أخرى: وهي تعليلُ المُشتاقينَ برَجاءِ اللِّقاءِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ هذه الحروفُ الهجائيَّةُ ليس لها معنًى، وابتداءُ السُّورةِ بهذه الحروفِ المقطَّعةِ له مَغزًى؛ وهو الإشارةُ إلى أنَّ هذا القرآنَ الكريمَ -الَّذي أعجَزَكم مَعْشَرَ العربِ، وأعجَزَ غيرَكم- لَمْ يأتِ بحروفٍ جديدةٍ لا تَعرِفونها، وإنَّما أتَى بحروفٍ تَعرِفونها، وتُرَكِّبُون منها كلامَكم، ومع ذلك أعجَزَكم! ولهذا لا تَكادُ تَجِدُ سورةً مَبدوءةً بهذه الحروفِ الهجائيَّةِ إلَّا وجدْتَ بعدَها ذِكْرَ القرآنِ أو ما هو مِن خصائصِ القرآنِ، انظرْ قولَه سبحانه وتعالى: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقوله: ﴿الٓمٓ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۞ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١ - ٣]، وهكذا. وأمَّا قولُه تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ فليس فيه ذِكْرُ القرآنِ، لكنْ فيها ذِكْرُ ما هو مِن لازِمِ القرآنِ، وهو قولُه: ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾؛ فإنَّ مَن آمَنَ بالقرآنِ لا بُدَّ أنْ يُفْتَنَ[٣].

٢- لفظُ الفِتنةِ في كتابِ الله تعالى يُرادُ بها الامتحانُ الَّذي لم يَفتَتِنْ صاحبُه، بل خلَص مِن الافتِتانِ، ويُرادُ بها الامتِحانُ الَّذي حصَل معه افتِتانٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠).

فمِنَ الأوَّلِ: قولُه تعالى لموسى عليه السَّلامُ: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠].

ومِنَ الثَّاني: قولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال:٣٩]، وقولُه: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: ٤٩].

ويُطلَقُ على ما يَتناوَلُ الأمْرَينِ؛ كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[(١)].

٣- ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ المُسيءِ مُجمَلًا بقولِه: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَا﴾ إشارةً إلى التَّعذيبِ مُجمَلًا، وذكر حالَ المُحسِنِ مُجمَلًا بقولِه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾، ومُفَصَّلًا بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ ليكونَ ذلك إشارةً إلى أنَّ رحمتَه أتَمُّ مِن غَضَبِه، وفَضْلَه أعَمُّ مِن عَدلِه[(٢)].

٤- قال الله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ هذا إبطالٌ لمذهَبِ مَن يقولُ: (التَّكاليفُ إرشاداتٌ، والإيعادُ عليه ترغيبٌ وترهيبٌ، ولا يُوجَدُ مِنَ الله تعذيبٌ، ولو كان يُعَذِّبُ ما كان عاجزًا عن العذابِ عاجلًا، فلمَ كان يؤخِّرُ العقابَ؟!)، فقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَا﴾، يعني: ليس كما قالوا، بل يُعَذِّبُ مَن يُعَذِّبُ، ويُثيبُ مَن يثيبُ بحُكمِ الوعدِ والإيعادِ، واللهُ لا يُخلِفُ الميعادَ، وأمَّا الإمهالُ فلا يُفضي إلى الإهمالِ، والتَّعجيلُ في جزاءِ الأعمالِ شُغلُ مَن يخافُ الفَوتَ لولا الاستِعجالُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٧).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ فيه سؤالٌ: كيف وقَعَ ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ جوابًا للشَّرطِ؟

الجوابُ: أنَّه إذا كان وقتُ اللِّقاءِ آتيًا كان اللِّقاءُ آتيًا لا محالةَ، كما تقولُ: (من كان يرجو لِقاءَ المَلِك، فإنَّ يومَ الجُمُعةِ قَريبٌ)، إذا عُلِمَ أنَّه يَقعُدُ للنَّاسِ يومَ الجُمُعةِ[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ فيه سؤالٌ: قَولُه ﴿فَإِنَّمَا﴾ يقتضي الحَصرَ، فينبغي أن يكونَ جِهادُ المرءِ لِنَفْسِه فحَسْبُ، ولا يَنتفِعُ به غيرُه، وليس كذلك؛ فإنَّ مَن جاهَدَ يَنتفِعُ به ومَن يريدُ هو نَفعَه، حتَّى إنَّ الوالِدَ والولَدَ ببَرَكةِ المجاهِدِ وجِهادِه ينتَفِعانِ؟

الجوابُ: ذلك نَفعٌ له؛ فإنَّ انتِفاعَ الولَدِ انتِفاعٌ للأبِ، والحَصرُ هاهنا معناه أنَّ جِهادَه لا يَصِلُ إلى الله منه نَفعٌ، ويدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٢].

٧- قَولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ قال بعضُ العارِفينَ: (لَمَّا عَلِمَ اللهُ شَوقَ المحبِّينَ إلى لقائِه، ضرَبَ لهم مَوعِدًا لِلِقاءٍ تَسكُنُ به قلوبُهم)[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ يُشيرُ إلى أنَّ الإنسانَ -وإن اجتهَدَ- لا بُدَّ مِن أن يَزِلَّ عن الطَّاعةِ؛ لأنَّه مَجبولٌ على النَّقصِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢٥).

- الاستفهامُ في ﴿أَحَسِبَ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ، أي: إنكارِ حِسْبانِ ذلك[١].

- قولُه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا ...﴾ المُرادُ بالنَّاسِ كلُّ الَّذين آمَنوا، فالقولُ كِنايةٌ عن حُصولِ المَقولِ في نفْسِ الأمْرِ، أي: أحسِبَ النَّاسُ وُقوعَ تَركِهم لأنْ يَقولوا: آمَنَّا[٢]!

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ انتِقالٌ إلى التَّنويهِ بالفُتونِ لأجْلِ الإيمانِ باللهِ بأنَّه سُنَّةُ اللهِ في سالِفِ أهلِ الإيمانِ. وتأْكيدُ الجُملةِ بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (لَقَدْ)؛ لتَنزيلِ المُؤمنينَ حينَ استَعظَموا ما نالَهم مِنَ الفِتنةِ مِن المُشركين، واستَبْطَؤوا النَّصرَ على الظَّالمين، وذُهولِهم عن سُنَّةِ الكَونِ في تلك الحالةِ: مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ مَن يُخالِفُ الدَّهْماءَ في ضَلالِهم، ويَتجافَى عن أخلاقِهم ورَذالتِهم لا بُدَّ أنْ تَلحَقَه منهم فِتنةٌ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ...﴾ مَوصولٌ بـ ﴿أَحَسِبَ﴾ أو بـ ﴿لَا يُفۡتَنُونَ﴾؛ فإذا اتَّصَل بـ ﴿لَا يُفۡتَنُونَ﴾ دخَلَ في حيِّزِ مُتعلَّقِ الحِسْبانِ المُنكَرِ، أي: أحَسِبوا ألَّا يَكونوا كغيرِهم، وليس لهم أُسوةٌ بالأُمَمِ السَّالِفةِ؟! فيكونُ حالًا مِن فاعلِ ﴿لَا يُفۡتَنُونَ﴾، وإذا اتَّصَل بـ ﴿أَحَسِبَ﴾ كان حالًا مُقرِّرةً لِجَهةِ الإنكارِ، أي: أحصَلَ الحِسْبانُ والحالةُ هذه؟! وفي هذا تَنبيهٌ على الخطأِ، وفي الأوَّلِ تَخطئةٌ[٤].

- قولُه: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ فيه الْتِفاتٌ إلى الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٣٣).

حيث عدَلَ عن طَريقِ التَّكلُّم إلى طريقِ الغَيبةِ بإظهارِ اسمِ الجَلالةِ على أُسلوبِ الالتِفاتِ؛ لِمَا في هذا الإظهارِ مِن الجَلالةِ، ولإدخالِ الرَّوعةِ، وتربيةِ المَهابةِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ الجزاءَ على ذلك جزاءُ مالِكِ المُلْكِ[١].

- وتكريرُ الجوابِ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾؛ لزيادةِ التَّأكيدِ والتَّقريرِ[٢].

- وتعريفُ المُتَّصفينَ بصِدقِ الإيمانِ بالموصولِ والصِّلةِ الماضَويَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾؛ لإفادةِ أنَّهم اشتَهَروا بحَدَثانِ صِدقِ الإيمانِ، وأنَّ صِدْقَهم مُحقَّقٌ. وأمَّا تعريفُ المتَّصفينَ بالكذِبِ بطريقِ التَّعريفِ باللَّامِ وبصِيغةِ اسمِ الفاعلِ ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؛ فلإفادةِ أنَّهم عُهِدوا بهذا الوصفِ وتميَّزوا به، مع ما في ذلك مِنَ التَّفنُّنِ والرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٣].

وقيل: إنَّ وَقتَ نُزولِ الآيةِ كانت الحِكايةُ عن قَومٍ قَريبي العَهدِ بالإسلامِ في أوائلِ إيجابِ التَّكاليفِ، وعن قومٍ مُستَديمينَ للكُفرِ مُستمِرِّينَ عليه، فقال في حَقِّ المؤمِنينَ: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ بصيغةِ الفِعلِ، أي: وُجِدَ منهم الصِّدقُ؛ فإنَّه لا يُفهَمُ مِن صيغةِ الفِعلِ التَّكرارُ والرُّسوخُ، وقال في حَقِّ الكافِرِ: ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ بالصِّيغةِ المُنبِئةِ عن الثَّباتِ والدَّوامِ، وهي اسمُ الفاعِلِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَآ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٧).

- قولُه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ (أمْ) مُنقطِعةٌ، وما فيها مِن معنى (بلْ) للإضرابِ والانتقالِ عن التَّوبيخِ بإنكارِ حِسْبانِهم مَتروكينَ غيرَ مَفتونينَ إلى التَّوبيخِ بإنكارِ ما هو أبطَلُ مِن الحِسْبانِ الأوَّلِ، وهو حِسْبانُهم ألَّا يُجازَوْا بسَيِّئاتِهم[١].

- وقولُه: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ذمٌّ لحِسْبانِهم ذلك وإبطالٌ له، فهي مُقرِّرةٌ لِمَعنى الإنكارِ في جُملةِ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾، فلها حُكْمُ التَّوكيدِ؛ فلذلك فُصِلَت[٢]. والحُكمُ هنا مُستعمَلٌ في مَعنى الظَّنِّ والاعتقادِ؛ تهكُّمًا بهم بأنَّهم نَصَبوا أنفُسَهم مَنصِبَ الَّذي يَحكُمُ فيُطاعُ[٣].

- والمَجيءُ بالمُضارعِ ﴿يَحْكُمُونَ﴾ قيل: للإشعارِ بأنَّ حُكْمَهم مَذمومٌ حالًا واستِقبالًا، وقيل: لأجْلِ الفاصِلةِ وقَعَ المضارِعُ مَوقِعَ الماضي اتِّساعًا[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ مَسوقٌ للمؤمنينَ خاصَّةً؛ لأنَّهم الَّذين يَرْجُون لِقاءَ اللهِ؛ فالجُملةُ مُفيدةٌ التَّصريحَ بما أَوْمَأَ إليه قولُه: ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت: ٤] مِن الوعْدِ بنصْرِ المؤمنينَ على عدُوِّهم، مُبَيِّنةٌ لها؛ ولذلك فُصِلَت، أي: لم تُعطَفْ على الَّتي قبْلَها، ولولا هذا الوقْعُ لكان حقُّ الإخبارِ بها أنْ يَجيءَ بواسطةِ حرْفِ العطْفِ[٥].

- وفي قَولِه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ جَعْلُ فِعلِ الشَّرطِ فِعلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٧، ٢٠٨).

الكَونِ؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ هذا الرَّجاءِ مِن فاعِلِ فِعلِ الشَّرطِ[١].

- وعُبِّرَ بفِعلِ الرَّجاءِ ﴿يَرۡجُواْ﴾ عن ترقُّبِ البعثِ؛ لأنَّ الكلامَ مَسوقٌ للمؤمنينَ، وهم ممَّن يَرجو لِقاءَ اللهِ؛ لأنَّهم يَترقَّبونَ البعثَ؛ لِمَا يَأْمُلون مِنَ الخَيراتِ فيه[٢].

- و﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ الوقتَ الَّذي عيَّنَه اللهُ في عِلْمِه للبعثِ والحسابِ؛ فيكونَ مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ، ومَقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (فإنَّه لآتٍ)، فعُدِلَ إلى الإظهارِ، كما في إضافةِ ﴿أَجَلَ﴾ إلى اسمِ الجَلالةِ مِن الإيماءِ إلى أنَّه لا يُخلَفُ، والمقصودُ الاهتمامُ بالتَّحريضِ على الاستعدادِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بـ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ الأجَلَ الَّذي عيَّنَه اللهُ لنصْرِ المؤمنينَ، وانتهاءِ فِتنةِ المشركينَ إيَّاهم باستِئصالِ مَساعيرِ[٣] تلك الفِتنةِ، وهم صَناديدُ قُريشٍ؛ وذلك بما كان مِنَ النَّصرِ يومَ بدْرٍ، ثمَّ ما عَقِبَه إلى فتْحِ مكَّةَ؛ فيكونَ الكلامُ تَثبيتًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمؤمنينَ حينَ اسْتبطَأَ المؤمنونَ النَّصرَ للخلاصِ مِن فِتنةِ المشركينَ حتَّى يَعْبُدوا اللهَ لا يَفْتِنوهم في عِبادتِه. وتأكيدُ جُملةِ الجزاءِ بحرْفِ التَّوكيدِ على الوجْهِ الأوَّلِ للتَّحريضِ والحثِّ على الاستعدادِ لِلقاءِ اللهِ، وعلى الوجْهِ الثَّاني لقصْدِ تَحقيقِ النَّصرِ الموعودِ به؛ تَنزيلًا لاستِبطائِه مَنزِلةَ التَّردُّدِ؛ لقَصْدِ إذكاءِ يَقينِهم بما وعَدَ اللهُ، ولا يُوهِنُهم طولُ المدَّةِ الَّذي يُضَخِّمُه الانتظارُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٠٩).

(٣) المَساعيرُ: جمع مِسْعَرٍ ومِسْعارٍ، وهو: ما سُعِرَتْ به النَّارُ، أي: ما تُحَرَّكُ به النَّارُ مِن حَديدٍ أو خَشَبٍ. ويُقالُ لموقِدِ الحربِ: مِسْعَرُ حربٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٢/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٨).

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ في جُملةِ ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ -مع كونِ مُقْتضى الظَّاهرِ الإضمارَ؛ لتَقدُّمِ اسمِ الجَلالةِ في جُملةِ الشَّرطِ ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾-؛ لئلَّا يَلتبِسَ مُعادُ الضَّميرِ بأنْ يُعادَ إلى (مَن)؛ إذ المقصودُ الإعلامُ بأجَلٍ مَخصوصٍ، وهو وقْتُ النَّصرِ الموعودِ[1].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ مِن فُنونِ البلاغةِ: الحذْفُ؛ فيجوزُ أنْ يكونَ الجوابُ مَحذوفًا، أي: فلْيَختَرْ مِنَ الأعمالِ ما يُؤدِّي إلى حُسنِ الثَّوابِ، ولْيَحذَرْ ما يَسوقُه إلى سُوءِ العذابِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وفيه مِن الوعدِ والوعيدِ ما لا يَخْفى. وقيل: فلْيُبادِرْ إلى ما يُحقِّقُ أمَلَه، ويُصَدِّقُ رجاءَهُ، أو ما يُوجِبُ القُربةَ والزُّلفَى[2].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تَذييلٌ لتَحقيقِ حُصولِ المَرْجُوِّ والمَخُوفِ وعْدًا ووَعيدًا[3]، ووقَعَ التَّذييلُ بوَصفَي ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ دونَ غيرِهما مِن الصِّفاتِ العُلى؛ للإيماءِ بوصْفِ السَّميعِ إلى أنَّ اللهَ تعالى سمِعَ مَقالةَ بعضِهم مِنَ الدُّعاءِ بتَعجيلِ النَّصرِ، والإيماءِ بوصْفِ العليمِ إلى أنَّ اللهَ عَلِمَ ما في نُفوسِهم مِن استعجالِ النَّصرِ[4]. وقيل: لأنَّه سبَقَ القَولُ في قَولِه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ﴾، وسَبَق الفِعلُ بقَولِه: ﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾، وبقَولِه: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾، وبقَولِه: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ﴾، ولا شَكَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٨، ٢٠٩).

أنَّ القَولَ يُدرَكُ بالسَّمعِ، والعَمَلَ منه ما لا يُدرَكُ بالبَصَرِ، ومنه ما يُدرَكُ به، كالقُصودِ، والعِلمَ يَشمَلُهما؛ وهو السَّميعُ: يَسمَعُ ما قالوه، وهو العليمُ: يعلَمُ مَن صَدَق فيما قال ممَّن كَذَب، وأيضًا عَليمٌ يَعلَمُ ما يُعمَلُ، فيُثيبُ ويُعاقِبُ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ القصْرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) هو قصْرُ الجهادِ على الكَونِ لنفْسِ المجاهِدِ، أي: الصَّالحِ نفْسِه؛ إذ العِلَّةُ لا تَتعلَّقُ بالنَّفْسِ، بلْ بأحوالِها، أي: جِهادٌ لفائدةِ نفْسِه، لا لِنَفْعٍ يَنجَرُّ إلى اللهِ تعالى؛ فالقصْرُ الحاصلُ بأداةِ (إنَّما) قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ للتَّنبيهِ إلى ما يَغفُلون عنه مِنَ الفوائدِ المُنجَرَّةِ إلى أنفُسِ المُجاهِدينَ؛ ولذلك عقَّبَ الرَّدَّ المُستفادَ مِنَ القصْرِ بتَعليلِه بأنَّ اللهَ غَنيٌّ عن العالَمينَ، فلا يَكونُ شَيءٌ مِن الجِهادِ نافعًا للهِ تعالى، ولكنَّ نفْعَه للأُمَّةِ[٢].

- وأكَّدَ قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بـ (إنَّ) واللَّامِ؛ لأنَّ كثرةَ الأوامرِ رُبَّما أَوجَبَت للجاهلِ ظَنَّ الحاجةِ، وذلك نُكتةُ الإتيانِ باسمِ الجلالة (الله)[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ عطفًا على جُملةِ ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: ٤]؛ لِمَا تَضمَّنَتْه الجُملةُ المعطوفُ عليها مِن التَّهديدِ والوعيدِ، فعطَفَ عليها ما هو وعدٌ وبشارةٌ لِلَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، مع ما أفْضَى إلى ذِكْرِ هذا الوعدِ مِن قولِه قبْلَه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٤).

[العنكبوت: ٦]؛ فإنَّ مَضمونَ جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ يُفيدُ بَيانَ كَونِ جِهادِ مَن جاهَدَ لنفْسِه. ويجوزُ أنْ تكونَ عطْفًا على جُملةِ ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦]، وسُلِكَ بها طريقُ العطْفِ باعتبارِ ما أَومَأَ إليه الموصولُ وصِلَتُه مِن أنَّ سبَبَ هذا الجزاءِ الحسَنِ هو أنَّهم آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، وهو على هذا الوجْهِ: إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لنُكتةِ هذا الإيماءِ[1].

- وتَقديرُ قولِه: ﴿أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: ولَنجزيَنَّهم جزاءً أحسَنَ. وإضافتُه إلى ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ لإفادةِ عِظَمِ الجزاءِ كلِّه؛ فهو مُقدَّرٌ بأحسَنِ أعمالِهم[2]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢١٢).

الآيتان (٨-٩)

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى أنَّ طاعتَه يجبُ أنْ تُقَدَّمَ على كلِّ طاعةٍ، فيقولُ: وعَهِدْنا إلى الإنسانِ أن يُبالِغَ في الإحسانِ إلى والِدَيه، وإنْ جاهَداك لِتَجعَلَ لله شَريكًا لا تعلَمُ حُجَّةً على ألوهيَّتِه، فلا تُطِعْهما في ذلك، إلَيَّ مَصيرُكم يومَ القيامةِ فأُخبِرُكم بما كُنتُم تَعمَلونَ مِن خيرٍ وشَرٍّ. والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ لَنُدخِلنَّهم في جُملةِ الصَّالحينَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى ثوابَ مَن حَقَّق التَّكاليفَ؛ أُصولَها وفُروعَها؛ تحريضًا للمُكَلَّفِ على الطَّاعةِ- ذكَرَ المانِعَ، ومَنَعَه مِن أن يختارَ اتِّباعَه، فقال: الإنسانُ إنِ انقاد لأحدٍ ينبغي أن ينقادَ لأبوَيه، ومع هذا لو أمَرَاهُ بالمعصيةِ لا يجوزُ اتِّباعُهما، فضلًا عن غيرِهما، فلا يمنَعَنَّ أحَدَكم شَيءٌ مِن طاعةِ الله، ولا يَتبَعَنَّ أحَدٌ مَن يأمُرُ بمعصيةِ اللهِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه أنَّه لا بُدَّ مِن الفِتنةِ، وحذَّرَ مَن كَفَر، وبشَّرَ مَن صَبَر؛ قال عاطِفًا على ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ مُشيرًا إلى تَعظيمِ حُرمةِ الوالِدِ؛ حيثُ جعَلَها في سياقِ تَعظيمِ الخالِقِ، وإلى أنَّها أعظَمُ فِتنةٍ[1]:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: (حلَفَتْ أمُّ سَعدٍ ألَّا تُكَلِّمَه أبدًا حتَّى يَكفُرَ بدينِه، ولا تأكُلَ ولا تَشرَبَ. قالتْ: زعَمْتَ أنَّ اللهَ وصَّاك بوالِدَيك، وأنا أمُّك، وأنا آمُرُك بهذا! قال: مَكثَتْ ثلاثًا حتَّى غُشِيَ عليها مِنَ الجَهدِ، فقام ابنٌ لها يُقالُ له: عُمارةُ، فسَقاها، فجعَلَت تدعو على سَعدٍ، فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ في القُرآنِ هذه الآيةَ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾)[2].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

أي: وأمَرْنا الإنسانَ أمرًا مؤكَّدًا وعَهِدْنا إليه أن يُحسِنَ إلى والِدَيه قَولًا وفِعلًا، وأن يُحافِظَ على ذلك[3].

كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٥).

(٢) رواه مسلم (١٧٤٨).

قال النيسابوري: (اتَّفق المفسِّرون على أنَّ هذه الآيةَ نزلت في سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ وفي أمِّه حَمْنَةَ بنتِ أبي سُفيانَ). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٣، ٣٤).

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾.

أي: وإنْ بذَلَ والِداك -أيُّها المُسلِمُ- جُهدَهما لِتَجعَلَ لي شَريكًا لا تَعلَمُ حُجَّةً على ألوهيَّتِه، فلا تُطِعْهما في ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

عن عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا طاعةَ في مَعصيةٍ، إنَّما الطَّاعةُ في المَعروفِ))[2].

﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: إلَيَّ مَصيرُكم يومَ القيامةِ، فأُخبِرُكم بجَميعِ أعمالِكم: ظاهِرِها وخَفيِّها، خَيرِها وشَرِّها؛ وأُجازيكم عليها، ومِن ذلك إحسانُكم إلى والِديكم، وصَبرُكم وثباتُكم على دينِكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٣، ٢١٤).

(٢) رواه البخاري (٧١٤٥، ٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٥).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله ومُتابعةٍ لِشَرعِه: لَنُدخِلَنَّهم[1] في جُملةِ الصَّالحينَ[2].

كما قال تعالى عن نبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ

---

(١) قيل: المرادُ: لَنُدخِلَنَّهم مُدخَلَ الصَّالحينَ، وهو الجنَّةُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

وقيل: المعنى: في زُمْرتِهم وجُملتِهم، يُحشَرونَ معهم يومَ القيامةِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: الواحديُّ، والسمعاني، والرَّسْعَنيُّ، وابن كثير، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٤٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٣٧).

قال الواحدي: (﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في زُمرتِهم وجملتِهم، ومعناه: لَنَحشُرَنَّهم معهم). ((الوجيز)) (ص: ٨٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

قيل: المرادُ بالصَّالحينَ هنا: الأنبياءُ والأولياءُ. وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، والبَغَويُّ، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٣٧).

وقيل: المرادُ بهم: الأنبياءُ فقط. وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٠، ٤١).

ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩].

وقال يوسفُ عليه السَّلامُ فيما حكاه اللهُ عنه: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال سُلَيمانُ عليه السَّلامُ فيما حكاه اللهُ عنه: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩].

وقال سُبحانَه عن الأنبياءِ: ﴿ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا ﴾ يَحُثُّ الإنسانَ على برِّ الوالِدَين والإحسانِ إليهما بالقَولِ والعَمَلِ، وأن يحافِظَ على ذلك، ولا يَعُقَّهما ويُسيءَ إليهما في قَولِه وعَمَلِه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ مَنْ آمَنَ باللهِ وعَمِلَ صالِحًا، فإنَّ اللهَ وعَدَه أن يُدخِلَه الجنَّةَ في جُملةِ عبادِه الصَّالحينَ؛ مِنَ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالحينَ، كلٌّ على حسَبِ درَجتِه ومَرتبتِه عندَ اللهِ؛ فالإيمانُ الصَّحيحُ والعمَلُ الصَّالحُ عُنوانٌ على سعادةِ صاحِبِه، وأنَّه مِن أهلِ الرَّحمنِ والصَّالحينَ مِن عبادِ اللهِ تعالى[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ فلا طاعةَ لِمَخلوقٍ -وإنْ عَظُمَ- في مَعصيةِ الخالِقِ، وهذا مُوجِبٌ لئلَّا يقَعَ مِن أحدٍ شِركٌ أصلًا؛ فإنَّه لا رَيْبَ أصلًا في أنَّه لا شُبهةَ تقومُ على أنَّ غَيرَه تعالى يَستحِقُّ الإلهيَّةَ، فكيف بدَليلٍ يُوجِبُ عِلمًا؟! والمقصودُ مِن سياقِ الكلامِ إظهارُ النَّصَفةِ، والتَّنبيهُ على النَّصيحةِ؛ لِيَكونَ أدعَى إلى القَبولِ[(١)].

٢- قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ موافَقةٌ للواقعِ؛ فلا مفهومَ له[(٢)]، فهو بيانٌ للواقعِ أنَّ كلَّ شِرْكٍ باللهِ فإنَّه لا عِلْمَ به عندَ الإنسانِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف: ٣٣]، ومعلومٌ أنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى ما جَعَل شِركًا فيه سُلطانٌ؛ فكلُّ الشِّركِ ليس فيه سلطانٌ، بل إنَّ الشركَ قد قام السُّلطانُ والعِلْمُ الصَّحيحُ على أنَّه باطلٌ، فصار قولُه: ﴿لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ معناه: أنَّه موافِقٌ للواقِعِ، فيكونُ كالتَّعليلِ لتَحريمِ الشِّركِ، كأنَّه يقولُ: على أنْ تشركَ بي والحالُ أنَّ الشِّركَ ليس لك به عِلْمٌ؛ فإنَّ الشِّركَ قطعًا لا يمكنُ أنْ يقومَ الدَّليلُ على وجودِه، بل إنَّ الدَّليلَ الصَّحيحَ على انتفائِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى لا شَريكَ له سُبحانَه[(٣)].

٣- قولُه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: بإلهيَّتِه، عبَّرَ عن نفْيِها بنَفْيِ العِلْمِ بها؛ للإيذانِ بأنَّ ما لا يُعلَمُ صِحَّتُه لا يجوزُ اتِّباعُه وإنْ لم يُعلَمْ بطلانُه، فكيف بما عُلِمَ بُطلانُه[(٤)]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير أبي =

٤- قال الله تعالى: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، مِن لَطيفِ مُناسبةِ هذا الظَّرفِ في هذا المَقام: أنَّ المؤمنَ لَمَّا أُمِرَ بعِصيانِ والدَيْه إذا أمَراهُ بالشِّركِ، كان ذلك ممَّا يُثيرُ بيْنَه وبيْنَ أبوَيْه جَفاءً وتَفرقةً، فجعَلَ اللهُ جزاءً عن وَحشةِ تلك التَّفرِقةِ أُنْسًا بجَعْلِه في عِدادِ الصَّالحينَ يأنَسُ بهم[(١)].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بيَّنَ اللهُ بهذه الآيةِ ما على المُسلم في مُعامَلةِ أنْسبائِه مِن المُشركين، وخصَّ بالذِّكرِ منها نسَبَ الوالِدَينِ؛ لأنَّه أقرَبُ نسَبٍ؛ فيَكونُ ما هو دونَه أَوْلى بالحُكْمِ الَّذي يُشْرَعُ له[(٢)].

- والمقصودُ مِن الآيةِ هو قولُه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي ...﴾ إلى آخرِه، وإنَّما افْتُتِحَت بـ (وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا)؛ لأنَّه كالمُقدِّمةِ للمقصودِ؛ ليَعلَمَ أنَّ الوِصايةَ بالإحسانِ إلى الوالِدَينِ لا تَقتَضي طاعتَهما في السُّوءِ ونحْوِه، ولِقَصْدِ تَقريرِ حُكْمِ الإحسانِ للوالدينِ في كلِّ حالٍ إلَّا في حالِ الإشراكِ؛ حتَّى لا يَلتبِسَ على المُسلمينَ وجْهُ الجمْعِ بيْنَ الأمرِ بالإحسانِ للوالدينِ وبيْنِ الأمرِ بعِصيانِهما إذا أمَرَا بالشِّركِ؛ لإبطالِ قَولِ مَن يقولُ: أليس مِن دِينِ محمَّدٍ البرُّ بالوالدينِ؟! ونحوِه[(٣)].

- وفي قَولِه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث ذَكَرَه في (الأحقافِ) ﴿إِحۡسَٰنًاۖ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وحَذَفَه في (لُقمانَ)؛ لأنَّ الوصيَّةَ

= السعود)) (٧/ ٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢١٣).

هنا وفي (الأحقافِ) جاءت في سِياقِ الإجمالِ، وفي (لُقمانَ) جاءت مُفصَّلةً؛ لِمَا تقدَّمَها مِن تَفصيلِ كلامِ لُقمانَ لابْنِه، ولأنَّ قولَه بعْدَها: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: ١٤] قائمٌ مَقامَه؛ فحسُنَ حذْفُه(١).

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه قال هنا: ﴿لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾، وقال في (لُقمانَ): ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ﴾ [لقمان: ١٥]؛ مُوافقةً هنا لفظًا لِلَفْظِ اللَّامِ في قَولِه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦]، وحمْلًا للمعنَى بطَريقِ التَّضمينِ في (لُقمانَ)؛ إذِ التَّقديرُ: وإنْ حَمَلاكَ على أنْ تُشرِكَ بي...(٢).

- وجُملةُ ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لزِيادةِ تَحقيقِ ما أشارتْ إليه مُقدِّمةُ الآيةِ مِن قولِه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا﴾؛ لأنَّ بقيَّةَ الآيةِ لَمَّا آذَنَتْ بفَظاعةِ أمْرِ الشِّركِ، وحذَّرتْ مِن طاعةِ المرْءِ والدَيْه فيه؛ كان ذلك ممَّا يُثِير سؤالًا في نُفوسِ الأبناءِ: أنَّهم هل يُعامِلون الوالدينِ بالإساءةِ لأجْلِ إشْراكِهما؟ فأُنْبِئوا أنَّ عِقابَهما على الشِّركِ مُفَوَّضٌ إلى اللهِ تعالى؛ فهو الَّذي يُجازي المحسنينَ والمُسيئينَ(٣).

- قولُه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ الإنباءُ: الإخبارُ، وهو مُستعمَلٌ كِنايةً عن عِلْمِه تعالى بما يَعمَلونه مِن ظاهرِ الأعمالِ وخَفِيِّها، أي: ما يُخْفُونه عن المسلمينَ وما يُكِنُّونه في قُلوبِهم، وذلك أيضًا كِنايةٌ عن الجزاءِ عليه مِن خَيرٍ أو شرٍّ؛ ففي قَولِه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ كِنايتانِ: أُولاهما إيماءٌ، وثانيتُهما تلويحٌ، أي: فأُجازِيكم ثوابًا على عِصيانِهما فيما يأْمُرانِ، وأُجازِيهما عذابًا

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٤، ٢١٥).

على إشراكِهما[١].

٢- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كرَّر تعالى ما رتَّبَ للمؤمنينَ مِن دُخولِهم في الصَّالحينَ؛ لِيُحرِّكَ النُّفوسَ إلى نَيْلِ مَراتبِهم[٢]. وهذه الآيةُ تَصريحٌ ببعضِ ما أفادَتْه الكِنايةُ الَّتي في قَولِه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ اهتِمامًا بجانبِ جزاءِ المؤمنينَ. وقد أُشِيرَ إلى شرَفِ هذا الجزاءِ بأنَّه جزاءُ الصَّالحينَ الكاملينَ، كقولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٣] [النساء: ٦٩].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٥).

الآيتان (١٠-١١)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى جانبًا مِن أحوالِ أصحابِ القلوبِ المريضةِ، فيقولُ: ومِنَ النَّاسِ مَن يقولُ بلِسانِه: آمَنَّا بالله، فإذا آذاه الكُفَّارُ لِيَرجِعَ عن دينِه، جعَلَ أذى النَّاسِ له كعذابِ اللهِ، فيَرتَدُّ لِيَسْلَمَ مِن أذاهم، ولَئِنْ جاء نصرٌ مِن ربِّك -يا محمَّدُ- لعِبادِه المؤمِنينَ به، لَيَقولَنَّ أولئك المرتَدُّونَ عن دينِهم: إنَّا كنَّا مُؤمِنينَ معكم؛ لِيَأخُذوا نصيبَهم مِنَ الغنائِمِ! أوَليس اللهُ بأعلَمَ بما في قُلوبِ خَلقِه؟! ولَيَعْلَمَنَّ اللهُ المؤمِنينَ الصَّادِقينَ عِلمَ مُشاهَدةٍ يَترتَّبُ عليه جزاؤُهم، وكذلك المنافِقونَ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

إنَّ أقسامَ المُكلَّفينَ ثلاثةٌ: مُؤمِنٌ ظاهِرٌ بحُسنِ اعتِقادِه، وكافِرٌ مُجاهِرٌ بكُفرِه وعِنادِه، ومُذَبْذَبٌ بيْنَهما؛ يُظهِرُ الإيمانَ بلِسانِه، ويُضمِرُ الكُفرَ في فؤادِه، واللهُ تعالى لَمَّا بَيَّنَ القِسْمَينِ بقَولِه تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، وبيَّن أحوالَهما بقَولِه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾

[العنكبوت: ٤] إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العنكبوت: ٧]- بيَّن القِسْمَ الثَّالثَ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه لا بُدَّ أن يُمتَحَنَ مَن ادَّعى الإيمانَ؛ لِيَظهَرَ الصَّادِقُ مِن الكاذِبِ؛ بيَّن تعالى أنَّ مِن النَّاسِ فَريقًا لا صبرَ لهم على المِحَنِ، ولا ثباتَ لهم على بَعضِ الزَّلازِلِ، فقال(٢):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: (كان قَومٌ مِن أهلِ مكَّةَ أسلَموا، وكانوا يَستَخْفُونَ بإسلامِهم، فأخرَجَهم المُشرِكونَ يومَ بَدرٍ معهم، فأُصيبَ بَعضُهم، وقُتِلَ بَعضٌ، فقال المُسلِمونَ: كان أصحابُنا هؤلاء مُسلِمينَ وأُكرِهوا؛ فاستَغفِروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، فكُتِبَ إلى مَن بَقِيَ بمكَّةَ مِنَ المُسلِمينَ بهذه الآيةِ: أنْ لا عُذرَ لهم؛ فخرجوا، فلَحِقَهم المُشرِكونَ، فأعطَوْهُمُ الفِتنةَ(٣)، فنَزَلت فيهم هذه الآيةُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فكتب المُسلِمونَ إليهم بذلك، فخَرَجوا وأَيِسُوا مِن كلِّ خَيرٍ، ثمَّ نَزَلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

(٣) أي: كفَروا بعدَ إسلامِهم. يُنظر: حاشية (٢) من ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠٣) بتحقيق أحمد شاكر، ومحمود شاكر.

رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل: ١١٠]، فكَتَبوا إليهم بذلك: إنَّ اللهَ قد جعَل لكم مَخرَجًا، فخرَجوا، فأدرَكهم المُشرِكونَ، فقاتَلوهم، حتَّى نجا مَن نجا، وقُتِل مَن قُتِل)[١].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يقولُ بلِسانِه: آمَنَّا باللهِ فوحَّدْناه، فإذا آذاه الكُفَّارُ لِيَرجِعَ عن إيمانِه باللهِ، جعَل أذَى النَّاسِ له كعَذابِ اللهِ، فيَرتَدُّ ويَترُكُ الحَقَّ لِيَسْلَمَ مِن أذى الخَلقِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١].

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ ﴾.

أي: ولَئِنْ جاء نَصرٌ مِن ربِّك -يا مُحمَّدُ- لحِزبِ اللهِ الثَّابتِي الإيمانِ، وفَتْحٌ ومَغانِمُ- لَيَقولَنَّ أولئك الجاعِلونَ فِتنةَ النَّاسِ كعَذابِ اللهِ، المُرتَدُّونَ عن إيمانِهم:

---

(١) أخرجه البزَّار كما في ((كشف الأستار)) للهيثمي (٢٢٠٤)، وابن جرير في ((التفسير)) (١٠٢٦٠) واللفظ له، والطحاوي في ((مشكل الآثار)) (٣٣٧٧)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (١٧١٧٠)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (٢١٥).
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٠): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ غيرَ محمَّدِ بنِ شَريكٍ، وهو ثقةٌ). وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٦٠)، وشعيب الأرنؤوط في تحقيق ((مشكل الآثار)) (٨/ ٤٥٠)، وأورده الوادعي في ((الصحيح من أسباب النزول)) (١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٦).

إنَّا كنَّا معكم مُؤمِنينَ؛ لِيَأخُذوا نصيبَهم مِن الغنائِم[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢، ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: أوَليس اللهُ بأعلَمَ مِن كُلِّ أحدٍ بما في قُلوبِ جَميعِ خَلقِه، إخلاصًا كان أو نِفاقًا؟ فهو العالِمُ بما يُخفِي المُنافِقونَ، وإن أظهَروا للمُؤمِنينَ خِلافَ ما في قُلوبِهم؛ فكيف يُخادِعونَ مَن لا تَخفَى عليه خافيةٌ، ولا يَستَتِرُ عنه سِرٌّ ولا علانيةٌ[٢]؟!

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه أعلَمُ بما في قُلوبِ العالَمينَ؛ بيَّن أنَّه يَعلَمُ المؤمِنَ المحِقَّ وإن لم يتكَلَّمْ، والمنافِقَ وإن تكَلَّمَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٤، ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٥).

وأيضًا لَمَّا أنكرَ اللهُ تعالى عدَمَ العِلمِ، صرَّحَ بالعِلمِ، فقال[١]:

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

أي: ولَيَعْلَمَنَّ اللهُ المؤمِنينَ الصَّادِقينَ الثَّابتينَ على إيمانِهم، ولَيَعْلَمَنَّ المُنافِقينَ الكاذِبينَ في دَعْوى الإيمانِ، عِلمَ مُشاهَدةٍ يترتَّبُ عليه جزاؤُهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((بادِروا بالأعمالِ فِتَنًا كقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ؛ يُصبِحُ الرَّجُلُ مُؤمِنًا ويُمسي كافِرًا، أو يُمسي مُؤمِنًا ويُصبِحُ كافِرًا، يبيعُ دينَه بعَرَضٍ مِن الدُّنيا!))[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تحذيرٌ مِن أنْ يقولَ الإنسانُ خِلافَ ما في قَلبِه[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، لم يقُلْ: (آمنْتُ)، مع أنَّه وحَّد الأفعالَ الَّتي بعْدَه، كقَولِه: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾، وقَولِه: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾؛ وذلك لأنَّ المنافِقَ كان يُشَبِّهُ نفْسَه بالمؤمِنِ، ويقول: (إيماني

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٧، ٤٨).

(٣) رواه مسلم (١١٨).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد)) لابن عثيمين (٢/ ٧٧).

كإيمانِك!)، فقال: ﴿ءَامَنَّا﴾، يعني: أنا والمؤمِنُ حقًّا آمَنَّا؛ إشعارًا بأنَّ إيمانَه كإيمانِه! وهذا كما أنَّ الجبانَ الضَّعيفَ إذا خرج مع الأبطالِ في القِتالِ، وهَزَموا خُصومَهم، يقولُ الجبانُ: خرَجْنا وقاتَلْناهم وهزَمْناهم! فيَصِحُّ مِن السَّامعِ لكلامِه أن يقولَ: وماذا كنت أنتَ فيهم حتَّى تقولَ: خرَجْنا وقاتَلْنا؟! وهذا الرَّدُّ يدُلُّ على أنَّه يُفهَمُ مِن كلامِه أنَّ خُروجَه وقِتالَه كخُروجِهم وقتالِهم؛ لأنَّه لا يَصِحُّ الإنكارُ عليه في دعوى نفْسِ الخُروجِ والقتالِ، فهُم لَمَّا أرادوا إظهارَ كَونِ إيمانِهم كإيمانِ المحِقِّينَ، كان الواحِدُ يقولُ: ﴿ءَامَنَّا﴾، أي: أنا والمحِقُّ[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ فيه سؤالٌ: هذا يقتضي مَنْعَ المؤمِنِ مِن إظهارِ كَلِمةِ الكُفرِ بالإكراهِ؛ لأنَّ مَن أظهَرَ كَلِمةَ الكُفرِ بالإكراهِ احترازًا عن التَّعذيبِ العاجِلِ، يكونُ قد جعَل فِتنةَ النَّاسِ كعذابِ اللهِ؟

الجوابُ: ليس الأمرُ كذلك؛ لأنَّ مَن أُكرِهَ على الكُفرِ وقَلبُه مُطمَئِنٌّ بالإيمانِ، لم يَجعَلْ فِتنةَ النَّاسِ كعَذابِ اللهِ؛ لأنَّ عذابَ اللهِ يُوجِبُ تَركَ ما يُعذَّبُ عليه ظاهِرًا وباطِنًا، وهذا المؤمِنُ المُكرَهُ لم يجعَلْ فِتنةَ النَّاسِ كعَذابِ الله، بحيثُ يَترُكُ ما يُعذَّبُ عليه ظاهِرًا وباطِنًا، بل في باطِنِه الإيمانُ[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ لم يقُلْ: (عذابَ النَّاسِ)؛ لأنَّ فِعلَ العبدِ ابتلاءٌ وامتحانٌ مِن الله، وفِتنَتَه تسليطُ بعضِ النَّاسِ على مَن أظهَرَ كَلِمةَ الإيمانِ لِيُؤذيَه؛ فتَبينَ مَنزِلتُه، كما جعَل التَّكاليفَ ابتلاءً وامتحانًا، وهذا إشارةٌ إلى أنَّ الصَّبرَ على البَليَّةِ الصَّادرةِ ابتلاءً وامتحانًا مِن الإنسانِ، كالصَّبرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٤).

على العباداتِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ لم يَقُلْ: (مِنَ اللهِ) مع أنَّ ما تقدَّم كان كُلُّه بذِكرِ اللهِ، كقَولِه: ﴿أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾، وقَولِه: ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك لأنَّ (الرَّبَّ) اسمٌ مَدلولُه الخاصُّ به الشَّفَقةُ والرَّحمةُ، و(اللهُ) اسمٌ مَدلولُه الهَيْبةُ والعَظَمةُ؛ فعندَ النَّصرِ ذُكِرَ اللَّفظُ الدَّالُّ على الرَّحمةِ والعاطفةِ، وعندَ العذابِ ذُكِرَ اللَّفظُ الدَّالُّ على العَظَمةِ[٢]، أو باعتبارِ أنَّ النَّصرَ مِن أفعالِ الرُّبوبيَّةِ.

٥- عبَّرَ في حالةِ الشِّدَّةِ في قَولِه: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ بالإفرادِ؛ لِئلَّا يُتوَهَّمَ أنَّ الجمعَ قَيدٌ، وجَمَع في قَولِه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ﴾ دَلالةً على أنَّهم لا يَستَحْيُونَ مِنَ الكَذِبِ، ولو على رُؤوسِ الأشهادِ[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بيَّن اللهُ تعالى أنَّهم أرادوا التَّلبيسَ، ولا يَصِحُّ ذلك لهم؛ لأنَّ التَّلبيسَ إنَّما يكونُ عندَما يخالِفُ القَولُ القَلبَ، فالسَّامِعُ يَبني الأمرَ على قَولِه، ولا يَدري ما في قَلبِه؛ فيَلتَبِسُ الأمرُ عليه، وأمَّا اللهُ تعالى فهو عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ، وهو أعلَمُ بما في صَدرِ الإنسانِ مِن الإنسانِ؛ فلا يَلتَبِسُ عليه الأمرُ، وهذا إشارةٌ إلى أنَّ الاعتبارَ بما في القَلبِ؛ فالمنافِقُ الَّذي يُظهِرُ الإيمانَ ويُضمِرُ الكُفرَ: كافِرٌ، والمؤمِنُ المُكرَهُ الَّذي يُظهِرُ الكُفرَ ويُضمِرُ الإيمانَ: مُؤمِنٌ. واللهُ أعلَمُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٥).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أنَّ الحِكمةَ مِنَ الامتِحانِ إظهارُ المؤمنِ مِنَ المنافقِ[١]، فلذلك قدَّر اللهُ مِحَنًا وابتلاءً، لِيَظهَرَ عِلمُه فيهم، فيُجازيَهم بما ظهَر منهم، لا بما يَعلمُه بمُجَرَّدِه؛ لأنَّهم قد يَحتَجُّون على الله أنَّهم لو ابتُلوا لَثَبَتوا[٢].

٨- إنْ قيل: إنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ، فكيف ذكَرَ اللهُ تعالى فيها النِّفاقَ في قولِه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، مع أنَّ النِّفاقَ لم يَظهَرْ إلَّا بالمدينةِ؟

والجواب: أنَّ هذه الآيةَ مِنَ الإخبارِ بالغَيبِ، واللهُ تعالى يَذكُرُ المنافقينَ في السُّورِ المكِّيَّةِ تحَسُّبًا لِما يقَعُ، واستِعدادًا لهم[٣].

وقيل: الآيةُ إخبارٌ عن حالِ المنافقينَ في الدَّارِ الآخرةِ[٤].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ حالِ المنافقينَ بعدَ أنْ بيَّنَ حالَ المؤمنينَ والكافرينَ فيما تقدَّمَ[٥].

- والخبرُ مِن قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ...﴾ إلى قولِه: ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ مُكنًّى به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٨).

وقيل: الآيةُ بناءً على أنَّ النِّفاقَ ظهَرَ في المدينةِ مدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٤٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٠٥).

عن الذَّمِّ والاستِحماقِ[(١)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾، وقال في سُورةِ (آلِ عِمرانَ): ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ [آل عمران: ١٩٥]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ المُرادَ بتلك الآيةِ الصَّابرون على أذيَّةِ الكافرينَ، والمُرادُ هاهنا الَّذين لم يَصبِروا عليها؛ فقال هناك: ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾، وقال هاهنا: ﴿أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾، ولم يقُلْ: (في سبيلِ اللهِ)؛ واللَّطيفةُ فيه: أنَّ اللهَ أراد بَيانَ شرَفِ المُؤمِنِ الصَّابرِ، وخِسَّةِ المنافقِ الكافرِ، فقال هناك: أُوذِيَ المؤمِنُ في سبيلِ اللهِ ليَترُكَ سبيلَه ولم يَترُكْه، وأُوذِيَ المنافقُ الكافرُ فترَكَ اللهَ بنفْسِه، وكان يُمكِنُه أنْ يُظهِرَ مُوافقتَهم إنْ بلَغَ الإيذاءُ إلى حدِّ الإكراهِ، ويكون قلْبُه مُطمئنًّا بالإيمانِ، فلا يَترُكُ اللهَ، ومع هذا لم يَفعَلْه، بلْ ترَكَ اللهَ بالكُلِّيَّةِ، والمؤمِنُ أُوذِيَ ولم يَترُكْ سبيلَ اللهِ، بلْ أظهَر كَلِمَتَي الشَّهادةِ، وصبَرَ على الطَّاعةِ والعِبادةِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ ...﴾ فيه تأْكيدُ جُملةِ الشَّرطِ باللَّامِ المُوطِّئةِ للقَسَمِ؛ لتَحقيقِ حُصولِ الجوابِ عندَ حُصولِ الشَّرطِ، وهو يَقْتضي تَحقيقَ وُقوعِ الأمْرَينِ؛ ففيه وعدٌ بأنَّ اللهَ تعالى ناصِرٌ المسلمينَ، وأنَّ المنافقينَ قائلونَ ذلك حينَئذٍ[(٣)].

- قولُه: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تَذييلٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ. والاستِفهامُ إنكاريٌّ إنكارًا عليهم قولَهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وقولَهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ﴾؛ لأنَّهم قالوا قولَهم ذلك ظنًّا منهم أنْ يَرُوجَ كَذِبُهم ونِفاقُهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٣، ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٧).

على رسولِ اللهِ، فكان الإنكارُ عليهم مُتضَمِّنًا أنَّهم كاذِبونَ في قَولَيْهِم المَذكورَينِ، والخِطابُ مُوَجَّهٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِقَصْدِ إسماعِهم هذا الخطابَ؛ فإنَّهم يَحضُرون مجالِسَ النَّبيِّ والمؤمنينَ، ويَستمِعون ما يَنزِلُ مِن القرآنِ وما يُتْلى منه بعدَ نُزولِه، فيَشعُرون أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على ضَمائرِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ تَقريريًّا، وجَّهَ اللهُ به الخِطابَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في صورةِ التَّقريرِ بما أنعَمَ اللهُ به عليه مِن إنبائِه بأحوالِ المُلْتبِسينَ بالنِّفاقِ. وهذا الأسلوبُ شائعٌ في الاستِفهامِ التَّقريريِّ[(١)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ خُصَّ بالذِّكْرِ فَريقانِ هما ممَّن شَمِلَه عُمومُ قولِه: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠]؛ اهتِمامًا بهذينِ الفريقينِ وحالَيْهما: فريقِ الَّذين آمَنوا، وفريقِ المُنافقينَ؛ لأنَّ العِلْمَ بما في صُدورِ الفريقَينِ مِن إيمانٍ ونِفاقٍ يَترتَّبُ عليه الجزاءُ المُناسِبُ لحالَيْهما في العاجلِ والآجِلِ؛ فذلك ترغيبٌ وترهيبٌ. ووجْهُ تأكيدِ كِلَا الفِعلينِ بلامِ القسَمِ ونونِ التَّوكيدِ: أنَّ المقصودَ مِن هذا الخبرِ رَدُّ اعتقادِ المُنافقينَ أنَّ اللهَ لا يُطلِعُ رسولَه على ما في نُفوسِهم؛ فالمقصودُ مِن الخبرينِ هو ثانِيهما، وهو قولُه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهو تَمهيدٌ لِمَا بعْدَه، وتَنصيصٌ على عدَمِ الْتِباسِ الإيمانِ المكذوبِ بالإيمانِ الحقِّ. وفي هذا أيضًا إرادةُ المعنى الكِنائيِّ مِن العِلْمِ، وهو مُجازاةُ كلِّ فريقٍ على حسَبِ ما عَلِمَ اللهُ مِن حالِه[(٢)].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ مُخالَفةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢١٨).

بيْنَ المؤمنينَ والمُنافقين في التَّعبيرِ عن الأوَّلِينَ بطريقِ المَوصولِ والصِّلةِ الماضَويَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وعن الآخرينَ بطريقِ اللَّامِ واسمِ الفاعلِ ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ لِما يُؤْذِنُ به المَوصولُ مِن اشتِهارِهم بالإيمانِ، وما يُؤذِنُ به الفِعلُ الماضي مِن تمَكُّنِ الإيمانِ منهم وسابقِيَّتِه، وما يُؤذِنُ به التَّعريفُ باللَّامِ مِن كونِهم عُهِدوا بالنِّفاقِ وطَرَيانِه عليهم بعدَ أنْ كانوا مُؤمِنينَ؛ ففيه تعريفٌ بسُوءِ عاقِبَتِهم، مع ما في ذلك مِن التَّفنُّنِ، ورِعايةِ الفاصلةِ[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وقال قبلُ: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [العنكبوت:٣]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا كان الذِّكْرُ هناك للمُؤمنِ والكافرِ، والكافرُ في قَولِه كاذِبٌ؛ فإنَّه يقولُ: اللهُ أكثَرُ مِن واحدٍ، والمؤمنُ في قَولِه صادقٌ؛ فإنَّه كان يقولُ: اللهُ واحدٌ، ولم يكُنْ هناك ذِكْرُ مَن يُضمِرُ خلافَ ما يُظهِرُ؛ فكان الحاصِلُ هناك قِسْمَينِ: صادقًا، وكاذبًا، وكان هاهنا المنافقُ صادقًا في قَولِه؛ فإنَّه كان يقولُ: اللهُ واحدٌ، فاعْتَبَرَ أمْرَ القلْبِ في المنافقِ، فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، واعْتَبَرَ أمْرَ القلْبِ في المؤمنِ، وهو التَّصديقُ، فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٨، ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٥).

الآيتان (١٢-١٣)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَثۡقَالَهُمۡ﴾: أي: أوزارَهم وآثامَهم، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ[1].

﴿يَفۡتَرُونَ﴾: يَختلِقون، ويَكذِبون؛ فـ(الافتراء) الاختِلاقُ، وهو ما عَظُم مِن الكَذِبِ، ومنه قيل: افترَى فُلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، وأصلُ (فري): قَطْعُ الشَّيءِ، ومِن ذلك: فَرَيتُ الشَّيءَ أفْريه فَرْيًا، وهو قطْعُه لإصلاحِه، وأفرَيْتَه: إذا أنت قطَعْتَه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى بعضَ دعاوى الكفَّارِ الباطِلةِ مُفَنِّدًا لها، فيقولُ: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ للمُؤمِنينَ: اتَّبِعوا طريقَتَنا ودينَنا، وسنتحَمَّلُ عنكم خطاياكم! وما هؤلاء الكُفَّارُ بحامِلينَ شيئًا مِن آثامِ مَنِ اتَّبَعوهم؛ فهم كاذِبونَ في زَعمِهم هذا.

ولَيَحمِلَنَّ هؤلاء الدَّاعُونَ إلى الكُفرِ والضَّلالِ ذُنوبَ أنفُسِهم، وذُنوبَ مَن أضَلُّوهم، ولَيُسْألُنَّ يومَ القيامةِ عمَّا كانوا يختَلِقونَه مِنَ الكَذِبِ والضَّلالِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٢٨، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢، ٤٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤، ٦٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى حالَ المؤمنينَ والمنافقينَ؛ ذكَر مقالةَ الكافرينَ قولًا واعتقادًا[١].

وأيضًا فالآيةُ بَيانٌ لِحَمْلِهم للمؤمنينَ على الكفْرِ بالاستِمالةِ، بعدَ بَيانِ حَمْلِهم لهم عليه بالأذيَّةِ والوعيدِ[٢].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ مُخاطِبينَ المُؤمِنينَ: اتَّبِعوا طريقَتَنا في الدِّينِ، وسنتحَمَّلُ عنكم آثامَكم -إن كان في اتِّباعِها إثمٌ- فيكونُ العذابُ علينا، دونَ أن يكونَ عليكم شَيءٌ[٣]!

﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾.

أي: ولن يَتحمَّلَ الكُفَّارُ شَيئًا مِن آثامِ مَنِ اتَّبَعوا طريقَتَهم الباطِلةَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥٠، ٥١).

قال ابن عاشور: (محاولةُ المشركينَ ارتدادَ المسلمينَ بمحاولاتِ فتنةٍ بالشَّكِّ والمغالَطةِ لِلَّذينَ لم يَقدِروا على فِتنتِهم بالأذى والعذابِ؛ إمَّا لعِزَّتِهم وخشيةِ بأسِهم... وإمَّا لكثرتِهم حينَ كثُرَ المسلمون وأَعْيَتِ المشركينَ حِيَلُ الصَّدِّ عن الإسلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١٠ - ١٤].

﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

أي: إنَّهم لَكاذِبونَ في زَعمِهم أنَّهم يَحمِلونَ ذُنوبَ المؤمِنينَ إن اتَّبَعوهم[(١)].

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ قد يُوهِمُ أنَّ الدُّعاةَ لن يَحمِلوا شيئًا مِن أوزارِ المَدْعُوِّينَ[(٢)]؛ عطَف عليه ما أفاد أنَّهم غيرُ ناجِينَ مِن حملِ تَبِعاتٍ لأقوامٍ آخَرينَ، وهم الأقوامُ الَّذين أضَلُّوهم، وسَوَّلوا لهم الشِّركَ والبُهتانَ على وجهِ التَّأكيدِ بحملِهم ذلك[(٣)]، فقال:

= (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦).

قال ابن عثيمين: (فصارت الآيةُ مُتضَمِّنةً لِلنَّفْيِ حُكمًا شرعيًّا، وللنَّفي حُكمًا واقعيًّا؛ فهُم في الشَّرعِ لا يَحمِلونَ أوزارَهم، وهم في الواقِعِ لا يحمِلونَ أوزارَهم أيضًا، ولو قالوا ما صدَقوا، ولكنْ يريدون أن يخدَعوهم ويَغُرُّوهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢١).

﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ ﴾.

أي: ولَيَحمِلَنَّ أولئك الدَّاعونَ إلى طَريقِ الضَّلالِ ذُنوبَ أنفُسِهم، وذُنوبَ أتْباعِهم الضَّالِّينَ، مِن غيرِ أن يَنقُصَ مِن ذُنوبِ الأتْباعِ شَيءٌ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٥].

﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾.

أي: ولَيُسْألَنَّ أولئك الكافِرونَ يومَ القيامةِ سُؤالَ تَوبيخٍ وتَقريعٍ عَمَّا كانوا يختَلِقونَه مِن الضَّلالِ، وتزيينِه للنَّاسِ[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ يُخبِرُ تعالى عن افتِراءِ الكُفَّارِ ودَعوتِهم للمُؤمِنينَ إلى دينِهم، وفي ضِمنِ ذلك تحذيرُ المؤمِنينَ مِن الاغترارِ بهم، والوُقوعِ في مَكرِهم[(٣)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ ﴾ فيه أنَّ كُلَّ مَن أسْلَك أحدًا طريقًا، كان شَريكَه في عَمَلِه فيها؛ فكان عليه مِثلُ وِزرِه إن كانت طريقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

رَدًى، وله مِثلُ أجرِه إن كانت سَبيلَ هُدًى؛ فمَن سنَّ سُنَّةً سَيِّئةً فعليه وِزْرُها ووِزْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يومِ القيامةِ، مِن غيرِ أن يَنقُصَ أحَدُهم مِن حِمْلِ الآخَرِ شَيئًا[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ حِرْصُ الكافرين على إغواءِ المؤمنينَ[٢].

٢- قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ نرى في المُتَّسِمينَ بالإسلامِ مَن يَستَنُّ بأولئك فيَقولُ لصاحِبِه -إذا أراد أن يُشَجِّعَه على ارتكابِ بعضِ العظائِمِ-: افعَلْ هذا، وإثمُه في عُنُقي! وكم مِن مَغرورٍ بمثلِ هذا الضَّمانِ مِن ضَعَفةِ العامَّةِ وجَهَلتِهم[٣]!

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ قال بعْدَه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾، فهناك نفى الحَملَ، وهاهنا أثبتَ الحَملَ، فكيف الجَمعُ بيْنَهما؟

الجوابُ: أنَّ الحَملَ المنفيَّ هو ما كان المقصودُ منه دفْعَ التَّبِعةِ عن الغيرِ، وتبرئَتَه مِن جناياتِه؛ فلا ينافيه إثباتُ حَملٍ آخَرَ عليهم هو حَملُ المؤاخَذةِ على التَّضليلِ في قَولِه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ إثباتُ عَدْلِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٥، ٣٦)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٩).

اللهِ؛ حيثُ لا يَحْمِلُ أحدٌ خطيئةَ أحدٍ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيه سؤالٌ: الصِّيغةُ في قَولِهم: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ أمرٌ، والأمرُ لا يَدخُلُه التَّصديقُ والتَّكذيبُ، فكيف يُفهَمُ قَولُه: ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؟

الجوابُ: أنَّ معناه شَرطٌ وجَزاءٌ، فكأنَّهم قالوا: إن تتَّبِعونا نَحمِلْ خطاياكم، وهم كَذَبوا في هذا؛ فإنَّهم لا يَحمِلونَ شَيئًا[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ التَّعبيرُ بصيغةِ الافتِعالِ في ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّهم كانوا يَعلَمونَ صِدقَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويَتعمَّدونَ الكَذِبَ في وَعدِهم لِمَن غَرُّوه[٣].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ وَصْفُهم بالكُفْرِ هاهنا دونَ ما سبَقَ؛ لِمَا أنَّ مَساقَ الكلامِ لبَيانِ جِناياتِهم، وفيما سبَقَ لبَيانِ جِنايةِ مَن أضَلُّوه[٤].

- وإنَّما أمَرُوا أنفُسَهم بالحمْلِ عاطفينَ على أمْرِهم بالاتِّباعِ؛ مُبالَغةً في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٢).

تعليقِ الحمْلِ بالاتِّباعِ، والوعْدِ بتَخفيفِ الأوزارِ عنهم -إنْ كانت- تَشجيعًا لهم عليه[١].

- وأخبَرَ أنَّهم يَحملون خَطاياهم على جِهَةِ التَّشبيهِ بالنَّقلِ، لكنَّهم أخْرَجوه في صِيغةِ الأمْرِ؛ لأنَّها أوجَبُ وأشَدُّ تأكيدًا في نفْسِ السَّامعِ مِنَ المُجازاةِ[٢]، ولفائدةِ تنزيلِ الشَّيءِ المُخْبَرِ عنه مَنزِلةَ المفروضِ المُلْزَمِ به[٣].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ مَجيءُ الأمْرِ بمعنى الخبَرِ؛ فأصْلُ الكلامِ: إنْ تَتَّبِعونا نَحملْ خَطاياكم؛ فعُدِلَ عنه إلى ما ذُكِرَ ممَّا هو خلافُ الظَّاهرِ مِن أمْرِهم بالحَملِ[٤]، وقد حَكى اللهُ تعالى عنهم قولَهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ بصِيغةِ الأمْرِ بلامِ الأمْرِ: إمَّا لأنَّهم نَطَقوا بمِثْلِ ذلك؛ لبَلاغتِهم، وإمَّا لإفادةِ ما تَضمَّنَتْه مقالتُهم مِن تأْكيدِ تحمُّلِهم ذلك؛ فصِيغَةُ أمْرِهم أنفُسَهم بالحمْلِ آكَدُ مِن الخبرِ عن أنفُسِهم بذلك، ومِن الشَّرطِ وما في معناهُ؛ لأنَّ الأمْرَ يَسْتدعي الامتثالَ، فكانت صِيغةُ الأمرِ دالَّةً على تَحقيقِ الوفاءِ بالحَمالةِ. وواوُ العطْفِ لجُملةِ ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ على جُملةِ ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ مُرادٌ منها المَعِيَّةُ بيْنَ مَضمونِ الجُملتينِ في الأمرِ، وليس المُرادُ منه الجمْعَ في الحُصولِ؛ فالجُملتانِ في قوَّةِ جُملتَيْ شرطٍ وجزاءٍ، والتَّعويلُ على القرينةِ؛ فكان هذا القولُ أدَلَّ على تأكيدِ الالتزامِ بالحالةِ -إنِ اتَّبَعَ المسلِمون سبيلَ المشركينَ- مِن أنْ يُقالَ: إنْ تَتَّبِعوا سبيلَنا نَحملْ خَطاياكم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((الأصول من علم الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤١٠).

بصِيغةِ الشَّرطِ، أو أنْ يُقالَ: اتَّبِعوا سبيلَنا فنَحمِلَ خَطاياكم، بفاءِ السَّببيَّةِ[١].

- وكذلك دلَّ قولُه: ﴿خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ على العُمومِ؛ لأنَّه جمْعٌ مُضافٌ، وهو مِن صِيَغِ العمومِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ إبطالٌ لقولِهم: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾؛ نقَضَ العمومَ في الإثباتِ بعُمومٍ في النَّفْيِ؛ لأنَّ (شيء) في سِياقِ النَّفْيِ يُفيدُ العُمومَ؛ لأنَّه نَكِرةٌ، وزِيادةُ حرْفِ (مِن) تنصيصٌ على العُمومِ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾؛ لأنَّ جُملةَ ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ تَضمَّنَت خُلُوَّ قولِهم: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ عن مُطابَقتِه للواقعِ في شَيءٍ، وذلك يَشتمِلُ على أنَّ مَضمونَها كذِبٌ صريحٌ؛ فكان مضمونُ جُملةِ ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ ممَّا اشتمَلَ عليه مَضمونُ جُملةِ ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾، وليس مَضمونُ الثَّانيةِ عينَ مَضمونِ الأُولى، بلِ الثَّانيةُ أَوْفى بالدَّلالةِ على أنَّ كذِبَهم مُحقَّقٌ، وأنَّه صِفةٌ لهم في خبَرِهم هذا وفي غَيرِه؛ ولهذا لم تُعطَفْ جُملةُ ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ لكَمالِ الاتِّصالِ بيْنَها وبيْن ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٩، ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٢٠، ٢٢١).

- قولُه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾ بَيانٌ لِمَا يَستتبِعُه قولُهم ذلك في الآخرةِ مِنَ المَضَرَّةِ لأنفُسِهم، بعدَ بَيانِ عدَمِ مَنفعتِه لِمُخاطبِيهم أصلًا. والتَّعبيرُ عن الخَطايا بالأثقالِ؛ للإيذانِ بغايةِ ثِقَلِها وكَونِها فادحةً. واللَّامُ جوابُ قَسَمٍ مُضمَرٍ، أيْ: وباللهِ لَيَحمِلُنَّ أثقالَ أنفُسِهم كاملةً[١].

- وفائدةُ ذِكْرِ ﴿أَثۡقَالَهُمۡ﴾ -مع أنَّه لو قِيل: (ولَيحمِلُنَّ أثقالًا مع أثقالِهم) لَأفادَ-: أنَّه أُرِيدَ بَيانُ استقلالِ أثقالِ أنفُسِهم، وأنَّها بَهَظَتْهم واستفرَغَتْ جُهْدَهم، ومع ذلك جُعِلَت أثقالُ الَّذين يُضِلُّونهم كالعِلاوةِ عليها[٢].

- قولُه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ تَذييلٌ جامعٌ لمُؤاخَذتِهم بجميعِ ما اختَلَقوه مِن الإفكِ والتَّضليلِ؛ سواءٌ ما أضَلُّوا به أتْباعَهم، وما حاوَلُوا به تَضليلَ المسلمينَ فلم يَقَعوا في أشْراكِهم، وقد شمِلَ ذلك كلَّه لَفْظُ الافتراءِ، كما عبَّرَ عن مُحاولتِهم تَغريرَ المسلمينَ بأنَّهم فيه كاذِبونَ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢١).

الآيتان (١٤-١٥)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلطُّوفَانُ﴾: أي: السَّيلُ العَظيمُ، والماءُ المُتناهي فِي الكَثرةِ، وأصلُ (طوف): يدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأن يَحُفَّ به[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ابتلاءَ نوحٍ عليه السَّلامُ بقومِه: ولقد أرسَلْنا نوحًا إلى قَومِه فمكَثَ فيهم داعيًا لهم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه تِسعَمئةٍ وخمسينَ سنةً، فأغرَقَهم الطُّوفانُ وهم ظالِمونَ لأنفُسِهم بالشِّركِ والتَّكذيبِ، وأنجَيْنا نوحًا ومَنْ حمَلَهم معه في السَّفينةِ، وجعَلْنا تلك السَّفينةَ عِبرةً للعالَمينَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان السِّياقُ للبَلاءِ والامتِحانِ، والصَّبرِ على الهَوانِ، وإثباتِ عِلمِ اللهِ وقُدرتِه على إنجاءِ الطَّائِعِ وتعذيبِ العاصي؛ ذَكَرَ مِنَ الرُّسُلِ الكِرامِ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- مَن طال صَبرُه على البلاءِ، ولم يَفتُرْ عَزمُه عن نصيحةِ العبادِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨١).

على ما يُعامِلونَه به مِن الأذى؛ تسليةً لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولتابعيه رَضيَ الله تعالى عنهم، وتثبيتًا لهم، وتهديدًا لِقُريشٍ[١].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا نوحًا إلى قَومِه المُشرِكينَ، فأقام فيهم نبيًّا داعيًا لهم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه تِسعَمئةٍ وخَمسينَ سَنةً[٢].

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

أي: فأهلَكَهم الماءُ الكثيرُ الَّذي نزَل مِن السَّماءِ، ونَبَع مِن الأرضِ، فأغرَقَهم وهم ظالِمونَ لأنفُسِهم بالشِّركِ والتَّكذيبِ؛ فاستَحَقُّوا عذابَ اللهِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾.

أي: فأنجَيْنا مِنَ الغَرَقِ والهلاكِ نوحًا ومَن حمَلَهم معه في السَّفينةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥٨، ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٠، ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٦٠، ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٨). =

كما قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأعراف: ٦٤].

﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وجعَلْنا تلك السَّفينةَ عِبرةً للعالَمينَ وحُجَّةً عليهم، وعلامةً على قُدرةِ اللهِ وعِلمِه، وإنجائِه للطَّائِعِ، وإهلاكِه للعاصي(١).

قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٢١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

= قال ابن عثيمين: (أي: أهلُ نوحٍ كُلُّهم -إلَّا ابنَه الكافِرَ وامرأتَه-، والمؤمِنون مِن قَومِه، وكذلك أيضًا الحيواناتُ ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧]). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢، ٢٢٣).
قال ابن كثير: (قولُه: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وجعَلْنا تلك السَّفينةَ باقيةً؛ إمَّا عَيْنُها كما قال قَتادةُ: إنَّها بَقِيت إلى أوَّلِ الإسلامِ على جبلِ الجُودِيِّ، أو نَوْعُها جعَلَه للنَّاسِ تَذكرةً لنِعَمِه على الخَلْقِ، كيف نجَّاهم مِنَ الطُّوفانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٦٢-٦٤).
وقال القرطبيُّ: (الهاءُ والألِفُ في «جَعَلْناها» لِلسَّفينةِ، أو لِلْعقوبةِ، أو لِلنَّجاةِ؛ ثلاثةُ أقوالٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ابتُدِئت القِصصُ بقِصَّةِ أوَّلِ رَسولٍ بعَثَه اللهُ لأهلِ الأرضِ؛ فإنَّ لِأَوَّليَّاتِ الحوادِثِ وَقعًا في نفوسِ المتأمِّلينَ في التَّاريخ[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ فيه سؤالٌ: ما الفائدةُ في ذِكرِ مُدَّةِ لُبثِه؟

الجوابُ: كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَضيقُ صَدرُه بسبَبِ عَدَمِ دُخولِ الكُفَّارِ في الإسلامِ، وإصرارِهم على الكُفرِ؛ فقال: إنَّ نوحًا لَبِث ألْفَ سَنةٍ -تقريبًا- في الدُّعاءِ، ولم يؤمِنْ مِن قَومِه إلَّا قليلٌ، وصبَرَ وما ضَجِرَ، فأنت أَوْلى بالصَّبرِ؛ لقِلَّةِ مُدَّةِ لُبثِك، وكثرةِ عَدَدِ أمَّتِك، وأيضًا كان الكُفَّارُ يَغترُّونَ بتأخيرِ العذابِ عنهم أكثَرَ، ومع ذلك ما نَجَوا، فبهذا المِقدارِ مِن التَّأخيرِ لا ينبغي أن يَغترُّوا؛ فإنَّ العذابَ يَلحَقُهم[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ فيه سؤالٌ: الاستِثناءُ في العدَدِ تكلُّمٌ بالباقي؛ فإذا قال القائلُ: لفُلانٍ علَيَّ عَشَرةٌ إلَّا ثلاثةً، فكأنَّه قال: علَيَّ سَبعةٌ، إذا عُلِمَ هذا فقَولُه: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ كقَولِه: تِسعمئةٍ وخمسين سنةً، فما الفائدةُ في العُدولِ عن هذه العبارةِ إلى غيرِها؟

الجوابُ: في ذلك فائدتانِ

الفائدةُ الأولى: أنَّ الاستِثناءَ يدُلُّ على التَّحقيقِ، وتركُه قد يُظَنُّ به التَّقريبُ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٦).

فإنَّ مَن قال: عاش فلانٌ ألْفَ سَنةٍ، يُمكِنُ أن يُتوهَّمَ أن يقولَ: ألف سنةٍ تقريبًا لا تحقيقًا، فإذا قال: إلَّا شهرًا أو إلَّا سنةً، يَزولُ ذلك التَّوهُّمُ، ويُفهَمُ منه التَّحقيقُ.

الفائدةُ الثَّانيةُ: أنَّ ذِكرَ لُبثِ نوحٍ عليه السَّلامُ في قَومِه كان لبيانِ أنَّه صبَر كثيرًا، ولم يؤمِنْ مِن قومِه إلا قليلٌ؛ ولذلك أتَى بعقدِ الألفِ؛ لأنَّه أعظمُ وأفخمُ، فهو أعلَى مراتِبِ الأعدادِ الَّتي لها اسمٌ مُفرَدٌ مَوضوعٌ، فالنَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أولى بالصَّبرِ مع قِصَرِ مُدَّةِ دُعائِه، وكثرةِ مَن آمَن به[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ استُدِلَّ به على جَوازِ الاستِثناءِ مِن العدَدِ[2].

٥- قول الله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، فيه ردٌّ على مَن قال: لا يُستثنَى مِن العَدَدِ عَقْدٌ صحيحٌ[3].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى لطيفةٍ، وهي: أنَّ اللهَ تعالى لا يُعذِّبُ على مجرَّدِ وجودِ الظُّلمِ، وإلَّا لَعَذَّبَ مَن ظلَمَ وتاب؛ فإنَّ الظُّلمَ وُجِدَ منه، وإنَّما يُعذِّبُ على الإصرارِ على الظُّلمِ؛ فقَولُه: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ يعني: أهلَكَهم وهم على ظُلمِهم، ولو كانوا تَركوه لَما أهلَكَهم[4].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾، استَدلَّ بعضُهم بهذه الآيةِ على أنَّ ساكنَ الدَّارِ يُدعَى (صاحِبَها)، وإن لم تكُنْ له مِلكًا[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤١٠).

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: يَعتَبِرونَ بها على أنَّ مَن كذَّب الرُّسُلَ آخِرُ أمرِه الهلاكُ، وأنَّ المؤمِنينَ سيَجعَلُ اللهُ لهم مِن كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، ومِن كُلِّ ضِيقٍ مَخرَجًا[١].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ شُروعٌ في بَيانِ ابتلاءِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بأذيَّةِ أُمَمِهم إثْرَ بَيانِ ابتِلاءِ المؤمنينَ بأذيَّةِ الكفَّارِ؛ تأكيدًا للإنكارِ على الَّذين يَحسَبون أنْ يُتْرَكوا بمُجرَّدِ الإيمانِ بلا ابتِلاءٍ، وحثًّا لهم على الصَّبرِ؛ فإنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ حيث ابْتُلوا بما أصابَهم مِن جِهَةِ أُمَمِهم مِن فُنونِ المكارِهِ وصَبرُوا عليها، فَلأنْ يَصبِرَ هؤلاءِ أَولى وأحْرى[٢].

- وذِكْرُ هذه القصَّةِ تَسليةٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِمَا كان يَلْقَى مِن أذَى الكفَّارِ، فذُكِرَ ما لَقِيَ أوَّلُ الرُّسلِ -وهو نوحٌ عليه السَّلامُ- مِن أذَى قَومِه المُمَدَدَ المُتطاوِلَةَ؛ تَسليةً لخاتمِ الرُّسلِ صلواتُ اللهِ عليه[٣]. وسِيقَت هذه القصَّةُ واللَّاتي بعْدَها شواهدَ على ما لَقِيَ الرُّسلُ والَّذين آمَنوا معهم مِن تَكذيبِ المشركينَ، كما صرَّحَ به قولُه عَقِبَ القصَّتينِ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٨] على أحدِ الوجهَينِ في تَفسيرِها[٤].

- وفي قَولِه: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ جاء المُميِّزُ أوَّلًا بالسَّنةِ، وثانيًا بالعامِ؛ لأنَّ تَكريرَ اللَّفظِ الواحدِ في الكلامِ الواحدِ حقيقٌ بالاجتنابِ في

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

البلاغةِ، إلَّا إذا وقَعَ ذلك لأجْلِ غرَضٍ يَنْتَحِيه المُتكلِّمُ؛ مِن تَفخيمٍ، أو تَهويلٍ، أو تَنويهٍ، أو نحوِ ذلك[١]. وقِيل: أُوثِرَ تَمييزُ ﴿أَلْفَ﴾ بـ﴿سَنَةٍ﴾؛ لطلَبِ الخِفَّةِ بلفظِ (سَنَة)، ومُيِّزَ ﴿خَمْسِينَ﴾ بلفْظِ ﴿عَامًا﴾؛ لئلَّا يُكرِّرَ لفْظَ سَنةٍ[٢]. أو عُبِّرَ بلفْظِ ﴿سَنَةٍ﴾ ذمًّا لأيَّامِ الكُفْرِ، وقال: ﴿عَامًا﴾ إشارةً إلى أنَّ زمانَ حياتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعدَ إغراقِهم كان رغَدًا واسعًا حَسنًا بإيمانِ المؤمنينَ، وخِصْبِ الأرضِ[٣].

- قولُه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ فقد طُوِيَ ذِكْرُ ما تَرتَّبَ عليه أخْذُهم بالطُّوفانِ، وهو استِمرارُ تَكذيبِهم[٤].

- وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ أبلَغُ مِن قولِه: «فأغرقَهم»؛ لأنَّ الأخْذَ يكونُ في مُقابَلةِ عملٍ؛ فهو جزاءٌ[٥].

- وقولُه: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: أخَذَهم وهم مُتلَبِّسون بالظُّلمِ -أي: الشِّركِ، وتكذيبِ الرَّسولِ- تلَبُّسًا ثابتًا لهم مُتقرِّرًا، وهذا تَعريضٌ للمشركينَ بأنَّهم سيأخُذُهم عذابٌ[٦].

٢- قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

- وفاءُ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ عطْفٌ على ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾، وهذا إيماءٌ إلى أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٦٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

اللهَ مُنْجِي المؤمنينَ مِن العذابِ[١].

- وإنَّما قال: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ الشَّاملَ لجَميعِ سكَّانِ الأرضِ؛ لأنَّ مَن لمْ يُشاهِدْ بَقايا سفينةِ نُوحٍ فإنَّه يُشاهِدُ السُّفنَ، فيَتذكَّرُ سَفينةَ نُوحٍ وكيف كان صُنْعُها بوَحْيٍ مِن اللهِ لإنْجاءِ نوحٍ ومَن شاء اللهُ نَجاتَه، ولأنَّ الَّذين مِن أهْلِ قَريتِها يُخبِرون عنها، وتُنقَلُ أخبارُهم، فتَصِيرُ مُتواتِرةً[٢].

- وأفرَدَ ﴿آيَةً﴾، وجاء بالفاصلةِ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّ إنجاءَ السُّفنِ أمْرٌ مَعهودٌ؛ فالآيةُ إنجاؤُه تعالى أصحابَ السَّفينةِ وقْتَ الحاجةِ، ولأنَّها بَقِيَت أعوامًا حتَّى مرَّ عليها النَّاسُ ورَأَوها، فحصَلَ العِلْمُ بها لهم؛ فناسَبَ ذلك قولُه: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٧).

الآيات (١٦-١٨)

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَوْثَٰنًا﴾: أي: أصنامًا، والوثَنُ: هو ما كان يُعبدُ مِن حجارةٍ أو جصٍّ، وقيل: الصَّنمُ: ما كان مصَوَّرًا، والوثنُ: ما كان مِن غيرِ صورةٍ، وقيل: الوثنُ كلُّ ما كان منحوتًا مِن خشبٍ أو حجرٍ، والصَّنمُ: ما كان مِن ذهبٍ أو فضَّةٍ أو نُحاسٍ، واشتِقاقُه مِن قولِهم: وَثَنَ الشَّيءُ، إذا قام في مكانِه وثبَت، فسُمِّي الصَّنمُ وثنًا؛ لأنَّه يُنصَبُ ويُركزُ في مكانٍ، فلا يَبرَحُ عنه[1].

﴿إِفْكًا﴾: أي: كَذِبًا، وقيل: الإفكُ هو أسْوَأُ الكذِبِ؛ لأنَّه قلْبٌ للكلامِ عن الحقِّ إلى الباطلِ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قلبِ الشَّيءِ، وصَرْفِه عن جِهتِه[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ابتلاءَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ بقومِه: واذكُرْ إبراهيمَ إذ قال لقَومِه: اعبُدوا اللهَ واتَّقوه؛ ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتُم تعلَمونَ، إنَّما تَعبُدونَ مِن دونِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٧٩) و(١٧/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥).

اللهِ أوثانًا، وتَصنعونَ بأيديكم تلك الأوثانَ فتُسَمُّونَها آلهةً كَذِبًا! إنَّ أوثانَكم الَّتي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ لا تَملِكُ لكم رِزقًا؛ فاطلُبوا الرِّزقَ مِن اللهِ وَحْدَه، واعبُدوه واشكُروه على رِزقِه، إليه وحْدَه تُرجَعونَ يومَ القيامةِ.

وإن تُكَذِّبوا فقد كذَّبَتْ جماعاتٌ مِن قَبْلِكم، فأهلَكَهم اللهُ، وما على الرَّسولِ إلَّا أن يُبَلِّغَ قَومَه بلاغًا واضِحًا، وليس عليه هِدايتُهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان بلاءُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عظيمًا في قَذفِه في النَّارِ، وإخراجِه مِن بلادِه؛ أتْبَع نوحًا به، فقال[1]:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾.

أي: واذكُرْ[2] إبراهيمَ إذ قال لِقَومِه: اعبُدوا اللهَ وَحْدَه، واتَّقوا سَخَطَه وعذابَه بفِعلِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٦).

(٢) ممَّن اختار أنَّ المعنى: واذكرْ إبراهيمَ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٦٦).

ويجوزُ أن يكونَ (إبْراهِيمَ) معطوفًا على (نوح)، أي: وأرسَلْنا إبراهيمَ. ويجوزُ أن يكونَ معطوفًا على الضَّميرِ في ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ [العنكبوت: ١٥]. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: عبادةُ اللهِ وَحْدَه وتَقْواهُ خيرٌ لكم في دُنياكم وأُخْراكم مِن تَركِ ذلك، إن كنتُم تَعلَمونَ؛ فلا يَعقِلُ خَيريَّةَ عِبادةِ اللهِ وَحْدَه وتَقْواهُ إلَّا ذو عِلمٍ[1].

﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَهم بعبادةِ اللهِ وتَقْواه؛ نهاهم عن عبادةِ الأصنامِ، وبيَّن لهم نَقْصَها، وعَدَمَ استِحقاقِها للعبوديَّةِ، فقال[2]:

﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: إنَّما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ أوثانًا لا تَستَحِقُّ شَيئًا مِن رُتبةِ الألوهيَّةِ[3].

﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾.

أي: وتَصنَعونَ بأيديكم تلك الأوثانَ، وتُسَمُّونَها آلهةً، وتَختَلِقون الكذِبَ بالأمرِ بعِبادتِها[4]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٦، ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٧-٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٤، ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٥)، ((تفسير =

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾.

أي: إنَّ أوثانَكم الَّتي تَعبُدونَها ناقِصةٌ وعاجِزةٌ، لا تَستطيعُ أن تَرزُقَكم أيَّ شَيءٍ مِن الرِّزقِ ولو قليلًا[1].

﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾.

= ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٥).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ أي: تَقولون كذِبًا: ابنُ أبي زمنين، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٧٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦١١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٧).

وذلك على أنَّ معنى تَخْلُقونَ: تَكذِبون، فهو مِن اختِلاقِ الكذِبِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٧).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: تَعمَلون الأصنامَ بأيديكم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٣).

قال ابن جُزَي: (﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ هو مِنَ الخِلقةِ، يُريدُ به نحْتَ الأصنامِ، فسَمَّاهُ خِلْقةً على وجهِ التَّجَوُّزِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٣).

وقال السعدي: (قال: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ تَنحِتونها وتَخلُقونها بأيديكم، وتَخلُقون لها أسماءَ الآلهةِ، وتَختلِقون الكذِبَ بالأمرِ بعبادتِها، والتَّمسُّكِ بذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

وقال الزمخشريُّ: (واختلاقُهم الإفكَ: تَسميتُهمُ الأوثانَ آلهةً وشُركاءَ لله أو شُفعاءَ إليه. أو سمَّى الأصنامَ: إفْكًا، وعمَلَهم لها ونَحْتَهم: خَلْقًا للإفكِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٥).

أي: فاطلُبوا الرِّزقَ كُلَّه مِنَ اللهِ وَحْدَه، ولا تَطلُبوه ممَّن سِواه مِن الأوثانِ وسائرِ الخَلقِ[١].

﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾.

أي: واعبُدوا اللهَ وَحْدَه وتذَلَّلوا له، واشكُروه على رِزقِه وسائرِ نِعَمِه[٢].

﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

أي: إلى الله وَحْدَه تُرجَعونَ يومَ القيامةِ، فيُحاسِبُكم ويُجازيكم على أعمالِكم[٣].

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا فرَغَ مِن بيانِ التوحيدِ؛ أتى بَعْدَه بالتَّهديدِ، فقال[٤]:

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾.

أي: وإن تُكذِّبوا بالحَقِّ فقد كذَّبَتْ به جماعاتٌ مِن قَبْلِكم، فأهلَكَهم اللهُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٢، ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٣).

قيل: هذا مِن كلامِ إبراهيمَ لِقَومِه. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، وهو ظاهِرُ اختيارِ البِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٤). =

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أي: وما على رَسولِ اللهِ إلَّا أن يُبَلِّغَ قَومَه ما أمَرَه اللهُ بتبليغِه لهم بلاغًا واضِحًا مُوضِّحًا للحَقِّ، وليس عليه هِدايتُهم(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- يَنبوعُ الخَيرِ وأصْلُه: إخلاصُ العَبدِ لِرَبِّه عِبادةً واستِعانةً، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وفي قَولِه تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وفي قَولِه تعالى هنا: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾، بحيث يَقطَعُ العبدُ تعلُّقَ قَلبِه مِن المخلوقينَ انتِفاعًا بهم أو عملًا لأجْلِهم، ويَجعَلُ هِمَّتَه رَبَّه تعالى، وذلك بمُلازَمةِ الدُّعاءِ له في كُلِّ مَطلوبٍ؛ مِن فاقةٍ وحاجةٍ ومَخافةٍ وغيرِ ذلك، والعَمَلِ له بكلِّ محبوبٍ، ومَن أحْكَمَ هذا فلا يمكِنُ أن يُوصَفَ ما يُعقِبُه ذلك(٢).

= وقيل: هذا مِن كلام الله تعالى خِطابًا لكُفَّار قُرَيش. أي: وإن تُكَذِّبوا رسولَنا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن قالَ بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٦، ٢٢٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِنَ السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٤٥).

وقيل: هذا مِن كلام النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلم لكُفَّارِ قُرَيش. يعني: قُلْ لهم يا محمَّدُ: وإن تُكَذِّبوا فقد كذَّب أمَمٌ مِن قَبْلِكم. وممَّن قال بذلك: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٧، ٤٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩، ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٤).

قال ابن عاشور: (إن كان مِن كلام إبراهيمَ فالمرادُ بالرَّسولِ إبراهيمُ... وإن كان مِن خِطابِ الله مُشرِكي قُرَيشٍ فالمرادُ بالرَّسولِ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٥٩، ٦٦٠).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾ أي: عِبادةً يَقبَلُها تعالى، وهي ما كان خالِصًا عن الشِّركِ؛ فإنَّ مَن يكونُ كذلك يَستَحِقُّ ذلك، ويُثيبُ العابِدَ له، ويُعاقِبُ الزَّاهِدَ فيه، فلا يَشغَلْكم ابتِغاءُ الرِّزقِ بالأسبابِ الظَّاهِرةِ عن عبادتِه؛ فإنَّها هي الأسبابُ الحقيقيَّةُ، فرُبَّما حُرِمَ العبدُ الرِّزقَ بالذَّنْبِ يُصيبُه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ فأخبَرَ أنَّهم يَخلُقونَ إفْكًا قبْلَ النَّهيِ؛ ففيه بيانُ قُبْحِ أعمالِ الكُفَّارِ قبْلَ النَّهيِ، وقبلَ إنكارِ الرُّسُلِ عليهم -خلافًا لِمَن لا يُثبِتُ حَسَنًا ولا قبيحًا إلَّا بالأمرِ وَالنَّهيِ- فما فعَلُوه قبْلَ مجيءِ الرُّسلِ كان سَيِّئًا وقبيحًا وشرًّا؛ لكنْ لا تَقومُ عليهم الحُجَّةُ إلَّا بالرَّسولِ[٢].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ فيه إشارةٌ إلى تفرُّقِ الهَمِّ بكَثرةِ المعبودِ، والكَثرةُ يَلْزَمُها الفُرقةُ، ولا خيرَ في الفُرقةِ، ومادَّةُ «وثن» بجَميعِ تقاليبِها -واويَّةً ويائيَّةً ومَهموزةً- تَدورُ على الزِّيادةِ والكثرةِ، ويَلزَمُها الفُرقةُ مِن اختِلافِ الكَلِمةِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ دَلالةٌ على صحَّةِ إطلاقِ الخَلْقِ على فِعلِ المخلوقِ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٧٨- ٦٨١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين)) (٧/ ٢٦٤).

أنَّه ينبغي الاستِدلالُ بالمحسوسِ على المعقولِ؛ فهنا دليلٌ محسوسٌ، ووجهُ الاستِدلالِ بالمحسوسِ على المعقولِ أنَّ المحسوسَ لا يُنكِرُه أحدٌ، لكنَّ المعقولَ قد لا يَتصَوَّرُه الإنسانُ فضلًا عن كَونِه يُقِرُّ به، فالاستدلالُ بالشَّيءِ المحسوسِ على المعقولِ مِن طُرُقِ المُناظَرةِ وإقامةِ الحُجَّةِ والإلزامِ[١]، وقد سلَك إبراهيمُ عليه السَّلامُ مَسلَكَ الاستِدلالِ بالنِّعَمِ الحِسِّيَّةِ؛ لأنَّ إثباتَها أقرَبُ إلى أذهانِ العُمومِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ دَلالةٌ على الأمرِ بمسألةِ الخالقِ، والنَّهيِ عن مسألةِ المَخلوقِ، فلَمْ يَقُلْ سُبحانَه: «فابتغوا الرِّزقَ عندَ اللهِ»؛ لأنَّ تقديمَ الظَّرفِ يُشْعِرُ بالاختِصاصِ والحَصْرِ، كأنَّه قال: «لا تَبتغوا الرِّزقَ إلَّا عندَ اللهِ»[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ أشار بصيغةِ الافتِعالِ إلى السَّعيِ فيه؛ لأنَّه أجرَى عادتَه سُبحانَه أنَّه في الغالِبِ لا يُؤتيه إلَّا بكَدٍّ مِنَ المرزوقِ وجُهدٍ[٤].

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ إشارَةٌ إلى عدَمِ المنفعةِ في الحالِ وفي المآلِ؛ وهذا لأنَّ النَّفعَ إمَّا في الوجودِ، وإمَّا في البقاءِ، لكنْ ليس منهم نفعٌ في الوجودِ؛ لأنَّ وُجودَهم منكم حيثُ تَخلُقونَها وتَنحِتونَها، ولا نفعَ في البقاءِ؛ لأنَّ ذلك بالرِّزقِ، وليس منهم ذلك، ثُمَّ بَيَّن أنَّ ذلك كلَّه حاصلٌ مِنَ اللهِ، فقال: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾، فقَولُه: ﴿ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى استِحقاقِ عُبوديَّتِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٢، ٤١٣).

لِذَاتِه، وقولُه: ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ إشارةٌ إلى حصولِ النَّفعِ منه عاجِلًا وآجِلًا[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أنَّ مِن أسبابِ تَحصيلِ الرِّزقِ وبقائِه: العِبادةَ والشُّكرَ؛ فقَولُه: ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾ هذا سببٌ للرِّزقِ، وقولُه: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ هذا سَبَبٌ للبقاءِ[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ وُجوبُ شُكْرِ النِّعمةِ[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيه إثباتُ الجزاءِ على الأعمالِ؛ لأنَّ الفائدةَ مِن هذا الإخبارِ بأنَّهم سيُبْعَثُون ويُجازَون، ليس مُجَرَّدَ بَعْثٍ بدونِ جزاءٍ! بل لا بُدَّ فيه مِن جزاءٍ[٤].

١١- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ يدُلُّ على أنَّ تأخيرَ البيانِ عن وَقتِ الحاجةِ لا يجوزُ؛ لأنَّ الرَّسولَ إذا بلَّغ شَيئًا ولم يُبَيِّنْه، فإنَّه لم يأتِ بالبلاغِ المُبينِ، فلا يكونُ آتيًا بما عليه[٥].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أنَّ الرُّسُلَ لا يجبُ عليهم هِدايةُ الخَلْقِ، فليس عليهم إلَّا البلاغُ، أمَّا الهدايةُ فإلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وكذلك الحسابُ على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾[٦] [الرعد: ٤٠].

١٣- في قولِ الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أنَّ القرآنَ مُتضَمِّنٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٣).

لجميع الأحكام العقديَّةِ والعمليَّةِ، وأنَّه أتَى بذلك على أكمَلِ وجهٍ وأبْيَنِه؛ لقوله: ﴿إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ فعليه البلاغُ لِكُلِّ ما أُرسِلَ به، والنَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُرسِلَ بعقائدَ صحيحةٍ سليمةٍ، وبأعمالٍ قَويمةٍ، وبأقوالٍ مستقيمةٍ، وعلى هذا نَستدِلُّ بهذه الآيةِ على أنَّ جميعَ الشَّريعةِ بَيِّنَةٌ مُكَمَّلَةٌ واضحةٌ، فنَرُدُّ بها على جميعِ أهلِ البِدعِ؛ لأنَّ أهلَ البدعِ يَستَلْزِمُ قولُهم ألَّا يكونَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بَلَّغَ البلاغَ المُبينَ!

فإن قال قائل: يوجَدُ وقائعُ الآنَ تقعُ ولا نرى لها ذِكْرًا في القرآنِ ولا في السُّنَّةِ!

فالجوابُ: إنَّها مُبَيَّنَةٌ بيانَ الجنسِ، فليس بلازِمٍ أنَّ يأتيَ القرآنُ بكُلِّ فردٍ، أو أنَّ السُّنَّةَ تأتي بكُلِّ فردٍ؛ لأنَّ أفرادَ القضايا لا حَصْرَ لها، ولو أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى ذَكَر في القرآنِ كلَّ قضيَّةٍ تأتي إلى يومِ القيامةِ، فكم يكونُ القرآنُ مِن مجلَّدٍ؟! لَكِنَّنا نقولُ: هذه الأفرادُ -أفرادُ هذه المسائلِ- موجودةٌ بأجناسِها وعِلَلِها وقَواعدِها؛ إمَّا أن تكونَ بالقياسِ، وإمَّا أنَّها مَسكوتٌ عنها، والسُّكوتُ في مَقامِ البيانِ بيانٌ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ إيرادُ قصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ليس إلَّا إرادةً للتَّنفيسِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنْ تكونَ مَسْلَاةً له، وسبيلَ تفريجٍ عليه بأنَّ أباهُ إبراهيمَ خَليلَ اللهِ كان قد مُنِيَ بنَحْوِ ما مُنِيَ به؛ مِن شِركِ قومِه، وعِبادتِهم الأوثانَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٤، ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٧).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بعِبادةِ اللهِ. وقد أُجْمِلَ الخبرُ في هذه الجُملةِ، وفُصِّلَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ الآيةَ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ بَيانٌ لبُطلانِ دِينِهم وشَرِّيَّتِه في نفْسِه، بعدَ بَيانِ شَرِّيَّتِه بالنِّسبةِ إلى الدِّينِ الحقِّ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: ١٦]. وقصْرُهم على عِبادةِ الأوثانِ يجوزُ أنْ يكونَ قصْرًا على عِبادتِهم الأوثانَ، أي: دونَ أنْ يَعبُدوا اللهَ، فهو قَصرٌ حقيقيٌّ؛ إذ كان قومُ إبراهيمَ لا يَعبُدون اللهَ؛ فالقصْرُ مُنصَبٌّ على قولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: إنَّما تَعبُدون غيرَ اللهِ، وبذلك يكونُ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حالًا مِن ﴿أَوۡثَٰنٗا﴾، أي: حالَ كونِها مَعبودةً مِن دونِ اللهِ، وهذا مُقابِلُ قولِه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، دونَ أنْ يقولَ لهم: (لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ)، لكنَّ قومَ إبراهيمَ قد وُصِفُوا بالشِّركِ في قَولِه تعالى في سُورةِ (الأنعام): ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]؛ فهُم مِثْلُ مُشرِكي العربِ؛ فالقصرُ فيه مُنصَبٌّ على عِبادتِهم المَوصوفةِ بالوَثنيَّةِ، أي: ما تَعبُدون إلَّا صُوَرًا لا إدراكَ لها؛ فيكونُ قصْرَ قلْبٍ لإبطالِ اعتِقادِهم إلهيَّةَ تلك الصُّوَرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٤، ٢٢٥).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ بَيانٌ لشَرِّيَّةِ ما يَعبُدونَه مِن حيثُ إنَّه لا يَكادُ يُجْدِيهم نَفعًا[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ إنْ كان قومُ إبراهيمَ يَعترِفون للهِ تعالى بالإلهيَّةِ والخلْقِ والرِّزقِ، ولكنَّهم يَجعَلون له شُركاءَ في العِبادةِ لِيَكونوا لهم شُفعاءَ، كحالِ مُشرِكي العرَبِ؛ تكونُ الجُملةُ تَعليلًا لجُملةِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦]، أي: هو المُستحِقُّ للعِبادةِ التي هي شُكْرٌ على نِعَمِه. وإنْ كان قومُه لا يُثبِتون إلهيَّةً لغيرِ أصنامِهم، كانتْ جُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مُستأنَفةً ابتدائيَّةً؛ إبطالًا لاعتِقادِهم أنَّ آلهتَهم تَرزُقهم، ويُرجِّحُ هذا الاحتِمالَ التَّفريعُ في قَولِه: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ تَنكيرُ ﴿رِزۡقٗا﴾ في سِياقِ النَّفيِ يدُلُّ على عُمومِ نفْيِ قُدرةِ أصنامِهم على كلِّ رِزقٍ ولو قليلًا. وتَفريعُ الأمْرِ بابتِغاءِ الرِّزقِ مِن اللهِ إبطالٌ لِظَنِّهم الرِّزقَ مِن أصنامِهم، أو تَذكيرٌ بأنَّ الرَّازقَ هو اللهُ؛ فابتغاءُ الرِّزقِ منه يَقْتضي تَخصيصَه بالعِبادةِ كما دلَّ عليه عطْفُ ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾. ولامُ التَّعريفِ في ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ لامُ الجنسِ المفيدةُ للاستِغراقِ بمَعونةِ المقامِ، أي: فاطْلُبوا كلَّ رِزقٍ قَلَّ أو كَثُرَ مِن اللهِ دونَ غيرِه. والمُعَرَّفُ بلامِ الجنسِ في قوَّةِ النَّكرةِ، فكأنَّه قِيل: فابْتَغوا عندَ اللهِ رِزقًا[٣]. وخَصَّ الرِّزقَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٢٥، ٢٢٦).

لِمَكانتِه مِن الخَلْقِ، ونكَّره؛ لأنَّ المقصودَ أنَّهم لا يَقدِرونَ على شَيءٍ منه[١].

- وأيضًا نكَّرَ الرِّزقَ في قَولِه: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾، ثمَّ عرَّفه في قَولِه: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾؛ لأنَّه أراد لا يَستطيعون أنْ يَرزُقوكم شيئًا مِن الرِّزقِ، فابْتَغوا عندَ اللهِ الرِّزقَ كلَّه؛ فإنَّه هو الرَّزَّاقُ وحْدَه، لا يَرزقُ غيرُه؛ فنكَّر أوَّلًا للتَّعليلِ مُبالَغةً في النَّفيِ، ثمَّ عرَّفَ للاستِغراقِ؛ لِيَشْملَ كلَّ ما يُسمَّى رِزقًا[٢].

- وفي قَولِه: ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ عُدِّيَ الشُّكرُ باللَّامِ جرْيًا على أكثَرِ استعمالِه في كلامِ العربِ؛ لِقَصدِ إفادةِ ما في اللَّامِ مِن معنى الاختِصاصِ، أي: الاستِحقاقِ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بعِبادتِه وشُكْرِه، أي: لأنَّه الَّذي يُجازي على ذلك ثَوابًا، وعلى ضِدِّه عِقابًا؛ إذ إلى اللهِ لا إلى غيرِه مَرجِعُكم بعدَ الموتِ. وفي هذا إدماجُ تَعليلِ العِبادةِ بإثباتِ البعثِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مِن بقيَّةِ مَقالةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ بأنْ يكونَ رأى منهم مَخائِلَ التَّكذيبِ، ففرَضَ وُقوعَه، أو يكونَ سبَقَ تَكذيبُهم إيَّاهُ مَقالتَه هذه؛ فيكونَ الغرَضُ مِن هذه الجُملةِ لازِمَ الخبَرِ، وهو أنَّ تَكذيبَهم إيَّاهُ ليس بعَجيبٍ، فلا يَضيرُه، ولا يَحْسَبوا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّهم يَضِيرونه به ويَتَشَفَّون منه؛ فإنَّ ذلك قد انتابَ الرُّسلَ قبْلَه مِن أُمَمِهم. ويجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُعترِضةً، والواوُ اعتراضيَّةً، واعترَضَ هذا الكلامُ بيْنَ كلامِ إبراهيمَ وجوابِ قومِه؛ فهو كلامٌ مُوَجَّهٌ مِن جانبِ اللهِ تعالى إلى المشركينَ، الْتفَتَ به مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ تَسجيلًا عليهم، والمقصودُ منه بَيانُ فائدةِ سَوقِ قصَّةِ نُوحٍ وإبراهيمَ عليهما السَّلامُ، وأنَّ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُسوةً برُسلِ الأُمَمِ الَّذين قبْلَه، وخاصَّةً إبراهيمَ جدَّ العربِ المقصودينَ بالخِطابِ على هذا الوجْهِ[1].

- وجُملةُ ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ إعلامٌ للمُخاطَبينَ بأنَّ تَكذيبَهم لا يَلحَقُه منه ما فيه تَشَفٍّ منه؛ فإنْ كان مِن كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ فالمرادُ بالرَّسولِ إبراهيمُ، سلَكَ مَسلكَ الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإيذانِ عُنوانِ الرَّسولِ بأنَّ واجِبَه إبلاغُ ما أُرسِلَ به بيِّنًا واضحًا، وإنْ كان مِن خِطابِ اللهِ مُشركي قُرَيشٍ فالمرادُ بالرَّسولِ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقد غلَبَ عليه هذا الوصْفُ في القُرآنِ، مع الإيذانِ بأنَّ عُنوانَ الرِّسالةِ لا يَقْتضي إلَّا التَّبليغَ الواضحَ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٧).

الآيات (١٩-٢٢)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُبْدِئُ﴾: أي: يُنشئُ ويَخترِعُ ويَستأنِفُ، وأصلُ (بدأ): مِن افتِتاحِ الشَّيءِ[1].

﴿تُقْلَبُونَ﴾: أي: تُرجَعونَ وتُرَدُّونَ، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جهةٍ إلى جهةٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالى ما يدُلُّ على أنَّ البعثَ حقٌّ، وأنَّه تعالى لا شيءَ يُعجِزُه، فيقولُ: أوَلَمْ يَرَ أولئك المُشرِكونَ المُنكِرونَ للبَعثِ كيف يَبتدِئُ اللهُ الخَلْقَ، ثمَّ يُعيدُه مِن بعدِ فنائِه؟ إنَّ ذلك على اللهِ تعالى أمرٌ سَهلٌ.

ويأمُرُ رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَلفِتَ أنظارَ قَومِه إلى النَّظرِ والتَّأمُّلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

قائلًا له: قُلْ لهم -يا محمَّدُ-: سيروا في الأرضِ، فانظُروا كيف بدَأ اللهُ الخَلْقَ مِن العَدَمِ، ثمَّ هو سُبحانَه يُنشِئُ الخَلقَ نَشأةً ثانيةً بعدَ فَنائِه، إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ.

يُعذِّبُ سُبحانَه مَن يَشاءُ، ويَرحَمُ مَن يشاءُ، وإليه وَحْدَه تُرَدُّونَ يومَ القيامةِ، وما أنتم بمُفلِتينَ مِن عذابِ اللهِ، سواءٌ أكُنتُم في الأرضِ أم في السَّماءِ، وليس لكم مِن دونِ اللهِ وليٌّ ولا نصيرٌ.

ثمَّ يبيِّنُ مصيرَ الكافرينَ، فيقولُ: والَّذين كفَروا بآياتِ اللهِ وأنكَروا البَعثَ أولئك يَئِسوا مِن رحمتي، وأولئك لهم عذابٌ مؤلِمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى الأصلَ الأوَّلَ، وهو: التَّوحيدُ، وأشار إلى الأصلِ الثَّاني، وهو: الرِّسالةُ، بقَولِه: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ شرَع في بيانِ الأصلِ الثَّالثِ، وهو: الحَشرُ. وهذه الأصولُ الثَّلاثةُ لا يَكادُ يَنفَصِلُ بَعضُها عن بعضٍ في الذِّكرِ الإلهيِّ؛ فأينَما يَذكُرِ اللهُ تعالى منها اثنَينِ يَذكُرِ الثَّالِثَ[1].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

أي: أوَلَمْ يَرَ[2] المُشرِكونَ المُنكِرونَ للبَعثِ كيف يَبتَدِئُ اللهُ الخَلْقَ بعدَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٩).

(٢) قال ابنُ عاشور: (الرُّؤيةُ يجوزُ أن تكونَ بَصَريَّةً، والاستِدلالُ بما هو مُشاهَدٌ مِن تجدُّدِ المخلوقاتِ في كُلِّ حينٍ بالولادةِ وبُروزِ النَّباتِ دليلٌ واضِحٌ لكُلِّ ذي بصَرٍ... ويجوزُ أن تكونَ الرُّؤيةُ عِلميَّةً مُتعَدِّيةً إلى مفعولَينِ، أنكَر عليهم تركَهم النَّظرَ والاستِدلالَ الموصِلَ إلى عِلمِ =

العدَمِ، ثمَّ يُعيدُه مِن بَعدِ فَنائِه وبَلائِه مرَّةً أُخرَى[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

= كيف يُبدئُ الله الخلْقَ ثم يُعيدُه؛ لأنَّ أدلَّةَ بَدءِ الخلقِ تُفضي بالنَّاظِرِ إلى العِلمِ بأنَّ الله يعيدُ الخلْقَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٨، ٢٢٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٨، ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٤، ٤١٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الخَلْقُ والبعثُ، أي: خَلْقُ الإنسانِ نُطْفةً ثمَّ عَلَقةً ثمَّ مُضْغةً حتَّى يَتكامَلَ خَلْقُه، ثُمَّ إعادتُه حيًّا في الآخرةِ عندَ البعثِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، ومكِّي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، والعليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٥٠).

وقال القرطبي: (وقيل: المعنى: أوَلَمْ يَرَوْا كيف يُبْدِئُ اللهُ الثِّمارَ فتَحْيا، ثُمَّ تَفنى، ثمَّ يعيدُها أبدًا. وكذلك يَبدأُ خلْقَ الإنسانِ، ثُمَّ يُهْلِكُه بعدَ أنْ خَلَق منه وَلَدًا، وخَلَقَ مِنَ الولدِ وَلَدًا. وكذلك سائرُ الحيوانِ. أي: فإذا رأيْتُم قُدرَتَه على الإبداءِ والإيجادِ، فهو القادرُ على الإعادةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٦).

وقال ابنُ القَيِّم: (فالحيوانُ والنَّباتُ في مَبدأٍ ومَعَادٍ، وزمانُ العالَمِ في مبدأٍ ومَعَادٍ، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾). ((التبيان في أيمان القرآن)) (١/ ١٧٩).

تنبيه: قال الرَّسْعَنيُّ: (قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ ليس بمَعطوفٍ على ﴿يُبْدِئُ﴾، وليست الرُّؤيةُ واقعةً عليه، وإنَّما هو إخبارٌ مُستأنَفٌ بالإعادةِ بعدَ الموتِ، ونحوُه قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]؛ فإنَّ النَّظَرَ وقَعَ على الابتداءِ، دونَ الإنشاءِ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٠٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير العثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٨).

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

أي: إنَّ ذلك[١] أمرٌ سَهلٌ على اللهِ تعالى، والَّذي قَدَر على الإبداءِ قادِرٌ على الإعادةِ، وهو إذا أراد شَيئًا قال له: كُنْ؛ فيَكونُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٢].

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ساق الدَّليلَ المشاهَدَ فى الأنفُسِ؛ أرشَد إلى الاعتِبارِ بما فى الآفاقِ مِنَ الآياتِ المُشاهَدةِ، فقال[٣]:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾.

---

(١) قيل: المشارُ إليه هنا: الإبداءُ والإعادةُ. وممَّن قال بذلك: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٩).
وقيل: المرادُ بها: الإعادةُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: تفسير ((مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ١٢٧).

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشركينَ المُنكرينَ للبَعثِ بعدَ الموتِ: سافِروا في الأرضِ؛ لِتَنظُروا كيف بدأ اللهُ الخَلْقَ مِنَ العَدَمِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

أي: ثمَّ اللهُ الَّذي بَدأ الخَلقَ مِنَ العَدَمِ، يُنْشِئُه نَشْأَةً ثانيةً بعدَ فَنائِه[(٢)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُعجِزُه فِعلُ شَيءٍ، ومِن ذلك بَعْثُ خَلقِه كما كانوا قبْلَ مَوتِهم[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠).
قال السعدي: (﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ فإنَّكم ستَجِدون أُمَمًا مِنَ الآدميِّينَ والحيواناتِ لا تَزالُ تُوجَدُ شيئًا فشيئًا، وتَجِدون النَّباتَ والأشجارَ كيف تَحدُثُ وَقتًا بعدَ وقتٍ، وتَجِدونَ السَّحابَ والرِّياحَ ونحوَها مُستمِرَّةً في تَجدُّدِها، بل الخَلْقَ دائمًا في بَدءٍ وإعادةٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣١).

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى النَّشْأَةَ الآخِرةَ؛ ذكَرَ ما يَكونُ فيها، وهو: تعذيبُ أهلِ التَّكذيبِ عَدلًا وحِكمةً، وإثابةُ أهلِ الإنابةِ فَضْلًا ورَحمةً[١]، فقال:

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾.

أي: يُعذِّبُ اللهُ مَن يَشاءُ تَعذيبَه على ذُنوبِه بعَدلِه، ويَرحَمُ مَن يشاءُ رَحمتَه مِنَ المؤمِنينَ بفَضلِه[٢].

﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴾.

أي: وإلى اللهِ تُرَدُّونَ يومَ القيامةِ فيَبعثُكم بعدَ مَوتِكم للحِسابِ والجَزاءِ[٣].

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا لم يُبقِ اللهُ تعالى للقُدرةِ على إعادتِهم مانِعًا يُدَّعَى إلَّا مُمانعَتَهم منها؛ أبطَلَها على تقديرِ ادِّعائِهم لها، فقال[٤]:

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٨).

أي: وما أنتم[١] بمُفلِتينَ مِن عذابِ اللهِ، سواءٌ أكنتُم في الأرضِ أمْ في السَّماءِ؛ فالله قادِرٌ على أن يُعَذِّبَكم أينَما كُنتُم[٢].

كما قال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ [الرحمن: ٣٣].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا آيَسَهم اللهُ تعالى مِن الانفِلاتِ بأنفُسِهم في جميعِ الأمكِنةِ؛ أعْقَبَه بتأييسِهم مِن الانفِلاتِ مِنَ الوعيدِ بسَعْيِ غَيرِهم لهم؛ مِنَ أولياءَ يَتَوسَّطونَ في دَفعِ العَذابِ عنهم بنَحوِ السِّعايةِ أو الشَّفاعةِ، أو مِن نُصَراءَ يُدافِعونَ عنهم بالمُغالَبةِ والقُوَّةِ[٣].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾.

أي: وليس لكم مِن دونِ اللهِ وليٌّ يَتولَّاكم، ولا نصيرٌ يَنصُرُكم، ويدفَعُ عَذابَ اللهِ عنكم[٤].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ

---

(١) قال ابن عثيمين: (الخِطابُ إمَّا أن يكونَ للكافرين، وإمَّا أن يكونَ لعُمومِ النَّاسِ، وكَوْنُه لعُمومِ النَّاسِ أَوْلى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٦، ٩٧).

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ[1] وأنكَروا البَعثَ بعدَ الموتِ: أولئك يَئِسوا مِن رحمةِ اللهِ، ولن يُدخِلَهم جنَّتَه[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا

---

(١) قيل: المرادُ بها هنا: القرآنُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧).

وقيل: المرادُ: عُمومُ الدَّلائلِ والحُجَجِ؛ فتَشملُ الآياتِ الكَونيَّةَ والشَّرعيَّةَ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٩، ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٩-١٠٢).

قيل: المرادُ أنَّ يأسَهم يَقَعُ في الآخرةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي، والعُلَيمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦١٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٥٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤).

وقيل: المرادُ يأسُهم في الدُّنيا، فهم لا يَطمَعونَ في رحمةِ الله في الآخرةِ؛ ولذلك لم يَعمَلوا ما يُقَرِّبُهم إلى الله. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: الشوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٩، ٤٢٠).

لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

أي: وأولئك الكُفَّارُ لهم عَذابٌ[١] مُؤلِمٌ مُوجِعٌ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ؛ لأنَّه إذا كان المرجِعُ إلى اللهِ فاحذَرْ مِن مُخالَفتِه؛ فإنَّ هذا يُشبِهُ التَّهديدَ والوعيدَ مِن المخالَفةِ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لا ينبغي للمُؤمِنِ أن يَيأسَ مِن رَوحِ اللهِ، ولا مِن رحمتِه، ولا أنْ يأمَنَ عذابَه وعِقابَه؛ فصِفةُ المؤمِنِ أن يكونَ راجيًا لله خائِفًا[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ﴾ فيه سُؤالٌ: علَّقَ تعالى الرُّؤيةَ بالكيفيَّةِ، لا بالخَلقِ، وما قال: (أولَمْ يَرَوا أنَّ الله خلَقَ)، (أو بَدأ

---

(١) قيل: المرادُ به: عذابُ جهنَّمَ في الآخرةِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: يحيى بنُ سلام، والسمرقنديُّ.
يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٩).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٤).
وقيل: المرادُ به العذابُ في الدُّنيا وفي الآخرةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).
قال السعدي: (وكأنَّ هذه الآياتِ مُعتَرِضاتٌ بيْنَ كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لِقَومِه، وردِّهم عليه. واللهُ أعلَمُ بذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٣٣).

الخَلْقَ)، والكيفيَّةُ غيرُ مَعلومةٍ؟

الجوابُ: أنَّ هذا القَدْرَ مِن الكيفيَّةِ مَعلومٌ، وهو أنَّه خلَقَه ولم يكُنْ شَيئًا مَذكورًا، وأنَّه خلَقَه مِن نُطفةٍ هي مِن غذاءٍ هو مِن ماءٍ وتُرابٍ، وهذا القَدْرُ كافٍ في حُصولِ العِلمِ بإمكانِ الإعادةِ؛ فإنَّ الإعادةَ مِثلُه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ هذه الآيةُ مع الَّتي قبْلَها رُبمَّا يَظهَرُ فيهما إشكالٌ؛ لأنَّ الأُولى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ تقريرٌ لهم بأنَّهم يَرونَ كيف يُبدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثمَّ يُعيدُه، وهنا يقولُ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ فيقتضي أنَّهم حتَّى الآنَ لم يَعلَموا كيف بدَأ اللهُ الخَلقَ؟!

والجوابُ على ذلك: أنَّهم وإنْ كانوا يَرَوْنَ كيف بَدأ اللهُ الخَلْقَ، لكنَّهم قد يُنكِرونَه؛ فأمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه أنْ يأمُرَهم بالسَّيرِ في الأرضِ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ امشُوا في الأرضِ، وانظُروا مَثَلًا إلى الوُحوشِ، وانظُروا إلى الحَشَراتِ، وانظُروا إلى مخلوقاتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى كيف تَنْشَأُ هذه الأشياءُ بدونِ أنْ نرى لها خالقًا سِوى اللهِ سُبحانه وتعالى، فهذا مِن بابِ إلزامِهم، ولا سيَّما إذا قُلْنا: إنَّ الرُّؤيةَ الأُولى عِلْميَّةٌ، فهي مِن بابِ إلزامِهم بما يُشاهِدونَه في الأرضِ بعدَ أنْ يَسيروا فيها[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾ فأمَرَ بالسَّيرِ في الأرضِ؛ لأنَّ السَّيرَ يُدْني إلى الرَّائي مُشاهَداتٍ جَمَّةً مِن مُختلِفِ الأرَضينَ بجِبالِها وأنهارِها ومَحْويَّاتِها، ويمُرُّ به على مَنازِلِ الأُمَمِ حاضِرِها وبائِدِها، فيَرى كثيرًا مِن أشياءَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٨١).

وأحوالٍ لم يَعْتَدْ رُؤيةَ أمثالِها، فإذا شاهَدَ ذلك جالَ نظَرُ فِكْرِه في تَكوينِها بعْدَ العدَم جَوَلانًا لم يكُنْ يَخطُرُ له ببالٍ حينَما كان يُشاهِدُ أمثالَ تلك المخلوقاتِ في دِيارِ قَومِه؛ لأنَّه لَمَّا نشَأَ فيها مِن زمَنِ الطُّفولةِ فما بعْدَه قبْلَ حُدوثِ التَّفكيرِ في عقْلِه، اعتادَ أنْ يَمُرَّ ببَصرِه عليها دونَ استِنتاجٍ مِن دَلائلِها، حتَّى إذا شاهَدَ أمْثالَها ممَّا كان غائبًا عن بصَرِه، جالتْ في نفْسِه فِكرةُ الاستِدلالِ؛ فالسَّيرُ في الأرضِ وسيلةٌ جامعةٌ لمُختلِفِ الدَّلائلِ؛ فلذلك كان الأمرُ به لهذا الغرَضِ مِن جَوامِعِ الحِكمةِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ الاستِدلالُ بالمَبدَأِ على المَعادِ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّها مِن تمامِ قُدرتِه جلَّ وعلا؛ كالمجيءِ، والنُّزولِ، والاستواءِ على العَرشِ، والضَّحِكِ، والعَجَبِ، وما أشْبَهَ ذلك[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ سؤالٌ: كيف نُسَمِّيها نشأةً وهي إعادةٌ؟

الجوابُ: أنَّ هذه الإعادةَ تختلِفُ عن سابقتِها اختِلافًا كثيرًا، فهي بالنِّسبةِ إليها نَشْأةٌ؛ لأنَّ حياةَ الآخِرةِ ليست مِثلَ حياةِ الدُّنيا؛ فحَياةُ الآخرةِ حياةٌ أبَديَّةٌ، وحَياةُ الدُّنيا حياةُ فَناءٍ؛ ولذلك تَجِدُها ناقِصةً، يُخلَقُ الإنسانُ مِن ضَعْفٍ إلى قوَّةٍ إلى ضَعفٍ، أمَّا في الإعادةِ فإنَّه يُخلَقُ للأبدِ؛ فلذلك سُمِّيَتْ نَشأةً وإنْ كانت هي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إعادةً؛ لاختلافِ الحالَين[١].

وأيضًا فالتَّعبيرُ عن الإعادةِ الَّتي هي مَحَلُّ النِّزاعِ بالنَّشأةِ الآخرةِ المُشعِرةِ بكَونِ البَدْءِ نَشأةً أُولى؛ للتَّنبيهِ على أنَّهما شأْنٌ واحدٌ مِن شُؤونِ اللهِ تعالى حَقيقةً واسمًا، مِن حيثُ إنَّ كلًّا منهما اختراعٌ وإخراجٌ مِن العدمِ إلى الوجودِ، ولا فرْقَ بيْنَهما إلَّا بالأوَّليَّةِ والآخِريَّةِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أنَّه ينبغي للمُستَدِلِّ أنْ يَستَدِلَّ بالمُشاهَدِ على الغائبِ؛ لِيَقتَنِعَ الخَصمُ بذلك[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أنَّ الرَّحمةَ لا تُطلَبُ إلَّا مِن اللهِ؛ لِقَولِه: ﴿وَيَرْحَمُ﴾، وهذا في مقامِ التَّقسيمِ يدُلُّ على الاختِصاصِ، ﴿يُعَذِّبُ﴾ ﴿وَيَرْحَمُ﴾، فلا تُطلَبُ الرَّحمةُ إلَّا مِنَ اللهِ، حتَّى الَّذين يَرحمون مِن الخَلْقِ ينبغي عندَما تَطلُبُ رحمتَهم أنْ تَجعلَ ذلك مُتعلِّقًا باللهِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لو شاء ألَّا يَرحَموك لم يَرحَموك[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ دَليلٌ على المعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ -أي: في مذهبِهم في الوعدِ والوعيدِ بوُجوبِ إثابةِ المُطيعِ وتعذيبِ العاصي-؛ لأنَّه ذَكَر بَدْءَ الخَلْقِ وإنشاءَهم عامَّةً، ولم يَذْكُرْهم بعَمَلٍ صالحٍ ولا طالحٍ، بل ذَكَر مَشيئتَه في رحمةِ بعضِهم وعذابِ بعضِهم -كما ترى- فهل يكونُ الكافرُ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٢).

هذا إلَّا مُرَادًا بالعَذابِ، والمؤمنُ إلَّا مُرَادًا بالرَّحمةِ[١]؟! أي: على سبيلِ الحكمةِ والفضلِ، وليس على سبيلِ الإيجابِ كما تزعمُ المعتزلةُ!

١٠- الرَّحمةُ صِفةٌ مِن صِفاتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى الذَّاتيَّةِ الفِعليَّةِ؛ فهي باعتبارِ أصلِ ثُبوتِها للهِ صِفةٌ ذاتيَّةٌ، وباعتبارِ تَجَدُّدِ مَن يَرحَمُه اللهُ صِفةٌ فِعليَّةٌ؛ ولهذا علَّقَها اللهُ سبحانه وتعالى بالمشيئةِ في قولِه تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي ﴾ وُجوبُ الإيمانِ بلِقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عاقَبَ الَّذين لا يؤمِنون بذلك باليأسِ مِن رحمتِه[٣].

١٢- قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي ﴾ في قَولِه: ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ إثباتُ رؤيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ استدَلُّوا بذلك على إثباتِ الرُّؤيةِ، لأنَّ المُلاقاةَ إذا لم يكُنْ مانعٌ فلا بُدَّ حينَئذٍ مِن الرُّؤيةِ؛ ولا مانعَ يَمنَعُ[٤].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ عندَ ذِكرِ الرَّحمةِ أضافها إلى نفْسِه، فقال: ﴿رَّحۡمَتِي﴾، وعندَ العذابِ لم يُضِفْه؛ لِسَبْقِ رحمتِه، وإعلامًا لعِبادِه بعُمومِها لهم، ولُزومِها له[٥].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٣).

قال ابنُ القيِّم: (وأجمَع أهلُ اللِّسانِ على أنَّ اللِّقاءَ متى نُسِب إلى الحَيِّ السَّليمِ مِن العمَى والمانعِ، اقتضَى المُعايَنةَ والرُّؤيةَ). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٣).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ أنَّ الكُفَّارَ لا يَدخُلونَ الجَنَّةَ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، مَسوقٌ مِن جِهتِه تعالَى؛ للإنكارِ على تَكذيبِهم بالبعثِ مع وُضوحِ دَليلِه، وسُنوحِ سَبيلِه[٢]. وعلى وجْهِ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ...﴾ [العنكبوت: ١٨] خارجًا عن مَقالةِ إبراهيمَ؛ يكونُ ضميرُ الغائبِ في ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ الْتِفاتًا. والالتِفاتُ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ لنُكتةِ إبعادِهم عن شرَفِ الحضورِ بعدَ الإخبارِ عنهم بأنَّهم مُكَذِّبون[٣].

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ الهمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ عن عدَمِ الرُّؤيةِ، نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن لم يَرَ؛ فأُنكِرَ عليهم[٤]. والاستِفهامُ بـ(كيف) مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ ولَفْتِ النَّظرِ، لا في طلَبِ الإخبارِ[٥].

- وجِيءَ ﴿يُبۡدِئُ﴾ بصِيغةِ المضارِعِ؛ لإفادةِ تَجدُّدِ بَدْءِ الخلْقِ كلَّما وجَّهَ النَّاظرُ بصَرَه في المخلوقاتِ[٦].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ مُبيِّنةٌ لِمَا تَضمَّنَه الاستِفهامُ مِن إنكارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٢٨).

عدَم الرُّؤيةِ المُؤدِّيةِ إلى العِلْمِ بوُقوعِ الإعادةِ؛ إذ أحالُوها مع أنَّ إعادةَ الخلْقِ إنْ لَم تكُنْ أيسَرَ مِن الإعادةِ في العُرْفِ، فلا أقَلَّ مِن كَونِها مُساويةً لها. ووجْهُ توكيدِ الجُملةِ بـ (إنَّ) ردُّ دَعْواهم أنَّه مُستحيلٌ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ اعتِراضٌ انتِقاليٌّ مِن الإنكارِ عليهم ترْكَ الاستِدلالِ بما هو بمَرْأًى منهم، إلى إرشادِهم للاستِدلالِ بما هو بعيدٌ عنهم مِن أحوالِ إيجادِ المخلوقاتِ، وتعاقُبِ الأُمَمِ؛ فإنَّ تَعَوُّدَ النَّاسِ بما بيْنَ أيدِيهم يَصرِفُ عُقولَهم عن التَّأمُّلِ فيما وراءَ ذلك مِن دَلائلِ دقائقِها على ما تدُلُّ عليه؛ فلذلك أمَرَ اللهُ رسولَه أنْ يَدْعُوَهم إلى السَّيرِ في الأرضِ؛ لِيُشاهِدوا آثارَ خلْقِ اللهِ الأشياءَ مِن عدَمٍ، فيُوقِنوا أنَّ إعادتَها بعدَ زَوالِها ليس بأعجَبَ مِن ابتداءِ صُنْعِها[2].

- وجِيءَ في جانِبِ بَدْءِ الخلْقِ بالفِعلِ الماضي ﴿بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾؛ لأنَّ السَّائرَ ليس له مِن قَرارٍ في طَريقِه؛ فنَدَرَ أنْ يَشهَدَ حُدوثَ بَدْءِ مخلوقاتٍ، ولكنَّه يَشهَدُ مخلوقاتٍ مَبدوءةً مِن قبْلُ، فيَفْطِنُ إلى أنَّ الَّذي أوجَدَها إنَّما أوجَدَها بعدَ أنْ لم تكُنْ، وأنَّه قادرٌ على إيجادِ أمثالِها، فهو بالأحْرى قادرٌ على إعادتِها بعدَ عدَمِها، والاستِدلالُ بالأفعالِ الَّتي مَضَتْ أمكَنُ؛ لأنَّ للشَّيءِ المُتقرِّرِ تحقُّقًا مَحسوسًا. وأيضًا جِيءَ في هذا الاستِدلالِ بفِعلِ النَّظرِ ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾؛ لأنَّ إدراكَ ما خلَقَه اللهُ حاصلٌ بطريقِ البصَرِ، وهو بفِعلِ النَّظرِ أَولَى وأشهَرُ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣٠).

لِيَنتقِلَ منه إلى إدراكِ أنَّه يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرةَ[١].

- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾، فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال في الآيةِ الأُولى بلفْظِ الرُّؤيةِ، وفي الثَّانيةِ بلفْظِ النَّظرِ؛ وذلك لأنَّ العِلْمَ الحَدسِيَّ (الحاصل مِن غيرِ طلبٍ) أتَمُّ مِن العِلْمِ الفِكْريِّ، والرُّؤيةَ أتَمُّ مِن النَّظرِ؛ لأنَّ النَّظرَ يُفْضي إلى الرُّؤيةِ، يُقال: نظرْتُ فرأيتُ، والمُفْضي إلى الشَّيءِ دونَ ذلك الشَّيءِ؛ فقال في الأوَّلِ: أمَا حصَلَتْ لكم الرُّؤيةُ، فانْظُروا في الأرضِ؛ لِتَحصُلَ لكم الرُّؤيةُ[٢].

- وفي الآيةِ الأُولى صرَّحَ باسْمِه تعالى في قولِه: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾، ثمَّ أضمَرَ في قولِه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، وهنا عكَسَ؛ حيثُ أضمَرَ في ﴿بَدَأَ﴾، ثمَّ أبْرَزَه في قولِه: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ﴾؛ حتَّى لا تَخْلُوَ الجُملتانِ مِن صَريحِ اسْمِه تعالى[٣]. والإفصاحُ باسْمِه مع إيقاعِه مُبتدأً في قولِه: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ بعدَ إضْمارِه في قولِه: ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ -وكان القِياسُ أنْ يُقالَ: كيف بدَأَ اللهُ الخلْقَ، ثمَّ يُنشِئُ النَّشأةَ الآخرةَ-؛ لأنَّ الكلامَ معهم كان واقعًا في الإعادةِ، فلمَّا قرَّرَهم في الإبداءِ بأنَّه مِن اللهِ، احتجَّ عليهم بأنَّ الإعادةَ إنشاءٌ مِثلُ الإبداءِ، فإذا كان اللهُ الَّذي لا يُعجِزُه شَيءٌ هو الَّذي لم يُعجِزْه الإبداءُ، فهو الَّذي وجَبَ ألَّا تُعجِزَه الإعادةُ؛ فكأنَّه قال: ثمَّ ذاك الَّذي أنشَأَ النَّشْأَةَ الأُولى هو الَّذي يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرةَ؛ فلِلدَّلالةِ والتَّنبيهِ على هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٠، ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٩).

المعنى أبرَزَ اسْمَه وأوقَعَهُ مُبتدأً[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ النَّشْأةُ بوَزْنِ (فَعْلَة): المرَّةُ مِن النَّشْءِ، وهو الإيجادُ، عبَّرَ عنها بصِيغةِ المَرَّةِ؛ لأنَّها نَشْأةٌ دَفعيَّةٌ تُخالِفُ النَّشْءَ الأوَّلَ[٢].

- وفي وصْفِها بـ ﴿ٱلْآخِرَةَ﴾ إيماءٌ بأنَّها مُساويةٌ للنَّشْأةِ الأُولى؛ فلا شُبْهةَ لهم في إحالةِ وُقوعِها. وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الواقعة: ٦٢]، فذلك على سَبيلِ المُشاكَلةِ التَّقديريَّةِ؛ لأنَّ قولَه قبْلَه: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] يَتضمَّنُ النَّشْأةَ الآخرةَ، فعبَّرَ عن مُقابلتِها بالنَّشأةِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تَعليلٌ لِمَا قبْلَه بطريقِ التَّحقيقِ؛ فإنَّ مَن عَلِمَ قُدرتَه تعالى على جَميعِ الأشياءِ الَّتي مِن جُملتِها الإعادةُ، لا يُتَصوَّرُ أنْ يَتردَّدَ في قُدرتِه عليها ولا في وُقوعِها بعدَما أخبَرَ به[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تَذييلٌ، أي: قديرٌ على البعثِ، وعلى كلِّ شَيءٍ إذا أرادهُ. وإظهارُ اسمِ الجلالةِ؛ لِتكونَ جُملةُ التَّذييلِ مُستقِلَّةً بنفْسِها، فتَجْري مَجرى الأمثالِ[٥].

٣- قولُه: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ابتُدِئَ بذِكْرِ العِقابِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٥)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣١).

لأنَّ الخِطابَ جارٍ مع مُنْكري البعثِ الَّذين حظُّهم فيه هو التَّعذيبُ[١].

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تقديمُ المجرورِ على عامِلِه للاهتِمامِ والتَّأكيدِ؛ إذ ليس المَقامُ للحصْرِ؛ إذ ليس ثمَّةَ اعتقادٌ مَردودٌ. وفي هذا إعادةُ إثباتِ وُقوعِ البعثِ، وتعريضٌ بالوعيدِ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لم يَقُل: (لا تُعجزون) بصيغةِ الفِعلِ؛ وذلك لأنَّ نَفْيَ الفِعلِ لا يدُلُّ على نفْيِ الصَّلاحيَّةِ؛ فإنَّ مَن قال: (إنَّ فُلانًا لا يَخيطُ) لا يدُلُّ على ما يدُلُّ عليه قَولُه: (إنَّه ليس بخيَّاطٍ)[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، واقتصَرَ في (الشُّورى) على ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٣١]؛ وذلك لأنَّه لَمَّا تقدَّمَ في سُورةِ (العنكبوتِ) قولُه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]، وهذا مِن أشَدِّ الوعيدِ؛ إذ حاصِلُه أنَّه لا يَفوتُه سُبحانه أحدٌ، ولا مَهرَبَ منه تعالى إلَّا إليه؛ ناسَبَ هذا قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، كما قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨]، إلى ما ورَدَ مِن هذا، وذلك تناسُبٌ بَيِّنٌ، ولَمَّا لم يَرِدْ في سُورةِ الشُّورى مِن أوَّلِها إلى الآيةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٣).

مِثلُ هذا الوعيدِ الشَّديدِ، ولا كان فيها ما يَسْتدعي هذا التَّعميمَ والاستيفاءَ الوعيديَّ، ورَدَتِ الآيةُ مُناسِبةً لذلك؛ فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٣١]، ولم يكُنِ التَّعميمُ هنا لِيُناسِبَ؛ فورَدَ كلٌّ على ما يجِبُ(١). وقيل غيرُ ذلك(٢).

- قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه حذْفُ مَفعولِ (مُعجِزين)؛ للعِلْمِ به، أي: بمُعجِزين الله(٣).

- وقدَّم الأرضَ على السَّماءِ، والوليَّ على النَّصيرِ؛ لأنَّ هَرَبَهم المُمكِنَ: في الأرضِ، فإنْ كان يقَعُ منهم هَرَبٌ يكونُ في الأرضِ، ثمَّ إنْ فَرَضْنا لهم قُدرةً غيرَ ذلك، فيكونُ لهم صعودٌ في السَّماءِ، وأمَّا الدَّفعُ فإنَّ العاقِلَ ما أمْكَنَه الدَّفعُ بأجمَلِ الطُّرُقِ فلا يرتقي إلى غيرِه، والشَّفاعةُ أجمَلُ، ولأنَّ ما مِن أحدٍ في الشَّاهِدِ إلَّا ويكونُ له شَفيعٌ يَتكَلَّمُ في حَقِّه عندَ مَلِكٍ، ولا يكونُ كُلُّ أحدٍ له ناصرٌ يُعادي المَلِكَ لأجْلِه(٤).

- وعطْفُ ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ احتِراسٌ وتأْييسٌ مِن الطَّمعِ في النَّجاةِ، وإنْ كانوا لا مَطمَعَ لهم في الالتِحاقِ بالسَّماءِ(٥).

٥- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٠٥-١٠٠٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦١، ٣٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢).

وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ بَيانٌ لِمَا في قولِه: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]؛ وإنَّما عُطِفَ لِمَا فيه مِن زِيادةِ الإخبارِ بأنَّهم لا يَنالُهم اللهُ برَحمةٍ، وأنَّه يُصِيبُهم بعذابٍ أليمٍ(١).

- والتَّعبيرُ بالاسمِ الظَّاهرِ في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دونَ ضَميرِ التَّكلُّمِ؛ للتَّنويهِ بشأْنِ الآياتِ حيثُ أُضِيفَت إلى الاسمِ الجليلِ؛ لِمَا في الاسمِ الجَليلِ مِن التَّذكيرِ بأنَّه حقيقٌ بألَّا يُكفَرَ بآياتِه(٢).

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يُفيدُ أنَّ ما سيُذكَرُ بعْدَه نالَهم مِن أجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن أوصافٍ(٣).

- وأخبَرَ عن يأْسِهم مِن رَحمةِ اللهِ بالفِعلِ الماضي ﴿يَئِسُواْ﴾؛ تَنبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه، والمعنى: أولئك سيَيْئَسُون مِن رحمةِ اللهِ لا مَحالةَ(٤)، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والعُدولُ إلى التَّكلُّمِ في قولِه: ﴿رَّحۡمَتِي﴾ الْتِفاتٌ، عاد به أُسلوبُ الكلامِ إلى مُقْتضَى الظَّاهرِ(٥).

- وإعادةُ اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ لتأْكيدِ التَّنبيهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤).

على استحقاقِهم ذلك[١]. وأيضًا في تَكريرِ اسمِ الإشارةِ، وتَكريرِ الإسنادِ، وتَنكيرِ العذابِ، ووَصْفِه بالأليمِ: مِن الدَّلالةِ على كَمالِ فَظاعةِ حالِهم ما لا يَخْفَى[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٦).

الآيات (٢٤-٢٧)

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يَقُصُّ الله سبحانَه ما قاله قومُ إبراهيمَ له، وما ردَّ به عليهم، وما أنعَم به عليه، فيقولُ: فما كان جوابَ قَوم إبراهيمَ حينَ دعاهم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه إلَّا أن قالوا: اقتُلوا إبراهيمَ أو حرِّقوه بالنَّارِ، فأنجاه اللهُ مِنَ النَّارِ بقُدرتِه، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ للمُؤمِنينَ على قُدرةِ اللهِ تعالى.

وقال إبراهيمُ لِقَومِه: إنَّما اتَّخَذْتُم أَوْثانًا تَعبدونَها مِن دونِ اللهِ؛ لِمَحبَّتِكم ومَوَدَّتِكم الدُّنيويَّةِ، ففي يوم القيامةِ يَتبَرَّأُ كلٌّ منكم مِن الآخَرِ ويَلعَنُه، ويَنقَطِعُ ما كان بيْنَكم في الدُّنيا مِنَ المَوَدَّةِ، ومصيرُكم النَّارُ، وليس لكم أنصارٌ يَنصُرونَكم مِن عذابِ اللهِ.

فصدَّق لُوطٌ إبراهيمَ فيما جاء به مِن الحَقِّ، وانقاد له. وقال إبراهيمُ: إنِّي مهاجِرٌ إلى ربِّي، تاركًا أرضَ قَومي المشركينَ إلى أرضٍ أعبُدُ اللهَ فيها، إنَّ رَبِّي هو القَويُّ الغالِبُ الحَكيمُ.

ورزَقْنا إبراهيمَ بعدَ هجرتِه مِن أرضِ قَومِه ولدَه إسحاقَ، وولدَ ولدِه يعقوبَ،

وجعَلْنا الأنبياءَ مِن نسْلِ إبراهيمَ، وأنزَلْنا عليهم الكُتُبَ، وآتَيْنا إبراهيمَ جزاءَ عَمَلِه في الدُّنيا، وإنَّه في الدَّارِ الآخرةِ مِنَ الصَّالحينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ قَومَه بعبادةِ اللهِ، وبَيَّن سَفَهَهم في عبادةِ الأوثانِ، وظهَرَت حُجَّتُه عليهم؛ رجَعوا إلى الغَلَبةِ، فجعَلوا القائِمَ مَقامَ جَوابِه فيما أمَرَهم به قَولَهم: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾[1].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾.

أي: فما كان جوابَ قَومِ إبراهيمَ حينَ دعاهم إلى اللهِ وعبادتِه وَحْدَه إلَّا أنْ قالوا: اقتُلوا إبراهيمَ أو حرِّقوه بالنَّارِ؛ لِمُخالَفتِه دينَكم[2].

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧].

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

أي: فأَلْقَوا إبراهيمَ في النَّارِ، فسلَّمه اللهُ بقُدرتِه مِن أذاها[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ في إنجائِنا لإبراهيمَ مِن النَّارِ بَعْدَما أُلقيَ فيها لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ على قُدرةِ اللهِ، وغيرِها، وذلك للمُؤمِنينَ باللهِ تعالى وبرُسُلِه[٢].

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وقال إبراهيمُ لِقَومِه: إنَّما اتَّخَذْتُم أوثانًا تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ؛ اتِّباعًا مِن بَعضِكم لِبَعضٍ، وحِفظًا لِمَحبَّتِكم ومَوَدَّتِكم الدُّنيويَّةِ، فتلك مَوَدَّةٌ كائِنةٌ في حياتِكم الدُّنيا فحَسْبُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٥).

قال البِقاعي: (﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالاجتِماعِ عندَها، والتَّواصُلِ في أمرِها بالتَّناصُرِ والتَّعاضُدِ، كما يتَّفِقُ ناسٌ على مذهَبٍ فيَكونُ ذلك سبَبَ تَصادُقِهم). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٤٢٣). =

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

أي: ثمَّ يومَ القيامةِ يَتبرَّأُ كلٌّ منكم مِن الآخَرِ، ويَجحَدُه ويَلعَنُه، ويَنقطِعُ ما كان بيْنكم في الدُّنيا مِنَ المَوَدَّةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: ومَصيرُكم النَّارُ جميعًا(٢).

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

أي: وليس لكم حينَ تَدخُلونَ النَّارَ أنصارٌ يُنقِذونَكم منها(٣).

كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۞ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۞ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۞ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٦].

= وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن تكونَ مقالتُه هذه سابقةً على إلقائه في النَّارِ، وأن تكونَ بعدَ أن أنجاه اللهُ مِن النَّارِ، والأظهرُ مِن ترتيبِ الكلامِ أنَّها كانت بعدَ أن أنجاه اللهُ مِن النَّارِ، أراد به إعلانَ مُكابَرتِهم الحَقَّ، وإصرارِهم على عبادةِ الأوثانِ بعدَ وُضوحِ الحُجَّةِ عليهم بمعجزةِ سَلامتِه مِن حَرقِ النَّارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ﴾.

أي: فصدَّقَ لُوطٌ إبراهيمَ فيما جاء به مِن الحَقِّ، وانقادَ له[١].

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾.

أي: وقال إبراهيمُ[٢]: إنِّي خارِجٌ ومُنتَقِلٌ مِن أرضِ قَومي المُشرِكينَ؛ لأعبُدَ اللهَ في أرضٍ غَيرِها[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٢٠-١٢٣).

(٢) ممَّن اختار أنَّ القائلَ هو إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ابنُ جرير، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٢٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ جُرَيْجٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٤).

وقيل: يحتملُ عَودُ الضَّميرِ على لوطٍ عليه السَّلامُ، ويكونُ هو القائلَ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

قال يحيى بنُ سلام: (هاجَر مِن أرضِ العراقِ إلى أرضِ الشَّامِ). ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٦). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٤).

أي: إنَّ رَبِّي هو القَويُّ الغالِبُ في أمرِه، الَّذي لا يَذِلُّ مَن نَصَره، بل يَمنَعُه ممَّن أرادَه بسوءٍ، الَّذي لا عِزَّةَ إلَّا به، وهو جديرٌ بإعزازِ مَن انقطَعَ وهاجَرَ إليه، الحَكيمُ في أقوالِه وأفعالِه وشَرعِه وتَدبيرِ خَلْقِه، فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[1].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

أي: ورَزَقْنا إبراهيمَ بعدَ هِجرتِه مِن أرضِ قَومِه وَلَدَه إسحاقَ، وولدَ ولَدِه يعقوبَ بنَ إسحاقَ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٥، ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٢٦-١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠).

قال القرطبيُّ: (إنَّما وَهَب له إسحاقَ مِن بعدِ إسماعيلَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٠).

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾.

أي: وجعَلْنا الأنبياءَ مِن نَسْلِ إبراهيمَ، وعليهم تُنَزَّلُ الكُتُبُ الإلهيَّةُ؛ فلَمْ يَبعَثِ اللهُ نبيًّا بعدَ إبراهيمَ إلَّا مِن صُلبِه، ولا نَزَّل كتابًا إلَّا على ذُرِّيَّتِه[1].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وآتَيْنا إبراهيمَ جَزاءَ عَمَلِه في الدُّنيا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

وقال عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٨).
قال ابن عاشور: («الْكِتَابَ» مرادٌ به الجنسُ؛ فالتَّوراةُ، والإنجيلُ، والزَّبورُ، والقرآنُ: كُتُبٌ نزلَتْ في ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣١).
قال ابنُ كثير: (جمَع اللهُ له بيْنَ سعادةِ الدُّنيا المَوصولةِ بسعادةِ الآخرةِ؛ فكان له في الدُّنيا الرِّزقُ الواسِعُ الهنيُّ، والمنزِلُ الرَّحْبُ، والمَوردُ العَذبُ، والزَّوجةُ الحَسَنةُ الصَّالحةُ، والثَّناءُ الجميلُ، والذِّكرُ الحَسَنُ؛ فكُلُّ أحدٍ يُحِبُّه ويَتولَّاه عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠).

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: وإنَّه في الدَّارِ الآخرةِ في عِدادِ الصَّالحينَ، وله فيها جزاؤُه الَّذي لا يَنقُصُ شَيءٌ منه بما أُعطِيَ في الدُّنيا مِنَ الثَّوابِ العاجِلِ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ما عَلَّقَ العبدُ رجاءَه وتوكُّلَه بغيرِ اللهِ إلَّا خاب مِن تلك الجهةِ، ولا استنصَرَ بغيرِه إلَّا خُذِلَ؛ قال تعالى عن إمامِ الحُنَفاءِ أنَّه قال للمُشرِكينَ: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾(٢) [يس: ٧٤، ٧٥].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ هذا شأنُ كلِّ مُشترِكينَ في غَرَضٍ؛ يَتَوادُّون ما داموا مُتساعِدينَ على حُصولِه، فإذا انقطعَ ذلك الغرضُ أعقَبَ ندامةً وحُزنًا وألَمًا، وانقلبَتْ تلك المَوَدَّةُ بُغضًا ولَعنةً وذمًّا مِن بَعضِهم لبَعضٍ لَمَّا انقلبَ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٩).

قال ابن عثيمين: (المرادُ هنا أعلى أنواعِ الصَّالحينَ، وهم الأنبياءُ أو الرُّسلُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣٢). ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٦١).

الغرضُ حُزنًا وعَذابًا، كما يُشاهَدُ في هذه الدَّارِ مِن أحوالِ المُشتركينَ في خِزيِهم إذا أُخِذوا وعُوقِبوا؛ فكلٌّ مُتساعِدَينِ على باطلٍ مُتَوادَّينِ عليه: لا بُدَّ أن تَنقَلِبَ مَوَدَّتُهما بُغضًا وعَداوةً[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يَدخُلُ فيه كُلُّ مَن وافَق أصحابَه مِن أهلِ المعاصي أو البَطالةِ على الرَّذائِلِ؛ لِيَعدُّوه حَسَنَ العِشرةِ، مُهَذَّبَ الأخلاقِ، لَطيفَ الذَّاتِ، أو خَوفًا مِن أن يَصِفوه بكثافةِ الطَّبعِ، وسُوءِ الصُّحبةِ، ولقد عَمَّ هذا -لَعَمْري- أهلَ الزَّمانِ؛ لِيُوصَفوا بمُوافاةِ الإخوانِ، ومُصافاةِ الخِلَّانِ، مُعرِضينَ عن رِضا المَلِكِ الدَّيَّانِ[٢]!

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ لَمَّا كان في قولِه: ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ شائبةُ ثُبوتِ مَنفعةٍ لهم في عِبادةِ الأوثانِ؛ إذ يَكتسِبون بذلك مَوَدَّةَ بيْنِهم تَلَذُّ لنُفوسِهم- قرَنَه بقولِه: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾؛ تَنبيهًا لسُوءِ عاقبةِ هذه المَوَدَّةِ، وإزالةً للغُرورِ والغَفلةِ؛ لِيَعلَموا أنَّ اللَّذَّاتِ العاجلةَ لا عِبرةَ بها إنْ كانت تُعقِبُ نَدامةً آجِلةً[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٧).

ٱلدُّنۡيَا﴾ هذا دالٌّ على أنَّ جَمْعَ الفُسوقِ لأهلِ الدُّنيا هو العادةُ المستَمِرَّةُ، وأنَّ الحُبَّ في اللهِ والاجتِماعَ له عزيزٌ جدًّا؛ لِما فيه مِن قَطعِ علائِقِ الدُّنيا وشَهَواتِها الَّتي زُيِّنَت للنَّاسِ بما فيها مِن الإلباسِ، وعَظيمِ البأسِ[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ﴾ فيه سؤالٌ: كيف سمَّى قَولَهم ﴿ٱقۡتُلُوهُ﴾ جَوابًا، مع أنَّه ليس بجوابٍ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّه خرَجَ منهم مخرجَ كلامِ المتكبِّرِ، كما يقولُ الملِكُ لرَسولِ خَصمِه: (جوابُكم السَّيفُ)، مع أنَّ السَّيفَ ليس بجوابٍ، وإنَّما معناه: لا أقابِلُه بالجوابِ، وإنَّما أقابِلُه بالسَّيفِ، فكذلك قالوا: لا تُجيبوا عن بَراهينِه، واقتُلوه أو حَرِّقوه.

الوجهُ الثاني: أنَّ الله أراد بيانَ ضَلالِهم، وهو أنَّهم ذَكَروا في مَعرِضِ الجوابِ هذا، مع أنَّه ليس بجوابٍ؛ فتبيَّنَ أنَّهم لم يكُنْ لهم جوابٌ أصلًا؛ وذلك لأنَّ مَن لا يُجيبُ غَيرَه ويَسكُتُ، لا يُعلَمُ أنَّه لا يَقدِرُ على الجوابِ؛ لجوازِ أن يكونَ سُكوتُه لِعَدَمِ الالتِفاتِ، أمَّا إذا أجاب بجوابٍ فاسدٍ عُلِمَ أنَّه قصَدَ الجوابَ وما قدَرَ عليه[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ حُجَّةٌ في جوازِ تَركِ الخَبرِ قبْلَ إتمامِه، والأخْذِ في غَيرِه ثُمَّ الرُّجوعِ إليه، ولا يكونُ ذلك عَيبًا على قائلِه، ولا حَطًّا مِن فصاحَتِه؛ ألَا ترى أنَّه جلَّ جلالُه ابتَدأَ الخبرَ عن إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقَولِه: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٤).

ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦]، ثُمَّ حالَ بيْنَ إتمامِه بقَولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩]، وبقَولِه: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، حتَّى رَجَعَ في تمامِ قِصَّةِ إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ ...﴾[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ هكذا كلُّ إنسانٍ لا يستطيعُ رَدَّ الحقِّ، فإنَّه يُهَدِّدُ بالقُوَّةِ إذا كانت له قوَّةٌ على خَصْمِه[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ الآياتِ الكَونيَّةَ والشَّرعيَّةَ لا يَنتَفِعُ بها إلَّا المؤمِنُ، أمَّا غيرُ المؤمنِ فلا يَنتَفِعُ بآياتِ اللهِ؛ لأنَّها تَمُرُّ عليه وكأنَّها أمرٌ عاديٌّ أو بمُقتَضى الطَّبيعةِ، كالزَّلازلِ والبَراكينِ الَّتي تُصيبُ النَّاسَ فيقولُ عنها بَعضُهم: إنَّها ظواهِرُ طبيعيَّةٌ! وكأنَّها ليست عُقوبةً مِنَ اللهِ عزَّ وجَلَّ[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا لا يُنافي ما جاء في عدَّةِ آياتٍ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣] وما أشْبَهَ ذلك؛ لأنَّ العقلَ والتَّفَكُّرَ ونحوَهما مِن مُقتضَياتِ الإيمانِ؛ فكلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا كان أكثرَ عقلًا وتَفَكُّرًا، والتَّفَكُّرُ أيضًا يدعو إلى الإيمانِ؛ فهُما مُتلازِمانِ[٤].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ فيه سُؤالٌ: ما تَعلُّقُ قَولِه: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ بما تقدَّمَ؟

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٣).

الجوابُ: لَمَّا بالَغَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ في الإرشادِ، ولم يَهتَدِ قَومُه، وحَصَل اليأسُ الكُلِّيُّ حيثُ رأى القَومُ الآيةَ الكُبرى ولم يُؤمِنوا؛ وَجَبَتِ المُهاجَرةُ؛ لأنَّ الهاديَ إذا هدى قَومَه ولم ينتَفِعوا فبَقاؤه فيهم مَفسَدةٌ؛ لأنَّه إنْ دام على الإرشادِ كان اشتِغالًا بما لا يُنتفَعُ به، مع عِلمِه، وإن سَكَت -والسُّكوتُ دَليلُ الرِّضا- فيُقالُ بأنَّه صار مِنَّا، ورَضِيَ بأفعالِنا! وإذا لم يَبقَ للإقامةِ وَجْهٌ وَجَبت المُهاجَرةُ[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أنَّ ابنَ الابنِ ابنٌ؛ لأنَّ يعقوبَ ابنُ ابنِ إبراهيمَ، وجَعَل اللهُ عزَّ وجلَّ إسحاقَ مَوهوبًا لإبراهيمَ، ويدُلُّ لذلك قولُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الحَسَنِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ: ((إنَّ ابني هذا سَيِّدٌ))[2]، والعُلَماءُ أجمَعوا في بابِ الميراثِ أنَّ ابنَ الابنِ بمنزلةِ الابنِ عندَ فَقْدِه[3]، وإذا كان ابنُ الابنِ ابنًا؛ لَزِمَ أنْ يكونَ أبو الأبِ أبًا[4].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تَدُلُّ على أنَّ النُّبوَّةَ والكِتابَ في خُصوصِ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وقد ذُكِرَ في سورةِ (الحديدِ) ما يدُلُّ على اشتراكِ نوحٍ معه في ذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦].

الجوابُ: أنَّ وجْهَ الاقتصارِ على إبراهيمَ: أنَّ جَميعَ الرُّسلِ بعْدَه مِن ذُرِّيَّتِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٠٤).

(٣) قال ابنُ حزم: (وأجمَعوا على ابنِ الابنِ أنَّه يَرِثُ ميراثَ الابنِ إذا لم يَكُنِ ابنٌ). ((المحلى بالآثار)) (٨/ ٣٢٨).

وقال ابنُ حَجَرٍ: (واتَّفَقوا على أنَّ ابنَ الابنِ بمَنزِلةِ الابنِ في حَجبِ الزَّوجِ عن النِّصفِ، والمرأةِ عن الرُّبُعِ، والأمِّ عن الثُّلثِ؛ كالابنِ سواءً). ((فتح الباري)) (١٢/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣٢).

وذُكِرَ نوحٌ معه لأمْرَينِ؛ أحدُهما: أنَّ كُلَّ مَن كان مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ فهو مِن ذُرِّيةِ نوحٍ. والثَّاني: أنَّ بعضَ الأنبياءِ مِن ذُرِّيَّةِ نوحٍ، ولم يكُنْ مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ: كهُودٍ وصالحٍ ولُوطٍ، ويونُسَ -على خلافٍ فيه-، ولا ينافي ذلك الاقتِصارَ على إبراهيمَ؛ لأنَّ المرادَ مَن كان بعدَ إبراهيمَ، لا مَن كان قَبْلَه أو في عَصرِه، كلُوطٍ عليهما وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ[1]. وأيضًا فإنَّ الآيةَ جِيءَ بها لسِياقِ المدحِ والثَّناءِ على الخليلِ، وقد أخبَر أنَّ لوطًا اهتدَى على يديه، ومَن اهتدَى على يديه أكمَلُ ممَّن اهتدَى مِن ذُرِّيَّتِه بالنِّسبةِ إلى فضيلةِ الهادي[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أنَّ الإنسانَ قد يُعَجَّلُ له الجَزاءُ في الدُّنيا، وتَعجيلُ الجزاءِ للإنسانِ في الدُّنيا لا يُعَدُّ حِرمانًا له مِن أجرِ الآخِرةِ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ويَنْبَني على هذه الفائدةِ أنَّ تَعجيلَ الثَّوابِ للإنسانِ في الدُّنيا هو مِن نِعمةِ اللهِ على العَبدِ؛ لأنَّ الإنسانَ يَرى أثَرَ عَمَلِه فيَنشَطُ على العملِ، سَواءٌ كان هذا الأثرُ في الأشياءِ الخارجيَّةِ، أو كان في نَفْسِ الإنسانِ، أي: في باطِنِه[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنَّه يجوزُ الوَصفُ بالمعنى الأعَمِّ دونَ الأخَصِّ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ وَصْفَ الصَّلاحِ أعَمُّ مِن وَصْفِ النُّبوَّةِ، ويجوزُ أنْ يُوصَفَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والأنبياءُ في لَيلةِ المِعراجِ كانوا يقولونَ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَرحبًا بالأخِ الصَّالحِ، والنَّبيِّ الصَّالحِ))[4].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٤). =

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ كان ذلك قولَ بعضِهم، لكنْ لَمَّا قِيلَ فيهم، ورضِيَ به الباقونَ؛ أُسْنِدَ إلى كلِّهم[١].

- وجِيءَ بصِيغةِ حَصْرِ الجوابِ في قولِهم: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم لم يَترَدَّدوا في جَوابِه، وكانت كَلِمتُهم واحدةً في تَكذيبِه وإتلافِه، وهذا مِن تصَلُّبِهم في كُفْرِهم[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ جاء هنا التَّرديدُ بيْنَ قتْلِه وإحراقِه؛ فقد يكونُ ذلك مِن قائلينَ: ناسٌ أشاروا بالقتْلِ، وناسٌ أشاروا بالإحراقِ، وفي سُورةِ (الأنبياءِ) ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فاقتَصَروا على أحدِ الشَّيئينِ، وهو الَّذي فَعَلوه؛ رَمَوه في النَّارِ ولم يَقتُلوه[٣].

- قولُه: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ، أي: فألقَوْهُ في النَّارِ، فأنجاهُ اللهُ تعالى منها[٤].

- قوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ

= والحديث أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٦).

حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ بالجمْعِ، وقال قَبْلُ في إنجاءِ نُوحٍ وأصحابِ السَّفينةِ: (جَعَلْنَاهَا آيَةً) [العنكبوت: ١٥] بالمُفرَدِ؛ وذلك لأنَّ الإنجاءَ بالسَّفينةِ شَيءٌ تتَّسِعُ له العقولُ؛ فلم يكُنْ فيه مِن الآيةِ إلَّا بسَببِ إعلامِ اللهِ إيَّاهُ بالاتِّخاذِ وقْتَ الحاجةِ؛ فإنَّه لولاهُ لَمَا اتَّخَذَه؛ لِعدَمِ حُصولِ عِلْمِه بما في الغَيبِ، وبسَببِ أنَّ اللهَ صانَ السَّفينةَ عن المُهلِكاتِ؛ كالرِّياحِ العاصفةِ، وأمَّا الإنجاءُ مِن النَّارِ فعَجيبٌ، فقال فيه: (آيات)[١]. وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّه جمَعَ هنا لأنَّ الإنجاءَ مِن النَّارِ، وجَعْلَها بَرْدًا وسلامًا، وأنَّها في الحَبْلِ الَّذي كانوا أوْثَقوه به دونَ الجِسمِ: هو مَجموعُ آياتٍ؛ فناسَبَ ذلك الجَمْعُ، بخِلافِ الإنجاءِ مِن السَّفينةِ؛ فإنَّه آيةٌ واحدةٌ[٢]. وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّه جعَلَ الإنجاءَ آياتٍ، ولم يُجعَلْ آيةً واحدةً؛ لأنَّه آيةٌ لِكُلِّ مَن شَهِدَه مِن قَومِه، ولأنَّه يدُلُّ على قُدرةِ اللهِ، وكرامةِ رسولِه، وتَصديقِ وعْدِه، وإهانةِ عَدُوِّه، وأنَّ المخلوقاتِ كلَّها جليلَها وحَقيرَها مُسَخَّرةٌ لقُدْرةِ اللهِ تعالى[٣]. ومِن الآياتِ: إبطالُ كَيدِ هؤلاء. ومنها: صَبرُ إبراهيمَ وتحمُّلُه؛ لأنَّ حَقيقةَ الأمرِ أنَّ هذا شَيءٌ لا يَقوى عليه إلَّا أمثالُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فهو مِن أُولي العَزمِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. ومنها: انقلابُ هذه الحرارةِ إلى بُرودةٍ. ومنها: انقلابُ كَونِها سببًا للهَلاكِ إلى أن كانت سَلامًا عليه[٤].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا قولُه هنا: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، ثمَّ قال بَعْدُ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١١١).

لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٤٤]، فجمَعَ الآياتِ الأُولى، ووحَّدَها في الثَّانيةِ؛ وذلك لأنَّ الأُولى إشارةٌ إلى إثباتِ النُّبوَّةِ، وفي النَّبيِّينَ -صلواتُ اللهِ عليهم- كَثرةٌ، والثَّانيَ إشارةٌ إلى التَّوحيدِ، وهو سُبحانه واحدٌ لا شريكَ له[1]. وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّه جمَعَ هنا وأفرَدَ (آية) في الثَّانيةِ، مع أنَّ هذه الثَّانيةَ أعظَمُ؛ وذلك لأنَّ الإشارةَ في الآيةِ الأُولى بقولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ ليست لقِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وإنجائِه مِن النَّارِ فقط، بل الإشارةُ لمَجموعِ مُعتبَراتٍ؛ منها لُبْثُ نوحٍ عليه السَّلامُ في قومِه ألْفَ سَنةٍ إلَّا خمسينَ عامًا يَدْعوهم إلى اللهِ ويُريهم الآياتِ، فما آمَنَ معه إلَّا قليلٌ، ومنها آيةُ أخْذِهم بالطُّوفانِ، وتَعميمُ الغرَقِ لجَميعِ أهْلِ الأرضِ، ومنها إنجاءُ أهلِ السَّفينةِ، وجعْلُها آيةً للعالَمينَ، ومنها ما أُحيلوا عليه مِن الاعتبارِ بمَن قبْلَهم في قولِه: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ [العنكبوت: ١٨]، ومنها دعوةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وعظيمُ بَيانِه، وما استجرَّ دُعاؤُه إيَّاهم مِن الآياتِ والبراهينِ على نُبوَّتِه، ومنها ما أُحيلوا عليه آخِرَ الآياتِ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾ [العنكبوت: ١٩]، فلمَّا تقدَّمَ تفصيلُ الآياتِ، ورَدَ التَّنبيهُ بالإشارةِ إلى جَميعِها، فقيل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾. أمَّا قولُه في الآيةِ الأُخرى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ فالإشارةُ إلى المصدرِ، وهو الخلْقُ المفهومُ مِن قولِه: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾؛ فكلٌّ مِن الآيتينِ على ما يجبُ[2].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه قال قَبْلُ: ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]،

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٩٠).

وقال هاهنا: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ فخصَّ الآياتِ بالمؤمنينَ؛ وذلك لأنَّ السَّفينةَ بقِيَتْ أعوامًا حتَّى مرَّ عليها النَّاسُ ورَأَوْها، فحَصَلَ العِلْمُ بها لكلِّ أحدٍ، وأمَّا تبْريدُ النَّارِ فإنَّه لم يَبْقَ، فلمْ يَظهَرْ لِمَن بَعْدَه إلَّا بطريقِ الإيمانِ به والتَّصديقِ[١].

- وجِيءَ هنا بلفْظِ ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ ليَدُلَّ على أنَّ إيمانَهم مُتمكِّنٌ منهم ومِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم. وفيه تَعريضٌ بأنَّ تلك الآياتِ لم يُصدِّقْ بها قومُ إبراهيمَ؛ لشِدَّةِ مُكابَرتِهم، وكَونِ الإيمانِ لا يُخالِطُ عُقولَهم[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ محَطُّ القصْرِ بـ(إنَّما) هو المفعولُ لأجْلِه ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾، أي: ما اتَّخذْتُم أوثانًا إلَّا لأجْلِ مَوَدَّةِ بعضِكم بعضًا. ووجْهُ الحَصْرِ أنَّه لم تَبْقَ لهم شُبهةٌ في عِبادةِ الأوثانِ بعدَ مُشاهَدةِ دَلالةِ صِدْقِ الرَّسولِ الَّذي جاء بإبطالِها؛ فتَمحَّضَ أنْ يكونَ سبَبُ بقائِهم على عِبادةِ الأوثانِ هو مَوَدَّةَ بعضِهم بعضًا الدَّاعيةَ لإبايةِ المُخالَفةِ[٣].

- وهذا الخَبرُ ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم ...﴾ مُستعمَلٌ في غيرِ إفادةِ الحُكْمِ، بلْ في التَّنبيهِ على الخطَأِ؛ بقَرينةِ قولِه عَقِبَه: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣٦).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، على لفْظِ الجَمْعِ، وقال قبْلُ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢]، على لفْظِ الواحدِ، والحِكمةُ فيه: أنَّهم لَمَّا أرادوا إحراقَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، قالوا: نحنُ نَنصُرُ آلهتَنا، كما حَكَى اللهُ تعالى عنهم: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فقال: أنتم ادَّعَيْتُم أنَّ لهؤلاء ناصِرينَ، فما لكمْ ولهم -أي: للأوثانِ وعبَدتِها- مِن ناصرينَ. وأمَّا هناك فلَمْ يَسبِقْ منهم دَعوى النَّاصرينَ، فنَفى الجِنسَ بقولِه: ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾[1].

وقيل: جمَعَ النَّاصرَ؛ لوُقوعِه في مُقابَلةِ الجمْعِ، أي: ما لأحدٍ منكُم مِن ناصرٍ أصلًا[2]. وقيل: إنَّه جِيءَ في نفْيِ (النَّاصرِ) بصِيغةِ الجمْعِ هنا، خِلافًا لقولِه آنِفًا: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢]؛ لأنَّهم لَمَّا تألَّبوا على إبراهيمَ، وتجَمَّعوا لنُصرةِ أصنامِهم، كان جزاؤُهم حِرمانَهم مِنَ النُّصراءِ؛ مُطابَقةً بيْنَ الجزاءِ والحالةِ الَّتي جُوزوا عليها، على أنَّ المفردَ والجمْعَ في حَيِّزِ النفيِ سواءٌ في إفادةِ نفْيِ كلِّ فردٍ مِن الجنسِ[3].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه قال قبْلُ: (مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) [العنكبوت: ٢٢]، وما ذكَرَ الوليَّ هاهنا؛ وذلك أنَّه لَمَّا كان المرادُ بالوليِّ الشَّفيعَ، وهاهنا لَمَّا كان الخِطابُ دخَلَ فيه الأوثانُ، أي: ما لكمْ كلِّكم؛ لم يقُلْ: (شفيع)؛ لأنَّهم كانوا مُعترِفين أنَّ كلَّهم ليس لهم شافعٌ؛ لأنَّهم كانوا يَدَّعون أنَّ آلهتَهم شُفعاءُ، كما قال تعالى عنهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ [يونس: ١٨]، والشَّفيعُ لا يكونُ له شفيعٌ، فما نَفى عنهم الشَّفيعَ؛ لعَدمِ الحاجةِ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٧).

نفْيه؛ لاعترافِهم به، وأمَّا هناك فكان الكلامُ معهم وهُم كانوا يدَّعون أنَّ لأنفُسِهم شُفعاءَ، فنفى[١].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه قال قبْلُ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢]، فذكَرَ على معنى الاستثناءِ؛ فيُفْهَمُ أنَّ لهم ناصرًا ووليًّا هو اللهُ، وليس لهم غيرُه وليٌّ وناصرٌ، وقال هاهنا: (مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) مِن غيرِ استِثناءٍ؛ لأنَّ قوله: (مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) كان واردًا على أنَّهم في الدُّنيا، فقال لهم في الدُّنيا: لا تَظُنُّوا أنَّكم تُعجِزون اللهَ؛ فما لكم أحدٌ يَنصُرُكم، بل اللهُ تعالى يَنصُرُكم إنْ تُبْتُم، فهو ناصرٌ لكم، متى أردْتُم استَنْصَرْتُموهُ بالتَّوبةِ، أمَّا قولُه: (مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) فهذا يومَ القِيامةِ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾، وعدَمُ النَّاصرِ عامٌّ؛ لأنَّ التَّوبةَ في ذلك اليومِ لا تُقبَلُ، فسواءٌ تابوا أو لمْ يَتوبوا لا يَنصُرُهم اللهُ، ولا ناصرَ لهم غيرُه؛ فلا ناصرَ لهم مُطلقًا[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ الإخبارِ عن إبراهيمَ اعتراضَ التَّفريعِ. وأفادتِ الفاءُ مُبادَرةَ لُوطٍ بتَصديقِ إبراهيمَ عليهما السَّلامُ[٣].

- قولُه: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ المُفاعَلةُ للمُبالَغةِ، أو لأنَّ الَّذي يَهجُرُ قَومَه يكونونَ هم قد هَجَروه أيضًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣٨).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ واقِعةٌ مَوقِعَ التَّعليلِ لمَضمونِ ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾؛ لأنَّ مَن كان عزيزًا يَعتَزُّ به جارُه ونَزيلُه. وإتْباعُ وصْفِ العزيزِ بـ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لإفادةِ أنَّ عِزَّتَه مُحْكَمةٌ، واقِعةٌ مَوقعَها المحمودَ عندَ العقلاءِ؛ مِثلُ نصْرِ المظلومِ، ونصرِ الدَّاعي إلى الحقِّ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ بمعنى الحاكمِ، فيكونَ زِيادةَ تأكيدِ معنى العزيزِ[١].

٤- قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فيه ذِكْرُ إسحاقَ وعَقِبه، وعدَمُ ذِكرِ إسماعيلَ عليهما السَّلامُ؛ لأنَّه قد دَلَّ على إسماعيلَ في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، وكفى الدَّليلُ لشُهْرةِ أمْرِه، وعُلوِّ قدْرِه، ولا يَلتبِسُ على كلِّ ذي بَصيرةٍ أنَّ النُّبوَّةَ والكتابَ لم يَستقِرَّا في أحدٍ مِنَ الأنبياءِ استِقرارَه لِنبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فكان في ذِكْرِه ذِكرُ جَدِّه إسماعيلَ صَلَواتُ الله عليهما[٢]. وقيل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولدًا ونافلةً حينَ أيِسَ مِن الولادةِ مِن عجوزٍ عاقرٍ؛ ولذلك لم يَذكُرْ إسماعيلَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣).

الآيات (٢٨-٢٠)

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: أي: الفَعلةَ القَبيحةَ الشَّنيعةَ، وهي هنا إتيانُ الذُّكورِ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ[1].

﴿نَادِيكُمُ﴾: أي: مَجلِسِكم، وأصلُ (ندي) هنا: يدُلُّ على تجمُّعٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ابتلاءَ لُوطٍ بقومِه وابتلاءَهم به: واذكُرْ -يا محمَّدُ- لوطًا حينَ قال لِقَومِه: إنَّكم لَتَفعَلونَ الفاحِشةَ الشَّنيعةَ ما سبَقَكم بها أحدٌ مِن العالَمينَ؛ أئِنَّكم لَتُجامِعونَ الرِّجالَ، وتَقطَعونَ الطَّريقَ على المسافِرينَ، وتأتونَ في مَجالِسِكم قَبيحَ الأقوالِ والأعمالِ! فما كان جوابَ قَومِ لوطٍ إلَّا أنْ قالوا له: ائْتِنا بعَذابِ اللهِ إنْ كُنتَ مِن الصَّادِقينَ، قال لوطٌ: رَبِّ انصُرْني على هؤلاءِ القَومِ المُفسِدينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٣٠٤).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

الانتِقالُ مِن رِسالةِ إبراهيمَ إلى قَومِه، إلى رِسالةِ لوطٍ؛ لِمُناسَبةِ أنَّه شابَهَ إبراهيمَ في أن أنجاه اللهُ مِن عذابِ الرِّجزِ[١].

وأيضًا لَمَّا قَصَّ اللهُ علينا قَصَصَ إبراهيمَ وما لاقاه مِن قَومِه، ثمَّ نَصْرَه له نَصرًا مُؤَزَّرًا- أعقَبَه بقَصَصِ لُوطٍ؛ إذ كان مُعاصِرًا له، وكان إبراهيمُ سَبَقَه إلى الدَّعوةِ إلى اللهِ[٢].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- نَبيَّنا لُوطًا حينَ قال لِقَومه المُشرِكينَ: إنَّكم لَتَفعَلونَ ما تَجاوَزَ الحَدَّ في القُبحِ والشَّناعةِ، وذلك بإتيانِ الذُّكورِ في أدبارِهم[٣]!

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ما سَبَقكم إلى فِعلِ هذه الفاحِشةِ أحَدٌ مِن الأُمَمِ قَبْلَكم، وإنَّما هو شَيءٌ ابتَدَعْتُموه أنتم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾.

أي: أئنَّكم لَتُجامِعونَ الرِّجالَ في أدبارِهم[1]؟!

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأعراف: ٨١].

﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾.

أي: وتَقطَعونَ الطَّريقَ على المارَّةِ والمُسافِرينَ[2]؟!

﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾.

أي: وتَفعَلونَ في مَجالِسِكم التي تجتَمِعونَ فيها ما قَبُحَ مِن الأقوالِ والأعمالِ[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٨)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٠).

قال ابنُ عاشور: (قَطعُ السَّبيلِ: قَطعُ الطَّريقِ، أي: التَّصدِّي للمارِّينَ فيه بأخذِ أموالِهم، أو قَتلِ أنفُسِهم، أو إكراهِهم على الفاحِشةِ، وكان قومُ لوطٍ يَقعُدونَ بالطُّرقِ؛ ليأخُذوا مِن المارَّةِ مَن يَختارونَه؛ فقَطعُ السبيلِ فسادٌ في ذاتِه، وهو أفسَدُ في هذا المقصدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٠).

وقال الشوكاني: (الظَّاهِرُ أنَّهم كانوا يَفعَلونَ ما يكونُ سببًا لِقَطعِ الطريقِ، مِن غيرِ تقييدٍ بسبَبٍ خاصٍّ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٣، ١٤٤).

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

أي: فما كان جوابَ قَومِ لُوطٍ على دَعوتِه لهم، وإنكارِه عليهم إلَّا أنْ قالوا له: ائْتِنا بعذابِ اللهِ إن كُنتَ مِن الصَّادِقينَ في زَعمِك أنَّك رَسولٌ مِن عندِ اللهِ، وفيما تَتوعَّدُنا به مِنَ العذابِ على أعمالِنا[1]!

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾.

أي: قال لوطٌ: رَبِّ انصُرْني بإهلاكِ هؤلاء القَومِ المُشرِكينَ العاصينَ بإتيانِ القبائحِ، الَّذين يُفسِدونَ أنفُسَهم وغَيرَهم مِنَ النَّاسِ[2].

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٧ - ١٦٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ الأمرُ بذِكْرِ هؤلاءِ الفُضَلاءِ مِن الأنبياءِ ليس لمجرَّدِ الثَّناءِ عليهم، وإعلاءِ رُتبَتِهم بيْنَ النَّاسِ، بل لهذا الغَرَضِ ولِغَرَضٍ آخَرَ، وهو الاقتداءُ بهم، واتِّباعُهم، والصَّبرُ كما صَبَروا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩).

قال ابن عطية: (أي: إنَّ ذلك لا يكونُ ولا تَقدِرُ عليه! وهم لم يَقولوا هذا إلَّا وهم مُصَمِّمون على اعتقادِ كَذِبِه، وليس يَصِحُّ في الفِطرةِ أن يكونَ مُعانِدٌ يقولُ هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣٥).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّه يَنبغي ذِكْرُ ما يُنَفِّرُ عن العَمَلِ السَّيِّئِ، ووجْهُ كونِه مُنَفِّرًا أنَّهم ليس لهم قُدوةٌ حتَّى يُعذَرُوا بها، وكذلك آثامُ مَن بعْدَهم تكونُ عليهم[١]!

٣- قال الله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّه لا ينبغي للمُجتَمِعينَ أن يَتعاشَروا إلَّا على ما يُقَرِّبُ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ولا ينبغي أن يجتَمِعوا على الهُزءِ واللَّعِبِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أنَّ لوطًا حَذَّرَهم مِن عذابِ اللهِ؛ ففيه أنَّه ينبغي للدَّاعِيةِ أنْ يَدعوَ مُبَشِّرًا ومُنْذِرًا، ولا يقولَ: إذا أنذَرتُ نَفَّرْتُ؛ لأنَّ الإنذارَ قد يكونُ لا بُدَّ منه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- هذه القِصَّةُ كغَيرِها مِن القِصصِ تَرِدُ في القرآنِ الكريمِ على وُجوهٍ مُتنَوِّعةٍ، فكيف نجمَعُ بيْنَ هذه الوُجوهِ في قِصَّةٍ واحدةٍ؟

نقولُ في الجَمعِ: إن كان ممَّا يمكِنُ أن يَتكَرَّرَ فإنَّها تكونُ قد تكرَّرت على الوجهَينِ، وإن كان ممَّا لا يمكِنُ تكَرُّرُه فإنَّ الله تعالى يحكيها بالمعنى هذا تارةً، وبالمعنى هذا تارةً.

مِثالُ ذلك: يقولُ اللهُ سُبحانَه وتعالى في هذه الآيةِ في قِصَّةِ لُوطٍ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وفي آيةٍ أخرى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]؛ ففي هذه الآيةِ قال سُبحانَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٦).

وتعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، وفي الآيةِ الأولى قال: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا اختِلافٌ، والجَمعُ بيْنَهما هو تعدُّدُ القَولِ؛ فمَرَّةً قال لهم: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، ومرَّةً قال لهم: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهذا لا إشكالَ فيه؛ فإذا أمكنَ التَّعَدُّدُ -سواءٌ مِن القائِلِ أو بالقَولِ- حُمِلَ عليه، فإذا لم يُمكِنِ التَّعدُّدُ يكونُ مِن بابِ نَقلِه بالمعنى، واللهُ سُبحانَه وتعالى يَتكلَّمُ به في كُلِّ موضِعٍ بما يُناسِبُه، وبما تقتضيه البلاغةُ(١).

٢- لم يأْتِ في قِصَّةِ لُوطٍ أنَّه دعَا قومَه إلى عِبادةِ اللهِ، كما جاء في قصَّةِ إبراهيمَ وقصَّةِ شُعَيبٍ؛ لأنَّ لُوطًا كان مِن قومِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وفي زَمانِه، وسبَقَه إبراهيمُ إلى الدُّعاءِ لعِبادةِ اللهِ وتَوحيدِه، واشتُهِرَ أمْرُه بذلك عندَ الخلْقِ؛ فذكَرَ لُوطٌ ما اختُصَّ به مِن المنْعِ مِن الفَحشاءِ وغيرِها، وأمَّا إبراهيمُ وشُعيبٌ فجاءَا بعدَ انقراضِ مَن كان يَعبُدُ اللهَ؛ فلذلك دَعَوَا إلى عِبادةِ اللهِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّها كانت فاحِشةً عندَهم قبْلَ أن يَنهاهم، بخِلافِ قَولِ مَن يَقولُ: «ما كانت فاحِشةً ولا قَبيحةً ولا سيِّئةً حتَّى نهاهم عنها»! ولهذا قال لهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، وهذا خِطابٌ لِمَن يَعرِفونَ قُبحَ ما يَفعَلونَ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ عَبَّرَ بالإتيانِ كنايةً عن الجِماعِ؛ لأنَّ القُرآنَ يُكَنِّي عمَّا يُستَقبَحُ ذِكرُه بما يدُلُّ عليه، وهذا كَثيرٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ، ومثالٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٣). ويُنظر ما تقدم في ((التفسير المحرر)) (٢٢/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٨٠).

آخَرُ مِن القُرآنِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فكَنَّى عنِ الجِماعِ بالإتيانِ(١).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه تشديدٌ في الإنكارِ عليهم في أنَّهم الَّذين سَنُّوا هذه الفاحِشةَ السَّيِّئةَ للنَّاسِ، وكانت لا تخطُرُ لأحدٍ ببالٍ، وإنَّ كثيرًا مِن المفاسِدِ تكونُ النَّاسُ في غَفلةٍ عن ارتكابِها؛ لعَدَمِ الاعتيادِ بها، حتَّى إذا أقْدَمَ أحدٌ على فِعلِها وشُوهِدَ ذلك منه، تَنبَّهَت الأذهانُ إليها، وتعَلَّقَت الشَّهَواتُ بها(٢).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ عبَّروا باسمِ الجلالة (الله)؛ زيادةً في الجُرأةِ(٣)!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ مُجرَّدَ الإيمانِ باللهِ رَبًّا مُدَبِّرًا لا يُدخِلُ الإنسانَ في الإيمانِ؛ فإنَّ هؤلاءِ القَومَ كانوا مُقِرِّينَ باللهِ؛ لِقَولِهم: ﴿بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ فليس مُجَرَّدُ كَونِ الإنسانِ يُؤْمِنُ بأنَّ للخليقةِ رَبًّا مُدَبِّرًا يُدْخِلُه في الإيمانِ(٤).

٨- قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ذَكَر حالَ المَدْعوِّ عليهم مِن بابِ التَّوسُّلِ؛ لأنَّ كلَّ وَصْفٍ يَستوجِبُ الإجابةَ فإنه يُعَدُّ وَسيلةً، فالتَّوسُّلُ إلى الله عزَّ وجلَّ أنواعٌ، ومنها: التَّوسُّلُ بحالِ المدعوِّ عليهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٨).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أنَّ اللِّواطَ مِن الإفسادِ في الأرضِ[١]، وكذلك قَطْعُ السبيلِ، وإتيانُ المنكَرِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- توكيدُ الجُملةِ بـ (إنَّ) واللَّام توكيدٌ لتَعلُّقِ النِّسبةِ بالمفعولِ لا تأكيدٌ للنِّسبةِ؛ فالمقصودُ تحقيقُ أنَّ الَّذي يَفعَلونه فاحشةٌ، أي: عمَلٌ قبيحٌ بالِغٌ الغايةَ في القُبْحِ؛ لأنَّ الفُحْشَ بُلوغُ الغايةِ في شَيءٍ قَبيحٍ؛ لأنَّهم كانوا غيرَ شاعِرينَ بشَناعةِ عمَلِهم وقُبْحِه، وهو إخبارٌ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ[٢].

- قَولُه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه عَرَّفَ الفاحشةَ في اللِّواطِ، وذلك يفيدُ أنَّه جامِعٌ لمعاني اسمِ الفاحِشةِ، كما تقولُ: «زَيْدٌ الرَّجُلُ، ونِعْمَ الرَّجُلُ زَيدٌ»، أي: أتأتونَ الخَصلةَ الَّتي استقرَّ فُحْشُها عندَ كلِّ أحدٍ؟! فهي لِظُهورِ فُحْشِها وكَمالِه غَنِيَّةٌ عن ذِكْرِها؛ بحيثُ لا يَنصرِفُ الاسمُ إلى غيرِها، ثُمَّ أَكَّدَ سبحانه بيانَ فُحْشِها بأنَّها لم يَعمَلْها أحدٌ مِنَ العالَمينَ قَبْلَهم: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]!

- قولُه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مُقرِّرةٌ لفَحاشةِ تلك الفعلةِ، كأنَّ قائلًا قال: لِمَ كانت فاحشةً؟ فقِيلَ له:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٠).

لأنَّ أحدًا قبْلَهم لم يُقدِمْ عليها اشمئزازًا منها في طِباعِهم؛ لإفراطِ قُبْحِها، حتَّى أقدَمَ عليها قومُ لوطٍ؛ لخبثِهم وقذَرِ طِباعِهم. وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ، كأنَّه قال: أتأتونَ الفاحشةَ مُبتدعينَ لها، غيرَ مَسبوقينَ بها[1]؟!

٢- قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- جُملةُ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن مَضمونِ جُملةِ ﴿لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٨]، باعتبارِ ما عُطِفَ على جُملةِ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ مِن قولِه: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ ...﴾؛ لأنَّ قطْعَ السَّبيلِ وإتيانَ المُنكَرِ في ناديهم ممَّا يَشتمِلُ عليه إتيانُ الفاحِشةِ. وأدخَلَ استِفهامَ الإنكارِ على جَميعِ التَّفصيلِ، وأُعيدَ حَرْفُ التَّأكيدِ؛ لِتَتطابَقَ جُملةُ البَدلِ مع الجُملةِ المُبدَلِ منها؛ لأنَّ الجزءَ الأوَّلَ مِن هذه الجُملةِ المُبدَلةِ عندَ قَطْعِ النَّظرِ عمَّا عُطِفَ عليها تكونُ مِن الجُملةِ المُبدَلِ منها بمَنزلةِ البدَلِ المُطابِقِ[2].

- واستَفهَمَ استِفهامَ إنكارٍ وتَوبيخٍ وتقريعٍ، وبيَّن ما تلك الفاحِشةُ المُبهمةُ في قولِه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، وإنْ كانت مُعَيَّنةً أنَّها إتيانُ الذُّكورِ في الأدبارِ بقولِه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾، فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ...﴾[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٣).

- وفيه مُناسَبَةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وقال في سُورة (النمل): ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾ [النمل: ٥٦]، والجمْعُ بيْنَهما: أنَّهم أوَّلًا قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾، ثمَّ إنَّه لَمَّا كثُرَ منه الإنكارُ، وتكرَّر ذلك منه نَهيًا ووعْظًا ووَعِيدًا، قالوا: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾، وهي المرَّةُ الأخيرةُ مِن مرَّاتِ المُقاولاتِ الجاريةِ بيْنَهم وبيْنَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

- ومِن المُناسَبةِ كذلك: أنَّه لَمَّا كان إنَّما يأمُرُهم بتَرْكِ الفواحشِ وما كانوا يَصنَعونه مِن قَبيحِ المعاصي، ويَعِدُ على ذلك بالعذابِ، وكانوا يقولونَ: إنَّ اللهَ لم يُحرِّمْ هذا، ولا يُعذِّبُ عليه، وهو يقولُ: إنَّ اللهَ حرَّمَه ويُعذِّبُ عليه، قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ فكانوا ألطَفَ في الجوابِ مِن قوم إبراهيمَ بقولِهم: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؛ لأنَّه كان يَذُمُّ آلهتَهم، وعَمَد إلى أصنامِهم فكسَرَها، فكان فِعلُه هذا معهم أعظَمَ مِن قولِ لوطٍ لقَومِه، فكان جوابُهم له أنْ قالوا: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾[2].

- والأمْرُ في ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ للتَّعجيزِ، وهو يَقْتضي أنَّه أنْذَرَهم العذابَ في أثناءِ دَعوتِه، ولم يَتقدَّمْ ذِكْرُ ذلك في قِصَّةِ لُوطٍ فيما مَضَى، لكنَّ الإنذارَ مِن شُؤونِ دَعوةِ الرُّسلِ[3].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

- وصَفَهم بقولِه: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مُبالَغةً في استِنزالِ العَذابِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

عليهم، وإشعارًا بأنَّهم أحِقَّاءُ بأنْ يُعجَّلَ لهم العذابُ[١]. وأيضًا وَصَفهم بـ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ لأنَّهم يُفسِدون أنفُسَهم بشَناعاتِ أعمالِهم، ويُفسِدون النَّاسَ بحَمْلِهم على الفَواحشِ وتَدريبِهم بها، وفي هذا الوَصفِ تَمهيدٌ للإجابةِ بالنَّصرِ؛ لأنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفسدينَ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

الآيات (٢١-٢٥)

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾: أي: الباقينَ في عذابِ اللهِ، والغابرُ مِن الأضْدادِ؛ يُرادُ به الباقي والماضي، وأصلُ (غبر): يدُلُّ على البقاءِ[1].

﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾: أي: ساءَه مُجيئُهم، والسُّوءُ: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِن الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ[2].

﴿ذَرۡعٗا﴾: أي: صدرًا أو طاقةً، وأصلُه: يدُلُّ على امتدادٍ، وتحرُّكٍ إلى قُدُمٍ[3].

﴿رِجۡزٗا﴾: أي: عذابًا، وأصلُ المعنى: الاضْطِرابُ، والحركةُ العنيفةُ، والارتعاشُ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٣).

ويُطلَقُ على العذابِ؛ لإزعاجِه النَّاسَ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولَمَّا جاءت رُسُلُنا مِن الملائكةِ إلى إبراهيمَ بالبِشارةِ بإسحاقَ ويعقوبَ، قالوا لإبراهيمَ: إنَّ اللهَ أرسَلَنا لِنُهلِكَ أهلَ قريةِ لُوطٍ؛ لأنَّهم كانوا ظالِمينَ. قال إبراهيمُ للمَلائكةِ: إنَّ في تلك القريةِ لُوطًا. قالت الملائكةُ: نحن أعلَمُ بمَن فيها، لَنُنَجِّينَّ لُوطًا وأهلَه إلَّا امرأتَه؛ فهي مِن الباقينَ في العذابِ.

ولَمَّا جاءت الملائِكةُ إلى لوطٍ ساءَه مجيئُهم، واغتمَّ بقُدومِهم؛ خَوفًا عليهم مِن قَومِه، فقالت له الملائكةُ: لا تخَفْ ولا تحزَنْ، إنَّا سنُنَجِّيك وأهلَك مِن العذابِ إلَّا امرأتَك؛ فهي مِن الباقينَ مع قَومِها في العذابِ، إنَّا مُنزِلونَ على أهلِ هذه القريةِ حِجارةً من السَّماءِ؛ بسبَبِ فِسْقِهم.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ حِكْمتَه اقتضَتْ أن يجعَلَ آثارَهم باقيةً بعْدَهم، فيقولُ: ولقد أبقَيْنا مِن قريةِ قَومِ لُوطٍ عَلامةً ظاهِرةً لِقَومٍ يَعقِلونَ ويَتفكَّرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا دعا لوطٌ على قَومِه بقَولِه: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي﴾، استجابَ اللهُ دُعاءَه، وأمَرَ ملائكَتَه بإهلاكِهم، وأرسَلَهم مُنذِرينَ ومُبَشِّرينَ بذُرِّيَّةٍ طَيِّبةٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٠).

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾.

أي: ولَمَّا جاءَتْ رُسلُنا مِنَ الملائِكةِ إلى إبراهيمَ بالبِشارةِ بإسحاقَ وَلَدًا له، وبيَعقوبَ وَلَدًا لإسحاقَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٦٩ - ٧١].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾.

أي: قالت الملائكةُ لإبراهيمَ: إنَّ اللهَ أرسَلَنا؛ لِنُهلِكَ أهلَ قَريةِ لُوطٍ(٢).

﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

أي: لأنَّ أهلَها كانوا ظالِمينَ بالكُفرِ والمعاصي(٣).

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗا﴾.

أي: قال إبراهيمُ للمَلائكةِ: إنَّ في تلك القَريةِ لُوطًا، وليس مِنَ الظَّالِمينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

كقَومِه[١]!

﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَا﴾.

أي: قالت الملائِكةُ: نحن أعلَمُ بمَن في تلك القَريةِ مِن المُؤمِنينَ والظَّالِمينَ[٢].

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾.

أي: لَنُنَجِّينَّ لوطًا وأهلَه إلَّا امرأتَه؛ فهي مِنَ الباقينَ في العَذابِ[٣].

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٨، ١٥٩).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ للغابِرينَ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، ومكِّي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، والنسفي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٧٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

قال الشنقيطيُّ: (﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾: جمعُ الغابرِ، والغابرُ اسمٌ مشتركٌ مِنَ الأضْدادِ؛ يُطلَقُ على الماضي وعلى الباقي، يُقالُ الغابرُ للماضي، والغابرُ للباقي. والمرادُ بها هنا: الباقين. ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي: مِنَ الباقينَ في الهلاكِ. فعلى القولِ بأنَّه لم يَسْرِ بها فالكلامُ ظاهرٌ، وعلى القولِ بأنَّه أسْرى بها: عندَما خرَج بها التفَتَتْ فهلَكَتْ، فكأنَّها بَقِيَتْ معهم، فهي باقيةٌ معهم في الهلاكِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٦٦).

قال النحاسُ: (والأكثَرُ في اللُّغةِ أن يكونَ الغابرُ الباقي). ((معاني القرآن)) (٣/ ٥١).

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾.

أي: ولَمَّا جاء رُسلُ اللهِ مِنَ الملائكةِ إلى لُوطٍ، ساءَه مجيئُهم إليه، واغتمَّ بقُدومِهم؛ لخَوفِه عليهم مِن قَومِه، وعَجزِه عن حِفظِهم منهم[1]!

﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾.

أي: وقالت الملائِكةُ لِلُوطٍ: لا تخَفْ ولا تحزَنْ[2].

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ [هود: ٨١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٦٠).

قيل: معنى ﴿لَا تَخَفۡ﴾ أي: علينا أن يَصِلَ إلينا قَومُك ويَتمكَّنوا مِنَّا. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، والخازن، والعليمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٦٠).

وقيل: معنى ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ أي: ممَّا أخبَرْناك مِن أنَّا مُهلِكوهم، أو بإهلاكِنا إيَّاهم. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمعاني، والبغوي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٤٦).

وقيل: المرادُ: ولا تَحزَنْ علينا بسببِ التَّفكُّرِ في أمْرِنا؛ فإنَّهم لا يَقدِرون علينا. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: الخازنُ، والنَّيسابوريُّ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

وقال الألوسي: (ولا تحزَنْ على قَصدِهم إيَّانا وعَدَمِ اكتراثِهم بك). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٦٠).

﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

أي: إنَّا سنُنَجِّيك -يا لُوطُ- وأهلَك مِنَ العذابِ النَّازِلِ بقَومِك إلَّا امرأتَك؛ فهي مِنَ الباقينَ معهم في العَذابِ[1].

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ٣٤﴾.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: قالت الملائِكةُ لِلُوطٍ: إنَّا مُنزِلونَ على أهلِ هذه القَريةِ عَذابًا، وهو حِجارةٌ تَنزِلُ عليهم مِن السَّماءِ[2].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

أي: وذلك العَذابُ واقِعٌ بهم؛ بسَبَبِ ما كانوا عليه مِنَ الكُفرِ، وفِعْلِ الفاحِشةِ والمُنكَرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

وكانت امرأةُ لوطٍ في الظاهرِ مسلمةً على دينِ زوجِها لوطٍ، وفي الباطنِ منافقةً على دينِ قومِها؛ ردءًا لهم على دينِهم، وعلى طريقتِهم في رضاها بأفعالِهم القبيحةِ، والمعاونةِ عليها، فكانت تدلُّهم على ضيفانِ لوطٍ، ليأتوا إليهم، لا أنَّها كانت تفعلُ الفواحشَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: ولقد أبقَيْنا مِن قَريةِ قومِ لُوطٍ علامةً ظاهِرةً واضِحةً[(١)] لِقَومٍ يَعقِلونَ عن اللهِ حُجَجَه، ويَتفكَّرونَ في مَواعِظِه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٥ - ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ أنَّ الاتِّصالَ بالصَّالحِ لا يَستلزِمُ أنْ يكونَ المتَّصِلُ صالحًا، وإنْ كان الاتِّصالُ بالصَّالحِ مِن أسبابِ الصَّلاحِ، لكنَّه ليس بلازمٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، فهلَكَتْ مع الهالكينَ، مع أنَّها امرأةُ رجُلٍ صالحٍ؛ نبيٍّ مِن الأنبياءِ[(٣)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ إزالةُ المؤذِي قبْلَ حُصولِ السَّارِّ؛ لِقَولِه: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾، فبَدَؤوا بنَفْيِ الخَوفِ والحزنِ، ثُمَّ أعقَبوه

---

(١) قال القرطبي: (قال قتادةُ: هي الحِجارةُ الَّتي أُبقِيَت. وقاله أبو العاليةِ. وقيل: إنَّه يُرجَمُ بها قَومٌ مِن هذه الأمَّةِ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: هي آثارُ مَنازِلِهم الخَربةِ. وقال مجاهدٌ: هو الماءُ الأسوَدُ على وجهِ الأرضِ. وكُلُّ ذلك باقٍ، فلا تَعارُضَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٣). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٧٦، ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٦٢).

بالبِشارةِ؛ ولهذا مِن الكَلِماتِ المشهورةِ عندَ أهلِ العلم يقولون: «التَّخليةُ قبْلَ التَّحليةِ»، يعني: جَرِّدِ الشَّيءَ ممَّا يَشوبُه مِن النَّقصِ، ثُمَّ بعدَ ذلك كَمِّلْه بالتَّحليةِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، جعَلَهم اللهُ مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ، لكِنِ البِشارةُ أثَرُ الرَّحمةِ، والإنذارُ بالإهلاكِ أثَرُ الغَضَبِ، ورَحمتُه سبَقَتْ غضَبَه؛ فقدَّم البِشارةَ على الإنذارِ، وقال: ﴿جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، ثمَّ قال: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ﴾[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ﴾ إثباتُ أنَّ الملائكةَ أجسامٌ وليسوا أرواحًا أو عُقولًا -كما ادَّعاه بعضُهم- كيف نقولُ: إنَّهم أرواحٌ ومَعانٍ وعُقولٌ، وهم لهم أجنِحةٌ، ويأتون ويَذهَبون ويَتكَلَّمونَ؟! فجبريلُ عليه السَّلامُ رآه النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وله سِتُّمئةِ جَناحٍ قد سَدَّ الأُفُقَ[٣]! لكنَّ هذه الأجسامَ ليست كأجسامِ بني آدمَ؛ فإنَّ فيها مِن الخِفَّةِ والقُوَّةِ ما ليس لبني آدمَ، واللهُ عزَّ وجلَّ قد يَجعلُهم على صورةٍ غيرِ الصُّورةِ الأصليَّةِ، مثلُ: مجيءِ جبريلَ بصورةِ دِحْيَةَ الكَلْبيِّ[٤]، وبصورةِ رجُلٍ شديدِ بَياضِ الثِّيابِ، شَديدِ سوادِ الشَّعرِ[٥]... إلخ[٦].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ حينَ ذَكَروا البُشرى ما عَلَّلوا وقالوا:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥١).

(٣) يُنظر: ما أخرجه البخاري (٤٨٥٦-٤٨٥٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٤٥١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٥) يُنظر ما أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٥).

إنا نُبَشِّرُك؛ لأنَّك رسولٌ، أو لأنَّك مُؤمِنٌ، أو لأنَّك عادِلٌ، وحينَ ذكَروا الإهلاكَ عَلَّلوا وقالوا: إنَّ أهلَها كانوا ظالِمينَ؛ وذلك لأنَّ ذا الفَضلِ لا يكونُ فَضلُه بعِوَضٍ، والعادِلَ لا يكونُ عذابُه إلَّا على جُرمٍ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أنَّ الفرحَ بالولدِ لا يُنافي كمالَ المرتبةِ؛ فإبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن الكُمَّلِ مِن الرُّسُلِ، ومع ذلك استبشَرَ بالأولادِ، وفَرِحَ بهم، فلا يقالُ: الفرَحُ بالأولادِ ينافي الكمالَ(٢)!

٥- قولُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ مِن لُطْفِ اللهِ بإبراهيمَ أنْ قدَّمَ له البُشرى قبْلَ إعلامِه بإهلاكِ قومِ لُوطٍ؛ لعِلْمِه تعالى بحِلْمِ إبراهيمَ(٣).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾، لَمَّا كان المَقامُ للابتلاءِ والامتحانِ، أجمَلَ البُشْرَى، وفصَّل النُّذْرَى(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ أنَّ الهلاكَ في الأصلِ إذا جاء يَشمَلُ الصَّالحَ وغيرَ الصَّالحِ؛ فلولا أنَّه يَشمَلُ الجَميعَ ما نَبَّهَهُم على هذا، بل إنَّ اللهَ ذَكَر ما يدُلُّ على ذلك صريحًا؛ قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٥) [المؤمنون: ٩٣، ٩٤]، وفي الحديثِ عن زينبَ بنتِ جحشٍ زَوجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قالت: ((خرَجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومًا فَزِعًا مُحْمَرًّا وجْهُه، يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وَيْلٌ للعرَبِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٦).

مِن شرٍّ قدِ اقترَبَ! فُتِح اليَومَ مِن رَدمِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مِثلُ هذِه، وحلَّقَ بإصبَعِه الإبهامِ والَّتي تَليها. قالت: فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، أنَهلِكُ وفينا الصَّالحونَ؟ قال: نعَمْ، إذا كَثُرَ الخَبَثُ))[1].

٨- عن قَتادةَ رَضِيَ الله عنه في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ قال: (لا تلقَى المؤمِنَ إلَّا يرحَمُ المؤمِنَ، ويَحوطُه حيثُما كان)[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ إثباتُ القَولِ والعِلْمِ للمَلائكةِ؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّهم ذَوو عُقولٍ، وذَوو نُطقٍ، خلافًا لِمَن قال: إنَّهم لا عُقولَ لهم! وهذا مِن أغرَبِ ما يكونُ؛ أن يكونَ هؤلاءِ الملائكةُ الَّذين يُسَبِّحون اللَّيلَ والنَّهارَ لا يَفتُرونَ، والَّذين وَصَفَهم الله تعالى بأنَّهم عِبادٌ مُكرَمونَ؛ أن يَكونوا لا عُقولَ لهم، فمَن له عقلٌ بعدَ ذلك[3]؟!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ﴾ اعتبارُ القَسَمِ المُقَدَّرِ، بمعنى أنَّه لا يُشترَطُ في القَسَمِ أنْ تَنْطِقَ به، فلو قال قائلٌ: «لَأَفعَلَنَّ كذا» يكونُ مُقْسِمًا؛ لأنَّ هذه الجملةَ تكونُ جوابًا لقَسَمٍ مُقَدَّرٍ، ولو قال: «لَئِنْ آتانيَ اللهُ مِن فَضْلِه لَأَتَصَدَّقَنَّ» يكونُ نَذْرًا، قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥، ٧٦]، فجَعَلَ هذا نذرًا؛ لأنَّ النَّذْرَ ليس له صيغةٌ مُعَيَّنةٌ، بل كلُّ ما دلَّ على الالتزامِ فهو نَذْرٌ -بأيِّ صيغةٍ-، وقد يكونُ نذرًا مقرونًا بالقَسَمِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في ((تفسيره)) (٣/ ٥)، وابن جرير في ((تفسيره)) (٩/ ٣٠٥٦)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٥٠/ ٣١٠)، ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٦٠).

فيُفيدُ التَّوكيدَ[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ فيه سؤالٌ: القَومُ عُذِّبوا بسبَبِ ما صدَرَ منهم مِنَ الفاحِشةِ، وامرأتُه لم يَصدُرْ منها تلك، فكيف كانت مِنَ الغابِرينَ معهم؟

الجواب: أنَّ الدَّالَّ على الشَّرِّ له نصيبٌ، كفاعِلِ الشَّرِّ، كما أنَّ الدَّالَّ على الخيرِ كفاعِلِه، وهي كانت تدُلُّ القومَ على ضيوفِ لوطٍ، حتَّى كانوا يَقصِدونَهم؛ فبِالدَّلالةِ صارت واحِدةً منهم[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ أنَّ الزَّوجةَ داخِلةٌ في الأهلِ؛ لأنَّهم استَثْنَوا مِن ذلك امرأتَه، والأصلُ في الاستثناءِ الاتِّصالُ؛ لأنَّه لولا أنَّها مِن المُستثنَى ما احتِيجَ إلى إخراجِها، وينبني على هذه الفائِدةِ أنَّ أزواجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هم مِن أهلِ بيتِه ولا شكَّ، خلافًا للرَّافضةِ الَّذين يُخرِجونَ زَوجاتِه مِن أهلِ بَيتِه، وفي القرآنِ ما يَدُلُّ على ذلك صَريحًا؛ قال تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾[٣] [الأحزاب: ٣٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أنَّ الأنبياءَ كغيرِهم مِن البَشَرِ؛ تَلْحَقُهم المَساءةُ والأحزانُ والسُّرورُ؛ فالعوارِضُ البَشَريةُ لا تُنافي كمالَ الرِّسالاتِ؛ ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكم؛ أَنسَى كما تَنسَونَ))[٤]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٦٢).

(٤) أخرجه البخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وكذلك يَعتري الأنبياءَ البَردُ والحَرُّ، والجوعُ والعَطَشُ[(١)].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ الاستِدلالُ على الأحوالِ بالملامِحِ؛ لأنَّهم رَأَوْا مِن العلاماتِ الظَّاهرةِ على ملامحِه ما يدُلُّ على خَوفِه. وفيها أيضًا: العملُ بالقرائنِ، والعملُ بالقرائنِ ثابتٌ في القرآنِ، ودليلُه مِن قصَّةِ يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قَولِ اللهِ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۞ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧]؛ فهذه قَرينةٌ[(٢)].

١٥- قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ استِثناءُ امرأتِه مِن عُمومِ أهلِه استثناءٌ مِن التَّعليلِ لا مِنَ النَّهيِ؛ ففي ذلك مَعذِرةٌ له بما عسى أن يحصُلَ له مِن الحُزنِ على هلاكِ امرأتِه مع أنَّه كان يحسَبُها مُخلِصةً له[(٣)].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى غَفلةِ المُخاطَبينَ بهذه القِصَّةِ مِنَ العَرَبِ وغَيرِهم، وأنَّه ليس بيْنَهم وبيْنَ الهُدى إلَّا تفكُّرُهم في أمْرِهم، مع الانخلاعِ مِن الهَوى، وإنَّما يكونُ ذلك ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، أي: يَتدَبَّرونَ؛ فعَدَّ مَن لم يَستبصِرْ بذلك غيرَ عاقِلٍ[(٤)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٣٨).

هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾

- أُضيفَ الإهلاكُ والإنجاءُ إليهم، وإنَّما سُبحانَه هو المُهلِكُ والمُنَجِّي، ولكنْ لَمَّا كانوا هم الجائينَ به مِن عِندِه بهذا الإهلاكِ والإنجاءِ أُضيفَ إليهم[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ تَعليلٌ لإهلاكِهم لهم بإصرارِهم وتَماديهم في ظُلْمِهم الَّذي هو الكفرُ وأنواعُ المعاصي[٢]. وقُصِدَ به استِئْناسُ إبراهيمَ لقَبولِ هذا الخبرِ المُحزِنِ، وأيضًا لأنَّ العدْلَ يَقْتضي ألَّا يكونَ العِقابُ إلَّا على ذنْبٍ يَقْتضيه[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ خبرٌ مُستعمَلٌ في التَّذكيرِ بسُنَّةِ اللهِ مع رُسلِه مِن الإنجاءِ مِن العذابِ الَّذي يحُلُّ بأقوامِهم؛ فهو مِن التَّعريضِ للملائكةِ بتَخصيصِ لُوطٍ ممَّن شمِلَتْهم القريةُ في حُكْمِ الإهلاكِ، ولُوطٌ وإنْ لم يكُنْ مِن أهْلِ القريةِ بالأصالةِ فإنَّ كَوْنَه بيْنَهم يَقْتضي الخَشيةَ عليه مِن أنْ يَشمَلَه الإهلاكُ؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ بحرْفِ الظَّرفيَّةِ (في)، ولم يقُلْ: إنَّ منها[٤].

- قولُه: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾؛ فلذلك لم تُعطَفْ عليها وفُصِلَت[٥].

- قولُه: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فِعْلُ (كانت) مُستعمَلٌ في

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٤٤).

معنى (تكونُ)، فعبَّرَ بصِيغةِ الماضي؛ تَشبيهًا للفِعلِ المُحقَّق وُقوعُه بالفِعلِ الَّذي مضَى، مِثْلُ قولِه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]. ويجوزُ أنْ يكونَ مُرادًا به الكَوْنُ في عِلْمِ اللهِ وتقديرِه، كما في قولِه: ﴿قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧]، فتكونَ صِيغةُ الماضي حقيقةً[١]. وقيل: (كان) هنا مَسلوبةُ الزَّمنِ، والمرادُ اتِّصافُ اسمِها بخبرِها، أي: اتَّصفَتْ بكَونِها مِن الغابرينَ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ (أَنْ) صِلَةٌ أكَّدَتْ وُجودَ الفِعلَينِ ﴿جَآءَتۡ﴾ و﴿سِيٓءَ﴾، مُترتِّبًا أحدُهما على الآخَرِ في وَقتينِ مُتجاوِرَينِ لا فاصِلَ بيْنَهما، كأنَّهما وُجِدَا في جُزءٍ واحدٍ مِن الزَّمانِ؛ كأنَّه قِيل: لَمَّا أحَسَّ بمَجيئهم فاجأَتْه المَساءةُ مِن غيرِ رَيثٍ؛ خِيفةً عليهم مِن قَومِه[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا﴾، وقال مِن قبْلُ في السُّورةِ نفْسِها: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [العنكبوت: ٣١]؛ وذلك لحِكمةٍ بالغةٍ، وهي أنَّ الواقعَ في وقْتِ المجيءِ هناك قولُ الملائكةِ: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ﴾، وهو لم يكُنْ مُتَّصِلًا بمَجيئِهم؛ لأنَّهم بشَّروا أوَّلًا ولَبِثوا، ثمَّ قالوا: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ﴾، وأيضًا فالتَّأنِّي واللُّبثُ بعدَ المَجيءِ، ثمَّ الإخبارُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٨، ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٤).

بالإهلاكِ حَسَنٌ؛ فإنَّ مَن جاء ومعه خبرٌ هائلٌ يَحسُنُ منه ألَّا يُفاجِئَ به، والواقعُ هاهنا هو خَوفُ لُوطٍ عليهم، والمُؤمِنُ حينَما يَشعُرُ بمَضرَّةٍ تصِلُ بريئًا مِن الجِنايةِ، يَنْبغي أنْ يَحزَنَ ويَخافَ عليه مِن غيرِ تأْخيرٍ، إذا عُلِمَ هذا فقولُه هاهنا: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا﴾ يُفِيدُ الاتِّصالَ، يعني: خاف حِينَ المَجيءِ[1].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّ قولَه: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ وقَعَ في (هودٍ): ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ﴾ [هود: ٧٧] بغيرِ (أنْ)؛ وذلك لأنَّ (لَمَّا) يَقْتضي جوابًا، وإذا اتَّصلَ به (أنْ) دلَّ على أنَّ الجوابَ وقَعَ في الحالِ مِن غيرِ تَراخٍ، كما في هذه السُّورةِ، وهو قولُه: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾، وفي (هُودٍ) اتَّصلَ به كلامٌ بعدَ كلامٍ، إلى قولِه: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ [هود: ٨١]، فلمَّا طال لم يَحسُنْ دُخولُ (أنْ)[2]. وقيل: لم تقَعْ (أنْ) المُؤكِّدةُ في آيةِ سُورةِ (هودٍ)؛ لأنَّ في تلك السُّورةِ تَفصيلًا لسَببِ إساءتِه، وضِيقِ ذَرْعِه؛ فكان ذلك مُغْنِيًا عن التَّنبيهِ عليه في هذه الآيةِ، فكان التَّأكيدُ هنا ضرْبًا مِن الإطنابِ[3].

- وبِناءُ فِعلِ ﴿سِيٓءَ﴾ للمَجهولِ؛ لأنَّ المقصودَ حُصولُ المفعولِ دونَ فاعِلِه. وعُطِفَتْ عليه جُملةُ ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾؛ لأنَّها مِن جُملةِ ما وقَعَ عقِبَ مَجيءِ الرُّسلِ لُوطًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٢٩-١٠٣٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٩)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٤٥).

- وهاهنا إيجازٌ؛ فقد طُوِيَت جُمَلٌ دلَّ عليها قولُه: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾، وهي الجُمَلُ الَّتي ذُكِرَت مَعانيها في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾، إلى قولِه: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ في سُورةِ (هُودٍ)[١] [٧٨ - ٨١].

- قولُه: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ قدَّموا تأْمينَه قبْلَ إعلامِه بأنَّهم مُنزِلون العذابَ على أهْلِ القريةِ؛ تَعجيلًا بتَطْمينِه. وعطْفُ ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ على ﴿لَا تَخَفْ﴾ جمْعٌ بيْنَ تأْمينِه مِن ضُرِّ العذابِ وبيْن إعلامِه بأنَّ الَّذين سيُهْلَكون لَيسوا أهْلًا لِأنْ يَحزَنَ عليهم[٢]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن الأمْرينِ[٣].

- فإنْ قِيل: قولُهم: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ لا يُناسِبُه ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾؛ لأنَّ خَوْفَه ما كان على نفْسِه!

فالجوابُ: أنَّ بيْنَهما مُناسبةً في غايةِ الحُسنِ؛ وهي أنَّ لُوطًا عليه السَّلامُ لَمَّا خاف عليهم، وحَزِنَ لِأجْلِهم -على قولٍ في التفسيرِ-، قالوا له: لا تخَفْ علينا ولا تَحزَنْ لأجْلِنا؛ فإنَّا ملائكةٌ، ثمَّ قالوا له: يا لوطُ، خِفْتَ علينا، وحَزِنْتَ لأجْلِنا؛ ففي مُقابَلةِ خوفِك وقتَ الخوفِ نُزيلُ خوفَك ونُنجِّيك، وفي مُقابَلةِ حُزْنِك نُزيلُ حُزْنَك، ولا نَتركُك تُفجَعُ في أهْلِك، فقالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾، وقال لإبراهيمَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٣).

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ [العنكبوت: ٣٢] بصِيغةِ الفِعلِ؛ وذلك أنَّ هناك لَمَّا قال لهم إبراهيمُ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، وعَدُوه بالتَّنجيةِ، ووعْدُ الكريم حتْمٌ، وهاهنا لَمَّا قالوا لِلُوطٍ -وكان ذلك بعدَ سبْقِ الوعْدِ مرَّةً أُخرى- قالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾، أي: ذلك واقعٌ مِنَّا، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠]؛ لِضَرورةِ وُقوعِه[١].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ، وقَعَتْ بَيانًا لِمَا في جُملةِ ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ [العنكبوت: ٣٣] مِن الإيذانِ بأنَّ ثمَّةَ حادِثًا يُخافُ منه، ويُحزَنُ له[٢]. وقيل: هي استئنافٌ مَسُوقٌ لبَيانِ ما أُشِيرَ إليه بوَعدِ التَّنجيةِ مِن نُزولِ العذابِ عليهم[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ...﴾ [العنكبوت: ٢٨] عطْفَ آيةٍ على آيةٍ؛ لأنَّ قِصَّةَ لُوطٍ آيةٌ بما تضمَّنَتْه مِن الخبرِ، وآثارَ قَريةِ قومِه آيةٌ أُخرى بما يُمكِنُ مُشاهَدتُه لأهْلِ البصرِ. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةً مُعترِضةً في آخرِ القصَّةِ. وعلى كِلَا الوجهَينِ فهو مِن كلامِ اللهِ تعالى[٤].

- ومَفعولُ ﴿تَّرَكْنَا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ ﴿ءَايَةًۢ﴾، فيُجعَلُ (مِن) حرْفَ جرٍّ، وهو مَجرورٌ وصْفًا لـ ﴿ءَايَةًۢ﴾؛ قُدِّمَ على مَوصوفِه للاهتمامِ، فيُجعَلُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٦).

حالًا مِن ﴿ءَايَةٗ﴾. ويجوزُ أنْ تكونَ (مِن) للابتداءِ، أي: ترَكْنا آيةً صادرةً مِن آثارِها، ومَعرفةِ خَبرِها. ويجوزُ جَعلُ (مِن) اسمًا بمعنى (بعضٍ)؛ فتكونُ (مِن) مفعولًا مُضافًا إلى ضَميرِ (قرية)[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال في السَّفينةِ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، ولم يقُلْ: (بيِّنة)، وقال هاهنا: ﴿ءَايَةٗ بَيِّنَةٗ﴾؛ وذلك لأنَّ الإنجاءَ بالسَّفينةِ أمْرٌ يتَّسِعُ له كلُّ عقْلٍ، وقد يقَعُ في وهْمِ جاهلٍ أنَّ الإنجاءَ بالسَّفينةِ لا يَفتقِرُ إلى أمْرٍ آخَرَ، وأمَّا الآيةُ هاهنا الخسْفُ، وجعْلُ دِيارٍ مَعمورةٍ عالِيَها سافلَها، وهو ليس بمُعتادٍ، وإنَّما ذلك بإرادةِ قادرٍ يُخصِّصُه بمكانٍ دونَ مكانٍ، وفي زمانٍ دونَ زمانٍ؛ فهي بيِّنةٌ لا يُمكِنُ لجاهلٍ أنْ يقولَ: هذا أمرٌ يكونُ كذلك، وكان له أنْ يقولَ في السَّفينةِ: النَّجاةُ بها أمْرٌ يكونُ كذلك، إلى أنْ يُقالَ له: فمِن أين عَلِمَ أنَّه يَحتاجُ إليها، ولو دام الماءُ حتَّى يَنفَدَ زادُهم كيف كان يَحصُلُ لهم النَّجاةُ؟ ولو سلَّطَ اللهُ عليهم الرِّيحَ العاصفةَ كيف يكونُ أحوالُهم[٢]؟

وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّها آيةٌ واضحةٌ دائمةٌ على طُولِ الزَّمانِ إلى الآنَ؛ ولذلك وُصِفَت بـ ﴿بَيِّنَةٗ﴾، ولم تُوصَفْ آيةُ السَّفينةِ بـ (بيِّنة) في قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]؛ لأنَّ السَّفينةَ قد بَلِيَت ألْواحُها وحديدُها، أو بقِيَ منها ما لا يَظهَرُ إلَّا بعدَ تَفتيشٍ إنْ كان[٣].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا قولُه هاهنا: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، وقال هناك:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٣، ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٦).

﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]؛ وذلك لأنَّ السَّفينةَ مَوجودةٌ في جميعِ أقطارِ العالَم، فعندَ كلِّ قومٍ مِثالٌ لسَفينةِ نُوحٍ يَتذكَّرون بها حالَه، وإذا رَكِبوها يَطلُبون مِن اللهِ النَّجاةَ، ولا يثِقُ أحدٌ بمُجرَّدِ السَّفينةِ، بلْ يكونُ دائمًا مُرتجِفَ القلْبِ، مُتضَرِّعًا إلى اللهِ تعالى؛ طلَبًا للنَّجاةِ، وأمَّا أثَرُ الهلاكِ في بِلادِ لُوطٍ ففي مَوضعٍ مَخصوصٍ لا يطَّلِعُ عليه إلَّا مَن يمُرُّ بها ويصِلُ إليها، ويكونُ له عقْلٌ يَعلَمُ أنَّ ذلك مِن اللهِ المُريدِ؛ بسَببِ اختِصاصِه بمكانٍ دونَ مكانٍ، ووُجودِه في زمانٍ بعدَ زمانٍ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٤).

الآيتان (٢٦-٢٧)

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَعْثَوْا۟﴾: أي: تُفسِدوا، وتَسعَوا، وتَطغَوا، وأصلُ العيثِ: يدُلُّ على الفَسادِ[١].

﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾: أي: الزَّلزلةُ الشَّديدةُ، وأصلُ (رجف): يدُلُّ على اضْطِرابٍ[٢].

﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي: موتَى، لاصِقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم ووُجوهِهم، وقيل: مُلقًى بعضُهم فوقَ بعضٍ، والجُثومُ: البُروكُ على الرُّكَبِ، وأصلُ الجثومِ: هو أن يكونَ الإنسانُ مُنْكَبًّا على وجهِه، رُكْبَتاه في الأرضِ، وأصلُ (جثم): يدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وأرسَلْنا إلى مَدْيَنَ أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا، فقال شُعَيبٌ لِقَومِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٥)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٣٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٣).

يا قومِ، اعبُدوا اللهَ وَحْدَه وارجُوا ثوابَ الآخرةِ، ولا تُفسِدوا في الأرضِ بالكُفرِ والعِصيانِ والبَغْيِ على النَّاسِ. فكذَّبوا نبيَّهم شُعَيبًا، فأهلكَتْهم رَجْفةُ العذابِ؛ فأصبَحوا في ديارِهم أجسادًا هامِدةً لا أرواحَ فيها!

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾.

أي: وأرسَلْنا إلى مَدْيَنَ[1] أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا[2].

﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾.

أي: فقال شُعَيبٌ لِقَومِه: يا قَومِ، اعبُدوا اللهَ وَحْدَه، وذِلُّوا له بطاعتِه، وارجُوا اليومَ الآخِرَ خوفًا مِن العقابِ، وطمعًا في الثوابِ[3].

---

(١) قال ابن عطية: (قيل في مَدْيَنَ: إنَّه اسمُ بلدٍ وقُطرٍ، وقيل: اسمُ قبيلةٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٢٦).

وقال ابن عاشور: (مَدْيَنُ: اسمُ أحدِ أبناءِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، سكنَتْ ذُرِّيَّتُه في مَواطِنَ تُسمَّى الأَيْكةَ على شاطئِ البحرِ الأحمرِ جنوبَ عَقَبةِ أَيْلةَ، وغلَبَ اسمُ القبيلةِ على الأرضِ، وصار عَلَمًا للمكانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣٥، ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٠، ١٨١).

قال أبو حيان: (والأمرُ بالرِّجاءِ أمرٌ بفِعلِ ما يَترتَّبُ الرَّجاءُ عليه، أقام المُسَبَّبَ مقامَ السَّبَبِ. والمعنى: وافعَلوا ما تَرجُونَ به الثَّوابَ مِن الله، أو يكونُ أمرًا بالرَّجاءِ على تقديرِ تحصيلِ شَرطِه، وهو الإيمانُ بالله. وقال أبو عبيدةَ: وارجوا: خافُوا جزاءَ اليومِ الآخِرِ مِن انتِقامِ الله منكم إن لم تَعبُدوه). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٦). =

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

أي: ولا تُفْسِدُوا في الأرضِ في حالِ كَونِكم مُفْسِدينَ، ولا تَعمَلوا بمعصيةِ الله، والبَغْيِ على النَّاسِ: ببَخْسِ المَكاييلِ والمَوازينِ، وقطعِ الطُّرُقِ، مع كُفرِكم بالله؛ فإنَّه أَصْلُ كلِّ فسادٍ، ولكنْ تُوبوا إلى الله مِن ذلك، وأَنِيبوا إليه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ

= ممَّن اختار أنَّ الرَّجاءَ على بابِه: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن عطية، والثعالبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٢٩٤).

وقال الرَّسْعَني: (قال عامَّةُ المفسِّرينَ: الرَّجاءُ هاهنا بمعنى الخشيةِ، المعنى: اخْشَوُا اليَومَ الَّذي تُجازَوْن فيه بأعمالِكم). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦١٣).

وممَّن اختار أنَّ الرَّجاءَ هنا بمعنى الخَوفِ والخشيةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والبغويُّ، وذكر ابنُ الجوزي أنَّه قولُ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٧).

وقال ابن عثيمين: (يجوزُ أن نحملَه على المعنيَينِ جميعًا، أي: ارْجُوه خوفًا مِن العقابِ، وطمعًا في الثوابِ...، والرَّاجحُ عندي -وهو قولٌ لبعضِ العلماءِ- جوازُ استعمالِ المشتركِ في معنيَينِ إذا لم يكُنْ بيْنَهما تنافٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨١).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي: تَوَقَّعوه وافعَلوا اليومَ مِن الأعمالِ ما يَدفَعُ عذابَه عنكم: أبو السعودِ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٧).

قال ابن عثيمين: (المرادُ: الإفسادُ الحِسِّيُّ... والإفسادُ المعنويُّ كلاهما؛ فالإفسادُ في الأرضِ يَشملُ الإفسادَ بالمعاصي، ويَشملُ الإفسادَ الحِسِّيَّ المادِّيَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٢) بتصرف.

وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٥، ٨٦].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾.

أي: فكذَّبوا نَبيَّهم شُعَيبًا، فأهلكَتْهم رَجْفةُ العذابِ[1].

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

أي: فأصبَح قَومُ شُعَيبٍ في بَلَدِهم مُنكَبِّينَ على وُجوهِهم مَوْتَى، قد فارَقتْ أرواحُهم أبدانَهم، ليس منهم داعٍ ولا مجيبٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٧).

ممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالرَّجفةِ هنا: زَلزلةُ الأرضِ: البيضاويُّ، وابن كثير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٤).

وقيل: المرادُ بها: الصَّيحةُ. أي: إنَّ الصَّيحةَ رَجَفتْ بقُلوبِهم. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٥٩).

قال الشنقيطيُّ: (قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ لم يُبيِّنْ هنا سببَ رَجْفةِ الأرضِ بهم، ولكنَّه بيَّن في موضعٍ آخَرَ أنَّ سببَ ذلك صيحةُ الملَكِ بهم، وهو قولُه: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ الآيةَ [هود: ٦٧]، والظَّاهرُ أنَّ الملَكَ لَمَّا صاحَ بهم رَجَفَتْ بهم الأرضُ مِن شِدَّةِ الصَّيحةِ، وفارَقَتْ أرواحُهم أبدانَهم). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) =

كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ وُجوبُ الاستعدادِ لِلْيَومِ الآخِرِ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تَسليةُ الدُّعاةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ إذا عُورِضوا في دَعوتِهم؛ وجهُ ذلك: أنَّ الرُّسلَ كُذِّبوا، فهُم مِن بابِ أَولى؛ ولهذا يُسَلِّي اللهُ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بمِثلِ هذا، قال سُبحانَه وتعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ [الأنعام: ٣٤]؛ فالدَّاعي إلى اللهِ لا ينبغي أنْ يأنَفَ مِن أنْ يُكَذَّبَ؛ فإنَّ هذا هو طَريقُ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأتْباعُهم سيَكونون مِثلَهم[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ﴾ فيه سؤالٌ: ما حُكِيَ عن شُعَيبٍ أمرٌ ونَهيٌ، والأمرُ لا يُصَدَّقُ ولا يُكَذَّبُ، فإنَّ مَن قال لغيرِه: قُمْ. لا يصِحُّ أن يقولَ له: كذَبْتَ؟

= (٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٣).

وقال ابن جرير: (﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ جُثُومًا بعضُهم على بعضٍ؛ موتَى). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٦).

الجواب: كان شُعَيبٌ يقولُ: الله واحِدٌ فاعبُدوه، والحشرُ كائِنٌ فارجوه، والفَسادُ مُحرَّمٌ فلا تَقرَبوه. وهذه الأشياءُ فيها إخباراتٌ، فكذَّبوه فيما أخبَرَهم به[١].

أو: كَذَّبُوهُ فيما تضمَّنه كلامُه مِن أنَّهم إن لم يمتثِلوا أمرَه ونهيَه وقَع بهم العذابُ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾، أمْرُه إيَّاهم بترَقُّبِ اليومِ الآخِرِ، يدُلُّ على أنَّهم كانوا لا يُؤمِنونَ بالبعثِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ أنَّ الشَّرائعَ تَجمَعُ بيْنَ الأمْرَينِ: الإيجابيِّ، والسَّلبيِّ؛ الإيجابيُّ بالأوامرِ، والسَّلبيُّ بالنَّواهي، يعني: أنَّ الشَّرائعَ أفعالٌ وتُروكٌ، ولا يُصلِحُ العِبادَ إلَّا هذا؛ لأنَّ الإنسانَ قد تُناسِبُه الأوامرُ ولا تُناسِبُه النَّواهي، وقد يكونُ العكسُ؛ فجَمَعَ اللهُ سبحانه وتعالى في شرائعِه بيْنَ الأمرِ والنَّهيِ[٤].

٤- قَولُه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ أخبَر تعالَى هاهنا أنَّهم أخذَتْهم الرَّجفةُ، كما أرجَفوا شُعَيبًا وأصحابَه، وتوَعَّدوهم بالجلاءِ[٥].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ فيه تَقديمُ المجرورِ في قولِه: (إلَى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٦) ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨).

مَدْيَنَ)؛ لِيتأتَّى الإيجازُ في وَصْفِ شُعَيبٍ بأنَّه أخوهم بالإضمارِ حيثُ أُريدَ وصفُ شُعيبٍ بأنَّه مِن إخوةِ مَدْيَنَ وَمِن صَميمِهم، مِن غيرِ احتياجٍ إلى إعادةِ لفظِ (مدينَ)، ومع تجنُّبِ عَودِ الضَّميرِ على مُتأخِّرٍ لفظًا ورُتْبةً، فقيلَ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[1].

- وفيه أيضًا مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وقال في نُوحٍ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾[العنكبوت: ١٤]، فقدَّم نُوحًا في الذِّكْرِ، وعرَّفَ القومَ بالإضافةِ إليه، وكذلك في إبراهيمَ ولُوطٍ، وهاهنا ذكَرَ القومَ أوَّلًا، وأضاف إليهم أخاهم شُعيبًا؛ وذلك لأنَّ الأصلَ في جميعِ المواضعِ أنْ يُذكَرَ القومُ، ثمَّ يُذكَرَ رَسولُهم؛ لأنَّ المُرسِلَ لا يَبعَثُ رسولًا إلى غيرِ مُعيَّنٍ، وإنَّما يَحصُلُ قومٌ أو شخصٌ يَحتاجون إلى إنباءٍ مِن المُرسِلِ، فيُرسِلُ إليهم مَن يَختارُه، غيرَ أنَّ قومَ نوحٍ وإبراهيمَ ولوطٍ لم يكُنْ لهم اسمٌ خاصٌّ، ولا نِسبةٌ مَخصوصةٌ يُعرَفون بها، فعُرِفوا بالنَّبيِّ، فقِيل: قومُ نوحٍ وقومُ لُوطٍ. وأمَّا قومُ شُعيبٍ وهودٍ وصالحٍ، فكان لهم نسَبٌ معلومٌ اشتُهِرُوا به عندَ النَّاسِ؛ فجَرى الكلامُ على أصْلِه، وقال اللهُ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[الأعراف: ٦٥][2].

- قولُه: ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ أي: افْعَلوا ما تَرْجُون به ثوابَه -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-؛ فأُقِيمَ المُسبَّبُ مُقامَ السَّببِ، فيكونُ عطْفُ ﴿وَٱرْجُواْ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٧)، و(٨-ب/ ٢٠٠).

ووصفُ (شعيب) بأنَّه أخو مَدْيَنَ لأنَّه كان مِن نَسَبِهم، كما يُقالُ: يا أخا العربِ، أي: يا عربيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٤).

على ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ للبيانِ والتَّفسيرِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾

- قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾ أبلَغُ مِن قولِه: «أصابتْهم»؛ لأنَّ الأخذَ دليلٌ على أنَّه لا هَوادةَ فيه، وأنه مُدَمِّرٌ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، أي: الزَّلزلةُ الشَّديدةُ، وقال في سُورةِ (هودٍ): ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: ٩٤]، أي: صَيحةُ جِبريلَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّها المُوجِبةُ للرَّجفةِ[٣]. وقيل: سُمِّيَت بالصَّيحةِ في سورةِ (هود)؛ لأنَّ لتلك الرَّجفةِ صوتًا شديدًا كالصَّيحةِ[٤]. وقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، والتَّحقيقُ أنَّ قومَ شُعَيبٍ -أهلَ مَدْيَنَ- اجتَمَعت لهم الصَّيحةُ والرَّجفةُ والظُّلَّةُ؛ لأنَّه صاح بهم المَلَكُ مِن فوق، فرجَفَت بهم الأرضُ مِنْ تحتِهم، ثمَّ إنَّ الله أرسَل عليهم ظُلَّةً فأحرَقَتْهم، وذلك على القَولِ بأنَّ أصحابَ الظُّلَّةِ هم أصحابُ الصَّيحةِ والرَّجفةِ[٥].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه حيثُ قال: (أَخَذَتهم... الصَّيْحَةُ) قال: ﴿فِي دَارِهِمۡ﴾ [هود: ٦٧، ٩٤]، وحيث قال: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ قال: ﴿فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٩، ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ١٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩).

دَارِهِمْ﴾؛ وذلك لأنَّ الرَّجفةَ هائلةٌ في نفْسِها؛ فلم يَحتَجْ إلى مُهوِّلٍ، وأمَّا الصَّيحةُ فغيرُ هائلةٍ في نفْسِها، لكنَّ تلك الصَّيحةَ لَمَّا كانت عظيمةً عندَ كلِّ أحدٍ، فلم يَحتَجْ إلى مُعظِّمٍ لأمْرِها[١]. وقيل: قولُه: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ﴾، أي: في بَلَدِهم أو دُورِهم، ولم يُجمَعْ؛ لأمْنِ اللَّبْسِ[٢].

وقيل: الدَّارُ هنا معناه: الدِّيارُ؛ لأنَّ الدارَ اسمُ جنسٍ، وهو إذا أُضيفَ إلى معرفةٍ فهو عَامٌّ. فمعنَى ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ و﴿دِيَـٰرِهِمْ﴾ واحدٌ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٥، ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٣، ٤٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٢).

الآيات (٢٨-٤٠)

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبًا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾: أي: ذَوي بصائِرَ تُمكِّنُهم مِن تمييزِ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على عِلمٍ بالشَّيءِ[(١)].

﴿حَاصِبًا﴾: أي: ريحًا شَديدةً تَرميهم بالحَصى، والحَصباءُ: جِنسٌ مِن الحَصى، والحَصْبُ: الرَّميُ[(٢)].

﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾: أي: الصَّوتُ الشَّديدُ، وأصلُ (صيح): يدُلُّ على الصَّوتِ العالي[(٣)].

﴿خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾: أي: غَيَّبناه فيها، يُقالُ: خسَفَ اللهُ به الأرضَ، أي: غابَ به فيها، وأصلُ (خسف): يدُلُّ على ذَهابٍ وغُؤورٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٠)، ((البسيط)) =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وأهلَكْنا عادًا وثَمودَ، وقد ظهَرَ لكم هَلاكُهم مِن آثارِ مَساكِنِهم الخاليةِ مِنهم، وحسَّنَ الشَّيطانُ لهم سُوءَ أعمالِهم، فصَرَفَهم عن طريقِ الحَقِّ، وكانوا قَومًا عُقَلاءَ بُصَراءَ يَتمكَّنونَ مِنَ النَّظَرِ والفِكرِ!

وأهلَكْنا قارونَ وفِرعَونَ وهامانَ، ولقد جاءَهم موسى بالدَّلالاتِ الواضِحةِ، فاستكبَروا عن قَبولِها، وما كانوا فائِتينَ اللهَ ولا مُفلِتينَ مِن عذابِه، فكُلًّا منهم أهلَكْنا بسبَبِ ذَنْبِه؛ فمِنهم مَن أرسَلْنا عليهم ريحًا شَديدةً ترميهم بالحَصى حتَّى هلَكوا، وهم عادٌ، ومنهم مَن أرسَلَ اللهُ عليه الصَّيحةَ الشَّديدةَ، وهم ثَمودُ، ومِنهم مَن خَسَفَ اللهُ به الأرضَ، وهو قارونُ، ومِنهم مَن أغرَقَه اللهُ، وهما فِرعَونُ وهامانُ، وما كان اللهُ تعالى ظالِمًا لهم بعُقوبتِهم، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بشِركِهم باللهِ، وتَكذيبِهم رُسُلَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جرَى ذِكرُ أهلِ مَدْيَنَ وقَومِ لُوطٍ؛ أُكمِلَت القِصصُ بالإشارةِ إلى عادٍ وثمودَ؛ إذ قد عُرِف في القُرآنِ اقتِرانُ هذه الأُمَمِ في نَسَقِ القَصَصِ[1].

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ ﴾.

= للواحدي (١٣/ ٣٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٨).

أي: وأهلَكْنا[١] عادًا قَومَ هُودٍ، وثمودَ قَومَ صالحٍ، وقد ظهَرَ لكم هلاكُهم مِن آثارِ مَساكِنِهم الخاويةِ منهم[٢]!

ثُمَّ بيَّن سببَ ما جرَى عليهم، فقالَ[٣]:

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وحسَّن الشَّيطانُ لعادٍ وثمودَ أعمالَهم الشَّنيعةَ مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ والمعاصي، فردَّهم وصرَفَهم عن طَريقِ الحَقِّ[٤].

﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾.

أي: صدَّهم الشَّيطانُ عن الحَقِّ، والحالُ أنَّهم كانوا عُقَلاءَ بُصَراءَ، مُتمَكِّنينَ مِنَ النَّظَرِ والفِكرِ، وقد عَرَفوا الحَقَّ مِنَ الباطِلِ بواسطةِ الرُّسُلِ والأدِلَّةِ؛ فلا عُذرَ لهم في مخالفةِ طَريقِ الحَقِّ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٨).
قال الرازي: (قال تعالَى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ أي: وأهلَكْنا عادًا وثمودَ؛ لأنَّ قولَه تعالَى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ دلَّ على الإهلاكِ). يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٦).
وقيل: الفعلُ المحذوفُ تقديرُه: واذكروا. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٨، ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩٠، ١٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾.

أي: وأهلَكْنا[1] قارونَ صاحِبَ الكُنوزِ الكثيرةِ، وأهلَكْنا فِرعَونَ مَلِكَ مِصرَ، وأهلَكْنا هامانَ[2].

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: ولقد جاء موسى كلًّا مِن قارونَ وفِرعَونَ وهامانَ بالمُعجِزاتِ والدَّلالاتِ الواضِحاتِ[3].

= (١٣/ ٣٤٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦، ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩٢-١٩٤).

قال ابن جُزَي: (﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ قيل: معناه: لهم بصيرةٌ في كفرِهم، وإعجابٌ به. وقيل: لهم بصيرةٌ في الإيمانِ، ولكنَّهم كفَروا عنادًا. وقيل: معنى ﴿مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾: عقلاءَ متمكِّنينَ مِن النَّظرِ والاستدلالِ، ولكنَّهم لم يفعلوا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٦).

وقال ابنُ جرير: (وكانوا مُستبصرينَ في ضلالتِهم، مُعجَبينَ بها، يَحسَبون أنَّهم على هُدًى وصوابٍ، وهم على الضَّلالِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٩).

وقال الزجاج: (أتَوْا ما أتَوْه وقدْ بَيَّن لهم أنَّ عاقبتَه عذابُهم). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣٨).

وقيل: التَّقديرُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- قارونَ وفِرعونَ وهامانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨).

قال ابنُ عطيةَ: (وهامانُ هو وزيرُ فرعونَ، وأكبرُ رجالِه...). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٠).

﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: فاستَكبَروا عن الحَقِّ الَّذي جاءَهم به موسى[١].

﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾.

أي: وما كان قارونُ وفِرعَونُ وهامانُ فائِتينَ اللهَ، ولا مُفلِتينَ مِن عَذابِه وحُكمِه فيهم[٢].

﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾.

﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾.

أي: فأهلَكْنا عادًا وثمودَ وقارونَ وفِرعَونَ وهامانَ؛ كُلًّا بسَبَبِ ذَنْبِه، وعلى قَدْرِه، وبِعُقوبةٍ تُناسِبُه[٣].

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾.

أي: فمِنهم مَن أرسَلْنا عليه ريحًا شَديدةً تَرميهم بالحَصى حتَّى هَلَكوا، وهم عادٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٠)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٠٠، ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٠). =

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٨ - ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾.

أي: ومِنهم مَن أهلَكَهم اللهُ بالصَّيحةِ الشَّديدةِ، وهم ثمودُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ *

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ بهم قومُ عادٍ: ابنُ كثير، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٠).

وقيل: المرادُ بهم: قومُ لوطٍ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤).

قال ابن عثيمين: (هذا فيه نظرٌ؛ لأنَّ قَومَ لوطٍ أرسَلَ الله عليهم حاصبًا مِن السَّماءِ، وهي حجارةٌ مِن سِجِّيلٍ تحصِبُهم، كالَّتي أُرسِلَت على أصحابِ الفيلِ، وليست هي الحَصباءَ الَّتي تَذريها الرِّياحُ، وليس في عِلْمِنا أنَّ الله تعالى أرسل الرياحَ على قَومِ لوطٍ، ولو كانت رياحًا تحمِلُ الحَصباءَ لَبَيَّنَها الله عزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٠١).

وقال ابن جُزَي: (الحاصِبُ: الحِجارةُ، والحاصِبُ أيضًا: الرِّيحُ الشَّديدةُ، ويحتَمِلُ عندي أنَّه أراد به المعنيَين؛ لأنَّ قَومَ سيِّدنا لوطٍ أُهلِكوا بالحِجارةِ، وعادٌ أُهلِكوا بالرِّيحِ... لأنَّ المقصودَ هنا ذِكرُ عمومِ أخْذِ أصنافِ الكُفَّارِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بهم: ثمودُ: ابنُ كثير، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ بهم: ثمودُ ومَدْيَنُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥).

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٧، ٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ [القمر: ٣١].

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

أي: ومِنهم مَن أهلَكَه اللهُ بأنْ غيَّبَه في الأرضِ، وهو قارونُ(١).

كما قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١].

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾.

أي: ومِنهم مَن أهلَكَه اللهُ بالغَرَقِ، وهما فِرعَونُ وهامانُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أي: وما يَنبغي لله سُبحانَه أن يُهلِكَهم ظُلمًا مِن غيرِ ذَنبٍ منهم، أو يُهلِكَهم بذُنوبِ غيرِهم، أو يُهلِكَهم مِن غيرِ إنذارِهم وإمهالِهم، وبعْثِ الرُّسلِ إليهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٠).

وممَّن قال بأنَّهم فِرعونُ ومَن معه: السمرقنديُّ، وابن كثير، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ بهم: قومُ نوحٍ، وفِرعونُ وقَومُه. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥).

وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم؛ إذ تَسَبَّبوا في عذابِها بوُقوعِهم في الشِّركِ باللهِ، ومَعصيتِه، وتكذيبِ رُسُلِه؛ فاستَحَقُّوا عِقابَه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ فيه أنَّه ينبغي الاعتِبارُ بأحوالِ مَن مضَى؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ﴾ يعني: فاعتَبِروا واتَّعِظوا[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ التَّحذيرُ مِن تَزيينِ الأعمالِ، ويُفهَمُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أنَّ هذه الأعمالَ أصلُها قَبيحٌ لكِنَّها زُيِّنَتْ؛ فيَجِبُ الحَذَرُ مِن تَزيينِ الشَّيطانِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مَن عَرَفَ اللهَ بقَلْبِه ولم يُقِرَّ بلِسانِه لم يَكُنْ مُؤمِنًا، كما قال تعالى عن قَومِ عادٍ وقَومِ صالحٍ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾، وكما قال تعالى عن قَومِ فِرعَونَ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾[٤] [النمل: ١٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أنَّه أضاف التَّزيينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨، ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٠٩).

إلى الشَّيطانِ؛ وفي آيةٍ أُخرى أضاف التَّزيينَ إلى نفْسِه عزَّ وجلَّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]، والجَمعُ بيْنَ الآيتَينِ: أنَّ الإضافةَ باعتِبارِ السَّبَبِ وباعتِبارِ الفاعلِ الحَقيقيِّ؛ فالفاعِلُ الحقيقيُّ هو اللهُ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ كلَّ شَيءٍ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، والسَّببُ هو الشَّيطانُ، وأُضيفَ التَّزيينُ إليه لأنَّه مُباشِرٌ له؛ فيُضافُ إلى اللهِ تعالى خَلْقًا وتَقديرًا، ويُضافُ إلى الشَّيطانِ على سَبيلِ المباشَرةِ(١).

وهذا التَّزيينُ منه سُبحانَه خَلقًا ومشيئةً، وهو منه حَسَنٌ؛ إذ هو ابتلاءٌ واختبارٌ؛ ليتميَّزَ المطيعُ منهم من العاصي، والمؤمِنُ مِن الكافِرِ، وهو من الشَّيطانِ قَبيحٌ، وأيضًا فتزيينُه سُبحانَه للعَبدِ عَمَلَه السَّيِّئَ: عُقوبةٌ منه له على إعراضِه عن توحيدِه وعبوديَّتِه، وإيثارِ سَيِّئِ العمَلِ على حَسَنِه؛ فإنَّه لا بدَّ أن يُعَرِّفَه سُبحانَه السَّيِّئَ مِن الحَسَنِ، فإذا آثرَ القبيحَ واختاره وأحبَّه ورَضِيَه لنَفسِه، زيَّنه سُبحانَه له وأعماه عن رؤيةِ قُبحِه بعد أن رآه قبيحًا، وكُلُّ ظالمٍ وفاجرٍ وفاسِقٍ لا بدَّ أن يرُيهَ اللهُ تعالى ظُلمَه وفُجورَه وفِسقَه قَبيحًا، فإذا تمادى عليه ارتفَعَت رؤيةُ قُبحِه مِن قَلبِه، فربَّما رآه حسَنًا عُقوبةً له؛ فتزيينُ الرَّبِّ تعالى عَدلٌ، وعُقوبتُه حِكمةٌ، وتزيينُ الشَّيطانِ إغواءٌ وظُلمٌ، وهو السَّبَبُ الخارجُ عن العبدِ، والسَّبَبُ الداخِلُ فيه حُبُّه وبُغضُه وإعراضُه، والرَّبُّ سُبحانَه خالِقُ الجميعِ، والجميعُ واقِعٌ بمشيئتِه وقُدرتِه، ولو شاء لهدَى خَلْقَه أجمعينَ، والمعصومُ مَن عَصمَه اللهُ، والمخذولُ من خذَلَه اللهُ ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(٢) [الأعراف: ٥٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٣، ١٠٤).

فقد نسَب الله تعالى الأعمالَ إلى الخَلْقِ؛ فإذا نُسِبَ العملُ إليهم فمعنى ذلك أنَّهم فاعِلونَ حَقيقةً[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ بَشاعةُ الصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ مع البَصيرةِ؛ فإنَّ الجُملةَ هنا حاليَّةٌ على تقديرِ «قد»، يعني: فصَدَّهم وقد كانوا مُستبصِرينَ! والمُستبصِرُ كان بصَدَدِ ألَّا يُصَدَّ، لكنَّ قوَّةَ السَّببِ وضَعْفَ المانعِ هو الَّذي أوجَبَ لهم ذلك، والعياذُ باللهِ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قَولُه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى ما يُوضِّحُ قِلَّةَ عَقلِهم في استكبارِهم؛ وذلك لأنَّ مَن في الأرضِ أضعَفُ أقسامِ المكَلَّفينَ، ومَن في السَّماءِ أقواهم، ثم إنَّ مَن في السَّماءِ لا يَستكبِرُ على اللهِ وعن عبادتِه، فكيف يَستكبِرُ مَن في الأرضِ[٣]؟!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ إثباتُ الأسبابِ، وكلُّ ما جاء في القرآنِ مِن «لام» للتَّعليلِ أو «باءٍ» للسَّبَبيَّةِ فإنَّها تدُلُّ على إثباتِ الأسبابِ والحِكَمِ، وفي هذا ردٌّ على الجبريَّةِ ومَن وافَقَهم مِن الأشعريَّةِ الَّذين يُنْكِرون الأسبابَ، وأمَّا نحنُ -أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ- فنؤمنُ بالأسبابِ؛ لكنَّنا لا نقولُ: إنَّ هذه أسبابٌ مؤثِّرةٌ بنَفْسِها، لكنْ بخَلْقِ اللهِ سبحانه وتعالى فيها التَّأثيرَ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ أنَّ العقوباتِ لا تأتي مِن نوعٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٠٤، ٢٠٥)، ويُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).

واحدٍ، بل تأتي مِن أنواعٍ متعددةٍ بحسَبِ حالِ المعاقَبِ، فهذه الأنواعُ الأربعةُ ذِكْرُها له حكمةٌ؛ لأنَّ قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ هذا إهلاكٌ مِن فوقٍ، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ هذا إهلاكٌ مِن تحتٍ، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ هذا إهلاكٌ بالقولِ والصَّوتِ، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ هذا إهلاكٌ بالماءِ[1].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فيه كَمالُ عَدلِه سُبحانه وتعالى، وهذه الصِّفةُ مِن الصِّفاتِ السَّلبيةِ، والصِّفاتُ السَّلبيةُ لا تكونُ مَدحًا إلَّا إذا تضَمَّنتْ ثُبوتًا؛ فمُجَرَّدُ النَّفيِ ليس بمَدحٍ إلَّا إذا تَضَمَّنَ ثُبوتًا؛ إذا نفى اللهُ الظُّلمَ عن نفْسِه فليس معناه أنَّه لا يَظْلِمُ فقط، بل لِكَمالِ عَدْلِه لا يَظلِمُ، وليس المعنى أنَّه غيرُ قادرٍ على الظُّلمِ، بل هو قادرٌ سُبحانه وتعالى على أنْ يَظلِمَ، لكنَّه لِكَمالِ عَدْلِه لا يَظلِمُ، بل لا يُريدُ الظُّلمَ، ولو كان غيرَ قادرٍ على الظُّلمِ لم يكُنْ نَفْيُ الظُّلمِ عن نفْسِه مَدْحًا[2]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ الاستِبصارُ: البَصارةُ بالأُمورِ، والسِّينُ والتَّاءُ للتَّأكيدِ[3].

٢- قولُه: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٩).

فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴾

- قولُه: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ﴾ معطوفٌ على ﴿ وَعَادًا ﴾[العنكبوت: ٣٨]، وتَقديمُ قارُونَ؛ لشَرفِ نَسَبِه[١]، وقُدِّمَ فرعونُ على هامانَ؛ لعُلُوِّ مرتبتِه، وليس هذا التَّرتيبُ مِن بابِ البُداءةِ بالأدنى؛ لأنَّه لو كان كذلك لقال: «قارونُ وهامانُ وفرعونُ»[٢].

- وتَعليقُ قولِه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ بـ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ استِكبارَ كلٍّ منهم كان في جَميعِ البِلادِ الَّتي هو منها، فيُومِئُ ذلك أنَّ كلَّ واحدٍ مِن هؤلاء كان سيِّدًا مُطاعًا في الأرضِ؛ فالتَّعريفُ في (الأرض) للعهْدِ، فيَصِحُّ أنْ يكونَ المعهودُ هو أرضَ كلٍّ منهم، أو أنْ يكونَ المعهودُ الكُرَةَ الأرضيَّةَ؛ مُبالَغةً في انتشارِ استكبارِ كلٍّ منهم في البلادِ، حتَّى كأنَّه يعُمُّ الدُّنيا كلَّها[٣].

- وذِكرُ فِعلِ الكَونِ بعدَ النَّفيِ في قولِه: ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴾؛ لأنَّ المَنْفيَّ هو ما حَسِبوه نَتيجةَ استِكبارِهم، أي: أنَّهم لا يَنالُهم أحدٌ لِعَظَمَتِهم[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ تَفسيرٌ لِمَا يُنبِئُ عنه عدَمُ سبْقِهم بطريقِ الإبهامِ،

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: فكلَّ واحدٍ مِنَ المذكورينَ[١]، وأفادتِ الفاءُ التَّفريعَ على الكلامِ السَّابقِ؛ لِمَا اشتمَلَ عليه مِن أنَّ الشَّيطانَ زيَّنَ لهم أعمالَهم، ومِن استِكبارِ الآخَرينَ، أي: فكان مِن عاقبةِ ذلك أنْ أخَذَهم اللهُ بذُنوبِهم العظيمةِ النَّاشئةِ عن تَزيينِ الشَّيطانِ لهم أعمالَهم، وعن استِكبارِهم في الأرضِ، وليس المُفرَّغُ هو أخْذَ اللهِ إيَّاهم بذُنوبِهم؛ لأنَّ ذلك قد أشعَرَ به ما قبْلَ التَّفريعِ، ولكنَّه ذُكِرَ لِيُفْضَى بذِكْرِه إلى تفصيلِ أنواعِ أخْذِهم، وهو قولُه: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ إلى آخِرِه؛ فالفاءُ في قولِه: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ ...﴾ لِتَفريعِ ذلك التَّفصيلِ على الإجمالِ الَّذي تَقدَّمَه، فتَحصُلُ خُصوصيَّةُ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ، وللدَّلالةِ على عَظيمِ تصرُّفِ اللهِ[٢].

- قولُه: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ فأمَّا الَّذينَ أُرسِل عليهم حاصِبٌ فهم عادٌ، والَّذينَ أخذَتْهم الصَّيحةُ هم ثمودُ، والَّذينَ خَسَفَتْ بهم الأرضُ هو قارونُ وأهلُه، والَّذين أغرَقَهم: فرعونُ وهامانُ ومَن معَهما مِن قَومِهما؛ جاء هذا على طَريقةِ النَّشرِ على تَرتيبِ اللَّفِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ؛ إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلَفظٍ يَشتمِلُ على متعدِّدٍ- ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: =

- والاستِدراكُ في قولِه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ناشئٌ عن نفْيِ الظُّلمِ عن اللهِ في عِقابِهم؛ لأنَّه يُتوهَّمُ منه انتِفاءُ مُوجِبِ العِقابِ؛ فالاستِدراكُ لرفْعِ هذا التَّوهُّمِ[1].

= ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَين؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المرتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوسِ». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ٢٣١، ٢٣٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٢).

الآيات (٤١-٤٤)

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَوۡهَنَ﴾: أي: أَوْهَى وأضْعَفَ، وأصلُ (وهن): ضَعْفٌ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَضرِبُ الله تعالَى مثَلًا لِمَن يتَّخِذُ مِن دونِه آلهةً، ويَتوعَّدُ مَن يفعلُ ذلك بأشدِّ أنواعِ العذابِ، فيقولُ تعالى: مَثَلُ الَّذين اتَّخذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ مِن مَعبوداتٍ وغَيرِها؛ طَلبًا لِنَفعِها ونَصرِها، كمَثَلِ العَنكبوتِ اتَّخذَتْ لِنَفسِها بيتًا هو أوهَنُ البُيوتِ؛ فكذلك هؤلاءِ الأولياءُ الَّذين اتَّخَذوهم مِن دونِ اللهِ لن يَنفَعوهم بشَيءٍ، لو كانوا يَعلمونَ أنَّ ذلك مَثَلُهم!

إنَّ اللهَ يَعلَمُ ما يَدْعُونَ مِن دُونِه مِن معبوداتٍ، ويَعلَمُ حالَها وضَعْفَها، وهو مُجازيهم على كُفرِهم، وهو القَويُّ القاهِرُ الحَكيمُ في شَرعِه.

وتلك الأمثالُ المذكورةُ في القُرآنِ نَضرِبُها للنَّاسِ، وما يَفهَمُها إلَّا العالِمونَ باللهِ وآياتِه.

ثمَّ يَذكُرُ سُبحانَه ما يدُلُّ على عظيمِ قُدرتِه، فيقولُ: خلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٢).

بالحَقِّ، ولم يَخلُقْهما لَعِبًا ولا عَبثًا، إنَّ في ذلك لَعلامةً للمُؤمِنينَ على وحدانيَّةِ اللهِ، وتفرُّدِه بالخَلقِ والتَّدبيرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتًاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّه أهلَكَ مَن أشرَكَ عاجِلًا، وعذَّبَ مَن كذَّبَ آجِلًا، ولم يَنفَعْه في الدَّارَينِ مَعبودُه، ولم يَدفَعْ ذلك عنه رُكوعُه وسُجودُه- مثَّلَ اتِّخاذَه ذلك مَعبودًا باتِّخاذِ العَنكَبوتِ بَيتًا لا يُجيرُ آويًا، ولا يُريحُ ثاويًا[1]!

وأيضًا لما بُيِّنَتْ لهم الأشباهُ والأمثالُ مِن الأمم التي اتَّخذَتِ الأصنامَ مِن دونِ الله فما أغنَتْ عنهم أصنامُهم لما جاءهم عذابُ الله؛ أعْقَب ذلك بضربِ المثلِ لحالِ جميعِ أولئكَ، وحالِ مَن ماثَلهم مِن مشركي قريشٍ في اتخاذِهم ما يحسبونَه دافعًا عنهم، وهو أضعفُ مِن أنْ يدفعَ عن نفسِه، بحالِ العنكبوتِ تتَّخِذُ لنفسِها بيتًا تحسَبُ أنَّها تعتصِمُ به مِن المعتدي عليها، فإذا هو لا يصمدُ ولا يثبتُ لأضعفِ تحريكٍ، فيسقطُ ويتمزَّقُ[2].

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتًاۖ﴾.

أي: مَثَلُ الَّذين اتَّخَذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ مِن مَعبوداتٍ وغَيرِها، فيَطلُبونَ نَفعَها، ويَرجُونَ نَصْرَها؛ كمَثَلِ العَنكَبوتِ اتَّخَذَت لنفْسِها بَيتًا تَأْوي إليه، لا يَدفَعُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٢).

عنها حَرًّا ولا بردًا، ولا مطرًا ولا ضَرًّا، وكذلك ما اتَّخَذُوهُ وَلِيًّا مِن دُونِ اللهِ لا يَملِكُ لهم نفعًا ولا ضرًّا بوجْهٍ مِن الوُجوهِ[١].

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾.

أي: وإنَّ أضْعَفَ البُيوتِ هو بَيتُ العَنكَبوتِ[٢]

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: لو كانوا يَعلَمونَ أنَّ ذلك مَثَلُهم، وأنَّ اتِّخاذَهم الأولياءَ مِن دونِ اللهِ كاتِّخاذِ العَنكَبوتِ بيتًا؛ لَمَا اتَّخَذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ، لكنَّهم يجهَلون ذلك، فيَحسَبونَ أنَّهم يَنفعونَهم ويُقَرِّبونَهم إلى اللهِ زُلْفَى[٣]!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نفى عنهم العِلمَ بما تضَمَّنَه التَّمثيلُ مِن حَقارةِ أصنامِهم الَّتي يَعبُدونَها وقِلَّةِ جَدواها بقَولِه: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ المُفيدِ أنَّهم لا يَعلَمونَ؛ أعقَبَه بإعلامِهم بعِلمِه بدقائِقِ أحوالِ تلك الأصنامِ على اختِلافِها واختِلافِ مُعتَقَداتِ القبائِلِ الَّتي عَبَدَتْها، وأنَّ مِن آثارِ عِلمِه بها ضَرْبَ ذلك المَثَلِ لحالِ مَن عَبَدوها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٣).

وحالِها أيضًا[١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى نهايةَ ضَعفِ آلهةِ المُشركينَ؛ ارتقَى مِن هذا إلى ما هو أبلَغُ منه، وأنَّها ليست بشَيءٍ، بل هي مجَرَّدُ أسماءٍ سَمَّوها، وظُنونٍ اعتَقَدوها، وعندَ التَّحقيقِ يتبيَّنُ للعاقِلِ بُطلانُها وعَدَمُها[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ ما[٣] يَدْعُونَ مِن دُونِه -دُعاءَ مَسألةٍ أو عِبادةٍ- مِن أيِّ مَعبودٍ كان، ويَعلَمُ حالَها ووَهْنَها، وأنَّها مَعبوداتٌ باطِلةٌ كالعَدَمِ لا تَنفَعُ صاحِبَها بشَيءٍ، وهو مُجازيهم على كُفرِهم وشِرْكِهم[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٣١).

(٣) قيل: «ما» هنا موصولةٌ بمعنى الَّذي. وممَّن قال بذلك: القرطبي، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٦).

وقيل: «ما» نافيةٌ، بمعنى: أنَّ الله يَعلَمُ أنَّهم لا يَدْعُونَ في الحقيقةِ شيئًا موجودًا ولا إلهًا له حقيقةٌ، ولكِنَّهم يَدْعونَ أمورًا عَدَمِيَّةً. وممَّن ذهب إلى ذلك: السعدي، وجوَّزه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٣، ٢٥٤).

وقيل: هي للاستِفهام. وممَّن ذهب إليه أبو عليٍّ الفارسيُّ. يُنظر: ((المسائل البصريات)) لأبي علي الفارسي (١/ ٥٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٥، ٤٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٦، ٢١٧).

يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[يونس: ٦٦].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

أي: واللهُ هو القَويُّ القاهِرُ الَّذي لا يمتَنِعُ عليه شَيءٌ أرادَه، الغالبُ، المنتقِمُ ممَّن أشرَكَ معه في عبادتِه غيرَه، الحَكيمُ في شَرعِه وقَدَرِه، وفي تدبيرِ خَلْقِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، ومِن ذلك إهلاكُه مَن أراد إهلاكَه في الحالِ، وتأخيرُ مَن أراد تأخيرَ هَلاكِه[1].

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعدَ أن بَيَّنَ اللهُ لهم فَسادَ مُعتَقَدِهم في الأصنامِ، وأعقَبَه بتوقيفِهم على جَهلِهم بذلك؛ نعَى عليهم هنا أنَّهم ليسوا بأهلٍ لتَفَهُّمِ تلك الدَّلائِلِ الَّتي قُرِّبَت إليهم بطَريقةِ التَّمثيلِ[2].

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾.

أي: وتلك الأمثالُ المذكورةُ في القُرآنِ نَجعَلُها للنَّاسِ؛ لنُبيِّنَ لهم المعانيَ والحُجَجَ، ونُقَرِّبَها إلى أفهامِهم؛ لِيَنتَفِعوا بها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٧-٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٢٢، ٢٢٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

أي: وما يَفهَمُ أمثالَ القُرآنِ ويَتبيَّنُ له مَغْزاها إلَّا ذَوو العِلمِ باللهِ وآياتِه[١].

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَدَّم أنَّه لا مُعجِزَ له سُبحانَه، ولا ناصِرَ لِمَن أخَذَ، وصَحَّح ذلك بالمُشاهَدةِ في القُرونِ البائِدةِ، وقَرَّبَه إلى الأذهانِ بالمَثَلِ المُستولي على غايةِ البيانِ، وختَم ذلك أنَّه حَجَب فَهْمَه عن أكثَرِ خَلْقِه- دَلَّ على ذلك كُلِّه بقَولِه مُظهِرًا لِقُوَّتِه وسائِرِ صِفاتِ كَمالِه، بعدَما حَقَّق أنَّ أولياءَهم في أنزَلِ مراتِبِ الضَّعفِ[٢]:

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: خلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ بالحَقِّ[٣]، ولم يَخلُقْهما باطلًا لغيرِ شَيءٍ على وَجْهِ العبثِ واللَّعبِ، إنَّما خلَقهما لأمرٍ هو كائنٌ، ولِيَكونا دلائلَ على قدرتِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٥).

(٣) قال أبو السعود: (﴿... بِالْحَقِّ﴾ أي: مُحقًّا مُراعيًا للحِكَمِ والمَصَالحِ على أنَّه حالٌ مِن فاعلِ ﴿خَلَقَ﴾، أو ملتبسةً بالحقِّ الَّذي لا مَحيدَ عنه، مُستتبعةً للمَنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ على أنَّه حالٌ مِن مفعولِه؛ فإنَّها مع اشتمالِها على جميعِ ما يتعلَّقُ به معايشُهم شواهدُ دالَّةٌ على شؤونِه تعالى المتعلِّقةِ بذاتِه وصِفاتِه). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤١).

وعَظَمتِه وحِكمتِه، ولِيَقومَ أمرُه وشرعُه، ولِتَتِمَّ نعمتُه على عبادِه، إلى غيرِ ذلك ممَّا لا يُحصَى[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّ في خَلقِ اللهِ السَّمواتِ والأرضَ لَعَلامةً للمُؤمِنينَ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وتفرُّدِه بالخَلقِ والتَّدبيرِ، وكَمالِ قُدرتِه، وعلى غيرِ ذلك مِنَ المطالِبِ الإيمانيَّةِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ مَن اتَّخذَ مِن دونِ اللهِ وليًّا يَتعزَّزُ به، ويَتكبَّرُ به، ويَستنصِرُ به؛ لم يَحصُلْ له به إلَّا ضِدُّ مَقصودِه[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ هذا مَدحٌ للأمثالِ الَّتي يَضرِبُها اللهُ تعالى، وحَثٌّ على تدَبُّرِها وتَعقُّلِها، ومَدحٌ لِمَن يَعقِلُها، وأنَّه عُنوانٌ على أنَّه مِن أهلِ العِلمِ؛ فعُلِمَ أنَّ مَن لم يَعقِلْها ليس مِنَ العالِمينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٣١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ فائدةُ ضَربِ الأمثالِ، وأنَّه نوعٌ مِن التَّعليمِ والتَّوجيهِ[١]؛ فينبغي لمُعَلِّمِ النَّاسِ أن يَضربَ لهم الأمثالَ؛ لِيُقَرِّبَ لهم المعقولَ بصورةِ المحسوسِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ فضيلةُ العلمِ[٣]، وأنَّه يَنبغي التَّأمُّلُ في الأمثالِ؛ فالعالِمُ هو الَّذي يَتأمَّلُ ويَنظُرُ حتَّى يَعقِلَ[٤].

٥- اطمِئنانُ المؤمنِ بما يُحدِثُه اللهُ في السَّمواتِ والأرضِ؛ وجْهُ ذلك قولُه سُبحانَه وتعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، فإذا عَرَفَ المؤمنُ أنَّ ما حَدَثَ مِن جوعٍ ومَرَضٍ وزلازلَ وفَيضاناتٍ أنَّه بالحقِّ، اطمأنَّ ورَضِيَ وسَلَّمَ، ولا راحةَ في الحقيقةِ للإنسانِ إلَّا بهذا، أي: بالإيمانِ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وأنَّه حَقٌّ، وإلَّا فإنَّه سيَتكَدَّرُ؛ لأنَّه ما مِن ساعةٍ تَمُرُّ إلَّا يَجِدُ الإنسانُ فيها ما يَسوؤُه؛ إمَّا في نفْسِه، أو أهلِه، أو صَحْبِه، أو بلدِه، أو البلادِ الإسلاميَّةِ عامَّةً[٥].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ قال: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ ولم يَقُلْ: (آلهةً)؛ إشارةً إلى إبطالِ الشِّركِ الخَفيِّ أيضًا؛ فإنَّ مَن عبَدَ اللهَ رِياءً لِغَيرِه، فقد اتَّخَذ وليًّا غَيرَه[٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٢٤).
(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٤٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣١).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٨).

ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾ تقبيحُ هؤلاء المُشركينَ، وتَنزيلُ مَرتبتِهم؛ حيثُ شُبِّهوا بالعناكِبِ، لأنَّ تَشبيهَ الإنسانِ بالحيوانِ إذلالٌ له، وتَنزيلٌ لِمَرتبتِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾[1] [الإسراء: ٧٠].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ جوازُ ضَرْبِ الأمثالِ بالدُّونِ حسَبَ ما تقتضيه الحالُ؛ فإنَّ العنكبوتَ مِن أدنى ما يكونُ مِن المخلوقاتِ، وقد قال تعالى في سورةِ البقرةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقد ضَرَبَ اللهُ مثلًا بالذُّبابِ، وبالحِمارِ، وبالكلبِ، وبالبَعوضةِ، وبالعَنكبوتِ؛ كلُّ هذا حسَبَ ما يقتضيه المقامُ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ سؤالٌ؛ أنَّ العَنكبوتَ قد تَنتفِعُ مِن بيتِها، أمَّا عُبَّادُ الأصنامِ فلا يَنتفعون قطعًا؛ فلا مُشابَهةَ بيْنَهما! فما وجْهُ الشَّبَهِ بيْنَهما؟

الجوابُ: عُبَّادُ الأصنامِ أيضًا قد يَنتفِعون بما يَحصُلُ لهم مِن منفعةٍ مادِّيَّةٍ مِن الوافدينَ لعبادتِها والتَّبرُّكِ بها، لكنَّ هذه المنافعَ مادِّيَّةٌ، أمَّا النَّفعُ الحقيقيُّ الَّذي هم يَرجون -وهو دَفْعُ الضُّرِّ عنهم، وجَلْبُ النفعِ لهم- فليس بحاصلٍ، فلا تَنفَعُهم آلهتُهم ولا تَمنَعُهم، كما أنَّ بيتَ العَنكبوتِ لا يَنْفَعُها ولا يَمْنَعُها؛ فيأتيها الهواءُ والبَردُ والمطرُ، ويَعْلَقُ بها التُّرابُ؛ فلا تَنتفِعُ به الانتفاعَ الكاملَ[3].

٥- قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فذَكَر سُبحانَه أنَّهم ضُعَفاءُ، وأنَّ الَّذين اتَّخَذوهم أولياءَ أضعَفُ منهم؛ فهم في ضَعفِهم وما قَصَدوه مِن اتِّخاذِ الأولياءِ كالعَنكبوتِ اتَّخَذت بيتًا، وهو أوهَنُ البُيوتِ وأضعَفُها! وتحتَ هذا المَثَلِ أنَّ هؤلاء المُشرِكينَ أضعَفُ ما كانوا؛ حيثُ اتَّخَذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ، فلمْ يَستَفيدوا بمَنِ اتَّخَذوهم أولياءَ إلَّا ضَعفًا[١]!

٦- لا يجوزُ تَعدِّي أمثلةِ القُرآنِ؛ لهذا لا يُقالُ عن بيتٍ: إنَّه أوهَى مِن بيتِ العنكبوتِ، فأيُّ معنًى أبلَغُ مِن معنًى أكَّدَه اللهُ مِن ستَّةِ أوجُهٍ؛ حيث قال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، فأدخَلَ (إنَّ)، وبنى أفعَلَ التَّفضيلِ، وبناه مِن الوَهْنِ، وأضافه إلى الجَمعِ، وعَرَّفَ الجمعَ باللامِ، وأتى في خبرِ إنَّ باللَّامِ[٢]. لكن يجوزُ أن نقولَ: «حُجَّةُ هذا الرَّجُلِ أوهَى مِن بيتِ العنكبوتِ»؛ لأنَّ الحُجَّةَ ليست بيتًا، فهذا لا بأسَ به؛ لأنَّه ليس فيه مُعارَضةٌ للقرآنِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ إثباتُ العلمِ للهِ سُبحانَه وتعالى فيما يَتعلَّقُ بالخَلْقِ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ وعلا ما حَكَمَ على هؤلاء المشركين بمشابهتِهم للعَنكبوتِ إلَّا عن عِلْمٍ بأنَّ هذه الأصنامَ لا تَنفَعُ ولا فائدةَ منها، فالآيةُ كالتَّعليلِ لِمَا قَبْلَها. وفيه أيضًا الرَّدُّ على غُلاةِ القَدَريَّةِ الَّذين قالوا: إنَّ اللهَ لا يَعلَمُ الأشياءَ المتعلِّقةَ بالخَلْقِ إلَّا بعدَ وُقوعِها[٤]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ سؤالٌ: أنَّه لو قال قائلٌ: إنَّ المناسِبَ أن يُقالَ: «وهو السَّميعُ العليمُ»؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿يَعْلَمُ﴾، فمُقتضى الظَّاهرِ أن تُختمَ الآيةُ بالعِلمِ!

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٠).

الجوابُ: هذا حَقٌّ بالنِّسبةِ لظاهرِ الكلامِ، لكنْ عندَ التأمُّلِ نَجدُ أنَّ ختامَه بالعِزَّةِ والحِكمةِ أبلَغُ؛ فإنَّهم يُريدونَ الاستِنصارَ بهذه الأصنامِ، والغَلَبَةَ والظُّهورَ، وأكبرُ شاهدٍ لذلك قَولُ أبي سُفيانَ يومَ أُحُدٍ: «اُعْلُ هُبَلُ»[1]! فاعتِزازُهم بهذه الأصنامِ مُقابَلٌ بعِزَّةِ مَن لا يُغْلَبُ، وهو اللهُ جلَّ وعلا؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالِبُ لهذه الأصنامِ ولعابِديها[2].

٩- يَقرِنُ اللهُ عزَّ وجلَّ العِزَّةَ بالحِكمةِ كما في قولِه تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ بعضَ أهلِ العِزَّةِ مِن الخَلقِ تَحمِلُهم العِزَّةُ على التَّهوُّرِ، وعدَمِ التَّثبُّتِ، وعَدَمِ تنزيلِ الأشياءِ منازِلَها. ودليلُ ذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، وكَوْنُ العِزَّةِ تأخُذُه بالإثمِ خِلافُ الحِكمةِ؛ فلهذا يَقْرِنُ اللهُ سبحانه وتعالى «العزيزَ» بـ «الحكيم»؛ إشارةً إلى أنَّ عِزَّتَه تبارك وتعالى مَقرونةٌ بالحِكمةِ، فهو وإنْ كان عزيزًا غالبًا قاهرًا له السُّلطانُ الكاملُ، فإنَّه عزَّ وجلَّ لا يُدَبِّرُ الأمرَ إلَّا على وجهِ الحِكمةِ البالغةِ. ثُمَّ إنَّه على تفسيرِ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ بأنَّه ذو الحُكْمِ والحِكمةِ؛ فإنَّ عِزَّتَه عزَّ وجلَّ مَقرونةٌ بحُكْمِه، وأنَّ له الحُكمَ المُطلَقَ في عبادِه سُبحانَه وتعالى[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّه لا يَنتفِعُ بالآياتِ إلَّا المؤمِنونَ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ أنَّه كُلَّما كَمَلَ إيمانُ العَبدِ ازدادَ انتِفاعًا بالآياتِ؛ وجْهُه: أنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ ازدادَ قوَّةً بقوَّتِه، وضَعفًا بضَعْفِه؛ فكُلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا ظَهَرَ له مِن آياتِ اللهِ في هذه المَخلوقاتِ ما لم

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٨).

يَظهَرْ لِمَن هو دونَه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗا﴾ فيه تَمثيلٌ وتَشبيهٌ مُركَّبٌ، والمعنى: مَثَلُ الَّذين اتَّخذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ، فيما اتَّخذوه مُعتَمدًا ومُتَّكلًا في دِينِهم، وتَولَّوه مِن دُونِ اللهِ تعالى؛ كمثَلِ العَنكبوتِ فيما نَسجَتْه واتَّخذَتْه بَيتًا، والغرَضُ تقريرُ وَهْنِ أمْرِ دِينِهم، وأنَّه بلَغَ الغايةَ الَّتي لا غايةَ بعْدَها، ومَدارُ قُطْبِ التَّشبيهِ أنَّ أولياءَهم بمَنزلةِ مَنسوجِ العنكبوتِ؛ ضَعْفِ حالٍ، وعدَمِ صُلوحِ اعتمادٍ عليه، وعلى هذا يكونُ قولُه تعالى: (إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ...) تَذييلًا يُقرِّرُ الغرَضَ مِن التَّشبيهِ[٢].

أو هو مَثَلُ المُشرِكِ الذي يَعبُدُ الوثَنَ بالقِياسِ إلى المؤمِنِ الَّذي يَعبُدُ اللهَ، مثَلُ عَنكبوتٍ يتَّخِذُ بيتًا، بالإضافةِ إلى رجُلٍ يَبْني بيتًا بآجُرٍّ وجَصٍّ، أو يَنحِتُه مِن صَخْرٍ، وكما أنَّ أوهَنَ البيوتِ إذا استَقْرَيْتَها بيتًا بيتًا بيتُ العنكبوتِ، كذلك أضعَفُ الأديانِ -إذا استَقرَيْتَها دِينًا دِينًا- عِبادةُ الأوثانِ لو كانوا يَعلَمون[٣].

أو شَبَّه اللهُ تعالى الكفَّارَ في عِبادتِهم الأصنامَ، وبِنائِهم أُمورَهم عليها بالعَنكبوتِ الَّتي تَبْني وتَجتهِدُ، وأمْرُها كلُّه ضَعيفٌ؛ فكذلك أمْرُ أولئك، وسَعْيُهم مُضْمحِلٌّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لصافي (٢٠/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٣٧).

لا قوَّةَ له ولا مُعتمَد[١].

- وقولُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عَبَّرَ بـ «الدُّونِ»؛ لِدُنُوِّ مَرتبتِه بالنِّسبةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

- وقَولُه: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾، عبَّر عنها بالتَّأنيثِ -وإن كانت تُقالُ بالتَّذكيرِ- تعظيمًا لِضَعفِها؛ لأنَّ المقامَ لِضَعفِ ما تَبنيه[٣].

- وجُملةُ ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، وهي قَيدٌ في التَّشبيهِ. وهذه الهيئةُ المُشبَّهُ بها مع الهَيئةِ المُشبَّهةِ قابلةٌ لِتَفريقِ التَّشبيهِ على أجزائِها؛ فالمُشرِكون أشْبَهوا العنكبوتَ في الغُرورِ بما أعَدُّوه، وأَولياؤهم أَشْبَهوا بيتَ العنكبوتِ في عدَمِ الغَناءِ عمَّن اتَّخذوها وقْتَ الحاجةِ إليها وتَزولُ بأقلِّ تَحريكٍ، وأقْصى ما يَنتفِعون به منها نفْعٌ ضَعيفٌ، وهو السُّكنى فيها، وتَوهُّمُ أنْ تَدفَعَ عنهم، كما يَنتفِعُ المُشرِكون بأوهامِهم في أصنامِهم. وهو تَمثيلٌ بَديعٌ مِن مُبتكَراتِ القرآنِ[٤].

- وجُملةُ ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ مُعترِضةٌ مُبيِّنةٌ وجْهَ الشَّبهِ. وهذه الجُملةُ تَجْري مَجْرى المثَلِ، فيُضرَبُ لِقلَّةِ جَدوى شَيءٍ؛ فاقْتَضى ذلك أنَّ الأديانَ الَّتي يَعبُدُ أهْلُها غيرَ اللهِ هي أحقَرُ الدِّياناتِ وأبعَدُها عن الخيرِ والرُّشدِ، وإنْ كانت مُتفاوِتةً فيما يَعرِضُ لتلك العِباداتِ مِن الضَّلالاتِ، كما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٢).

قال أبو السعود: (والعنكبوتُ يقعُ على الواحدِ والجمعِ، والمذكَّرِ والمؤنَّثِ، والغالبُ في الاستعمالِ التَّأنيثُ). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٢).

تَتفاوَتُ بُيوتُ العنكبوتِ في غِلَظِها بحسَبِ تفاوُتِ الدُّوَيْباتِ الَّتي تَنسُجُها في القوَّةِ والضَّعفِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ على إضمارِ القولِ، أي: قُلْ للكَفَرةِ:...[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ تَوكيدٌ للمَثلِ وزِيادةٌ عليه، حيثُ لم يَجعَلْ ما يَدْعونه شيئًا -هذا على تقديرِ كونِ (ما) نافيةً-. وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيه تَجهيلٌ لهم؛ حيثُ عَبَدوا ما ليس بشَيءٍ؛ لأنَّه جَمادٌ ليس معه مُصحِّحُ العِلْمِ والقُدرةِ أصلًا، وتَرَكوا عِبادةَ القادِرِ القاهرِ على كلِّ شَيءٍ، الحَكيمِ الَّذي لا يَفعَلُ شيئًا إلَّا بحِكمةٍ وتَدبيرٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تَعليلٌ؛ فإنَّ إشراكَ ما لا يُعَدُّ شيئًا بمَن هذا شأنُه مِن فرطِ الغباوةِ، وإنَّ الجَمادَ بالنِّسبةِ إلى القادِرِ القاهرِ على كُلِّ شَيءٍ، البالِغِ في العِلْمِ وإتقانِ الفِعلِ الغايةَ القاصيةَ: كالمعدومِ البَحْتِ، وأنَّ مَن هذه صِفاتُه قادرٌ على مُجازاتِهم[٤]. أو: تَذييلٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾؛ لأنَّ الجُملةَ على كِلَا المعنيينِ في مَعاني ﴿مَا﴾ تدُلُّ على أنَّ الَّذي بيَّن حَقارةَ حالِ الأصنامِ واختِلالَ عُقولِ عابِديها، فلم يَعبَأْ بفَضْحِها وكَشْفِها بما يَسُوؤُها، مع

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٣٦).

وَفْرةِ أتْباعِها، ومع أوهامِ أنَّها لا يَمَسُّها أحدٌ بسُوءٍ إلَّا كانتْ مجتَمِعةً عليه بالعداوةِ؛ فلو كان للأصنامِ حَظٌّ في الإلهيَّةِ لَمَا سَلِمَ مِن ضَرِّها مَن يُحَقِّرُها، كقولِه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، وأنَّه لَمَّا فضَحَ عُقولَ عُبَّادِها، لم يَخْشَهم على أوليائِه، بَلْهَ ذاتَه؛ فهو عَزيزٌ لا يُغلَبُ، وحَكيمٌ لا تَنْطلي عليه الأوهامُ والسَّفاسطُ، بخِلافِ حالِ هاتيكَ وأولئك[(١)].

٣- قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ اسمُ الإشارةِ (تِلك) للتَّنويهِ بالأمثالِ المَضروبةِ في القُرآنِ الَّتي منها هذا المثَلُ بالعَنكبوتِ. وجُملةُ ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ خبرٌ عن اسمِ الإشارةِ، وهذه الجُملةُ الخبَريَّةُ مُستعمَلةٌ في الامتِنانِ والطَّوْلِ؛ لأنَّ في ضرْبِ الأمثالِ تقريبًا لِفَهمِ الأمورِ الدَّقيقةِ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ تَعريضٌ بأنَّ الذين لم يَنتفِعوا بها جُهلاءُ العقولِ؛ فما بالُك بالَّذين اعْتاضُوا عن التَّدبُّرِ في دَلالتِها باتِّخاذِها هُزءًا وسُخريَّةً[(٣)]؟!

٤- قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بعدَ أنْ بيَّنَ اللهُ تعالى عدَمَ انتفاعِ المُشركينَ بالحُجَّةِ ومُقدِّماتِها ونتائجِها المُوصِلةِ إلى بُطلانِ إلهيَّةِ الأصنامِ، مُستوفاةً مُغْنيةً لِمَن يُريدُ التَّأمُّلَ والتَّدبُّرَ في صِحَّةِ مُقدِّماتِها بإنصافٍ؛ نقَلَ الكلامَ إلى مُخاطَبةِ المؤمنينَ؛ لإفادةِ التَّنويهِ بشأْنِ المؤمنينَ؛ إذِ انْتَفعوا بما هو أدَقُّ مِن ذلك، وهو حالةُ النَّظرِ والفِكرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في دَلالةِ الكائناتِ على أنَّ خالقَها هو اللهُ، وأنَّه ليس شَيءٌ غيرُه حَقيقًا بمُشارَكتِه في إلهيَّتِه، فأفاد أنَّ المؤمنينَ قدِ اهتَدَوا إلى العِلْمِ ببُطلانِ إلهيَّةِ الأصنامِ، خِلافًا للمُشركينَ الَّذين لم يَهْتَدُوا بذلك، فأفهَمَ ذلك أنَّ مَن لم يَعقِلوها لَيسوا بعالِمينَ؛ أخْذًا مِن مَفهومِ الصِّفةِ في قولِه: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا اعتُبِرَ المعنى الوَصْفيُّ مِن قولِه: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أو أخْذًا مِنَ الاقتصارِ على ذِكْرِ المؤمنينَ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا اعتُبِرَ عُنوانُ المؤمنينَ لَقبًا. والاقتِصارُ عندَ ذِكْرِ دَليلِ الوَحدانيَّةِ على انتفاعِ المؤمنينَ بتلك الدَّلالةِ المُفيدِ بأنَّ المشركينَ لم يَنتفِعوا بذلك يُشْبِهُ الاحتباكَ بيْنَ الآيتَينِ[١].

- قولُه: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فيه تَنبيهٌ على صِغَرِ قَدْرِ الأوثانِ الَّتي عَبَدوها[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تَخصيصُ المؤمنينَ بالذِّكْرِ مع عُمومِ الهِدايةِ والإرشادِ في خَلْقِهما للكلِّ؛ لأنَّهم المُنتفِعون بذلكَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤١).

الآيات (٤٥-٤٧)

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: اقرَأْ -يا محمَّدُ- ما أُنزِلَ إليك مِن هذا القُرآنِ واتَّبِعْه واعمَلْ به، وأقِمِ الصَّلاةَ؛ إنَّ الصَّلاةَ تُبعِدُ صاحِبَها مِنَ الوُقوعِ في الفَحشاءِ والمُنكَرِ، وما في الصَّلاةِ مِن ذِكرِ اللهِ أكبَرُ مِن كَونِها تنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، واللهُ يعلَمُ ما تصنَعونَ.

ولا تُجادِلوا -أيُّها المُسلِمونَ- اليهودَ والنَّصارى إلَّا بأحسَنِ طريقةٍ -وذلك بالرِّفقِ واللِّينِ- إلَّا المعانِدينَ المُعتَدينَ منهم. وقُولوا لهم: آمَنَّا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ إلينا، وبما أنزَلَه اللهُ إليكم مِن التَّوراةِ والإنجيلِ غيرِ المحرَّفَينِ، ومَعبودُنا ومَعبودُكم واحِدٌ، وهو اللهُ سُبحانَه، ونحن له تعالى خاضِعونَ مُنقادونَ بالطَّاعةِ والعبادةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه موقفَ النَّاسِ مِن الكتابِ الَّذي أنزلَه على رسولِه، فيقولُ: وكما أنزَلْنا على الرُّسُلِ السَّابِقينَ كُتُبًا أنزَلْنا إليك -يا محمَّدُ- كِتابًا، وهو القُرآنُ، فعُلماءُ أهلِ الكتابِ مِن اليَهودِ والنَّصارى يُؤمِنونَ بالقُرآنِ، ومِن هؤلاءِ الَّذين هم بيْنَ ظَهرانَيْكَ مَن يُؤمِنُ بالقُرآنِ، وما يَجحَدُ بأدِلَّتِنا وحُجَجِنا إلَّا الكافِرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعدَ أن ضَرَب اللهُ للنَّاسِ المَثَلَ بالأُمَمِ السَّالِفةِ، وجاء بالحُجَّةِ المُبيِّنةِ فَسادَ مُعتَقَدِ المُشرِكينَ، ونَوَّهَ بصِحَّةِ عَقائِدِ المؤمِنينَ بمُنتهَى البيانِ الَّذي ليس وراءَه مَطلَبٌ- أقبَل على رَسولِه بالخِطابِ الَّذي يَزيدُ تثبيتَه على نَشرِ الدَّعوةِ، ومُلازَمةِ الشَّرائِعِ، وإعلانِ كَلِمةِ اللهِ بذلك، وما فيه زيادةُ صلاحِ المؤمِنينَ الَّذين انتَفَعوا بدَلائِلِ الوحدانيَّةِ؛ وما الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا قُدوةٌ للمُؤمِنينَ وسَيِّدُهم، فأمْرُه أمْرٌ لهم[(١)].

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

أي: اقرَأْ -يا مُحمَّدُ- ما أُنزِلَ إليك مِن هذا القُرآنِ بتدَبُّرٍ، واتَّبِعْه واعمَلْ به، وأبلِغْه للنَّاسِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٧، ٢٥٨).
قال ابن القيم: (حقيقةُ التِّلاوَةِ ... هي التِّلاوةُ المُطْلَقةُ التَّامَّةُ، وهي تلاوةُ اللَّفظِ والمعنَى، فتلاوةُ اللَّفْظِ جُزْءُ مُسَمَّى التِّلاوةِ المُطْلقةِ، وحقيقةُ اللَّفظِ إنَّما هي الاتِّباعُ ... وسُمِّيَ تالي الكلامِ تاليًا؛ لأنَّه يُتبِعُ بعضَ الحروفِ بعضًا، لا يُخرِجُها جُملةً واحدةً، بل يُتبِعُ بعضَها بعضًا مُرَتَّبةً، كلَّما انقضَى حرفٌ أو كلمةٌ أتْبَعَه بحرفٍ آخَرَ وكلمةٍ أخرَى، وهذه التِّلاوةُ وسيلةٌ وطريقةٌ، والمقصودُ التِّلاوةُ الحقيقيَّةُ، وهي تِلاوةُ المعْنى واتِّباعُه؛ تصديقًا بخَبَرِه، وائْتِمارًا بأمْرِه، وانتِهاءً بنَهْيِه، وائْتِمامًا به، حيثُ ما قادك انقَدْتَ معه؛ فتِلاوةُ القرآنِ تَتناوَلُ تِلاوةَ لَفظِه ومعناه، وتِلاوةُ المعْنى أشرَفُ مِن مُجَرَّدِ تِلاوةِ اللَّفظِ). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٤٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ * وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ ...﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وأَدِّ -يا مُحمَّدُ- الصَّلَواتِ تامَّةً بشُروطِها وأركانِها وواجباتِها[(١)].

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾.

أي: إنَّ الصَّلاةَ المُقامةَ بحُدودِها وخُشوعِها مِن شأنِها أن تَدعُوَ صاحِبَها إلى اجتِنابِ الوُقوعِ في الفَحشاءِ والمُنكَرِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٣٧، ٢٣٨).

قال ابن جرير: (فإنْ قال قائل: وكيف تَنهى الصَّلاةُ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ إن لم يكُنْ مَعْنِيًّا بها ما يُتْلَى فيها؟

قيل: تَنهى مَن كان فيها، فتَحولُ بيْنَه وبيْنَ إتيانِ الفَواحشِ؛ لأنَّ شُغلَه بها يَقطَعُه عن الشُّغلِ بالمُنكَرِ؛ ولذلك قال ابنُ مسعودٍ: «مَن لم يُطِعْ صلاتَه، لم يَزْدَدْ مِنَ الله إلَّا بُعدًا»؛ وذلك أنَّ طاعتَه لها إقامتُه إيَّاها بحدودِها، وفي طاعتِه لها مُزْدَجَرٌ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١٠).

وقال ابن عطية: (وعندي أنَّ المعنى ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ على الإطلاقِ أي هو الذي ينهَى عن الفحشاءِ والمنكرِ، فالجزءُ الذي منه في الصلاةِ يفعلُ ذلك، وكذلك يفعلُ في غيرِ الصلاةِ؛ لأنَّ الانتهاءَ لا يكونُ إلَّا مِن ذاكرٍ مراقبٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٠).

وقد ذكر ابنُ القيِّمِ أنَّ الفحشاءَ هي ما ظهَر قُبحُه لكلِّ أحدٍ، واستَفحَشَه كلُّ ذي عقلٍ سليمٍ، =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: إنَّ فُلانًا يُصَلِّي باللَّيلِ، فإذا أصبَحَ سَرَق! قال: إنَّه سيَنْهاهُ ما تَقولُ))[١].

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان النَّاهي في الحَقيقةِ إنَّما هو ذِكرُ اللهِ؛ أتْبَع ذلك الحثَّ على رُوحِ الصَّلاةِ والمَقصدِ الأعظَمِ منها، وهو المُراقَبةُ لِمَن يُصَلِّي له، حتَّى كأنَّه يراه؛ لِيَكونَ بذلك في أعظَمِ الذِّكْرِ، فقال[٢]:

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

أي: وما في الصَّلاةِ مِن ذِكرِ اللهِ أكبَرُ مِن كَونِها تنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ[٣].

= وأنَّ المُنكَرَ هو الَّذي تَستنكِرُه العُقولُ والفِطَرُ. فما استقَرَّ قُبحُه في الفِطَرِ والعقولِ واشتدَّ الإنكارُ له فهو فاحشةٌ، وما لم يُعرَفْ حُسْنُه ولم يُؤْلَفْ فهو المُنكَرُ. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢).

وقال الواحدي: (الفَحشاءُ: ما قَبُح مِن العَمَلِ، والمنكَرُ: ما لا يُعرَفُ في شريعةٍ ولا سُنَّةٍ). ((الوسيط)) (٣/ ٤٢١).

(١) أخرجه أحمد (٩٧٧٨)، والبزار (٩٢١٧)، وابن حبان (٢٥٦٠).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٦١): رجالُه رجالُ الصحيح. وصَحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (١١٩٣)، والأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٩٧٧٨)، وصَحَّح الحديثَ الوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (١٣٩٣) وقال: رجاله رجالُ الصَّحيحِ.

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٤٤) و (٢٠/ ١٩٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢).

وممَّن ذهب إلى القَولِ بأنَّ ذِكرَ الله -الَّذي في الصَّلاةِ- أكبَرُ وأعظَمُ مقصودًا مِن كَونِها تَنهى عن الفَحشاءِ والمنكَرِ؛ فتحصيلُ المحبوبِ أكبَرُ وأهَمُّ مِن دَفعِ المكروهِ: ابنُ تيميَّةَ، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة. =

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الله تعالى أمرينِ، وهما تلاوةُ الكتابِ، وإقامةُ الصَّلاةِ؛ بَيَّن ما يُوجِبُ أنْ يكونَ الإتيانُ بهما على أبلغِ وُجوهِ التَّعظيم فقال: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ فيَنْبَغي أنْ يكونَ على أبلغِ وُجوهِ التَّعظيمِ، وأمَّا الصَّلاةُ فكذلك؛ لأنَّ اللَّهَ يعلمُ ما تَصنعونَ[1].

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾.

أي: واللهُ يَعلَمُ ما تَصنَعونَه -أيُّها النَّاسُ- وسيُجازيكم عليه[2].

= وممَّن قال بنحو هذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عون. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١٦).

وقيل: المعنى: ولَذِكرُ اللهِ إيَّاكم أفضَلُ من ذِكرِكم إيَّاه. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والراغب الأصفهانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعبدُ الله بنُ مسعودٍ، وسَلْمانُ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وعطيَّةُ العَوْفيُّ، ومُجاهدٌ، وأبو قُرَّةَ، وشُعْبةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٩).

قال الرَّسْعَنيُّ: (وإلى هذا المعنى ذهَب ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ وعطيَّةُ وجمهورُ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦١٩).

وقيل: المعنى: ولذِكرُ اللهِ أكبَرُ وأفضَلُ مِن كُلِّ شَيءٍ في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى ذلك: الواحديُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: أبو الدَّرْداءِ، وسَلْمانُ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٩).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦١).

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى طريقةَ إرشادِ المُشرِكينَ؛ بيَّن طَريقةَ إرشادِ أهلِ الكِتابِ، فقال[1]:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

أي: ولا تُجادِلوا -أيُّها المُسلِمونَ- اليَهودَ والنَّصارى إلَّا بأحسَنِ طَريقةٍ، وذلك بدُعائِهم إلى الحَقِّ بالرِّفقِ واللِّينِ، والقَولِ الحَسَنِ، وبأقرَبِ الحُجَجِ وأقْواها المُوصِلةِ للمَقصودِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾.

أي: إلَّا المُعانِدينَ للحَقِّ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى، المُعتَدينَ الَّذين لم يَقبَلوا النُّصحَ، ولم يَنفَعْ فيهم الرِّفقُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٠)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٤٥-٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٧)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٥٠، ٢٥١).
قال الماوَرْدي: (﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فيه أربعةُ أقاويلَ؛ أحدُها: أنَّهم أهلُ الحربِ، قاله مجاهدٌ. الثَّاني: مَن منَعَ الجِزيةَ منهم، رواه خُصَيْفٌ. الثَّالثُ: ظَلَموا بالإقامةِ على كُفرِهم =

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾.

أي: وقولوا لهم: آمَنَّا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ إلينا، وآمَنَّا بما أنزَلَه إليكم مِنَ التَّوراةِ والإنجيلِ، ممَّا لم يُحَرَّفْ ويُبَدَّلْ(١).

= بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليهم، قاله ابنُ زَيدٍ. الرَّابعُ: ظلَموا في جِدالِهم فأغلَظوا لهم، قاله ابنُ عيسى). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٨٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الَّذين منَعوا الجزيةَ، ونصَبوا الحربَ: ابنُ جريرٍ، والواحدي، وابنُ الجوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٥٣).

قال الرَّسْعَني: (وقال أكثرُ المفسِّرينَ: معناه: إلَّا الذين ظلَموا بالإقامةِ على الكفرِ، ونَصْبِ رايةِ الحربِ، فقاتِلوهم حتَّى يُسْلِموا أو يُعطُوا الجزيةَ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٢٠).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الَّذين ظلَموا في جدالِهم بالفُحشِ في المقالِ أو العِنادِ وعدَمِ قَبولِ النُّصحِ، أو جادَلوا على وجهِ المُشاغَبةِ والمُغالَبةِ: الزمخشريُّ، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢).

وقال ابن عثيمين: (وهل الآيةُ تدُلُّ على أنَّهم يُترَكون، أم أنَّ الآيةَ تدُلُّ على أنَّهم يُجادَلونَ بالَّتي هي أسْوَأُ؟

اختلَف كلامُ المفَسِّرينَ في هذه المسألةِ؛ فمنهم مَن قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فاترُكوهم ولا تُجادِلوهم؛ لأنَّه لا فائدةَ مِن جِدالِهم ما دام قد ظهَرَ عِنادُهم وظُلمُهم. ومنهم مَن قال... فجادِلوهم بالسَّيفِ حتَّى يُسلِموا أو يُعطُوا الجزيةَ. وعندي أنَّ الآيةَ تحتَمِلُ المعنيينِ جميعًا، وأنَّه ينبغي أن تُنَزَّلَ على الحالينِ، وتُستعمَلَ كلُّ حالٍ بما يليقُ ويُناسِبُ؛ فإذا كان المقامُ يقتضي أن نجادِلَهم بالسَّيفِ، وذلك بأن يكونَ لدينا مِنَ القُوَّةِ والقُدرةِ ما نَتمكَّنُ به مِن ذلك، وإذا لم يكُنْ لنا قدرةٌ وكانت المصلحةُ تقتضي تَرْكَهم فإنَّنا نَتركُهم، وهذا -واللهُ أعلم- هو السِّرُّ في أنَّ الله عزَّ وجَلَّ لم يذكُرْ حُكمَ هذا المُستثنى صريحًا، فلم يَقُلْ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فجادِلوهم بالَّتي هي أسوأُ، ولم يَقُل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فلا تُجادِلوهم. بل جعَلَه صالحًا للأمْرَينِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٥٠، ٢٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢). =

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾.

أي: ومَعبودُنا ومَعبودُكم واحِدٌ، وهو اللهُ سُبحانَه[١].

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: ونحن -مَعشَرَ المُسلِمينَ- خاضِعونَ لله مُنقادونَ، ومُتذَلِّلونَ له بالطَّاعةِ، لا نُشرِكُ به شَيئًا[٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

أي: وكما أنزَلْنا على الرُّسُلِ السَّابِقينَ كُتُبًا أنزَلْنا إليك -يا مُحمَّدُ- كِتابًا، وهو القُرآنُ[٣].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

أي: فعُلَماءُ أهلِ الكِتابِ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى يُؤمِنونَ بالقُرآنِ[٤].

= قال البقاعي: (يعني في أنَّ أصلَه حَقٌّ، وإن كان قد نُسِخَ منه ما نُسِخَ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٤٥٠).
وقال الشوكاني: (لا يَدخُلُ في ذلك ما حرَّفوه وبدَّلوه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الرعد: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٢، ٥٣].

﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾.

أي: ومِن هؤلاء الَّذين هم بينَ ظَهرانَيْكَ(١) -يا محمَّدُ- مَن يؤمِنُ بالقُرآنِ(٢).

= قيل: المعنى: الَّذين آتَيْناهم الكِتابَ مِن قَبْلِك مِن بني إسرائيلَ كانوا يؤمِنونَ بك وبالقُرآنِ؛ لِما في كُتُبِهم مِن صِفتِك. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢١).

وممَّن قال مِن السلفِ: إنَّ المرادَ اليهودُ والنَّصارى: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٧٠).

وقيل: المرادُ: فالَّذين آتَيْناهم الكِتابَ؛ كعبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ وأمثالِه ممَّن أسلَمَ مِن اليهودِ والنَّصارى. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٢).

(١) قيل: المرادُ: مَن أسلمَ مِن أهلِ الكتابِ؛ كعبدِ اللهِ بنِ سلامٍ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢١).

وقيل: العَرَبُ مِن قُرَيشٍ وغيرِهم. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والبقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٥٩).

وقيل: المرادُ: أهلُ مكَّةَ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والنسفي، والعليمي، والشوكاني، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).

﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

أي: وما يَجحَدُ بأدِلَّتِنا وحُجَجِنا مع ظُهورِها إلَّا الرَّاسِخونَ في الكُفرِ، فيَستُرونَ الحقَّ ويُنكِرونَه بعدَ مَعرِفتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ فيه أنَّ الصَّلاةَ مِن شَأنِها أنَّها إذا أُدِّيَت على ما يجِبُ مِن فُروضِها وسُنَنِها والخُشوعِ فيها، والتدَبُّرِ لِما يتلو فيها، وتقديرِ المُثولِ بيْنَ يَدَي اللهِ تعالى- أن تنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ[2]، ووجهُ كَونِ الصَّلاةِ تَنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ: أنَّ العَبدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).

قال ابن عاشور: (وعَبَّر عن الكتابِ بـ «الآيات»؛ لأنَّه آياتٌ دالَّةٌ على أنَّه مِن عندِ اللهِ بسببِ إعجازِه وتَحَدِّيه وعجزِ المعاندينَ عن الإتيانِ بسورةٍ مِثْلِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).

وقال ابن عثيمين: (وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: الشَّرعيةِ والكَونيَّةِ؛ فإنَّ مِن النَّاسِ مَن جَحَد الآياتِ الكونيَّةَ؛ جَحَد أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُحيي الموتى، بل مِنَ النَّاسِ مَن جَحَد أن تكونَ هذه الخليقةُ بخَلقٍ! وأمَّا جَحدُ الآياتِ الشَّرعيَّةِ فكثيرٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٩).

المُقيمَ لها، المتمِّمَ لأركانِها وشُروطِها وخُشوعِها: يَستنيرُ قَلبُه، ويتطَهَّرُ فؤادُه، ويَزدادُ إيمانُه، وتَقوى رغبتُه في الخيرِ، وتَقِلُّ أو تَعدَمُ رَغبتُه في الشَّرِّ؛ فبالضَّرورةِ مُداومتُها والمحافظةُ عليها على هذا الوَجهِ تَنهى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، فهذا مِن أعظَمِ مَقاصِدِها وثَمَراتِها(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أنَّ الظَّالمَ لم يُؤْمَرْ بجِدالِه بالَّتي هي أحسَنُ؛ فمَن كان ظالِمًا مُستَحِقًّا للقِتالِ غيرَ طالبٍ للعِلمِ والدِّينِ، فهو مِن هؤلاء الظَّالِمينَ الَّذين لا يُجادَلون بالَّتي هي أحسَنُ، بخِلافِ مَن طلَبَ العِلمَ والدِّينَ، ولم يَظهَرْ منه ظُلمٌ، سواءٌ كان قَصْدُه الاسترشادَ، أو كان يَظُنُّ أنَّه على حقٍّ يَقصِدُ نَصْرَ ما يَظُنُّه حَقًّا. ومَن كان قَصْدُه العِنادَ، ويَعلمُ أنَّه على باطلٍ ويُجادِلُ عليه؛ فهذا لم يُؤْمَرْ بمُجادَلتِه بالَّتي هي أحسَنُ، لكنْ قد نُجادِلُه بطُرُقٍ أخرى نُبَيِّنُ فيها عِنادَه وظُلمَه وجَهلَه؛ جزاءً له بموجَبِ عمَلِه(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ فيه النَّهيُ عن مُجادَلةِ أهلِ الكتابِ إذا كانت مِن غيرِ بَصيرةٍ مِن المجادِلِ، أو بغيرِ قاعدةٍ مَرْضيَّةٍ، وألَّا يُجادَلوا إلَّا بالَّتي هي أحسَنُ؛ بحُسنِ خُلُقٍ، ولُطفٍ ولِينِ كَلامٍ، ودَعوةٍ إلى الحَقِّ وتَحسينِه، ورَدٍّ عن الباطِلِ وتهجينِه، بأقرَبِ طريقٍ مُوصِلٍ لذلك، وألَّا يكونَ القَصدُ منها مُجرَّدَ المجادَلةِ والمغالَبةِ وحُبِّ العُلُوِّ، بل يكونُ القَصدُ بيانَ الحَقِّ، وهِدايةَ الخَلقِ، إلَّا مَن ظلَمَ مِن أهلِ الكِتابِ، بأن ظهَرَ مِن قَصدِه وحالِه أنَّه لا إرادةَ له في الحَقِّ، وإنَّما يُجادِلُ على وَجهِ المُشاغَبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٢١٩).

والمُغالَبةِ، فهذا لا فائدةَ في جِدالِه؛ لأنَّ المقصودَ منها ضائِعٌ[١].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي: ولْتكُنْ مُجادَلتُكم لأهلِ الكِتابِ مَبنيَّةً على الإيمانِ بما أُنزِلَ إليكم وأُنزِلَ إليهم، وعلى الإيمانِ برَسولِكم ورَسولِهم، وعلى أنَّ الإلهَ واحِدٌ، ولا تَكُنْ مُناظَرتُكم إيَّاهم على وَجهٍ يَحصُلُ به القَدحُ في شَيءٍ مِنَ الكُتُبِ الإلهيَّةِ، أو بأحدٍ مِنَ الرُّسُلِ، كما يفعَلُه الجاهِلُ عند مُناظَرةِ الخُصومِ؛ يَقدَحُ في جَميعِ ما معهم مِن حَقٍّ وباطِلٍ! فهذا ظُلمٌ وخروجٌ عن الواجِبِ وآدابِ النَّظَرِ؛ فإنَّ الواجِبَ أن يَرُدَّ ما مع الخَصمِ مِن الباطِلِ، ويَقبَلَ ما معه مِن الحَقِّ، ولا يَرُدَّ الحَقَّ لأجْلِ قَولِه، ولو كان كافِرًا[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿أَحۡسَنُ﴾ اسمُ تفضيلٍ مُطلَقٌ، يَعُمُّ الحُسنَ في سياقِ الأدِلَّةِ، ويَعُمُّ الحُسنَ في كيفيَّةِ المجادَلةِ؛ فلا بُدَّ مِن الأمْرَينِ: مِن حُسْنِ الطَّريقِ -بمعنى: أنْ تأتيَ بأقرَبِ الطُّرُقِ لإقناعِ الخصمِ- ومِن كيفيَّةِ عَرْضِ هذه الطَّريقةِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وُجوبُ تلاوةِ القرآنِ على الوُجوهِ الثَّلاثةِ: تِلاوةِ اللَّفظِ، والمعنى، والاتِّباعِ[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ إن قيلَ: كم مِن مُصَلٍّ يَرتَكِبُ الفَحشاءَ والمُنكَرَ ولا تَنْهاه صلاتُه؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٢).

فالجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ الصَّلاةَ الَّتي تَنهى عن الفَحشاءِ والمُنكرِ هي الصَّلاةُ المُقامةُ الَّتي أقامَها الإنسانُ على الوجهِ الَّذي ينبغي[١].

الوجهُ الثَّاني: أنَّ مَن كان مُراعيًا للصَّلاةِ جَرَّه ذلك إلى أن يَنتهيَ عن السَّيِّئاتِ يومًا ما، وعلى كلِّ حالٍ فإنَّ المُراعيَ للصَّلاةِ لا بدَّ أن يكونَ أبعَدَ مِنَ الفَحشاءِ والمُنكَرِ مِمَّن لا يُراعيها.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّه كم مِن مُصَلِّينَ تَنهاهم الصَّلاةُ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، واللَّفظُ لا يَقتضي ألَّا يَخرُجَ واحِدٌ مِنَ المصَلِّينَ عن قَضيَّتِها، كما تقولُ: (إنَّ زَيدًا ينهَى عن المنكَرِ)، فليس غَرَضُك أنَّه يَنهى عن جميعِ المناكيرِ، وإنَّما تُريدُ أنَّ هذه الخَصلةَ مَوجودةٌ فيه، وحاصِلةٌ منه، مِن غيرِ اقتِضاءٍ للعُمومِ[٢].

الوجهُ الرابعُ: أنَّ المقصودَ أنَّ الصَّلاةَ تُيَسِّرُ للمُصلِّي تَرْكَ الفَحشاءِ والمُنكَرِ، وليس المعنى أنَّ الصَّلاةَ صارِفةٌ المُصَلِّيَ عن أن يَرتكِبَ الفَحشاءَ والمُنكَرَ؛ فإنَّ المُشاهَدَ يُخالِفُه؛ إذ كم مِن مُصَلٍّ يُقيمُ صَلاتَه، ويقتَرِفُ بَعضَ الفَحشاءِ والمُنكَرِ.

الوجهُ الخامِسُ: أنَّ الصَّلاةَ تَشتَمِلُ على مُذكِّراتٍ باللهِ مِن أقوالٍ وأفعالٍ مِن شأنِها أن تَكونَ للمُصَلِّي كالواعِظِ المُذَكِّرِ باللهِ تعالى؛ إذ يَنهى سامِعَه عن ارتكابِ ما لا يُرضي اللهَ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه معلومٌ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُقيمُ الصَّلاةَ، وأنَّه أقْوَمُ المصلِّينَ صَلاةً، فكيف وُجِّهَ إليه الخِطابُ

(١) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٨، ٢٥٩).

بإقامةِ الصَّلاةِ؟!

الجوابُ: توجيهُ الخِطابِ لِمَن يَتَّصِفُ به: المرادُ به الاستِمرارُ عليه، لا تَجديدُه؛ لأنَّه موجودٌ؛ مِثلُ قَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، فالخِطابُ ليس عَبثًا حتَّى نقولَ: إنَّ هذا أمرٌ بالإيمانِ! لأنَّ الأمرَ بالإيمانِ تحصيلُ الحاصلِ؛ لأنهم مُؤمِنونَ، فالخِطابُ المرادُ منه الاستِمرارُ على الإيمانِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ التَّعبيرُ بالنَّهيِ، وهو أبلغُ مِن التَّعبيرِ بالمنعِ؛ فإنَّ المانعَ قد لا يكونُ مُحَذِّرًا، لكنْ في النَّهيِ تحذيرٌ، وهو أشدُّ مِن المنعِ؛ لأنَّها تُوجِبُ في القَلبِ كراهةً لهذا الشَّيءِ ونفورًا منه، ومجرَّدُ المنعِ لا يقتَضي ذلك؛ فكأنَّ الصَّلاةَ فيها سِرٌّ يقتَضي أنْ يَبعُدَ الإنسانُ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، كأنَّها تُؤَنِّبُ ضميرَه: لماذا تَفعَلُ هذا؟! فالصَّلاةُ توجِبُ المنعَ مِن المعاصي(٢).

٥- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ إنَّ الصَّلاةَ فيها دَفعُ مَكروهٍ وهو الفَحشاءُ والمُنكَرُ، وفيها تحصيلُ محبوبٍ وهو ذِكرُ اللهِ، وحُصولُ هذا المحبوبِ أكبَرُ مِن دَفعِ ذلك المكروهِ؛ فإنَّ ذِكرَ اللهِ عِبادةٌ لله، وعِبادةُ القَلبِ لله مقصودةٌ لِذاتِها، وأمَّا اندفاعُ الشَّرِّ عنه فهو مقصودٌ لِغَيرِه على سَبيلِ التَّبَعِ(٣)، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ وقَولِه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أنَّ الأمورَ الإيجابيَّةَ أكمَلُ مِن الأمورِ السَّلبيةِ؛ لأنَّ ذِكرَ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٩٠).

أمرٌ إيجابيٌّ؛ ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، والنَّهْيَ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ أمرٌ سَلبيٌّ؛ ولهذا قال العُلَماءُ: إنَّ الصَّبرَ على طاعةِ اللهِ أكملُ مِن الصبرِ عن مَعصيةِ اللهِ؛ لأنَّه صبْرٌ على فِعلِ مُعاناةٍ ومَشقَّةٍ؛ فالإنسانُ يجاهِدُ نفْسَه بالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ مِن وَجهَينِ: مِن جهةِ إلزامِها بها، ومِن جهةِ الصَّبرِ والتَّحمُّلِ لهذه الأفعالِ والأقوالِ[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ عبَّرَ بلَفظِ (الصَّنعةِ) الدَّالِّ على مُلازَمةِ العَمَلِ؛ تَنبيهًا على أنَّ إقامةَ ما ذُكِرَ تحتاجُ إلى تمرُّنٍ عليه وتدرُّبٍ؛ حتَّى يَصيرَ طبعًا صَحيحًا، ومَقصودًا صَريحًا[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ إثباتُ عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وعُمومِ علمِه بقَولِه (ما)، وتَعَلُّقِه بفِعلِ العِبَادِ بقَولِه: ﴿تَصْنَعُونَ﴾، وفيه رَدٌّ على غُلاةِ القَدَريَّةِ؛ لأنَّهم كانوا قديمًا يُنكِرون تَعَلُّقَ عِلمِ اللهِ بفِعلِ العبدِ، ويقولون: إنَّ الأمرَ أُنُفٌ، أي: مُستأنَفٌ، وأنَّ اللهَ لا يَعلَمُ بأفعالِ العِبَادِ إلَّا إذا عَمِلوها! ولا شكَّ أنَّ هذا كُفرٌ، كما قال الشافعيُّ وغيرُه: «جادِلوهم بالعلمِ، فإنْ أقَرُّوا به خُصِمُوا، وإنْ أنكَروه كَفَروا»[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مَا تَصْنَعُونَ﴾ إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للعبدِ، ونِسبتُها إليه، وفيها أيضًا رَدٌّ على الجَبريَّةِ[٤].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٤٣).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٤٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٤).

ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ هو أصلٌ في آدابِ المُناظَرةِ والجَدَلِ[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ جيءَ في النَّهي بصيغةِ الجَمعِ؛ لِيَعُمَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم والمُسلِمينَ؛ إذ قد تَعرِضُ للمُسلِمينَ مُجادَلاتٌ مع أهلِ الكِتابِ في غيرِ حَضرةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أو قبْلَ قُدومِه المدينةَ[٢].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ وَجهُ الوِصايةِ بالحُسنى في مُجادَلةِ أهلِ الكِتابِ: أنَّ أهلَ الكتابِ مُتأهِّلونَ لِقَبولِ الحُجَّةِ، غيرُ مَظنونٍ بهم المُكابَرةُ، ولأنَّ آدابَ دينِهم وكِتابِهم أكسَبَتْهم مَعرِفةَ طَريقِ المُجادَلةِ؛ فينبغي الاقتصارُ في مُجادَلتِهم على بيانِ الحُجَّةِ دونَ إغلاظٍ؛ حذَرًا مِن تَنفيرِهم، بخِلافِ المُشرِكينَ؛ فقد ظهَر مِن تصَلُّبِهم وصَلَفِهم وجَلافتِهم ما أيْأَسَ مِن إقناعِهم بالحُجَّةِ النَّظَريَّةِ، وعيَّن أنْ يُعامَلوا بالغِلظةِ، وأن يُبالَغَ في تَهجينِ دينِهم، وتَفظيعِ طَريقتِهم؛ لأنَّ ذلك أقرَبُ نُجوعًا لهم[٣].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مع أنَّ جميعَ أهلِ الكِتابِ ظالِمونَ؛ لأنَّهم كافِرونَ، قال تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؟

الجوابُ: أنَّ المرادَ بالظُّلمِ هنا: الامتِناعُ عن قَبولِ عَقدِ الذِّمَّةِ، أو نَقضُ العَهدِ بعدَ قَبولِه[٤]. وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٩).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ سُلوكُ ما يقتضي اطمِئنانَ الخَصمِ في المُناظرةِ، وسُلوكُ ما يقتضي إلزامَه، فنقولُ لهؤلاءِ المجادِلينَ مِن أهلِ الكِتابِ: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ وهو القرآنُ، ﴿وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ وهو التَّوراةُ إذا كانوا مِن اليَهودِ، والإنجيلُ إذا كانوا مِن النَّصارى، فنحنُ لا نُنكِرُ ما أُنزِلَ إليكم، بل نقولُ: إنَه حَقٌّ، لكِنْ نُؤمِنُ بما أُنزِلَ إلينا ونقولُ: إنَّه حَقٌّ، وإذا آمَنَّا بهذا فبأيِّهما يكونُ الحُكمُ؟

الجواب: بما نَزَل أخيرًا وهو القُرآنُ؛ لأنَّه ناسِخٌ، وحينَئذٍ يكونُ في قَولِنا هذا تهدِئةٌ لِنُفوسِهم، وإلزامٌ لهم بالإيمانِ بما أُنزِلَ إلينا؛ لأنَّ الإنسانَ بَشَرٌ، فإذا قيلَ له: أنا آمَنتُ بما أُنزِلَ إليك فآمِنْ بما أُنزِلَ إليَّ، فسيَقولُ في نفْسِه: كيف يؤمِنُ هذا الرَّجُلُ بما أُنزِلَ إلَيَّ وما أُنزِلَ إليه، وأنا أُكَذِّبُ ما أُنزِلَ إليه[1]؟!

١٥- قولُه تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ تعليمٌ لمُقدِّمةِ المُجادَلةِ بالَّتي هي أحسَنُ، وهذا ممَّا يُسمَّى (تحريرَ مَحلِّ النِّزاعِ)، و(تقريبَ شُقَّةِ الخلافِ)، وذلك تأصيلُ طُرقِ الإلزامِ في المُناظَرةِ؛ وهو أنْ يُقالَ: قدِ اتَّفَقْنا على كذا وكذا، فلْنحتَجَّ على ما عَدا ذلك، فإنَّ ما أُمِروا بقولِه هنا ممَّا اتَّفقَ عليه الفريقانِ، فيَنْبغي أنْ يكونَ هو السَّبيلَ إلى الوِفاقِ، وليس هو بداخِلٍ في حيِّزِ المُجادَلةِ؛ لأنَّ المُجادَلةَ تقَعُ في مَوضعِ الاختلافِ، ولأنَّ ما أُمِروا بقولِه هنا هو إخبارٌ عمَّا يَعتقِدُه المسلمون، وإنَّما تكونُ المُجادلةُ فيما يَعتقِدُه أهلُ الكتابِ ممَّا يُخالِفُ عقائدَ المسلمينَ، مِثلُ قولِه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٥١-٢٥٢، ٢٥٧).

قولِه: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١] [آل عمران: ٦٥- ٦٧].

١٦- قولُه تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من بَلاغةِ القرآنِ؛ حيثُ لم يقُلْ: (وما قُلْتم)، أو: (ما جِئتُم به)، بل قال: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾؛ وذلك لأنَّ لدَيهم مِن التَّحريفِ والتَّبديلِ ما لا يُمكِنُ معه أنْ نقبَلَ كلَّ ما جاؤوا به، لكنْ نُؤمِنُ بالمُنزَّلِ إليهم؛ ولهذا جاء في الحديثِ الصَّحيحِ: ((لا تُصَدِّقوا أهلَ الكتابِ ولا تُكذِّبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾))[٢]، فنحن مُؤمِنون بالمُنزَّلِ لا المُبدَّلِ، وصِفةُ الإيمانِ بما أُنزِلَ إلينا ليس كصِفَةِ الإيمانِ بما أُنزِلَ إليهم؛ لأنَّ إيمانَنا بما أُنزِلَ إلينا مُلزِمٌ بالاتِّباعِ، وإيمانَنا بما أُنزِلَ إليهم ليس مُلْزِمًا، فإذا وُجِدَ في شَرْعِنا ما يُخالِفُ شرْعَهم؛ فالمُتَّبَعُ شَرعُنا[٣].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ أنَّ أهلَ الكتابِ يُقِرُّون بألوهيَّةِ اللهِ[٤].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ؛ وأنَّه كلامُه -حروفُه ومعانيه- لقولِه: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والَّذي يُكْتَبُ هو الحروفُ[٥].

١٩- الاستِشهادُ بالغيرِ على صِحَّةِ المُدَّعَى به، يعني أنَّ الإنسانَ يَستشهِدُ بغَيرِه مِن خُصومِه، كما قال سُبحانَه وتعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وهذه الآيةُ أيضًا: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٣).

يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، فيُقالُ: ممَّن أُوتيَ الكِتابَ منكم -أيُّها اليهودُ أو النَّصارى- مَن آمَنَ بهذا القُرآنِ، وهذه الحُجَّةُ مُفيدةٌ جدًّا عندَ المناظَرةِ: أنْ تَحتجَّ على الطَّائفةِ بقَولِ بعضِ عُلَمائِها[1].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ كلَّ مَن لم يُؤمنْ بهذا القرآنِ أو بشَيءٍ منه؛ فهو كافرٌ[2]، وهذا يَشْملُ جَحْدَ الآياتِ عمومًا، وجَحْدَ أفرادِها، فمَن جَحَدَ بعضَ القرآنِ وأقَرَّ ببعضِه حُكِمَ بكُفْرِه، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[3] [النساء: ١٥٠، ١٥١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾

- قوله: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ حُذِفَ مُتعلَّقُ فِعلِ ﴿ٱتْلُ﴾؛ لِيَعُمَّ التِّلاوةَ على المسلمينَ وعلى المشركينَ[4]، أي: أُمِر بأن يَتلوَهُ على هؤلاء وعلى هؤلاء.

- قولُه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ فيه تَعليلُ الأمرِ بإقامةِ الصَّلاةِ بالإشارةِ إلى ما فيها مِن الصَّلاحِ النَّفسانيِّ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٨).

فمَوقعُ (إنَّ) هنا مَوقعُ فاءِ التَّعليلِ، فاقتصَرَ على تَعليلِ الأمْرِ بإقامةِ الصَّلاةِ دونَ تَعليلِ الأمْرِ بتِلاوةِ القُرآنِ؛ لِمَا في هذا الصَّلاحِ الَّذي جَعَله اللهُ في الصَّلاةِ مِن سِرٍّ إلهيٍّ لا يَهْتدي إليه النَّاسُ إلَّا بإرشادٍ منه تعالى، فأخبَرَ أنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عن الفحشاءِ والمُنكَرِ[1].

- قولُه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ولَلصَّلاةُ أكبَرُ مِن غَيرِها مِن الطَّاعاتِ -على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ-. وسمَّاها بذِكْرِ اللهِ كما قال: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، وإنَّما عبَّر عنها به؛ للتَّعليلِ بأنَّ اشتِمالَها على ذِكْرِه هو العُمدةُ في كَونِها مُفضَّلةً على الحسناتِ، ناهيةً عن السَّيِّئاتِ؛ فهو مِن وضْعِ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ مِن غيرِ لَفظِه السَّابقِ؛ للإشعارِ بالعِلِّيَّةِ، ولو جِيءَ بظاهرٍ لم يُفِدْ هذا المعنى؛ فيجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ عطفًا على جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾؛ فيكونَ عطْفَ عِلَّةٍ على عِلَّةٍ، ويكونَ المُرادُ بذِكْرِ اللهِ هو الصَّلاةَ، ويكونَ العُدولُ عن لَفظِ الصَّلاةِ -الَّذي هو كالاسمِ لها- إلى التَّعبيرِ عنها بطَريقِ الإضافةِ؛ للإيماءِ إلى تَعليلِ أنَّ الصَّلاةَ تَنهى عن الفحشاءِ والمُنكَرِ، أي: إنَّما كانت ناهيةً عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ لأنَّها ذِكْرُ اللهِ، وذِكْرُ اللهِ أمْرٌ كبيرٌ، فاسمُ التَّفضيلِ مَسلوبُ المُفاضَلةِ، مَقصودٌ به قوَّةُ الوصْفِ، كما في قولِنا: اللهُ أكبَرُ، لا تُريد أنَّه أكبَرُ مِن كبيرٍ آخَرَ. ويجوزُ أنْ يكونَ عطْفًا على جُملةِ ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، والمعنى: واذْكُرِ اللهَ؛ فإنَّ ذِكْرَ اللهِ أمْرٌ عظيمٌ، فيَصِحُّ أنْ يكونَ المُرادُ مِن الذِّكْرِ: تَذكُّرَ عَظَمةِ اللهِ تعالى. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ: ذِكْرَ اللهِ باللِّسانِ؛ لِيَعُمَّ ذِكْرَ اللهِ في الصَّلاةِ وغيرِها، واسمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٨).

التَّفضيلِ أيضًا مَسلوبُ المُفاضَلةِ، ويكون في مَعنى قولِ مُعاذِ بنِ جَبلٍ رضيَ الله عنه: (ما عَمِلَ آدميٌّ عملًا أنْجَى له مِن عذابِ اللهِ مِن ذِكْرِ اللهِ)[1]. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بالذِّكْرِ: تَذكُّرَ ما أمَرَ اللهُ به ونَهى عنه، أي: مُراقبةَ اللهِ تعالى، وحذَرَ غضَبِه، فالتَّفضيلُ على بابِه، أي: ولَذِكْرُ اللهِ أكبَرُ في النَّهيِ عن الفحشاءِ والمُنكَرِ مِن الصَّلاةِ في ذلك النَّهيِ؛ وذلك لإمكانِ تَكرارِ هذا الذِّكْرِ أكثَرَ مِن تَكرُّرِ الصَّلاةِ. ولك أنْ تقولَ: ذِكْرُ اللهِ هو الإيمانُ بوُجودِه وبأنَّه واحدٌ، فلمَّا أمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأراد أمْرَ المُؤمنينَ بعمَلينِ عَظيمينِ مِن البرِّ؛ أرْدَفَه بأنَّ الإيمانَ باللهِ هو أعظَمُ مِن ذلك؛ إذ هو الأصْلُ، وذلك مِن رَدِّ العجُزِ على الصَّدرِ، عاد به إلى تَعظيمِ أمْرِ التَّوحيدِ وتفظيعِ الشِّركِ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ [العنكبوت: ٤٢] إلى هنا[2].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ تَذييلٌ لِمَا قبْلَه، وهو وعْدٌ ووعيدٌ، باعتبارِ ما اشتمَلَ عليه قولُه: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وقولُه: ﴿تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾[3].

٢- قولُه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] الآيةَ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه بعد حديث (٣٧٩٠)، ومالك في ((الموطأ)) (١/ ٢١١)، والحاكم بعد حديث (١٨٢٥).

صحَّح إسنادَه الألبانيُّ في تخريج ((مشكاة المصابيح)) (٢٢٢٤)

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦١).

باعتبارِ ما تَستلزِمُه تلك مِن مُتارَكةِ المشركينَ، والكَفِّ عن مُجادلتِهم بعدَ قولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وهذه توطِئةٌ لِمَا سيَحدُثُ مِن الدَّعوةِ في المدينةِ بعدَ هِجرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ مُجادَلةَ أهلِ الكتابِ لا تَعرِضُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ولا للمُؤمنينَ في مكَّةَ، ولكنْ لَمَّا كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في إبَّانِ نُزولِ أواخرِ هذه السُّورةِ على وَشْكِ الهِجرةِ إلى المدينةِ، وكانتِ الآياتُ السَّابقةُ مُجادِلةً للمشركين، غليظةً عليهم مِن تَمثيلِ حالِهم بحالِ العَنكبوتِ، وقولِه: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ هيَّأَ اللهُ لرسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ طريقةَ مُجادَلةِ أهْلِ الكتابِ. وهي مُعترِضةٌ بيْن مُحاجَّةِ المشركينَ والعَودِ إليها في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٤٧] الآياتِ[(١)].

- قولُه: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ التفضيلُ ﴿أَحْسَنُ﴾ على بابِه؛ فيُقدَّرُ المُفضَّلُ عليه ممَّا دلَّتْ عليهِ القرينةُ، أي: بأحسَنَ مِن مُجادَلتِكم المشركينَ، أو بأحسَنَ مِن مُجادَلتِهم إيَّاكم، كما تدُلُّ عليه صِيغةُ المُفاعَلةِ. ويجوزُ كونُ اسْمِ التَّفضيلِ مَسلوبَ المُفاضَلةِ؛ لِقَصْدِ المُبالغةِ في الحُسْنِ، أي: إلَّا بالمُجادَلةِ الحُسْنى، كقولِه تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[(٢)] [النَّحل: ١٢٥].

- ولأجْلِ أنَّ مضمونَ هذه الآيةِ ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا ...﴾ لا يَدخُلُ في حَيِّزِ المُجادَلةِ عُطِفَتْ على ما قبْلَها، ولو كانتْ ممَّا شمِلَتْه المُجادَلةُ لَكان ذلك مُقتضيًا فصْلَها -أي: عدَمَ عَطفِها على ما قَبْلَها-؛ لأنَّها مِثْلُ بدَلِ الاشتمالِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧). =

- والمرادُ بـ (الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا) القرآنُ، والتَّعبيرُ عنه بهذه الصِّلةِ؛ للتَّنبيهِ على خطَأِ أهْلِ الكتابِ؛ إذ جَحَدوا أنْ يُنزِّلَ اللهُ كِتابًا على غيرِ أنْبيائِهم؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه: ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾. وقولُه: ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ عطْفُ صِلَةِ اسمٍ مَوصولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ما قبْلَه، والتَّقديرُ: والَّذي أُنزِلَ إليكم[1].

- قولُه: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فيه تَقديمُ المَجرورِ على عامِلِه في قولِه: ﴿لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ؛ تَعريضًا بالمشركينَ الَّذين لم يُفْرِدوا اللهَ بالإلهيَّةِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ﴾ تَجْريدٌ للخِطابِ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، و(ذلك) إشارةٌ إلى مَصدرِ الفِعلِ الَّذي بعْدَه، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلةِ المُشارِ إليه في الفضْلِ[3].

- وإنَّما قال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (فأهْلُ الكتابِ)؛ لأنَّ في ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تَذكيرًا لهم بأنَّهم أُمَناءُ عليه، كما قال

= قال البيضاوي: (﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ هو مِن المجادَلةِ بالَّتي هي أحسَنُ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٠).

وقال الرَّسْعَني: (هذا مِن المجادَلةِ بالَّتي هي أحسَنُ؛ لِما فيه مِن مُلايَنتِهم، واستِمالتِهم إلى المُناصَفةِ، وترْكِ المُشاغَبةِ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧، ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٢).

تعالى: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[١] [المائدة: ٤٤].

- قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ جيءَ بصيغَةِ المُضارِعِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه سيَقَعُ في المُستقبَلِ، أو للدَّلالةِ على تَجدُّدِ إيمانِ هذا الفريقِ به، أي: إيمانُ مَن آمَنَ منهم مُستمِرٌّ، يَزْدادُ عددُ المؤمنينَ يومًا فيومًا[٢].

- قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أُريدَ بهم عبدُ الله بنُ سَلَام وأضرابُه مِن أهلِ الكتابَينِ خاصَّةً، كأنَّ مَن عَداهُم لم يُؤتَوُا الكِتابَ؛ حيثُ لَم يَعمَلوا بما فيهِ. أو مَنْ تقدَّمَ عهدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منهم؛ حيثُ كانُوا مُصدِّقينَ بنُزولِه حسَبما شاهَدُوا في كتابَيهما، وتَخصيصُهم بإيتاءِ الكتابِ؛ للإيذانِ بأنَّ مَن بعْدَهم مِن مُعاصري رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد نُزِعَ عنهم الكتابُ بالنَّسخِ فلم يُؤْتَوه، والفاءُ لِتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها؛ فإنَّ إيمانَهم به مُترتِّبٌ على إنزالِه[٣].

- والإشارةُ بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى أهْلِ مكَّةَ -على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ- بتَنزيلِهم مَنزلةَ الحاضرينَ عندَ نُزولِ الآيةِ؛ لأنَّهم حاضِرون في الذِّهْنِ بكَثرةِ مُمارَسةِ أحوالِهم وجِدالِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فيه أُضيفتْ الآياتُ إلى نُونِ العظَمةِ؛ لِمَزيدِ تَفخيمِها، وغايةِ تَشنيعِ مَن يَجحَدُ بها[٥].

- وقد أشار قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ إلى أنَّ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٢، ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٣).

هؤلاء الَّذين يُؤمِنون بالقُرآنِ مِن أهلِ الكِتابِ وأهلِ مَكَّةَ مَن يَكتُمُ إيمانَه؛ جُحودًا منهم لأجْلِ تَصَلُّبِهم في الكُفْرِ، فالتَّعريفُ في ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على معنى الكمالِ في الوصْفِ المُعرَّفِ، أي: إلَّا المُتوغِّلون في الكُفْرِ، الرَّاسِخون فيه؛ ليَظهَرَ وجْهُ الاختلافِ بيْنَ (مَا يَجْحَدُ) وبيْنَ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ إذ لولا الدَّلالةُ على معنَى الكَمالِ لصار معنى الكَلامِ: وما يَجحَدُ إلَّا الجاحِدون[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقال بعْدَه: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وأولئك ظالِمون كما أنَّ هؤلاء كافِرونَ، واختِصاصُ الأُولى بتلك الصِّفةِ والثَّانيةِ بهذه الصِّفةِ؛ لأنَّ مَن جحَدَ آياتِ اللهِ فقد كفَرَ نِعَمَه، وهذا أوَّلُ ما يَفعلُه؛ لأنَّ ذلك مُتعلِّقٌ بما قبْلَه ممَّن تولَّى خلْقَه وأنعَمَ عليه بما استَوجَبَ به شُكْرَه؛ فأوَّلُ فِعلِه كُفْرُ نِعَمِ اللهِ، ثمَّ إنَّه مُسِيءٌ إلى نفْسِه، ظالمٌ لها بأنْ أبدَلَها مِن النِّعمِ عذابًا لا يُطِيقُه، فكُفْرُه أوَّلُ في الذِّكْرِ، وظُلْمُه ثانٍ؛ لأنَّه فوَّتَ نفْسَه عِظَمَ الأجْرِ، فهو آخِرٌ في العمَلِ، فقدَّمَ (الكافرين) على (الظَّالمين) لذلك[2].

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّ الظُّلمَ وإنْ كان يُطلَقُ على الكُفْرِ وعلى ما دُونَه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]؛ فإنَّه إذا ذُكِرَ بعدَ الكفْرِ، ووُصِفَ به مَن قد وُصِفَ بالكفْرِ؛ أفْهَمَ زيادةَ مُرتكَبٍ على الكُفْرِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وعلى هذا ورَدَ في القُرآنِ؛ فوضَحَ ما ورَدَتْ عليه آيتَا (العنكبوتِ)[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠١٢، ١٠١٣).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٩١).

وقيل: إنَّ الجحودَ الأوَّلَ مُعلَّقٌ بالواحْدنيَّةِ، والثَّانيَ مُعلَّقٌ بالنُّبوَّةِ، وخُتِمَت تلك بالكافرِ؛ لأنَّه قسيمُ المؤمنينَ في قولِه: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ﴾ [العنكبوت: ٤٧]، وهذه بالظَّالمين؛ لأنَّه جحْدٌ بعدَ إقامةِ الدَّليلِ على كونِ الرَّسولِ صدَرَ منه القرآنُ مُنزَّلًا عليه، وهو أُمِّيٌّ لا يَقرَأُ ولا يَكتُبُ، فهم الظَّالمون بعدَ ظُهورِ المعجزةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٤).

الآيات (٤٨-٥٢)

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَّٱرْتَابَ﴾: أي: لَشَكَّ، والرِّيبةُ: قلَقُ النَّفْسِ واضْطِرابُها، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ، وكَوْنُ الأمرِ مشكوكًا فيه ممَّا تَقلقُ له النَّفْسُ ولا تَستقِرُّ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى الأدِلَّةَ الواضحةَ على أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِه تعالى، فيقولُ: وما كنتَ تقرأُ -يا محمَّدُ- كِتابًا مِن قبْلِ هذا القُرآنِ، ولا تَكتُبُه بيَمينِك؛ فلو كنتَ تَقرأُ أو تكتُبُ قبْلَ نبُوَّتِك لَشَكَّ في صِدقِك هؤلاء الكافِرونَ، بل هذا القُرآنُ آياتٌ واضِحاتٌ محفوظةٌ في صَدرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمِنينَ، وما يَجحَدُ بآياتِنا إلَّا الظَّالِمونَ.

ثمَّ يَذكُرُ تعالى طرَفًا مِن أقوالِ المشركينَ الفاسدةِ، فيقولُ: وقال مُشرِكو

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩١).

قُرَيشٍ: لولا أُنزِلَ على محمَّدٍ مُعجِزاتٌ مِن رَبِّه.

ثمَّ يُرشِدُ الله تعالى نبيَّه إلى الرَّدِّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: إنَّما المُعجِزاتُ عندَ اللهِ، وإنَّما أنا نذيرٌ مُبينٌ، ليس مِن شأني إلَّا إنذارُكم.

ثمَّ يقولُ الله تعالى مُنكِرًا عليهم: أوَلم يَكفِهم أنَّا أنزَلْنا عليك القُرآنَ يُتلى عليهم؟! إنَّ في ذلك لَرَحمةً وذِكرى للمُؤمِنينَ.

ثمَّ يرشِدُ الله تعالى النَّبيَّ إلى جوابٍ آخَرَ يرُدُّ به عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: حَسْبيَ اللهُ شاهِدًا بيْنَنا، يَعلَمُ جميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، وسيُجازي كلًّا بما يَستحِقُّ، والَّذين آمَنوا بالباطِلِ وكفَروا باللهِ -وهو الحقُّ سُبحانَه- أولئك هم الخاسِرونَ في الدُّنيا والآخِرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أشار إلى أنَّ المنكِرَ لأصلِ الوَحيِ مُتوغِّلٌ في الكُفرِ، دلَّ على ذلك بحالِ المُنزَلِ إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال مُسَلِّيًا له[1]:

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾.

أي: وما كنتَ -يا محمَّدُ- تقرأُ كتابًا مِن قبْلِ هذا القرآنِ[2].

﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

أي: وما كنتَ -يا محمَّدُ- تُحسِنُ الكتابةَ[(١)].

﴿إِذًا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾.

أي: لو كنتَ -يا محمَّدُ- تقرأُ أو تكتُبُ قبْلَ نبُوَّتِك، لَشَكَّ في صِدقِك الكافِرونَ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠).

قيل: المرادُ بالمُبطِلينَ هنا: أهلُ الكتابِ. أي: فلو كان النَّبيُّ غيرَ أمِّيٍّ لَقالوا: الَّذي نجِدُه في كُتُبِنا أنَّه رَسولٌ أمِّيٌّ لا يكتُبُ ولا يَقرأُ. وممَّن قال بهذا القولِ: السمرقنديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥١).

وممَّن فسَّر المُبطِلينَ بأنَّهم اليهودُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٥).

وقيل: المرادُ بهم: كُفَّارُ قُرَيشٍ. أي: فلو كان النَّبيُّ غيرَ أمِّيٍّ لارتاب هؤلاء وقالوا: إنَّما أخَذ القُرآنَ وتَعلَّمَه مِن كِتابٍ سابقٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والخازنُ، والألوسيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٦).

وممَّن قال بأنَّهم: أهلُ الكتابِ والعَرَبِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٣، ٤٥٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٨).

وقيل: يعمُّ لفظُه كلَّ مكذبٍ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولكنْ عظَّم الإشارةَ به إلى قريشٍ؛ لأنَّهم الأهمُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٢).

ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾.

أي: بل[1] القُرآنُ آياتٌ واضِحاتُ الدَّلالةِ على الحَقِّ، وهو محفوظٌ في صَدرِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- والمُؤمِنينَ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: وما يَجحَدُ بآياتِنا مع ظُهورِها، ودَلالتِها الواضِحةِ على الحَقِّ، ويُنكِرُها

---

(١) قال ابنُ عثيمين: («بل» هنا للإضرابِ، والإضرابُ نَوعان: انتِقاليٌّ وإبطاليٌّ، وهنا يحتَمِلُ أنَّ الإضرابَ للإبطالِ...؛ لأنَّه أبطلَ قَولَهم: إنَّه جاء به مِن عندِه. ويحتَمِلُ أن يكونَ الإضرابُ انتِقاليًّا؛ لأنَّه لَمَّا نفى ما يكونُ به مُتقَوِّلًا على الله، أثبَتَ أنَّه آياتٌ مِن الله؛ فيكون انتِقالًا مِنَ النَّفْيِ إلى الإيجابِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١، ١٢).
ممَّن اختار القولَ المذكورَ -أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿هُوَ﴾ أي: القرآنُ-: يحيى بنُ سلام، وابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر المصادر السابقة.
وقيل: المرادُ بقوله: ﴿هُوَ﴾: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم. وعلى هذا ففي المرادِ بالآيةِ قَولانِ:
(أحدهما: أنَّ المعنى: بل وِجدانُ أهلِ الكتابِ في كُتُبِهم أنَّ مُحمَّدًا صَلَّى الله عليه وسلَّمَ لا يكتُبُ ولا يَقرأُ، وأنَّه أُمِّيٌّ: آياتٌ بيِّناتٌ في صدورِهم، وهذا مذهَبُ ابنِ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكِ، وابنِ جُرَيجٍ.
والثَّاني: أنَّ المعنى: بل محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ذو آياتٍ بيِّناتٍ في صدورِ الَّذين أُوتوا العِلْمَ مِن أهلِ الكِتابِ؛ لأنَّهم يَجِدونَه بنَعتِه وصِفتِه. قاله قَتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٠).
وقيل: يحتملُ أن يعودَ على أمرِ محمد صلَّى الله عليه وسلَّم في أنَّه لم يتلُ ولا خطَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٢).

بعدَ مَعرِفتِها إلَّا المتَّصِفونَ بظُلمِ أنفُسِهم بالكُفرِ والمُكابَرةِ والعِنادِ[١].

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذكَرَ الدَّليلَ على أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ، وليس بمُفترًى مِن عندِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أردَفَ هذا شُبهةً أُخرى لهم[٢].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر الجاحِدينَ لآيةِ القرآنِ ثلاثَ مرَّاتٍ، ووصَفَهم بالكافِرينَ والمُبطلينَ والظَّالِمينَ؛ انتَقَل الكلامُ إلى مَقالَتِهم النَّاشئةِ عن جُحودِهم[٣].

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾.

أي: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ: لولا أُنزِلَ على محمَّدٍ مُعجزاتٌ مِن رَبِّه -كمُعجِزاتِ صالحٍ وموسى وعيسى- تكونُ حُجَّةً له علينا؛ فنُصَدِّقَه[٤].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٧٩-٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾[الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

وقال تعالى حاكيًا عن الكفَّارِ قولَهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: إنَّما المُعجِزاتُ عندَ اللهِ، وليست عندي، فلا يأتي بها إلَّا هو إن شاءَ[1].

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: وإنَّما أنا نذيرٌ مُبينٌ[2] ليس مِن شأني إلَّا إنذارُكم عذابَ اللهِ، وليست لي قُدرةٌ على الإتيانِ بمُعجِزاتٍ[3].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

وقيل: الضميرُ في ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ لقريشٍ ولبعضِ اليهودِ؛ لأنَّهم كانوا يعلِّمون قريشًا مثلَ هذه الحجةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٢).

(٢) قوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: مبينٌ لإنذارِه مِن (أبان)، أو نذيرٌ بَيِّنُ الإنذارِ مِن (بان). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٨٧).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّه مِن أبانَ إبانةً، أي: أبانَ لكم إنذارَه وما أُوتيَه مِنَ الآياتِ بالدَّلائلِ الواضحةِ: ابنُ جرير، والرَّسْعَنيُّ، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٢٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٦١).

واختار ابنُ كثيرٍ أنَّ المعنى: بَيِّنُ النِّذارةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه ردٌّ على الَّذينَ قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[(١)].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: أوَلم يَكْفِ هؤلاء المُشرِكينَ المُقترِحينَ نُزولَ الآياتِ عليك -يا محمَّدُ- أنَّا أنزَلْنا عليك القُرآنَ الَّذي تتتابَعُ قراءتُه عليهم؟! فهو كافٍ في إثباتِ صِدقِك، وهدايتِهم إلى الحَقِّ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ في ذلك القُرآنِ لَرَحمةً في الدُّنيا والآخرةِ للمُؤمِنينَ، وذِكرى لهم؛ يَتذكَّرونَ بما فيه مِن عِبرةٍ وعِظةٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٧، ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

ممَّن اختار القولَ المذكورَ -أنَّ المرادَ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾: القرآنُ-: ابنُ جرير، والقرطبي، والبيضاوي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: الإشارةُ تعودُ إلى: إنزالِ الكِتابِ. وممَّن اختاره: الماتُريديُّ، والواحدي، والبغوي، وابن عادل، والبِقاعي. وجعله ابنُ عثيمين احتمالًا. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٣٧)، = = ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٣٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٤، ٢٩٥).

قال ابن عثيمين: (فالقرآنُ في الحقيقةِ ذِكْرى مِن الوجهَينِ: مِن جهةِ أنَّه نزَل مِن عندِ الله، =

كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢﴾.

﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗا﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: حَسْبيَ اللهُ شاهِدًا يَعلَمُ المحِقَّ مِنَّا مِن المُبطِلِ، فيَحكُمُ بَيْني وبيْنَكم[1].

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: اللهُ يَعلَمُ جَميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، فلا يخفَى عليه المحِقُّ مِن المُبطِلِ، وسيُجازي كلًّا بما يَستَحِقُّ[2].

= ومجرَّدُ شعورِ الإنسانِ بأنَّه نزَل مِن عندِ الله لا شكَّ أنَّه يَتذكَّرُ به ويُعَظِّمُه؛ لأنَّه كلامُ ربِّه، وكذلك أيضًا ما فيه مِن المعاني العظيمةِ والآثارِ الحميدةِ هي أيضًا آيةٌ مِن آياتِ الله... فاللهُ عزَّ وجلَّ أنزَلَ القرآنَ رحمةً للنَّاسِ، وأيضًا ذِكْرى، يعني: عِظةً يَتذكَّرُ به النَّاسُ، فبه يَتراحمونَ ويَرحَمون؛ فهو ذِكْرى ولكنْ ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾. ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٨، ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٠١).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بما يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ، وكَفَروا باللهِ -وهو الحَقُّ وَحْدَه-: أولئك هم المتَّصِفونَ بالخَسارةِ أبدًا في الدُّنيا والآخِرةِ[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ فمَدَحَ سُبحانَه أهلَ العِلمِ وأثنى عليهم وشَرَّفَهم بأن جَعَلَ كتابَه آياتٍ بيِّناتٍ في صُدورِهم، وهذه خاصَّةٌ ومَنقَبةٌ لهم دونَ غيرِهم[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ فالكِتابُ كافٍ عن كلِّ آيةٍ لِمَن تدَبَّرَه وتعَقَّلَه، وعَرَف معانيَه، وانتَفَع بأخبارِه، واتَّعَظ بقَصَصِه؛ فإنَّه يُغْني عن كلِّ شَيءٍ مِن الآياتِ، لكِنَّ الَّذي يجعَلُنا لا نُحِسُّ بهذه الآياتِ العظيمةِ أنَّنا لا نَقرأُ القرآنَ على وجهٍ نَتدَبَّرُه ونتَّعِظُ بما فيه، كثيرٌ مِن المُسلِمينَ -إن لم يكُنْ أكثَرُ المُسلِمينَ- يَتلُونَ الكتابَ للتَّبَرُّكِ والأجرِ فقط[3]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا كان أكثرَ انتِفاعًا بالقرآنِ، وكلَّما كان أضعَفَ إيمانًا أو أكثرَ مَعصيةً كان أبعَدَ عن فَهمِ القُرآنِ والانتِفاعِ به، بل إنَّ المعاصيَ تَحولُ بيْنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٠٢- ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) للعثيمين (٢/ ١٤٢).

الإنسانِ وبيْنَ فَهمِ القُرآنِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قد أشار قولُه: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ وما بعْدَه إلى خمْسِ مزايَا للقرآنِ على غيرِه مِن المعجزاتِ:

المَزِيَّةُ الأولى: ما أشار إليه قولُه: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ مِن انتشارِ إعجازِه وعُمومِه في المجامعِ والآفاقِ والأزمانِ المختلِفةِ، بحيث لا يَختَصُّ بإدراكِ إعجازِه فريقٌ خاصٌّ في زمَنٍ خاصٍّ شأْنَ المُعجزاتِ المَشهودةِ، مِثلُ عصَا مُوسى، وناقةِ صالحٍ، فهو يُتْلى، ومِن ضمْنِ تِلاوتِه الآياتُ الَّتي تحدَّتِ النَّاسَ بمُعارَضتِه، وسجَّلتْ عليهم عجْزَهم عن المعارَضةِ مِن قبْلِ مُحاوَلتِهم إيَّاها، فكان كما قال؛ فهو مُعجزةٌ باقيةٌ، والمُعجزاتُ الأخرى مُعجزاتٌ زائلةٌ.

المَزِيَّةُ الثَّانيةُ: كَوْنُه ممَّا يُتْلَى؛ فإنَّ ذلك أرفَعُ مِن كَونِ المعجزاتِ الأُخرَى أحوالًا مَرئيَّةً؛ لأنَّ إدراكَ المَتلُوِّ إدراكٌ عقْليٌّ فِكريٌّ، وهو أعلى مِن المُدرَكاتِ الحِسِّيَّةِ، فكانت مُعجزةُ القرآنِ أَلْيَقَ بما يَستقبِلُ مِن عصورِ العِلْمِ الَّتي تهيَّأَت إليها الإنسانيَّةُ.

المَزِيَّةُ الثَّالثةُ: ما أشار إليه قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ﴾، فالكِتابُ المَتلُوُّ مُشتمِلٌ على ما هو رحمةٌ لهم اشتِمالَ الظَّرفِ على المظروفِ؛ لأنَّه يَشتمِلُ على إقامةِ الشَّريعةِ، وهي رحمةٌ وصلاحٌ للنَّاسِ في دُنياهم، فالقرآنُ مع كَونِه مُعجزةً دالَّةً على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُرشِدةً إلى تَصديقِه -مِثل غيرِه مِن المُعجزاتِ-؛ هو أيضًا وسيلةُ عِلْمٍ وتشريعٍ وآدابٍ للمَتلوِّ عليهم، وبذلك فضَلَ غيرَه مِن المُعجزاتِ الَّتي لا تُفيدُ إلَّا تَصديقَ الرَّسولِ الآتي بها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٦).

المَزِيَّةُ الرَّابعةُ: ما أشار إليه قولُه: ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾؛ فإنَّ القرآنَ مُشتمِلٌ على مواعظَ ونُذُرٍ، وتعريفٍ بعواقبِ الأعمالِ، وإعدادٍ إلى الحياةِ الثَّانيةِ، ونحوِ ذلك ممَّا هو تَذكيرٌ بما في تذَكُّرِه خيرُ الدَّارينِ، وبذلك فضَلَ غيرَه مِن المعجزاتِ الصَّامتةِ الَّتي لا تُفيدُ أزْيَدَ مِن كَونِ الآتيةِ على يَدَيه صادقًا.

المَزِيَّةُ الخامسةُ: أنَّ كَوْنَ القرآنِ كتابًا مَتْلوًّا مُستطاعًا إدراكُ خَصائصِه لكلِّ عربيٍّ، ولكلِّ مَن حذَقَ العربيَّةَ مِن غيرِ العرَبِ، مِثلُ أئمَّةِ العربيَّةِ؛ يُبعِدُه عن مُشابَهةِ نَفَثاتِ السَّحَرةِ والطَّلاسم، فلا يستطيعُ طاعنٌ أنْ يَزعُمَ أنَّه تخيُّلاتٌ، كما قال قومُ فِرعونَ لمُوسى: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ [الزخرف: ٤٩]، وقال تعالى حِكايةً عن المشركينَ حينَ رأَوْا مُعجزةَ انشِقاقِ القمَرِ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ [القمر: ٢]، فأشار قولُه: ﴿يُعۡرِضُواْ﴾ إلى أنَّ ذلك القولَ صدَرَ عنهم في مُعجزةٍ مرئيَّةٍ. وعُلِّقَ بالرَّحمةِ والذِّكرى قولُه: ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ تلك مَنافِعُ مِن القرآنِ زائدةٌ على ما في المُعجزاتِ الأُخرى مِن المنفعةِ الَّتي هي مَنفعةُ الإيمانِ بما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فهذه مَزايَا عظيمةٌ لمُعجزةِ القرآنِ، حاصِلةٌ في حضْرةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وغَيْبتِه، ومُستقِلَّةٌ عن الحاجةِ إلى بيانِه وتكميلِه بالدَّعوةِ وبتَكريرِها[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ فيه أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان أمِّيًّا لا يقرأُ ولا يكتُبُ، وفيه ردٌّ على مَن زعَمَ أنَّه كَتَب[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥، ١٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٥). ويُنظر أيضًا: ((كتاب مناهل العرفان للزرقاني- دراسة وتقويم)) للسبت (ص: ٤٥٥ - ٤٦٦).

٣- قال الله تعالى: ﴿إِذَا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ سمَّاهم مُبطِلينَ؛ لأنَّ ارتيابَهم على تقديرِ أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم يقرأُ ويَكتُبُ: ظُلْمٌ منهم؛ لِظُهورِ نَزاهتِه، ووُضوحِ مُعجزاتِه[١]؛ لذا لَمْ يَقُلْ: «لارتابَ النَّاسُ»؛ لأنَّه لو فُرِضَ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتْلُو كتابًا مِن قَبْلِ ذلك، ويَخُطُّه بيمينِه، وأتَى بهذا القرآنِ مع وُجودِ الآياتِ الدَّالَّةِ على صِدْقِه؛ فإنه لا يَحصُلُ ارتيابٌ، لكنَّ المُبْطِلَ قد يَحتجُّ بالشُّبهةِ ويَراها بَيِّنةً[٢].

وأيضًا فوَصفُ المكَذِّبينَ بالمُبطِلينَ منظورٌ فيه لحالِهم في الواقِعِ؛ لأنَّهم كَذَّبوا مع انتِفاءِ شُبهةِ الكَذِبِ، فكان تكذيبُهم الآنَ باطِلًا، فهم مُبطِلونَ مُتَوَغِّلونَ في الباطِلِ؛ فالقَولُ في وَصفِهم بالمُبطِلينَ كالقَولِ في وَصفِهم بالكافِرينَ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾، الرَّيْبُ شكٌّ بقلَقٍ، فالمُبطِلُ شَكُّهُ مُقترنٌ بالقلَقِ؛ لأنَّه ليس شَكًّا مَبْنيًّا على أصلٍ، فهو قَلِقٌ منه: هل يَكونُ ذلك الشَّكُّ حقيقةً أو مُجرَّدَ شبهةٍ واشتِباهٍ! بخِلافِ الشَّكِّ الَّذي له أصلٌ حقيقيٌّ؛ فنَجِدُ صاحبَه ليس بقَلِقٍ منه؛ كما لو شكَّ في عددِ ركَعاتِ الصَّلاةِ[٤].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾، ووجْهُ التَّلازُمِ بيْنَ التِّلاوةِ والكِتابةِ المُتقدِّمَينِ على نُزولِ القُرآنِ، وبيْنَ حُصولِ الشَّكِّ في نُفوسِ المشركين: أنَّه لو كان ذلك واقعًا لاحتمَلَ عندَهم أنْ يكونَ القرآنُ مِن جِنسِ ما كان يَتْلوه مِن قبْلُ مِن كُتبٍ سالِفةٍ، وأنْ يكونَ ممَّا خطَّه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٧٢، ٢٧٧).

قبْلُ مِن كلام تلَقَّاهُ، فقام اليومَ يَنشُرُه ويَدْعو إليه. وإنَّما جعَلَ ذلك مُوجِبَ رَيبٍ دونَ أنْ يكونَ مُوجِبَ جزْمٍ بالتَّكذيبِ؛ لأنَّ نظْمَ القرآنِ وبلاغتَه وما احْتَوى عليه مِن المعاني يُبطِلُ أنْ يكونَ مِن نوعِ ما سبَقَ مِن الكتُبِ والقَصصِ والخُطَبِ والشِّعرِ، ولكنْ ذلك لَمَّا كان مُستدعِيًا تأمُّلًا لم يَمنَعْ مِن خُطورِ خاطرِ الارتيابِ على الإجمالِ قبْلَ إتمامِ النَّظرِ والتَّأمُّلِ بحيث يكونُ دوامُ الارتيابِ بُهتانًا ومُكابَرةً[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أنَّ مَحَلَّ العقلِ والوعي القلبُ -والقلوبُ في الصُّدورِ-، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[2] [الحج: ٤٦].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ الثَّناءُ على حَفَظةِ القرآنِ[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إقرارُ المشركين بعُلُوِّ اللهِ جلَّ وعلا، فيكونُ اعتقادُ المشركين في اللهِ مِن حيثُ العُلُوُّ أكملَ مِن اعتقادِ المعتزلةِ والجهميَّةِ والأشاعرةِ؛ لأنَّ هؤلاء يُنْكِرون عُلُوَّ اللهِ الذَّاتيَّ، ويقولون: إنَّ اللهَ لا داخلَ العالَمِ ولا خارجَه، ولا مُتَّصِلًا ولا مُباينًا[4]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ أنَّ مِن بلاغةِ الكلامِ أنْ يكونَ الخِطابُ موافِقًا لمقتَضى الحالِ؛ وجْهُ ذلك: الحَصرُ في ذِكْرِ الإنذارِ فقط؛ فالرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَشيرٌ ونذيرٌ، لكنَّ المقامَ مقامُ مُحاجَّةِ الكافِرينَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٨).

فكان مقتضى الحالِ ذِكْرَ صِفةِ الإنذارِ فقط، وعدَمَ ذِكرِ كَونِه بَشيرًا[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أنَّه بمُجرَّدِ تِلاوةِ القرآنِ على شخصٍ فقد قامتْ عليه الحُجَّةُ، ويكونُ ذلك مُلزِمًا له بالاتِّباعِ؛ لأنَّ اللهَ لم يَذْكُرْ أكثرَ مِن التِّلاوةِ، ولهذا فإنَّ الجنَّ وَلَّوْا إلى قومِهم مُنذِرينَ بمُجرَّدِ سماعِهم القرآنَ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، لكنْ إذا كان الشَّخصُ لا يَفْهَمُ لُغةَ القرآنِ فلا تكونُ مُلْزِمةً، لقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، ولا يَحصلُ البيانُ وهو لا يدري لغةَ القرآنِ[٢].

١١- القرآنُ هو الآيةُ الكبرَى للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ المشركين قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنكر سُبحانَه وتعالى على مَن لم يَكْتَفِ بالوحيِ عن غيرِه[٤].

١٣- قولُه تعالى: ﴿أَنزَلْنَا﴾ فيه إثباتُ عُلُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٩٤).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾، أدخَل الجارَّ فقال ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾؛ لأنَّ المرادَ نفْيُ التِّلاوةِ عن كثيرِ الزَّمنِ الماضي وقليلِه، وأكَّد استِغراقَ الكُتبِ فقال: ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ أصلًا[(١)].

- قولُه: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ فيه إطنابٌ لا بُدَّ منه؛ فذِكْرُ اليمينِ -وهي الجارحةُ الَّتي يُزاوَلُ بها الخطُّ-: زِيادةُ تَصويرٍ لِمَا نفى عنه مِن كَونِه كاتبًا؛ ألَا ترى أنَّك إذا قلْتَ في الإثباتِ: رأيتُ الأميرَ يخُطُّ هذا الكتابَ بيَمينِه، كان أشدَّ لإثباتِك أنَّه تَولَّى كِتابتَه؟ فكذلك النَّفيُ[(٢)].

- قولُه: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (إذًا) جوابٌ وجزاءٌ لشرْطٍ مُقدَّرٍ بـ(لو)، دلَّ عليه قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ﴾، ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾، والتَّقديرُ: لو كنتَ تَتْلو قبْلَه كتابًا أو تخُطُّه لَارتابَ المُبطِلون[(٣)].

٢- قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ إبطالٌ لِمَا اقتضاهُ الفرْضُ مِن قولِه: ﴿إِذًا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠).

لَٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، أي: بلِ القرآنُ لا ريْبَ يَتطرَّقُه في أنَّه مِن عندِ اللهِ؛ فهو كلُّه آياتٌ دالَّةٌ على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّه مِن عندِ اللهِ(١).

- قولُه: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ على القولِ بأنَّ المُرادَ مِن: (صُدورِ الذين أُوتوا العِلْمَ) صدْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ عُبِّرَ عنه بالجمْعِ تعظيمًا له؛ فالمنفيُّ هو أنْ يكونَ مَتْلُوًّا قبْلَ نُزولِه. وهذا الَّذي يَقتضيه سِياقُ الإضرابِ عن أنْ يكونَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتْلو كِتابًا قبْلَ هذا القرآنِ بحيث يُظَنُّ أنَّ ما جاء به مِن القرآنِ ممَّا كان يَتْلوه مِن قبْلُ، فلمَّا انْتَفى ذلك ناسَبَ أنْ يُكشَفَ عن حالِ تلقِّي القرآنِ؛ فذلك هو مَوقِعُ قولِه: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾، كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]. وأمَّا الإخبارُ بأنَّه آياتٌ بيِّناتٌ فذلك تَمهيدٌ للغرَضِ، وإكمالٌ لِمُقتضاهُ؛ فالجارُّ والمجرورُ في قولِه: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ خبرٌ ثانٍ عن الضَّميرِ، والتَّقديرُ: وما كنتَ تَتْلو مِن قبْلِه مِن كتابٍ ولا تخُطُّه بيَمينِك، بلْ هو أُلْقِيَ في صَدْرِك، وهو آياتٌ بيِّناتٌ. وعلى أنَّ المُرادَ بـ ﴿صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ صُدورُ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وحُفَّاظِ المسلمينَ؛ فهذا يَقْتضي أنْ يكونَ قولُه: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ تَتميمًا للثَّناءِ على القُرآنِ، وأنَّ الغرَضَ هو الإخبارُ عن القرآنِ بأنَّه آياتٌ بيِّناتٌ، فيكون المجرورُ صِفةً لـ ﴿ءَايَٰتُۢ﴾، والإبطالُ مُقتصِرٌ على قولِه: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١، ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٢).

- قولُه: ﴿يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تَذييلٌ يُؤْذِنُ بأنَّ المشركينَ جَحَدوا آياتِ القرآنِ على ما هي عليه مِن وُضوحِ الدَّلالةِ على أنَّها مِن عندِ اللهِ؛ لأنَّهم ظالِمون لا إنصافَ لهم، وشأْنُ الظَّالِمينَ جحْدُ الحقِّ، يَحمِلُهم على جَحْدِه هوَى نُفوسِهم للظُّلم، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فهم مُتَوَغِّلون في الظُّلم[(١)].

٣- قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أفادتْ (إنَّما) قصْرَ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على صِفةِ النِّذارةِ، أي: الرِّسالةِ، لا يَتجاوَزُها إلى خلْقِ الآياتِ أو اقتِراحِها على ربِّه، فهو قصْرُ إفرادٍ[(٢)]؛ ردًّا على زعْمِهم أنَّ مِن حقِّ المَوصوفِ بالرِّسالةِ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ: في اصطِلاح البلاغيِّينَ هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصرِ قَلْبٍ. ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارِ آخَرَ إلى ثلاثةِ أقسام: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ الشَّركةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقدُ اشتراكَ اللهِ والأصنام في الأُلوهيَّة. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ إثباتَ الحُكم لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نَمرودُ، الَّذي اعتَقد أنَّه هو المحييُّ المميتُ دون اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْران، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

يأتِيَ بالخَوارقِ المُشاهَدةِ. وخصَّ بالذِّكْرِ مِن أحوالِ الرِّسالةِ وصْفَ النَّذيرِ؛ تَعريضًا بالمشركينَ بأنَّ حالَهم يَقْتضي الإنذارَ، وهو توقُّعُ الشَّرِّ[١].

٤- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ...﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ واردٌ مِن جِهَتِه تعالى ردًّا على اقتِراحِهم، وبَيانًا لِبُطلانِه. والهمزةُ للإنكارِ والنَّفيِ، والواوُ للعطفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيه المقامُ، أي: أقَصُرَ ولم يَكْفِهم آيةً مُغْنيةً عن سائرِ الآياتِ أنَّا أنزَلْنا...[٢]؟! أو: هو عطْفٌ على جُملةِ ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، وهو ارتقاءٌ في المُجادَلةِ. والاستِفهامُ تَعجبيٌّ إنكاريٌّ، والمعنى: وهلْ لا يَكْفِيهم مِن الآياتِ آياتُ القرآنِ[٣]؟!

- و(الكِتاب): القرآنُ، وعُدِلَ عن لفْظِ (القرآنِ) الَّذي هو كالعَلَمِ عليه إلى لَفْظِ (الكتابِ) المعهودِ؛ لإيمائِه إلى معنى تَعظيمِه بأنَّه المُشتهِرُ مِن بيْنِ كُتبِ الأنبياءِ، واللَّامُ في (الكتاب) للجنْسِ؛ فدلَّ على الكَمالِ، أو للعهْدِ؛ فدلَّ على ما عُرِفَ واشتُهِرَ في البَلاغةِ[٤]، وهو القرآنُ الكريمُ العظيمُ.

- قولُه: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ مُستأنَفةٌ أو حالٌ؛ لأنَّ الكتابَ مَعلومٌ غيرُ مُحتاجٍ للوصْفِ؛ لِمَا تُشعِرُ به مادَّةُ التِّلاوةِ مِنَ الانتِشارِ والشُّيوعِ. واختِيرَ المُضارِعُ دونَ الوصْفِ بأنْ يُقالَ: مَتْلُوًّا عليهم؛ لِمَا يُؤْذِنُ به المُضارِعُ مِن الاستمرارِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣، ١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤).

فحصَلَ مِن مادَّةِ (يُتْلى) ومِن صِيغةِ المُضارِعِ دَلالةٌ على عُمومِ الأمكنةِ والأزْمنةِ[١]. وقال: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لَمْ يَقُلْ: «تتلوه عليهم»؛ لأنَّه أَعَمُّ، لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتلوه على النَّاسِ، ثُمَّ يُعَلِّمُ بعضُهم بعضًا[٢].

- جملةُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ واردةٌ مَوردَ التَّعليلِ؛ للتَّعجيبِ مِن عدَمِ اكتِفائِهم بالكتابِ، وفي التَّعليلِ تَتميمٌ لِمَا اقتضاهُ التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وبـ ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، فالإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الكتابِ؛ لِيُسْتَحضَرَ بصِفاتِه كلِّها، وللتَّنويهِ به بما تَقْتضيهِ الإشارةُ مِن التَّعظيمِ. وتنْكيرُ (رحمة)؛ للتَّعظيمِ، أي: لا يُقادَرُ قَدْرُها[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه استِحضارُ المُؤمنينَ بعُنوانِ: (قَومٍ يُؤمِنونَ) دونَ أنْ يُقالَ: (للمؤمنينَ)؛ لِمَا في لفظِ (قوم) مِن الإيماءِ إلى أنَّ الإيمانَ مِن مُقَوِّماتِ قَوميَّتِهم، أي: لِقَومٍ شِعارُهم أنْ يُؤمِنوا، يعني: لقومٍ شِعارُهم النَّظرُ والإنصافُ، فإذا قامَتْ لهم دَلائلُ الإيمانِ آمَنوا، ولم يُكابِروا ظُلْمًا وعُلوًّا؛ فالفِعلُ مُرادٌ به الحالُ القريبةُ مِن الاستقبالِ. وفيه تَعريضٌ بالَّذين لم يَكْتَفوا بمُعجِزتِه، واقتَرَحوا آياتٍ أُخرى لا نِسبةَ بيْنَه وبيْنَها[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ هذا الكلامُ ورَدَ مَورِدَ الإنصافِ، أي: على أُسلوبِ الاستِدراجِ والكلامِ المُنصِفِ؛

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٦).

وذلك أنَّ قولَه: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ الآيةَ، كلامٌ فيه وعيدٌ شديدٌ، وتَهديدٌ عظيمٌ، لكنْ لم يُكافِحْ به مَن خُوطِبَ بأنْ لم يَقُلْ: والَّذين آمَنوا بالباطلِ منكم، بلْ جِيءَ به عامًّا على الغَيبةِ، ولم يُصرِّحْ بما كان منهم مِن الجَحدِ والتَّكذيبِ؛ ليَتفكَّروا فيه، ويَنظُروا: هلْ هم مِن الجاحدينَ للحقِّ أو مِن المُنْصفينَ، أو مِن الَّذين آمَنوا باللهِ وكَفَروا بالطَّاغوتِ أو خِلافِه، أو كانوا مُحقِّينَ أو مُبطِلين؟ فحينَئذٍ يُنصِفون مِن أنفُسِهم، ويُذْعِنون للحقِّ[(١)].

- والباءُ في قولِه: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ مَزيدةٌ؛ للتَّوكيدِ[(٢)].

-وقال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ فذكَرَ سُبحانَه أنَّه «شهيدٌ بيْنَه وبيْنَهم»، ولم يَقُلْ: «شاهِدٌ علينا»، ولا «شاهِدٌ لي»؛ لأنَّه ضَمَّنَ الشَّهادةَ الحُكمَ، فهو شَهيدٌ يَحكُمُ بشَهادتِه بيْني وبيْنَكم، والحُكمُ قَدْرٌ زائدٌ على مُجرَّدِ الشَّهادةِ؛ فإنَّ الشَّاهِدَ قد يؤدِّي الشَّهادةَ، وأمَّا الحاكِمُ فإنَّه يَحكُمُ بالحَقِّ للمُحِقِّ على المُبطِلِ، ويأخُذُ حقَّه منه، ويُعامِلُ المُحِقَّ بما يَستَحِقُّه، والمُبطِلَ بما يَستحِقُّه[(٣)].

- وجُملةُ ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُقرِّرةٌ لمعنى الاكتِفاءِ به شهيدًا؛ فهي تَتنزَّلُ منها مَنزِلةَ التَّوكيدِ[(٤)].

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ الإيمانُ بما سِوى اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) (٢١/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧).

كُفرٌ به، فيكونُ كُلُّ مَن آمَنَ بالباطِلِ فقد كفَرَ بالله، وفي هذا العَطفِ فائدةٌ غيرُ التَّأكيدِ، وهي أنَّه ذَكَر الثَّانيَ لِبَيانِ قُبحِ الأوَّلِ، كقَولِ القائِلِ: أتَقولُ بالباطِلِ وتَترُكُ الحَقَّ؟! لِبَيانِ أنَّ القَولَ باطِلٌ قَبيحٌ[١].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يُفيدُ التَّنبيهَ على أنَّ المُشارَ إليهم أحْرِياءُ بالحُكْمِ الواردِ بعدَ اسمِ الإشارةِ؛ لأجْلِ الأوصافِ الَّتي ذُكِرَت لهم قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٢].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ جُزْأَيْ جُملةِ ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ قَصْرٌ ادِّعائيٌّ[٣]؛ للمُبالَغةِ في اتِّصافِهم بالخُسرانِ العظيمِ، بحيث إنَّ كلَّ خُسرانٍ في جانبِ خُسرانِهم كالعدَمِ، فكأنَّهم انفَرَدوا بالخُسرانِ، فأُطلِقَ عليهم المُركَّبُ المفيدُ قصْرَ الخُسرانِ عليهم؛ وذلك لأنَّهم حقَّت عليهم الشَّقاوةُ العُظْمى الأبَديَّةُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧).

(٣) القَصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمُبالَغةِ، بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧، ١٨).

الآيات (٥٢-٥٥)

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَغْشَىٰهُمُ﴾: أي: يُصيبُهم، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا سَفاهةَ المشركينَ وجهْلَهم: ويَستعجِلُك مُشرِكو قَومِك -يا محمَّدُ- بوُقوعِ عذابِ اللهِ عليهم، ولولا قَضاءُ اللهِ بنُزولِ العذابِ عليهم في وقتٍ محدَّدٍ لجاءَهم وقتَ استِعجالِهم به! ولَيأتيَنَّهم عذابُ اللهِ فَجأةً وهم لا يَشعرونَ بوَقتِ مَجيئِه.

يَستعجِلُك مُشرِكو قَومِك بالعذابِ، وإنَّ جهنَّمَ لَمُحيطةٌ بهم وبكُلِّ كافرٍ، يومَ يَغْشاهم عذابُ النَّارِ مِن فَوقِهم ومِن تحتِ أرجُلِهم، ويقولُ اللهُ للكافرينَ: ذُوقوا جزاءَ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها عطفٌ على جملةِ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[العنكبوت:

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٧).

٥٠]؛ استِقصاءً في الرَّدِّ على شُبُهاتِهم، وإبطالًا لتَعِلَّاتِ إعراضِهم النَّاشئِ عن المُكابَرةِ[١].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾.

أي: ويَطلُبُ منك مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- أن تُعجِّلَ وُقوعَ عَذابِ اللهِ عليهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨].

﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

أي: ولولا تَقديرُ اللهِ لِعذابِ المُشرِكينَ بأن يَنزِلَ عليهم في وَقتٍ محدَّدٍ لا يَتقدَّمُ ولا يَتأخَّرُ، لجاءهم في وَقتِ استِعجالِهم إيَّاه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣١١، ٣١٢).

قال البِقاعي: (يجعلون تأخُّرَه عنهم شُبهةً لهم فيما يَزعُمونَ مِن التَّكذيبِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٤٦٢).

وقال ابن عثيمين: (هؤلاء يَستَعجِلونَ بالعذابِ لا أنَّهم يُريدونَ العذابَ، بل يَستعجِلونَه تَحدِّيًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣١١).

وقال الماوردي: (قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنَّ استعجالَهم له شدةُ عنادِهم لنبيِّه. الثاني: أنَّه استهزاؤُهم بقولِهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: ولَيأتيَنَّهم عذابُ اللهِ فجأةً دونَ أن يَشعُروا بوَقتِ مَجيئِه[١].

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: ويَستعجِلُك كُفَّارُ قَومِك -يا مُحمَّدُ- بوُقوعِ عذابِ اللهِ عليهم، وإنَّ جهنَّمَ لَمُحيطةٌ بهم وبكُلِّ كافرٍ، فلا بدَّ لهم مِن دُخولِها يومَ القيامةِ[٢].

ثُمَّ ذَكَر سبحانَه كيفِيَّةَ إحاطةِ العذابِ بهم، فقالَ[٣]:

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾.

أي: إنَّ جَهنَّمَ مُحيطةٌ بالكافِرينَ يومَ يَغشاهم عَذابُها مِن فَوقِهم، ويَغشاهم مِن

= (٦/ ٢٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤).

قال ابن عثيمين: (ظاهِرُ الآيةِ الكريمةِ أنَّ هذا في الدُّنيا، ولا فَرقَ بيْنَ أن يكونَ هذا العذابُ على يدِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأصحابِه، أو مِنَ الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣١٤).

وقال ابن عاشور: (وقد حلَّ بهم عذابُ يومِ بدرٍ بَغْتةً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ [الأنفال: ٤٢]، فاستأصَل صناديدَهم يومَئذٍ، وسُقِطَ في أيديهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤).

وقال ابن عطية: (هو الذي ظهَر يومَ بدرٍ، وفي السنينِ السبعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٠).

تحتِ أرجُلِهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقال سُبحانَه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩، ٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: ويَقولُ اللهُ للكافِرينَ: ذُوقوا جزاءَ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن كُفرانٍ وعِصيانٍ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣ - ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أنَّ أفعالَ اللهِ سُبحانَه وتعالى مُقَدَّرةٌ مُنظَّمةٌ، لا تأتي مُصادَفةً بغيرِ عِلْمٍ ولا بغيرِ رُشْدٍ، بل هو سُبحانَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١).
قال الشوكانيُّ: (القائلُ: هو الله سُبحانَه، أو بَعضُ ملائكتِه بأمرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٠).

وتعالى كامِلُ العِلمِ والحِكمةِ[١].

٢- قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أراد الله تأخيرَه لحِكَمٍ عَلِمها؛ منها: إمهالُهم ليؤمِنَ منهم مَنْ آمَنَ بعدَ الوعيدِ، وليَعلموا أنَّ الله لا يَستفِزُّه استِعجالُهم العذابَ؛ لأنَّه حكيمٌ لا يُخالفُ ما قدَّره بحكمتِه، حليمٌ يُمهِلُ عِبادَه[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ واضحةٌ؛ لأنَّ العذابَ في هذا الموضعِ لا يَخلو مِن أنْ يكونَ هلاكَ موتٍ أو غيرَه مِن أنواعِ العذابِ، وأيُّهما كان فلا يَتقدَّمُ الأجَلَ المضروبَ! وهم يَزعمون أنَّ الإنسانَ قد يموتُ بغيرِ أجَلِه، ويُنْكِرون أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه ضرَب أجلًا لأحدٍ في هلاكٍ؛ مَخافةَ ما يَلْزَمُهم في الكتابِ السَّابقِ بشَيءٍ مِن الأشياءِ[٣]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ عِظَمُ هذا العذابِ؛ حيثُ إنه يَغلُظُ عليهم مِن ناحيتينِ: مِن العُلُوِّ، ومِن السُّفْلِ؛ لأنَّه يكونُ كالغِطاءِ والوِطاءِ، كأنَّهم يُطبَقُ عليهم بنارٍ، ومُوقَدٌ مِن تحتِهم نارٌ، هذا عَدَا ما يأتيهم مِن كلِّ جانبٍ؛ لقوله تعالى: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٤].

٥- في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أنَّ تعذيبَ الكفارِ جِسْميٌّ ونَفْسيٌّ: الجِسْميُّ ما يَذوقونه مِن أنواعِ العذابِ، والنَّفْسيُّ ما يحصُلُ لهؤلاء المعذَّبينَ مِن التَّقريعِ والتَّوبيخِ الَّذي فيه الألَمُ النَّفْسيُّ؛ لقولِه: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، والألَمُ النَّفْسيُّ قد يكونُ أشدَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٢٦).

مِن الألَمِ الجِسميِّ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إثباتُ العَدلِ؛ حيث كان الجزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه الرَّدُّ على الجبريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ لا يُضافُ إليه العَمَلُ إلَّا على سبيلِ المَجازِ فقط! فعَمَلُ الإنسانِ عندَهم كإحراقِ النَّارِ لِمَا تُحرِقُه؛ فهو شيءٌ مُجبَرٌ عليه بدونِ اختيارِه[٣]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ حُكِيَ استِعجالُهم العذابَ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ لاستِحضارِ حالِ استِعجالِهم؛ لإفادةِ التَّعجيبِ منها[٤].

- قولُه: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مُبيِّنةٌ لِمَا أُشِيرَ إليه في الجُملةِ السَّابقةِ، مِن مَجيءِ العذابِ عندَ مَحلِّ الأجلِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أعقَبَ إنذارَهم بعذابِ يومِ بَدرٍ -على قولٍ- بإنذارِهم بالعذابِ الأعظَمِ؛ لأنَّه سُبحانَه قد أعدَّ لهم عذابًا أعظَمَ مِن عذابِ يومِ بَدرٍ، وهو عذابُ جهنَّمَ الَّذي يعُمُّ جميعَهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٤).

وأُعِيدَ لأجْلِه ذِكْرُ استِعجالِهم بالعذابِ مُعترِضًا بيْنَ المُتعاطِفَينِ؛ إيماءً إلى أنَّ ذلك جوابُ استِعجالِهم؛ فإنَّهم استَعجَلوا العذابَ فأُنذِروا بعذابَينِ، أحدُهما أعجَلُ مِن الآخَرِ. وفي إعادةِ ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ تَهديدٌ وإنذارٌ بأخْذِهم؛ فجُملةُ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾؛ فهُما عذابانِ كما هو مُقْتضى ظاهرِ العَطْفِ[1].

- قولُه: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِغايةِ تَجْهيلِهم، ورَكاكةِ رأْيِهم، وفيه دَلالةٌ على أنَّ ما اسْتَعْجلوه عذابُ الآخرةِ، أي: يَستعجلونك بالعذابِ، والحالُ أنَّ مَحلَّ العذابِ الَّذي لا عذابَ فوقَه مُحِيطٌ بهم، كأنَّه قِيل: يَستعجلونك بالعذابِ، وإنَّ العذابَ لَمُحيطٌ بهم، أي: سيُحِيطُ بهم، وإنَّما جِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ دَلالةً على تحقُّقِ الإحاطةِ واستِمرارِها، أو تَنزيلًا لحالِ السَّببِ مَنزلةَ حالِ المُسبَّبِ؛ فإنَّ الكُفْرَ والمعاصيَ المُوجِبةَ لدُخولِ جهنَّمَ مُحِيطةٌ بهم[2].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ اللَّامُ في (الكافرين) للعهْدِ على وَضْعِ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ، أو للجِنْسِ؛ فيكونُ استِدلالًا بحُكْمِ الجنْسِ على حُكْمِهم[3].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ الإحاطةُ كِنايةٌ عن عدَمِ إفلاتِهم منها، والمرادُ بالكافرينَ المُستعجِلون، واستُحْضِروا بوصْفِ الكافرينَ؛ للدَّلالةِ على أنَّه مُوجِبُ إحاطةِ العذابِ بهم. واستُعْمِلَ اسمُ الفاعلِ (محيط)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧، ١٩٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٤، ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٥).

في الإحاطةِ المُستقبَلةِ، مع أنَّ شأْنَ اسمِ الفاعلِ أنْ يُفيدَ الاتِّصافَ في زمَنِ الحالِ؛ تَنزيلًا للمُستقبَلِ مَنزلةَ زمانِ الحالِ؛ تَنبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه؛ لِصُدورِه عمَّن لا خِلافَ في إخبارِه[1].

٣- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ظرفٌ لِمُضْمرٍ قد طُوِيَ ذِكْرُه؛ إيذانًا بغايةِ كَثرتِه وفَظاعتِه، كأنَّه قِيلَ: يومَ يَغشاهُم العذابُ -الذي أُشيرَ إليه بإحاطةِ جهنَّمَ بهم- يكونُ مِن الأحوالِ والأهوالِ ما لا يَفِي به المَقالُ. وقِيل: ظرفٌ للإحاطةِ[2].

- وفي قولِه: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ تَصويرٌ للإحاطةِ، وقولُه: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ بيانٌ للغِشْيانِ؛ لتَصويرِه تفظيعًا لحالِه -كقولِه: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]- وتأْكيدًا لِمعنى الغِشْيانِ؛ فهو في مَوضعِ الحالِ مِن العذابِ، وهي حالٌ مُؤكِّدةٌ. وقولُه: ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ احتِراسٌ عمَّا قد يُوهِمُه الغِشْيانُ مِن الفوقيَّةِ خاصَّةً، أي: تُصيبُهم نارٌ مِن تحتِهم تَتوهَّجُ إليهم وهم فوقَها، والمقصودُ مِن هذه الكِنايةِ أنَّ العذابَ مُحيطٌ بهم؛ فلذلك لم يُذكَرِ الجانبانِ الأيمَنُ والأيسَرُ؛ لأنَّ الغرَضَ مِن الكِنايةِ قد حصَلَ، والمقامُ مَقامُ إيجازٍ؛ لأنَّه مَقامُ غضبٍ وتَهديدٍ[3].

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ التَّقديرُ: ويقولُ اللهُ، وعدَلَ عن ضَميرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩، ٢٠).

التَّكلُّمِ -على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ- على طَريقةِ الالتِفاتِ، أو يُقدَّرُ: ويقولُ الملَكُ المُوكَّلُ بجهنَّمَ[١].

- وقولُه: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جَعَل ذلك عيْنَ ما كانوا يعملونَ؛ لِلمُبالَغةِ بطريقِ إطلاقِ اسمِ المسَبَّبِ على السَّبَبِ، فإنَّ عمَلَهم كان سَبَبًا لعذابِهم[٢]، فهم في الحقيقةِ لا يَذوقون ما كانوا يعملون، إنَّما يَذوقون جزاءَه، لكنَّه مِن بابِ التَّعبيرِ بالسَّببِ عن المسبَّبِ. وأيضًا هو أشدُّ في التَّقريعِ؛ لأنَّ هذا العملَ اختاروه بأنفُسِهم، والجزاءُ لَمْ يختاروه بأنفُسِهم؛ فكأنَّه يقولُ: هذا هو الَّذي اختَرْتُم تمامًا[٣]. وأيضًا لأنَّ الجزاءَ لما كان بقدرِ المجزيِّ أُطلِق عليه اسمُه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١).

الآيات (٥٦-٥٩)

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم ﴾: أي: لَنُنزِلَنَّهم، ولَنُسْكِنَنَّهم، يُقالُ: بوَّأْتُه منزلًا، إذا أنزلتَه ومكَّنْتَ له فيه، وأصل (بوأ): يدُلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ[1].

﴿غُرَفًا ﴾: أي: مَنازِلَ عاليةً في الجنَّةِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى عِبادَه المؤمنينَ بالهجرةِ مِن البلدِ الَّذي لا يَقدِرونَ فيه على إقامةِ الدِّينِ، فيقولُ تعالى: يا عِباديَ الَّذين آمَنوا، إنْ ضُيِّقَ عليكم في عبادتِكم في بلدٍ، فهاجِروا إلى مَوضِعٍ تَتمَكَّنونَ فيه مِنَ العبادةِ؛ فإنَّ أرضي واسِعةٌ، فأخلِصوا العبادةَ لي وحْدي.

ويُبَيِّنُ تعالى لهم أنَّ الموتَ سيُدرِكُهم في كلِّ مكانٍ؛ وذلك ترغيبًا لهم في الهجرةِ، فيقولُ: كلُّ نفْسٍ مُفارِقةٌ للحياةِ، ثمَّ تُرجَعونَ إلينا؛ لِنُجازيَكم على أعمالِكم.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢).

ويخبرُ سُبحانَه عمَّا أعَدَّه للمؤمنينَ الصادِقينَ مِن حُسنِ الجزاءِ، فيقولُ: والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ لَنُسْكِنَنَّهم في مَنازِلَ عاليةٍ مِن الجنَّةِ، تَجري مِن تحتِ تلك المنازِلِ أنهارُ الجنَّةِ، خالِدينَ فيها أبدًا، نِعْمَ جزاءُ العامِلينَ تلك المنازِلُ العاليةُ، وهم الَّذين صَبَروا على طاعةِ اللهِ والأذى في سبيلِه، وعلى رَبِّهم وَحْدَه يَعتَمِدونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ حالَ المُشرِكينَ على حِدةٍ، وحالَ أهلِ الكتابِ على حِدةٍ، وجمَعَهما في الإنذارِ، وجعَلَهما مِن أهلِ النَّارِ؛ اشتَدَّ عِنادُهم، وزاد فَسادُهم، وسَعَوا في إيذاءِ المُؤمِنينَ، ومَنَعوهم مِن العبادةِ؛ فقال مُخاطِبًا للمُؤمِنينَ[1]:

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾.

أي: يا عباديَ الَّذين آمَنوا، إن لم تَتمَكَّنوا مِن طاعتي وعِبادتي في بلدٍ، فإنَّ أرضي واسِعةٌ؛ فهاجِروا إلى مَوضِعٍ تتمَكَّنونَ فيه مِن ذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٧].

﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٣، ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦١).

أي: فلِي وَحْدي أخلِصوا العبادةَ، وأَظهِروا طاعتي حيثُما يُمكِنُكم مِنَ الأرضِ، ولا تُشرِكوا باللهِ شَيئًا، ولا تُطيعوا في مَعصيتِه أحدًا[١].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمرَ اللهُ تعالى المؤمِنينَ بالمُهاجَرةِ، صعُبَ عليهم تَركُ الأوطانِ ومُفارَقةُ الإخوانِ، فقال لهم: إنَّ ما تَكرَهونَ لا بُدَّ مِن وُقوعِه؛ فإنَّ كُلَّ نفْسٍ ذائقةُ الموتِ، والموتَ مُفَرِّقُ الأحبابَ، فالأَولى أن يكونَ ذلك في سَبيلِ اللهِ، فيُجازيكم عليه؛ فإنَّ إلى اللهِ مَرجِعَكم[٢].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى عِبادَه بالحِرصِ على العبادةِ وصِدقِ الاهتِمامِ بها، حتَّى يتطَلَّبوا لها أوفَقَ البلادِ وإنْ بَعُدَت، وشَقَّ عليهم تَركُ الأوطانِ ومُفارَقةُ الإخوانِ- خوَّفَهم بالموتِ؛ لِتَهونَ عليهم الهِجرةُ[٣].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٥٧﴾.

كُلُّ نفْسٍ مخلوقةٍ واجِدَةٌ مَرارةَ الموتِ وكربَه لا مَحالةَ، والموتُ لا بدَّ نازلٌ بكم، وأيْنَما كنتُم يُدرِكُكم، ثمَّ تُرَدُّون بعْدَه إلى اللهِ، فيُجازيكم على أعمالِكم: خَيرِها وشَرِّها؛ فكُونوا في طاعةِ اللهِ وحيثُ أمرَكم؛ فهو خيرٌ لكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٥)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى بيَّنَ ما يكونُ للمُؤمِنينَ وقتَ الرُّجوعِ إليه، كما بيَّنَ مِن قبْلُ ما يكونُ للكافِرينَ، بقَولِه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[1] [العنكبوت: ٥٤].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بما وجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ لَنُسكِنَنَّهم في الجنَّةِ مَنازِلَ عاليةً[2].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

= الرسعني)) (٥/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩١، ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤).

قال الواحدي: (المعنى: لا بُدَّ مِن الموتِ، وكُلُّ أحدٍ مَيِّتٌ أيْنَما كان؛ فلا تُقيموا بدارِ الشِّركِ خَوفًا مِن الموتِ). ((البسيط)) (١٧/ ٥٤٨).

وقال ابنُ عثيمين: (عبَّرَ عن حقيقةِ الموتِ بالذَّوقِ؛ لأنَّ الإنسانَ يَذوقُ مرارةَ الموتِ وألَمَ فِراقِ الحياةِ، إلَّا إذا كان مُؤمِنًا؛ فإنَّه يَذوقُه مِن وجهٍ، لكنْ يَهونُ عليه الأمرُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٥، ٤٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٤٨).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أهلَ الجَنَّةِ يَتراءَونَ أهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهم، كما يَتراءَونَ الكَوكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ في الأُفُقِ[١]، مِنَ المَشرِقِ أو المَغرِبِ؛ لِتَفاضُلِ ما بيْنَهم! قالوا: يا رسولَ اللهِ، تلك مَنازِلُ الأنبياءِ لا يَبلُغُها غَيرُهم؟ قال: بلى، والَّذي نفْسي بيَدِه، رِجالٌ آمَنوا باللهِ، وصَدَّقوا المُرسَلينَ))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ غُرْفةً يُرى ظاهِرُها مِن باطِنِها، وباطِنُها مِن ظاهِرِها! فقال أبو موسى الأَشْعَريُّ: لِمَن هي يا رسولَ الله؟ قال: لِمَن أَلانَ الكلامَ، وأطعَمَ الطَّعامَ، وبات لله قائِمًا والنَّاسُ نِيامٌ))[٣].

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: تجري مِن تحتِ تلك المنازِلِ العاليةِ أنهارُ الجنَّةِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ

---

(١) الدُّرِّيَّ: أي: الشَّديدَ الإضاءةِ. الغابِرَ في الأُفُقِ: أي: الذَّاهِبَ الماشيَ الَّذي تدلَّى للغُروبِ وبَعُدَ عن العُيونِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٦٩)، ((شرح القَسْطَلَّاني)) (٥/ ٢٨٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢٥٦) واللفظ له، ومسلم (٢٨٣١).

(٣) أخرجه أحمد (٦٦١٥)، والحاكم (١٢٠٠).

صحَّحه الحاكِمُ على شرط مُسلم، وحسَّن إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٢٨٩)، والهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٥٧)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ١١١)، وقال الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٦١٧): حسَنٌ صحيحٌ.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٤٧).

قال البِقاعي: (ومِن المعلومِ أنَّه لا يكونُ في موضِعٍ أنهارٌ إلَّا كان به بساتينُ كِبارٌ، وزُروعٌ ورياضٌ وأزهارٌ، فيُشرِفونَ عليها مِن تلك العلالي). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٤٦٧).

لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥].

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾.

أي: ماكِثينَ في غُرَفِ الجنَّةِ أبدًا، فلا يُخرَجونَ منها ولا يَموتونَ[١].

﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾.

أي: نِعْمَ جزاءُ العامِلينَ في الدُّنيا بطاعةِ اللهِ؛ تلك المنازِلُ العاليةُ الَّتي يُسكِنُهم اللهُ إيَّاها في جنَّتِه، وتَجري مِن تحتِها الأنهارُ خالِدينَ فيها[٢].

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

أي: الَّذين صَبَروا على طاعةِ اللهِ وإقامةِ دينِه، وتحمَّلوا أذَى المُشرِكينَ، وصَبَروا على مُفارَقةِ أوطانِهم؛ فِرارًا مِنَ الفِتَنِ، وعلى رَبِّهم وَحْدَه يَعتَمِدونَ في أمورِ دينِهم ودُنياهم، فلا يَستعينونَ بغيرِ اللهِ في جهادِ أعدائِهم، وطلَبِ أرزاقِهم، وغيرِ ذلك مِن أمورِهم[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ يجبُ على كُلِّ مَن كان في بلدٍ يُعمَلُ فيها بالمعاصي، ولا يُمكِنُه تغييرُ ذلك: أن يُهاجِرَ إلى حيثُ تتهيَّأُ له العِبادةُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٧، ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ تحقيرٌ لأمرِ الدُّنيا ومخاوفِها، كأنَّ بعضَ المُؤمِنينَ نَظَر في عاقبةٍ تلحَقُه في خروجِه مِن وطنِه أنَّه يموتُ أو يجوعُ أو نحوُ هذا، فحَقَّر اللهُ تعالى شأنَ الدُّنيا، أي: أنتم لا محالةَ مَيِّتونَ ومَحشورونَ إلينا؛ فالبِدارُ إلى طاعةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، والهجرةُ إليه أَوْلى ما يُمتثَلُ[(١)].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يُنَبِّهُ على أنَّ الإنسانَ لا ينفَكُّ عن أمرٍ شاقٍّ يَنبغي الصَّبرُ عليه[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أنَّه ينبغي للصَّابرِ أنْ يَعتمِدَ على ربِّه في صَبرِه، وفائدةُ اعتمادِه في صَبرِه على ربِّه: أوَّلًا: الثَّباتُ على ذلك؛ فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يقولُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. ثانيًا: أنَّ صَبرَه يكونُ عبادةً؛ لأنَّ بعضَ الناسِ يَصْبِرُ ويَتَجَلَّدُ على حَدِّ قولِ الشَّاعرِ:

وتَجلُّدِي للشَّامِتينَ أُرِيهُمُ ... أنِّي لِرَيْبِ الدَّهرِ لا أَتَضَعْضَعُ[(٣)]

فهذا الصَّبرُ لا شكَّ أنَّه خُلُقٌ جميلٌ، لكنَّه لا يُثابُ عليه، وإنَّما يُثابُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٨).

(٣) البيتُ لأبي ذؤيبٍ خويلدِ بنِ خالدٍ الهُذَليِّ، وهو شاعرٌ مخضرمٌ، أدرَك الجاهليَّةَ والاسلامَ. يُنظر: ((معجم الأدباء)) للحموي (٣/ ١٢٧٥، ١٢٧٧).

ريبُ الدهرِ: أي: حَوادثُه وصُروفُه. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١/ ٤٤٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢/ ٥٤٧).

لا أَتَضَعْضَعُ: أي: لا أخضَعُ أو أذِلُّ، ولا أتكَسَّرُ للمصيبةِ، فتَشَمتَ بي الأعداءُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٢٥٠)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢١/ ٤١٥).

الصَّبرِ المقرونِ بالتَّوكُّلِ على اللهِ سُبحانَه وتعالى، فهو الَّذي يكونُ فيه الثَّوابُ والأجرُ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فيه سؤالٌ: قَولُه تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ يُفهَمُ منه كَونُهم عابدينَ، فما الفائِدةُ في الأمرِ بالعبادةِ بقَولِه: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾؟

الجواب: أنَّ فيه فائدتينِ:

الفائدة الأولى: المُداوَمةُ، أي: يا مَن عَبَدْتُموني في الماضي، اعبُدوني في المُستقبَلِ.

الفائدة الثَّانية: الإخلاصُ، أي: يا مَن تَعبُدُني، أخلِصِ العمَلَ لي، ولا تعبُدْ غيري[٢].

فالأمرُ الموَجَّهُ لِمَن يَتَّصِفُ به يُرادُ به أمْرانِ؛ هما: تحقيقُه، والاستِمرارُ فيه وتكميلُه، كما لو قلتَ: يا رجُلُ كُنْ رجُلًا؛ أي: اثْبُتْ على هذا، وحَقِّقِ الرُّجولةَ وكَمِّلْها[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ يُشعِرُ بأنَّ عِلَّةَ الأمرِ لهم بالهِجرةِ هي تمكينُهم مِن إظهارِ التَّوحيدِ، وإقامةِ الدِّينِ، وهذا هو المعيارُ في وجوبِ الهِجرةِ مِنَ البلَدِ الَّذي يُفتَنُ فيه المُسلِمُ في دينِه، وتَجري عليه فيه أحكامٌ غيرُ إسلاميَّةٍ[٤]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢).

فالحكمةُ مِن الهجرةِ القيامُ بعبادةِ اللهِ، وعليه إذا تَمَكَّنَ الإنسانُ مِن عبادةِ اللهِ فلا تجبُ عليه الهجرةُ؛ لكنَّ الأفضلَ الهجرةُ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ دليلٌ على جوازِ اختيارِ الأرضِ، والنُّقلَةِ مِن مَوضعٍ إلى موضعٍ؛ فرارًا مِن المعصيةِ، وصيانةً للدِّينِ، وخَلاصًا ممَّن لا يُساعِدُ على الآخرةِ، ويدعو إلى الدُّنيا[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مُقتضى العُبوديَّةِ والإيمانِ أنْ يقومَ الإنسانُ بحقيقةِ ما تقتضيه هذه العبوديَّةُ، بحيثُ لا يَرى لنَفْسِه حقًّا بجانبِ حقِّ اللهِ، بمعنى ألَّا يُقَدِّمَ حُظوظَ نفْسِه على حقوقِ ربِّه، وليس المعنى ألَّا يقومَ بالأمْرَينِ؛ فإنَّ الإنسانَ مأمورٌ بأنْ يقومَ بالأمْرَينِ، كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لعبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضيَ الله عنهما: ((إنَّ لِرَبِّك عليك حَقًّا، ولنفْسِك عليك حَقًّا))[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ أنَّ دارَ الإسلامِ تُضافُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّها مكانُ عبادتِه، وهذه الإضافةُ ليست إضافةَ خَلْقٍ وتكوينٍ؛ لأنَّ كلَّ الأراضي للهِ عزَّ وجلَّ، ولكنْ إضافةُ تشريفٍ، وأخَصُّ مِن ذلك إضافةُ المكانِ المُعَيَّنِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، مِثْلُ المساجدِ؛ فهي بيوتُ اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

٦- في قولِه تعالى: ﴿أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ إشعارٌ بالوعْدِ مِن الضِّيقِ إلى السَّعةِ، وقد أنجَزَ اللهُ وعْدَه في المدينةِ[٥]؛ ففيه أنَّ المهاجِرَ سيَجِدُ سَعَةً في أرضِ اللهِ، ويَشْهَدُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٣).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٩٦).

لهذا قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]، فهؤلاء تَرَكوا بلادَهم الَّتي ضُيِّقَ عليهم فيها؛ فعَوَّضَهم اللهُ بلادًا لا يَجِدون فيها الضِّيقَ، بل يَجِدونها ذاتَ سَعةٍ، ومَن تَرَكَ شيئًا للهِ عَوَّضَه اللهُ خيرًا منه[١].

٧- في قوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾ وُجوبُ الإخلاصِ للهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٨- مُفارَقةُ الجسدِ للرُّوحِ لا تَقَعُ إلَّا بعدَ ألَمٍ عظيم تَذوقُه الرُّوحُ والجسدُ جميعًا؛ فإنَّ الرُّوحَ قد تَعَلَّقَتْ بهذا الجسدِ، وألِفَتْه، واشتدَّتْ إلْفَتُها له، وامتِزاجُها به، ودُخولُها فيه حتَّى صارا كالشَّيءِ الواحدِ؛ فلا يَتفارَقانِ إلَّا بجُهدٍ شديدٍ، وألَمٍ عظيمٍ، ولم يَذُقِ ابنُ آدمَ في حياتِه ألَمًا مِثْلَه، وإلى ذلك الإشارةُ بقولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[٣]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أنَّ الإيمانَ إذا قُرِنَ بالعَمَلِ الصَّالحِ فالمرادُ به ما في القَلبِ، ووجْهُ ذلك: أنَّ العَطفَ يَقتضي المُغايَرةَ، أمَّا إذا ذُكِرَ الإيمانُ وحْدَه فإنَّه يَدخُلُ فيه العَمَلُ الصالحُ[٤].

١٠- مِن اللَّطائفِ: مُقابَلةُ غِشيانِ العذابِ للكفَّارِ مِن فَوقِهم ومِن تحتِ أرجُلِهم، في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، بغِشْيانِ النَّعيم للمؤمنينَ مِن فوقِهم بالغُرفِ ومِن تحتِهم بالأنهارِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤).

١١- قال الله تعالى: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ لا بصيغةِ الأمرِ؛ لتَفريحِ قُلوبِ المؤمِنينَ، وقال في حَقِّ الكافِرينَ: ﴿ذُوقُواْ﴾ [العنكبوت:٥٥] بصيغة الأمرِ؛ لإيلامِ قُلوبِهم بلَفظِ الأمرِ؛ وذلك لأنَّ لَفظَ الأمرِ يدُلُّ على انقِطاعِ التَّعَلُّقِ بعْدَه؛ فإنَّ مَن قال لأجيرِه: (خُذْ أُجرَتَك) يُفهَمُ منه أنَّه بذلك يَنقَطِعُ تَعَلُّقُه عنه، وأمَّا إذا قال: (ما أتَمَّ أُجرَتَك عندي!) أو (نِعْمَ ما لَك مِن الأجرِ!) فيُفهَمُ منه أنَّ ذلك عِندَه، ولم يَقُلْ هاهنا: خُذوا أُجرَتَكم أيُّها العامِلونَ، وقال هناك: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[1] [العنكبوت:٥٥].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ سَمَّى اللهُ تعالى الثَّوابَ أجرًا؛ مِن بابِ إظهارِ كَرَمِه على عبادِه، كأنَّهم أُجَراءُ، فيَكونُ هذا الثَّوابُ واجبًا وُجوبَ الأُجرةِ للأجيرِ، وهذا لا شكَّ أنَّه مِن نعمةِ اللهِ سُبحانه وتعالى وفَضْلِه، وإلَّا فهو المُتفضِّلُ أوَّلًا وآخِرًا[2].

١٣- في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ؛ حيثُ أضاف العملَ إليهم، فدلَّ هذا على أنَّهم يَعملون باختيارِهم، وإلَّا لَمَا استحَقُّوا الثَّناءَ، فلولا أنَّ الإنسانَ يَعمَلُ باختيارِه ما استَحقَّ أنْ يُثْنَى عليه بالعملِ الصَّالحِ، ولا أنْ يُذَمَّ بالعملِ السَّيِّئِ! ومِن ثَمَّ قالتِ الجبريَّةُ: إنَّ أفعالَ اللهِ غيرُ مُعَلَّلَةٍ! فاللهُ عندَهم يَظْلِمُ مَن شاء؛ وإنْ كان هو الَّذي أَجْبَرَه على العملِ! ويُثِيْبُ مَن شاء؛ وإنْ كان هو الَّذي أَجْبَرَه على العملِ، ولا حكمةَ في ذلك! فهُم لا يُعَلِّلُون أفعالَ اللهِ؛ بل أفعالُ اللهِ عندَهم لِمُجَرَّدِ المشيئةِ[3]!

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ نصَّ على التَّوكُّلِ وإن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٢).

كان داخِلًا في الصَّبرِ؛ لأنَّه يُحتاجُ إليه في كُلِّ فِعلٍ وتَركٍ مأمورٍ به، ولا يَتِمُّ إلَّا به[١].

١٥- ذِكرُ الصَّبرِ والتَّوكُّلِ هنا مناسِبٌ؛ فإنَّ قَولَه تعالى في الآياتِ السَّابِقةِ: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ كان لبيانِ أنَّه لا مانِعَ مِن العبادةِ، ومَن يُؤذَى في بُقعةٍ فَلْيَخرُجْ منها، فحَصَل النَّاسُ على قِسْمَينِ: قادِرٌ على الخروجِ، وهو مُتوَكِّلٌ على رَبِّه، يَترُكُ الأوطانَ، ويُفارِقُ الإخوانَ. وعاجِزٌ وهو صابِرٌ على تحمُّلِ الأذى، ومُواظِبٌ على عبادةِ اللهِ تعالى[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾

- قولُه: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ وقَعَ اعتِراضًا بيْنَ الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ: جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وجُملةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾[٣] [العنكبوت: ٥٨].

- قولُه: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ النِّداءُ بعُنوانِ التَّعريفِ بالإضافةِ؛ لتَشريفِ المُضافِ، ومُصطلحُ القرآنِ: أنَّ (عِباد) إذا أُضِيف إلى ضَميرِ الجلالةِ، فالمرادُ بهم المؤمنونَ غالبًا إلَّا إذا قامَتْ قرينةٌ، كقولِه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الفرقان: ١٧]؛ وعليه فالوصفُ بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لِمَا في المَوصولِ مِن الدَّلالةِ على أنَّهم آمَنوا باللهِ حقًّا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٦٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٢).

- قولُه: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِيَّٰىَ﴾ فاءُ التَّفريعِ، والفاءُ ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ جوابُ شَرطٍ مَحذوفٍ؛ إذِ المعنى: إنَّ أرْضي واسعةٌ إنْ لم تُخْلِصوا العِبادةَ لي في أرضٍ فأخْلِصُوها في غَيرِها، ثمَّ حُذِفَ الشَّرطُ وعُوِّضَ عنه تَقديمُ المفعولِ، مع إفادةِ تَقديمِه معنَى الاختِصاصِ والإخلاصِ. وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ إمَّا مُؤكِّدةٌ للْفاءِ الأُولى؛ للدَّلالةِ على تَحقيقِ التَّفريعِ في الفِعلِ وفي مَعمولِه، أي: فلا تَعبُدوا غيري، فاعْبُدونِ، وإمَّا مُؤْذِنةٌ بمَحذوفٍ هو ناصبُ ضَميرِ المُتكلِّمِ تأكيدًا للعِبادةِ، والتَّقديرُ: وإيَّاي اعْبُدوا فاعبُدونِ، وهو أنسَبُ بدَلالةِ التَّقديمِ على الاختصاصِ؛ لأنَّه لَمَّا أفاد الأمرُ بتَخصيصِه بالعِبادةِ، كان ذِكْرُ الفاءِ علامةَ تَقديرٍ على تَقديرِ فِعلٍ مَحذوفٍ قُصِدَ مِن تَقديرِه التَّأكيدُ[(١)].

- وحُذِفَت ياءُ المُتكلِّمِ بعدَ نُونِ الوِقايةِ في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾؛ تخفيفًا، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[(٢)].

٢- قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ جِيءَ بها حثًّا على المُسارَعةِ في الامتثالِ بالأمرِ[(٣)]. وقيل: قولُه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ اعتِراضٌ ثانٍ بيْن الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ؛ قُصِدَ منها تأْكيدُ الوعيدِ الَّذي تَضمَّنَتْه جُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ...﴾ [العنكبوت: ٥٢] إلى آخرِها، وتأكيدُ الوعْدِ الَّذي تَضمَّنَتْه جُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾ [العنكبوت: ٥٨]، أي: الموتُ مُدرِكٌ جميعَ الأنفُسِ، ثمَّ يُرجَعون

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٥).

إلى اللهِ. وقُصِدَ منها أيضًا تَهوينُ ما يُلاقِيه المؤمنونَ مِن الأذى في اللهِ، ولو بلَغَ إلى الموتِ بالنِّسبةِ لِمَا يَترقَّبُهم مِن فضْلِ اللهِ وثوابِه الخالدِ، وفيه إيذانٌ بأنَّهم يَترقَّبُهم جِهادٌ في سبيلِ اللهِ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ جِيءَ بـ (ثمَّ)؛ لأنَّ بيْنَ الموتِ والمُثولِ بيْنَ يَدَيِ الملِكِ الجبَّارِ في دارِ الجزاءِ تراخيًا، كأنَّه قيل: ثمَّ إنَّكم ميِّتونَ فتُقبَرونَ، ثمَّ تُنشَرونَ، فواصِلون عَقِيبَه إلى الجزاءِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وجِيءَ بالموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى وجْهِ بِناءِ الخبرِ، أي: نُبوِّئَنَّهم غُرفًا لأجْلِ إيمانِهم وعمَلِهم الصَّالحِ[٣].

- قولُه: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ إنشاءُ ثَناءٍ وتَعجُّبٍ على الأجْرِ الَّذي أُعْطُوه؛ فلذلك قُطِعَت عن العطْفِ[٤].

- قولُه: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ المخصوصُ بالمدْحِ مَحذوفٌ؛ ثِقَةً بدَلالةِ ما قبْلَه عليه، أي: الجنَّةُ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢، ٢٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٥).

وقال في سُورةِ (آلِ عمرانَ): ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦]؛ فاختصَّ ما في سُورةِ (آلِ عمرانَ) بالواوِ في قولِه: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾، وخلَّى ما في سُورةِ (العنكبوتِ) منها؛ وذلك لأنَّ الآيةَ في سُورةِ (آلِ عِمرانَ) مَبنيَّةٌ على تَداخُلِ الأخبارِ؛ لأنَّ أوَّلَها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾؛ فـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مُبتدأٌ، و﴿جَزَآؤُهُم﴾ مُبتدأٌ ثانٍ، و﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ خبرُ المُبتدأِ الثَّاني، وهو مع خبَرِه خبرُ المُبتدأِ الأوَّلِ، والجزاءُ هو الأجْرُ؛ فكأنَّه قال: أولئك أجْرُهم على أعمالِهم مَحْوُ ذُنوبِهم، وإدامةُ نَعيمِهم، أي: هو ترْكُ المُؤاخَذةِ بالذَّنْبِ، والتَّنعيمُ في جنَّةِ الخُلْدِ؛ فهذا الأجرُ مُفصَّلٌ على كلِّ أجرٍ يُعْطاه عاملٌ على عمَلِه؛ فنُسِقَت الأخبارُ بعضُها على بعضٍ؛ للتَّنبيهِ على النِّعمِ الَّتي هُيِّئَتْ لِرَجاءِ الرَّاجينَ. والخبرُ إذا جاء بعدَ خبَرٍ في مِثلِ هذا التَّفصيلِ، فحقُّه أنْ يُعطَفَ على ما قبْلَه بالواوِ، وكقولِك: هذا الجزاءُ كذا وكذا.

وأمَّا الآيةُ في سُورةِ (العنكبوتِ): فإنَّ ما قبْلَها مَبْنيٌّ على أنْ يُدرَجَ الكلامُ فيه على جُملةٍ واحدةٍ، وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾؛ فقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مُبتدأٌ، وقولُه: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ في مَوضعِ خَبرِه، وهذا الخبرُ يتَّصِلُ به مَفعولانِ؛ الأوَّلُ: قولُه: (هُمْ)، والثَّاني: قولُه: ﴿غُرَفٗا﴾، وقولُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ مِن التَّبوئةِ؛ فلمَّا جُعِلَت هذه الأشياءُ كلُّها في درَجِ كلامٍ واحدٍ، وهو جُملةُ ابتداءٍ وخبَرٍ، واحتمَلَ قولُه: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ أنْ يَرِدَ بالواوِ وأنْ يَجيءَ مِن دُونِها؛ اختيرَ مَجيئُها بغيرِ (واوٍ)؛ لِيُشْبِهَ ما تقدَّمَ مِن عَقدٍ بخبَرٍ، لا على سَبيلِ عطْفٍ ونسَقٍ، فجاء بغيرِ (واوٍ). ويَحتمِلُ أنْ يكونَ في مَوضعِ خبرِ مُبتدأٍ، فكأنَّه قال: ذلك نِعمَ أجْرُ العاملينَ، ويكون قولُه: ﴿ذَٰلِكَ﴾

إشارةً إلى ما ذكَرَ اللهُ تعالى مِن إسكانِهم الجنَّةَ؛ فجَرى بلا (واوٍ) مَجرَى ما هو مِن تَمامِ الكلامِ الأوَّلِ؛ فقولُه: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ أي: ذلك نِعمَ أجْرُ العامِلينَ، مُشارٌ إليه بالتَّفضيلِ على أُجورِ العامِلينَ؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[١].

٤- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيه تَقديمُ المَجرورِ على مُتعلَّقِه مِن قولِه: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ للاهتمامِ[٢]، وإفادةِ الحصرِ[٣].

- وحذفُ مُتعلَّقِ التَّوكُّلِ يُفيدُ أنَّهم مُفَوِّضونَ الأمرَ كلَّه إليه[٤].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص:١٠١٤-١٠١٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٨٥).

الآيات (٦٠-٦٤)

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَكَأَيِّن ﴾: بمعنى كَمْ، ويُرادُ بها التَّكثيرُ، وهي لَفْظةٌ مرَكَّبةٌ مِن كافِ التَّشبيهِ، و(أيٍّ)، والنُّونُ هي التَّنوينُ، أُثْبِتتْ في الخطِّ على غيرِ القياسِ[(١)].

﴿يُؤْفَكُونَ ﴾: أي: يُصرَفونَ عن الحَقِّ ويَحيدون، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[(٢)].

﴿يَبْسُطُ ﴾: أي: يُوَسِّعُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ[(٣)].

﴿وَيَقْدِرُ ﴾: أي: يُضَيِّقُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونهايتِه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٩)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٦، ١١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥)، ((التبيان لابن الهائم)) (ص: ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب =

﴿ٱلۡحَيَوَانُ﴾: أي: الحياةُ الدَّائِمةُ الَّتي لا زوالَ لها، ولفظُ الحيوانِ مصدرٌ كالحياةِ، وأصلُ (حيي): يدُلُّ على خِلافِ الموتِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى أنَّ هجرةَ مَن هاجرَ لن تُضيِّعَ شيئًا مِن رزقِه الَّذي كتَبه الله له؛ وذلك ترغيبًا لهم في الهجرةِ، فيقولُ: كم مِن دابَّةٍ لا تدَّخِرُ غِذاءَها لِغَدٍ، ولا تَحمِلُ رِزقَها؛ اللهُ يَرزُقُها مِن حيثُ لا تعلَمُ، ويَرزُقُكم أيُّها المهاجِرونَ وإن لم يكُنْ معكم زادٌ ولا نَفقةٌ؛ فلا تَخافوا عَيْلةً ولا إقْتارًا، وهو السَّميعُ لكُلِّ قَولٍ، العَليمُ بكُلِّ فِعلٍ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى ما عليه المشركونَ مِن تناقضٍ، فيقولُ: ولَئِنْ سألْتَهم -يا محمَّدُ-: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، وذلَّل الشَّمسَ والقَمَرَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه خالِقُ هذه الأشياءِ. فكيف يُصرَفونَ عن التَّوحيدِ بعدَ قيامِ الدَّليلِ؟!

ويخبرُ سبحانَه أنَّ الأرزاقَ جميعَها بيَدِه، فيقولُ تعالى: اللهُ وَحْدَه هو مَنْ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضيِّقُه على مَن يشاءُ منهم؛ إنَّ اللهَ بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ.

ولَئِنْ سألْتَهم: مَنِ الَّذي نزَّل مِنَ السَّحابِ مَطَرًا فأحْيا بسَبَبِه الأرضَ مِن بعدِ جَدْبِها؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي فعَلَ ذلك. فقُلْ -يا محمَّدُ: الحمدُ لله على إنزالِه للحُجَجِ، وتَيسيرِه للنِّعَمِ، بل أكثَرُ المُشرِكين لا يَعقِلون!

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٢).

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه حقيقةَ هذه الحياةِ الدُّنيا بالنِّسبةِ للدَّارِ الآخرةِ، فيقولُ: وما هذه الحياةُ الدُّنيا إلَّا لهوٌ ولَعِبٌ، لا بقاءَ لها، وإنَّ الدَّارَ الآخرةَ لَهِيَ دارُ الحياةِ الدَّائمةِ الَّتي لا زوالَ لها ولا انقِطاعَ. لو كان المُشرِكون يَعلَمونَ ذلك لآمَنوا باللهِ وَحْدَه، ولم يُؤْثِروا الدُّنيا الفانيةَ على الآخرةِ الباقيةِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى الَّذين صَبَروا وعلى ربِّهم يتوكَّلون؛ ذكَرَ ما يُعِينُ على التَّوكُّلِ، وهو بيانُ حالِ الدَّوابِّ الَّتي لا تدَّخِرُ شَيئًا لغدٍ، ويأتيها كُلَّ يومٍ برِزقٍ رَغَدٍ[1].

وأيضًا لَمَّا أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَن أسْلَم بمكَّةَ بالهجرةِ، خافُوا الفقرَ فقالوا: غُربةٌ في بلادٍ لا دارَ لنا فيها ولا عَقارٌ، ولا مَن يُطْعِمُ. فمَثَّلَ لهم بأكثرِ الدَّوابِّ الَّتي تَتَقَوَّتُ ولا تَدَّخِرُ، ولا تَرَوَّى في رِزْقِها[2].

وهذه الآيةُ عَطفٌ على جُملةِ: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ [العنكبوت: ٥٧]؛ فإنَّ اللهَ لَمَّا هوَّنَ بها أمْرَ الموتِ في مَرْضاةِ الله، وكانوا ممَّن لا يَعبَأُ بالموتِ؛ عَلِمَ أنَّهم يقولونَ في أنفُسِهم: إنَّا لا نخافُ الموتَ، ولكنَّا نخافُ الفَقرَ والضَّيعةَ، واستِخفافُ العَرَبِ بالموتِ سَجيَّةٌ فيهم، كما أنَّ خَشيةَ المَعَرَّةِ مِن سجاياهم؛ فأعقَبَ ذلك بأنْ ذكَّرَهم بأنَّ رِزقَهم على اللهِ، وأنَّه لا يُضَيِّعُهم، ولِلمُناسَبةِ في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٥).

و(رَوَّى) في الأمرِ: نَظَر فيه وفَكَّر. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٣٢).

قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ [العنكبوت: ٥٦] مِن توقُّعِ الَّذين يُهاجِرونَ مِن مكَّةَ ألَّا يَجِدوا رِزقًا في البلادِ الَّتي يهاجِرونَ إليها، وهو أيضًا مناسِبٌ لِوُقوعِه عَقِبَ ذِكرِ التَّوكُّلِ في قَولِه: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1] [العنكبوت: ٥٩].

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾.

أي: هاجِروا وجاهِدوا في اللهِ -أيُّها المُؤمِنونَ- ولا تَخافوا عَيْلةً أو إقتارًا؛ فكثيرٌ مِن الدَّوابِّ ذاتُ حاجةٍ إلى غذاءٍ وطعامٍ وشرابٍ، ولا تُطيقُ جَمْعَه وتحصيلَه، ولا تؤخِّرُ شَيئًا منه لغَدٍ، فيُقَيِّضُ لها اللهُ رِزْقَها على ضَعفِها، ويُيَسِّرُه لها؛ فكذلك يُيَسِّرُ اللهُ لكم أرزاقَكم أيُّها النَّاسُ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا...﴾ [هود: ٦].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو السَّميعُ لأقوالِ عبادِه ودُعائِهم، العليمُ بأعمالِهم ونيَّاتِهم، ومِن ذلك أنَّه يَعلَمُ تَوكُّلَكم ورَجاءَكم منه الرِّزقَ، كما أنَّه لا تَهلِكُ دابَّةٌ مِن عدَمِ الرِّزقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٨).

ذكر ابن عاشور أنَّه يجوزُ أن يكونَ معنى قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ أي: تَسيرُ غيرَ حاملةٍ رزقَها. وأنَّه يجوزُ أن يكونَ المرادُ بحملِ الرِّزقِ: التَّكَلُّفَ له، أي: لا تتكَلَّفُ لرزقِها، وهذا حالُ مُعظَمِ الدَّوابِّ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٥).

وقال ابن عثيمين: (ليس بصَوابٍ أن نقولَ: لا تَحمِلُ رزقَها؛ لِضَعفِها؛ لأنَّ هذا التَّعليلَ معناه أنَّها لا تحمِلُ رزقَها لأنَّها ضعيفةٌ؛ إمَّا ضعيفةٌ في الإرادةِ، أو ضعيفةٌ في البَدنِ، فليس هذا معنى الآيةِ، بل معناها: لا تَستطيعُ أن تكتَسِبَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٦١، ٣٦٢).

لخفائِها عليه؛ إذ لا يخفَى عليه شيءٌ سُبحانَه[١].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا هَوَّن سُبحانَه أمرَ الرِّزقِ بخِطابِه مع المؤمِنينَ بعدَ أن كان قد أبلَغَ في تَنبيهِ الكافِرينَ بإيضاحِ المقالِ، وضَرْبِ الأمثالِ، ولِينِ المحاورةِ في الجِدالِ، ولَمَّا كان المَلِكُ لا يَتمَكَّنُ غايةَ التَّمكُّنِ مِن ترزيقِ مَن في غيرِ مَملكتِه؛ قال[٢]:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾.

أي: ولَئِنْ سألْتَهم[٣] -يا محمَّدُ-: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، وذلَّل لكم الشَّمسَ والقَمَرَ يَجْريانِ لِمَنافِعِكم ومَصالِحِكم؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه هو مَن خلَقَ وسخَّرَ ذلك دونَ مَن سِواه[٤].

﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

أي: فكيف يُصرَفونَ إذَن عمَّن خلَقَ وسخَّرَ ذلك، فيَعدِلونَ عن التَّوكُّلِ عليه، أو يَترُكونَ إخلاصَ العبادةِ له[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٩).

(٣) قيل: المرادُ بهم: المُشرِكون. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦).

﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قد يُشكِلُ على التَّفاوُتِ المذكورِ في الرِّزقِ عندَ كُلِّ مَن لم يَتأمَّلْ حَقَّ التأمُّلِ، فيُقالُ: يَكِلُ الخَلْقَ والرِّزقَ له، فما بالُهم مُتفاوِتينَ في الرِّزقِ؟ قال[1]:

﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه هو مَنْ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يشاءُ منهم وَفْقًا لِما فيه مَصلحةٌ ونَفعٌ لهم، بحَسَبِ ما تقتَضيه حِكمتُه سُبحانَه؛ فلا يَصُدَّنَّكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عن الهِجرةِ وجِهادِ عَدوِّكم خَوفٌ مِنَ الافتِقارِ[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عَليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بمصالحِ عبادِه، فيَعلَمُ ما يُصلِحُهم ويُفسِدُهم مِن الغِنى والفَقرِ، ولا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أحوالِهم[3].

﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦١).

أي: ولَئِنْ سألْتَهم -يا مُحمَّدُ-: مَنِ الَّذي نزَّل مِن السَّحابِ مَطَرًا، فأحيا بسبَبِه الأرضَ اليابِسةَ بالنَّباتِ مِن بعدِ جُدوبِها وقُحوطِها؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي فعَلَ ذلك دونَ غيرِه[١].

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

أي: وإذا قالوا ذلك فقُلْ -يا محمَّدُ-: الحَمدُ لله[٢] على إنزالِه الحُجَجَ، وتَبيينِه الحقَّ مِن الباطِلِ، وتيسيرِه النِّعَمَ[٣].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

أي: بل[٤] أكثَرُ المُشرِكينَ بالله لا يَعقِلونَ الآياتِ، فلا يَعرِفونَ الحَقَّ مِن الباطِلِ، ولا يتَّبِعونَه[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(٢) قال ابن القيم: (الحمدُ إخبارٌ عن مَحاسِنِ المحمودِ، مع حُبِّه وإجلالِه وتعظيمِه). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٨٤).

(٤) قال ابن عثيمين: (﴿بَلْ﴾ هنا للإضرابِ الانتِقاليِّ، يعني: بعدَ أن ثبَت الأمرُ، وقامَتِ الحُجَّةُ، واستحقَّ الباري الحمدَ؛ حينَئذٍ يصِحُّ أن يُسجَّلَ عليهم الجهلُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٢).

وقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأنَّ العُقَلاءَ منهم آمَنوا، لما وضَحَت لهم تلك الحُجَجُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠).

وقيل: المرادُ بالأكثرِ: الجميعُ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٣).

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الكافِرينَ يَعترِفونَ بكَونِ اللهِ هو الخالِقَ، وكَونِه هو الرَّزاقَ، وهم يَترُكونَ عِبادتَه، ولا يَترُكونَها إلَّا لِزينةِ الحياةِ الدُّنيا؛ بيَّنَ أنَّ ما يَميلونَ إليه ليس بشَيءٍ، بقَولِه[1]:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾.

أي: وما هذه الحياةُ الدُّنيا الَّتي يتمَتَّعُ بها النَّاسُ إلَّا شَيءٌ يُتلَهَّى به ويُلعَبُ، لا حَقيقةَ لها ولا ثباتَ، وهي مُنقَطِعةٌ وزائِلةٌ[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾.

أي: وإنَّ الدَّارَ الآخرةَ هي دارُ الحياةِ الدَّائِمةِ الباقيةِ، الَّتي لا زَوالَ لها ولا انقِطاعَ، ولا موتَ فيها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠، ٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧٣)، =

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: فلو كان المُشرِكونَ يَعلَمونَ ذلك لآمَنوا باللهِ وَحْدَه، ولم يُؤْثِروا الدُّنيا الفانيةَ على الآخرةِ الباقيةِ[1].

= ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٥، ٤٧٦).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ يحتملُ أن يكونَ المعنى: وإنَّ حياةَ الدَّارِ الآخرةِ هي الحياةُ؛ لأنَّه لا نقْصَ فيها، ولا نَفادَ لها، أي: فتلك الحياةُ هي الحياةُ، لا الَّتي يَشوبُها ما يَشوبُ الحياةَ في هذه الدَّارِ، فيكونَ ﴿ٱلۡحَيَوَانُ﴾ مَصْدرًا على هذا. ويجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلۡحَيَوَانُ﴾ الَّذي هو خِلافُ المَوَتانِ، وقيل للدَّارِ الآخرةِ: الحيوانُ؛ لأنَّها لا تَزولُ ولا تَبيدُ كما تَبيدُ هذه الدَّارُ وتَزولُ، فتَكونَ الدَّارُ وُصِفَتْ بالحياةِ لهذا المعنى، والمرادُ أهلُها.

ويجوزُ أن يكونَ التَّقديرُ في قولِه: ﴿لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ هي ذات الحيوانِ، أي: دارُ الآخرةِ هي دارُ الحياةِ، كأنَّه لم يَعتَدَّ بحياةِ هذه الدَّارِ حياةً). ((البسيط)) (١٧/ ٥٥٨).

وقال ابن جرير: (﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ يقولُ: وإنَّ الدَّارَ الآخرةَ لَفيها الحياةُ الدَّائمةُ الَّتي لا زوالَ لها، ولا انقطاعَ، ولا موتَ معها). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٠).

وقال ابنُ القيم: (قال تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ والمرادُ: الجنَّةُ عندَ أهلِ التَّفسيرِ، قالوا: وإنَّ الآخرةَ يعني: الجَنَّةَ ﴿لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ لَهِيَ دارُ الحياةِ الَّتي لا موتَ فيها). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٩٨).

وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ بالدَّارِ الآخرةِ: الجنَّةُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والواحديُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٣).

قال السعدي: (وأمَّا الدَّارُ الآخرةُ فإنَّها دارُ الحَيَوانِ، أي: الحياةِ الكاملةِ، الَّتي مِن لَوازِمِها أن تكونَ أبدانُ أهلِها في غايةِ القوَّةِ، وقُواهم في غايةِ الشِّدَّةِ؛ لأنَّها أبدانٌ وقُوًى خُلِقَتْ للحياةِ، وأن يكونَ موجودًا فيها كلُّ ما تَكمُلُ به الحياةُ، وتَتِمُّ به اللَّذَّاتُ؛ مِن مُفرِحاتِ القلوبِ، وشَهَواتِ الأبدانِ؛ مِنَ المآكِلِ، والمَشارِبِ، والمَناكِحِ، وغيرِ ذلك، ممَّا لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ﴾ فيه الإرشادُ إلى النَّظَرِ في مخلوقاتِ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أخبَرنا بذلك لأجْلِ أنْ نَتفكَّرَ في هذه الدَّوابِّ الَّتي لا تَحمِلُ رِزقَها[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ يدُلُّ على أنَّ الَّذين يَعلَمونَ لا بُدَّ أن يُؤْثِروا الآخِرةَ على الدُّنيا؛ لِما يَعلَمونَه مِن حالةِ الدَّارَين[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تحديدُ النَّسلِ خوفًا مِن ضيقِ الرِّزقِ سوءُ ظَنٍّ باللهِ تعالى؛ فاللهُ سُبحانَه وتعالى إذا خلَقَ خَلْقًا فلا بُدَّ أنْ يَرزُقَه؛ قال الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ﴾[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فيه إقرارُ المشركين برُبوبيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وفي هذا أنَّ الإقرارَ بالرُّبوبيَّةِ لا يكفي في التَّوحيدِ، وبهذا نَعرِفُ بُطْلانَ تفسيرِ مَن فَسَّرَ الإلهَ بالقادرِ على الاختراعِ! فإنَّ المتكلِّمينَ يُفَسِّرُون الإلهَ بالقادرِ على الاختراعِ، وإذا فَسَّرُوا الإلهَ بهذا التَّفسيرِ لم يكن هناك فَرْقٌ بيْنَ توحيدِهم وبينَ توحيدِ المشركين! وأهلُ السُّنَّةِ يقولون: الإلهُ هو المعبودُ حقًّا، وإنْ كان المعبودُ

= (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(٣) يُنظر: ((الزواج)) لابن عثيمين (ص: ٣٤).

بالباطلِ يُسمَّى إلهًا؛ لأنه يُعْبَدُ، لكنَّ أُلوهيَّتَه باطلةٌ[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۞ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۞ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا استِدلالٌ على المُشرِكينَ المكَذِّبينَ بتوحيدِ الإلهيَّةِ والعبادةِ، وإلزامٌ لهم بما أثبَتوه مِن توحيدِ الرُّبوبيَّةِ، فهل تجِدُ أضعفَ عقلًا وأقَلَّ بصيرةً ممَّن أتَى إلى حجرٍ، أو قبرٍ ونحوِه، وهو يَدري أنَّه لا ينفعُ ولا يضُرُّ، ولا يَخلُقُ ولا يَرزُقُ، ثمَّ صرَف له خالصَ الإخلاصِ، وصافيَ العُبوديَّةِ، وأشرَكه مع الرَّبِّ الخالقِ الرَّازقِ، النَّافعِ الضَّارِّ[٢]؟!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ حُسنُ مُناظَرةِ القُرآنِ ومُجادَلتِه، وأنَّ مُناظَراتِه ومُجادلاتِه تكونُ مُلزِمةً؛ وجْهُ ذلك: أنَّ إقرارَهم بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ مُلزِمٌ لهم أن يُقِرُّوا بتوحيدِ الألوهيَّةِ، وكمالِ صفاتِه جلَّ وعلا[٣].

٥- قول الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، فيه سؤالٌ: ما الفَرقُ بيْنَ اللَّهوِ واللَّعِبِ حتَّى يَصِحَّ عطفُ أحدِهما على الآخَرِ؟

الجوابُ: الفرقُ مِن عدَّةِ أوجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ اللَّهْوَ للقلبِ، واللَّعِبَ للجوارحِ؛ ولهذا يُجمَعُ بيْنَهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣٠). ويُنظر أيضًا: ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٢٥٤).

الوجهُ الثَّاني: أنَّ كلَّ شغلٍ يَعرِضُ فإنَّ المُكلَّفَ إذا أقبَلَ عليه، لَزِمه الإعراضُ عن غيرِه، ومَن لا يَشغلُه شأنٌ عن شأنٍ هو الله تعالى، فالَّذي يُقْبِلُ على الباطلِ لِلَذَّةٍ يسيرةٍ زائلةٍ فيه، يَلزَمُه الإعراضُ عن الحقِّ، فالإقبالُ على الباطلِ لَعِبٌ، والإعراضُ عن الحقِّ لَهْوٌ، فالدُّنيا (لَعِبٌ) أي: إقبالٌ على الباطلِ، و(لَهْوٌ) أي: إعراضٌ عن الحقِّ.

الوجهُ الثَّالثُ: هو أنَّ المُشتَغِلَ بشَيءٍ يُرجِّحُ ذلك الشَّيءَ على غيرِه -لا مَحالةَ- حتَّى يَشتَغِلَ به؛ فإمَّا أن يكونَ ذلك التَّرجيحُ على وَجهِ التَّقديمِ بأنْ يقولَ: أقَدِّمُ هذا، وذلك الآخَرُ آتي به بَعْدَه، أو يكونَ على وَجهِ الاستِغراقِ فيه والإعراضِ عن غَيرِه بالكُلِّيَّةِ؛ فالأوَّلُ لَعِبٌ، والثَّاني لهوٌ[(١)]. وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞ﴾ فيه بيانُ حَقَارةِ الدنيا؛ فظاهِرُ الآيةِ أنَّ الدُّنيا لهوٌ ولَعِبٌ على سَبيلِ الإطلاقِ، أو أنَّ ذلك على سبيلِ المُقارَنةِ بالآخِرةِ؛ لِقَولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾ غيرُ مَقصودٍ منه إفادةُ الحُكْمِ، بلْ هو مُستعمَلٌ في لازمِ مَعناهُ، وهو الاستِدلالُ على ضَمانِ رِزقِ المُتوكِّلينَ مِنَ المؤمنينَ. وتَمثيلُه للتَّقريبِ بضَمانِ رِزقِ الدَّوابِّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٤).

الكثيرةِ الَّتي تَسيرُ في الأرضِ لا تَحمِلُ رِزقَها، والقرينةُ على هذا الاستِعمالِ هو قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾ الَّذي هو استِئْنافٌ بَيانيٌّ لبَيانِ وجْهِ سَوقِ قولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾؛ ولذلك عُطِفَ ﴿وَإِيَّاكُمۡ﴾ على ضَميرِ دابَّةٍ، والمقصودُ: التَّمثيلُ في التَّيسيرِ والإلهامِ للأسبابِ المُوصِلةِ، وإنْ كانت وسائلُ الرِّزقِ مُختلِفةً[1].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ هذا الكلامُ عائدٌ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]؛ تَعجُّبًا مِن نقائضِ كُفْرِهم[2].

- وقولُه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ فيه تَخصيصُ تَسخيرِ الشَّمسِ والقمَرِ بالذِّكْرِ مِن بيْنِ مَظاهرِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لِمَا في حَرَكتِهما مِن دَلالةٍ على عَظيمِ القُدرةِ، مع ما في ذلك مِن المِنَّةِ على النَّاسِ؛ إذ ناطَ بحَركتِهما أوقاتَ اللَّيلِ والنَّهارِ، وضبْطَ الشُّهورِ والفُصولِ[3]؛ فالنُّجومُ والكواكبُ ليس فيها مَصالحُ ظاهِرةٌ لنا، وإلَّا فقد سَخَّرَ اللهُ الشَّمسَ والقمرَ والنُّجومَ، فكلُّها مُسَخَّرةٌ، لكنَّ المصالحَ في الشَّمسِ والقَمَرِ أظهَرُ وأبيَنُ[4].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ إنكارٌ وتَعجُّبٌ واستبعادٌ مِن جِهَتِه تعالى لتَرْكِهم العَملَ بمُوجبِه، أي: فكيفَ يُصْرَفون عن الإقرارِ بتفرُّدِه تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٣).

في الإلهيَّةِ، مع إقرارِهم بتفرُّدِه تعالى فيما ذكَرَ مِن الخلْقِ والتَّسخيرِ[(١)]؟!

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ ﴾ تكميلٌ لمَعنى قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ﴾ [العنكبوت: ٦٠]؛ لأنَّ الأوَّلَ الكلامُ في المَرزوقِ وعُمومِه، وهذا في الرِّزقِ وبَسْطِه وقَتْرِه. وقولُه: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ [العنكبوت: ٦١] مُعترِضٌ لتَوكيدِ مَعنى الآيتَينِ، وتعرُّضٌ بأنَّ الَّذين اعتَمَدْتُم عليهم في الرِّزقِ مُقِرُّون بقُدرتِنا؛ كقولِه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾[(٢)] [الذاريات: ٥٨].

- قولُه: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ هذا إلزامٌ آخَرُ لهم بإبطالِ شِرْكِهم، وافتِضاحِ تَناقضِهم؛ فإنَّهم كانوا مُعترِفينَ بأنَّ الرَّازقَ هو اللهُ تعالى، كما قال سُبحانَه: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾، إلى قولِه: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]، وإنَّما جاء أُسلوبُ هذا الاستِدلالِ مُخالِفًا لأُسلوبِ الَّذي قبْلَه والَّذي بعْدَه، حيثُ عُدِلَ عن تَركيبِ (ولئنْ سألْتَهم)؛ تفَنُّنًا في الأساليبِ؛ لِتَجديدِ نَشاطِ السَّامعِ. وأُدمِجَ في الاستِدلالِ على انفرادِه تعالى بالرِّزقِ التَّذكيرُ بأنَّه تعالى يَرزُقُ عِبادَه على حسَبِ مَشيئتِه؛ دَليلًا على أنَّه المُختارُ في تَصرُّفِه، وليس ذلك على مَقاديرِ حاجاتِهم، ولا على ما يَبْدو مِن الانتفاعِ بما يُرْزَقونَه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧).

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ ﴿يَبْسُطُ﴾ (يَقْدِرُ)؛ لإفادةِ تجدُّدِ البَسْطِ والقَدْرِ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ؛ لإفادةِ أنَّ ذلك كلَّه جارٍ على حِكمةٍ لا يطَّلِعُ عليها النَّاسُ، وأنَّ اللهَ يَعلَمُ صبْرَ الصَّابرينَ، وجزَعَ الجازِعينَ[2].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أُعيدَ هنا أسلوبُ السُّؤالِ والجوابِ؛ لِيتَّصِلَ ربْطُ الأدِلَّةِ بعضِها ببعضٍ على قرْبٍ؛ فقد كان المُشركون لا يَدَّعونَ أنَّ الأصنامَ تُنزِلُ المطَرَ، كما صرَّحتْ به الآيةُ، فقامَتِ الحُجَّةُ عليهم، ولم يُنكِروها وهي تَقرَعُ أسماعَهم، وأُدمِجَ في الاستِدلالِ عليهم بانفرادِه تعالى بإنزالِ المطَرِ: أنَّ اللهَ أحْيَا به الأرضَ بعدَ مَوتِها، وإنْ كان أكثَرُ المشركينَ يَنسُبون المُسبَّباتِ إلى أسبابِها العاديَّةِ، وقد اعترَفوا بأنَّ سبَبَ الإنباتِ -وهو المطَرُ- مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، فيَلزَمُهم أنَّ الإنباتَ مِن اللهِ على كلِّ تَقديرٍ. وفي هذا الإدماجِ استِدلالٌ تَقريبيٌّ لإثباتِ البعثِ، كما قال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠]، وقال: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[3] [الروم: ١٩].

- وقد أشار قولُه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ إلى موتِ الأرضِ، أي: موتُ نَباتِها يكونُ بإمساكِ المطَرِ عنها في فُصولِ الجَفافِ، أو في سِنينِ الجدْبِ؛ لأنَّه قابَلَه بكونِ إنزالِ المطَرِ لإرادتِه إحياءَ الأرضِ بقولِه: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، فلا جرَمَ أنْ يكونَ موتُها بتَقديرِ اللهِ؛ للعِلْمِ بأنَّ موتَ الأرضِ كان بعدَ حياةٍ سبَقَت مِن نوعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٨، ٢٩).

هذه الحياةِ؛ فصارتِ الآيةُ دالَّةً على أنَّه المُتصرِّفُ بإحياءِ الأرضِ وإماتتِها، ويُعلَمُ منه أنَّه مُحْيِي الحيوانِ ومُميتُه بطريقةِ لَحْنِ الخِطابِ[١]. فانتظَمَ مِن هذه الآياتِ المُفتتَحةِ بقولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [العنكبوت: ٦١] إلى هنا، أُصولُ صِفاتِ أفعالِ اللهِ تعالى، وهي: الخلْقُ، والرزقُ، والإحياءُ، والإماتةُ؛ مِن أجْلِ ذلك عُقِّبَت بأمْرِ اللهِ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَحمَدَه بكلامٍ يَدُلُّ على تَخصيصِه بالحمْدِ[٢].

- قولُه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إضرابُ انتقالٍ مِن حَمْدِ اللهِ على وُضوحِ الحُجَجِ، إلى ذَمِّ المشركينَ بأنَّ أكثَرَهم لا يَتفطَّنون لنُهوضِ تلك الحُجَجِ الواضحةِ، فكأنَّهم لا عقْلَ لهم؛ لأنَّ وُضوحَ الحُجَجِ يَقْتضي أنْ يَفطُنَ لِنتائجِها كلُّ ذي مُسْكةٍ مِن عقْلٍ؛ فنُزِّلوا مَنزلةَ مَن لا عُقولَ لهم. وإنَّما أُسنِدَ عدَمُ العقْلِ إلى أكثَرِهم دونَ جَميعِهم؛ لأنَّ مِن عُقلائهم وأهلِ الفِطَنِ منهم مَن وضَحَت له تلك الحُجَجُ، فمِنهم مَن آمَنوا، ومِنهم مَن أصَرُّوا على الكفْرِ عِنادًا[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وقال في سُورةِ (الجاثية): ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥]، وقال

---

(١) لحنُ الخطاب: هو أن يكونَ المسكوتُ عنه موافقًا للمنطوقِ في الحُكمِ، ويُسمَّى أيضًا: فحوى الخطاب. وقيل: إنْ كان أَوْلى بالحُكمِ مِن المنطوقِ به فيُسَمَّى فَحْوى الخطابِ، وإن كان مساويًا فيُسَمَّى لحنَ الخطابِ. وقيل: هو مفهومُ المخالَفةِ. وقيل: هو دَلالةُ الاقتِضاءِ أي: دلالةُ اللفظِ التزامًا على ما لا يستقلُّ الحكمُ إلَّا به، وإن كان اللفظُ لا يقتضيه وضعًا. يُنظر: ((شرح تنقيح الفصول)) للقرافي (ص: ٥٣)، ((نفائس الأصول)) للقرافي (٢/ ٦٤١)، ((المختصر في أصول الفقه)) لابن اللحام (ص: ١٣٢)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣٠).

في سُورةِ (البقرة): ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ فخُصَّت سُورةُ (العنكبوت) بـ (مِن) في قولِه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾، وأُخلِيَ الموضعانِ الآخَرانِ منها؛ لأنَّه لَمَّا كان سِياقُ الكلامِ هنا في مَساقِ التَّقريرِ، كان المَقامُ مُقْتضيًا للتَّأكيدِ بزِيادةِ (مِن) في قولِه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾؛ إلْجاءً لهم إلى الإقرارِ بأنَّ فاعلَ ذلك هو اللهُ دونَ أصنامِهم؛ فلذلك لم يكُنْ مُقْتضًى لزِيادةِ (مِن) في آيةِ (البَقرة) وفي آيةِ (الجاثية): ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1] [البقرة: ١٦٤، الجاثية: ٥].

- ومِن المناسَبةِ أيضًا أنَّه قال هنا: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وقال في سُورةِ (لُقمانَ): ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]؛ فاختُصَّت الأُولى بقولِه: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، والثَّانيةُ بقولِه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الأوَّلَ في التَّنبيهِ على البَعثِ والإحياءِ بعدَ الموتِ، فاستُعْمِلَ فيه ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: لا يَفهَمون عن هذا الفِعلِ مِثْلَه، وفي مِثلِ هذا يُقال: عقَلْتُ كلامَه؛ إذا استَدْرَكْتَ وفهِمْتَ، ومَن تنبَّهَ على الشَّيءِ وعلِمَه بعدَ أنْ لم يكُنْ مُتنبِّهًا عليه، يُستعمَلُ فيه مِثلُ: فطِنَ له، وعقَلَه، وأدْرَكَه، وشعَرَ به، وإنْ صحِبَ كلَّ ذلك العِلْمُ، إلَّا أنَّه عِلْمٌ على وصْفٍ. وليس كذلك الآيةُ في سُورةِ (لُقمانَ)؛ لأنَّ الكفَّارَ فيها مُقِرُّون بأنَّ اللهَ وحْدَه خالقُ السَّمواتِ والأرضِ، وهم يَعلَمون ذلك، ويُثبِتون معه آلهةً، فكأنَّهم لا يَعلَمون؛ فلذلك قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فإذا عَبَدوا الأصنامَ العِبادةَ الَّتي تَحِقُّ لِمَن خلَقَ السَّمواتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩).
ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٢٤، ١٠٢٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٩، ٤٤٠).

والأرضَ بإقرارِهم، فكأنَّهم لم يَعلَموا ما أقَرُّوا به، وثبَتَ معلومًا لهم[١].

- وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّه وصَفَ أكثَرَهم هنا بعدَمِ العقْلِ للتَّعريفِ بإفراطِ قُصورِهم حتَّى استحَقُّوا الوصْفَ بصِفاتِ البهائمِ ومَن لا يصِحُّ خِطابُه؛ وذلك أنَّ العقْلَ فُضِّلَ به الإنسانُ، وبه امتيازُه عن البَهيمةِ، ولا يُمكِنُ العِلْمُ بشَيءٍ إلَّا بعدَ حُصولِه والاتِّصافِ به، وهو مَناطُ التَّكليفِ، فإذا فُقِدَ لَحِقَ فاقِدُه بالبهائمِ؛ فإنزالُ الماءِ مِن السَّماءِ وهو ماءٌ واحدٌ يكونُ عنه مُختلِفُ النَّباتِ، وضروبُ الأشجارِ، وأنواعُ الثَّمرِ المختلِفِ الحالاتِ مع وَحدةِ المادَّةِ؛ فمَن عقَلَ هذا عقَلَ وُجودَ الإنسانِ مِن نُطفةٍ واحدةٍ، كوحدةِ الماءِ النَّازلِ مِن السَّماءِ، ثمَّ يكونُ عن تلك النُّطفةِ شكْلُ الإنسانِ، وما يَنْطوي عليه خلْقُه، وتَشتمِلُ عليه جُملتُه، والمادَّةُ واحدةٌ؛ فالتَّلاقي والشَّبهُ بيْنَ الماءَينِ وما يُوجِدُه سُبحانه عنهما أوضَحُ شَيءٍ لِمَن عقَلَ، فكيف يَستبعِدُ العَودةَ مَن يُشاهِدُ ذلك أو يَعتبِرُ به[٢]؟!

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ إشارةُ تَحقيرٍ وقلَّةِ اكتِراثٍ، وكيف لا وهي لا تَزِنُ عندَ اللهِ جَناحَ بعَوضةٍ[٣]؟!

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، فقد زادَتْ هذه الآيةُ بتَوجيهِ اسمِ الإشارةِ إلى الحَياةِ، ولم تُوَجَّهِ الإشارةُ إلى الحياةِ في سُورةِ (الأنعامِ): ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٢٦-١٠٢٨).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١).

لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ هذه الآيةَ لم يَتقدَّمْ فيها ما يَقْتضي تَحقيرَ الحياةِ؛ فجيءَ باسم الإشارةِ لإفادةِ تَحقيرِها، وأمَّا آيةُ سُورةِ (الأنعام) فتقدَّمَ قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١]، فذكَرَ لهم في تلك الآيةِ ما سيَظهَرُ لهم إذا جاءتْهمُ السَّاعةُ مِن ذَهابِ حَياتِهم الدُّنيا سُدًى[(١)].

- وأمَّا تقديمُ ذِكْرِ اللَّهوِ هنا في قولِه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞ﴾ وذِكْرِ اللَّعِبِ في سُورةِ (الأنعام)؛ فلأنَّ آيةَ سُورةِ (الأنعام) لم تَشتمِلْ على اسمِ إشارةٍ يُقصَدُ منه تَحقيرُ الحياةِ الدُّنيا، فكان الابتداءُ بأنَّها لعِبٌ مُشيرًا إلى تَحقيرِها؛ لأنَّ اللَّعِبَ أعرَقُ في قِلَّةِ الجَدْوى مِن اللَّهوِ[(٢)].

- والحَصرُ في قولِه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞ﴾ حَصْرٌ ادِّعائيٌّ، يُقصَدُ به المُبالَغةُ؛ لأنَّ الأعمالَ الحاصلةَ في الحياةِ كثيرةٌ؛ منها اللَّهوُ واللَّعِبُ، ومنها غيرُهما، والمقصودُ مِن ذِكرِ الحياةِ هنا ما يَحصُلُ فيها ممَّا يُحِبُّها النَّاسُ لأجْلِه، وهو المُلائماتِ. ووجهُ حَصرِ الحياةِ الدُّنيا في اللَّهوِ واللَّعِبِ -مع كَونِ المُلائماتِ كثيرةً، ومنها ما ليس بلَعِبٍ ولَهْوٍ-: أنَّه لَمَّا كان مُعظمُ المُلائماتِ يَستدعي صرْفَ هِمَّةٍ وعَملٍ كانت مُشتمِلةً على شَيءٍ مِن التَّعبِ، وهو منافرٌ؛ فكان مُعظَمُ ما يُحِبُّ الناسُ الحياةَ لأجْلِه هو اللَّهوَ واللَّعِبَ؛ لأنَّه الأغلبُ على أعمالِ النَّاسِ في أوَّلِ العُمُرِ، والغالبُ عليهم فيما بعدَ ذلك، إلَّا مَن آمَنَ وعَمِلَ صالحًا؛ فلذلك وقَعَ القصرُ الادِّعائيُّ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٩٤) و(٢١/ ٣١).

وقد تقدم تعريف القصر الادعائي(ص: ٦٠٨).

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: لَهِيَ دارُ الحياةِ الحقيقيَّةِ؛ لامتناعِ طرَيانِ الموتِ عليها، أو هي في ذاتِها حَياةٌ؛ للمُبالَغةِ، و(الحيوانُ) مَصدرُ (حَيي) سُمِّيَ به ذو الحياةِ، وهو أبلَغُ مِن الحياةِ؛ لِمَا في بِناءِ (فَعَلان) مِن الحركةِ والاضْطِرابِ اللَّازمِ للحياةِ، وهو أَمَارةٌ على قوَّةِ الحَيويَّةِ في الشَّيءِ مِثْلَ الغَليانِ، والمقامُ يَقْتضي المُبالَغةَ؛ لأنَّه واقعٌ في مُقابلِ حياةِ الدُّنيا؛ فكما بُولِغَ في قلَّةِ ثَباتِها وسُرعةِ تَقَضِّيها -حيثُ جُعِلَت لهوًا ولعِبًا تشبيهًا بلَعِبِ الصِّبيانِ، يَلْعَبون ساعةً ثمَّ يتفرَّقون- بُولِغَ في دوامِها وثباتِها[1].

- ولَمَّا أُشِيرَ في هذه الآيةِ إلى الحياةِ الآخرةِ في قولِه: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ [العنكبوت: ٦٣]، زادَهُ تَصريحًا بأنَّ الحياةَ الآخرةَ هي الحياةُ الحقُّ، وهمْ قد جَهِلوا الحياةَ الآخرةَ مِن أصْلِها؛ فلذلك قال: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّه قال في (الأنعام): ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقال هاهنا: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾؛ وذلك لأنَّه لَمَّا كان الحالُ هناك حالَ إظهارِ الحسْرةِ، ما كان المُكلَّفُ يَحتاجُ إلى رادعٍ قَويٍّ، فقال: ﴿ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾، ولمَّا كان هاهنا الحالُ حالَ الاشتغالِ بالدُّنيا، احتاجَ إلى رادعٍ قَويٍّ، فقال: لا حياةَ إلَّا حياةُ الآخرةِ، وهذا كما أنَّ العاقلَ إذا عُرِضَ عليه شَيئانِ، فقال في أحدِهما: هذا خيرٌ مِن ذلك، يكونُ هذا تَرجيحًا فحسْبُ، ولو قال: هذا جيِّدٌ، وهذا الآخرُ ليس بشَيءٍ؛ يكونُ تَرجيحًا مع

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١).

المُبالَغةِ، فكذلك هاهنا بالَغَ؛ لِكَونِ المُكلَّفِ مُتوغِّلًا فيها[١].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّه قال في (الأنعام): ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[الأنعام: ٣٢]، ولم يقُلْ هاهنا إلَّا: ﴿لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾؛ وذلك لأنَّ الآخرةَ خيرٌ للمُتَّقي فحسْبُ، أي: المُتَّقي عن الشِّركِ، وأمَّا الكافرُ: فالدُّنيا جنَّتُه، فهي خيرٌ له مِن الآخرةِ، وأمَّا كَوْنُ الآخرةِ باقيةً، فيها الحياةُ الدَّائمةُ، فلا يَختَصُّ بقَومٍ دونَ قومٍ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٦).

الآيات (٦٥-٦٩)

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْفُلْكِ﴾: السُّفنِ، وواحِدُه وجَمْعُه بلَفظٍ واحدٍ، وأصلُ الفلك: الاستِدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيت فُلْكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[1].

﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾: أي: يُقتَلُ، ويُسلَبُ، ويُنهَبُ، ويُسْبَى، والخطفُ: الأخذُ بسُرعةٍ، وأصلُه: استِلابٌ في خِفَّةٍ[2].

﴿مَثْوًى﴾: أي: مَنزِلٌ، وأصْلُ الثَّوَاءِ: الإقامةُ مع الاستِقرارِ؛ يُقالُ: ثَوَى يَثْوِي ثَواءً[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى حالَ المشركينَ عندَما يَنزِلُ بهم البلاءُ، ويُحيطُ بهم، فيقولُ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

فإذا رَكِبَ المُشرِكون في السَّفينةِ وخافوا الغَرَقَ، أخلَصوا الدُّعاءَ لله وأفرَدوه بالطَّاعةِ؛ ليُخَلِّصَهم مِنَ الهلاكِ، فلمَّا نجَّاهم اللهُ مِن الهلاكِ وأَمِنوا إلى البَرِّ، أشرَكوا باللهِ غيرَه! لِيَجحَدوا نِعمةَ الله عليهم، ولِيَتمتَّعوا حتَّى حينٍ، فسوف يَعلَمونَ عاقِبةَ كُفرِهم!

ثمَّ يُذَكِّرُهم الله تعالى بنِعمةِ الحرَمِ الآمِنِ الَّذي يَعيشونَ في جِوارِه، فيقولُ: أوَلم يَرَ هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ أنَّا جعَلْنا مكَّةَ حَرَمًا آمِنًا سالِمًا أهلُه مِن كُلِّ سوءٍ، وغَيرُهم مِنَ العَرَبِ حوْلَهم خائِفونَ في بلادِهم مِنَ القَتلِ والنَّهبِ والسَّبْيِ؟! أفبِالباطِلِ يُؤمِنونَ، وبنِعمةِ الله الَّتي أنعَمَ بها عليهم يَجحَدونَ، فيُشرِكونَ بعِبادةِ اللهِ غَيرَه؟!

ثمَّ يُخبِرُ أنَّه لا أحدَ أظلَمُ ممَّن اختلَقَ على اللهِ كَذِبًا، أو كذَّب بالنَّبيِّ وبالقُرآنِ حينَ جاءَه، أليس في جهنَّمَ مأْوًى للكافرينَ؟!

ثمَّ يَختمُ الله تعالى السُّورةَ ببيانِ عاقبةِ المُجاهِدينَ، فيقولُ: والَّذين جاهَدوا في اللهِ بعَمَلِ مَراضِيه وترْكِ مَساخِطِه لَنُوفِّقنَّهم إلى الطُّرُقِ الموصِلةِ إلى الرِّضوانِ، وإنَّ الله لَمَعَ المُحسِنينَ بالنَّصرِ والهِدايةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خَتَم الآيةَ السَّابِقةَ بما أفهَمَ أنَّ المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ، والَّتي قَبْلَها بأنَّ أكثَرَهم لا يَعقِلونَ؛ سَبَّب عن ذلك قَولَه: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ

لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فصَحَّ أنَّهم لا يَعلَمونَ؛ لأنَّهم لا يَعقِلونَ؛ حيثُ يُقِرُّونَ بعَجزِ آلهتِهم ويُشرِكونَها معه! ففي ذلك أعظَمُ التهَكُّمِ بهم(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ مُقِرُّونَ باللهِ إذا سُئِلوا: مَن خَلَقَ العالَمَ، ومَن نزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً؛ ذكَرَ أيضًا حالةً أخرى يَرجِعونَ فيها إلى اللهِ، ويُقِرُّونَ بأنَّه هو الفاعِلُ لِما يُريدُ، وذلك حينَ رُكوبِ البَحرِ، واضْطِرابِ أمواجِه، واختلافِ رياحِه(٢).

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾.

أي: فإذا رَكِبَ المُشرِكونَ في السَّفينةِ، وخافوا الغَرَقَ والهلاكَ، أخلَصوا لله الدُّعاءَ، وأفرَدوا له الطاعةَ؛ لِيُخَلِّصَهم مِن تلك الشِّدَّةِ، وتَرَكوا اللُّجوءَ إلى آلهتِهم وقد عَلِموا أنَّها لا تَنفَعُهم(٣)!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

ممَّن قال: إنَّ المرادَ بالدِّينِ هنا: الدُّعاءُ: الثَّعلبيُّ، وجلال الدين المحلي، والعليمي، وابن عاشور: يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٤/ ١٩٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٢).

قال أبو السعودِ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ يونسَ الآية (٢٢): (﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ مِن غيرِ أنْ يُشرِكوا به شيئًا مِن آلهتِهم، لا مخصِّصينَ للدُّعاءِ به تعالى فقط، بل للعبادةِ أيضًا؛ فإنَّهم بمُجَرَّدِ تخصيصِ الدُّعاءِ به تعالى لا يَكونون مُخلِصينَ له الدِّينَ). ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٤).

وقال ابن جرير: (﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ يقولُ: أخلَصوا لله عندَ الشِّدَّةِ الَّتي نزلَتْ بهم التَّوحيدَ، وأفرَدوا له الطَّاعةَ، وأذعَنوا له بالعُبودةِ، ولم يَستغيثوا بآلهتِهم وأنْدادِهم، ولكنْ بالله الَّذي خلَقَهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤١).

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

أي: فلمَّا نجَّى اللهُ المُشرِكينَ مِنَ الهلاكِ في البَحرِ، وأوصَلَهم إلى البَرِّ آمِنينَ؛ انقَلَبوا مُشرِكينَ باللهِ غَيرَه، وترَكوا دُعاءَه وعبادتَه وَحْدَه[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا﴾ بإسكانِ اللامِ، وهي لامُ وعيدٍ وتهديدٍ فِي لفظِ الأمرِ، كقَولِه تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾[2] [فصلت: ٤٠].

٢- قِراءةُ ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ بكَسرِ اللَّامِ. قيل: اللامُ هنا للتَّعليلِ، وقيل: هي للأمرِ في معنى الوعيدِ والتَّهديدِ، فتكونُ بمعنى القراءةِ الأولى[3].

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٨٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٦١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٥٥).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٨٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٦١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٥٥).

أي: يُشرِكُ أولئك الكُفَّارُ بعدَ إنجائِهم؛ لِيَجحَدوا نِعمةَ اللهِ عليهم، ولِيَتَمتَّعوا بدُنياهم القَصيرةِ الفانيةِ بَقيَّةَ أعمارِهم، ثمَّ لا يكونُ لهم نصيبٌ في الآخِرةِ الدَّائِمةِ الباقيةِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٣).

ممَّن اختار أنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ وقولِه: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ للتَّعليلِ، أي: (لام كَيْ): الزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٤).

وقيل: اللَّامُ في ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ للأمرِ على معنى الوعيدِ. والمعنى: لِيَجحَدوا نعمةَ الله، ولِيَتمتَّعوا بباقي عُمُرِهم؛ فسوف يَعلَمونَ عاقبةَ كُفرِهم. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) (٣/ ٤٢٦).

وقال ابنُ جرير: (لام قولِه ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ صلَحَتْ أن تكونَ بمعنَى كَيْ؛ لأنَّها شرطٌ لقَولِه: ﴿إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ باللهِ، كيْ يَكْفُروا بما آتَيْناهم مِن النِّعَم، وليس ذلك كذلك في قولِه: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾؛ لأنَّ إشراكَهم باللهِ كان كفرًا بنعمتِه، وليس إشراكُهم به تَمَتُّعًا بالدُّنيا، وإنْ كان الإشراكُ به يُسَهِّلُ لهم سبيلَ التَّمَتُّعِ بها، فإذْ كان ذلك كذلك، فتوجيهُه إلى معنَى الوعيدِ أَوْلَى وأحَقُّ مِن توجيهِه إلى معنَى: وكَيْ يتَمَتَّعوا). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٢).

وممَّن اختار أنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ لامُ الأمر: البَغَويُّ، وابن الجوزي، وابن جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٦٤).

وقيل: اللَّامُ في كِلا الفِعلَين: لامُ العاقبةِ. والمعنى: ولكِنْ شِرْكُهم هذا بعْدَ نِعمتِنا عليهم بالنَّجاةِ مِن البَحرِ؛ لِيَكونَ عاقبتُه كُفرَ ما آتَيْناهم، ومُقابَلةَ النِّعمةِ بالإساءةِ، ولِيُكمِلوا تمتُّعَهم في الدُّنيا الَّذي هو كتمَتُّعِ الأنعامِ، ليس لهم همٌّ إلَّا بُطونُهم وفُروجُهم. وممَّن قال بهذا: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

وقيل: اللَّامُ هنا للعاقبةِ في حَقِّ هؤلاء المشركين، وأمَّا بالنِّسبةِ إلى تقديرِ الله عليهم ذلك فهي لامُ التَّعليلِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥). =

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: فسوف يَعلَمُ الكُفَّارُ عاقِبةَ كُفرِهم حين يَرَونَ ما يَلقَونَ مِن عذابِ اللهِ[1]!

ثمَّ ذكَّرهم الله تعالَى بنِعَمِه[2]، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَّرَ اللهُ تعالى المُشرِكينَ حالَهم عندَ الخَوفِ الشَّديدِ، ورأَوا أنفُسَهم في تلك الحالةِ راجِعةً إلى اللهِ تعالى؛ ذكَّرَهم حالَهم عندَ الأمنِ العَظيمِ؛ فإنَّهم في أخوَفِ ما كانوا دَعَوُا اللهَ مُخلِصينَ ومُعتَرِفينَ بأنَّ هذه النِّعمةَ لا تكونُ إلَّا مِنَ اللهِ، وفي آمَنِ ما حَصَلوا عليه كَفَروا باللهِ، وهذا مُتناقِضٌ[3]!

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

أي: أوَلَمْ يَرَ هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ أنَّا جعَلْنا بلَدَهم مكَّةَ حَرَمًا مَصونًا

= قال ابن كثير: (هذه اللَّامُ يُسَمِّيها كثيرٌ مِن أهلِ العربيَّةِ والتَّفسيرِ وعُلماءِ الأصولِ: لامَ العاقبةِ؛ لأنَّهم لا يَقصِدون ذلك، ولا شَكَّ أنَّها كذلك بالنِّسبةِ إليهم، وأمَّا بالنِّسبةِ إلى تقديرِ الله عليهم ذلك وتقييضِه إيَّاهم لذلك فهي لامُ التَّعليلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥).

قال ابنُ عاشور: (الكفرُ هنا ليس هو الشِّركَ، ولكنَّه كُفْرانُ النِّعمةِ؛ بقرينةِ قَولِه: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ فإنَّ الإيتاءَ بمعنى الإنعام، وبقرينةِ تفريعِه على ﴿يُشْرِكُونَ﴾؛ فالعِلَّةُ مُغايِرةٌ للمَعلولِ، وكُفرانُ النِّعمةِ مُسَبَّبٌ عن الإشراكِ؛ لأنَّهم لَمَّا بادَروا إلى شؤونِ الإشراكِ فقد أخَذوا يَكفُرونَ النِّعمةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٦، ٧٧).

مِنَ النَّهبِ والتَّعدِّي، سالِمًا أهلُه مِن كُلِّ سوءٍ، والحالُ أنَّ غيرَهم مِنَ العَرَبِ حوْلَهم يَنْهَبُ بعضُهم بعضًا، ويَقتُلُ بعضُهم بعضًا، ويَسْبي بعضُهم بعضًا[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۞ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۞ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۞ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ١ - ٤].

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تبيَّنَ أنَّه لا وجْهَ لِشِرْكِهم ولا لِكُفرِهم هذه النِّعمةَ الظَّاهِرةَ المكشوفةَ، تسَبَّب الإنكارُ في قَولِه[2]:

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

أي: أفبِالشِّركِ يُؤمِنُ أولئك القَومُ، وبالنِّعمةِ الَّتي أنعَمَ بها عليهم[3] يَجحَدونَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٣).

قال القرطبي: (فأذكَرَهم اللهُ عزَّ وجلَّ هذه النِّعمةَ؛ لِيُذْعِنوا له بالطَّاعةِ، أي: جعلْتُ لهم حرَمًا آمِنًا أَمِنوا فيه مِنَ السَّبْيِ والغارةِ والقَتلِ، وخلَّصْتُهم في البَرِّ كما خلَّصْتُهم في البحرِ، فصاروا يُشرِكون في البَرِّ، ولا يُشرِكونَ في البحرِ! فهذا تعجُّبٌ مِن تناقُضِ أحوالِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٩).

(٣) قيل: المرادُ بهذه النِّعمةِ: خُصوصُ نعمةِ الأمنِ في مكَّةَ الَّتي اختَصَّهم اللهُ تعالى بها. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥). =

فيَجعَلونَ مَوضِعَ شُكرِهم له شِرْكَهم بعبادةِ غَيرِه[١]!

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أوفَى الله تعالى المشركينَ ما يَستأهِلونَه مِن تَشنيعِ أحوالِهم، وسُوءِ انتظامِ شُؤونِهم، جاء في عَقِبِه بتَذييلٍ يَجمَعُها في أنَّها افتِراءٌ على اللهِ، وتكذيبٌ بالحقِّ، ثمَّ جَزاهم الجزاءَ الأَوفَى اللَّائقَ بحالِهم؛ وهو أنَّ النَّارَ مَثواهُم[٢].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ﴾

أي: ولا أحدَ أظلَمُ مِمَّن اختلَقَ على اللهِ كَذِبًا، فادَّعى عليه ما لم يَقُلْه وما لا يَرضاه؛ كمَن زعَم أنَّ له شريكًا، أو كذَّب بمُحَمَّدٍ وبالقرآنِ حينَ جاءَه، مِن غيرِ أن يُمهِلَ نَفْسَه للنَّظَرِ والتَّأمُّلِ[٣].

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾.

أي: أليس في جهنَّمَ مأوًى ومقامٌ دائِمٌ للكافِرينَ[٤]؟!

= وقيل: المرادُ: جِنسُ النِّعَمِ الَّتي أُوتوها؛ كإنجائِهم مِن الغرَقِ وغيرِ ذلك. وممَّن قال بذلك: البِقاعي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٠٧، ٤٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٩، ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٤)، ((نظم الدرر)) =

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر حالَ المشركينَ الجاحِدينَ للتَّوحيدِ، الكافِرينَ بنِعَمِ الله؛ أرْدَفه بحالِ عبادِه الصَّالحينَ، فقالَ[1]:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾.

أي: والَّذين بَذَلوا جُهْدَهم للعَمَلِ بما يُرضي اللهَ، وتَرْكِ ما يُسخِطُه[2] لَنَدُلَّنَّهم

= للبقاعي (١٤/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤١١، ٤١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٥).

(٢) ممَّن اختار العمومَ في معنى الجهادِ: الزمخشريُّ، وأبو حيان، والبِقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٦٥).

قال أبو حيان: (﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾: أطْلَق المجاهَدةَ، ولم يُقيِّدْها بمُتعلَّقٍ؛ ليتَناوَلَ المُجاهَدةَ في النَّفْسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ، والشَّيطانِ، وأعداءِ الدِّينِ. وما وَرَد مِن أقوالِ العلماءِ فالمقصودُ بها المثالُ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧).

وقال ابن عطيَّة: (هي قبْلَ الجهادِ العُرفيِّ، وإنَّما هو جهادٌ عامٌّ في دينِ الله، وطلَبِ مَرْضاتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٦).

وقيل: المرادُ: بقولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾ أي: مُجاهَدةُ الكفَّارِ والمشركين، وقتالُ أعداءِ الله. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جريرٍ، ومكِّي، والواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرسعني، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابن زيد، وأبو سورة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٠).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾ يعني: جِهادَ النَّفْسِ؛ مِنَ الصَّبرِ على إذايةِ الكفَّارِ، =

ونُوَفِّقَنَّهم إلى الطُّرُقِ المُوصِلةِ إلينا وإلى رِضْوانِنا في الدُّنيا والآخرةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: وإنَّ الله لَمَعَ المُحسِنينَ بالحِفظِ والنَّصرِ، والإعانةِ والهدايةِ[(٢)].

= واحتمالِ الخروجِ عن الأوطانِ، وغيرِ ذلك. وقيل: يعني: القتالَ، وذلك ضعيفٌ؛ لأنَّ القتالَ لم يكن مأمورًا به حينَ نُزولِ الآيةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦).

وقال الألوسي: (﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ في شأنِنا ومِن أجْلِنا ولوجهنا خالصًا؛ ففيه مُضافٌ مُقدَّرٌ). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٥).

وقال ابن القيم: (قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾، وقال ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ ... وهذا يُفهَمُ منه معنيان؛ أحدُهما: أنَّ ذلك في مَرْضاتِه وطاعتِه وسَبيلِه، وهذا فيما يفعَلُه الإنسانُ باختيارِه ... والثَّاني: أنَّه بسبَبِه وبجهتِه حَصَل ذلك، وهذا فيما يُصيبُه بغيرِ اختيارِه، وغالِبُ ما يأتي قَولُهم: «ذلك في اللهِ» في هذا المعنى، فتأمَّلْ قَولَه...: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾؛ فإنَّه يترتَّبُ عليه الأذى فيه سُبحانَه، وليست «في» هاهنا للظرفيَّةِ، ولا لمجرَّدِ السَّببيَّةِ، وإن كانت السَّببيةُ هي أصْلَها). ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦، ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤١٣).

قال ابن عاشور: (سُبُلُ الله: الأعمالُ الموصِلةُ إلى رِضاهُ وثَوابِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦، ٣٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤١٦).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[النحل: ١٢٨].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان يَومًا بارِزًا للنَّاسِ، إذْ أتاه رجُلٌ يمشي... قال: يا رَسولَ اللهِ، ما الإحسانُ؟ قال: الإحسانُ أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ، فإنْ لم تكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ))[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ فلا ينبغي للمؤمنِ أنْ يَستَنَّ بالكافرِ، فلا يَفزَعَ إلى الدُّعاءِ إلَّا عندَ الشَّدائدِ[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ سَفَهُ مَن يَجعَلُ النِّعَمَ سببًا للأشَرِ والبَطَرِ؛ فإنَّ مَن فَعَل ذلك فيه شَبَهٌ مِن هؤلاء المشركينَ؛ لأنَّ الواجبَ على مَن أنعَمَ اللهُ عليه بنِعمةٍ أنْ يَزدادَ عِبادةً للهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ العبادةَ مِن الشُّكرِ، فإذا أنعَمَ عليك ربُّك بنِعمةٍ فازدَدْ له شُكرًا[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ دَليلٌ على أنَّ مَعرِفةَ الرَّبِّ في فِطرةِ كُلِّ إنسانٍ، وأنَّهم إنْ غفَلوا في السَّرَّاءِ فلا شَكَّ أنَّهم يَلُوذونَ إليه في حالِ الضَّرَّاءِ؛ فعُلِمَ أنَّ الاشتِغالَ بالدُّنيا هو الصَّادُّ عن كلِّ خَيرٍ، وأنَّ الانقِطاعَ عنها مُعِينٌ للفِطرةِ الأولى المُستَقيمةِ؛ ولهذا نَجِدُ الفُقَراءَ أقرَبَ إلى كلِّ خيرٍ[٤].

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧٧) واللفظ له، ومسلم (٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٧).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ الحَذَرُ الشَّديدُ ممَّا عليه بعضُ المُسلِمينَ اليومَ، الَّذين ليس لهم هَمٌّ إلَّا التَّمتُّعَ بالدُّنيا فقط؛ فهؤلاء لا يَتحدَّثون إلَّا عن الرَّفاهيةِ والتَّرفيهِ، لكنْ أمراضُ القلوبِ وعِلَلُ وانحرافاتُ القلوبِ قَلَّ أن يَتكلَّموا عنها، مع أنَّها هي الأصلُ، فإذا مَرِضَتِ القُلوبُ، فما الفائدةُ مِن ترفيهِ الأبدانِ؟! ثُمَّ إنْ نَزلَتْ نِقمةٌ مِن اللهِ ازدادوا حَسرةً -والعياذُ باللهِ، فترفيهُ القلوبِ بطاعةِ اللهِ سبحانه وتعالى هو الَّذي فيه الفائدةُ الحقيقيَّةُ للبدنِ وللقَلبِ ولكُلِّ شَيءٍ؛ قال سُبحانَه وتعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[1] [النحل: ٩٧].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ أحرَى النَّاسِ بموافَقةِ الصَّوابِ أهلُ الجهادِ[2].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ مَن أحسَنَ فيما أُمِرَ به أعانه اللهُ، ويسَّرَ له أسبابَ الهدايةِ[3].

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ مَن جَدَّ واجتهد في طلَبِ العِلمِ الشَّرعيِّ، فإنَّه يَحصُلُ له مِن الهدايةِ والمَعونةِ على تحصيلِ مَطلوبِه أمورٌ إلهيَّةٌ خارجةٌ عن مَدرَكِ اجتهادِه، وتيسَّر له أمرُ العِلمِ؛ فإنَّ طلَبَ العِلمِ الشَّرعيِّ مِن الجهادِ في سبيلِ الله، بل هو أحَدُ نَوْعَيِ الجهادِ الَّذي لا يقومُ به إلَّا خواصُّ الخَلقِ، وهو الجِهادُ بالقَولِ واللِّسانِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للكُفَّارِ والمُنافِقينَ، والجِهادُ على تعليمِ أمورِ الدِّينِ، وعلى ردِّ نزاعِ المخالِفينَ للحَقِّ، ولو كانوا مِن المُسلِمينَ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ عَلَّقَ سُبحانَه الهِدايةَ بالجهادِ، فأكمَلُ النَّاسِ هدايةً أعظَمُهم جِهادًا، وأفرَضُ الجهادِ: جِهادُ النَّفْسِ، وجهادُ الهوى، وجِهادُ الشَّيطانِ، وجِهادُ الدُّنيا؛ فمَن جاهدَ هذه الأربعةَ في اللهِ هَداه اللهُ سُبُلَ رِضاهُ الموصِلةَ إلى جنَّتِه، ومَن تَرَكَ الجهادَ فاتَه مِن الهُدَى بحسَبِ ما عَطَّلَ مِن الجِهادِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ المانِعَ مِن التَّوحيدِ هو الحياةُ الدُّنيا، وبيانُ ذلك هو أنَّهم إذا انقطَع رجاؤُهم عن الدُّنيا رجَعوا إلى الفِطرةِ الشَّاهِدةِ بالتوحيدِ، ووَحَّدوا وأخلَصوا، فإذا أنجاهم وأرجأَهم عادوا إلى ما كانوا عليه مِن حُبِّ الدنيا، وأشرَكوا[٣]!

٢- في قولِه تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أنَّ اللُّجوءَ إلى اللهِ في حالِ الشِّدَّةِ أمرٌ فِطْرِيٌّ؛ بدليلِ أنَّ هؤلاء غَلَبَتْهم فِطْرَتُهم حتَّى دَعَوُا اللهَ وحْدَه مُخلِصينَ له الدِّينَ[٤].

٣- في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٩).

إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ أنَّه سبحانَه يَستجيبُ للمُضْطَرِّ، ولو كان كافرًا؛ لِمَوضِعِ اضْطِرارِه وإخلاصِه، وللإخلاصِ عندَه سُبحانَه مَوقِعٌ وذِمَّةٌ، وُجِد مِن مؤمنٍ أو كافرٍ، طائعٍ أو فاجرٍ[١].

٤- في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ أنَّ الكافرَ كان يُوَحِّدُ اللهَ في الشِّدَّةِ والبلاءِ، دونَ النِّعمةِ والرَّخاءِ[٢]؛ وعليه فإنَّ إشراكَ السَّابقينَ أهْوَنُ مِن إشراكِ مَن أشرَكَ مِن المتأخِّرينَ مِن هذه الأمَّةِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ المتأخِّرينَ يُشرِكون في الرَّخاءِ وفي الشِّدَّةِ، وأيضًا لا يَدْعونَ اللهَ سبحانه وتعالى، لكنْ يَدْعُون أولياءَهم[٣]!

٥- في قوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ سؤالٌ: أنَّه يُشكِلُ على هذا أنَّ مِثلَ هذه الصِّيغةِ تأتي في سياقاتٍ أخرَى، وقد جَمَعهم اللهُ تعالى في آيةٍ واحدةٍ؛ قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وأيضًا قولُه تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ ﴾ [البقرة: ١١٤]، ووردَ في الحديثِ: ((ومَن أظْلَمُ ممَّن ذَهَب يَخْلُقُ كخَلْقي))[٤]!

والجوابُ مِن أحدِ وجهَينِ:

الأوَّل: أنَّ هذه الأشياءَ جميعَها اشتركَتْ في المرتبةِ العُليا مِن الظُّلمِ؛ فكلُّها في مقامِ الأظْلَميَّةِ، فـ (أفعلُ التَّفضيلِ) لا تمنعُ التَّساويَ، ولكنَّها تمنعُ الزِّيادةَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٣)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٣٨/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٨).

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه.

وعلى ذلك فلا مُعارَضةَ ألبتَّةَ بينَ الآياتِ؛ فهؤلاءِ المذكورونَ لا يُوجَدُ أحدٌ أظلَمُ منهم، وهم مُتساوونَ في مرتبةِ الظُّلْمِ.

الثَّاني: أنَّ هذه المواضعَ تتخصَّصُ بصِلاتِها، ومعنَى (تتخصَّصُ بصِلاتِها): أنَّ كُلَّ واحدٍ منها تُفَسِّرُه صِلةُ مَوصُولِه، أي: أنَّ كلَّ واحدةٍ تختصُّ ببابِها؛ فيكونُ المعنَى: لا أحدَ مِنَ المُفْتَرِينَ أظلَمُ مِمَّنِ افترَى على اللهِ كَذِبًا، ولا أحدَ مِنَ المانِعِينَ أظلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللهِ، ولا أحدَ مِنَ المُعْرِضِينَ أظلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّهِ فأَعرَضَ عنها... إلخ[(١)].

٦- ذَكَر اللهُ تعالى لفظةَ «السَّبيلِ» في القرآنِ بصيغةِ الإفرادِ، كقولِه سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وذَكَر في مواطنَ أُخرَى في القرآنِ الكريمِ لفظةَ «السَّبيلِ» بصيغةِ الجَمْعِ، كقولِه سبحانَه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾، وقولِه: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: ١٢]، ووجْهُ ذلك: أنَّ السَّبيلَ المضافَ إلى اللهِ تعالى تارةً يكونُ مفردًا، وتارةً يكونُ جمعًا؛ لكنْ إذا كان جمعًا غيرَ مضافٍ إلى اللهِ فهو سُبُلُ الضَّلالِ، يُفْرَدُ السَّبيلُ المضافُ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه سبيلٌ واحدٌ يُوصِلُ إلى اللهِ -وهو الإسلامُ-، وتُجْمَعُ سُبُلُ الضَّلالِ؛ لأنَّها متفرِّقةٌ: هذا نصرانيٌّ، وهذا يهوديٌّ، وهذا شيوعيٌّ، وهذا بعثيٌّ، وهذا مُلْحِدٌ، إلى آخرِه، فهي سُبُلٌ متفرِّقةٌ، وكلُّها ضلالٌ، وما جَمَعَه اللهُ تعالى مِن السَّبيلِ المضافِ إليه؛ فإنَّما يَجْمَعُه لِتَنَوُّعِ العباداتِ الَّتي هي سبيلُ اللهِ عزَّ وجلَّ:

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢، ٥١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٢، ١٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤١٠).
والوجهُ الأوَّلُ مخرَّجٌ على قاعدةِ: (نفْيُ التَّفضيلِ لا يَستلزِمُ نفْيَ المساواةِ). يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٥٢٨).

هذه صلاةٌ، وهذه زكاةٌ، وهذا صيامٌ، وهذا حجٌّ، وهذا جهادٌ، وهذا أمرٌ بمعروفٍ ونهيٌ عن منكَرٍ، وهذه دعوةٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فصار جمْعُه له وجهٌ، وإفرادُه له وجهٌ آخَرُ، أمَّا سُبُلُ الضَّلالِ فإنَّها مُتفرِّقةٌ؛ فلا تكونُ إلَّا مجموعةً[1].

٧- المؤمِنُ يُثابُ على الحَسَنةِ بحسنةٍ أُخرَى، فإذا عَمِلَ بعِلمِه وَرَّثَه اللهُ عِلْمَ ما لم يَعلَمْ، وإذا عَمِل بحَسَنةٍ دَعَتْه إلى حَسَنةٍ أخرى؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾، وقال أيضًا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[2] [محمد: ١٧].

٨- الجِهادُ مُوجِبٌ للهدايةِ الَّتي هي مُحيطةٌ بأبوابِ العلمِ، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾، فجَعَل سُبحانَه لِمَن جاهدَ فيه هِدايةَ جميعِ سُبُلِه تعالى، ولهذا قال الإمامانِ عبدُ اللهِ بنُ المُبارَكِ وأحمدُ بنُ حَنْبَلٍ وغيرُهما: (إذا اختَلَف النَّاسُ في شَيءٍ فانظُروا ماذا عليه أهلُ الثَّغْرِ؛ فإنَّ الحقَّ معهم؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾)[3].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ لم يَقُلْ: «لَنَهْدِيَنَّهم إلى»، بل قال: ﴿سُبُلَنَا﴾، فعَدَّى الهدايةَ بنَفْسِها إلى المفعولِ الثَّاني؛ فيَشْملُ ذلك هِدايةَ الدَّلالةِ وهدايةَ التَّوفيقِ، ومنه قولُه عزَّ وجلَّ في سورةِ الفاتحةِ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] لم يَقُلْ: «اهدِنا إلى الصِّراطِ المستقيم»، بل قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾؛ فيَشملُ الهِدايةَ إليه، ويَشملُ الهدايةَ فيه؛ فالهدايةُ إليه: الدَّلالةُ إليه، أي: يَدُلُّك على الصِّراطِ المستقيمِ، والهدايةُ فيه: أن يُوَفِّقَك للعَمَلِ في إطارِ هذا الصِّراطِ؛

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٤٢).

فقولُه تعالى: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ يَشملُ الأمْرَينِ: هِدايةَ الدَّلالةِ والعِلمِ، وهدايةَ التَّوفيقِ والإرشادِ[(١)].

١٠- مَن تأمَّل فاتحةَ هذه السُّورةِ ووسَطَها وخاتمَها وجَد في ضِمْنِها أنَّ أوَّلَ الأمرِ ابتلاءٌ وامتحانٌ، ووسَطَه صبرٌ وتَوكُّلٌ، وآخِرَه هدايةٌ ونصرٌ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ هذا انتقالٌ إلى إلزامِهم بما يَقْتضيه دُعاؤهم حينَ لا يُشرِكون فيه إلهًا آخَرَ مع اللهِ، بعدَ إلْزامِهم بمُوجباتِ اعترافاتِهم؛ فإنَّهم يَدْعون أصنامَهم في شُؤونٍ مِن أحوالِهم ويَستنصِرونهم، ولكنَّهم إذا أصابهم هَوْلٌ توجَّهوا بتضَرُّعِهم إلى اللهِ. وإنَّما خصَّ بالذِّكرِ حالَ خَوفِهم مِن هَولِ البحرِ في هذه الآيةِ وفي آياتٍ كثيرةٍ -مِثْلُ ما في سُورةِ (يُونسَ)، وما في سُورةِ (الإسراءِ)-؛ لأنَّ أسفارَهم في البَرِّ كانوا لا يَعْتَريهم فيها خَوفٌ يعُمُّ جميعَ السَّفرِ؛ لأنَّهم كانوا يُسافِرون قوافِلَ، معهم سلاحُهم، ويَمُرُّون بسُبُلٍ يأْلَفونها، فلا يَعترِضُهم خَوفٌ عامٌّ، فأمَّا سَفَرُهم في البحرِ فإنَّهم يَفْرَقون مِن هَولِه، ولا يَدفَعُه عنهم وَفْرةُ عدَدٍ، ولا قوَّةُ عُدَدٍ، فهم يَضَّرَّعون إلى اللهِ بطَلبِ النَّجاةِ، ولعلَّهم لا يَدْعُون أصنامَهم حينَئذٍ، فأمَّا تَسخيرُ المخلوقاتِ فما كانوا يطْمَعون به إلَّا مِن اللهِ تعالى، وأيضًا كان يُخامِرُهم الخَوفُ عندَ رُكوبِهم في البحرِ؛ لقِلَّةِ إلْفِهم برُكوبِه؛ إذ كان مُعظَمُ أسفارِهم في البَراري[(٣)].

- وأفادتِ الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ تَفريعَ ما بعْدَها على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٢).

ما قبْلَها، والمُفرَّعُ عليه مَحذوفٌ، ليس هو واحدًا مِن الأخبارِ المُتقدِّمةِ بخُصوصِه، ولكنَّه مجموعُ ما تدُلُّ عليه قوَّةُ الحديثِ عنهم وما تَقْتضيهِ الفاءُ، والتَّقديرُ: همْ -أي: المُشرِكون- على ما وُصِفوا به مِن الغفلةِ عن دَلائلِ الوَحدانيَّةِ، وإلْغائِهم ما في أحوالِهم مِن دَلائلِ الاعترافِ للهِ بها؛ لا يَضَّرَّعون إلَّا إلى اللهِ، فإذا رَكِبوا في الفُلْكِ دَعَوُا اللهَ؛ فضمائرُ جمْعِ الغائبينَ عائدةٌ إلى المشركينَ[(١)].

- والرُّكوبُ هو الاستعلاءُ على الشَّيءِ المُتحرِّكِ، وهُو مُتعَدٍّ بنفْسِه كما في قولِه تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ [النحل: ٨]، واستعمالُه هاهنا وفي أمثالِه بكلمةِ (في)؛ للإيذانِ بأنَّ المركوبَ في نفْسِه مِن قَبيلِ الأمكنةِ، وحَركتَه قَسْريةٌ غيرُ إراديَّةٍ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ جِيءَ بحرْفِ المُفاجأةِ (إذا)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم ابتَدَروا إلى الإشراكِ في حِينِ حُصولِهم في البَرِّ، أي: أسْرَعوا إلى ما اعْتادوهُ مِن زِيارةِ أصنامِهم والذَّبحِ لها[(٣)]!

- وفي تَسميتِهم مُخلِصينَ: ضرْبٌ مِن التَّهكُّمِ[(٤)]؛ فأمَّا على أنَّ المرادَ بالدِّينِ المِلَّةُ فظاهرٌ، وأمَّا على أنَّ المرادَ الطَّاعةُ؛ فلأنَّهم لا يَستمِرُّونَ على هذه الحالِ، فهي قبيحةٌ باعتِبارِ المآلِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٤).

٢- قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

- الأمرُ في قولِه: ﴿لِيَكْفُرُوا .. وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ على سَبيلِ التَّهديدِ، كقولِه: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠][1]، وذلك على القولِ بأنَّ اللَّامَ فيهما لامُ الأمرِ.

٣- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ هذا تَذكيرٌ خاصٌّ لأهلِ مكَّةَ، وإنَّما خُصُّوا مِن بيْنِ المشركينَ مِن العربِ؛ لأنَّ أهلَ مكَّةَ قُدوةٌ لجميعِ القبائلِ، وأكثَرُ قبائلِ العربِ كانوا يَنتظِرون ماذا يكونُ مِن أهْلِ مكَّةَ، فلمَّا أسلَمَ أهْلُ مكَّةَ يومَ الفتْحِ، أقبَلَتْ وُفودُ القبائلِ مُعلِنةً إسلامَهم. والجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، باعتبارِ ما اشتمَلَت عليه تلك الجُملةُ مِن تَقريعِهم على كُفرانِ نِعَمِ اللهِ تعالى؛ ولذلك عُقِّبَت هذه الجُملةُ بقولِه: ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[2].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ، جُعِلَت نِعمةُ أمْنِ بلَدِهم كالشَّيءِ المُشاهَدِ، فأنكَرَ عليهم عدَمَ رُؤيتِه[3].

- قوله: ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ أي: آمِنًا أهْلُه عمَّا يَسوؤُهم مِن السَّبْيِ والقتلِ، على أنَّ أمْنَه كِنايةٌ عن أمْنِ أهلِه، أو على أنَّ في الكلامِ مضافًا مقدَّرًا[4]. وقيل: لَمَّا أمِنَ كُلُّ مَن دخَله، كان كأنَّه هو نفْسَه الآمِنُ[5]. وقيل: بل الصَّوابُ أنَّ الحرَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٣، ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٨).

نفْسَه آمِنٌ؛ ولهذا عصَمه الله سبحانه وتعالى مِن كلِّ أحدٍ[١].

- والمُضارِعُ في المواضعِ الثَّلاثةِ -﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يَكْفُرُونَ﴾-: دالٌّ على تجدُّدِ الفِعلِ[٢].

- قولُه: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ فيه تَقديمُ الصِّلتَين ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ للاهتِمامِ، أو الاختِصاصِ على طَريقِ المُبالَغةِ[٣]، أو لإظهارِ كَمالِ شَناعةِ ما فَعَلوا[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

- افتتَحَ تَشخيصَ حالِهم بالاستِفهامِ عن وُجودِ فريقٍ هم أظلَمُ مِن هؤلاء الَّذين افتَرَوا على اللهِ، وكذَّبوا بالحقِّ؛ تَوجيهًا لأذهانِ السَّامعينَ نحْوَ البحثِ هلْ يَجِدون أظلَمَ منهم؟ حتَّى إذا أجادوا التَّأمُّلَ، واستَقْرَوْا مَظانَّ الظُّلَمةِ، واستَعْرَضوا أصنافَهم؛ تَيَقَّنوا أنْ ليس ثَمَّةَ ظُلْمٌ أشَدُّ مِن ظُلْمِ هؤلاء[٥].

- وتَقْييدُ الافتِراءِ بالحالِ المُوكِّدةِ في قولِه: ﴿كَذِبًا﴾؛ لِزيادةِ تَفظيعِ الافتِراءِ؛ لأنَّ اسمَ الكَذِبِ مُشتهَرُ القُبْحِ في عُرْفِ النَّاسِ، وإنَّما اختيرَ الافتِراءُ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم يَتعمَّدونَ الاختلاقَ تعمُّدًا لا تُخالِطُه شُبْهةٌ[٦].

- وتَقْييدُ تَكذيبِهم بالحقِّ بقولِه: ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾؛ لإدماجِ ذَمِّ المُكذِّبين بنُكرانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣٥).

نِعمةِ إرسالِ الحقِّ إليهم الَّتي لم يَقْدُروها قَدْرَها، وكان شأْنُ العُقلاءِ أنْ يَتطلَّبوا الحقَّ، ويَرحَلوا في طَلبه، وهؤلاء جاءهم الحقُّ بيْنَ أيدِيهم فكذَّبوا به! وأيضًا فإنَّ (لَمَّا) التَّوقيتيَّةَ تُؤْذِنُ بأنَّ تكذيبَهم حصَلَ بِدارًا عندَ مَجيءِ الحقِّ، أي: دونَ أنْ يَترُكوا لأنفُسِهم مُهلةَ النَّظرِ[1].

- وجُملةُ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، وتَقريرٌ لها؛ لأنَّ في جُملةِ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ﴾ إلى آخرِها، إيذانًا إجماليًّا بجزاءٍ فَظيعٍ يَترقَّبُهم، فكان بَيانُه بمَضمونِ جُملةِ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾، وهو بألفاظِه ونظْمِه يُفيدُ تمكُّنَهم مِن عذابِ جهنَّمَ؛ إذ جُعِلَت مَثْواهم؛ فالمَثْوى: مكانُ الثَّواءِ، والثَّواءُ: الإقامةُ الطَّويلةُ والسُّكْنى. وعُلِّق ذلك بعُنوانِ الكافرينَ؛ للتَّنبيهِ على استِحقاقِهم ذلك لأجْلِ كُفْرِهم[2].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ تَقريرٌ لِثَوائِهم في جهنَّمَ، أي: أَلَا يَستوجبونَ الثَّواءَ فيها، وقد فعَلوا ما فعَلوا مِنَ الافتراءِ على اللهِ تعالى، والتَّكذيبِ بالحقِّ الصَّريحِ؟! أو إنكارٌ واستِبعادٌ لاجترائِهم على ما ذُكِرَ مِن الافتراءِ والتَّكذيبِ مع عِلْمِهم بحالِ الكَفَرةِ، أي: أَلَمْ يَعْلَموا أنَّ في جهنَّمَ مَثْوًى للكافرينَ حتَّى اجْتَرؤوا هذه الجَراءةَ[3]؟! فالهمزةُ للاستِفهامِ التَّقريريِّ، وأصْلُها: إمَّا الإنكارُ بتَنزيلِ المُقِرِّ مَنزِلةَ المُنكِرِ؛ لِيَكونَ إقرارُه أشَدَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٥، ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٨).

لُزومًا له، وإمَّا أنْ تكونَ للاستفهامِ، فلمَّا دخَلَت على النَّفي أفادَتِ التَّقريرَ؛ لأنَّ إنكارَ النَّفْيِ إثباتٌ للمَنْفيِّ، وهو إثباتٌ مُستعمَلٌ في التَّقريرِ على وجْهِ الكِنايةِ. وهذا تَقريرٌ لمَنْ يَسمَعُ هذا الكلامَ، وجُعِلَ كَوْنُ جهنَّمَ مَثْواهم أمْرًا مُسَلَّمًا معروفًا -بحيث يُقِرُّ به كلُّ مَن يُسْألُ عنه- كِنايةً عن تَحقُّقِ المَغَبَّةِ على طَريقةِ إيماءِ الكِنايةِ[1].

- والتَّعريفُ في (الكافرين) تعريفُ العهْدِ، أي: لهؤلاء الكافرينَ، وهم الَّذين ذُكِروا مِن قبْلُ بأنَّهم افتَرَوا على اللهِ كذِبًا، وكذَّبوا بالحقِّ، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ الإتيانَ بضَميرِهم، فعُدِلَ عنه إلى الاسمِ الظاهرِ؛ لإحضارِهم بوصْفِ الكُفْرِ[2].

٥- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ختَمَ تَوبيخَ المشركينَ وذَمَّهم بالتَّنويهِ بالمؤمنينَ؛ إظهارًا لمَزيدِ العِنايةِ بهم، فلا يَخْلو مَقامُ ذَمِّ أعدائِهم عن الثَّناءِ عليهم؛ لأنَّ ذلك يَزيدُ الأعداءَ غيظًا وتَحقيرًا. والَّذين جاهَدوا في اللهِ هم المؤمنونَ الأوَّلونَ؛ فالمَوصولُ بمَنزلةِ المُعرَّفِ بلامِ العهْدِ. وجِيءَ بالمَوصولِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ الصِّلةَ سببُ الخَبرِ[3].

- وفي قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ؛ فقد أطلَقَ المُجاهَدةَ ولم يُقيِّدْها بمَفعولٍ؛ لِيَتناوَلَ كلَّ ما يجِبُ مُجاهَدتُه؛ مِن النَّفْسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ، والشَّيطانِ، وأعداءِ الدِّينِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لصافي (٢١/ ٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٦١).

- وفي قولِه: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ إيماءٌ إلى تَيسيرِ طَريقِ الهجرةِ الَّتي كانوا يتأَهَّبون لها أيَّامَ نُزولِ هذه السُّورةِ[١].

- وجُملةُ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تَذييلٌ للآيةِ، مُؤكَّدٌ بكَلِمتَي التَّوكيدِ (إنَّ) واللَّام[٢]. وإنَّما جِيءَ بها مَعطوفةً؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُهِمَّ مِن سَوقِها هو ما تَضمَّنَتْه مِن أحوالِ المؤمنينَ، فعُطِفَت على حالتِهم الأُخرى، وأفادَتِ التَّذييلَ بعُمومِ حُكْمِها[٣].

- والمُرادُ بـ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ جميعُ الَّذين كانوا مُحسنينَ، أي: كان عمَلُ الحَسناتِ شِعارَهم، وهو عامٌّ. وفيه تَنويهٌ بالمؤمنينَ بأنَّهم في عِدادِ مَن مَضى مِن الأنبياءِ والصَّالحينَ، وهذا أوقَعُ في إثباتِ الفوزِ لهم ممَّا لو قِيل: فأولئك المُحسِنون؛ لأنَّ في التَّمثيلِ بالأُمورِ المُقرَّرةِ المشهورةِ تَقريرًا للمَعاني[٤].

- وهذه خاتمةٌ شريفةٌ للسُّورةِ؛ لأنَّها مُجاوبةٌ لِمُفْتَتَحِها، ناظرةٌ إلى فَريدةِ قِلادتِها ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، لامِحةٌ إلى واسطةِ عِقْدِها ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وهي في نفْسِها جامعةٌ فاذَّةٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٠٦).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّالثُ والعشرونَ

ويليه المجلدُ الرَّابعُ والعشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الرُّومِ

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ القَصَصِ

أسماءُ السُّورةِ ١٣
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ..... ١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ١٤
موضوعاتُ السُّورةِ..... ١٤
الآيات (١-٦) ١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١٦
المعنى الإجماليُّ..... ١٦
تَفسيرُ الآياتِ..... ١٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٢٥
بلاغةُ الآياتِ ٣١
الآيات (٧-١٣)..... ٣٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٧
المعنى الإجماليُّ..... ٣٨
تَفسيرُ الآياتِ..... ٤٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٤٩
بلاغةُ الآياتِ ٥٦
الآيات (١٤-١٧) ٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٥
المعنى الإجماليُّ..... ٦٦
تَفسيرُ الآياتِ..... ٦٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٧٤
بلاغةُ الآياتِ ٧٧
الآيات (١٨-٢١) ٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٨٢
المعنى الإجماليُّ..... ٨٣
تَفسيرُ الآياتِ..... ٨٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٩٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٩١
بلاغةُ الآياتِ ٩٢
الآيات (٢٢-٢٥) ٩٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٩٥
المعنى الإجماليُّ..... ٩٧
تَفسيرُ الآياتِ..... ٩٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٠٢

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٠٥
بلاغةُ الآياتِ ١٠٨
الآيات (٢٦-٢٨) ١١٣
غَريبُ الكَلِماتِ ١١٣
المعنى الإجماليُّ ١١٣
تَفسيرُ الآياتِ ١١٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١١٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١١٩
بلاغةُ الآياتِ ١٢٥
الآيات (٢٩-٣٥) ١٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ ١٢٩
المعنى الإجماليُّ ١٣٢
تَفسيرُ الآياتِ ١٣٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٤٣
بلاغةُ الآياتِ ١٤٩
الآيات (٣٦-٤٢) ١٥٥
غَريبُ الكَلِماتِ ١٥٥
المعنى الإجماليُّ ١٥٦
تَفسيرُ الآياتِ ١٥٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٦٥
بلاغةُ الآياتِ ١٦٨
الآيات (٤٣-٤٦) ١٧٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١٧٦
المعنى الإجماليُّ ١٧٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٨٣
بلاغةُ الآياتِ ١٨٥
الآيات (٤٧-٥٠) ١٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ ١٩٤
المعنى الإجماليُّ ١٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ١٩٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٠١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٠٢
بلاغةُ الآياتِ ٢٠٧
الآيات (٥١-٥٦) ٢١٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٢١٥
المَعنى الإجماليُّ ٢١٦
تَفسيرُ الآياتِ ٢١٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٢٦

بلاغةُ الآياتِ ٢٣١
الآيات (٥٧-٥٩) ٢٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٣٦
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٣٧
المعنى الإجماليُّ ٢٣٧
تَفسيرُ الآياتِ ٢٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٤٤
بلاغةُ الآياتِ ٢٤٥
الآيات (٦٠-٦٧) ٢٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٥٠
المعنى الإجماليُّ ٢٥١
تَفسيرُ الآياتِ ٢٥٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٦١
بلاغةُ الآياتِ ٢٦٣
الآيات (٦٨-٧٠) ٢٧٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٧٨
المعنى الإجماليُّ ٢٧٨
تَفسيرُ الآياتِ ٢٧٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٨٣
بلاغةُ الآياتِ ٢٨٦
الآيات (٧١-٧٥) ٢٩١
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٩١
المعنى الإجماليُّ ٢٩١
تَفسيرُ الآياتِ ٢٩٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٩٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٩٧
بلاغةُ الآياتِ ٣٠٠
الآيات (٧٦-٧٨) ٣١١
غَريبُ الكَلِماتِ ٣١١
المعنى الإجماليُّ ٣١١
تَفسيرُ الآياتِ ٣١٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٢٢
بلاغةُ الآياتِ ٣٢٦
الآيات (٧٩-٨٤) ٣٣٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٣٢
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٣٣
المعنى الإجماليُّ ٣٣٤
تَفسيرُ الآياتِ ٣٣٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٤٣

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٤٥
بلاغةُ الآياتِ ٣٥٠
الآيات (٨٥-٨٨) ٣٥٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٥٧
المعنى الإجماليُّ ٣٥٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٦٦
بلاغةُ الآياتِ ٣٧٠
سورةُ العَنكَبوتِ
أسماءُ السُّورةِ ٣٨١
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ ٣٨١
مَقاصِدُ السُّورةِ ٣٨١
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٣٨١
الآيات (١-٧) ٣٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٨٣
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٨٣
المعنى الإجماليُّ ٣٨٣
تَفسيرُ الآياتِ ٣٨٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٩٧
بلاغةُ الآياتِ ٣٩٩
الآيتان (٨-٩) ٤٠٧
المعنى الإجماليُّ ٤٠٧
تَفسيرُ الآيتَينِ ٤٠٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٤١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤١٢
بلاغةُ الآيتَينِ ٤١٣
الآيتان (١٠-١١) ٤١٦
المعنى الإجماليُّ ٤١٦
تَفسيرُ الآيتينِ ٤١٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٤٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٢٠
بلاغةُ الآيتينِ ٤٢٣
الآيتان (١٢-١٣) ٤٢٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٢٧
المعنى الإجماليُّ ٤٢٧
تَفسيرُ الآيتَينِ ٤٢٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٤٣٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٣١
بلاغةُ الآيتينِ ٤٣٢
الآيتان (١٤-١٥) ٤٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٣٦

المعنى الإجماليُّ ٤٣٦
تَفسيرُ الآيتَينِ ٤٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٣٩
بلاغةُ الآيتينِ ٤٤١
الآيات (١٦-١٨) ٤٤٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٤٤
المعنى الإجماليُّ ٤٤٤
تَفسيرُ الآياتِ ٤٤٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٤٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٥٠
بلاغةُ الآياتِ ٤٥٣
الآيات (١٩-٢٣) ٤٥٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٥٨
المعنى الإجماليُّ ٤٥٨
تَفسيرُ الآياتِ ٤٥٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٦٦
بلاغةُ الآياتِ ٤٧١
الآيات (٢٤-٢٧) ٤٧٩
المعنى الإجماليُّ ٤٧٩
تَفسيرُ الآياتِ ٤٨٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٤٨٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٨٧
بلاغةُ الآياتِ ٤٩٢
الآيات (٢٨-٣٠) ٤٩٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٩٩
المعنى الإجماليُّ ٤٩٩
تَفسيرُ الآياتِ ٥٠٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٥٠٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٥٠٣
بلاغةُ الآياتِ ٥٠٦
الآيات (٣١-٣٥) ٥١٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٥١٠
المعنى الإجماليُّ ٥١١
تَفسيرُ الآياتِ ٥١١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٥١٧
بلاغةُ الآياتِ ٥٢١
الآيتان (٣٦-٣٧) ٥٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٢٩
المَعنى الإجماليُّ ٥٢٩
تَفسيرُ الآيتينِ ٥٣٠

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٣٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٥٣٣
بلاغةُ الآيتينِ ٥٣٤
الآيات (٣٨-٤٠) ٥٣٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٣٨
المَعنى الإجماليُّ ٥٣٩
تَفسيرُ الآياتِ ٥٣٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٥٤٥
بلاغةُ الآياتِ ٥٤٨
الآيات (٤١-٤٤) ٥٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٥٢
المعنى الإجماليُّ ٥٥٢
تَفسيرُ الآياتِ ٥٥٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٥٥٩
بلاغةُ الآياتِ ٥٦٣
الآيات (٤٥-٤٧) ٥٦٨
المعنى الإجماليُّ ٥٦٨
تَفسيرُ الآياتِ ٥٦٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٥٧٩
بلاغةُ الآياتِ ٥٨٦
الآيات (٤٨-٥٢) ٥٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٩٤
المعنى الإجماليُّ ٥٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ٥٩٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٠٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٦٠٣
بلاغةُ الآياتِ ٦٠٨
الآيات (٥٣-٥٥) ٦١٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٦١٥
المعنى الإجماليُّ ٦١٥
تَفسيرُ الآياتِ ٦١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٦١٨
بلاغةُ الآياتِ ٦٢٠
الآيات (٥٦-٥٩) ٦٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٢٤
المعنى الإجماليُّ ٦٢٤
تَفسيرُ الآياتِ ٦٢٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٦٣١

بلاغةُ الآياتِ ٦٣٥
الآيات (٦٠-٦٤) ٦٤٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٤٠
المعنى الإجماليُّ ٦٤١
تَفسيرُ الآياتِ ٦٤٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٦٤٩
بلاغةُ الآياتِ ٦٥١
الآيات (٦٥-٦٩) ٦٦١
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٦١
المعنى الإجماليُّ ٦٦١
تَفسيرُ الآياتِ ٦٦٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٦٧٣
بلاغةُ الآياتِ ٦٧٧
الفهرس ٦٨٧

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الروم، وسورة لقمان، وسورة السجدة

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر، غزة

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الرابع والعشرون

الدرر السنية
www.dorar.net

نسخة إلكترونية

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الروم وسورة لقمان وسورة السجدة)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثالث والعشرون - سورة الروم ولقمان والسجدة/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ - الظهران، ١٤٤٢ هـ

٥٧٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٨-٩٠-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - سورة الروم - تفسير ٢- القرآن - سورة لقمان - تفسير

٣- القرآن - سورة السجدة - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٥٧٩٥

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٥٧٩٥

ردمك: ٨-٩٠-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الروم وسورة لقمان وسورة السجدة)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الرابع والعشرون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ الرُّومِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الرُّومِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (الرُّومِ)[١]:

فعن أبي رَوحٍ رَضِيَ الله عنه ((أنَّه صلَّى مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصُّبحَ فقرَأ بالرُّومِ، فتردَّد في آيةٍ، فلمَّا انصرَف قال: إنَّه يَلْبِسُ علينا القرآنَ أنَّ أقوامًا منكم يُصَلُّون معنا لا يُحْسِنونَ الوُضوءَ، فمَن شَهِد الصَّلاةَ معنا فلْيُحْسِنِ الوُضوءَ))[٢].

بيانُ المَكِّي والمَدَنيِّ:

سورةُ الرُّومِ مَكِّيَّةٌ[٣]، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٤].

---

(١) سُمِّيت سورةَ الرُّومِ؛ لِما فيها مِن ذِكرِ غَلَبةِ الرُّومِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٨٧٤) واللَّفظُ له، وابنُ أبي شَيْبةَ في ((المصنف)) (٣٤).
حَسَّنه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٢٢٢)، وشعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٢٥/ ٢١١). وقال المُنْذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ١٣٨): رجاله محتجٌّ بهم في الصَّحيح. وقال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (١/ ٢٤٦): رجالُه رجالُ الصَّحيحِ.
وبنحوه أخرجه النَّسائيُّ (٩٤٧)، وأحمد (١٥٨٧٣) من حديثِ شَبيبٍ أبي رَوْحٍ، عن رجُلٍ من أصحاب النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.
حسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٩٤٧)، وحسَّن إسنادَه ابنُ كثير في ((التفسير)) (٦/ ٣٢٩)، وشعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٢٥/ ٢٠٩).

(٣) وقيل: مكِّيَّةٌ إلَّا قولَه تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم: ١٧]؛ فمَدَنيَّةٌ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٦).

(٤) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٥)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٤٨).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ مقاصِدِ سورةِ الرُّومِ:

١- بَسْطُ دَلائلِ وحدانيَّةِ الله، وإبطالُ الشِّركِ[١].

٢- تقريرُ البَعثِ والجزاءِ في الآخرةِ[٢].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ الموضوعاتِ الَّتي تناولَتْها سورةُ الرُّومِ:

١- الإخبارُ عن حربِ الرُّومِ والفُرسِ وانتهائها بانتصارِ الفُرسِ، والوَعدُ بأنَّ الرُّومَ سيَنتصرونَ بعدَ ذلك عليهم.

٢- حثُّ الكُفَّارِ على التَّفَكُّرِ فيما خلَقَ اللهُ مِن السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، والسَّيرِ في الأرضِ؛ لِيَنظُروا كيف كان مَصيرُ الأُمَمِ قَبْلَهم، وتوعُّدُهم بسوءِ المصيرِ.

٣- ذِكرُ قَضيَّةِ الخَلقِ والإعادةِ، وأنَّها لله وحْدَه، وإليه يُرجَعُ جميعُ المخلوقاتِ.

٤- بيانُ بَعضِ ما يجري يومَ القيامةِ، ومصيرِ المؤمنينَ والكُفَّارِ.

٥- تَعدادُ بَعضِ آياتِ الله العَظيمةِ الَّتي تدُلُّ على وَحدانيَّتِه تعالى.

٦- الحَثُّ على التَّمَسُّكِ بالدِّينِ الحقِّ واتِّباعِه، والنَّهيُ عن اتِّباعِ طَريقِ المُشركين.

٧- الإخبارُ عن أحوالِ النَّاسِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والدَّعوةُ إلى التَّعاطُفِ والتَّراحمِ، والتَّحذيرُ مِنَ الرِّبا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١).

٨- الإخبارُ بأنَّ اللهَ تعالى هو مَن يَخلُقُ ويَرزُقُ، ويُحيي ويُميتُ، وأنَّ ما يتَّخِذُه المُشرِكونَ مِن شُرَكاءَ لا يَملِكونَ مِن ذلك شَيئًا.

٩- الإخبارُ عن ظُهورِ الفَسادِ في البَرِّ والبَحرِ، وتوضيحُ أنَّ سَبَبَ ذلك هو ما كَسَبتْه أيدي النَّاسِ.

١٠- تَسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بسَبَبِ تكذيبِ قَومِه، بأنَّ هذا هو حالُ الأنبياءِ، وأنَّ الله انتقَمَ اللهُ مِنَ الَّذين أجرَموا، وتكفَّل بنَصرِ المؤمِنينَ.

١١- بيانُ أطوارِ حياةِ الإنسانِ الرَّئيسةِ، وذِكرُ بعضِ أهوالِ يومِ القيامةِ.

١٢- الإخبارُ عن تعنُّتِ الكفَّارِ، وأمْرُ الله تعالى نبيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالصَّبرِ والثَّباتِ.

الآيات (١-٧)

﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾.

المعنى الإجماليُّ:

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بالحروفِ المقطَّعةِ؛ لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ إذ تُبرِزُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بالإتيانِ بشَيءٍ مِن مِثْلِه، مع أنَّه مرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّة الَّتي يَتحدَّثون بها.

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن المعركةِ الَّتي دارَتْ بيْنَ الفُرسِ والرُّومِ وانتهَتْ بهزيمةِ الرُّومِ، ويُبشِّرُ المؤمنينَ بانتصارِ الرُّومِ بعدَ ذلك، فيقولُ: غَلَب أهلُ فارسَ المُشركونَ الرُّومَ مِن أهلِ الكِتابِ في أدنى الأرضِ، والرُّومُ مِن بعدِ هزيمتِهم مِنَ الفُرسِ سيَنتَصِرونَ عليهم خِلالَ بِضْعِ سِنينَ، لله وحْدَه الحُكمُ والتَّقديرُ والأمرُ النَّافِذُ مِن قَبلِ انتصارِ الرُّومِ على الفُرسِ، ومِن بَعدِ انتصارِهم عليهم، ويومَ يَنتَصِرُ الرُّومُ على الفُرسِ يفرَحُ المؤمِنونَ بنَصرِ الله؛ ينصُرُ اللهُ مَن يَشاءُ مِن عبادِه، وهو الغالِبُ القاهِرُ لأعدائِه، الرَّحيمُ بعِبادِه المؤمنينَ.

وعَدَ اللهُ المؤمِنينَ بانتصارِ الرُّومِ على الفُرسِ وعْدًا لا بُدَّ مِن وُقوعِه، لا يُخلِفُ اللهُ وعْدَه، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ. يَعلَمونَ ما يَتعلَّقُ بشُؤونِ دُنياهم فحَسْبُ، وهم عن أمرِ آخرتِهم غافِلونَ، لا يُفَكِّرونَ في شأنِها، ولا يَعمَلونَ لأجْلِها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓمٓ ١﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ الَّتي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها(١).

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢﴾.

أي: غَلَب أهلُ فارسَ المُشرِكونَ، الرُّومَ أهلَ الكِتابِ، وقَهَروهم(٢).

﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣﴾.

﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: انتصَر الفُرسُ على الرُّومِ في أدنى الأرضِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).
قال ابن كثير: (نزلَتْ هذه الآياتُ حينَ غلَب سابورُ ملكُ الفُرسِ على بلادِ الشَّامِ وما والاها مِن بلادِ الجزيرةِ وأقاصي بلادِ الرُّومِ، واضطَرَّ هِرَقلَ ملكَ الرُّومِ حتَّى ألْجأه إلى القُسْطَنْطينيَّةِ، وحاصَره فيها مدَّةً طويلةً، ثمَّ عادَتِ الدَّولةُ لهِرَقْلَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٧).
وقال القاسمي: (اتَّفَق المؤرِّخون مِنَ المسلمينَ وأهلِ الكتابِ على أنَّ مَلِكَ فارسَ كان غزا بلادَ الشَّامِ، وفتَحَ دِمَشْقَ وبيتَ المَقْدِسِ: الأُولى سنةَ ٦١٣، والثَّانية سنةَ ٦١٤. أي: قبْلَ الهجرةِ النَّبويَّةِ بسَبْعِ سِنينَ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٤٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٧٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣). =

﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾.

أي: والرُّومُ مِن بعدِ أن غلَبَهم أهلُ فارسَ سيَغلِبونهم[1].

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤﴾.

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾.

= قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: في أقرَبِ أرضِ الرُّومِ إلى بلادِ العربِ. ومِمَّن قال بهذا القول: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٣).

وقال البيضاوي: (﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرضِ العرَبِ منهم؛ لأنَّها الأرضُ المعهودةُ عندَهم، أو في أدنى أرضِهم مِن العربِ، واللَّامُ بدَلٌ مِن الإضافةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠١). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٦، ٢٤٧).

وقيل: المعنى: أقرَبُ أرضِ الشَّامِ إلى بلادِ فارسَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٥٨، ٤٦٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٧٠).

وقال الألوسي: (المرادُ بالأرضِ أرضُ الرُّومِ على أنَّ «أل» نائبةٌ مَنابَ الضَّميرِ المُضافِ إليه، والأقربيَّةُ بالنَّظرِ إلى أهلِ مكَّةَ؛ لأنَّ الكلامَ معهم. أو المرادُ بها أرضُ مكَّةَ ونواحيها؛ لأنَّها الأرضُ المعهودةُ عندَهم، والأقربيَّةُ بالنَّظرِ إلى الرُّومِ. أو المرادُ بالأرضِ أرضُ الرُّومِ؛ لذِكْرِهم، والأقربيَّةُ بالنَّظرِ إلى عدُوِّهم -أعني: فارسَ- لحديثِ المَغلوبيَّةِ. وقد جاء مِن طرُقٍ عديدةٍ أنَّ الحربَ وقعتْ بيْنَ أَذْرِعاتَ وبُصْرَى. وقال ابنُ عبَّاسٍ، والسُّدِّيُّ: بالأُرْدُنِّ وفِلَسْطينَ. وقال مجاهدٌ: بالجزيرةِ، يعني: الجزيرةَ العُمَريةَ، لا جزيرةَ العربِ). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٥٨، ٤٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٤).

قوله: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ غَلَب مصدرٌ، يقال: غَلَبْتُه غَلْبًا وغَلَبَةً وغَلَبًا، وهي مِن بابِ إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ، أي: غلبةِ غيرِهم عليهم، وإنَّما أضاف الغلبةَ إليهم؛ لاتصالِها بهم، واتصالُ الغلبةِ بهم وُقوعُها عليهم، والمعنى: وهم من بعدِ غلبِ فارسَ إيَّاهم سيغلبون فارسَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٩٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦١١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥).

أي: سيقَعُ انتِصارُ الرُّومِ على الفُرسِ فيما بيْنَ ثلاثِ سِنينَ إلى تِسعٍ[(١)].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما في قَولِ الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، قال: ((غُلِبَت وغَلَبت؛ كان المُشرِكون يُحِبُّون أن يظهَرَ أهلُ فارسَ على الرُّومِ؛ لأنَّهم وإيَّاهم أهلُ أوثانٍ، وكان المُسلِمونَ يُحِبُّونَ أن يظهَرَ الرُّومُ على فارسَ؛ لأنَّهم أهلُ كتابٍ، فذَكَروه لأبي بكرٍ، فذكره أبو بكرٍ لِرَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: أمَا إنَّهم سيَغْلِبونَ، فذكره أبو بكرٍ لهم، فقالوا: اجعَلْ بيْنَنا وبيْنَك أجَلًا؛ فإنْ ظهَرْنا كان لنا كذا وكذا، وإنْ ظهَرْتُم كان لكم كذا وكذا، فجعَل أجَلًا خمسَ سِنينَ، فلمْ يَظهَروا، فذكَر ذلك للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ألَا جعَلْتَه إلى دُون -قال: أُراه العَشر- قال الرَّاوي: والبِضعُ ما دونَ العَشرِ- قال: ثمَّ ظهَرَت الرُّومُ بعدُ. قال: فذلك قَولُه تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۞ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤، ٥]))[(٢)].

وعن نِيَارِ بنِ مُكْرَمٍ الأسلَميِّ رَضِيَ الله عنه، قال: (لَمَّا نزلت: ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٢٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

قال الواحدي: (أجمَع المفسِّرونَ أنَّ الرُّومَ غَلَبت فارسَ بعدَما أخبَرَ الله بهذه الآيةِ أنَّهم سيَغلِبونَ، في السَّنةِ السَّابعةِ). ((البسيط)) (١٨/ ١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٠، ٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (اتَّفَقت الرِّواياتُ على أنَّ غَلَبَ الرُّومِ للفُرسِ وقَع بعدَ مُضِيِّ سَبْعِ سِنينَ مِن غَلَبِ الفُرسِ على الرُّومِ، الَّذي نزلتْ عندَه هذه السُّورةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٠).

ونسَبه الثعلبيُّ إلى قولِ أكثرِ المفسِّرينَ. ينظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٩٣)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٣٨٩)، وأحمد (٢٤٩٥).

قال التِّرمذيُّ: حسَنٌ صحيحٌ غريب. وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٩٣)، وقال ابن القيم في ((الفروسية)) (ص: ٩٢، ٢٠٧): إسنادُه على شرطِ الصَّحيحِ. وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٦٨).

ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ [الروم: ١ - ٣]، فكانت فارسُ يومَ نزلت هذه الآيةُ قاهرينَ للرُّوم، وكان المُسلِمونَ يُحِبُّون ظُهورَ الرُّوم عليهم؛ لأنَّهم وإيَّاهم أهلُ كتابٍ، وفي ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الروم: ٤، ٥]، فكانت قُرَيشٌ تُحِبُّ ظُهورَ فارِسَ؛ لأنَّهم وإيَّاهم ليسوا بأهلِ كتابٍ، ولا إيمانٍ ببعثٍ، فلمَّا أنزَل الله تعالى هذه الآيةَ خرَج أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ يَصيحُ في نواحي مكَّةَ: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾ [الروم: ١ - ٤]، قال ناسٌ مِن قُرَيشٍ لأبي بكرٍ: فذلك بيْنَنا وبيْنَكم، زَعَم صاحِبُك أنَّ الرُّومَ ستَغلِبُ فارِسَ في بِضعِ سِنينَ، أفلا نُراهِنُك على ذلك؟ قال: بلى -وذلك قبْلَ تحريمِ الرِّهانِ- فارتَهَن أبو بكرٍ والمُشرِكونَ وتَواضَعوا الرِّهانَ، وقالوا لأبي بكرٍ: كم تجعَلُ؟ البِضعُ ثلاثُ سِنينَ إلى تسعِ سِنينَ، فسَمِّ بيْنَنا وبيْنَك وسَطًا تنتهي إليه، قال: فسَمَّوا بيْنَهم ستَّ سِنينَ، قال: فمَضَتِ السِّتُّ سِنينَ قبْلَ أن يَظهَروا، فأخَذ المُشرِكون رَهنَ أبي بكرٍ، فلمَّا دخلَتِ السَّنةُ السَّابِعةُ ظَهَرت الرُّومُ على فارِسَ، فعاب المُسلِمونَ على أبي بكرٍ تَسميةَ ستِّ سِنينَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾، قال: وأسلَمَ عندَ ذلك ناسٌ كثيرٌ)[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٩٤) واللفظ له، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٧/ ٤٤٢).

قال الترمذي: صحيحٌ حسَنٌ غريبٌ. وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٩٤).

وقال ابن القيم: (قولُه: «وذلك قبل تحريمِ الرِّهانِ» مِن كلام بعضِ الرُّواةِ؛ ليس مِن كلامِ أبي بكرٍ، ولا مِن كلامِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ). ((الفروسية)) (ص: ٩٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (هذه المُراهَنةُ هي مِثلُ المراهَنةِ في سِباقِ الخَيلِ، والرَّمي بالنُّشَّابِ، وكانت جائزةً؛ لأنَّها مَصلحةٌ للإسلامِ؛ لأنَّ فيها مَصلحةَ بيانِ صِدقِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما أخبَرَ به مِن أنَّ الرُّومَ سيَغلِبونَ بعدَ ذلك، وفيها ظُهورُ أقرَبِ الطَّائِفَتينِ إلى المسلِمينَ على =

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾.

أي: لله وَحْدَه الحُكمُ والتَّدبيرُ والتَّقديرُ والتَّصَرُّفُ في خَلقِه بما يَشاءُ مِن قَبلِ أن تَغلِبَ الرُّومُ فارِسَ، ومِن بعدِ غَلَبَتِهم لهم؛ فغَلَبةُ أحَدِهما الآخَرَ واقِعةٌ بأمرِ اللهِ وقَضائِه وقَدَرِه، فحينَ غَلَبتْ فارِسُ الرُّومَ كان الأمرُ لله، وحينَ تَغلِبُ الرُّومُ فارِسَ يكونُ الأمرُ لله، فاللهُ وحْدَه هو الَّذي يَحكُمُ في خَلقِه بما يَشاءُ، ويَنصُرُ مَن يَشاءُ(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ...﴾.

= أبعَدِهما، وهذا فَعَله الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، وأقَرَّه عليه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ولم يُنكِرْه عليه، ولا قال: هذا مَيسِرٌ وقِمارٌ، والصِّدِّيقُ أجَلُّ قَدْرًا مِن أن يقامِرَ؛ فإنَّه لم يَشرَبِ الخَمرَ في جاهليَّةٍ ولا إسلامٍ، وهي أشهى إلى النُّفوسِ مِن القِمارِ! وقد ظَنَّ بَعضُهم أنَّ هذا قِمارٌ، لكِنَّ فِعْلَه هذا كان قبْلَ تحريمِ القِمارِ، وهذا إنَّما يُقبَلُ إذا ثبت أنَّ مِثلَ هذا ثابتٌ فيما حَرَّمه اللهُ مِن المَيسِرِ، وليس عليه دليلٌ شرعيٌّ أصلًا، بل هي مجرَّدُ أقوالٍ لا دليلَ عليها، وأقْيِسةٌ فاسِدةٌ يَظهَرُ تناقُضُها لِمَن كان خبيرًا بالشَّرعِ). ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (٤/ ٦٩).

وقال ابن القيم: (وَقد اختلف أهلُ العلمِ فِي إحكامِ هذا الحديثِ ونسخِه على قولَيْن: فادَّعت طَائِفَةٌ نسخَه بنهيِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن الغرَرِ والقمارِ... وإلى هذا القولِ ذهَب أصحابُ مالكٍ وَالشَّافعيُّ وأحمدُ. وَادعت طائِفَةٌ أنَّه مُحكمٌ غيرُ منسوخٍ وأنَّه ليس معَ مدَّعي نسخِه حجَّةٌ يتَعَيَّنُ المصيرُ إليها... وإلى هذا ذهب أصحابُ أبي حنيفةَ وشيخُ الإسلامِ ابْنُ تيميةَ). ((الفروسية)) (ص: ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦، ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٦).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ حينَ غلَبَت الرُّومُ فارِسَ، وهذا قولُ الجميعِ). ((البسيط)) (١٨/ ١٣).

أي: ويَومَ يَنتَصِرُ الرُّومُ على الفُرسِ يَفرَحُ المؤمِنونَ بنَصرِ اللهِ للرُّومِ أهلِ الكِتابِ على الفُرسِ المُشرِكينَ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٧).

قال السمعاني: (إنَّما فَرِحوا بذلك؛ لصِدقِ وَعدِ الله تعالى، ولأنَّهم قالوا: كما نصَرَ اللهُ أهلَ الكتابِ على غيرِ أهلِ الكتابِ، كذلك ينصُرُنا عليكم). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٩٧).

وقال الزمخشري: (يفرَحُ المؤمِنونَ بنَصرِ الله وتغليبِه مَن له كتابٌ على مَن لا كتابَ له، وغَيظِ مَن شَمِت بهم مِن كُفَّارِ مكَّةَ. وقيل: نَصْرُ الله: هو إظهارُ صِدقِ المؤمنينَ فيما أخبَروا به المُشرِكينَ مِن غَلَبةِ الرُّوم. وقيل: نَصرُ الله أنَّه ولَّى بعضَ الظَّالِمينَ بَعضًا، وفرَّقَ بيْنَ كَلِمِهم حتَّى تفانَوا وتناقَصوا، وفَلَّ هؤلاءِ شوكةَ هؤلاء، وفي ذلك قوَّةٌ للإسلامِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٧).

وقال ابن عطية: (ويشبِهُ أنْ يعلِّلَ ذلك بما يَقتضيه النظرُ مِن محبةِ أنْ يغلبَ العدوُّ الأصغرُ؛ لأنَّه أيسرُ مؤنةً، ومتى غلَبَ الأكبرُ كثُر الخوفُ منه، فتأمَّلْ هذا المعنى معَ ما كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ترجَّاه مِن ظهورِ دينِه وشرعِ الله الذي بعَثه به، وغلبتِه على الأُمم، وإرادةِ كفَّارِ مكَّةَ أنَ يرميَه الله بملكٍ يستأصِلُه ويريحُهم منه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٨). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦).

وقال ابن كثير: (قد كانت نُصرةُ الرُّوم على فارسَ: يومَ وَقعةِ بَدرٍ، في قولِ طائفةٍ كبيرةٍ مِن العُلَماءِ؛ كابنِ عبَّاسٍ، والثَّوريِّ، والسُّدِّيِّ، وغيرِهم.. وقال آخَرون: بل كان نُصرةُ الرُّوم على فارِسَ: عامَ الحُدَيبيَةِ؛ قاله عِكْرِمةُ، والزُّهْريُّ، وقَتادةُ، وغيرُهم.. والأمرُ في هذا سَهلٌ قريبٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٣، ٣٠٤).

وقال ابن القيم: (وهذه الغلبةُ مِن الروم لفارسَ كانت عامَ الحُديبيةِ بلا شكٍّ، ومَن قال: كانت عامَ وقعةِ بدرٍ فقد وهِم؛ لما ثبت في «صحيح البخاري»...). ((الفروسية)) (ص: ٢٠٧، ٢٠٨).

وقال السعدي: (أي: يَفرَحونَ بانتصارِهم على الفُرسِ، وإن كان الجميعُ كُفَّارًا، ولكِنَّ بَعضَ الشَّرِّ أهوَنُ مِن بَعضٍ، ويَحزَنُ يومَئذٍ المُشرِكونَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

وقال ابن عاشور: (﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: بنَصرِ اللهِ إيَّاهم على الَّذين كانوا غَلَبوهم مِن قَبلُ، وكان غَلَبُهم السَّابِقُ أيضًا بنَصرِ اللهِ إيَّاهم على الرُّوم؛ لحِكمةٍ اقتَضَت هذا التعاقُبَ، وهي تهيئةُ أسبابِ انتِصارِ المُسلِمينَ على الفريقَينِ إذا حاربوهم بعدَ ذلك؛ لِنَشرِ دينِ اللهِ في بلادِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٧).

﴿... يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾.

﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: يَنصُرُ اللهُ مَن يَشاءُ مِن عبادِه على مَن يشاءُ منهم، وَفْقَ ما تَقتَضيه حِكمَتُه سُبحانَه، كما نَصَرَ فارِسَ على الرُّومِ، ثمَّ الرُّومَ على فارِسَ، ثمَّ نَصَر المؤمِنينَ على فارِسَ والرُّومِ الكافِرين[١].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو الغالِبُ القاهِرُ القَويُّ المُنتَقِمُ مِن أعدائِه بلا مانِعٍ يمنَعُه مِن ذلك، وهو الرَّحيمُ بعبادِه المُؤمِنينَ[٢].

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦﴾.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وَعَدَ اللهُ المؤمِنينَ بانتِصارِ الرُّومِ على الفُرسِ وَعدًا لا مَحالةَ مِن وُقوعِه[٣].

﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾.

أي: لا يُخلِفُ اللهُ ما وَعَد به عِبادَه، سواءٌ فيما يَتعلَّقُ بنَصرِ الرُّومِ أو بِغَيرِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((البسيط)) الواحدي (١٨/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٢).

قال ابن كثير: (لأنَّ اللهَ قد جرتْ سُنَّتُه أن يَنصُرَ أقرَبَ الطَّائِفَتينِ المقتَتِلَتينِ إلى الحَقِّ، ويجعَلَ لها العاقِبةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥).

مِن الأُمورِ، فما أخبَرَ بوقوعِه لا بدَّ مِن تحقُّقِه؛ لِكَمالِ قُدرتِه، وكَمالِ صِدقِه سُبحانَه[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ ما لله مِن صِفاتِ الكَمالِ، ومِن ذلك أنَّ وَعْدَه حَقٌّ لا يُخلَفُ؛ فهم يَجهَلونَ حِكمَتَه وقُدرَتَه، وصِدقَ خَبَرِه، ويُكَذِّبونَ بآياتِه[٢].

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾.

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: أكثَرُ النَّاسِ يَعلَمونَ ما يَتعلَّقُ بشُؤونِ دُنياهم فحَسْبُ؛ كعُمرانِهم، وتدبيرِ مَعايشِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٢، ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٣، ٣٤).

قال البقاعي: (﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: ليس لهم عِلمٌ أصلًا؛ ولذلك لا نظَرَ لهم يؤدِّي إلى أنَّه وعدٌ، وأنَّه لا بدَّ مِن وقوعِ ما وعَدَ به في الحالِ الَّتي ذكرَها؛ لأنه قادرٌ وحكيمٌ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧).

قال ابنُ عثيمين: (أثبت لهم العِلمَ، ولكِنَّه عِلمٌ قاصرٌ من وجهَين:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّهم يَعلَمونَ ظاهرًا مِن الحياةِ الدُّنيا لا باطنًا، وكم مِن الأمورِ الخفيَّةِ في هذه =

كما قال تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

أي: وهم عن أمرِ آخِرتِهم غافِلونَ؛ فلا يُفَكِّرونَ في شَأنِها، ولا يَعمَلونَ لأجْلِها[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه أدَبٌ عَظيمٌ للمُسلِمينَ؛ لِكَيْلا يُعلِّلوا الحوادِثَ بغيرِ أسبابِها، ويَنتَحِلوا لها عِلَلًا تُوافِقُ الأهواءَ، كما كانت تَفعَلُه الدَّجاجِلةُ مِن الكُهَّانِ وأضرابِهم[(٢)].

= الحياةِ لا يعلَمُها أولئك الكُفَّارُ... الوجهُ الثَّاني: أنَّهم يَعلَمونَ ظاهِرًا مِن الحياةِ الدُّنيا وليس كلَّ ظاهرٍ... يعني: أنَّهم لا يَعلَمونَ كُلَّ ظاهرٍ، إنَّما يَعلَمونَ ظاهِرًا منها فقط، وأنَّ هناك ظواهِرَ أُخرى لا يَعلَمونَها أيضًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الروم)) (ص: ٣٥، ٣٦).

وقال ابن جزي: (﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا ﴾ قيل: معناه: يعلمون ما يُدرَكُ بالحواسِّ دونَ ما يُدرَكُ بالعقولِ، فهم في ذلك مثلُ البهائم، وقيل: الظاهرُ ما يُعلَمُ بالنَّظرِ بأوائلِ العقولِ، والباطنُ ما يُعلَمُ بالنَّظرِ والدَّليلِ، وقيل: هو مِن الظُّهورِ بمعنى العلوِّ في الدُّنيا، وقيل: ظاهرٌ بمعنى زائلٍ ذاهبٍ، والأظهرُ أنَّه أراد بالظاهرِ: المعرفةَ بأمورِ الدُّنيا ومصالِحها؛ لأنَّه وصَفهم بعدَ ذلك بالغفلةِ عن الآخرةِ، وذلك يقتضي عدمَ معرفتِهم بها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٠).

وقال ابنُ عطيةَ: (قال ابنُ عبَّاسٍ والحسنُ والجمهورُ: معناه ما فيه الظهورُ والعلوُّ في الدنيا مِن إتقانِ الصناعاتِ والمباني ومظانِّ كسبِ الأموالِ والفلاحاتِ ونحوِ هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٦-٣٨).

قال البقاعي: (فلذلك لا يُصَدِّقونَ الوَعدَ بإدالةِ الرُّوم؛ لِما رسَخَ في نفوسِهم مِن أنَّ الأمورَ تجري بيْنَ العِبادِ على غيرِ قانونِ الحِكمةِ؛ لأنَّهم كثيرًا ما يَرَونَ الظَّالمَ يموتُ ولم يُقتَصَّ منه، وهم في غفلةٍ عن أنَّه أُخِّرَ جزاؤُه إلى يومِ الدِّينِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٧).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ ذَمٌّ للَّذين يَتكالَبونَ على العُلومِ الدُّنيويَّةِ مع غَفلتِهم عن الآخِرةِ[١]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ مَدحٌ لِمَن يُقبِلونَ على الآخِرةِ ويَحرِصونَ عليها وإنْ فاتهم شَيءٌ مِن أمورِ الدُّنيا؛ لأنَّه إذا ذَمَّ مَن كان على العَكسِ فذَمُّ الضِّدِّ مَدحٌ لضِدِّه؛ فالَّذين يُقْبِلُون على الآخرةِ -وإنْ كان ليس عندَهم إلَّا علومٌ قليلةٌ مِن الدُّنيا- أكملُ بكثيرٍ مِن الَّذين يُقبِلُون على الدُّنيا ويَغفُلونَ عن الآخِرةِ، وهذا ما تدُلُّ عليه هذه الآياتُ[٢].

٤- الغَلَبةُ لا تَدُلُّ على الحَقِّ، بل اللهُ قد يَزيدُ ثوابَ المؤمِنِ، فيَبتليه ويُسَلِّطُ عليه الأعاديَ، وقد يختارُ تَعجيلَ العذابِ الأدنى دُونَ العذابِ الأكبَرِ قبْلَ يومِ المَعادِ؛ قال الله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ قد توجَّهَت قلوبُهم وأهواؤُهم وإراداتُهم إلى الدُّنيا وشَهَواتِها وحُطامِها، فعَمِلَت لها وسَعَتْ، وأقبَلَتْ بها وأدبَرَتْ، وغَفَلتْ عن الآخرةِ؛ فلا الجنَّةُ تَشتاقُ إليها، ولا النَّارُ تخافُها وتخشاها، ولا المَقامُ بيْنَ يدَيِ اللهِ ولِقائِه يُرَوِّعُها ويُزعِجُها، وهذا عَلامةُ الشَّقاءِ، وعُنوانُ الغَفلةِ عن الآخِرةِ[٤]!

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ يجِبُ على كُلِّ مُسلمٍ في هذا الزَّمانِ أن يتدَبَّرَ آيةَ «الروم» هذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

تدَبُّرًا كثيرًا، ويُبَيِّنَ ما دلَّت عليه لكُلِّ مَن استطاع بيانَه له مِنَ النَّاسِ. وإيضاحُ ذلك أنَّ مِن أعظَمِ فِتَنِ آخرِ الزمانِ الَّتي ابتلى اللهُ بها ضِعافَ العُقولِ مِن المُسلِمينَ شِدَّةَ إتقانِ الإفرنجِ لأعمالِ الحياةِ الدُّنيا، ومهارتَهم فيها على كَثرتِها واختلافِ أنواعِها، مع عَجزِ المُسلِمينَ عن ذلك! فظنُّوا أنَّ مَن قَدَر على تلك الأعمالِ أنَّه على الحَقِّ، وأنَّ مَن عجَزَ عنها متخَلِّفٌ، وليس على الحَقِّ! وهذا جَهلٌ فاحِشٌ، وغَلَطٌ فادِحٌ! وفي هذه الآيةِ الكريمةِ إيضاحٌ لهذه الفِتنةِ، وتخفيفٌ لشأنِها، أنزَلَه اللهُ في كتابِه قبْلَ وُقوعِها بأزمانٍ كثيرةٍ، فسُبْحانَ الحكيمِ الخبيرِ! ما أعلَمَه! وما أعظَمَه! وما أحسَنَ تعليمَه! فقد أوضَح جَلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ، ويَدخُلُ فيهم أصحابُ هذه العلومِ الدُّنيويَّةِ دُخولًا أوَّليًّا؛ فقد نفَى عنهم جلَّ وعلا اسمَ العِلمِ بمعناه الصَّحيحِ الكامِلِ؛ لأنَّهم لا يَعلَمونَ شَيئًا عَمَّن خَلَقَهم، فأبرزَهم مِنَ العَدَمِ إلى الوجودِ ورزَقَهم، وسوف يُميتُهم ثمَّ يُحييهم، ثمَّ يجازيهم على أعمالِهم، ولم يَعلَموا شيئًا عن مَصيرِهم الأخيرِ الَّذي يُقيمونَ فيه إقامةً أبديَّةً في عذابٍ فظيعٍ دائمٍ! ومَن غَفَل عن جميعِ هذا فليس معدودًا مِن جِنسِ مَن يَعلَمُ كما دلَّت عليه الآياتُ القُرآنيَّةُ المذكورةُ، ثمَّ لَمَّا نفَى عنهم جلَّ وعلا اسمَ العِلمِ بمعناه الصَّحيحِ الكامِلِ، أثبَت لهم نوعًا مِن العِلمِ في غايةِ الحقارةِ بالنِّسبةِ إلى غيرِه، وعاب ذلك النَّوعَ المذكورَ مِن العِلمِ بعَيبينِ عَظيمَينِ:

أحدُهما: قِلَّتُه وضِيقُ مجالِه؛ لأنَّه لا يُجاوِزُ ظاهِرًا مِن الحياةِ الدُّنيا، والعِلمُ المقصورُ على ظاهرٍ مِن الحياةِ الدُّنيا: في غايةِ الحقارةِ وضِيقِ المجالِ بالنِّسبةِ إلى العِلمِ بخالقِ السَّمَواتِ والأرضِ جَلَّ وعلا، والعِلمِ بأوامِرِه ونواهيه، وبما يُقَرِّبُ عَبْدَه منه، وما يُبعِدُه عنه، وما يُخلِّدُ في النَّعيمِ الأبَديِّ والعذابِ الأبديِّ مِن أعمالِ الخَيرِ والشَّرِّ.

والثَّاني منهما: هو دناءةُ هَدَفِ ذلك العِلم، وعدَمُ نُبلِ غايتِه؛ لأنَّه لا يَتجاوَزُ الحياةَ الدُّنيا، وهي سريعةُ الانقِطاعِ والزَّوالِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ فيه سؤالٌ: ما الحِكمةُ في افتِتاحِ هذه السُّورةِ بحُروفِ التَّهجِّي؟ **الجوابُ**: أنَّ هذه السُّورةَ ذُكِرَ في أوَّلِها ما هو مُعجِزةٌ، وهو الإخبارُ عن الغَيبِ؛ فقُدِّمَت الحروفُ الَّتي لا يُعلَمُ معناها؛ لِيتنَبَّهَ السَّامِعُ، فيُقبِلَ بقَلبِه على الاستِماعِ، ثمَّ تَرِدَ عليه المُعجِزةُ، وتَقرَعَ الأسماعَ[٢].

٢- تأمَّلْ سِرَّ: ﴿الٓمٓ﴾ كيفَ اشتمَلت على هذه الحروفِ الثَّلاثةِ، فالألفُ إذا بُدِئ بها أوَّلًا كانت همزةً، وهي أوَّلُ المخارجِ مِن أقصَى الصدرِ، واللامُ مِن وسطِ المخارجِ، وهي أشدُّ الحروفِ اعتمادًا على اللسانِ، والميمُ آخرُ الحروفِ، ومخرجُها مِن الفمِ، وهذه الثلاثةُ هي أصولُ مخارجِ الحروفِ؛ أعني الحلقَ واللسانَ والشفتينِ، وترتَّبَتْ في التنزيلِ مِن البدايةِ إلى الوسطِ إلى النِّهايةِ. فهذه الحروفُ تعتمِدُ المخارجَ الثلاثةَ التي يتفرَّعُ منها ستةَ عشرَ مخرجًا، فيصيرُ منها تسعةٌ وعشرونَ حرفًا عليها مدارُ كلامِ الأممِ الأوَّلينَ والآخرينَ، معَ تضمُّنِها سرًّا عجيبًا، وهو أنَّ الألفَ البدايةُ، واللامَ التوسُّطُ، والميمَ النهايةُ، فاشتملت الأحرفُ الثلاثةُ على البدايةِ والنهايةِ والواسطةِ بينهما، وكلُّ سورةٍ استُفْتِحتْ بهذه الأحرفِ الثلاثةِ فهي مشتملةٌ على بدءِ الخلقِ ونهايتِه وتوسطِه، فمشتملةٌ على تخليقِ العالمِ وغايتِه وعلى التوسطِ بينَ البدايةِ والنهايةِ مِن التشريعِ والأوامرِ، فتأمَّلْ ذلك في (البقرةِ) و(آلِ عمرانَ) و(تنزيل السجدةِ) وسورةِ (الرومِ)[٣].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٩، ٨٠).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٧٣).

٣- لو حَصَل نزاعٌ، وكان المتنازِعانَ مُبطِلَين -كأهلِ الكِتابِ والمُشرِكينَ إذا تجادَلوا أو تقاتَلوا- كان المشروعُ نصْرَ أهلِ الكتابِ على المُشرِكينَ بالقَدْرِ الَّذي يُوافِقُهم عليه المؤمِنونَ، إذا لم يكُنْ في ذلك مَفسَدةٌ تُقاوِمُ هذه المصلَحةَ؛ فإنَّ ذلك مِن الحَقِّ الَّذي يَفرحُ به المؤمِنونَ، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ فيه سؤالٌ: أيَّةُ فائدةٍ في ذِكرِ قَولِه تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾، مع أنَّ قَولَه: ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ بعدَ قَولِه: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ لا يكونُ إلَّا مِن بَعدِ الغَلَبةِ؟

الجوابُ مِن وَجهَين:

الوجهُ الأوَّلُ: الفائدةُ فيه إظهارُ القُدرةِ، وبيانُ أنَّ ذلك بأمرِ اللهِ؛ لأنَّ مَن غَلَب بعدَ غَلَبِه -أي: هزيمتِه- لا يكونُ إلَّا ضعيفًا، فلو كان غلَبَتُهم لِشَوكتِهم لكان الواجِبُ أن يَغلِبوا قبْلَ غَلَبِهم، فإذا غَلَبوا بعدَما غُلِبوا، دَلَّ على أنَّ ذلك بأمرِ اللهِ، فذُكِرَ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾؛ لِيتفَكَّروا في ضَعفِهم، ويَتذكَّروا أنَّ ذلك إنَّما كان بأمرِ اللهِ تعالى[2].

الوجهُ الثاني: التَّنبيهُ على عِظَمِ تلك الهزيمةِ عليهم، وأنَّها بحيثُ لا يُظَنُّ نَصرٌ لهم بعْدَها[3].

٥- قال الله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ *

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٤/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٤).

فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ في هذا الإخبارِ دَليلٌ على نُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ الرُّومَ غَلَبَتْها فارِسُ، فأخبَرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ الرُّومَ ستَغلِبُ فارِسَ في بِضعِ سِنينَ، وأنَّ المؤمِنينَ يَفرَحونَ بذلك؛ لأنَّ الرُّومَ أهلُ كتابٍ، فكان هذا مِن عِلمِ الغَيبِ الَّذي أخبَرَ الله عزَّ وجَلَّ به ممَّا لم يكُنْ عَلِموه[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ رَدٌّ على القدَريَّةِ الَّذين يقولونَ باستِقلالِ العَبدِ بفِعلِه؛ فهم يقولون: «إنَّ العبدَ مُستقِلٌّ بفِعلِه، وليس لله تعالى فيه تقديرٌ ولا أمْرٌ، ولا إنشاءٌ ولا مَشيئةٌ»[٢]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ جوازُ فَرَحِ المؤمِنينَ بانتِصارِ بَعضِ الكُفَّارِ على بَعضٍ، إذا كان في ذلك مَصلحةٌ للإسلامِ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقدَريَّةِ في بابِ الوعيدِ؛ لأنَّه جَلَّ جلالُه قد أكَّدَ في إنجازِ وعدِه، وأخبَرَ عن الوفاءِ به في غيرِ مَوضِعٍ مِن كتابِه، ولم يفعَلْ ذلك في بابِ الوعيدِ؛ لأنَّ تَرْكَ إنجازِه كَرَمٌ لا خُلْفٌ[٤].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ سَمَّاه وَعدًا؛ نظرًا لحالِ المؤمِنينَ الَّذي هو أهَمُّ هنا، وهو أيضًا وَعيدٌ للمُشرِكينَ بخِذلانِ أشياعِهم ومَن يفتَخِرونَ بمُماثَلةِ دينِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((النُّكَت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٨).

١٠- قال تعالى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ عن الحسَنِ رَضيَ الله عنه في الآيةِ قال: (لَيبلُغُ مِن حِذْقِ أحَدِهم بأمرِ دُنياه أنَّه يُقَلِّبُ الدِّرهَمَ على ظُفرِه، فيُخبِرُك بوَزنِه، وما يُحسِنُ يُصَلِّي!)[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ العِلْمَ الحقيقيَّ هو العِلْمُ بالله تعالى وأسمائِه وصفاتِه، لا العِلمُ بالدُّنيا؛ لقولِه: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ﴾، ثمَّ قال في الآيةِ الَّتي بعدَها: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا ﴾، فنفَى العِلْمَ عنهم؛ لأنَّ عِلْمَ الدُّنيا في الحقيقةِ ليس بعِلْم، فالعِلْمُ الحقيقيُّ الَّذي يُمدَحُ عليه المرءُ هو العِلْمُ بالله وأسمائِه وصِفاتِه وأحكامِه[٢].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ يُفيدُ أنَّ للدُّنيا ظاهِرًا وباطِنًا؛ فظاهِرُها ما يَعرِفُه الجُهَّالُ مِن التمَتُّعِ بزخارِفِها والتَّنَعُّم بمَلاذِّها، وباطِنُها وحقيقتُها أنَّها مَجازٌ للآخرةِ، يُتزوَّدُ إليها منها بالطَّاعةِ والأعمالِ الصَّالحةِ[٣].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ مَحطُّ الذَّمِّ هو جملةُ ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾، فأمَّا مَعرِفةُ الحياةِ الدُّنيا فليست بمذَمَّةٍ؛ لأنَّ المؤمنينَ كانوا أيضًا يَعلَمونَ ظاهِرَ الحياةِ الدُّنيا، وإنَّما المذمومُ أنَّ المُشرِكينَ يَعلَمونَ ما هو ظاهِرٌ مِن أمورِ الدُّنيا، ولا يَعلَمونَ أنَّ وراءَ عالَمِ المادَّةِ عالَمًا آخَرَ هو عالَمُ الغَيبِ[٤].

١٤- في الآيات دَلالةٌ على قُصورِ عِلْمِ المرءِ؛ لقولِه تعالى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا

---

(١) أخرجه ابنُ المُنْذِرِ وابنُ أبي حاتمٍ وابنُ مرْدَوَيْه كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٤٨٤).
وأخرجه أبو حاتم في ((الزهد)) (ص: ٦٣) بنحوه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٠).

مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، ليس كلَّ الظاهرِ، وليس الباطنَ، فالمرءُ عِلْمُه قاصرٌ حتَّى في أمورِ الدُّنيا أيضًا؛ فلا يُمكِنُ للمرءِ الإحاطةُ بعِلمِ الدُّنيا[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾

- قولُه: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ خَبرٌ مُستعمَلٌ في لازمِ فائدتِه على طَريقِ الكِنايةِ، أي: نحن نَعلَمُ بأنَّ الرُّومَ غُلِبَت؛ فلا يَهْنِكُم -أي: يسرَّكم- ذلك، ولا تُطاوِلوا به على رُسولِنا وأوليائِنا؛ فإنَّا نَعلَمُ أنَّهم سيَغلِبون مَن غَلَبوهم بعدَ بِضعِ سِنينَ بحيث لا يُعَدُّ الغلَبُ في مِثْلِه غَلَبًا؛ فالمقصودُ مِن الكلامِ هو جُملةُ ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٣، ٤]، وكان ما قبْلَه تَمهيدًا له[٢].

- وفي قولِه: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ أُسنِدَ الفِعلُ إلى المجْهولِ؛ لأنَّ الغرَضَ هو الحديثُ على المغلوبِ لا على الغالِبِ، ولأنَّه قد عُرِفَ أنَّ الَّذين غَلَبوا الرُّومَ هم الفُرْسُ[٣]. وقيل: الحِكمةُ -واللهُ أعلَمُ- في حذْفِ الفاعلِ لسَببينِ: السَّببِ الأوَّلِ: لِيَكونَ ذلك أعظَمَ إهانةً للفُرْسِ، وأنَّهم لَيسوا أهلًا للذِّكْرِ. السَّببِ الثَّاني: لِيَكونَ هذا أخْفى بالنِّسبةِ لذُلِّ الرُّومِ وخِذلانِها، أي: تَهوينًا للأمْرِ على الرُّومِ؛ لأنَّه إذا قيلَ للإنسانِ: أنت غُلِبْتَ، أهْوَنُ مِن أنْ يُقالَ له: غَلَبَك فُلانٌ؛ فإنَّه إذا قيل له: غَلَبَك فُلانٌ، فمعناهُ: أنَّه ذليلٌ لهذا الرَّجلِ المذكورِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤١، ٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين -سورة الروم)) (ص: ١٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾

- حُذِفَ مَفعولُ ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾؛ للعِلْمِ بأنَّ تَقديرَه: سيَغلِبون الَّذين غَلَبوهم، أي: الفُرسَ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ لفْظُ (بِضْع) كِنايةٌ عن عدَدٍ قليلٍ لا يَتجاوَزُ العَشَرةَ، وحِكْمةُ إبهامِ عدَدِ السِّنينَ أنَّه مُقْتضى حالِ كلامِ العظيمِ الحكيمِ: أنْ يَقتصِرَ على المقصودِ إجمالًا، وألَّا يَتنازَلَ إلى التَّفصيلِ؛ لأنَّ ذلك التَّفصيلَ يَتنزَّلُ مَنزِلةَ الحشْوِ عندَ أهْلِ العقولِ الرَّاجحةِ، ولِيَكونَ للمسلمينَ رجاءٌ في مدَّةٍ أقرَبَ ممَّا ظهَرَ؛ ففي ذلك تَفريجٌ عليهم[٢].

وقيل: فائدةُ هذا الإبهامِ: التَّفخيمُ وإدخالُ الرَّهبةِ في قُلوبِ المشركينَ في كلِّ وقْتٍ، والإشعارُ بأنَّ زهْوَهم بأنفُسِهم واعتدادَهم بقوَّتِهم ليس إلَّا إلى حِينٍ، يَطولُ أو يَقصُرُ، ولكنَّه آيِلٌ إلى الانتهاءِ، ومُفْضٍ إلى العاقبةِ الحتميَّةِ، وهي الارتدادُ والانتكاسُ[٣].

- قولُه: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾ تَقديمُ المجرورِ ﴿لِلَّهِ﴾؛ لإبطالِ تَطاوُلِ المشركينَ الَّذين بهَجَهم غلَبُ الفُرْسِ على الرُّومِ؛ لأنَّهم عَبَدةُ أصنامٍ مِثْلُهم؛ لاستِلزامِه الاعتقادَ بأنَّ ذلك الغلَبَ مِن نصْرِ الأصنامِ عُبَّادَها؛ فبيَّنَ لهم بُطلانَ ذلك، وأنَّ التَّصرُّفَ للهِ وحْدَه في الحالَينِ، كما دلَّ عليه التَّذييلُ بقولِه: ﴿يَنصُرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٧٢).

مَن يَشَآءُ﴾[١] [الروم: ٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ أُضِيفَ النَّصرُ إلى اسمِ الجَلالةِ؛ للتَّنويهِ بذلك النَّصرِ، وأنَّه عِنايةٌ لأجْلِ المسلمينَ[٢].

- وقولُه: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ قولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾[٣]. وأيضًا جُملةُ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّ النَّصرَ المذكورَ فيها عامٌّ بعُمومِ مَفعولِه، وهو ﴿مَن يَشَآءُ﴾؛ فكلُّ مَنصورٍ داخلٌ في هذا العُمومِ، أي: مَن يشاءُ نصْرَه لحِكَمٍ يَعلَمُها؛ فالمشيئةُ هي الإرادةُ، أي: يَنصُرُ مَن يُرِيد نصْرَه، وإرادتُه تعالى لا يُسأَلُ عنها، ولذلك عقَّبَ بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ فإنَّ العَزيزَ المُطلَقَ هو الَّذي يَغلِبُ كلَّ مُغالِبٍ له، وعقَّبَه بـ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ عِزَّتَه تعالى لا تَخْلو مِن رَحمةٍ بعِبادِه، ولولا رَحمتُه لَمَا أدالَ للمَغلوبِ دَولةً على غالِبِه، مع أنَّه تعالى هو الَّذي أراد غَلَبَةَ الغالِبِ الأوَّلِ؛ فكان الأمْرُ الأوَّلُ بعِزَّتِه، والأمْرُ الثَّاني برَحمتِه للمَغلوبِ المنْكوبِ، وترتيبُ الصِّفتَينِ العِلِّيَّتَينِ مَنظورٌ فيه لمُقابَلةِ كلِّ صِفَةٍ منهما بالَّذي يُناسِبُ ذِكْرَه مِن الغَلبينِ، فالمُرادُ رَحمتُه في الدُّنيا[٤].

وقيل: إنْ نَصَرَ اللهُ المحِبَّ فلِعِزَّتِه واستغنائِه عن العَدُوِّ، ورَحمتِه على المحِبِّ؛ وإن لم يَنصُرِ المحِبَّ فلِعزَّتِه واستغنائِه عن المحِبِّ، ورحمتُه في الآخِرةِ واصِلةٌ إليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٧، ٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨١).

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيه تَقديمُ وصْفِ العِزَّةِ على وصْفِ الرَّحمةِ؛ لتَقدُّمِه في الاعتبارِ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قدَّمَ المصدرَ ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ على الفِعلِ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾، وفي سُورةِ (الأنفالِ) قدَّمَ الفِعلَ على المصدرِ في قولِه: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٢]؛ وذلك لأنَّ المقصودَ هاهنا بَيانُ أنَّ النُّصرةَ بيَدِ اللهِ؛ إنْ أرادَ نَصَرَ، وإنْ لم يُرِدْ لا يَنصُرُ، وليس المقصودُ النُّصرةَ ووُقوعَها، والمقصودُ هناك إظهارُ النِّعمةِ عليه بأنَّه نصَرَه؛ فالمقصودُ هناك الفِعلُ ووُقوعُه؛ فقدَّم هناك الفِعلَ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ ذلك الفِعلَ مصدرُه عندَ اللهِ، والمقصودُ هاهنا كونُ المصدرِ عندَ اللهِ؛ إنْ أراد فعَلَ، فقدَّم المصدرَ[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ في إضافةِ الوعْدِ إلى اللهِ: تلْويحٌ بأنَّه وَعدٌ مُحقَّقُ الإيفاءِ؛ لأنَّ وعْدَ الصَّادقِ القادرِ الغنيِّ لا مُوجِبَ لإخلافِه[٣].

- وجُملةُ ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ بَيانٌ للمقصودِ مِن جُملةِ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّها دلَّت على أنَّه وعْدٌ مُحقَّقٌ بطريقِ التَّلويحِ؛ فبيَّنَ ذلك بالصَّريحِ بجُملةِ ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾. ولكَونِها في مَوقِعِ البَيانِ فُصِلَت ولم تُعطَفْ على الَّتي قَبْلَها، وفائدةُ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ: تقريرُ الحُكْمِ؛ لِتأْكيدِه، ولِمَا في جُملةِ ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ مِن إدخالِ الرَّوعِ على المشركينَ بهذا التَّأكيدِ. وسمَّاهُ وعْدًا؛ نظَرًا لحالِ المؤمنينَ الذي هو أهمُّ هنا. وهو أيضًا وَعيدٌ للمشركينَ بخِذلانِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٨).

أشياعِهم ومَن يَفتخِرون بمُماثَلةِ دِينِهم[١].

- قولُه: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ في مَوقعِ الإضمارِ؛ لتَعليلِ الحُكْمِ وتَفخيمِه. والجُملةُ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَعنى المَصدرِ[٢].

- ومَوقعُ الاستدراكِ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ هو ما اقتَضاهُ الإجمالُ وتَفصيلُه؛ مِن كونِ ذلك أمْرًا لا ارتيابَ فيه، وأنَّه وعدُ اللهِ الصَّادقِ الوعدِ، القادرِ على نصْرِ المغلوبِ، فيَجعَلُه غالبًا؛ فاستَدرَكَ بأنَّ مُراهَنةَ المشركينَ على عدَمِ وُقوعِه نشأَتْ عن قُصورِ عُقولِهم، فأحالوا أنْ تكونَ للرُّومِ بعدَ ضَعْفِهم دَولةٌ على الفُرْسِ الَّذين قهَرُوهم في زمَنٍ قصيرٍ هو بِضْعُ سِنينَ، ولم يَعلَموا أنَّ ما قدَّرهُ اللهُ أعظَمُ، فالمُرادُ بـ ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ ابتداءً المشركونَ؛ لأنَّهم سَمِعوا الوعدَ وراهَنوا على عدَمِ وُقوعِه، ويَشملُ المرادُ أيضًا كلَّ مَن كان يَعُدُّ انتصارَ الرُّومِ على الفُرْسِ في مِثلِ هذه المدَّةِ مُستحيلًا؛ فلذلك عبَّرَ عن هذه الجَمهرةِ بـ ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ بصِيغَةِ التَّفضيلِ. والتَّعريفُ في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ للاستغراقِ[٣].

- ومَفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٣، ٤]، والتَّقديرُ: لا يَعلَمون هذا الغلَبَ القريبَ العجيبَ. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ تَنزيلَ الفِعلِ مَنزلةَ اللَّازمِ؛ بأنْ نُزِّلوا مَنزلةَ مَن لا عِلْمَ عندَهم أصْلًا؛ لأنَّهم لَمَّا لم يَصِلوا إلى إدراكِ الأمورِ الدَّقيقةِ وفَهْمِ الدَّلائلِ القياسيَّةِ، كان ما عِندَهم مِن بعضِ العِلْمِ شَبيهًا بالعدَمِ؛ إذ لم يَبلُغوا به الكَمالَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٨، ٤٩).

الَّذي بلَغَه الرَّاسِخونَ أهْلُ النَّظرِ؛ فيَكونَ في ذلك مُبالغةٌ في تَجهيلِهم، وهو ممَّا يَقْتضيهِ المَقامُ[١].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ يَعۡلَمُونَ ﴾ بَدَلٌ مِن قولِه: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ﴾، وفي هذا الإبدالِ مِن النُّكتةِ: أنَّه أبدَلَه منه، وجعَلَه بحيث يقومُ مَقامَه ويَسُدُّ مَسدَّه؛ لِيُعلِمَك أنَّه لا فرْقَ بيْنَ عدَمِ العِلْمِ الَّذي هو الجهْلُ، وبيْن وُجودِ العِلْمِ الَّذي لا يَتجاوَزُ الدُّنيا؛ فأصْلُ الكلامِ: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ يَعلَمون ظاهرَ ما يتعيَّشون به في الدُّنيا مِن التِّجاراتِ والمكاسبِ، ولا يَعلَمون باطِنَها مِن تِجاراتِ الآخرةِ والفوزِ بالفَلاحِ؛ فوُضِعَ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ -وهو مُطلَقٌ، فيُفيدُ سلْبَ العِلْمِ رأسًا- مَوضِعَ ﴿يَعۡلَمُونَ ﴾، ونُكِّرَ ﴿ظَٰهِرٗا﴾، ووُضِعَ مَوضِعَ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ بإظهارِ قولِه: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾؛ لِيُفيدَ تلك الفوائدَ[٢].

- وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿يَعۡلَمُونَ ﴾ جُملةٌ استئنافيَّةٌ لبَيانِ مُوجِبِ جَهلِهم بوَعْدِ اللهِ؛ فالمعنى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ أنَّ وعْدَ اللهِ حَقٌّ، وأنَّ للهِ الأمْرَ مِن قبْلُ ومِن بعْدُ، وأنَّه يَنصُرُ المؤمنينَ على الكافرينَ، ويَقذِفُ بالحقِّ على الباطلِ فيَدْمَغُه؛ لِيَكونَ الدِّينُ كلُّه للهِ؛ لأنَّهم يَعلَمون ظاهرًا مِن الحياةِ الدُّنيا، وهم عن أسْرارِ اللهِ -مِن أنَّه تعالى ما خلَقَ الخلْقَ لِلَّهْوِ واللَّعِبِ، بلْ خلَقَهم ليَعرِفوه ويَعبُدوه، ويَتزَوَّدوا لدارِ القرارِ- غافلونَ. ومِن ثَمَّ أتبَعَ ذلك بقولِه: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۚ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥١).

مُسَمًّى﴾ [الروم: ٨]، وختَمَه بقولِه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾[١].

- وفي تَنكيرِ ﴿ظَٰهِرًا﴾: أنَّهم لا يَعلَمون إلَّا ظاهرًا واحدًا مِن جُملةِ الظَّواهرِ[٢]. وقيل: بلْ تَنكيرُ ﴿ظَٰهِرًا﴾ للتَّحقيرِ والتَّخسيسِ، دونَ الواحدةِ -كما تُوهِّمَ- أي: يعلمونَ ظاهرًا حقيرًا خَسيسًا مِن الدُّنيا، وقيل: هو بمعنى الزَّائلِ الذَّاهبِ، أي: يعلمونَ أمرًا زائلًا لا بقاءَ له، ولا عاقبةَ مِن الحياة الدُّنيا، ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ التي هي الغايةُ القصوى والمطلبُ الأسنى ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ لا تخطرُ ببالِهم، فكيفَ يتفكَّرونَ فيها، وفيما يؤدِّي إلى معرفتِها مِن الدُّنيا وأحوالِها[٣]؟! وقيل: فيه تَقليلُ مَعلومِهم، وتقليلُه يُقرِّبُه مِن النَّفي حتَّى يُطابقَ المُبدَلَ منه، وهو قولُه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤]. وقيل: أي: يعلمونَ ظواهرَ ما في الدُّنيا، أي: ولا يَعلَمون دقائقَها، والكلامُ يُشعِرُ بذَمِّ حالِهم، ومَحطُّ الذَّمِّ هو جُملةُ ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[٥].

- قولُه: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ اقتصَرَ في تَجهيلِهم بعالَمِ الغَيبِ على تَجْهيلِهم بوُجودِ الحياةِ الآخِرةِ اقتِصارًا بَديعًا، حصَلَ به التَّخلُّصُ مِن غرَضِ الوعْدِ بنصْرِ الرُّومِ إلى غرَضٍ أهَمَّ، وهو إثباتُ البعثِ، مع أنَّه يَستلزِمُ إثباتَ عالَمِ الغَيبِ، ويكونُ مثالًا لِجَهْلِهم بعالَمِ الغيبِ، وذمًّا لجَهْلِهم به بأنَّه أوقَعَهم في وَرطةِ إهمالِ رَجاءِ الآخرةِ، وإهمالِ الاستعدادِ لِمَا يَقتَضيه ذلك

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢١٢، ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٠، ٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٤٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٠).

الرَّجاءُ؛ فذلك مَوقعُ قولِه: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾. وعبَّرَ عن جَهْلِهم الآخِرةَ بالغفْلةِ كِنايةً عن نُهوضِ دَلائلِ وُجودِ الحياةِ الآخِرةِ، لو نَظَروا في الدَّلائلِ المُقْتضيةِ وُجودَ حياةٍ آخِرَةٍ؛ فكان جَهْلُهم بذلك شَبيهًا بالغفلةِ؛ لأنَّه بحيث يَنكشِفُ لو اهتَمُّوا بالنَّظرِ[١].

- وإيرادُ جُملةِ ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ اسميَّةً؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِهم مِن الغَفلةِ عن الآخِرةِ، واستِمرارِ غَفْلتِهم ودوامِها[٢].

- قولُه: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ فيه ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّعطُّفِ -وهو إعادةُ اللَّفظةِ بعَينِها في الجُملةِ-؛ فقد ردَّدَ (هم)؛ للمُبالَغةِ في تأْكيدِ غفْلَتِهم عن الآخرةِ[٣].

- و(هم) الثَّانيةُ يجوزُ أنْ يكونَ مُبتدأً، و(غافِلون) خبَرَه، والجُملةُ خبرَ (هم) الأُولى، وأنْ يكونَ تَكريرًا للأُولى، و(غافِلون) خبرَ الأُولى، وهو على الوَجهينِ مُنادٍ على تمَكُّنِ غَفْلتِهم عن الآخِرةِ المُحقِّقةِ لمُقْتضَى الجُملةِ المُتقدِّمةِ؛ تَقريرًا لِجَهالتِهم، وتَشبيهًا لهم بالبهائمِ المقصورِ إدراكاتُها مِن الدُّنيا على ظواهِرِها الخَسيسةِ، دونَ أحوالِها الَّتي هي مَبادئُ العلْمِ بأمُورِ الآخِرةِ، وإشعارًا بأنَّ العِلْمَ المذكورَ وعدَمَ العلمِ رأْسًا سِيَّانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٠، ٥١).

الآيات (٨-١٠)

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي: وَقْتٍ مُعَيَّنٍ مُحَدَّدٍ، وأصلُ الأجَلِ: غايةُ الوَقتِ، والمُدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ، ومُسَمًّى: أي: مُثبَتٌ مُعَيَّنٌ(١).

﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾: أي: حَرَثوها، وقلَّبوها للزِّراعةِ، والإثارةُ: تحريكُ الشَّيءِ حتَّى يرتَفِعَ تُرابُه، وأصلُ (ثور): يدُلُّ على انبعاثِ الشَّيءِ(٢).

﴿وَعَمَرُوهَا﴾: العِمارةُ: نَقيضُ الخرابِ، وأصلُ (عمر): يدُلُّ على بقاءٍ وامتِدادِ زَمانٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩، ٨٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٦).

﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: فُعلَى مِنَ السُّوءِ، تأنيثُ الأسوأِ، وهو: الأقبحُ، وقيل: هي مصدرٌ بمنزلةِ الإساءةِ، وقيل: هي اسمٌ لجهنَّمَ، سمِّيتْ سُوأَى؛ لِكَونِها تَسوءُ صاحِبَها، أو لقُبحِ منظرِها، أو هي عبارةٌ عن كلِّ ما يَقبحُ، والسُّوءُ: كلُّ ما يغُمُّ الإنسانَ مِن الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، وأصلُ (سوء): القبحُ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى منَبِّهًا على التَّفكُّرِ في مخلوقاتِه، الدَّالَّةِ على وحدانيَّتِه: أوَلم يَتفكَّروا في أنفُسِهم فيَعلَموا أنَّ اللهَ وَحْدَه خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما بالحَقِّ، إلى وقتٍ محدَّدٍ عِندَه تعالى، ثمَّ تَفنى يومَ القيامةِ، وإنَّ كثيرًا من النَّاسِ كافِرونَ بوُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ.

ثمَّ ينبِّهُ الله تعالى على صدقِ رُسلِه فيما جاؤوا به، فيقولُ: أوَلم يَسِرْ في الأرضِ هؤلاء المكَذِّبونَ بالبَعثِ، فيَنظُروا كيف كان عاقِبةُ الَّذين مِن قَبْلِهم، فيَعتَبِروا؟! فقد كان هؤلاء الَّذين مِن قَبلِهم أشَدَّ منهم قوَّةً وتصَرُّفًا في الأرضِ، وجَعَلوها أكثَرَ عُمرانًا ممَّا فعَلوا، وجاءَتْهم رُسلُهم بالبَيِّناتِ فكَذَّبوا، فأهلكهم اللهُ، ولمْ يكُنْ سُبحانَه لِيُهلِكَهم قبْلَ إرسالِ الرُّسلِ إليهم وإقامةِ الحجَّةِ عليهم، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بالكُفرِ والتَّكذيبِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانه المصيرَ السَّيِّئَ الَّذي حلَّ بهؤلاء الكافرين، فيقولُ: ثمَّ كان عاقِبةَ الَّذين أساؤوا أنْ حلَّ بهم عذابُ اللهِ؛ بسبَبِ تكذيبِهم بآياتِ اللهِ سُبحانَه، واستِهزائِهم بها.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنكَر المشركون الإلهَ بإنكارِ وعْدِه، وأنكَروا البعثَ كما قال: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]- أردَف هذا أنَّ الأدلَّةَ مُتظاهِرةٌ في الأنفُسِ والآفاقِ على وُجودِه وتفرُّدِه بخَلْقِها، وأنَّه لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سِواه[١].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: أوَلم يتفكَّرْ أولئك الَّذين يَعلَمونَ ظاهِرًا مِن الحياةِ الدُّنيا وهم غافِلونَ عن الآخرةِ، في أنفُسِهم[٢]، فيَعلَموا أنَّ اللهَ وحْدَه خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما بالحَقِّ؛ لِيَعبُدَه النَّاسُ ويُطيعوه فيما يأمُرُهم ويَنهاهم، ثمَّ هو يَبعَثُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٣٠).

(٢) اختلف المفسِّرون في قَولِه تعالى: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾: هل النَّفْسُ هنا هي محلُّ التَّفكُّرِ، أو آلةُ التَّفكُّرِ؟ فقيل: المرادُ: التَّفكُّرُ في خلْقِ أنفُسِهم. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والواحديُّ، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧).
وقيل: قَولُه تعالى: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ ظرفٌ للتَّفَكُّرِ، وليس بمفعولٍ، فلم يُؤمَروا بالتَّفكُّرِ في خلْقِ أنفُسِهم، كأنَّه قال: أوَ لم يَتفكَّروا بعُقولِهم فيَعلموا أنَّ اللهَ ما خلَق السَّمواتِ والأرضَ إلَّا بالحقِّ. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وهو اختيارُ ابنِ جُزَي، وظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثير، ومال إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٩، ٤٠).
ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٨، ٤٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥١، ٥٢).

لِمُجازاتِهم ثَوابًا أو عِقابًا؟! فما خَلقَ الكَونَ باطِلًا وعَبَثًا بلا غَرَضٍ صحيحٍ، وحِكمةٍ بالغةٍ، وإنَّما خَلَقه مُقترِنًا بالحَقِّ، مَصحوبًا بالحِكمةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: ويَعلَموا أنَّ للسَّمواتِ والأرضِ وَقتًا محدَّدًا عندَ اللهِ، تَنتهي إليه، وتَفْنى فيه، وهو يومُ القيامةِ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه العِبادَ للحِسابِ والجزاءِ[(٢)]؟

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾.

أي: وإنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ كافِرونَ بوُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ، جاحِدونَ لحُصولِ الجزاءِ يومَ القيامةِ[(٣)].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أقام اللهُ تعالى على المشركينَ الدَّليلَ؛ أتْبَعه التَّهديدَ والتَّهويلَ[١].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: أوَلم يَسِرْ في الأرضِ[٢] هؤلاءِ المكَذِّبونَ بالبَعثِ، الغافِلونَ عن الآخِرةِ؛ فيَنظُروا كيف كان آخِرُ أمرِ الَّذين مِن قَبلِهم، فيَعتَبِروا ويتَّعِظوا حينَ يَرَوا آثارَ إهلاكِ اللهِ لهم؛ بسَبَبِ كُفرِهم وشِرْكهم، وتَكذيبِهم رُسُلَهم[٣]؟!

﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

أي: قد أُعطِيَ أولئك مِنَ القُوَّةِ[٤] ما لم يُعطَوها هم[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠).

(٢) قال ابن عطية: (ولا يَتوجَّهُ للكَفَرةِ أن يُعارِضَ منهم مَن لم يَسِرْ، فيَقولَ: لم أَسِرْ؛ لأنَّ كافَّةَ مَن سار مِنَ النَّاسِ قد نَقَلَت إلى مَن لم يَسِرْ؛ فاستَوَتِ المعرفةُ، وحصَل اليقينُ للكُلِّ، وقامت الحُجَّةُ، وهذا بيِّنٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٦).

(٤) قيل: المرادُ بالقوَّةِ هنا: قوَّةُ الأبدانِ. ومِمَّن قال بذلك: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٣).
وقيل: المرادُ: قوَّةُ الأبدانِ والعُقولِ. ومِمَّن قال بذلك: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١).
قال ابن عاشور: (القوَّةُ: ... مجموعُ صِفاتٍ يكونُ بها بقاءُ الشَّيءِ على أكمَلِ أحوالِه، كما في قَولِه: ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ﴾ [النمل: ٣٣]؛ فقوَّةُ الأمَّةِ مجموعُ ما به تَدفَعُ العَواديَ عن كِيانِها، وتَستبقي صلاحَ أحوالِها؛ مِن عُدَدٍ حَربيَّةٍ، وأموالٍ، وأبناءٍ، وأزواجٍ. وحالةُ مُشركي قُرَيشٍ لا تُداني أحوالَ تلك الأمَمِ في القوَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾.

أي: وقَلَّبوا الأرضَ[(١)] وجَعَلوها أكثرَ عُمرانًا مِمَّا فَعَلوا هم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

---

(١) قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾: حرَثوها وقَلَّبوهَا لزِراعتِها. ومِمَّن قال بذلك: السمعانيُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٥٣).

ومِمَّن قال بهذا القولِ من السَّلَفِ: مجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٤٨٥).

وقيل: المرادُ: قَلَّبوها لاستنباطِ المياهِ، واستِخراجِ المعادِنِ، وزَرعِ البُذورِ، وغيرِ ذلك، فأخرَجوا ما فيها مِنَ المنافعِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ عطيَّة، والبيضاوي، والبِقاعي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

وقيل: الأقرَبُ أن يكونَ (أثاروا) هنا تمثيلًا لحالِ شِدَّةِ تصَرُّفِهم في الأرضِ وتغَلُّبِهم على مَن سِواهم، بحالِ مَن يُثيرُ ساكِنًا ويُهيجُه. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

قال ابن عاشور: (ومعنى: عِمارةِ الأرضِ: جَعْلُها عامرةً غيرَ خلاءٍ؛ وذلك بالبناءِ والغَرسِ والزَّرعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٧).

وقال ابن عثيمين: (عَمَروا الأرضَ بالتِّجارةِ والبناءِ والمصانعِ وغيرِها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٥٤).

أي: وجاءتْهم رُسلُهم بالبَيِّناتِ الدَّالَّاتِ على الحقِّ، وعلى صِدقِهم وصِحَّةِ ما جاؤوهم به مِن عندِ الله تعالى، فكذَّبوهم، فلمْ يَقدِروا على الامتِناعِ مِن عذابِ اللهِ مع شِدَّةِ قُواهم، فما نفَعَتْهم قوَّتُهم، ولا أغنَتْ عنهم إثارتُهم الأرضَ وعِمارتُهم لها[١]!

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾.

أي: فلمْ يكُنِ اللهُ ليُعَذِّبَهم بلا ذنْبٍ أتَوه، ولم يكُنْ لِيُهلِكَهم مِن قَبلِ إرسالِ الرُّسلِ إليهم، وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم[٢].

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

أي: ولكنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم؛ بالكُفرِ باللهِ، والإشراكِ به، وتكذيبِ رُسُلِه، ومَعصيتِه[٣].

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾.

أي: ثمَّ كان آخِرَ أمرِ أهلِ السُّوءِ[٤] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

(٤) قيل: المعنى: أساؤوا بكُفرِهم وشِركِهم. ومِمَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والزجَّاج، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩).

وقال الشوكاني: (أي: عَمِلوا السَّيِّئاتِ مِن الشِّركِ والمعاصي). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٨).

أنْ حلَّ بهم عذابُ اللهِ[١]؛ بسبَبِ تكذيبِهم بآياتِ اللهِ سُبحانَه، واستِهزائِهم المستَمِرِّ بها[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ فيه الحثُّ على التَّفكُّرِ، وتوبيخُ مَن أعرَضَ عنه، فدلَّ ذلك على أهمِّيَّةِ التَّفكُّرِ؛ لأنَّ اللهَ لا يَحُثُّ على شَيءٍ ويُوَبِّخُ على تركِه إلَّا لِمَا فيه مِن الفائدةِ والمصلحةِ[٣]، فالتَّفكُّرُ في الأنفُسِ وفي خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ ونحوِ ذلك يدُلُّ على كمالِ قُدرةِ الصَّانعِ، وكمالُ قُدرتِه دالٌّ على

---

(١) قيل: السُّوأى: هي النَّارُ في الدَّارِ الآخرةِ. ومِمَّن قال بذلك: الزجَّاجُ، وابن أبي زمنين، والسمعاني، والزمخشري، والرازي، والشنقيطي، ونسَبَه الواحديُّ للأكثرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٦).

وقيل: المرادُ: الدَّمارُ والهلاكُ في الدُّنيا، وعذابُ النَّارِ في الآخرةِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣).

ومِمَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ، قال: العذابُ في الدُّنيا والآخرةِ. يُنظر: ((تفسير الماوَرْدي)) (٤/ ٣٠١).

وقيل: السُّوأى بمعنى الإساءةِ، أو الحالةِ السَّيِّئةِ الشَّنيعةِ، فيكونُ المعنى: أنَّهم أساؤوا بذُنوبِهم وعِصيانِهم حتَّى وقَعوا في آخِرِ الأمرِ في التَّكذيبِ بآياتِ الله، والاستهزاءِ بها. ومِمَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

ومِمَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عُيَيْنةَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٦، ٤٦٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٤٤).

عَظَمتِه، ومُلاحظةُ عظَمتِه داعٍ إلى طاعتِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فيه إشارةٌ إلى البَعثِ والنُّشورِ، وفسادِ بِنْيَةِ هذا العالَمِ[٢].

٢- قال تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ في التَّنصيصِ على ذِكرِ ما بينَ السَّمواتِ والأرضِ دليلٌ على أنَّ ما بيْنَهما أمرٌ عظيمٌ يُقارَنُ بنفْسِ السَّمواتِ والأرضِ، حيثُ استحقَّ أنْ يُجعلَ قَسيمًا لهما، فهذه ثلاثةُ أشياءَ: (السَّمواتُ، والأرضُ، وما بينهما)، ومِن المعلومِ عِظَمُ الأرضِ وعِظَمُ السَّماءِ؛ إذَنْ: فعِظَمُ ما بيْنَهما مُوازٍ لهما[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ لم يقُلْ: (أكثَرَ ممَّا أثاروها)؛ لِكَونِ قُرَيشٍ لم تكُنْ لهم إثارةٌ في الأرضِ؛ إذ كانوا بِوادٍ غيرِ ذي زَرعٍ، إنَّما كان لهم عِمارةٌ في الأرضِ من غرسٍ قليلٍ وبِناءٍ وتفجيرٍ، ولكنَّه يَتضاءلُ أمامَ عمارةِ الأُمَمِ السَّالِفةِ مِن عادٍ وثَمودَ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ دَلالةٌ على أنَّ إثارةَ الأرضِ -أي: الاشتغالَ بالزِّراعةِ- مِن أسبابِ القوَّةِ بلا شكٍّ، وكذلك عُمرانُ الأرضِ بغيرِ الإثارةِ -بالبناءِ والتِّجارةِ وما أشبَهَ

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٨).

ذلك- مِن أسبابِ القُوَّةِ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾، وقال في حَقِّ الَّذين أحسَنوا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٧]، فذَكَر (الزِّيادةَ) في حَقِّ المحسِنِ، ولم يَذكُرِ الزِّيادةَ في حَقِّ المُسيءِ؛ لأنَّ جزاءَ سَيِّئةٍ سَيِّئةٌ مِثلُها[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾، وقال في حقِّ الذين أحسَنوا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٧]، فلم يذكُرْ في المحسِنِ أنَّ له الحُسنى بأنَّه صَدَّقَ، وذكَرَ في المُسيءِ أنَّ له السُّوأى بأنَّه كذَّب؛ لأنَّ الحُسنى للمُحسِنينَ فَضلٌ، والمتفَضِّلُ لو لم يكُنْ تفَضُّلُه لِسَببٍ يكونُ أبلَغَ، وأمَّا السُّوأى للمُسيءِ فعَدلٌ، والعادِلُ إذا لم يكُنْ تَعذيبُه لِسَببٍ لا يكونُ عَدلًا؛ فذُكِرَ السَّببُ في التَّعذيبِ، وهو الإصرارُ على التَّكذيبِ، ولم يُذكَرِ السَّبَبُ في الثَّوابِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ ﴾ استِفهامُ إنكارٍ واستِقباحٍ؛ لِقَصرِ نَظَرِهم على ما ذُكِرَ مِن ظاهِرِ الحياةِ الدُّنيا مع الغَفلةِ عن الآخِرةِ، والواوُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ[٤]. وقيل: الاستفهامُ تَعجُّبيٌّ مِن غَفلتِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥١).

وعدَمِ تفكُّرِهم[١].

- و﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ مَعمولٌ لـ ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾؛ إمَّا على تَقديرِ مُضافٍ، أي: في خلْقِ أنفُسِهم لِيَخرُجوا مِن الغَفْلةِ، فيَعْلموا أنَّهم يَعلَمون ظاهرًا مِن الحياةِ الدُّنيا فقط، ويَستدِلُّوا بذلك على الإلهِ الخالِقِ. وإمَّا على أنْ يكونَ ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ ظرْفًا للفِكرةِ في خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، فيكونَ ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ توكيدًا لقولِه: ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾، كما تقولُ: أبصِرْ بعَينِك، واسمَعْ بأُذُنِك؛ كأنَّه قال: أوَلَمْ يُحدِثوا التَّفكُّرَ في أنفُسِهم؟ أي: في قُلوبِهم الفارغةِ مِن الفِكرِ. والفِكرُ لا يكونُ إلَّا في القلوبِ، ولكنَّه زِيادةُ تَصويرٍ لحالِ المُتفكِّرينَ، كقولِك: اعتقِدْه في قلْبِك، وأضْمِرْه في نفْسِك. أو يكونَ صِلةً للتَّفكُّرِ، كقولِك: تَفكَّرَ في الأمْرِ وأجال فِكْرَه. و﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ مُتعلِّقٌ بالقولِ المحذوفِ، معناه: أوَلَمْ يَتفكَّروا، فيقولوا هذا القولَ؟ وقيل: معناه: فيَعلَموا؛ لأنَّ في الكلامِ دليلًا عليه، وهو قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾[٢].

- وحرْفُ (في) مِن قَولِه: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ يجوزُ أنْ يكونَ للظَّرفيَّةِ الحقيقيَّةِ الاعتباريَّةِ؛ فيكونَ ظَرفًا لمَصدَرِ ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾، أي: تَفكُّرًا مُستقِرًّا في أنفُسِهم. ومَوقعُ هذا الظَّرفِ ممَّا قبْلَه مَوقعُ مَعنى الصِّفَةِ للتَّفكُّرِ. وإذ قدْ كان التَّفكُّرُ إنَّما يكونُ في النَّفْسِ، فذُكِرَ ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾؛ لتَقْويةِ تَصويرِ التَّفكُّرِ، وهو كالصِّفةِ الكاشفةِ؛ لتَقرُّرِ معنَى التَّفكُّرِ عندَ السَّامعِ، وتكون جُملةُ ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ...﴾ إلخ على هذا مُبيِّنةً لِجُملةِ ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾؛ إذ مَدلولُها هو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥١).

ما يَتفكَّرون فيه. وقيل غيرُ ذلك[١].

- وفائدةُ ذِكرِ السَّمواتِ هنا في قولِه: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾: أنَّ في أحوالِ السَّمواتِ -مِن شمْسِها وكواكبِها وملائكتِها- ما هو مِن جُملةِ الحقِّ الذي خُلِقَت مُلابِسةً له، أمَّا ما وراءَ ذلك مِن أحوالِها الَّتي لا نَعرِفُ نِسبةَ تعلُّقِها بهذا العالَم؛ فنَكِلُ أمْرَه إلى اللهِ، ونَقِيسُ غائبَه على الشَّاهدِ، فنُوقِنُ بأنَّه ما خُلِقَ إلَّا بالحقِّ كذلك؛ فشَواهدُ حَقِّيَّةِ البعثِ والجزاءِ باديةٌ في دقائقِ خَلْقِ المخلوقاتِ؛ ولذلك أعقَبَه بقولِه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾، وهذا كقولِه تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾[٢] [المؤمنون: ١١٥].

- قولُه: ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ عطْفٌ تَفسيريٌّ على قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ وذلك أنَّ هذا في حقِّ مُنكِري البعثِ؛ بدليلِ تَعقيبِه بقولِه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ تَقْريعًا وتَوبيخًا[٣].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ تَذييلٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه ببَيانِ أنَّ أكثَرَهم غيرُ مُقتصِرينَ على ما ذُكِرَ مِن الغَفلةِ عن أحْوالِ الآخرةِ، والإعراضِ عن التَّفكُّرِ فيما يُرشِدُهم إلى مَعرفتِها مِن خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما مِن المَصنوعاتِ، بلْ هم مُنكِرون جاحِدونَ بلِقاءِ حِسابِه تعالى وجَزائِه بالبعثِ[٤]. وتأْكيدُه بـ (إنَّ)؛ لتَنزيلِ السَّامعِ مَنزلةَ مَن يشُكُّ في وُجودِ مَن يَجحَدُ لِقاءَ اللهِ بعدَ هذا الدَّليلِ الَّذي مَضى، بَلْهَ أنْ يكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٢).

الكافرونَ به كثيرًا[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قدَّمَ هنا دَلائلَ الأنفُسِ ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ على دَلائلِ الآفاقِ ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ -وهذا على جعلِ الأنفسِ محلَّ التفكُّرِ لا ظرفًا له-، وقدَّمَ في قولِه: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصلت: ٥٣] دَلائلَ الآفاقِ على دَلائلِ الأنفُسِ؛ وحِكمةُ ذلك: أنَّ المُفيدَ يَذكُرُ الفائدةَ على وجْهٍ يَختارُها، فإنْ فُهِمَت، وإلَّا انتقَلَ إلى الأبْيَنِ، والمُستفيدُ يَفهَمُ أوَّلًا الأبْيَنَ، ثمَّ يَرْتَقي إلى الأخْفى، وفي ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾ بفِعلٍ مُسنَدٍ إلى السَّامعِ؛ فبدَأَ بما يَفهَمُ أوَّلًا، ثمَّ ارْتَقى إليه ثانيًا. وفي ﴿سَنُرِيهِمۡ﴾ أُسنِدَ إلى المُفيدِ، فذكَرَ أوَّلًا الآفاقَ، فإنْ لم يَفهَموا، فالأنفُسُ؛ إذ لا ذُهولَ للإنسانِ عن دَلائلِها، بخلافِ دَلائلِ الآفاقِ؛ لأنَّه قد يَذهَلُ عنها، وهذا مُراعًى في ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا﴾ [آل عمران: ١٩١] الآيةَ؛ بدَأَ بأحوالِ الأنفُسِ، ثمَّ بدَلائلِ الآفاقِ[٢].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّه قال هنا: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، وقال قبْلُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٦]؛ وذلك أنَّ هنا ذكَرَ ﴿كَثِيرٗا﴾ بعدَ ذِكْرِ الدَّلائلِ الواضحةِ، وهما: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، و﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾، والإيمانُ بعدَ الدَّلائلِ أكثَرُ مِن الإيمانِ قبْلَها، فبَعْدَ ذِكرِ الدَّليلِ لا بُدَّ أنْ يُؤمِنَ مِن ذلك الأكثَرِ جمْعٌ، فلا يَبْقى الأكثرُ[٣]. وقِيل: لم يُعبِّرْ هنا بـ (أَكْثَر النَّاس)؛ لأنَّ المُثبتينَ للبعثِ كثيرونَ؛ مِثلُ أهلِ الكتابِ والصَّابئةِ، والمَجوسِ والقِبطِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٥).

٢- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تَقْريرُ تَوبيخٍ لهمْ بعدَم اتِّعاظِهم بمُشاهَدةِ أحوالِ أمثالِهم الدَّالَّةِ على عاقِبَتِهم ومآلِهم. والهمزةُ في ﴿أَوَلَمْ﴾ لِتَقريرِ المنْفيِّ، والهمزةُ أصْلُها: إمَّا الإنكارُ بتَنزيلِ المُقِرِّ مَنزلةَ المُنكِرِ؛ لِيَكونَ إقرارُه أشدَّ لُزومًا له، وإمَّا أنْ تكونَ للاستفهامِ، فلمَّا دخَلَت على النَّفيِ أفادَتِ التَّقريرَ؛ لأنَّ إنكارَ النَّفيِ إثباتٌ للمَنْفيِّ، وهو إثباتٌ مُستعمَلٌ في التَّقريرِ على وجْهِ الكِنايةِ، والواوُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ، أي: أقَعَدُوا في أماكنِهم ولم يَسِيرُوا[1]؟!

- وقد جمَعَ قولُه: ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وَعيدًا على تَكذيبِهم النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتجْهيلًا لإحالتِهم المُمكِنَ؛ حيث أيْقَنوا بأنَّ الفُرْسَ لا يُغلَبون بعدَ انتِصارِهم؛ فهذه آثارُ أُمَمٍ عظيمةٍ كانت سائدةً على الأرضِ، فزال مُلْكُهم، وخلَتْ بِلادُهم مِن سبَبِ تغلُّبِ أُمَمٍ أُخرى عليهم[2].

- قولُه: ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، أي: أكثَرَ مِن عِمارةِ أهْلِ مكَّةَ، وأهْلُ مكَّةَ أهْلُ وادٍ غيرِ ذي زرْعٍ، لا تبسُّطَ لهم في غيرِه، وفيه تهكُّمٌ بهم مِن حيثُ إنَّهم مغترونَ بالدُّنيا مفتخِرونَ بها، وهم أضعفُ حالًا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦ و٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٦).

فيها؛ إذْ مَدارُ أمْرِها على التَّبسُّطِ في البلادِ، والتَّسلُّطِ على العِبادِ، والتَّقلُّبِ في أكنافِ الأرضِ بأصنافِ التَّصرُّفاتِ، وهمْ ضَعفةٌ مُلْجَئون إلى وادٍ لا نفْعَ فيه، يخافُون أنْ يَتخطَّفَهم النَّاسُ، ففي ذِكرِ (أفعل) تهكُّمٌ بهم؛ إذ لا مناسبةَ بينَ كفَّارِ مكةَ وأولئك الأممِ المهلكَةِ[(١)].

- وفي قولِه: ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أُطلِقَت الإثارةُ على قلْبِ تُرابِ الأرضِ بجَعْلِ ما كان باطنًا ظاهرًا، وهو الحرْثُ، ويجوزُ أنْ يكونَ (أثَارُوا) هنا تمْثيلًا لحالِ شِدَّةِ تصرُّفِهم في الأرضِ، وتغلُّبِهم على مَن سِواهم، بحالِ مَن يُثيرُ ساكنًا ويُهَيِّجُه، وهذا الاحتمالُ أنسَبُ بالمقصودِ الَّذي هو وصْفُ الأُمَمِ بالقوَّةِ والمَقدِرةِ مِن احتمالِ أنْ تكونَ الإثارةُ بمعنى حرْثِ الأرضِ؛ لأنَّه يَدخُلُ في العِمارةِ[(٢)].

- وتفْريعُ قولِه: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ على قولِه: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إيجازُ حَذْفٍ بَديعٌ؛ لأنَّ مَجيءَ الرُّسلِ بالبيِّناتِ يَقْتضي تَصديقًا وتكذيبًا، فلمَّا فرَّعَ عليه أنَّهم ظَلَموا أنفُسَهم، عُلِمَ أنَّهم كذَّبوا الرُّسلَ، وأنَّ اللهَ جازاهُم على تَكذيبِهم رُسُلَه؛ بأنْ عاقَبَهم عِقابًا لو كان لغيرِ جُرْمٍ لَشابَهَ الظُّلمَ، فجعَلَ مِن مَجموعِ نفْيِ ظُلْمِ اللهِ إيَّاهم، ومِن إثباتِ ظُلْمِهم أنفُسَهم؛ مَعرفةَ أنَّهم كذَّبوا الرُّسلَ وعانَدوهُم، وحلَّ بهم ما هو مَعلومٌ مِن مُشاهَدةِ دِيارِهم، وتناقُلِ أخبارِهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٨).

- وقولُه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ استِدراكٌ ناشئٌ على ما يَقْتضيهِ نفْيُ ظُلْمِ اللهِ إيَّاهم مِن أنَّهم عُومِلوا مُعامَلةً سيِّئةً، لو لم يَستحِقُّوها لكانت مُعامَلةَ ظُلْمٍ. وعبَّرَ عن ظُلْمِهم أنفُسَهم بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ ظُلْمِهم وتكرُّرِه، وأنَّ اللهَ أمْهَلَهم، فلم يُقلِعوا حتَّى أخَذَهم بما دلَّت عليه تلك العاقبةُ، والقرينةُ قولُه: ﴿كَانُوٓاْ﴾[1].

- وتَقديمُ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ وهو مفْعولُ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ على فِعلِه؛ للاهتِمامِ بأنفُسِهم في تَسْليطِ ظُلْمِهم عليها؛ لأنَّه ظُلْمٌ يُتعجَّبُ منه، مع ما فيه مِن الرِّعايةِ على الفاصلةِ[2]. وقيل: قُدِّمَ المفعولُ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾؛ لإفادةِ الحَصرِ، أي: لا يَظلِمونَ بهذا إلَّا أنفُسَهم، أمَّا اللهُ تبارك وتعالى فإنَّهم لا يَظلِمونَه؛ لأنَّه سُبحانَه وبِحَمدِه لا يَتضَرَّرُ بمَعصيتِهم، كما لا يَنتفِعُ بطاعتِهم[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى في الدَّليلينِ المُتقدِّمَينِ في سُورةِ العنكبوتِ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٩]، و﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، بلفْظِ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، ولم يقُلْ: (أولمْ يَسِيروا)؛ إذ لا حاجةَ هناك إلى السَّيرِ بحُضورِ النَّفْسِ والسَّماءِ والأرضِ، وقال هاهنا: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ ... فَيَنظُرُواْ﴾، ذكَّرهم بحالِ أمثالِهم، ووَبالِ أشْكالِهم، ثمَّ ذكَرَ أنَّهم أَولى بالهَلاكِ؛ لأنَّ مَن تقدَّمَ مِن عادٍ وثمودَ كانوا أشدَّ منهم قوَّةً، ولم تَنفَعْهم قُواهُم، وكانوا أكثَرَ مالًا وعِمارةً، ولم يَمنَعْ عنهم الهلاكَ أمْوالُهم وحُصونُهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ...﴾، أي: ثمَّ كان عاقبتُهم العاقبةَ السُّوأى أو الخَصلةَ السُّوأى؛ فوُضِعَ الظَّاهرُ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ للدَّلالةِ على ما اقْتَضى أنْ تكونَ تلك عاقبتَهم، وأنَّهم جاؤوا بمِثلِ أفعالِهم[1].

- قولُه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ لأنَّ هذه العاقبةَ أعظَمُ رُتبةً في السُّوءِ مِن عذابِ الدُّنيا؛ فيجوزُ أنْ يكونَ هذا الكلامُ تَذييلًا لحِكايةِ ما حلَّ بالأُمَمِ السَّالفةِ مِن قولِه: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الروم: ٩]، والمعنى: ثمَّ كان عاقبةُ كلِّ مَن أساؤُوا السُّوأى مِثْلَهم، فيكونَ تَعريضًا بالتَّهديدِ لِمُشركي العرَبِ، كقولِه تعالى: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، فالمرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ كلُّ مُسيءٍ مِن جِنسِ تلك الإساءةِ، وهي الشِّركُ. ويجوزُ أنْ يكونَ إنْذارًا لِمُشركي العرَبِ المُتحدَّثِ عنهم مِن قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]، فيكونوا المُرادَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾، ويكونَ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ على خِلافِ مُقتضَى الظَّاهرِ؛ لِقصْدِ الإيماءِ بالصِّلةِ، أي: أنَّ سبَبَ عاقِبَتِهم السُّوأى هو إساءتُهم، وهذا إنذارٌ بعدَ الموعظةِ، ونصٌّ بعدَ القِياسِ؛ فإنَّ اللهَ وعَظَ المكذِّبين للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعواقبِ الأُمَمِ الَّتي كَذَّبت رُسلَها؛ لِيَكونوا على حذَرٍ مِن مِثلِ تلك العاقبةِ بحُكْمِ قِياسِ التَّمثيلِ، ثمَّ أعقَبَ تلك الموعظةَ بالنِّذارةِ بأنَّهم ستَكون لهم مِثلُ تلك العاقبةِ، وأوقَعَ فِعلَ (كان)

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣).

الماضي في مَوقعِ المُضارِعِ؛ للتَّنبيهِ على تَحقيقِ وُقوعِه، مِثلُ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]؛ إتمامًا للنِّذارةِ. ويَحتمِلُ أنْ يُرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ الأُمَمُ الَّذين أثارُوا الأرضَ وعَمَروها، فتَكونَ مِن وضْعِ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ توسُّلًا إلى الحُكْمِ عليهم بأنَّهم أساؤوا واسْتَحَقُّوا السُّوأى، وهي جهنَّمُ، على قولٍ في التَّفسيرِ[١].

- ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ صِلةَ الفِعلِ ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾، و﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ تابِعَها -أي: بدلًا أو عطفَ بيانٍ-، والخبرُ مَحذوفٌ؛ للإبهامِ والتَّهويلِ. وأنْ تكونَ (أَنْ) مُفسِّرةً؛ لأنَّ الإساءةَ إذا كانت مُفسَّرةً بالتَّكذيبِ والاستهزاءِ كانت مُتضمِّنةً مَعنى القولِ[٢].

- قولُه: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فيه تقْديمُ المجرورِ ﴿بِهَا﴾؛ للاهتمامِ بشأْنِ الآياتِ، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٩، ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٠).

الآيات (١١-١٦)

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُبۡلِسُ﴾: أي: يَيأسُ، وتَنقَطِعُ حُجَّتُه، وأصلُ (بلس): يدُلُّ على يأسٍ[١].

﴿رَوۡضَةٖ﴾: الرَّوضةُ: هي البُستانُ الَّذي هو فِي غايةِ النَّضارةِ والحُسنِ، والمرادُ بها الجنَّةُ، والرَّوضةُ: كلُّ أرضٍ ذاتِ نباتٍ وماءٍ، وأصلُ (روض): يدُلُّ على اتِّساعٍ[٢].

﴿يُحۡبَرُونَ﴾: أي: يُسَرُّونَ ويُنعَّمونَ، والحَبْرةُ: السُّرورُ، وأصلُ (حبر): يدُلُّ على الأثَرِ في حُسنٍ وبَهاءٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى ما يدُلُّ على قُدرتِه، ويذكرُ أحوالَ الناسِ وأقسامَهم يومَ القيامةِ، فيقولُ: اللهُ وَحْدَه يبدأُ إنشاءَ الخَلقِ مِن العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُه فيُحييه مرَّةً ثانيةً بعدَ فَنائِه، ثمَّ يَرجِعُ الخَلقُ جميعًا إليه وحْدَه يومَ القيامةِ.

ثمَّ يبيِّنُ حالَ المجرمينَ فيقولُ: ويومَ القيامةِ يَيئسُ المُشركونَ مِن رحمةِ اللهِ، وتَنقَطِعُ حُجَّتُهم ويَندَمونَ، ولم يكُنْ لهم ممَّا أشرَكوه مِن دُونِه سُبحانَه شُفَعاءُ يَشفَعونَ لهم يومَ القيامةِ، وكَفَر هؤلاء المُشركونَ بمَن اتَّخذُوهم شُرَكاءَ لله تعالى.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى تفرُّقَ النَّاسِ يومَ القيامةِ وكيفيَّةَ هذا التَّفرُّقِ، فيقولُ: ويومَ القيامةِ يَتفرَّقُ الخَلقُ بيْنَ أهلِ إيمانٍ باللهِ، وأهلِ كُفرٍ به؛ فأمَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ فهم في رياضِ الجنَّةِ يُنَعَّمونَ ويُسَرُّونَ، وأمَّا الَّذين كَفَروا وكذَّبوا بآياتِ اللهِ وأنكَروا البَعثَ بعدَ الموتِ للحِسابِ والجَزاءِ، فأولئك في عذابِ اللهِ مُحضَرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ عاقِبةَ الكافِرينَ إلى الجَحيمِ، وكان في ذلك إشارةٌ إلى الإعادةِ والحَشرِ؛ لم يَترُكْه دَعوى بلا بيِّنةٍ[1].

وأيضًا لَمَّا كان حاصِلُ ما مضَى أنَّه سُبحانَه وتعالى قادِرٌ على الإعادةِ، كما قَدَر على الابتداءِ، وكان للتَّصريحِ مع النَّفْسِ حالةٌ ليست لِغَيرِه- قال ذاكِرًا نتيجةَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٤).

ما مضى ومُحَصِّلَه؛ تصريحًا بالمقصودِ، وتلخيصًا للدَّليلِ[١]:

﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾.

أي: اللهُ وحْدَه الَّذي يَبدأُ إنشاءَ جميعِ المَخلوقاتِ مِن العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُها فيُحييها مرَّةً ثانيةً بعدَ فَنائِها[٢].

﴿ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾.

أي: ثمَّ تُردُّونَ يومَ القيامةِ إلى الله وحْدَه، فيُجازيكم بأعمالِكم[٣].

﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى الرُّجوعَ؛ أتْبَعَه ببَعضِ أحوالِه، بقَولِه تعالى[٤]:

﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ ﴾.

أي: ويومَ القيامةِ يَيئَسُ المُشرِكونَ مِن رَحمةِ اللهِ، وتَنقَطِعُ حُجَّتُهم ويَندَمونَ[٥].

﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٦٨، ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٧٢، ٧٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه ذكَرَ أحدَ أسبابِ الإبلاسِ وأعظَمَها حينَئذٍ، وهو أنَّهم لم يَجِدوا شُفَعاءَ مِن آلهتِهم الَّتي أشرَكوا بها، وكانوا يحسَبونَها شُفَعاءَ عندَ اللهِ(١).

﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ ﴾.

أي: ولم يكُنْ للمُشرِكينَ مِن معبوداتِهم الباطلةِ -الَّتي جعَلوها شُرَكاءَ للهِ- شُفَعاءُ يَشفَعونَ لهم في الآخِرةِ، فيَجلِبونَ لهم نَفعًا، أو يَدفَعونَ عنهم ضُرًّا(٢).

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾ [القصص: ٦٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾.

أي: ويَكفُرُ أولئك المُشرِكونَ بمَنِ اتَّخَذوهم شُرَكاءَ للهِ تعالى(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٧٤، ٧٥).
ممَّن ذهب إلى أنَّ معنى شُركائِهم: مَعبوداتُهم الَّتي اتَّخَذوها شُركاءَ لله في عبادتِه: السمعانيُّ، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.
وقيل: معنى شركائِهم: الَّذين كانوا يتَّبِعونَهم على ما دَعَوْهم إليه مِن الضَّلالةِ، فيُشاركونَهم في الكفرِ بالله، والمُعاوَنةِ على أذى رُسُلِه. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٦٥).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١)، ((تفسير ابن =

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بيَّن أمرًا آخَرَ يكونُ في يومِ القيامةِ، وهو الافتِراقُ، فكأنَّ هذه الحالةَ مُتَرتِّبةٌ على الإبلاسِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إبلاسَ المُشرِكينَ المُشعِرَ بتوقُّعِهم السُّوءَ والعذابَ؛ أعقَبَ بتَفصيلِ أحوالِ النَّاسِ يومَئذٍ، مع بيانِ مَغَبَّةِ إبلاسِ الفَريقِ الكافِرينَ[(٢)].

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

أي: ويَومَ القيامةِ يتفرَّقُ الخَلقُ بيْنَ مُؤمِنينَ وكافِرينَ[(٣)].

= كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

مِمَّن قال بأنَّ المرادَ: كُفرُ المشركينَ بآلهتِهم المزعومةِ وتبرُّؤُهم منهم: السمعانيُّ، وابن عطية، والرسعني، والبقاعي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٧).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ: كُفرُ معبوداتِهم بهم: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦).

قال القرطبي: ﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ قالوا: ليسوا بآلِهةٍ، فتَبرَّؤُوا منها، وتبَرَّأَتْ منهم). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٧٢).

وقال السعديُّ: (تبرَّأ المشركون ممَّن أشرَكوهم مع الله، وتبرَّأ المعبودون وقالوا: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]، والْتَعَنوا وابتعَدوا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

وقال ابن عثيمين: (المعبودون يَكفرون، والعابِدون أيضًا يَكفرون؛ كلٌّ منهم يَكفُرُ ببعضٍ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٧٧).

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

أي: فأمَّا الَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ فهُم في بساتينَ مُشتَمِلةٍ على المياهِ والأزهارِ، والأشجارِ والنَّباتاتِ البَهيجةِ، والرَّوائحِ الطَّيِّبةِ والمَناظِرِ الجميلةِ: يُسَرُّون فيها سُرورًا شديدًا، يَظهَرُ أثرُه وحُسْنُه عليهم(١).

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

أي: وأمَّا الَّذين كَفَروا وكذَّبوا بآياتِ اللهِ، وأنكَروا البَعثَ بعدَ الموتِ للحِسابِ والجزاءِ: فأولئك يُؤتَى بهم إلى النَّارِ، فيَبقَونَ فيها، لا يَغيبُ عنهم عذابُها(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢، ١٣)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٧٨-٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤).

قال الماوَرْدي: (قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ فيه خمسةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: مُدْخَلون، قاله يحيى بنُ سلَّام.

الثَّاني: نازِلون، ومنه قولُه: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [البقرة: ١٨٠] و [المائدة: ١٠٦]، أي: نزَل به. الثَّالثُ: مُقيمون، قاله ابنُ شجرة. الرابعُ: مُعَذَّبون. الخامسُ: مَجموعون. ومعاني هذه التَّأويلاتِ مُتقارِبةٌ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٠٢). ويُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٤٨).

وقال ابن عاشور: (و﴿مُحۡضَرُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مِن الإحضارِ، أي: جَعْلِ الشَّيءِ حاضِرًا، أي: لا يَغيبونَ عنه، أي: لا يَخرُجونَ منه...، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ بمعنَى: مَأْتِيٌّ بهم إلى العذابِ، فقد كَثُر في القرآنِ استعمالُ مُحْضَرٍ ونحوِه بمعنَى مُعاقَبٍ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤). =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [سبأ: ٣٨].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ دَلالةٌ على أنَّ البعثَ ليس ابتِداءَ خَلقٍ، ولكِنَّه إعادةٌ، خلافًا لِمَن قال: «إنَّ البعثَ ابتِداءُ خَلقٍ»؛ فقَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الضَّميرُ يعودُ إلى الخَلقِ المُبتدَأ، ولو كانتِ الإعادةُ ابتِداءَ خَلقٍ جديدٍ لكان يُعذِّبُ مَن لم يَعمَلْ، ويُنَعِّمُ مَن لم يعمَلْ، ولكِنَّ البعثَ إعادةٌ لِمَا سَبقَ[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ ذكَرَ في المؤمِنِ العَمَلَ الصَّالحَ، ولم يذكُرْ في الكافِرِ العَمَلَ

= وممَّن ذهَب في الجملةِ إلى أنَّ المعنى: أنَّهم حاضِرون العذابَ، مُقيمون فيه، لا يَغيبون عنه: الزمخشريُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، وأبو السعود، والعُلَيمي، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٧).

وقال ابن جرير: (﴿مُحۡضَرُونَ﴾ قد أحْضَرهم اللهُ إيَّاها، فجَمَعهم فيها لِيَذوقوا العذابَ الَّذي كانوا به في الدُّنيا يُكَذِّبونَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٨٢).

وقال البِقاعي: (﴿مُحۡضَرُونَ﴾ مِن أيِّ محضَرٍ كان، بالسَّوقِ الحَثيثِ، والزَّجرِ العنيفِ، فإذا وصَلوا إلى مقرِّه وُكِّل بهم مَن يُديمُ كَوْنَهم كذلك -لإفادةِ الجملةِ الاسميَّةِ الدَّوامَ-، فلا يَغيبون عنه، ولا يُخفَّفُ عنهم). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٧٠).

السَّيِّئَ؛ لأنَّ العَمَلَ الصَّالحَ مُعتَبَرٌ مع الإيمانِ، وأمَّا الكافِرُ فهو في الدَّرَكاتِ بمُجَرَّدِ كُفرِه، فلو قال: (والذين كفَروا وعَمِلوا السَّيِّئاتِ في العذابِ مُحضَرونَ)، لكان العذابُ لِمن يَصدُرُ منه المجموعُ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو شُروعٌ فيما أُقِيمَت عليه هذه السُّورةُ مِن بسْطِ دَلائلِ انفرادِ اللهِ تعالى بالتَّصرُّفِ في النَّاسِ؛ بإيجادِهم وإعدامِهم، وبإمدادِهم وأطْوارِ حَياتِهم؛ لإبطالِ أنْ يكونَ لِشُركائِهم شَيءٌ مِن التَّصرُّفِ في ذلك؛ فهي دَلائلُ ساطعةٌ على ثُبوتِ الوَحدانيَّةِ الَّتي عَمُوا عنها؛ فقولُه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ استِدلالٌ بما لا يَسَعُهم إلَّا الاعترافُ به، وهو بَدْءُ الخلْقِ؛ إذ لا يُنازِعون في أنَّ اللهَ وحْدَه هو خالقُ الخلْقِ؛ ولذلك قال اللهُ تعالى: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الرعد: ١٦] الآيةَ. وحسَّنَ مَوقعَ الاستئنافِ وُرودُه بعدَ ذِكْرِ أُمَمٍ غابرةٍ وأُمَمٍ حاضرةٍ خلَفَ بعضُها بعضًا، وإذ كان ذلك مِثالًا لإعادةِ الأشخاصِ بعْدَ فَنائِها، وذِكْرِ عاقبةِ مَصيرِ المُكذِّبينَ للرُّسلِ في العاجلةِ؛ ناسَبَ في مَقامِ الاعتبارِ أنْ يُقامَ لهم الاستِدلالُ على إمكانِ البَعثِ؛ لِيَقَعَ ذِكْرُ ما يَعقُبُه مِن الجزاءِ مَوقعَ الإقناعِ لهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٠ - ٦١).

وذكَر ابنُ عاشورٍ: أنَّ هذه السُّورةَ اشتمَلَتْ على آياتٍ فصَّلَت دَلائلَ إبطالِ دِينِ الشِّركِ على أربعةِ استئنافاتٍ مُتماثِلةِ الأُسلوبِ، ابتُدِئَ كلُّ واحدٍ منها باسمِ الجلالةِ مُجْرًى عليه إخبارٌ عن حقائقَ لا قِبَلَ لهم بدَحْضِها؛ لأنَّهم لا يَسَعُهم إلَّا الإقرارُ ببَعضِها أو العجْزُ عن نقْضِ دَليلِها؛ فالاستئنافُ الأوَّلُ المَبْدوءُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، والثَّاني المَبْدوءُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾ [الروم: ٤٠]، والثَّالثُ المَبْدوءُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الروم: ٤٨]، والرَّابعُ المَبْدوءُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾ [الروم: ٥٤]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦١).

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ تَقديمُ اسمِ الجَلالةِ على المُسنَدِ الفِعليِّ لمُجرَّدِ التَّقَوِّي[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إدْماجٌ[٢]؛ لأنَّه إذا سُلِّمَ له بَدْءُ الخَلْقِ، كان تَسليمُ إعادتِه أَولى وأجدَرَ[٣].

- (ثمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ -كما هو شأْنُها في عطْفِ الجُمَلِ-؛ وذلك أنَّ شأْنَ الإرجاعِ إلى اللهِ أعظَمُ مِن إعادةِ الخلْقِ؛ إذ هو المَقصدُ مِن الإعادةِ ومِن بَدْءِ الخَلْقِ[٤].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ مُقْتضَى الظَّاهرِ الغَيبةُ، لكنَّه عدَلَ عنه إلى خِطابِ المشركينَ؛ لِمُكافَحتِهم بالوعيدِ، ومُواجهتِهم بالتَّهديدِ، والمُبالَغةِ في إيهامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦١).

(٢) الإدماجُ: هو أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيُقرنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المَسوقِ له الكلامُ، ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجَتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة: البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّه مَخصوصٌ بهم. وتَقديمُ ﴿إِلَيۡهِ﴾؛ للتَّخصيصِ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]؛ تَبْيينًا لحالِ المُشركينَ في وقْتِ ذلك الإرجاعِ، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقال: ويومئذٍ يُبلِسُ المُجرمون، أو يومَئذٍ تُبْلِسون، أي: ويومَ تُرجَعون إليه يُبلِسُ المُجرمون؛ فعُدِلَ عن تَقديرِ الجُملةِ المُضافِ إليها (يوم) الَّتي يدُلُّ عليها ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، بذِكْرِ جُملةٍ أُخرى هي في مَعناها؛ لِتَزيدَ الإرجاعَ بَيانًا أنَّه إرجاعُ النَّاسِ إليه يومَ تقومُ السَّاعةُ؛ فهو إطنابٌ لأجْلِ البَيانِ، وزيادةِ التَّهويلِ؛ لِمَا يَقْتَضيه إسنادُ القيامِ إلى السَّاعةِ مِن المُباغَتةِ والرُّعبِ. ويدُلُّ لهذا القصْدِ تَكريرُ هذا الظَّرفِ في الآيةِ بعْدَها بهذا الإطنابِ[٢].

- والمُجرمون: المُشركون، وهمُ الَّذين أُجْرِيَت عليهم ضَمائرُ الغَيبةِ وضمائرُ الخِطابِ؛ بقرينةِ قولِه: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾، والإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإجراءِ وصْفِ الإجرامِ عليهم. ووُصِفوا بالإجرامِ؛ لتَحقيرِ دِينِ الشِّركِ، وأنَّه مُشتمِلٌ على إجرامٍ كبيرٍ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٢).

- قولُه: ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ ﴾ فيه نفْيُ فِعلِ (يكُن) بـ(لمْ) الَّتي تُخَلِّصُ المُضارعَ للمُضِيِّ؛ للإشارةِ إلى تَحقيقِ حُصولِ هذا النَّفيِ[١].

- ومُقابَلةُ ضَميرِ الجمْعِ بصِيغةِ جمْعِ الشُّركاءِ في قولِه: ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ ﴾ مِن بابِ التَّوزيعِ، أي: لم يكُنْ لأحدٍ مِن المُجرمين أحَدٌ شَفيعٌ فضْلًا عن عِدَّةِ شُفعاءَ، وكذلك قولُه: ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾؛ لأنَّ المرادَ أنَّهم يَكفُرون بهم يومَ تقومُ السَّاعةُ[٢].

- قولُه: ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ معناه: ويكونُ عندَ مُعاينَتِهم أمْرَ اللهِ، وفسادَ حالِ الأصنامِ، عبَّرَ بالماضي؛ لِتَيقُّنِ الأمْرِ، وصِحَّةِ وُقوعِه[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ أُعِيدَ؛ لِتَهويلِه، وتَفظيعِ ما يقَعُ فيه[٤]، فقيامُ الساعةِ أمرٌ هائلٌ؛ فكرَّره تأكيدًا للتخويفِ[٥].

- قولُه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ تَهْويلٌ له إثْرَ تَهويلٍ[٦]، وكرَّرَ ﴿يَوۡمَئِذٖ ﴾؛ لِتأْكيدِ حَقيقةِ الظَّرفيَّةِ[٧].

- والتَّفرُّقُ: انقسامُ الجمْعِ، وتشتُّتُ أجزاءِ الكلِّ، وقد كُنِّيَ به هنا في قولِه

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٣).

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ عن التَّباعُدِ؛ لأنَّ التَّفرُّقَ يُلازِمُه التَّباعدُ عُرْفًا. وقد فُصِّلَ التَّفرُّقُ هنا بقولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ إلى آخرِه[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ تَفصيلٌ وبَيانٌ لأحوالِ ذَيْنِكَ الفَريقينِ[٢].

- وبدأ بذِكرِ حالِ الَّذين آمَنوا، مع أنَّ الموضِعَ مَوضِعُ ذِكرِ المُجرِمينَ؛ لأنَّ المؤمِنَ يُوصَلُ إليه الثَّوابُ قبْلَ أن يُوصَلَ إلى الكافِرِ العِقابُ؛ حتَّى يرى ويَتحَقَّقَ أنَّ المؤمِنَ وَصَل إلى الثَّوابِ، فيَكونَ أنكَى، ولو أُدخِلَ الكافِرُ النَّارَ أوَّلًا لكان يَظُنُّ أنَّ الكُلَّ في العذابِ مُشتَرِكونَ؛ فقدَّم ذلك زيادةً في إيلامِهم[٣].

- قولُه: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ إنَّما خَصَّ جلَّ ثناؤُه ذِكْرَ الرَّوضةِ في هذا الموضعِ؛ لأنَّه لم يكُنْ عندَ الطَّرفينِ أحسَنُ مَنظرًا، ولا أطيَبُ نَشْرًا مِن الرِّياضِ[٤].

- وجاء لَفظُ ﴿رَوْضَةٍ﴾ مُنكَّرًا، والتَّنكيرُ لإبهامِ أمْرِها وتَفخيمِه[٥].

- وجاء ﴿يُحْبَرُونَ﴾ بالفِعلِ المُضارِعِ؛ لاستِعمالِه للتَّجدُّدِ؛ لأنَّهم كلَّ ساعةٍ يأْتِيهم ما يُسَرُّون به مِن مُتجدِّداتِ الملاذِّ وأنواعِها المُختلِفةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٠).

٦- قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ صرَّحَ بذلك مع اندارجِه في تكذيبِ الآياتِ؛ للاعتِناءِ بأمْرِه[١].

- وقولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المَوصولِ، باعتبارِ اتِّصافِه بما في حيِّزِ الصِّلةِ مِن الكُفْرِ والتَّكذيبِ بآياتِه تعالى وبلقاءِ الآخِرةِ؛ للإيذانِ بكَمالِ تَميُّزِهم بذلكَ عن غيرِهم، وانتظامِهم في سلْكِ المُشاهَداتِ، وما فيهِ مِن معنَى البُعدِ مع قُرْبِ العهْدِ بالمُشارِ إليهِ؛ للإشعارِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الشَّرِّ[٢].

- وجاء ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ باسمِ الفاعلِ في قولِه: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾؛ لاستعمالِه للثُّبوتِ، فهمْ إذا دَخَلوا العذابَ يَبْقَون فيه مُحضَرينَ، فهو وصْفٌ لازِمٌ لهم[٣].

- وأيضًا ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مِن الإحضارِ، أي: جعْلِ الشَّيءِ حاضرًا، أي: لا يَغِيبون عنه، أي: لا يَخرُجون منه، وهو يُفِيدُ التَّأبيدَ بطريقِ الكِنايةِ؛ لأنَّه لَمَّا ذُكِرَ بعدَ قولِه: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾، ناسَبَ ألَّا يكونَ المقصودُ مِن وصْفِهم بالمُحضَرينَ أنَّهم كائِنون في العذابِ؛ لئلَّا يكونَ مُجرَّدَ تأْكيدٍ بمَدلولِ (في) الظَّرفيَّةِ؛ فإنَّ التَّأسيسَ أوقَعُ مِن التَّأكيدِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ بمعنى: مأْتيٌّ بهم إلى العذابِ؛ فقد كَثُرَ في القرآنِ استعمالُ (مُحضَرٍ) ونحوِه بمعنى مُعاقَبٍ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾[٤] [الصافات: ١٥٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤).

الآيات (١٧-٢٢)

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَعَشِيًّا﴾: أي: مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، أو مِن الظُّهرِ إلى نِصفِ اللَّيلِ، أو صلاةَ العصرِ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظَلامٍ، وقِلَّةِ وُضوحٍ في الشَّيءِ[1].

﴿تُظْهِرُونَ﴾: أي: تَدخُلونَ في وقتِ الظَّهيرةِ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى أنواعًا متعدِّدةً مِن الأدلَّةِ والبراهينِ على وحدانيَّتِه، فيقولُ: تَنزَّهَ اللهُ تعالى عن كلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، فنزِّهوه وسَبِّحوه -أيُّها النَّاسُ- حين تُمْسونَ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١).

وحينَ تُصبِحونَ، وله سُبحانَه الحَمدُ في السَّمَواتِ والأرضِ، فهو المحمودُ فيهما، ونَزِّهوه وسَبِّحوه أيضًا وقتَ العَشِيِّ ووقتَ الظَّهيرةِ. يُخرِجُ اللهُ بقُدرتِه الحَيَّ مِن الميِّتِ، كالإنسانِ مِن النُّطفةِ، ويُخرِجُ الميِّتَ مِن الحيِّ، كالنُّطفةِ مِن الإنسانِ، ويُحيي الأرضَ بالماءِ بعدَ جُدوبِها وقُحولِها، وكما يُحيي اللهُ الأرضَ بعدَ موتِها يُحييكم -أيُّها النَّاسُ- بعدَ مَوتِكم.

ومِنَ العلاماتِ الدَّالَّةِ على صِفاتِ اللهِ تعالى -كوحدانيَّتِه وقُدرتِه تعالى-: أنَّه ابتدَأَ خَلْقَكم مِن تُرابٍ؛ فخَلَق أباكم آدَمَ منه، ثمَّ إذا أنتم بشَرٌ أحياءٌ تَنتَشِرونَ في الأرضِ وتَسعَونَ فيها.

ومِنَ العلاماتِ الدَّالَّةِ على صِفاتِ الله تعالى: أنَّه خلَقَ لكم مِن أنفُسِكم أزواجًا؛ لِيَحصُلَ بيْنَكم السَّكَنُ والأُلْفةُ، وجعَلَ بيْنَكم محبَّةً ورَحمةً، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ على قُدرةِ اللهِ وحِكمتِه لِقَومٍ يتفَكَّرونَ.

ومِنَ العلاماتِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه تعالى: خَلْقُ السَّمَواتِ والأرضِ مِنَ العَدَمِ، واختِلافُ لُغاتِكم وألوانِكم مع أنَّ أصْلَكم واحدٌ؛ مِن أبيكم آدَمَ، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ لأُولي العِلمِ.

ومِنَ العَلاماتِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه تعالى: نَومُكم في اللَّيلِ والنَّهارِ لِراحةِ أبدانِكم، وطَلَبُكم رِزقَ اللهِ فيهما؛ إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ لِقَومٍ يَسمَعونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ تعالى عظيمَ قُدرتِه في خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ بالحقِّ - وهي حالةُ

ابتِداءِ العالَمِ-، وفي مَصيرِهم إلى الجنَّةِ والنَّارِ -وهي حالَةُ الانتهاءِ-؛ أمَرَ تعالى بتنزيهِه مِن كلِّ سُوءٍ[١].

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه المبدأَ بخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ، والمَعادَ بالجَنَّةِ والنَّارِ، وأنَّهم كَذَّبوا به، وكان تكذيبُهم به مُستَلزِمًا لاعتقادِ نقائِصَ كثيرةٍ؛ منها العَجزُ، وإخلافُ الوَعدِ، وتَرْكُ الحِكمةِ- كان ذلك سببًا لأن يُنَزِّهَ سُبحانَه نفْسَه المُقَدَّسةَ، ويأمُرَ بتَنزيهِها[٢].

وأيضًا بعدَ ما بُيِّن حالُ فَريقَي المؤمنينَ العاملينَ للصَّالحاتِ، والكافرينَ المكذِّبينَ بالآياتِ، وما لَهُما مِن الثَّوابِ والعذابِ؛ أُمِرُوا بما يُنجِّي مِن الثَّاني، ويُفْضِي إلى الأوَّلِ؛ مِن تَنْزيهِ اللهِ عزَّ وجلَّ عن كلِّ ما لا يَليقُ بشَأنِه سُبحانَه، ومِن حمْدِه تعالى على نِعَمِه العِظَامِ[٣].

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: تَنزَّهَ اللهُ تعالى عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، فنَزِّهوه -أيُّها النَّاسُ- حينَ حُلولِ المساءِ، وحينَ حُلولِ الصَّباحِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٣)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥-٦٧).

قيل: المرادُ بالتَّسبيحِ هنا: الصَّلاةُ، والمرادُ بقَولِه تعالى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾: صلاةُ المغربِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٣).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٤).

وقيل: المراد بِقَولِه: ﴿تُمْسُونَ﴾ المغربُ والعِشاءُ. ومِمَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، =

= والزجَّاجُ، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والسمعاني، والخازن، وابن تيميَّة، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٠٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٣٤)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٣٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٨٨، ٩٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٤).

وقيل: المراد بقَولِه: ﴿تُمْسُونَ﴾: صلاةُ العصر وصلاةُ المغربِ. وممَّن اختاره: الثعلبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿تُصْبِحُونَ﴾: صلاةُ الفَجرِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والزجاج، والسمرقندي، والثعلبي، ومكي، والسمعاني، والخازن، وابن تيمية، وجلال الدين المحلي، والبقاعي، والعليمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٣٤)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٨٨، ٩٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٤).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ هنا: تنزيهُ اللهِ تعالى عندَ المساءِ وهو إقبالُ اللَّيلِ بظَلامِه، وعندَ الصَّباحِ وهو إسفارُ النَّهارِ عن ضيائِه: ابنُ كثير، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٢).

واختار الرازيُّ أنَّ المعنى: نَزِّهوه عن صِفاتِ النَّقصِ، وصِفُوه بصِفاتِ الكمالِ، ثمَّ قال: (لأنَّ التَّنزيهَ المأمورَ به يَتناوَلُ التَّنزيهَ بالقلبِ وهو الاعتقادُ الجازِمِ، وباللِّسانِ مع ذلك وهو الذِّكرُ =

كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ ما يدُلُّ على خُصوصِ التَّنزيهِ؛ أتْبَعَه ما يُعَرِّفُ بعُمومِ الكمالِ[1]:

= الحسَنُ، وبالأركانِ معهما جميعًا وهو العملُ الصَّالحُ، والأوَّلُ هو الأصلُ، والثَّاني ثمرةُ الأوَّلِ، والثالثُ ثمرةُ الثَّاني؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ إذا اعتقَد شيئًا ظهَرَ مِن قلبِه على لسانِه، وإذا قال ظهَر صِدقُه في مَقالِه مِن أحوالِه وأفعالِه، واللِّسانُ تَرْجُمانُ الجَنانِ، والأركانُ بُرهانُ اللِّسانِ، لكنِ الصَّلاةُ أفضَلُ أعمالِ الأركانِ، وهي مُشتمِلةٌ على الذِّكرِ باللِّسانِ، والقصدِ بالجَنانِ، وهو تنزيهٌ في التَّحقيقِ، فإذا قال: نَزِّهوني، وهذا نوعٌ مِن أنواعِ التَّنزيهِ، والأمرُ المُطْلَقُ لا يختصُّ بنوعٍ دُونَ نوعٍ؛ فيجبُ حملُه على كلِّ ما هو تنزيهٌ؛ فيكونُ أيضًا هذا أمرًا بالصَّلاةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٦).

وقال ابن جُزَي: (﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ هذا تعليمٌ للعِبادِ، أي: قُولوا: سُبحانَ الله ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣١).

وممَّن ذهب إلى العموم: السعديُّ، فقال: (فهذه الأوقاتُ الخمسةُ أوقاتُ الصَّلواتِ الخَمسِ، أمَرَ اللهُ عِبادَه بالتَّسبيحِ فيها والحَمدِ، ويَدخُلُ في ذلك الواجِبُ منه، كالمُشتمِلةِ عليه الصَّلواتُ الخَمسُ، والمُستحَبُّ، كأذكارِ الصَّباحِ والمساءِ وأدبارِ الصَّلَواتِ، وما يَقترِنُ بها مِن النَّوافِلِ؛ لأنَّ هذه الأوقاتَ الَّتي اختارها اللهُ لأوقاتِ المفروضاتِ هي أفضَلُ مِن غيرِها؛ فالتَّسبيحُ والتَّحميدُ فيها والعبادةُ فيها: أفضَلُ مِن غيرِها، بل العبادةُ وإن لم تَشتَمِلْ على قَولِ: «سُبحانَ الله» فإنَّ الإخلاصَ فيها تنزيهٌ لله بالفِعلِ أن يكونَ له شريكٌ في العبادةِ، أو أن يَستحِقَّ أحَدٌ مِنَ الخَلقِ ما يَستَحِقُّه مِن الإخلاصِ والإنابةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥-٦٧).

قال الزجَّاج: (ومعنى: سُبحان اللهِ: تنزيهُ اللهِ من السُّوءِ. هذا لا اختلافَ فيه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٨١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٠).

﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: وهو وَحْدَه المُستَحِقُّ وَصْفَه بصِفاتِ الكَمالِ مع محبَّتِه وتَعظيمِه، في السَّمواتِ والأرضِ(١).

﴿وَعَشِيّٗا﴾.

أي: ونزِّهوا اللهَ -أيُّها النَّاسُ- وَقْتَ العَشِيِّ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٠).

قيل: المرادُ: أنَّه المحمودُ مِن أهلِ السَّمَواتِ ومِن أهلِ الأرضِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، وجلال الدين المحلي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٦٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٦).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٧٣).

وقال ابنُ كثير: (أي: هو المحمودُ على ما خلَقَ في السَّمَواتِ والأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧).

واختار ابنُ عثيمين أنَّ الآيةَ أعَمُّ مِن قولِ مَن قال: يَحمَدُه أهلُ السَّمواتِ والأرضِ، مع تقريرِه أنَّ هذا المعنى داخلٌ في الآيةِ، وأنَّ المعنى: أنَّ الله تعالى مُستحِقٌّ للحمدِ على ما خلَقَه في السَّمواتِ والأرضِ، سواءٌ حُمِد أو لم يُحمَدْ، فكلُّ ما في السَّمواتِ والأرضِ فإنَّ الله تعالى يُحمَدُ عليه، سواءٌ أمورُ الخَيرِ أو الشَّرِّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٠).

وقيل: الآيةُ إرشادٌ إلى الحمدِ، وأنَّ على المُمَيِّزينَ كلِّهم مِن أهلِ السَّمواتِ والأرضِ أن يَحمَدوه. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: النسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٠٤)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٧).

قيل: المرادُ بالعَشيِّ هنا: صلاةُ العصرِ. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابن تيميَّةَ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية =

كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾.

أي: ونزِّهوا اللهَ وَقْتَ الإظهارِ(١).

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

وَجهُ تَعلُّقِ إخراجِ الحَيِّ مِنَ الميِّتِ والميِّتِ مِنَ الحَيِّ بما تقَدَّمَ عليه: أنَّه عندَ الإصباحِ يَخرُجُ الإنسانُ مِن شِبهِ الموتِ -وهو النَّومُ- إلى شِبهِ الوجودِ -وهو اليَقَظةُ-، وعندَ العِشاءِ يَخرُجُ الإنسانُ مِن اليَقَظةِ إلى النَّومِ(٢).

= (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٢).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٤).

وقيل: العَشِيُّ هنا إشارةٌ إلى صلاةِ العِشاءِ. ومِمَّن قال بذلك: الثعلبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٢).

وقيل: العَشِيُّ: شِدَّةُ الظَّلامِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٧).

قيل: المرادُ بالإظهارِ هنا: صلاةُ الظُّهرِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((جامع المسائل)) لابن تيميَّةَ (٦/ ٣٤٤).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٤).

وقيل: هو قوَّةُ الضِّياءِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٩).

وأيضًا أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الإبداءَ والإعادةَ؛ ناسَبَ ذِكرَه: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾[1].

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾.

أي: يُخرِجُ اللهُ بقُدرتِه الحَيَّ مِن الميِّتِ؛ كالإنسانِ مِن النُّطفةِ، والنَّباتِ مِن الحَبِّ، والدَّجاجِ مِن البَيضِ، والمؤمِنِ مِن الكافِرِ[2].

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾.

أي: ويُخرِجُ اللهُ بقُدرتِه الميِّتَ مِن الحَيِّ؛ كالنُّطفةِ مِن الرَّجُلِ، والحَبِّ مِن النَّباتِ، والبَيضِ مِن الدَّجاجِ، والكافِرِ مِن المؤمِنِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٥).

قال ابن عثيمين في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ آلِ عِمرانَ، الآية (٢٧): (والمرادُ بالحيِّ: الحيُّ حياةً حِسِّيَّةً ومَعنويَّةً؛ وذلك لأنَّ اللَّفظَ صالحٌ لِلمَعنَيَينِ، وإذا صلَح اللَّفظُ للمَعنيَينِ بدُونِ تَنافٍ بيْنَهما، فالواجبُ حمْلُه عليهما.

الحيُّ حياةً حِسِّيَّةً أمثلتُه كثيرةٌ، فالإنسانُ مخلوقٌ مِن نُطفةٍ، وهي ميتةٌ بالمعنى اللُّغَويِّ، فصار حيًّا مِن مَيتٍ... أو يُخرِجُ حيًّا ناميًا مُتحَرِّكًا مِن شَيءٍ لا ينمو، فهو ميتٌ؛ كإخراجِ الفَرخِ مِنَ البَيضةِ؛ فإنَّ البيضةَ مَيتةٌ يخرُجُ منها فرخٌ حيٌّ. هذا الموتُ الحِسِّيُّ.

أمَّا المعنويُّ: فيُخرِجُ الحيَّ مِنَ المَيتِ أي: المؤمنَ مِنَ الكافرِ؛ لأنَّ المؤمنَ حيٌّ حياةً قلبيَّةً، والكافرَ ميتٌ؛ يُخرِجُ الحيَّ العالِمَ مِنَ الميتِ الجاهلِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٦٤).

وقال ابنُ كثيرٍ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الأنعام، الآية (٩٥): (وقد عبَّروا عن هذا وهذا بعباراتٍ كلُّها مُتقاربةٌ مؤدِّيةٌ للمعنى؛ فمِن قائلٍ: يُخرِجُ الدَّجاجةَ مِنَ البَيضةِ، والبيضةِ مِنَ الدَّجاجةِ، ومِن قائلٍ: يُخرِجُ الولدَ الصَّالحَ مِنَ الكافرِ، والكافرِ مِنَ الصَّالحِ، وغير ذلك مِنَ العِباراتِ الَّتي تَنتظِمُها الآيةُ وتَشملُها). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) =

﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

أي: ويُنزِلُ اللهُ الماءَ على الأرضِ اليابسةِ القاحِلةِ، فتَنبُتُ بعدَ جُدوبِها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ [يس: ٣٣، ٣٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

أي: وكما يُحيي اللهُ الأرضَ بعدَ مَوتِها، فيُخرِجُ نباتَها وزَرْعَها بقُدرتِه، يُحييكم -أيُّها النَّاسُ- بعدَ مَوتِكم، ويُخرِجُكم أحياءً مِن قُبورِكم يومَ القيامةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١].

= (٢١/ ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٥، ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩).

قال ابنُ عثيمين: (ظاهِرُ الآياتِ الكريماتِ أنَّ خُروجَ النَّاسِ مِن القبورِ يُشبِهُ خُروجَ النَّباتِ مِن الأرضِ، وخُروجُ النَّباتِ من الأرضِ يكونُ بنزولِ المطرِ عليها، فيكونُ في هذه الآيةِ إشارةٌ إلى ما ورد في الحديثِ مِن أنَّ الله تعالى يُمطِرُ على القُبورِ مطَرًا... تَنبُتُ منه الأجسادُ في القبورِ، ثمَّ بعدَ ذلك تخرُجُ إذا نُفِخَ في الصُّورِ،... وظاهِرُ القرآنِ أيضًا يشيرُ إليه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٧).

عن عبدِ الله بنِ عمرٍو، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ... ثمَّ يرسلُ الله -أو قال: ينزلُ الله- مطرًا كأنَّه الطَّلُّ أو الظِّلُّ فتنبتُ منه أجسادُ الناسِ، ثمَّ يُنفخُ فيه أخرَى، فإذا هم قيامٌ ينظرونَ)). أخرجه مسلم في ((صحيحه)) (٢٩٤٠).

وعن أبي هريرةَ مرفوعًا: ((ثم ينزلُ الله مِن السماءِ ماءً، فينبتونَ كما ينبتُ البقلُ)). أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]

وقال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ الله تعالى بالتَّسبيحِ عن النَّقائِصِ والعيوبِ، وذكَرَ أنَّ الحَمدَ له على خَلقِ جَميعِ الأشياءِ، وبيَّنَ قُدرتَه على الإماتةِ والإحياءِ بقَولِه: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾- ذكَرَ ما هو حُجَّةٌ ظاهِرةٌ وآيةٌ باهِرةٌ على ذلك، ومِن جُملتِها خَلْقُ الإنسانِ مِن تُرابٍ[1]، فقال:

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على صِفاتِ اللهِ تعالى، كوحدانيَّتِه وكَمالِ قُدرتِه: أنَّه ابتدَأ خَلْقَكم مِن تُرابٍ، فخَلَق أباكم آدَمَ منه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠١-١٠٢، ١٠٤).

وقال ابن عثيمين: (يجوزُ أنَّ نَفْسَ الإنسانِ فيه مادَّةٌ تُرابيَّةٌ، والآنَ هم يقولونَ: إنَّ الإنسانَ فيه =

كما قال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ...﴾ الآيةَ [الحج: ٥].

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ﴾.

أي: ثمَّ[١] تَصيرونَ مِن هذا التُّرابِ الجامِدِ بَشَرًا أحياءً تَنتَشِرونَ في الأرضِ، وتَسعَونَ فيها[٢].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ خَلْقَ الإنسانِ؛ بَيَّن أنَّه لَمَّا خَلَق الإنسانَ ولم يكُنْ مِن الأشياءِ الَّتي تَبقى وتَدومُ سِنينَ مُتطاوِلةً، أبقى نوعَه بالأشخاصِ، وجعَلَه بحيثُ يَتوالَدُ، فإذا مات الأبُ يقومُ الابنُ مَقامَه؛ لِئَلَّا يُوجِبَ فَقْدُ الواحِدِ ثُلْمةً في العِمارةِ لا تَنسَدُّ[٣].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على صِفاتِ الله تعالى: أنَّه خَلَق لكم مِن أنفُسِكم[٤]

= مِن جميعِ معادِنِ الأرضِ؛ فيه رَصاصٌ، ونُحاسٌ، وجيرٌ، وحديدٌ، وترابٌ، وكُلُّ شَيءٍ؛ فنَفْسُ الجسمِ مُكَوَّنٌ مِن هذه الأشياءِ، فلا يَبعُدُ أن تكونَ هذه السُّلالةُ الَّتي تَخرجُ منه فيها هذه الموادُّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٣، ١٠٤).

(١) قال ابنُ عثيمين: («ثمَّ» دالَّةٌ على المهلةِ؛ لأنَّه بعدَ خَلقِ آدَمَ لم يأتِ الأولادُ مُباشرةً). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩١).

(٤) قيل: المرادُ بـ ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾: جِنسُكم، أي: خلَقَ لكم مِن جِنسِكم أزواجًا، فجعَل النَّاسَ =

أزواجًا؛ لِتَحصُلَ المناسَبةُ والأُلْفةُ والاطمِئنانُ بيْنكم[١].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ بيْنَكم -أيُّها الأزواجُ- مَحبَّةً عَظيمةً، ورَحمةً يَعطِفُ بها بَعضُكم على بعضٍ[٢].

= يَتزاوَجونَ مِن جِنسِهم البَشَريِّ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، وابن كثير، وابن عاشور، ومال إليه ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٨).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: الكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٢٠).

وقيل: معنى ﴿أَنفُسِكُمْ﴾: ذواتِكم، أي: إنَّ اللهَ خلَقَ حوَّاءَ مِن ضِلَعٍ مِن أضلاعِ آدَمَ، فهي بعضٌ منه. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٧٧).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨).

وظاهِرُ عبارةِ البِقاعيِّ الجَمعُ بينَ المعنيَينِ؛ حيث قال: (ولَمَّا كان إيجادُ الأنثى مِن الذَّكَرِ خاصًّا لم يكُنْ إلَّا مرَّةً واحدةً كالخَلقِ مِن التُّرابِ؛ عَبَّرَ بالماضي، فقال: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ أي: لأجْلِكم؛ لِيَبقى نوعُكم بالتَّوالُدِ. وفي تقديمِ الجارِّ دَلالةٌ على حُرمةِ التَّزَوُّجِ مِن غيرِ النَّوعِ. والتَّعبيرُ بالنَّفسِ أظهَرُ في كَونِها مِن بَدَنِ الرَّجُلِ، في قَولِه: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: جِنسِكم، بعدَ إيجادِها مِن ذاتِ أبيكم آدَمَ عليه السَّلامُ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٦٦، ٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٦، ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٨، ١٠٩).

قال ابن تيميَّةَ: (فيَسكُنُ الرَّجُلُ إلى المرأةِ بقَلبِه وبَدَنِه جميعًا). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٤)، ((تفسير ابن =

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: إنَّ في خَلْقِ اللهِ لكم أزواجًا مِن أنفُسِكم لِتَسكُنوا إليها، وما جعَل بيْنَكم مِن المَودَّةِ والرَّحمةِ- لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ على قُدرةِ اللهِ، وحِكمتِه ورَحمتِه، وغيرِها، لِقَومٍ يُعمِلونَ فِكرَهم في ذلك[١].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى دَلائِلَ الأنفُسِ؛ ذكَرَ دَلائلَ الآفاقِ، وأظهَرُها خَلْقُ السَّمَواتِ والأرضِ[٢].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: ومِنَ العَلاماتِ الدَّالَّةِ على توحيدِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه العظيمةِ، وغيرِ ذلك: إيجادُه السَّمَواتِ والأرضَ مِنَ العَدَمِ، وعلى تَقديرٍ ونظامٍ بديعٍ، مع ما فيهما مِن المخلوقاتِ العَظيمةِ المُتنَوِّعةِ[٣].

= كثير)) (٦/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٩، ١١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٨، ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١١٧، ١١٨).

﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ أيضًا: اختِلافُ لُغاتِكم وألوانِ أجسادِكم، مع أنَّ أصلَكم واحدٌ؛ مِن أبيكم آدَمَ(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ...﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ بكَسرِ اللَّامِ الثَّانيةِ: جمعُ عالِمٍ، أي: هذه الآياتُ للعُلَماءِ؛ لأنَّ العالِمَ أقرَبُ إلى الاعتبارِ مِن الجاهِلِ(٢).

٢- قراءة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ بفَتحِ اللَّامِ الثَّانيةِ: جَمعُ عالَمٍ(٣).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾.

أي: إنَّ في خَلْقِ اللهِ السَّمَواتِ والأرضَ، واختلافِ ألسُنِ البشَرِ وألوانِهم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٣، ٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١١٨-١٢١).

(٢) قرأ بها حَفصٌ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٦٤)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٨٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٥٧، ٥٥٨).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٦٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٥٨).

لَعَلاماتٍ وأدِلَّةً لأُولي العِلم، ومِن ذلك الاستِدلالُ بها على وحدانيَّةِ الله تعالى وقُدرتِه على إعادةِ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم[١].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى بَعضَ الأعراضِ اللَّازمةِ، وهو الاختِلافُ؛ ذكَرَ الأعراضَ المُفارِقةَ، ومِن جُملتِها النَّومُ باللَّيلِ، والحَركةُ في النَّهارِ؛ طَلَبًا للرِّزقِ[٢].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾.

أي: ومِنَ العلاماتِ أيضًا مَنامُكم في اللَّيلِ والنَّهارِ؛ لِراحةِ أبدانِكم، وطَلَبُكم رِزقَ اللهِ فيهما[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٢٤، ١٢٥).

وممَّن قال بأنَّ الآيةَ تعني أنَّ النَّومَ وطَلَبَ الرِّزقِ كليهما يَكونانِ في اللَّيلِ وفي النَّهارِ: ابنُ عطية، والبيضاوي، والبِقاعي، وأبو السعود، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة. ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠).

وقيل المرادُ في الآية: أنَّ النَّومَ في اللَّيلِ، والابتغاءَ مِن فَضلِه: في النَّهارِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، وابن القيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣١)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٦).

قال ابنُ عطية: (ذكَرَ تعالى النَّومَ باللَّيلِ والنَّهارِ، وعُرْفُ النَّومِ إنَّما هو باللَّيلِ وحْدَه، ثمَّ ذَكَر الابتغاءَ مِن فَضلِه كأنَّه فيهما، وإنَّما معنى ذلك: أنَّه عَمَّ باللَّيلِ والنَّهارِ، فسَمَّى الزَّمانَ، وقَصَد =

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

أي: إنَّ في مَنامِكم باللَّيلِ والنَّهارِ، وابتغائِكم مِن فَضلِ اللهِ فيهما: لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ لِقَومٍ يَسمَعونَ سَماعَ تدَبُّرٍ وتفَهُّمٍ، ومِن ذلك الاستِدلالُ بهما على رحمةِ اللهِ، وتَوحيدِه، وقُدرتِه على بَعثِ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ فيه الحثُّ على النَّظرِ في البعثِ، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ

= مِن ذلك تعديدَ آيةِ النَّومِ وتعديدَ آيةِ ابتغاءِ الفَضلِ؛ فإنَّهما آيتانِ تكونانِ في لَيلٍ ونهارٍ، والعُرفُ يجيزُ كُلَّ واحدةٍ مِن النِّعمَتينِ، أي محلَّها مِن الأغلَبِ. وقال بعضُ المفَسِّرينَ: في الكلامِ تَقديمٌ وتأخيرٌ. وهذا ضعيفٌ، وإنَّما أراد أن يرتِّبَ النَّومَ لِلَّيلِ، والابتِغاءَ للنَّهارِ، ولَفظُ الآيةِ لا يُعطي ما أراد). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٣).

وقال الشوكاني: (قيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، والتَّقديرُ: ومِن آياتِه مَنامُكم باللَّيلِ، وابتغاؤُكم مِن فَضلِه بالنَّهارِ. وقيل: المعنى صحيحٌ مِن دونِ تقديمٍ وتأخيرٍ، أي: ومِن آياتِه العظيمةِ أنَّكم تنامون باللَّيلِ، وتنامون [بالنَّهارِ] في بَعضِ الأحوالِ للاستِراحةِ، كوقتِ القَيلولةِ؛ وابتغاؤكم مِن فَضلِه فيهما؛ فإنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يقَعُ فيه ذلك، وإن كان ابتغاءُ الفَضلِ في النَّهارِ أكثَرَ. والأوَّلُ: هو المناسِبُ لسائرِ الآياتِ الواردةِ في هذا المعنى، والآخِرُ: هو المناسِبُ للنَّظمِ القرآنيِّ هاهنا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩).

قال القُرطبي: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يريدُ: سَماعَ تفَهُّمٍ وتدَبُّرٍ. وقيل: يَسمَعونَ الحَقَّ فيتَّبِعونَه. وقيل: يَسمَعونَ الوَعظَ فيَخافونَه. وقيل: يَسمَعونَ القُرآنَ فيُصَدِّقونَه، والمعنى متقارِبٌ. وقيل: كان منهم مَن إذا تُلِيَ القرآنُ وهو حاضِرٌ سَدَّ أُذُنَيه؛ حتَّى لا يَسمَعَ، فبَيَّنَ اللهُ عزَّ وجَلَّ هذه الدَّلائِلَ عليه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨).

مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥]. والنَّظرُ في البعثِ وسيلةٌ إلى الاستِعدادِ له، والتَّزيُّنِ لِلقاءِ الله تعالى(١).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هذه آيةٌ فيها عِظةٌ وتذكيرٌ بنِظامِ النَّاسِ العامِّ، وهو نِظامُ الازدِواجِ، وكينونةِ العائلةِ، وأساسِ التَّناسُلِ، وهو نظامٌ عَجيبٌ جَعَله الله مُرتَكِزًا في الجِبِلَّةِ لا يَشِذُّ عنه إلَّا الشُّذَّاذُ، وهي آيةٌ تَنطوي على عِدَّةِ آياتٍ؛ منها: أنْ جَعَل للإنسانِ ناموسَ التَّناسُلِ، وأنْ جَعَل تَناسُلَه بالتَّزاوُجِ، ولم يجعَلْه كتَناسُلِ النَّباتِ مِن نَفسِه، وأنْ جَعَل أزواجَ الإنسانِ مِن صِنفِه، ولم يجعَلْها مِن صِنفٍ آخَرَ؛ لأنَّ التَّآنُسَ لا يَحصُلُ بصِنفٍ مُخالِفٍ، وأنْ جَعَل في ذلك التَّزاوُجِ أُنْسًا بيْنَ الزَّوجَينِ، ولم يجعَلْه تزاوجًا عنيفًا أو مُهلِكًا كتزاوُجِ الضَّفادعِ، وأنْ جَعَل بيْنَ كلِّ زَوجينِ مَودَّةً ومحبَّةً؛ فالزَّوجانِ يَكونانِ مِن قَبلِ التَّزاوُجِ مُتجاهِلَينِ، فيُصبِحانِ بعدَ التَّزاوُجِ مُتحابَّينِ، وأنْ جَعَل بيْنَهما رحمةً؛ فهما قبْلَ التَّزاوُجِ لا عاطِفةَ بيْنَهما، فيُصبِحانِ بعدَه مُتَراحِمَينِ، كرَحمةِ الأُبُوَّةِ والأمومةِ. ولأجْلِ ما يَنطوي عليه هذا الدَّليلُ، ويَتبَعُه مِنَ النِّعَمِ والدَّلائلِ؛ جُعِلَت هذه الآيةُ آياتٍ عِدَّةً في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وهذه الآيةُ كائِنةٌ في خَلقِ جَوهرِ الصِّنفَينِ مِن الإنسانِ: صِنفِ الذَّكَرِ، وصِنفِ الأُنثى، وإبداعِ نِظامِ الإقبالِ بيْنَهما في جِبلَّتِهما، وذلك مِنَ الذَّاتيَّاتِ النِّسبيَّةِ بيْنَ الصِّنفَينِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ دَلالةٌ على أنَّ المَودَّةَ لا

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٠، ٧١).

تُنالُ بالكَسبِ، يعني: أنَّ اللهَ قد يجعَلُها في قَلبِ الإنسانِ، فأنت لو أرَدْتَ أنْ تُجبِرَ نفْسَك على محبَّةِ شَيءٍ، والله عزَّ وجلَّ لم يجعَلْ في قَلبك مَودَّتَه، فلن تُحِبَّه؛ ولهذا مَنَّ اللهُ على المؤمنينَ بقَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات: ٧]، وأنت تقولُ في الدُّعاءِ: ((أسألُك حُبَّك، وحُبَّ مَن يُحِبُّك، وحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إلى حُبِّك))[١]، إذنْ فالمَودَّةُ يُلقيها اللهُ عزَّ وجَلَّ في القَلبِ؛ فأنت ينبغي لك أنْ تسألَ اللهَ دائمًا أنْ تكونَ محبَّتُك لله وفي الله؛ لِتكونَ المحبَّةُ باللهِ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ أخَّرَ الابتِغاءَ، وقرَنَه في اللَّفظِ بالفَضلِ؛ إشارةً إلى أنَّ العَبدَ ينبغي ألَّا يَرى الرِّزقَ مِن كَسْبِه وبحِذْقِه، بل يَرى كُلَّ ذلك مِن فَضلِ رَبِّه[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ دَلالةٌ على وُجوبِ التَّسبيحِ في الصَّلاةِ؛ لأنَّ القاعدةَ: «أنَّه إذا أُطلِقَ على العبادةِ جزءٌ منها؛ دلَّ ذلك على أنَّ هذا الجزءَ مِن واجباتِها، وأنَّه لا بُدَّ منه»[٤]. هذا على القولِ بأنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ الصَّلاةُ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٣٥)، وأحمد (٢٢١٠٩) من حديث مُعاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه.
قال البخاري كما في ((سنن الترمذي)) (٣٢٣٥): حسن صحيح. وكذا قال الترمذي، وصححه ابن العربي في ((أحكام القرآن)) (٤/ ٧٣)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٩٣).

دَلالةٌ على أنَّه وَحْدَه المُستَحِقُّ لأنْ يُحمَدَ على وَجهِ الإطلاقِ، ووجهُ ذلك تقديمُ الخبَرِ في قَولِه: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ قياسُ الغائبِ على الشَّاهِدِ؛ فإنَّ قياسَ الغائبِ على الشَّاهِدِ لِيُحْمَلَ على الإقرارِ به: طريقةٌ متَّبَعةٌ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ تعالى يُخرِجُ مِن غُلاةِ المُشرِكينَ أفاضِلَ مِن المؤمِنينَ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ إثباتُ قيامِ الأفعالِ الاختياريَّةِ باللهِ عزَّ وجَلَّ، والأفعالُ الاختياريَّةُ: هي الَّتي يفعَلُها بمَشيئتِه؛ إنْ شاءَ فَعَلَ، وإنْ شاء لم يَفعَلْ؛ فإنَّ البَعْديَّةَ في قَولِه تعالى: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تقتَضي حُدوثَ هذا الشَّيءِ[٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ في هذا دَليلٌ على صِحَّةِ القياسِ[٥].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ هذا دليلٌ قاطِعٌ وبُرهانٌ ساطِعٌ على أنَّ الَّذي أحيا الأرضَ بعدَ مَوتِها، فإنَّه يُحيي الأمواتَ؛ فلا فَرْقَ في نظَرِ العَقلِ بينَ الأمرَينِ، ولا مُوجِبَ لاستبعادِ أحَدِهما مع مُشاهَدةِ الآخَرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

٨- قَولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ خارِجٌ على سَعَةِ لِسانِ العرَبِ؛ لأنَّ المخلوقَ مِن تُرابٍ آدمُ وَحْدَه، والمخلوقَ له مِن نفْسِه زوجتُه؛ فلمَّا كان البَشَرُ جميعًا مِن نَسْلِه سمَّاهم بذلك؛ بِناءً على سَعةِ اللِّسانِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ دَلالةٌ على إبطالِ النَّظريةِ الخاطِئةِ «نظريةِ النُّشوءِ والتطُّورِ» الَّتي كان قائدُها «دارون»؛ فهي نظريةٌ خاطِئةٌ وباطِلةٌ بلا شَكٍّ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ يقولُ: ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾، فيُخاطِبُ البشَرَ باعتبارِه بَشَرًا، إذَن فهو بشرٌ منذُ أُنشِئَ مِن التُّرابِ إلى اليَومِ[٢]!

١٠- قَولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ فيه تنبيهٌ على عَظيمِ قُدرتِه سبحانه بخلْقِ الإنسانِ مِن تُرابٍ، وهو أبعدُ الأشياءِ عن دَرجةِ الإحياءِ؛ لأنَّه باردٌ يابسٌ، والحياةُ بالحرارةِ والرُّطوبةِ[٣].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ فيه دَلالةٌ ظاهرةٌ على حرمةِ التزوُّجِ مِن غيرِ الجنسِ، كالجنِّ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مِن أهَمِّ أغراضِ النِّكاحِ ومَقاصِدِه السُّكونَ إلى الزَّوجةِ، والاطمِئنانَ إليها، والحياةَ معها حياةً سَعيدةً؛ فالحِكمةُ مِن الزَّوجيَّةِ هي السُّكونُ، أي: سُكونُ أحدِ الزَّوجَينِ إلى الآخَرِ، ويتفرَّعُ على ذلك أنَّه إذا حَصَلَ التَّنافُرُ واستمرَّ، فإنَّ مِن الحِكمةِ التَّفريقَ بيْنَهما؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، فإذا

(١) يُنظر: ((النُّكَت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٦٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٦).

فاتتْ هذه الحِكمةُ فإنَّه لا زَواجَ[١]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ دَلالةٌ على أنَّ محبَّةَ الزَّوجاتِ لا لَومَ على المُحِبِّ فيها، بل هي مِن كَمالِه؛ فقد امتَنَّ اللهُ سُبحانَه بها على عِبادِه[٢]، إلَّا إذا شغَلَه ذلك عن محبَّةِ ما هو أنفَعُ له؛ مِن محبَّةِ اللهِ ورَسولِه، وزاحَمَ حُبَّ الله وحُبَّ رَسولِه؛ فإنَّ كُلَّ مَحبَّةٍ زاحَمَت محبَّةَ اللهِ ورَسولِه بحيثُ تُضعِفُها وتَنقُصُها فهي مَذمومةٌ، وإن أعانت على محبَّةِ اللهِ ورَسولِه وكانت مِن أسبابِ قُوَّتِها فهي محمودةٌ[٣].

١٤- قولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾؛ لأنَّ ذلك لا يُدرَكُ إلَّا بالفِكرِ في تأليفٍ بينَ شَيئينِ لم يكُنْ بيْنَهما تَعارُفٌ[٤].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾، استُدِلَّ به على أنَّ اللُّغاتِ تَوقيفيَّةٌ، على أنَّ المعنى: ومِن آياتِه خَلْقُ اللُّغاتِ المُختَلِفةِ الَّتي تَجري على الألسِنةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١١٢).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٤).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٧).

ومعنى كَونِها توقيفيَّةً: أنَّ الله تعالى هو الَّذي وضَعها، ووقَفَ خَلْقَه عليها. يُنظر الخلافُ في المسألةِ في: ((نفائس الأصول في شرح المحصول)) للقرافي (١/ ٤٤٩)، ((تشنيف المسامع بجمع الجوامع)) للزركشي (١/ ٣٩٣)، ((الغيث الهامع شرح جمع الجوامع)) لأبي زرعة (ص: ١٤٥).

١٦- قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ وجْهُ ذِكرِ النَّوم والابتغاء هاهنا وجَعْلِهما مِن جملةِ الأدِلَّةِ على البَعثِ: أنَّ النَّومَ شَبيهٌ بالموتِ، والتَّصَرُّفَ في الحاجاتِ والسَّعيَ في المكاسِبِ شَبيهٌ بالحياةِ بعدَ الموتِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾

- الفاءُ في ﴿ فَسُبْحَٰنَ ﴾ تَقْتضي اتِّصالَ ما بعْدَها بما قبْلَها، وهي فاءٌ فصيحةٌ، أو عطْفُ تَفريعٍ على ما قبْلَها، وقد كان أوَّلُ الكلامِ قولَه: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الروم: ٨]، والضَّميرُ عائدٌ إلى ﴿ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ ﴾ في قولِه: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٦]، والمُرادُ بهم الكُفَّارُ؛ فالتَّفريعُ أو الإفصاحُ ناشِئٌ عن ذلك، فيكونُ المَقصودُ مِن ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ إنشاءَ تَنْزيهِ اللهِ تعالى عمَّا نَسَبوه إليه مِن العجْزِ عن إحياءِ النَّاسِ بعْدَ مَوتِهم، وإنشاءَ ثَناءٍ عليه. والخِطابُ في ﴿ تُمْسُونَ ﴾ و﴿ تُصْبِحُونَ ﴾ تابعٌ للخِطابِ الَّذي قبْلَه في قولِه: ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم: ١١]، وهو مُوجَّهٌ إلى المشركينَ على طَريقةِ الالْتِفاتِ مِن ضَمائرِ الغَيبةِ المُبتدِئةِ مِن قولِه: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾ [الروم: ٨] إلى آخرِها(٢).

- قولُه: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ فيه تَقديمُ التَّسبيحِ على التَّحميدِ؛ لِمَا أنَّ التَّخليةَ

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥).

مُتقدِّمةٌ على التَّحليةِ. والفاءُ لتَرتيبِ ما بعدَها على ما قبْلَها، أي: إذا عَلِمْتُم ذلك فسَبِّحوا اللهَ تعالى تَسبيحَه اللَّائقَ في هذه الأوقاتِ واحْمَدُوه؛ فإنَّ الإخبارَ بثُبوتِ الحمْدِ له تعالى ووُجوبِه على المُميِّزينَ مِن أهلِ السَّمواتِ والأرضِ في معنَى الأمْرِ به على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه. وتَوسيطُه بينَ أوقاتِ التَّسبيحِ؛ للاعتناءِ بشأْنِه، والإشعارِ بأنَّ حقَّهما أنْ يُجمعَ بينَهما، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨]. وتَخصيصُهما بتلكَ الأوقاتِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ما يَحدُثُ فيها مِن آياتِ قُدرتِه وأحكامِ رَحمتِه ونِعمتِه، شواهدُ ناطقةٌ بتَنزُّهِه تعالى، واسْتحقاقِه الحمْدَ، ومُوجِبةٌ لِتَسبيحِه وتَحميدِه حتْمًا[١].

- وقيل: إنَّ قولَه: ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ ظُروفٌ مُتعلِّقةٌ بما في إنشاءِ التَّنزيهِ مِن مَعنى الفِعلِ، أي: يُنشأُ تَنزيهُ اللهِ في هذه الأوقاتِ، وهي الأجزاءُ الَّتي يَتجزَّأُ الزَّمانُ إليها، والمَقصودُ التَّأبيدُ، كما تقولُ: سُبحانَ اللهِ دَومًا، وسُلِكَ به مَسلَكَ الإطنابِ؛ لأنَّه مُناسِبٌ لمَقامِ الثَّناءِ[٢].

- وقيل: تَخْصيصُ التَّسبيحِ بالمساءِ والصَّباحِ؛ لأنَّ آثارَ القُدْرةِ والعظَمةِ فيهما أظهَرُ. وتَخصيصُ الحمْدِ بالعَشيِّ الَّذي هو آخِرُ النَّهارِ والظَّهيرةِ الَّتي هي وسَطُه؛ لأنَّ تجدُّدَ النِّعَمِ فيهما أكثرُ[٣].

وقيل: خصَّ بعضَ الأوقاتِ بالأمرِ بالتَّسبيحِ؛ وذلك لأنَّ أفضلَ الأعمالِ أدومُها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤، ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٦).

- وجُوِّزَ أنْ يكونَ ﴿ فَسُبْحَٰنَ ﴾ هنا مَصدرًا واقعًا بدلًا عن فِعلِ أمْرٍ بالتَّسبيحِ، كأنَّه قِيل: فسَبِّحوا اللهَ سُبحانًا. فـ (سُبحان) أمْرٌ بأنْ يَقولوا: سُبحانَ اللهِ، وهو كِنايةٌ عن الصَّلاةِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ تَشتمِلُ على قولِ: سُبحانَ ربِّيَ الأعلى وبحَمْدِه. وقولُه: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى آخرِه، إشارةٌ إلى أوقاتِ الصَّلواتِ، وهو يَقْتضي أنْ يكونَ الخِطابُ مُوجَّهًا إلى المؤمنينَ. والمُناسَبةُ مع سابِقِه: أنَّه لَمَّا وعَدَهم بحُسنِ مَصيرِهم، لقَّنَهم شُكرَ نِعمةِ اللهِ بإقامةِ الصَّلاةِ في أجزاءِ اليومِ واللَّيلةِ. وهذا التَّفريعُ يُؤذِنُ بأنَّ التَّسبيحَ والتَّحميدَ الواقعَينِ إنشاءَ ثَناءٍ على اللهِ، كنايةٌ عن الشُّكرِ عن النِّعمةِ؛ لأنَّ التَّصدِّيَ لإنشاءِ الثَّناءِ عقِبَ حُصولِ الإنعامِ أو الوعْدِ به يدُلُّ على أنَّ المادِحَ ما بعَثَه على المدْحِ في ذلك المَقامِ إلَّا قصْدُ الجزاءِ على النِّعمةِ بما في طَوقِه. وليست الصَّلواتُ الخمْسُ وأوقاتُها هي المُرادَ مِن الآيةِ، ولكنْ نُسِجَت على نسْجِ صالحٍ لشُمولِه الصَّلواتِ الخمْسَ وأوقاتَها، وذلك مِن إعجازِ القرآنِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ وإنْ كان فيها تَسبيحٌ ويُطلَقُ عليها السُّبْحةُ، فلا يُطلَقُ عليها: سُبحانَ اللهِ[1].

- قولُه: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ فيه تقديمُ الإمساءِ على الإصباحِ، كما قُدِّمَ في قولِه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ [الحج: ٦١]، والظُّلماتُ على النُّورِ، وقابَلَ بالعَشِيِّ الإمساءَ، وبالإظهارِ الإصباحَ؛ لأنَّ كلًّا منهما يُعقَبُ بما يُقابِلُه؛ فالعشِيُّ يَعقُبُه الإمساءُ، والإصباحُ يَعقُبُه الإظهارُ[2]. وقيل: قدَّمَ فِعلَ الإمساءِ على فِعلِ الإصباحِ: إمَّا لأنَّ الاستعمالَ العربيَّ يَعتبِرون فيه اللَّياليَ مَبدأَ عَددِ الأيَّامِ كثيرًا، قال تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨]، وإمَّا لأنَّ الكلامَ لَمَّا وقَعَ عقِبَ ذِكرِ الحشرِ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥، ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١).

قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، وذِكْرِ قِيامِ السَّاعةِ؛ ناسَبَ أنْ يكونَ الإمساءُ -وهو آخِرُ اليومِ- خاطِرًا في الذِّهنِ، فقدَّمَ لهم ذِكْرَه[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ الظُّروفِ تُفيدُ أنَّ تَسْبيحَ المؤمنينَ للهِ ليس لِمَنفعةِ اللهِ تعالى، بلْ لِمَنفعةِ المُسبِّحينَ؛ لأنَّ اللهَ مَحمودٌ في السَّمواتِ والأرضِ؛ فهو غَنِيٌّ عن حمْدِنا[٢]. وقِيل: اعتِراضٌ، معناه: إنَّ على المُميِّزينَ كلِّهم مِن أهلِ السَّمواتِ والأرضِ أنْ يَحمَدوه[٣].

- وتَقْديمُ المَجْرورِ في ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾؛ لإفادةِ القصْرِ الادِّعائيِّ[٤] لجِنْسِ الحمْدِ على اللهِ تعالى؛ لأنَّ حمْدَه هو الحمْدُ الكاملُ، على نحوِ قولِهم: فلانٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١).

(٤) القَصرُ أو الحَصرُ -في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. وينقسمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مَبْنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ، بتنزيلِ غَيرِ المذكورِ مَنزلةَ العدَمِ، وقصْرُ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

الشُّجاعُ. ويجوزُ أنْ يكونَ التَّقديمُ للاهتمامِ بضَميرِ الجَلالةِ[١].

- قولُه: ﴿وَعَشِيًّا﴾ عطْفٌ على ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، وتقْديمُه على ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾؛ لمُراعاةِ الفواصلِ. وتغْييرُ الأُسلوبِ؛ لِمَا أنَّ (العَشيَّ) لا يَجيءُ منه الفِعلُ بمعنَى الدُّخولِ في العَشيِّ، كالمساءِ -والفعلُ منه (أمسَى)-، والصَّباحِ -والفعلُ منه (أصبَح)-، والظَّهيرةِ -والفعلُ منه (أظهَر)-، ولعلَّ السِّرَّ في ذلك: أنَّه ليس مِن الأوقاتِ الَّتي تَختلِفُ فيها أحوالُ النَّاسِ وتتغيَّرُ تغيُّرًا ظاهرًا مُصحِّحًا لِوَصفِهم بالخروجِ عمَّا قبْلَها والدُّخولِ فيها كالأوقاتِ المذكورةِ؛ فإنَّ كلًّا منها وقتٌ تَتغيَّرُ فيه الأحوالُ تغيُّرًا ظاهرًا؛ أمَّا في المساءِ والصَّباحِ فظاهرٌ، وأمَّا في الظَّهيرةِ فلأنَّها وقتٌ يُعتادُ فيه التَّجرُّدُ عن الثِّيابِ للقَيلولةِ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ هذا نوعُ تَفصيلٍ لقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[٣].

- وجُملةُ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ بدَلٌ مِن جُملةِ ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ١١]. ويجوزُ أيضًا أنْ تكونَ مَوقعَ العلَّةِ لجُملةِ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم: ١٧] وما عُطِفَ عليها، أي: هو مُستحِقٌّ للتَّسبيحِ والحمْدِ؛ لِتَصرُّفِه في المخلوقاتِ بالإيجادِ العَجيبِ، وبالإحياءِ بعْدَ الموتِ. واختيرَ مِن تَصرُّفاتِه العظيمةِ تَصرُّفُ الإحياءِ والإماتةِ في الحيوانِ والنَّباتِ؛ لأنَّه تَخلُّصٌ للغرَضِ المقصودِ مِن إثباتِ البعثِ، ردًّا للكلامِ على ما تقدَّمَ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٦، ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٥).

قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]؛ فتحصَّلَ مِن ذلك أنَّ الأمْرَ بتَسبيحِه وحمْدِه مَعلولٌ بأمْرَين: إيفاءِ حقِّ شُكرِه، المُفادِ بفاءِ التَّفريعِ في قولِه: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ١٧]، وإيفاءِ حقِّ التَّعظيمِ والإجلالِ، والمقصودُ هو إخراجُ الحيِّ مِن الميِّتِ[١].

- وعطْفُ ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾؛ للاحتِراسِ مِن اقتصارِ قُدرتِه على بعضِ التَّصرُّفاتِ، ولإظهارِ عَجيبِ قُدرتِه أنَّها تَفعَلُ الضِّدَّينِ[٢].

- والإتيانُ بصِيغةِ المُضارِعِ في ﴿يُخۡرِجُ﴾؛ لاستِحضارِ الحالةِ العَجيبةِ؛ فهذا الإخراجُ والإحياءُ آيةٌ عظيمةٌ على استِحقاقِه التَّعظيمَ والإفرادَ بالعِبادةِ؛ إذ أودَعَ هذا النِّظامَ العجيبَ في المَوجوداتِ، فجعَلَ في الشَّيءِ الَّذي لا حَياةَ له قوَّةً وخصائصَ تجْعَلُه يُنتِجُ الأشياءَ الحيَّةَ الثَّابتةَ المُتصرِّفةَ، ويَجعَلُ في تُرابِ الأرضِ قُوًى تُخرِجُ الزَّرعَ والنَّباتَ حيًّا ناميًا[٣].

- والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ راجعٌ إلى ما يَصلُحُ له مِن المَذكورِ قبْلَه؛ وهو ما فيه إنشاءُ حياةِ شَيءٍ بعْدَ مَوتِه؛ بناءً على أنَّ قولَه: ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ ليس مَقصودًا مِنَ الاستِدلالِ، ولكنَّه احتراسٌ وتَكمِلةٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ التَّشبيهُ راجِعًا إلى أقرَبِ مَذكورٍ، وهو إحياءُ الأرضِ بعْدَ مَوتِها، أي: وكإخراجِ النَّباتِ مِن الأرضِ بعْدَ مَوتِه فيها يكونُ إخراجُكم مِن الأرضِ بعْدَ أنْ كنتُم أمْواتًا فيها، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا * ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح: ١٧، ١٨]. ولا وَجْهَ لاقتِصارِ التَّشبيهِ على الثَّاني

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٦٨).

دونَ الأوَّلِ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ لَمَّا كان الاستِدلالُ على البَعثِ مُتضمِّنًا آياتٍ على تَفرُّدِه تعالى بالتَّصرُّفِ، ودَلالتِه على الوَحدانيَّةِ؛ انتقَلَ مِن ذلك الاستِدلالِ إلى آياتٍ على ذلك التَّصرُّفِ العظيمِ، غيرَ ما فيه إثباتُ البَعثِ؛ تَثْبيتًا للمؤمنينَ، وإعذارًا لمَن أشْرَكوا في الإلهيَّةِ، وقد سبَقَت ستُّ آياتٍ على الوَحدانيَّةِ، وابتُدِئَت بكَلمةِ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾؛ تنْبيهًا على اتِّحادِ غرَضِها؛ فهذه هي الآيةُ الأُولى، ولها شَبَهٌ بالاستِدلالِ على البَعثِ؛ لأنَّ خلْقَ النَّاسِ مِن تُرابٍ وبثَّ الحياةِ والانتشارَ فيهم، هو ضَربٌ مِن ضُروبِ إخراجِ الحيِّ مِن الميِّتِ؛ فلذلك كانت هي الأُولى في الذِّكرِ؛ لِمُناسَبتِها لِمَا قبْلَها، فجُعِلتْ تخلُّصًا مِن دَلائلِ البَعثِ إلى دَلائلِ عظيمِ القُدرةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ لَمَّا كان تَمامُ البشريَّةِ يَنشَأُ عن تطوُّرِ التُّرابِ إلى نَباتٍ، ثمَّ إلى نُطفةٍ، ثمَّ إلى أطْوارِ التَّخلُّقِ في أزْمنةٍ مُتتاليةٍ؛ عُطِفَت الجُملةُ بحرْفِ المُهلَةِ (ثُمَّ) الدَّالِّ على تَراخي الزَّمنِ، مع تَراخي الرُّتبةِ الَّذي هو الأصْلُ في عطْفِ الجُمَلِ بحرْفِ (ثم)[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ صُدِّرَت الجُملةُ بحرْفِ المُفاجأةِ (إذا)؛ لأنَّ الكَونَ بشَرًا يَظهَرُ للنَّاسِ فجْأةً بوضْعِ الأجِنَّةِ، أو خُروجِ الفِراخِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٨، ٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧٠).

مِن البَيضِ، وما بيْنَ ذلك مِن الأطوارِ التي اقْتَضاها حرْفُ المُهلَةِ هي أطوارٌ خَفِيَّةٌ غيرُ مُشاهَدةٍ؛ فكان الجمْعُ بيْن حرْفِ المُهلَةِ وحرْفِ المُفاجأةِ تَنبيهًا على ذلك التَّطوُّرِ العجيبِ. وحصَلَ مِن المُقارَنةِ بيْن حرْفِ المُهلةِ وحرْفِ المُفاجأةِ شِبْهُ الطِّباقِ، وإنْ كان مَرجِعُ كلٍّ مِن الحرفينِ غيرَ مَرجِعِ الآخَرِ[١].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أُدمِجَ في الاعتِبارِ بهذه الآيةِ امتِنانٌ بنِعمةٍ في هذه الآيةِ أشارَ إليها قولُه: ﴿لَكُم ﴾، أي: لأجْلِ نَفْعِكم[٢].

- قولُه: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ ضَمَّنَ السُّكونَ معنى المَيلِ، فعَدَّاه بـ «إلى»؛ إذْ لم يقُلْ: «لِتسكُنوا منها» ولا «عِندَها»، ولكِنْ ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾؛ ولهذا كان الرَّجُلُ مَيَّالًا بطَبعِه إلى المرأةِ وساكِنًا إليها، ولا سيَّما إذا وُفِّقَ لامرأةٍ تكونُ ملائِمةً له؛ فإنَّ هذا يبدو ظاهِرًا جدًّا مِن التَّعليلِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ تَذْييلٌ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبْلَه، مع التَّنبيهِ على أنَّ ما ذُكِرَ ليس بآيةٍ فذَّةٍ، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾، بلْ هي مُشتمِلةٌ على آياتٍ شَتَّى[٤]. وإنَّما جُعِلَ في ذلك آياتٌ كثيرةٌ باعتبارِ اشْتمالِ ذلك الخلْقِ على دَقائقَ كثيرةٍ، مُتولِّدٌ بعضُها عن بعضٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٦).

يُظهِرُها التَّأمُّلُ والتَّدبُّرُ، بحيث يَتجمَّعُ منها آياتٌ كثيرةٌ[١].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ، مع قُربِ العهْدِ بالمُشارِ إليه؛ للإشعارِ ببُعدِ مَنزلتِه[٢].

- وجُعِلَت الآياتُ لقومٍ يَتفكَّرون؛ لأنَّ التَّفكُّرَ والنَّظرَ في تِلك الدَّلائلِ هو الذي يُجْلِي كُنْهَها، ويَزِيدُ النَّاظرَ بَصارةً بمَنافعَ أُخرى في ضِمْنِها؛ فالقصْدُ في خلْقِ الأزواجِ السُّكونُ إليها، وإلْقاءُ المَحبَّةِ بيْنَ الزَّوجينِ، ليس لمُجرَّدِ قَضاءِ الشَّهوةِ الَّتي يَشترِكُ فيها البهائمُ، بلْ لِتَكثيرِ النَّسلِ، وبقاءِ نَوعِ المُتفكِّرينَ الَّذين يُؤدِّيهم الفِكرُ إلى المعرفةِ والعِبادةِ الَّتي ما خُلِقَت السَّمواتُ والأرضُ إلَّا لها؛ فناسَبَ ذلك التَّفكُّرُ[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾

لَمَّا كان أشرَفُ ما على الأرضِ نَوعَ الإنسانِ، قرَنَ ما في بعضِ أحوالِه مِن الآياتِ بما في خلْقِ الأرضِ مِن الآياتِ، وخُصَّ مِن أحوالِه المُتخالِفةُ؛ لأنَّها أشدُّ عِبرةً؛ إذ كان فيها اختلافٌ بيْن أشياءَ مُتَّحِدةٍ في الماهيَّةِ، ولأنَّ هاتِه الأحوالَ المُختلِفةَ لهذا النَّوعِ الواحدِ نجِدُ أسبابَ اختلافِها مِن آثارِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فاختلافُ الألْسنةِ مِن أسبابِه القرارُ بأوطانٍ مُختلِفةٍ مُتباعِدةٍ، واختلافُ الألوانِ مِن أسبابِه اختلافُ الجِهاتِ المَسْكونةِ مِن الأرضِ، واختلافُ مُسامَتةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧١).

أشعَّةِ الشَّمسِ لها؛ فهي مِن آثارِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ. ولذلك فالظَّاهرُ أنَّ المَقصودَ هو آيةُ اختلافِ اللُّغاتِ والألوانِ، وأنَّ ما تَقدَّمَه مِن خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ تَمْهيدٌ له، وإيماءٌ إلى انطواءِ أسبابِ الاختلافِ في أسرارِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ. وقد كانتْ هذه الآيةُ مُتعلِّقةً بأحوالٍ عرَضيَّةٍ في الإنسانِ مُلازِمةً له، فبتلك المُلازَمةِ أشْبَهَتِ الأحوالَ الذَّاتيَّةَ المُطلَقةَ، ثمَّ النِّسبيَّةَ؛ فلذلك ذُكِرَت هذه الآيةُ عقِبَ الآيتَينِ السَّابقتَينِ حسَبَ التَّرتيبِ السَّابقِ[١].

- قولُه: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡ﴾ إنَّما نُظِمَ هذا في سِلْكِ الآياتِ الآفاقيَّةِ مِن خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، مع كَونِه مِن الآياتِ الأنفُسيَّةِ الحَقيقةِ بالانتظامِ في سِلْكِ ما سبَقَ مِن خَلْقِ أنفُسِهم وأزواجِهم؛ للإيذانِ باستِقلالِه، والاحترازِ عن تَوهُّمِ كَونِه مِن تَتمَّاتِ خلْقِهم[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ جُعِلَ في ذلك آياتٌ باعتِبارِ اشْتمالِ ذلك الخلْقِ على دَقائقَ كثيرةٍ، مُتولِّدٌ بعضُها عن بعضٍ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ جُعِلتِ الآياتُ للعالِمين -على قِراءةِ كسْرِ اللَّامِ-؛ لكونِ المُنتفِعِ بها إنَّما همْ أهْلُ العِلْمِ، كقولِه: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣]. وعلى قِراءةِ ﴿لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ -بفَتحِ اللَّامِ-؛ جُعِلتْ لهم لأنَّها آيةٌ مَكشوفةٌ للعالَمِ، ويُمكِنُهم الشُّعورُ بآياتِه بمُجرَّدِ الْتفاتِ الذِّهنِ دونَ إمعانِ نظَرٍ، وفيه دَلالةٌ على كَمالِ وُضوحِ الآياتِ، وعدَمِ خَفائِها على أحدٍ مِن الخلْقِ كافَّةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٤)، =

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ...﴾ هذا مِن بابِ اللَّفِّ[(١)]، وتَرتيبُه: ومِن آياتِه مَنامُكم وابتغاؤُكم مِن فضْلِه باللَّيلِ والنَّهارِ، فلَفَّ وضَمَّ بيْن الزَّمانينِ والفِعلينِ بعاطفينِ -وهما الواوانِ-؛ إشعارًا بأنَّ كلًّا مِن الزَّمانينِ وإنِ اختَصَّ بأحدِهما فهو صالحٌ للآخَرِ عندَ الحاجةِ، ويُؤيِّدُه سائرُ الآياتِ الواردةِ فيه، خَلَا أنَّه فصَلَ بينَ القرينَينِ الأوَّلَينِ بالقَرينينِ الأخيرَينِ؛ لأنَّهما زمانٌ، والزَّمانُ مع ما وقَعَ فيه كشَيءٍ واحدٍ مع إعادةِ اللَّفِّ على الاتِّحادِ. ويجوزُ أنْ يُرادَ: مَنامُكم في الزَّمانينِ، وابتِغاؤكم فِيهما؛ فعلى هذا لا يكونُ مِن بابِ اللَّفِّ، بلْ مِن المُقابَلةِ؛ فحُذِفَ في إحْدى المُتقابلينِ ما

= ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٢، ٤٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٥).

(١) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئين أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يشتملُ على متعدِّدٍ- ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا. والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجمالي. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهين؛ الوجه الأوَّل: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّف، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المرتَّبَ». الوجه الثاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّف والنَّشر المُشَوَّش»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

يُقابِلُ الآخَرَ؛ لدَلالةِ التَّقابُلِ[١].

- قولُه: ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ الابتِغاءُ مِن فضْلِ اللهِ: طلَبُ الرِّزقِ بالعمَلِ؛ لأنَّ فضْلَ اللهِ الرِّزقُ، وجُعِلَ هذا كِنايةً عن الهُبوبِ إلى العمَلِ؛ لأنَّ الابتغاءَ يَستلزِمُ الهُبوبَ مِن النَّومِ، وذلك آيةٌ أُخرى؛ لأنَّه نَشاطُ القوَّةِ بعْدَ أنْ خارَتَ وفشِلَتْ. ولِكَونِ ابتِغاءِ الرِّزقِ مِن خَصائصِ النَّهارِ، أُطلِقَ هنا، فلم يُقيَّدْ باللَّيلِ والنَّهارِ. ولك أنْ تَجعَلَ عدَمَ تَقْييدِه بمِثْلِ ما قُيِّدَ به مَنامُكم؛ للاستغناءِ بدَلالةِ القَيدِ الَّذي قبْلَه، بتَقديرِ: وابْتغاؤُكم مِن فضْلِه فيهما[٢].

- وقدَّمَ المنامَ باللَّيلِ على الابتِغاءِ بالنَّهارِ في الذِّكرِ؛ لأنَّ الاستراحةَ مَطلوبةٌ لِذاتِها، والطَّلَبَ لا يكونُ إلَّا لحاجةٍ، فلا يبتغي إلَّا محتاجٌ في الحالِ، أو خائفٌ مِن المآلِ[٣]. أو باعتبارِ أنَّ اللَّيلَ سابقٌ للنَّهارِ.

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ وجْهُ جَعلِ ذلك آياتٍ؛ لِمَا يَنْطوي عليه مِن تَعدُّدِ الدَّلالاتِ بتَعدُّدِ المُستدِلِّينَ، وتَولُّدِ دَقائقِ تلك الآيةِ بعضِها عن بعضٍ[٤].

- وأُجْرِيَت صِفةُ ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ على (قَوم)؛ للإيماءِ إلى أنَّ السَّمعَ مُتمكِّنٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٢، ٣٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٩٢، ٤٩٣).

قال ابن عاشور: (وقد تكَلَّف صاحبُ الكشَّافِ فجَعَل الكلامَ مِن قبيلِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ على أنَّ اللَّفَّ وَقَع فيه تفريقٌ، ووَجَّهَه مُحَشِّيه القزوينِيُّ بأنَّ التَّقديمَ للاهتمامِ بآيَةِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٧).

منهم، حتَّى كأنَّه مِن مُقَوِّماتِ قَوميَّتِهم[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ جُعِلَت دَلالاتُ المَنامِ والابتِغاءِ مِن فضْلِ اللهِ لِقَومٍ يسْمَعون؛ لِوَجهين: أحدِهما: أنَّ هذينِ حالتانِ مُتعاوِرتانِ على النَّاسِ قد اعْتادُوهما، فقَلَّ مَن يَتدبَّرُ في دَلالتِهما على دَقيقِ صُنْعِ اللهِ تعالى ممَّا يَشعُرُ به صاحبُ النَّومِ مِن أحوالِ نَومِه؛ لأنَّ النَّائمَ لا يَعرِفُ مِن نَومِه إلَّا الاستعدادَ له، وإلَّا أنَّه حِين يَهُبُّ مِن نَومِه يَعلَمُ أنَّه كان نائمًا، فأمَّا حالةُ النَّائمِ في حينِ نَومِه، ومِقدارُ تَنبُّهِه لمَن يُوقِظُه، وشُعورُه بالأصواتِ الَّتي تقَعُ بقُرْبِه، والأضواءِ الَّتي تَنتشِرُ على بصَرِه، فتُنبِّهُه أو لا تُنبِّهُه؛ كلُّ ذلك لا يَتلقَّاه النَّائمُ إلَّا بطَريقِ الخبَرِ مِن الَّذين يَكونون أيْقاظًا في وقْتِ نَومِه، فطَريقُ العِلْمِ بتَفاصيلِ أحوالِ النَّائمينَ واختلافِها السَّمعُ، وقد يُشاهِدُ المرْءُ حالَ نَومِ غيرِه، إلَّا أنَّ عِبرتَه بنَومِه الخاصِّ به أشَدُّ؛ فطَريقُ السَّمعِ هو أعمُّ الطُّرقِ لِمَعرفةِ تَفاصيلِ أحوالِ النَّومِ؛ فلذلك قِيل: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾. وأيضًا لأنَّ النَّومَ يَحولُ دونَ الشُّعورِ بالمَسموعاتِ بادِئَ ذي بَدْءٍ قبْلَ أنْ يَحولَ دونَ الشُّعورِ بالمُبصَراتِ[٢].

- وقيل: إنَّما قال: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾؛ لأنَّه لَمَّا كان مِن أفعالِ العِبادةِ قد يُتوهَّمُ أنَّه لا يَحتاجُ إلى مُرشِدٍ، فنُبِّه على السَّماعِ، وجُعِلَ البالُ مِن كلامِ المُرشِدِ[٣]. وقيل: ختَمَها بقولِه: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾؛ لأنَّ مَن يَسمَعُ سَماعَ تدبُّرٍ أنَّ النَّومَ مِن صُنعِ اللهِ الحكيمِ، لا يُقدَرُ على اجتِلابِه إذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧٦، ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٥).

امْتنَعَ، ولا على رفْعِه إذا ورَدَ؛ يَعلَمُ أنَّ له صانعًا مُدبِّرًا[١].

- وقيل: خُصَّ قولُه: ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ باللَّيلِ ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم﴾ بالنَّهارِ بالسَّمعِ؛ لأنَّ أكثَرَ النَّاسِ مُنسَدِحون[٢] باللَّيلِ كالأمواتِ، ومُتردِّدون كالبهائم بالنَّهارِ، لا يَدْرون فِيمَ همْ؟ ولِمَ ذلك؟ لكنْ مَن أَلْقى السَّمعَ وهو شهيدٌ يَتنبَّهُ لِواعظِ اللهِ ويُصْغي إليه؛ لأنَّ مرَّ اللَّيالي وكرَّ النَّهارِ يُناديانِ بلِسانِ الحالِ: (الرَّحيلَ الرَّحيلَ مِن دارِ الغُرورِ إلى دارِ القرارِ)، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾[٣] [الفرقان: ٦٢].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٣).

(٢) السَّدْحُ: الإِضْجاعُ، والصَّرْعُ على الوَجْهِ، والإِلْقاءُ على الظَّهْرِ، والمنسدحُ: المُسْتَلْقي على ظهرِه، المُفَرِّجُ بينَ رِجْلَيْه. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٢٢٣)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠، ٢٤١).

الآيات (٢٤-٢٧)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَٰنِتُونَ﴾: أي: مُطيعونَ خاضِعونَ، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دِينٍ[1].

﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: أي: الصِّفةُ العُليا، وهي أنَّه لا إلهَ غيرُه، والمثَلُ يَرِدُ بمعنَى الصِّفةِ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على عَظمةِ اللهِ تعالى وغَيرِها مِن صفاتِه الحسنى: أن يُريَكم البَرْقَ؛ فتَخافوا وتَطمَعوا، ويُنزِّلُ اللهُ مِن السَّماءِ مَطَرًا فيُحيي به الأرضَ بعدَ جُدوبِها، إنَّ في ذلك لَعَلاماتٍ لِقَومٍ يَعقِلونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢) و(٥/ ٢٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٣/ ١٠٣٣).

ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه تعالى: قيامُ السَّماءِ والأرضِ بقُدرتِه وتَدبيرِه تعالى، ثمَّ إذا دعاكم اللهُ دَعوةً واحِدةً وأنتم موتَى في بَطنِ الأرضِ، إذا أنتم تَخرُجونَ أحياءً مِن قُبورِكم يومَ البَعثِ.

ولله وَحْدَه مَنْ في السَّمواتِ والأرضِ، كلٌّ له سُبحانَه خاضِعونَ مُنقادونَ.

واللهُ هو الذي يَبدأُ إنشاءَ الخَلقِ مِن العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُهم بعدَ مَوتِهم فيُحييهم ثانيةً، وإعادةُ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم أيسَرُ عليه مِن ابتداءِ خَلْقِهم.

وله وَحْدَه سُبحانَه الوَصفُ الأكمَلُ في السَّمَوات والأرضِ، وهو العزيزُ القاهِرُ لخَلقِه، الحَكيمُ في أفعالِه وأقوالِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذكَر ما يَعرِضُ للأنفُسِ مِنَ الأوصافِ؛ ذكَر ما يَعرِضُ للأكوانِ والآفاقِ ونُشاهِدُه رأيَ العَينِ الفَيْنَةَ بعدَ الفَينةِ، ممَّا فيه العِبرةُ[1].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على عظَمةِ اللهِ تعالى وغَيرِها: أنْ يُبدِيَ لكم البَرْقَ، فتَخافوا وتَطمَعوا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨، ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠). =

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾.

أي: ويُنزِّلُ اللهُ مِن السَّماءِ مَطَرًا، فيُحيي به الأرضَ اليابِسةَ، فتُخرِجُ نباتَها بعدَ جُدوبِها[1].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

= قال ابن عاشور: (المراد: خوفًا تخافونَه، وطَمعًا تَطمعونَه؛ فالمصدران مؤوَّلان بمعنى الإرادةِ، أي: إرادةَ أن تخافوا خَوفًا وتطمَعوا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٩).

واختلفت أقوالُ المفسِّرينَ في المرادِ بالخوفِ والطَّمَعِ هنا على أقوالٍ:

فقيل: المرادُ: خَوفًا للمسافِرِ، وطمعًا للمقيم. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزجَّاج، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٢).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧٥).

وردَّ ابنُ عطيَّةَ هذا المعنى، فقال: (لا وجْهَ لهذا التَّخصيصِ ونحوِه، بل فيه الخَوفُ والطَّمَعُ لكُلِّ بشَرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٤). وبنحوِه قال ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٣٢).

وقيل: المعنى: تارةً تخافونَ ممَّا يحدُثُ بعدَه مِن أمطارٍ مُزعِجةٍ، أو صواعِقَ مُتلِفةٍ، وتارةً تَرجونَ وَميضَه وما يأتي بعدَه مِن المطرِ المُحتاجِ إليه. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ كثير. وبنحوِه قال البِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٣).

قال ابن عاشور: (خَوفًا مِن أن يكونَ اللهُ سَلَّطه عقابًا، وطَمعًا في أن يكونَ أراد به خيرًا للنَّاسِ، فيَطمعونَ في نزولِ المطرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٨).

وقيل: المرادُ: خَوفًا أن يكونَ البرقُ بَرقًا خُلَّبًا لا يُمطِرُ، وطمعًا أن يكونَ مُمطِرًا. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٣).

أي: إنَّ في إظهارِ الله لكم البَرْقَ، وإنزالِه المطَرَ، وإحياءِ الأرضِ به: لَعَلاماتٍ يَستَدِلُّ بها القَومُ الَّذين يَعقِلونَ حُجَجَ اللهِ، ومِن ذلك الاستِدلالُ بها على قُدرةِ الله على البَعثِ[١].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان جميعُ ما مضَى مِنَ الآياتِ المرئيَّاتِ ناشِئًا عن هذَينِ الخَلْقَينِ العَظيمَينِ -السَّماءِ والأرضِ- المحيطَينِ بمَن أُنزِلَت عليهم هذه الآياتُ المسموعاتُ؛ بيانًا لِمَن أَشْكَلَ عليه أمرُ الآياتِ المرئيَّاتِ- ذكَرَ أمرًا جامِعًا للكُلِّ، وهو مِن الوضوحِ بحيث لا يحتاجُ إلى أكثَرَ مِن العَقلِ المختومِ به ما قَبْلُ، فقال[٢]:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

أي: ومِن العلاماتِ الدَّالَّةِ على قُدرةِ اللهِ وغيرِها: قيامُ السَّماءِ والأرضِ بقُدرتِه وتدبيرِه؛ خُضوعًا وطاعةً لأمرِه لها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

قيل: المرادُ بقيامِ السَّمَواتِ والأرضِ: استِمساكُها بلا عَمَدٍ، فلا تَسقُطُ السَّماءُ أو الأرضُ. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبي، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١].

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

أي: ثمَّ إذا دعاكم اللهُ دَعوةً واحِدةً وأنتم مَوتى في بَطنِ الأرضِ، إذا أنتم سَريعًا تَخرُجونَ أحياءً مِن قُبورِكم يومَ القيامةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن أقام الأدِلَّةَ على الوحدانيَّةِ وهي الأصلُ الأوَّلُ، وعلى القُدرةِ على الحشرِ وهي الأصلُ الثَّاني- أعقَبَ ذلك بهاتَينِ الآيتَينِ، وجعَلَهما كالنَّتيجةِ لِما

= ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٢).

وقيل: المرادُ أعَمُّ مِن ذلك، فيَشمَلُ القيامَ الحِسِّيَّ والمعنويَّ؛ القيامُ الحِسِّيُّ: بما فيها مِنَ الانتظام، وإيداعِها مصالحَ الخَلقِ. والقيامُ المعنويُّ: لأنَّها تَصلُحُ وتقومُ بالعَمَلِ فيها بطاعةِ الله، كما أنَّ المعاصيَ إفسادٌ للأرضِ. قاله ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٣٧، ١٣٨).

قال ابن عثيمين: (... وعلى هذا يكونُ المرادُ بالأمرِ الأمرَ الكونيَّ، والأمرَ الشَّرعيَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الروم)) (ص: ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٢)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٣٨-١٤٠).

سلَف[١].

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: ولله وَحْدَه ملْكُ مَنْ في السَّمَواتِ والأرضِ مِن الملائِكةِ والإنسِ والجِنِّ وجَميعِ المخلوقاتِ؛ فكُلُّهم عَبيدُه ومماليكُه[٢].

﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾.

أي: كُلُّ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ مِن خَلْقِ اللهِ خاضِعونَ للهِ وَحْدَه؛ فَهُم له أذِلَّاءُ مَقهورونَ لإرادتِه الكَونيَّةِ، فيَتصَرَّفُ فيهم بما يَشاءُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٤١، ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٤، ٤٨٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢١٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٤٢، ١٤٣).

قال ابنُ جرير: (وأَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ القَولُ الَّذي ذكَرْناه عن ابنِ عبَّاسٍ: وهو أنَّ كُلَّ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ مِن خَلقِ الله: مُطيعٌ في تصَرُّفِه فيما أراد تعالى ذِكرُه من حياةٍ وموتٍ، وما أشبَهَ ذلك، وإنْ عصاه فيما يَكتسِبُه بقُواهُ، وفيما له السَّبيلُ إلى اختيارِه، وإيثارِه على خِلافِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٤، ٤٨٥).

وقال ابنُ القيِّم: (القنوتُ هنا هو العبوديَّةُ العامَّةُ الَّتي يشتَرِكُ فيها أهلُ السَّمَواتِ والأرضِ، لا يختَصُّ بها بعضُهم عن بعضٍ، ولا يختَصُّ بزَمانٍ دونَ زمانٍ، وهي عبوديَّةُ القَهرِ؛ فالقُنوتُ هنا قُنوتُ قَهرٍ وذُلٍّ، لا قُنوتُ طاعةٍ ومحبَّةٍ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢١٥).

وقال ابن كثير: (﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ أي: خاضِعونَ خاشِعونَ، طَوعًا وكَرهًا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١١). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

أي: واللهُ هو الَّذي يَبدأُ إنشاءَ الخَلقِ مِن العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُهم بعدَ مَوتِهم فيُحييهم ثانيةً(١).

﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾.

أي: وإعادةُ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم أيسَرُ(٢) .....

= وقال ابنُ عاشور: (ظاهِرُ معنى القُنوتِ: امتِثالُ الأمرِ، فيجوزُ أن يكونَ المعنى: أنَّهم مُنقادون لأمرِه، وإذ قد كان في العُقَلاءِ عُصاةٌ كثيرونَ، تعَيَّنَ تأويلُ القُنوتِ باستعمالِه في الامتِثالِ لأمرِ التَّكوينِ، أو في الشَّهادةِ لله بالوحدانيَّةِ بدَلالةِ الحالِ، وهذا هو المقصودُ هنا... ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ تكمِلةً لجُملةِ ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥] على معنى: وله يومَئذٍ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ كُلٌّ له قانِتونَ، فالقُنوتُ بمعنى الامتِثالِ الواقعِ في ذلك اليوم، وهو امتِثالُ الخُضوعِ؛ لأنَّ امتِثالَ التَّكليفِ قد انقضى بانقِضاءِ الدُّنيا، أي: لا يَسَعُهم إلَّا الخضوعُ فيما يأمُرُ الله به مِن شأنِهم يومَ تَشهَدُ عليهم ألسِنَتُهم وأيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يَعمَلونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٢، ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٤٥).

(٢) اختلَف المفسِّرونَ هنا في المرادِ بقَولِه تعالى: ﴿أَهۡوَنُ﴾؛ فقيل: ﴿أَهۡوَنُ﴾ بمعنى: هَيِّن، =

على اللهِ مِن ابتِداءِ خَلْقِهم[١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال الله: كَذَّبَني ابنُ آدَمَ ولم يكُنْ له ذلك، وشَتَمَني ولم يكُنْ له ذلك؛ فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فقَولُه: لن يُعيدَني كما بدَأَني! وليس أوَّلُ الخَلْقِ بأهْوَنَ عليَّ مِن إعادتِه. وأمَّا شَتْمُه إيَّايَ فقَولُه: اتَّخَذ اللهُ ولَدًا! وأنا الأحَدُ الصَّمَدُ، لم أَلِدْ ولم أُولَدْ، ولم يكُنْ لي كُفْئًا أحَدٌ))[٢].

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

مُناسبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَر مِن الآياتِ العظيمةِ ما به يَعتبِرُ المُعتَبرونَ، ويَتذكَّرُ المؤمِنونَ، ويَتبصَّرُ المُهتدونَ؛ ذكَر الأمرَ العظيمَ، والمطلبَ الكبيرَ، فقال[٣]:

= أي: الإعادةُ هَيِّنةٌ عليه؛ لأنَّه ليس شَيءٌ أهوَنَ على اللهِ مِن شَيءٍ، فالكُلُّ هَيِّنٌ عليه، وهو عندَه سَواءٌ. ومِمَّن قال بذلك: القرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٧).

وهذا بناءً على أنَّ صيغةَ التَّفضيلِ قد تُطلقُ في القرآنِ واللُّغةِ مرادًا بها الاتِّصافُ، لا تفضيلُ شَيءٍ على شَيءٍ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٢٥٨ - ٢٦١).

وقيل: هو اسمُ تَفضيلٍ، والمرادُ: أهوَنُ عليه باعتبارِ المفهومِ لدى المخاطَبينَ، فمِنَ المتقَرِّر لدى النَّاسِ أنَّ إعادةَ الشَّيءِ أسهَلُ مِن ابتِدائِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي، والسعدي، واستحسنه ابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٤٦، ١٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٥ - ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١، ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١١، ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٣).

(٢) رواه البخاري (٤٩٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو المُستَحِقُّ للوَصفِ الأكمَلِ في السَّمَواتِ والأرضِ؛ فلا إلهَ إلَّا هو، وليس كمِثْلِه شَيءٌ، وكُلُّ صِفةِ كَمالٍ في المخلوقاتِ فالخالِقُ أحَقُّ بالاتِّصافِ بها على وَجهٍ لا يُشارِكُه فيها أحَدٌ، وكلُّ صِفةِ نَقصٍ في المخلوقِ فتَنزيهُ الخالِقِ عنها أَولى وأحرى، لا يدخُلُ السُّوءُ في أسمائِه، ولا النَّقصُ والعَيبُ في صفاتِه، ولا العَبَثُ والجَورُ في أفعالِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣٧٦)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٤٨).

قال الرسعني: (﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي: الوصفُ الأعلى الَّذي لا يُشارَكُ فيه، قد وُصِف به في السَّمواتِ والأرضِ على ألْسِنةِ الخلائقِ وألسِنةِ الدَّلائلِ، وهو أنَّه القادرُ الَّذي لا يُعجِزُه ما شاء مِنَ الإعادةِ والإنشاءِ وغيرِهما). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٢). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٤).

وقال السعدي: (﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هو كلُّ صِفةِ كمالٍ، والكمالُ مِن تلك الصِّفةِ والمحبَّةُ والإنابةُ التَّامَّةُ الكاملةُ في قلوبِ عِبادِه المُخلصينَ والذِّكرُ الجليلُ والعبادةُ منهم؛ فالمثَلُ الأعلى هو وصْفُه الأعلى وما ترتَّبَ عليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

وقال ابن القيِّم: (المثَلُ الأعلى يَتضمَّنُ الصِّفةَ العُليا، وعِلْمَ العالَمينَ بها ووُجودَها العِلميَّ، والخبرَ عنها وذِكْرَها، وعِبادةَ الرَّبِّ سُبحانَه بواسِطةِ العِلمِ والمعرفةِ القائمةِ بقُلوبِ عابِديه وذاكِريه؛ فهاهنا أربعةُ أمورٍ:

ثُبوتُ الصِّفاتِ العُلْيا لله سبحانه في نفْسِ الأمرِ، عَلِمَها العِبادُ أو جَهِلوها. وهذا معنَى قولِ مَن فسَّره بالصِّفةِ.

الثَّاني: وُجودُها في العِلمِ والتَّصوُّرِ. وهذا معنَى قولِ مَن قال مِنَ السَّلفِ والخلَفِ: إنَّه ما في قُلوبِ عابِديه وذاكِريه مِن معرفتِه وذِكرِه ومحبَّتِه وإجلالِه وتعظيمِه، وهذا الَّذي في قلوبِهم مِنَ المثَلِ الأعلى لا يَشترِكُ فيه غيرُه معه، بل يختصُّ به في قلوبِهم، كما اختصَّ في ذاتِه. وهذا معنى قولِ مَن قال مِنَ المفسِّرينَ: أهلُ السَّماءِ يُعَظِّمونه ويُحِبُّونه ويَعبُدونه، وأهلُ الأرضِ =

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ ذو العِزَّةِ الكامِلةِ؛ فهو القاهِرُ لخَلقِه فلا يُغالَبُ، المنتَقِمُ مِن أعدائِه فلا يُمانَعُ، وهو الحَكيمُ في أفعالِه وأقوالِه؛ شَرعًا وقَدَرًا، ومِن ذلك حِكمتُه في تدبيرِ خَلْقِه، وتَصريفِهم فيما أرادَه بهم مِن إحياءٍ وإماتةٍ، وبَعثٍ ونُشورٍ[1].

= يُعَظِّمونه ويُجِلُّونه وإن أشرَك به مَن أشرَكَ، وعصاه مَن عصاه، وجحَدَ صِفاتِه مَن جحَدَها، فكلُّ أهلِ الأرض مُعَظِّمون له، مُجِلُّون له، خاضِعون لِعَظَمتِه، مُستَكِينون لِعِزَّتِه وجَبَروتِه؛ قال تعالى: ﴿بَلْ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]، فلستَ تَجِدُ أحدًا مِن أوليائِه وأعدائِه إلَّا واللهُ أكبَرُ في صدرِه وأكمَلُ وأعظَمُ مِن كلِّ سِواه.

الثَّالثُ: ذِكرُ صِفاتِه، والخبَرُ عنها، وتنزيهُها عن النَّقائصِ والعيوبِ والتَّمثيلِ.

الرَّابعُ: محبَّةُ المَوصوفِ بها، وتوحيدُه، والإخلاصُ له، والتَّوكُّلُ عليه، والإنابةُ إليه، وكُلَّما كان الإيمانُ بالصِّفاتِ أكمَلَ كان هذا الحُبُّ والإخلاصُ أقوى.

فعِباراتُ السَّلفِ تَدورُ حوْلَ هذه المعاني الأربعةِ لا تَتجاوَزُها). ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) (٣/ ١٠٣٤).

وقال ابن عاشور: (وقوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صِفةٌ للمَثَلِ، أو حالٌ منه، أي: كان استِحقاقُه المثَلَ الأعلى مُستقرًّا في السَّمواتِ والأرضِ، أي: في كائناتِ السَّمواتِ والأرضِ، فالمرادُ: أهلُها، على حدِّ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: هو موصوفٌ بأشرَفِ الصِّفاتِ وأعظَمِ الشُّؤونِ على ألْسِنةِ العُقلاءِ، وهي الملائكةُ والبشَرُ المُعتَدُّ بعُقولِهم، ولا اعتِدادَ بالمُعطِّلينَ منهم لِسَخافةِ عُقولِهم، وفي دَلائلِ الأدِلَّةِ الكائنةِ في السَّمواتِ وفي الأرضِ؛ فكلُّ تلك الأدِلَّةِ شاهِدةٌ بأنَّ لله المثَلَ الأعلى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٤).

وقال ابن عثيمين: (﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: عندَ أهلِ السَّمواتِ مِنَ الملائكةِ، وعندَ أهلِ الأرضِ؛ فكُلُّ الفِطَرِ السَّليمةِ تَعترِفُ بأنَّ المثَلَ الأعلى والصِّفةَ العُلْيا لله وحْدَه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

يتفَرَّعُ على إثباتِ الحِكمةِ في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قَطعُ الاعتِراضِ على الخَلْقِ والشَّرعِ، بمعنى أنَّك لا تَعترضُ على خَلْقِ اللهِ أو على شَرعِه، وإنما تُسَلِّمُ؛ لأنَّك إذا آمَنْتَ بالحِكمةِ وأنَّ اللهَ تعالى حَكيمٌ، فحينَئذٍ يَنقَطِعُ الاعتراضُ نهائيًّا، فلا تَقُلْ: «لِمَ؟» ولا «مِن أينَ؟» إلَّا على سَبيلِ الاسترشادِ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ في إضافةِ الفِعلِ إلى فاعِلِ ذلك الفِعلِ [وأنَّ ذلك لا يدفعُ فِعلَ الله به، وإرادتَه فيه]، ألا ترى أنَّه قال قبْلَ هذا: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]، ثمَّ قال هاهنا: ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، فكيف يُنكِرونَ -وَيْحَهم- أنْ تكونَ أفعالُ المعاصي يَفعلُها العاصون وتُنسَبُ إليهم، ويكونَ محكومًا عليهم بها، جارونَ على محتومِ القَضاءِ عليهم فيها؟! فلا يبقى عليهم عندَ ذلك إلَّا الإقرارُ بعُزوبِ عِلْمِهم عن عَدْلِ عادلٍ لا يضُرُّهم جَهْلُه[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مَقَرَّ بني آدمَ الأرضُ، ويؤيِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، فالمعمولُ في هذه الآيةِ «فيها» و «منها» مُقَدَّمٌ، وتقديمُ المعمولِ يدُلُّ على الحصر مِن هذا الشَّيءِ لا مِن غيرِه، إذَنْ فالحياةُ على الكواكبِ متعَذِّرةٌ بالنِّسبةِ لبني آدَمَ، فظاهرُ الآياتِ أنَّ بني آدَمَ خُلِقوا مِن الأرض،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((النُّكَت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦١٠).

ويُرجَعون إلى الأرض، ويُدْعَون يومَ القيامة مِن الأرض[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الخَلقَ حادِثٌ بعدَ أنْ لم يكُنْ، فيَكونُ في الآية رَدٌّ لِقَولِ الفَلاسِفةِ القائلينَ بقِدَمِ العالَم، والصَّوابُ أنَّ العالَمَ حادِثٌ بعدَ أنْ لم يكُنْ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عَقَّبَ بقَولِه: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ قَولَه: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ مجرَّدُ تَقريبٍ لأفهامِهم، أي: ثَبَت له واستَحَقَّ الشَّأنَ الأتَمَّ الَّذي لا يُقاسُ بشُؤونِ النَّاسِ المُتعارَفةِ، وإنَّما لِقَصدِ التَّقريبِ لأفهامِكم[٣].

٥- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ هذا ابتِداءٌ بتوجيهِ الكلامِ إلى المشركينَ لرُجوعِه إلى نَظيرِه المَسوقِ إليهم، وهذا أشبَهُ بالتَّسليمِ الجَدَليِّ في المُناظَرةِ؛ ذلك لأنَّهم لَمَّا اعتَرفوا بأنَّ اللهَ هو بادِئُ خلْقِ الإنسانِ، وأنْكَروا إعادتَه بعدَ الموتِ، واسْتُدِلَّ عليهم هنالك بقِياسِ المُساواةِ، ولَمَّا كان إنكارُهم الإعادةَ بعْدَ الموتِ مُتضَمِّنًا تَحديدَ مَفعولِ القُدرةِ الإلهيَّةِ؛ جاء التَّنازُلُ في الاستِدلالِ إلى أنَّ تَحديدَ مَفعولِ القُدرةِ لو سُلِّمَ لهم، لَكان يَقْتضي إمكانَ البعْثِ بقياسِ الأَحْرى؛ فإنَّ إعادةَ المَصْنوعِ مرَّةً ثانيةً أهْوَنُ على الصَّانعِ مِن صَنعتِه الأُولى، وأدخَلُ تحتَ تأثيرِ قُدرتِه فيما تَعارَفَه النَّاسُ في مَقدُوراتِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٨٣).

٦- الأقْيسةُ في بابِ صفاتِ اللهِ هي أقيسةُ الأَولى؛ فإنَّ العَبدَ إذا كان هذا الكَمالُ ثابتًا له، فاللهُ الَّذي له المَثَلُ الأعلى أحَقُّ بذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، فكُلُّ صِفةِ كَمالٍ في المخلوقاتِ فخالِقُها أحَقُّ بالاتِّصافِ بها على وَجهٍ لا يُشارِكُه فيها أحدٌ، وكُلُّ نَقصٍ في المخلوقِ يُنزَّهُ عنه، فتَنزيهُ الخالِقِ عنه مِن بابِ أَولى وأحرَى[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قدَّمَ عرَضيَّاتِ الآفاقِ المُفارِقةِ؛ مِن إراءةِ البرْقِ وإنزالِ المطَرِ على ما هو مِن الأرضِ، وهو الإتيانُ والإحياءُ، كما قدَّمَ السَّمواتِ على الأرضِ، وقدَّمَ البرْقَ على الإنزالِ؛ لأنَّه كالمُبشِّرِ يَجيءُ بيْن يَدَي القادمِ[3].

- ومِن بَديعِ الاستِعمالِ تفنُّنُ هذه الآياتِ في التَّعبيرِ عن مَعاني المصدرِ بأنواعِ صِيَغِه الواردةِ في الاستِعمالِ؛ مِن تَعبيرٍ بصِيغةِ صَريحِ المصدرِ تارةً، كقولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٢]، وقولِه: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٣]، وبالمَصدرِ الَّذي يَنسَبِكُ مِن اقترانِ (أنْ) المَصدريَّةِ بالفِعلِ الماضي ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الروم: ٢١]، واقْترانِها بالفِعلِ المُضارعِ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، وباسمِ المَصدرِ تارةً ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٣]،

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٥).

ومرَّةً بالفِعلِ المُجرَّدِ المُؤوَّلِ بالمصدرِ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ﴾[١] [الروم: ٢٤].

- وفي قولِه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ المَجرورُ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿يُرِيكُمُ ﴾، وتكونَ (مِن) ابتِدائيَّةً في مَوضعِ الحالِ مِن ﴿ٱلْبَرْقَ﴾، وتكونَ جُملةُ ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الروم: ٢٣] إلخ، فيَكونَ تَغْييرُ الأُسلوبِ لأنَّ مَناطَ هذه الآيةِ هو تَقْريرُ النَّاسِ بها؛ إذ هي غيرُ مُتَّصِلةٍ بذَواتِهم، فليس حظُّهم منها سِوى مُشاهَدتِها والإقرارِ بأنَّها آيةٌ بيِّنةٌ؛ فهذا التَّقريرُ كالَّذي في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[الرعد: ٢]، وليَتأتَّى عطْفُ ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ عليه؛ لأنَّه تَكمِلةٌ لهذه الآيةِ[٢].

- وأعقَبَ رُؤيةَ البرْقِ بقولِه: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾؛ لأنَّ نُزولَ المطَرِ ممَّا يَخطُرُ بالبالِ عندَ ذِكْرِ البرْقِ[٣].

- وأفرَد السَّماءَ والأرضَ؛ لأنَّ السَّماءَ الأُولى والأرضَ الأُولى لا تَقْبَلُ النِّزاعَ؛ لأنَّها مُشاهَدةٌ، مع صلاحيةِ اللَّفظِ بالكلِّ؛ لأنَّه جنسٌ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ جُعِلَت هذه الآيةُ آياتٍ؛ لانطوائِها على دَقائقَ عَظيمةٍ في خلْقِ القُوى الَّتي هي أسبابُ البرْقِ، ونُزولُ المطَرِ، وخروجُ النَّباتِ مِن الأرضِ بعْدَ جَفافِها ومَوتِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٨، ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٩).

- وإنَّما قال هنا: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنَّ البَرقَ والإنزالَ ليس أمْرًا عاديًّا فيُتَوهَّمَ أنَّه طبيعةٌ؛ إذ يقَعُ ذلك ببَلدةٍ دونَ أُخرى، ووقْتًا دونَ وقْتٍ، وقويًّا وضَعيفًا؛ فهو أظْهَرُ في العقْلِ دَلالةً على الفاعلِ المُختارِ، فقال: هو آيةٌ لِمَن عقَلَ بأنْ لم يَتفكَّرْ تفكُّرًا تامًّا[١]. وقيل: قال: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنَّها مِن الظُّهورِ بحيث يَكْفي في إدراكِها مُجرَّدُ العقْلِ عندَ استعمالِه في استنباطِ أسْبابِها، وكيفيَّةِ تكَوُّنِها[٢]. وقيل: نِيطَ الانتفاعُ بهذه الآياتِ بأصحابِ صِفَةِ العقْلِ؛ لأنَّ العقْلَ المُستقيمَ غيرَ المَشُوبِ بعاهةِ العِنادِ والمُكابَرةِ، كافٍ في فَهْمِ ما في تلك المَذْكوراتِ مِن الدَّلائلِ والحِكَمِ[٣]. وقيل: لأنَّ العقْلَ مَلاكُ الأمْرِ، وهو المُؤدِّي إلى العِلْمِ -فيما ذُكِرَ- وغيرِه[٤].

- وإجْراءُ ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ على لفْظِ (قومٍ)؛ للإيماءِ إلى أنَّ العقْلَ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[٥].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: بإرادتِه تعالى لِقيامِهما، والتَّعبيرُ عنها بالأمْرِ؛ للدَّلالةِ على كَمالِ القُدرةِ، والغِنى عن المَبادئِ والأسبابِ، وعن الآلةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٧).

- قولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ خُتِمَت الآياتُ بقيامِ السَّمواتِ والأرضِ، وذلك مِن العوارضِ اللَّازمةِ؛ فإنَّ كلًّا مِن السَّماءِ والأرضِ لا يَخرُجُ عن مكانِه، فيُتعجَّبُ مِن وُقوفِ الأرضِ وعدَمِ نُزولِها، ومِن عُلوِّ السَّماءِ وثَباتِها مِن غَيرِ عمَدٍ. ثمَّ أتبَعَ ذلك بالنَّشأةِ الأُخرى، وهي الخروجُ مِن الأرضِ، وذكَرَ تعالى مِن كلِّ بابٍ أمْرَينِ: مِن الأنفُسِ ﴿خَلَقَكُم﴾ ﴿خَلَقَ لَكُم﴾، ومِن الآفاقِ السَّماءَ والأرضَ، ومِن لَوازمِ الإنسانِ اختلافَ الألْسنةِ واختلافَ الألْوانِ، ومِن خواصِّه المَنامَ والابتغاءَ، ومِن عوارضِ الآفاقِ البرْقَ والمطَرَ، ومِن لوازمِه قِيامَ السَّماءِ وقِيامَ الأرضِ[(١)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿أَن تَقُومَ﴾، وقال قبْلَه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ [الروم: ٢٤]، ولم يقُلْ: (وأنْ يُرِيَكم)؛ وذلك لأنَّ القِيامَ لَمَّا كان غيرَ مُتغيِّرٍ، أُخرِجَ الفِعلُ بـ (أنْ)، وجُعِلَ في تأْويلِ المَصْدرِ؛ لِيَدُلَّ على الثُّبوتِ، وإراءةُ البَرقِ لَمَّا كانت مِن الأُمورِ المُتجدِّدةِ، لم يُذكَرْ معها ما يدُلُّ على المَصْدرِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ حيثُ كانتْ هذه الآيةُ مُتأخِّرةً عن سائرِ الآياتِ المَعدودةِ، مُتَّصِلةً بالبعثِ في الوُجودِ؛ أُخِّرَت عنهنَّ وجُعِلَت مُتَّصِلةً به في الذِّكرِ أيضًا، فقيلَ: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾؛ فإنَّه كَلامٌ مَسوقٌ للإخبارِ بوُقوعِ البَعثِ ووُجودِه بعْدَ انقضاءِ أجَلِ قِيامِهما، مُترتِّبٌ على تَعدادِ آياتِه الدَّالَّةِ عليه، غيرُ مُنتظمٍ في سِلْكِها[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٨).

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ عطَفَ هذا على قِيام السَّمواتِ والأرضِ بـ (ثمَّ)؛ بَيانًا لِعظَم ما يكونُ مِن ذلك الأمْرِ واقتِداره على مِثْلِه؛ وهو أنْ يقولَ: يا أهلَ القُبورِ قُوموا، فلا تَبْقى نَسَمةٌ مِن الأوَّلينَ والآخِرينَ إلَّا قامت تَنظُرُ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ المقصودُ مِن هذه الجُملةِ الاحتِراسُ عمَّا قد يُتوهَّمُ مِن قولِه: ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ مِن أبَديَّةِ وُجودِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فأفادَتِ الجُملةُ أنَّ هذا النِّظامَ الأرضيَّ يَعْتورُه الاختلالُ إذا أراد اللهُ انقضاءَ العالَمِ الأرضيِّ وإحضارَ الخلْقِ إلى الحشْرِ؛ تَسْجيلًا على المشركينَ بإثباتِ البعثِ؛ فمَضمونُ جُملةِ ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ ليس مِن تَمامِ هذه الآيةِ السَّادسةِ، ولكنَّه تكملةٌ وإدماجٌ مُوَجَّهٌ إلى مُنكِري البعثِ[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ المُرادُ تَشبيهُ سُرعةِ ترتُّبِ حُصولِ ذلك على تعلُّقِ إرادتِه بلا توقُّفٍ واحتياجٍ إلى تجشُّمِ عمَلٍ، بسُرعةِ ترتُّبِ إجابةِ الدَّاعي المُطاعِ على دُعائِه، و(ثمَّ) إمَّا لِتَراخي زَمانِه، أو لِعِظَمِ ما فيه[٣].

- يجوزُ أنْ يكونَ ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ مُتعلِّقًا بـ﴿تَخْرُجُونَ﴾، قُدِّمَ عليه للاهتِمامِ؛ تَعريضًا بخَطئِهم؛ إذْ أحالوا أنْ يكونَ لهم خُروجٌ مِن الأرضِ مِن بَعدِ صَيرورتِهم فيها في قولِهم المَحْكيِّ عنهم بقولِه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٥).

أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠]، وقولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾[(١)] [النمل: ٦٧].

- وجِيءَ بحرْفِ المُفاجأةِ (إذا) في قولِه: ﴿إِذَآ أَنتُم تَخْرُجُونَ﴾؛ لإفادةِ سُرعةِ خُروجِهم إلى الحشْرِ، كقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، و(إذا) الفُجائيَّةُ تَقْتضي أنْ يكونَ ما بعْدَها مُبتدأً. وجِيءَ بخَبرِ المُبتدأِ جُملةً فِعليَّةً ﴿تَخْرُجُونَ﴾؛ لإفادةِ التَّقَوِّي الحاصلِ مِن تَحمُّلِ الفِعلِ ضَميرَ المُبتدأِ، فكأنَّه أُعِيدَ ذِكْرُه. وجِيءَ بالمُضارعِ ﴿تَخْرُجُونَ﴾؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ العَجيبةِ في ذلك الخُروجِ، كقولِه: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[(٢)] [يس: ٥١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾

أَتْبَعَ ذِكْرَ إقامةِ اللهِ تعالى السَّمواتِ والأرضَ بالتَّذكيرِ بأنَّ كلَّ العُقلاءِ في السَّمواتِ والأرضِ عَبيدٌ للهِ تعالى؛ فيَكونُ مِن مُكمِّلاتِ ما تَضمَّنَتْه جُملةُ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]؛ فعُطِفَت عليها هذه الجُملةُ زِيادةً لِبَيانِ معنى إقامتِه السَّماءَ والأرضَ، وهذه الآيةُ أُورِدَت بعْدَ ذِكرِ الآياتِ السِّتِّ إيرادَ الفَذْلَكةِ[(٣)] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغَ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و (الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذلكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة =

بإثباتِ الوَحدانيَّةِ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يُعيدُه بعْدَ مَوتِهم، وتقدَّمَ نَظيرُ صدْرِ هذه الآيةِ في هذه السُّورةِ، وأُعِيدَ هنا لزِيادةِ التَّقريرِ، والتَّمهيدِ لِمَا بعْدَه؛ لِيُبْنَى عليه قولُه: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ تكملةً للدَّليلِ؛ إذ لم تُذكَرْ هذه التَّكملةُ هناك؛ فهذا ابتداءٌ بتَوجيهِ الكلامِ إلى المشركينَ؛ لِرُجوعِه إلى نَظيرِه المَسوقِ إليهم[٢]. وذكَّرَ الضَّميرَ في قولِه: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ والمرادُ به الإعادةُ -وهي مُؤنَّثةٌ-؛ لأنَّ معناهُ: وأنْ يُعيدَه أهْونُ عليه[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ أُخِّرَت الصِّلةُ في قولِه: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾، وقُدِّمت في قولِه: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مريم: ٩]؛ ووجْهُه: أنَّ مَقامَ خرْقِ العادةِ في سُورةِ (مَريمَ) اقْتَضى التَّقديمَ، فقيل: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾، يعني: كأنَّ العادةَ تأبَى أنْ يَحصُلَ الولدُ بينَ الشَّيخِ الكبيرِ والمرأةِ العاقرِ؛ لِمَا جُرِّبَ وعُلِمَ بالاستقراءِ؛ فقِيل: أنا القادرُ وَحْدي أنْ أخْرِقَ العادةَ دونَ غيري، وأمَّا هاهنا فلا معنَى للاختِصاصِ؛ لأنَّ العادةَ حاكمةٌ قاطعةٌ بأنَّ مَن أعاد صَنعةَ شَيءٍ كانت أسهَلَ عليه وأهوَنَ مِن إنْشائِها، لكنَّ الدَّهْريَّ المَخذولَ يُنكِرُ فِعلَه؛

= النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨١، ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٨).

فجِيءَ بالجُملةِ المُفيدةِ لِتَقوِّي الحُكْمِ على مَجْرى العُرْفِ والعادةِ، فلو قُدِّمت الصِّلةُ لَتَغيَّرَ المعنى[١].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مِن جُملةِ المثَلِ الأعلى عِزَّتُه وحِكمتُه تعالى، وخُصَّا بالذِّكْرِ هنا؛ لأنَّهما الصِّفتانِ اللَّتانِ تَظهَرُ آثارُهما في الغرَضِ المُتحدَّثِ عنه، وهو بَدْءُ الخلْقِ وإعادتُه؛ فالعِزَّةُ تَقْتضي الغِنَى المُطلَقَ، فهي تَقْتضي تَمامَ القُدْرةِ، والحِكمةُ تَقْتضي عُمومَ العِلْمِ، ومِن آثارِ القُدْرةِ والحِكمةِ أنَّه يُعِيدُ الخلْقَ بقُدْرتِه، وأنَّ الغايةَ مِن ذلك الجزاءُ، وهو مِن حِكمتِه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٤).

الآيتان (٢٨-٢٩)

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا قُبحَ الشركِ: مَثَّل اللهُ لكم -أيُّها المُشرِكونَ- مَثَلًا مِن أنفُسِكم يوضِّحُ قُبحَ الشِّركِ وبُطلانَه؛ هل لكم مِن مَماليكِكم شُرَكاءُ فيما رزَقْناكم، فتَسْتَوا فيه أنتم وهم، تخافونَهم مِنَ التَّصَرُّفِ فيه كما يَخافُ الرَّجُلُ الحُرُّ منكم شَريكَه الحُرَّ في المالِ يكونُ بيْنَهما؟! فإذا لم تَرضَوا لأنفُسِكم بأن يكونَ مماليكُكم شُرَكاءَ لكم في رِزقِكم، فكيف تجعَلونَ لله مِن عَبيدِه شُرَكاءَ في مُلكِه؟! هكذا نُبَيِّنُ الآياتِ لِقَومٍ يَعقِلونَ عن اللهِ الأمثالَ فيُوحِّدونَه.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّ المشركينَ إنَّما عبَدوا غيرَه سفهًا مِن أنفُسِهم وجهلًا، فيقولُ: بل اتَّبَع هؤلاء المُشرِكونَ أهواءَهم؛ جَهلًا منهم بالحَقِّ، فلا أحدَ يَهدي مَن قدَّر اللهُ إضلالَه بسبَبِ ظُلمِه، وليس لهم مِن ناصِرينَ مِن عذابِ اللهِ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه تعالى أتْبَعَ ضَرْبَ المَثَلِ لإمكانِ إعادةِ الخَلقِ عَقِبَ دَليلِ بَدْئِه بضَربِ مَثَلٍ لإبطالِ الشِّركِ عَقِبَ دليلَيه المتقدِّمَين في قَولِه تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الروم: ١٩]، وقَولِه: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ١٩]؛ لِيَنتظِمَ الدَّليلُ على هذينِ الأصلينِ المُهِمَّينِ: أصلِ الوَحدانيَّةِ، وأصلِ البَعثِ، ويَنكَشِفَ بالتَّمثيلِ والتَّقريبِ بعدَ نُهوضِه بدليلِ العَقلِ. والخِطابُ للمُشرِكينَ[١].

وأيضًا: بعدَ أن بَيَّن القُدرةَ على الإعادةِ بإقامةِ الأدِلَّةِ عليها، ثمَّ ضَرَب لذلك مثَلًا- أعقَبَ ذلك بذِكرِ المَثَلِ على الوَحدانيَّةِ بعدَ إقامةِ الدَّليلِ عليها[٢].

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

أي: مثَّل اللهُ لكم قُبحَ الشِّركِ وبُطلانَه لأجْلِ إفهامِكم -أيُّها المُشرِكونَ- بمَثَلٍ تَعرِفونَه؛ لِكَونِه مأخوذًا مِن أحوالِكم[٣].

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

أي: هل مِن رَقيقِكم الَّذين تَملِكونَهم -مَعْشَرَ المُشرِكينَ الأحرارِ- مَن يُشارِكُكم فيما أعطَيْناكم مِنَ الرِّزقِ، فتكونوا أنتم وهم فيه مُتساوِينَ، تَخافونَهم مِنَ التَّصَرُّفِ فيه كما يَخافُ الرَّجُلُ الحُرُّ منكم شَريكَه الحُرَّ أن يَتصَرَّفَ في مالِهما بشَيءٍ دونَ رِضاه أو إذنِه، أو بما فيه ضَرَرٌ عليه؟! هذا لا يكونُ، فكما لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٥).

يَرضى أحَدٌ منكم أن يكونَ عَبيدُه شُرَكاءَ له في رِزقِه، فاللهُ لا يَرضى أن يكونَ له شَريكٌ مِن عَبيدِه في عبادتِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [النحل: ٧١].

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

أي: مِثْلَ ذلك التَّفصيلِ والتبيينِ نُفَصِّلُ آياتِ القُرآنِ؛ لِيَتبَيَّنَ الحَقُّ لِقَومٍ ذَوي عَقلٍ وفَهمٍ(٢).

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه إذا عُلِمَ مِن المثالِ السَّابِقِ أنَّ مَنِ اتَّخَذَ مِن دُونِ اللهِ شَريكًا يَعبُدُه ويَتوكَّلُ عليه في أمورِه، فإنَّه ليس معه مِنَ الحَقِّ شَيءٌ، فما الَّذي أوجَبَ له الإقدامَ على أمرٍ باطِلٍ وضَحَ له بُطلانُه وظهَرَ بُرهانُه؟ لقد أوجَبَ لهم ذلك اتِّباعُ الهوى؛ فلهذا قال(٣):

---

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٩-٤٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٣٥٤، ٣٦٥) و(١/ ١٥٦) و(٣/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٩٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٢، ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٩-٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٥٧-١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٦١-١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٦٤٠).

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾.

أي: لم يَعقِلْ أولئك الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ آياتِ القُرآنِ المُفصَّلةَ، فيتَّبِعوها، وإنَّما اتَّبَعوا أهواءَهم؛ جَهلًا منهم بالحَقِّ، ودونَ برهانٍ لديهم على صِحَّةِ شِركِهم[١].

كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾.

أي: فلا أحَدَ يُوفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ مَن قدَّرَ اللهُ إضلالَه بسَبَبِ ظُلمِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

أي: وليس لِلَّذينَ أضَلَّهم اللهُ مِن ناصِرينَ يُنقِذونَهم مِن عَذابِ اللهِ، أو يَهدونَهم مِن الضَّلالِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٧، ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٦٩).
قال ابن عاشور: (معنى ﴿مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: مَن قدَّر له الضَّلالَ، وطُبِع على قَلبِه؛ فإسنادُ الإضلالِ إلى اللهِ إسنادٌ لِتَكوينِه على ذلك، لا للأمرِ به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ الحثُّ على طلَبِ العِلمِ، والعَمَلِ به[١]؛ فالجاهِلُ لا يَكُفُّه شَيءٌ، أمَّا العالِمُ فإنَّه إذا اتَّبَع هواه فرُبَّما ردَعَه عِلمُه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ لَفْتُ انتباهِ الإنسانِ إلى سُؤالِ الهدايةِ مِن رَبِّه دائِمًا، فإذا عَلِمْتَ أنَّه لا أحدَ يَهدي مَن أضَلَّ اللهُ، لا تَلجَأُ في طَلَبِ الهِدايةِ إلَّا إليه، ولا تعتَمِدُ إلَّا عليه، وتسأَلُه دائِمًا الثَّباتَ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إثباتُ القياسِ، ووجْهُ ذلك ضَربُ المَثَلِ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ﴾[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ يَحتَجُّ سُبحانَه عليهم بما في عُقولِهم مِن قُبحِ كَونِ مَملوكِ أحَدِهم شَريكًا له، فإذا كان أحَدُكم يَستَقبِحُ أن يكونَ مملوكُه شَريكَه، ولا يَرضى بذلك، فكيف تَجعَلونَ لي مِن عَبيدي شُرَكاءَ تَعبُدونَهم كعِبادتي؟! وهذا يُبَيِّنُ أنَّ قُبْحَ عبادةِ غيرِ اللهِ تعالى مُستَقِرٌّ في العُقول والفِطَرِ، والسَّمعُ نَبَّهَ العُقولَ وأرشدَها إلى مَعرفةِ ما أُودِعَ فيها مِن قُبْحِ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٣).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٤).

٣- قال الله تعالى: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم إن لم يَعمَلوا بمُقتضى ذلك كانوا مجانينَ؛ لأنَّ التَّمثيلَ يَكشِفُ المعانيَ بالتَّصويرِ والتَّشكيلِ كَشفًا لا يَدَعُ لَبسًا، فمَن خَفِيَ عليه لم يكُنْ له تمييزٌ[(١)].

٤- مُتَّبِعُ الهَوى ليس أهلًا أن يُطاعَ، ولا يكونُ إمامًا ولا مَتبوعًا؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى عَزَلَه عن الإمامةِ، ونَهى عن طاعتِه؛ أمَّا عَزْلُه فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قال لخليلِه إبراهيمَ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي: لا ينالُ عهدي بالإمامةِ ظالمًا، وكُلُّ مَن اتَّبَع هواه فهو ظالمٌ، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾. وأمَّا النَّهيُ عن طاعتِه فلِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾[(٢)] [الكهف: ٢٨].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿هَل لَّكُم ...﴾ إلخ تَصْويرٌ للمثَلِ، وتَكرَّرَ (مِن) ثلاثَ مرَّاتٍ في قولِه تعالى: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾، و﴿مِّن مَّا مَلَكَتۡ﴾، و﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾؛ فالأُولى للابتداءِ، كأنَّه قال: أخَذَ مثَلًا وانْتزَعَه مِن أقرَبِ شَيءٍ منكم، وهي أنفُسُكم، ولم يَبعُدْ، والثَّانيةُ للتَّبعيضِ، والثَّالثةُ مَزيدةٌ مُؤكِّدةٌ لِمَعنى النَّفيِ المُستفادِ مِن الاستفهامِ الإنكاريِّ في قولِه: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٧٥).

شُرَكَآءَ ﴾؛ فالجمْعُ بيْنَ هذه الحروفِ في كلامٍ واحدٍ مِن قَبيلِ الجِناسِ[١] التَّامِّ[٢].

- وهذا المثَلُ تَشبيهُ هَيئةٍ مُركَّبةٍ بهَيئةٍ مُركَّبةٍ؛ شُبِّهَت الهيئةُ المُنتزَعةُ مِن زعْمِ المشركينَ أنَّ الأصنامَ شُركاءُ للهِ في التَّصرُّفِ، ودافِعون عن أوليائِهم ما يُرِيدُه اللهُ مِن تسلُّطِ عِقابٍ أو نحْوِه؛ إذ زَعَموا أنَّهم شُفعاؤُهم عندَ اللهِ، وهمْ مع ذلك يَعترِفون بأنَّها مَخلوقةٌ للهِ؛ فإنَّهم يَقولون في تَلبيتِهم: «لبَّيكَ لا شريكَ لك، إلَّا شريكًا هو لك»[٣]. هذه الهيئةُ شُبِّهَت بهَيئةِ ناسٍ لهمْ عبيدٌ صاروا شُركاءَ في أرزاقِ سادتِهم شَرِكةً على السَّواءِ، فصار سادتُهم يَحْذَرون إذا أرادوا أنْ يَتصرَّفوا في تلك الأرزاقِ أنْ يكونَ تَصرُّفُهم غيرَ مَرْضيٍّ لِعَبيدِهم، وهذا التَّشبيهُ وإنْ كان مُنصرِفًا لِمَجموعِ المُركَّبِ مِن الهَيئتينِ قد

---

(١) الجِناسُ (أو التَّجنيسُ): هو تشابُه لفظينِ في النُّطقِ، واختِلافُهما في المعنى، وهو مِنَ المحاسِنِ اللَّفظيَّةِ، وفنٌّ بديعٌ في اختيارِ الألفاظِ الَّتي تُوهِمُ في البَدْءِ التَّكريرَ، لكنَّها تُفاجِئُ بالتَّأسيسِ واختِلافِ المعنى. ويَنقسِمُ الجِناسُ إلى نوعَينِ: لَفظيٍّ، ومعنويٍّ، وكلٌّ منهما يَندرِجُ تحتَه أنواعٌ. ومِن أنواعِ الجناسِ المعنويِّ: الجِناسُ المصحَّفُ، ويُسمَّى أيضًا جِناسَ الخطِّ: وهو تشابُه اللَّفظَينِ في الكتابةِ مع الاختلافِ في نقطِ الحروفِ؛ مِثلُ: جنَّةٍ وحبَّةٍ، و(يَسْقي) و(يَشفي) في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٩، ٨٠]. كما يَنقسِمُ إلى: جِناسٍ مماثِلٍ: وهو الجِناسُ التَّامُّ، الَّذي يكونُ اللَّفظانِ المُتشابِهانِ فيه مِن نوعٍ واحدٍ مِن أنواعِ الكلامِ؛ كاسمَينِ، أو فِعلَينِ. وجِناسٍ مُغايِرٍ «محرَّف»: وهو ما اختلَف فيه اللَّفظانِ في هيئةِ الحُروفِ، واتَّفَقَا في نَوعِها وعدَدِها وترتيبِها. وله فروعٌ أخرى. يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤٥٠-٤٥٢)، ((الإتقان)) للسيوطي (٥/ ١٧٥٧)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٨٥، ٤٨٨، ٤٩١، ٤٩٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٢٥ وما بعدها).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٥).

(٣) ينظر ما أخرجه مسلم (١١٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

بلَغَ غايةَ كَمالِ نَظائرِه؛ إذ هو قابلٌ للتَّفريقِ في أجزاءِ ذلك المُركَّبِ بتَشبيهِ مالِكِ الخلْقِ كلِّهم بالَّذين يَملِكون عَبيدًا، وتَشبيهِ الأصنامِ الَّتي هي مَخلوقةٌ للهِ تعالى بمَماليكِ النَّاسِ، وتَشْبيهِ تَشريكِ الأصنامِ في التَّصرُّفِ مع الخالقِ في مُلْكِه بتَشريكِ العبيدِ في التَّصرُّفِ في أرزاقِ سادتِهم، وتَشْبيهِ زعْمِهم عُدولَ اللهِ عن بعضِ ما يُريدُه في الخلْقِ لأجْلِ تلك الأصنامِ وشفاعتِها؛ بِحَذَرِ أصحابِ الأرزاقِ مِن التَّصرُّفِ في حُظوظِ عَبيدِهم الشُّركاءِ تصرُّفًا يأْبَونَه. فهذه الهيئةُ المُشبَّهُ بها هَيئةٌ قَبيحةٌ مُشَوَّهةٌ في العادةِ لا وُجودَ لأمْثالِها في عُرْفِهم؛ فكانتِ الهيئةُ المُشبَّهةُ مَنْفيَّةً مُنكَرةً، ولذلك أُدخِلَ عليها استفهامُ الإنكارِ والجُحودِ؛ لِيُنتِجَ أنَّ الصُّورةَ المزعومةَ للأصنامِ صُورةٌ باطلةٌ بطَريقِ التَّصويرِ والتَّشكيلِ؛ إبرازًا لذلك المعنى الاعتقاديِّ الباطلِ في الصُّورةِ المَحْسوسةِ المُشوَّهةِ الباطلةِ[(١)].

- والغرَضُ مِن ذِكرِ التَّمثيلِ تقْبيحُ شأْنِ الشِّركِ، وإبْرازُه في ذِهْنِ السَّامعِ بصُورةٍ يَشمَئِزُّ منها؛ وذلك بأنْ يَتصوَّرَ حالةَ سيِّدٍ له رقيقٌ مُستبِدٌّ مُتصرِّفٌ في أموالِه تصرُّفَ الشُّركاءِ مِن غيرِ تَفْصلةٍ، بحيث إنْ أراد السَّيِّدُ التَّصرُّفَ هاب منه[(٢)].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ، ومَناطُ الإنكارِ قولُه: ﴿فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ إلى آخرِه، أي: مِن شُركاءَ لهمْ هذا الشَّأنُ[(٣)].

- قولُه: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ تَحْقيقٌ لِمعنَى الشَّركةِ، وبَيانٌ لِكَونِهم وشُركائِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٥).

مُتساوينَ في التَّصرُّفِ فيما ذُكِرَ مِن غيرِ مَزيَّةٍ لهمْ عليها، على أنَّ هناك مَحذوفًا مَعطوفًا على (أنتُم)، لا أنَّه عامٌّ للفريقينِ بطَريقِ التَّغليبِ، أي: هلْ تَرضَون لأنفُسِكم -والحالُ أنَّ عبيدَكم أمْثالُكم في البشَريَّةِ وأحْكامِها- أنْ يُشارِكوكم فِيما رَزقْناكم وهو مُعَارٌ لكم، فأنتم وهمْ فيه سَواءٌ، يَتصرَّفون فيه كتَصرُّفِكم مِن غيرِ فرْقٍ بيْنَكم وبيْنَهم[١]؟!

- وفي ذِكْرِ لفْظِ (قوم) وإجراءِ الصِّفةِ عليه: إيماءٌ إلى أنَّ هذه الآياتِ لا يَنتفعُ بها إلَّا مَن كان العقْلُ مِن مُقوِّماتِ قَوْميَّتِه[٢].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيه تخْصيصُ القومِ العاقِلينَ بالذِّكرِ -مع عُمومِ تَفْصيلِ الآياتِ للكلِّ-؛ لأنَّهم المُنتفِعون بها[٣]. وقيل: نِيطَ الانتفاعُ بهذه الآياتِ بأصحابِ صِفةِ العقْلِ؛ لأنَّ العقْلَ المُستقيمَ غيرَ المَشُوبِ بعاهةِ العِنادِ والمُكابَرةِ، كافٍ في فَهْمِ ما في تلك المَذْكوراتِ مِن الدَّلائلِ والحِكَمِ[٤].

- وأيضًا في إيثارِ وَصْفِ العَقْلِ هنا دونَ غيرِه مِن أوصافِ النَّظرِ والفِكْرِ: تَعريضٌ بالمُتصلِّبينَ في شِرْكِهم بأنَّهم لَيسوا مِن أهلِ العقولِ، ولَيسوا ممَّن يَنتفِعون[٥].

- ولَمَّا كان ضَرْبُ الأمثالِ لإدناءِ المُتوهَّمِ إلى المَعقولِ، وإرادةِ المُتخيَّلِ في صُورةِ المُحقَّقِ؛ أتَى في هذه الفاصِلةِ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٩، ٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٨٧).

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، وكذلك في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الروم: ٢٤]؛ لأنَّ ذلك تَمثيلٌ لإحياءِ النَّاسِ، وإنشارِ المَوتى[(١)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

- في قولِه: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إضرابٌ إبْطاليٌّ لِمَا تضمَّنَه التَّعريضُ الَّذي في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨]؛ إذ اقْتَضى أنَّ الشَّأنَ أنْ يَنتفِعَ النَّاسُ بمِثْلِ هذا المثَلِ، فيُقلِعَ المشرِكونَ منهم عن إشْراكِهم ويَلِجُوا حَظيرةَ الإيمانِ، ولكنَّهم اتَّبَعوا أهْواءَهم وما تُسَوِّلُه لهم نُفوسُهم، ولم يَطلُبوا الحَقَّ ويَتفهَّموا دَلائلَه؛ فهُمْ عن العِلْمِ بمَنأًى؛ فالتَّقديرُ: فما نفَعَتْهمُ الآياتُ المُفصَّلةُ، بلِ اتَّبَعوا أهواءَهم[(٢)].

- قولُه: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وَضْعُ المَوصولِ مَوضِعَ ضَميرِهم؛ للتَّسجيلِ عليهم بأنَّهم في ذلك الاتِّباعِ ظالِمون، واضِعون للشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه، أو ظالِمون لأنفُسِهم بتَعريضِها للعذابِ الخالدِ[(٣)].

- وتقْييدُ اتِّباعِ الهَوى بأنَّه بغيرِ عِلْمٍ تَشنيعٌ لهذا الاتِّباعِ؛ فإنَّه اتِّباعُ شَهوةٍ مع جَهالةٍ؛ فالجاهلُ يَهيمُ على وجْهِه بلا مُرجِّحٍ -غيرَ المَيلِ كالبَهيمةِ- لا يَرُدُّه شَيءٌ، فإنَّ العالِمَ إذا اتَّبع الهَوى كان مُتحرِّزًا مِن التَّوغُّلِ في هواهُ؛ لعِلْمِه

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٩).

بفَسادِه[١].

- والفاءُ في ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ للتَّفريعِ، أي: يَترتَّبُ على اتِّباعِهم أهواءَهم بغَيرِ عِلْمٍ انتفاءُ الهُدى عنهم أبدًا. و(مَن) اسمُ استفهامٍ إنكاريٍّ بمَعنى النَّفيِ؛ فيُفيدُ عُمومَ نفْيِ الهادِي لهمْ؛ إذ التَّقديرُ: لا أحَدَ يَهْدي مَن أضَلَّ اللهُ؛ لا غيرُهم ولا أنفُسُهم؛ فإنَّهم مِن عُمومِ ما صَدَق[٢] ﴿فَمَن يَهۡدِي﴾[٣].

- وقولُه: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ كالتَّتميمِ لِمَعنى إرادةِ الإضلالِ والمنْعِ مِن الهِدايةِ؛ وذلك أنَّه تعالى عَقيبَ ما عدَّدَ الآياتِ البيِّناتِ والشَّواهدَ الدَّالَّةَ على الوَحدانيَّةِ ونفْيِ الشَّريكِ، وإثباتِ القولِ بالمَعادِ وضرْبِ المثَلِ، وفصَّلَ ذلك بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]؛ أراد أنْ يُسلِّيَ حبيبَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويُوطِّنَه على اليأْسِ مِن إيمانِهم، فأضْرَبَ عن ذلك وقال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾، وجعَلَ السَّببَ في ذلك أنَّه تعالى ما أراد هِدايتَهم، وأنَّه مَختومٌ على قُلوبِهم؛ ولذلك رتَّبَ عليهم قولَه: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ على التَّقريعِ والإنكارِ، ثمَّ ذيَّلَ الكلَّ بقولِه: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، يعني: إذا أراد اللهُ منهم ذلك لا مُخلِّصَ لهم منه، ولا أحَدَ يُنقِذُهم؛ لا أنتَ ولا غيرُك، فلا تَذْهَبْ نفْسُك عليهم حسَراتٍ، فاهتَمَّ بخاصَّةِ نفْسِك ومَن تَبِعَك، وأقِمْ وجْهَك معهم للدِّينِ حَنيفًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٦٦، ١٦٧).

(٢) الماصَدَق -عند المناطقة-: الأفرادُ الَّتي يتحقَّقُ فيها معنى الكلِّيِّ، ويُقابِلُه: المفهومُ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحبنكة (ص: ٤٥، ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٢).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مُقبلًا على عبادةِ اللهِ، مائلًا عن الشِّركِ، والحنفُ: ميلٌ في إبهامَي القدَمَينِ، كل واحدةٍ على صاحبتِها، وأصلُ (حنف): يدُلُّ على مَيلٍ[1].

﴿فِطْرَتَ﴾: أي: خِلْقَةَ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[2].

﴿ٱلْقَيِّمُ﴾: أي: المُستقيمُ، وأصلُ (قوم): يدُلُّ على انتِصابٍ أو عَزمٍ[3].

﴿مُنِيبِينَ﴾: أي: تائِبينَ راجِعينَ إلى اللهِ مُقْبِلينَ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١).

وقيل: إنَّ الحنيفَ هو المستقيمُ مِن كلِّ شيءٍ، والحنفَ: الاستقامةُ، وجعَلوا الرَّجُلَ الَّذي تُقْبِلُ إحدَى قَدَميه على الأُخرى، إنَّما قِيل له: أحنَفُ، على جهة التَّفاؤلِ، كما قِيل للمَهْلَكةِ مِن البلادِ: المَفازَةُ، بمعنَى الفوزِ بالنَّجاةِ منها والسَّلامةِ، وكما قِيل لِلَّديغِ: السَّليمُ؛ تَفاؤلًا له بالسَّلامةِ مِن الهلاكِ، وما أشبَهَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٢).

اعتيادِ مكانٍ ورجوعٍ إليه[١].

﴿شِيَعًا﴾: أي: فِرَقًا وأحزابًا مُختَلِفينَ، وأصلُ (شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ[٢].

﴿حِزْبٍ﴾: أي: شيعةٍ وفِرقةٍ، يُقالُ: تحزَّب القومُ: اجتَمَعوا، وأصلُ (حزب): تَجَمُّعُ الشَّيءِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ مَنصوبٌ على الإغراءِ، أي: الزَموا فِطرةَ اللهِ تعالى.

﴿مُنِيبِينَ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ في (الزَموا) المحذوفِ، وقَولُه: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ مَعطوفٌ على هذا الفِعلِ المحذوفِ. وقيل: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لِمَضمونِ الجُملةِ؛ لأنَّ الكَلامَ دلَّ على: فَطَر اللهُ الخَلْقَ فِطرةً، و﴿مُنِيبِينَ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ في (أَقِمْ)، وإنَّما جُمِعَ ﴿مُنِيبِينَ﴾؛ لأنَّه مَردودٌ على المعنى؛ فالخِطابُ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو خِطابٌ لأمَّتِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٥/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((تحفة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢).

فكأنَّه قيل: أقيموا وُجوهَكم مُنيبينَ إليه[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى نبيَّه -والمؤمنون داخِلونَ في الخِطابِ- أن يَثبُتَ على الحقِّ الَّذي هداه إليه، فيقولُ: فسَدِّدْ وَجْهَك وقَصْدَك كُلَّه -يا مُحمَّدُ- نحوَ جِهةِ الإسلامِ الَّذي شرَعَه اللهُ لك، مُقبلًا على عبادةِ اللهِ وَحْدَه، مائلًا عن الشِّركِ، فَطَر اللهُ النَّاسَ على ذلك فِطرةً، لا تغييرَ لدينِ اللهِ، ولا يُخلَقُ الخَلقُ على غيرِ الفِطرةِ.

وإقامةُ الوَجهِ للإسلامِ الَّذي شرَعَه اللهُ هو الدِّينُ الكامِلُ الَّذي لا عِوَجَ فيه ولا نَقصَ، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ؛ فأقِمْ وَجْهَك -يا مُحمَّدُ- ومَن معك راجِعينَ إلى اللهِ وحْدَه، واتَّقوه بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه، وأدُّوا الصَّلَواتِ على وَجهِها التَّامِّ، ولا تكونوا مِنَ المُشرِكينَ؛ مِنَ الَّذين بدَّلوا دينَ اللهِ ففارَقوه وكانوا أحزابًا وفِرَقًا، كُلُّ فِرقةٍ منهم فَرِحونَ مَسرورونَ، يَحسَبونَ أنَّ الصَّوابَ معهم دونَ غَيرِهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾.

أي: فانصِبْ -يا محمَّدُ- قَلْبَك وقَصْدَك كُلَّه إلى جِهةِ الإسلامِ الَّذي شَرَعه اللهُ لك، واستَمِرَّ عليه، واجتَهِدْ في طَلَبِه واتِّباعِه، مُقبلًا على عبادةِ اللهِ وَحْدَه،

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٨٥)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩٤٩)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٤٠).

مائِلًا عن الشِّركِ وعن جميعِ الأديانِ الباطِلةِ، والفِرَقِ المُبتَدِعةِ(١).

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ نَبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

أي: دينَ اللهِ(٢): الإسلامَ الَّذي خلَق جميعَ الناسِ مُهَيَّئِينَ لِمَعرفتِه وقَبولِه، والتَّصديقِ والإقرارِ بعَقائدِه، والانقيادِ إليه، والعَمَلِ بأحكامِه، وقد جعَل الله تعاليمَه مُناسِبةً لخِلقتِهم، غيرَ مُخالِفةٍ لها(٣).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٦)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٨٠)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٧٣-١٧٥).
قال الشوكاني: (هذا الخِطابُ وإن كان خاصًّا برَسولِ اللهِ، فأُمَّتُه داخِلةٌ معه فيه. قال القرطبي: باتِّفاقٍ مِن أهلِ التَّأويلِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٨). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٧٤، ١٧٥).

(٢) قيل: المعنى: اتَّبِعْ فِطرةَ الله؛ لأنَّ معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: اتَّبِعِ الدِّينَ، واتَّبِعْ فِطرةَ الله. وقيل: هي مصدرٌ مِن معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾؛ لأنَّ معنى ذلك: فطَرَ اللهُ النَّاسَ على الدِّينِ. وقيل: المعنى: الزَموا فِطرةَ الله، أو عليكم فِطرةَ الله. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٩ - ٩٢).
قال ابنُ عبد البَرِّ: (أجمَعوا في قَولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ على أنْ قالوا: فِطرةُ الله: دِينُ اللهِ؛ الإسلامُ). ((التمهيد)) (١٨/ ٧٢).

مِن مَولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطْرةِ، فأبَواه يُهَوِّدانِه ويُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسانِه، كما تُنتَجُ البَهيمةُ بَهيمةً جَمعاءَ[١]، هل تُحِسُّونَ فيها مِن جَدْعاءَ[٢]؟! ثمَّ يقولُ أبو هُريرةَ رَضيَ الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾))[٣].

وعن عِياضِ بنِ حِمارٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلَّم قال ذاتَ يومٍ في خُطبتِه: ((ألَا إنَّ رَبِّي أمَرَني أنْ أُعَلِّمَكم ما جَهِلْتُم ممَّا عَلَّمَني يَومي هذا: كُلُّ مالٍ نَحَلْتُه[٤] عَبدًا حَلالٌ، وإنِّي خَلَقْتُ عِبادي حُنَفاءَ كُلَّهم، وإنَّهم أتَتْهم الشَّياطينُ فاجتالَتْهم[٥] عن دينِهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يُشرِكوا بي ما لم أُنَزِّلْ به سُلْطانًا))[٦].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾.

أي: لا يُخلَقُ الخَلْقُ على غيرِ الفِطرةِ؛ فالله تعالى سَوَّى بينَ جَميعِ خَلْقِه في الفِطرةِ على الجِبِلَّةِ المُستَقيمةِ والتهَيُّؤِ لِقَبولِ دينِه، لا يُولَدُ أحدٌ إلَّا على ذلك[٧].

---

(١) الجَمعاءُ مِن البهائِم: الَّتي لم يذهَبْ مِن بدَنِها شَيءٌ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٠/ ٤٥٩).

(٢) جَدْعاءَ: أي: مقطوعةَ الأطرافِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٤٧).

(٣) رواه البخاري (١٣٥٩) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٨).

(٤) نحَلْتُه: أعطَيْتُه، والنِّحْلةُ: العَطيَّةُ. يُنظر: ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) للمازَري (٦/ ٧١١).

(٥) فاجْتَالَتْهم: أي: استخَفَّتْهم فجالوا معهم في الضَّلال؛ يُقال: جالَ واجتالَ: إذا ذهَب وجاءَ، ومنه الجَوَلانُ في الحَربِ، واجتالَ الشَّيءَ: إذا ذَهَب به وساقَه، والجائلُ: الزَّائلُ عن مَكانِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣١٧).

(٦) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ١٠٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١). =

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

أي: إقامةُ الوَجهِ للإسلامِ الَّذي شَرَعَه اللهُ بلا تَغيير، وطاعةُ اللهِ بلا شِركٍ: هو الدِّينُ الكامِلُ الَّذي لا عِوَجَ فيه ولا نَقْصَ؛ فهو الطَّريقُ المُستَقيمُ السَّالِمُ مِن الانحِرافاتِ والضَّلالاتِ، الموصِلُ إلى اللهِ ورِضوانِه وجَنَّتِه[1].

= ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ تيميَّة، وابن القيم، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: لا تُبَدِّلوا دينَ اللهِ الَّذي فَطَر عليه عبادَه، فتكونُ الجملةُ خَبرًا بمعنى النَّهي. ومِمَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، واستحسنه ابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٣٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٤). ويُنظر أيضًا: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

قال الثعلبي: (﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ لِدينِ الله، أي: لا يَصلُحُ ذلك، ولا ينبغي أن يُفعلَ، ظاهرُه نفْيٌ، ومعناه نهْيٌ، هذا قولُ أكثَرِ العلماءِ والمفسِّرينَ). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣٠١).

وقيل: المرادُ: أنَّ الإسلامَ هو الدِّينُ الحَنيفُ الَّذي ليس فيه تبديلٌ لخلقِ الله، بخلافِ دينِ أهلِ الشِّركِ، كما قال تعالى عن الشَّيطانِ: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

وقيل: المرادُ: لا أحَدَ يَستطيعُ أن يغَيِّرَ ما خَلَق اللهُ، ولا يجوزُ لأحدٍ أن يُغَيِّرَ هذه الفِطرةَ الَّتي خُلِقَ النَّاسُ عليها؛ مِن الإخلاصِ إلى الشِّركِ. ومِمَّن قال بهذا: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٨٤).

قال البقاعي: (لا يَقدِرُ أحدٌ أن يجعلَ طِفلًا في أوَّلِ أمرِه خَبيثَ الفِطرةِ لا يَنقادُ لِما يُقادُ إليه، ولا يَستسلِمُ لِمن يُربِّيه، وكُلَّما كَبرَ وطَعَن في السِّنِّ رجَع لِما طُبِعَ عليه مِن كُفرٍ أو إيمانٍ، أو طاعةٍ أو عصيانٍ، أو نُكرٍ أو عِرفانٍ، قليلًا قليلًا، حتَّى يَنساقَ إلى ذلك عندَ البُلوغِ أو بعدَه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨٨، ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣، ٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٨١).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ الدِّينَ الحَقَّ، فهم يُشرِكونَ باللهِ، ويتَّبِعونَ غيرَ ما شَرَعه اللهُ[١].

﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١﴾.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾.

أي: راجِعينَ إلى اللهِ وَحْدَه؛ مِنَ الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، ومِنَ المَعصيةِ إلى الطَّاعةِ، ومِنَ البِدَعِ والضَّلالاتِ إلى التَّمَسُّكِ بالشَّرعِ[٢].

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾.

أي: واجعَلوا بيْنَكم وبينَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه حاجِزًا؛ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[٣].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وأدُّوا الصَّلَواتِ على وَجْهِها التَّامِّ؛ بالمحافَظةِ على أركانِها وواجِباتِها، وغَيرِ ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١). =

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: ولا تكونوا ممَّن يَدخُلُ في عِدادِ المُشرِكينَ بأن تَعمَلوا بمِثلِ ما يَعمَلونَ[(١)].

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾.

أي: لا تَكونوا مِنَ المُشرِكينَ الَّذين بدَّلوا دينَ اللهِ الَّذي فطَرَ العِبادَ عليه، وشَرَعَه لهم، فلم يَلتَزِموا به مِثْلَما أمَرَهم رَبُّهم[(٢)].

= قال ابنُ عثيمين: (إقامتُها على نوعَينِ: إقامةٌ واجِبةٌ لا بُدَّ لِصِحَّةِ الصَّلاةِ منها، وذلك الإتيانُ بالشُّروطِ والأركانِ والواجِباتِ. وإقامةٌ مُكَمِّلةٌ، وهي إضافةُ المُستحَبَّاتِ إلى ما ذُكِرَ... ومِن إقامتِها المُكَمِّلةِ أن يأتيَ الإنسانُ بالنَّوافِلِ؛ لأنَّ النَّوافِلَ صلاةُ تَطوُّعٍ تُكَمَّلُ بها الفرائِضُ يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٨٧، ١٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٠).

قال البقاعي: (هو عامٌّ في كُلِّ شِركٍ؛ سواءٌ كان بعبادةِ صَنَمٍ أو نارٍ أو غيرِهما، أو بالتَّدَيُّنِ بما يخالِفُ النُّصوصَ مِن أقوالِ الأحبارِ والرُّهبانِ وغيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾: أنَّهم فارَقوا الدِّينَ الصَّحيحَ، والفِطرةَ السَّليمةَ، وكانوا أحزابًا وفِرَقًا، كُلٌّ منهم يَعبُدُ شَيئًا، ويَدينُ بدِينٍ مُختَلِفٍ؛ كاليهودِ والنَّصارى. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٨٩، ١٩٠).

وقال ابنُ كثير: (أي: لا تَكونوا من المشرِكينَ الَّذين قد فَرَّقوا دينَهم، أي: بدَّلوه وغَيَّروه، وآمَنوا ببعضٍ وكَفَروا ببعضٍ.

وقرأ بعضُهم: ﴿فَارَقُوا دِينَهُمْ﴾ أي: ترَكوه وراءَ ظُهورِهم، وهؤلاء كاليهودِ والنَّصارى، والمجوسِ وعَبَدةِ الأوثانِ، وسائرِ أهلِ الأديانِ الباطلةِ، ممَّا عدا أهلَ الإسلامِ، كما قال تعالى: =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((تفرَّقَت اليَهودُ على إحدى وسَبعينَ أو اثنتَينِ وسَبعينَ فِرقةً، والنَّصارى مِثلَ ذلك، وتفترِقُ أُمَّتي على ثلاثٍ وسَبعينَ فِرقةً))(١).

= ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]؛ فأهلُ الأديانِ قَبْلَنا اختلَفوا فيما بيْنَهم على آراءٍ ومِلَلٍ باطلةٍ، وكُلُّ فرقةٍ منهم تزعُمُ أنَّهم على شَيءٍ، وهذه الأمَّةُ أيضًا اختلَفوا فيما بيْنَهم على نِحَلٍ كُلُّها ضلالةٌ إلَّا واحدةً، وهم أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، المتمَسِّكونَ بكتابِ الله وسُنَّةِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وبما كان عليه الصَّدرُ الأوَّلُ مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ، وأئمَّةِ المسلِمينَ في قديمِ الدَّهرِ وحَديثِه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦).

وقال الأزهري بعدَ أنْ ذكَر أنَّ قراءةَ ﴿فَارَقُوا﴾ قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ، وقراءةَ ﴿فَرَّقُوا۟﴾ بغيرِ ألفٍ قرأ بها الباقونَ، قال: (مَنْ قَرَأَ ﴿فَارَقُوا دِينَهُمْ﴾ ففيه قولانِ:

أحدهما: أنَّهم تركوا دينَهم وفارقوه، فلم يَدُوموا عليه.

والقولُ الثاني: أن ﴿فَارَقُوا﴾ و﴿فَرَّقُوا۟﴾ بمعنى واحدٍ، كما يُقالُ: ضَعَّفَ وضاعف، وعالى وعَلَّى، وصَاعَر وصعَّر، ومعناهما: اختلافُهم في دينِهم وتفرُّقُهم فيه، ويُقوِّي هذا القولَ قولُه: ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾، أي: فِرَقًا شَتَّى). ((معاني القراءات)) (١/ ٣٩٦). ويُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٦).

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠) واللفظ له، وابن ماجه (٣٩٩١)، وأحمد (٨٣٩٦). قال الترمذي: حسَنٌ صحيحٌ. وكذا قال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٦٤٠). وقال =

﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾.

أي: وكانوا فِرَقًا وأحزابًا، كُلُّ فِرقةٍ مِنهم تألَّفَت وتحالَفَت وتعَصَّبَت على نَصرِ ما معها مِن الباطِلِ، ومُنابَذةِ ومُحاربةِ مَن خالَفَها[(١)].

﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

أي: أتْباعُ كُلِّ طائفةٍ وفِرقةٍ منهم مُبتَهِجونَ ومُعجَبونَ بما تحالَفوا وتآلَفوا عليه مِنَ الضَّلالاتِ، يَحسَبونَ أنَّهم على الحَقِّ دونَ غَيرِهم[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۞ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۞ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٢ - ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- يأمُرُ اللهُ تعالى بالإخلاصِ له في جميعِ الأحوالِ، وإقامةِ دينِه، في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾، أي: انصِبْه ووَجِّهْه إلى الدِّينِ الَّذي هو الإسلامُ والإيمانُ والإحسانُ؛ بأن تَتوجَّهَ بقَلبِك وقَصْدِك وبَدَنِك إلى إقامةِ شرائعِ الدِّينِ

= الشوكاني في ((الفتح الرباني)) (١/ ٢٠٦): رجالُه رجالُ الصَّحيحِ. وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٦/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٠، ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٦).

الظَّاهِرةِ، كالصَّلاةِ، والزَّكاةِ، والصَّومِ والحَجِّ، ونحوِها؛ وشرائِعِه الباطِنةِ، كالمحَبَّةِ والخَوفِ، والرَّجاءِ، والإنابةِ؛ والإحسانِ في الشَّرائعِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، بأن تَعبُدَ اللهَ فيها كأنَّك تَراه، فإنْ لم تكُنْ تَراه فإنَّه يَراك[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هذا تَفسيرٌ لإقامةِ الوَجهِ للدِّينِ؛ فإنَّ الإنابةَ إنابةُ القَلبِ، وانجذابُ دَواعيه لِمَراضي اللهِ تعالى، ويَلزَمُ مِن ذلك حمْلُ البَدَنِ بمُقتَضى ما في القَلبِ، فشَمِلَ ذلك العباداتِ الظَّاهِرةَ والباطِنةَ، ولا يَتِمُّ ذلك إلَّا بتَركِ المعاصي الظَّاهِرةِ والباطِنةِ؛ فلذلك قال: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، فهذا يَشملُ فِعلَ المأموراتِ، وتَرْكَ المَنهيَّاتِ. وخَصَّ مِن المأموراتِ الصَّلاةَ؛ لِكَونِها تدعو إلى الإنابةِ والتَّقْوى؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فهذا إعانتُها على التَّقْوى، ثمَّ قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فهذا حَثُّها على الإنابةِ، وخَصَّ مِن المَنهيَّاتِ أصْلَها، والَّذي لا يُقبَلُ معه عَمَلٌ، وهو الشِّركُ، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ لِكَونِ الشِّركِ مُضادًّا للإنابةِ الَّتي رُوحُها الإخلاصُ مِن كُلِّ وَجهٍ[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: خافوا أن تَزيغوا عن سَبيلِه تعالى، فإذا خِفتُموه فلَزِمتُموها كُنتُم ممَّن تخلَّى عن الرَّذائِلِ، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تَصيروا ممَّن تحلَّى بالفَضائِلِ، وهكذا دأبُ الدِّينِ أبدًا: تخليةٌ ثمَّ تحليةٌ؛ أوَّلُ الدُّخولِ إلى الإسلامِ التَّنزيهُ، وأوَّلُ الدُّخولِ في القُرآنِ الاستعاذةُ، وهو أمرٌ ظاهِرٌ مَعقولٌ، مِثالُه: مَن أرادَ أن يكتُبَ في شَيءٍ إن مَسَح ما فيه مِنَ الكتابةِ انتَفَع بما كَتَب، وإلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أفسَدَ الأوَّلَ ولم يُقرَأِ الثَّاني. واللهُ الموَفِّقُ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ في هذا تحذيرٌ للمُسلِمينَ مِن تَشَتُّتِهم وتفَرُّقِهم فِرَقًا، كُلُّ فَريقٍ يتعَصَّبُ لِما معه مِن حَقٍّ وباطِلٍ، فيَكونونَ مُشابِهينَ بذلك للمُشرِكينَ في التَّفَرُّقِ، بل الدِّينُ واحِدٌ، والرَّسولُ واحِدٌ، والإلهُ واحِدٌ.

وأكثرُ الأمورِ الدِّينيَّةِ وَقَع فيها الإجماعُ بينَ العلماءِ والأئمَّةِ، والأُخُوَّةُ الإيمانيَّةُ قد عَقَدها اللهُ ورَبَطها أتمَّ رَبطٍ، فما بالُ ذلك كُلِّه يُلْغَى ويُبْنَى التَّفرُّقُ والشِّقاقُ بيْن المُسلِمينَ على مَسائِلَ خَفيَّةٍ أو فُروعٍ خِلافيَّةٍ يُضَلِّلُ بها بَعضُهم بعضًا، ويتميَّزُ بها بعضُهم عن بعضٍ؟! فهل هذا إلَّا مِن أكبَرِ نَزَغاتِ الشَّيطانِ وأعظَمِ مَقاصِدِه الَّتي كاد بها للمُسلِمينَ؟ وهل السَّعيُ في جَمعِ كَلِمتِهم، وإزالةِ ما بيْنَهم مِنَ الشِّقاقِ المَبنيِّ على ذلك الأصلِ الباطِلِ إلَّا مِن أفضَلِ الجهادِ في سَبيلِ اللهِ، وأفضَلِ الأعمالِ المقَرِّبةِ إلى اللهِ[٢]؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا ﴾ بيَّن سُبحانَه أنَّ إقامةَ الوَجهِ -وهو إخلاصُ القَصْدِ، وبَذْلُ الوُسْعِ لدينِه، المُتضَمِّنُ محبَّتَه وعبادتَه، حنيفًا مُقْبِلًا عليه، مُعرِضًا عمَّا سِواه- هو فِطرتُه الَّتي فَطَرَ عليها عبادَه، فلو خُلُّوا ودواعيَ فِطَرِهم لَمَا رَغِبوا عن ذلك، ولا اختاروا سِواه، ولكنْ غُيِّرَتِ الفِطَرُ وأُفسِدَتْ، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن مَولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرةِ، فأبَواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

كما تُنْتَجُ البَهيمةُ بهيمةً جَمعَاءَ، هل تُحِسُّونَ فيها مِن جَدْعَاءَ؟! ثمَّ يقولُ أبو هريرةَ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾))[1].

٢- سَبَبُ الاجتِماعِ والأُلْفةِ جمْعُ الدِّينِ، والعَمَلُ به كُلِّه، وهو عِبادةُ اللهِ وَحْدَه لا شَريكَ له كما أمَرَ به، باطِنًا وظاهِرًا، وسَبَبُ الفُرقةِ: تَرْكُ حَظٍّ ممَّا أُمِرَ العبدُ به، والبَغيُ بيْنَهم؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أنَّ هذا الدِّينَ المَبنيَّ على الإخلاصِ اجتَمَعَ فيه الشَّرعُ والفِطرةُ؛ أمَّا الشَّرعُ فلأنَّه أُمِرَ به، وأمَّا الفِطرةُ فلأنَّ النَّاسَ خُلِقوا عليها وجُبِلوا عليها، ولولا ما يَحصُلُ مِن الموانعِ والعَوارِضِ لِبَني آدمَ لَكانَ النَّاسُ كلُّهم مُؤمِنينَ على الفِطرةِ، كما جاء في الحَديثِ: ((فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه))[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أنَّ التَّفَرُّقَ والاختِلافَ يُوجِبُ الشِّركَ، ويُنافي حقيقةَ التَّوحيدِ الَّذي

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٨٧).
والحديث تقدَّم تخريجُه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٨٤).
والحديث تقدَّم تخريجُه.

هو إخلاصُ الدِّينِ كلِّه لله[١]، فالتَّوحيدُ أبدًا قرينُ الاجتماعِ؛ لأنَّ الاجتماعَ فيه الوحدةُ. والتَّفرُّقُ لا بُدَّ فيه مِن التَّثنيةِ والتَّعدُّدِ، كما أنَّ الإشراكَ مَقرونٌ بالتَّفرُّقِ[٢].

٥- القَلبُ إنْ لم يكُنْ حَنيفًا مُقبلًا على الله مُعرِضًا عمَّا سِواه، وإلَّا كان مُشرِكًا؛ قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ كُلَّ مَولودٍ يُولَدُ على الفِطرةِ، أخرج الشَّيخانِ عن أبي هُريرةَ قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن مَولودٍ يُولَدُ إلَّا على الفِطرةِ))، ثمَّ يقولُ [أي: أبو هُريرةَ]: اقرَؤوا: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[٤].

٧- إنَّ أقْوَمَ الأديانِ ما بُنِيَ على الإخلاصِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾، فالمُشارُ إليه هو ما سَبَق مِن الفِطرةِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عليها، وهي الَّتي أمَرَ اللهُ بها في قَولِه تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ أكثَرَ النَّاسِ في هذا البابِ على جَهلٍ وضَلالٍ؛ فهُم بيْنَ أمْرينِ: إمَّا عالِمٌ مُستكبِرٌ،

(١) يُنظر: ((قاعدة في المحبة)) لابن تيمية (ص: ٤٣).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٤/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٧).
والحديث تقدَّم تخريجُه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٨٤).

فعِلْمُه لم ينفَعْه، وإمَّا جاهِلٌ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دَليلٌ على شَرَفِ الصَّلاةِ وفَضلِها، وأنَّها أهمُّ أعمالِ الجوارحِ؛ فإنَّه سُبحانَه خَصَّ بالذِّكرِ إقامةَ الصَّلاةِ، فلم يَذكُرْ مِن أعمالِ الجوارحِ باسمِه الخاصِّ سِواها[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ تَمْثيلٌ لإقبالِه على الدِّينِ، واستِقامَتِه وثَباتِه عليه، واهتِمامِه بتَرتيبِ أسبابِه؛ فإنَّ مَنِ اهتمَّ بشَيءٍ مَحسوسٍ بالبصَرِ عقَدَ عليه طَرْفَه، وسدَّدَ إليه نظَرَهُ، وقوَّمَ له وجْهَه، مُقبلًا به عليه[٣].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَقِمْ﴾ فَصيحةٌ، والتَّقديرُ: إذا علِمْتَ أحوالَ المُعرِضينَ عن دَلائلِ الحقِّ، فأقِمْ وجْهَك للدِّينِ حَنيفًا[٤].

- والأمْرُ في قولِه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ، والمقصودُ: ألَّا تَهْتَمَّ بإعراضِهم[٥].

- وذكَرَ الوجْهَ هنا؛ لأنَّه جامعُ حواسِّ الإنسانِ، وأشرَفُه[٦]. وقيل: خصَّ اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٩).

إقامةَ الوجْهِ؛ لأنَّ إقبالَ الوجْهِ تبَعٌ لإقبالِ القلْبِ، ويَترتَّبُ على الأمْرينِ سَعْيُ البدَنِ؛ ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا﴾، أي: مُقبِلًا على اللهِ في ذلك، مُعرِضًا عمَّا سِواهُ[١].

- و(حَنِيف): صِيغةُ مُبالَغةٍ في الاتِّصافِ بالحَنَفِ، وهو المَيلُ، وغلَبَ استِعمالُ هذا الوصْفِ في المَيلِ عن الباطلِ، أي: العُدولِ عنه بالتَّوجُّهِ إلى الحقِّ[٢].

- قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن ﴿حَنِيفًا﴾ -على أحدِ الأقوالِ-؛ فهو في معنى الحالِ مِن (الدِّينِ) أيضًا، وهو حالٌ ثانيةٌ؛ فإنَّ الحالَ كالخبَرِ تَتعدَّدُ بدونِ عطْفٍ. وهذا أحسَنُ؛ لأنَّه أصرَحُ في إفادةِ أنَّ هذا الدِّينَ مُختَصٌّ بوَصفينِ؛ هما: التَّبرُّؤُ مِن الإشراكِ، ومُوافقَتُه الفِطرةَ؛ فيُفِيدُ أنَّه دِينٌ سَمْحٌ سهْلٌ، لا عنَتَ فيه[٣].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ بَيانٌ لِمَعنى الإضافةِ في قولِه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، وتصْريحٌ بأنَّ اللهَ خلَقَ النَّاسَ سالِمةً عُقولُهم ممَّا يُنافي الفِطرةَ مِن الأديانِ الباطلةِ والعاداتِ الذَّميمةِ، وأنَّ ما يَدخُلُ عليهم مِن الضَّلالاتِ ما هو إلَّا مِن جرَّاءِ التَّلَقِّي والتَّعوُّدِ[٤].

- وقولُه: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ تَعْليلٌ للأمْرِ بلُزومِ فِطرتِه تعالَى، أو لِوُجوبِ الامتِثالِ به[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ جُملةٌ مُبيِّنةٌ لِمَعنى ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٠).

فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾، فهي جاريةٌ مَجرَى حالٍ ثالثةٍ مِن (الدِّين)، على تَقديرِ رابطٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: لا تَبْديلَ لِخلْقِ اللهِ فيه، أي: في هذا الدِّين. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ مُعترِضةً؛ لإفادةِ النَّهي عن تَغييرِ خَلْقِ اللهِ فيما أودَعَه الفِطرةَ؛ فتكونَ ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ خبرًا مُستعمَلًا في معنَى النَّهيِ على وَجْهِ المُبالَغةِ، كقولِه: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٩]؛ فنَفْيُ الجِنسِ مُرادٌ به جِنسٌ مِن التَّبديلِ خاصٌّ بالوصْفِ، لا نفْيُ وُقوعِ جِنسِ التَّبديلِ؛ فهو مِن العامِّ المُرادِ به الخُصوصُ بالقَرينةِ[١].

- دلَّ قولُه: ﴿لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ على أنَّ معنَى ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾: الخَلْقُ، وأنَّه مِن إقامةِ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ مِن غيرِ لَفْظِه السَّابقِ، وفائدتُه: الإشعارُ بأنَّ أصْلَ الجِبِلَّةِ السَّليمةِ المُتهيِّئةِ لقَبولِ الحقِّ: ألَّا تُغيَّرَ ولا تُترَكَ لِمَحْضِ التَّقليدِ؛ فإنَّه مُجاوِبٌ للعقْلِ[٢].

- ولِعظَمِ المقامِ كرَّرَ الاسمَ الأعظَمَ، فقال: ﴿لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾[٣].

- والتَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾؛ لزِيادةِ تَمْييزِ هذا الدِّينِ مع تَعظيمِه[٤].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ القيِّمُ: وصْفٌ بوزْنِ (فَيعِل)، مِثلُ هَيِّنٍ ولَيِّنٍ، يُفيدُ قوَّةَ الاتِّصافِ بمَصْدَرِه، أي: البالِغُ قوَّةَ القيامِ، مِثلُ (استقامَ) الَّذي هو مُبالَغةٌ في (قام)[٥]. وإطلاقُ القيِّمِ على الدِّينِ فيه تَشبيهُ انتفاءِ الخطَأِ عنه باستقامةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

العُودِ، وهو مِن تَشْبيهِ المَعقولِ بالمَحْسوسِ[١].

- والاستِدراكُ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لِدفْعِ تَوهُّمِ واهِمٍ يقولُ: إذا كان هذا الدِّينُ هو دِينَ الفِطرةِ، وهو القيِّمُ؛ فكيف أعرَضَ كَثيرٌ مِن النَّاسِ عنه بعْدَ تَبليغِه؟! فاسْتدرَكَ ذلك بأنَّهم جُهَّالٌ لا عِلْمَ عِندَهم، فإنْ كان قد بلَغَهُم فإنَّهم جَهِلوا مَعانِيَه؛ لإعراضِهم عن التَّأمُّلِ، ولا يَعلَمون منه إلَّا ما لا يُفيدُهم مُهِمَّهم؛ لأنَّهم لم يَسْعَوا في أنْ يَبلُغَهم على الوجْهِ الصَّحيحِ؛ ففِعلُ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ غيرُ مُتطلِّبٍ مَفعولًا، بلْ هو مُنزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازمِ؛ لأنَّ المعنى: لا عِلْمَ عِندَهم[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾

وحَّدَ الخِطابَ أوَّلًا في قولِه: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾، ثمَّ جمَعَ بعْدَ ذلك ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ﴾؛ لأنَّه قد خُوطِبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أوَّلًا، وخِطابُ الرَّسولِ خِطابٌ لِأُمَّتِه، مع ما فيه مِن التَّعظيمِ للإمامِ، ثمَّ جمَعَ بعْدَ ذلك؛ للبَيانِ والتَّلخيصِ[٣].

- والأمْرُ الَّذي في قولِه: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٥).

- قولُه: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ ﴾ أُعيدَ حَرفُ «مِن» في قَولِه تعالى: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ﴾؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ الثَّانيَ بَدَلٌ مِن الأوَّلِ ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾، والبَدَلُ هو المقصودُ بالكَلام، وما قبْلَه تَوطِئَةٌ له[١]، وإظهارُ حرْفِ الجرِّ ثانيةً مع الاستِغناءِ عنه بالبدَليَّةِ، تأكيدٌ بإظهارِ العامِلِ[٢]. وفائدةُ الإبدالِ التَّحذيرُ عن الانْتِماءِ إلى حِزبٍ مِن أحزابِ المشركينَ؛ ببَيانِ أنَّ الكلَّ على الضَّلالِ المُبينِ[٣].

- وجملةُ ﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبْلَه مِن تَفريقِ دِينِهم، وكَونِهم شِيَعًا[٤].

- وقيل: يَجوزُ أنْ يكونَ ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ﴾ مُنقطِعًا ممَّا قبْلَه، ومعناهُ: مِنَ المُفارقينَ دِينَهم كلُّ حِزْبٍ فَرِحينَ بما لَديهم؛ فكان مِن حقِّ الظَّاهرِ أنْ يُجَرَّ ﴿فَرِحُونَ ﴾؛ لِكَونِه صِفةً ﴿حِزۡبِۭ ﴾؛ لأنَّ الصِّفةَ في الأعدادِ وما هو مِن قَبيلِها يَنْبغي أنْ تكونَ للمُضافِ إليه؛ لقولِه تعالى: ﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ ﴾ [يوسف: ٤٣]، ولكنَّه وصَفَ هاهنا المُضافَ؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ الفرَحَ شامِلٌ للكلِّ، وهو أبلَغُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٠، ٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٠، ٣٩١).

الآيات (٢٢-٢٧)

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ضُرٌّ﴾: أي: فقرٌ وقحطٌ وسُوءُ حالٍ، وأشباهُ ذلك، وأصلُ (ضرر) هنا: خلافُ النَّفعِ[١].

﴿سُلْطَٰنًا﴾: أي: حُجَّةً، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقَهرُ، مِنَ التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّيَ السُّلطانُ سُلطانًا[٢].

﴿يَقْنَطُونَ﴾: أي: يَيْأسُونَ مِنَ الفَرَجِ، والقُنُوطُ هو: الإِياسُ مِن الخيرِ، وأصلُ (قنط): يدُلُّ على اليأْسِ مِنَ الشَّيءِ[٣].

﴿يَبْسُطُ﴾: أي: يُوسِّعُ ويُكثِّرُ، وأصلُ (بسط): امْتِدادُ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٢)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (٩/ ٥٦٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥).

(٤) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٤٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، =

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، يُقالُ: قَدَرْتُ عليه الشَّيءَ: إذا ضيَّقتَه، كأنَّما جعَلْتَه بقَدْرٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا أحوالَ النَّاسِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ: وإذا أصاب النَّاسَ ضُرٌّ ما، كمَرَضٍ في أبدانِهم، أو قِلَّةٍ في أموالِهم؛ أخلَصوا الدُّعاءَ لله تائبينَ مِنَ الشِّركِ؛ لعِلمِهم أنَّه لا يَكشِفُ الضُّرَّ غيرُه سُبحانَه، ثمَّ إذا رَحِمَهم اللهُ فكشَفَ ما أصابَهم مِن الضُّرِّ، وأكرَمَهم بعافيةٍ أو سَعةِ رِزقٍ؛ إذا جماعةٌ منهم يُشرِكونَ مع اللهِ غيرَه؛ لِيَكفُروا بما أعطَيْناهم مِن النِّعَمِ، فتمَتَّعوا -أيُّها المُشرِكونَ- فسوف تَعلَمونَ ما يُصيبُكم مِنَ العذابِ يومَ القيامةِ! فهل أنزَلْنا على هؤلاءِ المُشرِكينَ حُجَّةً ظاهِرةً بصِحَّةِ شِركِهم، حتَّى يَثبُتُوا على شِركِهم؟!

وإذا أصَبْنا النَّاسَ برَحمةٍ مِنَّا فَرِحوا بها، وإن تُصِبْهم حالٌ سَيِّئةٌ بسَبَبِ ذُنوبِهم إذا هم يَيئَسونَ مِن رَحمةِ اللهِ وفَرَجِه، أوَلَم يَرَوا أنَّ اللهَ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ؟ إنَّ في ذلك لَدَلائِلَ للمُؤمِنينَ يَستدِلُّونَ بها على رَحمةِ اللهِ وحِكمتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى التَّوحيدَ بالدَّليلِ وبالمَثَلِ؛ بيَّنَ أنَّ لهم حالةً يُعرَفونَ بها، وإن كانوا يُنكِرونَها في وقتٍ، وهي حالةُ الشِّدَّةِ(١).

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾.

أي: وإذا أصاب النَّاسَ ضَرَرٌ، كمَرَضٍ في أبدانِهم، أو قِلَّةٍ في أموالِهم، أو قَحطٍ وشِدَّةٍ في مَعيشتِهم؛ أخلَصوا الدُّعاءَ للهِ مُقبِلينَ عليه وَحْدَه، تائِبينَ مِنَ الشِّركِ؛ لِعِلْمِهم أنَّه لا يَكشِفُ الضُرَّ إلَّا اللهُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ [فصلت: ٥١].

﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: ثمَّ إذا رَحِمَهم اللهُ فكَشَفَ ما أصابَهم مِنَ الضُّرِّ، وأصابَهم بنِعمةٍ منه، كعافيةٍ أو سَعةِ رزقٍ وغيرِ ذلك؛ إذا جماعةٌ منهم يُبادِرونَ بنَقضِ تلك الإنابةِ الصَّادرةِ منهم، فيُشرِكونَ معه غَيرَه في عبادتِه، ولا يَشكُرونَه على نِعَمِه(٣)!

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٤﴾.

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠٢، ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١).

أي: يُشرِكونَ لِيَكفُروا[١] بما[٢] أعطَيْناهم مِنَ النِّعَمِ، وصَرَفْنا عنهم مِنَ النِّقَمِ[٣]!

﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فتمَتَّعوا -أيُّها المُشرِكونَ- مُدَّةَ حياتِكم بما أعطاكم اللهُ مِنَ النِّعَمِ، فسوفَ تَعلَمونَ ما ستَلقَونَه مِنَ العذابِ يومَ القيامةِ[٤].

---

(١) قال ابن كثير: (قَولُه: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللَّامُ هي لامُ العاقبةِ عند بَعضِهم، ولامُ التَّعليلِ عندَ آخَرينَ، ولكنَّها تعليلٌ لِتَقييضِ اللهِ لهم ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٧).

ومِمَّن قال بأنَّها للعاقبةِ: السمعانيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٧٩) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠٥).

وممَّن اختار أنَّها لامُ كَيْ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عطية، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٧٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٠).

وقيل: يجوزُ أن تكونَ لامَ الأمرِ، ومعناه التَّهديدُ، نحو: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠]. وممَّن اختاره: مكِّي، وابنُ الجوزي، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٣، ٤٢٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢٨، ٤٢٩) و(٢/ ١٣٤). ويُنظر أيضًا: ((الدر المصون)) للحلبي (٩/ ٤٦).

(٢) قيل: المعنى: أنَّهم يَكفرون بهذا الَّذي آتَيْناهم، فيَجحَدونه ولا يَشكُرونه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).

وقيل: الباءُ للسَّببيَّةِ، أي: لِيَكفُروا بسَببِ ما آتَيْناهم مِنَ الرَّحمةِ، والإنقاذِ مِنَ الشِّدَّةِ، فصار ذلك سببًا لِكُفرِهم. ذكَرَ هذا المعنى احتمالًا: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩، ٥٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢)، ((تفسير ابن =

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: فهل أنزَلْنا على المُشرِكينَ حُجَّةً ظاهِرةً تَشهَدُ بصِحَّةِ شِركِهم، حتَّى يُوجِبَ لهم ذلك شِدَّةَ التَّشَبُّثِ بالشِّركِ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٦، ١٥٧].

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا﴾.

أي: وإذا أصَبْنا النَّاسَ برَحمةٍ، كحُصولِ الخِصْبِ والعافيةِ، فَرِحوا بذلك[2].

= عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠٦-٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا﴾: أي فَرِحَ بَطَرٍ بلا شُكرٍ لله على رحمتِه. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢).

وقيل: الفرَحُ هنا وَصفٌ لحالِ النَّاسِ عندَما تُصيبُهم الرحمةُ؛ لِيُبنى عليه ضِدُّه في قَولِه: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾؛ لِما يَقتَضيه القُنوطُ مِن التَّذَمُّرِ والغَضَبِ. والمعنى: أنَّهم كما يَفرَحونَ عندَ الرَّحمةِ، ولا يخطُرُ ببالِهم زوالُها، ولا يحزَنونَ مِن خَشيتِه؛ فكذلك ينبغي أن يَصبِروا عندَما يَمَسُّهم الضُّرُّ، ولا يَقنَطوا مِن زوالِه؛ لأنَّ قُنوطَهم مِن زوالِه غيرُ جارٍ على قياسِ حالِهم عندَما تُصيبُهم رَحمةٌ حينَ لا يَتوقَّعونَ زوالَها. قاله: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٠).

قال ابن عاشور: (فليس في الكلامِ تَعريضٌ بإنكارِ الفَرَحِ حتَّى نُضطرَّ إلى تفسيرِ الفَرَحِ بالبَطَرِ =

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

أي: وإنْ تُصِبْهم حالٌ تَسوؤُهم -كقِلَّةٍ في أموالِهم، أو شِدَّةٍ في مَعيشَتِهم- بسَبَبِ ذُنوبِهم، أصابَهم يأسٌ شديدٌ مِن حُصولِ الرَّحمةِ والفَرَجِ، وزَوالِ تلك الحالِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[الشورى: ٣٠].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

أي: أوَلم يَرَ هؤلاءِ الَّذين يَفرَحونَ عندَ الرَّخاءِ، ويَيئَسونَ عندَ الشِّدَّةِ أنَّ اللهَ يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ؟ فهو وَحْدَه المتصَرِّفُ في عبادِه بحِكمتِه؛ فيُغْني مَن يَشاءُ، ويُفقِرُ مَن يَشاءُ[2]!

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ في تَوسيعِ اللهِ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ وتَضييقِه على مَن يَشاءُ لَدَلائِلَ وعَلاماتٍ للمُؤمِنينَ، يَستَدِلُّونَ بها على رَحمةِ اللهِ وحِكمتِه، وكَمالِ قُدرتِه،

= ونحوه؛ لأنَّه عدولٌ عن الظَّاهِرِ بلا داعٍ... فالقُنوطُ هو محلُّ الإنكارِ عليهم، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾[فصلت: ٤٩]. ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢١٤، ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨).

وغَيرِ ذلك[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ فينبغي للعبدِ أن يَعبُدَ اللهَ في الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وألَّا يكونَ مِمَّن يَعبُدونَ اللهَ للدُّنيا، فإذا آتاهم رَضُوا، وإذا منَعَهم سَخِطوا وقَنَطوا[٢]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ فالقُنوطُ بعدَما عُلِمَ أنَّ الخيرَ والشَّرَّ مِنَ اللهِ، والرِّزقَ -سَعَتَه وضِيقَه- مِن تقديرِه: ضائعٌ ليس له مَحَلٌّ، فلا تَنظُرْ أيُّها العاقِلُ لمُجَرَّدِ الأسبابِ، بل اجعَلْ نَظَرَك لِمُسَبِّبِها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، فهم الذين يَعتَبِرونَ بَسْطَ اللهِ لِمَن يَشاءُ وقَبْضَه، ويَعرِفونَ بذلك حِكمةَ اللهِ ورَحمَتَه، وَجُودَه وجَذْبَ القُلوبِ لِسُؤالِه في جميعِ مَطالِبِ الرِّزقِ[٣]. فالمُحَقِّقُ ينبغي ألَّا يكونَ نَظَرُه على ما يُوجَدُ، بل إلى مَن يُوجِدُ، وهو اللهُ تعالى[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ دَليلٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٧، ٩٨)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٢).

أنَّ مَعرِفةَ الرَّبِّ في فِطرةِ كُلِّ إنسانٍ، وأنَّهم إن غَفَلوا في السَّرَّاءِ، فلا شَكَّ أنَّهم يَلوذونَ إليه في حالِ الضَّرَّاءِ[١]، فطبيعةُ الإنسانِ عندَ الضَّرَّاءِ اللُّجوءُ إلى رَبِّه، ويتفَرَّعُ على هذا أنَّ أولئك الَّذين إذا مَسَّهم الضُّرُّ لجَؤوا إلى غيرِ اللهِ، أنَّهم خالَفوا جميعَ فِطَرِ البَشَرِ[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ تهديدٌ للكافِرينَ، وأنَّ انبِساطَهم بنِعَمِ اللهِ سُبحانَه وتعالى ضَرَرٌ عليهم؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ أنَّ مَن صَنَعَ شيئًا بدَليلٍ صحيحٍ فلا لَومَ عليه؛ يُؤخَذُ ذلك مِن قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾، يعني: لو كان لهم سُلطانٌ لا نَلومُهم ولا نُعَذِّبُهم[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ أنَّ المجتَهِدَ المتأوِّلَ لا إثمَ عليه؛ لاعتِمادِه في اجتِهادِه على دَليلٍ[٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ قَولُه: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ فيه معنًى لطيفٌ، وهو: أنَّ المتكَلِّمَ مِن غَيرِ دَليلٍ، كأنَّه لا كلامَ له؛ لأنَّ الكلامَ هو المسموعُ، وما لا يُقبَلُ فكأنَّه لم يُسمَعْ، فكأنَّ المتكَلِّمَ لم يتكَلَّمْ به، وما لا دليلَ عليه لا يُقبَلُ، فإذا جاز سَلْبُ الكلامِ عن المتكَلِّمِ عندَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عدَمِ الدَّليلِ وحَسُنَ، جاز إثباتُ التكَلُّمِ للدَّليلِ وحَسُنَ[١].

٦- قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ فيه أنَّه لا بُدَّ أنْ يكونَ السُّلطانُ أو الحُجَّةُ الَّتي يحتَجُّونَ بها واضِحةً؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾، والتَّعبيرُ بالكَلامِ هو أوضَحُ ما يكونُ مِن الإظهارِ[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ لم يَذكُرْ عند النِّعمةِ سَببًا لها؛ لتفَضُّلِه بها، وذَكَر عندَ العَذابِ سَببًا؛ لأنَّ الأوَّلَ يَزيدُ في الإحسانِ، والثَّانيَ يُحَقِّقُ العَدلَ[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فيه أنَّ المصائِبَ مُسَبَّبةٌ عن الذُّنوبِ[٤].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: مِن المُخالَفاتِ، وأسنَدَه إلى اليَدِ؛ لأنَّ أكثَرَ العَمَلِ بها[٥].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دَلالةٌ على إثباتِ الاختيارِ للبَشَرِ، فيكونُ في ذلك رَدٌّ لِقَولِ الجَبريَّةِ الَّذين يَقولونَ: «إنَّ الإنسانَ ليس له اختيارٌ في العملِ»[٦]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢١٨).

رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ [الروم: ٣٢]، أي: فرَّقوا دِينَهم وكانوا شِيعًا، وإذا مسَّهم ضُرٌّ، فدَعَوُا اللهَ وحْدَه فرَحِمهم؛ عادوا إلى شِرْكِهم وكُفْرِهم نِعمةَ الَّذي رحِمَهم؛ فالمقصودُ مِن الجُملةِ هو قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، فمَحلُّ انتظامِه في مَذامِّ المشركينَ أنَّهم يَرجِعون إلى الكفْرِ، بخِلافِ حالِ المؤمنينَ؛ فإنَّهم إذا أذاقَهم اللهُ رحمةً بعدَ ضُرٍّ، شَكَروا نِعمةَ ربِّهم، وذلك مِن إنابتِهم إلى اللهِ. ونُسِجَ الكلامُ على هذا الأُسلوبِ؛ ليكونَ بمَنزلةِ التَّذييلِ بما في لفْظِ (النَّاس) مِن العُموم، وإدْماجًا لِفَضيلةِ المؤمنينَ الَّذين لا يَكفُرون نِعمةَ الرَّحيمِ؛ فالتَّعريفُ في (النَّاسِ) للاستغراقِ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ إشراكَهم باللهِ بعْدَ الدُّعاءِ والإنابةِ وحُصولِ رَحمتِه، أعجَبُ مِن إشراكِهم السَّابقِ؛ ففي التَّراخي الرُّتبيِّ معنَى التَّعجيبِ مِن تَجدُّدِ إشراكِهم[٢].

- وعُبِّرَ بالإذاقةِ؛ لأنَّ المعنى أصابَتْهم الرَّحمةُ حتَّى يَتحقَّقوها كما يَتحقَّقُ الإنسانُ الطَّعامَ في فَمِه[٣]. وقيل: اختيرَ فِعلُ الإذاقةِ؛ لِمَا يدُلُّ عليه مِن إسراعِهم إلى الإشراكِ عندَ ابتداءِ إصابةِ الرَّحمةِ لهم، فالإذاقةُ: تُطلَقُ على الإصابةِ، وحقيقتُها: إصابةُ المَطْعومِ بطَرَفِ اللِّسانِ، وهي أضعَفُ إصاباتِ الأعضاءِ للأجسامِ؛ فهي أقلُّ مِن المَضْغِ والبلْعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٦، ٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٧).

وقيل: الذَّوقَ يُقالُ في القَليلِ؛ فإنَّ العُرفَ أنَّ مَن أكلَ مأكولًا كثيرًا لا يقولُ: ذُقتُ، ويقالُ في النَّفيِ: ما ذُقتُ في بيتِه طعامًا، نفيًا للقليلِ؛ لِيَلزَمَ نَفْيُ الكثيرِ بالأَولى، ثمَّ إنَّ تلك الرَّحمةَ لَمَّا كانت خاليةً مُنقَطِعةً، ولم تكُنْ مُستمِرَّةً في الآخرةِ؛ إذ لهم في الآخرةِ عذابٌ- قال: ﴿أَذَاقَهُم﴾؛ ولهذا قال في العذابِ: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]، ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]؛ لأنَّ عذابَ اللهِ الواصِلَ إلى العَبدِ بالنِّسبةِ إلى الرَّحمةِ الواصِلةِ إلى عَبيدٍ آخَرينَ: في غايةِ القِلَّةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أسنَدَ الرَّحمةَ إليه؛ تَعظيمًا للأدَبِ، وإنْ كان الكلُّ منه[٢].

- وتَقْديمُ المجرورِ ﴿مِّنْهُ﴾؛ للاهتمامِ به؛ لِيَظْهَرَ أنَّ الَّذي أصابَهم هو مِن فضْلِ اللهِ وتقْديرِه، لا غير ذلك[٣].

- قولُه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، أي: فاجَأَ فريقٌ منهم الإشراكَ، وذلك بنِسبةِ خَلاصِهم إلى غيرِه تعالى مِن صنَمٍ أو كَوكبٍ أو نحوِ ذلك مِنَ المخلوقاتِ، وتَخْصيصُ هذا الفِعلِ ببعضِهم؛ لِمَا أنَّ بعضَهم ليسُوا كذلك، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان: ٣٢]، أي: مُقيمٌ على الطَّريقِ القصْدِ، أو مُتوسِّطٌ في الكفْرِ؛ لانْزجارِه في الجُملةِ[٤]. وقيل: جاء هنا ﴿فَرِيقٌ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ عامٌّ للمؤمنِ والكافرِ، فلا يُشرِكُ إلَّا الكافرُ، و﴿ضُرٌّ﴾ هنا مُطلَقٌ، وفي آخِرِ (العَنكبوتِ): ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٤٢).

[العنكبوت: ٦٥]؛ لأنَّه في مَخصوصينَ مِن المُشركينَ عُبَّادِ الأصنام، والضُّرُّ فيها مُعيَّنٌ، وهو ما يُتخوَّفُ مِن رُكوبِ البحرِ؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1] [العنكبوت: ٦٥].

- وحرْفُ المفاجأةِ (إذا) في قَولِه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يُفيدُ أنَّ هذا الفَريقَ أسْرَعوا العَودةَ إلى الشِّركِ بحِدْثانِ ذَوقِ الرَّحمةِ؛ لِتَأصُّلِ الكفْرِ منهم، وكُمونِه في نُفوسِهم[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾ قيل: هي لامُ التَّعليلِ، وهي مُستعارةٌ لِمَعنى التَّسبُّبِ الَّذي حقُّه أنْ يُفادَ بالفاءِ[3]. وقيل: اللَّامُ فيه للعاقِبةِ، وقيل: للأمْرِ بمعنى التَّهديدِ، كقولِه تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾، غيرَ أنَّه التَفَت فيه مُبالَغةً[4].

- قولُه: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الْتفَتَ عن الغَيبةِ إلى الخِطابِ بقولِه: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾؛ تَوبيخًا لهم وإنْذارًا، وجِيءَ بفاءِ التَّفريعِ في قولِه: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾؛ لأنَّ الإنذارَ والتَّوبيخَ مُفرَّعانِ عن الكلامِ السَّابقِ. والأمْرُ في (تَمَتَّعُوا) مُستعمَلٌ في التَّهديدِ والتَّوبيخِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).

- والفاءُ في ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ تَفريعٌ للإنذارِ على التَّوبيخِ، وهو رشيقٌ. و(سوفَ تَعلَمونَ) إنْذارٌ بأنَّهم يَعلَمون في المُستقبَلِ شيئًا عَظيمًا، والعِلْمُ كِنايةٌ عن حُصولِ الأمْرِ الَّذي يُعلَمُ، أي: عن حُلولِ مَصائبَ بهمْ لا يَعلَمون كُنْهَها الآنَ؛ وهو إيماءٌ إلى عظَمَتِها، وأنَّها غيرُ مُترَقَّبةٍ لهم[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾

- (أمْ) بمَعنى (بل)، والهمزةِ؛ و(بل) للإضرابِ عن الكَلامِ السَّابقِ، والهمزةُ للاستفهامِ عن الحُجَّةِ استفهامَ إنكارٍ وتَوبيخٍ[٢]. فالتَّقديرُ: بلْ أأنْزَلْنا عليهم سُلطانًا؟! أي: ما أنْزَلْنا عليهم سُلطانًا، ومعنى الاستفهامِ الإنكاريِّ أنَّه تَقريرٌ على الإنكارِ، كأنَّ السَّائلَ يَسأَلُ المسؤولَ؛ لِيُقِرَّ بنفْيِ المَسؤولِ عنه، وحيثُما وقَعَت (أمْ) فالاستفهامُ مُقدَّرٌ بعْدَها؛ لأنَّها مُلازِمةٌ لِمَعنى الاستفهامِ[٣].

- والالْتِفاتُ إلى الغَيبةِ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾؛ للإيذانِ بالإعراضِ عنهم، وتَعْديدِ جِناياتِهم لِغَيرِهم بطَريقِ المُباثَّةِ[٤].

- وقدَّمَ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿يُشۡرِكُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالتَّنبيهِ على سَببِ إشراكِهم الدَّاخلِ في حيِّزِ الإنكارِ، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٠).

- في هذه الآيةِ قُدِّمَت إصابةُ الرَّحمةِ على إصابةِ السَّيِّئةِ، عكْسَ الآيةِ الَّتي قبْلَها -في قولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ [الروم: ٣٣]-؛ للاهتِمامِ بالحالةِ الَّتي جُعِلَت مَبدأَ العِبرةِ، وأصْلَ الاستِدلالِ؛ فقولُه: ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ وصْفٌ لحالِ النَّاسِ عندَما تُصيبُهم الرَّحمةُ؛ لِيُبْنَى عليه ضِدُّه في قولِه: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾؛ لِمَا يَقْتضيهِ القُنوطُ مِن التَّذمُّرِ والغضَبِ[(١)].

- وعبَّر عِندَ الرَّحمةِ بأداةِ التحقيقِ (إذا)؛ إشارةً إلى أنَّ الرحمةَ أكثرُ مِن النِّقمةِ، وأَسنَد الفِعلَ إليه في مَقامِ العظَمةِ؛ إشارةً إلى سَعةِ جُودِه، فقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا﴾، وجرَى الكلامُ على النَّمطِ الماضي في العمومِ؛ لمُناسَبةِ مَقصودِ السُّورةِ في أنَّ الأمرَ كُلَّه له في كُلِّ شيءٍ، وعِندَ المصيبةِ قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ بأداةِ الشَّكِّ (إنْ)؛ دَلالةً على أنَّ المصائبَ أقَلُّ وُجودًا. وقال: ﴿تُصِبْهُمْ﴾ غيرَ مُسنِدٍ لها إليه؛ تأْديبًا لعِبادِه، وإعلامًا بغَزيرِ كَرَمِه[(٢)].

- وأدمَجَ في خلالِ الإنكارِ عليهم قولَه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لِتَنْبيههم إلى أنَّ ما يُصيبُهم مِن حالةٍ سيِّئةٍ في الدُّنيا، إنَّما سَبَبُها أفْعالُهم، فما على النَّاسِ إلَّا أنْ يُحاسِبوا أنفُسَهم، ويَتدارَكوا ما فات؛ فذلك أنْجَى لهم مِن السَّيِّئاتِ، وأجدَرُ مِن القُنوطِ[(٣)].

٥- قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٤، ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠١).

لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ ... ﴾ استفهامُ إنكارٍ؛ أنكَرَ عليهم إهمالَ التَّأمُّلِ في سُنَّةِ اللهِ الشَّائعةِ في النَّاسِ: مِن لَحاقِ الضُّرِّ وانْفراجِه، ومِن قِسمةِ الحُظوظِ في الرِّزقِ بيْنَ بَسْطٍ وتَقْتيرٍ؛ فإنَّه كثيرُ الوُقوعِ كلَّ حِينٍ، فكما أنَّهم لم يَقْنَطوا مِن بَسْطِ الرِّزقِ عليهم في حِينِ تَقتيرِه، فكَدَحوا في طلَبِ الرِّزقِ بالأسبابِ والدُّعاءِ؛ فكذلك كان حقُّهم أنْ يَتلقَّوُا السُّوءَ النَّادرَ بمِثْلِ ما يَتلقَّون به ضِيقَ الرِّزقِ، فيَسْعَوا في كشْفِ السَّيِّئةِ بالتَّوبةِ، والابتهالِ إلى اللهِ، وبتَعاطي أسبابِ زَوالِها مِن الأسبابِ الَّتي نصَبَها اللهُ تعالى؛ فجُملةُ ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ ﴾ إلخ، عطْفٌ على جُملةِ ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَا ﴾. والاستِفهامُ إنكاريٌّ في مَعنى النَّفيِ؛ أنْكَرَ عليهم عدَمَ الرُّؤيةِ تَنزيلًا لِرُؤيتِهم ذلك مَنزِلةَ عدَمِ الرُّؤيةِ؛ لإهمالِ آثارِها مِن الاعتبارِ بها، فالتَّقديرُ: إذا همْ يَقنَطون، كيف لم يَرَوا بَسْطَ اللهِ الرِّزقَ وتقْتيرَه؟! كأنَّهم لم يَرَوا ذلك[1]!

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ ... ﴾ الآيةَ، بلفْظِ ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾، وفي (الزُّمَرِ) بلفظِ: ﴿ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ ﴾ [الزمر: ٥٢]؛ وذلك لأنَّ بسْطَ الرِّزقِ ممَّا يُرى؛ فناسَبَ ذِكْرُ الرُّؤيةِ، وما في (الزُّمَرِ) تقدَّمَه ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الزمر: ٤٩]، فناسَبَ ذِكْرُ العِلْمِ[2].

- وقولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ تذْييلٌ، أي: في جَميعِ ما ذُكِرَ آياتٌ كثيرةٌ حاصلةٌ كَثْرتُها مِن اشتِمالِ كلِّ حالةٍ مِن تلك الأحوالِ على أسبابٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٣، ٤٤٤).

خَفيَّةٍ وظاهرةٍ، ومُسبِّباتِها كذلك، ومِن تَعدُّدِ أحوالِ النَّاسِ مِن الاعتبارِ بها، والأخْذِ منها، كلٌّ على حسَبِ استِعدادِه[١].

- وقيل: كانت الفاصلةُ قولَه تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ إيذانًا بأنَّ بسْطَ الرِّزقِ وتَقْديرَه بمَحْضِ مَشيئتِه تعالى، وبأنْ ليس الغِنى بفِعلِ العبْدِ وجهْدِه، ولا العُدْمُ بعَجْزِه وتَقاعُدِه، ولا يَعرِفُ ذلك إلَّا مَن آمَنَ بأنَّ ذلك تقْديرُ العزيزِ العليمِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠١، ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٤٣).

الآيات (٢٨-٤٠)

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿لِّيَرۡبُوَاْ﴾: أي: لِيَزدادَ، وأصلُ الرِّبا: الزِّيادةُ[1].

﴿ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾: أي: ذَوُو المُضاعَفةِ والزِّيادةِ مِنَ الحَسَناتِ، وأصلُ (ضعف): يدُلُّ على أن يُزادَ الشَّيءُ مِثلَه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: فآتِ قَريبَك حَقَّه من البِرِّ والصِّلةِ، والمِسكينَ والمسافِرَ المُنقَطِعَ عن أهلِه، ذلك خيرٌ للمُخلِصينَ الَّذين يُريدونَ بذلك النَّظرَ إلى وجهِ اللهِ يومَ القيامة، وأولئك هم الفائِزونَ في الدُّنيا والآخرةِ، وما آتيتُم -أيُّها النَّاسُ- مِن مالٍ تُريدونَ به زيادةً مِن أموالِ النَّاسِ بأن يَرُدُّوه إليكم أكثَرَ ممَّا آتَيْتُموهم، فلا يَنمو عندَ اللهِ، ولا خيرَ فيه؛ وما آتيتُم مِن زكاةٍ تُريدونَ بها وجهَ اللهِ فأولئك هم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٥، ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٤).

الَّذين لهم الضِّعفُ مِنَ الأجرِ والثَّوابِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه مظاهرَ فضلِه على النَّاسِ، فيقولُ: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي خلَقَكم مِنَ العدَمِ، ثم رزَقَكم، ثمَّ يُميتُكم مِن بَعدِ حياتِكم، ثمَّ يُحييكم للبَعثِ يومَ القيامةِ. هل مِن آلهتِكم -أيُّها المُشركونَ- مَن يَقدِرُ على فِعلِ شَيءٍ مِن ذلك؟! تنزَّه اللهُ وتقدَّس عن شِركِ هؤلاء المُشركينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكر أنَّه تعالى هو الباسِطُ القابِضُ، وجعَلَ في ذلك آيةً للمُؤمِنِ؛ أمَر نبيَّه بالإحسانِ لِمَن به فاقةٌ واحتياجٌ؛ لأنَّ مِن الإيمانِ الشَّفَقةَ على خَلقِ الله؛ فخاطبَ مَن بَسَط له الرِّزقَ بأداءِ حَقِّ اللهِ مِن المالِ، وصَرْفِه إلى مَن يَقرُبُ منه؛ في رحِمٍ، وإلى غيرِه مِن مِسكينٍ وابنِ سَبيلٍ[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ أنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ وَيقدِرُ، فلا ينبغي أن يَتوقَّفَ الإنسانُ في الإحسانِ؛ فإنَّ اللهَ إذا بسَطَ الرِّزقَ لا يَنقُصُ بالإنفاقِ، وإذا قَدَرَ لا يَزدادُ بالإمساكِ[2].

وأيضًا فوَجهُ تعَلُّقِ الآيةِ بما قَبْلَها: هو أنَّ الله تعالى لَمَّا بيَّن أنَّ العبادةَ لا ينبغي أن تكونَ مقصورةً على حالةِ الشِّدَّةِ، بقَولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ [الروم: ٣٣]، ولا أن تكونَ مَقصورةً على حالةِ أخذِ شَيءٍ مِن الدُّنيا، بِقَولِه:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٢).

﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَا ﴾، وبيَّن أنَّه ينبغي أن يكونَ -في حالةِ بَسطِ الرِّزقِ وقَدْرِه عليه- نَظَرُه على اللهِ الخالقِ الرَّازقِ؛ لِيَحصُلَ الإرشادُ إلى تعظيمِ الله. والإيمانُ قِسْمانِ: تَعظيمٌ لأمرِ اللهِ، وشَفَقةٌ على خَلقِ اللهِ، فقال بعد ذلك[1]:

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

أي: فآتِ[2] قريبَك حقَّه مِنَ البرِّ والصِّلةِ، والمِسكينَ حَقَّه مِنَ الصَّدَقةِ، والمسافِرَ المُنقَطِعَ حَقَّه مِنَ الإعانةِ على سَفَرِه[3].

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: إيتاءُ الأقاربِ والمساكينِ وأبناءِ السَّبيلِ حُقوقَهم الشَّرعيَّةَ خَيرٌ للمُخلِصينَ الذين يُريدونَ بذلك وجهَ اللهِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٢).

(٢) قال القرطبي: (الخِطابُ للنبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والمرادُ هو وأمَّتُه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٢٣-٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٤).

قال القاسمي: (﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ ﴾ أي: النَّظَرَ إليه يومَ القيامةِ. وهو الغايةُ القُصْوى. أو يريدون ذاتَه بمعروفِهم، لا رياءً ولا سُمْعةً، ولا مُكافأةَ يَدٍ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٦).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ ﴾: أي: النَّظَرَ إليه سُبحانَه: ابنُ كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٢٦).

وقال ابن جرير: (خيرٌ لِلذَّين يُريدونَ الله بإتيانِهم ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٢).

وقال محمد رشيد رضا: (هذا التَّعبيرُ يَدُلُّ على الإخلاصِ للهِ تعالَى في العملِ، وابتغاءِ مَرْضاتِه به وحْدَه، وعدمِ الرِّياءِ فيه). ((تفسير المنار)) (٧/ ٣٦٤).

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

أي: وأولئك هم الفائِزونَ في الدُّنيا والآخِرةِ[١].

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى العملَ الَّذي يُقصَدُ به وجْهُه مِن النَّفَقاتِ، ذكَر العملَ الَّذي يُقصَدُ به مَقصدٌ دُنيويٌّ[٢].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا جرى التَّرغيبُ والأمرُ بذلك المالِ لِذوي الحاجةِ، وصِلةِ الرَّحِمِ، وما في ذلك مِن الفَلاحِ؛ أعقَبَ بالتَّزهيدِ في ضَربٍ آخَرَ مِن إعطاءِ المالِ لا يَرضى اللهُ تعالى به، وكان الرِّبا فاشيًا في زَمَنِ الجاهليَّةِ وصَدرِ الإسلامِ، وخاصَّةً في ثَقيفٍ وقُرَيشٍ؛ فلمَّا أرشَد اللهُ المسلِمينَ إلى مُواساةِ أغنيائِهم فُقراءَهم؛ أتْبَعَ ذلك بتهيئةِ نُفوسِهم للكَفِّ عن المعامَلةِ بالرِّبا للمُقتَرِضينَ منهم؛ فإنَّ المعاملةَ بالرِّبا تُنافي المواساةَ؛ لأنَّ شَأنَ المُقتَرِضِ أنَّه ذو حاجةٍ، وشأنَ المُقرِضِ أنَّه ذو سَعَةٍ، فمُعامَلتُه المُقتَرِضَ منه بالرِّبا استِغلالٌ لحاجتِه لاضْطِرارِه، وذلك لا يليقُ بالمُؤمِنينَ[٣].

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وما آتَيتم -أيُّها النَّاسُ- مِن عَطاءٍ تُريدونَ به زيادةً وأرباحًا تَحصُلُ لكم مِن أموالِ النَّاسِ، بأن يَرُدُّوه إليكم بأكثَرَ مِمَّا آتيتُموه؛ فلا يَزْكو ويَنمو عندَ اللهِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٤، ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٥).

فهو مالٌ مَمْحوقُ البَرَكةِ، ولا ثوابَ فيه[١].

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ ما زيادتُه نَقصٌ؛ أتْبَعَه ما نَقصُه زيادةٌ، فقال[٢]:

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

أي: وما آتيتُم مِن زكاةٍ عن إخلاصٍ لله تعالى، تريدونَ بها وجهَه؛ فأولئك هم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٥، ١٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٣٢-٢٣٤).

قال السمعاني: (أكثرُ أهلِ التَّفسيرِ أنَّ المرادَ مِنَ الآيةِ هو أن يُعطيَ الرَّجُلُ غيرَه عَطيَّةً لِيُعطيَه أكثَرَ منها، وهذا جائزٌ للنَّاسِ أن يَفعلوا، غيرَ أنَّه في القيامةِ لا يُثابُ عليه، فهو معنَى قولِه: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢١٥).

وقال ابن كثير: (﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: مَن أَعطى عَطيَّةً يُريدُ أن يَرُدَّ النَّاسُ عليه أكثَرَ ممَّا أَهدى لهم، فهذا لا ثَوابَ له عندَ الله. بهذا فسَّره ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ، والشَّعْبيُّ. وهذا الصَّنيعُ مُباحٌ وإن كان لا ثَوابَ فيه، إلَّا أنَّه قد نُهِيَ عنه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ خاصَّةً، قاله الضَّحَّاكُ، واستدَلَّ بقولِه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦]، أي: لا تُعطِ العطاءَ تُريدُ أكثَرَ منه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨).

وقيل: هذه الآيةُ في معنى قولِه تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] سواءً بسَواءٍ، وأنَّ المرادَ: ما أعطَيْتُم مِن أموالِكم على وجهِ الرِّبا فلا يَزْكو عندَ الله. وممَّن اختاره في الجملةِ: الزمخشريُّ، والنسفيُّ، وابنُ جُزَي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٧٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠١).

الذين يُضاعِفُ اللهُ لهم ثوابَ صَدَقاتِهم[١].

كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما تصدَّقَ أحَدٌ بصَدقةٍ مِن طَيِّبٍ -ولا يقبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ- إلَّا أخَذَها الرَّحمنُ بيَمينِه وإن كانت تمرةً، فتَربو في كَفِّ الرَّحمنِ حتى تكونَ أعظَمَ مِن الجَبَلِ، كما يُرَبِّي أحَدُكم فَلُوَّه[٢] أو فَصيلَه[٣]!))[٤].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىۡءٍۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٣٥-٢٣٧).

قال البقاعي: (﴿ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ أي: الذين ضاعَفوا أموالَهم في الدُّنيا بسَبَبِ ذلك الحِفظِ والبرَكةِ، وفي الآخرةِ بكَثرةِ الثَّوابِ عند اللهِ مِن عشرةِ أمثالٍ إلى ما لا حَصْرَ له). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١٠١، ١٠٢).

(٢) الفَلُوُّ: المُهرُ، وهو الصَّغيرُ من أولادِ الفَرَسِ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه فُصِلَ وعُزِلَ عن أمِّه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).

(٣) الفَصيلُ: ولَدُ النَّاقةِ إذا فُصِلَ مِن إرضاعِ أمِّه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).

(٤) رواه البخاري (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤)، واللفظ له.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا وَضَح أنَّه لا زيادةَ إلَّا فيما يَزيدُه اللهُ، ولا خيرَ إلَّا فيما يختارُه اللهُ، فكان ذلك مُزَهِّدًا في زيادةِ الاعتناءِ بطَلَبِ الدُّنيا- بيَّن ذلك بطريقٍ لا أوضحَ منه، فقال[١]:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي خَلَقكم مِنَ العَدَمِ، ثمَّ رَزَقكم وأنتم لا تَملِكونَ شَيئًا، ثمَّ يميتُكم مِن بعدِ حَياتِكم، ثمَّ يُحييكم للبَعثِ يومَ القيامةِ[٢].

﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾.

أي: هل مِن آلهتِكم -أيُّها المُشرِكونَ- مَن يَقدِرُ على فِعلِ شَيءٍ مِن ذلك[٣]؟

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

أي: تنزَّه اللهُ وتقدَّسَ وتعالى عن شِركِ هؤلاءِ المُشرِكينَ[٤]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ فاللهُ سُبحانَه لا يَقبَلُ إلَّا ما كان خالِصًا لِوَجهِه، لا رياءَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣).

فيه[١].

٢- قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ مَن بَذَلَ مالَه مِن أجلِ الحُصولِ على أمْرِ الدُّنيا، فإنَّه لا أَجْرَ له في ذلك، تؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴾ تَنبيهٌ على أهميَّةِ الإخلاصِ[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فيه سؤالٌ: ذُكِر الأقاربُ بلَفظِ ﴿ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، ولم يُذكَرِ المِسكينُ بلَفظِ (ذي المَسكَنة).

الجوابُ: ذلك لأنَّ القرابةَ لا تتجدَّدُ؛ فهي شيءٌ ثابتٌ، و (ذو كذا) لا يقالُ إلَّا في الثَّابتِ؛ فإنَّ مَن صدَرَ منه رأيٌ صائبٌ مرَّةً، أو حصَلَ له جاهٌ يومًا واحِدًا، أو وُجِدَ منه فَضلٌ في وقتٍ؛ لا يقالُ: (ذو رأيٍ) و(ذو جاهٍ)، و(ذو فضلٍ)، وإذا دام ذلك له، أو وُجِدَ منه ذلك كثيرًا؛ يقالُ له: (ذو الرَّأيِ) و(ذو الفَضلِ)؛ فقال: ﴿ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ هذا حَقٌّ مُتأكِّدٌ ثابتٌ.

وأمَّا المَسكَنةُ فتطرَأُ وتَزولُ؛ ولهذا المعنى قال: ﴿مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦]؛ فإنَّ المسكينَ يدومُ له كَونُه ذا مَتربةٍ ما دامت مَسكَنتُه، أو يكونُ كذلك في أكثَرِ الأمرِ[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ المعطَى مالٌ، ويُقوِّي

(١) يُنظر: ((نظم الدر)) للبقاعي (١٥/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٣).

ذلك وقوعُ الآيةِ عَقِبَ قَولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ فيه سؤالٌ: خَصَّصَ اللهُ تعالى الأقسامَ الثَّلاثةَ بالذِّكرِ دونَ غَيرِهم، مع أنَّه تعالى ذكَرَ الأصنافَ الثَّمانيةَ في الصَّدَقاتِ؟

الجوابُ: أراد هاهنا بيانَ مَن يجبُ الإحسانُ إليه على كُلِّ مَن له مالٌ، سواءٌ كان زكَويًّا أو لم يكُنْ، وسواءٌ كان بعد الحَولِ أو قَبْلَه؛ لأنَّ المقصودَ هاهنا الشَّفَقةُ العامَّةُ، وهؤلاء الثَّلاثةُ يجِبُ الإحسانُ إليهم وإنْ لم يكُنْ للمُحسِنِ مالٌ زائدٌ؛ أمَّا القريبُ فتَجِبُ نفقَتُه وإن كان لم تجِبْ عليه زكاةٌ، كعَقارٍ أو مالٍ لم يَحُلْ عليه الحَولُ، والمِسكينُ كذلك؛ فإنَّ مَن لا شيءَ له إذا بَقِيَ في ورطةِ الحاجةِ حتى بلَغ الشِّدَّةَ، يجِبُ على مَن له مَقدِرةٌ دَفعُ حاجتِه، وإن لم يكُنْ عليه زكاةٌ، وكذلك من انقطعَ في مَفازةٍ ومع آخَرَ دابَّةٌ يُمكِنُه بها إيصالُه إلى مَأمَنٍ، يلزَمُه ذلك وإنْ لم تكُنْ عليه زكاةٌ، والفَقيرُ داخِلٌ في المِسكينِ؛ لأنَّ مَن أوصى للمساكينِ شَيئًا، يُصرَفُ إلى الفُقَراءِ أيضًا، وإذا نظَرْتَ إلى الباقينَ مِن الأصنافِ رأيتَهم لا يجِبُ صَرفُ المالِ إليهم إلَّا على الذين وَجَبَت الزكاةُ عليهم، واعتُبِرَ ذلك في العامِلِ، والمُكاتَبِ، والمؤلَّفةِ، والمَديونِ[2].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ لم يَذكُرْ غَيرَه مِن الأفعالِ، كالصَّلاةِ وغَيرِها؟

الجوابُ: الصَّلاةُ مَذكورةٌ مِن قَبلُ؛ لأنَّ الخِطابَ هاهنا بقَولِه: ﴿فَآتِ﴾ مع

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٢).

النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم، وغيرُه تَبَعٌ، وقد قال له مِن قَبلُ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾[١] [الروم: ٣١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ إثباتُ الوَجهِ للهِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مَن فَعَلَ مثلَ هذه الأمورِ لله، فإنَّه سوف يرى اللهَ عزَّ وجلَّ ويلقاه، كما ثبت ذلك في الكِتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ السَّلَفِ: أنَّ المُؤمِنينَ يَرَونَ ربَّهم كما يَرَونَ القَمَرَ ليلةَ البَدرِ[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ﴾ فيه أنَّ كُلَّ ما لا يَربو عندَ اللهِ، فهو ممحوقٌ لا وُجودَ له، فمآلُه إلى فَناءٍ وإن كَثُرَ[٤].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ ﴾ عبَّرَ عنها بذلك؛ لِيُفيدَ الطَّهارةَ والزِّيادةَ، أي: تُطهِّرونَ بها أموالَكم مِنَ الشُّبَهِ، وأبدانَكم مِن موادِّ الخبَثِ، وأخلاقَكم مِنَ الغِلِّ والدَّنَسِ[٥].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ لَمَّا كان الإخلاصُ عزيزًا، أشار إلى عَظَمتِه بتكريرِه، بقَولِه عَزَّ وجَلَّ: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾، وقد قال في الآيةِ التي قبلَه: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾[٦].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ الصَّدَقةَ تزيدُ المالَ[١]، وذلك على أحدِ القولينِ في الآيةِ.

١١- إنَّ مَن تَفرَّدَ بخَلقِ العَبدِ وبهدايتِه، وبرزقِه وإحيائِه وإماتتِه في الدُّنيا، وبمَغفرةِ ذُنوبِه في الآخرةِ: مُستَحِقٌّ أنْ يُفرَدَ بالإلهيَّةِ والعبادةِ، والسُّؤالِ والتضَرُّعِ إليه، والاستكانةِ له؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ فاءُ التَّفريعِ تُفيدُ أنَّ الكلامَ بعْدَها مُترتِّبٌ على الكلامِ الذي قبْلَها، وقدِ اشتمَلَ الكلامُ قبْلَها على لَحاقِ آثارِ رَحمةِ اللهِ بالنَّاسِ، وإصابةِ السُّوءِ إيَّاهم، وعلى أنَّ ما يُصيبُهم مِن السُّوءِ بما قدَّمَتْ أيدي النَّاسِ، وذُكِرَ بسْطُ الرِّزقِ وتقْديرُه، وتضمَّنَ ذلك أنَّ الفرَحَ يُلْهيهم عن الشُّكرِ، وأنَّ القُنوطَ يُلْهيهم عن المُحاسَبةِ في الأسبابِ؛ فكان الأمْرُ بإيتاءِ الضُّعفاءِ والمنكوبينَ إرشادًا إلى وسائلِ شُكرِ النِّعمةِ عندَ حُصولِها شُكْرًا مِن نَوعِها واستكشافِ الضُّرِّ عندَ نُزولِه، وإلى أنَّ مِن الحقِّ التَّوسعةَ على المُضيَّقِ عليهم الرِّزقُ، كما يُحِبُّ أنْ يُوسَّعَ عليه رِزْقُه[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قُدِّمَ ذُو القُرْبى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٢).

على المسكينِ وابنِ السَّبيلِ؛ للاهتِمامِ به؛ لأنَّ بِرَّه صَدقةٌ وصِلَةٌ[١]، ولَمَّا كان المِسكينُ حاجتُه ليست مختَصَّةً بمَوضِعٍ، كان مُقَدَّمًا على مَن حاجتُه مختَصَّةٌ بموضِعٍ دونَ مَوضِعٍ[٢].

- والتعبيرُ باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾؛ للتَّنويهِ بالمأْمورِ به[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ صِيغَةُ قَصْرٍ مِن أجْلِ ضَميرِ الفَصْلِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ[٤]، أي: أولئك المُتفرِّدونَ بالفلاحِ، وهو نجاحُ عَمَلِهم في إيتاءِ مَن ذُكِرَ لوجْهِ اللهِ تعالى لا للرِّياءِ والفخْرِ، فمَن آتَى للرِّياءِ والفخْرِ فلا فلاحَ له مِن إيتائِه[٥].

- وبيْن قولِه: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ وقولِه: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ ...﴾ مُقابَلَةٌ، وممَّا يدلُّ على أنَّ الآيتَينِ مُتقابلتانِ: تَكريرُ ﴿يُرِيدُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩١، ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٤).

(٤) القَصرُ الإضافي: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصود بالكلامِ، أو إزالة شكِّه وترددِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حولَ احتمالينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].
يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).
وينظر ما تقدم في تعريف القصر (ص: ٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٤، ١٠٥).

وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ فيهما، وتَخصيصُ كلٍّ مِن الآيتينِ باسمِ الإشارةِ الدَّالِّ على أنَّ ما قبْلَه جَديرٌ بما بعْدَه؛ لأجْلِ ذِكْرِ مُوجِبِه(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (ما) شرطيَّةٌ تُفيدُ العُمومَ، فالجُملةُ مُعترِضةٌ بعدَ جُملةِ ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الروم: ٣٨] إلخ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، ومَضمونُ هذه الجُملةِ بمَنزلةِ الاستدراكِ؛ للتَّنبيهِ على إيتاءِ مالٍ هو ذَميمٌ. وجِيءَ بالجُملةِ شرطيَّةً؛ لأنَّها أنسَبُ بمَعنى الاستدراكِ على الكلامِ السَّابقِ(٢).

- قولُه: ﴿فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: تَحصُلُ فيه زِيادةٌ تكونُ أموالُ النَّاسِ ظرْفًا لها؛ فهو كِنايةٌ عن أنَّ الزِّيادةَ التي يأخُذُها المُرْبي مِن أموالِهم لا يَملِكُها أصْلًا(٣).

- ومعنى ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أنَّه عمَلٌ ناقصٌ عندَ اللهِ غيرُ زاكٍ عِنده، والنَّقصُ يُكْنى به عن المَذمَّةِ والتَّحقيرِ(٤).

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فيه التعبيرُ باسمِ الإشارةِ (أولئك)؛ للتَّنويهِ بهؤلاء، والدَّلالةِ على أنَّهم أحْرياءُ بالفلاحِ. وكذلك اسمُ الإشارةِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ اقْتضاهُ مَقامُ اجتلابِ اسمِ الإشارةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٠٦، ١٠٧).

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾، أي: ذوو الأضْعافِ مِن الثَّوابِ، أو الذين ضَعَّفوا ثوابَهم وأموالَهم بالبركةِ، وفي تَغْييرِ النَّظمِ الكريمِ والالْتِفاتِ ما لا يَخْفى مِن المُبالَغةِ والتَّعظيمِ؛ كأنَّه خاطَبَ به الملائكةَ وخواصَّ الخلْقِ تَعريفًا لحالِهم: فأولئك الذين يُريدون وجْهَ اللهِ بصَدقاتِهم، همُ المُضْعِفون؛ فهو أمدَحُ لهمْ مِن أنْ يقولَ: (فأنتم المُضعِفون)؛ لأنَّه إذا التفَتَ إلى الغيرِ شاكرًا لِصَنيعِهم، واستِحمادًا منه لهم، وترْغيبًا له فيما نالوا به هذه المَنزِلةَ؛ كان أبلَغَ وأنبَلَ ممَّا لو قال لهم: فأنتُم المُضعِفون. أو للتَّعميمِ؛ كأنَّه قال: فمَن فعَلَ ذلك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾. وأيضًا فيه إشعارٌ بأنَّ أولئك مُحِقُّون بأنْ يَكونوا مُضعِفينَ؛ لاكتسابِهم تلك الفضيلةَ، وليس في (فأنتم المُضعِفون) مِن ذلك شَيءٌ[1].

- وضَميرُ الفصْلِ (هم) في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ لِقَصْرِ جِنسِ المُضْعِفينَ على هؤلاء، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ للمُبالَغةِ؛ لعَدَمِ الاعتدادِ بإضعافِ مَن عَداهم؛ لأنَّ إضعافَ مَن عَداهم إضعافٌ دُنيويٌّ زائلٌ[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾

استئنافٌ ممَّا أُقيمَ عليه دلائلُ انفرادِ اللهِ تعالى بالتَّصرُّفِ في النَّاسِ، وإبطالِ ما زَعَموه مِن الإشراكِ في الإلهيَّةِ، مُؤكِّدًا بالإنكارِ على ما دلَّ عليه البُرهانُ والعِيَانُ، ووقَعَ عليه الوِفاقُ، ثمَّ اسْتنتَجَ مِن ذلك تقدُّسَه عن أنْ يكونَ له شُركاءُ، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٦).

﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وفيه إدماجٌ[١] للاستدلالِ على وُقوعِ البعثِ[٢].

- قولُه: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ في مَعنى النَّفيِ؛ ولذلك زِيدَت (مِن) الدَّالَّةِ على تَحقيقِ نفْيِ الجِنسِ كلِّه في قولِه: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾. والمعنى: ما مِن شُركائِكم مَن يَفعَلُ شيئًا مِن ذلِكُم؛ فـ (مِن) الأُولى بَيانيَّةٌ هي بَيانُ الإبهامِ الذي في ﴿مَّن يَفْعَلُ﴾، فيكونُ ﴿مَّن يَفْعَلُ﴾ مُبتدأً، وخبَرُه مَحذوفٌ دلَّ عليه الاستفهامُ، تقديرُه: حصَلَ، أو وُجِدَ، أو هي تَبعيضيَّةٌ صِفَةٌ لِمُقدَّرٍ، أي: هلْ أحدٌ مِن شُركائِكم. و(مِن) الثَّانيةُ في قولِه: ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾ تَبعيضيَّةٌ في مَوضعِ الحالِ ﴿مِّن شَيْءٍ﴾. و(مِن) الثَّالثةُ زائدةٌ لاستغراقِ النَّفيِ، وكلٌّ منها مُستقِلَّةٌ بتأْكيدٍ؛ لتَعجيزِ الشُّركاءِ وتَجهيلِ عَبَدتِهم[٣]. وقيل: هو استفهامٌ على جِهَةِ التَّقريرِ لهم والتَّوبيخِ[٤].

- قولُه: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ إضافةُ (شُركاء) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ مِن المُشركينَ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ همُ الذين خَلَعوا على الأصنامِ وصْفَ الشُّركاءِ للهِ؛ فكانوا شُركاءَ بزَعْمِ المُخاطَبينَ، وليسوا شُركاءَ في نفْسِ الأمْرِ، وهذا جارٍ مَجْرى التَّهكُّمِ[٥].

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٧، ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٨).

- وجُملةُ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ مُستأْنفةٌ لإنشاءِ تَنزيهِ اللهِ تعالى عن الشَّريكِ في الإلهيَّةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ الْتفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ للإيذانِ باقْتضاءِ ذِكْرِ قَبائحِهم للإعراضِ عنهم، وطَرْحِهم عن رُتبةِ الخِطابِ[٢].

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾؛ لِمَا في الشِّركِ مِن الغَرابةِ، أو للإشعارِ باستمرارِه وتجدُّدِه منهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٤٧).

الآيات (٤١-٤٥)

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْقَيِّمِ﴾: أي: المستقيمِ الَّذي لا عِوجَ فيه، وأصلُ (قوم) هنا: يدلُّ على انْتِصابٍ أو عَزْمٍ[(١)].

﴿يَصَّدَّعُونَ﴾: أي: يتَفَرَّقونَ فيَصيرونَ فريقًا في الجنَّةِ وفريقًا في السَّعيرِ، وأصلُ (صدع): يدُلُّ على انفراجٍ في شَيءٍ[(٢)].

﴿يَمْهَدُونَ﴾: أي: يُهَيِّئونَ ويُوطِّئونَ، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على توطئةٍ وتَسهيلٍ للشَّيءِ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا الآثارَ السَّيئةَ التي تترتَّبُ على الكفرِ والمعاصي: ظهرَ الجَدْبُ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٤).

وقِلَّةُ النَّباتِ ومَحْقُ البركاتِ وكَثرةُ الشُّرورِ في بَرِّ الأرضِ وبَحرِها؛ بسبَبِ وُقوعِ النَّاسِ في الشِّركِ والمعاصي؛ جزاءً لهم على بَعضِ ذُنوبِهم؛ لعلَّهم يتوبونَ إليه سُبحانَه ويَرجِعونَ إليه.

ثمَّ يأمرُ الله نبيَّه أن يلفتَ الأنظارَ إلى سوءِ عاقبةِ المشركينَ، فيقول: قلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: سيروا في الأرضِ، فانظُروا كيف كانت نهايةُ المكَذِّبينَ مِن قَبلِكم، كان أكثَرُهم مُشرِكينَ؛ فأهلَكَهم اللهُ.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى نبيَّه بالثباتِ على الحقِّ، مؤكدًا عليه، فيقولُ: فانصِبْ قَصْدَك وأقبِلْ على دينِ الإسلامِ المُستقيمِ الذي لا اعوِجاجَ فيه، من قَبلِ أن يأتيَ يَومُ القيامةِ الذي لا يَقدِرُ أحَدٌ على رَدِّه؛ ذلك اليومُ الذي يتفَرَّقُ النَّاسُ فيه إلى فريقينِ: فريقٍ في الجنَّةِ، وفريقٍ في النَّارِ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى الفريقينِ فيقولُ: من كفَرَ باللهِ فإثمُ كُفرِه واقعٌ عليه، ومن عَمِلَ عَملًا صالِحًا فإنَّما يُهَيِّئونَ ويُوطِّئونَ لأنفُسِهم منازِلَهم في الجنَّةِ؛ لِيَجزيَ اللهُ الذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ ثوابًا حَسَنًا مِن فَضلِه، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكافرينَ به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ سُبحانَه مِن حَقارةِ شُرَكائِهم ما كان حقُّهم به أن يَرجِعوا، فلم يَفعَلوا؛ أتبَعَه ما أصابَهم به على غيرِ ما كان في أسلافِهم؛ عُقوبةً لهم على قَبيحِ

ما ارتكَبوا؛ استِعطافًا للتَّوبةِ[١].

وأيضًا فوَجهُ تعلُّقِ هذه الآيةِ بما قَبْلَها هو أنَّ الشِّركَ سَبَبُ الفسادِ، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وإذا كان الشِّركُ سَبَبَه، جَعَلَ اللهُ إظهارَهم الشِّركَ مُورِثًا لِظُهورِ الفَسادِ[٢].

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾.

أي: ظَهَر نَقصُ الخَيراتِ، وفِقدانُ المنافِعِ ومَحقُ البَرَكاتِ، وكَثرةُ الشُّرورِ وحُدوثُ المضارِّ والآفاتِ: في بَرِّ الأرضِ وبَحرِها؛ بسَبَبِ وُقوعِ النَّاسِ في الشِّركِ والكُفرِ والظُّلمِ، وارتكابِهم الذُّنوبَ والمعاصِيَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٠)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٣٢)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٦٤، ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٤، ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٠ - ١١٢).

قيل: المرادُ بظُهورِ الفسادِ: قحطُ المطرِ، ونقصُ الثِّمارِ. ﴿فِى ٱلْبَرِّ﴾ حيثُ لا يجري نهرٌ، وهو البَوادي، ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ وهو كلُّ قريةٍ على ماءٍ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٠).

قال ابن جُزَي: (﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قيل: البَرُّ: البلادُ البعيدةُ مِنَ البحرِ، والبحرُ: هو البلادُ الَّتي على ساحِلِ البحرِ... والصَّحيحُ أنَّ البَرَّ والبحرَ المعروفانِ؛ فظُهورُ الفسادِ في البَرِّ بالقَحطِ والفِتَنِ وشِبهِ ذلك، وظُهورُ الفسادِ في البحرِ بالغرَقِ وقِلَّةِ الصَّيدِ وكَسادِ التِّجاراتِ وشبهِ ذلك، وكلُّ ذلك بسببِ ما يَفعَلُه النَّاسُ مِن الكفرِ والعِصيانِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٤).

وقال السعدي: (أي: فسادُ مَعايشِهم ونقْصُها، وحُلولُ الآفاتِ بها، وفي أنفُسِهم مِن الأمراضِ والوباءِ وغيرِ ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.

أي: ابتلاهم اللهُ بنَقصِ الخيراتِ وغَيرِها مِن أنواعِ الفَسادِ؛ جزاءً لهم على بَعضِ ذُنوبِهم[(١)]، لعلَّهم يتوبونَ إليه، ويَترُكونَ الكُفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ

= وقيل: المرادُ: ظهَرَتْ مَعاصي الله في كلِّ مكانٍ؛ مِن بَرٍّ وبحرٍ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٩٤).

قال ابن القيِّم: (والظَّاهرُ -والله أعلَمُ- أنَّ الفَسادَ المرادُ به: الذُّنوبُ ومُوجباتُها، ويدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾، فهذا حالُنا، وإنَّما أذاقَنا الشَّيءَ اليسيرَ مِن أعمالِنا، ولو أذاقنا كلَّ أعمالِنا لَما ترَكَ على ظَهرِها مِن دابَّةٍ). ((الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)) (ص: ٦٥).

وقال الشوكاني: (والظَّاهرُ مِن الآيةِ ظُهورُ ما يصِحُّ إطلاقُ اسمِ الفسادِ عليه؛ سواءٌ كان راجعًا إلى أفعالِ بني آدَمَ مِن معاصيهم، واقترافِهم السَّيِّئاتِ، وتَقاطُعِهم وتَظالُمِهم وتَقاتُلِهم، أو راجعًا إلى ما هو مِن جهةِ الله سُبحانَه بسببِ ذُنوبِهم؛ كالقَحطِ، وكثرةِ الخَوفِ، والمُوتانِ [أي: الموت الكثير الوقوع]، ونُقصانِ الزَّرائعِ، ونُقصانِ الثِّمارِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الروم)) (ص: ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧، ٢١٨).

قال البقاعي: (ويعفو عن كثيرٍ إمَّا أصلًا ورأسًا، وإمَّا المعاجلةُ به، ويؤخِّرُه إلى وقتٍ ما في الدُّنيا، أو إلى الآخرةِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٥٦، ٢٥٧).

يَرۡجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ٤٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المُشرِكينَ بظُهورِ الفَسادِ في أحوالِهم؛ بسَبَبِ فَسادِ أقوالِهم؛ بيَّن لهم هلاكَ أمثالِهم وأشكالِهم الَّذين كانت أفعالُهم كأفعالِهم[1].

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: سافِروا في الأرضِ، فانظُروا كيف كانت نهايةُ الأُمَمِ مِن قَبلِكم[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

﴿كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ﴾.

أي: كان أكثَرُ الأُمَمِ الماضيةِ مُشرِكينَ، فعاقِبَتُهم كانت شَرَّ العواقِبِ؛ إذ أهلَكَهم اللهُ؛ فاحذَروا أن تَفعَلوا كأفعالِهم، فيُصيبَكم مِثلُ ما أصابَهم[3].

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ٤٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٤).
قال السعدي: (الأمرُ بالسَّيرِ في الأرضِ يَدخُلُ فيه السَّيرُ بالأبدانِ، والسَّيرُ في القلوبِ لِلنَّظرِ والتَّأمُّلِ بعواقِبِ المُتقدِّمينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٦٣، ٢٦٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى الكافِرَ عمَّا هو عليه، أمَرَ المؤمِنَ بما هو عليه، وخاطَبَ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِيَعلَمَ المؤمِنُ فَضيلةَ ما هو مُكَلَّفٌ به؛ فإنَّه أمَرَ به أشرَفَ الأنبياءِ، وللمُؤمِنينَ في التَّكليفِ مَقامُ الأنبياءِ[1].

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: فانصِبْ قَصْدَك، وأقبِلْ بقَلبِك على دينِ الإسلامِ الذي جعَلَه اللهُ مُعتَدِلًا مُستقيمًا لا اعوِجاجَ فيه، وبادِرْ إلى العَمَلِ بأوامِرِه واجتِنابِ نواهيه مِن قَبلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الذي لا يُمكِنُ ردُّ مَجيئِه[2].

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ نَبيِّه إبراهيمَ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾.

أي: يومَ القيامةِ يتفَرَّقُ النَّاسُ فريقَينِ: فريقٌ في الجنَّةِ، وفريقٌ في النَّارِ[3].

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۞ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٧٠، ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٤).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴾ [الروم: ١٤ - ١٦].

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ ﴾.

أي: مَن كفَرَ باللهِ فإنَّما وَبالُ كُفرِه واقِعٌ عليه، ولا يَضُرُّ بكُفرِه إلَّا نَفْسَه[١].

﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ﴾.

أي: ومَن عَمِلَ عَمَلًا صالحًا بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابعةٍ لِشَرعِه، فإنَّما يُهَيِّئونَ لأنفُسِهم النَّجاةَ مِنَ النَّارِ، والفَوزَ بالجنَّةِ[٢].

﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر زيادةَ تَفصيلٍ لِما يُمَهِّدُه المؤمِنُ لِفعلِه الخيرَ وعَمَلِه الصَّالحِ، وهو الجزاءُ الَّذي يُجازيه به اللهُ، والمَلِكُ إذا كان كبيرًا كريمًا، ووعَدَ عَبدًا مِن عبادِه بأنِّي أُجازيك؛ يَصِلُ إليه منه أكثَرُ ممَّا يتوقَّعُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سور الروم)) (ص: ٢٧٤).

قال البقاعي: (﴿يَمۡهَدُونَ ﴾ أي: يُسَوُّونَ ويُوطِّئونَ مَنازِلَ في القُبورِ والجنَّةِ، بل وفي الدُّنيا؛ فإنَّ اللهَ يُعِزُّهم بعِزِّ طاعتِه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٦).

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

أي: لِيَجزيَ[(١)] اللهُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ ثوابًا حَسَنًا كريمًا مِن فَضْلِه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكافِرينَ به؛ بسَبَبِ كُفرِهم، وهو مُعاقِبُهم سُبحانَه بعَدلِه[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ فيه أنَّ النَّاسَ لا يُعاقَبون إلَّا بكسبِهم؛

---

(١) قيل: قَولُه سُبحانَه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ مُتعلِّقٌ بِقَولِه تعالى: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكي، وابن عطية، وأبو السعود، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١١).

وقيل: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلق بـ ﴿يَمْهَدُونَ﴾. وممَّن اختاره: الزمخشري، والقرطبي، والنسفي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٧٠٤)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٥٠).

وقيل: هو متعلِّقٌ بـ «يأتي» في قَولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾. وقيل: هو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: ذلك. والمشارُ إليه ما سبق. واستحسن ابنُ عثيمين هذين القولين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٧٨-٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١١، ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٨٤، ٢٨٥).

فيتفرَّعُ على ذلك أنَّ مَن أراد أنْ تُرفَعَ عنه العُقوبةُ فليَتُبْ إلى الله؛ فإنَّ التوبةَ مِن أسباب رَفْعِ العُقوبةِ وجَلْبِ المَثوبةِ(١).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: أقبِلْ بقَلبِك، وتوجَّهْ بوَجهِك، واسْعَ ببَدَنِك؛ لإقامةِ الدِّينِ القَيِّمِ المُستقيم؛ فنفِّذْ أوامِرَه ونواهِيَه بجِدٍّ واجتِهادٍ، وقُمْ بوظائِفِه الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، وبادِرْ زَمانَك وحياتَك وشبابَك ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وهو يومُ القيامةِ الذي إذا جاء لا يُمكِنُ ردُّه، ولا يُرجَأُ العامِلونَ أن يَستأنِفوا العَمَلَ، بل فُرِغَ مِنَ الأعمالِ لم يَبْقَ إلَّا جزاءُ العُمَّالِ(٢)!

٣- قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ ينبغي لِمَن أَمَرَ بشَيءٍ أنْ يَذكُرَ ما يُغري به ويُرَغِّبُ فيه؛ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿ٱلْقَيِّمِ﴾؛ فالإنسانُ إذا عَرَفَ أنَّ الدِّينَ قَيِّمٌ، لا شَكَّ أنَّه يتَّجِهُ إليه، فأنت إذا أردْتَ أنْ تأمُرَ بشَيءٍ فاذكُرِ الأسبابَ التي تُوجِبُ للنَّاسِ الإقبالَ عليه بأوصافِه المحبوبةِ، وثَمَراتِه الحَميدةِ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن آثارِ الذُّنوبِ والمعاصي أنَّها تُحدِثُ في الأرضِ أنواعًا مِن الفَسادِ؛ في المياهِ والهواءِ، والزَّرعِ والثِّمارِ والمساكِنِ؛ قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٤)- فالفسادُ سببُه أعمالُ بني آدمَ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٥٧).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الرَّجاءُ المُستفادُ مِن (لعلَّ) يُشيرُ إلى أنَّ ما ظهَرَ مِن فسادٍ: كافٍ لإقلاعِهم عمَّا اكتَسَبوه، وأنَّ حالَهم حالُ مَن يُرجَى رُجوعُه؛ فإنْ هم لم يرجِعوا فقد تبيَّنَ تمرُّدُهم وعَدَمُ إجداءِ الموعِظةِ فيهم، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[1] [التوبة: ١٢٦].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ، وأنَّ أفعالَ اللهِ عزَّ وجلَّ معلَّلَةٌ لا بُدَّ لها مِن علَّةٍ؛ تُؤخذُ هذه مِن قَولِه سُبحانَه: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، ولا شكَّ أنَّ أفعالَ اللهِ تعالى وأحكامَه مُعلَّلَةٌ؛ لأنَّ مِن أسمائِه الحكيمَ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، وبقَدْرِ العَمَلِ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أنَّ العُقوباتِ قد تكونُ سَببًا في الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى[4].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أنَّ أسبابَ هلاكِ الأُممِ السَّابِقينَ إشراكُ أكثرِهم[5].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٦).

قال: ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ ولم يُبيِّنْ، وقال في المؤمِن: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ تحقيقًا لِكَمالِ الرَّحمةِ؛ فإنَّه عندَ الخيرِ بيَّنَ وفصَّلَ؛ بِشارةً، وعندَ غيرِه أشار إليه إشارةً[١].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ قال: ﴿فَعَلَيۡهِ﴾ فوحَّد الضَّميرَ، وقال: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾ فجمَعَه؛ إشارةً إلى أنَّ الرحمةَ أعَمُّ مِن الغَضَبِ، فتَشمَلُه وأهلَه وذُرِّيَّتَه، أمَّا الغَضَبُ فمَسبوقٌ بالرَّحمةِ، لازِمٌ لِمن أساء[٢]. وفيه ترغيبٌ في العملِ مِن غيرِ نظرٍ إلى مُساعِدٍ، وبأنَّه يَنفعُ نفْسَه وغيرَه؛ لأنَّ المؤمنَ للمؤمنِ كالبُنْيانِ يَشُدُّ بعضُه بعضًا، وأقَلُّ ما ينفَعُ والِدَيْهِ وشيخَه في ذلك العملِ[٣].

٩- قولُه تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ فيه أنَّ الجزاءَ ليس واجبًا على اللهِ تعالى، لكِنَّه أوجَبَه على نفسِه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فهو الذي أوجَبَه سُبحانَه[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إثباتُ صفةِ المحبَّةِ لله؛ لأنَّه إذا انتَفَتْ محبَّتُه عن الكافِرينَ لَزِمَتْ محبَّتُه للمُؤمِنينَ، فإنْ لم يكُنْ، لم يكُنْ فرْقٌ بين المؤمِنينَ وبينَ الكافِرينَ[٥]!

١١- أنَّ الحُكمَ إذا عُلِّقَ بمُشتقٍّ فهو دليلٌ على أنَّ ذلك المُشتقَّ هو عِلَّةُ الحُكْمِ، وهذه فائدةٌ أصوليَّةٌ؛ مثلًا قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ العِلَّةُ هنا كُفْرُهم،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٤).

أي: أنَّ الحُكمَ بعَدَمِ حُبِّهم عُلِّقَ على وَصفٍ هو كُفرُهم؛ إذَن فالكُفرُ عِلَّةُ انتفاءِ المحبَّةِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

هذه الآيةُ مِن جوامعِ كَلِمِ القرآنِ، والمَقصِدُ منها هو الموعظةُ بالحوادثِ ماضِيها وحاضِرِها؛ للإقلاعِ عن الإشراكِ، وعن تَكْذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- ويَجوزُ أنْ تكونَ هذه الآيةُ مُتَّصلةً بقولِه قبْلَها: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩] الآياتِ، فلمَّا طُولِبوا بالإقرارِ على ما رَأَوه مِن آثارِ الأُمَمِ الخاليةِ، أو أنكَرَ عليهم عدَمَ النَّظرِ في تلك الآثارِ؛ أتْبَعَ ذلك بما أدَّى إليه طريقُ المَوعظةِ مِن قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]، ومِن ذِكْرِ الإنذارِ بعَذابِ الآخِرةِ، والتَّذكيرِ بدَلائلِ الوَحدانيَّةِ ونِعَمِ اللهِ تعالى، وتَفْريعِ استحقاقِه تعالى الشُّكرَ لذاتِه ولأجْلِ إنعامِه استِحقاقًا مُستقِرًّا إدراكُه في الفِطرةِ البشريَّةِ، وما تخلَّلَ ذلك مِن الإرشادِ والموعظةِ؛ عاد الكلامُ إلى التَّذكيرِ بأنَّ ما حلَّ بالأُمَمِ الماضيةِ مِن المصائبِ ما كان إلَّا بما كسَبَت أيدِيهم، أي: بأعمالِهم؛ فيُوشِكُ أنْ يحُلَّ مِثْلُ ما حلَّ بهم بالمُخاطَبين الذين كسَبَتْ أيدِيهم مِثْلَ ما كسَبَت أيدِي أولئك؛ فمَوقِعُ هذه الجُملةِ على هذا الوجْهِ مَوقِعُ النَّتيجةِ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٩).

مَجموعِ الاستِدلالِ، أو مَوقعُ الاستئنافِ البَيانيِّ، بتَقديرِ سُؤالٍ عن سببِ ما حلَّ بأولئك الأُمَمِ.

ويجوزُ أنْ تقَعَ هذه الآيةُ مَوقعَ التَّكملةِ لقولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ [الروم: ٣٣] الآيةَ، فهي خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّنديمِ على ما حلَّ بالمُكذِّبين المُخاطَبين مِن ضُرٍّ؛ لِيَعْلَموا أنَّ ذلك عِقابٌ مِن اللهِ تعالى، فيُقْلِعوا عنه؛ خَشيةَ أنْ يُحيطَ بهم ما هو أشدُّ منه، كما يُؤذِنُ به قولُه عقِبَ ذلك: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾؛ فالإتيانُ بلَفْظِ النَّاسِ في قولِه: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِزيادةِ إيضاحِ المقصودِ، ومُقْتَضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (بما كسَبَت أيديهم)، فالآيةُ تُشِيرُ إلى مَصائبَ نزَلَتْ ببِلادِ المشركينَ، وعطَّلَت مَنافِعَها، ولعلَّها ممَّا نشَأَ عن الحرْبِ بينَ الرُّومِ وفارسَ، وكان العربُ مُنقسِمينَ بينَ أنصارِ هؤلاء وأنصارِ أولئك، فكان مِن جرَّاءِ ذلك أنِ انقطَعَت سُبلُ الأسفارِ في البرِّ والبحرِ، فتعطَّلَت التِّجارةُ، وقلَّتِ الأقواتُ بمكَّةَ والحجازِ، كما يَقْتضيهِ سَوقُ هذه الموعظةِ في هذه السُّورةِ المُفتتَحةِ بـ ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ٢]؛ فمَوقعُ هذه الجُملةِ على هذا الوجْهِ مَوقعُ الاستِئنافِ البَيانيِّ لِسبَبِ مَسِّ الضُّرِّ إيَّاهم، حتَّى لَجَؤوا إلى الضَّراعةِ إلى اللهِ، وما بيْنها وبيْن جُملةِ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ [الروم: ٣٣] إلى آخِرِه، اعتراضٌ واستطرادٌ تخلَّلَ في الاعتراضِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ مَوقِعُها مَوقعَ الاعتراضِ بيْن ذِكْرِ ابتهالِ النَّاسِ إلى اللهِ إذا أحاط بهمْ ضُرٌّ، ثمَّ إعراضِهم عن عِبادتِه إذا أذاقَهم منه رحمةً، وبيْن ذِكْرِ ما حلَّ بالأُمَمِ الماضيةِ اعتراضًا يُنبِئُ أنَّ الفسادَ الذي يَظهَرُ في العالمِ ما هو إلَّا مِن جرَّاءِ اكتسابِ النَّاسِ، وأنْ لو اسْتَقاموا لكان حالُهم على صَلاحٍ.

وعلى هذه الوُجوهِ الثَّلاثةِ يكونُ الباءُ في قولِه: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾

للعِوَضِ، أي: جزاءً لهم بأعمالِهم، كالباءِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، ويكونُ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ على معنى التَّعليلِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بالفسادِ الشِّركَ، فتكونَ هذه الآيةُ مُتَّصلةً بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾ إلى قولِه: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الروم: ٤٠]، فتكونَ الجُملةُ إتْمامًا للاستدلالِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى؛ تَنْبيهًا على أنَّ اللهَ خلَقَ العالَمَ سالِمًا مِن الإشراكِ، وأنَّ الإشراكَ ظهَرَ بما كسَبَت أيدِي النَّاسِ مِن صَنيعِهم؛ فذِكْرُ البَرِّ والبحرِ لتَعميمِ الجِهاتِ، بمعنى: ظهَرَ الفسادُ في جميعِ الأقطارِ الواقعةِ في البَرِّ، والواقعةِ في الجزائرِ والشُّطوطِ، ويكون الباءُ في قولِه: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ للسَّببيَّةِ، ويكون اللَّامُ في قولِه: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ لامَ العاقبةِ[1].

- قولُه: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ إسنادُ الكَسْبِ إلى الأيدِي جَرَى مَجْرى المَثلِ في فِعلِ الشَّرِّ والسُّوءِ مِن الأعمالِ كلِّها، دونَ خُصوصِ ما يُعمَلُ منها بالأيدِي؛ لأنَّ ما يَكسِبُه النَّاسُ يكونُ بالجوارحِ الظَّاهرةِ كلِّها، وبالحواسِّ الباطنةِ مِن العَقائدِ الضَّالَّةِ والأدواءِ النَّفْسيَّةِ[2]، ولأنه لَمَّا كان أكثَرُ الأفعالِ باليَدِ، أسنَدَ إليها ما يُرادُ به الجُملةُ، مُصَرِّحًا بعُمومِ كُلِّ ما له أهليَّةُ التحرُّكِ[3].

- والبعضيَّةُ في قولِه: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ تَبْعيضٌ للجزاءِ؛ فالمُرادُ بَعضُ الجزاءِ على جميعِ العمَلِ، لا الجزاءُ على بعضِ العمَلِ، أي: إنَّ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٩ - ١١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٥).

يُذِيقُهم مِن العذابِ هو بَعضُ ما يَستحِقُّونه. وفي هذا تَهديدٌ إنْ لم يُقلِعوا عن مَساوي أعمالِهم، كقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]. والعُدولُ عن أنْ يُقالَ: (بعضَ أعمالِهم) إلى ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى ما في الموصولِ مِن قوَّةِ التَّعريفِ، أي: أعمالُهم المَعروفةُ عندَهم، المُتقرِّرُ صُدورُها منْهم[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾

لَمَّا وعَظَهم بما أصابَهم مِن فسادِ الأحوالِ، ونبَّهَهم إلى أنَّها بعضُ الجزاءِ على ما كسَبَت أيدِيهم؛ عرَّضَ لهم بالإنذارِ بفَسادٍ أعظمَ قد يحُلُّ بهم مِثْلُه؛ وهو ما أصاب الذين مِن قبْلِهم بسبَبِ ما كانوا عليه مِن نَظيرِ حالِ هؤلاء في الإشراكِ، فأمَرَهم بالسَّيرِ في الأرضِ والنَّظرِ في مَصيرِ الأُمَمِ التي أشْرَكَت وكذَّبَت، مِثْلُ عادٍ، وثمودَ، وقومِ لُوطٍ، وغيرِهم؛ لأنَّ كثيرًا مِن المشركينَ قد اجْتازُوا في أسْفارِهم بدِيارِ تلك الأُمَمِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]؛ فهذا تَكريرٌ وتأْكيدٌ لقولِه السَّابقِ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، وإنَّما أُعِيدَ اهتمامًا بهذه العِبرةِ، مع مُناسبةِ قولِه: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾[2] [الروم: ٤١].

- وقولُه: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ استئنافٌ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ما أصابَهم لِفُشوِّ الشِّركِ فيما بيْنَهم، أو كان الشِّركُ في أكثَرِهم، وما دُونه مِن المَعاصي في قَليلٍ منهم، أو أنَّ الشِّركَ وحْدَه لم يكُنْ سبَبَ تدْميرِهم، وأنَّ ما دُونه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١١٤).

المعاصي يكونُ سببًا لذلك[١].

- وحِين ذكَرَ امتنانَه قالَ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]، فذكَرَ الوجودَ، ثمَّ البَقاءَ بسَببِ الرِّزقِ. وحِينَ ذكَرَ خِذلانَهم بالطُّغيانِ، سلَب البقاءَ بإظهارِ الفسادِ، ثمَّ سلَب الوجودَ بالإهلاكِ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ تَفرَّعَ على الإنذارِ والتَّحذيرِ مِن عواقبِ الشِّركِ تَثبيتُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على شَريعتِه، ووعْدٌ بأنْ يأْتِيَه النَّصرُ، مع التَّعريضِ بالإرشادِ إلى الخَلاصِ مِن الشِّركِ باتِّباعِ الدِّينِ القيِّمِ. وهذا تأْكيدٌ للأمْرِ بإقامةِ الوجْهِ للدِّينِ في قولِه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠]؛ فإنَّ ذلك لَمَّا فُرِّعَ على قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، وما اتَّصَلَ مِن تَسلسُلِ الحُجَجِ والمواعظِ؛ فُرِّعَ أيضًا نَظيرُه هذا على قولِه: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾[٣] [الروم: ٤٢].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذا الأمْرِ: إعراضٌ عن صَريحِ خِطابِ المشركينَ، والمَقصودُ التَّعريضُ بأنَّهم حَرَموا أنفُسَهم مِن اتِّباعِ هذا الدِّينِ العَظيمِ الذي فيه النَّجاةُ؛ يُؤخَذُ هذا التَّعريضُ مِن أمْرِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالدَّوامِ على الإسلامِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٤، ١١٥).

ومِن قولِه عَقِبَ ذلك: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَصَدَّعُونَ﴾[(١)].

- قولُه: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ يَتعلَّق بـ ﴿يَأْتِيَ﴾؛ والمعنَى: مِن قبْلِ أنْ يأتِيَ مِن اللهِ يومٌ لا يرُدُّه أحدٌ. وقيل: يتعلَّقُ بـ ﴿مَرَدَّ﴾، على معنَى: لا يرُدُّه هو بعْدَ أنْ يَجيءَ به، ولا رَدَّ له مِن جِهَتِه. والوجْهُ الأوَّلُ أبلَغُ؛ لإطلاقِ الرَّدِّ وتَفخيمِ اليومِ، وأنَّ إتْيانَه مِن جِهَةِ عظيمٍ قادرٍ ذي سُلطانٍ قاهرٍ[(٢)].

٤- قولُه تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾

هذه الجُملةُ تَتنزَّلُ مَنزِلةَ البَيانِ لإجمالِ الجُملةِ التي قبْلَها، وهي ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]؛ إذ التَّثبيتُ على الدِّينِ بعدَ ذِكْرِ ما أصاب المُشركينَ مِن الفسادِ بسَببِ شِركِهم يَتضمَّنُ تَحْقيرَ شأْنِهم عندَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ، فبيَّن ذلك بأنَّهم لا يَضُرُّون بكُفْرِهم إلَّا أنفُسَهم، والذي يَكشِفُ هذا المعنى تقْديمُ المُسنَدِ في قولِه: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾؛ فإنَّه يُفيدُ تَخصيصَه بالمُسنَدِ إليه، أي: فكُفْرُه عليه لا عليكَ ولا على المؤمنينَ، ولهذا ابتُدِئَ بذِكْرِ حالِ مَن كفَرَ، ثمَّ ذكَرَ بعْدَه مَن عمِلَ صالحًا[(٣)].

- وهذا التَّركيبُ ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ مِن جوامعِ الكَلِمِ؛ لدَلالتِه على ما لا يُحْصى مِن المَضارِّ في الكفْرِ على الكافرِ، وأنَّه لا يَضُرُّ غيرَه، مع تَمامِ الإيجازِ، وهو وعيدٌ؛ لأنَّه في معنى: مَن كفَرَ فجزاؤُه عِقابُ اللهِ، فاكْتُفِيَ عن التَّصريحِ بذلك؛ اكتفاءً بدَلالةِ (على) مِن قولِه: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾، وبمُقابَلةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٦).

حالِهم بحالِ مَن عمِلَ صالحًا بقولِه: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[1] [الروم: ٤٥].

- وتَقديمُ الظَّرفِ في الموضعينِ ﴿فَعَلَيْهِ﴾ ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ﴾؛ للدَّلالةِ على الاختِصاصِ، أي: أنَّ ضرَرَ الكفْرِ لا يَعودُ إلَّا على الكافرِ لا يتعدَّاهُ. ومَنفعةُ الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ تَرجِعُ إلى المؤمنِ لا تَتجاوَزُه. وقِيل: التَّقديمُ للاهتمامِ، وليس للاختصاصِ[2].

- وأيضًا اقْتَضى حرْفُ الاستعلاءِ (على) في قولِه: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أنَّ في الكفْرِ تَبِعةً وشِدَّةً وضرًّا على الكافرِ؛ لأنَّ (على) تَقْتضي ذلك في مِثْلِ هذا المقامِ، كما اقْتَضى اللَّامُ في قولِه: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أنَّ لِمَجْرورِها نفْعًا وغَنْمًا[3].

- وأفرَدَ ضَميرَ كلمةِ ﴿كُفْرُهُۥ﴾؛ رعْيًا لِلَفْظِ (مَن)[4].

- قولُه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ بَيانٌ لِمَا في جُملةِ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]؛ مِن الأمْرِ بمُلازَمةِ التَّحلِّي بالإسلامِ، وما في ذلك مِن الخيرِ العاجلِ والآجلِ، مع ما تَقْتضيهِ عادةُ القرآنِ مِن تَعقيبِ النِّذارةِ بالبِشارةِ، والتَّرهيبِ بالتَّرغيبِ؛ فهو كالتَّكملةِ للبَيانِ. وإنَّما قُوبِلَ ﴿مَن كَفَرَ﴾ بـ (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)، ولم يُقابَلْ: بـ (مَن آمَنَ)؛ للتَّنويهِ بشأْنِ المؤمنينَ بأنَّهم أهلُ الأعمالِ الصَّالحةِ دونَ الكافرينَ، فاسْتُغْنِيَ بذِكْرِ العملِ الصَّالحِ عن ذِكْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٩٦، ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٦).

الإيمانِ؛ لأنَّه يَتضمَّنُه، ولِتَحريضِ المؤمنينَ على الأعمالِ الصَّالحةِ[١].

- وأظهرَ قَولَه تعالى ﴿صَٰلِحًا﴾، ولم يُضمِرْ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ عَودُ الضَّميرِ على مَن كَفَر، وبشارةً بأنَّ أهلَ الجنَّةِ كَثيرٌ، وإن كانوا قليلًا؛ لأنَّ الله تعالى هو مَولاهم، فهو مُزكِّيهم[٢].

- وقولُه: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ فيه تَقديمُ ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾ على ﴿يَمۡهَدُونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ، مع الاهتمامِ بذِكْرِ أنفُسِ المؤمنينَ؛ لأنَّ قَرينةَ عدَمِ الاختصاصِ واضحةٌ. ورُوعِيَ في جمْعِ ضَميرِ ﴿يَمۡهَدُونَ﴾ معنَى (مَن) دونَ لَفْظِها، مع ما تَقْتَضِيه الفاصلةُ مِن ترْجيحِ تلك المُراعاةِ[٣].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يَمۡهَدُونَ﴾، وهو تَعليلٌ له[٤].

- وعُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾؛ للاهتمامِ بالتَّصريحِ بأنَّهم أصحابُ صِلَةِ الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ، وأنَّ جزاءَ اللهِ إيَّاهم مُناسِبٌ لذلك؛ لِتَقريرِ ذلك في الأذهانِ، مع التَّنويهِ بوَصْفِهم ذلك بتَكريرِه وتَقريرِه، كما أنبَأَ عن ذلك قولُه عَقِبَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ المُقْتضي أنَّه يُحِبُّ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٦، ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٩)، ((حاشية =

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ تقْريرٌ بعدَ تَقريرٍ، على الطَّردِ والعكْسِ؛ فإنَّه تعالى قال أوَّلًا: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾، ثمَّ علَّلَه بقولِه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، وكان مِن حقِّ الظَّاهرِ: (لِيَجْزِيَهم)؛ فوُضِعَ المُظهَرُ مَوضِعَ المُضمَرِ إشعارًا بالعِلِّيَّةِ، وأنَّ الإيمانَ والعمَلَ آذَنَا بأنَّ اللهَ وليُّ صاحبِهما، حيث يَجْزِيه مِن فضْلِه؛ فيكونُ مَفهومُ ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ الموافقُ: أنَّه يُحِبُّ المؤمنَ الصَّالحَ، ومَفهومُه المُخالِفُ: أنَّه لا يُحِبُّ الكافرَ، فقولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بمَنطوقِه مُقرِّرٌ لِمَفهومِ السَّابقِ، وبالعكْسِ[1].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وعيدٌ، ولم يُفصِّلْه، وهذا الإجمالُ فيه كالتَّفصيلِ؛ فإنَّ عدَمَ المَحبَّةِ مِن اللهِ تعالى غايةُ العذابِ. أو لأنَّ عدَمَ مَحبَّتِه تعالى كِنايةٌ عن بُغضِه المُوجِبِ لِغَضَبِه المُستتبِعِ للعُقوبةِ لا مَحالةَ[2].

- والظَّاهرُ أنَّ قولَه تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ الآيةَ، كالموردِ للسُّؤالِ، والخِطابُ لكلِّ أحدٍ مِن المُكلَّفينَ. وقولُه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ الآيةَ، واردٌ على الاستِئنافِ، مُنطَوٍ على الجوابِ؛ فكأنَّه لَمَّا قِيل: أقِيموا على الدِّينِ القيِّمِ قَبْلَ مَجيءِ يَومٍ يَتفرَّقون فيه، فقِيل: ما للمُقيمينَ على الدِّينِ؟ وما على المُنحرِفين عنه؟ وكيفَ يَتفرَّقون؟ فأُجِيبَ: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ الآيةَ. وأمَّا قولُه: ﴿لِيَجۡزِيَ

= الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ الآيةَ؛ فيَنْبغي أنْ يكونَ تَعليلًا للكلِّ؛ لِيَفْصِلَ ما تَرتَّبَ على ما لهمْ وعليهم، ولكنْ يَتعلَّقُ بـ﴿يَمْهَدُونَ﴾ وحْدَه؛ لشِدَّةِ العِنايةِ بشأْنِ الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ وعدَمِ العبْءِ بعمَلِ الكافرِ؛ ولذلك وُضِعَ مَوضعُه ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

- وفي هذه الآيةِ لَطيفةٌ ومُناسَبةٌ حَسَنةٌ، وهي أنَّ اللهَ تعالى عندما أسْنَدَ الكُفْرَ والإيمانَ إلى العبْدِ قدَّمَ الكافرَ، وعنْدَما أسنَدَ الجَزاءَ إلى نفْسِه قدَّمَ المؤمِنَ؛ لأنَّ قولَه: ﴿مَن كَفَرَ﴾ وعيدٌ للمُكلَّفِ؛ لِيَمتنعَ عمَّا يَضُرُّه، فيُنقِذَه مِن الشَّرِّ. وقولُه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ تَحريضٌ له وتَرغيبٌ في الخيرِ؛ لِيُوصِلَه إلى الثَّوابِ، والإيعادُ مُقدَّمٌ، وأمَّا عندَ الجزاءِ ابتدَأَ بالإحسانِ؛ إظهارًا للكرَمِ والرَّحمةِ[2].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٠).

الآيات (٤٦-٥٢)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟
مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ
فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ
فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم
مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ
ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟
مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾
وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْفُلْكُ﴾: أي: السُّفنُ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (الفلك): الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[(١)].

﴿فَتُثِيرُ﴾: أي: فتُنشِئُ، وأصلُ (ثور): يدُلُّ على انبعاثِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾: أي: يَنشُرُه، والبَسطُ: النَّشرُ، وأصلُ (بسط): يَدُلُّ على امتدادِ شَيءٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢١).

﴿كِسَفًا﴾: أي: قِطَعًا، وأصلُ (كسف): يدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[١].

﴿ٱلْوَدْقَ﴾: أي: المطَرَ، وأصلُ (ودق): يدُلُّ على إتيانٍ؛ لأنَّ المطَرَ يَجيءُ مِنَ السَّماءِ[٢].

﴿لَمُبْلِسِينَ﴾: أي: لَيائِسينَ، وأصْلُ (بلس): يدُلُّ على يأسٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا آياتِه الدَّالَّةَ على قدرتِه، ومظاهرِ فضلِه على النَّاسِ ورحمتِه بهم: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وكَمالِ قُدرتِه وغَيرِ ذلك: أن يُرسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ لكم بما فيه نَفعُكم، كنُزولِ المطَرِ، ولِيُصيبَكم ببَعضِ نِعَمِه، ولِتَسيرَ السُّفُنُ في البِحارِ بأمرِه تعالى، ولِتَلتَمِسوا الرِّزقَ بالسَّيرِ في البَحرِ، ولعلَّكم تَشكُرونَ رَبَّكم على هذه النِّعَمِ.

ولقد أرسَلْنا مِن قَبلِك -يا مُحمَّدُ- رُسُلًا إلى قَومِهم، فجاؤُوهم بالآياتِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على صِدقِهم، فأهلَكْنا الَّذين كَفَروا وكذَّبوا، وكان واجِبًا علينا نصرُ المؤمنينَ.

اللهُ وَحْدَه الَّذي يُرسِلُ الرِّياحَ فتُنشِئُ سَحابًا وتُسَيِّرُه، فيَنشُرُه في السَّماءِ كما

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٧)، ((التبيان لابن الهائم)) (ص: ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٤)، ((التبيان لابن الهائم)) (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣، ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

يَشاءُ، ويجعَلُه قِطَعًا، فتَرى المطَرَ يَقطُرُ مِن بَينِ السَّحابِ، فإذا أصاب ذلك المطَرُ مَن يشاءُ اللهُ مِن عبادِه، فَرِحوا به، والحالُ أنَّهم كانوا قبْلَ نُزولِ المطَرِ عليهم يائِسينَ، فانظرْ إلى آثارِ المطَرِ الَّذي يُنزِلُه اللهُ رَحمةً لِعبادِه، كيف يُحيي به اللهُ الأرضَ اليابِسةَ بعدَ جُدوبِها؟!

إنَّ اللهَ الَّذي أحيا الأرضَ الميِّتةَ بالمطَرِ لَمُحيي الموتَى في الآخرةِ بقُدرتِه، وهو على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ولَئِنْ أرسَلْنا ريحًا أفسَدَت زَرْعَهم فرآه أصحابُه قد اصفَرَّ ويَبِسَ بعدَما كان أخضَرَ، لَظَلُّوا مِن بعدِ ذلك يَكفُرون برَبِّهم ويَجحَدونَ نِعَمَه سُبحانه!

ثمَّ يسلِّي الله تعالى نبيَّه عمَّا لَحِقه منهم مِن أذى، فيقولُ: فإنَّك -يا محمَّدُ- لا تُسمِعُ هؤلاء الكُفَّارَ الَّذين ماتت قلوبُهم، ولا تُسمِعُ الكُفَّارَ الَّذين أصَمَّ اللهُ آذانَهم سَماعًا ينتَفِعونَ به، وما أنت بهادي الكُفَّارِ الَّذين أعمى اللهُ قلوبَهم فتَرُدَّهم عن ضَلالتِهم إلى الإيمانِ؛ ما تُسمِعُ -يا محمَّدُ- الحَقَّ سَماعَ انتِفاعٍ به إلَّا الَّذين يُؤمِنونَ بآياتِنا، فهم خاضِعونَ لله، مُنقادونَ لطاعتِه سُبحانَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى ظُهورَ الفَسادِ والهلاكِ بسبَبِ الشِّركِ؛ ذكَرَ ظُهورَ الصَّلاحِ، ولم يذكُرْ أنَّه بسَبَبِ العَمَلِ الصَّالحِ؛ لأنَّ الكريمَ لا يَذكُرُ لإحسانِه عِوَضًا، ويَذكُرُ لأضْدادِه سَببًا؛ لئَلَّا يُتوهَّمَ به الظُّلمُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٧).

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعِلمِه ورَحمتِه، وحِكمتِه وكَمالِ قُدرتِه، وغَيرِ ذلك: أنْ يُرسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ لكم بحُصولِ ما فيه نَفعُكم، مِن نُزولِ المطَرِ أو غَيرِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾[الأعراف: ٥٧].

﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾.

أي: ولِيُصيبَكم ببَعضِ نِعَمِه[2].

﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾.

أي: ولِتَسيرَ السُّفُنُ في البِحارِ عندَ هُبوبِها بأمرِ اللهِ لها، وتقديرِه وتَسخيرِه ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٣، ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (ص: ٦٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٣، ١١٤).

قال البقاعي: (من المياهِ العَذبةِ، والأشجارِ الرَّطبةِ، وصِحَّةِ الأبدانِ، وخِصبِ الزَّمانِ، وما يَتبَعُ ذلك من أمورٍ لا يُحصيها إلَّا خالِقُها، ولا يتصَوَّرُها حَقَّ تصَوُّرِها إلَّا مَن فَقَد الرِّياحَ؛ من وجودِ الرَّوحِ، وزكاءِ الأرضِ، وإزالةِ العُفونةِ مِن الهواءِ، والإعانةِ على تذريةِ الحُبوبِ، وغيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٩).

قال القرطبي: (وإنما زاد ﴿بِأَمْرِهِۦ ﴾؛ لأنَّ الرِّياحَ قد تَهُبُّ ولا تكونُ مؤاتيةً، فلا بُدَّ مِن إرساءِ =

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: ولِتَلتَمِسوا بالسَّيرِ في البَحرِ مِن رِزقِ اللهِ[١].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: ولعلَّكم تَشكُرونَ رَبَّكم على تلك النِّعَمِ الإلهيَّةِ، فتَقومونَ بتَوحيدِه وطاعتِه سُبحانَه[٢].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى البراهينَ، ولم ينتَفِعْ بها الكُفَّارُ؛ سلَّى قَلبَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، وقال: حالُ مَن تقدَّمَك كان كذلك، وجاؤوا أيضًا بالبيِّناتِ، وكان في قَومِهم كافِرٌ ومُؤمِنٌ كما في قَومِك، فانتقَمْنا مِنَ الكافرينَ، ونصَرْنا المؤمِنينَ[٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

أي: ولقدْ أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا محمَّدُ- رُسُلًا إلى قَومِهم الكافِرينَ، فجاؤوهم

= السُّفُنِ والاحتيالِ بحَبسِها، وربمَّا عَصَفت فأغرقَتْها بأمرِه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٤، ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٨).

بالدَّلائِلِ الواضِحاتِ على صِدقِهم[١].

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾.

أي: فأهلَكْنا الَّذين كَفَروا وكَذَّبوا بآياتي ورُسُلي؛ فكذلك نُهلِكُ مَن كَفَر وكَذَّب بالحَقِّ مِن قَومِك يا محمَّدُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۞ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٨].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: ونجَّيْنا المؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه، وكان واجِبًا علينا ذلك؛ فحَقٌّ علينا أيضًا أن ننصُرَك -يا محمَّدُ- والمؤمِنينَ بك[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه الذي يُرسِلُ الرِّياحَ مَرَّةً بعدَ أخرى، فتُحرِّكُ سَحابًا مِن سُكونِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٨، ٥١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: المصادر السابقة.

وتُسَيِّرُه، فيَمُدُّه اللهُ ويَنشُرُه في السَّماءِ على الهيئةِ والصِّفةِ الَّتي يَشاؤُها سُبحانَه بحِكمتِه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ [فاطر: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣].

﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿كِسَفًا﴾ قراءتانِ:

١- قراءةُ ﴿كِسْفًا﴾ قيل: هي اسمٌ مُفردٌ بمعنى: قِطعةٍ واحِدةٍ، وقيل: هي جَمعُ كِسْفةٍ، فتكونُ ﴿كِسْفًا﴾ بمعنى: قِطَعًا، وهي معنى القراءةِ الثانيةِ[٢].

٢- قِراءةُ ﴿كِسَفًا﴾ أي: قِطَعًا، جمعُ كِسْفةٍ، وهي القِطعةُ[٣].

﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٠٨).

(٢) قرأ بها هشامٌ بخُلفٍ عنه، وابن ذكوان، وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٩). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٢٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٠٠، ١٠١)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٥١، ٥٢).

(٣) قرأ بها الباقون، وهو الوجه الثاني لهشام. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٩). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٢٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٠٠، ١٠١)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٥١).

أي: ويجعَلُ اللهُ السَّحابَ قِطَعًا[١].

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾.

أي: فترى المطَرَ يَقطُرُ مِن بينِ السَّحابِ[٢].

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

أي: فإذا أنزل اللهُ المطَرَ على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، تراهم يَفرَحونَ بنُزولِه[٣].

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: والحالُ أنَّهم قَبلَ نُزولِ المطَرِ عليهم كانوا حزينينَ يائِسينَ باحتِباسِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٩).

قال البقاعي: (﴿كِسَفًا﴾ أي: قِطَعًا غيرَ متَّصِلٍ بَعضُها ببعضٍ اتِّصالًا يمنَعُ نزولَ الماءِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١١٩، ١٢٠).

وقال ابن عثيمين: (قال بعضُ المفَسِّرين: معنى كونِه كِسَفًا: أنَّه قِطَعٌ مُتراكِبةٌ بَعضُها فوقَ بعضٍ، حتَّى يَسْوَدَّ ويَدْلَهِمَّ ويحصُلَ فيه الرَّعدُ والبَرقُ، وهذا أَولى، وهو في الغالِبِ أكثَرُ مَطرًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٠٨).

قال ابنُ كثير: (﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قال مجاهدٌ، وأبو عمرِو بنُ العلاءِ، ومطرٌ الورَّاقُ، وقَتادةُ: يعني قِطَعًا. وقال غيره: مُتراكِمًا، قاله الضَّحَّاكُ. وقال غيره: أسوَدُ مِن كثرةِ الماءِ، تراه مُدْلَهِمًّا ثقيلًا قريبًا مِن الأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٠٩).

قال ابن عاشور: (الخِطابُ في ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ خِطابٌ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ، وهو كُلُّ مَن يتأتَّى منه سماعُ هذا، وتتأتَّى منه رؤيةُ الوَدْقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢).

عنهم[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣١١).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ يعودُ إلى المطرِ. ومِمَّن قال بذلك: ابن جرير، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٧).

وقيل: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ تكريرٌ معناه التَّأكيدُ. وممن اختاره الأخفشُ، والشوكاني، ونسَبه النَّحاسُ إلى أكثَر النَّحْويِّينَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٦)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ٢٦٨).

قال الشوكاني بعدَ أنْ رجَّح هذا الوجهَ: (ما بعدَه مِن هذه الوجوهِ كُلِّها ففي غايةِ التَّكلُّفِ والتَّعسُّفِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٦).

وقيل: الضَّميرُ عائِدٌ إلى استبشارِهم. ومِمَّن قال بهذا المعنى: البقاعي، وأبو السعود، واستحسَنه ابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣١٣).

وقيل: الضميرُ يعود إلى القَبْلِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم﴾، فهُم مِن قَبلِ هذا القَبلِ مُبلِسونَ؛ إشارةً إلى أنَّ الإبلاسَ مُستَمِرٌّ معهم مِن قديمِ الزمان. ذكر هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣١٣).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ﴾ فهي مِن أشكَلِ ما أُورِدَ، وممَّا أعضَلَ على النَّاسِ فَهمُها... وأمَّا قَولُه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ فليس مِن التَّكرارِ، بل تحتَه معنًى دقيقٌ، والمعنى فيه: وإن كانوا من قَبلِ أن يُنَزَّلَ عليهم الوَدْقُ مِن قَبلِ هذا النُّزولِ لَمُبلِسينَ؛ فهنا قبليَّتان: قبليَّةٌ لِنُزولِه مُطلقًا، وقبليَّةٌ لذلك النُّزولِ المعَيَّنِ ألَّا يكونَ متقَدِّمًا على ذلك الوَقتِ؛ فيَئِسوا قبلَ نُزولِه يأسَينِ: يأسًا لِعَدمِه مَرئيًّا، ويأسًا لتأخُّرِه عن وَقتِه؛ فـ «قَبلُ» الأولى: ظرفُ اليأسِ، و«قبلُ» الثَّانيةُ: ظرفُ المجيءِ والإنزالِ؛ ففي الآيةِ ظَرفانِ مَعمولانِ وفِعلانِ مُختَلِفانِ عاملانِ فيهما، وهما الإنزالُ والإبلاسُ، فأحدُ الظَّرفَينِ متعَلِّقٌ بالإبلاسِ، والثَّاني متعَلِّقٌ بالنُّزولِ؛ وتمثيلُ هذا: أن تقولَ إذا كنتَ مُعتادًا للعطاءِ مِن شَخصٍ فتأخَّرَ عن ذلك الوَقتِ ثمَّ أتاك به: قد كنتُ آيِسًا). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٧٧-٢٧٩).

ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٣).

﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه رَتَّب على ما تقرَّر مِن استِحضارِ صورةِ تكوينِ أسبابِ المطَرِ، واستِبشارِ النَّاسِ بنُزولِه بعدَ الإبلاسِ: أنِ اعترَضَ بذِكرِ الأمرِ بالنَّظَرِ إلى أثَرِ الرَّحمةِ، وإغاثةِ اللهِ عِبادَه حينَ يُحيي لهم الأرضَ بعدَ مَوتِها بالجَفافِ[1].

﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ ﴾.

أي: فانظُرْ إلى آثارِ المطَرِ الَّذي رَحِمَ اللهُ به عِبادَه: كيف يُحيي به اللهُ الأرضَ اليابِسةَ، فيُنبِتُها بعدَ قُحوطِها وجُدوبِها[2]؟

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ [الحج: ٥].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ الَّذي أحيا الأرضَ المَيتةَ بالمطَرِ، لَمُحْيي الموتى في الآخِرةِ بقُدرتِه[3].

كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۞ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۞ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ [ق: ٩ - ١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٣).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ، لا يُعجِزُه شَيءٌ سُبحانَه، ومِن ذلك: بعْثُ عِبادِه بعدَ مَوتِهم[١].

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّهم عندَ توقُّفِ الخيرِ يكونونَ مُبلِسينَ آيِسينَ، وعندَ ظُهورِه يكونونَ مُستَبشِرينَ؛ بيَّنَ أنَّ تلك الحالةَ أيضًا لا يَدومونَ عليها، فهم مُتقَلِّبونَ غيرُ ثابتينَ؛ لِنَظَرِهم إلى الحالِ لا إلى المآلِ[٢].

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

أي: ولَئِنْ أرسَلْنا ريحًا مُفسِدةً للزَّرعِ، فرأى أصحابُ الزَّرعِ زَرعَهم قد فَسَد بالرِّيحِ فاصفَرَّ ويَبِسَ؛ لَظَلُّوا مِن بعدِ هذه الحالِ[٣] يَكفُرونَ برَبِّهم، فيَيئَسونَ مِن رَحمتِه، ويَجحَدونَ نِعَمَه سُبحانَه[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٩).

(٣) قيل: المرادُ: مِن بعدِ اصفِرارِ زَرعِهم بالرِّيحِ. ومِمَّن قال بذلك: السمرقندي، وابن الجوزي، والبقاعي والعليمي والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٠).

وقيل: المرادُ: مِن بعدِ استبشارِهم وفرحتِهم بزَرعِهم الأخضرِ قبلَ اصفرارِه. ومِمَّن قال بذلك: ابن جرير، ومكي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي =

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٧].

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا عَلَّمَ رَسولَه أنواعَ الأدِلَّةِ وأصنافَ الأمثلةِ، ووعَدَ وأوعَدَ، ولم يَزِدْهم دعاؤُه إلَّا فِرارًا، وإنباؤُه إلَّا كُفرًا وإصرارًا؛ قال له[1]:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أي: فإنَّك -يا محمَّدُ- لا تَستطيعُ أن تُسمِعَ هؤلاء الكُفَّارَ الَّذين ماتت قُلوبُهم سَماعًا ينتَفِعونَ به، إنْ لم يُرِدِ اللهُ أن يَهديَهم[2].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

= (١٥/ ١٢٣-١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٥).

وقيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ يعودُ إلى الرِّيحِ. ومِمَّن قال بذلك: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٥).

قال القرطبي: (الريحُ يجوزُ تذكيرُه. قال محمَّدُ بنُ يزيدَ: لا يمتَنعُ تذكيرُ كُلِّ مُؤنَّثٍ غيرِ حقيقيٍّ، نحو: أعجبَني الدَّارُ، وشِبهُه. وقيل: فرأوا السَّحابَ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: الزَّرعَ، وهو الأثَرُ، والمعنى: فرَأَوُا الأثَرَ مُصفَرًّا، واصفِرارُ الزَّرعِ بعدَ اخضِرارِه يدُلُّ على يُبسِه، وكذا السَّحابُ يدُلُّ على أنَّه لا يُمطِرُ، والرِّيحُ على أنَّها لا تُلقِحُ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٥). ويُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٤، ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٢٨-٣٣٠).

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿يَسْمَعُ﴾ بفَتحِ الياءِ والميم، و﴿الصُّمُّ﴾ بالرَّفعِ فاعِلًا للفِعلِ، أي: لا يَنقادون للحَقِّ كما لا يُجيبُ الأصَمُّ النِّداءَ الموَجَّهَ إليه[١].

٢- قراءةُ ﴿تُسْمِعُ﴾ بالتَّاءِ المضمومةِ وكَسرِ الميم، و﴿ٱلصُّمَّ﴾ بالنَّصبِ مَفعولًا به، والخِطابُ لِرَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، أي: إنَّك لا تَقدِرُ أن تُسمِعَ دُعاءَك الصُّمَّ المعرِضينَ عنك[٢].

﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾.

أي: ولا تَقدِرُ -يا مُحمَّدُ- أن تُسمِعَ الحَقَّ الكُفَّارَ الَّذين أصَمَّ اللهُ آذانَهم سَماعًا ينتَفِعونَ به، إذا أعرَضوا عن سَماعِ الحَقِّ وتدَبُّرِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءًۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

---

(١) قرأ بها ابن كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٤٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٦)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١١٠، ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٨).

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بدأ بفاقِدِ حاسَّةِ السَّمعِ؛ لأنَّها أنفَعُ مِن حيثُ إنَّ الإنسانَ إنَّما يفارِقُ غيرَه مِن البهائِمِ بالكلامِ، أتْبَعَها حاسَّةَ البصَرِ[1].

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾.

أي: وما أنت -يا مُحمَّدُ- بهادِي الكُفَّارِ الَّذين أعمى اللهُ بصائِرَهم وقُلوبَهم عن الحَقِّ؛ فتَصرِفَهم عن ضَلالِهم وكُفرِهم، وتَرُدَّهم إلى الإيمانِ[2].

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

أي: ما تُسمِعُ -يا مُحمَّدُ- الحَقَّ سَماعَ انتِفاعٍ به إلَّا الَّذين يُؤمِنونَ بآياتِنا، فهم مُتذَلِّلونَ وخاضِعونَ لله، مُنقادونَ لطاعتِه سُبحانَه[3].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٤).

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: هؤلاءِ الَّذين ينفَعُ فيهم إسماعُ الهُدى: المؤمِنونَ بآياتِنا بقُلوبِهم، المُنقادونَ لأوامِرِنا، المُسلِمونَ لنا؛ لأنَّ معهم الدَّاعيَ القَويَّ لِقَبولِ النَّصائِحِ والمواعِظِ، وهو استِعدادُهم للإيمانِ بكُلِّ آيةٍ مِن آياتِ اللهِ، واستِعدادُهم لِتَنفيذِ ما يَقدِرونَ عليه مِن أوامِرِ اللهِ ونواهيه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾، فجمَع الرِّياحَ هنا؛ إشارةً إلى باهِرِ القُدرةِ؛ فإنَّ تحويلَ الرِّيحِ الواحدةِ مِن جهةٍ إلى أخرى أمرٌ عظيمٌ، لا قُدرةَ لغيرِه عليه في الفضاءِ الواسِعِ، وكذا إسكانُه، فكيف إذا كانت رياحٌ مُعاكِسةٌ؟ ففي إثارتِها كذلك ثمَّ إسكانِها مِن باهِرِ القُدرةِ ما لا يَعلَمُه إلَّا أُولو البصائِرِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إثباتُ العِلَلِ والحِكَمِ في أفعالِ اللهِ تعالى؛ لِقَولِه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ لأنَّها للتعليلِ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا﴾ تنبيهًا على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خاتَمُ النَّبيِّينَ، بتَخصيصِ إرسالِ غَيرِه بما قبْلَ زَمانِه[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أنَّ الرِّسالاتِ السَّابقةَ خاصَّةٌ، ويُبيِّنُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٧٤).

الحديثُ الثَّابتُ في الصَّحيحَينِ: ((وكان النَّبيُّ يُبعثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عامَّةً[١]))[٢].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جعَلَ عزَّ وجَلَّ على نفْسِه حقًّا لِعبادِه المؤمنينَ، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وفي الصَّحيحَينِ: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال لِمُعاذِ بنِ جبَلٍ وهو رَديفُه: يا مُعاذُ، أتَدْري ما حقُّ الله على عِبادِه؟ قُلْتُ: الله ورسولُه أعلَمُ، قال: حقُّه عليهم أن يَعبُدوه، ولا يُشرِكوا به شيئًا. أتَدري ما حقُّ العِبادِ على الله إذا فعَلوا ذلك؟ قلتُ: الله ورسولُه أعلَمُ. قال: حقُّهم عليه ألَّا يُعَذِّبَهم))[٣]. فهذا حقٌّ وجَبَ بكَلِماتِه التَّامَّةِ، ووعْدِه الصَّادِقِ، وقد اتَّفَقَ العلماءُ على وُجوبِ ما يجِبُ بوَعْدِه الصَّادِقِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ قال: ﴿يُرْسِلُ﴾ ﴿فَتُثِيرُ﴾ فأضاف الإثارةَ إلى السَّحابِ؛ لأنَّها سَبَبُ هذه الإثارةِ، فتُثيرُ سَحابًا فيَبسُطُه في السَّماءِ كيف يشاءُ؛ فلا بأسَ بإضافةِ الشَّيءِ إلى سَبَبِه مع اعتِقادِ أنَّه سَبَبٌ محضٌ، وأنَّ خالِقَ السَّبَبِ هو اللهُ عزَّ وجَلَّ[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أنَّ السَّماءَ تُطلَقُ على كُلِّ ما علا؛ فإنَّ السَّحابَ لا يُبسَطُ في السَّماءِ التي هي السَّقفُ المحفوظُ، وإنَّما

---

(١) أخرجه مطولًا البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١) من حديث جابرِ بنِ عبدِ الله رَضيَ الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٥٦، ٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٠٩، ٣١٠).

(٥) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ١٢٣).

يُبسَطُ في الجوِّ العالي[١].

٨- في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴾ دليلٌ على جواز التَّأكيدِ في القرآن وزيادةِ البيان -على القولِ بأنَّ ﴿مِن قَبۡلِ﴾ للتأكيدِ-، وهو رَدٌّ على مَن قال: «ليس ذلك في القرآن»[٢]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الجَمادَ يُوصَفُ بالحياةِ والموتِ؛ ففيه رَدٌّ على الفلاسِفةِ الَّذين يقولونَ: «إنَّ الجَمادَ لا يمكِنُ أن يُوصَفُ بالحياةِ والموتِ؛ لأنَّه غيرُ قابلٍ لها»، فنقولُ: إنَّ اللهَ وَصَفَ الجمادَ بأنَّه حَيٌّ ومَيِّتٌ كما في هذه الآيةِ، وكما في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ ﴾[النحل: ٢٠، ٢١] مع أنَّها أصنامٌ مِن الأحجارِ والأشجارِ وما أشبَهَها[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ ﴾ بيانُ أنَّ مُجَرَّدَ دُعائِك وتبليغِك وحِرصِك على هُدى النَّاسِ: ليس بموجِبٍ ذلك، وإنَّما يَحصُلُ ذلك إذا شاء اللهُ هُداهم فشَرَح صدورَهم للإسلامِ، كما قال تعالى: ﴿ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ﴾[٤] [النحل: ٣٧].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ لَمَّا نفى إسماعَ الميِّتِ والأصَمِّ، وأثبت إسماعَ المؤمِنِ بآياتِه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣١٥).
(٢) يُنظر: ((النُّكَت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣٢٥).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٩١).

لزِمَ أن يكونَ المؤمِنُ حَيًّا سَميعًا، وهو كذلك؛ لأنَّ المؤمِنَ تَرِدُ على قَلبِه أمطارُ البراهينِ، فتَنبُتُ في قَلبِه العقائِدُ الحَقَّةُ، ويَسمَعُ زواجِرَ الوَعظِ، فتَظهَرُ منه الأفعالُ الحَسَنةُ(١).

١٢- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ سُمُّوا عُمْيًا؛ إمَّا لعَمَى قُلوبِهم، أو لِفَقْدِهم المقصودَ الحَقيقيَّ مِن الإبصارِ(٢). فإنَّه يُقالُ لكلِّ صحيحِ البصَرِ ولا يُعمِلُ بصَرَه: أعمى، وإنَّما يُرادُ به: أنَّه قد حلَّ محلَّ مَن لا يُبصِرُ الْبَتَّةَ، إذا لم يُعمِلْ بصَرَه، وكذلك يُقالُ للسَّميعِ الَّذي لا يَقْبَلُ: أصَمُّ، قال الله جلَّ ذِكرُه: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: ١٨]، كما قال جل ثناؤه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وكذلك: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، وقوله عز وجل: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗ﴾(٣) [البقرة: ١٧١].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أشار بالإفرادِ في الشَّرطِ إلى أنَّ لَفتَ الواحِدِ عن رأيِه أقرَبُ مِن لَفتِه وهو مع غيرِه، وأشار بالجَمعِ في الجزاءِ إلى أنَّ هذه الطَّريقةَ إن سُلِكَت كثُرَ التَّابعُ، فقال: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ عَوْدٌ إلى تَعدادِ الآياتِ الدَّالَّةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((الكامل في اللغة والأدب)) للمبرد (٢/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٧).

تفرُّدِه بالإلهيَّةِ؛ فهو عَطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، وما تَخلَّلَ بيْنَهما مِن أفانينِ الاستِدلالِ على الوَحدانيَّةِ والبعثِ ومِن طرائقِ الموعظةِ، كان لِتَطْريةِ نَشاطِ السَّامعينَ لهذه الدَّلائلِ المُوضِّحةِ المُبيِّنةِ[١].

- قولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ ليس تَبشيرُها مُقتَصرًا به على المطَرِ، بلْ لها تبْشيراتٌ بسبَبِ السُّفنِ والسَّيرِ بها إلى مَقاصدِ أهْلِها؛ وكأنَّه بدَأَ أوَّلًا بشَيءٍ عامٍّ، وهو التَّبشيرُ، ثمَّ ذكَرَ مِن أعظَمِ تَباشيرِها إذاقةَ الرَّحمةِ، وهي نُزولُ المطَرِ، ويَتبَعُه حُصولُ الخِصْبِ، والرِّيحِ الذي معه الهُبوبُ، وإزالةِ العُفونةِ مِن الهواءِ، وتَذْريةِ الحُبوبِ، وغيرِ ذلك[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾، وقال في سُورةِ (الجاثيةِ): ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٢]، فزادَ: ﴿فِيهِ﴾ في سُورةِ (الجاثيةِ)، وترَكَها في سُورةِ (الرُّومِ)؛ وذلك لأنَّ الهاءَ في قولِه: ﴿فِيهِ﴾ عائدةٌ إلى البحرِ، وقد ذُكِرَ في سُورةِ (الجاثيةِ)، فعاد إليه الضَّميرُ، وهو قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الجاثية:١٢]، ولم يَتقدَّمْ للبحرِ ذِكْرٌ في الآيةِ التي ذكَرَ فيها جَرْيَ الفُلكِ في سُورةِ (الرُّومِ)، وإنَّما نبَّهَ على النِّعمةِ بالرِّياحِ وإظهارِ آياتِه فيها، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم:٤٦]، أي: باجتِلابِ السَّحابِ واعتِصارِه للأمطارِ، وهو الذي يُذيقُنا مِن رَحمتِه، مع ما تُلقِّحُ منه الأشجارُ في وقْتِه، وقال: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٨).

بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: بالرِّياحِ إذا أذِنَ اللهُ تعالى[١].

- قولُه: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ التَّقييدُ بقولِه: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ تَعليمٌ للمؤمنينَ وتَحقيقٌ للمِنَّةِ، أي: لولا تَقديرُ اللهِ ذلك وجعْلُه أسبابَ حُصولِه؛ لَمَا جَرَتِ الفُلْكُ، وتحتَ هذا مَعانٍ كثيرةٌ يَجمَعُها إلهامُ اللهِ البشرَ لِصُنْعِ الفُلْكِ، وتَهذيبِ أسبابِ سَيْرِها. وخلَقَ نِظامَ الرِّيحِ والبحرِ؛ لِتَسخيرِ سَيرِها، كما دلَّ على ذلك قولُه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

- وإنَّما زاد ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾؛ لأنَّ الرِّيحَ قد تهُبُّ ولا تكونُ مُوافِقةً، فلا بُدَّ مِن إرساءِ السُّفنِ، والاحتيالِ لِحبْسِها، وربَّما عصَفَت فأغْرَقَتْها[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لعلَّ توسيطَ هذه الآيةِ الكريمةِ بطَريقِ الاعتراضِ بيْنَ ما سبَقَ وما لَحِقَ مِن أحوالِ الرِّياحِ وأحكامِها؛ لإنذارِ الكَفَرةِ وتَحْذيرِهم عن الإخلالِ بمَواجبِ الشُّكرِ المطلوبِ بقولِه تعالى: (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، بمُقابَلةِ النِّعمِ المَعدودةِ المَنُوطةِ بإرسالِها؛ كيْلَا يحُلَّ بهم مِثْلُ ما حَلَّ بأولئك الأُمَمِ مِن الانتقامِ[٤]. فجاءتْ هذه الآيةُ تأْنيسًا للرَّسولِ وتَسليةً، ووعْدًا بالنَّصرِ، ووَعيدًا لأهْلِ الكُفْرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٥٤، ١٠٥٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٠١)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٨).

- وفي قولِه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ [الروم: ٤٧]، وقولِه السابقِ في هذه السُّورةِ: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: ٩]: إنْ قِيل: لِمَ لمْ يَرِدْ ذِكْرُ أخْذِهم بالانتقامِ منهم لَمَّا أجْرَموا مُتَّصِلًا بالتَّذكيرِ بالاعتبارِ بهم، وكان يَحصُلُ ذلك كلُّه في كلامٍ مُتَّصلٍ بعضُه ببَعضٍ؟ ولِمَ وقَعَ ذِكْرُ أخْذِهم بالانتقامِ منهم لمَّا كذَّبوا مُتأخِّرًا عن الواردِ مِن حالِهم أوَّلًا التي أُمِرَ هؤلاء ونُهُوا عن الاعتبارِ بها؟

فالجوابُ: جَرى ذلك على المُعتادِ منه سُبحانه في دُعاءِ الخلْقِ إلى الإيمانِ مِن التَّلطُّفِ والرِّفقِ في الدُّعاءِ، وهذا في القرآنِ كثيرٌ، فلمَّا أُمِرَ هؤلاء وذُكِّروا بالاعتبارِ بمَن تقدَّمَ مِن القُرونِ، ولم يَتقدَّمْ قبْلَ الآيةِ إلَّا التَّلطُّفُ والتَّأنيسُ؛ لم يكُنْ لِيُناسِبَ ذلك مِن أخْذِ المُكذِّبين إلَّا ما يكونُ إيماءً وإشارةً لا إفصاحًا؛ فلذلك اكْتَفى أوَّلًا مِن الإشارةِ إلى أخْذِهم بقولِه سُبحانه: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ [الروم: ٩]، وترَكَ الإفصاحَ بالانتقامِ إلى أنْ ورَدَ إخبارًا منه سُبحانَه لِنَبيِّه -عليه السَّلامُ- في غيرِ مَعرضِ الدُّعاءِ إلى الإيمانِ، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ [الروم: ٤٧]، وحصَلَ التَّعريفُ بغايةِ حالِ المَذْكورين قبْلُ في تَكذيبِهم؛ فهذا مُوجِبُ تَفريقِ هذا الإخبارِ[(١)].

- وقد اختصَرَ طريقَ الإفصاحِ عن غرَضِ الوعْدِ بالنَّصرِ والوعيدِ له؛ فأدرَجَ تحتَ ذِكْرِ النَّصرِ معنى الانتِصارِ، وأدْرَجَ ذِكْرَ الفريقينِ: فريقِ المُصدِّقين

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٩٥).

المَوعودِ، وفريقِ المُكذِّبين المُتوعَّدِ، وقد أُخلِيَ الكلامُ أوَّلًا عن ذِكْرِهما. وفي هذا تَبشيرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ بالنَّصرِ في العاقبةِ على المُكذِّبين، وأكَّدَ ذلك بقولِه: ﴿حَقًّا﴾[1].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ فَصيحةٌ، أي: فكذَّبُوهم فانْتَقمْنا منهم، وإنَّما وُضِعَ ضَميرُهم الموصولُ؛ للتَّنبيهِ على مكانِ المَحذوفِ، والإشعارِ بكَونِه عِلَّةً للانتقامِ[2].

- قولُه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في لفْظِ ﴿حَقًّا﴾ مُبالَغةٌ في التَّحتُّمِ، وتعْظيمٌ للمؤمنينَ، ورفْعٌ مِن شأْنِهم، وتأْهيلٌ لكَرامةٍ سَنيَّةٍ، وإظهارٌ لفضْلِ سابقةٍ ومَزيَّةٍ؛ حيث جعَلَهم مُستَحقِّينَ على اللهِ أنْ يَنصُرَهم، مُستوجِبينَ عليه أنْ يُظهِرَهم ويُظفِرَهم[3].

- والظَّاهرُ أنَّ ﴿حَقًّا﴾ خبَرُ (كان)، و﴿نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الاسمُ، وأُخِّرَ لكونِ ما تعلَّقَ به فاصلةً؛ للاهتمامِ بالجزاءِ؛ إذ هو مَحطُّ الفائدةِ[4].

- ومَوقعُ قولِه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مَوقعُ التَّوكيدِ والتَّذييلِ والتَّعليلِ مِن قولِه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾؛ لأنَّ المعنى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، فكذَّبوهم واسْتَهزؤوا بهم وقَصَدوا الفتْكَ بهم، ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ منهم ونصَرْنا المؤمنينَ، وقد جرَتْ سُنَّةُ اللهِ بالانتقامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٨).

والنَّصرِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ ما أُجْمِلَ فيما سبَقَ مِن أحوالِ الرِّياحِ[٢].

- وقد جاءتِ المُناسَبةُ هنا لذِكْرِ الاستِدلالِ بإرسالِ الرِّياحِ في قولِه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ [الروم: ٤٦]؛ استِدلالًا على التَّفرُّدِ بالتَّصرُّفِ، وتَصويرِ الصُّنْعِ الحكيمِ الدَّالِّ على سَعةِ العِلْمِ، ثمَّ أعقَبَ بالاستدلالِ بإرسالِ الرِّياحِ؛ توسُّلًا إلى ذِكْرِ إحياءِ الأرضِ بعدَ مَوتِها المُستدَلِّ به على البَعثِ؛ فقد أفادَتْ صِيغَةُ الحصْرِ بقولِه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ أنَّه هو المُتصرِّفُ في هذا الشَّأنِ العَجيبِ دونَ غيرِه، وكَفى بهذا إبطالًا لإلَهيَّةِ الأصنامِ؛ لأنَّها لا تَستطيعُ مِثْلَ هذا الصُّنعِ الذي هو أقرَبُ التَّصرُّفاتِ في شُؤونِ نفْعِ البشَرِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ جمَعَ الرِّياحَ؛ لِمَا شاع في استعمالِهم مِن إطلاقِها بصِيغَةِ الجمْعِ على رِيحِ البِشارةِ بالمطَرِ؛ لأنَّ الرِّياحَ التي تُثيرُ السِّحابَ هي الرِّياحُ المُختلفةُ جهاتُ هُبوبِها بين: جَنوبٍ، وشِمالٍ، وصَبًا ودَبورٍ، بخلافِ اسمِ الرِّيحِ المُفرَدةِ؛ فإنَّه غلَبَ في الاستعمالِ إطلاقُه على رِيحِ القوَّةِ والشِّدَّةِ؛ لأنَّها تتَّصِلُ واردةً مِن صَوبٍ واحدٍ، فلا تَزالُ تَشتَدُّ[٤].

- والتَّعبيرُ بصِيغَةِ المُضارعِ في ﴿يُرْسِلُ﴾ و﴿فَتُثِيرُ﴾ و﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٢١).

﴿وَيَجْعَلُهُۥ﴾؛ لاستحضارِ الصُّورِ العجيبةِ في تلك التَّصرُّفاتِ، حتَّى كأنَّ السَّامعَ يُشاهِدُ تَكوينَها، مع الدَّلالةِ على تَجدُّدِ ذلك[١].

- وذِكْرُ اختلافِ أحوالِ العِبادِ في وقْتِ نُزولِ المطَرِ، وفي وقْتِ انحباسِه بيْن استبشارٍ وإبلاسٍ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: إدْماجٌ[٢] للتَّذكيرِ برَحمةِ اللهِ إيَّاهم، وللاعتبارِ باختلافِ تأثُّراتِ نُفوسِهم في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى عظيمِ تَصرُّفِ اللهِ في خِلْقةِ الإنسانِ؛ إذ جعَلَهُ قابلًا لاختلافِ الانفعالِ مع اتِّحادِ العقْلِ والقلْبِ، كما جعَلَ السَّحابَ مُختلفَ الانفعالِ مِن بسْطٍ وتقطُّعٍ مع اتِّحادِ الفِعلِ، وهو خُروجُ الودْقِ مِن خِلالِه[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾

- قولُه: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ مِن بابِ التَّكريرِ والتَّوكيدِ وتَقريرِه في نُفوسِ السَّامعينَ -على قولٍ-؛ وهذا التَّأكيدُ قِيل: إنَّه قد أفادَ الإعلامَ بسُرعةِ تقلُّبِ قُلوبِ البشَرِ مِن الإبلاسِ إلى الاستبشارِ؛ فإعادةُ قولِه: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ زيادةُ تَنْبيهٍ على الحالةِ التي كانت مِن قبْلِ نُزولِ المطَرِ. وقِيل: فيه الدَّلالةُ على أنَّ عَهْدَهم بالمطَرِ قد تطاوَلَ، فاسْتَحْكَم إبلاسُهم، فكان الاستبشارُ على قدْرِ اغتمامِهم؛ ففائدةُ إعادةِ ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أنَّ مدَّةَ ما قبْلَ نُزولِ المطَرِ مُدَّةٌ طويلةٌ، فأُشيرَ إلى قوَّتِها بالتَّوكيدِ[٤]. .....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٠، ١٢١).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) =

وقيل: ليس مِن التكرار[١].

- وأخَّرَ الإبلاسَ عن الاستبشارِ، وأبْرَزَه في صُورةِ الشَّرطيَّةِ؛ إرادةً للمُبالَغةِ، وتثْنيةً للتَّقريعِ؛ إذ لو أُريدَ الظَّاهرُ لَقيلَ: فإذا أصابَ به القانطينَ فَعَلوا كذا، كقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: ٢٨]، ولذلك قطَعَ ما هو مُتَّصِلٌ بأصلِ الكلامِ مِن قولِه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾، وعلَّقَ به نوعًا آخرَ مِن التَّوبيخِ؛ إشعارًا بتَعديدِ النِّعَمِ، وتَكريرِ تَلقِّيهم إيَّاها بالكُفْرانِ؛ ألَا ترَى كيف عقَّبَ ذلك بقولِه: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: ٥٢] الآيةَ[٢]؟

٥- قَولُه تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على سُرعةِ ترتُّبِ النِّعَمِ المُترتِّبةِ على تَنزيلِ المَطرِ؛ مِن النَّباتِ، والأشجارِ، وأنواعِ الثِّمارِ[٣].

- والمُرادُ بالأمْرِ بالنَّظرِ التَّنبيهُ على عِظَمِ قُدرتِه تعالى وسَعَةِ رَحمتِه، مع ما فيه مِن التَّمهيدِ لِمَا يَعقُبُه مِنْ أمْرِ البعثِ[٤].

- وفي قوله: ﴿فَٱنظُرْ﴾ جاء الخِطابُ بالنَّظرِ لغَيرِ مُعيَّنٍ؛ ليَعُمَّ كلَّ مَن يتأتَّى

= (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٢، ١٢٣).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٧٨). وقد تقدَّم ذكرُ توجيهِه لذلك تحتَ تفسيرِ الآيةِ.

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦٥).

منه النَّظرُ[١].

- قولُه: ﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ ﴿يُحْيِ﴾ حِكايةُ حالٍ ماضيةٍ؛ بدَليلِ قولِه: ﴿فَٱنظُرْ﴾؛ لأنَّ الأمْرَ بالنَّظرِ مَسبوقٌ بوُجودِ المَنظورِ إليه، وإنَّما عُدِلَ إلى المُضارعِ؛ لإحضارِ تِلك الحالةِ العجيبةِ الشَّأْنِ في مُشاهَدةِ السَّامعِ، وهي اخضرارُ الأرضِ بآثارِ رَحمةِ اللهِ بعدَ جَفافِها[٢].

- وعبَّرَ عن الجَفافِ بالموتِ؛ لأنَّ قِوامَ الحياةِ الرُّطوبةُ، وعُبِّرَ عن ضِدِّه بالإحياءِ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ استِئنافٌ، وهو إدْماجٌ؛ أدْمَجَ دليلَ البعثِ عقِبَ الاعتبارِ بإحياءِ الأرضِ بعدَ مَوتِها. وحرْفُ التَّوكيدِ يُفِيدُ مع تَقريرِ الخبرِ زِيادةَ معنَى فاءِ التَّسبُّبِ[٤].

- واسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائدٌ إلى اسمِ اللهِ تعالى بما أُجْرِيَ عليه مِن الإخبارِ بإحياءِ الأرضِ بعدَ مَوتِها؛ لِيُفِيدَ اسمُ الإشارةِ معنَى أنَّه جديرٌ بما يَرِدُ بعْدَه مِن الخبَرِ عن المُشارِ إليه، وعُدِلَ عن الموصولِ إلى الإشارةِ؛ للإيجازِ، ولِمَا في الإشارةِ مِن التَّعظيمِ[٥].

- قولُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لَمَّا كان وعْدُ اللهِ مَقطوعَ الحُصولِ، جِيءَ في التَّنزيلِ ﴿لَمُحْيِ﴾ اسمًا مع اللَّامِ خبرًا لـ (إنَّ)، واسْمُه اسمُ الإشارةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٢٣، ١٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٢٤).

وذُيِّلَت بقولِه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

- وقولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تَذْييلٌ؛ فإنَّه يعُمُّ جميعَ الأشياءِ، والبعثُ مِن جُملتِها؛ إذ ليس هو إلَّا إيجادَ خَلْقٍ، وهو مَقدورٌ للهِ تعالى، كما أنشَأَ الخلْقَ أوَّلَ مرَّةٍ، والشَّبَهُ تامٌّ؛ لأنَّ إحياءَ الأرضِ إيجادُ أمثالِ ما كان عليها مِن النَّباتِ، فكذلك إحياءُ الموتَى إيجادُ أمثالِهم[٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ سِيقَت هذه الجُملةُ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الكُفرانَ مَطْبوعٌ في نُفوسِهم، بحيث يُعاوِدُهم بأدْنى سبَبٍ؛ فهمْ إذا أصابَتْهم النِّعمةُ اسْتَبْشروا ولم يَشكُروا، وإذا أصابَتْهم البأْساءُ أسْرَعوا إلى الكُفرانِ؛ فصوَّرَ لِكُفْرِهم أعجَبَ صُورةٍ؛ وهي إظهارُهم إيَّاهُ بحِدْثانِ ما كانوا مُسْتبشرينَ منه؛ إذ يكونُ الزَّرعُ أخضَرَ، والأملُ في الارتزاقِ منه قريبًا، فيُصِيبُه إعصارٌ، فيَحترِقُ، فيَضِجُّون مِن ذلك، وتكونُ حالُهم حالةَ مَن يَكفُرُ باللهِ، وتَجْري على أقوالِهم عباراتُ السَّخَطِ والقُنوطِ[٣]؛ فهذه الآيةُ ناعيةٌ على الكفَّارِ بقِلَّةِ تَثَبُّتِهم وعدَمِ تَدبُّرِهم، وسُرعةِ تَزَلْزُلِهم؛ لِعدَمِ تفكُّرِهم وسُوءِ رأْيِهم؛ فإنَّ النَّظرَ السَّويَّ يَقْتضي أنْ يَتوكَّلوا على اللهِ، ويَلْتجِئوا إليه بالاستغفارِ إذا احتَبَسَ القَطْرُ عنهم، ولا يَيْئَسوا مِن رَحمتِه، وأنْ يُبادِروا إلى الشُّكرِ والاستدامةِ بالطَّاعةِ إذا أصابَهم برَحمتِه، ولم يُفرِطُوا في الاستبشارِ، وأنْ يَصبِروا على بلائِه إذا ضرَبَ زُروعَهم بالاصفِرارِ، ولا يَكْفُروا نِعَمَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٤، ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٥، ٤٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٥).

- والفاءُ في ﴿فَرَأَوْهُ﴾ فَصيحةٌ، واللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَّظَلُّواْ﴾ لامُ جوابِ القسَمِ سادٍّ مَسدَّ الجوابين، أي: وباللهِ لَئِنْ أرسَلْنا رِيحًا حارَّةً أو باردةً، فضَرَبتْ زرْعَهُم بالصَّفارِ، فرأَوه مُصفرًّا لِيَظَلُّنَّ...[١].

- و(المُصفَرُّ): اسمُ فاعلٍ مُقتضٍ الوصفَ بمعناهُ في الحالِ، أي: فرأَوهُ يَصِيرُ أصفَرَ، فالتَّعبيرُ بـ ﴿مُّصْفَرًّا﴾؛ لتَصويرِ حِدْثانِ الاصفرارِ عليه دونَ أنْ يُقالَ: فرأَوهُ أصفَرَ[٢].

- والإتيانُ بفِعلِ التَّصييرِ ﴿لَّظَلُّواْ﴾، مع الإخبارِ عنه بالفِعلِ المُضارعِ ﴿يَكْفُرُونَ﴾؛ لِتَصويرِ مُبادرتِهم إلى الكفْرِ، ثمَّ استمرارِهم عليه، واعْلَمْ أنَّ الإتيانَ بالأفعالِ الثَّلاثةِ ماضيةٌ؛ لأنَّ وُقوعَها في سِياقِ الشَّرطِ يُمحِّضُها للاستقبالِ، فأُوثِرَت صِيغَةُ المُضِيِّ؛ لأنَّها أخفُّ[٣].

وقيل: عبَّرَ بالماضي مَوضِعَ المُستقبَلِ نحوَ: (لَيظلَلْنَ واللهِ)؛ تأكيدًا لتحقيقِه[٤].

- فإنْ قِيل: مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُوضَعَ مَوضِعَ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (لم يَحْمَدوا)، ومَوضِعَ ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ (لَضَجُّوا وجَزِعوا).

فالجوابُ: إنَّما عدَلَ في الأوَّلِ؛ لِيُؤْذِنَ بأنَّ الفرَحَ المُفرِطَ بطَرٌ وأشَرٌ، وليس ذلك مِن شأْنِ الشَّاكرِ الحامِدِ، بلْ مِن دَيْدَنِ الكافرِ، وأشعَرَ بالثَّاني أنَّ فُقدانَ الصَّبرِ عندَ نُزولِ البلاءِ دَليلٌ على عدَمِ الرِّضا بالقضاءِ، وهو إخراجٌ لِرِبْقةِ العُبوديَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٩).

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الفاءُ للتَّرتيبِ على قولِه: ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٥١] المُفيدِ أنَّ الكفْرَ غالبُ أحوالِهم؛ لأنَّهم بيْن كُفْرٍ باللهِ وبيْن إعراضٍ عن شُكْرِه. أو الفاءُ فَصيحةٌ تَدلُّ على كلامٍ مُقدَّرٍ، أي: إنْ كَبُرَ عليك إعراضُهم، وساءَكَ استِرسالُهم على الكُفْرِ؛ فإنَّهم كالمَوتى، وإنَّك لا تُسمِعُ المَوتى. وهذا مَعذِرةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ونِداءٌ على أنَّه بذَلَ الجهْدَ في التَّبليغِ[(١)].

- وتقْييدُ الحُكْمِ المَذكورِ بقولِه: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾؛ لِبَيانِ كَمالِ سُوءِ حالِ الكَفَرةِ، والتَّنبيهِ على أنَّهم جامِعُون لِخَصْلتَيِ السُّوءِ: نُبُوِّ أسْماعِهم عن الحقِّ، وإعراضِهم عن الإصغاءِ إليهِ، ولو كانَ فيهم إحداهُما لَكفاهُم ذلك، فكيفَ وقدْ جمَعُوهما؟! فإنَّ الأصمَّ المُقبلَ إلى المُتكلِّم ربَّما يَفطُنُ مِن أوضاعِه وحرَكاتِه لشَيءٍ مِن كلامِه وإنْ لم يَسْمَعْهُ أصلًا، وأمَّا إذا كانَ مُعرِضًا عنه، فلا يَكادُ يَفهَمُ منه شيئًا[(٢)].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾

- ومِن المُناسَبةِ الحَسنةِ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ وقولِه: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ *

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٥، ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٥).

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۞ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾: أنَّ تَعدادَ التَّشابيهِ في هذه الآياتِ مَنظورٌ فيه إلى اختلافِ أحوالِ طوائفِ المُشرِكين، فكان لكلِّ فريقٍ تَشبيهٌ: فمنْهم مَن غلَبَ عليهم التَّوغُّلُ في الشِّركِ، فلا يُصدِّقون بما يُخالِفُه، ولا يَتأثَّرون بالقرآنِ، والدَّعوةِ إلى الحقِّ، فهؤلاء بمَنزلةِ الأمواتِ؛ أشباحٌ بلا إدراكٍ، وهؤلاء همْ دَهْماؤهم وأغلَبُهم، ولذلك ابتُدِئَ بهم. ومِنهم مَن يُعرِضُ عن استماعِ القرآنِ، وهم الذين يَقولون: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]، ويقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، وهؤلاء همْ ساداتُهم ومُدبِّرو أمْرِهم؛ يَخافون إنْ أصْغَوا إلى القرآنِ أنْ يَملِكَ مَشاعِرَهم؛ فلذلك يَتباعَدون عن سَماعِه؛ ولهذا قُيِّدَ الذي شُبِّهوا به بوقْتِ تَولِّيهم مُدْبِرين إعراضًا عن الدَّعوةِ؛ فهو تَشبيهُ تَمثيلٍ. ومنهم مَن سَلَكوا مَسلَكَ ساداتِهم، واقْتَفَوا خُطاهم، فانحرَفَتْ أفْهامُهم عن الصَّوابِ، فهمْ يسْمَعون القرآنَ، ولا يَسْتطيعون العمَلَ به، وهؤلاء همُ الذين اعْتادُوا مُتابَعةَ أهوائِهم، وهمُ الذين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، ويَحصُلُ مِن جميعِ ذلك تشْبيهُ جَماعتِهم بجماعةٍ تَجمَعُ أمواتًا وصُمًّا وعُمْيًا، فليس هذا مَن تَعدُّدِ التشبيهِ لِمُشبَّهٍ واحدٍ، كالذي في قولِه تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1] [البقرة: ١٩].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٦).

الآيات (٥٤-٥٧)

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ يُؤْفَكُونَ ﴾: أي: يُصرَفون عن الحقِّ، ويُصَدُّون عن الصواب، يُقالُ: أفَكَ الرَّجلُ عن كذا: إذا عدَل عنه، والإفْكُ: كلُّ مصروفٍ عن وجهِه الَّذي يحقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): قلْبُ الشَّيءِ، وصَرْفُه عن جهتِه[1].

﴿يُسْتَعْتَبُونَ ﴾: أي: يُطلَبُ منهم أن يُزيلوا غَضَبَ رَبِّهم بالتَّوبةِ وصالحِ العَمَلِ؛ مِن الاستِعتابِ: وهو الرُّجُوعُ عن الإساءةِ، والتَّعَرُّضُ لِطَلَبِ الرِّضا، وأصلُ الكَلِمةِ مِن (العَتْبِ): وهو الغضَبُ والمَلامةُ، يُقالُ: عتَبَ عليه يَعتِبُ: إذا غَضِبَ عليه ولامَه، وأعتبَه: إذا أزالَ عنه عَتْبَه، واستَعْتَبَه: إذا طلَبَ منه الإعتابَ، أي: الرِّضا[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣/ ٣٠٩)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٢٢٣).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذكِّرًا الناسَ بمراحلِ حياتِهم، وسَعةِ عِلمِه وعظيمِ اقتِدارِه، وكمالِ حكمتِه: اللهُ الَّذي خَلَقَكم -أيُّها النَّاسُ- مِن ضَعفٍ، ثمَّ جَعَل لكم مِن بَعدِ ضَعفِكم قُوَّةً، ثمَّ جَعَل فيكم مِن بَعدِ قُوَّتِكم ضَعفًا بالشَّيبِ والهرَمِ، يخلُقُ اللهُ ما يشاءُ، وهو العَليمُ القَديرُ.

ثمَّ يُذكِّرُهم بأحوالِهم يومَ القيامةِ، فيقولُ: ويومَ تقومُ القيامةُ يُقسِمُ الكُفَّارُ بأنَّهم ما مَكَثوا غيرَ ساعةٍ واحدةٍ، كذلك كانوا يُكَذِّبونَ ويُصرَفونَ عن الحَقِّ في الدُّنيا.

وقال الَّذين أُعطوا العِلمَ لأولئك الكُفَّارِ الكاذِبينَ: لقد مكَثْتُم الوَقتَ الَّذي كتَبَه اللهُ في اللَّوحِ المحفوظِ إلى يومِ بَعثِكم، ولم تَلبَثوا ساعةً كما زعمتُم! فهذا هو يومُ القيامةِ، ولكِنَّكم كُنتُم في الدُّنيا لا تَعلَمونَ -أيُّها الكُفَّارُ- أنَّكم تُبعَثونَ بعدَ مَوتِكم وتُحاسَبونَ، فيومَ القيامةِ لا يَنفَعُ المكَذِّبينَ بالبَعثِ اعتِذارُهم، ولا يُطلَبُ منهم أن يَرجِعوا إلى ما يُرضي اللهَ عنهم بالتَّوبةِ والإيمانِ حتَّى تُزالَ عنهم المُعاتبةُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أعاد سُبحانَه مِنَ الدَّلائِلِ الَّتي مَضَت دليلًا مِن دلائِلِ الآفاقِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]، وذكَرَ أحوالَ

الرِّيحِ مِن أوَّلِه إلى آخِرِه؛ أعاد دليلًا مِن دلائِلِ الأنفُسِ، وهو خَلقُ الآدميِّ، وذكَرَ أحوالَه[١]، فقال:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾.

أي: اللهُ الَّذي خلَقَكم -أيُّها النَّاسُ- وابتدأَ إنشاءَكم مِن ضَعفٍ[٢].

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾.

أي: ثمَّ جَعَل اللهُ لكم قُوَّةً مِن بَعدِ ضَعفِكم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ أي: مِن نُطفةٍ ضَعيفةٍ. ومِمَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والزجاج، والسمرقندي، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٦).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦).

وقيل: المرادُ: بدَأكم وأنشأكم على ضَعفٍ، وجعَلَ الخَلْقَ مِن ضَعفٍ؛ لكثرةِ ضَعفِ الإنسانِ أوَّلَ نشأتِه وطفوليَّتِه. وممَّن اختاره في الجملةِ: الخازنُ، وأبو حيان، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٣٦).

وذكر ابن عثيمين أنَّ هذا الضَّعفَ يَبتدئُ بعدَ نَفخِ الرُّوحِ في الجنينِ؛ إذا صار حيًّا في بطنِ أمِّه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٣٦).

وممَّن جمَع بينَ القولينِ في الجملةِ: ابنُ جُزَي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ﴾.

أي: ثمَّ جَعَل اللهُ فيكم ضَعفًا مِن بَعدِ قُوَّتِكم، فتَهرَمونَ وتَشيبونَ[1].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔا﴾ [النحل: ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ [يس: ٦٨].

﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: يَخلُقُ اللهُ ما يَشاءُ في عِبادِه مِن ضَعفٍ وقُوَّةٍ، ويتصَرَّفُ في خَلقِه بما يريدُ بحَسَبِ حِكمتِه سُبحانَه[2].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾.

أي: واللهُ هو العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بتدبيرِ عِبادِه، وهو القادِرُ على كُلِّ شَيءٍ[3].

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله سبحانه وتعالى لَمَّا ذكَر الإبداءِ -والإعادةُ كالإبداءِ- ذكَر أحوالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٩).

الإعادةِ وأوقاتَها[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى عَدَمَ انتِفاعِ المُشرِكينَ بآياتِ القُرآنِ، وشُبِّهوا بالأمواتِ والصُّمِّ والعُمْيِ، فظَهَرت فَظاعةُ حالِهم في العاجِلةِ؛ أتْبع ذلك بوَصفِ حالِهم حينَ تقومُ السَّاعةُ[٢].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾.

أي: ويومَ تأتي القيامةُ يُقسِمُ الكُفَّارُ بأنَّهم ما مَكَثوا مِن قَبْلُ[٣] غيرَ ساعةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٨).

(٣) اختلف المفسِّرون في موضِعِ هذا المُكثِ الَّذي يُقسِمُ المجرِمونَ أنَّهم لم يَلبَثوا فيه سِوى ساعةٍ واحدةٍ. فقيلَ: المرادُ به: القَبرُ. ومِمَّن قال بذلك: ابن جرير، والواحدي، وابن عطية، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٩).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: الكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٣).

قال ابن عاشور: (يريدونَ أن يُقنِعوا أنفُسَهم بصحَّةِ دليلِهم القديم، ويلتَمِسونَ اعتلالًا لتخَلُّفِ المدلولِ بعِلَّةِ أنَّ بَعْثَهم ما كان إلَّا بعد ساعةٍ قليلةٍ مِن وقتِ الدَّفنِ قَبْلَ أن تنعَدِمَ أجزاءُ أجسامِهم! فيُخيَّلُ إليهم أنَّهم مُحِقُّونَ في إنكارِه في الدُّنيا؛ إذ كانوا قد أُخبِروا أنَّ البعثَ يكونُ بعدَ فناءِ الأجسام، فهم أرادوا الاعتذارَ عن إنكارِهم البعثَ حين تحقَّقوه بما حاصِلُه: أنَّهم لو عَلِموا أنَّ البَعثَ يكونُ بعد ساعةٍ مِن الحلولِ في القبرِ لأقَرُّوا به. وقد أنبأ عن هذا تسميةُ كلامِهم هذا معذرةً بقَولِه عَقِبَه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [الروم: ٥٧]. وهذه فِتنةٌ أُصيبوا بها حينَ البَعثِ جَعَلَها اللهُ لهم؛ لِيَكونوا هُزْأةً لأهلِ النُّشورِ، ويتَّضِحَ غَلَطُهم وسوءُ فَهمِهم، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى بعدَ ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ ...﴾ [الروم: ٥٦]، وقد أومأَ إلى أنَّ هذا هو المرادُ مِن الآيةِ أنَّه قال عَقِبَ ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كهذا الخطأِ كانوا في الدُّنيا يُصرَفونَ عن الحَقِّ بمثلِ هذه التُّرَّهاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٩).

وقيل: المرادُ: الدُّنيا. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥). =

واحِدةٍ[١].

﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴾.

أي: كما كذَّبَ الكُفَّارُ وصُرِفوا عن الحَقِّ في قَسَمِهم بأنَّهم ما لَبِثوا غيرَ ساعةٍ، كانوا يُكَذِّبونَ ويُصرَفونَ عن الحَقِّ والصَّوابِ في الدُّنيا أيضًا، فذاك خُلُقٌ قَبيحٌ تخَلَّقوا به، فصار لهم سَجِيَّةً وطَبعًا[٢].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا وصَفَ اللهُ تعالى الجاهِلينَ؛ أتبَعَه صِفةَ العُلَماءِ[٣].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾.

= ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٠٢).

قال ابن كثير: (ومقصودُهم بذلك عدَمُ قيامِ الحُجَّةِ عليهم، وأنَّهم لم يُنظَروا حتى يُعذَرَ إليهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨).

وممَّن جمَع بيْنَ القَولَينِ: يحيى بنُ سلام، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٧، ٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٠، ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٩، ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣١).

أي: وقال أهلُ العِلمِ المُؤمِنونَ باللهِ[١] لأولئك الكُفَّارِ الكاذِبينَ: واللهِ لقد مكَثْتُم الوَقتَ الَّذي قدَّرَه اللهُ لكم وكَتَبه في اللَّوحِ المحفوظِ إلى يومِ بَعثِكم، ولم تَلبَثوا ساعةً كما زعَمْتُم[٢].

﴿فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: فهذا هو يومُ القيامةِ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه النَّاسَ مِن قُبورِهم، ولكِنَّكم كنتُم في الدُّنيا -أيُّها الكُفَّارُ- لا تَعلَمونَ أنَّكم تُبعَثونَ بعدَ مَوتِكم، بل كان دَأْبُكم الإنكارَ والتَّكذيبَ بذلك[٣].

﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت الآياتُ دالَّةً على أنَّ هذه الدَّارَ دارُ عمَلٍ، وأنَّ الآخِرةَ دارُ جزاءٍ،

---

(١) قال الشوكاني: (اختُلِفَ في تعيينِ هؤلاء الَّذين أُوتوا العِلمَ؛ فقيل: الملائِكةُ. وقيل: الأنبياءُ. وقيل: عُلماءُ الأُمَمِ. وقيل: مؤمِنو هذه الأمَّةِ. ولا مانِعَ مِن الحَملِ على الجميعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

قال البيضاوي: (﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في عِلمِه أو قَضائِه، أو ما كتَبَه لكم، أي: أوجَبَه، أو اللَّوحِ، أو القرآنِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١١).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: فيما كتَب الله لكم في سابِقِ عِلمِه: الثعلبيُّ، والبغوي، والخازن، وابن عادل. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٤٣٠).

وقيل: إنَّ في الآيةِ تقديمًا وتأخيرًا، تقديرُه: وقال الَّذين أُوتوا العِلمَ بكتابِ الله والإيمانَ بالله عزَّ وجَلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣١، ١٣٢).

وأنَّ البَرزخَ حائِلٌ بيْنَهما، فلا يكونُ في واحدةٍ منهما ما للأخرى؛ تسَبَّب عن ذلك قَولُه تعالى[١]:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

أي: فيومَ القيامةِ لا يَنفَعُ المكَذِّبينَ بالبَعثِ اعتِذارُهم[٢].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

أي: ولا يُطلَبُ يومَ القيامةِ مِن الظَّالِمينَ أن يَرجِعوا إلى ما يُرضي اللهَ -عزَّ وجَلَّ- بالتَّوبةِ والإيمانِ والطَّاعةِ، حتى تُزالَ عنهم المُعاتَبةُ والمُؤاخَذةُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- بعدَ الأربعينَ يأخُذُ ابنُ آدَمَ في النُّقصانِ وضَعفِ القُوى على التَّدريجِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

قيل: المرادُ: اعتذارُهم بقَولِهم: ما عَلِمْنا أنَّ القيامةَ كائنةٌ، ولا أنَّا نُبعَثُ. ومِمَّن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٠٦).

وقال ابنُ كثير: (أي: لا ينفَعُهم اعتذارُهم عَمَّا فَعَلوا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨).

وقال السعدي: (﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فإن كَذَّبوا وزَعَموا أنَّهم ما قامت عليهم الحُجَّةُ، أو ما تمكَّنوا من الإيمانِ؛ ظهَر كَذِبُهم بشهادةِ أهلِ العلمِ والإيمانِ، وشهادةِ جُلودِهم وأيديهم وأرجُلِهم، وإن طَلَبوا الإعذارَ وأنَّهم يُرَدُّونَ ولا يعودونَ لِما نُهُوا عنه، لم يُمَكَّنوا؛ فإنَّه فات وقتُ الإعذارِ، فلا تُقبَلُ مَعذِرتُهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٣).

كما أخَذ في زيادتِها على التَّدريجِ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾، فقُوَّتُه بيْنَ ضَعفَينِ، وحياتُه بيْن مَوتَينِ[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ مِن حِكمتِه تعالى أن يُريَ العَبدَ ضَعْفَه، وأنَّ قُوَّتَه محفوفةٌ بضَعفَينِ، وأنَّه ليس له مِن نَفْسِه إلَّا النَّقصُ، ولولا تقويةُ اللهِ له لَما وصَلَ إلى قوَّةٍ وقُدرةٍ، ولو استمرَّت قوَّتُه في الزِّيادةِ لطغَى وبغَى وعتا، ولِيَعلمَ العبادُ كَمالَ قُدرةِ اللهِ التي لا تزالُ مُستَمِرَّةً يَخلُقُ بها الأشياءَ، ويُدبِّرُ بها الأمورَ، ولا يَلحَقُها إعياءٌ ولا ضَعفٌ ولا نَقصٌ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ[(٢)].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ والمعنَى: أنَّ ذلك خُلُقٌ تَخَلَّقوا به وصارَ لهم كالسَّجيَّةِ في حياتِهم الدُّنْيا، حتَّى إذا أعاد اللهُ إليهم أرواحَهم صَدَرَ عنهم ما كانوا تَخَلَّقوا به، وفي هذا الخبَرِ أدَبٌ عظيمٌ للمُسلِمينَ: أن يَتحامَوُا الرَّذائلَ والكبائرَ في الحياةِ الدُّنيا؛ خشيةَ أن تَصيرَ لهم خُلُقًا، فيُحشَروا عليها[(٣)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ المؤمنينَ يَسمَعونَ تحاجَّ المُشرِكينَ بَعضِهم مع بَعضٍ، فيُبادِرونَ بالإنكارِ عليهم؛ لأنَّ تغييرَ المنكَرِ سَجيَّتُهم التي كانوا عليها، وفي هذا أدَبٌ إسلاميٌّ، وهو أنَّ الذي

(١) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٠).

يَسمَعُ الخطأَ في الدِّينِ والإيمانِ: لا يُقِرُّه، ولو لم يكُنْ هو المخاطَبَ به[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ في التَّعبيرِ بنَفي العِلمِ وقَصدِ نَفيِ الاهتمامِ به والعنايةِ بتلقِّيه: إشارةٌ إلى أنَّ التصَدِّيَ للتعلُّمِ وَسيلةٌ لحُصولِه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ سُمِّيَت القيامةُ بالسَّاعةِ؛ إعلامًا بيُسْرِها عليه سُبحانَه وتعالى[٣].

٢- ليس العِلمُ في الحقيقةِ إلَّا ما أخبَرَت به الرُّسُلُ عن اللهِ عَزَّ وجَلَّ طَلبًا وخَبرًا، فهو العِلمُ المزكِّي للنُّفوسِ، المكَمِّلُ للفِطَرِ، المصَحِّحُ للعُقولِ، الَّذي خَصَّه الله باسمِ العِلمِ، وسمَّى ما عارَضَه ظَنًّا لا يُغْني من الحَقِّ شَيئًا، وخَرْصًا وكَذِبًا؛ فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١]، وشَهِدَ لأهلِه أنَّهم أولو العِلمِ، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾، وقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، والمرادُ أولو العِلمِ بما أنزَلَه على رُسُلِه ليس إلَّا، وليس المرادُ أولي العِلمِ بالمنطِقِ والفَلسفةِ وفُروعِهما[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ فيما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٧٦).

يَزعُمونَ «أنَّ الإيمانَ مُكتسَبٌ غيرُ مَوهوبٍ»[١]!

٤- قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يُنافي قولَه تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] المُقْتضيَ نفْيَ وُقوعِ الاعتذارِ منهم؛ لأنَّ الاعتذارَ المَنفيَّ هو الاعتذارُ المأذونُ فيه، أي: المقبولُ؛ لأنَّ اللهَ لو أذِنَ لهم في الاعتذارِ لكان ذلك تَوطئةً لِقَبولِه اعتذارَهم، نظيرُ قولِه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والمُثبَتُ هنا مَعذِرةٌ مِن تِلقاءِ أنفُسِهم لم يُؤذَنْ لهم بها، فهي غيرُ نافعةٍ لهم، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ * قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨]، وقولِه: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾[٢] [المؤمنون: ٦٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ فيه سؤالٌ: كيف جُعِلوا غيرَ مُستَعتَبينَ في بعضِ الآياتِ، وغَيرَ مُعتَبِينَ في بَعضِها، وهو قَولُه: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤]؟

الجوابُ: أمَّا كَونُهم غيرَ مُستَعتَبِينَ، فمعناه: أي: لا يُقالُ لهم: أرْضُوا ربَّكم بتوبةٍ وطاعةٍ، وأمَّا كَونُهم غيرَ مُعتَبِينَ، فمعناه: أنَّهم غيرُ راضينَ بما هم فيه؛ فشُبِّهَت حالُهم بحالِ قَومٍ جُنيَ عليهم، فهم عاتِبونَ على الجاني، غيرُ راضينَ منه، فإنْ يَستعتِبوا اللهَ، أي: يَسألوه إزالةَ ما هم فيه، فما هم مِنَ المجابِينَ إلى إزالتِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((النُّكَت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٢، ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ استِئنافٌ يُفِيدُ الاستِدلالَ على عَظيمِ القُدْرةِ في مُختلَفِ المَصنوعاتِ مِن العوالِمِ، ولِتَقريرِ إمكانيَّةِ البَعثِ، وتَقريبِ حُصولِه إلى عُقولِ مُنْكريه؛ لأنَّ تَعدُّدَ صُوَرِ إيجادِ المَخلوقاتِ وكيفيَّاتِه؛ مِن ابتدائِها عن عدَمٍ، أو مِن إعادتِها بعدَ انعدامِها، وبتَطوُّرٍ وبدونِه؛ ممَّا يَزيدُ إمكانَ البعثِ وُضوحًا عندَ مُنكريه؛ فمَوقعُ هذه الآيةِ كمَوقعِ قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨] ونَظائرِها؛ ولذلك جاءتْ فاتحتُها على أُسلوبِ فواتحِ نظائرِها، وهذا ما يُؤذِنُ به تَعقيبُها بقولِه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ٥٥] الآيةَ[(١)].

- وفي قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ...﴾ الآيةَ، قال ذلك، مع أنَّ الضَّعفَ صِفةٌ، والمُخاطَبون لم يُخْلَقوا مِن صِفةٍ بلْ مِن عَينٍ، وهي الماءُ أو التُّرابُ؛ لأنَّ المُرادَ بالضَّعفِ الضَّعيفُ؛ مِن إطلاقِ المصدرِ على اسمِ الفاعلِ، كقولِهم: رجُلٌ عَدْلٌ، أي: عادلٌ، فمعناه: مِن ضَعيفٍ، وهو النُّطفةُ[(٢)]. وقيل: (مِن) ابتِدائيَّةٌ، أي: مُبتدَأُ خلْقِه مِن ضَعفٍ، أي: مِن حالةِ ضَعفٍ، يدُلُّ على تمكُّنِ الوصْفِ مِن الموصوفِ حتَّى كأنَّه مُنتزَعٌ منه[(٣)]. وقيل: جعَلَ الخلْقَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٧، ١٢٨).

مِن ضَعفٍ؛ لكثرةِ ضَعفِ الإنسانِ أوَّلَ نشْأتِه وطُفوليَّتِه[١].

- وفي كلمةِ ﴿ضَعۡفٖ﴾ تَنكيرٌ مع التَّكريرِ؛ لأنَّ المُتأخِّرَ ليس عَينَ المُتقدِّمِ[٢]. وقيل: تَنكيرُ (ضَعْفٍ) و(قُوَّةٍ) للنَّوعيةِ؛ فـ (ضَعْفٌ) المذكورُ ثانيًا هو عينُ (ضَعْفٍ) المذكورِ أوَّلًا، و(قُوَّةٌ) المذكورةُ ثانيًا عَينُ (قُوَّةٍ) المذكورةِ أوَّلًا. وقولُهم: النَّكرةُ إذا أُعِيدَتْ نَكرةً كانتْ غيرَ الأُولى، يُرِيدون به التَّنكيرَ المقصودَ منه الفرْدُ الشَّائعُ، لا التَّنكيرَ المرادَ به النَّوعيَّةُ[٣].

- وعطَفَ ﴿وَشَيۡبَةٗ﴾ على ﴿ضَعۡفٗا﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ هذا الضَّعفَ لا قُوَّةَ بعْدَه، وأنَّ بعْدَه العدَمَ بما شاع مِن أنَّ الشَّيبَ نَذيرُ المَوتِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ ذكَرَ وصْفَ العِلْمِ والقُدرةِ؛ لأنَّ التَّطوُّرَ هو مُقْتضى الحِكمةِ، وهي مِن شُؤونِ العِلْمِ، وإبرازُه على أحكَمِ وجْهٍ هو مَن أثَرِ القُدرةِ[٥].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾

- جُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ غَرابةَ حالِهم مِن فسادِ تَقديرِ المُدَّةِ والقَسَمِ عليه، مع كونِه تَوهُّمًا؛ يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن مَثارِ هذا الوهْمِ في نُفوسِهم، فكان قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ بَيانًا لذلك.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٨).

و﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى انصرافِهم عن الحقِّ يومَ البعْثِ، والمُشارُ إليه هو المُشبَّهُ به، والمُشبَّهُ مَحذوفٌ دلَّ عليه كافُ التَّشبيهِ، والتَّقديرُ: إفكًا مِثلَ إفْكِهم هذا كانوا يُؤفَكونَ به في حياتِهم الدُّنيا. والمقصودُ مِن التَّشبيهِ المُماثَلةُ والمُساواةُ(١).

- ولم يُسنَدْ إفْكُهم إلى آفكٍ مُعيَّنٍ في قولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴾؛ لأنَّ بعضَ صَرْفِهم يكونُ مِن أوليائِهم وأئمَّةِ دِينِهم، وبعْضَه مِن طَبْعِ اللهِ على قُلوبِهم(٢). وقيل: لعلَّه بَنى الفِعلَ للمجهولِ؛ إشارةً إلى سُهولةِ انقيادِهم إلى الباطلِ مع أيِّ صارفٍ كان(٣).

- وذِكرُ فِعلِ ﴿ كَانُوا۟ ﴾ في قولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُرادَ في زمانٍ قبْلَ ذلك الزَّمنِ، أي: في زمَنِ الحياةِ الدُّنيا، والمعنى: أنَّ ذلك خُلُقٌ تَخلَّقوا به، وصار لهم كالسَّجيَّةِ في حياتِهم الدُّنيا، حتَّى إذا أعاد اللهُ إليهم أرواحَهم صَدَرَ عنهم ما كانوا تَخلَّقوا به(٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ... ﴾ فيه رَدٌّ لِمَا قاله المُجرِمون مِن إنكارِ البَعْثِ، وأكَّدَ باليمينِ في (لقد)(٥).

- وهذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّحزينِ والتَّرويعِ، باعتبارِ ما يَرِدُ بعْدَه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٩، ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٦).

الإفصاحِ عن حُضورِ وقْتِ عذابِهم[١].

- وعطَف الإيمانَ على العلمِ للاهتمامِ به؛ لأنَّ العلمَ بدونِ إيمانٍ، لا يرشدُ إلى العقائدِ الحقِّ التي بها الفوزُ في الحياةِ الآخرةِ[٢].

- وعَبَّرَ بقَولِه: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾؛ تنبيهًا على شُكرِ مَن آتاهموه، وبناه للمَجهولِ؛ إشارةً إلى تَسهيلِ أخْذِه عليهم مِنَ الجَليلِ والفَقيرِ[٣].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ فاءُ الفصيحةِ؛ أفْصَحَتْ عن شَرطٍ مُقدَّرٍ، وتُفيدُ معنى المُفاجأةِ، أي: إذا كان كذلك فهذا يَومُ البَعثِ[٤]. وقيل: الفاءُ في ﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ عاطفةٌ لهذه الجُملةِ المَقولةِ على الجُملةِ التي قبْلَها، وهي ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾، اعْتَقَبها في الذِّكرِ[٥].

- قولُه: ﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ هذا تَوبيخٌ لهم وتَهديدٌ، وتعْجيلٌ لإساءتِهم بما يَترقَّبُهم مِن العذابِ. والاقتِصارُ على ﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾؛ لِيَتوقَّعوا كلَّ سُوءٍ وعذابٍ[٦]. وفيه تبْكيتٌ واستهزاءٌ بهم[٧].

- وفي التَّعبيرِ بنفْيِ العِلْمِ في قولِه: ﴿وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقَصْدِ نفْيِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣١).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٦).

الاهتمامِ به، والعِنايةِ بتَلقِّيه: إشارةٌ إلى أنَّ التَّصدِّيَ للتَّعلُّم وسَيلةٌ لحُصولِه[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ تَفْريعٌ على جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]، و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ هم المُشركون الذين أقْسَموا: ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾؛ فالتَّعبيرُ عنهم بـ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ إظهارٌ في مَقام الإضمارِ؛ لِغرَضِ التَّسجيلِ عليهم بوَصْفِ الظُّلم، وهو الإشراكُ باللهِ؛ لأنَّه جامعٌ لفُنونِ الظُّلم؛ ففيه الاعتداءُ على حَقِّ اللهِ، وظُلْمُ المُشرِكِ نفْسَه بتَعريضِها للعذابِ، وظُلْمُهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتَّكذيبِ، وظُلْمُهم المُؤمنينَ بالاعتداءِ على أمْوالِهم وأبشارِهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥٨-٦٠)

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُبْطِلُونَ﴾: أي: أصحابُ باطلٍ، والباطِلُ: نقيضُ الحقِّ، والإبطالُ يُقالُ في إفسادِ الشَّيءِ وإزالتِه؛ حقًّا كان ذلك الشيءُ أو باطلًا، وأصلُ (بطل): ذَهابُ الشَّيءِ وقِلَّةُ مُكْثِه ولُبْثِه(١).

﴿يَطْبَعُ﴾: أي: يختِمُ، وطبْعُ القلبِ: الختمُ عليه حتَّى لا يَصِلَ إليه هُدًى، والطَّبْعُ: أنْ تصوِّرَ الشَّيءَ بصورةٍ ما، وهو أعمُّ مِن الختمِ وأخصُّ مِن النَّقشِ، وبه اعتُبِرُ الطَّبْعُ والطَّبيعةُ الَّتي هي السَّجيَّةُ؛ فإنَّ ذلك هو نقْشُ النَّفْسِ بصورةٍ ما؛ إمَّا مِن حيثُ الخِلقةُ، وإمَّا مِن حيثُ العادةُ، وأصلُ (طبع): هو مَثَلٌ على نهايةٍ يَنْتَهي إليها الشَّيءُ حتَّى يُخْتَمَ عندَها(٢).

﴿يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾: أي: يُزعِجَنَّك ويَستفِزَّنَّك عن اعتِقادِك، وأصلُ (خفف): يدُلُّ على خِلافِ الثِّقَلِ والرَّزانةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا فضائلَ القرآنِ، وشِدَّةَ تعنُّتِ الكافرين: ولقدْ ذكَرْنا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ، ولَئِنْ جِئتَ الكُفَّارَ -يا محمَّدُ- بدَلالةٍ تُثبتُ صِدقَك، لَيَقولُنَّ: ما أنتم إلَّا مُتَّبِعونَ للباطِلِ! كذلك الخَتمِ يخَتِمُ اللهُ على قُلوبِ الكُفَّارِ، فَلا يُؤمِنونَ أبدًا.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ بالصَّبرِ والثَّباتِ، فيقولُ: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على دَعوةِ الكُفَّارِ وعِنادِهم؛ فإنَّ ما وعَدَك اللهُ به حَقٌّ، ولا يَستفِزَّك عن اتِّباعِ الحقِّ الَّذين لا يُوقِنونَ بوَعدِ اللهِ، فتَترُكَ الثَّباتَ على الحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا انتهَى ما أُقيمَت عليه السُّورةُ مِن دلائِلِ الوحدانيَّةِ، وإثباتِ البَعثِ؛ عقَّبَ ذلك بالتَّنويهِ بالقُرآنِ، وبلوغِه الغايةَ القُصوى في البيانِ والهُدى[1].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾.

أي: ولقَدْ ذكَرْنا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ كُلَّ مَثَلٍ تتبيَّنُ به الحقائِقُ، وتنقَطِعُ به الحُجَّةُ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٣، ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾.

أي: ولَئِنْ جِئتَ الكُفَّارَ -يا محمَّدُ- بأيِّ علامةٍ ودَلالةٍ تُثبِتُ صِدقَك، لَيقولُنَّ: ما أنتُم -أيُّها الرَّسولُ والمُؤمِنونَ به- إلَّا مُتَّبِعونَ للباطِلِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: مِثْلَما خَتَمَ اللهُ على قُلوبِ أولئك الكُفَّارِ فلا يَفقَهونَ آياتِ اللهِ، يَختِمُ أيضًا على قُلوبِ غَيرِهم مِنَ الكُفَّارِ، فلا يُؤمِنونَ بالحَقِّ أبدًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٤).

قيل: المرادُ بالَّذين لا يَعلَمونَ: أي: الَّذين لا يَعلَمونَ حَقيقةَ ما يأتيهم به محمَّدٌ مِن عندِ الله مِن هذه العِبَرِ والعِظاتِ، والآياتِ البيِّناتِ؛ فلا يَفقَهونَ عن الله حُجَّةً، ولا يَفهَمونَ عنه ما يَتلو عليهم مِن آيِ كتابِه؛ فهم لذلك في طُغيانِهم يَتردَّدونَ. قاله ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٩). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٠٧).

وقيل: الذين لا يَعلَمونَ توحيدَ الله. ومِمَّن قال به: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٩٧). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٤). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦، ٧].

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾.

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- على دَعوةِ الكُفَّارِ وتَعَنُّتِهم وعِنادِهم؛ فإنَّ ما وعَدَ اللهُ به مِن نَصرِ المؤمِنينَ، وإهلاكِ الكافِرينَ في الدُّنيا والآخرةِ: آتٍ لا مَحالةَ[1].

﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

أي: ولا يَستَفِزَّك -يا مُحمَّدُ- عن اتِّباعِ الحقِّ وتَبليغِه: الَّذين لا يُوقِنونَ بوَعدِ اللهِ، فيَحمِلوك بأقوالِهم أو أفعالِهم على الطَّيشِ وعدَمِ الصَّبرِ، فتَترُكَ الثَّباتَ على الحَقِّ[2].

= وقيل المعنى: لا يَطلُبون عِلمَ ما يَجهَلونه، ولا يَتحرَّون الحقَّ، بل يُصِرُّون على خرافاتٍ اعتقَدوها، وتُرَّهاتٍ ابتدعُوها. وممَّن قال به في الجملةِ: البيضاوي، والبقاعي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٧-١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٥).

قال القرطبي: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ أمَّتُه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩).

كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ * وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٨، ٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ هذا ممَّا يُعينُ على الصَّبرِ؛ فإنَّ العَبدَ إذا عَلِمَ أنَّ عَمَلَه غيرُ ضائعٍ، بل سيَجِدُه كامِلًا؛ هانَ عليه ما يَلْقاه مِنَ المكارِهِ، ويُيسِّرَ عليه كلُّ عسيرٍ، واستقَلَّ مِن عَمَلِه كُلَّ كَثيرٍ[(١)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ فيه الحثُّ على التَّصلُّبِ في الدِّينِ، وقد قال تعالى: ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ [الواقعة: ٨١] أي: متهانون؟! وقال السَّحرةُ لِفرعونَ لَمَّا تَهدَّدَهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾[(٢)] [طه: ٧٢].

٣- وفي هذا الخِتامِ الجليلِ لهذه السُّورةِ الجليلةِ: دَعوةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وللمؤمنينَ معه إلى الصَّبرِ على المَكارِهِ، واحتمالِ الشَّدائدِ، على طريقِ الإيمانِ، وذلك بما يمتلئُ به القلبُ من إيمانٍ باللهِ، ومِن يقينٍ راسخٍ في لِقاءِ ما وعَدَ اللهُ النَّبيَّ والمؤمنينَ مِن نصرٍ وإعزازٍ وتمكينٍ، وأنَّهم إذا كانوا على يَقينٍ مِن الفَوزِ والرِّضوانِ في الآخِرةِ، فلْيَكونوا على هذا اليقينِ مِن النَّصرِ والتَّمكينِ في الدُّنيا، وأنَّه إذا طالَ انتظارُهم لِمَا وُعِدَوا به في الدُّنيا، فهو -على أيِّ حالٍ-

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٦٣).

أقرَبُ ممَّا وُعِدَوا به في الآخرةِ. فلْيَصبِروا إذَنْ حتَّى يَلْقَوا ما وَعدَهم اللهُ به في الدُّنيا؛ لِيَزدادَ يقينُهم بما وعَدَهم اللهُ به في الآخِرةِ[١].

٤- قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾، فمَن وَفَى الصَّبرَ حقَّه، وتيَقَّنَ أنَّ وعْدَ الله حقٌّ؛ لم يَستفِزَّه المُبطِلون، ولم يَستخِفَّه الَّذين لا يوقِنون، ومتى ضَعُفَ صبرُه ويقينُه أو كِلاهما، استفَزَّه هؤلاء، واستخَفَّه هؤلاء، فجذَبوه إليهم بحسَبِ ضَعفِ قوَّةِ صبرِه ويقينِه، فكُلَّما ضَعُف ذلك منه قَوِيَ جَذْبُهم له، وكُلَّما قَوِيَ صبرُه ويقينُه قَوِيَ انجذابُه منهم، وجَذْبُه لهم[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ فيه إشارةٌ إلى إزالةِ الأعذارِ، والإتيانِ بما فوقَ الكفايةِ مِن الإنذارِ، وإلى أنَّه لم يبقَ مِن جانبِ الرَّسولِ تقصيرٌ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ واضِحةٌ في إنكارِهم أنَّ الهِدايةَ والإضلالَ مِنَ اللهِ تعالى[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾

- قوله: ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ ضَميرُ جمْعِ المُخاطَبِ

---

(١) يُنظر: ((التفسير القرآني للقرآن)) لعبد الكريم الخطيب (١١/ ٥٥٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٢٣).

في ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِقَصْدِ تَعظيمِه مِن جانبِ اللهِ تعالى، وإنَّما يقولُ الَّذين كَفَروا: إنْ أنت إلَّا مُبطِلٌ، فحُكِيَ كلامُهم بالمعنى؛ للتَّنويهِ بشأْنِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وقِيل: الخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُؤمِنينَ؛ فهو حِكايةٌ باللَّفظِ. وهذا تأْييسٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن إيمانِ مُعانديه، أي: أئمَّةِ الكُفْرِ منهم؛ ولذلك اعترَضَ بعْدَه بجُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بيْنَ الجُملتينِ المُتعاطفتَينِ؛ تَمْهيدًا للأمْرِ بالصَّبرِ على غُلَوائِهم[1].

- وفي تَوحيدِ الخِطابِ بقولِه: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم﴾، والجمْعِ في قولِه: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ لَطيفةٌ؛ وهي: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال: ولئنْ جِئتَهم بكلِّ آيةٍ جاءتْ بها الرُّسلُ، فيُمكِنُ أنْ يُجاوِبوه بقولِه: أنتم كلُّكم أيُّها المُدَّعون الرِّسالةَ مُبطِلون[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مُرادٌ به الَّذين كَفَروا أنفُسُهم؛ فعُدِلَ عن الإضمارِ؛ لزِيادةِ وَصْفِهم بانتفاءِ العِلْمِ عنهم بعدَ أنْ وُصِفوا بالمُجْرِمين، والَّذين ظَلَموا، والَّذين كَفَروا[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ الأمْرُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصَّبرِ، تفرَّعَ على جُملةِ ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الروم: ٥٨]؛ لتَضمُّنِها تأْييسَه مِن إيمانِهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٤).

وحُذِفَ مُتعلَّقُ الأمْرِ بالصَّبرِ؛ لدَلالةِ المَقامِ عليه، أي: اصبِرْ على تَعنُّتِهم. وجُملةُ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بالصَّبرِ، وهو تأْنيسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَحقيقِ وعْدِ اللهِ مِن الانتقامِ مِن المُكذِّبينَ، ومِن نصْرِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

- وظاهرُ النَّظمِ الكريمِ في قولِه: ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ وإنْ كان نهْيًا للكَفَرةِ عن استِخفافِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لكنَّه في الحَقيقةِ نهْيٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن التَّأثُّرِ مِن استخفافِهم على طَريقِ الكِنايةِ[٢].

- والاستخفافُ: مُبالَغةٌ في جَعْلِه خفيفًا؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للتَّقويةِ، مِثْلُها في نحْوِ: استجابَ واستمسَكَ[٣].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ همُ المُشركون الذين أُجْرِيَت عليهم الصِّفاتُ المُتقدِّمةُ مِن الإجرامِ، والظُّلمِ، والكُفرِ، وعدَمِ العِلْمِ؛ فهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للتَّصريحِ بمَساويهم[٤].

- ومِن تناسُبِ فواتحِ سورةِ الرُّومِ مع خواتيمِها: أنَّها بدأتْ بوعدِ الله تعالى بغلبةِ الروم ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ١- ٦]، وفي خاتمتِها قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]؛ ففي البداية ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ ...﴾، وفي الختام: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٣٥، ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٨)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١١/ ١٠٣).

تَفْسيرُ
سُورَةِ لُقمانَ

سورةُ لُقمانَ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (لُقمانَ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ لُقمانَ مَكِّيَّةٌ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصدِ هذه السُّورةِ:

مُخاطَبةُ النَّفْسِ البَشَريَّةِ بما مِن شأنِه أن يُسعِدَها ويُحيِيَها حياةً طَيِّبةً[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ المَوضوعاتِ الَّتي تناولَتْها هذه السُّورةُ:

١- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ، وأنَّه هِدايةٌ ورَحمةٌ للمُؤمِنينَ، مع ذِكرِ بَعضِ

---

(١) سُمِّيَت سورةَ لقمانَ؛ لاشتِمالِها على قِصَّتِه وجُمَلٍ مِن حِكمتِه الَّتي أدَّبَ بها ابنَه. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٧).

قال ابنُ عاشور: (وليس لها اسمٌ غيرُ هذا الاسم، وبهذا الاسم عُرِفَت بينَ القُرَّاءِ والمفَسِّرينَ، ولم أقِفْ على تصريحٍ به فيما يُروَى عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بسَندٍ مَقبولٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٧).

(٢) وقيل: مكِّيَّةٌ إلَّا الآياتِ الثَّلاثَ مِن قَولِه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [لقمان: ٢٧] إلى آخرِ الآيةِ الثَّالثة: ﴿... وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٩]؛ فمَدَنيَّةٌ. وقيل: قَولُه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ... ﴾ والآيةُ الَّتي بعْدَها مَدَنيَّتان. وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [لقمان: ٤]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١١/ ١٠٨).

صِفاتِهم.

٢- ذِكرُ جانِبٍ مِن صِفاتِ المُشرِكينَ الَّذين يَستَهزِئونَ بآياتِ اللهِ تعالى، ويُعرِضونَ عنها.

٣- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه.

٤- ذِكرُ لُقمانَ وما أُعطِيَ مِن الحِكمةِ، ووصاياه لابنِه المُشتَمِلةِ على الدَّعوةِ إلى العَقيدةِ الصَّحيحةِ، ومكارمِ الأخلاقِ، وأداءِ العباداتِ، ومُراقبةِ اللهِ.

٥- بيانُ ألوانٍ مِن نِعَمِ اللهِ على عِبادِه، وإحاطةِ عِلمِه سُبحانَه بكُلِّ شَيءٍ.

٦- النَّعيُ على المُشرِكينَ في رُكونِهم إلى التَّقليدِ إذا دُعُوا إلى النَّظَرِ في الكَونِ، وعِبادةِ اللهِ تعالى الَّذي خَلَقَه.

٧- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على عَدَمِ إيمانِ المُشرِكينَ.

٨- دعوةُ النَّاسِ جَميعًا إلى تَقْوى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وعَدَمِ الاغترارِ بالدُّنيا.

٩- ذِكرُ مَفاتيحِ الغَيبِ الخَمسةِ الَّتي استأثَرَ اللهُ بعِلمِها.

الآيات (١-٥)

﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾.

المعنى الإجماليُّ:

افتتَح الله تعالى هذه السُّورةَ ببعضِ الحروفِ المقطَّعةِ، وتقدَّم الكلامُ عن الحروفِ المُقطَّعةِ في تَفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الرُّومِ. ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ تلك الآياتِ آياتُ الكِتابِ الحَكيمِ، حالَ كَونِها هُدًى مِن كُلِّ ضَلالةٍ، ورَحمةً للمُحسِنينَ الَّذين يؤَدُّون الصَّلَواتِ تامَّةً، ويؤدُّونَ الزَّكاةَ للمُستحِقِّينَ لها، ويُؤمِنونَ بالآخِرةِ وما يكونُ فيها إيمانًا جازمًا، أولئك على هُدًى مِن رَبِّهم، وأولئك هم الفائِزونَ في الدُّنيا والآخرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓمٓ ١﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الرُّومِ[(١)].

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾.

أي: تلك الآياتُ العاليةُ الرُّتبةِ، العَظيمةُ الشَّأنِ: آياتُ الكتابِ المُشتَمِلِ على الحِكمةِ، المحكَمِ في ألفاظِه ومعانيه، فلا نَقصَ فيه، ولا تناقُضَ، ولا خلَلَ[(٢)].

---

(١) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠، ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣-١٥).

قيل: الإشارةُ هنا تعودُ إلى جميعِ آياتِ القُرآنِ الكريمِ. وهو ظاهرُ اختيارِ السعديِّ، واختيار =

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣﴾.

أي: تلك آياتُ الكتابِ حالَ كَونِها هُدًى مِن كُلِّ ضَلالةٍ، ورَحمةً في الدُّنيا والآخرةِ للمُحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، المُحسِنينَ إلى عبادِ اللهِ[1].

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: أولئك المُحسِنونَ هم الَّذين يُؤَدُّونَ الصَّلَواتِ تامَّةً مُستقيمةً على الوجهِ الَّذي شرَعَه اللهُ تعالى، ويؤدُّونَ زكاةَ أموالِهم لأهلِها المُستَحِقِّينَ لها، كما فرَضَ

= ابنِ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣).

وقيل: الإشارةُ هنا ترجِعُ إلى آياتِ هذه السُّورةِ؛ سورةِ لُقمانَ. وممَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٠).

قال الشوكاني: (و﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ إمَّا أن يكونَ بمعنَى مُفْعَلٍ، أو بمعنَى فاعلٍ، أو بمعنَى ذي الحكمةِ أو الحكيمِ قائلُه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٩).

وقال ابن عطية: (و﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ يَصِحُّ أن يكونَ مِنَ الحكمةِ، ويصِحُّ أن يكونَ مِنَ الحُكمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٥).

وقال الفيروزابادي: (وإذا وُصِف القرآنُ بالحكمةِ فلِتَضَمُّنِه الحكمةَ، نحو: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]. وقيل: معنى الحكيمِ: المحكَمُ، نحو: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]. وكِلا المعنيَينِ صحيحٌ). ((بصائر ذوي التمييز)) (٢/ ٤٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣١، ٥٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٦، ١٧).

اللهُ تعالى[١].

﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

أي: وهم يُؤمِنونَ إيمانًا جازِمًا لا شكَّ فيه بالآخِرةِ، وما يكونُ فيها مِن ثوابٍ وعِقابٍ، وبَعثٍ ونُشورٍ وغَيرِ ذلك[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

أي: أولئك المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ: على هُدًى حاصِلٍ لهم مِن رَبِّهم الَّذي لولا إحسانُه إليهم وتَربيتُه الخاصَّةُ لهم لَمَا تمكَّنوا مِن هُداه[٣].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: وأولئك هم الفائِزونَ في الدُّنيا والآخِرةِ[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ أنَّ الإحسانَ سببٌ لِنَيلِ العِلمِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ فالله تعالى جَعَل القرآنَ هُدًى ورَحمةً للمُحسِنينَ، هدًى في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٩، ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢٢، ٢٣).

العِلم، ورحمةً في العمل[١]، وأنَّه كُلَّما ازدادَ إحسانُ العبدِ ازدادَ عِلمُه وعمَلُه الصالحُ؛ لأنَّ الحُكمَ إذا عُلِّقَ على وَصفٍ ازدادَ بزيادتِه، ونَقَصَ بنَقصِه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ حَثٌّ على إقامةِ الصَّلاةِ؛ يُؤخَذُ ذلك مِن ثناء اللهِ تعالى على المقيمينَ لها، والثَّناءُ لا يكونُ إلَّا على فِعْلِ شَيءٍ محبوبٍ مَرغوبٍ مِن اللهِ تعالى[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ مِن إحكامِ آياتِ الكِتابِ: أنَّها جاءت بأجَلِّ الألفاظِ وأفصَحِها وأبيَنِها، الدَّالَّةِ على أجَلِّ المعاني وأحسَنِها.

ومِن إحكامِها: أنَّها مَحفوظةٌ مِنَ التَّغييرِ والتَّبديلِ، والزِّيادةِ والنَّقصِ والتَّحريفِ.

ومِن إحكامِها: أنَّ جميعَ ما فيها مِنَ الأخبارِ السَّابقةِ واللَّاحِقةِ والأمورِ الغَيبيَّةِ: كُلُّها مُطابِقةٌ للواقِعِ، مُطابِقٌ لها الواقِعُ، لم يخالِفْها كِتابٌ مِنَ الكُتُبِ الإلهيَّةِ، ولم يُخبِرْ بخلافِها نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ، ولم يأتِ ولن يأتيَ عِلمٌ مَحسوسٌ ولا مَعقولٌ صَحيحٌ يناقِضُ ما دلَّت عليه.

ومِن إحكامِها: أنَّها ما أمَرَت بشَيءٍ إلَّا وهو خالِصُ المَصلَحةِ أو راجِحُها، ولا نَهَت عن شَيءٍ إلَّا وهو خالِصُ المَفسَدةِ أو راجِحُها، وكثيرًا ما يجمَعُ بيْنَ الأمرِ بالشَّيءِ مع ذِكرِ حِكمتِه وفائِدتِه، والنَّهيِ عن الشَّيءِ مع ذِكرِ مَضَرَّتِه.

ومِن إحكامِها: أنَّها جَمَعت بينَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والوَعظِ البَليغِ الَّذي تعتَدِلُ به النُّفوسُ الخَيِّرةُ وتحتَكِمُ، فتَعمَلُ بالحَزمِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١).

ومِن إحكامِها: أنَّك تجدُ آياتِه المتكرِّرةَ -كالقَصَصِ والأحكامِ ونَحوِها- قد اتَّفَقَت كُلُّها وتواطأَتْ، فليس فيها تناقُضٌ ولا اختِلافٌ؛ فكلَّما ازداد بها البَصيرُ تدَبُّرًا، وأعمَل فيها العَقلَ تفكُّرًا؛ انبهَرَ عَقلُه، وذَهَل لُبُّه مِن التَّوافُقِ والتَّواطُؤِ، وجَزَم جزمًا لا يُمترى فيه أنَّه تنزيلٌ مِن حكيمٍ حَميدٍ[١].

٢- قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ القرآنُ الكريمُ جمعَ الخيرَ كلَّه، فهو هدايةٌ ورحمةٌ، مَن تمسَّك به نجا واهتدَى، فمَنْ أراد العِلمَ النَّافعَ فعليه بالقرآنِ؛ لأنَّه هدًى، ومَن أراد الرَّحمةَ فعليه بالقرآنِ؛ لأنَّه رحمةٌ، ولا تُنالُ الرحمةُ إلَّا بالعملِ الصَّالحِ[٢].

٣- إقامةُ الصَّلاةِ مِن الإحسانِ؛ لأنَّ قولَه سُبحانَه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بيانٌ لقولِه: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ وصَفَهم اللهُ تعالى بالعَمَلِ، وخَصَّ مِن العَمَلِ عمَلَينِ فاضِلَينِ: الصَّلاةَ المُشتَمِلةَ على الإخلاصِ، ومُناجاةِ الله تعالى، والتعبُّدِ العامِّ للقَلبِ واللِّسانِ والجوارحِ المُعينةِ على سائرِ الأعمالِ؛ والزَّكاةَ الَّتي تُزَكِّي صاحِبَها مِن الصِّفاتِ الرَّذيلةِ، وتنفَعُ أخاه المُسلِمَ وتسُدُّ حاجتَه، ويَبينُ بها أنَّ العَبدَ يُؤْثِرُ محبَّةَ الله على محبَّتِه للمالِ، فيُخرِجُ محبوبَه مِن المالِ لِما هو أحَبُّ إليه، وهو طَلَبُ مَرضاةِ الله[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

- صُدِّرَت هذه السُّورةُ بالتَّنويهِ بهَدْيِ القرآنِ؛ لِيَعلَمَ النَّاسُ أنَّه لا يَشتمِلُ إلَّا على ما فِيه هُدًى وإرشادٌ للخيَرِ، ومُثُلُ الكَمالِ النَّفسانيِّ؛ فلا الْتِفاتَ فيه إلى أخبارِ الجَبابرةِ، وأهْلِ الضَّلالِ إلَّا في مقامِ التَّحذيرِ ممَّا همْ فيه ومِن عواقِبِه؛ فكان صدْرُ هذه السُّورةِ تَمْهيدًا لقِصَّةِ لُقمانَ[١].

- قولُه: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ في اسمِ الإشارةِ ﴿ تِلْكَ ﴾ تَنْبيهٌ على تَعظيمِ قَدْرِ تلك الآياتِ بما دَلَّ عليه اسمُ الإشارةِ مِن البُعدِ المُستعمَلِ في رِفعةِ القَدْرِ، وبما دلَّتْ عليه إضافةُ (الآيات) إلى (الكِتاب) الموصوفِ بأنَّه الحكيمُ، وأنَّه هدًى ورحمةٌ وسبَبُ فلاحٍ[٢].

- في قولِه: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ وصَفَ الكِتابَ بالحَكيمِ؛ لاشتمالِه على الحِكَمِ، أو لأنَّه كلامٌ حَكيمٌ، أو مُحكَمٌ آياتُه لم يُنسَخْ شَيءٌ منها. ويجوزُ أنْ يكونَ الأَصلُ: ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴾ قائلُه؛ فحُذِفَ المضافُ، وأُقِيمَ المضافُ إليه مُقامَه[٣].

- وفي وصْفِ الكِتابِ بهذا الوصْفِ ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴾ بَراعةُ استهلالٍ للغرَضِ مِن ذِكرِ حِكْمةِ لُقمانَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٨، ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٠).

٢- قوله تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾

- في قولِه: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ زِيادةُ وصْفِ الكِتابِ بـ (رَحْمة) بعدَ (هُدًى)؛ لأنَّه لَمَّا كان المقصدُ مِن هذه السُّورةِ قِصَّةَ لُقمانَ، نبَّه على أنَّ ذِكْرَ القصَّةِ رحمةٌ لِمَا تَتضمَّنُه مِن الآدابِ والحِكمةِ؛ لأنَّ في ذلك زِيادةً على الهُدَى: أنَّه تخلَّقَ بالحِكمةِ، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[1] [البقرة: ٢٦٩].

- قولُه: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ خُصَّ المُحسِنونَ؛ لأنَّهم هم الَّذين انتَفَعوا به، ونَظَروه بعَينِ الحَقيقةِ[2].

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ بَيانٌ لِمَا عَمِلَ المُحسِنونَ مِن الحسناتِ، إنْ أُريدَ بقولِه: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾: العاملونَ للحَسَناتِ المشهورةِ المعهودةِ في الدِّينِ. وإنْ أُريدَ بها جَميعُ الحَسناتِ، فهو تَخصيصٌ لهذه الثَّلاثِ (إقامة الصَّلاة- إيتاء الزَّكاة- الإيقان بالآخرة) بالذِّكرِ مِن بينِ سائرِ شُعَبِها؛ لإظهارِ فَضْلِها وعُلوِّها على غَيرِها، وفيه إيجازٌ بليغٌ[3].

- قَولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ قَدَّمَ الصَّلاةَ على إيتاءِ الزَّكاةِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ أحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالى؛ ومع أنَّ إيتاءَ الزَّكاةِ فيه نَفعٌ مُتَعَدٍّ للغيرِ، ولكِنَّ الصَّلاةَ أحَبُّ إلى الله تعالى منها وأفضَلُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٩، ٤٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢١).

- قولُه: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ فيه تكريرُ الضَّميرِ (هم)؛ للتَّوكيدِ، ولأنَّه فُصِلَ بيْنَه وبيْنَ خَبَرِه[١].

٤- قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

- ﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أتى بـ «على» الدَّالَّةِ على الاستِعلاءِ، يعني: أنَّهم على هدًى يَسيرونَ عليه، وهم به عالونَ مرتفعونَ؛ لارتفاعِ مَرتبتِهم[٢].

- قولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ كرَّرَ الإشارةَ إليهم؛ تنْبيهًا على عِظَمِ قَدْرِهم[٣].

- والحصرُ في قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أفاد أنَّه لا سبيلَ إلى الفَلاحِ إلَّا بما سَبق[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٣).

الآيات (٦-٩)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾: أي: باطِلَه وما يَشغَلُ عن الخَيرِ، أو الغِناءَ والمعازِفَ، وأصلُ (لهو): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بِشَيءٍ[(١)].

﴿وَقۡرٗا﴾: أي: ثِقلًا، وصَمَمًا، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقلِ الشَّيءِ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا حالَ الَّذين أعرَضوا عن القرآنِ، مُشتغِلينَ بغيرِه: ومِنَ النَّاسِ مَن يَشتري الحديثَ الباطِلَ المُلْهيَ؛ لِيَصُدَّ عن اتِّباعِ سَبيلِ اللهِ بغيرِ عِلمٍ، ويَستهزِئَ بسَبيلِ اللهِ ويَسخَرَ منها؛ أولئك لهم عذابٌ مُهينٌ مُذِلٌّ، وإذا تُتلَى عليه آياتُ القُرآنِ أعرَضَ عنها متكَبِّرًا عن قَبولِها، كأنَّه لم يَسمَعْها، كأنَّ في أُذُنَيه صَمَمًا يَحولُ دونَ سَماعِه لها؛ فبَشِّرْه بعذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ.

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى الجزاءَ الحسَنَ الَّذي أعدَّه للمؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠، ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ لهم في الآخرةِ جَنَّاتُ النَّعيمِ، ماكِثينَ فيها أبدًا، وعَدَهم الله هذا وعدًا حقًّا، وهو العزيزُ الحَكيمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ القُرآنَ كِتابٌ حَكيمٌ، يَشتَمِلُ على آياتٍ حَكيمةٍ؛ بيَّنَ مِن حالِ الكُفَّارِ أنَّهم يَترُكونَ ذلك، ويَشتَغِلونَ بِغَيرِه[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى المُهتَدينَ بالقُرآنِ المُقبِلينَ عليه؛ ذكَرَ مَن أعرَضَ عنه، ولم يرفَعْ به رأسًا، وأنَّه عوقِبَ على ذلك، بأن تعوَّضَ عنه كُلَّ باطلٍ مِن القَولِ، فترَكَ أعلى الأقوالِ، وأحسَنَ الحديثِ، واستبدَلَ به أسفَلَ قَولٍ وأقبَحَه[2]!

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿لِيُضِلَّ﴾ قراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿لِيَضِلَّ﴾ بفَتحِ الياءِ، على معنى: أنَّه يَضِلُّ هو نَفْسُه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦).

(٣) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وأبو عمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٦). =

٢- قراءةُ ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضَمِّ الياءِ، على معنى: أنَّه يُضِلُّ غَيرَه، وإذا أضلَّ غيرَه فقد أضلَّ نفْسَه أيضًا[(١)].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾.

أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يَشتري[(٢)] الحديثَ الباطِلَ المُلْهيَ للقُلوبِ[(٣)]؛ لِيَصُدَّ عن

= قال ابنُ كثيرٍ: (على قراءةِ فَتحِ الياءِ تكونُ اللَّامُ لامَ العاقبةِ، أو تعليلًا للأمرِ القَدَريِّ، أي: قُيِّضوا لذلك؛ لِيَكونوا كذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣١).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٦).

قال ابن عثيمين: (وفائدةُ القراءتينِ هنا: اشتِمالُ هذه الكَلِمةِ على المعنيَينِ، وهما: الضَّلالُ بنفْسِه، وإضلالُ غَيرِه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢٥).

(٢) قال الرسعني: (قولُه تعالى: ﴿يَشۡتَرِي﴾ إمَّا أن يكونَ على حقيقتِه... أو على مجازِه، وهو إيثارُ اللَّهوِ، واختيارُه). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٧).

وممَّن اختار الأوَّلَ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١).

وممَّن اختار الثَّانيَ، أي: يختارُ ويرغَبُ رَغبةَ مَن يَبذُلُ الثَّمَنَ في الشَّيءِ: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٦).

قال الواحدي: (قال أهلُ المعاني: ويَدخُلُ في هذا كُلُّ مَن اختار اللَّهوَ والغناءَ والمزاميرَ والمعازفَ على القرآنِ. وإنْ كان اللَّفظُ قد ورد بالشِّراءِ). ((البسيط)) (١٨/ ٩٥).

(٣) قيل: المرادُ به: الغِناءُ. وممَّن ذهب إليه: القرطبي، وابنُ جُزَي، وابن كثير، ونسَبه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٥١، ٥٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤١).

وقيل: المرادُ به العمومُ؛ فيَعُمُّ كُلَّ حديثٍ باطلٍ ومُلْهٍ عن سبيلِ الله، فيَدخُلُ فيه الغِناءُ، وأخبارُ الأعاجمِ ومُلوكِها، ونحو ذلك. وممَّن قال بالعموم: ابنُ جرير، وابن القيم، والبِقاعي، =

اتِّباعِ الهُدى والحَقِّ بلا عِلمٍ[(١)].

= والشوكاني، والألوسي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢٨).

قال الشوكاني: (ولهوُ الحديثِ: كلُّ ما يُلْهي عن الخيرِ؛ مِن الغناءِ، والملاهي، والأحاديثِ المكذوبةِ، وكلُّ ما هو منكَرٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٠).

وقال ابنُ القيِّم: (لا تَعارُضَ بينَ تفسيرِ «لهوِ الحديثِ» بالغِناءِ، وتفسيرِه بأخبارِ الأعاجِمِ ومُلوكِها وملوكِ الرُّومِ، ونحو ذلك ... فكِلاهما لهوُ الحديثِ؛ ولهذا قال ابنُ عبَّاسٍ: «لهوُ الحديثِ: الباطِلُ والغِناءُ»، فمِنَ الصَّحابةِ مَن ذكَرَ هذا، ومنهم مَن ذكَرَ الآخَرَ، ومنهم مَن جمَعَهما). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٤، ٥٣٩، ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠، ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

قال الرسعني: (قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في محلِّ الحالِ مِن الضَّميرِ في ﴿يَشْتَرِي﴾، أو في ﴿لِيُضِلَّ﴾، فهو تجهيلٌ للمُضِلِّ أو تجهيلٌ للمشتري، حيثُ لم يَهتَدِ إلى التِّجارةِ الرَّابحةِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٦).

قيل: المرادُ بقَولِه: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: أنَّه جاهلٌ فيما يَفعلُ، لا يَفعلُه عن عِلمٍ، بل عن جهلٍ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الواحديُّ، والبَغَوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٠١).

وقيل: المرادُ بقولِه تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: الجَهلُ بعاقبةِ ذلك وإثمِه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٠).

وقيل: المرادُ أنَّ فِعلَه هذا ناشئٌ عن الجَهلِ باللهِ عزَّ وجَلَّ، وعن الجَهلِ بشَرعِه، وعن الجَهلِ بحَقيقةِ ما خُلِقَ له. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٦).

وقيل: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بحالِ ما يَشتريه، أو بالتِّجارةِ وما يَنفعُ منها وما يَضُرُّ، حيثُ استبدَلَ الشَّرَّ البَحتَ بالخَيرِ المَحضِ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: أبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٠).

كما قال الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾.

أي: وليَستهزِئَ بسَبيلِ اللهِ، ويَسخَرَ منها[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

أي: أولئك لهم عذابٌ يُخزيهم، ويُهينُهم، ويُذِلُّهم[٢].

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان الإنسانُ قد يكونُ غافِلًا، فإذا نُبِّه انتبَه؛ نبَّه سبحانَه وتعالى على أنَّ هذا الإنسانَ المُنهَمِكَ في أسبابِ الخُسرانِ لا يَزدادُ على مَرِّ الزَّمانِ إلَّا مُفاجأةً لكُلِّ ما يَرِدُ عليه مِنَ البَيانِ بالبَغيِ والطُّغيانِ[٣].

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾.

أي: وإذا تُتلَى عليه آياتُ القُرآنِ؛ لِيُؤمِنَ بها، ويَنقادَ إليها، أعرَضَ عنها وهو شَديدُ التَّكَبُّرِ عن قَبولِها، فلم تَدخُلْ قَلْبَه ولا انتفَعَ بها، بل أدبَرَ عنها، كأنَّه لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤٩).

يَسمَعُها[١]!

﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾.

أي: كأنَّ في أُذُنَيه صَمَمًا وثِقلًا يمنَعُه مِن سَماعِها[٢]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

أي: فبَشِّرْه بعَذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ * يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ * وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ * مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [الجاثية: ٧ - ١٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٤٠، ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

قال السَّعدي: (﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ بشارةً تُؤثِّرُ في قَلبِه الحُزنَ والغَمَّ، وفي بَشَرتِه السُّوءَ والظُّلْمةَ والغَبَرةَ ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ مُؤلِمٍ لِقَلبِه ولِبَدنِه، لا يُقادَرُ قَدْرُه، ولا يُدرَى بعظيمِ أمرِه، وهذه بِشارةُ أهلِ الشَّرِّ، فلا نِعْمَتِ البِشارةُ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ مَن إذا تُتلَى عليه الآياتُ ولَّى؛ بيَّنَ حالَ مَن يُقبِلُ على تلك الآياتِ ويَقبَلُها[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَر الله تعالى عذابَ مَن يُضِلُّ عن سبيلِه؛ أتْبَع ببِشارةِ المحسنينَ[٢].

وأيضًا لَمَّا كانت معرفةُ ما لأحدِ الحِزبَينِ باعثةً على السُّؤالِ عمَّا للحزبِ الآخَرِ، وكانت إجابةُ السُّؤالِ عن ذلك مِن أتمِّ الحكمةِ؛ استأنَف تعالى قولَه مؤكِّدًا لأجْلِ إنكارِ الكفرةِ[٣]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾.

أي: إنَّ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ بإخلاصٍ لله تعالى، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه: لهم في الآخرةِ جَنَّاتٌ يتنعَّمونَ فيها بأنواعِ النَّعيمِ[٤].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ماكِثينَ فيها أبدًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾.

أي: وَعَدهم اللهُ هذا وعْدًا حَقًّا، لا يُمكِنُ أن يَتخَلَّفَ وُقوعُه، أو يَتغيَّرَ ويَتبدَّلَ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو الَّذي له كَمالُ العِزَّةِ؛ فقَهَر وغلَبَ كُلَّ شَيءٍ، ودانَ له كُلُّ شَيءٍ، ومِن عِزَّتِه أنَّه لا يمنَعُه شَيءٌ مِن تنفيذِ وَعدِه ووعيدِه، وله كَمالُ الحِكمةِ والإحكامِ في أقوالِه وأفعالِه، ومِن عِزَّتِه وحِكمتِه أنَّه وَفَّق مَن وَفَّق مِن عبادِه، وخَذَل مَن خَذَل منهم[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ...﴾ ذمٌّ لِمَن يَركَنُ إلى لَهْوِ الحديثِ، وهو ما لا خيرَ فيه[٣] مِن كُلِّ كلامٍ مُحرَّمٍ، وكُلِّ لَغْوٍ وباطلٍ وهَذَيانٍ مِن الأقوالِ المرَغِّبةِ في الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ، ومِن أقوالِ الرَّادِّينَ على الحَقِّ، المجادِلينَ بالباطِلِ؛ لِيُدْحِضوا به الحَقَّ، ومِن غِيبةٍ ونَميمةٍ، وكَذِبٍ وشَتمٍ وسَبٍّ، ومِن غِناءٍ ومَزاميرِ شَيطانٍ، ومِن الماجَرَياتِ[٤] المُلْهِيةِ الَّتي لا نَفْعَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).
قال الخازنُ: (﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ يعني: وعَدَكم الله ذلك وعْدًا حقًّا). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٣٣).

(٤) الماجريات: جمعُ (ما جرَى)، مولَّدٌ، يُرادُ به الأمورُ التي يُسألُ عنها بـ (ما جرَى؟). ((معجم متن اللغة)) لأحمد رضا (١/ ٥١٩).

فيها في دينٍ ولا دُنيا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ذمٌّ لكُلِّ ما يَصُدُّ عن سَبيلِ الله تعالى، ثمَّ إنْ كان يُضِلُّ عن واجبٍ صار حَرامًا، وإنْ كان يُضِلُّ عن مُستحَبٍّ لم يكُنْ حَرامًا، لكِنَّه يُذَمُّ بلا شَكٍّ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ دليلٌ على تحريمِ الغِناءِ وما أخَذَ أخْذَه ممَّا يُضِلُّ عن سَبيلِ الله[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه سؤالٌ: ما مَعنى إضافةِ اللَّهوِ إلى الحَديثِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ معناها التَّبيينُ، وهي الإضافةُ بمعنى (مِن)، وأن يُضافَ الشَّيءُ إلى ما هو منه، كقَولِه: (صُفَّةُ خَزٍّ، وبابُ ساجٍ)، والمعنى: مَن يشتري اللَّهوَ مِن الحديثِ؛ لأنَّ اللَّهوَ يكونُ مِن الحديثِ ومِن غَيرِه، فبُيِّنَ بالحديثِ، والمرادُ بالحديثِ: الحَديثُ المُنكَرُ.

الوجهُ الثاني: أنَّه يجوزُ أنْ تكونَ الإضافةُ بمعنى (مِن) التَّبعيضيَّةِ، كأنَّه قيل: ومِنَ النَّاسِ مَن يَشتري بعضَ الحديثِ الَّذي هو اللَّهوُ منه[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ ثُبوتُ المدحِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٣٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩١).

والثَّناءِ لِمَن كان على العَكسِ مِن ذلك؛ لأنَّ الذَّمَّ على صِفةٍ يَقتضي مَدْحَ مَن اتَّصَفَ بضِدِّها، وهذه قاعدةٌ مُفيدةٌ، فيؤخَذُ منه: مَدْحُ مَن إذا تُلِيَتْ عليه آياتُ الرَّحمنِ أقْبَل إليها واستمَعَ إليها(١).

٤- قولُه: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ فيه رمْزٌ إلى أنَّ مَن سمِعَها لا يُتصوَّرُ منه التَّوليةُ والاستِكبارُ؛ لِمَا فيها مِنَ الأمورِ المُوجِبةِ للإقبالِ عليها، والخضوعِ لها(٢).

٥- حُجَّةُ اللهِ برُسُلِه قامتْ بالتَّمَكُّنِ مِن العِلمِ، فليس مِن شَرْطِ حُجَّةِ اللهِ تعالى عِلْمُ المَدْعوِّينَ بها؛ ولهذا لم يكُنْ إعراضُ الكُفَّارِ عن استِماعِ القرآنِ وتدَبُّرِه مانِعًا مِن قيامِ حُجَّةِ اللهِ تعالى عليهم، وكذلك إعراضُهم عن استِماعِ المنقولِ عن الأنبياءِ، وقراءةِ الآثارِ المأثورةِ عنهم: لا يمنعُ الحُجَّةَ؛ إذِ المُكْنة حاصِلةٌ؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [فصلت: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾(٣) [الفرقان: ٣٠، ٣١].

٦- قال تعالى هنا: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ على سَبيلِ التَّشبيهِ، وصَرَّح في غيرِ هذا الموضعِ أنَّه جعَلَ في أُذُنَيه الوَقرَ بالفِعلِ، في قَولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧]، والظَّاهِرُ أنَّ الوَقْرَ المذكورَ: على سَبيلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((الرَّد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٩٩).

التَّشبيهِ بالوَقرِ الحِسِّيِّ؛ لأنَّ الوَقْرَ المعنويَّ يُشبِهُ الوَقرَ الحِسِّيَّ، والوَقْرُ المجعولُ على آذانِهم بالفِعلِ: هو الوَقرُ المعنويُّ المانِعُ مِن سَماعِ الحَقِّ فقط دونَ سَماعِ غَيرِه، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى[١].

٧- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ تَضمَّنتْ هذه الآيةُ ذمَّ المُشتري لِلَهْوِ الحَديثِ مِن وُجوهٍ: التَّوليةِ عن الحِكمةِ، ثمَّ الاستِكبارِ، ثمَّ عدَمِ الالتِفاتِ إلى سماعِها كأنَّه غافلٌ عنها، ثمَّ الإيغالِ في الإعراضِ بكَونِ أُذنَيْه كأنَّ فيهما صَممًا يَصُدُّه عن السَّماعِ[٢].

٨- في قولِه تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أنَّ البِشارةَ تُطْلَقُ على ما يَسوءُ[٣]، وهي تُطلَقُ غالِبًا على الإخبارِ بما يَسُرُّ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أنَّ الإيمانَ لا يكفي، بل لا بُدَّ مِن عَمَلٍ صالحٍ؛ فمُجَرَّدُ العقيدةِ لا يكفي إذا لم يَكُنْ عَمَلٌ صالحٌ، بل رُبَّما نقولُ: إنَّه إذا لم يكُنْ عَمَلٌ صالحٌ فهو دَليلٌ على أنَّه لا عقيدةَ؛ لأنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يقولُ: ((أَلَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه))[٥].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٤٤).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٥٠).

والحديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) مطوَّلًا من حديثِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رضي الله عنهما.

لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ تنكيرُ العذابِ، وتَعريفُ الجنَّةِ بالإضافةِ إلى المعرَّفِ: إشارةٌ إلى أنَّ الرَّحيمَ يُبيِّنُ النِّعمةَ ويُعَرِّفُها؛ إيصالًا للرَّاحةِ إلى القَلبِ، ولا يُبيِّنُ النِّقمةَ، وإنَّما ينبِّهُ عليها تنبيهًا[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ دَلالةٌ على أنه لا مرضَ في الجنَّةِ، ووجهُه قولُه تعالى: ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾؛ لأنَّ المرضَ يُنافي النَّعيمَ؛ وعلى أنَّه ليس فيها شَيخوخةٌ؛ لأنَّ الشَّيْخوخةَ تُنافي ذلك أيضًا؛ وعلى أنَّه ليس فيها هَمٌّ أو كَدَرٌ أو تَنغِيصٌ أبدًا، كلُّ هذا يُنافي النَّعيمَ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾

- قولُه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ ... ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾، وهذا مِن مُقابَلةِ الثَّناءِ على آياتِ الكِتابِ الحَكيمِ بضِدِّ ذلك في ذَمِّ ما يأْتي به بعضُ النَّاسُ، وهذا تخلُّصٌ مِن المُقدِّمةِ إلى مَدخلٍ للمقصودِ[٣].

- وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾؛ للتَّشويقِ إلى تلقِّي خبَرِه العَجيبِ[٤].

- قَولُه: ﴿مَن يَشۡتَرِي ﴾ عبَّرَ عن الاختيارِ بالاشتِراءِ، وهو إشارةٌ إلى حِرصِهم على هذا الأمرِ؛ لأنَّ الاشتراءَ إنَّما يكونُ بالمُعاوَضةِ، فكأنَّهم لِقُوَّةِ اختيارِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٤٢).

هذا الشَّيءَ بذَلوا فيه أموالَهم لِيَنالوه[١].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وما فيهِ مِن مَعنى البُعْدِ، مع قُرْبِ العهْدِ بذِكْرِ المُشارِ إليهِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الشَّرارةِ، أي: أولئك المَوصوفون بما ذُكِرَ مِنَ الاشتراءِ للإضلالِ ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[٢]. واختيرَ اسمُ الإشارةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ ما يَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن الخبرِ إنَّما استحَقَّه لِأجْلِ ما سبَقَ اسمَ الإشارةِ مِن الوصْفِ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا ...﴾ تمْثيلٌ للإعراضِ عن آياتِ اللهِ، كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ﴾ [النازعات: ٢٢]، وشُبِّه في ذلك بالَّذي لا يَسمَعُ الآياتِ الَّتي تُتْلَى عليه، ووجْهُ الشَّبهِ هو عدَمُ التَّأثُّرِ ولو تأثُّرًا يَعقُبُه إعراضٌ، كتأثُّرِ الوَليدِ بنِ المُغيرةِ. و(كأنْ) مُخفَّفةٌ مِن (كأنَّ)، وكرَّرَ التَّشبيهَ؛ لتَقْويتِه مع اختِلافِ الكَيفيَّةِ في أنَّ عدَمَ السَّمْعِ مرَّةً مع تمكُّنِ آلةِ السَّمْعِ، ومرَّةً مع انعدامِ قوَّةِ آلَتِه؛ فشُبِّهَ ثانيًا بمَن في أُذنَيْه وقْرٌ، وهو أخصُّ مِن معنى ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾[٤].

- قولُه: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قيل: ذِكْرُ البِشارةِ؛ للتَّهكُّمِ[٥]، وذلك على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٥).

القَولِ بأنَّ البِشارةَ هي الخبرُ السَّارُّ الَّذي ليس عندَ المُخبَرِ عِلمٌ به[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ورَدَ قولُه: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ...﴾ هنا بزيادةِ ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، وفي (الجاثيةِ) بحَذْفِه: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية: ٨]، ووجْهُه: أنَّ اللهَ تعالى بالَغَ في ذَمِّه هنا؛ فناسَبَ زِيادةُ ذلك، بخِلافِ ما في (الجاثيةِ): لم يُبالِغْ فيها هذه المُبالَغةَ؛ لِمَا ذَكَر بعدَه ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية: ٩]؛ لأنَّ العِلْمَ لا يَحصُلُ إلَّا بالسَّماعِ، أو ما يقومُ مَقامَه مِن خَطٍّ أو غيرِه[٢].

وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّ آيةَ (الجاثيةِ) لَمَّا تقدَّمَ فيها: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ [الجاثية: ٧، ٨] فوصَفَه بسَماعِ آياتِ اللهِ؛ لم يكُنْ لِيُطابِقَه ذِكْرُ الوقْرِ في الأُذُنِ؛ لأنَّه قد ذكَرَ سماعَه الآياتِ، والوقْرُ مانعٌ مِن السَّمعِ؛ فلم يُناسِبِ الإعلامَ بالسَّماعِ ذِكْرُ الوقْرِ المانعِ منه. ولَمَّا لم يقَعْ ذِكْرُ سماعِ الآياتِ في آيةِ (لُقمانَ)، وتقدَّمَ ذِكْرُ المُشارِ إليه فيها بقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان: ٦]، وهذه زِيادةُ مُرتكَبٍ؛ فناسَبَها ذِكْرُ زِيادةِ الوقْرِ، مع أنَّه لم يَرِدْ فيها ذِكْرُ سماعِه الآياتِ كما ورَدَ في آيةِ (الجاثيةِ)، فازدادَ وُضوحُ التَّلاؤُمِ، وإنْ عُكِسَ الواردُ لا يُلائِمُ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ بَيانٌ لحالِ المُؤمنينَ بآياتِه تعالى، إثْرَ بَيانِ حالِ الكافرينَ بها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩).

- قولُه: ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: النَّعيم الكثير، وإضافةُ الجنَّاتِ إليه باعتبارِ اشتمالِها عليه، نظيرُ قولِك: (كتب الفقهِ)[١]. وقيل: ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: نَعيمُ جَنَّاتٍ؛ فعُكِسَ للمُبالَغةِ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾ (وَعْدَ) و(حَقًّا) مَصْدَرانِ مُؤكِّدانِ: الأوَّلُ لنفْسِه، والثَّاني لغَيرِه؛ لأنَّ قولَه تعالَى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ في معنى: وعَدَهم اللهُ جنَّاتِ النَّعيمِ؛ فأكَّدَ معنى الوعْدِ بالوعْدِ، وأمَّا ﴿حَقّٗا﴾ فدالٌّ على معنَى الثَّباتِ، أكَّدَ به معنى الوعْدِ، ومُؤكَّدُهما جميعًا ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾[٣].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيه إجراءُ هذَينِ الاسمينِ الجَليلينِ على ضَميرِ الجلالةِ؛ لتَحقيقِ وعْدِه؛ لأنَّه -لعِزَّتِه- لا يُعجِزُه الوفاءُ بما وعَدَ، ولحِكمْتِه لا يُخطِئُ، ولا يَذهَلُ عمَّا وعَدَ؛ فمَوقعُ جُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ مَوقعُ التَّذييلِ بالأعمِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩، ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٥).

الآيتان (١٠-١١)

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَوَٰسِيَ﴾: أي: جِبالًا ثوابِتَ، وأصلُ (رسي): يدُلُّ على ثَباتٍ[١].

﴿تَمِيدَ﴾: أي: تَميلَ وتَضطَرِبَ، والمَيْدُ: الحَركةُ والمَيلُ، وأصلُ (ميد): يدُلُّ على حَركةٍ[٢].

﴿وَبَثَّ﴾: أي: فرَّق ونشَرَ، وأصلُ (بثث): يدُلُّ على تفريقِ الشَّيءِ[٣].

﴿زَوۡجٖ﴾: أي: لَونٍ وصِنفٍ، يُقالُ لِكُلِّ ما يَقترِنُ بآخَرَ مُماثِلًا له أو مُضادًّا: زَوجٌ، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٠).

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ الله تعالى عبادَه عن بعضِ آثارِ قدرتِه، وبدائعِ حكمتِه، ونِعَمِه الَّتي هي مِن آثارِ رحمتِه، فيقولُ: خلَقَ اللهُ السَّمَواتِ مَرفوعةً بغيرِ أعمِدةٍ كما تَرَونَها، وجعَلَ في الأرضِ جِبالًا ثابتةً؛ لئَلَّا تَميلَ الأرضُ وتَضطَرِبَ بكم، ونشَرَ في الأرضِ مِن كُلِّ الدَّوابِّ، وأنزَل اللهُ مِن السَّماءِ مَطَرًا، فأنبَتَ بسَبَبِه مِن كُلِّ أصنافِ النَّباتاتِ الكثيرةِ المنافعِ، الحَسَنةِ المنظَرِ.

هذا خَلْقُ اللهِ وَحْدَه؛ فأرُوني -أيُّها المُشرِكونَ- ماذا خلَقَ الَّذين تَعبُدونَهم مِن دونِ اللهِ، بل المُشرِكونَ في ضَلالٍ واضحٍ ظاهرٍ بِتَركِهم عِبادةَ رَبِّهم، وعبادتِهم سِواه.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا خَتَم الله تعالى الآيةَ السَّابقةَ بصِفتَي العِزَّةِ -وهي غايةُ القُدرةِ- والحِكمةِ -وهي ثمرةُ العِلمِ-: دلَّ عليها بإتقانِ أفعالِه وإحكامِها، فقال[1]:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا ﴾.

أي: خلَقَ اللهُ السَّمَواتِ السَّبْعَ مَرفوعةً بلا أعمِدةٍ، كما تَرَونَها[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٨، ٤٢٩) و(٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٥٤). =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ في الأرضِ جبالًا ثابتةً؛ لِئَلَّا تَتمايَلَ الأرضُ، وتَضطَرِبَ بكم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧].

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾.

أي: وفرَّق اللهُ في الأرضِ ونشَرَ مِن كُلِّ أنواعِ الدَّوابِّ[(٢)].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

أي: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ مَطرًا، فأنبَتْنا بسَبَبِه مِن كُلِّ أصنافِ النَّباتاتِ الحَسَنةِ المنظَرِ، الكثيرةِ المنافِعِ[(٣)].

= قال ابن جُزَي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الرَّعدِ، الآية (٢): (﴿تَرَوْنَهَا﴾ قيل: الضَّميرُ للسَّمواتِ، و﴿تَرَوْنَهَا﴾ على هذا في موضعِ الحالِ، أو استئنافًا. وقيل: الضَّميرُ للعَمَدِ، أي: ليس لها عَمَدٌ مَرئيَّةٌ، فيَقتضي المفهومُ مِن أنَّ لَها عَمَدًا لا تُرى. وقال الجمهورُ: لا عَمَدَ لها الْبَتَّةَ، فالمرادُ نَفْيُ العَمَدِ، ونفْيُ رُؤيتِها). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩٩).

قال الرَّسْعَني: (لأنَّها لو احتاجتْ إلى عَمَدٍ لافتقَرَ العَمَدُ إلى دِعامةٍ أيضًا، وتَسلسَل إلى ما لا نهايةَ له). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٣٧). ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الرعد من ((التفسير المحرر)) (١٢/ ١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٦).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۞ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۞ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ [ق: ٩ - ١١].

﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثبَتَ بهذا الخَلقِ العظيمِ على هذا الوَجهِ المُحكَمِ: عِزَّتُه تعالى وحِكمتُه؛ ثَبَتتْ ألوهيَّتُه، فألزَمَ الكافِرينَ وُجوبَ تَوحيدِه في العبادةِ كما تَوحَّدَ بالخَلقِ؛ لأنَّ ذلك عَينُ الحِكمةِ، كما كان خَلقُه لهذا الخَلقِ على هذا النِّظامِ -لِيَدُلَّ عليه سُبحانَه- سِرَّ الحِكمةِ[1].

﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

أي: هذا الَّذي تقدَّمَ ذِكرُه مِن خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما هو خَلْقُ اللهِ وَحْدَه؛ فأرُوني -أيُّها المُشرِكونَ- أيَّ شَيءٍ خَلَقَ الَّذين تَعبُدونَهم مِن دونِ اللهِ حتَّى استحَقُّوا تلك العبادةَ منكم[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٦٧).

كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧].

﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

أي: بل المُشرِكونَ في ذَهابٍ عن الحَقِّ واضِحٍ ظاهِرٍ؛ حيثُ عَبَدوا ما لا يَخلُقُ شَيئًا، وتَرَكوا عِبادةَ الخالِقِ وحْدَه سُبحانَه[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ بيانُ قدرةِ الله عزَّ وجلَّ ببَثِّ هذه الدَّوابِّ في الأرضِ، ووجهُ دَلالتِها على القُدرةِ اختِلافُ هذه الدَّوابِّ في أجناسِها وأنواعِها، وأشكالِها وأحوالِها[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ إنزالُ الماءِ نِعمةٌ ظاهِرةٌ مُتكرِّرةٌ في كُلِّ زمانٍ، مُتكَثِّرةٌ في كُلِّ مكانٍ؛ فأسندَه تعالى إلى نَفْسِه صَريحًا؛ ليَتنَبَّهَ الإنسانُ لِشُكرِ نِعمتِه، فيَزيدَ له مِن رحمتِه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ دَليلٌ على الرَّحمةِ؛ حيث كان نُزولُه مِن العُلوِّ لأجْلِ أنْ يَشملَ المرتَفعَ والمنخَفِضَ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا ﴾ إثباتُ الأسبابِ، ويُؤخَذُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٦٥).

إثباتُ الأسبابِ مِن فاءِ السَّببيَّةِ ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾، وإثباتُ الأسبابِ مِن حِكمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ فالمنكِرُ للأسبابِ طاعِنٌ في حِكمةِ اللهِ تعالى لا شَكَّ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ بيانُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ على تصنيفِ هذا النَّباتِ، مع أنَّ أرضَه واحِدةٌ وماءَه واحدٌ؛ لِقَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ﴾، أي: مِن كُلِّ صِنفٍ، فتَرى هذه الشَّجرةَ كبيرةً وهذه صَغيرةً، وهذه خَضراءَ وهذه بُنِّيَّةً؛ هذه زهرتُها بَيضاءُ، وهذه صَفراءُ، وهذه بِلَونٍ آخَرَ؛ ألوانٌ مختلِفةٌ مع أنَّ الماءَ واحدٌ والأرضَ واحدةٌ! وهذا دليلٌ على كَمالِ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ الاستدلالُ بتوحيدِ الرُّبوبيةِ على توحيدِ الألوهيَّةِ؛ فالمُشركونَ يُقِرُّونَ بأنَّه خَلْقُ اللهِ تعالى، فإذا أقَرُّوا به يَلزَمُهم الإقرارُ بتَوحيدِ الألوهيَّةِ[٣]، فتَوحيدُ الرُّبوبيَّةِ أعظَمُ دليلٍ على توحيدِ الإلهيَّةِ؛ ولذلك وقَع الاحتِجاجُ به في القرآنِ أكثَرَ ممَّا وقَع بغيرِه؛ لِصِحَّةِ دَلالتِه، وظُهورِها، وقَبولِ العُقولِ والفِطَرِ لها، ولاعترافِ أهلِ الأرضِ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ، وكذلك كان عُبَّادُ الأصنامِ يُقِرُّون به، ويُنكِرونَ توحيدَ الإلهيَّةِ، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، مع اعترافِهم بأنَّ اللهَ وحْدَه هو الخالقُ لهم ولِلسَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، وأنَّه المُنفرِدُ بملْكِ ذلك كلِّه، فأرسَل اللهُ تعالى الرُّسلَ تُذَكِّرُهم بما في فِطَرِهم الإقرارُ به مِن تَوحيدِه وحْدَه لا شريكَ له، وأنَّهم لو رجَعوا إلى فِطَرِهم وعُقولِهم لَدَلَّتْهم على امتناعِ إلهٍ آخَرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٦٦). ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٢٣٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٠).

معه، واستِحالتِه وبُطلانِه[١].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ فللَّه ما أحلَى هذا اللَّفْظَ وأوجَزَه، وأدَلَّه على بُطلانِ الشِّركِ! فإنَّهم إن زعَموا أنَّ آلهتَهم خَلَقت شيئًا مع اللهِ طُولِبوا بأنْ يُرُوه إيَّاه، وإن اعترَفوا بأنَّها أعجَزُ وأضعَفُ وأقَلُّ مِن ذلك كانت إلهيَّتُها باطِلًا ومُحالًا[٢]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ الاستِدلالُ بالأظهَرِ على ما يُنكِرُه الخَصمُ؛ فإنَّ هذا استِدلالٌ بأمرٍ ظاهرٍ واضِحٍ على أمرٍ يُنكِرُه الخَصمُ، وهو إنكارُ انفرادِ اللهِ تعالى بالأُلوهيَّةِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ استِعمالُ التَّحدِّي في المُناظَرةِ[٤].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ استئنافٌ للاستِدلالِ على الَّذين دأْبُهم الإعراضُ عن آياتِ اللهِ بأنَّ اللهَ هو خالِقُ المخلوقاتِ، فلا يَستحِقُّ غيرُه أنْ تُثْبَتَ له الإلهيَّةُ؛ فكان ادِّعاءُ الإلهيَّةِ لغيرِ اللهِ هو العِلَّةَ للإعراضِ عن آياتِ الكتابِ الحكيمِ؛ فهمْ لَمَّا أثْبَتوا الإلهيَّةَ لِمَا لا يَخلُقُ شيئًا، كانوا كمَن يَزعُمُ أنَّ الأصنامَ مُماثِلةٌ لله تعالى في أوصافِه؛ فذلك يَقْتضي

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٤٥).

(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

انتِفاءَ وصْفِ الحِكمةِ عنه، كما هو مُنتَفٍ عنها؛ ولذا فإنَّ مَوقعَ هذه الآياتِ مَوقعُ دَليلِ الدَّليلِ، وهو المقامُ المُعبَّرُ عنه في عِلمِ الاستِدلالِ بالتَّدقيقِ؛ وهو ذِكْرُ الشَّيءِ بدَليلِه ودَليلِ دَليلِه[١].

- وأدمَجَ في أثناءِ دَلائلِ صِفَةِ الحِكمةِ الامتِنانَ بما في ذلك مِن منافِعَ للخَلْقِ بقولِه: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ فإنَّ مِن الدَّوابِّ المَبثوثةِ ما يَنتفِعُ به النَّاسُ؛ مِن أكْلِ لُحومِ أوانسِها ووُحوشِها، والانتِفاعِ بألْبانِها وأصوافِها، وجُلودِها وقُرونِها وأسنانِها، والحمْلِ عليها، والتَّجمُّلِ بها في مَرابطِها، وغُدوِّها ورَواحِها، ثمَّ مِن نِعمةِ مَنافعِ النَّباتِ؛ مِن الحَبِّ والثَّمرِ، والكلأِ والكَمْأَةِ. وإذ كانتِ البحارُ مِن جُملةِ الأرضِ، فقد شمِلَ الانتِفاعَ بدَوابِّ البحرِ؛ فاللهُ كما أبدَعَ الصُّنعَ أسبَغَ النِّعمةَ، فأَرانا آثارَ الحِكمةِ والرَّحمةِ[٢].

- وقولُه: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ استئنافٌ جِيءَ به للاستِشهادِ على ما ذُكِرَ مِن خَلْقِه تعالى لها غيرَ مَعهودةٍ بمُشاهَدتِهم لها كذلك. أو صِفَةٌ لـ﴿عَمَدٍ﴾، أي: خلَقَها بغيرِ عمَدٍ مَرئيَّةٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾، في قولِه: ﴿وَبَثَّ﴾ التِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في الفِعلينِ (أَنْزَلْنَا) و﴿فَأَنْبَتْنَا﴾؛ للاهتِمامِ بهذه النِّعمةِ الَّتي هي أكثَرُ دوَرانًا عندَ النَّاسِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٥، ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٦).

٢- قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ جُملةُ ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخرِها، نتيجةُ الاستدلالِ بخلْقِ السَّماءِ والأرضِ، والجبالِ والدَّوابِّ، وإنزالِ المطَرِ. و﴿ هَٰذَا ﴾ إشارةٌ إلى ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ إلى قولِه: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾، والإتيانُ به مُفردًا بتأْويلِ: (المذكور)[١].

- وفي قولِه: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ... ﴾ بكَّتَهم بأنَّ هذه الأشياءَ العظيمةَ ممَّا خلَقَه اللهُ وأنشَأَه؛ ففيه توبيخٌ للكفَّارِ، وإظهارٌ للحُجَّةِ عليهم[٢].

- والانتِقالُ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ الْتِفاتًا؛ لزيادةِ التَّصريحِ بأنَّ الخِطابَ واردٌ مِن جانبِ اللهِ؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾، وكذلك يكونُ الانتقالُ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ الْتِفاتًا؛ لمُراعاةِ العَودِ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾[٣].

- ويجوزُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ مِن قولِه: ﴿فَأَرُونِي ﴾ عِلْميَّةً، أي: فأَنْبِئوني، والفعلُ مُعلَّقًا عن العمَلِ بالاستفهامِ بـ(ماذا)؛ فيتعيَّنُ أنْ يكونَ ﴿فَأَرُونِي ﴾ تهكُّمًا؛ لأنَّهم لا يُمكِنُ لهم أنْ يُكافِحوا اللهَ، زيادةً على كَونِ الأمرِ مُستعمَلًا في التَّعجيزِ، لكنَّ التَّهكُّمَ أسبَقُ؛ للقطْعِ بأنَّهم لا يَتمكَّنون مِن مُكافَحةِ اللهِ قبْلَ أنْ يَقطَعوا بعَجْزِهم عن تعْيينِ مَخلوقٍ خلَقَه مَن دونَ اللهِ قطْعًا نظَريًّا، وصَوْغُ أمْرِ التَّعجيزِ مِن مادَّةِ الرُّؤيةِ البصَريَّةِ أشدُّ في التَّعجيزِ؛ لاقتِضائِها الاقتناعَ منهم بأنْ يُحضِروا شيئًا يَدَّعون أنَّ آلهتَهم خلَقَتْه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ فيه إجراءُ اسم مَوصولِ العُقلاءِ (الَّذين) على الأصنامِ؛ مُجاراةً للمُشركين؛ إذ يَعُدُّونهم عُقلاءَ[١].

- وفي قولِه: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إضرابٌ عن تَبْكيتِهم إلى التَّسجيلِ عليهم بالضَّلالِ الَّذي لا يَخْفَى على ناظرٍ، المُستدعي للإعراضِ عن مُخاطَبتِهم بالمُقدِّماتِ المَعقولةِ الحقَّةِ؛ لاستحالةِ أنْ يَفْهَموا منها شيئًا، فيَهْتدوا به إلى العِلمِ ببُطلانِ ما هُم عليه، أو يَتأثَّروا مِن الإلزامِ والتَّبكيتِ، فيَنزجِرُوا عنه، وهذا يدُلُّ على أنَّهم في حَيْرةٍ واضحةٍ لمَن يَتدبَّرُ؛ لأنَّ مَن عبَدَ صَنمًا وترَكَ خالِقَه جديرٌ بأنْ يكونَ في حَيرةٍ وتِيهٍ لا يُقلِعُ عنه[٢].

- وفي قولِه: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وَضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ ضَميرِهم -حيثُ لم يقُلْ: (بل هم)-؛ للدَّلالةِ على أنَّهم بإشراكِهم واضِعونَ للشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه، ومُتعَدُّون عن الحُدودِ، وظالِمون لأنفُسِهم بتَعريضِها للعذابِ الخالِدِ[٣].

- وجِيءَ بحرْفِ الظَّرفيةِ (فِي)؛ لإفادةِ اكتِنافِ الضَّلالِ بهم في سائرِ أحوالِهم، أي: شدَّةِ مُلابسَتِه إيَّاهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠، ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٨).

الآيتان (١٢-١٣)

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾

قَولُه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾: في (أَنْ) وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّها مُفَسِّرةٌ؛ لأنَّ إيتاءَ الحِكمةِ في معنى القَولِ دونَ حُروفِه، ففسَّرَ إيتاءَ الحِكمةِ بالبَعثِ على الشُّكرِ. وجملةُ ﴿ٱشْكُرْ﴾ تَفسيريَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ. والثَّاني: أن تكونَ مَصدريَّةً في موضعِ نَصبٍ أو جَرٍّ على إسقاطِ حَرفِ الجَرِّ، أي: (بأنِ اشكُرْ لله) أو (لِأَنِ اشكُرْ لله)، أو المصدَرُ المؤَوَّلُ (أنِ اشكُرْ) بدَلُ اشتِمالٍ مِن الحِكمةِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى عن امتنانِه على عبدِه لُقْمانَ بالحكمةِ، فيقولُ: ولقد آتَيْنا لُقمانَ العِلمَ والفِقهَ في الدِّينِ؛ أنِ اشكُرْ لله على ما آتاك مِن فَضلِه، ومَن يَشكُرِ اللهَ فإنَّما يَعودُ نَفعُ شُكرِه إلى نَفْسِه، ومَن كفَرَ نِعَمَ اللهِ عليه فالله غنيٌّ عنه، محمودٌ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه سُبحانَه، حامِدٌ لِمَن يَشكُرُه.

ثمَّ يحكي الله تعالى طرَفًا ممَّا قاله لقمانُ لابنِه على سبيلِ النُّصحِ والإرشادِ ممَّا يدُلُّ على حكمتِه، فيقولُ: وإذ قال لُقمانُ لابنِه واعِظًا له: يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٣)، ((المجتبى)) لأحمد الخراط (٣/ ٩٤٦).

باللهِ؛ إنَّ الشِّركَ لَذَنْبٌ عَظيمٌ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن بَيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ فَسادَ اعتِقادِ المُشرِكينَ بإشراكِ مَن لا يَخلُقُ شَيئًا بمَن خلَق كُلَّ شَيءٍ، ثمَّ بَيَّن أنَّ المُشرِكَ ظالِمٌ ضالٌّ- أعقَبَ ذلك ببَيانِ أنَّ نِعَمَه الظَّاهِرةَ فى السَّمَواتِ والأرضِ، والباطِنةَ؛ مِن العِلمِ والحِكمةِ: تُرشِدُ إلى وحدانيَّتِه، وقد آتاها لِبَعضِ عبادِه، كلُقْمانَ[1]، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾.

أي: ولقدْ آتَيْنا لُقمانَ[2] الفَهمَ والعِلمَ والفِقهَ في الدِّينِ، والإصابةَ في القَولِ والعَمَلِ؛ أي: اشكُرْ للهِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٧٩).

(٢) قال ابنُ كثير: (جمهورُ السَّلَفِ على أنَّه لم يكُنْ نَبيًّا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٤).
ونسَب النووي ذلك إلى الجماهيرِ مِن العلماءِ، وذكَر أنَّ مَن قال: إنَّه نبيٌّ قد شذَّ، ولا التفاتَ إليه، ولا تعريجَ عليه. يُنظر: ((الأذكار)) (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٧).
ممَّن اختار أنَّ ﴿أَنِ﴾ تفسيريَّةٌ، وأنَّ المعنى: أي: اشكُرْ لله: ابنُ جرير، والزمخشري، والرازي، والرسعني، والنسفي، وأبو السعود، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٧١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٧٣، ٧٦). =

كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

عن أنسٍ رضيَ الله عنه: (أنَّ لُقمانَ كان عندَ داودَ وهو يَسْرُدُ الدِّرعَ[١]، فجعَل يَفتِلُه هكذا بيَدِه، فجعَل لُقمانُ يتعجَّبُ ويُريدُ أن يَسألَه، فتَمنَعُه حِكمتُه أن يَسألَ، فلمَّا فرَغ منها ضمَّها على نفْسِه، وقال: نِعْمَ دِرعُ الحربِ هذه! فقال لقمانُ: إنَّ الصَّمتَ مِن الحُكمِ[٢]، وقليلٌ فاعِلُه، كنتُ أريدُ أن أسألَك فسكَتُّ حتَّى كَفَيْتَني)[٣].

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾.

أي: ومَن يَشكُرِ اللهَ على نِعَمِه، فإنَّما يَعودُ نَفْعُ ذلك وثَوابُه إليه لا إلى اللهِ سُبحانَه[٤].

= قال ابنُ عطية: (يجوزُ أن تكونَ مفسِّرةً، أي: كانت حكمتُه دائرةً على الشُّكرِ لله ومعانيه، وجميعُ العباداتِ والمعتقَداتِ داخلةٌ في شكرِ الله تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٨).

وقيل: إنَّ (أن) هنا مصدريَّةٌ. وممَّن اختاره الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٩٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٣).

وقيل: المرادُ: أنه لمـَّا آتاه الله تعالى الحكمةَ أمَرَه بأن يَشكُرَه على ذلك. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

(١) يسرُدُ الدِّرعَ، أي: يَنسُجُها ويُدخِلُ الحِلَقَ بَعضَها في بَعضٍ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٤٥).

(٢) الحُكم: أي: الحِكمة؛ لأنَّه يَمنَعُ مِن الجَهلِ والسَّفَهِ. يُنظر: ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني (٧/ ٧٠).

(٣) أخرجه الحاكم (٣٥٨٢)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٥٠٢٦) واللفظ له.

صحَّحه الحاكمُ على شرطِ مسلم، وصحَّحه البيهقيُّ، وأقرَّه العِراقي في ((تخريج الإحياء)) (٣/ ١٠٨)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٥٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

أي: ومَن كَفَر نِعَمَ اللهِ عليه، فإنَّما يَرجِعُ ضَرَرُ كُفرِه ووَبالُه عليه؛ فاللهُ غَنيٌّ عن شُكرِ العبادِ، فشُكرُهم لا يَنفَعُ اللهَ بشَيءٍ، وكُفرُهم لا يضُرُّ اللهَ في شَيءٍ؛ فهو مَحمودٌ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه على كُلِّ حالٍ، وهو حامِدٌ لِمَن يَشكُرُه سُبحانَه[١].

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ مَضمونَ هذه الجُملةِ يُفَسِّرُ بَعضَ الحِكمةِ الَّتي أُوتِيَها لُقمانُ، وهذا انتِقالٌ مِن وَصفِه بحِكمةِ الاهتِداءِ إلى وَصفِه بحِكمةِ الهُدى والإرشادِ[٢]، فعُلُوُّ مَرتَبةِ الإنسانِ بأن يكونَ كامِلًا في نَفْسِه، ومُكَمِّلًا لِغَيرِه؛ فقَولُه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ إشارةٌ إلى الكَمالِ، وقَولُه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ إشارةٌ إلى التَّكميلِ[٣].

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾.

= (١٤/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٥).

قال ابنُ عثيمين: (الشُّكرُ هو القيامُ بطاعةِ المنعِمِ؛ اعترافًا بالقَلبِ، وثَناءً باللِّسانِ، وطاعةً بالأركانِ؛ فمُتعَلَّقُ الشُّكرِ ثلاثةٌ: اللِّسانُ، والقَلبُ، والجوارحُ، وسَبَبُه واحِدٌ، وهو النِّعمةُ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٣، ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٩).

أي: واذكُرْ إذ[١] أوصَى لُقمانُ ابنَه بعِبادةِ اللهِ وَحْدَه، وحَذَّره مِنَ الشِّركِ، فقال له ناصِحًا بما يَنفَعُه، ويُهَذِّبُ نفْسَه، ويُرقِّقُ قلْبَه: يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ باللهِ شَيئًا[٢].

﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾.

أي: إنَّ الشِّركَ باللهِ خَطأٌ وذَنْبٌ عَظيمٌ؛ فالمُشرِكُ يَظلِمُ نفْسَه بصَرفِ العِبادةِ إلى مَن لا يَستَحِقُّها[٣]!

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نَزَلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، أيُّنا لا يَظلِمُ نَفْسَه؟! قال: ليس كما تَقولونَ؛ (لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) بشِركٍ، أوَلَم تَسمَعوا إلى قَولِ لُقمانَ لابنِه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾؟))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٠، ١٦١).

وقيل: (إذ) ظرفٌ متعلِّقٌ بالفعلِ المقدَّرِ الَّذي دلَّت عليه واوُ العطفِ، والتَّقديرُ: (وآتَيْناه الحكمةَ إذ قال لابنِه). وممَّن قال بهذا المعنى: الزَّجَّاجُ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٣، ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦)، ((جامع العلوم والحِكَم)) لابن رجب (٢/ ٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

قال ابنُ عطيةَ: (ظاهرُ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ أنَّه مِن كلامِ لقمانَ، ويَحتمِلُ أن يكونَ خبرًا مِن الله تعالى منقطعًا مِن كلامِ لقمانَ، متَّصلًا به في تأكيدِ المعنَى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٨).

(٤) رواه البخاري (٣٣٦٠) واللفظ له، ومسلم (١٢٤).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ تَنْبيهٌ منه سُبحانه على أنَّ الحِكمةَ الأصليَّةَ والعِلْمَ الحقيقيَّ هو العمَلُ بهما، أو عِبادةُ اللهِ والشُّكرُ له؛ حيث فسَّرَ إيتاءَ الحِكمةِ بالبعثِ على الشُّكرِ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ يُبَيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ بالشُّكرِ لا ينتفعُ إلَّا الشَّاكِرُ، بقَولِه: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، وأنَّ بالكُفرانِ لا يتضَرَّرُ غَيرُ الكافِرِ، بقَولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: أنَّ اللهَ غَيرُ مُحتاجٍ إلى شُكرٍ حتَّى يتضَرَّرَ بكُفرانِ الكافِرِ، وهو في نَفْسِه محمودٌ، سَواءٌ شَكَرَه النَّاسُ أو لم يَشكُروه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ﴾ مُلاطَفةُ المخاطَبِ لاستِدعاءِ قَبولِه لِمَا يُوَجَّهُ إليه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ﴾، فإنَّ هذا من بابِ المُلاطَفةِ[٣]، فخاطَبَه بأحَبِّ ما يُخاطَبُ به، مع إظهارِ التَّرحُّمِ والتَّحَنُّنِ والشَّفَقةِ؛ لِيَكونَ ذلك أدعى لِقَبولِ النُّصحِ[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ فيه حَثٌّ على التَّخَلُّقِ بما مُدِحَ به لُقمانُ بما يَحمِلُ على الصَّبرِ والشُّكرِ والمُداوَمةِ على كُلِّ خَيرٍ، وعلى تأديبِ الوَلَدِ، بسَوقِ الكَلامِ على وَجهٍ يدُلُّ على تكريرِ وَعظِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ تَوجيهُ المواعِظِ مِن الآباءِ إلى أبنائِهم؛ لأنَّ هذا مِن الحِكمةِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أنَّ كلَّ مَنْ مَنَّ اللهُ تعالى عليه بالحِكمةِ، فعليه أنْ يَشكُرَ اللهَ تعالى أكثرَ مِن غَيرِه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أنَّ اللهَ تعالى لا ينتَفِعُ بطاعةِ الطَّائِعينَ، بل طاعةُ الطَّائِعينَ لأنفُسِهم، ويتفَرَّعُ على هذه الفائِدةِ: أنَّ أمرَ اللهِ عزَّ وجلَّ عِبادَه بطاعتِه أو بعبادتِه: أنَّه مُجَرَّدُ إحسانٍ إليهم؛ لأنَّ هذا النَّفعَ لهم، كما لو كنتَ تربِّي الصَّغيرَ وتقولُ: كُلْ مِن هذا الطَّعامِ، والْبَسْ هذا الثَّوبَ، واشرَبْ هذا الماءَ؛ فأنت تأمُرُه، لكِنَّ الأمرَ لمصلحتِه هو[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أنَّ شُكْرَ اللهِ تعالى مِن الحِكمةِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ هذا مِن تفسيرِ الحِكمةِ، والشُّكرُ لله لا شَكَّ أنَّه مِن الحِكمةِ؛ لأنَّ الحِكمةَ هي مُوافَقةُ الصَّوابِ، أو وَضْعُ الشَّيءِ في مَوضِعِه، ولا شَكَّ أنَّ شُكْرَ اللهِ تعالى مُوافِقٌ للصَّوابِ، وأنَّه وَضعٌ للشَّيءِ في مَوضِعِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٦).

قال ابن القيم: (الحكمةُ: فِعلُ ما ينبغي، على الوجهِ الذي يَنْبغي، في الوقتِ الذي يَنْبغي). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٤٤٩).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾ فيه لَطيفةٌ، وهي أنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ لُقمانَ، وشَكَر سَعْيَه حيثُ أرشَدَ ابنَه؛ لِيُعلَمَ منه فضيلةُ النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- الَّذي أرشَدَ الأجانِبَ والأقارِبَ؛ فإنَّ إرشادَ الوَلَدِ أمرٌ مُعتادٌ، وأمَّا تحمُّلُ المشَقَّةِ في تعليمِ الأباعِدِ فلا[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ وُجوبُ توحيدِ اللهِ سبحانه وتعالى؛ لأنَّ النَّهيَ عن الشِّركِ يقتضي وُجوبَ التَّوحيدِ[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ فظُلْمُه ظاهِرٌ مِن جِهاتٍ عديدةٍ جِدًّا؛ أظهَرُها: أنَّه تَسويةُ المملوكِ -الَّذي ليس له مِن ذاتِه إلَّا العَدَمُ، فلا نِعمةَ منه أصلًا- بالمالِكِ الَّذي له وُجوبُ الوُجودِ؛ فلا خيرَ ولا نِعمةَ إلَّا منه، وفي هذا تنبيهٌ لِقُريشٍ وكُلِّ سامِعٍ على أنَّ هذه وصيَّةٌ لا يُعدَلُ عنها؛ لأنَّها مِن أبٍ حَكيمٍ لابنٍ محنُوٍّ عليه محبوبٍ، وأنَّ آباءَهم لو كانوا حُكَماءَ ما فَعَلوا إلَّا ذلك؛ لأنَّه يترتَّبُ عليها ما عليه مَدارُ النِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، العاجِلةِ والآجِلةِ، وهو الأمنُ والهدايةُ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[٣] [الأنعام: ٨٢].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ كلامٌ مُستأْنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ بُطلانِ الشِّركِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦١، ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١).

- وافتِتاحُ القصَّةِ بحَرْفَي التَّوكيدِ: (لامِ القسَمِ) و(قد)؛ للإنباءِ بأنَّها خَبرٌ عن أمْرٍ مُهِمٍّ واقعٍ[١].

- قوله: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ الشُّكرُ هو مبدَأُ الكمالاتِ عِلْمًا، وغايتُها عمَلًا، وللتَّنبيهِ على هذا المعنى أعقَبَ اللهُ الشُّكرَ المأمورَ به ببَيانِ أنَّ فائدتَه لنفْسِ الشَّاكرِ لا للمشكورِ بقولِه: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾؛ لأنَّ آثارَ شُكرِ اللهِ كمالاتٌ حاصلةٌ للشَّاكرِ، ولا تَنفَعُ المشكورَ شيئًا؛ لغِناهُ سُبحانه عن شُكرِ الشَّاكرينَ، ولذلك جِيءَ به في صُورةِ الشَّرطِ؛ فإنَّ الشَّرطَ أدَلُّ على ذلك مِن الإخبارِ. وجِيءَ بصِيغةِ حَصْرِ نَفْعِ الشُّكرِ في الثُّبوتِ للشَّاكرِ بقولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾، أي: ما يَشكُرُ إلَّا لفائدةِ نفْسِه، ولامُ التَّعليلِ مُؤذِنةٌ بالفائدةِ. وزيدَ ذلك تبيُّنًا بعطْفِ ضِدِّه بقولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾؛ لإفادةِ أنَّ الإعراضَ عن الشُّكرِ بعدَ استِشعارِه كُفْرٌ للنِّعمةِ، وأنَّ اللهَ غَنِيٌّ عن شُكْرِه، بخِلافِ شأْنِ المخلوقاتِ؛ إذ يُكسِبُهم الشُّكرُ فوائدَ بيْنَ بني جِنسِهم تجُرُّ إليهم منافِعَ الطَّاعةِ، أو الإعانةِ، أو الإغناءِ، أو غير ذلك مِن فوائدِ الشُّكرِ للمشكورينَ، على تفاوُتِ مَقاماتِهم، واللهُ غنيٌّ عن جميعِ ذلك[٢].

- ومِن بلاغةِ القرآنِ وبديعِ إيجازِه: أنْ كان قولُه: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِ﴾ جامعًا لِمَبدأِ الحِكمةِ التي أُوتِيها لُقمانُ، ولأمْرِه بالشُّكرِ على ذلك؛ فقد جمَعَ قولُه: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِ﴾ الإرشادَ إلى الشُّكرِ، مع الشُّروعِ في الأمْرِ المشكورِ عليه؛ تنْبيهًا على المُبادَرةِ بالشُّكرِ عندَ حُصولِ النِّعمةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٥٢، ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٥٣).

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبْلَه، مُوجِبٌ للامتثالِ بالأمْرِ[١]. وجِيءَ في فِعلِ (يَشكُر) بصِيغَةِ المُضارِعِ؛ للإيماءِ إلى جدارةِ الشُّكرِ بالتَّجديدِ، واللَّامُ في قولِه: ﴿يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾ داخلةٌ على مَفعولِ الشُّكرِ، وهي لامٌ مُلتزَمٌ زِيادتُها مع مادَّةِ الشُّكرِ؛ للتَّأكيدِ والتَّقويةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ قُوبِلَ الإعراضُ عن الشُّكرِ بوصْفِ اللهِ بأنَّه حميدٌ؛ لأنَّ الحَمْدَ والشُّكرَ مُتقاربانِ؛ فلمَّا لم يكُنْ في أسماءِ اللهِ تعالى اسمٌ مِن مادَّةِ الشُّكرِ إلَّا اسمَه الشَّكورَ، وهو بمعنى شاكرٍ، أي: شاكرٌ لعِبادِه عِبادتَهم إيَّاه؛ عُبِّر هنا باسمِه ﴿حَمِيدٌ﴾[٣].

- وعدَمُ التَّعرُّضِ لكونِه تعالى مَشكُورًا؛ لأنَّ الحمدَ مُتضمِّنٌ للشُّكرِ، بلْ هو رأْسُه؛ فإثباتُه له تعالى إثباتٌ للشُّكرِ له قطعًا[٤].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ قال في الشُّكرِ: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ﴾ بصيغةِ المُستقبَلِ، وفي الكُفرانِ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾، وإن كان الشَّرطُ يَجعَلُ الماضيَ والمُستقبَلَ في معنًى واحدٍ، كقَولِ القائلِ: مَن دخَلَ داري فهو حُرٌّ، ومَن يدخُلْ داري فهو حُرٌّ، وذلك فيه إشارةٌ إلى مَعنًى، وإرشادٌ إلى أمرٍ، وهو أنَّ الشُّكرَ ينبغي أن يتكرَّرَ في كُلِّ وَقتٍ لتكرُّرِ النِّعمةِ، فمَن شَكَر ينبغي أن يُكرِّرَ؛ والكُفرَ ينبغي أن ينقَطِعَ، فمَن كفَرَ ينبغي أن يترُكَ الكُفرانَ، وأيضًا لأنَّ الشُّكرَ مِن الشَّاكرِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١).

لا يقَعُ بكَمالِه، بل أبدًا يكونُ منه شَيءٌ في العَدَم يريدُ الشَّاكِرُ إدخالَه في الوُجودِ، كما قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل: ١٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، فأشار إليه بصيغةِ المُستقبَلِ؛ تنبيهًا على أنَّ الشُّكرَ بكَمالِه لم يُوجَدْ، وأمَّا الكُفرانُ فكُلُّ جُزءٍ يقَعُ منه تامٌّ، فقال بصيغةِ الماضي[(١)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، فقدَّم الشُّكرَ على الكُفرانِ، وقال في سُورةِ (الرُّوم): ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، فقدَّمَ الكُفرانَ؛ ووجْهُه: أنَّ الذِّكرَ في سُورةِ (الرُّوم) للتَّرهيبِ؛ لقولِه تعالى مِن قبْلُ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، والذِّكرُ هاهنا للتَّرغيبِ؛ لأنَّ وَعْظَ الأبِ للابنِ يكونُ بطريقِ اللُّطفِ والوعْدِ، وقولُه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [الروم: ٤٤] يُحقِّقُ ما ذكَرْنا أوَّلًا؛ لأنَّ المذكورَ في سُورةِ (الرُّوم) لَمَّا كان بعدَ اليومِ الَّذي لا مرَدَّ له، تكونُ الأعمالُ قد سبَقَت، فقال بلفظِ الماضي: ﴿وَمَنْ عَمِلَ﴾ [الروم: ٤٤]، وهاهنا لَمَّا كان المذكورُ في الابتداءِ قال: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ بلفظِ المُستقبَلِ[(٢)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢]؛ لأنَّ الواوَ نائبةٌ مَنابَ الفِعلِ؛ فمَضمونُ هذه الجُملةِ يُفسِّرُ بَعضَ الحِكمةِ الَّتي أُوتِيَها لُقمانُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٣، ١٥٤).

- وافتِتاحُ المَوعظةِ بقولِه: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بنداءِ المَخاطَبِ المَوعوظِ، مع أنَّ تَوجيهَ الخِطابِ مُغْنٍ عن ندائِه؛ لحُضورِه بالخِطابِ؛ فالنِّداءُ مُستعمَلٌ في طلَبِ حُضورِ الذِّهنِ لوعْيِ الكلامِ، وذلك مِن الاهتمامِ بالغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ[١].

- قولُه: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بصيغةِ التَّصْغيرِ؛ لِتَنزيلِ المُخاطَبِ الكبيرِ مَنزلةَ الصَّغيرِ؛ كِنايةً عن الشَّفقةِ به والتَّحبُّبِ له، وهو في مَقامِ المَوعظةِ والنَّصيحةِ إيماءٌ وكِنايةٌ عن إمْحاضِ النُّصحِ، وحُبِّ الخيرِ، ففيه حثٌّ على الامتثالِ للموعظةِ[٢].

- قولُه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ابْتدَأَ لُقمانُ مَوعظةَ ابنِه بنَهْيِه عن الشِّركِ باللهِ؛ لأنَّ النَّفْسَ المُعرَّضةَ للتَّزكيةِ والكَمالِ يجبُ أنْ يُقدَّمَ لها قبْلَ ذلك تَخليتُها عن مَبادِئِ الفسادِ والضَّلالِ؛ فإنَّ إصلاحَ الاعتقادِ أصْلٌ لإصلاحِ العمَلِ[٣].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ، أو للانتِهاءِ عن الشِّركِ، وتهْويلٌ لأمْرِه؛ فإنَّه ظُلْمٌ لحُقوقِ الخالِقِ، وظُلْمُ المرْءِ لنفْسِه؛ إذ يضَعُ نفْسَه في حَضيضِ العُبوديَّةِ لأخَسِّ الجَماداتِ، وظُلْمٌ لأهْلِ الإيمانِ الحقِّ؛ إذ يَبعَثُ على اضْطِهادِهم وأذاهُمْ، وظُلْمٌ لحَقائقِ الأشياءِ بقلْبِها، وإفسادِ تعلُّقِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٥).

الآيتان (١٤-١٥)

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَهْنًا﴾: أي: ضَعْفًا، وأصلُ (وهن): يدُلُّ على ضَعفٍ[١].

﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾: أي: فِطامُه، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه[٢].

﴿أَنَابَ﴾: أي: رجَعَ وتابَ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادِ مكانٍ، ورُجوعٍ إليه[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥١).

عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾

قَولُه: ﴿وَهْنًا﴾ مَنصوبٌ على الحالِ مِن ﴿أُمُّهُۥ﴾ أي: ذاتَ وَهْنٍ، أو مَوهونةً؛ أو مِن مَفعولِ ﴿حَمَلَتْهُ﴾ وهو: الولدُ، أي: حملَتْه ضعيفًا؛ عَلَقةً، ثمَّ نُطْفةً، ثُمَّ مُضغةً. و﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ صِفةٌ لـ ﴿وَهْنًا﴾.

قَولُه تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾: (أنْ) مُفَسِّرةٌ لِفعلِ (وَصَّينا)؛ لأنَّ فيه معنى القَولِ دونَ حُروفِه، وجملةُ (اشكُرْ) تفسيريَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ. ويجوزُ أن تكونَ (أن) مَصدريَّةً في مَوضِعِ نَصبٍ أو جَرٍّ على حَذفِ الخافِضِ، وهو مُتعَلِّقٌ بـ (وصَّينا)، أي: (بأن اشكُرْ)، أو (لأنِ اشكُرْ)، أو يكونُ مَوضِعُ المصدَرِ المؤَوَّلِ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ بدَلَ اشتِمالٍ من (والِدَيه)، كأنَّه قيل: وصَّيْنا الإنسانَ بوالِدَيه بشُكرِهما. وعلى هذه الأوجُهِ يكونُ قَولُه تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ إلى ﴿عَامَيْنِ﴾ اعتِراضًا للتَّعليلِ مُؤكِّدًا للتَّوصيةِ في حَقِّ الأُمِّ خُصوصًا.

قَولُه: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ﴿مَعْرُوفًا﴾ نائِبٌ عن المَصدَرِ مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ، صِفةٌ لِمَصدرٍ مَحذوفٌ، أي: صِحابًا، أو مُصاحَبًا مَعروفًا[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا علوَّ منزلةِ الوالدينِ: وعَهِدْنا إلى الإنسانِ ببرِّ والِدَيه والإحسانِ إليهما؛ ثمَّ يُبيِّنُ سبحانه السَّببَ الموجبَ لذلك، فيَذكُرُ ما بذَلَتْه الأُمُّ مِن جهدٍ يُوجِبُ الإحسانَ إليها، فيقولُ: حملَتْه أمُّه في بَطنِها، وعانت في حَملِه ضَعْفًا على ضَعفٍ، وثِقْلًا وشِدَّةً، وفِطامُه في عامَينِ مِن وِلادتِه، ووصَّيْنا الإنسانَ

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٩٦)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٦٥)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٥).

بالشُّكرِ لله تعالى، ولِوالِدَيه؛ فإلى الله وَحْدَه لا إلى غَيرِه المرجِعُ والمآبُ، فيَسألُك -أيُّها الإنسانُ- عن شُكرِه وشُكرِ والِدَيك، ويُجازيك على عَمَلِك.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه حدودَ الطَّاعةِ للوالدينِ، فيقولُ: وإن كان والِداك مُشرِكَينِ، وجاهَداك على أن تُشرِكَ باللهِ ما لا بُرهانَ على صِحَّةِ ألوهيَّتِه؛ فلا تُطِعْهما، وصاحِبْهما في الدُّنيا مُصاحَبةً حَسَنةً.

ثمَّ يرشِدُ سبحانَه إلى وجوبِ اتِّباعِ أهلِ الحقِّ، فيقول: واسلُكْ طَريقَ الَّذين تابوا إلَيَّ، واقتَدِ بهم، ثمَّ إلَيَّ مَصيرُكم جَميعًا -أيُّها النَّاسُ- فأُنَبِّئُكم بجَميعِ أعمالِكم، وأُجازيكم عليها.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ لُقمانُ لابنِه أنَّ الشِّركَ ظُلْمٌ، ونهاه عنه؛ كان ذلك حَثًّا على طاعةِ اللهِ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ الطَّاعةَ أيضًا تكونُ للأبوَينِ، وبيَّنَ السَّبَبَ في ذلك[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما أوصى به لُقمانُ وَلَدَه مِن شُكرِ المُنعِمِ الأوَّلِ الَّذي لم يَشرَكْه في إيجادِه أحَدٌ، وذكَرَ ما عليه الشِّركُ مِن الفَظاعةِ والشَّناعةِ والبَشاعةِ- أتبَعَه سُبحانَه وصيَّتَه للولَدِ بالوالِدِ؛ لِكَونِه المنعِمَ الثَّانيَ، المتفرِّدَ سُبحانَه بكَونِه جَعَلَه سَبَبَ وُجودِ الوَلَدِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٢، ١٦٣).

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾.

أي: وعَهِدْنا إلى الإنسانِ وأمَرْناه ببرِّ والِدَيه، والإحسانِ إليهما[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[النساء: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ...﴾[الإسراء: ٢٣، ٢٤].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لما خصَّ الله تعالى الأُمَّ بالمشقَّاتِ مِن الحَملِ والنِّفاسِ والرَّضاعِ والتَّربيةِ؛ نبَّه على السببِ الموجِبِ للإيصاءِ بها[٢]، فقال:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾.

أي: حمَلَت الأمُّ ولَدَها في بَطنِها، وهي تزدادُ ضَعفًا على ضَعفٍ، وثِقلًا وشِدَّةٍ، إلى أن تضَعَه بمشَقَّةٍ وألمٍ[٣].

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾.

أي: وفِطامُ الولَدِ في عامَينِ مِن ولادتِه، فلا ينفَصِلُ مِن أمِّه إلَّا بعدَ عامَينِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

تُعاني فيهما الأمُّ مَشقَّةَ رَضاعِه، وتَربيتِه، والقيامِ على شُؤونِه[١].

﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾.

أي: ووصَّيْنا الإنسانَ أنِ اشكُرِ اللهَ على إنعامِه عليك، وذلك بالقيامِ بعُبوديَّتِه وطاعتِه وَحْدَه، وأداءِ حُقوقِه، واشكُرْ والِدَيك على تحمُّلِهما ما لَقِيَا مِنَ المشَقَّةِ، وما بَذَلاه مِنَ الجُهدِ لأجْلِك؛ فأطِعْهما، وأحسِنْ إليهما[٢].

﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: إلَيَّ لا إلى غَيري مَرجِعُك -أيُّها الإنسانُ- فأسألُك عن شُكري، وشُكرِ والِدَيك، وأُجازيك على عَمَلِك[٣].

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وَصِيَّتَه بالوالِدَينِ، وأكَّد حَقَّهما؛ أتبَعَه الدَّليلَ على ما ذَكَر

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

قال القُشَيْرِيُّ: (أوجَب الله شُكرَ نفْسِه وشُكرَ الوالدَين. ولَمَّا حصَل الإجماعُ على أنَّ شُكْرَ الوالدين بدَوامِ طاعتِهما، وألَّا يُكْتَفى فيه بمُجرَّدِ النُّطقِ بالثَّناءِ عليهما؛ عُلِم أنَّ شُكرَ الحقِّ لا يَكفي فيه مجرَّدُ القولِ ما لم تَكُنْ فيه موافقةُ العملِ؛ وذلك بالتِزامِ الطَّاعةِ، واستِعمالِ النِّعمةِ في وجهِ الطَّاعةِ، دُونَ صَرفِها في الزَّلَّةِ). ((تفسير القشيري)) (٣/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

لُقمانُ مِن قَباحةِ الشِّركِ، فقال[١]:

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا ﴾.

أي: وإن اجتَهَد والِداك المُشرِكانِ -أيُّها المسلِمُ- وحَرَصا كُلَّ الحِرصِ على أن تجعَلَ لي شَريكًا، لا بُرهانَ على صِحَّةِ ألوهيَّتِه؛ فلا تُطِعْهما فيما يأمُرانِك به مِنَ الشِّركِ[٢].

عن عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا طاعةَ في مَعصيةٍ، إنَّما الطَّاعةُ في المعروفِ))[٣].

﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا ﴾.

أي: وصاحِبْهما في الدُّنيا[٤] مُصاحَبةً حَسَنةً؛ بالإحسانِ إليهما، والطَّاعةِ لهما فيما لا إثمَ فيه عليك[٥].

﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

(٣) رواه البخاري (٧٢٥٧) واللفظ له، ومسلم (١٨٤٠).

(٤) قيل: المرادُ: مُصاحبَتُهما في أمورِ الدُّنيا الَّتي لا تَتعلَّقُ بالدِّينِ مُدَّةَ حياتِهما. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ١٦٨).
قال ابنُ عثيمين: (يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بالدُّنيا شُؤونَها، يعني: في أمورِ الدُّنيا صاحِبْهما مَعروفًا، أمَّا في أمور الدِّينِ فلا تَتعَدَّ ما أمَرَك الله به. ويحتمِلُ أن يكونَ ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾ أي: في هذه الدُّنيا. لكِنَّ المعنى الأوَّلَ أبلَغُ؛ لأنَّه مِنَ المعلومِ أنَّ المصاحَبةَ بينَ الوالِدَينِ والولَدِ إنَّما تكونُ في الدُّنيا، فلا حاجةَ إلى التَّقديرِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

أي: واسلُكْ طَريقَ الَّذين أقبَلوا علَيَّ، ورَجَعوا وتابوا إلَيَّ، واقتَدِ بهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ثمَّ إلَيَّ مَصيرُكم جميعًا -أيُّها النَّاسُ- فأُنَبِّئُكم بجَميعِ أعمالِكم: خَيرِها وشَرِّها[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ بيانُ عِظَمِ حُقوقِ الوالِدَينِ؛ ولهذا جعَلَها اللهُ وَصيَّةً، والوصيَّةُ: هي أنْ يُعهَدَ إلى شَخصٍ بأمرٍ هامٍّ[٣]، ثمَّ قال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ أي: بالإحسانِ إليهما؛ بالقَولِ اللَّيِّنِ، والكَلامِ اللَّطيفِ، والفِعلِ الجَميلِ، والتَّواضُعِ لهما، وإكرامِهما وإجلالِهما، والقيامِ بمَؤونتِهما، واجتنابِ الإساءةِ إليهما مِن كُلِّ وَجهٍ، بالقَولِ والفِعلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٩٥، ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ أنَّه يَنبغي أنْ يُذكَرَ للمُخاطَبِ ما يحمِلُه على امتِثالِ ما وُجِّهَ إليه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ أنَّه ينبغي تقويةُ الجانبِ الضَّعيفِ بما يُقَوِّيه؛ فإنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ ما يَحسُنُ للأمِّ إغراءً للقيامِ بحَقِّها، ولم يَذْكُرْ ما يَحسُنُ للأبِ؛ لأنَّ الأمَّ ضَعيفةٌ تحتاجُ إلى مَن يُقوِّي جانِبَها[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾ تَحريمُ طاعةِ الوالِدَينِ إذا أمَرَا بالشِّركِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾، ويُقاسُ على ذلك كلُّ مَعصيةٍ أمَرَا بها، فإنَّهما لا يُطاعان؛ لِقَولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((لا طاعةَ في معصيةِ الله، إنَّما الطاعةُ في المعروفِ))[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ * وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ فأمَرَ اللهُ بمُصاحَبةِ الوالِدَينِ بالمعروفِ في الدُّنيا مع أنَّهما مُشرِكانِ ويُجاهِدانِ ولَدَهما على الشِّركِ؛ فدَلَّ هذا على أنَّ المعاصيَ لا تُوجِبُ قَطيعةَ الرَّحِمِ، ولا عُقوقَ الوالِدَينِ[٤]، ففُسوقُ الوالِدَينِ وكُفرُهما لا يُسقِطُ حقَّهما مِن البِرِّ[٥]، فذِكرُ ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٦).
والحديث تقدَّم تخريجُه قريبًا.

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٣١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٩٧).

ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ إثرَ قَولِه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾ فُهِمَ منه أنَّ الأمرَ بمُعاشَرتِهما بالمعروفِ شامِلٌ لحالةِ كَونِ الأبوَينِ مُشرِكَينِ؛ فإنَّ على الابنِ مُعاشَرتَهما بالمعروفِ، كالإحسانِ إليهما وصِلَتِهما[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ حقَّ الأمِّ أوجَبُ مِن حَقِّ الأبِ؛ فاللهُ تعالى ذَكَرَ ما تُعانيه الأمُّ مِن المَشاقِّ؛ إشارةً إلى أنَّها أحَقُّ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ أنَّ أقلَّ الحَملِ ستَّةُ أشهرٍ، وقد قال تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ فإذا أَسقَطَتَ عامَينِ مِن ثلاثينَ شَهرًا بَقِيَ ستَّةُ أشهُرٍ[3].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ يُفهَمُ منه اجتِنابُ ما يُنكَرُ في مُصاحَبتِهما، فشَمِلَ ذلك مُعامَلةَ الابنِ أبوَيه بالمُنكَرِ، وشَمِلَ ذلك أن يدعُوَ الوالِدُ إلى ما يُنكِرُه اللهُ ولا يَرضى به؛ ولذلك لا يُطاعانِ إذا أمَرَا بمَعصيةٍ[4].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣، ١١٤).

وذكَر ابنُ كثيرٍ أنَّ عليًّا رَضِيَ الله عنه استدلَّ بقولِه تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] معَ قولِه: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقَولِه: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]: على أنَّ أقلَّ مُدَّةِ الحَملِ ستَّةُ أشهُرٍ، ثم قال: (وهو استِنباطٌ قَويٌّ صَحيحٌ، ووافَقَه عليه عثمانُ وجماعةٌ مِن الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١).

تُطِعۡهُمَا﴾ قولُه: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا يُمكِنُ أن يَدُلَّ عِلمٌ من أنواعِ العُلومِ على شَيءٍ مِنَ الشِّركِ بنَوعٍ مِن أنواعِ الدَّلالاتِ، بل العُلومُ كُلُّها دالَّةٌ على الوحدانيَّةِ على الوَجهِ الَّذي تطابَقَت عليه العُقولُ، وتظافَرَت عليه مِنَ الأنبياءِ والرُّسُلِ النُّقولُ[١].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ فيه حَثٌّ على مَعرفةِ الرِّجالِ بالحَقِّ، وأمرٌ بحَكِّ المشايخِ وغَيرِهم على مَحَكِّ الكِتابِ والسُّنَّةِ، فمَن كان عَمَلُه مُوافِقًا لهما اتُّبِعَ، ومَن كان عمَلُه مُخالِفًا لهما اجتُنِبَ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ أنَّه سُبحانَه أرحمُ بالوالِدَينِ مِن أولادِهما؛ لأنَّ اللهَ تعالى أوصَى الأولادَ بالوالِدَينِ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لَمَّا خَصَّ تعالى الأمَّ بدَرَجةِ ذِكرِ الحَملِ، وبدَرَجةِ ذِكرِ الرَّضاعِ، حَصَل لها بذلك ثلاثُ مراتِبَ، وللأبِ واحِدةٌ، وأشبَهَ ذلك قَولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ جاء إليه رجُلٌ، فقال: ((يا رسولَ الله، مَن أحقُّ بحُسنِ صَحابتي؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: ثمَّ أبوك))[٤]. فجعَل له الرُّبُعَ مِنَ المبَرَّةِ كما في هذه الآيةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٩، ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٧١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٤).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾، ذكَرَ الفِصالَ في مَعرِضِ تَعليلِ حَقِّيَّةِ الأمِّ بالبِرِّ؛ لأنَّه يَستلزِمُ الإرضاعَ مِن قبْلِ الفِصالِ، وللإشارةِ إلى ما تَتحمَّلُه الأمُّ مِن كدَرِ الشَّفقةِ على الرَّضيعِ حينَ فِصالِه، وما تُشاهِدُه مِن حُزْنِه وألَمِه في مَبدأِ فِطامِه[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾، التَّعبيرُ بـ(في) يشيرُ إلى أنَّ الوالِدَين لهما أن يَفطِماه قبْلَ تمامِهما، على حَسَبِ ما يحتَمِلُه حالُه، وتدعو إليه المصلَحةُ مِن أمْرِه[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ فيه رَدٌّ على مَن قال: مُدَّةُ الرَّضاعِ ثلاثونَ شَهرًا، أو ثلاثُ سِنينَ[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ هو قَيدٌ لبيانِ الواقعِ، وليس قَيدًا احترازيًّا؛ لأنَّه لا يمكِنُ أنْ يوجَدَ عِلْمٌ بأنَّ لله تعالى شَريكًا، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. فإنْ قال قائِلٌ: ما فائِدةُ هذا القَيدِ، وقد عُلِمَ أنَّه لن يُوجَدَ؟

فالجوابُ: أنَّ الفائِدةَ فيه تحقيقُ هذا الأمرِ حتَّى لا يحاوِلَ أحدٌ أن يبحَثَ ويَطلُبَ عِلمًا أو بُرهانًا بأنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى له شَريكٌ، فكأنَّه يقولُ: هذا هو حَقيقةُ الواقعِ، وما كان حقيقةَ الواقعِ فلا يمكِنُ أنْ يَتخلَّفَ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾، وكذا في قَولِه سُبحانَه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٩٠).

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]- دَلالةٌ على وُجوبِ الإنفاقِ على الأقاربِ وإنِ اختلفَ الدِّينانِ؛ فإنَّه ليس مِن الإحسانِ ولا مِن المعروفِ تَرْكُ الإنسانِ لأبيه وأمِّه في غايةِ الضَّرورةِ والفاقةِ، وهو في غايةِ الغِنى[١].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على الأمرِ ببرِّ الوالِدَينِ الكافِرَينِ، وقد جاءت آيةٌ أُخرى يُفهَمُ منها خِلافُ ذلك، وهي قَولُه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ثمَّ نصَّ على دُخولِ الآباءِ في هذا بقَولِه: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢]؟

الجوابُ: أنَّه لا مُعارَضةَ بينَ الآيتَينِ، ووجهُ الجَمعِ بيْنَهما أنَّ المصاحَبةَ بالمعروفِ أعَمُّ مِن الموادَّةِ؛ لأنَّ الإنسانَ يُمكِنُه إسداءُ المعروفِ لِمَن يَوَدُّه ومَن لا يَوَدُّه، والنَّهيُ عن الأخَصِّ لا يَستلزِمُ النَّهيَ عن الأعَمِّ؛ فكأنَّ الله تعالى حَذَّر مِن الموَدَّةِ المُشعِرةِ بالمحبَّةِ، والموالاةِ بالباطِنِ لجَميعِ الكُفَّارِ، يدخُلُ في ذلك الآباءُ وغَيرُهم، وأمَرَ الإنسانَ بألَّا يفعَلَ لوالِدَيه إلَّا المعروفَ، وفِعلُ المعروفِ لا يَستلزِمُ الموَدَّةَ؛ لأنَّ المودَّةَ مِن أفعالِ القُلوبِ لا مِن أفعالِ الجوارحِ، وممَّا يدُلُّ لذلك إذْنُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأسماءَ بنتِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ أن تَصِلَ أمَّها، وهي كافِرةٌ[٢]، وقال بعضُ العُلَماءِ: إنَّ قِصَّتَها سَبَبٌ لِنُزولِ قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[٣] [الممتحنة: ٨].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ فيه وُجوبُ اتِّباعِ السَّلَفِ، لأنَّ

(١) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٧٩١).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٢).

السَّلَفَ المؤمنينَ مُنِيبُون[١]، وكُلٌّ مِنَ الصَّحابةِ مُنيبٌ إلى اللهِ، فيَجِبُ اتِّباعُ سَبيلِه، وأقوالُه واعتِقاداتُه مِن أكبَرِ سَبيلِه، والدَّليلُ على أنَّهم مُنيبونَ إلى اللهِ تعالى أنَّ الله تعالى قد هداهم، وقد قال: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[٢] [الشورى: ١٣].

١٠- قوله تعالَى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يدُلُّ عَلَى صِحَّةِ الإجماعِ؛ لأنَّ في الأُمَّةِ لا مَحالةَ مَنْ أنابَ إليه، فوَجَب اتِّباعُ جَماعَتِها، فإذا أجْمَعَت الأُمَّةُ على شَيءٍ فقد عَلِمْنا أنَّ المُنيبينَ الَّذين فيها قد قالوا ذلك واعتَقَدوه، فهو حُكْمُ اللهِ تعالَى لا مَحالةَ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وُجوبُ اتِّباعِ سَبيلِ المؤمِنينَ، ويؤيِّدُه قولُه سُبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٤] [النساء: ١١٥].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾

- الآيتانِ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ و﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، اعتُرِضَ به على نَهجِ الاستِطرادِ في أثناءِ وصيَّةِ لُقمانَ؛ تأكيدًا لِما فيها مِن النَّهيِ عن الشِّركِ، كأنَّه قال: وقد وصَّيْنا بمِثلِ ما وصَّى به[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((الفصول في الأصول)) للجصاص (٣/ ٢٦٣). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير أبي =

وذَكَرَ الوالدين؛ للمُبالَغةِ في ذلك؛ فإنَّهما مع أنَّهما تِلْوَ الباري في استِحقاقِ التَّعظيمِ والطَّاعةِ لا يجوزُ أنْ يَستحِقَّاهُ في الإشراكِ، فما ظنُّك بغَيرِهما[1]؟!

- وهذا الكلامُ اعتراضٌ بيْنَ كلامَيْ لُقمانَ؛ لأنَّ صِيغةَ هذا الكلامِ مَصوغةٌ على أُسلوبِ الإبلاغِ والحِكايةِ لقولٍ مِن أقوالِ اللهِ، والضَّمائرُ ضمائرُ العَظَمةِ جرَّتْه مُناسَبةُ حِكايةِ نهْيِ لُقمانَ لابنِه عن الإشراكِ وتَفظيعِه بأنَّه ظُلْمٌ عظيمٌ، فذكَرَ اللهُ هذا؛ لتأْكيدِ ما في وَصيَّةِ لُقمانَ مِن النَّهيِ عن الشِّركِ بتَعميمِ النَّهيِ في الأشخاصِ والأحوالِ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ النَّهيَ خاصٌّ بابنِ لُقمانَ أو ببعضِ الأحوالِ؛ فحَكى اللهُ أنَّ اللهَ أَوصى بذلك كلَّ إنسانٍ، وأنْ لا هوادةَ فيه ولو في أحرَجِ الأحوالِ؛ وهي حالُ مُجاهَدةِ الوالدَينِ أولادَهم على الإشراكِ. وأحسَنُ مِن هذه المُناسَبةِ: أنْ تُجعَلَ مُناسَبةُ هذا الكلامِ أنَّه لَمَّا حكى وِصايةَ لُقمانَ لابنِه بما هو شُكْرُ اللهِ بتَنزيهِه عن الشِّركِ في الإلهيَّةِ؛ بيَّن اللهُ أنَّه تعالى أسبَقُ مِنَّةً على عِبادِه؛ إذ أَوصى الأبناءَ ببِرِّ الآباءِ؛ فدخَلَ في العُمومِ المِنَّةُ على لُقمانَ جزاءً على رَعْيِه لحقِّ اللهِ في ابتداءِ مَوعظةِ ابنِه، فاللهُ أسبَقُ بالإحسانِ إلى الَّذين أحْسَنوا برَعْيِ حَقِّه. ويُقوِّي هذا التَّفسيرَ اقترانُ شُكْرِ اللهِ وشُكْرِ الوالدينِ في الأمْرِ[2].

- وجُملةُ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ في مَوضعِ التَّعليلِ للوِصايةِ بالوالدينِ؛ قصْدًا لتأْكيدِ تلك الوِصايةِ؛ لأنَّ تَعليلَ الحُكْمِ يُفيدُه تأْكيدًا، ولأنَّ في مَضمونِ هذه الجُملةِ ما يُثيرُ الباعثَ في نفْسِ الولَدِ على أنْ يَبَرَّ بأُمِّه ويَستتبِعَ البِرَّ بأبيه.

= حيان)) (٨/ ٤١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٦، ١٥٧).

وإنَّما وقَعَ تَعليلُ الوِصايةِ بالوالدينِ بذِكرِ أحوالٍ خاصَّةٍ بأحَدِهما -وهي الأمُّ-؛ اكتِفاءً بأنَّ تلك الحالةَ تَقْتضي الوِصايةَ بالأبِ أيضًا للقياس؛ فإنَّ الأبَ يُلَاقي مَشاقَّ وتعَبًا في القيامِ على الأمِّ؛ لتَتمكَّنَ مِن الشُّغلِ بالطِّفلِ في مُدَّةِ حَضانتِه، ثمَّ هو يَتولَّى تربيتَه والذَّبَّ عنه حتَّى يَبلُغَ أشُدَّهُ ويَسْتغنيَ عن الإسعافِ، كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٤]، فجمَعَهما في التَّربيةِ في حالِ الصِّغَرِ ممَّا يَرجِعُ إلى حِفْظِه وإكمالِ نشْأتِه، فلمَّا ذُكِرَت هنا الحالةُ الَّتي تَقْتضي البرَّ بالأمِّ مِن الحمْلِ والإرضاعِ، كانتْ مُنبِّهةً إلى ما للأبِ مِن حالةٍ تَقْتضي البرَّ به على حِسابِ ما تَقْتضيهِ تلك العلَّةُ في كِلَيْهما قوَّةً وضَعفًا. وقد نبَّه على هذا القياسِ تَشْريكُهما في الحُكْمِ عقِبَ ذلك بقولِه: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾، وقولِه: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾، وحصَلَ مِن هذا النَّظمِ البديعِ قَضاءُ حقِّ الإيجازِ[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ المفسَّرِ والمُفسِّرِ، بينَ الوَصيَّةِ والمُوصَى به، وهو اعتِراضٌ في أعلَى درجاتِ الحُسْنِ؛ لأنَّه لَمَّا وصَّى بالوالدينِ، ذَكَر ما تُكابِدُه الأمُّ وتُعانيه مِن المَشاقِّ والمَتاعبِ في حمْلِه وفِصالِه هذه المُدَّةَ المُتطاوِلةَ؛ إيجابًا للتَّوصيةِ بالوالدةِ خُصوصًا، وتذْكيرًا بحَقِّها العظيمِ مُفْردًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٨).

وقال البقاعي: (ولَمَّا كانت الأمُّ في مَقامِ الاحتقارِ؛ لِما للأبِ مِن العَظَمةِ بالقُوَّةِ والعَقلِ والكَدِّ عليها وعلى وَلَدِها؛ نَوَّهَ بها، ونبَّه على ما يختَصُّ بها من أسبابِ وُجودِ الولَدِ وبقائه عن الأبِ؛ ممَّا حَصَل لها مِنَ المشَقَّةِ بسَبَبِه، وما لها إليه مِن التربيةِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٤، ٤٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١).

- وانتصَبَ ﴿وَهْنًا﴾ على الحالِ مِن ﴿أُمُّهُۥ﴾؛ مُبالَغةً في ضَعْفِها، حتَّى كأنَّها نفْسُ الوهْنِ[١].

- وذكَرَ لِمُدَّةِ فِطامِه أقْصاها -وهو عامانِ-؛ لأنَّ ذلك أنسَبُ بالتَّرقيقِ على الأمِّ[٢].

- وجُملةُ ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ تَفسيرٌ لفعلِ (وصَّينا)، وما بيْنَهما اعْتِراضٌ مُؤكِّدٌ للوصيَّةِ في حَقِّها خاصَّةً، وإنَّما فُسِّرتِ الوصيَّةُ بالوالدَينِ بما فيه الأمْرُ بشُكْرِ اللهِ مع شُكْرِهما على وجْهِ الإدماجِ[٣]؛ تمْهيدًا لقولِه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي﴾[٤].

- وجُملةُ ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ استئنافٌ للوعْظِ، والتَّحذيرِ مِن مُخالَفةِ ما أوْصى اللهُ به مِن الشُّكرِ له[٥]. وتَعليلٌ أيضًا لوُجوبِ الامتثالِ، أي: إلَيَّ الرُّجوعُ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٥٩).

(٣) الإدماجُ: هو أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٠).

إلى غيرِي، فأُجازِيك على ما صَدَر عنْك مِن الشُّكرِ والكُفرِ[١].

- وتَعريفُ المصيرِ في قولِه: ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تعريفُ الجِنسِ، أي: مَصيرُ النَّاسِ كلِّهم. ولك أنْ تَجعَلَ (أل) عِوَضًا عن المُضافِ إليه. وتقْديمُ المجرورِ للحصْرِ، أي: ليس للأصنامِ مَصيرٌ في شَفاعةٍ ولا غيرِها[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ المقصودُ مِن هذا الكلامِ -﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ ...﴾ إلى قولِه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾- هو قولُه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾ إلى آخِرِه، وما قَبْلَه تمْهيدٌ له، وتقريرٌ لواجبِ برِّ الوالدينِ؛ لِيَكونَ النَّهيُ عن طاعتِهما إذا أمَرَا بالإشراكِ باللهِ نهْيًا عنه في أَولى الحالاتِ بالطَّاعةِ؛ حتَّى يكونَ النَّهيُ عن الشِّركِ فيما دونَ ذلك مِن الأحوالِ مَفهومًا بفَحْوى الخِطابِ[٣]، مع ما في ذلك مِن حُسنِ الإدماجِ المُناسِبِ لحِكمةِ لُقمانَ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾ أشارَ بصِيغةِ المُفاعَلةِ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٠).

(٣) فَحْوى الخِطابِ: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطَريقِ الأَولى، وهو نوعانِ:
الأوَّلُ: تَنبيهٌ بالأَقَلِّ على الأكثَرِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نبَّه بالنَّهيِ عن قَولِ أُفٍّ على النَّهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك، ومِثلُه قَولُه تعالى: ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥].
الثَّاني: تنبيهٌ بالأكثَرِ على الأقَلِّ، كقَولِه تعالى: ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٧).

مُخالفَتِهما، وإنْ بالَغا في الحَمْلِ على ذلك، وأشارَ بأداةِ الاستِعلاءِ إلى أنَّه لا مَطْمَعَ لِمَن أطاعَهُما في ذلك -ولو باللَّفظِ فقطْ- أنْ يكونَ في عِدادِ المحسنينَ، وإنْ كان الوالدانِ في غايةِ العُلوِّ والتَّمكُّنِ مِن الأسبابِ الفاتنةِ له، بخِلافِ سُورةِ (العنكبوتِ)؛ فإنَّها لِمُطلَقِ الفِتنةِ، وليست لقوَّةِ الكفَّارِ، فعبَّرَ فيها بلامِ العِلَّةِ، فقال: ﴿لِتُشْرِكَ بِي﴾ [العنكبوت: ٨]؛ إشارةً إلى مُطلَقِ الجِهادِ الصَّادقِ بقَوِيِّهِ وضَعيفِه، ففي الموضعينِ نوعُ رمْزٍ إلى أنَّه إنْ ضعُفَ عنهما أطاعَ باللِّسانِ، ولم يُخرِجْه ذلك عن الإيمانِ، كما أخْرَجَه هنا عن الوصْفِ بالإحسانِ، ولذلك حذَّرَ في الآيةِ الَّتي بعدَ تلك مِن النِّفاقِ؛ لأجْلِ الفِتنةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فنُّ عكْسِ الظَّاهرِ، أو نفْيُ الشَّيءِ بإيجابِه؛ فقد أراد بنفْيِ العِلْمِ نفْيَه، أي: لا تُشرِكْ بي ما ليس بشَيءٍ، يُرِيد الأصنامَ، على حدِّ قولِ الشَّاعرِ[٢]:

على لاحبٍ لا يُهتَدى بمَنارِه[٣]

أي: ما ليس بإلهٍ، فيكون لك عِلْمٌ بإلهيَّتِه[٤].

- وذِكرُ ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾؛ لِتَهوينِ أمرِ الصُّحبةِ، والإشارةِ إلى أنَّها في أيامٍ قلائِلَ وَشيكةِ الانقِضاءِ، فلا يَضُرُّ تحَمُّلُ مَشقَّتِها؛ لِقلَّةِ أيَّامِها، وسُرعةِ انصرامِها.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٦، ١٦٧).

(٢) القائلُ هو امرُؤ القيسِ. يُنظر: ((ديوان امرئ القيس)) (ص: ٩٦).

(٣) اللاحبُ: الطَّريقُ الواضحُ، ولم يُرِدْ أن فيه منارًا لا يُهتدَى به، ولكنَّه نفَى أن يكون به منارٌ. والمعنى: لا منارَ فيه فيُهتدَى به. يُنظر: ((خزانة الأدب)) للبغدادي (١٠/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٣٩).

وقيل: للإشارةِ إلى أنَّ الرِّفقَ بهما في الأمورِ الدُّنيويَّةِ دونَ الدِّينيَّةِ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ مَعطوفٌ على الجُمَلِ السَّابقةِ، و(ثمَّ) للتَّراخي الرُّتْبيِّ المُفيدِ للاهتمامِ بما بعْدَها. وتقْديمُ المَجرورِ؛ للاهتِمامِ بهذا الرُّجوعِ، أو هو للتَّخصيصِ، أي: لا يَنفَعُكم شَيءٌ ممَّا تَأملُونه مِن الأَصنامِ. وجُملَةُ ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ وعْدٌ ووَعيدٌ[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في هذه الضَّمائرِ تَغليبُ الخِطابِ على الغَيبةِ؛ لأنَّ الخِطابَ أهمُّ؛ لأنَّه أعرَفُ[٣].

- في قَولِه تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ بُلوغُ الغايةِ في البلاغةِ في القُرآنِ الكريمِ، فلم يَقُلْ سُبحانَه: «فأُجازيكم»؛ وذلك أنَّه قد يُنَبَّأُ الإنسانُ يومَ القيامة بما عَمِلَ، ثمَّ يُغفَرُ له، فذَكَرَ اللهُ تعالى الإنباءَ لأنَّه مُؤكَّدٌ، أمَّا المجازاةُ فإنَّ اللهَ تعالى قد يغفِرُ للمُذنِبِ ذُنوبَه[٤]. وقيل: الإنباءُ كِنايةٌ عن إظْهارِ الجزاءِ على الأعمالِ؛ لأنَّ المُلازَمةَ بيْنَ إظهارِ الشَّيءِ وبيْنَ العِلْمِ به ظاهرةٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١، ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١).

الآيات (١٦-١٩)

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مِثۡقَالَ﴾: أي: زِنةَ، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ[١].

﴿خَرۡدَلٖ﴾: الخَردَلُ: حُبوبٌ دَقيقةٌ كحَبِّ السِّمسِمِ هي بُزورُ شَجَرٍ يُسَمَّى عند العَرَبِ الخَرْدَلَ. ويُضرَبُ به المَثَلُ في الصِّغَرِ والحَقارةِ[٢].

﴿تُصَعِّرۡ﴾: أي: تُعْرِضْ بوَجهِك وتتكبَّرْ، والتَّصعيرُ: إمالةُ الخَدِّ عن النَّظَرِ؛ عُجْبًا، وأصلُ (صعر): يدُلُّ على مَيلٍ[٣].

﴿مَرَحًا﴾: أي: اختيالًا وبطرًا وكبرًا وفخرًا، والمَرَحُ: شدَّةُ الفرحِ والتَّوسُّعُ فيه، وأصلُ (مرح): يدلُّ على مَسَرَّةٍ لا يكادُ يستَقِرُّ معها المرءُ طَرَبًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٢٠٣)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٩٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٧)، ((مقاييس =

﴿مُخْتَالٍ﴾: أي: مُتكَبِّرٍ ذي فَخرٍ وخُيَلاءَ، والاختيالُ: مأخوذٌ مِنَ (التَّخَيُّل)، والتخيُّلُ: التَّشبُّهُ بالشَّيءِ، فالمُختالُ يَتَخيَّلُ في صورةِ مَن هو أعظَمُ منه؛ كِبْرًا، وأصلُ (خيل): يدُلُّ على حركةٍ في تلَوُّنٍ، والمختالُ في مِشيتِه يتلَوَّنُ في حركتِه ألوانًا[1].

﴿وَٱقۡصِدۡ﴾: أي: تَواضَعْ واعتَدِلْ، وأصلُ القَصدِ: استِقامةُ الطَّريقِ[2].

﴿وَٱغۡضُضۡ﴾: أي: أنقِصْ واخْفِضْ، يقالُ: غضَّ منه، إذا نقَص منه، وأصلُ (غضض) هنا: يدُلُّ على كَفٍّ ونقصٍ[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ﴾: الضَّميرُ (ها) في ﴿إِنَّهَآ﴾ ضميرُ

= اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ١٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

قال الشنقيطي: (وأصلُ المرحِ في اللُّغةِ: شِدَّةُ الفرحِ والنَّشاطِ، وإطلاقُه على مشْيِ الإنسانِ مُتَبَخْتِرًا مَشْيَ المُتكبِّرينَ؛ لأنَّ ذلك مِن لوازمِ شِدَّةِ الفرحِ والنَّشاطِ عادةً). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٣٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٣).

القِصَّةِ، والجملةُ الشَّرطيَّةُ في محلِّ رفعٍ خبَرُ (إنِّ)، أو الضَّميرُ في ﴿إِنَّهَآ﴾ للخَصلةِ مِن الإساءةِ والإحسانِ، أو يَعودُ على ما يُفهَمُ مِن سياقِ الكلام، أي: إنَّ الَّتي سألْتَ عنها (إنْ تَكُ). و﴿مِثْقَالَ﴾ بالنَّصبِ خَبَرُ ﴿تَكُ﴾ النَّاقصةِ، واسمُها مُضمَرٌ فيها يعودُ على (ها) في ﴿إِنَّهَآ﴾. وقُرِئَ برَفعِ ﴿مِثْقَالَ﴾[1] على أنَّه فاعِلُ ﴿تَكُ﴾ مِن «كان» التَّامَّةِ، ولَحِقَت فِعلَه تاءُ المضارَعةِ للمُؤنَّثةِ، وأُعيدَ عليه الضَّميرُ في ﴿بِهَا﴾ مُؤنَّثًا، مع أنَّ ﴿مِثْقَالَ﴾ لفظٌ غيرُ مُؤَنَّثٍ؛ لأنَّه أُضيفَ إلى ﴿حَبَّةٍ﴾ فاكتسَبَ التَّأنيثَ منها، أو لأنَّه بمعنى: زِنةُ حبَّةٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى بقيَّةَ وصايا لُقمانَ لابنِه، وأنَّه قال له: يا بُنيَّ، لو كان العملُ مِن خيرٍ أو شرٍّ زِنةَ حبَّةٍ مِن خَردلٍ، فكان في صَخرةٍ أو في جِهةٍ ما في السَّمواتِ أو في الأرضِ؛ فإنَّ اللهَ يأتي به يومَ القيامةِ، ويُوَفِّي جَزاءَه. إنَّ اللهَ يعلَمُ دقائقَ الأشياءِ وخفايا الأُمورِ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه. يا بُنيَّ، أدِّ الصَّلاةَ تامَّةً، وأْمُرِ النَّاسَ بطاعةِ اللهِ، وانهَهم عن الشِّركِ والمعاصي، وتحمَّلْ ما أصابَك في سَبيلِ ذلك مِن بلاءٍ وأذًى؛ إنَّ ذلك مِن الأمورِ الَّتي أوجَبَها اللهُ على عِبادِه، عَزمًا منه تعالى.

ولا تُمِلْ خَدَّك وتُعرِضْ بوَجهِك عن النَّاسِ؛ تكبُّرًا عليهم، ولا تَمشِ في الأرضِ مُتبختِرًا؛ إنَّ اللهَ لا يحِبُّ كُلَّ مُتكبِّرٍ فَخورٍ على النَّاسِ بما أُعطِيَ مِنَ النِّعَمِ، واعتَدِلْ في مِشيَتِك فامشِ بسَكينةٍ ووَقارٍ وتواضُعٍ، واخفِضْ مِن صَوتِك،

---

(١) قرأه بالرَّفعِ: نافعٌ وأبو جعفرٍ، وقرأه الباقونَ بالنَّصبِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٤)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٦).

إنَّ أقبَحَ الأصواتِ لَصوتُ الحَميرِ إذا رفَعَت صَوتَها بالنَّهيقِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا نهى لُقمانُ ابنَه عن الشِّركِ؛ نبَّهَه على قُدرةِ اللهِ، وأنَّه لا يُمكِنُ أن يتأخَّرَ عن مَقدورِه شَيءٌ[1].

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾.

أي: قال لُقمانُ لابنِه: يا بُنَيَّ، لو كان العملُ مِن خيرٍ أو شرٍّ زِنةَ حبَّةٍ مِن خَردلٍ، فكان في صَخرةٍ أو في جِهةٍ ما في السَّمواتِ أو في الأرضِ؛ فإنَّ اللهَ يأتي به يومَ القيامةِ، ويحاسِبُ عليه، ويُوَفِّي جَزاءَه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّ الله تعالى يحاسِبُ على الأعمالِ مهما دقَّت وصَغُرت وخَفِيَت، فيأتي بها يومَ القيامةِ، ويحاسِبُ عليها، كما قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ممَّن اختار هذا في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن جُزَي، والبِقاعي، والعليمي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٥، ٥٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٠٠، ١٠١). =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ دقائِقَ الأشياءِ، ويَسلُكُ في إيصالِها لبُلوغِ أمرٍ يُريدُه مَسلَكَ الرِّفقِ، بالوُجوهِ الخَفيَّةِ الغامِضةِ، وهو بالغُ العِلمِ بخَفايا الأمورِ وبواطِنِها؛ فلا يخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه[1].

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾.

= قال الزجاج: (هذا مَثَلٌ لأعمالِ العبادِ، أنَّ الله يأتي بأعمالِهم يومَ القيامةِ؛ ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ * وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٩٧).

وقيل: هذا القَولُ مِن لُقمانَ إنَّما قَصَد به إعلامَ ابنِه بقَدْرِ قُدرةِ الله تعالى، وهذه الغايةُ الَّتي أمكَنَه أن يفهِّمَه؛ لأنَّ الخَرْدَلَةَ يُقالُ: إنَّ الحسَّ لا يُدرِكُ لها ثِقَلًا، إذ لا تُرَجِّحُ ميزانًا. أي: لو كان للإنسانِ رزقٌ مِثقالَ حبَّةِ خَرْدَلٍ في هذه المواضِعِ، جاء الله بها حتَّى يَسوقَها إلى مَن هي رِزقُه، أي: لا تهتمَّ للرِّزقِ حتَّى تشتغِلَ به عن أداءِ الفرائضِ، وعن اتِّباعِ سبيلِ مَن أناب إلَيَّ. قاله القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٠).

والضَميرُ في ﴿إِنَّهَآ﴾ قيل: إنه عائدٌ إلى الخَصلةِ السَّيِّئةِ أو الحَسَنةِ. وممَّن قال بذلك: القاسمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٠٠).

وقيل: الضَّميرُ عائدٌ إلى الخطيئةِ. وممَّن اختار ذلك: البغوي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٧).

وقيل: الضَميرُ للقِصَّةِ والحادثةِ، وهو المسمَّى بضميرِ الشَّأنِ، ويقَعُ بصورةِ ضَميرِ المُفرَدةِ المؤنَّثةِ بتأويلِ القِصَّةِ. وممَّن قال: الضَّميرُ ضميرُ القصَّةِ: أبو حيَّان، والسمين الحلبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٢، ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نهى لُقمانُ ابنَه أوَّلًا عن الشِّركِ، وأخبَرَه ثانيًا بعِلمِه تعالى وباهِرِ قُدرتِه؛ أمَرَه بما يتوسَّلُ به إلى اللهِ مِن الطَّاعاتِ، فبدأ بأشرَفِها، وهو الصَّلاةُ؛ حيث يَتوجَّهُ إليه بها، ثمَّ بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ، ثمَّ بالصَّبرِ على ما يُصيبُه مِنَ المِحَنِ جميعِها، أو على ما يُصيبُه بسَبَبِ الأمرِ بالمعروفِ ممَّن يَبعَثُه عليه، والنَّهيِ عن المنكَرِ ممَّن يُنكِرُه عليه؛ فكثيرًا ما يُؤذَى فاعِلُ ذلك[١].

وأيضًا انتَقَل مِن تعليمِه أصولَ العَقيدةِ إلى تعليمِه أصولَ الأعمالِ الصَّالحةِ، فابتدَأها بإقامةِ الصَّلاةِ[٢].

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

أي: يا بُنَيَّ، أدِّ الصَّلاةَ تامَّةً مُستقيمةً، كما أمَرَ الله تعالى[٣].

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ بتكميلِه في نَفْسِه؛ توفيةً لحَقِّ الحَقِّ؛ عَطَف على ذلك تَكميلَه لِنَفسِه بتكميلِ غَيرِه؛ توفيةً لحَقِّ الخَلقِ؛ وذلك أنَّه لَمَّا كان النَّاسُ في هذه الدَّارِ سَفْرًا، وكان المسافِرُ إنْ أهملَ رَفيقَه حتَّى أُخِذَ، أوشَكَ أن يُؤخَذَ هو- أمَرَه بما يُكَمِّلُ نجاتَه بتكميلِ رَفيقِه، فقال[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٣، ١٧٤).

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

أي: وأْمُرِ النَّاسَ بتَوحيدِ اللهِ وطاعتِه، واتِّباعِ شَرْعِه[١].

﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾.

أي: وانْهَ النَّاسَ عن الشِّركِ باللهِ ومَعصِيَتِه[٢].

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا علِم أنَّه لا بدَّ أن يُبتلَى إذا أمَر ونهَى، وأنَّ في الأمرِ والنَّهيِ مَشَقَّةً على النُّفوسِ؛ أمَره بالصَّبرِ على ذلك[٣]، فالقابِضُ على دينِه في غالِبِ الأزمانِ كالقابِضِ على الجَمرِ؛ لأنَّه يُخالِفُ المُعظَمَ، فيَرمونَه عن قَوسٍ واحدةٍ، لا سيَّما أنَّه أمَرَهم ونهاهم[٤].

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾.

أي: وتحمَّلْ ما أصابَك مِن بلاءٍ وأذًى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٥).

قيل: المرادُ: الصَّبرُ على ما يَنالُه مِن أذَى الخَلقِ؛ بسَبَبِ أمْرِهم بالمعروفِ، ونَهْيِهم عن المنكَرِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن =

كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ١٠٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ١٠].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

أي: إنَّ ذلك(١) مِن الأمورِ الَّتي أوجبَها اللهُ تعالى على عِبادِه، وتحتاجُ إلى حَزمٍ وعَزمٍ للقيامِ بها(٢).

= سليمان)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، وابنُ جُرَيْجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٢٣).

وقيل: المرادُ: عمومُ الصَّبرِ على كُلِّ بلاءٍ، سواءٌ كان ما يَلحَقُ الإنسانَ مِن أذى الخَلقِ؛ لقيامِه بعبادةِ الله تعالى، أو لأمْرِهم بالمعروفِ ونَهْيِهم عن المنكَرِ، أو لغيرِ ذلك مِن الأسبابِ، كالمَرَضِ وغَيرِه. وممَّن ذهب إلى العمومِ: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٥).

قال القرطبي: (قيل: أمَرَه بالصَّبرِ على شدائدِ الدُّنيا، كالأمراضِ وغَيرِها، وألَّا يَخرُجَ مِنَ الجَزَعِ إلى معصيةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وهذا قولٌ حَسَنٌ؛ لأنَّه يعُمُّ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٨).

(١) قيل: الإشارةُ تعودُ إلى المذكورِ مِن إقامةِ الصَّلاةِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المنكرِ، والصَّبرِ على ما أصاب المرءَ. وممَّن قال بذلك: العُليمي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

وقيل: تعودُ إلى الأمرِ والنَّهيِ والصَّبرِ. وممَّن اختاره: الواحدي، والبغوي يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١١٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٩).

وقيل: تعودُ إلى الصَّبرِ على أذى النَّاسِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعيدُ بنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

قال ابن جُزَي: (﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ يحتملُ أن يُريدَ: ممَّا أمَر الله به على وجهِ العزمِ والإيجابِ، أو مِن مكارِمِ الأخلاقِ الَّتي يعزِمُ عليها أهلُ الحزمِ والجِدِّ، ولفظُ العزمِ مصدرٌ يُرادُ به =

كما قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

انتقَلَ لُقمانُ بابنِه إلى الآدابِ في مُعاملةِ النَّاسِ، فنهاه عن احتِقارِ النَّاسِ، وعن التَّفَخُّرِ عليهم، وهذا يقتَضي أمْرَه بإظهارِ مُساواتِه مع النَّاسِ، وعَدِّ نَفْسِه كواحِدٍ منهم[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان مِن آفاتِ العبادةِ -لا سِيَّما الأمرِ والنَّهيِ؛ لتصَوُّرِهما بصورةِ الاستِعلاءِ- الإعجابُ الدَّاعي إلى الكِبْرِ، قال مُحَذِّرًا مِن ذلك مُعَبِّرًا عن الكِبْرِ بلازِمِه؛ لأنَّ نَفْيَ الأعَمِّ نَفيٌ للأخَصِّ، مُنبِّهًا على أنَّ المطلوبَ في الأمرِ والنَّهيِ اللِّينُ لا الفَظاظةُ والغِلظةُ الحامِلانِ على النُّفورِ[(٢)]:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾.

أي: ولا تُمِلْ خَدَّك، وتُعرِضْ بوَجهِك عن النَّاسِ؛ تكَبُّرًا عليهم، وتهاوُنًا واستِحقارًا لشَأنِهم[(٣)].

= المفعولُ، أي: مِن معزوماتِ الأمورِ. ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٨٠).

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال لي النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تَحقِرَنَّ مِنَ المعروفِ شَيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاك بوَجهٍ طَلْقٍ))(١).

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

أي: ولا تَمشِ في الأرضِ فَرِحًا مُتبَختِرًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُتكَبِّرٍ، مَزهُوٍّ، مُعجَبٍ بنَفْسِه، شديدِ الفَخرِ على النَّاسِ بما أُعطِيَ مِن النِّعَمِ(٣).

﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نهَى لُقمانُ ابنَه عن الخُلُقِ الذَّميمِ؛ أمَرَه بالخُلُقِ الكريمِ(٤).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٩).

قال القرطبي عن المرَحِ: (هو النَّشاطُ والمشْيُ فَرَحًا في غيرِ شُغلٍ وفي غيرِ حاجةٍ، وأهلُ هذا الخُلُقِ ملازِمونَ للفَخرِ والخُيَلاء، فالمرِحُ مختالٌ في مِشيَتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٥).

وأيضًا بعدَ أن بيَّنَ لُقمانُ لابنِه آدابَ حُسنِ المعامَلةِ مع النَّاسِ؛ قفَّاها بحُسنِ الآدابِ في حالتِه الخاصَّةِ، وتلك حالتا المَشيِ والتَّكَلُّمِ، وهما أظهَرُ ما يَلوحُ على المرءِ مِن آدابِه[١].

﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ ﴾.

أي: وتوسَّطْ، واعتَدِلْ في مِشيَتِك بلا تكَبُّرٍ ولا استِعجالٍ، بل امشِ بسَكينةٍ ووَقارٍ وتواضُعٍ، بلا سُرعةٍ ولا تباطُؤٍ[٢].

﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ ﴾.

أي: واخفِضْ مِن صَوتِك، فلا ترفَعْه مِن غيرِ حاجةٍ[٣].

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾.

أي: إنَّ أقبَحَ الأصواتِ وأشنَعَها لَصَوتُ الحَميرِ إذا رفَعَت صَوتَها بالنَّهيقِ[٤]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى حكايةً عن لُقمانَ: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٨).

قال القرطبي: (فإنَّ الجَهرَ بأكثَرَ مِنَ الحاجةِ تكَلُّفٌ يؤذي. والمرادُ بذلك كُلِّه التَّواضُعُ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١).

وقال السعدي: (﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ ﴾ أدَبًا مع النَّاسِ ومع اللهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾؛ لِسَعةِ عِلمِه، وتمامِ خبرتِه، وكمالِ قُدرتِه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطفَ في علمِه وخبرتِه، حتَّى اطَّلَع على البواطنِ والأسرارِ، وخفايا القِفارِ والبحارِ، والمقصودُ مِن هذا: الحثُّ على مُراقَبةِ الله، والعملِ بطاعتِه، مهما أمكَن، والتَّرهيبُ مِن عملِ القبيحِ، قَلَّ أو كثُر(١).

٢- قال الله تعالى حكايةً عن لُقمانَ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ دَعَت هذه الآياتُ إلى معالي الأخلاقِ، وهي أمَّهاتُ الفضائلِ الثَّلاثِ: الحِكمةِ، والعِفَّةِ، والشَّجاعةِ؛ وأمَرَت بالعَدلِ فيها، وهي وظيفةُ التَّقسيطِ الَّذي هو الوَسَطُ الَّذي هو مَجمَعُ الفضائلِ، ونَهَت عن مساوئِ الأخلاقِ، وهي الأطرافُ الَّتي هي مَبدأُ الرَّذائلِ، الحاصِلُ بالإفراطِ والتَّفريطِ؛ فإقامةُ الصَّلاةِ الَّتي هي رُوحُ العبادةِ المبنيَّةِ على العِلمِ هي سِرُّ الحِكمةِ، والأمرُ والنَّهيُ أمرٌ بالشَّجاعةِ ونهيٌ عن الجُبنِ، وفي النَّهيِ عن التَّصعيرِ وما معه نهيٌ عن التَّهوُّرِ، والقَصدُ في المشيِ والغَضُّ في الصَّوتِ أمرٌ بالعِفَّةِ، ونهيٌ عن الاستِماتةِ والجُمودِ، والخَلاعةِ والفُجورِ(٢).

٣- يؤخَذُ مِن قَولِ لُقمانَ لابنِه -فيما حكاه الله عنه-: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ تلَطُّفُ الإنسانِ بمُخاطَبةِ ابنِه، لا سيَّما في مقامِ الموعِظةِ، ويتفَرَّعُ على هذا بيانُ سوءِ معاملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٠).

بعضِ الآباءِ: إذا أراد أنْ يَعِظَ ابنَه عامَلَه بالعُنفِ والشِّدَّةِ! وهذا خطأٌ، وقد قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ اللهَ رفيقٌ يحِبُّ الرِّفقَ، ويُعطي على الرِّفقِ ما لا يُعطي على العُنفِ))[١]، وأنت إذا عَمِلْتَ بهذا فإنَّك سوف تُعامَلُ بالرِّفقِ؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم أخبَرَ بأنَّ اللهَ تعالى يُعطي على الرِّفقِ ما لا يُعطي على العُنفِ، فإذا كان يحصُلُ لك مَقصودُك بالعُنفِ؛ فإنَّ حُصولَه بالرِّفقِ مِن بابِ أَولى[٢].

٤- الصَّبرُ على أذَى الخَلقِ عندَ الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المنكَرِ: إن لم يُستعمَلْ لَزِمَ أحدُ أمْرَينِ: إمَّا تعطيلُ الأمرِ والنَّهيِ، وإمَّا حُصولُ فِتنةٍ ومَفسَدةٍ أعظَمَ مِن مَفسَدةِ تَركِ الأمرِ والنَّهيِ، أو مِثلِها، أو قريبٍ منها، وكِلاهما معصيةٌ وفَسادٌ؛ قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، فمَن أمَرَ ولم يصبِرْ، أو صبَرَ ولم يأمُرْ، أو لم يأمُرْ ولم يصبِرْ: حَصَل مِن هذه الأقسامِ الثَّلاثةِ مَفسَدةٌ، وإنَّما الصَّلاحُ في أن يأمُرَ ويَصبِرَ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾، وقَولُه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقَولُه: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] هذا عامٌّ في وُلاةِ الأُمورِ وفي الرَّعيَّةِ: إذا أمَروا بالمَعروفِ ونَهَوا عن المنكَرِ، فعليهم أن يَصبِروا على ما أُصيبوا به في ذاتِ اللهِ، كما يَصبِرُ المجاهِدونَ على ما يُصابُ مِن أنفُسِهم وأموالِهم؛ فالصَّبرُ على الأذى في العِرْضِ أوْلَى وأوْلَى؛ وذلك لأنَّ مَصلحةَ الأمرِ والنَّهيِ لا تَتِمُّ إلَّا بذلك، وما لا يَتِمُّ الواجِبُ إلَّا به فهو واجِبٌ، ويَندرِجُ في ذلك وُلاةُ الأمورِ؛

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٣) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٣/ ٢٠٦).

فإنَّ عليهم مِن الصَّبرِ والحِلمِ ما ليس على غَيرِهم، كما أنَّ عليهم مِنَ الشَّجاعةِ والسَّماحةِ ما ليس على غَيرِهم؛ لأنَّ مَصلحةَ الإمارةِ لا تَتِمُّ إلَّا بذلك. فكما وَجَب على الأئمَّةِ الصَّبرُ على أذى الرَّعيَّةِ وظُلْمِها إذا لم تَتِمَّ المصلحةُ إلَّا بذلك، أو كان تَركُه يُفضي إلى فسادٍ أكثَرَ منه- فكذلك يجبُ على الرَّعيَّةِ الصَّبرُ على جَورِ الأئمَّةِ وظُلمِهم، إذا كان في تَركِ الصَّبرِ مَفسَدةٌ راجحةٌ[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يَستلزِمُ العِلمَ بالمعروفِ ليأمُرَ به، والعِلمَ بالمُنكَرِ لِيَنهَى عنه، والأمرَ بما لا يَتِمُّ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَرِ إلَّا به؛ مِنَ الرِّفقِ والصَّبرِ، وقد صَرَّح به في قَولِه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾، ومِن كَونِه فاعِلًا لِما يَأمُرُ به، كافًّا لِما ينهَى عنه، فتضَمَّن هذا تكميلَ نَفْسِه بفِعلِ الخَيرِ، وتَركِ الشَّرِّ، وتكميلَ غَيرِه بذلك بأمرِه ونَهيِه[٢].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ الأمرُ بأن يأمُرَ بالمعروفِ ويَنهى عن المنكَرِ يَقتضي إتيانَ الأمرِ وانتهاءَه في نَفْسِه؛ لأنَّ الَّذي يأمُرُ بفِعلِ الخَيرِ ويَنهى عن فِعلِ الشَّرِّ: يعلَمُ ما في الأعمالِ مِن خيرٍ وشَرٍّ، ومصالِحَ ومفاسِدَ؛ فلا جَرَمَ أن يَتوقَّاها في نَفْسِه بالأولويَّةِ مِن أمْرِه النَّاسَ ونَهْيِه إيَّاهم[٣].

٨- قال تعالى حكايةً عن لقمانَ: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾، فالآمِرُ بالمعروفِ والنَّاهي عن المنكَرِ إذا أمَر ونهَى، فلا بُدَّ أن يُؤذَى في العادةِ؛ فعليه أن يَصبِرَ ويَحلُمَ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ تنبيهٌ على فَضيلةِ العَزمِ في

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٥٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨).

الأمورِ، وكلَّما كان الإنسانُ عازمًا في أمورِه، كان ذلك أنجحَ له وأحسَنَ[(١)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ زَجْرٌ عن احتِقارِ النَّاسِ، ومِشْيةِ الخُيَلاءِ؛ وحثٌّ على التَّواضُعِ، وأخْذِ السَّكينةِ والوَقارِ[(٢)].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي: اختيالًا وتَبختُرًا؛ ومشيُ الأشَرِ والبطَرِ والتَّكبرِ جديرٌ بأن يظلِمَ صاحِبُه ويُفحِشَ ويَبغيَ، بل امْشِ هَونًا؛ فإنَّ ذلك يُفضي بك إلى التَّواضُعِ، فتَصِلُ إلى كلِّ خيرٍ[(٣)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يكونَ مَشيُه قَصْدًا: لا إسراعًا مُخِلًّا، ولا دَبيبًا مُتباطِئًا؛ فالإسراعُ الَّذي فيه التَّهوُّرُ والعَجَلةُ والطَّيشُ: مذمومٌ، والتَّباطؤُ والدَّبيبُ أيضًا مَذمومٌ[(٤)].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾، قيل: ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾: إشارةٌ إلى الأفعالِ، وقَولُه: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾: إشارةٌ إلى الأقوالِ؛ فنبَّه على التَّوسُّطِ في الأفعالِ والأقوالِ، وعلى الإقلالِ مِن فُضولِ الكلامِ[(٥)].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإجهارَ الشَّديدَ في المنطِقِ مذمومٌ[(٦)].

١٥- قوله تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ (مِنْ) هذه للتَّبعيضِ، فلم يقُلْ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٢٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٤٢٧).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٦٢٧).

(اغضضْ صوتَك)، بل قال: (منه)؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ لا يُحْمَدُ على رفعِ الصَّوتِ جدًّا، ولا على خَفضِه جدًّا، بل يكونُ أيضًا قَصْدًا بينَ رفعِ الصَّوتِ والإخفاءِ[١].

١٦- قال تعالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾، النَّهيُ عن رفعِ الصَّوتِ فوقَ الحاجةِ، فيه إشارةٌ إلى أنَّ فاعلِ ما لا حاجةَ إليه غيرُ حكيمٍ[٢].

١٧- قال الله تعالى: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ هذه الآيةُ أدَبٌ مِنَ اللهِ تعالى بتَركِ الصِّياحِ في وُجوهِ النَّاسِ تهاوُنًا بهم، أو بتَركِ الصِّياحِ جُملةً، وكانت العَرَبُ تَفخَرُ بجَهارةِ الصَّوتِ الجَهيرِ وغيرِ ذلك؛ فمَن كان منهم أشَدَّ صَوتًا كان أعَزَّ، ومَن كان أخفَضَ كان أذَلَّ[٣]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أبلَغُ مِن قَولِ القائِلِ: (يَعلَمُها اللهُ)؛ لأنَّ مَن يَظهَرُ له الشَّيءُ، ولا يَقدِرُ على إظهارِه لغَيرِه، يكونُ حالُه في العِلمِ دونَ حالِ مَن يَظهَرُ له الشَّيءُ، ويُظهِرُه لِغَيرِه[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾، قيل: خَفاءُ الشَّيءِ يُعرَفُ بصِغَرِه عادةً، وبُعْدِه عن الرَّائي، وبكَونِه في ظُلمةٍ وباحتجابِه؛ فـ ﴿فِي صَخۡرَةٍ﴾ إشارةٌ إلى الحِجابِ، و﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارةٌ إلى البُعدِ، و﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارةٌ إلى الظُّلمةِ؛ فإنَّ جوفَ الأرضِ أظلَمُ الأماكنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٥).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ بدأ هذه الوَصيَّةَ بالصَّلاةِ، وختَمَها بالصَّبرِ؛ لأنَّهما مِلاكُ الاستِعانةِ ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[1] [البقرة: ٤٥].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ يُعلَمُ منه أنَّ الصَّلاةَ كانت في سائِرِ المِلَلِ، غيرَ أنَّ هيئتَها اختلَفَت[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ لذِكْرِ الحِمارِ مِن بلاغةِ الذَّمِّ والشَّتمِ ما ليس لِغَيرِه؛ ولذلك يُستهجَنُ التَّصريحُ باسمِه، وهذا يُفهِمُ أنَّ الرَّفعَ مع الحاجةِ غَيرُ مَذمومٍ؛ فإنَّه ليس بمُستنكَرٍ ولا مُستَبشَعٍ[3].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ رَفْعَ الصَّوتِ في غيرِ محَلِّهِ مُحرَّمٌ؛ لأنَّ هذا التَّشبيهَ يقتضي التَّنفيرَ منه، وقد قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ليس لنا مَثَلُ السَّوءِ))[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ هذا شُروعٌ في حِكايةِ بقيَّةِ وَصايا لُقْمانَ، بعدَ تَقريرِ ما في مَطْلَعِها مِن النَّهيِ عن الشِّركِ، وتأْكيدِه بالاعتراضِ[5].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١١٧).

والحديث أخرجه البخاري (٢٦٢٢) من حديث عبد الله بنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٢).

- وتَكريرُ النِّداءِ ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾؛ لِتَجديدِ نشاطِ السَّامعِ لوَعْيِ الكلامِ[١]، وفيه تنبيهٌ على فَرطِ النَّصيحةِ؛ لِفَرطِ الشَّفَقةِ[٢].

- وقدِ اجتمَعَ في هذه الجُملةِ ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ ... ﴾ ثلاثةُ مُؤكِّداتٍ: النِّداءُ، و(إنَّ)، وضميرُ القصَّةِ -على قولٍ-؛ لِعِظَمِ خطَرِ ما بعْدَه، المُفيدِ تقْريرَ وصْفِه تعالى بالعلْمِ المحيطِ بجميعِ المعلوماتِ مِن الكائناتِ، ووَصْفِه بالقُدْرةِ المُحيطةِ بجميعِ المُمْكناتِ؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾. وقد أُفيدَ ذلك بطَريقِ دَلالةِ الفَحْوى[٣]؛ فذُكِر أدَقُّ الكائناتِ حالًا مِن حيثُ تعلُّقُ العِلْمِ والقُدرةِ به، وذلك أدقُّ الأجسامِ المُخْتفي في أصلَبِ مكانٍ أو أقصاهُ وأعَزِّه مَنالًا، أو أوسَعِه وأشَدِّه انتشارًا؛ لِيُعلَمَ أنَّ ما هو أقْوى منه في الظُّهورِ والدُّنُوِّ مِن التَّناوُلِ أَولى بأنْ يُحيطَ به عِلْمُ اللهِ وقُدْرتُه[٤].

- وفي قولِه: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ ... ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّتميمِ[٥]، والمعنى -على قولٍ-: أنَّه تمَّمَ خَفاءَ الخَطيئةِ في نفْسِها بخَفاءِ مكانِها مِن الصَّخرةِ، والأخْفى مِن الصَّخرةِ؛ كأنْ تكونَ في صَخرةٍ مُستقرَّةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٣).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٢).

(٥) التَّتميم: هو أن يُؤتَى في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفضلةٍ تُفيدُ نكتةً. أو بعبارةٍ أخرى هو: الإتيانُ بكلِمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصودِ، لرَفْعِ اللَّبسِ عنه، وتقريبِه للفَهمِ، أو لزيادةِ حسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِح مِن الكلامِ نقَص معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠).

في أغوارِ الأرضِ السَّحيقةِ، أو في الأعالي مِن أجوازِ[١] الفضاءِ[٢].

- وقولُه: ﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عطْفٌ على ﴿فِي صَخۡرَةٍ﴾؛ لأنَّ الصَّخرةَ مِن أجزاءِ الأرضِ، فذكَرَ بعْدَها ﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، على مَعنى: أو كانت في أعزَّ مَنالًا مِن الصَّخرةِ، وعطَفَ عليه ﴿أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وإنَّما الصَّخرةُ جُزءٌ مِن الأرضِ؛ لقصْدِ تَعميمِ الأمكنةِ الأرضيَّةِ؛ فإنَّ الظَّرفيَّةَ تَصدُقُ بهما، أي: ذلك كلُّه سواءٌ في جانبِ عِلمِ اللهِ وقُدرتِه، كأنَّه قال: فتكُنْ في صَخرةٍ، أو حيث كانت مِن العالَمِ العُلويِّ والعالَمِ السُّفليِّ[٣].

- قولُه: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ قيل: الإتيانُ كِنايةٌ عن التَّمكُّنِ منها، وهو أيضًا كِنايةٌ رَمْزيَّةٌ عن العِلْمِ بها؛ لأنَّ الإتيانَ بأدقِّ الأجسامِ مِن أقْصى الأمكنةِ وأعمَقِها وأصلَبِها، لا يكونُ إلَّا عن عِلْمٍ بكَونِها في ذلك المكانِ، وعِلْمٍ بوسائلِ استخراجِها منه[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ مِن كلامِ لُقْمانَ؛ فهي كالمَقصدِ مِن المُقدِّمةِ، أو كالنَّتيجةِ مِن الدَّليلِ؛ ولذلك فُصِلَت ولم تُعطَفْ؛ لأنَّ النَّتيجةَ كبدَلِ الاشتمالِ يَشتمِلُ عليها القياسُ؛ ولذلك جِيءَ بالنَّتيجةِ كُلِّيَّةً بعدَ الاستدلالِ بجُزئيَّةٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ مُعترِضةً بيْنَ كلامِ لُقْمانَ؛

---

(١) جوزُ كلِّ شَيءٍ: وَسَطُه، والجمعُ أجوازٌ. قيل: مِن هذا اشتقاقُ الجَوزاءِ؛ لأنَّها تعترِضُ جوزَ السَّماءِ، أي: وسَطَها. يُنظر: ((جمهرة اللغة)) لابن دُرَيد (١/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٤٩٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٩٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَعليمًا مِن اللهِ للمُسلِمينَ[١].

- واللَّطيفُ: مَن يَعلَمُ دقائقَ الأشياءِ، ويَسلُكُ في إيصالِها إلى مَن تَصلُحُ به مَسلَكَ الرِّفقِ؛ فهو وصْفٌ مُؤْذِنٌ بالعِلْمِ والقُدرةِ الكامِلَينِ؛ ففي تَعقيبِ ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ بوَصْفِه بـ (اللَّطيف) إيماءٌ إلى أنَّ التَّمكُّنَ منها وامتلاكَها بكَيفيَّةٍ دَقيقةٍ، تُناسِبُ فَلْقَ الصَّخرةِ، واستخراجَ الخَرْدَلةِ منها، مع سَلامتِهما وسلامةِ ما اتَّصلَ بهما مِن اختلالِ نِظامِ صُنْعِه[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾

- قولُه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خَصَّ الصَّلاةَ؛ لأنَّها أكبَرُ العباداتِ البَدَنيَّةِ[٣].

- وقَدَّم الأمرَ بالمعروفِ -وإن كان مِن جَلبِ المصالحِ- لأنَّه يَستَلزِمُ تَرْكَ المنكَرِ، وأمَّا تَركُ المُنكَرِ فلا يَستلزِمُ فِعلَ الخَيرِ؛ فإنَّك إذا قُلتَ: لا تأتِ مُنكَرًا، لم يَتناوَلْ ذلك في العُرفِ إلَّا الكَفَّ عن فِعلِ المعصيةِ، لا فِعلَ الطَّاعةِ[٤].

- وفيه تَعقيبُ الأمْرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ بمُلازَمةِ الصَّبرِ؛ ووجْهُه: أنَّ الأمْرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ قد يَجُرَّانِ للقائمِ بهما مُعاداةً مِن بعضِ النَّاسِ، أو أذًى مِن بعضٍ، فإذا لم يَصبِرْ على ما يُصيبُه مِن جرَّاءِ الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، أوشَكَ أنْ يَترُكَهما. ولَمَّا كانت فائدةُ الصَّبرِ عائدةً على الصَّابرِ بالأجْرِ العظيمِ، عُدَّ الصَّبرُ هنا في عِدادِ الأعمالِ القاصرةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٣، ١٧٤).

على صاحِبِها، ولم يُلتفَتْ إلى ما في تَحمُّلِ أذَى النَّاسِ مِن حُسنِ المُعامَلةِ معهم، حتَّى يُذكَرَ الصَّبرُ مع قولِه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨]؛ لأنَّ ذلك ليس هو المقصودَ الأوَّلَ مِن الأمْرِ بالصَّبرِ[١].

- قَولُه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ حقَّق بالماضي أنَّه لا بُدَّ مِنَ المُصيبةِ؛ لِيَكونَ الإنسانُ على بصيرةٍ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ فيه التَّأكيدُ بـ(إنَّ)؛ للاهتمامِ[٣]. والإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى كلِّ ما ذُكِرَ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وما في اسمِ الإشارةِ مِن مَعنى البُعدِ مع قُرْبِ العهْدِ بالمُشارِ إليه؛ للإشعارِ ببُعدِ مَنزلتِه في الفضْلِ[٤].

- وأيضًا جملةُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ تَعليلٌ لوُجوبِ الامتِثالِ بما سبَقَ مِن الأمرِ والنَّهيِ، وإيذانٌ بأنَّ ما بعْدَها ليس بمَثابتِه[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وقال في سُورةِ (الشُّورى): ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]؛ فأكَّدَ الخبَرَ في هذه الآيةِ، وسقَطَ التَّوكيدُ مِن الأُولى في سُورةِ (لُقمانَ)؛ وذلك لأنَّ آيةَ (الشُّورى) لَمَّا دخَلَها معنى القسَمِ، وكانتْ على تَقديرِه؛ إذِ اللَّامُ في قولِه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ توطئةٌ له، ودالَّةٌ على تَضمينِ الآيةِ معناهُ؛ ناسَبَ ذلك زِيادةُ لامِ التَّأكيدِ في خبَرِ (إنَّ)، وذلك ظاهرٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في معنَى الآيةِ. وأمَّا آيةُ (لُقمانَ) فقولُه فيها: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ مُجرَّدُ إخبارٍ عن حالِ ما وقَعَت الوصيَّةُ به، ولا مَدخَلَ للقسَمِ هنا، ولا معنَى له، فلم تَدخُلْ لامُ التَّأكيدِ في الخبَرِ؛ إذ ليس في الآيةِ معنَى قسَمٍ يَسْتدعِيها، ولا وقَعَ في اللَّفظِ ما يُطابِقُها، فورَدَ كلٌّ على ما يجِبُ ويُناسِبُ، ولو قُدِّرَ العكْسُ لَمَا ناسَبَ[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ الصَّعَرُ: داءٌ يُصِيبُ البَعيرَ، فيَلْوي منه عُنقَه، فكأنَّه صِيغَ له صِيغةُ تَكلُّفٍ، بمعنى تَكلُّفِ إظهارِ الصَّعرِ، وهو تَمثيلٌ للاحتِقارِ؛ لأنَّ مُصاعَرةَ الخدِّ هَيئةُ المُحتقِرِ المُستخِفِّ في غالبِ الأحوالِ، والمعنى: لا تَحتقِرِ النَّاسَ؛ فالنَّهيُ عن الإعراضِ عنهم احتقارًا لهم، لا عن خُصوصِ مُصاعرةِ الخدِّ، فيَشملُ الاحتقارَ بالقولِ والشَّتْمِ وغيرِ ذلك، فهو قريبٌ مِن قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]، إلَّا أنَّ هذا تَمثيلٌ كِنائيٌّ، والآخَرُ كِنايةٌ لا تَمْثيلَ فيها[2].

- قولُه: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ تَمثيلٌ كِنائيٌّ عن النَّهيِ عن التَّكبُّرِ والتَّفاخُرِ، لا عن خُصوصِ المشْيِ في حالِ المرَحِ؛ فيَشملُ الفخْرَ عليهم بالكلامِ وغيرِه[3].

- ومَوقِعُ قولِه: ﴿ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ بَعدَ (لَا تَمْشِ)، مع أنَّ المشْيَ لا يكونُ إلَّا في الأرضِ؛ هو الإيماءُ إلى أنَّ المشْيَ في مكانٍ يَمْشي فيه النَّاسُ كلُّهم

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٦٦، ١٦٧).

قَوِيُّهم وضعيفُهم؛ ففي ذلك مَوعظةٌ لِلماشي مرَحًا أنَّه مُساوٍ لسائرِ النَّاسِ[١]، وتذكيرٌ بأنَّ أصلَه ترابٌ، وهو لا يقدرُ أن يَعدُوَه[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ أو مُوجِبه، وتأْخيرُ الفَخورِ -مع كَونِه بمُقابَلةِ المُصعِّرِ خَدَّه- عن المُخْتالِ -وهو بمُقابَلةِ الماشِي مَرَحًا-؛ لرِعايةِ الفَواصلِ[٣].

- وصِيغةُ الافتعالِ في كَلمةِ ﴿مُخۡتَالٖ﴾؛ للمُبالَغةِ في الوصْفِ[٤].

- جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ مِن كلامِ لُقْمانَ؛ فهي كالمَقصدِ مِن المُقدِّمةِ، أو كالنَّتيجةِ مِن الدَّليلِ، ولذلك فُصِلَت ولم تُعطَفْ؛ لأنَّ النَّتيجةَ كبدَلِ الاشتمالِ يَشتمِلُ عليها القياسُ، ولذلك جِيءَ بالنَّتيجةِ كُلِّيَّةً بعدَ الاستدلالِ بجُزئيَّةٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ مُعترِضةً بيْن كلامِ لُقْمانَ؛ تَعليمًا مِن اللهِ للمُسلِمين[٥].

- وفي هذه الآيةِ لَطيفةٌ، وهي: أنَّ اللهَ تعالى قَدَّمَ الكمالَ على التَّكميلِ؛ حيثُ قال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، وفي النَّهيِ قدَّمَ ما يُورِثُه التَّكميلُ على ما يُورِثُه الكَمالُ؛ حيثُ قال: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾؛ لأنَّ في طَرَفِ الإثباتِ مَن لا يكونُ كاملًا لا يُمكِنُ أنْ يَصِيرَ مُكمِّلًا؛ فقدَّمَ الكَمالَ، وفي طَرفِ النَّفيِ مَن يكونُ مُتكبِّرًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٦٤، ١٦٧).

على غيرِه يكونُ مُتبختِرًا؛ لأنَّه لا يَتكبَّرُ على الغَيرِ إلَّا عندَ اعتقادِه أنَّه أكبَرُ منه مِن وَجْهٍ، وأمَّا مَن يكونُ مُتبختِرًا في نَفْسِه لا يَتكبَّرُ ويَتوهَّمُ أنَّه يَتواضعُ للنَّاسِ؛ فقدَّمَ نَفْيَ التَّكبُّرِ، ثمَّ نَفْيَ التَّبختُرِ؛ لأنَّه لو قد نَفى التَّبختُرَ لَلَزِمَ منه نَفْيُ التَّكبُّرُ، فلا يَحتاجُ إلى النَّهيِ عنه[1].

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾

- جِيءَ بـ (مِن) الدَّالَّةِ على التَّبعيضِ؛ لإفادةِ أنَّه يغُضُّ بَعضَه، أي: بعضَ جَهْرِه، أي: يَنقُصُ مِن جُهورتِه، ولكنَّه لا يَبلُغُ به إلى التَّخافُتِ والسِّرارِ[2].

- ومِن بديعِ البَلاغةِ في قولِه: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ أنَّه أتَى بالتَّمثيلِ مُؤكَّدًا بـ (إنَّ) أوَّلًا، وعزَّزَ هذا التَّأكيدَ باللَّامِ، فصار الكلامُ خَبرًا إنْكاريًّا؛ كأنَّ التَّمثيلَ أمْرٌ مَبْتوتٌ فيه لا يَتطرَّقُ إليه الشَّكُّ، وهو مُوضِّحٌ لِتَعليلِ الأمرِ بخفْضِ الصَّوتِ، مَبْنيٌّ على تَشبيهِ الرَّافعينَ أصواتَهم بالحميرِ، وتَمثيلِ أصواتِهم بالنُّهاقِ، وفيه إفراطٌ في التَّحذيرِ عن رفْعِ الصَّوتِ، والتَّنفيرِ عنه[3].

- قولُه: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ وُحِّدَ صَوتُ الحَميرِ ولم يُجمَعْ؛ لأنَّه ليس المُرادُ أنْ يُذكَرَ صوتُ كلِّ واحدٍ مِن آحادِ هذا الجِنسِ حتَّى يُجمَعَ، وإنَّما المرادُ أنَّ كلَّ جِنسٍ مِن الحيوانِ النَّاطقِ له صَوتٌ، وأنكَرُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٤٥ ٥٤٨).

أصواتِ هذه الأجناسِ صوتُ هذا الجِنسِ؛ فوجَبَ توحيدُه[١]. وإنَّما جمَعَ الحميرَ في نَظْمِ القرآنِ، مع أنَّ (صوت) مُفردٌ، ولم يقُلِ: (الحِمارِ)؛ لأنَّ المُعرَّفَ بلامِ الجِنسِ يَسْتوي مُفردُه وجمْعُه، وإنَّما أُوثِرَ لفْظُ الجمْعِ؛ لأنَّ كَلِمةَ (الحَميرِ) أنسبُ لفواصلِ الآياتِ؛ فإنَّ الفواصلَ المُتقدِّمةَ هي: ﴿حَمِيدٌ﴾، ﴿عَظِيمٌ﴾، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾، ﴿خَبِيرٌ﴾، ﴿ٱلْأُمُورِ﴾، ﴿فَخُورٍ﴾، ﴿ٱلْحَمِيرِ﴾[٢]، ولأنَّ المَقصودَ مِن الجَمعِ التَّتميمُ والمبالغةُ في التَّنفيرِ؛ فإنَّ الصَّوتَ إذا تَوافقتْ عليه الحَميرُ كان أنكَرَ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٨، ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٠٠).

الآيات (٢٠-٢٤)

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَسْبَغَ﴾: أي: أتمَّ ووسَّعَ وأكمَلَ، وأصلُ (سبغ): يدُلُّ على تمامِ الشَّيءِ وكَمالِه[1].

﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾: أي: بأوثَقِ الأسبابِ. والعُروةُ: ما يُتعلَّقُ به؛ نحوُ عُروةِ الدَّلْوِ والكُوزِ، والوُثقَى: المُحكَمةُ الشَّدِّ[2].

﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾: أي: نُلجِئُهم ونَسوقُهم، أو نُورِدُهم على كُرهٍ منهم، والاضْطِرارُ: حمْلُ الإنسانِ على ما يَضُرُّه، والاضطرارُ في الأصلِ: الإلجاءُ، يُقالُ: اضْطَرَّه إلى كذا، أي: ألجَأه إليه، وأصلُ (ضرَّ) هنا: خلافُ النَّفْعِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩٦)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُنَبِّهًا خلْقَه على نِعَمِه عليهم في الدُّنيا والآخرةِ: ألم تَرَوا -أيُّها النَّاسُ- أنَّ اللهَ وَحْدَه سخَّر لكم ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ مِن منافعَ كثيرةٍ لا تُحصى، وأتمَّ عليكم نِعَمَه ظاهِرةً وباطِنةً، وغمَركم بها، ومع كُلِّ هذا فمِنَ النَّاسِ مَن يُخاصِمُ في دينِ اللهِ وشَرعِه وتَوحيدِه بلا عِلمٍ عِندَه، وبغيرِ هُدًى ولا كِتابٍ مُبينٍ للحَقِّ!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى عِنادَ هؤلاء المجادِلينَ في اللهِ، وتقليدَهم الأعمى، وأنَّهم إذا قيل لهم: اتَّبِعوا ما أنزَلَ اللهُ على رَسولِه، قالوا: بل نتَّبِعُ ما وَجَدْنا عليه آباءَنا! ويَرُدُّ الله تعالى عليهم، فيقولُ: أيَتَّبِعونَ آباءَهم الضَّالِّينَ ولو كان الشَّيطانُ يدعوهم إلى عذابِ النَّارِ الَّتي تَستَعِرُ بهم؟!

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى حالَ المؤمنِ المُستسلِمِ لأمرِ الله، وحُسْنَ عاقبتِه، فيقولُ: ومَن يُخلِصْ عَمَلَه وقَصْدَه لله وحْدَه، وهو مُطيعٌ لله مُتَّبِعٌ لِشَرعِه؛ فقد تَمسَّك بأوثَقِ رِباطٍ يؤدِّي إلى الفَوزِ والنَّجاةِ، وإلى اللهِ وَحْدَه نهايةُ كُلِّ أمرٍ.

ثمَّ يقولُ الله تعالى مسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ومَن كَفَر باللهِ فلا يَحزُنْك -يا مُحمَّدُ- كُفرُه؛ إلينا وَحْدَنا مَصيرُهم، فنُخبِرُهم يومَ القيامةِ بما عَمِلوه، إنَّ اللهَ عليمٌ بما تُخفي صدورُهم، نمتِّعُهم في الدُّنيا قليلًا، ثمَّ نُلجِئُهم إلى عذابٍ شديدٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٧) و(٢١/ ١٧٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا فَرَغ سبحانَه مِن قصَّةِ لُقمانَ؛ رَجَع إلى توبيخِ المشركينَ، وتبكيتِهم، وإقامةِ الحُجَجِ عليهم[١].

وأيضًا لَمَّا استدَلَّ سُبحانَه بقولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ [لقمان: ١٠] على الوَحدانيَّةِ، وبيَّنَ بحِكمةِ لُقمانَ أنَّ مَعرِفةَ ذلك غيرُ مُختصَّةٍ بالنُّبوَّةِ؛ استدَلَّ ثانيًا على الوحدانيَّةِ بالنِّعَمِ، بقولِه تعالى[٢]:

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ألم تَرَوا -أيُّها النَّاسُ- أنَّ اللهَ وَحْدَه هو مَنْ ذلَّل لأجْلِكم وقيامِ مَصالِحِكم ما في السَّمواتِ مِن شَمسٍ وقَمَرٍ ونُجومٍ وسَحابٍ ورياحٍ وغَيرِها، وما في الأرضِ مِن حَيواناتٍ وزُروعٍ وأشجارٍ وأنهارٍ وبحارٍ ومعادِنَ، وغيرِ ذلك مِن منافِعَ كثيرةٍ لا تُحصى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٤).

قال ابنُ عاشور: (والخِطابُ في ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾ يجوزُ أن يكونَ لجميعِ النَّاسِ؛ مُؤمِنِهم ومُشرِكِهم؛ لأنَّه امتِنانٌ، ويجوزُ أن يكونَ لخُصوصِ المُشرِكينَ باعتبارِ أنَّه استدلالٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الخِطابَ هنا لعُمومِ النَّاسِ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

وممَّن قال بأنَّ الخِطابَ للمُشرِكين: السمرقنديُّ، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) =

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ [النحل: ١٢، ١٣].

﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾.

أي: وأتَمَّ عليكم نِعَمَه الكثيرةَ الوافيةَ، وأوسعَكم وغَمَرَكم بها، ظاهِرةً كانت أو باطِنةً(١).

= (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٤، ١٧٥).

قيل: ظاهِرة على الألسُنِ قَولًا، وعلى الجوارِحِ عَمَلًا، وباطِنة في القُلوبِ اعتِقادًا ومَعرِفةً. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣١٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٢٦).

وقيل: الظَّاهِرةُ: الَّتي نعلَمُ بها، والباطِنةُ: الَّتي تخفَى علينا. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: البِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣١٨).

قال ابنُ عاشور: (الظَّاهرةُ: الواضِحةُ. والباطنةُ: الخفيَّةُ، وما لا يُعلَمُ إلَّا بدليلٍ، أو لا يُعلَمُ أصلًا. وأصلُ الباطنةِ: المُستقرَّةُ في باطنِ الشَّيءِ، أي: داخله... فكم في بدنِ الإنسانِ وأحوالِه مِن نِعَمٍ يَعلَمُها النَّاسُ أو لا يعلمُها بعضُهم، أو لا يعلمُها إلَّا العلماءُ، أو لا يعلمُها أهلُ عصرٍ ثمَّ تنكشفُ لِمَن بعدَهم، وكِلا النَّوعَينِ أصنافٌ دينيَّةٌ ودنيويَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٥). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٩).

وقيل: ﴿ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾: أي: محسوسةً ومعقولةً، ما تَعرِفونَه وما لا تَعرِفونه. وممَّن اختار ذلك في الجملةِ: البيضاويُّ، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣). =

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾.

أي: ولكِنْ مع إسباغِ هذه النِّعَمِ على النَّاسِ، فثَمَّةَ مَن يُخاصِمُ منهم في اللهِ؛ كأن يخاصِمَ في وُجودِه، أو في توحيدِه، أو في أسمائِه وصِفاتِه، أو في دِينِه وأحكامِه وشَرْعِه، بلا عِلمٍ عِندَه، وبِغَيرِ هُدًى[1]، وبلا كِتابٍ مُبينٍ للحَقِّ[2] يُبَيِّنُ

= وقيل: الظَّاهِرةُ: هي البَيِّنةُ للعِيانِ، والظَّاهرةُ لكلِّ أحدٍ، والباطنةُ هي الَّتي لا يَعلمُها إلَّا الإنسانُ المنعَمُ عليه وحْدَه. وأيضًا الظَّاهرةُ تعني أنَّه مِن الواضحِ أنَّها نعمةٌ، وأمَّا الباطنةُ فلا يَتبيَّنُ أنَّها نعمةٌ إلَّا فيما بعدُ، مِن خلالِ معرفةِ آثارِها. قاله: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٢١).

(١) قيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَلَا هُدٗى﴾: أي: بغيرِ بيانٍ وحُجَّةٍ وبرهانٍ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن الجوزي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَلَا هُدٗى﴾ أي: مِن رسولٍ. وممَّن اختاره: البيضاوي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣).

وقال السعدي: (إنَّه الهديُ الَّذي يَقتدي به بالمُهتدينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

وقال ابن عاشور: (إنَّه التَّلَقِّي مِن عالِمٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٥).

(٢) قال الزمخشري في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الحجِّ: (والمرادُ بالعِلمِ: العِلمُ الضَّروريُّ، وبالهدَى: الاستِدلالُ والنَّظرُ؛ لأنَّه يَهدي إلى المعرفةِ، وبالكتابِ المُنيرِ: الوحْيُ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٦). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢٩).

وقال الشوكاني معقبًا على هذا القولِ: (والأَولى حمْلُ العلمِ على العموم، وحملُ الهدَى على معناه اللُّغَويِّ، وهو الإرشادُ. والمرادُ بالكتابِ المُنيرِ هو القرآنُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٩).

وقال الرازي: (هذه أمورٌ ثلاثةٌ مرتَّبةٌ: العِلمُ والهدَى والكتابُ، والعِلمُ أعلَى مِن الهدَى، والهدَى مِن الكِتابِ، وبيانُه هو أنَّ العلمَ تدخُلُ فيه الأشياءُ الواضحةُ اللَّائحةُ الَّتي تُعلَمُ مِن غيرِ هدايةِ هادٍ، ثُمَّ الهدَى يدخُلُ فيه الَّذي يكونُ في كتابٍ والَّذي يكونُ مِن إلهامٍ ووحْيٍ، فقال تعالَى: =

صِحَّةَ دَعواه[١].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ﴾.

أي: وإذا قيل لأولئك المجادِلينَ في اللهِ: اتَّبِعوا ما أنزَلَ اللهُ على رَسولِه، قالوا مُعارِضينَ: لن نتَّبِعَ ذلك، وإنَّما نتَّبِعُ ما وجَدْنا عليه آباءَنا مِنَ الدِّينِ، ونقَلِّدُهم فيه؛ فإنَّهم كانوا على الحَقِّ[٢]!

﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

أي: أيتَّبِعونَ آباءَهم الضَّالِّينَ حتى لو كان الشَّيطانُ البَعيدُ مِنَ الرَّحمةِ، الشَّديدُ العداوةِ لهم: يَدعوهم بتَزيينِه الباطِلَ لهم إلى أن يُعذَّبوا في النَّارِ الَّتي تَستَعِرُ وتلتَهِبُ؟! فهل هذا مُوجِبٌ لاتِّباعِهم على طريقتِهم، أم أنَّ ذلك مُحَذِّرٌ مِن سُلوكِ سَبيلِهم[٣]؟!

﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢ ﴾.

= يُجادِلُ ذلك المجادِلُ لا مِن عِلمٍ واضحٍ، ولا مِن هدًى أتاهُ مِن هادٍ، ولا مِن كتابٍ)). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن حالَ المُشرِكِ والمجادِلِ في اللهِ، بيَّن حالَ المسلِمِ المستسلِمِ لأمرِ الله[١]؛ ليَبِينَ الفَرْقُ، وتتحرَّكَ النُّفوسُ إلى طلبِ الأفضلِ[٢].

﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾.

أي: ومَن يُخلِصْ عَمَلَه وقَصْدَه لله وحْدَه، وهو مع إخلاصِه مُطيعٌ لله في أمْرِه ونَهْيِه كأنَّه يَراه، ومُتَّبِعٌ لشَريعةِ نبيِّه، ومُحسِنٌ إلى خَلْقِه: فقد تَمسَّك بأَوثَقِ رِباطٍ يَتمسَّكُ به مَن يريدُ الفَوزَ والنَّجاةَ مِنَ الضَّلالِ والعَذابِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بارِزًا يَومًا للنَّاسِ، فأتاه جِبريلُ... قال: ما الإحسانُ؟ قال: أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه، فإنْ لم تكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراك))[٤].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٦، ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٣٣، ١٣٤).

(٤) رواه البخاري (٥٠) واللفظ له، ومسلم (٩).

أي وإلى الله وَحْدَه تَرجِعُ نهايةُ كُلِّ أمرٍ؛ فأمورُ مَن أسلَمَ وَجهَه إلى اللهِ صائرةٌ إلى اللهِ، ومَوكولةٌ إليه؛ فهو يَنصُرُهم ويُجازيهم إذا قَدِموا عليه جزاءً حَسَنًا وافيًا[١].

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا خلا ذَمُّ الَّذين كَفَروا عن الوعيدِ، وانتُقِل منه إلى مَدحِ المُسلِمينَ ووَعْدِهم؛ عُطِف عِنانُ الكلامِ إلى تَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتَهوينِ كُفرِهم عليه؛ لأنَّ مَرجِعَهم إلى اللهِ، فيُريهم الجزاءَ المناسِبَ لكُفرِهم[٢].

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ ﴾.

أي ومَن كَفَر باللهِ وبما جاءَه مِنَ الحَقِّ، فلا يَحزُنْك -يا محمَّدُ- كُفرُه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠].

﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

أي: إلينا وَحْدَنا مَصيرُهم، فنُخبِرُهم يومَ القيامةِ بما عَمِلوه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي، ونُجازيهم عليه[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُخفي صُدورُهم مِنَ العَقائدِ الباطِلةِ، والإراداتِ السَّيِّئةِ، ولا تخفَى على الله منهم خافيةٌ[٢].

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾.

أي: نمتِّعُ هؤلاء الكافِرينَ في الدُّنيا تمتيعًا قَليلًا[٣].

﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨).

قال ابنُ عاشور: (التَّمتيعُ: العَطاءُ الموقَّتُ، فهو إعطاءُ المتاعِ، أي: الشَّيءِ القليلِ. وقليلًا: صِفةٌ لمصدرٍ مفعولٍ مطلقٍ، أي: تمتيعًا قليلًا، وقِلَّتُه بالنِّسبةِ إلى ما أعدَّ الله للمُسلِمينَ، أو لِقِلَّةِ مُدَّتِه في الدُّنيا بالنِّسبةِ إلى مُدَّةِ الآخرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: قِلَّةُ التَّمتُّعِ في وصْفِه ونَوعِه وفي زمَنِه: البِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٤٣، ١٤٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: قِلَّةُ زمنِ التَّمتُّعِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥).

أي: ثمَّ نُورِدُهم على كُرهٍ منهم إلى عذابٍ شَديدٍ ثَقيلٍ، ونُلجِئُهم إليه[١].

كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ * مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

وقال سُبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ * مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ أنَّه ينبغي للمُجادِل أنْ يكونَ له دليلٌ مِن العقلِ أو مِن النَّقلِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ فهذا العِلمُ الذَّاتيُّ الَّذي يكونُ بطريقِ العَقلِ، وقَولُه تعالى: ﴿وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ هذا العِلمُ المكتَسَبُ؛ فالهُدى مِن الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والكتابُ المُنيرُ: القُرآنُ[٢]. وذلك على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ.

٢- قال تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ وإسلامُ الوَجهِ لله يَتضَمَّنُ إخلاصَ العَمَلِ لله، والإحسانُ هو إحسانُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

قال البقاعي: (لا يَنقَطِعُ عنهم أصلًا، ولا يجِدونَ لهم منه مَخلَصًا مِن جهةٍ مِن جِهاتِه، فكأنَّه في شِدَّتِه وثِقْلِه جِرمٌ غَليظٌ جِدًّا إذا بَرَك على شَيءٍ لا يُقدَرُ على الخَلاصِ منه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١٩٢).

وقال ابنُ عثيمين: (اعلَمْ أنَّ هذا الاضطرارَ يكونُ عندَ خروجِ الرُّوحِ، ويكونُ كذلك في الآخرةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٢٧).

العَمَلِ لله، وهو فِعلُ ما أمَرَ به فيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]؛ فإنَّ الإساءةَ في العَمَلِ الصَّالحِ تتضَمَّنُ الاستِهانةَ بالأمرِ به، والاستِهانةَ بنَفسِ العَمَلِ، والاستهانةَ بما وَعَدَه اللهُ مِنَ الثَّوابِ، فإذا أخلصَ العبدُ دِينَه لله، وأحسَنَ العملَ له؛ كان ممَّن أسلَمَ وَجْهَه لله وهو مُحسِنٌ؛ فكان مِنَ الَّذين لهم أجرُهم عندَ رَبِّهم ولا خَوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنونَ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أنَّ أوثَقَ ما يَستمسِكُ به الإنسانُ مِن نجاةٍ هو الإخلاصُ والمتابَعةُ؛ لأنَّ كلِمةَ ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾ اسمُ تفضيلٍ؛ فهي مِثلُ (أوثق) في المذَكَّرِ، والإخلاصُ يؤخَذُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والمتابعةُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ الإشارةُ إلى أنَّه ينبغي لِمَن أسلَمَ وجْهَه لله تعالى وهو مُحسِنٌ: أنْ يَصبرَ؛ لأنَّ العاقِبةَ له، فلا يتعجَّلْ أو يَستبعِدِ الفَرَجَ، أو يَستبعِدِ النَّصرَ؛ لأنَّ الأمورَ كلَّها تَرجِعُ إلى ربِّ العزَّةِ سُبحانه وتعالى(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تخويفٌ مِن مخالَفةِ الإنسانِ باطِنًا(٤).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ مُراقبةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى دائمًا؛ لأنَّك إذا عَلِمْتَ بذلك وأيقَنْتَ به، أوجَبَ لك ذلك

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤١).

مُراقبةَ اللهِ عزَّ وجلَّ، والرَّغبةَ إليه، وأنْ تكونَ هِمَّتُك دائمًا في طَلَبِ ما يُرضي اللهَ سُبحانَه وتعالى[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أنَّ اللهَ جلَّ وعلا يُحِبُّ أنْ يُتمَدَّحَ بما أسْدَى إلى عِبادِه مِن النِّعَمِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ جوازُ استِخدامِ ما في هذا الكَونِ في السَّمواتِ والأرضِ لِمَصالحِنا؛ لأنَّه مُسَخَّرٌ لنا، فإذا كان مُسَخَّرًا لنا فلَنا أنْ ننتَفِعَ به فيما أحلَّ اللهُ تعالى لنا[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ تنْبيهٌ على الصَّنعةِ الدَّالَّةِ على الصَّانعِ مِن تَسخيرِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ تحريمُ التَّقليدِ مع ظُهورِ الحُجَّةِ أيًّا كان المُقَلَّدُ؛ إذا بانتِ الحُجَّةُ فإنَّه لا تقليدَ، ولكنْ تُتَّبَعُ الحُجَّةُ[٥]. فالآيةُ حُجَّةٌ على المقلِّدينَ في تَركِهم اتِّباعَ كِتابِ رَبِّهم واتباعِ سَلَفِهم؛ لأنَّ اللهَ جلَّ جَلالُه لم يُنكِرْ منهم اتِّباعَ الآباءِ خاصَّةً مِن جهةِ النَّسَبِ، إنَّما أنكَرَ تَرْكَ كِتابِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣١).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٦٢٩).

٥- قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هذه مُناظَرةٌ حكاها اللهُ بينَ المُسلمينَ والكُفَّارِ؛ فإنَّ الكُفَّارَ لَجَؤوا إلى تقليدِ الآباءِ، وظَنُّوا أنَّه مُنَجِّيهم لإحسانِهم ظَنَّهم بهم، فحَكَم اللهُ بيْنَهم بقَولِه: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وفي مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وفي مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ [الزخرف: ٢٤]، فأخبَرَ عن بُطلانِ هذه الحُجَّةِ، وأنَّها لا تُنجِّي من عذابِ اللهِ تعالى؛ لأنَّها تقليدُ مَن ليس عندَه عِلمٌ ولا هُدًى مِنَ الله، والمعنى: ولو كان الشَّيطانُ يَدعوهم إلى عذابِ السَّعيرِ يُقَلِّدونَهم؟! ولو كانوا لا عِلمَ عِندَهم ولا هُدًى يُقَلِّدونَهم أيضًا؟! وهذا شأنُ مَن لا غَرَضَ له في الهُدى ولا في اتِّباعِ الحَقِّ، إنْ غَرَضُه بالتَّقليدِ إلَّا دَفْعُ الحَقِّ والحُجَّةِ إذا لَزِمَتْه؛ لأنَّه لو كان مَقصودُه الحَقَّ لاتَّبَعَه إذا ظَهَر له، وقد جِئتُكم بأهدى ممَّا وَجدْتُم عليه آباءَكم، فلو كُنتُم ممَّن يتَّبِعُ الحَقَّ لاتَّبعتُم ما جِئتُكم به؛ فأنتم لم تُقَلِّدوا الآباءَ لِكَونِهم على حَقٍّ؛ فقد جِئتُكم بأهدى مِمَّا وجَدْتُموهم عليه، وإنَّما جَعلْتُم تقليدَهم جُنَّةً لكم تَدفَعونَ بها الحَقَّ الَّذي جِئتُكم به[(١)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ ذمُّ الجَدَلِ بغير بُرهانٍ[(٢)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ أنَّ الجَدَلَ بالعِلمِ والهُدى والدَّليلِ مِن القرآنِ لا يُذَمُّ صاحِبُه؛ لأنَّه حَقٌّ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لَمَّا كان ضَلالُ الجَمعِ أعجَبَ مِن ضَلالِ الواحِدِ، وكان التَّعجيبُ مِن جِدالِ الواحِدِ تَعجيبًا مِن جدالِ الاثنَينِ فأكثَرَ مِن بابِ الأَولى- أفرَدَ أوَّلًا فقال: ﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾، وجمَعَ بعدَ ذلك فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ذمُّ مَن خالفَ الحقَّ لاتِّباعِ الآباءِ[2].

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أكثَرُ دياناتِ الخَلقِ إنَّما هي عاداتٌ أخَذوها عن آبائِهم وأسلافِهم، وتَقليدِهم في التَّصديقِ والتَّكذيبِ، والحُبِّ والبُغضِ، والمُوالاةِ والمُعاداةِ[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أنَّ مُخالفةَ الدَّليلِ؛ للتَّقليدِ: هو مِن إجابةِ الشَّيطانِ، وفِعلُ كلِّ شَيءٍ يُوجِبُ العقوبةَ هو مِن تلبيةِ طَلَبِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ هو الَّذي يدعو إلى عذابِ السَّعيرِ[4].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ التَّحذيرُ مِن وَساوِسِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ هذا للتَّوبيخِ والإنكارِ، ووَسوسةُ الشَّيطانِ الَّتي يُلقيها في قلبِ بني آدمَ هي مِن الدَّعوةِ[5].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((قاعدة في المحبة)) لابن تيمية (ص: ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٢).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أنَّ مَن دعا إلى ما يُوجِبُ العِقابَ فهو شبيهٌ بالشَّياطينِ، بل لنا أنْ نقولَ: إنَّه شيطانٌ! ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الَّذي يُمانعُ إذا مُنعَ مِن المرورِ بيْنَ يدَيِ المُصَلِّي، قال: ((فإنْ أبَى فلْيُقاتِلْه؛ فإنَّما هو شَيطانٌ))[١]، وقال الله سبحانَه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[٢] [الأنعام: ١١٢].

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، التَّعبيرُ هنا بالماضي ﴿كَفَرَ﴾، وفي الأوَّلِ بالمُضارعِ ﴿يُسَلِّمْ﴾؛ بِشارةٌ بدُخولِ كَثيرٍ في هذا الدِّينِ، وأنَّهم لا يَرتَدُّون بعدَ إسلامِهم، وتَرغيبٌ في الإسلامِ لكلِّ مَن كان خارجًا عنه[٣].

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ في قَولِه: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ أنّ كلامَه عزَّ وجلَّ بصَوتٍ مسموعٍ؛ لأنَّ ما لا يُسمعُ لا يكونُ فيه إنباءٌ، فلا إنباءَ إلَّا بصَوتٍ مسموعٍ[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دليلٌ على أنَّ الكافرَ يُحاسَبُ على عَمَلِ القلبِ -وهو كذلك-؛ لأنَّه لولا أنه يُحاسَبُ لم يكُنْ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كبيرُ فائدةٍ[٥].

١٧- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، (ذاتُ الصُّدورِ): هي النِّيَّاتُ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩)، ومسلم (٥٠٥) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٤١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأعراضُ النَّفْسِ؛ مِن نَحوِ الحِقدِ، وتَدبيرِ المَكْرِ، والكُفْرِ، ومُناسَبتُه هنا أنَّ كُفْرَ المشركينَ بَعضُه إعلانٌ، وبعضُه إسرارٌ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ هذا رُجوعٌ إلى تَعدادِ دَلائلِ الوَحدانيَّةِ وما صحِبَ ذلك مِن مِنَّةٍ على الخلْقِ؛ فالكلامُ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ عن الكلامِ السَّابقِ، ورُجوعٌ إلى ما سلَفَ في أوَّلِ السُّورةِ في قولِه تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [لقمان: ١٠]؛ فإنَّه بعدَ الاستِدلالِ بخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ والحيوانِ والأمطارِ، عادَ هنا الاستِدلالُ والامتِنانُ بأنْ سخَّرَ لنا ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ[٢]. وقيل: هو رُجوعٌ الى سَننِ ما سلَفَ قبْلَ قِصَّةِ لُقمانَ مِن خِطابِ المشركينَ، وتَوبيخٌ لهم على إصرارِهم على ما همْ عليه مع مُشاهَدتِهم لدَلائلِ التَّوحيدِ[٣].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تَقريرٌ أو إنكارٌ لعدَمِ الرُّؤيةِ، بتَنزيلِهم مَنزلةَ مَن لم يَرَوا آثارَ ذلك التَّسخيرِ؛ لعدَمِ انتفاعِهم بها في إثباتِ الوَحدانيَّةِ[٤].

- قولُه: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ في الإضافةِ إلى ضَميرِ اللهِ تنْويهٌ بهذه النِّعَمِ[٥].

- والواوُ في قولِه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ﴾ واوُ الحالِ، والمعنى: قد رأيتُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٧٣، ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٤).

أنَّ اللهَ سخَّرَ لكمْ ما في السَّمواتِ، وأنعَمَ عليكم نِعَمًا ضافيةً، في حالِ أنَّ بعضَكم يُجادِلُ في وَحدانيَّةِ اللهِ، ويَتعامَى عن دَلائلِ وَحدانيَّتِه! وجُملةُ الحالِ هنا خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن حالِ هذا الفريقِ. ويجوزُ جَعْلُ الواوِ اعتراضيَّةً، والجُملةِ مُعترِضةً بيْنَ جُملةِ ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[1] [لقمان: ٢٥].

- وقولُه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ كأنَّه قِيل: ومِنكم، و(مِن) تَبعيضيَّةٌ[2].

- ونكَّرَ ﴿عِلْمٍ﴾؛ لِيُفيدَ السَّلبَ العامَّ لكُلِّ نَوعٍ مِن أنواعِ العِلمِ، أي: لأنَّهم لا عِلمَ لهم بشَيءٍ مِن حالِ السَّبيلِ ولا حالِ غَيرِها، عِلمًا يَستَحِقُّ إطلاقَ العِلمِ عليه، بكَونِه يفيدُ رِبحًا، أو يُبقي على رأسِ مالٍ مِن دينٍ أو دُنيا؛ فإنَّ هذا حالُ مَنِ استبدَلَ الباطِلَ بالحَقِّ، والضَّلالَ بالهُدى[3].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ جاء بِناءُ الفِعلِ ﴿قِيلَ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنَّه أخصَرُ؛ فلو ذُكِر الآمِرونَ لطالَ الكلامُ؛ لأنَّ الآمِرَ بذلك هو الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ومَن يَتبعُه مِنَ المؤمنينَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٠٣).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ للإنكارِ والتَّعجُّبِ مِن فَظاعةِ ضَلالِهم وعَماهم؛ بحيث يتَّبِعون مَن يَدْعوهم إلى النَّارِ، وهذا ذمٌّ لهم[١]، وهذا التَّركيبُ مِن بَديعِ التَّراكيبِ العربيَّةِ وأعلاها إيجازًا؛ فـ (لو) للشَّرطِ، وجوابُها محذوفٌ دلَّ عليه الكلامُ السَّابقُ، تقديرُه: لاتَّبَعوهم، والمستفهَمُ عنه هو الارتباطُ الَّذي بيْنَ الشَّرْطِ وجوابِه[٢].

- وعبَّر بالمضارعِ ﴿يَدْعُوهُمْ﴾؛ تصويرًا لحالِهم في ضلالِهم، وأنَّه مستمرٌّ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ هذا مُقابِلُ قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان: ٢٠]، إلى قولِه: ﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]؛ فأولئك الَّذين اتَّبَعوا ما وَجَدوا آباءَهم عليه مِن الشِّركِ على غيرِ بَصيرةٍ، فوقَعُوا في العَذابِ، وهؤلاء الَّذين لم يَتمسَّكوا بدِينِ آبائِهم وأسلَمُوا للهِ لَمَّا دَعاهُم إلى الإسلامِ، فلمْ يَصُدَّهم عن اتِّباعِ الحقِّ إلْفٌ ولا تَقْديسُ آباءٍ؛ فأولئك تَعلَّقوا بالأوهامِ واستَمْسَكوا بها لإرضاءِ أهوائِهم، وهؤلاء استَمْسَكوا بالحقِّ إرضاءً للدَّليلِ، وأولئك أرْضَوُا الشَّيطانَ، وهؤلاء اتَّبعوا رِضا اللهِ[٤].

- قولُه: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عُدِّيَ الفعلُ ﴿يُسْلِمْ﴾ هنا بـ (إلى)، وقد عُدِّيَ باللَّامِ في سورةِ البقرةِ، في قولِه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ مَن أسلَمَ للهِ أعلى دَرجةً ممَّن يُسلِمُ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٦).

اللهِ؛ لأنَّ (إلى) للغايةِ، واللَّامَ للاختِصاصِ، يقولُ القائلُ: (أسلمْتُ وَجْهي إليك)، أي: توجَّهْتُ نحوَك، ويُنبِئُ هذا عن عدَمِ الوُصولِ؛ لأنَّ التَّوجُّهَ إلى الشَّيءِ قبْلَ الوُصولِ، وقولُه: (أسلمْتُ وَجْهي لك) يُفيدُ الاختِصاصَ، ولا يُنبِئُ عن الغايةِ الَّتي تدُلُّ على المسافةِ وقَطْعِها للوُصولِ، إذا عُلِمَ هذا؛ فإنَّ في (البقرةِ) قالتْ اليهودُ والنَّصارى: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾، فقال اللهُ ردًّا عليهم: ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ [البقرة: ١١١]، ثمَّ بيَّن فسادَ قولِهم بقولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، أي: أنتُمْ مع أنَّكم تَترُكون اللهَ للدُّنيا، وتَولَّونَ عنه للباطلِ، وتَشترُون بآياتِه ثمَنًا قليلًا؛ تَدخُلون الجنةَ، ومَن كان بكُلِّيَّتِه للهِ لا يَدخُلُها! هذا كلامٌ باطلٌ؛ فأورَدَ عليهم مَن أسلَمَ للهِ، ولا شكَّ أنَّ النَّقضَ بالصُّورةِ الَّتي هي أَلْزَمُ أَولى، فأورَدَ عليهم المُخلِصَ الَّذي ليس له أمْرٌ إلَّا اللهُ[١].

- وإسلامُ الوجْهِ إلى اللهِ تَمْثيلٌ لإفرادِه تعالى بالعِبادةِ، كأنَّه لا يُقبِلُ بوَجْهِه على غيرِ اللهِ[٢].

- وفي تَذْييلِ الآيةِ بقَولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ إيماءٌ إلى وَعْدِهم بلِقاءِ الكرامةِ عندَ اللهِ في آخِرِ أمْرِهم، وهو الحياةُ الآخرةُ[٣].

- والتَّعريفُ في كَلمةِ ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾ للاستِغراقِ، وهو تَعميمٌ يُرادُ به أنَّ أُمورَ المسلمينَ -الَّتي هي مِن مَشْمولاتِ عُمومِ الأُمورِ- صائرةٌ إلى اللهِ، ومَوكولةٌ إليه؛ فجَزاؤهم بالخَيرِ مُناسِبٌ لِعَظَمةِ اللهِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وتَقديمُ قولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾؛ للاهتِمامِ، والتَّنبيهِ إلى أنَّ الرَّاجعَ إليه يُلاقِي جَزاءَه وافيًا[١].

وقيل: تقديمُ الخبرِ الدَّالِّ على الحصرِ أفاد أنَّه لا أحدَ يستطيعُ أنْ يُدَبِّرَ الكَونَ إلَّا اللهُ، و(إلى) تفيدُ الغايةَ، فغايةُ عاقبةِ الأمورِ إليه، لا إلى غيرِه[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

- قولُه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ هوَّن عليه كُفْرَهم؛ تَسليةً له، وتَعريضًا بقِلَّةِ العِبْءِ بهم؛ لأنَّ مَرجِعَهم إلى اللهِ، فيُريهمُ الجزاءَ المناسِبَ لكُفْرِهم؛ فهو تَعريضٌ لهم بالوعيدِ[٣].

- وأفرَد الضَّميرَ باعتبارِ لفظِ (مَن)؛ لإرادةِ التَّنصيصِ على كلِّ فردٍ، فقال: ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾[٤].

- وفي التعبيرِ هنا بالماضي ﴿كَفَرَ﴾ وفي الأوَّلِ بالمضارعِ ﴿يُسْلِمْ﴾ بشارةٌ بدخولِ كثيرٍ في هذا الدِّينِ، وأنَّهم لا يرتدُّونَ بعدَ إسلامِهم، وترغيبٌ في الإسلامِ لكلِّ مَن كان خارجًا عنه؛ فالآيةُ مِن الاحتِباكِ[٥]: ذكَر الحزنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٧)

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٠).

(٥) الاحتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

ثانيًا دليلًا على حذفِ ضِدِّه أوَّلًا، وذكَر الاستِمْساكَ أوَّلًا دليلًا على حذفِ ضدِّه ثانيًا[١].

- وجُملةُ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ واقعةٌ مَوقِعَ التَّعليلِ للنَّهيِ، وهي أيضًا تَمهيدٌ لِوَعْدِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ يَتولَّى الانتِقامَ منهم، المَدلولَ عليه بقولِه: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾، مُفرَّعًا على جُملةِ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾؛ كِنايةً عن المُجازاةِ؛ استُعمِلَ الإنباءُ، وأُريدَ لازمُه، وهو الإظهارُ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تَعليلٌ لِجُملةِ ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾؛ فمَوقعُ حَرفِ (إنَّ) هنا مُغْنٍ عن فاءِ التَّسبُّبِ[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ [لقمان: ٢٣] يُثيرُ في نُفوسِ السَّامِعينَ سُؤالًا عن عدَمِ تَعجيلِ الجزاءِ إليهم؛ فبيَّنَ بأنَّ اللهَ يُمهِلُهم زمَنًا، ثمَّ يُوقِعُهم في عذابٍ لا يَجِدون منه مَنْجًى. وهذا الاستِئنافُ وقَعَ مُعترِضًا بيْنَ الجُمَلِ المُتعاطِفةِ[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: نُمتِّعُهم زَمانًا قليلًا في دُنياهم، ثمَّ نُلجئُهم إلى عذابٍ شديدٍ في جَهنَّمَ؛ فشبَّه إلزامَهم التَّعذيبَ، وإرهاقَهم إيَّاه باضْطِرارِ المُضْطَرِّ إلى الشَّيءِ الَّذي لا يَقدِرُ على الانفكاكِ منه، والمرادُ: الشِّدَّةُ والثقلُ على المُعذَّبِ، فيَثقُلُ عليهم العذابُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨، ١٧٩).

ثقلَ الأجرامِ الغِلاظِ، أو يُضَمُّ إلى الإحراقِ الضَّغطُ[١].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ احتِراسٌ مِن أنْ يَغترَّ الكافرُ بأنَّ تخويلَه النِّعَمَ في الدُّنيا يُؤذِنُ برِضا اللهِ؛ فلذلك ذُكِرَ العذابُ هنا. وحرْفُ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ كشأنِها في عَطفِ الجُمَلِ مِن غيرِ التِفاتٍ إلى كَونِ مَصيرِهم إلى العذابِ مُتأخِّرًا عن تَمتيعِهم بالمتاعِ القَليلِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٧).

الآيات (٢٥-٢٧)

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى ما عليه هؤلاء الكافرونَ مِن تناقضٍ، ويُقيمُ عليهم الحُجَّةَ، فالمنفردُ بالخَلْقِ والتَّدبيرِ هو الَّذي يَنبغي أن يُفردَ بالعبادةِ، فيقولُ: ولَئِنْ سألْتَ -يا محمَّدُ- هؤلاء الكافِرينَ: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ. قُلْ لهم: الحَمدُ لله الَّذي أظهرَ الحُجَّةَ وأقامها عليكم باعترافِكم، بل أكثَرُهم لا يَعلَمونَ!

ثمَّ يُبيِّنُ عزَّ وجلَّ ما يدُلُّ على عظيمِ قدرتِه، فيقولُ: لله وَحْدَه ما في السَّمَواتِ والأرضِ، إنَّ اللهَ هو الغنيُّ المحمودُ في ذاتِه وصفاتِه.

ثمَّ يذكُرُ الله سبحانَه أنَّ كَلِماتِه لا نَفادَ لها، فيقولُ مقرِّبًا هذا المعنى إلى الأذهانِ: ولو أنَّ أشجارَ الأرضِ صارت أقلامًا، وصار البَحرُ مِدادًا لها، ويَمُدُّ هذا البَحرَ سَبعةُ أبحُرٍ؛ لتُكتَبَ كلماتُ اللهِ بتلك الأقلامِ وهذا المِدادِ؛ لانتهَتْ تلك الأقلامُ، وفَنِيَ ذلك المِدادُ، ولم تَنفَدْ كلماتُ الله سُبحانَه وتعالى، إنَّ اللهَ عزيزٌ حَكيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ

لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

الآيةُ مُتعَلِّقةٌ بما قَبْلَها مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: لَمَّا استدَلَّ اللهُ تعالى بخَلقِ السَّمَواتِ بغيرِ عَمدٍ، وبنِعَمِه الظَّاهِرةِ والباطِنةِ؛ بَيَّن أنَّهم مُعترِفونَ بذلك غيرُ مُنكِرينَ له، وهذا يقتَضي أن يكونَ الحَمدُ كُلُّه لله؛ لأنَّ خالِقَ السَّمَواتِ والأرضِ يَحتاجُ إليه كُلُّ ما في السَّمَواتِ والأرضِ، وكَوْنُ الحَمدِ كُلِّه لله يقتَضي ألَّا يُعبَدَ غَيرُه.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا سلَّى قَلبَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّمَ بقَولِه: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم﴾ [لقمان: ٢٣]، أي: لا تَحزَنْ على تَكذيبِهم؛ فإنَّ صِدْقَك وكَذِبَهم يَتبيَّنُ عن قريبٍ عندَ رُجوعِهم إلينا، قال: وليس لا يتَبَيَّنُ إلَّا ذلك اليومَ، بل هو يتبَيَّنُ قبْلَ يومِ القيامةِ؛ لأنَّهم مُعترِفونَ بأنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ مِنَ اللهِ، وهذا يُصَدِّقُك في دَعوى الوحدانيَّةِ، ويُبَيِّنُ كَذِبَهم في الإشراكِ؛ فقُلِ الحَمدُ للهِ على ظُهورِ صِدقِك، وكَذِبِ مُكَذِّبيك[1].

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾.

أي: ولَئِنْ سألْتَ -يا محمَّدُ- هؤلاء الكافِرينَ: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ[2].

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

أي: قُلْ لهم: الحَمدُ لله الَّذي أظهَرَ الحُجَّةَ، وأقامها عليكم باعترافِكم[١].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: بل أكثَرُهم لا يَعلَمونَ استِحقاقَ اللهِ تعالى للحَمدِ، ولا يَتدَبَّرونَ أنَّ الخالِقَ هو المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه[٢].

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أثبَتَ اللهُ تعالى أنَّ له الحمدَ، وأنَّه قد أحاط بأوصافِ الكَمالِ؛ شَرَع يَستَدِلُّ على ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٥٠، ١٥١).

ممَّن قال بالمعنى المذكورِ: ابنُ عطية، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٥٠، ١٥١).

وقيل: إنَّ المعنى: الحَمدُ لله على خَلْقِه السَّمواتِ والأرضَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠، ٥٧١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٣٥).

وجوَّز ابنُ عثيمين ضمَّ هذا القولِ إلى القولِ الأوَّلِ؛ جمعًا بيْنَ المعنيَينِ. ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٥١).

وقيل: المرادُ: قُلِ الحَمدُ لله على ما هدانا له مِن دينِه، وليس الحَمدُ لغيرِه. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٥).

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: لله وَحْدَه جَميعُ ما في السَّمَواتِ والأرضِ، فهو خالِقُ كُلِّ شَيءٍ ومالِكُه ومُدَبِّرُه[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾.

أي: إنَّ الله هو الغنيُّ عمَّا سِواه، المحمودُ في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، وعلى نِعَمِه، وتدبيرِ خَلْقِه[٢].

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر سبحانَه أنَّ له ما في السَّمواتِ والأرضِ؛ أتْبَعه بما يدُلُّ على أنَّ له وراءَ ذلك ما لا يحيطُ به عَدَدٌ، ولا يُحصَرُ بحَدٍّ[٣].

وأيضًا لَمَّا احتجَّ على المشركينَ بما احتجَّ، بَيَّن أنَّ كلِماتِه سبحانَه لا تَنْفَدُ، وأنَّها لا نهايةَ لها[٤].

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٦).

أي: ولو فُرِضَ أنَّ كُلَّ أشجارِ الأرضِ بُرِيتْ أقلامًا، وصار البَحرُ لها مِدادًا، ويَمُدُّ البَحرَ إذا نَشِفَ سَبعةُ أبحُرٍ[1]؛ لِيُكتَبَ كلامُ اللهِ بتلك الأقلامِ والمِدادِ؛ لانتَهَت تلك الأقلامُ، وفَنِيَ ذلك المِدادُ، ولم تَنفَدْ كَلِماتُ اللهِ سُبحانَه وتعالى[2]!

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غالِبٌ وقاهِرٌ لكُلِّ شَيءٍ، فلا مانعَ لِما أراد، ولا رادَّ لحُكمِه، حَكيمٌ

---

(١) قال ابنُ كثير: (إنَّما ذُكِرَت «السَّبعةُ» على وجهِ المبالَغةِ، ولم يُرَدِ الحَصرُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((المنار المُنيف)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٢).
قال محمد رشيد رضا: (﴿كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ...: كَلِماتُ التَّكوينِ أنفُسُها، لا مُتَعَلَّقاتُها الَّتي هي الموجوداتُ). ((تفسير المنار)) (٢/ ٩).
وقال القاسمي: (﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: الَّتي أوجَد بها الكائناتِ، وسيُوجِدُ بها ما لا غايةَ لحصرِه ومُنتهاه). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤).
وقال السمعاني: (﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: كلامُ الله وعِلمُه). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٣٥).
وفي الآيةِ اختصارٌ تقديرُه: ولو أنَّ ما في الأرضِ مِن شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّه مِن بَعدِه سبعةُ أبحرٍ يُكتبُ بها كلامُ الله ما نَفِدَتْ كلماتُ الله. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٩١).
قال السعدي: (هذا التَّمثيلُ مِن بابِ تقريبِ المعنى، الَّذي لا يُطاقُ الوُصولُ إليه إلى الأفهامِ والأذهانِ، وإلَّا فالأشجارُ وإن تضاعفَتْ على ما ذُكِر، أضعافًا كثيرةً، والبحورُ لو امتدَّتْ بأضعافٍ مُضاعَفةٍ، فإنَّه يُتصَوَّرُ نفادُها وانقضاؤُها؛ لِكَونِها مخلوقةً. وأمَّا كلامُ الله تعالى، فلا يُتصوَّرُ نَفادُه، بل دلَّنا الدَّليلُ الشَّرعيُّ والعقليُّ على أنَّه لا نَفادَ له، ولا منتهَى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١).
وقال ابن تيميَّةَ: (الأبحرُ إذا قدِّرتْ مِدادًا تَنفَدُ، وكلِماتُ الله لا تَنفَدُ؛ ولهذا قال أئمَّةُ السُّنَّةِ: لم يَزَلِ الله متكلِّمًا كيفَ شاء، وبما شاء). ((مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية)) (٣/ ٢٢).

في أفعالِه وأقوالِه وشَرْعِه، وفي تدبيرِ عِبادِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ دَليلٌ على أنَّ المُشرِكينَ في عَهدِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُقِرُّونَ برُبوبيَّةِ اللهِ تعالى[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أنَّ هذا التَّوحيدَ -توحيدَ الرُّبوبيَّةِ- لا ينفَعُ مَن أقَرَّ به فقط؛ لأنَّ هؤلاء المُشرِكينَ لم ينتَفِعوا بهذا الإقرارِ، بل لا بُدَّ مِن أنْ يُضافَ إليه توحيدُ الأُلوهيَّةِ والأسماءِ والصِّفاتِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفَى سُبحانَه العِلمَ عنهم؛ لانتِفاءِ فائدتِه، والشَّيءُ قد يُنفَى لانتِفاءِ فائدتِه، فأكثرُ هؤلاء المعانِدينَ والمُشرِكينَ كانوا لا يَعلَمونَ؛ إمَّا للجَهلِ، وإمَّا لِعَدَمِ الانتِفاعِ بعِلمِهم[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ عطْفٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥١، ١٥٤).

جُملةِ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان: ٢١]، باعتِبارِ أنَّ ما وَجَدوا عليه آباءَهم هو الإشراكُ مع اللهِ في الإلهيَّةِ، وإنْ سألَهم سائلٌ: مَن خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ؟ يَقولوا: خلَقَهنَّ اللهُ، وذلك تَسخيفٌ لِعُقولِهم الَّتي تَجمَعُ بيْنَ الإقرارِ للهِ بالخلْقِ، وبيْنَ اعتِقادِ إلهيَّةِ غيرِه[١]!

- قولُه: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ إلْزامٌ لهم على إقرارِهم بأنَّ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ هو اللهُ وَحْدَه، وأنَّه يجِبُ أنْ يكونَ له الحمْدُ والشُّكرُ، وألَّا يُعبَدَ معه غيرُه، يعني: لَمَّا اعترَفْتُم بأنَّ خالِقَ السَّمواتِ والأرضِ هو اللهُ، يجِبُ عليكم أنْ تَعرِفوا أنَّ العِبادةَ مُختصَّةٌ به؛ لأنَّ كلَّ فَضيلةٍ ونِعمةٍ منه لا مِن غيرِه؛ فلا تَشكُروا إلَّا إيَّاهُ؛ فيَكونُ قولُه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تَتْميمًا للتَّبكيتِ المُستفادِ مِن قولِه: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، لَمَّا كان الأنسَبُ للحِكمةِ -الَّتي هي مَطلعُ السُّورةِ- الاقتِصارَ على مَحلِّ الحاجةِ، لم يَزِدْ هنا على المُسنَدِ إليه، بخلافِ سُورةِ (الزُّخرفِ): ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]؛ فمَبْناها الإبانةُ[٣].

- وقولُه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ إيغالٌ[٤]؛ لأنَّ النُّكتةَ فيه تَجهيلُهم، وأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٣).

(٤) الإيغال: هو استكمالُ الكلامِ قبْلَ الإتيانِ بمَقطعِه، فإذا أُريدَ الإتيانُ بذلك أُتيَ بما يُفيد معنًى زائدًا على معنى ذلك الكلام، وهو ضربان: الأول: إيغالُ تخييرٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]؛ إذ إنَّ المعنى قد تمَّ بقَولِه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا﴾، =

جَهلَهم انْتَهى إلى أنَّهم لا يَعلَمون أنَّ الحمْدَ للهِ إلْزامٌ لهم[١].

- وعبَّرَ هنا بـ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وفي سُورةِ (العنكبوتِ) بـ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]؛ تَفنُّنًا في المُخالَفةِ بيْنَ القِصَّتينِ مع اتِّحادِ المعنى[٢]، ولأنَّ العِلمَ أبلغُ درجةً مِن العَقلِ، ودَعْواهم هنا أبلَغُ لقولِهم: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾؛ فكان الأنسَبُ نفْيَ كلٍّ بما يُناسِبُه[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ مَوقعُ هذه الجُملةِ مِن الَّتي قبْلَها مَوقِعُ النَّتيجةِ مِن الدَّليلِ في قولِه: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فلذلك فُصِلَت ولم تُعطَفْ؛ لأنَّها بمَنزِلةِ بدَلِ الاشتمالِ مِن الَّتي قبْلَها؛ فإنَّه لَمَّا تقرَّرَ إقرارُهم للهِ بخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، لَزِمَهم إنتاجُ أنَّ ما في السَّمواتِ والأرضِ مِلكٌ للهِ، ومِن جُملةِ ذلك أصنامُهم. والتَّصريحُ بهذه النَّتيجةِ؛ لِقَصْدِ التَّهاوُنِ بهم في كُفْرِهم بأنَّ اللهَ يَملِكُهم، ويَملِكُ ما في السَّمواتِ والأرضِ؛ فهو غَنِيٌّ عن

= ولَمَّا احتاجَ الكلامُ إلى فاصلةٍ تُناسِبُ ما قبْلَها وما بعدَها، أتتْ هذه الفاصلةُ ﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ لتُفيدَ معنًى زائدًا، لولاها لم يَحصُلْ؛ وذلك أنَّه لا يَعلَمُ أنَّ حُكمَ الله أحسَنُ مِن كلِّ حُكمٍ إلَّا مَن أيقنَ أنَّه واحدٌ حكيمٌ عادلٌ. الضَّربُ الثَّاني: إيغالُ احتياطٍ، وهو استكمالُ معنَى الكلامِ قبْلَ قَطْعِه، فإذا أُريدَ الإتيانُ بذلك أُتيَ بما يُفيد معنًى زائدًا تتمَّةً للمُبالَغةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، ثم علم عزَّ وجلَّ أنَّ الكلامَ يحتاجُ إلى فاصلةٍ تماثِلُ مقاطعَ ما قبْلَها وما بعدَها، فأتى بها مفيدةً معنًى زائدًا على معنَى الكلامِ، حيث قال: ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]. فإنْ قيل: ما معنى مُدبرينَ وقد أغنى عنها ذِكرُ التَّولِّي؟ قيل: ذلك لا يُغني عنها؛ إذ التَّولِّي قد يكونُ بجانبٍ دونَ جانبٍ، كما يكونُ الإعراضُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٢٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٤٩٩ - ٥٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩).

عِبادتِهم، مَحمودٌ مِن غيرِهم[١].

- وضَميرُ الفَصلِ (هو) مُفادُه اختصاصُ الغِنى والحمْدِ باللهِ تعالى، وهو قصْرُ قلْبٍ[٢]، أي: ليس لآلهتِهم المَزعومةِ غِنًى، ولا تَستحِقُّ حَمْدًا[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ قدْ نُظِمَت هذه الآيةُ بإيجازٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٠).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو الله وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٠).

بَديع؛ إذ ابتُدِئَت بحَرفِ (لو)؛ فعُلِمَ أنَّ مَضمونَها أمْرٌ مَفروضٌ، فالمعنى: لو فُرِضَ إرادةُ اللهِ أنْ يَكتُبَ كلامَه كلَّه صُحفًا، ففُرِضَت الأشجارُ كلُّها مُقسَّمةً أقلامًا، وفُرِضَ أنْ يكونَ البحرُ مِدادًا، فكُتِبَ بتلك الأقلامِ وذلك المِدادِ؛ لَنَفِدَ البحرُ ونَفِدَتِ الأقلامُ، وما نَفِدَت كلِماتُ اللهِ في نفْسِ الأمْرِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ وحَّدَ (الشَّجرةَ)؛ لِمَا تَقرَّرَ في عِلمِ المعاني أنَّ استِغراقَ المُفرَدِ أشمَلُ، فكأنَّه قال: كلُّ شَجرةٍ شَجرةٍ، حتَّى لا يَبْقَى مِن جِنسِ الشَّجرةِ واحدةٌ إلَّا وقد بُرِيَت أقلامًا. وجمَعَ (الأقلامَ)؛ لِقَصدِ التَّكثيرِ، أي: لو أنْ يُعَدَّ كلُّ شَجرةٍ مِن الشَّجرِ أقلامًا[٢]. وقيل: ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ بَيانٌ لـ (مَا) الموصولةِ، وهو في معنى التَّمييزِ؛ فحقُّه الإفرادُ، ولذلك لم يَقُلْ: مِن أشجارٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ كان المُطابِقُ لِأوَّلِه أنْ يُقالَ: (وما في الأبْحُرِ مِن ماءٍ مِدادٌ)، ولكنَّه عُدِلَ عنه إلى قولِه: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾، واستَغْنى عن المِدادِ بقولِه: ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ مِن: مَدَّ الدَّواةَ، أي: زادها مِدادًا؛ فجعَلَ البحرَ المُحيطَ بمَنزلةِ الدَّواةِ، والأبحُرَ السَّبعةَ مَملوءةً مِدادًا أبدًا لا تَنقطِعُ، وأشار بـ(لَو) إلى أنَّ البِحارَ غيرُ مَوجودةٍ، أي: لو مَدَّتَ البِحارَ المَوجودةَ سَبعةُ أبحُرٍ أُخرى، وذِكْرُ السَّبعةِ ليس للحصْرِ، بلْ للمُبالَغةِ، وإنَّما خُصَّت بالذِّكْرِ؛ لكَثرةِ ما يُعَدُّ بها؛ كالكواكبِ السَّيَّارةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨١، ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٢).

والسَّمواتِ والأرَضينَ، وغيرِها[١]، والسَّبعةُ تُستعمَلُ في الكِنايةِ عن الكَثرةِ كَثيرًا، فليس لهذا العدَدِ مَفهومٌ، أي: والبَحرُ يمُدُّه أبحُرٌ كثيرةٌ[٢].

- قولُه: ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ لَمَّا كان لفظُ (سَبعة) ليس موضوعًا في الأصلِ للتَّكثيرِ، وإنْ كان مُرادًا به التَّكثيرُ؛ جاء مُميِّزُه بلَفظِ القِلَّةِ، وهو ﴿أَبْحُرٍ﴾، ولم يَقُلْ: بُحورٍ -وإنْ كان لا يُرادُ به أيضًا إلَّا التَّكثيرُ-؛ لِيُناسِبَ بيْنَ اللَّفظَينِ[٣].

- وفي هذا الكلامِ مِن المُبالَغةِ في تَكثيرِ الأقلامِ والمِدادِ ما يَنْبغي أنْ يُتأمَّلَ؛ وذلك أنَّ الأشجارَ مُشتمِلٌ كلُّ واحدةٍ منها على الأغصانِ الكثيرةِ، وتلك الأغصانُ كلُّ غُصنٍ منها يُقطَعُ على قَدْرِ القلَمِ، فيَبلُغُ عَددُ الأقلامِ في التَّناهي إلى ما لا يَعلَمُ به ولا يُحيطُ إلَّا اللهُ تعالى[٤].

- إذا قيل: الكَلِماتُ في قوله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ جَمعُ قِلَّةٍ، والموضِعُ مَوضِعُ التَّكثيرِ لا التَّقليلِ، فهلَّا قيل: كَلِمُ اللهِ؟

والجوابُ: معناه أنَّ كَلِماتِه لا تَفي بكِتابتِها البِحارُ، فكيف بكَلِمِه[٥]؟! فجمْعُ القِلَّةِ هنا أبلغُ في المقصودِ؛ لأنَّ جمْعَ القِلَّةِ إذا لم ينفَدْ بما ذُكِر مِن الأقلامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٧، ٤٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٤٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠١).

لكن قال أبو حيان: (وعلى تسليم أنَّ «كَلِماتٍ» جمعُ قِلَّةٍ، فجُموعُ القِلَّةِ إذا تَعَرَّفَتْ بالألفِ واللَّامِ غيرِ العهديَّةِ، أو أُضيفَتْ؛ عَمَّتْ وصارَتْ لا تَخُصُّ القليلَ، والعامُّ مستغرقٌ لجميعِ الأفرادِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٢).

والمِدادِ، فكيفَ يَنفَدُ به جمعُ الكثرةِ[١]؟!

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تَذييلٌ؛ فهو لِعزَّتِه لا يَغلِبُه الَّذين يَزعُمون عدَمَ الحاجةِ إلى القرآنِ يَنتظِرون انْفحامَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو لِحِكْمتِه لا تَنحصِرُ كَلماتُه؛ لأنَّ الحِكمةَ الحقَّ لا نِهايةَ لها[٢]. وقيل: إنَّ قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ كالتَّعليلِ لإثباتِ العِلمِ الواسعِ، كأنَّه قال: لا نَفادَ لعِلْمِه الواسعِ؛ لأنَّ المَعلوماتِ إمَّا كثيفةٌ تَحتاجُ في إدراكِها إلى عِلمٍ مَتينٍ، فهو عَزيزٌ لا يُعجِزُه شَيءٌ عمَّا يُريدُه، وإمَّا لطيفةٌ يَفتقِرُ لإدراكِها إلى عِلمٍ دَقيقٍ؛ فهو حكيمٌ يُدرِكُ بدَقيقِ حِكمتِه تلك المعانيَ والجواهرَ اللَّطيفةَ، فتكونُ الفاصلةُ كالتَّتميمِ لِمَا سبَقَ[٣].

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣١٢).

الآيات (٢٨-٣٠)

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُولِجُ﴾: أي: يُدخِلُ، أو يأخُذُ منه، فيَطولُ ذلك ويَقصُرُ هذا، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيءٍ[1].

﴿وَسَخَّرَ﴾: أي: ذلَّل، والتَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قَهرًا، وأصل (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يذكُرُ الله تعالى مِن عظَمتِه وكمالِ قدرتِه الَّتي لا يمكِنُ أن يَتصوَّرَها العقلُ، فيقولُ: ما خَلْقُكم ولا بَعْثُكم يومَ القيامةِ إلَّا كخَلقِ نَفْسٍ واحدةٍ وبَعْثِها، إنَّ اللهَ سَميعٌ بَصيرٌ.

ثمَّ يُخبرُ سبحانَه عن بعضِ مظاهرِ قُدرتِه، وانفرادِه بالتَّصرُّفِ والتَّدبيرِ، فيقولُ: ألم ترَ -يا محمَّدُ- أنَّ اللهَ يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ، وذلَّل اللهُ الشَّمسَ والقَمَرَ لِنَفعِ العبادِ، وكلٌّ منهما يجري إلى وقتٍ معلومٍ؟ وأنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢).

بما تَعمَلونَ خَبيرٌ لا يخفى عليه شَيءٌ. ذلك الَّذي تقَدَّم وَصْفُه مِن صُنعِ اللهِ: بسبَبِ أنَّه الإلهُ الحَقُّ القادِرُ على ذلك، وبأنَّ ما يدعوه المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ مِن الأصنامِ هو الباطِلُ، وبأنَّ اللهَ هو العَليُّ الكبيرُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى كَمالَ قُدرتِه وعِلمِه؛ ذكَرَ ما يُبطِلُ استِبعادَ المُشرِكينَ للحَشرِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا خَتَم بهاتَينِ الصِّفَتينِ ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] بعدَ إثباتِ القُدرةِ على الإبداعِ مِن غَيرِ انتِهاءٍ؛ ذكَرَ بَعضَ آثارِهما في البَعثِ الَّذي تقَدَّمَ أوَّلَ السُّورةِ وأثناءَها[(٢)].

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾.

أي: ما خَلْقُكم أوَّلَ مَرَّةٍ ولا بَعثُكم يومَ القيامةِ إلَّا كخَلْقِ نَفْسٍ واحِدةٍ، وبَعثِ نفْسٍ واحدةٍ؛ لكَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، فالقَليلُ والكثيرُ سَواءٌ بالنِّسبةِ إلى قُدرتِه سُبحانَه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٣).

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨١، ٨٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَسمَعُ جَميعَ المَسموعاتِ، ومِن ذلك سَمعُه لِما يقولُ المُشرِكونَ ويَفتَرونَه على رَبِّهم، مِن ادِّعائِهم له الشُّرَكاءَ وغَيرَ ذلك، وهو مُبصِرٌ لجَميعِ المبصَراتِ، ومِن ذلك إبصارُه ما يَعمَلُه المُشرِكونَ وغَيرُهم مِنَ الأعمالِ، وهو مُجازيهم على ذلك[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لُقمان: ٢٠] على وجهِ العمومِ؛ ذكَر منها بعضَ ما هو فيهما على وجهِ الخصوصِ، بقولِه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾، وقولِه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ إشارةً إلى ما في السمواتِ، وقولِه بعدَ هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [لُقمان: ٣١] إشارةً إلى ما في الأرضِ.

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَر البعثَ، وكان مِن الناسِ مَن يقولُ: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، والدَّهرُ هو اللَّيالي والأيَّامُ؛ قال الله تعالى: هذه اللَّيالي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩).

والأيَّامُ الَّتي تَنسبونَ إليها الموتَ والحياةَ هي بقدرةِ الله تعالى[١].

وأيضًا لَمَّا قرَّر الله تعالى هذه الآيةَ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ دلَّ عليها بأمرٍ محسوسٍ، يُشاهَدُ كلَّ يومٍ مرَّتينِ، مع دَلالتِه على تسخيرِ ما في السَّمواتِ والأرضِ[٢].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾.

أي: ألمْ تَرَ -يا مُحمَّدُ[٣]- أنَّ اللهَ يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٩).

(٣) قال ابنُ عطية: (هذا تنبيهٌ خُوطِبَ به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ به جميعُ العالَم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٧١).

وقال ابنُ جرير: (خرَج هذا الكلامُ خِطابًا لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، والمَعْنيُّ به المشركون؛ وذلك أنَّه تعالى ذِكْرُه نَبَّهَ بقولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ على موضع حُجَّتِه- مَنْ جَهِلَ عَظَمتَه، وأشرَكَ في عِبادَتِه معه غَيْرَه، يدُلُّ على ذلك قَولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ أنَّه يأخُذُ مِنَ اللَّيلِ فيَطولُ النَّهارُ زَمَنَ الصَّيفِ، وأنَّه يأخُذُ مِنَ النَّهارِ فيَطولُ اللَّيلُ زَمَنَ الشِّتاءِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩، ٣٥٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٦).

قال ابنُ عثيمين بعد ذِكرِ القولَينِ: (وكِلاهما معنًى صَحيحٌ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٧١، ١٧٢).

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾.

أي: وذلَّل اللهُ الشَّمسَ والقَمَرَ يَجريانِ؛ تَحقيقًا لمصالحِ العِبادِ ومَنافِعِهم في دينِهم ودُنياهم(١).

﴿كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾.

أي: كُلٌّ مِنَ الشَّمسِ والقَمَرِ يَجريانِ في السَّماءِ إلى وقتٍ محدَّدٍ مَعلومٍ(٢).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان اللَّيلُ والنَّهارُ مَحَلَّ الأفعالِ، بيَّنَ أنَّ ما يقَعُ في هذينِ الزَّمانَينِ اللَّذَينِ هما بتصَرُّفِ اللهِ: لا يخفَى على اللهِ(٣).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ بما تَعمَلونَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ: ذو خِبرةٍ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٥).

قيل: المرادُ بالأجَلِ المسمَّى: يومُ القيامة. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: الأجَلُ المسمَّى للشَّمسِ هو آخِرُ السَّنةِ، وللقَمَرِ آخِرُ الشَّهرِ. وممَّن قال بهذا المعنى: البيضاوي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٠).

قال ابنُ كثير: (﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ قيل: إلى غايةٍ محدودةٍ. وقيل: إلى يومِ القيامةِ. وكِلا المعنيَينِ صَحيحٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٠).

أعمالِكم، وهو مُجازيكم عليها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ثَبَت بهذه الأوصافِ الحُسنى والأفعالِ العُلا أنْ لا مُوجِدَ بالحَقيقةِ إلَّا اللهُ؛ قال[٢]:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: ذلك الَّذي وَصَف اللهُ تعالى مِن الأفعالِ الهائِلةِ والأوصافِ الباهِرةِ؛ كإيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ، وغَيرِ ذلك: إنَّما فَعَله بسَبَبِ أنَّه الإلهُ الحَقُّ القادِرُ على ذلك، الَّذي يَستَحِقُّ العبادةَ وحْدَه دونَ ما سِواه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٧٥).

قال القرطبي: (﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: مَن قدَر على هذه الأشياءِ، فلا بدَّ مِن أن يكونَ عالِمًا بها، والعالِمُ بها عالِمٌ بأعمالِكم). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٦، ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٧٨).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجملة: ابنُ جرير، والزمخشري، والبقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: فَعَل الله تعالى ذلك لِتَعلَموا وتَستدِلُّوا به على أنَّ الله هو الحقُّ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٠).

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

أي: وأنَّ ما يَدعوه المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ مِنَ الأصنامِ وغَيرِها: هو الباطِلُ الذي يَضمَحِلُّ فلا يبقَى، ولا تنفَعُ عِبادتُه(١).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ هو العَلِيُّ على كُلِّ شَيءٍ بذاتِه وصِفاتِه، الكبيرُ في ذاتِه وصفاتِه، وكُلُّ شَيءٍ دونَه مُتذَلِّلٌ مُنقادٌ، وله مُتصاغِرٌ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ المناسَبةُ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ بعدَ قَولِه سُبحانَه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أنَّ هذا مِن بابِ التَّهديدِ، فهو سَميعٌ لأقوالِكم، بَصيرٌ بأفعالِكم؛ فإيَّاكم أنْ تُنكِروا شيئًا وأنتم تَعرِفونَ عَظَمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ(٣)!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تحذيرُ المرءِ مِن المُخالَفةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (١٧/ ٣٥).

أي: فاحذَروا أن تُخالِفوا في أعمالِكم؛ فالله سُبحانَه وتعالى عَليمٌ بها[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ الاستِدلالُ بالمشهودِ على الموعودِ؛ فالمشهودُ الخَلْقُ، والموعودُ البعثُ، وقد قَرَنهما اللهُ سُبحانه وتعالى جميعًا؛ لإثباتِ كُلِّ واحدٍ منهما، وأنَّه كما قَدَرَ على الخَلقِ أوَّلًا، فهو قادِرٌ على البَعثِ ثانيًا[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ استِدلالٌ على ما تَضمَّنتْه الآيةُ قبْلَها مِن كَونِ الخلْقِ الثَّاني -وهو البعثُ- في مُتناوَلِ قُدرةِ اللهِ تعالى؛ بأنَّه قادرٌ على تَغييرِ أحوالِ ما هو أعظَمُ حالًا مِن الإنسانِ، وذلك بتَغييرِ أحوالِ الأرضِ وأُفُقِها بيْنَ لَيلٍ ونَهارٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ، تَغييرًا يُشبِهُ طُرُوَّ الموتِ على الحياةِ في دُخولِ اللَّيلِ في النَّهارِ، وطُرُوَّ الحياةِ على الموتِ في دُخولِ النَّهارِ على اللَّيلِ، وبأنَّه قادرٌ على أعظَمَ مِن ذلك بما سَخَّرَه مِن سَيرِ الشَّمسِ والقمَرِ؛ فهذا الاستدلالُ على إمكانِ البعثِ بقِياسِ التَّمثيلِ[٣] بإمكانِ ما هو أعظَمُ منه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٠).

(٣) قياسُ التَّمثيلِ: هو: حَملُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المُشترَكَ الكُلِّيَّ، مثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامِعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ: هو القياسُ الأُصوليُّ (إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما). يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

شُؤونِ المخلوقاتِ، بعدَ أنِ استدَلَّ عليه بالقِياسِ الكُلِّيِّ الَّذي اقتضاهُ قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨]؛ مِن إحاطةِ العِلْمِ الإلهيِّ بالمعلوماتِ، المُقْتضي إحاطةَ قُدرتِه بالمُمكِناتِ؛ لأنَّها جُزئيَّاتُ المعلوماتِ وفَرْعٌ عنها[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، زِيادةُ قولِه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ لهذا النِّظامِ الشَّمسيِّ أمَدًا يَعلَمُه اللهُ تعالى، فإذا انْتَهى ذلك الأمَدُ بطَلَ ذلك التَّحرُّكُ والتَّنقُّلُ، وهو الوقتُ الَّذي يُؤْذِنُ بانقراضِ العالَمِ؛ فهذا تَذكيرٌ بوَقتِ البعثِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أنّ كلَّ ما يَصدُرُ عن الله سبحانه وتعالى فهو حقٌّ؛ لأنه لا يصدُرُ عن الحقِّ إلَّا الحقُّ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الحقَّ مِن أسماءِ الله الحسنَى[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ [لقمان: ٢٣]؛ لأنَّه كُلَّما ذُكِرَ أمْرُ البَعثِ هجَسَ في نُفوسِ المشرِكينَ استِحالةُ إعادةِ الأجسامِ بعْدَ اضْمِحْلالِها؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٤، ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨١).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (رقْم اللقاء: ١٤٣). ويُنظر أيضًا: ((الصفات الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ١٣٥).

فيَكثُرُ في القُرآنِ تَعقيبُ ذِكرِ البَعثِ بالإشارةِ إلى إمكانِه وتَقريبِه، وكانوا أيضًا يَقولونَ: إنَّ اللهَ خلَقَنا أطْوارًا؛ نُطْفةً، ثمَّ علَقةً، ثمَّ مُضغةً، ثمَّ لَحمًا وعَظْمًا؛ فكيف يَبعَثُنا خلْقًا جديدًا في ساعةٍ واحدةٍ؟! وكيف يُحيِي جميعَ الأُمَمِ والأجيالِ الَّتي تَضمَّنَتْها الأرضُ في القُرونِ الكثيرةِ[١]؟!

- وفي قولِه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ لِقَصْدِ مُجابهَتِهم بالاستِدلالِ المُفحِمِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ حذْفُ مُضافٍ دَلَّ عليه ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾، والتَّقديرُ: إلَّا كخَلْقِ وبَعْثِ نفْسٍ واحدةٍ؛ وذلك إيجازٌ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ إمَّا واقعةٌ مَوقعَ التَّعليلِ لِكَمالِ القُدرةِ على ذلك الخلْقِ العجيبِ، استِدلالًا بإحاطةِ عِلْمِه تعالى بالأشياءِ والأسبابِ، وتَفاصيلِها وجُزئيَّاتِها، ومِن شأْنِ العالِمِ أنْ يَتصرَّفَ في المَعلوماتِ كما يَشاءُ؛ لأنَّ العجْزَ عن إيجادِ بعضِ ما تَتوجَّهُ إليه الإرادةُ إنَّما يَتأتَّى مِن خَفاءِ السَّببِ المُوصِلِ إلى إيجادِه، وإذ قد كان المُشركون -أو عُقلاؤهم- يُسَلِّمون أنَّ اللهَ يَعلَمُ كلَّ شَيءٍ، جعَلَ تَسليمَهم ذلك وَسيلةً إلى إقناعِهم بقُدرتِه تعالى على كلِّ شَيءٍ. وإمَّا واقعةٌ مَوقعَ الاستِئنافِ البَيانيِّ؛ لِمَا يَنشَأُ عن الإخبارِ بأنَّ بَعْثَهم كنَفْسٍ مِن تَعجُّبِ فَريقٍ ممَّن أسَرُّوا إنكارَ البَعثِ في نُفوسِهم، الَّذين أومَأَ إليهم قولُه آنِفًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [لقمان: ٢٣]؛ ولأجْلِ هذا لم يقُلْ: إنَّ اللهَ عليمٌ قَديرٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ ...﴾ الرُّؤيةُ علميَّةٌ، والاستِفهامُ لإنكارِ عَدمِ الرُّؤيةِ بتَنزيلِ العالِمينَ مَنزلةَ غيرِ العالمينَ؛ لِعَدمِ انتفاعِهم بعِلْمِهم[١].

- في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالمُخالَفةِ في الصِّيغةِ؛ ففي قولِه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ مُخالَفةٌ في الصِّيغةِ بيْن (سخَّر) المعطوفِ (وَيُولِجُ) المعطوفِ عليه؛ لأنَّ إيلاجَ أحَدِ المَلَويْنِ (اللَّيل، النَّهار) في الآخَرِ مُتجدِّدٌ كلَّ حِينٍ، فعبَّرَ عنه بالصِّيغةِ المُتجدِّدةِ حِينًا بعدَ حِينٍ، وأمَّا تَسخيرُ النَّيِّرَيْنِ (الشَّمْس، والقَمَر) فهو أمْرٌ لا يَتجدَّدُ ولا يَتعدَّدُ، بل هو دَيمومةٌ مُتَّصلةٌ مُتتابِعةٌ، فعبَّرَ عنه بالصِّيغةِ الماضيةِ الكائنةِ، وإنَّما التَّعدُّدُ والتَّجدُّدُ في آثارِه، وقد أُشِيرَ إلى ذلك؛ حيثُ قِيل: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ﴾، أي: بحسَبِ حَركتِه الخاصَّةِ وحَركَتِه القَسريَّةِ على المَداراتِ اليوميَّةِ المُتخالِفةِ المُتعدِّدةِ حسَبَ تَعدُّدِ الأيَّامِ جَرْيًا مُستمِرًّا[٢].

- والابتداءُ باللَّيلِ؛ لأنَّ أمْرَه أعجَبُ؛ كيف تَغْشى ظُلمتُه تلك الأنوارَ النَّهاريَّةَ؟! والجمْعُ بيْن إيلاجِ اللَّيلِ وإيلاجِ النهارِ لتَشخيصِ تَمامِ القُدرةِ؛ بحيث لا تُلازِمُ عمَلًا مُتماثِلًا[٣].

- وقدَّمَ الشَّمسَ على القَمَرِ، مع تقدُّمِ اللَّيلِ -الَّذي فيه سُلطانُ القَمَرِ- على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٥).

النَّهارِ الَّذي فيه سُلطانُ الشَّمسِ؛ وذلك أنَّ تَقديمَ اللَّيلِ كان لأنَّ الأنفُسَ تَطلُبُ سببَه أكثَرَ ممَّا تَطلُبُ سَبَبَ النَّهارِ، وهاهنا كذلك؛ لأنَّ الشَّمسَ لَمَّا كانت أكبَرَ وأعظَمَ، كانت أعجَبَ، والنَّفْسُ تَطلُبُ سَبَبَ الأمرِ العَجيبِ أكثَرَ ممَّا تَطلُبُ سَبَبَ الأمرِ الَّذي لا يَكونُ عَجيبًا[١].

- وجُملةُ ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ -على تَقديرِ عُمومِ الخِطابِ لكلِّ أحَدٍ- اعتِراضٌ بيْنَ المَعطوفينِ؛ لبَيانِ الواقعِ بطَريقِ الاستِطرادِ. وعلى تَقديرِ اختصاصِ الرُّؤيةِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يَجوزُ أنْ يكونَ حالًا مِن الشَّمسِ والقَمرِ؛ فإنَّ جَرَيانَهما إلى يومِ القيامةِ مِن جُملةِ ما في حَيِّزِ رُؤيتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقد جُعِل جَرَيانُهما عِبارةً عن حَرَكتِهما الخاصَّةِ بهما في فَلَكِهما، والأجَلُ المُسمَّى عن مُنْتهى دَورتِهما، وجُعِلَ مُدَّةُ الجَرَيانِ للشَّمسِ سَنةً، وللقَمَرِ شَهرًا -على قولٍ-؛ فالجُملةُ حينَئذٍ بَيانٌ لِحُكمِ تَسخيرِهما، وتَنبيهٌ على كَيفيَّةِ إيلاجِ أحَدِ المَلَوينِ في الآخَرِ، وكونُ ذلك بحسَبِ اختلافِ جَرَيانِ الشَّمسِ على مَداراتِها اليوميَّةِ[٢].

- والجَرْيُ: المَشْيُ السَّريعُ، عُبِّرَ به عن انتِقالِ الشَّمسِ في فَلَكِها، وانتقالِ الأرضِ حوْلَ الشَّمسِ، وانتقالِ القَمرِ حوْلَ الأرضِ؛ تَشبيهًا بالمَشْيِ السَّريعِ؛ لأجْلِ شُسوعِ المسافاتِ الَّتي تُقطَعُ في خلالِ ذلك[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وقال في سُورةِ (فاطرٍ) و(الزُّمَرِ): ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٥).

[فاطر: ١٣] [الزمر: ٥]؛ فاختصَّ ما في سُورةِ (لُقمانَ) بقولِه: ﴿يَجْرِيَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وما سِواهُ إنَّما هو: ﴿يَجْرِيَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ وذلك لأنَّ معنى قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿يَجْرِيَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: لِبُلوغِ أجَلٍ، ومعنى قولِه: ﴿يَجْرِيَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ معناه: لا يَزالُ كلٌّ مِن الشَّمسِ والقمَرِ جاريًا حتَّى يَنتهِيَ إلى آخِرِ وقْتِ جَرْيِه المُسمَّى له، وإنَّما خصَّ ما في سُورةِ لُقمانَ بـ(إلى) الَّتي للانتِهاءِ -واللَّامُ تُؤدِّي معناها-؛ لأنَّها تدُلُّ على أنَّ جَرْيَها لِبُلوغِ الأجَلِ المُسمَّى؛ لأنَّ الآياتِ الَّتي تَكتنِفُها آياتٌ مُنبِّهةٌ على النِّهايةِ والحشرِ والإعادةِ؛ فقَبْلَها: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وبعدَها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣]، فكان المعنى: كلٌّ يَجْري إلى ذلك الوقتِ.

والمواضعُ الَّتي ذُكِرَت فيها اللَّامُ إنَّما هي في الإخبارِ عن ابتِداءِ الخلْقِ، وهو قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۞ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٥، ٦]؛ فالآياتُ التي تَكتنِفُها في ذِكرِ ابتداءِ الخلْقِ، وابتداءِ جَرْيِ الكواكبِ، وهي إذْ ذاك تَجْري لِبُلوغِ الغايةِ. وكذلك قولُه في سُورةِ (فاطر) إنَّما هو في ذِكرِ النِّعَمِ الَّتي ابتدَأَ بها في البَرِّ والبَحرِ؛ إذ يقولُ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٢، ١٣]؛ فاختصَّ ما عندَ ذِكرِ النِّهايةِ بحَرْفِها (إلى)، واختصَّ ما عِندَ الابتداءِ بالحرْفِ الدَّالِّ على العِلَّةِ الَّتي يقَعُ الفِعلُ مِن أجْلِها (اللَّام)[1]. .....

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٥٦-١٠٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٢)، ((فتح =

وقيل غيرُ ذلك[١].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عَطْفٌ على ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾؛ فهو داخلٌ في الاستِفهامِ الإنكاريِّ بتَنزيلِ العالِمِ مَنزلةَ غيرِه؛ لِعَدمِ جَرْيِه على مُوجَبِ العِلمِ؛ فهم يَعلَمون أنَّ اللهَ خَبيرٌ بما يَعمَلون، ولا يَجْرون على ما يَقْتضيهِ هذا العِلمُ في شَيءٍ مِن أحوالِهم[٢].

- وقدَّمَ الجارَّ؛ إشارةً إلى تمامِ عِلمِه بالأعمالِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ مَوقِعُ هذه الجُملةِ مَوقِعُ النَّتيجةِ مِن الدَّليلِ؛ فإنَّهم مُعترِفون بأنَّ اللهَ هو فاعلُ ذلك، فلَزِمَهم الدَّليلُ ونَتيجتُه، والمعنى: أنَّ إيلاجَ اللَّيلِ في النَّهارِ، وعكْسَه، وتَسخيرَ الشَّمسِ والقمَرِ؛ مُسبَّبٌ عن انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ؛ فالباءُ للسَّببيةِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ ...﴾[٤].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما تُلِيَ مِن الآياتِ الكَريمةِ، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِها في الفضْلِ[٥].

- وأيضًا أتَى باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ بعدَ إجْراءِ تلك الصِّفاتِ على الذَّاتِ المُتميِّزةِ؛ لِيُؤذِنَ بأنَّ تلك الصِّفاتِ إنَّما تَثبُتُ له لأنَّه هو الإلهُ الثَّابتُ الإلهيَّةُ؛ لِمَا تَقرَّرَ أنَّ مَن كان إلهًا كان قادرًا خالِقًا عالِمًا، مَعبودًا رازقًا؛ فهذه الآيةُ

= الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٨، ٤٤٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦٦).

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٠٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٦).

كالفَذْلَكةِ[١] لتلك الآياتِ مِن لَدُنْ قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [لقمان: ٢٥]، وكلٌّ مِن فواصلِها -نحوُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾- مُتضمِّنةٌ لأسرارٍ لا يَعلَمُ كُنْهَها إلَّا اللَّطيفُ الخبيرُ، وكما أنَّ قولَه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ كالمُجمَلِ لتلك المُفصَّلِ، كذلك قَرينتُها -أي: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾- فَذْلَكةٌ لتلك الفواصلِ[٢].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ التَّصريحُ بذلك -مع أنَّ الدَّلالةَ على اختصاصِ حَقِّيَّةِ الإلهيَّةِ به تعالى مُستتبِعةٌ للدَّلالةِ على بُطلانِ إلهيَّةِ ما عَداهُ-؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بأمْرِ التَّوحيدِ، وللإيذانِ بأنَّ الدَّلالةَ على بُطلانِ ما ذُكِرَ ليستْ بطَريقِ الاستتباعِ فقطْ، بلْ بطَريقِ الاستقلالِ أيضًا[٣].

- وضَميرُ الفصْلِ ﴿هُوَ﴾ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ مُفيدٌ للاختصاصِ، أي: هو الحقُّ، لا أصنامُكم ولا غيرُها ممَّا يُدَّعى إلهيَّتُه غَيرَه تعالى. ولم يُؤْتَ بضَميرِ الفصْلِ في الشِّقِّ الثَّاني ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾؛ لأنَّ ما يَدْعُونه مِن دُونِ اللهِ مِن أصنامِهم يَشترِكُ معها في أنَّه باطلٌ، وذكَرَ ضَميرَ الفَصلِ في نَظيرِه مِن سُورةِ (الحجِّ) ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]؛ لاقتضاءِ المَقامِ هناك ذلك[٤].

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ١١٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٦، ١٨٧).

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ واقعٌ مَوقِعَ الفَذْلكةِ لِمَا تَقدَّمَ مِن دَلالةِ إيلاجِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وتَسخيرِ الشَّمسِ والقمَرِ؛ لأنَّه إذا استقَرَّ أنَّ ما ذُكِرَ دالٌّ على أنَّ اللهَ هو الحقُّ بالإلهيَّةِ، ودالٌّ على أنَّ ما يَدْعُونه باطلٌ؛ ثبَتَ أنَّه العليُّ الكبيرُ دونَ أصنامِهم، وقد اجتُلِبَ ضَميرُ الفصْلِ هنا ﴿هُوَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاختصاصِ، وسَلْبِ العُلوِّ والعَظَمةِ عن أصنامِهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٧).

الآيتان (٣١-٣٢)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَٱلظُّلَلِ﴾: أي: كقِطَعِ السَّحابِ أو كالجِبالِ، وأصلُ (ظلل): يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشَيءٍ[1].

﴿مُّقْتَصِدٌ﴾: المقتصِدُ: الفاعلُ للقَصدِ، وهو التَّوسُّطُ بينَ طرَفَينِ، وقصَدَ في الأمرِ: إذا لم يجاوِزْ فيه الحدَّ، ورضِيَ بالتَّوسُّطِ، وأصلُ معنى الاقتصادِ: التَّوسُّطُ في الأمرِ، وأصلُ (قصد) هنا: يدُلُّ على وصل يدل إتيانِ شَيءٍ، وأَمِّه[2].

﴿خَتَّارٍ﴾: أي: غَدَّارٍ، والخَترُ أقبَحُ الغَدرِ، وأصلُ (ختر): يدُلُّ على تَوانٍ وفُتورٍ؛ وذلك أنَّه إذا خَتَرَ فقدْ قَعَدَ عن الوَفاءِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يذكُرُ الله سبحانَه نعمةً عظيمةً امتنَّ بها على العبادِ مِن جملةِ النِّعَمِ الَّتي لا تُحصَى، فيقولُ: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- أنَّ السُّفُنَ تجري في البَحرِ بتَسخيرِ اللهِ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٧).

تعالى؛ نِعمةً منه على عِبادِه؛ لِيُريَكم بعضَ آياتِه، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ لكُلِّ صَبَّارٍ شَكورٍ لله على نِعَمِه.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى بعضَ أحوالِ الناسِ عندَما تُصيبُهم الشَّدائدُ وهم في البحرِ، فيقولُ: وإذا غطَّى أولئك المُشركينَ عندَ رُكوبِهم البَحرَ مَوجٌ كالجِبالِ أو الغَمامِ، وخافوا الغَرَقَ دَعَوُا اللهَ وَحْدَه أن يُنَجِّيَهم، ولم يَستغيثوا بغَيرِه، فلما نجَّاهم اللهُ مِن الغَرَقِ، وأوصَلَهم إلى البَرِّ فمنهم مُقتَصِدٌ، وما يَكفُرُ بأدِلَّتِنا ويُنكِرُها إلَّا كلُّ غدَّارٍ جَحودٍ نِعَمَ اللهِ عليه.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى آيةً سَماويَّةً بقَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [لقمان: ٢٩]، وأشار إلى السَّبَبِ والمُسَبَّبِ؛ ذكَرَ آيةً أرضيَّةً، وأشارَ إلى السَّبَبِ والمُسَبَّبِ؛ فقَولُه: ﴿أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى﴾ [لقمان: ٣١] إشارةٌ إلى المسَبَّبِ، وقَولُه: ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى السَّبَبِ، أي: إلى الرِّيحِ الَّتي هي بأمرِ اللهِ ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ يعني: يُريَكم بإجرائِها بنِعمتِه مِن آياتِه، أي: بَعضَ آياتِه[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى تَسخيرَ النَّيِّرَينِ، وامتِنانَه بذلك علينا؛ ذكَرَ أيضًا مَن سخَّرَ الفُلْكَ مِن العالَمِ الأرضيِّ؛ بجامِعِ ما اشتَرَكا فيه مِنَ الجَرَيانِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ألم ترَ -يا محمَّدُ- أنَّ السُّفُنَ تَجري في البَحرِ بلُطفِ اللهِ وتَسخيرِه؛ نعمةً منه على عِبادِه[1].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥].

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾.

أي: لِيُريَكم اللهُ بعضَ آياتِه، فتَستَدِلُّوا بها على وُجودِه ووَحدانيَّتِه، وعِلمِه وقُدرتِه، وغيرِ ذلك[2].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَقَدَّم ذِكرُ جَرْيِ الفُلكِ فِي البحرِ، وكان في ذلك ما لا يخفَى على راكِبِه مِنَ الخَوفِ، وتَقَدَّم ذِكرُ النِّعمةِ؛ ناسَبَ الختمُ بِالصَّبرِ على ما يُحْذَرُ، وبالشُّكرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

قال ابن عطية: (المخاطَبُ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ النَّاسُ أجمَعُ... وقَولُه: ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ ما تحمِلُه السُّفُنُ مِنَ الطَّعامِ والأرزاقِ والتِّجاراتِ؛ فالباءُ للإلصاقِ، ويحتَمِلُ أن يريدَ الرِّيحَ وتَسخيرَ اللهِ البَحرَ، ونحوَ هذا؛ فالباءُ باءُ السَّبَبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٥، ٣٥٦).

قال ابن عثيمين: (والآيةُ تحتَمِلُ المعنيَينِ بدُونِ مُناقَضةٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٨٤).

على ما أنْعَمَ به تعالَى[١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

أي: إنَّ في جَريِ الفُلكِ في البَحرِ لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ واضِحاتٍ على ما له سُبحانَه مِن صِفاتِ الكَمالِ، يَستَدِلُّ بها كُلُّ كثيرِ الصَّبرِ على طاعةِ اللهِ، وعلى أقدارِه المؤلِمةِ، وعن معاصيه؛ وكُلُّ كثيرِ الشُّكرِ للهِ على نِعَمِه[٢].

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

أي: وإذا علا المُشرِكينَ عندَ رُكوبِهم البَحرَ مَوجٌ يُغَطِّيهم، كالجِبالِ أو الغَمامِ الَّذي يُظِلُّ مَن تحتَه، فخافوُا الغَرَقَ والهلاكَ: دَعَوُا اللهَ وَحْدَه أن يُنَجِّيَهم، ولم يَستَغيثوا بغَيرِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾.

أي: فلمَّا نجَّاهم اللهُ مِنَ الغَرَقِ، وأوصَلَهم إلى البَرِّ، فمنهم مُقتَصِدٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن =

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

أي: وما يَكفُرُ بأدِلَّتِنا وحُجَجِنا، ويُكَذِّبُ بها ويُنكِرُها[1] إلَّا كلُّ غدَّارٍ شَديدِ الغَدرِ بعَهدِه، جَحودٍ عَظيمِ الجَحدِ لنِعَمِ رَبِّه؛ فهو يَنقُضُ ما عاهَدَ اللهَ عليه، ولا يَشكُرُه على ما آتاه مِن نِعَمِه[2].

= عاشور)) (٢١/ ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٨٨).

قيل: المرادُ: فمنهم متوَسِّطٌ في الكُفرِ والظُّلم، خَفَضَ مِن غُلَوائِه، وانزجَرَ بعضَ الانزجارِ، فلم يُسرِفْ في كُفرِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنَى: الزمخشريُّ، والرسعني، وابن عاشور، وذكره ابنُ جُزي احتِمالًا. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣٢٢).

وقيل: المرادُ بالمُقتَصِدِ: المتوسِّطُ في إيمانِه، فلمْ يَقُمْ بشُكرِ الله على وَجهِ الكَمالِ؛ فيَكونُ ذلك مِن بابِ الإنكارِ على مَن شاهَدَ تلك الأهوالَ والأمورَ العِظامَ والآياتِ الباهراتِ في البَحرِ، ثمَّ بعدَما أنعَمَ عليه مِن الخلاصِ كان ينبغي أن يقابِلَ ذلك بالعَمَلِ التَّامِّ، والدُّؤوبِ في العبادةِ، والمُبادَرةِ إلى الخَيراتِ، فمَنِ اقتصَدَ بعدَ ذلك كان مُقَصِّرًا والحالةُ هذه. ذكر هذا المعنى احتِمالًا: ابنُ جُزَي، وابن كثير، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

وقيل: المرادُ: عَدْلٌ مُوفٍ في البَرِّ بما عاهَدَ الله عليه في البحرِ مِنَ التَّوحيدِ وإخلاصِ الدِّينِ لله، يعني: ثَبَتَ على إيمانِه. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والبغوي، والخازن، والعليمي، والشربيني، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٩٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨١).

(١) قال القرطبي: (وجَحْدُ الآياتِ: إنكارُ أعيانِها، والجَحدُ بالآياتِ: إنكارُ دَلائِلِها). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٨٩). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، فالمؤمنُ متذكِّرٌ عندَ الشِّدَّةِ والبلاءِ، وعندَ النِّعَمِ والآلاءِ، فيَصبرُ إذا أصابَتْه نِقمةٌ، ويَشكُرُ إذا أتَتْه نعمةٌ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ التَّحذيرُ مِنَ الغَدرِ؛ لأنَّه قد يكونُ سَببًا في الكُفرِ والجَحْدِ؛ ولهذا قال الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أرْبَعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا))، وذَكَر منها: ((إذا عَاهَدَ غَدَرَ))[(٢)]، فإذا كان لا يَجحَدُ بالآياتِ إلَّا الغَدَّارُ، فمعنى ذلك أنَّ الغَدْرَ يكونُ سَببًا للجَحْدِ والكُفرِ[(٣)].

= قيل: المرادُ أنَّ نِعَمَ الله تعالى على العِبادِ كأنَّها عُهودٌ ومِنَنٌ يَلزَمُ عنها أداءُ شُكرِها، فمَن كفَر ذلك وجحَدَ به فكأنَّه خَتَرَ (غدَر) وخانَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٥، ٣٥٦).

وقيل: المرادُ أنَّ كلَّ إنسانٍ قد عاهَد ربَّه بمُقتضَى فِطْرَتِه أن يُؤمِنَ به، فإذا كفَر صار غادرًا لم يَفِ بالعهد. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٩٠).

وقيل: المرادُ: نقْضُ العهدِ الفِطْريِّ، ونقْضُ عقدِ العزيمةِ وقتَ الهَولِ البَحْريِّ، ورفْضُ ما كان عليه في البحرِ. وممَّن اختاره: القنوجي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (١٠/ ٣٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبدِ الله بنِ عَمرٍو رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٩٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الإيمانُ نِصْفانِ: نِصفٌ صَبْرٌ، ونِصفٌ شُكْرٌ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[١].

٢- في ذِكْرِ «الصَّبَّارِ الشَّكورِ» بعدَ ذِكرِ أنَّ ﴿ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ مُناسَبةٌ ظاهِرةٌ جِدًّا؛ لأنَّ هذه الفُلكَ الَّتي تجري في البَحرِ: تارةً تَعصِفُ بها الأمواجُ، ويَتأذَّى الإنسانُ بذلك، ورُبَّما يتضَرَّرُ؛ فيُقابِلُ ذلك بالصَّبرِ، وقد يكونُ الأمرُ بالعَكسِ فيَشمَلُ العُبورَ على البَحرِ، ويَحصُلُ بذلك خَيرٌ كثيرٌ؛ فيُقابِلُ ذلك بالشُّكرِ، فلمَّا كانت هذه السُّفُنُ بها سَرَّاءُ وضَرَّاءُ، خَتَمَ اللهُ تعالى الآيةَ بقَولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ إثباتُ رِسالةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، لأنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما رَكِبَ البَحرَ حتَّى يَعرِفَ هذه الأمواجَ، وأنَّها كالظُّلَلِ! ولكِنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عَلِمَ بها مِن خَبَرِ اللهِ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾[٣].

٤- في قَولِه تعالى عن المُشرِكينَ: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ أنَّهم يُقِرُّونَ بالرُّبوبيَّةِ؛ فهم لا يَدْعونَه إلَّا لأنَّهم يَعلَمونَ أنَّه قادِرٌ على إنقاذِهم؛ وإلَّا فلا يُمكِنُ أن يَدْعُوا مَن لا يَعتَقِدونَ أنَّه قادِرٌ[٤]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ إجابةُ

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩١).

دَعوةِ المُضْطَرِّ ولو كان كافِرًا؛ فهؤلاء أجاب اللهُ تعالى دَعوتَهم مع عِلمِه بأنَّهم كُفَّارٌ وسيَكفُرونَ[١]. فالله تعالى ضَمِن إجابةَ المضطرِّ إذا دعاه، وأخبَر بذلك عن نفْسِه، والسَّببُ في ذلك أنَّ الضرورةَ إليه باللجأ ينشأُ عن الإخلاصِ، وقطعِ القلبِ عمَّا سواه، وللإخلاصِ عنده سبحانه موقعٌ وذمةٌ، وُجِد مِن مؤمنٍ أو كافرٍ، طائعٍ أو فاجرٍ، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فأجابهم عندَ ضرورتِهم ووقوعِ إخلاصِهم، مع علمِه أنَّهم يعودون إلى شركِهم وكفرِهم[٢].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ اِستئنافٌ، جاء على سَننِ الاستِئنافينِ اللَّذَينِ قبْلَه في قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ [لقمان: ٢٩]، وجِيءَ بها غيرَ مُتعاطِفةٍ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ السَّامعُ أنَّ العَطْفَ على ما تَخلَّلَ بيْنَها، وجاء هذا الاستئنافُ الثَّالثُ دليلًا ثالثًا على عَظيمِ حِكمةِ اللهِ في نِظامِ هذا العالَمِ، وتَوفيقِ البَشرِ للانتفاعِ بما هيَّأَهُ اللهُ لانتفاعِهم به، فلمَّا أتَى الاستئنافانِ الأوَّلانِ على دَلائلِ صُنْعِ اللهِ في السَّمواتِ والأرضِ، جاء في هذا الثَّالثِ دليلٌ على بَديعِ صُنْعِ اللهِ بخَلْقِ البَحرِ، وتَيسيرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٣).

الانتفاعِ به في إقامةِ نِظامِ المُجتمَعِ البَشَريِّ[١].

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الهَمزةُ في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ للاستفهامِ الإنكاريِّ التَّقريريِّ[٢].

- ووَصَفَ هذا الجَرْيَ بمُلابَسةِ نِعمةِ اللهِ؛ لأنَّه خلَقَ البحرَ على هذه الصِّفةِ العظيمةِ مُيسَّرًا للانتفاعِ بالأسفارِ فيه حينَ لا تُغْني طُرقُ البَرِّ في التَّنقُّلِ غَناءً؛ فجعَلَهُ قابلًا لِحَمْلِ المَراكبِ العظيمةِ، وألْهَمَ الإنسانَ لِصُنْعِ تلك المَراكبِ على كَيفيَّةٍ تَحْفَظُها مِن الغرَقِ في عُبابِ البَحرِ، وعصَمَهم مِن تَوالِي الرِّياحِ والمَوجِ في أسفارِهم، وهَداهُم إلى الحِيلةِ في مُصانَعتِها إذا طرَأَت حتَّى تَنجلِيَ[٣].

- ويَتعلَّقُ ﴿لِيُرِيَكُم﴾ بـ﴿تَجْرِى﴾، أي: تَجْري في البَحرِ جَرْيًا، عِلَّةُ خَلْقِه أنْ يُرِيَكم اللهُ بعضَ آياتِه، أي: آياتِه لكم، فلمْ يَذكُرْ مُتعلَّقَ الآياتِ؛ لِظُهورِه مِن قولِه: ﴿لِيُرِيَكُم﴾[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لها مَوقعُ التَّعليلِ لِجُملةِ ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾. ولها مَوقعُ الاستئنافِ البَيانيِّ؛ إذ يَخطُرُ ببالِ السَّامعِ أنْ يَسأَلَ: كيف لم يَهتَدِ المشركون بهذه الآياتِ؟ فأُفِيدَ أنَّ الَّذي يَنتفِعُ بدَلالتِها على مَدلولِها هو كلُّ صبَّارٍ شَكورٍ؛ ثَناءً على هذا الفريق صَريحًا،

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٨، ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وتَعريضًا بالَّذين لمْ يَنتفِعوا بدَلالتِها. واقتِرانُ الجُملةِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ لأنَّه يُفيدُ في مِثلِ هذا المَقامِ معنَى التَّعليلِ والتَّسبُّبِ. وجُعِلَ ذلك عِدَّةَ آياتٍ؛ لأنَّ في ذلك دَلائلَ كثيرةً[١].

- وصِيغتَا ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ بِنْيَتَا مُبالَغةٍ، و(فعَّالٌ) أبلَغُ؛ لِزيادةِ حُروفِه، والصَّبَّارُ: مُبالَغةٌ في المَوصوفِ بالصَّبرِ، والشَّكورُ كذلك، أي: الَّذين لا يُفارِقُهم الوَصْفانِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ كِنايةٌ رَمْزيَّةٌ عن المؤمنينَ، وتَعريضٌ رَمْزيٌّ بالمشرِكينَ، ووَجْهُ إيثارِ خُلُقَيِ الصَّبرِ والشُّكرِ هنا للكِنايةِ بهما مِن بيْنِ شُعَبِ الإيمانِ: أنَّهما أنسَبُ بمَقامِ السَّيرِ في البحرِ؛ إذ راكبُ البحرِ بيْنَ خطَرٍ وسلامةٍ، وهما مَظهَرُ الصَّبرِ والشُّكرِ[٣].

- وخصَّ هذه الدَّلالةَ بأنَّها دَلالةٌ لِلصَّبَّارِ الشَّكورِ، دونَ سائرِ الخلْقِ؛ لأنَّ الصَّبرَ والشُّكرَ مِن أفعالِ ذوي الحِجَى والعقولِ، فأخبَرَ أنَّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ ذي عقلٍ؛ لأنَّ الآياتِ جعَلها الله عِبَرًا لِذَوي العقولِ والتَّمييزِ[٤]. ولأنَّ الآيةَ -وهي العَلامةُ- لا تَستَبينُ في صَدرِ كُلِّ مُؤمِنٍ، إنَّما تَستَبينُ لِمَن صَبَرَ على البلاءِ، وشَكَر على الرَّخاءِ[٥]، فلا يَنتَفِعُ بالآياتِ إلَّا مَن جَمَعَ بينَ الصَّبرِ والشُّكرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٩، ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨٥).

- وفي قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ حُسْنُ تَخلُّصٍ إلى التَّفصيلِ الَّذي عقبَه في قولِه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ ...﴾ الآيةَ؛ فعُطِفَ على آياتِ سَيرِ الفُلْكِ إشارةً إلى أنَّ الناسَ يَذْكُرون اللهَ عندَ تلك الآياتِ عندَ الاضطرارِ، وغَفلَتِهم عنها في حالِ السَّلامةِ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ فيه الْتِفاتٌ؛ حيثُ خرَجَ مِن ضَميرِ الخِطابِ في ﴿لِيُرِيَكُم﴾ إلى ضَميرِ الغَيبةِ في ﴿غَشِيَهُم﴾[2]، وهذا إنْ كانَ ضميرُ ﴿غَشِيَهُم﴾ مُتَّحِدًا بضميرِ المخاطَبينَ قبْلَه؛ ففي الكلامِ التِفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، وإلَّا فلا التِفاتَ[3]، وكذلك في الانتِقالِ مِن الغَيبةِ في ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ إلى التَّكلُّمِ في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، وهذا الالتفاتُ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الناسَ يَذْكُرونَ اللهَ عِندَ تلك الآياتِ وعِندَ الاضطرارِ، مع غَفْلتِهم في حالِ السَّلامةِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ذلك الإخلاصَ الحادِثَ عِندَ الخَوفِ قلَّما يبقَى لأحدٍ عندَ زَوالِ الخوفِ، والمعنى: أنَّ حالَ الناسِ في النِّعمةِ غيرُ حالِهم في الشِّدَّةِ؛ فتتغيَّرُ أحوالُهم بتغيُّرِ المواقفِ[4]!

- و﴿مَّوۡجٞ﴾ اسمُ جنسٍ، واحِدُه مَوجةٌ، وتَنكيرُه للتَّعظيمِ والتَّكثيرِ؛ ولذا أُفرِدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦، ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٢).

مع جَمْعِ المُشبَّهِ به في قولِه تعالى: ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾[١]. وقيل: أفرَدَ ﴿مَّوْجٌ﴾؛ لأنَّه لشِدَّةِ اضطرابِه، وإتيانِه شَيئًا في إثْرِ شَيءٍ مُتتابِعًا؛ يركَبُ بَعضَه كأنَّه شَيءٌ واحِدٌ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ شبَّهَ المَوجَ في ارتفاعِه واسْوِدادِه واضْطِرابِه بالظُّلَلِ، وهو السَّحابُ. وقِيل: ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾ كالجبالِ[٣].

- قَولُه: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ اقتضَى الحالُ حَذْفَ ما دَعَوا به؛ لتَعظيمِ الأمرِ فيه لِما اقتَضاه مِنَ الشَّدائِدِ؛ لِتَذهَبَ النَّفْسُ فيه كُلَّ مَذهَبٍ[٤].

- قولُه: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ في وصْفِهم بالمُخلِصينَ ضرْبٌ مِن التَّهَكُّمِ؛ لأنَّه لَمَّا نَجَّاهم فاجأتْهم السَّجيَّةُ فأشْرَكوا باللهِ، وكان منهم مُقتصِدٌ في شُكرِه[٥]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ هذه ضُمِّنَتْ معنى الإيصالِ، يعني: نجَّاهم وأوصلَهم إلى البَرِّ، لم يقُلْ: فلمَّا نجَّاهم مِن هذه الظُّلَلِ فقط! بل نجَّاهم إنجاءً وصَلوا فيه إلى شاطئِ السَّلامةِ؛ إلى البَرِّ[٦].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٌ﴾ تدُلُّ على مُقدَّرٍ، كأنَّه قِيل: فلمَّا نَجَّاهم انقَسَموا؛ فمنهم مُقتصِدٌ، ومنهم غيرُه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦، ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩١).

- وجُملةُ ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّها تعُمُّ كلَّ جاحدٍ؛ سواءٌ مَن جحَدَ آيةَ سَيرِ الفُلكِ وهَولِ البحرِ، ويَجحَدُ نِعمةَ اللهِ عليه بالنَّجاةِ، ومَن يَجحَدُ غيرَ ذلك مِن آياتِ اللهِ ونِعَمِه[1].

- وضُمِّنَ «الجَحْدُ» معنى التَّكذيبِ؛ لأنَّ الجَحْدَ الَّذي بمعنى الكِتمانِ يتعَدَّى بنَفْسِه، فيُقالُ: «جَحَدَه» أي: كَتَمَه، لكِنْ هنا ضُمِّنَ معنى التَّكذيبِ؛ ولذلك تَعَدَّى بالباءِ، فقيلَ: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: ما يُكَذِّبُ بها[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ ختَمَ هنا في قولِه: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ بصِيغَتَيْ مُبالَغةٍ، وهما: (ختَّارٌ) و(كَفورٌ)، وفي الآيةِ قبْلَها قال: ﴿صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾؛ فالصَّبَّارُ الشَّكُورُ مُعترِفٌ بآياتِ اللهِ، والختَّارُ الكَفورُ يَجحَدُ بها؛ فتَوازَنَت هذه الكلماتُ لَفظًا ومعنًى؛ أمَّا لَفظًا فظاهرٌ، وأمَّا معنًى: فالختَّارُ هو الغدَّارُ، والغَدْرُ لا يكونُ إلَّا مِن قِلَّةِ الصَّبرِ؛ لأنَّ الصَّبَّارَ يُفوِّضُ أمْرَه إلى اللهِ، وأمَّا الغدَّارُ فيُعاهِدُ ويَغدِرُ، فلا يَصبِرُ على العَهدِ، وأمَّا الكَفورُ فمُقابَلتُه معنًى للشَّكورِ واضحةٌ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣، ٤٢٤).

الآيتان (٣٣-٣٤)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَغُرَّنَّكُمُ﴾: أي: تخدَعَنَّكم، والغِرَّةُ: الغفلةُ، ويُقالُ: غَرَرْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَه، والغَرُّ والغُرورُ: إظهارُ الأمرِ المضِرِّ في صورَةِ النَّافِعِ، أو: إظهارُ النُّصحِ مع إبطانِ الشَّرِّ، والغُرورُ بالضمِّ: الباطلُ، و﴿ٱلۡغَرُورُ﴾: بالفتحِ: الشَّيطانُ، أو: كلُّ ما يغرُّ الإنسانَ مِن شيطانٍ أو دنيا أو مالٍ وغيرِ ذلك، وأصلُ ذلك مِن (الغُرِّ)، وهو الأثرُ الظَّاهرُ مِن الشَّيءِ[1].

﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾: أي: المطرَ، أو: هو مطرٌ في إبَّانِه وإلَّا فمطرٌ. وسُمِّيَ المطرُ غَيْثًا؛ لأنَّه يُغيثُ الخلْقَ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يختمُ الله سبحانه آياتِ هذه السُّورةِ بدعوةِ النَّاسِ إلى تَقْواه، والاستعدادِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣، ٦٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٢).

قال القرطبي: (والغَيثُ ما كان نافعًا في وقتِه، والمطرُ قد يكونُ نافعًا وضارًّا، في وقتِه وغيرِ وقتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩).

ليومِ الحسابِ، فيقولُ: يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكم بفِعلِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه، واخشَوا يومَ القيامةِ الَّذي لا يُغْني فيه والِدٌ عن ولدِه شَيئًا، ولا مولودٌ يُغْني فيه عن والِدِه شَيئًا، إنَّ وَعْدَ اللهِ بالبَعثِ حَقٌّ واقِعٌ لا مَحالةَ؛ فلا تَغُرَّنَّكم الحياةُ الدُّنيا بزينتِها، ولا يَغُرَّنَّكم الشَّيطانُ فيَصرِفَكم عن طاعةِ الله.

ثمَّ يُبيِّنُ الله عزَّ وجلَّ الأمورَ الَّتي استأثرَ بعلمِها، فلا يَعلَمُها نبيٌّ مرسَلٌ، ولا ملَكٌ مقرَّبٌ، فضلًا عن غيرِهما، فيقولُ: إنَّ اللهَ وَحْدَه عِندَه عِلمُ السَّاعةِ، ويُنَزِّلُ المطَرَ، ويَعلَمُ ما في أرحامِ الأمَّهاتِ، ولا تدري نَفْسٌ ماذا تَكسِبُ غَدًا، ولا تدري نفْسٌ في أيِّ أرضٍ تموتُ، إنَّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ لا يخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمًا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الدَّلائِلَ على الوحدانيَّةِ والحَشرِ مِن أوَّلِ السُّورةِ، أمَرَ بالتَّقْوى على سَبيلِ الموعِظةِ والتَّذكيرِ بهذا اليَومِ العظيمِ[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ اجعَلوا بيْنَكم وبينَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه وِقايةً؛ بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾.

أي: واخشَوا يَومَ القيامةِ الَّذي لا يُغْني فيه والِدٌ عن وَلَدِه[١].

﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: ولا مولودٌ يُغْني فيه عن والِدِه شَيئًا[٢].

كما قال سُبحانَه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾.

أي: إنَّ ما وعَدَ اللهُ عِبادَه مِن البَعثِ يومَ القيامةِ واقِعٌ لا محالةَ[٣].

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: فلا تَخدَعنَّكم الحياةُ الدُّنيا بزينتِها ولَذَّاتِها عن التَّزَوُّدِ والاستِعدادِ للآخِرةِ[٤].

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾.

أي: ولا يَخدَعَنَّكم الشَّيطانُ[٥] فيَصرِفَكم عن طاعةِ اللهِ، ويَغُرَّكم بحِلمِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٥) ممَّن اختار أنَّ الغَرورُ هو الشَّيطانُ: الواحدي، والسمعاني، وابن القيِّم، والبِقاعي، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي =

وإمهالِه، ويُمَنِّيكم بالأمانيِّ الباطِلةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥، ٦]

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.

= (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٠)، ((الرُّوح)) لابن القيم (ص: ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٩٧-١٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٣٠).

قال الشنقيطي: (سُمِّي الشيطانُ غَرورًا؛ لكثرةِ غرورِه للآدَميِّينَ بتزيينِه ووساوسِه). ((العذب النمير)) (٥/ ١٠٧).

وقيل: الغَرورُ هو ما غَرَّ الإنسانَ مِن شَيءٍ، كائنًا ما كان؛ شيطانًا كان، أو إنسانًا، أو دُنيا. وممَّن قال بهذا المعنى: أبو عُبيدةَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٤٠).

قال الرازي: (قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ يعني: الدُّنيا؛ لا يَنْبَغي أنْ تَغُرَّكم بنفْسِها، ولا يَنْبَغي أنْ تغترُّوا بها، وإنْ حَمَلكم على مَحَبَّتِها غارٌّ مِن نفْسٍ أمَّارةٍ أو شيطانٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِنَ الأمرِ الواضِحِ أنَّ لِسانَ حالِهم بعدَ السُّؤالِ عن تحقُّقِ ذلك اليَومِ يَسألُ عن وَقتِه؛ إمَّا تعنُّتًا واستِهزاءً، وإمَّا حقيقةً- أجاب عن ذلك ضامًّا إليه أخواتِه مِن مفاتيحِ الغَيبِ[١].

وأيضًا لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [لقمان: ٣٣]، وذكَرَ أنَّه كائِنٌ بقَولِه: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾، كأنَّ قائلًا قال: فمتى يكونُ هذا اليومُ؟ فأُجيبَ بأنَّ هذا العِلمَ ممَّا لم يَحصُلْ لِغَيرِ الله، وذلك قولُه سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، ثمَّ ذكَرَ الدَّليلَينِ على البَعثِ؛ أحَدُهما: إحياءُ الأرضِ بعدَ مَوتِها، المشارُ إليه بقولِه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾، وثانيهما: الخَلقُ ابتِداءً، المشارُ إليه بقولِه سبحانَه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾، فكأنَّه قال عزَّ وجلَّ: يا أيُّها السَّائِلُ، إنَّك لا تَعلَمُ وَقتَها، ولكِنَّها كائنةٌ، واللهُ قادِرٌ عليها كما هو قادِرٌ على إحياءِ الأرضِ، وعلى الخلْقِ في الأرحامِ[٢].

وأيضًا لَمَّا جرَى في الآياتِ قَبْلَها ذِكرُ يَومِ القيامةِ، أُعقِبَت بأنَّ وَقتَ السَّاعةِ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، وجَمَع معها الجُمَلَ الأربَعَ الَّتي بَعدَها[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه عِندَه عِلمُ وَقتِ القيامةِ، الَّذي تقومُ فيه[٤].

كما قال سُبحانَه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٢).

لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ...﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ...﴾ [الأنعام: ٥٩].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((خَمسٌ مِنَ الغَيبِ لا يَعلَمُهنَّ إلَّا اللهُ، ثمَّ قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾))[(١)].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَفاتِحُ الغَيبِ خَمسٌ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾))[(٢)].

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾.

أي: ويُنَزِّلُ اللهُ وَحْدَه المطَرَ بقُدرتِه، ويَعلَمُ وَحْدَه وَقْتَ نُزولِه، وغيرَ ذلك مِن شُؤونِه[(٣)].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ وَحْدَه ما في أرحامِ الأمَّهاتِ مِمَّا يُريدُ اللهُ أن يَخلُقَه فيها[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (١٠) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٤٦٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٦، ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ﴾ [الرعد: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٧].

﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗا﴾.

أي: ولا تدري نفْسٌ ما الَّذي ستَكسِبُه في يومِ غَدٍ مِن كسْبِ دينِها ودُنياها؛ فاللهُ وَحْدَه يَعلَمُ ذلك[١].

عن مَسروقٍ، عن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها قالت: (مَن حدَّثك أنَّه يَعلَمُ ما في غدٍ، فقد كَذَب، ثمَّ قرأَتْ: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗا﴾)[٢].

﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُ﴾.

أي: ولا تَدري نَفْسٌ في أيِّ أرضٍ يكونُ مَوتُها؛ فاللهُ وَحْدَه مَن يختَصُّ بعِلمِ ذلك[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا خصَّص الله تعالى هذه الأمورَ الخمسةَ السابقةَ بالذِّكرِ؛ عمَّم عِلمَه بجميعِ الأشياءِ، فقال[٤]:

= (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٨).

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٥) واللفظ له، ومسلم (١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو علم بكلِّ شيءٍ، مُحيطٌ بالظَّواهِرِ والبواطِنِ، والخفايا والسَّرائِرِ، لا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمًا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ فيه لَفتُ النَّظَرِ لهذا اليَومِ العظيمِ، ممَّا يقوِّي العبدَ، ويُسَهِّلُ عليه تَقْوى اللهِ، وهذا مِن رحمةِ اللهِ بالعِبادِ: يأمُرُهم بتَقْواه الَّتي فيها سعادتُهم، ويَعِدُهم عليها الثَّوابَ، ويحَذِّرُهم مِنَ العِقابِ، ويُزعِجُهم إليه بالمواعِظِ والمُخَوِّفاتِ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا تَمْتَروا فيه، ولا تَعمَلوا عَمَلَ غَيرِ المصَدِّقِ؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بزينتِها وزَخارِفِها وما فيها مِن الفِتَنِ والمِحَنِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ الَّذي هو الشَّيطانُ، الَّذي ما زال يخدَعُ الإنسانَ ولا يَغفُلُ عنه في جميعِ الأوقاتِ؛ فإنَّ لله على عبادِه حَقًّا، وقد وعَدَهم مَوعِدًا يُجازيهم فيه بأعمالِهم، وهل وَفَّوا حَقَّه أم قَصَّروا فيه. وهذا أمرٌ يجِبُ الاهتِمامُ به، وأن يجعَلَه العَبدُ نُصْبَ عَينيه، ورأسَ مالِ تجارتِه الَّتي يسعَى إليها، ومِن أعظَمِ العوائِقِ عنه والقواطِعِ دُونَه: الدُّنيا الفتَّانةُ، والشَّيطانُ المُوَسوِسُ المُسَوِّلُ؛ فنهَى تعالى عبادَه أن تَغُرَّهم الدُّنيا، أو يَغُرَّهم باللهِ الغَرورُ: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٣] [النساء: ١٢٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قَال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، النَّاسُ على أقسام؛ منهم مَن تدعوه الدُّنيا إلى نفْسِها، فيَميلُ إليها، ومنهم مَن يُوَسْوِسُ في صدرِه الشَّيطانُ، ويزيِّنُ في عينِه الدُّنيا، ويؤمِّلُه، ويقولُ: إنَّك تحصلُ بها الآخرةَ، أو تلتذُّ بها ثمَّ تتوبُ فتجتمعُ لك الدُّنيا والآخرةُ! فنهاهم عن الأمْرَينِ، وقال: كونوا قِسْمًا ثالثًا، وهم الَّذين لا يَلتفِتونَ إلى الدُّنيا، ولا إلى مَن يحسِّنُ الدُّنيا في الأعيُنِ[(١)].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ مِن أعظَمِ الغرةِ أن تراه يُتابعُ عليك نِعَمَه، وأنت مقيمٌ على ما يَكرهُ، فالشيطانُ موكلٌ بالغرورِ، وطبْعُ النَّفْسِ الأمَّارةِ الاغترارُ، فإذا اجتَمع الرَّأيُ والبغْيُ والشَّيطانُ الغَرورُ والنَّفْسُ المُغترَّةُ لم يقَعْ هناك خلافٌ، فالشَّياطينُ غرُّوا المغترِّينَ بالله، وأطمَعوهم مع إقامتِهم على ما يُسخِطُ اللهَ، ويُغضبُه في عفوِه وتجاوزِه، وحدَّثوهم بالتَّوبةِ؛ لتسكُنَ قلوبُهم، ثمَّ دافعوهم بالتَّسويفِ حتَّى هجَم الأجَلُ، فأُخِذوا على أسْوَأِ أحوالِهم، وقال تعالى ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[(٢)] [الحديد: ١٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ تَدُلُّ بظاهِرِها على أنَّ يومَ القيامةِ لا يَنفَعُ فيه والِدٌ وَلَدَه، وقد جاءت آيةٌ أخرى تدُلُّ على رَفعِ دَرَجاتِ الأولادِ؛ بسَبَبِ صلاحِ آبائِهم، حتَّى يَكونوا في دَرَجةِ الآباءِ، مع أنَّ عَمَلَهم -أي: الأولادِ- لم يُبَلِّغْهم تلك الدَّرَجةَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٤٤، ٢٤٥).

إقرارًا لعُيونِ الآباءِ بوُجودِ الأبناءِ معهم في منازِلِهم مِنَ الجنَّةِ، وذلك نَفعٌ لهم، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الطور: ٢١] فما وَجْهُ الجَمعِ بيْنَهما؟

الجوابُ: وَجهُ الجَمعِ أُشيرَ إليه بالقَيدِ الَّذي في هذه الآيةِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾، وعيَّنَ فيها النَّفعَ بأنَّ إلحاقَهم بهم في دَرَجاتِهم يُقيَّدُ بالإيمانِ؛ فهي أخَصُّ مِن الآيةِ الأخرى، والأخَصُّ لا يُعارِضُ الأعَمَّ، وعلى قَولِ مَن فَسَّرَ الآيةَ بأنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ لا يَقضي عنه حَقًّا لَزِمَه، ولا يَدفَعُ عنه عذابًا حَقَّ عليه؛ فلا إشكالَ في الآيةِ[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾، في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أنَّ الدُّنيا مِن أكبرِ الأسبابِ الَّتي تَحولُ بينَ المَرءِ وخَشيتِه لليَومِ الآخِرِ؛ لأنَّه سبحانه فرَّعَها مِن قَولِه تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾[(٢)].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ في التَّعبيرِ بـ (هو) إشعارٌ بأنَّ المنفيَّ نَفْعُه بنَفْسِه؛ ففيه ترجيةٌ بأنَّ اللهَ قد يأذَنُ له في نَفْعِه إذا وُجِدَ الشَّرطُ[(٣)].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٢، ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٢).

خَبِيرٌ ﴾ مَن ادَّعى أنَّه يَعلَمُ شَيئًا مِن هذه، فقد كَفَر بالقُرآنِ؛ لأنَّه قد خالفَه[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ لَمَّا كان سُبحانَه قد نَصَب على السَّاعةِ أماراتٍ تُوجِبُ ظُنونًا في قُربِها، وكَشَف بعضَ أمرِها، عبَّرَ تعالى بالعِلمِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ ﴾ قال سُبحانَه: «مَا» دون «مَن»؛ لأنَّ عِلْمَ ما في الأرحامِ مِن حيثُ الصِّفةُ أبلَغُ مِن عِلمِه مِن حيثُ الذَّاتُ، أي: أبلغُ مِن حيثُ كَونُه ذَكَرًا أو أنثى؛ فالجنينُ الَّذي في الرَّحِمِ ليس العِلمُ المختَصُّ به مجرَّدَ كَونِه ذكرًا أو أنثى، أو طَويلًا أو قَصيرًا، أو صَغيرًا أو كَبيرًا، بل هناك ما هو أبلَغُ مِن ذلك، وهو صِفاتُ هذا الجَنينِ: هل يكونُ شقيًّا أم سَعيدًا؟ طويلَ العُمُرِ أم قصيرَ العُمُرِ؟ وهل عَمَلُه صالحٌ أو عَمَلُه فاسِدٌ؟ ولهذا جاء التَّعبيرُ بـ «مَا» الَّتي تُلاحَظُ فيها الصِّفاتُ؛ لأنَّ عِلْمَ ما في الأرحامِ مِن هذه الوجهةِ أعظَمُ مِن كَونِه ذَكَرًا أو أُنثى[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُ ﴾ عبَّرَ في جانبِ نفْيِ مَعرفةِ النَّاسِ بفِعلِ الدِّرايةِ؛ لأنَّ الدِّرايةَ عِلمٌ فيه مُعالَجةٌ للاطِّلاعِ على المعلومِ؛ ولذلك لا يُعبَّرُ بالدِّرايةِ عن عِلمِ اللهِ تعالى، فلا يقالُ: (اللهُ يَدري كذا)، فيفيدُ انتفاءَ عِلمِ النَّاسِ بعدَ الحِرصِ على عِلمِه[٤]. وقيل: أُسنِد

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٨).

العِلمُ إلى اللهِ، والدِّرايةُ للنَّفْسِ؛ لِما في الدِّرايةِ مِن معنى الخَتْلِ والحيلةِ[١].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمًا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ مَوقعُ هذه الآيةِ بعْدَ ما تقدَّمَها مِن الآياتِ مَوقعُ مَقصدِ الخُطبةِ بعدَ مُقدِّماتِها؛ إذ كانتِ المُقدِّماتُ الماضيةُ قد هيَّأَتِ النُّفوسَ إلى قَبولِ الهِدايةِ، والتَّأثُّرِ بالمَوعظةِ الحَسنةِ، وإنَّ لاصطيادِ الحُكماءِ فُرَصًا يَحرِصون على عدَمِ إضاعتِها، ولاعتبارِ هذا الموقعِ جُعِلَت الجُملةُ استِئنافًا؛ لأنَّها بمَنزلةِ الفَذْلكةِ والنَّتيجةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمًا ﴾ الأمْرُ بخَشيةِ يومِ القِيامةِ يَتضمَّنُ وُقوعَه؛ فهو كِنايةٌ عن إثباتِ البَعثِ، وذلك حظُّ المشركينَ منه الَّذين لا يُؤمِنون به حتَّى صار سِمَةً عليهم؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ﴾[٣] [الفرقان: ٢١].

- قولُه: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا ﴾ فيه حُسْنُ تَرتيبٍ وتَناسُبٍ؛ فإنَّه لَمَّا كان الوالدُ أكثَرَ شَفقةً على الولدِ مِن الولَدِ على أبيهِ، بَدَأَ به أوَّلًا، وأتَى في الإسنادِ إلى الوالدِ بالفِعلِ المُقْتضي للتَّجدُّدِ؛ لأنَّ شَفقتَه مُتجدِّدةٌ على الولَدِ في كلِّ حالٍ، وأتَى في الإسنادِ إلى الولَدِ باسمِ الفاعلِ؛ لأنَّه يدُلُّ على الثُّبوتِ، والثُّبوتُ يَصدُقُ بالمرَّةِ الواحدةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٢، ١٩٣).
وتقدَّم تعريفُ الفذلكةِ (ص: ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٤).

وقيل: إنَّ الفِعلَ يَتأتَّى وإن كان ممَّن لا ينبغي ولا يكونُ مِن شَأنِه؛ لأنَّ المَلِكَ إذا كان يَخِيطُ شَيئًا، يقال: إنَّه يَخيطُ، ولا يُقالُ: هو خَيَّاطٌ، وكذلك مَن يَحيكُ شَيئًا ولا يكونُ ذلك صَنعَتَه، يقال: هو يَحِيكُ، ولا يقالُ: هو حائِكٌ؛ فالابنُ مِن شأنِه أن يكونَ جازيًا عن والِدِه؛ لِما له عليه من الحُقوقِ، والوالِدُ يَجزي؛ لِما فيه مِنَ الشَّفَقةِ، وليس بواجِبٍ عليه ذلك، فقال في الوالِدِ: ﴿لَّا يَجۡزِي﴾، وقال في الوَلَدِ: ﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾[1].

- وأُوثِرَت جُملةُ ﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ بطُرقٍ مِن التَّوكيدِ لمْ تَشتمِلْ على مِثلِها جملةُ ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾؛ فإنَّها نُظِمَت جُملةً اسميَّةً، ووُسِّطَ فيها ضَميرُ الفَصلِ، وجُعِلَ النَّفْيُ فيها مُنصَبًّا إلى الجنسِ. ونُكتةُ هذا الإيثارِ: مُبالَغةُ تَحقيقِ عَدمِ جَزْءِ هذا الفَريقِ عن الآخَرِ؛ إذ كان مُعظَمُ المؤمنينَ مِن الأبناءِ والشَّبابِ، وكان آباؤهم وأُمَّهاتُهم في الغالبِ على الشِّركِ؛ فأُرِيدَ حَسمُ أطماعِ آبائهم، وما عَسَى أنْ يكونَ مِن أطماعِهم أنْ يَنفَعوا آباءَهم في الآخِرةِ بشَيءٍ[2].

- أو: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أكَّدَ الوصيَّةَ على الآباءِ، وقرَنَ شُكرَهم بوُجوبِ شُكرِه عزَّ وجلَّ، وأوجَبَ على الولَدِ أنْ يَكفِيَ والدَه ما يَسُوؤُه بحسَبِ نِهايةِ إمكانِه وغايةِ طَوقِه؛ قطَعَ هنا وَهمَ الوالدِ في أنْ يكونَ الولَدُ في القِيامةِ مَظِنَّةً لأنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦٨).

لكن قال ابن المُنَيِّر: (هذا الجواب تتوقَّفُ صحَّتُه على أنَّ هذا الخِطابَ كان خاصًّا بالموجودينَ حينَئذٍ، والصَّحيحُ أنَّه عامٌّ لهم، ولكلِّ مَن ينطلقُ عليه اسمُ النَّاسِ). ((حاشية ابن المنير على الكشاف)) (٣/ ٥٠٤). وذكر الألوسي قولَ مَن ردَّ عليه. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٠٤).

يَجْزِيَه حقَّه عليه، ويَكْفيَه ما يَلْقاهُ مِن أهوالِ القيامةِ، كما أوجَبَ اللهُ عليه في الدُّنيا ذلك في حقِّه، ولَمَّا كان إجزاءُ الولَدِ عن الوالدِ مَظِنَّةَ الوُقوعِ ومَوطِنَ الأمَلِ -لأنَّ اللهَ حضَّه عليه في الدُّنيا-؛ كان جَديرًا بتَأكيدِ النَّفيِ؛ لإزالةِ هذا الوهْمِ، وهذا غيرُ واردٍ في حقِّ الولَدِ على الوالدِ. وقيل: الابنُ مِن شأنِه أنْ يكونَ جازيًا عن والدِه؛ لِمَا له عليه مِن الحُقوقِ، والوالدُ يَجْزي؛ لِمَا فيه مِن الشَّفقةِ، وليس الثَّاني كالأوَّلِ[1].

- وعُبِّرَ بـ﴿مَوْلُودٌ﴾ دونَ (ولدٍ)؛ لإشعارِ (مَولودٍ) بالمعنى الاشتقاقيِّ دونَ (ولد) الَّذي هو اسمٌ بمَنزلةِ الجَوامدِ؛ لِقَصدِ التَّنبيهِ على أنَّ تلك الصِّلةَ الرَّقيقةَ لا تُخوِّلُ صاحبَها التَّعرُّضَ لِنَفعِ أبيه المُشرِكِ في الآخرةِ؛ وفاءً له بما تُومِئُ إليه المَولوديَّةُ مِن تَجشُّمِ المَشقَّةِ مِن تَربيتِه؛ فلعلَّه يَتجشَّمُ الإلحاحَ في الجَزاءِ عنه في الآخرةِ حَسْمًا لِطَمَعِه في الجزاءِ عنه، فهذا تَعكيسٌ للتَّرقيقِ الدُّنيويِّ في قولِه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٤]، وقولِه: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾[2] [لقمان: ١٥].

- وأيضًا فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، فإنَّه ذكَرَ الوالدَ والولَدَ هنا؛ لأنَّهما أشدُّ مَحبَّةً وحَميَّةً مِن غيرِهم، فيُعلَمُ أنَّ غيرَهما أَولى بهذا النَّفيِ، ووَجْهُ اختيارِ هذه الطَّريقةِ في إفادةِ عُمومِ النَّفيِ هنا دونَ طريقةِ قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ في سُورةِ البقرةِ [٤٨، ١٢٣]: أنَّ هذه الآيةَ نزَلَتْ بمكَّةَ، وأهْلُها يومئذٍ خليطٌ مِن مُسلمينَ وكافرينَ، وربَّما كان الأبُ مُسلِمًا والولَدُ كافرًا، ورُبَّما كان العكسُ، وقد يَتوهَّمُ بعضُ الكافرينَ حينَ تُداخِلُهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري – حاشية ابن المنير)) (٣/ ٥٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٤).

الظُّنونُ في مَصيرِهم بعدَ الموتِ: أنَّه إذا ظهَرَ صِدقُ وَعيدِ القُرآنِ إيَّاهم، فإنَّ مَن له أبٌ مُسلِمٌ أو ابنٌ مُسلمٌ يَدفَعُ عنه هنالك بما يَدِلُّ به على ربِّ هذا الدِّينِ، وقد كان قارًّا في نُفوسِ العرَبِ التَّعويلُ على المَولى والنَّصيرِ، تَعويلًا على أنَّ الحَميَّةَ والأَنَفةَ تَدفَعُهم إلى الدِّفاعِ عنهم في ذلك الجَمْعِ، وإنْ كانوا مِن قَبْلُ مُختلِفينَ، فهم لِضيقِ عطَنِ أفهامِهم يَقيسُون الأمورَ على مُعتادِهم. وهذا أيضًا وَجْهُ الجَمْعِ بيْن نَفْيِ جَزاءِ الوالدِ عن ولَدِه وبيْن نَفْيِ جزاءِ الولَدِ عن والدِه؛ لِيَشمَلَ الفريقينِ في الحالتينِ، فلا يُتوهَّمُ أنَّ أحَدَ الفريقينِ أرْجى في المَقصودِ[1].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ عِلَّةٌ لِجُملتَيْ ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾، وأكَّدَ الخبرَ بـ (إنَّ)؛ مُراعاةً لِمُنْكري البَعثِ[2].

- وإذ قد كانتْ شُبْهتُهم في إنكارِه مُشاهَدةَ النَّاسِ يَموتون ويَخلُفُهم أجيالٌ آخَرونَ، ولم يَرجِعْ أحَدٌ ممَّن مات منهم، وقالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقالوا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]؛ فرَّعَ على هذا التَّأكيدِ إبطالَ شُبهتِهم بقولِه: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: لا تَغُرَّنَّكم حالةُ الحياةِ الدُّنيا بأنْ تَتوهَّموا الباطلَ حقًّا، والضُّرَّ نَفعًا[3].

- وعطَفَ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾؛ لأنَّه أدخَلُ في تَحذيرِهم ممَّن يُلْقُون إليهم الشُّبَهَ، أو مِن أوهامِ أنفُسِهم الَّتي تُخيِّلُ لهم الباطلَ حقًّا لِيَتَّهِموا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٣، ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٩٤، ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٩٥).

آراءَهم. وإذا أُريدَ بالغَرورِ الشَّيطانُ أو ما يَشملُه، فذلك أشدُّ في التَّحذيرِ؛ لِمَا تَقرَّرَ مِن عَداوةِ الشَّيطانِ للإنسانِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]؛ ففي التَّحذيرِ شَوبٌ مِن التَّنفيرِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ...﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لِوُقوعِها جوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ في نُفوسِ النَّاسِ، والجُمَلُ الأربَعُ الَّتي بعْدَها إدماجٌ[٢] لِجمْعِ نَظائرِها؛ تَعليمًا للأُمَّةِ[٣].

- وقد أفادَ تَأكيدُ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ بحَرْفِ (إنَّ) تَحقيقَ عِلمِ اللهِ تعالى بوَقتِ السَّاعةِ، وذلك يَتضمَّنُ تأْكيدَ وُقوعِها، وفي كَلمةِ ﴿عِندَهُۥ﴾ إشارةٌ إلى اختِصاصِه تعالى بذلك العِلمِ؛ لأنَّ العِنْديَّةَ شأْنُها الاستئثارُ. وتَقديمُ (عند) -وهو ظَرفٌ مُسنَدٌ- على المُسنَدِ إليه، يُفِيدُ التَّخصيصَ بالقَرينةِ الدَّالَّةِ على أنَّه ليس مُرادًا به مُجرَّدُ التَّقوِّي[٤].

- ولَمَّا كانوا قد ألَحُّوا في السُّؤالِ عن وَقتِها، وكانت أبعَدَ الخَمسِ عن عِلمِ الخَلْقِ، وكان شَيئًا واحِدًا لا يتجَزَّأُ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]؛ أبرَزَها سُبحانَه في جملةٍ اسميَّةٍ دالَّةٍ على الدَّوامِ والثُّبوتِ على طَريقِ الحَصرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٥).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٩٦، ١٩٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٥).

- وجُملةُ ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ الخَبرِ، والتَّقديرُ: وإنَّ اللهَ يُنزِّلُ الغَيثَ؛ فيُفيدُ التَّخصيصَ بتَنزيلِ الغَيثِ. والمقصودُ أيضًا: عندَه عِلمُ وَقتِ نُزولِ الغَيثِ، وليس المقصودُ مُجرَّدَ الإخبارِ بأنَّه يُنزِّلُ الغَيثَ؛ لأنَّ ذلك ليس ممَّا يُنكِرونه، ولكنْ نُظِمَتِ الجُملةُ بأُسلوبِ الفِعلِ المُضارِعِ ﴿وَيُنَزِّلُ﴾؛ لِيَحصُلَ مع الدَّلالةِ على الاستئثارِ بالعِلمِ به الامتِنانُ بذلك المَعلومِ الَّذي هو نِعمةٌ. وفي اختيارِ الفِعلِ المُضارِعِ إفادةُ أنَّه يُجدِّدُ إنزالَ الغَيثِ المرَّةَ بعدَ المرَّةِ عندَ احتياجِ الأرضِ[1].

- وأيضًا لَمَّا كان المُشرِكونَ يَنسُبونَ الغَيثَ إلى الأنواءِ، أسنَدَ الإنزالَ إليه سُبحانَه؛ لِيُفيدَ الامتِنانَ[2].

- قولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: يَنفرِدُ بعِلمِ جميعِ أطوارِه؛ مِن نُطفةٍ، وعَلَقةٍ، ومُضْغةٍ، ثمَّ مِن كونِه ذكَرًا أو أُنثى، وإبَّان وَضْعِه بالتَّدقيقِ. وجِيءَ بالمُضارِعِ ﴿وَيَعْلَمُ﴾؛ لإفادةِ تَكرُّرِ العِلمِ بتَبدُّلِ تلك الأطوارِ والأحوالِ، والمعنى: يَنفرِدُ بعِلمِ جميعِ تلك الأطوارِ الَّتي لا يَعلَمُها الناسُ؛ لأنَّه عطْفٌ على ما قُصِدَ منه الحصْرُ؛ فكان المُسنَدُ الفِعليُّ المُتأخِّرُ عن المُسنَدِ إليه مُفيدًا للاختصاصِ بالقَرينةِ[3].

- وأيضًا في هذه الآيةِ أضافَ فيها العِلمَ إلى نفْسِه في الثَّلاثةِ مِن الخَمسةِ المَذكورةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾، ونَفى العِلمَ عن العِبادِ في الأخيرَينِ منها في قولِه: ﴿وَمَا تَدْرِي

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٢٤، ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٧).

نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ﴾ -مع أنَّ الخمْسةَ سَواءٌ في اختِصاصِ اللهِ تعالى بعِلْمِها، وانتفاءِ عِلمِ العِبادِ بها-؛ وذلك لأنَّ الثَّلاثةَ الأُوَلَ أمْرُها أعظَمُ وأفخَمُ؛ فخُصَّتْ بالإضافةِ إليه تعالى، والأخيرَينِ مِن صِفاتِ العِبادِ؛ فخُصَّا بالإضافةِ إليهم، مع أنَّه إذا انْتَفى عنهم عِلْمُهما، كان انتفاءُ عِلمِ ما عَداها مِن الخمْسةِ[1].

- والنُّكتةُ الَّتي دعَتْ إلى العُدولِ عن المُثبَتِ إلى المَنفيِّ في قولِه: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾: هي أنَّ في نَفْيِ الدِّرايةِ المَخصوصةِ وتَكريرِها واختِصاصِها بالذِّكرِ دونَ العِلمِ -لِمَا فيها مِن معنى الحِيلةِ والخِداعِ- وفي تَكريرِ النَّفْسِ، وتَنكيرِها، وإيقاعِها في سِياقِ النَّفيِ، وتَخصيصِ ما هو مِن خُوَيْصَّةِ كلِّ نفْسٍ: الدَّلالةَ على أنَّ النَّفْسَ إنْ لم تَعرِفْ ما يُلصَقُ بها ويَختَصُّ بها وإنْ أعمَلَتْ حِيلتَها، ولا شَيءَ أخصُّ بالإنسانِ مِن كَسبِه وعاقبتِه، فإذا لم يكُنْ له طريقٌ إلى مَعرفتِهما، كان مِن مَعرفةِ ما عداهما أبعَدَ، أي: مِن مَعرفةِ وَقتِ الساعةِ، وإبَّانِ إنزالِ الغَيثِ، ومَعرفةِ ما في الأرحامِ[2].

- وقد نُسِخَ قولُه: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ على مِنوالٍ آخَرَ مِن النَّظمِ؛ بحيثُ جُعِلَ سُداهُ نَفْيَ عِلمِ أيِّ نَفْسٍ بأخَصِّ أحوالِها؛ وهو حالُ اكتِسابِها القَريبُ منها في اليَومِ المُوالي يومَ تأمُّلِها ونَظرِها، وكذلك مكانُ انقضاءِ حياتِها؛ للنِّداءِ عَليهم بقِلَّةِ عِلْمِهم، فإذا كانوا بهذه المنزلةِ في قِلَّةِ العِلمِ؛ فكيف يَتطلَّعون إلى عِلمِ أعظَمِ حوادثِ هذا العالَمِ؟! وهو حادثُ فَنائِه وانقراضِه واعتياضِه بعالَمِ الخُلودِ؟! وهذا

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٢٥).

النَّفيُ للدِّرايةِ بهَذينِ الأمْرينِ عن كلِّ نَفْسٍ فيه كِنايةٌ عن إثباتِ العِلمِ بما تَكسِبُ كلُّ نَفْسٍ، والعِلمِ بأيِّ أرضٍ تَموتُ فيها كلُّ نَفْسٍ إلى اللهِ تعالى؛ فحَصَلَت إفادةُ اختصاصِ اللهِ تعالى بهَذينِ العِلمَينِ، فكانا في ضَميمةِ ما انتُظِمَ معهما ممَّا تَقدَّمَهما. وقد حصَلَ إفادةُ اختِصاصِ اللهِ تعالى بعِلمِ هذه الأُمورِ الخَمْسةِ بأفانينَ بَديعةٍ مِن أفانينِ الإيجازِ البالغِ حدَّ الإعجازِ[(١)].

- وفي قولِه: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ مُناسَبَةٌ حسَنةٌ، حيثُ لم يَقُلْ: (بأيِّ وَقتٍ تموتُ)، مع أنَّ كُلًّا منهما غيرُ مَعلومٍ لِغَيرِه، بل نَفْيُ العِلمِ بالزَّمانِ أَوْلى؛ لأنَّ مِن الناسِ مَن يَدَّعي عِلمَه، بخِلافِ المكانِ؛ وذلك أنَّه إنَّما خَصَّ المكانَ بنَفْيِ عِلمِه؛ لأنَّ الكَونَ في مكانٍ دونَ مَكانٍ في وُسعِ الإنسانِ واختيارِه، فاعتِقادُه عِلمَ مكانِ مَوتِه أقرَبُ، بخلافِ الزَّمانِ، ولأنَّ للمكانِ دونَ الزَّمانِ تأثيرًا في جَلبِ الصِّحَّةِ والسَّقمِ، أو تَأثيرُه فيهما أكثَرُ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ مُستأْنَفةٌ ابتدائيَّةٌ واقعةٌ مَوقعَ النَّتيجةِ لِمَا تَضمَّنَه الكلامُ السابقُ مِن إبطالِ شُبْهةِ المشركينَ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [لقمان: ٣٣]، أي: إنَّ اللهَ عَليمٌ بمَدَى وَعدِه، خبيرٌ بأحوالِكم ممَّا جمَعَه قولُه: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ...﴾؛ ولذا جمَعَ بيْن الصِّفتَينِ: صِفةِ عليمٍ، وصِفةِ خَبيرٍ؛ لأنَّ الثَّانيةَ أخصُّ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٩، ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٩).

تَفْسيرُ

سُورَةِ السَّجْدةِ

سُورةُ السَّجْدةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بعدَّةِ أسماءٍ؛ منها:

١- سورةُ السَّجدةِ[١].

٢- سورةُ (﴿الٓمٓ ۞ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدةِ):

فعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرأُ في الجُمُعةِ في صلاةِ الفَجرِ ﴿الٓمٓ ۞ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدةَ، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾))[٢].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

استِحبابُ القراءةِ بها في صلاةِ الصُّبحِ يومَ الجُمُعةِ.

وذلك لحديثِ أبي هُريرةَ المتقدِّمِ[٣].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ السَّجدةِ؛ لاشتِمالِها على سَجدةِ التِّلاوةِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٣).

قال ابن عاشور: (أشهرُ أسماءِ هذه السُّورةِ هو سورةُ السَّجدةِ، وهو أخصَرُ أسمائِها، وهو المكتوبُ في السَّطرِ المجعولِ لاسمِ السُّورةِ مِن المصاحفِ المُتداوَلةِ. وبهذا الاسمِ تَرْجَم لها التِّرمذيُّ في «جامِعِه»، وذلك بإضافةِ كلمةِ سورةٍ إلى كلمةِ السَّجدةِ. ولا بُدَّ مِن تقديرِ كلمةِ «الم» محذوفةً للاختصارِ؛ إذْ لا يَكفي مجرَّدُ إضافةِ «سورةٍ» إلى «السَّجدةِ» في تعريفِ هذه السُّورةِ، فإنَّه لا تكونُ سجدةٌ مِن سجودِ القرآنِ إلَّا في سورةٍ مِن السُّوَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠١).

وقال البِقاعي: (اسمُها السَّجدةُ مُنطَبِقٌ على ذلك بما دَعَت إليه آياتُها مِن الإخباتِ، وتَركِ الاستكبارِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٨٩١) واللفظ له، ومسلم (٨٨٠).

(٣) والحكمةُ في استحبابِ قراءةِ سورةِ (السجدةِ) و(الإنسانِ) في فجرِ يومِ الجمعةِ لِما اشتملَتْ عليه هاتانِ السُّورتانِ ممَّا كان ويكونُ مِن المبدأِ والمَعادِ، وحشرِ الخلائقِ، وبَعْثِهم مِن القبورِ =

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ السَّجْدةِ مَكِّيَّةٌ[١]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ المقاصِدِ الَّتي تَضمَّنَتْها سورةُ السَّجْدةِ:

١- بَيانُ عَظَمةِ اللهِ تعالى في صِفاتِه، وكَمالِ قُدرتِه في الخَلقِ والأمرِ، والبَعثِ والجَزاءِ.

٢- التَّنويهُ بشأنِ القُرآنِ؛ لأنَّه جامعُ الهُدى الَّذي تضمَّنَتْه هذه السُّورةُ وغَيرُها[٣].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ المَوضوعاتِ الَّتي تناوَلَتْها سورةُ السَّجْدةِ:

١- التَّنويهُ بالقُرآنِ وبيانُ أنَّه مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، والرَّدُّ على المُشرِكينَ في ادِّعائِهم أنَّه مُفترًى.

= إلى الجنَّةِ والنَّارِ، ففيهما بَدْءُ خلْقِ الإنسانِ، وآدمُ خُلِق يومَ الجُمُعةِ، وفيهما ذِكرُ القيامةِ، وفي يومِ الجمعةِ تقومُ السَّاعةُ؛ فاستُحِبَّ قراءةُ هاتَينِ السُّورتَينِ في هذا اليومِ تذكيرًا للأمَّةِ بما كان فيه، ويكونُ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٦٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٠٨).

(١) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا ثلاثَ آياتٍ منها، مِن قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ...﴾ إلى تمامِ الآياتِ الثَّلاثِ [السجدة: ١٨- ٢٠]. وقيل: إلَّا خَمسَ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ [السجدة: ١٦] إلى قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٩)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٦).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٣٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٣).

(٣) ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٢٢).

٢- ذِكرُ انفِرادِ اللهِ تعالى بخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ، وبيانُ بعضِ مَظاهرِ قُدرتِه، وبديعِ خَلقِه، ونشأةِ الإنسانِ.

٣- عَرْضُ جانبٍ مِن شُبهاتِ المشركينَ حوْلَ البَعثِ مع الرَّدِّ عليها.

٤- عَرضُ مَشهَدٍ مِن مَشاهِدِ يومِ القيامةِ: مَشهَدِ المجرِمينَ وهم بيْنَ يدَيِ اللهِ يومَ القيامةِ.

٥- ذِكرُ بعضِ صفاتِ المؤمنينَ، وما أعَدَّه اللهُ لهم مِن نعيمٍ، وما أعدَّه للفاسِقينَ مِن نارِ الجَحيمِ.

٦- الإشارةُ إلى موسى عليه السَّلامُ، وما امتَنَّ الله به عليه مِن إعطائِه التَّوراةَ، وما امتنَّ به على الصَّالِحينَ مِن قَومِه؛ مِن جَعْلِهم أئمَّةً.

٧- دعوةُ المشركينَ إلى التَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ في آياتِ الله.

٨- حكايةُ جانبٍ مِن سفاهاتِ المشركين، مع أمْرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالرَّدِّ عليهم وتهديدِهم.

٩- أمْرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عنهم، ووعْدُه بالنَّصرِ عليهم، وأن يَنتظِرَ.

الآيات (١-٥)

﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٤ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾: أي: لا شكَّ فيه، والرَّيبُ: الشَّكُّ، أو هو شكٌّ مع قلَقٍ وريبةٍ، وهو مصدرُ (رابَني الشَّيءُ): إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وحقيقةُ الرِّيبةِ: قلَقُ النَّفْسِ واضْطِرابُها، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شكٍّ، أو شكٍّ وخَوفٍ[(١)].

﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾: أي: اختلَقه، وكذَبَه، وافتعَله، والافتراءُ: الاختلاقُ، ومنه قيل: افترَى فلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفه بما ليس فيه، وأصلُ (فري): قطْعُ الشَّيءِ؛ فالفَرْيُ: قطعُه لإصلاحِه، والإفراءُ: قطعُه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[(٢)].

﴿نَّذِيرٖ﴾: بمعنى مُنذِرٍ، أي: محَذِّرٍ، والإنذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يكادُ يكونُ إلَّا في التَّخويفِ، وأصلُ (نذر): تخويفٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾: أي: عَلا، وارتَفَع، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ، واعتِدالٍ بينَ شيئَينِ[١].

﴿وَلِيٍّ﴾: أي: ناصرٍ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[٢].

﴿شَفِيعٍ﴾: أي: شافعٍ، يُقالُ: شفَع لِفُلانٍ: إذا جاء مُلتمِسًا مَطلَبَه، ومُعِينًا له؛ وأصلُ الشَّفْعِ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه[٣].

﴿يُدَبِّرُ﴾: أي: يَقضي ويُمضي، والتَّدبيرُ: تنزيلُ الأمورِ في مراتبِها على أحكامِ عَواقبِها، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه، خِلافُ قُبُلِه[٤].

﴿يَعۡرُجُ﴾: أي: يَصعَدُ، وأصلُ (صعد): يدُلُّ على ارتفاعٍ ومَشَقَّةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٦١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٩).

قال محمد رشيد رضا: (التَّدبيرُ في أصلِ اللُّغةِ: التَّوفيقُ بينَ أوائلِ الأمورِ ومَبادِئِها، وأدبارِها وعواقِبِها، بحيثُ تكونُ المبادِئُ مُؤَدِّيةً إلى ما يُريدُ مِن غاياتِها، كما أنَّ تَدَبُّرَ الأمرِ أو القَولِ هو التَّفَكُّرُ في دُبُرِه، وهو ما وراءَه وما يُرادُ منه ويَنْتَهي إليه). ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

المعنى الإجماليُّ:

افتتَح الله تعالى هذه السُّورةَ ببعضِ الحروفِ المقطَّعةِ، وتقدَّم الكلامُ عن الحروفِ المُقطَّعةِ في تَفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الرُّومِ.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ هذا القُرآنَ بلا شكٍّ نزَلَ مِن عندِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ، ثمَّ يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا: بل أيَقولُ المُشرِكونَ: اختلَقَ هذا القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه؟! ليس الأمرُ كما يقولونَ؛ فالقرآنُ هو الحقُّ المنَزَّلُ إليك مِن رَبِّك؛ لِتُنذِرَ به قَومًا لم يأتِهم رَسولٌ يُنذِرُهم مِن قَبلِك؛ لعلَّهم يَعرِفونَ الحقَّ فيَهتَدونَ!

ثمَّ أثنَى الله سبحانَه على ذاتِه، فقال: الَّذي يَستحِقُّ العِبادةَ وَحْدَه هو الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِن الخَلقِ في ستَّةِ أيَّامٍ، ثمَّ علا على عَرشِه كما يليقُ بجَلالِه سُبحانَه، ليس لكم مِن دونِه سُبحانَه وليٌّ يَتولَّى أمرَكم، ولا شَفيعٌ يَشفَعُ لكم عِندَه، أفلا تَتذَكَّرونَ؟!

يُدبِّرُ اللهُ أمْرَ خَلْقِه فيَنزِلُ قَضاؤُه مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ، ثمَّ يَصعَدُ إليه في يومٍ كان مِقدارُه ألْفَ سَنةٍ، كما تَحسُبونَ مِن أيَّامِكم في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓمٓ ١﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الرُّومِ[1].

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾.

أي: هذا القُرآنُ لا شكَّ أنَّه نَزَل مِن عندِ اللهِ الخالِقِ المالِكِ المدَبِّرِ لجَميعِ

(١) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠-١١).

العالَمينَ[١].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

أي: بل أيَقولُ[٢] المُشرِكونَ: اختلَقَ مُحمَّدٌ القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ونَسَبَه إلى اللهِ كَذِبًا[٣]؟!

﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَقولونَ؛ فالقُرآنُ هو الصِّدقُ الثَّابِتُ المنَزَّلُ إليك مِن عندِ رَبِّك يا مُحمَّدُ[٤].

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

أي: لِتُنذِرَ بالقُرآنِ وتُحَذِّرَ به قَومًا لم يأتِهم رَسولٌ يُنذِرُهم مِن قَبْلِك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٤، ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٤، ١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥).

قال القرطبي: (﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ قال قَتادةُ: يعني: قُرَيشًا، كانوا أُمَّةً أُمِّيَّةً لم يأتِهم نذيرٌ مِن قَبْلِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... وقيل: المرادُ بالقَومِ: أهلُ الفَترةِ بينَ عيسى ومحمَّدٍ عليهما =

كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦].

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

أي: لعلَّهم يَعرِفونَ الحَقَّ ويُؤمِنونَ به ويتَّبِعونَه[١].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الرِّسالةَ، بيَّنَ ما على الرَّسولِ مِن الدُّعاءِ إلى التَّوحيدِ، وإقامةِ الدَّليلِ[٢].

وأيضًا لَمَّا كان الرُّكنُ الأعظَمُ مِن أركانِ هُدى الكتابِ هو إثباتَ الوحدانيَّةِ للإلهِ، وإبطالَ الشِّركِ: عقَّب الثَّناءَ على الكِتابِ بإثباتِ هذا الرُّكنِ[٣].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: المعبودُ الَّذي لا تَصلُحُ العِبادةُ إلَّا له: هو الَّذي أوجَدَ السَّمواتِ السَّبْعَ

= الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ قاله ابنُ عبَّاسٍ، ومُقاتِلٌ. وقيل: كانت الحُجَّةُ ثابتةً لله عزَّ وجَلَّ عليهم بإنذارِ مَن تقَدَّم مِن الرُّسُلِ وإنْ لم يَرَوا رَسولًا). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بهم: قُرَيشٌ: ابنُ جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بهم: العَرَبُ كافَّةً: الواحدي، والبِقاعي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١١).

والأرَضِينَ وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ في سِتَّةِ أيَّامٍ؛ أوجَدَها مِنَ العَدَمِ بتَقديرٍ ونِظامٍ[١].

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾.

أي: ثمَّ علا اللهُ تعالى وارتفَع على عَرشِه كما يَليقُ بجَلالِه سُبحانَه[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍ﴾.

أي: ليس لكم[٣] ممَّن سِوَى اللهِ وَلِيٌّ يتولَّى أمْرَكم ويَنفَعُكم، ولا شَفيعٌ يَشفَعُ لكم عندَ رَبِّكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٢٠، ٢١).

قال القرطبي: (﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مِن يومِ الأحَدِ إلى آخِرِ يومِ الجُمُعةِ. قال الحَسَنُ: مِن أيَّامِ الدُّنيا. وقال ابنُ عبَّاسٍ: إنَّ اليومَ مِن الأيَّامِ السِّتَّةِ الَّتي خلَقَ اللهُ فيها السَّمَواتِ والأرضَ مِقْدارُه ألْفُ سَنةٍ مِن سِنِي الدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٢٣-٢٩).

(٣) قيل: الخِطابُ لِعُمومِ النَّاسِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٢٩).

وقيل: الخِطابُ للكافِرينَ. وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٢٩، ٣٠).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (فالوَليُّ: الَّذي يَتولَّى أمْرَكَ كُلَّه، والشَّفيعُ: الَّذي يكونُ شافِعًا فيه، أي: عَونًا؛ فليس للعبدِ دونَ اللهِ مِن وليٍّ يَستَقِلُّ، ولا ظَهيرٍ مُعينٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١/ ٧٣).

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: أفلا تَتذَكَّرونَ ما تَعلَمونَه مِن أنَّه الخالِقُ وحْدَه الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، واستوى على عَرشِه، ومِن أنَّه لا حُجَّةَ لِشَيءٍ ممَّا أشرَكتُموه به؟! فهو الَّذي انفردَ بتَدبيرِكم وتَولِّيكم، وله الشَّفاعةُ كُلُّها، وهو المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له[1].

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى الخَلْقَ؛ بيَّنَ الأمرَ، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، والعَظَمةُ تتبيَّنُ بهما؛ فإنَّ مَن يَملِكُ مماليكَ كثيرينَ عُظَماءَ تكونُ له عَظَمةٌ، ثمَّ إذا كان أمْرُه نافِذًا فيهم يَزدادُ في أعيُنِ الخَلقِ، وإن لم يكُنْ له نَفاذُ أمرٍ يَنقُصُ مِن عَظَمتِه[2].

وأيضًا لَمَّا نفَى اللهُ تعالى أن يكونَ له شَريكٌ أو وَزيرٌ في الخَلقِ؛ ذكَرَ كيف يَفعَلُ في هذا المُلكِ العَظيمِ الَّذي أبدَعَه في سِتَّةِ أيَّامٍ؛ مِن عالَمِ الأرواحِ والأمرِ[3].

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٣٠، ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٣٢).

أي: يُدَبِّرُ اللهُ أمرَ خَلْقِه بما يَشاءُ، فيَنزِلُ تَقديرُه وقَضاؤُه مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ[١]، ثمَّ يَصعَدُ إليه مِنَ الأرضِ إلى السَّماءِ في[٢] يومٍ كان مِقدارُه ألْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَحسُبونَ مِن أيَّامِكم في الدُّنيا[٣].

---

(١) قال السعدي: (﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ القَدَريَّ والأمرَ الشَّرعيَّ، الجميعُ هو المتفَرِّدُ بتدبيره، نازلةٌ تلك التَّدابيرُ مِن عندِ المليكِ القَديرِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، فيُسعِدُ بها ويُشقي، ويُغْني ويُفقِرُ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويُكرِمُ ويُهينُ، ويَرفَعُ أقوامًا ويَضَعُ آخَرينَ، ويُنزِلُ الأرزاقَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).

(٢) قال الشوكاني: (هذا اليومُ هو عبارةٌ عن زَمانٍ يتقَدَّرُ بألْفِ سَنَةٍ، وليس المرادُ به مُسمَّى اليوم الَّذي هو مُدَّةُ النَّهارِ بينَ ليلتَينِ، والعَرَبُ قد تعبِّرُ عن المدَّةِ باليوم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٦).
وقال ابن عثيمين: («في» للظَّرفيَّةِ، ولا تَستلزِمُ الاستيعابَ، يعني: ليس بلازم أنَّ الأمرَ يَنزِلُ مَثلًا عندَ صلاةِ الفَجرِ، ولا يَعرُجُ إلَّا في الغروبِ؛ فقد يَنزِلُ ويَعرُجُ في لحظةٍ حَسَبَ ما أراد اللهُ عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٣٦، ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٢، ٥٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).
قال السمعاني: (﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ فيه قولانِ؛ أحدُهما: ثمَّ يَعرُجُ الملَكُ إليه بعدَ نُزولِه بالأمرِ. والقولُ الثَّاني: ثمَّ يَعرُجُ إليه أي: يَعرُجُ الأمرُ إليه، ومعنى عُروجِ الأمرِ إليه: صَيرورةُ الأمرِ كلِّه إليه، وسقوطُ أمرِ الخَلقِ كلِّهم). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٣٧، ٤٣٨).
ممَّن اختار أنَّ المعنَى: عروجُ ذلك الأمرِ إليه ونزولُه إلى الأرضِ في ألْفِ سَنةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ مِن أيَّامِكم: ابنُ جرير، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).
وقال العُلَيمي: (ينزلُ الملَكُ بالوحْيِ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ، ثمَّ يَرجِعُ إلى مَقَرِّه منها). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢١).
وقال الواحدي: (﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: القَضاءَ مِنَ السَّماءِ فيُنزِلُه إلى الأرضِ مدَّةَ أيَّامِ الدُّنيا ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أيْ: يَرجِعُ الأمرُ والتَّدبيرُ إلى السَّماءِ ويعودُ إليه بعدَ =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تَوبيخُ مَن لا يَتذكَّرُ بعدَ هذا البَيانِ، وهذه الفائِدةُ تترتَّبُ عليها فائِدةٌ أخرى، وهي: وُجوبُ التَّذَكُّرِ بآياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّ الإنسانَ يَتذَكَّرُ بآياتِ اللهِ، ولا يَمُرُّ عليها كأنَّها ألفاظٌ عابِرةٌ[(١)]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ؛ فإنَّ النُّزولَ لا يكونُ إلَّا مِن أعلَى[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا القرآنَ مُلْزَمٌ به جميعُ الناسِ، فإذا كان ربُّهم الَّذي أنزَله؛ فمعناه أنَّه يَلْزَمُهم جميعًا العملُ بهذا القرآنِ، فإنه لَمَّا أراد أنْ يُتَّبَعَ أمرُ القُرآنِ مِن حيثُ هو قرآنٌ؛ بَيَّنَ أنَّه نازِلٌ مِن ربِّ العالَمينَ الَّذي يَعتمِدُ عليه هؤلاء العالَمونَ، فنَزَّلَ عليهم الكِتابَ؛ لأنَّه لَمَّا كان ربَّ العالَمينَ وَجَبَ على جميعِ العالَمينَ أن يَقبَلوا هذا[(٣)].

٣- إن قيلَ: كيف الجَمعُ بينَ قَولِه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:

= انقِضاءِ الدُّنيا وفَنائِها ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وهو يومُ القيامةِ). ((الوجيز)) (ص: ٨٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣، ١٤).

٢٤] وبينَ قَولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؟

فالجوابُ: أنَّهم لم يأتِهم نَذيرٌ مُعاصِرٌ لهم، فلا يُعارِضُ ذلك مَن تقدَّمَ قبْلَ عَصرِهم.

وأيضًا فإنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أنَّ نبُوَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ليست ببِدْعٍ؛ فلا ينبغي أن تُنكَرَ؛ لأنَّ اللهَ أرسَلَه كما أرسَلَ مَن قَبْلَه، والمرادُ بقَولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أنَّهم مُحتاجونَ إلى الإنذارِ؛ لِكَونِهم لم يتقَدَّمْ مَن يُنذِرُهم؛ فاختلَفَ سياقُ الكلامِ، فلا تَعارُضَ بيْنَهما[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فيه سُؤالٌ: التَّخصيصُ بالذِّكرِ يدُلُّ على نَفْيِ ما عداه؛ فقَولُه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم﴾ يُوجِبُ أن يكونَ إنذارُه مُختَصًّا بمَنْ لم يأتِه نذيرٌ، لكِنَّ أهلَ الكتابِ قد أتاهم نذيرٌ، فلا يكونُ الكِتابُ مُنزَّلًا إلى الرَّسولِ لِيُنذِرَ أهلَ الكِتابِ، فلا يكونُ رَسولًا إليهم؟!

الجوابُ: أنَّ هذا فاسِدٌ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ التَّخصيصَ لا يُوجِبُ نفْيَ ما عَداه.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ مَن يقولُ: التَّخصيصُ يُوجِبُ نَفْيَ ما عَداه، يوافِقُ غيرَه في أنَّ التَّخصيصَ إن كان له سَبَبٌ غيرُ نفْيِ ما عَداه، لا يُوجِبُ نَفْيَ ما عداه، وهاهنا وُجِدَ ذلك؛ لأنَّ إنذارَهم كان أَولى، فوقع التَّخصيصُ لأجْلِ ذلك، ألَا ترى أنَّه تعالى قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ولم يُفهَمْ منه أنَّه لا يُنذِرُ غيرَهم، أو لم يُؤمَرْ بإنذارِ غَيرِهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٤).

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّه على ما ذُكِرَ لا يَرِدُ ذلك أصلًا؛ لأنَّ أهلَ الكتابِ كانوا قد ضَلُّوا، ولم يأتِهم نذيرٌ مِن قَبْلِ محمَّدٍ بعدَ ضَلالِهم؛ فلَزِمَ أن يكونَ مُرسَلًا إلى الكُلِّ على درجةٍ سواءٍ(١).

٥- أيَّدَ اللهُ كَوْنَ القُرآنِ غيرَ مُفترًى، وأنَّه الحقُّ ببَيانِ غايتِه، حيثُ قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾؛ فإنَّ بَيانَ غايةِ الشَّيءِ وحِكمتِه -لا سيَّما عندَ كَونِها غايةً حَميدةً، مُستتبِعةً لِمَنافعَ جليلةٍ في وَقتِ شِدَّةِ الحاجةِ إليها- ممَّا يُقرِّرُ وُجودَ الشَّيءِ ويُؤكِّدَه لا مَحالةَ(٢).

٦- قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إنْ قِيل: ما الحِكمةُ في خَلْقِها في ستَّةِ أيَّامٍ، وكان قادرًا على خلْقِها في طَرْفةِ عَينٍ؟

قِيل: لأنَّ خَلْقَها على التَّأنِّي أدَلُّ على حكمتِه، ولُطفِ تدبيرِه، وفيه أيضًا تعليمُ النَّاس، وتنبيهُ العِبادِ على التَّأنِّي في الأُمورِ، وأنَّ لكلِّ شَيءٍ عندَه أجَلًا(٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إبطالُ قَولِ الملاحِدةِ القائلينَ بقِدَمِ العالَمِ، وأنَّ اللهَ سُبحانَه لم يَخْلُقْه بقُدرتِه ومَشيئتِه، ومَن أثبَتَ منهم وُجودَ الرَّبِّ جَعَلَه لازِمًا لِذاتِه أوَّلًا وأبدًا غيرَ مخلوقٍ، كما هو قولُ بعضِ الفلاسفةِ وأتْباعِهم مِن الملاحدةِ الجاحدينَ لِمَا اتَّفَقَت عليه الرُّسُلُ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- والكُتُبُ، وشَهِدَت به العُقولُ والفِطَرُ(٤).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أنَّ بينَ السَّمواتِ والأرضِ مِن الآياتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ١٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٩). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٩٥).

شيئًا كبيرًا؛ حيث جعلَه قَسيمًا لِخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ ومقابلًا له[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ خَلْقَ العَرشِ قبْلَ خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فإنَّه يقتَضي أنَّه استَوى على العَرشِ بعدَ خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، ولم يَذكُرْ أنَّه خَلَقَه حينَئذٍ، ولو كان خَلَقَه حينَئذٍ لكان قد ذَكَر خَلْقَه ثمَّ استِواءَه عليه، ولأنَّ ذِكْرَه للاستِواءِ عليه دونَ خَلْقِه دَليلٌ على أنَّه كان مَخلوقًا قبْلَ ذلك[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ دَلالةٌ على بُطلانِ تأويلِ الاستِواءِ بمعنى المِلْكِ؛ لأنَّه سُبحانَه أخبَرَ أنَّه خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّام، ثمَّ استوى على العَرشِ استواءً يليقُ بجلالِه، وقد أخبرَ أنَّ العَرشَ كان مَوجودًا قبْلَ خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، كما دلَّ على ذلك الكِتابُ والسُّنَّةُ، وحينَئذٍ فهو مِن حِينِ خلَقَ العَرشَ مالِكٌ له مُستَولٍ عليه؛ فكيف يكونُ الاستواءُ عليه -على تأويلِه بالمِلْكِ- مؤخَّرًا عن خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؟! وأيضًا فاللهُ مالِكٌ لكُلِّ شَيءٍ، مُستَولٍ عليه؛ فكيف يُخَصُّ العرشُ بالاستواءِ على هذا التأويلِ[٣]؟!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إثباتُ قيامِ الأفعالِ الاختياريَّةِ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الاستِواءَ مِن الأفعالِ الَّتي يفعَلُها بمَشيئتِه، وهي الَّتي يُعَبَّرُ عنها أحيانًا بالصِّفاتِ الفِعليَّةِ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إثباتُ استواءِ اللهِ على عَرشِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣١).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٢).

وهو عُلُوُّه واستِقرارُه عليه بدونِ تكييفٍ[١]، وإبطالُ قولِ المُعطِّلةِ والجهميَّةِ الَّذين يقولون: ليس على العرشِ شَيءٌ سِوى العَدَمِ! وإنَّ اللهَ ليس مُستويًا على عرشِه! إلى غيرِ ذلك مِن أقوالِهم الباطلةِ[٢]!

وقد وَصَفَ الله تعالى نفسَه بالاستواءِ على العرشِ في سبعِ آياتٍ مِن كتابِه؛ في هذه السورةِ وفي (الأعرافِ) و(يونسَ) و(الرعدِ) و(طه) و(الفرقانِ) و(الحديدِ)، ولم يذكُرْ صفةَ الاستواءِ في أحدِ تلك المواضعِ السبعةِ إلا مقرونةً بشيءٍ مِن صفاتِ الكمالِ والجلالِ يُبْهِرُ العقولَ، ويقضي بأنَّه العظيمُ الأعظمُ التي لا يُماثلُه شيءٌ في شيءٍ مِن صفاتِه، ولا في ذاتِه، ولا أفعالِه، وأنَّ جميعَ تلك الصفاتِ بما فيها الاستواءُ لا يجوزُ جَحْدُ شيءٍ منها ولا إنكارُه[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ رَدٌّ على القَدَرِيَّةِ الَّذين يَدَّعونَ أنَّ أمرَ الإنسانِ مُستقِلٌّ به؛ لأنَّنا نقولُ: إنَّ فِعلَ الإنسانِ مِن الأمرِ، والَّذي يُدبِّرُه هو اللهُ عزَّ وجلَّ[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فقَولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا النُّزولُ، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ هذا الصُّعودُ، ولا نُزولَ إلَّا مِن عالٍ، ولا صعودَ إلَّا إلى عالٍ؛ فيُستفادُ عُلُوُّ اللهِ تعالى مِن الجُملتينِ؛ مِن كلٍّ واحدةٍ على انفرادٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٢).

(٢) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٧). ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٣٣).

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال في سُورةِ (السَّجدة): ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وقال في سُورةِ (المعارج): ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]؛ فوقَعَ اختلافٌ في تَقديرِ اليومِ.

ووَجْهُ ذلك: أنَّ المُرادَ في سُورةِ (الحجِّ) تَبْيينُ أفْعالِه سُبحانَه، وأنَّه لا تكلُّفَ فيها ولا مُعالجةَ؛ فكأنْ قد قِيل لهم: إذا شاء هذا بكمْ وأراد إنفاذَهُ، كان وتَحصَّلَ في الوقتِ الوَجيزِ القريبِ منه ما تُقدِّرونَ حُصولَه ومُعالَجةَ وُقوعِه، أو تُقدِّرون تَهيئتَهُ ونُفوذَه بألْفِ سَنةٍ مِن أيَّامِكم، وإذا أراد سُبحانَه وُقوعَ ذلك كان عن أمْرِه (كُن) أعجَلَ مِن كلِّ عاجلٍ؛ فلِمَ يَسْتعجلون ما لا تَكلُّفَ في وُقوعِه وحُلولِه؟! وعلى هذا قولُه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾؛ فالمُرادُ أنَّ بُعْدَ هذه المسافةِ لا تَحولُ دونَ استعجالِ نُفوذِ تَدبيرِه، وإمضاءِ مَقاديرِه، وأنَّه سُبحانَه لَيُدَبِّرُها، ثمَّ تَرجِعُ إليه في وَقْتٍ لو وُكِّلَ ذلك إليكم، وكان مِن مَقدوراتِكم؛ لَفَعلتُموهُ في ألْفِ سَنةٍ. وأمَّا آيةُ (المعارجِ) فالمُرادُ باليومِ المذكورِ فيها يومُ القيامةِ؛ ففيه مِن الأعمالِ المُتعلِّقةِ بالخَلْقِ ما يَتقدَّرُ وُقوعُه وتخلُّصُه مِن أيَّامِ الدُّنيا على مُتعارفِها -مع عَظيمِ أهْوالِه، وشِدَّةِ كُروبِه- مِن أيَّامِنا بخَمسينَ ألْفَ سَنةٍ[1]. وقيل: يومُ الألْفِ في سُورةِ (السَّجدةِ) هو مِقدارُ سَيرِ الأمْرِ وعُروجِه إليه تعالى. ويومُ الألْفِ في سُورةِ (الحجِّ) هو أحَدُ الأيَّامِ السِّتَّةِ الَّتي خلَقَ اللهُ فيها السَّمواتِ. ويومُ الخمسينَ ألْفًا هو يومُ القيامةِ. وقيل: المُرادُ بها جَميعِها يومُ القيامةِ، وإنَّ الاختلافَ باعتبارِ حالِ المُؤمِنِ والكافِرِ؛ بدليلِ قولِه: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٦٠، ٣٦١).

يَوۡمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾[(١)] [المدثر: ٩، ١٠].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ افتُتِحَتِ السُّورةُ بالتَّنويهِ بشَأْنِ القُرآنِ؛ لأنَّه جامعُ الهُدى الَّذي تَضمَّنَتْه هذه السُّورةُ وغيرُها، ولأنَّ جِماعَ ضَلالِ الضَّالِّينَ هو التَّكذيبُ بهذا الكتابِ؛ فاللهُ جعَلَ القُرآنَ هُدًى للنَّاسِ، وخصَّ العرَبَ أنْ شَرَّفَهم بجَعلِهم أوَّلَ مَن يَتلقَّى هذا الكِتابَ، وبأنْ أنزَلَه بلُغَتِهم؛ فكان منهم أشدُّ المُكذِّبينَ بما جاء به، لا جَرَمَ أنَّ تكذيبَ أولئك المُكذِّبينَ أعرَقُ في الضَّلالةِ، وأوغَلُ في أفَنِ الرَّأيِ[(٢)].

- وافتِتاحُ الكلامِ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾؛ لِدَلالتِها على الدَّوامِ والثَّباتِ[(٣)].

- وجِيءَ بالمُسنَدِ إليه ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مُعرَّفًا بالإضافةِ لإطالتِه؛ لِيَحصُلَ بتَطويلِه ثُمَّ تَعقيبِه بالجُملةِ المُعترضةِ التَّشويقُ إلى مَعرفةِ الخبَرِ، وهو قولُه: ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولولا ذلك لَقِيل: (قُرآنٌ مُنزَّلٌ مِن ربِّ العالَمينَ)، أو نحوُ ذلك[(٤)].

- وإنَّما عُدِلَ هنا عن أُسلوبِ قولِه: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ في سُورةِ البقرةِ [١- ٢]؛ لأنَّ سُورةَ (البَقرةِ) نازلةٌ بيْن ظَهرانَي المُسلمينَ، ومَن يُرْجَى إسلامُهم مِن أهلِ الكِتابِ، وهمُ (الَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٣، ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) [البقرة: ٤]، وأمَّا هذه السُّورةُ (السَّجدة) فقد جابَهَ اللهُ بها المُشركينَ الَّذين لا يُؤمِنون بالإلهِ الواحدِ، ولا يُوقِنون بالآخرةِ؛ فهم أصلَبُ عُودًا، وأشدُّ كُفْرًا وصُدودًا[١].

- ووقَعَت جُملةُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بأُسلوبِ المَعلومِ المُقرَّرِ؛ فلم تُجعَلْ خَبرًا ثانيًا عن المُبتدأِ؛ لِزيادةِ التَّشويقِ إلى الخبَرِ؛ لِيُقرَّرَ كَونُه مِن ربِّ العالَمينَ[٢].

- واستِحضارُ الجَلالةِ بطَريقِ الإضافةِ بوَصفِ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دونَ الاسمِ العَلَمِ وغيرِه مِن طُرقِ التَّعريفِ؛ لِمَا فيه مِن الإيماءِ إلى عُمومِ الشَّريعةِ، وكَوْنِ كِتابِها مُنزَّلًا للنَّاسِ كلِّهم، بخِلافِ ما سبَقَ مِن الكُتبِ الإلهيَّةِ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مِن جُملةِ دَواعي تَكذيبِهم به: أنَّه كيفَ خَصَّ اللهُ برِسالتِه بَشرًا منهم؟! حَسَدًا مِن عندِ أنفُسِهم؛ لأنَّ رُبوبيَّةَ اللهِ للعالَمينَ تُنبِئُ عن أنَّه لا يُسأَلُ عمَّا يَفعَلُ، وأنَّه أعلَمُ حيث يَجعَلُ رِسالاتِه[٣]، وأيضًا لأنَّ كِتابَ مَن يكونُ رَبَّ العالَمينَ يكونُ فيه عجائِبُ العالَمينَ، فتدعو النَّفْسُ إلى مُطالعتِه[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ (أم) للإضرابِ عن الكلامِ السَّابقِ إضرابَ انتقالٍ، وهي (أَم) المُنقطِعةُ الَّتي بمعنى (بَل)، وهي مُؤْذِنةٌ باستِفهامٍ بالهَمزةِ، والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَها هنا تَعجُّبيٌّ؛ لأنَّهم قالوا هذا القولَ الشَّنيعَ، وعَلِمَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٥).

النَّاسُ عنهم؛ فلا جَرَمَ كانوا أحِقَّاءَ بالتَّعجُّبِ مِن حالِهم ومَقالِهم؛ لأنَّهم أبْدَوا به أمْرًا غَريبًا يَعجَبُ منه العُقلاءُ ذَوو الأحلامِ الرَّاجحةِ، والنُّفوسِ المُنصِفةِ؛ إذ دَلائلُ انتفاءِ الرَّيبِ عن كَونِه مِن ربِّ العالَمينَ واضحةٌ، بَلْهَ[1] الجَزْمَ بأنَّه مُفترًى على اللهِ تعالى[2]!

- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ صِيغَ الخَبرُ عن قَولِهم العَجيبِ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يَقُولُونَ﴾؛ لاستِحضارِ حالةِ ذلك القولِ؛ تَحقيقًا للتَّعجُّبِ منه؛ حتَّى لا تَغفُلَ عن حالِ قَولِهم أذهانُ السَّامعينَ، وفي المُضارعِ مع ذلك إيذانٌ بتَجدُّدِ مَقالتِهم هذه، وأنَّهم لا يُقلِعون عنها على الرَّغمِ ممَّا جاءهم مِن البيِّناتِ رَغْمَ افتِضاحِهم بالعَجْزِ عن مُعارَضتِه[3].

- وأضرَبَ على قَولِهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إضرابَ إبطالٍ بقولِه: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ لإثباتِ أنَّ القُرآنَ حقٌّ. والتَّعريفُ في ﴿ٱلْحَقُّ﴾ تَعريفُ الجِنسِ المُفيدُ تَحقيقَ الجِنسيَّةِ فيه، أي: هو حقٌّ، ذلك الحقُّ المَعروفةُ ماهيَّتُه مِن بيْنِ الأجناسِ، والمُفارقُ لِجنسِ الباطلِ، وفي تَعريفِ المُسندِ بلامِ الجِنسِ ذَريعةٌ إلى اعتبارِ كَمالِ هذا الجِنسِ في المُسنَدِ إليه، وهو مَعنى القَصرِ الادِّعائيِّ[4]

---

(١) بَلْهَ: بمعنَى دَعْ، وهي مَبْنِيَّةٌ على الفتحِ. وقيلَ: مَعْناها: سِوَى. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٧).

(٤) القَصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمُبالَغةِ، بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه، كقولِه تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ [النساء: ١١٧]، مع أنَّهم دَعَوْا هُبَلَ ويَغُوثَ ويَعُوقَ، لكنَّهم لَمَّا أكثَروا دَعوةَ اللَّاتِ والعُزَّى ومَنَاةَ جُعِلوا كالَّذي لا يدعو إلَّا إناثًا. وقولِه تعالى في حقِّ المنافقين: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: =

للمُبالَغةِ، والحقُّ الواردُ مِن قِبَلِ اللهِ لا جَرَمَ أنَّه أكمَلُ جِنسِ الحقِّ[١].

- وفي قولِه: ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ استُحْضِرَتِ الذَّاتُ العَلِيَّةُ هنا بعُنوانِ ﴿رَّبِّكَ﴾؛ لأنَّ الكلامَ جاء ردًّا على قولِهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، يَعْنون النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فكان مَقامُ الرَّدِّ مُقتضيًا تأْييدَ مَن أَلْصَقوا به ما هو بَرِيءٌ منه؛ بإثباتِ أنَّ الكتابَ حَقٌّ مِن ربِّ مَن أَلْصَقوا به الافتراءَ؛ تَنْويهًا بشَأْنِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتَخلُّصًا إلى تَصديقِه؛ لأنَّه إذا كان الكِتابُ الَّذي جاء به حقًّا مِن عِندِ اللهِ، فهو رسولُ اللهِ حقًّا؛ فقولُه: ﴿رَّبِّكَ﴾ بعدَ قولِه: ﴿رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تَخصيصٌ بعدَ تَعميمٍ؛ للتَّخلُّصِ إلى إثباتِ نُبوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والإيذانِ بأنَّ المُنزَّلَ الكائنَ مِن جِهةِ مالكِ العالَمينَ، ومُدبِّرِ أُمورِ المخلوقاتِ كلِّها هو الثَّابتُ مِن جِهةِ مَن هو مالكُك ومُدبِّرُ أمْرِك خاصَّةً؛ فدلَّ التَّخصيصُ بعدَ التَّعميمِ على عِظَمِ شأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثُمَّ التَّصريحُ باسمِ الذَّاتِ والحَضرةِ الجامعةِ، وإثباتُ الخالقيَّةِ والمُدَبِّريَّةِ بعدَ الحُكمِ بإنزالِ هذا القرآنِ، دلَّ على تَعظيمِ شأنِ هذا المُنزَّلِ والمنزَّلِ عليه، كأنَّه قيلَ: هو الحقُّ مِن ربِّك ذلك الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، ثمَّ استوَى على العَرشِ؛ فهو مِن بابِ ترتُّبِ الحُكمِ على الوَصفِ[٢].

- قولُه: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ المَقصودُ به: تَذكيرُهم بأنَّهم

= ٤]، مع أنَّ المتظاهِرينَ بالشِّركِ والكفرِ أعداءٌ، لكنْ لَمَّا كانت مَضَرَّةُ عَداوةِ المنافقينَ أشَدَّ جُعِلَتْ عَداوةُ غَيرِهم كلا عَداوةٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و (٣/ ٦)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٧، ٢٠٨).

أحوَجُ الأقوامِ إلى نَذيرٍ؛ إذ لم يَكونوا على بَقيَّةٍ مِن هُدًى، وإثارةُ هِمَمِهم لاغتباطِ أهلِ الكتابِ؛ لِيَتقبَّلوا الكِتابَ الَّذي أُنزِلَ إليهم، ويَسبِقوا أهلَ الكتابِ إلى اتِّباعِه؛ فيَكونَ للمُؤمنينَ منه السَّبْقُ في الشَّرعِ الأخيرِ، كما كان لِمَن لم يُسلِمْ مِن أهْلِ الكتابِ السَّبقُ ببَعضِ الاهتداءِ ومُمارَسةِ الكِتابِ السَّابقِ[٣].

- ولَمَّا حَكَى تعالى عنهم أنَّهم يَقولون: إنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ افتراهُ ورَدَّ عليهم، اقتَصَرَ في ذِكرِ ما جاء به القُرآنُ على الإنذارِ، وإنْ كان قد جاء له وللتَّبشيرِ؛ لِيَكونَ ذلك رَدْعًا لهم، ولأنَّه إذا ذُكِرَ الإنذارُ، صار عندَ العاقلِ فِكرٌ فيما أُنذِرَ به؛ فلعلَّ ذلك الفِكرَ يكونُ سَببًا لهِدايتِه[٤].

- وقد جاءتْ هذه الآيةُ على أُسلوبٍ بَديعِ الإحكامِ؛ إذ ثبَتَ أنَّ الكتابَ تَنزيلٌ مِن ربِّ جميعِ الكائناتِ، وأنَّه يَحِقُّ ألَّا يَرتابَ فيه مُرتابٌ، ثمَّ انتقَلَ إلى الإنكارِ والتَّعجيبِ مِن الَّذين جَزَموا بأنَّ الجائيَ به مُفتَرٍ على اللهِ، ثمَّ ردَّ عليهم بإثباتِ أنَّه الحقُّ الكاملُ مِن ربِّ الَّذي نَسَبوا إليه افتِراءَه، فلو كان افتَراهُ لَقَدَرَ اللهُ على إظْهارِ أمْرِه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧]، ثمَّ جاء بما هو أنْكَى للمُكذِّبينَ، وأبلَغُ في تَسفيهِ أحلامِهم، وأوغَلُ في النِّداءِ على إهمالِهم النَّظرَ في دَقائقِ المعاني؛ فبيَّنَ ما فيه تَذكرةٌ لهم ببَعضِ المَصالحِ الَّتي جاء لِأجْلِها هذا الكتابُ بقولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾؛ فقد جَمَعوا مِن الجَهالةِ ما هو ضِغْثٌ على إبَّالةٍ[٥]؛ فإنَّ هذا الكتابَ على أنَّ حَقِّيَّتَه مُقتضيةٌ المُنافَسةَ في

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٠).

(٥) ضِغْثٌ على إبَّالةٍ: أي: بليَّةٌ على أُخرى، والإبَّالةُ: الحُزمةُ مِن الحَطَبِ، والضِّغثُ: قَبضةٌ مِن =

الانتفاعِ به ولو لم يُلْفَتوا إلى تَقلُّدِه، وعلى أنَّهم دُعوا إلى الأخْذِ به، وذلك ممَّا يُوجِبُ التَّأمُّلَ في حقِّيَّتِه؛ على ذلك كلِّه فهُم كانوا أحْوَجَ إلى اتِّباعِه مِن اليهودِ والنَّصارى والمجوسِ؛ لأنَّ هؤلاء لم تَسبِقْ لهم رِسالةُ مُرسَلٍ؛ فكانوا أبعَدَ عن طُرقِ الهُدَى بما تَعاقَبَ عليهم مِن القُرونِ دونَ دَعوةِ رسولٍ، فكان ذلك كافيًا في حِرصِهم على التَّمسُّكِ به، وشُعورِهم بمَزيدِ الحاجةِ إليه؛ رَجاءً منهم أنْ يَهتَدوا[1].

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ جِيءَ باسمِ الجَلالةِ مُبتدأً؛ لإحضارِه في الأذهانِ بالاسمِ المُختصِّ به؛ قَطعًا لِدابرِ عَقيدةِ الشَّريكِ في الإلهيَّةِ، وجِيءَ باسمِ المَوصولِ (الَّذي)؛ للإيماءِ إلى وَجهِ بِناءِ الخبَرِ، وأنَّه الانفرادُ بالرُّبوبيَّةِ لجَميعِ الخلائقِ في السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، ومِن أولئك: المُشركون المَعْنيُّون بالخَبرِ. والخِطابُ مُوجَّهٌ إلى المُشركينَ على طَريقةِ الالْتفاتِ[2].

- قولُه: ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ (مِن) زائدةٌ؛ لِتأكيدِ النَّفيِ، أي: لا وَليَّ لكم ولا شَفيعَ لكم غيرُ اللهِ؛ فلا وِلايةَ للأصنامِ، ولا شَفاعةَ لها؛ إبطالًا لِمَا زَعَموه

= حشيشٍ، مُختَلطةُ الرَّطبِ باليابسِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٦١٩)، ((مجمع الأمثال)) للميداني (١/ ٤١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١١).

لأصنامِهم مِن الوَصفينِ إبطالًا راجعًا إلى إبطالِ الإلهيَّةِ عنها[١].

- وفُرِّعَ على هذا الدَّليلِ إنكارٌ على عَدمِ تَدبُّرِهم في ذلك، وإهمالِهم النَّظرَ بقولِه: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ فهو استِفهامٌ إنكاريٌّ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾

- قولُه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ المَقصودُ مِن حَرفَي الابتِداءِ والانتِهاءِ (مِن وإلى) شُمولُ تَدبيرِ اللهِ تعالى الأُمورَ كلَّها في العالَمَينِ العُلويِّ والسُّفليِّ، تَدبيرًا شاملًا لها مِن السَّماءِ إلى الأرضِ؛ فأفادَ حَرفُ الانتهاءِ شُمولَ التَّدبيرِ لأُمورِ كلِّ ما في السَّمواتِ والأرضِ وفيما بيْنَهما. والتَّعريفُ في كلمةِ ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ مُفيدٌ لاستِغراقِ الأُمورِ كلِّها، لا يَخرُجُ عن تَصرُّفِه شَيءٌ منها[٣].

- وقيل: (ألْفٌ) يَجوزُ أنْ يُستعمَلَ كِنايةً عن الكَثرةِ الشَّديدةِ، كما يُقال: زُرْتُك ألْفَ مرَّةٍ، وقولُه تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، وهو هنا بتَقديرِ كافِ التَّشبيهِ، أو كلمةِ (نَحو)، أي: كان مِقدارُه كألْفِ سَنةٍ، أو نَحوَ ألْفِ سَنةٍ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. ويَجوزُ أنْ يكونَ (ألْفٌ) مُستعمَلًا في صَريحِ مَعناهُ. وقولُه: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: ممَّا تَحْسُبون في أعدادِكم، و(ما) مَصدريةٌ أو مَوصوليَّةٌ، وهو وَصفٌ لـ ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾. وهذا الوصفُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لا يَقْتضي كَوْنَ اسمِ (ألْفٍ) مُستعمَلًا في صَريحِ معناهُ؛ لأنَّه يَجوزُ أنْ يكونَ إيضاحًا للتَّشبيهِ؛ فهو قَريبٌ مِن ذِكرِ وَجهِ الشَّبهِ مع التَّشبيهِ، وقد يَترجَّحُ أنَّ هذا الوَصفَ لَمَّا كان في مَعنى الموصوفِ صار بمَنزلةِ التَّأكيدِ اللَّفظيِّ لِمَدلولِه، فكان رافعًا لاحتِمالِ المجازِ في العدَدِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٤).

الآيات (٦-١١)

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَسْلَهُۥ﴾: أي: ولدَه وذرِّيَّتَه، وسُمِّي نسلًا لأنَّه يَنسَلُّ -أي: ينفصلُ- مِن أصلِه، والنَّسْلُ: الانفصالُ عن الشيءِ، وتَناسَلوا: وُلِد بعضُهم مِن بعضٍ، وأصلُ (نسل): يَدُلُّ على سَلِّ شيءٍ وانسلالِه[1].

﴿سُلَٰلَةٍ﴾: السُّلالةُ: فُعالةٌ مِن السَّلِّ، وهو استِخراجُ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، ومِن هذا يُقالُ للنُّطفةِ: سُلالةٌ، وللوَلَدِ: سَلِيلٌ وسُلالةٌ، وأصلُ (سل): يدُلُّ على مَدِّ الشَّيءِ في رِفقٍ وخَفاءٍ[2].

﴿مَّهِينٍ﴾: أي: ضَعيفٍ مُمتَهَنٍ لا يُعبأُ به، وأصلُ (مهن): يدُلُّ على احتِقارٍ وحَقارةٍ في الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، =

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: جمْعُ فؤادٍ، وهو القلبُ؛ سمِّيَ بذلك لحرارَتِه، أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ذلك الإلهُ هو سُبحانَه العالِمُ بكُلِّ ما غاب عن خَلقِه، وبكُلِّ ما هو مُشاهَدٌ، وهو العزيزُ الرَّحيمُ، الَّذي أتقَن خَلْقَ كلِّ شَيءٍ، وخلَق آدَمَ مِن طينٍ، ثمَّ خَلَق ذُرِّيَّتَه مِن مَنيٍّ ضَعيفٍ رقيقٍ، ثمَّ سَوَّاه اللهُ خَلْقًا مُعتَدِلًا، ونفَخَ فيه الرُّوحَ، وجعَل اللهُ لكم السَّمعَ والأبصارَ والأفئدةَ، ثم أنتم مع كلِّ هذه النِّعَمِ قليلًا ما تَشكُرونَه!

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى شُبُهاتِ المشركينَ، ويرُدُّ عليها، فيقولُ: وقال المُشرِكونَ استِبعادًا للبَعثِ بعدَ الموتِ: أئذا تفرَّقَت أجسادُنا في الأرضِ وبَلِيَت أئنَّا لَنَعودُ أحياءً ثانيةً؟! بل هؤلاء المُشرِكونَ يَجحَدونَ لقاءَ رَبِّهم.

قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: يَتوفَّاكم ملَكُ الموتِ الَّذي وكَّلَه اللهُ بقَبضِ أرواحِكم، ثمَّ تُرَدُّونَ بعدَ مَوتِكم إلى ربِّكم فيُجازيكم على أعمالِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقرَّر نَفاذُ أمرِ اللهِ تعالى، ودَلَّ ذلك على شُمولِ القُدرةِ، وكان شامِلُ القُدرةِ

= ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦).

لا بُدَّ أن يكونَ مُحيطَ العِلمِ؛ كانت نتيجتُه لا مَحالةَ[١]:

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾.

أي: ذلك الإلهُ العَظيمُ الشَّأنِ، العالي القَدْرِ، الَّذي فَعَل ما وُصِفَ في الآياتِ السَّابقةِ: هو العالِمُ بكُلِّ ما غاب عن خَلْقِه[٢]، وهو العالِمُ بكُلِّ ما هو مُشاهَدٌ أو مُدرَكٌ مِن خَلْقِه[٣].

﴿ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

أي: العَظيمُ القَدْرِ، الممتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، الغالِبُ القاهِرُ، الشَّديدُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه[٤].

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى الدَّليلَ الدَّالَّ على الوحدانيَّةِ مِنَ الآفاقِ بقَولِه: ﴿خَلَقَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) قال ابن عثيمين: (الغَيبُ: ما غاب عن الخَلقِ، وهو نوعانِ: غَيبٌ مُطلَقٌ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، وغَيبٌ نِسْبيٌّ بحيث يكونُ غائبًا عن شَخصٍ، غيرَ غائبٍ عن آخَرَ، والمرادُ كِلاهما). ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٣٩، ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٣٩).

قال ابن عاشور: (عَالِمُ الغَيبِ، أي: ما غاب عن حَواسِّ الخَلقِ، وعالِمُ الشَّهادةِ، وهو ما يَدخُلُ تحتَ إدراكِ الحواسِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٤).

وقال القرطبي: (في الكلامِ معنى التَّهديدِ والوعيدِ، أي: أخلِصوا أفعالَكم وأقوالَكم؛ فإنِّي أُجازِي عليها). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٠، ٤١).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ [السجدة: ٤]، وأتَمَّه بتَوابِعِه ومكَمِّلاتِه- ذكَرَ الدَّليلَ الدَّالَّ عليها مِن الأنفُسِ؛ فشرَعَ يَذكُرُ خَلقَ الإنسانِ، فقال[١]:

﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾.

أي: الَّذي أتقَنَ خَلْقَ كلِّ شَيءٍ، وأحكَمَه وَفْقَ ما يَليقُ به، ويُناسِبُ المقصودَ مِن خَلْقِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ [الملك: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ٢].

﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾.

أي: وخلَق آدَمَ أبا البَشَرِ مِن طينٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٠)، ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٣).

وممَّن صَرَّح بأنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا: آدَمُ عليه السَّلامُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ جُزَي، وابن رجب، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٢)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٦٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: قَتادةُ، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٤٠). =

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾.

أي: ثمَّ جعَلَ اللهُ تعالى ذُرِّيَّةَ آدَمَ مُستَخلَصةً مِن مَنِيٍّ ضَعيفٍ رَقيقٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

= وقيل: المرادُ بالإنسانِ هنا: جِنسُ البَشَرِ. وابتِداءُ خَلْقِه هو خَلْقُ أصلِه آدَمَ عليه السَّلامُ. وممَّن صرَّح بذلك: ابنُ عاشور. وجعَلَه ابنُ عثيمينَ ممَّا تحتَمِلُه الآيةُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٣، ٤٤).

ممَّن اختار أنَّ ﴿مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيف: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والسمعاني، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٦).

ووُصِف بالضَّعفِ؛ لأنَّه لا يَسيلُ سيَلانَ الماءِ، فهو يسيلُ ببُطءٍ. قاله ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٤).

وقيل: ﴿مَّهِينٍ﴾ أي: مُمْتَهَنٍ لَا خَطَرَ له عندَ النَّاسِ. وممَّن اختاره: البيضاوي، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦).

قال ابنُ عاشور: (المَهِينُ: الشَّيءُ الممتَهَنُ الَّذي لا يُعبَأُ به، والغَرَضُ مِن إجراءِ هذا الوَصفِ عليه: الاعتِبارُ بنِظامِ التَّكوينِ؛ إذ جعَلَ اللهُ تكوينَ هذا الجِنسِ المكتَمِلِ التَّركيبِ، العَجيبِ الآثارِ: مِن نَوعِ ماءٍ مُهراقٍ لا يُعبأُ به ولا يُصانُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦).

وقال القاسميُّ جامعًا بيْن القولَينِ السابقَينِ: (﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيفٍ مُمتهَنٍ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٩).

وقال سُبحانَه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٦، ٧].

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾.

أي: ثمَّ جعَلَه اللهُ خَلْقًا مُستَوِيًا مُستَقيمًا مُعتَدِلًا، وجعَلَ فيه الرُّوحَ؛ فصار حَيًّا[1].

كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٧ - ٣٩].

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾.

أي: وأنعَمَ اللهُ عليكم -أيُّها النَّاسُ- بالسَّمعِ؛ لِتَسمَعوا الأصواتَ، وبالأبصارِ لِتُبصِروا المرئيَّاتِ، وبالأفئِدةِ لِتُدرِكوا بها المعقولاتِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٤، ٤٥).

قيل: الضميرُ هنا: لآدَمَ عليه السَّلامُ. وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جرير، وذهب إليه ابنُ كثير، واستظهره ابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة. وهو قولُ مُقاتلِ بنِ سُلَيمانَ أيضًا، يُنظر ((تفسيره)) (٣/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).

أي: ثمَّ أنتم -معَ ما أنعَمَ اللهُ به عليكم- قليلًا ما تَشكُرونَ[(١)]!

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ١٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، بيَّنَ عَدَمَ شُكرِهم بإتيانِهم بضِدِّه، وهو: الكُفرُ، وإنكارُ قُدرتِه تعالى على إحياءِ الموتى[(٢)].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الرِّسالةَ بقَولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [السجدة: ٣]، والوَحدانيَّةَ بقَولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ...﴾ [السجدة: ٤] إلخ؛ أردفَ ذلك ذِكرَ البَعثِ، واستِبعادَ المُشرِكينَ له، ثمَّ الرَّدَّ عليهم[(٣)].

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ ﴾.

أي: وقال المُشرِكونَ استِبعادًا للبَعثِ: أإذا ذَهَبَت في الأرضِ أجسادُنا، وتفرَّقَت

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٨).

قوله تعالى: ﴿قَلِيلٗا﴾ يجوزُ أن يُرادَ به: كَوْنُ الشَّيءِ حاصلًا ولكنَّه غيرُ كثيرٍ، ويجوزُ أن يكونَ استُعمِل في معنى المعدومِ، وأنَّ المرادَ به العدَمُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٨).

ممَّن اختار الأوَّلَ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٥).

قال الشوكاني في قوله: ﴿قَلِيلٗا﴾: (صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، أي: شكرًا قليلًا، أو صِفةُ زمانٍ محذوفٍ، أي: زمانًا قليلًا. وفي هذا بيانٌ لِكُفْرِهم لِنِعَمِ اللَّهِ، وتَرْكِهم لشُكْرِها إلَّا فيما نَدَر مِن الأحوالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ، وهو أنَّهم لا يَشكرونَ الله فيوحِّدونه، بل يَكفرون به: الواحديُّ، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٠٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢).

فيها لحومُنا وعِظامُنا، وغابت في التُّرابِ وصارت مِثلَه، دون أن يتميَّزَ بَعضُه مِن بَعضٍ: أنَعودُ أحياءً مِن بعدِ تلك الحالِ[١]؟!

كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما ذَكَروا؛ فهؤلاء المُشركونَ لا يَجحَدونَ قُدرةَ اللهِ على كلِّ شيءٍ، ولكِنَّهم يَجحَدونَ لِقاءَ رَبِّهم للحِسابِ والجَزاءِ، بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ[٢]!

﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾.

﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُشرِكينَ: يَستوفي ملَكُ الموتِ -الَّذي وكَّلَه اللهُ بقَبضِ أرواحِكم- نُفوسَكم، فلا يَترُكُ منها شَيئًا، وعَدَدَكم فلا يُبقي منكم أحدًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٨، ٢١٩).
قال الرسعني: (قال أكثَرُ المفسِّرينَ: المعنى: صِرْنا ترابًا، وذهَبْنا مُختلِطينَ بتُرابِ الأرضِ لا نَتمَيَّزُ منه). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٥٤، ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).
قيل: هذا ردٌّ لِشُبهتِهم في إنكارِ البَعثِ بقَولِهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾، فمُمازَجةُ الرُّوحِ للبَدَنِ أشَدُّ مِن مُمازَجةِ ترابِ البدَنِ لبقيَّةِ التُّرابِ، وإذا كان هذا فِعلَ عَبدٍ =

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: ثمَّ أنتم بعدَ مَوتِكم تُرَدُّونَ أحياءً يومَ القيامةِ إلى ربِّكم، فيُجازيكم على أعمالِكم[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ينبغي للإنسانِ أنْ يكونَ شُكْرُه على حسَبِ النعمةِ؛ ففي السَّمعِ يَستعمِلُ السَّمعَ فيما يُقَرِّبُ إلى اللهِ، ويمنعُه عمَّا حَرَّمَ اللهُ -وكذلك في البصرِ-، أمَّا القلبُ فيَجِبُ عليه أنْ يُعْرِضَ بقلبِه عن كُلِّ ما حَرَّمَ اللهُ؛ وأنْ يُقْبِلَ بقلبِه على كلِّ ما أمَرَ اللهُ به[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ذَمُّ مَن لا يَشْكُرُ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إثباتُ هذَينِ الاسمَينِ مِن أسمائِه تعالى: «العزيز» و«الرَّحيم» وما تضَمَّناه مِن الصِّفةِ، وهي العِزَّةُ والرَّحمةُ، وكمالُ عِزَّتِه ورحمتِه باجتِماعِهما: أنَّه مع كَونِه عزيزًا قاهرًا غالبًا، فهو أيضًا رَحيمٌ؛ لأنَّ بعضَ الأعِزَّاءِ إذا عَزَّ لا يَرحَمُ، وبعضَ الرُّحماءِ تَصِلُ به الرَّحمةُ إلى أنْ يكونَ في مَقامِ الذُّلِّ؛ فهو سُبحانه وتعالى جامِعٌ بيْنَ العِزِّ والرَّحمةِ، وهذا مِن كمالِه، يعني: أنَّ الجَمعَ بينَ العِزَّةِ والرَّحمةِ فيه كَمالٌ أكثرُ مِن إثباتِ العِزَّةِ والرَّحمةِ، وهو أنَّ

= مِن عبيدِه صَرَّفَه في ذلك فقامَ به، فكيف يُستبعَدُ شَيءٌ مِن الأشياءِ على رَبِّ العالَمينَ، ومُدبِّرِ الخلائقِ أجمعينَ؟! قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٠).

رَحمتَه مَقرونةٌ بعزٍّ، ليست رَحمةَ ذُلٍّ، وأنَّ عِزَّتَه أيضًا مَقرونةٌ برَحمةٍ، ليست عِزَّةَ جَبَروتٍ لا رَحمةَ فيها[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيه إيماءٌ بأنَّه تعالى يُراعي المصالحَ تفَضُّلًا وإحسانًا[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أنَّ كلَّ مخلوقٍ خُلِقَ على ما يُناسبُ حالَه؛ لأنَّه لو لم يكُنِ الأمرُ كذلك لَمَا كان إحسانُ خَلْقٍ[٣]! فإذا نظَرْتَ إلى الأشياءِ رأيتَها على ما ينبغي: صَلابةُ الأرضِ للنَّباتِ، وسَلاسةُ الهواءِ للاستِنشاقِ، وسَيَلانُ الماءِ لِنَقدِرَ عليه في كُلِّ موضعٍ، وحركةُ النَّارِ إلى فَوقٍ؛ لأنَّها لو كانت مِثلَ الماءِ تتحَرَّكُ يَمنةً ويَسرةً لاحترقَ العالَمُ؛ فخُلِقت طالبةً لجِهةِ فَوقٍ؛ حيثُ لا شَيءَ هناك يَقبَلُ الاحتراقَ[٤].

٤- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾، فإحسانُ خَلْقِه يتضَمَّنُ تَسويتَه وتَناسُبَ خَلْقِه وأجزائِه، بحيثُ لم يحصُلْ بيْنَها تفاوُتٌ يُخِلُّ بالتَّناسُبِ والاعتدالِ؛ فالخَلقُ: الإيجادُ، والتَّسويةُ: إتقانُه وإحسانُ خَلقِه؛ فالتَّسويةُ شامِلةٌ لجميعِ مخلوقاتِه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]. وما يُوجَدُ مِن التَّفاوُتِ وعَدَمِ التَّسويةِ فهو راجِعٌ إلى عدَمِ إعطاءِ التَّسويةِ للمَخلوقِ؛ فإنَّ التَّسويةَ أمرٌ وُجوديٌّ تتعَلَّقُ بالتَّأثيرِ والإبداعِ، فما عَدِمَ منها فلِعَدمِ إرادةِ الخالِقِ للتَّسويةِ، وذلك أمرٌ عَدَميٌّ يكفي فيه عدَمُ الإبداعِ والتَّأثيرِ. فتأمَّلْ ذلك؛ فإنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤١).

يُزيلُ عنك الإشكالَ في قَولِه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]؛ فالتَّفاوُتُ حاصِلٌ بسَبَبِ عَدَمِ مَشيئةِ التَّسويةِ، كما أنَّ الجَهلَ والصَّمَم والعَمى والخَرَس والبَكَم: يكفي فيها عدَمُ مَشيئةِ خَلْقِها وإيجادِها. والمقصودُ: أنَّ كُلَّ مخلوقٍ فقد سَوَّاه خالقُه سُبحانَه في مَرتبةِ خَلْقِه، وإنْ فاتَتْه التَّسويةُ مِن وَجهٍ آخَرَ لم يُخلَقْ له[1].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال ذلك، مع أنَّ في مخلوقاتِه -تعالى- قَبيحًا كالشُّرورِ والمعاصي؟

الجوابُ: أنَّ ﴿أَحۡسَنَ﴾ بمعنى: أتقَنَ وأحكَمَ، أو ﴿أَحۡسَنَ﴾ بمعنى: عَلِمَ، كما يقالُ: فُلانٌ لا يُحسِنُ شَيئًا، أي: لا يَعلَمُه[2]. ولله سُبحانَه في كلِّ ما يَخلُقُه حِكمةٌ يُحِبُّها ويَرضاها، وهو سُبحانَه أحسَنَ كلَّ شَيءٍ خَلَقَه، وأتقَنَ كلَّ ما صنَع، فما وقَع مِنَ الشَّرِّ الموجودِ في المخلوقاتِ فقد وُجِد لأجْلِ تلك الحكمةِ المطلوبةِ المحبوبةِ المَرْضيَّةِ، فهو مِن الله حسَنٌ جميلٌ، وهو سُبحانَه محمودٌ عليه، وله الحمدُ على كلِّ حالٍ، وإن كان شرًّا بالنِّسبةِ إلى بعضِ الأشخاصِ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ * ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ * ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ المرادُ بالإنسانِ: آدمُ عليه السَّلامُ، ومَعلومٌ أنَّ تَسويتَه ونَفْخَ الرُّوحِ فيه كان قبْلَ جَعْلِ نَسْلِه مِن سُلالةٍ مِن ماءٍ مَهينٍ، لكنْ لَمَّا كان المقصودُ ذِكرَ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في مبدأِ خَلْقِ آدَمَ وخَلقِ نَسْلِه، عَطَف ذِكْرَ أحدِهما على الآخَرِ، وأخَّرَ ذِكْرَ تَسويةِ آدَمَ ونَفْخِ الرُّوْحِ فيه، وإنْ كان

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٩٩).

ذلك مُتوسِّطًا بيْن خَلْقِ آدَمَ مِن طينٍ وبيْن خَلْقِ نَسْلِه. واللهُ أعلمُ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ تَكذيبُ النَّظريَّةِ الكاذِبةِ، وهي نظريةُ «داروين» الَّذي يقولُ: إنَّ الخَلْقَ نَشَأَ بالتَّطَوُّرِ، وإنَّ أصلَ الإنسانِ قِردٌ، ثمَّ صار على طولِ الزَّمَنِ إنسانًا[٢]! وهذا القولُ لا شكَّ أنَّه كفرٌ وتكذيبٌ صريحٌ للقرآنِ؛ فيَجِبُ علينا أنْ نُنكِرَه إنكارًا بالغًا[٣].

٨- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ المضافُ إلى الله سبحانَه نوعانِ: صفاتٌ لا تقومُ بأنفسِها، كالعِلمِ والقُدرةِ والكلامِ والسَّمعِ والبصرِ، فهذه إضافةُ صفةٍ إلى الموصوفِ بها، فعلمُه وكلامُه وإرادتُه وقدرتُه وحياتُه صفاتٌ له غيرُ مخلوقةٍ، وكذلك وجهُه ويدُه سبحانَه.

والثاني إضافةُ أعيانٍ منفصلةٍ عنه، كالبيتِ والنَّاقةِ والعبدِ والرَّسولِ والرُّوحِ، فهذه إضافةُ مخلوقٍ إلى خالقِه، ومصنوعٍ إلى صانعِه، لكنَّها إضافةٌ تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميَّزُ به المضافُ عن غيرِه، كبيتِ الله، وإن كانت البيوتُ كلُّها مِلكًا له، وكذلك ناقةُ الله، والنُّوقُ كلُّها مِلكُه وخلقُه، لكنْ هذه إضافةٌ إلى إلهيتِه تقتضي محبتَه لها وتكريمَه وتشريفَه، بخلافِ الإضافةِ العامَّةِ إلى ربوبيتِه حيثُ تقتضي خلقَه وإيجادَه[٤].

٩- وفي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ امتنانٌ بقُوى الحَواسِّ وقُوى العَقلِ، وهو أقْوى مِنَ الامتِنانِ بالخلْقِ وتَسويتِه؛ لأنَّ الانتِفاعَ بالحَواسِّ

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٨).
(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٨٢٨).
(٤) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٤).

والإدراكِ مُتكرِّرٌ مُتجدِّدٌ؛ فهو مَحسوسٌ، بخلافِ التَّكوينِ والتَّقويمِ؛ فهو مُحتاجٌ إلى النَّظرِ في آثارِه[١].

١٠- قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾، فذَكَر طَريقَ الفَهمِ ومكانَ الفَهمِ؛ فطَريقُ الفَهمِ هو السَّمْعُ والبَصَرُ، ومَحَلُّ الفَهمِ والوَعيِ هو القَلبُ؛ ولهذا يكونُ السَّمعُ والبَصَرُ كقَناتَينِ تَصُبَّانِ في القَلبِ، فيتَلَقَّى ما يَسمَعُ أو يُبصِرُ ثمَّ يَصُبَّانِ في القَلبِ، وهو محلُّ الوَعيِ والإدراكِ، ولم يَذكُرِ «الشَّمَّ والذَّوقَ واللَّمسَ»؛ لأنَّ الاتِّعاظَ بالآياتِ يكونُ بالسَّمعِ والبَصَرِ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ إبطالُ قَولِ مَن يقولُ: «إنَّ البعثَ إيجادٌ مِن عَدَمٍ»؛ فقولُهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا﴾ يقولونَ: كيف بعدَما نَغيبُ في الأرضِ ونكونُ ترابًا، كيف نُبعَثُ؟! فدلَّ هذا على أنَّ البَعثَ هو إعادةُ ما سَبَقَ، وليس باستِدعاءِ خَلْقٍ جديدٍ[٣].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ فيه سُؤالٌ: لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الرِّسالةَ ذكَرَ مِن قَبْلُ دَليلَها، وهو التَّنزيلُ الَّذي لا رَيبَ فيه، ولَمَّا ذكَرَ الوحدانيَّةَ ذكَرَ دليلَها، وهو خَلقُ السَّمَواتِ والأرضِ، وخَلْقُ الإنسانِ مِن طينٍ، ولَمَّا ذكَرَ إنكارَهم الحَشرَ لم يَذكُرِ الدَّليلَ؟

الجوابُ: ذكَرَ دَليلَه أيضًا؛ وذلك لأنَّ خَلْقَ الإنسانِ ابتداءً دَليلٌ على قُدرتِه على إعادتِه؛ ولهذا استدَلَّ اللهُ تعالى على إمكانِ الحَشرِ بالخَلقِ الأوَّلِ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٥).

ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، وكذلك خَلقُ السَّمَواتِ، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ﴾[1] [يس: ٨١].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ يُنبِئُ عن بقاءِ الأرواحِ؛ فإنَّ التَّوفِّيَ: الاستيفاءُ، والقَبضَ هو الأخذُ؛ والإعدامُ المحضُ ليس بأخذٍ[2].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ فيه سؤالٌ: أسنَدَ في هذه الآيةِ الكريمةِ التَّوفِّيَ إلى مَلَكِ الموتِ، وأسنَده إلى المَلائكةِ في قَولِه تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [محمد: ٢٧]، وأسنَدَه إلى نَفْسِه جلَّ وعلا، في قَولِه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

الجوابُ: أنَّ إسنادَ التوفِّي إلى مَلَكِ الموتِ في قَولِه هنا: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السجدة: ١١]؛ لأنَّه هو المأمورُ بقَبضِ الأرواحِ؛ وأنَّ إسنادَه للمَلائكةِ في قَولِه تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [محمد: ٢٧]، ونحوِها مِنَ الآياتِ؛ لأنَّ لِمَلَكِ الموتِ أعوانًا يَعمَلونَ بأمْرِه، ويَنزِعونَ الرُّوحَ إلى الحُلقومِ، فيَأخُذُها مَلَكُ الموتِ؛ وقد جاء في حديثِ البَراءِ بنِ عازِبٍ الطَّويلِ المشهورِ: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ العبْدَ المؤمِنَ إذا كانَ في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقْبالٍ مِن الآخِرَةِ، نزَل إليه ملائكةٌ مِن السَّماءِ ...)) وفيه: ((ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ، حتَّى يجلِسَ عندَ رأسِه، فيقول: أَيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخْرُجي إلى مغفرةٍ مِن اللهِ ورِضوانٍ. فتَخرُجُ تَسيلُ كما تَسيلُ القَطْرةُ مِن فِي السِّقاءِ، فيأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعوها في يَدِه طَرْفةَ عَيْنٍ حتَّى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَأخُذوها...)) الحديثَ[(١)]. وأنَّ إسنادَه إلى اللهِ تعالى في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]؛ لأنَّ كُلَّ شَيءٍ كائنًا ما كان لا يكونُ إلَّا بقَضاءِ الله وقَدَرِه، ومَلَكُ الموتِ لا يَقدِرُ أن يَقبِضَ رُوحَ أحدٍ إلَّا بإذنِ اللهِ ومَشيئتِه تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗا﴾[(٢)] [آل عمران: ١٤٥].

١٥- قال الله تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ هذا التَّوكيلُ ليس توكيلًا لحاجةٍ، ولكِنَّه توكيلُ سُلطانٍ وعَظَمةٍ، فالله عَزَّ جَلَّ لا يحتاجُ، وإذا أراد شيئًا قال له: كُنْ، فيَكونُ، لكِنَّه يُوكِّلُ ذلك توكيلَ سُلطانٍ وعَظَمةٍ؛ لِبَيانِ سُلطانِه وعظَمتِه، وأنَّ كُلَّ شَيءٍ في خِدمتِه سُبحانَه وتعالى، وفي عبادتِه[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ جِيءَ بالإشارةِ إلى اسمِ الجَلالةِ بعدَما أُجرِيَ عليه مِن أوصافِ التَّصرُّفِ بخَلْقِ الكائناتِ، وتَدبيرِ أُمورِها؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه باسمِ الإشارةِ حَقيقٌ بما يَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقاربةٍ.
صحَّحَ إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وحسَّنه المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠)، وصحَّحَه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٨٤، ١٨٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٥٨).

أجْلِ تلك الصِّفاتِ المُتقدِّمةِ[١].

- قولُه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ المَقصودُ هو عِلمُ الغَيبِ؛ لأنَّهم لَمَّا أنْكَروا البَعثَ وإحياءَ المَوتَى، كانت شُبهتُهم في إحالتِه أنَّ أجزاءَ الأجسامِ تَفرَّقَتْ وتَخلَّلت الأرضَ؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه بعْدَه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ [السجدة: ١٠]، وأمَّا عَطفُ (الشَّهادةِ) على (الغَيبِ) فتَكميلٌ واحتِراسٌ[٢].

- وقدَّمَ العِلمَ بالغَيبِ؛ لأنَّه أقوى وأشَدُّ إنباءً عن كمالِ العِلمِ[٣].

- قولُه: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مُناسَبةُ وَصفِه تعالى بالعَزيزِ الرَّحيمِ عقِبَ ما تَقدَّمَ: أنَّه خلَقَ الخلْقَ بمَحضِ قُدرتِه بدُونِ مُعِينٍ؛ فالعِزَّةُ -وهي الاستِغناءُ عن الغَيرِ- ظاهرةٌ، وأنَّه خلَقَهم على أحوالٍ فيها لُطفٌ بهم؛ فهو رَحيمٌ بهم فيما خَلَقهم؛ إذ جعَلَ أُمورَ حَياتِهم مُلائمةً لهم، فيها نَعيمٌ لهم، وجنَّبَهم الآلامَ فيها؛ فهذا سَببُ الجمْعِ بيْنَ صِفَتَي العزيزِ والرَّحيمِ هنا على خِلافِ الغالِبِ مِن ذِكرِ الحكيمِ مع العزيزِ[٤]. وفيه إيماءٌ إلى أنَّه تعالى مُتفضِّلٌ في جَميعِ ما ذُكِرَ، فاعلٌ بالإحسانِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قُرِئَ ﴿خَلَقَهُۥ﴾ بفَتْحِ اللَّامِ، فِعلًا ماضيًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨١).

صِفةً لـ ﴿كُلَّ﴾ أو لـ ﴿شَيْءٍ﴾. وقُرِئَ بسُكونِ اللَّام[١]: ﴿خَلْقَهُ﴾ قيل: هو بدلُ اشتمالٍ، والمبدَلُ منه ﴿كُلَّ﴾، أي: أحْسَن خَلْقَ كلِّ شيءٍ، فالضميرُ في ﴿خَلْقَهُ﴾ عائدٌ على ﴿كُلَّ﴾. وقيل: الضميرُ في ﴿خَلْقَهُ﴾ عائدٌ على الله، فيكونُ انتصابُه نصبَ المصدرِ المؤكِّدِ لمضمونِ الجملة؛ أي: خلَقه خَلْقًا، وهو أبلَغُ في الامتِنانِ؛ لأنَّه إذا قال: (أحسَنَ كلَّ شَيءٍ)، كان أبلَغَ مِن: (أحسَنَ خلْقَ كلِّ شَيءٍ)؛ لأنَّه قد يُحسِنُ الخلْقَ، ولا يكونُ الشَّيءُ في نَفْسِه حَسنًا، فإذا قال: أحسَنَ كلَّ شَيءٍ، اقتَضى أنَّ كلَّ شَيءٍ خلَقَه حَسنٌ، بمعنى: أنَّه وضَعَ كلَّ شَيءٍ في مَوضعِه[٢].

- وقولُه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ ارْتقاءٌ في الاستِدلالِ، مَشوبٌ بامتنانٍ على النَّاسِ أنْ أحسَنَ خَلْقَهم في جُملةِ إحسانِ خَلْقِ كلِّ شَيءٍ، وبتَخصيصِ خَلْقِ الإنسانِ بالذِّكرِ، والمَقصودُ: أنَّه الَّذي خَلَقَ كلَّ شَيءٍ، وخاصَّةً الإنسانَ خلْقًا بعدَ أنْ لم يكُنْ شيئًا مَذكورًا، وأخرَجَ أصْلَه مِن تُرابٍ، ثمَّ كوَّنَ فيه نِظامَ النَّسلِ مِن ماءٍ؛ فكيف تُعجِزُه إعادةُ أجزائِه؟! وتَخلَّصَ مِن هذا الوَصفِ العامِّ إلى خَلْقِ الإنسانِ؛ لأنَّ في خِلقةِ الإنسانِ دَقائقَ في ظاهرِه وباطنِه[٣]. وقيل: لَمَّا كان الحيوانُ أشرَفَ الأجناسِ، وكان الإنسانُ أشرَفَه- خصَّه بالذِّكرِ؛ لِيَقومَ دَليلُ الوَحدانيَّةِ بالأنفُسِ كما قام قَبلُ بالآفاقِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾

---

(١) قرأه بفتح اللَّام: نافعٌ وعاصمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ، والباقون بسكونها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٧)، ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص: ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٥، ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾، وقال في سُورةِ (المؤمنون): ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾؛ لأنَّ المَذكورَ هنا صِفةُ ذُرِّيَّةِ آدَمَ، والمَذكورَ ثَمَّ صِفةُ آدَمَ عليه السَّلامُ[١].

٤- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ ذِكرُ التَّسويةِ ونَفخِ الرُّوحِ في جانبِ النَّسلِ؛ يُؤذِنُ بأنَّ أصْلَه كذلك؛ فالكلامُ إيجازٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ النَّفخُ: تَمثيلٌ لِسَريانِ اللَّطيفةِ الرُّوحانيَّةِ في الكَثيفةِ الجَسديَّةِ، مع سُرعةِ الإيداعِ[٣].

- وفي إضافةِ الرُّوحِ إلى ذاتِه سُبحانه تَشريفٌ للإنسانِ، وإيذانٌ بأنَّه خلْقٌ عَجيبٌ، وصُنعٌ بَديعٌ لا يَعلَمُ كُنْهَه إلَّا هو، وأنَّ له شأنًا، وله مُناسبةٌ إلى حَضرةِ الرُّبوبيةِ، وأنَّ أقْصَى ما تَنْتهي إليه العُقولُ البشَريَّةُ مِن مَعرفتِه هذا القَدرُ الَّذي يُعبَّرُ عنه تارةً بالإضافةِ إليه تعالى، وأُخرى بالنِّسبةِ إلى أمْرِه تعالى، كما في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[٤] [الإسراء: ٨٥].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ الْتفاتٌ، فانتقَل مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ مِن أفرادِ النَّاسِ، وجَعْلُ السَّمعِ والأبصارِ والأفئدةِ للنَّاسِ كلِّهم، غير خاصٍّ بالمُخاطَبينَ،

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢١٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨١).

فلمَّا انتهَضَ الاستِدلالُ على عَظيمِ القُدرةِ، وإتقانِ المُرادِ مِن المَصنوعاتِ المُتحدَّثِ عنهم بطَريقِ الغَيبةِ الشَّاملِ للمُخاطَبينَ وغيرِهم؛ ناسَبَ أنْ يُلتفَتَ إلى الحاضِرينَ بنَقلِ الكلامِ إلى الخِطابِ؛ لأنَّه آثَرُ بالامتِنانِ، وأسعَدُ بما يَرِدُ بعدَه مِن التَّعريضِ بالتَّوبيخِ في قولِه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[1]. وأيضًا في حِكايةِ أحوالِ الإنسانِ مِن مَبدأِ فِطرتِه، إلى نَفخِ الرُّوحِ فيه بطَريقِ الغَيبةِ، وحِكايةِ أحوالِه بعدَ ذلك بطَريقِ الخِطابِ المُنبئِ عن استعدادِه للفَهمِ وصَلاحيَّتِه له: مِن الجَزالةِ ما لا غايةَ وَراءَه[2].

- والجَعلُ هنا إبداعيٌّ، واللَّامُ في ﴿لَكُمُ﴾ مُتعلِّقةٌ به، وتَقديمُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿لَكُمُ﴾ على المَفعولِ الصَّريحِ ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾؛ للاهتِمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، مع ما فيه مِن نَوعِ طُولٍ يُخِلُّ تَقديمُه بجَزالةِ النَّظمِ الكريمِ[3].

- والعُدولُ عن أنْ يُقالَ: (وجعَلَكم سامعينَ مُبصِرين عالِمينَ) إلى قولِه: (جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)؛ لأنَّ ذلك أعرَقُ في الفَصاحةِ، ولِمَا تُؤذِنُ به اللَّامُ مِن زِيادةِ المِنَّةِ في هذا الجَعلِ؛ إذ كان جَعْلًا لِفائدتِهم ولِأجْلِهم، ولِمَا في تَعليقِ الأجناسِ مِن السَّمعِ والأبصارِ والأفئدةِ بفِعلِ الجَعلِ مِن الرَّوعةِ والجَلالِ في تَمكُّنِ التَّصرُّفِ، ولأنَّ كَلمةَ (الأفئدة) أجمَعُ مِن كَلمةِ (عاقِلِين)؛ لأنَّ الفؤادَ يَشمَلُ الحواسَّ الباطنةَ كلَّها، والعقلُ بعضٌ منها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٧).

- وكذلك في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ أفرَدَ السَّمعَ؛ لأنَّه مَصدرٌ لا يُجمَعُ، وجمَعَ الأبصارَ والأفئدةَ باعتبارِ تَعدُّدِ النَّاسِ[1]. وقيل: الحِكمةُ في ذِكرِه المصدَرَ في السَّمعِ، وفي البَصَرِ والفُؤادِ الاسمَ، ولذا جمَعَهما دونَ السَّمعِ؛ لأنَّه مَصدَرٌ وهو لا يُجمَعُ: أنَّ السَّمعَ قُوَّةٌ واحدةٌ، ولها محلٌّ واحِدٌ، وهو الأُذُنُ، ولا اختيارَ لها فيه، وأنَّ الصَّوتَ مِن أي جانبٍ -كان- واصِلٌ إليه، ولا قُدرةَ للأُذُنِ على تخصيصِ السَّمعِ بإدراكِ البَعضِ دونَ البعضِ؛ وأمَّا البصَرُ فمحَلُّه العينُ، ولها فيه اختيارٌ؛ فإنَّها تتحَرَّكُ إلى جانبِ المرئيِّ دونَ غيرِه؛ وكذلك الفؤادُ: محلُّه الإدراكُ، وله نوعُ اختيارٍ؛ يَلتَفِتُ إلى ما يُريدُ دُونَ غَيرِه. فالسَّمعُ أصلٌ دونَ محلِّه؛ لعدمِ الاختيارِ له. والعَينُ كالأصلِ، وقُوَّةُ الإبصارِ آلتُها. والفؤادُ كذلك، وقوَّةُ الفَهمِ آلتُه؛ فذَكَرَ في السَّمعِ المصدَرَ الَّذي هو القُوَّةُ، وفي الإبصارِ والأفئدةِ الاسمَ الَّذي هو محلُّ القوَّةِ، ولأنَّ السَّمعَ قُوَّةٌ واحِدةٌ لها محلٌّ واحدٌ؛ ولهذا لا يَسمَعُ الإنسانُ في زمانٍ واحدٍ كلامَينِ على وَجهٍ يَضبِطُهما، ويَرى في زمانٍ واحدٍ صُورتينِ فأكثَرَ ويُثبِتُهما[2]. وقيل: وحَّد السَّمعَ؛ لقلَّةِ التَّفاوُتِ فيه إذا كان سالِمًا[3].

- وفي تَقديمِ السَّمعِ على البَصرِ في مَواقعِه مِن القُرآنِ دليلٌ على أنَّه أفضَلُ فائدةً لِصاحبِه مِن البَصرِ؛ فإنَّ التَّقديمَ مُؤذِنٌ بأهمِّيَّةِ المُقدَّمِ؛ وذلك لأنَّ السَّمعَ آلةٌ لِتَلقِّي المعارِفِ الَّتي بها كَمالُ العقلِ، وهو وَسيلةُ بُلوغِ دَعوةِ الأنبياءِ إلى أفهامِ الأُمَمِ على وَجهٍ أكمَلَ مِن بُلوغِها بِواسطةِ البصَرِ لو فُقِدَ السَّمعُ، ولأنَّ السَّمعَ تَرِدُ إليه الأصواتُ المَسموعةُ مِن الجِهاتِ السِّتِّ بدُونِ تَوجُّهٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٥، ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢).

بخِلافِ البَصرِ؛ فإنَّه يَحتاجُ إلى التَّوجُّهِ بالالْتفاتِ إلى الجِهاتِ غيرِ المُقابِلةِ. وتَقديمُ السَّمعِ والأبصارِ على الأفئدةِ هنا، عَكْسَ آيةِ (البقرةِ)؛ لأنَّه رُوعِيَ هنا تَرتيبُ حُصولِها في الوُجودِ؛ فإنَّه يَكتسِبُ المَسموعاتِ والمُبصَراتِ قبْلَ اكتسابِ التَّعقُّلِ[١]، فالإنسانُ يَسمَعُ أوَّلًا كَلامًا، فيَنظُرُ إلى قائلِه لِيَعرِفَه، ثمَّ يتفكَّرُ بقَلبِه في ذلك الكلامِ لِيَفهَمَ مَعناه[٢]. وقيل: لعلَّه قَدَّمهما؛ لأنَّه يُنتفَعُ بهما حالَ الولادةِ، وقدَّمَ السَّمعَ؛ لأنَّه يكونُ إذ ذاك أمتَنَ مِنَ البَصَرِ، وأمَّا العَقلُ فإنَّما يَحصُلُ بالتَّدريجِ؛ فلذا أخَّرَ مَحلَّه[٣].

وقيل: قدَّم السَّمعَ هاهنا، والقَلبَ في آيةِ سورةِ (البقرةِ)؛ لأنَّه عندَ الإعطاءِ ذَكَر الأدنى وارتقى إلى الأعلى، فقال: أعطاكم السَّمعَ، ثمَّ أعطاكم ما هو أشرَفُ منه وهو القَلبُ؛ وعندَ السَّلبِ قال: ليس لهم قَلبٌ يُدرِكون به، ولا ما هو دونَه، وهو السَّمعُ الَّذي يَسمَعونَ به، ممَّن له قَلبٌ يَفهَمُ الحقائِقَ ويَستَخرِجُها[٤].

- قولُه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ بَيانٌ لِكُفرِهم بتلك النِّعمِ بطَريقِ الاعتِراضِ التَّذييليِّ، ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿قَلِيلًا﴾ مُستعمَلًا في حَقيقتِه؛ وهي كَوْنُ الشَّيءِ حاصلًا ولكنَّه غيرُ كَثيرٍ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ كِنايةً عن العدَمِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]، وعلى الوَجهينِ يَحصُلُ التَّوبيخُ؛ لأنَّ النِّعمَ المُستحِقَّةَ للشُّكرِ وافِرةٌ دائمةٌ؛ فالتَّقصيرُ في شُكرِها وعَدمُ الشُّكرِ سَواءٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٥٨) و(٢١/ ٢١٧، ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨١، ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٨).

٥- قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ أباطيلِهم بطَريقِ الالْتفاتِ؛ إيذانًا بأنَّ ما ذُكِرَ مِن عَدمِ شُكرِهم بتلك النِّعمِ مُوجِبٌ للإعراضِ عنهم، وتَعديدِ جِناياتِهم لِغَيرِهم بطَريقِ المُباثَّةِ[١].

- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ ﴾ قال تعالى في تكذيبِ الكافِرينَ الرَّسولَ في الرِّسالةِ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ [السجدة: ٣] بلَفظِ المُستَقبَلِ، وقال هنا في تَكذيبِهم إيَّاه في الحَشرِ: ﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾ بلَفظِ الماضي؛ وذلك لأنَّ تَكذيبَهم إيَّاه في رِسالتِه لم يكُنْ قبْلَ وُجودِه، وإنَّما كان ذلك حالةَ وُجودِه، فقال: ﴿يَقُولُونَ﴾ يعني: هم فيه، وأمَّا إنكارُهم للحَشرِ فكان سابِقًا صادِرًا منهم ومِن آبائِهم، فقال ﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾[٢].

- والاستِفهامُ في قولِهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا﴾ للتَّعجُّبِ والإحالةِ، أي: أظْهَروا في كلامِهم استبعادَ البَعثِ بعدَ فَناءِ الأجسادِ واختِلاطِها بالتُّرابِ؛ مُغالَطةً للمؤمنينَ، وتَرويجًا لِكُفرِهم[٣].

- قولُه: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ ﴾ بهَمزتينِ؛ أُولاهما للاستِفهامِ، والثَّانيةُ تأكيدٌ لِهَمزةِ الاستِفهامِ الدَّاخلةِ على ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، والمعنى على تَأْكيدِ الإنكارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢).

والمُباثَّة: مِن قَولِهم: بثَّ الرَّجُلُ الحديثَ: إذا أذاعه ونَشَره. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢، ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٩).

- فإنْ قِيل: إذا كانتِ الجُملةُ الاستفهاميَّةُ هنا للإنكارِ؛ فكيف تَأْتي اللَّامُ الدَّالَّةُ على التَّوكيدِ ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟

فالجوابُ: أنَّ المرادَ أنَّهم يُنكِرون أنْ يَتأكَّدَ ذلك، يعني: أيَتأكَّدُ أنَّنا في خلْقٍ جديدٍ بعدَ أنْ تَأكُلَنا الأرضُ؟! وهو كقَولِ إخوةِ يُوسفَ: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]؛ فهذا التَّأكيدُ كأنَّهم يُنكِرون ما أُكِّدَ مِن كَونِهم يُرجَعون[١].

- وتَأكيدُ جُملةِ ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بحَرفِ (إنَّ)؛ لأنَّهم حَكَوُا القولَ الَّذي تَعجَّبوا منه، وهو ما في القُرآنِ مِن تَأكيدِ تَجديدِ الخلْقِ، فحَكَوه بالمَعنى[٢].

- قولُه: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ لَمَّا ذكَرَ كُفرَهم بالإنشاءِ؛ أضرَبَ عنه إلى ما هو أبلَغُ في الكُفرِ؛ وهو أنَّهم كافِرون بجَميعِ ما يكونُ في العاقبةِ، لا بالإنشاءِ وَحْدَه؛ فقد خُوطِبوا بتَوفِّي ملَكِ الموتِ، وبالرُّجوعِ إلى ربِّهم بعدَ ذلك مَبعوثينَ للحِسابِ والجَزاءِ[٣].

- قولُه: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ الإتيانُ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ لإفادةِ الدَّوامِ على كُفرِهم والثَّباتِ عليه. وتَقديمُ المَجرورِ ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ على ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[٤].

٦- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ...﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ جارٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٩).

على طَريقةِ حِكايةِ المُقاولاتِ؛ لأنَّ جُملةَ (قُل) في معنى جَوابٍ لِقَولِهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠]؛ أمَرَ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يُعِيدَ إعلامَهم بأنَّهم مَبعوثونَ بعدَ المَوتِ؛ فالمَقصودُ مِن الجُملةِ هو قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾؛ إذ هو مَناطُ إنْكارِهم، وأمَّا أنَّهم يَتوفَّاهم ملَكُ المَوتِ، فذَكَره لِتَذكيرِهم بالمَوتِ، وهم لا يُنكِرون ذلك، ولكنَّهم ألْهَتْهم الحياةُ الدُّنيا عن النَّظرِ في إمكانِ البعثِ والاستِعدادِ له، فذُكِّروا به، ثمَّ أُدمِجَ فيه ذِكرُ ملَكِ الموتِ؛ لِزيادةِ التَّخويفِ مِن الموتِ، والتَّعريضِ بالوَعيدِ مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾؛ فإنَّه مُوكَّلٌ بكلِّ مَيِّتٍ بما يُناسِبُ مُعامَلتَه عندَ قَبضِ رُوحِه، وفيه إبطالٌ لِجَهلِهم بأنَّ الموتَ بيَدِ اللهِ تعالى، وأنَّه كما خلَقَهم يُمِيتُهم، وكما يُمِيتُهم يُحيِيهُم، وأنَّ الإماتةَ والإحياءَ بإذْنِه وتَسخيرِ ملائكتِه في الحالينِ؛ وذلك إبطالٌ لِقَولِهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، فأعْلَمَهم اللهُ أنَّهم لا يَخرُجون عن قَبضةِ تَصرُّفِه طَرْفةَ عَينٍ؛ لا في حالِ الحياةِ، ولا في حالِ المَماتِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٠).

الآيات (١٢-١٤)

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾: أي: مُطَأْطِئُوها، وأصلُ (نكس): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ على رأسِه[١].

﴿حَقَّ﴾: أي: وجَب ولَزِمَ، والحَقُّ في أصلِه: المُطابقةُ والموافقةُ، وأصلُ (حَقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[٢].

﴿عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾: أي: الدَّائمَ الَّذي لا ينقطِعُ أبدًا، والخُلدُ: البقاءُ والدوامُ كالخُلودِ، وأصلُ (خلد): يدُلُّ على الثَّباتِ والمُلازمةِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ هؤلاء الكافرينَ يومَ القيامةِ عندمَا يَقِفونَ للحسابِ: ولو تَرى -يا مُحمَّدُ- حينَ يُنَكِّسُ المُجرِمونَ رُؤوسَهم يومَ القيامةِ عندَ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تحفة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٢).

تعالى، يقولونَ: ربَّنا أبصَرْنا وسَمِعْنا ما كُنَّا نُنكِرُه مِن الحَقِّ، فارجِعْنا إلى الدُّنيا نَعمَلْ صالِحًا؛ إنَّا الآنَ مُوقِنونَ بالحَقِّ!

ثمَّ يَرُدُّ الله تعالى عليهم، فيقولُ: ولو شِئْنا لهَدَيْنا كلَّ إنسانٍ في الدُّنيا إلى الحَقِّ، ولكِنْ حَقَّ القَولُ مِنِّي أنْ أمْلأَ جهنَّمَ مِن كُفَّارِ الجِنِّ والنَّاسِ أجمَعينَ، فيُقالُ لهم: ذوقوا العذابَ -أيُّها الكافِرونَ- بسَبَبِ تَكذيبِكم بيَومِ القيامةِ، إنَّا سنَتْرُكُكم في هذا العَذابِ، وذوقوا العذابَ غيرَ المُنقَطِعِ؛ بسَبَبِ كُفرِكم وتَكذيبِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى رجوعَهم إليه يومَ القيامةِ؛ ذكَرَ حالَهم في مُقامِهم بينَ يَديه[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ إنكارَهم البَعثَ؛ أردفَ بتصويرِ حالِ المُنكِرينَ أثَرَ البَعثِ، وذلك عندَ حَشرِهم إلى الحِسابِ[٢].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: ولو ترى -يا مُحمَّدُ- حينَ يُطأطِئُ المُجرِمونَ[٣] رُؤوسَهم يومَ القيامةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

(٣) قيل: المرادُ بهم هنا: القائلونَ: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [السجدة: ١٠] مِن مُنكِري البعثِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١). =

عندَ اللهِ تعالى[(١)]؛ بسَبَبِ تَكذيبِهم وعِصيانِهم[(٢)]!

﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

أي: يَقولونَ: يا رَبَّنا أبصَرْنا وسَمِعْنا ما كُنَّا نُنكِرُه أو نَشُكُّ فيه مِنَ الحَقِّ، فارجِعْنا إلى الدُّنيا؛ لِنَعمَلَ فيها عَمَلًا صالِحًا، إنَّا الآنَ مُوقِنونَ بالحَقِّ[(٣)]!

كما قال سُبحانَه: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨].

= وقيل: يجوزُ أن يكون المرادُ كُلَّ مُجرِمٍ، ويدخُلُ فيهم أولئك المنكِرونَ للبَعثِ دُخولًا أوَّليًّا. وممَّن قال بذلك: الشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩١).

(١) قيل: ناكِسو رؤوسِهم حياءً وخجلًا. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢).

وممَّن أضاف إلى الحياءِ أو الخجَلِ: النَّدمَ: ابنُ الجوزي، والرسعني، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٨١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩١).

وقال القرطبي: (﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: مِن النَّدمِ والخِزْيِ والحزنِ والذُّلِّ والغَمِّ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٦٦).

وقال البقاعي: (﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: مُطَأْطِئوها خجلًا وخوفًا، وخِزْيًا وذُلًّا). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥، ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١، ٢٢٢).

قيل: جوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، تقديرُه: لرأيتَ أمرًا عَجَبًا عَظيمًا. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

وقيل: المعنى: يا محمَّدُ، قُلْ للمُجرِمِ: ولو تَرى إذِ المجرِمونَ ناكِسو رؤوسِهم عند رَبِّهم، لَنَدِمْتَ على ما كان منك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥).

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤].

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا جوابٌ عن قَولِهم: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢]، وبيانُه هو أنَّه تعالى قال: إنِّي لو أردْتُ منكم الإيمانَ لَهَديتُكم في الدُّنيا، ولَمَّا لم أهْدِكم تبيَّنَ أنِّي ما أردتُ وما شِئتُ إيمانَكم، فلا أرُدُّكم[(١)].

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾.

أي: ولو شِئْنا لهَدَينا كُلَّ إنسانٍ في الدُّنيا إلى الحَقِّ، فوفَّقْناه للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ فمَشيئةُ اللهِ تعالى صالحةٌ لذلك[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأَمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

أي: ولكِنْ وجَبَ القَولُ منِّي، وثَبَت ثُبوتًا لا تغيُّرَ فيه: أنْ أمْلأَ جهنَّمَ مِن كُفَّارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١، ٢٢٢).

الجِنِّ والنَّاسِ، فأُعَذِّبَهم فيها جميعًا[١].

كما قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥].

﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ لهم أنَّه لا رُجوعَ إلى الدُّنيا، أنَّبَهم على ما عَمِلوا مِن تَدْسِيةِ نُفوسِهم بفِعلِ المعاصي، وتَرْكِ الطَّاعةِ له، فقال[٢]:

﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾.

أي: فذُوقوا العذابَ -أيُّها الكافِرونَ- بسَبَبِ نِسيانِكم يومَ القيامةِ وتَكذيبِكم به، وتَرْكِكم العمَلَ استِعدادًا لِلِقاءِ اللهِ تعالى فيه، إنَّا نَترُكُكم في العذابِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤، ٦٥٥).
والمرادُ بالقولِ هو قولُه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٥).
قال الواحدي: (وتأويلُ النِّسيانِ هاهنا التَّركُ في قولِ المفسِّرينَ وأهلِ المعاني). ((البسيط)) (١٨/ ١٤٧).
=

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤].

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وذوقوا عَذابًا تُخلَّدونَ فيه إلى الأبدِ؛ بسَبَبِ ما كُنتُم تَعملونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ والعِصيانِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ رَدٌّ على القَدَرِيَّةِ الَّذين يقولون: إنَّ الإنسانَ مُستقِلٌّ بعَمَلِه، ليس لله سُبحانه وتعالى فيه تقديرٌ ولا خَلْقٌ! يَشاءُ لنَفْسِه، ويفعَلُ بنَفسِه! وليس لله تَعلُّقٌ بفِعلِه[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ إثباتُ الكلامِ للهِ، وأنَّ كلامَه تعالى بحرفٍ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ حروفٌ، وفيه الرَّدُّ على مَن زَعَم أنَّ كلامَ اللهِ هو المعنى القائمُ بالنَّفْسِ؛ إذْ لو كان كذلك لَقال سُبحانَه وتعالى: «ولكِنْ أردتُ أنْ أمْلأَ»، ولم يقُلْ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ﴾[٣].

= وقال ابنُ كثير: (﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: [إنَّا] سنعامِلُكم معاملةَ النَّاسي؛ لأنَّه تعالى لا ينسَى شيئًا، ولا يضِلُّ عنه شيءٌ، بل مِن بابِ المقابلةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢).

وقال القاسمي: (﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: جازَيْناكم جزاءَ نسيانِكم. أو ترَكْناكم في العذابِ تركَ المنسيِّ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أنَّ كُفَّارَ الجِنِّ في النارِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف جعَلَ جَميعَ الإنسِ والجِنِّ ممَّا يَملأُ بهم النَّارَ؟

الجوابُ: أنَّ هذا لبيانِ الجِنسِ، أي: جهنَّمُ تُملَأُ مِن الجِنِّ والإنسِ لا غَيرُ؛ أمْنًا للملائِكةِ، ولا يقتضي ذلك دُخولَ الكُلِّ، كما يقولُ القائِلُ: (ملأتُ الكِيسَ مِن الدَّراهِمِ)، لا يلزَمُ ألَّا يبقَى دِرهَمٌ خارِجَ الكيسِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أنَّ أهلَ النارِ يُوَبَّخونَ بتركِهم العملَ للنَّجاةِ منها، ويَتَفَرَّعُ على هذه الفائدةِ: زيادةُ التَّعذيبِ بالتَّعذيبِ القلبيِّ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا وُبِّخَ على عمَلٍ عَمِلَه؛ فإنَّه يَزدادُ حسرةً وندمًا[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ لو قال قائِلٌ: النِّسيانُ لا يكونُ إلَّا في المعلومِ أوَّلًا إذا جُهِلَ آخِرًا؟

فالجَوابُ: لَمَّا ظَهَرت براهينُه فكأنَّه ظَهَر وعُلِمَ، ولَمَّا تَرَكوه بعْدَ الظُّهورِ ذُكِرَ بلَفظِ النِّسيانِ؛ إشارةً إلى كَونِهم مُنكِرينَ لأمرٍ ظاهرٍ، كمَنْ يُنكِرُ أمرًا كان قد عَلِمَه[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٥)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٦).

وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العَمَلِ، فكما أنَّهم أفنَوا حياتَهم في مَعصيةِ اللهِ؛ فإنَّ حياتَهم الآخِرةَ أيضًا ستكونُ في عذابِ اللهِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾ إطلاقُ النِّسيانِ على التَّركِ[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾ -يعني: تَرَكْناكم- إثباتُ الأفعالِ الاختياريةِ للهِ، وهذا يدُلُّ على أنَّه تعالى يَتْرُكُ مَن شاء، ويُقْبِلُ على مَن شاء[٣].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾، وقولُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقولُه: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقولُه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، وقولُه: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]، لا يُعارِضُ قولَه تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وقولَه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ [مريم: ٦٤]؛ لأنَّ معنى النِّسيانِ المُثبَتِ: هو تَرْكُهم في العذابِ مَحرومينَ مِن كلِّ خيرٍ، فالنِّسيانُ المثبَتُ بمعنَى التَّركِ، والمَنْفيُّ عنه تعالَى هو الَّذي بمعنَى السَّهْوِ؛ لأنَّه مُحالٌ على اللهِ تعالَى[٤].

١١- قَولُه تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أي: العذابَ غَيرَ المُنقَطِعِ؛ فإنَّ العذابَ إذا كان له أجَلٌ وغايةٌ، كان فيه بعضُ التَّنفيسِ والتَّخفيفِ، وأمَّا عذابُ جَهنَّمَ -أعاذنا اللهُ منه- فليس فيه رَوحُ راحةٍ، ولا انقِطاعَ لِعَذابِهم فيها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٢)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ جيءَ في تَصويرِ حالِ المنكرينَ للبعثِ عندَ حَشرِهم إلى الحسابِ بطَريقةِ حَذفِ جَوابِ (لو)، حَذفًا يُرادِفُه أنْ تَذهَبَ نفْسُ السَّامعِ كلَّ مَذهبٍ مِن تَصويرِ فَظاعةِ حالِهم، وهَولِ مَوقفِهم بيْن يَدَيْ ربِّهم[1]؛ والخِطابُ لكلِّ أحدٍ ممَّن يَصلُحُ له كائنًا مَن كانَ؛ إذِ المُرادُ بَيانُ كَمالِ سُوءِ حالِهم، وبُلوغِها مِن الفَظاعةِ إلى حيثُ لا يَختَصُّ استِغرابُها واستفظاعُها بِرَاءٍ دونَ راءٍ ممَّن اعتادَ مُشاهَدةَ الأُمورِ البَديعةِ، والدَّواهي الفظيعةِ، بل كلُّ مَن يَتأتَّى منه الرُّؤيةُ يَتعجَّبُ مِن هَولِها وفَظاعتِها[2]، فتوجيهُ الخِطابِ إلى غَيرِ مُعيَّنٍ لإفادةِ تَناهِي حالِهم في الظُّهورِ حتَّى لا يَختَصَّ به مُخاطَبٌ[3].

- وقيل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ ...﴾ يجوزُ أنْ يكونَ خِطابًا لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وفيه وَجهانِ: أنْ يُرادَ به التَّمنِّي، كأنَّه قال: ولَيْتَك تَرى؛ لأنَّه تَجرَّعَ منهم الغُصَصَ ومِن عَداوتِهم وضِرارِهم، فجعَلَ اللهُ له تَمنِّيَ أنْ يَراهم على تلك الصِّفةِ الفظيعةِ؛ مِن الحياءِ، والخِزْيِ، والغَمِّ؛ لِيَشمَتَ بهم، وأنْ تكونَ (لو) الامتناعيَّةُ قد حُذِفَ جَوابُها، وهو: لَرأيتَ أمْرًا فظيعًا، أو: لَرأيتَ أسوَأَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

وردَّ أبو السعودِ هذا القولَ، فقال: (ومَنْ علَّل عُمومَ الخِطابِ بالقصدِ إلى بيانِ أنَّ حالَهم قد بلغتْ مِن الظُّهورِ إلى حيث يمتنعُ خَفاؤها البتَّةَ، فلا تختصُّ رؤية راءٍ دونَ راءٍ، بل كلُّ مَن يتأتَّى منه الرُّؤيةُ فله مدخَلٌ في هذا الخِطابِ: فقد نأى عن تحقيقِ الحقِّ؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ كمالِ فظاعةِ حالِهم كما يُفصِحُ عنه الجوابُ المحذوفُ، لا بيانُ كمالِ ظهورِها؛ فإنَّه مَسوقٌ مَساقَ المسلَّماتِ). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٣).

حالٍ تُرى. ويَجوزُ أنْ يُخاطَبَ به كلُّ أحدٍ[١].

- قولُه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (لو) و(إذ) كِلاهما للمُضِيِّ، وإنَّما جازَ ذلك؛ لأنَّ المُترقَّبَ مِن اللهِ بمَنزلةِ المَوجودِ المَقطوعِ به في تَحقُّقِه[٢].

- والمُجرِمون همُ الَّذين قالوا: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠] -على قولٍ-؛ فهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِقَصدِ التَّسجيلِ عليهم بأنَّهم في قَولِهم ذلك مُجرِمون، أي: آتُونَ بجُرمٍ؛ وهو جُرمُ تَكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعطيلِ الدَّليلِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عُدولٌ عن الجُملةِ الفِعليَّةِ إلى الجُملةِ الاسميَّةِ ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾؛ لِتَقريرِ ثَباتِهم على نَكسِ رُؤوسِهم؛ خجَلًا، وحَياءً، وخِزْيًا، عندَما تَبْدو مَثالِبُهم وهَنَاتُهم بصُورةٍ دَميمةٍ شَوهاءَ، تَبعَثُ على الهُزءِ بهم، والسُّخريةِ منهم، كأنَّما استمرَّ ذلك منهم؛ لا يَرتفِعُ لهم رأْسٌ، ولا يَمتدُّ منهم طَرْفٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢١).
وقال أبو حيان متعقِّبًا كلامَ الزمخشري: (والتَّمنِّي بـ «لو» في هذا الموضعِ بعيدٌ، وتَسميةُ «لو» الامتناعيَّةَ ليس بجيِّدٍ، بل العبارةُ الصحيحةُ «لو» لِمَا كان سيَقَعُ لِوُقوعِ غَيرِه، وهي عِبارةُ سيبويه. وقولُه: قد حُذِفَ جوابُها، وتقديرُه: ولَيْتَك ترَى، ممَّا يدُلُّ على أنَّها إذا كانتْ للتَّمنِّي لا جوابَ لها، والصَّحيحُ: أنَّها إذا أُشرِبَتْ معنى التَّمنِّي، يكونُ لها جوابٌ كحالِها إذا لم تُشْرَبْه). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٥). ويُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (٤/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٨١).

- وجُملةُ ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا ...﴾ إلى آخرِها، مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ هو في مَوضعِ الحالِ، أي: ناكسو رُؤوسِهم، يَقولون أو قائلِينَ: أبصَرْنا وسمِعْنا. وحُذِفَ مَفعولُ ﴿أَبۡصَرۡنَا﴾ ومَفعولُ (سَمِعْنَا)؛ لِدَلالةِ المَقامِ، أي: أبصَرْنا مِن الدَّلائلِ المُبصَرةِ ما يُصدِّقُ ما أُخبِرْنا به -فقد رأَوُا البَعثَ مِن القُبورِ، ورَأَوْا ما يُعامَلُ به المُكذِّبون-، وسَمِعْنا مِن أقوالِ الملائكةِ ما فيه تَصديقُ الوعيدِ الَّذي تُوعِّدْنا[1].

- وقولُه: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ تَعليلٌ لِتَحقيقِ الوَعدِ بالعمَلِ الصَّالحِ؛ بأنَّهم صاروا مُوقِنينَ بحَقِّيَّةِ ما يَدْعوهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليه؛ فكانتْ (إنَّ) مُغْنيةً غَناءَ فاءِ التَّفريعِ المُفيدةِ للتَّعليلِ[2].

- وعُدِلَ عن الجُملةِ الفِعليَّةِ إلى الاسميَّةِ المُؤكَّدةِ في قولِه: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم ثابتون على الإيقانِ، راغِبونَ فيه بعدَ أنْ ظهَرَت لهم المَغابُّ (العواقبُ) مُناديةً عليهم بالوَيلِ والثُّبورِ، وكلُّ ذلك للجِدِّ في الاستِدعاءِ؛ طمَعًا في الإجابةِ إلى ما سَألوه مِن الرَّجعةِ، وأنَّى لهم ذلك[3]؟!

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ اعتراضٌ بيْنَ القولِ المُقدَّرِ قبْلَ قولِه: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾ [السجدة: ١٢]، وبيْنَ الجوابِ عنه بقولِه: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ﴾ [السجدة: ١٤]؛ فالواوُ الَّتي في صَدرِ الجُملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٨١).

اعتراضيَّةٌ، وهي مِن قَبيلِ واوِ الحالِ. ومَفعولُ فِعلِ المَشيئةِ مَحذوفٌ؛ استِغناءً عن المَفعولِ بما يدُلُّ عليه جوابُ الشَّرطِ[(١)].

- وفي قولِه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ إيجازٌ يَبلُغُ مَبلَغَ الإعجازِ؛ إذ حُذِفَ مُعظَمُ ما أُريدَ بحَرفِ الاستِدراكِ الواردِ على قولِه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾؛ فإنَّ مُقتَضَى الاستدراكِ أنْ يُقدَّرَ: ولكنَّا لمْ نَشَأْ ذلك، بلْ شِئْنا أنْ نَخلُقَ النَّاسَ مُختارينَ بيْنَ طَريقَي الهُدى والضَّلالِ، ووَضَعْنا لهم دَواعيَ الرَّجاءِ والخَوفِ، وأرَيْناهم وَسائلَ النَّجاةِ والارتباكِ بالشَّرائعِ؛ قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، أي: الطَّريقينِ، وحَقَّقْنا الأخبارَ عن الجَزاءينِ بالوَعدِ والوعيدِ بالجنَّةِ وجَهنَّمَ، فلَأمْلَأنَّ جهنَّمَ بأهْلِ الضَّلالِ مِن الجِنَّةِ والنَّاسِ أجمعينَ، فدخَلَ هذا في قولِه تعالى: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بما يُشبِهُ دَلالةَ الاقتضاءِ، وإنَّما اختيرَ الاقتصارُ في المَنطوقِ به الدَّالِّ على المَحذوفِ على شِقِّ مَصيرِ أهلِ الضَّلالِ؛ لأنَّه الأنسَبُ بسِياقِ الاعتراضِ إثْرَ كلامِ أهْلِ الضَّلالةِ في يَومِ الجزاءِ، ولأنَّه أظهَرُ في تَعلُّقِ مَضمونِ جُملةِ الاعتراضِ بمَضمونِ اقتراحِهم[(٢)].

- وعُدِلَ عن الإضافةِ في ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾، فلمْ يَقُلْ: (حقَّ قَولي)؛ لأنَّه أُريدَ الإشارةُ إلى قَولٍ مَعهودٍ، وهو ما في سُورةِ (ص): ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، أي: حَقَّ القولُ المعهودُ. واجتُلِبَت (مِن) الابتدائيَّةُ؛ لِتَعظيمِ شَأنِ هذا القولِ بأنَّه مِن اللهِ، وعُدِلَ عن ضَميرِ العَظَمةِ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٢٣، ٢٢٤).

ضَميرِ النَّفْسِ ﴿مِنِّي﴾؛ لإفادةِ الانفرادِ بالتَّصرُّفُ، ولأنَّه الأصلُ، مع ما في هذا الاختلافِ مِن التَّفنُّنِ[(١)].

- قَولُه ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾، أي: الجِنِّ؛ طائِفةِ إبليسَ، وكأنَّه أنَّهم تحقيرًا لهم عندَ مَن يَستَعظِمُ أمْرَهم[(٢)].

- قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ بدأ بالجِنِّ؛ لاستِعظامِ الكافِرينَ لهم، ولأنَّ المقامَ مقامُ تحقيرٍ لهم[(٣)].

٣- قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ جوابٌ عن قولِهم: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢]؛ فالفاءُ لِتَفريعِ جوابٍ عن إقرارِهم؛ إلْزامًا لهم بمُوجَبِ إقرارِهم، أي: فيَتفرَّعُ على اعترافِكم بحَقِّيَّةِ ما كان الرَّسولُ يَدْعوكم إليه أنْ يَلحَقَكم عذابُ النَّارِ. ومَجيءُ التَّفريعِ مِن المُتكلِّمِ على ما هو مِن كلامِ المُخاطَبِ فيه إلْزامٌ بالحُجَّةِ[(٤)].

- وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ لِتَرتيبِ الأمْرِ بالذَّوقِ على ما يُعرِبُ عنه ما قبْلَه مِن نَفْيِ الرَّجعِ إلى الدُّنيا، أو على الوَعيدِ المَحكيِّ، والباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ تَعذيبَهم ليس لِمُجرَّدِ سَبقِ الوَعيدِ به فقطْ، بلْ هو وسَبْقُ الوعيدِ أيضًا بسَببٍ مُوجبٍ له مِن قِبَلِهم؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير القنوجي)) (١١/ ٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٤، ٢٢٥).

كأنَّه قِيل: لا رَجْعَ لكمْ إلى الدُّنيا أو: حقَّ وَعِيدي، فذُوقوا بسَببِ نِسيانِكم لِقاءَ هذا اليومِ الهائلِ، وتَرْكِكُم التَّفكُّرَ فيه، والاستِعدادَ له بالكُلِّيَّةِ[١].

- ومَفعولُ (ذُوقوا) مَحذوفٌ دلَّ عليه السِّياقُ، أي: فَذُوقوا ما أنتم فيه ممَّا دَعاكم إلى أنْ تَسْألوا الرُّجوعَ إلى الدُّنيا[٢].

- قولُه: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ في إضافةِ (يومٍ) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ تَهكُّمٌ بهم؛ لأنَّهم كانوا يُنكِرونه، فلمَّا تَحقَّقوه جُعِلَ كأنَّه أشدُّ اختِصاصًا بهم. والإشارةُ بـ﴿هَٰذَآ﴾ إلى اليومِ؛ تَهويلٌ له[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ مُستأْنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ المُجرمينَ إذا سَمِعوا ما عَلِموا منه أنَّهم مُلاقو العَذابِ مِن قولِه: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾، تَطلَّعوا إلى مَعرفةِ مَدَى هذا العذابِ المَذوقِ؟ وهل لَهم منه مَخلَصٌ؟ وهلْ يُجابون إلى ما سَأَلوا مِن الرَّجعةِ إلى الدُّنيا؛ لِيَتدارَكوا ما فاتَهم مِن التَّصديقِ؟ فأُعلِمُوا بأنَّ اللهَ مُهمِلٌ شَأْنَهم، أي: لا يَستجيبُ لهم، وهو كِنايةٌ عن تَركِهم فيما أُذِيقوه[٤].

- وقد حُقِّقَ هذا الخبَرُ بمُؤكِّداتٍ؛ وهي: حَرفُ التَّوكيدِ (إنَّ)، وإخراجُ الكلامِ في صِيغةِ الماضي على خِلافِ مُقْتضى الظاهرِ مِن زَمنِ الحالِ؛ لإفادةِ تَحقُّقِ الفِعلِ حتَّى كأنَّه مَضى ووَقَعَ. وصُدِّرتِ الجملةُ بـ (إنَّ)، وعُطِفَ الطَّلَبيُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٢٥، ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٦).

على الخَبَريِّ؛ تشديدًا للانتقامِ منهم[١].

- قولُه: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عَطفٌ على ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾، وهو وإنْ أفادَ تَأكيدَ تَسليطِ العذابِ عليهم، فإنَّ عَطْفَه مُراعًى فيه ما بيْنَ الجُملتينِ مِن المُغايَرةِ بالمُتعلِّقاتِ والقُيودِ، مُغايرةً اقتَضَت أنْ تُعتبَرَ الجُملةُ الثَّانيةُ مُفيدةً فائدةً أُخرى؛ فالجُملةُ الأُولى تَضمَّنتْ أنَّ مِن سَببِ استِحقاقِهم تلك الإذاقةَ: إهمالَهم التَّدبُّرَ في حُلولِ هذا اليومِ، والجُملةُ الثَّانيةُ تَضمَّنَت أنَّ ذلك العذابَ مُستمِرٌّ، وأنَّ سببَ استمرارِ العذابِ، وعَدمِ تَخفيفِه؛ أعمالُهم الخاطئةُ، وهي أعمُّ مِن نِسيانِهم لِقاءَ يَومِهم ذلك[٢]. وفي إبهامِ المَذوقِ أوَّلًا، وبَيانِه ثانيًا بتَكريرِ الأمْرِ، وتَوسيطِ الاستئنافِ المُنبئِ عن كَمالِ السَّخطِ بيْنَهما: مِن الدَّلالةِ على غايةِ التَّشديدِ في الانتقامِ منهم ما لا يَخْفَى[٣].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤).

الآيات (١٥-١٧)

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَرُّوا۟﴾: الخُرورُ والخَرُّ: السُّقوطُ مِن عُلُوٍّ إلى الأرضِ، وخرَّ: سقَط على وَجهِه، وأصلُ (خَرَّ): هو اضْطِرابٌ، وسُقوطٌ مع صوتٍ[١].

﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾: أي: ترتَفِعُ وتَتنحَّى عن الفِراشِ، وأصلُ (جفو): يدُلُّ على نبوٍّ (أي: ارتفاعٍ أو تنحِّي) الشَّيءِ عن الشَّيءِ[٢].

﴿ٱلْمَضَاجِعِ﴾: جمْع مَضْجَعٍ، وهو موضِعُ الضُّجوعِ والنَّومِ، وأصلُ (ضجع): اللُّصوقُ بالأرضِ على جَنْبٍ[٣].

﴿قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: أي: ما تَلَذُّه وتَشتَهيه، وهي مأخوذةٌ مِن القُرِّ، أي: البَردِ، يُقالُ: قَرَّتْ عينُه، أي: بَرَدَت، فقد قيل: دَمعُ الفَرَحِ بارِدٌ، بخِلافِ دَمعِ الحُزنِ، وقيلَ: مأخوذةٌ مِنَ القَرارِ، والمعنى: أعطاهم اللهُ ما تَسكُنُ به أعينُهم فلا تطمَحُ إلى غَيرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٩)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((تفسير =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ المؤمنينَ الصادقينَ، وما أعدَّ لهم مِن ثوابٍ: إنَّما يُؤمِنُ بآياتِ اللهِ الَّذين إذا ذُكِّرُوا بها خَرُّوا إلى الأرضِ ساقِطينَ على وُجوهِهم سُجَّدًا؛ خُضوعًا لرَبِّهم، وإقرارًا بعُبوديَّتِه سُبحانَه، ونزَّهوا اللهَ تعالى في سُجودِهم عن كُلِّ النَّقائِصِ والعُيوبِ، وهم لا يَستكبِرونَ.

تَتباعَدُ جُنوبُهم عن فُرُشِهم، ويَتركُونَ النَّومَ لِمُناجاةِ رَبِّهم؛ خَوفًا مِن عذابِه، وطَمَعًا في ثوابِه، ويُنفِقونَ مِمَّا رَزَقهم اللهُ تعالى، فلا يَعلَمُ أيُّ أحدٍ ما أخفَى اللهُ لأولئك المؤمِنينَ مِمَّا تَقَرُّ به أعينُهم مِنَ النَّعيمِ؛ ثوابًا لهم بما كانوا يَعمَلونَه مِنَ الصَّالحاتِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الكافِرينَ بآياتِه، وما أعَدَّ لهم مِنَ العذابِ؛ ذكَرَ المؤمِنينَ بها ووصْفَهم، وما أعَدَّ لهم مِنَ الثَّوابِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان قَولُه تعالى: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ﴾ قد أشار إلى أنَّ الحامِلَ لهم على الكُفرِ الكِبْرُ، وذكَرَ سُبحانَه أنَّه قَسَّم النَّاسَ قِسْمَينِ لأجْلِ الدَّارَينِ: تشَوَّفَت النَّفْسُ إلى ذِكرِ علامةِ أهلِ الإيمانِ، كما ذُكِرَتْ علامةُ أهلِ الكُفرانِ؛

= ابن عطية)) (٤/ ٣٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

فقال تعالى[١]:

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا ﴾.

أي: إنَّما يُؤمِنُ بآياتِ اللهِ[٢] الَّذين إذا ذُكِّروا بها بادَروا إلى إظهارِ التَّذَلُّلِ والخُضوعِ لله، فهَوَوا إلى الأرضِ ساقِطينَ على وُجوهِهم سُجَّدًا؛ تَعظيمًا وخُضوعًا لرَبِّهم، وإقرارًا بعُبوديَّتِه سُبحانَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۞ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) قيل: المرادُ بها هنا: القرآنُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٧).

وقيل: المرادُ: العُمومُ، فتَشملُ الآياتِ الكونيَّةَ، وتَشملُ الآياتِ الشَّرعيَّةَ على سبيلِ العُمومِ حتَّى فيما سبَق. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٧، ٢٢٨).

قال البقاعي: (﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ أي: بادَروا إلى السُّجودِ مُبادرةَ مَن كأنَّه سَقَط مِن غيرِ قَصدٍ، خُضَّعًا للهِ مِن شِدَّةِ تواضُعِهم وخَشيتِهم وإخباتِهم له، خُضوعًا ثابتًا دائمًا). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٥٤).

أي: ونزِّهوا اللهَ تعالى في سُجودِهم عن جَميعِ النَّقائِصِ والعُيوبِ، تنزيهًا مُتلبِّسًا بحَمدِه، وإثباتِ صِفاتِ كَمالِه[١].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ في رُكوعِه وسُجودِه: ((سُبحانَك اللَّهُمَّ رَبَّنا وبحَمدِك، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي))[٢].

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: يَسجُدونَ للهِ، ويُسَبِّحونَ بحَمدِه، والحالُ أنَّهم لا يَستَكبِرونَ[٣].

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

أي: تَرتَفِعُ وتَتباعَدُ جُنوبُ هؤلاءِ المؤمِنينَ مُتنَحِّيةً عن فُرُشِهم، فيَهجُرونَ النَّومَ لِمُناجاةِ اللهِ تعالى في اللَّيلِ؛ خَوفًا مِن غَضَبِه وسَخَطِه وعَذابِه، وطَمَعًا في رِضاهُ ورَحمتِه ومَغفِرتِه وثَوابِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٧، ٦٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٢).

(٢) رواه البخاري (٧٩٤) واللفظ له، ومسلم (٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٨٠).

قيل: لا يَستكبِرونَ عن السُّجودِ والتَّسبيحِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٨). واقتصَر مقاتلُ بنُ سُليمانَ على السُّجودِ. يُنظر ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٥١).

وقيل: لا يَستكبِرونَ عن آياتِ رَبِّهم، فهم يتَّبِعونَها، ويَنقادونَ إليها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٨، ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٩ - ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: =

كما قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ إيثارَهم التَّقرُّبَ إلى اللهِ على حُظوظِ لَذَّاتِهم الجَسديَّةِ؛ ذكَرَ معه إيثارَهم

= ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٨، ٢٢٩).

قيل: المقصودُ هنا: قيامُ اللَّيلِ. وقد مال إليه ابنُ جرير، وذهب إليه ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٣، ٦١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسنُ، ومجاهدٌ، وعطاءٌ، وأبو العاليةِ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤٠).

وقيل: يَشملُ ذلك كلَّ مَن ترَك النَّومَ باللَّيلِ لذِكرِ الله ودعائِه، فيَدخُلُ فيه مَن صلَّى بيْن العِشاءينِ، ومَن انتظَر صلاةَ العِشاءِ فلمْ يَنَمْ حتَّى يُصَلِّيَها، لا سيَّما مع حاجتِه إلى النَّوم، ومُجاهَدةِ نفْسِه على تَركِه لأداءِ الفريضةِ، ويَدخُلُ فيه مَن نام ثمَّ قام مِن نَومِه باللَّيلِ لِلتَّهَجُّدِ، ورُبَّما دخل فيه مَن ترَك النَّومَ عندَ طُلوعِ الفَجرِ، وقام إلى أداءِ صلاةِ الصُّبحِ، لا سيَّما مع غَلَبةِ النَّومِ عليه. قاله: ابن رجب. يُنظر: ((جامع العلوم والحِكَم)) (٢/ ١٤٢، ١٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٢).

وقيل: تَجافي الجَنبِ: هو أن يُصلِّيَ الرَّجُلُ العِشاءَ والصُّبحَ في جماعةٍ. وممَّن استحسَنَ هذا المعنى: القرطبيُّ، وقال: (العادةُ أنَّ مَن حافَظَ على هذه الصَّلاةِ في أوَّلِ الوَقتِ يقومُ سَحَرًا يَتوضَّأُ ويُصَلِّي، ويَذكُرُ اللهَ عزَّ وجلَّ إلى أن يَطلُعَ الفَجرُ، فقد حصل التَّجافي أوَّلَ اللَّيلِ وآخِرَه، يؤيِّدُ هذا ما رواه مُسلِمٌ [٦٥٦] مِن حديثِ عُثمانَ بنِ عَفَّانَ قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: «مَن صلَّى العِشاءَ في جماعةٍ فكأنَّما قام نِصفَ اللَّيلِ، ومَن صلَّى الصُّبحَ في جماعةٍ فكأنَّما قام اللَّيلَ كُلَّه»). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو الدَّرْداءِ، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤١).

إيَّاهُ على ما به نَوالُ لَذَّاتٍ أُخرى، وهو المالُ؛ إذ يُنفِقون منه ما لو أبْقَوه لَكان مَجلبةَ راحةٍ لهم، فقال[١]:

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

أي: ومِمَّا رزَقَهم ربُّهم يُنفِقونَ في سَبيلِه سُبحانَه[٢].

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ جَزاءَ المُستَكبِرينَ، فتشَوَّفَتِ النَّفْسُ إلى جزاءِ المتواضِعينَ؛ أشار إلى جزائِهم بفاءِ السَّبَبِ؛ إشارةً إلى أنَّه هو الذي وفَّقَهم لهذه الأعمالِ برَحمتِه، وجعَلَها سَبَبًا إلى دُخولِ جَنَّتِه، ولو شاء لَكان غيرُ ذلك[٣].

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

أي: فلا يَعلَمُ أيُّ أحَدٍ[٤] ما أخفَى اللهُ لأولئكَ المؤمِنينَ مِنَ النَّعيمِ العَظيمِ في الجنَّةِ، مِمَّا تَقَرُّ به أعينُهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٤) قيل: يَدخُلُ في هذا العُمومِ: الملائِكةُ. وممَّن صرَّح بذلك: الزمخشريُّ، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٠).

وقيل: المرادُ: أصحابُ النُّفوسِ البَشَريَّةِ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((قال اللهُ: أعدَدْتُ لِعِبادِيَ الصَّالحينَ ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ؛ فاقرَؤوا إن شِئتُم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾))[١].

وعنِ المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((سأل موسى رَبَّه: ما أدنى أهلِ الجنَّةِ مَنزِلةً؟ قال: هو رجُلٌ يَجيءُ بعدَ ما أُدخِلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، فيُقالُ له: ادخُلِ الجنَّةَ، فيَقولُ: أيْ رَبِّ، كيف وقد نزَلَ النَّاسُ مَنازِلَهم، وأَخَذوا أَخَذاتِهم[٢]؟! فيُقالُ له: أتَرضَى أن يكونَ لك مِثلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِن مُلوكِ الدُّنيا؟ فيَقولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فيقولُ: لك ذلك، ومِثلُه ومِثلُه ومِثلُه ومِثلُه، فقال في الخامسةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فيقولُ: هذا لك وعَشَرةُ أمثالِه، ولك ما اشتَهَت نَفْسُك، ولَذَّتْ عَينُك! فيقولُ: رَضِيتُ رَبِّ. قال: رَبِّ، فأعلاهم مَنزِلةً؟ قال: أولئك الَّذين أرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرامَتَهم بيَدِي، وخَتَمتُ عليها، فلَمْ تَرَ عَينٌ، ولم تَسمَعْ أُذُنٌ، ولم يَخطُرْ على قَلبِ بَشَرٍ، قال: ومِصْداقُه في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾))[٣].

﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

أي: أعدَّ اللهُ لهم ذلك النَّعيمَ العظيمَ في الجنَّةِ؛ ثَوابًا لهم على أعمالِهم الصَّالحةِ الَّتي كانوا يَعمَلونَها في الدُّنيا[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٤) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) أَخَذوا أَخَذاتِهم: هو ما أَخَذوه مِن كرامةِ مَولاهم وحصَّلوه، أو يكون معناه: قصَدوا منازلَهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٤٦).

(٣) رواه مسلم (١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٣).

كما قال تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أنَّ التَّعصُّبَ في التَّقليدِ ليس مِن طَريقِ المؤمِنينَ؛ لِقَولِه: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، ويُوجَدُ في المتعَصِّبينَ في التَّقليدِ مَن يَستكبِرُ عن الحَقِّ؛ إذا عُرِضَ عليه أبَى[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ فيه أنَّ الَّذي يؤمِنُ إيمانًا حَقيقيًّا: يُوجَدُ منه شواهِدُ الإيمانِ، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ بآياتِ رَبِّهم فتُلِيَت عليهم آياتُ القُرآنِ، وأتَتْهم النَّصائِحُ على أيدي رُسلِ اللهِ، ودُعُوا إلى التَّذَكُّرِ: سَمِعوها فقَبِلوها، وانقادوا و﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ أي: خاضِعينَ لها خُضوعَ ذِكرٍ لله، وفَرَحٍ بمَعرفتِه، ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ لا بقُلوبِهم ولا بأبدانِهم فيمتَنِعونَ مِن الانقيادِ لها، بل مُتواضِعون لها، قد تلَقَّوها بالقَبولِ والتَّسليمِ، وقابَلوها بالانشِراحِ والتَّسليمِ، وتوصَّلوا بها إلى مَرضاةِ الرَّبِّ الرَّحيمِ، واهتَدَوا بها إلى الصِّراطِ المُستقيمِ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا ...﴾ الاستِدلالُ بالقَرائِنِ والأحوالِ على حَقيقةِ الشَّيءِ، وهذه مُفيدةٌ غايةَ الفائِدةِ للقُضاةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٨١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا ﴾ أنَّ مِن عَلامةِ المؤمِنِ انقيادَه للمَواعِظِ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أنَّ مِن صِفاتِ المؤمنِ التَّواضُعَ للحقِّ وللخَلْقِ[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ في قَولِه: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أنَّه ينبغي للدَّاعِي وللعاملِ العابدِ أنْ يكونَ دعاؤُه وعبادتُه بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ لَمَّا كانت العِبادةُ تَقطَعُ عن التَّوسُّعِ في الدُّنيا، فرُبَّما دَعَت نَفْسُ العابدِ إلى التَّمَسُّكِ بما في يَدِه؛ خَوفًا مِن نَقصِ العبادةِ عن الحاجةِ؛ لِتَشوُّشِ الفِكرِ والحَركةِ لِطَلَبِ الرِّزقِ: حثَّ على الإنفاقِ منه؛ اعتمادًا على الخلَّاقِ الرَّزَّاقِ الَّذي ضَمِنَ الخَلَفَ؛ لِيَكونوا بما ضَمِنَ لهم أوثَقَ منهم بما عِندَهم، وإيذانًا بأنَّ الصَّلاةَ سَبَبٌ للبَرَكةِ في الرِّزقِ[٤]. وأيضًا فقد يَنشَطُ العبدُ في العبادةِ البدنيَّةِ، لكنَّه يَبخَلُ فلا يَجودُ بنفقةٍ؛ لذا أثنَى الله تعالى على مَن جمَع بينَ الأمرينِ.

٨- تأمَّلْ في قَولِه تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٦).

كيف قابَلَ سُبحانَه ما أخفَوه مِن قيامِ اللَّيلِ، بالجَزاءِ الَّذي أخفاه لهم ممَّا لا تَعْلَمُه نَفْسٌ، وكيف قابَلَ قَلَقَهم وخَوفَهم واضْطِرابَهم على مَضاجِعِهم حينَ يقومون إلى صَلاةِ اللَّيلِ، بِقُرَّةِ الأعيُنِ في الجَنَّةِ[١]! قال الحَسَنُ البَصريُّ: (أخفى قَومٌ عَمَلَهم، فأخفَى اللهُ لهم ما لم تَرَ عَينٌ، ولم يَخطُرْ على قَلبِ بَشَرٍ)[٢]، فكما صَلَّوا في اللَّيلِ ودَعَوا وأخفَوُا العَمَلَ، جازاهم مِن جِنسِ عَمَلِهم؛ فأخفَى أجْرَهم[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ هذه الآيةُ أوردَ عليها بعضُ العُلَماءِ إشكالًا، وقال: هل لكُلِّ مَن ذُكِّرَ بآياتِ اللهِ أن يَسجُدَ؟ فإذا قُرِئَ عليه آيةُ سَجَد، أو إذا ما وعَظْتَه بمَوعظةٍ سَجَد؟

والجوابُ عن هذه الآيةِ: قال بَعضُهم: المرادُ بـ﴿خَرُّوا۟﴾: سَجَدوا في موضِعِ السُّجودِ، يعني: خَرُّوا سُجَّدًا؛ إذا مَرَّت بهم آياتُ سَجدةٍ سجَدوا، أمَّا إذا ذُكِّروا بآياتِ رَبِّهم بدونِ أن تَمُرَّ بهم آياتُ سَجدةٍ فإنَّهم لا يَسجُدونَ.

ولكِنَّ الصَّوابَ خِلافُ ذلك؛ فالصَّوابُ أنَّ المعنى: الَّذين إذا ذُكِّروا بها انقادوا لها، وخَضَعوا لها، ولا يلزَمُ مِن ذلك أن يكونَ السُّجودُ مُباشِرًا للتَّذكيرِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ يعني: حتَّى في المُستقبَلِ؛ فلا يلزَمُ أن يكونَ جوابُ الشَّرطِ مُباشِرًا له[٤].

وأيضًا فهذه الآيةُ وإن تناوَلَت سُجودَ التِّلاوةِ فتَناوُلُها لِسُجودِ الصَّلاةِ أعظَمُ؛

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٧٩).

فإنَّ احتياجَ الإنسانِ إلى هذا السُّجودِ أعظَمُ على كُلِّ حالٍ؛ فقد جَعَل الخُرورَ إلى السُّجودِ مِمَّا لا يَحصُلُ الإيمانُ إلَّا به[١]، فقَولُه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ليس يعني بها آياتِ السُّجودِ فقط، بل جميعَ القُرآنِ، فلا بُدَّ أن يكونَ إذا ذُكِّرَ بجَميعِ آياتِ القُرآنِ يَخِرُّ ساجِدًا، وهذا حالُ المصَلِّي؛ فإنَّه يُذكَّرُ بآياتِ اللهِ بقراءةِ الإمامِ، والإمامُ يُذكَّرُ بقراءةِ نَفْسِه، فلا يكونون مُؤمِنينَ حتَّى يخِرُّوا سُجَّدًا، وهو سُجودُهم في الصَّلاةِ، وهو سُجودٌ مُرَتَّبٌ، ينتَقِلونَ أوَّلًا إلى الرُّكوعِ، ثمَّ إلى السُّجودِ، والسُّجودُ مَثْنى كما بَيَّنه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَجتَمِعَ فيه خُروران: خرورٌ مِن قيامٍ، وهو السَّجدةُ الأولى، وخرورٌ مِن قُعودٍ، وهو السَّجدةُ الثَّانيةُ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ السُّجودَ مِن الإيمانِ -وهو رَدٌّ على المُرجئةِ، فإنْ كانت السَّجدةُ فرضًا كانت جزءًا مِن أجزاءِ فَرْضِه؛ وإنْ كانت تَطَوُّعًا فهي مِن أجزاءِ نَوافلِه[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّ المؤمِنينَ ليسُوا مُنحَصِرينَ فيمَنِ اتَّصَف بهذه الصِّفةِ، ولا أنَّ هذه الصِّفةَ شَرطٌ في تحقُّقِ الإيمانِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: المرادُ بـ﴿ذُكِّرُواْ﴾: وُعِظوا، وبالسُّجودِ: الخُشوعُ والخُضوعُ، والتَّواضُعُ في قَبولِ الموعِظةِ، وذلك شَرطٌ في تحقُّقِ الإيمانِ.

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٣٤).

الوجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالمؤمِن: الكامِلُ إيمانًا[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ استُدِلَّ به على كُفْرِ تارِكِ الصَّلاةِ، ووجْهُ الاستِدلالِ بالآيةِ أنَّه سُبحانَه نفَى الإيمانَ عمَّن إذا ذُكِّرُوا بآياتِ اللهِ لم يَخِرُّوا سُجَّدًا مُسَبِّحِيْنَ بحَمْدِ ربِّهم -ومِن أَعْظَمِ التَّذكيرِ بآياتِ الله التَّذكيرُ بآيات الصلاةِ-؛ فمَن ذُكِّرَ بها ولم يَتذَكَّرْ، ولم يُصَلِّ؛ لم يُؤمِنْ بها! لأنَّه سُبحانَه خَصَّ المؤمنينَ بها بأنَّهم أهلُ السُّجودِ، وهذا مِن أحسَنِ الاستِدلالِ وأقْرَبِه؛ فلمْ يؤمِنْ بقولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ١١٠] إلَّا مَنِ التزمَ إقامتَها[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الإيمانَ المُطلَقَ مُستَلزِمٌ للأعمالِ؛ فنفى سُبحانَه الإيمانَ عن غيرِ هؤلاء؛ فمَن كان إذا ذُكِّرَ بالقُرآنِ لا يَفعَلُ ما فَرَضَه اللهُ عليه مِن السُّجودِ، لم يكُنْ مِن المؤمِنينَ[٣]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الجَمعُ بيْنَ انتِفاءِ العَيبِ والنَّقصِ عن اللهِ تعالى مع ثُبوتِ الكَمالِ له، ففي التَّسبيحِ تَنزيهٌ، وفي الحَمدِ كَمالٌ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أنَّ في الجنةِ مِن قُرَّةِ العَينِ في المأكولِ والملبوسِ والمنكوحِ والمسكنِ ما لا يَخطُرُ على البالِ؛ لأنَّ كلَّ هذه الأربعةِ تَقَرُّ بها العَينُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٨٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٠).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِتَقريرِ عَدمِ استِحقاقِ المجرمينَ لإيتاءِ الهُدى، والإشعارِ بعَدمِ إيمانِهم لو أُوتُوه بتَعيينِ مَن يَستحِقُّه بطَريقِ القصْرِ، كأنَّه قِيل: إنَّكم لا تُؤمِنون بآياتِنا، ولا تَعمَلونَ بمُوجَبِها عمَلًا صالحًا، ولو رَجَعْناكم إلى الدُّنيا كما تَدَّعون[١].

- قولُه: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ أفادَتْ (إنَّما) قَصرًا إضافيًّا، أي: يُؤمِنُ بآياتِ اللهِ الَّذين إذا ذُكِّروا بها تَذكيرًا بما سبَقَ لهم سَماعُه، لم يَتريَّثوا عن إظهارِ الخُضوعِ للهِ، دُونَ الَّذين قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [السجدة: ١٠]، وهذا تَأييسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن إيمانِهم، وتَعريضٌ بهم بأنَّهم لا يَنفَعون المُسلمينَ بإيمانِهم، ولا يَغيظونَهم بالتَّصلُّبِ في الكُفرِ[٢].

- وأُوثِرَت صِيغةُ المُضارِعِ ﴿يُؤْمِنُ﴾؛ لِمَا تُشعِرُ به مِن أنَّهم يَتجدَّدون في الإيمانِ، ويَزْدادونَ يَقينًا وَقتًا فَوَقتًا؛ وإلَّا فإنَّ المؤمنينَ قد حصَلَ إيمانُهم فيما مَضى؛ ففِعلُ المُضِيِّ آثَرُ بحِكايةِ حالِهم في الكلامِ المُتداوَلِ لولا هذه الخُصوصيَّةُ؛ ولهذا عُرِّفوا بالمَوصوليَّةِ والصِّلةِ الدَّالِّ مَعناها على أنَّهم راسِخونَ في الإيمانِ، فعُبِّرَ عن إبلاغِهم آياتِ القُرآنِ وتِلاوتِها على أسماعِهم، بالتَّذكيرِ المُقتضِي أنَّ ما تَتضمَّنُه الآياتُ حَقائقُ مُقرَّرةٌ عِندَهم، لا يُفادُونَ بها فائدةً لم تكُنْ حاصِلةً في نُفوسِهم، ولكنَّها تكسِبُهم تَذكيرًا؛ ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣] [الذاريات: ٥٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ دلَّتِ الجُملةُ الشَّرطيَّةُ على اتِّصالِ تَعلُّقِ حُصولِ الجوابِ بحُصولِ الشَّرطِ وتَلازُمِهما[١].

- قولُه: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ التَّعرُّضُ لِعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ بطَريقِ الالْتِفاتِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِهم؛ للإشعارِ بعِلَّةِ التَّسبيحِ والتَّحميدِ، وبأنَّهم يَفعَلونهما بمُلاحَظةِ رُبوبيَّتِه تعالى لهم[٢].

- قولُه: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ جِيءَ في نَفْيِ التَّكبُّرِ عنهم بالمُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ لإفادةِ اختِصاصِهم بذلك، أي: دُونَ المُشركين الَّذين كان الكِبْرُ خُلُقَهم؛ فهم لا يَرضَون لأنفُسِهم بالانقيادِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منهم، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[٣] [الفرقان: ٢١].

٢- قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

- جُملةُ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ مُستأْنَفةٌ لِبَيانِ بَقيَّةِ مَحاسِنِهم، وهم المُتهجِّدونَ[٤]. وقيل: حالٌ مِن المَوصولِ، أي: الَّذين إذا ذُكِّروا بها خَرُّوا، ومَن حالُهم تَتجافَى جُنوبُهم عن المَضاجعِ، أو استئنافٌ، وجِيءَ بالمُضارِعِ؛ لإفادةِ تكرُّرِ ذلك وتَجدُّدِه منهم في أجزاءٍ كثيرةٍ مِن الأوقاتِ المُعَدَّةِ للاضْطِجاعِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤).

وهي الأوقاتُ الَّتي الشَّأنُ فيها النَّومُ[١].

- و(أل) في ﴿ٱلْمَضَاجِعِ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: عن مَضاجعِهم، كقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١]. وهذا تَعريضٌ بالمُشركينَ؛ إذ يَمْضُون ليلَهم بالنَّومِ، لا يَصرِفُه عنهم تَفكُّرٌ، بلْ يَسقُطون كما تَسقُطُ الأنعامُ[٢].

- وذكَر الطَّمعَ الَّذي هو الرَّجاءُ؛ لأنَّ الدُّعاءَ مَبْنيٌّ عليه؛ فإنَّ الدَّاعيَ ما لم يَطمَعْ في سُؤالِه ومَطلوبِه لم تَتحرَّكْ نفْسُه لطَلبِه، إذ طلَبُ ما لا يُطمَعُ فيه مُمتنعٌ[٣].

وقيل: عبَّرَ بـ(طَمَعًا) دونَ الرَّجاءِ؛ إشارةً إلى أنَّهم -لشِدَّةِ مَعرفتِهم بنقائِصِهم- لا يَعُدُّونَ أعمالَهم شَيئًا، بل يَطلُبونَ فَضْلَه بغيرِ سَبَبٍ، وإذا كانوا يَرجُونَ رَحمتَه بغيرِ سَبَبٍ، فهم مع السَّببِ أرجى، فهم لا يَيْأَسونَ مِن رَوْحِه[٤].

- قَولُه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ لم يَذكُرْ قَيْدَ النَّفَقةِ، ولا المُنفَقَ عليه؛ لِيَدُلَّ على العُمومِ، فإنَّه يَدخُلُ فيه النَّفَقةُ الواجِبةُ، كالزَّكواتِ، والكفَّاراتِ، ونَفَقةِ الزَّوجاتِ والأقارِبِ؛ والنَّفَقةُ المُستحَبَّةُ في وُجوهِ الخَيرِ، والنَّفَقةُ والإحسانُ الماليُّ خَيرٌ مُطلَقًا؛ سواءٌ وافَقَ غَنيًّا أو فقيرًا، قريبًا أو بعيدًا، ولكِنَّ الأجرَ يَتفاوَتُ بتَفاوُتِ النَّفعِ، فهذا عَمَلُهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

٣- قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ ﴾ رابطةٌ لِلَّاحقةِ بالسَّابقةِ، مُرتِّبةٌ لها عليها تَرتُّبَ الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ ﴾، وكان الأصلُ: تَتجافَى جُنوبُهم عن المَضاجِعِ، يَدْعون ربَّهم خوفًا وطمَعًا، وممَّا رَزقْناهم يُنفِقون، فلا يَعلَمون ما أُخفِيَ لهم، فيَجزيهم اللهُ الجزاءَ الأَوفَى؛ بشَهادةِ قولِه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾؛ فوَضَعَ النَّفْسَ مَوضعَ الضَّميرِ، ونكَّرَها تَنكيرَ تَفخيمٍ، لو وُصِفَتْ بكلِّ وَصفٍ ما بلَغَ هذا المَبلَغَ، ثمَّ رُوعِيَت المُناسَبةُ في قولِه: ﴿مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم ﴾؛ حيثُ أُبْهِمَ الجزاءُ، ولم يُعيَّنِ الفاعلُ؛ تَعظيمًا له[1]، فالإبهامُ يَدُلُّ على التَّفخيمِ، وفي ذلك دَلالةٌ على عِظَمِ نَعيمِ الجنَّةِ[2]؛ لِيَذهَبَ الفِكرُ في المَخفيِّ كُلَّ مَذهَبٍ. وقيل: بُني للمَفعولِ؛ للعِلمِ بأنَّه اللهُ تعالى الَّذي أخْفَوا نوافِلَ أعمالِهم لأجْلِه[3].

- قولُه: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ ﴾ (نفْسٌ) نَكِرةٌ في سِياقِ النَّفيِ؛ فيَعُمُّ جَميعَ الأنفُسِ ممَّا ادَّخَرَ اللهُ تعالى لأولئك، وأخفاهُ مِن جَميعِ خَلائقِه ممَّا تَقَرُّ به أعيُنُهم، لا يَعلَمُه إلَّا هو، وهذه عِدَةٌ عظيمةٌ لا تَبلَغُ الأفهامُ كُنْهَها، بلْ ولا تَفاصيلَها، ولا مَطمَحَ وراءَها[4].

- وعبَّرَ عن تلك النِّعمِ بـ﴿مَّآ أُخۡفِيَ ﴾؛ لأنَّها مُغَيَّبةٌ لا تُدرَكُ إلَّا في عالَمِ الخُلودِ[5].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٩٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٠).

- في قَولِه: ﴿أُخْفِيَ لَهُم﴾ بلامِ التَّمليكِ: زيادةُ إكرام؛ لأنَّ مَن قال لِغَيرِه: (اسكُنْ هذه الدَّارَ) يكونُ ذلك محمولًا على العارِيَّةِ، وله استِردادُه؛ وإذا قال: (هذه الدَّارُ لك) يكونُ ذلك محمولًا على نِسبةِ المِلْكيَّةِ إليه، وليس له استِردادُه بحُكمِ قَولِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٨).

الآيات (١٨-٢٢)

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْمَأْوَىٰ﴾: أي: المَثوى والمَسكَنُ، وأصْلُ (أوى) هنا: يدُلُّ على التَّجمُّعِ[(١)].

﴿نُزُلًا﴾: أي: ثَوابًا ورِزقًا، والنُّزُلُ: ما يُعَدُّ للنَّازِلِ مِنَ الزَّادِ، ويُهَيَّأُ للضَّيفِ، وأصلُ (نزل): يدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا عدَمَ التَّسويةِ بيْنَ المؤمنينَ والكافرين: أفمَن كان مُؤمِنًا باللهِ ورُسُلِه كمَن كان كافِرًا مُكَذِّبًا؟! لا يَستَوونَ.

ثمَّ يُفصِّلُ أحوالَ المؤمنينَ والكافرينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: أمَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ فلَهُم عندَ رَبِّهم جنَّاتٌ يَأوُونَ إليها، ويُقيمونَ فيها

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٠٩).

أبدًا؛ ضيافةً كريمةً مُعَدَّةً لهم بسَبَبِ ما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا مِن الصَّالحاتِ.

وأمَّا الَّذين خَرَجوا عن طاعةِ اللهِ بالكُفرِ والعِصيانِ فمَقَرُّهم النَّارُ، كُلَّما أرادوا أن يَخرُجوا منها أُعيدوا فيها مُكرَهينَ، وقيلَ لهم: ذوقُوا عذابَ النَّارِ الَّذي كُنتُم تُكَذِّبونَ بوُقوعِه.

ولَنُصيبَنَّ هؤلاء المكَذِّبينَ بأنواعٍ مِن العَذابِ قبْلَ يومِ القيامةِ دونَ العَذابِ الأكبَرِ في الآخِرةِ؛ لعلَّهم يَتوبونَ إلى اللهِ تعالى.

ثمَّ يُبيِّنُ حالَ مَن يُدْعَى إلى الهُدى فيُعرِضُ عنه، فيقولُ: ولا أحَدَ أظلَمُ ممَّن ذُكِّرَ بآياتِ ربِّه، ثمَّ أعرَضَ عنها استِكبارًا، إنَّا مُنتَقِمونَ مِن هؤلاءِ المُجرِمينَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المجرِمِ والمؤمِنِ، قال للعاقِلِ: هل يَستوي الفَريقانِ؟ ثمَّ بيَّن أنَّهما لا يَستويانِ[1].

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾.

أي: أفمَن كان مُؤمِنًا بآياتِ اللهِ متَّبِعًا لرُسُلِه، فهو مُؤمِنٌ بوَعدِه ووَعيدِه، طائعٌ له في أمْرِه ونَهْيِه: أيَكونُ في حُكمِ اللهِ كمَن كان كافِرًا مُكَذِّبًا، خارِجًا عن دائرةِ الإيمانِ وطاعةِ الرَّحمنِ[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٩٢).

كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾.

أي: لا يَستوي المؤمِنونَ والفاسِقونَ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ؛ فلِكُلٍّ جزاءٌ مُختَلِفٌ بحَسَبِ ما قدَّموه[1].

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه تَفصيلٌ لِمَراتبِ الفَريقَينِ في الآخِرةِ، بعدَ ذِكرِ أحوالِهما في الدُّنيا[2].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ أنَّ المؤمِنَ والفاسِقَ لا يَستويانِ بطريقِ الإجمالِ؛ بيَّنَ عَدَمَ استوائِهما على سَبيلِ التَّفصيلِ، فقال تعالى[3]:

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

أي: أمَّا الَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٩٢).
قال ابنُ جرير: (قال: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ فجَمَع، وإنَّما ذكَرَ قبْلَ ذلك اثنَين: مُؤمِنًا، وفاسِقًا؛ لأنَّه لم يُرِدْ بالمؤمِنِ مُؤمِنًا واحِدًا، وبالفاسِقِ فاسِقًا واحِدًا، وإنَّما أُريدَ به جميعُ الفُسَّاقِ، وجميعُ المؤمِنينَ باللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٤، ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٤٨٧).

بإخلاصٍ للهِ تعالى ومُتابعةٍ لِشَرعِه: فلَهُم في الآخِرةِ جَنَّاتٌ يَأوُونَ إليها، فهم فيها مُقيمونَ، ومنها لا يَخرُجونَ[(١)].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣ - ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

﴿نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: ضِيافةً كريمةً مُهَيَّأةً لهم؛ بسَبَبِ ما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا مِنَ الإيمانِ باللهِ تعالى وطاعتِه[(٢)].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: وأمَّا الَّذين خَرَجوا عن الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، فكَفَروا به وعَصَوه؛ فمَسْكَنُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٩٤، ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٢).

قال البقاعي: (﴿نُزُلًۢا﴾ أي: عِدادًا لهم أوَّلَ قُدومِهم، في قَولِ الحَسَنِ وعطاءٍ... فإذا كانت هذه الجنَّاتُ نُزُلًا، فما ظنُّك بما بعدَ ذلك؟!). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٥٩).

وقال ابنُ عاشور: (النُّزُلُ -بضَمَّتينِ-: مُشتَقٌّ مِن النُّزولِ، فيُطلَقُ على ما يُعَدُّ للنَّزيلِ مِنَ العَطاءِ والقِرَى. قال في «الكشاف»: النُّزُلُ: عطاءُ النَّازِلِ، ثمَّ صار عامًّا، أي: يُطلَقُ على العطاءِ ولو بدُون ضيافةٍ... قلتُ: ويُطلَقُ على محَلِّ نُزولِ الضَّيفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٢).

ومَقَرُّهم الَّذي يأوُونَ إليه، ويُقيمونَ في الآخرةِ فيه: هو النَّارُ[١].

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾.

أي: كلَّما أرادوا أن يَخرُجوا مِنَ النَّارِ أُعيدوا فيها مُكرَهينَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ۝ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢١، ٢٢].

﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

أي: ويُقال لهم: ذُوقوا عذابَ النَّارِ الَّذي كُنتُم في الدُّنيا تُكَذِّبونَ بوُقوعِه[٣].

ثم بيَّن أنَّ عذابَ الآخرةِ له مُقدِّماتٌ في الدنيا؛ لأنَّ الذَّنْبَ مُستَوجِبٌ لنتائجِه عاجلًا وآجلًا، فقال[٤]:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢١﴾.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾.

أي: ولَنُصِيبَنَّ هؤلاء الفاسِقينَ المكَذِّبينَ مِن العذابِ الَّذي يكونُ قبلَ يومِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٣).

قال الواحدي: (كلَّما حاولوا الخُروجَ مِن النَّارِ؛ لِما يَلحَقُهم مِن الغَمِّ والكَربِ الَّذي أخَذَ بأنفاسِهم، حتَّى ليس لها مخرجٌ- رُدُّوا إليها بالمقامِعِ. قال المفسِّرون: إنَّ جهنَّمَ لَتَجيشُ بهم فتُلقيهم إلى أعلاها، فيُريدونَ الخُروجَ، فيَرُدُّهم الخُزَّانُ فيها). ((البسيط)) (١٥/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١١٥).

القيامةِ، دونَ العذابِ الأكبَرِ في الآخِرةِ[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).

قيل: المرادُ بالعذابِ الأدنى: عذابُ الدُّنيا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن كثير، والعُلَيمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).

قيل: إنَّه ما أصابهم يومَ بَدرٍ، وهو روايةٌ عن ابنِ مسعودٍ، وقولُ قَتادةَ، والسُّدِّيِّ.

وقيل: سِنُونَ أُخِذوا بها، وهو روايةٌ عن ابنِ مسعودٍ، وقولُ النَّخَعيِّ.

وقيل: مصائبُ الدُّنيا، قاله أُبَيُّ بنُ كعبٍ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وأبو العاليةِ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ.

وقيل: الحدودُ، وهو روايةٌ عن ابنِ عبَّاسٍ.

وقيل: القتلُ والجوعُ، قاله مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤٢).

وقيل: المرادُ: ما قبْلَ يومِ القيامةِ؛ فيَشملُ ذلك عذابَ الدُّنيا وعذابَ القبرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٦١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

وممَّن قال به مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣١).

قال الشوكاني: (قال الحسَنُ، وأبو العاليةِ، والضَّحَّاكُ، والنَّخَعيُّ: هو مَصائبُ الدُّنيا وأسقامُها. وقيل: الحدودُ. وقيل: القتلُ بالسَّيفِ يومَ بدرٍ. وقيل: سِنينُ الجوعِ بمكَّةَ. وقيل: عذابُ القبرِ. ولا مانِعَ مِن الحَملِ على الجميعِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ممَّا هم فيه مِن الشِّركِ والمعاصي بسببِ ما يَنزِلُ بهم مِن العذابِ، إلى الإيمانِ والطَّاعةِ، ويَتوبونَ عمَّا كانوا فيه. وفي هذا التَّعليلِ دليلٌ على ضَعفِ قولِ مَن قال: إنَّ العذابَ الأدنَى هو عذابُ القبرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٧).

وقال السعدي: (أي: ولَنُذيقَنَّ الفاسِقينَ المكَذِّبينَ نموذَجًا مِنَ العذابِ الأدنى، وهو عذابُ البَرزخِ، فنُذيقُهم طَرَفًا منه قبْلَ أن يموتوا؛ إمَّا بعذابٍ بالقتلِ ونَحوِه، كما جرَى لأهلِ بَدرٍ مِن المشركينَ، وإمَّا عندَ الموتِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ثمَّ يُكمِلُ لهم العذابَ الأدنى في بَرزخِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦). =

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: لَعلَّهم يَتوبونَ إلى اللهِ مِن كُفرِهم وعِصيانِهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾.

أي: ولا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّه[(٢)]، ثمَّ أعرَضَ عنها مُستكبِرًا عن

= عن أُبَيِّ بنِ كعبٍ، في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قال: «مصائِبُ الدُّنيا، والرُّومُ، والبَطْشةُ، أو الدُّخَانُ» شُعْبةُ الشَّاكُّ في البطشةِ أو الدُّخَانِ. أخرجه مسلم (٢٧٩٩).

قال ابن عاشور في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧] بعدَ أن بيَّن أنَّ كلمةَ ﴿دُونَ﴾ تُطلَقُ على الأقلِّ والسَّابقِ وبمعنى «غير»، فقال: (المرادُ عذابٌ في الدُّنيا، وهو أقلُّ مِن عذابِ الآخرةِ، قال تعالَى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾، وهو أسبقُ مِن عذابِ الآخرةِ؛ لقولِه تعالَى: ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾، وهو مُغايِرٌ له كما هو بيِّنٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).

(٢) قيل: المرادُ بقولِه: ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾: حُجَجُه وعلاماتُه. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٨).

وقيل: المرادُ بها: القُرآنُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والسمعاني، والشربيني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).

وقيل: المرادُ: الكُتُبُ السَّماويَّةُ، فتَشملُ القرآنَ والتَّوراةَ وغَيرَهما. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٠٣، ١٠٤). =

قَبولِها، مُستَنكِفًا عن الانقيادِ إليها[١].

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

أي: إنَّا سنَنتَقِمُ مِنَ الَّذين أعرَضوا، وكَفَروا، وكَذَّبوا، واكتَسَبوا السَّيِّئاتِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ يُنَبِّهُ العُقولَ على ما تقَرَّرَ فيها مِن عَدَمِ تَساوي المتفاوِتَينِ المتباينَينِ، وأنَّ حِكمَتَه تقتَضي عدَمَ تساويهما؛ فمَن قد عَمَر قَلبُه بالإيمانِ، وانقادت جوارِحُه لشرائِعِه، واقتَضى إيمانُه آثارَه ومُوجباتِه؛ مِن تَركِ مَساخِطِ اللهِ، الَّتي يضُرُّ وُجودُها بالإيمانِ: لا كمَنَ قد خَرِبَ قَلبُه، وتعطَّلَ مِن الإيمانِ، فلمْ يكُنْ فيه وازِعٌ دِينيٌّ، فأسرَعَت جوارِحُه بمُوجباتِ الجَهلِ والظُّلمِ؛ مِن كُلِّ إثمٍ ومَعصيةٍ، وخرَجَ بفِسقِه عن طاعةِ اللهِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أنَّ الإنسانَ يجبُ أنْ يَقْبَلَ التَّذكيرَ ممَّن يُذكِّرُه أيًّا مَن كان، فالله تعالى لم يَقُلْ: «مِمَّنْ ذَكَّرَهُ الرَّسولُ» أو: «ذَكَّرَهُ فُلانٌ أو فُلانٌ»! فإذا أتاك التَّذكيرُ مِن أيِّ جهةٍ فالواجبُ عليكَ القَبولُ[٤].

= وقال ابن جرير: (وأيُّ النَّاسِ أَظْلَمُ لِنَفْسِه مِمَّنْ وَعَظه اللهُ بحُجَجِه، وآيِ كِتابِه ورُسُلِه، ثُمَّ أعْرَض عن ذلك كلِّه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٧).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ أنَّ الإعراضَ بعدَ العِلمِ أقبَحُ منه حالَ الجَهلِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ هذا أعظَمَ الفِسقِ: أن تُذكَّرَ ثمَّ تُعرِضَ، لكِنْ مَن أعرَضَ بدُونِ تَذَكُّرٍ فهو أهوَنُ[١].

٤- المؤمِنُ مأمورٌ بلَومِ نَفْسِه على ما فَعلَتْ مِن الذُّنوبِ الَّتي وَجَد عاقِبَتَها في الدُّنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فإذا أصابه في الدُّنيا بلاءٌ رجَع إلى نفْسِه باللَّومِ، ودعاه ذلك إلى الرُّجوعِ إلى اللهِ بالتَّوبةِ والاستِغفارِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أنَّ الإيمانَ لا يَتِمُّ إلَّا بالعملِ الصَّالحِ؛ فلا يكفي مجرَّدُ العقيدةِ! بل لا بُدَّ مِن عمَلٍ صالحٍ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ استدَلَّ بعُمومِه مَن قال: إنَّ الفاسِقَ لا يَلي النِّكاحَ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ دَليلٌ على أنَّ اسمَ الفِسقِ واقِعٌ على الكُفرِ والمعصيةِ معًا[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العملِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٩٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٩).

ومَذهَبُ الشَّافعيَّةِ والحنابلةِ أنَّه يُشترَطُ في الوليِّ أن يكونَ عدلًا. يُنظر: ((مغني المحتاج)) للشربيني (٤/ ٢٥٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٥٤)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٣٠/ ٨).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٣٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٩٦).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ﴾ لَمَّا كان الكُفرُ إذا جاء فلا التِفاتَ إلى الأعمالِ، لم يَقُلْ: (وأمَّا الَّذين فسَقُوا وعَملوا السَّيِّئاتِ)؛ لأنَّ المرادَ مِن ﴿فَسَقُواْ﴾: كَفَروا. ولو جُعِلَ العِقابُ في مُقابَلةِ الكُفرِ والعَمَلِ، لَظُنَّ أنَّ مُجرَّدَ الكُفرِ لا عِقابَ عليه[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أنَّ أهلَ النَّارِ يُجْمَعُ لهم بينَ العذابِ الجِسميِّ والعذابِ القلبيِّ للتَّوبيخِ[٢].

٧- بيانُ حِكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ فيما يَبتلي به مِن المصائِبِ؛ تُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ و﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[٣] [الروم: ٤١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ أنَّ عذابَ الدُّنيا لا يُنْسَبُ إلى عذابِ الآخرةِ؛ لِما بيْنَهما مِن الفَرقِ العظيمِ -فهذا أدنَى، وذاك أكبرُ-؛ يعني: كِلاهما في طَرَفَيْ نقيضٍ، يعني: «أدنى» اسمُ تفضيلٍ، و«أكبرُ» اسمُ تفضيلٍ، ولا يُنْسَبُ أدنَى شَيءٍ إلى أعلَى شَيءٍ[٤]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ حُجَّةٌ على عذابِ القبرِ، فإنَّه سبحانَه أخْبَرَ أنَّ له فيهم عذابينِ «أدنى وأكبر» فأخبَرَ أنَّه يُذيقُهم بعضَ الأدنَى لِيَرجِعوا؛ فدَلَّ على أنَّه بَقِيَ لهم مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٧، ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأدنَى بقيَّةٌ يُعَذَّبُون بها بعدَ عذابِ الدُّنيا؛ ولهذا قال: ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾، ولم يقُلْ: «ولَنُذيقَنَّهُمُ العذابَ الأدنى»! فتأمَّلْه[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قَبولُ التَّوبةِ مِن الكافِرِ[٢].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾، قَولُه سُبحانَه ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أتَى بالرُّبوبيَّةِ المُقتَضيةِ للانقيادِ؛ لأنَّه ما دام التَّذكيرُ بآياتِ رَبٍّ لك، فأنت مَربوبٌ عَبدٌ، والمربوبُ في تدبيرِ رَبِّه[٣].

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ مِثلُ هذه العبارةِ جاءت في غيرِ هؤلاء، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١، ٩٣] و[هود: ١٨] و[العنكبوت: ٦٨]، وفي السُّنَّةِ: ((ومَن أظلَمُ ممَّن ذهَب يَخلُقُ كخَلْقي))[٤]، فكيف نجمعُ بيْنَ هذه النُّصوصِ؟

الجوابُ: أنَّ الجَمعَ بيْنَها يكونُ بأحَدِ وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ هذه الأشياءَ جميعَها اشتركَتْ في المرتبةِ العُليا مِن الظُّلمِ؛ فكلُّها في مقامِ الأظلميَّةِ، فأفْعَلُ التَّفضيلِ لا يمنعُ التَّساويَ، ولكنَّه يمنعُ الزِّيادةَ. وعلى ذلك فلا مُعارَضةَ ألْبَتَّةَ بينَ النُّصوصِ؛ فهؤلاءِ المذكورونَ لا يُوجَدُ أحدٌ أظلَمُ منهم، وهم مُتساوونَ في مرتبةِ الظُّلْمِ.

والوجهُ الثَّاني: أنَّ هذه المواضعَ تتخصَّصُ بصِلاتِها، أي: أنَّ كُلَّ واحدٍ منها

---

(١) يُنظر: ((الرُّوح)) لابن القيم (ص: ٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٤).

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٥٣) واللفظ له، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تُفَسِّرُه صِلةُ مَوصُولِه، فكلُّ واحدةٍ تختصُّ ببابِها، فيكونُ المعنَى: لا أحَدَ مِنَ المُفْتَرِينَ أظلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللهِ كَذِبًا، ولا أحدَ مِنَ المانِعِينَ أظلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مساجدَ الله، ولا أحدَ مِنَ المُعْرِضِينَ أظلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّهِ فأعْرَض عنها[(١)].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أنَّ الإعراضَ عن آياتِ اللهِ بعدَ التَّذكيرِ بها إجرامٌ[(٢)].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ جوازُ إضافةِ الانتقامِ إلى اللهِ مُقَيَّدًا، يعني: الإخبارَ عن اللهِ بأنَّه مُنتَقِمٌ، إخبارًا مُقَيَّدًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢، ٥١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٢، ١٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابن عثيمين رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ مقيَّدةٌ: أي: مُنتقِمون مِنَ المجرمينَ، وبهذا نَعرِفُ أنَّ المُنتقِمَ ليس مِن أسماءِ الله؛ لأنَّ الاسمَ مِن أسماءِ الله يكونُ مُطْلَقًا دالًّا على المعنَى الأحسَنِ على كلِّ تقديرٍ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فكلُّ كلمةٍ تحتمِلُ هذا وهذا فإنَّها لا تكونُ مِن أسماءِ الله؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والانتقامُ لا شكَّ أنَّه حسَنٌ في محلِّه؛ وعليه فلا يَصِحُّ أن يوصَفَ اللهُ به على سبيلِ الإطلاقِ، وهو معدودٌ مِن الأسماءِ الحُسْنى المشهورةِ، لكنَّ هذه الأسماءَ الحُسْنى المشهورةَ كما قال شيخُ الإسلامِ وغيرُه مِن أهلِ التَّحقيقِ رحمهم الله: «ليست ثابتةً عن الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ»؛ لأنَّ فيها أشياءَ مِن الأسماءِ لا تصِحُّ اسمًا لله.

إذَنْ: فهل يوصَفُ اللهُ بالانتقامِ مُطْلَقًا، فيُقالُ: المُنتقِمُ؟

والجوابُ: لا؛ لأنَّه ما ورَدَ إلَّا مُقَيَّدًا، وورَدَ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤] [المائدة: ٩٥] [إبراهيم: ٤٧] نَكِرةً في سياقِ الإثباتِ؛ فلا تدُلُّ على العُمومِ؛ لأنَّ النَّكِرةَ في سياقِ الإثباتِ -كما هو معروفٌ- لا تُفيدُ العُمومَ، وإنَّما تفيدُ العُمومَ إذا كانت في سياقِ النَّفْيِ أو النَّهيِ أو الشَّرطِ أو الاستِفهامِ الإنكاريِّ، كما ذكره أهلُ الأصولِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ فُرِّعَ بالفاءِ على ما تَقدَّمَ مِن الآياتِ مِن الوَعدِ للمُؤمنينَ والوعيدِ للكافرينَ: استِفهامٌ بالهَمزةِ، مُستعمَلٌ في إنكارِ المُساواةِ بيْن المُؤمنِ والكافرِ، وهو إنكارٌ بتَنزيلِ السَّامعِ مَنزلةَ المُتعجِّبِ مِن البَونِ بيْنَ جَزاءِ الفَريقَينِ في ذلك اليومِ؛ فكان الإنكارُ مُوجَّهًا إلى ذلك التَّعجُّبِ في معنى الاستِئنافِ البَيانيِّ[(١)].

- قولُه: ﴿لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ التَّصريحُ بعَدمِ المُساواةِ في الشَّرفِ والمَثوبةِ، مع إفادةِ الإنكارِ لِنَفْيِ المُشابَهةِ بالمرَّةِ على أبلَغِ وَجهٍ وآكَدِه؛ لِبناءِ التَّفصيلِ الآتي عليه[(٢)].

٢- قولُه تعالى: ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

- أكَّدَ كِلَا الجَزاءَينِ بذِكرِ مُرادِفٍ لِمَدلولِه، مع زِيادةِ فائدةٍ؛ فجُملةُ ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ...﴾ إلى آخِرِها، مُؤكِّدةٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم ﴾ [السجدة: ١٧] إلى آخِرِها[(٣)].

- وإضافةُ جنَّاتٍ إلى المَأْوى في قولِه: ﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ﴾ مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ؛ لِقَصدِ التَّخفيفِ، والمعنى: فلَهُمُ الجنَّاتُ المَأْوى لهم، أي: المَوعودونَ بها[(٤)]. وقيل: أُضِيفَت الجنَّةُ إلى المَأْوى؛ لأنَّها المَأْوى الحَقيقيُّ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وإنَّما الدُّنيا مَنزِلٌ مُرتحَلٌ عنه لا مَحالةَ. وقيل: المَأْوى جنَّةٌ مِن الجنَّاتِ، وأيًّا ما كان فلا يَبعُدُ أنْ يكونَ فيه رَمزٌ إلى ما ذُكِرَ مِن تَجافِيهم عن مَضاجِعِهم الَّتي هي مَأْواهم في الدُّنيا(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾

- جُملةُ ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ إلى آخِرِها، مُؤكِّدةٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ إلى ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢) [السجدة: ١٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، ولم يَقُلْ: (فلَهُمْ نارُ المَأْوى) كما قال قَبْلُ في المؤمنينَ: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، والفارقُ: أنَّ النَّارَ كلُّ أحدٍ لا يُحِبُّ أنْ تكونَ مَأْواهُ بخِلافِ الأوَّلِ؛ فالجنَّةُ كلٌّ يُحِبُّ أنْ تكونَ هي المَأْوى، وأمَّا هذا فلا؛ فأتى في ذِكرِ الجنَّةِ بما يُفِيدُ الاختِصاصَ -تقديم الخبرِ على المُبتدأ ﴿فَلَهُمْ﴾-؛ تَشويقًا، وإنْ كان هذا الفَرْقُ قد يَختلِفُ في بعضِ الآياتِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١]، ولكنْ لكلِّ مَقامٍ مَقالٌ؛ فهنا المَقامُ مَقامُ مُعادَلةٍ ومُوازَنةٍ، فلهذا فرَّقَ بيْنَهما؛ قال: ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، وقال: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، أمَّا في سُورةِ (النَّازعاتِ) فليس هناك مُعادَلةٌ؛ لأنَّه لَمَّا ذكَرَ أنَّ قومًا يَدَّعون لأنفُسِهم أنَّهم على الحقِّ، فأنكَرَ اللهُ ذلك(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٠٠).

- قولُه: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فيه ذِكرُ النَّارِ مُظْهَرًا، ولَمْ يُستَغْنَ بالضَّميرِ لِتَقدُّمِ الذِّكْرِ؛ لأنَّ سِياقَ الآيةِ للتَّهديدِ، والتَّخويفِ، وتَعظيمِ الأمْرِ، وفي ظاهرِ ذِكْرِ النَّارِ مِن ذلك ما ليس في الضَّميرِ[1].

- قولُه: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ استِئنافٌ لِبَيانِ كَيفيَّةِ كَونِ النَّارِ مَأْواهم، وكَلمةُ (في)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مُستقِرُّون فيها، وإنَّما الإعادةُ مِن بَعضِ طَبقاتِها إلى بعضٍ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ...﴾، فذَكَّرَ الوَصفَ والضَّميرَ، فوصَف العذابَ، وأعاد عليه الضَّميرَ، وقال في سُورةِ (سَبأ): ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٢]، فأنَّثَ الوَصفَ والضَّميرَ، فوصَف النَّارَ، وأعاد عليها الضَّميرَ.

وبيانُ ذلك مِن ثلاثةِ أوجُهٍ؛ الأوَّلُ: أنَّه خصَّ العذابَ في السَّجدةِ بالوصفِ فقال: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ اعتِناءً به لما تكرَّر ذِكرُه في قولِه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾. والثَّاني: أنَّه قدَّم في (السَّجدة) ذِكرَ النَّارِ، فكان الأصلُ أن يَذكُرَها بعدَ ذلك بلفظِ الضَّميرِ، لكنَّه جعَل الظَّاهرَ مكانَ المُضْمَرِ، فكما لا يوصَفُ المُضمَرُ لم يوصَفْ ما قام مَقامَه وهو النَّارُ، ووصَفَ العذابَ ولم يَصِفِ النَّارَ. الثَّالثُ -وهو الأقوى: أنَّه امتنَع في السَّجدةِ وصْفُ النَّارِ، فوصَفَ العذابَ، وإنَّما امتنَع وصْفُها؛ لِتَقدُّمِ ذِكرِها، فإنَّك إذا ذكَرْتَ شيئًا ثمَّ كرَّرْتَ ذِكرَه لم يَجُزْ وصْفُه، كقولِك: رأيتُ رجُلًا فأكرمتُ الرَّجُلَ، فلا يجوزُ

(١) يُنظر: ((أمالي ابن الحاجب)) (١/ ١٥٢، ١٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٦).

وصْفُه؛ لئلَّا يُفهَمَ أنَّه غيرُه[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ تَعريضٌ بتَهديدِهم؛ لأنَّهم يَسمَعون هذا الكَلامَ، أو يُبلَّغُ إليهم. وهذا إنذارٌ بما لَحِقَهم بعدَ نُزولِ الآيةِ[٣].

- فإنْ قِيل: العذابُ الأدْنَى في مُقابلَتِه العذابُ الأقْصى، والعذابُ الأكبَرُ في مُقابَلتِه العذابُ الأصغَرُ؛ فما الحِكمةُ في مُقابلةِ الأدْنى بالأكبَرِ؟

فالجوابُ: أنَّه حصَلَ في عذابِ الدُّنيا أمْرانِ؛ أحدُهما: أنَّه قَريبٌ، والآخَرُ: أنَّه قليلٌ صَغيرٌ. وحصَلَ في عذابِ الآخِرةِ أيضًا أمْرانِ؛ أحدُهما: أنَّه بعيدٌ، والآخَرُ: أنَّه عظيمٌ كثيرٌ، لكنَّ القُرْبَ في عَذابِ الدُّنيا هو الَّذي يَصلُحُ للتَّخويفِ به؛ فإنَّ العَذابَ العاجلَ وإنْ كان قَليلًا قد يَحترِزُ منه بعضُ الناسِ أكثَرَ ممَّا يَحترِزُ مِن العذابِ الشَّديدِ إذا كان آجِلًا، وكذا الثَّوابُ العاجِلُ؛ قد يَرغَبُ فيه بعضُ النَّاسُ، ويَستبعِدُ الثَّوابَ العظيمَ الآجِلَ، وأمَّا في عذابِ الآخِرةِ فالَّذي يَصلُحُ للتَّخويفِ به هو العظيمُ والكبيرُ لا البَعيدُ؛ لِمَا بيَّنَّا، فقال في عذابِ الدُّنيا: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ لِيَحترِزَ العاقلُ عنه، ولو قال: (لَنُذِيقَنَّهم مِن العذابِ الأصغَرِ) ما كان يَحترِزُ عنه؛ لِصِغَرِه، وعَدمِ فَهمِ كَونِه عاجِلًا، وقال في عذابِ الآخِرةِ: ﴿ٱلْأَكْبَرِ﴾ لذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٦٦، ١٠٦٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٥١)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٠٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).

المعنى، ولو قال: (دونَ العذابِ الأبعدِ الأقْصى) لَمَا حصَلَ التَّخويفُ به مِثلَ ما يَحصُلُ بوَصفِه بالكُبْرِ، وبالجُملةِ: فقد اختارَ اللهُ تعالى في العذابَينِ الوَصفَ الَّذي هو أصلَحُ للتَّخويفِ مِن الوَصفينِ الآخَرينِ فيهما لحِكمةٍ بالغةٍ(١).

- جُملةُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لِحكمةِ إذاقتِهم العذابَ الأدْنى في الدُّنيا بأنَّه لِرَجاءِ رُجوعِهم، أي: رُجوعِهم عن الكُفرِ بالإيمانِ، والمُرادُ: رُجوعُ مَن يُمكِنُ رُجوعُه، وهمُ الأحياءُ منهم. وإسنادُ الرُّجوعِ إلى ضَميرِ جَميعِهم باعتبارِ القَبيلةِ والجَماعةِ، أي: لعلَّ جَماعتَهم تَرجِعُ(٢).

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ بَيانٌ إجْماليٌّ لحالِ مَن قابَلَ آياتِ اللهِ تعالى بالإعراضِ، بعْدَ بَيانِ حالِ مَن قابَلَها بالسُّجودِ، والتَّسبيحِ، والتَّحميدِ(٣).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ(٤).

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قالَه هنا بـ﴿ثُمَّ﴾، وقال في آيةٍ أُخرى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧]، والفرْقُ: أنَّ المعنى في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٨، ١٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٤).

آيةِ ﴿فَأَعۡرَضَ﴾: أنَّه بادَرَ بالإعراضِ، وفي الثَّانيةِ: بعْدَما فكَّرَ وقدَّرَ أعرَضَ، والنَّاسُ هكذا؛ منهم مَن يُعرِضُ لأوَّلِ وَهْلةٍ، ولا يَلتفِتُ ولا يُفكِّرُ، ومنهم مَن قد يُفَكِّرُ، ولكنْ في النِّهايةِ يُعرِضُ[1]، فتكونُ (ثمَّ) على بابِها للتَّراخي الزَّمنيِّ؛ لِيَكونَ المعنى: أنَّ مَن وقَعَ له التَّذكيرُ بها في وَقتٍ ما، فأخَذَ يَتأمَّلُ فيها، ثمَّ أعرَضَ عنها بعدَ ذلك ولو بألْفِ عامٍ؛ فهو أظلَمُ الظَّالمينَ، ويَدخُلُ فيه ما دونَ ذلك مِن بابِ الأَولى؛ لأنَّه أجدَرُ بعَدمِ النِّسيانِ؛ فهي أبلَغُ هنا مِن التَّعبيرِ بالفاءِ -كما في سُورةِ (الكهفِ)- ويكونُ عدَلَ إلى الفاءِ هناك؛ شَرحًا لِمَا يكونُ مِن حالِهم عندَ بَيانِ سُؤالِهم، الَّذي جَعَلوا بَيانَه آيةَ الصِّدقِ، والعَجزَ عنه آيةَ الكَذِبِ. وقيل: لَمَّا بلَغَتْ هذه الآياتُ مِن الوُضوحِ أقْصَى الغاياتِ؛ فكان الإعراضُ عنها مُستبعَدًا بعْدَه؛ عبَّرَ عنه بأداةِ البُعدِ لذلك (ثُم)، فقال: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ﴾، وذلك ضِدُّ ما عَمِله الَّذين لم يَتَمالكوا أنْ خَرُّوا سُجَّدًا؛ فالتَّعبيرُ بأداةِ التَّراخي استبعادٌ وتَعجُّبٌ مِن حالِهم[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا، ناشئًا عن تَفظيعِ ظُلمِ الَّذي ذُكِّرَ بآياتِ ربِّه فأعرَضَ عنها؛ لأنَّ السَّامعَ يَترقَّبُ جَزاءَ ذلك الظَّالمِ[3]. والمرادُ بـ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ المُشركونَ، والكلامُ ذَمٌّ للمُعرِضينَ، وهذا الأسلوبُ أذَمُّ لهمْ مِن ذلك؛ لأنَّه يُقرِّرُ أنَّ الكافِرَ إذا وُصِفَ بالفِسقِ والظُّلمِ والجُرْمِ، حُمِلَ على نِهايةِ كُفْرِه وغايةِ تَمرُّدِه؛ لأنَّ هذه الآيةَ كالخاتمةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٩، ٤٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٤).

لأحوالِ المُكذِّبينَ القائلينَ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾[١] [السجدة: ٣].

- والجُملةُ الاسميَّةُ ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ تدُلُّ على دَوامِ ذلك عليهم في الدُّنيا؛ إمَّا باطنًا بالاستِدراجِ بالنِّعَمِ، وإمَّا ظاهِرًا بإحلالِ النِّقَمِ، وفي الآخرةِ بدَوامِ العذابِ على مَرِّ الآبادِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عبَّر في الآيةِ بقولِه: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ بَدلًا مِن أنْ يُقالَ: (إنَّا مَنْهُ مُنتقِمون)، أي: مِن المُجرِمِ؛ لأنَّه لَمَّا جعَلَه أظلَمَ مِن كلِّ ظالمٍ، ثمَّ تَوعَّدَ المُجرِمينَ عامَّةً بالانتقامِ منهم؛ فقد دلَّ على إصابةِ الأظلَمِ النَّصيبَ الأوفَرَ مِن الانتقامِ، ولو قالَه بالضَّميرِ لمْ يُفِدْ هذه الفائدةَ. وقِيل: عدَلَ عن ذِكرِ ضَميرِ المُجرِمينَ، فلمْ يَقُلْ: (إنَّا منهم مُنتقِمون)؛ لزِيادةِ تَسجيلِ فَظاعةِ حالِهم بأنَّهم مُجرِمون مع أنَّهم ظالِمون، وقد يُقالُ: إنَّ (المُجرمينَ) أعَمُّ مِن (الظَّالمينَ)؛ فيكونُ دُخولُهم في الانتقامِ مِن المُجرمينَ أُخْرويًّا، وتَصيرُ جُملةُ ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ تَذْييلًا[٣]. فقولُه: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ دون أن يقالَ: (إنَّا مَنْهُ مُنتقِمون)، أفاد أنَّ هذا مُجْرِمٌ، وأنَّ الحُكْمَ يَعُمُّه وغيرَه مِن المجرمينَ[٤].

- قَولُه: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ عبَّرَ بصِيغةِ العَظَمةِ؛ تنبيهًا على أنَّ الَّذي يحصُلُ لهم مِنَ العذابِ: لا يَدخُلُ تحتَ الوَصفِ على مُجَرَّدِ العِدادِ في الظَّالِمينَ، فكيف وقد كانوا أظلَمَ الظَّالِمينَ[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٣).

الآيات (٢٣-٢٥)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مِرْيَةٍ﴾: أي: شكٍّ، والمِرْيةُ كذلك: التَّردُّدُ في الأمرِ، وهو أخَصُّ مِن الشَّكِّ[1].

﴿أَئِمَّةً﴾: أي: قادَةً في الخيرِ، يُقْتَدَى بهم، ويُهتدَى بِهَدْيِهم، وأئِمَّة جمعُ إمامٍ، والإمامُ الَّذي يُؤْتَمُّ به في خيرٍ أو شرٍّ، وأصل (أمم): الأصلُ والمرجِعُ والجماعةُ والدِّينُ[2].

﴿يُوقِنُونَ﴾: أي: يَعلَمونَ عِلمًا متمكِّنًا في نفوسِهم لا يمكِنُ أن يدخُلَه شكٌّ، وأصلُه مِن: يَقِنَ الماءُ، أي: ثبَت وسكَن، واليقينُ: زوالُ الشَّكِّ، وقيل: هو العِلمُ الَّذي يحصُلُ بعدَ استِدلالٍ ونظرٍ، وقيل: هو سكونُ الفَهمِ مع ثباتِ الحكمِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ، فلا تكُنْ -يا محمَّدُ- في شَكٍّ مِن لِقائِه، وجعَلْنا التَّوراةَ دَليلًا مُرشِدًا لبني إسرائيلَ إلى الحَقِّ، وجعَلْنا مِن بَني

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

إسرائيلَ أئمَّةً يُرشِدونَ النَّاسَ إلى الحَقِّ لَمَّا صَبَروا، وكانوا يُوقِنونَ بآياتِ اللهِ.

إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- هو وَحْدَه يَحكُمُ بيْنَهم يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يَختَلِفونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى آياتِه الَّتي ذكَّرَ بها عبادَه، وهو: القُرآنُ الَّذي أنزَلَه على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم -على قولٍ في التَّفسيرِ-، ذكَرَ أنَّه ليس ببِدْعٍ مِنَ الكتُبِ، ولا مَن جاء به بغَريبٍ مِنَ الرُّسُلِ؛ فقد آتى اللهُ موسى الكتابَ الَّذي هو التَّوراةُ المصَدِّقةُ للقُرآنِ، الَّتي قد صَدَّقَها القُرآنُ؛ فتَطابَقَ حَقُّهما، وثَبَت بُرهانُهما(١).

وأيضًا لَمَّا جَرى ذِكرُ إعراضِ المُشركينَ عن آياتِ اللهِ -وهي آياتُ القُرآنِ، على قولٍ في التَّفسيرِ- في قَولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢]، استطرَدَ إلى تسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ ما لَقِيَ مِن قَومِه هو نظيرُ ما لَقِيَه موسى مِن قَومِ فِرعَونَ، الَّذين أُرسِلَ إليهم(٢).

وأيضًا لَمَّا قَرَّر الأصولَ الثَّلاثةَ: الرِّسالةَ، وبَدْءَ الخلقِ، والمَعادَ؛ عاد إلى الأصلِ الَّذي بَدَأ به، وهو الرِّسالةُ، أي: لسْتَ بِدْعًا في الرِّسالةِ، إذْ قد سَبَق قبْلَكَ رُسلٌ(٣).

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤٠).

أي: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ[١].

﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾.

أي: فلا تَكُنْ -يا محمَّدُ- في شَكٍّ وتردُّدٍ مِن لِقائِه[٢].

﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

أي: وجعَلْنا كِتابَ مُوسى مُرشِدًا ودَليلًا لبني إسرائيلَ إلى الحَقِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧١).

قيل: المرادُ: فلا تكُنْ -يا محمَّدُ- في مِريةٍ مِن لقائِك موسى. وممَّن قال بذلك: الزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو العاليةِ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، وابنُ السَّائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤٣).

وقيل: المرادُ: لا تكُنْ مُمتَريًا -يا محمَّدُ- في أن يَنالَك ما لَقِيَه موسى مِن أذى قَومِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور، وذكره ابن عثيمين احتِمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٠٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤٣).

وقيل: يُحتمَلُ أن يكونَ الخِطابُ لموسى على معنَى: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ قائلينَ له: لا تكُنْ في مِرْيةٍ مِن لقاءِ الجزاءِ على هذا الكتابِ؛ فلا بُدَّ أن يُحاسَبَ عليه مَن نزَلَ إليهم حتَّى يلاقُوا جزاءَهم. ذكره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٠٩).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالضَّميرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ عائدٌ إلى الكتابِ: الواحديُّ، وذكر أنَّه قولُ الجميعِ، وذهَب إليه ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٩٤). =

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾.

أي: وجعَلْنا مِن بني إسرائيلَ قادةً في الخيرِ، يَدُلُّونَ النَّاسَ، ويُرشِدونَهم إلى الحَقِّ بأمرِ اللهِ تعالى[1] حينَ صَبَروا على طاعتِنا، وصَبَروا عن المعاصي وشَهَواتِ الدُّنيا، وتحمَّلوا مَصائِبَها[2].

= وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى موسى عليه السَّلامُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٧).

قال ابنُ عاشور: (ضَميرُ النَّصبِ في ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾ يجوزُ أن يعودَ على الكتابِ، أو على موسى، وكِلاهما سَبَبُ هُدًى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٦).

(١) قال الشوكاني: (﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي: بأمْرِنا لهم بذلك، أو لأجْلِ أمْرِنا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٦).

وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: يَهْدون أتْباعَهم وأهلَ القَبولِ منهم بإذْنِنا لهم بذلك، وتَقويَتِنا إيَّاهم عليه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي: بوَحْيِنا: السَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥٣).

وقال ابن عاشور: (والأمرُ يَشملُ الوحْيَ بالشَّريعةِ؛ لأنَّه أمْرٌ بها، ويشملُ الانتِصابَ للإرشادِ؛ فإنَّ اللهَ أمَر العُلماءَ أن يُبيِّنوا الكتابَ، ويُرشِدوا إليه، فإذا هَدَوْا فإنَّما هَدَوْا بأمرِه وبالعِلمِ الَّذي أتاهم به أنبياؤُهم وأحبارُهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٧).

وقيل: الأمرُ هنا شامِلٌ للأمرِ القَدَريِّ الكونيِّ، والأمرِ الشَّرعيِّ. والقَدَريُّ يعني: يَهدُونَ النَّاسَ بقَدَرِنا وتَقديرِنا. والشَّرعيُّ يعني: يَهدون النَّاسَ إلى دينِ الله. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٩)، ((تفسير =

﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

أي: وكانوا يُوقِنونَ بآياتِ اللهِ بعِلمٍ ثابتٍ مُستَقِرٍّ؛ فهم لا يَشُكُّونَ فيها، ولا فيما دَلَّت عليه مِنَ الحَقِّ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- هو وَحْدَه مَنْ يحكُمُ يومَ القيامةِ بينَ جَميعِ خَلْقِه -ومنهم بنو إسرائيلَ- فيما كانوا في الدُّنيا يختَلِفونَ فيه مِن شَأنِ الدِّينِ، فيَجزي كلَّ مُحِقٍّ ومُبطِلٍ بما يَستَحِقُّه(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٤].

= ابن كثير)) (٦/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٨)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).
وذكر ابنُ عثيمين أنَّ قولَه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يَشملُ الآياتِ الشَّرعيَّةَ والكَونيَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٦، ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١٥، ١١٦).
قال البقاعي: (وأمَّا غيرُ ما اختَلَفوا فيه، فالحُكمُ فيه لهم أو عليهم لا بيْنَهم، وما اختلَفوا فيه لا على وَجهِ القَصدِ فيَقَعُ في محلِّ العَفوِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٦٧).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾: (لَمَّا أخَذوا برأسِ الأمرِ جعَلْناهم رُؤوسًا)[١].

٢- الطَّريقُ إلى اللهِ تعالى خالٍ مِن أهلِ الشَّكِّ، ومِنَ الَّذين يتَّبعونَ الشَّهَواتِ، وهو مَعمورٌ بأهلِ اليَقينِ والصَّبرِ، وهم على الطَّريقِ كالأعلامِ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فيه أنَّهم نالوا هذه الدَّرَجةَ العاليةَ بالصَّبرِ على التعلُّمِ والتَّعليمِ، والدَّعوةِ إلى اللهِ، والأذى في سَبيلِه، وكَفُّوا أنفُسَهم عن جِماحِها في المعاصي، واسترسالِها في الشَّهَواتِ، ووصَلوا في الإيمانِ بآياتِ اللهِ إلى دَرَجةِ اليَقينِ، وهو العِلمُ التَّامُّ الموجِبُ للعَمَلِ، وإنَّما وصَلوا إلى دَرَجةِ اليَقينِ؛ لأنَّهم تَعلَّموا تعلُّمًا صحيحًا، وأخَذوا المسائِلَ عن أدِلَّتِها المفيدةِ لليَقينِ؛ فما زالوا يتعلَّمونَ المسائِلَ، ويَستَدِلُّونَ عليها بكَثرةِ الدَّلائِلِ، حتَّى وصلوا لذاك؛ فبالصَّبرِ واليَقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدِّينِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ فضيلةُ الصَّبرِ؛ تُؤْخَذُ مِن الجزاءِ عليه؛ أي: مِن كَونِ الصَّابرِ يكون إمامًا، وهذا دليلٌ على أنَّ الصَّبرَ محبوبٌ إلى الله، ويُجازي عليه بهذا الجزاءِ العظيمِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ٩٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١١٤).

٥- قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ بالصَّبرِ تُترَكُ الشَّهَواتُ، والإراداتُ الفاسدةُ، وباليَقينِ تُدفَعُ الشُّكوكُ، والشُّبُهاتُ(١).

٦- الإيمانُ مَبنيٌّ على رُكنَينِ: يقينٍ وصَبرٍ، وهما الرُّكنانِ المذكوران في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾، فباليَقينِ يَعلَمُ حَقيقةَ الأمرِ والنَّهيِ والثَّوابِ والعِقابِ، وبالصَّبرِ يُنفِّذُ ما أُمِرَ به، ويَكُفُّ نَفْسَه عمَّا نُهيَ عنه، ولا يَحصُلُ له التَّصديقُ بالأمرِ والنَّهيِ أنَّه مِن عندِ اللهِ، وبالثَّوابِ والعقابِ: إلَّا باليقينِ، ولا يمكِنُه الدَّوامُ على فِعلِ المأمورِ، وكَفِّ النَّفسِ عن المحظورِ إلَّا بالصَّبرِ؛ فصار الصَّبرُ نِصفَ الإيمانِ، والنِّصفُ الثَّاني الشُّكرُ، بفِعلِ ما أُمِرَ به، وبِتَركِ ما نُهيَ عنه(٢).

٧- جَعَل الله تعالى الإمامةَ فِي الدِّينِ مَوروثةً عن الصَّبرِ واليقينِ بقولِه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾؛ فإنَّ الدِّينَ كُلَّه عِلمٌ بالحقِّ وعمَلٌ به، والعملُ به لا بدَّ فيه مِن الصَّبرِ، بل وطلَبُ علمِه يحتاجُ إلى الصَّبرِ(٣).

٨- العِلمُ بالمطلوبِ وبطَريقِه لا يُحصِّلانِ المقصودَ إلَّا مع الإرادةِ الجازمةِ، والإرادةُ الجازمةُ لا تكونُ إلَّا مع الصَّبرِ؛ ولهذا قال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا

---

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٢٠)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٣٩).

صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة: ٢٤]، فاليَقينُ هو العِلمُ الثَّابتُ المُستَقِرُّ، والصَّبرُ لا بُدَّ منه لتَحقيقِ الإرادةِ الجازِمةِ(١).

٩- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ، والمرادُ أمَّتُه؛ تحذيرًا مِن ذلك، وإيماءً إلى وُجوبِ تجَنُّبِ الاختِلافِ الَّذي لا يدعو إليه داعٍ في مَصلَحةِ الأمَّةِ، وفَهمِ الدِّينِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا ﴾ دَليلٌ على أنَّ الأئمَّةَ يُتَّبَعونَ على الهدايةِ بأمرِ اللهِ لا بآرائِهم، وأنَّ فَضْلَ إمامتِهم لا يُثبِتُ حُجَّةً على غَيرِهم إذا لم يَهدوهم بأمرِ اللهِ، وأمرُه كِتابُه -على قولٍ في التَّفسيرِ-، واللهُ أعلمُ(٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا ﴾ أنَّه سُبحانَه هو الَّذي جَعَل العَبدَ فاعِلًا؛ فهو سُبحانَه الَّذي جَعَل أئمَّةَ الهدى يَهدونَ بأمرِه، وجَعَل أئمَّةَ الضَّلالِ والبِدَعِ يَدْعونَ إلى النَّارِ، كما في قَولِه سُبحانَه: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [القصص: ٤١]، فأخبَر أنَّ الإمامةَ والهدايةَ والدَّعوةَ بجَعْلِه، مع كَونِ ذلك كَسْبًا وفِعلًا للأئمَّةِ، فهي مجعولةٌ له، وفِعلٌ لهم(٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ أنَّه لا وِفاقَ بيْنَ المؤمنينَ والكافرين، فأيُّ إنسانٍ يُحاولُ أنْ يُقارِبَ بيْنَ الإسلامِ والنَّصرانيَّةِ، أو بيْنَ الإسلامِ واليهوديَّةِ؛ فإنَّه أراد أنْ يَرُدَّ اللَّبَنَ في الضَّرْعِ! وهذا غيرُ ممكنٍ؛ فكلُّ كافرٍ مهما

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٥، ١٣٦).

كان -سواءٌ انتَسَبَ إلى الإسلام أمْ كان كافرًا مُعْلِنًا كُفْرَه- فإنَّه لا يمكِنُ أن يَتوافَقَ مع المؤمنينَ أبدًا، ومَن زَعَم ذلك فقد أبْعَدَ النُّجْعةَ، وحاوَلَ شيئًا مستحيلًا[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ليس مِن هذا الاختِلافِ اختِلافُ أئمَّةِ الدِّينِ في تفاريعِ الأحكام، وفي فَهمِ الدِّينِ، ممَّا لا يَنقُضُ أُصولَه، ولا يُخالِفُ نُصوصَه، وإنَّما هو إعمالٌ لأُصولِه ولأَدِلَّتِه في الأحوالِ المناسِبةِ لها، وحَمْلُ مُتعارِضِها بَعضِه على بَعضٍ؛ فإنَّ ذلك كلَّه مَحمودٌ غيرُ مَذموم، وقد اختلفَ أصحابُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في حياتِه، فلم يُعَنِّفْ أحدًا، واختلفوا بعدَ وفاتِه فلم يُعَنِّفْ بَعضُهم بعضًا[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ذكَرَ مُوسَى عليه السَّلامُ؛ لِقُربِ زَمانِه، وإلْزامًا لِمَن كان على دِينِه، ولم يَذكُرْ عِيسى؛ لأنَّ مُعظَمَ شَريعتِه مُستفادٌ مِن التَّوراةِ، ولأنَّ أتْباعَ مُوسى لا يُوافِقون على نُبوَّتِه، وأتْباعَ عيسى مُتَّفِقون على نُبوَّةِ مُوسى[٣]. وقيل: اختيارُ موسى عليه السَّلامُ لِحكمةٍ، وهي أنَّ أحدًا مِنَ الأنبياءِ لم يُؤذِه قومُه إلَّا الَّذين لم يُؤمِنوا به، وأمَّا الَّذين آمَنوا به فلم يُخالِفوه، غيرَ قَومِ موسى؛ فإنَّ مَن لم يؤمِنْ به آذاه، مِثلُ: فِرعونَ وغَيرِه، ومَنْ آمَنَ به مِن بني إسرائيلَ أيضًا آذاه بالمُخالَفةِ، وطَلَبِ أشياءَ منه، مثلُ: طَلَبِ رُؤيةِ اللهِ جَهرةً، ومِثلُ قَولِهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ ﴾ [المائدة: ٢٤]! فقِيلَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: تذكَّرْ حالَ موسى ولا تحزَنْ؛ فإنَّه لَقِيَ ما لَقِيتَ، وأُوذِيَ كما أُوذيتَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١١٦، ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٠).

- والكتابُ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو التَّوراةُ؛ عبَّرَ عنها باسمِ الجنسِ؛ لِتَحقيقِ المُجانَسةِ بيْنَه وبيْنَ الفُرقانِ، والتَّنبيهِ أنَّ إيتاءَه لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كإيتائِه لِمُوسى عليه السَّلامُ[1]. وقيل: أُرِيدَ بقولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: أرسَلْنا مُوسى؛ فذِكْرُ إيتائِه الكِتابَ كِنايةٌ عن إرسالِه، وإدماجُ ذِكرِ الكتابِ؛ للتَّنويهِ بشَأْنِ مُوسى، وليس داخِلًا في تَنظيرِ حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحالِ مُوسى عليه السَّلامُ في تَكذيبِ قَومِه إيَّاهُ؛ لأنَّ مُوسى لم يُكذِّبْه قَومُه؛ ألَا تَرى إلى قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ...﴾ الآياتِ، ولِيَتأتَّى مِن وَفرةِ المَعاني في هذه الآيةِ ما لا يَتأتَّى بدُونِ ذِكرِ الكِتابِ[2].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ الخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّسليةِ بالتَّنظيرِ والتَّمثيلِ؛ فهذه الجُملةُ وما بعْدَها إلى قولِه: ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥] مُعترِضاتٌ، ومَوقعُ التَّأكيدِ بلامِ القسَمِ، وحَرفِ التَّحقيقِ (قدْ) هو ما استُعْمِلَ فيه الخبَرُ مِن التَّسليةِ، لا لأصلِ الأخبارِ؛ لأنَّه أمْرٌ لا يَحتاجُ إلى التَّأكيدِ، وبه تَظهَرُ رَشاقةُ الاعتِراضِ بتَفريعِ ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ على الخبَرِ الَّذي قبْلَه[3].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فالنَّهيُ مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ على انتِفاءِ الشَّكِّ؛ فهو نَهْيٌ مَقصودٌ منه التَّثبيتُ، كقولِه: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود:

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٣٤).

١٠٩]، وليس لِطَلبِ إحداثِ انكِفافٍ عن المِرْيةِ؛ لأنَّها لمْ تَقَعْ مِن قبْلُ[(١)].

- قولُه: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ قيل: (اللِّقاءُ) مَصدرٌ مُضافٌ إلى فاعِلِه، أي: ممَّا لقِيَ مُوسى مِن قَومِ فِرعونَ مِن تَكذيبٍ، أي: مِن مِثلِ ما لقِيَ مُوسى، وهذا المُضافُ يدُلُّ عليه المَقامُ، أو يكونُ جاريًا على التَّشبيهِ البليغِ، كقولِه: هو البدْرُ، أي: مِن لِقاءٍ كلِقائِه. ويجوزُ أنْ يكونَ ضَميرُ ﴿لِّقَآئِهِۦ﴾ عائدًا إلى مُوسى، على معنى: مِن مِثلِ ما لقِيَ مُوسى مِن إرسالِه؛ وهو أنْ كانتْ عاقبةُ النَّصرِ له على قَومِ فِرعونَ، وحُصولُ الاهتداءِ بالكتابِ الَّذي أُوتِيَه، وتَأْييدُه باهتداءِ بني إسرائيلَ، فيَكونَ هذا المعنى بِشارةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ اللهَ سيُظهِرُ هذا الدِّينَ. ويجوزُ أنْ يكونَ ضَميرُ ﴿لِّقَآئِهِۦ﴾ عائدًا إلى الكِتابِ، لكنْ على أنْ يكونَ المعنى: فلا تكُنْ في شَكٍّ مِن لِقاءِ الكتابِ، أي: مِن أنْ تَلْقى مِن إيتائِك الكتابَ ما هو شِنْشَنَةُ (طَبيعةُ) تَلقِّي الكُتبِ الإلهيَّةِ كما تَلقَّاها مُوسى؛ فالنَّهيُ مُستعمَلٌ في التَّحذيرِ ممَّن ظنَّ ألَّا يَلحَقَه في إيتاءِ الكتابِ مِن المَشقَّةِ ما لَقِيَه الرُّسلُ مِن قبْلِه. ويجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ في قولِه: ﴿فَلَا تَكُن﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ، وهو مُوجَّهٌ لِلَّذين امْتَرَوا في أنَّ القُرآنَ أُنزِلَ مِن عندِ اللهِ، سواءٌ كانوا المُشركينَ، أو الَّذين يُلَقِّنونَهم مِن أهلِ الكتابِ، أي: لا تَمتَروا في إنزالِ القُرآنِ على بشَرٍ؛ فقدْ أُنزِلَ الكِتابُ على مُوسى، فلا تَكونوا في مِريةٍ مِن إنزالِ القُرآنِ على محمَّدٍ؛ فالنَّهيُ مُستعمَلٌ في حَقيقتِه، مِن طَلبِ الكفِّ عن المِرْيةِ في إنزالِ القُرآنِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ضَميرُ النَّصبِ في ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٣٥، ٢٣٦).

يجوزُ أنْ يَعودَ على الكِتابِ، أو على مُوسى، فوُصِفَ بأنَّه هُدًى؛ للمُبالَغةِ في حُصولِ الاهتداءِ به، وهو مَعطوفٌ على ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، وما بيْنَهما اعتِراضٌ. وهذا تَعريضٌ بالمُشركينَ؛ إذ لَمْ يَشكُروا نِعمةَ اللهِ على أنْ أرسَلَ إليهم مُحمَّدًا بالقُرآنِ لِيَهتَدوا، فأعْرَضوا، وكانوا أحقَّ بأنْ يَحْرِصوا على الاهتِداءِ بالقُرآنِ وبهَدْيِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(١)].

- وخَصَّ بني إسرائيلَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه لم يَتعبَّدْ بما فيها وَلَدَ إسماعيلَ[(٢)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فيه تَعريضٌ بالبِشارةِ لأصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّهم يَكونون أئمَّةً لِدينِ الإسلامِ، وهُداةً للمسلمينَ؛ إذ صَبَروا على ما لَحِقَهم في ذاتِ اللهِ مِن أذَى قَومِهم، وصَبَروا على مَشاقِّ التَّكليفِ، ومُعاداةِ أهْلِهم وقَومِهم، وظُلْمِهم إيَّاهم[(٣)].

- وعلى أنَّ المُرادَ مِن الآياتِ في قولِه: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ هو ما في التَّوراةِ مِن الشَّرائعِ والمواعظِ؛ فإطلاقُ اسمِ الآياتِ عليها مُشاكلةٌ تَقديريَّةٌ لِما هو شائعٌ بيْنَ المسلمينَ مِن تَسميةِ جُمَلِ القُرآنِ آياتٍ؛ لأنَّها مُعجِزةٌ في بَلاغتِها، خارجةٌ عن طَوقِ تَعبيرِ البشَرِ[(٤)].

- وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِآيَاتِنَا﴾ على ﴿يُوقِنُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالآياتِ[(٥)].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٦، ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٣٧).

- قولُه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ يُثِيرُ سُؤالًا في نفْسِ السَّامعِ مِنَ المؤمنينَ الَّذين سَمِعوا ما في القُرآنِ مِن وَصفِ اختِلافِ بني إسرائيلَ، وانحرافِهم عن دِينِهم، وشاهَدَ كثيرٌ منهم بني إسرائيلَ في زَمانِه غيرَ مُتَحَلِّينَ بما يُناسِبُ ما قامَتْ به أئمَّتُهم مِن الهِدايةِ، فيَوَدُّ أنْ يَعلَمَ سببَ ذلك؛ فكان في هذه الآيةِ جوابُ ذلك؛ تَعليمًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وللمُؤمنينَ[(١)].

- وضَميرُ (هو) في قولِه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ ضَميرُ فَصلٍ؛ لِقَصرِ الفَصلِ عليه تَعالى؛ إيماءً إلى أنَّ ما يُذكَرُ في القرآنِ مِن بَيانِ بَعضِ ما اختَلفوا فيه على أنبيائِهم، ليس مَطْموعًا منه أنْ يَرتدِعوا عن اختلافِهم، وإنَّما هو للتَّسجيلِ عليهم، وقَطْعِ مَعذرتِهم؛ لأنَّهم لا يَقبَلون الحُجَّةَ، فلا يُفصَلُ بيْنَهم إلَّا يومَ القيامةِ[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٣٩).

الآيات (٢٦-٣٠)

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾: أي: يُبَيِّنْ أو يَتبيَّنْ لهم، وأصلُ (هدي) هنا: التَّقدُّمُ للإرشادِ[١].

﴿ٱلْقُرُونِ﴾: جمعُ قَرْنٍ، والقَرْنُ: القَومُ المُقترِنُونَ في زمنٍ واحدٍ، أو الأمَّةُ مِن النَّاسِ، قيل: مدَّةُ القَرنِ مئةُ سَنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وقيل: غيرُ مُقَدَّرةٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وهو مأخوذٌ مِنَ الاقترانِ، وهو اجتماعُ شيئينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصل (قرن): يدُلُّ على جَمْعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٢].

﴿ٱلْجُرُزِ﴾: أي: اليابِسةِ الَّتي لا نباتَ فيها، وأصلُ (جرز): القَطعُ؛ كأنَّ الأرضَ الجُرُزَ -وهي الَّتي لا نبتَ بها- قُطِع نَباتُها عنها[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩١).

﴿ٱلْفَتْحِ﴾: أي: الحُكْمُ، وأصلُ (فتح): يدُلُّ على خِلافِ الإغلاقِ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى داعيًا المشركينَ إلى الاعتبارِ بالأُممِ السَّابقةِ: أولَم يَتبيَّنْ لأولئك المُشرِكينَ كَثرةُ مَن أهلَكْنا قَبْلَهم مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، وهم يَمشونَ في مَنازِلهم فلا يَرَونَ فيها أحَدًا منهم، قد هَلَكوا جميعًا؟! إنَّ في إهلاكِ أولئك القَومِ لَعِبَرًا لِمُشرِكي قُرَيشٍ وغَيرِهم، أفلا يَسمَعونَ؟!

ثمَّ يُنبِّهُ الله سبحانَه إلى نعمةٍ مِن نِعَمِه الكثيرةِ، فيقولُ: أوَلَمْ يَرَ أولئك المُشرِكونَ أنَّا نَسوقُ بقُدرتِنا الماءَ إلى الأرضِ اليابِسةِ الَّتي لا نباتَ فيها، فنُخرِجُ به زَرعًا يأكُلونَ منه، وتَأكُلُ منه مَواشيهم، أفلا يُبصِرونَ؟!

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى ما كان عليه المشركونَ مِن استِخفافٍ بالوعيدِ، فيقولُ: ويقولُ أولئك المُشرِكونَ: متى يجيءُ الفَصلُ بيْنَنا وبيْنَكم فيُعَذِّبُنا اللهُ ويَنصُرُكم علينا إنْ كنتُم صادقينَ؟!

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه بالرَّدِّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ-: يومَ الفَصلِ لا يَنفَعُ أولئك الكُفَّارَ إيمانُهم، ولا هم يُمهَلونَ فيُؤخَّرُ عنهم العذابُ لِيَتوبوا؛ فأعرِضْ -يا محمَّدُ- عنهم، وانتَظِرْ حتَّى يُنزِلَ اللهُ عَذابَه بهم، إنَّهم مُنتَظِرونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٩٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن أعاد اللهُ تعالى ذِكرَ الرِّسالةِ في قَولِه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾؛ أعاد هنا ذِكرَ التَّوحيدِ مع ذِكرِ البُرهانِ عليه بما يَرونَه مِن المُشاهَداتِ الَّتي يُبصِرونَها[1].

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ﴾.

أي: أوَلَمْ يَتبيَّنْ للمُشرِكينَ إهلاكُنا كثيرًا مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ قَبْلَهم، كعادٍ وثَمودَ وقَومِ لُوطٍ، وهم يَمشونَ في منازِلِهم فلا يَرَونَ فيها أحدًا منهم، قد أُهلِكوا جميعًا؛ بسَبَبِ ظُلمِهم[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦].

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾.

أي: إنَّ في ذَهابِ أولئك القَومِ ودَمارِهم وخَلاءِ مَساكِنِهم؛ بسَبَبِ ظُلمِهم وتَكذيبِهم: لَدَلالاتٍ وعِبَرًا وعِظاتٍ لِمُشرِكي قُرَيشٍ وغَيرِهم، أفلا يَسمَعونَ آياتِ اللهِ وأخبارَ الماضِينَ سَماعَ تدَبُّرٍ واتِّعاظٍ؛ فيَتوبوا ويَترُكوا الشِّركَ؛ كيلا يُصيبَهم مِثلُ ما أصاب مَنْ قَبْلَهم مِنَ الهَلاكِ[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥١)، ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٩، ٦٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٠)، ((تفسير ابن =

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أقام اللهُ تعالى الحُجَّةَ على الكَفَرةِ، بالأُمم السَّالِفةِ الَّذين كَفَروا فأُهلِكوا؛ أقامها عليهم بإظهارِ قُدرتِه، وتَنبيهِهم على البَعثِ[1].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾.

أي: أوَلَمْ يَرَ المُشرِكونَ المكَذِّبونَ بالبَعثِ أنَّا نَسوقُ بقُدرتِنا الماءَ -كماءِ المطَرِ والسَّيلِ- إلى الأرضِ اليابِسةِ الَّتي لا نَباتَ فيها[2]؟!

﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ﴾.

أي: فنُخرِجُ بذلك الماءِ زَرعًا تأكُلُ منه مَواشيهم، وتتغَذَّى به أبدانُهم[3].

﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾.

أي: أفلَا يَرَونَ كيفَ أحيا اللهُ الأرضَ بعدَ مَوتِها؛ فيَعلَموا بذلك قُدرةَ اللهِ

= كثير)) (٦/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٥، ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٢، ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

قال الزمخشري: (الجُرُزُ: الأرضُ الَّتي جُرِز نباتُها، أي: قُطِع؛ إمَّا لعدمِ الماءِ، وإمَّا لأنَّه رُعِي وأُزيل، ولا يُقالُ للَّتي لا تُنبِتُ كالسِّباخِ: جُرُزٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

تعالى على إحياءِ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم[١]؟!

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن الرِّسالةَ والتَّوحيدَ؛ بَيَّن الحشرَ بقولِه تعالَى[٢]:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: ويَقولُ أولئك المُشرِكونَ: متى يَجيءُ هذا الحُكْمُ الَّذي يَفصِلُ اللهُ به بيْنَنا وبيْنَكم، فيُعَذِّبُنا ويَنصُرُكم علينا إنْ كُنتُم صادِقينَ -أيُّها الرَّسولُ والمؤمِنونَ- في أنَّنا مُعاقَبونَ على شِرْكِنا وتَكذيبِنا[٣]؟!

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: يومَ الحُكم ومَجيءِ العَذابِ الَّذي تَسألونَ عنه لا تَستفيدون شَيئًا؛ فإنَّه إذا جاء انقَضَى الأمرُ، وحِينَها لا يَنفَعُ الكُفَّارَ إيمانُهم[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٣، ٦٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٢).
معنَى الفتحِ هو القضاءُ والحُكْمُ عندَ أكثرِ المفسِّرينَ، نسَبَه إليهم الرَّسْعَنيُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٩٣).
قال الواحدي: (والقضاءُ بيْنَ الخلْقِ، وهو يوم البعثِ، يَقضي الله فيه بين المؤمنينَ والكافرين). ((الوسيط)) (٣/ ٤٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧). =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

أي: ولا يُمهَلونَ فيُؤخَّرَ عنهم العذابُ؛ ليتُوبوا[١].

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت نتيجةُ سَماعِ المُشرِكينَ لهذه الأدِلَّةِ استِهزاءَهم حتَّى بسؤالِهم عن يومِ الفَتحِ، وأجابهم سُبحانَه عن تَعيينِه بذِكرِ حالِه، وكان صلَّى الله عليه وسلَّم -لشِدَّةِ حِرصِه على نَفعِهم- ربَّما أحَبَّ إعلامَهم بما طلبوا، وإن كان يَعلَمُ أنَّ ذلك منهم استهزاءٌ؛ رجاءَ أن ينفَعَهم نفعًا ما: سبَّب سُبحانَه عن إعراضِه عن إجابتِهم أمْرَه لهذا الدَّاعي الرَّفيقِ والهادي الشَّفيقِ بالإعراضِ عنهم أيضًا[٢].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن المسائلَ وأتْقَن الدَّلائلَ ولم ينفَعْهم؛ قالَ تعالَى[٣]:

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ بيوم الفتحِ: يومُ القيامةِ: السمعانيُّ، والبغوي، وابن جزي، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٨). وقال ابن كثير: (﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ أي: إذا حل بكم بأسُ الله وسَخَطُه وغضَبُه في الدُّنيا، وفي الأخرى). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥١).

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾.

أي: فأعرِضْ -يا مُحمَّدُ- عن هؤلاء المُشرِكينَ الَّذين يَستَعجِلونَك بالعَذابِ[1].

كما قال تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النجم: ٢٩].

﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾.

أي: وانتَظِرْ حتَّى يُنزِلَ اللهُ عَذابَه بالكافِرين، ويَنصُرَك عليهم؛ إنَّهم مُنتَظِرونَ[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أنَّ في إهلاكِ الأمم عِبْرةً وآيةً؛ فهو آيةٌ لِكَونِ اللهِ تعالى أخذَهم وأهلَكَهم مع قُوَّتِهم، وهي عِبرةٌ لأنَّ اللهَ أخَذَهم لِمُخالَفتِه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٣، ٢٤٤).

قيل: المرادُ: إنَّهم مُنتَظِرونَ ما تَعِدُهم مِنَ العذابِ ومجيءِ السَّاعةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٧٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٦).

وقيل: المرادُ: إنَّهم مُنتَظِرونَ بك حوادِثَ الأزمانِ؛ لِيَستريحوا منك، ويَتَرَبَّصون بكم دَوائرَ السَّوءِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: الواحديُّ، وابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

وقيل: مُنتَظِرونَ الفُرصةَ لحَربِكم، أو لإخراجِكم. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٤).

ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [غافر: ٢١]، وقال في الآيةِ الأخرى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢]، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: ٩]، وكلُّ هذا يُفيدُ بأنَّه يجبُ علينا نحن أنْ نَعتبرَ بهذه الآياتِ، وأن نخافَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ ﴾ وُجوبُ النَّظَرِ في الآياتِ؛ لأنَّ الاستفهامَ هنا للتَّوبيخِ واللَّومِ لِمَن لم يَنتفعْ بذلك[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ الحَثُّ على النَّظَرِ والتَّبَصُّرِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ﴾ الاستِدلالُ بالشَّيءِ المحسوسِ على الشَّيءِ المعقولِ، أو بعبارةٍ أخرى: الاستِدلالُ بعينِ اليَقينِ على صِدقِ عِلْمِ اليَقينِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ ﴾ هذا عِلمُ اليَقينِ، وقولُه تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ﴾ هذا عينُ اليَقينِ[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ ﴾ نيطَ الاستِدلالُ هنا بالكَثرةِ الَّتي أفادَتْها (كم) الخَبريَّةُ؛ لأنَّ تكَرُّرَ حُدوثِ القُرونِ وزَوالِها: أقوى دَلالةً مِن مُشاهَدةِ آثارِ أمَّةٍ واحِدةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٩).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ ﴾ إثباتُ أفعالِ اللهِ الاختياريَّةِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا ﴾ نِيطَ الاستِدلالُ هنا بالرُّؤيةِ؛ لأنَّ إحياءَ الأرضِ بعدَ مَوتِها، ثمَّ إخراجَ النَّبتِ منها: دَلالةٌ مُشاهَدةٌ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ﴾ أنَّ الأصلَ فيما نَبَتَ في الأرضِ الحِلُّ، فالأصلُ فيما نَبَتَ في الأرضِ أنه حلالٌ حتَّى يقومَ دليلٌ على التَّحريمِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ ﴾ أنَّ العذابَ قد يُؤَجَّلُ قبْلَ نُزولِه؛ فظاهِرُ الآيةِ: أنَّه لو كان هذا الإيمانُ قبْلَ نُزولِ العَذابِ، فإنَّ اللهَ تعالى يَرفَعُه بالإيمانِ؛ ولهذا أمَرَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عندَ الكُسوفِ بالصَّلاةِ والدُّعاءِ والاستِغفارِ[٤]، والصَّدَقةِ والتَّكبيرِ[٥]؛ مِن أجْلِ أنْ يُرفَعَ العذابُ الَّذي هذا إنذارٌ به؛ فإنَّ الكُسوفَ إنذارٌ بالعَذابِ، وهو نفْسُه ليس عذابًا، لكِنَّه إنذارٌ بأنْ يُعَذَّبَ الخَلْقُ، فإذا فَزِعوا إلى الصَّلاةِ وإلى الذِّكرِ والدُّعاءِ والاستِغفارِ، رُفِعَ عنهم[٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٢٦).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (١٠٥٩)، ومسلم (٩١٢) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر ما أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٢٩).

فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۖ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ﴾ في هذه الآيةِ مُناسَبةٌ حسَنةٌ في المعاني، حيثُ قال اللهُ تعالى في صَدْرِها: ﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ ﴾ وهي مَوعظةٌ سَمعيَّةٌ؛ لِكَونِهم لم يَنظُروا إلى القُرونِ الهالِكةِ، وإنَّما سَمِعوا بها؛ فناسَبَ أنْ يأتِيَ بعْدَها بقولِه: ﴿أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ﴾، أمَّا بعدَ الموعظةِ المرئيَّةِ -وهي قولُه: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ ﴾- فقد ناسَبَ أنْ يقولَ: ﴿أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ﴾؛ لأنَّ الزَّرعَ مَرئيٌّ لا مَسموعٌ؛ لِيُناسِبَ آخِرُ كلِّ كلامٍ أوَّلَه[1].

- وقولُه: ﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡ ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ ﴾ [السجدة: ٢٢]، ولَمَّا كان ذلك التَّذكيرُ مُتَّصِلًا كقولِه: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٍ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [السجدة: ١٠]، كان الهَدْيُ -أي العِلمُ المُستفهَمُ عنه بهذا الاستِفهامِ- شاملًا للهَدْيِ إلى دَليلِ البعثِ، وإلى دَليلِ العِقابِ على الإعراضِ عن التَّذكيرِ؛ فأفاد قولُه: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ ﴾ مَعنيَينِ؛ أحدُهما: إهلاكُ أُمَمٍ كانوا قبْلَهم، فجاء هؤلاء المُشركون بَعْدَهم؛ وذلك تَمثيلٌ للبَعثِ، وتَقريبٌ لإمكانِه. وثانيهما: إهلاكُ أُمَمٍ كذَّبوا رُسلَهم؛ ففيهم عِبرةٌ لهم أنْ يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم[2].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ[3].

- وقد جُوِّزَ أنْ يكونَ الفاعلُ لـ﴿يَهۡدِ﴾ ضَميرَه تعالى؛ فيَكونَ قولُه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٩).

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا ...﴾ استِئنافًا مُبيِّنًا لِكَيفيَّةِ هِدايتِه تعالى[١].

- اختِيرَ فِعلُ الهِدايةِ في هذه الآيةِ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؛ لإرادةِ الدَّلالةِ الجامعةِ للمُشاهَدةِ، ولِسماعِ أخبارِ تلك الأُمَمِ؛ تَمهيدًا لقولِه في آخِرِها: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾، ولأنَّ كثرةَ ذلك المُستفادةَ مِن (كَم) الخَبريَّةِ إنَّما تَحصُلُ بتَرتيبِ الاستِدلالِ في تَواتُرِ الأخبارِ، ولا تَحصُلُ دَفْعةً كما تَحصُلُ دَلالةُ المُشاهَداتِ[٢].

- ولَمَّا كان الَّذي يُؤْثَرُ مِن أخبارِ تلك الأُمَمِ، وتَقلُّباتِ أحوالِها، وزَوالِ قُوَّتِها ورَفاهيَّتِها؛ أشَدَّ دَلالةً ومَوعظةً للمشركينَ؛ فُرِّعَ عليه ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ استِفهامًا تَقْريريًّا مَشوبًا بتَوبيخٍ؛ لأنَّ اجتِلابَ المُضارِعِ -وهو ﴿يَسْمَعُونَ﴾- مُؤْذِنٌ بأنَّ استِماعَ أخبارِ تلك الأُمَمِ مُتكرِّرٌ مُتجدِّدٌ؛ فيكونُ التَّوبيخُ على الإقرارِ المُستفهَمِ عنه أوقَعَ، بخِلافِ ما بعْدَه مِن قولِه: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[٣] [السجدة: ٢٧].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ لَمَّا ذكَرَ القُرونَ والمَساكنَ بالجَمْعِ؛ حَسُنَ جمْعُ الآياتِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾

- اختِيرَ في التَّعبيرِ هنا الفِعلُ المُضارِعُ ﴿نَسُوقُ﴾؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٥).

العَجيبةِ الدَّالَّةِ على القُدرةِ الباهرةِ[١].

- قولُه: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ الزَّرعُ: ما نبَتَ بسَببِ بَذرِ حُبوبِه في الأرضِ؛ كالشَّعيرِ والبُرِّ، وأكْلُ الأنعامِ غالِبُه مِن الكلأِ، لا مِن الزَّرعِ، فذِكْرُ الزَّرعِ بلَفْظِه، ثمَّ ذِكْرُ أكْلِ الأنعامِ؛ يَدُلُّ على تَقديرِ: وكَلأً...؛ ففي الكلامِ اكتِفاءٌ[٢]. والتَّقديرُ: ونُخرِجُ به زَرعًا وكَلأً تأكُلُ منه أنعامُهم وأنفسُهم، والمَقصودُ: الاستِدلالُ على البَعثِ وتَقريبِه وإمكانِه، بإخراجِ النَّبتِ مِن الأرضِ بعدَ أنْ زالَ فَوْجُهُ الأوَّلُ. وأُدْمِجَ في هذا الاستِدلالِ امتنانٌ بقولِه: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ خُصَّ الزَّرعُ بالذِّكْرِ -وإنْ كان يُخرِجُ اللهُ به أنواعًا كثيرةً؛ مِن الفَواكهِ والبُقولِ، والعُشبِ المُنتفَعِ به في الطِّبِّ وغيرِه-؛ تَشريفًا للزَّرعِ، ولأنَّه أعظَمُ ما يُقصَدُ مِن النَّباتِ[٤].

- وقُدِّمَت الأنعامُ؛ لأنَّ ما يَنبُتُ يَأكُلُه الأنعامُ أوَّلَ فأوَّلَ، مِن قبْلِ أنْ يَأكُلَ بَنو آدَمَ الحَبَّ، أو لأنَّه غِذاءُ الدَّوابِّ، والإنسانُ قد يَتغذَّى بغَيرِه؛ مِن حَيوانٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٢) الاكتِفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المَقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ. ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتفاءِ، إذِ التَّقديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤٢).

وغيرِه، أو بَدَأ بالأدْنى، ثمَّ تَرقَّى إلى الأشرَفِ، وهم بَنو آدَمَ[١]. أو قدَّمَها لِمَوقعِ الامتنانِ بها؛ لأنَّ بها قِوامَهم في مَعايشِهم وأبدانِهم، ولأنَّ السِّياقَ لِمُطلَقِ إخراجِ الزَّرعِ، وأوَّلُ صلاحِه إنَّما هو لأكْلِ الأنعامِ، بخِلافِ ما في سُورةِ (عبَسَ)؛ فإنَّ السِّياقَ لِطَعامِ الإنسانِ الَّذي هو نِهايةُ الزَّرعِ؛ حيث قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤]، ثمَّ قال: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [عبس: ٢٧]، وذكَرَ مِن طَعامِه مِن العِنَبِ وغيرِه ما لا يَصلُحُ للأنعامِ[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ[٣].

- ولَمَّا كانتْ هذه الآيةُ مُبصَرةً، وكانتْ في وُضوحِها في الدَّلالةِ على البَعثِ لا يَحتاجُ الجاهلُ بها في الإقرارِ سِوى رُؤيتِها؛ قال: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ مَن رآهَا وتَنبَّه على ما فيها مِن الدَّلالةِ، وأصرَّ على الإنكارِ؛ لا بَصَرَ له ولا بَصيرةَ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ حِكايةُ قَولِهم بصِيغةِ المُضارِعِ؛ لإفادةِ التَّعجيبِ منه، مع إفادةِ تَكرُّرِ ذلك منهم، واتِّخاذِهم إيَّاهُ[٥].

- واسمُ الإشارةِ في ﴿هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ مع إمكانِ الاستغناءِ عنه بذِكْرِ مُبيِّنِه، مَقصودٌ منه التَّحقيرُ، وقِلَّةُ الاكتِراثِ به[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٤٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أمَرَ اللهُ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُجيبَهم على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيم؛ بأنَّ يومَ الفتْحِ الحقَّ هو يومُ القيامةِ، وهو يومُ الفصْلِ، وحينَئذٍ يَنقطِعُ أمَلُ الكفَّارِ في النَّجاةِ، والاستفادةِ مِن النَّدامةِ والتَّوبةِ، ولا يَجدون إنظارًا لِتَدارُكِ ما فاتَهم، مع ما في هذا الجوابِ مِن الإيماءِ إلى أنَّ زمَنَ حُلولِه غيرُ مَعلوم للنَّاس، وأنَّه ممَّا استأثَرَ اللهُ به؛ فعَلى مَن يَحتاطُ لِنَجاةِ نفْسِه أنْ يَعمَلَ له مِن الآنَ؛ فإنَّه لا يَدْري متى يَحِلُّ به، فـ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]؛ ففي هذا الجوابِ سُلوكُ الأُسلوبِ الحكيمِ مِن وَجهين: مِن وَجهِ العُدولِ عن تَعيينِ يومِ الفتْحِ، ومِن وَجهِ العُدولِ بهم إلى يومِ الفتْحِ الحقِّ، وهمْ إنَّما أرادوا بالفتْحِ نَصْرَ المسلمينَ عليهم في الحياةِ الدُّنيا(١).

- وقيل: العُدولُ عن تَطبيقِ الجوابِ على ظاهرِ سُؤالِهم؛ للتَّنبيهِ على أنَّه ليس ممَّا يَنبغِي أنْ يُسألَ عنه؛ لكَونِه أمْرًا بيِّنًا غنيًّا عن الإخبارِ به، وكذا إيمانُهم واستِنْظارُهم يَومَئذٍ، وإنَّما المُحتاجُ إلى البَيانِ عَدمُ نفْعِ ذلك الإيمانِ، وعَدمُ الإنظارِ؛ كأنَّه قِيل: لا تَستعجِلوا؛ فكأنِّي بكمْ قد آمنتُم فلمْ يَنفَعْكم، واستَنْظَرتُم فلم تُنْظَروا(٢).

- وقيل: المُناسَبةُ بيْن السُّؤالِ والجوابِ: أنَّه لَمَّا كان سُؤالُهم سُؤالَ تَكذيبٍ واستهزاءٍ بيَومِ القيامةِ، لا سُؤالَ استفهامٍ؛ أُجيبوا بالتَّهديدِ المُطابِقِ للتَّكذيبِ والاستهزاءِ، لا ببَيانِ حَقيقةِ المُوقَّتِ. وإنْ فُسِّرَ الفتْحُ بفَتحِ مكَّةَ أو بيَومِ بَدْرٍ، كان المُرادُ أنَّ المُتولِّينَ لم يَنفَعْهم إيمانُهم حالَ القتلِ، كما لمْ يَنفَعْ فِرعونَ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٨).

إيمانُه، بخِلافِ الطُّلَقاءِ الَّذين آمَنوا بعْدَ الأسْرِ؛ فالجوابُ بذلك مُطابِقٌ للسُّؤالِ مِن غَيرِ تَأويلٍ[١].

- وإظهارُ وَصْفِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ في مَقامِ الإضمارِ، مع أنَّهم همُ القائِلونَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ﴾؛ لِقَصدِ التَّسجيلِ عليهم بأنَّ كُفْرَهم هو سَببُ خَيبتِهم[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ فُرِّعَ على جَميعِ هذه المُجادَلاتِ والدَّلالاتِ تَوجيهُ اللهِ خِطابَه إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُعرِضَ عن هؤلاء القائلينَ المُكذِّبين، وألَّا يَزيدَ في الإلحاحِ عليهم؛ تَأييسًا مِن إيمانِ المُجادِلينَ منهم، المُتصَدِّينَ للتَّمويهِ على دَهْمائِهم[٣].

- وحُذِفَ مَفعولُ (انْتَظِرْ) للتَّهويلِ، أي: انتظِرْ أيَّامًا يكونُ لك فيها النَّصرُ، ويكونُ لهم فيها الخُسرانُ؛ ففي الأمرِ بالانتظارِ تَعريضٌ بالبِشارةِ للمُؤمنينَ بالنَّصرِ، وتَعريضٌ بالوَعيدِ للمشركينَ بالعذابِ في الدَّارَينِ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ تَعليلٌ لِمَا تَضمَّنَه الأمرُ بالانتظارِ مِن إضمارِ العذابِ لهم[٥].

- ومَفعولُ ﴿مُّنتَظِرُونَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه السِّياقُ، أي: مُنتظِرون لكمُ الفُرصةَ لِحَرْبِكم، أو لإخراجِكم[٦]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٥، ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٤٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٤٤).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الرَّابعُ والعشرونَ

ويليه المجلدُ الخامسُ والعشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الأحزابِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ الرُّومِ

أسماءُ السُّورةِ ١٣
بيانُ المَكِّي والمَدَنيِّ ١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ١٤
موضوعاتُ السُّورةِ ١٤
الآيات (١-٧) ١٦
المعنى الإجماليُّ ١٦
تَفسيرُ الآياتِ ١٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٨
بلاغةُ الآياتِ ٣٢
الآيات (٨-١٠) ٤٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٠
المعنى الإجماليُّ ٤١
تَفسيرُ الآياتِ ٤٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٨
بلاغةُ الآياتِ ٤٩
الآيات (١١-١٦) ٥٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٨

المعنى الإجماليُّ ٥٩
تَفسيرُ الآياتِ ٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٤
بلاغةُ الآياتِ ٦٥
الآيات (١٧-٢٣) ٧١
غَريبُ الكَلِماتِ ٧١
المعنى الإجماليُّ ٧١
تَفسيرُ الآياتِ ٧٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٨٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٨٨
بلاغةُ الآياتِ ٩٢
الآيات (٢٤-٢٧) ١٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١٠٦
المعنى الإجماليُّ ١٠٦
تَفسيرُ الآياتِ ١٠٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١١٦
بلاغةُ الآياتِ ١١٨
الآيتان (٢٨-٢٩) ١٢٦
المعنى الإجماليُّ ١٢٦
تَفسيرُ الآيتينِ ١٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٣٠

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٣٠
بلاغةُ الآيتينِ ١٣١
الآيات (٣٠-٣٢) ١٣٧
غَريبُ الكَلِماتِ ١٣٧
مُشكِلُ الإعرابِ ١٣٨
المَعنى الإجماليُّ ١٣٩
تَفسيرُ الآياتِ ١٣٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٤٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤٨
بلاغةُ الآياتِ ١٥١
الآيات (٣٣-٣٧) ١٥٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١٥٦
المَعنى الإجماليُّ ١٥٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٥٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٦٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٦٢
بلاغةُ الآياتِ ١٦٤
الآيات (٣٨-٤٠) ١٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ ١٧٢
المَعنى الإجماليُّ ١٧٢
تَفسيرُ الآياتِ ١٧٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٧٨

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٧٩
بلاغةُ الآياتِ ١٨٢
الآيات (٤١-٤٥) ١٨٨
غَريبُ الكَلِماتِ ١٨٨
المعنى الإجماليُّ ١٨٨
تَفسيرُ الآياتِ ١٨٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٩٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩٦
بلاغةُ الآياتِ ١٩٩
الآيات (٤٦-٥٣) ٢٠٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٠٩
المعنى الإجماليُّ ٢١٠
تَفسيرُ الآياتِ ٢١١
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٢٢٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٢٣
بلاغةُ الآياتِ ٢٢٦
الآيات (٥٤-٥٧) ٢٣٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٣٩
المعنى الإجماليُّ ٢٤٠
تَفسيرُ الآياتِ ٢٤٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٤٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٤٨

بلاغةُ الآياتِ ٢٥٠
الآيات (٥٨-٦٠) ٢٥٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٥٥
المعنى الإجماليُّ ٢٥٦
تَفسيرُ الآياتِ ٢٥٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٦٠
بلاغةُ الآياتِ ٢٦٠

سورةُ لُقمانَ

أسماءُ السُّورةِ ٢٦٥
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٢٦٥
مَقاصِدُ السُّورةِ ٢٦٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٢٦٥
الآيات (١-٥) ٢٦٧
المعنى الإجماليُّ ٢٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ٢٦٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٦٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٧٠
بلاغةُ الآياتِ ٢٧٢
الآيات (٦-٩) ٢٧٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٧٥
المعنى الإجماليُّ ٢٧٥

تَفسيرُ الآياتِ ٢٧٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٨٣
بلاغةُ الآياتِ ٢٨٦
الآيتان (١٠-١١) ٢٩٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٩٠
المعنى الإجماليُّ ٢٩١
تَفسيرُ الآيتَينِ ٢٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩٤
بلاغةُ الآيتَينِ ٢٩٦
الآيتان (١٢-١٣) ٣٠٠
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٠٠
المَعنى الإجماليُّ ٣٠٠
تَفسيرُ الآيتَينِ ٣٠١
الفَوَائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٠٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٠٦
بلاغةُ الآيتَينِ ٣٠٧
الآيتان (١٤-١٥) ٣١٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٣١٢
مُشكِلُ الإعرابِ ٣١٢
المعنى الإجماليُّ ٣١٣
تَفسيرُ الآيتَينِ ٣١٤
الفَوَائِدُ التَّربَويَّةُ ٣١٨

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٢١
بلاغةُ الآيتَينِ ٣٢٤
الآيات (١٦-١٩) ٣٣١
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٣١
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٣٢
المعنى الإجماليُّ ٣٣٣
تَفسيرُ الآياتِ ٣٣٤
الفَوَائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٤٦
بلاغةُ الآياتِ ٣٤٧
الآيات (٢٠-٢٤) ٣٥٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٥٦
المعنى الإجماليُّ ٣٥٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٥٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٦٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٦٧
بلاغةُ الآياتِ ٣٧١
الآيات (٢٥-٢٧) ٣٧٨
المعنى الإجماليُّ ٣٧٨
تَفسيرُ الآياتِ ٣٧٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٨٣
بلاغةُ الآياتِ ٣٨٣

الآيات (٢٨-٣٠) ٣٩٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٩٠
المعنى الإجماليُّ ٣٩٠
تَفسيرُ الآياتِ ٣٩١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٩٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٩٧
بلاغةُ الآياتِ ٣٩٨
الآيتان (٣١-٣٢) ٤٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٠٦
المعنى الإجماليُّ ٤٠٦
تَفسيرُ الآيتَينِ ٤٠٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤١٢
بلاغةُ الآيتَينِ ٤١٣
الآيتان (٣٣-٣٤) ٤١٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٤١٩
المعنى الإجماليُّ ٤١٩
تَفسيرُ الآيتَينِ ٤٢٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٢٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٢٧
بلاغةُ الآيتَينِ ٤٣٠

سُورةُ السَّجْدةِ

أسماءُ السُّورةِ ٤٤١
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ٤٤١
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٤٤٢
مَقاصِدُ السُّورةِ ٤٤٢
موضوعاتُ السُّورةِ ٤٤٢
الآيات (١-٥) ٤٤٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٤٤
المعنى الإجماليُّ ٤٤٦
تَفسيرُ الآياتِ ٤٤٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٥٢
بلاغةُ الآياتِ ٤٥٨
الآيات (٦-١١) ٤٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٦٦
المعنى الإجماليُّ ٤٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ٤٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٧٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٧٤
بلاغةُ الآياتِ ٤٨٠
الآيات (١٢-١٤) ٤٩٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٩٠

المعنى الإجماليُّ ٤٩٠
تَفسيرُ الآياتِ ٤٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٩٥
بلاغةُ الآياتِ ٤٩٨
الآيات (١٥-١٧) ٥٠٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٠٥
المَعنى الإجماليُّ ٥٠٦
تَفسيرُ الآياتِ ٥٠٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥١٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥١٤
بلاغةُ الآياتِ ٥١٧
الآيات (١٨-٢٢) ٥٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٢٢
المعنى الإجماليُّ ٥٢٢
تَفسيرُ الآياتِ ٥٢٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٣٠
بلاغةُ الآياتِ ٥٣٤
الآيات (٢٣-٢٥) ٥٤١
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٤١
المعنى الإجماليُّ ٥٤١
تَفسيرُ الآياتِ ٥٤٢

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٤٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٤٨
بلاغةُ الآياتِ ٥٤٩
الآيات (٢٦-٣٠) ٥٥٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٥٤
المعنى الإجماليُّ ٥٥٥
تَفسيرُ الآياتِ ٥٥٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٦١
بلاغةُ الآياتِ ٥٦٢
الفهرس ٥٧٣

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الأحزاب

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الخامس والعشرون

الدرر السنية
www.dorer.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الأحزاب)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد الخامس والعشرون – سورة الأحزاب/

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٢ هـ

٤٦٣ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٥-٩١-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٢/٦٠٨٢

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٦٠٨٢

ردمك: ٥-٩١-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الأحزاب)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الخامس والعشرون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ الأحزابِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الأحزابِ

أسماءُ السُّورة:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسورةِ (الأحزاب)[١].

فعن زِرٍّ، قال: قال أُبَيُّ بنُ كعبٍ: (كم تَعُدُّون سورةَ الأحزابِ آيةً؟ قُلْنا: ثلاثةً وسبعينَ...)[٢].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الأحزابِ مَدَنيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الأحزابِ:

١- الحضُّ على التَّوجُّهِ إلى الخالقِ مِن غيرِ مراعاةٍ بوجْهٍ ما للخلائقِ[٤].

---

(١) سُمِّيت سورةَ الأحزابِ؛ لاشتمالِها على قِصَّةِ الأحزابِ مِن المشركينَ مِن قُرَيشٍ ومَن تحزَّب معهم، أرادوا غزوَ المسلمينَ في المدينةِ، فرَدَّ الله كيْدَهم، وكفَى اللهُ المؤمنينَ القتالَ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٧١٥٠) واللفظ له، وعبدُ الله بنُ أحمدَ في ((زوائد المسند)) (٢١٢٠٧).

حسَّنه ابنُ حَجَر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (٢/ ٣٠٤)، وصحَّح إسنادَه ابنُ جرير في ((مسند عمر)) (٢/ ٨٧٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (٤/ ٤٠٠)، وابن حزم في ((المحلى)) (١١/ ٢٣٥)، والألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٢٩١٣) وحسَّن إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٦/ ٣٧٦).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والرازي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٦٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٧٣).

٢- بيانُ عنايةِ اللهِ بنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحمايةِ جَنابِه[١].

٣- التَّعرُّضُ لكثيرٍ مِن الأحكامِ الشَّرعيَّةِ، والآدابِ الاجتِماعيَّةِ، والاهتمامُ بتنظيمِ المجتمَعِ الإسلاميِّ[٢].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي تناوَلَتْها سُورةُ الأحزابِ:

١- توجيهُ النِّداءِ إلى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم ببعضِ التَّوجيهاتِ؛ بتقْوى اللهِ، وعدَمِ الطَّاعةِ للكافِرينَ والمنافِقينَ، واتِّباعِ ما يُوحِي إليه رَبُّه، والتَّوكُّلِ عليه وحْدَه.

٢- إبطالُ بَعضِ العاداتِ الَّتي كانت سائدةً؛ كالظِّهارِ، والتَّبَنِّي.

٣- ذِكرُ بعضِ الأحكامِ التَّشريعيَّةِ؛ كطاعةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتقريرِ كَوْنِ أزواجِه أُمَّهاتِهم، ووُجوبِ التَّوارُثِ بينَ الأقاربِ -كما هو مبيَّنٌ في آياتٍ أُخَرَ-، وإبطالِ التَّوارُثِ عن طريقِ المؤاخاةِ.

٤- ذِكرُ غزوَتَي الأحزابِ وبَني قُرَيْظَةَ.

٥- ذِكرُ قصَّةِ تخييرِ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبيانُ فضلِهنَّ، وتوجيهُ بعضِ الإرشاداتِ والأوامرِ لهنَّ.

٦- ذِكرُ قِصَّةِ تزويجِ زينبَ بنتِ جَحشٍ رضيَ الله عنها مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ طلاقِها مِن زَيدِ بنِ حارثةَ رضيَ الله عنه، والحِكمةِ مِن ذلك، وهي إبطالُ آثارِ التَّبَنِّي.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١١/ ١٦٧).

٧- الأمرُ بالإكثارِ مِن ذكرِ اللَّه تعالى ومِن تسبيحِه وتنزيهِه، وبيانُ وظيفةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

٨- بيانُ حكمِ المطَلَّقاتِ قبلَ الدُّخولِ.

٩- ذِكرُ خصائصِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النِّكاحِ، ومَن تَحِلُّ له مِن النِّساءِ المؤمناتِ، ومَن تَحْرُمُ عليه.

١٠- ذِكرُ عَلاقةِ المسلمينَ ببيوتِ النَّبيِّ وزَوجاتِه، في حياتِه وبعدَ وفاتِه.

١١- الأمرُ بالصَّلاةِ والسَّلامِ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

١٢- بيانُ جزاءِ الَّذين يُؤْذونَ اللهَ ورسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، ويُؤْذونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ.

١٣- الأمرُ بالحجابِ.

١٤- تهديدُ المنافقينَ والَّذين في قلوبِهم مرَضٌ، والمُرجِفينَ.

١٥- سؤالُ النَّاسِ عن السَّاعةِ، والإجابةُ عن هذا التَّساؤلِ، وذِكرُ أحدِ مَشاهدِ يومِ القيامةِ.

١٦- الأمرُ بتقوى الله والقَولِ السَّديدِ، وبيانُ جزاءِ ذلك.

١٧- تحمُّلُ الإنسانِ للأمانةِ.

الآيات (١-٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٣﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مفتتِحًا السُّورةَ بهذا الخِطابِ لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: يا أيُّها النَّبيُّ اتَّقِ اللهَ ودُمْ على تَقْواه، ولا تُطِعِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ؛ إنَّ اللهَ عَليمٌ بكلِّ شَيءٍ، وبما تُضمِرُه نُفوسُهم، حَكيمٌ في تدبيرِ أمورِ خَلْقِه فيما شَرَع.

واتَّبِعْ ما أوحاه اللهُ إليك؛ إنَّ اللهَ كان بما تَعمَلونَ خَبيرًا، وتَوكَّلْ على اللهِ، وحَسْبُك باللهِ تعالى وَكيلًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ اتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه، ودُمْ على تَقْواه[1].

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾.

أي: ولا تُطِعْ -أيُّها النَّبيُّ- الكافِرينَ المُظهِرينَ للكُفرِ، والمُنافِقينَ المُبطِنينَ له؛ فهؤلاء أعداؤُك، وليسوا أهلَ نُصحٍ لك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١١-١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّقْوى، ونهاه عن طاعةِ الكافرينَ؛ بيَّن أنَّ هذا الأمرَ صادرٌ عن عِلمٍ وحِكمةٍ، وأنَّه تعالى أعلَمُ بما يَكيدُه هؤلاء الأعداءُ مِن الكفَّارِ والمُنافِقين[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ كان ولم يَزَلْ عَليمًا بعواقِبِ الأمورِ، وبما تُضمِرُه نفوسُ الكافِرينَ والمنافِقينَ، حكيمًا في تدبيرِ جميعِ أمورِ خَلقِه، وفيما شرَعَ لهم مِن دينِه[٢].

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه يُقَرِّرُ ما ذُكِرَ مِن أنَّه تعالى حَكيمٌ؛ فاتِّباعُه هو الواجِبُ[٣].

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

أي: واعمَلْ -يا مُحمَّدُ- بما أوحاه إليك ربُّك، وشَرَع لك مِن دينِه، واستَمِرَّ

= (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٤، ١٥).

قال ابن عاشور: (والطَّاعةُ: العملُ على ما يأمُرُ به الغيرُ أو يُشيرُ به لأجْلِ إجابةٍ مرغوبةٍ...، ووُقوعُ اسمِها في سياقِ النَّهيِ يقتَضي النَّهيَ عن كُلِّ ما يتحَقَّقُ فيه أدنى ماهِيَّتِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٤).

على ذلك[١].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ كان ولم يَزَلْ بما تَعمَلونَ خَبيرًا لا يخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها[٢].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: واعتَمِدْ -يا مُحمَّدُ- في أمورِك كُلِّها على اللهِ وَحْدَه، وثِقْ به سُبحانَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٨).
قال السعدي في بيانِ معنى هذه الآيةِ: (فإنْ وقع في قَلبِك أنَّك إنْ لم تُطِعْهم في أهوائِهم المُضِلَّة، حصَلَ عليك منهم ضرَرٌ، أو حصَلَ نَقصٌ في هدايةِ الخَلقِ: فادفَعْ ذلك عن نَفسِك، واستعمِلْ ما يُقاوِمُه ويُقاوِمُ غيرَه، وهو التَّوكُّلُ على الله). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

أي: وحَسْبُك اللهُ تعالى وَحْدَه؛ فهو الحافِظُ لكُلِّ شَيءٍ، القادِرُ على تحقيقِ كُلِّ شَيءٍ، والمدبِّرُ لجَميعِ الخَلقِ؛ فلا تَلتَفِتْ في شَيءٍ مِن أمْرِك إلى غيرِه سُبحانَه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أنَّ الإنسانَ مهما بَلَغ مِن المرتبةِ فإنَّ التَّكاليفَ لا تَسقُطُ عنه، وعلى هذا فيَتفرَّعُ مِن هذه القاعدةِ: بيانُ ضَلالِ أولئكَ الصُّوفيَّةِ الَّذين يقولونَ: «إنَّ الإنسانَ إذا وصلَ إلى دَرَجةِ المعايَنةِ سَقَطت عنه التَّكاليفُ»! قُلْنا: لا؛ لأنَّه لا أحدَ يَبلُغُ مرتبةَ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عندَ اللهِ سُبحانَه وتعالى، ومع ذلك لم تَسقُطْ عنه التَّكاليفُ[٢]!

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قَولُه سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ التَّقْوى ينبغي أن تكونَ عن صَميمِ قَلبِك؛ فإنَّ الله تعالى هو العليمُ[٣]، وفيه تحذيرُ الإنسانِ مِن المخالَفةِ، كما لو قيل: اذهَبْ وأنا أعلَمُ ما تفعلُ؛ فإنَّ المرادَ بذلك: التَّهديدُ والتَّحذيرُ مِن المخالَفةِ، فكلُّ نَصٍّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى فيه أنَّه يَعْلَمُ ما نعملُ فهو تحذيرٌ لنا مِن مخالفتِه[٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فيه زجْرٌ عن اتِّباعِ مراسِمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥).

الجاهِليَّةِ، وأمرٌ بجِهادِهم ومُنابَذتِهم، وفيه دَليلٌ على تَركِ اتِّباعِ الآراءِ مع وُجودِ النَّصِّ، والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولأُمَّتِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ ما يُوجِبُ للإنسانِ صِدْقَ الاعتمادِ على اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنْ يَعتمِدَ على اللهِ وحْدَه؛ فاجعَلِ اعتمادكَ على اللهِ فإنَّه كافيكَ[٢]، ومَن صدَقَ توكُّلُه على الله في حصولِ شَيءٍ، ناله[٣]، وكَفَى به وَكيلًا تُوكَلُ إليه الأمورُ، فيقومُ بها، وبما هو أصلَحُ للعبدِ؛ وذلك لِعلمِه بمَصالحِ عبدِه -مِن حيثُ لا يعلمُ العبدُ-، وقدرتِه على إيصالِها إليه -مِن حيثُ لا يَقدِرُ عليها العبدُ-، وأنَّه أرحَمُ بعبدِه مِن نفْسِه، ومِن والديه، وأرأفُ به مِن كلِّ أحدٍ، خصوصًا خواصَّ عبيدِه، الَّذين لم يَزَلْ يُرَبِّيهم ببِرِّه، ويُدِرُّ عليهم بَرَكاتِه الظَّاهرةَ والباطنةَ، خصوصًا وقد أمرَه بإلقاءِ أمورِه إليه، ووعَده، فهناك لا تَسألْ عن كلِّ أمرٍ يَتيسَّرُ، وصعبٍ يَسهلُ، وخُطوبٍ تَهونُ، وكُروبٍ تَزولُ، وأحوالٍ وحوائجَ تُقضَى، وبَرَكاتٍ تَنزِلُ، ونِقَمٍ تُدفَعُ، وشرورٍ تُرفَعُ[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه في ندائِه (يا محمَّدُ) كما قال في نداءِ غيرِه (يا موسى، يا عيسى، يا داود)، بل عدَل إلى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾؛ لوجهَينِ:

الوجه الأوَّل: لِيَعلَمَ النَّاسُ أنَّه رسولُ الله؛ لِيُلَقِّبوه بذلك، ويدعوه به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٧).

الوجه الثَّاني: أنَّه نُودِيَ بوصفِ النُّبوَّةِ دونَ اسمِه العَلَم تشريفًا له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بفَضلِ هذا الوَصفِ؛ لِيَربأَ بمَقامِه عن أن يُخاطَبَ بمثلِ ما يُخاطَبُ به غيرُه؛ ولذلك لم يُنادَ في القُرآنِ بغيرِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ أو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٦٧]، بخلافِ الإخبارِ عنه؛ فقد يجيءُ بهذا الوَصفِ، كقَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ [التحريم: ٨]، ويجيءُ باسمِه العَلَم، كقَولِه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقد يَتعيَّنُ إجراءُ اسْمِه العلَم؛ لِيُوصَفَ بعدَه بالرِّسالةِ، كقولِه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقولِه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وتلك مَقاماتٌ يُقصَدُ فيها تَعليمُ النَّاسِ بأنَّ صاحبَ ذلك الاسمِ هو رسولُ اللهِ، أو تَلقينٌ لهم بأنْ يُسَمُّوه بذلك ويَدْعوه به؛ فإنَّ عِلْمَ أسمائِه مِن الإيمانِ؛ لئلَّا يَلتبِسَ بغَيرِه[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ لا مُنافاةَ بيْنَه وبينَ قَولِه في آخرِ الآيةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢] بصيغةِ الجَمعِ؛ لدُخولِ الأمَّةِ تحتَ الخِطابِ الخاصِّ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه قُدوتُهم[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وُجوبُ التَّقْوى على الأُمَّةِ، فإذا كان الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُؤمَرُ بالتَّقوى؛ فغيرُه مِن بابِ أَولى، هذا وجهٌ. ووجهٌ آخَرُ: أنَّ الخِطابَ المُوَجَّهَ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم مُوَجَّهٌ له ولأُمَّتِه، ما لم يَقُمْ دَليلٌ على تَخصيصِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٤)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٩٧، ٢٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٩، ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٧).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ توجيهُ الأمرِ لِمَن هو مُتَّصِفٌ به[١]، فلا مانعَ مِن أنْ يقولَ الإنسانُ لأتقَى النَّاسِ: اتَّقِ اللهَ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عبدٌ مأمورٌ مُكَلَّفٌ -لأمْرِه بالتَّقْوى؛ وعدَمِ إطاعةِ الكافرين والمنافقين[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ أنَّ النَّهيَ عن الشَّيءِ لا يدُلُّ على وقوعِه، بل يدُلُّ على أنَّه ممنوعٌ منه؛ لئلَّا يقَعَ فيما بَعْدُ، فهنا الآيةُ لا تدُلُّ على أنَّه كان يُطيعُهم[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ أنَّ الكافرَ والمنافقَ لا يمكنُ أنْ يكونَ ناصحًا للمؤمنينَ أبدًا! ولو كان يمكنُ أنْ يكونَ فيه نُصْحٌ ما نَهَى تعالى عن طاعتِهم مطلقًا؛ لأنَّ الناصحَ يُطاعُ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ افتِتاحُ السُّورةِ بخِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونِدائِه بوَصْفِه؛ مُؤذِنٌ بأنَّ الأهمَّ مِن سَوقِ هذه السُّورةِ يَتعلَّقُ بأحوالِ النَّبيِّ

(١) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٨).
(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٥٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٩).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ المرادُ بالتَّقْوى المأْمورِ بها الثَّباتُ عليها، والازديادُ منها؛ وذلك لِتكونَ مانعًا له عمَّا نُهِيَ عنه، ولأنَّ التَّقوى بابٌ لا يُبلَغُ آخِرُه. والظَّاهرُ أنَّه أمْرٌ للنَّبيِّ، وإذا كان هو مأْمورًا بذلك، فغَيرُه أَولى بالأمْرِ. وقِيل: هو خِطابٌ له لَفظًا، وهو لِأُمَّتِه[٢].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ الأمْرُ للنَّبيِّ بتَقْوى اللهِ تَوطئةٌ للنَّهي عن اتِّباعِ الكافرينَ والمنافقينَ؛ لِيَحصُلَ مِنَ الجُملتينِ قَصرُ تَقواهُ على التَّعلُّقِ باللهِ دونَ غيرِه؛ فإنَّ مَعنى (لَا تُطِعِ) مُرادِفُ مَعنى: لا تتَّقِ الكافرينَ والمنافقينَ؛ فإنَّ الطَّاعةَ تَقْوى، فصار مَجموعُ الجُملتينِ مُفيدًا معنَى: يا أيُّها النَّبيُّ لا تتَّقِ إلَّا اللهَ، فعُدِلَ عن صِيغةِ القَصرِ -وهي أشهَرُ في الكلامِ البليغِ، وأوجَزُ- إلى ذِكرِ جُمْلتَيْ أمْرٍ ونَهْيٍ؛ لِقَصدِ النَّصِّ على أنَّه قَصرٌ إضافيٌّ[٣] أُرِيدَ به ألَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٩).

(٣) القَصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقع، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو الله وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلام، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. =

يُطِيعَ الكافرينَ والمنافقينَ؛ لأنَّه لو اقتُصِرَ على أنْ يُقالَ: (لا تتَّقِ إلَّا اللهَ) لَمَا أصاخَتْ إليه الأسماعُ إصاخةً خاصَّةً؛ لأنَّ تَقوى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ربَّه أمْرٌ مَعلومٌ، فسُلِكَ مَسلَكُ الإطنابِ لهذا؛ فإنَّ أصلَ صِيغةِ القصرِ أنَّها مُختصَرةٌ مِن جُملتَيْ إثباتٍ ونَفْيٍ، ولِكَونِ هذه الجُملةِ كتَكملةٍ للَّتي قبْلَها، عُطِفَت عليها؛ لاتِّحادِ الغرَضِ منهما. وقد تعيَّنَ بهذا أنَّ الأمْرَ في قولِه: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، والنَّهيَ في قولِه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ مُستعمَلانِ في طَلبِ الاستمرارِ على ما هو مُلازِمٌ له مِن تَقوى اللهِ، فأشعَرَ ذلك أنَّ تَشريعًا عَظيمًا سَيُلْقى إليه لا يَخْلو مِن حَرجٍ عليه فيه، وعلى بَعضِ أُمَّتِه، وأنَّه سيَلْقَى مَطاعنَ الكافرينَ والمنافقينَ. وفائدةُ هذا الأمْرِ والنَّهيِ التَّشهيرُ لهم بأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَقبَلُ أقوالَهم؛ لِيَيْئسوا مِن ذلك؛ لأنَّهم كانوا يُدبِّرون مع المشركينَ المكايدَ، ويُظهِرونَ أنَّهم يَنصَحون النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُلِحُّون عليه بالطَّلباتِ نُصحًا، تَظاهُرًا بالإسلامِ[1].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ هنا وفي الآية (٤٨) مناسبةٌ

= والقصرُ لادِّعائيٌّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكور منزلةَ العدَمِ، وقصْر الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٠، ٢٥١).

حسنةٌ، فقد قدَّم الكافرينَ على المنافقينَ، بينَما في مواضعَ يُقَدِّمُ المنافقينَ على الكافرينَ؛ ففي مقامِ الجزاءِ يُقَدِّمُ المنافقين، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، وقولِه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣]؛ لأنَّ ذَنْبَ المنافقِ أعظمُ مِن ذَنْبِ الكافرِ الصريحِ، وأمَّا هنا فالذي يُعارِضُ الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم صراحةً هو الكافرُ؛ ولهذا قَدَّمَهُ على المنافقِ؛ لأنَّ المنافقَ لا يَأْمُرُ بمخالفةِ الشرعِ كما يَأْمُرُ بها الكافرُ! إذْ إنه يَتَسَتَّرُ بنفاقه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فبدأ بهم؛ لأنَّ معارضتَهم للشرعِ أبينُ وأظهرُ مِن المنافقينَ[(١)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تَعليلٌ للأمرِ والنَّهي، مُؤكِّدٌ لِوُجوبِ الامتثالِ بهما، ودُخولُ (إنَّ) على الجُملةِ قائمٌ مَقامَ فاءِ التَّعليلِ، ومُغْنٍ غَناءَها. وقِيل: هي تَسليةٌ للرَّسولِ، أي: عَليمًا بمَن يتَّقي، حكيمًا في هَدْيِ مَن شاء، وإضلالِ مَن شاء[(٢)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ تَمهيدٌ لِمَا يَرِدُ مِن الوَحيِ في شأْنِ أحكامِ التَّبنِّي وما يَتَّصِلُ بها؛ ولذلك جِيءَ بالفعلِ المضارعِ الصَّالحِ للاستقبالِ، وجُرِّدَ مِن عَلامةِ الاستقبالِ؛ لأنَّه قريبٌ مِن زَمنِ الحالِ. والمَقصودُ مِن الأمْرِ باتِّباعِه أنَّه أمْرٌ باتِّباعٍ خاصٍّ؛ تأْكيدًا للأمْرِ العامِّ باتِّباعِ الوَحيِ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص:١٤، ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٢).

- والتَّعرُّضُ لِعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِه: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾؛ لِتأكيدِ وُجوبِ الامتثالِ بالأمْرِ[١].

- وفي إفرادِ الخِطابِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقولِه: ﴿ وَٱتَّبِعۡ ﴾، وجمْعِه بما يَشمَلُه وأُمَّتَه في قولِه: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ إيماءٌ إلى أنَّ فيما سيَنزِلُ مِن الوَحيِ ما يَشتمِلُ على تَكليفٍ يَشملُ تَغييرَ حالةٍ كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُشارِكًا لِبَعضِ الأُمَّةِ في التَّلبُّسِ بها؛ وهو حُكمُ التَّبنِّي؛ إذ كان النَّبيُّ مُتبنِّيًا زيدَ بنَ حارثةَ مِن قبْلِ بَعثتِه[٢].

- ذُيِّلَت جُملةُ ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ بجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾؛ تَعليلًا للأمْرِ بالاتِّباعِ، وتأْنيسًا به؛ لأنَّ اللهَ خبيرٌ بما في عَوائدِكم ونُفوسِكم، فإذا أبطَلَ شيئًا مِن ذلك فإنَّ إبطالَه مِن تَعلُّقِ العِلمِ بلُزومِ تَغييرِه، فلا تَتريَّثوا في امتثالِ أمْرِه في ذلك؛ فجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ في مَوقعِ العِلَّةِ؛ فلذلك فُصِلَت؛ لأنَّ حرْفَ التَّوكيدِ مُغنٍ غَناءَ فاءِ التَّفريعِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ قيل: الخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والجمْعُ للتَّعظيمِ. وقيل: له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمؤمنينَ، وأيًّا ما كانَ فالجُملةُ تَعليلٌ للأمْرِ وتأكيدٌ لمُوجبِه؛ بطريقِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ كأنَّه قِيل: إنَّ الله خَبيرٌ بما تَعملونَه مِن الامتثالِ وتَرْكِه، فيُرتِّبُ على كلٍّ منهما جَزاءَه ثوابًا وعِقابًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٩).

- وقرَأَ الجُمهورُ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ على خِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والأُمَّةِ؛ لأنَّ هذا الأمْرَ أعلَقُ بالأُمَّةِ. وقرَأَ أبو عَمرٍو وحْدَه (بما يَعْمَلُونَ) بالمُثنَّاةِ التَّحتيَّةِ على الغَيبةِ[١]، على أنَّه راجعٌ للنَّاسِ كلِّهم، شاملٌ للمسلمينَ والكافرينَ والمنافقينَ؛ لِيُفيدَ -مع تَعليلِ الأمْرِ بالاتِّباعِ- تَعريضًا بالمشركينَ والمنافقينَ بمُحاسَبةِ اللهِ إيَّاهم على ما يُبيِّتونه مِن الكَيدِ، وكِنايةً عن إطْلاعِ اللهِ رسولَه على ما يَعلَمُ منهم في هذا الشَّأْنِ. وهذا المعنى الحاصلُ مِن هذه القراءةِ لا يَفوتُ في قِراءةِ الجُمهورِ بالخِطابِ؛ لأنَّ كلَّ فريقٍ مِن المخاطَبينَ يَأخُذُ حظَّه منه[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ زيادةُ تَمْهيدٍ وتَوطئةٍ لِتلقِّي تَكليفٍ يُترقَّبُ منه أذًى مِن المنافقينَ، فأمَرَه بتَقْوى ربِّه دونَ غيرِه، وأتْبَعَه بالأمْرِ باتِّباعِ وَحْيِه، وعزَّزه بالأمرِ بما فيه تأْييدُه؛ وهو أنْ يُفوِّضَ أُمورَه إلى اللهِ[٣].

(١) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤-٦)

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ جَوْفِهِۦ ﴾: الجَوفُ: باطِنُ الإنسانِ؛ صَدرُه وبَطنُه، وهو مَقَرُّ الأعضاءِ الرَّئيسةِ عدا الدِّماغَ[١].

﴿ تُظَٰهِرُونَ ﴾: الظِّهارُ: قولُ الرَّجُلِ لامرأتِه: أنتِ عليَّ كظَهرِ أُمِّي، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قوَّةٍ وبروزٍ[٢].

﴿ أَدْعِيَآءَكُمْ ﴾: أي: مَن تَبنَّيتُموهم، جَمْعُ دَعِيٍّ: فَعيلٌ بمعنى مفعولٍ؛ لأنَّه مَدعُوٌّ بالبُنُوَّةِ، وأصلُه مِنَ الادِّعاءِ: وهو زَعمُ الزَّاعِمِ الشَّيءَ حَقًّا له؛ مِن مالٍ أو نَسَبٍ أو نحوِ ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((جمهرة اللغة)) لابن دُرَيد (٢/ ١٠٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٨).

﴿أَقْسَطُ﴾: أي: أعدَلُ، والقِسْطُ: العدْلُ، يقالُ: أَقسَط يُقسِطُ فهو مُقسِطٌ: إذا عدَل[١].

﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾: أي: محرَّروكم، وقيل: أولياؤُكم في الدِّينِ، والمَوالي جمْعُ مَوْلًى، ويُطلقُ على المعتَقِ والحَليفِ وابنِ العمِّ وغيرِ ذلك، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[٢].

﴿جُنَاحٌ﴾: أي: إثمٌ؛ وأصلُ (جنح): الميلُ والعدوانُ، وسُمِّيَ الإثمُ بذلك؛ لِمَيلِه عن طريقِ الحقِّ[٣].

﴿مَسْطُورًا﴾: أي: مكتوبًا مبيَّنًا، ومُثبَتًا محفوظًا، وأصلُ (سطر): اصْطِفافُ الشَّيءِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله سبحانه مبطِلًا بعضَ ما كان متفشِّيًا في المجتمَعِ: ما خَلَق اللهُ لرجُلٍ قَلبَينِ في صَدرِه، وما جَعَل أزواجَكم -أيُّها الرِّجالُ- اللَّاتي تُظاهِرونَ مِنهُنَّ بقَولِ أحَدِكم لامرأتِه: أنتِ عليَّ كظَهرِ أمِّي؛ ما جعَلَهنَّ أمَّهاتٍ لكم! وما جَعل

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧، ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٧)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢٦).

اللهُ مَن تَتبنَّونَهم أبناءً لكم في الحقيقةِ، بحيثُ تجري عليهم أحكامُ الأبناءِ مِن الصُّلبِ، ذلكم قَولٌ باطِلٌ تقولونَه بأفواهِكم فحسْبُ، واللهُ تعالى يقولُ الحَقَّ، ويُبيِّنُ لعبادِه الطَّريقَ المُستقيمَ.

ثمَّ يرشِدُهم الله تعالى إلى طريقةِ معاملةِ الابنِ المتبنَّى، فيقولُ: انسُبوا الأدعياءَ المُتبنَّينَ لآبائِهم؛ هو أعدَلُ عند اللهِ، وأصدَقُ قَولًا، فإنْ لم تَعلَموا آباءَهم فهم إخوانُكم في الإسلامِ ومحرَّروكم.

ثمَّ يُبيِّنُ جانبًا مِن مظاهرِ اليُسرِ ورفْعِ الحرَجِ، فيقولُ: وليس عليكم إثمٌ فيما أخطأتُم فيه، ولكِنْ تُؤاخَذونَ بما تَعمَّدَتْه قلوبُكم، وكان اللهُ غفورًا رحيمًا.

ثمَّ يَذكُرُ سبحانه ما يجبُ على المؤمنينَ نحوَ نبيِّهم صلَّى الله عليه وسلَّمَ ونحوَ أزواجِه، وما يجبُ للأقاربِ فيما بيْنَهم، فيقولُ: النَّبيُّ محمَّدٌ أحَقُّ بالمؤمنينَ مِن أنفُسِهم، وأزواجُه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أمَّهاتُ المؤمِنينَ في حُرمةِ نِكاحِهنَّ، ووُجوبِ تَعظيمِهنَّ وإكرامِهنَّ؛ وذَوُو القَراباتِ أَولى بالتَّوارُثِ فيما بيْنَهم في كتابِ اللهِ مِنَ الأنصارِ والمُهاجِرينَ، إلَّا أنْ تُحسِنوا إلى أوليائِكم بالصِّلةِ والمعروفِ والوصيَّةِ، كان ذلك مكتوبًا في اللَّوحِ المحفوظِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

وجْهُ نَظمِ هذهِ الآيةِ بما قبْلَها: أنَّه تعالى لَمَّا أمَرَ بالتَّقْوى، كان مِن حقِّها ألَّا

يكونَ في القلْبِ تَقوى غيرِ اللهِ؛ فإنَّ المرْءَ ليس له قَلبانِ يتَّقي بأحدِهما اللهَ، وبالآخَرِ غيرَه، وهو لا يَتَّقي غيرَه إلَّا بصَرْفِ القلْبِ عن جِهةِ اللهِ إلى غيرِه، ولا يَليقُ ذلك بمَن يَتَّقي اللهَ حقَّ تُقاتِه[1].

وأيضًا بعدَ أنْ أمرَ سُبحانَه نبيَّه بتَقْواه، والخَوفِ منه، وحذَّرَه مِن طاعةِ الكُفَّارِ والمُنافِقينَ، والخَوفِ منهم- ضرَبَ لنا الأمثالَ؛ ليُبَيِّنَ أنَّه لا يجتَمِعُ خَوفٌ مِن اللهِ وخَوفٌ مِن سِواه، فذكَرَ أنَّه ليس للإنسانِ قَلْبانِ حتَّى يُطيعَ بأحَدِهما، ويَعصيَ بالآخَرِ، فمتى اتَّجَه لأحدِ الشَّيئَينِ صُدَّ عن الآخَرِ، وأنَّه لا تجتَمِعُ الزَّوجيَّةُ والأُمومةُ في امرأةٍ، والبُنُوَّةُ الحقيقيَّةُ والتَّبنِّي في إنسانٍ[2].

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾.

أي: ما خَلَق اللهُ لأيِّ رَجُلٍ قَلبَينِ في صَدرِه؛ فيَعقِلَ بهما[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٢٦).

قال الشوكاني: (ذَكَر سبحانَه مَثَلًا توطئةً وتمهيدًا لِما يَتَعَقَّبُه مِن الأحكامِ القرآنيَّةِ، الَّتي هي مِن الوحيِ الَّذي أمَره الله باتِّباعِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((حاشية الخفاجي على البيضاوي)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣-٣٦).

قال الزمخشري: (ما جمَعَ اللهُ قلبينِ في جوفٍ، ولا زوجيَّةً وأُمومةً في امرأةٍ، ولا بُنُوَّةً ودِعْوةً في رَجُلٍ. والمعنى: أنَّ اللهَ سبحانَه كما لم يَرَ في حِكمتِه أنْ يجعَلَ للإنسانِ قلبينِ؛ لأنَّه لا يخلو إمَّا أن يفعَلَ بأحَدِهما مِثلَ ما يَفعَلُ بالآخَرِ مِن أفعالِ القُلوبِ، فأحدُهما فَضلةٌ غيرُ مُحتاجٍ إليها، وإمَّا أن يَفعلَ بهذا غيرَ ما يَفعلُ بذاك، فذلك يؤدِّي إلى اتِّصافِ الجُملةِ بكَونِه مُريدًا كارِهًا، عالِمًا ظانًّا، موقِنًا شاكًّا في حالةٍ واحدةٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٠).

وقال ابنُ عطية: (يظهَرُ مِن الآيةِ أنَّها بجُملتِها نفْيٌ لأشياءَ كانت العربُ تعتَقِدُها في ذلك =

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾.

أي: وما جَعل اللهُ زوجاتِكم -أيُّها الرِّجالُ- اللَّاتي تقولونَ لهُنَّ: أنتُنَّ علينا كظُهورِ أمَّهاتِنا، فتُحَرِّمونَ بذلك نِساءَكم على أنفُسِكم حُرمةً مُؤبَّدةً، ما جَعَلهنَّ أمَّهاتٍ لكم في الحقيقةِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢].

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

أي: وما جَعَل اللهُ مَن تَتبنَّونَهم أبناءً لكم في الحقيقةِ، بحيثُ يَحِلُّ لهم إرثُكم، وتَحرُمُ عليكم زَوجاتُهم، وغير ذلك من الأحكامِ؛ فهم أبناءُ غَيرِكم وإنِ ادَّعيتُم نِسْبتَهم إليكم[2].

= الوقتِ، وإعلامٌ بحقيقةِ الأمرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٧١))، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٣٧، ٣٨).

قال الواحدي: (هو أن يقولَ لها: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أُمِّي، وكانت العربُ تُطلِّقُ نساءَها في الجاهليَّةِ بهذا اللَّفظِ، فلمَّا جاء الإسلامُ نُهُوا عنه، وأُوجِبَت الكفَّارةُ على مَن ظاهرَ مِن امرأتِه). ((الوسيط)) (٣/ ٤٥٨).

وقال السعدي: (أمُّك مَن ولدَتْك وصارت أعظَمَ النِّساءِ عليك حُرمةً وتحريمًا، وزَوجتُك أحَلُّ النِّساءِ لك، فكيف تُشَبِّهُ أحدَ المُتناقِضَينِ بالآخَرِ؟! هذا أمرٌ لا يجوزُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٣٨، ٣٩). =

﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡ﴾.

أي: ذلِكم[١] قَولٌ باطِلٌ تَقولونَه فحَسْبُ، ولا حقيقةَ له في الوُجودِ[٢].

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾.

أي: واللهُ يَقولُ الصِّدقَ والعَدلَ والقَولَ الثَّابِتَ الَّذي يُوافِقُ ظاهِرُه باطِنَه، ومِن ذلك: أمْرُه لكم بدَعوةِ أبناءِ النَّاسِ إلى آبائِهم، وتَرْكِ تبَنِّيهم، ولا يقولُ اللهُ الكَذِبَ والباطِلَ؛ فصَدِّقوا قَولَه، واتَّبِعوا شَرْعَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلۡحَقُّ أَقُولُ﴾ [ص: ٨٤].

﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾.

= قال القرطبي: (أجمَع أهلُ التَّفسيرِ على أنَّ هذا نزلَ في زَيدِ بنِ حارِثةَ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٨).

(١) قيل: الإشارةُ بقَولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ تعودُ إلى ما تقدَّم مِن ذِكرِ الظِّهارِ، وادِّعاءِ البُنُوَّةِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠١).

وقيل: الإشارةُ إلى ادِّعاءِ البُنُوَّةِ. وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٤، ٢٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٤١، ٤٤).

أي: واللهُ يُبيِّنُ لعبادِه طَريقَ الحَقِّ، ويَدُلُّهم عليه[١].

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النور: ٤٦].

﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٥﴾.

﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾.

أي: انْسُبوا الأدعِياءَ المُتَبَنَّينَ لآبائِهم الَّذين ولَدوهم[٢].

عن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: (ما كُنَّا ندعو زَيْدَ بنَ حارِثَةَ إلَّا زيدَ ابنَ مُحمَّدٍ، حتَّى نزَل في القُرآنِ: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾)[٣].

﴿هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

قال ابنُ كثير: (هذا أمرٌ ناسِخٌ لِما كان في ابتداءِ الإسلامِ مِن جوازِ ادِّعاءِ الأبناءِ الأجانِبِ، وهم الأدْعياءُ؛ فأمَرَ اللهُ تعالى بِرَدِّ نَسَبِهم إلى آبائِهم في الحَقيقةِ، وأنَّ هذا هو العَدلُ والقِسطُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٧).

(٣) رواه البخاري (٤٧٨٢)، ومسلم (٢٤٢٥) واللفظ له.

أي: نِسْبَتُكم الأبناءَ لآبائِهم أعدَلُ عندَ اللهِ، وأصدَقُ وأصوَبُ قَولًا وحُكمًا مِن نِسبَتِكم لهم إلى الَّذين تَبنَّوهم[(١)].

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾.

أي: فإنْ لم تَعلَموا -أيُّها المُسلِمونَ- آباءَ الأدعياءِ لِتَنسُبوهم إليهم، فهم إخوانُكم في الإسلامِ إن كانوا مُسلِمينَ، ومحرَّروكم[(٢)]؛ فقُولوا عِوَضًا عمَّا فاتَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

(٢) ممَّن اختار أنَّ المولَى: هو المحرَّرُ المعتَقُ، فسَبَبُ الولاءِ هو الإنعامُ بالإعتاقِ: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن تيميَّة، والخازن، والفيروزابادي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٠٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٠٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٩٨).

وقيل: المرادُ: الموالاةُ في الدِّينِ. وممَّن قال بذلك: الرسعني، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، والعليمي، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

وقيل: المرادُ بمواليكم: أرقَّاؤُكم مع بقاءِ الرِّقِّ أو مع العِتقِ؛ على كِلْتا الحالتَينِ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٨٨).

وقال ابن عاشور: (والمرادُ بالولاءِ في قولِه: ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ وَلاءُ المُحالَفةِ، لا ولاءُ العِتقِ، فالمُحالَفةُ مِثلُ الأُخوَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٣).

وقيل: المرادُ: بنو عمِّكُم. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، ومكِّي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٩).

مِنَ النَّسَبِ: أخي ومَوْلاي، ولا تقولوا: ابنُ فُلانٍ[١].

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: (أنَّ أبا حُذَيفةَ بنَ عُتبةَ بنِ رَبيعةَ بنِ عَبدِ شَمسٍ -وكان ممَّن شَهِدَ بدرًا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- تبنَّى سالِمًا، وأنكَحَه بنتَ أخيه هندَ بنتَ الوليدِ بنِ عُتبةَ بنِ رَبيعةَ، وهو مَولًى لامرأةٍ مِن الأنصارِ، كما تبنَّى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم زَيدًا، وكان مَن تبنَّى رَجُلًا في الجاهليَّةِ دعاه النَّاسُ إليه، ووَرِثَ مِن ميراثِه، حتَّى أنزلَ اللهُ: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾، إلى قَولِه: ﴿وَمَوَٰلِيكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٥]، فرُدُّوا إلى آبائِهم، فمَن لم يُعلَمْ له أبٌ، كان مَوْلًى وأخًا في الدِّينِ)[٢].

﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾.

أي: وليس عليكم إثمٌ في شَيءٍ أخطَأتُم فيه بلا قَصدٍ منكم للخَطَأِ، كأن تَنسُبوا إنسانًا لغَيرِ أبيه؛ جَهلًا، أو على سَبيلِ النِّسيانِ، أو سَبقِ اللِّسانِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٥٠، ٥٢).

قال ابن عطية: (وقالت فِرقةٌ: خطؤهم فيما كان سلَفَ مِن قَولِهم ذلك. وهذا ضعيفٌ؛ لا يتصفُ ذلك بخطأٍ إلَّا بعدَ النَّهيِ، وإنَّما الخطأُ هنا بمعنَى النِّسيانِ، وما كان مُقابِلَ العَمدِ)). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٩).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((أنزل اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: قد فعَلْتُ))[١].

وعن عَمرِو بنِ العاصِ وأبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا حَكَم الحاكِمُ فاجتَهَد ثمَّ أصاب فله أجْرانِ، وإذا حَكَم فاجتهَدَ ثمَّ أخطأَ فله أجرٌ))[٢].

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

أي: ولكِنْ يؤاخِذُكم اللهُ بما تتعَمَّدونَه بقُلوبِكم، كأن تَنسُبوا إنسانًا إلى غيرِ أبيه، وأنتم تَعلَمونَ أنَّه ليس كذلك[٣].

كما قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ وأبي بَكْرةَ الثَّقَفيِّ رَضِيَ الله عنهما، كِلاهما يقولُ: سَمِعَتْه أُذُناي، ووعاه قلبي مُحمَّدًا[٤] صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((مَن ادَّعى إلى غيرِ أبيه وهو يَعلَمُ أنَّه غَيرُ أبيه؛ فالجنَّةُ عليه حَرامٌ))[٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((إنَّ اللهَ تجاوَزَ لأُمَّتي ما حَدَّثَت به أنفُسَها،

---

(١) رواه مسلم (١٢٦).

(٢) رواه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣، ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

(٤) نصَب (محمَّدًا) على البدلِ مِن الضميرِ في (سمِعَتْه). يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٥٣).

(٥) رواه البخاري (٤٣٢٦)، ومسلمٌ (٦٣) واللَّفظُ له.

ما لم يتكَلَّموا أو يَعمَلوا به))[١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: واللهُ هو المتَّصِفُ بالمَغفرةِ؛ فيَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، وهو المتَّصِفُ بالرَّحمةِ؛ ومِن رَحمتِه بعبادِه أنْ بيَّنَ لهم أحكامَ دينِه، وشرَعَ لهم ما يُصلِحُهم، ومِن ذلك رَفْعُ المؤاخَذةِ عن فِعلِ الخَطَأِ[٢].

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن أبان سُبحانَه فيما سَلَف: أنَّ الدَّعِيَّ ليس ابنًا لِمَن تَبنَّاه، فمُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس أبًا لزَيدِ بنِ حارِثةَ، ثمَّ أعقَبَ ذلك بالإرشادِ إلى أنَّ المؤمِنَ أخو المؤمِنِ في الدِّينِ، فلا مانعَ أن يقولَ إنسانٌ لآخَرَ: أنت أخي في الدِّينِ- أردَف ذلك بيانَ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس أبًا لواحدٍ مِن أُمَّتِه، بل أُبُوَّتُه عامَّةٌ، وأزواجُه أمَّهاتُهم، وأُبُوَّتُه أشرَفُ مِن أُبُوَّةِ النَّسَبِ[٣].

وأيضًا لَمَّا نهَى سُبحانَه عن التَّبَنِّي، وكان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم قد تبنَّى زيدَ بنَ حارِثةَ مَولاه لَمَّا اختاره على أبيه وأمِّه؛ علَّل سُبحانَه النَّهْيَ فيه

(١) رواه البخاري (٦٦٦٤)، ومسلم (١٢٧) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٢٩).

بالخُصوصِ[١].

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾.

أي: النَّبيُّ محمَّدٌ أحَقُّ بالمؤمِنينَ مِن أنفُسِهم؛ فيَجِبُ عليهم تقديمُ طاعتِه، وقَبولُ حُكمِه، واتِّباعُ هَدْيِه، وتقديمُ محَبَّتِه على محبَّةِ أنفُسِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ٦٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما مِن مُؤمِنٍ إلَّا وأنا أَولى به في الدُّنيا والآخِرةِ؛ اقرَؤوا إن شِئتُم: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾، فأيُّما مُؤمِنٍ مات وترَكَ مالًا فلْيَرِثْه عَصَبتُه[٣] مَن كانوا، ومَن تَرَكَ دَيْنًا أو ضَياعًا[٤] فلْيَأتِني؛ فأنا مَولاه))[٥].

وعن أنسٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم حتَّى أكونَ أحَبَّ إليه مِن والِدِه وولَدِه والنَّاسِ أجمَعينَ))[٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤، ١٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٣) العَصَبةُ عندَ أهلِ الفرائضِ: اسمٌ لِمَن يَرِثُ جميعَ المالِ إذا انفرَد، والفاضلَ بعدَ فرضِ ذَوي السِّهامِ. وقيل: العَصَبةُ: قَرابةُ الرَّجُلِ لأبيه، سُمُّوا بذلك مِن قولِهم: عَصَبَ القَومُ بفُلانٍ، أي: أحاطوا به، وهم كلُّ مَن يَلتقي مع الميتِ في أبٍ أو جدٍّ، ويَكونون مَعلومينَ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٢/ ٢٣٥).

(٤) ضَياعًا: أي عيالًا محتاجينَ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٤/ ٢٢٢).

(٥) رواه البخاري (٢٣٩٩) واللفظ له، ومسلم (١٦١٩).

(٦) رواه البخاري (١٥) واللفظ له، ومسلم (٤٤).

وعن عبدِ اللهِ بنِ هِشامٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو آخِذٌ بيَدِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، فقال له عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، لَأنتَ أحَبُّ إلَيَّ مِن كُلِّ شَيءٍ إلَّا مِن نَفْسي، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: لا والَّذي نفْسي بيَدِه حتَّى أكونَ أحَبَّ إليك مِن نَفْسِك. فقال له عُمَرُ: فإنَّه الآنَ واللهِ لَأنتَ أحَبُّ إلَيَّ مِن نَفْسي. فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: الآنَ يا عُمَرُ!))[1].

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾.

أي: وأزواجُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم هُنَّ أمَّهاتُ المُؤمِنينَ في حُرمةِ نِكاحِهنَّ، ووُجوبِ تعظيمِهنَّ وإكرامِهنَّ[2].

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾.

أي: وذَوُو القَراباتِ أولَى بالتَّوارُثِ[3] .....

(١) رواه البخاري (٦٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩).
قال الواحدي: (قال جميعُ المفسِّرينَ: أي: في حُرمةِ نكاحِهنَّ؛ فلا يحِلُّ لأحدٍ التَّزوُّجُ بواحدةٍ منهنَّ، كما لا يحِلُّ التَّزوُّجُ بالأمِّ، وهذه الأمومةُ تعودُ إلى حُرمةِ نكاحِهنَّ لا غيرُ؛ لأنَّه لم يَثبُتْ شَيءٌ مِن أحكامِ الأُمومةِ بيْنَ المؤمِنينَ وبينهنَّ سِوى هذه الواحِدةِ). ((البسيط)) (١٨/ ١٧٦).
وقال ابن تيميَّةَ: (أجمَع المسلِمونَ على تحريمِ نِكاحِ هؤلاء بعدَ مَوتِه على غيرِه، وعلى وُجوبِ احترامِهنَّ؛ فهُنَّ أمَّهاتُ المؤمِنينَ في الحُرمةِ والتَّحريمِ، ولَسْنَ أمَّهاتِ المؤمِنينَ في المَحْرَميَّةِ؛ فلا يجوزُ لغيرِ أقاربِهنَّ الخَلْوةُ بهنَّ، ولا السَّفَرُ بهنَّ، كما يخلو الرَّجُلُ ويُسافِرُ بذَواتِ مَحارِمِه). ((منهاج السنة النبوية)) (٤/ ٣٦٩).

(٣) قال ابنُ كثير: (وهذه ناسِخةٌ لِما كان قَبْلَها مِنَ التَّوارُثِ بالحِلْفِ والمؤاخاةِ الَّتي كانت بيْنَهم، كما قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه: كان المُهاجِريُّ يَرِثُ الأنصاريَّ دونَ قراباتِه وذوي رَحِمِه؛ للأُخُوَّةِ الَّتي آخَى بيْنَهما رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. وكذا قال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وغيرُ واحدٍ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨١). =

فيما بيْنَهم في كتابِ اللهِ[١] مِنَ الأنصارِ والمهاجِرينَ الَّذين كانوا في أوَّلِ الإسلامِ يَتوارَثونَ فيما بيْنَهم؛ بسَبَبِ حَقِّ الأُخوَّةِ الإيمانيَّةِ والهِجرةِ، وإنْ لم يكُنْ بيْنَهم رَحِمٌ[٢].

﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾.

أي: لكِنْ لكم -أيُّها المهاجِرونَ والأنصارُ- أن تُحسِنوا إلى أوليائِكم[٣] ممَّن

= وممَّن قال بأنَّ المعنى: أُولو الأرحامِ بَعضُهم أَولى ببعضٍ مِنَ المهاجِرينَ والأنصارِ في الإرثِ: ابنُ جرير، والزمخشري، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩).

وقيل: هم أَولى منهم في جميعِ المنافِعِ العامَّةِ للدَّعوةِ والإرثِ والنُّصرةِ والصِّلةِ، وليس في الإرثِ فحَسْبُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧، ٢١٨).

قيل: المرادُ بكتابِ اللهِ هنا: حُكمُه وقَضاؤه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٠).

وقال ابن عاشور: (يجوزُ أن يُرادَ به القرآنُ؛ إشارةً إلى ما تضَمَّنَتْه آيةُ المواريثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٠).

ورجَّح ابنُ عثيمين أنَّ كتابَه هنا بمعنى مكتوبِه، والمرادُ به إمَّا أن يكونَ اللَّوحَ المحفوظَ، وإمَّا أن يكونَ القُرآنَ الكريمَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الاحزاب)) (ص: ٦٦، ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٠، ٢٧١).

(٣) قال ابن جُزَي: (واختُلِف هل يعني بالأولياءِ المؤمنينَ خاصَّةً، أو المؤمنينَ والكافرينَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الأولياءُ في الدِّينِ: ابنُ جريرٍ، والزمخشري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٤).

وممَّن اختار أنَّه يشملُ القريبَ مِن المشركينَ: الثعلبيُّ، ومكِّي، وابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير =

سِوَى أقارِبِكم، بالوصِيَّةِ[١] والنُّصرةِ والصِّلةِ، وغيرِ ذلك مِن المعروفِ، قليلًا كان أو كثيرًا[٢].

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾.

أي: إنَّ توارُثَ أُولي الأرحامِ بَعضِهم مِن بَعضٍ: مكتوبٌ في اللَّوحِ المَحفوظِ؛ فلا بُدَّ مِن تَشريعِه ونَسخِ ما كان في أوَّلِ الإسلامِ مِنَ التَّوارُثِ بالأُخوَّةِ الإيمانيَّةِ والهِجرةِ[٣].

= الثعلبي)) (٨/ ٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٠).

(١) بما لا يَزيدُ على الثُّلثِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٢).

وقيل: معنى المعروفِ هنا: الوصيَّةُ. وممَّن قال بذلك: الواحدي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، والرازي، والعليمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٤٢).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿مَّعْرُوفًا﴾: الإحسانُ والنَّفعُ والصِّلةُ في الحياةِ، والوصيَّةُ عندَ الموتِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن عطية، والقرطبي، وابن جُزَي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٢).

وعلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿أَوْلِيَآئِكُم﴾ يدخُلُ فيه الكفارُ، فلَو أوصَى لهم جازَ، وإن كانوا لا يَرِثونَ المسلمينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٢).

وممَّن قال بأنَّ الكتابَ هنا هو اللَّوحُ المحفوظُ: ابنُ جرير، والواحدي، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٦٨). =

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ اتِّباعَ ما أنزَل الله خيرٌ مِن الأخذِ بقولِ الغيرِ[١]، وأنَّه يَجِبُ على المرءِ أنْ يَلجأَ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ في سؤالِه الهِدايةَ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ وُجوبُ تقديمِ محبَّةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم على النَّفْسِ؛ فهو أَولى بك مِن نفْسِك، ووُجوبُ طاعةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وتقديمِها على طاعةِ النَّفْسِ[٣]. فقَولُه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: في كُلِّ شَيءٍ مِن أمورِ الدِّينِ والدُّنيا ﴿مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، ولهذا أطلَقَ ولم يُقَيِّدْ؛ فيَجِبُ عليهم أن يكونَ أَحَبَّ إليهم مِن أنفُسِهم، وحُكمُه أنفَذَ عليهم مِن حُكمِها، وحَقُّه آثَرَ لَدَيْهم من حُقوقِها، وشَفَقتُهم عليه أقدَمَ مِن شفَقَتِهم عليها، وأن يَبذُلوها دونَه، ويَجعَلوها فِداءَه إذا أعضَلَ خَطْبٌ، ووِقاءَه إذا لَقِحَت حَربٌ[٤]، وألَّا يتَّبِعوا ما تَدْعوهم إليه نفوسُهم، ولا ما تَصرِفُهم عنه، ويتَّبِعوا كُلَّ ما دعاهم إليه رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصَرَفهم عنه؛ لأنَّ كلَّ ما دعا إليه فهو إرشادٌ لهم إلى نَيلِ النَّجاةِ، والظَّفَرِ بسَعادةِ الدَّارَينِ، وما صرَفَهم عنه فآخِذٌ بحُجَزِهم لئَلَّا يَتهافَتوا فيما يَرمي بهم إلى الشَّقاوةِ وعذابِ النَّارِ[٥]،

= وقيل: المرادُ به القرآنُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٩٢، ٢٩٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٧٦).

قال البقاعي: (﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: الحُكمُ العظيمُ ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: القرآنِ في آخرِ سورةِ الأنفالِ ﴿مَسۡطُورٗا﴾ بعبارةٍ تَعُمُّه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٩).

(٤) أي: هاجَتْ بعدَ سكونٍ. يُنظر: ((كتاب الأفعال)) لابن القطاع (٣/ ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٣).

فلا نجاةَ لأحدٍ مِن عذابِ الله، ولا وُصولَ له إلى رحمةِ الله إلَّا بواسِطةِ الرَّسولِ: بالإيمانِ به، ومحبَّتِه ومُوالاتِه واتِّباعِه. وهو الَّذي يُنجِّيه الله به مِن عذابِ الدُّنيا والآخرةِ، وهو الَّذي يوصِلُه إلى خيرِ الدُّنيا والآخرةِ. وهو أنصحُ وأنفعُ لكلِّ أحدٍ مِن نفْسِه ومالِه؛ فإنَّه الَّذي يُخرِجُ الله به مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، لا طريقَ له إلَّا هو، وأمَّا نفْسُه وأهلُه فلا يُغْنون عنه مِن الله شيئًا[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن لم يَكُنِ الرَّسولُ أَولى به مِن نفْسِه فليس مِن المؤمِنينَ، وهذه الأولويَّةُ تتضَمَّنُ أمورًا:

منها: أنْ يكونَ أحَبَّ إلى العبدِ مِن نفْسِه؛ لأنَّ الأولَويَّةَ أصلُها الحُبُّ، ونَفْسُ العبدِ أحَبُّ له مِن غَيرِه، ومع هذا يجبُ أنْ يكونَ الرَّسولُ أَولى به منها، وأحَبَّ إليه منها؛ فبذلك يحصُلُ له اسمُ الإيمانِ، ويَلزَمُ مِن هذه الأولويَّةِ والمحبَّةِ كمالُ الانقيادِ والطَّاعةِ والرِّضا والتَّسليمِ، وسائرُ لوازمِ المحبَّةِ مِن الرِّضا بحُكمِه، والتَّسليمِ لأمرِه، وإيثارِه على ما سِواه.

ومنها: ألَّا يكونَ للعبدِ حُكمٌ على نَفْسِه أصلًا، بلِ الحُكمُ على نفْسِه للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، يَحكُمُ عليها أعظَمَ مِن حُكمِ السَّيِّدِ على عَبدِه، أو الوالِدِ على ولَدِه؛ فليس له في نفْسِه تَصَرُّفٌ قَطُّ إلَّا ما تَصَرَّفَ فيه الرَّسولُ الَّذي هو أَولى به منها[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ﴾ فيه سؤالٌ: وهو

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التَّبوكيَّة)) لابن القيم (ص: ٢٩).

أنَّه يدُلُّ بفحوى خِطابه[١] أنَّه لم يجعَلْ لامرأةٍ مِن قلبَينِ في جَوفِها، وقد جاءت آيةٌ أُخرى يُوهِمُ ظاهِرُها خِلافَ ذلك، وهي قَولُه تعالى في حَفصةَ وعائِشةَ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، فقد جمَعَ القلوبَ لهما رَضِيَ الله عنهما!

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المُثَنَّى إذا أُضيفَ إليه شيئانِ هما جُزآه، جاز في ذلك المُضافِ الَّذي هو شيئانِ الجَمعُ والتَّثنيةُ والإفرادُ، وأفصَحُها الجَمعُ، فالإفرادُ، فالتَّثنيةُ على الأصَحِّ، سواءٌ كانت الإضافةُ لفظًا أو معنًى؛ فاللَّفظُ مِثالُه: (شويت رُؤوسَ الكَبشَينِ أو رأسَهما أو رأسَيْهما). فإنْ فُرِّق المثنَّى، فالمختارُ الإفرادُ، نحوَ قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]، وإن كان الاثنانِ المُضافانِ مُنفصِلَينِ عن المثنَّى المضافِ إليه، أي: كانا غيرَ جُزأَيه، فالقياسُ الجَمعُ، وِفاقًا للفَرَّاءِ، وفي الحديثِ: ((ما أخرَجَكما مِن بُيُوتِكما))[٢]، و: ((إذا أوَيْتُما إلى فِراشِكما، أو أخَذْتُما مَضاجِعَكما))[٣]. واعلَمْ أنَّ الضَّمائِرَ الرَّاجِعةَ إلى هذا المضافِ يجوزُ فيهما الجَمعُ نظرًا إلى اللَّفظِ، والتثنيةُ نظرًا إلى المعنى.

الوجهُ الثَّاني: هو أنَّ أقلَّ الجَمعِ اثنانِ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾ [النساء: ١١]، أي: أخَوانِ فصاعِدًا[٤].

---

(١) فَحْوى الخِطابِ -ويُسَمَّى تنبيهَ الخِطابِ، ومَفهومَ الموافَقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأوْلَى. يُنظر: ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣١٨) واللفظ له، ومسلم (٢٧٢٧) من حديث عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٥، ١٨٦).

٢- قال الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ القَلبُ ليس له إلَّا وجهةٌ واحِدةٌ، إذا مال بها إلى جهةٍ لم يَمِلْ إلى غَيرِها، وليس للعَبدِ قلبانِ يُطيعُ اللهَ ويتَّبِعُ أمْرَه ويَتوكَّلُ عليه بأحَدِهما، والآخَرُ لِغَيرِه، بل ليس إلَّا قَلبٌ واحِدٌ، فإنْ لم يُفرِدْ بالتوكُّلِ والمحبَّةِ والتَّقوى ربَّه وإلَّا انصرَفَ ذلك إلى غَيرِه[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ... ﴾ مُقَدِّمةٌ لِما أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم باتِّباعِه مِمَّا يُوحى إليه، وهو تَشريعُ الاعتِبارِ بحقائِقِ الأشياءِ ومَعانيها، وأنَّ مَواهيَ (جمعُ ماهيَّةٍ) الأمورِ لا تتغيَّرُ بما يُلصَقُ بها مِنَ الأقوالِ المنافيةِ للحَقائِقِ، وأنَّ تلك المُلصَقاتِ بالحقائِقِ هي الَّتي تَحجُبُ العُقولَ عن التَّفَهُّمِ في الحقائِقِ الحَقِّ، وهي الَّتي تَرينُ على القُلوبِ بتَلبيسِ الأشياءِ.

وذُكِرَ هنا نوعانِ مِن الحقائِقِ:

أحدُهما: مِن حقائِقِ المُعتَقَداتِ؛ لأجْلِ إقامةِ الشَّريعةِ على العقائِدِ الصَّحيحةِ، ونَبْذِ الحقائِقِ المصنوعةِ المخالِفةِ للواقِعِ؛ لأنَّ إصلاحَ التَّفكيرِ هو مِفتاحُ إصلاحِ العَمَلِ، وهذا ما جعَل تأصيلَه إبطالَ أن يكونَ اللهُ جعَل في خَلقِ بعضِ النَّاسِ نِظامًا لم يجعَلْه في خَلقِ غَيرِهم.

وثاني النَّوعَينِ: مِن حقائِقِ الأعمالِ؛ لتقُومَ الشَّريعةُ على اعتبارِ مَواهي الأعمالِ بما هي ثابتةٌ عليه في نفْسِ الأمرِ، لا بالتَّوهُّمِ والادِّعاءِ؛ وهذا يرجِعُ إلى قاعدةِ أنَّ حقائِقَ الأشياءِ ثابتةٌ، وهو ما أُشيرَ إليه بقَولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾[2] [الأحزاب: ٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ التَّنبيهُ

(١) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٤).

على تحريم الظِّهارِ، فإذا كان اللهُ تعالى لم يجعَلْ ذلك فإنَّه لا يَحِلُّ لنا أنْ نجعَلَ شَيئًا لم يَجعَلْه اللهُ تعالى؛ لأنَّ الأمرَ إلى اللهِ تعالى وحْدَه[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أنه يُكرَهُ للرَّجُلِ أن يُناديَ زوجتَه ويُسَمِّيَها باسمِ مَحارِمِه؛ كقولِه: «يا أُمِّي»، «يا أُختي» ونحوِه؛ لأنَّ ذلك يُشبِهُ المُحَرَّمَ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أنَّ الأبناءَ الأدعياءَ ليسوا بأبناءٍ حَقيقةً ولا شَرعًا[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أنَّه إذا لم يَكُنِ الابنُ الدَّعِيُّ ابنًا لا شرعًا ولا حقيقةً، فإنَّه لا يحتاجُ إلى قَيدٍ يُخرِجُه مِن معنى البُنُوَّةِ؛ لأنه غيرُ داخلٍ فيها أصلًا حتَّى نحتاجَ إلى قَيدٍ نُخرِجُه به، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: بيانُ ضَعفِ قولِ مَن يقولُ: «إنَّ الاحترازَ في قَولِه تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] عن ابنِ التَّبَنِّي»؛ لأنَّنا نقولُ: إنَّه أصلًا لم يَدخُلْ حتَّى يُحتاجَ إلى قَيدٍ يُخرِجُه[٤]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أنَّ كلامَ اللهِ سُبحانَه وتعالى ليس فيه تناقُضٌ -والتَّناقضُ لا يكونُ إلَّا في الباطلِ-؛ فالحقُّ لا يمكنُ أن يَتناقَضَ[٥].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أنَّ ما وَصَفَ اللهُ سُبحانَه وتعالى به نفْسَه في كتابِه فهو على حقيقتِه -وليس فيه تحريفٌ أو تأويلٌ-؛ لأنَّه لو كان خِلافَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤).

ظاهره لكان ظاهرُه يدُلُّ على باطلٍ! وإذا قُلْنا: إنَّه على خِلافِ الظَّاهرِ لَزِمَ أنْ يكونَ دالًّا على باطلٍ! فإذا قُلْنا: إنَّ المرادَ بآياتِ الصِّفاتِ خِلافُ الظَّاهرِ صار الظَّاهرُ باطلًا -لأنَّه خِلافُ المرادِ- وهذا يُنافي قولَه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾، فهو سُبحانَه وتعالى لا يقولُ إلَّا الحقَّ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ أنَّ طريقَ الحقِّ واحدٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ وهو مُفْرَدٌ، وهكذا تَجِدُ أنَّ السُّبُلَ تأتي جمعًا فيما يُخالِفُ الحقَّ، قال سُبحانَه وتعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾[٢] [الأنعام: ١٥٣].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ يُفهَمُ منه النَّهيُ عن أن يُنسَبَ أحدٌ إلى غيرِ أبيه بطريقِ لحنِ الخِطابِ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ أنَّ الإنسانَ يُدْعى لأبيه بظاهِرِ فِراشِ أُمِّه، ويَثْبُتُ به النَّسَبُ والميراثُ، وتجري به الأحكامُ، وأنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُه قد تجاوَزَ عمَّا يُمكِنُ في الباطنِ مِن إحداثِ الأمِّ[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ وُجوبُ دَعوةِ الإنسانِ إلى أبيه، يعني: «انْسُبُوهم لآبائِهم» لَفظًا وحقيقةً؛ أمَّا لفظًا فتقولُ: «يا فُلانَ بنَ فُلانٍ»، وأمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٥).

لحنُ الخطابِ: هو إفهامُ الشيءِ مِن غيرِ تصريحٍ، وهذا معناه لغةً، والمرادُ به هنا مفهومُ المخالفةِ، وهو إثباتُ نقيضِ حكمِ المنطوقِ به للمسكوتِ عنه، ويُطلَقُ لحنُ الخطابِ أيضًا على (دلالةِ الاقتضاءِ)، وعلى (مفهومِ الموافقةِ). يُنظر: ((الإشارة في معرفة الأصول والوجازة في معنى الدليل)) للباجي (ص: ٢٨٨)، ((نفائس الأصول في شرح المحصول)) للقرافي (٢/ ٦٤١)، ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٤١).

حقيقةً بأنْ تعتقِدَ أنَّ البُنُوَّةَ الحقَّ إنَّما هي للأبِ الحقيقيِّ الَّذي وُلِدَ الإنسانُ مِن صُلْبِه، لا للأبِ الَّذي ادَّعى أنَّه أبٌ[١].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ يَخرُجُ مِنَ النَّهيِ قَولُ الرَّجُلِ لآخَرَ: (أنت أبي)، و(أنا ابنُك) على قَصدِ التَّعظيمِ والتَّقريبِ، وذلك عند انتِفاءِ اللَّبسِ[٢].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ يدُلُّ على زَوالِ الحَرَجِ فيما وقَعَ بعدَ النَّهيِ على سَبيلِ النِّسيانِ أو سَبقِ اللِّسانِ[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ سَعةُ رَحمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ حيث أسقَطَ الإثمَ عمَّن كان مُخطِئًا[٤].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فيه أنَّ الخطَأَ مَرفوعٌ، ولا إثمَ على المُخطِئِ[٥].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أنَّ مَدارَ الأحكامِ والمؤاخَذةِ عليها هو القَلبُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٨).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٩).

١٩- قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ هذه الآيةُ أزال الله تعالى بها أحكامًا كانت في صدرِ الإسلامِ؛ منها: أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم كان لا يُصلِّي على ميتٍ عليه دَيْنٌ، فلمَّا فتَح الله عليه الفُتوحَ قال: ((أنا أوْلَى بالمؤمنينَ مِن أنفُسِهم، فمَنْ تُوُفِّيَ وعليه دَيْنٌ فعلَيَّ قَضاؤُه، ومَن ترَك مالًا فهو لِوَرثَتِه))[(١)]. وقال أيضًا ((فأيُّكم ترَك دَيْنًا أو ضَياعًا فأنا مَوْلاه))[(٢)].

٢٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ فيه سؤالٌ: هذا يدُلُّ بدَلالةِ الالتِزام على أنَّه -صلَّى الله عليه وسلَّم- أبٌ لهم؛ لأنَّ أُمومةَ أزواجِه لهم تَستلزِمُ أُبُوَّتَه صلَّى الله عليه وسلَّم لهم، وهذا المدلولُ عليه بدَلالةِ الالتِزامِ مُصرَّحٌ به في قراءةِ أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه؛ لأنَّه يقرؤُها: (وأزواجُه أُمَّهاتُهم وهو أبٌ لهم)[(٣)]، وهذه القراءةُ مَرويَّةٌ أيضًا عن ابنِ عبَّاس[(٤)]، وقد جاءت آيةٌ أخرى -وهي قَولُه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤٠]- تُصَرِّحُ بخِلافِ هذا المدلولِ عليه بدَلالةِ الالتزامِ والقراءةِ الشَّاذَّةِ المذكورةِ عن أُبَيٍّ وابنِ عبَّاسٍ؟

الجوابُ: أنَّ الأبوَّةَ المُثبَتةَ دينيَّةٌ، والأبوَّةَ المَنفيَّةَ طِينيَّةٌ، وبهذا يرتَفعُ الإشكالُ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ مع قَولِه: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖ﴾[(٥)] [الأحزاب:٥٣].

٢١- قال الله تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ في هذه الآيةِ أُنزِلْنَ مَنزِلتَهنَّ في

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٩٨)، ومسلم (١٦١٩) (١٤) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٨١)، ومسلم (١٦١٩) (١٥) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر ما أخرجه عبد الرزاق في ((تفسيره)) (٢٣١٧).

وأخرجه أيضًا (٢٣١٦) بلفظ: (وهو أبٌ لهم، وأزواجُه أمَّهاتُهم).

(٤) يُنظر ما أخرجه الحاكم في ((المستدرك)) (٣٥٥٦)، والبيهقيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٣٤٢٠).

(٥) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٦).

الحُرمةِ، كما يُقالُ: زَيْدٌ الشَّمسُ، أي: أُنزِلَ في حُسنِه مَنزِلةَ الشَّمسِ، وحاتمٌ البَحرُ، أي: أُنزِلَ في عُمومِ جُودِه بمَنزلةِ البَحرِ؛ كُلُّ ذلك تكرِمةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وحِفظٌ لقَلبِه مِن التَّأذِّي بالغَيرةِ[١].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ ما قال سُبحانَه: «النَّبيُّ أبٌ للمُؤمِنينَ وأزواجُه أمهاتُهم»، بل قال سُبحانَه وتعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ فأبوك ليس أَولى بكَ مِن نَفْسِك، لكِنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أَولى بك مِن نفْسِك، فهذا أعظَمُ مِن قولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾؛ ومِن أجْلِ هذه الوَلايةِ كانت أزواجُه أمَّهاتٍ لنا مِن قِبَلِهنَّ ومِنْ قِبَلِنا؛ يعني: هُنَّ يَنظُرْنَ إلينا كالنَّظَرِ إلى الأبناءِ، ونحن ننظُرُ إليهنَّ كالنَّظَرِ إلى الأمَّهاتِ[٢].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ أنَّ مَن قال: إنَّ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها ليست أُمًّا له؛ فليس مِن المؤمِنينَ[٣].

٢٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يَلزَمُ الإنسانَ أن يسألَ أُمَّه مِن وراءِ حِجابٍ ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖ﴾ [الأحزاب: ٥٣]؟

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٦٢).

وأيضًا أراد الله تعالى أنَّ أُمَّةَ نبيِّه يَدْعُون أزواجَه بأشرَفِ ما تُنادى به النِّساءُ، وهو الأمُّ، وأشرَفُ ما يُنادى به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لفظُ (الرَّسولِ) لا الأبِ.

وقيل أيضًا: لأنَّه تعالى لو جعَلَه أبًا للمؤمنينَ، لكان أبًا للمؤمناتِ أيضًا، فيَحرُمْنَ عليه، وقد جعَلَ زوجاتِه كالأمَّهاتِ؛ إجلالًا لِنَبيِّه؛ لئلَّا يَطمَعَ أحدٌ في نِكاحِهنَّ بعْدَه. يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٧، ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٢٢٣).

الجوابُ: أنهنَّ أمَّهاتٌ في الحُرمةِ والاحترامِ، والتَّوقيرِ والإكرامِ، لا في الخَلوةِ بهِنَّ، ولا في حُرمةِ بناتِهنَّ ونحوِ ذلك(١).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ تحريمُ نكاحِ زَوجاتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَه؛ لِكَونِهنَّ أمَّهاتِ المؤمنينَ(٢).

٢٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ فيه سؤالٌ: لو قال قائلٌ: كيف قال: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾، وقال مِن قبْلُ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ﴾ [الأحزاب: ٤] إشارةً إلى أنَّ غيرَ مَن وَلَدت لا تصيرُ أمًّا بوَجهٍ؛ ولذلك قال تعالى في موضِعٍ آخَرَ: ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ [المجادلة: ٢]؟

الجوابُ: أنَّ قَولَه تعالى في الآيةِ المتقدِّمةِ: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ جوابٌ عن هذا، ومعناه أنَّ الشَّرعَ مِثلُ الحقيقةِ؛ ولهذا يَرجِعُ العاقِلُ عندَ تعَذُّرِ اعتبارِ الحقيقةِ إلى الشَّريعةِ، كما أنَّ امرأتَينِ إذا ادَّعَت كُلُّ واحدةٍ ولدًا بعَينِه، ولم يكُنْ لهما بيِّنةٌ، وحلَفَت إحداهما دونَ الأخرى؛ حُكِمَ لها بالولَدِ، وإن تبيَّنَ أنَّ الَّتي حلَفَت دونَ البُلوغِ أو بِكْرٌ، ببيِّنةٍ؛ لا يُحكَمُ لها بالولَدِ؛ فعُلِمَ أنَّ عندَ عدَمِ الوُصولِ إلى الحقيقةِ يُرجَعُ إلى الشَّرعِ، لا بل في بَعضِ المواضِعِ على النُّدورِ تَغلِبُ الشَّريعةُ الحقيقةَ! فإنَّ الزَّانيَ لا يُجعَلُ أبًا لولدِ الزِّنا.

إذا ثَبَت هذا فالشَّارِعُ له الحُكمُ؛ فقَولُ القائلِ: (هذه أمِّي) قَولٌ يُفهَمُ لا عن حقيقةٍ، ولا يترتَّبُ عليه حقيقةٌ، وأمَّا قَولُ الشَّارعِ فهو حَقٌّ؛ فله أن يسمِّيَ أيَّ امرأةٍ أمًّا، ويُعطيَها حُكمَ الأمومةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٧).

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ دليلٌ على أنَّ أُمومةَ المؤمِنينَ هي لأزواجِه صلَّى الله عليه وسلَّم دونَ سَرارِيِّه[١].

٢٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ استدَلَّ به مَن قال بتَحريم الكافِرةِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لو تزوَّجَها كانت أُمًّا للمُؤمِنينَ[٢].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ أنَّ مَن كان أقرَبَ مِن ذَوِي الأرحامِ فهو أحَقُّ بالإرثِ؛ وجْهُه: أنَّه إذا عُلِّقَ الحُكمُ على وَصفٍ، فكلَّما كان الوصفُ في شَيءٍ أقوى كان الحُكمُ فيه أَولى، فما دام أُولو الأرحام أَولى -لأنَّهم ذَوو أرحامٍ- فمَن كانت رحِمُه أقوَى فهو أولَى؛ ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أَلحِقوا الفرائِضَ بأهلِها، فما بَقِيَ فلِأَوْلَى رجُلٍ ذَكَرٍ))[٣].

٣٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ حُجَّةٌ على وِلايةِ ذَوي الأرحامِ في جميعِ الوِلاياتِ؛ كوِلايةِ النِّكاحِ والمالِ وغيرِ ذلك[٤].

٣١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ استدَلَّ به مَن ورَّث ذَوي الأرحامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٧١).

والحديث أخرجه البخاري (٦٧٣٧) واللفظ له، ومسلم (١٦١٥) من حديث عبد الله بنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٠).

وهو مذهب الحنفية. يُنظر: ((البحر الرائق)) لابن نُجَيم (٨/ ٥٧٧). ويُنظر الخلاف في هذه المسألة في: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٣/ ٥٣).

٣٢- الله تعالى إنَّما أثْبَت الولايةَ بيْنَ أُولي الأرحام بشَرطِ الإيمانِ، كما قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾[1].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ جَوازُ الوصيَّةِ لِمَن بينَك وبينَه مُوالاةٌ، وظاهِرُ الآيةِ الإطلاقُ، لكنَّه مُقيَّدٌ بالنُّصوصِ الدَّالَّةِ على أنَّ الوصيَّةَ لا تَزيدُ على الثُّلُثِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾

- قولُه: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ ابتداءَ المُقدِّمةِ للغرَضِ بعدَ التَّمهيدِ له بما قبْلَه، والمقدِّمةُ أخصُّ مِن التَّمهيدِ؛ لأنَّها تَشتمِلُ على ما يُوضِّحُ المقصدَ، بخلافِ التَّمهيدِ. والمَقصودُ: التَّنبيهُ إلى بُطلانِ أُمورٍ كان أهلُ الجاهليَّةِ قد زَعَموها وادَّعَوها. وابتُدِئَ مِن ذلك بما دَليلُ بُطلانِه الحِسُّ والاختبارُ؛ لِيُعلَمَ مِن ذلك أنَّ الَّذين اختَلَقوا مَزاعمَ يَشهَدُ الحِسُّ بكَذِبِها، يَهونُ عليهم اختلاقُ مَزاعمَ فيها شُبَهٌ وتَلبيسٌ للباطلِ في صُورةِ الحقِّ؛ فيُتلقَّى ذلك بالإذعانِ والامتثالِ[3].

- قولُه: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ هذا مثَلٌ ضَربَه اللهُ تعالى

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٣، ٢٥٤).

-على قولٍ-بطَريقةِ قِياسِ التَّمثيل[١]؛ تَمهيدًا لِمَا يَعقُبُه مِن قولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، وتَنبيهٌ على أنَّ كَوْنَ المُظاهَرِ منها أُمًّا، وكَوْنَ الدَّعِيِّ ابنًا -أي: بمَنزلةِ الأُمِّ والابنِ في الآثارِ والأحكامِ المعهودةِ فيما بيْنَهم- في الاستِحالةِ بمَنزلةِ اجتماعِ قَلبينِ في جَوفٍ واحدٍ[٢].

- قولُه: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ التَّنكيرُ في (رَجُلٍ)، وإدخالُ (مِن) الاستِغراقيَّةِ على ﴿قَلْبَيْنِ﴾؛ تَأكيدانِ لِمَا قُصِدَ مِن المعنى، ووُقوعُ فِعلِ ﴿جَعَلَ﴾ في سِياقِ النَّفيِ يَقْتضي العُمومَ، كأنَّه قال: ما جعَلَ اللهُ لأُمَّةِ الرِّجالِ ولا لواحدٍ منهم قَلبينِ الْبتَّةَ في جَوفِه[٣].

- وتخصيصُ الرَّجُلِ بالذِّكرِ؛ لكَمالِ لوازمِ الحياةِ فيه، فإذا لم يكُنْ ذلك له فكيف بغيرِه مِنَ الإناثِ[٤]؟! فعبَّرَ بالرَّجُلِ؛ لأنَّه أقوى جِسمًا وفَهمًا، فيُفهَمُ غَيرُه مِن بابِ الأَولى[٥].

- وفائدةُ ذِكرِ الجَوفِ -وإنْ كان المعلومُ أنَّ القلبَ لا يكونُ إلَّا في الجوفِ- زِيادةُ تَصويرِ المدلولِ عليه؛ لأنَّه إذا سمِعَ به صَوَّرَ لِنفْسِه جَوفًا يَشتمِلُ على

(١) قياسُ التَّمثيلِ: هو: حَملُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المُشتَرَكَ الكُلِّيَّ، مثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامِعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ: هو القياسُ الأُصوليُّ (إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما). يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٣).

قلبينِ، فكان أسرَعَ إلى الإنكارِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ تَمهيدٌ ثانٍ لِتَشريعِ إبطالِ التَّبنِّي بشَبهِ أنَّ كِلَيهما تَرتيبُ آثارٍ تَرتيبًا مَصنوعًا باليَدِ، غيرُ مَبنيٍّ على جَعلٍ إلهيٍّ، إلَّا أنَّ هذا التَّمهيدَ الثَّانيَ أقرَبُ إلى المقصودِ؛ لأنَّه مِن الأحكامِ التَّشريعيةِ[٢].

- والمُرادُ بالجَعلِ المَنفيِّ في قولِه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ الجَعلُ الخِلْقيُّ، وذلك كِنايةٌ عن انتفاءِ الأثرِ الشَّرعيِّ الَّذي هو مِن آثارِ الجَعلِ الخِلْقيِّ؛ لأنَّ الإسلامَ هو الفِطرةُ الَّتي فطَرَ اللهُ النَّاسَ عليها، قال تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾[٣] [المجادلة: ٢].

- وعُدِّيَ الفعلُ بـ(مِن) في قولِه: ﴿تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾؛ لِأَنَّ الظِّهارَ كان طلاقًا في الجاهليَّةِ، فيتجَنَّبونَ المُظاهَرَ منها، كما يَتجنَّبونَ المطَلَّقَةَ، والمعنَى: أنَّه تباعَدَ منها بجِهةِ الظِّهارِ وغيرِه، أي مِن امرأتِه، فلَمَّا ضُمِّنَ معنَى التَّباعُدِ، عُدِّيَ بـ(مِن)[٤].

- قولُه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ هذا هو المقصودُ الَّذي وُطِّئَ بالآيتَينِ قبْلَه؛ ولذلك أُسهِبَ الكلامُ بعْدَه بتَفاصيلِ التَّشريعِ فيه. وعُطِفَت هاتِه الجُملةُ على اللَّتينِ قبْلَها؛ لاشتراكِ ثلاثتِها في أنَّها نفَتْ مَزاعمَ لا حقائقَ لها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٨).

- إذا تَقرَّرَ أنَّ المزاعمَ الثَّلاثةَ -﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾- لا تَعْدو أنْ تكونَ ألفاظًا ساذَجةً لا تَحقُّقَ لِمَدلولاتِها في الخارجِ، اقْتَضى ذلك انتفاءَ الأمْرينِ اللَّذَينِ جُعِلَا تَوطئةً وتَمهيدًا للمَقصودِ، وانتفاءَ الأمْرِ الثَّالثِ المقصودِ، وهو التَّبنِّي؛ فاشتَرَكَ التَّمهيدُ والمقصودُ في انتفاءِ الحقِّيَّةِ، وهو أتمُّ في التَّسويةِ بيْن المقصودِ والتَّمهيدِ؛ وهذا كلُّه زِيادةُ تَحريضٍ على تَلقِّي أمْرِ اللهِ بالقَبولِ والامتِثالِ، ونَبْذِ ما خالَفَه[1].

- قولُه: ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ استئنافٌ اعتراضيٌّ بيْنَ التَّمهيدِ والمَقصودِ مِن التَّشريعِ، وهو فَذْلَكةٌ[2] للجُمَلِ الثَّلاثِ الَّتي نفَتْ جَعْلَهم ما ليس بواقعٍ واقعًا، ولذلك فُصِلَت الجُملةُ؛ لأنَّها تَتنزَّلُ مَنزلةَ البَيانِ بالتَّحصيلِ لِمَا قبْلَها[3].

- وذِكرُ ﴿ بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ مع العِلمِ به؛ إشارةٌ إلى أنَّه قولٌ لا تَتجاوزُ دَلالتُه الأفواهَ إلى الواقعِ ونفْسِ الأمْرِ، فليس له مِن أنواعِ الوجودِ إلَّا الوُجودُ في اللِّسانِ، والوُجودُ في الأذهانِ، دونَ الوُجودِ في العِيانِ، وزادَه تَصريحًا بقولِه: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾؛ فأومَأَ إلى أنَّ قولَهم ذلك قولٌ كاذبٌ، ولهذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٢) الفَذْلَكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ(البَسملة) و(الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، كقولِه تعالى: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ بعدَ قولِه: ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٩).

عُطِفَت عليه جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾؛ لأنَّه داخلٌ في الفَذْلَكةِ لِمَا تقدَّمَ مِن قولِه: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ إلخ[١].

- وقيل: قولُه: ﴿قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡ﴾ فيه لَطيفةٌ؛ وهو أنَّ الكلامَ الَّذي بالفَمِ فحسْبُ يُشبِهُ صوتَ البهائمِ الَّذي يُوجَدُ لا عن قلْبٍ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ في الإخبارِ عن اسمِ الجَلالةِ وضَميرِه بالمُسندَينِ الفِعليَّينِ إفادةُ قَصرِ القلْبِ، أي: هو يقولُ الحقَّ، لا الَّذين وَضَعوا لكمْ تلك المزاعمَ، وهو يَهدي السَّبيلَ، لا الَّذين أضَلُّوا النَّاسَ بالأوهامِ. ولَمَّا كان الفِعلانِ مُتعدِّيَينِ (يقول) و(يَهدي)، استُفِيدَ مِن قَصرِهما قَصرُ مَعمولَيهما بالقرينةِ. ثمَّ لَمَّا كان قولُ اللهِ في المواضعِ الثَّلاثةِ هو الحقَّ والسَّبيلَ، كان كِنايةً عن كَونِ ضِدِّه باطلًا ومَجهلةً، فالمعنى: وهمْ لا يقولونَ الحقَّ، ولا يَهدونَ السَّبيلَ[٣].

- وقال: ﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ ولم يَقُلْ: (ويهدي السبيلَ)؛ لأجْلِ أنْ تكونَ الجملةُ الثَّانيةُ مستقِلَّةً برُكْنَيْها -بمبتدئِها وخبرِها-، لأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَهُوَ يَهۡدِي﴾ هو مبتدؤُها، وجملةَ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ خبرُها، فكانتِ الجملةُ مُستقِلَّةً عن الأُولى؛ لأنَّ ذلك أبلَغُ في بيانِ أنَّ الهدايةَ بيدِ اللهِ سُبحانَه وتعالى[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥).

تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

- قولُه: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ استِئنافٌ بالشُّروعِ في المَقصودِ مِن التَّشريعِ؛ لإبطالِ التَّبنِّي، وتَفصيلٌ لِمَا يَحِقُّ أنْ يُجرِيَه المسلمونَ في شأْنِه[١].

- وجُملةُ ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ كأنَّ سائلًا قال: لماذا لا نَدْعوهم لِلَّذينَ تَبنَّوهم؟ فأُجِيبَ ببَيانِ أنَّ ذلك القِسطُ، فاسمُ التَّفضيلِ مَسلوبُ المُفاضَلةِ -أي: ليس على بابِه-، والغرَضُ مِن هذا الاستئنافِ تَقريرُ ما دلَّ عليه قولُه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]؛ لِتُعلَمَ عِنايةُ اللهِ تعالى بإبطالِ أحكامِ الجاهليَّةِ في التَّبنِّي، ولتَطمئِنَّ نُفوسُ المسلمينَ مِن المُتَبَنِّينَ والأدعياءِ ومَن يَتعلَّقُ بهم بقَبولِ هذا التَّشريعِ الَّذي يَشُقُّ عليهم؛ إذ يَنزِعُ منهم إلْفًا أَلِفُوه؛ ولهذا المعنى الدَّقيقِ فُرِّعَ عليه قولُه: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾، فجمَعَ فيه تأكيدًا للتَّشريعِ بعَدمِ التَّساهُلِ في بَقاءِ ما كانوا عليه بعُذْرِ أنَّهم لا يَعلَمون آباءَ بعضِ الأدعياءِ، وتأْنيسًا للنَّاسِ أنْ يَعتاضوا عن ذلك الانتِسابِ المكذوبِ اتِّصالًا حقًّا لا يَفوتُ به ما في الانتسابِ القديمِ مِن الصِّلةِ، ويُتجافَى به عمَّا فيه مِن المَفسَدةِ[٢].

- وقيل: ﴿أَقْسَطُ﴾ أفعلُ تفضيلٍ قُصد به الزيادةَ مطلقًا مِن القِسْطِ، فعبَّر بـ (أفعل) التَّفضيلِ هنا؛ لِبَيانِ أنَّ هذا غايةُ ما يكونُ مِن العدلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨).

- وفي فَصْلِ هذه الجُمَلِ ووَصْلِها -أي: في إخلاءِ العاطفِ وإثباتِه مِن الجُمَلِ- مِن مُفتتَحِ السُّورةِ إلى هنا؛ مِن الحُسنِ والفَصاحةِ ما لا يَخْفَى، وبيانُه: أنَّ الأوامرَ والنَّهيَ في قولِه: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ [الأحزاب: ٢]، ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾ [الأحزاب: ٣]؛ وارداتٌ على نسَقٍ عَجيبٍ، وتَرتيبٍ أنِيقٍ؛ فإنَّ الاستهلالَ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] دالٌّ على أنَّ الخِطابَ مُشتمِلٌ على أمْرٍ مَعنيٍّ شأْنُه، لائحٍ فيه معنى التَّهييجِ والإلهابِ، ومِن ثَمَّ عطَفَ عليه ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ كما يُعطَفُ الخاصُّ على العامِّ، وأردَفَ النَّهيَ بالأمْرِ، على نَحوِ قولِك: لا تُطِعْ مَن يَخذُلُك، واتَّبِعْ ناصِرَك، ولا يَبعُدُ أنْ يُسمَّى بالطَّردِ والعكْسِ. ثمَّ أمَرَ بالتَّوكُّلِ؛ تَشجيعًا على مُخالَفةِ أعداءِ الدِّينِ، والْتِجاءً إلى حَريمِ جَلالِ اللهِ؛ لِيَكفِيَه شُرورَهم. ثمَّ عقَّبَ كُلًّا مِن تلك الأوامرِ بما يُطابِقُه على سَبيلِ التَّتميمِ[1]، وعلَّلَ ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١]؛ تَتميمًا للارتداعِ، وعلَّلَ قولَه: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢]؛ تَتميمًا أيضًا، وذيَّلَ قولَه: ﴿وَتَوَكَّلۡ

(١) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةِ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

عَلَى ٱللَّهِ﴾ بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣]؛ تَقريرًا وتَوكيدًا، وفصَلَ قولَه: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤] على سَبيلِ الاستئنافِ؛ تَنبيهًا على بعضٍ مِن أباطيلِهم وتَمحُّلاتِهم، وقولُه: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] فَذْلَكةٌ لتلك الأحوالِ، آذَنَتْ بأنَّها مِن البُطلانِ، وحَقيقٌ بأنْ يُذَمَّ قائلُها، فضْلًا عن أنْ يُطاعَ. ثمَّ وصَلَ قولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] على هذه الفَذْلَكةِ بجامعِ التَّضادِّ على مِنوالِ ما سبَقَ في المُجمَلِ في ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ ﴿وَٱتَّبِعْ﴾. وفصَلَ قولَه: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقولَه: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٦]، وهلُمَّ جرًّا إلى آخرِ السُّورةِ؛ تَفصيلًا لقولِ الحقِّ، والاهتداءِ إلى السَّبيلِ القويمِ[(١)].

- قولُه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ...﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾؛ لأنَّ الأمْرَ فيها للوُجوبِ، فهو نَهْيٌ عن ضِدِّه لِتَحريمِه؛ كأنَّه قِيل: ولا تَدْعوهم لِلَّذينَ تَبنَّوهم إلَّا خطَأً، وبهذا تقرَّرَ إبطالُ حُكمِ التَّبنِّي[(٢)].

- قولُه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ وُقوعُ (جُناح) في سِياقِ النَّفيِ بـ (ليس) يَقْتضي العُمومَ، فيُفيدُ تَعميمَ انتفاءِ الإثْمِ عن العمَلِ الخطَأِ[(٣)].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تَعليلٌ لِنَفيِ الجُناحِ عن الخطَأِ؛ بأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٣، ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٦٥).

نَفْيَ الجُناحِ مِن آثارِ اتِّصافِ اللهِ تعالى بالمَغفرةِ والرَّحمةِ بخَلْقِه[١].

٣- قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾

- قولُه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقولَه: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٥]، كان قد شمِلَ في أوَّلِ ما شَمِلَه إبطالَ بُنوَّةِ زَيدِ بنِ حارثةَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكان بحيث يُثِيرُ سُؤالًا في نُفوسِ النَّاسِ عن مَدى صِلَةِ المؤمنينَ بنَبيِّهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ فلِأجْلِ تَعليمِ المؤمنينَ حُقوقَ النَّبيِّ وحُرْمتَه، جاءت هذه الآيةُ مُبيِّنةً أنَّ النَّبيَّ أَولى بالمؤمنينَ مِن أنفُسِهم[٢].

- قولُه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ الكلامُ على تَقديرِ مُضافٍ، أي: أَولى بمَنافعِ المؤمنينَ، أو بمَصالحِ المؤمنينَ، فهذا المُضافُ حُذِفَ؛ لِقَصدِ تَعميمِ كلِّ شأْنٍ مِن شُؤونِ المؤمنينَ الصَّالحةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ عطَفَ على حُقوقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حُقوقَ أزواجِه على المسلمينَ؛ لِمُناسَبةِ جَرَيانِ ذِكرِ حقِّ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فجعَلَ اللهُ لهنَّ ما للأمَّهاتِ مِن تَحريمِ التَّزوُّجِ بهنَّ، وكذلك ما عدَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٦).

حُكْمَ الزَّواجِ مِن وُجوهِ المُعامَلةِ غيرَ ما يَرجِعُ إلى التَّعظيمِ؛ ولهذه النُّكتةِ جِيءَ بالتَّشبيهِ البليغِ[١]؛ للمُبالَغةِ في شَبهِهنَّ بالأمَّهاتِ للمؤمنينَ[٢].

- قولُه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ قيل: أُريدَ بالمُؤمنينَ خُصوصُ الأنصارِ؛ بقَرينةِ مُقابَلتِه بعَطفِ ﴿وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾، على معنى أصحابِ الإيمانِ الكاملِ؛ تَنويهًا بإيمانِ الأنصارِ؛ لأنَّهم سَبَقوا بإيمانِهم قبْلَ كَثيرٍ مِن المهاجرينَ الَّذين آمَنوا بعْدَهم؛ فإنَّ الأنصارَ آمَنوا دَفعةً واحدةً لَمَّا أبلَغَهم نُقباؤُهم دَعوةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إيَّاهُم بعْدَ بَيعةِ العَقَبةِ الثَّانيةِ[٣]. وقيل: تخصيصُ المهاجرينَ بالعطفِ يدُلُّ على شَرَفِهم وفضلِهم؛ لأنَّ المهاجرَ مؤمنٌ، ففيه فضيلةُ الهجرةِ[٤].

- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾ بلاغةُ القرآنِ في الاحترازِ في موضعِ الإيهامِ؛ لأنَّه لَمَّا قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ قد يَتوهَّمُ الإنسانُ أنَّ مَن بينَه وبينَهم موالاةٌ لا يُمكِنُ أنْ يَنتَفِعَ بشَيءٍ مِن مالِه؛ فاحترزَ عزَّ وجلَّ بقَولِه: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾[٥].

---

(١) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: هو إثباتُ حُكمٍ مِن أحكامِ المُشبَّهِ به للمُشبَّهِ. ويَنقسِمُ التشبيهُ عِدَّةَ تَقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّة.
والتشبيهُ البليغُ: هو ما كانتْ أداةُ التَّشبيهِ فيه مَحذوفةً. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٦٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٧٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجُملةُ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ تَذييلٌ لهذه الأحكام، وخاتمةٌ لها مُؤْذِنةٌ بانتهاءِ الغرَضِ مِن الأحكام الَّتي شُرِعَت مِن قولِه: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] إلى هنا؛ فالإشارةُ بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المَذكورِ مِن الأحكامِ المَشروعةِ؛ فكان هذا التَّذييلُ أعمَّ ممَّا اقتَضاهُ قولُه: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾. وبهذا الاعتبارِ لم يكُنْ تَكريرًا له، ولكنَّه يَتضَمَّنُه ويَتضمَّنُ غيرَه، فيُفِيدُ تَقريرَه وتَوكيدَه تبَعًا[1].

- وفِعلُ (كان) في قولِه: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾؛ لِتَقويةِ ثُبوتِه في الكتابِ مَسطورًا؛ لأنَّ (كان) إذا لم يُقصَدْ بها أنَّ اسمَها اتَّصَفَ بخَبرِها في الزَّمنِ الماضي، كانت للتَّأكيدِ غالِبًا[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٢).

الآيتان (٧-٨)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مِيثَـٰقَهُمْ﴾: الميثاقُ: عقدٌ مؤكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ، أو العهدُ المُحكَمُ، وأصلُه: العقدُ والإحكامُ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذكِّرًا رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالعهدِ الَّذي أخَذه عليه وعلى الأنبياءِ مِن قبْلِه: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- إذ أخَذْنا مِنَ النَّبيِّينَ مِيثاقًا وعهدًا مُؤكَّدًا على اتِّباعِ ما أوحى اللهُ به، وتبليغِ الدِّينِ وإقامتِه، وأخَذْنا منك -يا محمَّدُ- هذا الميثاقَ، ومِن نوحٍ، وإبراهيمَ، وموسى، وعيسى ابنِ مريمَ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- وأخَذْنا منكم جميعًا ميثاقًا مُؤكَّدًا؛ لِيَسألَ اللهُ الصَّادقينَ عن صِدقِهم، وأعدَّ اللهُ للكافِرينَ عذابًا مُؤلِمًا في نارِ جَهنَّمَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالاتِّقاءِ، بقَولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦) و(١٩/ ٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، وأكَّده بالحكايةِ الَّتي خَشِيَ فيها النَّاسَ؛ لِكَيلا يَخشى فيها أحدًا غيرَه، وبيَّن أنَّه لم يرتكِبْ أمرًا يوجِبُ الخَشيةَ، بقَولِه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٦]- أكَّدَه بوَجهٍ آخَرَ وقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ﴾ الآيةَ، كأنَّه قال: اتَّقِ اللهَ ولا تخَفْ أحدًا، واذكُرْ أنَّ الله أخَذ ميثاقَ النَّبيِّينَ في أنَّهم يُبَلِّغونَ رِسالاتِ اللهِ، ولا يَمنَعُهم مِن ذلك خَوفٌ ولا طمَعٌ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان ما سبَق أحكامًا عن الله تعالى، وكان فيها أشياءُ ممَّا كانت في الجاهليَّةِ، وأشياءُ في الإسلامِ نُسِخَت؛ أتْبَعَه بقَولِه: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾، أي: في تبليغِ الشَّرائعِ، والدُّعاءِ إلى اللهِ؛ فلَسْتَ بِدْعًا في تبليغِك عن اللهِ[(٢)].

وأيضًا لَمَّا كان نَقضُ العوائِدِ وتغييرُ المألوفاتِ ممَّا يَشُقُّ كثيرًا على النُّفوسِ، ويُفَرِّقُ المجتَمِعينَ، ويَقطَعُ بيْنَ المُتواصِلينَ، ويُباعِدُ بيْن المتقارِبينَ؛ قال الله تعالى مُذكِّرًا للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما أخَذَ على مَن قَبْلَه مِن نَسخِ أديانِهم بدِينِه، وتغييرِ مألوفاتِهم بإلْفِه، ومِن نصيحةِ قَومِهم بإبلاغِهم كُلَّ ما أُرسِلوا به[(٣)]:

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- إذْ[(٤)] أخَذْنا مِنَ النَّبيِّينَ عَهدًا مُؤكَّدًا على تَصديقِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٩٣).

(٤) (إذْ) هنا: مفعولٌ لفعلٍ محذوفٍ، تقديرُه: اذكرْ. أي: اذكُرْ للنَّاسِ إذ أخَذْنا، أو: اذكُرْ لنفْسِك مذَكِّرًا إيَّاها إذْ أخَذْنا مِن النَّبيِّينَ ميثاقَهم. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٧٥).

بَعضِهم بَعضًا، وتبليغِ الدِّينِ وإقامتِه، والقيامِ بتقوى اللهِ، ونَبْذِ طاعةِ الكافِرينَ والمنافِقينَ، واتِّباعِ ما أَوحَى اللهُ به، وأخَذْنا هذا الميثاقَ مِنك -يا محمَّدُ- ومِن نُوحٍ، وإبراهيمَ، وموسى، وعيسى ابنِ مَريمَ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

أي: وأخَذْنا مِن جميعِ هؤلاءِ الأنبياءِ عَهدًا عَظيمًا مُؤكَّدًا على القيامِ بدِينِ اللهِ وتَبليغِه، وتَصديقِ بَعضِهم بَعضًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾.

أي: أخَذ اللهُ الميثاقَ مِن أولئك الأنبياءِ؛ لكيْ يَسألَ الصَّادِقينَ[٣] عن قيامِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩).

(٣) قيل: السُّؤالُ للأنبياءِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والزَّجَّاج، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والنسفي، والرَّسْعَني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢١٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦١١)، =

بهذا العَهدِ المؤكَّدِ، فيُثيبَهم الجنَّةَ[١].

﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: وأعدَّ اللهُ للكافِرينَ باللهِ ورُسُلِه مِن جميعِ الأُمَمِ عَذابًا مُؤلِمًا موجِعًا في النَّارِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥].

الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا * لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فيه أنَّه تعالى أرسَلَ الرُّسُلَ، وعاقِبةُ المكَلَّفينَ إمَّا حِسابٌ وإمَّا عَذابٌ؛ لأنَّ الصَّادِقَ مُحاسَبٌ، والكافِرَ مُعذَّبٌ، وهذا كما قال عليٌّ

= ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٠٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، والحسَنُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٠٢).

قال الزَّجَّاج: (وتأويلُ مسألةِ الرُّسلِ -واللهُ يَعلَمُ أنَّهم صادِقون- التَّبكيتُ لِلَّذين كفَروا بهم، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٢١٧).

وقيل: السُّؤالُ لأُمَمِ الأنبياءِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٦).

وقيل: السُّؤالُ للأنبياءِ ولأُمَمِهم الَّذين دعَوهم. وممَّن قال بهذا: السعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٨٤، ٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٥، ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٣).

رضِيَ الله عنه: (الدُّنيا حلالُها حِسابٌ، وحَرامُها عذابٌ)[١]، وهذا ممَّا يُوجِبُ الخَوفَ العامَّ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ أنَّ مَن أنعَمَ اللهُ تعالى عليه بنِعمةٍ، فإنَّ لله تعالى عليها شُكرًا خاصًّا غيرَ النِّعمةِ العامَّةِ، كقَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿مِيثَـٰقَهُمْ﴾؛ فإنَّ الإضافةَ هنا تدُلُّ على التَّخصيصِ -أي: الميثاقَ الخاصَّ بهم-؛ فكلُّ مَن أنعَمَ اللهُ تعالى عليه بنِعمةٍ، فإنَّ لله تعالى عليه فيها عَهدًا أنْ يَقومَ بهذه النِّعمةِ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أتْبَعَه بقيَّةَ أُولي العَزمِ الَّذين هم أصحابُ الكُتُبِ، ومشاهيرُ أربابِ الشَّرائعِ؛ لأنَّ مَن عَلِمَ له شَريكًا في أمرٍ اجتهَدَ في سَبقِه فيه[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إذا كان الأنبياءُ يُسألَونَ -وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ-، فكيف بمَن سِواهم[٥]؟!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أنَّ السُّؤالَ ليس سُؤالًا خاصًّا بالمعانِدينَ والكافِرين، حتَّى الصَّادِقُ يُسألُ عن صِدقِه -وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ-. فيتفرَّعُ عن هذه الفائدةِ: وُجوبُ الحَذَرِ، ووُجوبُ الاستِعدادِ لهذا السُّؤالِ؛ فإذا كان الصَّادِقُ يُسألُ فما بالُك بالكاذِبِ؟! الكاذِبُ جزاؤُه ﴿وَأَعَدَّ

---

(١) أخرجه من طرق أبو داود في ((الزهد)) (١٠٩)، والدِّينَوريُّ في ((المجالسة وجواهر العلم)) (٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٦).

لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ لأنَّ الكافِرينَ لا يُسأَلونَ سُؤالًا يُحاسَبونَ عليه كمُحاسَبةِ أهلِ الخَيرِ[١]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ عِظَمُ المَسؤوليَّةِ على الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى خَصَّصَهم بأخْذِ الميثاقِ، ويُستفادُ منها فَرعًا على هذه الفائِدةِ: عِظَمُ المسؤوليَّةِ على أهلِ العلمِ؛ لأنَّهم وَرَثةُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أنَّ النارَ موجودةٌ الآنَ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ﴾ بلفظِ الماضي، والإعدادُ بمعنى: التَّهيئةِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ دليلٌ على أنَّ أهلَ النارِ يَذوقونَ العذابَ ويتألَّمونَ منه؛ لقولِه تعالى: ﴿أَلِيمًا﴾؛ فيكونُ في هذه الفائدةِ رَدٌّ على قولِ مَن يقولُ: «إنَّ أهلَ النارِ يكونون جَهنَّميِّينَ؛ فلا يُحِسُّونَ بعذابٍ»! لأنَّهم إذا كانوا لا يُحِسُّونَ بعذابٍ انتفَى العذابُ[٤]!

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا * لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هاتانِ الآيتانِ لهما مَوقعُ المُقدِّمةِ لِقصَّةِ الأحزابِ؛ لأنَّ ممَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٨).

أخَذَ اللهُ عليه مِيثاقَ النَّبيِّينَ: أنْ يَنصُروا الدِّينَ الَّذي يُرسِلُه اللهُ به، وأنْ يَنصُروا دِينَ الإسلامِ[١].

- قولُه: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ في ذِكْرِ ضَميرِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قبْلَ الأنبياءِ المذكورينَ إيماءٌ إلى تَفضيلِه على جَميعِهم، ثمَّ جُعِل تَرتيبُ ذِكرِ البقيَّةِ على تَرتيبِهم في الوُجودِ. ولهذه النُّكتةِ خُصَّ ضَميرُ النَّبيِّ بإدخالِ حَرْفِ (مِن) عليه بخُصوصِه، ثمَّ أُدخِلَ حَرْفُ (مِن) على مَجموعِ الباقينَ؛ فكان قد خُصَّ باهتِمامَينِ: اهتِمامُ التَّقديمِ، واهتمامُ إظهارِ اقترانِ الابتِداءِ بضَميرٍ بخُصوصِه غيرِ مُندمِجٍ في بَقيَّتِهم عليهم السَّلامُ[٢].

- وأيضًا جاء قولُه: ﴿وَمِنكَ﴾ عقِبَ ذِكرِ النَّبيِّينَ؛ تَنبيهًا على أنَّ شأنَ الرُّسلِ واحِدٌ، وأنَّ سُنَّةَ اللهِ فيهم مُتَّحِدةٌ؛ فهذه الآيةُ لها مَعنى التَّذييلِ لقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ...﴾ [الأحزاب: ١-٣] الآياتِ الثَّلاثَ، ولكنَّها جاءتْ مَعطوفةً بالواوِ؛ لِبُعدِ ما بيْنَها وما بيْنَ الآياتِ الثَّلاثِ المُتقدِّمةِ[٣].

- وتَخصيصُ هؤلاء الأنبياءِ بالذِّكْرِ -مع اندراجِهم في النَّبيِّينَ اندارجًا بَيِّنًا-؛ للإيذانِ بمَزيدِ مَزيَّتِهم وفَضْلِهم، وكَونِهم مِن مَشاهيرِ أربابِ الشَّرائعِ، وأساطينِ أُولي العزْمِ مِن الرُّسلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي =

وأيضًا لأنَّ موسى وعيسى عليهما السَّلامُ كان لهما في زمانِ نبيِّنا قَومٌ وأمَّةٌ، فذكَرَهما احتِجاجًا على قَومِهما، وإبراهيمُ عليه السَّلامُ كان العَرَبُ يقولونَ بفَضلِه، وكانوا يتَّبِعونَه في الشَّعائِرِ بَعضِها، ونوحًا عليه السَّلامُ لأنَّه كان أصلًا ثانيًا للنَّاسِ؛ حيث وُجِدَ الخَلقُ منه بعدَ الطُّوفانِ[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قُدِّمَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هنا في قولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾؛ وذلك لِكَونِه أفضَلَ منْهم، وأكثَرَهم أتْباعًا. وقُدِّمَ نُوحٌ عليه السَّلامُ في آيةِ (الشُّورى) في قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣]؛ لأنَّ إيرادَه على خِلافِ الإيرادِ؛ فهناك أورَدَه على طَريقِ وَصفِ دِينِ الإسلامِ بالأصالةِ، فكأنَّه قال: شرَعَ لكمُ الدِّينَ الأصيلَ، الَّذي بُعِثَ عليه نُوحٌ في العهدِ القديمِ، وبُعِثَ عليه محمَّدٌ خاتمُ الأنبياءِ في العهدِ الحديثِ، وبُعِثَ عليه مَن تَوسَّطَ بيْنَهما مِن الأنبياءِ المشاهيرِ[2].

- وجُملةُ ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ أعادَتْ مَضمونَ جُملةِ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾؛ لزِيادةِ تَأكيدِها، ولِيُبْنى عليها وَصفُ المِيثاقِ بالغليظِ، أي: عظيمًا جليلَ الشَّأنِ في جِنسِه؛ فإنَّ كلَّ مِيثاقٍ له عِظَمٌ، فلمَّا وُصِفَ هذا بـ﴿غَلِيظًا﴾، أفاد أنَّ له عِظَمًا خاصًّا، ولِيُعلِّقَ به لامَ التَّعليلِ مِن قولِه: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾. وقِيل: المُرادُ بالمِيثاقِ الغليظِ: هو اليمينُ باللهِ تعالى على الوفاءِ

= السعود)) (٧/ ٩١، ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٨).

بما حُمِّلوا، وعليه فلا إعادةَ؛ لاختلافِ المِيثاقَينِ[١].

- وفي تَعقيبِ أمْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أوَّلِ هذه السُّورةِ بالتَّقوى، ومُخالَفةِ الكافرينَ والمنافقينَ، والتَّثبيتِ على اتِّباعِ ما يُوحى إليه، وأمْرِه بالتَّوكُّلِ على اللهِ بهذه الآيةِ، وجَعْلِها قبْلَ قولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ ﴾ [الأحزاب: ٩]... إلخ: إشارةٌ إلى أنَّ ذلك التَّأييدَ الَّذي أيَّدَ اللهُ به رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ معه -إذ رَدَّ عنهم أحزابَ الكُفَّارِ والمنافقينَ بغَيظِهم لم يَنالوا خيرًا- ما هو إلَّا أثَرٌ مِن آثارِ المِيثاقِ الَّذي أخَذَه اللهُ على رسولِه حينَ بَعَثَهُ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾

- قولُه: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بمُضمَرٍ مُستأنَفٍ، مَسوقٍ لِبَيانِ ما هو داعٍ إلى ما ذُكِرَ مِن أخْذِ الميثاقِ، وغايةٌ له، لا بـ ﴿أَخَذۡنَا﴾؛ فإنَّ المقصودَ تَذكيرُ نفْسِ الميثاقِ، ثمَّ بَيانُ الغرَضِ منه بَيانًا قَصديًّا، كما يُنبِئُ عنه تَغييرُ الأُسلوبِ بالالتِفاتِ إلى الغَيبةِ، أي: فعَل الله ذلك لِيَسألَ يومَ القيامةِ الأنبياءَ، ووضَعَ الصَّادقينَ مَوضِعَ ضميرِهم للإيذانِ من أولِ الأمرِ بأنَّهم صادِقونَ فيما سُئِلوا عنه، وإنَّما السُّؤالُ لحكمةٍ تقتضِيه، أي: لِيَسألَ الأنبياءَ الَّذين صدَقوا عهْدَهم عمَّا قالُوه لقومِهم، أو عن تصديقِ أقوامِهم إيَّاهم، وسؤالُهم عليهم السَّلامُ عن ذلك على الوجهينِ لِتَبكيتِ الكفرةِ المكذِّبينَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٦).

- وإنَّما صَرَّحَ بسُؤالِ الصَّادقِ؛ بِشارةً له بتَشريفِه في ذلك الموقفِ العظيمِ، وطَوَى سُؤالَ الكفَّارِ؛ إشارةً إلى استِهانتِهم بفَضيحةِ الكَذِبِ(١).

- قولُه: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ حُذِفَ مِن الأوَّلِ ما أُثيبَ به الصَّادقونَ، وهمُ المُؤمِنون، وذُكِرَت العِلَّةُ، وحُذِفَ مِن الثَّاني العِلَّةُ، وذُكِرَ ما عُوقِبوا به، وكأنَّ التَّقديرَ: لِيَسأَلَ الصَّادقينَ عن صِدقِهم، فأثابَهم، ويَسأَلَ الكافرينَ عمَّا أجابوا به رُسلَهم؛ فحُذِفَ مِن الأوَّلِ ما أُثبِتَ مُقابِلُه في الثَّاني، ومِن الثَّاني ما أُثبِتَ مُقابِلُه في الأوَّلِ، وهذه طريقةٌ بَليغةٌ(٢). ويُعرَفُ هذا بالاحتِباكِ.

- وجُملةُ ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، وغُيِّرَ فيها الأُسلوبُ، وعُبِّرَ بالفِعلِ الماضي ﴿وَأَعَدَّ﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقيقِ عذابِ الكافرينَ؛ حتَّى لا يُتوهَّمَ أنَّهم يُسأَلون سُؤالَ مَن يُسمَعُ جَوابُهم أو مَعذِرتُهم، ولإفادةِ أنَّ إعدادَ عذابِهم أمْرٌ مَضى وتقرَّرَ في عِلمِ اللهِ(٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨]، وفيما بعْدُ مِن السُّورةِ: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤]، فاختلَفَ ما أُعقِبَت به كلٌّ مِن الآيتينِ مع تَقارُبِ ما بُنِيَ عليه التَّعقيبُ؛ ووَجْهُه: أنَّ اختِلافَ التَّعقيبِ مَرْعِيٌّ فيه ما تَقدَّمَ قبْلَ كلِّ واحدةٍ مِن الآيتَينِ؛

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٦).

أمَّا الأُولى: فالمُتقدِّمُ قبْلَها قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، ثمَّ لم يَعُدِ الكلامُ إلى شَيءٍ مِن مُرتكَباتِ المنافقينَ، ولا تَفصيلِ أحوالِهم، فناسَبَ هذا قولُه: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨]، والكافرُ بالنِّفاقِ كالكافرِ المتظاهِرِ بكُفْرِه.

وأمَّا الآيةُ الثَّانيةُ فتَقدَّمها قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، ثمَّ تَتابعَتِ الآيُ مُعرِّفةً بسُوءِ مُرتكَبِهم وقَبيحِ أفعالِهم في ثَماني آياتٍ أو نَحوِها، إلى قولِه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ثمَّ أعقَبَ هذا بذِكرِ حالِ المؤمنينَ، وذُكِرُوا بأحْسَنِ ما يَتحلَّى به الصَّادقُ في إيمانِه، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، إلى عَظيمِ ما وصَفَهم به سُبحانه، ثمَّ أعقَبَ بذِكرِ حالِ الفريقَينِ؛ فقال: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤]، وقد أبقَى سُبحانه عليهم بقولِه: ﴿إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾؛ جَرْيًا على المطَّرِدِ مِن عَظيمِ حِلمِه وسَعةِ عَفوِه ورَحمتِه، وكلٌّ مِن هذا واردٌ على أعظَمِ مُناسَبةٍ[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٠٥).

الآيات (٩-١١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زَاغَتِ﴾: أي: مالَت وشَخَصَت، وأصلُ الزَّيغِ: المَيلُ عن الاستِقامةِ[١].

﴿ٱلۡحَنَاجِرَ﴾: جمعُ حنجرةٍ، وهي آخرُ الحَلْقِ مما يَلِي الفمَ، أو: طرَفُ المَرِيءِ ممَّا يَلي الفمَ، وترَاه ناتِئًا مِن خارِجِ الحَلْقِ[٢].

﴿ٱبۡتُلِيَ﴾: أي: اختُبِروا ومُحِّصوا، وأصلُ (بلي) هنا: يدُلُّ على الاختِبارِ[٣].

﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾: أي: أُزعِجوا وحُرِّكوا بالخَوفِ والمرَضِ، وأصلُ (زلزل): يدُلُّ على الاضطِرابِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) لابن عبد البَر (٢٣/ ٣٢٥)، ((مطالع الأنوار على صحاح الآثار)) لابن قرقول (٢/ ٣١٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٣).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا قصَّةَ غزوةِ الأحزابِ، وفضْلَ الله تعالى على المؤمنينَ فيها: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اذكُروا نِعمةَ اللهِ عليكم حينَ أذهَبَ الكُفَّارَ عنكم بإرسالِ ريحٍ شَديدةِ الهبوبِ عليهم، وأرسَلَ عليهم جُنودًا مِنَ الملائِكةِ لم تَرَوها، وكان اللهُ بما تَعمَلونَ -أيُّها المؤمِنونَ- بَصيرًا.

إذ جاءكم الأحزابُ مِن جِهةِ المَشرِقِ ومِن جِهةِ المغرِبِ، وإذ مالت أبصارُكم؛ مِن شِدَّةِ فَزَعِكم، وزالت قلوبُكم عن أماكِنِها فبَلَغت الحناجِرَ؛ مِن شِدَّةِ الخَوفِ والرُّعبِ! وتَظُنُّونَ باللهِ ظُنونًا كثيرةً، فعندَ تلك الشِّدَّةِ العظيمةِ ابتُلِيَ المؤمِنونَ، وأُزعِجوا إزعاجًا شَديدًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أكَّد سُبحانَه وُجوبَ الصَّدعِ بكُلِّ أمرِه وإن عَظُمَت مَشقَّتُه؛ اعتمادًا على تدبيرِه، وعظيمِ أمرِه في تقديرِه- ذكَّرَهم بدليلٍ شُهوديٍّ هو أعظَمُ وقائِعِهم في حُروبِهم، وأشَدُّ ما دهمَتْهم مِن كُروبِهم[1].

وأيضًا بعدَ أن أمَرَ سُبحانَه عبادَه بتَقْواه، وعدَمِ الخَوفِ مِن سِواه؛ ذكَرَ هنا تحقيقَ ما سلَفَ، فأبان أنَّه أنعَمَ على عبادِه المؤمِنينَ؛ إذ صرَفَ عنهم أعداءَهم وهَزَمهم حينَ تألَّبوا عليهم عامَ الخَندقِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٣٦).

وأيضًا اختيرتْ للتَّذكيرِ بهذا اليومِ مُناسَبةُ الأمرِ بعدَمِ طاعةِ الكافِرينَ والمنافِقينَ؛ لأنَّ مِن النِّعَمِ الَّتي حفَّت بالمؤمِنينَ في يومِ الأحزابِ: أنَّ اللهَ ردَّ كَيدَ الكافِرينَ والمنافِقينَ، فذُكِّرَ المؤمنونَ بسابِقِ كَيدِ المنافِقينَ في تلك الأزمةِ؛ لِيَحذَروا مكايدَهم وأراجيفَهم في قضيَّةِ التبَنِّي، وتزوُّجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُطلَّقةَ مُتَبنَّاه[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اذكُروا نِعمةَ اللهِ عليكم في صَرفِه الكفَّارَ عنكم حينَ حاصَروكم[2].

﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا ﴾.

أي: حينَ جاءَتكم جُنودُ الكُفَّارِ، فأرسَلْنا عليهم ريحًا شَديدةَ الهُبوبِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٩٥، ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩).

قال ابنُ كثير: (وذلك عامَ الخَندقِ، وذلك في شوَّالٍ سنةَ خمسٍ مِن الهجرةِ على الصَّحيحِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (تحزَّب عليهم عامَّةُ المشركين الَّذين حوْلَهم، وجاؤوا بجُموعِهم إلى المدينةِ؛ لِيَستأصِلوا المؤمنينَ، فاجتمعَتْ قُرَيشٌ وحُلفاؤها مِن بني أسدٍ، وأشجَعَ، وفَزارةَ، وغَيرِهم مِن قبائِلِ نَجْدٍ، واجتمعتْ أيضًا اليهودُ مِن قُرَيْظةَ والنَّضيرِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤٤٣).

وقال ابنُ عاشور: (الرِّيحُ المذكورةُ هنا هي ريحُ الصَّبا، وكانت باردةً، وقلَعت الأوتادَ والأطنابَ، وسفَّت التُّرابَ في عُيونِهم، وماجَتِ الخَيلُ بَعضُها في بعضٍ، وهلَك كثيرٌ مِن خَيلِهم وإبِلِهم وشائِهم، وفيها قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهلِكَت عادٌ بالدَّبورِ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٩).

عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبورِ))[(١)].

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

أي: وأرسَلْنا عليهم جُنودًا مِنَ الملائِكةِ لم تَرَوها[(٢)].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ قراءتانِ:

١- قِراءةُ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ على معنى عَودِ الضَّميرِ على الجُنودِ والأحزابِ الَّذين تألَّبوا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمِنينَ معه[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

قال ابن حجر: (قولُه: «نُصِرْتُ بالصَّبَا» ... هي الرِّيحُ الشَّرقيَّةُ. والدَّبورُ ... مُقابِلُها. يُشيرُ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى قولِه تعالَى في قصَّةِ الأحزابِ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾). ((فتح الباري)) (٦/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٨٥)، ((تفسير العز بن عبد السلام)) (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٩).

وممَّن قال بأنَّ الجنودَ هنا هم الملائكةُ: الواحدي، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٩).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وقَتادةُ، ويَزيدُ بنُ رُومانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨، ٢٩).

وقيل: هم الملائكةُ وغيرُهم مِنَ البشَرِ؛ كنُعَيمِ بنِ مسعودٍ الغَطَفانيِّ الَّذي أوهَنَ الأحزابَ بكَيدِه وتخذيلِه لهم. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٩٨).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٧).

ويُنظَرُ لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٠).

٢- قِراءةُ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على معنى أنَّه خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَن معه مِن المؤمِنينَ[١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

أي: وكان اللهُ بما تَعمَلونَ -أيُّها المؤمِنونَ- بَصيرًا بأعمالِكم الصَّالحةِ في تلك الغَزوةِ، وسيُجازيكم عليها[٢].

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾.

أي: إذْ[٣] جاءَتْكم جنودُ الأحزابِ -أيُّها المؤمِنونَ- مِن فَوقِكم مِن جِهةِ المَشرِقِ[٤].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٩٦).

قال البقاعي في قولِه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: (مِن حَفْرِ الخَندقِ وغيرِه مِنَ الصِّدقِ في الإيمانِ وغيرِه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٠٠).

(٣) قيل: ﴿إِذْ﴾ متعلقةٌ بما قبْلَها. أي: وكان اللهُ بما تعملون بصيرًا إذ جاءَتْكم جنودُ الأحزاب مِن فوقِكم ومِن أسفَلَ منكم. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩).

وقيل: ﴿إِذْ﴾ في موضعِ نَصبٍ، بمعنى: واذكُرْ. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٤).

قال الواحدي: (وقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ ﴿إِذْ﴾ بدَلٌ مِن قَولِه: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾، و﴿إِذْ﴾ ظرفٌ لإنعام الله عليهم، كأنَّه قيل: اذكُروا إنعامَ الله عليكم بالكفايةِ حينَ جاءَتْكم جُنودٌ، حينَ جاؤُوكم ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾). ((البسيط)) (١٨/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٦).

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، قالت: (كان ذاك يومَ الخَندَقِ)[١].

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.

أي: وجاؤوكم مِن أسفَلَ منكم مِن جِهةِ المغرِبِ[٢].

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

أي: وإذ مالَتْ أبصارُ المُسلِمينَ عَن مقَرِّها؛ مِن شِدَّةِ الخَوفِ والفَزَعِ[٣].

---

(١) رواه البخاري (٤١٠٣) واللفظ له، ومسلم (٣٠٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٤، ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٠).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: (زَاغَتِ الْأَبْصَارُ): شخصَتِ الأبصارُ مِن الخَوفِ، ومالَتْ عن مستوى نظَرِها حَيْرةً، وعدَلَت عن مقَرِّها. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والسمعاني، والقرطبي، والبيضاوي، وابن جُزَي، والخازن، والعُلَيمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤، ٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٠٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٥٤).

وقيل: المرادُ: زاغت عن كُلِّ شَيءٍ فلم تلتَفِت إلَّا إلى عَدُوِّها مُقبِلًا مِن كلِّ جانبٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ الجوزي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠٥).

قال ابن عاشور: (الزَّيغُ: المَيلُ عن الاستواءِ إلى الانحرافِ، فزَيغُ البَصَرِ ألَّا يرى ما يتوجَّهُ =

﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾.

أي: وزالت القُلوبُ عن أماكنِها في الصُّدورِ؛ مِن شِدَّةِ الخَوفِ والرُّعبِ، فبلَغَت الحناجِرَ[1].

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾.

أي: وتَظنُّونَ باللهِ ظُنونًا شَتَّى[2].

= إليه، أو أن يريدَ التَّوجُّهَ إلى صَوبٍ فيَقَعَ إلى صَوبٍ آخَرَ؛ مِن شِدَّةِ الرُّعبِ والانذِعارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٠١).

واختلَف المفسِّرون في معنى بُلوغِ القلوبِ الحناجِرَ؛ فقيل: إنَّه مَثَلٌ مَضروبٌ لشِدَّةِ اضْطِرابِ القُلوبِ وخَفَقانِها مِنَ الفَزَعِ والهَلَعِ؛ فكأنَّها لذلك تَتجاوَزُ مَقارَّها حتَّى تبلُغَ الحَنجرةَ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٠، ٢٨١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عِكْرِمةُ. يُنظر: ((مصنَّف ابن أبي شيبة)) (٧/ ٢١٦).

وقيل: المعنى على حقيقتِه، فإذا اشتَدَّ خَوفُ الإنسانِ انتفَخَت رئتُه، فإذا انتفَخَت دفَعَت القَلبَ إلى الحَنجرةِ؛ ولهذا يقال للجَبَانِ: انتفَخَ سَحْرُه، أي: رِئتُه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحدي، والبيضاوي، وأبو السعود، والبقاعي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠١، ٣٠٢). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٨٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨١).

قال البقاعي: (﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ أي: أنواعَ الظَّنِّ؛ أمَّا بالنِّسبةِ إلى الأشخاصِ فواضِحٌ، وذلك بحسَبِ قوَّةِ الإيمانِ وضَعفِه، وأمَّا بالنِّسبةِ إلى الشَّخصِ الواحِدِ فحَسَبَ تغيُّرِ الأحوالِ؛ فتارةً يَظُنُّ الهلاكَ للضَّعفِ، وتارةً النَّجاةَ؛ لأنَّ اللهَ قادِرٌ على ذلك، ويظُنُّ المنافِقونَ ومَن قاربَهم مِن ضُعَفاءِ =

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: فعندَ تلك الشِّدَّةِ العَظيمةِ اختبَرَ اللهُ إيمانَ القَومِ ومحَّصَهم؛ لِيَتمَيَّزَ المؤمِنُ مِنَ المنافِقِ[(١)].

﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾.

أي: وحُرِّكوا وأُزعِجوا إزعاجًا شَديدًا[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ

= القُلوبِ ما حكى اللهُ عنهم). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٣).

قال الماوَرْدي: (﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ فيه أربعةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها: حُرِّكوا بالخَوفِ تحريكًا شديدًا. قاله يحيى بنُ سلام. الثَّاني: أنَّه اضْطِرابُهم عمَّا كانوا عليه؛ فمنهم مَنِ اضْطَرَب في نفْسِه، ومنهم مَن اضطرَبَ في دِينِه.

الثَّالث: أنَّه حرَّكهم الأمرُ بالثَّباتِ والصَّبرِ. وهو محتَمِلٌ.

الرَّابع: هو إزاحتُهم عن أماكِنِهم حتَّى لم يكُنْ لهم إلَّا مَوضِعُ الخَندقِ. قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٨٠).

وقال ابنُ عثيمينَ: (النُّفوسُ تزلزلَتْ وحصَل عليها شَيءٌ عظيمٌ؛ لأنَّه اجتمَع في هذه الغزوةِ اجتِماعُ الأحزابِ مع العربِ، ونَقضُ بني قُرَيظةَ، والجوعُ والتَّعَبُ والإعياءُ والبَردُ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٠٥).

ٱلظُّنُونَا۠﴾ كان الأمرُ في غايةِ الشِّدَّةِ والخَوفِ، بالِغًا إلى الغايةِ، واللهُ دفَعَ القَومَ عنهم مِن غَيرِ قِتالٍ، وآمنَهم مِنَ الخَوفِ؛ فينبغي ألَّا يَخافَ العَبدُ غَيرَ رَبِّه؛ فإنَّه كافٍ أمْرَه، وألَّا يأمَنَ مَكْرَه؛ فإنَّه قادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ، فكان قادِرًا على أن يَقهَرَ المُسلِمينَ بالكُفَّارِ، مع أنَّهم كانوا ضُعَفاءَ، كما قَهَر الكافِرينَ بالمؤمِنينَ مع قوَّتِهم وشَوكتِهم[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ أنَّه ينبغي للمُذَكِّرِ أن يُفَصِّلَ فيما ذَكَّرَ به؛ ليَكونَ ذلك أبلَغَ في تَذَكُّرِ المخاطَبِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في خِطابِ اللهِ للمُؤمِنينَ في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مع قَولِه سُبحانَه لهم: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أنَّ الصَّحابةَ رَضِيَ الله عنهم -على ما هم عليه مِن المرتَبةِ العاليةِ- قد تعتَرِضُهم الظُّنونُ بسَبَبِ الضِّيقِ؛ فهم لشِدَّةِ الضِّيقِ قد تَعتَريهم مِثلُ هذه الوَساوِسِ، لكِنَّها في الحَقيقةِ سَحابةُ صَيفٍ؛ عندَما يَرجِعُ الإنسانُ إلى وَعْدِ اللهِ عزَّ وجلَّ يَزولُ عنه هذا كلُّه ويتبَدَّدُ[3].

٢- قال تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا﴾ كانت هذه الرِّيحُ مُعجِزةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم والمسلِمينَ كانوا قريبًا منها، لم يكُنْ بيْنَهم وبيْنَها إلَّا عَرضُ الخَندَقِ، وكانوا في عافيةٍ منها، ولا خبَرَ عِندَهم بها[4].

٣- قال تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ فسلَّط عليهم هواءً فَرَّق

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٤).

شَمْلَهم، كما كان سبَبُ اجتماعِهم مِنَ الهوى، وهم أخلاطٌ مِن قبائِلَ شتَّى؛ أحزابٌ وآراءٌ، فناسَبَ أن يُرسِلَ عليهم الهواءَ الَّذي فرَّق جماعتَهم[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا﴾ رَدٌّ على مَن يقولُ: إنَّ الاسمَ إذا وَقَعَ على شَيءٍ لم يَجُزْ أن يَقَعَ على غَيرِه إلَّا أنْ يُشبِهَه بجَميعِ صِفاتِه، وهذه الملائِكةُ والمُشرِكونَ مِن الأحزابِ قد شَمِلَهما معًا اسمُ «الجُنودِ» على اختِلافِ صِفاتِهما؛ فكيفَ لا تتَّفِقُ الأسماءُ، وتختَلِفُ الصِّفاتُ[٢]؟!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أنَّ خَوفَ الإنسانِ مِن المَخلوقِ الخَوْفَ الطَّبيعيَّ لا يُعَدُّ شِركًا؛ فإنَّ ما ذُكِرَ مِن شدَّةِ الخَوفِ كان خَوفًا مِن مخلوقٍ، لكنَّ الباعثَ عليه الأمرُ الطبيعيُّ، وإذا كان الأمرُ طبيعيًّا فإنَّه لا يُؤاخَذُ به الإنسانُ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أنَّ المخاوِفَ تُربِكُ الإنسانَ حتَّى في تصَوُّراتِه؛ فإنَّ الإنسانَ المُستقِرَّ لا تكونُ عندَه ظُنونٌ مُتباينةٌ مُتعارِضةٌ؛ لأنَّه مُستَقِرٌّ، لكنْ عندَما يحصُلُ الفَزَعُ، وعندَما يحصُلُ الخوفُ تأتي الظُّنونُ مِن كلِّ وَجهٍ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أنَّ الإنسانَ إذا غَلَبَتْهُ الحالُ حتَّى وردتَ عليه مِثلُ هذه الظُّنونِ؛ فإنَّه لا يَحُطُّ مِن مَرتبتِه، لكنْ إذا استقرَّتْ به الحالُ، وهدأَتْ هذه الظُّنونُ؛ عَرَفَ الحقَّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٤).

٨- قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ فبُنِيتْ للمفعولِ، والمُبتَلِي هو اللهُ سُبحانَه وتعالى، فهو سبحانَه في مقامِ الخَيرِ يُضيفُ الشَّيءَ إلى نَفْسِه تَمَدُّحًا، وفي مَقامِ خِلافِ ذلك تأتي الأفعالُ مَبنيَّةً للمَفعولِ، فالقاعدةُ العامَّةِ؛ «أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَذكُرُ النِّعَمَ مُضافةً إليه، ويَذكُرُ النِّقَمَ غالبًا مَبنيَّةً للمَفعولِ»[(١)].

٩- قولُه: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ سمَّى اللهُ ما أصابَ المؤمنينَ ابتلاءً؛ إشارةً إلى أنَّه لم يُزَعْزِعْ إيمانَهم[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ ابتداءٌ لِغَرضٍ عظيمٍ مِن أغراضِ نُزولِ هذه السُّورةِ، والَّذي حُفَّ بآياتٍ وعِبَرٍ مِن ابتدائِه ومِن عَواقبِه؛ تَعليمًا للمؤمنينَ وتَذكيرًا؛ لِيَزيدَهم يَقينًا وتَبصيرًا، فافتُتِحَ الكلامُ بتَوجيهِ الخِطابِ إلى المؤمنينَ؛ لأنَّهم أهلُه وأحِقَّاءُ به، ولأنَّ فيه تَخليدَ كَرامتِهم ويَقينِهم، وعِنايةَ اللهِ بهم، ولُطْفَه لهم، وتَحقيرًا لِعَدُوِّهم ومَن يَكيدُ لهم، وأُمِروا أنْ يَذْكُروا هذه النِّعمةَ ولا يَنْسَوها؛ لأنَّ في ذِكرِها تَجديدًا للاعتزازِ بدِينِهم، والثِّقةِ برَبِّهم، والتَّصديقِ لِنَبيِّهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٣)].

- وذُكِرَ قولُه: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ تَوطئةً لقولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ...﴾ إلخ؛ لأنَّ ذلك هو مَحلُّ المِنَّةِ[(٤)].

- وفي قولِه: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ ذُكِرَ (جُنودٌ) هنا بلَفظِ الجمْعِ، معَ أنَّ مُفردَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٧٩).

مُؤذِنٌ بالجماعةِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١]؛ فجمَعَه هنا لأنَّهم كانوا مُتجمِّعينَ مِن عدَّةِ قَبائلَ، لكلِّ قَبيلةٍ جيشٌ، خَرَجوا مُتساندينَ لِغَزْوِ المسلمينَ في المدينةِ(١).

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه(٢). وقيل: إنَّها في مَوقعِ الحالِ مِن اسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾، وهي إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ نصَرَهم على أعدائِهم؛ لأنَّه عَليمٌ بما لَقِيَه المسلمونَ مِن المشَقَّةِ والمُصابَرةِ في حَفْرِ الخندقِ، والخُروجِ مِن دِيارِهم إلى مَعسكرِهم خارجَ المدينةِ، وبَذْلِهم النُّفوسَ في نَصْرِ دِينِ اللهِ؛ فجازاهُمُ اللهُ بالنَّصرِ المُبينِ، كما قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾(٣) [الحج: ٤٠].

٢- قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾

- قولُه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ لَمَّا كان المُرادُ الفَوقيَّةَ مِن جِهَةِ عُلوِّ الأرضِ، أوضَحَها بقولِه: ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ دونَ أنْ يقولَ: أسْفَلكم، وأفادَ ذلك أيضًا أنَّ مَن في الأسفلِ إنَّما أحاطوا ببَعضِ جِهَةِ الرِّجالِ فقط، ولم يَقُلْ: (ومِن تَحتِكم)؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّه فوقَ الرُّؤوسِ وتحتَ الأرجُلِ، ولم يَقُلْ في الأوَّلِ: (مِن أعلى مِنكم)؛ لئلَّا يكونَ فيه وَصفٌ للكفَرةِ بالعُلوِّ(٤).

- وأيضًا قولُه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ قد يكونُ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠١).

على معنى المُبالَغةِ، أي: جاؤوكم مِن جَميعِ الجِهاتِ، كأنَّه قِيل: إذ جاؤوكم مُحيطينَ بكم[١].

- قولُه: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: مالتْ عن سَننِها ومُستوى نَظرِها، وهو كِنايةٌ عن الحَيرةِ، والشُّخوصِ، وشِدَّةِ الرَّوعِ[٢].

- قولُه: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ بُلوغُ القُلوبِ الحناجرَ تَمثيلٌ لِشِدَّةِ اضْطرابِ القلوبِ مِن الفزَعِ والهلَعِ -على قولٍ-، حتَّى كأنَّها لاضْطِرابِها تَتجاوَزُ مَقارَّها، وتَرتفِعُ طالبةً الخُروجَ مِن الصُّدورِ، فإذا بلَغَتِ الحناجرَ لم تَستطِعْ تَجاوُزَها مِن الضِّيقِ؛ فشُبِّهَت هيئةُ قلْبِ الهَلوعِ المَرعودِ بهَيئةِ قلْبٍ تَجاوَزَ مَوضعَه، وذهَبَ مُتصاعِدًا طالبًا الخُروجَ، فالمُشبَّهُ القلْبُ نفْسُه باعتبارِ اختلافِ الهَيئتينِ[٣].

- قَولُه: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ لَمَّا كانت هذه حالةً عَرَضتْ، ثمَّ كان مِن أمرِها أنَّها إمَّا زالت، أو ثبَتَت إلى انقِضاءِ الأمرِ؛ عبَّرَ عنها بالماضي لذلك، وتحقيقًا لها[٤].

- قولُه: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ جِيءَ بالفِعلِ المُضارعِ؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ، والدَّلالةِ على استِمرارِ تلك الظُّنونِ وتَجدُّدِها بتَجدُّدِ أسبابِها؛ كِنايةً عن طُولِ مُدَّةِ هذا البَلاءِ. وفي صِيغةِ المضارعِ ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ معنى التَّعجُّبِ مِن ظُنونِهم؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٢).

لإدماجِ العِتابِ بالامتِنانِ؛ فإنَّ شِدَّةَ الهلَعِ الَّذي أزاغَ الأبصارَ، وجعَلَ القلوبَ بمِثلِ حالةِ أنْ تَبلُغَ الحناجرَ؛ دلَّ على أنَّهم أشْفَقوا مِن أنْ يُهزَموا؛ لِمَا رأَوا مِن قوَّةِ الأحزابِ، وضِيقِ الحِصارِ، أو خافوا طُولَ مُدَّةِ الحربِ، وفَناءَ الأنفُسِ، أو أشْفَقوا مِن أنْ تكونَ مِن الهزيمةِ جَراءةٌ للمشركينَ على المسلمينَ، أو نحوُ ذلك مِن أنواعِ الظُّنونِ، وتَفاوُتِ دَرجاتِ أهْلِها[١].

- وفي قولِه: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ حُذِفَ مَفعولَا (تظنُّون) دونَ وُجودِ دَليلٍ يَدُلُّ على تَقديرِهما؛ فهو حَذْفٌ لِتَنزيلِ الفِعلِ مَنزِلةَ اللَّازمِ، والمقصودُ مِن هذا التَّنزيلِ أنْ تَذهَبَ نفْسُ السَّامعِ كلَّ مَذهَبٍ مُمكِنٍ[٢].

- وتعريفُ: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ باللَّامِ هو تَعريفُ الجِنسِ، وجَمْعُه للدَّلالةِ على أنواعٍ مِن الظَّنِّ[٣]، يعني: أنَّ الظُّنونَ كانت تدورُ في أذهانِهم أو في أفكارِهم مختلِفةً طولًا وعَرضًا، يعني: هل سيَزولُ هؤلاء الأحزابُ؟ هل سيَقضون علينا؟ هل سننتصرُ[٤]؟

٣- قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾

- قَولُ الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ لم يؤكِّدِ الابتِلاءَ بالشِّدَّةِ؛ لِدَلالةِ الافتِعالِ عليها[٥].

- قولُه: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ الزِّلزالُ: اضْطِرابُ الأرضِ، وهو مُضاعَفُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٠١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٣).

(زلَّ) تَضعيفًا يُفِيدُ المُبالَغةَ، والمرادُ به هنا اختلالُ الحالِ اختلالًا شديدًا، بحيثُ تُخَيَّلُ مُضطرِبةً اضطرابًا شديدًا كاضْطرابِ الأرضِ، وهو أشدُّ اضطرابًا؛ لِلحاقِه أعظَمَ جِسمٍ في هذا العالَمِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٣).

الآيات (١٢-١٧)

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غُرُورًا﴾: أي: باطلًا مِن القولِ، وغَرَرْتُ فلانًا: أصَبْتُ غِرَّتَه، ونِلْتُ منه ما أُريدُه، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، وأصلُ (غرر): نقصانٌ[١].

﴿عَوْرَةٌ﴾: أي: مَكشوفةٌ ليست بحَصينةٍ، وأصلُ العَورةِ: ما ذهَبَ عنه السَّترُ والحِفظُ، وكأنَّ الرِّجالَ سَترٌ وحِفظٌ للبُيوتِ، فإذا ذَهَبوا عنها أعوَرَت البُيوتُ[٢].

﴿أَقْطَارِهَا﴾: أي: جوانِبِها ونواحيها، واحِدُها قُطرٌ، والقُطرُ: الجانِبُ والنَّاحيةُ[٣].

﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾: أي: الكُفرَ والشِّركَ، والفَتنُ: إدخالُ الذَّهَبِ النَّارَ؛ لِتظهَرَ جَودتُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٩٨).

مِن رداءتِه، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتِلاءٍ واختِبارٍ[١].

﴿تَلَبَّثُوٓاْ﴾: أي: احْتَبَسوا، أو: أبطَؤوا، والتَّلَبُّثُ: اللُّبْثُ، أي: الاستقرارُ في المكانِ، يُقالُ: لَبِث بالمكانِ: أقامَ، وأصلُ (لبث): يدُلُّ على تَمَكُّثٍ[٢].

﴿يَعۡصِمُكُم﴾: أي: يَمنعُكم ويُجيرُكم، والاعتِصامُ: التَّمسُّكُ بالشَّيءِ، والامتناعُ به، وأصلُ (عصم): يدُلُّ على إمساكٍ ومَنْعٍ ومُلازَمةٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠).
قال الشنقيطي: (الفتنة أُطْلِقَتْ في القرآنِ ثلاثةَ إطلاقاتٍ، وبعضُهم يقولُ: أربعةُ إطلاقاتٍ. أمَّا الإطلاقاتُ الثَّلاثُ الَّتي لم يُخالِفْ فيها أحَدٌ:
فمنها إطلاقُ الفِتنةِ على «الاختبارِ»، وهو أشهَرُها في القرآنِ.
ومنها إطلاقُ الفتنةِ على «الإحراقِ بالنارِ»؛ لأن العربَ تقولُ: فَتَنْتُ الذَّهبَ، إذا سَبَكْتَه في النَّارِ وأذَبْتَه، أي: لِيَتَبَيَّنَ أخالِصٌ هو أم زائِفٌ. ومِن إطلاقِ الفِتنةِ على مُطْلَقِ الوضعِ في النَّارِ قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أي: يُحْرَقون بالنَّارِ -والعياذُ بالله...
وكذلك تُطْلَقُ الفِتنةُ على نتيجةِ الاختبارِ إن كانت سيِّئةً خاصَّةً؛ كالمعاصي والكفرِ، فإنَّ الكفَّارَ والعُصاةَ اختَبَرَهم اللهُ بالأوامرِ والنَّواهي، فكانت نتيجةُ الاختبارِ فيهم غيرَ محمودةٍ، حيث كفَروا وعَصَوْا؛ ولذَا يُطْلَقُ اسمُ «الفتنةِ» على الكفرِ والمعاصي، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [البقرة: ١٩٣] أي: حتَّى لا يَبقى شِرْكٌ.
الرَّابعُ: إطلاقُ الفتنةِ بمعنَى «الحجَّةِ»، كما قاله بعضُ العلماءِ في قولِه...: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ﴾ [الأنعام: ٢٣] أي: حُجَّتُهم). ((العذب النمير)) (١/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩)، ((ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن)) لغلام ثعلب (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠).

﴿وَلِيًّا﴾: أي: يَلِيهم بالكفايةِ، أو: قريبًا يَنْفَعُهم، والوليُّ: الحَليفُ والنَّاصرُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُرْبٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما جرَى مِن المنافقينَ في غزوةِ الأحزابِ: واذكُرْ إذ يقولُ المُنافِقونَ: ما وعَدَنا اللهُ ورَسولُه إلَّا وُعودًا كاذِبةً لا حقيقةَ لها! وإذ قالت طائفةٌ مِن هؤلاءِ المُنافِقينَ: يا أهلَ يَثرِبَ لا إقامةَ لكم هنا للقِتالِ؛ فارجِعوا إلى بُيوتِكم. ويَستأذِنُ فَريقٌ منهم النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للانصرافِ إلى منازِلِهم، يقولونَ مُعتَذِرينَ: إنَّ بُيوتَنا مَكشوفةٌ للعَدُوِّ، فنَخشى أن يَهجُمَ عليها العَدُوُّ!

وليست بيوتُ هؤلاءِ المُنافِقينَ مَكشوفةً للعَدُوِّ، ولكِنَّهم يُريدونَ الفِرارَ مِن الجِهادِ، ولو دَخَل الأحزابُ المدينةَ مِن نواحيها على هؤلاءِ الَّذين يقولونَ إنَّ بُيوتَنا مَكشوفةٌ، ثمَّ سَألوهم الرُّجوعَ مِن الإيمانِ إلى الكفرِ لأجابوهم فيما طُلِبَ منهم، وما تَرَدَّدوا عن إجابتِهم إلَّا زَمَنًا قَليلًا، ولقد عاهَدَ هؤلاءِ المُنافِقونَ اللهَ مِن قَبْلِ هذه الغَزوةِ ألَّا يَفِرُّوا، فأخلَفوا العَهدَ، وكان عهدُ اللهِ مَسؤولًا عنه.

قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك الَّذين يَستأذِنونَك في الانصرافِ عن الجِهادِ: لن يَنفَعَكم الفِرارُ إن فرَرتُم مِن الموتِ أو القَتلِ؛ فلن يَزيدَ ذلك في أعمارِكم شَيئًا، وإنَّما ستُمَتَّعونَ في الدُّنيا قليلًا، ثمَّ تُرجَعونَ إلى اللهِ تعالى.

قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهم: مَن هذا الَّذي يمنَعُكم مِن اللهِ إن أراد بكم سُوءًا أو أراد بكم رَحمةً؟! ولا يجِدُ أولئك المنافِقونَ مِن دونِ اللهِ وَليًّا يَتولَّى أمورَهم، ولا نصيرًا يَدفَعُ عنهم عذابَ اللهِ!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٤).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها عَطفٌ على ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[الأحزاب: ١٠]؛ فإنَّ ذلك كُلَّه ممَّا أَلحقَ بالمُسلِمينَ ابتلاءً، فبَعضُه مِن حالِ الحَربِ، وبَعضُه مِن أذى المنافِقينَ؛ لِيَحذَروا المنافِقينَ فيما يَحدُثُ مِن بَعْدُ، ولئلَّا يَخشَوا كَيْدَهم؛ فإنَّ اللهَ يَصرِفُه كما صرَفَ أشَدَّه يومَ الأحزابِ[1].

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ إذْ[2] يقولُ المنافِقونَ وضِعافُ الإيمانِ الَّذين في قُلوبِهم شَكٌّ وشُبهةٌ: ما وعَدَنا اللهُ ورَسولُه مِنَ النَّصرِ والتَّمكينِ إلَّا وُعودًا كاذِبةً باطِلةً لا وَفاءَ لها[3]!

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٨، ٣٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٤، ٣٠٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمرضِ: الشَّكُّ وضَعفُ الاعتِقادِ: البيضاويُّ، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠٦).

وقيل: المرضُ: الشُّبهةُ. وممَّن اختاره: ابنُ كثير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥٥).

وقال أبو حيَّان: (الَّذين في قُلوبِهم مرَضٌ: هم ضُعفاءُ الإيمانِ، الَّذين لم يَتمكَّنِ الإيمانُ مِن قُلوبِهم، فهم على حَرفٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٩).

ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما هو الأصلُ في نِفاقِ المنافِقينَ، وهو التَّكذيبُ؛ أتْبَعَه ما تفرَّع عليه[١].

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ﴾.

أي: وإذ قالت طائفةٌ مِنَ المنافِقينَ: يا أهلَ يَثرِبَ لا إقامةَ لكم هنا للرِّباطِ والقِتالِ؛ فارجِعوا إلى بُيوتِكم هارِبينَ، واترُكوا الرَّسولَ وأصحابَه[٢].

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾.

أي: ويَطلُبُ فَريقٌ مِنَ المنافِقينَ الإذْنَ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالانصرافِ إلى منازِلِهم، يَقولونَ مُعتَذِرينَ: إنَّ بُيوتَنا ليست بحَصينةٍ، فنَخشَى أن يَهجُمَ عليها العدُوُّ، فنُريدُ الانصِرافَ لحِراستِها[٣].

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

أي: وليست بُيوتُ هؤلاء المنافِقينَ مَكشوفةً للعَدُوِّ كما يدَّعونَ، ولكِنَّهم يُريدونَ بهذا الفِرارَ مِنَ الجِهادِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢، ٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٤، ١٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥١، ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١١٦، ١١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٩)، ((مجموع =

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿لَآتَوْهَا﴾ قِراءتان:

١- ﴿لَأَتَوْهَا﴾ مقصورةٌ بغيرِ مَدٍّ؛ أي: لَجاؤُوها[(١)].

٢- ﴿لَآتَوْهَا﴾ بالمدِّ، أي: لَأَعْطَوْها مِن أنفُسِهم، وأجابوا إليها[(٢)].

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا ﴾.

أي: ولو دخَلَ الكُفَّارُ المتحَزِّبونَ المدينةَ مِن نواحيها على هؤلاء الَّذين يَقولونَ: إنَّ بُيوتَنا عَورةٌ، ثمَّ سألوهم الرُّجوعَ مِن الإيمانِ إلى الكفرِ[(٣)]، لَفَعَلوا

= الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

(١) قرأ بها نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٨)، ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص: ٤٥٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٨٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٧٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٨٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٧٤).

قال السمين: (المعنى: ولو دُخِلَتِ البُيوتُ أو المدينةُ مِن جميعِ نواحيها، ثمَّ سُئِل أهلُها الفِتنةَ لم يَمتنِعوا مِن إعطائها. وقراءةُ المَدِّ تَستلزِمُ قِراءةَ القَصرِ مِن غيرِ عكسٍ بهذا المعنى الخاصِّ). ((الدر المصون)) (٩/ ١٠٢).

(٣) قال الواحدي: (﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ يعني: الشِّركَ، في قَولِ الجميعِ). ((الوسيط)) (٣/ ٤٦٢).

وممَّن قال بأنَّ الفِتنةَ هنا هي الكُفرُ أو الشِّركُ: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والواحدي، والسمعاني، وابن الجوزي، وابن تيميَّة، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٦٠)، ((تفسير =

ما طُلِبَ منهم[١]!

﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾.

أي: ولَأَسرعَ المُنافِقونَ إلى إعطائِهم ما سألوهم مِنَ الفِتنةِ، ولم يَترَدَّدوا عن إجابتِهم إلَّا زمَنًا قَليلًا[٢]!

= السمعاني)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٥٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٢٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٨٠).

وقيل: الفتنةُ: القتالُ في العصَبيَّةِ. قاله الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٠).

وقيل: الفِتنةُ هي الخُروجُ مِنَ المدينةِ فارِّينَ. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٠٨).

وقال ابنُ عاشور: (والفتنةُ هي أن يَفْتِنوا المسلمينَ، أي: الكَيْدُ لهم، وإلقاءُ التَّخاذُلِ في جيشِ المسلمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٨).

قال ابنُ عثيمين: («أتى» بمعنى جاء، و«آتى» بمعنى أعطى، وتفسيرُ القِراءتَينِ أو مجموعُ التَّفسيرِ يدُلُّ على أنَّهم يُعطُون ما سُئِلوا، ويَأتونَ إليه بانقيادٍ... فهؤلاء قومٌ يُعطُون ما سُئِلوا عن اختيارٍ؛ ولهذا في القِراءةِ الثَّانيةِ: ﴿لَأَتَوْهَا﴾ أي: لَجاؤُوها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٢٤) بتصرف.

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥، ٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

قيل: المرادُ: أسرَعوا إلى الإجابةِ إلى الشِّركِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والواحدي، وابن كثير، والسعدي، ونسبه القرطبيُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥).

وذهب الفرَّاءُ والقرطبيُّ إلى أنَّ المعنى: ولم يلبَثِ المنافِقونَ بالمدينةِ بعدَ كُفرِهم إلَّا قليلًا =

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾.

أي: ولقد كان هؤلاءِ المُنافِقونَ المُنصَرِفونَ عن الجِهادِ مع رَسولِ اللهِ، القائلونَ: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ عاهَدوا اللهَ مِن قَبلِ هذه الغَزوةِ وحالةِ الخَوفِ الَّتي أصابَتْهم: ألَّا يَفِرُّوا، فأخلَفوا اللهَ ما وَعَدوه[1].

﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾.

أي: وكان عَهدُ اللهِ مَسؤولًا عنه؛ فسيَسألُهم اللهُ يومَ القيامةِ، ويُحاسِبُهم عن العَهدِ الَّذي نَقَضوه[2].

= حتَّى يَهلِكوا. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٢١).

وقيل: المعنى: لو سَأَل الجَيشُ الدَّاخِلُ الفريقَ المُستأذِنينَ أن يُلْقُوا الفِتنةَ في المُسلِمينَ بالتَّفريقِ والتَّخذيلِ، لخرَجوا لذلك القَصدِ مُسرِعينَ، ولم يُثبِّطْهم الخَوفُ على بُيوتِهم أن يَدخُلَها اللُّصوصُ أو يَنهَبَها الجيشُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

قال القرطبي: (قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبْلِ غزوةِ الخندقِ وبعدَ بَدْرٍ. قال قَتادةُ: وذلك أنَّهم غابوا عن بدرٍ ورَأَوْا ما أعطَى اللهُ أهلَ بدرٍ مِن الكرامةِ والنَّصرِ، فقالوا: لَئِنْ أشْهَدنا اللهُ قتالًا لَنُقاتِلَنَّ. وقال يَزيدُ بنُ رُومانَ: هم بنو حارِثَةَ، هَمُّوا يومَ أُحُدٍ أنْ يَفْشَلوا مع بَني سَلِمةَ، فلَمَّا نَزَل فيهم ما نَزَل عاهَدوا اللهَ ألَّا يَعودوا لمِثْلِها، فذَكَر اللهُ لهم الَّذي أعْطَوْه مِن أنفسِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٩).

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لأولئك الَّذين يَستأذِنونَك في الانصِرافِ عن الجِهادِ: لن يَنفَعَكم الهرَبُ -الَّذي ما كان استِئذانُكم إلَّا بسَبَبِه- إنْ هرَبتُم مِنَ الموتِ أو القَتلِ؛ فهو لا يُؤخِّرُ آجالَكم، فمَن حَضَر أجَلُه فلا بُدَّ مِن وُقوعِ ما كتَبَه اللهُ عليه بلا تأخيرٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨].

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: وإذا فَرَرتُم مِنَ الموتِ أو القَتلِ فلن يَزيدَ ذلك في أعمارِكم شَيئًا، وإنَّما ستُمَتَّعونَ في الدُّنيا قليلًا إلى الوَقتِ الَّذي تنقَضي فيه أعمارُكم المكتوبةُ عندَ اللهِ تعالى[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩١).

كما قال سُبحانَه: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧].

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء الَّذين يَنصَرِفونَ عن الجِهادِ هَرَبًا مِنَ القَتلِ: مَنِ الَّذي يمنَعُكم مِن اللهِ إن أراد بكم سُوءًا في أنفُسِكم، كقَتلٍ أو بلاءٍ؛ أو أراد بكم رَحمةً، كعافيةٍ وسَلامةٍ ونَصرٍ؟ فاللهُ تعالى وَحْدَه هو المعطي المانِعُ، الَّذي لا يأتي بالخَيرِ إلَّا هو، ولا يدفَعُ الشَّرَّ إلَّا هو؛ فلا الفِرارُ مانعٌ مِنَ السُّوءِ إن أراد اللهُ تعالى وُقوعَه بكم، ولا البَقاءُ جالبٌ للرَّحمةِ[(١)].

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

أي: ولا يجِدُ أولئك المنافِقونَ وَليًّا يَتولَّى أمورَهم وينفَعُهم، ولا يجِدونَ نَصيرًا يَدفَعُ عنهم عذابَ اللهِ حينَ يَنزِلُ بهم[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- إنَّ المُنافِقينَ أصحابُ غَدرٍ وخِيانةٍ؛ لِقَولِه تعالى عنهم: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾، وهم هنا يُحاوِلونَ الإدبارَ، لكِنَّهم يُمَوِّهون

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٣٨).

بسُؤالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم واستِئذانِه، ويتفرَّع على ذلك أنَّه إذا كان الغَدرُ مِن صِفاتِ المنافِقينَ فالواجِبُ على المؤمِنِ البُعدُ عنه، ولو لم يكُنْ مِن الغَدرِ إلَّا أنَّه مِن صِفاتِ المنافِقينَ لَكان ذلك كافيًا في وُجوبِ البُعدِ والحَذَرِ منه[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الأمورَ مُقَدَّرةٌ، لا يمكِنُ الفِرارُ مِمَّا وقع عليه القَرارُ، وما قدَّرَه اللهِ كائِنٌ؛ فمَن أُمِرَ بشَيءٍ، إذا خالفَه يبقَى في وَرْطةِ العِقابِ آجِلًا، ولا ينتَفِعُ بالمخالَفةِ عاجِلًا[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ المقصودُ مِن الآيةِ تخليقُ المُسلِمينَ بخُلُقِ استِضعافِ الحياةِ الدُّنيا، وصَرْفُ هِمَمِهم إلى السَّعيِ نحوَ الكَمالِ الَّذي به السَّعادةُ الأبَديَّةُ؛ سَيْرًا وراءَ تعاليمِ الدِّينِ الَّتي تقودُ النُّفوسَ إلى أوْجِ المَلَكيَّةِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يُبَيِّنُ أنَّ الأسبابَ كُلَّها لا تُغْني عن العَبدِ شَيئًا إذا أراده اللهُ بسُوءٍ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ حَثٌّ على تَعَلُّقِ الإنسانِ باللهِ سُبحانَه وتعالى دونَ غَيرِه، فإذا كان الأمرُ كلُّه بيدِ اللهِ تعالى، فإنَّ الإنسانَ يتعلَّقُ برَبِّه دونَ غَيرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦١، ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٤٠).

٦- قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ فأخبَرَ سُبحانَه أنَّ العبدَ لا يَعصِمُه أحدٌ مِنَ اللهِ إن أراد به سوءًا غيرَ الموتِ الَّذي فَرَّ منه؛ فإنَّه فرَّ مِن الموتِ لَمَّا كان يَسوؤُه، فأخبر اللهُ سُبحانَه أنَّه لو أراد به سوءًا غَيرَه لم يعصِمْه أحدٌ مِن الله، وأنَّه قد يَفِرُّ ممَّا يَسوؤُه مِن القَتلِ فى سبيلِ الله، فيَقعُ فيما يسوؤُه ممَّا هو أعظَمُ منه، وإذا كان هذا فى مُصيبةِ النَّفسِ، فالأمرُ هكذا فى مُصيبةِ المالِ والعِرضِ والبَدَنِ؛ فإنَّ مَن بَخِل بمالِه أن يُنفِقَه فى سَبيلِ اللهِ تعالى وإعلاءِ كَلمتِه، سلَبَه اللهُ إيَّاه، أو قيَّض له إنفاقَه فيما لا ينفَعُه دُنيا ولا أخرى، بل فيما يعودُ عليه بمضَرَّتِه عاجِلًا وآجِلًا، وإنْ حَبَسَه وادَّخَره مَنَعَه التمَتُّعَ به، ونَقَله إلى غيرِه؛ فيكونُ له مَهنَؤُه وعلى مُخلِّفِه وِزرُه! وكذلك مَن رَفَّه بدَنَه وعِرضَه، وآثَرَ راحتَه على التَّعَبِ لله وفى سَبيلِه، أتعَبَه الله سُبحانَه أضعافَ ذلك فى غيرِ سَبيلِه ومَرضاتِه، وهذا أمرٌ يَعرِفُه النَّاسُ بالتَّجارِبِ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ هذه عادةُ المنافِقِ عندَ الشِّدَّةِ والمِحنةِ: لا يَثبُتُ إيمانُه، ويَنظُرُ بعَقلِه القاصِرِ إلى الحالةِ القاصِرةِ، ويُصدِّقُ ظَنَّه[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ بيانُ إرْجَافِ المنافقينَ بالمؤمنينَ، والإرْجافُ: هو أنْ يُذْكَرَ للإنسانِ ما يكونُ به الخوفُ والقلقُ، فهؤلاء مُرْجِفُونَ، ويقولونَ: ليس هنا مُقَامٌ لكم؛ لأنَّه خطرٌ عليكم! ولهذا قالوا: ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾، فيُستفادُ منه أنَّ المنافقينَ مِن شأنِهم الإرجافُ بالمؤمنينَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١١٩).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ﴾ أنَّ كلَّ مَن دعا إلى الرُّجوعِ عن الحقِّ ففيه شَبَهٌ بالمنافِقينَ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ عَدَلوا عن الاسم الذي وسَمَها به النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم -من المدينةِ وطَيبةَ، مع حُسنِه- إلى الاسمِ الَّذي كانت تُدعَى به قديمًا، مع احتمالِ قُبحِه؛ باشتِقاقِه مِن (الثَّرْبِ) الذي هو اللَّومُ والتَّعنيفُ؛ إظهارًا للعُدولِ عن الإسلامِ[٢].

٥- أنَّ الاعتزازَ بالوطنِ حَميَّةً للوَطَنِ: مِن صِفاتِ المنافِقينَ؛ لِقَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾، وقصْدُهم بذلك إحماءُ حَميَّتِهم الوَطنيَّةِ، وأمَّا الحديثُ الَّذي يُروى: (حُبُّ الوطنِ مِن الإيمانِ) فإنَّه كَذِبٌ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وليس بصَحيحٍ. أمَّا الاعتزازُ بالوطَنِ؛ لِكَونِه إسلاميًّا: فهذا لا بأسَ به[٣]، فالآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّ الدِّينَ والأُخُوَّةَ الإيمانيَّةَ ليس له في قُلوبِهم قَدرٌ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾ دَليلٌ على تمويهِ المنافِقِ، وإظهارِ حالِه بحالِ المؤمِنِ المُنقادِ الَّذي لا يَنصرِفُ إلَّا بعدَ الاستئذانِ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٦).

وفي الحديثِ: ((يقولونَ يَثْرِبُ، وهي المدينةُ)) أخرجه البخاري (١٨٧١) ومسلم (١٣٨٢)، قال النووي: (قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم «يقولونَ: يثربُ، وهي المدينةُ» يعني أنَّ بعضَ النَّاسِ مِن المنافقينَ وغيرِهم يُسمُّونها «يثربَ»، وإنَّما اسمُها «المدينةُ وطابةُ وطيبةُ»، ففي هذا كراهةُ تسميتِها «يثربَ»... وأمَّا تسميتُها في القرآنِ «يثربَ» فإنَّما هو حكايةٌ عن قولِ المنافقينَ والذين في قلوبِهم مرضٌ). ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٢١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ مشروعيَّةُ إبطالِ قولِ النَّاطقِ بالباطلِ[١].

٨- في قَولِه تعالى -عن المنافقين-: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ أنَّ كلَّ مَن نَقَضَ العهدَ ففيه شَبَهٌ مِن المنافقين؛ ولهذا جاء الحديثُ عن النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((أربَعٌ مَن كُنَّ فيه كان مُنافِقًا خالصًا))، ومنها: ((إذا عَاهَدَ غَدَر))[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ تحريمُ توليةِ الأدبارِ عندَ ملاقاةِ العدوِّ؛ وجهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر هذا عن المنافقينَ تحذيرًا منه[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ دَليلٌ على أنَّ عَهدَ اللهِ يَدخُلُ فيه ما عَقَده المَرءُ على نفْسِه، وإنْ لم يكُنِ اللهُ قد أمَرَ بنَفسِ ذلك المعهودِ عليه قبْلَ العَهدِ[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ والقَدَريَّةِ شَديدةٌ مُسكِتةٌ؛ لذِكرِ «إرادةِ السُّوءِ» بلَفظِه، فإنْ قالوا: لا يُريدُ سوءًا، إنَّما مَثَّلَ فقال: إنْ أرادَ، وهو لا يُريدُ. قيل له: فما تُنكِرونَ على مَن يقولُ لكم: والرَّحمةُ أيضًا لم يُرِدْها، ولكِنَّه مَثَّلَ! وهذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٦).

والحديث أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عَمرٍو رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٣٨).

وذاك جَهْلٌ؛ يريدُ اللهُ بخلْقِه السُّوءَ بعَدلِه، لا مُعَقِّبَ لحكمِه، ويُريدُ بهم الرَّحمةَ بفَضلِه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ... ﴾ فيه التَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارِعِ (يَقُولُ)؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ القولِ، واستحضارِ صُورتِه[٢].

- قولُه: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ... ﴾ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ همُ المُظهِرون الإيمانَ، المُبطِنون الكفْرَ. و(الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) همْ ضُعفاءُ الإيمانِ الَّذين لمْ يَتمكَّنِ الإيمانُ مِن قُلوبِهم -على قَولٍ-، فهُمْ على حَرْفٍ، والعطْفُ دالٌّ على التَّغايُرِ؛ نَبَّه عليهم على جِهَةِ الذَّمِّ[٣].

- وقولُ المُنافقينَ: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ يَحتمِلُ أنْ يَكونوا قالوهُ عَلنًا بيْنَ المسلمينَ، قَصَدوا به إدخالَ الشَّكِّ في قُلوبِ المؤمنينَ؛ لعلَّهم يَرُدُّونَهم عن دِينِهم، فأوْهَموا بقولِهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ ... ﴾ إلخ، أنَّهم ممَّن يُؤمِنُ باللهِ ورسولِه؛ فنِسبةُ الغُرورِ إلى اللهِ ورسولِه إمَّا على معنَى التَّشبيهِ البليغِ، وإمَّا لأنَّهم بجَهْلِهم يُجوِّزون على اللهِ أنْ يَغُرَّ عِبادَه! ويَحتمِلُ أنَّهم قالوا ذلك بيْنَ أهْلِ مِلَّتِهم، فيكونُ نِسبةُ الوعدِ إلى اللهِ ورسولِه تَهكُّمًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٤).

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾

- نِداؤُهم إيَّاهم بعُنوانِ أهليَّتِهم لها ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾: تَرشيحٌ لِمَا بعْدَه مِن الأمْرِ بالرُّجوعِ إليها[١].

- ومُرادُهم بقولِهم: ﴿فَٱرْجِعُواْ﴾ الأمرُ بالفِرارِ، لكنَّهم عبَّروا عنه بالرُّجوعِ؛ تَرويجًا لِمَقالِهم، وإيذانًا بأنَّه ليس مِن قَبيلِ الفِرارِ المَذمومِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ﴾ جِيءَ بالفِعلِ المُضارعِ في ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ، وللإشارةِ إلى أنَّهم يُلِحُّون في الاستئذانِ ويُكَرِّرونَه ويُجَدِّدونه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّه لمْ يَأذَنْ لهمْ[٣].

- قولُه: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ استِئنافٌ مَبْنيٌّ على السُّؤالِ عن كيفيَّةِ الاستِئذانِ. والعَورةُ في الأصلِ: الخلَلُ؛ أُطلِقَت على المُختَلِّ مُبالَغةً، وهو أنسَبُ بمَقامِ الاعتِذارِ، كما يُفصِحُ عنه تَصديرُ مَقالِهم بحَرْفِ التَّحقيقِ (إنَّ)[٤].

- وأيضًا التَّأكيدُ بحَرْفِ (إنَّ) في قولِهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾: تَمويهٌ؛ لإظهارِ قولِهم: ﴿بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ في صُورةِ الصِّدقِ. ولَمَّا عَلِموا أنَّهم كاذِبونَ، وأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعلَمُ كَذِبَهم؛ جَعَلوا تَكذيبَه إيَّاهم في صُورةِ أنَّه يَشُكُّ في صِدقِهم، فأكَّدوا الخبَرَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٦).

- وقولُه: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ تكذيبٌ لهم، ولمْ يُقرَنْ هذا التَّكذيبُ بمُؤكِّدٍ؛ لإظهارِ أنَّ كَذِبَهم واضحٌ غيرُ مُحتاجٍ إلى تأكيدٍ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ مَوقعُ هذه الآيةِ زيادةُ تَقريرٍ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]؛ فإنَّها لِتَكذيبِهم في إظهارِهم التَّخوُّفَ على بُيوتِهم، ومُرادُهم خَذْلُ المسلمينَ، ومَساقُ نَظمِ الآيةِ؛ لِبَيانِ أنَّهم إذا دُعُوا إلى الحقِّ تعلَّلوا بشَيءٍ يَسيرٍ، وإنْ دُعوا إلى الباطلِ سارَعوا إليه آثِرَ ذي أثيرٍ[٢]، مِن غيرِ صارفٍ يَلْويهم، ولا عاطفٍ يَثْنيهم[٣].

- قولُه: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ حُذِفَ الفاعلُ؛ للإيماءِ بأنَّ دُخولَ هؤلاءِ المُتحزِّبينَ عليهم، ودُخولَ غيرِهم مِن العساكرِ، سِيَّانِ في اقتضاءِ الحُكمِ المُرتَّبِ عليه[٤]. أو لِظُهورِ أنَّ فاعلَ الدُّخولِ قَومٌ غُزاةٌ[٥].

- وإضافةُ (أقطار) -وهو جمْعٌ- تُفيدُ العُمومَ، أي: مِن جميعِ جوانبِ المدينةِ، لا مِن بَعضِها دونَ بعضٍ[٦].

- وأسنَدَ الدُّخولَ إلى بُيوتِهم، وأوقَعَ ﴿عَلَيْهِم﴾؛ لِمَا أنَّ المرادَ فَرْضُ دُخولِها وهمْ فيها، لا فرْضُ دُخولِها مُطلقًا، كما هو المفهومُ لو لم يُذكَرِ الجارُّ والمجرورُ، ولا فَرْضُ الدُّخولِ عليهم مُطلقًا، كما هو المفهومُ لو أُسنِدَ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٦).

(٢) آثِرَ ذي أثيرٍ: أي: أوَّلَ كُلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٧).

(٦) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الجارِّ والمجرورِ[١].

- وعبَّر بأداةِ الاستعلاءِ، فقال: ﴿عَلَيْهِم﴾؛ إشارةً إلى أنَّه دخولُ غَلَبةٍ[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا﴾ (ثمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ، وكان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُعطَفَ بالواوِ لا بـ (ثُم)؛ لأنَّ المذكورَ بعدَ (ثمَّ) هنا داخلٌ في فِعلِ شَرْطِ (لو)، وَواردٌ عليه جوابُها؛ فعُدِلَ عن الواوِ إلى (ثُمَّ) للتَّنبيهِ على أنَّ ما بعْدَ (ثُمَّ) أهَمُّ مِن الَّذي قبْلَها[٣].

- والاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ يَظهَرُ أنَّه تَهكُّمٌ بهمْ؛ فيكونُ المقصودُ تَأكيدَ النَّفيِ بصُورةِ الاستثناءِ. ويَحتمِلُ أنَّه على ظاهِرِه، أي: إلَّا رَيْثما يَتأمَّلون، فلا يُطِيلون التَّأمُّلَ؛ فيكونُ المَقصودُ مِن ذِكرِه تأْكيدَ قِلَّةِ التَّلبُّثِ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ تَأكيدُ الخبَرِ بلامِ القَسَمِ، وحَرفِ التَّحقيقِ (قدْ)، وفِعلِ (كان) -مع أنَّ الكلامَ مُوجَّهٌ إلى المؤمنينَ-؛ تَنزيلًا للسَّامعينَ مَنزِلةَ مَن يَتردَّدُ في أنَّهم عاهَدوا اللهَ على الثَّباتِ، وزِيادةُ ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذلك العهدَ قَديمٌ مُستقِرٌّ[٥].

- وتَوليةُ الأدبارِ: كِنايةٌ عن الفِرارِ، فإنَّ الَّذي استَأْذَنوا لأجْلِه في غَزوةِ الخندقِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٨٩).

أرادوا منه الفرارَ؛ ألَا تَرى قولَه: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]، والفرارَ ممَّا عاهَدوا اللهَ على تَرْكِه[١].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ تَذييلٌ لِجُملةِ ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾، والمسؤولُ: كِنايةٌ عن المُحاسَبِ عليه؛ فهذا تَهديدٌ ووَعيدٌ[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

- قولُه: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم ...﴾ جوابٌ عن قولِهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣]؛ ولذلك فُصِلَت -أي: لم تُعطَفْ على ما قَبْلَها-؛ لأنَّها جرَتْ على أُسلوبِ التَّقاوُلِ والتَّجاوُبِ. وما بيْنَ الجُملتينِ مِن قولِه: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ إلى قولِه: ﴿مَسْـُٔولًا﴾ [الأحزاب: ١٤، ١٥]، اعتراضٌ[٣]. وهو خِطابُ تَوبيخٍ، وإعلامٍ أنَّ الفِرارَ لا يُنجِّي مِن القدَرِ، وأنَّه تَنقطِعُ أعمارُهم في يَسيرٍ مِن المُدَّةِ[٤].

- قولُه: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ جَوابٌ عن كَلامٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه المذكورُ، أي: إنْ خُيِّلَ إليكم أنَّ الفِرارَ نفَعَ الَّذي فَرَّ في وَقتٍ ما، فما هو إلَّا نفْعٌ زَهيدٌ؛ لأنَّه تأخيرٌ في أجَلِ الحَياةِ، وهو مَتاعٌ قليلٌ[٥].

٦- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩١).

رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

- قولُه: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ ... ﴾ الظَّاهرُ أنَّ هذه الجُملةَ واقعةٌ مَوقعَ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم﴾ الآيةَ [الأحزاب: ١٦]، فكأنَّه قِيل: فمَن ذا الذي يَعصِمُكم مِن اللهِ؟ أي: فلا عاصمَ لكمْ مِن نُفوذِ مُرادِه فيكم. وإعادةُ فِعلِ (قُل) تَكريرٌ؛ لأجْلِ الاهتمامِ بمَضمونِ الجُملةِ[1].

- والاستِفهامُ الإنكاريُّ في قولِه: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ في مَعنى النَّفيِ لاعتِقادِهم أنَّ الحِيلةَ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَنفَعُهم، وأنَّ الفِرارَ يَعصِمُهم مِن الموتِ إنْ كان قِتالٌ[2].

- قولُه: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ في الآيةِ اختصارٌ؛ فقد جُعِلَت الرَّحمةُ قَرينةَ السُّوءِ في العِصمةِ، ولا عِصمةَ إلَّا مِن السُّوءِ؛ وذلك لأنَّ معناهُ: أو يُصِيبُكم بسُوءٍ إنْ أراد بكمْ رحمةً، فاختُصِرَ الكلامُ، أو حُمِلَ الثَّاني على الأوَّلِ؛ لِمَا في العِصمةِ مِن مَعنى المنْعِ[3].

- قولُه: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ قُوبِلَ السُّوءُ بالرَّحمةِ؛ لأنَّ المُرادَ سُوءٌ خاصٌّ، وهو السُّوءُ المَجعولُ عَذابًا لهم على مَعصيةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو سُوءُ النِّقمةِ؛ فهو سُوءٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٢).
قال أبو حيان: (أمَّا الوجهُ الأوَّلُ ففيه حذفُ جملةٍ لا ضرورةَ تدعُو إلى حذفِها، والثَّاني هو الوجهُ، لا سِيَّما إذا قُدِّر مضافٌ محذوفٌ، أي: يمنعُكم مِن مرادِ الله). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦٢).

خاصٌّ مُقدَّرٌ مِن اللهِ لأجْلِ تَعذيبِهم إنْ أرادهُ؛ فيَجْري على خِلافِ القوانينِ المُعتادةِ[١].

- قولُه: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ الكلامُ مُوجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وليس هو مِن قَبيلِ الالتِفاتِ، والمقصودُ لازِمُ الخبَرِ؛ وهو إعلامُ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ببُطلانِ تَحيُّلاتِهم، وأنَّهم لا يَجِدون نَصيرًا غيرَ اللهِ، وقد حرَمَهم اللهُ النَّصرَ؛ لأنَّهم لم يَعقِدوا ضَمائرَهم على نَصرِ دِينِه ورسولِه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٩٣).

الآيات (١٨-٢٠)

﴿ ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ١٩ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ٢٠ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمُعَوِّقِينَ﴾: أي: المُثَبِّطينَ الصَّارِفينَ عن طَريقِ الخَيرِ، يُقالُ: عاقه واعتاقَه وعَوَّقه: إذا صَرَفه عن الوَجهِ الَّذي يُريدُه، والتَّعويقُ: ترغيبُ النَّاسِ عن الخيرِ[(١)].

﴿هَلُمَّ﴾: أي: تَعالَوا إلينا، وهي كَلِمةٌ تدُلُّ على دَعوةٍ إلى شَيءٍ[(٢)].

﴿ٱلۡبَأۡسَ﴾: أي: القِتالَ والحَربَ، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضاهاها[(٣)].

﴿أَشِحَّةً﴾: أي: بُخلاءَ ليس فيهم خَيرٌ، والشُّحُّ: بُخلٌ مع حِرصٍ، وأصلُ (شحح): يدُلُّ على مَنعٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠، ١٥٤))، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٨)، =

﴿سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾: أي: آذَوكم بالكَلامِ بألسِنةٍ سَليطةٍ، والسَّلقُ: قُوَّةُ الصَّوتِ والصِّياحِ، وبَسطُ اللِّسانِ[١].

﴿ٱلۡأَحۡزَابُ﴾: أي: الجماعاتِ، وهم كفَّارُ قريشٍ، ومَن معهم، جمعُ حِزبٍ، والحزبُ: الجماعةُ مِن النَّاسِ، أو: جماعةٌ فيها غِلَظٌ، أو: كلُّ طائفةٍ هواهم واحدٌ، يُقالُ: تحزَّب القومُ: إذا تجمَّعوا فصاروا أحزابًا، والطَّائفةُ مِن كُلِّ شَيءٍ حِزْبٌ، وأصلُ (حزب): تَجَمُّعُ الشَّيءِ[٢].

﴿بَادُونَ﴾: أي: مُقيمونَ في الباديةِ، يقالُ: بَدا يَبْدو بَداوةً: إذا خرَجَ إلى الباديةِ، والبَدْوُ: ضِدُّ الحَضَرِ؛ سُمِّيَ بَدْوًا لأنَّ سُكَّانَه بادُونَ، أي: ظاهِرونَ لكُلِّ واردٍ؛ إذ لا تَحجُبُهم جُدرانٌ، ولا تُغلَقُ عليهم أبوابٌ، وأصلُ (بدو): يدُلُّ على الظُّهورِ والبُروزِ[٣].

﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾: جَمعُ أعرابيٍّ، وهم أهلُ البَدْوِ، وأصلُ (عرب): يدُلُّ على إبانةٍ وإفصاحٍ[٤].

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٠).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مهدِّدًا هؤلاءِ المنافقينَ، ومبيِّنًا أنَّ عِلمَه محيطٌ بهم، وأنَّهم لن يُفلِتوا مِن عِقابِه: قد يَعلَمُ اللهُ المثبِّطينَ الَّذين يَصُدُّونَ النَّاسَ عن الخُروجِ للجِهادِ، والقائِلينَ لإخوانِهم: أقبِلوا إلينا ودَعُوا الجِهادَ، ولا يَشهَدونَ الحَربَ إلَّا زَمَنًا قليلًا رياءً وسُمْعةً.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى بعضَ صفاتِ المنافقينَ، فيقولُ: أشِحَّةً على المؤمِنينَ، بُخلاءَ بكُلِّ خَيرٍ يَصِلُ إليهم، فإذا جاء القِتالُ رأيتَ المنافِقينَ مِن شِدَّةِ خَوفِهم يَنظُرونَ إليك -يا مُحمَّدُ- تدورُ أعينُهم كدَوَرانِ عَينِ مَن يُغشَى عليه عندَ مَوتِه، فإذا ذهَبَ الخَوفُ وأمِنَ المنافِقونَ، تكَلَّموا بكلامٍ شَديدٍ قَوِيٍّ، بُخلاءَ بكلِّ ما فيه للمؤمنينَ مَنفعةٌ. أولئك المنافِقونَ لم يُؤمِنوا فأبطَلَ اللهُ أعمالَهم، وكان إحباطُ اللهِ أعمالَهم سَهلًا عليه سُبحانَه.

يظُنُّ أولئك المنافِقونَ -لشِدَّةِ خَوفِهم- أنَّ الكُفَّارَ المتحَزِّبينَ عليكم ما زالوا حوْلَ المدينةِ ولم يذهَبوا، وإن يرجِعِ الكُفَّارُ مَرَّةً أخرى لقِتالِكم يَوَدَّ أولئك المنافِقونَ -مِن شِدَّةِ خَوفِهم- لو كانوا في الباديةِ يَسألونَ النَّاسَ عن أخبارِكم -أيُّها المسلِمونَ-، ولو كان المنافِقونَ معكم ما قاتَلوا إلَّا قِتالًا قليلًا؛ رياءً وسُمْعةً.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ سُبحانَه بما عَلِمَ ممَّا أوقَعَه المنافِقونَ مِن أسرارِهم، وأمَرَ النَّبيَّ

صلَّى الله عليه وسلَّم بوَعظِهم؛ حذَّرَهم بدوامِ عِلمِه لِمَن يَخونُ منهم، فقال محقِّقًا مُقَرِّبًا مِن الماضي، ومُؤْذِنًا بدَوامِ هذا الوَصفِ له[١]:

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾.

أي: قد يَعلَمُ اللهُ المثبِّطينَ منكم[٢] الَّذين يَصُدُّونَ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعن الخُروجِ معه للجِهادِ في سَبيلِ اللهِ[٣].

﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾.

أي: ويَعلَمُ القائِلينَ[٤] لإخوانِهم[٥]: أقبِلوا إلينا، وتَعالَوا إلى ما نحنُ فيه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٣).

(٢) قال ابنُ عثيمين: (الخِطابُ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ والصَّحابةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٣، ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

قال مقاتل: (يعني: عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ وأصحابَه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٨١).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (الخِطابُ لِمَن كان في الظَّاهِرِ مُسلِمًا مُؤمِنًا وليس مُؤمِنًا... فهو منكم في الظَّاهِرِ لا الباطِنِ؛ ولهذا لَمَّا استُؤذِنَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في قَتلِ بَعضِ المنافِقينَ قال: «لا يتحَدَّثُ النَّاسُ أنَّ مُحمَّدًا يقتُلُ أصحابَه»؛ فإنَّهم من أصحابِه في الظَّاهِرِ عندَ مَن لا يعرِفُ حقائِقَ الأمورِ، وأصحابُه الَّذين هم أصحابُه ليس فيهم نِفاقٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٤١٩).

(٤) قال ابن عاشور: (يجوزُ أن يكونَ القائلونَ لإخوانِهم: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ هم المعوِّقينَ أنفُسَهم، فيكونَ مِن عَطفِ صِفاتِ الموصوفِ الواحدِ... ويجوزُ أن يكونوا طائفةً أخرى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٤).

وممَّن قال بأنَّهم طائفتانِ: القرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٦).

(٥) قيل: المرادُ بهم: أصحابُهم وعُشَراؤُهم، وخُلَطاؤُهم وأولياؤُهم. وممَّن قال بهذا: السمرقندي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠). =

مِنَ الرَّاحةِ والنَّعيمِ، ودَعُوا محمَّدًا، واترُكوا الجِهادَ معه؛ فإنَّا نخافُ عليكم الهَلاكَ(١).

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: ولا يَشهَدونَ الحَربَ أو مَكانَها إلَّا زَمنًا قليلًا؛ رياءً وسُمعةً(٢).

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟

= وقيل: المراد: لإخوانِهم مِن ساكِني المدينةِ مِن أنصارِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ. وممَّن اختار ذلك في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والزمخشري، والبيضاوي، والرسعني، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٢١)، (تفسير القاسمي)) (٨/ ٥٧).

قال ابن عثيمين: (سُمُّوا إخوانَهم في النَّسَبِ، وليسوا إخوانَهم في الدِّينِ، اللَّهمَّ إلَّا أن يُرادَ الأُخُوَّةُ الظَّاهرةُ؛ فإنَّ هؤلاء يَتظاهَرون بأنَّهم مؤمنون). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٤٣، ١٤٤).

قال ابن تيميَّةَ: (قال العُلَماءُ: كان مِنَ المنافِقينَ مَن يرجِعُ مِنَ الخندقِ فيَدخُلُ المدينةَ، فإذا جاءهم أحدٌ قالوا له: ويْحَكَ، اجلِسْ فلا تخرُجْ! ويَكتُبون بذلك إلى إخوانِهم الَّذين بالعَسكرِ: أن ائتُونا بالمدينةِ فإنَّا ننتظِرُكم؛ يُثَبِّطونَهم عن القتالِ. وكانوا لا يأتون العَسكرَ إلَّا ألَّا يجِدوا بُدًّا، فيأتون العَسكَرَ لِيَرى النَّاسُ وُجوهَهم، فإذا غُفِل عنهم عادوا إلى المدينةِ... فوصَفَ المثَبِّطينَ عن الجهادِ -وهم صنفانِ- بأنَّهم إمَّا أن يكونوا في بلدِ الغُزاةِ أو في غيرِه؛ فإن كانوا فيه عَوَّقوهم عن الجِهادِ بالقَولِ أو بالعَمَلِ أو بهما، وإن كانوا في غيرِه راسَلوهم أو كاتَبوهم بأن يخرُجوا إليهم مِن بلدِ الغُزاةِ؛ لِيَكونوا معهم بالحُصونِ أو بالبُعدِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤٥٥، ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٥).

﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها انتِقالٌ مِنَ القَولِ الَّذي أُمِرَ الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأن يَقولَه لهم، إلى كَشفِ أحوالِهم للرَّسولِ والمُسلِمينَ(١).

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾.

أي: أشِحَّةً على المؤمِنينَ بكُلِّ ما فيه مَنفَعةٌ لهم، حريصينَ على مَنعِ كُلِّ خَيرٍ مِنَ الوُصولِ إليهم(٢).

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾.

أي: فإذا جاء القِتالُ فحضَرَ الخَوفُ، رأيتَ المنافِقينَ -يا محمَّدُ- يَنظُرونَ إليك وأعينُهم تَدورُ سَريعًا مُحَملِقةً في الجِهاتِ المحيطةِ؛ مِن شِدَّةِ جُبنِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢، ٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٩٠، ٥٩١) و (٢٨/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٤٧).

قال ابنُ جرير: (اختَلف أهلُ التَّأويلِ في المعنى الَّذي وَصَف اللهُ به هؤلاء المنافقينَ في هذا الموضِعِ مِن الشُّحِّ؛ فقال بعضُهم: وصَفَهم بالشُّحِّ عليهم في الغنيمةِ... وقال آخَرون: بل وصَفهم بالشُّحِّ عليهم بالخَيرِ. وقال غيرُه: معناه: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بالنَّفقةِ على ضُعَفاءِ المؤمنينَ منكم. والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ وصَفَ هؤلاء المنافِقينَ بالجُبنِ والشُّحِّ، ولم يَخْصُصْ وَصْفَهم مِن معاني الشُّحِّ بمعنًى دونَ معنًى؛ فهم -كما وصَفهم اللهُ به- أشِحَّة على المؤمِنينَ بالغنيمةِ والخَيرِ والنَّفَقةِ في سَبيلِ الله، على أهلِ مَسكَنةِ المُسلِمينَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١).

وقال ابن جُزي: (معناه: يَشِحُّون بأنفُسهم فلا يُقاتِلون. وقيل: يَشِحُّون بأموالِهم. وقيل: معناه: أشِحَّةً عليكم وقْتَ الحربِ، أي: يُشفِقون أن يُقتَلوا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٨).

وخَوفِهم مِنَ القَتلِ، كدَوَرانِ عَينِ مَن يُغمَى عليه بسَبَبِ النَّزعِ عندَ مَوتِه[١]!

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

أي: فإذا انقطَعَت الحَربُ فذهَبَ الخَوفُ، واطمأنَّ المنافِقونَ وأمِنوا؛ تكَلَّموا بكلامٍ شَديدٍ قَوِيٍّ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٤، ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣ - ٥٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

قال الماوَرْدي: (﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ فيه وجهانِ:

أحدُهما: أي: رفَعوا أصواتَهم عليكم بألْسِنةٍ حِدادٍ، أي: شديدةٍ ذَرِبةٍ.

الثَّاني: معناه: آذَوْكم بالكلامِ الشَّديدِ. والسَّلْقُ: الأذَى، قاله ابنُ قُتَيْبَةَ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٨٥). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٩).

وقال ابن تيميَّةَ: (وهذا السَّلْقُ بالألسنةِ الحادَّةِ يكونُ بوُجوهٍ: تارَةً يقولُ المنافقونَ للمؤمنينَ: هذا الَّذي جَرَى علينا بشُؤْمِكم؛ فإنَّكم أنتم الَّذينَ دعوتُم النَّاسَ إلى هذا الدِّينِ وقاتَلْتُم عليه وخالَفْتُموهم؛ فإنَّ هذه مقالَةُ المنافقينَ للمؤمنينَ مِن الصَّحابةِ. وتارَةً يقولونَ: أنتم الَّذين أشَرْتُم علينا بالمقامِ هنا والثَّباتِ بهذا الثَّغْرِ إلى هذا الوقتِ، وإلَّا فلو كُنَّا سافَرْنا قبْلَ هذا لَمَا أصابَنا هذا. وتارَةً يَقولونَ: أنتم مع قِلَّتِكم وضَعْفِكم تُريدونَ أنْ تكسِروا العدُوَّ وقد غَرَّكم دينُكم، كما قال تعالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩]. وتارَةً يقولونَ: أنتم مجانينُ لا عقلَ لكم، تُريدونَ أنْ تُهْلِكوا أنفسَكم والنَّاسَ معَكم. وتارَةً يَقولونَ أنواعًا مِن الكلامِ المُؤذي الشَّديدِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤٥٧، ٤٥٨).

وقال ابن كثير: (﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: فإذا كان الأمنُ، تَكَلَّموا كلامًا بليغًا فصيحًا عاليًا، وادَّعَوا لأنفُسِهم المقاماتِ العاليةَ في الشَّجاعةِ والنَّجْدةِ، وهم يَكذِبونَ في ذلكَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠). =

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾.

أي: بُخلاءَ بكلِّ ما فيه للمؤمنينَ مَنفعةٌ، فليس فيهم خيرٌ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ

= وقال ابنُ جرير: (وقد اختلَف أهلُ التَّأويلِ في المعنى الَّذي وصَفَ -تعالى ذِكْرُه- هؤلاء المنافقين أنَّهم يَسْلُقون المؤمنينَ به؛ فقال بعضُهم: ذلك سَلْقُهم إيَّاهم عندَ الغنيمةِ بمسألتِهم القَسْمَ لهم... وقال آخَرون: بل ذلك سَلْقُهم إيَّاهم بالأذى... وقال آخَرون: بل معنى ذلك: أنَّهم يَسْلُقونَهم مِن القَولِ بما تُحِبُّونَ؛ نِفاقًا منهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤، ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

قال الماوَرْدي: (﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: على قِسمةِ الغَنيمةِ. قاله يحيى بنُ سلام. الثَّاني: على المالِ يُنفِقونَه في سبيلِ اللهِ. قاله السُّدِّيُّ. الثَّالثُ: على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بظَفَرِه). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٨٦). ويُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٠٨).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ، وأنَّ المرادَ: أنَّهم حريصونَ على الأموالِ والغنائمِ الَّتي ظَفِرَ بها المؤمِنونَ، فيُطالِبونَهم بنَصيبٍ منها: ابنُ جرير، والرَّسْعَني، وابنُ تيميَّةَ، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٨١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّهم شَحيحون بالمالِ الَّذي عندَهم: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣١٥).

وقيل: المرادُ أنَّهم أشِحَّةٌ على فِعلِ الخَيرِ. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥٧).

وممَّن اختار العمومَ: ابنُ عطية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

قال ابنُ عطية: (وهذا الشُّحُّ قيل: هو بأنفُسِهم يَشُحُّونَ على المؤمِنينَ بها، وقيل: هو بإخوانِهم، وقيل: بأموالِهم في النَّفَقاتِ في سَبيلِ الله، وقيل: بالغنيمةِ عندَ القَسمِ. والصَّوابُ: تعميمُ الشُّحِّ أن يكونَ بكُلِّ ما فيه للمؤمنينَ مَنفعةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٥).

يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا وصَفَهم سُبحانَه بهذه الدَّنايا؛ أخبَرَ بأنَّ أساسَها وأصْلَها الَّذي نشأتْ عنه عَدَمُ الوُثوقِ باللهِ؛ لعَدَمِ الإيمانِ، فقال[1]:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

أي: أولئك المنافِقونَ البُغَضاءُ البُعَداءُ لم يُؤمِنوا بقُلوبِهم وإن أقرَّت ألسِنَتُهم، ولم يُخلِصوا في أعمالِهم؛ فأبطَلَها اللهُ سُبحانَه، فلا يُثيبُهم عليها في الآخِرةِ[2].

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

أي: وكان إحباطُ اللهِ لأعمالِ المُنافِقينَ سَهلًا عليه، ولا يَعبَأُ بهم[3].

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ حالَ المنافِقينَ والَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ؛ مِن فِتنتِهم في المُسلِمينَ، وأذاهم حينَ مَجيءِ جُنودِ الأحزابِ، وحينَ زاغَت الأبصارُ وبلَغَتِ القُلوبُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٥١).

الحناجِرَ- ثَنى عِنانَ الكلامِ الآنَ إلى حالِهم حينَ أنعَمَ اللهُ على المُسلِمينَ بانكِشافِ جُنودِ الأحزابِ عنهم[١].

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾.

أي: يَظُنُّ المنافِقونَ -بسَبَبِ جُبنِهم وشِدَّةِ خَوفِهم- أنَّ الكُفَّارَ المتحَزِّبينَ ما زالوا حوْلَ المدينةِ لم يَنصَرِفوا عنها[٢].

﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ﴾.

أي: وإنْ يَرجِعِ الكُفَّارُ مَرَّةً أخرى للقِتالِ أو حِصارِ المدينةِ يَتمَنَّ المنافِقونَ -مِن شِدَّةِ جُبنِهم وخَوفِهم- أنَّهم غائِبونَ في الباديةِ مع البَدْوِ[٣] يَسألونَ النَّاسَ عن أخبارِكم أيُّها المُسلِمونَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٥٦، ١٥٩).

قال ابنُ تيميَّة: (هذه حالُ الجبانِ الَّذي في قَلبِه مَرَضٌ؛ فإنَّ قَلبَه يُبادِرُ إلى تصديقِ الخبرِ المَخُوفِ، وتكذيبِ خَبَرِ الأمنِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤٥٩).

(٣) قال البِقاعي: (الَّذين هم عِندَهم في محَلِّ النَّقصِ، وممَّن تُكرَهُ مُخالَطتُه، ولو كان تمنِّيهم في ذلك الحينِ مُحالًا). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

قال البقاعي: (﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كُلَّ وَقتٍ ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ العَظيمةِ معهم؛ جريًا على ما هم عليه مِنَ النِّفاقِ؛ لِيُبقوا لهم عندَكم وَجهًا، كأنَّهم مُهتَمُّونَ بكم، يُظهِرونَ بذلك تحرُّقًا على غَيبتِهم عن هذه الحَربِ، أو لِيُخفُوا غَيبتَهم ويُظهِروا أنَّهم كانوا بيْنكم في الحَربِ، بأمارةِ أنَّه وقَعَ لكم في وقتِ كذا أو مكانِ كذا- كذا، ويُكابِروا على ذلك مِن غيرِ استحياءٍ؛ لأنَّ النِّفاقَ صار لهم خُلُقًا لا يَقدِرونَ على الانفِكاكِ عنه، ويُرشِدُ إلى هذا المعنى قراءةُ يعقوبَ [مِن روايةِ رُوَيْسٍ] ﴿يَسَّـَٔلُونَ﴾ بالتَّشديدِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٢٢). =

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: ولو كان المنافِقونَ حاضِرينَ معكم حينَ يأتي الكُفَّارُ مَرَّةً أُخرى، فلن يُقاتِلوهم إلَّا قِتالًا قَليلًا؛ رياءً وسُمْعةً، بلا احتِسابٍ منهم للأجرِ[(١)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ...﴾ فيه التَّحذيرُ مِن هذه الصِّفاتِ الَّتي يتَّصِفُ بها المنافِقُ حتَّى وإنْ كان الإنسانُ مُؤمِنًا؛ لِقَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾؛ لأنَّها صِفاتُ غيرِ المؤمِنينَ، والمؤمِنُ مَنهيٌّ عن الاتِّصافِ بصِفاتِ غيرِ المؤمِنينَ[(٢)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ هذا شَرُّ ما في الإنسانِ: أن يكونَ شَحيحًا بما أُمِرَ به، شَحيحًا بمالِه أن يُنفِقَه في وَجهِه، شَحيحًا في بَدَنِه أن يُجاهِدَ أعداءَ اللهِ أو يدعُوَ إلى سَبيلِ اللهِ، شَحيحًا بجاهِه، شَحيحًا بعِلمِه ونَصيحتِه ورَأيِه[(٣)].

= وقيل: السُّؤالُ عن الأنباءِ لقَصدِ التَّجَسُّسِ على المُسلِمينَ للمُشرِكينَ، ولِيَسُرَّهم ما عسى أن يَلحَقَ المُسلِمينَ مِن الهزيمةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠١).

وقال الشوكاني: (والمعنَى: أنَّهم يَتَمَنَّوْنَ أنَّهم بعيدٌ عنكم، يَسألونَ عن أخبارِكم مِن غيرِ مشاهَدةٍ للقتالِ؛ لفَرْطِ جُبْنِهم، وضَعفِ نِيَّاتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّ الاسمَ الواحدَ يُنْفَى ويُثْبَتُ بحسَبِ الأحكامِ المتعلِّقةِ به، فلا يجبُ إذا أُثْبِتَ أو نُفِيَ في حُكم أنْ يكونَ كذلك في سائرِ الأحكام! وهذا في كلامِ العربِ وسائرِ الأمم؛ لأنَّ المعنى مفهومٌ، فالمنافقونَ قد يُجعلونَ مِن المؤمنينَ في مَوضع، وفي موضع آخَرَ يُقالُ: «ما هم منهم»، فقولُه تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله سُبحانَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩] فهنا جَعَل هؤلاء المنافقينَ الخائفينَ مِن العدوِّ، النَّاكِلينَ عن الجهادِ، النَّاهينَ لغيرِهم، الذَّامِّينَ للمؤمنينَ- منهم. وقال في آيةٍ أخرى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦]، فكَذَّبَهم اللهُ، وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾، وهناك قال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾، فالخِطابُ لِمَن كان في الظاهرِ مسلمًا مؤمنًا وليس مؤمنًا؛ بأنَّ «منكم» مَن هو بهذه الصِّفةِ وليس مؤمنًا! بل أحْبَطَ اللهُ عملَه، فهو منكم في الظَّاهرِ لا الباطنِ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ إحاطةُ عِلْمِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بكلِّ شَيءٍ؛ فقَولُ هؤلاء: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ وتعويقُهم: فَردٌ مِن أفرادِ العالَم، ومَسألةٌ جزئيَّةٌ منه، ومع ذلك يَعلَمُه اللهُ سُبحانَه وتعالى، والعالِمُ بالدَّقيقِ عالِمٌ بالجَليلِ مِن بابِ أَولى؛ ففيها إثباتُ إحاطةِ عِلمِ اللهِ تعالى بكلِّ شَيءٍ جملةً وتَفصيلًا، وعِلْمِه بالمستقبلِ؛ لأنَّه قال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾ بصيغةِ المضارعِ[(٢)].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٤٥).

﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ سُنَّةُ اللهِ في أنَّ كُلَّ مَن عامَلَ النَّاسَ بالخِداعِ، كان قليلَ الثَّباتِ عندَ القِراعِ(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ البُخلُ شَبيهُ الجُبنِ، فلمَّا ذكَرَ البُخلَ بيَّن سَبَبَه وهو الجُبنُ، والَّذي يدُلُّ عليه هو أنَّ الجبانَ يَبخَلُ بمالِه، ولا يُنفِقُه في سبيلِ اللهِ؛ لأنَّه لا يتوقَّعُ الظَّفَرَ، فلا يرجو الغنيمةَ، فيقولُ: هذا إنفاقٌ لا بدَلَ له، فيتوقَّفُ فيه، وأمَّا الشُّجاعُ فيتيقَّنُ الظَّفَرَ والاغتِنامَ، فيهونُ عليه إخراجُ المالِ في القتالِ؛ طمعًا فيما هو أضعافُ ذلك، وأمَّا بالنَّفسِ والبَدنِ فكذلك(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ شِدَّةُ محبَّةِ المنافِقينَ للحَياةِ؛ لأنَّهم إنَّما بلَغوا هذا المَبلَغَ مِن الخَوفِ حِرصًا على الحياةِ، وخَوفًا مِن الموتِ بالقِتالِ(٣).

٦- أنَّ للموتِ سكَراتٍ، لقولِه تعالى: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ -وهذا بالنِّسبةِ للموتِ العاديِّ-؛ أمَّا الموتُ المُباغِتُ فقد لا يكونُ فيه سكَراتٌ، فقد يموتُ الإنسانُ بَغْتةً كالَّذي يَحْدُثُ بالحوادثِ وسكتاتِ القلوبِ وما أشْبَهَها(٤).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فيه سؤالٌ: هل يَثبُتُ للمُنافِقِ عَمَلٌ حتَّى يَرِدَ عليه الإحباطُ؟

الجوابُ: لا، ولكِنَّه تعليمٌ لِمَن عسَى يظُنُّ أنَّ الإيمانَ باللِّسانِ إيمانٌ، وإنْ لم

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٢).

يُواطِئْه القَلبُ، وأنَّ ما يَعمَلُ المنافِقُ مِن الأعمالِ يُجدي عليه؛ فبيَّن أنَّ إيمانَه ليس بإيمانٍ، وأنَّ كُلَّ عَمَلٍ يُوجَدُ منه: باطِلٌ[١].

وأيضًا فإنَّ المرادَ بأعمالِهم الأعمالُ الَّتي صُورَتُها صورةُ الطَّاعةِ، وإلَّا فلا عَمَلَ لِكافِرٍ.

أو يكونُ المرادُ بها ما كانوا قد عَمِلوا مِنَ الخَيرِ قبلَ الرِّدَّةِ.

أو يكونُ المرادُ بقوله: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أظْهَر بُطلانَها؛ لأنَّها لم تَكُنْ لهم أعمالٌ تَقْتَضي الثَّوابَ حتَّى يُبْطِلَها الله[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ عِلْمُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بما في القلوبِ؛ لأنَّ الظَّاهرَ لنا أنَّهم مؤمنونَ، لكنَّ الواقعَ أنَّهم غيرُ مؤمنينَ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أنَّ الكُفرَ مُحبِطٌ للعَمَلِ سواءٌ كان ظاهِرًا أم باطِنًا، فالرَّكيزةُ الأصليَّةُ للأعمالِ هي الإيمانُ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٠).

قال الزمخشريُّ بعدَه: (وفيه بعثٌ على إتقانِ المكلَّفِ أساسَ أمرِه؛ وهو الإيمانُ الصحيحُ). قال الطِّيبي معلِّقًا عليه: (يريدُ أنّ إحباطَ العملِ إنما يُتصَوَّرُ إذا وُجِدَ هناك عَملٌ، والمنافِقُ لا عَمَلَ له حتَّى يُحْبَطَ، لكنَّ وُرودَ هذا الأسلوبِ على التَّعريضِ بمَنْ له عَملٌ، والحثِّ له على الاحتياطِ والإتقانِ فيه؛ لئلَّا يَؤُولَ إلى الإحباطِ). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١١) و (٥/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٣، ١٥٤).

[الأحزاب: ١٧]؛ لأنَّ ذلك يُثِيرُ سُؤالًا يَهجِسُ في نُفوسِهم أنَّهم يُخْفُون مَقاصدَهم عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلا يَشعُرُ بمُرادِهم مِن الاستئذانِ؛ فأُمِرَ أنْ يقولَ لهم: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ﴾، وقد جُعِلَ هذا الاستِئنافُ تَخلُّصًا لذِكرِ فَريقٍ آخَرَ مِن المعوِّقينَ(١).

- قولُه: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ﴾ (قدْ) مُفيدٌ للتَّحقيقِ؛ لأنَّهم لِنَفاقِهم ومرَضِ قُلوبِهم يَشُكُّون في لازمِ هذا الخبرِ، وهو إنباءُ اللهِ رسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بهم، أو لأنَّهم لِجَهلِهم النَّاشئِ عن الكُفرِ يَظُنُّون أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ خَفايَا القُلوبِ(٢).

وقيل: لعلَّه عبَّر هنا بـ (قد) الَّتي رُبَّما أفْهَمَتْ في هذه العِبارةِ التَّقليلَ؛ إشارةً إلى أنَّه يَكفي مَن له أدْنى عقْلٍ -في الخَوفِ مِن سَطوةِ المُتهَدِّدِ- احتِمالُ عِلْمِه(٣).

- قَولُه: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَا﴾ تهديدٌ وتَحذيرٌ مِن التَّعويقِ عن القِتالِ؛ وجْهُه قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ﴾، وهذا مِن أجْلِ تهديدِهم؛ حتَّى لا يَفعَلوا ذلك(٤).

- والتَّضعيفُ في ﴿ٱلۡمُعَوِّقِينَ﴾؛ للشِّدَّةِ والتَّكثيرِ(٥).

٢- قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٣). والقاعدةُ: أن (قد) إذا دخَلت على الفعلِ المضارعِ المسنَدِ إلى الله تعالى، فهي للتَّحقيقِ دائمًا. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٤).

- الخِطابُ في ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو يَقْتضي أنَّ هذا حِكايةُ حالةٍ وَقَعَتْ لا فرْضُ وُقوعِها؛ ولهذا أُتِيَ بفِعلِ ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾، ولم يَقُلْ: فإذا جاء الخَوفُ يَنظُرون إليك[١].

- قولُه: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ جِيءَ بصِيغةِ المُضارعِ؛ لِيَدُلَّ على تَكرُّرِ هذا النَّظرِ وتَجدُّدِه. وخُصَّ نَظَرُهم بأنَّه للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولم يَقُلْ: (يَنظُرون إليكم)؛ لأنَّ نظَرَهم إليه نظَرُ المُتفرِّسِ في ماذا يَصنَعُ، ولِسانُ حالِهم يقولُ: ألَسْنا قد قُلْنا لكم: إنَّكم لا قِبَلَ لكمْ بقِتالِ الأحزابِ، فارْجِعوا، وهمْ يُرُونَه أنَّهم كانوا على حقٍّ حِينَ يُحذِّرونه قِتالَ الأحزابِ[٢].

- قولُه: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ جُملةُ ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ لِتَصويرِ هَيئةِ نَظرِهم نظَرَ الخائفِ المَذعورِ الَّذي يُحدِقُ بعَيْنَيهِ إلى جِهاتٍ يَحذَرُ أنْ تأْتِيَه المصائبُ مِن إحداها[٣]. وشَبَّه نظَرَهم بنَظرِ الَّذي يُغْشى عليه بسَببِ النَّزعِ عندَ المَوتِ؛ فإنَّ عَيْنَيه تَضْطَربانِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ المُبالَغةُ في وَصْفِ المنافقينَ بالخَوفِ والجُبنِ؛ حيثُ أخبَرَ عنهم أنَّهم تَدورُ أعينُهم حالةَ المُلاحظةِ كحالةِ مَن يُغْشى عليه مِن الموتِ، ولو اقتصَرَ على قولِه: ﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ﴾ لَكان كافيًا بالمقصودِ، ولكنَّه زاد شيئًا بقولِه: ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾؛ إذ إنَّ حالةَ المَغْشيِّ عليه مِن الموتِ أشَدُّ وأنْكى مِن حالةِ المَغْشيِّ عليه مِن غيرِ الموتِ، ولو جاء سُبحانه في مَوضعِ الموتِ بالخَوفِ، لَكان الكلامُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٦، ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٩٧).

بليغًا لا مَحالةَ، غيرَ أنَّ ما جاء في التَّنزيلِ أبلَغُ، وهو مع ذلك خارجٌ مَخرَجَ الحقِّ، مُتنزِّلٌ مَنزلةَ الصِّدقِ؛ فإنَّ مَن كان قويَّ النَّفْسِ شُجاعَ القلْبِ لا يَرْضى بالنِّفاقِ، بل يُظهِرُ ما يُبطِنُه الخائفُ؛ لأنَّه لا يُبالي بالموتِ[١].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لِقَصْدِ تَمييزِهم بتلك الصِّفاتِ الذَّميمةِ الَّتي أُجرِيَتْ عليهم مِن قبْلُ، وللتَّنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بما سيَرِدُ مِن الحُكْم بعدَ اسمِ الإشارةِ، وقد أُجرِيَ عليهم حُكمُ انتفاءِ الإيمانِ عنهم بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾؛ كشْفًا لِدَخائلِهم؛ لأنَّهم كانوا يُوهِمون المسلِمينَ أنَّهم منهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾[٢] [البقرة: ١٤].

- قولُه: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في لازمِه؛ وهو تَحقيرُهم، وأنَّ اللهَ لمَّا أخرَجَهم مِن حَظيرةِ الإسلامِ فأحبَطَ أعمالَهم، لم يَعبَأْ بهم، ولا عَدَّ ذلك ثُلْمةً في جَماعةِ المسلمينَ[٣].

- و﴿يَسِيرٗا﴾ أي: هَيِّنًا، وتَخصيصُ يُسْرِه بالذِّكْرِ -مع أنَّ كلَّ شَيءٍ عليه تعالى يَسيرٌ-؛ لِبَيانِ أنَّ أعمالَهم حَقيقةٌ بالإحباطِ، تَدْعو إليه الدَّواعي، ولا يَصرِفُ عنه صارفٌ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٦).

- قولُه: ﴿وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ ...﴾ الوُدُّ هنا مُستعمَلٌ كِنايةً عن السَّعيِ لحُصولِ الشَّيءِ المَودودِ؛ لأنَّ الشَّيءَ المحبوبَ لا يَمنَعُ مِن تَحصيلِه إلَّا مانعٌ قاهرٌ؛ فهو لازمٌ للوُدِّ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠١).

الآيات (٢١-٢٤)

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿أُسْوَةٌ﴾: أي: ائتمامٌ، واتِّباعٌ، وقُدوةٌ، وأصلُ (أسو): يدُلُّ على المُداواةِ والإصلاحِ[1].

﴿قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾: أي: قُتِل في سبيلِ الله، وفَرَغ مِن العملِ الَّذي كان نَذَره لله، وأوْجَبه له على نفْسِه، فاسْتُشْهِد، والنَّحْبُ: النَّذْرُ المحكومُ بوُجوبِه، ويُعبَّرُ بذلك عمَّن مات، كقَولِهم: قضى أجَلَه، كأنَّه ألزَمَ نَفْسَه أن تموتَ فوفَى به، وأصلُ (نحب): يدُلُّ على نَذرٍ وما أشبَهَه[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُرشِدًا إلى التَّأسِّي بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: لقد كان لكم -أيُّها المؤمنونَ- قُدوةٌ حَسَنةٌ في رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم في جِهادِه وبَذْلِه نَفْسَه لله وصبرِه؛ لِمَن كان منكم يَرجو اللهَ ولِقاءَه، وذَكَر اللهَ ذِكرًا كثيرًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٤)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٨١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢١٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٣).

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى صورةً مشرقةً مضيئةً للمؤمنينَ الصَّادقينَ، فيقولُ: ولَمَّا رأى المؤمِنونَ الأحزابَ قالوا: هذا ما وعَدَنا اللهُ ورَسولُه مِن الابتلاءِ وما يَعقُبُه مِن النَّصرِ والجزاءِ، وصَدَق اللهُ ورَسولُه. وما زادهم ما رأَوْا مِن اجتِماعِ الأحزابِ عليهم، وما أصابَهم مِنَ البلاءِ إلَّا إيمانًا وتَسليمًا لقضاءِ اللهِ تعالى.

مِنَ المؤمِنينَ رِجالٌ صَدَقوا في عَهدِهم مع اللهِ، فبَذَلوا نفوسَهم في مَرْضاتِه؛ فمِنهم مَن ثَبَت مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقاتَلَ حتَّى قُتِلَ، أو عاش على الاستِقامةِ والطَّاعةِ، ومنهم مَن يَنتظِرُ قَضاءَ عَهدِه وإتمامَه، وما بَدَّلوا عَهْدَهم.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ سبحانَه الحكمةَ مِن هذا الابتلاءِ والاختبارِ، فيقولُ: إنَّ اللهَ يَبتلي عبادَه بالشَّدائِدِ؛ لِيَجزيَ المؤمِنينَ الصَّادِقينَ بسَبَبِ صِدقِهم، ويُعَذِّبَ المنافِقينَ إن شاء، أو يُوَفِّقَهم للتَّوبةِ، إنَّ الله كان غَفورًا رحيمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.

أي: لقد كان لكم -أيُّها المؤمنونَ[1]- قُدوةٌ حَسَنةٌ في رَسولِ اللهِ وجِهادِه،

---

(١) قيل: هذا عِتابٌ. وقيل: أمرٌ بالائتساءِ. وقيل: مدْحٌ للمؤمنينَ. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩١٤). ممَّن اختار أنَّ هذا عِتابٌ مِن الله للمتخلِّفينَ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وعسكرِه بالمدينةِ، مِنَ المؤمنينَ به: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١١).
قال الشوكاني: (وهذه الآيةُ وإنْ كان سَبَبُها خاصًّا فهي عامَّةٌ في كلِّ شيءٍ، ومِثلُها: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، وقَوْلُه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١١). =

وبَذْلِه نَفْسَه لنُصرةِ دينِ اللهِ، وصَبرِه ومُصابَرتِه ومُرابطتِه في غَزوةِ الخَندقِ؛ فتأَسَّوا به في ذلك وغيرِه[1].

= وممَّن اختار في الجملةِ أنَّه أمرٌ بالاقتِداءِ به صلَّى الله عليه وسلَّم في اليقينِ والصَّبرِ ونُصرةِ الدِّينِ وسائرِ الفضائلِ: السمعانيُّ، والبغوي، وابنُ عطية، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٩).

وممَّن اختار أنَّه مدْحٌ للمؤمنينَ: ابنُ عاشور، فقال: (أقبَلَ الكلامُ على خِطابِ المؤمنينَ في عُمومِ جماعتِهم؛ ثَناءً على ثباتِهم وتأسِّيهم بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم على تفاوُتِ دَرَجاتِهم في ذلك الائْتِساءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٢).

وقال أبو حيان: (الظَّاهِرُ أنَّ الخِطابَ في قَولِه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ للمؤمنينَ؛ لِقَولِه قبْلُ: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾، وقَولِه بعدُ: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾، والمعنى: أنَّه -صلَّى الله عليه وسلَّم- لكم فيه الاقتِداءُ؛ فكما نصَرَكم ووازَرَكم حتَّى قاتَلَ بنَفْسِه عَدُوَّكم؛ فكُسِرَت رَباعِيَتُه الكريمةُ، وشُجَّ وَجْهُه الكريمُ، وقُتِلَ عَمُّه، وأُوذِيَ ضُروبًا مِن الإيذاءِ- يجبُ عليكم أن تَنصُروه وتوازِروه، ولا تَرغَبوا بأنفُسِكم عن نفْسِه، ولا عن مكانٍ هو فيه؛ وتَبْذُلوا أنفُسَكم دُونَه؛ فما حصل لكم مِن الهدايةِ للإسلام أعظَمُ مِن كلِّ ما تَفعَلونَه معه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن النُّصرةِ والجِهادِ في سَبيلِ الله. وَيبعُدُ قَولُ مَن قال: إنَّه خِطابٌ للمُنافِقينَ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

قال ابن عثيمين: (وقوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فيها معنيان:

المعنى الأوَّلُ: أنَّ التَّأسِّيَ بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم كلُّه حسَنٌ؛ لأنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم معصومٌ مِن الخطأِ في التَّشريعِ، فكلُّ التَّأسِّي به فهو حسَنٌ، بخِلافِ التَّأسِّي بغيرِه؛ فقد يكونُ حسَنًا، وقد يكونُ غيرَ حسَنٍ.

المعنى الثَّاني: أسوةٌ حسَنةٌ باعتِبارِ تأسِّينَا به، لا باعتبارِ ما هو عليه، والأسوةُ الحسَنةُ باعتبارِ تأسِّينا به هو أن نَكونَ موافِقينَ له في القولِ والفعلِ والقَصدِ -الَّذي هو العقيدةُ-، فنوافِقه في هذه الأمورِ الثَّلاثةِ: في العقيدةِ والقولِ والفعلِ، هذه الأسوةُ الحسَنةُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٦٣).

كما قال تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [التوبة: ٨٨].

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾.

أي: إنَّ رَسولَ اللهِ قُدوةٌ حَسَنةٌ لِمَن كان يرجو اللهَ ولقاءَه، وثوابَه ورحمتَه، ويرجو يومَ القيامةِ والجَزاءَ فيه، وذَكَر اللهَ ذِكرًا كثيرًا[١].

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى حالَ المُنافِقينَ؛ ذكَرَ حالَ المؤمِنينَ[٢]، ولَمَّا ذُكِرَتْ أقوالُ المنافِقينَ والَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ، المُؤْذِنةُ بما يُداخِلُ قُلوبَهم مِنَ الخَوفِ، وقِلَّةِ الإيمانِ، والشَّكِّ فيما وعَدَ اللهُ به رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمنينَ مِن النَّصرِ، ابتداءً مِن قَولِه: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ١٢]- قوبِلَت أقوالُ أولئك بأقوالِ المؤمِنينَ حينما نزَلَت بهم الأحزابُ، ورأَوا كَثرتَهم وعدَدَهم، وكانوا على بصيرةٍ مِن تفَوُّقِهم عليهم في القُوَّةِ والعَدَدِ أضعافًا، وعَلِموا أنَّهم قد ابتُلُوا وزُلزِلوا، كُلُّ ذلك لم يُخِرْ عزائِمَهم، ولا أدخَل عليهم شكًّا فيما وعَدَهم اللهُ مِن النَّصرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٤).

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

أي: ولَمَّا رأى المؤمِنونَ جُنودَ الكُفَّارِ الَّذين تحزَّبوا وتألَّبوا عليهم في غَزوةِ الخَندَقِ؛ قالوا: هذا ما وعَدَنا اللهُ ورَسولُه مِنَ الابتِلاءِ وما يَعقُبُه مِن النَّصرِ وحُسنِ الجَزاءِ، وصَدَق اللهُ ورَسولُه في وَعْدِنا بذلك(١).

كما قال سُبحانَه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

أي: ولم يَزِدِ الصَّحابةَ ما رأَوا مِن اجتِماعِ الكُفَّارِ عليهم وما أصابَهم مِنَ البلاءِ في غَزوةِ الخَندَقِ إلَّا إيمانًا باللهِ ورَسولِه، وتَصديقًا بوَعدِه بالنَّصرِ، وانقيادًا لقَضائِه، وطاعةً لأمرِه وأمرِ رَسولِه(٢).

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩١، ٣٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٢٤، ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٧٠، ١٧١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى أنَّ المنافِقينَ عاهَدوا الله لا يُوَلُّون الأدبارَ، ونقَضوا ذلك العهدَ؛ ذكَر وفاءَ المؤمنينَ به[١].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (عَمِّي [أي: أنسُ بنُ النَّضرِ] الَّذي سُمِّيتُ به لم يَشهَدْ مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بَدرًا، فشَقَّ عليه، قال: أوَّلُ مَشهَدٍ شَهِدَه رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم غُيِّبتُ عنه! وإنْ أَراني اللهُ مَشهَدًا فيما بعْدُ مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لَيَراني اللهُ ما أصنَعُ! فهاب أن يقولَ غَيرَها، فشَهِدَ مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يومَ أُحُدٍ، فاستقبَلَ سَعدَ بنَ مُعاذٍ، فقال له أنَسٌ: يا أبا عَمرٍو، أينَ؟ فقال: واهًا لريحِ الجنَّةِ أجِدُه دُونَ أُحُدٍ! فقاتَلَهم حتَّى قُتِلَ، فوُجِدَ في جَسَدِه بِضْعٌ وثمانون مِنْ بينِ ضَربةٍ وطَعنةٍ ورَميةٍ، فقالت أختُه عَمَّتي الرُّبَيِّعُ بنتُ النَّضرِ: فما عرَفْتُ أخي إلَّا ببَنانِه[٢]. ونزَلَت هذه الآيةُ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾، فكانوا يُرَونَ أنَّها نزَلَت فيه وفي أصحابِه)[٣].

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

أي: مِنَ المُؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه رِجالٌ صادِقونَ وَفَوْا بعَهدِهم مع اللهِ، فبَذَلوا نُفوسَهم في مَرْضاتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٢).

(٢) البَنانُ: الأصابِعُ، وقيل: أطرافُها، واحِدتُها: بَنانةٌ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٥٧).

(٣) رواه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٧). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾.

أي: فمِنَ المؤمِنينَ الصَّادِقينَ مَن بَذَلَ جُهدَه حتَّى فرَغَ مِنَ العَمَلِ الَّذي عاهَدَ اللهَ عليه، فقاتَلَ حتَّى قُتِلَ، أو عاشَ على الاستِقامةِ والطَّاعةِ، والجِهادِ والثَّباتِ عندَ لقاءِ العَدُوِّ حتَّى مات(١).

= قيل: المرادُ بالعَهدِ هنا: الصَّبرُ والثَّباتُ عندَ القتالِ مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٨، ١٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٦٠، ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٢، ٣٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٧٩).

قال الزمخشري: (قَولُه: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ يحتَمِلُ مَوتَه شَهيدًا، ويحتَمِلُ وفاءَه بنَذرِه مِنَ الثَّباتِ مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٢).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن جُزَي، والشوكاني، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٧٧).

وقال البقاعي: (﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ﴾ أي: أعطى ﴿نَحْبَهُۥ﴾ أي: نَذْرَه في مُعاهَدتِه أنَّه يَنصُرُ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ويموتُ دونَه، وفرَغَ مِن ذلك وخرَجَ مِن عُهدتِه بأن قُتِلَ شَهيدًا، فلم يَبقَ عليه نَذرٌ؛ كحَمزةَ بنِ عبدِ المطَّلِبِ، ومُصعَبِ بنِ عُمَير، وعبدِ اللهِ بنِ جَحش... وغيرِ هؤلاء ممَّن قُتِلَ قبْلَ هذا في غزوةِ أُحُدٍ وغيرِها. وسعدُ بنُ معاذٍ ممَّن جُرِح في هذه الغزوةِ، وحَكَم في بني قُرَيْظةَ بالقَتلِ والسَّبْيِ... وممَّن لم يُقتَلْ في عهدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: طلحةُ بنُ عُبيد الله =

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾.

أي: ومِنهم مَن ينتَظِرُ قَضاءَ عَهدِه وإتمامَه، كما وَفَى مَن مضَى منهم بعَهدِه لله[١].

﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

أي: ولم يُغيِّرِ المؤمِنونَ الصَّادِقونَ عَهْدَهم ونَذْرَهم كما فعَل المنافِقونَ، ولا استَبدَلوا به غيرَه، بل وفَوْا به وأتَمُّوه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ

= أحدُ العَشَرةِ، ثَبَت في أُحُدٍ، وفعَلَ ما لم يفعَلْه غيرُه؛ لزِمَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فلم يُفارِقْه، وذَبَّ عنه ووقاه بيدِه حتى شَلَّت إصبَعُه، فشَهِدَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه ممَّن قضى نَحْبَه؛ فالمرادُ بالنَّحبِ هنا: العهدُ الَّذي هو كالنَّذرِ المُفضِي إلى الموتِ، وأصلُ النَّحبِ: الاجتِهادُ في العَمَلِ، ومِن هنا استُعمِلَ في النَّذرِ؛ لأنَّه الحامِلُ على ذلك). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٢٧).

وقال ابن عطية: (أثنى اللهُ على رجالٍ مِن المؤمنينَ عاهَدوا اللهَ تعالى على الاستِقامةِ التَّامَّةِ، فوَفَوا وقَضَوا نَحْبَهم، أي: نَذْرَهم وعَهْدَهم... وقد يُسمَّى الموتُ نَحبًا، وبه فسَّر ابنُ عبَّاسٍ هذه الآيةَ. وقال الحَسَنُ: قَضى نَحْبَه: مات على عَهدِه. ويقالُ لِلَّذي جاهدَ في أمرٍ حتَّى مات: قضَى فيه نَحْبَه، ويُقالُ لِمَن مات: قضَى فُلانٌ نَحْبَه، وهذا تجوُّزٌ؛ كأنَّ الموتَ أمرٌ لا بُدَّ للإنسانِ أن يقَعَ به، فسُمِّيَ نَحبًا)، ثم ذكَرَ قَولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن طَلْحةَ: ((هذا ممَّن قضى نَحْبَه)) [الترمذي (٣٢٠٣) وحسن إسناده الألباني ((السلسلة الصحيحة)) (١/ ٢٤٧)] ثم قال ابنُ عطيةَ: (فهذا أدَلُّ دليلٍ على أنَّ النَّحبَ ليس مِن شُروطِه الموتُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٨).

وقال السعدي: (﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي: إرادتَه ومطلوبَه، وما عليه مِن الحقِّ، فقُتِل في سبيلِ الله، أو مات مؤدِّيًا لحقِّه، لم يَنقُصْه شيئًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ۞ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الأحزاب: ١٥].

وعن أبي حازم، قال: سَمِعتُ سَهلَ بنَ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنه يقولُ: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((أنا فرَطُكم[١] على الحَوضِ، فمَن ورَدَه شَرِبَ منه، ومَن شَرِبَ منه لم يَظمَأْ بعْدَه أبدًا، لَيَرِدُ عليَّ أقوامٌ أعرِفُهم ويَعرِفوني، ثمَّ يُحالُ بيْني وبيْنَهم. قال أبو حازم: فسَمِعَني النُّعمانُ بنُ أبي عيَّاشٍ وأنا أُحَدِّثُهم هذا، فقال: هكذا سَمِعْتَ سَهْلًا؟ فقُلتُ: نعمْ. قال: وأنا أشهَدُ على أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ لَسَمِعتُه يَزيدُ فيه قال: إنَّهم مِنِّي، فيُقالُ: إنَّك لا تَدري ما بدَّلوا بَعْدَك، فأقولُ: سُحْقًا سُحْقًا[٢] لِمَن بدَّل بعدي!))[٣].

﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ ﴾.

أي: يَبتلي اللهُ عِبادَه بالخَوفِ والشَّدائِدِ، ويأمُرُ المؤمِنينَ بجِهادِ الكافِرينَ؛ لِيُثيبَ

---

(١) الفَرَطُ والفارِطُ هو الَّذي يَسبِقُ إلى الماءِ لِيُصلِحَ لهم الحِياضَ والدِّلاءَ ونحوَها حتَّى يَرِدُوا فيَشرَبوا. فمعنى: ((فرَطُكم علي الحَوضِ)): سابِقُكم إليه، كالمُهَيِّئِ له. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (٣/ ٢٢٧٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٥٣).

(٢) سُحْقًا سُحْقًا: أي: بُعدًا بُعدًا، والتَّأكيدُ لِلمُبالَغةِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٣٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٨٥).

(٣) رواه البخاري (٧٠٥٠) واللفظ له، ومسلم (٢٢٩٠).

المؤمِنينَ الصَّادِقينَ؛ بسَبَبِ صِدقِهم فيما عاهَدوا اللهَ عليه، وقيامِهم بالوَفاءِ به[١].

كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ولِيُعَذِّبَ اللهُ المنافِقينَ الَّذين نَقَضوا عَهْدَهم ولم يَثْبُتوا على دينِهم إذا لم يَشَأْ هِدايتَهم في الدُّنيا؛ أو يُوَفِّقَهم للتَّوبةِ إن شاء فلا يُعَذِّبَهم[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو المتَّصِفُ أزَلًا وأبَدًا بالمَغفرةِ، فيَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، وهو المتَّصِفُ أزَلًا وأبَدًا بالرَّحمةِ، فيَرحَمُ عِبادَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).
قال ابنُ عاشور: (لامُ التَّعليلِ يَتنازَعُه مِن التَّعلُّقِ كُلٌّ مِن ﴿صَدَقُوا۟﴾ ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾، أي: صَدَق المؤمِنونَ عَهْدَهم وبَدَّلَه المنافِقونَ؛ لِيَجزيَ اللهُ الصَّادِقينَ، ويُعَذِّبَ المنافِقينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٨٢، ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٨٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- وُجوبُ التَّأَسِّي بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾؛ لأنَّ رجاءَ اللهِ تعالى واليومِ الآخِرِ واجبٌ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ فأخبَرَ سُبحانَه وتعالى أنَّ الذين يُبتلَونَ بالعَدُوِّ كما ابتُلِيَ رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فلهم فيه أُسوةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ أصابَهم مِثْلُ ما أصابَه؛ فلْيَتأسَّوا به في التَّوكُّلِ والصَّبرِ، ولا يَظُنُّوا أنَّ هذه نِقَمٌ لصاحِبِها، وإهانةٌ له؛ فإنَّه لو كان كذلك ما ابتُلِيَ بها رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم خيرُ الخلائِقِ، بل بها يَنالُ الدَّرَجاتِ العاليةَ، وبها يُكَفِّرُ اللهُ الخَطايا لِمَن كان يَرجو اللهَ واليومَ الآخِرَ، وذَكَرَ اللهَ كثيرًا؛ وإلَّا فقد يُبتلَى بذلك مَن ليس كذلك، فيَكونُ في حقِّه عَذابًا، كالكُفَّارِ والمنافِقينَ[٢].

٣- أنَّ الواجبَ علينا أنْ يكونَ تأسِّينا بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم تأسِّيًا حَسَنًا لا غُلُوَّ فيه ولا تفريطَ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿حَسَنَةٞ﴾؛ لأنَّ الغُلُوَّ زيادةٌ، والتَّفريطَ نُقصانٌ، ودينُ اللهِ عزَّ وجلَّ بيْنَ الغالي فيه، والمُفَرِّطِ فيه[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ فيه دَلالةٌ على فَضلِ الاقتِداءِ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّه الأُسوةُ الحَسَنةُ لا مَحالةَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٣).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قُرِنَ فيه الرَّجاءُ بذِكرِ اللهِ، والمُؤتَسي برَسولِ اللهِ هو الَّذي يكونُ راجِيًا ذاكِرًا[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ نبَّهَ على أنَّ الَّذي يَحمِلُ على التَّأسِّي به صلَّى الله عليه وسلَّم إنَّما هو الصِّدقُ في الإيمانِ، ولا سِيَّما الإيمانِ بالقيامةِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ بيانُ أنَّ المؤمِنَ كلَّمَا أصابَتْه النَّكَباتُ والمصائِبُ فإنَّه يَلجأُ إلى رَبِّه، ويَزدادُ إيمانًا به ومَعرِفةً[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ أنَّ المؤمِنَ يَزدادُ إيمانًا عندَ رؤيةِ الآياتِ الكَونيَّةِ أو الشَّرعيَّةِ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ دَليلٌ على أنَّ الصِّدقَ أمْرُه عَظيمٌ، وأنَّه مَحَلٌّ للجَزاءِ مِنَ اللهِ سُبحانَه وتعالى، فعلى المسلم أنْ يَصْدُقَ؛ وأنْ يكونَ مِنَ الصَّادقينَ[٥] في العقيدةِ وفي القولِ وفي الفعلِ وفي العملِ؛ فالصَّادقُ أهلٌ للجزاءِ الحَسَنِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٢٩١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٨٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أنَّ الخِطابَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خِطابٌ له وللأُمَّةِ، إلَّا ما قام الدَّليلُ على اختصاصِه به؛ فإنَّه يُؤخَذُ بالدَّليلِ[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ عبَّرَ عنه بوَصفِ الرِّسالةِ؛ لأنَّه حَظُّ الخَلقِ منه؛ لِيَقتَدوا بأفعالِه وأقوالِه، ويَتخَلَّقوا بأخلاقِه وأحوالِه[(٢)]، فهذا الوصفُ يُفيدُ العِلِّيَّةَ، أي أنَّ عِلَّةَ الأُسْوةِ كَوْنُه رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإلَّا ما كان علينا أنْ نتأسَّى به؛ لأنَّه رجُلٌ مِن النَّاسِ! لكنْ لأنَّه رسولُ اللهِ تعالى كان لنا فيه أسوةٌ حسَنةٌ[(٣)].

٣- قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ إذا آمَنَ الإنسانُ باليوم الآخِرِ أوجَبَ له ذلك أنْ يعمَلَ، ولهذا يقولُ عزَّ وجلَّ: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[(٤)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ استدَلَّ الأصوليُّونَ بهذه الآيةِ على الاحتِجاجِ بأفعالِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّ الأصلَ أنَّه أُسوةٌ للأمَّةِ في الأحكامِ، إلَّا ما دلَّ الدَّليلُ الشَّرعيُّ على الاختِصاصِ به[(٥)].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ فيه دليلٌ على صِحَّةِ مذهبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ الَّذين يقولون: «إنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقصُ»[١]، وهو حُجَّةٌ على المُرجِئةِ[٢].

٦- قولُه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ في وَصْفِهم بالانتظارِ المُنبِئِ عن الرَّغبةِ في المُنتظَرِ، شَهادةٌ حقَّةٌ بكَمالِ اشتياقِهم إلى الشَّهادةِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ لِقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾؛ فإنَّ الباءَ للسَّببيَّةِ، والمسَبَّبُ مَربوطٌ بالسَّبَبِ يَقوَى بقوَّتِه، ويَضعُفُ بضَعْفِه، ويَزدادُ بزيادتِه، ويَنقُصُ بنُقصانِه[٤].

٨- قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ في تَعليقِ التَّعذيبِ على المَشيئةِ تَنبيهٌ لهم بسَعةِ رَحمةِ اللهِ، وأنَّه لا يَقطَعُ رَجاءَهم في السَّعيِ إلى مَغفرةِ ما أتَوْهُ بأنْ يَتوبوا، فيَتوبَ اللهُ عليهم، فلمَّا قابَلَ تَعذيبَه إيَّاهم بتَوبتِه عليهم؛ تَعيَّنَ أنَّ التَّعذيبَ باقٍ عندَ عدَمِ تَوبتِهم؛ لقولِه في الآيةِ الأُخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[٥] [النساء: ٤٨]. ففي قَولِه: ﴿إِن شَآءَ﴾ أنَّ المنافِقَ له تَوبةٌ، فإنَّه يَشاءُ أنْ يُعَذِّبَهم إذا ماتُوا على النِّفاقِ، أمَّا إذا تابوا فقد شاءَ ألَّا يُعَذِّبَهم، ففيه ترغيبُ المنافقين في التَّوبةِ، وهذا دليلٌ على أنَّ رحمةَ اللهِ تعالى سَبَقَتْ غَضَبَه؛ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ في حقِّ أولئك الَّذين يُعَذِّبُون أولياءَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٧٢). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٩).

ويُحَرِّقُونهم بالنَّارِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ثمَّ قال بعدَ ذلك: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ [المائدة: ٧٤]، فعَرَض اللهُ تعالى عليهم التَّوبةَ! وفيه دليلٌ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُحِبُّ العفوَ أكثرَ مِن العِقابِ(١).

٩- قولُه تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيه ذَمُّ النِّفاقِ؛ وأنَّه سببٌ للعذابِ(٢).

١٠- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ﴿كَانَ﴾ يُرادُ بها اتِّصافُ اسمِها بخبرِها بقَطْعِ النَّظَرِ عن الزَّمنِ -وهو ما يُعرفُ بـ «مسلوبةِ الزَّمنِ»-، يعني: لا يُرادُ بها الزَّمنُ إطلاقًا، بل يُرادُ بها تحقُّقُ هذا الوصفِ، فـ ﴿كَانَ﴾ يعني: ثَبَتَ، وقولُه سُبحانَه وتعالى: ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يعني: أنَّه عزَّ وجلَّ لم يَزَلْ ولا يَزالُ كذلك غفورًا رحيمًا(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ الكلامُ خبرٌ، ولكنَّ اقترانَه بحَرْفَي التَّوكيدِ في (لقد) يُومِئُ إلى تَعريضٍ بالتَّوبيخِ للَّذين لم يَنتفِعوا بالأُسوةِ الحَسَنةِ مِن المنافقينَ والَّذين في قُلوبِهم مرَضٌ؛ فلذلك أُتِيَ بالضَّميرِ مُجمَلًا ابتداءً مِن قولِه: ﴿لَكُمْ﴾، ثمَّ فُصِّلَ بالبدَلِ منه بقولِه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، أي: بخلافِ لِمَن لم يكُنْ كأولئك، فاللَّامُ في قولِه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾ تَوكيدٌ لِلَّامِ الَّتي في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٨٥، ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٧).

المُبدَلِ منه[١].

- وحقُّ الأُسوةِ أنْ يكونَ المُؤتسَى به هو القُدوةَ؛ ولذلك فحَرْفُ (في) جاء على أُسلوبِ ما يُسمَّى بالتَّجريدِ المُفيدِ للمُبالَغةِ؛ إذ يُجرَّدُ مِن المَوصوفِ بصِفةٍ مَوصوفٌ مِثْلُه؛ لِيَكونَ كَذَاتَينِ، فالأصلُ: رسولُ اللهِ أسوةٌ، فقِيل: ﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ﴾[٢].

- وجُعِلَ مُتعلَّقُ الائتِساءِ ذاتَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دونَ وَصْفٍ خاصٍّ؛ لِيَشمَلَ الائتساءَ به في أقوالِه بامتثالِ أوامرِه، واجتنابِ ما يَنْهَى عنه، والائتساءَ بأفعالِه مِن الصَّبرِ، والشَّجاعةِ، والثَّباتِ[٣].

- وفي إعادةِ اللَّامِ في قولِه: ﴿لِّمَن﴾ تَكثيرٌ للمعاني المذكورةِ بكَثرةِ الاحتمالاتِ، وكلٌّ يَأخُذُ حَظَّه منها[٤].

- وفي هذِه الآيةِ تَعريضٌ بفَريقٍ مِن الَّذين صَدُّوا المُؤتسينَ عن الائتساءِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ممَّن كانوا منافقينَ، أو في قُلوبِهم مرَضٌ مِن الشَّكِّ في الدِّينِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ﴾ بَيانٌ لِمَا صدَرَ عن خُلَّصِ المؤمنينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٢، ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عندَ اشتباهِ الشُّؤونِ، واختلافِ الظُّنونِ، بعدَ حِكايةِ ما صدَرَ عن غَيرِهم[١].

- وفِعلُ (صَدَقَ) مُستعمَلٌ في الخبَرِ عن صِدقٍ مَضى، وعن صِدقٍ سيَقَعُ في المُستقبَلِ مُحقَّقٍ وُقوعُه، بحيث يُجعَلُ استقبالُه كالمُضِيِّ، مِثلُ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]؛ فهو مُستعمَلٌ في مَعنى التَّحقُّقِ[٢].

- في قولِه: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ تَكريرُ الظَّاهرِ؛ تَعظيمًا، ولو أنَّه أعادَهما مُضْمَرينِ لَجمَعَ بيْنَ اسمِ الله تعالى واسمِ رسولِه في لَفظةٍ واحدةٍ، فقال: وصَدَقَا[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ أعقَبَ الثَّناءَ على جَميعِ المؤمنينَ الخُلَّصِ على ثَباتِهم ويَقينِهم، واستِعدادِهم لِلقاءِ العَدُوِّ الكثيرِ يومَئذٍ، وعَزْمِهم على بَذْلِ أنفُسِهم ولم يُقدَّرْ لهم لِقاؤه؛ بالثَّناءِ على فَريقٍ منهم كانوا وَفَّوا بما عاهَدوا اللهَ عليه وَفاءً بالعمَلِ والنِّيَّةِ؛ لِيَحصُلَ بالثَّناءِ عليهم بذلك ثَناءٌ على إخوانِهم الَّذين لَمْ يَتمكَّنوا مِن لِقاءِ العَدُوِّ يومَئذٍ؛ لِيُعلَمَ أنَّ صِدقَ أولئك يُؤذِنُ بصِدْقِ هؤلاء؛ لأنَّ المؤمنينَ يدٌ واحدةٌ[٤].

- قولُه: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ﴾ الإخبارُ عنهم بـ (رِجال) زِيادةٌ في الثَّناءِ؛ لأنَّ الرَّجُلَ مُشتقٌّ مِن الرِّجْلِ، وهي قوَّةُ اعتِمادِ الإنسانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٦٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٦، ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣٠٧).

- قولُه: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ تفصيلٌ لحالِ الصَّادقينَ، وتَقسيمٌ لهم قِسْمَين[١].

- قولُه: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي: تَبديلًا ما؛ لا أصْلًا ولا وصْفًا، بل ثَبتُوا عليه راغبينَ فيه، مُراعينَ لِحُقوقِه على أحسَنِ ما يكونُ، أمَّا الَّذينَ قَضَوا فظاهرٌ، وأمَّا الباقُون فَيَشهَدُ به انتظارُهم أصْدَقَ شَهادةٍ. وتَعميمُ عدَمِ التَّبديلِ للفريقِ الأوَّلِ مع ظُهورِ حالِهم؛ للإيذانِ بمُساواةِ الفريقِ الثَّاني لهم في الحُكْمِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ضَميرُ ﴿بَدَّلُوا۟﴾ للمُنتظِرينَ خاصَّةً، بِناءً على أنَّ المُحتاجَ إلى البَيانِ حالُهم[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ في معنى قولِه: ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، وإنَّما ذُكِرَ هنا؛ للتَّعريضِ بالمنافقينَ الَّذين عاهَدوا اللهَ لا يُوَلُّون الأدبارَ، ثمَّ ولَّوا يومَ الخَندقِ، فرَجَعوا إلى بُيوتِهم في المدينةِ[٣].

- وانتُصِبَ ﴿تَبْدِيلًا﴾ على أنَّه مَفعولٌ مُطلَقٌ مُوكِّدٌ لـ ﴿بَدَّلُوا۟﴾ المَنفيِّ؛ ولعلَّ هذا التَّوكيدَ مَسوقٌ مَساقَ التَّعريضِ بالمُنافقينَ الَّذين بدَّلوا عهْدَ الإيمانِ، لَمَّا ظَنُّوا أنَّ الغَلَبَةَ تكونُ للمشركينَ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

- قولُه: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ...﴾ مُتعلِّقٌ بمُضمَرٍ مُستأنَفٍ مَسوقٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٢، ٥٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٨).

بطَريقِ الفَذْلَكةِ[١]؛ لِبَيانِ ما هُو داعٍ إلى وُقوعِ ما حُكِيَ مِن الأحوالِ والأقوالِ على التَّفصيلِ وغايةٌ له، كأنَّه قيل: وقَعَ جَميعُ ما وقَعَ؛ لِيَجزِيَ اللهُ الصَّادقينَ بما صدَرَ عنهُم مِنَ الصِّدقِ والوَفاءِ قَولًا وفِعلًا[٢].

- قولُه: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ فيه إظهارُ اسمِ الجَلالةِ في مَقامِ الإضمارِ؛ للدَّلالةِ على عَظَمةِ الجزاءِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ أي: لِمَن تابَ، وهو اعتِراضٌ فيه بَعثٌ إلى التَّوبةِ[٤]. وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ تَعليلٌ للجَزاءِ والتَّعذيبِ كِلَيهما على التَّوزيعِ[٥]، أي: غفورٌ للمُذْنِبِ إذا أناب إليه، رَحيمٌ بالمُحسِنِ أنْ يُجازِيَه على قَدْرِ نَصَبِه. وذِكْرُ فِعلِ (كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّ المغفرةَ والرَّحمةَ وَصْفانِ ثابتانِ للهِ تعالى[٦].

---

(١) تقدم تعريفها (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٩).

(٥) التَّوزيعُ: هو تقسيمُ أجزاءِ المعاني المذكورةِ في الجملةِ على أفرادٍ مذكورينَ في الجُملةِ أو مفهومينَ منها، مثل جُملةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ أي: غفورٌ للمُذنِبِ إذا أناب إليه، رَحيمٌ بالمُحسِنِ أنْ يُجازِيَه على قَدْرِ نَصَبِه. يُنظر: ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمُناوي (ص: ١١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٠٦)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم المدني (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٩).

الآيات (٢٥-٢٧)

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ٢٦ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ظَٰهَرُوهُم﴾: أي: أعانوهم وساعَدوهم، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[1].

﴿صَيَاصِيهِمۡ﴾: أي: حُصونِهم الَّتي تحَصَّنوا بها، وكُلُّ ما يُتحَصَّنُ به يقالُ له: صِيصِيَةٌ[2].

﴿لَّمۡ تَطَـُٔوهَا﴾: أي: لم تَملِكوها، ولم تَدُوسوها بعْدُ بأقدامِكم، وأصلُ (وطأ): يدُلُّ على تمهيدِ شَيءٍ وتَسهيلِه[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبَيِّنًا خَيبةَ الكافرينَ، وما انتهَى إليه أمرُهم: وردَّ اللهُ الأحزابَ الكافرينَ إلى بلادِهم بغَيْظِهم خائبينَ؛ لم يَنالوا خيرًا، بل رَجَعوا خاسِرينَ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٠).

وكفى اللهُ المؤمِنينَ قِتالَ الكُفَّارِ، ودَفَعَهم عنهم، وكان اللهُ تعالى قويًّا عزيزًا.

ثمَّ يُبيِّنُ ما حلَّ ببني قُرَيْظَةَ، فيقولُ: وأنزَل اللهُ يهودَ بني قُرَيْظَةَ الَّذين ناصَروا الأحزابَ على حَربِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُسلِمينَ؛ أنزَلَهم مِن حُصونِهم، وألقَى في قُلوبِهم الخَوفَ الشَّديدَ مِن المُسلِمينَ؛ تَقتُلونَ -أيُّها المُسلِمونَ- جماعةً منهم، وتأسِرونَ جماعةً أُخرى، وملَّكَكم اللهُ -أيُّها المُسلِمونَ- أرضَهم ومساكِنَهم وأموالَهم، وأرضًا أُخرى لم تَملِكوها حتَّى الآنَ، وستَملِكونَها فيما بعدُ، وكان اللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَّرَهم سُبحانَه نِعمَتَه بما أرسَلَ على أعدائِهم مِن جُنودِه، وبيَّن أحوالَ المنافِقينَ والصَّادِقينَ، وما له في ذلك مِنَ الأسرارِ، وختَمَ بهاتين الصِّفَتينِ ﴿غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾- ذكَّرَ بأثَرِهما فيما خَرَقه مِن العادةِ بصَرفِ الأعداءِ على كَثرتِهم وقُوَّتِهم، على حالةٍ لا يَرضاها لِنَفْسِه عاقِلٌ[1].

وقيل: إنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾[الأحزاب: ٩]، أي: أرسَلَ اللهُ عليهم ريحًا وردَّهم؛ أو حالٌ مِن ضميرِ ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْ﴾[الأحزاب: ٢٠]، أي: يَحسَبونَ الأحزابَ لم يَذهَبوا، وقد ردَّ اللهُ الأحزابَ، فذَهَبوا[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٩).

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ﴾.

أي: وردَّ اللهُ جُنودَ الأحزابِ إلى بِلادِهم بغَيْظِهم خائِبينَ لم يَشْفِ صُدورَهم، مع تكَلُّفِهم الإعدادَ والإنفاقَ، والسَّفَرَ وطُولَ المُكثِ حَوْلَ المدينةِ، مع حُصولِ التَّعَبِ والعَناءِ بلا جَدوى[١]!

﴿لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗا﴾.

أي: لم يَنالوا أيَّ خيرٍ كان في حِسْبانِهم؛ كالنَّصرِ، أو أخْذِ أموالٍ، أو أسْرِ أحدٍ مِنَ المُسلِمينَ، بل رجَعوا خاسِرينَ[٢]!

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ﴾.

أي: وأراح اللهُ المؤمِنينَ مِن قِتالِ الكُفَّارِ، وأغناهم عن مُحارَبتِهم ودَفْعِهم يَومَئذٍ[٣].

عن عبدِ اللهِ بنِ أبي أَوفى رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((دعا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ الأحزابِ على المُشرِكينَ، فقال: اللَّهُمَّ مُنزِلَ الكِتابِ، سَريعَ الحِسابِ، اللَّهُمَّ اهزِمِ الأحزابَ، اللَّهُمَّ اهزِمْهم وزَلْزِلْهم))[٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٠).

(٤) رواه البخاري (٢٩٣٣) واللفظ له، ومسلم (١٧٤٢).

كان إذا قَفَل[١] مِن غَزوٍ أو حَجٍّ أو عُمرةٍ يُكَبِّرُ على كُلِّ شَرَفٍ[٢] مِنَ الأرضِ ثلاثَ تَكبيراتٍ، ثمَّ يَقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له، له المُلكُ وله الحَمدُ وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، آيِبون تائِبونَ عابِدون، لِرَبِّنا حامِدونَ، صدَقَ اللهُ وَعْدَه، ونصَرَ عَبْدَه، وهزَمَ الأحزابَ وَحْدَه))[٣].

وفي حديثِ حجَّةِ الوداعِ قال جابرٌ رَضِيَ اللهُ عنه: ((... فلمَّا دنا مِن الصَّفا قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، أبدأُ بما بدَأ اللهُ به. فبدَأ بالصَّفا، فرَقِيَ عليه، حتَّى رأى البَيتَ فاستقبَلَ القِبْلَةَ، فوحَّد اللهَ، وكبَّرَه، وقال: لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، له المُلكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شَيءٍ قديرٌ، لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه، أنجَز وعْدَه، ونصَر عبْدَه، وهزَم الأحزابَ وحْدَه. ثمَّ دعا بيْنَ ذلك، قال مِثلَ هذا ثلاثَ مرَّاتٍ...))[٤].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو المتَّصِفُ أزَلًا وأبدًا بالقُوَّةِ على فِعلِ ما يَشاءُ؛ فيَنصُرُ مَن يشاءُ مِن عبادِه، ويَخذُلُ مَن يَشاءُ منهم، وهو المتَّصِفُ بالعِزَّةِ؛ فقَدْرُه عَظيمٌ، يمتَنِعُ عليه سُبحانَه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، وهو يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، ويَنصُرُ أولياءَه، ويَقهَرُ أعداءَه، ولا يُعجِزُه شَيءٌ أرادَه[٥].

---

(١) قَفَل: أي: رجَعَ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٢٧٧).

(٢) شَرَفٍ: أي: مكانٍ عالٍ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٢٧٧).

(٣) رواه البخاري (٦٣٨٥) واللفظ له، ومسلم (١٣٤٤).

(٤) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٩٠، ١٩١).

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أتَمَّ أمرَ الأحزابِ؛ أتْبَعَه حالَ الَّذين ألَّبوهم، وكانوا سَبَبًا في إتيانِهم، والَّذين مالَؤُوهم على ذلك، ونَقَضوا ما كان لهم مِن عَهدٍ[1].

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾.

أي: وأنزل اللهُ يَهودَ بَني قُرَيظةَ الَّذين ناصَروا وأعانوا الأحزابَ على حَربِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُسلِمينَ معه؛ أنزَلَهم مِن حُصونِهم العاليةِ[2].

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾.

أي: وألقَى اللهُ في قُلوبِهم الخَوفَ الشَّديدَ مِنَ المُسلِمينَ؛ فلم يَقْوَوْا على قِتالِهم، واستَسْلَموا لهم، ونَزَلوا على حُكمِهم[3].

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٢، ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٢).
قال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم ﴾ يريدُ بني قُرَيْظةَ بإجماعٍ مِنَ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٩).
وقال البقاعي: (هم بنو قُرَيظةَ ومَن دخَلَ معهم في حِصْنِهم مِن بني النَّضيرِ، كحُيَيٍّ، وكان ذلك بعدَ إخراجِ بني قَيْنُقاعٍ وبني النَّضيرِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٢).

أي: تَقتُلونَ -أيُّها المُسلِمونَ- جماعةً منهم، وهم الرِّجالُ البالِغونَ[١].

﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

أي: وتأسِرونَ جَماعةً منهم، وهم النِّساءُ والذُّرِّيَّةُ[٢].

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((أُصيبَ سَعدٌ يومَ الخَندقِ؛ رماهُ رجُلٌ مِن قُرَيشٍ -يُقالُ لهُ: ابنُ العَرِقَةِ- رماهُ في الأَكْحَلِ[٣]، فضرَبَ عليه رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَيمةً في المسجِدِ؛ يَعودُه مِن قَريبٍ، فلمَّا رجَعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الخَندَقِ وضَعَ السِّلاحَ، فاغتَسَلَ، فأتاهُ جِبريلُ وهو يَنفُضُ رأسَه مِنَ الغُبارِ، فقال: وضَعْتَ السِّلاحَ؟ واللهِ ما وضَعْناهُ! اخرُجْ إليهم. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: فأينَ؟ فأشار إلى بَني قُرَيْظَةَ. فقاتَلَهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فنَزَلوا على حُكمِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فردَّ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الحُكمَ فيهم إلى سَعدٍ، قال: فإنِّي أحكُمُ فيهم أن تُقتَلَ المُقاتِلةُ، وأن تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ والنِّساءُ، وتُقْسَمَ أموالُهم)).

وفي روايةٍ: ((لقد حَكَمْتَ فيهم بحُكمِ اللهِ عزَّ وجلَّ))[٤].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((نزَل أهلُ قُرَيْظَةَ على حُكمِ سَعدِ بنِ مُعاذٍ، فأرسَل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى سَعدٍ، فأتاهُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٩٥، ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٢).

(٣) الأكحَل: عِرقٌ في اليدِ إذا قُطِعَ لم يَرَقأِ الدَّمُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٩٤).

(٤) أخرجه البخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩) واللفظ له.

حِمارٍ، فلمَّا دنا قَريبًا مِن المسجِدِ، قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للأنصارِ: قُوموا إلى سيِّدِكم، أو خَيرِكم، ثمَّ قال: إنَّ هؤلاءِ نزَلوا على حُكمِك. قال: تَقتُلُ مُقاتِلَتَهم، وتَسْبي ذُرِّيَّتَهم. قال: فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: قَضَيتَ بحُكمِ اللهِ، ورُبَّما قال: قَضَيتَ بحُكمِ المَلِكِ))[١].

وعن عَطيَّةَ القُرَظيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((عُرِضْتُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ قُرَيظةَ، فشَكُّوا فيَّ، فأمَرَ بيَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَنظُروا إلَيَّ: هل أنبَتُّ بَعْدُ؟ فنَظَروا فلم يَجِدوني أنبَتُّ، فخَلَّى عنِّي، وألحَقَني بالسَّبْيِ))[٢].

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾.

أي: وملَّككم اللهُ -أيُّها المُسلِمونَ- أرضَهم ومَساكِنَهم وجميعَ أموالِهم ممَّا غَنِمتُموه منهم[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨) واللفظ له.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٤٠٥)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٦٢٠)، وأحمد (١٩٤٢١) واللفظُ له، وابن حبان في صحيحه (٤٧٨٠).

صحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٤٠٥)، وقال ابنُ حجر في ((التلخيص الحبير)) (٣/ ١٠٠٨): هو على شرطِ الصَّحيحِ. وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (٤٧٨٠)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢).

قال الألوسي: (والمرادُ بـ﴿أَرْضَهُمْ﴾: مزارعُهم... ﴿وَدِيَٰرَهُمْ﴾ أي: حُصونَهم، ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾: نقودَهم ومواشيَهم وأثاثَهم الَّتي اشتَمَلتْ عليها أرضُهم وديارُهم). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٧٦).

﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾.

أي: وأورَثَكم اللهُ أرضًا أخرى غيرَ أرضِ بني قُرَيظةَ ما وَطِئتُموها حتَّى الآنَ، ولكِنَّكم ستَملِكونَها(١).

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٩٩).

قيل: هي أرضُ خَيبرَ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بن سلام، والسمرقندي، والواحدي، والسمعاني، وجلال الدين المحلي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٨٥)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٥٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٦٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: يَزيدُ بنُ رُومانَ، وابنُ زَيدٍ، وابنُ السَّائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٥٩).

وقيل: هي خَيبرُ وغَيرُها مِن بلاد الكُفَّارِ. وممَّن قال بهذا: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٠١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسنُ، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣١٢٦).

قال البِقاعي: (هي أرضُ خَيبرَ أوَّلًا، ثمَّ أرضُ مكَّةَ ثانيًا، ثمَّ أرضُ فارسَ والرُّومِ وغَيرِهما ممَّا فتحه اللهُ بعدَ ذلك، وكان قد حكَمَ به في هذه الغزوةِ حينَ أبرقَ تلك البرقاتِ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حَفرِ الخَندقِ، فأراه في الأولى اليَمَنَ، وفي الأُخرَى فارسَ، وفي الأخرَى الرُّومَ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٣٥).

وقيل: المرادُ بها: أرضُ بني النَّضيرِ، وأنَّ معنى ﴿لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ لم تفتَحوها عَنْوةً. وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٣).

وذهب ابنُ جرير إلى عدمِ التَّعيينِ، فقال: (الصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك أن يقالَ: إنَّ اللهَ -تعالى ذِكْرُه- أخبَرَ أنَّه أورثَ المؤمنينَ مِن أصحابِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أرضَ بَني قُرَيظةَ وديارَهم وأموالَهم، وأرضًا لم يَطؤوها يومَئذٍ، ولم تكُنْ مكَّةُ ولا خَيبرُ ولا أرضُ فارسَ =

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾.

أي: إنَّ اللهَ متَّصِفٌ أزلًا وأبدًا بكَمالِ القُدرةِ؛ فلا يُعجِزُه شَيءٌ، ومِن ذلك قُدرتُه على توريثِ المؤمِنينَ أرضَ الكافِرينَ، ونَصْرِهم عليهم[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا * وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ في بابِ الأعمالِ الَّتي يُضيفُها اللهُ عزَّ وجلَّ تارةً إلى نفْسِه، وتارةً إلى عبادِه، ولا يكونُ أحدُهما مؤثِّرًا في صاحبِه بزَعمِهم؛ ألَا تراه يقولُ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ﴾، وقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾، ثمَّ قال: ﴿فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾، وقد قال في (سورةِ الأنفالِ): ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]؛ ففيه أنَّ الفِعلَ وإنْ كان مُضافًا إلى فاعلِه مِن الخَلْقِ، فغَيرُ مانِعِه أنْ يكونَ عامِلَه بتيسيرِ خالِقِه له جَلَّ جَلالُه[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ﴾ بيانُ قُدرةِ اللهِ سُبحانه وتعالى؛ حيث رَدَّ هذه الأحزابَ الكثيرةَ العَظيمةَ مع ما في قُلوبِهم مِن الغَيظِ الشَّديدِ على رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابِه؛ رَدَّهم اللهُ سُبحانَه وتعالى

= والرُّوم ولا اليَمَن: ممَّا كان وَطِئوه يومَئذٍ، ثمَّ وَطِئوه ذلك بعْدُ، وأورَثَهُمُوه اللهُ، وذلك كلُّه داخِلٌ في قَولِه ﴿وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَا﴾؛ لأنَّه -تعالى ذِكرُه- لم يَخْصُصْ مِن ذلك بعضًا دونَ بَعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٤٨).

بغَيظِهم ما اشتَفَوا، ولا نالوا مُرادَهم؛ ولهذا أثنى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على ربِّه بهزيمةِ الأحزابِ، فقال: ((لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه، أنجزَ وعْدَه، ونصَرَ عَبْدَه، وهزَمَ الأحزابَ وَحْدَه))(١).

٣- في قَولِه: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ إشارةٌ إلى وَضعِ الحَربِ بيْنَهم وبينَ قُرَيشٍ، وهكذا وقَعَ بَعْدَها؛ لم يَغزُهم المُشرِكونَ، بل غزاهم المُسلِمونَ في بلادِهم(٢). عن سُلَيمانَ بنِ صُرَدٍ رضي الله عنه، قال: سمِعتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يقولُ حينَ أَجْلى الأحزابَ عنه: ((الآنَ نَغْزُوهم ولا يَغْزُونَنا، نحنُ نَسِيرُ إليهم))(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُدافِعُ عن المؤمِنينَ؛ يُؤخَذُ مِن الآيةِ: أنَّه خَصَّه بالمؤمِنينَ، فدَلَّ هذا على أنَّه كفَاهم القِتالَ لإيمانِهم؛ فالمؤمِنونَ يَكفيهم اللهُ سُبحانَه وتعالى ما أهمَّهم، فيُدافعُ عنهم لإيمانِهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٤) [الزمر: ٦١].

٥- قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ مِن تَعلُّقاتِ قوَّتِه وعزَّتِه سُبحانَه أنْ صرَفَ ذلك الجَيشَ العظيمَ خائبينَ مُفتضَحينَ، وألْقى بيْنَه وبيْنَ أحلافِه مِن قُرَيْظةَ الشَّكَّ، وأرسَل عليهم الرِّيحَ والقُرَّ، وهَدى نُعَيمَ بنَ مَسعودٍ الغَطَفانيَّ إلى الإسلامِ دُونَ أن يَشعُرَ قَومُه، فاستطاع النُّصحَ لِلمُسلمينَ بالكَيدِ للمشركين.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٩١).
والحديث تقدم تخريجه (ص: ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٩٢).

ذلك كلُّه معجزة للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ فيه إشعارٌ أنَّه انتقَل إليهم ذلك بعدَ موتِ أولئك المقتولينَ، وأنَّ مِلكَهم إيَّاه مِلكٌ قويٌّ، ليس بعقدٍ يَقبَلُ الفسْخَ أو الإقالةَ[٢]، وأنَّ المؤمنينَ إذا فَتَحوا بلدًا مَلَكوا الأرضَ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ حِلُّ أموالِ الكُفَّارِ للمُسلِمينَ؛ فإنَّ الغنائِمَ تَحِلُّ للمُسلِمينَ، وهي مِن خصائصِ هذه الأُمَّة؛ قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((وأُعطيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ مِن الأنبياءِ قَبْلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ، وجُعِلَت لي الأرضُ مَسجِدًا وطَهورًا وأيُّما رجُلٍ مِن أُمَّتي أدرَكَتْه الصَّلاةُ فلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائِمُ ولم تَحِلَّ لأحدٍ قَبْلي، وكان النَّبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ كافَّةً، وأُعطيتُ الشَّفاعةَ))[٤].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ بِشارةٌ ووعدٌ صادقٌ في فتْحِ البِلادِ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ هذا رُجوعٌ إلى حِكايةِ بقيَّةِ القِصَّةِ، وتَفصيلُ تَتمَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث أخرجه البخاري (٤٣٨) واللفظ له، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٣).

النِّعمةِ المُشارِ إليها إجمالًا بقولِه تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾. وهو مَعطوفٌ إمَّا على المُضمَرِ المُقدَّرِ قبْلَ قولِه تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ﴾، كأنَّه قِيلَ: إثرَ حِكايةِ الأمورِ المَذكورةِ وقَعَ ما وقَعَ مِن الحوادثِ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ...﴾ إلخ، وإمَّا على (أَرْسَلْنَا)، وقد وُسِّطَ بيْنَهما بَيانُ كَونِ ما نَزَل بهم واقعةً طامَّةً تَحيَّرتْ بها العُقولُ والأفهامُ، ودَاهيةً تامَّةً تحاكَّتْ منها الرُّكَبُ، وزلَّتِ الأقدامُ. وتَفصيلُ ما صدَرَ عن فَريقَيْ أهلِ الإيمانِ وأهلِ الكُفرِ والنِّفاقِ مِن الأحوالِ والأقوالِ؛ لإظهارِ عِظَمِ النِّعمةِ، وإبانةِ خَطَرِها الجَليلِ، ببَيانِ وُصولِها إليهم عندَ غايةِ احتياجِهم إليها، أي: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، ورَدَدْنا بذلك الَّذين كَفَروا[١].

- قولُه: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ﴾ فيه التِفاتٌ إلى الاسمِ الجليلِ؛ لِتَربيةِ المَهابةِ، وإدخالِ الرَّوعةِ، وللتَّنبيهِ على عِظَمِ شأْنِ هذا الرَّدِّ العجيبِ[٢].

- وعبَّرَ عن الأحزابِ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ كُفْرَهم هو سَببُ خَيبتِهم العَجيبةِ الشَّأنِ[٣].

- وجُملةُ ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لِبَيانِ مُوجِبِ غَيظِهم[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ، أي: كُلفةَ القِتالِ، أو أرزاءَ القِتالِ. وإظهارُ اسمِ الجلالةِ؛ للتَّنبيهِ على عِظَمِ شأْنِ هذا الكفايةِ العجيبةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ تَذييلٌ لِجُملة ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ﴾ إلى آخِرِها، وذِكرُ فِعلِ (كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّ العِزَّةَ والقوَّةَ وَصْفانِ ثابتانِ للهِ تعالى[1].

- وفي قولِه: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ في المعاني؛ لأنَّ الكلامَ لو اقتُصِرَ فيه على دُونِ الفاصلةِ، لَأوهَمَ ذلك بعضَ الضُّعفاءِ أنَّ هذا الإخبارَ مُوافقٌ لاعتقادِ الكفَّارِ في أنَّ الرِّيحَ الَّتي حدَثَتْ كانتْ سببًا في رُجوعِهم خائبينَ، وكَفَى المؤمنينَ قِتالَهم، والرِّيحُ إنَّما حدَثَت اتِّفاقًا كما تَحدُثُ في بَعضِ وَقائعِهم، وقِتالِ بَعضِهم لِبَعضٍ، وظنُّوا أنَّ ذلك لم يكُنْ مِن عندِ اللهِ؛ فوقَعَ الاحتراسُ بمَجيءِ الفاصلةِ الَّتي أخبَرَ فيها سُبحانه أنَّه قويٌّ عزيزٌ[2]، قادرٌ بقُوَّتِه على كلِّ شَيءٍ، وأنَّ حِزبَه هو الغالبُ، وأنَّه لِقُدرتِه يَجعَلُ النَّصرَ للمؤمنينَ أفانينَ مُتنوِّعةً؛ لِيَزيدَهم إيمانًا وتَثبيتًا، فهو يَنصُرُهم مرَّةً بالقِتالِ؛ كيَومِ بَدْرٍ، وتارةً بالرِّيحِ؛ كيَومِ الأحزابِ، وطَورًا بالرُّعبِ؛ كبَنِي النَّضيرِ، وأحيانًا يَنصُرُ عليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١١).

(٢) وهو ما يُعرفُ بـ «ائتلاف الفاصلة»، ويُسَمِّيه بعضُهم بالتَّمكينِ، وهو: أن يُمَهَّدَ قبْلَ الفاصلةِ تمهيدٌ تأتي به الفاصِلةُ مُمَكَّنةً في مكانِها، مُستقِرَّةً في قَرارِها، مُطمئنَّةً في مَوضِعها، غيرَ نافرةٍ ولا قَلِقةٍ، مُتعلِّقًا معناها بمعنى الكلامِ كلِّه تعلُّقًا تامًّا، بحيث لو طُرِحَتْ لاختلَّ المعنى، واضْطَرَبَ الفَهمُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾؛ فإنَّه لو انتهَتِ الآيةُ عندَ قولِه: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ لَرُبَّما ظُنَّ أنَّ الرِّيحَ الَّتي عصفَتْ بالكفَّارِ والأحزابِ في غزوةِ الأحزابِ أو الخَندقِ هي سببُ رُجوعِهم خائبينَ، وأنَّ ذلك أمرٌ قد حدَث مُصادَفةً، وأنَّه ليس مِن عندِ الله! بَيْدَ أنَّ فاصِلةَ الآيةِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ قد أزالَتْ هذا التَّوهُّمَ المُفترَضَ، وأبرزَتْ للمؤمنينَ وغيرِهم أنَّ تلك الرِّيحَ إنَّما هبَّتْ بأمرِه سُبحانَه، وأنَّها كانت أداةً مِن أدواتِ نصْرِه الَّذي وعَدَ به المؤمنينَ، وجُندًا مِن جُنودِه سُبحانَه. يُنظر: ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٨، ١٩).

أوَّلًا، ويَجعَلُ العاقبةَ لهم أخيرًا؛ كيَومِ أُحدٍ، وحِينًا يُريهم أنَّ العِبرةَ في المعركةِ ليسَتْ بالكَثرةِ، وأنَّه كمْ مِن فِئةٍ قليلةٍ غلَبَت فئةً كثيرةً؛ لِيَتحقَّقوا بأنَّ النَّصرَ إنَّما هو مِن عندِ اللهِ؛ كيَومِ حُنينٍ، وهذا مِن أروَعِ ما يَتزيَّنُ به الكلامُ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا﴾

- قولُه: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ قذْفُ الرُّعبِ سببٌ لإنزالِهم، ولكنَّه قدَّمَ المُسبَّبَ، لَمَّا كان السُّرورُ بإنزالِهم أكثرَ، والإخبارُ به أهَمَّ[٢].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا﴾ إلى آخِرِه، للمُؤمنينَ؛ تَكمِلةً للنِّعمةِ الَّتي أنبَأَ عنها قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ [الأحزاب: ٩] الآيةَ[٣].

- وتَقديمُ المفعولِ في ﴿فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بذِكْرِه؛ لأنَّ ذلك الفريقَ همْ رِجالُ القَبيلةِ الَّذين بقَتْلِهم يَتِمُّ الاستيلاءُ على الأرضِ والأموالِ والأسْرى؛ ولذلك لم يُقدِّمْ مَفعولَ (تَأْسِرُونَ)؛ إذ لا داعِيَ إلى تَقديمِه، فهو على أصْلِه[٤].

- أو لعلَّ تأخيرَ المفعولِ في الجُملةِ الثَّانيةِ ﴿وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا﴾ -مع أنَّ مَساقَ الكلامِ لِتَفصيلِه وتَقسيمِه-؛ لِمُراعاةِ الفواصلِ[٥]. وقيل: لعلَّه أُخِّرَ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٦٢٨، ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٠).

الفَريقُ هنا؛ لِيُفيدَ التَّخييرَ في أمْرِهم، وقُدِّمَ في الرِّجالِ؛ لِتَحتُّمِ القَتْلِ فيهم[١].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾

- قَولُه: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾، قُدِّمتْ ﴿أَرْضَهُمْ﴾؛ لكَثرةِ المنفعةِ بها مِن النَّخلِ والزَّرعِ، ولأنَّهم باستيلائِهم عليها ملَكوها أوَّلًا، ﴿وَدِيَـٰرَهُمْ﴾ لضَرورةِ الحاجةِ إلى سُكْناها، ولأنَّها هي المستوْلَى عليها ثانيًا، ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ ليُستعانَ بها في قوَّةِ المسلمينَ للجهادِ، ولأنَّها كانت في بيوتِهم، فوقَع الاستيلاءُ عليها ثالثًا[٢].

- وفي التَّذييلِ بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ إيماءٌ إلى البِشارةِ بفَتْحٍ عظيمٍ يأْتي مِن بعْدِه[٣]. وختَم تعالى هذه الآيةَ بقُدرتِه على كلِّ شيءٍ؛ لأنَّه لَمَّا كان فتْحُ البُلدانِ وغلَبةُ المسلِمينَ عليها أمرًا باهرًا سهَّلَه بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾، أي: شامِلَ القُدرةِ[٤].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٥).

الآيات (٢٨-٣١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَزِينَتَهَا﴾: الزِّينةُ: اسمٌ لكلِّ ما يُتَزَيَّنُ به: مِن مَلْبوسٍ ومَركوبٍ وحِلْيَةٍ وفِراشٍ وسِلاحٍ، وأصلُ (زين): يدُلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[١].

﴿أُمَتِّعۡكُنَّ﴾: أي: أُعطِكُنَّ حُقوقَكنَّ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على مَنفَعةٍ[٢].

﴿وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾: أي: وأُطَلِّقْكُنَّ، والسَّراحُ الجَميلُ: هو أن يكونَ طَلاقًا للسُّنَّةِ مِن غَيرِ ضِرارٍ ولا مَنعِ واجبٍ لها، وأصلُ (سرح): يدُلُّ على إطلاقٍ[٣].

﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾: الفاحِشةُ: الزِّنا، والمَعصِيةُ، والنُّشوزُ وسُوءُ الخُلُقِ، وتُطلَقُ الفاحِشةُ على كلِّ شَيءٍ مُستَقبَحٍ ومُستَشنَعٍ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وأصلُ (فحش):

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٨، ٣٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٣).

يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ[١].

﴿يَقْنُتْ﴾: أي: يُطِعْ ويَستَجِبْ، والقُنوتُ: لُزومُ الطَّاعةِ مع الخُضوعِ، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دينٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يذكُرُ الله تعالى بعضَ التَّوجيهاتِ الحكيمةِ الَّتي وجَّهها إلى أزواجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لأزواجِكَ: إنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدُّنيا وزَخارِفَها، وتَطلُبْنَ نَفقةً لا أُطيقُها؛ فتعالَينَ أُعطِكُنَّ مالًا، وأُطَلِّقْكُنَّ طَلاقًا جميلًا، وإنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ ورَسولَه والآخِرةَ، فإنَّ اللهَ أعدَّ للمُطيعاتِ مِنكُنَّ ثوابًا عظيمًا.

يا أزواجَ النَّبيِّ مَن يأْتِ مِنكنَّ بفاحشةٍ ظاهرةٍ يُضاعَفْ لها العَذابُ ضِعفَينِ، وكان ذلك هيِّنًا يسيرًا على اللهِ، ومَن تُداوِمْ منكُنَّ على طاعةِ اللهِ ورَسولِه، وتعمَلْ صالِحًا؛ نُؤتِها ثوابَها في الآخِرةِ مَرَّتينِ، وأعدَدْنا لها رِزقًا جَميلًا في الجنَّةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ مكارِمَ الأخلاقِ مُنحَصِرةٌ في شَيئَينِ: التَّعظيمِ لأمرِ اللهِ، والشَّفَقةِ على خَلقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨، ٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤).

اللهِ، ثمَّ إنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أرشَدَ نبيَّه إلى ما يتعلَّقُ بجانبِ التَّعظيمِ لله بقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]؛ ذكَر ما يتعلَّقُ بجانبِ الشَّفَقةِ، وبدأ بالزَّوجاتِ؛ فإنَّهنَّ أَولى النَّاسِ بالشَّفَقةِ؛ ولهذا قدَّمهنَّ في النَّفَقةِ(١).

وأيضًا بعدَ أن نصرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فردَّ عنه الأحزابَ، وفتَحَ عليه قُرَيظةَ والنَّضيرَ، ظَنَّ أزواجُه رَضِيَ اللهُ عنهنَّ أنَّه اختَصَّ بنفائسِ اليهودِ وذخائرِهم، فقعَدْنَ حَوْلَه وطلَبْنَ توسِعةَ الحالِ، ومُعامَلتَهنَّ مُعاملةَ نِساءِ الملوكِ وأبناءِ الدُّنيا؛ مِن التَّمَتُّعِ بزُخرُفِها مِن المأكَلِ والمشرَبِ ونحو ذلك؛ فأمره اللهُ تعالى أن يَتلوَ عليهنَّ ما نزَلَ في شأنِهنَّ(٢).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((دخَلَ أبو بكرٍ يَستأذِنُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فوجَدَ النَّاسَ جُلوسًا ببابِه، لم يُؤذَنْ لأحدٍ منهم، قال: فأُذِنَ لأبي بكرٍ فدخَلَ، ثمَّ أقبلَ عُمَرُ فاستأذن فأُذِنَ له، فوجَد النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جالِسًا حَوْلَه نِساؤه، واجِمًا ساكِتًا، فقال: لأقولَنَّ شَيئًا أُضحِكُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رَسولَ اللهِ، لو رأيْتَ بنتَ خارِجةَ سألَتْني النَّفَقةَ، فقُمْتُ إليها فوجَأْتُ عُنُقَها(٣)! فضَحِكَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقال: هُنَّ حَوْلي كما ترى، يَسأَلْنَني النَّفَقةَ! فقام أبو بكرٍ إلى عائِشةَ يَجَأُ عُنُقَها، فقام عُمَرُ إلى حَفصةَ يجَأُ عُنُقَها، كِلاهما يقولُ: تَسأَلْنَ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما ليس عندَه؟! فقُلْنَ: واللهِ لا نَسأَلُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شيئًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٥١).

(٣) فوجأتُ: أي: ضَرَبتُ عُنُقَها بكَفِّي، والوَجْأُ: الضَّربُ باليَدِ، وجاء الوَجْأُ بمعنى الدَّقِّ أيضًا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٥/ ٢١٢٢).

أبدًا ليس عِندَه. ثمَّ اعتزَلهُنَّ شَهرًا أو تِسعًا وعِشرينَ، ثمَّ نزلَتْ عليه هذه الآيةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾، قال: فبدأ بعائشةَ، فقال: يا عائشةُ، إنِّي أُريدُ أن أَعرِضَ عليكِ أمرًا أُحِبُّ ألَّا تَعجَلي فيه حتَّى تَستشيري أبوَيْكِ، قالت: وما هو يا رَسولَ اللهِ؟ فتلا عليها الآيةَ، قالت: أفيكَ يا رَسولَ اللهِ أستشيرُ أبوَيَّ؟! بل أختارُ اللهَ ورَسولَه والدَّارَ الآخِرةَ، وأسألُك ألَّا تُخبِرَ امرأةً مِن نسائِك بالَّذي قُلتُ. قال: لا تَسألُني امرأةٌ مِنهُنَّ إلَّا أخبَرْتُها؛ إنَّ اللهَ لم يَبعَثْني مُعَنِّتًا ولا مُتَعَنِّتًا، ولكِنْ بعَثَني مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا))[(١)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لِزَوجاتِك: إنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ التَّنعُّمَ بالحياةِ الدُّنيا وزَخارِفِها، وتَطلُبْنَ نَفَقةً لا أستطيعُها[(٢)].

﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ﴾.

أي: فأقبِلْنَ أُعْطِكُنَّ ما أوجَبَه اللهُ على الرِّجالِ إذا طَلَّقوا نِساءَهم[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (١٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٥).

قال الشوكاني: (ومعنَى ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾: سَعَتُها ونَضارَتُها ورَفاهِيَتها والتَّنَعُّمُ فيها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٠).

قال ابنُ جُزَي: (أصلُ «تعالَ»: أن يقولَه مَن كان في موضعٍ مرتفعٍ لِمَن في موضعٍ منخفضٍ، ثم استُعمِلَتْ بمعنى: أقْبِلْ، في جميعِ الأمكنةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

أي: وأُطَلِّقْكنَّ طَلاقًا جَميلًا كما أذِنَ اللهُ وأَمَر، بلا غَضَبٍ ولا سَبٍّ وشَتمٍ، ولا منْعِ حَقٍّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۞ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ١، ٢].

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

= قال العُلَيمي: (﴿فَتَعَالَيْنَ﴾: أجِبْنَ إلى ما أعرِضُ عليكُنَّ، ولم يُرِدْ حقيقةَ الإقبالِ والمجيءِ). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٥٨).

قال ابنُ عاشور: (التَّمتيعُ: أن يُعطيَ الزَّوجُ امرأتَه حينَ يُطَلِّقُها عَطيَّةً؛ جَبرًا لخاطِرِها؛ لِما يَعرِضُ لها مِنَ الانكِسارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٦).

﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾.

أي: وإنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ ورَسولَه ونَعيمَ الآخرةِ، بحيثُ تَطيبُ أنفُسُكنَّ بما يُعطيكنَّ الرَّسولُ مِن نَفَقةٍ، ولا تُطالِبْنَه بزيادةٍ(١).

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

أي: فإنَّ اللهَ هيَّأ للمُحسِناتِ مِنكُنَّ ثَوابًا عَظيمًا، تُحتَقرُ له الدُّنيا وزِينتُها(٢).

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ نِساءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا اختَرْنَ اللهَ ورَسولَه والدَّارَ الآخِرةَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٦، ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣).

قال ابنُ العربي: (المعنى: أعطاهنَّ اللهُ بذلك ثوابًا مُتكاثِرَ الكيفيَّةِ والكَمِّيَّةِ في الدُّنيا والآخرةِ -وذلك بيِّنٌ في قَولِه تعالى: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١]- وزيادةَ رِزقٍ كَريمٍ مُعَدٍّ لهنَّ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٦٥). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠١).

وقال العليمي: (و«مِنْ» للتَّبيينِ؛ لأنهنَّ كلَّهنَّ كنَّ محسِناتٍ، فأخبَر بذلك عائشةَ رضي الله عنها، فاختارت رسولَ الله، ثمَّ اختارت الباقياتُ الصالحاتُ اختيارَها). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٥٩).

وقال السمعاني: (والمحسِناتُ هنَّ اللَّاتي اخترنَ الله ورسولَه والدَّارَ الآخرةَ، وجميعُ نساءِ النَّبيِّ قد اخترْنَ ذلك؛ فجميعُهنَّ محسناتٌ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٧٧).

وقال ابن جرير: (﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ وهنَّ العاملاتُ منهُنَّ بأمرِ الله، وأمرِ رسولِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨١).

ذكَرَ تعالى مُضاعَفةَ أجرِهنَّ، ومُضاعَفةَ وِزرِهنَّ وإثمِهنَّ، لو جرَى مِنهنَّ؛ ليزدادَ حَذَرُهنَّ وشُكرُهنَّ اللهَ تعالى[١].

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ قراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿مُبَيَّنَةٍ﴾ قيل: المعنى: أنَّ اللهَ تعالى بَيَّنَها، فهي ظاهِرةٌ[٢].

٢- قِراءةُ ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ قيل: المعنى: أنَّ الفاحِشةَ هي الفاعِلةُ والمُبَيِّنةُ على فاعِلِها والكاشِفةُ له. وقيل: المعنى: أنَّها ظاهِرةٌ في نَفْسِها وشَديدةُ الوُضوحِ على كَونِها فاحِشةً، فهي تُبَيِّنُ نَفْسَها[٣].

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾.

أي: يا أزواجَ النَّبيِّ مَن تأْتِ مِنكنَّ بفاحِشةٍ[٤] ظاهرةٍ، يُضاعَفْ لها العَذابُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٦).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وشعبةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨، ٣٤٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٢١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٩٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٩٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨، ٣٤٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٢١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٩٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٤) قال البغوي: (﴿بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ بمعصيةٍ ظاهرةٍ، قيلَ: هي كقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، لا أنَّ منهنَّ مَن أتتْ فاحشةً. وقال ابنُ عبَّاسٍ: المرادُ بالفاحشةِ: النُّشوزُ وسوءُ الخُلُقِ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٣٥). =

مِثْلَيْ عَذابِ مَن وقَعَ في تلك الفاحِشةِ[١].

= قيل: هي الزِّنا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وهو ظاهرُ اختيارِ الرازيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧١٥).

قال الرَّسْعَنيُّ بعدَ أن حكى قولَ السُّدِّيِّ: (أظُنُّ الحاملَ له على ذلك هذا القول؛ أنَّه رأى هذه اللَّفظةَ لهذا المعنى في مواضعَ مِن القرآنِ، ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بل سائرُ رُسلِه معصومون مِن صُحبةِ زَوجةٍ تُزَنُّ بهذه الرِّيبةِ ... فلا وجْهَ لِنَهيهِنَّ عمَّا لا يجوزُ وُقوعُه مِنهُنَّ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٤٢).

وممَّن اختار أنَّ المُرادَ: معصيةٌ ظاهرةٌ؛ مِن نُشوزٍ، وسُوءِ خُلُقٍ: الرسعنيُّ، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٤٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٦٠).

قال الرسعني: (﴿بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ قال ابنُ عبَّاس: يريدُ: النُّشوزَ وسوءَ الخُلقِ. فإن قيل: الفاحشةُ السَّيِّئةُ البليغةُ في القُبحِ، والنُّشوزُ وسوءُ الخُلقِ لا يَترقَّى إلى ذلك، فكيف سمَّاه فاحشةً؟ قلتُ: تعاظَمَ ذلك وتفاحَشَ لأجْلِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وكَوْنه هو المُعامَلَ به). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٤٢).

وقال ابنُ عاشور: (الفاحِشةُ: المَعصِيةُ، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وكلَّما وردَت الفاحِشةُ في القرآنِ نَكِرةً فهي المعصيةُ، وإذا وردت مَعرِفةً فهي الزِّنا ونحوُه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٩). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٠).

وقيل: هي العصيانُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٨٧).

وقال ابنُ كثير: (هو شَرطٌ، والشَّرطُ لا يقتضي الوقوعَ، كقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]... فلمَّا كانت محلَّتُهنَّ رَفيعةً ناسَب أن يجعَلَ الذَّنْبَ -لو وقع منهنَّ- مُغلَّظًا؛ صيانةً لجَنابِهنَّ وحِجابِهنَّ الرَّفيعِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٢)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٩، ٣٢٠).

قال ابنُ عاشور: (المضاعَفةُ: تكريرُ شَيءٍ ذي مِقدارٍ بمِثلِ مِقدارِه... وهو ضِعفٌ في القُوَّةِ وفي المدَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٩).

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

أي: وإنَّ مُضاعَفةَ اللهِ لِعَذابِ مَن تَفعَلُ ذلك هَيِّنٌ عليه، فلا يتعاظمُه ولا يَصعُبُ عليه[١].

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه أعقَبَ الوَعيدَ بالوَعدِ؛ جريًا على سُنَّةِ القُرآنِ[٢]، فبَيَّن زيادةَ ثوابِ زَوجاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما بيَّن زيادةَ عِقابِهنَّ[٣].

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾.

أي: ومَن تُداوِمْ مِنكُنَّ على طاعةِ اللهِ وطاعةِ رَسولِه، وتَعمَلِ الأعمالَ الصَّالحةَ الَّتي شَرَعها اللهُ بإخلاصٍ له سُبحانَه- نُؤتِها ثَوابَها في الآخِرةِ مِثْلَيْ ما نُعطي غَيرَها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩١)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢١٢).

قال الرازي: (أي ليس كَونُكنَّ تحتَ النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- وكَونُكنَّ شَريفاتٍ جليلاتٍ: ممَّا يدفَعُ العذابَ عنكُنَّ، وليس أمرُ اللهِ كأمرِ الخَلقِ؛ حيث يَتعذَّرُ عليهم تعذيبُ الأعِزَّةِ؛ بسَبَبِ كثرةِ أوليائِهم وأعوانِهم، أو شُفَعائِهم وإخوانِهم). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٧٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢١٣، ٢١٤).

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

أي: وأعدَدْنا لها رِزقًا حَسَنًا جَميلًا، وعَيشًا في الجَنَّةِ هَنيئًا[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أنَّ النِّيَّةَ لها أثرٌ عظيمٌ في زيادةِ الثَّوابِ؛ لأنَّه رَتَّبَ هذا الثَّوابَ على هذه الإرادةِ، والنِّيَّةِ الطَّيِّبَةِ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيه إعلامٌ لهنَّ أنَّ في اختيارِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ اختيارَ اللهِ ورَسولِه والدَّارِ الآخِرةِ، وهذه الثَّلاثةُ هي الدِّينُ[٣].

٣- المرءُ كُلَّما كانت نِعمةُ اللهِ عليه أتَمَّ، كانت عُقوبتُه إذا ارتكَبَ الجرائمَ أتَمَّ؛ ولهذا قال تعالى في حَقِّ مَن أتَمَّ نِعمَتَه عليهِنَّ مِن النِّساءِ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٨).

وممَّن قال بأنَّ الرزقَ الكريمَ هنا: في الجنةِ: ابنُ جرير، والواحدي، وابن كثير. يُنظر: المصادر السابقة.

قال النحاس: (أهلُ التَّفسيرِ على أنَّ الرِّزقَ الكريمَ هاهنا: الجنَّةُ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٢١٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٢).

قال ابنُ عثيمين: (المرادُ بالرِّزقِ الكريم هنا: العَطاءُ الكَثيرُ الحَسَنُ الجَميلُ، وهذا إنَّما يكونُ في الجنَّةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢١٥).

وقيل: هو في الدُّنيا والآخرةِ. وممَّن قال بذلك: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٥).

يَسِيرًا ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾، وهذا على وَفْقِ قضايا العقولِ ومُستَحسَناتِها؛ فإنَّ العبدَ كلَّما كمَلَتْ نِعمةُ اللهِ عليه ينبغي له أنْ تكونَ طاعتُه له أكمَلَ، وشُكرُه له أتَمَّ، ومَعصيتُه له أقبَحَ. وشِدَّةُ العُقوبةِ تابعةٌ لقُبحِ المعصيةِ؛ ولهذا كان أشَدُّ النَّاسِ عذابًا يومَ القيامة عالِمًا لم يَنفَعْه اللهُ بعِلمِه؛ فإنَّ نِعمةَ اللهِ عليه بالعِلمِ أعظَمُ مِن نِعمتِه على الجاهِلِ، وصُدورَ المعصيةِ منه أقبَحُ مِن صُدورِها مِن الجاهِلِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أنَّ صاحِبَ الشَّرَفِ يكونُ ذمُّه على تَخَلُّفِه عن الواجبِ أعظَمَ[٢]، وأنَّ الذَّنْبَ مِنَ المقرَّبينَ أشَدُّ مِن الذَّنبِ مِن غيرِ المقرَّبينَ[٣]؛ فالسَّيِّئاتُ تُضاعَفُ بشَرَفِ فاعِلِها، وقُوَّةِ مَعرفتِه بالله، وقُربِه منه؛ فإنَّ مَن عصى السُّلطانَ على بِساطِه أعظَمُ جُرمًا ممَّن عصاه على بُعدٍ؛ ولهذا توعَّد اللهُ خاصَّةَ عِبادِه على المعصيةِ بمُضاعَفةِ الجزاءِ، وإن كان قد عصَمَهم منها؛ ليُبَيِّنَ لهم فَضْلَه عليهم بعِصمتِهم مِن ذلك[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّ اللهُ سُبحانَه وتعالى أكرَمَ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مُخاطَبتِه إيَّاه بما لم يُكرِمْ به أحدًا مِنَ الأنبياءِ؛ فلم يَدْعُه باسمِه في القُرآنِ قَطُّ، بل يَقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣١٨).

(٥) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٤٢٢). =

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾ أنَّه لو تَضَجَّرَتِ المرأةُ مِن زوجِها لِقِلَّةِ ذاتِ اليدِ، كإنسانٍ فقيرٍ؛ وهي مثلًا مِن بيتٍ أغنياء؛ ورأى أنَّ المرأةَ مُتَضَجِّرَةٌ مِن فَقْرِه، فهنا نقول: يُستحَبُّ أنْ يُشاوِرَها مثل ما أمرَ اللهُ نبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

٣- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ فخيَّرهنَّ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذلك، فاختَرْنَ اللهَ ورَسولَه والدَّارَ الآخِرةَ، كُلُّهنَّ، ولم يتخَلَّفْ مِنهنَّ واحِدةٌ -رَضِيَ اللهُ عنهُنَّ- وفي هذا التَّخييرِ فوائِدُ عَديدةٌ:

منها: الاعتِناءُ برَسولِه وغَيرتُه عليه أن يكونَ بحالةٍ يَشُقُّ عليه كَثرةُ مَطالِبِ زَوجاتِه الدُّنيويَّةِ.

ومنها: سلامتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذا التَّخييرِ مِن تَبعةِ حُقوقِ الزَّوجاتِ، وأنَّه يبقَى في حُرِّيةِ نَفْسِه؛ إنْ شاء أعطَى، وإنْ شاء منَع ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

ومنها: تَنزيهُه عمَّا لو كان فيهنَّ مَن تُؤثِرُ الدُّنيا على اللهِ ورَسولِه والدَّارِ الآخرةِ، وعن مُقارَنتِها.

ومنها: سلامةُ زَوجاتِه رَضِيَ اللهُ عنهنَّ عن الإثمِ والتعَرُّضِ لسَخَطِ اللهِ ورَسولِه؛ فحَسَمَ اللهُ بهذا التَّخييرِ عنهُنَّ التسَخُّطَ على الرَّسولِ، الموجِبَ لِسَخَطِه، المُسخِطَ لرَبِّه، الموجِبَ لعِقابِه.

= ويُنظر ما تقدم (ص: ١٤-١٥).

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ١١).

ومنها: إظهارُ رِفعتِهنَّ وعُلوِّ دَرَجتِهنَّ، وبيانُ عُلُوِّ هِمَمِهنَّ؛ أن كان اللهُ ورَسولُه والدَّارُ الآخِرةُ مُرادَهنَّ ومَقصودَهنَّ دونَ الدُّنيا وحُطامِها.

ومنها: استِعدادُهنَّ بهذا الاختيارِ للأمرِ الخِيارِ؛ للوُصولِ إلى خِيارِ درَجاتِ الجنَّةِ، وأن يَكُنَّ زَوجاتِه في الدُّنيا والآخرةِ.

ومنها: ظُهورُ المناسَبةِ بيْنَه وبيْنَهنَّ؛ فإنَّه أكمَلُ الخَلقِ، وأراد اللهُ أن تكونَ نِساؤُه كامِلاتٍ مُكَمَّلاتٍ، طَيِّباتٍ مُطَيَّباتٍ ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦].

ومنها: أنَّ هذا التَّخييرَ داعٍ ومُوجِبٌ للقناعةِ الَّتي يَطمَئِنُّ لها القَلبُ، ويَنشرِحُ لها الصَّدرُ، ويَزولُ عَنهُنَّ جَشَعُ الحِرصِ، وعَدَمُ الرِّضا الموجِبُ لقَلَقِ القَلبِ واضطِرابِه، وهَمِّه وغَمِّه.

ومنها: أن يكونَ اختيارُهنَّ هذا سَببًا لزيادةِ أجرِهنَّ ومُضاعفتِه، وأن يَكُنَّ بمرتبةٍ ليس فيها أحدٌ مِنَ النِّساءِ(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ فيه تخييرُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نساءَه بينَ الإقامةِ معه وفراقِه، وأنَّ التخييرَ ليس طلاقًا؛ لقولِه تعالى: ﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾(٢).

٥- غايةُ أعمالِ الأبرارِ والمقرَّبينَ والمحِبِّينَ: إرادةُ وَجهِه، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾، فجعَلَ إرادتَه غيرَ إرادةِ الآخِرةِ، وهذه الإرادةُ لوَجهِه موجِبةٌ لِلَذَّةِ النَّظَرِ إليه في

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١١).

الآخِرةِ[١].

٦- كمالُ خُلُقِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيث أمَرَه اللهُ تعالى أنْ يقولَ: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، بيْنَما كان مقتضَى الحالِ أنْ يُوَبَّخْنَ على ذلك، ويُؤَنَّبْنَ عليه، لكنَّه قيل: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أنَّ مَن طلَّقَها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم فإنَّها تُباحُ لِغَيرِه أنْ يَتزوَّجَها، ولولا هذا لم يحصُلْ لهنَّ بالتَّخييرِ فائدةٌ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أنَّ مُجَرَّدَ الزُّهدِ في الدُّنيا لا حَمدَ فيه، كما لا حَمدَ على الرَّغبةِ فيها، وإنَّما الحمدُ على إرادةِ اللهِ والدَّارِ الآخرةِ، والذَّمُّ على إرادةِ الدُّنيا، المانعةِ مِن إرادةِ ذلك[٤].

٩- أنَّ إرادةَ اللهِ تعالى ورَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم والدَّارِ الآخِرةِ: هو مِن الإحسانِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٥].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ خَصَّ اللهُ تعالى نِساءَ النَّبيِّ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تلخيص كتاب الاستغاثة لابن تيمية)) لابن كثير (٢/ ٦٥٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٠٩).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتَضعيفِ العُقوبةِ على الذَّنبِ، والمَثوبةِ على الطَّاعةِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: لأنَّهنَّ يُشاهِدْنَ مِنَ الزَّواجِرِ الرَّادِعةِ عن الذُّنوبِ ما لا يُشاهِدُه غَيرُهنَّ، ولأنَّ في مَعصيَتِهنَّ أذًى لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذَنْبُ مَن آذَى رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أعظَمُ مِن ذَنبِ غَيرِه.

الوجهُ الثَّاني: لأنَّهنَّ أشرَفُ مِن سائِرِ النِّساءِ؛ لِقُربِهنَّ مِن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فكانت الطَّاعةُ مِنهنَّ أشرَفَ، كما أنَّ المعصيةَ مِنهنَّ أقبَحُ[(١)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ حمايةُ فراشِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم التَّامَّةُ؛ لِكَونِ المرأةِ إذا أَتَتْ بفاحشةٍ مُبَيِّنةٍ مِن زَوجاتِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى يُضاعِفُ لها العذابَ، كلُّ ذلك مِن أجْلِ حمايةِ فِراشِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وسواءٌ قُلْنا: إنَّ المرادَ بالفاحشةِ الزِّنا، أو المرادَ بها بذاءةُ اللِّسانِ[(٢)].

١٢- إنَّ مُضاعَفةَ العَذابِ في قَولِه تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ وَرَدَ تعظيمًا لحقِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ وُقوعَ ذلك مِن نِسائِه يقتَضي أمرًا زائدًا على الفاحِشةِ، وهو أذى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[(٣)].

١٣- في قولِه: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ إيذانٌ بأنَّ كَوْنَهنَّ نِساءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليس بمُغْنٍ عنْهُنَّ شيئًا، وكيف يُغْني عنهُنَّ وهو سَببُ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٩، ٤٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٢٩).

مُضاعَفةِ العذابِ؟! فكان داعيًا إلى تَشديدِ الأمْرِ عليهنَّ، غيرَ صارفٍ عنه[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أنَّ فضلَ اللهِ تعالى واسعٌ؛ فقد يُصيبُ العاملُ أجرَه مرَّتَينِ لسببٍ مِن الأسبابِ[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ كمالُ عَدْلِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ فلمَّا ضَعَّفَ لها العذابَ ضَعَّفَ لها الثَّوابَ والأجرَ[٣].

١٦- قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ وصَفَه الله تعالى بالكريمِ؛ لأنَّه أفضَلُ جنسِه[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ...﴾ افتِتاحُ هذه الأحكامِ بنِداءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، تَنبيهٌ على أنَّ ما سيُذكَرُ بعدَ النِّداءِ له مَزيدُ اختصاصٍ به، وهو غرَضُ تَحديدِ سِيرةِ أزواجِه معه سِيرةً تُناسِبُ مَرتبةَ النُّبوَّةِ، وتَحديدِ تَزوُّجِه[٥].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ...﴾ أي: إنْ كُنتنَّ تُؤثِرْنَ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣١٥).

في الحياةِ مِن التَّرفِ على الاشتغالِ بالطَّاعاتِ والزُّهدِ؛ فالكلامُ فيه على حَذفِ مُضافٍ يُقدَّرُ صالحًا للعُمومِ؛ إذ لا دليلَ على إرادةِ شأْنٍ خاصٍّ مِن شُؤونِ الدُّنيا. وهذه نُكتةُ تَعديةِ فِعلِ ﴿تُرِدْنَ﴾ إلى اسمِ ذاتِ الحَياةِ دونَ حالٍ مِن شُؤونِها. وعَطْفُ (زِينَتَهَا) عطْفُ خاصٍّ على عامٍّ، وفي عَطْفِه زِيادةُ تَنبيهٍ على أنَّ المقصودَ المحذوفَ عامٌّ[١].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ تَجريدُ (إنْ) الشَّرطيَّةِ عن الوعيدِ؛ للمُبالَغةِ في تَحقيقِ معنى التَّخييرِ، والاحترازِ عن شائبةِ الإكراهِ، وهو السِّرُّ -فيما ذُكِرَ- مِن تَقديمِ التَّمتيعِ على التَّسريحِ، وفي وَصفِ السَّراحِ بالجَميلِ[٢].

- وتقديمُ اختيارِ الدُّنيا فيه إشارةٌ إلى أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غيرُ مُلتفِتٍ إلى جانبِهنَّ غايةَ الالتِفاتِ، وكيف وهو مشغولٌ بعبادةِ ربِّه[٣].

- قوله: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (تعالَيْنَ): استُعمِل هنا تَمثيلًا لحالِ تَهيُّؤِ الأزواجِ لأخْذِ التَّمتيعِ وسَماعِ التَّسريحِ بحالِ مَن يَحضُرُ إلى مكانِ المُتكلِّمِ[٤].

- وتَقديمُ التَّمتيعِ على التَّسريحِ المُسبَّبِ عنه، مِن بابِ الكرمِ وحُسنِ الخُلقِ، وفيه قَطعٌ لِمَعاذيرِهنَّ مِن أوَّلِ الأمْرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٤١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠١).

٢- قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي: تُؤثِرْنَ رِضا اللهِ لِمَا يُرِيدُه لرَسولِه؛ فالكلامُ على حَذفِ مُضافٍ يَقتضيهِ المقامُ[(١)].

- وإرادةُ الدَّارِ الآخِرةِ: إرادةُ فَوزِها؛ فالكَلامُ على حَذفِ مُضافٍ يَقْتضيهِ المقامُ، فأُسلوبُ الكلامِ جَرى على إناطةِ الحُكمِ بالأعيانِ، وهو أُسلوبٌ يَقْتضي تَقديرًا في الكلامِ مِن قَبيلِ دلالةِ الاقتضاءِ، وفي حَذفِ المضافاتِ، وتَعليقِ الإرادةِ بأسماءِ الأعيانِ الثَّلاثةِ؛ مَقصِدُ أنْ تكونَ الإرادةُ مُتعلِّقةً بشُؤونِ المضافِ إليه الَّتي تَتنزَّلُ مَنزلةَ ذاتِه، مع قَضاءِ حقِّ الإيجازِ بعدَ قَضاءِ حقِّ الإعجازِ[(٢)].

- قولُه: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أوقَعَ الاسمَ الظَّاهرَ ﴿ لِلْمُحْسِنَٰتِ ﴾ مَوقِعَ المُضمَرِ؛ تَنبيهًا على الوَصفِ الَّذي تَرتَّبَ لهنَّ به الأجرُ العظيمُ، وهو الإحسانُ؛ لِيَعلَمْنَ أنَّ هذا الأجْرَ حاصلٌ لهنَّ على قَدْرِ إحسانِهنَّ، وكأنَّه قال: أعَدَّ لَكُنَّ؛ لأنَّ مَن أراد اللهَ ورسولَه والدَّارَ الآخرةَ كان مُحسِنًا[(٣)].

- وفي ذِكرِ الإعدادِ إفادةُ العِنايةِ بهذا الأجْرِ والتَّنويه به زِيادةً على وَصْفِه بالعظيمِ. وتَوكيدُ جُملةِ الجزاءِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ إظهارٌ للاهتِمامِ بهذا الأجرِ[(٤)].

٣- قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٧، ٣١٨).

ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾

- قولُه: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ تَلوينٌ للخِطابِ، وتَوجيهٌ له إليهنَّ؛ لإظهارِ الاعتِناءِ بنُصحِهنَّ، ونِداؤهنَّ هاهنا وفيما بعدَه بالإضافةِ إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّها الَّتي يَدورُ عليها ما يَرِدُ عليهنَّ مِن الأحكامِ، ولِيَعلَمْنَ أنَّ ما سَيُلْقى إليهنَّ خبرٌ يُناسِبُ عُلوَّ أقْدارِهنَّ[١].

- وفي قَولِه: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، فعندَ إيتاءِ الأجرِ ذُكِرَ المُؤْتي، وهو اللهُ، فقال: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾، وعندَ العذابِ لم يُصرِّحْ بالمعَذِّبِ، فقال: ﴿يُضَٰعَفۡ﴾؛ إشارةً إلى كمالِ الرَّحمةِ والكَرَمِ، كما أنَّ الكريمَ الحَيَّ عندَ النَّفعِ يُظهِرُ نَفْسَه وفِعلَه، وعندَ الضُّرِّ لا يَذكُرُ نَفْسَه[٢]. وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّ البناءَ للمَفعولِ يدُلُّ على العنايةِ بالتَّهويلِ بالعَذابِ، بجَعلِه عُمدةَ الكلامِ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾

- وفي قولِه: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ أُسنِدَ فِعلُ إيتاءِ أجْرِهنَّ إلى ضَميرِ الجلالةِ بوَجهٍ صَريحٍ في قولِه: ﴿نُّؤۡتِهَآ﴾؛ تَشريفًا لإيتائِهنَّ الأجْرَ؛ لأنَّه المأمولُ بهنَّ، وكذلك فِعلُ ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾[٤].

- وضَميرُ ﴿أَجۡرَهَا﴾ عائدٌ إلى (مَن) باعتبارِ أنَّها صادقةٌ على واحدةٍ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥).

نِساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وفي إضافةِ الأجْرِ إلى ضَميرِها في قولِه: ﴿أَجْرَهَا﴾ إشارةٌ إلى تَعظيمِ ذلك الأجْرِ بأنَّه يُناسِبُ مَقامَها، وإلى تَشريفِها بأنَّها مُستحِقَّةٌ ذلك الأجْرَ[١].

- والعُدولُ عن المُضارعِ إلى فِعلِ الماضِي في قولِه: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾؛ لإفادةِ تَحقيقِ وُقوعِه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٦).

الآيات (٣٢-٣٤)

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾: أي: لا تَلِنَّ بالقولِ، والخُضوعُ بالقَولِ: تَرقيقُ الكَلامِ إذا خاطَبْنَ الرِّجالَ، وأصلُ (خضع) هنا: تَطامُنٌ في الشَّيءِ[(١)].

﴿وَقَرۡنَ﴾: أي: اثبُتْنَ واسْكُنَّ، مِنَ القَرارِ في المكانِ: بمعنى الاستِقرارِ فيه، وأصلُ (قرر): يدُلُّ على التَّمَكُّنِ[(٢)].

﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ﴾: أي: لا تُبْرِزنَ مَحاسِنَكنَّ وتُظهِرْنَها، وأصلُ (برج): يدُلُّ على بُروزٍ وظُهورٍ[(٣)].

﴿ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾: الجاهِلِيَّةُ: مَنسوبةٌ إلى الجَهلِ، وهي مُتضمِّنةٌ لعدَمِ العِلمِ، أو

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

لعَدَمِ العَمَلِ به، وأصلُ (جهل): يدُلُّ على خِلافِ العِلمِ[١].

﴿ٱلرِّجۡسَ﴾: أي: الإثمَ والقَذَرَ، والسُّوءَ والفَحشاءَ، وأصلُ (رجس): يدُلُّ على اختِلاطٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: يا أزواجَ النَّبيِّ لَسْتُنَّ كأيِّ امرأةٍ مِن النِّساءِ في الفَضلِ والشَّرَفِ إنِ اتَّقَيْتُنَّ اللهَ تعالى؛ فلا تُلِنَّ كلامَكُنَّ للرِّجالِ على وجهٍ فيه خُضوعٌ، فيَطمَعَ مَن في قَلبِه مَرَضُ الشَّهوةِ، وإرادةُ الفُجورِ، وتكلَّمْنَ بكلامٍ مُباحٍ حَسَنٍ لا خُشونةَ فيه ولا بَذاءةَ، والْزَمْنَ بُيوتَكنَّ إلَّا لحاجةٍ، ولا تُظْهِرْنَ زينَتَكنَّ كعادةِ نِساءِ الجاهليَّةِ، وأقمِنْ الصَّلاةَ وآتِينَ الزَّكاةَ، وأطِعْنَ اللهَ ورَسولَه.

إنَّما يريدُ اللهُ أن يُذهِبَ عنكم مَساوِئَ الأخلاقِ والأعمالِ -يا أهلَ بَيتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٧، ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٤٠)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠٩).

قال ابنُ تيميَّةَ: (ولفظُ الجاهليَّةِ قد يكونُ اسمًا للحالِ، وهو الغالِبُ في الكتابِ والسُّنَّةِ، وقد يكونُ اسمًا لِذي الحالِ؛ فمِنَ الأوَّلِ قَولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه: «إنَّك امرُؤٌ فيك جاهليَّةٌ» [البخاري «٣٠»، ومسلم «١٦٦١»]... فإنَّ الجاهليَّةَ وإن كانت في الأصلِ صِفةً لكِنَّه غَلَب عليه الاستعمالُ حتَّى صار اسمًا، ومعناه قريبٌ مِن معنى المصدرِ. وأمَّا الثَّاني فتقولُ: طائفةٌ جاهليَّةٌ، وشاعرٌ جاهليٌّ؛ وذلك نسبةً إلى الجَهلِ الَّذي هو عدَمُ العِلمِ، أو عدَمُ اتِّباعِ العِلمِ؛ فإنَّ مَن لم يعلَمِ الحَقَّ فهو جاهِلٌ جهلًا بسيطًا، فإن اعتَقَد خلافَه فهو جاهِلٌ جَهلًا مُركَّبًا، فإن قال خلافَ الحَقِّ عالِمًا بالحَقِّ، أو غيرَ عالمٍ، فهو جاهِلٌ أيضًا). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٠).

محمَّدٍ- ويُطَهِّرَكم تَطهيرًا.

واذكُرْنَ -يا أزواجَ النَّبيِّ- ما يُتلَى في بُيوتِكنَّ مِن آياتِ القُرآنِ والسُّنةِ؛ إنَّ اللهَ كان لطيفًا خبيرًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾.

أي: يا أزواجَ النَّبيِّ لَستُنَّ مُساوياتٍ أو مُشابِهاتٍ لأيِّ امرأةٍ أخرى مِنَ النِّساءِ في الفَضلِ والشَّرفِ، إنِ اتَّقيتُنَّ اللهَ بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه[1].

﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾.

أي: فلا تُلِنَّ كَلامَكنَّ للرِّجالِ على وَجهٍ فيه خُضوعٌ وانكِسارٌ لهم، فيَطمَعَ فِيكُنَّ مَن في قَلبِه مَرَضُ الشَّهوةِ المحَرَّمةِ، وإرادةُ الفُجورِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٨)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦، ٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (٢١٧، ٢١٨).

قال ابنُ جُزَي: (فضَّلهنَّ الله على النِّساءِ بشرطِ التقوَى، وقد حصَل لهنَّ التقوَى، فحصَل التفضيلُ على جميعِ النِّساءِ، إلَّا أنَّه يخرُجُ مِن هذا العُمومِ فاطِمةُ بنتُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومريمُ بنتُ عِمرانَ، وآسيةُ امرأةُ فرعونَ؛ لِشَهادةِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لكُلِّ واحدةٍ منهُنَّ بأنَّها سَيِّدةُ نِساءِ عالَمِها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٤، ٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣).

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا نهاهُنَّ عن الخُضوعِ في القَولِ، فرُبَّما تُوهِّمَ أنَّهنَّ مَأموراتٌ بإغلاظِ القَولِ، فدفَعَ هذا بقَولِه[1]:

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

أي: وتَكلَّمْنَ بكَلامٍ مُباحٍ حَسَنٍ، بلا خُشونةٍ وغِلظةٍ، ولا بَذاءةٍ[2].

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَقدَّمَ إليهِنَّ في القَولِ وقَدَّمَه لِعُمومِه؛ أتْبَعَه الفِعلَ، فقال[3]:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَقَرْنَ﴾ قِراءتانِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٢٤)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩).

قال الشوكاني: (﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ عندَ النَّاسِ، بعيدًا مِن الرِّيبةِ، على سَننِ الشَّرعِ، لا يُنكِرُ سامِعُه شيئًا، ولا يَطمعُ فيهنَّ أهلُ الفِسقِ والفُجورِ بسبَبِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٤).

١- قِراءةُ ﴿وَقَرْنَ﴾ بمعنى الاستِقرارِ، أي: واقْرَرْنَ في بُيوتِكنَّ[(١)].

٢- قِراءةُ ﴿وَقِرْنَ﴾ وفي معناها وجهان؛ الأوَّلُ: كُنَّ أهلَ وَقارٍ وسَكينةٍ، والثَّاني: القَرارُ في البُيوتِ، وعلى هذا الوجهِ تَكونُ القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ[(٢)].

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

أي: والْزَمْنَ -يا نِساءَ النَّبيِّ- بُيوتَكنَّ، فلا تَخرُجْنَ منها لِغَيرِ حاجةٍ[(٣)].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((خَرَجَت سَوْدةُ بعدَما ضُرِبَ الحِجابُ

---

(١) قرأ بها نافع، وعاصم، وأبو جعفر المدني. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٦)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٩٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٧٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٦)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٧٧، ٥٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠).
قيل: يَدخُلُ في هذا الخِطابِ لِنساءِ النَّبيِّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- غيرُهنَّ مِن النِّساءِ. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧٩).
وقيل: وُجوبُ هذا الأمرِ خاصٌّ بنساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عاشور، وقال: (هذا الحُكمُ وُجوبٌ على أمَّهاتِ المؤمِنينَ، وهو كمالٌ لسائرِ النِّساءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠).
قيل: إنَّ الإضافةَ في قولِه تعالى: ﴿بُيُوتِكُنَّ﴾ أفادت أنَّها مِلكٌ لهنَّ. وقيل: الإضافةُ للاختصاصِ، وليس للتَّمليكِ، وإنَّما أُضيفَت البيوتِ إليهنَّ؛ لأنَّهنَّ ساكناتٌ بها. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٦١٢، ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٤٠).

لحاجتِها، وكانت امرأةً جَسيمةً[١] لا تخفَى على مَن يَعرِفُها، فرآها عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، فقال: يا سَوْدةُ، أمَا واللهِ ما تَخفَيْنَ علينا؛ فانظُري كيف تَخرُجينَ! قالت: فانكفَأَتْ[٢] راجِعةً، ورَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في بَيتي، وإنَّه لَيَتعشَّى وفي يَدِه عَرْقٌ[٣]، فدخَلَتْ فقالت: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي خَرَجتُ لِبَعضِ حاجَتي، فقال لي عُمَرُ كذا وكذا، قالت: فأوحى اللهُ إليه ثمَّ رُفِعَ عنه، وإنَّ العَرْقَ في يَدِه ما وضَعَه، فقال: إنَّه قد أُذِنَ لكُنَّ أن تَخرُجْنَ لحاجَتِكُنَّ))[٤].

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

أي: ولا تُظْهِرْنَ زِينَتَكنَّ وتُبْرِزْنَ مَحاسِنَكُنَّ للرِّجالِ، كعادةِ النِّساءِ في الجاهليَّةِ قبْلَ الإسلامِ[٥].

---

(١) جَسيمةً: أي: عَظيمةَ الجِسْمِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ١٥٠).

(٢) فانكَفَأَتْ: أي: انقلَبَت وانصرَفَت. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٩/ ٣٧٨٣).

(٣) عَرقٌ: هو العَظمُ الَّذي عليه بقيَّةُ لحمٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ١٥١).

(٤) رواه البخاري (٤٧٩٥) واللفظ له، ومسلم (٢١٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢، ١٣).

قال ابن جرير: (قيل: إنَّ التَّبرُّجَ في هذا الموضعِ: التَّبختُرُ والتَّكسُّرُ... وقيل: إنَّ التَّبرُّجَ هو إظهارُ الزِّينةِ، وإبرازُ المرأةِ مَحاسِنَها للرِّجالِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٧).

وقيل: التَّبرُّجُ هو مشْيُ المرأةِ بينَ يدَيِ الرَّجُلِ. قاله مجاهدٌ. وقيل: هو أن تُلقيَ الخِمارَ على رأسِها ولا تَشُدَّه ليُواريَ قلائدَها وعنقَها وقُرْطَها، ويبدو ذلك كلُّه منها، قاله مقاتلُ بنُ حيانَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٩٩).

وجمَع القرطبيُّ بيْنَ هذه الأقوالِ، فقال: (... المقصود مِن الآيةِ مُخالَفةُ مَن قَبْلَهُنَّ مِن المِشْيةِ على تَغْنيجٍ وتَكسيرٍ وإظهارِ المحاسِنِ للرِّجالِ، إلى غيرِ ذلك ممَّا لا يجوزُ شرعًا. وذلك يَشملُ الأقوالَ كلَّها ويَعُمُّها). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٠).

قال الرازي: (وقولُه تعالَى: ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فيه وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ المرادَ مَن كان في زمنِ نوحٍ، والجاهِليَّةُ الأُخرى مَن كان بعْدَه. وثانيهما: أنَّ هذه ليستْ أُولَى تَقْتَضي أُخرى، بل =

﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَهنَّ بلُزومِ البُيوتِ للتَّخليةِ عن الشَّوائِبِ؛ أرشدَهنَّ إلى التَّحليةِ بالرَّغائبِ، فقال[1]:

﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: وأدِّينَ الصَّلاةَ[2] للهِ على الوَجهِ المُستقيمِ، وآتِينَ الزَّكاةَ أهْلَها المُستحِقِّينَ لها، كما أمَرَ اللهُ تعالى[3].

﴿وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

= معناه: تبرُّجُ الجاهليَّةِ القديمةِ، كقولِ القائلِ: أينَ الأكاسِرةُ الجبابرةُ الأُولَى). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٧).

وقال ابن عاشور: (ووصْفُها بـ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ وَصْفٌ كاشِفٌ لأنَّها أُولَى قبْلَ الإسلامِ، وجاءَ الإسلامُ بعدَها، فهو كقولِه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ [النَّجْم: ٥٠]، وكقولِهم: العِشاءُ الآخِرةُ، وليس ثَمَّةَ جاهلِيَّتانِ أُولَى وثانيةٌ. ومِن المُفَسِّرينَ مَنْ جَعَلوه وصْفًا مُقَيِّدًا، وجعلوا الجاهليَّةَ جاهليَّتَيْنِ، فمِنْهم مَن قالَ: الأولَى هي ما قبْلَ الإسلامِ، وستكونُ جاهليَّةٌ أُخرَى بعدَ الإسلامِ، يعني: حينَ تَرتَفِعُ أحكامُ الإسلامِ والعياذُ باللهِ. ومنهم مَن قال: الجاهليَّةُ الأُولَى هي القديمةُ مِن عهدِ ما قبْلَ إبراهيمَ، ولم يَكُنْ لِلنِّساءِ وازِعٌ ولا للرِّجالِ، ووضَعوا حكاياتٍ في ذلك مُختلِفةً أو مُبالَغًا فيها أو في عُمومِها، وكلُّ ذلك تَكَلُّفٌ دعاهم إليه حملُ الوصفِ على قصدِ التَّقييدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٠٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٥).

(٢) قيل: المرادُ: الصَّلواتُ المفروضةُ. وممَّن قال بذلك: يحيى بنُ سلام، وابن جرير. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٠، ١٠١).

وقيل: المرادُ: الفرائِضُ والنَّوافِلُ. وممَّن قال بذلك: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٣٠).

أي: وأطِعْنَ اللهَ ورَسولَه في أمْرِهما ونَهيِهما[١].

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾.

أي: إنَّما يُريدُ اللهُ[٢] أن يُذهِبَ عنكم مَساوِئَ الأخلاقِ والأعمالِ -يا أهلَ بَيتِ مُحمَّدٍ- بما يأمُرُكم ويَنهاكم، ويُحِبُّ أن يُطَهِّرَكم تَطهيرًا مِن دنَسِ السَّيِّئاتِ[٣].

عن أمِّ المؤمِنينَ عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((خرجَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غَداةً وعليه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ[٤] مِن شَعَرٍ أسْوَدَ، فجاء الحَسَنُ بنُ عَليٍّ فأدخَلَه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤).

(٢) والمرادُ بالإرادةِ هنا: الإرادةُ الشَّرعيَّةُ، لا الكَونيَّةُ كما يزعُمُ الرَافضةُ، ويَدَّعون العِصمةَ لأئمَّتِهم بِناءً على ذلك! يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٧١، ٧٢)، ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) للألباني (٦/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٨١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٦، ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٣٤-٢٣٥، ٢٤٣).

قال ابنُ تيميَّة: (سياقُ الآيةِ يقتضي أنَّه يريدُ لِيُذهِبَ عنهم الرِّجسَ -الَّذي هو الخَبَثُ؛ كالفواحِشِ-، ويُطَهِّرَهم تطهيرًا مِن الفواحِشِ وغيرِها مِن الذُّنوبِ... والتَّطهيرُ عن الذَّنبِ: إمَّا بألَّا يَفعَلَه العَبدُ، وإمَّا بأن يتوبَ منه... وبالجُملةِ: لفظُ «الرِّجسِ» أصلُه القَذَرُ، ويرادُ به الشِّركُ... ويرادُ به الخبائِثُ المحَرَّمةُ؛ كالمطعوماتِ والمشروباتِ... ولفظُ «الرجس» عامٌّ يقتضي أنَّ اللهَ يريدُ أن يُذهِبَ جميعَ الرِّجسِ... وقد يكونُ مِن تمامِ تَطهيرِهم صيانتُهم عن الصَّدَقةِ الَّتي هي أوساخُ النَّاسِ... وبالجُملةِ فالتَّطهيرُ الَّذي أراده اللهُ، والَّذي دعا به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ليس هو العِصمةَ، بالاتِّفاقِ؛ فإنَّ أهلَ السُّنَّةِ عندَهم لا مَعصومَ إلَّا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. والشِّيعةُ يقولونَ: لا مَعصومَ غيرُ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-، والإمامِ). ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ٧٩-٨٣).

(٤) مِرْطٌ مُرَحَّلٌ: كِساءُ خَزٍّ أو صُوفٍ، منقوشٌ عليه صُوَرُ رِحالِ الإبلِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٩/ ٣٩٦٢).

ثمَّ جاء الحُسَينُ فدخَلَ معه، ثمَّ جاءت فاطِمةُ فأدخَلَها، ثمَّ جاء عليٌّ فأدخَلَه، ثمَّ قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾))[١].

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى نِساءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعَمَلِ الَّذي هو فِعلٌ وتَركٌ؛ أمَرَهنَّ بالعِلمِ، وبيَّنَ لهنَّ طَريقَه[٢].

وأيضًا لَمَّا ضَمِنَ اللهُ لِزَوجاتِ نَبيِّه العَظَمةَ، أمَرَهنَّ بالتَّحلِّي بأسبابِها، والتَّملِّي مِن آثارِها، والتَّزوُّدِ مِن عِلمِ الشَّريعةِ بدِراسةِ القرآنِ؛ لِيَجمَعَ ذلك اهتِداءَهنَّ في أنفُسِهنَّ ازديادًا في الكَمالِ والعِلمِ، وإرشادَهنَّ الأُمَّةَ إلى ما فيه صَلاحٌ لها مِن عِلمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣].

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾.

أي: واذكُرْنَ[٤] -يا أزواجَ النَّبيِّ- ما يُتلَى في بُيوتِكنَّ مِن آياتِ القُرآنِ، والسُّنَّةِ[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨).

(٤) قال السعدي: (أمرُهنَّ بذِكرِه يَشمَلُ ذِكرَ لَفظِه بتِلاوتِه، وذِكرَ معناه بتَدَبُّرِه والتَفَكُّرِ فيه، واستخراجِ أحكامِه وحِكَمِه؛ وذِكرَ العَمَلِ به وتأويلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨).
والحِكمةُ: قيل: هي السُّنَّةُ. وممَّن قال بذلك: الشافعي، وابن جرير، وأبو عَمرٍو الداني، =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو المتَّصِفُ أزَلًا وأبدًا باللُّطفِ، المتضمِّنِ عِلمَه بالأشياءِ الدَّقيقةِ، وإيصالَه الرَّحمةَ بالطُّرقِ الخفيَّةِ، ومِن لُطفِه سَوقُ الخَيرِ والنَّفعِ إلى نِساءِ النَّبيِّ،

= والسمعاني، والقرطبي، وابن القيم، وابن كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٨)، ((المكتفى في الوقف والابتدا)) للداني (ص: ١٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٤)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) (ص: ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٦٤).

قال النحاس: (أكثرُ أهلِ التَّفسيرِ على أنَّ الحكمةَ هاهنا السُّنَّةُ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٢١٦)

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قال غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ: الحِكمةُ هي السُّنَّةُ؛ لأنَّ الَّذي كان يُتلى في بُيوتِ أزواجِه -رَضِيَ الله عنهن- سِوى القرآنِ: هو سُنَّتُه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((مجموع الفتاوى)) (٣/ ٣٦٦).

وقال ابن القيِّم: (والحِكمةُ هي السُّنَّةُ، كما قال غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ، وهو كما قالوا؛ فإنَّ الله تعالى قال: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾؛ فنَوَّعَ المتلُوَّ إلى نَوعَينِ: آياتٍ: وهي القُرآنُ. وحِكمةٍ: وهي السُّنَّةُ. والمرادُ بالسُّنَّةِ: ما أُخِذَ عن رَسولِ اللهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- سِوى القُرآنِ). ((مختصر الصواعق المرسلة)) (ص: ٥٣٥).

وقيل: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: القرآنُ، ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾: أمْرُه ونهيُه في القرآنِ. وممَّن اختاره مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦١).

وقيل: إنَّ القرآنَ جامعٌ بينَ كونِه بَيِّناتٍ دالَّةً على التَّوحيدِ وصدقِ النُّبُوَّةِ، وبينَ كونِه حكمةً مُشتمِلةً على فُنونٍ مِنَ العلومِ والشَّرائعِ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٣).

قال ابنُ تيميَّةَ: (والحِكمةُ: قال غيرُ واحدٍ مِنَ السَّلَفِ: هي السُّنَّةُ. وقال أيضًا طائفةٌ كمالكٍ وغيرِه: هي معرفةُ الدِّينِ، والعَمَلُ به. وقيل غيرُ ذلك. وكُلُّ ذلك حقٌّ؛ فهي تتضمَّنُ التَّمييزَ بين المأمورِ والمحظورِ، والحَقِّ والباطِلِ؛ وتعليمَ الحَقِّ دون الباطِلِ، وهذه السُّنَّةُ الَّتي فُرِّق بها بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، وبيْن الأعمالِ الحَسَنةِ مِنَ القبيحةِ، والخيرِ مِنَ الشَّرِّ). ((مجموع الفتاوى)) (١٩/ ١٧٥).

وحِفظُهنَّ مِن الشُّرورِ، وإكرامُهنَّ وبُلوغُهنَّ مَنزِلةً عاليةً؛ وهو المتَّصِفُ أزَلًا وأبدًا بالخِبرةِ، فهو العالِمُ بالأسرارِ والخفايا، ومِن خِبرتِه عِلمُه بما يَنفَعُ نِساءَ النَّبيِّ، وعِلمُه بهِنَّ وبحالِهنَّ، فاختارَهنَّ أزواجًا لِرَسولِه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ أنَّ الإنسانَ قد يَشرُفُ بشَرَفِ مَن اتَّصَلَ به؛ تُؤخَذُ مِن شَرَفِ أُمَّهاتِ المؤمنينَ باتِّصالهنَّ بالرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ ولهذا حَثَّ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على الجَليسِ الصَّالحِ، وقال: ((مَثَلُ جليسِ الصَّالحِ والسُّوءِ، كحامِلِ المِسْكِ ونافِخِ الكِيرِ[٢]؛ فحامِلُ المِسكِ إمَّا أنْ يُحْذِيَك[٣]، وإمَّا أن تَبْتاعَ[٤] منه، وإمَّا أن تجدَ منه ريحًا طيِّبةً))[٥]، وحَذَّرَ مِن جليسِ السُّوءِ؛ لأنَّ الإنسانَ بلا شَكٍّ يَشرُفُ بشَرَفِ مَن يَتَّصلُّ به، ويَنزِلُ بنُزولِ مَن يَتَّصلُ به[٦].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩).
قال السعدي: (مِن معاني ﴿ٱللَّطِيفُ﴾: الَّذي يَسوقُ عَبدَه إلى الخَيرِ، ويَعصِمُه مِنَ الشَّرِّ بطُرقٍ خَفيَّةٍ لا يَشعُرُ بها، ويَسوقُ إليه مِنَ الرِّزقِ ما لا يَدريه، ويُريه مِنَ الأسبابِ الَّتي تكرَهُها النُّفوسُ ما يكونُ ذلك طريقًا له إلى أعلى الدَّرَجاتِ، وأرفَعِ المنازِلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤).

(٢) الكِير: هو شَيءٌ يَنفُخُ فيه الحدَّادُ؛ لِتَشتعِلَ النَّارُ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٥/ ٢٣١). ويُنظر أيضًا: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٣٢٤).

(٣) يُحذِيَك: أي: يُعطِيَك ويُتحِفَك منه بشَيءٍ؛ هِبةً. يُنظر: ((شرح القَسْطَلَّاني)) (٨/ ٢٩٢).

(٤) تَبْتاعَ: أي: تَشتري. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٥/ ٢٣١).

(٥) أخرجه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٢١).

﴿بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ دَلَّ قولُه تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ مع أمْرِه بحفظِ الفَرْجِ، وثَنائِه على الحافِظينَ لِفُروجِهم والحافِظاتِ، ونَهْيِه عن قِربانِ الزِّنا: أنَّه ينبغي للعَبدِ إذا رأى مِن نَفْسِه هذه الحالةَ، وأنَّه يَهَشُّ لفِعلِ المحَرَّمِ عندَما يَرى أو يَسمَعُ كَلامَ مَن يهواه، ويجِدُ دَواعيَ طَمَعِه قد انصرَفَت إلى الحرامِ: فلْيَعرِفْ أنَّ ذلك مرَضٌ؛ فلْيَجتهِدْ في إضعافِ هذا المرَضِ، وحَسمِ الخواطِرِ الرَّدِيَّةِ، ومُجاهَدةِ نفْسِه على سَلامتِها مِن هذا المرضِ الخطيرِ، وسُؤالِ اللهِ العِصمةَ والتَّوفيقَ؛ وأنَّ ذلك مِن حِفظِ الفَرْجِ المأمورِ به[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ تحريمُ خُضوعِ المرأةِ في مُخاطَبةِ الرِّجالِ؛ فإذا كان هذا في النِّساءِ الطَّاهِراتِ المُبَرَّءاتِ، فغَيرُهنَّ مِن بابِ أَولى، وإذا كانتِ العِلَّةُ خَوفَ طَمَعِ مَن في قَلبِه مرضٌ، فهذه العلَّةُ لا تَختَصُّ بزَوجاتِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ أنَّ فِتنةَ النِّساءِ مرضٌ في القلبِ يَحتاجُ الإنسانُ فيه إلى مُعالجةٍ وإلى مداواةٍ، وهذا المرضُ مَرَضٌ فَتَّاكٌ -نسألُ اللهَ تعالى السَّلامةَ منه-، مرَضٌ في القلبِ كمَرَضِ السَّرطانِ في البدنِ، إذا لم يَتدارَكِ اللهُ العبدَ بعَفوِه وتَوفيقِه وتَسديدِه، فإنَّه يَهلِكُ؛ ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ما تَرَكْتُ بعدي فِتنةً أضَرَّ على الرِّجالِ مِن النِّساءِ))[٣]؛ فالواجِبُ الحذَرُ مِن هذا الأمرِ؛ وألَّا يُمليَ الإنسانُ لنفْسِه ويُمهِلَها في هذا البابِ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ دَليلٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٢١).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٩٦) واللفظ له، ومسلم (٢٧٤٠) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٢٣).

أنَّ على المرأةِ الاحترازَ مِن كلِّ ما دعا إلى شَهوتِها، والفتنةِ بها[١]، فإنَّ مَن في قَلبِه مَرَضُ الشَّهوةِ وإرادةُ الصُّورةِ متى خضَع المطلوبُ طَمِعَ المريضُ، والطَّمعُ هو الَّذي يقوِّي الإرادةَ والطَّلَبَ، ويقوِّي المرَضَ بذلك، بخِلافِ ما إذا كان آيسًا مِن المطلوبِ؛ فإنَّ اليأسَ يُزيلُ الطَّمَعَ، فتَضعُفُ الإرادةُ، فيَضعُفُ الحُبُّ، فإنَّ الإنسانَ لا يريدُ أن يَطلُبَ ما هو آيسٌ منه، فلا يكونُ مع الإرادةِ عَمَلٌ أصلًا، بل يكونُ حَديثُ نَفْسٍ، إلَّا أن يقترِنَ بذلك كلامٌ أو نظَرٌ ونحوُ ذلك، فيأثَمُ بذلك[٢].

٦- الإشارةُ إلى أنَّ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزكاةِ مِن الموانعِ عن المُحَرَّماتِ؛ لأنَّه سُبحانَه وتعالى قال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَأَقِمْنَ﴾؛ فدلَّ هذا على أنَّ مِن أسبابِ عدَمِ التَّبرُّجِ: إقامةَ الصَّلاةِ[٣].

٧- أنَّ مَن أعطاه اللهُ تعالى عِلمًا كان طلَبُ الاستقامةِ منه أوكَدَ وأوثقَ؛ فإذا آتَى اللهُ تعالى الإنسانَ عِلمًا فإنَّه يُطلَبُ منه مِن الاستقامةِ أكثَرَ ممَّا يُطلَبُ ممَّن لم يُؤتَ عِلْمًا؛ لأنَّه قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ﴾ فليس عليكُنَّ نَقصٌ في العِلمِ، بل إنَّ العِلمَ ﴿يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ دَليلٌ على أنَّ مَن عَظُمَت مَنزلتُه ودَرجتُه عندَ اللهِ، فإنَّ عمَلَه يُضاعَفُ له أجرُه[٥].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ظاهِرُه تَفضيلٌ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥١).

(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٤٨).

لجُملتِهنَّ على نساءِ هذه الأمَّةِ[١]. وقيل: أفضلُ النِّساءِ مطلقًا. وقيل: ظاهرُ الآيةِ أيضًا تفضيلُهنَّ على بناتِه، إلَّا أن يُقالَ بدُخولِهنَّ في اللَّفظِ؛ لأنهنَّ مِن نساءِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الوسائِلَ لها أحكامُ المقاصِدِ؛ فإنَّ الخُضوعَ بالقَولِ واللِّينَ فيه: في الأصلِ مُباحٌ، ولكنْ لَمَّا كان وسيلةً إلى المحرَّمِ مُنِعَ منه؛ ولهذا ينبغي للمرأةِ في مخاطبةِ الرِّجالِ ألَّا تُلينَ لهم القَولَ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أنَّ صَوتَ المرأةِ ليس بعَورةٍ، خِلافًا لِمَن قال: «إنه عورةٌ» مِن أهلِ العلمِ؛ ولهذا كان النِّساءُ يأتينَ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَسْأَلْنَه وحوْلَه أصحابُه، ولا يَنهاهُنَّ عن ذلك، ولو كان صوتُ المرأةِ عورةً لَنَهاهُنَّ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن الكَلامِ مع حُضورِ الرِّجالِ[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الأحسَنَ بالمرأةِ ألَّا تَرفَعَ صَوتَها بحيثُ يَسمعُها الرِّجالُ[٥].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ ذُكِر بعْدَه: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾؛ إشارةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١١).

وتقدَّم استثناءُ بعضِ أهلِ العلمِ لفاطِمةَ بنتِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومريمَ بنتِ عِمرانَ، وآسيةَ امرأةِ فِرعونَ مِن العمومِ.

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٢٢).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجَصَّاص (٥/ ٢٢٩)، ((أحكام القرآن)) لِلكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٤٦).

إلى أنَّ ذلك ليس أمرًا بالإيذاءِ والمُنكَرِ، بل القَولُ المعروفُ وعندَ الحاجةِ: هو المأمورُ به لا غَيرُه[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أنَّه إذا أفتى المُفتي للسَّائلِ بشَيءٍ، فينبغي له أنْ يُنبِّهَه على وَجهِ الاحترازِ ممَّا قد يَذهَبُ إليه الوَهمُ منه مِن خِلافِ الصَّوابِ؛ فنَهاهنَّ سُبحانَه عن الخُضوعِ بالقولِ، فرُبَّما ذَهَب الوَهمُ إلى الإذنِ في الإغلاظِ في القَولِ والتَّجاوُزِ، فرَفَعَ هذا التَّوهُّمَ بقَولِه: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ مَشروعيَّةُ قَرارِ المرأةِ في بيتِها[٣]، فمعنى هذه الآيةِ الأمرُ بلزومِ البيتِ، والخِطابُ وإن كان لنِساءِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقد دخَل غيرُهنَّ فيه بالمعنى -على أحدِ القولينِ-، هذا لو لم يَرِدْ دليلٌ يخصُّ جميعَ النِّساءِ، كيف والشَّريعةُ طافحةٌ بلزومِ النساءِ بيوتَهنَّ، والانكفافِ عن الخروجِ منها إلا لحاجةٍ[٤].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ يقتضي وُجوبَ مُكثِ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في بُيُوتِهنَّ، وألَّا يَخرُجْنَ إلَّا لضرورةٍ، وجاء في الحديثِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُذِنَ لكُنَّ أن تَخرُجْنَ لحَوائِجِكنَّ))[٥].

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أشْكَلَ على النَّاسِ خُروجُ أمِّ المؤمنينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١).

والحديث أخرجه البخاري (٥٢٣٧)، ومسلم (٢١٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

عائِشةَ -رَضِيَ الله عنها- إلى البَصرةِ في الفِتنةِ الَّتي تُدْعى وَقعةَ الجَمَلِ، فلم يُغَيِّرْ عليها ذلك كثيرٌ مِن جِلَّةِ الصَّحابةِ؛ منهم طَلْحةُ والزُّبَيرُ، وأنكر ذلك عليها بعضُهم؛ مِثلُ: عمَّارِ بنِ ياسرٍ، وعليِّ بنِ أبي طالبٍ، ولكُلٍّ نظَرٌ في الاجتِهادِ، والَّذي عليه المحقِّقونَ أنَّ ذلك كان منها عن اجتهادٍ؛ فإنَّها رأت أنَّ في خروجِها إلى البَصرةِ مَصلحةً للمُسلِمينَ؛ لِتَسعَى بينَ فريقَي الفِتنةِ بالصُّلحِ؛ فإنَّ النَّاسَ تعَلَّقوا بها، وشَكَوا إليها ما صاروا إليه مِن عَظيمِ الفِتنةِ، ورَجَوا بَرَكَتَها أن تخرُجَ فتُصلِحَ بينَ الفَريقَينِ، وظنُّوا أنَّ النَّاسَ يَستَحيُونَ منها، فتأوَّلت لخُروجِها مَصلحةً تُفيدُ إطلاقَ القَرارِ المأمورِ به في قَولِه تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ يُكافئُ الخُروجَ للحَجِّ، وأخَذَت بقَولِه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، ورأت أنَّ الأمرَ بالإصلاحِ يَشملُها وأمثالَها ممَّن يَرجُونَ سَماعَ الكَلِمةِ، فكان ذلك منها عن اجتِهادٍ، وقد أشار عليها جمْعٌ مِن الصَّحابةِ بذلك، وخرَجوا معها؛ مِثلُ طَلْحةَ والزُّبيرِ، وناهيك بهما! وهذا مِن مواقِعِ اجتِهادِ الصَّحابةِ الَّتي يجبُ علينا حَملُها على أحسَنِ المَخارجِ، ونظُنُّ بها أحسَنَ المذاهِبِ، وكاد أن يَصلُحَ الأمرُ، ولكِنْ أفسَدَه دُعاةُ الفِتنةِ، ولم تَشعُرْ عائِشةُ إلَّا والمقاتَلةُ قد جرَتْ بيْنَ فريقَينِ مِن الصَّحابةِ يومَ الجَمَلِ، ولا ينبغي تقلُّدُ كلامِ المؤرِّخينَ على عِلَّاتِه؛ فإنَّ فيهم مِن أهلِ الأهواءِ ومَن تلقَّفوا الغَثَّ والسَّمينَ[1].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ذَمُّ الجهلِ؛ فإنَّ نسبةَ هذا إلى الجهلِ لا شكَّ أنَّه يُرادُ به التَّنفيرُ، وفيه أيضًا مدْحُ ما كان مبنيًّا على العلمِ؛ لأنَّ ذَمَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١، ١٢).

وقال أيضًا: (وما يُذكَرُ عنها رَضِيَ اللهُ عنها: أنَّها كانت إذا قرأتْ هذه الآيةَ تبكي حتَّى يبتَلَّ خِمارُها: فلا ثِقةَ بصِحَّةِ سَنَدِه، ولو صَحَّ لَكان محمَلُه أنَّها أسِفَت لتلك الحوادِثِ الَّتي ألجأَتْها إلى الاجتِهادِ في تأويلِ الآيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢).

الضِّدِّ يدُلُّ على مدحِ ضدِّه، كما قيل: «وبضِدِّها تَتبيَّنُ الأشياءُ»[١].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فيه بِشارةٌ بالفُتوحِ وتَوسيعِ الدُّنيا على زَوجاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ العَيشَ وقْتَ نُزولِ هذه الآيةِ كان ضَيِّقًا عن القُوتِ، فضلًا عن الزَّكاةِ[٢].

١٣- كثيرًا ما يَجمَعُ الله تعالى بينَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ في القرآنِ؛ وذلك لأنَّ الصَّلاةَ متضَمِّنةٌ للإخلاصِ للمعبودِ، والزَّكاةَ والنَّفقةَ متضمِّنةٌ للإحسانِ إلى عَبيدِه، فعنوانُ سعادةِ العبدِ إخلاصُه للمعبودِ، وسَعْيُه في نفْعِ الخَلْقِ، كما أنَّ عنوانَ شقاوةِ العبدِ عدمُ هذينِ الأمْرَينِ منه، فلا إخلاصَ ولا إحسانَ[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أنَّ الخُضوعَ بالقَولِ وتبرُّجَ الجاهليَّةِ: مِن الرِّجْسِ، وأنَّ القَرارَ في البُيوتِ، وإقامَ الصَّلاةِ، وإيتاءَ الزكاةِ، وطاعةَ اللهِ عزَّ وجلَّ ورَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: مِن أسبابِ زَوالِ الرِّجسِ؛ لأنَّ ما تقدَّمَ أوامِرُ ونَواهٍ، بَيَّن اللهُ تعالى أنَّه إنَّما أمَر بها ونهَى عنها؛ مِن أجْلِ أنْ يُذهِبَ عن هذا البَيتِ الرِّجْسَ[٤].

١٥- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، فترَك خِطابَ المؤنَّثاتِ، وخاطَب بخِطابِ المذكَّرينَ؛ بقولِه: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾؛ لِيَدخُلَ فيه نساءُ أهلِ بيتِه ورجالُهم[٥]، وهو يَعُمُّ غيرَ أزواجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ كعَليٍّ، وفاطِمةَ، وحَسَنٍ، وحُسَينٍ -رَضِيَ اللهُ عنهم؛ وذلك لأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٨).

ذَكَرَه سُبحانَه بصيغةِ التَّذكيرِ لَمَّا اجتمعَ المُذكَّرُ والمؤنَّثُ[١]، وقد أجمَع أهلُ اللِّسانِ العربيِّ على تغليبِ الذُّكورِ على الإناثِ في الجموعِ ونحوِها[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أراد أنْ يُذهِبَ الرِّجسَ وأثَرَ الرِّجسِ أيضًا، وهذا فوقَ ذَهابِ الرِّجْسِ؛ لأنَّنا لو ضرَبْنا هذا بمثالٍ حِسِّيٍّ وقُلنا: إنَّ هذا الثَّوبَ تَلَطَّخَ بنَجاسةٍ، فحكَكْنا هذه النَّجاسةَ حتَّى زالت عَيْنُها، فهذا يُسمَّى إذهابَ الرِّجسِ، فإذا صَبَبْنا الماءَ حتَّى نَظُفَ المكانُ تمامًا وزال الأثَرُ، صار ذلك تَطهيرًا[٣].

١٧- إنَّ الله تعالى أمَرَ بطَهارةِ القَلبِ، وأمَرَ بطَهارةِ البَدَنِ، وكِلْتا الطَّهارتَينِ مِن الدِّينِ الَّذي أمَر اللهُ به وأوجَبَه؛ قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وقال: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال: ﴿خُذْ مِنْ

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٢٣).

وقال ابن عاشور: (وضميرَا الخِطابِ موَجَّهانِ إلى نساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على سَنَنِ الضَّمائرِ الَّتي تَقَدَّمَتْ. وإنَّما جيءَ بالضَّميرينِ بصيغةِ جمعِ المذكَّرِ على طريقةِ التَّغليبِ؛ لاعتبارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذا الخِطابِ؛ لأنَّه رَبُّ كلِّ بيتٍ مِن بُيوتِهنَّ، وهو حاضرٌ هذا الخِطابَ؛ إذ هو مُبلِّغُه. وفي هذا التَّغليبِ إيماءٌ إلى أنَّ هذا التَّطهيرَ لهنَّ لأجْلِ مقامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِتَكونَ قريناتُه مُشابهاتٍ له في الزَّكاةِ والكمالِ، كما قال الله تعالَى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النُّور: ٢٦] يعني: أزواجَ النَّبيِّ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو نظيرُ قولِه في قصَّةِ إبراهيمَ: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣]، والمخاطَبُ زوجُ إبراهيمَ وهو معها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٤٣).

أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فنَجدُ كثيرًا مِن المتفَقِّهةِ والمتعَبِّدةِ إنَّما همَّتُه طهارةُ البدَنِ فقط، ويَزيدُ فيها على المشروعِ اهتِمامًا وعمَلًا، ويترُكُ مِن طهارةِ القَلبِ ما أُمِرَ به إيجابًا أو استِحبابًا، ولا يفهَمُ مِن الطَّهارةِ إلَّا ذلك!

ونجدُ كثيرًا مِن المتصَوِّفةِ والمتفَقِّرةِ إنَّما همَّتُه طهارةُ القَلبِ فقط، حتَّى يَزيدَ فيها على المشروعِ اهتمامًا وعملًا، ويترُك مِن طهارةِ البدَنِ ما أُمِرَ به إيجابًا أو استِحبابًا[1]!

١٨- قَولُه تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ الطَّهارةُ لها معنيانِ؛ **أحدُهما**: الطَّهارةُ مِن الذُّنوبِ، كقَولِه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقَولِه: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٢]، وقَولِه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

والمعنى الثاني: الطَّهارةُ الحِسِّيَّةُ بالماءِ والتُّرابِ، وإنَّما أمَرَ بهذه؛ لتتحَقَّقَ تلك[2].

١٩- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، كقَولِه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ [المائدة: ٦]، وكقَولِه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وكقَولِه: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٣/ ٣٩).

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٦، ٢٧]؛ فإنَّ إرادةَ اللهِ في هذه الآياتِ متضَمِّنةٌ لمحبَّةِ الله لذلك المرادِ ورِضاه به، وأنَّه شَرَعَه للمؤمنينَ وأمَرَهم به، ليس في ذلك أنَّه خَلَق هذا المرادَ، ولا أنَّه قضاه وقَدَّره، ولا أنَّه يكونُ لا مَحالةَ، والدَّليلُ على ذلك أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ نُزولِ هذه الآيةِ قال: ((اللَّهُمَّ هؤلاء أهلُ بَيْتي، فأذهِبْ عنهم الرِّجْسَ، وطَهِّرْهم تطهيرًا))[١]. فطلَبَ مِن اللهِ لهم إذهابَ الرِّجسِ، والتَّطهيرَ؛ فلو كانت الآيةُ تتضَمَّنُ إخبارَ اللهِ بأنَّه قد أذهب عنهم الرِّجسَ وطَهَّرهم، لم يحتَجْ إلى الطَّلَبِ والدُّعاءِ.

والإرادةُ في كتابِ اللهِ نوعانِ: إرادةٌ شرعيَّةٌ دينيَّةٌ تتضَمَّنُ محبَّتَه ورِضاه، وإرادةٌ كَوْنيَّةٌ قَدَريَّةٌ تتضَمَّنُ خَلْقَه وتقديرَه؛ الأُولى مِثلُ هؤلاء الآياتِ، والثَّانيةُ مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥][٢]، فإذا كانت الإرادةُ في آيةِ التَّطهيرِ إرادةً شَرعيَّةً فهي لا تَستلزِمُ وُقوعَ المرادِ من التَّطهيرِ، وإنَّما محبَّته تعالى لأهلِ البيتِ أن يَتطَهَّروا، بخِلافِ ما لو كانت إرادةً كونيَّةً؛ فمعنى ذلك أنَّ تطهيرَهم أمرٌ كائِنٌ لا بدَّ منه، وهو متمَسَّكُ الشِّيعةِ في قَولِهم بعِصمةِ أهلِ البَيتِ[٣].

٢٠- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا * وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ فيه دَليلٌ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٠٥)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٧٧١)، والطبراني (٩/ ١١) (٨٢٩٥) من حديثِ عُمَرَ بنِ أبي سلمة رَضِيَ الله عنه.
قال الترمذي: غريبٌ. وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٧١، ٧٢).

(٣) يُنظر: ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) للألباني (٦/ ٣٣).

بيِّنٌ على أنَّ نِساءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ بَيتِه، فإنَّ السِّياقَ إنَّما هو في مُخاطَبتِهنَّ[١]، ولأنهنَّ سببُ نزولِ هذه الآيةِ، وسببُ النزولِ داخلٌ في النَّصِّ قولًا واحدًا[٢]، فتَخصيصُ الشِّيعةِ أهلَ البَيتِ بفاطِمةَ وعليٍّ وابنَيهما رَضِيَ اللهُ عنهم: ضَعيفٌ؛ لأنَّ التخَّصيصَ بهم لا يُناسِبُ ما قبْلَ الآيةِ وما بعدَها، والحديثُ يقتضي أنَّهم مِن أهلِ البَيتِ لا أنَّه ليس غيرُهم[٣]، وإذا كان أزواجُه مِن أهلِ بيتِه، فقَرابتُه أحَقُّ بهذه التَّسميةِ[٤].

٢١- قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ فوصَف السُّنَّةَ بالحِكمةِ دونَ القرآنِ؛ لأنَّ السُّنَّةُ مِن كلام الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ وهو بشَرٌ، وكلامُ البشرِ قد يَرِدُ عليه احتمالُ ألَّا يكونَ مُشتمِلًا على الحكمةِ؛ فبَيَّنَ اللهُ سُبحانَه وتعالى أنَّ السُّنَّةَ حِكمةٌ -وإنْ كانت مِن كلامِ الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام أو مِن فِعْلِه- لأنها موافقةٌ للصَّوابِ، أمَّا كلامُ الله فاحتمالُ ألَّا يَتضمَّنَ الحكمةَ بعيدٌ جدًّا[٥].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٢٣، ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٠).

قال الشنقيطي: (والتَّحقيقُ إن شاء اللهُ: أنَّهنَّ داخلاتٌ في الآيةِ، وإنْ كانت الآيةُ تتناوَلُ غيرَهنَّ مِن أهلِ البَيتِ.

أمَّا الدَّليلُ على دُخولِهنَّ في الآيةِ، فهو ... أنَّ سِياقَ الآيةِ صريحٌ في أنَّها نازِلةٌ فيهِنَّ. والتَّحقيقُ: أنَّ صورةَ سببِ النُّزولِ قطعيَّةُ الدُّخولِ؛ كما هو مُقَرَّرٌ في الأصولِ).

ثمَّ قال: (الصَّواب شمولُ الآيةِ الكريمةِ لأزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولعليٍّ وفاطمةَ والحسَنِ والحُسَينِ رَضِيَ اللهُ عنهم كُلِّهم). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٥، ٤١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥٢).

وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ رَدٌّ على مُنكِري السُّنَّةِ؛ ورَدٌّ أيضًا على آخَرينَ يُقابِلونَهم يَعتَنونَ بالسُّنَّةِ اعتناءً عظيمًا دونَ أدنَى معرفةٍ بالقرآنِ، وهذا خطأٌ؛ لأنَّ أوَّلَ ما يجِبُ أنْ نتعلَّمَ القرآنُ، ثمَّ بعدَ ذلك السُّنَّةُ؛ لأنَّ القرآنَ هو الأصلُ[١].

٢٣- قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾، فأمَر أزواجَ رسولِه بأن يخبِرْنَ بما أنزَل الله مِن القرآنِ في بيوتِهنَّ، وما يَرَيْنَ مِن أفعالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأقوالِه فيهنَّ، حتَّى يبلغَ ذلك إلى النَّاسِ، فيعملوا بما فيه، ويَقْتدوا به، وهذا يدُلُّ على جوازِ قَبولِ خبرِ الواحدِ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ في الدِّينِ[٢].

٢٤- قولُه تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾، في هذا مسألةٌ بديعةٌ؛ وهي أنَّ الله أمَر نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بتبليغِ ما أُنزِلَ عليه مِن القرآنِ، وتعليمِ ما علِمه مِن الدِّينِ؛ فكان إذا قرَأه على واحدٍ، أو ما اتَّفَق، سقَط عنه الفرضُ، وعلى مَن سمِعه أن يُبلِّغَه إلى غيرِه، وليس يَلزَمُه أن يَذكُرَه لجميعِ الصَّحابةِ، ولا كان عليه إذا علِم ذلك أزواجُه أن يخرجَ إلى النَّاسِ فيقولَ لهم: نزَل كذا، وكان كذا[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

- قولُه: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ أُعيدَ خِطابُ نِساءِ النَّبيِّ صلَّى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهُ عليه وسلَّمَ مِن جانِبِ ربِّهنَّ، وأُعِيدَ نِداؤهنَّ رضِيَ اللهُ عنهنَّ؛ للاهتِمامِ بهذا الخبَرِ اهتِمامًا يَخُصُّه. ونَفْيُ المُشابَهةِ هنا يُرادُ به نَفْيُ المُساواةِ، مُكنًّى به عن الأفضليَّةِ على غيرِهنَّ[١].

- قَولُه: ﴿كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قال: ﴿كَأَحَدٍ﴾، ولم يقُلْ: (كواحِدةٍ)؛ لأنَّ (الأحدَ) عامٌّ يَصلُحُ للواحِدِ والاثنينِ والجَمعِ، والمذكَّرِ والمؤنَّثِ[٢].

- والتَّقييدُ بقولِه: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ ليس لِقَصدِ الاحترازِ عن ضِدِّ ذلك، وإنَّما هو إلْهابٌ وتَحريضٌ على الازديادِ مِن التَّقْوى[٣]. وفعلُ الشَّرْطِ ﴿ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ مستعملٌ في الدلالةِ على الدَّوامِ، أي: إنْ دُمْتُنَّ على التَّقوى؛ فإنَّ نساءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُتَّقِياتٌ مِن قَبْلُ[٤]. وقيل: الشرطُ لبيانِ أنَّ فضيلتَهنَّ إنَّما تكونُ بالتَّقوَى، لا باتِّصالِهنَّ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ كي لا يعتمِدْنَ على ذلك[٥].

- قولُه: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ فُرِّعَ على تَفضيلِهنَّ وتَرفيعِ قَدْرِهنَّ إرشادُهنَّ إلى دَقائقَ مِن الأخلاقِ قد تقَعُ الغَفلةُ عن مُراعاتِها؛ لِخَفاءِ الشُّعورِ بآثارِها، ولأنَّها ذرائعُ خَفيَّةٌ نادرةٌ تُفْضي إلى ما لا يَليقُ بحُرْمتِهنَّ في نُفوسِ بعضِ ممَّن اشتمَلَتْ عليه الأُمَّةُ، وفيها مُنافِقُوها. وابتُدِئَ مِن ذلك بالتَّحذيرِ مِن هَيئةِ الكلامِ؛ فإنَّ النَّاسَ مُتفاوتونَ في لِينِه، والنِّساءُ في كلامِهنَّ رِقَّةٌ طَبيعيَّةٌ، وقد يكونُ لِبَعضِهنَّ مِن اللَّطافةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦، ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦٩).

ولِينِ النَّفْسِ ما إذا انضَمَّ إلى لِينِها الجِبلِّيِّ، قَرُبَت هَيئتُه مِن هيئةِ التَّدلُّلِ؛ لِقِلَّةِ اعتيادِ مِثلِه إلَّا في تلك الحالةِ، فإذا بَدا ذلك على بَعضِ النِّساءِ ظَنَّ بعضُ مَن يُشافِهُها مِن الرِّجالِ أنَّها تَتحبَّبُ إليه، فرُبَّما اجترَأَت نفْسُه على الطَّمعِ في المُغازَلةِ، فبدَرَتْ منه بادِرةٌ تكونُ مُنافيةً لحُرْمةِ المرأةِ، بلْهَ أزواجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اللَّاتي هنَّ أمَّهاتُ المؤمنينَ[١].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ للتَّعديةِ بمَنزلةِ هَمزةِ التَّعديةِ، أي: لا تُخضِعْنَ القولَ، أي: تَجعَلْنَه خاضعًا ذليلًا، أي: رقيقًا مُتفكِّكًا. ومَوقعُ الباءِ هنا أحسَنُ مِن مَوقعِ هَمزةِ التَّعديةِ؛ لأنَّ باءَ التَّعديةِ جاءتْ مِن باءِ المُصاحَبةِ؛ فأصْلُ قولِك: ذهَبْتُ بزَيدٍ، أنَّك ذهبْتَ مُصاحبًا له، فأنتَ أذْهَبْتَه معك، ثمَّ تُنوسِيَ معنى المُصاحَبةِ في نَحوِ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٧]؛ فلمَّا كان التَّفكُّكُ والتَّزيينُ للقولِ يَتبَعُ تَفكُّكَ القائلِ، أُسنِدَ الخُضوعُ إليهنَّ في صُورةٍ، وأُفِيدَت التَّعديةُ بالباءِ. ويجوزُ أنْ تكونَ الباءُ بمعنى (في)، أي: لا يكُنْ مِنكنَّ لِينٌ في القولِ[٢].

- والنَّهيُ عن الخُضوعِ بالقولِ في قولِه: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ إشارةٌ إلى التَّحذيرِ ممَّا هو زائدٌ على المُعتادِ في كَلامِ النِّساءِ مِن الرِّقَّةِ، وذلك تَرخيمُ الصَّوتِ، أي: لِيَكُنْ كلامُكنَّ جَزْلًا، وحُذِف مُتعلَّقُ ﴿فَيَطۡمَعَ﴾ -أي: فيكُنَّ-؛ تَنزُّهًا وتَعظيمًا لِشَأْنِ نِساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع قِيامِ القَرينةِ[٣].

- وعَطْفُ ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ على ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ بمَنزلةِ الاحتِراسِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٨، ٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٩).

لئلَّا يَحسَبْنَ أنَّ اللهَ كلَّفَهُنَّ بخَفْضِ أصواتِهنَّ كحَديثِ السِّرارِ[١].

- والمَعروفُ: هو الَّذي يَألَفُه النَّاسُ بحسَبِ العُرْفِ العامِّ، ويَشملُ القولُ المعروفُ هَيئةَ الكلامِ، وهي الَّتي سِيقَ لها المَقامُ، ويَشملُ مَدلولاتُه: ألَّا يَنْتَهِرْنَ مَن يُكلِّمُهنَّ، أو يُسْمِعْنَه قولًا بذيئًا، مِن بابِ: فلْيَقُلْ خيرًا أو لِيَصْمُتْ؛ وبذلك تكونُ هذه الجُملةُ بمَنزلةِ التَّذييلِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

- قولُه: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ إضافةُ البُيوتِ إلى نِساءِ النَّبيِّ؛ لأنَّهنَّ ساكناتٌ بها، أسكَنَهنَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فكانتْ بيوتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُميِّزُ بعضُها عن بعضٍ بالإضافةِ إلى ساكنةِ البيتِ[٣]. وفيه إغراءٌ للنِّساءِ على لزومِ البيتِ؛ لأنَّه بيتُها وسِترُها، لذا قال: ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، وهي أبلغُ مِن: «وقَرْنَ في البيوتِ»، كأنَّه يقولُ: هذا البيتُ ما بُنِيَ إلَّا لكِ -سِتْرًا لك وصَوْنًا-؛ فالْزَمِي هذا البيتَ الَّذي مِن أجْلِكِ بُنِيَ[٤].

- قولُه: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فيه تَعريضٌ بنَهْيِ غَيرِهنَّ مِن المُسلماتِ عن التَّبرُّجِ؛ فإنَّ المدينةَ أيَّامَئذٍ قد بقِيَ فيها نِساءُ المنافقينَ، ورُبَّما كُنَّ على بَقيَّةٍ مِن سِيرتِهنَّ في الجاهليَّةِ؛ فأُريدَ النِّداءُ على إبطالِ ذلك في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٤٠).

سِيرةِ المُسلماتِ، فنُسِبَ إلى أهْلِ الجاهليَّةِ؛ إذ كان قد تَقرَّرَ بيْنَ المسلمينَ تَحقيرُ ما كان عليه أمْرُ الجاهليَّةِ إلَّا ما أقَرَّه الإسلامُ[١].

- والمقصودُ مِن النَّهيِ الدَّوامُ على الانكِفافِ عن التَّبرُّجِ، وأنَّهنَّ مَنهيَّاتٌ عنه[٢].

- وأُريدَ بهذه الأوامرِ الدَّوامُ عليها؛ لأنَّهنَّ مُتلبِّساتٌ بمَضمونِها مِن قبْلُ، ولِيَعلَمَ النَّاسُ أنَّ المُقرَّبينَ والصَّالحينَ لا تَرتفعُ دَرجاتُهم عندَ اللهِ تعالى عن حَقِّ تَوجُّهِ التَّكليفِ عليهم[٣].

- قولُه: ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ خَصَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ بالأمْرِ، ثمَّ جاء الأمْرُ عامًّا بالطَّاعةِ؛ لإنافَتِهما -أي: لشَرفِهما وعُلوِّهما- على غيرِهما، ولأنَّ هاتَينِ الطَّاعتينِ البَدنيَّةَ والماليَّةَ هما أصْلُ سائرِ الطَّاعاتِ، فمَنِ اعْتَنى بهما حقَّ العِنايةِ جرَّتاهُ إلى ما وراءَهما[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ تَعليلٌ لِمَا تَضمَّنَتْه الآياتُ السَّابقةُ مِن أمْرٍ ونَهْيٍ على الاستِئنافِ؛ ولذلك عُمِّمَ الحُكمُ بتَعميمِ الخِطابِ لِغَيرِهنَّ، وصَرَّحَ بالمَقصودِ حيثُ قِيل بطَريقِ النِّداءِ أو المَدْحِ: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾، مُرادًا بهمْ مَن حَواهم بَيتُ النُّبوَّةِ[٥].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ الرِّجسُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢، ١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤).

الأصْلِ: القذَرُ الَّذي يُلوِّثُ الأبدانَ، وعُبِّرَ به هنا عن الذُّنوبِ والنَّقائصِ الدِّينيَّةِ؛ لأنَّها تَجعَلُ عِرضَ الإنسانِ في الدُّنيا والآخرةِ مَرْذولًا مَكروهًا كالجِسمِ المُلوَّثِ بالقذَرِ، وعُبِّر بالتَّطهيرِ عن تَجنيبِ الذُّنوبِ والنَّقائصِ؛ لِمَزيدِ التَّنفيرِ عنها، وعُبِّر بالإذهابِ عن الإنجاءِ والإبعادِ[١].

- وفي التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارعِ ﴿يُرِيدُ﴾ دَلالةٌ على تَجدُّدِ الإرادةِ واستِمرارِها[٢].

- والقَصرُ في قولِه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ قَصرُ قلْبٍ[٣]، أي: ما يُريدُ اللهُ لَكُنَّ ممَّا أمَرَكنَّ ونَهاكُنَّ إلَّا عِصمتَكُنَّ مِن النَّقائصِ، وتَحليتَكُنَّ بالكَمالاتِ، ودوامَ ذلك، أي: لا يُريدُ مِن ذلك مَقْتًا لَكُنَّ ولا نِكايةً. وهذا وَجهُ مَجيءِ صِيغَةِ القَصرِ بـ (إنَّما)[٤].

- قولُه: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ «أل» للعهدِ الذِّهنيِّ، كأنَّ هذا البيتَ معهودٌ معلومٌ بأذهانِ الناسِ، لا يَغيبُ عنها؛ لِمَا لهذا البيتِ مِن المكانةِ الرفيعةِ، والخَصْلةِ الحميدةِ، ففيه تفخيمُ هذا البيتِ وتعظيمُه[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ فِعلُ (اذْكُرْنَ) يَجوزُ أنْ يكونَ مِن الذُّكرِ -بضَمِّ الذَّالِ- وهو التَّذكُّرُ، وهذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٤٣).

كلِمةٌ جامعةٌ تَشملُ المعنى الصَّريحَ منه، وهو ألَّا يَنْسَيْنَ ما جاء في القُرآنِ، ولا يَغفُلْنَ عن العملِ به، ويَشملُ المَعنى الكِنائيَّ؛ وهو أنْ يُرادَ مُراعاةُ العَملِ بما يُتْلى في بُيوتِهنَّ ممَّا يَنزِلُ فيها، وما يَقرَؤُه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيها، وما يُبيِّنُ فيها مِن الدِّينِ، ويَشملُ معنًى كِنائيًّا ثانيًا؛ وهو تَذكُّرُ تلك النِّعمةِ العظيمةِ أنْ كانتْ بُيوتُهنَّ مَوقعَ تِلاوةِ القرآنِ. ويجوزُ أنْ يَكونَ مِن الذِّكرِ -بكَسرِ الذَّالِ-، وهو إجراءُ الكلامِ على اللِّسانِ، أي: بلِّغْنَه للنَّاسِ؛ بأنْ يَقرَأْنَ القرآنَ، ويُبلِّغْنَ أقوالَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وسِيرتَه. وفيه كِنايةٌ عن العَملِ به. ومَوقعُ مادَّةِ الذكرِ هنا مَوقعٌ شَريفٌ؛ لِتَحمُّلِها هذه المحاملَ مما لا يَتحمَّلُه غيرُها إلَّا بإطنابٍ[١].

- والتَّعرُّضُ للتِّلاوةِ في البُيوتِ دونَ النُّزولِ فيها، مع أنَّه الأنسَبُ لِكَونِها مَهبطَ الوحْيِ؛ لِعُمومِها لِجَميعِ الآياتِ، ووُقوعِها في كلِّ البيوتِ، وتَكرُّرِها المُوجِبِ لِتَمكُّنِهنَّ مِن الذِّكرِ والتَّذكيرِ، بخِلافِ النُّزولِ. وعدَمُ تَعيينِ التَّالي؛ لِتَعُمَّ تِلاوةَ جِبريلَ، وتِلاوةَ النَّبيِّ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتِلاوتَهنَّ، وتِلاوةَ غيرِهنَّ؛ تَعليمًا وتَعلُّمًا[٢].

- وعَطْفُ ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ عطْفُ خاصٍّ على عامٍّ، وهو ما كان مِن القُرآنِ مَواعظَ وأحكامًا شرعيَّةً، على قولٍ في التَّفسيرِ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ تَعليلٌ للأمْرِ، وتَذييلٌ للجُمَلِ السَّابقةِ؛ فمَعنى الجُملةِ: أنَّه تعالى مَوصوفٌ باللُّطفِ والعِلمِ، كما دلَّ عليه فِعلُ (كان)؛ فيَشملُ عُمومُ لُطفِه وعِلْمِه لُطفَه بهنَّ، وعِلْمَه بما فيه نفعُهنَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨، ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٩).

الآيتان (٣٥-٣٦)

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾: أي: الخاضِعين، الـمُداوِمينَ على طاعةِ الله، والقُنوتُ: دوامُ الطَّاعة ولُزومُها مع الخُضوعِ؛ وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دِينٍ، ثمَّ سُمِّيَ كلُّ استِقامةٍ في طريقِ الدِّينِ قُنوتًا[١].

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾: الخاشعُ: هو المطيعُ المتواضِعُ الخائفُ، والخُشوعِ: التَّواضُعُ والتَّذلُّلُ والاستِكانةُ، وأصلُ الخشوعِ في اللُّغةِ: السُّكونُ[٢].

﴿قَضَى﴾: أي: حكَم، والقضَاءُ: فصلُ الأمرِ قولًا كان ذلك أو فعلًا، وأصلُه: القَطْعُ والفَصْلُ، يُقالُ: قضَى يَقضي قَضاءً فهو قاضٍ: إذا حكَم وفَصَل، وأصلُ (قضي): يدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِه وإنفاذِه لِجِهَتِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢، ٤٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤، ٦٨٥)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥ وما بعدها)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٢٣) و (١٩/ ١١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٤٩)، =

﴿ٱلۡخِيَرَةُ﴾: أي: الاختيارُ، وهو ما يُختارُ ويُصْطفَى، وأصلُ (خير): يدُلُّ على العَطفِ والمَيلِ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا أُمَّاتِ الفضائلِ، وما أعَدَّه للمتَّصِفينَ بها: إنَّ المُسلِمينَ والمُسلِماتِ، والمؤمِنينَ والمؤمناتِ، والمطيعينَ والمُطيعاتِ، والصَّادِقينَ والصَّادقاتِ، والصَّابرينَ والصَّابراتِ، والخائِفينَ مِنَ اللهِ والخائفاتِ، والمتصَدِّقينَ والمتصَدِّقاتِ، والصَّائِمينَ والصَّائِماتِ، والحافِظينَ فُروجَهم والحافِظاتِ، والذَّاكِرينَ اللهَ كثيرًا والذَّاكراتِ: أعدَّ اللهُ لهم مَغفِرةً وأجرًا عَظيمًا.

ثمَّ يذكُرُ سُبحانَه ما يجبُ على المسلمِ نحوَ خالقِه عزَّ وجلَّ، ونحوَ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: وما ينبغي لمؤمِنٍ ولا مُؤمِنةٍ إذا حكَمَ اللهُ ورَسولُه حُكمًا أن يختاروا أمرًا مُخالفًا لذلك الحُكمِ، ومَن يَعصِ اللهَ ورَسولَه فقد ضَلَّ ضلالًا واضِحًا لا خفاءَ فيه.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٤)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى ثوابَ زَوجاتِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعِقابَهنَّ لو قُدِّرَ عدَمُ الامتِثالِ، وأنَّه ليس مِثلَهنَّ أحدٌ مِنَ النِّساءِ- ذكَرَ بقيَّةَ النِّساءِ غَيرَهنَّ[(١)].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّها قالت: (يغزو الرِّجالُ ولا تغزو النِّساءُ! وإنَّما لنا نِصْفُ الميراثِ، فأنزَل اللهُ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢])، قال مجاهِدٌ: (وأنزل فيها: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾، وكانت أمُّ سَلَمةَ أوَّلَ ظَعينةٍ[(٢)] قَدِمَت المدينةَ مُهاجِرةً)[(٣)].

وعن أُمِّ عُمارةَ الأنصاريَّةِ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّها أتَتِ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالت: ما أرى كُلَّ شَيءٍ إلَّا للرِّجالِ، وما أرى النِّساءَ يُذكَرْنَ بشَيءٍ! فنَزَلت هذه الآيةُ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآيةَ))[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤).

(٢) قِيل للمرأةِ: «ظعينَة»؛ لأنَّها تَظْعَنُ معَ الزَّوجِ حيثُ ما ظَعَن، أو تُحْمَلُ على الرَّاحلةِ إذا ظَعَنَتْ، وقِيل: هي المرأةُ في الهودجِ، ثُمَّ قِيل للمرأةِ وحدَها والهودَج وحدَه، مِن: ظَعَن إذا سارَ. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٨/ ٢٩٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٢٢) واللفظ له، وأحمد (٢٦٧٣٦).

حَسَّنه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ١٣٠)، وابن حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَرَ)) (٢/ ٢٣)، وصَحَّحه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٤٩٥)، وصَحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٠٢٢).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٢١١) واللفظ له، والطبراني (٢٥/ ٣١) (٥١)، وأبو نُعَيم في ((معرفة الصحابة)) (٧٩٩٣).

قال الترمذي: حسَنٌ غريب. وحَسَّنه ابن حجر في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (٢/ ٢٤)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢١١).

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾.

أي: إنَّ الرِّجالَ والنِّساءَ المُستَسلِمينَ للهِ، المُنقادينَ له بطاعتِه[١].

وفي حديثِ جِبريلَ الطَّويلِ عن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه ((أنَّ جِبريلَ عليه السَّلامُ قال: يا مُحمَّدُ، أخبِرني عن الإسلامِ. فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: الإسلامُ أن تَشهَدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤتيَ الزَّكاةَ، وتَصومَ رَمَضانَ، وتَحُجَّ البَيتَ إنِ استَطعْتَ إليه سبيلًا، قال: صَدَقْتَ))[٢].

﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

أي: والمؤمِنينَ والمؤمِناتِ باللهِ، ومَلائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليَومِ الآخِرِ، وبالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّه[٣].

كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وفي حديثِ جبريلَ الطَّويلِ عن عُمَرَ رَضِيَ الله عنه: ((أنَّ جِبريلَ عليه السَّلامُ قال: فأخبِرْني عن الإيمانِ، قال: أن تؤمِنَ باللهِ، وملائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِرِ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّه، قال: صَدَقْتَ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) رواه مسلم (٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١، ٢٣).

(٤) رواه مسلم (٨).

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾.

أي: والمُطيعينَ والمُطيعاتِ لله فيما يأمُرُهم ويَنْهاهم، المُداوِمينَ على طاعتِه بذُلٍّ وخُضوعٍ وسُكونٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾.

أي: والصَّادقين والصَّادقاتِ في عقائِدِهم وأقوالِهم وأفعالِهم، فلا يُظهِرونَ غيرَ ما يُبطِنون، ولا يَكذِبون، ولا يُراؤون، ولا يُخلِفون الوَعدَ، ولا يَنقُضونَ العَهدَ مع اللهِ ومع عِبادِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥٧، ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١، ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥٨-٢٦٠).

وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾.

أي: والصَّابرينَ والصَّابراتِ على التَّمسُّك بالدِّين وفِعلِ الطَّاعاتِ، وتَركِ المعاصي والشَّهواتِ، وتحمُّلِ المصائِبِ والمشَقَّاتِ[١].

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ﴾.

أي: والخائِفينَ والخائِفاتِ مِن اللهِ، المتواضِعينَ الخاضِعينَ له في صَلاتِهم وفي جميعِ أحوالِهم[٢].

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾.

أي: والمؤدِّينَ والمؤدِّياتِ الصَّدَقاتِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١ - ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢، ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٦٤، ٢٦٥).
قال ابن كثير: (الخُشوع: السُّكونُ والطُّمأنينةُ، والتُّؤَدةُ والوقارُ والتَّواضُعُ. والحامِلُ عليه: الخَوفُ مِن الله، ومُراقبتُه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢، ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٦٥، ٢٦٦). =

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾.

أي: والمتعبِّدينَ والمتعبِّداتِ للهِ تعالى بالصِّيامِ[١].

﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الصَّومُ مِن أكبرِ العَونِ على كَسرِ الشَّهوةِ؛ ناسَبَ أن يَذكُرَ بعْدَه قولَه تعالى[٢]:

﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾.

أي: والحافِظينَ فُروجَهم عمَّا لا يَحِلُّ مِن الزِّنا وغَيرِه إلَّا على أزواجِهم أو ما ملَكَت أيمانُهم مِن الإماءِ، والحافِظاتِ فُروجَهنَّ كذلك إلَّا على أزواجِهنَّ إنْ كُنَّ حرائِرَ، أو أسيادِهنَّ المالِكينَ لهنَّ إنْ كُنَّ إماءً[٣].

= قال ابن عثيمين: (كلُّ شيءٍ مِن المالِ تَبذُلُه لله -سبحانه وتعالى- فهو مِن الصَّدَقة، وقد يُقالُ: إنَّ المتصَدِّقينَ أعَمُّ مِن الباذِلينَ لمالِهم فيما يُرضي اللهَ عزَّ وجَلَّ؛ فيَشمَلُ فِعلَ كُلِّ خيرٍ؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: «كُلُّ تَسبيحةٍ صَدَقةٌ، وكُلُّ تهليلةٍ صَدَقةٌ، وأمْرٌ بالمعروفِ صَدَقةٌ، ونهْيٌ عن مُنكَرٍ صَدَقةٌ، وتُميطُ الأذى عن الطَّريقِ صَدَقةٌ، وتُعينُ الرَّجُلَ في دابَّتِه فتَحمِلُه عليها، أو تَضَعُ له عليها مَتاعَه: صَدَقةٌ، والكَلِمةُ الطَّيِّبةُ صَدَقةٌ، وبكُلِّ خُطوةٍ تَخطوها إلى الصَّلاةِ صَدَقةٌ، وفي بُضعِ أحَدِكم صَدَقةٌ» [يُنظر ما أخرجه البخاري «٢٨٩١» «٢٩٨٩»، ومسلم «١٠٠٦» «١٠٠٩»]). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٦٦، ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢، ٢٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧].

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان حِفظُ الفروجِ وسائرُ الأعمالِ لا تَكادُ تُوجدُ إلَّا بالذِّكْرِ، وهو الَّذي فيه المُراقبةُ؛ قال[1]:

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾.

أي: والذَّاكِرينَ والذَّاكراتِ اللهَ ذِكرًا كَثيرًا[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

= قال ابن عطيَّةَ: (حِفظُ الفَرْجِ هو: مِنَ الزِّنا وشبهِه، وتدخُلُ مع ذلك الصِّيانةُ مِن جميعِ ما يؤدِّي إلى الزِّنا أو هو في طريقِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٥).

وقال الشنقيطي: (ويدخُلُ في حِفظِ الفَرْجِ: حِفظُه مِن الزِّنا، واللِّواطِ، والمُساحَقةِ، وحِفظُه مِن الإبداءِ للنَّاسِ والانكشافِ لهم). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٠٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٢، ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٥، ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢ - ٢٤).

وذِكرُ اللهِ يَشملُ ذِكرَه اللِّسانيَّ، فيدخُلُ فيه قراءةُ القرآنِ، وطلَبُ العِلمِ ودراستُه، إلى غيرِ ذلك. ويَشملُ الذِّكرَ القلبيَّ، وهو ذِكرُ الله عندَ أمرِه ونَهيِه، فيَدخُلُ فيه التَّوبةُ، والارتداعُ عن المظالِمِ كُلِّها؛ مِن القتلِ، وأخذِ أموالِ النَّاسِ، والحِرابةِ، والإضرارِ بالنَّاسِ في المعاملاتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣، ٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٧١).

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَسيرُ في طَريقِ مَكَّةَ، فمرَّ على جَبلٍ يُقال له: جُمْدانُ، فقال: سيروا، هذا جُمْدانُ، سَبَق المُفَرِّدونَ[1]، قالوا: وما المفَرِّدونَ يا رَسولَ الله؟ قال: الذَّاكِرونَ اللهَ كثيرًا والذَّاكِراتُ))[2].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾.

أي: أعدَّ اللهُ لأولئك الرِّجالِ والنِّساءِ المتَّصِفينَ بتلك الصِّفاتِ مَغفِرةً، فيَستُرُ ذُنوبَهم ولا يؤاخِذُهم بها، وأعدَّ لهم أجرًا عَظيمًا[3].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ۝٣٦﴾.

---

(١) المُفَرِّدونَ: أي: المميِّزونَ أنفُسَهم وأحوالَهم عن أقرانِهم؛ بنَيلِ الزُّلفى، والعُروجِ إلى الدَّرَجاتِ العلى؛ بأن جَعَلوا ربَّهم فَردًا بالذِّكرِ، وتركوا ذِكرَ ما سِواه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٤/ ١٥٤٠).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((الهداية)) لمكِّي (٩/ ٥٨٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤).

قيل: إعدادُ الأجرِ يدُلُّ على أنَّ المرادَ بهذه الأوصافِ اجتِماعُها. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشري، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٣).

وقيل: عَطفُ الصِّفاتِ بالواوِ المفيدةِ مجرَّدَ التَّشريكِ في الحُكمِ شَأنُه أن يكونَ الحُكمُ المذكورُ معه ثابتًا لكُلِّ واحدٍ اتَّصف بوصفٍ مِن الأوصافِ دونَ اشتراطِ اجتماعِها. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ عاشور، وقال: (تُحمَلُ كُلُّ صفةٍ مِن هذه الصِّفاتِ على عدَمِ ما يُعارِضُها ممَّا يوجِبُ التَّبِعةَ، أي: سلامتُه مِن التلبُّسِ بالكبائرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤، ٢٥). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٢٧، ١٢٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن أمَرَ اللهُ نبيَّه أن يخيِّرَ زَوجاتِه بيْنَ البَقاءِ معه، والتَّسريحِ سَراحًا جميلًا، وفُهِمَ مِن هذا أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يُريدُ ضررًا لِغَيرِه، فمَن كان مَيْلُه إلى شَيءٍ مكَّنَه منه، وتَرَك حَظَّ نَفْسِه لحَظِّ غَيرِه- ذكَرَ هنا أنَّ زِمامَ الاختيارِ ليس بيَدِ الإنسانِ في كُلِّ شَيءٍ، كما أعطَى ذلك للزَّوجاتِ، بل هناك أمورٌ لا اختيارَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ فيها، وهي ما حَكَم اللهُ فيه[١].

وأيضًا لَمَّا أثنَى اللهُ تعالى على أهلِ خِصالٍ هي مِن طاعةِ اللهِ؛ أعقَبَه ببيانِ أنَّ طاعةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يأمُرُ به، ويعتزِمُ الأمرَ: هي طاعةٌ واجبةٌ، وأنَّها مُلحَقةٌ بطاعةِ اللهِ، وأنَّ صِنفَيِ النَّاسِ الذُّكورَ والنِّساءَ في ذلك سواءٌ، كما كانا سواءً في الأحكامِ الماضيةِ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تلك الأوصافَ السَّابقةَ مِن الإسلامِ فما بعْدَه؛ عقَّب ذلك بما صدَرَ مِن بعضِ المُسلِمينَ؛ إذ أشار الرَّسولُ بأمرٍ وقَعَ منهم الإباءُ له، فأنكَرَ عليهم؛ إذ طاعتُه -عليه الصَّلاة والسَّلامُ- مِن طاعةِ اللهِ، وأمْرُه مِن أمْرِه[٣].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

أي: لا يَصِحُّ ولا ينبغي شرعًا لمؤمنٍ ولا مُؤمنةٍ إذا حكَمَ اللهُ ورَسولُه حُكمًا: أن يختاروا غيرَ ما اختاره اللهُ ورَسولُه، فيَعصوهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٩)، ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٥، ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧، ٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٨٦).=

كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾.

أي: ومَن يَعصِ اللهَ ورَسولَه في أيِّ أمرٍ أو نَهيٍ، فقد ضَلَّ عن طريقِ الحَقِّ ضَلالًا واضِحًا لا خفاءَ فيه[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ

= قال ابن كثير: (هذه الآيةُ عامَّةٌ في جميعِ الأمورِ؛ وذلك أنَّه إذا حكَمَ اللهُ ورَسولُه بشَيءٍ فليس لأحدٍ مخالفتُه، ولا اختيارَ لأحدٍ هاهنا، ولا رأيَ ولا قولَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٣).

وقال ابن عطيَّةَ: (قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ﴾ لفظُه النَّفْيُ، ومعناه الحظرُ والمنعُ مِن فِعلِ هذا، وهذه العِبارةُ «ما كان» و «ما ينبغي» ونحوُها تجيءُ لِحَظرِ الشَّيءِ والحُكم بأنَّه لا يكونُ، ورُبَّما كان امتِناعُ ذلك الشَّيءِ عقلًا؛ كقولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠]، ورُبَّما كان العِلمُ بامتِناعِه شرعًا؛ كقولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ ...﴾ [الشورى: ٥١]، ورُبَّما كان حَظْرُه بحُكم شرعيٍّ؛ كهذه الآيةِ، ورُبَّما كان في المَندوباتِ؛ كما تقولُ: ما كان لك يا فُلانُ أن تَترُكَ النَّوافِلَ، ونحو هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٥).

وقوله تعالى: ﴿أَمْرِهِمْ﴾ قيل بمعنى: شأنِهم. وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٨٨).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ بمعنى: أمْرِ الله تعالى إيَّاهم. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨).

قال ابن عطيَّة: (هذا العِصيانُ يَعُمُّ الكُفرَ فما دونَه، وكُلُّ عاصٍ يأخُذُ مِن الضَّلالِ بقَدرِ مَعصيتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٦).

وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ اشتملَتْ هذه الخِصالُ العَشرُ على جوامعِ فُصولِ الشَّريعةِ كُلِّها:

فالإسلامُ: يجمَعُ قواعِدَ الدِّينِ الخَمسَ المفروضةَ الَّتي هي أعمالٌ.

والإيمانُ: يجمَعُ الاعتقاداتِ القَلبيَّةَ المفروضةَ، وهو شرطُ أعمالِ الإسلامِ كُلِّها.

والقُنوتُ: يجمَعُ الطَّاعاتِ كُلَّها؛ مَفروضَها ومَسنونَها، وتَرْكَ المَنهيَّاتِ، والإقلاعَ عنها ممَّن هو مرتَكِبُها، وهو معنى التَّوبةِ؛ فالقنوتُ هو تمامُ الطَّاعةِ، فهو مُساوٍ للتَّقوى، فهذه جوامعُ شرائِعِ المكَلَّفين في أنفُسِهم.

والصِّدقُ: يجمَعُ كُلَّ عَمَلٍ هو من مُوافَقةِ القَولِ والفِعلِ للواقِعِ؛ في القَضاءِ، والشَّهادةِ، والعُقودِ، والالتزاماتِ، وفي المعاملاتِ بالوَفاءِ بها، وتركِ الخيانةِ، ومُطابقةِ الظَّاهِرِ للباطِنِ في المراتِبِ كُلِّها، ومِن الصِّدقِ صِدقُ الأفعالِ.

والصَّبرُ: جامعٌ لِما يختَصُّ بتحمُّلِ المشاقِّ مِن الأعمالِ؛ كالجِهادِ، والحِسبةِ في الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ، ومناصَحةِ المسلمينَ، وتحمُّلِ الأذى في الله، وهو خُلُقٌ عَظيمٌ هو مِفتاحُ أبوابِ محامِدِ الأخلاقِ والآدابِ، والإنصافِ مِن النَّفسِ.

والخُشوعُ: الإخلاصُ بالقَلبِ والظَّاهِرِ، وهو الانقيادُ، وتجنُّبُ المعاصي، ويدخُلُ فيه الإحسانُ وهو المفَسَّرُ في حديثِ جبريلَ: ((أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنَّه يراك))[1]. ويدخُلُ تحت ذلك جميعُ القُرَبِ النَّوافِلِ؛ فإنَّها

(١) أخرجه البخاري (٥٠) واللفظ له، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مِن آثارِ الخُشوعِ، ويدخُلُ فيه التَّوبةُ مِمَّا اقترفه المرءُ مِن الكبائِرِ؛ إذ لا يتحقَّقُ الخشوعُ بدونِها.

والتَّصَدُّقُ: يحتوي جميعَ أنواعِ الصَّدَقاتِ والعَطيَّاتِ، وبَذْلَ المعروفِ والإرفاقِ.

والصَّومُ: عبادةٌ عَظيمةٌ؛ فلذلك خُصِّصَت بالذِّكرِ.

وحِفظُ الفُروجِ: أُريدَ به حِفظُها عمَّا ورد الشَّرعُ بحِفظِها عنه، وقد اندرَج في هذا جميعُ أحكامِ النِّكاحِ، وما يتفرَّعُ عنها، وما هو وسيلةٌ لها.

وذِكرُ اللهِ له محملانِ؛ أحدُهما: ذِكرُه اللِّسانيُّ، فيَدخُلُ فيه قراءةُ القُرآنِ، وطَلَبُ العلمِ ودراستُه... وشَمِل ما يُذكَرُ عَقِبَ الصَّلواتِ، ونحو ذلك مِن الأذكارِ.

والمحمَلُ الثَّاني: الذِّكرُ القَلبيُّ، وهو ذِكرُ اللهِ عند أمرِه ونَهْيِه... ومِمَّا يوضِّحُ شُمولَه لهذه الشَّرائعِ كلِّها تقييدُه بـ﴿كَثِيرًا﴾؛ لأنَّ المرءَ إذا ذكَرَ اللهَ كثيرًا فقد استغرق ذِكرُه على المحمَلَينِ جميعَ ما يُذكَرُ اللهُ عنده.

ويُراعى في الاتِّصافِ بهذه الصِّفاتِ أن تكونَ جاريةً على ما حَدَّده الشَّرعُ في تفاصيلِها[1].

٢- قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ في ذِكْرِ الكثرةِ دليلٌ على مشروعِيَّةِ الاستكثارِ مِن ذِكْرِ اللَّهِ سبحانَه بالقلبِ واللِّسانِ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أنَّه ينبغي اتِّخاذُ الوسائلِ الَّتي ينبغي بها حِفظُ الفَرجِ؛ لأنَّ الثَّناءَ على شَيءٍ ثناءٌ عليه وعلى وسائِلِه؛ فكُلُّ ما يَحصُلُ به حِفظُ الفَرجِ فإنَّه مَطلوبٌ ومَشروعٌ؛ ولهذا حَرُمَ النَّظرُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢-٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٥).

الأجنبيَّةِ، وحَرُمَ التَّلذُّذُ بمُخاطبتِها والاستِماعِ إلى صَوتِها، وحَرُمَ أيضًا مُصافَحةُ المرأةِ الأجنبيَّةِ، وحَرُمَتِ الخَلوةُ بها، وحَرُمَ سَفَرُها بلا مَحرَمٍ، وما أشبَهَ ذلك ممَّا يكونُ سَببًا في حِفظِ الفُروجِ، فإذا كان اللهُ سُبحانَه وتعالى أثنَى على الحافِظينَ فُروجَهم فإنَّ الوسائلَ الَّتي تؤدِّي إلى حِفظِ الفَرجِ هي مِن الأمورِ المَطلوبةِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ فيه أنَّ الواجِبَ على كُلِّ أحَدٍ أن يكونَ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في كُلِّ ما يختارُه، وإن كان فيه أعظَمُ المشقَّاتِ عليه[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أنَّ مُقتضى الإيمانِ ألَّا يُخالِفَ المؤمِنُ أمرَ اللهِ تعالى ورَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم[٣]، فلا ينبغي ولا يَليقُ ممَّن اتَّصَف بالإيمانِ إلَّا الإسراعُ في مَرضاةِ اللهِ ورَسولِه، والهرَبُ مِن سَخَطِ اللهِ ورَسولِه، وامتثالُ أمرِهما، واجتِنابُ نَهْيِهما[٤].

٦- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ فقطَعَ سُبحانَه وتعالى التَّخييرَ بعدَ أمْرِه وأمرِ رَسولِه؛ فليس لمؤمِنٍ أن يختارَ شَيئًا بعدَ أمْرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل إذا أمَرَ فأمْرُه حَتمٌ، وإنَّما الخِيَرةُ في قَولِ غَيرِه إذا خَفِيَ أمرُه، وكان ذلك الغيرُ مِن أهلِ العِلمِ به وبسُنَّتِه، فبهذه الشُّروطِ يكونُ قَولُ غَيرِه سائغَ الاتِّباعِ، لا واجِبَ الاتِّباعِ؛ فلا يجِبُ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

أحدٍ اتِّباعُ قَولِ أحدٍ سِواه، بل غايتُه أنَّه يَسوغُ له اتِّباعُه، ولو ترَك الأخذَ بقَولِ غَيرِه لم يكُنْ عاصيًا لله ورَسولِه، فأين هذا ممَّن يجبُ على جميعِ المكَلَّفينَ اتِّباعُه، ويَحرُمُ عليهم مخالَفتُه، ويجِبُ عليهم تَركُ كُلِّ قَولٍ لِقَولِه؟!

فلا حُكمَ لأحدٍ معه، ولا قَولَ لأحدٍ معه، كما لا تشريعَ لأحدٍ معه، وكلُّ مَن سِواه فإنَّما يجِبُ اتِّباعُه على قَولِه إذا أمرَ بما أمَرَ به، ونهَى عمَّا نهَى عنه، فكان مُبَلِّغًا مَحضًا ومُخبِرًا، لا مُنشِئًا ومُؤَسِّسًا؛ فمَن أنشَأ أقوالًا وأسَّس قواعِدَ بحَسَبِ فَهمِه وتأويلِه لم يجِبْ على الأُمَّةِ اتِّباعُها، ولا التَّحاكُمُ إليها، حتَّى تُعرَضَ على ما جاء به الرَّسولُ؛ فإنْ طابقَتْه ووافقَتْه، وشُهِدَ لها بالصِّحَّةِ، قُبِلَت حينَئذٍ، وإن خالفَتْه وجَب رَدُّها واطِّراحُها، فإنْ لم يَتبيَّنْ فيها أحدُ الأمْرَينِ جُعِلَت موقوفةً، وكان أحسَنُ أحوالِها أن يجوزَ الحُكمُ والإفتاءُ بها وتَركُه، وأمَّا أنَّه يجِبُ ويتعيَّنُ، فكَلَّا ولَمَّا[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ أنَّه يَنبغي عندَ ذِكرِ الرِّجالِ والنِّساءِ أنْ يُقَدَّمَ الرِّجالُ، كما في هذه الآيةِ وغيرِها مِن الآيات[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أنَّ الإسلامَ غيرُ الإيمانِ؛ فالعَطفُ يقتَضي المغايَرةَ[3]، فالإيمانُ أخَصُّ مِن الإسلامِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٤]، وفي الصَّحيحَينِ: ((لا يَزني الزَّاني حينَ يَزني

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٧).

وهو مُؤمِنٌ))[١]، فيَسلُبُه الإيمانَ، ولا يلزَمُ مِن ذلك كُفرُه، بإجماعِ المُسلِمينَ، فدَلَّ على أنَّه أخَصُّ منه، فالإسلامُ بعدَه مرتبةٌ يَرْتقي إليها وهي الإيمانُ، ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ لأنَّ القنوتَ ناشئٌ عنهما[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: فضيلةُ الإسلامِ والإيمانِ وكلِّ ما ذُكِرَ بعدَ ذلك، فإنْ قال قائل: إنَّ الفَضْلَ جاء لِمَنِ اتَّصَفوا بهذه الصفاتِ كلِّها؟

قلنا: لكنْ لَمَّا جاء هذا الفضلُ لها مجموعًا دلَّ على أنَّ كلَّ واحدٍ منها له فضلٌ؛ وإلَّا لَمَا كان لِذِكْرِها جميعًا فائدةٌ[٣]!

٤- الابتداءُ قد يكونَ كثيرًا بغيرِ الأفضَلِ، بل يُبتدَأُ بالشَّيءِ لأسبابٍ مُتعَدِّدةٍ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ فالآيةُ هنا لا تدُلُّ على أنَّ المسلِمَ أفضَلُ مِن المؤمِنِ[٤]!

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لعلَّ بهذه الآيةِ وأمثالِها تقرَّرَ أصلُ التَّسويةِ -أي: في التَّكليفِ والجزاءِ- فأغنى عن التَّنبيهِ عليه في مُعظَمِ أقوالِ القُرآنِ والسُّنَّةِ، ولعَلَّ هذا هو وَجهُ تَعدادِ الصِّفاتِ

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٨٦).

المذكورةِ في هذه الآيةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ التَّسويةُ في خُصوصِ صِفةٍ واحِدةٍ[١]، فالمقصودُ مِن أصحابِ هذه الأوصافِ المذكورةِ: النِّساءُ، وأمَّا ذِكرُ الرِّجالِ فللإشارةِ إلى أنَّ الصِّنفينِ في هذه الشَّرائعِ سواءٌ؛ لِيَعلموا أنَّ الشريعةَ لا تختصُّ بالرِّجالِ، فالأصلُ أن تعُمَّ الرِّجالَ والنِّساءَ إلَّا ما نُصَّ على تخصيصِه بأحدِ الصِّنفَينِ[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في أكثَرِ المواضِعِ حيثُ ذُكِرَ الذِّكْرُ قَرَنَه اللهُ تعالى بالكَثرةِ هاهنا وفي قَولِه بعدَ هذا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال مِن قبْلُ: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ لأنَّ الإكثارَ مِن الأفعالِ البَدَنيَّةِ غَيرُ مُمكِنٍ أو عَسِرٌ؛ فإنَّ الإنسانَ أكْلُه وشُربُه وتحصيلُ مأكولِه ومَشروبِه: يمنَعُه مِن أن يشتَغِلَ دائِمًا بالصَّلاةِ، ولكِنْ لا مانعَ له مِن أن يذكُرَ اللهَ تعالى وهو آكِلٌ، ويَذكُرَه وهو شارِبٌ أو ماشٍ، أو بائعٌ أو شارٍ، وإلى هذا أشار بقَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ولأنَّ جميعَ الأعمالِ صِحَّتُها بذِكرِ اللهِ تعالى، وهي النِّيَّةُ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ أنَّ الجنَّةَ موجودةٌ الآنَ؛ لقولِه تعالى: ﴿أَعَدَّ﴾؛ لأنَّ الإعدادَ بمعنى التَّهيئةِ -و«أَعَدَّ»: فعلٌ ماضٍ-؛ فيكونُ لازمُ ذلك: أنْ تكونَ الجنَّةُ موجودةً، وهذا أمْرٌ معلومٌ عندَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، ومدعومٌ بنصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ: أنّ الجنَّةَ والنَّارَ موجودتانِ الآنَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٨٥).

٨- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ فذكَرَ أوَّلًا السَّبَبَ الموجِبَ لعدَمِ مُعارَضتِه أمْرَ اللهِ ورَسولِه، وهو الإيمانُ؛ ثمَّ ذكَرَ المانِعَ مِن ذلك، وهو التَّخويفُ بالضَّلالِ الدَّالِّ على العُقوبةِ والنَّكالِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أنَّه كلَّما قَوِيَ الإيمانُ قَوِيتِ الموافَقةُ؛ وجْهُه: أنَّ الحُكمَ المُرَتَّبَ على وصْفٍ يقوَى بقُوَّتِه، ويَضعُفُ بضَعفِه، وعليه فإنَّه كلَّما نَقَصَ الإيمانُ وضَعُفَ، كَثُرَت المُخالَفةُ؛ ولهذا قال أهلُ العِلمِ رحمَهم الله: «إنَّ الإيمانَ يَزيدُ بالطَّاعةِ، ويَنقُصُ بالمعصيةِ»[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّه إذا ثَبَتَ للهِ ورسولِه في كلِّ مسألةٍ مِن المسائلِ حُكمٌ طَلَبيٌّ أو خَبَريٌّ؛ فإنَّه ليس لأحدٍ أن يَتخيَّرَ لنفْسِه غيرَ ذلك الحُكمِ فيَذهَبَ إليه، وأنَّ ذلك ليس لمؤمنٍ ولا مُؤمنةٍ أصلًا، فدلَّ على أنَّ ذلك مُنافٍ للإيمانِ[٣]، وقد علَّق الأمرَ بالإيمانِ؛ إعلامًا بأنَّ مَن اعترضَ غيرُ مؤمنٍ، وإن أظهرَ الإيمانَ بلِسانِه[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، وقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وغيرِهما مِن الآياتِ: تحريمُ الإفتاءِ والحُكمِ في دينِ اللهِ بما يُخالِفُ النُّصوصَ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((الرسالة التَّبوكية)) لابن القيم (ص: ٣٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٤).

وسقوطُ الاجتهادِ والتَّقليدِ عندَ ظُهورِ النَّصِّ[١].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ أمْرَ اللهِ، وأمْرَ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ مانعٌ مِنَ الاختيارِ، مُوجِبٌ للامتثالِ، وذلك يدُلُّ على اقتضائِه الوُجوبَ، وقد نبَّه تعالى على أنَّ عدمَ الامتثالِ معصيةٌ في قولِه بعدَه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ مع قَولِه سُبحانَه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ جوازُ تشريكِ اللهِ تعالى ورسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالواوِ في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ، بخلافِ الأمورِ الكَونيَّةِ؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يُشرَكُ مع اللهِ تعالى بالواوِ؛ ولهذا لَمَّا قال له الرَّجُلُ: ما شاء اللهُ وشِئتَ! قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أجعَلْتَني لله نِدًّا! بل ما شاءَ اللهُ وَحْدَه))[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أنَّ النَّهيَ للتَّحريمِ[٤].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أنه كلَّما كانت المعصيةُ أكبَرَ أو أكثرَ، كان الضَّلالُ أَبْيَنَ وأوضَحَ؛ وجْهُه: أنَّ الحُكْمَ المُرَتَّبَ على وصْفٍ يَزيدُ بزيادته، ويَنقُصُ بنُقصانِه[٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أنَّ معصيةَ

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٧) و(٥/ ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٧/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٩٥).

الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كمعصيةِ اللهِ تعالى، فإذا أتانا آتٍ ونَهَيْناه عن أمْرٍ جاء به النَّهيُ في السُّنَّةِ؛ وقال: هذا ليس في القرآنِ! نقولُ: ما في السُّنَّةِ كما في القرآنِ[١].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١] وقولَه: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ يُثيرُ في نُفوسِ المُسلماتِ أنْ يَسألْنَ: أهنَّ مَأجوراتٌ على ما يَعمَلْنَ مِن الحَسناتِ، و: أهُنَّ مَأموراتٌ بمِثلِ ما أُمِرَتْ به أزواجُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أمْ تلك خَصائصُ لِنساءِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟ فكان في هذه الآيةِ ما هو جَوابٌ لهذا السُّؤالِ، على عادةِ القرآنِ فيما إذا ذَكَر مَأموراتٍ يُعقِبُها بالتَّذكيرِ بحالِ أمْثالِها، أو بحالِ أضْدادِها. ويجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا ابتدائيًّا ورَدَ بمُناسَبةِ ما ذُكِرَ مِن فَضائلِ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- ووَجهُ تَأكيدِ هذا الخَبرِ بحَرْفِ (إنَّ): دَفْعُ شَكِّ مَن شكَّ في هذا الحُكمِ مِن النِّساءِ[٣].

- وذكَرَ ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بعدَ ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾؛ للتَّنبيهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩، ٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢١).

على أنَّ الإيمانَ هو الأصلُ[١].

- قولُه: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصَّومُ: عِبادةٌ عَظيمةٌ؛ فلذلك خُصِّصَت بالذِّكرِ مع أنَّ الفرضَ منه مَشمولٌ للإسلامِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾، ويَفِي صَومَ النَّافلةِ؛ فالتَّصريحُ بذِكرِ الصَّومِ تَنويهٌ به[٢].

- ومَفعولُ ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قبْلَه مِن قولِه: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾، وكذلك مَفعولُ ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ﴾[٣].

- ولم يَذكُرْ لهذه الأوصافِ مُتعلَّقًا إلَّا في قولِه: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ فنَصَّ على مُتعلَّقِ الحِفظِ ﴿فُرُوجَهُمْ﴾؛ لِكَونِه مَزلَّةَ العُقلاءِ ومَركَبَ الشَّهوةِ الغالبةِ، وعلى مُتعلَّقِ الذِّكرِ بالاسمِ الأعظمِ، وهو لفظُ اللهِ -على أحدِ الأقوالِ-؛ إذ هو العَلَمُ المُحتوي على جَميعِ أوصافِه؛ لِيَتذكَّرَ المُسلِمُ مَن يَذكُرُه، وهو اللهُ تعالى[٤].

- وعَطْفُ الإناثِ على الذُّكورِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾؛ لاختِلافِ الجِنسَينِ، وهو ضَروريٌّ، وأمَّا عطْفُ الزَّوجينِ على الزَّوجينِ؛ فلِتغايُرِ الوَصفَينِ[٥]، فلا يكونُ ضَروريًّا؛ ولذلكَ تُرِكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٠).

(٥) قال ابن عاشور: (وجعل [أي: الزَّمخشريُّ] العَطفَ على اعتبارِ المُغايرةِ بينَ المتعاطِفاتِ في الأوصافِ، لا المغايرةِ بالذَّواتِ، وهذا تكَلُّفٌ وصُنعٌ باليدِ، وتَبِعَه البيضاويُّ وكثيرٌ؛ ويعكِّرُ عليه أنَّ جمْعَ تلك الصِّفاتِ لا يوجِبُ المغفرةَ؛ لأنَّ الكبائرَ لا تُسقِطُها عن صاحِبِها إلَّا التَّوبةُ إلَّا أن يَضُمَّ إلى كلامِه ضَميمةً، وهي حملُ ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ على معنى =

في قولِه تعالى: ﴿مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ﴾ [التحريم: ٥]، وفائدتُه: الدَّلالةُ على أنَّ مَدارَ إعدادِ ما أُعدَّ لهُم جمْعُهم بيْنَ هذه النُّعوتِ الجميلةِ(١).

- وقيل: المُرادُ بالعطْفِ التَّمكُّنُ والرُّسوخُ في كلِّ وَصْفٍ منها، زِيادةً على التَّمكُّنِ الَّذي أفادَهُ التَّعبيرُ بالوَصفِ دونَ الفِعلِ، وحينَئذٍ تُعدَمُ الكَبائرُ، فيَتأتَّى تكفيرُ الصَّغائرِ، فتَأتي المغفرةُ والأجْرُ، وأمَّا آيةُ (التَّحريمِ) فلم تُعطَفْ؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّهنَّ أنواعٌ، كلُّ نَوعٍ يَتفرَّدُ بوَصفٍ، وإفادةُ الرُّسوخِ هنا في الأوصافِ مِن سِياقِ الامتنانِ والمَدْحِ بكَونِهنَّ خيرًا(٢).

- وقيل: وَجْهُ تَعدادِ الصِّفاتِ المذكورةِ في هذه الآيةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ التَّسويةُ في خُصوصِ صِفةٍ واحدةٍ، وسُلِكَ مَسلكُ الإطنابِ في تَعدادِ الأوصافِ؛ لأنَّ المَقامَ لِزيادةِ البَيانِ؛ لاختلافِ أفهامِ النَّاسِ في ذلك، على أنَّ في هذا التَّعدادِ إيماءً إلى أُصولِ التَّشريعِ. وعَطْفُ هذه الصِّفاتِ بالواوِ دونَ حَرْفَي التَّرتيبِ: الفاءِ و(ثُمَّ)، يُفيدُ أنْ يكونَ الحُكمُ المذكورُ معه ثابتًا لكلِّ واحدٍ اتَّصَفَ بوَصفٍ مِن الأوصافِ المُشتقِّ منها مَوصوفُه(٣).

= المتَّصِفينَ بالذِّكرِ اللِّسانيِّ والقلبيِّ، فيكونُ الذِّكرُ القَلبيُّ شامِلًا للتَّوبةِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فيكونُ الَّذين جمَعوا هذه الخِصالَ العَشرَ قد حَصَلت لهم التَّوبةُ. غيرَ أنَّ هذا الاعتِذارَ عن الزمخشريِّ لا يَتجاوَزُ هذه الآيةَ؛ فإنَّ في القرآنِ آياتٍ كثيرةً مِثلَها يَضيقُ عنها نِطاقُ هذا الاعتذارُ؛ منها قَولُه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥]. ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٣، ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١- ٢٤).

- قَولُه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً﴾ نُكِّرَتْ «مَغْفِرَةً» للتعظيمِ، أي: مغفرةً عظيمةً؛ كما أنَّ لهم أجرًا عظيمًا(١).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ ...﴾ إدخالُ (كان) في النَّفيِ أقْوى دَلالةً على انتفاءِ الحُكمِ؛ لأنَّ فِعلَ (كان) لِدَلالتِه على الكونِ -أي: الوجودِ- يَقْتضي نَفْيُه انتِفاءَ الكَونِ الخاصِّ برُمَّتِه(٢).

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ ...﴾ لَمَّا وقَعَا (مُؤمن ومؤمِنة) في حَيِّزِ النَّفيِ، فإنَّهما يَعُمَّانِ جَميعَ المؤمنينَ والمؤمناتِ؛ فلذلك جاء ضَميرُهما ضَميرَ جمْعٍ في قولِه: ﴿لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾؛ لأنَّ المعنى: ما كان لِجَمْعِهم ولا لكلِّ واحدٍ منهم الخِيَرةُ... وقيل: الضَّميرُ في ﴿أَمۡرِهِمۡ﴾ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والجمْعُ للتَّعظيمِ(٣).

- وذُكِرَ اسمُ الجلالةِ في قولِه: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا﴾؛ لِتَعظيم أمْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وللإيماءِ إلى أنَّ طاعةَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ طاعةٌ للهِ، والإشعارِ بأنَّ قَضاءَه قَضاءُ اللهِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨).

- وقولُه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ تَذييلُ تَعميمٍ؛ للتَّحذيرِ مِن مُخالَفةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ سواءٌ فيما هو فيه الخِيَرةُ، أمْ كان عن عمْدٍ لِلْهَوى في المُخالَفةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨).

الآيات (٢٧-٤٠)

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَطَرًا﴾: أي: حاجةً، وقَضاءُ الوَطَرِ: بُلوغُ مُنتهَى ما في النَّفْسِ مِن الشَّيءِ، يُقالُ: قضَى وطَرًا منها: إذا بلَغ ما أراد مِن حاجتِه فيها[١].

﴿أَدْعِيَآئِهِمْ﴾: أي: الَّذين تَبَنَّوهم، وأصلُ (دعو): يدُلُّ على إمالةِ شَيءٍ بصَوتٍ[٢].

﴿حَرَجٍ﴾: أي: إثمٍ وضِيقٍ، وأصلُ الحَرَجِ: الضِّيقُ، وأصْلُ (حرج): تجمُّعُ الشَّيءِ وضِيقُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٣٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦).

﴿فَرَضَ﴾: أي: أحَلَّ، والفَرْضُ: قطعُ الشَّيءِ الصُّلبِ، والتَّأثيرُ فيه، وأصلُ (فرض): يدُلُّ على تأثيرٍ في شَيءٍ[١].

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: السُّنَّةُ: الطَّريقةُ المُعتادةُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ، واطِّرادِه في سُهولةٍ[٢].

﴿خَلَوْاْ﴾: أي: مَضَوا وذَهَبوا، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تعَرِّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ[٣].

﴿حَسِيبًا﴾: أي: رقيبًا، وكَافِيًا ومُقتدِرًا، وعالِمًا ومحاسِبًا، ومنه: أحْسَبَني هذا الشَّيءُ، أي: كفاني[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٠).

قال الكفوي: (كل مَوضِعٍ ورد في القُرآنِ «فرَضَ اللهُ عليه» ففي الإيجابِ، و «ما فرَضَ اللهُ له» واردٌ في مُباحٍ أدخَلَ الإنسانُ فيه نفْسَه). ((الكليات)) (ص: ٦٨٩). ويُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٨، ٤١٣).

مِن قَبۡلُ﴾

قَولُه تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: مَنصوبٌ على المصدَرِ مَفعولٌ مُطلَقٌ لفعلٍ محذوفٍ، أي: سنَّ اللهُ تعالى ذلك سُنَّةً، والجُملةُ مؤكِّدةٌ لِما قبْلَها مِن نَفيِ الحَرَجِ. وقيل: مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بتقديرِ: (الزَمْ) ونحوِه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبَيِّنًا قصَّةَ زواجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن زينبَ بنتِ جحشٍ رضيَ الله عنها: واذكُرْ -يا محمَّدُ- إذ تقولُ لزَيدِ بنِ حارثةَ الَّذي أنعَمَ اللهُ عليه بأنْ هَداه للإسلامِ، وأنعمْتَ عليه -يا محمَّدُ- بالعِتقِ مِن رِقِّ العُبوديَّةِ: لا تُطَلِّقِ امرأتَك واصبِرْ عليها، واتَّقِ اللهَ فيها، وتُخفي -يا محمَّدُ- في قَلبِك ما أطْلَعَك اللهُ عليه مِن أنَّ زينبَ ستَكونُ مِن أزواجِك بعدَ طلاقِ زَيدٍ لها، وتخشَى أن يقولَ النَّاسُ بأنَّك تزَوَّجْتَ امرأةَ زَيدٍ الَّذي تبنَّيتَه مِن قَبْلُ وقد نَهيتَ عن التَّزَوُّجِ بنِساءِ الأبناءِ، واللهُ أحَقُّ أن تخشاه!

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه الحِكمةَ مِن زواجِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم بزينبَ، فيقولُ: فلمَّا قضى زَيدٌ حاجَتَه مِن امرأتِه زينبَ وطلَّقَها، زوَّجْناك بها يا محمَّدُ؛ لِكَيْلا يكونَ على المؤمِنينَ ضِيقٌ ومَشقَّةٌ في تزوُّجِهم بمُطلَّقاتِ مَن تبَنَّوهم إذا قَضَوا منهنَّ حاجاتِهم وفارَقوهنَّ، وكان قضاءُ اللهُ كائنًا لا محالةَ.

ما كان على النَّبيِّ إثمٌ أو ضِيقٌ مِمَّا قَسَمَ اللهُ له مِنَ المباحاتِ؛ سنَّ اللهُ له ذلك سُنَّةَ الأنبياءِ الماضينَ مِن قَبلِه، وكان قَدَرُ اللهِ كائنًا لا مَحالةَ.

الَّذين يُبلِّغونَ رِسالاتِ اللهِ إلى أقوامِهم، ويَخشَونَ اللهَ ويخافونَ عِقابَه،

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ١٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٠٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٢/ ١٦٧).

ولا يَخشَونَ أحدًا إلَّا اللهَ وَحْدَه، وكفى باللهِ حافِظًا لأعمالِ خَلْقِه، ومُحاسِبًا لهم.

ثمَّ يُثني الله تعالى على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ فيقولُ: ليس محمَّدٌ أبا أحدٍ مِن رجالِكم، ولكِنَّه رَسولُ اللهِ وآخِرُ النَّبيِّينَ، فلا نبيَّ بعْدَه، وكان اللهُ عليمًا بكُلِّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا مَبدأُ المقصودِ مِن الانتِقالِ إلى حُكمِ إبطالِ التَّبنِّي، ودحْضِ ما بناه المنافِقونَ على أساسِه الباطِلِ، بِناءً على كُفرِ المُنافِقينَ الَّذين غَمَزوا مَغامِزَ في قضيَّةِ تزَوُّجِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زينبَ بنتَ جَحشٍ بعدَ أن طلَّقَها زيدُ بنُ حارِثةَ[1].

سببُ النُّزولِ:

عن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: (أنَّ هذه الآيةَ: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلَتْ في شأنِ زَينبَ بِنتِ جَحشٍ وزَيدِ بنِ حارِثةَ)[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩).

(٢) رواه البخاري (٤٧٨٧).

قال ابنُ حجر: (لم تختلِفِ الرِّواياتُ أنَّها نزلت في قِصَّةِ زَيدِ بنِ حارِثةَ وزَينبَ بنتِ جَحشٍ). ((فتح الباري)) (٨/ ٥٢٣).

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾.

أي: واذكُرْ[١] -يا محمَّدُ- حينَ تقولُ لِزَيدِ بنِ حارِثةَ الَّذي أنعَمَ اللهُ عليه بالهِدايةِ إلى الإسلامِ، وأنعَمْتَ عليه -يا محمَّدُ- بالعِتقِ مِن رِقِّ العُبوديَّةِ[٢].

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (لو كان محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كاتمًا شَيئًا ممَّا أُنزِل عليه، لَكتَمَ هذه الآيةَ: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾)[٣].

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾.

أي: لا تُطَلِّقِ امرأتَك، واصبِرْ على عِشْرتِها، واتَّقِ اللهَ فيها[٤].

---

(١) قال ابنُ عاشور: (هو مِنَ الذُّكرِ -بضَمِّ الذالِ- الَّذي هو بمعنى التَّذكُّرِ، فلم يأمُرْه الله بأن يَذكُرَ ذلك للنَّاسِ؛ إذ لا جدوى في ذلك، ولكِنَّه ذكَّرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليرتِّبَ عليه قَولَه: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾، والمقصودُ بهذا الاعتبارُ بتقديرِ الله تعالى الأسبابَ لِمُسبَّباتِها؛ لتحقيقِ مرادِه سُبحانَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٩٨، ٢٩٩).

قال الواحدي: (﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أي: بالهدايةِ للإسلامِ، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بأن أعتَقْتَه مِنَ الرِّقِّ، قاله جميعُ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٢٥١).

(٣) رواه مسلم (١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢).

قال الرازي: (﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ قيل: في الطَّلاقِ، وقيل: في الشَّكوَى مِن زَيْنَبَ؛ فإنَّ زيدًا قال فيها: إنَّها تتكبَّرُ علَيَّ بسببِ النَّسَبِ، وعدَمِ الكفاءةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ أي: في أمْرِها فلا تُطلِّقْها: الواحديُّ، وابن =

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

أي: وتُخفي -يا محمَّدُ- في قَلبِك ما أطلَعَك اللهُ عليه مِن أنَّ زينبَ ستكونُ مِن أزواجِك بعدَ مُفارَقةِ زيدٍ لها[1]!

= الجوزي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٧).

وقال ابن جرير: (﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وخَفِ الله في الواجبِ له عليك في زوجتِك). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٥).

وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما يَتعلَّقُ بحقوقِها، ولا تَغبِنْها بقَولِك: إنَّها تترفَّعُ عليَّ. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٥٧).

وقال ابن جُزَي: (﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ يعني: فيما وصَفَها به مِن سُوءِ المعاشرةِ، واتَّقِ اللهَ ولا تُطَلِّقْها؛ فيكونُ نهيًا عن الطَّلاقِ على وَجهِ التَّنزيهِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٤٢، ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٠، ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٧، ٣٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٣٩ - ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٠١).

قال الثعلبي: (قال عليُّ بنُ الحُسَين:... كان اللهُ عزَّ وجَلَّ قد أعلمَه أنَّها ستكونُ مِن أزواجه؛ فإنَّ زَيدًا سيُطلِّقُها، فلمَّا جاء زَيدٌ قال: إنِّي أُريدُ أن أطلِّقَ زينبَ، فقال: أمسِكْ عليك زوجَك واتَّقِ الله. يقولُ: فلِمَ قُلْتَ: أمسِكْ عليك زَوجك، وقد أعلَمْتُك أنَّها ستكونُ مِن أزواجِكَ؟!

وهذا التَّأويلُ مُطابِقٌ للتِّلاوةِ؛ وذلك أنَّ الله عزَّ وجَلَّ حكَمَ وأعلَمَ بإبداءِ ما أخفى، واللهُ لا يُخلِفُ الميعادَ، ثمَّ لم نجِدْه عَزَّ وجلَّ أظهر مِن شأنِه غيرَ التَّزويجِ بقَولِه: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، فلو كان أضمَرَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم محبَّتَها، أو أراد طلاقَها، لَكان لا يجوزُ على الله تعالى كِتمانُه مع وَعدِه أن يُظهِرَه؛ فدَلَّ ذلك على أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إنَّما عوتِبَ على قَولِه: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ مع عِلمِه بأنَّها ستَكونُ زوجتَه، وكِتْمانِه ما أخبره اللهُ سبحانه به؛ حيث استحيا أن يقولَ لزَيدٍ: إنَّ الَّتي تحتَك ستكونُ امرأتي. والله أعلم. وهذا قَولٌ حَسَنٌ مَرْضيٌّ قَويٌّ). ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٤٨). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٣٩-٢٤١).

قال القرطبيُّ بعدَ أن ذكَر نحوَ هذا القولِ: (قال علماؤُنا رحمةُ اللهِ عليهم: وهذا القولُ أحسَنُ ما قيلَ في تأويلِ هذه الآيةِ، وهو الَّذي عليه أهلُ التَّحقيقِ مِن المفَسِّرينَ والعُلَماءِ الرَّاسِخينَ؛ =

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

أي: وتَخشَى -يا محمَّدُ- أن يقولَ النَّاسُ[(١)]: إنَّك تَنهَى عن التَّزَوُّجِ بنِساءِ الأبناءِ، ثمَّ تتزوَّجُ امرأةَ زَيدٍ الَّذي تبنَّيْتَه مِن قَبْلُ. واللهُ أَولى بأن تخشاه! فلا تُبالِ بالنَّاسِ فيما أحَلَّ اللهُ لك[(٢)].

= كالزُّهْريِّ، والقاضي بكرِ بنِ العلاءِ القُشَيْريِّ، والقاضي أبي بكرِ بنِ العَرَبيِّ، وغيرِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٠، ١٩١). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥٧٦).

وقال ابنُ حجر: (الحاصِلُ أنَّ الَّذي كان يُخفيه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو إخبارُ اللهِ إيَّاه أنَّها ستَصيرُ زوجتَه، والَّذي كان يحمِلُه على إخفاءِ ذلك خَشيةُ قَولِ النَّاسِ: تزوَّج امرأةَ ابنِه! وأراد اللهُ إبطالَ ما كان أهلُ الجاهليَّةِ عليه مِن أحكامِ التَّبنِّي بأمرٍ لا أبلَغَ في الإبطالِ منه، وهو تزوُّجُ امرأةِ الَّذي يُدْعَى ابنًا، ووُقوعُ ذلك مِن إمامِ المُسلِمينَ؛ ليَكونَ أدعى لِقَبولِهم). ((فتح الباري)) (٨/ ٥٢٤).

(١) قيل: هم المنافِقونَ. وممَّن قال بذلك: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣).

وقال البقاعي: (﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: مِن أن تُخبِرَ بما أخبَرَك اللهُ به، فيُصَوِّبوا إليك مُرجماتِ الظُّنونِ، لا سيَّما اليهودُ والمنافِقون). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩١)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٠١).

قال ابنُ الجوزي: (ليس المرادُ أنَّه لم يخشَ اللهَ تعالى في هذه الحالِ، ولكِنْ لَمَّا كان لخشيتِه بالخَلقِ نَوعُ تعلُّقٍ قيل له: اللهُ أحَقُّ أن تخشى منهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٦٧).

وقال ابنُ عاشور: (أي: تُخفي ما سيُبديه اللهُ، وتخشى النَّاسَ مِن إبدائه. والخشيةُ هنا كراهيةُ ما يُرجِفُ به المنافِقون... فليست هي خشيةَ خَوفٍ؛ إذ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُنْ يخافُ أحدًا مِن ظهورِ تزوُّجِه بزينبَ... ولكِنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَتوسَّمُ مِن خُبثِهم وسُوءِ طَويَّتِهم ما يَبعَثُهم على القالةِ في النَّاسِ لفِتنةِ الأمَّةِ، فكان يَعلمُ ما سيَقولونَه ويمتَعِضُ منه... ولم تكُنْ خَشيةً تَبلُغُ به مبلغَ صَرفِه عمَّا يَرغبُه؛ بدليلِ أنَّه لم يَتردَّدْ في تزوُّجِ زينبَ بعدَ طلاقِ زَيدٍ، ولكِنَّها استِشعارٌ في النَّفْسِ، وتقديرٌ لِما سيُرجِفُه المنافِقون. وليس في قَولِه: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ عِتابٌ ولا لَومٌ، ولكِنَّه تذكيرٌ بما حصَل له مِن تَوقِّيه قالةَ المنافِقينَ. وحمَلَه كثيرٌ مِن المفسِّرينَ =

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾.

أي: فلمَّا أتمَّ زَيدُ بنُ حارِثةَ حاجَتَه مِن امرأتِه زَينبَ بنتِ جَحشٍ، وفرَغ منها وطَلَّقها؛ زَوَّجْناك بها -يا محمَّدُ[1].

﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗا﴾.

أي: زوَّجناك -يا محمَّدُ- بزَينبَ امرأةِ زَيدٍ؛ لِئَلَّا يبقَى ضِيقٌ ومَشقَّةٌ على المؤمِنينَ في تزَوُّجِهم بمُطلَّقاتِ مَن تَبنَّوهم إذا قَضَوا مِنهنَّ حاجاتِهم، فلم تبقَ لديهم رغبةٌ فيهنَّ وفارَقوهنَّ[2].

﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾.

أي: وكان ما قَضاه اللهُ كائنًا لا محالةَ، ومِمَّا قضى اللهُ: أن يتزوَّجَ الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بزَينبَ رَضِيَ اللهُ عنها[3].

= على معنى العِتابِ، وليس مِن سياقِ الكلامِ ما يقتَضيه... وقد رُوِيَت في هذه القِصَّةِ أخبارٌ مخلوطةٌ، فإيَّاك أن تتسَرَّبَ إلى نَفْسِك منها أُغلوطةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣ - ٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥، ٦٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٨).

قال البقاعي: (﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾ أي: حاجةً مِن زواجِها والدُّخولِ بها، وذلك بانقِضاءِ عِدَّتِها منه؛ لأنَّه به يُعرَفُ أنَّه لا حاجةَ له فيها، وأنَّه قد تقاصَرَت عنها همَّتُه، وطابَتْ عنها نفْسُه، وإلَّا لَراجَعَها). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٥٨، ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٩، ٣٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٨).

قال الواحدي: (أي: زوَّجناك زينبَ -وهي امرأةُ زيدٍ الَّذي تبنَّيْتَه- لكيلا يُظَنَّ أنَّه مَن تُبُنِّيَ لم تَحِلَّ امرأتُه للمُتَبنِّي. قاله الزجَّاجُ، وهو قَولُ جميعِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٢٥٧). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا نفى الحَرَجَ عن المؤمِنينَ فيما ذُكِر، واندرج الرَّسولُ فيهم؛ إذ هو سَيِّدُ المؤمِنينَ- نفى عنه الحَرَجَ بخصوصِه، وذلك على سَبيلِ التَّكريمِ والتَّشريفِ، ونفَى الحرجَ عنه مرَّتينِ؛ إحداهما بالاندراجِ في العُمومِ، والأُخرَى بالخُصوصِ[1].

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾.

أي: ما يَنبغي أن يكونَ على النَّبيِّ إثمٌ أو ضِيقٌ ممَّا قَسَم اللهُ له مِنَ المُباحاتِ[2].

= (٦/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٠٣، ٣٠٤).

قال ابنُ عاشور: (أمْرُ اللهِ يجوزُ أن يُرادَ به ما أمَرَ به مِن إباحةِ تزوُّجِ مَن كُنَّ حلائِلَ الأدعياءِ، فهو بمعنى الأمرِ التَّشريعيِّ فيه... ويجوزُ أن يُرادَ الأمرُ التَّكوينيُّ، وهو ما عَلِمَ أنَّه يكونُ، وقَدَّر أسبابَ كَونِه... وتزَوُّجُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زينبَ مِن أمرِ اللهِ بالمعنَيَينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٩، ٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٠).

قال الماوَرْدي: (قَولُه تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: فيما أحَلَّه الله له مِن تزويجِ زينبَ بنتِ جَحشٍ. قاله مُقاتِلٌ. الثَّاني: الَّتي وهَبَت نَفْسَها للنَّبيِّ؛ إذ زوَّجَها اللهُ إيَّاه بغيرِ صَداقٍ، ولكِنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد تطوَّع عليها وأعطاها الصَّداقَ. قاله الحسَنُ. الثَّالثُ: في أن يَنكِحَ مَن شاء مِن النِّساءِ وإنْ حَرُمَ على أُمَّتِه أكثَرُ مِن أربَعٍ؛ لأنَّ اليهودَ عابوه بذلك. قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٠٧).

ممَّن اختار نحوَ القولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير. =

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: سَنَّ الله تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم في التَّوسعةِ عليه في النِّكاحِ كسُنَّتِه في الأنبياءِ الماضينَ؛ فهذه عادةُ الله فيهم أن يَنالوا ما أحَلَّ الله لهم[(١)].

﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾.

أي: وكان ما قدَّره اللهُ وقَضاه كائِنًا لا محالةَ، ولا بُدَّ مِن وُقوعِه[(٢)].

= يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: فيما أحلَّ الله له مِن النِّساءِ: الواحديُّ، والسمعاني، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤١).

قال الثعلبي: (قيل: الإشارةُ بالسُّنَّةِ إلى النِّكاحِ وأنَّه مِن سُنَّةِ الأنبياءِ. وقيل: إلى كثرةِ الأزواجِ). ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٤٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٥).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (قال ابنُ عبَّاسٍ ومجاهِدٌ وجمهورُ المفسِّرينَ في قولِه تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: أي: سَنَّ اللهُ تعالى لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم في التَّوسِعةِ عليه في بابِ النِّكاحِ كسُنَّتِه في الأنبياءِ الماضينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٦٦).

وقال السعدي: (هذا دَفْعٌ لِطَعنِ مَن طَعَن في الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في كثرةِ أزواجِه، وأنَّه طَعنٌ بما لا مَطعَنَ فيه، فقال: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ﴾ أي: إثمٍ وذَنْبٍ. ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: قَدَّر له مِنَ الزَّوجاتِ؛ فإنَّ هذا قد أباحه الله للأنبياءِ قَبْلَه؛ ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦).

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ٣٩﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ﴾.

أي: سُنَّةَ اللهِ في إباحةِ ما أباحه للَّذينَ مَضَوا مِنَ الرُّسَلِ الَّذين يُبَلِّغونَ رِسالاتِ اللهِ إلى أمَمِهم، ويؤَدُّونَها إليهم بأمانةٍ، فيُخبِرونَهم بكُلِّ ما أُمِروا به، ويَخشَونَ اللهَ، ويَخافونَ عِقابَه إن تَرَكوا تبليغَ الحَقِّ(١).

﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

أي: ولا يَخشَونَ أحدًا إلَّا اللهَ وَحْدَه، فلا يَمنَعُهم أحَدٌ أو شَيءٌ عن تبليغِ الحَقِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

أي: وكفى باللهِ حافِظًا لأعمالِ خَلْقِه ومحاسِبًا لهم، وكافِيًا لعبادِه، وناصِرًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٦٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣١٣).

ومُعينًا وحافِظًا[١].

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ ما في تَزَوُّجِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ بزينبَ مِن الفوائدِ؛ بَيَّنَ أنَّه كان خالِيًا مِن وُجوهِ المفاسِدِ؛ وذلك لأنَّ ما كان يُتوَهَّمُ مِن المفسَدةِ كان منحصِرًا في التَّزوُّجِ بزوجةِ الابنِ فإنَّه غيرُ جائزٍ، فقال اللهُ تعالَى: إنَّ زيدًا لم يَكُنِ ابنًا له، لا بلْ أحدُ الرِّجالِ لم يكُنِ ابنَ محمَّدٍ[٢].

وأيضًا لَمَّا أفاد ما فات كُلُّه أنَّ الدَّعِيَّ ليس ابنًا، وكانوا قد قالوا لَمَّا تزوَّج النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زينبَ: (تزوَّج حليلةَ ابنِه!)- أخبَرَ به سُبحانَه على وَجهٍ هو مِن أعلامِ النُّبوَّةِ، وأعظَمِ دلائِلِ الرِّسالةِ، فقال[٣]:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾.

أي: ليس محمَّدٌ أبا أحَدٍ مِن رِجالِكم، لا زَيدِ بنِ حارِثةَ ولا غيرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣١٦، ٣١٧).

قال القرطبي: (لم يُقصَدْ بهذه الآيةِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُنْ له ولدٌ؛ فقد وُلِدَ له ذكورٌ: إبراهيمُ، والقاسِمُ، والطَّيِّبُ، والمطَهَّرُ، ولكِنْ لم يَعِشْ له ابنٌ حتَّى يَصيرَ رجُلًا، =

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿خَاتَمَ﴾ بفَتحِ التَّاءِ، بمعنى: أنَّه آخِرُ النَّبيِّينَ فلا نبيَّ بعْدَه. وقيل: بمعنى الطَّابَع. وقيل: مأخوذٌ مِن الخاتَمِ الملبوسِ؛ لأنَّ مُحمَّدًا كالخاتَمِ للأنبياءِ، يَتزيَّنونَ بكَونِه منهم[(١)].

٢- قِراءةُ ﴿خَاتِمَ﴾ بكَسرِ التَّاءِ، اسمُ فاعلٍ، بمعنى: أنَّ مُحمَّدًا خَتَم النَّبيِّينَ بنَفْسِه، فطُبعَ على النُّبُوَّةِ فلا تُفتَحُ لأحدٍ بعْدَه. وقيل: خَتَم النَّبيِّينَ بمعنى: جاء آخِرَهم. وقيل: كَسرُ التَّاءِ وفَتحُها لُغتانِ بمعنًى واحدٍ[(٢)].

= وأمَّا الحَسَنُ والحُسَينُ فكانا طِفلَينِ، ولم يَكونا رجُلَين معاصِرَينِ له). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٦).

وقال البقاعي: (﴿مَّا كَانَ﴾ أي: بوجهٍ مِن الوُجوهِ مُطلَقُ كونٍ ﴿مُحَمَّدٌ﴾ أي: على كثرةِ نِسائه وأولادِه ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ لا مجازًا بالتَّبنِّي، ولا حقيقةً بالولادة). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٦٣).

وقال ابنُ عاشور: (المنفيُّ هو وَصفُ الأبوَّةِ المباشِرةِ؛ لأنَّها الغَرَضُ الَّذي سيق الكلامُ لأجْلِه، والَّذي وَهِمَ فيه مَن وَهِمَ؛ فلا الْتِفاتَ إلى كَونِه جَدًّا للحَسَنِ والحُسَين ومُحسِنٍ: أبناءِ ابنتِه فاطِمةَ رَضِيَ اللهُ عنها؛ إذ ليس ذلك بمقصودٍ، ولا يَخطُرُ ببالِ أحدٍ نفْيُ أبوَّتِه لهم بمعنى الأبوَّةِ العُليا. أو المرادُ أبوَّةُ الصُّلبِ، دونَ أُبوَّةِ الرَّحِمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٤).

(١) قرأ بها عاصمٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).

ويُنظرُ لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٢، ١٢٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٩).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢١، ١٢٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٩).

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

أي: ولكِنَّ مُحمَّدًا هو رَسولُ اللهِ، وهو آخِرُ النَّبيِّينَ، فلا نَبيَّ بعْدَه[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ مَثَلي ومَثَلَ الأنبياءِ مِن قَبْلِي كمَثَلِ رَجُلٍ بَنى بَيْتًا، فأحسَنَه وأجمَلَه، إلَّا مَوضِعَ لَبِنةٍ مِن زاويةٍ، فجعَل النَّاسُ يَطوفونَ به، ويَعجَبونَ له، ويقولونُ: هلَّا وُضِعَت هذه اللَّبِنةُ! قال: فأنا اللَّبِنةُ، وأنا خاتَمُ النَّبيِّينَ))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كانت بنو إسرائيلَ تَسوسُهمُ الأنبياءُ، كلَّما هلَكَ نَبيٌّ خَلَفه نبيٌّ، وإنَّه لا نبيَّ بَعدي))[٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بسِتٍّ: أُعطِيتُ جوامعَ الكَلِمِ، ونُصِرتُ بالرُّعبِ، وأُحِلَّت ليَ الغنائِمُ، وجُعِلَتْ ليَ الأرضُ طَهورًا ومَسجِدًا، وأُرسِلْتُ إلى الخَلقِ كافَّةً، وخُتِم بيَ النَّبيُّونَ))[٤].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِلمِ بكُلِّ شَيءٍ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن خَلْقِه، ومِن ذلك عِلمُه بمَن يَصلُحُ منهم لرِسالتِه، وبما يَصلُحُ لهم مِنَ الأحكامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٥).

(٢) رواه البخاري (٣٥٣٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٦).

(٣) رواه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).

(٤) رواه مسلم (٥٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢١)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٦٧، ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[آل عمران: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام: ١٢٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ ﴾ فيه استِشارةُ ذَوي الرَّأيِ؛ لأنَّ زيدًا رضي اللهُ عنه استشارَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم[١]، وأنَّ المُستشارَ مُؤتَمَنٌ يجِبُ عليه إذا استُشيرَ في أمرٍ مِن الأمورِ أن يُشيرَ بما يَعلَمُه أصلَحَ للمُستَشيرِ، ولو كان له حَظُّ نَفْسٍ، فيُقَدِّمُ مَصلحةَ المُستشيرِ على هَوى نَفْسِه وغَرَضِه[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ ﴾ فيه أنَّ التَّعليمَ الفِعليَّ أبلَغُ مِن القَوليِّ، خُصوصًا إذا اقتَرَن بالقَولِ؛ فإنَّ ذلك نورٌ على نورٍ[٣]، فاللهُ تعالى زَوَّجَ زينبَ بنتَ جحشٍ رَضِيَ اللهُ عنها رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ وهذا أبلَغُ في الطُّمأنينةِ، وثُبوتِ الحُكْمِ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ وُجوبُ تقديمِ خشيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ على خشيةِ كلِّ أحدٍ، فالواجبُ على المرءِ ألَّا يَخافَ في اللهِ تعالى لَومةَ لائمٍ؛ وأنْ يتَّقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ في بيانِ الحقِّ والعملِ به، وإنِ استَهْزَأ به النَّاسُ، وسَخِروا منه، فإنَّه لا يَزدادُ بهذه السُّخريةِ والاستِهزاءِ إلَّا رِفعةً عندَ اللهِ سبحانه وتعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٠٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الثَّناءُ على مَن بَلَّغَ شَيئًا مِن شَريعةِ اللهِ تعالى مِن غيرِ الرُّسُلِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّه إنَّما أثنى على الرُّسُلِ؛ لِكَونِهم بَلَّغوا الرِّسالةَ ولم يَخشَوا أحدًا؛ فمَن كان مِثلَهم في ذلك فهو مَحَلُّ الثَّناءِ[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ وُجوبُ مراقبةِ العبدِ ربَّه، فالعبدُ إذا علِم أنَّ اللهَ عالِمٌ بكلِّ شَيءٍ: قولِه وفِعلِه وفِكرِه- أوجَبَ له ذلك مُراقبةَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وألَّا يَفقِدَه حيث أمَرَه، ولا يَراه حيثُ نَهاه[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ فيه الثَّناءُ على زَيدِ بنِ حارِثةَ؛ وذلك مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ اللهَ سَمَّاه في القُرآنِ، ولم يُسَمِّ مِن الصَّحابةِ باسمِه غَيرَه.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ اللهَ أخبَرَ أنَّه أنعَمَ عليه، أي: بنِعمةِ الإسلامِ والإيمانِ، وهذه شَهادةٌ مِن اللهِ له أنَّه مُسلِمٌ مُؤمِنٌ ظاهِرًا وباطِنًا، وإلَّا فلا وَجهَ لتَخصيصِه بالنِّعمةِ لولا أنَّ المرادَ بها النِّعمةُ الخاصَّةُ[3].

٢- لا يُسَوَّى بيْنَ اللهِ تعالى وبيْن الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالواوِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

غيرِ الأمورِ الشرعيَّةِ؛ وهنا قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ فعَطَف نعمةَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على نعمةِ اللهِ تعالى بالواوِ مع أنَّها ليسَتْ مِن الأمورِ الشرعيَّةِ! والَّذي سَوَّغَ ذلك اختِلافُ النِّعمتَينِ؛ فالنِّعمةُ الأُولَى: الإسلامُ، والنِّعمةُ الثانيةُ: العِتْقُ، فإنَّه يجوزُ عَطْفُ الأمورِ غيرِ الشَّرعيَّةِ بالواوِ إذا اختلَفَ المعنَى[(١)].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ فيه أنَّ المُعتَقَ في نِعمةِ المُعتِقِ[(٢)].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ فيه أنَّ مِنَ الرَّأيِ الحَسَنِ لِمَنِ استشار في فِراقِ زَوجتِه: أن يُؤمَرَ بإمساكِها مهما أمكَنَ صَلاحُ الحالِ؛ فهو أحسَنُ مِن الفُرْقةِ[(٣)].

٥- قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ إشارةُ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على زَيدٍ بإمساكِ زَوجِه -مع عِلمِه بأنَّها ستَصيرُ زَوجةً له- أداءٌ لواجِبِ أمانةِ الاستِنصاحِ والاستِشارةِ، وقد يُشيرُ المرءُ بالشَّيءِ يَعلَمُه مَصلحةً وهو يُوقِنُ أنَّ إشارتَه لا تُمتثَلُ، والتَّخليطُ بيْنَ الحالَينِ تَخليطٌ بيْن التَّصَرُّفِ المستَنِدِ لِما تقتَضيه ظواهِرُ الأحوالِ وبيْن ما في عِلمِ اللهِ في الباطِنِ، وأشْبَهُ مَقامٍ به مَقامُ موسى مع الخَضِرِ في القضايا الثَّلاثِ[(٤)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧).

وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ ثُبوتُ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّها رِسالةُ حقٍّ؛ فلو كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كاذِبًا -وحاشاه مِن ذلك- لَكان يَكتُمُ مِثلَ هذه الأشياءِ؛ لأنَّها صَعبةٌ في حَقِّه[1]؛ لأنَّه أخفى في نَفْسِه ما كان يخشى قالةَ النَّاسِ في ذلك، واستحيا منهم، وفي العُرفِ أنَّ مَن أخفى شيئًا يَستحْيي مِن النَّاسِ إن ظهَرَ عندَهم: أن يَكتُمَ ذلك مِنَ النَّاسِ ولا يُظهِرَه، فإذا كان رَسولُ الله أظهَرَ ما كان يَخشى قالةَ النَّاسِ فيه، ولم يَكتُمْه منهم؛ دَلَّ أنَّه رَسولٌ؛ إذ لو كان غيرَ رَسولٍ لَكتَمَه وأخفاه ولم يُظهِرْه؛ لِما ذكَرْنا مِن العُرفِ في النَّاسِ مِن كِتمانِ ما يَستحيُونَ منه إذا ظهَرَ[2]، فدلَّ على أنَّه رسولُ الله، وأنَّه لا يقولُ إلَّا ما أُوحِيَ إليه، ولا يريدُ تعظيمَ نفْسِه[3].

٧- كان يُقالُ لزَيدٍ رضيَ الله عنه: زَيدُ بنُ مُحمَّدٍ حتَّى أنزَل الله سبحانه ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٥]، فقال: أنا زيدُ بنُ حارِثةَ، وحَرُمَ عليه أن يقولَ: أنا زيدُ بنُ مُحمَّدٍ، فلمَّا نُزِع عنه هذا الشَّرفُ وهذا الفَخرُ، وعَلِمَ اللهُ وَحْشَتَه من ذلك؛ شَرَّفه بخَصِيصةٍ لم يَخُصَّ بها أحدًا مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهي أنَّه سمَّاه باسمِه في القُرآنِ، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾ يعني: مِن زَينبَ. ومَن ذَكَرَه اللهُ تعالى باسمِه في الذِّكرِ الحَكيمِ حتَّى صار اسمُه قُرآنًا يُتلى في المحاريبِ، نوَّهَ به غايةَ التَّنويهِ، فكان في هذا تأنيسٌ له، وعِوَضٌ مِن الفَخرِ بأُبُوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له، ألَا ترى إلى قَولِ أُبَيِّ بنِ كعبٍ حينَ قال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ الله أمَرني أنْ أقرأَ عليكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

القُرآنَ. قال أُبَيٌّ: آللهُ سمَّاني لك؟ قال: اللهُ سمَّاك لي. فجعَل أُبَيٌّ يَبْكي))[١].
وكان بُكاؤُه مِن الفَرَحِ حينَ أُخبِرَ أنَّ الله تعالى ذكَرَه، فكيف بمَن صار اسمُه قُرآنًا يُتلَى مخلَّدًا لا يَبِيدُ، يَتْلوه أهلُ الدُّنيا إذا قَرؤوا القرآنَ، وأهلُ الجنَّةِ كذلك أبدًا، لا يَزالُ على ألْسِنةِ المؤمِنينَ، كما لم يَزَلْ مذكورًا على الخُصوصِ عندَ رَبِّ العالَمينَ[٢]؟!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾ دَليلٌ على أنَّ زَيدًا رَضِيَ اللهُ عنه طلَّقَها عن رَغبةٍ، وأنَّها انقَضَتْ حاجتُه منها، ولم يُطَلِّقْها عن إكراهٍ[٣]!

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ فيه فَضيلةُ زَينبَ رَضِيَ اللهُ عنها أُمِّ المُؤمِنينَ؛ حيثُ تولَّى اللهُ تَزويجَها مِن رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن دونِ خِطبةٍ ولا شُهودٍ؛ ولهذا كانت تفتَخِرُ بذلك على أزواجِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتقولُ: (زوَّجَكُنَّ أهاليكُنَّ، وزوَّجَني اللهُ مِن فَوقِ سَبعِ سَمواتٍ)[٤].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ فيه أنَّ المرأةَ إذا كانت ذاتَ زَوجٍ، لا يجوزُ نِكاحُها ولا السَّعيُ فيه وفي أسبابِه، حتَّى يَقضِيَ زَوجُها وَطَرَه منها، ولا يَقضي وطَرَه حتَّى تنقَضيَ عِدَّتُها؛ لأنَّها قبْلَ انقِضاءِ عِدَّتِها هي في عِصمتِه، أو في حَقِّه الَّذي له وطَرٌ إليها، ولو مِن بَعضِ الوُجوهِ[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٦٠) واللفظ له، ومسلم (٧٩٩) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((غوامض الأسماء المبهمة)) للسهيلي (ص: ١٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٠٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).
والحديث أخرجه البخاري (٧٤٢٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ استُدِلَّ به على أنَّ لفظَ التَّزويجِ مِن ألفاظِ عقدِ النِّكاحِ، وأنَّه يقالُ: (زوَّجه إيَّاها)، لا: (زوَّجها إيَّاه)[١].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗا﴾ فيه جوازُ تزوُّجِ زَوجةِ الدَّعِيِّ، كما صَرَّح به[٢].

١٣- في قَولِ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗا﴾ الإبانةُ عن عِلَّةِ الحُكمِ في إباحةِ ذلك للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ ذلك قد اقتضَى إباحتَه للمُؤمنينَ؛ فدَلَّ ذلك على إثباتِ القياسِ في الأحكامِ، واعتِبارِ المعاني في إيجابِها[٣].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ التَّزويجَ مِن النَّبيِّ عليه السَّلامُ لم يكُنْ لقضاءِ شهوةِ النَّبيِّ عليه السلامُ، بل لبيانِ الشَّريعةِ بفِعلِه؛ فإنَّ الشَّرعَ يُستفادُ مِن فِعلِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٤]، وبهذا يُعرَفُ بُطلانُ ما يُروى أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أتى زيدًا ذاتَ يومٍ لحاجةٍ، فرأى زينبَ فوقَعَتْ في نفْسِه، وأعجَبَه حُسنُها، فقال: «سُبحانَ اللهِ مُقَلِّبِ القُلوبِ!»، فأخبرَتْ زَينبُ زَيدًا بذلك، فَفَطِنَ له، فكرِهَها وطَلَّقَها بعدَ مُراجعةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقولِه: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ فهذا الأثرُ باطلٌ مُناقِضٌ

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٠).

لِمَا ذَكَرَ اللهُ تعالى مِن الحِكمةِ في تزويجِها إيَّاه[١].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗا﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ الأُمَّةَ مُساويةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الأحكامِ إلَّا ما قام دَليلٌ على تخصيصِه به؛ لأنَّه صرَّح بأنَّه فعَلَ ذلك لنَبيِّه؛ ليرتَفِعَ الحَرَجُ عن المؤمِنينَ في مِثلِه[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ﴾ أنَّه لا حرجَ على الإنسانِ -غيرِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم- فيما أحَلَّ اللهُ تعالى له؛ لأنَّ ما ثَبَت في حقِّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ثَبَت في حقِّ أُمَّتِه إلَّا بدليلٍ، ولكنْ يجبُ على الإنسانِ أنْ يُراعِيَ أحوالَ الناسِ وما يُسْتَنْكَرُ عليه فيهم؛ حتَّى لا يُعَرِّضَ نفْسَه للذَّمِّ والقَدْحِ! فمُراعاةُ أحوالِ النَّاسِ أمْرٌ لا بُدَّ منه إلَّا في الأمورِ الشَّرعيَّةِ؛ فإنَّ الواجبَ على المرءِ إبانتُها وإظهارُها[٣].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ فيه أنَّ النِّكاحَ مِن سُنَنِ المُرسَلينَ[٤].

١٨- قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ في كَثرةِ نِساءِ الرُّسُلِ لهم آيةٌ عَظيمةٌ؛ لأنَّهم آثَروا الفَقرَ والضِّيقَ على السَّعةِ والغِنى، وكَفُّوا أنفُسَهم عن جميعِ لذَّاتِها، وحَمَلوا

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٣٢٥). ويُنظر الكلامُ عن الحديثِ المذكورِ في ((السلسلة الضعيفة)) للألباني (٦٨٤٨).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٤٧)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦).

على أنفُسِهم الشَّدائِدَ في العباداتِ والأمورِ العِظامِ الثَّقيلةِ، وهذه الأشياءُ كُلُّها أسبابُ قَطعِ قَضاءِ الشَّهواتِ في النِّساءِ والحاجةِ فيهنَّ؛ فإذا لم تُقطَعْ تلك الأسبابُ عنهم؛ دلَّ أنَّهم باللهِ قَوُوا عليها[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ إذا جعَلْنا «الحسيبَ» بمعنى: «الحفيظِ الكافي» فيُؤخَذُ مِن الآيةِ أنَّ حِفظَ اللهِ سبحانَه وتعالى في غايةِ ما يكونُ مِن الحفظِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. أمَّا إذا جعَلْنا «الحسيبَ» بمعنى: «المُحَاسِبِ»؛ فإنَّه يُؤخَذُ منها فائدةٌ وهي: كمالُ محاسَبةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وأنَّه لا يَفوتُه شيءٌ، وعلى كِلا القَولينِ ففي الآيةِ إثباتُ عِلْمِ اللهِ تعالى؛ فإنَّه لا مُحاسَبةَ إلَّا مِن علمٍ؛ ولا حِفظَ إلَّا بعلمٍ[٢].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ إبطالُ بُنوَّةِ الأدعياءِ[٣].

٢١- يُجمَعُ بينَ قَولِه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ مع ما جاء عن بَعضِ السَّلَفِ أنَّه قَرَأ: «وهو أبٌ لهم» بأنْ يُقالَ هنا: ليس أبا أحدٍ مِن الرِّجالِ بالتَّبَنِّي، ولكِنَّه أبٌ للمُؤمِنينَ باعتبارِ التَّعليمِ والتَّوجيهِ والإرشادِ[٤]. وفي الحديثِ قال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّما أنا لكم مثلُ الوالدِ أعلِّمُكم))[٥].

٢٢- قَولُه تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فيه أنَّه لا نبيَّ بعدَه، وأنَّ مَن ادَّعَى النُّبوَّةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١٧).

(٥) أخرجه أبو داود (٨)، والنسائي (١/ ٣٨)، وابن ماجه (٣١٣)، وأحمد (٧٤٠٩).
صحَّحه البغوي في ((شرح السنة)) (١/ ٢٧٢)، والنَّووي في ((المجموع)) (٢/ ٩٥)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (١/ ٣٨)، وصحَّح إسناده ابن الملقن في ((البدر المنير)) (٢/ ٢٩٧) وقال: وأصله في مسلم.

بعدَه قُطِع بكذبِه[١]؛ وذلك لأنَّ النَّبيِّينَ عامٌّ، فخاتمُ النَّبيِّينَ هو خاتمُهم في صِفةِ النُّبوَّةِ[٢]، فقولُه تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ خبرٌ؛ وخبرُ اللهِ تعالى صِدْقٌ لا يُمكِنُ أنْ يَتطَرَّقَ إليه الكذبُ بوجهٍ مِن الوُجوهِ[٣].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أنَّ مَن صَدَّقَ مُدَّعي النُّبوَّةِ بعدَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فهو كافِرٌ؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ للقُرآنِ؛ ومُكَذِّبُ القُرآنِ كافِرٌ[٤].

٢٤- قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ولم يَقُلْ سبحانَه: «وخاتم المرسَلينَ» مع أنَّه قال: ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه قد يكونُ نَبيًّا ولا يكونُ رسولًا؛ ومحمَّدٌ رسولُ اللهِ صلوات اللهُ وسلامُه عليه خاتمُ الأنبياءِ[٥].

٢٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وعيسى عليه السَّلامُ يَنزِلُ بعدَه، وهو نبيٌّ؟

الجوابُ: معنى كَونِه خاتَمَ النَّبيِّينَ: أنَّه لا يَتنبَّأُ أحدٌ بعدَه، وعيسى نبيٌّ قَبْلَه، وحينَ يَنزِلُ يَنزِلُ عامِلًا بشَريعةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٦]، مصَلِّيًا إلى قِبلتِه، كأنَّه بعضُ أمَّتِه[٧].

٢٦- قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ اختِصاصُه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم بالأحمَديَّةِ والمُحمَّديَّةِ عَلَمًا وصِفةً:

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥١).

(٦) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦١، ٤٦٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٤).

بُرهانٌ جليٌّ على خَتمِه؛ إذ الحَمدُ مَقرونٌ بانقِضاءِ الأمورِ، مَشروعٌ عِندَه؛ قال تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] [يونس: ١٠].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أنَّ إقرارَ اللهِ تعالى للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وتأييدَه له شاهدٌ لصِدْقِ رسالتِه؛ فلو عَلِم الله تعالى أنَّ محمَّدًا غيرُ رسولٍ لَكان كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦] -و«الوَتينُ»: عِرْقٌ في القلبِ لو قُطِعَ مات-، فكَوْنُ اللهِ تعالى يُؤيِّدُه ويَنصُرُه ويَفتَحُ على يديه وهو يقولُ: إنَّه رسولُ اللهِ تعالى، وإنَّه أذِنَ له باستِباحةِ أموالِكم، وأَخْذِ رِقابِكم إذا لم تَدخُلوا في الإسلامِ ولم تُؤَدُّوا الجِزْيَةَ؛ يَكونُ هذا آيةً مِن آياتِ اللهِ تعالى له؛ ولهذا خَتَمَ الآيةَ هذه الَّتي أثبتَتْ له الرِّسالةَ بقولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[2].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ الرَّدُّ على غُلاةِ القَدَريَّةِ؛ فإنَّهم أنكروا عِلمَ اللهِ تعالى بما يَصنَعُه العِبادُ قبْلَ وُقوعِه منهم[3]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾

- قولُه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ فيه الإتيانُ بفِعلِ القولِ بصِيغةِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٦٨). ويُنظر أيضًا: ((غوامض الأسماء المبهمة)) للسهيلي (ص: ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٣).

المُضارعِ؛ لاستِحضارِ صُورةِ القولِ وتَكريرِه، وفي ذلك تَصويرٌ لِحَثِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ زَيدًا على إمساكِ زَوجِه وألَّا يُطلِّقَها، ومُعاودتِه عليه[١].

- والتَّعبيرُ عن زَيدِ بنِ حارثةَ رضِيَ اللهُ عنه هنا بالمَوصولِ ﴿لِلَّذِىٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ دونَ اسْمِه العلَمِ الَّذي يَأتي في قولِه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ﴾؛ لِمَا تُشعِرُ به الصِّلةُ المعطوفةُ -وهي ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾- مِن تَنزُّهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن استِعمالِ وَلائِه لِحَمْلِه على تَطليقِ زَوجِه؛ فالمَقصودُ هو الصِّلةُ الثَّانيةُ، وهي ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾؛ لأنَّ المقصودَ منها أنَّ زيدًا أخَصُّ النَّاسِ به، وأنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أحرَصُ على صَلاحِه، وأنَّه أشارَ عليه بإمْساكِ زَوجِه لِصَلاحِها به، وأمَّا صِلةُ ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ فهي تَوطئةٌ للثَّانيةِ[٢].

- قولُه: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ الإمساكُ عُبِّر به هنا عن الصُّحبةِ؛ تَشبيهًا للصَّاحبِ بالشَّيءِ المُمسَكِ باليَدِ. وزِيادةُ ﴿عَلَيۡكَ﴾؛ لدَلالةِ كَلمةِ (على) على المُلازَمةِ والتَّمكُّنِ. أو لتَضْمينِ ﴿أَمۡسِكۡ﴾ معنى احبِسْ، أي: أبْقِ في بيتِك زوجَك[٣].

- والإتيانُ بالفِعلِ المُضارعِ في قولِه: ﴿وَتُخۡفِي﴾؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ إخفاءِ ذلك، وعدَمِ ذِكْرِه[٤].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ مُعترِضةٌ؛ لِمُناسَبةِ جَرَيانِ ذِكرِ خَشيةِ النَّاسِ، وليس في قولِه: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ﴾ عِتابٌ ولا لَومٌ، ولكنَّه تَذكيرٌ بما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠، ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حصَلَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن تَوقِّيه قالةَ المنافقينَ، وتَشجيعٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَحقيرٌ لأعداءِ الدِّينِ، وتَعليمٌ له بأنْ يَمضِيَ في سَبيلِه، ويَتناوَلَ ما أباح اللهُ له ولرُسلِه؛ مِن تَناوُلِ ما هو مُباحٌ مِن مَرغوباتِهم ومحبوباتِهم إذا لم يَصُدَّهم شَيءٌ مِن ذلك عن طاعةِ ربِّهم[١].

- وقولُه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا ...﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ الآيةَ. وقد طُوِيَ كلامٌ يَدُلُّ عليه السِّياقُ، وتَقديرُه: فلمْ يَقبَلْ منك ما أشرْتَ عليه ولم يُمسِكْها[٢].

- وذِكرُ اسمِ زَيدٍ في قولِه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (فلمَّا قَضَى منْها وطَرًا)؛ فعُدِلَ عن مُقتضى الظَّاهرِ؛ للتَّنويهِ بشَأْنِ زَيدٍ[٣].

- والجمْعُ بيْن اللَّامِ و(كي) في قولِه: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ ...﴾ تَوكيدٌ للتَّعليلِ، كأنَّه يقولُ: ليستِ العِلَّةُ غيرَ ذلك[٤].

- قولُه: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لِمَا قبلَه في جُملةِ ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾، وهو مثَلٌ لِمَا أرادَ كونَه مِن تَزويجِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ زينبَ، ومِن نَفْيِ الحرَجِ عن المؤمنينَ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣، ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٩).

خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾

- قولُه: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ استئنافٌ لِزيادةِ بَيانِ مُساواةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للأُمَّةِ في إباحةِ تَزوُّجِ مُطلَّقةِ دَعِيِّه، وبَيانِ أنَّ ذلك لا يُخِلُّ بصِفةِ النُّبوَّةِ؛ لأنَّ تَناوُلَ المُباحاتِ مِن سُنَّةِ الأنبياءِ، وفي هذا الاستِئنافِ ابتداءٌ لِنَقْضِ أقوالِ المنافقينَ: إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَزوَّجَ امْرأةَ ابْنِه[1].

- ونَفى اللهُ الحرَجَ عن نَبيِّه مَرَّتينِ؛ إحداهما لَمَّا نَفى الحرَجَ عن المُؤمنينَ في قولِه: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ ﴾، واندرَجَ الرَّسولُ فيهم؛ إذ هو سيِّدُ المُؤمنينَ، والأخرى بالخُصوصِ في قولِه هنا: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ ﴾، وذلك على سَبيلِ التَّكريمِ والتَّشريفِ[2].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ اعتِراضٌ تَذْييليٌّ وُسِّط بيْنَ المَوصولَينِ الجاريَينِ مَجرَى الواحدِ -﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ و﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ ﴾)-؛ للمُسارعةِ إلى تَقريرِ نَفْيِ الحَرجِ وتَحقيقِه[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ في مَوضعَينِ، وقال في سُورةِ (الفتْحِ): ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ ﴾ [الفتح: ٢٣]، والتَّقديرُ في الآياتِ: سُنَّةَ اللهِ الَّتي قد خلَتْ في الَّذين خَلَوا؛ فذكَرَ في كلِّ سُورةٍ الطَّرَفَ الَّذي هو أعمُّ، واكْتَفى به عن الطَّرَفِ الآخَرِ، والمُرادُ بما في أوَّلِ هذه السُّورةِ النِّكاحُ، والمُرادُ بما في آخِرِ هذه السُّورةِ القتْلُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٥).

وما في سُورةِ (الفتْحِ) يُرِيدُ به نُصرةَ اللهِ لأنبيائِه، والعُمومُ في النُّصرةِ أبلَغُ منه في النِّكاحِ والقتْلِ، ومِثلُه في (غافرٍ): ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٨٥]؛ فإنَّ المُرادَ بها عدَمُ الانتفاعِ بالإيمانِ عندَ البأْسِ؛ فلهذا قال: ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾[(١)].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه قال هنا: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وفي آخِرِ السُّورةِ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]؛ فاختَلَفا فيما أُعقِبَت به كلُّ آيةٍ منها؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ الآيةَ الأُولى مُعقَّبٌ بها قِصَّةُ زَينبَ أُمِّ المؤمنينَ وزيدِ بنِ حارثةَ رضِيَ اللهُ عنهما، وما جَرى في ذلك إلى أنْ تَزوَّجَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فهذه الآيةُ تأْنيسٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَسليةٌ له عن خَوضِ المنافقينَ، وتَنزيهٌ لِقَدْرِه العَلِيِّ، وتَبرئةٌ مِن كلِّ مُتوهِّمٍ فيه أدْنى نَقْصٍ، وإعلامٌ له أنَّ تلك سُنَّتُه سُبحانه في عبادِه الَّتي شاءَها وقدَّرَها، حُكْمًا ثابتًا فيمَن تَقدَّمَ مِن الرُّسلِ والأنبياءِ ومَن اهْتَدى بهَدْيِهم. وأمَّا الآيةُ الثَّانيةُ؛ فإنَّه سُبحانه لمَّا قال: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا * مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١]، أتبَعَ تعالى بالإخبارِ أنَّ تلك سُنَّتُه الجاريةُ في الَّذين خَلَوا مِن قبْلُ[(٢)].

- وأيضًا قال اللهُ تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٠٥-٤٠٧).

مَّقْدُورًا ﴾، ولم يقُلْ: (ولن تَجِدَ)، كما في قولِه: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢]؛ لأنَّ هذه سُنَّةٌ شَرعيَّةٌ لا تُرى بالمُشاهَدةِ، بل تُعلَمُ بالوَحيِ، بخِلافِ نَصرِه للمُؤمِنينَ، وعُقوبتِه للمُنذَرينَ؛ فإنَّه أمرٌ مُشاهَدٌ، فلن يُوجَدَ مُنتَقَضًا(١).

- قَولُه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ عبَّرَ عن السُّنَّةِ بالأمرِ تأكيدًا؛ لأنَّه لا بُدَّ منه(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾

- قولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ جِيءَ بالمَوصولِ دونَ اسمِ الإشارةِ أو الضَّميرِ؛ لِمَا في هذه الصِّلةِ مِن إيماءٍ إلى انتفاءِ الحرَجِ عن الأنبياءِ في تَناوُلِ المُباحِ؛ بأنَّ اللهَ أرادَ منهم تَبليغَ الرِّسالةِ، وخشيةَ اللهِ بتَجنُّبِ ما نَهى عنه، ولم يُكلِّفْهم إشقاقَ نُفوسِهم بتَرْكِ الطَّيِّباتِ الَّتي يُريدونها، ولا حجْبَ وِجْدانِهم عن إدراكِ الأشياءِ على ما هي عليه؛ مِن حُسْنِ الحَسَنِ وقُبْحِ القَبيحِ، ولا عن انصِرافِ الرَّغبةِ إلى تَناوُلِ ما حَسُنَ لَدَيهم إذا كان ذلك في حُدودِ الإباحةِ، ولا كلَّفَهم مُراعاةَ مُيولِ النَّاسِ ومُصطلحاتِهم، وعَوائدِهم الرَّاجعةِ إلى الحَيدةِ بالأُمورِ عن مناهجِها؛ فإنَّ في تَناوُلِهم رَغباتِهم المُباحةَ عَونًا لهم على النَّشاطِ في تَبليغِ رِسالاتِ اللهِ؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾، أي: لا يَخْشَون أحدًا خشيةً تَقْتضي فِعلَ شَيءٍ أو تَرْكَه(٣).

---

(١) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٢).

- وإظهارُ اسم الجلالةِ في مَقامِ الإضمارِ في قولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ حيثُ تقدَّم ذِكْرُه؛ لِقَصْدِ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ جاريةً مَجرَى المثَلِ والحِكمةِ[1].

٤- قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾

- قولُه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ استِئنافٌ؛ للتَّصريحِ بإبطالِ أقوالِ المنافقينَ، والَّذين في قُلوبِهم مرَضٌ، وما يُلْقِيه اليهودُ في نُفوسِ النَّاسِ مِن الشَّكِّ[2].

- في قولِه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ...﴾ فيه ما يُعرَفُ بالتَّلفيفِ[3]؛ فإنَّ قولَه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ...﴾ جَوابٌ عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ؛ وهو قولُ قائلٍ: أليس مُحمَّدٌ أبا زَيدِ بنِ حارثةَ؟ فأتَى الجوابُ يقولُ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وكان مُقْتضَى الجوابِ أنْ يقولَ: ما كان محمَّدٌ أبا زَيدٍ، وكان يَكْفي أنْ يقولَ ذلك، ولكنَّه عُدِلَ عنه تَرشيحًا للإخبارِ بأنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خاتمُ النَّبيِّينَ، ولا يَتِمُّ هذا التَّرشيحُ إلَّا بنَفْيِ أُبوَّتِه لأحدٍ مِن الرِّجالِ؛ فإنَّه لا يكونُ خاتمَ النَّبيِّينَ إلَّا بشَرْطِ ألَّا يكونَ له ولدٌ قد بلَغَ، فلا يَرِدُ أنَّ له الطَّاهرَ والطَّيِّبَ والقاسمَ؛ لأنَّهم لم يَبلُغوا مَبلَغَ الرِّجالِ، ثمَّ احتاطَ لذلك بقولِه: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، فأضافَ الرِّجالَ إليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السبق)).

(٣) التَّلفيفُ: هو إخراجُ الكلامِ مخرَجَ التَّعليمِ، وهو أن يقعَ السُّؤالُ عن نوعٍ مِن الأنواعِ مع كَونِ الحاجةِ داعيةً لبيانِ جَميعِها، فيُجابُ بجوابٍ عامٍّ عن المسؤولِ عنه، وعن غيرِه؛ لِيُبنى على عُمومِه ما بعدَه مِن الصِّفاتِ المقصودةِ. يُنظر: ((عروس الأفراح)) للسبكي (٢/ ٣١٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧).

لا إليه؛ فالْتَفَّ المعنى الخاصُّ في المَعنى العامِّ، وأفادَ نَفْيَ الأُبوَّةِ الكُلِّيَّةِ لأحدٍ مِن رِجالِهم، وانْطوَى في ذلك نَفْيُ الأُبوَّةِ لِزَيدٍ. ثمَّ إنَّ هناك تَلفيفًا آخَرَ؛ وهو قولُه: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾، حيثُ عُدِلَ عن لَفظِ (نَبيٍّ) إلى لَفظةِ (رَسولٍ)؛ لِزيادةِ المدْحِ؛ لأنَّ كلَّ رسولٍ نَبيٌّ، ولا عَكْس على أحدِ القولَينِ، فهذا تَلفيفٌ بعْدَ تَلفيفٍ[(١)].

- وقولُه: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ وَصْفٌ لـ﴿أَحَدٍ﴾، وهو احتراسٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أبو بَناتٍ، فلم يَعِشْ أحَدٌ مِن أولادِه الذُّكورِ[(٢)].

- وإضافةُ (رجال) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ، والعُدولُ عن تَعريفِه باللَّام؛ لِقَصْدِ تَوجيهِ الخِطابِ إلى الخائضينَ في قَضيَّةِ تَزوُّجِ زَينبَ؛ إخراجًا للكلامِ في صِيغةِ التَّغليطِ، ولإخراجِ مَن كان مِن بَنِيه؛ لأنَّهم رِجالُه، لا رجالُ المُخاطَبينَ[(٣)].

- واستِدراكُ قولِه: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ لِرَفْعِ ما قد يُتوهَّمُ مِن نَفْيِ أُبوَّتِه مِن انفصالِ صِلَةِ التَّراحُمِ والبِرِّ بيْنَه وبيْنَ الأُمَّةِ؛ فذُكِّروا بأنَّه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فهو كالأبِ لِجَميعِ أُمَّتِه في شَفقَتِه ورَحمتِه بهم، وفي بِرِّهم وتَوقيرِهم إيَّاه، شأْنُ كلِّ نَبيٍّ مع أُمَّتِه[(٤)].

- وعَطْفُ صِفةِ ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ على صِفَةِ ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ تَكميلٌ وزِيادةٌ في التَّنويهِ بمَقامِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإيماءٌ إلى أنَّ في انتفاءِ أُبوَّتِه لأحدٍ مِن الرِّجالِ حِكمةً قدَّرَها اللهُ تعالى؛ وهي إرادةُ ألَّا يكونَ إلَّا مِثلَ الرُّسلِ، أو

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٤).

أفضَلَ في جَميعِ خَصائصِه[١].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ تَذْييلٌ حَسَنٌ؛ إذ أظهَرَ مُقْتضى حِكمتِه فيما قدَّرَه مِن الأقدارِ؛ فكَوْنُه خاتمَ النَّبيِّينَ اقْتَضى ألَّا يكونَ له أبناءٌ بعْدَ وَفاتِه؛ لأنَّهم لو كانوا أحياءً بعْدَ وَفاتِه ولم تُخلَعْ عليهم خِلْعةُ النُّبوَّةِ لأجْلِ خَتْمِ النُّبوَّةِ به، كان ذلك غضًّا فيه دونَ سائرِ الرُّسلِ، وذلك ما لا يُرِيدُه اللهُ به[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٤٤، ٤٥).

الآيات (٤١-٤٤)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بُكۡرَةٗ﴾: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدئِه[1].

﴿وَأَصِيلًا﴾: أي: آخِرَ النَّهارِ، وأصلُ (أصل) هنا: يدُلُّ على ما كان مِنَ النَّهارِ بعدَ العَشِيِّ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمِرًا بالإكثارِ مِن ذِكرِه: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اذكُروا اللهَ ذِكرًا كثيرًا، ونَزِّهوه تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه؛ هو الَّذي يُثْني عليكم، ومَلائكتُه يَدْعُونَ ويَستَغفِرونَ لكم؛ لِيُخرِجَكم مِن ظُلُماتِ الضَّلالِ والكُفرِ إلى نورِ الطَّاعةِ والإيمانِ، وكان اللهُ بعبادِه المؤمِنينَ رَحيمًا. تحيَّةُ المؤمِنينَ يومَ يَلْقَونَ رَبَّهم: سلامٌ، وأعَدَّ اللهُ لهم أجرًا حَسَنًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذكَرَ ما يَنبغي أن يكونَ عليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع رَبِّه؛ مِن تَقْواه وإخلاصِه له في السِّرِّ والعَلَنِ، وما ينبغي أن يكونَ عليه مع أهلِه وأقاربِه؛ مِن راحتِهم وإيثارِهم على نَفْسِه فيما يَطلُبونَ- أرشَدَ عِبادَه إلى تعظيمِه تعالى وإجلالِه بذِكرِه، والتَّسبيحِ له بُكرةً وأصيلًا[١].

وأيضًا فقد أمَر الله تعالى المؤمنينَ أنْ يُمسِكوا عن مُماراةِ المنافقينَ أو عن سَبِّهم فيما يُرْجِفون به في قَضيَّةِ تَزوُّجِ زَينبَ، بأنْ يَشغَلوا أَلْسِنتَهم بذِكرِ اللهِ وتَسبيحِه، ويتجنَّبوا ما عَسى أنْ يُوقِعَ في مَضرَّةٍ[٢].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بطاعةِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتقدَّمَ بالوَصيَّةِ التَّامَّةِ في تعظيمِه، إلى أن أنهى الأمرَ في إجلالِه، وكانت طاعةُ العبدِ لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن كُلِّ وجْهٍ حتَّى يكونَ مَسلوبَ الاختيارِ معه، فيَكونَ بذلك مُسلِمًا: لا يَحمِلُ عليها إلَّا طاعةُ اللهِ، وكانت طاعةُ اللهِ كذلك لا يَحمِلُ عليها إلَّا دوامُ ذِكرِه- قال بعدَ تأكيدِ زَواجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بزينبَ رَضِيَ اللهُ عنها، بأنَّه هو سُبحانَه زَوَّجَه إيَّاها[٣]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اذكُروا اللهَ ذِكرًا كَثيرًا في جميعِ أوقاتِكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٦٩، ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣١).

كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: ونَزِّهوا اللهَ عن النَّقائِصِ والعُيوبِ، بالتَّسبيحِ أوَّلَ النَّهارِ بينَ الصُّبحِ وطُلوعِ الشَّمسِ، وآخِرَ النَّهارِ بينَ العَصرِ وغُروبِ الشَّمسِ(١).

---

(١) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ: التَّسبيحُ باللِّسانِ، والتَّنزيهُ لله: ابنُ جُزَي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيِّمِ، وابنِ رجبٍ، وابنِ كثيرٍ، واختاره الشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٤)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ: الصَّلاةُ: ابنُ جرير، والسمعاني، والرَّسْعَني، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٩٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٧١).

واختار ابنُ جريرٍ والعُلَيميُّ أنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ بُكرةً وأصيلًا: صلاةُ الفَجرِ، وصلاةُ العصرِ.

وقيل: ﴿بُكۡرَةً﴾: صلاة الفَجرِ، ﴿وَأَصِيلًا﴾: صلاة الظُّهرِ والعصرِ والمغربِ والعِشاءِ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٧١).

وقال ابنُ عاشور: (التَّسبيحُ: يجوزُ أن يُرادَ به الصَّلواتُ النَّوافِلُ؛ ... ويجوزُ أن يكونَ المأمورُ به مِنَ التَّسبيحِ قَولَ: سُبحانَ اللهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٦٩). =

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن قال حينَ يُصبِحُ وحينَ يُمسي: سُبحانَ اللهِ وبِحَمدِه مئةَ مَرَّةٍ، لم يأتِ أحدٌ يومَ القيامةِ بأفضَلَ مِمَّا جاء به، إلَّا أحدٌ قال مِثلَ ما قال، أو زاد عليه))[1].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أمَرَهم اللهُ تعالى بالذِّكرِ والتَّسبيحِ؛ ذكَرَ إحسانَه تعالى بصَلاتِه عليهم هو وملائِكتِه[2].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.

أي: هو الَّذي يُثني عليكم، ومَلائِكتُه يَدْعُونَ ويَستَغفِرونَ لكم؛ فيُخرِجُكم اللهُ -بسَبَبِ صَلاتِه وصلاةِ ملائكتِه- مِن ظُلُماتِ الجَهلِ والضَّلالِ والكُفرِ والعِصيانِ، إلى نورِ العِلمِ والطَّاعةِ والإيمانِ[3].

= وقيل: أراد بقولِه: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: كلَّ الأوقاتِ. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٨).

(١) رواه مسلم (٢٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨، ١٩٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٢٥)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٢٧-٣٢٩).
وقال ابنُ عاشور: (اللَّامُ في قَولِه: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ مُتعَلِّقةٌ بـ﴿يُصَلِّى﴾؛ فعُلِمَ أنَّ هذه الصَّلاةَ جزاءٌ عاجِلٌ حاصِلٌ وَقتَ ذِكرِهم وتَسبيحِهم. والمرادُ بـ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: الضَّلالةُ، وبـ﴿ٱلنُّورِ﴾: الهُدى، وبإخراجِهم مِنَ الظُّلُماتِ: دوامُ ذلك، والاستزادةُ منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٠).

كما قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ * وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ - ٩].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الملائِكةُ يُصَلُّونَ على أحَدِكم ما دام في مَجلِسِه الَّذي صلَّى فيه؛ يقولونَ: اللَّهُمَّ ارحَمْه، اللَّهُمَّ اغفِرْ له، اللَّهُمَّ تُبْ عليه، ما لم يُؤذِ فيه، ما لم يُحدِثْ فيه[١]))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا خرَجَتْ رُوحُ المؤمِنِ تلقَّاها ملَكانِ يُصعِدانِها، ويقولُ أهلُ السَّماءِ: رُوحٌ طَيِّبةٌ جاءت مِن قِبَلِ الأرضِ، صلَّى اللهُ عليكِ وعلى جَسَدٍ كُنتِ تَعمُرينَه))[٣].

﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾.

أي: إنَّ اللهَ بعِبادِه المُؤمِنينَ رَحيمٌ؛ يهديهم في الدُّنيا، ويَلطُفُ بهم، ولا يُعَذِّبُهم في الآخِرةِ، ويُثيبُهم[٤].

---

(١) ما لم يُحْدِثْ فيه: أي: ما لم يأتِ بناقضٍ للوُضوءِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١/ ٤٥٩).

(٢) رواه البخاري (٢١١٩)، ومسلم (٦٤٩) (١/ ٤٥٩) واللفظ له.

(٣) رواه مسلم (٢٨٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٤، ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٠، ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٢٩).

عن عُمَرَ بنِ الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قَدِمَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَبْيٌ، فإذا امرأةٌ مِن السَّبي قد تحلَّبَ[١] ثَدْيُها تَسْقي، إذا وجَدَت صَبيًّا في السَّبي أخذَتْه فألصَقَتْه ببَطنِها وأرضعَتْه، فقال لنا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أتُرَونَ[٢] هذه طارِحةً ولَدَها في النَّارِ؟! قُلنا: لا، وهي تقدِرُ على ألَّا تَطرَحَه، فقال: للهُ أرحَمُ بعِبادِه مِن هذه بوَلَدِها))[٣].

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن الله عنايتَه في الأولَى؛ بيَّن عنايتَه في الآخرةِ[٤].

وأيضًا أعقَبَ الجَزاءَ العاجِلَ الَّذي أنبأَ عنه قَولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ بذِكرِ جَزاءٍ آجِلٍ، وهو ظُهورُ أثَرِ الأعمالِ الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا، وأثَرِ الجزاءِ الَّذي عُجِّل لهم عليها مِن اللهِ في كرامتِهم يومَ يَلقَونَ رَبَّهم[٥].

وأيضًا لَمَّا كان أظهَرُ الأوقاتِ في ثمرةِ هذا الوصفِ ما بعدَ الموتِ؛ قال تعالى مبيِّنًا لرحمتِهم[٦]:

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾.

أي: تحيَّةُ المؤمِنينَ يومَ القيامةِ حينَ يَلقَونَ رَبَّهم: سلامٌ، فيُسلِّمُ اللهُ عليهم،

---

(١) تحلَّبَ: أي: تهيَّأَ لأن يحلبَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٣٠).

(٢) أتُرَونَ: أي: أتظنُّون. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٣١).

(٣) رواه البخاري (٥٩٩٩) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٠، ٥١).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧١).

ويُسلِّمُهم مِن الآفاتِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ﴾ [يونس: ١٠].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾.

أي: وأعدَّ اللهُ للمُؤمِنينَ أجرًا حَسَنًا نَفيسًا[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٢، ٣٣٣).

قال أحمدُ بنُ يحيى الملَقَّبُ بثَعْلب في قَولِه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾: (أجمَع أهلُ اللُّغةِ أنَّ اللِّقاءَ هاهنا لا يكونُ إلَّا مُعاينةً ونَظَرًا بالأبصارِ). يُنظر: ((الإبانة الكبرى)) لابن بطة (٧/ ٦٢)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقَولِه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ ...﴾ أي: تحيَّةُ اللهِ تعالى للمُؤمِنينَ بقَولِه لهم: سلامٌ: ابنُ القيم، واستظهره ابنُ كثير، واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٢، ٣٣٣).

وقيل: المرادُ: تحيَّةُ بَعضِ المؤمنينَ لبعضٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٩).

واختار مقاتل أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿سَلَٰمٞ﴾ أي: تسليمُ الملائكةِ عليهم. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٤، ٣٣٦).

وممَّن قال بأنَّ الأجرَ الكريمَ هنا هو الجنَّةُ: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، والبيضاوي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥١). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾، وقال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال -في الحديثِ القُدسيِّ-: ((مَن ذَكَرَني في نَفْسِه ذكَرْتُه في نفْسي، ومَن ذكَرَني في مَلأٍ ذكَرْتُه في مَلأٍ خيرٍ منهم))[(١)].

وذِكرُ الله بأوصافِ الجَمالِ موجِبٌ للمحَبَّةِ، وبأوصافِ الكمالِ موجِبٌ للمَهابةِ، وبالتَّوَحُّدِ بالأفعالِ موجِبٌ لِلتَّوكُّلِ، وبسَعةِ الرَّحمةِ موجِبٌ للرَّجاءِ، وبشِدَّةِ النِّقمةِ موجِبٌ للخَوفِ، وبالتَّفرُّدِ بالإنعامِ موجِبٌ للشُّكرِ؛ ولذلك قال: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾.

فذِكرُ الله أصلُ العباداتِ، وأُسُّ المعاملاتِ؛ لأنَّ ذِكرَ هذه الأوصافِ موجِبٌ للأحوالِ السَّنيَّةِ، والأقوالِ والأعمالِ المَرْضيَّةِ، وذلك موجِبٌ للدَّرَجاتِ في جِوارِ خالقِ البَريَّةِ، في العيشةِ الهَنيَّةِ[(٢)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ يأمُرُ تعالى المؤمِنينَ بذِكرِه ذِكرًا كَثيرًا؛ مِن تهليلٍ وتحميدٍ، وتسبيحٍ وتكبيرٍ، وغَيرِ ذلك مِن كُلِّ قَولٍ فيه قُربةٌ إلى اللهِ؛ وأقَلُّ ذلك أن يلازِمَ الإنسانُ أورادَ الصَّباحِ والمساءِ وأدبارِ الصَّلواتِ الخَمسِ، وعندَ العوارِضِ والأسبابِ. ويَنبغي مداومةُ ذلك في جميعِ الأوقاتِ على جميعِ الأحوالِ؛ فإنَّ ذلك عبادةٌ يَسبِقُ بها العامِلُ وهو مُستريحٌ، وداعٍ إلى محبَّةِ اللهِ ومَعرفتِه، وعَونٌ على الخيرِ

= وممَّن قال بهذا القول مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٥).

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز ابن عبد السلام (ص: ٧٤).

وكفِّ اللِّسانِ عن الكلامِ القَبيحِ[١].

٣- إن قيل: إنَّ العَبدَ في بعضِ الأحيانِ قد لا يكونُ عِندَه محبَّةٌ تَبعَثُه على طلَبِ محبوبِه، فأيُّ شَيءٍ يُحَرِّكُ القُلوبَ؟

قُلْنا: يحَرِّكُها شيئانِ:

أحدُهما: كَثرةُ الذِّكرِ للمَحبوبِ؛ لأنَّ كَثرةَ ذِكرِه تُعَلِّقُ القلوبَ به؛ ولهذا أمَرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بالذِّكرِ الكثيرِ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾.

والثَّاني: مُطالعةُ آلائِه ونَعْمائِه؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٢] [الأعراف: ٦٩].

٤- قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ هذا تهييجٌ إلى الذِّكرِ، أي: إنَّه سُبحانَه يَذكُرُكم فاذكُروه أنتم[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ أنَّ الذِّكْرَ مِن الإيمانِ بالله تعالى ومِن مقتضياتِه؛ لأنَّ الله إذا خاطَب المؤمنينَ بوصفِ الإيمانِ كان ذلك دليلًا على أنَّ ما خُوطِبوا به مِن مقتضياتِ الإيمانِ، وأنَّ مخالفتَه نقصٌ في الإيمانِ[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ اشتَرَط اللهُ الكَثرةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٢٤، ٣٢٥).

في الذِّكرِ حيثما أَمَر به، بخِلافِ سائرِ الأعمالِ. والذِّكرُ يكونُ بالقَلبِ وباللِّسانِ، وهو على أنواعٍ كَثيرةٍ؛ مِنَ التَّهليلِ والتَّسبيحِ، والحَمدِ والتَّكبيرِ، وذِكرِ أسماءِ اللهِ تعالى[١] إلى غيرِ ذلك.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا﴾ أنَّ الإيمانَ يَزيدُ بالذِّكرِ؛ وجْهُه: أنَّ كلَّ ما كان مِن مُقتَضياتِ الشَّيءِ فإنَّه يَزدادُ به، كما أنَّ نَقصَ الذِّكرِ نَقصٌ في الإيمانِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ أنَّ ذِكرَه سُبحانَه سَبَبٌ لصَلاتِه على عَبدِه وذِكرِه له[٣] وصلاةِ ملائكتِه عليه، ومَن صلَّى اللهُ تعالى عليه وملائكتُه فقد أفلَح كلَّ الفلاحِ، وفاز كلَّ الفوزِ، وهذه الصَّلاةُ منه تبارَك وتعالى ومِن ملائكتِه إنَّما هي سببُ الإخراجِ لهم مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ[٤].

٥- أوَّلُ مَنازِلِ القَومِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾، وأوسَطُها: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وآخِرُها: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ مَشروعيَّةُ التَّسبيحِ في الغُدُوِّ والآصالِ، ولا شَكَّ أنَّ التَّسبيحَ في كلِّ وقتٍ، لكنْ كثرةُ التَّسبيحِ في أوَّلِ اليَومِ وآخِرِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٨١).

(٤) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٧٢)

(٥) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٢٦).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أنَّ وقتَ الفجرِ ووقتَ العصرِ هما أفضلُ أوقاتِ النَّهارِ للذِّكْرِ؛ ولهذا أمَرَ اللهُ تعالى بذكرِه فيهما(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى ﴾ إثباتُ الكلامِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الصَّلاةَ منه تعالى هي: الثَّناءُ على العَبدِ في الملأِ الأعلى(٢).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ إثباتُ العِلَلِ والحِكَمِ لأفعالِ اللهِ تعالى(٣).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ الرَّدُّ على الأشعريَّةِ ونَحوِهم ممَّن يُنكِرونَ وَصفَ اللهِ تعالى بالرَّحمةِ(٤).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ أنَّ الإيمانَ هو مِن أسبابِ رحمةِ اللهِ، وكلَّما كان الإيمانُ أقوَى؛ كانتِ الرَّحمةُ إلى صاحبِه أقرَبَ، بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٥).

١٢- قَولُه تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ﴿رَحِيمًا ﴾، وتقديمُ المعمولِ يدُلُّ على الحَصرِ؛ فيكونُ معنى الآيةِ: وكان بالمؤمِنينَ -لا غَيرِهم- رَحيمًا، ولكنْ كيف نَجمَعُ بيْنَ هذه الآيةِ وبينَ قَولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧]؟

والجوابُ: أنَّ الرَّحمةَ التي هنا غيرُ الرَّحمةِ الَّتي هناك؛ هذه رحمةٌ خاصَّةٌ

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣١).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢١٥).

متَّصلةٌ برَحمةِ الآخرةِ لا يَنالُها الكُفَّارُ، بخِلافِ الأُولى، هذا هو الجَمعُ بيْنَهما، وإلَّا فكلٌّ مَرحومٌ، لكنْ فَرقٌ بينَ الرَّحمةِ الخاصَّةِ والرَّحمةِ العامَّةِ(١).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾، ذكَرَ السَّلامَ؛ لأنَّه هو الدَّليلُ على الخَيراتِ؛ فإنَّ مَن لَقِيَ غيرَه، وسلَّم عليه، دلَّ على المُصافاةِ بيْنَهما، وإن لم يُسَلِّمْ دلَّ على المُنافاةِ(٢).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ إثباتُ كلامِ اللهِ تعالى؛ وأنَّه يتكلَّمُ، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]؛ لأنَّه يَتكلَّمُ به تعالى، ويقولُه قولًا(٣).

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ فيه سؤالٌ: لو قال قائلٌ: الإعدادُ إنَّما يكونُ ممَّن لا يَقدِرُ عندَ الحاجةِ إلى الشَّيءِ عليه، وأمَّا اللهُ تعالى فلا حاجةَ ولا عجزَ؛ فحيث يَلْقاه اللهُ يؤتيه ما يَرضى به وزيادةً، فما معنى الإعدادِ مِن قَبْلُ؟

الجوابُ: الإعدادُ للإكرامِ لا للحاجةِ، وهذا كما أنَّ المَلِكَ إذا قيل له: فلانٌ واصِلٌ، فإذا أراد إكرامَه يُهيِّئُ له بيتًا وأنواعًا مِن الإكرامِ، ولا يقولُ بأنَّه إذا وصَل نفتَحُ بابَ الخِزانةِ، ونؤتيه ما يُرضيه؛ فلِكَمالِ الإكرامِ أعدَّ اللهُ للذَّاكِرِ أجرًا كريمًا(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ مُتَّصِلٌ بما قبْلَه؛ فالجُملةُ إقبالٌ على مُخاطَبةِ المؤمنينَ بأنْ يَشغَلوا ألْسِنتَهم بذِكرِ

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٢، ١٧٣).

اللهِ وتَسبيحِه، أي: أنْ يُمسِكوا عن مُماراةِ المنافقينَ أو عن سَبِّهم فيما يُرْجِفون به في قَضيَّةِ تَزوُّجِ زَينبَ، فأُمِروا بتَشغيلِ ألْسِنتِهم وأوقاتِهم بما يَعودُ بنَفْعِهم، وتَجنُّبِ ما عَسى أنْ يُوقِعَ في مَضرَّةٍ. وفيه تَسجيلٌ على المنافقينَ بأنَّ خَوضَهم في ذلك بعْدَ هذه الآيةِ علامةٌ على النِّفاقِ؛ لأنَّ المؤمنينَ لا يُخالِفون أمْرَ ربِّهم[(١)].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ إذا كان المأمورُ به مِن التَّسبيحِ قولَ: (سُبحانَ اللهِ)؛ فيكونُ عطْفُ ﴿ وَسَبِّحُوهُ ﴾ على ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ مِن عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ اهتمامًا بالخاصِّ؛ لأنَّ معنى التَّسبيحِ التَّنزيهُ عمَّا لا يجوزُ على اللهِ مِن النَّقائصِ، فهو مِن أكمَلِ الذِّكرِ؛ لاشتِمالِه على جَوامعِ الثَّناءِ والتَّمجيدِ، ولأنَّ في التَّسبيحِ إيماءً إلى التَّبرُّؤِ ممَّا يقولُه المُنافقون في حقِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(٢)].

- قولُه: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ المَقصودُ مِن البُكرةِ والأصيلِ إعمارُ أجْزاءِ النَّهارِ بالذِّكرِ والتَّسبيحِ بقَدْرِ المُكنةِ؛ لأنَّ ذِكرَ طَرَفَي الشَّيءِ يكونُ كِنايةً عن استِيعابِه[(٣)]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وقُدِّمَ البُكرةُ على الأصيلِ؛ لأنَّ البُكرةَ أسبَقُ مِن الأصيلِ لا مَحالةَ. وليس الأصيلُ جَديرًا بالتَّقديمِ في الذِّكرِ كما قُدِّمَ لَفظُ ﴿تُمْسُونَ ﴾ في قولِه في سُورةِ (الرُّوم): ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم: ١٧]؛ لأنَّ كلمةَ (المساءِ) تَشمَلُ أوَّلَ اللَّيلِ؛ فقُدِّمَ لفظُ ﴿تُمْسُونَ ﴾ هنالك رَعيًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٨).

لاعتبارِ أنَّ اللَّيلَ أسبَقُ في حِسابِ أيَّامِ الشَّهرِ عندَ العرَبِ وفي الإسلامِ، وليست كذلك كلمةُ (الأصيلِ)[١].

٣- قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴾

- قولُه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ استِئنافٌ جارٍ مَجرى التَّعليلِ لِمَا قبْلَه مِن الأمْرين بذِكرِ اللهِ وتَسبيحِه؛ بأنَّ ذلك مَجْلَبَةٌ لانتفاعِ المؤمنينَ بجَزاءِ اللهِ على ذلك بأفضَلَ منه مِن جِنسِه، وهو صَلاتُه وصَلاةُ ملائكتِه[٢].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿ هُوَ ٱلَّذِى ﴾ على الخبَرِ الفِعليِّ ﴿يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لإفادةِ التَّقَوِّي وتَحقيقِ الحُكمِ، والمقصودُ تَحقيقُ ما تَعلَّقَ بفِعلِ ﴿يُصَلِّى ﴾ مِن قولِ: ﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[٣].

- واجتِلابُ ﴿يُصَلِّى ﴾ بصِيغةِ المُضارعِ؛ لإفادةِ تَكرُّرِ الصَّلاةِ وتَجدُّدِها كلَّما تَجدَّدَ الذِّكرُ والتَّسبيحُ، أو إفادةِ تَجدُّدِها بحَسَبِ أسبابٍ أُخرى مِن أعمالِ المؤمنينَ، ومُلاحظةِ إيمانِهم[٤].

- وأيضًا في إيرادِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه تعالى مَعروفٌ عِندَهم بمَضمونِ الصِّلةِ: فإمَّا لأنَّ المسلمينَ يَعلَمون على وَجهِ الإجمالِ أنَّهم لا يَأْتيهم خيرٌ إلَّا مِن جانبِ اللهِ تعالى؛ فكلُّ تَفصيلٍ لذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإجمالِ دخَلَ في عِلمِهم، ومنه أنَّه يُصلِّي عليهم، ويَأمُرُ ملائكتَه بذلك، وإمَّا أنْ يكونَ قد سبَقَ لهم عِلمٌ بذلك تَفصيلًا مِن قبْلُ في بعضِ آياتِ القرآنِ، كقولِه تعالَى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] [الشورى: ٥].

- والإضافةُ في قَولِه: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ للتَّشريفِ والتَّكريم[2].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبْلَه. ودلَّ الإخبارُ عن رَحمتِه بالمؤمنينَ بإقحامِ فِعلِ (كان) وخَبرِها؛ لِمَا تَقْتضيهِ (كان) مِن ثُبوتِ ذلك الخبَرِ له تعالى، وتَحقُّقِه، وأنَّه شأنٌ مِن شُؤونِه المعروفِ بها في آياتٍ كثيرةٍ[3].

- وقولُه: (الْمُؤْمِنِينَ) مُظهَرٌ وُضِعَ مَوضعَ المُضمَرِ؛ مَدْحًا لهم، وإشعارًا بعِلَّةِ الرَّحمةِ[4].

٤- قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾

- قولُه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ بَيانٌ للأحكامِ الآجِلةِ لِرَحمةِ اللهِ تعالى بهم بعدَ بَيانِ آثارِها العاجلةِ الَّتي هي الاعتناءُ بأمْرِهم، وهِدايتُهم إلى الطَّاعةِ؛ فالجُملةُ تَكملةٌ للَّتي قبْلَها؛ لإفادةِ أنَّ صلاةَ اللهِ وملائكتِه واقعةٌ في الحياةِ الدُّنيا وفي الدَّارِ الآخرةِ[5].

- وقولُه: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ التَّهيئةُ واقِعةٌ قبْلَ دُخولِ الجنَّةِ، والتَّحيةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٩، ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٠، ٥١).

ولذا لم تخرُجِ الجُملةُ مَخرَجَ ما قَبْلَها، بأن يقالَ: وأجرُهم أجرٌ كريمٌ، أو: ولهم أجرٌ كريمٌ. وقيل: هي بعدَ الدُّخولِ والتَّحيَّةِ؛ فالكلامُ لِبَيانِ آثارِ رحمتِه تعالى الفائِضةِ عليهم بعدَ دُخولِ الجنَّةِ عَقيبَ بَيانِ آثارِ رحمتِه الواصِلةِ إليهم قبْلَ ذلك[1].

- ولعلَّ إيثارَ الجُملةِ الفِعليَّةِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ على الاسميَّةِ المُناسِبةِ لِمَا قبْلَها -بأنْ يُقالَ مثَلًا: (وأجْرُهم أجْرٌ كريمٌ)، أو (ولهمْ أجْرٌ كريمٌ)-؛ للمُبالَغةِ في التَّرغيبِ والتَّشويقِ إلى الموعُودِ ببَيانِ أنَّ الأجرَ -الَّذي هُو المقصدُ الأقصى مِن بَيْنِ سائرِ آثارِ الرَّحمةِ- مَوجودٌ بالفِعلِ، مُهيَّأٌ لهم، مع ما فيه مِن مُراعاةِ الفواصلِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٧).

الآيات (٤٥-٤٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَنَذِيرًا﴾: أي: محذِّرًا ومخَوِّفًا، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تَخويفٍ[١].

﴿وَسِرَاجًا﴾: أي: ضِياءً وهادِيًا، وأصلُ (سرج): يدُلُّ على الحُسنِ والزِّينةِ[٢].

﴿فَضْلًا﴾: أي: ثوابًا وأجرًا، أو: ما تفضَّل به عليهم زيادةً على الثَّوابِ، والفضلُ: العطاءُ الَّذي يَزيدُه المُعطي زيادةً على العَطيَّةِ، وكلُّ عَطيَّةٍ لا تَلزمُ مَن يُعطِي يُقال لها: فضْلٌ، والإفضالُ: الإحسانُ، وأصلُ (فضل): يدُلُّ على زيادةٍ في شَيءٍ[٣].

﴿وَكِيلًا﴾: أي: مانعًا وحافظًا وكفيلًا، ووكيلُ الرَّجُلِ في مالِه هو الَّذي كفَله له، وقام به، وأصلُ (وكل): يدُلُّ على اعتمادِ غيرِك في أمرِك[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨، ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى موجِّهًا النِّداءَ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، مبيِّنًا وظيفتَه: يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أرسَلْناك شاهِدًا ومُبَشِّرًا مَن آمَن بك وأطاعَك، ومُنذِرًا مَن خالَفك، وداعيًا إلى اللهِ وَحْدَه بأمرِه لك وتقديرِه وتيسيرِه، وسِراجًا مُنيرًا يُهتدى به. وبَشِّرِ المؤمِنينَ بأنَّ لهم مِنَ الله ثوابًا عظيمًا، ولا تُطِعِ الكافرينَ والمنافِقينَ، وأعرِضْ عن إيذائِهم لك، واعتَمِدْ على اللهِ في تدبيرِ أمورِك، وكفَى باللهِ حافِظًا لك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا النِّداءَ الثَّالثَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أبلَغَه بالنِّداءِ الأوَّلِ ما هو مُتعلِّقٌ بذاتِه، وبالنِّداءِ الثَّاني ما هو مُتعلِّقٌ بأزواجِه، وما تخلَّل ذلك مِنَ التَّكليفِ والتَّذكيرِ: ناداه بأوصافٍ أودَعَها سُبحانَه فيه؛ للتَّنويهِ بشَأنِه، وزيادةِ رِفعةِ مِقدارِه، وبيَّنَ له أركانَ رِسالتِه؛ فهذا الغَرَضُ هو وَصفُ تعَلُّقاتِ رِسالتِه بأحوالِ أمَّتِه، وأحوالِ الأُمَمِ السَّالِفةِ[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ ﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أرسَلْناك شاهِدًا[2] ومُبَشِّرًا بالخَيرِ في الدُّنيا والآخِرةِ لِمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٢).

(٢) قال الماوَرْديُّ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الفتحِ الآية (٨): (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: شاهِدًا على أمَّتِك بالبلاغِ. قاله قَتادةُ. الثَّاني: شاهِدًا على أمَّتِك بأعمالِهم مِن طاعةٍ أو معصيةٍ. الثَّالثُ: مُبيِّنًا ما أرسَلْناك به إليهم). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٢). =

آمَن بك وأطاعَك، ومُنذِرًا بالعَذابِ في الدُّنيا والآخِرةِ لِمَن خالَفك وعصَى أمرَك[(١)].

= ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ، وأنَّ المرادَ: شاهِدٌ على أمَّتِك بإبلاغِ الرِّسالةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٣١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٩٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: شاهدٌ على أُمَّتِه الَّذين بُعِث إليهم، وعلى تكذيبِهم وتصديقِهم: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣١).

قال السعدي: (شاهدًا على أمَّتِه بما عمِلوه، مِن خَيرٍ وشرٍّ، كما قال تعالى: ﴿لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]؛ فهو صلَّى الله عليه وسلَّمَ شاهدٌ عدلٌ مقبولٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧).

وقال أبو السعود: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على مَن بُعثتَ إليهم؛ تُراقبُ أحوالهم، وتُشاهِدُ أعمالَهم، وتتحمَّلُ منهم الشَّهادةَ بما صدرَ عنهم مِن التَّصديقِ والتَّكذيبِ وسائرِ ما هُم عليه مِن الهدى والضَّلالِ، وتُؤدِّيها يومَ القيامةِ أداءً مقبولًا). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٧).

وقيل: المرادُ: شاهِدٌ لله بالوحدانيَّةِ، وأنَّه لا إلهَ غَيرُه، وعلى النَّاسِ بأعمالِهم يومَ القيامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩).

وقيل: المرادُ: شاهِدٌ على أمَّتِك بالتَّبليغِ إليهم، وعلى سائرِ الأمَمِ في تبليغِ أنبيائهم ونحو ذلك. وممَّن اختاره: ابنُ عطية، والرسعني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٧٢).

وذهب ابنُ عثيمين إلى العموم، وأنَّ المرادَ أنَّه شاهدٌ بما أوحاه الله تعالى إليه، وحاكمٌ به، وشاهدٌ على مَن أُرسِل إليهم، وشاهدٌ على مَن سبَقه مِن الأُمَمِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٢ - ٥٤).

عن عَطاءِ بنِ يَسارٍ، قال: لَقِيتُ عبدَ اللهِ بنَ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قُلتُ: أخبِرْني عن صِفةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في التَّوراةِ. قال: (أجَلْ، واللهِ إنَّه لَمَوصوفٌ في التَّوراةِ ببَعضِ صِفتِه في القُرآنِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾، وحِرزًا للأُمِّيِّينَ[1]، أنت عَبدي ورَسولي، سَمَّيتُك المتوكِّلَ، ليس بفَظٍّ ولا غَليظٍ، ولا سَخَّابٍ في الأسواقِ[2]، ولا يَدفَعُ بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ، ولكِنْ يعفو ويَغفِرُ، ولن يَقبِضَه اللهُ حتَّى يُقيمَ به المِلَّةَ العَوجاءَ، بأنْ يقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويَفتَحَ بها أعيُنًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقُلوبًا غُلْفًا)[3].

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ ﴾.

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ ﴾.

أي: وأرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- داعيًا إلى اللهِ وَحْدَه بإذْنِ الله تعالى لك في الدَّعوةِ وأمرِه وإرادتِه وقَدَرِه وتيسيرِه[4].

---

(١) وحِرْزًا للأُمِّيِّينَ: أي: حِصنًا للعَرَبِ يتحَصَّنونَ به من غوائِلِ الشَّيطانِ، أو مِن سَطوةِ العَجَمِ وتغَلُّبِهم، وسُمُّوا أمِّيِّينَ؛ لأنَّ أغلَبَهم لا يَقرؤونَ ولا يكتُبونَ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٤/ ٥١).

(٢) ولا سَخَّابٍ في الأسواقِ: أي: لا يَرفَعُ صَوتَه على النَّاسِ، ولا يُكثِرُ الصِّياحَ عليهم في الأسواقِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٤/ ٥٢).

(٣) رواه البخاري (٢١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٢، ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤١).

في قوله: ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: بأمرِه. الثَّاني: بعِلْمِه. الثَّالثُ: بالقرآنِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤١١).

ممَّن اختار القولَ الأولَ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والبغويُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٤٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩). =

﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

أي: وسِراجًا مُنيرًا يُستَضاءُ ويُهتدَى به[1].

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه أرسَلَ نَبيَّه شاهِدًا... إلى آخِرِه، تضَمَّن ذلك الأمرَ

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباس، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤١١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٢٥).

وقيل: المرادُ: بتيسيرِه وتسهيلِه. وممَّن اختاره: الرسعني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٤).

قال البِقاعي: (ولَمَّا كان ذلك في غايةِ الصُّعوبةِ، لا يقومُ به أحدٌ إلَّا بمَعونةٍ مِن الله عظيمةٍ؛ أشار إلى ذلك بقولِه: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتمكينِه لك مِن الدُّعاءِ بتيسيرِ أسبابِه، وتحمُّلِ أعبائِه، وللمَدْعُوِّ مِنَ الإقبالِ والاتِّباعِ إن أراد له الخيرَ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٧٣).

وقيل: المرادُ: بأمرِه وتقديرِه ذلك. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، والشوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧).

وقال يحيى بن سلام: (﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بالقرآنِ، الوحيِ الَّذي جاء مِن عندِه). ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٩).

وقال ابنُ عثيمين: (وقَولُه تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ الإذنُ هنا يَشملُ الإذْنَ الكَونيَّ والإذنَ الشَّرعيَّ؛ فإن كان المرادُ به ما يُدْعى به، فهو الشَّرعيُّ، يعني: إن كان المعنى: داعيًا إلى اللهِ تعالى بأمْرِه الَّذي أمَرَك بالدَّعوةِ إليه، فالمرادُ به الإذنُ الشَّرعيُّ، وإن كان المرادُ: داعيًا إلى الله تعالى بقَدَرِه -يعني: حيث قوَّاك على ذلك، وهيَّأ لك الأسبابَ- فهو إذْنٌ كونيٌّ، والآيةُ تَشملُ هذا وهذا؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنَّما يدعو بقَضاءِ الله تعالى وقَدَرِه، ويدعو كذلك بدينِه وشَرعِه؛ فهو داعٍ بالأمْرَينِ جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤١، ٣٤٢).

بتلك الأحوالِ، فكأنَّه قال: فاشهَدْ، وبَشِّرْ، وأنذِرْ، وادْعُ، وانْهَ، ثمَّ قال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ فهذا متَّصِلٌ بما قَبْلَه مِن جِهةِ المعنى، وإن كان يَظهَرُ أنَّه مُنقَطِعٌ مِن الَّذي قبْلَه[1].

وأيضًا لَمَّا تقَدَّمتْ هذه الأوصافُ الحُسنى، وكان تطبيقُ ثَمَراتِها عليها في الذِّروةِ مِن العُلُوِّ، وكان الشَّاهِدُ هو البَيِّنَةَ؛ فكان كأنَّه قيل: فأقِمِ الأدِلَّةَ النَّيِّرةَ، وادْعُ وأنذِرْ كُلَّ مَن خالَف أمْرَك، وكان المقامُ لخِطابِ المُقبِلينَ- طوَى هذا المقَدَّرَ؛ لأنَّه للمُعرِضينَ، ودَلَّ عليه بقَولِه عاطِفًا عليه[2]:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

أي: وبَشِّرِ المُؤمِنينَ بأنَّ لهم مِنَ الله ثوابًا عَظيمًا جَليلًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالفضلِ الكبيرِ: الجنَّةُ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ أبي زمنين، وجلال الدين المحلي، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٥٧)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤٦).

قال الشنقيطي: (... قولُه: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾، وبيَّنَ المرادَ بالفضلِ الكبيرِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[الشورى: ٢٢]). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٨٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٩، ٣٩٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ -أنَّ المرادَ بالفضلِ الكبيرِ: الجنةُ-: السُّدِّيُّ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٢٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣١٤٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ أي: أجرًا جزيلًا وثوابًا عظيمًا مُضاعَفًا أضعافًا =

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۞ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف: ١٢، ١٣].

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٤٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ثَمَّ طائفةٌ مِنَ النَّاسِ مُستعدَّةٌ للقيام بصَدِّ الدَّاعينَ إلى الله مِنَ الرُّسلِ وأتْباعِهم، وهم المنافِقون، الَّذين أظهَروا المُوافَقةَ في الإيمانِ، وهم كَفَرةٌ فَجَرةٌ

= كثيرةً: ابنُ جرير، ومكِّي، والنسفي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٤٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٩١).

وقيل: الفضلُ ما يَتفضَّلُ به عليهم زيادةً على الثَّوابِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٣٠).

وقيل: الفَضلُ الكبيرُ كائنٌ في الدُّنيا والآخرةِ؛ فيَشملُ النَّصرَ، وهِدايةَ القُلوبِ، وغُفرانَ الذُّنوبِ، وكَشْفَ الكُروبِ، وكثرةَ الأرزاقِ الدَّارَّةِ، وحُصولَ النِّعَمِ السَّارَّةِ، والفوزَ برِضا الله وثَوابِه، والنَّجاةَ مِن سَخَطِه وعِقابِه. قاله: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

في الباطِنِ، والكفَّارُ ظاهرًا وباطنًا؛ نهى اللهُ رسولَه عن طاعتِهم، وحذَّره ذلك[١].

وأيضًا أنَّه لَمَّا أمرَه سُبحانَه بما يَسُرُّ؛ نهاه عما يَضُرُّ، فقال ذاكِرًا ثَمَرةَ النِّذارةِ[٢]:

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾.

أي: ولا تُطِعِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ -يا مُحمَّدُ- فيما يَدْعونَك ويُشيرونَ عليك؛ مِنَ المُداهَنةِ في الدِّينِ، أو التَّقصيرِ في تَبليغِ رِسالةِ رَبِّ العالَمينَ[٣].

﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾.

أي: وأعرِضْ -يا مُحمَّدُ- عن إيذاءِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ لك، ولا تُبالِ بهم، واصبِرْ عليهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢٣، ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

قال ابنُ عثيمين: (وهذا الأمرُ إمَّا أن يكونَ للتَّهديدِ [أي: دعْ أذاهم إيَّاك فسوف يَنتقِمُ اللهُ منهم]، وإمَّا أن يكونَ للتَّأييدِ والتَّقويةِ [أي: اصبِرْ عليهم، ولا تُبالِ بهم؛ فإنَّ العاقِبةَ لك]، وإمَّا أن يكونَ لهما جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٥٠).

وقال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ يحتَمِلُ مَعنَيينِ؛ أحدُهما: أن يأمُرَه بتَرْكِ أن يؤذيَهم هو ويُعاقِبَهم، فكأنَّ المعنى: واصفَحْ عن زَلَلِهم ولا تُؤذِهم؛ فالمصدَرُ على هذا مُضافٌ إلى المفعولِ، ونُسِخَ مِن الآيةِ على هذا التَّأويلِ ما يخُصُّ الكافِرينَ، وناسِخُه آيةُ السَّيفِ. والمعنى الثَّاني: أن يكونَ قَولُه: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ بمعنى: أعرِضْ عن أقوالِهم وما يؤذونَك به؛ فالمصدَرُ على هذا التَّأويلِ مُضافٌ إلى الفاعِلِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩٠). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٣٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٨). =

= وممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

وممَّن ذهب إلى القولِ الثَّاني: ابنُ جرير، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤٩، ٣٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٤٨).

وممَّن ذهب إلى حملِ الآيةِ على كِلا المعنَيينِ: ابنُ عاشور، فقال: (الوجهُ: الحمْلُ على كِلا المعنيَينِ، فيكونُ الأمرُ بتَركِ أذاهم صادقًا بالإعراضِ عمَّا يُؤذُونَ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أقوالِهم، وصادقًا بالكفِّ عن الإضرارِ بهم، أي: أنْ يَترفَّعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن مؤاخَذَتِهم على ما يَصدُرُ منهم في شأنِه، وهذا إعراضٌ عن أذًى خاصٍّ لا عُمومَ له، فهو بمَنزلةِ المُعَرَّفِ بلامِ العهدِ، فليست آياتُ القتالِ بناسِخةٍ له. وهذا يَقتَضي أنَّه يَترُكُ أذاهم، ويَكِلُهم إلى عِقابٍ آجِلٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَسمَعُ مِن الكُفَّارِ والمنافقينَ في أوَّلِ الإسلامِ أذًى كثيرًا، وكان يَصبِرُ عليه؛ امتِثالًا لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨]؛ لأنَّ إقامةَ الحدودِ عليهم كان يُفضي إلى فِتنةٍ عَظيمةٍ ومَفسَدةٍ أعظَمَ مِن مَفسدةِ الصَّبرِ على كلماتِهم؛ فلمَّا فتح الله مكَّةَ ودخَل النَّاسُ في دين الله أفواجًا، وأنزَل اللهُ (براءةٌ) قال فيها: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٦٠] إلى قَولِه: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١]، فلمَّا رأى مَن بَقِيَ مِن المنافقين ما صار الأمرُ إليه مِن عزِّ الإسلامِ وقيامِ الرَّسولِ بجهادِ الكفَّارِ والمنافقين، أضمَروا النِّفاقَ؛ فلم يكُنْ يُسمَعُ مِن أحدٍ مِن المنافقين بعدَ غزوةِ تَبوكَ كَلِمةُ سُوءٍ، وماتوا بغَيْظِهم، حتَّى بَقِيَ منهم أناسٌ بعدَ موتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعرِفُهم صاحِبُ السِّرِّ حُذَيفةُ، فلم يكُنْ يُصَلِّي عليهم هو، ولا يُصَلِّي عليهم مَن عرَفَهم بسبَبٍ آخَرَ، مِثلُ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضيَ الله عنه؛ فهذا يفيدُ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يحتَمِلُ مِن الكُفَّارِ والمنافقين قبلَ «براءةٌ» ما لم يكُنْ يحتَمِلُ منهم بعدَ ذلك، كما قد كان يحتَمِلُ مِن أذى الكُفَّارِ وهو بمكَّةَ ما لم يكُنْ يحتَمِلُ بدارِ الهِجرةِ والنُّصرةِ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٢٢٣).

وقال أيضًا: (فحيثُما كان للمُنافِقِ ظُهورٌ وتُخافُ مِن إقامةِ الحَدِّ عليه فتنةٌ أكبَرُ مِن بقائِه، عَمِلْنا بآيةِ: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾، كما أنَّه حيث عَجَزنا عن جهادِ الكُفَّارِ عَمِلْنا بآيةِ الكَفِّ عنهم والصَّفحِ، وحيثما =

كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: أي: واعتَمِدْ -يا مُحمَّدُ- على اللهِ وَحْدَه، في إتمامِ أمرِك، وخذلانِ عدوِّك، وتبليغِ الرِّسالةِ، وفوِّضْ إليه أمورَك كُلَّها فإنَّه يَكْفيكَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

أي: وحسْبُك اللهُ -يا مُحمَّدُ- قائِمًا بأمورِك، وحافِظًا لك(٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ الإشارةُ إلى أنَّه يجبُ على الدَّاعيةِ أنْ تكونَ دعوتُه إلى اللهِ تعالى لا إلى حَظِّ نفْسِه! فإنَّ هذا وصْفُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ قال بعضُ العلماءِ: (هذه مِن أرجى آيةٍ عندي في كتابِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى أمَرَ نبيَّه أن يُبَشِّرَ

= حصَل القوَّةُ والعِزُّ خُوطِبنا بقولِه: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣] و[التحريم: ٩]). ((الصارم المسلول)) (ص: ٣٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٥٠، ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤٣).

المؤمنينَ بأنَّ لهم عندَه فضلًا كبيرًا، وقد بيَّن تعالى الفَضلَ الكبيرَ ما هو في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾[1] [الشورى: ٢٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وُجوبُ التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى[2]، وهو اعتِمادُ القلبِ على الرَّبِّ فيما يُنيلُه مِن خَيرٍ، أو يُزيلُه مِن ضُرٍّ، وتَعاطي الأسبابِ -مع تحقيقِ ذلك- لا يَقدَحُ فيه[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ فضيلةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيث جَمَعَ اللهُ تعالى له بينَ هذه الأوصافِ العظيمةِ: النُّبُوَّةِ، والرِّسالةِ، والشَّهادةِ، والبِشارَةِ، والإنذارِ، والدَّعوةِ إلى اللهِ تعالى بإذنِه؛ وأنَّه السِّراجُ المنيرُ[4].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ أرسَلَ اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم داعيًا إليه بإذنِه؛ فمَن دعا إلى غَيرِ اللهِ فقد أشرَكَ، ومَن دعا إليه بغَيرِ إذنِه فقد ابتدَعَ، والشِّركُ بِدعةٌ، والمبتَدِعُ يَؤُولُ إلى الشِّركِ، ولم يُوجَدْ مُبتَدِعٌ إلَّا وفيه نَوعٌ مِن الشِّركِ[5].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ في قَولِه: ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ أنَّ دعوةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَبنيَّةٌ على شَرعِ اللهِ تعالى بكيفيَّتِها وفيما يدعو إليه؛ فهو داعٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤٢).

(٥) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٧٥).

إلى اللهِ تعالى بإذْنِه، أي: على حَسَبِ أمْرِه، وبشَرعِه، فيدعو إلى سَبيلِ اللهِ تعالى بالحِكمةِ والموعِظةِ الحَسَنةِ، ويجادِلُ بالَّتي هي أحسَنُ، وكذلك يدعو إلى شَرعِ اللهِ تعالى لا يَتجاوزُه(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ سمَّى اللهُ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سِراجًا مُنيرًا، وسمَّى الشَّمسَ سِراجًا وَهَّاجًا في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣]، والسِّراجُ المُنيرُ أكمَلُ مِن السِّراجِ الوهَّاجِ؛ فإنَّ الوهَّاجَ له حَرارةٌ تُؤذي، والمُنيرُ يُهتدَى بنُورِه مِن غيرِ أذًى بوَهَجِه(٢)، وذلك يَقتضي أنَّ الخَلقَ في ظُلمةٍ عَظيمةٍ لا نورَ يُهتدَى به في ظُلُماتِها، ولا علمَ يُستَدَلُّ به في جَهالاتِها، حتَّى جاء اللهُ بهذا النَّبيِّ الكريمِ، فأضاء اللهُ به تلك الظُّلُماتِ، وعَلَّم به مِنَ الجَهالاتِ، وهدى به ضُلَّالًا إلى الصِّراطِ المستقيمِ؛ فأصبح أهلُ الاستِقامةِ قد وَضَح لهم الطَّريقُ، فمَشَوا خَلفَ هذا الإمامِ، وعَرَفوا به الخَيرَ والشَّرَّ، وأهلَ السَّعادةِ مِن أهلِ الشَّقاوةِ، واستناروا به لِمعرفةِ مَعبودِهم، وعَرَفوه بأوصافِه الحميدةِ، وأفعالِه السَّديدةِ، وأحكامِه الرَّشيدةِ(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «بَشِّرِ المُسلمينَ»؛ لأنَّ مِن المُسلِمينَ مَن يكونُ إسلامُهم ظاهِرًا، ويكونُ الإيمانُ في قُلوبِهم إمَّا مَفقودًا وإمَّا ضَعيفًا؛ فالَّذين لهم البِشارةُ المُطلَقةُ هم المؤمِنونَ الَّذين وَقَرَ الإيمانُ في قُلوبِهم، وصاروا يُنَفِّذُون مُقتضَى ذلك الإيمانِ؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]، فالبِشارةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

المُطْلَقةُ لا تكونُ إلَّا للمُؤمِنينَ[١].

٦- قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾، فيه أنَّ الجزاءَ على الإيمانِ أكثرُ مما عَمِله العبدُ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَضْلًا كَبِيرًا ﴾، وقولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ﴾؛ فيُؤخَذُ مِن الأمْرَينِ؛ أمَّا وجْهُ أخْذِه مِن الأوَّلِ فلِقَولِه تعالى: ﴿ كَبِيرًا ﴾، والكبيرُ إذا وَصَفَ الشَّيءَ بالكبيرِ فهو كبيرٌ جدًّا، وأمَّا الثَّاني فلأنَّه أضاف الفضلَ إلى اللهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ﴾، وكما قال المَثَلُ: «العَطِيَّةُ على قَدْرِ مُعْطيها»، فإذا كان هذا الفضلُ مِن اللهِ تعالى؛ فإنه سيَكونُ فضلًا لا يَخْطُرُ على البالِ[٢].

٧- في قولِه تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ أنَّه قد يَتَوَجَّهُ النَّهيُ عمَّا لم يُفْعَلْ لئلَّا يُفْعَلَ؛ فإنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما كان يُطيعُهم، لكنَّه نُهِيَ أنْ يُطيعَهم لئلَّا يفعلَ في المُستقبَلِ[٣].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ يَتبيَّنُ إذا نظرْتَ في الأمورِ الَّتي لأجْلِها لا يكفي الوكيلُ الواحِدُ؛ منها: ألَّا يكونَ قَويًّا قادِرًا على العَمَلِ، كالمَلِكِ الكثيرِ الأشغالِ يَحتاجُ إلى وُكَلاءَ؛ لعَجزِ الواحدِ عن القيامِ بجَميعِ أشغالِه، ومنها: ألَّا يكونَ عالِمًا بما فيه التَّوكيلُ، ومنها: ألَّا يكونَ غنيًّا. واللهُ تعالى عالِمٌ قادِرٌ، وغيرُ مُحتاجٍ؛ فيكفي وكيلًا[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

- في قولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ذكَرَ الله تعالى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٤).

للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هنا خمْسةَ أوصافٍ؛ هي: شاهدٌ، ومُبشِّرٌ، ونَذيرٌ، وداعٍ إلى اللهِ، وسِراجٌ مُنيرٌ؛ فهذه الأوصافُ يَنْطوي إليها وتَنْطوي على مَجامعِ الرِّسالةِ المُحمَّديَّةِ؛ فلذلك اقتُصِرَ عليها مِن بيْنِ أوصافِه الكثيرةِ[١].

- وقُدِّمَت البشارةُ على النِّذارةِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غلَبَ عليه التَّبشيرُ؛ لأنَّه رَحمةٌ للعالَمينَ، ولِكَثرةِ عدَدِ المؤمنينَ في أُمَّتِه[٢].

- قولُه: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أشار إلى المبالَغةِ في البِشارةِ بالتَّضعيفِ؛ لِما لها مِن حُسنِ الأثَرِ في إقبالِ المَدْعُوِّ، وللتَّضعيفِ مِن الدَّلالةِ على كثرةِ الفِعلِ والمفعولِ؛ بِشارةً بكثرةِ التَّابعِ، وهو السَّبَبُ لمقصودِ السورةِ، وكانت المُبالَغةُ في النِّذارةِ أزيدَ؛ لأنَّها أبلَغُ في رَدِّ المخالِفِ، وهي المقصودُ بالذَّاتِ مِن الرِّسالةِ؛ لِصُعوبةِ الاجتراءِ عليها[٣].

- وجِيءَ في جانبِ النِّذارةِ بصِيغةِ فَعيلٍ ﴿وَنَذِيرًا﴾ دونَ اسمِ الفاعلِ؛ لإرادةِ الاسمِ؛ فإنَّ (النَّذيرَ) في كلامِهم اسمٌ للمُخبِرِ بحُلولِ العَدُوِّ بديارِ القومِ، فالوصفُ بـ (نَذيرٍ) تَمثيلٌ بحالِ نَذيرِ القومِ، كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]؛ للإيماءِ إلى تَحقيقِ ما أنْذَرَهم به حتَّى كأنَّه قد حلَّ بهم، وكأنَّ المُخبِرَ عنه مُخبِرٌ عن أمْرٍ قد وقَعَ، وهذا لا يُؤدِّيه إلَّا اسمُ (النَّذيرِ)؛ ولذلك كثُرَ في القرآنِ الوصفُ بـ (النَّذيرِ)، وقلَّ الوَصفُ بـ (مُنذِرٍ)[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٣).

- زِيادةُ ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ في قولِه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ لِيُفيدَ أنَّ اللهَ أرسَلَه داعيًا إليه، ويسَّرَ له الدُّعاءَ إليه، مع ثِقَلِ أمْرِ هذا الدُّعاءِ، وعِظَمِ خَطَرِه، وهو ما كان استَشْعَرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مَبدأِ الوَحْيِ مِن الخشيةِ إلى أنْ أُنزِلَ عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾[1] [المدثر: ١، ٢].

- وأعرَى الدُّعاءَ عن المبالَغةِ؛ لأنَّه شامِلٌ للبِشارةِ والنِّذارةِ، والإخبارِ بالقصَصِ والأمثالِ، ونَصبِ الأحكامِ والحُدودِ؛ والمأمورُ به في كُلِّ ذلك الإبلاغُ بقَدرِ الحاجةِ، بمُبالَغةٍ أو غيرِها[2].

- وقولُه: ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ بطَريقِ الحاليَّةِ، وهو طَريقٌ جميلٌ، أي: أرسَلْناكَ كالسِّراجِ المُنيرِ في الهِدايةِ الواضحةِ الَّتي لا لَبْسَ فيها، ولا تَترُكُ للباطلِ شُبهةً إلَّا فَضَحتْها، وأوقَفَتِ النَّاسَ على دَخائلِها، كما يُضِيءُ السِّراجُ الوقَّادُ ظُلمةَ المكانِ[3].

- وقيل: التَّشبيهُ الواقعُ في قولِه: ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ يَحتمِلُ وَجهَينِ؛ أحدُهما: أنْ يكونَ مِن التَّشبيهِ المُركَّبِ العَقليِّ؛ شَبَّهَه سُبحانه وتعالى بالسِّراجِ المُنيرِ في كَونِه جَلَّى به الظَّلْماءَ، وهَدى به الضَّالِّينَ. وثانيها: أنْ يكونَ مِن التَّمثيليِّ؛ وهو أنْ يكونَ الوَجهُ مُنتزَعًا مِن عِدَّةِ أُمورٍ مُتوهَّمةٍ؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ أمَدَّ بنُورِ نُبوَّتِه نورَ البصائرِ، ووَصَفَه بالإنارةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الثَّاني مُفرَّقًا؛ فالمُشبَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٤).

به يكونُ حِسِّيًّا، والمُشبَّهُ عقْليًّا[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ وَصفٌ شاملٌ لِجَميعِ الأوصافِ الَّتي وُصِفَ بها آنفًا؛ فهو كالفَذْلَكةِ[٢] وكالتَّذييلِ[٣]، ووَصْفُ السِّراجِ بـ ﴿مُّنِيرًا﴾، مع أنَّ الإنارةَ مِن لَوازمِ السِّراجِ؛ لأنَّ مِن السِّراجِ ما لا يُضِيءُ إذا قلَّ سَليطُه[٤] ودَقَّت فَتيلتُه، ولإفادةِ قُوَّةِ معنى الاسمِ في المَوصوفِ به الخاصِّ؛ فإنَّ هُدَى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو أوضَحُ الهُدى، وإرشادَه أبلَغُ إرشادٍ[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾

- (الفضلُ) كنايةٌ عن العطايا الكبيرةِ الثَّوابِ، مِن قولِهم للعطايا: فضولٌ وفَواضلُ، أو المزيدِ على الثَّوابِ، وإذا ذَكَر المُتفضَّلُ به وكَبَّره، فما ظنُّكَ بالثوابِ؟! أو ما فُضِّلوا به على سائرِ الأُممِ، وذلك من جِهتِه تعالى، أو الجَنَّةِ وما أُوتوا فيها[٦].

- قولُه تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني: لا مِن غيرِه؛ ولهذا قَدَّمَ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٤٤٥).

(٢) تقدم تعريفها (ص: ٥١).

(٣) التَّذييلُ: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعدَ تمامِ معناه بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وتلك الزِّيادةُ على ضَربَينِ: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويُحَقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرَجَ المَثَلِ السَّائرِ؛ لِيَشتهِرَ المعنى؛ لِكَثرةِ دَوَرانِه على الألْسِنةِ. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

(٤) السَّليطُ: الزَّيْتُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٧).

مع أنَّه مُتَعَلِّقٌ بـ﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾[١].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ تَهييجٌ له على ما هو عليه مِن مُخالَفتِهم. وقيل: نَهْيٌ عن مُداراتِهم في أمْرِ الدَّعوةِ، واستِعمالِ لِينِ الجانبِ في التَّبليغِ، والمُسامَحةِ في الإنذارِ، كُنِّيَ عن ذلك بالنَّهيِ عن طاعتِهم؛ مُبالَغةً في الزَّجْرِ والتَّنفيرِ عن المَنْهيِّ عنه بنَظْمِه في سِلْكِها، وتَصويرِه بصُورتِها، والنَّهيُ مُستعمَلٌ في مَعنى الدَّوامِ على الانتهاءِ[٢].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ، فقد قدَّم الكافرينَ على المنافقينَ، بيْنَما في مواضعَ يُقَدِّمُ المنافقينَ على الكافرينَ؛ ففي مقامِ الجزاءِ يُقَدِّمُ المنافقينَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأحزاب: ٧٣]؛ لأنَّ ذَنْبَ المنافقِ أعظَمُ مِن ذَنْبِ الكافرِ الصَّريحِ، وأمَّا هنا فالَّذي يُعارِضُ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم صراحةً هو الكافرُ؛ ولهذا قَدَّمَهُ على المنافقِ؛ لأنَّ المنافقَ لا يَأْمُرُ بمخالفةِ الشَّرعِ كما يَأْمُرُ بها الكافرُ! إذْ إنه يَتَسَتَّرُ بنِفاقِه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فبدأ بهم؛ لأنَّ مُعارضَتَهم للشَّرعِ أبْيَنُ وأظهرُ مِن المنافقينَ[٣].

- وقولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ تَذييلٌ لِجُملةِ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٥٢).

فإنَّ اللهَ هو الوكيلُ الكافي في الوكالةِ، أي: المُجْزي مَن تَوكَّلَ عليه ما وَكَّلَه عليه؛ فالباءُ تأكيدٌ(١).

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في مَوضعِ الإضمارِ؛ لِتَعليلِ الحُكمِ، وتأكيدِ استِقلالِ الاعتراضِ التَّذييليِّ(٢).

- ولَمَّا وصَفَ اللهُ نَبيَّه بخمْسِ صِفاتٍ، قابَلَ كُلًّا منها بخِطابٍ يُناسِبُه، وقد جاءت هذه الجُمَلُ الطَّلبيَّةُ مُقابِلةً وناظرةً للجُمَلِ الإخباريَّةِ مِن قولِه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ إلى ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]؛ فقولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٧] ناظرٌ إلى قولِه: ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقولُه هنا: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ناظرٌ إلى قولِه: ﴿وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]؛ لأنَّه جاء في مُقابَلةِ بِشارةِ المؤمنينَ، وقولُه: ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ ناظرٌ إلى قولِه: ﴿شَٰهِدٗا﴾. وقيل: لم يُذكَرْ مُقابلُ الشَّاهدِ صَريحًا، وهو الأمرُ بالمُراقبةِ؛ ثِقةً بظُهورِ دَلالةِ مُقابلِ المُبشَّرِ عليه، وهو الأمرُ بالتَّبشيرِ. وقولُه: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ناظرٌ إلى قولِه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، وأمَّا قولُه: ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾؛ فلم يُذكَرْ له مُقابلٌ في هذه المَطالبِ، إلَّا أنَّه لَمَّا كان كالتَّذييلِ للصِّفاتِ ناسَبَ أنْ يُقابِلَه ما هو تَذييلٌ للمَطالِبِ، وهو قولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾. وقيل: قُوبِلَ السِّراجُ المُنيرُ بالاكتفاءِ به تعالى؛ فإنَّ مَن أيَّده اللهُ تعالىَ بالقُوَّةِ القُدسيَّةِ، ورشَّحه للنُّبوَّةِ، وجعَلَه بُرهانًا نَيِّرًا يَهدي الخَلْقَ مِن ظُلماتِ الغَيِّ إلى نُورِ الرَّشادِ؛ حَقيقٌ بأنْ يَكْتَفي به عن كلِّ ما سِواهُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٩).

الآية (٤٩)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: أي: تَقربوهنَّ وتُجامِعوهنَّ، وأصلُ المسِّ: جَسُّ الشَّيءِ باليدِ[١].

﴿تَعۡتَدُّونَهَا﴾: أي: تُحْصونَها بالأقراءِ والأشهرِ، وتَسْتَوْفونَ عَدَدَها، مِن: عَدَدْتُ الدَّراهِمَ فأنا أعتدُّها، وأصلُ (عدد) هنا: مِن العدِّ الَّذي هو الإحصاءُ[٢].

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾: أي: أعطوهنَّ ما يَستمتِعْنَ به، والمُتعةُ: ما تُعطَى المُطَلَّقةُ لِتَنتفعَ به، وأصلُ (متع): يدُلُّ على منفعةٍ وامتِدادِ مدَّةٍ في خَيرٍ[٣].

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾: أي: أخْلوا سَبيلَهنَّ تخليَةً بالمعروفِ مِن غيرِ ضرارٍ، والتَّسْريحُ: التَّطليقُ، والسَّراحِ هو الطَّلاقُ، والسَّرْحُ: شجرٌ له ثمرٌ، وسَرَّحْتُ الإبلَ، أصلُه: أن تُرْعيَه السَّرْحَ، ثمَّ جُعِل لكلِّ إرسالٍ في الرَّعيِ، وأصلُ (سرح): يدُلُّ على الانطلاقِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٥٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٥٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم)) لابن أبي نصر (ص: ٤٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧، ٧٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٧)، ((الغريبين =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جانبًا مِن أحكامِ الزَّواجِ والطَّلاقِ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا تزوَّجتُم المؤمِناتِ ثمَّ طلَّقتُموهنَّ مِن قَبلِ الدُّخولِ بهِنَّ؛ فما لكم -أيُّها المؤمِنونَ- عِدَّةٌ تُحصونَها عليهِنَّ؛ فأعطوهنَّ شَيئًا يكونُ مَتاعًا لهنَّ، وخَلُّوا سبيلَهنَّ تَخليةً حَسَنةً بالمعروفِ.

تَفسيرُ الآيةِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى قِصَّةَ زَيدٍ وزَينبَ، وتَطليقَه إيَّاها، وكانت مدخولًا بها، واعتدَّت، وخطَبَها الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَ انقِضاءِ عِدَّتِها؛ بيَّن حالَ مَن طُلِّقَت قبْلَ المَسيسِ، وأنَّها لا عِدَّةَ عليها[1]، فجاءت هذه الآيةُ تَشريعًا لحُكمِ المطلَّقاتِ قبلَ البناءِ بهنَّ، بمناسَبةِ حُدوثِ طلاقِ زَيدِ بنِ حارِثةَ زَوجَه زينبَ بنتَ جَحشٍ؛ لئلَّا يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ العِدَّةَ مِن آثارِ العَقدِ على المرأةِ، سواءٌ دخل بها الزَّوجُ أم لم يَدخُلْ[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا عقَدْتُم عَقدَ الزَّواجِ على المُؤمِناتِ، ثمَّ طَلَّقتُموهنَّ

= في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٨٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٩، ٦٠).

قبْلَ أن تُجامِعوهنَّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾[البقرة: ٢٣٦].

﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾.

أي: فما لكم -أيُّها المؤمِنونَ- عِدَّةٌ تُحصونَها عليهنَّ[(٢)].

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾.

أي: فأعطوهنَّ ما يَستَمتِعنَ به مِن مَتاعِ الدُّنيا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٢٥).

قال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خرجَ مخرجَ الغالبِ؛ إذ لا فَرقَ في الحُكمِ بيْنَ المُؤمِنةِ والكتابيَّةِ في ذلك بالاتِّفاقِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٠، ٦١).

قال ابنُ العربي: (هذه الآيةُ نَصٌّ في أنَّه لا عِدَّةَ على مُطَلَّقةٍ قبْلَ الدُّخولِ، وهو إجماعُ الأمَّةِ؛ لهذه الآيةِ، وإذا دخَل بها فعليها العِدَّةُ إجماعًا). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٨٧).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾: هذا أمرٌ مُجمَعٌ عليه بيْنَ العُلَماءِ: أنَّ المرأةَ إذا طُلِّقَت قبْلَ الدُّخولِ بها: لا عِدَّةَ عليها، فتذهَبُ فتتزوَّجُ في فَورِها مَن شاءت، ولا يُستثنى مِن هذا إلَّا المتوفَّى عنها زوجُها؛ فإنَّها تعتَدُّ منه أربعةَ أشهُرٍ وعَشرًا، وإنْ لم يكُنْ دخل بها، بالإجماعِ أيضًا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٥٩).

قال ابنُ عثيمين: (أعطوهنَّ ما يَستمتِعْنَ به مِن الدَّراهم، ومِن الثِّياب، ومِن المتاعِ، ومِن العَقارِ، ومن أيِّ شَيءٍ؛ فالله عزَّ وجلَّ أطلَقَها، ثمَّ إنها مُطلَقةٌ مِن جهةِ الكَمِّيَّةِ، كما أنَّها مُطلَقةٌ مِن جهةِ النَّوعيَّةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٥٩). =

كما قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٦، ٢٣٧].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعديِّ وأبي أُسَيدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: ((تزوَّج النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُمَيمةَ بنتَ شَراحِيلَ، فلمَّا أُدخِلَت عليه بسَطَ يَدَه إليها، فكأنَّها كَرِهَت ذلك، فأمَرَ أبا أُسَيدٍ أن يُجَهِّزَها ويَكسوَها ثَوبَينِ رازِقِيَّينِ[(١)])))[(٢)].

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

أي: وأخلُوا سَبيلَهنَّ تَخليةً حَسَنةً[(٣)].

= ثمَّ قال: (ويُستثنى مِن ذلك مَن سُمِّي لها مَهرٌ؛ فإنَّ مَن سُمِّي لها مَهرٌ لا يجبُ لها إلَّا نِصفُه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٠).

(١) الرَّازِقيَّة: ثيابٌ مِن كَتَّانٍ بِيضٌ طِوالٌ. وقيل: يكونُ في داخِلِ بَياضِها زُرْقةٌ، والرَّازِقيُّ: الصَّفيقُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٣٥٩).

(٢) رواه البخاري (٥٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٠، ٣٦١).

قيل: المرادُ بالسَّراحِ الجَميلِ هنا: أي بدُونِ أذًى ولا إضرارٍ ولا منْعِ حقٍّ. وممَّن اختاره في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ الجوزي، والبيضاوي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٤)، =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ يدُلُّ على أنَّه ينبغي لِمن فارقَ زوجتَه قبلَ الدُّخولِ أو بعْدَه: أن يكونَ الفِراقُ جَميلًا، يَحمَدُ فيه كُلٌّ منهما الآخَرَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ التَّكنِيةُ عمَّا يُستَحْيا مِن ذِكرِه[٢]، فقولُه: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: تجامِعوهنَّ، أطلَق المَسَّ على الجِماعِ؛ لأنَّه طريقٌ له[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ ...﴾ أهمِّيَّةُ النِّكاحِ والطَّلاقِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَدَّرَه بالنِّداءِ الَّذي يُطْلَبُ به تَنَبُّه المنادَى لِمَا سيُلْقَى عليه، وتصديرُ الخِطابِ بمثلِ هذه النِّداءِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يدُلُّ على أنَّ التِزامَ أحكامِ الشَّريعةِ في النِّكاحِ والطَّلاقِ هو مِن مقتضياتِ الإيمانِ[٤].

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٢).

وقال الرازي: (الجمالُ فِي التَّسريحِ ألَّا يُطالِبَها بما آتاها). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٥).

وقال البِقاعي: (﴿سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ بالإحسانِ قولًا وفعلًا، مِن غيرِ ضِرارٍ بوجْهٍ أصلًا). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٧٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٠، ٣٦١).

وفي معناه أقوالٌ أخرى. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٤، ٢٠٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أَمَر بتَسريحِهنَّ بعدَ الطَّلاقِ قبْلَ الدُّخولِ، وهو طلاقٌ بائنٌ لا رَجعةَ فيه، وليس التَّسريحُ هنا تطليقًا باتِّفاقِ المُسلِمينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٠/ ٥٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ فيها أحكامٌ كَثيرةٌ؛ منها: إطلاقُ النِّكاحِ على العَقدِ وحْدَه، وليس في القُرآنِ آيةٌ أصرَحُ في ذلك منها، واستِعمالُ القُرآنِ إنَّما هو في العَقدِ والوَطءِ بعْدَه إلَّا في هذه الآيةِ؛ فإنَّه استُعمِلَ في العَقدِ وحْدَه؛ لِقَولِه: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾، وفيها دَلالةٌ لإباحةِ طَلاقِ المرأةِ قبْلَ الدُّخولِ بها[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾، فيه سؤالٌ: لِمَ خَصَّ المُطَلَّقاتِ اللَّاتي طُلِّقنَ قبْلَ المَسيسِ بالذِّكرِ؟

الجوابُ: هذا إرشادٌ إلى أعلى دَرَجاتِ المَكرُماتِ؛ لِيُعلَمَ منها ما دُونَها، وبيانُه هو أنَّ المرأةَ إذا طُلِّقَت قبْلَ المَسيسِ لم يَحصُلْ بيْنَهما تأكُّدُ العَهدِ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى في حَقِّ الممسوسةِ: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [النساء: ٢١]، وإذا أمر اللهُ بالتَّمَتُّعِ والإحسانِ مع مَن لا مَوَدَّةَ بيْنَه وبيْنَها، فما ظَنُّك بمَن حصَلَت المودَّةُ بالنِّسبةِ إليها بالإفضاءِ، أو حصَل تأكُّدُها بحُصولِ الوَلَدِ بيْنَهما[2]؟!

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ يدُلُّ على جوازِ الطَّلاقِ؛ لأنَّ الله أخبَر به عن المؤمنينَ على وجهٍ لم يَلُمْهم عليه، ولم يؤنِّبْهم، مع تصديرِ الآيةِ بخِطابِ المؤمنينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ دَليلٌ على أنْ لا طلاقَ قبْلَ نِكاحٍ، وأنَّ مَن طَلَّقَ قبْلَ النِّكاحِ فليس بطَلاقٍ[١]، وأنَّ تعليقَ الطَّلاقِ بالنِّكاحِ لا يَصِحُّ؛ لأنَّ التَّطليقَ حينَئذٍ لا يكونُ إلَّا بعدَ النِّكاحِ، واللهُ تعالى ذكَرَه بكَلِمةِ (ثُمَّ)، وهي للتَّراخي[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ أنَّه لا إيلاءَ ولا ظِهارَ ولا تحريمَ على امرأةٍ إلَّا بعدَ النِّكاحِ؛ لأنَّه إذا كان الطَّلاقُ -وهو أعظمُ فُرْقةً مِن الظِّهار والإيلاءِ وما أشبهَه- لا يكونُ إلَّا بعدَ النِّكاحِ؛ فكذلك ما دونه، إلَّا أنَّ التحريمَ إذا حَرَّمَ الرَّجُلُ امرأةً مُعَيَّنةً ثمَّ تزَوَّجها بعدَ ذلك؛ فإنَّ عليه كفَّارةَ يمينٍ، وكذلك الظِّهَارُ إذا قَصَدَ به التَّحريمَ وظاهَرَ مِن امرأةٍ قبْلَ أنْ يَتزوَّجَها؛ فإنَّ عليه كفَّارةَ يمينٍ، وليس عليه كفَّارةُ ظِهارٍ؛ لأنَّ الظِّهارَ لا يصِحُّ إلَّا مِن زوجةٍ[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، في قَولِه: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ أنَّ المُعتدَّةَ مِن وفاةٍ عليها العِدَّةُ مُطلقًا وإنْ لم يُدْخَلْ بها، فجَعَلَ اللهُ تعالى هذا الحُكمَ في الطَّلاقِ؛ فيبقى قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] على إطلاقِه: أنَّ المتوفَّى عنها زَوْجُها تَجِبُ عليها العِدَّةُ، وإنْ لم يُدخَلْ بها[٤].

٨- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ في قَولِه: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ أنَّ الطَّلاقَ بيدِ الزَّوجِ، فلا يَمْلِكُ الأبُ ولا الجَدُّ ولا

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٦٤).

العَمُّ ولا الخالُ ولا غيرُهم أنْ يُطَلِّقُوا على الإنسانِ[١].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ يدُلُّ على جوازِ الطَّلاقِ قبْلَ المسيسِ، كما قال في الآيةِ الأُخرَى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ﴾[٢] [البقرة: ٢٣٦].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ﴾ بيَّن أنَّ العِدَّةَ حَقُّ الزَّوجِ فيها غالبٌ، وإن كان لا يَسقُطُ بإسقاطِه؛ لِما فيه مِن حَقِّ اللهِ تعالى[٣]؛ لأنَّ ما تتضَمَّنُه العِدَّةُ مِن حِفظِ النَّسَبِ مَقصدٌ مِن أصولِ مقاصدِ التَّشريعِ، فلا يسقطُ بالإسقاطِ، فالإسنادُ إلى الرِّجالِ في ﴿طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ و﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ العِدَّةَ حقُّ الأزواجِ، كما أشعَرَ به ﴿فَمَا لَكُمۡ﴾؛ لأنَّ المَقصدَ منها راجعٌ إلى نفْعِ الأزواجِ بحِفْظِ أنسابِهم، ولأنَّهم يَملِكُونَ مُراجعةَ الأزواجِ ما دُمْنَ في مُدَّةِ العِدَّةِ[٤].

١١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ في قَولِه: ﴿ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ أنَّه لا عِدَّةَ لغيرِ المُطلَّقةِ؛ كالمَفسوخةِ بخُلعٍ أو غَيرِه[٥].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ يدُلُّ على أنَّ المطلَّقةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩١)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٥).

قبْلَ الدُّخولِ لا عِدَّةَ عليها، بل بمجرَّدِ طَلاقِها يجوزُ لها التَّزوُّجُ؛ حيث لا مانِعَ، وعلى أنَّ عليها العِدَّةَ إذا كان طلاقُها بعدَ الدُّخولِ(١).

١٣- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا﴾ قَولُه: ﴿تَعۡتَدُّونَهَا﴾ فيه دليلٌ على أنَّ مِن شأنِ الأزواجِ أنْ يَعْتَدُّوا عِدَّةَ أزواجِهنَّ؛ وأنْ يُحْصُوها ويُراقِبوها ويَعتنوا بها؛ لأنَّها فراشٌ له ما دامتْ في العِدَّةِ، إذا كانت رجعيَّةً(٢).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ وُجوبُ المُتْعَةِ على مَن طَلَّق قبْلَ الدخولِ، وهذا مُقَيَّدٌ بالآيةِ الأخرى -وهي ما إذا فَرَضَ لها فريضةً-، فإنَّها إذا فَرَضَ لها مهرًا؛ فليس عليه إلَّا نصفُ المَهْرِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾(٣) [البقرة: ٢٣٧].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ رَحمةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بعِبادِه وخَلقِه؛ حيث أوجَبَ المُتعةَ على مَن طُلِّقَت قبْلَ الدُّخولِ؛ وَجهُ ذلك: أنَّ فيه جَبرًا لخاطِرِها، وإزالةً لِلْهَمِّ والغَمِّ الَّذي اعتراها بعدَ الطَّلاقِ(٤).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ الجَمعُ بيْنَ الإحسانِ الماليِّ والفِعليِّ؛ فقَولُه تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ هذا الإحسانُ الماليُّ، وقولُه تعالى: ﴿سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ هذا الإحسانُ الفِعليُّ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٦٥).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ وُجوبُ التَّسريحِ الجَميلِ في المُفارقةِ[١].

بلاغةُ الآيةِ:

- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ خصَّ المُؤمناتِ بالذِّكرِ -معَ أنَّ الحُكمَ الَّذي نطَقَتْ به الآيةُ تَسْتوي فيه المؤمناتُ والكتابيَّاتُ-؛ لأنَّ في اختِصاصِهنَّ تَنْبيهًا على أنَّ أصلَ أمْرِ المؤمنِ والأَولى به أنْ يَتخيَّرَ لنُطفتِه، وألَّا يَنكِحَ إلَّا مُؤمنةً عفيفةً، ويَتنزَّهَ عن مُزاوجَةِ الفواسقِ، فما بالُ الكوافرِ؟! ويَستنكِفَ أنْ يُدخِلَ تحتَ لِحافٍ واحدٍ عَدُوَّةَ اللهِ ووَلِيَّه[٢]. وقيل: تَعليقُ الحُكمِ في العِدَّةِ بالمؤمناتِ جَرَى على الغالِبِ؛ لأنَّ نِساءَ المؤمنينَ يَومَئذٍ لم يَكُنَّ إلَّا مُؤمناتٍ، وليس فيهنَّ كِتابيَّاتٌ[٣].

- وأفادَتْ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ نَفْيَ التَّوهُّمِ عمَّن عَسى أنْ يَتوهَّمَ تَفاوُتَ الحُكمِ بيْنَ أنْ يُطلِّقَها وهي قَريبةُ العهْدِ مِن النِّكاحِ، وبيْنَ أنْ يَبعُدَ عَهدُها بالنِّكاحِ، ويَتراخَى بها المُدَّةُ في حِبالةِ الزَّواجِ، ثمَّ يُطلِّقَها[٤]. لذا لم يَقُلْ سُبحانَه: «وطلَّقتُموهنَّ» أو «فطلَّقتُموهنَّ»؛ لِيتَبيَّنَ به أنَّه لو تأخَّرَ الطَّلاقُ عن العَقدِ مُدَّةً طويلةً فالحُكمُ لا يَتغيَّرُ، كما أنَّه لو طَلَّقَها مُباشَرةً فالحُكمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٩).

لا يَتغيَّرُ أيضًا[١].

- قولُه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ المَسُّ والمسيسُ كِنايةٌ عن الوَطْءِ، كما سُمِّيَ مُلامَسةً في قولِه: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[٢] [النساء: ٤٣].

- ولَمَّا كانت العِدَّةُ واجبةً، عبَّر بأداةِ الاستِعلاءِ، فقال: ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾[٣].

- وأفادَتْ (مِن) في قولِه: ﴿فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا﴾ العُمومَ؛ لِدُخولِها على النَّكرةِ المَنفيَّةِ، أي: فما لكمْ عليهنَّ مِن جِنسِ العِدَّةِ[٤].

- قوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ قيل: لم يصرِّحْ بأنَّ ذلك لغيرِ مَن سمَّى لها؛ لِتَدخُلَ المسمَّى لها في الكلامِ على طريقِ النَّدبِ، معَ ما لها مِن نِصفِ المُسَمَّى، كما دخَلتِ الأُولَى وجوبًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٧).

الآيات (٥٠-٥٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾: أي: رجَعَه ورَدَّه إليك مِن الكُفَّارِ بأن سَبَيْتَه ومَلَكْتَه، والفَيءُ هو: ما ناله المُسلِمونَ مِن العَدُوِّ بغيرِ قِتالٍ، وأصلُ (فيأ): يدُلُّ على الرُّجوعِ[(١)].

﴿تُرۡجِي﴾: أي: تُؤخِّرُ، وأصلُ (رجأ): يدُلُّ على التَّأخيرِ[(٢)].

﴿وَتُـٔۡوِيٓ﴾: أي: تَضُمُّ، وأصلُ (أوي): يدُلُّ على تجَمُّعٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣).

﴿عَزَلْتَ﴾: أي: تَركْتَ وأخَّرْتَ، وأصلُ (عزل): يدُلُّ على تَنحيةٍ وإمالةٍ[١].

﴿أَدْنَىٰٓ﴾: أي: أقرَبُ، وأصلُ الدُّنوِّ: القُربُ[٢].

﴿تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾: أي: تَطِيبُ نَفْوسُهُنَّ، قيل: أصلُه مِن القُرِّ، أي: البَردِ، فَقَرَّتْ عينُه، قيل: معناه: بردَتْ فصحَّتْ، وقيل: بل لأنَّ للسُّرورِ دمعةً باردةً قارَّةً، وقيل: هو مِن القرارِ[٣].

﴿رَّقِيبًا﴾: أي: حافظًا، عالِمًا، مُطَّلِعًا، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتِصابٍ لمُراعاةِ شَيءٍ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جانبًا مِن مظاهرِ فضلِه على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ وتكريمِه له: يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أحلَلْنا لك أزواجَك اللَّاتي آتيتَهنَّ مُهورَهنَّ، وما ملَكَت يمينُك مِمَّا نِلْتَه مِن الكُفَّارِ، وبناتِ عَمِّك وبناتِ عمَّاتِك، وبناتِ خالِك وبناتِ خالاتِك؛ اللَّاتي هاجَرْنَ معك مِن مكَّةَ إلى المدينةِ، وامرأةً مُؤمِنةً إنْ وهَبَت نفْسَها لك لِتتزَوَّجَها بغيرِ مَهرٍ، فقبِلْتَ الزَّواجَ بها، وذلك خاصٌّ بك، ولا يحِلُّ ذلك لأحدٍ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠، ٣٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٣، ٧٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

مِن أُمَّتِك؛ فليس لغيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَستبيحَ وَطْءَ امرأةٍ بلَفظِ الهِبةِ مِن غَيرِ وَليٍّ ولا مَهرٍ.

قد عَلِمْنا ما أوجَبْنا على المؤمِنينَ في الزَّواجِ مِن الأحكامِ: ألَّا يتزوَّجوا أكثَرَ مِن أربَعٍ، ولا يتزوَّجوا إلَّا بوليٍّ وشُهودٍ ومَهرٍ، ولهم مِلكُ ما شاؤوا مِنَ الإماءِ.

وسَّعْنا عليك في أمرِ الزَّواجِ بالنِّساءِ -يا محمَّدُ- لكيلا يكونَ عليك إثمٌ وضِيقٌ في نِكاحِهنَّ، وكان اللهُ غَفورًا رحيمًا.

تُؤخِّرُ -يا محمَّدُ- مَن أُحِلَّ لك مِن النِّساءِ، وتَضُمُّ إليك مَن تشاءُ مِنهُنَّ، وإن أردْتَ أن تُؤويَ إليك امرأةً مِمَّن عزلْتَهنَّ وأخَّرْتَهنَّ مِن القِسمةِ، وتَضُمَّها إليك؛ فلا جُناحَ عليك؛ ذلك -يا محمَّدُ- أقرَبُ لِأن يَفرَحْنَ ولا يحزَنَّ، ويَرضَينَ بما أعطيتَهنَّ كُلُّهنَّ، واللهُ يعلَمُ ما في قُلوبِكم مِن أمرِ النِّساءِ والمَيلِ إلى بَعضِهنَّ، وكان اللهُ عليمًا بخَلقِه، حَليمًا فلا يُعاجِلُهم بالمؤاخَذةِ على ذنوبِهم.

لا يَحِلُّ لك -يا محمَّدُ- الزَّواجُ بالنِّساءِ مِن بَعْدُ، ولا أن تُطَلِّقَ واحِدةً مِن أزواجِك لِتتزوَّجَ بأُخرَى ولو أعجَبك جمالُها، إلَّا ما ملكَتْ يمينُك مِن الإماءِ؛ فإنَّهنَّ حَلالٌ لك، وكان اللهُ على كُلِّ شَيءٍ حافِظًا ومُراقِبًا.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان النَّبيُّ أَولى بالمؤمِنينَ مِن أنفُسِهم، وكان المرادُ الأعظَمُ في هذه الآياتِ بَيانَ ما شَرَّفه اللهُ به من ذلك؛ أَتْبَعَ ما بيَّن أنَّه لا عِدَّةَ فيه مِن نكاحِ المؤمِنينَ، وما حَرَّمه عليهم مِنَ التَّضييقِ على الزَّوجاتِ المطَلَّقاتِ- بعضَ ما شَرَّفه اللهُ تعالى به وخَصَّه مِن أمرِ التَّوسِعةِ في النِّكاحِ، وختَمَه بأنَّ أزواجَه لا تحِلُّ بعْدَه[1].

وأيضًا لَمَّا خاض المنافِقونَ في تزوُّجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ زينبَ بنتَ جَحشٍ، وقالوا: (تزوَّجَ مَن كانت حليلةَ مُتبَنَّاه)، أراد اللهُ أن يجمَعَ في هذه الآيةِ مَن يَحِلُّ للنَّبيِّ تزوُّجُهنَّ؛ حتَّى لا يقَعَ النَّاسُ في تردُّدٍ، ولا يفتِنَهم المُرجِفونَ[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أحلَلْنا لك أزواجَك اللَّاتي آتيتَهنَّ مُهورَهنَّ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩).

قال ابنُ جُزَي: (في معناها قولانِ؛ أحدُهما: أنَّ المرادَ أزواجُه اللَّاتي في عِصمتِه حينَئذٍ؛ كعائشةَ وغَيرِها، وكان قد أعطاهنَّ مُهورَهنَّ، والآخَرُ: أنَّ المرادَ جميعُ النِّساءِ، فأباح اللهُ له أن يتزوَّجَ كُلَّ امرأةٍ يُعطى مَهرُها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٤).

ونسَب القرطبيُّ القولَ الأوَّلَ للجمهورِ، وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٦)، ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٦، ٣٦٧).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: القرطبيُّ، وعلى هذا القَولِ يكونُ هذا الإحلالُ ناسِخًا للتَّحريمِ في قَولِه تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ ﴾، وتكونُ هذه الآيةُ وإن كانت مُقَدَّمةً في التِّلاوةِ، متأخِّرةَ النُّزولِ عن الآيةِ المنسوخةِ بها، كآيَتَي الوفاةِ في سورةِ البقرةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٦). =

﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾.

أي: وأحلَلْنا لك النِّساءَ اللَّاتي مَلَكْتَهنَّ ممَّا نِلْتَه مِنَ الكُفَّارِ(١).

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾.

أي: وأحلَلْنا لك بناتِ عَمِّك وبناتِ عمَّاتِك، وبناتِ خالِك وبناتِ خالاتِك؛ اللَّاتي هاجَرْنَ مِن مكَّةَ إلى المدينةِ كما فعَلْتَ(٢).

= وممَّن قال بهذا القول مِن السَّلفِ: ابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٠).

وذكَر ابنُ عثيمين أنَّه بناءً على هذا القول: (يجبُ أن نؤوِّلَ الفِعلَ الماضيَ بالفعلِ المضارعِ؛ يعني: اللَّاتي تؤتي أجورَهنَّ. وهذا خِلافُ ظاهرِ الآيةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٤).

قيل: معنى ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾: ممَّا رَدَّه اللهُ عليك مِن الكُفَّارِ بالغنيمةِ لنِسائِهم المأخوذاتِ على وَجهِ القَهرِ والغَلَبةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٨، ٣٦٩).

قال الشوكاني: (وليس المرادُ بهذا القيدِ إخراجَ ما ملَكَه بغيرِ الغَنيمةِ؛ فإنَّها تحِلُّ له السُّرِّيَّةُ المشتراةُ والموهوبةُ ونحوُهما، ولكِنَّه إشارةٌ إلى ما هو أفضَلُ، كالقَيدِ الأوَّلِ المصَرِّحِ بإيتاءِ الأجورِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٥).

وقيل: الفَيءُ هو: ما ناله المسلِمونَ مِن العدُوِّ بغيرِ قتالٍ، ولكِنْ تركَه العدوُّ، أو ممَّا أُعطيَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِثلُ: ماريَّةَ القِبطيَّةِ أمِّ ابنِه إبراهيمَ. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٤، ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٩٥، ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩).

قال ابنُ عاشور: (بناتُ عَمِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هنَّ بناتُ إخوةِ أبيه، مِثلُ: بناتِ العبَّاسِ، وبناتِ أبي طالبٍ، وبناتِ أبي لهبٍ؛ وأمَّا بناتُ حمزةَ فإنَّهنَّ بناتُ أخٍ مِن الرَّضاعةِ لا يَحِلُّنَ له. وبناتُ عَمَّاتِه: هنَّ بناتُ [بنات] عبدِ المطَّلِب، مثلُ: زينبَ بنتِ جَحشٍ الَّتي هي بنتُ أُميمةَ =

﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن ما هو الأشرَفُ مِن النِّكاحِ؛ لِكَونِه الأصلَ، وأتبَعَه سُبحانَه ما خَصَّ به شَرْعَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ المَغنَمِ الَّذي تولَّى سُبحانَه إباحتَه؛ أتْبَعَه ما جاءت إباحتُه مِن جهةِ المُبيحِ؛ إعلامًا بأنَّه ليس مِن نَوعِ الصَّدَقةِ الَّتي نزَّهَ عنها قَدْرَه، فقال[1]:

= بنتِ عبدِ المطَّلِبِ، وبناتُ خالِه هنَّ بناتُ عبدِ مَنافِ بنِ زُهرةَ، ومِن أخوالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: عبدُ يَغوثَ بنُ وهبٍ أخو آمنةَ، ولم يَذكُروا أنَّ له بناتٍ... وقد ذَكَر في «الإصابةِ» فُرَيعةَ بنتَ وَهبٍ، وذكروا هالةَ بنتَ وَهبٍ الزُّهْريةَ إلَّا أنَّها لِكَونِها زَوجةَ عبدِ المطَّلِبِ، وابنتُها صَفيَّةُ عَمَّةُ رَسولِ اللهِ: فقد دخَلَت مِن قبْلُ في بناتِ عَمِّه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٦). ويُنظر: ((الإصابة في تمييز الصحابة)) لابن حجر (٨/ ٢١٣، ٢٨١).

وقال الماتُريدي: (لم يفهَمْ أحدٌ مِن قَولِه: ﴿هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ الهِجرةَ معه حتَّى لا يتقدَّمنَ ولا يتأخَّرْنَ، بل دخَل في قَولِه: ﴿مَعَكَ﴾ مَن هاجرَ منهنَّ مِن قَبلُ ومِن بَعدُ. والله أعلمُ). ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٠٢). وممَّن قال بهذا المعنى أيضًا: السمرقندي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٧١).

قيل: قَيْدُ المُهاجَرةِ غَيرُ مَقصودٍ لِذَاتِه، وإنَّما المرادُ بيانُ شَرَفِهنَّ وشَرَفِ الهِجرةِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: البِقاعي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٥).

قال البِقاعي: (لم يُرِدْ بذلك التَّقييدَ، بل التَّنبيهَ على الشَّرَفِ، وإشارةً إلى أنَّه سَبَق في عِلمِه سُبحانَه أنَّه لا يَقَعُ له أن يتزوَّجَ مَن هي خارجةٌ عن هذه الأوصافِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٨١).

وقيل: قَيدُ الهِجرةِ مُعتَبَرٌ، فلا تحِلُّ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ امرأةٌ لم تهاجِرْ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨١).

﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾.

أي: وأحلَّ اللهُ لك -يا مُحمَّدُ- الزَّواجَ مِن أيِّ امرأةٍ مُؤمِنةٍ إذا وهَبَت نَفسَها لكَ لِتتزوَّجَها بغيرِ مَهرٍ، فقَبِلْتَ الزَّواجَ بها[1].

عن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاءت امرأةٌ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي قد وهَبْتُ لك مِن نَفْسي. فقال رجُلٌ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٧ - ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٧١، ٣٧٢).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أحلَّ سُبحانَه لِنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن النِّساءِ أجناسًا أربعةً، ولم يجعَلْ خالِصًا له مِن دونِ المؤمِنينَ إلَّا الموهوبةَ الَّتي تهَبُ نَفْسَها للنَّبيِّ، فجعَل هذه مِن خصائِصِه؛ له أن يتزوَّجَ الموهوبةَ بلا مَهرٍ، وليس هذا لغيرِه، باتِّفاقِ المسلِمينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٣٢/ ٦٢).

وقال ابنُ القيِّم: (قولُه تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ الهِبةُ شَرطًا، ويكونَ فِعلُ الإرادةِ جوابًا له، ويكونَ التَّقديرُ: إنْ وهَبَت نفْسَها للنَّبيِّ، فإن أراد النبيُّ أن يَستَنكِحَها فخالِصةٌ له، ويحتَمِلُ أن تكونَ الإرادةُ شَرطًا والهِبةُ جوابًا له، والتَّقديرُ: إن أراد النَّبيُّ أن يَستَنكِحَها فإن وهَبَت نفْسَها فهي خالِصةٌ له. يحتَمِلُ الأمْرَينِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٦٠).

وقال ابن عثيمين: (قال تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ وهذا الشَّرطُ داخِلٌ في الشَّرطِ الأوَّلِ، وقد عُلِمَ أنَّ الشَّرطَ الثَّانيَ قَيدٌ في الشَّرطِ الأوَّلِ؛ فهو متأخِّرٌ لفظًا متقدِّمٌ معنًى، وكلَّما تداخَلت الشُّروطُ فاجعَلِ الشَّرطَ الأخيرَ قَيدًا فيما قَبْلَه... وهنا قال تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ﴾ الإرادةُ تَسبِقُ الحِلَّ والقَبولَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٧٢).

قيل: النِّسوةُ اللَّاتي وهَبْنَ أنفُسَهنَّ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أربعٌ؛ هُنَّ: ميمونةُ بنتُ الحارثِ، وزينبُ بنتُ خُزيمةَ الأنصاريَّةُ الملقَّبةُ أمَّ المساكينِ، وأمُّ شَريكٍ بنتُ جابرٍ الأسَديَّةُ أو العامريَّةُ، وخَولةُ بنتُ حكيمٍ السُّلَميَّةُ؛ فأمَّا الأُولَيانِ فتزوَّجَهما النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهما مِن أمَّهاتِ المؤمنينَ، والأُخرَيانِ لم يَتزوَّجْهما، وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٨).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٣١٥).

زوِّجْنيها. قال: قد زوَّجْناكها بما معك مِن القُرآنِ))[١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (كنتُ أغارُ على اللَّاتي وهَبْنَ أنفُسَهنَّ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأقولُ: أتهَبُ المرأةُ نَفْسَها؟! فلمَّا أنزل اللهُ تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قلتُ: ما أرى رَبَّك إلَّا يُسارِعُ في هواك[٢]!)[٣].

وعن ثابتٍ البُنانيِّ، قال: (كنتُ عندَ أنسٍ وعِندَه ابنةٌ له. قال أنَسٌ: جاءت امرأةٌ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَعرِضُ عليه نَفْسَها، قالت: يا رَسولَ اللهِ، ألكَ بي حاجةٌ؟ فقالت بنتُ أنسٍ: ما أقَلَّ حياءَها! واسَوْأَتاهْ واسَوأَتاهْ[٤]! قال: هي خيرٌ منك؛ رَغِبَتْ في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فعَرَضَت عليه نَفْسَها)[٥].

﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: أحلَّ اللهُ لك -يا محمَّدُ- خاصَّةً تزوُّجَ مَن وَهَبَت نفْسَها لك، بلا مَهرٍ ولا وَليٍّ، ولا يحِلُّ ذلك لأحَدٍ مِن أمَّتِك[٦].

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾.

أي: قد عَلِمْنا ما أوجَبْنا على المؤمِنينَ في الزَّواجِ، وعَلِمْنا أنَّ المصلحةَ تَقتَضي

---

(١) رواه البخاري (٢٣١٠) واللفظ له، ومسلم (١٤٢٥).

(٢) أي: يخفِّفُ عنك، ويوسِّعُ عليك في الأمورِ؛ ولهذا خيَّرَك. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ٤٩).

(٣) رواه البخاري (٤٧٨٨) واللفظ له، ومسلم (١٤٦٤).

(٤) السوءة: الفعلةُ القبيحةُ، والألِفُ للنُّدبةِ، والهاءُ للسَّكتِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ١٧٥).

(٥) رواه البخاري (٥١٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٢، ١٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٨، ٧٠).

ما شرَعْناه؛ فلا يكونُ إلَّا بمَهرٍ ووَليٍّ وشُهودٍ عُدولٍ، ولا يحِلُّ لهم أكثَرُ مِن أربَعِ زَوجاتٍ، ولهم مِلكُ ما شاؤوا مِنَ النِّساءِ بالسَّبْيِ، أو التَّسَرِّي، أو غيرِ ذلك مِن أسبابِ المِلْكِ[1].

﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

أي: وسَّعْنا عليك في أمرِ الزَّواجِ بالنِّساءِ -يا مُحمَّدُ-؛ لكيلا يكونَ عليك إثمٌ وضِيقٌ في نِكاحِهنَّ[2].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالمَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٨، ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٧٥، ٣٧٦).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ المؤمنينَ مُستَمِرٌّ ما شُرِعَ لهم مِن قَبلُ في أحكامِ الأزواجِ وما ملَكَت أيمانُهم؛ فلا يَشمَلُهم ما عُيِّنَ لك مِن الأحكامِ الخاصَّةِ المَشروعةِ فيما تقَدَّمَ آنِفًا، أي: قد عَلِمْنا أنَّ ما فرَضْناه عليهم في ذلك هو اللَّائِقُ بحالِ عُمومِ الأمَّةِ دونَ ما فرَضْناه لك خاصَّةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٨٤، ٣٨٥).

قيل: قَولُه تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ تعليلٌ لِقَولِه سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ...﴾ الآيةَ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٤).

وقيل: هو تعليلٌ لِقَولِه تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وممَّن قال بهذا: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٨٤).

ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، ومُتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالرَّحمةِ بعبادِه، فيُحسِنُ إليهم ويُنعِمُ عليهم مِن فَضلِه[١].

﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه أحَلَّ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما ذُكِر مِنَ الأزواجِ؛ بيَّنَ أنَّه أحلَّ له وُجوهَ المُعاشَرةِ بهِنَّ كيفَ يَشاءُ، ولا يجِبُ عليه القَسْمُ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى هاتين الصِّفَتينِ ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أتْبَعَهما ما خفَّفَه عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أمرِهنَّ؛ إكرامًا له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممَّا كان مِن شأنِه أن يتحَمَّلَ فيه، ويتحَرَّجَ عن فِعلِه[٣]؛ فهو مِن توسِعةِ اللهِ على رَسولِه ورَحمتِه به؛ أنْ أباح له تَرْكَ القَسْمِ بينَ زوجاتِه على وَجهِ الوُجوبِ[٤].

﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾.

أي: تُؤخِّرُ -يا مُحمَّدُ- مَن أُحِلَّ لك مِنَ النِّساءِ، وتَضُمُّ إليك مَن تَشاءُ مِنهُنَّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٣، ٣٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٢ - ٧٤). =

= قيل: المعنى المرادُ: هو أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مُخيَّرًا في أزواجِه؛ إن شاء أن يَقسِمَ قَسَم، وإن شاء أن يترُكَ القَسْمَ تَرَك. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وابنُ العربي، والقرطبيُّ، والسعديُّ، ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ إلى أكثَرِ العلماءِ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٧٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) ((٣/ ٤٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، والحسَنُ، وقَتادةُ، وأبو رَزِينٍ، والضَّحَّاكُ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٦).

وقيل: المرادُ: تؤخِّرُ مَن تشاءُ مِن الواهباتِ أنفُسَهنَّ، ومَن شِئتَ قَبِلْتَها، ومَن شِئتَ رَدَدْتَها، ومَن ردَدْتَها فأنت فيها أيضًا بالخيارِ بعدَ ذلك، إنْ شِئتَ عُدْتَ إليها فآوَيْتَها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٥، ٤٤٦).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى العُمومِ في الواهباتِ وفي النِّساءِ اللَّاتي عندَه: أنَّه مُخَيَّرٌ فيهِنَّ؛ إن شاء قسَمَ، وإن شاء لم يَقسِمْ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٣).

واستحسَنَ ابنُ كثيرٍ اختيارَ ابنِ جريرٍ، فقال: (اختار ابنُ جريرٍ أنَّ الآيةَ عامَّةٌ في الواهباتِ وفي النِّساءِ اللَّاتي عندَه: أنَّه مُخَيَّرٌ فيهِنَّ؛ إن شاء قسَمَ، وإن شاء لم يَقسِمْ، وهذا الَّذي اختاره حَسَنٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ، وفيه جمعٌ بيْنَ الأحاديثِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩٤، ٣٩٥).

وذهب ابنُ عاشور إلى أن ضمير ﴿مِنْهُنَّ﴾ عائدٌ إلى النِّساءِ المذكوراتِ: أمَّا مَن هنَّ في عصمتِه، فإرجاؤُهنَّ ينصرِفُ إلى القَسْمِ. وأمَّا مَلَكَتْ يمينُه فإرجاؤُهنَّ هو حكمٌ أصليٌّ إذ لا يجبُ للإماءِ عدلٌ في المعاشرةِ ولا في المبيتِ.

وأمَّا مَن أحلَّ الله له نكاحَهنَّ غيرَهنَّ مِن بناتِ عمِّه وعمَّاتِه وخالِه وخالاتِه، فإرجاؤُهنَّ تأخيرُ تزوُّجِ مَن يَحِلُّ منهنَّ، وإيواؤُهنَّ العقدُ على إحداهنَّ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يتزَوَّجْ واحدَةً بعدَ نزولِ هذه الآيةِ، وذلك إرجاءُ العملِ بالإذْنِ فيهنَّ إلى غيرِ أجلٍ مُعيَّنٍ. وأمَّا الواهباتُ أنفسَهنَّ، فإرجاؤُهنَّ عدمُ قبولِ نكاحِ الواهبةِ، وإيواؤُهنَّ قبولُ هِبَتِهنَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٢).

وقال ابنُ الجوزي: (في معنى الآيةِ أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: تُطَلِّقُ مَن تشاءُ مِن نسائِك، وتُمسِكُ مَن تشاءُ مِن نسائِك. قاله ابنُ عبَّاسٍ. والثَّاني: تتركُ نِكاحَ مَن تشاءُ، وتَنكِحُ مِن نساءِ أمَّتِك مَن =

عن مُعاذةَ العَدَويَّةِ، عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَستأذِنُ في يومِ المرأةِ منَّا بعدَ أن أُنزِلَت هذه الآيةُ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، فقلتُ لها: ما كُنتِ تَقولينَ؟ قالت: كُنتُ أقولُ له: إنْ كان ذاك إلَيَّ فإنِّي لا أُريدُ -يا رَسولَ اللهِ- أن أُوثِرَ عليك أحَدًا!))[1].

﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

أي: فإنْ عَزَلْتَ بالإرجاءِ إحداهنَّ -كما لو كان بطَلاقٍ أو رَدِّ هِبةٍ مَثلًا- ثمَّ رَغِبْتَ فيها؛ فلا بأسَ ولا إثمَ عليك في إيوائِها بعدَ ذلك، سواءٌ كان ذلك بقَبولِ هِبتِها نَفْسَها له، أو برَدِّها إلى ما كانت عليه مِنَ النِّكاحِ أو القَسْمِ إن كانت مِن زَوجاتِه؛ فاختيارُك السَّابِقُ غَيرُ مُلزِمٍ لك، بل الأمرُ راجِعٌ إلى اختيارِك ورَغبتِك في ذلك[2].

= تشاءُ. قاله الحسَنُ. والثَّالثُ: تَعزِلُ مَن شِئتَ مِن أزواجِك فلا تأتيها، بغيرِ طلاقٍ، وتأتي مَن تشاءُ فلا تَعزِلُها. قاله مجاهِدٌ. والرَّابعُ: تَقْبَلُ مَن تشاءُ مِن المؤمناتِ اللَّواتي يَهَبْنَ أنفُسَهنَّ، وتترُكُ مَن تشاءُ. قاله الشَّعْبيُّ، وعِكْرِمةُ. وأكثَرُ العُلماءِ على أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ مُبيحةً لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُصاحَبةَ نِسائِه كيف شاء، مِن غيرِ إيجابِ القِسمةِ عليه، والتَّسويةِ بيْنَهُنَّ، غيرَ أنَّه كان يُسَوِّي بينَهنَّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٧٦).

وقال ابنُ عاشور: (اتَّفق الرُّواةُ على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَستعمِلْ مع أزواجِه ما أُبيحَ له؛ أخذًا منه بأفضَلِ الأخلاقِ، فكان يَعدِلُ في القَسْمِ بيْنَ نسائِه، إلَّا أنَّ سَوْدةَ وهَبَتْ يومَها لعائشةَ؛ طَلبًا لِمَسَرَّةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٤).

وقال ابنُ جُزي: (والضَّميرُ في قَولِه ﴿مِنْهُنَّ﴾: يعودُ على أزواجِه -صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّمَ- خاصَّةً، أو على كلِّ ما أحَلَّ اللهُ له، على حَسَبِ الخلافِ المتقَدِّمِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٦).

(١) رواه البخاري (٤٧٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٥٣)، ((تفسير =

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (لَمَّا أنزَل الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قُلتُ: ما أرى رَبَّك إلَّا يُسارِعُ في هواك!)[1].

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾.

أي: ذلك[2] .....

= القرطبي)) (١٤/ ٢١٥، ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩٤، ٣٩٥).

(١) رواه البخاري (٤٧٨٨) واللفظ له، ومسلم (١٤٦٤).

(٢) قال ابنُ عاشور: (الإشارةُ إلى شَيءٍ ممَّا تقَدَّم وهو أقربُه، فيجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى معنَى التَّفويضِ المستفادِ مِن قولِه: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾، ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى الابتغاءِ المتضمِّنِ له فِعلُ ابتغَيْتَ، أي: فلا جناحَ عليك في ابتغائِهنَّ بعدَ عزلِهنَّ ذلك أدنَى لأنْ تَقَرَّ أعيُنُهنَّ... فعلى الأوَّلِ يكونُ المعنَى أنَّ في هذا التَّفويضِ جَعَل الحقَّ في اختيارِ أحدِ الأمْرينِ بيدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولم يُبْقِ حقًّا لهنَّ، فإذا عَيَّنَ لإحداهنَّ حالةً مِن الحالينِ رَضِيَتْه به... وعلى الوجهِ الثَّاني يكونُ المعنَى: ذلك الابتغاءُ بعدَ العزلِ أقربُ لأنْ تَقَرَّ أعينُ اللَّاتي كنتَ عزَلْتَهنَّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٥).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: ذلك التَّخييرُ الَّذي خيَّرْناك والتَّفويضُ إلى مشيئتِك: الواحديُّ، والرَّسْعَني، والعُلَيمي، والشوكاني.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٨١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٧).

وقال ابن جرير: (هذا الَّذي جعلْتُ لك يا محمَّدُ مِن إذْني لك أن تُرجيَ مَن تشاءُ مِن النِّساءِ اللَّواتي جعلْتُ لك إرجاءَهن، وتُؤْوي مَن تشاءُ منهنَّ، ووضْعي عنك الحَرَجَ في ابتغائك إصابةَ مَن ابتغَيْتَ إصابتَه مِن نسائك، وعزلِك عن ذلك مَن عزَلْتَ منهنَّ- أقرَبُ لنسائك أن تقَرَّ أعينُهنَّ به، ولا يحزَنَّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٥).

وقال الألوسي: (أي: تفويضُ الأمرِ إلى مشيئتِك أقرَبُ إلى قُرَّةِ عيونِهنَّ، وسرورِهنَّ، ورضاهنَّ جميعًا؛ لأنَّه حُكمٌ كلُّهنَّ فيه سواءٌ، ثمَّ إنْ سوَّيْتَ بيْنَهنَّ وجَدْنَ ذلك تفضُّلًا منك، وإن رجَّحْتَ =

-يا مُحمَّدُ- هو أقرَبُ لِأنْ يَفرَحْنَ ولا يَحزَنَّ(١).

﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾.

أي: وأقرَبُ لِأنْ يَرضَينَ كُلُّهنَّ بما أعطَيتَهنَّ -يا مُحمَّدُ(٢).

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

أي: واللهُ يَعلَمُ كلَّ ما تُضمِرونَه في قُلوبِكم، ومِن ذلك أمورُ النساءِ، والمَيلُ

= بعضَهنَّ عَلِمْنَ أنَّه بحُكم الله تعالى؛ فتطمئِنُّ به نفوسُهنَّ، وُرويَ هذا عن قَتادةَ، والمرادُ ﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ عليه: ما صنَعْتَ معهنَّ، فيَتناولُ ترْكَ المُضاجَعةِ والقَسْم. وعن ابنِ عبَّاسٍ ومجاهدٍ أنَّ المعنى: أنهنَّ إذا عَلِمْنَ أنَّ لك ردَّهن إلى فِراشك بعدَ ما اعتزلتَهُنَّ قرَّتْ أعينُهن، ولم يَحْزَنَّ، ويَرْضَيْنَ بما تفعلُه مِن التَّسويةِ والتَّفضيلِ؛ لأنهنَّ يَعلمْنَ أنَّك لم تُطلِّقْهنَّ، وظاهرُه جعْلُ المشارِ إليه العِلمُ بأنَّ له صلَّى الله عليه وسلَّم الإيواءَ، وأظهرُ منه ...: ذلك العِلمُ منهنَّ بأنَّك إذا عزَلْتَ واحدةً كان لك أن تُؤويَها بعدَ ذلك أدْنَى لسُرورهِنَّ وقُرَّةِ أعيُنِهنَّ.

وقال بعضُ الأجِلَّةِ: كَوْنُ الإشارةِ إلى التَّفويضِ أنسَبُ لفظًا؛ لأنَّ ذلك للبعيدِ، وكَوْنُها إلى الإيواءِ أنسَبُ معنًى؛ لأنَّ قُرَّةَ عيونِهنَّ بالذَّاتِ إنَّما هي بالإيواءِ). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩٦، ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٦).

قيل: المعنى: يَرضَيْنَ بما آتيتَهنَّ كُلُّهنَّ مِن تفضيلِ مَن فضَّلْتَ مِن قَسْمٍ أو نَفَقةٍ، وإيثارِ مَن آثرْتَ منهنَّ بذلك على غَيرِها مِن نسائك، إذا هنَّ عَلِمنَ أنَّه مِن رضايَ منك بذلك، وإذْني لك به، وإطلاقٍ منِّي لا مِن قِبَلِك. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٦). ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (في قَولِه: ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ المرادَ الرِّضا الَّذي يَتساوَينَ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٦).

إلى بَعضِهنَّ دونَ بَعضٍ[١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ واسِعُ العِلمِ بأعمالِ عِبادِه وضَمائِرِهم، وبما يَصلُحُ لهم مِنَ الشَّرائعِ والأحكامِ، وبغيرِ ذلك؛ فلا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه، وهو كثيرُ الحِلمِ على عِبادِه؛ فلا يُعاجِلُهم بمُؤاخَذتِهم على ذُنوبِهم[٢].

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبًا ٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا لم يُوجِبِ اللهُ على نَبيِّه القَسْمَ، وأمَرَه بتَخييرِهنَّ، فاختَرْنَ اللهَ ورَسولَه؛ ذكَرَ لَهنَّ ما جازاهنَّ به مِن تحريمِ غَيرِهنَّ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومَنْعِه مِن طَلاقِهنَّ[٣].

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩٧-٣٩٨).
قال ابنُ جرير: (يقولُ: فلِذلك وَضَعَ عنك الحَرجَ -يا محمَّدُ- فيما وَضَعَ عنك من ابتغاءِ مَن ابتغيتَ مِنهنَّ ممَّن عزَلْتَ؛ تفضُّلًا منه عليك بذلك وتَكرمةً). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٦).
وقال السعدي: (﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ أي: ما يَعرِضُ لها عند أداءِ الحُقوقِ الواجبةِ والمُستحبَّة، وعند المزاحمةِ في الحُقوقِ؛ فلذلك شرع لك التَّوسِعةَ يا رَسولَ الله، لِتَطمئِنَّ قُلوبُ زَوجاتِك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٧).

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

قيل: إنَّ هذه الآيةَ مُحكَمةٌ ولا نَسْخَ فيها(١).

وقيل: إنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ، واختُلِف في النَّاسِخ؛ فقيل: مَنسوخةٌ بالآيةِ الَّتي قَبْلَها، وهي قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ...﴾ [الأحزاب: ٥٠]. وقيل: مَنسوخةٌ بقولِه سُبحانه: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: ٥١]. وقيل: مَنسوخةٌ بالسُّنَّةِ، وليس في القرآنِ ما يُوجِبُ نَسْخَها(٢).

---

(١) وهو قَولُ أُبَيِّ بنِ كَعبٍ، والحَسَنِ، وابنِ سيرينَ، واختاره ابنُ جريرٍ، واستظهره أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٦).

قال السخاوي: (وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ زعَم قومٌ أنَّه منسوخٌ، واختلَفوا في ناسِخه؛ فقال قومٌ: نُسِخَتْ بالسُّنَّة... وقيل: النَّاسخُ قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، قالوا: هي مِن الأعاجيبِ؛ نَسْخُها بآيةٍ قبْلَها في النَّظم! وقيل: نُسِخَتْ بقولِه عزَّ وجلَّ قبْلَها: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: ٥١]. وهذا القولُ إنَّما يقولُه مَن قاله ظنًّا، ألا تَرى اختِلافَ القَولَين في النَّاسِخ ما هو؟! وإنَّما حمَلَهم على ذلك ما ظنُّوه مِن التَّعارُض، ولا تَعارُضَ؛ لأنَّ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ لا يُعارِضُ قولَه سُبحانَه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾، ولا قَولَه عزَّ وجلَّ: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾؛ لأنَّ قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ وقولَه تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ في نِسائِه اللَّاتي كُنَّ في عِصمتِه، فكيف يكونُ ذلك ناسخًا لقولِه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾؟!). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (ص: ٤٤٨).

(٢) والقَولُ بنَسخِها مَرْويٌّ عن عائشةَ، وأمِّ سَلَمةَ، وعليِّ بنِ أبي طالبٍ، وعليِّ بنِ الحُسَينِ، واختاره الجَصَّاصُ، وابنُ حَزمٍ، واستظهره ابنُ جُزَي، ورجَّحه الشَّوكاني. يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٤٨٢)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٥١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٧، ٣٣٨). =

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ ﴾.

أي: لا يَحِلُّ لك الزَّواجُ بالنِّساءِ -يا مُحمَّدُ- مِن بَعدُ[1].

= قال ابنُ كثيرٍ: (ثمَّ إنَّه تعالى رفَع عنه الحَجْرَ في ذلك، ونسَخ حُكمَ هذه الآيةَ، وأباح له التَّزَوُّجَ، ولكنْ لم يقَعْ منه بعدَ ذلك تزَوُّجٌ؛ لِتكونَ المِنَّةُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ عليهِنَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٧).

وقال النَّحَّاسُ: (في هذه الآيةِ أقوالٌ: فمنها... عن عائشةَ قالت: «ما مات رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى أُحِلَّ له النِّساءُ». وقال الحسَنُ: «لَمَّا خَيَّرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أزواجَه فاختَرْنَه، شكر اللهُ جَلَّ وعَزَّ لهنَّ ذلك؛ فحَرَّم على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَتزوَّجَ غَيرَهنَّ، أي: فامتحَنَه بذلك كما امتحنَهنَّ». وقال عليُّ بنُ الحُسَينِ: «قد كان له أن يتزوَّجَ».

هذه الثَّلاثةُ الأقوالِ غيرُ متناقضةٍ؛ فقولُ عائشةَ: «ما مات رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى أُحِلَّ له النِّساءُ» إسنادُه جيِّدٌ، ويُتأوَّلُ على أنَّه ناسِخٌ للحظرِ،... وقولُ عليِّ بنِ الحُسَينِ عليه السَّلامُ يجوزُ أن يكونَ يرجِعُ إلى قولِ عائشةَ، وإن كان قد أنكر قولَ الحسَنِ؛ فإن الحسَنَ لم يذكُرْ أنَّ الآيةَ منسوخةٌ؛ فيجوزُ أن يكونَ أنكَرَه مِن هذه الجِهةِ، وتكونَ الآيةُ عندَه منسوخةً). ((معاني القرآن)) (٥/ ٣٦٧، ٣٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ٦٤، ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٧، ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠).

قيل: المعنى: لا يحِلُّ لك النِّساءُ بعدَ اللَّواتي أحلَلْتُهنَّ لك مِن أزواجِك اللَّاتي آتَيْتَ أجورَهنَّ، وما ملكَتْ يمينُك، وبناتِ عمِّك وبناتِ عمَّاتِك، وبناتِ خالِك وبناتِ خالاتِك، ومَن تهَبُ نَفْسَها لك مِن المؤمناتِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبي، وابنُ تيميَّةَ، واستحسنه ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ٦٤، ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أُبَيُّ بنُ كعبٍ، وأبو صالحٍ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه، وأبو رَزِينٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٧).

قال ابن كثير: (اختار ابنُ جريرٍ رحمه الله أنَّ الآيةَ عامَّةٌ فيمَن ذُكِرَ مِن أصناف النِّساءِ، وفي =

﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾.

أي: ولا يحِلُّ لك أن تُطَلِّقَ واحِدةً مِن أزواجِك؛ لِتَتزوَّجَ بأُخرى، ولو أعجبَك جمالُها[1].

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾.

أي: لا يحِلُّ لك إلا نِكاحُ مَن شِئتَ مِن النِّساءِ اللَّاتي تَملِكُهنَّ[2].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾.

أي: وكان اللهُ على كُلِّ شَيءٍ حافِظًا ومُراقِبًا؛ لا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه، وقائِمًا بتَدبيرِ كُلِّ شَيءٍ على أكمَلِ نِظامٍ، وأحسَنِ إحكامٍ[3].

= النِّساءِ اللَّواتي في عِصمتِه، وكُنَّ تِسعًا. وهذا الذي قاله جيِّدٌ، ولعلَّه مُرادُ كثيرٍ ممَّن حكَيْنا عنه مِن السَّلفِ؛ فإنَّ كثيرًا منهم رُوِيَ عنه هذا وهذا، ولا منافاةَ. والله أعلمُ. ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٩).

وقيل: المعنى: لا يحلُّ لك النِّساءُ مِن بَعدِ أزواجِك التِّسعِ اللَّاتي عندَك، أي: لا يحلُّ لك أن تَزيدَ عليهنَّ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشري، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٧، ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٢ - ١٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٩).

قال ابنُ عثيمين: (قولُه: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ يَشمَلُ الحُسنَ الظَّاهِرَ، والحُسنَ الباطِنَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٩)، ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ﴾، قولُه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: مِن بعدِ النِّساءِ اللَّاتي نصُّ إحلالِهنَّ لك في الآيةِ قَبلُ -على أحدِ القَولَينِ في التَّفسيرِ-، وانظُرْ إلى تكريمِه تعالى لنبيِّه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه؛ حيثُ لم يقُلْ له: (وحرَّم عليك ما وراءَ ذلك) كما خاطَبَ المؤمنينَ بنَظيرِه؛ لِتَعلَمَ كيف يَتفاوَتُ النَّاسُ بالخِطابِ تفاوُتَهم في رفيعِ الدَّرَجاتِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ أنَّ اللهَ تعالى فَرَضَ علينا فرائِضَ في أزواجِنا علينا مُراعاتُها، وكذلك نقولُ في مِلْكِ اليَمينِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَيٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَ﴾ أنَّه ينبغي مُراعاةُ المؤمنِ بإدخالِ السُّرورِ عليه، ونَفْيِ الحُزنِ عنه[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا﴾ فيَجِبُ أن يُتَّقى؛ لعِلمِه وحِلمِه؛ فعِلمُه مُوجِبٌ للخَوفِ منه، وحِلمُه مُقتَضٍ للاستحياءِ منه، وأخْذُ الحَليمِ شديدٌ؛ فينبغي لعبدِه المحِبِّ له أن يَحلُمَ عمَّن يَعلَمُ تَقصيرَه في حَقِّه؛ فإنَّه سُبحانَه يأجُرُه على ذلك بأن يَحلُمَ عنه فيما عَلِمَه منه، وأن يَرفَعَ قَدْرَه، ويُعليَ ذِكرَه[٤].

= الشوكاني)) (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٧).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ تحذيرٌ عن مُجاوَزةِ حُدودِه، وتخطِّي حَلالِه وحَرامِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أنَّه لا بُدَّ في النِّكاحِ مِن المَهرِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ...﴾ ذُكِرَ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما هو الأَولى؛ فإنَّ الزَّوجةَ الَّتي أُوتِيَت مَهْرَها أطيَبُ قَلبًا مِن الَّتي لم تُؤتَ، والمملوكةَ الَّتي سباها الرَّجُلُ بنَفْسِه أطهَرُ مِن الَّتي اشتراها الرَّجُلُ؛ لأنَّها لا يُدرَى كيفَ حالُها، ومَن هاجَرتْ مِن أقاربِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ معه أشرَفُ ممَّن لم تُهاجِرْ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ عامٌّ يَشملُ ما مَلَكْتَه مِن الكِتابيَّاتِ، وما مَلَكْتَه مِن غيرِهنَّ، ولا دليلَ على التَّقييدِ بالكتابيَّةِ[٤].

٤- قَال تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ ﴿يَمِينُكَ﴾ ويداك وما أشبهَ ذلك يُعبَّرُ بها عن الذَّاتِ؛ لأنها غالبًا وسيلةُ الأخذِ والإعطاءِ، فقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ أي: مما مَلَكْتَ، ففيه صِحَّةُ إضافةِ الشَّيءِ إلى بعضِه، وهذا كثيرٌ في القرآنِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقولُه تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ [النساء: ٩٢]؛ فإنَّ الإنسانَ لا يُحرِّرُ الرَّقَبةَ وحْدَها، بل يُحرِّرُ كُلَّ العَبدِ[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ فيه إشارةٌ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٨٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٦٨، ٣٨٨).

ما خَصَّ اللهُ تعالى به نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن تحليلِ ما كان حَظَرَه على مَن كان قَبْلَه مِن الغَنائِم[١].

٦- المحرَّماتُ بالنَّسَبِ: الضَّابِطُ فيه أنَّ جميعَ أقارِبِ الرَّجُلِ مِن النَّسَبِ حرامٌ عليه إلَّا بناتِ أعمامِه وأخوالِه، وعمَّاتِه وخالاتِه، وهذه الأصنافُ الأربعةُ هنَّ اللَّاتي أحلَّهنَّ اللهُ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بقَولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠] الآيةَ؛ فأحَلَّ سُبحانَه لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ النِّساءِ أجناسًا أربعةً، ولم يجعَلْ خالِصًا له مِن دونِ المؤمِنينَ إلَّا المَوهوبةَ الَّتي تهَبُ نَفْسَها للنَّبيِّ[٢]، فالآيةُ فيها حَصرُ المحلَّلاتِ، يؤخَذُ مِن مَفهومِه: أنَّ ما عداهنَّ مِن الأقارِبِ غَيرُ مُحلَّلٍ، كما تقدَّمَ في سورةِ (النِّساءِ)؛ فإنَّه لا يُباحُ مِن الأقاربِ مِن النِّساءِ غَيرُ هؤلاءِ الأربَعِ. وما عداهُنَّ مِن الفُروعِ مُطلقًا، والأصولِ مُطلقًا، وفُروعِ الأبِ والأمِّ وإن نَزَلوا، وفُروعِ مَن فَوقَهم لصُلبِه: فإنَّه لا يُباحُ[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ دلَّ وَصفُ ﴿وَٱمۡرَأَةً﴾ بأنَّها مؤمنةٌ على أنَّ المرأةَ غيرَ المُؤمِنةِ لا تحِلُّ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بهِبةِ نَفْسِها[٤].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٠).

خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دلَّ وَصفُ ﴿وَٱمْرَأَةً﴾ بأنَّها مُؤمِنةٌ -بدَلالةِ لحنِ الخِطابِ[1]- على أنَّه لا يحِلُّ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تزوُّجُ الكتابيَّاتِ، بَلْهَ المُشرِكاتِ[2].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ذُكِرَ وَصفُ النُّبوَّةِ؛ لأنَّه مَدارُ الإكرامِ مِن الخالقِ، والمحبَّةِ مِن الخلائِقِ؛ تَشريفًا له به، وتعليقًا للحُكمِ بالوَصفِ؛ لأنَّه لو قال: (إن وهَبتْ نفسَها لك) كان رُبَّما وقَعَ في بعضِ الأوهامِ أنَّه غيرُ خاصٍّ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3]. فالآيةُ فيها أنَّ التَّخصيصَ بالحُكمِ لا بُدَّ أنْ يكونَ له عِلَّةٌ تقتضي تخصيصَ ذلك المحكومِ عليه أو له؛ فإنَّ العِلَّةَ في ذلك أنَّه نَبيٌّ، وهذه العِلَّةُ لا تكونُ للمُؤمنينَ[4].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه مِن خَصائِصِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: النِّكاحُ بلَفظِ الهِبةِ، وبلا مَهرٍ ولا وَليٍّ. وليس ذلك لِغَيرِه[5].

---

(١) لحنُ الخِطابِ: هو إفهامُ الشَّيءِ مِن غيرِ تصريحٍ، وهذا معناه لُغةً، والمرادُ به هنا: مفهومُ المُخالَفةِ، وهو إثباتُ نقيضِ حُكمِ المَنطوقِ به للمَسكوتِ عنه، ويُطلَقُ لحنُ الخِطابِ أيضًا على دَلالةِ الاقتضاءِ، وعلى مفهومِ الموافَقةِ. يُنظر: ((الإشارة في معرفة الأصول والوجازة في معنى الدليل)) للباجي (ص: ٢٨٨)، ((نفائس الأصول في شرح المحصول)) للقَرافي (٢/ ٦٤١)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٣١).
واختلَفوا: هل للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ نِكاحُ الكتابيَّةِ أم لا؟ على قولَينِ. يُنظر: ((الحاوي الكبير)) للماوَرْدي (٩/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨١، ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٢). =

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾ الرَّدُّ على الجَبْرِيَّةِ؛ حيث أثبتَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إرادةً، والجَبْرِيَّةُ لا يُثبِتونَ إرادةً للإنسانِ؛ يقولونَ: إنَّه مُجبَرٌ على عَمَلِه[١]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أنَّ ما ثَبَتَ في حقِّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن الأحكامِ ثَبَتَ في حَقِّ الأُمَّةِ إذا لم يُخَصَّصْ. هذا مذهَبُ السَّلَفِ والفُقَهاءِ[٢].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فائدتُه أنَّ الكُفَّارَ وإن كانوا مُخاطَبينَ بفُروعِ الشَّريعةِ على قولٍ، فليس لهم في ذلك دُخولٌ؛ لأنَّ تصريفَ الأحكامِ إنَّما يكونُ فيهم على تقديرِ الإسلامِ[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞ﴾ عنايةُ اللهِ تعالى برسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، ولُطْفُه به؛ حيث أحَلَّ له ما يَزولُ به عنه الحَرَجُ[٤].

= أما النِّكاحُ بلَفظِ الهِبةِ -معَ استيفاءِ شروطِه وأركانِه- فذهَبَ الشَّافعيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّه لا يَنعقِدُ، وذهب الحنفيَّةُ إلى أنَّه يَنعقِدُ، وكذلك المالكيَّةُ بشرطِ أن يُسَمِّيَ صَداقًا، وإلَّا فلا. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٤١/ ٢٣٤).

وذهب ابنُ عثيمين إلى أنَّ النِّكاحَ بلَفظِ الهِبةِ يَصِحُّ، قال: (لأنَّ العِلَّةَ: ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أنَّه يَتزوَّجُ بدونِ مَهْرٍ، وليس العِلَّةُ اللَّفظَ، بل العِلَّةُ أنْ يكونَ الزَّواجُ بدونِ مَهرٍ، فهذا هو الَّذي يكونُ خاصًّا بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أمَّا لَفظُ الهبةِ فإنَّه قد جاء في أحدِ ألفاظِ حديثِ سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنه في الواهبةِ نفْسَها أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال للرَّجُلِ: «ملَّكْتُكَها بما معكَ مِن القرآنِ»، وهذا أحدُ ألفاظِ البُخاريِّ رحمه اللهُ، وهذا يدُلُّ على جوازِ عَقْدِ النِّكاحِ بمِثلِ هذا اللَّفظِ). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩١).

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ ذُكِرَ هذا؛ لِئَلَّا يَحمِلَ واحِدٌ مِن المؤمنينَ نَفْسَه على ما كان للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّ له في النِّكاحِ خصائِصَ ليست لغيرِه، وكذلك في السَّراريِّ[(١)].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ فيه مِن خَصائِصِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: عدَمُ وُجوبِ القَسْمِ عليه[(٢)].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أنَّه يجوزُ للإنسانِ أنْ يَرْجِعَ في حقِّه بعدَ إسقاطِه -هذا إذا كان الحقُّ متجدِّدًا-، أمَّا إذا كان الحقُّ غيرَ متجدِّدٍ؛ فإنَّ الإنسانَ إذا أسْقَطَه لا يَمْلِكُ الرُّجوعَ فيه[(٣)].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم داخِلٌ في التَّكليفِ؛ لأنَّ نَفْيَ الوَصفِ عن شَيءٍ ما يدُلُّ على إمكانِ اتِّصافِه به؛ إذْ لو كان مُنتَفيًا مِن الأصلِ ما احتِيجَ إلى نَفْيِه؛ فدلَّ هذا على أنَّه يُمكِنُ أنْ يكونَ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم جُناحٌ، وهذا دليلٌ على تَكليفِه بأحكامِ الرِّسالةِ[(٤)].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾، وقولِه: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ إثباتُ العِلَلِ والحِكَمِ للأحكامِ؛ حيث إنَّ الأحكامَ مربوطةٌ بعِلَلِها وحِكَمِها. وإثباتُ الحِكَمِ في أحكامِ اللهِ سبحانه وتعالى الكونيَّةِ والقَدَريَّةِ: كثيرةٌ جدًّا، وكُلُّها تَرُدُّ أيضًا على الجَبْريَّةِ؛ لأنَّ الجَبْريَّةَ يَرون أنَّ أفعالَ اللهِ سُبحانَه وتعالى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٠).

وأحكامَه غيرُ مُعَلَّلةٍ، وأنَّه تعالى يَفعَلُ لا لِعِلَّةٍ وحِكمةٍ، بل لِمُجَرَّدِ المَشيئةِ[١]!

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ مُراعاةُ قلوبِ زوجاتِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإدخالُ السُّرورِ عليهنَّ؛ فإنَّ في هذا مراعاةً لقلوبِ هؤلاءِ النِّساءِ حتَّى تَقَرَّ أعينُهُنَّ[٢].

٢١- أنَّ ما في القلبِ ممَّا لا يَملِكُه الإنسانُ لا يُؤاخَذُ عليه؛ لأنَّه لَمَّا ذَكَر أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم مُخَيَّرٌ، قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ يعني: مِن الشَّيءِ الَّذي لا تَملِكونَه؛ ولهذا لا يَحرُمُ على الإنسانِ أنْ يُفَضِّلَ إحدَى نسائِه على الأُخرَى في المحبَّةِ؛ لأنَّ المحبَّةَ محلُّها القَلبُ، ولا يمكِنُ للإنسانِ أنْ يُسَلِّطَ قَلبَه ويُسَخِّرَه حتَّى يُحِبَّ ويَكرَهَ[٣]!

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أنَّ التَّكليفَ لا يمكِنُ أنْ يَسقُطَ عن أحدٍ مهما بَلَغَتْ مَنزلتُه في الدِّينِ؛ فيَكونُ في ذلك رَدٌّ على أولئك الَّذين يَزعُمونَ أنَّ الأولياءَ إذا بلَغوا مرتبةً مِن المراتبِ سَقَطَ عنهم التَّكليفُ؛ لأنَّنا نعلمُ أنَّ أعلَى دَرَجاتِ الخَلْقِ عندَ الله تعالى هم الأنبياءُ والرُّسُلُ عليهم السَّلامُ، وأنَّ أعلاهم محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإذا كان هو مَحَلًّا للتَّكليفِ، فمَنْ دونَه مِن بابِ أَولى[٤].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ أنَّه لا يجوزُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُطَلِّقَ أحدًا مِن نسائِه ليتزَوَّجَ غيرَها[٥]، والحكمةُ أنهنَّ لَمَّا لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١٢).

يَختَرْنَ عليه غيرَه؛ أُمِر بمكافأتِهنَّ في التَّمسُّكِ بنكاحِهنَّ[١].

٢٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ فيه دليلٌ على جوازِ أن ينظُرَ الرَّجُلُ إلى مَن يريدُ زواجَها[٢]؛ لأنَّ النَّظرةَ الأولى لا تكادُ تُثبِتُ ما عليه المرئيُّ مِن حاقِّ الوَصفِ[٣].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كغيرِه مِن البشَرِ؛ يُعجِبُه حُسْنُ النِّساءِ الظَّاهرُ والباطِنُ[٤].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ جوازُ تَزَوُّجِ الرَّجُلِ المرأةَ لحُسْنِها، ويؤيِّدُ هذا قولُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((تُنْكَحُ المرأةُ لأربعٍ: لِمالِها، وحَسَبِها، وجمالِها، ودِينِها؛ فاظفَرْ بذاتِ الدِّينِ))[٥].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ أنَّ الوَطْءَ بمِلْكِ اليَمينِ أهوَنُ على المرأةِ مِن الوَطْءِ بالزَّواجِ؛ ولهذا أباحَ اللهُ سُبحانَه وتعالى للإنسانِ ألَّا يَعْدِلَ بيْنَ سَراريِّه؛ لأنَّ الغَيرةَ بيْنَهنَّ ليست كالغَيرةِ بينَ الزَّوجاتِ[٦].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ تفضيلُ اليمينِ على الشِّمالِ؛ حيثُ نَسَبَ الملكيَّةَ إليها دونَ الشِّمالِ! ولم يُعَبِّرْ باليدِ الشِّمالِ عن الذاتِ أبدًا؛ ولكنْ عَبَّرَ بالأيدي عمومًا وعَبَّرَ باليمينِ، وأمَّا التَّعبيرُ بالشِّمالِ فلمْ يَرِدْ[٧].

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤١٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث رواه البخاريُّ (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤١٢).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾

- قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لاختِصاصِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالأطيَبِ الأزْكَى بعْدَ أنْ خيَّرَ نِساءَه فاختَرْنَه، وهو خبرٌ مُرادٌ به التَّشريعُ. ودُخولُ حَرْفِ (إنَّ) عليه لا يُنافي إرادةَ التَّشريعِ؛ إذ مَوقعُ (إنَّ) هنا لِمُجرَّدِ الاهتِمامِ، والاهتمامُ يُناسِبُ كُلًّا مِن قَصدِ الإخبارِ وقَصْدِ الإنشاءِ؛ ولذلك عُطِفَت على مَفعولِ ﴿أَحۡلَلۡنَا﴾ مَعطوفاتٌ قُيِّدَت بأَوصافٍ لم يَكُنْ شَرْعُها مَعلومًا مِن قبْلُ؛ وذلك في قولِه: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ وما عُطِفَ عليه، باعتبارِ تَقييدِهنَّ بوَصفِ ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾، وفي قولِه: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا﴾ باعتبارِ تَقييدِها بوَصفِ الإيمانِ، وتَقييدِها بـ ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ و﴿أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾[1].

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ إضافةُ (أزواج) إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تُفيدُ أنَّهنَّ الأزواجُ اللَّاتي في عِصمتِه؛ فيَكونُ الكلامُ إخبارًا لِتَقريرِ تَشريعٍ سابقٍ، ومَسوقًا مَساقَ الامتِنانِ، ثمَّ هو تَمهيدٌ لِمَا سَيَتْلوهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٤).

مِن التَّشريعِ الخاصِّ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن قولِه: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ إلى قولِه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾[1] [الأحزاب: ٥٢].

- قولُه: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ الوَصْفانِ ببَناتِ عمِّه وعمَّاته وبَناتِ خالِه وخالاته وبأنَّهنَّ هاجرْنَ معه؛ غيرُ مَقصودٍ بهما الاحترازُ عمَّن لَسْنَ كذلك، ولكنَّه وَصْفٌ كاشفٌ مَسوقٌ للتَّنويهِ بشَأنِهنَّ، على قَولٍ[2].

- وخَصَّ هؤلاء النِّسوةَ مِن عُمومِ المنعِ؛ تكريمًا لشأنِ القَرابةِ والهِجرةِ الَّتي هي بمنزلةِ القَرابةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾[3] [الأنفال: ٧٢].

- وأُفرِدَ لفظُ (عمٍّ) وجُمِعَ لَفظُ (عمَّاتٍ)؛ لأنَّ العمَّ في استِعمالِ كَلامِ العرَبِ يُطلَقُ على أخي الأبِ، ويُطلَقُ على أخي الجَدِّ، وأخي جَدِّ الأبِ... وهكذا؛ فهمْ يَقولون: هؤلاء بَنو عمٍّ أو بَناتُ عمٍّ، إذا كانوا لِعَمٍّ واحدٍ أو لِعِدَّةِ أعمامٍ، فأمَّا لَفظُ (العمَّةِ) فإنَّه لا يُرادُ به الجِنسُ في كَلامِهم، فإذا قالوا: هؤلاء بَنو عمَّةٍ، أرادوا أنَّهم بنو عَمَّةٍ مُعَيَّنةٍ؛ فَجِيءَ في الآيةِ ﴿عَمَّٰتِكَ﴾ جَمْعًا؛ لِئلَّا يُفهَمَ منه بَناتُ عمَّةٍ مُعيَّنةٍ. وكذلك القولُ في إفرادِ لَفظِ (الخال) مِن قولِه: (بَناتِ خَالِكَ)، وجَمْعِ الخالةِ في قولِه: ﴿وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾[4].

وقيل: وحَّد لَفظَ الذَّكَرِ؛ لِشَرَفِه، وجمَعَ الإناثَ؛ لِنَقصِهنَّ، كقَولِه تعالى: ﴿عَنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٦).

ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل:٤٨]، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وله نظائرُ كثيرةٌ(١).

وقيل: جُمِعَ لفظُ العَمِّ والخَالِ دونَ العَمَّاتِ والخالاتِ بسببِ أنَّ قوَّةَ صِلَةِ العَمِّ بالإنسانِ أقوى مِن قوَّةِ صِلَةِ العَمَّةِ؛ فلهذا جُمِعَ، وإلَّا فمِنَ المعلومِ أنَّ الإنسانَ له أعمامٌ وليس له عَمٌّ واحدٌ فقط، وبناتُ أعمامِه كُلُّهُنَّ حلالٌ(٢).

وقيل: لأنَّ العَمَّ والخالَ بوَزنِ مَصدَرين، وهما: (الضَّمُّ) و(المالُ)، والمصدَرُ يَستوي فيه المفرَدُ والجَمعُ، بخلافِ العَمَّةِ والخالةِ(٣).

وقيل: أفردَ العَمَّ؛ لأنَّ واحِدَ الذُّكورِ يُجمَعُ مِن غيرِه؛ لِشَرفِه وقوَّتِه، وكَونِه الأصلَ الَّذي تفرَّعَ منه هذا النَّوعُ، وجَمَعَ الإناثَ؛ لأنَّ المرادَ به الجِنسُ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المرادَ إباحةُ الأخواتِ مجتَمِعاتٍ(٤).

- قولُه: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ التَّنكيرُ في (امْرَأَةً) للنَّوعيَّةِ، والمعنى: ونُعلِمُك أنَّا أحلَلْنا لك امرأةً مُؤمِنةً بقَيدِ أنْ تهَبَ نفْسَها لك، وأنْ تُريدَ أنْ تَتزوَّجَها؛ فقولُه: ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ و(النَّبيُّ) في المَوضعينِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ والمعنى: إنْ وهبَتْ نفْسَها لك وأردتَ أنْ تَنكِحَها، وهذا تَخصيصٌ مِن عُمومِ قولِه: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، فإذا وهَبَتِ امرأةٌ نفْسَها للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأراد نِكاحَها؛ جازَ له ذلك بدونِ ذَينِك الشَّرطينِ، ولأجْلِ هذا وُصِفَت (امْرَأَةً)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٢)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٧٠)، وقد ذكَر أنَّ هذا الوجهَ هو الأقربُ.

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٢، ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٠).

بـ﴿مُّؤۡمِنَةً﴾؛ لِيُعلَمَ عدَمُ اشتراطِ ما عَدا الإيمانَ[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ مُقْتَضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: إنْ وهَبَتْ نفْسَها لكَ، والغرَضُ مِن هذا الإظهارِ ما في لَفظِ (النَّبيِّ) مِن تَزكيةِ فِعلِ المرأةِ الَّتي تهَبُ نفْسَها؛ بأنَّها راغبةٌ لِكَرامةِ النُّبوَّةِ. والعُدولُ عن الإضمارِ في قولِه: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾ بأنْ يُقالَ: إنْ أراد أنْ يَستنكِحَها؛ لِمَا في إظهارِ لَفظِ (النَّبيِّ) مِن التَّفخيمِ والتَّكريمِ، وبيانِ عُلُوِّ شأنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

- وقولُه: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ وبيْنَ ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾، وليس مَسوقًا للتَّقييدِ؛ إذ لا حاجةَ إلى ذِكرِ إرادتِه نِكاحَها؛ فإنَّ هذا مَعلومٌ مِن معنى الإباحةِ، وإنَّما جِيءَ بهذا الشَّرطِ لِدفْعِ تَوهُّمِ أنْ يكونَ قَبولُه هِبتَها نفْسَها له واجبًا عليه كما كان عُرفُ أهْلِ الجاهليَّةِ، ولِكَيْ لا يُلزِمَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم نفْسَه قَبولَ الهِبةِ لِمَا عُلِم مِن خُلُقِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لذا أثبَت الله عزَّ وجلَّ له الإرادةَ والتَّخييرَ في هذه الحالِ. وجَوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قبْلَه، والتَّقديرُ: إنْ أراد أنْ يَستنكِحَها فهي حلالٌ له، فهذا شَرطٌ مُستقِلٌّ، وليس شَرطًا في الشَّرطِ الَّذي قبْلَه[٣].

- وفي قولِه: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٧٣).

الخِطابِ، والسِّرُّ في الالتفاتِ هنا أنَّه رُجوعٌ إلى أصْلِ الكلامِ؛ فقد صُدِّر الكلامُ بمُخاطَبةِ النَّبيِّ بقولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ ﴾ إلخ، ثمَّ عُدِلَ عن الخِطابِ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾؛ للإيذانِ بأنَّه ممَّا خُصَّ به وأُوثِرَ، وأنَّ هذا الاختصاصَ تكرِمةٌ له مِن أجْلِ النُّبوَّةِ[1].

- ولَمَّا كان التَّخصيصُ لا يَصِحُّ ولا يُتصَوَّرُ إلَّا مِن مُحيطِ العِلمِ بأنَّ هذا الأمرَ ما كان لغيرِ المخصوصِ تامِّ القُدرةِ لِيَمنَعَ غيرَه مِن ذلك؛ عَلَّلَه بقَولِه: ﴿قَدۡ﴾ أي: أخبَرْناك بأنَّ هذا أمرٌ يخُصُّك دونَهم؛ لأنَّا قد ﴿عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا﴾[2].

- قولُه: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ ...﴾ تَعديةُ فِعلِ ﴿فَرَضۡنَا﴾ بحَرْفِ (على) المُقتضي للتَّكليفِ والإيجابِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مِن شرائعِ أزواجِهم وما ملَكَت أَيْمانُهم ما يَوَدُّونَ أنْ يُخفَّفَ عنهم، مِثلُ عَددِ الزَّوجاتِ، وإيجابِ المُهورِ والنَّفقاتِ، فإذا سَمِعوا ما خُصَّ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن التَّوسِعةِ في تلك الأحكامِ، وَدُّوا أنْ يُلحَقوا به في ذلك؛ فسَجَّلَ اللهُ عليهم أنَّهم باقونَ على ما سبَقَ شَرْعُه لهم في ذلك. والإخبارُ بأنَّ اللهَ قد عَلِمَ ذلك كِنايةٌ عن بَقاءِ تلك الإحكامِ؛ لأنَّ معناهُ: أنَّا لم نَغفُلْ عن ذلك، أي: لمْ نُبطِلْه، بلْ عن عِلْمٍ خَصَّصْنا نَبيَّنا بما خَصَّصْناه به في ذلك الشَّأنِ، فلا يَشملُ ما أحلَلْناه له بقيَّةَ المؤمنينَ؛ فالجُملةُ اعتراضٌ بيْنَ قولِه: ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞ﴾ ومُتعلَّقِه -وهو ﴿خَالِصَةً﴾-؛ للدَّلالةِ على أنَّ الفرْقَ بيْنَه وبيْنَ المؤْمِنينَ في نحوِ ذلك لا لِمُجرَّدِ قَصْدِ التَّوسيعِ عليه، بلْ لِمَعانٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبِقاعي (١٥/ ٣٨٣).

تَقْتضي التَّوسيعَ عليه والتَّضييقَ عليهم تارةً، وبالعكسِ أُخْرى[١].

- قولُه: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ تَعليلٌ لِمَا شرَعه اللهُ تعالى في حَقِّ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الآياتِ السَّابقةِ مِن التَّوسِعةِ بالازديادِ مِن عَددِ الأزواجِ، وتَزوُّجِ الواهباتِ أنفُسَهنَّ دونَ مَهرٍ، وجَعْلِ قَبولِ هِبَتِها مَوكولًا لإرادتِه، وبما أبْقَى له مِن مُساواتِه أُمَّتَه فيما عدَا ذلك مِن الإباحةِ، فلم يُضيِّقْ عليه، وهذا تَعليمٌ وامتِنانٌ[٢].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تَذييلٌ لِمَا شَرَعَه مِن الأحكامِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: إنَّ ما أردْناهُ مِن نَفْيِ الحرَجِ عنك هو مِن مُتعلَّقاتِ صِفَتي الغُفرانِ والرَّحمةِ، وجُعِلَ اتِّصافُ اللهِ بهما أمْرًا مُتمكِّنًا بما دلَّ عليه فِعلُ (كان) المُشيرُ إلى السَّابقيَّةِ والرُّسوخِ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾

- قولُه: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ إلى قَولِه: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ [الأحزاب: ٥٠]؛ فإنَّه يُثيرُ في النَّفْسِ تَطلُّبًا لِبَيانِ مَدَى هذا التَّحليلِ. والجُملةُ خَبرٌ مُستعمَلٌ في إنشاءِ تَحليلِ الإرجاءِ والإيواءِ لِمَن يَشاءُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٠، ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٧١، ٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٧٢).

- ومُقابَلةُ الإرجاءِ بالإيواءِ في قولِه: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ تَقْتضي أنَّ الإرجاءَ مُرادٌ منه ضِدُّ الإيواءِ، أو أنَّ الإيواءَ ضِدُّ الإرجاءِ، وبذلك تَنشَأُ احتمالاتٌ في المُرادِ مِن الإرجاءِ والإيواءِ صَريحِهما وكِنايتِهما[١].

- قولُه: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ لِبَيانِ أنَّ التَّخييرَ لا يُوجِبُ استِمرارَ ما أخَذَ به مِن الطَّرَفينِ المُخيَّرِ بيْنَهما، أي: لا يكونُ عمَلُه بالعزْلِ لازمًا للدَّوامِ بمَنزلةِ الظِّهارِ والإيلاءِ، بلْ أذِنَ اللهُ أنْ يَرجِعَ إلى مَن يَعزِلُها منْهنَّ؛ فصرَّحَ هنا بأنَّ الإرجاءَ شاملٌ للعزْلِ؛ ففي الكلامِ جُملةٌ مُقدَّرةٌ دلَّ عليها قولُه: ﴿ٱبْتَغَيْتَ﴾؛ إذ هو يَقْتضي أنَّه ابْتَغى إبطالَ عَزْلِها، فمَفعولُ ﴿ٱبْتَغَيْتَ﴾ مَحذوفٌ دَلَّ عليه قولُه: ﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾، كما هو مُقْتضى المُقابَلةِ بقولِه: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾؛ فإنَّ العزْلَ والإرجاءَ مُؤدَّاهما واحدٌ[٢].

- ومُتعلِّقُ الجُناحِ في قولِه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿ٱبْتَغَيْتَ﴾، أي: ابتغَيْتَ إيواءَها فلا جُناحَ عليك مِن إيوائِها[٣].

- وفي قَولِه: ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ المُرادَ الرِّضا الَّذي يَتساوينَ فيه، وإلَّا لم يكُنْ للتَّأكيدِ بـ﴿كُلُّهُنَّ﴾ نُكتةٌ زائدةٌ؛ فالجمْعُ بيْن ضَميرِهنَّ في قولِه: ﴿كُلُّهُنَّ﴾ يُومِئُ إلى رِضًا مُتساوٍ بيْنَهنَّ[٤]، حتى لا يَتَوَهَّمَ واهمٌ أنَّ رضا بعضِهنَّ وانتفاءَ الحُزْنِ عنهُنَّ كافٍ في ذلك! بل الرِّضا يكونُ للجميعِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٢، ٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٠٣).

- وذِكْرُ ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ بعدَ ذِكرِ ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ -مع ما في قُرَّةِ العَينِ مِن تَضمُّنِ مَعنى انتفاءِ الحُزْنِ-: إيماءٌ إلى تَرغيبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في ابتغاءِ بَقاءِ جَميعِ نِسائِه في مُواصلَتِه؛ لأنَّ في عَزْلِ بَعضِهنَّ حُزْنًا للمَعزولاتِ، وهو بالمؤمنينَ رَؤوفٌ لا يُحِبُّ أنْ يُحزِنَ أحَدًا[1].

- والتَّذْييلُ بقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ كلامٌ جامعٌ لِمَعنى التَّرغيبِ والتَّحذيرِ؛ ففيه تَرغيبُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الإحسانِ بأزواجِه وإمائِه والمُتعرِّضاتِ للتَّزوُّجِ به، وتَحذيرٌ لهنَّ مِن إضمارِ عدَمِ الرِّضا بما يَلْقَينَه مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وفي إجراءِ صِفتيْ ﴿عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ على اسمِ الجلالةِ: إيماءٌ إلى ذلك؛ فمُناسَبةُ صِفةِ العِلمِ لقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ظاهرةٌ، ومُناسَبةُ صِفَةِ الحليمِ باعتبارِ أنَّ المقصودَ تَرغيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أَلْيَقِ الأحوالِ بصِفَةِ الحليمِ[2].

٣- قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ مَوقعُ هذه الآيةِ في المُصحَفِ عقِبَ الَّتي قبْلَها يدُلُّ على أنَّها كذلك نزَلَتْ، وأنَّ الكلامَ مُتَّصِلٌ بعضُه ببعضٍ، ومُنتظِمٌ هذا النَّظْمَ البديعَ، على أنَّ حَذْفَ ما أُضِيفَت إليه ﴿بَعْدُ﴾ يدُلُّ على أنَّه حَذْفٌ مَعلومٌ دلَّ عليه الكلامُ السَّابقُ، وتَقديرُ المُضافِ إليه المحذوفِ: مِن بَعدِ الأصنافِ المذكورةِ بقولِه: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] إلخ[3]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ مَزيدةٌ على المفعولِ الثَّاني لـ﴿تَبَدَّلَ﴾؛ لِقَصْدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٧٦، ٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٧٧).

إفادةِ العُموم، وتَأكيدِ النَّفي، وفائدتُه استِغراقُ جِنسِ الأزواجِ بالتَّحريمِ، والتَّقديرُ: ولا أنْ تَبدَّلَ بهنَّ أزواجًا أُخَرَ[١].

- قولُه: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ أي: إنَّ مَن حصَلَتْ في عِصمتِك مِن الأصنافِ المذكورةِ لا يَحِلُّ لك أنْ تُطلِّقَها؛ فكُنِّيَ بالتَّبدُّلِ عن الطَّلاقِ لأنَّه لازِمُه في العُرْفِ الغالبِ؛ لأنَّ المَرْءَ لا يُطلِّقُ إلَّا وهو يَعتاضُ عن المُطلَّقةِ امرأةً أُخرى[٢].

- وفي جُملةِ ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ إيذانٌ بأنَّ اللهَ لَمَّا أباحَ لِرَسولِه الأصنافَ الثَّلاثةَ، أرادَ اللُّطفَ له، وألَّا يُناكِدَ رَغبتَه إذا أعجَبَتْه امرأةٌ، لكنَّه حدَّدَ له أصنافًا مُعيَّنةً وفيهنَّ غَناءٌ، وأُكِّدَت هذه المُبالَغةُ بالتَّذييلِ مِن قولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾، أي: عالِمًا بِجَرْيِ كلِّ شَيءٍ على نَحوِ ما حدَّدهُ أو على خِلافِه، فهو يُجازي على حسَبِ ذلك. وهذا وَعدٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بثَوابٍ عظيمٍ على ما حدَّدَ له مِن هذا الحُكمِ، كما أنَّ فيه تَحذيرًا مِن مُجاوَزةِ حُدودِ اللهِ وتَخطِّي حَلالِه وحَرامِه[٣]، فلَمَّا كان المَقامُ مقامَ تحليلٍ وتحريمٍ خَتَمَ اللهُ تعالى الآيةَ بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾، يعني: فهو يُراقِبُك لو خالفْتَ ما شَرَعَ لك، وهذا مِن بلاغةِ القرآنِ؛ حيث يَخْتِمُ الآياتِ بما يُناسِبُ الأحكامَ الموجودةَ فيها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤١٤).

- والاستِثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ مُنقطِعٌ، والمعنى: لكنْ ما ملَكَتْ يَمينُك حلالٌ في كلِّ حالٍ، والمَقصودُ مِن هذا الاستِدراكِ: دَفْعُ تَوهُّمِ أنْ يكونَ المُرادُ مِن لَفظِ النِّساءِ في قولِه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ ما يُرادِفُ لَفظَ الإناثِ دونَ استعمالِه العُرفيِّ بمَعنى الأزواجِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٠).

الآيات (٥٢-٥٥)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَٰظِرِينَ﴾: أي: مُنتظِرينَ، يُقالُ: نظَرْتُه، أي: انتظَرْتُه، كأنَّه يَنْظُرُ إلى الوقتِ الَّذي يأتي فيه، وأصلُ (نظر): يدُلُّ على تأمُّلِ الشَّيءِ ومُعاينَتِه[1].

﴿إِنَىٰهُ﴾: أي: وَقتَ إدراكِه ونُضجِه وتهيئتِه، وأصلُ (أني): يدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ[2].

﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾: أي: طالِبينَ الأُنسَ للحَديثِ، وأصلُ (أنس): يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤١).

الظُّهورِ، وعدَمِ الاستيحاشِ[١].

﴿مَتَٰعًا﴾: أي: مَنفعةً وحاجةً، والمَتاعُ: كلُّ ما حَصَل التَّمتُّعُ والانتفاعُ به على وَجهٍ ما، وأصلُ (متع): يدُلُّ على مَنفعةٍ[٢].

﴿حِجَابٍ﴾: أي: سترٍ، وكلُّ ما يَستُرُ المطلوبَ ويمنَعُ مِن الوصولِ إليه فهو حجابٌ، وأصلُ (حجب): المنعُ مِن الوصولِ[٣].

﴿لَّا جُنَاحَ﴾: أي: لا إثْمَ و لا حَرَجَ، وسُمِّيَ الإثمُ جُناحًا؛ لِمَيلِه عن طريقِ الحَقِّ، وأصلُ (جَنَح): يدُلُّ على الميلِ والعُدوانِ[٤].

﴿شَهِيدًا﴾: أي: شاهدًا على كلِّ شَيءٍ، لا تخفَى عليه خافيةٌ، وأصلُ (شهد): يدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعلامٍ[٥].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى بعضَ التَّشريعاتِ والآدابِ الَّتي تتعلَّقُ بدُخولِ بيوتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَدخُلوا بُيوتَ النَّبيِّ بغيرِ إذنٍ إلَّا أن تُدعَوا إلى طَعامٍ تأكُلونَه فيها غيرَ مُنتَظِرينَ نُضجَ الطَّعامِ، ولكِنْ إذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٦).

دُعيتُم للدُّخولِ فادخُلوا، فإذا فَرَغتُم مِن الطَّعامِ فاخرُجوا مِن بَيتِ النَّبيِّ، ولا تَمكُثوا مُتحَدِّثينَ بعدَ فراغِكم مِنَ الطَّعامِ؛ إنَّ ذلكم كان يؤذي النَّبيَّ ويَشُقُّ عليه، فيَسْتَحْيي مِن إعلامِكم بذلك، ولكِنَّ اللهَ لا يَستَحْيي أن يُبيِّنَ لكم الحَقَّ.

ثمَّ يَذكُرُ سُبحانَه بعضَ الآدابِ الَّتي يجِبُ على المؤمنينَ أنْ يلتَزِموها مع نساءِ نبيِّهم صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: وإذا سألتُم أزواجَ النَّبيِّ حاجةً فاسألوهنَّ مِن وراءِ سِترٍ؛ ذلك أنقَى لقُلوبِكم وقُلوبِهنَّ، وما يَنبغي لكم -أيُّها المُسلِمونَ- أن تُؤذوا رسولَ الله، ولا أنْ تَنكِحوا أزواجَه مِن بَعدِه أبدًا؛ إنَّ ذلك ذَنْبٌ عَظيمٌ عندَ اللهِ تعالى!

ثمَّ يحذِّرُهم الله سبحانَه مِن مخالفةِ أمرِه، فيقولُ: إنْ تُظهِروا شيئًا أو تُخفوه في قُلوبِكم فإنَّ الله عليمٌ به وبِغَيرِه.

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى بعضَ الأصنافِ الَّذين يجوزُ للمرأةِ أنْ تظهرَ أمامَهم بدونِ حجابٍ، فيقولُ: لا إثمَ على أزواجِ النَّبيِّ في تَركِ الاحتِجابِ مِن آبائِهنَّ، ولا أبنائِهنَّ، ولا إخوانِهنَّ، ولا أبناءِ إخوانِهنَّ، ولا أبناءِ أخواتِهنَّ، ولا نِسائِهنَّ، ولا مَماليكِهنَّ مِن الذُّكورِ والإناثِ. ثُمَّ أمَرَهُنَّ اللهُ باتِّقاءِ غضَبِه وعذابِه، وذلكَ بفِعلِ أوامِرِه واجتنابِ نواهِيه؛ ويختمُ الآيةَ بقولِه: إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ شهيدٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ

عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا خاطَب اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقال له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدًا ... ﴾ [الأحزاب: ٤٥]؛ بيانًا لحالِه مع أمَّتِه العامَّةِ، قال للمُؤمِنينَ في هذا النِّداءِ: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ... ﴾؛ إرشادًا لهم، وبيانًا لحالِهم مع النبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مِنَ الاحترامِ، وعدَمِ إزْعاجِه في حالِ الخَلوةِ[١].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ مِن حالِ النَّبيِّ أنَّه داعٍ إلى اللهِ، بقَولِه: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، قال هاهنا: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾ إلَّا إذا دُعيتُم، يعني: كما أنَّكم ما دخَلْتُم الدِّينَ إلَّا بدُعائِه، فكذلك لا تدخُلوا عليه إلَّا بعدَ دُعائِه[٢].

وأيضًا لَمَّا قصَر اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أزواجِه، وكان قد تقدَّم إليهنَّ بلُزومِ البُيوتِ، وترْكِ ما كانت عليه الجاهليَّةُ مِن التَّبرُّجِ- أرخَى عليهنَّ الحِجابَ في البُيوتِ، ومَنَعَ غَيرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممَّا كانت العرَبُ عليه مِن الدُّخولِ على النِّساءِ؛ لِما عندَهم مِن الأمانةِ في ذلك[٣].

وأيضًا لَمَّا بيَّن الله في الآياتِ السَّابقةِ آدابَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع أزواجِه؛ قفَّاه في هذه الآيةِ بآدابِ الأُمَّةِ معهنَّ[٤].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا تزوَّجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨١).

وسلَّم زينبَ بنتَ جَحشٍ، دعا النَّاسَ، طَعِموا ثمَّ جَلسوا يَتحَدَّثونَ، فأخَذ كأنَّه يَتهيَّأُ للقيامِ فلم يَقوموا، فلمَّا رأى ذلك قام، فلمَّا قام قامَ مَن قام معه مِنَ النَّاسِ، وبَقِيَ ثلاثةٌ، وإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جاء لِيَدخُلَ فإذا القومُ جُلوسٌ، ثمَّ إنَّهم قاموا فانطلَقوا، فجِئتُ فأخبَرْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّهم قد انطلَقوا، فجاء حتَّى دخَل، فذهبتُ أدخُلُ فأرخَى الحِجابَ بيني وبيْنَه، وأنزَل اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾))[1].

وعن الجَعْدِ أبي عُثمانَ، عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((تزوَّجَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فدخَلَ بأهلِه، قال: فصَنَعَت أمِّي أمُّ سُلَيمٍ حَيْسًا[2]، فجعَلَتْه في تَورٍ[3]، فقالت: يا أنَسُ، اذهَبْ بهذا إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلْ: بعَثَتْ بهذا إليك أمِّي، وهي تُقرِئُك السَّلامَ وتقولُ: إنَّ هذا لك مِنَّا قَليلٌ يا رَسولَ اللهِ! قال: فذهبْتُ بها إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلتُ: إنَّ أمِّي تُقرِئُك السَّلامَ وتقولُ: إنَّ هذا لكَ مِنَّا قليلٌ يا رَسولَ الله. فقال: ضَعْهُ، ثمَّ قال: اذهَبْ، فادْعُ لي فُلانًا وفُلانًا وفُلانًا، ومَن لَقِيتَ -وسمَّى رجالًا- قال: فدعَوْتُ مَن سَمَّى ومَن لَقِيتُ. قال [الجعْدُ]: قلتُ لأنَسٍ: عددَ كم كانوا؟ قال: زُهاءَ ثلاثِ مِئةٍ!

(١) رواه البخاري (٦٢٧١) واللفظ له، ومسلم (١٤٢٨).

(٢) الحَيْسُ: هو التَّمرُ مع السَّمنِ والأَقِطِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٨/ ٣٤).

(٣) التَّورُ: إناءٌ يُشرَبُ فيه. يُنظر: ((شرح المصابيح)) لابن الملك (٦/ ٣٤٦).

وقال لي رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا أنسُ، هاتِ التَّورَ. قال: فدخَلوا حتَّى امتلأتِ الصُّفَّةُ[١] والحُجرةُ، فقال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لِيَتحلَّقْ عَشَرةٌ عَشَرةٌ، ولْيأكُلْ كُلُّ إنسانٍ ممَّا يليه. قال: فأكَلوا حتَّى شَبِعوا، قال: فخَرَجت طائفةٌ ودخَلَت طائفةٌ حتَّى أكلوا كُلُّهم! فقال لي: يا أنَسُ، ارفَعْ. قال: فرفَعْتُ، فما أدري حينَ وَضَعْتُ كان أكثَرَ أم حينَ رَفَعْتُ!! قال: وجلس طوائِفُ منهم يَتحدَّثونَ في بيتِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جالِسٌ وزوجتُه مُوَلِّيةٌ وَجْهَها إلى الحائِطِ! فثَقُلُوا على رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فخرَج رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فسَلَّم على نسائِه ثمَّ رجع، فلمَّا رأوا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد رجَع ظنُّوا أنَّهم قد ثَقُلُوا عليه، فابتَدَروا البابَ فخَرَجوا كُلُّهم، وجاء رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى أرخى السِّتْرَ ودخل، وأنا جالِسٌ في الحُجرةِ، فلم يلبَثْ إلَّا يسيرًا حتَّى خرَج علَيَّ، وأُنزِلَت هذه الآيةُ، فخرَج رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقرَأهُنَّ على النَّاسِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ إلى آخرِ الآيةِ. قال الجَعْدُ: قال أنسُ بنُ مالكٍ: أنا أَحْدَثُ النَّاسِ عَهدًا بهذه الآياتِ، وحُجِبْنَ نِساءُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[٢].

وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه، قال: (وافقْتُ ربِّي في ثلاثٍ: في مَقامِ إبراهيمَ، وفي الحِجابِ، وفي أُسارى بدرٍ!)[٣].

---

(١) الصُّفَّةُ: موضعٌ مُظَلَّلٌ في مسجدِ المدينةِ، وأهلُ الصُّفَّةِ فقراءُ المهاجرينَ ومَن لم يَكُنْ له منهم مَنْزِلٌ يَسْكُنُه، فكانوا يَأْوونَ إليه. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ٥٩).

(٢) رواه مسلم (١٤٢٨). ورواه البخاري (٥١٦٣) معلقًا من حديث الجعد عن أنس بنحوه مختصرًا.

(٣) رواه مسلم (٢٣٩٩).

وعن أنسٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال عُمَرُ رَضِيَ الله عنه: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، يَدخُلُ عليكَ البَرُّ والفاجِرُ، فلو أمَرْتَ أمَّهاتِ المؤمِنينَ بالحِجابِ! فأنزل اللهُ آيةَ الحِجابِ))[(١)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، لا تَدخُلوا بُيوتَ النَّبيِّ بغيرِ إذنٍ إلَّا أن تُدعَوا إلى دُخولِها؛ لأجْلِ طَعامٍ تأكلونَه فيها، فيُؤذنَ لكم[(٢)].

﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾

أي: والحالُ أنَّكم غيرُ مُنتَظِرينَ وَقتَ نُضجِ الطَّعامِ واستِوائِه[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٤٧٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠).

قيل: ﴿إِلَىٰ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿يُؤۡذَنَ﴾ بتضمينِ معنى الدعاءِ، فكأنَّه قيل: إلَّا أنْ تُدْعَوْا إلى طعامٍ فيُؤْذَنَ لكم. ينظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٢).

وقال ابنُ عاشور: (ليس ذِكرُ الدَّعوةِ إلى طعامٍ تَقييدًا لإباحةِ دُخولِ بُيوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لا يَدخُلُها إلَّا المدعوُّ إلى طعامٍ، ولكِنَّه مِثالٌ للدَّعوةِ وتخصيصٌ بالذِّكرِ، كما جرى في القضيَّةِ الَّتي هي سَبَبُ النُّزولِ، فيَلحَقُ به كُلُّ دعوةٍ تكونُ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكلُّ إذْنٍ منه بالدُّخولِ إلى بيتِه لغيرِ قَصدِ أن يَطعَمَ معه، كما كان يقعُ ذلك كثيرًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤١٧، ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٢٣، ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٩١، ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤١٨).

قيل: المرادُ: لا تَرقُبوا الطَّعامَ حتَّى إذا قارب الاستواءَ تعرَّضتُم للدُّخولِ؛ فإنَّ هذا يَكرَهُه الله ويَذُمُّه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤١٨). =

﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾

أي: ولكِنْ إذا دُعيتُم للدُّخولِ إلى بَيتٍ مِن بُيوتِ النَّبيِّ، فادخُلوه[1].

﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾

أي: فإذا فَرغتُم مِنَ الطَّعامِ فاخرُجوا مِن بَيتِ النَّبيِّ، وتفرَّقوا[2].

﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾

أي: ولا تَمكُثوا في بَيتِه بعدَ فَراغِكم مِنَ الطَّعامِ مُستأنِسينَ بالحَديثِ[3].

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡ﴾

= وقيل: المعنى: لا تَحضُروا البيوتَ للطَّعامِ قبْلَ تهيئةِ الطَّعامِ للتَّناوُلِ، فتَقعُدوا تنتَظِرونَ نُضجَه. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٣).

قال ابنُ عثيمين: (﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ أي ولا تدخلوا بغير دعوة، وهذا غيرُ قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾؛ لأنَّ ﴿يُؤۡذَنَ﴾ معناها: أنَّهم جاؤوا فاستأذنوا، وأمَّا الَّتي معنا؛ الجملةُ الثَّانيةُ ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ﴾: فهنا همُ الذين دُعُوا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٣).

قال البقاعي: (﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ﴾ أي: أكَلْتُم طعامًا، أو شَربتُم شَرابًا). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٣).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ المعنى: ولا تَدخُلوا مستأنِسينَ، أي: طالِبي الأُنسِ لحديثٍ؛ وذلك أنَّهم كانوا يَجلِسون بعدَ الأكلِ فيَتحدَّثون طويلًا، وكان ذلك يؤذيه، ويَستَحْيي أن يقولَ لهم: قُوموا، فعلَّمَهم الله تعالى الأدبَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٨٠).

أي: إنَّ ذَلِكم[١] كان يُؤذي النَّبيَّ ويَشُقُّ عليه، فيُصيبُه الحياءُ مِن إعلامِكم بذلك، فيَسكُتُ[٢]!

﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾

أي: وإنِ استَحْيا نَبيُّكم فلم يُبيِّنْ لكم كراهِيَةَ ذلك؛ حَياءً مِنكم: فإنَّ اللهَ لا يَستَحْيي أن يُبيِّنَ لكم الحَقَّ؛ ولهذا نهاكم عن إيذاءِ نَبيِّه[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾ [الأحزاب: ٤].

---

(١) قيل: المشارُ إليه هنا جميعُ ما تقدَّمَ، وهو دخولُ بُيوتِ النَّبيِّ مِن غيرِ إذْنٍ، والمجيءُ قبْلَ نُضجِ الطَّعامِ مُنتظرينَ نُضْجَه، والجلوسُ فيها مُستأنسينَ للحديثِ بعدَ الفراغِ مِن الطَّعام. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٦٣).

وقيل: المشارُ إليه إطالتُهم الجُلوسَ في المنزلِ، واستئناسُهم للحديثِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ تيميَّةَ، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠).

قال ابنُ عاشور: (إنَّما كان ذلك مُؤذِيًا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ فيه ما يَحولُ بيْنَه وبيْنَ التَّفَرُّغِ لشؤونِ النُّبُوَّةِ؛ مِن تلقِّي الوَحيِ، أو العبادةِ، أو تدبيرِ أمرِ الأُمَّةِ، أو التَّأخُّرِ عن الجلوسِ في مجلِسِه لِنَفعِ المسلمينَ، ولشؤونِ ذاتِه وبيتِه وأهلِه... أي: يَستَحْيي مِن إعلامِكم بأنَّه يُؤذيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٨).

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا مَنَع اللهُ النَّاسَ مِن دُخولِ بُيوتِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكان في ذلك تعذُّرُ الوُصولِ إلى الماعونِ؛ بيَّن أنَّ ذلك غيرُ ممنوعٍ منه، فلْيُسألْ ولْيُطلَبْ مِن وراءِ حِجابٍ(١).

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾

أي: وإذا سألْتُم أزواجَ رَسولِ اللهِ حاجةً تُريدونَها مِنهنَّ(٢)، فكَلِّموهُنَّ مِن وراءِ سِترٍ بينَكم وبَينَهنَّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٠).

(٢) قال ابن عثيمين: (المرادُ بالمتاعِ: ما يُتمتَّعُ به مِن ملابسَ ومطاعمَ ومشاربَ وغيرِها، حتَّى الدَّراهمُ تُعتبرُ متاعًا، فكلُّ ما يُتمتعُ به فهو متاعٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣٠).

وقال القرطبي: (اختُلِفَ في المتاعِ؛ فقيل: ما يُتمتَّعُ به مِن العَواريِّ. وقيل: فتوى. وقيل: صُحُفُ القرآنِ. والصَّوابُ أنَّه عامٌّ في جميعِ ما يمكِنُ أن يُطلَبَ مِن المواعينِ وسائرِ المرافِقِ للدِّينِ والدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٢٧).

وممَّن ذهب إلى هذا العمومِ في الجملةِ: ابنُ عطية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٠، ٩١).

قال ابنُ عاشور: (الحِجابُ: السِّترُ المُرخَى على بابِ البيتِ. وكانت السُّتورُ مُرخاةً على أبوابِ بُيوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الشَّارعةِ إلى المسجِدِ، وقد ورد ما يُبيِّنُ ذلك في حديثِ الوفاةِ حينَ خرَجَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على النَّاسِ وهم في الصَّلاةِ، فكشف السِّترَ ثمَّ أرخى السِّترَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩١). =

﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ﴾

أي: ذلك الأمرُ بسُؤالِهنَّ مِن وَراءِ حِجابٍ: أنقَى لقُلوبِكم وقُلوبِهنَّ مِن عوارِضِ النَّظَرِ، أو الخواطِرِ الَّتي تَعرِضُ للرِّجالِ في أمرِ النِّساءِ، وللنِّساءِ في أمرِ الرِّجالِ؛ وأَحرَى في السَّلامةِ مِن الرِّيبةِ ووَساوِسِ الشَّيطانِ(١).

﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾

أي: وما ينبغي لكم -أيُّها المُسلِمونَ- أن تُؤذُوا رَسولَ اللهِ بأيِّ شَيءٍ مِن الأشياءِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾

أي: ولا يَنبغي ولا يَحِلُّ لكم -أيُّها المُسلِمونَ- أن تَنكِحوا أزواجَ رَسولِ اللهِ

= وقال ابن عثيمين: (حِجابٌ، بمعنى: سِتْر. وكلمةُ ﴿مِنَ﴾ تدُلُّ على أنَّ هذا السِّترَ لا بُدَّ أن ينفصِلَ، وأنَّه غيرُ سَتْرِ الوَجهِ أو البَدنِ بالثيابِ، بل هو سِترٌ آخَرُ: حِجابٌ. وحِجابُ أمَّهاتِ المؤمِنينَ غيرُ حِجابِ نِساءِ المؤمنينَ؛ لأنَّ حِجابَ نِساءِ المؤمنينَ يَصِحُّ أن يكون متَّصِلًا بالبدنِ، كالخِمارِ والمِلْحَفةِ وما أشبَهَهما، أمَّا حِجابُ أمَّهاتِ المؤمنينَ فإنَّه حِجابٌ آخَرُ منفَصِلٌ يحولُ بيْنَ الرَّجُلِ وبيْنَ رؤيةِ أمَّهاتِ المؤمنينَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٥)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٣).

قال الشوكاني: (ومِن جملة ذلك: دُخولُ بُيوتِه بغيرِ إذْنٍ منه، واللُّبثُ فيها على غيرِ الوَجهِ الَّذي يريدُه، وتكليمُ نِسائِه مِن دونِ حِجابٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٣).

مِن بَعدِه أبدًا[١].

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾

أي: إنَّ أذيَّةَ رَسولِ اللهِ ونِكاحَ أزواجِه مِن بَعدِه: ذَنْبٌ عَظيمٌ عندَ اللهِ تعالى[٢].

﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ٥٤﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ قَولَه: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ وَعيدٌ لِما تقدَّم التعَرُّضُ به في الآيةِ ممَّن أُشيرَ إليه بقَولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ﴾، ومَن أشيرَ إليه بقَولِه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٠٠).

قال ابنُ كثير: (أجمَع العُلَماءُ قاطِبةً على أنَّ مَن تُوُفِّيَ عنها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أزواجِه: أنَّه يَحرُمُ على غيرِه تزويجُها مِن بَعدِه؛ لأنَّهنَّ أزواجُه في الدُّنيا والآخرةِ، وأمَّهاتُ المؤمِنينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٥).

وَقولُه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ قيل: معناه: مِن بعدِ وفاتِه. وممَّن قال بهذا المعنى: السمرقندي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٠٠).

وقيل: المرادُ: مِن بعدِ مُفارقتِه لِمَن دخَل بها؛ إمَّا في حياتِه بطلاقِها، وإمَّا مُفارقتُه لها بموتِه. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٨٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣٤، ٤٣٥).

قال ابن كثير: (واختلَفوا فيمَن دخَل بها ثمَّ طلَّقها في حياتِه، هل يحِلُّ لغيرِه أن يَتزوَّجَها؟ على قولَين، مأخَذُهما: هل دخلتْ هذه في عموم قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ أمْ لا؟ فأمَّا مَن تزَوَّجها ثمَّ طلَّقها قبْلَ أن يَدخُلَ بها، فما نَعلَمُ في حِلِّها لغَيرِه -والحالةُ هذه- نِزاعًا، والله أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٧١)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٦).

تُؤْذُواْ﴾، فقيل: إنْ تُبدوا شيئًا على ألسِنَتِكم أو تُخفُوه في صُدورِكم ممَّا يقَعُ عليه العِقابُ؛ فاللهُ يَعلَمُه، فيُجازي عليه[١].

وأيضًا فإنَّ هذا كلامٌ جامِعٌ تحريضًا وتحذيرًا، ومُنبِئٌ عن وَعدٍ ووَعيدٍ؛ فإنَّ ما قَبْلَه قد حوَى أمرًا ونهيًا، وإذ كان الامتِثالُ مُتفاوِتًا في الظَّاهِرِ والباطِنِ، وبخاصَّةٍ في النِّيَّاتِ والمُضمَراتِ؛ كان المقامُ مُناسِبًا لِتَنبيهِهم وتذكيرِهم بأنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على كُلِّ حالٍ مِن أحوالِهم في ذلك، وعلى كلِّ شَيءٍ[٢].

وأيضًا لَمَّا كان بعضُ الدَّالِّ على الكلامِ أصرَحَ مِن بَعضٍ، فكان الإنسانُ قد يُضمِرُ أن يفعَلَ ما يؤذي إذا تمكَّن، وقد يُؤذي بفِعلٍ يَفعَلُه ويَدَّعي أنَّه قصَدَ شَيئًا آخَرَ مِمَّا لا يُؤذي؛ قال تعالى -حامِلًا لهم على التَّفَطُّنِ والتَّنَبُّهِ في الأقوالِ وغَيرِها، والمقاصِدِ الحَسَنةِ ظاهِرًا وباطِنًا، على طريقِ الاستئنافِ في جوابِ مَن رُبَّما انتهَى بظاهِرِه، وهو عازِمٌ على أنْ يفعَلَ الأذَى عندَ التَّمَكُّنِ-[٣]:

﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ٥٤﴾

أي: إن تُظهِروا أيَّ شَيءٍ أو تُخفُوه في قُلوبِكم، فإنَّ اللهَ عَليمٌ بذلك وبغَيرِه، فلا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه، وسيُجازيكم على أعمالِكم الظَّاهِرةِ والخَفيَّةِ[٤].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣٨).

وقال سُبحانَه: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ٥٥﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ أزواجَ النَّبيِّ -رَضِيَ اللهُ عنهنَّ- لا يُسألْنَ مَتاعًا إلَّا مِن وراءِ حِجابٍ، وكان اللَّفظُ عامًّا لكُلِّ أحدٍ، احتِيجَ أن يُستَثنى منه هؤلاء المذكورونَ مِن المحارِمِ، وأنَّه لا جُناحَ عليهنَّ في عدَمِ الاحتِجابِ عنهم[١].

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾

أي: لا إثمَ على أزواجِ النَّبيِّ في تَركِ الاحتِجابِ مِن آبائِهنَّ[٢]، وأبنائِهنَّ[٣]، وإخوانِهنَّ[٤]، وأبناءِ إخوانِهنَّ، وأبناءِ أَخواتِهنَّ، ومِن نِسائِهنَّ[٥]، ومِن أرِقَّائِهنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٠).

(٢) قال ابن عثيمين: (يَشملُ الأجدادَ مِن جهةِ الأبِ، ومِن جهةِ الأمِّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٤٩، ٤٥٠).

(٣) يعني أبناءَهنَّ مِن الصُّلبِ، وأبناءَهن مِن البطنِ، أي: أبناءَ الأبناءِ، وأبناءَ البناتِ، وإن نزلوا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب: ٤٥٠).

(٤) سواء كانوا أشقاءَ أم لأبٍ أم لأمٍّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥٠). وقال ابنُ عثيمين: (الأخُ مِن الرَّضاعِ، وابنُ الأخِ مِن الرَّضاعِ، وما أشبهَ ذلك ما ذُكِر في هذه الآيةِ ... لكنَّه ذُكِر في قولِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «يحرمُ مِن الرضاعِ ما يحرمُ مِن النَّسبِ» [البخاري «٢٦٤٥» ومسلم «١٤٤٧»]). ((المصدر السابق)) (ص: ٤٥١).

(٥) قيل: المرادُ بهن: النِّساءُ المؤمِناتُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والرسعني، وابن كثير، والبقاعي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٣)، ((تفسير الرسعني)) =

الذُّكورِ والإناثِ المملوكينَ لهُنَّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١].

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾

أي: واتَّقِينَ -يا أزواجَ النَّبيِّ- سَخَطَ اللهِ وغَضَبَه وعَذابَه في جميعِ أحوالِكنَّ

= (٦/ ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٣).

وقيل: المرادُ: جميعُ النِّساءِ، سواءٌ كُنَّ مُؤمناتٍ أو كافراتٍ؛ فالمرأةُ لا تحتَجِبُ مِن المرأةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور، وذكره السعدي احتمالًا، ورجَّحه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥٤).

ويُنظر ما تقدم في تفسير سورة (النور) من ((التفسير المحرر)) (١٩/ ٢٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧١-١٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

قال الماوَرْديُّ: (﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ فيه قولان؛ أحدُهما: الإماءُ دونَ العَبيدِ، قاله سعيدُ ابنُ المُسَيِّبِ. الثَّاني: أنَّه عامٌّ في الإماءِ والعَبيدِ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٢٠).

ممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ جريرٍ، والبيضاويُّ، وابنُ كثيرٍ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ، ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٨٨).

وقال العُلَيمي: (﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ مِن الإماءِ، فلا يكونُ العبدُ مَحْرَمًا لِمَولاتِه). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٨٦).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة (النور) من ((التفسير المحرر)) (١٩/ ٢٠٩).

في الخَلوةِ والعَلانيةِ؛ وذلك بامتِثالِ ما أمَرَكنَّ اللهُ به مِن الحِجابِ وغَيرِه، والانتِهاءِ عمَّا نهاكُنَّ عنه[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾

أي: إنَّ اللهَ شاهِدٌ على كُلِّ شَيءٍ، لا تخفَى عليه خافيةٌ؛ فاتَّقِينَ اللهَ وراقِبْنَه[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ قال إسماعيلُ بنُ أبي حكيمٍ لما قُرِئتْ بينَ يَدَيْه هذه الآيةُ: (هذا أدَبٌ أدَّبَ اللهُ به الثُّقَلاءَ)[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ دَليلٌ على أنَّ التَّحَيُّنَ لطَعامِ مَن لم يَدْعُ إليه مَنهيٌّ عنه[٤] واستُدِلَّ به على تحريمِ التَّطَفُّلِ -وهذا على أحدِ الأقوالِ في تفسيرِ الآيةِ-؛ لأنَّ الطُّفَيليَّ عادتُه أنَّه يَنتَظِرُ متى يُقَدَّمُ الطَّعامُ، فإذا قُدِّمَ الطَّعامُ استأذَنَ، أو هَجَمَ هجومًا بدونِ استئذانٍ؛ لأنَّه قبْلَ أن يَنضَجَ الطَّعامُ ويُقَدَّمَ يمكِنُ أن يَدخُلَ ثمَّ يُقالَ له: اخرُجْ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٧٧).

لكنْ بعدَ أنْ يُقَدَّمَ الطَّعامُ لا بُدَّ أنْ يأكُلَ[١]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ أنَّ الإنسانَ ينبغي له إذا قَضَى حاجتَه مِن الطَّعامِ أنْ يَنصَرِفَ، وهذا كما أنَّه في بُيوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فهو أيضًا في بُيوتِ غيرِه؛ فإنَّ الأفضلَ لِمَن دُعِيَ إلى طَعامٍ أنَّه إذا طَعِمَ أنْ يَنتَشِرَ؛ لأنَّ بقاءَه قد يَشُقُّ على صاحِبِ البيتِ، ولأنَّ الحاجةَ الَّتي جاء مِن أجْلِها قد انتَهَت -إلَّا إذا رغِب صاحبُ البَيتِ في جلوسِه-، وإذا تأمَّلْتَ الشَّريعةَ وجَدْتَ أنَّ الإنسانَ مِن حُسْنِ أدَبِه وسُلوكِه أنَّه إذا فَرَغَ مِن حاجةٍ أرادَها انصرَف إلى غيرِها؛ ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في المسافرِ: ((فإذا قضَى نَهْمَتَه[٢]؛ فلْيَعْجَلْ[٣] إلى أهلِه))[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ فيه أنَّه كُلَّما بَعُدَ الإنسانُ عن الأسبابِ الدَّاعيةِ إلى الشَّرِّ، فإنَّه أسلَمُ له وأطهَرُ لقَلبِه؛ فلهذا مِن الأمورِ الشَّرعيَّةِ الَّتي بيَّنَ اللهُ كثيرًا مِن تفاصيلِها: أنَّ جميعَ وسائِلِ الشَّرِّ وأسبابِه ومُقَدِّماتِه: ممنوعةٌ، وأنَّه مَشروعٌ البُعدُ عنها بكُلِّ طَريقٍ[٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أنَّه يجبُ على المرءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣٨). ويُنظر أيضا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٤).

(٢) نَهْمَتَه: أي: رَغبَتَه وشَهوتَه وحاجتَه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٢٨١).

(٣) فليعجَلْ: أي: فلْيُبادِرْ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٦/ ٢٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣٨).

والحديث أخرجه البخاري (١٨٠٤) واللفظ له، ومسلم (١٩٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠).

أنْ يَسعَى في كلِّ ما فيه تطهيرُ قلبِه، وأنْ يبتعدَ عن كلِّ ما فيه تدنيسُ قلبِه؛ لأنَّه عَلَّلَ الأمرَ بالحِجابِ لِكَونِه أطهرَ للقلوبِ، ولا فرقَ في ذلك بينَ طهارةِ القلبِ مِن الأخلاقِ الرَّذيلةِ كالزِّنا واللِّواطِ، أو طَهارتِه مِن الاعتقاداتِ الفاسدةِ أو الإراداتِ السَّيِّئةِ؛ فكلُّ هذا يجبُ على المرءِ أنْ يُطَهِّرَ قلبَه منه، وإذا أوجَبَ اللهُ تعالى في ذلك العَصْرِ ما يكونُ سببًا لكَمالِ طَهارةِ القلوبِ، ففي عَصرِنا مِن بابِ أَولى؛ فكلُّ ما يكونُ سببًا لطهارةِ القلوبِ وبُعْدِها عن دَناءةِ الأخلاقِ، فإنَّه يكونُ واجبًا[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ تحذيرُ المُكَلَّفِ مِن مُخالَفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بقَليلٍ أو كثيرٍ؛ لأنَّ الفائدةَ مِن ذِكرِ عِلْمِه التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ شَهِيدًا﴾ أي: لا يغيبُ عنه شَيءٌ وإنْ دقَّ، فهو مُطَّلِعٌ عليكُنَّ حالَ الخَلوةِ بمَنْ ذُكِر، كما هو مُطَّلِعٌ على غيرِ ذلك، فلْيَحْذَرْه كلُّ أحدٍ في حالِ الخَلْوةِ، كما يَحذَرُه في حالِ الجلوةِ[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ أنَّ الإذنَ بالدُّخولِ مُعتبَرٌ سواءٌ كان مِن صاحبِ البيتِ أو ممَّن أنابَه، ولذلك لم يَقُلْ: «إلَّا أنْ يَأْذَنَ لكم» أي: النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٤]. ولا يُشترَطُ في الإذنِ التَّصريحُ به، بلْ إذا حصَلَ العِلمُ بالرِّضا جازَ الدُّخولُ؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ﴾ من غيرِ بيانِ فاعِلٍ، وكذلك إذا احتاجَ إلى إطفاءِ حريقٍ فيها أو غيرِ ذلك، جازَ الدُّخولُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٤٣، ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٩، ١٨٠).

٢- حالُ الأمَّةِ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على وَجهَين:

أحدُهما: في حالِ الخَلْوةِ، والواجِبُ هناك عدَمُ إزعاجِه، وبيَّن ذلك بقَولِه تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ...﴾.

وثانيهما: في الملأِ، والواجِبُ هناك إظهارُ التَّعظيمِ، كما قال تعالى: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1] [الأحزاب: ٥٦].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾ تخصيصُ الطَّعامِ بالذِّكرِ لا يدُلُّ على نَفيِ ما عداه، لاسيَّما إذا عُلِمَ أنَّ غَيرَه مِثلُه؛ فإنَّ مَن جاز دُخولُ بيتِه بإذْنِه إلى طعامِه، جاز دُخولُه إلى غيرِ طعامِه بإذْنِه؛ فإنَّ غيرَ الطَّعامِ مُمكِنٌ وُجودُه مع الطَّعامِ، فإنَّ مِن الجائزِ أن يتكلَّمَ معه وقتَ ما يدعوه إلى طَعامٍ، ويَستَقضيه في حوائِجه، ويُعلِّمُه ممَّا عندَه مِن العُلومِ، مع زيادةِ الإطعامِ، فإذا رَضِيَ بالكُلِّ فرِضاه بالبَعضِ أقرَبُ إلى الفِعلِ، فيصيرُ مِن بابِ: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾[2] [الإسراء: ٢٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ طَعامَ الوَليمةِ وطَعامَ الضِّيافةِ مِلكٌ للمُتَضيِّفِ، وليس مِلكًا للمَدْعُوِّينَ ولا للأضيافِ؛ لأنَّهم إنَّما أُذِنَ لهم في الأكلِ منه خاصَّةً، ولم يَملِكوه؛ فلذلك لا يجوزُ لأحدٍ رَفعُ شَيءٍ مِن ذلك الطَّعامِ معه[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ مَشروعيَّةُ إجابةِ الدَّعوةِ، ويُستفادُ منه دُخولُ الإنسانِ المَدْعُوِّ وإنْ لم يُؤذَنْ له إذا وَجَدَ البابَ على هيئةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٥).

تدُلُّ على الإذنِ، فلم يَقُلْ: «إذا دُعيتُم فأجيبوا»، والدُّخولُ أخَصُّ[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ سُكوتَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الفِعلِ الواقعِ بحَضرتِه إذا كان تعَدِّيًا على حَقٍّ لِذَاتِه: لا يدُلُّ سُكوتُه فيه على جَوازِ الفِعلِ؛ لأنَّ له أن يُسامِحَ في حَقِّه، ولكِنْ يُؤخَذُ الحَظْرُ أو الإباحةُ في مِثلِه مِن أدِلَّةٍ أخرى[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ كغيرِه مِن البشَرِ يَتأذَّى كما يتأذَّى غيرُه، لكنَّه يَختلِفُ عن غيرِه في قوَّةِ صبرِه وتحمُّلِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولهذا كان الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم يتأذَّى مِن بقائِهم مُسْتأنِسينَ لحديثٍ، ولا يَنهاهم حتَّى نهاهم اللهُ عزَّ وجلَّ، وهو أيضًا دليلٌ على كَرَمِه؛ لأنَّ الكريمَ يَستَحْيي أنْ يُخجِلَ أضيافَه بقوله: اخرُجوا! أو يُخجِلَهم بالتَّبَرُّمِ منهم، والتَّكَرُّهِ لتصَرُّفِهم[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ وصْفُ اللهِ تعالى بالحياءِ؛ وجْهُ الدَّلالةِ أنَّه لو كان اللهُ سُبحانَه وتعالى لا يُوْصَفُ بالحياءِ ما صَحَّ أنْ يُنفَى عنه الحَياءُ في حالٍ مِن الأحوالِ دونَ الحالِ الأخرى! وعلى هذا فتكونُ الآيةُ دليلًا على أنَّ اللهَ تعالى مَوصوفٌ بالحياءِ، ولكنَّ حياءَ اللهِ تعالى ليس كحياءِ الإنسانِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ في كتابِه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[٤] [الشورى: ١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤٢).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فيه جوازُ سَماعِ كلامِ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومُخاطَبتِهنَّ[١]، ووجْهُه: أنَّ اللهَ تعالى أباحَ سؤالَهنَّ، والسُّؤالُ هنا ليس فقط سؤالَ استِجداءٍ، ولكنْ سؤالُ العِلمِ مِن بابِ أَولى[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ جوازُ مُكالَمةِ النِّساءِ غيرِ زَوجاتِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّه إذا جاز في زَوجاتِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -مع ما لهُنَّ مِن الاحترامِ والتَّعظيمِ- ففي غيرِهنَّ مِن بابِ أَولى، ولكِنَّه يُشترَطُ في ذلك الأمنُ مِن الفِتنةِ، فإنْ خِيفَتِ الفِتنةُ مِن المُكَلِّم أو مِن المرأةِ كان ذلك حَرامًا، وكذلك يُشترَطُ ألَّا يتمتَّعَ الإنسانُ بمكالَمةِ المرأةِ، وإنْ لم يَكُنْ تَمتُّعَ شَهوةٍ، وذلك بأن يُحِبُّ أنْ يَستمِرَّ معها في الكَلامِ، فهذا أيضًا لا يجوزُ، اللَّهمَّ إلَّا إذا كانت مِن مَحارِمِه، وأرادَ أن يتحدَّثَ معها؛ ليُؤْنِسَها أو يَستأنِسَ بها؛ فهذا لا بأسَ به[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ ثُبوتُ تعليلِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ، ومِن فوائدِ قَرْنِ الأحكامِ بحِكَمِها: طُمأنينةُ الإنسانِ للحُكمِ، وبيانُ سُمُوِّ الشَّريعةِ، وأنَّ أحكامَها ليست لهوًا ولا باطلًا، وإلحاقُ ما وافقَ الحُكمَ في عِلَّتِه بحُكْمِه؛ يعني: نُلحِقُ بهذا الحُكمِ ما وافقَه في تلك العِلَّةِ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ تَشَوُّفُ الشَّرعِ إلى

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤٣، ٤٤٧).

ما يكونُ سَببًا لطَهارةِ القُلوبِ[١].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ فيه تحريمُ أذاه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بجميعِ وُجوهِ الأذَى[٢].

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ذكَّرهم بالوَصفِ الَّذي هو سَببٌ لسعادتِهم، واستحقَّ به عليهم مِن الحَقِّ ما لا يَقدِرونَ على القيامِ بشُكرِه، فقال: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ صلَّى الله عليه وسلَّم، فلَهُ إليكم مِن الإحسانِ ما يَستوجِبُ منكم به غايةَ الإكرامِ والإجلالِ، فضلًا عن الكَفِّ عن الأذى[٣]!

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ تحريمُ نِكاحِ زَوجاتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَه، وأنَّ التَّحريمَ فيهنَّ مُؤَبَّدٌ، وعلى هذا فالمُحَرَّماتُ إلى الأبدِ: مُحَرَّماتٌ بالنَّسَبِ، وبالرَّضَاعِ، وبالصِّهْرِ، وبالمُلاعَنةِ، وبالاحترامِ. فهذه خمسةُ أنواعٍ[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أنَّ الذُّنوبَ تَتفاوَتُ في العِظَمِ[٥].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ الرَّدُّ على غُلاةِ القَدَرِيَّةِ المنكِرينَ لِعلمِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بأفعالِ العبدِ؛ إذْ إنَّ قولَه: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ يَشمَلُ ما سيَفعَلُه الإنسانُ وما قد فَعَلَه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٩٣، ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤٨).

١٨- قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ هؤلاء المذكورونَ مُحَرَّمونَ في النِّكاحِ فهم مَحارِمُ، فالقاعِدةُ: «كُلُّ مَن يَحرُمُ في النِّكاحِ تحريمًا مؤبَّدًا فهو مَحرَمٌ»، وعلى هذا فقَولُه تعالَى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ليسوا بمحارِمَ؛ لأنَّ التَّحريمَ إلى أمَدٍ[١].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ لم يَذكُرِ اللهُ مِن المحارِمِ الأعمامَ والأخوالَ، فلم يَقُلْ: (ولا أعمامِهنَّ ولا أخوالِهنَّ)؛ لوجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّه لم يُذكَرْ هنا مِن أصنافِ الأقرباءِ الأعمامُ ولا الأخوالُ؛ لأنَّهم بمَنزلةِ الوالدَينِ[٢]، وقد يُسمَّى العَمُّ أبًا[٣].

الوجهُ الثَّاني: أنَّ ذلك عُلِمَ مِن بني الإخوةِ وبني الأخَواتِ؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ بني الأخِ للعَمَّاتِ محارِمُ، عَلِمَ أنَّ بناتِ الأخِ للأعمامِ محارِمُ، وكذلك الحالُ في أمرِ الخالِ[٤]، فإذا لم يحتجِبْنَ عمَّن هنَّ عماتُه ولا خالاتُه، مِن أبناءِ الإخوةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨١).

وذكر الرازي أيضًا أنَّ الأعمامَ رُبَّما يَذكُرونَ بناتِ الأخِ عندَ أبنائِهم، وهم غيرُ محارِمَ، وكذلك الحالُ في الخالِ. قال ابن عثيمين بعد أن ذكَرَ هذا الوَجهَ: (فلمَّا كان يُخشى أنَّ العَمَّ والخالَ يَصِفُ [أحَدُهما] المرأةَ لابنِه، لم يُذكَرا؛ للتَّحرُّزِ لا لمخالفةِ الحُكمِ، وهذا التَّعليلُ له بعضُ الوجهِ، والله أعلمُ بما أراد... ولا شَكَّ أنَّ قوَّةَ المَحْرَمِيَّةِ في العَمِّ والخالِ أضعَفُ مِن قوَّتِها فيمَن عداهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥١). =

والأخواتِ، مع رفعتِهنَّ عليهم، فعدَمُ احتجابهنَّ عن أعمامِهنَّ وأخوالِهنَّ مِن بابِ أولَى[١].

الوجه الثالث: أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى اقتَصَرَ هاهنا على بَعضِ ما ذكَرَه مِن المحارِمِ في سُورةِ «النورِ»؛ اكتِفاءً بما تقدَّم[٢].

٢٠- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لم يَذكُرْ قَرابةَ الرَّضاعةِ؛ لأنَّها مَعلومةٌ مِن السُّنَّةِ، فأُريدَ الاختِصارُ هنا[٣].

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ فيه إباحةُ نظَرِ مَحارِمِهنَّ إليهنَّ[٤].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أنَّه لا يجبُ على المرأةِ أنْ تَحتَجِبَ عن المرأةِ[٥]، وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ بـ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾: جميعُ النِّساءِ. أمَّا إذا

= قال الشوكاني: (وقال الزَّجَّاجُ: العَمُّ والخالُ رُبَّما يَصِفانِ المرأةَ لولَدَيهما؛ فإنَّ المرأةَ تحِلُّ لابنِ العَمِّ وابنِ الخالِ، فكُرِه لهما الرُّؤيةُ، وهذا ضعيفٌ جدًّا؛ فإنَّ تجويزَ وَصفِ المرأةِ لِمَن تحِلُّ له ممكِنٌ مِن غيرِهما ممَّن يجوزُ له النَّظَرُ إليها، لا سيَّما أبناءُ الإخوةِ وأبناءُ الأخواتِ، واللَّازِمُ باطِلٌ فالملزومُ مِثلُه، وهكذا يستلزِمُ ألَّا يجوزَ للنِّساءِ الأجنبيَّاتِ أن ينظُرْنَ إليها؛ لأنَّهنَّ يَصِفْنها، واللَّازِمُ باطِلٌ فالملزومُ مِثلُه، وهكذا لا وَجْهَ لِما قاله الشَّعْبيُّ وعِكْرِمةُ مِن أنَّه للمرأةِ أن تضَعَ خِمارَها عند عَمِّها أو خالِها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥٧).

كان المرادُ: المؤمِناتِ فقط؛ فلا يجوزُ لهنَّ التكشُّفُ للكافِراتِ[١].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أنَّه لا يجبُ الاحتِجابُ عن مِلكِ اليمينِ، وهو ما مَلَكَتْه المرأةُ مِلْكًا تامًّا، لا مِلْكًا مُشتركًا، فلو كان عبدٌ بيْنَ امرأتَينِ؛ فإنَّهما يَحتجِبان منه؛ وذلك لأنَّه ليس مِلْكًا لإحداهما، بل مِلْكٌ لهما جميعًا[٢].

٢٤- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ إثباتُ اسمِ الشَّهيدِ للهِ تعالَى، ومعناه: الحاضِرُ الذي لا يَغيبُ؛ المُطَّلِعُ علَى جميعِ الأشياءِ يُشاهِدُها ويراها، المحيطُ عِلمُه بكُلِّ شيءٍ؛ فمعَ أنه في السَّماءِ على عرْشِه، فهو مُطَّلعٌ سُبحانَه على خلْقِه، لا يَخفَى عليه شَيءٌ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((جامع الأصول)) لابن الأثير (٤/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥٧)، ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ٢٣٣، ٢٣٤).

طَعَامٍ ...﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في بَيانِ ما يجِبُ على النَّاسِ مِن رِعايةِ حُقوقِ نِساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بعدَ بَيانِ ما يجِبُ مُراعاتُه عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الحُقوقِ المُتعلِّقةِ بِهنَّ[١].

- قولُه: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ كُنِّيَ بالانتِظارِ عن مُبادرةِ الحُضورِ قبْلَ إبَّانِ (وقتِ) الأكْلِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، ونُكتةُ هذه الكِنايةِ تَشويهُ السَّبقِ بالحُضورِ بجَعْلِه نَهَمًا وجَشَعًا وإنْ كانوا قد يَحضُرون لِغَيرِ ذلك، وبهذا تَعلَمُ أنْ ليس النَّهيُ مُتوجِّهًا إلى صَريحِ الانتظارِ[٢].

- وقولُه: ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ استِدراكٌ من النَّهيِ عن الدُّخولِ بغَيرِ إذنٍ، وفيه دَلالةٌ بيِّنةٌ على أنَّ المُرادَ بالإذنِ إلى الطَّعامِ هو الدَّعوةُ إليه، ومَوقعُ الاستِدراكِ لِرَفعِ تَوهُّمِ أنَّ التَّأخُّرَ عن إبَّانِ الطَّعامِ أفضَلُ؛ فأرشَدَ النَّاسَ إلى أنَّ تَأخُّرَ الحُضورِ عن إبَّانِ الطَّعامِ لا يَنْبغي، وكذلك البقاءُ بعدَ انقضاءِ الطَّعامِ؛ فإنَّه تَجاوُزٌ لِحَدِّ الدَّعوةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ﴾ فيه زِيادةُ حَرْفِ النَّفيِ (لا) قبْلَ ﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ﴾؛ لِتَأْكيدِ النَّفيِ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للتَّحذيرِ، ودَفْعِ الاغترارِ بسُكوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَحسَبوه رَضِيَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٣).

بما فَعَلوا؛ فمَناطُ التَّحذيرِ قولُه: ﴿ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾؛ فإنَّ أذى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُقرَّرٌ في نُفوسِهم أنَّه عمَلٌ مَذمومٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أعَزُّ خَلْقٍ في نُفوسِ المؤمنينَ، وذلك يَقْتضي التَّحرُّزَ ممَّا يُؤذِيه أدْنى أذًى، ومَناطُ دَفْعِ الاغترارِ قولُه: ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡ﴾؛ فإنَّ السُّكوتَ قد يَظُنُّه النَّاسُ رِضًا وإذنًا، ورُبَّما تَطرَّقَ إلى أذهانِ بعضِهم أنَّ جُلوسَهم لو كان مَحظورًا لَمَا سكَتَ عليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأرْشَدَهم اللهُ إلى أنَّ السُّكوتَ النَّاشئَ عن سَببٍ هو سُكوتٌ لا دَلالةَ له على الرِّضا، وأنَّه إنَّما سكَتَ حياءً مِن مُباشَرتِهم بالإخراجِ؛ فهو استحياءٌ خاصٌّ مِن عمَلٍ خاصٍّ[1].

- واقترانُ الجملةِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ به. أو هو مِن تَنزيلِ غيرِ المُتردِّدِ مَنزلةَ المُتردِّدِ؛ لأنَّ حالَ النَّفرِ الَّذين أطالُوا الجُلوسَ والحديثَ في بَيتِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وعَدَمَ شُعورِهم بكَراهيَّتِه ذلك منهم حِينَ دخَلَ البيتَ، فلمَّا وجَدَهم خرَجَ، فغَفَلوا عمَّا في خُروجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن البَيتِ مِن إشارةٍ إلى كَراهيَّتِه بَقاءَهم؛ تلك حالةُ مَن يَظُنُّ ذلك مَأْذونًا فيه؛ فخُوطِبوا بهذا الخِطابِ تَشديدًا في التَّحذيرِ، واستِفاقةً مِن التَّغريرِ. وإقحامُ فِعلِ ﴿كَانَ﴾ في قولِه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡ﴾؛ لإفادةِ تَحقيقِ الخبَرِ[2].

- وصِيغَ ﴿يُؤۡذِي﴾ بصِيغةِ المُضارعِ دونَ اسمِ الفاعلِ (مُؤذِيًا)؛ لِقَصْدِ إفادةِ أذًى مُتكرِّرٍ، والتَّكريرُ كِنايةٌ عن الشِّدَّةِ. وصِيغَ فِعلُ ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ﴾ بصِيغةِ المُضارعِ؛ لأنَّه مُفرَّعٌ على ﴿يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾؛ لِيَدُلَّ على ما دلَّ عليه المُفرَّعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٥، ٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٨٦).

هو عليه[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ أعاد الاسمَ الظَّاهرَ في موضعِ الضَّميرِ، وإلَّا فكان المتوقَّعُ أنْ يقولَ: «إنَّ ذلكم كان يُؤْذيه»! ولكنْ قال تعالى: ﴿يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾؛ إعلاءً لشأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ وإشارةً إلى أنَّه -لنُبُوَّتِه- يجبُ أنْ يَتحاشَى المرءُ أَذِيَّتَه؛ لِمَا له مِن الفضلِ[٢].

- وصِيغَتْ الجُملةُ المعطوفةُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ على بناءِ الجُملةِ الاسميَّةِ مُخالِفةً للمَعطوفةِ هي عليها، فلم يَقُلْ: (ولا يَسْتحيي اللهُ مِن الحقِّ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الوصْفَ ثابتٌ دائمٌ للهِ تعالى؛ لأنَّ الحقَّ مِن صِفاتِه. والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ تَعريفُ الجِنسِ المُرادِ منه الاستغراقُ، والمعنى: واللهُ لا يَستَحْيي مِن جَميعِ أفرادِ جِنسِ الحقِّ، وبهذا العُمومِ في ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ صارتِ الجُملةُ بمَنزلةِ التَّذييلِ[٣].

- وأيضًا في وَضْعِ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ مَقامَ الإخراجِ -حيثُ لم يقلْ: (واللهُ لا يَسْتَحيي مِن إخراجِكم)- إيذانٌ بتَعظيمِ جانبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

- وقولُه: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾؛ فهي زِيادةُ بَيانٍ للنَّهيِ عن دُخولِ البيوتِ النَّبويَّةِ، وتَحديدٌ لِمقدارِ الضَّرورةِ الَّتي تَدْعو إلى دُخولِها، أو الوقوفِ بأبوابِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٤٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٠).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ اسمُ التَّفضيلِ ﴿أَطۡهَرُ﴾ مُستعمَلٌ للزِّيادةِ دونَ التَّفضيلِ، وهي زِيادةُ تَقريرِ مَعنى أُمومتِهنَّ للمؤمنينَ في قُلوبِ المؤمنينَ الَّتي هي أُمومةٌ جَعليَّةٌ شَرعيَّةٌ[١].

- ودلَّ قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ على الحظْرِ المُؤكِّدِ لِعُمومِ أذيَّةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ جُملةَ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ﴾ نَفيٌ للاستِحقاقِ الَّذي دلَّتْ عليه اللَّامُ، وإقحامُ فِعلِ (كان)؛ لِتَأكيدِ انتفاءِ الإذْنِ، وهذه الصِّيغةُ مِن صِيَغِ شِدَّةِ التَّحريمِ[٢].

- والتَّعبيرُ عنه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بعُنوانِ الرِّسالةِ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًا﴾؛ لِتَقبيحِ ذلك الفِعلِ، والإشارةِ إلى أنَّه بمراحِلَ عمَّا يقتضيه شأنُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ في الرِّسالةِ مِن نَفعِهم المُقتَضي للمُقابَلةِ بالمِثلِ دونَ الإيذاءِ: ما فيها[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أُكِّدَ الظرْفُ (بعد) بإدخالِ (مِن) الزَّائدةِ عليه، ثمَّ أُكِّدَ عُمومُه بظَرْفِ ﴿أَبَدًا﴾؛ لِيُعلَمَ أنَّ ذلك لا يَتطرَّقُه النَّسخُ، ثمَّ زِيدَ ذلك تأْكيدًا وتَحذيرًا بقولِه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾؛ فهو استِئنافٌ مُؤكِّدٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى ما ذُكِرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٠ ٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٤).

مِن إيذائِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ونِكاحِ أزواجِه مِن بَعدِه. وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِه في الشَّرِّ والفَسادِ. وتَقييدُ العظيمِ بكَونِه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ للتَّهويلِ والتَّخويفِ؛ لأنَّه عظيمٌ في الشَّناعةِ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

- هذه الجُملةُ ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ تَذييلٌ؛ لِمَا اشتمَلَتْ عليه مِن العُمومِ في قولِه: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾، والمُرادُ مِن كلِمةِ ﴿شَيْـًٔا﴾ الدَّلالةُ على العُمومِ لكلِّ ما يَبْدو وما يَخْفَى، وأنَّ اللهَ يَعلَمُه. وفي هذا التَّعميمِ مع البُرهانِ على المقصودِ مَزيدُ تَهويلٍ، وتَشديدٌ، ومُبالَغةٌ في الوعيدِ[2].

- وإظهارُ لَفظِ (شَيْءٍ) هنا دونَ إضْمارِه -حيثُ لم يقلْ: (إنْ تُبْدُوه)-؛ لأنَّ الإضمارَ لا يَستقيمُ؛ لأنَّ (الشَّيءَ) المذكورَ ثانيًا هو غيرُ المذكورِ أوَّلًا؛ إذ المرادُ بالثَّاني جميعُ الموجوداتِ، والمرادُ بالأوَّلِ خُصوصُ أحوالِ النَّاسِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، فاللهُ عليمٌ بكلِّ كائنٍ، ومِن جُملةِ ذلك: ما يُبْدونه ويُخْفونه مِن أحوالِهم[3].

٣- قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٥).

- قولُه: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ ...﴾ استِئنافٌ لِبَيانِ مَن لا يَجِبُ الاحتِجابُ عنهم[١].

- والمَجرورُ ﴿فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ مُقدَّرٌ فيه مُضافٌ، تَقديرُه: لا جُناحَ عليهنَّ في رُؤيةِ آبائِهنَّ إيَّاهنَّ، وإنَّما رُجِّحَ جانبُهنَّ هنا؛ لأنَّه في معنى الإذنِ؛ لأنَّ الرِّجالَ مأْمورونَ بالاستئذانِ كما اقتَضَتْه آيةُ سُورةِ (النُّورِ): ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩]، والإذنُ يَصدُرُ منهنَّ؛ فلذلك رُجِّحَ هنا جانبُهنَّ، فأُضِيفَ الحُكمُ إليهنَّ[٢]؛ إذ لا يُتصَوَّرُ الدُّخولُ عليهن إلَّا بإذْنِهنَّ، فالحرَجُ فيه وعدمُه مَصروفٌ لهنَّ؛ فلذلك نفَى عنهُنَّ الجُناحَ فيه[٣].

- وقدَّم اللهُ تعالى الآباءَ؛ لأنَّ اطِّلاعَهم على بناتِهنَّ أكثرُ، ثمَّ الأبناءَ ثمَّ الإخوةَ، وذلك ظاهرٌ. وقدَّم بَني الإخوةِ على بني الأخَواتِ قيل: لأنَّ بني الأخَواتِ آباؤُهم ليسوا بمحارِمَ، إنَّما هم أزواجُ خالاتِ أبنائِهم، وبني الإخوةِ آباؤُهم محارِمُ أيضًا؛ ففي بني الأخَواتِ مَفسَدةٌ ما، وهي: أنَّ الابنَ رُبَّما يحكي خالتَه عندَ أبيه، وهو ليس بمَحْرمٍ، ولا كذلك بنو الإخوةِ[٤].

- والْتُفِتَ مِن الغَيبةِ إلى خِطابِهنَّ في قولِه: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾؛ لِتَشريفِ نِساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَوجيهِ الخِطابِ الإلهيِّ إليهنَّ. وفي الكلامِ حَذْفٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨١).

والتقديرُ: واتَّقِينَ اللهَ فيما أُمِرْتُنَّ به مِن الاحتِجابِ والاستتارِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ الشَّهيدُ: الشَّاهدُ؛ مُبالَغةً في الفِعلِ، وفيه وَعيدٌ مِن اللهِ لِمَن خالَفَ ما أُمِرَ به[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الآيات (٥٦-٥٨)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَعَنَهُمُ﴾: أي: طرَدهم وأبعَدهم وأخزاهم وأهلَكَهم وأقْصاهم، وأصلُ اللَّعْنِ: الطَّردُ والإبعادُ على سبيلِ السَّخطِ(١).

﴿بُهۡتَٰنٗا﴾: أي: زورًا، وكَذِبًا، والبُهتانُ هو الكذبُ الَّذي يُبهَتُ سامعُه، أي: يدهشُ ويتحيَّرُ لِفَظاعتِه، وهو أفحشُ الكذِبِ، والبَهْتُ: التحيُّر والدَّهَشُ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُثْنِيًا على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّ اللهَ تعالى يُثْني على نَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ في الملأِ الأعلى، ومَلائِكتَه يُثْنونَ عليه ويَدْعُونَ له، يا أيُّها الَّذين آمَنوا صَلُّوا على النَّبيِّ محمَّدٍ وسَلِّموا تسليمًا.

ثمَّ يقولُ تعالى متوَعِّدًا مَن آذَى اللهَ ورسولَه: إنَّ الَّذين يُؤْذونَ اللهَ بالكُفرِ أو وَصْفِه بما لا يَليقُ به تعالى، ويؤذونَ رَسولَه محمَّدًا بالقَولِ أو الفِعلِ: أبعَدَهم اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

مِن رَحمتِه في الدُّنيا والآخِرةِ، وأعَدَّ لهم عذابًا مُهينًا.

ثمَّ يَتوعَّدُ مَن يُؤذي المؤمنينَ والمؤمناتِ، فيقولُ: والَّذين يُؤذونَ المؤمِنينَ والمؤمِناتِ بغيرِ جِنايةٍ منهم، فقد تحمَّلوا كَذِبًا فاحِشًا، وإثمًا ظاهِرًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أُعقبَتْ أحكامُ مُعامَلةِ أزواجِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالثَّناءِ عليه وتَشريفِ مَقامِه؛ إيماءً إلى أنَّ تلك الأحكامَ جاريةٌ على مُناسَبةِ عَظَمةِ مَقامِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عندَ اللهِ تعالى، وإلى أنَّ لأزواجِه مِن ذلك التَّشريفِ حظًّا عظيمًا؛ ولذلك كانتْ صِيغةُ الصَّلاةِ عليه الَّتي علَّمَها للمُسلمينَ مُشتملةً على ذِكرِ أزواجِه، ولِيُجعَلَ ذلك تَمهيدًا لأمْرِ المؤمنينَ بتَكريرِ ذِكرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالثَّناءِ والدُّعاءِ والتَّعظيمِ[1].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يُثني على نَبيِّه في الملأِ الأعلى، ومَلائِكتَه يُثنُونَ عليه ويَدْعُونَ له[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٦٠، ٤٦١).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا حذَّر اللهُ تعالى المؤمِنينَ مِن كُلِّ ما يُؤذي الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أعقَبَه بأنَّ ذلك ليس هو أقصى حَظِّهم مِن مُعاملةِ رَسولِهم؛ أن يَتركوا أذاه، بل حَظُّهم أكبَرُ مِن ذلك، وهو: أن يُصَلُّوا عليه ويُسَلِّموا، وذلك هو إكرامُهم الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما بيْنَهم وبيْنَ ربِّهم؛ فجُملةُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بمنزلةِ النَّتيجةِ الواقِعةِ بعدَ التَّمهيدِ[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا ادْعُوا اللهَ بأن يُصَلِّيَ على نبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وحيُّوه تحيَّةَ الإسلامِ، فقولوا: السَّلامُ عليك أيُّها النَّبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه[٢].

عن كَعبِ بنِ عُجْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سألْنا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، كيف الصَّلاةُ عليكم أهلَ البَيتِ؛ فإنَّ اللهَ قد علَّمَنا كيف نُسَلِّمُ عليكم؟ قال: قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ، كما صَلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ؛ إنَّك حميدٌ مَجيدٌ، اللَّهمَّ بارِكْ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ، كما بارَكْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ؛ إنَّك حميدٌ مجيدٌ))[٣].

وعن أبي مَسعودٍ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أتانا رَسولُ الله صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٦١-٤٦٦).

قال ابنُ عثيمين في بيانِ معنى قولِ: السَّلامُ عليكَ: (أنَّك تَسألُ الله سبحانه وتعالى أن يُسلِّمَه مِن الآفاتِ الحِسِّيَّةِ والمَعنويَّةِ؛ فالسَّلامةُ الحِسِّيَّةُ: سلامةُ البدنِ والعِرضِ والمالِ، والسَّلامةُ المعنويَّةُ: سلامةُ الدِّينِ مِن الآفاتِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٦٦).

(٣) رواه البخاري (٣٣٧٠) واللفظ له، ومسلم (٤٠٦).

عليه وسلَّم ونحن في مجلِسِ سَعدِ بنِ عُبادةَ، فقال له بَشيرُ بنُ سَعدٍ: أمَرَنا اللهُ تعالى أن نُصَلِّيَ عليك يا رَسولَ اللهِ، فكيف نُصَلِّي عليك؟ قال: فسكَتَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى تمنَّيْنا أنَّه لم يَسأَلْه، ثمَّ قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ، كما صلَّيتَ على آلِ إبراهيمَ، وبارِكْ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ، كما بارَكْتَ على آلِ إبراهيمَ، في العالَمينَ؛ إنَّك حميدٌ مَجيدٌ، والسَّلامُ كما قد عَلِمتُم[1]))[2].

وعن أبي حُمَيدٍ السَّاعِديِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّهم قالوا: ((يا رَسولَ اللهِ، كيف نُصلِّي عليك؟ فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قولوا: اللَّهمَّ صَلِّ على محمَّدٍ وأزواجِه وذُرِّيَّتِه، كما صَلَّيتَ على آلِ إبراهيمَ، وبارِكْ على محمَّدٍ وأزواجِه وذُرِّيَّتِه، كما بارَكْتَ على آلِ إبراهيمَ؛ إنَّك حميدٌ مَجيدٌ))[3].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((علَّمَني رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -وكَفِّي بينَ كَفَّيْه- التَّشَهُّدَ، كما يُعَلِّمُني السُّورةَ مِن القُرآنِ: التَّحيَّاتُ لله، والصَّلواتُ والطَّيِّباتُ، السَّلامُ عليك أيُّها النَّبيُّ ورَحمةُ اللهِ وبَركاتُه، السَّلامُ علينا وعلى عِبادِ اللهِ الصَّالِحينَ، أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهدُ أنَّ مُحمَّدًا عَبدُه ورَسولُه. وهو بيْنَ ظَهْرانَيْنا، فلمَّا قُبِضَ قُلْنا: السَّلامُ -يعني- على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[4].

---

(١) قولُه: ((والسَّلامُ كما قَدْ عَلِمتُم)): أي أنَّ كيفيَّةَ السَّلامَ عليَّ هي كما عَلِمتُم في التَّشهُّدِ، وهو قولُهم: السَّلامُ عليك أيُّها النَّبيُّ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٤/ ١٢٥).

(٢) رواه مسلم (٤٠٥).

(٣) رواه البخاري (٣٣٦٩) واللفظ له، ومسلم (٤٠٧).

(٤) رواه البخاري (٦٢٦٥) واللفظ له، ومسلم (٤٠٢).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه فصَّل الأشياءَ بتَبيينِ بعضِ أضْدادِها، فبيَّن حالَ مُؤْذي النَّبيِّ؛ ليُبيِّنَ فضيلةَ المسَلِّم عليه[1].

وأيضًا لَمَّا أرشَدَ اللهُ المؤمنينَ إلى تَناهي مَراتبِ حُرْمةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَكريمِه، وحذَّرَهم ممَّا قد يَخْفَى على بعضِهم مِن خَفيِّ الأذَى في جانبِه، بقولِه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقولِه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وعلَّمَهم كيف يُعامِلونه مُعامَلةَ التَّوقيرِ والتَّكريم بقولِه: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقولِه: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] الآيةَ، وعَلِمَ أنَّهم قد امتَثَلوا أو تَعلَّموا؛ أردَفَ ذلك بوَعيدِ قومٍ اتَّسَموا -في الظَّاهرِ- بسِماتِ المؤمنينَ، وكان مِن دأْبِهم السَّعيُ فيما يُؤذي الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فأعلَمَ اللهُ المؤمنينَ بأنَّ أولئك مَلعونون في الدُّنيا والآخرةِ؛ لِيَعلَمَ المؤمنونَ أنَّ أولئك لَيسوا مِن الإيمانِ في شَيءٍ، وأنَّهم مُنافقون؛ لأنَّ مِثلَ هذا الوَعيدِ لا يُعهَدُ إلَّا للكافرينَ[2].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾

أي: إنَّ الَّذين يُؤذُونَ اللهَ بالكُفرِ به، أو بنِسبةِ الصَّاحِبةِ والوَلَدِ والشَّريكِ إليه، أو وَصْفِه بما لا يَليقُ به، أو بالإصرارِ على مَعصيتِه أو بغيرِ ذلك؛ ويُؤْذونَ رَسولَه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٣، ١٠٤).

مُحمَّدًا بالقَولِ أو الفِعلِ، كضَربِه، أو شَتمِه، أو وَصفِه بما لا يليقُ به: أبعَدَهم اللهُ وطرَدَهم مِن رحمتِه في الدُّنيا وفي الآخِرةِ[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((قال اللهُ تعالى: يُؤذيني ابنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهرَ، وأنا الدَّهرُ[٢]، بيَدِي الأمرُ، أقَلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ))[٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((قال اللهُ: كذَّبَني ابنُ آدمَ ولم يكُنْ له ذلك، وشَتَمني ولم يكُنْ له ذلك! فأمَّا تكذيبُه إيَّاي فزَعَم أنِّي لا أقدِرُ أن أُعيدَه كما كان! وأمَّا شَتْمُه إيَّاي فقَولُه: لي ولَدٌ؛ فسُبحاني أن أتَّخِذَ صاحِبةً أو ولَدًا))[٤].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾

أي: وأعدَّ اللهُ لهم في الآخِرةِ عَذابًا يُهينُهم؛ جزاءً لهم على إيذائِهم اللهَ ورَسولَه[٥].

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٨، ١٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٧٣-٤٧٥).

(٢) أنا الدَّهرُ: أي: أنا صاحبُ الدَّهرِ، ومُدَبِّرُ الأمورِ الَّتي تَنسبونها إلى الدَّهرِ. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطَّابي (٣/ ١٩٠٤).

(٣) رواه البخاري (٧٤٩١) واللفظ له، ومسلم (٢٢٤٦).

(٤) رواه البخاري (٤٤٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان اللهُ تعالى مُصَلِّيًا على نَبيِّه، لم يَنفَكَّ إيذاءُ اللهِ عن إيذائِه؛ فإنَّ مَن آذى اللهَ فقد آذى الرَّسولَ؛ فبيَّنَ اللهُ للمُؤمِنينَ أنَّكم إن أتيتُم بما أمَرْتُكم، وصلَّيتُم على النَّبيِّ كما صلَّيتُ عليه، لا ينفَكُّ إيذاؤُكم عن إيذاءِ الرَّسولِ، فيأثَمُ مَن يُؤذيكم؛ لِكَونِ إيذائِكم إيذاءً للرَّسولِ، كما أنَّ إيذائي إيذاؤُه[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾

أي: والَّذين يُؤذونَ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ مِن غَيرِ جِنايةٍ منهم[2]: فقد تحمَّلوا كَذِبًا فاحِشًا؛ لافترائِهم عليهم بما هم منه بُرَآءُ، ويَتحَمَّلونَ إثمًا ظاهِرًا[3].

كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٣).

(٢) قيل: المرادُ: أذيَّتُهم بالأفعالِ والأقوالِ. وممَّن قال بهذا: القرطبي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١١١).

وقيل: المرادُ بالأذَى: أذى القولِ؛ بقرينةِ قولِه تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا﴾؛ لأنَّ البهتانَ مِن أنواعِ الأقوالِ. وممَّن قال بهذا: الرازي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٥).

قال الشوكاني: (﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: ظاهِرًا واضِحًا لا شَكَّ في كَونِه مِن البُهتانِ والإثمِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٠).

وقال ابن عاشور: (والمرادُ بالمُبينِ: العظيمُ القويُّ، أي: جُرْمًا مِن أشدِّ الجُرْمِ، وهو وعيدٌ بالعِقابِ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٥).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ أنَّ الصَّلاةَ والسَّلامَ على النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن مُقتضياتِ الإيمانِ؛ فامتثالُ هذا الأمرِ زيادةٌ في الإيمانِ، ومعصيتُه نقصٌ في الإيمانِ؛ وذلك لأنَّ النِّداءَ كان بوصفِ الإيمانِ[1]. ومِن أهَمِّ مواطِنِ الصَّلاةِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّتي يتأكَّدُ طَلَبُها إمَّا وُجوبًا وإمَّا استِحبابًا مُؤكَّدًا:

أوَّلًا: وهو أهمُّها وآكَدُها: في الصَّلاةِ في آخِرِ التَّشَهُّدِ، وقد أجمَع المُسلِمونَ على مَشروعيَّتِه.

ثانيًا: الصَّلاةُ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في التَّشَهُّدِ الأوَّلِ.

ثالثًا: الصَّلاةُ عليه في صلاةِ الجنازةِ بعدَ التَّكبيرةِ الثَّانيةِ.

رابعًا: الصَّلاةُ عليه بعدَ إجابةِ المؤذِّنِ وعندَ الإقامةِ.

خامِسًا: عندَ دُخولِ المسجِدِ، وعندَ الخُروجِ منه.

سادِسًا: عندَ اجتِماعِ القَومِ وقبْلَ تفرُّقِهم.

سابعًا: عندَ ذِكْرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... إلى غيرِ ذلك مِن مواطِنِ الصَّلاةِ عليه[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، فيه أنَّ أذيَّةَ الرَّسولِ ليست كأذيَّةِ غيرِه؛ لأنَّ العبدَ لا يُؤمنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص:٤٦٢، ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٢٧)، وقد ذكَر ابنُ القيمِ واحدًا وأربعين موطنًا مِن مَواطِنِ الصَّلاةِ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

بالله حتَّى يُؤمنَ برسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومِن لَوازمِ هذا الإيمانِ تعظيمُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك يقتضي ألَّا يكونَ مِثلَ غيرِه(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ فيه أنَّ أذيَّةَ المُؤمنينَ عَظيمةٌ، وإثمَها عَظيمٌ؛ ولهذا كان سَبُّ آحادِ المؤمِنينَ مُوجِبًا للتَّعزيرِ بحَسَبِ حالتِه وعلُوِّ مَرتبتِه؛ فتعزيرُ مَن سَبَّ الصَّحابةَ أبلَغُ، وتعزيرُ مَن سَبَّ العُلَماءَ وأهلَ الدِّينِ: أعظَمُ مِن غَيرِهم(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا ﴾ ذَمُّ الكذبِ؛ ولا سيَّما إذا كان الكذبُ يؤدِّي إلى أذيَّةِ الغيرِ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾ هذه صلاةٌ خاصَّةٌ هي أرفَعُ صلاةً مِمَّا شَمِلَه قَولُه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾؛ لأنَّ عَظَمةَ مَقامِ النَّبيِّ تقتضي عَظمةَ الصَّلاةِ عليه(٤).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ بيانُ عُلُوِّ شأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِكَونِ اللهِ تعالى وملائكتِه يُصَلُّون عليه، فهذا مِن عُلُوِّ شأنِه، ورِفْعةِ ذِكْرِه(٥)، ثمَّ أمَر تعالى أهلَ العالَمِ السُّفليِّ بالصلاةِ والتَّسليمِ عليه، ليجتمعَ الثناءُ عليه مِن أهلِ العالمينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٧٠).

العلويِّ والسفليِّ جميعًا[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ فيه سُؤالٌ: إذا صلَّى اللهُ وملائِكتُه على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأيُّ حاجةٍ إلى صَلاتِنا؟

والجوابُ: أنَّ الصَّلاةَ عليه ليست لحاجتِه إليها، وإلَّا فلا حاجةَ إلى صلاةِ الملائِكةِ مع صَلاةِ اللهِ عليه، وإنَّما هو لإظهارِ تَعظيمِه، كما أنَّ اللهَ تعالى أوجَبَ علينا ذِكرَ نَفْسِه، ولا حاجةَ له سُبحانَه إليه، وإنَّما هو لإظهارِ تَعظيمِه منَّا؛ شَفقةً علينا، لِيُثيبَنا عليه؛ ولهذا قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((مَن صلَّى علَيَّ مرَّةً، صلَّى اللهُ عليه عَشْرًا))[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ أنَّ المشروعَ أنْ يُصَلِّيَ الإنسانُ عليه باللَّفظِ؛ ولا يكفي السَّلامُ أو الصَّلاةُ بالقلبِ! وعلى هذا فينبغي عندَما نَكتُبُ الأحاديثَ أنْ نكتُبَ: (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)، وأمَّا ما يفعلُه بعضُ النَّاسِ مِن كتابةِ: (ص)! أو (صلعم)! فإنَّ أهلَ العِلمِ كرِهوا ذلك، وقالوا: إنَّ الأفضلَ أنْ نكتُبُ: (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ دَلالةٌ على وُجوبِ الصَّلاةِ والتَّسليمِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في التَّشَهُّدِ؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ اللهَ سُبحانَه أمَرَ المؤمِنينَ بالصَّلاةِ والتَّسليمِ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٢).

والحديث أخرجه مسلم (٤٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٧٠، ٤٧١).

عليه وسلَّم، وأمْرُه المُطلَقُ على الوُجوبِ ما لم يَقُمْ دَليلٌ على خِلافِه، وقد ثبت أنَّ أصحابَه رَضِيَ اللهُ عنهم سألوه عن كيفيَّةِ هذه الصَّلاةِ المأمورِ بها، فقال: ((قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ على محمَّدٍ...)) الحديثَ، وقد ثبت أنَّ السَّلامَ الَّذي عُلِّمُوه هو السَّلامُ عليه في الصَّلاةِ، وهو سلامُ التَّشَهُّدِ؛ فمَخرجُ الأمْرَينِ والتَّعليمَينِ والمحَلَّينِ واحِدٌ[١].

٦- الأوْلَى في الصلاةِ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم الجمعُ بينَ الصَّلاةِ والتَّسليم، فيُقالُ: صلَّى الله عليه وَسلَّم تسليمًا، ولا يُقتصَرْ على «صلَّى الله عليه» فقط، ولا «عليه السَّلامُ» فقط؛ لقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ قُرِنَ بينَ أذَى اللهِ ورَسولِه؛ للإشارةِ إلى أنَّ أذى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُغضِبُ اللهَ تعالى، فكأنَّه أذًى للهِ[٣]، فأذِيَّةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كأذِيَّةِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ جَمَع بيْنَهما بالواوِ[٤]، فكما أنَّ طاعةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كطاعةِ اللهِ تعالى، ومعصيةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كمعصيةِ اللهِ تعالى؛ فأذيَّةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كأذيَّةِ اللهِ تعالى، يعني: مِن حيثُ التَّحريمُ؛ وأنَّها مِن الكبائرِ، وإلَّا فإنَّ أذيَّةَ اللهِ تعالى أعظَمُ مِن حيثُ الجهةُ الَّتي نُسِبَ إليها الذَّمُّ والعيبُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((الأذكار)) للنووي (ص: ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٤).

(٤) لأنَّ (الواو) -وإنْ كانتْ لا تدلُّ على التَّرتيبِ- يُستفادُ منها الجمْعُ بيْنَ الشيئينِ أو الأشياءِ في المعنَى الذي سِيقتْ له. يُنظر: ((شرح المفصل)) لابن يعيش (٢/ ١٥١)، ((شرح ألفية ابن مالك للشاطبي)) (٥/ ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٧٧).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فيه إشارةٌ إلى بُعدٍ لا رجاءَ للقُرْبِ معه؛ لأنَّ المُبعَدَ في الدُّنيا يرجو القُربةَ في الآخِرةِ، فإذا أُبعِدَ في الآخِرةِ فقد خاب وخَسِر؛ لأنَّ اللهَ إذا أبعَدَه وطَرَده، فمَنِ الَّذي يُقرِّبُه يومَ القيامةِ[(١)]؟!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أنَّ أذيَّةَ اللهِ تعالى ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن كبائرِ الذُّنوبِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى تَوَعَّدَ عليها باللَّعنِ والعَذابِ، وكلُّ شيءٍ تَوَعَّدَ اللهُ تعالى عليه باللَّعنِ أو العذابِ فإنَّه مِن كبائرِ الذُّنوبِ[(٢)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا﴾ أنَّ مَن آذى المؤمِنينَ بما اكتَسَبوا، فإنَّه ليس عليه شَيءٌ؛ مِثلُ: إقامةِ الحَدِّ على المُجرِمِ، وتَغريمِ الظَّالمِ، وما أشبَهَ ذلك؛ فهذا وإنْ كان فيه أذيَّةٌ لكنَّها بكَسْبِه؛ فقد قال الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾[(٣)] [النور: ٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ﴾ وَصْفُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بأنَّه يَتأذَّى[(٤)]، وليس أذاه سبحانَه مِن جنسِ الأذَى الحاصلِ للمخلوقينَ، كما أنَّ سخطَه وغضَبَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٢٧٣).

قال الشوكاني: (فأمَّا الأذيَّةُ للمُؤمِنِ والمؤمِنةِ بما كسَبه، ممَّا يوجِبُ عليه حدًّا أو تعزيرًا أو نحوَهما: فذلك حقٌّ أثبَتَه الشَّرعُ، وأمرٌ أمَرَنا اللهُ به، ونَدَبَنا إليه، وهكذا إذا وقَع مِن المؤمِنينَ والمؤمِناتِ الابتداءُ بشَتمٍ لمؤمِنٍ أو مؤمنةٍ، أو ضَربٍ؛ فإنَّ القصاصَ مِن الفاعِلِ ليس مِن الأذيَّةِ المحَرَّمةِ على أيِّ وَجهٍ كان، ما لم يجاوِزْ ما شرَعَه اللهُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٧٦).

وكراهتَه ليست مِن جنسِ ما للمخلوقينَ[١]، فالله تعالى أثبَتَ أنَّهم يُؤذونَ اللهَ ورسولَه، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وفي الحديثِ القُدسيِّ: ((يا عبادي، إنَّكم لن تَبلُغوا ضَرِّي فتَضُرُّوني))[٢]، فالضَّررُ مُنتَفٍ عن اللهِ، والأذيَّةُ حاصِلةٌ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ بيانُ كمالِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه إذا كان يَتأذَّى مِن الأشياءِ المُنْكَرةِ الَّتي لا تليقُ به؛ دلَّ ذلك على كمالِه؛ ولهذا عندَ النَّاسِ مِن العَيبِ أنَّ الإنسانَ لا يَتَأذَّى بما يُوصَفُ به مِن عيبٍ[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فكما أنَّ هؤلاء تعالَوْا وتعاظَموا وأهانوا الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم بأذيَّتِه؛ عاقبَهم اللهُ تعالى بما يُهينُهم ويُذِلُّهم مِن العَذابِ[٥].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ فيه تحريمُ أذى المؤمنِ إلَّا بوَجهٍ شَرعيٍّ؛ كالمُعاقَبةِ على ذَنْبٍ، ويَدخُلُ في هذه الآيةِ كُلُّ ما يُؤدِّي للإيذاءِ؛ كالبَيعِ على بَيعِ غَيرِه، والسَّومِ على سَومِه، والخِطبةِ على خِطبتِه، وقد نصَّ الشَّافعيُّ على تحريمِ أكلِ الإنسانِ ممَّا يلي غَيرَه إذا اشتملَ على إيذاءٍ[٦].

١٥- إنَّ سَبَّ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم حَرامٌ؛ وذلك لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٥٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧٧).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٣).

اللهَ سُبحانَه يقول: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، وأدنَى أحوالِ السَّابِّ لهم أنْ يكونَ مُغتابًا، وقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[الهمزة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، وهم صدورُ المؤمنينَ؛ فإنَّهم هم المواجَهُون بالخِطابِ في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حيثُ ذُكِرَتْ، ولم يكتَسِبوا ما يُوجِبُ أذاهم؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه رَضِيَ عنهم رِضًا مُطلقًا بقَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فرضِيَ عن السَّابِقينَ مِن غيرِ اشتراطِ إحسانٍ، ولم يَرْضَ عن التَّابِعينَ إلَّا أنْ يَتَّبِعوهم بإحسانٍ(١).

١٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ مِن أكثَرِ مَن يَدخُلُ في هذا الوَعيدِ: الكَفَرةُ باللهِ ورَسولِه، ثمَّ الرَّافِضةُ الَّذين يتنقَّصونَ الصَّحابةَ ويَعيبونَهم بما قد برَّأهم اللهُ منه، ويَصِفونهم بنَقيضِ ما أخبَرَ اللهُ عنهم(٢).

١٧- قَولُه تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ لم يُذْكَرْ هذا في الآيةِ الأُولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ بسببِ أنَّه لا يمكنُ أنْ يكونَ مِن فِعْلِ اللهِ تعالى أو مِن فِعْلِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يَستحِقُّون به الأذيَّةَ! لكنَّ المؤمنينَ يمكنُ أنْ يَقَعَ منهم ما يَستحِقُّون به الأذيَّةَ؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾؛ لأنَّ المؤمنَ قد يَكتسبُ شيئًا يستحِقُّ الأذيَّةَ عليه، فأذيَّتُه حينَئذٍ ليس فيها وعيدٌ، وليست إثمًا ولا بهتانًا، لكن لا يجوزُ أنْ

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٠).

يُؤْذَى بأكثرَ ممَّا يَستحِقُّ! فلأنَّه سَبَّكَ فلا تَسُبَّه أكثرَ؛ لأنَّك إذا سَبَبْتَه بمِثْلِ ما سَبَّكَ فقد آذيْتَه بقَدْرِ ما اكتسَبَ، وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾[1] [الشورى: ٤٠].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾ الرَّدُّ على الجَبريَّةِ؛ حيثُ أضاف الفِعلَ إليهم. والجَبريَّةُ يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِه، وأنَّه لا حَوْلَ له ولا قُوَّةَ، يَفعَلُ الشَّيءَ بغيرِ اختيارِه، ويَدَعُه بغَيرِ اختيارِه[2]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ؛ مَسوقٌ لِتَشريفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حيًّا وميِّتًا[3].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ ذُكِرَ صلاةُ الملائكةِ مع صَلاةِ اللهِ؛ لِيَكونَ مِثالًا مِن صلاةِ أشرَفِ المخلوقاتِ على الرَّسولِ؛ لِتَقريبِ دَرجةِ صَلاةِ المؤمنينَ الَّتي يُؤمَرونَ بها عَقِبَ ذلك[4].

- وتأْكيدُ الجُملةِ بـ(إنَّ)؛ للاهتِمامِ. ومَجيءُ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ لِتَقويةِ الخبَرِ. وافتتاحُها باسمِ الجلالةِ؛ لإدخالِ المَهابةِ والتَّعظيمِ في هذا الحُكمِ[5].

- وجِيءَ في صَلاةِ اللهِ وملائكتِه بالمُضارعِ ﴿يُصَلُّونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجديدِ والتَّكريرِ؛ لِيَكونَ أمْرُ المؤمنينَ بالصَّلاةِ عليه والتَّسليمِ عَقِبَ ذلك مُشيرًا إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٧٨، ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَكريرِ ذلك منهم؛ أُسوةً بصَلاةِ اللهِ ومَلائكتِه[١].

- وقال هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾، أمَّا في الآيةِ الَّتي سبَقَت فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فجَعَل الصَّلاةَ لله، وعَطَف الملائِكةَ على اللهِ، وهاهنا جمَعَ نَفْسَه وملائِكَتَه، وأسنَدَ الصَّلاةَ إليهم، فقال: يُصَلُّونَ، وفيه تعظيمُ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وهذا لأنَّ إفرادَ الواحِدِ بالذِّكرِ، وعَطْفَ الغَيرِ عليه: يوجِبُ تَفضيلًا للمَذكورِ على المعطوفِ، كما أنَّ المَلِكَ إذا قال: (يَدخُلُ فُلانٌ وفلانٌ أيضًا) يُفهَمُ منه تقديمٌ لا يُفهَم لو قال: (فلانٌ وفلانٌ يَدخُلان). إذا عُلِمَ هذا فقال في حَقِّ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: إنَّهم يُصَلُّون؛ إشارةً إلى أنَّه في الصَّلاةِ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كالأصلِ، وفي الصَّلاةِ على المؤمِنينَ: اللهُ يَرحَمُهم، ثمَّ إنَّ الملائكةَ يُوافِقونَه؛ فهم في الصَّلاةِ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُصَلُّونَ بالإضافةِ كأنَّها واجبةٌ عليهم أو مندوبةٌ، سواءٌ صلَّى اللهُ عليه أو لم يُصَلِّ، وفي المؤمِنينَ ليس كذلك[٢]. وقيل: لَمَّا كان سُبحانَه قد قدَّم قَولَه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ فأفرد كُلًّا بخبرٍ، وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أعلَى المخاطَبينَ حَظًّا؛ فإنَّه رأسُ المؤمِنينَ- أفرَدَه هنا بهذه الصَّلاةِ الَّتي جَمَع فيها الملائِكةَ الكِرامَ معه سُبحانَه، وجعَل الخبَرَ عنهم خبرًا واحِدًا؛ لِيَكونَ أتَمَّ؛ فإنَّ قَولَك: (فُلانٌ وفلانٌ يَنصُرانِ فُلانًا) أضخَمُ مِن قولِك: (فلانٌ يَنصُرُه وفلانٌ)[٣].

- قَولُه: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، ذكَر المصدرَ (تَسْلِيمًا) للتَّأكيدِ؛ لِيَكملَ السَّلامُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٧- ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨١، ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٠٦).

عليه، ولم يؤكِّدِ الصَّلاةَ بهذا التَّأكيدِ؛ لأنَّها كانت مؤكَّدةً بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾[1]، فالحكمةُ في تأكيدِ الأمرِ بالسَّلامِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالمصدرِ دونَ الصَّلاةِ عليه: أنَّ التَّأكيدَ واقعٌ على الصَّلاةِ والسَّلامِ -وإنِ اختلفَتْ جهةُ التَّأكيدِ-؛ فإنَّه سُبحانَه أخبَرَ في أوَّلِ الآيةِ بصَلاتِه عليه وصَلاةِ ملائكتِه عليه مُؤَكِّدًا لهذا الإخبارِ بحرفِ «إنَّ» مُخْبِرًا عن الملائكةِ بصيغةِ الجَمعِ المضافِ إليهِ -وهذا يُفِيْدُ العُمومَ والاستِغراقَ-؛ فإذا استَشْعَرَتِ النُّفوسُ أنَّ شأنَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ اللهِ وعندَ ملائكتِه هذا الشأنُ بادرَتْ إلى الصَّلاةِ عليه -وإنْ لم تُؤْمَرْ بها-؛ بل يكفي تنبيهُها والإشارةُ إليها بأدنى إشارةٍ، فإذا أُمِرَتْ بها لم تَحْتَجْ إلى تأكيدِ الأمرِ، بل إذا جاء مُطْلَقُ الأمرِ بادرَتْ وسارعتْ إلى مُوافَقةِ اللهِ وملائكتِه في الصَّلاةِ عليه -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه-، فلَمْ يُحْتَجْ إلى تأكيدِ الفعلِ بالمصدرِ، ولَمَّا خَلا السَّلامُ عن هذا المعنى، وجاء في حَيِّزِ الأمرِ المُجَرَّدِ دونَ الخبرِ؛ حَسُنَ تأكيدُه بالمصدرِ لِيَدُلَّ على تحقيقِ المعنى وتَثبيتِه، ولِيَقومَ تأكيدُ الفعلِ مقامَ تكريرِه -كما حصلَ التَّكريرُ في الصَّلاةِ خَبرًا وطَلَبًا-، فكذلك حصلَ التَّكريرُ في السلامِ فعلًا ومصدرًا[2].

- وحُذِف متعلَّقُ السَّلامِ -حيثُ لم يقلْ: وسلِّموا عليه-؛ لدَلالةِ متعلَّقِ الصَّلاةِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولِيَصلُحَ أن يكونَ عليه، وأن يكونَ له، فيَصلُحَ أن يُجعلَ التَّسليمُ بمعنى الإذعانِ[3].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٠٩).

لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ الجملةُ مُستأنفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّه يَخطُرُ في نُفوسِ كثيرٍ ممَّن يَسمَعُ الآياتِ السَّابقةِ أنْ يَتساءلوا عن حالِ قَومٍ قد عُلِمَ منهم قِلَّةُ التَّحرُّزِ مِن أذَى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما لا يَليقُ بتَوقيرِه[1].

- وفي قولِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ... ﴾ جيءَ باسمِ الموصولِ (الَّذِينَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم عُرِفوا بأنَّ إيذاءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أحوالِهم المُختصَّةِ بهم، ولدَلالةِ الصِّلةِ ﴿يُؤْذُونَ﴾ على أنَّ أذَى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو عِلَّةُ لَعْنِهم وعَذابِهم[2].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ أُلحِقَت حُرمةُ المؤمنينَ بحُرْمةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَنويهًا بشَأْنِهم، وذُكِروا على حِدَةٍ؛ للإشارةِ إلى نُزولِ رُتبتِهم عن رُتبةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهذا الاستِطرادُ مُعترِضٌ بيْنَ أحكامِ حُرمةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وآدابِ أزواجِه وبَناتِه والمؤمناتِ[3].

- وعطَفَ (المؤمناتِ) على (المؤمنينَ)؛ للتَّصريحِ بمُساواةِ الحُكْمِ، وإنْ كان ذلك مَعلومًا مِن الشَّريعةِ؛ لِوَزْعِ المُؤذِينَ عن أذَى المُؤمناتِ؛ لأنَّهنَّ جانبٌ ضعيفٌ، بخِلافِ الرِّجالِ؛ فقد يَزَعُهم عنهم اتِّقاءُ غَضبِهم، وثأْرِهم لأنفُسِهم[4].

- وتَقييدُ الأذَى هنا بقولِه تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ بعدَ إطلاقِه فيما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قبْلَه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ أذَى اللهِ ورسولِه لا يكونُ إلَّا غيرَ حَقٍّ، وأمَّا أذَى هؤلاءِ فمِنه ومِنْه، ولزِيادةِ تَشنيعِ ذلك الأذَى بأنَّه ظُلمٌ وكذِبٌ[1].

- ومَعنى ﴿ٱحْتَمَلُوا۟﴾ كلَّفوا أنفُسَهم حِمْلًا، وذلك تَمثيلٌ للبُهتانِ بحِمْلٍ ثَقيلٍ على صاحبِه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٦).

الآيات (٥٩-٦٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩ ۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُدۡنِينَ﴾: أي: يَلْبَسْنَ، ويُغطِّينَ، وإدناءُ الجِلبابِ: التَّقنُّعُ به وشَدُّه على الجَبينِ، والدُّنوُّ: القُربُ بالذَّاتِ، أو بالحُكمِ، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمنزلةِ، وأصلُ (دنو): المقارَبةُ[1].

﴿جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾: أي: مَلاحِفِهنَّ وأردِيَتِهنَّ، وأصلُ (جلب) هنا: يدُلُّ على شَيءٍ يُغطِّي شَيئًا[2].

﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ﴾: أي: الَّذين يُخبِرونَ بالأراجيفِ، وهي: الأكاذيبُ الَّتي يكونُ معها اضْطِرابٌ في النَّاسِ، والإرجافُ: إشاعةُ الباطِلِ؛ للاغتِمامِ به، وأصلُ (رجف): يدُلُّ على اضطِرابٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٣)، ((مقاييس اللغة)) =

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾: أي: لَنُسَلِّطَنَّك عليهم، وأصلُه مِن الغِراءِ: وهو ما يُلصَقُ به[١].

﴿ثُقِفُوٓاْ﴾: أي: أُدرِكوا ووُجِدوا وظُفِرَ بهم، وأصلُ (ثقف): يدُلُّ على الحِذْقِ في إدراكِ الشَّيءِ، ثمَّ يُتجَوَّزُ به فيُستعمَلُ في مجرَّدِ الإدراكِ[٢].

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: السُّنَّةُ: هي الطَّريقةُ المَسلوكةُ والمِنهاجُ المتَّبَعُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ واطِّرادِه في سُهولةٍ[٣].

﴿خَلَوْاْ﴾: أي: مَضَوا وذَهَبوا، مِن: خلا الزَّمانُ: إذا مَضَى وذهَبَ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لأزواجِك وبناتِك وجميعِ نِساءِ المُؤمِنينَ يُرخينَ الجلابيبَ على أجسادِهنَّ إذا خرَجْنَ مِن بُيوتِهنَّ؛ ذلك الإدناءُ أقرَبُ إلى أن

= لابن فارس (٢/ ٤٩١)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٩٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/ ١١٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٩)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٧، ٤٩٨)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣١/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

يُعرَفْنَ أنَّهنَّ حرائرُ، وأنَّهنَّ عفيفاتٌ، فلا يَتعَرَّضَ الفُسَّاقُ لهنَّ بأذًى، وكان اللهُ غفورًا رحيمًا.

ثمَّ يقولُ الله تعالى متوعِّدًا أهلَ الشَّرِّ: لَئِنْ لم يَنْتَهِ المنافِقونَ، والَّذين في قُلوبهم مَرَضٌ، والَّذين يُشيعونَ الأخبارَ الكاذِبةَ في المدينةِ لِتَخويفِ المؤمِنينَ- لَنُسَلِّطَنَّك عليهم يا محمَّدُ، ثم لا يُجاوِرونَك في المدينةِ إلَّا زَمنًا قليلًا، مَطرودينَ مُبعَدينَ، أيْنَما وُجِدوا أُسِروا وقُتِلوا، سَنَّ اللهُ بهم سُنَّةَ مَن قَبْلَهم، ولن تجِدَ -يا محمَّدُ- لِسُنَّةِ الله تغييرًا.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ الله تعالى أنَّ مَن يُؤذي المؤمِنينَ يحتمِلُ بُهتانًا، وكان فيه مَنْعُ المكَلَّفِ عن إيذاءِ المؤمِنِ- أمَرَ المؤمِنَ باجتِنابِ المَواضِعِ الَّتي فيها التُّهَمُ الموجِبةُ للتَّأذِّي؛ لئلَّا يَحصُلَ الإيذاءُ الممنوعُ منه، ولَمَّا كان الإيذاءُ القَوليُّ مُختَصًّا بالذِّكْرِ اختَصَّ بالذِّكْرِ ما هو سَبَبُ الإيذاءِ القَوليِّ وهو النِّساءُ؛ فإنَّ ذِكْرَهنَّ بالسُّوءِ يُؤذي الرِّجالَ والنِّساءَ، بخِلافِ ذِكْرِ الرِّجالِ؛ فإنَّ مَن ذَكَر امرأةً بالسُّوءِ تأذَّت وتأذَّى أقارِبُها أكثَرَ مِن تأذِّيها، ومَن ذكَرَ رَجُلًا بالسُّوءِ تأذَّى ولا يتأذَّى نساؤُه، وكان في الجاهليَّةِ تَخرُجُ الحُرَّةُ والأَمَةُ مَكشوفاتٍ يَتبَعُهنَّ الزُّناةُ وتقَعُ التُّهَمُ؛ فأمَرَ اللهُ الحرائِرَ بالتَّجَلْبُبِ[1]؛ فاللهُ تعالى أتبَعَ النَّهيَ عن أذى المؤمِناتِ بأنْ أُمِرْن باتِّقاءِ أسبابِ الأذى؛ لأنَّ مِن شأنِ المَطالِبِ السَّعيُ في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٣).

تذليلِ وَسائِلِها[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾

أي: يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لِزَوجاتِك وبناتِك وجميعِ نساءِ المؤمِنينَ يُرخِينَ جَلابيبَهنَّ على أجسامِهنَّ[٢] إذا خرَجْنَ مِن بُيوتِهنَّ لحاجتِهنَّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٦).

(٢) قولُه: ﴿وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يشملُ زوجاتِ المؤمنينَ، ومَن للمؤمنينَ عليهنَّ ولايةٌ مِن البناتِ والأخواتِ والعمَّاتِ والخالاتِ والأمَّهاتِ وغيرِ ذلك، ويشملُ أيضًا الكتابيَّاتِ إذا تزوَّجْنَ مِن المُسلِمينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٢).

قال القرطبيُّ: (قولُه تعالى: ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ الجلابيبُ جمعُ جلبابٍ... والصَّحيحُ أنَّه الثَّوبُ الَّذي يَسْتُرُ جميعَ البدنِ... واختلَف النَّاسُ في صورة إرخائِه؛ فقال ابنُ عبَّاسٍ وعَبِيدةُ السَّلْمانيُّ: ذلك أن تَلويَه المرأةُ حتَّى لا يَظهَرَ منها إلَّا عَينٌ واحدةٌ تُبصِرُ بها. وقال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا وقَتادةُ: ذلك أن تَلويَه فوقَ الجَبينِ وتَشُدَّه، ثمَّ تَعطِفَه على الأنفِ، وإن ظهَرَت عيناها، لكنَّه يَستُرُ الصَّدرَ ومُعظَمَ الوَجهِ. وقال الحسَنُ: تُغطِّي نِصفَ وَجْهِها). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨١، ١٨٢).

وقيل: المرادُ: تغطيةُ جميعِ الجسَدِ ويدخُلُ فيه الوَجهُ. وممَّن قال بذلك: ابن جرير، والزمخشري، والبيضاويُّ، وابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

قال الواحدي: (قال المفسرون في قوله: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ يغطينَ رءوسَهنَّ ووجوهَهنَّ إلَّا عينًا واحدةً). ((البسيط)) (١٨/ ٢٩٢).

وقال ابن عثيمين: (﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ﴾ أي: على جميعِ البدَنِ، ولكنْ مِن المعروفِ أنَّ الجلبابَ ساترٌ لأكثَرِ البدَنِ، والعادةُ عندَهم أنَّ المرأةَ تَكشِفُ وَجْهَها وتَخرُجُ مكشوفةَ الوجهِ ومكشوفةَ النَّحرِ، فأمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ أن يُدنِينَ عليهنَّ مِن جلابيبِهنَّ، أي: على هذا المكشوفِ الَّذي يُكشَفُ عادةً، وهو الوجهُ والنَّحرُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤١، ٢٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن =

عن أمِّ عَطيَّةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: ((أُمِرْنا أن نُخرِجَ الحُيَّضَ يومَ العِيدينِ، وذواتِ الخُدورِ[1]، فيَشْهَدْنَ جماعةَ المُسلِمينَ ودَعوتَهم، ويَعتَزِلُ الحُيَّضُ عن مُصَلَّاهنَّ. قالت امرأةٌ: يا رَسولَ اللهِ، إحدانا ليس لها جِلبابٌ؟ قال: لِتُلبِسْها صاحِبَتُها مِن جِلبابِها))[2].

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾

أي: إرخاءُ النِّساءِ مِن جَلابيبِهنَّ عليهنَّ عندَ خُروجِهنَّ مِن بُيوتِهنَّ: أقرَبُ لِئَلَّا يَتعَرَّضَ لهنَّ المنافِقونَ والفُسَّاقُ بأذًى؛ فحينَ يَرَونَهنَّ مُتَسَتِّراتٍ يَعرِفونَ أنَّهنَّ حرائرُ، وأنَّهنَّ عفيفاتٌ فلا يَطمَعونَ فيهنَّ[3].

= تيمية (١٥/ ٤٤٨) و(٢٢/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨١)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

قيل: الآيةُ في الحرائرِ دونَ الإماءِ. وإليه ذهب كثيرٌ مِن المفسِّرينَ، ومنهم: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ عطية، وحكاه ابنُ عبدِ البَرِّ إجماعًا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨١)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩٩)، ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٨/ ٥٤٢).

قال ابنُ عبد البَرِّ: (العُلماءُ مُجمِعونَ على أنَّ الله عزَّ وجَلَّ لم يُرِدْ بما أمَرَ به النِّساءَ مِنَ الاحتجابِ وأن يُدنِينَ عليهنَّ مِن جلابيبِهنَّ: الإماءَ، وإنَّما أراد بذلك الحرائرَ). ((الاستذكار)) (٨/ ٥٤٢).

لكن قال أبو الحسَنِ ابنُ القَطَّانِ: (في هذا الإجماعِ الَّذي حكاه نظَرٌ). ((إحكام النظر)) (ص: ٢٢٥).

وقيل: الآيةُ عامَّةٌ في الحرائرِ والإماءِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ حزم، وأبو الحسن ابنُ القطان، وأبو حيَّان، والألبانيُّ. يُنظر: ((المحلى)) لابن حزم (٢/ ٢٤١، ٢٤٨)، ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٢٢٥ - ٢٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٤)، ((جلباب المرأة المسلمة)) للألباني (ص: ٩١، ٩٢).

(١) ذواتُ الخُدورِ: أي: اللَّاتي قَلَّ خُروجُهنَّ مِن بُيوتِهنَّ. والخُدورُ: السُّتورُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٣/ ١٠٦٣).

(٢) رواه البخاري (٣٥١) واللفظ له، ومسلم (٨٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨١، ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٤)، ((مجموع =

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ بالمَغفرةِ أزَلًا وأبدًا؛ فيَستُرُ ذُنوبَ عبادِه، ويَتجاوَزُ

= الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٤٦، ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٧)، ((جلباب المرأة المسلمة)) للألباني (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٧).

قال الشنقيطي: (عامَّةَ المُفسِّرينَ مِن الصَّحابةِ فمَن بعدَهم فَسَّروا الآيةَ معَ بَيانِهم سببَ نُزولِها، بأنَّ نساءَ أهلِ المدينةِ كُنْ يَخْرُجْنَ باللَّيلِ لقضاءِ حاجَتِهنَّ خارجَ البيوتِ، وكان بالمدينةِ بعضُ الفُسَّاقِ يَتَعَرَّضونَ للإماءِ، ولا يَتَعَرَّضونَ للحرائِرِ، وكانَ بعضُ نساءِ المُؤْمنينَ يَخْرُجْنَ في زِيٍّ ليس مُتَمَيِّزًا عن زِيِّ الإماءِ، فيَتعَرَّضُ لهنَّ أولئك الفسَّاقُ بالأذَى؛ ظنًّا منهم أنَّهنَّ إماءٌ، فأمَر اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يأمُرَ أزواجَه وبَناتِه ونساءَ المؤمنينَ أن يَتمَيَّزْنَ في زِيِّهِنَّ عن زِيِّ الإماءِ، وذلك بأَنْ يُدْنينَ عليهنَّ مِن جلابيبِهنَّ، فإذا فَعَلْنَ ذلك ورآهنَّ الفُسَّاقُ عَلِموا أنَّهنَّ حرائِرُ، ومعرِفَتُهم بأنَّهنَّ حرائِرُ لا إماءَ هو معنَى قولِه: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾، فهي معرِفةٌ بالصِّفةِ لا بالشَّخصِ. وهذا التَّفسيرُ مُنْسَجِمٌ مع ظاهِرِ القرآنِ كما تَرى. فقولُه: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾؛ لأنَّ إدناءَهُنَّ عليهنَّ مِن جلابيبِهنَّ يُشْعِرُ بأنَّهنَّ حرائِرُ، فهو أدنَى وأقْرَبُ لِأَنْ ﴿يُعْرَفْنَ﴾ أي: يُعْلَمَ أنَّهنَّ حرائِرُ، ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ مِن قِبَلِ الفسَّاقِ الَّذينَ يَتعرَّضُونَ للإماءِ. وهذا هو الَّذي فَسَّر به أهلُ العلمِ بالتَّفسيرِ هذه الآيةَ، وهو واضحٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٤٥).

وقال أبو حيَّان بعدَ أن قرَّر أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَشملُ الحرائرَ والإماءَ: (﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ لِتَستُّرِهِنَّ بالعِفَّةِ، فلا يُتعرَّضَ لهن، ولا يُلقَيْنَ بما يَكرَهْنَ؛ لأنَّ المرأةَ إذا كانت في غايةِ التَّستُّرِ والانضِمامِ لم يُقْدَمْ عليها، بخِلافِ المتبرِّجةِ؛ فإنَّها مطموعٌ فيها). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٤).

وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ الآيةَ صالحةٌ للمعنيَينِ: الأوَّل: أي: يُعرَفْنَ بأنَّهنَّ عفيفاتٌ بعيداتٌ عن الرِّيَبِ، لا يُرِدْنَ السُّوءَ ولا الفاحشةَ. والثَّاني: أي: يُعرَفْنَ بأنَّهنَّ حرائرُ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٧).

وجمَع السعديُّ بيْن المعنيَينِ، فذكَر أنَّهنَّ إذا لم يَحتجِبْنَ، رُبَّما ظَنَّ مَن في قلبِه مرضٌ أنَّهنَّ غيرُ عفيفاتٍ، فيَتعرَّضُ لهنَّ، ويُؤْذيهنَّ، ورُبَّما يُظَنُّ أنَّهنَّ إماءٌ، فيَتهاوَنُ بهنَّ مَن يريدُ الشَّرَّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

عن مُؤاخَذتِهم بها؛ ومتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالرَّحمةِ؛ فهو رَحيمٌ بعبادِه، ومِن ذلك شَرعُه لهم مِنَ الأحكامِ ما فيه صَلاحُهم(١).

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ المُشرِكِ الَّذي يُؤذي اللهَ ورَسولَه، والمجاهِرِ الَّذي يُؤذي المؤمِنينَ- ذكَرَ حالَ المُسِرِّ الَّذي يُؤذِي اللهَ ورَسولَه، ويُظهِرُ الحَقَّ ويُضمِرُ الباطِلَ، وهو المُنافِقُ(٢).

وقيل: إنَّه انتِقالٌ مِن زَجرِ قَومٍ عُرِفوا بأذَى الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- والمؤمِنينَ والمؤمِناتِ، ومِن توَعُّدِهم بغَضَبِ اللهِ عليهم في الدُّنيا والآخِرةِ؛ إلى تَهديدِهم بعِقابٍ في الدُّنيا يَشْرَعُه اللهُ لهم إنْ هم لم يُقلِعوا عن ذلك؛ للعِلمِ بأنَّه لا يَنفعُ في أولئك وعيدُ الآخرةِ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بالبَعثِ، وأولئك هم المنافِقونَ(٣).

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

قال ابنُ جرير: (﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِمَا سَلَف منهنَّ مِن تركِهنَّ إدناءَهنَّ الجلابيبَ عليهنَّ ﴿رَّحِيمًا﴾ بهنَّ أن يُعاقِبَهنَّ بعدَ توبتِهنَّ بإدناءِ الجلابيبِ عليهنَّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٣).

وقيل: هو صَفْحٌ عمَّا سبَقَ مِن أذَى الحرائرِ قبْلَ تَنبيهِ النَّاسِ. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٧).

أي: لَئِنْ لم يَنتَهِ الَّذين يُخْفُونَ الكُفرَ، ويُظهِرونَ الإيمانَ، والَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ[(١)]، والمُشيعُونَ في المدينةِ الأخبارَ الكاذِبةَ الباطِلةَ لتَخويفِ المُؤمِنينَ[(٢)]؛ لَنُسَلِّطَنَّك -يا رَسولَ اللهِ- عليهم، ولنحْمِلَنَّك على مُؤاخذتِهم إن استَمَرُّوا على ذلك[(٣)].

---

(١) قيل: هو مَرَضُ الشَّهوةِ. وممَّن قال بهذا في الجملةِ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦١).

وممَّن ذهب إلى نحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: عِكْرِمةُ، وقَتادةُ، وأبو صالحٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٤).

قال الواحدي: (﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني: الفُجورَ، وهم الزُّناةُ، وهو قولُ جميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٢٩٤).

وقال ابنُ عثيمين: (ويحتمِلُ أن يكونَ المعنى أعمَّ... أي: في قلوبِهم مَرَضٌ مِن الشَّكِّ، أو سوءِ الخُلَقِ، وغيرِ ذلك، وهو أعمُّ وأحسَنُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩٤).

ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

(٢) قيل: الأوصافُ الثَّلاثةُ تعودُ لصِنفٍ واحدٍ، وهم المنافقون. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ، والرازي، والقرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٨).

وقيل: الأوصافُ الثلاثةُ ليست لموصوفٍ واحدٍ. وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ عطية، واختاره أبو حيَّان، والألوسيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٥)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩٦، ٤٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٣، ١٨٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٢، ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٨، ١٠٩).

قال السمرقندي: (يعني: إنْ لم ينتَهوا عن النِّفاقِ وعن الفجورِ وعن القولِ بالأراجيفِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٣).

وقال الشوكاني: (تَوَعَّد سبحانَه أهلَ النِّفاقِ والإرجافِ فقالَ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عَمَّا هم عليه مِن النِّفاقِ ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكٌّ وريبةٌ عمَّا هم عليه مِن الاضطرابِ =

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾

أي: ثمَّ لا يَسكُنونَ المدينةَ معك إلَّا مُدَّةً قَليلةً(١).

﴿مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ٦١﴾

﴿مَّلْعُونِينَ﴾

أي: مَطرودينَ مُبعَدينَ(٢).

= ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ عمَّا يَصْدُرُ منهم مِن الإرجافِ بذِكْرِ الأخبارِ الكاذبةِ المتضَمِّنةِ لتوهينِ جانبِ المسلمينَ، وظهورِ المشركينَ عَليهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٩).

قيل: المعنى: فلا يَبقَونَ في المدينةِ، ولا يُساكِنونك فيها إلَّا مُدَّةً قليلةً حتَّى يخرجوا منها. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، والزمخشري، والنسفي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٦٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣).

وقيل: حتَّى هلاكِهم. وممَّن قال بهذا: السمرقنديُّ، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والرَّسْعَني، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفَرَّاء (٢/ ٣٥٠).

وقيل: المعنى: لا يُجاوِرونك في المدينةِ إلَّا قليلًا؛ لأنَّه يَنفيهم، أو يَقتُلُهم. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ في الجملةِ، أي: مَطرودون مُبعَدون: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والخازن، وابن كثير، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٦٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٧٣)، ((تفسير =

﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾

أي: في أيِّ مكانٍ وُجِدوا، أُسِروا وقُتِلوا[1].

= البغوي)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

وقال جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ: (﴿مَّلْعُونِينَ﴾ مُبْعَدينَ عن الرَّحمةِ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٦٠).

قال الرَّسْعَنيُّ: (﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نُصِب على الذَّمِّ، أو على الحالِ، أي: لا يُجاوِرونك إلَّا مَلْعونين. وقيل: إنَّ ﴿قَلِيلًا﴾ نُصِب على الحالِ أيضًا، على معنى: لا يُجاوِرونك إلَّا أَقِلَّاءَ أذِلَّاءَ مَلْعونينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٩٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٩).

ممَّن اختار أنَّه منصوبٌ على الحالِ، وأنَّ المعنى: لا يُجاوِرونك إلَّا وهم مَلْعونون: الزَّجَّاجُ، وابنُ الجَوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجَّاج (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٩١).

قال ابن عثيمين: (المعنى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في حالِ كونِهم ملعونينَ حالَ المجاورةِ، يعني حتى في بقائِهم عندَك يكونونَ ملعونينَ مطرودينَ مبعدينَ، لا يألفُهم أحدٌ، ولا يَحْنو عليهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩٥، ٤٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٦)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٠).

قيل: هذا حُكمُهم إذا كانوا مُقيمينَ على النِّفاقِ والإرجافِ. وقيل: إنَّ قوله: ﴿مَّلْعُونِينَ ...﴾ إلخ، إنَّما هو لمجرَّدِ الدُّعاءِ عليهم، لا أنَّه أمرٌ لرسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بقتالِهم، ولا تسليطٌ له عليهم. وقد قيل: إنَّهم انْتَهَوا بعدَ نزولِ هذه الآيةِ عن الإرجافِ، فلم يُغْرِه اللهُ بهم. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥١).

قال ابن تيميَّةَ: (الَّذين كانوا منافقينَ، منهم مَن تاب عن نِفاقِه، وانتهَى عنه الغالبُ؛ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾، فلمَّا لم يُغرِه الله بهم، ولم يُقتِّلْهم تقتيلًا، بل كانوا يجاورونَه بالمدينةِ؛ دلَّ ذلك على أنَّهم انْتَهَوا). ((منهاج السنة النبوية)) (٢/ ٤٣). =

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا سَنَّ اللهُ تعالى للمُنافِقينَ هذا العذابَ الهائِلَ في الدُّنيا؛ بيَّنَ أنَّ تلك عادتُه في أوليائِه وأعدائِه(١).

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾

أي: سَنَّ اللهُ بهم سُنَّتَه المعلومةَ في الذين مَضَوْا مِن قبلُ(٢): أن يُعاقِبَهم بتَسليطِ

= وقال ابنُ عاشور: (بهذا الوعيدِ انكفَّ المنافقونَ عن أذاةِ المسلمينَ، وعن الإرجافِ، فلم يقَعِ التَّقتيلُ فيهم؛ إذ لم يُحفَظْ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قتَل منهم أحدًا، ولا أنَّهم خرَج منهم أحدٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٠، ١١١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤١٣).

(٢) قيل: المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾: مَن تقدَّمَ مِن الماضينَ في الأمَمِ السَّابقةِ. وممَّن قال بهذا: البِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥١).

وقيل: أي: مِن المُنافِقينَ الذين يُنافِقون الأنبياءَ إذا هم أظهروا نِفاقَهم، والَّذينَ فَعَلوا مِثْلَ ما فعَل هؤلاءِ، وممن اختار هذا المعنى في الجملة: ابن جرير، والبغوي، والرسعني، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٩١).

وقال القاسمي: (أي: في المفترينَ والمؤذينَ الذين مَضَوا، إذا تمرَّدوا على نفاقِهم وكفرِهم ولم يرجِعوا). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١١٤).

وقيل: المرادُ بهم: مَن سَبقوا مِن أعداءِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، الَّذين أَذِنَ له اللهُ بقَتلِهم؛ مِثلُ الَّذين قُتِلوا مِن المشركينَ في بَدرٍ وغَيرِها، ومِثلُ الَّذين قُتِلوا مِن يهودِ قُرَيظةَ. وممَّن استظهَر ذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١١).

قال ابنُ عاشور: (هذا أظهَرُ؛ لأنَّ ما أصاب أولئك أوقَعُ في الموعظةِ؛ إذ كان هذان الفَريقانِ على ذُكْرٍ مِن المنافِقينَ، وقد شَهِدوا بَعضَهم، وبَلَغَهم خبَرُ بَعضٍ. ويحتملُ أيضًا أن يَشملَ ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ الأممَ السالفةَ الَّذين غَضِب الله عليهم لأذاهم رُسلَهم، فاستأصَلَهم الله تعالى؛ مِثلَ قَومِ فِرعونَ وأضرابِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١١). =

المؤمِنينَ عليهم، فيأخُذونَهم ويُقَتِّلونَهم تَقتيلًا[(١)].

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾

أي: ولن تَجِدَ -يا مُحمَّدُ- لعادةِ اللهِ الَّتي سَنَّها في خَلقِه تَغييرًا[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- يجبُ على الإنسانِ أنْ يَغارَ على زَوجتِه أكثرَ مِن غيرِها؛ لأنَّها فِراشُه، وفي فَسادِها فَسادٌ لفِراشِه، وتَشكيكٌ في نَسْلِه؛ وجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى بدَأ بالأزواجِ، فقال تعالى: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾[(٣)].

= وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (هكذا كانت سُنَّةُ الله في أهلِ بدرٍ: القتلَ، وهكذا سُنَّةُ الله في هؤلاء الزُّناةِ وفي المُرجِفينَ القتلَ، إن لم يَنتهوا). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١١).

قال الزجاج: (المعنى سَنَّ اللَّه في الذين ينافقونَ الأنبياءَ، ويُرجِفون بهم أنْ يُقتَّلوا حيثُما ثُقِفُوا). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٢٣٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٧).

قال الواحدي بعدَ أنْ ذكَر كلامَ الزجَّاجِ: (وهذا معنى قولِ المفسِّرينَ في هذه الآيةِ). ((البسيط)) (١٨/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٩).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أنَّ الإنسانَ مَسؤولٌ عمَّن تحتَ رعايتِه، سواءٌ كانت تلك المسؤوليةُ عامَّةً أم خاصَّةً، وفي هذه الآيةِ مَسؤوليَّتانِ على رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: خاصَّةٌ وعامَّةٌ؛ فالخاصَّةُ قولُه تبارك وتعالى: ﴿لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾، والعامَّةُ قَولُه تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الرِّجالَ قَوَّامونَ على النِّساءِ، وأنَّ على المؤمِنينَ مَسؤوليةً في نسائِهم، وإلَّا لاكتفى بقَولِ: «والنِّساءِ المؤمناتِ»، فالآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّ المؤمِنَ يجبُ أنْ يكونَ مُلاحِظًا لنسائِه[(٢)].

٤- قال الله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ هذه الآيةُ تُرشِدُ إلى تقديمِ إصلاحِ الفاسِدِ مِن الأمَّةِ على قَطْعِه منها؛ لأنَّ إصلاحَ الفاسِدِ يَكسِبُ الأمَّةَ فَردًا صالِحًا، أو طائِفةً صالِحةً تنتَفِعُ الأمَّةُ منها، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بل أرجو أن يُخرِجَ الله مِن أصلابِهم مَن يعبدُ الله وَحْدَه لا يُشرِكُ به شيئًا))[(٣)]؛ ولهذا شُرِعَت استِتابةُ المرتَدِّ قبْلَ قَتلِه تُعرَضُ عليه التَّوبةُ، وشُرِعَت دَعوةُ الكُفَّارِ الَّذين يَغزوهم المسلِمونَ إلى دينِ الإسلامِ قبْلَ الشُّروعِ في غزوِهم؛ فإن أسلَموا وإلَّا عُرِض عليهم الدُّخولُ في ذِمَّةِ المُسلِمينَ؛ لأنَّ في دُخولِهم في الذِّمَّةِ انتِفاعًا للمُسلِمينَ بجِزْيتِهم والاعتِضادِ بهم، وأمَّا قتْلُ القاتِلِ عَمدًا فشُرِعَ فيه؛ مجاراةً لقَطعِ الأحقادِ مِن قُلوبِ أولياءِ القَتيلِ؛ لئلَّا يَقتُلَ بَعضُ الأمَّةِ بَعضًا؛ إذ لا دواءَ لتلك العِلَّةِ إلَّا القِصاصُ؛ ولذلك رغَّبَ الشَّرعُ في العَفوِ وفي قَبولِه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٢، ٤٨٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٠).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ التَّحذيرُ مِن النِّفاقِ ومَرَضِ القَلبِ والإرجافِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى تَوَعَّدَ هؤلاء إذا لم يَنتَهوا بأن يُسَلِّطَ رسولَه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- عليهم، ويُغرِيَه بهم[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل﴾ أهمِّيَّةُ ما أمَر اللهُ تعالى به رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذه الآيةِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى أمَرَه أنْ يُبَلِّغَها أمرًا خاصًّا في قولِه تعالى: ﴿قُل﴾، وإلَّا فكلُّ القرآنِ مأمورٌ بتبليغِه بقَولِه تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، لكنَّ بعضَ الأحكامِ يُصدِّرُها اللهُ عزَّ وجلَّ بلفظِ (قل)، فيكونُ كأنَّه أُرسِلَ بهذه الآيةِ إرسالًا خاصًّا، فيكونُ في ذلك دَليلٌ على أهمِّيَّةِ هذا الأمرِ الَّذي أمَرَ اللهُ تعالى به رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ هذه آيةُ الحِجابِ في حَقِّ سائرِ النِّساءِ، ففيها وجوبُ سَترِ الرأسِ والوجهِ عليهنَّ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ دليلٌ على أنَّ الحِجابَ إنَّما أُمِرَ به الحرائرُ دونَ الإماءِ؛ لأنَّه خَصَّ أزواجَه وبناتِه، ولم يَقُلْ: «وما ملكَتْ يمينُك وإمائِك وإماءِ أزواجِك وبناتِك»، ثمَّ قال: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والإماءُ لم يَدخُلْنَ في نساءِ المؤمنينَ، كما لم يدخُلْ في قَولِه:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٤).

﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ «ما ملَكَتْ أيمانُهنَّ» حتَّى عطفَ عليه في آيتَي النُّورِ والأحزابِ[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ في الآيةِ دَلالةُ رُخصةِ خُروجِ الحرائرِ للحوائجِ؛ لأنَّه لو لم يَجُزْ لهنَّ الخُروجُ لم يُؤمَرْنَ بإرخاءِ الجلبابِ على أنفُسِهنَّ، ولَنُهينَ عن الخُروجِ؛ فإذ لم يُمنَعْنَ دلَّ ذلك أنَّه يجوزُ لهنَّ الخروجُ للحاجةِ[٢].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾ يدُلُّ على وُجودِ أذيَّةٍ إن لم يحتَجِبْنَ؛ وذلك لأنَّهنَّ إذا لم يَحتَجِبْنَ رُبَّما ظُنَّ أنهنَّ غيرُ عَفيفاتٍ، فيَتعرَّضُ لهنَّ مَن في قَلبِه مَرَضٌ فيُؤذيهنَّ، ورُبَّما استُهينَ بهنَّ، وظُنَّ أنهنَّ إماءٌ، فتَهاوَنَ بهنَّ مَن يُريدُ الشَّرَّ؛ فالاحتِجابُ حاسِمٌ لمطامعِ الطَّامعينَ فيهنَّ[٣]، فالحجابُ فيه كَفُّ الأذَى عن المرأةِ؛ فيكونُ في ذلك كرامةٌ لها، وإعزازٌ لها، ورِفعةٌ لها مِن أنْ تُؤذَى[٤].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عامٌّ في كلِّ امرأةٍ مِن المؤمِنينَ، وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٤٨).
آيةُ سورةِ (النور) هي قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلى قَولِه سُبحانه: ﴿أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ [النور: ٣١].
وآيةُ سورةِ (الأحزاب) هي قولُه تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥].
وذكَر ابنُ تيميةَ أن الأَمةَ إذا كانت الشَّهوةُ والفتنةُ حاصلةً بتركِ احتجابِها فإنَّها تحتجبُ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٧٣)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩١).

قال تبارك وتعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دونَ أن يقولَ: «والنِّساء»؛ لأجْلِ الإغراءِ والحَثِّ، كقَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يَحِلُّ لامرأةٍ تُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ...))[(١)]، وإلَّا فإنَّ الكافِراتِ يجبُ عليهِنَّ مِن الحِجابِ ما يجِبُ على المؤمِناتِ؛ لئلَّا يَفتَتِنَ النَّاسُ بهنَّ[(٢)].

٧- أثبت اللهُ تعالى للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بناتٍ، بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾، ومِنَ الشِّيعةِ مَن خالف في ذلك؛ حيث قالوا: ليس للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن بناتٍ إلَّا فاطِمةَ رَضِيَ اللهُ عنها، وأمَّا زَينبُ ورُقَيَّةُ وأمُّ كُلثومٍ -رَضِيَ اللهُ تعالى عنهنَّ- فلَسْنَ بناتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَهم، بل بناتُ خديجةَ رَضِيَ الله عنها مِن زَوجِها الأوَّلِ! وذلك لأنَّ عُثمانَ رَضِيَ الله عنه لَمَّا تزوَّجَ بِنتَي النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حملَتْهم شِدَّةُ بُغضِ عُثمانَ رَضِيَ الله عنه على إنكارِ كَونِهنَّ بِنتَي النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنكارِ القُرآنِ؛ فوقَعَ الخِلافُ بيْنَهم وبيْنَ الله تعالى[(٣)]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ لم يَقُلْ: «على وُجوهِهنَّ»، ولا «على نُحورِهنَّ»، ولا «على صُدورِهنَّ»؛ فيكون شامِلًا لجميعِ البدنِ[(٤)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أنَّ الشَّرعَ يَتشَوَّفُ إلى أنْ تكونَ المرأةُ بعيدةً عن إبرازِ مفاتِنِها؛ لأنَّ الجِلبابَ يكونُ دائمًا واسِعًا لا تَظهَرُ منه مفاتِنُ الجسمِ[(٥)].

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (١٠٨٨)، ومسلم (١٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الشنيعة في بيان الخلاف بين الله تعالى والشيعة)) لإبراهيم الحيدري البغدادي (ص: ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٩٠).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ رحمةُ اللهِ تعالى بعبادِه؛ حيثُ يُبيِّنُ لهم عِلَلَ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ؛ وجهُ ذلك: أنَّ ذِكرَ العِلَلِ يُفيدُ عِدَّةَ فوائِدَ، ومنها:

أ- طُمأنينةُ النَّفْسِ، واقتناعُها اقتناعًا أكثرَ بذلك الحُكمِ المُعَلَّلِ.

ب- سُمُوُّ الشَّريعةِ، وأنَّها لا تأمُرُ بشَيءٍ عبَثًا، بل لا بُدَّ لكلِّ شَيءٍ تأمرُ به مِن الحِكمةِ المناسِبةِ الَّتي يَنبني عليها الحُكمُ.

ج- أنَّ العِلَّةَ إذا كانت عامَّةً أمكَنَ أنْ نَقيسَ على المُعَلَّلِ ما وافقَه في تلك العِلَّةِ، فنُلحِقَه به في الحُكمِ[(١)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إثباتُ صِفَتَي المغفرةِ والرَّحمةِ لله عزَّ وجلَّ، وهذان الوصْفان دَلَّ عليهما الاسمانُ دَلالةَ مُطابَقةٍ، وهذان الاسمان يَدُلَّان على الكرمِ دَلالةَ التِزامٍ[(٢)]؛ لأنّ الكريمَ هو الَّذي يَغْفِرُ، وهو الَّذي يَرْحَمُ[(٣)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ...﴾ شِدَّةُ عنايةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بنساءِ المؤمِنينَ؛ فإنَّ عَلاقةَ الآيةِ هذه بالَّتي قَبْلَها ظاهِرةٌ؛ فإنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩٠).

(٢) تنقسِمُ الدَّلالةُ اللَّفظيَّةُ الوضعيَّةُ ثلاثةَ أقسام: دلالة المطابَقة، ودلالة التَّضمُّن، ودلالة الالتِزام. فدَلالةُ المُطابَقة: هي دَلالةُ اللَّفظِ على تمامِ مُسَمَّاه؛ كدَلالةِ الإنسانِ والأسَدِ على حقيقتَيْهما. ودَلالةُ التَّضَمُّن: هي دَلالةُ اللَّفظِ على بعضِ مُسَمَّاه؛ كدَلالةِ البيتِ على السَّقفِ أو الحائطِ. ودَلالةُ الالتِزامِ: هي دَلالةُ اللَّفظِ على معنًى آخَرَ خارجٍ عن معناه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٩، ٣٣٠)، ((علوم البلاغة البيان)) للمراغي (ص: ٢٠٩، ٢١٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٣٠، ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩٢).

المنافِقينَ والَّذين في قُلوبِهم مرضٌ هم أكثرُ النَّاسِ تَعَرُّضًا لأذيَّةِ المؤمِنات؛ ولهذا أعقَبَ الآيةَ السَّابقةَ بهذه الآيةِ؛ ففيه كمالُ عنايةِ اللهِ تعالى بنِساءِ المؤمِنينَ[١].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ يَقتضي أنَّ مَن لم يَنتَهِ فإنَّه يُؤخَذُ ويُقتَلُ؛ فعُلِمَ أنَّ الانتِهاءَ العاصِمَ للدَّمِ ما كان قبْلَ الأخذِ[٢].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه تحريمُ الأذى بالإرجافِ[٣]، فقولُه: ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ فيه معنَى كَوْنِ الأخبارِ كاذبةً أو مُسيئةً لأصحابِها، يُعيدونها في المجالِسِ؛ لِيَطمئنَّ السَّامِعون لها -مرَّةً بعدَ مرَّةٍ- بأنَّها صادِقةٌ؛ لأنَّ الإشاعةَ إنَّما تُقصَدُ للتَّرويجِ بشَيءٍ غيرِ واقعٍ، أو ممَّا لا يُصَدَّقُ به؛ لاشتِقاقِ ذلك مِن الرَّجفِ والرَّجَفانِ، وهو الاضْطِرابُ والتَّزَلْزُلُ[٤].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ وقَولِه سُبحانَه: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أنَّه إذا ظَهَرَ نِفاقُ المنافِقِ، وتَبيَّنَ عداؤه؛ فإنَّه يجوزُ أن يُعامَلَ بما يَقتَضيه نفاقُه[٥].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الاستِثناءُ فيه لطيفةٌ، وهي: أنَّ اللهَ تعالى وعدَ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه يُخرِجُ أعداءَه مِن المدينةِ، ويَنفيهم على يَدِه؛ إظهارًا لشَوكتِه، ولو كان النَّفيُ بإرادةِ الله مِن غيرِ واسطةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأخلى المدينةَ عنهم في ألطَفِ آنٍ، بقَولِه: كُنْ فيَكونُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩٨).

(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩٨).

ولكنْ لَمَّا أراد اللهُ أن يكونَ على يدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لا يقَعُ ذلك إلَّا بزمانٍ وإن لَطُفَ، فقال: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وهو أن يَتهَيَّؤوا ويَتأهَّبوا للخُروجِ(١).

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يُجاوِرونَك في المدينةِ إلَّا قليلًا بأن تَقتُلَهم أو تَنفِيَهم، وهذا فيه دَليلٌ لِنَفيِ أهلِ الشَّرِّ الَّذين يُتضَرَّرُ بإقامتِهم بينَ أظهُرِ المُسلِمينَ؛ فإنَّ ذلك أحسَمُ للشَّرِّ، وأبعَدُ منه(٢).

١٨- قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، وليست هذه السُّنَّةُ مِثلَ الحُكمِ الَّذي يُبَدَّلُ ويُنسَخُ؛ فإنَّ النَّسخَ يكونُ في الأحكامِ، أمَّا الأفعالُ والأخبارُ فلا تُنسَخُ(٣).

١٩- قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ اللهُ أخبر أنَّ سُنَّتَه لن تُبَدَّلَ ولن تَتحَوَّلَ، وسُنَّتُه عادتُه الَّتي يُسوِّي فيها بيْنَ الشَّيءِ ونَظيرِه الماضي، وهذا يَقتَضي أنَّه سُبحانَه يَحكُمُ في الأمورِ المُتماثِلةِ بأحكامٍ مُتماثِلةٍ(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٣).

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ابتُدِئَ بأزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبَناتِه؛ لأنَّهنَّ أكمَلُ النِّساءِ؛ فذِكْرُهنَّ مِن ذِكْرِ بعضِ أفرادِ العامِّ؛ للاهتِمامِ به[١]. وقيل: بدَأ بأزواجِه؛ لِما لهنَّ به مِن الوُصلةِ بالنِّكاحِ، وأخَّر بناتِه عن الأزواجِ؛ لأنَّ أزواجَهم يَكْفونَه أمرَهنَّ[٢].

- قولُه: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ الإدناءُ: التَّقريبُ، وهو كِنايةٌ عن اللُّبسِ والوَضعِ، أي: يَضعْنَ عليهنَّ جَلابيبَهنَّ[٣].

- والتَّذييلُ بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ صَفْحٌ عمَّا سبَقَ مِن أذَى الحرائرِ قبْلَ تَنبيهِ النَّاسِ إلى هذا الأدَبِ الإسلاميِّ -على قولٍ-، والتَّذييلُ يَقْتضي انتهاءَ الغرَضِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا﴾

- قولُه: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، واللَّامُ في ﴿لَّئِن﴾ مُوَطِّئةٌ للقَسَمِ؛ فالكلامُ بعْدَها قسَمٌ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: واللهِ لئنْ لم يَنتَهِ... واللَّامُ في ﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ﴾ لامُ جوابِ القسَمِ، وجوابُ القسَمِ دليلٌ على جوابِ الشَّرطِ[٥].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَنتَهِ﴾؛ لِظُهورِه، أي: لم يَنتهُوا عن أذَى الرَّسولِ والمؤمنينَ[٦]. وقيل: لم يُذكَرِ المعمولُ الَّذي يَنتَهونَ عنه؛ لِيَعُمَّ ذلك كُلَّ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٨، ١٠٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

توحي به أنفُسُهم إليهم، وتُوَسْوِسُ به وتدعو إليه مِنَ الشَّرِّ؛ مِن التَّعريضِ بسَبِّ الإسلامِ وأهلِه، والإرجافِ بالمُسلِمينَ، وتَوهينِ قُواهم، والتَّعَرُّضِ للمُؤمِناتِ بالسُّوءِ والفاحِشةِ، وغيرِ ذلك مِن المعاصي الصَّادِرةِ مِن أمثالِ هؤلاء[١].

- قولُه: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ التَّغايُرُ في الوَصفِ للشَّخصِ الواحدِ، كأنَّه قال: كلُّ مَنِ اتَّصَفَ بهذه الصِّفاتِ الثَّلاثةِ فله الوعيدُ -وذلك على قولٍ-، ونَصَّ على وَصْفَيْ مرَضِ القلوبِ والإرجافِ مِن صِفاتِ المنافقينَ؛ لِشِدَّةِ ضَررِهما على المؤمنينَ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ اختيرَ عطْفُ الجُملةِ بـ (ثُمَّ) دونَ الفاءِ؛ للدَّلالةِ على تَراخي انتفاءِ المُجاوَرةِ عن الإغراءِ بهم تَراخي رُتْبةٍ؛ لأنَّ الخُروجَ مِن الأوطانِ أشدُّ على النُّفوسِ ممَّا يَلحَقُها مِن ضُرٍّ في الأبدانِ، كما أنَّ الجلاءَ ومُفارَقةَ جِوارِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أعظَمُ ما يُصِيبُهم. والاستِثناءُ بقولِه: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لِتَأكيدِ نَفْيِ المُجاورةِ، وأنَّه ليس جاريًا على طَريقةِ المُبالَغةِ، أي: لا يَبقَون معك في المدينةِ إلَّا مُدَّةً قليلةً[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ فيه إيجازٌ بَديعٌ؛ فاللَّعنُ هو الإبعادُ والطَّردُ، وهو مُستعمَلٌ هنا كِنايةً عن الإهانةِ والتَّجنُّبِ في المدينةِ، أي: يُعامِلُهم المسلمونَ بتَجنُّبِهم عن مُخالَطتِهم، ويَبتعِدون همْ مِن المؤمنينَ اتِّقاءً ووَجَلًا، فتَضمَّنَ أنْ يَكونوا مُتوارينَ مُختفِينَ؛ خَوفًا مِن بَطْشِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٨)، (تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٩).

المؤمنينَ بهم؛ حيث أغْراهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- وقولُه: ﴿تَقْتِيلًا﴾ مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لِعامِلِه، أي: قُتِّلوا قتْلًا شديدًا شاملًا؛ فالتَّأكيدُ هنا تأْكيدٌ لِتَسلُّطِ القتْلِ على جَميعِ الأفرادِ؛ لِرَفْعِ احتِمالِ المجازِ في عُمومِ القتلِ؛ فالمعنى: قُتِّلوا قتلًا شديدًا لا يُفلِتُ منه أحدٌ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾

- في قولِه: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ شُبِّهت السُّنةُ الَّتي عُومِلوا بها بشَيءٍ في وسَطِهم؛ كِنايةً عن تَغلغُلِه فيهم، وتَناوُلِه جميعَهم[٣].

- وذُيِّلَت هذه الآيةُ بجُملةِ ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾؛ لِزيادةِ تَحقيقِ أنَّ العذابَ حائقٌ بالمنافقينَ وأتْباعِهم إنْ لم يَنتهُوا عمَّا همْ فيه، وأنَّ اللهَ لا يُخالِفُ سُنَّتَه؛ لأنَّها مُقْتضى حِكمتِه وعِلمِه، فلا تَجري مُتعلَّقاتُها إلَّا على سَننٍ واحدٍ، وبهذا العُمومِ الَّذي أفادَه وُقوعُ النَّكِرةِ في سِياقِ النَّفيِ تأهَّلَتِ الجُملةُ لِأنْ تكونَ تَذييلًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١١٢).

الآيات (٦٢-٦٨)

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَعِيرًا﴾: أي: نارًا تَتسعَّرُ، أي: تشتعِلُ وتتَّقِدُ وترتفِعُ، والسَّعيرُ اسمٌ مِن أسماءِ جهنَّمَ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أنَّ وقتَ قيامِ السَّاعةِ لا يَعلَمُه إلَّا هو: يَسألُك النَّاسُ -يا محمَّدُ- عن وُقوعِ القيامةِ، قُلْ: عِلمُ ذلك عندَ الله. وما يُدريك -يا محمَّدُ- لعلَّ وَقتَ مَجيءِ القيامةِ قد دنا واقترَبَ.

ثمَّ يُبيِّنُ ما أعدَّه للكافرينَ مِن عِقابٍ، فيقولُ: إنَّ اللهَ طردَ الكافرينَ مِن رَحمتِه، وأعدَّ لهم نارًا مُتسَعِّرةً، ماكِثينَ فيها أبدًا، لا يجِدونَ وليًّا ولا نَصيرًا يومَ تُقلَّبُ وُجوهُهم في النَّارِ يقولونَ: يا لَيْتَنا أطَعْنا اللهَ وأطَعْنا رسولَه.

وقالوا: ربَّنا إنَّا أطَعْنا في الدُّنيا أئمَّتَنا وكُبراءَنا في الكُفرِ والعِصيانِ، فصَرَفونا عن طريقِ الحَقِّ، رَبَّنا ضاعِفْ عليهم العذابَ، وأبْعِدْهم مِن رحمتِك إبعادًا عظيمًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٥٢١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى حالَ المنافِقينَ في الدُّنيا أنَّهم يُلعَنون ويُهانونَ ويُقتَلون؛ أراد أن يُبيِّنَ حالَهم في الآخرةِ، فذكَّرهم بالقيامةِ، وذكَر ما يكونُ لهم فيها[١].

وأيضًا لَمَّا كان تهديدُ المنافِقينَ بعذابِ الدُّنيا يُذَكِّرُ بالخَوضِ في عذابِ الآخرةِ: خوْضِ المُكَذِّبينَ السَّاخِرينَ، وخَوضِ المؤمِنينَ الخائِفينَ، وأهلِ الكتابِ؛ أتْبَعَ ذلك بهذا[٢].

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾.

أي: يَسألُك النَّاسُ -يا مُحمَّدُ- عن يومِ القيامةِ متى يكونُ[٣]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

قيل: المرادُ بالنَّاسِ هنا: المُشرِكون. وممَّن قال بذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤١٥).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ هؤلاء المُؤْذُون لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، لَمَّا تُوُعِّدوا بالعذابِ سألوا عن السَّاعةِ؛ استِبعادًا وتكذيبًا، موهِمينَ أنَّها لا تكونُ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٨).

وقيل: المرادُ: المُشرِكون واليهودُ؛ فكان المشركون يَسألون استعجالًا على سبيلِ الهُزْءِ، واليهودُ يَسألونه امتِحانًا. وممَّن اختاره: الزمخشري، والنسفي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٦).

وزاد الألوسي على المشركينَ واليهودِ: المنافقينَ، وأنَّهم كانوا يَسألون تعَنُّتًا. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٦٧). =

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ لهم: لا يَعلَمُ متى تكونُ القيامةُ إلَّا اللهُ وَحْدَه[١].

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٤].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

أي: وما يُدريك[٢] -يا مُحمَّدُ- لعلَّ وَقتَ مَجيءِ القيامةِ قد دنا واقتَرَب[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وقال الله سُبحانَه: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

= وقيل: المرادُ: عمومُ النَّاسِ؛ فيدخُلُ في ذلك المؤمنونَ والكافِرون. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥٧).

(٢) قال ابن عثيمين: (﴿مَا﴾ يَحتمِلُ أن تكونَ نافيةً، يعني: لا يُدريك عنها شَيءٌ، ويَحتمِلُ أن تكونَ استفهاميَّةً، يعني: أيَّ شَيءٍ يُعلِمُك بها حتَّى تسألَ عنها؟! وأيًّا كان فاللهُ تعالى يَنفي عِلمَ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلم بها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٧)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٥٨٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٨).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ المنافِقينَ في الدُّنيا أنَّهم مَلعونونَ مُهانونَ مَقتولونَ؛ بيَّنَ حالَهم في الآخِرةِ[١].

وأيضًا فهذا حظُّ الكافِرينَ مِن وعيدِ السَّاعةِ، وهذه لَعْنةُ الآخرةِ، قُفِّيَت بها لعنةُ الدُّنيا في قَولِه: ﴿ مَّلۡعُونِينَ ﴾ [الأحزاب: ٦١]؛ ولذلك عَطَف عليها ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴾، فكانت لعنةُ الدُّنيا مُقترِنةً بالأخذِ والتَّقتيلِ، ولعنةُ الآخرةِ مُقترنةً بالسَّعيرِ[٢].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ طَرَد الكافِرينَ وأبعَدَهم عن رَحمتِه[٣].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴾.

أي: وأعدَّ لهم نارًا شَديدةَ الإيقادِ؛ لِتَعذيبِهم بها[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥١١).

قال السعدي: (فأبعَدهم في الدُّنيا والآخرةِ مِن رحمتِه، وكفَى بذلك عقابًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٥).

مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٦٥﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

أي: ماكِثينَ في النَّارِ إلى غيرِ نهايةٍ، فلا يَخرُجونَ منها[1].

﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

أي: لا يَجِدونَ وَليًّا يَتولَّاهم ويَنفَعُهم ويحفَظُهم، ولا نصيرًا يَنصُرُهم مِن عذابِ اللهِ[2].

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦﴾.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾.

أي: يومَ[3] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥١٣، ٥١٤).

(٣) قيل: الظَّرفُ هنا مُتعَلِّقٌ بما سبق، فيكونُ المعنى: لا يجِدُ هؤلاء الكافرون وليًّا ولا نصيرًا في يومِ تُقلَّبُ وُجوهُهم في النَّارِ. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٦٧).

وقيل: الظَّرفُ هنا مُنتَصِبٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ. وممَّن اختاره: القِنَّوْجي. يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (١١/ ١٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٦).

قال ابن عثيمين: (يحتملُ أنَّ العامِلَ قَولُه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾، ويحتمِلُ أنَّها ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ويحتملُ أنَّها ﴿يَجِدُونَ﴾، فتكونُ تنازعت فيها العواملُ الثَّلاثةُ، ويحتمِلُ أنَّ العامِلَ محذوفٌ، أي: اذكُرْ يومَ تقلَّبُ وجوهُهم. وكُلُّ هذا مُحتملٌ، وكُلُّ هذا هو الواقعُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥١٥).

تُقلَّبُ وُجوهُ الكافِرينَ في النَّارِ مِن جِهةٍ إلى أُخرى[١].

﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾.

أي: يَقولُ الكافِرونَ وهم نادِمونَ: يا لَيْتَنا[٢] أطَعْنا اللهَ وأطَعْنا رَسولَه في الدُّنيا، فسَلِمْنا مِن عذابِ الآخرةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۞ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ۞ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾.

أي: وقال الكافِرونَ: رَبَّنا إنَّا أطَعْنا في الدُّنيا أئِمَّتَنا في الضَّلالِ؛ مِن الكُفرِ بك، ومَعصيتِك، ومُخالَفةِ رَسولِك؛ فصَرَفونا عن طريقِ الحَقِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥١٥).

(٢) (يَا) حرفُ تنبيهٍ، أو حرفُ نداءٍ، والمنادَى محذوفٌ يُناسِبُ المقامَ، تقديرُه: يا ربَّنا لَيْتَنا. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣).

قال ابن عثيمين: (قَولُه تعالى: ﴿ يَقُولُونَ ﴾ يحتملُ أنَّها حالٌ -وهو الأقرَبُ- مِنَ الهاءِ في ﴿وُجُوهُهُمۡ﴾ يعني: تُقلَّبُ وهم يتحَسَّرون هذا التحَسُّرَ ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ ﴾. ويحتملُ أن تكونَ استِئنافيَّةً، أي: حكايةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى عنهم ما يقولونَ ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٢). =

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا لم يُجْدِ تَمَنِّي الكافِرينَ الإيمانَ بطاعةِ الله ورَسولِه، ولا قام لهم عذرٌ في تَشَكِّيهم ممَّن أضلُّوهم: دَعَوا على ساداتِهم، فقالوا[1]:

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾.

أي: رَبَّنا عذِّبْهم مِثْلَيْ عَذابِنا[2].

كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٦١].

﴿ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾.

= قال الماوَرْدي: (في «السَّادةِ» هنا ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحدُها: أنَّهم الرُّؤساءُ. الثَّاني: أنَّهم الأُمَراء، قاله أبو أسامةَ. الثَّالثُ: الأشرافُ، قاله طاووسٌ. وفي «الكُبَراءِ» هنا قولانِ؛ أحدُهما: أنَّهم العُلَماء، قاله طاوسٌ. الثَّاني: ذَوو الأسنانِ، وهو مأثورٌ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٢٥).

وقيل: السَّيِّدُ هو ذو الشَّرفِ والقَدْرِ في قومِه، والكُبَراءُ هم الَّذين فوقَ الأسيادِ؛ كالأمراءِ ونحوِهم. قاله ابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥١٩).

وقال القرطبي: (والسَّادةُ والكبراءُ بمعنًى). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٩).

وقال الشوكاني: (المرادُ بالسَّادةِ والكبراءِ: هم الرُّؤساءُ والقادَةُ الَّذينَ كانوا يَمْتَثِلونَ أمْرَهم في الدُّنيا، وَيَقْتَدونَ بهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٤).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿كَبِيرًا﴾ قيل: المعنى: لَعْنًا عظيمًا شديدًا غَليظًا[١].

٢- قِراءةُ ﴿كَثِيرًا﴾ قيل: على معنى أنَّهم يُلعَنونَ مرَّةً بعدَ مَرَّةٍ. وقيل: المعنى: اطرُدْهم عن محالِّ الرَّحمةِ طَرْدا مُتناهِيًا في العدَدِ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ[٢].

﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

أي: واطرُدْهم وأبعِدْهم مِن رَحمتِك طَردًا وإبعادًا عَظيمًا[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ تحذيرُ مَن حَوْلَ وُلاةِ الأُمورِ والوُلاةِ -سواءٌ كانوا وزراءَ أو مُديرينَ أو أكبرَ مِن ذلك- أنْ يَتَّبِعَهم في مَعصيةِ اللهِ تعالى،

---

(١) قرأ بها عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٢٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٢٠).

قال الأزهري: (معنى الكبيرِ والكثيرِ متقارِبٌ، والثَّاءُ أكثرُ. واللهُ أعلَمُ). ((معاني القراءات)) (٢/ ٢٨٦).

وقال القرطبي: (قراءةُ الباءِ ترجِعُ في المعنى إلى الثَّاءِ؛ لأنَّ ما كَبُرَ كان كثيرًا عظيمَ المِقْدارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٠).

وقال ابن عثيمين: (﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ وهذا باعتبارِ الكَمِّيَّةِ، و﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾ باعتبارِ الكيفيَّةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٢٠، ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٢٠، ٥٢١).

وأنَّه سيأتي اليَومُ الَّذي يَندَمُ فيه ويَتبرَّأُ، ويدعو عليهم بمِثلِ هذا الدُّعاءِ[١].

٢- في قولِه تعالى عن الأتْباعِ: ﴿فَأَضَلُّونَا﴾ التَّحذيرُ مِن جُلساءِ السُّوءِ، فكلُّ إنسانٍ ترى أنَّه سيُضِلُّك عن سبيلِ الله تعالى فالواجبُ عليك البُعدُ عنه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ السُّؤالُ عن السَّاعةِ يحتَمِلُ أن يكونَ الحامِلُ عليه التَّكذيبَ بها واستِبعادَها، وهذا يُورَدُ مِن الكُفَّارِ، وتارةً يُسأَلُ عنها سؤالَ استِفهامٍ: متى تكونُ؟ مع الإيقانِ بها، وهذا قد يَرِدُ مِن المؤمنينِ، وتارةً يُسأَلُ عنها؛ لِيُبَيَّنَ للنَّاسِ أنَّه لا يمكِنُ العِلمُ بها، كما سأل جِبريلُ عليه السَّلامُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن السَّاعةِ؛ قال: ((متى السَّاعةُ؟))[٣] وهو لم يَسألِ استِبعادًا وإنكارًا، ولا استِرشادًا: متى يكونُ وَقتُها؟ ولكِنْ إعلامًا بأنَّ وقتَها لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ دليلٌ واضحٌ على أنَّه لا أحدَ غيرُ الله يَعْلَمُ متى تكونُ السَّاعةُ، فمَنِ ادَّعَى أنَّه يَعلَمُ السَّاعةَ متى تكونُ؛ فقد كَذَّبَ القرآنَ، وهو كافرٌ مرتدٌّ عن دينِ الإسلامِ[٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ؛ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾؛ فـ ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ وصفٌ عُلِّقَ به اللَّعنُ، فهو رَبطٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٠٦).

(٥) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٣٦٥/ ٢).

لِلَّعنِ بالكُفرِ، فيكونُ في هذا إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ، وفيه رَدٌّ على الجَهميَّةِ الَّذين يقولونَ: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَفعَلُ الأشياءَ لا لحِكمةٍ، بل لمجرَّدِ المَشيئةِ»[١]!

٤- قولُه تعالى ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ فيه إثباتُ وجودِ النَّارِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ تأبيدُ خُلودِ الكافرينَ في النَّارِ، وفيه رَدٌّ على مَن قال بفَناءِ النَّارِ[٣].

٦- أنَّ السَّادةَ والكُبَراءَ المُضلِّينَ لا يَنفعونَ أتْباعَهم يومَ القيامةِ؛ ووجْهُه: قولُه تعالى: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، ولأنَّهم دَعَوا على هؤلاء: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾، ولو كانوا ينفعونَهم ما دَعَوا عليهم[٤]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ أنَّ طاعةَ الله تعالى ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سببٌ للنَّجاةِ مِن النارِ؛ لأنهم لم يَتمَنَّوا شيئًا سِوى طاعةِ الله تعالى ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّتي يَنْجُونَ بها مِن هذا العذابِ[٥].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ هذا النَّصُّ وأمثالُه فيه نصيبٌ لكلِّ مَنِ اتَّبع أحدًا مِنَ الرُّؤوسِ فيما يُخالِفُ الكِتابَ والسُّنَّةَ؛ سواءٌ كانوا مِن رؤوسِ أهلِ النَّظَرِ والكَلامِ والمعقولِ والفَلسَفةِ، أو رُؤوسِ أهلِ الفِقهِ والكلامِ في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ، أو مِن رُؤوسِ أهلِ العبادةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٢٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١٨).

والزَّهادةِ والتَّألُّهِ والتَّصَوُّفِ، أو مِن رُؤوسِ أهلِ المُلكِ والإمارةِ والحُكمِ والوِلايةِ والقَضاءِ(١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا﴾ تحريمُ تقليدِ العالِمِ إذا تَبَيَّنَ النَّصُّ، وهذا يُؤخَذُ مِن أنَّ اللهَ تعالى عَذَّبَ هؤلاء على تقليدِ كُبَرائِهم وزُعمائِهم في مخالفةِ الحقِّ. فإذا تَبَيَّنَ لك الحقُّ فلا تَقُلْ: قال العالِمُ الفلانيُّ، وقال الإمامُ الفلانيُّ؛ فتكونَ مُشابهًا لأهلِ النَّارِ الَّذين قالوا: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾(٢).

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا﴾ هذا نصٌّ في بُطلانِ التَّقليدِ، وقد احتجَّ العلماءُ بهذه الآيةِ وغيرِها مِن الآياتِ في إبطالِ التَّقليدِ، ولم يمنَعْهم كفرُ أولئك مِن الاحتجاجِ بها؛ لأنَّ التَّشبيهَ لم يَقَعْ مِن جهةِ كُفْرِ أحدِهما وإيمانِ الآخَرِ، وإنَّما وَقَعَ التَّشبيهُ بينَ المقلِّدِينَ بغيرِ حُجَّةٍ للمقلَّدِ، كما لو قَلَّدَ رجُلًا فكَفَرَ، وقَلَّدَ آخَرَ فأذنبَ، وقَلَّدَ آخَرَ في مسألةٍ فأخطأَ وجْهَها؛ كان كلُّ واحدٍ مَلُومًا على التَّقليدِ بغيرِ حُجَّةٍ؛ لأنَّ كلَّ ذلك تقليدٌ يُشْبِهُ بعضُه بعضًا وإنِ اختلفَتِ الآثامُ فيه(٣).

١١- في قَولِه تعالى عن الأتْباعِ: ﴿فَأَضَلُّونَا﴾ جوازُ نِسبةِ الشَّيءِ إلى سَبَبِه، مع أنَّ الَّذي يُضِلُّ ويَهدي حقيقةً هو اللهُ سُبحانَه وتعالى، لكنَّ هؤلاء الكُبَراءَ صاروا سببًا للإضلالِ؛ فنُسِبَ الإضلالُ إليهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (٢/ ٩٧٨)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٣٠، ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٢٢).

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ فيه معنًى لطيفٌ، وهو: أنَّ الدُّعاءَ لا يكونُ إلَّا عندَ عَدَمِ حُصولِ الأمرِ المدعوِّ به، والعذابُ كان حاصِلًا لهم، واللَّعنُ كذلك؛ فطَلَبوا ما ليس بحاصِلٍ، وهو زيادةُ العذابِ، بقَولِهم: ﴿ضِعْفَيْنِ﴾، وزيادةُ اللَّعنِ، بقَولِهم: ﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾

- جُملةُ ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ...﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠]، وبيْن جُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤]؛ لِتَكونَ تَمهيدًا لِجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ...﴾[٢].

- وقولُه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ خِطابٌ مُستقِلٌّ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غيرُ داخلٍ تحتَ الأمرِ، مَسوقٌ لِبَيانِ أنَّها -مع كَونِها غيرَ مَعلومةٍ للخَلْقِ- مَرْجوَّةُ المَجيءِ عن قَريبٍ، أيْ: أيُّ شَيءٍ يُعلِمُك بوَقتِ قيامِها؟! أي: لا يُعلِمُك به شَيءٌ أصلًا[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ تَهديدٌ للمُستعجِلينَ، وإسكاتٌ للمُتعنِّتينَ، وتَسليةٌ للمُمتَحَنينَ، وبيانُ أنَّ السَّاعةَ قريبةُ الوُقوعِ. والإظهارُ في حيِّزِ الإضمارِ -حيثُ لم يقُلْ: (لعلَّها)-؛ للتَّهويلِ وزِيادةِ التَّقريرِ، وتأْكيدِ استِقلالِ الجُملةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي =

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، وقال في سورةِ (الشورى): ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، فزِيدَ هنا معه ﴿تَكُونُ﴾؛ مُراعاةً للفواصلِ[(١)].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ جُملةَ ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلى قولِه: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠- ٦٢]، تُثِيرُ في نُفوسِ السَّامعينَ التَّساؤُلَ عن الاقتصارِ على لَعنِهم وتَقتيلِهم في الدُّنيا، وهلْ ذلك مُنْتهى ما عُوقِبوا به أو لهمْ مِن وَرائِه عذابٌ؟ فكان قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ...﴾ إلخ جوابًا عن ذلك[(٢)].

- وحَرفُ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾ للاهتِمامِ بالخبَرِ، أو مَنظورٌ به إلى السَّامعينَ مِن الكافرينَ. والتَّعريفُ في ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ للعهْدِ، أي: الكافرينَ الَّذين كانوا شاقُّوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وآذَوْه وأرْجَفوا في المدينةِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ التَّعريفُ للاستِغراقِ، أي: كلِّ كافرٍ؛ وعلى الوَجهينِ فصِيغةُ الماضي في فِعلِ ﴿لَعَنَ﴾ مُستعمَلةٌ في تَحقيقِ الوُقوعِ، شُبِّهَ المُحَقَّقُ حُصولُه بالفِعلِ الَّذي حصَلَ[(٣)].

٣- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ فيه تَخصيصُ الوُجوهِ بالذِّكرِ مِن بيْنِ سائرِ الأعضاءِ؛ لإنافةِ الوَجهِ -أي: لشَرفِه وعُلوِّه- على جَميعِ الأعضاءِ؛ فهو

= حيان)) (٨/ ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٦).

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٤)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١١٤، ١١٥).

أكرَمُها؛ فإذا قُلِّبَ في النَّارِ كان تَقليبُ ما سِواه أَوْلى، وفيهِ مَزيدُ تَفظيعٍ للأمْرِ، وتَهويلٌ للخطْبِ. ولأنَّ حرَّ النَّارِ يُؤذِي الوُجوهَ أشَدَّ ممَّا يُؤذِي بقيَّةَ الجِلدِ؛ لأنَّ الوُجوهَ مَقَرُّ الحواسِّ الرَّقيقةِ[١].

- وقولُه: ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ استِئنافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ حالِهم الفَظيعةِ؛ كأنَّه قِيل: فماذا يَصنَعون عندَ ذلك؟ فقِيل: يَقولون مُتحسِّرينَ على ما فاتَهم...[٢].

- وحَرْفُ (يا) في قولِه: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ للتَّنبيهِ -على قولٍ-؛ لِقَصدِ إسماعِ مَن يَرْثِي لِحالِهم، والتَّمَنِّي هنا كِنايةٌ عن التَّندُّمِ على ما فاتَ[٣].

- والألِفُ في آخِرِ قولِه: ﴿ٱلرَّسُولَا۠ ﴾؛ لِرعايةِ الفواصلِ الَّتي بُنِيَت عليها السُّورةُ؛ فإنَّها بُنِيَت على فاصلةِ الألِفِ، وفائدةُ زِيادةِ الألِفِ الوقفُ، والدَّلالةُ على أنَّ الكلامَ قد انقطَعَ، وأنَّ ما بعْدَه مُستأنَفٌ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾

- الابتِداءُ بالنِّداءِ ووَصْفِ الرُّبوبيَّةِ في قولِه: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ إظهارٌ للتَّضرُّعِ والابتِهالِ. وجِيءَ بالأفعالِ في صِيغةِ الماضي؛ لأنَّ هذا القولَ كان مُتقدِّمًا على قولِهم: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٦٦]؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٦).

فذلك التَّمَنِّي نشَأَ لهم وقتَ أنْ مَسَّهم العذابُ مع رُؤسائِهم، وهو خبَرٌ مُستعمَلٌ في الشِّكايةِ والتَّذَمُّرِ، وهو تَمهيدٌ لِطلَبِ الانتِصافِ مِن سادتِهم وكُبرائِهم، ومَقصودٌ مِن هذا الخبرِ أيضًا الاعتِذارُ والتَّنصُّلُ مِن تَبِعةِ ضَلالِهم بأنَّهم مَغرورونَ مَخدوعونَ[1].

- وحَرفُ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾؛ لِمُجرَّدِ الاهتِمامِ. وتَقديمُ قَولِهم: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ اهتمامٌ بما فيه مِن تَعليلٍ لِمَضمونِ قولِهم: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾؛ لأنَّ كُبَراءَهم ما تأتَّى لهم إضلالُهم إلَّا بتَسبُّبِ طاعتِهم العَمْياءِ إيَّاهم، واشتِغالِهم بِطاعتِهم عن النَّظرِ والاستِدلالِ فيما يَدْعونهم إليه مِن فَسادٍ ووَخامةِ مَغَبَّةٍ، وبتَسبُّبِ وَضْعِهم أقوالَ سادتِهم وكُبرائِهم مَوضعَ التَّرجيحِ على ما يَدْعوهم إليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

٥- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ في إعادةِ النِّداءِ في قولِهم: ﴿رَبَّنَآ﴾: تأكيدٌ للضَّراعةِ والابتهالِ، وللمُبالَغةِ في الجُؤارِ، واستِدعاءِ الإجابةِ، وتَمهيدٌ لِقَبولِ سُؤلِهم، حتَّى إذا قُبِلَ سُؤلُهم طَمِعوا في التَّخلُّصِ مِن العذابِ الَّذي أَلْقَوه على كاهلِ كُبَرائِهم، بما في هذا النِّداءِ مِن تَعريضٍ بإلقاءِ تَبِعةِ الضَّلالِ على الَّذين أضَلُّوهم، وأنَّ العذابَ الَّذي أُعِدَّ لهم يُسلَّطُ عليهم. وتَثنيةُ ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ مُستعمَلةٌ في مُطلَقِ التَّكريرِ؛ كِنايةً عن شِدَّةِ العذابِ[3].

- وفي قولِه: ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا﴾ -على قِراءةِ ﴿كَثيرًا﴾- وُصِفَ اللَّعنُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٨).

بالكَثرةِ كما وُصِفَ العذابُ بالضِّعفينِ؛ إشارةً إلى أنَّ الكُبَراءَ استَحقُّوا عَذابًا لِكُفرِهم، وعَذابًا لِتَسبُّبِهم في كُفرِ أتْباعِهم، فالمُرادُ بالكثيرِ: الشَّديدُ القوِيُّ -على قولٍ-؛ فعُبِّرَ عنه بالكثيرِ لِمُشاكَلةِ معنى التَّثنيةِ في قولِه: ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ المُرادِ به الكثرةُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٩).

الآيات (٦٩-٧١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَجِيهًا﴾: أي: ذا مَنزلةٍ عاليةٍ عندَ الله، وشَرَفٍ وكرامةٍ؛ يقال: وَجُهَ الرَّجُلُ وَجاهةً، فهو وَجيهٌ، وهذا الفِعلُ مُشتَقٌّ مِن الوَجهِ الَّذي للإنسانِ(١).

﴿سَدِيدًا﴾: أي: مستقيمًا، صَوابًا، حَقًّا غيرَ باطِلٍ، والسَّدادُ: القصدُ في القولِ، وأصلُ (سدد): يدُلُّ على رَدْمِ شَيءٍ ومُلاءَمَتِه، ومِن ذلك السَّديدُ: ذو السَّدادِ، أي: الاستقامةِ؛ كأنَّه لا ثُلْمَةَ فيه(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يَنهَى الله تعالى عن التَّشبُّهِ ببني إسرائيلَ في إيذائِهم لنبيِّهم موسَى عليه السَّلامُ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تكونوا كالَّذينَ رَمَوا موسى بالعَيبِ كَذِبًا وآذَوه، فبَرَّأه اللهُ تعالى ممَّا رماه به بنو إسرائيلَ كَذِبًا، وكان موسى عندَ الله ذا قدْرٍ وجاهٍ عالٍ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ١٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٥١٩).

ثمَّ يأمُرُ سبحانَه بتَقْواه والقولِ الموافقِ للصَّوابِ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اتَّقوا اللهَ، وقولوا قَولًا حَقًّا صوابًا مستقيمًا، يُصلِحْ لكم أعمالَكم ويَتقبَّلْها منكم، ويَغفِرْ لكم ذُنوبَكم، ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه فقد فاز فوزًا عَظيمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقضَّى وعيدُ الَّذين يُؤْذُون الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بالتَّكذيبِ، ونحوِه مِن الأذى المنبَعِثِ عن كُفرِهم؛ مِنَ المُشرِكينَ والمُنافِقينَ، مِن قَولِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾ [الأحزاب: ٥٧]- حذَّر المؤمِنينَ ممَّا يُؤذي الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بتنزيهِهم عن أن يكونوا مِثلَ قَومٍ نَسَبوا إلى رَسولِهم ما هو أذًى له، وهم لا يَعبَؤونَ بما في ذلك من إغضابِه الَّذي فيه غَضَبُ الله تعالى[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ ﴾.

أي: يا أيُّها الذين آمَنوا بالله ورَسولِه، لا تكونوا كالَّذين آذَوا موسى، فاتَّهَموه أو رَمَوه بالعَيبِ كَذِبًا، فتُؤذوا مُحمَّدًا صلى الله عليه وسلم بقَولٍ أو فِعلٍ يَكرَهُه[2].

عن عبدِ الله بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((قَسَم رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَسْمًا، فقال رجُلٌ: إنَّها لَقِسْمةٌ ما أُريدَ بها وَجْهُ الله! قال: فأتيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٠، ١٩٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣).

عليه وسلَّم فسارَرْتُه، فغَضِبَ مِن ذلك غَضَبًا شَديدًا، واحمَرَّ وَجهُه حتَّى تمنَّيتُ أنِّي لم أذكُرْه له! قال: ثمَّ قال: قد أُوذِيَ موسى بأكثَرَ مِن هذا فصبَرَ!!))[١].

﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾.

أي: فأظهَرَ اللهُ براءةَ موسى ممَّا اتَّهَمه ورماه به بنو إسرائيلَ كَذِبًا وباطِلًا[٢].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ موسى كان رَجُلًا حَيِيًّا ستيرًا[٣] لا يُرَى مِن جِلْدِه شَيءٌ؛ استِحياءً منه، فآذاه مَن آذاه مِن بني إسرائيلَ، فقالوا: ما يَستتِرُ هذا التَّستُّرَ إلَّا مِن عَيبٍ بجِلْدِه: إمَّا بَرَصٍ، وإمَّا أُدْرَةٍ[٤]، وإمَّا آفةٍ! وإنَّ اللهَ أراد أن يُبَرِّئَه ممَّا قالوا لموسى، فخَلا يومًا وَحْدَه، فوضَعَ ثيابَه على الحَجَرِ ثمَّ اغتسَلَ، فلمَّا فَرَغ أقبَلَ إلى ثيابِه لِيَأخُذَها، وإنَّ الحَجَرَ عَدا بثَوبِه، فأخَذَ موسى عصاه وطلَبَ الحَجَرَ، فجعل يقولُ: ثَوبي حَجَرُ! ثوبي حَجَرُ! حتَّى انتهى إلى ملأٍ مِن بني إسرائيلَ، فرأوه عُريانًا أحسَنَ ما خَلَق اللهُ وأبرَأه ممَّا يقولونَ، وقام الحَجَرُ، فأخَذَ ثَوبَه فلَبِسَه، وطَفِقَ بالحَجَرِ ضربًا بعَصاه! فوالله إنَّ بالحَجَرِ لَنَدَبًا[٥] مِن أثَرِ ضَرْبِه: ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا! فذلك قَولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ

---

(١) رواه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢١).

(٣) «سَتِيرًا» -بالتخفيف- على وزنِ فَعيلٍ، بمعنى فاعلٍ، أي: مِن شأنِه وإرادتِه حُبُّ السترِ والصَّونِ، ويُقالُ: «سِتِّيرًا» -بالتَّشديدِ-، مبالغةُ ساترٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٣٦)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ٣٠١)، ((مرقاة المفاتيح)) لملا القاري (٩/ ٣٦٤٢).

(٤) الأُدْرَةُ: نَفخٌ في الخُصيَتينِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٣٨٥).

(٥) لَنَدَبًا: أي: أثرًا وعَلامةً باقيةً مِن أثَرِ ضربِه، وأصلُ النَّدَبِ: أثَرُ الجُرحِ إذا لم يرتفِعْ عن الجِلدِ، فشُبِّهَ به أثَرُ الضَّربِ بالحَجَرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٤٣).

عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾))[١].

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾.

أي: وكان موسى عندَ الله عظيمًا ذا قَدْرٍ ومَنزلةٍ عاليةٍ وجاهٍ، وقَبولٍ واستِجابةٍ لِدُعائِه[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ نهَى الله المُسلِمينَ عمَّا يُؤذي النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وربَأَ بهم عن أن يَكونوا مِثلَ الَّذين آذَوا رَسولَهم؛ وجَّه إليهم بعدَ ذلك نِداءً بأن يَتَّسِمُوا بالتَّقوى وسَدادِ القَولِ؛ لأنَّ فائدةَ النَّهيِ عن المَناكِرِ التَّلَبُّسُ بالمحامِدِ، والتَّقْوى جِماعُ الخَيرِ في العَمَلِ والقَولِ، والقَولُ السَّديدُ مبثُّ الفضائِلِ[٣].

وأيضًا فهذه الآيةُ مُقرِّرةٌ للَّتي قبْلَها مِن قولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٤) واللفظ له، ومسلم (٣٣٩).
وما رواه أبو هُرَيرةَ رضيَ الله عنه هنا عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما أُوذيَ به موسَى عليه أكثَرُ أهلِ التَّفسيرِ، كما ذكَر السَّمْعانيُّ في ((تفسيره)) (٤/ ٣٠٩).
وقال ابنُ جرير -بعدَما حكَى أقوالَ المفسِّرينَ في ذلك-: (أَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: إنَّ بني إسرائيلَ آذَوْا نبيَّ اللهِ ببَعضِ ما كان يَكرَهُ أن يُؤذَى به، فبَرَّأه اللهُ ممَّا آذَوْه به، وجائزٌ أن يكونَ ذلك ما ذُكِر أنَّهم قالوا: إنَّه آدَرُ، وجائزٌ أن يكونَ قِيلَهم إنَّه أبرَصُ، وجائزٌ أن يكونَ ادِّعاءَهم عليه قَتْلَ أخيه هارونَ، وجائزٌ أن يكونَ كُلَّ ذلك؛ لأنَّه قد ذُكِر كُلُّ ذلك أنَّهم قد آذَوْه به، ولا قولَ في ذلك أَوْلى بالحَقِّ ممَّا قال اللهُ إنَّهم آذَوْا موسى، فبَرَّأه اللهُ ممَّا قالوا). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢١، ١٢٢).

كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾ الَّتي بُنِيَتْ على النَّهيِ عمَّا يُؤذَى به رسولُ اللهِ، بيْنَما هذه الآيةُ بُنِيَتْ على الأمرِ باتِّقاءِ اللهِ في حِفظِ اللِّسانِ؛ لِيَترادَفَ عليهم النَّهيُ والأمرُ، مع إتْباعِ النَّهيِ ما يَتضمَّنُ الوعيدَ مِن قِصَّةِ موسى، وإتْباعِ الأمرِ الوعْدَ البليغَ، فيَقْوى الصَّارِفُ عن الأذى، والدَّاعي إلى تَركِه[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، اتَّقوا سَخَطَ اللهِ وغَضَبَه وعَذابَه؛ بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[2].

﴿وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

أي: وقولوا في الرَّسولِ والمؤمِنينَ وفي جميعِ كلامِكم قَولًا حقًّا صوابًا، مُستقيمًا لا انحِرافَ فيه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٢١، ٤٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٢٢).

قال ابن كثير: (قال عكرمةُ: القولُ السَّديدُ: لا إلهَ إلَّا اللَّهُ. وقال غيرُه: السَّديدُ: الصِّدْقُ. وقال مجاهدٌ: هو السَّدادُ. وقال غيرُه: هو الصَّوابُ. والكلُّ حقٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٨).

وقال السعدي عن القَولِ السَّديدِ: (وهو القَولُ الموافِقُ للصَّوابِ، أو المقارِبُ له عندَ تعَذُّرِ اليَقينِ؛ مِن قراءةٍ، وذِكرٍ، وأمرٍ بمعروفٍ، ونَهيٍ عن مُنكَرٍ، وتعلُّمِ عِلمٍ وتَعليمِه، والحِرصِ على إصابةِ الصَّوابِ في المسائلِ العِلميَّةِ، وسلوكِ كُلِّ طريقٍ يُوصِلُ لذلك، وكلِّ وَسيلةٍ تُعِينُ عليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣).

وقال القرطبي: (ظاهِرُ الآيةِ يُعطي أنَّه إنَّما أشار إلى ما يكونُ خِلافًا للأذى الَّذي قيلَ في جِهةِ الرَّسولِ وجِهةِ المؤمِنينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٣).

﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾.

أي: يُوفِّقْكم اللهُ في أعمالِكم، فيَجعَلْها صالِحةً، ويَتقَبَّلْها منكم[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ﴾.

أي: ويَغفِرِ اللهُ لكم ذُنوبَكم، فيَستُرْها عليكم، ويَتجاوَزْ عن مُؤاخَذتِكم بها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ [الطلاق: ٥].

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾.

أي: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه فقد فاز فوزًا عَظيمًا؛ بالنَّجاةِ مِن النَّارِ، ودُخولِ الجنَّةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٣٢).

كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ يدُلُّ على وُجوبِ توقيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتجنُّبِ ما يُؤذيه، وتلك سُنَّةُ الصَّحابةِ والمُسلِمينَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أنَّ مَن لم يَتَّقِ اللهَ ويَقُلْ قولًا سديدًا فإنَّه حَرِيٌّ بألَّا يُصلِحَ اللهُ له أعمالَه، ولا يَغْفِرَ له ذَنْبَه؛ ففيه الحَثُّ على تَقْوى الله، وبيانُ فوائِدِها[٢].

٣- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أرشَدَهم إلى ما ينبغي أن يَصدُرَ منهم مِن الأفعالِ والأقوالِ؛ أمَّا الأفعالُ فالخَيرُ، وأمَّا الأقوالُ فالحَقُّ؛ لأنَّ مَن أتَى بالخيرِ وتَرَك الشَّرَّ فقد اتَّقَى اللهَ، ومَن قال الصِّدقَ قال قَولًا سَديدًا[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ خيرَ الدُّنيا والآخرةِ جميعًا يُستَنزَلُ بالتَّقوى والصِّدقِ والطَّاعةِ لله جلَّ وتعالى، وهو نظيرُ قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقَولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٦).

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[١] [الطلاق: ٢، ٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ ﴾ ناداهم بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لِما فيه مِن الإيماءِ إلى أنَّ الإيمانَ يَقتَضي ما سيُؤمَرونَ به[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾ تحريمُ أذِيَّةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والأصلُ في النَّهيِ التَّحريمُ[٣].

٣- لَمَّا كان قد خَصَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم في أوَّلِ السُّورةِ بالأمرِ بالتَّقْوى، عَمَّ في آخِرِها بالأمرِ بها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾

- قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ ﴾ تَنبيهٌ مِن الله للمُؤمِنينَ؛ كيْ لا يَقَعوا في مِثلِ تلك العُنْجهيَّةِ الَّتي وقَعَ فيها بنو إسرائيلَ، وآذَوْا موسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّ مَدارِكَ العُقلاءِ في التَّنبيهِ إلى مَعاني الأشياءِ ومُلازماتِها مُتفاوِتةُ المقاديرِ؛ فكانت حَرِيَّةً بالإيقاظِ والتَّحذيرِ. وفائدةُ التَّشبيهِ: تَشويهُ الحالةِ المُشَبَّهةِ؛ لأنَّ المُؤمِنينَ قد تَقرَّرَ في نُفوسِهم قُبْحُ ما أُوذيَ به مُوسى عليه السَّلامُ بما سبَقَ مِن القُرآنِ، كقولِه: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٢١).

لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، فكان تَوجيهُ الخِطابِ للمُؤمِنينَ مِن أُمَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُراعًى فيه المُشابَهةُ بيْنَ الحالينِ في حُصولِ الإذايةِ(١).

- ونِداؤهم بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه تعريضٌ بأنَّ الَّذين يَصدُرُ منهم ما يُؤذي النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَصدًا: ليسوا مِنَ المؤمِنينَ في باطِنِ الأمرِ، ولكِنَّهم مُنافِقونَ(٢).

- وقولُه: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ إدْماجٌ(٣)، وانتِهازٌ للمَقامِ بذِكْرِ بَراءةِ مُوسى ممَّا قالوا(٤).

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ مُعترِضةٌ في آخِرِ الكلامِ، وأفادتْ بَيانَ سَبَبِ عِنايةِ الله بتَبرئةِ مُوسى عليه السَّلامُ. وذِكرُ فِعلِ (كان) دالٌّ على تَمكُّنِ وَجاهتِه عندَ اللهِ تَعالى، وهذا تَسفيهٌ للَّذِينَ آذَوْه بأنَّهم آذَوْه بما هو مُبرَّأٌ منه، وتَنويهٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٩، ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٢٢).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٠).

وتَوجيهٌ لِتَنزيهِ الله إيَّاه بأنَّه مُستأهِلٌ لتلك التَّبرئةِ؛ لأنَّه وَجيهٌ عندَ الله، وليس بخاملٍ[١].

- وقَدَّمَ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ على قَولِه تعالى: ﴿وَجِيهًا﴾؛ إشارةً أنَّ المُهِمَّ أنْ تكونَ وجيهًا عندَ الله تعالى[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ابتِداءُ الكلامِ هنا بنِداءِ الَّذين آمَنوا؛ للاهتِمامِ به، واستِجلابِ الإصْغاءِ إليه. وتَقديمُ الأمرِ بالتَّقْوى مُشعِرٌ بأنَّ ما سيُؤمَرونَ به مِن سَديدِ القَولِ هو مِن شُعَبِ التَّقْوى، كما هو مِن شُعَبِ الإيمانِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾

- قولُه: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ قيل: فيه نَشْرٌ على عَكسِ اللَّفِّ[٤]؛ فإصلاحُ الأعمالِ جَزاءٌ على القَولِ السَّديدِ؛ لأنَّ أكثرَ ما يُفيدُه القولُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٢).

(٤) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو أن يُذكَرَ شيئانِ أو أشياءُ؛ إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلٍّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتملُ على متعدِّدٍ- ثم يُذكرَ أشياءُ على عدَد ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِنَ المتقدِّم، ويُفوَّض إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به.
فاللَّفُّ يُشار به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ؛ مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.
واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ =

السَّديدُ إرشادُ النَّاسِ إلى الصَّلاحِ، أو اقتِداءُ النَّاسِ بصاحبِ القَولِ السَّديدِ، وغُفرانُ الذُّنوبِ جَزاءٌ على التَّقوى؛ لأنَّ عَمودَ التَّقوى اجتنابُ الكبائِرِ، وقد غفَرَ اللهُ للنَّاسِ الصَّغائرَ باجتنابِ الكبائِرِ، وغفَرَ لهم الكبائِرَ بالتَّوبةِ، والتَّحوُّلُ عن المعاصي بعدَ الهَمِّ بها ضَرْبٌ مِن مَغفرتِها(١).

- وذِكرُ ﴿لَكُمْ﴾ مع فِعْلَيْ ﴿يُصْلِحْ﴾، ﴿وَيَغْفِرْ﴾؛ للدَّلالةِ على العِنايةِ بالمُتَّقينَ أصحابِ القَولِ السَّديدِ(٢).

- وقولُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يُصْلِحْ

= ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلٍّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كما في قولِه تعالى هنا: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وغيرُ المرتَّب -وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس»-: هو أن يأتيَ النَّشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّلٌ، وجاء بعْدَها نَشْرٌ غَيرُ مُرَتَّب؛ فجُملةُ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى ومتعلِّقةٌ بها، وجملةُ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ ومُتعلِّقةٌ بها، وجملةُ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ ومتعلِّقةٌ بها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٣).

وقيل: وعَدَهم على التقوى بإصلاحِ الأعمالِ؛ فإنَّ بتَقْوى اللهِ يَصلُحُ العمَلُ، والعملُ الصَّالحُ يُرفَعُ ويَبقَى، فيَبقَى فاعِلُه خالِدًا في الجنَّةِ؛ ووعَدَهم على القَولِ السَّديدِ بمَغفرةِ الذُّنوبِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٦).

وقيل: يترتبُ على التقوَى، والقولِ السديدِ: إصلاحُ الأعمالِ والمغفرةُ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٣).

لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وإنَّما صِيغَتِ الجُملةُ في صِيغةِ الشَّرطِ وجَوابِه؛ لإفادةِ العُمومِ في المُطيعينَ، وأنواعِ الطَّاعاتِ؛ فصارتِ الجُملةُ بهَذينِ العُمومَينِ في قُوَّةِ التَّذييلِ، وهذا نَسجٌ بَديعٌ مِن نَظْمِ الكلامِ؛ وهو إفادةُ غَرَضينِ بجُملةٍ واحدةٍ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٣، ١٢٤).

الآيتان (٧٢-٧٣)

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَأَبَيْنَ﴾: أي: امتَنَعْنَ، والإباءُ: هو امتناعٌ باختيارٍ، وأبَى الشَّيءَ: لم يَرْضَه، وأبى عليه: امْتَنَع، وهو غيرُ الاستكبارِ، وكلُّ إباءٍ: امْتناعٌ بلا عكسٍ، فإنَّ الإباءَ شدَّةُ الامتناعِ، وأصلُ (أبي): يَدُلُّ على الِامْتِناعِ[1].

﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾: أي: خِفْنَ مِن الأمانةِ أن لا يُوفِّيْنَها، فيَلحَقَهنَّ العقابُ، والإشفاقُ: عنايةٌ مختلطةٌ بخَوفٍ، وإذا عُدِّي بـ (مِن) فمعنَى الخوفِ فيه أظهرُ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رقَّةٍ في الشَّيءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى معَظِّمًا شأنَ الأمانةِ، الَّتي ائتمَن عليها المكلَّفينَ: إنَّا عرَضْنا الأمانةَ -مِن أوامِرَ ونَواهٍ وطاعاتٍ- على السَّمواتِ والأرضِ والجِبالِ، فرفَضْنَ حَمْلَها؛ خَشيةً مِن عدَمِ القيامِ بذلك، وحَمَلها الإنسانُ؛ إنَّه ظَلومٌ في عدَمِ الوفاءِ بالأمانةِ، جَهولٌ بربِّه وبعدَمِ تقديرِه قَدْرَ إضاعةِ الأمانةِ؛ لِيُعَذِّبَ اللهُ المنافِقينَ والمُنافقاتِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٦٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١).

-الَّذين يُظهِرونَ الإسلامَ، ويُبطِنونَ الكُفرَ- والمُشرِكينَ والمُشرِكاتِ بالله تعالى، ويَتوبَ اللهُ على المُؤمِنينَ والمؤمِناتِ، وكان الله غَفورًا رَحيمًا.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أرشَد المُؤمنينَ إلى ما أرشَد مِن تركِ الأذَى، واتِّقاءِ الله، وسَدادِ القَولِ، ورَتَّب على الطَّاعةِ ما رَتَّب؛ بَيَّن أنَّ ما كُلِّفَه الإنسانُ أمرٌ عظيمٌ، فقال[1]:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾.

أي: إنَّا عرَضْنا الأوامِرَ والنَّواهيَ والفرائِضَ والطَّاعاتِ على السَّمَواتِ والأرضِ والجِبالِ، فتُثابُ على حَملِها والقيامِ بها، وتُعاقَبُ على تَرْكِ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٨، ٤٨٩)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥٩).

قال الواحدي: (الأمانةُ في هذه الآيةِ في قولِ جميعِهم: الطَّاعةُ والفرائِضُ الَّتي يتعلَّقُ بأدائِها الثَّوابُ، وبتضييعِها العِقابُ). ((البسيط)) (١٨/ ٣٠٢).

وقال أبو حيَّان: (والأمانةُ: الظَّاهرُ أنَّها كلُّ ما يُؤتَمنُ عليه مِن أمرٍ ونهْيٍ، وشأنِ دِينٍ ودُنيا، والشَّرعُ كلُّه أمانةٌ. وهذا قولُ الجمهورِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٩).

وقال السَّمعاني: (قَولُ أكثَرِ السَّلَفِ، وهو المحكيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ وجماعةِ التَّابعينَ: هو أنَّ الله تعالى عرَض أوامِرَه على السَّمواتِ والأرضِ والجبالِ عَرْضَ تخييرٍ لا عَرْضَ إلزامٍ، وقال لهنَّ: أتَحمِلْنَ هذه الأمانةَ بما فيها؟ قلْنَ: وما فيها؟ فقال: إنْ أحسَنْتُنَّ جُوزِيتُنَّ، وإن عَصَيتُنَّ =

عن حُذَيْفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((حدَّثَنا رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حَديثَينِ، رأيتُ أحَدَهما، وأنا أنتَظِرُ الآخَرَ: حدَّثَنا أنَّ الأَمانةَ نَزَلت في جَذْرِ[١] قُلوبِ الرِّجالِ، ثمَّ عَلِموا مِنَ القرآنِ، ثمَّ عَلِموا مِنَ السُّنَّةِ، وحدَّثَنا عن رَفْعِها، قال: يَنامُ الرَّجُلُ النَّومةَ فتُقبَضُ الأمانةُ مِن قَلْبِه، فيَظَلُّ أثَرُها مِثلَ أثَرِ الوَكْتِ[٢]، ثمَّ يَنامُ النَّومةَ فتُقبَضُ فيَبقى أثَرُها مِثْلَ المَجْلِ[٣]؛ كجَمرٍ دحْرَجْتَه على رِجْلِك فنَفِطَ[٤] فتَراه مُنتَبِرًا[٥] وليس فيه شَيءٌ! فيُصبِحُ النَّاسُ يَتبايَعونَ، فلا يَكادُ أحدٌ يؤدِّي الأمانةَ! فيُقالُ: إنَّ في بني فُلانٍ رجُلًا أمينًا! ويقال للرَّجُلِ: ما أعْقَلَه! وما أظرَفَه! وما أجْلَدَه! وما في قَلْبِه مِثقالُ حَبَّةِ خَردلٍ مِن إيمانٍ! ولقد أتَى علَيَّ زمانٌ وما أبالي أيَّكم بايَعتُ؛ لَئِنْ كان مُسلِمًا رَدَّه علَيَّ الإسلامُ، وإنْ كان نصرانيًّا ردَّه علَيَّ ساعِيهِ، فأمَّا اليَومَ فما كنتُ أُبايِعُ إلَّا فُلانًا وفُلانًا!!))[٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((بيْنَما النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مجلِسٍ يُحَدِّثُ القَومَ، جاء أعرابيٌّ فقال: متى السَّاعةُ؟ فمضَى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُحدِّثُ، فقال بَعضُ القَومِ: سَمِعَ ما قال فكَرِهَ ما قال، وقال بعضُهم: بل لم يَسمَعْ. حتَّى إذا قضَى حديثَه قال: أين السَّائِلُ عن السَّاعةِ؟ قال: ها أنا يا

= عُوقِبتُنَّ. فقُلْنَ: لا نتحَمَّلُ الأمانةَ ولا نُريدُ ثوابًا ولا عقابًا؛ وعَرَضَها على آدَمَ فتحَمَّلَها بما فيها!). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣١٢).

(١) الجَذرُ: الأصلُ مِن كلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (١/ ٤٤٨).

(٢) الوَكْتُ: الأثَرُ اليسيرُ، كالنُّقطةِ في الشَّيءِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٨/ ٣٣٧٩).

(٣) المَجْلُ: أثَرُ العَمَلِ في اليَدِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٩)، ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٨/ ٣٣٧٩).

(٤) نَفِطَ: أي: وَرِمَ وامتَلأ ماءً. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٩٧).

(٥) مُنتَبِرًا: أي: مُرتَفِعًا. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٩/ ٢٨٥).

(٦) رواه البخاري (٦٤٩٧) واللَّفظُ له، ومسلم (١٤٣).

رَسولَ الله. قال: فإذا ضُيِّعَت الأمانةُ، فانتَظِرِ السَّاعةَ. قال: كيف إضاعتُها؟ قال: إذا وُسِّدَ[١] الأمرُ إلى غيرِ أهلِه، فانتَظِرِ السَّاعةَ))[٢].

﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾.

أي: فلمْ تَقبَلِ السَّمَواتُ والأرضُ والجِبالُ أن تختارَ امتِثالَ الأوامِرِ واجتنابَ النَّواهي على الثَّوابِ والعِقابِ، وخِفْنَ مِن عذابِ الله على عدَمِ القيامِ بذلك[٣].

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾.

أي: وحمَلَ الإنسانُ[٤] .....

---

(١) وُسِّد: أي: أُسنِدَ وفُوِّضَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٨/ ٣٤٢٩).

(٢) رواه البخاري (٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥٩).

قال الواحدي: (معنى قَولِه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أي: مَخافةً وخَشيةً، لا مَعصيةً ومخالَفةً، والعَرْضُ كان تخييرًا لا إلزامًا). ((البسيط)) (١٨/ ٣٠٤).

وقال الشنقيطي: (وهذا العَرضُ والإباءُ والإشفاقُ: كُلُّه حَقٌّ، وقد خلَقَ اللهُ للسَّمواتِ والأرضِ والجبالِ إدراكًا يَعلَمُه هو جلَّ وعلا، ونحن لا نعلَمُه، وبذلك الإدراكِ أدركَتْ عَرْضَ الأمانةِ عليها، وأبَتْ وأشفَقَتْ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٥٨).

(٤) قيل: المرادُ: نوعُ الإنسانِ، وليس فردًا بعَيْنِه. وممَّن قال بهذا: ابنُ القيِّم، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٥).

قال السمرقندي: (﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني: آدَمَ وذُرِّيَّتَه). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٦).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ: آدمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والعُلَيمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥١٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ، وأبو العاليةِ، ومجاهِدٌ، وابنُ =

الأمانةَ[١]!

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ واقِعٌ في ظُلمِ نَفْسِه، والجَهلِ برَبِّه وشَرْعِه وقَدْرِ الأمانةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾.

أي: لِيُعذِّبَ اللهُ الَّذين خانوا الأمانةَ مِن المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ؛ الَّذين يُظهِرونَ الإسلامَ، ويُبطِنونَ الكُفرَ، ويُعَذِّبَ المُشرِكينَ والمُشرِكاتِ باللهِ تعالى[٣].

= جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٦٩).
قال الشنقيطي: (الظَّاهرُ أنَّ المرادَ بالإنسانِ آدمُ عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ راجعٌ لِلَفْظِ: «الإنسان» مُجَرَّدًا عن إرادةِ المذكورِ منه، الَّذي هو آدَمُ. والمعنَى: أنَّه -أي: الإنسانَ- الَّذي لا يحفظُ الأمانةَ كان ظلومًا جهولًا، أي: كثيرَ الظُّلمِ والجهلِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٦)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٩، ١٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥٩).

(٣) قال ابنُ القيِّم: (الخِطابُ للإنسانِ مِن حيثُ هو إنسانٌ على طريقةِ القُرآنِ في تناوُلِ الذَّمِّ له مِن حيثُ هو إنسانٌ؛ كقَولِه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦]، ونظائرُه كثيرةٌ؛ فالإنسانُ -مِن حيثُ هو- عارٍ عن كُلِّ خيرٍ مِن العِلمِ النَّافِعِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وإنَّما اللهُ سُبحانَه هو الَّذي يُكَمِّلُه بذلك ويُعطيه إيَّاه، =

﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

أي: ولِيَتوبَ اللهُ على المؤمِنينَ والمؤمِناتِ؛ الَّذين قاموا بما أمَرَهم اللهُ، ولم يَخونوا الأمانةَ، فيَغفِرَ اللهُ لهم ذُنوبَهم، ويَرحَمَهم، ويُوفِّقَهم لطاعتِه[1].

= وليس له ذلك مِن نَفْسِه، بل ليس له مِن نفْسِه إلَّا الجَهلُ المُضادُّ للعِلمِ، والظُّلمُ المُضادُّ للعَدلِ، وكُلُّ عِلمٍ وعَدلٍ وخَيرٍ فيه: فمِنْ رَبِّه، لا مِن نفْسِه). ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ١٩٢).

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٣).

اختُلِف في اللَّام: هل هي للعاقِبةِ، أو للتَّعليلِ؛ فقيل: هي لامُ التَّعليلِ. وممَّن قال بهذا: القرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥٩).

وقيل: هي لامُ العاقِبةِ. وممَّن قال بهذا: القُشَيري، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣١).

واختُلِف في متعلَّقِ اللامِ؛ فقيل: اللَّامُ في قَولِه تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾ متعلِّقةٌ بقَولِه سُبحانَه: ﴿عَرَضْنَا﴾. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٧).

قال مقاتلٌ: (عرَضْنا الأمانةَ على الإنسانِ؛ لِكَيْ يعَذِّبَ الله المنافِقينَ والمنافِقاتِ والمشركينَ والمشركاتِ بما خانوا الأمانةَ، وكذَّبوا الرُّسلَ...). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥١١).

وقيل: هي مُتعلِّقةٌ بقَولِه تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا﴾. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، وابن عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥٩).

قال أبو السعود: (حملَها الإنسانُ لِيُعذِّبَ الله بعضَ أفرادِه الَّذينَ لم يُراعوها، ولم يقابلُوها بالطَّاعةِ، على أنَّ اللَّامَ للعاقِبةِ). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٨).

وقال ابنُ قُتَيْبَةَ: (أي: عرَضْنا ذلك عليه لِيَتقلَّدَه، فإذا تقلَّدَه ظَهَرَ نِفاقُ المنافِقِ، وشِركُ المُشرِكِ، فعذَّبَه اللهُ به، وظهَرَ إيمانُ المؤمِنِ، فتاب اللهُ عليه). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣١). =

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالمَغفرةِ، فيَستُرُ ذُنوبَ عبادِه ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها؛ ومُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالرَّحمةِ[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ إلى قولِه سُبحانَه: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أنَّه ليس لأحدٍ أن يَظُنَّ استِغناءَه عن التَّوبةِ إلى الله، والاستِغفارِ مِن الذُّنوبِ، بل كلُّ أحدٍ مُحتاجٌ إلى ذلك دائمًا؛ فالإنسانُ ظالمٌ جاهِلٌ، وغايةُ المؤمِنينَ والمؤمِناتِ التَّوبةُ، وقد أخبرَ اللهُ تعالى في كتابِه بتوبةِ عبادِه الصَّالحينَ، ومَغفرتِه لهم[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ قولُه: ﴿فَأَبَيْنَ﴾ أتى بضميرِ هذه كضَميرِ الإناثِ؛ لأنَّ جمعَ التَّكسيرِ غيرَ العاقِلِ يجوزُ فيه ذلك وإن كان مُذكَّرًا[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ فكذلك الإنسانُ مِن شَأنِه

= قال السمعاني: (قوله: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: يهْدِيهم ويَرحمُهم إذا أدَّوُا الأمانةَ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ١٤٥).

الظُّلْمُ والجَهلُ، فلمَّا أُودِعَ الأمانةَ بَقِيَ بَعضُهم على ما كان عليه، وبَعضُهم ترَكَ الظُّلْمَ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وترَكَ الجَهلَ، كما قال تعالى في حقِّ آدمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وقال في حَقِّ المؤمِنينَ عامَّةً: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[(١)] [فاطر: ٢٨].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى في الإنسانِ وَصْفَينِ: الظَّلومَ والجَهولَ، وذكَرَ مِن أوصافِه تعالى وَصْفَينِ، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: كان غَفورًا للظَّلومِ، ورحيمًا على الجَهولِ؛ وذلك لأنَّ الله تعالى وعَد عبادَه بأنَّه يَغفِرُ الظُّلمَ جَميعًا إلَّا الظُّلمَ العَظيمَ الَّذي هو الشِّركُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وأمَّا الوَعدُ فقَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وأمَّا الرَّحمةُ على الجَهلِ فلأنَّ الجَهلَ محَلُّ الرَّحمةِ؛ ولذلك يَعتذِرُ المَسيءُ بقَولِه: ما عَلِمتُ[(٢)].

٤- الأصلُ في بني آدمَ الظُّلمُ والجَهلُ، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، ومجرَّدُ التَّكلُّمِ بالشَّهادَتينِ لا يُوجِبُ انتِقالَ الإنسانِ عن الظُّلمِ والجَهلِ إلى العَدلِ[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٥٧).

٥- اتِّباعُ الظَّنِّ جَهلٌ، واتِّباعُ هوى النَّفْسِ بغَيرِ هُدًى مِن الله: ظُلْمٌ، وجِماعُ الشَّرِّ الجَهلُ والظُّلمُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أنَّ الذُّنوبَ واقعةٌ مِن بني آدَمَ لا مَحالةَ؛ فكلُّ بني آدمَ ظَلومٌ جهولٌ إلَّا مَن تاب اللهُ عليه[٢].

٧- في قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ذَكَر التَّوبةَ؛ لعِلْمِه سُبحانَه وتعالى أنَّه لا بُدَّ لكُلِّ إنسانٍ مِن أن يكونَ فيه جَهلٌ وظُلْمٌ، ثمَّ يتوبُ اللهُ على مَن يشاءُ، فلا يَزالُ العَبدُ المؤمِنُ دائِمًا يَتبيَّنُ له مِنَ الحَقِّ ما كان جاهِلًا به، ويرجِعُ عن عمَلٍ كان ظالِمًا فيه، وأدْناه ظُلْمُه لِنَفْسِه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩]، وقال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[٣] [إبراهيم: ١].

٨- قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ بِشارةٌ للمُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ بأنَّ اللهَ عامَلَهم بالغُفرانِ والرَّحمةِ[٤].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٤٨).
(٢) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ٣٤).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٤٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٢).

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّنويهِ بشأنِ الأمانةِ، وتَفخيمِ أمْرِها، وفيه تَقريرٌ للوَعدِ السَّابقِ بتَعظيمِ الطَّاعةِ، وبَيانِ عِظَمِ شأْنِ ما يُوجِبُها مِن التَّكاليفِ الشَّرعيَّةِ، وصُعوبةِ أمْرِها، وبَيَّن ذلك كُلَّه بطَريقِ التَّمثيلِ مع الإيذانِ بأنَّ ما صدَرَ عنهم مِن الطَّاعةِ وتَرْكِها، صدَرَ عنهم بعدَ القَبولِ والالتزامِ، وسمَّاها أمانةً مِن حيثُ إنَّها واجبةُ الأداءِ[١].

- قولُه: ﴿ عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ فيه الافتِتاحُ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بالخَبَرِ، أو تَنزيلِه -لِغَرابةِ شأنِه- مَنزِلةَ ما قد يُنكِرُه السَّامعُ[٢].

- وتَخصيصُ السَّمَواتِ والأرضِ بالذِّكْرِ مِن بيْنِ المَوْجوداتِ؛ لأنَّهما أعظَمُ المعروفِ للنَّاسِ مِن الموجوداتِ[٣]، ولأنَّها أشَدُّ الأمورِ وأحمَلُها للأثقالِ[٤].

- وعطْفُ الجِبالِ على الأرضِ في قولِه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾؛ لأنَّ الجبالَ أعظَمُ الأجزاءِ المَعْروفةِ مِن ظاهِرِ الأرضِ، وهي الَّتي تُشاهِدُ الأبصارُ عظَمَتَها[٥]، ولزيادةِ قوَّتِها وصلابتِها؛ تعظيمًا للأمرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٥٦، ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٥٧، ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٨، ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٩).

- قولُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ الذي يَسمَعُ خَبرَ أنَّ الإنسانَ تَحمَّلَ الأمانةَ، يَترقَّبُ مَعرفةَ ما كان مِن حُسنِ قيامِ الإنسانِ بما حَمَلَه وتَحمَّلَه، وليستِ الجُملةُ تَعليليَّةً؛ فكيف يُعلَّلُ بأنَّ حَمْلَه الأمانةَ مِن أجْلِ ظُلمِه وجَهلِه؟! فقولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ مُؤْذِنٌ بكلامٍ مَحذوفٍ يَدُلُّ هو عليه؛ إذِ التَّقديرُ: وحَمَلَها الإنسانُ فلَمْ يَفِ بها؛ إنَّه كان ظَلومًا جَهولًا، فكأنَّه قيلَ: فكان ظَلومًا جَهولًا، أي: ظَلومًا في عَدَمِ الوَفاءِ بالأمانةِ؛ لأنَّه إجحافٌ بصاحِبِ الحَقِّ في الأمانةِ أيًّا كان، وجَهولًا في عَدَمِ تَقديرِه قَدْرَ إضاعةِ الأمانةِ مِن المُؤاخَذةِ المُتفاوِتةِ المراتبِ في التَّبِعةِ بها[1].

٢- قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

- قولُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فيه الالتِفاتُ إلى الاسمِ الجليلِ (الله) أوَّلًا؛ لتَهويلِ الخَطبِ، وتَربيةِ المهابةِ. والإظهارُ في مَوقعِ الإضمارِ ثانيًا ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ لإبرازِ مَزيدِ الاعتناءِ بأمْرِ المُؤمِنينَ والتَّوبةِ عليهم؛ تَوفيةً لكُلٍّ مِن مَقامَيِ الوعيدِ والوَعدِ حقَّه[2].

- وقدَّم هنا التَّعذيبَ على التَّوبةِ؛ لأنَّه لَمَّا سمَّى التَّكليفَ أمانةً، والأمانةُ مِن حُكمِها اللَّازمِ أنَّ الخائِنَ يَضمَنُ، وليس مِن حُكمِها اللَّازمِ أنَّ الأمينَ الباذِلَ جُهدَه يَستفيدُ أُجرةً؛ فكان التَّعذيبُ على الخيانةِ كاللَّازمِ، والأجرُ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٩- ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣١- ١٣٢).

الحِفظِ إحسانٌ، والعَدلُ قبْلَ الإحسانِ[١].

- وأيضًا قدَّم مِن الخَونةِ أجدَرَهم بذلك، فقال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾، أي: الَّذين يُظهِرونَ بَذْلَ الأمانةِ كَذِبًا وزُورًا، وهم حامِلونَ لها عريقون في النِّفاقِ[٢].

- وعَطَفَ ﴿وَيَتُوبَ﴾ على ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾؛ لِيَجمَعَ لهم بيْنَ العَذابينِ؛ لأنَّ في التَّوبةِ على المُؤمِنينَ إرغامًا للكُفَّارِ[٣].

- وقولُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ ...﴾ [الأحزاب: ٧٣] إلى نِهايةِ السُّورةِ، يَقتَضي أنَّ للأمانةِ المذكورةِ في الآيةِ السابقةِ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ مَزيدَ اختصاصٍ بالعِبْرةِ في أحْوالِ المُنافِقينَ والمُشرِكينَ مِن بيْنِ نَوعِ الإنسانِ في رَعْيِ الأمانةِ وإضاعتِها[٤].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الخامسُ والعشرونَ

ويليه المجلدُ السَّادسُ والعشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ سبأ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٤).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

أسماءُ السُّورة ١٣
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ..... ١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ١٣
موضوعاتُ السُّورةِ..... ١٤
الآيات (١-٣) ١٦
المَعنى الإجماليُّ..... ١٦
تَفسيرُ الآياتِ..... ١٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٢٠
بلاغةُ الآياتِ ٢٢
الآيات (٤-٦) ٢٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٨
المعنى الإجماليُّ..... ٢٩
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٤٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٤٤
بلاغةُ الآياتِ ٥٤
الآيتان (٧-٨)..... ٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٥
المعنى الإجماليُّ..... ٦٥
تَفسيرُ الآيتَينِ..... ٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٧٠
بلاغةُ الآيتَينِ ٧٠
الآيات (٩-١١)..... ٧٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٧٦
المعنى الإجماليُّ..... ٧٧
تَفسيرُ الآياتِ..... ٧٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٨٤
بلاغةُ الآياتِ ٨٦
الآيات (١٢-١٧)..... ٩١
غَريبُ الكَلِماتِ ٩١
المعنى الإجماليُّ..... ٩٣
تَفسيرُ الآياتِ..... ٩٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ١٠٢
بلاغةُ الآياتِ ١٠٥
الآيات (١٨-٢٠)..... ١١٢
غَريبُ الكَلِماتِ ١١٢

المعنى الإجماليُّ ١١٤
تَفسيرُ الآياتِ ١١٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٢٣
بلاغةُ الآياتِ ١٢٥
الآيات (٢١-٢٤) ١٣٠
غَريبُ الكَلِماتِ ١٣٠
المعنى الإجماليُّ ١٣٠
تَفسيرُ الآياتِ ١٣١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٤٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٤٢
بلاغةُ الآياتِ ١٤٤
الآيات (٢٥-٢٧) ١٤٩
غَريبُ الكَلِماتِ ١٤٩
المعنى الإجماليُّ ١٤٩
تَفسيرُ الآياتِ ١٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٥٧
بلاغةُ الآياتِ ١٥٩
الآيات (٢٨-٣١) ١٦٤
غَريبُ الكَلِماتِ ١٦٤
المعنى الإجماليُّ ١٦٥
تَفسيرُ الآياتِ ١٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٧٤
بلاغةُ الآياتِ ١٧٩
الآيات (٣٢-٣٤) ١٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ ١٨٤
المعنى الإجماليُّ ١٨٥
تَفسيرُ الآياتِ ١٨٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٩٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٩٦
بلاغةُ الآياتِ ٢٠٥
الآيتان (٣٥-٣٦) ٢١٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٢١٢
المعنى الإجماليُّ ٢١٣
تَفسيرُ الآيتينِ ٢١٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٢٦
بلاغةُ الآيتَينِ ٢٣١
الآيات (٣٧-٤٠) ٢٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٣٦
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٣٧
المعنى الإجماليُّ ٢٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ٢٣٩

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٥١
بلاغةُ الآياتِ ٢٥٩
الآيات (٤١-٤٤) ٢٦٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٦٨
المعنى الإجماليُّ ٢٦٨
تَفسيرُ الآياتِ ٢٦٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٧٦
بلاغةُ الآياتِ ٢٧٩
الآيات (٤٥-٤٨) ٢٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٨٤
المعنى الإجماليُّ ٢٨٥
تَفسيرُ الآياتِ ٢٨٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٩٤
بلاغةُ الآياتِ ٢٩٦
الآية (٤٩) ٣٠٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٠٢
المعنى الإجماليُّ ٣٠٣
تَفسيرُ الآيةِ ٣٠٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٠٦
بلاغةُ الآيةِ ٣١١
الآيات (٥٠-٥٢) ٣١٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٣١٣
المعنى الإجماليُّ ٣١٤
تفسيرُ الآياتِ ٣١٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٣٢
بلاغةُ الآياتِ ٣٣٩
الآيات (٥٣-٥٥) ٣٤٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٤٩
المعنى الإجماليُّ ٣٥٠
تَفسيرُ الآياتِ ٣٥١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٦٦
بلاغةُ الآياتِ ٣٧٣
الآيات (٥٦-٥٨) ٣٨١
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٨١
المعنى الإجماليُّ ٣٨١
تَفسيرُ الآياتِ ٣٨٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٨٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٨٩

بلاغةُ الآياتِ ٣٩٥
الآيات (٥٩-٦٢) ٤٠٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٠٠
المعنى الإجماليُّ ٤٠١
تفسيرُ الآياتِ ٤٠٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤١٣
بلاغةُ الآياتِ ٤١٨
الآيات (٦٣-٦٨) ٤٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٢٢
المعنى الإجماليُّ ٤٢٢
تَفسيرُ الآياتِ ٤٢٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٣٠
بلاغةُ الآياتِ ٤٣٣
الآيات (٦٩-٧١) ٤٣٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٣٨
المعنى الإجماليُّ ٤٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ٤٣٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٤٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٤٥
بلاغةُ الآياتِ ٤٤٥
الآيتان (٧٢-٧٣) ٤٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٥٠
المعنى الإجماليُّ ٤٥٠
تَفسيرُ الآيتَينِ ٤٥١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٥٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٥٦
بلاغةُ الآيتَينِ ٤٥٨
الفهرس ٤٦٥

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة سبأ و سورة فاطر

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السادس والعشرون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة سبأ وسورة فاطر)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد السادس والعشرون - سورة سبأ وسورة فاطر / القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٢ هـ

٥٤٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٩٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - سورة سبأ - تفسير ٢- القرآن - سورة فاطر - تفسير

أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٨٢١٥

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٨٢١٥

ردمك: ٢-٩٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة سبأ وسورة فاطر)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السادس والعشرون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ سَبَأٍ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ سَبَإٍ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ (سَبَإٍ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ سَبَإٍ مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ سَبَإٍ:

١- إبطالُ قَواعدِ الشِّركِ، والرَّدُّ على شُبَهِ المشركينَ[٤].

٢- بيانُ الحُجَّةِ على التَّوحيدِ، وصِدقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٥].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي تناولَتها سُورةُ سَبَإٍ:

١- الاستِفتاحُ بالحَمدِ لله سُبحانَه المالِكِ لِما في السَّمَواتِ والأرضِ،

---

(١) سُمِّيَت سورةُ (سَبَإٍ) بهذا الاسمِ؛ لاشتمالِها على قِصَّةِ سَبَإٍ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٣). وقد ورَدتْ بعضُ الآثارِ في تسميتِها بذلك؛ منها: ما أخرجه ابنُ الضُّرَيْسِ في ((فضائل القرآن)) (١٧)، عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما. ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٧٣).

(٢) وقيل: السورةُ مكِّيَّةٌ إلَّا آيةً واحدةً، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ...﴾ [سبأ: ٦]؛ فمدنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٣١).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٨٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١١/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٢).

المحمودِ في الآخِرةِ؛ وبيانُ سَعةِ عِلمِه.

٢- بيانُ تكذيبِ المُشرِكينَ بالقيامةِ والبَعثِ، وحكايةُ جانبٍ مِن أقوالِهم الباطِلةِ مع الرَّدِّ عليها.

٣- ذِكرُ طَرَفٍ مِن قِصَّةِ نبيِّ اللهِ داودَ عليه السَّلامُ، وابنِه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ.

٤- ذِكرُ قِصَّةِ قبيلةِ سَبَأٍ، وما آل إليه أمرُهم.

٥- إقامةُ الأدِلَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، ووجوبِ إخلاصِ العبادةِ له.

٦- ذِكرُ بَعضِ مشاهِدِ يومِ القيامةِ، والحِوارِ الَّذي يَدورُ بيْنَ التَّابِعينَ والمتبوعينَ.

٧- الرَّدُّ على المُترَفينَ الَّذين زَعَموا أنَّ أموالَهم وأولادَهم ستنفَعُهم يومَ القيامةِ.

٨- دعوةُ الكافِرينَ إلى التَّفكيرِ والتَّدبُّرِ في شأنِ دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

٩- تهديدُ الكافِرينَ بسُوءِ العاقبةِ إذا ما استمَرُّوا في كُفرِهم وعِنادِهم.

الآيتان (١-٢)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَلِجُ﴾: أي: يَدخُلُ، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيءٍ[١].

﴿يَعْرُجُ﴾: أي: يَصعَدُ ويَرقَى، وأصلُ (عرج): يدُلُّ على ارتِقاءٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مخبرًا عن نفْسِه الكريمةِ: الحَمدُ لله الَّذي له ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، وله الحَمدُ في الآخِرةِ؛ فهو المحمودُ أبدًا، وهو الحَكيمُ الخبيرُ الَّذي لا تخفى عليه خافيةٌ، ومِن ذلك أنَّه يعلَمُ ما يدخُلُ في الأرضِ ويَغيبُ فيها، وما يَخرُجُ منها، وما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ وما يَصعَدُ فيها، وهو الرَّحيمُ بعبادِه، الغفورُ لذُنوبِهم.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: الحمدُ(١) التَّامُّ كلُّه لله وَحْدَه، الَّذي يَملِكُ جَميعَ ما في السَّمواتِ وجميعَ ما في الأرضِ، وهو خالِقُهما ومُدَبِّرُهما والمتصَرِّفُ فيهما(٢).

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: ولله وَحْدَه الحَمدُ في الآخِرةِ، فهو المحمودُ أبدًا(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

وقال سُبحانَه عن أهلِ الجنَّةِ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

---

(١) الحمدُ هو وصفُ المحمودِ بالكمالِ، واللهُ سبحانه وتعالى يُحمَدُ على ما له مِن الكمالِ الذَّاتيِّ؛ لِما له مِن صفاتِ الكمالِ؛ كالسَّمعِ والبصرِ والعِلمِ والقدرةِ والعَظَمةِ وما أشبَهَها، وهذا لا يكونُ إلَّا لله، ويُحمَدُ على الكمالِ المتعَدِّي للغيرِ بإحسانِه وإنعامِه. واللَّامُ هنا في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للاستِحقاقِ -فلا أحدَ يَستحِقُّ أن يُحمَدَ لِذَاتِه إلَّا الله- والاختِصاصِ، فالحمدُ المستغرِقُ لكلِّ المحامِدِ لا يكونُ إلَّا لله عزَّ وجلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣، ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣، ١٤).

قال ابنُ عثيمين: (﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هذا كالتَّعليلِ للحَمدِ؛ لأنَّ هذا الوَصفَ يدُلُّ على العِلِّيَّةِ، أي: يَحمَدُ اللهُ تعالى نفْسَه؛ لأنَّه مالِكٌ لِما في السَّمواتِ وما في الأرضِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤).

قال ابنُ جزي: (الحمد في الآخرةِ يحتملُ أنْ يريدَ به الجنسَ، أو يريدَ به قولَه: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، أو ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦١).

وقال تبارك وتعالى عنهم أيضًا: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۚ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا نِيطَ حَمدُه في الدُّنيا والآخرةِ بما اقتضَى مَرجِعَ التَّصَرُّفاتِ إليه في الدَّارَينِ؛ أعقَبَ ذلك بصِفَتَي الحكيم الخبيرِ؛ لأنَّ الَّذي أوجَدَ أحوالَ النَّشأتَينِ هو العَظيمُ الحِكمةِ، الخبيرُ بدقائِقِ الأشياءِ وأسرارِها؛ فالحِكمةُ: إتقانُ التَّصَرُّفِ بالإيجادِ وضِدِّه، والخِبرةُ تقتضي العِلمَ بأوائِلِ الأُمورِ وعواقِبِها[١].

﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

أي: وهو الحَكيمُ في أقوالِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، وفي مُلكِه وتدبيرِ خَلْقِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به؛ وهو الخبيرُ الَّذي لا تخفَى عليه خافيةٌ، المطَّلِعُ على سرائِرِ الأمورِ وخفاياها[٢].

﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله سُبحانَه أتْبَعَ ما تقدَّمَ مِن حَمدِه على ما هو أهلُه، ببَسطِ شواهِدِ حِكمتِه وعِلمِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤١).

﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا ﴾.

أي: يَعلَمُ اللهُ كُلَّ ما يَدخُلُ في الأرضِ ويَغيبُ فيها؛ كالمطَرِ، والبُذورِ، والحيواناتِ، والأمواتِ، والكُنوزِ، وغيرِ ذلك؛ ويَعلَمُ كُلَّ ما يَخرُجُ مِن الأرضِ؛ كأنواعِ النَّباتاتِ، والمعادِنِ، والكنوزِ، وغيرِ ذلك، يَعلَمُ عَدَدَه وكيفيَّتَه وصِفاتِه[١].

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا ﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ كُلَّ ما يَنزِلُ مِن السَّماءِ؛ كالأمطارِ، والبرَدِ والثُّلوجِ، والصَّواعِقِ، والأرزاقِ، والملائِكةِ؛ ويَعلَمُ كُلَّ ما يَصعَدُ ويَدخُلُ في السَّماءِ؛ كالملائكةِ، والأرواحِ، وأعمالِ العِبادِ[٢].

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن جُملةِ أحوالِ ما في الأرضِ أعمالُ النَّاسِ وأحوالُهم مِن عقائدَ وسِيَرٍ، وممَّا يَعرُجُ في السَّماءِ العملُ الصَّالحُ والكَلِمُ الطَّيِّبُ؛ أتْبَعَ ذلك بقولِه[٣]:

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ﴾.

أي: واللهُ هو الرَّحيمُ بعِبادِه، الغفورُ لذُنوبِهم؛ فيَستُرُها عليهم، ويتَجاوَزُ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١-٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٧، ١٣٨).

مُؤاخَذتِهم بها[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ إثباتُ حُكم اللهِ -سُبحانَه وتعالى- الكَوْنيِّ والشَّرعيِّ، وإثباتُ حِكمتِه المتعلِّقةِ بالكَونِ، والمتعَلِّقةِ بالشَّرعِ، ويَتفرَّعُ على هذه القاعدةِ وُجوبُ التَّسليمِ لِقَضائِه الكَوْنيِّ والشَّرعيِّ؛ بحيثُ لا نُورِدُ أيَّ اعتِراضٍ حتَّى وإن جاء على ما ظاهِرُه خِلافُ الحِكمةِ؛ فإنه يَجِبُ أن نتَّهِمَ عُقولَنا؛ لأنَّه إذا ثبتَ أنَّه عزَّ وجلَّ حَكيمٌ في الحُكمَينِ الكَوْنيِّ والشَّرعيِّ، لَزِمَ مِن ذلك التَّسليمُ للقَضاءِ الكَونيِّ والشَّرعيِّ؛ لأنَّه صادِرٌ عن حِكمةٍ، لكنَّ هذه الحِكمةَ قد تخفَى علينا[٢]، فينبغي للمؤمنِ أن يَعلَمَ أنَّ الله سبحانه مالكٌ حكيمٌ لا يعبَثُ، وهذا العِلمُ يوجِبُ نفْيَ الاعتِراضِ على القَدَرِ، والتَّسليمُ هو تكليفُ العقلِ لِيُذعِنَ، وهذا أصلٌ إذا فُهِم حصَل منه السَّلامةُ والتَّسليمُ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ هذا إجمالٌ قُصِدَ منه حثُّ النَّاسِ على طَلَبِ أسبابِ الرَّحمةِ والمَغفِرةِ المرغوبِ فيهما؛ فإنَّ مَن رَغِبَ في تحصيلِ شَيءٍ بحَثَ عن وسائِلِ تحصيلِه، وسعَى إليها[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- سورةُ (سبأٍ) إحدى سُوَرٍ خَمسٍ مُفتَتَحةٍ بـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وهي كُلُّها مَكِّيَّةٌ، وقد وُضِعَت في ترتيبِ القُرآنِ: في أوَّلِه، ووَسَطِه، والرُّبُعِ الأخيرِ؛ فكانت أرباعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٣٣، ٥١، ٤٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٨).

القُرآنِ مُفتَتَحةً بالحَمدِ لله، كان ذلك بتَوفيقٍ مِن اللهِ، أو توقيفٍ[١].

٢- قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يُعَلِّمُنا عزَّ وجلَّ كيفَ نحمَدُه، وكيف نُثْني عليه؛ وهو أهلٌ لأنْ يَمدحَ نفْسَه عزَّ وجلَّ، ويُثْنيَ عليها، وهو في غِنًى عن كَونِه يُظْهِرُ لنا مِن صِفاتِ الكمال ما يُظهِرُ، ولكنْ هذا مِن أجْلِ مصلحتِنا[٢].

٣- قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فقَرَن بيْنَ المُلْكِ والحَمدِ على عاداتِه تعالى في كلامِه؛ فإنَّ اقترانَ أحَدِهما بالآخَرِ له كَمالٌ زائدٌ على الكَمالِ بكُلِّ واحدٍ منهما؛ فله كمالٌ مِن مُلكِه، وكمالٌ مِن حَمدِه، وكمالٌ مِن اقترانِ أحَدِهما بالآخَرِ؛ فإنَّ المُلْكَ بلا حمدٍ يَستلزِمُ نَقصًا، والحَمدَ بلا مُلكٍ يَستلزِمُ عَجزًا، والحمدَ مع المُلكِ غايةُ الكمالِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قَصْرُ الحَمدِ على نَفْسِه تعالى في الآخرةِ أحَقُّ؛ لأنَّ التَّصَرُّفاتِ يومَئذٍ مَقصورةٌ عليه، لا يلتَبِسُ فيها تصَرُّفُ غيرِه بتصَرُّفِه[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ اقترنتِ الحكمةُ بالخبرةِ -والحكمةُ دائمًا يَقْرِنُها اللهُ عزَّ وجلَّ بالعِزَّةِ وبالعلمِ-؛ وهنا قُرِنَتْ بالعِلمِ الَّذي تتضَمَّنُه الخبرةُ، وإنَّما يَقْرِنُها اللهُ عزَّ وجلَّ بذلك؛ لِيَتبيَّنَ أنَّ حكمتَه سُبحانَه وتعالى مَبنيَّةٌ على عِلْمِه، وأنَّه إذا تراءَى لأحدٍ أنَّ هذا الشَّيءَ ليس بحكمةٍ؛ فذلك لِنُقصانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٦).

عِلْمِه، وإلَّا لو كان عندَه عِلمٌ وفَهمٌ لعرَف أنَّ الحكمةَ فيما شَرَعَه اللهُ عزَّ وجلَّ وفيما قَدَّرَه[١].

٦- قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، فعَقَّب الحَمدَ والمُلكَ باسم الحكيم الخبيرِ الدَّالَّين على كَمالِ الإرادةِ، وأنَّها لا تتعلَّقُ بمُرادٍ إلَّا لحِكمةٍ بالغةٍ، وعلى كَمالِ العِلمِ، وأنَّه كما يتعلَّقُ بظواهِرِ المعلوماتِ، فهو متعلِّقٌ ببواطِنِها الَّتي لا تُدرَكُ إلَّا بخِبْرةٍ؛ فنِسبةُ الحِكمةِ إلى الإرادةِ كنِسبةِ الخِبرةِ إلى العِلمِ؛ فالمرادُ ظاهِرٌ والحِكمةُ باطِنةٌ، والعِلمُ ظاهِرٌ والخِبرةُ باطِنةٌ؛ فكمالُ الإرادةِ أن تكونَ واقِعةً على وَجهِ الحِكمةِ، وكَمالُ العِلمِ أن يكونَ كاشِفًا عن الخِبرةِ؛ فالخِبرةُ باطِنُ العِلمِ وكَمالُه، والحِكمةُ باطِنُ الإرادةِ وكمالُها[٢].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾

- افتُتِحَتِ السُّورةُ بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وفي هذا التَّحميدِ بَراعةُ استِهلالٍ، وللتَّنبيهِ على أنَّ السُّورةَ تَتضمَّنُ مِن دَلائلِ تَفرُّدِه بالإلهيَّةِ واتِّصافِه بصِفاتِ العَظَمةِ ما يَقْتضي إنشاءَ الحمْدِ له، والإخبارَ باختِصاصِه به؛ فجُملةُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هنا يَجوزُ أنْ تكونَ إخبارًا بأنَّ جِنسَ الحمْدِ مُستحَقٌّ للهِ تعالى؛ فتكونَ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِلَّهِ﴾ لامَ المِلْكِ. ويجوزُ أنْ تكونَ إنشاءَ ثَناءٍ على اللهِ على وَجهِ تَعليمِ النَّاسِ أنْ يَخُصُّوه بالحمْدِ؛ فتَكونَ اللَّامُ للتَّبيينِ؛ لأنَّ معنى الكلامِ: أحمَدُ اللهَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٥، ١٣٦).

- والتَّعبيرُ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ يُفيدُ الاستمرارَ والثُّبوتَ[١].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ اقتضاءُ صِلةِ المَوصولِ أنَّ ما في السَّمواتِ والأرضِ مِلكٌ للهِ تعالى يَجعَلُ هذه الصِّلةَ صالحةً لتَكونَ عِلَّةً لإنشاءِ الثَّناءِ عليه؛ لأنَّ مِلْكَه لِمَا في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِلكٌ حَقيقيٌّ؛ لأنَّ سَببَه إيجادُ تلك المَمْلوكاتِ، وذلك الإيجادُ عمَلٌ جَميلٌ يَستحِقُّ صاحبُه الحمْدَ، وأيضًا هو يَتضمَّنُ نِعَمًا جمَّةً، وهي أيضًا تَقْتضي حمْدَ المُنعِمِ. وفي هذه الصِّلةِ تَعريضٌ بكُفرانِ المشركينَ الَّذين حَمِدوا أشياءَ ليس لها في هذه العوالِمِ أدْنى تَأثيرٍ، ولا لها بما تَحْتوي عليه أدْنى شُعورٍ، ونَسُوا حمْدَ مالِكِها ومالكِ سائرِ ما في السَّمواتِ والأرضِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لَمَّا كانتْ نِعمةُ الآخرةِ مُخبَرًا بها، غيرَ مَرئيَّةٍ لنا في الدُّنيا؛ ذَكَرها لِيُقاسَ نِعَمُها بنِعَمِ الدُّنيا قِياسَ الغائبِ على الشَّاهدِ، وإنِ اختَلَفا في الفَضيلةِ والدَّيمومةِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عَطْفٌ على الصِّلةِ، أي: والَّذي له الحمْدُ في الآخِرةِ، وهذا إنباءٌ بأنَّه مالكُ الأمْرِ كلِّه في الآخِرةِ. وتَقديمُ المَجرورِ؛ لإفادةِ الحَصرِ والاختصاصِ، أي: لا حمْدَ في الآخِرةِ إلَّا له؛ فلا تَتوجَّهُ النُّفوسُ إلى حمْدِ غيرِه؛ لأنَّ النَّاسَ يومَئذٍ في عالَمِ الحقِّ، فلا تَلتبِسُ عليهم الصُّورُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٥، ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٦).

- قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فيه إطلاقُ الحمْدِ عن ذِكرِ ما يُشعِرُ بالمَحمودِ عليه؛ لِيَعُمَّ النِّعَمَ الأُخرويَّةَ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الزمر: ٧٤]، وما يكونُ ذَريعةً إلى نَيلِها مِن النِّعمِ الدُّنيويَّةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾[1] [الأعراف: ٤٣].

- وخُصَّ الحمدُ في الآخرةِ -معَ أنَّه محمودٌ في الدُّنيا والآخرةِ؛ كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى في آيةٍ ثانيةٍ: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ [القصص: ٧٠]- لأنَّ ظهورَ حمْدِه في الآخرةِ أبيَنُ وأوضَحُ؛ فإنَّ في الدُّنيا مَن يُنكِرُ حمْدَ اللهِ سُبحانَه وتعالى ويَكفُرُ به، لكنْ في الآخرةِ لا يمكنُ لأحدٍ إلَّا أنْ يحمَدَ اللهَ عزَّ وجلَّ[2].

- قولُه: ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ القرْنُ بيْنَ الصِّفتينِ هنا؛ لأنَّ كلَّ واحِدةٍ تَدُلُّ على معنًى أصليٍّ ومعنًى لُزوميٍّ، وهما مُختلفانِ؛ فالمعنى الأصليُّ للحَكيمِ: أنَّه مُتقِنُ التَّصرُّفِ والصُّنْعِ؛ لأنَّ الحكيمَ مُشتقٌّ مِن الإحكامِ، وهو الإتقانُ، وهو يَستلزِمُ العِلمَ بحَقائقِ الأشياءِ على ما هي عليه، والخبيرُ: هو العليمُ ببواطنِ الأشياءِ وظَواهرِها بالأَولى بحيث لا يَفوتُه شَيءٌ منها، وهو يَستلزِمُ التَّمكُّنَ مِن تَصريفِها؛ ففي التَّتميمِ[3] بهَذينِ الوَصفينِ إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ مِن الجُملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٦).
قال ابن جُزَي: (﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ الحمدُ الأوَّلُ في الدُّنيا، والثَّاني في الآخرةِ، وعلى هذا حمَلَه الزَّمَخْشَريُّ، ويحتمِلُ عندي أن يكونَ الحمدُ الأوَّلُ للعمومِ والاستِغراقِ، فجُمِعَ الحمدُ في الدُّنيا والآخرةِ، ثمَّ جُرِّد منه الحمدُ في الآخرةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦١).
ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٦).

(٣) التَّتميمُ: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ =

قبْلَه استِحماقُ الَّذين أقْبَلوا في شُؤونِهم على آلهةٍ باطلةٍ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾

- قولُه: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ... ﴾ تَفصيلٌ لِبَعضِ ما يُحِيطُ به عِلْمُه تعالى مِن الأُمورِ الَّتي نِيطَتْ بها مَصالِحُهم الدُّنيويَّةُ والدِّينيَّةُ[٢]، ومِن الأساليبِ البلاغيَّةِ الإجمالُ ثمَّ التَّفصيلُ، وفائدةُ هذه الطَّريقةِ البلاغيَّةِ هي: أنَّ الشَّيءَ إذا جاء مُجْمَلًا تَشَوَّفَتِ النُّفوسُ إلى تفصيلِه؛ فجاء التَّفصيلُ واردًا على نفوسٍ تتطلَّعُ إليه، فإذا وردَ التَّفصيلُ إلى نفوسٍ تتطلَّعُ إليه كان أوقَعَ في النَّفْسِ، وأرسَخَ في القلبِ[٣].

- وخُصَّ بالذِّكرِ في مُتعلَّقِ العِلمِ ما يَلِجُ وما يَخرُجُ مِن الأرضِ دونَ ما يَدِبُّ على سَطْحِها، وما يَنزِلُ وما يَعرُجُ إلى السَّماءِ دونَ ما يَجُولُ في أرجائِها؛ لأنَّ ما ذُكِرَ لا يَخْلو عن أنْ يكونَ دابًّا وجائلًا فيهما، والَّذي يَعلَمُ

= حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلام بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهم، ومِن أمثلةِ التَّتميم قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلْإِثْمِ ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثِّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و (١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٦، ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤).

ما يَلِجُ في الأرضِ وما يَخرُجُ منها، يَعلَمُ ما يَدِبُّ عليها وما يَزحَفُ فوقَها، والَّذي يَعلَمُ ما يَنزِلُ مِن السَّماءِ وما يَعرُجُ، يَعلَمُ ما في الأجواءِ والفضاءِ مِن الكائناتِ المرئيَّةِ وغيرِها، ويَعلَمُ سَيْرَ الكواكبِ ونِظامَها. وكَلِمَتا (يَلِج) (ويَخرُجُ) أوضَحُ ما يُعبَّرُ به عن أحوالِ جَميعِ الموجوداتِ الأرضيَّةِ بالنِّسبةِ إلى اتِّصالِها بالأرضِ، وكَلِمَتا (يَنزِلُ) (ويَعرُج) أوضَحُ ما يُعبَّرُ به عن أحوالِ المَوجوداتِ السَّماويَّةِ بالنِّسبةِ إلى اتِّصالِها بالسَّماءِ، مِن كَلِماتِ اللُّغةِ الَّتي تَدُلُّ على المعاني المَوضوعةِ للدَّلالةِ عليها دَلالةً مُطابقيَّةً على الحقيقةِ دونَ الكِنايةِ؛ ولذلك لم يَعطِفِ السَّماءَ على الأرضِ في الآيةِ، فلمْ يَقُلْ: يَعلَمُ ما يَلِجُ في الأرضِ والسَّماءِ، وما يَخرُجُ منْهما، ولم يَكتَفِ بإحْدى الجُملتينِ عن الأُخرى[1].

- وقال: ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾، ولم يقُلْ: (يَعرُجُ إليها)؛ إشارةً إلى قَبولِ الأعمالِ الصَّالحةِ، ومَرتبةِ النُّفوسِ الزَّكيَّةِ؛ وهذا لأنَّ كَلِمةَ (إلى) للغايةِ، فلو قال: (وما يَعرُجُ إليها)، لفُهِمَ الوقوفُ عندَ السَّمواتِ. فقال: ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾؛ لِيُفهَمَ نُفوذُها فيها، وصعودُها منها؛ ولهذا قال في الكَلِمِ الطَّيِّبِ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]؛ لأنَّ الله هو المنتهَى، ولا مرتبةَ فوقَ الوصولِ إليه، وأمَّا السَّماءُ فهي دنيا، وفوقَها المنتهَى[2]، فقال: (فيها)، ولم يقُلْ: (إليها)؛ لنستفيدَ فائدتينِ: الفائدةُ الأُولَى: العروجُ، أي: الصُّعودُ. الفائدةُ الثانيةُ: الدُّخولُ؛ لأنَّ (في) يُناسِبُها مِن الأفعالِ الدُّخولُ، أمَّا (عَرَج) و(يَعرُجُ) فالَّذي يُناسِبُها (إلى)، لكِنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ عدَلَ عن قَولِه: (يَعرُجُ إليها) إلى قَولِه: ﴿يَعۡرُجُ فِيهَا﴾؛ لِيُفيدَ الصُّعودَ والدُّخولَ، أي: الأشياءُ لا تَصِلُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٧، ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩١).

السَّماءِ الدُّنيا وتَقِفُ، بل تَعرُجُ في السَّماءِ الدُّنيا حتَّى تَصِلَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، فضُمِّنَ «يعرُجُ» معنى «يدخُلُ»[١].

- قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ فيه تَعريضٌ بالمشركينَ أنْ يَتوبوا عن الشِّركِ، فيُغفَر لهم ما قدَّموهُ[٢].

- وقَولُه: ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، فالأكثرُ في القرآنِ تقديمُ اسمِه «الغفورِ» على اسمِه «الرَّحيم»، أمَّا هنا فقدَّم الرَّحيمَ على الغفورِ في هذا السِّياقِ؛ لِمَا يكونُ في السَّماءِ والأرضِ مِن المصالحِ والمنافعِ، والمصالحُ والمنافعُ مِن آثارِ الرَّحمةِ، ودفْعُ المصائبِ مِن آثارِ المغفرةِ؛ لأنَّ المغفرةَ: مَحْوُ الذَّنبِ الَّذي تَزولُ فيه المكروهاتُ، والرَّحمةُ: حصولُ الخَيرِ[٣].

وأيضًا فالرَّحمةُ هنا مُتقدِّمةٌ على المغفرةِ؛ إمَّا بالفَضلِ والكَمالِ، وإمَّا بالطَّبعِ؛ لأنَّها مُنتَظِمةٌ بذِكرِ أوصافِ الخَلقِ مِن المكَلَّفينَ وغَيرِهم مِن الحيوانِ، فالرَّحمةُ تَشمَلُهم، والمغفرةُ تخُصُّهم، والعمومُ بالطَّبعِ قبْلَ الخُصوصِ[٤].

وأيضًا قدَّم ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في هذا الموضِعِ؛ لتقَدُّمِ صِفةِ العِلمِ، فحَسُنَ ذِكرُ الرَّحيمِ بعدَه؛ لِيَقترِنَ به فيطابِقَ قَولَه: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، ثمَّ خَتَم الآيةَ بذِكرِ صِفةِ المغفرةِ؛ لتضَمُّنِها دَفْعَ الشَّرِّ، وتضَمُّنِ ما قبْلَها جَلْبَ الخَيرِ، ولَمَّا كان دفْعُ الشَّرِّ مُقدَّمًا على جَلبِ الخيرِ قُدِّم اسمُ الغَفورِ على الرَّحيمِ حيث وقَعَ، ولَمَّا كان في هذا الموضِعِ تعارُضٌ يقتضي تقديمَ اسمِه

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٥).

(٤) يُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ٢١٣).

الرَّحيم؛ لأجْلِ ما قبْلَه، قُدِّم على الغَفورِ[١].

وقيل: قدَّم صِفةَ الرَّحمةِ؛ ليُعلَمَ أنَّ رحمتَه سبَقَتْ غضَبَه، ولأنَّه في سياقِ الحَمدِ، فناسَبَ تقديمَ الوَصفِ النَّاظِرِ إلى التَّكميلِ على الوَصفِ النَّافي للنَّقصِ[٢].

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٧٨).

الآيات (٢-٦)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَعۡزُبُ﴾: أي: يَغيبُ، وأصلُ (عزب): يدُلُّ على تباعُدٍ وتَنَحٍّ[١].

﴿مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾: أي: زِنةُ نملةٍ صغيرةٍ، يُقالُ: هذا على مِثقالِ هذا، أي: على وزنِ هذا، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخفَّةِ، والذَّرَّةُ هي أصغرُ النَّملِ، وقيل: هي ما يَرفَعُه الرِّيحُ مِن التُّرابِ وأجزاءِ الهواءِ في الكوَّةِ[٢]، وأصلُ (ذَرر): يدُلُّ على لَطافةٍ وانتِشارٍ[٣].

﴿سَعَوۡ﴾: السَّعيُ: المشْيُ الشَّديدُ، وهو دونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢).

(٢) الكوةُ- بفتحِ الكافِ وضمِّها- : الخَرْقُ في الحائطِ ونحوِه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٩/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٧)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٨/ ١٥٧).

الأمرِ، وشِدَّةِ الحرصِ في العملِ خيرًا كان أو شرًّا، يُقالُ: سعَى في الأمرِ: إذا جَدَّ فيه لقَصدِ إصلاحِه أو إفسادِه[١].

﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: أي: مُشاقِّينَ مُعانِدينَ مُغالِبينَ، والمُعاجَزةُ: مُحاوَلةُ عَجْزِ المغالَبِ؛ يُريدُ كلُّ واحدٍ أن يُظهِرَ عجزَ صاحبِه، وأصلُ (عجز): يدُلُّ على ضَعفٍ[٢].

﴿رِّجْزٍ﴾: الرِّجزُ: سوءُ العذابِ وأليمُه، وأصل (رجز): يدُلُّ على الاضطِرابِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى ما قاله الكافرونَ في شأنِ القيامةِ، فيقولُ: وقال الكُفَّارُ مُنكِرينَ البَعثَ بعدَ الموتِ: لا تأتينا القيامةُ! ويأمُرُ الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: بلى ورَبِّي عالمِ الغَيبِ لَتأتينَّكم القيامةُ، لا يَغيبُ عنه تعالى وَزنُ ذَرَّةٍ في السَّمَواتِ ولا في الأرضِ، ولا أصغَرُ مِن ذلك ولا أكبَرُ منه؛ فكلُّ شَيءٍ مَكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى حِكمتَه في البعثِ وقيامِ السَّاعةِ، فيقولُ: لِيَجزيَ اللهُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ، أولئك لهم مَغفِرةٌ ورِزقٌ حَسَنٌ.

والَّذين سَعَوا في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى ظانِّينَ أنَّ الله تعالى لا يَقدِرُ على بَعثِهم ومُعاقَبتِهم: أولئك لهم عَذابٌ شديدٌ مُوجِعٌ.

---

(١) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤١١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٦).

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه موقفَ أهلِ العلم النَّافع ممَّا جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: ويَرى الَّذين أُوتوا العِلمَ ما أنزَلَه اللهُ إليك -يا محمَّدُ- مِن القُرآنَ هو الحقَّ، وأنَّه يَهدي إلى طَريقِ الله القاهِرِ لكُلِّ شَيءٍ، الحامِدِ لعبادِه، والمحمودِ مِن خَلقِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى عَظَمَتَه، بما وَصَف به نفْسَه، وكان هذا مُوجِبًا لتَعظيمِه وتقديسِه، والإيمانِ به؛ ذكَرَ أنَّ مِن أصنافِ النَّاسِ طائفةً لم تَقْدُرْ رَبَّها حَقَّ قَدْرِه، ولم تُعظِّمْه حَقَّ عظَمتِه، بل كفَروا به، وأنكَروا قُدرتَه على إعادةِ الأمواتِ، وقيامِ السَّاعةِ، وعارَضوا بذلك رُسُلَه[1].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ تَكذيبًا وإنكارًا للبَعثِ بعدَ الموتِ: لا تأتينا القيامةُ أبدًا[2]!

﴿ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: بلى ستأتيكم القيامةُ، وأُقسِمُ برَبِّي لَتأتينَّكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤). =

﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ بضَمِّ الميمِ، على أنَّ ﴿عَالِمُ﴾ خبَرٌ لمبتدأٍ مَحذوفٍ، أو مبتدأٌ وخبَرُه ﴿لَا يَعْزُبُ﴾، والجملةُ إمَّا استِئنافيَّةٌ، وإمَّا حاليَّةٌ مِن (رَبِّي)[١].

٢- قِراءةُ ﴿علَّامِ الْغَيْبِ﴾ بتشديدِ اللَّامِ وكَسرِ الميمِ، صيغةُ مُبالَغةٍ مِن صِفةِ العِلمِ[٢].

٣- قِراءةُ ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ بكَسرِ الميمِ، على أنَّ ﴿عَٰلِمِ﴾ وصْفٌ لـ (رَبِّي)، أو بدَلٌ منه[٣].

= قال الشنقيطي: (لفظةُ: «بلى» لا تأتي في اللُّغةِ العربيَّةِ إلَّا لأحدِ معنيَينِ، لا ثالثَ لهما:
الأوَّلُ: أنْ تأتيَ لإبطالِ نَفْيٍ سابقٍ في الكلامِ، فهي نقيضةُ «لا»؛ لأنَّ «لا» لنفيِ الإثباتِ، و «بَلَى» لنَفْيِ النَّفْيِ... كقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾...
الثَّاني: أنْ تكونَ جوابًا لاستفهامٍ مُقترِنٍ بنفْيٍ خاصَّةً؛ كقولِه: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٦٨).

(١) قرأ بها نافع، وأبو جعفر، وابن عامر، ورُوَيس. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩١، ٢٩٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١).

(٢) قرأ بها حمزةُ والكِسائيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩١، ٢٩٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨١).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨١).
قال ابنُ جرير: (الصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندَنا أنَّ كُلَّ هذه القراءاتِ الثَّلاثِ قِراءاتٌ مشهورةٌ في قَرَأَةِ الأمصارِ، مُتقارِباتُ المعاني). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٠).

﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾.

أي: العالِم بكُلِّ ما يَغيبُ عن خَلْقِه، فلا يَعلَمُ وَقتَ مَجيءِ القيامةِ أحدٌ سِواه[١].

﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: لا يَغيبُ عن اللهِ تعالى وَزنُ ذَرَّةٍ سواءٌ كانت في السَّمواتِ أو في الأرضِ؛ فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن خَلقِه، وإن تفرَّقَت أجزاؤُهم وتمزَّقَت وتلاشَت بعدَ مَوتِهم[٢].

﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: ولا يَغيبُ عن الله تعالى أصغَرُ مِن ذلك ولا أكبَرُ منه؛ فكلٌّ مَكتوبٌ مُثبَتٌ في لَوحٍ مَحفوظٍ في غايةِ الإبانةِ والوُضوحِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٥).

والذرَّةُ: أصغرُ النَّملِ، وهو المعروفُ، ويُطلقُ على الهباءةِ التي تُرَى في ضوءِ الشَّمسِ كغُبارٍ دقيقٍ جدًّا، وقيل غير هذا، وهي في الجملةِ عبارةٌ عن أقلِّ الأشياءِ وأصغرِها. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٦).

ممَّن اختار أن ﴿مُّبِينٖ﴾ أي: بَيِّنٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٦٢).

قال ابنُ جرير في قولِه تعالى: ﴿مُّبِينٖ﴾: (أي: يَبينُ للنَّاظرِ فيه أنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه قد أثبَتَه وأحصاه وعَلِمه، فلمْ يَعْزُبْ عنه عِلْمُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١١). =

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى عِلمَه بالصَّغائِرِ والكبائِرِ؛ ذكَرَ أنَّ جَمْعَ ذلك وإثباتَه للجزاءِ، فقال[1]:

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: لِيُثيبَ[2] الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ

= وقال ابن عثيمين: (﴿مُّبِينٍ﴾ أي: مُفَصِّلٍ لكلِّ شَيءٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٢).

(٢) قال ابنُ عطيةَ: (واللاَّمُ مِن قولِه تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ﴾ يصِحُّ أن تكونَ متعلِّقةً بقولِه تعالى: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ويصِحُّ أن تكونَ متعلِّقةً بقولِه: ﴿لَا يَعْزُبُ﴾، ويصِحُّ أن تكونَ متعلِّقةً بما في قولِه: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ مِن معنى الفعلِ؛ لأنَّ المعنى: إلَّا أثْبَتُّه في كتابٍ مبينٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٥).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الزجَّاج، والزمخشري، والرسعني، والقرطبي، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجَّاج (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٨)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) =

الخالِصةَ للهِ تعالى، الموافِقةَ لِشَرعِه[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

أي: أولئك لهم مِنَ اللهِ مَغفِرةٌ لِذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، ولهم رِزقٌ حَسَنٌ في كَمِّيَّتِه وكيفيَّتِه[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى حالَ المؤمِنينَ يومَ القيامةِ؛ بيَّنَ حالَ الكافِرينَ[٣].

وأيضًا لَمَّا كانت أدِلَّةُ السَّاعةِ قد اتَّضَحت، حتَّى لم يَبْقَ مانعٌ مِن التَّصديقِ بها إلَّا العِنادُ، وكان السِّياقُ لتَهديدِ مَن جَحَدها؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾[٤].

= (٢٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: العُلَيميُّ، فقال: (اللَّامُ في ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾ متعلِّقةٌ بقولِه: ﴿لَا يَعۡزُبُ﴾، أي: لا يغيبُ عنه شَيءٌ؛ لِيَجزيَ المحسِنَ والمسِيءَ). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٠١).

وممَّن اختار القولَ الثالثَ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٨٥).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٩-٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٤٢-٤٤، ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٨).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

أ- في قَولِه تعالى: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ قيل: على معنى: مُثبِّطينَ ومُبَطِّئينَ[(١)].

٢- قِراءةُ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ قيل: على معنى: مُعانِدينَ. وقيل: على معنى: ظانِّينَ أنَّهم يُعجِزونَنا، أي: يَفوتونَنا؛ لأنَّهم ظَنُّوا أنَّهم لا يُبعَثونَ[(٢)].

ب- في قَولِه تعالى: ﴿أَلِيمٌ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرَّفعِ وصْفًا للعذابِ، أي: عذابٌ أليمٌ مِن رِجزٍ[(٣)].

٢- قِراءةُ ﴿أَلِيمٍ﴾ بالجَرِّ وصْفًا للرِّجْزِ، أي: عذابٌ مِن رِجزٍ أليمٍ[(٤)].

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥﴾.

أي: والَّذين اجتَهَدوا في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى، وصَدِّ النَّاسِ عنها، وظَنُّوا أنَّهم

---

(١) قرأ بها ابنُ كثير، وأبو عَمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٨٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٣، ٥٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٨٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٣، ٥٤).

(٣) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، ويعقوبُ، وحفصٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٩٢)، (معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٨).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٩٢)، (معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٨).

يَفوتونَ اللهَ، فلا يَقدِرُ على بَعثِهم ومُعاقبتِهم: أولئك لهم عذابٌ شديدٌ مُوجِعٌ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ [الجاثية: ١١].

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إنكارَ مَن أنكَرَ البَعثَ، وأنَّهم يَرَونَ ما أنزَل على رَسولِه ليس بحَقٍّ؛ ذكَرَ حالةَ الموفَّقينَ مِن العبادِ -وهم أهلُ العِلمِ- وأنَّهم يَرَونَ ما أنزلَ اللهُ على رَسولِه مِن الكِتابِ، وما اشتَمَل عليه مِن الأخبارِ: هو الحَقَّ[٢]؛ فذكَرَ ذلك إعلامًا بأنَّ الَّذي أورَثَ الكَفَرةَ التَّكذيبَ: الجَهلُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٣، ١٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٣، ٥٤).
ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾: القرآنُ: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، والنسفي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٦٣).
وممن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: أدلتُنا وحجَجُنا: ابنُ جريرٍ، ومكِّي، والبغوي، والخازن، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٤٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٠١).
قال ابنُ عثيمين: (والصوابُ: أنَّ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ هنا أعَمُّ من القرآنِ؛ لأنَّ الساعينَ في آياتِ الله تعالى ليسوا هم مِن هذه الأُمَّةِ فقَطْ، حتى في الأُمَمِ السابِقةِ فإنَّ فيهم مَن يَسعَى في آياتِ الله تعالى... في إبطالِها وصدِّ الناسِ عنها، وعلى هذا فنَقولُ: إنَّ المُرادَ بآياتِ الله تعالى هنا أعمُّ مِن القرآنِ، يَشمَلُ السَّعيَ في أيِّ آيةٍ مِن آياتِ الله تعالى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٨، ٤٤٩).

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ ﴾.

أي: ويرى أهلُ العِلمِ[(١)] أنَّ ما أنزَلَ اللهُ إليك -يا مُحمَّدُ- مِنَ القُرآنِ: هو الحَقُّ وحْدَه دونَ ما سِواه[(٢)].

قال تعالى: ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ * وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ ﴾ [الأنعام: ١١٤، ١١٥].

﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾.

أي: ويَرَونَ أنَّ القُرآنَ يَهدي مَن اتَّبَعه إلى طريقِ اللهِ المَنيعِ الجَنابِ، المنتَقِمِ مِن أعدائِه، والقاهِرِ لكُلِّ شَيءٍ فلا يُغالَبُ؛ الحامِدِ لعبادِه، والمحمودِ مِن خَلقِه[(٣)].

---

(١) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾: مؤمنو أهلِ الكتابِ؛ كعبدِ الله بنِ سَلَام وأصحابِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٧٤).

وممَّن اختار أنَّهم أصحابُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: الشوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٦).

قال ابن عاشور: (والأظهَرُ أنَّ المرادَ مِن الَّذينَ أُوتوا العِلمَ: مَن آمَنوا بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ مَكَّةَ؛ لأنَّهم أُوتوا القرآنَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٦).

وقيل: المرادُ: جميعُ المسلِمينَ. وممَّن رجَّح ذلك: القرطبيُّ، واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٧، ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٥، ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦١، ٦٢).

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلى قولِه سُبحانَه في حقِّ الكفَّارِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أنَّه يَنبغي في الخِطابِ أنْ يكونَ جامعًا بيْنَ أسبابِ الخَوفِ وأسبابِ الرَّجاءِ؛ لأنَّه إذا ذُكِرَ الخَوفُ فقط فقد يَستولي على القَلبِ القُنوطُ مِن رحمةِ اللهِ، وإذا ذُكِرَ الرَّجاءُ فقط فقد يَستولي عليه الأمنُ مِن مَكرِ اللهِ سُبحانَه وتعالى[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ التَّحذيرُ مِن سَعيِ الإنسانِ في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى، والقاعِدةُ في التَّفسيرِ: أنَّه إذا نُهِيَ عن شَيءٍ فهو أمرٌ بضِدِّه؛ فتَكونُ هذه الآيةُ مُتضَمِّنةً للحثِّ على السَّعيِ في آياتِ الله؛ لِتَقريرِها وتَثبيتِها؛ فإنَّنا مأمورونَ بأنْ نسعَى قَدْرَ استطاعتِنا في تثبيتِ آياتِ اللهِ، ونَشْرِها بينَ الأُمَّةِ؛ حتَّى تقومَ المِلَّةُ[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فيه مَنقَبةٌ لأهلِ العِلمِ، وفَضيلةٌ وعَلامةٌ لهم، وأنَّه كُلَّما كان العبدُ أعظَمَ عِلمًا وتَصديقًا بأخبارِ ما جاء به الرَّسولُ، وأعظَمَ مَعرِفةً بحُكمِ أوامِرِه ونواهيه؛ كان مِن أهلِ العِلمِ الَّذين جعَلَهم اللهُ حُجَّةً على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٦).

ما جاء به الرَّسولُ؛ احتَجَّ اللهُ بهم على المكَذِّبينَ المعانِدينَ كما في هذه الآيةِ وغَيرِها[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أنْ يُعجَبَ بعِلمِه؛ فبِناءُ الفِعلِ للمَفعولِ يُشيرُ إلى أنَّهم ما أدركوه بأنفُسِهم، ولكنَّ اللهَ تعالى مَنَّ عليهم به، فلا يَنبغي للإنسانِ أنْ يقولَ مُعجبًا بنفسِه: العِلمُ حصَّلْتُه أنا بفَهْمي وحِرْصي ومُثابرتي! وقد أخبَرَ الله تعالى بما صنَع بالَّذي قال عن مالِه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وأنَّه خَسَف به الأرضَ. وإنَّما على الإنسانِ أنْ يَلجأَ إلى اللهِ تعالى في تحصيلِ العِلمِ، وأنْ يسألَه أنْ يُؤتيَه إيَّاه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ هذه إحدَى الآياتِ الثَّلاثِ الَّتي لا رابِعَ لهنَّ ممَّا أمر اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُقسِمَ بربِّه العظيمِ على وُقوعِ المَعادِ، لَمَّا أنكَرَه مَن أنكَرَه مِن أهلِ الكُفرِ والعِنادِ؛ فإحداهنَّ في سورةِ (يونس): ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، والثَّانيةُ هذه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾، والثَّالثةُ في التَّغابُنِ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[٣] [التغابن: ٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ إباحةُ القَسَمِ، وقد يجبُ إذا دَعَتِ الحاجةُ إليه؛ نأخُذُه مِن أمرِ اللهِ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُقْسِمَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٥).

على قيامِ السَّاعةِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ كمالُ رحمةِ اللهِ بعبادِه؛ حيث أخبرَهم بالبَعثِ، وأكَّدَه بالمؤكِّداتِ اللَّفظيَّةِ والمعنَويَّةِ والحِسِّيَّةِ أيضًا؛ لأنَّ الإيمانَ بالبَعثِ هو الَّذي يَحمِلُ الإنسانَ على القيامِ بطاعةِ اللهِ؛ إذْ لو لم يكنْ هناك بَعثٌ ما عَمِلَ الإنسانُ للآخِرةِ أبدًا[٢]!

٤- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ لَقَّنَ اللهُ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الجوابَ عن قَولِ الكافرينَ بالإبطالِ المُؤكَّدِ، على عادةِ إرشادِ القُرآنِ في انتهازِ الفُرَصِ لِتَبليغِ العقائدِ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾ أنَّ أفعالَ اللهِ مُعَلَّلةٌ، بمعنى: أنَّ لها عِلَّةً؛ يُؤخَذُ مِن اللَّام في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾؛ لأنَّ اللَّامَ للتَّعليلِ، وهذا يُؤَيِّدُ مَذهَبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ الَّذين يقولون: إنَّ أفعالَ اللهِ تعالى مقرونةٌ بالحِكمةِ، ومعلومٌ أنَّ الجَهميَّةَ وكذلك بعضُ الأشاعرةِ يُنكِرونَ أنْ تكونَ أفعالُ اللهِ تعالى لحِكمةٍ، ويقولون: إنَّ أفعالَه لمجرَّدِ المشيئةِ! ونقولُ لهم: إنَّ هذا مُصادَمةٌ للنُّصوصِ، ولو تأمَّلْنَا القرآنَ لوجَدْنا فيه آلافَ الآياتِ تدُلُّ على إثباتِ الحكمةِ للهِ تعالى[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الفَرقُ بيْنَ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ عندَ الجَمعِ بيْنَهما؛ فإنَّه إذا جُمِعَ بيْنَهما صار الإيمانُ في القلبِ، والعملُ الصَّالحُ في الجوارحِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٤٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٦).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الإيمانَ الَّذي في القَلبِ فقط لا يكفي عن العَمَلِ الصَّالحِ؛ لأنَّه رَتَّبَ الجزاءَ على قيامِ الوَصفَينِ بالفاعِلِ، وهما الإيمانُ والعَمَلُ الصَّالحُ[١].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ فيه سؤالٌ: ميَّز الرِّزقَ بالوَصفِ بقَولِه: ﴿كَرِيمٞ﴾، ولم يَصِفِ المَغفِرةَ؟

الجوابُ: المَغفِرةُ واحِدةٌ هي للمُؤمِنينَ، والرِّزقُ منه شَجَرةُ الزَّقُّومِ والحَميمُ، ومنه الفَواكِهُ والشَّرابُ الطَّهورُ، فميَّز الرِّزقَ؛ لحُصولِ الانقِسامِ فيه، ولم يميِّزِ المغفرةَ؛ لعدَمِ الانقِسامِ فيها[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ دليلٌ ظاهرٌ أنَّ الَّذي نراه معارِضًا للنَّقلِ، ويُقَدِّمُ العقلَ عليه ليس مِن الَّذين أُوتوا العِلمَ في شَيءٍ، لا قليلٍ ولا كثيرٍ! وقد شهِد الله سبحانَه بالعِلمِ لمَن يرَى أنَّ ما جاء به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن عندِ اللهِ هو الحَقُّ لا آراءَ الرِّجالِ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ أنَّ العقلَ الصَّريحَ لا يُخالِفُ السَّمعَ الصَّحيحَ، بل يُصَدِّقُه ويُوافِقُه[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ أنَّ أعلَمَ النَّاسِ مَن كان رأيُه واستِصلاحُه واستِحسانُه وقياسُه مُوافقًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٣)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ١٥٥) و (٣/ ٨٥١).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ١٠١).

للنُّصوصِ، كما قال مجاهِدٌ: (أفضلُ العبادةِ الرَّأيُ الحسَنُ، وهو اتِّباعُ السُّنَّةِ)[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أنَّ مَن ابتغَى الهدَى مِن غيرِ القرآنِ ضَلَّ؛ لأنَّه إذا كان هو الَّذي يَهدي إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ؛ فإذا ابتغيتَ الهدى مِن غيرِه -المخالِفِ له- فإنَّك لا تُهدى إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ! ولهذا لَمَّا طَلَب أهلُ البدعِ الوُصولَ إلى الخالقِ عن طريقِ غيرِ القرآنِ ضَلُّوا وتاهوا، وبقُوا مُتحيِّرينَ مُضطربينَ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ كان ذِكرُ ما يَلِجُ في الأرضِ وما يَخرُجُ منها مُشعِرًا بحالِ الموتَى عندَ وُلوجِهم القُبورَ، وعندَ بَعْثِهم منها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥- ٢٦]، وكان ذِكرُ ما يَنزِلُ مِن السَّماءِ وما يَعرُجُ فيها مُومِئًا إلى عُروجِ الأرواحِ عندَ مُفارَقةِ الأجسادِ، ونُزولِ الأرواحِ لِتُرَدَّ إلى الأجسادِ الَّتي تُعادُ يومَ القيامةِ؛ فكان ذلك مع ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [سبأ: ١] مُناسبةً للتَّخلُّصِ إلى ذِكرِ إنكارِ المُشركينَ الحشْرَ؛ لأنَّ إبطالَ زَعْمِهم مِن أهمِّ مَقاصدِ هذه السُّورةِ؛ فكان التَّخلُّصُ بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٢٠٤). وأثرُ مجاهدٍ رواه الأصبهاني في ((حلية الأولياء)) (٣/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦٥، ٦٦).

ٱلسَّاعَةُ﴾[١].

- وفي قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ تَعريفُ المُسنَدِ إليه بالمَوصوليَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ هذا الموصولَ صار كالعَلَمِ بالغَلَبةِ على المُشركينَ في اصطِلاحِ القُرآنِ، وتَعارُفِ المسلمينَ، والسَّاعةُ: عَلَمٌ بالغَلَبةِ في القُرآنِ على يَومِ القِيامةِ وساعةِ الحشْرِ، وعُبِّرَ عن انتفاءِ وُقوعِها بانتفاءِ إتيانِها على طَريقِ الكِنايةِ؛ لأنَّها لو كانتْ واقعةً لَأتَتْ؛ لأنَّ وُقوعَها هو إتيانُها[٢]، وإنَّما عبَّروا عنه بذلك لأنَّهم كانوا يُوعَدون بإتيانِها، ولأنَّ وُجودَ الأُمورِ الزَّمانيَّةِ المُستقبَلةِ -لا سيَّما أجْزاءُ الزَّمانِ- لا يكونُ إلَّا بالإتيانِ والحُضورِ. وقيل: هو استبطاءٌ لإتيانِها الموعودِ بطَريقِ الهُزءِ والسُّخريةِ كقولِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[٣] [الملك: ٢٥].

- قولُه: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أكَّدَ ما اقتضاهُ (بلى) مِن إثباتِ إتيانِ السَّاعةِ بالقَسَمِ على ذلك؛ للدَّلالةِ على ثِقةِ المُتكلِّمِ بأنَّها آتيةٌ، وليس ذلك لإقناعِ المخاطَبينَ، وهو تأْكيدٌ يُروِّعُ السَّامعينَ المُكذِّبينَ. وعُدِّيَ إتيانُها إلى ضَميرِ المخاطبينَ مِن بيْنِ جَميعِ النَّاسِ دونَ: (لِتَأتِينَّا)، ودونَ أنْ يُجرَّدَ عن التَّعديةِ لِمَفعولٍ؛ لأنَّ المُرادَ إتيانُ السَّاعةِ الَّذي يكونُ عندَه عِقابُهم، كما يُقالُ: أتاكُمُ العَدُوُّ، وأتاكَ أتاكَ اللَّاحقونَ؛ فتَعلُّقُه بضَميرِ المُخاطَبينَ قَرينةٌ على أنَّه كِنايةٌ عن إتيانِ مَكروهٍ فيه عَذابٌ[٤].

- وقولُه: ﴿وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ تَأكيدٌ لِرَدِّ كَلامِهم على أتمِّ الوُجوهِ وأكمَلِها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٩).

وقولُه: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ ...﴾ إلخ: إمدادٌ للتَّأكيدِ، وتَسديدٌ له إثرَ تَسديدٍ، وكَسرٌ لِسَورةِ نَكيرِهم واستبعادِهم؛ فإنَّ تَعقيبَ القسَمِ بجَلائلِ نُعوتِ المُقسَمِ به على الإطلاقِ يُؤذِنُ بفَخامةِ شَأنِ المُقْسَمِ عليه، وقُوَّةِ ثَباتِه وصِحَّتِه؛ لِمَا أنَّ ذلك في حُكمِ الاستِشهادِ على الأمْرِ، ولا رَيبَ في أنَّ المُستشهَدَ به كلَّما كان أجَلَّ وأعْلَى، كانتِ الشَّهادةُ آكَدَ وأقْوى، والمُستشهَدُ عليه أحقَّ بالثُّبوتِ وأَولى، لا سيَّما إذا خُصَّ بالذِّكرِ مِن النُّعوتِ ما له تَعلُّقٌ خاصٌّ بالمُقسَمِ عليه كما نحنُ فيهِ؛ فإنَّ وَصْفَه بعِلمِ الغَيبِ الَّذي أشهَرُ أفرادِه وأدخَلُها في الخَفاءِ هو المُقسَمُ عليهِ -إتيانُ السَّاعةِ- تَنبيهٌ لهمْ على عِلَّةِ الحُكمِ وكَونِه ممَّا لا يَحومُ حوْلَه شائبةُ رَيبٍ ما. وفائدةُ الأمْرِ بهذه المَرتبةِ مِن اليمينِ ألَّا يَبقَى للمُعاندينَ عُذرٌ ما أصلًا؛ فإنَّهم كانوا يَعرِفون أمانتَه ونَزاهتَه عن وَصْمةِ الكذِبِ فضْلًا عن اليمينِ الفاجِرةِ، وإنَّما لم يُصَدِّقوه مُكابَرةً[1].

- وجاء القسَمُ بقولِه: ﴿وَرَبِّي﴾ مُضافًا إلى الرَّسولِ؛ لِيَدُلَّ على شِدَّةِ القَسَمِ؛ إذ لم يَأتِ به في الاسمِ المُشترَكِ بيْنَه وبيْنَ مَن أنكَرَ السَّاعةَ، وهو لَفظُ (اللهِ)[2].

- قولُه: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ أشارَ بقولِه: ﴿مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾ إلى تَقريبِ إمكانِ الحشْرِ؛ لأنَّ الكافرينَ أحالوهُ بعِلَّةِ أنَّ الأجسادَ تَصيرُ رُفاتًا وتُرابًا، فلا تُمكِنُ إعادتُها؛ فنُبِّهوا إلى أنَّ عِلمَ اللهِ مُحيطٌ بأجزائِها[3].

- قولُه: ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ جُملةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥١٩، ٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤١).

مُؤكِّدةٌ لِنَفْيِ العُزوبِ[١].

- وقد تَكرَّرَ في القرآنِ إتْباعُ ذِكرِ السَّاعةِ بذِكرِ انفرادِه تعالى بعِلْمِها؛ لأنَّ الكافرينَ بها جَعَلوا مِن عَدَمِ العِلمِ بها دَليلًا سُفسطائيًّا على أنَّها ليستْ بواقعةٍ؛ ولذلك سمَّاها القرآنُ الواقعةَ في قولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[٢] [الواقعة: ١، ٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]، وقال بعْدَه في هذه السُّورةِ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢]، وقال في سُورةِ (يُونسَ): ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]؛ فقدَّمَ السَّمواتِ على الأرضِ في المَوضعينِ مِن سُورةِ (سَبأٍ)، وقدَّمَ الأرضَ على السَّماءِ في سُورةِ (يُونسَ)؛ وَوجْهُ ذلك: أنَّه قدَّمَ ذِكرَ السَّمواتِ على الأرضِ في سُورةِ (سَبأٍ)؛ لأنَّ هذه الآيةَ مَبنيَّةٌ على مُفتتَحِ السُّورةِ، وهو قولُه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١]، فقدَّمَ ذِكرَ السَّمواتِ؛ لأنَّ مُلْكَها أعظَمُ شَأنًا وأكبَرُ سُلطانًا، وكذلك الآيةُ الَّتي بعْدَها مِن سُورتِها. وأمَّا الآيةُ الَّتي في سورةِ (يُونسَ) فإنَّها جاءتْ عَقيبَ قولِه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]؛ فكان القصْدُ إلى ذِكرِ عِلمِه بما يَتصرَّفُ فيه العِبادُ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وذلك في الأرضِ، فأتَمَّه بقولِه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٠).

فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فاستوعَبَ جميعَ ما في الأرضِ، ثمَّ أتْبَعَهُ بذِكرِ السَّماءِ؛ لأنَّ الابتداءَ وقَعَ بما يَتعلَّقُ بها، وما يَعمَلُ العِبادُ فيها؛ فلذلك قُدِّمَت الأرضُ عليها(١).

- وأيضًا فقد قَدَّمَ سُبحانَه ذِكْرَ السَّمَواتِ على الأرضِ لأنَّ الساعةَ إنَّما تأتي مِن قِبَلِها، وهي غَيْبٌ فيها، ومِن جهتِها تَبتدِئُ وتَنشأُ، ولهذا قَدَّمَ صَعْقَ أهلِ السمواتِ على أهلِ الأرضِ عندَها، فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨]، وأمَّا تقديمُ الأرضِ على السماءِ في سورةِ (يونسَ): فإنَّه لَمَّا كان السِّياقُ سياقَ تحذيرٍ وتهديدٍ للبشرِ، وإعلامِهم أنه سُبحانَه عالِمٌ بأعمالِهم دقيقِها وجليلِها، وأنَّه لا يَغيبُ عنه منها شَيءٌ؛ اقتضَى ذلك ذكرَ مَحلِّهم -وهو الأرضُ- قبْلَ ذكرِ السَّماءِ(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عِلَّةٌ لقولِه تعالى: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وبَيانٌ لِمَا يَقْتضي إتيانَها(٣). وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه جَديرٌ بما سَيَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن الحُكمِ؛ لأجْلِ ما قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن الأوصافِ، وما فيهِ مِنْ معنَى

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٧٤-١٠٧٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٧، ٢٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢١ - ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٢).

البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الفضْلِ والشَّرفِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴾

- قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ ﴿مُعَٰجِزِينَ ﴾ مُبالَغةٌ في مُعجزينَ، وهو تَمثيلٌ: شُبِّهت حالُهم في مَكرِهم بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحالِ مَن يَمْشي مَشيًا سَريعًا؛ لِيَسبِقَ غيرَه ويُعجِزَه[٢].

- وقُوبِلَ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ بـ (الَّذينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا)؛ لأنَّ السَّعيَ في آياتِ اللهِ يُساوي معنى: كَفَروا بها، وبذلك يَشملُ عمَلَ السَّيِّئاتِ، وهو سيِّئةٌ مِن السَّيِّئاتِ؛ فقد عبَّرَ عنهم بعْدَ ذلك بقولِه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ ... ﴾ [سبأ: ٧] إلخ[٣].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه جَديرٌ بما سَيَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن الحُكمِ؛ لأجْلِ ما قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن الأوصافِ. وما فيهِ منْ معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ دَرجتِهم في سُوءِ الحالِ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ ﴾ كَلامٌ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٣، ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٢).

مُستأنَفٌ مَسوقٌ للاستِشهادِ بأُولي العِلم على الجَهَلةِ السَّاعينَ في الآياتِ[(١)].

وقيل: هو عطْفٌ على ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [سبأ: ٤]، وهو مُقابِلُ جَزاءِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، فالمُرادُ بالَّذين سَعَوا في الآياتِ الَّذين كَفَروا، وعُدِلَ عن جَعلِ صِلَةِ اسمِ الموصولِ (كَفَرُوا)؛ لِتَصلُحَ الجُملةُ أنْ تكونَ تَمهيدًا لإبطالِ قَولِ المشركينَ في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ [سبأ: ٨]؛ لأنَّ قَولَهم ذلك كِنايةٌ عن بُطلانِ ما جاءهُم به مِن القرآنِ في زَعْمِهم؛ فكان جَديرًا بأنْ يُمهَّدَ لإبطالِه بشَهادةِ أهْلِ العِلمِ بأنَّ ما جاء به الرَّسولُ هو الحقُّ دونَ غيرِه مِن باطلِ أهْلِ الشِّركِ الجاهلينَ؛ فعَطْفُ هذه الجُملةِ مِن عطْفِ الأغراضِ. وهذه طَريقةٌ في إبطالِ شُبَهِ أهْلِ الضَّلالةِ والملاحدةِ؛ بأنْ يُقدَّمَ قبْلَ ذِكرِ الشُّبهةِ ما يُقابِلُها مِن إبطالِها. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ عَطفًا على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ [سبأ: ٥]؛ فبَعدَ أنْ أُورِدتْ جُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ﴾ لِمُقابَلةِ جُملةِ ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلخ [سبأ: ٤]، اعتُبِرتْ مَقصودًا مِن جِهَةٍ أُخرى، فكانت بحاجةٍ إلى رَدِّ مَضمونِها بجُملةِ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الَّذين سَعَوا في الآياتِ أهْلُ جَهالةٍ، فيكونُ ذِكرُها بعْدَها تَعقيبًا للشُّبهةِ بما يُبطِلُها[(٢)].

والرُّؤيةُ عِلميَّةٌ، واختيرَ فِعلُ الرُّؤيةِ هنا دونَ (ويَعلَم)؛ للتَّنبيهِ على أنَّه عِلمٌ يَقينيٌّ بمَنزلةِ العِلمِ بالمَرئيَّاتِ الَّتي عِلْمُها ضَروريٌّ[(٣)].

- قولُه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ إضافةُ الرُّبوبيَّةِ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٤، ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٤٥).

الرُّبوبيَّةُ الخاصَّةُ، وفي ذلك فضيلةٌ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

- وضَميرُ (هو) في قولِه: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ للفصْلِ، يُفِيدُ حَصْرَ الحقِّ في القُرآنِ حَصرًا إضافيًّا، أي: لا ما يَقولُه المشركونَ ممَّا يُعارِضون به القُرآنَ. ويَجوزُ أيضًا أنْ يُفِيدَ قَصْرًا حَقيقيًّا ادِّعائيًّا[٢]، أي: قَصْرَ الحقِّيَّةِ المَحضِ عليه؛ لأنَّ غيرَه مِن الكُتبِ خُلِطَ حقُّها بِباطلٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦٥).

(٢) الحَصرُ أو القَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقع، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو الله وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن ابن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٥).

- قولُه: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ مِن عَطْفِ الفِعْلِ على الاسمِ، والعُدولُ عن الوَصفِ (الهادي إلى صِراطِ العزيزِ) إلى صِيغَةِ المُضارِعِ ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾؛ لإشعارِها بتَجدُّدِ الهِدايةِ وتَكرُّرِها[١].

- وإيثارُ وَصْفي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ دونَ بقيَّةِ الأسماءِ الحُسنى إيماءٌ إلى أنَّ المؤمنينَ حينَ يُؤمِنون بأنَّ القُرآنَ هو الحقُّ والهِدايةُ، يَستشعِرون مِن الإيمانِ أنَّه صِراطٌ يُبلَغُ به إلى العِزَّةِ؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ويُبلَغُ به إلى الحمْدِ، أي: الخِصالِ المُوجِبةِ للحمْدِ، وهي الكمالاتُ مِن الفضائلِ والفواضلِ[٢]، ولذا أضافَ الصِّراطَ إلى هذا الاسمِ العظيمِ الدَّالِّ على العِزَّةِ؛ إشارةً إلى أنَّ مَن تَمَسَّك بهذا الصِّراطِ كانت له العِزَّةُ، وإلى اسمِه ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ أيضًا إشارةً إلى أنَّ مَن لَزِمَ هذا الصِّراطَ كان في مقامِ محمودٍ، وأنَّ مَن تمسَّكَ بالقرآنِ فله العِزَّةُ، وله الحمدُ؛ يُحْمَدُ على فعلِه وقولِه وتركِه[٣].

- وقدَّم ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ على ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾؛ لأنَّ كونَه عزيزًا تامَّ الهَيبةِ شَديدَ الانتِقامِ: يقوِّي جانِبَ الرَّغبةِ؛ لأنَّ رضا الجبَّارِ العزيزِ أعَزُّ وأكرَمُ مِن رضا مَن لا يكونُ كذلك، فالعِزَّةُ كما تخوِّفُ تُرجِّي أيضًا، وكما تُرغِّبُ عن التَّكذيبِ تُرغِّبُ في التَّصديقِ؛ ليَحصُلَ القُربُ مِن العزيزِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦١، ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٤).

الآيات (٧-٩)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُزِّقۡتُمۡ﴾: أي: بَلِيتُم، وتفرَّقت أجسادُكم، وأصلُ (مزق): يدُلُّ على تخَرُّقٍ في شَيءٍ[(١)].

﴿أَفۡتَرَىٰ﴾: الافتراءُ: الاختِلاقُ، وهو ما عَظُمَ مِن الكَذِبِ، ومِنه قيل: افترَى فُلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، ويُستَعمَلُ في القُرآنِ في الكَذِبِ والشِّركِ والظُّلمِ، وأصلُ (فري): قَطْعُ الشَّيءِ، ومِن ذلك: فَرَيْتُ الشَّيءَ أفْريه فَرْيًا، وهو قطْعُه لإصلاحِه، وأفرَيْتُه: إذا أنت قطعتَه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[(٢)].

﴿جِنَّةٌۢ﴾: أي: جُنونٌ، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ، ومنه المجنونُ؛ لاستتارِ عقلِه، وتَواريه عنه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٢٨، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢، ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦، ٤٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤، ٦٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٦، ٢١٣).

﴿نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾: أي: نُغَيِّبْهم فيها، يُقالُ: خسَفَ اللهُ به الأرضَ، أي: غابَ به فيها، وأصلُ (خسف): يدُلُّ على ذَهابٍ وغُؤورٍ(١).

﴿كِسَفًا﴾: أي: قِطَعًا، وأصلُ (كسف): يدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ(٢).

﴿مُّنِيبٖ﴾: أي: رجَّاعٍ تائبٍ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على رُجوعِ الشَّيءِ مرَّةً بعدَ أخرى(٣).

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى ما قاله الكفرةُ فيما بيْنَهم، على سبيلِ الاستهزاءِ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في إخبارِه بالبعثِ، واستِبعادَهم ذلك، فيقولُ: وقال الَّذين كَفَروا: هل ندُلُّكم على رجُلٍ يُنَبِّئُكم بأنَّكم إذا مِتُّم وبَلِيَت أجسادُكم أنَّكم بعدَ تلك الحالِ ستُبعَثونَ أحياءً؟! هل اختلَقَ محمَّدٌ ذلك وكَذَب على اللهِ أم به جُنونٌ؟!

ثمَّ يرُدُّ الله تعالى عليهم، فيقولُ: ليس الأمرُ كما زَعَموا، بل هؤلاء الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ في العَذابِ والذَّهابِ البعيدِ عن الحَقِّ.

ثمَّ يقولُ تعالى منبِّهًا لهم على قدرتِه، ومهدِّدًا لهم بسوءِ العاقبةِ إذا ما استمَرُّوا في ضلالِهم وجهالاتِهم: أفلَمْ يَرَ أولئك الكُفَّارُ إلى ما بينَ أيديهم وما خَلْفَهم مِنَ السَّماءِ والأرضِ؛ فإنْ نَشَأْ نُغَيِّبْهم في باطِنِ الأرضِ، أو نُسقِطْ عليهم قِطَعًا مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦).

السَّماءِ فنُهلِكْهم، إنَّ في ذلك لَدَلالةً لكُلِّ عبدٍ تائبٍ إلى اللهِ تعالى راجِعٍ إليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَجَّب سُبحانَه مِنَ الَّذين كفروا في قَولِهم ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [سبأ: ٣]، المتضَمِّنِ لِتَكذيبِهم، وختَمَ بتصديقِ الَّذين أُوتوا العِلمَ، مُشيرًا إلى أنَّ سببَ تكذيبِ الكفَرةِ الجهلُ، الَّذي سببُه الكِبْرُ؛ عجَّب منهم هنا تعجيبًا آخَرَ أشَدَّ مِن الأوَّلِ؛ لتصريحِهم بالتَّكذيبِ على وجهٍ عجيبٍ[1].

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا بيَّن أنَّ الكافرينَ أنكَروا السَّاعةَ، وردَّ عليهم بقولِه: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ: ٣]، وبيَّن ما يكونُ بعدَ إتيانِها مِن جزاءِ المؤمنِ على عمَلِه الصَّالحِ، وجزاءِ السَّاعي في تكذيبِ الآياتِ بالتَّعذيبِ على السَّيِّئاتِ؛ بيَّن حالَ المؤمنِ والكافرِ بعدَ قولِه: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾؛ فقال: المؤمنُ هو الَّذي يقولُ: الَّذي أُنزِل إليك الحقُّ وهو يَهدي. وقال: الكافرُ هو الَّذي يقولُ: هو باطلٌ! ومِن غايةِ اعتِقادِهم وعِنادِهم في إبطالِ ذلك، قالوا على سبيلِ التَّعجُّبِ[2] ما حكاه اللهُ تعالى عنهم:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥١).

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: هل نَدُلُّكم -أيُّها النَّاسُ[١]- على رجُلٍ[٢] يُنَبِّئُكم بأنَّكم إذا مِتُّمْ وتقَطَّعَت أجسادُكم وتفرَّقَت في قُبورِكم كُلَّ تقطيعٍ وتَفريقٍ: أنَّكم بعدَ تلك الحالِ ستُبعَثونَ أحياءً مِن جَديدٍ[٣]؟!

﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ٨﴾.

﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾.

أي: هل اختلَق محمَّدٌ ذلك الأمرَ فكَذَب على اللهِ في إخبارِه بأنَّه سيَبعثُنا بعدَ مَوتِنا، أم هو امرؤٌ مَجنونٌ يَهْذي بكَلامٍ لا معنى له[٤]؟!

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما زعَم أولئك المُشرِكونَ؛ فليس هو بمُفتَرٍ على اللهِ تعالى

---

(١) قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يكونَ قَولُهم هذا تقاوُلًا بيْنَهم، أو يقولُه بَعضُهم لبعضٍ، أو يقولُه كُبَراؤهم لعامَّتِهم ودَهْمائِهم؛ ويجوزُ أن يكونَ قَولَ كُفَّارِ مكَّةَ للواردينَ عليهم في الموسِمِ، وهذا الَّذي يُؤْذِنُ به فِعلُ ﴿نَدُلُّكُمۡ﴾ مِن أنَّه خِطابٌ لِمَن لم يَبلُغْهم قَولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٧).

(٢) قال البِقاعي: (ولَمَّا أخرَجوا الكلامَ مخرجَ الغرائِبِ المُضحِكةِ، لم يَذكُروا اسمَه مع أنَّه أشهرُ الأسماءِ، بل قالوا: ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ أي: ليس هو صبيًّا ولا امرأةً حتَّى تَعذِروه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٠، ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٧٢، ٧٣).

في ذلك، وليس بمَجنونٍ، ولكِنَّ هؤلاء الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ في العذابِ والذَّهابِ البَعيدِ عن الحَقِّ[١].

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الدَّليلَ بكَونِه عالمَ الغَيبِ، وكَونِه جازيًا على السَّيِّئاتِ والحَسَناتِ؛ ذكَرَ دليلًا آخَرَ، وذكَرَ فيه تهديدًا[٢].

وأيضًا لَمَّا كان المُشرِكونَ قد أنكَروا السَّاعةَ؛ لِقَطعِهم بأنَّ مَن مُزِّق كُلَّ مُمَزَّقٍ لا يمكِنُ إعادتُه، فقطعوا -جهلًا- بأنَّ الله تعالى لا يقولُ ذلك، فنَسَبوا الصَّادِقَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الإخبارِ بذلك إلى أحَدِ أمْرَينِ: تعمُّدِ الكَذِبِ، أو الجُنونِ- شَرَعَ اللهُ سُبحانَه يدُلُّ على صِدقِه في جميعِ ما أخبَرَ به، فبدأ بإثباتِ قُدرتِه على ذلك[٣].

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: أفلمْ يَرَ أولئك الكُفَّارُ إلى ما بينَ أيديهم وما خَلْفَهم[٤] مِنَ السَّماءِ والأرضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٣).

(٤) ممَّن اختار أنَّ المعنى: ألم يَنظُروا إلى السَّماءِ والأرضِ كيف أحاطتْ بهم؟ لأنَّك إن نظَرْتَ عن يمينِك أو شمالِك، أو بيْنَ يدَيك أو خَلْفَك رأيتَ السَّماءَ والأرضَ: ابنُ جرير، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦).
=

المحيطتَينِ بهما، وأنَّهم حيثما توجَّهوا فلن يَخرُجوا مِن ملَكوتِ اللهِ، وأنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على تَعذيبِهم(١)؟!

﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: إنْ نشَأْ نُغَيِّبْهم في باطِنِ الأرضِ، أو نُسقِطْ عليهم قِطَعًا مِن السَّماءِ فنُهلِكْهم بسَبَبِ ظُلمِهم؛ فلْيرتَدِعوا عن التَّكذيبِ بالبَعثِ، ولْيَعلَموا كمالَ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨).

وقال الرَّسْعَني: (قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استِفهامٌ في معنى التَّقريرِ لهم بإحاطةِ السَّماءِ والأرضِ بهم حيث نظَروا وتوجَّهوا. ومقصودُ ذلك: [تذكيرُهم] بقُدرةِ الله تعالى عليهم، وتخويفُهم مِن سطوتِه وبطشتِه، ألَا تراه يقول: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾؟ وهذا المعنى قولُ قَتادةَ وجُمهورِ المفَسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢١٤).

وقال ابن عاشور: (والمرادُ بـ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما يَستقبِلُه كلُّ أحدٍ منهم مِن الكائناتِ السَّماويَّةِ والأرضيَّةِ، وبـ«مَا خَلْفَهم»: ما هو وراءَ كُلِّ أحدٍ منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٣).

وقال ابن عثيمين: (يحتمِلُ أن يكون المرادُ فيها المكانَ، ويحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ الزَّمانَ... انظُرْ ما بيْنَ يديك في المكانِ، أو ما بين يديك في الزمانِ، وما خَلْفَك مِن المكانِ أو الزَّمانِ: هل نجا أحدٌ مِن عذاب الله؟). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٧٩).

وقيل: معنى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ممَّن أهلكهم اللهُ تعالى مِن الأُمَمِ الماضية في أرضِه، ﴿وَمَا خَلْفَهُم﴾ مِن أمرِ الآخرةِ في سمائِه. قاله أبو صالح. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤).

قال ابن جُزَي: (والمعنى: ألم يَرَوْا إلى السَّماءِ والأرضِ فيَعلَموا أنَّ الَّذي خلَقَهما قادرٌ على بعثِ النَّاسِ بعدَ موتِهم؟ ويحتمِلُ أن يكونَ المعنى تهديدًا لهم، ثمَّ فَسَّره بقَولِه: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: أفلمْ يَرَوا إلى السَّماءِ والأرضِ أنَّهما مُحيطتان بهم، فيَعلَمونَ أنَّهم لا مَهرَبَ لهم مِن اللهِ؟). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٥، ٢٦٦).

كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾.

أي: إنَّ في ذلك لَدَلالةً وعَلامةً ظاهِرةً[(١)] لكُلِّ عبدٍ تائبٍ إلى اللهِ سُبحانَه، راجعٍ إلى مَعرفتِه وتوحيدِه والإقبالِ على طاعتِه[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قولِه سُبحانَه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ أنَّ في السَّماءِ والأرضِ آياتٍ عظيمةً لِمَن نَظَر وتدبَّر، وهذا أثْبَتَه اللهُ تعالى في القرآنِ في مواضعَ كثيرةٍ، كما في قولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، وقولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ، فكلُّ مَن تدبَّرَ ما في السَّماءِ وما في الأرضِ وما بيْنَهما؛ تَبَيَّنَ له مِن آياتِ اللهِ ما يُقَوِّي

(١) قيل: المشارُ إليه إحاطةُ السَّماءِ والأرضِ بالعبادِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والرسعني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢١٦).

وقال ابنُ عاشور: (والمشارُ إليه هو ما بيْنَ أيديهم وما خَلْفَهم مِن السَّماءِ والأرضِ، أي: مِن الكائناتِ فيهما). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٤).

وقال السعدي: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، وما فيهما مِن المخلوقاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨١، ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٤).

إيمانَه، ويَزيدُه طمَعًا في فَضْلِ اللهِ تعالى، وخَوْفًا مِن عِقابِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أنَّ اللهَ يَمُنُّ على العبدِ بظُهورِ الآياتِ له حتَّى يَتبيَّنَ له الحقُّ، وإذا مَنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ على العبدِ بالنَّظَرِ في آياتِه والتدبُّرِ؛ ازدادَ بذلك إيمانًا باللهِ، وإيمانًا بما تقتَضيه هذه الآياتُ مِن صِفاتِه؛ فإنَّ كُلَّ آيةٍ تدُلُّ على صِفةٍ مُعَيَّنةٍ مِن صِفاتِ اللهِ تعالى[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ فيه حَثٌّ بليغٌ على التَّوبةِ والإنابةِ[٣]، وأنَّه كُلَّما كان العبدُ أعظَمَ إنابةً إلى اللهِ، كان انتفاعُه بالآياتِ أعظَمَ؛ لأنَّ المُنيبَ مُقبِلٌ على رَبِّه، قد توجَّهَت إراداتُه وهِمَّتُه لرَبِّه، ورجَعَ إليه في كُلِّ أمرٍ مِن أمورِه، فصار قريبًا مِن رَبِّه، ليس له همٌّ إلَّا الاشتِغالُ بمَرضاتِه، فيكونُ نَظَرُه للمَخلوقاتِ نَظَرَ فِكرةٍ وعِبرةٍ، لا نظَرَ غَفلةٍ غيرِ نافِعةٍ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى حِكايةً عن المُشرِكينَ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ سُمِّيَ خَلقًا جديدًا؛ لأنَّ الإنسانَ إذا بُعِثَ فإنَّه لا يُبعَثُ كحالِه في الدُّنيا، بل يُبعَثُ في حالٍ أشَدَّ وأقوى؛ لأنَّه سيُبعَثُ على أنَّه مُؤبَّدٌ لا يموتُ، وقَولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: في أوصافِه؛ لأنَّ الصَّحيحَ أنَّ الخَلْقَ هو إعادةُ ما مضَى[٥].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بيانُ قُبحِ الافتراءِ على اللهِ تعالى،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٧٠).

حتَّى إنَّ الكافِرينَ يَستَقبِحونَه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ وُجوبُ النَّظَرِ والاعتبارِ فيما حصَلَ مِن الآياتِ في السَّماءِ والأرضِ؛ لأنَّ هذا الاستِفهامَ للتَّوبيخِ، ولا يُوبَّخون إلَّا على تَركِ واجبٍ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ فيه سؤالٌ: هلَّا ذَكَر الأيمانَ والشَّمائلَ كما ذكرَها في قَولِه تعالى: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٧]؟

الجوابُ: أنَّه وُجِدَ هنا ما يُغْني عن ذِكرِهما مِن لَفظِ العُمومِ والسَّماءِ والأرضِ، بِخِلافِه ثَمَّ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أنَّ ما يحصُلُ مِن الخَسْفِ والزَّلازلِ والنَّوازلِ فإنَّه بإذْنِ اللهِ؛ عقوبةً للعِبادِ واعتبارًا؛ خلافًا لِمَن قال: إنَّ هذه أمورٌ طبيعيَّةٌ لا تدُلُّ على غضبِ اللهِ ولا على إنذارِه -كما هو رأيُ مَن لا يؤمنُ باللهِ تعالى-! فالخَسْفُ في الأرضِ عقوبةٌ؛ وما يأتي مِن الصَّواعقِ والكوارثِ الأفقيَّةِ فهي أيضًا عقوبةٌ[٤].

٦- في قولِه: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ ...﴾ تَنبيهٌ على أنَّه لم يَبْقَ مِن أسبابِ وُقوعِ العذابِ إلَّا تَعلُّقُ مَشيئةِ اللهِ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ ...﴾ انتقالٌ إلى قَولةٍ أُخرى مِن شَناعةِ أهْلِ الشِّركِ مَعطوفةٍ على ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [سبأ: ٣]. وهذا القولُ قائمٌ مَقامَ الاستدلالِ على قولِهم الأوَّلِ: ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ الَّذي هو بمنزلةِ دَعوى، وقولُهم: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ مُستنَدُ تلك الدَّعوى؛ ولذلك حُكِيَ بمِثلِ الأُسلوبِ الَّذي حُكِيت به الدَّعوى في المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه. وأدْمَجوا في الاستِدلالِ التَّعجُّبَ مِن الَّذي يأْتي بنَقيضِ دَليلِهم، ثمَّ إردافَ ذلك التَّعجُّبِ بالطَّعنِ في المُتعجَّبِ به[١].

- والمُخاطَبُ بقَولِهم: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ﴾ غيرُ مَذكورٍ؛ لأنَّ المقصودَ في الآيةِ الاعتبارُ بشَناعةِ القولِ، ولا غرَضَ يَتعلَّقُ بالمَقولِ لهم[٢].

- والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في العرْضِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨]، وهو عَرْضٌ مُكنًّى به عن التَّعجُّبِ، أي: هلْ نَدُلُّكم على أُعجوبةٍ مِن رَجُلٍ يُنبِّئُكم بهذا النَّبأِ المُحالِ[٣]؟!

- قولُه: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ ...﴾ إنْ كان التَّقاوُلُ بيْنَ المشركينَ بعضِهم لِبَعضٍ؛ فالتَّعبيرُ عن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بـ﴿رَجُلٖ﴾ مُنكَّرٍ، مع كَونِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَعروفًا بيْنهم ومِن أهْلِ بَلدِهم؛ لأنَّهم قَصَدوا مِن تَنكيرِه أنَّه لا يُعرَفُ؛ تَجاهُلًا وسُخريةً منهم، فأخْرَجوهُ مُخرَجَ التَّحلِّي ببَعضِ الأحاجيِّ الَّتي يُتحاجَى بها للضَّحِكِ والتَّلهِّي، مُتجاهِلينَ به وبأمْرِه. وإنْ كان قولُ المشركينَ مُوجَّهًا إلى الواردينَ مكَّةَ في المَوسمِ؛ كان التَّعبيرُ بـ﴿رَجُلٍ﴾ جَرْيًا على مُقْتضى الظَّاهرِ؛ لأنَّ الواردينَ لا يَعرِفون النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولا دَعوتَه، فيكونُ كقولِ أبي ذَرٍّ قبْلَ إسلامِه لأخيهِ[1]: (اذهَبْ فاستعْلِمْ لنا خبَرَ هذا الرَّجُلِ الَّذي يَزعُمُ أنَّه نَبيٌّ)[2]. وقيل: نُكِّر للتَّحقيرِ[3].

- وشِبهُ الجُملةِ ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ ليس ممَّا نَبَّأَ به الرَّجُلُ، وإنَّما هو اعتِراضٌ في كلامِ الحاكينَ؛ تَنبيهًا على استِحالةِ ما يَقولُه هذا الرَّجلُ على أنَّه لازمٌ لإثباتِ الخلْقِ الجديدِ لكلِّ الأمواتِ. وتَقديمُ هذا الاعتِراضِ؛ للاهتمامِ به؛ لِيَتقرَّرَ في أذهانِ السَّامعينَ؛ لأنَّه مَناطُ الإحالةِ في زَعْمِهم؛ فإنَّ إعادةَ الحياةِ للأمواتِ تكونُ بعْدَ انعدامِ أجزاءِ الأجسادِ، وتكونُ بعْدَ تَفرُّقِها تَفرُّقًا قَريبًا مِن العدَمِ، وتكونُ بعدَ تَفرُّقٍ ما، وتكونُ مع بَقاءِ الأجسادِ على حالِها بقاءً مُتفاوِتًا في الصَّلابةِ والرُّطوبةِ، وهم أنْكَروا إعادةَ الحياةِ في سائرِ الأحوالِ، ولكنَّهم خَصُّوا في كَلامِهم الإعادةَ بعدَ التَّمزُّقِ كلَّ مُمزَّقٍ -أي: بعدَ اضمحلالِ الأجسادِ أو تَفرُّقِها الشَّديدِ-؛ لِقُوَّةِ استِحالةِ إرجاعِ الحياةِ إليها بعدَئذٍ[4].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ عُدِلَ إليه عن الجُملةِ الفِعليَّةِ الدَّالَّةِ

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٥٢٢)، ومسلم (٢٤٧٤) من حديث ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٩).

على الحُدوثِ مِثلُ (تُبعثون)، أو (تُخلَقون خلْقًا جديدًا)؛ للإشباعِ في الاستِبعادِ والتَّعجُّبِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾

- جُملةُ ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ في مَوضعِ صِفةٍ ثانيةٍ لـ ﴿رَجُلٍ﴾، أتَوا بها استفهاميَّةً؛ لِتَشريكِ المخاطَبينَ معهم في تَرديدِ الرَّجُلِ بيْنَ هذينِ الحالَينِ: الكذِبِ، والجُنونِ[٢].

- ولَمَّا كان الكلامُ في البعثِ قال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ فرَتَّبَ العذابَ على إنكارِ البَعثِ[٣].

- قولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ ردٌّ مِن اللهِ تعالى على استِدلالِهم بما أشارَ إلى أنَّهم ضالُّون أو مُضِلُّون، وَواهِمون أو مُوهِمون؛ فأبطَلَ قَولَهم بحَذافِرِه بحَرْفِ الإضرابِ (بل)، ثمَّ بجُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾؛ فقابَلَ ما وَصَفوا به الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بوَصفَينِ: أنَّهم في العذابِ، وذلك مُقابِلُ قَولِهم: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لأنَّ الَّذي يَكذِبُ على اللهِ يُسلِّطُ اللهُ عليه عَذابَه، وأنَّهم في الضَّلالِ البعيدِ، وذلك مُقابِلُ قَولِهم: ﴿بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾. وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: بلْ أنتمْ في العذابِ والضَّلالِ، إلى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾؛ إدماجًا[٤] .....

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٢).

(٤) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ =

لِتَهديدِهم، وتَنبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ وَضْعُ المَوصولِ مَوضعَ ضَميرِهم؛ للتَّنبيهِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ على أنَّ عِلَّةَ ما ارْتَكَبوه واجْتَرؤوا عليه مِن الشَّناعةِ الفظيعةِ: كُفْرُهم بالآخِرةِ وما فيها مِن فُنونِ العِقابِ، ولولاه لَمَا فَعَلوا ذلك؛ خَوفًا مِن غائلتِه. ووَصْفُ الضَّلالِ بالبُعدِ؛ للمُبالَغةِ[٢].

- وتَقديمُ العذابِ على ما يُوجِبُه ويَستتبِعُه؛ للمُسارعةِ إلى بَيانِ ما يَسوؤُهم، ويَفُتُّ في أعضادِهم، والإشعارِ بغايةِ سُرعةِ تَرتُّبِه عليه، كأنَّه يُسابِقُه فيَسبِقُه، وللمُبالَغةِ في استحقاقِهم له[٣]، ولأنَّه لَمَّا كان هذا القَولُ مُسَبَّبًا عن ضَلالِ المُشرِكينَ، وكان ضَلالُهم سببًا لعذابِهم- قدَّم العذابَ؛ لأنَّه المحطُّ، ولِيَرتدعَ مَن أرادَ اللهُ إيمانَه[٤].

= إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٢).

- وقولُه: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ إدماجٌ، يَصِفُ به حالَهم في الآخِرةِ مع وَصْفِ حالِهم في الدُّنيا[١].

- قولُه: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ أي: الضَّلالِ الَّذي يَصعُبُ الرُّجوعُ منه إلى الهُدى؛ تشبيهًا بمن ضَلَّ عن مَحجَّةِ[٢] الطَّريقِ بُعدًا مُتناهيًا، فلا يَكادُ يُرجى له العَودُ إليها[٣].

٣- ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾

- قولُه: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِتَهويلِ ما اجْتَرؤوا عليه وقالوه مِن تَكذيبِ آياتِ اللهِ تعالى، واستِعظامِ ما قالوا في حقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه مِن العظائمِ المُوجِبةِ لِنُزولِ أشدِّ العِقابِ، وحُلولِ أفظَعِ العذابِ مِن غَيرِ رَيْثٍ وتأخيرٍ[٤].

- والفاءُ في قولِه: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ ...﴾ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقتضيه المَقامُ، ولِتَفريعِ ما بعْدَها على قولِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ ...﴾ [سبأ: ٨] إلخ؛ لأنَّ رُؤيةَ مَخلوقاتِ اللهِ في السَّماءِ والأرضِ مِن شَأنِها أنْ تَهدِيَهم لو تَأمَّلوا حقَّ التَّأمُّلِ. والاستِفهامُ للتَّعجُّبِ الَّذي يُخالِطُه إنكارٌ على انتفاءِ تَأمُّلِهم فيما بيْنَ أيْدِيهم وما خلْفَهم مِن السَّماءِ والأرضِ. والرُّؤيةُ بَصريَّةٌ؛ بقَرينةِ تعدِيَتِها بحرفِ (إلى)؛ فمعنى الاستِفهامِ عن انتفائِها منهم: انتِفاءُ آثارِها مِن الاستِدلالِ بأحوالِ الكائناتِ السَّماويةِ والأرضيَّةِ على إمكانِ البَعثِ؛ فشَبَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٢).

(٢) المَحَجَّة: جادَّةُ الطَّريقِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣).

وُجودَ الرُّؤيةِ بعَدمِها، وعُبِّرَ عنه بحَرْفِ النَّفيِ، والمَقصودُ: حثُّهم على التَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ؛ لِيَتداركوا عِلمَهم بما أهْمَلوه[١].

- وقيل: هو استِئنافٌ مَسوقٌ لتذكيرِهم بما يُعاينونَ ممَّا يدُلُّ على كمالِ قدرتِه عزَّ وجلَّ، وتنبيهِهم على ما يَحتمِلُ أنْ يقَعَ مِن الأمورِ الهائلةِ في ذلك؛ إزاحةً لاستِحالتِهم الإحياءَ حتَّى جَعَلوه افتراءً وهُزءًا، وتَهديدًا عليها، والمعنى: أَعَمُوا فلمْ يَنظُروا إلى ما أحاطَ بجوانبِهم مِن السَّماءِ والأرضِ، ولم يَتفكَّروا أهُمْ أشَدُّ خلقًا أمْ هي[٢]؟!

- وفي قولِه: ﴿ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾ زِيدَ حَرْفُ الفاءِ؛ لأنَّ الاعتبارَ فيها بالمُشاهَدةِ، وخُصَّت بالفاءِ؛ لِشِدَّةِ اتِّصالِها بالأوَّلِ؛ لأنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الَّذين قَسَموا الكلامَ في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقالوا: محمَّدٌ إمَّا غافلٌ أو كاذبٌ، وإمَّا مَجنونٌ هاذٍ، وهو قولُهم: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ ﴾ [سبأ: ٨]، فقال اللهُ تعالى: بل تَركْتُم القِسمةَ الثَّالثةَ، وهي: وإمَّا صَحيحُ العقلِ صادقٌ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ اعتِراضٌ بالتَّهديدِ؛ فمُناسَبةُ التَّعجُّبِ الإنكاريِّ بما يُذكِّرُهم بقُدْرةِ خالقِ تِلك المخلوقاتِ العظيمةِ على عِقابِ الَّذين أشْرَكوا معه غيرَه، والَّذين ضيَّقوا واسِعَ قُدْرتِه، وكذَّبوا رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما يَخطُرُ في عُقولِهم؛ ذِكرُ الأُمَمِ الَّتي أصابَها عِقابٌ بشَيءٍ مِن الكائناتِ الأرضيَّةِ كالخَسفِ، أو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٣).

السَّماويَّةِ كإسقاطِ كِسَفٍ مِن الأجرامِ السَّماويَّةِ، مِثلُ ما أصاب قارونَ مِن الخسْفِ، وما أصاب أهْلَ الأَيْكةِ مِن سُقوطِ الكِسَفِ(١).

- وجُملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ تعليلٌ للتَّعجُّبِ الإنكاريِّ في قولِه: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ باعتبارِ ما يَتضمَّنُه مِن الحثِّ على التَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ؛ فمَوقعُ حَرفِ التَّوكيدِ هنا لِمُجرَّدِ التَّعليلِ(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ بالإفرادِ، وقال بعْدَه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩] بالجمْعِ؛ ووَجْهُه: أنَّ الإشارةَ هنا إلى قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: ٩]، ولم يَتقدَّمْ ما حُرِّكوا إلى الاعتبارِ به غيرُ هذا، وقد انضَمَّ ذلك تحتَ (ما) الموصولةِ، ولَفظُها مُفرَدٌ؛ فرُوعِيَ مِن حيث اللَّفظُ، فقيلَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ بالإفرادِ. وأمَّا الثَّانيةُ فتَقدَّمَ قبْلَها قولُه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، ثمَّ قال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [سبأ: ١٢]، إلى قولِه: ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]، ثمَّ قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥]؛ فذَكَّرَ سُبحانَه بالاعتبارِ بما منَحَ داودَ عليه السَّلامُ مِن تَسبيحِ الجِبالِ والطَّيرِ معه، وإلانةِ الحديدِ، وبما سخَّرَ لِسُليمانَ عليه السَّلامُ مِن الرِّيحِ تَحمِلُه وجُنودَه حيث شاء في السُّرعةِ الَّتي أشارَتْ إليها الآيةُ، وإسالةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٥٤).

عَينِ القِطرِ له، وعمَلِ الجِنِّ بيْن يَديْه، ثمَّ ذكَرَ ما كان لِسَبأٍ في مَساكنِهم مِن آيةِ الجنَّتينِ عن يَمينٍ وشِمالٍ، وأكْلِهم منها، وتَنعيمِهم إلى أنْ أعرَضوا، فأرسَلَ عليهم سَيْلَ العَرِمِ، إلى آخِرِ قِصَّتِهم؛ فهذه المُعتبراتُ لم تَدخُلْ تحتَ مَوصولٍ، ولا اسم مُفرَدٍ يَضُمُّ جَميعَها، بل ذُكِرَت مُفصَّلةً؛ فقِيل إشارةً إلى جِميعِها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾[1]. وقيل غير ذلك[2].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٠٨، ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٥).

الآيتان (١٠-١١)

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَوِّبِى﴾: أي: رَجِّعي معه التَّسبيحَ، والتَّأويبُ: التَّسبيحُ والتَّرجيعُ[(١)].

﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾: أي: دُروعًا واسِعةً طويلةً، وأصلُ (سبغ): يدُلُّ على تمامِ الشَّيءِ وكمالِه[(٢)].

﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾: أي: في النَّسْجِ؛ فلا تَجعَلِ المساميرَ دِقاقًا فَتَقْلَقَ، ولا غِلاظًا فتُكَسِّرَ الحِلَقَ، واجعَلْه على القَصدِ وقَدْرِ الحاجةِ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ ونهايتِه، وأصلُ (سرد): يدُلُّ على التَّوالي والتَّتابُعِ[(٣)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾

قَولُه: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ في نصبِه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه معطوفٌ على محلِّ (جبالُ)؛ لأنَّه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٤٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٧) و(٥/ ٦٢)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٥).

منصوبٌ تقديرًا، كأنَّه قال: أنادي الجِبالَ والطَّيرَ. الثَّاني: أنَّه مفعولٌ معه. الثَّالِثُ: أنَّه معطوفٌ على ﴿فَضْلًا﴾ على نِيَّةِ حَذْفِ مُضافٍ، تقديرُه: آتَيْناه فضلًا وتسبيحَ الطَّيرِ. الرَّابعُ: أنَّه منصوبٌ بإضمارِ فِعلٍ، أي: وسَخَّرْنا له الطَّيرَ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مخبرًا عمَّا أنعَم به على عبدِه ورسولِه داودَ عليه السَّلامُ: ولقدْ آتَينا داودَ مِن عِندِنا فَضلًا، فقُلْنا: يا جِبالُ سَبِّحي معه والطَّيرَ، فكان يُسَبِّحُ والجِبالُ والطَّيرُ تُرَدِّدُ تَسبيحَه، وألَنَّا لداودَ الحديدَ، وقُلْنا له: اصنَعْ مِنَ الحديدِ دُروعًا تامَّةً طَويلةً وافيةً، واجعَلْ نسْجَ الدُّروعِ على نَسَقٍ مُتناسِبٍ مُحكَمٍ، واعمَلوا عملًا صالِحًا، إنِّي بَصيرٌ بما تَعملونَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ قِصَّةِ داودَ وسُلَيمانَ -عليهما السَّلامُ- لِما قَبْلَها، هي: أنَّ أولئك الكُفَّارَ أنكروا البَعثَ لاستِحالتِه عندَهم، فأُخبِروا بوقوعِ ما هو مُستحيلٌ في العادةِ ممَّا لا يُمكِنُهم إنكارُه؛ إذ طفَحَت ببعضِه أخبارُهم وشعراؤُهم؛ من تأويبِ الجِبالِ والطَّيرِ مع داودَ، وإلانةِ الحديدِ -وهو الجِرْمُ المُستعصي- وتسخيرِ الرِّيحِ لسُلَيمانَ، وإسالةِ النُّحاسِ له كما ألانَ الحديدَ لأبيه، وتسخيرِ الجِنِّ فيما شاء مِن الأعمالِ الشَّاقَّةِ[٢].

---

(١) يُنظَر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٥٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٤٣)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٢٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٩)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٤).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى مَن يُنيبُ مِن عبادِه؛ ذكَرَ منهم مَن أناب وأصاب، ومِن جُملتِهم: داودُ، كما قال تعالى عنه: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]، وبيَّن ما آتاه اللهُ على إنابتِه(١).

وأيضًا لَمَّا أشار اللهُ سُبحانَه في الآيةِ السَّابِقةِ -الَّتي دلَّت على نفوذِ الأمرِ- إلى أنَّه تارةً يَعدِلُ، وتارةً يَتفضَّلُ، وكان الفَضلُ أكثَرَ استِجلابًا لذَوي الهِمَمِ العَليَّةِ والأنفُسِ الأبِيَّةِ؛ بدأ به في عبدٍ مِن رُؤوسِ المُنيبينَ، على وَجهٍ دالٍّ على البَعثِ بكَمالِ التَّصَرُّفِ في الخافِقَينِ وما فيهما(٢).

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗا﴾.

أي: ولقد آتَينا داودَ مِن عِندِنا ما فضَّلْناه به على غَيرِه، وخَصَصْناه به مِن بينِ النَّاسِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٥، ١٥٦).
قال ابنُ عاشور في بيانِ الفضلِ الَّذي آتاه اللهُ داودَ عليه السَّلامُ: (وهو فَضْلُ النُّبوةِ، وفضلُ المُلكِ، وفضلُ العنايةِ بإصلاحِ الأُمَّةِ، وفضلُ القَضاءِ بالعدلِ، وفضلُ الشَّجاعةِ في الحربِ، وفضلُ سَعةِ النِّعمةِ عليه، وفضلُ إغنائِه عن النَّاسِ بما ألهمَه مِن صُنعِ دُروعِ الحديدِ، وفضلُ إيتائِه الزَّبورَ، وإيتائِه حُسْنَ الصَّوتِ، وطولَ العُمُرِ في الصَّلاحِ، وغَيرُ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٥، ١٥٦).
وقال الشنقيطي: (قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗا﴾ ذَكَر جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّه آتى داودَ منه فضلًا تَفَضَّل به عليه، وبَيَّن هذا الفضلَ الَّذي تَفَضَّل به على داودَ في آياتٍ أُخَرَ؛ كقولِه تعالَى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقولِه تعالَى: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وقولِه تعالَى: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص: ٣٠]، وقولِه تعالَى: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ =

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾.

أي: قُلْنا: يا جِبالُ سَبِّحي مع داودَ، والطَّيرَ أيضًا إذا سَبَّح داودُ رَبَّه؛ فكان يُسَبِّحُ والجبالُ والطَّيرُ تُردِّدُ تَسبيحَه[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال سبُحانَه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ * وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧ - ١٩].

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

أي: وألَنَّا لداودَ مَعدِنَ الحديدِ الصُّلْبِ، فهو يتصَرَّفُ فيه بسُهولةٍ[2].

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾.

= ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٥]، وقوله تعالَى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، وقوله تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، وقوله تعالَى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٩، ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨٧، ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨٨، ٨٩).

قال ابنُ جرير: (ذُكِرَ أنَّ الحديدَ كان في يَدِه كالطِّينِ المبلولِ يُصَرِّفُه في يدِه كيف يَشاءُ، بغيرِ إدخالِ نارٍ، ولا ضَرْبٍ بحديدٍ!). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٢).

أي: وأمَرْنا داودَ فقُلْنا له: اصنَعْ مِن الحديدِ دُروعًا تامَّةً كاملةً، طويلةً وافيةً[١].

﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾.

أي: واجعَلْ نَسْجَ الدُّروعِ على مِقدارٍ مَحدودٍ، ونَسَقٍ مُتناسِبٍ مُحكَمٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨٩، ٩٠).

قال ابنُ تيميَّة: (السَّابغاتُ: هي الدُّروعُ الكاملةُ الَّتي تكونُ لها أيدٍ وأفخاذٌ). ((قاعدة تتضمن ذكر ملابس النبي وسلاحه ودوابه)) (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٤١٠) و (١٦/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٩١).

قال ابن عاشور: (والسَّردُ: صُنعُ دِرعِ الحديدِ، أي: تركيبُ حِلَقِها ومساميرِها الَّتي تَشُدُّ شُقَقَ الدِّرعِ بَعضَها ببعضٍ، فهي للحديدِ كالخياطةِ للثَّوبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧).

قيل: معنى الآيةِ: عدِّل المسمارَ في الحَلْقةِ، ولا تُصَغِّرْه فيَقلَقَ، ولا تُعَظِّمْه فتَنفصِمَ الحَلْقةُ، قاله مجاهدٌ.

وقيل: المعنى: لا تجعَلْ حِلَقَه واسعةً، فلا تَقي صاحبَها، قاله قتادةُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩١).

قال الشنقيطي: (اجْعَلِ المساميرَ والحِلَقَ في نَسجِ الدُّروعِ بأقدارٍ مُتناسِبةٍ متلائمةٍ؛ لأنَّ المِسمارَ إن كان أكبرَ مِن الحلْقةِ جدًّا كَسَرَها، وإذا كان أصغرَ منها جدًّا لم يَشُدَّها كما ينبغي، فإذا كانت المساميرُ والحِلَقُ بأقدارٍ مُتناسِبةٍ كانت الدُّروعُ مَشدودةً كما ينبغي، ترُدُّ وقعَ السِّلاحِ مِن السُّيوفِ والسِّهامِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٤٦٩).

وقال الرسعني: (والمعنى: اجعَلْه على القَصدِ وقَدْرِ الحاجةِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢١٨).

وقال البقاعي: (والظَّاهرُ أنَّه لم يكُنْ في حِلَقِها مَساميرُ؛ لعدمِ الحاجةِ بإلانةِ الحديدِ إليها، وإلَّا لم يكُنْ بيْنَه وبينَ غيرِه فَرقٌ، ولا كان للإلانةِ فائدةٌ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٥٩).

وقيل: المعنى: لا تصرِفْ جميعَ أوقاتِك إليه، بل مِقدارَ ما يحصلُ به القوتُ، وأمَّا الباقي فاصرِفْه إلى العبادة. ذكر هذا المعنى: الرازيُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا سخَّرَ اللهُ له ما استصْعَبَ على غيرِه؛ أتْبَعَه بأمْرِه بالشُّكرِ بأنْ يَعمَلَ صالحًا[(١)].

﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾.

أي: واعمَلوا عَمَلًا خالِصًا لله، مُوافِقًا لِشَرعِه[(٢)].

= قال أبو السعود: (وهو الأنسَبُ بقولِه تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٥).

وقال الرازي: (وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: الزَّردِ؛ إشارةً إلى أنَّه غيرُ مأمورٍ به أمرَ إيجابٍ، إنَّما هو اكتسابٌ، والكَسبُ يكونُ بقدر الحاجةِ، وباقي الأيامِ واللَّيالي للعبادةِ، فقَدِّرْ في ذلك العملِ، ولا تَشغَلْ جميعَ أوقاتِك بالكَسبِ، بل حصِّل به القوتَ فحَسْبُ، ويدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾، أي: لستُم مخلوقينَ إلَّا للعملِ الصَّالحِ، فاعمَلوا ذلك وأكثِروا منه، والكَسبُ قَدِّروا فيه). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).

ممَّن اختار أنَّ هذا خِطابٌ لداودَ وأهلِه: ابنُ جرير، ومكِّي، والبغوي، والزمخشري، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٣٦).

وقيل: هو خِطابٌ لداودَ ولِمَن أطاعه. وممَّن قال به: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦١). =

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنِّي بصيرٌ بما تَعمَلونَه مِن أعمالٍ، لا يخفَى علَيَّ شَيءٌ منها[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ...﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على تعلُّم أهلِ الفَضلِ الصَّنائِعَ، وأنَّ التَّحَرُّفَ بها لا يَنقُصُ مِن مناصِبِهم، بل ذلك زيادةٌ في فَضلِهم وفَضائِلِهم؛ إذ يَحصُلُ لهم التَّواضُعُ في أنفُسِهم، والاستِغناءُ عن غيرِهم، وكَسْبُ الحلالِ الخَليِّ عن الامتنان، وفي الصَّحيح[٢] عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما أكَل أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا مِن أن يأكُلَ مِن عمَلِ يدِه، وإنَّ نبيَّ الله داودَ كان يأكُلُ مِن عَمَلِ يَدِه))[٣]. فالآيةُ فيها دَليلٌ على الاكتِسابِ بعَمَلِ اليدِ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ دليلٌ على التَّثبُّتِ في العَمَلِ، وتقديرِه وإحكامِه[٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أنَّه يجِبُ على مَن أنعَمَ اللهُ تعالى عليه نِعمةً أن يَقومَ بشُكرِها بالعَمَلِ الصَّالحِ[٦].

= وقيل: خاطبه بلفظ الجماعةِ. وقيل: إنَّه أراد به داودَ وقومَه. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٩٢).

(٢) أخرجه البُخاري (٢٠٧٢) من حديثِ المِقْدامِ بنِ مَعدِ يْكَرِبَ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٩٥).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ...﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى نِعمتَه على داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ؛ احتِجاجًا على ما مَنَح محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: لا تَستَبعِدوا هذا؛ فقد تفضَّلْنا على عَبيدِنا قديمًا بكذا وكذا[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ في قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أنَّ الجمادَ يُدرِكُ خِطابَ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ ووجْهُ ذلك: لولا أنَّه يُدرِكُ لَكان توجيهُ الخطابِ إليه عَبَثًا، واللهُ سُبحانَه وتعالى مُنَزَّهٌ عن العَبَثِ في أقوالِه وأفعالِه، ويدُلُّ على أنَّه يُدرِكُ ذلك أنَّها أوَّبَتْ مع داودَ ورَجَّعَتْ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ جَعَل الجِبالَ بمنزلةِ العُقَلاءِ الَّذين إذا أمَرَهم أطاعوا وأذعَنوا، وإذا دعاهم سَمِعوا وأجابوا؛ إشعارًا بأنَّه ما مِن حيوانٍ وجمادٍ وناطقٍ وصامتٍ إلَّا وهو مُنقادٌ لِمَشيئتِه تعالى، غيرُ مُمتنعٍ على إرادتِه؛ ودَلالةً على عزَّةِ الرُّبوبيَّةِ، وكبرياءِ الأُلوهيَّةِ؛ حيثُ نادى الجِبالَ وأمَرَها[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ دليلٌ على إباحةِ لُبْسِ الدُّرُوعِ، وأنَّها لا تكون مؤَثِّرَةً في التَّوكُّلِ، والفِرارِ مِن الأجَلِ! وتكونُ حِرزًا بينَ لابِسِها وبينَ ما يتَّقيه مِن الطَّعْنِ والجَرْحِ؛ وجُنَّةً مِن وصولِ المكارِهِ إلى المكانِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٤).

والتَّوكُّلُ قائمٌ على حالِه[١].

٥- لا بُدَّ في الخَلقِ والأمرِ مِن العَدلِ؛ فلا بُدَّ مِن التَّسويةِ بينَ المتماثِلَين، فإذا فُضِّل أحدُهما فسَدَ المصنوعُ، كما في مصنوعاتِ العبادِ؛ إذا بَنَوا بنيانًا فلا بدَّ مِن التَّسويةِ بينَ الحيطانِ؛ إذ لو رُفِعَ حائِطٌ على حائطٍ رَفعًا كثيرًا، فَسَد، وكذلك إذا صُنِعَت ملابِسُ للآدميِّينَ فلا بدَّ من أن تكونَ مُقدَّرةً على أبدانِهم لا تَزيدُ ولا تَنقُصُ، وكذلك ما يُصنَعُ مِن الطَّعامِ لا بُدَّ أن تكونَ أخلاطُه على وجهِ الاعتدالِ، والنَّارُ الَّتي تَطبُخُه كذلك، وكذلك السُّفُنُ المصنوعةُ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى لداود: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾، أي: لا تُدِقَّ المِسمارَ فيَقلَقَ، ولا تُغلِظْه فيَفصِمَ، واجعَلْه بقَدَرٍ، فإذا كان هذا في مصنوعاتِ العبادِ وهي جزءٌ مِن مصنوعاتِ الرَّبِّ، فكيف بمخلوقاتِه العظيمةِ الَّتي لا صُنعَ فيها للعبادِ؛ كخَلقِ الإنسانِ وسائرِ البهائِمِ، وخَلقِ النَّباتِ، وخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ والملائكةِ؟! فالفَلَكُ الَّذي خَلَقه وجعَلَه مستديرًا ما له من فُروجٍ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]؛ فهو سُبحانَه سَوَّاها كما سوَّى الشَّمسَ والقمَرَ وغيرَ ذلك مِن المخلوقاتِ، فعَدَل بيْنَ أجزائِها. فالعَدلُ والتَّسويةُ لازِمٌ لجَميعِ المخلوقاتِ والمصنوعاتِ، فمتى لم تُصنَعْ بالعَدلِ والتَّسويةِ بين المتماثِلَين، وقع فيها الفَسادُ[٢].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٨٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٣٣).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ في ذِكرِ فَضلِه عِبرةٌ للنَّاسِ بحُسنِ عِنايةِ اللهِ بالمُنيبينَ؛ تَعريضًا بضِدِّ ذلك للَّذين لم يَعتبِروا بآياتِ اللهِ، وفي هذا إيماءٌ إلى بِشارةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه بعدَ تَكذيبِ قَومِه وضِيقِ حالِه منهم؛ سَيَؤولُ شَأنُه إلى عِزَّةٍ عَظيمةٍ، وتأسيسِ مُلكِ أُمَّةٍ عظيمةٍ، كما آلَتْ حالُ داودَ[١].

- وتَنكيرُ ﴿فَضْلًا﴾؛ للتَّفخيم، وقولُه: ﴿مِنَّا﴾؛ لِتَأكيدِ فَخامتِه الذَّاتيَّةِ بفَخامتِه الإضافيَّةِ. وتَقديمُه على المَفعولِ الصَّريحِ؛ للاهتِمامِ بالمُقدَّم، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ؛ فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّر، تَبْقَى النَّفْسُ مُترقِّبةً له، فإذا ورَدَها يَتمكَّنُ عندَها فضْلَ تَمكُّنٍ[٢].

- وجُملةُ ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: وقُلْنا: يا جِبالُ. وفِعلُ القولِ المَحذوفِ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا لِجُملةِ ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾، وفي هذا الأُسلوبِ الَّذي نُظِمَت عليه الآيةُ مِن الفَخامةِ وجَلالةِ الخالقِ، وعِظَمِ شأْنِ داودَ، مع وَفرةِ المعاني، وإيجازِ الألفاظِ، وإفادةِ معنَى المعيَّةِ بالواوِ دونَ ما لو كانتْ حَرْفَ عطْفٍ- ما لا يخفَى[٣].

- قيل: خصَّ الجبالَ والطَّيرَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ الصُّخورَ للجمودِ، والطَّيرَ للنُّفورِ، وكِلاهما تُستبعَدُ منها الموافقةُ، فإذا وافَقه هذه الأشياءُ، فغيرُها أَولى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٨٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾

- قولُه: ﴿سَٰبِغَٰتٖ﴾ صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ؛ لِظُهورِه مِن المَقامِ؛ إذ شاع وَصْفُ الدُّروعِ بالسَّابغاتِ والسَّوابغِ حتَّى استَغْنَوا عندَ ذِكرِ هذا الوَصفِ عن ذِكرِ المَوصوفِ[١]. وأيضًا مِن أجْلِ العنايةِ بفائدةِ هذه الدُّرُوعِ؛ وهي أنْ تكونَ سابغةً تامَّةً[٢].

- وضَميرُ (اعْمَلُوا) لِداودَ وآلِه، أو له وحْدَه على وَجهِ التَّعظيمِ[٣].

- وقولُه: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ، أو لِوُجوبِ الامتثالِ به[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٦، ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧).

الآيات (١٢-١٤)

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾: أي: تسيرُ بالغَداةِ مَسيرةَ شهرٍ، والغَداةُ: أوَّلُ النَّهارِ، ويُستعمَلُ الغُدُوُّ في المَسيرِ أيَّ وقتٍ كان مِن لَيلٍ أو نهارٍ، وأصلُ (غدو): يدُلُّ على زمانٍ[١].

﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾: أي: تسيرُ بالعَشِيِّ مَسيرةَ شهرٍ، والرَّواحُ: العَشِيُّ، وهو مِن الزَّوالِ إلى اللَّيلِ، ويُستعمَلُ الرَّواحُ في المسيرِ أيَّ وقتٍ كان مِن ليلٍ أو نهارٍ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ وفُسحةٍ واطِّرادٍ، وسُمِّي العَشيُّ بذلك لِرَوْحِ الرِّيحِ؛ فإنَّها في الأغلَبِ تَهُبُّ بعدَ الزَّوالِ[٢].

﴿ٱلْقِطْرِ﴾: أي: النُّحاسِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير االقرطبي)) (١٤/ ٢٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٨).

﴿يَزِغْ﴾: أي: يَعدِلْ ويَخرُجْ، وأصلُ (زيغ): يدُلُّ على مَيلِ الشَّيءِ[١].

﴿مَّحَٰرِيبَ﴾: جمعُ مِحرابٍ، والمحرابُ: الغرفةُ، و: المسجدُ، و: كُلُّ موضعٍ مُرتفعٍ، والمِحرابُ أيضًا: مُقَدَّمُ المجلِسِ وأشرفُه[٢].

﴿وَجِفَانٍ﴾: أي: قِصاعٍ كِبارٍ، وأصلُ (جفن): يدُلُّ على شَيءٍ يُطيفُ بشَيءٍ ويَحويه[٣].

﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: الجَوابي جمعُ جابيةٍ، والجابيةُ: الحَوضُ الضَّخمُ الَّذي يُجبَى فيه الماءُ، أي: يُجمَعُ، وأصلُ (جبي): يدُلُّ على جَمعِ الشَّيءِ[٤].

﴿وَقُدُورٍ﴾: جمعُ قِدْرٍ: وهي اسمٌ لِما يُطبَخُ فيه اللَّحمُ[٥].

﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾: أي: ثَوَابِتَ في أماكنِها، تُترَكُ لعِظَمِها ولا تُنقَلُ، وأصلُ (رسو): يدُلُّ على ثباتٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٠٤، ٣٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩).

(٥) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٤)، ((مقاييس =

﴿دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي: الأَرَضةُ، وهي: سُوسٌ يَنخِرُ الخَشَبَ، وأصل (دبب): يدُلُّ على حَرَكةٍ[(١)].

﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾: أي: عَصاه، وأصلُ (نسأ): يدُلُّ على تأخيرِ الشَّيءِ؛ لأنَّ العصا يُبعَدُ بها الشَّيءُ ويُدفَعُ[(٢)].

﴿خَرَّ﴾: أي: سَقَط على وَجهِه، وأصلُ (خر): يدُلُّ على اضطرابٍ وسُقوطٍ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى ما أنعَم به على سُلَيمانَ عليه السَّلامُ بعدَ أن ذكَر ما أنعَم به على أبيه، فيقولُ: وسَخَّرْنا لسُلَيمانَ الرِّيحَ تَجري مِن أوَّلِ النَّهارِ إلى الزَّوالِ مَسافةً تَعدِلُ مَسيرةَ شَهرٍ، وتَجري مِنَ الزَّوالِ إلى اللَّيلِ مَسافةً تَعدِلُ مَسيرةَ شَهرٍ، وأجرَينا له عينَ النُّحاسِ، وسَخَّرْنا له مِنَ الجِنِّ مَن يَعمَلُ بينَ يَديه فيما يأمُرُه به، ومَن يَخرُجْ مِن الجِنِّ عن أمرِنا لهم بطاعةِ سُلَيمانَ نُذِقْه مِن عذابِ النَّارِ؛ يعمَلُ هؤلاء الجِنُّ لِسُلَيمانَ ما يشاءُ مِن محاريبَ، وتماثيلَ، وصِحافٍ عَظيمةٍ كالأحواضِ الكَبيرةِ التي يُجمَعُ فيها الماءُ، وقُدورٍ ثابتةٍ في مواضِعِها.

وقُلْنا لداودَ وأهلِه: اعمَلوا يا آلَ داودَ بطاعةِ اللهِ؛ شُكرًا له على نِعَمِه، وقليلٌ

= اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣).

مِن العِبادِ مَن يَشكُرُ اللهَ على نِعَمِه.

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى كيفيَّةَ موتِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: فلمَّا جاء سُلَيمانَ الموتُ ما عرَفَ الجِنُّ مَوتَه إلَّا حينَ أكَلَتِ الأَرَضةُ عَصاه الَّتي كان مُتوكِّئًا عليها، فلمَّا سَقَط سُلَيمانُ على الأرضِ ظهَر أمرُ الجِنِّ وانكشَف للنَّاس أنَّهم لا يَعلَمونَ الغَيبَ؛ فلو كانوا يَعلَمونَ الغَيبَ لَعَلِموا موتَ سُلَيمانَ، ولم يَلبَثوا في عَمَلِهم الشَّاقِّ المُهِينِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ اللهُ سُبحانَه ما أراد مِن آياتِ داودَ عليه السَّلامُ؛ أتْبَعَه ابنَه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ؛ لِمُشاركتِه له في الإنابةِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى فَضْلَه على داودَ عليه السَّلامُ؛ ذكَرَ فَضلَه على ابنِه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ[2].

﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞ ﴾.

أي: وسَخَّرنا لسُلَيمانَ الرِّيحَ تجري مِن أوَّلِ النَّهارِ إلى الزَّوالِ مَسافةً تَعدِلُ مَسيرةَ شَهرٍ، وتجري مِنَ الزَّوالِ إلى اللَّيلِ مَسافةً تَعدِلُ مَسيرةَ شَهرٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾.

أي: وأجرَينا لسُلَيمانَ عَينَ النُّحاسِ[(١)].

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾.

أي: ومِن الجِنِّ مَن يَعمَلُ بيْنَ يَدَيْ سُلَيمانَ فيما يأمُرُه به، وذلك بأمرِ اللهِ وتَسخيرِهم له[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۞ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۞ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۞ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٥ - ٣٨].

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

= (٦/ ٤٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٩).

قال ابن عثيمين: (قولُه تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: يدَيْ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، يعني: أمامَه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٤).

وقال ابن عاشور: (ومعنَى ﴿يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: يخدُمُه ويُطيعُه. يُقالُ: أنا بينَ يديك، أي: مُطيعٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٩).

وقال ابن عثيمين: (﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾... والإذْنُ هنا كَونيٌّ، يعني: أنَّ الله تعالى سَخَّر الجِنَّ؛ ليَعمَلوا بين يدَيْ سُليمانَ عليه السَّلامُ بإذنِه: بأمْرِه الكَونيِّ، [و] قد يقالُ: إنَّه إذنٌ شَرعيٌّ؛ بدليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٤).

أي: ومَن يَخرُجْ مِن الجِنِّ عن أمْرِنا لهم بطاعةِ سُلَيمانَ، نُعَذِّبْه بالنَّارِ[١].

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبر اللهُ تعالى أنَّه سخَّر لسُلَيمانَ الجِنَّ؛ ذكَرَ حالَهم في أعمالِهم؛ دَلالةً على أنَّه سُبحانَه يتصرَّفُ في السَّماءِ والأرضِ وما فيهما بما يشاءُ[٢].

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾.

أي: يَعمَلُ الجِنُّ لسُلَيمانَ ما يشاءُ أن يَعمَلوه له مِن محاريبَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٤).

قيل: المرادُ أنَّهم يُعَذَّبونَ في النَّارِ في الآخرةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ ونَسَبه إلى أكثرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧١).

وقيل: المرادُ تعذيبُهم في الدُّنيا. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).

قال ابن عطية: (المحاريبُ: الأبنيةُ العاليةُ الشَّريفةُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٩).

وقال ابن الجوزي: (﴿مَّحَٰرِيبَ﴾ وفيها ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّها المساجدُ، قاله مجاهدٌ وابنُ قُتَيْبَةَ. والثَّاني: القصورُ، قاله عطيةُ. والثَّالثُ: المساجدُ والقصورُ، قاله قَتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٢) ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٧).

تنبيه: قال ابن عاشور: (أمَّا إطلاقُ المحرابِ على الموضعِ مِن المسجدِ الَّذي يقفُ فيه الإمامُ الَّذي يَؤُمُّ النَّاسَ، يُجعَلُ مِثلَ كوَّةٍ غيرِ نافذةٍ، واصلةٍ إلى أرض المسجدِ في حائطِ القِبلةِ، =

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾.

أي: ويَعمَلون له ما يشاءُ مِن تماثيلَ[١].

﴿وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ﴾.

أي: وصِحافٍ عَظيمةٍ كالأحواضِ الكبيرةِ والبِرَكِ الواسِعةِ الَّتي يُجمَعُ فيها الماءُ[٢].

﴿وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ﴾.

أي: وقُدورٍ ثوابِتَ في مواضِعِها[٣].

= يَقِفُ الإمامُ تحتَه: فتَسميةُ ذلك محرابًا تَسميةٌ حديثةٌ، ولم أقِفْ على تعيينِ الزَّمَنِ الَّذي ابتُدِئَ فيه إطلاقُ اسم المحرابِ على هذا الموقِفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٠). ويُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٢).
قال القرطبي في معنى التِّمثالِ أنَّه: (كلُّ ما صُوِّر على مِثلِ صورةٍ مِن حيوانٍ أو غيرِ حيوانٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).
قال ابن جُزَي: (﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ قيل: إنَّها كانت على غيرِ صُوَرِ الحَيوانِ. وقيل: على صورِ الحيوانِ، وكان ذلك جائزًا عندَهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٢).
وقال ابنُ عثيمين: (لا يَلزمُ أن يكونَ المرادُ بالتَّماثيلِ هي صُوَرَ الحيوانِ، فمِن الجائزِ أنْ ينحِتوا... له أشياءَ على صورِ شجرٍ، ويقال: إنَّ هذا تمثالٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣). =

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾.

أي: وقُلْنا لداودَ ووَلَدِه وأهلِه: اعمَلوا -يا آلَ داودَ- بطاعةِ اللهِ؛ شُكرًا له على نِعَمِه عليكم(١).

كما حكَى الله تعالى قَولَ سُليمانَ: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾.

أي: والمُكثِرونَ مِن شُكرِ الله على نِعَمِه قَليلٌ(٢).

= وفي علَّةِ ثبوتِها في مكانِها قولانِ؛ أحدُهما: أنَّ أثافيَّها [أي: الأحجارَ الَّتي تُوضعُ عليها القدورُ] منها، قاله ابنُ عباس. والثَّاني: أنها لا تُنزَلُ لِعظَمِها، قاله ابنُ قتيبة، وابنُ جرير، وابن الجوزي، والسعدي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).

قال ابن عثيمين: (قال العلماءُ: الرَّاسي الثَّابتُ، وإنَّما كانت راسِيةً في الأرضِ لكِبَرِها، فهي لكِبَرِها لا يَستَطيعُ أحَدٌ أن يَتَناوَلَها ويَقلِبَها، والعادةُ أنَّ القُدورَ مَنقولةٌ مَقلَّبةٌ، لكنَّ هذه لكِبَرِها وسَعَتِها راسِيةٌ لا تَتَحرَّكُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٤).

وقال ابن عاشور: (الرَّاسياتُ: الثَّابتاتُ في الأرضِ التي لا تُنزَلُ مِن فوقِ أثافيِّها؛ لتداوُلِ الطَّبخِ فيها صباحَ مَساءَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣).

قال ابنُ عثيمينَ: (المرادُ بالعبوديَّةِ هنا: العامَّةُ الشَّاملةُ للكافرينَ والمؤمنينَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٦).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى عَظَمةَ سُلَيمانَ، وتَسخيرَ الرِّيحِ والجنِّ له؛ بيَّن أنَّه لم يَنْجُ مِن الموتِ، وأنَّه قضَى عليه الموتَ؛ تنبيهًا للخَلقِ على أنَّ الموتَ لا بُدَّ منه، ولو نجا منه أحدٌ لكان سُلَيمانُ أَولى بالنَّجاةِ منه[1].

﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾.

أي: فلمَّا جاء سُلَيمانَ أجَلُه الَّذي قضاه اللهُ عليه، ما دَلَّ الجِنَّ على مَوتِه إلَّا الأَرَضةُ حينَ أكلتْ عَصاه الَّتي كان مُتوكِّئًا عليها وقْتَ مَوتِه[2].

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾.

أي: فلمَّا سَقَط سُلَيمانُ مَيِّتًا حينَ ضَعُفَت عصاه فسَقَطَت بفِعلِ الأَرَضةِ، ظهَر أمرُ الجِنِّ وانكشَف للنَّاسِ أنَّهم لا يَعلَمونَ الغَيبَ كما كانوا يَتوهَّمونَ أو يُوهِمونَ النَّاسَ بذلك؛ فلو كانوا يَعلَمونَ الغَيبَ لعَلِموا مَوتَ سُلَيمانَ، ولم يَلبَثوا في عَمَلِهم الشَّاقِّ المُؤلِمِ المُذِلِّ الَّذي كانوا مُسَخَّرينَ فيه لسُلَيمانَ وهم يَحسَبونَه حَيًّا[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٨، ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٩، ٢٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٩، ٤٩٠)، =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى -عَقِبَ ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾-: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، وقال -عقِبَ

= ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٥).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: تَبَيَّنت الجنُّ للنَّاسِ وانكَشَف لهم أمرُهم وظهَرَ، وعلِموا أنَّهم لا يعلمونَ الغيبَ: يحيى بنُ سلام، والنَّحَّاسُ، والسمرقندي، والسمعاني، وابن الجوزي، والقرطبي، والرَّسْعَنيُّ -ونسَبَه لأكثرِ المفسِّرينَ-، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٥٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ٤٠٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: علِمَتِ الجنُّ وأيقنَتْ، وتَبَيَّن لهم الأمرُ بأنَّهم لا يعلمونَ الغَيبَ: البَغَويُّ، والرازي، والنسفي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢١).

وقال ابن كثير: (تبيَّنَتِ الجِنُّ والإنسُ أيضًا أنَّ الجنَّ لا يَعلمون الغَيبَ، كما كانوا يَتوهَّمون ويُوهِمون النَّاسَ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠١).

وقال البِقاعي: (﴿تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ﴾ أي: عَلِمَتْ عِلمًا بيِّنًا لا يَقدِرون معه على تدبيجٍ وتدليسٍ، وانفضح أمرُهم وظهَرَ ظُهورًا تامًّا). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٧١).

وقال ابن عطية: (﴿تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ﴾ بإسنادِ الفعلِ إليها، أي: بانَ أمْرُها، كأنَّه قال: افتضحَتِ الجِنُّ، أي: للإنسِ. هذا تأويلٌ. ويحتملُ أن يكونَ قولُه: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ﴾ بمعنى: عَلِمَتِ الجنُّ وتحقَّقَتْ، ويريدُ بالجنِّ: جمهورَهم والفَعَلةَ منهم والخَدَمةَ، ويريدُ بالضَّميرِ في ﴿كَانُواْ﴾: رؤساءَهم وكِبارَهم؛ لأنَّهم هم الَّذين يَدَّعون عِلمَ الغَيبِ لأتْباعِهم مِن الجنِّ والإنسِ، ويُوهِمونهم ذلك، قاله قَتادةُ، فيَتيقَّنُ الأتْباعُ أنَّ الرُّؤساءَ لو كانوا عالِمينَ الغيبَ ما لَبِثوا. و﴿أَن﴾ على التَّأويلِ الأوَّلِ بدَلٌ مِن ﴿ٱلۡجِنُّ﴾، وعلى التَّأويلِ الثَّاني مفعولةٌ مَحْضةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٢).

ما يَعمَلُه الجنُّ-: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ إشارةً إلى أنَّ الإنسانَ لا يَستغرِقُ في الدُّنيا، ولا يَلتفِتُ إلى زَخارِفِها، وأنَّه يجِبُ أنْ يَعمَلَ صالحًا[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ فيه وُجوب الشُّكرِ[٢]، والأمرُ في الأصلِ للوجوبِ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الشُّكرَ يكونُ بالفعلِ، كما يكونُ بالقولِ وبالنِّيَّةِ، كما قيل:

أفادَتْكُمُ النَّعْماءُ مِنِّي ثلاثةً ... يدي، ولِساني، والضَّميرَ المُحَجَّبَا[٤]

ولا يختَصُّ الشُّكرُ باللِّسانِ[٥]، ولَمَّا قام النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم حتَّى تورَّمَتْ قَدَماه، قيل له: ((أَتَكَلَّفُ هذا، وقد غَفَر الله لك ما تقدَّم مِن ذَنْبِك وما تأخَّر؟ فقال: أفلا أكونُ عبدًا شَكورًا؟!))[٦]، فجعَلَ الاجتهادَ والنَّصَبَ في قيامِ اللَّيلِ مِن جُملةِ الشُّكرِ[٧].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ المرادُ بهذه الجملةِ الحثُّ على الشكرِ[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٥).

(٦) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩) واللفظ له، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٧) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٦٣).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٧).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾ إثباتُ وُجودِ الجِنِّ، وهذا ثابتٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ المُسلِمين؛ ولهذا مَن أنكرَ وُجودَ الجنِّ فقد كَذَّبَ القُرآنَ، ويُحكَمُ بكُفرِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أنَّ الجِنَّ قد يُشاهَدونَ، فإنَّ الظَّاهرَ أنَّهم يُشاهَدونَ وهم يَعملونَ بينَ يدَيْ سُلَيمانَ عليه السلامُ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أنَّ الجِنَّ مُكَلَّفُونَ، بمعنى أنَّهم إذا خالَفوا عُذِّبُوا[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ فيه سؤالٌ: كيفَ استجازَ سُلَيمانُ عليه السَّلامُ عمَلَ التَّصاويرِ؟

الجوابُ: أنَّه يجوزُ أن تكونَ غيرَ صُوَرِ الحيوانِ، كصُوَرِ الأشجارِ ونَحوِها؛ لأنَّ التِّمثالَ: كُلُّ ما صُورتُه على مِثلِ صُورةِ غَيرِه، مِن حيوانٍ وغيرِ حَيوانٍ، أو بصُوَرٍ محذوفةِ الرُّؤوسِ[٤].

وعلى فرضِ كَوْنِ ذلك كان جائزًا في شريعتِهم فإنَّه نُسِخَ في شَرعِنا، فليس في الآيةِ حجَّةٌ في جوازِ التَّصويرِ[٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ بيانُ كرمِ سُلَيمانَ؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٩). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٥).

الجِفَانَ -الَّتي يُوضَع فيها الطَّعامُ- كالجَوابي: كالأحواضِ الكبيرةِ، والقُدورَ الَّتي يُطبَخ فيه الطَّعامُ راسياتٌ لكِبَرِها[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ أنَّ داودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أبٌ لِفَخذٍ كاملٍ مِن بني إسرائيلَ، كما يُقال: بنو تميمٍ، بنو زُهرةَ، وما أشبَهَ ذلك[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ إنَّما قال تعالى: ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ بصيغةِ المبالَغةِ (فَعُول)؛ دونَ «شاكرٍ»؛ لأنَّ الشَّاكِرينَ غيرُ قليلينَ، ففيها إشارةٌ إلى أنَّ مَن يقَعُ منه مُطلَقُ الشُّكرِ كَثيرٌ، وأقلُّ ذلك حالَ الاضطرارِ، وأمَّا المبالِغونَ في الشُّكرِ فقليلونَ[٣]. وقيل: الآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ خَفَّف الأمرَ على عبادِه؛ وذلك لأنَّه لَمَّا قال: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ فُهِمَ منه أنَّ الشُّكرَ واجِبٌ، لكِنْ شُكرُ نِعَمِه كما ينبغي لا يُمكِنُ؛ لأنَّ الشُّكرَ بالتَّوفيقِ، وهو نعمةٌ تحتاجُ إلى شُكرٍ آخَرَ، وهو بتوفيقٍ آخَرَ؛ فدائمًا تكونُ نِعمةُ اللهِ بعدَ الشُّكرِ خاليةً عن الشُّكرِ، فقال تعالى: إنْ كنتُم لا تَقدِرونَ على الشُّكرِ التَّامِّ فليس عليكم في ذلك حرَجٌ؛ فإنَّ عبادي قليلٌ منهم الشَّكورُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٤، ١١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٧).

(٣) يُنظر: ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٩).

وقال أيضًا: (ويقوِّي قولَنا أنَّه تعالى أدخل الكُلَّ في قَولِه: ﴿عِبَادِيَ﴾ مع الإضافةِ إلى نفْسِه، و«عبادي» بلفظِ الإضافةِ إلى نفْسِ المتكَلِّمِ لم تَرِدْ في القرآنِ إلَّا في حَقِّ النَّاجينَ؛ كقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. فإنْ قيلَ: على ما ذكرتُم: شُكرُ اللهِ بتمامِه لا يُمكِنُ، وقَولُه: ﴿وَقَلِيلٞ﴾ يدُلُّ على أنَّ في عبادِه مَن هو شاكِرٌ لأنعُمِه! نقولُ: الشُّكرُ بقَدرِ الطَّاقةِ البشَريَّةِ هو الواقعُ وقليلٌ فاعِلُه، وأمَّا الشُّكرُ الَّذي يناسِبُ نِعَمَ الله فلا قُدرةَ عليه، ولا يُكَلِّفُ اللهُ =

٨- في قَولِه تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ أنَّ الشَّيءَ قد يكونُ حقيرًا لكنْ يترتَّبُ عليه أمرٌ عظيمٌ! فكيفيَّةُ دفنِ الموتَى ما عُرِفتْ إلَّا بدلالةِ الغُرابِ، وأيضًا المباني الهندسيَّةُ عُرِفَتْ مِن صنيعِ النَّحْلِ، وأيضًا ما أحَدَثَه النَّاسُ مِن الآلاتِ، كالطَّائراتِ وغيرها، فالأشياءُ الحقيرةُ قد تكونُ مفيدةً للإنسانِ فائدةً عظيمةً، ويترتَّبُ عليها أمورٌ خطيرةٌ[(١)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ إضافةَ الشَّيءِ إلى سَبَبِه المعلومِ شَرعًا أو حِسًّا جائزةٌ؛ فاللهُ تعالى أضافَ الدَّلالةَ إلى دابَّةِ الأرضِ مع أنَّ الدَّابَّةَ ما أكلَتِ العصا لأجْلِ أنْ تدُلَّ الجنَّ على مَوتِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، لكِنَّها سَبَبٌ، أمَّا الممنوعُ فهو إضافةُ الشَّيءِ إلى سَبَبِه مع اللهِ تعالى مَقرونًا بالواوِ، أو إضافةُ الشَّيءِ إلى سببٍ غيرِ معلومٍ سَببيَّتُه لا مِن الشَّرعِ ولا مِن الحِسِّ؛ لأنَّ هذا يكونُ مِن بابِ الأوهامِ والتَّخيُّلاتِ[(٢)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ إضافةُ الشَّيءِ إلى مَن لم يَقُمْ به باختيارِه؛ فالخرورُ قد يُضافُ إلى الفاعلِ بالاختيارِ، وقد يُضافُ إلى الفاعلِ بغيرِ الاختيارِ؛ فتقول: «خَرَّ الماءُ»، وتقول: «خَرَّ ميتًا»، وقال اللهُ: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ [مريم: ٥٨]؛ و﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ [الإسراء: ١٠٩] هذا بالاختيارِ[(٣)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ أنَّ الجنَّ ذوو عقولٍ، فقد أعطاهم اللهُ

= نفْسًا إلَّا وُسْعَها، أو نقولُ: الشَّاكرُ التَّامُّ ليس إلَّا مَن رَضِيَ اللهُ عنه، وقال له: يا عبدي، ما أتيتَ به مِن الشُّكرِ القَليلِ قَبِلْتُه منك، وكتبتُ لك أنَّك شاكرٌ لأنعُمي بأسْرِها، وهذا القَبولُ نِعمةٌ عظيمةٌ لا أكلِّفُك شُكرَها). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٤).

تعالى عقولًا يَهتدون بها إلى مصالحِ دينِهم ودنياهم[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٢- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ هذا إبطالٌ لاعتقادِ العامَّةِ يومَئذٍ وما يَعتَقِدُه المُشرِكونَ أنَّ الجِنَّ يَعلَمونَ الغَيبَ؛ فلذلك كان المُشرِكونَ يَستَعلِمونَ المُغَيَّباتِ مِن الكُهَّانِ، ويَزعُمونَ أنَّ لكُلِّ كاهنٍ جِنِّيًّا يأتيه بأخبارِ الغَيبِ، ويُسَمُّونَه رَئِيًّا؛ إذ لو كانوا يَعلَمونَ الغَيبَ لَكان أن يَعلَموا وفاةَ سُلَيمانَ أهْوَنَ عليهم[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أنَّ الأمورَ الحِسِّيَّةَ الواقِعةَ أدِلَّةٌ بُرهانيَّةٌ، وهذه الفائدةُ معناها الاستِدلالُ بالأمورِ الحِسِّيَّةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى استدَلَّ على كَونِهم لا يَعلَمونَ الغيبَ بأنَّهم بَقُوا مُعَذَّبينَ بما يَعمَلونَه مِن الأعمالِ الشَّاقَّةِ؛ فلك أن تستَدِلَّ على الأمورِ المعقولةِ بالأمورِ المحسوسةِ[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أنَّ العذابَ قد يُطلَقُ على ما ليس بعُقوبةٍ؛ فإنَّ سُلَيمانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يَجعَلْهم يَعمَلونَ له ما يَشاءُ عُقوبةً لهم، ولكِنَّه تكليفٌ، كما في قَولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ السَّفَرَ قِطعةٌ مِن العَذابِ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث أخرجه البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧) مطولًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾

- قولُه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ عَطْفُ فَضيلةِ سُليمانَ على فَضيلةِ داودَ؛ للاعتبارِ بما أُوتِيَهُ سُليمانُ مِن فَضلٍ كَرامةً لأبيهِ على إنابتِه، ولِسُلَيمانَ على نَشأتِه الصَّالحةِ عندَ أبيهِ؛ فالعَطفُ على ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبأ: ١٠]، والمُناسَبةُ مِثلُ مُناسَبةِ ذِكرِ داودَ؛ فإنَّ سُليمانَ كان مَوصوفًا بالإنابةِ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾[(١)] [ص: ٣٤].

- وأُطلِقَ الغُدُوُّ على الانصرافِ والانطلاقِ مِن المكانِ؛ تَشبيهًا بخُروجِ الماشيةِ للرَّعيِ في الصَّباحِ، وهو وَقتُ خُروجِها، أو تَشبيهًا بغُدُوِّ النَّاسِ في الصَّباحِ. وأُطلِقَ الرَّواحُ على الرُّجوعِ مِن النَّهْمةِ (الحاجةِ) الَّتي يخرجُ لها؛ لأنَّ عُرْفَهم أنَّ رَواحَ الماشيةِ يكونُ في المساءِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ عَطفًا على جُملةِ ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾؛ فقولُه: ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مُبتدأٌ، وقولُه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ خَبرٌ، و(مِن) في قولِه: (مِنَ الْجِنِّ) بَيانٌ لإبهامِ (مَن)، قُدِّمَ على المُبيَّنِ؛ للاهتمامِ به؛ لِغَرابتِه[(٣)].

- قولُه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بلفظِ الربِّ، وقال بعدَ ذلك: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧، ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٥٩).

ولم يقُلْ: (عن أمرِ ربِّه)؛ لأنَّ (الرَّبَّ) لفظٌ ينبئُ عن الرَّحمةِ، فعندَما كانت الإشارةُ إلى حِفظِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، قال: ﴿رَبِّهِۦ﴾، وعندَما كانت الإشارةُ إلى تعذيبِهم قال: ﴿عَنۡ أَمۡرِنَا﴾، بلفظِ التَّعظيمِ الموجِبِ لزيادةِ الخَوفِ[1].

- قولُه: ﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ عذابُ السَّعيرِ: عذابُ النارِ، وهو تَشبيهٌ، أي: عذابًا كعَذابِ السَّعيرِ، أي: كعَذابِ جهنَّمَ، وأمَّا عذابُ جهنَّمَ فإنَّما يكونُ حقيقةً يومَ الحسابِ[2]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]، وقال في (الأنبياءِ): ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال هناك وهاهنا في الرِّيحِ: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ [الأنبياء: ٨١] [سبأ: ١٢]؛ ووَجْهُه: أنَّ الجبالَ لَمَّا سبَّحَت، شَرُفَتْ بذِكرِ اللهِ؛ فلمْ يُضِفْها إلى داودَ بلامِ المِلكِ، بلْ جعَلَها معه كالمُصاحِبِ، والرِّيحُ لم يَذكُرْ فيها أنَّها سبَّحَت، فجعَلَها كالمَملوكةِ له. وفيه وَجْهٌ آخَرُ -على القولِ بأنَّ ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ معناه: سِيري-: أنَّ الجبَلَ في السَّيرِ ليس أصلًا، بلْ هو يَتحرَّكُ معه تَبَعًا، والرِّيحُ لا تَتحرَّكُ مع سُليمانَ، بلْ تُحرِّكُ سُليمانَ مع نفْسِها، فلمْ يَقُلْ: الرِّيحُ مع سُليمانَ، بلْ سُليمانُ كان مع الرِّيحِ[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرًاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾

- قولُه: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ تَفصيلٌ لِمَا ذُكِرَ مِن عَمَلِهم، وقولُه: ﴿مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٧، ١٩٨).

مَّحَٰرِيبَ ...﴾ إلخ، بَيانٌ لـ﴿مَا يَشَآءُ﴾[١].

- وقُدِّمَت المَحاريبُ على التَّماثيلِ؛ لأنَّ النُّقوشَ تكونُ في الأبنيةِ، وقُدِّمَت الجِفانُ على القُدورِ؛ لأنَّ القُدورَ آلةُ الطَّبخِ، والجِفانُ آلةُ الأكْلِ، والطَّبخُ قبْلَ الأكلِ. لمَّا بيَّنَ الأبنيةَ المَلَكيَّةَ، أراد بَيانَ عَظمةِ السِّماطِ الَّذي يُمَدُّ في تلك الدُّورِ، وأشار إلى الجِفانِ؛ لأنَّها تكونُ فيها، وأمَّا القُدورُ فلا تكونُ فيها، ولا تُحضَرُ هناك، ولهذا قال: ﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾. ولمَّا بيَّن حالَ الجِفانِ، سَرى الذِّهنُ إلى عظَمةِ ما يُطبَخُ فيه؛ فذَكَرَ القُدورَ للمُناسَبةِ. وذكَرَ في حقِّ داودَ اشتغالَه بآلةِ الحرْبِ؛ لاحتياجِه إلى قِتالِ الأعداءِ، وفي حقِّ سُليمانَ المَحاريبَ والتَّماثيلَ؛ لأنَّه كان مَلِكًا ابنَ مَلِكٍ، قد وطَّدَ له أبوهُ المُلكَ، فكانت حالُه حالةَ سِلمٍ؛ إذ لم يكُنْ أحدٌ يَقدِرُ على مُحارَبتِه[٢].

- وجُملةُ ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: قُلنا: اعْمَلوا يا آلَ داودَ. ومَفعولُ ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿شُكۡرٗا﴾، وتَقديرُه: اعْمَلوا صالحًا[٣].

- قولُه: ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ دلَّ على مَزيدِ قربِهم بحذفِ أداةِ النِّداءِ، وعلى شرَفِهم بالتَّعبيرِ بـ(الآلِ)[٤].

- قولُه: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ تَذييلٌ. وفيه حَثٌّ على الاهتمامِ بالعمَلِ الصَّالحِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٨، ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾

- قولُه: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ ... ﴾ تفريعٌ على قولِه: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ إلى قولِه: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ﴾، أي: دام عمَلُهم له حتَّى مات، فلمَّا قَضَينا عليه الموتَ... إلى آخرِه. ولا شكَّ أنَّ ذلك لم يَطُلْ وَقتُه؛ لأنَّ مِثلَه في عَظَمةِ مُلكِه لا بُدَّ أنْ يَفتقِدَه أتْباعُه؛ فجُملةُ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ ... ﴾ جَوابُ (لَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ)، وضَميرُ ﴿دَلَّهُمْ﴾ يَعودُ إلى مَعلومٍ مِن المَقامِ، أي: أهلَ بلاطِه. وجُملةُ ﴿فَلَمَّا خَرَّ ﴾ مُفرَّعةٌ على جُملةِ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ ... ﴾[(١)].

- قولُه تعالى: ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ ﴾ فخَّمَها بهذه الإضافةِ الَّتي من معناها أنَّه لا دابَّةَ للأرضِ غيرُها؛ لِما أفادَتْه مِن العِلمِ، ولأنَّها -لِكَونِها تأكُلُ مِن كُلِّ شَيءٍ مِن أجزاءِ الأرضِ؛ من الخَشَبِ، والحجَرِ، والتُّرابِ، والثِّيابِ، وغيرِ ذلك- أحقُّ الدَّوابِّ بهذا الاسمِ، ويَزيدُ ذلك حُسنًا أنَّ مَصدرَ فِعلِها (أَرْضٌ) بالفتحِ والإسكانِ، فيصيرُ مِن قبيلِ التَّوريةِ، ليَشتَدَّ التَّشَوُّفُ إلى تفسيرِها[(٢)].

- قولُه: ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ أي: عَلِمَ المُدَّعون عِلمَ الغيبِ منهم عَجْزَهم، وأنَّهم لا يَعلَمون الغيبَ وإنْ كانوا عالِمينَ قبْلَ ذلك بحالِهم، وإنَّما أُرِيدَ التَّهكُّمُ بهمْ كما تَتهكَّمُ بمُدَّعِي الباطلِ إذا بَطَلَت حُجَّتُه، وظهَرَ إبطالُه بقولِكَ: هلْ تَبيَّنْتَ أنَّك مُبطِلٌ[(٣)]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٩، ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٢).

الآيات (١٥-١٩)

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ءَايَةٌ﴾: أي: عَلامةٌ وحجَّةٌ ودلالةٌ، يُقالُ: آيةُ كذا؛ أي: علامَتُه، وتُطلَقُ أيضًا على العَجيبةِ[1].

﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾: العَرِمُ: مِن العَرامةِ: وهي الشِّدَّةُ والكَثرةُ، يعني: السَّيلَ الغالِبَ الشَّديدَ؛ أو يكونُ العَرِمُ اسمًا للسَّيلِ الَّذي كان ينصَبُّ في السَّدِّ، وقيل: العَرِمُ: هو ما بُنِيَ ليُمسِكَ الماءَ[2]، وأصلُ (عرم): يدُلُّ على شِدَّةٍ وحِدَّةٍ؛ لأنَّ الماءَ إذا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٤، ٥٩٢) و(١٩/ ٤٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧١).

قال الشنقيطيُّ: (والآيةُ في القرآنِ تُطلَق إطلاقَين: تُطلَقُ الآيةُ على الآيةِ الكَونيَّةِ القدَريَّةِ، وهي مِن الآيةِ بمعنى: العلامةِ، وهي ما نصَبه اللهُ جلَّ وعلا مِن آياتِه، جاعلًا لها علاماتٍ على كمالِ قُدرتِه، وأنَّه الرَّبُّ وحْدَه، المعبودُ وحْدَه،... الإطلاقُ الثَّاني: تُطلَق الآيةُ في القرآنِ على الآيةِ الشَّرعيَّةِ الدِّينيَّةِ؛ كآياتِ هذا القرآنِ العظيمِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٢).

(٢) والمعنى على ذلك: أرسَلْنا السَّيلَ الَّذي كان مخزونًا في السَّدِّ.

حُبِسَ كان له عُرامٌ مِن كَثرتِه[١].

﴿أُكُلٍ﴾: أي: ثَمَرٍ[٢].

﴿خَمْطٍ﴾: أي: شَجرِ الأراكِ، ويُطلَقُ الخَمطُ على الشَّيءِ المُرِّ[٣].

﴿وَأَثْلٍ﴾: الأثْلُ: شَجَرٌ عَظيمٌ يُشبِهُ الطَّرفاءَ، وأصلُ (أثل): يدُلُّ على أصلِ الشَّيءِ[٤].

﴿سِدْرٍ﴾: السِّدْرُ: شَجَرُ النَّبْقِ، وهو قليلُ الغَناءِ عندَ الأكلِ[٥].

﴿أَحَادِيثَ﴾: أي: أخبارًا وعِبَرًا يُتَمَثَّلُ بهم في الشَّرِّ، أو يُتحدَّثُ بهلاكِهم، ولا يُقالُ: جعلْتُه حديثًا في الخَيرِ. وأصلُ (حدث): كَوْنُ الشَّيءِ لم يَكُنْ، والحديثُ مِن هذا؛ لأنَّه كلامٌ يَحْدُثُ منه الشَّيءُ بعدَ الشَّيءِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٠٥).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٢).

﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ﴾: أي: فرَّقْناهم في البلادِ كلَّ تفريقٍ، أي: غايةَ ما يكونُ مِن التَّفريقِ، وتبديدِ الشَّملِ، وقَطَّعْناهم في البلادِ كلَّ مُقَطَّعٍ، وأصلُ (مزق): يدُلُّ على تَخرُّقٍ في شَيءٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: لقد كان لأهلِ سَبَأٍ في مَسكَنِهم علامةٌ واضِحةٌ: بُستانانِ عَظيمانِ عن أيمانِهم وشَمائِلِهم، وقُلْنا لهم: كُلوا مِن رِزقِ رَبِّكم، واشكُروا له على نِعَمِه، هذه بلدةٌ طَيِّبةٌ، وربُّكم ربٌّ غَفورٌ، فأعرَضوا عن طاعةِ اللهِ وشُكرِه وتَوحيدِه، فأرسَلْنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ، فدمَّرَ بُستانَيْهم، وبَدَّلناهم بهما بُستانَينِ فيهما ثَمَرٌ خَمْطٌ، وأثْلٌ، وشَيءٌ قَليلٌ مِن السِّدرِ! ذلك الَّذي فعَلْناه بهم هو جزاءٌ لهم بسَبَبِ كُفرِهم، وما نُجازي جزاءَ العُقوبةِ إلَّا الكَفورَ.

وكنَّا قد أنعَمْنا أيضًا على أهلِ سَبَأٍ مِن قبْلُ بأنْ جعَلْنا بيْنَهم وبيْن قُرى الشَّامِ المُبارَكةِ قُرًى مُتَّصِلةً مُتقارِبةً ظاهِرةً لا تَخفى، وجعَلْنا السَّيرَ في تلك القُرى سَيرًا يَسيرًا مُقَدَّرًا، وقُلْنا لهم: سِيروا في هذه القُرى الَّتي بيْنَكم وبيْن الشَّامِ لَياليَ وأيامًا آمِنينَ، فقالوا: ربَّنا اجعَلْ أسفارَنا بَعيدةً، وظَلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم نِعَمَ رَبِّهم، فجعَلْناهم أحاديثَ يتحَدَّثُ النَّاسُ بأخبارِهم وما عاقَبْناهم به، ومَضرِبًا للمَثَلِ في التَّشَتُّتِ والتفرُّقِ، وتفرَّقوا في نواحي الأرضِ بعدَ جَدْبِ أرضِهم! إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ لكُلِّ صَبَّارٍ شَكورٍ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٨)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٧٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨).

قال ابنُ قُتَيْبَةَ: (ولذلك قالت العربُ للقَومِ إذا أخَذوا في وُجوهٍ مُختلِفةٍ: تفرَّقوا أيْدِيَ سَبَا، «وأيدي» بمعنى: مذاهِبَ وطُرقٍ). ((غريب القرآن)) (ص: ٣٥٦).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى حالَ الشَّاكِرينَ لنِعَمِه، بذكْرِ داودَ وسُلَيمانَ؛ بيَّنَ حالَ الكافِرينَ بأنعُمِه، بحكايةِ أهلِ سَبَأٍ[١].

وأيضًا جَرَّ خبَرُ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ إلى ذِكرِ سَبأٍ؛ لِمَا بيْنَ مُلكِ سُليمانَ وبيْن مَملكةِ سَبأٍ مِن الاتِّصالِ؛ بسَببِ قِصَّةِ «بِلْقيسَ»، ولأنَّ في حالِ أهلِ سَبأٍ مُضادَّةً لأحوالِ داودَ وسُليمانَ؛ إذ كان هذانِ مَثَلًا في إسباغِ النِّعمةِ على الشَّاكرينَ، وكان أولئك مَثَلًا لِسَلبِ النِّعمةِ عن الكافرينَ[٢].

وأيضًا لَمَّا فَرَغ التَّمثيلُ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ رجَعَ التَّمثيلُ للمُشرِكينَ -أي: لحالِهم- بسبَأٍ، وما كان مِن هلاكِهم بالكُفرِ والعُتُوِّ[٣].

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾.

أي: لقد كان لأهلِ سَبَأٍ في مَسكَنِهم علامةٌ بَيِّنةٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

وسبأٌ قبيلةٌ معروفةٌ في اليمَنِ، سمِّيت باسمِ جدٍّ لهم مِن العربِ، ومسكنُهم بلدةٌ يُقالُ لها: «مَأْرِبُ»، وكانت بِلْقيسُ منهم. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) =

﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾.

أي: تلك الآيةُ هي جنَّتانِ عَظيمتانِ[(١)] عن أيمانِهم وشمائِلِهم[(٢)].

﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾.

= (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢٦).

وذكَر السَّمْعانيُّ أنَّ أكثرَ أهلِ التَّفسيرِ على أنَّ (سَبَأ) اسمُ رجُلٍ، ونُسِبت القبيلةُ إليه. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٢٤).

قال الماوَرْدي: (وفي الآيةِ الَّتي لِسَبأٍ في مساكنِهم قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه لم يكُنْ في قريتِهم بَعوضةٌ قَطُّ، ولا ذُبابةٌ، ولا بُرْغُوثٌ، ولا حيَّةٌ، ولا عقربٌ، وإنَّ الرَّكْبَ لَيَأْتون في ثيابِهم القُمَّلُ والدَّوابُّ فتموتُ تلك الدَّوابُّ. قاله عبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدٍ.

الثَّاني: أنَّ الآيةَ هي الجنَّتانِ كانت المرأةُ تمشي فيهما وعلى رأسِها مِكتَلٌ فيَمتلِئُ، وما مسَّتْه بيَدِها. قاله قَتادةُ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٤٣).

وقيل: لم يجعَلِ اللهُ تعالى الجنَّتَينِ في أنفُسِهما آيةً، وإنَّما جَعَل قِصَّتَهما وتخريبَهما وإبدالَهم عنهما بخَمْطٍ وأثْلٍ؛ بسببِ إعراضِهم عن شكر اللهِ- آيةً وعِبرةً لهم؛ لِيَعتَبروا ويتَّعِظوا فلا يَعودوا إلى ما كانوا عليه مِن الكُفرِ وغَمْطِ النِّعَمِ. ويجوزُ أن تجعَلَهما آيةً، أي: علامةً دالَّةً على اللهِ، وعلى قُدرتِه، وإحسانِه ووُجوبِ شُكرِه. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٥).

(١) قيل: المرادُ أنَّهما بُستانانِ كانا بيْنَ جبلَينِ عن يمينِ مَن أتاهما وشِمالِه. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٧).

وقيل: لم يُرِدْ بُستانينِ اثنينِ فحَسْبُ، وإنَّما أراد جماعتينِ مِن البَساتينِ: جماعةً عن يمينِ بلدِهم، وأُخرَى عن شِمالِها، وكُلُّ واحدةٍ مِن الجماعتَينِ في تَقارُبِها وتَضامِّها كأنَّها جنَّةٌ واحدةٌ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: البِقاعي، والعُلَيمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢٨).

وقال الرَّسْعَنيُّ عن هذا القولِ: (هو قولُ عامَّةِ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢٨).

أي: وقُلْنا لهم[١]: كُلوا مِمَّا رزَقَكم ربُّكم، واعمَلوا لله تعالى وَحْدَه وأطيعوه؛ شُكرًا له على ما أنعَمَ به عليكم[٢].

﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبّٞ غَفُورٞ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى بشُكرِه؛ بيَّن ما يوجِبُ الشُّكرَ المأمورَ به[٣].

وأيضًا لَمَّا بيَّن حالَهم في مساكنِهم وبساتينِهم وأكْلِهم؛ أتمَّ بيانَ النِّعمةِ[٤]، فقال:

﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبّٞ غَفُورٞ﴾.

أي: هذه بَلدةٌ طَيِّبةٌ[٥]، والمُنعِمُ بها رَبٌّ غَفورٌ يَستُرُ الذُّنوبَ، ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها[٦].

﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦﴾.

---

(١) قال القرطبي: (أي: قيلَ لهم: كُلوا، ولم يكُنْ ثَمَّ أمرٌ، ولكِنَّهم تمكَّنوا مِن تلك النِّعَم. وقيل: قالت الرُّسُلُ لهم: قد أباح اللهُ تعالى لكم ذلك، أي: أباح لكم هذه النِّعَمَ؛ فاشكروه بالطَّاعةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٠).

(٥) قال ابنُ عطية: (طَيِّبَةٌ: معناه: كريمةُ التُّربةِ، حَسَنةُ الهواءِ، رَغدةٌ مِن النِّعَمِ، سليمةٌ مِن الهَوامِّ والمضارِّ. هذه عباراتُ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٣، ٤١٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما كان مِن جانِبِه تعالى مِن الإحسانِ إليهم؛ ذكَرَ ما كان مِن جانِبِهم في مُقابَلتِه[١].

﴿ فَأَعۡرَضُواْ ﴾.

أي: فأعرَضَ أهلُ سَبَأٍ عن توحيدِ اللهِ وطاعتِه وشُكرِه، فعَبَدوا غيرَه، وعَصَوا أمْرَه، وخالَفوا رسُلَه[٢].

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ ﴾.

أي: فأرسَلْنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ[٣]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

(٣) قال ابن عاشور: (و ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ وصفًا مِن العَرامةِ، وهي الشِّدَّةُ والكثرةُ، فتكون إضافةُ «السَّيلِ» إلى العَرِمِ مِن إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفةِ. ويجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ اسمًا للسَّيلِ الَّذي كان ينصَبُّ في السَّدِّ، فتكون الإضافةُ مِن إضافةِ المسمَّى إلى الاسمِ، أي: السَّيلُ العَرِمُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٩).

ممَّن ذهب في الجملةِ إلى القولِ الأوَّلِ، وأنَّه مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ، مِن العَرامةِ، وهي الشِّدَّةُ والقوَّةُ: البِقاعي، والألوسي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٠٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥١، ٢٥٢).

وقيل: العَرِم: اسمٌ للوادي. وممَّن اختار ذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وعطاءٌ. يُنظر: =

فدمَّرَ جَنَّتَيهم[١].

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

أي: وجعَلْنا لهم مكانَ الجنَّتينِ اللَّتَينِ كانت فيهما الثِّمارُ النَّضيجةُ، والمناظِرُ الحَسَنةُ البَهيجةُ: جنَّتينِ فيهما ثَمَرٌ خَمْطٌ[٢] وأَثْلٌ، وشَيءٌ قَليلٌ مِن السِّدْرِ[٣].

= ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٩٠).

وقيل: هو المُسَنَّاةُ أو السِّكْرُ الذي يَحبِسُ ماءَ السَّدِّ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٨١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عَمرُو بنُ شُرَحْبِيلَ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٩٠).

قال القرطبي: (المُسَنَّاةُ هي الَّتي يُسَمِّيها أهلُ مِصرَ الجِسرَ؛ فكانوا يفتَحونَها إذا شاؤوا، فإذا رُوِيَت جنَّتاهم سَدُّوها). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٦).

وقيل: العَرِمُ: ماءٌ أحمَرُ أرسَلَه اللهُ في السَّدِّ، فشَقَّه وهدَمَه، وحفَرَ الواديَ، فارتفعَتَا عن الجَنْبَينِ، وغاب عنهما الماءُ فيَبِسَتا، ولم يكُنِ الماءُ الأحمرُ مِن السَّدِّ، ولكِنْ كان عذابًا أرسله اللهُ عليهم مِن حيثُ شاء. وممَّن قال بهذا المعنى: مجاهِدٌ في روايةٍ. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧، ٥٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣٣، ١٣٤).

(٢) قيل: المرادُ بالخَمطِ: الأراكُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ كثير، ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وعطاءٌ الخُراسانيُّ، وعِكْرِمةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٥، ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

قال الزمخشري: (والأَثْلُ والسِّدْرُ: معطوفانِ على ﴿أُكُلٍ﴾، لا على ﴿خَمْطٍ﴾؛ لأنَّ الأَثْلَ =

﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾.

أي: ذلك الَّذي فعَلْناه بأولئك القَومِ هو جزاءٌ مِنَّا لهم؛ بسَبَبِ كُفرِهم[1].

﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾.

أي: وما نُجازي ذلك الجَزاءَ -جزاءَ العقوبةِ- إلَّا شَديدَ الكُفرِ لنِعَمِ اللهِ[2].

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

تَكمِلةُ القِصَّةِ بذِكرِ نِعمةٍ بعدَ نِعمةٍ؛ فإنَّ ما تقدَّمَ: لنِعمةِ الرَّخاءِ والبَهجةِ، وطِيبِ الإقامةِ، وما هنا: لنِعمةِ الأمنِ، وتيسيرِ الأسفارِ، وعُمرانِ بلادِهم[3].

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾.

أي: وكُنَّا قد أنعَمْنا أيضًا على أهلِ سَبَأٍ مِن قَبْلُ بأنْ جعَلْنا بيْنَهم وبيْن قُرى الشَّامِ

= لا أُكُلَ له). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٦). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٨، ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٣).

قال الرسعني: (والمعنى: وهل نُجازي مِثلَ هذا الجزاءِ [الفظيع]، أو: وهل يُجازى بكُلِّ عَمَلِه إلَّا الكفورُ؛ فإنَّ المؤمِنَ يكفَّرُ عنه ذنوبُه أو مُعظمُها بطاعتِه، والكافر يُجازى بجميعِ سيِّئاتِه). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٤).

المُبارَكةِ[١] قُرًى مُتَّصِلةً مُتقارِبةً، وهي بيِّنةٌ لا تخفَى؛ لِظُهورِها، فلا يحتاجونَ في طريقِهم لحَملِ زادٍ[٢].

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾.

أي: وجعَلْنا السَّيرَ في تلك القُرى سَيْرًا مُقَدَّرًا[٣].

---

(١) قال ابنُ عطيةَ: (القُرَى التي بُورِك فيها هي بلادُ الشَّامِ بإجماعٍ مِن المفسرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٥٩١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨، ٥٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤١).

قال السمعاني: (ومعنى القُرى الظَّاهرةِ أي: المتَّصِلة، وقيل: ظاهِرة يعني: [للرَّائي]، على معنى أنَّهم كانوا إذا نزَلوا بقريةٍ رَأَوْا قريةً أُخرَى). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٢٨).

وقال ابنُ عاشور: (ووَصفُ ﴿ظَٰهِرَةً﴾ أنَّها مُتقارِبةٌ؛ بحيث يظهرُ بعضُها لبعضٍ ويَتراءى بعضُها مِن بعضٍ. وقيل: الظَّاهِرةُ: الَّتي تظهرُ للسَّائرِ مِن بُعدٍ، بأن كانت القُرى مَبنيَّةً على الآكامِ والظِّرابِ يُشاهِدُها المسافِرُ فلا يَضِلُّ طريقَها. وقال ابُن عطيَّةَ: «الَّذي يَظهرُ لي أنَّ معنى ﴿ظَٰهِرَةً﴾ أنَّها خارجةٌ عن المدُنِ، فهي في ظواهِرِ المدُنِ»، ومنه قولُهم: نزَلْنا بظاهِرِ المدينةِ الفُلانيَّةِ، أي: خارجًا عنها. فقولُه: ﴿ظَٰهِرَةً﴾ كتَسميةِ النَّاسِ إيَّاها بالباديةِ وبالضَّاحيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

قيل: المرادُ: أنَّ أبعادَ تلك القُرى والمسافاتِ بيْنَها: على تقديرٍ وتعادُلٍ؛ بحيث يَقيلُ الغادي في قريةٍ، ويَبيتُ الرَّائحُ في قريةٍ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤١، ١٤٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٦). =

﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

أي: وقُلْنا لأهلِ سَبَأٍ: سِيروا في هذه القُرى الظَّاهِرةِ الَّتي بيْنَكم وبيْنَ الشَّامِ لَياليَ وأيَّامًا آمِنينَ فيها مِن جَميعِ آفاتِ السَّفَرِ(١).

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا انقضى الخبَرُ عن الأوصافِ الَّتي تَستدعي غايةَ الشُّكرِ؛ لِما فيها مِن الألطافِ- دَلَّ على بَطَرِهم للنِّعمةِ بها، بأنَّهم جعَلوها سببًا للتَّضَجُّرِ والمَلالِ(٢).

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾.

أي: فقالوا: يا رَبَّنا اجعَلْ أسفارَنا بَعيدةً، فيَكونَ بيْنَنا وبيْنَ الشَّامِ فَلَواتٌ(٣)!

= قال ابن عثيمين: (ولا شكَّ أنَّ تقديرَ السَّيرِ على هذا الوَجهِ أنَّه مِن نعمةِ الله على النَّاسِ؛ فإنَّ الخطوطَ الطَّويلةَ الَّتي ليست بها مُدُنٌ، تكونُ في الغالبِ طُرقًا مُهلِكةً مُخيفةً، لكِنْ إذا كانت متواصِلةً صارت أيسَرَ للسَّالكِ، وأشدَّ طُمأنينةً، بل وأقرَبَ للسَّيرِ؛ لأنَّك إذا مَشَيت مِن قريةٍ إلى أخرى تُحِسُّ أنَّك قطعْتَ مَرحلةً). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤١، ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٧).

قال ابن عاشور: (المعنى: باعِدْ بينَ السَّفَرِ والسَّفَرِ مِن أسفارِنا، ومعنى ذلك: إبعادُ المراحلِ؛ لأنَّ كلَّ مرحلةٍ تُعتبَرُ سَفَرًا، أي: باعِدْ بينَ مراحِلِ أسفارِنا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٧).

وذكر الماوَرْديُّ في هذه الآيةِ ثلاثةَ تأويلاتٍ: (أحدُها: أنَّهم قالوا ذلك؛ لأنَّهم مَلُّوا النِّعَمَ كما =

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾.

أي: وظَلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم باللهِ وبنِعمتِه[١].

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾.

أي: فجعَلْناهم أحاديثَ يتحدَّثُ النَّاسُ بأخبارِهم وشأنِ ما جرى لهم مِنَ العُقوبةِ والهلاكِ، ويَضرِبونَ بهم المَثَلَ في التَّشَتُّتِ والتَّفَرُّقِ[٢].

﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

أي: وقَطَّعْناهم في الأرضِ، فتفرَّقوا في نواحٍ كثيرةٍ[٣].

= ملَّ بنو اسرائيل المَنَّ والسَّلْوى. قاله الحسَنُ.

الثَّاني: أنَّهم قالوا: لو كانت ثمارُنا أبعَدَ مِمَّا هي كانت أشهى في النُّفوسِ وأحلى. قاله ابن عيسى. وهو قريبٌ مِن الأوَّلِ؛ لأنَّه بطَرٌ، فصار نوعًا مِن المَللِ.

الثَّالثُ: معناه: زِدْ في عمارتِنا حتَّى تبعُدَ فيه أسفارُنا. حكاه النَّقَّاشُ. وهذا القولُ منهم طلبًا للزِّيادةِ والكثرةِ. ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٤٥).

وممَّن قال بنحوِ القولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤٢).

وذهب ابن عاشور إلى أنَّ الأظهرَ أن يكونَ هذا القولُ قالوه جوابًا عن مَواعظِ أنبيائِهم والصَّالحينَ منهم حين يَنهَوْنَهم عن الشِّركِ، فهُم يَعِظونهم بأنَّ الله أنعَمَ عليهم بتلك الرَّفاهيةِ، وهم يُجيبونَ بهذا القَولِ؛ إفحامًا لدُعاةِ الخَيرِ منهم، على نحوِ قولِ كُفَّارِ قُريشٍ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢]! يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٧، ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن =

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾.

أي: إنَّ في ذلك[١] لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ بَيِّنةً لكُلِّ عَظيمِ الصَّبرِ، عَظيمِ الشُّكرِ لله تعالى[٢].

الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: آيةٌ للمُعتبِرين مِن أهلِ المعاصي؛ فإنَّ فيها تحذيرًا لهم مِن أنْ تَزولَ نعمةُ اللهِ تعالى عليهم؛ بسَبَبِ معاصيهم، وآيةٌ للطائعينَ حيثُ يَعتبِرونَ بها بأنَّهم ما داموا على طاعةِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ نعمةَ اللهِ سُبحانَه وتعالى تُدَرُّ عليهم[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ﴾ يدُلُّ على أنَّ الإجحافَ في إيفاءِ النِّعمةِ حَقَّها مِن الشُّكرِ: يُعَرِّضُ بها للزَّوالِ، وانقلابِ الأحوالِ[٤].

= كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٨، ١٧٩).

قال ابن عاشور: (وأشارَتِ الآيةُ إلى التَّفَرُّقِ الشَّهيرِ الَّذي أُصيبَتْ به قبيلةُ سَبَأٍ إذْ حَمَلهم خرابُ السَّدِّ وقُحولةُ الأرضِ إلى مُفارقةِ تلك الأوطانِ مُفارَقَةً وَتَفْريقًا ضَرَبتْ به العربُ المَثَلَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٨).

(١) قيل: اسمُ الإشارةِ يعودُ إلى تمزيقِهم كُلَّ مُمَزَّقٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

وقيل: المرادُ: قِصَّةُ سَبَأٍ على وجهِ العُمومِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٠، ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٠، ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ في انعكاسِ حالِهم مِنَ الرَّفاهةِ إلى الشَّظَفِ آيةٌ على تقلُّبِ الأحوالِ، وتغيُّرِ العالَمِ؛ وآيةٌ على صِفاتِ الأفعالِ لله تعالى؛ مِن خَلْقٍ ورَزْقٍ، وإحياءٍ وإماتةٍ، وفي ذلك آيةٌ مِن عدَمِ الاطمِئنانِ لدَوامِ حالٍ في الخَيرِ والشَّرِّ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ في الآيةِ دَلالةٌ واضِحةٌ على أنَّ تأمينَ الطَّريقِ، وتيسيرَ المواصَلاتِ، وتقريبَ البُلدانِ؛ لتيسيرِ تبادُلِ المنافِعِ، واجتلابِ الأرزاقِ مِن هنا ومن هناك: نِعمةٌ إلهيَّةٌ، ومَقصدٌ شَرعيٌّ يُحِبُّه اللهُ لِمَن يحِبُّ أن يَرحمَه مِن عبادِه؛ من أجْلِ ذلك كان حَقًّا على وُلاةِ أمورِ الأمَّةِ أن يَسعَوا جُهدَهم في تأمينِ البلادِ، وحِراسةِ السُّبُلِ، وتيسيرِ الأسفارِ، وتقريرِ الأمنِ في سائرِ نواحي البِلادِ؛ جليلِها وصغيرِها، بمُختَلَفِ الوسائِلِ، وكان ذلك مِن أهَمِّ ما تُنفَقُ فيه أموالُ المُسلِمينَ، وما يَبذُلُ فيه أهلُ الخَيرِ من المُوسِرينَ أموالَهم؛ عَونًا على ذلك[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ فيه أنَّ بَطَرَهم لتلك النِّعمةِ حتَّى ملُّوها ودَعَوا بإزالتِها -على أحدِ الأقوالِ-: دليلٌ على أنَّ الإنسانَ ما دام حيًّا فهو في نِعمةٍ يجِبُ عليه شُكرُها كائنةً ما كانت، وإن كان يراها بليَّةً؛ لأنَّه لِما طُبِعَ عليه مِن القَلَقِ كثيرًا ما يرى النِّعمَ نِقَمًا، واللَّذَّةَ ألَمًا[٣]!

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أشار بصيغةِ المُبالَغةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٨).

إلى أنَّ مَن ليس في طَبعِه الصَّبرُ، فاتَه الشُّكرُ[(١)].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ جمعَ بيْنَ (صبَّارٍ) و(شكورٍ) في الوَصفِ؛ لإفادةِ أنَّ واجبَ المؤمنِ التَّخلُّقُ بالخُلُقَينِ، وهما: الصَّبرُ على المكارهِ، والشُّكرُ على النِّعَمِ؛ فالصَّبَّارُ يَعتبِرُ مِن تلك الأحوالِ، فيَعلَمُ أنَّ الصَّبرَ على المَكارهِ خيرٌ مِن الجَزعِ، ويَرتكِبُ أخَفَّ الضَّررَينِ، ولا يَستخِفُّه الجَزَعُ فيُلْقي بنَفْسِه إلى الأخطارِ، ولا يَنظُرُ في العواقبِ! والشَّكورُ يَعتبِرُ بما أُعطِيَ مِن النِّعمِ، فيَزدادُ شُكرًا للهِ تعالى، ولا يَبطَرُ النِّعمةَ ولا يَطْغى فيُعاقَبَ بسَلْبِها كما سُلِبَت عنهم، ومِن وراءِ ذلك أنْ يَحرِمَهم اللهُ التَّوفيقَ، وأنْ يَقذِفَ بهم الخِذْلانُ في بُنَيَّاتِ الطَّريقِ[(٢)].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ مادَّةُ الشُّكرِ تتعدَّى إلى النِّعمةِ تارةً، وإلى المُنعِمِ أُخرى؛ فإن عُدِّيَت إلى النِّعمةِ تعَدَّت إليها بنَفْسِها دونَ حَرفِ الجَرِّ، كقَولِه تعالى: ﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: ١٩]، وإنْ عُدِّيَت إلى المُنعِمِ تعَدَّت إليه بحَرفِ الجَرِّ الَّذي هو اللَّامُ، كقولك: نحمَدُ اللهَ ونَشكُرُ له، ولم تأتِ في القُرآنِ مُعدَّاةً إلَّا باللَّامِ، كما في الآيةِ هنا، وقَولِه: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقَولِه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وقَولِه: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقَولِه: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]... إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ، وهذه هي اللُّغةُ الفُصحى، وتعديتُها

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٠، ١٨١).

وبُنَيَّاتُ الطَّريقِ هي الطُّرُقُ الصِّغارُ تَتَشَعَّبُ مِن الجادَّةِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٤٠).

للمَفعولِ بدونِ اللَّامِ لُغةٌ لا لَحنٌ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ عُقوبةُ المُعرِضينَ بما تَقْتضيه حكمةُ اللهِ سُبحانه وتعالى، وقد قال اللهُ سُبحانَه وتعالى في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، فالعُقوباتُ دائمًا تكونُ مِن جنسِ العمَلِ؛ فهؤلاء لَمَّا بَطِروا نعمةَ اللهِ تعالى وكفَروا به -بسبب هذه الجَنَّاتِ- أُبدِلوا بجنَّاتٍ سيِّئةٍ بالنِّسبةِ لِمَا نُعِّموا به مِن قَبلُ[٢].

٣- قال الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ دَليلٌ على أنَّ اللهَ لا يُجازي أحدًا بعُقوبةٍ إلَّا بفِعلِه[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ يدُلُّ على خُصوصِ الجزاءِ بالمُبالِغينَ في الكُفرِ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على عُمومِ الجزاءِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [الزلزلة: ٧]؟

الجوابُ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المعنى ما نُجازي هذا الجَزاءَ الشَّديدَ المُستأصِلَ إلَّا المبالغَ في الكُفرانِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ ما يُفعَلُ بغيرِ الكافِرِ مِن الجزاءِ ليس عِقابًا في الحقيقةِ؛ لأنَّه تطهيرٌ وتَمحيصٌ.

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّه لا يُجازَى بجميعِ الأعمالِ مع المناقَشةِ التَّامَّةِ إلَّا الكافِرُ، ويدُلُّ لهذا قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن نُوقِشَ الحِسابَ فقد هَلَك))،

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: (المصدر السابق)) (ص: ١٣٩).

فلمَّا سألَتْه عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها عن قَولِه تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]، قال لها: ((ذلكِ العَرضُ))(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا مِنَ النِّعَم، واللهُ تعالى قد شَرَع في بيانِ تبديلِ نِعَمِهم بقَولِه: ﴿وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾، فكيف عاد مرَّةً أُخرى إلى بيانِ النِّعمةِ بعدَ النِّقمةِ؟

الجوابُ: أنَّه ذكَرَ حالَ نَفْسِ بلَدِهم، وبيَّن تبديلَ ذلك بالخَمْطِ والأثْلِ، ثمَّ ذكَرَ حالَ خارجِ بلَدِهم، وذكَرَ عِمارتَها بكَثرةِ القُرى، ثمَّ ذكرَ تبديلَه ذلك بالمفاوِزِ والبَيادي والبَراري، بقَولِهم: ﴿رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، وقد فعَلَ ذلك(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أنَّ الطُّرُقَ إذا كانت بيْنَ قرًى متجاوِرةٍ فهي آمَنُ، وأقرَبُ إلى السَّلامةِ(٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أنَّ تقديرَ السَّيرِ أنشَطُ للمسافرِ وأسهلُ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٩٠). ويُنظر أيضًا: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٩٣).

والحديث أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

قال ابن عاشور: (والمعنى: ما يُجازى ذلك الجزاءَ إلَّا الكَفورُ؛ لأنَّ ذلك الجزاءَ عَظيمٌ في نوعِه... فلا يُتوهَّمُ أنَّ هذا يقتضي أنَّ غيرَ الكَفورِ لا يُجازى على فِعلِه، ولا أنَّ الثَّوابَ لا يُسمَّى جزاءً، ولا أنَّ العاصيَ المؤمِنَ لا يُجازى على معصيتِه؛ لأنَّ تلك التَّوهُّماتِ كُلَّها مُندَفِعةٌ بما في اسمِ الإشارةِ مِن بيانِ نوعِ الجزاءِ؛ فإنَّ الاستئصالَ ونحوَه لا يجري على المؤمنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤٣).

له؛ لأنَّه إذا كان بيْنَ القرَى تبايُنٌ بعيدٌ تَعِبَ المسافرُ ومَلَّ، لكنْ إذا صار يَقطَعُها مرحلةً مرحلةً؛ صار ذلك أنشَطَ له وأهْوَنَ عليه، ومِن هذا تجزئةُ القرآنِ ومسائلِ العِلمِ والكتبِ المُصَنَّفةِ حتَّى يقطعَها الإنسانُ مرحلةً مرحلةً؛ فيكونَ ذلك أسهَلَ عليه، ورُبَّما نأخُذُ منه فائدةً لِمَن أراد حِفْظَ القرآنِ أنْ يَتَحَفَّظَه شيئًا فشيئًا[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أنَّ الأمنَ في الأوطانِ مِن أكبَرِ النِّعَمِ[٢].

٩- إنَّما غلَّبت العربُ الليالِيَ على الأيامِ في التاريخِ، فقيل: كتبت لخمسٍ بقينَ. وأنت في اليوم؛ لأنَّ ليلةَ الشَّهرِ سبَقت يومَه، ولم يلِدْها وولَدتْه، ولأنَّ الأهِلَّةَ للَّيالي دونَ الأيامِ، وفيها دخولُ الشَّهرِ؛ ولذلك ما ذكَرهما الله تعالى إلَّا وقدَّم الليالِيَ على الأيامِ؛ قال تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ [فاطر: ١٣]، والعربُ تستعمِلُ الليلَ في الأشياءِ التي يشارِكُها فيها النَّهارُ دونَ النَّهارِ، وإن كانت لا تتِمُّ إلَّا به؛ قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٍ﴾[٣] [الأعراف: ١٤٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ ظُلمَ النَّفسِ يكونُ بالكُفرِ والشِّركِ[٤]؛ فقد قال الله تعالى قبْلَ ذلك: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ [سبأ: ١٧].

١١- الإيمانُ نِصفانِ: نِصفٌ صَبْرٌ، ونِصفٌ شُكرٌ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الأزمنة والأمكنة)) للمرزوقي (ص: ٤٦٩)، وفيه وجهٌ آخرُ مذكورٌ (ص: ١١٤).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٧).

ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾

- قولُه: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞ﴾ بَيانٌ لأخبارِ بَعضِ الكافرينَ بنِعَمِ اللهِ تعالى إثْرَ بَيانِ أحوالِ الشَّاكرينَ لها[٢]. والتَّأكيدُ بلامِ القَسَمِ وحَرفِ التَّحقيقِ ﴿لَقَدۡ﴾؛ لِتَنزيلِ المُخاطَبينَ بالتَّعريضِ بهذه القِصَّةِ مَنزِلةَ مَن يَتردَّدُ في ذلك؛ لِعَدَمِ اتِّعاظِهم بحالِ قَومٍ مِن أهْلِ بِلادِهم[٣].

- وفي قولِه: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖ﴾ وَحَّدَ لَفظَ (الآيةِ) مع أنَّ الجَنَّتينِ آيتانِ؛ لِتَماثُلِهما في الدَّلالةِ، واتِّحادِ جِهَتِهما، كقولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾[٤] [المؤمنون: ٥٠].

- وفي قولِه: ﴿جَنَّتَانِ﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: في مَساكنِهم شَبيهُ جنَّتينِ في أنَّه مُغترَسُ أشجارٍ ذاتِ ثَمرٍ مُتَّصِلٍ بَعضُها ببَعضٍ، مِثلُ ما يُعرَفُ مِن حالِ الجنَّاتِ. وتَثنيةُ جنَّتينِ باعتبارِ أنَّ ما على يَمينِ السَّائرِ كَجَنَّةٍ، وما على يَسارِه كجنَّةٍ. وقيل: كان لكلِّ رجُلٍ منهم في مَسكنِه -أي: دارِه- جنَّتانِ: جنَّةٌ عن يَمينِ المَسكنِ، وجنَّةٌ عن شِمالِه، فيَكونُ معنى التَّركيبِ على التَّوزيعِ، أي: لكلِّ مَسكنٍ جنَّتانِ، وهذا مُناسبٌ لقولِه: ﴿فِي مَسۡكَنِهِمۡ﴾ دونَ أنْ يقولَ: في بِلادِهم، أو دِيارِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ أنَّ مَدينتَهم -وهي مَأرِبُ- كانت

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٥، ٤٦٦).

مَحفوفةً على يَمينِها وشِمالِها بغابةٍ مِن الجنَّاتِ يَصطافُّون فيها ويَستثمِرونها، وهذا يُناسِبُ قولَه بعْدُ: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦]؛ لأنَّ ظاهرَه أنَّ المُبدَلَ به جنَّتانِ اثنتانِ، إلَّا أنْ تَجعَلَه على التَّوزيعِ مِن مُقابَلةِ المُتعدِّدِ بالمُتعدِّدِ. وفي جَعلِ ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ في نَظمِ الكلامِ بَدلًا عن (آية) كِنايةٌ عن طِيبِ تُربةِ بِلادِهم[(١)].

- قولُه: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ؛ حِكايةً لِمَا قِيلَ لهم على لِسانِ نبيِّهم؛ تَكْميلًا للنِّعمةِ، وتَذكيرًا لِحُقوقِها. أو لِمَا نطَقَ به لِسانُ الحالِ. أو بَيانٌ لِكَونِهم أحِقَّاءَ بأنْ يُقالَ لهم ذلك[(٢)].

- جُملةُ ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ مُستأنَفةٌ للدَّلالةِ على مُوجِبِ الشُّكرِ[(٣)].

- وتَنكيرُ ﴿بَلْدَةٌ﴾ للتَّعظيمِ، وعُدِلَ عن إضافةِ (بَلْدة) إلى ضَميرِهم؛ لِتكونَ الجُملةُ خَفيفةً على اللِّسانِ، فتكونَ بمَنزلةِ المَثلِ. وتَنكيرُ (رَبٌّ) للتَّعظيمِ، والعُدولُ عن إضافةِ (ربّ) لِضَميرِ المُخاطَبينَ إلى تَنكيرِ (ربّ)، وتَقديرِ لامِ الاختِصاصِ؛ لِقَصدِ تَشريفِهم بهذا الاختصاصِ، ولِتكونَ الجُملةُ على وِزانِ الَّتي قبْلَها؛ طَلبًا للتَّخفيفِ، ولِتَحصُلَ المُزاوَجةُ بيْنَ الفِقْرتينِ، فتَسيرَا مَسيرَ المَثَلِ[(٤)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٦، ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٨).

- قولُه ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ... ﴾ تفريعٌ على قولِه: ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ [سبأ: ١٥]، وقَعَ اعتِراضًا بيْنَ أجزاءِ القِصَّةِ الَّتي بَقِيَّتُها قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ...﴾ [سبأ: ١٨] إلخ، وهو اعتِراضٌ بالفاءِ، والإعراضُ يَقْتضي سَبْقَ دَعوةِ رَسولٍ أو نَبيٍّ، والمعنى: أعْرَضوا عن الاستِجابةِ لدَعوةِ التَّوحيدِ بالعَودِ إلى عِبادةِ الشَّمْسِ بعْدَ أنْ أقْلَعُوا في زَمنِ سُليمانَ عليه السَّلامُ وبِلقيسَ[١].

- و(الإرسالُ) في قولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾: الإطلاقُ، وهو ضِدُّ الحبْسِ، وتَعديتُه بحَرْفِ (على) يُؤذِنُ بأنَّه إرسالُ نِقمةٍ؛ فإنَّ سَيلَ العَرِمِ كان مَحبوسًا بالسَّدِّ في مَأْرِبَ، فكانوا يُرسِلون منه بمِقدارِ ما يَسقُون جَنَّاتِهم. و(التَّبديلُ) في قولِه: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ تَعويضُ شَيءٍ بآخَرَ؛ فالمعنى: أعطَيْناهم أشجارَ خَمْطٍ وأثْلٍ وسِدْرٍ عِوَضًا عن جنَّتَيهم، أي: صارتْ بِلادُهم قاحلةً ليس فيها إلَّا شَجرُ العِضاهِ[٢] والباديةِ، وفيما بيْنَ هذينِ الحالينِ أحوالٌ عظيمةٌ انتابَتْهم، فقاسَوُا العطَشَ وفِقْدانَ الثِّمارِ حتَّى اضْطُرُّوا إلى مُفارَقةِ تلك الدِّيارِ؛ فلمَّا كانتْ هذه النِّهايةُ دالَّةً على تلك الأحوالِ، طُوِيَ ذِكرُ ما قبْلَها، واقتُصِرَ على ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ ...﴾[٣].

- وإطلاقُ اسمِ ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ على هذه المَنابتِ مُشاكَلةٌ للتَّهكُّمِ؛ لأنَّها صارتْ قاحلةً ليس فيها إلَّا شَجرُ العِضاهِ والباديةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٨).

(٢) العِضاهُ: كلُّ شجرٍ يَعْظُمُ وله شوكٌ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٩، ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧١، ١٧٢)، =

- قَولُه: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ السِّدرُ: أكثَرُ الأشجارِ ظِلًّا وأنفَعُها؛ لأنَّه يُغسَلُ بوَرقِه مع الماءِ فيُنظِّفُ، وفيه رائحةٌ حَسنةٌ؛ ولذلك وُصِفَ هنا بالقليلِ؛ لإفادةِ أنَّ مُعظَمَ شَجرِهم لا فائدةَ منه، وزِيدَ تَقليلُه قِلَّةً بذِكرِ كَلمةِ (شَيءٍ) المُؤْذِنةِ في ذاتِها بالقِلَّةِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٦]؛ فهو مِن تَمامِ الاعتراضِ، واسمُ الإشارةِ مِن البَيانِ بطَريقِ الإشارةِ، أي: جَزَيْناهم الجزاءَ المُشارَ إليه، وهو ما تَقدَّمَ مِن التَّبديلِ بجَنَّتَيهم جنَّتينِ أُخريَينِ. وتَقديمُه على عامِلِه؛ للاهتِمامِ بشِدَّةِ ذلك الجزاءِ وتَعظيمِه[٢]، وأنَّه مما يُهتَمُّ غايةَ الاهتمامِ بتعرُّفِه[٣].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ رُتبتِه في الفَظاعةِ[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ...﴾ تَذييلٌ، وهو قِسْمانِ؛ الأوَّلُ: ما جَرى مَجرى المَثلِ، والثَّاني: ما لم يَخرُجْ مَخرَجَ المَثلِ؛ وهو أنْ تكونَ الجُملةُ الثَّانيةُ مُتوقِّفةً على الأُولى في إفادةِ المُرادِ، أي: وهلْ يُجازى ذلك الجزاءَ المَخصوصَ؟! ومَضمونُ الجُملةِ الأُولى أنَّ آلَ سَبأٍ جَزاهم اللهُ تعالى بكُفرِهم، ومَضمونُ الثَّانيةِ أنَّ ذلك العِقابَ المخصوصَ لا يقَعُ إلَّا للكَفورِ،

= ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧١، ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٨).

وفَرْقٌ بيْنَ قولِنا: جَزيتُه بسَببِ كذا، وبيْنَ قَولِنا: ولا يُجزى ذلك الجزاءَ إلَّا مَن كان بذلك السَّببِ، ولِتَغايُرِهما يصِحُّ أنْ يُجعَلَ الثَّاني عِلَّةً للأوَّلِ، ولكنَّ اختلافَ مَفهومِهما لا يُنافي تأْكيدَ أحدِهما بالآخَرِ؛ لِلُزومِ معنًى[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ إنكاريٌّ في مَعنى النَّفيِ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ حِكايةٌ لِمَا أُوتوا مِن النِّعَمِ الباديةِ في مَسايرِهم ومَتاجِرِهم، وما فَعَلوا بها مِن الكُفرانِ، وما حاقَ بهم بسَببِ ذلك؛ تَكملةً لِقِصَّةِ سَبأٍ بذِكرِ نِعمةٍ بعْدَ نِعمةٍ، وبَيانٌ لِعاقبتِهم، وإنَّما لم يُذكَرِ الكلُّ معًا؛ لِمَا في التَّثنيةِ والتَّكريرِ مِن زِيادةِ تَنبيهٍ وتَذكيرٍ[٣].

- ومعنى ﴿ظَٰهِرَةً﴾ أنَّها خارجةٌ عن المُدُنِ -على قولٍ-؛ فهي في ظَواهرِ المُدنِ، ومنه قولُهم: نَزَلْنا بظاهرِ المدينةِ الفُلانيَّةِ، أي: خارِجًا عنها؛ فقولُه: ﴿ظَٰهِرَةً﴾ كتَسميةِ النَّاسِ إيَّاها بالباديةِ وبالضَّاحيةِ، فيكونُ في قولِه: ﴿ظَٰهِرَةً﴾ على ذلك كِنايةٌ عن وَفرةِ المُدنِ، حتَّى إنَّ القُرى كلَّها ظاهرةٌ منها[٤].

- قولُه: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ فيه تَقديمُ اللَّيالي على الأيَّامِ؛ للاهتمامِ بها في مَقامِ الامتِنانِ؛ لأنَّ المسافرينَ أحوَجُ إلى الأمْنِ في اللَّيلِ منْهم إليه في النَّهارِ؛ لأنَّ اللَّيلَ تَعترِضُهم فيه القُطَّاعُ والسِّباعُ[٥]؛ فقدَّمَ ما هو

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٨٤، ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٦).

أدلُّ على الأمْنِ وأعدَلُ للسَّيرِ في البلادِ الحارَّةِ بقولِه: ﴿لَيَالِيَ﴾، وأشارَ إلى كَثرةِ الظِّلالِ والرُّطوبةِ والاعتدالِ الَّذي يُمكِنُ معه السَّيرُ في جَميعِ النَّهارِ بقولِه: ﴿وَأَيَّامًا﴾، أي: في أيِّ وَقتٍ شِئتُم[١].

- وفي تَنكيرِ ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ إلْماعٌ إلى قِصَرِ أسفارِهم؛ فقد كانتْ قَصيرةً؛ لأنَّهم يَرتَعون في بُحْبُوحةٍ مِن العَيشِ، ورَغَدٍ منه، لا يَحتاجُون إلى مُواصَلةِ الكَدِّ، وتَجشُّمِ عَناءِ الأسفارِ للحُصولِ على ما يُرفِّهُ عَيْشَهم[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

- الفاءُ في: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا﴾ لِتَعقيبِ قَولِهم هذا إثْرَ إتمامِ النِّعمةِ عليهم باقترابِ المُدُنِ، وتَيسيرِ الأسفارِ، فلمَّا تمَّتِ النِّعمةُ بَطِروها، فحلَّتْ بهم أسبابُ سَلْبِها عنهم[٣].

- قولُه: ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ التَّمزيقُ: تَقطيعُ الثَّوبِ قِطَعًا، وهو هنا تَشبيهٌ لِتَفريقِ جامعةِ القومِ شَذَرَ مَذَرَ بتَمزيقِ الثَّوبِ قِطَعًا[٤]. وفي عِبارةِ التَّمزيقِ الخاصِّ بتَفريقِ المُتَّصلِ وخَرْقِه، مِن تَهويلِ الأمْرِ والدَّلالةِ على شِدَّةِ التَّأثيرِ والإيلامِ؛ ما لا يَخْفى، أي: مَزَّقناهم تَمزيقًا لا غايةَ وراءَهُ بحيثُ يُضرَبُ به الأمثالُ في كلِّ فُرقةٍ ليس بعْدَها وِصالٌ[٥].

- وجاء نظْمُ الكلامِ في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٩).

لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّش(١)؛ فالمُسَبَّبُ على الكُفرِ هو استِئصالُهم، وهو مَدلولُ قولِه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾، والمُسبَّبُ على كُفرانِ نِعمةِ تَقارُبِ البلادِ هو تَمزيقُهم كلَّ مُمزَّقٍ، أي: تَفريقُهم(٢).

- وفِعلُ الجَعلِ يَقْتضي تَغييرًا، ولَمَّا عُلِّقَ بذَواتِهم انقَلَبَت مِن ذواتٍ مُشاهَدةٍ إلى كَونِها أخبارًا مَسموعةً، والمعنى: أنَّهم هَلَكوا وتَحدَّثَ النَّاسُ بهم. أو أُرِيدَ: فجعَلْناهم أحاديثَ اعتبارٍ ومَوعظةٍ، أي: فأصَبْناهم بأمْرٍ غَريبٍ مِن

(١) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو أن يُذكَرَ شيئانِ أو أشياءُ؛ إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتملُ على متعدِّدٍ- ثم يُذكرَ أشياءُ على عدَد ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِنَ المتقدِّم، ويُفوَّض إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به.
فاللَّفُ يُشار به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ؛ مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.
واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلٍّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كما في قولِه تعالى هنا: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
وغيرُ المرتَّبِ -وقد يُعَبَّرُ عنه بـ«اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّش»، أو «المعكوس»-: هو أن يأتيَ النَّشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّلٌ، وجاء بعْدَها نَشْرٌ غيرُ مُرتَّبٍ؛ فجُملةُ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى ومتعلِّقةٌ بها، وجملةُ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ ومُتعلِّقةٌ بها، وجملةُ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ ومتعلِّقةٌ بها.
يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣ - ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٧).

شأْنِه أنْ يَتحَدَّثَ به النَّاسُ؛ فيكونُ ﴿أَحَادِيثَ﴾ مَوصوفًا بصِفَةٍ مُقدَّرةٍ دلَّ عليها السِّياقُ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ تَذييلٌ، وافتتاحُها بأداةِ التَّوكيدِ؛ للاهتِمامِ بالخبَرِ، ويَظهَرُ أنَّ هذا التَّذييلَ تَنْهيةٌ للقِصَّةِ، وأنَّ ما بعْدَ هذه الجُملةِ مُتعلِّقٌ بالغرَضِ الأوَّلِ المُتعلِّقِ بأقوالِ المشركينَ، والمُنتقَلِ منه إلى العِبرةِ بداودَ وسُليمانَ، والمُمثَّلِ لحالِ المُشركينَ فيه بحالِ أهْلِ سَبأٍ. وجمَعَ (الآياتِ)؛ لأنَّ في تلك القصَّةِ عِدَّةَ آياتٍ وعِبَرٍ[٢].

- وتَخصيصُ الصَّبَّارِ الشَّكورِ بذلك؛ لأنَّهم المُنتفِعون بها[٣]، فآياتُ الرَّبِّ إنَّما يَنتفِعُ بها أهلُ الصَّبرِ والشُّكرِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٨٠، ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٧٥).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ظَهِيرٍ﴾: أي: مُعينٍ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[1].

﴿فُزِّعَ﴾: أي: أُزيلَ الفَزَعُ، وأصلُ (فزع): يدُلُّ على ذُعرٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولقد تحقَّقَ فيهم ظنُّ إبليسَ فاتَّبَعوه إلَّا فَريقًا مِنَ المؤمِنينَ، وما كان لإبليسَ عليهم قُدرةٌ وتسَلُّطٌ إلَّا لِنَعلَمَ مَن يُؤمِنُ بالآخرةِ ممَّن هو شاكٌّ فيها، عِلمًا يترتَّبُ عليه الجزاءُ، وربُّك -يا محمَّدُ- على كلِّ شَيءٍ حَفيظٌ.

قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: ادعُوا هؤلاء الَّذين تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لله؛ فإنَّهم لا يَملِكونَ وَزنَ ذَرَّةٍ في السَّمَواتِ ولا في الأرضِ، وليس لِمَعبوداتِكم شِركٌ مع اللهِ في السَّمَواتِ أو الأرضِ، وليس لله مِن هذه الآلهةِ المزعومةِ أيُّ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠١).

مُعاوِنٍ يَستَعينُ به سُبحانَه وتعالى، فكيف يَصِحُّ أن يكونوا آلِهةً؟!

ولا تَنفَعُ الشَّفاعةُ عندَه تعالى يومَ القيامةِ إلَّا لِمَن أذِنَ له اللهُ أن يَشفَعَ، حتَّى إذا أُزيلَ الفَزَعُ عن قُلوبِهم وذهَبَ منها، تساءَلوا عمَّا قاله الرَّبُّ سُبحانَه، قالت الملائِكةُ: قال اللهُ الحقَّ، وهو العَليُّ الكبيرُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذكَرَ -جَلَّت قُدرتُه- قَصَصَ سَبَأٍ، وما كان مِن أمْرِهم في اتِّباعِ الهَوى والشَّيطانِ؛ أردَفَ ذلك الإخبارَ بأنَّهم صدَّقوا ظَنَّ إبليسَ فيهم وفي أمثالِهم ممَّن ركَنوا إلى الغَوايةِ والضَّلالِ؛ إذ تسَلَّط عليهم وانقادوا إلى وَسوستِه[1].

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾.

أي: ولقد تحقَّقَ عليهم[2] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٢).

(٢) قال الواحدي: (واختلَف المفسِّرون في هذه الآيةِ؛ فمَذهَبُ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عطاءٍ: [أنَّ الكنايةَ] في قَولِه: ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ عن أهلِ سبأٍ، وقال في قوله: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: يريدُ: قليلًا مِن الَّذين صَدَّقوا الأنبياءَ وآمَنوا بالله، وعلى هذا فالاستثناءُ مِن سبَأٍ، وهم مَنْ آمَنَ منهم. ومذهَبُ مُجاهِدٍ أنَّ الكنايةَ: عن النَّاسِ كُلِّهم؛ قال: صَدَّق ظَنَّه على النَّاسِ كُلِّهم إلَّا مَن أطاع اللهَ. وهو ظاهِرُ مذهَبِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٣٥٣).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ المرادَ: أهلُ سَبَأٍ-: ابنُ جرير، والسمرقندي، والثعلبي، والبغوي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٢٢/ ٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٠٧).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الرازيُّ، والنيسابوري، والسعدي، وهو ظاهرُ اختيارِ الشنقيطي. =

ما ظنَّه إبليسُ فيهم، باتِّباعِهم إيَّاه[١].

﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إلَّا فريقًا مِن[٢] .....

= يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٢)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١).

قال السعدي: (قال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على جنسِ النَّاسِ، فتكونُ الآيةُ عامَّةً في كلِّ مَن اتَّبَعَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

وقال الإيجي: (كلامُ السَّلَفِ دالٌّ على أنَّ ضميرَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لبني آدَمَ، لا لأهلِ سَبَأٍ خاصَّةً). ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٣٨٢).

وقيل: المرادُ: الكُفَّارُ الَّذين قالوا: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧]. فالضَّميرُ في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعودُ إلى الَّذينَ كفروا مِن قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ ...﴾. واستظهَر هذا القولَ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٢).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٢، ١٨٣).

والمرادُ بظنِّ إبليسَ: هو ما حكاه اللهُ تعالى عنه في عدَّةِ مواضعَ؛ كقَولِه: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، والبغوي، وابن عطية، والبِقاعي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٠).

قال ابنُ عطية: (ومعنى الآيةِ أنَّ ما قال إبليسُ مِن أنَّه سيَفتِنُ بني آدمَ ويُغويهم، وما قال مِن أنَّ الله لا يجِدُ أكثرَهم شاكرينَ، وغيرَ ذلك: كان ظنًّا منه، فصدَق فيهم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٧).

(٢) قيل: ﴿مِّنَ﴾ في قَولِه ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لبيانِ الجنسِ، لا للتَّبعيضِ، أي: فريقًا هم المؤمنون؛ لأنَّ التَّبعيضَ يقتضي أنَّ فريقًا مِن المؤمنينَ اتَّبَعوا إبليسَ. وممَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: =

المُخلصينَ لله تعالى، الثَّابتينَ على توحيدِه وطاعتِه[(١)].

كما قال سُبحانَه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ رُبَّما أوهم أنَّ لإبليسَ

= ابنُ عطية، وابنُ عادل، والإيجي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٥٢)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٣٨٢).

وقيل: هي للتَّبعيضِ، فيُرادُ به بعضُ المؤمنينَ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

قيل: وذلك لأنَّ كثيرًا مِن المؤمنينَ مَن يُذنِبُ ويَنقادُ لإبليسَ في بعضِ المعاصي، أي: ما سَلِم مِن المؤمنينَ أيضًا إلَّا فريقٌ، وهو المعنِيُّ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٠، ٤٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٣).

قال ابن عثيمين: (إذا جعَلْنا الضَّميرَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ عائدًا على الكُفَّار الَّذين اتَّبَعوا إبليسَ فإنَّ الاستِثناءَ هنا يجبُ أن يكونَ مُنقطِعًا، وإن جَعَلْناه عامًّا لبني آدَمَ أو جنسِ هذه القَبيلةِ «سَبَأٍ» صار الاستِثناءُ مُتَّصِلًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥٠، ١٥١).

وقال الشنقيطي: (عِبادُ الله المُخلَصونَ هم المُرادون بالاستِثناءِ في قَولِه في بني إسرائيلَ: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقولِه في سبأٍ: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وهم الَّذين احترَز منهم بقَولِه: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٧٧).

أمرًا بنَفْسِه؛ فنفاه هنا، فقال[(١)]:

﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾.

أي: وما كان لإبليسَ على أتْباعِه تسَلُّطٌ واستيلاءٌ إلَّا لِنَعلَمَ المؤمِنينَ بالآخرةِ مِنَ الشَّاكِّينَ فيها؛ عِلمًا وُجوديًّا ظاهريًّا يَترتَّبُ عليه الجزاءُ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال الله سُبحانَه: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٥٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥٣-١٥٦).

قال الشوكاني: (والاستِثناءُ في قَولِه: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ [سبأ: ٢١] منقَطِعٌ، والمعنى: لا سُلطانَ له عليهم، ولكِنِ ابتلَيْناهم بوَسوسَتِه؛ لِنَعلَمَ. وقيل: هو متَّصِلٌ مُفَرَّغٌ مِن أعمِّ العامِّ، أي: ما كان له عليهم تسَلُّطٌ بحالٍ مِن الأحوالِ ولا لعلَّةٍ مِن العِلَلِ إلَّا ليَتميَّزَ مَن يؤمِنُ ومَن لا يؤمِنُ؛ لأنَّه سبحانه قد عَلِمَ ذلك عِلمًا أزَليًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧١).

وقال ابنُ قُتَيْبَةَ: (عِلمُ الله تعالى نوعانِ؛ أحدُهما: عِلمُ ما يكونُ مِن إيمانِ المؤمنينَ، وكُفرِ الكافرينَ، وذُنوبِ العاصِين، وطاعاتِ المُطيعينَ؛ قبْلَ أن تكونَ، وهذا عِلمٌ لا تجِبُ به حُجَّةٌ، ولا تقَعُ عليه مَثوبةٌ ولا عقوبةٌ. والآخَرُ: عِلمُ هذه الأمورِ ظاهرةً موجودةً، فيَحِقُّ القولُ، ويقعُ بوقوعِها الجزاءُ، فأراد جلَّ وعزَّ: ما سلَّطْناه عليهم إلَّا لِنَعْلَمَ إيمانَ المؤمنينَ ظاهِرًا موجودًا، وكُفرَ الكافرين ظاهِرًا موجودًا). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٩٠، ١٩١).

ونقَل الواحديُّ كلامَ ابنِ قُتَيْبَةَ هذا، ثمَّ قال: (وهذا معنى قولِ ابنِ عبَّاسٍ، ومقاتلٍ، والكلبيِّ، وجميعِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٣٥٤، ٣٥٥).

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

أي: وربُّك -يا محمَّدُ- على كُلِّ شَيءٍ مِن خَلْقِه رَقيبٌ ومُطَّلِعٌ؛ فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أمورِهم وأعمالِهم وأحوالِهم، وسيُجازي عِبادَه بما عَمِلوه مِن خيرٍ وشَرٍّ[(١)].

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ الشَّاكِرينَ وحالَ الكافِرينَ، وذكَّرَهم بمَن مضَى؛ عاد إلى خِطابِهم[(٢)].

وأيضًا كانت قِصَّةُ سَبأٍ قد ضُرِبت مَثلًا وعِبرةً للمُشرِكينَ مِن قُرَيشٍ، وكان في أحوالِهم مَثيلٌ لأحوالِ المُشرِكينَ في أمْنِ بلادِهم، وتيسيرِ أرزاقِهم، وتأمينِ سُبُلِهم في أسفارِهم، ثمَّ فيما قابَلوا به نِعمةَ اللهِ بالإشراكِ به، وكُفرانِ نِعمتِه، وإفحامِهم دُعاةَ الخَيرِ المُلهَمينَ مِن لَدُنْه إلى دَعوتِهم، فلمَّا تقضَّى خبَرُهم انتُقِل منه إلى تطبيقِ العِبرةِ على مَن قَصَد اعتبارَهم انتِقالًا مُناسبتُه بيِّنةٌ، وهو أيضًا عَودٌ إلى إبطالِ أقوالِ المُشرِكينَ، وسِيقَ لهم مِنَ الكَلامِ ما فيه توقيفٌ على أخطائِهم، وأيضًا فلمَّا جرى مِن استِهواءِ الشَّيطانِ أهلَ سَبَأٍ فاتَّبَعوه، وكان الشَّيطانُ مَصدَرَ الضَّلالِ وعُنصُرَ الإشراكِ- أعقَبَ ذِكرَه بذِكرِ فُروعِه وأوليائِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥٦، ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٥).

وأيضًا لَمَّا أثبَت سُبحانَه لنَفْسِه ولِذَاتِه الأقدَسِ مِن المُلْكِ في السَّمَواتِ والأرضِ وغَيرِهما ما مَرَّ ذِكرُه، واستدَلَّ عليه مِن الأدِلَّةِ الَّتي لا يُمكِنُ التَّصويبُ إليها بطَعنٍ، وكان المقصودُ الأعظَمُ التَّوحيدَ؛ فإنَّه أصلٌ يَنبني عليه كُلُّ خَيرٍ- قال[1]:

﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: ادعُوا مَعبودِيكم الَّذين تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لله؛ لِيَنفَعوكم أو يَضُرُّوكم بشَيءٍ؛ فإنَّهم لن يَقدِروا على ذلك، فهم لا يَملِكونَ وَزنَ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، فكيف يَصِحُّ أن يكونوا آلِهةً[2]؟!

﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ ﴾.

أي: وليس لِمَعبوداتِكم أيُّ شراكةٍ مع اللهِ في أيِّ شَيءٍ مِنَ السَّمواتِ أو الأرضِ[3].

﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴾.

أي: وليس لله مِن تلك الآلهةِ المَزعومةِ أيُّ مُعاوِنٍ يُساعِدُه على شَيءٍ ممَّا يُريدُه سُبحانَه[4].

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قد بَقِيَ مِن أقسامِ النَّفعِ: الشَّفاعةُ، وكان المقصودُ منها أثَرَها لا عَيْنَها؛ نفاه بقَولِه[1]:

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

أي: ولا تَنفَعُ الشَّفاعةُ عِندَ الله يومَ القيامةِ إلَّا لِمَن أَذِنَ له أن يَشفَعَ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥ - ٨٧].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾.

أي: حتَّى إذا كُشِفَ الفزَعُ عن قُلوبِهم وذهَبَ عنها، تساءَلوا عمَّا قاله الرَّبُّ سُبحانَه، فقالوا: ماذا قال ربُّكم[3]؟

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٤).

قال ابن تيميَّةَ: (قد يقالُ: التَّقديرُ: لا تَنفعُ الشَّفاعةُ عندَه إلَّا لِمَن أذِنَ له أن يُشفَعَ فيه، فيُؤذَنُ لغيرِه أن يَشفعَ فيه، فيكونُ الإذنُ للطَّائفتَينِ، والنَّفعُ للمَشفوعِ له، كأحدِ الوجهَينِ، أو: ولا تنفَعُ إلَّا لِمن أذِنَ له مَن هؤلاء وهؤلاء، فكما أنَّ الإذْنَ للطَّائِفتَينِ فالنَّفعُ أيضًا للطَّائفَتين؛ فالشَّافِعُ يَنتفِعُ بالشَّفاعةِ، وقد يكونُ انتِفاعُه بها أعظَمَ مِن انتفاعِ المشفوعِ له). ((الحسنة والسيئة)) (ص: ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٥)، =

= ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٤، ٥١٥).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ يعودُ على الملائكةِ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والسمرقندي، وابنُ عطية، وابنُ جُزَي، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثير، وابنُ حجر. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٣/ ٥٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٥)، ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ٢١٤) و(٢/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٤٥٦).

قال ابنُ جُزَي: (تظاهرت الأحاديثُ عن رسولِ اللهِ صلَّى الله تعالى عليه وآلِه وسلَّم أنَّ هذه الآيةَ في الملائكةِ عليهم السَّلامُ؛ فإنَّهم إذا سَمِعوا الوَحْيَ إلى جبريلَ يَفزَعونَ لذلك فزَعًا عظيمًا، فإذا زال الفزَعُ عن قلوبِهم قال بعضُهم لبعضٍ: ماذا قال ربُّكم؟ فيقولون: قال الحَقَّ. ومعنى ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ زال عنها الفَزَعُ، والضَّميرُ في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ وفي ﴿قَالُوا﴾ للملائكة. فإن قيل: كيف ذلك ولم يَتقدَّمْ لهم ذِكرٌ يعودُ الضَّميرُ عليه؟ فالجوابُ: أنَّه قد وقعت إليهم إشارةٌ بقَولِه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾؛ لأنَّ بعضَ العَرَبِ كانوا يَعبُدونَ الملائكةَ، ويقولون: هؤلاء شُفعاؤُنا عندَ الله، فذِكْرُ الشَّفاعةِ يقتضي ذِكرَ الشَّافِعينَ، فعاد الضَّميرُ على الشُّفَعاءِ الَّذين دَلَّ عليهم لفظُ الشَّفاعةِ. فإن قيل: بِمَ اتَّصَل قَولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، ولأيِّ شَيءٍ وقَعَت «حتَّى» غائيَّةً؟ فالجوابُ: أنَّه اتَّصَل بما فُهِمَ مِن الكلامِ مِن أنَّ ثَمَّ انتِظارًا للإذْنِ، وفَزَعًا وتوقُّفًا حتَّى يَزولَ الفَزَعُ بالإذنِ في الشَّفاعةِ، ويَقرُبُ هذا في المعنى مِن قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨]، ولم يَفهَمْ بَعضُ النَّاسِ اتِّصالَ هذه الآيةِ بما قَبْلَها، فاضطربوا فيها، حتَّى قال بعضُهم: هي في الكُفَّارِ بعدَ الموتِ، ومعنى ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: رأَوُا الحقيقةَ، فقيل لهم: ماذا قال ربُّكم؟ فيقولونَ: قال الحَقَّ، فيُقِرُّونَ حيثُ لا يَنفَعُهم الإقرارُ! والصَّحيحُ أنَّها في الملائكةِ؛ لوُرودِ ذلك في الحديثِ، ولأنَّ القَصدَ الرَّدُّ على الكُفَّارِ الَّذين عَبَدوا الملائِكةَ، فذَكَر شِدَّةَ خَوفِ الملائكةِ مِن اللهِ، وتعظيمِهم له). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (والضَّميرُ في قَولِه: ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يَعودُ إلى ما دَلَّ عليه «له» في ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ﴾؛ فإنَّ الملائكةَ يدخُلون في قَولِه: ﴿لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، ودَلَّ عليه قَولُه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ﴾ [سبأ: ٢٢]؛ فإنَّ الملائكةَ تدخُلُ في ذلك؛ فسَلَبهم المُلْكَ والشِّركةَ والمعاونةَ والشَّفاعةَ إلَّا بإذنِه، ثمَّ بيَّن ذلك حتَّى إنَّه إذا تكَلَّم لا يَثبُتونَ لكَلامِه ولا يَستقِرُّونَ، بل يَفزَعونَ ولا يَفهَمونَ! ثمَّ إذا أُزيلَ عنهم الفَزَعُ يقولون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ =

= ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣]، وذلك أنَّ ما بعدَ «حتَّى» هنا جملةٌ تامَّةٌ، وهو قَولُه: ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبأ: ٢٣]، والعامِلُ في «إذا» هو قَولُه ﴿قَالُواْ مَاذَا﴾ و«إذا»: ظَرفٌ لِما يُستقبَلُ مِن الزَّمانِ، مُتضَمِّنٌ معنى الشَّرطِ، أي: لَمَّا زال الفزَعُ عن قلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟). ((الفتاوى الكبرى)) (٦/ ٤٦٠).

وقال ابنُ حجر: (وأظنُّ البخاريَّ أشار ... إلى ترجيحِ قَولِ مَن قال: إنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ للملائكةِ، وأنَّ فاعِلَ الشَّفاعةِ في قَولِه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ [سبأ: ٢٣] هم الملائكةُ؛ بدليلِ قَولِه بعدَ وَصفِ الملائكةِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]). ((فتح الباري)) (١٣/ ٤٥٥).

وقيل: المرادُ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿قُلُوبِهِمْ﴾: الشَّافِعونَ، والمشفوعُ لهم. وممَّن قال بذلك: الزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنسفي، والبِقاعي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٤٤).

قال الزمخشري: (فإنْ قُلتَ: بِمَ اتَّصل قَولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، ولأيِّ شَيءٍ وقَعَت ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غايةً؟ قلتُ: بما فُهِمَ مِن هذا الكلام، مِن أنَّ ثَمَّ انتظارًا للإذنِ وتوقُّعًا وتمهُّلًا وفزَعًا مِن الرَّاجينَ للشَّفاعةِ والشُّفَعاءِ: هل يُؤْذَنُ لهم أو لا يؤذَنُ؟ وأنَّه لا يُطلَقُ الإذْنُ إلَّا بعدَ مَلِيٍّ مِن الزَّمانِ، وطولٍ مِن التَّرَبُّصِ، ومِثلُ هذه الحالِ دلَّ عليها قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٧، ٣٨]، كأنَّه قيل: يَتربَّصون ويَتوقَّفون مَليًّا فَزِعينَ وَهِلينَ، حتَّى إذا فُزِّع عن قلوبِهم -أي: كُشِفَ الفَزَعُ عن قلوبِ الشَّافعينَ والمشفوعِ لهم بكلمةٍ يتكلَّمُ بها ربُّ العِزَّةِ في إطلاقِ الإذنِ- تباشَروا بذلك، وسأل بعضُهم بعضًا: ماذا قال رَبُّكُم؟ قالُوا: قال الحقَّ، أي: القولَ الحَقَّ، وهو الإذْنُ بالشَّفاعةِ لِمَنِ ارتضى). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٠).

وقيل: المرادُ: المشفوعُ لهم. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٨، ١٨٩).

وقيل: إنَّ الضَّميرَ في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ يعودُ على المشركينَ، وفي معنى الكلام على ذلك قولان:

أحدُهما: أنَّ المعنى: حتَّى إذا كُشف الفزَعُ عن قلوبِ المشركينَ عندَ الموتِ -إقامةً للحُجَّةِ =

كما قال سُبحانَه: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ * لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ * يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ * وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا قضى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبَت الملائِكةُ بأجنِحَتِها خُضْعانًا لِقَولِه، كأنَّه سِلْسِلةٌ على صَفْوانٍ[1]، فإذا فُزِّعَ عن قلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا لِلَّذي قال: الحَقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقُ السَّمعِ؛ ومُستَرِقُ السَّمعِ هكذا بعضُه فوقَ

= عليهم- قالت لهم الملائكةُ: ماذا قال ربُّكم في الدُّنيا؟ قالوا: الحقَّ، فأقَرُّوا حينَ لم يَنفَعْهم الإقرارُ. قاله الحسَنُ، وابنُ زَيدٍ.

والثَّاني: حتَّى إذا كُشِفَ الغِطاءُ عن قُلوبِهم يومَ القيامةِ، قيل لهم: ماذا قال ربُّكم. قاله مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٧).

قال السعدي: (يحتمِلُ أنَّ الضَّميرَ في هذا الموضِعِ يعود إلى المشركين؛ لأنَّهم مذكورون في اللَّفظِ، والقاعدةُ في الضَّمائرِ: أن تَعودَ إلى أقرَبِ مذكورٍ، ويكونُ المعنى: إذا كان يومُ القيامةِ وفُزِّع عن قلوبِ المشركينَ -أي: زال الفزَعُ- وسُئلوا حينَ رجعَتْ إليهم عقولُهم عن حالِهم في الدُّنيا، وتكذيبِهم للحَقِّ الَّذي جاءت به الرُّسُلُ: أنَّهم يُقِرُّون أنَّ ما هم عليه مِن الكُفرِ والشِّركِ: باطلٌ، وأنَّ ما قال اللهُ وأخبرَتْ به عنه رُسُلُه: هو الحقُّ، فبدَا لهم ما كانوا يُخْفُونَ مِن قبْلُ، وعَلِموا أنَّ الحقَّ لله، واعترَفوا بذُنوبِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٩).

وقال أبو حيَّان: (وأقرَبُها عندي أن يكونَ الضَّميرُ في ﴿قُلُوبِهِمۡ﴾ عائدًا على مَن عاد عليه ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ [سبأ: ٢٠] و﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ [سبأ: ٢٠] و﴿مِّمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ﴾ [سبأ: ٢١]، وتكونَ الجملةُ بعدَ ذلك اعتراضًا، وقولُه: ﴿قَالُواْ﴾ أي: الملائكةُ، لأولئك المتَّبعينَ الشَّاكِّينَ يَسألونهم سؤالَ توبيخٍ: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡ﴾ على لسانِ مَن بُعِث إليكم بعدَ أن كُشِف الغِطاءُ عن قلوبِهم، فيُقِرُّون إذْ ذاك أنَّ الَّذي قاله وجاءت به أنبياؤه: هو الحَقُّ لا الباطِلُ الَّذي كنَّا فيه مِن اتِّباعِ إبليسَ، وشَكِّنا في البعثِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٦).

(١) الصَّفْوانُ: هو الحَجَرُ الأملَسُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ١٩٢).

بَعضٍ -ووصَف سُفْيانُ بكَفِّه فحَرَّفَها، وبدَّدَ بيْنَ أصابِعِه- فيَسمَعُ الكَلِمةَ فيُلقيها إلى مَن تحتَه، ثمَّ يُلقيها الآخَرُ إلى مَن تحتَه، حتَّى يُلقيَها على لسانِ السَّاحِرِ أو الكاهِنِ، فرُبَّما أدرك الشِّهابُ قبْلَ أن يُلقيَها، ورُبَّما ألقاها قبْلَ أن يُدرِكَه، فيَكذِبُ معها مئةَ كَذْبةٍ، فيُقالُ: أليس قد قال لنا يَومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيُصَدَّقُ بتلك الكَلِمةِ الَّتي سَمِعَ مِن السَّماءِ))[١].

﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

أي: قالت الملائكةُ: قال اللهُ القولَ الحَقَّ[٢]، وهو العَليُّ بذاتِه وصفاتِه، وقَهرِه لكُلِّ شَيءٍ مِن خَلْقِه؛ فلا شَيءَ أعلَى منه، ومِن عُلُوِّه أنَّ حُكمَه يعلو وتُذعِنُ له جميعُ الخلائِقِ؛ مُؤمِنُهم وكافِرُهم، ومِن عُلُوِّه أنَّه لا يقولُ غيرَ الحَقِّ؛ وهو الكبيرُ الَّذي لا شَيءَ أكبَرُ منه، ولا يُعارِضُه أحدٌ في شَيءٍ مِن حُكمِه؛ فله أن يَحكُمَ في عبادِه بما يشاءُ، ويَفعَلُ ما يُريدُ[٣].

---

(١) رواه البخاري (٤٨٠٠).

(٢) قيل: المرادُ بالقَولِ الحَقِّ هنا هو: الإذنُ بالشَّفاعةِ. وممَّن نصَّ على هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والقرطبي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٤٤).

وقيل: الظَّاهِرُ أنَّ كَلِمةَ ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ وقعت حكايةً لِمَقولِ الله بوَصفٍ يجمعُ متنوِّعَ أقوالِ الله تعالى حينَئذٍ؛ مِن قَبولِ شفاعةٍ في بَعضِ المشفوعِ فيهم، ومِن حِرمانٍ لغَيرِهم؛ كما يقالُ: ماذا قال القاضي للخَصمِ؟ فيُقالُ: قال الفَصْلَ. وممَّن استظهَر هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٩، ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

قال ابن عثيمين: (الكبيرُ... معناه: ذو الكبرياءِ، ومعناه: أنَّ الله تعالى لا يُماثِلُه شَيءٌ في ذاتِه). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ ﴾ فيه تَنبيهُ المؤمِنينَ إلى مَكايِدِ الشَّيطانِ وسُوءِ عاقبةِ أتْباعِه؛ لِيَحذَروه ويَستَيقِظوا لكَيدِه، فلا يَقَعوا في شَرَكِ وَسوَستِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾ أنَّ إبليسَ يُوصَفُ بالصِّدقِ، ويُوصَفُ بالكَذِبِ، وأمَّا الوَصفُ اللَّازمُ له فهو الكَذِبُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١٢٠]، ولكنْ قد يَصدُقُ كما قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((صَدَقَك وهو كَذوبٌ))[٢].

٢- قال سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ ﴾ أنَّ الشَّيطانَ إمامٌ لكلِّ ضالٍّ، فكلُّ الضَّالِّينَ إمامُهم الشَّيطانُ، وهم مُتَّبِعون له[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ أكثَرَ النَّاسِ هم أهلُ النَّارِ، وهم الَّذين اتَّبَعوا الشَّيطانَ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أنَّ الإيمانَ حاجزٌ عن

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥١).

والحديث أخرجه معلَّقًا البخاريُّ (٢٣١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مطولًا. ويُنظر: ((تغليق التعليق)) لابن حجر (٣/ ٢٩٥-٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٢٦٥).

اتِّباعِ الشَّيطانِ، ومُوجِبٌ لاتِّباعِ هَدْيِ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾، وقولُه تعالى حاكيًا عن الشَّيطانِ مُقَرِّرًا له: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢] قد دلَّا على نَفيِ سُلطانِ الشَّيطانِ عليهم، فكيفَ أثبَت للشيطانِ على أوليائِه سلطانًا في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠] ففيه التَّصريحُ بأنَّ الشَّيطانَ له سُلطانٌ على أوليائِه، ونَظيرُه الاستثناءُ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]؟

والجوابُ: أنَّ السُّلطانَ الَّذي أثبَتَه له عليهم غيرُ السُّلطانِ الَّذي نفاه؛ وذلك مِن وجهَينِ:

الأول: أنَّ السُّلطانَ الثَّابتَ هو سُلطانُ التَّمكُّنِ منهم، وتلاعُبِه بهم، وسَوقِه إيَّاهم كيفَ أراد، بتمكينِهم إيَّاه مِن ذلك بطاعتِه ومُوالاتِه، والسُّلطانَ الَّذي نفاه سُلطانُ الحُجَّةِ، فلم يكُنْ لإبليسَ عليهم مِن حُجَّةٍ يَتسلَّطُ بها، غيرَ أنَّه دعاهم فأجابوه بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ، وإطلاقُ السُّلطانِ على البُرهانِ كثيرٌ في القُرآنِ.

الثاني: أنَّ الله لم يَجعلْ له عليهم سُلطانًا ابتِداءً الْبَتَّةَ، ولكِنْ هم سَلَّطوه على أنفُسِهم بطاعتِه ودُخولِهم في جُملةِ جُندِه وحِزبِه، فلمْ يَتسلَّطْ عليهم بقُوَّتِه؛ فإنَّ كَيْدَه ضَعيفٌ، وإنَّما تسَلَّطَ عليهم بإرادتِهم واختيارِهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٦)، ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ١٠٠)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣٤، ١٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٥).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ نفَى سُبحانَه عمَّا سِواه كلَّ ما يتعلَّقُ به المُشرِكونَ؛ فنفَى أن يكونَ لغيرِه مُلكٌ أو قِسْطٌ مِن المُلكِ، أو يكونَ عَونًا للهِ، ولم يَبْقَ إلَّا الشَّفاعةُ؛ فبَيَّنَ أنَّها لا تَنفَعُ إلَّا لِمَن أذِنَ له الرَّبُّ، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾[1] [البقرة: ٢٥٥].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ * وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ هذه أنواعُ التَّعلُّقاتِ الَّتي يتعلَّقُ بها المُشرِكونَ بأندادِهم وأوثانِهم مِنَ البَشَرِ والشَّجَرِ وغيرِهم؛ قَطَعها الله، وبيَّن بُطلانَها تبيينًا حاسمًا لموادِّ الشِّركِ، قاطِعًا لأُصولِه؛ لأنَّ المُشرِكَ إنَّما يدعو ويعبُدُ غيرَ اللهِ؛ لِما يرجو منه مِنَ النَّفعِ، فهذا الرَّجاءُ هو الذي أوجبَ له الشِّركَ، فإذا كان مَن يدعوه مِن دونِ اللهِ لا مالِكًا للنَّفعِ والضُّرِّ، ولا شريكًا للمالِكِ، ولا عَونًا وظهيرًا للمالِكِ، ولا يَقدِرُ أن يشفَعَ بدونِ إذْنِ المالكِ: كان هذا الدُّعاءُ وهذه العِبادةُ ضلالًا في العَقلِ، باطِلةً في الشَّرعِ، بل يَنعكِسُ على المُشرِكِ مَطلوبُه ومقصودُه؛ فإنَّه يُريدُ منها النَّفعَ؛ فبيَّن اللهُ بُطلانَه وعَدَمَه[2].

٨- قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾، جمَعَت هذه الآيةُ نَفْيَ جَميعِ أصنافِ التَّصرُّفِ عن آلهةِ المُشرِكينَ، كما جمَعَت نَفْيَ أصنافِ الآلهةِ المَعبودةِ عندَ العرَبِ؛ لأنَّ مِن العرَبِ صابئةً يَعبُدون الكواكبَ،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨). ويُنظر أيضًا: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦١).

وهي في زَعمِهم مُستقِرَّةٌ في السَّمواتِ تُدبِّرُ أُمورَ أهْلِ الأرضِ؛ فأبطَلَ هذا الزَّعمَ قولُه: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ فأمَّا في السَّمواتِ فباعترافِهم أنَّ الكواكبَ لا تَتصرَّفُ في السَّمواتِ، وإنَّما تَصرُّفُها في الأرضِ، وأمَّا في الأرضِ فبقولِه: ﴿وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. ومِن العرَبِ عَبَدةُ أصنامٍ يَزعُمون أنَّ الأصنامَ شُركاءُ للهِ في الإلهيَّةِ، فنَفى ذلك بقولِه: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، ومنهم مَن يَزعُمون أنَّ الأصنامَ جَعَلها اللهُ شُفعاءَ لأهلِ الأرضِ، فنَفى ذلك بقولِه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ الآيةَ[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ إثباتُ الشَّفاعةِ بإذنِ اللهِ تعالى، ولو كانتِ الشَّفاعةُ لا تَنفَعُ مُطلَقًا ما صحَّ الاستِثناءُ، ولو كانت تَنفَعُ مُطلقًا ما صحَّ النَّفيُ؛ إذَنْ فهي تَنفَعُ بإذنِ اللهِ تعالى[2].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ نَفْيٌ لأن يكونَ شَفيعٌ عندَه -تعالى- يَضطرُّه إلى قَبولِ الشَّفاعةِ فيمَنْ يَشفَعُ له؛ لتعظيمٍ أو حياءٍ، وصرَّح بالمتعلَّقِ هنا؛ ردًّا على قَولِ المُشركينَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فنُفِيَت شفاعتُهم في عُمومِ نَفيِ كُلِّ شَفاعةٍ نافعةٍ عندَ اللهِ إلَّا شَفاعةَ مَن أذِنَ اللهُ أن يَشفَعَ، وفي هذا إبطالُ شفاعةِ أصنامِهم؛ لأنَّهم زَعَموا لهم شَفاعةً لازمةً مِن صِفاتِ آلهتِهم؛ لأنَّ أوصافَ الإلهِ يجبُ أن تكونَ ذاتيَّةً، فلمَّا نفى اللهُ كُلَّ شَفاعةٍ لم يَأذَنْ فيها للشَّافعِ، انتفَتِ الشَّفاعةُ المزعومةُ لأصنامِهم، وبهذا يَندفعُ ما يُتوهَّمُ مِن أنَّ قَولَه: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ لا يُبطِلُ شَفاعةَ الأصنامِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٧).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ يدُلُّ على العَظَمةِ، وهو أنَّه لا افتياتَ عليه تعالى بوجهٍ مِن أحدٍ ما، بل لا بُدَّ أن يَنُصَّ هو سبحانَه على الإذنِ، وإلَّا فلا استطاعةَ عليه أصلًا[١]؛ ففي الآيةِ عَظَمةُ اللهِ تعالى وقوَّةُ سلطانِه، ووجهُ ذلك: أنَّ الشَّفاعةَ لا تكونُ إلَّا بإذنِه، بخِلافِ المخلوقينَ؛ فمهما عَظُم مُلْكُهم فإنَّه يَدخُلُ الشَّافعُ على المَلِكِ والسلطانِ، ويَشْفَعُ بدونِ إذنِه[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ أنَّ كلامَ اللهِ ليس ككَلامِ المخلوقينَ، بل هو أعظَمُ؛ لأنَّ السَّامِعَ له يُصعَقُ إلَّا أنْ يُثبِّتَه اللهُ تعالى[٣]، وذلك على تفسيرِ الآيةِ بأنَّ الملائكةَ إذا تكلَّم الله تعالى بالوَحْيِ صَعِقوا، فإذا صَعِقوا فُزِّع عن قلوبِهم.

١٣- قَولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ فيه حُجَّةٌ على إبطالِ الشِّركِ، خُصوصًا مَن تعلَّقَ على الصَّالحينَ، وبُرهانٌ عَظيمٌ على وُجوبِ التَّوحيدِ؛ فقد دَلَّ على كبرياءِ الرَّبِّ وعَظَمتِه الَّتي تتضاءلُ وتضمَحِلُّ عندَها عَظَمةُ المخلوقاتِ العظيمةِ، وتخضَعُ له الملائكةُ والعالَمُ العُلويُّ والسُّفليُّ، ولا تَثبُتُ أفئدتُهم عندَما يَسمَعونَ كَلامَه، أو تتبدَّى لهم بعضُ عَظَمتِه ومَجدِه؛ فالمخلوقاتُ بأَسْرِها خاضِعةٌ لجَلالِه، مُعترِفةٌ بعَظَمتِه ومَجدِه، خاضِعةٌ له، خائفةٌ منه؛ فمَن كان هذا شأنَه فهو الرَّبُّ الَّذي لا يَستَحِقُّ العبادةَ والحَمدَ والثَّناءَ والشُّكرَ والتَّعظيمَ والتَّألُّهَ إلَّا هو، ومَن سِواه ليس له مِن هذا الحَقِّ شَيءٌ[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ أنَّ للمَلائكةِ عُقولًا وفَهمًا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((القول السديد شرح كتاب التوحيد)) للسعدي (ص: ٦٨).

وإدراكًا وقُلوبًا، وأنَّهم يَتكلَّمون، وأنَّهم أجسامٌ، لا قُوًى مَعنويَّة كما قال الزَّائِغونَ[١].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والجَهميَّةِ فيما يَجحَدونَ مِن إثباتِ الكَلامِ للهِ، وما يُنكِرونَ مِن الصِّفاتِ[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾، وقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] التَّصريحُ بالعُلُوِّ المُطْلَقِ الدَّالِّ على جميعِ مراتبِ العُلُوِّ -ذاتًا وقَدْرًا وشَرَفًا-[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ [سبأ: ٧] الآيةَ، وما بيْنَهما مِن الأخبارِ المَسوقةِ للاعتبارِ واقعٌ مَوقِعَ الاستِطرادِ والاعتِراضِ؛ فيكونُ ضَميرُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ عائدًا إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِن قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ﴾ إلخ، على قولٍ في التَّفسيرِ. وقيل: إنَّ ضَميرَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ عائدٌ إلى سَبأٍ المُتحدَّثِ عنهم. ولكنْ قولُه تعالى بعْدَ ذلك: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٢٢] الآياتِ، هو عَودٌ إلى مُحاجَّةِ المشركينَ المُنتقَلِ منها بذِكرِ قصَّةِ داودَ وسُليمانَ وأهلِ سَبأٍ. وصُلوحيَّةُ الآيةِ للمَحمَلَينِ ناشئةٌ مِن مَوقعِها، وهذا مِن بلاغةِ القُرآنِ المُستفادَةِ مِن تَرتيبِ مَواقعِ الآيةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٧٣)، ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٦٨٩).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٢).

- وفي قولِه: ﴿صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ إيجازُ حَذْفٍ؛ لأنَّ صِدقَ الظَّنِّ المُفرَّعَ عنه اتِّباعُهم يَقْتضي أنَّه دَعاهم إلى شَيءٍ ظانًّا استِجابةَ دَعوتِه إيَّاهم[١].

- والتعبيرُ بحَرْف الاستعلاءِ (على) في قولِه: ﴿صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾: إيماءٌ إلى أنَّ عمَلَ إبليسَ كان مِن جِنسِ التَّغلُّبِ والاستعلاءِ عليهم[٢].

- وقولُه: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ تَفريعٌ وتَعقيبٌ على فِعلِ ﴿صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾، أي: تَحقَّقَ ظَنُّه حينَ انفَعَلوا لِفِعلِ وَسوستِه، فبادَروا إلى العملِ بما دَعاهم إليه مِن الإشراكِ والكُفرانِ[٣].

- وقلَّلَ المؤمنينَ بقولِه: ﴿إِلَّا فَرِيقٗا﴾؛ لأنَّهم قليلٌ بالإضافةِ إلى الكفَّارِ، والتَّعريفُ في المؤمنينَ للاستغراقِ. أو إلَّا فريقًا مِن فِرَقِ المؤمنينَ لم يتَّبِعوه، وهمُ المُخلَصون[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ ...﴾ فِعلُ ﴿كَانَ﴾ في النَّفي مع ﴿مِّن﴾ الَّتي تُفِيدُ الاستغراقَ في النَّفيِ؛ يُفِيدُ انتفاءَ السُّلطانِ، أي: الملكِ والتَّصريفِ للشَّيطانِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ ...﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٣).

اقتُصِرَ مِن عِلَلِ تَمكينِ الشَّيطانِ على تَمييزِ مَن يُؤمِنُ بالآخِرةِ ومَن لا يُؤمِنُ بها؛ لِمُراعاةِ أحوالِ الَّذين سِيقَت إليهم الموعظةُ بأهلِ سَبأٍ، وهم كفَّارُ قُريشٍ؛ لأنَّ جُحودَهم الآخرةَ قَرينٌ للشِّركِ، ومُساوٍ له؛ فإنَّهم لو آمَنوا بالآخرةِ لآمَنوا بربِّها، وهو الرَّبُّ الواحدُ الَّذي لا شَريكَ له، وإلَّا فإنَّ عِلَلَ جَعلِ الشَّيطانِ للوَسوسةِ كَثيرةٌ مَرجِعُها إلى تَمييزِ الكُفَّارِ مِن المؤمنينَ، والمُتَّقينَ مِن المُعرضينَ. وكُنِّيَ بـ(نَعلَم) عن إظهارِ التَّمييزِ بيْنَ الحالَينِ؛ لأنَّ الظُّهورَ يُلازِمُ العِلمَ في العُرفِ[1]. وقيل: ضُمِّنَتْ (نَعْلَم) معنى (نُمَيِّز)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ﴾ يعني: إلَّا لِنُمَيِّزَ مَن يؤمنُ بالآخرةِ ممَّن هو منها في شكٍّ[2].

- وخُولِفَ في النَّظمِ بيْنَ الصِّلتينِ؛ فجاءتْ جُملةُ ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فعليَّةً، وجاءتْ جُملةُ ﴿مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ﴾ اسميَّةً؛ لأنَّ الإيمانَ بالآخِرةِ طارئٌ على كُفرِهم السَّابقِ، ومُتجدِّدٌ ومُتزايدٌ آنًا فآنًا؛ فكان مُقْتضى الحالِ إيرادَ الفِعلِ في صِلَةِ أصحابِه، وأمَّا شَكُّهم في الآخِرةِ فبِخلافِ ذلك؛ هو أمْرٌ مُتأصِّلٌ فيهم، فاجتُلِبَت لأصحابِه الجُملةُ الاسميَّةُ[3].

- وجِيءَ في جُملةِ ﴿مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ﴾ بحَرفِ الظَّرفيَّةِ (في)؛ للدَّلالةِ على إحاطةِ الشَّكِّ بنُفوسِهم، ويَتعلَّق قولُه: ﴿مِنۡهَا﴾ بقولِه: ﴿شَكّٖ﴾[4].

- وجُملةُ ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ تَذييلٌ، وصِيغةُ (فَعيلٍ) تدُلُّ على قُوَّةِ الفِعلِ، وأفادَ عُمومُ ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾ أنَّه لا يَخرُجُ عن عِلمِه شَيءٌ مِن الكائناتِ؛ فتَنزَّلَ هذا التَّذييلُ مَنزلةَ الاحتِراسِ عن غيرِ المعنى الكِنائيِّ مِن قولِه: ﴿لِنَعۡلَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٨٥).

مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾، أي: لِيَظهَرَ ذلك لكلِّ أحدٍ، فتَقومَ الحُجَّةُ لهم وعليهم[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ افتُتِحَ الكلامُ بأمْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يقولَ لهم ما هو مُتتابِعٌ في بَقيَّةِ هذه الآياتِ المُتتابِعةِ بكَلمةِ ﴿ قُلِ ﴾؛ فأُمِرَ بالقَولِ تَجديدًا لِمَعنى التَّبليغِ الَّذي هو مُهِمَّةُ كلِّ القُرآنِ[٢].

- والأمْرُ في قولِه: ﴿ٱدْعُواْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّخطئةِ والتَّوبيخِ[٣].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: زَعَمْتُموهمْ أربابًا، فحُذِفَ مَفعولَا الزَّعمِ؛ أمَّا الأوَّلُ فحُذِفَ لأنَّه ضَميرٌ مُتَّصلٌ مَنصوبٌ بفِعلٍ؛ قصْدًا لِتَخفيفِ الصِّلةِ بمُتعلِّقاتِها، وأمَّا الثَّاني فحَذْفُه لِدَلالةِ صِفَتِه عليه، وهي ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٤].

وقيل: حُذِفَ مَفْعولَا (زعم)؛ تنبيهًا على استهجانِ ذلك واستبشاعِه[٥].

- وجُملةُ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ استِئنافٌ لِبَيانِ حالِهم، وهي مُبَيِّنةٌ لِمَا في جُملةِ ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ مِن التَّخطئةِ[٦].

- قولُه: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٦).

مِن شِرْكٍ ﴾ إعادةُ حرفِ النَّفي: تَأكيدٌ له؛ للاهتمامِ به، وقد نُفِيَ أنْ يكونَ لآلهتِهم مُلكٌ مُستقِلٌّ، وأُتبِعَ بنَفْيِ أنْ يكونَ لهم شِركٌ في شَيءٍ مِن السَّماءِ والأرضِ، أي: شِركٌ مع اللهِ، فلمْ يُذكَرْ مُتعلَّقُ الشِّركِ إيجازًا؛ لأنَّه مَحلُّ الوِفاقِ، ثمَّ نُفِيَ أنْ يكونَ منهم ظَهيرٌ، أي: مُعينٌ للهِ تعالى، وهنا تَعيَّنَ التَّصريحُ بالمُتعلَّقِ؛ رَدًّا على المشركينَ؛ إذ زَعَموا أنَّ آلهتَهم تُقرِّبُ إليه وتُبعِدُ عنه، ثمَّ أُتبِعَ ذلك بنَفْيِ أنْ يكونَ شَفيعٌ عندَ اللهِ يَضطَرُّه إلى قَبولِ الشَّفاعةِ فيمَن يَشفَعُ له؛ لِتَعظيمٍ أو حَياءٍ[(١)].

- وذِكْرُ السَّمواتِ والأرضِ للتَّعميمِ عُرفًا، أو لأنَّ آلهتَهم بَعضُها سَماويَّةٌ كالملائكةِ والكواكبِ، وبَعضُها أرضيَّةٌ كالأصنامِ، أو لأنَّ الاسبابَ القريبةَ للخيرِ سَماويَّةٌ وأرضيَّةٌ[(٢)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، وقال في سُورةِ (الإسراءِ): ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾[الإسراء: ٥٦]؛ فأظهَرَ اسمَ اللهِ تعالى هنا في قولِه: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، وأضْمَرَه في سُورةِ (الإسراءِ) في قولِه: ﴿ مِّن دُونِهِۦ ﴾؛ ووَجْهُه: أنَّه إنَّما اختيرَ الإضمارُ في سُورةِ (الإسراءِ)؛ لِقُوَّةِ الذِّكرِ قبْلُ؛ فقدْ تَكرَّرَ في عشَرةِ مَواضِعَ مُضمَرًا ومُظهَرًا؛ لقولِه: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾؛ فـ﴿ رَّبُّكُمْ ﴾ واحدٌ، وفي ﴿أَعْلَمُ ﴾ ضَميرُه، و﴿إِن يَشَأْ ﴾ فيه ضَميرُه، وفي قولِه: ﴿يَرْحَمْكُمْ ﴾ ضَميرُه، وقولُه: ﴿أَوْ إِن يَشَأْ ﴾ فيه ضَميرٌ فاعلٌ، وقولُه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ النُّونُ والألِفُ فيه ذِكرٌ له تعالى، و﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ ﴾ اسمانِ، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٦، ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣١).

ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قولُه: (نا) اسمُه، وكذلك ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾؛ فكان الإضمارُ تِلوَ الإضماراتِ أَولى بهذا المكانِ؛ فلذلك جاءَ ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾. وأمَّا في سُورةِ (سَبأٍ)؛ فإنَّ الَّذي تَقدَّمَه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾، فالذِّكرُ تَقدَّمَ في ثلاثةِ مَواضعَ، وهناك في أكثَرِ مِن عَشَرةِ مَواضعَ، فحَسُنَ الإظهارُ هنا، وقَوِيَ الإضمارُ هناك؛ فلذلك اختَلَفا[1].

ووجهٌ آخَرُ: أنَّه لَمَّا قرُبَ مرجِعُه هنا في سُورةِ (الإسراءِ)، وهو الرَّبُّ في قولِه المُتقدِّمِ ذِكْرُه في الآيةِ الأُولى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ﴾؛ عُبِّرَ عنه مُضمَرًا مُناسَبةً، ولم يكُنْ ليُناسِبَ الظَّاهِرُ هنا، ولَمَّا بَعُدَ مرجِعُ الضَّميرِ في سُورةِ (سبَأٍ) لو أُتِيَ به، أُتِيَ بالاسمِ الظَّاهرِ؛ فآيةُ (سبَأٍ) تقدَّمَ قبْلَها قولُه تَعالى مُخبِرًا عن الكافرينَ: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾ [سبأ: ٢٠]، ثمَّ قال بعدَ آيةٍ مِن تَمامِ الآيةِ الَّتي قبْلَها: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٢٢]؛ فجِيءَ بالاسمِ الظَّاهِرِ؛ ليَكونَ أبعَدَ على إيهامِ عَودةِ الضَّميرِ ورُجوعِه إلى المُتَّبعِ لهم في الآيةِ المُتقدِّمةِ، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ جاء نَظْمُ هذه الآيةِ بَديعًا مِن وَفرةِ المعنى؛ فإنَّ النَّفعَ يَجيءُ بمعنى حُصولِ المَقصودِ مِن العمَلِ ونَجاحِه، ويَجيءُ بمعنى المُساعِدِ المُلائمِ؛ فالنَّفعُ بالمعنى الأوَّلِ في الآيةِ يُفيدُ القَبولَ مِن الشَّافعِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٧٧-١٠٧٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣١٢، ٣١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٨).

لِشَفاعتِه، وبالمعنى الثَّاني يُفِيدُ انتفاعَ المَشفوعِ له بالشَّفاعةِ، أي: حُصولَ النَّفعِ له بانقشاعِ ضُرِّ المُؤاخَذةِ بذَنْبٍ. فلمَّا عُبِّرَ في هذه الآيةِ بلَفظِ (الشَّفاعةِ) الصَّالحِ لِأنْ يُعتبَرَ مُضافًا إلى الفاعلِ أو إلى المفعولِ، احتمَلَ النَّفعُ أنْ يكونَ نفْعَ الفاعلِ، أي: قَبولَ شَفاعتِه، ونفْعَ المفعولِ، أي: قَبولَ شَفاعةِ مَن شفَعَ فيه، وتَعديةُ فِعلِ الشَّفاعةِ باللَّامِ دونَ (في)، ودونَ تَعديتِه بنفْسِه؛ زاد صُلوحيَّتَه للمَعْنيَينِ؛ لأنَّ الشَّفاعةَ تَقْتضي شافعًا ومَشفوعًا فيه، فكان بذلك أوفَرَ معنًى[(١)].

- وفي قولِه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ...﴾ صُرِّحَ بالمُتعلَّقِ هنا أيضًا؛ ردًّا على قَولِ المشركينَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]؛ فنُفِيَت شَفاعتُهم في عُمومِ نَفْيِ كلِّ شَفاعةٍ نافعةٍ عندَ اللهِ إلَّا شفاعةَ مَن أذِنَ اللهُ أنْ يَشفَعَ. وفي هذا إبطالُ شَفاعةِ أصنامِهم؛ لأنَّهم زَعَموا لهمْ شفاعةً لازِمةً مِن صِفاتِ آلهتِهم، فلمَّا نَفى اللهُ كلَّ شَفاعةٍ لم يَأذَنْ فيها للشَّافعِ، انتَفَت الشَّفاعةُ المَزعومةُ لأصنامِهم[(٢)]. وإنَّما عُلِّقَ النَّفيُ بنَفعِها لا بوُقوعِها؛ تَصريحًا بنَفْيِ ما هو غرَضُهم مِن وُقوعِها[(٣)].

- قولُه: ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ احتمَلَتِ اللَّامُ أنْ تكونَ داخلةً على الشَّافعِ، وأنَّ (مَن) المَجرورةَ باللَّامِ صادقةٌ على الشَّافعِ، أي: لا تُقبَلُ شَفاعةٌ إلَّا شفاعةٌ كائنةٌ لِمَن أذِنَ اللهُ له، أي: أذِنَ له بأنْ يَشفَعَ؛ فاللَّامُ للمِلكِ، كقولِك: الكرَمُ لِزَيدٍ، أي: هو كريمٌ؛ فيكون في معنى قولِه: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٖ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]. وأنْ تكونَ اللَّامُ داخلةً على المَشفوعِ فيه، و(مَن) صادِقةً على مَشفوعٍ فيه، أي: إلَّا شَفاعةٌ لِمَشفوعٍ أذِنَ اللهُ الشَّافعينَ أنْ يَشفَعوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣١).

له، أي: لأجْلِه؛ فاللَّامُ للعِلَّةِ، كقولِك: قمْتُ لِزَيدٍ، فهو كقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وإنَّما جِيءَ بنَظْمِ هذه الآيةِ على غَيرِ ما نُظِمَت عليه غيرُها؛ لأنَّ المقصودَ هنا إبطالُ رَجائِهم أنْ تَشفَعَ لهم آلِهَتُهم عندَ اللهِ، فيَنتفِعوا بشَفاعتِها؛ لأنَّ أوَّلَ الآيةِ تَوبيخٌ وتَعجيزٌ لهم في دَعوتِهم الآلهةَ المَزعومةَ، فاقتضَتْ إبطالَ الدَّعوةِ والمَدْعُوِّ(١).

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ...﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غايةٌ لِمَا أفهَمَه قولُه: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ مِن أنَّ هنالك إذنًا يَصدُرُ لناسٍ مِن الأخيارِ بأنْ يَشفَعوا، كما جاء تَفصيلُ بعضِ هذه الشَّفاعةِ في الأحاديثِ الصَّحيحةِ، وأنَّ الذين يَرجُون أنْ يُشفَّعَ فيهم يَنتظِرونَ ممَّن هو أهلٌ لِأنْ يَشفَعَ، وهمْ في فَزَعٍ مِن الإشفاقِ ألَّا يُؤذَنَ بالشَّفاعةِ فيهم، فإذا أذِنَ اللهُ لِمَن شاءَ أنْ يَشفَعَ، زال الفزَعُ عن قُلوبِهم واستَبْشَروا؛ إذ إنَّه فُزِّعَ عن قُلوبِ الَّذين قُبِلَت الشَّفاعةُ فيهم، أي: وأيِسَ المَحرُومون مِن قَبولِ الشَّفاعةِ فيهم -على قولٍ في التَّفسيرِ-. وهذا مِن الحذْفِ المُسمَّى بالاكتِفاءِ؛ اكتفاءً بذِكرِ الشَّيءِ عن ذِكرِ نَظيرِه أو ضِدِّه، وحسَّنَه هنا: أنَّه اقتصارٌ على ما يَسُرُّ المؤمنينَ الَّذين لم يَتَّخِذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ(٢).

- وقد طُوِيَت جُمَلٌ مِن وَراءِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾، والتَّقديرُ: إلَّا لِمَن أذِنَ له، ويومَئذٍ يَبْقَى النَّاسُ مُرتقبينَ الإذْنَ لِمَن يَشفَعُ، فَزِعينَ مِن ألَّا يُؤذَنَ لأحدٍ زمنًا يَنْتهي بوَقتِ زَوالِ الفزَعِ عن قُلوبِهم حينَ يُؤذَنُ للشَّافعينَ بأنْ يَشْفَعوا -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهو إيجازُ حَذْفٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٨، ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي =

- وبُنِيَ ﴿فُزِّعَ﴾ للمَجهولِ؛ لِتَعظيمِ ذلك التَّفزيعِ بأنَّه صادرٌ مِن جانبٍ عظيمٍ؛ ففيه جانبُ الآذِنِ فيه، وجانبُ المبلِّغِ له، وهو الملَكُ[١].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ تَتِمَّةُ جَوابِ المُجيبينَ، عَطَفوا تَعظيمَ اللهِ بذِكرِ صِفتَينِ مِن صِفاتِ جَلالِه؛ وهما: صِفةُ العَلِيِّ، وصِفةُ الكبيرِ. وتَخصيصُ هاتَينِ الصِّفتَينِ؛ لِمُناسَبةِ مَقامِ الجوابِ، أي: قد قَضى بالحقِّ لكلِّ أحدٍ بما يَستحِقُّه؛ فإنَّه لا يَخْفى عليه حالُ أحدٍ، ولا يَعُوقُه عن إيصالِه إلى حَقِّه عائقٌ، ولا يَجوزُ دونَه حائلٌ[٢].

- وفي قولِهم: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ اعترافٌ بغايةِ عَظَمةِ جَنابِ العِزَّةِ عزَّ وجلَّ، وقُصورِ شأْنِ كلِّ مَن سِواهُ، أي: هو المُنفرِدُ بالعُلوِّ والكِبرياءِ، ليس لأحدٍ مِن أشرافِ الخلائقِ أنْ يَتكلَّمَ إلَّا بإذْنِه[٣].

= السعود)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٨، ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٩٠، ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٢).

الآيات (٢٤-٢٠)

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ أَجْرَمْنَا ﴾: أي: اكتَسَبْنا، والجُرْمُ: الذَّنبُ العظيمُ، وأصلُ (جرم): يدُلُّ على قَطعٍ؛ لأنَّ الذَّنْبَ كَسْبٌ، والكَسبَ اقتِطاعٌ(١).

﴿ يَفْتَحُ ﴾: أي: يَحكُمُ ويَقضي، ويُسمَّى الحاكِمُ فتَّاحًا، والفَتْحُ: إزالةُ الإغلاقِ والإشكالِ، وأصلُ (فتح): يدُلُّ على خِلافِ الإغلاقِ(٢).

﴿ كَآفَّةً ﴾: أي: عامَّةً، وهو اسْمٌ للجملةِ، مِن الكَفِّ، كأنَّهم كفُّوا باجتماعِهم عن أن يخرُجَ مِنْهُم أحدٌ، ومعنى كافَّةً: الإحاطةُ، ويُقالُ للجماعةِ: الكافَّةُ، وقيل: أي: تَكُفُّهم وتَردَعُهم، وقيل: أي: كافًّا لهم عن المعاصي، والهاءُ فيه للمُبالَغةِ، وأصلُ الكَفِّ: المنعُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٤٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن يَرزُقُكم مِنَ السَّمَواتِ والأرضِ؟ قُلِ: اللهُ وَحْدَه، فلِمَ تَعبُدونَ معه مَنْ لا يَرزُقُكم شَيئًا؟! وإنَّ أحَدَ الفَريقينِ مِنَّا مُهتَدٍ، والآخَرَ في ضلالٍ مُبينٍ.

قُلْ لهم -يا محمَّدُ: لا تُسأَلونَ عن ذُنوبِنا، ولا نُسأَلُ عن أعمالِكم. قُلْ: يَجمَعُ بيْنَنا ربُّنا ثمَّ يَقضي بيْنَنا وبيْنَكم بالعَدلِ، واللهُ هو الحاكِمُ بيْنَ عبادِه، العليمُ بأعمالِهم وأحوالِهم.

قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ: أرُونيَ الَّذين صَيَّرتُموهم شُرَكاءَ لله، كلَّا! فليس الأمرُ كما زعَمتُم، بل هو اللهُ المستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له، العزيزُ الغالِبُ القاهِرُ، الحكيمُ في شَرعِه وأفعالِه وأقوالِه.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى وظيفةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: ولقد أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ أجمعينَ مُبَشِّرًا مَن أطاعك، ومُنذِرًا مَن عصاك، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ.

ويَعرِضُ شُبهةً مِن شُبهاتِ المشركينَ، ويرُدُّ عليها، فيقولُ: ويقولُ المُشرِكونَ: متى يجيءُ هذا الوَعدُ إنْ كُنتُم صادِقينَ؟ قُلْ لهم -يا محمَّدُ: لكم ميعادُ يومٍ يَجيئُكم في وقتِه، فإذا جاء لا يُؤخَّرُ ساعةً ولا يُقدَّمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ

= (١/ ٢٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٦٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٣)، ((تحفة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٥).

فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه انتِقالٌ مِن دَمْغِ المشركينَ بضَعفِ آلهتِهم، وانتفاءِ جَدواها عليهم في الدُّنيا والآخرةِ، إلى إلْزامِهم بُطلانَ عِبادتِها بأنَّها لا تَستحِقُّ العِبادةَ؛ لأنَّ مُستحِقَّ العِبادةِ هو الَّذي يَرزُقُ عِبادَه؛ فإنَّ العِبادةَ شُكرٌ، ولا يَستحِقُّ الشُّكرَ إلَّا المُنعِمُ[١].

وأيضًا لَمَّا سلَبَ الله تعالى عن شركائِهم أنْ يَملِكوا شيئًا مِن الأكوانِ، وأثبَت جميعَ الملكِ له وحْدَه؛ أمَره صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يُقرِّرَهم بما يَلزَمُ منه ذلك، فقال[٢]:

﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن يَرزُقُكم مِنَ السَّمَواتِ بإنزالِه المطَرَ، وتسخيرِه الشَّمسَ والقَمَرَ والنُّجومَ وغيرَها؛ لِمَنافِعِكم، ويَرزُقُكم مِنَ الأرضِ بإخراجِه منها أنواعَ النَّباتِ والثِّمارِ، والمياهِ والمعادِنِ، وغَيرِها ممَّا فيه مَصالِحُكم[٣]؟

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾.

أي: قُلِ: اللهُ وحْدَه مَن يَرزُقُكم مِنَ السَّمواتِ والأرضِ، فهو إذَنْ مَن يجبُ أن يُعبَدَ وحْدَه؛ فلِمَ تَعبُدونَ معه مَن لا يَرزُقُكم شَيئًا[٤]؟!

﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٧، ٤٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٨).

أي: ما نحن وأنتم على أمرٍ واحدٍ؛ فأحدُ الفريقَينِ مِنَّا مُهتَدٍ، والآخَرُ ضالٌّ ضلالًا مُبينًا[١].

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: لا تُسأَلونَ عن ذُنوبِنا[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: ولا نُسأَلُ نحن عن أعمالِكم[٣].

ثمَّ حذَّرهم وأنذَرهم عاقبةَ أمرِهم؛ إذْ أمَر رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لهم[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٣، ٢٨٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٨، ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٩).

قال الخازنُ: (هذا ليس على طريقِ الشَّكِّ، بل على جهةِ الإلزامِ والإنصافِ في الحِجاجِ، كما يقولُ القائلُ: أحَدُنا كاذِبٌ، وهو يعلَمُ أنَّه صادقٌ، وصاحِبَه كاذِبٌ؛ فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَن اتَّبَعه: على الهُدى، ومَن خالفَه: في ضلالٍ، فكذَّبهم مِن غيرِ أن يُصَرِّحَ بالتَّكذيبِ). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٤٨).

وقال البِقاعي: (﴿مُّبِينٍ﴾ أي: واضح في نفْسِه، داعٍ لكلِّ أحدٍ إلى معرفةِ أنَّه ضلالٌ، إلَّا مَن كان مُنغمِسًا فيه، مظروفًا له؛ فإنَّه لا يُحِسُّ بنفْسِه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ٨١).

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها أكَّدَتْ ما يُوجِبُ النَّظرَ والتَّفكُّرَ؛ فإنَّ مجرَّدَ الخطأِ والضَّلالِ واجبُ الاجتِنابِ، فكيف إذا كان يومَ عَرْضٍ وحسابٍ، وثوابٍ وعذابٍ[1]؟!

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: يَجمَعُ بيْنَنا ربُّنا ثمَّ يَقضي بيْنَنا وبيْنَكم بالعَدلِ، فيَتبيَّنُ المُهتدي مِنَّا والضَّالُّ، ويُثيبُ اللهُ المُستَحِقَّ للثَّوابِ، ويُعاقِبُ المُستَحِقَّ للعِقابِ[2].

﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو الحاكِمُ بيْنَ عبادِه بالعَدلِ والحَقِّ، العليمُ بأعمالِهم وأحوالِهم؛ فلا تخفَى عليه منهم خافيةٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٩).

قيل: يجمَعُ اللهُ ويفتحُ بيْنَهم يومَ القيامةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧).

وقال ابنُ عثيمين: (ويحتمِلُ أنَّ الجَمعَ أعمُّ مِن ذلك... فيُمكِنُ أن يُرادَ بقَولِه تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: في الدُّنيا في القتالِ، وفي الآخرةِ للفَصلِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٤).

﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّاۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المُشرِكون قد أنكروا البَعثَ، ودَلَّ على قُدرتِه تعالى عليه بما نَصَب مِنَ الأدِلَّةِ الَّتي شاهَدوها مِن أفعالِه بالبَصَرِ أو البصيرةِ، إيجادًا وإعدامًا، وأقام الحُجَّةَ على صِحَّةِ الدَّعوةِ، وبُطلانِ ما هم عليه، ثمَّ تهدَّدَهم بالفَصلِ يومَ الجَمعِ، وختَمَ بصِفةِ العِلمِ المحيطِ المُستلزِمِ للقُدرةِ الشَّامِلةِ، وكانت القُدرةُ لا تكونُ شامِلةً إلَّا عندَ الوحدانيَّةِ- أمَرَه بما يوجِبُ لهم القطعَ بوحدانيَّتِه، وشُمولِ قُدرتِه[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه لا يُعبَدُ غَيرُه لِدَفعِ الضَّررِ؛ إذ لا دافعَ للضَّررِ غَيرُه، بقَولِه: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ... ﴾ [سبأ: ٢٢]، وبيَّن أنَّه لا يُعبَدُ غَيرُ الله لتوقُّعِ المنفعةِ، بقَولِه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٢٤]- بيَّن هاهنا أنَّه لا يُعبَدُ أحَدٌ لاستِحقاقِه العِبادةَ غيرُ اللهِ، فقال[2]:

﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: أرونيَ الَّذين صيَّرتُموهم لله شُرَكاءَ في العبادةِ بزَعمِكم[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

قال ابن جُزَي: (﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾... الرُّؤيةُ هنا رؤيةُ قَلبٍ، فشُركاء: مفعولٌ ثالثٌ، والمعنى: أروني بالدَّليلِ والحُجَّةِ مَن هم له شُركاءُ عندَكم، وكيف وَجْهُ الشَّرِكةِ؟ وقيل: هي رؤيةُ بصَرٍ، وشركاء: حالٌ مِن المفعولِ في ألحقتم، كأنَّه قال: أين الَّذين تعبدونَ مِن دونِه؟). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٦). =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

﴿كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: ارتَدِعوا وانزَجِروا؛ فليس الأمرُ كما زَعمتُم مِن أنَّ لله شُرَكاءَ، بل هو المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له، العزيزُ في انتِقامِه ممَّن أشرك به، الغالِبُ القاهِرُ لكُلِّ شَيءٍ، الممتنعُ عليه كلُّ عيبٍ ونقصٍ، وهو الحَكيمُ في شَرعِه وأفعالِه وأقوالِه وتدبيرِ خَلقِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، فكيف يكونُ له شريكٌ مَن هو متَّصِفٌ بهاتينِ الصِّفَتينِ المنافيَتَينِ لذلك[1]؟!

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

= وممَّن اختار أنَّ الرُّؤيةَ قلبيَّةٌ أيضًا: ابنُ عطية، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٤).

وممَّن اختار أنَّ الرُّؤيةَ بصريَّةٌ: الشنقيطيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٦).

قال الشنقيطي: (وقولُه: ﴿أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾؛ لِأنَّهم إنْ أرَوْه إيَّاها تَبَيَّن برؤيتِها أنَّها جمادٌ لا يَنفعُ ولا يَضُرُّ، واتَّضَح بُعْدُها عن صِفاتِ الألوهيَّةِ، فظَهَر لكلِّ عاقلٍ برؤيتِها بطلانُ عبادةِ ما لا ينفعُ ولا يضُرُّ، فإحضارُها والكلامُ فيها وهي مشاهَدةٌ أبلَغُ مِن الكلامِ فيها غائبةً، معَ أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم يَعرِفُها... والأظهرُ في قولِه: ﴿أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ﴾ في هذه الآيةِ: هو ما ذكَرْنا مِن أنَّ الرُّؤيةَ بصريَّةٌ؛ وعليه فقولُه: ﴿شُرَكَآءَ﴾ حالٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧، ٥١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٨، ١٨٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى مسألةَ التَّوحيدِ؛ شرَعَ في الرِّسالةِ، فقال[١]:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨ ﴾.

أي: أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ أجمَعينَ[٢] مِنَ العَرَبِ وغَيرِهم، مُبَشِّرًا مَن أطاعك، ومُنذِرًا مَن عصاك وخالَفَك، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٢) ممَّن ذهب إلى أنَّ ﴿ كَآفَّةٗ ﴾ بمعنى: عامَّةً للنَّاسِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٧٠٢).

وقيل: معنى ﴿ كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾: تَكُفُّهم عمَّا هم عليه مِن الكفرِ، والهاءُ فيه للمُبالَغةِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٩).

قال البِقاعي: (﴿إِلَّا كَآفَّةٗ ﴾ أي: إرسالًا عامًّا شامِلًا لكُلِّ ما شَمِله إيجادُنا، تَكُفُّهم عمَّا لعلَّهم أن ينتَشِروا إليه مِن متابعةِ [الأهواءِ]، وتمنَعُهم عن أن يخرُجَ عنها منهم أحدٌ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٠٤).

وقيل: معناه: أنَّك رسولُ الله إلى جميعِ النَّاسِ وتضمُّهم ، ومنه كَفُّ الثَّوبِ؛ لأنَّه ضمُّ طرَفيه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

قيل: المرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾: نفْيُ عِلمِهم بأنَّ محمَّدًا مرسَلٌ إلى جميعِ النَّاسِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٢٧).

وقيل: المرادُ: نفْيُ عِلمِهم بأنَّه نبيٌّ. وممَّن قال بهذا: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٣).

قال ابن عثيمين عن هذا القولِ: (... فيه نظَرٌ؛ لأنَّ الرِّسالةَ بلغَتْ أكثَرَ النَّاسِ، وستَبلُغُ النَّاسَ جميعًا حتَّى تقومَ عليهم الحُجَّةُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٤). =

كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۞ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۞ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٢ - ٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِي اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُعطِيتُ خَمسًا لم يُعطَهُنَّ أحدٌ قَبْلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ[(١)]، وجُعِلَت لي الأرضُ مَسجِدًا وطَهورًا، فأيُّما رجُلٍ مِن أمَّتي أدركَتْه الصَّلاةُ فلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت ليَ المغانِمُ ولم تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلي، وأُعطيتُ الشَّفاعةَ، وكان النَّبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً))[(٢)].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن أعظَمِ ما أنكَرُوه ممَّا جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القِيامةُ

= وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَين -الأول والثاني- : البِقاعي، فقال: (أي ليس لهم قابليَّةُ العِلمِ فيَعلموا أنَّك رسولُ الله، فضلًا عن أنَّ إرسالَك عامٌّ، بل هم كالأنعام). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٠٦).

وقيل: المرادُ: نفْيُ عِلمِهم بحكمةِ إرسالِ الرَّسولِ، الَّتي هي التَّبشيرُ والإنذارُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٤).

(١) نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ: أي: نصَرني ربِّي على أعدائي بخَوفِهم مِنِّي في قَدرِ مَسيرةِ شَهرٍ بيْني وبيْنَهم مِن قُدَّامٍ أو وراءٍ، فإذا كان بيْنَه وبيْنَهم مسيرةُ شَهرٍ هابوا وفَزِعوا منه صلَّى الله عليه وسلَّمَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٧٤).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١).

والبعثُ؛ عَقَّبَ إبطالَ قَولِهم في إنكارِ الرِّسالةِ بإبطالِ قَولِهم في إنكارِ البعثِ[١].

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

أي: ويَقولُ المُشرِكونَ مِن جَهلِهم: متى يجيءُ هذا الوَعدُ إنْ كنتم صادِقينَ في دَعواكم[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: ١٨].

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المُشرِكينَ لَمَّا طَلَبوا الاستِعجالَ، بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه لا استِعجالَ فيه كما لا إمهالَ، وهذا يُفيدُ عِظَمَ الأمرِ، وخَطَرَ الخَطْبِ؛ وذلك لأنَّ الأمرَ الحَقيرَ إذا طلبَه طالِبٌ مِن غَيرِه، لا يؤخِّرُه ولا يُوقِفُه على وَقتٍ، بخِلافِ الأمرِ الخَطيرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

قال الألوسي: (قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بطريقِ الاستِهزاءِ، يَعْنونَ المُبشَّرَ به، والمُنذَرَ عنه، أو المَوعودَ بقولِه تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣١٨).

وقيل: المرادُ بالوعدِ: العذابُ. وممَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٦).

وقال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ويقولُ هؤلاء المشركونَ باللهِ إذا سمِعوا وعيدَ الله الكفَّارَ، وما هو فاعلٌ بهم في مَعادِهم ممَّا أنزَل الله في كتابِه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ جائيًا، وفي أيِّ وقتٍ هو كائنٌ؟). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٧).

وأيضًا لَمَّا تبيَّنَ مِن سُؤالِ المُشرِكينَ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أنَّه لم يكُنْ للاسترشادِ، وأنَّهم بالَغوا به في التَّكذيبِ والاستِهزاءِ بعدَ الإبلاغِ في إقامةِ الأدِلَّةِ- أمَرَه بأن يُجيبَهم بما يَصلُحُ للمُعانِدِ مِن صادعِ التَّهديدِ[1].

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: لكم ميعادُ يَومٍ[2] يَجيئُكم في وَقتِه المحدَّدِ بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ، فإذا جاء لا يُؤخَّرُ ساعةً ولا يُقدَّمُ[3].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هذا إرشادٌ مِن الله لِرَسولِه إلى المناظَراتِ الجاريةِ في العُلومِ وغَيرِها؛ وذلك لأنَّ أحدَ المتناظِرَينِ إذا قال للآخَرِ: (هذا الَّذي تقولُه خطأٌ، وأنت فيه مخطئٌ) يُغضِبُه، وعندَ الغَضَبِ لا يبقَى سَدادُ الفِكرِ، وعندَ اختلالِه لا مَطمَعَ في الفَهمِ، فيَفوتُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٧).

(٢) ممَّن اختار أنَّ المرادَ: يومُ القيامةِ والبعثُ: الواحديُّ، والبغوي، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٦٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٦).

وقيل: وقتُ حضورِ الموتِ، أي: لكم قبْلَ يومِ القيامةِ وقتٌ مُعَيَّنٌ تَموتون فيه، فتَعلَمون حقيقةَ قَوْلي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠١).

قال السَّمْعانيُّ: (وقولُه: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ قد فُسِّر هذا بيومِ البَعثِ، وقد فُسِّر بيومِ المَوتِ، وكِلاهما صحيحٌ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٤).

وقال ابنُ عثيمين: (فيه احتِمالٌ آخَرُ: أنَّه يومُ القيامةِ، ويومُ مَوتِهم أيضًا؛ فإنَّ يومَ مَوتِهم يُشاهِدونَ العذابَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

الغَرَضُ؛ وأمَّا إذا قال له: إنَّ أحَدَنا لا يُشَكُّ في أنَّه مخطئٌ، والتَّمادي في الباطلِ قَبيحٌ، والرُّجوعُ إلى الحَقِّ أحسَنُ الأخلاقِ، فنَجتهِدُ ونُبصِرُ أيُّنا على الخطأِ لِيَحترِزَ؛ فإنَّه يجتهِدُ ذلك الخَصمُ في النَّظرِ، ويَترُكُ التَّعصُّبَ، وذلك لا يوجِبُ نقصًا في المنزلةِ؛ لأنَّه أوهَمَ بأنَّه في قَولِه شاكٌّ، ويدُلُّ عليه قَولُ الله تعالى لِنَبيِّه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾، مع أنَّه لا يَشُكُّ في أنَّه هو الهادي، وهو المُهتدي، وهم الضَّالُّونَ والمُضِلُّونَ[1]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ هذه الجملةُ تضمَّنَت الإنصافَ واللُّطفَ في الدَّعوةِ إلى اللهِ[2]، والتَّلطُّفَ مع الخَصمِ، والتَّنزُّلَ معه؛ للوُصولِ إلى الإقرارِ بالحقِّ[3]؛ فأوَّلًا: وصَفْنا عمَلَنا بأنَّه إجرامٌ. وثانيًا: وصَفْناه بالفعلِ الماضي الدَّالِّ على الوُقوعِ: ﴿عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾. وفي الخَصمِ قُلْنا أوَّلًا: ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ وليس (عمَّا تُجرِمون)! وكلُّ هذا مِن بابِ التَّلطُّفِ، واللهُ يَعلَمُ مَنِ المجرمُ مِن غيرِه، لكنْ لأجْلِ أنْ نُقيمَ الحُجَّةَ على هؤلاء بأنَّنا عامَلْناهم بأكمَلِ العدلِ والإنصافِ، بل بما ظاهِرُه الغَضاضةُ علينا. وثانيًا: أنَّه قال تعالى: ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ولم يَقُلْ: عمَّا عَمِلتُم، ومعلومٌ أنَّ الماضيَ مُحَقَّقُ الوُقوعِ، والمضارعَ قد يقعُ وقد لا يقعُ، فـ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ يعني: ما عَمِلْتم[4].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تُسۡـَٔلُونَ﴾ إثباتُ السُّؤالِ عن العملِ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿لَّا تُسۡـَٔلُونَ﴾ أفاد أنَّ كلَّ إنسانٍ مَسؤولٌ عن عملِه، ولو كان السُّؤالُ منتفيًا مطلقًا ما صحَّ أنْ يُقالَ: ﴿لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾! وقد قال اللهُ تبارك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٨).

وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وقال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وما دامَ الإنسانُ يُؤْمِنُ بذلك -بأنَّه سيُسألُ عن عملِه- فسوف يَحْرِصُ غايةَ الحرصِ على أنْ يكونَ عمَلُه موافقًا لشرعِ اللهِ تعالى(١).

٤- مِن آدابِ المناظَرةِ سلوكُ التَّحدِّي فيما يُعلَمُ امتناعُه مِن الخَصمِ؛ لأنَّك إذا تَحدَّيتَه في أمرٍ لا يمكنُه، وظهَرَ عجْزُه، تَبَيَّنَ بُطلانُ دَعْواه، بخِلافِ ما إذا تَحدَّيتَه بأمرٍ يمكِنُه أنْ يفعَلَه، يقولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ يعني: أعْلِموني ماذا خَلَقوا؟ ماذا نَفَعوا؟ الجوابُ: لم يَخلقوا شيئًا، ولم ينفعوا شيئًا، ولم يَدفعوا ضررًا(٢).

٥- في قولِه: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ...﴾ قاعدةٌ شَريفةٌ وأدَبٌ جَميلٌ في آدابِ المُجادَلةِ، وقَمْعِ شُبهةِ الخَصمِ الألَدِّ الأبيِّ؛ فإنَّه يَنْبغي أنْ يُرْخَى عِنانُ الكلامِ معه أوَّلًا، ويُجارَى معه على سَنَنٍ يَبعَثُه على التَّفكُّرِ والنَّظرِ في أحوالِ نفْسِه؛ لِيَعثُرَ حيثُ يُرادُ تَبكيتُه عندَ إيرادِ الحُجَّةِ البالغةِ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ أنَّه ينبغي أنْ يُستدَلَّ بالأوضحِ والأبْيَنِ في بابِ المناظرةِ؛ فإنَّ الرِّزقَ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ أمرٌ معلومٌ، لا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يقولَ عن نفْسِه: إنَّه يُنزِلُ المطرَ، أو إنَّه يُنبِتُ النَّباتَ! وهذه طريقةُ القرآنِ(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ هذا احتِجاجٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٩).
(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨١).

بالدَّليلِ النَّظَريِّ؛ لأنَّ الاعترافَ بأنَّ اللهَ هو الرَّزَّاقُ يَستلزِمُ انفرادَه بإلَهيَّتِه؛ إذ لا يَجوزُ أنْ يَنفردَ ببَعضِ صِفاتِ الإلهيَّةِ ويُشارَكَ في بَعضٍ آخَرَ؛ فإنَّ الإلهيَّةَ حَقيقةٌ لا تَقبَلُ التَّجزئةَ والتَّبعيضَ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ جوازُ مُحاجَّةِ الخَصمِ بما يُعرَفُ عندَ علماءِ المناظرةِ والجَدَلِ بالسَّبْرِ والتَّقسيمِ[٢]، فإذا تَتبَّعْنا الحالَ وجَدْنا أنَّ حالَ كلٍّ مِنَّا لا تخرُجُ عن حالَينِ: إمَّا هدًى؛ وإمَّا ضلالٌ، وهي إمَّا لنا؛ وإمَّا لكم، وليس هناك شَيءٌ ثالثٌ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أنَّه لا يُوجَدُ مَنزِلةٌ بين مَنزِلتَينِ، كما تذهبُ إليه المُعتَزِلةُ في فاعلِ الكبيرةِ: أنَّه خَرَجَ مِن الإيمانِ، ولم يَدْخُلْ في الكُفرِ[٤]!

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وَصَفَ الضَّلالَ بالمُبينِ، ولم يَصِفِ الهُدى؛ لأنَّ الهدى هو الصِّراطُ المُستقيمُ المُوصِلُ إلى الحَقِّ، والضَّلالُ خِلافُه، لكِنَّ المستقيمَ واحِدٌ، وما هو غيرُه كُلُّه ضَلالٌ، وبَعضُه بيِّنٌ مِن بَعضٍ؛ فميَّزَ البَعضَ عن البَعضِ بالوَصفِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٢).

(٢) السَّبْرُ والتَّقسيمُ: هو حصْرُ الأوصافِ في الأصلِ المَقيسِ عليه، وإبطالُ بعضِها ممَّا لا يَصلُحُ للتَّعليلِ، فيَتعيَّنُ الباقي للعِلِّيَّةِ. والتَّقسيمُ يكونُ قبْلَ السَّبرِ؛ لأنَّه تَعدادُ الأوصافِ الَّتي يُتَوهَّمُ صَلاحيتُها للتَّعليلِ ثمَّ يَسْبُرُها، أي: يَختبِرُها ليميزَ الصَّالحَ للتَّعليلِ مِن غيرِه. يُنظر: ((الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب)) للبابرتي (٢/ ٥٣٠)، ((التحبير شرح التحرير)) للمرداوي (٧/ ٣٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٥).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ هذا اللَّونُ من الكلامِ يُسمَّى الكلامَ المنصِفَ الَّذي كلُّ مَن سمِعَه مِن مُوالٍ أو مُنافٍ قال لِمَن خُوطِبَ به: قد أنصَفَك صاحِبُك! وهو: ألَّا يَترُكَ المجادِلُ لخَصمِه مُوجِبَ تغيُّظٍ واحتِدادٍ في الجِدالِ؛ لجَرَيانِه على سَنَنِ الإنصافِ المُسكِتِ للخَصمِ الألَدِّ، ويُسمَّى في علمِ المناظَرَةِ: إرخاءَ العِنانِ للمُناظِرِ، ومع ذلك فقرينةُ إلزامِهم الحُجَّةَ قرينةٌ واضحةٌ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا﴾ تهديدُ المُناظَرِ بالجزاءِ المجزومِ به؛ لأنَّ هذا يتضمَّنُ التَّهديدَ؛ لأنَّنا نعلمُ أنَّ اللهَ إذا فَتَحَ بيْنَهم فسيَكونُ الحقُّ مع المسلِمينَ، وبهذا عرَفْنا التَّرديدَ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أنَّ الَّذين على الهُدى هم المُسلِمونَ، وأنَّ أولئك على الضَّلالِ؛ لأنَّه لو قال قائِلٌ: الآيةُ فيها ترديدٌ ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى﴾، وما عرَفْنا مَن الَّذي على الهدى! الجوابُ: هم الَّذين يَفتَحُ اللهُ تعالى عليهم، ويَنصُرُهم على أعدائِهم بالحَقِّ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ﴾ إثباتُ ما قَرَّرَه أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ مِن أنَّ اسمَ اللهِ تعالى إذا كان مُتعدِّيًا لم يَتِمَّ الإيمانُ به إلَّا بالإيمانِ بكَونِه اسمًا، وبما تضَمَّنَه مِن صفةٍ، وبما تضَمَّنه مِن أثَرٍ وحُكمٍ؛ لِقَولِه: ﴿يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا﴾، ثمَّ قال بعدَ ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ﴾؛ فدلَّ على أنَّ أسماءَ اللهِ عزَّ وجلَّ المُتعدِّيةَ تتضمَّنُ الأحكامَ والآثارَ المترتِّبةَ على ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) ٢٢/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٥).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾ فيه سؤالٌ: ما معنى قَولِه: ﴿أَرُونِيَ﴾، وكان يَراهم ويَعرِفُهم؟

الجوابُ: أراد بذلك أن يُريَهم الخطَأَ العظيمَ في إلحاقِ الشُّرَكاءِ باللهِ، وأن يُقايِسَ على أعيُنِهم بيْنَه وبينَ أصنامِهم؛ ليُطلِعَهم على إحالةِ القياسِ إليه، والإشراكِ به[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ إثباتُ أفعالِ اللهِ تعالى الاختياريَّةِ؛ لأنَّ هذا فِعلٌ مِن الأفعالِ المتعلِّقةِ بمشيئتِه سُبحانه وتعالى[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ إقامةُ الحُجَّةِ على الخَلْقِ، فلم يَبْقَ لأحدٍ حُجَّةٌ على اللهِ بعدَ الرُّسُلِ، ويُؤخَذُ منها عُذرُ مَن لم تَبلُغْه الرِّسالةُ؛ لأنَّ مَن لم تَبلُغْه الرِّسالةُ لم تتحصَّلْ له بِشارةٌ ولا نِذارةٌ[٣].

١٢- قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ هذه الآيةُ دليلٌ على فضلِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الأنبياءِ بعمومِ الرِّسالةِ للإنسِ والجنِّ[٤].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ في هذه الآيةِ إثباتُ رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مُنْكريها مِن العربِ، وإثباتُ عُمومِها على مُنْكريها مِن اليهودِ؛ فإنَّ ﴿ كَآفَّةً ﴾ مِن ألْفاظِ العُمومِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٨).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ الأكثريَّةَ لا يَلزَمُ أنْ يكونَ الصَّوابُ معها! لأنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمونَ؛ فهُم في جهلٍ[١].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٍ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةً وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ فيه سؤالٌ: كيف انطبَقَ هذا جوابًا عن سؤالِهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؟

الجوابُ: أنَّهم ما سألوا عن ذلك وهم مُنكِرونَ له إلَّا تعنُّتًا لا استِرشادًا، فجاء الجوابُ على طريقِ التَّهديدِ مُطابقًا لمجيءِ السُّؤالِ على سبيلِ الإنكارِ والتَّعَنُّتِ، وأنَّهم مُرصَدونَ بيومٍ يفاجِئُهم، فلا يَستَطيعونَ تأخُّرًا عنه، ولا تقَدُّمًا عليه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ أُعيدَ الأمْرُ بالقولِ ﴿قُلۡ﴾؛ لِزيادةِ الاهتِمامِ بالمَقولِ؛ فإنَّ أصلَ الأمْرِ بالقولِ في مَقامِ التَّصدِّي للتَّبليغِ دالٌّ على الاهتمامِ، وإعادةُ ذلك الأمْرِ زِيادةٌ في الاهتمامِ[٣].

- و﴿مَن﴾ استِفهامٌ؛ للتَّنبيهِ على الخطأِ؛ ولذلك أُعقِبَ بالجوابِ مِن طَرَفِ السَّائلِ بقولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ لِتَحقُّقِ أنَّهم لا يُنكِرون ذلك الجوابَ، أو للإشعارِ بأنَّهم مُقِرُّون به بقُلوبِهم، إلَّا أنَّهم رُبَّما أبَوا أنْ يَتكلَّموا به؛ لأنَّ الَّذي تَمكَّنَ في صُدورِهم مِن العِنادِ وحُبِّ الشِّركِ قد أَلْجَم أفواهَهم عن النُّطقِ بالحقِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٢).

مع عِلْمِهم بصِحَّتِه، ولأنَّهم إنْ تَفَوَّهوا بأنَّ اللهَ رازِقُهم لَزِمَهم أنْ يُقالَ لهم: فما لَكُمْ لا تَعبُدون مَن يَرزُقُكم، وتُؤْثِرون عليه مَن لا يَقدِرُ على الرِّزقِ[1]؟!

- وقولُه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عُطِفَ على الاستِفهامِ إبرازُ المَقصدِ بطَريقةٍ خَفيَّةٍ، تُوقِعُ الخَصمَ في شَرَكِ المَغْلوبيَّةِ؛ وذلك بتَرديدِ حالتَيِ الفَريقَينِ بيْنَ حالةِ هُدًى وحالةِ ضَلالٍ؛ لأنَّ حالةَ كلِّ فَريقٍ لَمَّا كانت على الضِّدِّ مِن حالِ الفَريقِ الآخَرِ بيْن مُوافقةِ الحقِّ وعَدمِها؛ تَعيَّنَ أنَّ أمْرَ الضَّلالِ والهُدى دائرٌ بيْن الحالتَينِ لا يَعدُوانِهما؛ ولذلك جِيءَ بحَرْفِ ﴿أَوۡ﴾ المُفيدِ للتَّرديدِ المُنتزَعِ مِن الشَّكِّ[2].

- ومِن اللَّطائفِ البلاغيَّةِ في قولِه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أنَّه اشتمَلَ على إيماءٍ إلى تَرجيحِ أحدِ الجانبَينِ في أحَدِ الاحتمالَينِ بطَريقِ مُقابَلةِ الجانبَينِ في تَرتيبِ الحالتَينِ باللَّفِّ والنَّشْرِ المُرتَّبِ[3]، وهو أصْلُ اللَّفِّ؛ فإنَّه ذكَرَ ضَميرَ جانبِ المُتكلِّمِ وجَماعتِه وجانبِ المُخاطَبينَ، ثمَّ ذكَرَ حالَ الهُدى وحالَ الضَّلالِ على تَرتيبِ ذِكرِ الجانبينِ؛ فأشار إلى أنَّ الأوَّلينَ مُوجَّهون إلى الهُدى، والآخِرينَ مُوجَّهون إلى الضَّلالِ المُبينِ، لا سيَّما بعْدَ قَرينةِ الاستِفهامِ، وهذا أيضًا مِن التَّعريضِ، وهو أوقَعُ مِن التَّصريحِ، لا سيَّما في استنزالِ طائرِ الخَصمِ. وفيه أيضًا تَجاهُلُ العارفِ؛ فقد الْتأَمَ في

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٥٢، ٥٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٩٢).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١١٦).

هذه الجُملةِ ثلاثةُ مُحسِّناتٍ مِن البَديعِ، ونُكتةٌ مِن البَيانِ؛ فاشتملتْ على أربعِ خُصوصيَّاتٍ(١).

- وخُولِفَ بيْن حَرفَي الجرِّ الدَّاخلَين على الحقِّ والضَّلالِ ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ فجِيءَ في جانبِ الحقِّ بحرْف (علَى)؛ للإشعارِ بكَونِ السَّالكِ على هذا الصِّراطِ على هُدًى لِما فيه مِن استِعلائِه وعُلُوِّه بالحقِّ والهُدى، مع ثباتِه عليه، واستِقامتِه إليه، فكان في الإتيانِ بأداةِ (على) ما يدُلُّ على عُلوِّه وثُبوتِه واستِقامتِه، وهذا بخِلافِ الضَّلالِ؛ فإنَّه جيءَ فيه بأداةِ (في) الدَّالَّةِ على انغماسِ صاحِبِه، وانقِماعِه وتدسُّسِه فيه، فـ(في) للظَّرفيَّةِ، ومعلومٌ أنَّ الظَّرفَ محيطٌ بالمظروفِ؛ فالضَّلالُ محيطٌ به قد أعمى بصيرتَه، فطريقُ الحقِّ تأخُذُ عُلُوًّا صاعِدةً بصاحِبِها إلى العليِّ الكبيرِ، وطريقُ الضَّلالِ تأخُذُ سُفْلًا، هاويةً بسالِكِها في أسفَلِ سافِلينَ، فالَّذي على هُدًى هو على جادَّةٍ بيِّنةٍ، عُلْيَا واضِحةٍ، وصاحبُ الضَّلالِ مُنْغَمِسٌ في ضلالِه تائهٌ حائرٌ، ليس له حقٌّ مِن العلوِّ، بل هو مغمورٌ بالجهلِ بكلِّ جانبٍ(٢).

- وقدَّم الهدَى على الضَّلالِ؛ لأنَّه كان وصْفَ المؤمنينَ المذكورينَ بقولِه: (إنَّا)، وهو مقدَّمٌ في الذِّكرِ(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُل﴾ أُعِيدَ الأمْرُ بأنْ يقولَ لهم مَقالًا آخَرَ إعادةً؛ لِزيادةِ الاهتِمامِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٢، ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٥).

واستِدعاءً لأسماعِ المُخاطَبينَ بالإصغاءِ إليه، ولَمَّا كان هذا القولُ يَتضمَّنُ بَيانًا للقولِ الَّذي قَبْلَه، فُصِلَت جُملةُ الأمْرِ بالقولِ عن أُخْتِها؛ إذ لا يُعطَفُ البَيانُ على المُبيَّنِ بحَرْفِ النَّسقِ؛ فإنَّه لَمَّا ردَّدَ أمْرَ الفريقَينِ بيْن أنْ يكونَ أحدُهما على هُدًى والآخَرُ في ضَلالٍ، وكان الضَّلالُ يأتي بالإجرامِ؛ اتُّسِعَ في المُحاجَّةِ فقيل لهم: إذا نحنُ أجرَمْنا فأنتم غيرُ مُؤاخَذينَ بجُرْمِنا، وإذا عَمِلْتُم عمَلًا فنحن غيرُ مُؤاخَذينَ به. وأيضًا فُصِلَت؛ لتكونَ هذه الجُملةُ مُستقِلَّةً بنَفْسِها؛ لِيَخُصَّها السَّامعُ بالتَّأمُّلِ في مَدلولِها، فيجوزُ أنْ تُعتبَرَ استئنافًا ابتدائيًّا، وهي مع ذلك اعتراضٌ بَيِّنٌ أثناءَ الاحتجاجِ[(١)].

- قولُه: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ إسنادُ الإجرامِ إلى جانبِ المُتكلِّمِ ومَن معه مَبْنيٌّ على زَعْمِ المُخاطَبينَ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، كان المُشركون يُؤنِّبون المؤمنينَ بأنَّهم خاطِئون في تَجنُّبِ عِبادةِ أصنامِ قَومِهم. وهذه نُكتةُ صَوغِه في صِيغةِ الماضي؛ لأنَّه مُتحقِّقٌ على زَعمِ المُشركينَ. وصِيغَ ما يَعمَلُ المُشركونَ في صِيغةِ المُضارِعِ؛ لأنَّهم يَنتظِرون منهم عمَلًا؛ تَعريضًا بأنَّهم يَأتُون عمَلًا غيرَ ما عَمِلوه، أي: يُؤمِنون باللهِ بعدَ كُفرِهم. وهذا ضَرْبٌ مِن المُتارَكةِ والمُوادَعةِ؛ لِيَخْلُوا بأنفُسِهم فيَنظُروا في أمْرِهم، ولا يُلْهِيهم جِدالُ المؤمنينَ عن استِعراضِ أنفُسِهم ومُحاسَبتِها. وفيه زِيادةُ إنصافٍ؛ إذ فرَضَ المؤمِنونَ الإجرامَ في جانبِ أنفُسِهم، وأسنَدُوا العمَلَ على إطلاقِه في جانبِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّ النَّظَرَ والتَّدبُّرَ بعدَ ذلك يَكشِفُ عن كُنْهِ كِلَا العَمَلَينِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٣، ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فلمْ يَذكُرْ هنا (كُنتم) كما قالَه في غَيرِه؛ وذلك لأنَّ قولَه هنا: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وقَعَ في مُقابَلةِ ﴿أَجْرَمْنَا﴾ في قولِه: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾، أي: أذنَبْنا، وضَميرُ ﴿أَجْرَمْنَا﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمُرادُ غيرُه، وغيرُه صَدَر منه ذنْبٌ؛ فعُبِّرَ عنه بالماضي. والمُخاطَبُ في ﴿تَعْمَلُونَ﴾ الكُفَّارُ، وكُفرُهم واقعٌ في الحالِ، وفي المُستقبَلِ ظاهرًا، فعُبِّرَ عنه بالمُضارِعِ، فلا يُناسِبُه (كُنتم)، مع أنَّ الخِطابَ في ذلك واقعٌ في الدُّنيا، والخِطابُ في غَيرِه -نحو: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠]- واقعٌ في الآخرةِ؛ فناسَبه التَّعبيرُ بـ﴿كُنتُمْ﴾[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فيه إعادةُ فِعلِ (قُل)؛ لزِيادةِ الاهتمامِ بهذه المُحاجَّاتِ؛ لِتكونَ كلُّ مُجادَلةٍ مُستقِلَّةً غيرَ مَعطوفةٍ؛ فتكون هذه الجُملةُ استئنافًا ابتِدائيًّا. وأيضًا فهذه الآيةُ بمَنزِلةِ البَيانِ للَّتي قبْلَها؛ لأنَّ نفْيَ سُؤالِ كلِّ فَريقٍ عن عمَلِ غيرِه يَقْتضي أنَّ هنالك سُؤالًا عن عمَلِ نفْسِه، فبَيَّنَ أنَّ الَّذي يَسأَلُ النَّاسَ عن أعمالِهم هو اللهُ تعالى يومَ القِيامةِ الَّذي همْ مُنكِروه؛ فما ظَنُّك بحالِهم يومَ تَحقُّقِ ما أنكَرُوه؟! وهنا تَدرَّجَ الجَدلُ مِن الإيماءِ إلى الإشارةِ القَريبةِ مِن التَّصريحِ؛ لِمَا في إثباتِ يومِ الحِسابِ والسُّؤالِ مِن المُصارَحةِ بأنَّهم الضَّالُّون. ويُسمَّى هذا التَّدرُّجُ عندَ أهلِ الجَدلِ بالتَّرقِّي[٢].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٩)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٥).

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تَذييلٌ بوَصفِه تعالى بكَثرةِ الحُكْم وقُوَّته وإحاطةِ العِلمِ، وبذلك كان تَذييلًا لجُملةِ ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ المُتضَمِّنةِ حُكمًا جُزْئيًّا؛ فذُيِّلَ بوَصفٍ كُلِّيٍّ. وإنَّما أُتبِعَ الفتَّاحُ بـ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ حُكمَه عَدْلٌ مَحضٌ؛ لأنَّه عليمٌ لا تَحُفُّ بحُكمِه أسبابُ الخَطأ والجَورِ النَّاشئةُ عن الجَهلِ والعَجزِ، واتِّباعُ الضَّعفِ النَّفسانيِّ النَّاشئُ عن الجَهلِ بالأحوالِ والعَواقبِ[(١)].

- قولُه: ﴿ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ صِيغَتَا مُبالَغةٍ، وهذا فيه تَهديدٌ وتَوبيخٌ[(٢)].

٤- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أُعِيدَ الأمْرُ بالقَولِ لِمَزيدِ الاهتمامِ، وهو رُجوعٌ إلى طريقِ الاحتجاجِ على بُطلانِ الشِّركِ، فهو كالنَّتيجةِ لِجُملةِ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٤]. والأمرُ في قولِه: ﴿أَرُونِيَ﴾ مُستعمَلٌ في تَعجيزِ المُشركينَ عن إبْداءِ حُجَّةٍ لإشراكِهم، وهو انتقالٌ مِن الاحتجاجِ على بُطلانِ إلَهيَّةِ الأصنامِ بدَليلِ النَّظرِ في قولِه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ إلى إبطالِ ذلك بدَليلِ البَداهةِ[(٣)]. وقد سُلِكَ مِن طُرُقِ الجَدلِ طَريقُ الاستِفسارِ، والمُصطلَحُ عليه عندَ أهْلِ الجَدلِ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٨).

(٣) البَداهة: هي المعرفةُ الحاصلةُ ابتداءً في النَّفْسِ، لا بسببِ الفِكرِ؛ كعِلمِك بأنَّ الواحدَ نصفُ الاثنَينِ. والبديهيُّ أخصُّ مِن الضَّروريِّ؛ لأنَّه ما لا يتوقَّفُ حصولُه على نظرٍ وكسبٍ. والمقصودُ هنا: أنَّ انتفاءَ الإلهيَّةِ عن الأصنامِ بديهيٌّ، ولا يحتاجُ إلى أكثرَ مِن رؤيةِ حالِها؛ فإنَّ كلَّ مَن يشاهِدُها بادئَ مرَّةٍ يَتبيَّنُ له أنَّها خليَّةٌ عن صِفاتِ الإلهيَّةِ؛ إذ يرى حجارةً لا تَسمعُ ولا تُبصِرُ ولا تَفْقَهُ. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٣-٤٤، ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٨)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٦)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (ص: ١٩٣).

يكونَ الاستِفسارُ مُقدَّمًا على طَرائقِ المُناظَرةِ[١]، وإنَّما أُخِّرَ هنا؛ لأنَّه كان مُفْضيًا إلى إبطالِ دَعوَى الخَصمِ بحَذافيرِها، فأُريدَ تأْخيرُه؛ لئلَّا يَفُوتَ افتضاحُ الخَصمِ بالأدلَّةِ السَّابقةِ تَبْسيطًا لبِساطِ المُجادَلةِ؛ حتَّى يكونَ كلُّ دَليلٍ مُناديًا على غَلطِ الخُصومِ وباطلِهم. وافتِضاحُ الخَطأِ مِن مَقاصِدِ المُناظِرِ الَّذي قامَتْ حُجَّتُه[٢].

- والتَّعبيرُ عن المَرْئيِّ بطَريقِ المَوصوليةِ ﴿ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾؛ لِتَنبيهِ المُخاطَبينَ على خَطئِهم في جَعْلِهم إيَّاهم شُركاءَ للهِ تعالى في الرُّبوبيَّةِ. وفي جَعْلِ الصِّلةِ ﴿أَلۡحَقۡتُم﴾ إيماءٌ إلى أنَّ تلك الأصنامَ لم تكُنْ مَوصوفةً بالإلهيَّةِ وَصفًا ذاتيًّا حقًّا، ولكنَّ المشرِكينَ أَلْحَقوها باللهِ تعالى؛ فتلك خُلعةٌ خَلَعَها عليهم أصحابُ الأهواءِ، وتلك حالةٌ تُخالِفُ صِفةَ الإلهيَّةِ؛ لأنَّ الإلهيَّةَ صِفةٌ ذاتيَّةٌ قَديمةٌ[٣].

- قولُه: ﴿كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ لَمَّا أعرَضَ عن الخَوضِ في آثارِ الإراءةِ، عُلِمَ أنَّهم مُفتضَحون عندَ تلك الإراءةِ، فقُدِّرتْ حاصلةً، وأُعقِبَ طَلبُ تَحصيلِها بإثباتِ أثَرِها، وهو الرَّدعُ عن اعتقادِ إلهيَّتِها، وإبطالُها عنْهم بإثباتِها للهِ تعالى وَحْدَه؛ فلذلك جُمِعَ بيْنَ حَرفي الرَّدْعِ والإبطالِ، ثمَّ الانتقالِ إلى تَعيينِ الإلهِ الحقِّ. والجُملةُ بعْدَه تَفسيرٌ لِمَعنى الشَّأنِ، و﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ خَبرانِ، أي: بلِ الشَّأنُ المُهِمُّ اللهُ العزيزُ الحكيمُ لا آلهتُكم؛ ففي الجُملةِ قَصرُ العِزَّةِ

(١) يُنظر: ((شرح مختصر الروضة)) للصرصري (٣/ ٤٥٩)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٢٠٤)، ((الغيث الهامع شرح جمع الجوامع)) لأبي زرعة العراقي (ص: ٦٢٧)، ((التحبير شرح التحرير)) للمرداوي (٧/ ٣٥٤٦، ٣٦٨٤)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ١٥٨، ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٧)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحُكم على اللهِ تعالى؛ كِنايةً عن قَصْرِ الإلهيَّةِ عليه تعالى قَصْرَ إفرادٍ[١]، وهذا إثباتٌ لافتِقارِ أصنامِهم، وانتفاءِ العِلمِ عنها[٢].

- و﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لهم عن مَذهبِهم بعدَ ما كسَرَه بإبطالِ المُقايَسةِ، وقد نبَّه على تَفاحُشِ غَلَطِهم، وأن لم يَقدُروا اللهَ حقَّ قَدْرِه بقولِه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ كأنَّه قال: أيْنَ الَّذين أَلحَقْتُم به شُركاءَ مِن هذه الصِّفاتِ؟ و﴿هُوَ﴾ راجعٌ إلى اللهِ وَحْدَه، أو ضميرُ الشَّأنِ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ انتقالٌ مِن إبطالِ ضَلالِ المشرِكينَ في أمْرِ الرُّبوبيَّةِ إلى إبطالِ ضَلالِهم في شأْنِ صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وغُيِّرَ أُسلوبُ الكلامِ مِن

---

(١) تقدم تعريف القصر وأقسامه (ص: ٤٣).

ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ أيضًا إلى ثلاثةِ أقسام: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ الشَّركةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقدُ اشتِراكَ اللهِ والأصنامِ في الأُلوهيَّةِ. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ إثباتَ الحُكمِ لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نَمرودُ، الَّذي اعتَقد أنَّه هو المحيِيُّ المميتُ دونَ اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْرانِ، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٢، ٥٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٩٣).

الأمْرِ بمُحاجَّةِ المشركينَ إلى الإخبارِ برِسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تَشريفًا له بتَوجيهِ هذا الإخبارِ بالنِّعمةِ العظيمةِ إليه، ويَحصُلُ إبطالُ مَزاعمِ المُشركينَ بطَريقِ التَّعريضِ(١).

- قولُه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ أي: وما أرسَلْناك للنَّاسِ إلَّا كافَّةً؛ فقُدِّمَ الحالُ ﴿ كَآفَّةٗ ﴾ على صاحِبِه ﴿لِّلنَّاسِ ﴾؛ للاهتمامِ بها؛ لأنَّها تَجمَعُ الَّذين كَفَروا برِسالَتِه كلَّهم(٢).

- وأفادَ تَركيبُ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ قَصْرَ حالةِ عُمومِ الرِّسالةِ على كافِ الخِطابِ في قولِه: ﴿ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ(٣)، أي: دونَ تَخصيصِ إرسالِك بأهْلِ مكَّةَ، أو بالعرَبِ، أو بمَن يَجيئُك يَطلُبُ الإيمانَ والإرشادَ، فالرِّسالةُ عامَّةٌ للنَّاسِ، مُحيطةٌ بهم؛ لأنَّها إذا شَمِلَتهم فقد كَفَتْهم أنْ يَخرُجَ منها أحدٌ منهم، ويَقْتضي ذلك إثباتَ رِسالتِه بدَلالةِ الاقتضاءِ؛ إذ لا يَصدُقُ ذلك القَصرُ إلَّا إذا ثبَتَ أصْلُ رِسالتِه؛ فاقْتَضَى ذلك الرَّدَّ على المُنكِرين كلِّهم، سواءٌ مَن أنكَرَ رِسالتَه مِن أصْلِها، ومَن أنكَرَ عُمومَها، وزعَمَ تَخصيصَها(٤). وقيل: إنَّ حالَ الإرسالِ مَحْصورٌ في العُمومِ؛ للغرَضِ الَّذي ذُكِرَ مِن التَّدرُّعِ لِحَمْلِ المَشاقِّ، لا في النَّاسِ؛ فإنَّه لو أُريدَ ذلك لَقُدِّموا فقِيل: (إلَّا للنَّاسِ كافَّةً)(٥).

- ومَوقعُ الاستِدراكِ بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ رفْعُ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٩٨).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٤).

يُتوهَّمُ مِنِ اغترارِ المُغترِّينَ بكَثرةِ عدَدِ المُنكرين رِسالةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ كَثرتَهم تَغُرُّ المُتأمِّلَ؛ لأنَّهم لا يَعلَمون[١].

- ومَفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مَحذوفٌ؛ لِدَلالةِ ما قبْلَه عليه، أي: لا يَعلَمون ما بَشَّرْت به المؤمِنينَ، وما أنْذَرْتَ به الكافرينَ، أي: يَحسَبون البِشارةَ والنِّذارةَ غيرَ صادقتَينِ، على قولٍ في التَّفسيرِ. ويجوزُ أنْ يكونَ فِعلُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مُنزَّلًا مَنزلةَ اللَّامِ، مَقصودًا منه نَفْيُ صِفةِ العِلمِ عنهم، أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ جاهِلون قَدْرَ البِشارةِ والنِّذارةِ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

- صِيغةُ المُضارِعِ في (يَقُولُونَ) تُفِيدُ التَّعجُّبَ مِن مَقالتِهم، مع إفادتِها تَكرُّرَ ذلك القولِ منهم وتَجدُّدَه. واسمُ الإشارةِ في ﴿هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾؛ للاستِخفافِ والتَّحقيرِ[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٍ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةً وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ جُملةٌ مَسوقةٌ مَساقَ الجوابِ عن مَقالتِهم؛ ولذلك فُصِلَتْ ولم تُعطَفْ على طَريقةِ حِكايةِ المُحاوَراتِ في القُرآنِ[٤]. وهذا الجَوابُ جَرَى على طَريقةِ الأُسلوبِ الحَكيمِ، أي: أنَّ الأهمَّ للعُقلاءِ أنْ تَتوجَّهَ هِمَمُهم إلى تَحقُّقِ وُقوعِ الوَعدِ في الوقتِ الَّذي عيَّنَه اللهُ له، وأنَّه لا يُؤخِّرُه شَيءٌ ولا يُقدِّمُه، وحسَّنَ هذا الأُسلوبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ سُؤالَهم إنَّما أرادوا به الكِنايةَ عن انتفاءِ وُقوعِه. وفي هذا الجَوابِ تَعريضٌ بالتَّهديدِ، فكان مُطابِقًا للمَقصودِ مِن الاستفهامِ، ولذلك زِيدَ في الجوابِ كَلمةُ ﴿لَكُمْ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ هذا المِيعادَ مُنصرِفٌ إليهم ابتداءً(١).

- وفي هذا الجوابِ مِن المُبالَغةِ في التَّهديدِ ما لا يَخْفى؛ حيثُ جُعِلَ الاستئخارُ في الاستحالةِ كالاستقدامِ المُمتنعِ عقْلًا. ويجوزُ أنْ يكونَ نفْيُ الاستئخارِ والاستقدامِ غيرَ مُقيَّدٍ بالمُفاجأةِ، فيكونَ وصْفُ المِيعادِ بذلك لِتَحقيقِه وتَقريرِه(٢).

- وخُولِفَ مُقْتضى الظَّاهرِ في الجوابِ مِن الإتيانِ بضَميرِ الوَعدِ الواقعِ في كَلامِهم إلى الإتيانِ باسمٍ ظاهرٍ، وهو ﴿مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾؛ لِمَا في هذا الاسمِ النَّكرةِ مِن الإبهامِ الَّذي يُوجِّهُ نُفوسَ السَّامعينَ إلى كلِّ وَجهٍ مُمكِنٍ في مَحمَلِ ذلك، وهو أنْ يكونَ يومَ البعثِ أو يومًا آخَرَ يَحِلُّ فيه عذابٌ على أئمَّةِ الكُفرِ وزُعماءِ المشركينَ، وهو يومُ بَدْرٍ، ولعلَّ الَّذين قُتِلوا يومَئذٍ همْ أصحابُ مَقالةِ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. وأفاد تَنكيرُ ﴿يَوْمٍ﴾ تَهويلًا وتَعظيمًا؛ بقَرينةِ المَقامِ(٣).

- والاستِئخارُ والاستقدامُ مُبالَغةٌ في التَّأخُّرِ والتَّقدُّمِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، وقُدِّمَ الاستئخارُ على الاستِقدامِ إيماءً إلى أنَّه مِيعادُ بأْسٍ وعَذابٍ عليهم مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٣ - ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٠).

شأْنِه أنْ يَتمنَّوا تأخُّرَه، ويكونُ ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ تَتميمًا[١]؛ لِتَحقُّقِه عندَ وَقتِه المُعيَّنِ في عِلمِ اللهِ[٢].

- والسَّاعةُ: حِصَّةٌ مِن الزَّمنِ، وتَنكيرُها للتَّقليلِ بمَعونةِ المَقامِ[٣].

(١) تقدم تعريفه (ص: ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢١-٢٢)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَوۡقُوفُونَ﴾: أي: محبوسونَ للحسابِ يومَ القيامةِ، وأصل (وقف): يدُلُّ على تَمَكُّثٍ في شَيءٍ[١].

﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾: أي: يَتلاوَمون؛ يُحاوِرُ بعضُهم بعضًا، وأصلُ (رجع): يدُلُّ على ردٍّ وتَكرارٍ[٢].

﴿أَندَادًا﴾: أي: أمثالًا، ونُظَراءَ، وشُرَكاءَ، وأصلُ (ندد): يدُلُّ على شُرودٍ وفِراقٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٨).

﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: أي: مَكْرُكم في اللَّيلِ والنَّهارِ، والمكرُ: الاحتيالُ والخِداعُ، وصَرْفُ الغيرِ عمَّا يَقصِدُه بحيلةٍ(١).

﴿ٱلْأَغْلَٰلَ﴾: جمعُ غُلٍّ، والغُلُّ: مختصٌّ بما يُقيَّدُ به فيَجعلُ الأعضاءَ وسطَه، أو: هو طوقٌ تُشَدُّ به اليدُ إلى العُنقِ، أو حَلْقةٌ مِن حديدٍ أو غيرِه تُحيطُ بالعُنقِ تُناطُ بها سِلسلةٌ مِن حديدٍ، وأصلُ (غلل): تدرُّعُ الشَّيءِ وتوسُّطُه(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى حاكيًا بعضَ الأقوالِ الباطلةِ للمشركينَ: وقال الَّذين كَفَروا: لن نُؤمِنَ بهذا القُرآنِ الَّذي جاء به محمَّدٌ، ولا بالَّذي أُنزِلَ قبْلَه مِنَ التَّوراةِ والإنجيلِ.

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى أحوالَهم السَّيِّئةَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: ولو تَرى إذ المُشرِكونَ يومَ القيامةِ مَحبوسونَ في مَوقِفِ الحِسابِ يُخاصِمُ بَعضُهم بعضًا؛ لَرأيتَ أمرًا عَظيمًا؛ يقولُ المُستَضعَفونَ مِنَ المُشرِكينَ لِرُؤسائِهم وكُبَرائِهم: لولا أنَّكم أضلَلْتُمونا في الدُّنيا لَكُنَّا مِنَ المؤمِنينَ. قال القادةُ المُشرِكونَ لأتْباعِهم: أنحن مَنَعْناكم عن قَبولِ الحَقِّ بعدَما جاءكم؟! بل كنتُم مُجرِمينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٩).

قال الفَرَّاءُ: (المكرُ ليس لِلَّيْلِ ولا للنَّهارِ، إنَّما المعنى: بل مكرُكم باللَّيلِ والنَّهارِ. وقد يجوزُ أن نُضيفَ الفعلَ إلى اللَّيلِ والنَّهارِ، ويَكونا كالفاعِلين؛ لأنَّ العرب تقولُ: نهارُك صائمٌ، ولَيْلُك نائمٌ، ثمَّ تُضيفُ الفِعلَ إلى اللَّيلِ والنَّهارِ، وهو في المعنى للآدميِّينَ، كما تقولُ: نامَ لَيْلُك، وعزَمَ الأمرُ، إنَّما عزَمه القومُ. فهذا مما يُعرَفُ معناه فتَتَّسِعُ به العربُ). ((معاني القرآن)) (٢/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٢).

وقال المُستَضعَفونَ لرُؤسائِهم: ليس الأمرُ كما زَعمتُم، وإنَّما صَدَّنا خِداعُكم لنا بتَزيينِ الباطِلِ، وتَقبيحِ الحَقِّ لَيلًا ونهارًا؛ إذ تأمُرونَنا أن نَكفُرَ باللهِ، ونجعَلَ له نُظراءَ وشُرَكاءَ، وأسَرُّوا جميعًا النَّدَمَ والحَسرةَ حينَ رأَوُا العذابَ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه ما حلَّ بهم مِن عذابٍ، فيقولُ: وجعَلْنا القُيودَ في أعناقِ الكافِرينَ، لا يُجزَونَ إلَّا جزاءَ عمَلِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى الأمورَ الثَّلاثةَ: مِن التَّوحيدِ، والرِّسالةِ، والحَشرِ؛ وكانوا بالكُلِّ كافِرينَ- بيَّنَ كُفرَهم العامَّ، بقَولِه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾؛ وذلك لأنَّ القُرآنَ مُشتَمِلٌ على الكُلِّ[1].

وأيضًا لَمَّا دَلَّ سُبحانَه بملازمتِهم للاستِهزاءِ بهذا الإنذارِ على أنَّهم غَيرُ مُنفَكِّينَ عن مذاهبِ الكُفَّارِ- ذكَرَ تصريحَهم بذلك وحالَهم في بعضِ الأوقاتِ المُنطَبِقةِ عليها الآيةُ السَّالِفةُ في قَولِه[2]:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾.

أي: وقال الَّذين كَفَروا[3]: لن نُؤمِنَ بهذا القرآنِ الَّذي جاء به محمَّدٌ، ولا بما

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٧، ٥٠٨).

(٣) قيل: المرادُ بهم: مُشرِكو العرَبِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والماوَرْديُّ، والشوكاني، =

بينَ يدَيه[١].

= والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣١٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٧٠٣).

وقيل: كُفَّارُ قُرَيشٍ. وممَّن قال به: الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢).

قال ابنُ عثيمين: (لا ينبغي أن نخصِّصَ ما عمَّمه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فالصَّوابُ: وقال الَّذين كفَروا مِن أهلِ مكَّةَ وغَيرِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠١، ٢٠٢).

قال القرطبي: (قيل: إنَّ أهلَ الكتابِ قالوا للمُشرِكينَ: صِفةُ محمَّدٍ في كتابِنا فسَلُوه، فلمَّا سألوه فوافَقَ ما قال أهلُ الكتابِ، قال المُشرِكون: لن نؤمِنَ بهذا القرآنِ ولا بالَّذي أُنزِلَ قبْلَه مِن التَّوراةِ والإنجيلِ، بل نكفُرُ بالجميعِ، وكانوا قبْلَ ذلك يُراجِعونَ أهلَ الكتابِ، ويَحتجُّونَ بقَولِهم! فظهَر بهذا تناقُضُهم، وقِلَّةُ عِلْمِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢).

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠١، ٢٠٢).

واختلَف المفسِّرون في معنى ما بين يَدَي القرآن، فقيل: هو ما تقدَّمَه مِن الكُتبِ السَّابقةِ؛ كالتَّوراةِ والإنجيلِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن الجوزي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠١، ٢٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٧٠٣).

وقيل: ما بيْنَ يَدَيه، أي: ما أخبَرَ به مِن أمورِ المَعادِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩).

وذهب ابنُ عثيمين إلى أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿بِٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: الكُتبُ الَّتي سبَقَت القرآنَ كالتَّوراةِ والإنجيلِ، أو ما أخبَر به القرآنُ ممَّا يأتي بعدَه.

قال: (والمَعنَيانِ صَحيحانِ، وإذا كانت الآيةُ تَحتَمِلُ مَعنيَيْنِ صَحيحينِ لا يَتَنافَيانِ، وجَبَ حَمْلُها على الجميعِ؛ لأنَّ القُرآنَ شامِلٌ وواسِعٌ). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠٢).

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ ميعادَ المُستعجِلينَ بالعذابِ لا بُدَّ مِن وُقوعِه عند حُلولِ أجَلِه؛ ذكَرَ هنا حالَهم في ذلك اليومِ[١].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾.

أي: ولو ترى[٢] المُشرِكينَ يومَ القيامةِ وهم محبوسونَ في مَوقِفِ الحِسابِ، يحاوِرُ بَعضُهم بَعضًا باللَّومِ والخِصامِ والعِتابِ، بعدَ أن كانوا في الدُّنيا أخِلَّاءَ مُتحابِّينَ مُتناصِرينَ؛ لَرأيتَ أمرًا عَظيمًا، وشأنًا عجيبًا[٣]!

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: يَقولُ الأتْباعُ المُشرِكونَ -الَّذين كانوا في الدُّنيا مُستَضعَفينَ- لِرُؤسائِهم وكُبَرائِهم المتبوعينَ: لولا أنَّكم أضلَلْتُمونا في الدُّنيا لَكُنَّا مِنَ المؤمِنينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٦٨٠).

(٢) قيل: الخطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢).
وقيل: الخِطابُ لكُلِّ مَن يَصلُحُ لتلَقِّي الخِطابِ ممَّن تَبلُغُه هذه الآيةُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٨، ٥٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٩، ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦). =

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم﴾.

أي: قال القادةُ المُشرِكونَ لأتْباعِهم المُستَضعَفينَ: أنحن مَنَعْناكم وصرَفْناكم عن قَبولِ الحَقِّ بعدَما جاءَكم مِن عندِ اللهِ[1]؟!

﴿بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كذلك، فنحنُ لم نُكرِهْكم على الكُفرِ، وإنَّما كُنتُم في الدُّنيا عريقينَ في الإجرامِ، باختيارِكم الكُفرَ وإيثارِه على الإيمانِ[2].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا أنكَر رؤساؤُهم أنَّهم السببُ في كفرِهم، وأثبَتوا بقولِهم: ﴿بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾ أنَّ كفرَهم هو مِن قِبَلِ أنفسِهم، قابَلوا إضرابًا بإضرابٍ[3].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

= قال ابن عاشور: (اعلَمْ أنَّ المرادَ بقولِهم: ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ بالمعنى اللَّقبيِّ الَّذي اشتهر به المسلِمون؛ فلذلك لا يُقدَّرُ لـ ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ متعلَّقٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٢).

أي: وقال الأتْباعُ المُستَضعَفونَ لِرُؤسائِهم: ليس الأمرُ كما ذكَرتُم، وإنَّما احتيالُكم وخِداعُكم لنا، ومُلازمتُكم تزيينَ الباطِلِ وتقبيحَ الحَقِّ ليلًا ونهارًا: هو ما صَدَّنا عن الهدى، ونفَّرَنا عن الحَقِّ[١].

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾.

أي: حينَ تأمُرونَنا أن نَكفُرَ باللهِ، ونجعَلَ له أمثالًا وأشباهًا ونُظَراءَ وشُرَكاءَ[٢].

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾.

أي: وأسَرَّ جميعُ المُشرِكينَ -مِن الأتْباعِ المُستَضعَفينَ والمتبوعينَ المُستَكبِرينَ- في أنفُسِهم شِدَّةَ النَّدَمِ حينَ رأَوْا عذابَ النَّارِ، فزال عنهم ما احتَجَّ به بعضُهم على بعضٍ لِيَنجوَ مِن العذابِ، وعَلِموا أنَّهم مُستَحِقُّونَ له، وتمنَّوا أنْ لو كانوا على الحَقِّ، وأنَّهم ترَكوا الباطِلَ الَّذي أوصَلَهم إلى عذابِ اللهِ تعالى[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩١، ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١٤- ٢١٧).

ممن اختار أنَّ الضمير في قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ عامٌّ في جميعِ مَن تقدَّم ذكرُه مِن الفريقين: المستضعفين والمستكبرين: ابن عطية، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٩).

وقال الواحدي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ يونسَ (الآية ٥٤): (﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: أخفَى الرؤساءُ الندامةَ مِن السفلةِ الذين أضلُّوهم، أي: كتَموهم ذلك ولم يُطلِعوهم عليه، هذا قولُ عامةِ المفسرينَ، وأصحابِ المعاني). ((البسيط)) (١١/ ٢٢٤). =

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: وجعَلْنا القُيودَ في أعناقِ الكافِرينَ جميعًا مِن الأتْباعِ والمتبوعينَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: لا يُجزَى الكافِرونَ إلَّا بحَسَبِ ما كانوا يَعمَلونَه في الدُّنيا مِن أعمالٍ خَبيثةٍ[(٢)].

= وقيل: أسرُّوا أي: أظْهروا، وأنَّه مِن الأضدادِ، يكونُ بمعنى الإخفاءِ والإبداءِ. وممن اختاره: ابنُ قتيبةَ، والثعلبي، ومكي، والبغوي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٩١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٢٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٢).

وقد ردَّه ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٢٠).

قيل: المرادُ بالغُلِّ: تقييدُ اليدين معًا وتعليقُهما في العُنُقِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١٧).

قال القاسمي عن الأغلالِ: (هي السَّلاسلُ الَّتي تجمَعُ أيديَهم مع أعناقِهم). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٠).

وذكر ابن عاشور أنَّ الغُلَّ دائرةٌ مِن حديدٍ أو جلدٍ على سَعَةِ الرَّقبةِ تُوضَعُ في رقبةِ المأسورِ ونحوِه ويُشَدُّ إليها بسِلْسِلةٍ أو سَيْرٍ مِن جلدٍ أو حبلٍ، وقال: (وجعلُ الأغلالِ في الأعناقِ شعارٌ على أنَّهم يُساقون إلى ما يحاوِلونَ الفِرارَ والانفِلاتَ منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ ويُحيلُ بعضُهم على بعضٍ الجُرمَ، وهكذا أصحابُ الزلَّاتِ الأخِلَّاءُ في الفسادِ، قال تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وكذلك الجوارحُ والأعضاءُ غدًا يشهدُ بعضُها على بعضٍ، فمَن عَمِلَ بالمعاصي أخرَجَ اللهُ عليه كُلَّ مَن هو أطوَعُ له، ولكنَّهم لا يعلمونَ ذلك، ولو علِموا لاعتَبَروا، ولو اعتَبَروا لَتابوا ووُفِّقوا، ولكنْ ليَقْضيَ الله أمرًا كان مفعولًا[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ اقتصَرَ على حِكايةِ مَقالةِ الكافرينَ دونَ تَعقيبٍ بما يُبطِلُها؛ إيماءً إلى أنَّ بُطلانَها بادٍ لكُلِّ مَن يَسمَعُها؛ حيثُ جمَعَت التَّكذيبَ بجَميعِ الكُتُبِ والشَّرائِعِ، وهذا بهتانٌ واضِحٌ[٢].

= (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

قال الشوكاني: (﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلَّا جزاءَ ما كانوا يَعمَلونه مِن الشِّركِ باللهِ، أو إلَّا بما كانوا يَعملونَ على حذفِ الخافِضِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٨).

وقال ابن كثير: (﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنَّما نُجازيكم بأعمالِكم كلٌّ بحَسَبِه؛ للقادةِ عذابٌ بحسَبِهم، وللأتباعِ بحسَبِهم ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠).

وقال ابن عاشور: (اعلَمْ أنَّ كَوْنَه مُماثِلًا في المِقدارِ أمرٌ لا يعلَمُه إلَّا مُقَدِّرُ الحقائِقِ والنِّيَّاتِ، وأمَّا كونُه وِفاقًا في النَّوعِ فلأنَّ وَضْعَ الأغلالِ في الأعناقِ مَنعٌ مِن حرِّيَّةِ التَّصرُّفِ في أنفُسِهم؛ فناسَبَ نوعُه أن يكونَ جزاءً على ما عبَّدوا به أنفُسَهم لأصنامِهم... وما تقبَّلوه مِن استِعبادِ زُعَمائِهم وكُبَرائِهم إيَّاهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١١).

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ١٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بعدَ قولِه سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أنَّ الكفرَ ظُلْمٌ، ويُؤَيِّدُ ذلك قولُه تعالى في سورةِ البقرةِ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[١] [البقرة: ٢٥٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بدأ الأتْباعُ بتوبيخِ مُضِلِّيهم؛ إذ زالت عنهم رئاسَتُهم، ولم يُمكِنْهم أن يُنكِروا أنَّهم ما جاءهم رَسولٌ، بل هم مُقِرُّونَ[٢]، ولأنَّ المُضِلَّ أَولَى بالتَّوبيخِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: إخبارٌ مِن اللهِ وتحذيرٌ بأنَّ المَتبوعينَ والتَّابِعينَ اشترَكوا في العذابِ، ولم يُغْنِ عنهم تقليدُهم شَيئًا[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ دليلٌ على أنَّ الرؤساءَ مِن أهلِ الضَّلالِ يَدْعُون لَيلًا ونهارًا -لا يَسْأَمُونَ- لباطلِهم، وصَدِّ النَّاسِ عن دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وغالبُ دعاةِ الخَيرِ معَ الأسفِ ليس عندَهم اليقظةُ لِمَكْرِ هؤلاء الماكرينَ الخادعينَ، يأخُذونَ بالظَّاهرِ؛ ولا يَعلمونَ أنَّ هؤلاء الخبثاءَ شرٌّ مِن الَّذين يَتظاهَرونَ بالسوءِ، فينبغي الانتباهُ لدعوةِ أهلِ الباطلِ والشَّرِّ والفسادِ[٥]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ أنَّ هؤلاءِ الرُّؤساءَ قد فرَضوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥١، ٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١٢، ٢١٣).

سيطرتَهم وسلطانَهم على هؤلاءِ الأتْباعِ فرضًا لا مَحيدَ لهم عنه، فهم عندَما يَدْعونهم لا يقولونَ مثلًا: إنَّ الكفرَ حسَنٌ؛ وإنَّ اتِّخاذَ الشُّرَكاءِ حسَنٌ! وما أشبَهَ ذلك، بل يقولون: اكْفُروا! فيَأْمُرونهم بذلك، والأمرُ هو طلبُ الفعلِ على وجهِ الاستعلاءِ(١).

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ نَدِمَ كُلٌّ منهم غايةَ النَّدَمِ سِرًّا في أنفُسِهم؛ لخَوفِهم مِنَ الفَضيحةِ في إقرارِهم على أنفُسِهم، وفي بعضِ مواقِفِ القيامةِ وعندَ دُخولِهم النَّارَ يُظهِرونَ ذلك النَّدَمَ جَهرًا ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨]، ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١](٢)، والنَّدَمُ عندَ رؤيةِ العذابِ لا ينفعُ، فلم يَنتفِعوا بإظهارِ النَّدامةِ، ولا بإسرارِها في نفوسِهم أيضًا، أمَّا النَّدمُ قبْلَ رؤيةِ العذابِ فهو توبةٌ، إذا أصلَحَ العملَ تاب اللهُ عليه(٣).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَظلِمُ أحدًا(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ هذا انتِقالٌ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٠).

ذِكرِ طَعنِ المُشركينَ في القُرآنِ، وهي مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ [سبأ: ٢٩]. وجِيءَ بحَرْفِ ﴿لَن ﴾؛ لِتَأكيدِ نَفْيِ إيمانِهم بالكُتبِ المُنزَّلةِ على التَّأبيدِ؛ تأْييسًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمينَ مِن الطَّمعِ في إيمانِهم به[١].

- واسمُ الإشارةِ في قولِه: ﴿بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ مُشارٌ به إلى حاضرٍ في الأذهانِ؛ لأنَّ الخَوضَ في القُرآنِ شائعٌ بيْنَ الناسِ مِن مُؤيِّدٍ ومُنكِرٍ؛ فكأنَّه مُشاهَدٌ[٢]، وقيل: هذه الإشارةُ للقريبِ؛ تَحقيرًا له[٣].

- وأُردِفَت حِكاياتُ أقوالِهم وكُفرانِهم بعْدَ استيفاءِ أصنافِها بذِكرِ جَزائِهم، وتَصويرِ فَظاعَتِه، بما في قولِه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ ... ﴾ مِن الإبهامِ المُفيدِ للتَّهويلِ، والمُناسَبةُ ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ [سبأ: ٢٩]؛ فإنَّه بعدَ أنْ أَلْقَمَهم الحَجَرَ بقولِه: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ [سبأ: ٣٠] إلخ، أتْبَعَه بتَصويرِ حالِهم فيه، والخِطابُ في قولِه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ ﴾ لكلِّ مَن يَصلُحُ لِتلقِّي الخِطابِ ممَّن تَبلُغُه هذه الآيةُ -على أحدِ القولينِ-، أي: ولو يَرى الرَّائي هذا الوقتَ، وجوابُ (لو) مَحذوفٌ للتَّهويلِ، وهو حَذْفٌ شائعٌ، وتَقديرُه: لَرأيتَ أمْرًا عَجَبًا[٤].

- والإتيانُ بالجُملةِ الَّتي أُضيفَ إليها الظَّرفُ اسميَّةً ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ ﴾؛ لإفادةِ طُولِ وُقوفِهم بيْن يَدي اللهِ طولًا يَستوجِبُ الضَّجَرَ، ويَملأُ القُلوبَ رُعبًا[٥].

- في قَولِه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ ﴾ حسُنَ الإظهارُ في موضعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٠٤).

الإضمارِ، فقد قال: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ ولم يَقُلْ: (ولو ترَى إذْ هم مَوقوفونَ)؛ إرادةً للعمومِ، بحيث يَشملُ هؤلاء المذكورينَ وغيرَهم، وللتَّسجيلِ عليهم بما يقتضيه وصْفُ الظُّلْمِ، إذْ إنَّه لو قيل: «ولو ترَى إذْ هم مَوقوفونَ» ما استَفَدْنا أنَّ هؤلاءِ كانوا ظالِمينَ، فلمَّا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ سَجَّل عليهم أنَّه ظُلْمٌ[١].

- وجِيءَ بالمُضارِعِ ﴿يَرْجِعُ﴾؛ لاستِحضارِ حالةِ المُجرِمين، وأنَّهم مَوقوفون عندَ ربِّهم، راجِعون بعضُهم إلى بعضٍ[٢].

- قولُه: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ هذه الجُملةُ وما ذُكِرَ بعْدَها مِن الجُمَلِ المَحكيَّةِ بأفعالِ القولِ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾[٣]. ومِن الفصاحةِ والبلاغةِ ذِكْرُ القولِ مجمَلًا ثم يُفَصَّلُ؛ فإنَّه إذا ذُكِرَ الأمرُ مجمَلًا تَشَوَّفَت النَّفْسُ إلى معناه والتَّفصيلِ فيه؛ حتَّى يَرِدَ إليها وهي مشتاقةٌ إليه[٤].

- وجِيءَ بالمُضارِعِ فيها لاستِحضارِ حالةِ القولِ؛ لأنَّها حالةٌ غريبةٌ؛ لِمَا فيها مِن جُرأةِ المُستضعَفينَ على المُستكبِرين، ومِن تَنبُّهِ هؤلاء مِن غَفلَتِهم عمَّا كان المُستكبِرون يُغْرُونهم به حتَّى أوقَعُوهم في هذا المأْزِقِ[٥].

- والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ للعَدِّ والحِسبانِ، أي: الَّذين يَعُدُّهم النَّاسُ ضُعفاءَ لا يُؤبَهُ بهم، وإنَّما يَعُدُّهم النَّاسُ كذلك؛ لأنَّهم كذلك، ويُعلَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٤، ٢٠٥).

أنَّهم يَستضعِفون أنفُسَهم بالأوْلَى؛ لأنَّهم أعلَمُ بما في أنفُسِهم. وقُوبِلَ الَّذين استُضْعِفوا بالَّذين استَكْبَروا، أي: عَدُّوا أنفُسَهم كُبراءَ، وهمْ ما عَدُّوا أنفُسَهم كُبراءَ إلَّا لِمَا يَقْتضي استِكبارَهم؛ لأنَّهم لو لم يَكونوا كذلك لَوُصِفوا بالغُرورِ والإعجابِ الكاذِبِ؛ ولهذا عُبِّرَ في جانبِ الَّذين استُضْعِفوا بالفِعلِ المَبنيِّ للمَجهولِ ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾، وفي جانبِ الَّذين استَكْبَروا بالفِعلِ المَبنيِّ للمعلومِ ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾[1].

- وحَرفُ (لولا) يُؤذِنُ بتَعليقِ حُصولِ جَوابِه على وُجودِ شرطِه، وقد جاء في هذه الآيةِ رَبْطُ التَّعليقِ بضَميرِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ فاقْتَضى أنَّ المُستضعَفينَ ادَّعَوْا أنَّ وُجودَ المستكبِرين مانعٌ لهم أنْ يَكونوا مُؤمِنينَ، فاقْتَضى أنَّ جميعَ أحوالِ المُستكبِرين كانت تُدَنْدِنُ حوْلَ مَنْعِهم مِن الإيمانِ، فكأنَّ وُجودَهم لا أثَرَ له إلَّا في ذلك مِن انقطاعِهم للسَّعيِ في ذلك المنْعِ، وهو ما دلَّ عليه قولُهم فيما بعْدُ: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٣٣]، مِن فَرْطِ إلْحاحِهم عليهم بذلك، وتَكريرِه في مُعظمِ الأوقاتِ، فكأنَّه استَغْرَقَ وُجودَهم؛ لأنَّ الوجودَ كَونٌ في أزْمنةٍ، فكان قولُهم هنا: ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ﴾ مُبالَغةً في شِدَّةِ حِرصِهم على كُفرِهم. وهذا وَجهٌ وَجيهٌ في الاعتبارِ البلاغيِّ، فمُقْتضى الحالِ مِن هذه الآيةِ هو حَذْفُ المُشبَّهِ[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ ...﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٠٥، ٢٠٦).

استِئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ، كأنَّه قيلَ: فماذا قال الَّذين استَكبَروا في الجوابِ؟ فقيل: قالوا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾؛ فجاءت هَمزةُ الاستفهامِ للإنكارِ(١).

- وجُرِّدَ الفِعلُ ﴿قَالَ﴾ عن العاطفِ؛ لأنَّه جاء على طَريقةِ المُجاوَبةِ، والشَّأنُ فيه حِكايةُ القولِ بدُونِ عطْفٍ(٢).

- وأُتِيَ بالمُسنَدِ إليه ﴿أَنَحْنُ﴾ قبْلَ المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿صَدَدْنَٰكُمْ﴾ في سياقِ الاستفهامِ الإنكاريِّ الَّذي هو في قوَّةِ النَّفيِ؛ لِيُفِيدَ تَخصيصَ المُسنَدِ إليه بالخبَرِ الفِعليِّ على طَريقةِ: ما أنا قلْتُ هذا؛ لأنَّ الغرَضَ إنكارُ أنْ يَكونوا همُ الصَّادِّينَ لهم عن الإيمانِ، وإثباتُ أنَّهم همُ الَّذين صَدُّوا بأنفُسِهم عنه؛ حيثُ أعرَضوا عن الهُدى وآثَروا التَّقليدَ عليه، وأنَّهم أُتُوا مِن قِبَلِ اختيارِهم(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ...﴾ لم تَجْرِ حِكايةُ هذا القولِ على طَريقةِ حِكايةِ المُقاوَلاتِ الَّتي تُحْكى بدونِ عطْفٍ على حُسنِ الاستعمالِ في حِكايةِ المُقاوَلاتِ؛ فجِيءَ بحَرْفِ العطْفِ في حِكايةِ هذه المَقالةِ، مع أنَّ المُستضعَفينَ جاوَبوا بها قولَ الَّذين استَكْبَروا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ [سبأ: ٣٢] الآيةَ؛ لِنُكتةٍ دَقيقةٍ، وهي التَّنبيهُ على أنَّ مَقالةَ المُستضعَفينَ هذه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦).

هي في المَعنى تَكملةٌ لِمَقالَتِهم المَحكيَّةِ بقولِه: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١]؛ تنبيهًا على أنَّ مَقالتَهم تَلقَّفَها الَّذين استَكْبَروا، فابتَدَرُوها بالجوابِ بحيثُ لو انتَظَروا تَمامَ كَلامِهم وأبْلَغُوهم رِيقَهم، لَحصَلَ ما فيه إبطالُ كَلامِهم، ولكنَّهم قاطَعوا كَلامَهم مِن فَرْطِ الجَزَعِ أنْ يُؤاخَذوا بما يَقولُه المُستضعَفون، وحُكِيَ قولُهم هذا بفِعلِ الماضي ﴿وَقَالَ﴾؛ لِمُزاوَجةِ كَلامِ الَّذين استَكْبَروا؛ لأنَّ قولَ الَّذين استُضْعِفوا هذا بعدَ أنْ كان تَكملةً لِقَولِهم الَّذي قاطَعَه المُستكبِرون، انقلَبَ جَوابًا عن تَبرُّؤِ المُستكبِرينَ مِن أنْ يَكونوا صَدُّوا المُستضعَفينَ عن الهُدى؛ فصار لِقَولِ المُستضعَفينَ مَوقعانِ يَقْتضي أحدُ الموقعَينِ عطْفَه بالواوِ، ويَقتضي الموقعُ الآخَرُ قَرْنَه بحرْفِ ﴿بَلْ﴾، وبزيادةِ ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، وأصلُ الكلامِ: يقولُ الَّذين استُضْعِفوا للَّذين استَكْبروا: لولا أنتُم لَكنَّا مُؤمِنين؛ إذ تَأمُرونَنا باللَّيلِ والنَّهارِ أنْ نَكفُرَ باللهِ... إلخ، فلمَّا قاطَعَه المُستكبِرون بكَلامِهم أُقحِمَ في كَلامِ المُستضعَفين حَرفُ ﴿بَلْ﴾؛ إبطالًا لِقولِ المُستكبِرين: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢]، وبذلك أفاد تَكملةَ الكلامِ السَّابقِ، والجوابَ عن تَبرُّؤِ المُستكبِرينَ، ولو لم يُعطَفْ بالواوِ لَمَا أفاد إلَّا أنَّه جوابٌ عن كَلامِ المُستكبِرين فقطْ، وهذا مِن أبدَعِ الإيجازِ[(١)].

- و﴿بَلْ﴾ للإضرابِ الإبطاليِّ؛ إبطالًا لِمُقتضى القَصرِ في قَولِهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ [سبأ: ٣٢]؛ فإنَّه واقعٌ في حيِّزِ نَفْيٍ؛ لأنَّ الاستِفهامَ الإنكاريَّ له مَعنى النَّفيِ[(٢)].

- وارتفَعَ ﴿مَكْرُ﴾ على الابتداءِ، والخبَرُ مَحذوفٌ دلَّ عليه مُقابَلةُ هذا الكلامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٠٨).

بكلامِ المُستكبِرينَ؛ إذ هو جوابٌ عنه؛ فالتَّقديرُ: بلْ مَكرُكم صَدَّنا، فيُفِيدُ القَصْرَ، أي: ما صَدَّنا إلَّا مَكرُكم، وهو نَقضٌ تامٌّ لِقولِهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ [سبأ: ٣٢]، وقولِهم: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢]، والمرادُ: أنَّهم مُلازِمونَ للمَكرِ ليلًا ونهارًا، وهو كِنايةٌ عن دَوامِ الإلحاحِ عليهم في التَّمسُّكِ بالشِّركِ(١).

- قولُه: ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ همْ هؤلاء الَّذين جَرَتْ عليهم الضَّمائرُ المُتقدِّمةُ. والإتيانُ بالاسمِ الظَّاهرِ دونَ أن يقولَ: (في أعناقِهم)، وكونُه مَوصولًا؛ للتَّنويهِ بذَمِّهم، وللدَّلالةِ على ما استَحقُّوا به الأغلالَ، وللإيماءِ إلى أنَّ ذلك جَزاءُ الكُفرِ؛ ولذلك عُقِّبَ بجُملةِ ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٢).

- قولُه: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا، كأنَّ سائلًا استعظَمَ هذا العذابَ، وهو تَعريضٌ بهم. والاستفهامُ بـ (هل) مُستعمَلٌ في الإنكارِ، باعتبارِ ما يَعقُبُه مِن الاستثناءِ(٣).

- وجُعِل جَزاءُ الكافرينَ هو ما كانوا يَعمَلونه على مَعنى التَّشبيهِ البليغِ، أي: مِثلُ ما كانوا يَعمَلون، وهذه المُماثَلةُ كِنايةٌ عن المُعادَلةِ فيما يُجازَوْنَه بمُساواةِ الجَزاءِ للأعمالِ الَّتي جُوزُوا عليها حتَّى كأنَّه نفْسُها، كقولِه تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾(٤) [النبأ: ٢٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٠، ٢١١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢١١).

الآيات (٢٤-٢٩)

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُتۡرَفُوهَآ﴾: أي: المُنَعَّمونَ فيها، الَّذين قد أبطَرَتْهم النِّعمةُ وسَعَةُ العَيشِ، وأصلُ (ترف): يدُلُّ على التَّوسُّعِ في النِّعمةِ[١].

﴿يَبۡسُطُ﴾: أي: يُوَسِّعُ ويُكَثِّرُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ[٢].

﴿وَيَقۡدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، ويُقَتِّرُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه، كأنَّما جُعِل رِزقُه بقَدْرٍ يَسيرٍ[٣].

﴿زُلۡفَىٰٓ﴾: أي: قُرْبى ومَنزِلةً، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على اندفاعٍ وتقدُّمٍ في

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

قُرْبٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿ٱلضِّعۡفِ﴾: أي: التَّضعيفِ والزِّيادةِ، وأصلُ (ضعف): يدُلُّ على أن يُزادَ الشَّيءُ مِثلَه[٢].

﴿ٱلۡغُرُفَٰتِ﴾: أي: المنازلِ الرَّفيعةِ والعاليةِ في الجنَّةِ، والغَرْفُ: رفْعُ الشَّيءِ وتَناوُلُه[٣].

﴿يُخۡلِفُهُۥ﴾: أي: يُعطيكم خلَفَه وبدَلَه، وأصلُه: مجيءُ شَيءٍ بعدَ شَيءٍ يقومُ مَقامَه[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى موقفَ المُترَفينَ مِن رُسلِ الله، وما كانوا يَتذَرَّعونَ به للبقاءِ على كفرِهم، فيقولُ: وما أرسَلْنا في قَريةٍ مِن رَسولٍ يُنذِرُ أهلَها عذابَ اللهِ إلَّا قال المُترَفونَ منهم: إنَّا كافِرونَ بما أرسَلَكم اللهُ به، وقالوا: نحن أكثَرُ منكم أموالًا وأولادًا، ولن يُعَذِّبَنا اللهُ!

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه أنْ يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك الكافِرينَ: إنَّ رَبِّي يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم، ولكِنَّ أكثَرَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧، ٣٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧).

النَّاسِ لا يَعلَمونَ، وما أموالُكم ولا أولادُكم هي الَّتي تُدنيكم مِنَّا قُربةً ومَنزِلةً إلَّا مَن آمَن وعَمِل صالِحًا، فيُضاعِفُ اللهُ لهم جَزاءَه، وهم مُقيمونَ في غُرُفاتِ الجنَّةِ آمِنونَ.

والَّذين يَجتَهِدونَ في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى وصَدِّ النَّاسِ عنها: أولئك مُحضَرونَ في العَذابِ.

قل -يا مُحمَّدُ-: إنَّ رَبِّي يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم، وما أنفَقْتُم مِن شَيءٍ فإنَّ اللهَ يُخلِفُ عليكم، واللهُ هو خَيرُ الرَّازِقينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذكَرَ قَولَ المُشرِكينَ لِرَسولِه: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [سبأ: ٣١] بعدَ أنْ طال به الأمَدُ في دعوتِهم حتَّى لَحِقَه مِن ذلك الغَمُّ الكثيرُ- سَلَّاه على ما ابتُلِيَ به مِن مُخالَفةِ مُترَفي قَومِه له، وعداوتِهم إيَّاه: بالتَّأسِّي بمَن قَبْلَه مِن الرُّسُلِ؛ فهو ليس بِدْعًا مِن بيْنِهم؛ فما مِن نبيٍّ بُعِث في قريةٍ إلَّا كذَّبَه مُترَفُوها، واتَّبَعه ضُعَفاؤُها[1].

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ ﴾.

أي: وما أرسَلْنا في قَريةٍ مِن رَسولٍ يُنذِرُ أهلَها عذابَ اللهِ إلَّا قال الأغنياءُ المترَفونَ منهم: إنَّا كافِرونَ بما أرسَلَكم اللهُ به[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: وقالوا أيضًا: نحن أكثَرُ منكم أموالًا وأولادًا، ولن يُعَذِّبَنا اللهُ؛ فلو لم يكُنْ راضيًا عنَّا وعن دينِنا وأعمالِنا، لَما أحسَنَ إلينا وبسَطَ لنا الرِّزقَ[1]!

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لأولئك الكافِرينَ: إنَّ رَبِّي يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم؛ فهو المتصَرِّفُ في تدبيرِ خَلقِه بحَسَبِ مَشيئتِه وحِكمتِه، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ[2].

ثمَّ صرَّح بإبطالِ ما قالوه، وأكْذَبهم فيه[3]، فقال:

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾.

أي: وليستْ أموالُكم ولا أولادُكم بالَّتي تُقرِّبُ إلى الله قُرْبَى، ولا تَزيدُكم عِندَنا رِفعةً ودَرَجةً؛ فليست بدَليلٍ على محبَّتِنا لكم، واعتِنائِنا بكم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٣، ٢١٤).
قيل: معنى قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يَعلَمون بأنَّ اللهَ يوسِّعُ الرِّزقَ ويُضَيِّقُه بحسَبِ مشيئتِه وحِكمتِه؛ فبَسْطُه لا يدُلُّ على محبَّةِ الله لعبدِه، ولا تضييقُه دالٌّ على بُغضِه له. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جريرٍ، والرَّازيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكِنْ يَنظُرُ إلى قُلوبِكم وأعمالِكم))[(١)].

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾.

أي: لكنِ المؤمِنونَ الَّذين عَمِلوا الصَّالحاتِ يُقَرِّبُهم عِندَنا إيمانُهم وعمَلُهم الصَّالحُ؛ فيُضاعِفُ اللهُ لهم جزاءَهم[(٢)].

﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

أي: وهم مُقيمونَ في غُرُفاتِ الجنَّةِ، آمِنونَ مِن كُلِّ شَرٍّ وأذًى[(٣)].

= القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

قال القرطبي: (﴿زُلْفَىٰٓ﴾ قال مجاهدٌ: أي: قُربَى. والزُّلْفَةُ: القربةُ. وقال الأخفشُ: أي: إزلافًا، وهو اسمُ المصدرِ، فيكونُ موضعُ «قُرْبَى» نصبًا، كأنَّه قال: بالَّتي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا تقريبًا). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥).

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

ممَّن قال بأنَّ الاستثناءَ هنا منقطِعٌ: القرطبيُّ، وابنُ القيِّم، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن اختار أنَّ الاستثناءَ هنا مُتَّصِلٌ: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٧).

قال السمعاني: (وقولُه: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنَّ هذا استثناءٌ مُنقطِعٌ، ومعناه: لَكِن [مَن] آمَن وعمِل صالحًا.

والقولُ الثَّاني: أنَّ معنى الآيةِ ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فأولئك تُقَرِّبُهم أموالُهم وأولادُهم إلى طاعةِ الله. وهذا أظهرُ القولينِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

قال ابن عثيمين: (مَن دخَل الجنَّةَ فهو آمِنٌ مِن كُلِّ مَخوفٍ: آمِنٌ مِن الموتِ، ومِن المرضِ، =

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥].

وقال سُبحانَه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ لَيَتراءَونَ أهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهم كما تتراءَونَ الكوكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ[١] مِن الأُفُقِ مِنَ المَشرِقِ أو المَغرِبِ؛ لِتَفاضُلِ ما بيْنَهم، قالوا: يا رسولَ اللهِ، تلك منازِلُ الأنبياءِ لا يَبلُغُها غَيرُهم؟! قال بلى والَّذي نفْسي بيَدِه، رِجالٌ آمَنوا باللهِ، وصَدَّقوا المُرسَلينَ))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرو رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ غُرفةً يُرى ظاهِرُها مِن باطِنِها، وباطِنُها مِن ظاهِرِها! فقال أبو موسى الأشعريُّ: لِمَن هي يا رَسولَ اللهِ؟ قال: لِمَن ألانَ الكلامَ، وأطعَمَ الطَّعامَ، وبات لله قائمًا والنَّاسُ نيامٌ))[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨﴾.

= ومِن انقِطاعِ النَّعيمِ، ومِن فسادِ الثِّمارِ، ومِن كُلِّ شَيءٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٢٤).

(١) الكوكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ: أي: الكوكَبَ الشَّديدَ الإضاءةِ، الباقيَ في الأُفقِ بعدَ انتشارِ ضَوءِ الفَجرِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٢٨٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) واللَّفظُ له.

(٣) أخرجه أحمد (٦٦١٥) واللفظ له، والطبراني (١٤/ ٨٠) (١٤٦٨٧)، والحاكم (٢٧٠).
صحَّحه على شرط الشيخينِ الحاكِمُ، وحَسَّن إسنادَه المُنْذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٢٨٩)، والهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٥٧)، والبُوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٨/ ٢٣٢) وقال: (وله شاهِدٌ)، وقال الألباني في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (٦١٧): (حسَنٌ صحيحٌ).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى جَزاءَ مَن آمَن؛ ذكَرَ عِقابَ مَن كَفَر؛ لِيَظهَرَ تَبايُنُ الجَزاءَينِ[١].

﴿ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨ ﴾.

أي: والَّذين يَجتَهِدونَ في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى وصَدِّ النَّاسِ عنها يَحسَبونَ أنَّهم يَفوتونَنا بأنفُسِهم ويُعجِزونَنا[٢]: أولئك سيُحضَرونَ العذابَ في جهنَّمَ، ويُعذَّبونَ فيها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٥).

قال ابنُ عاشورٍ: (جرَى الكلامُ على عادةِ القرآنِ في تعقيبِ التَّرغيبِ بالتَّرهيبِ وعكسِه...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٨).

(٢) قيل: معنى ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: أنَّهم يَحسَبونَ أنَّهم يَفوتونَنا بأنفُسِهم ويُعجِزونَنا فلا نَقدِرُ على مُعاقَبَتِهم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والخازنُ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٨٣).

قال ابن عاشور: (و﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مُغالِبينَ طَالِبينَ العَجْزَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٨).

وقال البِقاعي: (﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: طالبينَ تعجيزَها، أي: تعجيزَ الآتِينَ بها عن إنفاذِ مُراداتِهم بها، بما يُلقونَه مِن الشُّبَهِ، فيُضِلُّونَ غيرَهم بما أوسَعْنا عليهم وأعزَزْناهم به مِن الأموالِ والأولادِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٥-٢٣٨).

ممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ بالعذابِ: عذابُ جهنَّمَ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٢).

وقال ابن عثيمين: (رُبَّما يقولُ قائلٌ: إنَّهم في العذابِ مُحضَرون حتَّى في الدُّنيا، ويكونُ المرادُ بالعذابِ هنا العذابَ القَلبيَّ؛ لأنَّ الكافِرَ مهما نُعِّم في الدُّنيا فإنَّه في ألمٍ وعذابٍ في قَلبِه؛ لأنَّ =

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الحج: ٥١].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [الروم: ١٦].

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان افتِخارُ الكافِرينَ بكَثرةِ الأموالِ والأولادِ؛ أُخبِروا أنَّ ذلك جارٍ على ما شاء اللهُ، لا أنَّه على حَسَبِ الاستحقاقِ ولا التَّكرِمةِ ولا الهَوانِ[1].

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: إنَّ رَبِّي يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه[2]، ويُضَيِّقُه

= الكافِرَ لا يَشبَعُ مِن الدُّنيا، فهو في حُزنٍ خَوفًا مِن ذَهابِ الموجودِ، وفي همٍّ طلبًا لوجودِ المفقودِ؛ لأنَّه يريدُ أن تنموَ له الدُّنيا وتَزدهِرَ، ويخشى أيضًا مِن أن تفوتَ، بخِلافِ المؤمنِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٨).

وقال السمعاني: (﴿مُحۡضَرُونَ﴾ أي: مُدْخَلونَ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٥).

(٢) قيل: المرادُ بقولِه: ﴿عِبَادِهِۦ﴾ هنا: عمومُ النَّاسِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٩، ٢٤٠).

وذكر ابنُ عثيمين أنَّ العبوديَّةَ هنا هي العبوديَّةُ العامَّةُ؛ لأنَّه يُشاهَدُ أنَّ المؤمنينَ والكافرينَ على السَّواءِ في ذلك؛ فمِنهم مَن يَبسُطُ الله له الرِّزقَ، ومِنهم مَن يُضيِّقُه له. =

على مَن يشاءُ مِنهم؛ بحَسَبِ مَشيئتِه وحِكمتِه[١].

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾.

أي: وما أنفَقْتُم مِن نَفَقةٍ في الخَيرِ والبِرِّ فإنَّ اللهَ يُخلِفُ عليكم ما أنفَقْتُم، فيُعَوِّضُكم بدَلَه[٢].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ عزَّ وجلَّ: أنفِقْ أُنفِقْ عليك))[٣].

وعنه أيضًا رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما نقَصَتْ صَدَقةٌ مِن مالٍ))[٤].

وعنه أيضًا رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن يوم يُصبِحُ العِبادُ فيه إلَّا مَلَكانِ يَنزِلانِ، فيقولُ أحَدُهما: اللَّهمَّ أعطِ مُنفِقًا خَلَفًا،

= وقيل: المرادُ بهم: المؤمنون. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عطيَّة، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٩، ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤١-٢٤٣).

قال ابنُ عاشور: (ظاهِرُ الآيةِ أنَّ إخلافَ الرِّزقِ يقعُ في الدُّنيا وفي الآخِرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٠). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٣).

قال ابن عثيمين: (اللهُ عزَّ وجَلَّ يُعطيك بدلًا عنه بالكَمِّيَّةِ؛ إذا أنفَقْتَ عَشَرةً أعطاك عشَرةً، أو بالكيفيَّةِ؛ بمعنى: أنَّ الباقيَ يُنزِلُ اللهُ سبحانه وتعالى به البَرَكةَ حتَّى يكونَ مقابِلًا لِما أنفَقْتَ مَضمومًا إليه. والظَّاهرُ أنَّه يَشمَلُ الأمْرَينِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٢).

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

(٤) رواه مسلم (٢٥٨٨).

ويقولُ الآخَرُ: اللهُمَّ أعطِ مُمسِكًا تَلَفًا))[١].

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

أي: واللهُ هو خيرُ مَن يَرزُقُ عبادَه، ويُعطيهم مِن خزائِنِه الَّتي لا تَفنى[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ التَّحذيرُ مِن التَّرَفِ؛ حيث كان التَّرَفُ سَبَبًا للشَّرِّ والبَلاءِ والكُفرِ، وقد كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَنهى عن كثرةِ الإرفاهِ[٣]، ويأمُرُ بالاحتِفاءِ أحيانًا[٤]؛ فهو لا يَنهى عن الرَّفاهيةِ مُطلقًا، ولكنْ عن كَثرتِها، ويأمُرُ بالاحتِفاءِ، أي: أنْ نَمشيَ حُفاةً أحيانًا[٥].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه أنَّ الرِّزقَ في الدُّنيا لا تدُلُّ سَعَتُه وضِيقُه على حالِ المحِقِّ والمُبطِلِ؛ فكم مِن موسِرٍ شَقيٍّ، ومُعسِرٍ تَقيٍّ؛ فقِلَّةُ الرِّزقِ وضَنكُ العَيشِ، وكَثرةُ المالِ وخِصبُ العَيشِ: بالمشيئةِ مِن غيرِ اختِصاصٍ بالفاسِقِ والصَّالحِ[٦].

---

(١) رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٨).

(٣) الإرفاهُ: الإفراطُ في التَّنَعُّمِ مِن التَّدهينِ والتَّرجيلِ، ومنه أُخِذَت الرَّفاهيةُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٨٢٧).

(٤) يُنظر ما أخرجه أبو داود (٤١٦٠)، وأحمد (٢٣٩٦٩) من حديثِ فَضالةَ بنِ عُبَيدٍ رضي الله عنه. ذكر ثبوتَه الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (١/ ١٥)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤١٦٠)، وجوَّد إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٤/ ٢٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٢٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٩).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ أنَّ الأرزاقَ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويترتَّبُ على هذا فائدةٌ: وهي أنْ نَطْلُبَ الرِّزقَ مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّه هو الَّذي يَبْسُطُ الرِّزقَ ويَقْدِرُ، ويَتَفَرَّعُ على ذلك: ألَّا نَطلُبَ رزقَ اللهِ سُبحانَه وتعالى بمعاصيه؛ لأنَّ طَلَبَ رزقِ اللهِ بمعاصيه مُنافٍ للأدبِ، كيف تَطلُبُ الرِّزقَ ممَّن بيدِه الرِّزقُ بمعصيتِه؟! ولهذا حَذَّرَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن ذلك، فقال: ((أيُّها النَّاسُ، اتَّقوا الله، وأجْمِلُوا في الطَّلَبِ؛ فإنَّ نفْسًا لن تموتَ حتَّى تَستوفيَ رِزْقَها، وإنْ أبطَأ عنها، فاتَّقوا الله، وأجْمِلوا في الطَّلَبِ))[١]، يعني: اطلُبوا الرِّزقَ طلبًا جميلًا -وهو ما وافقَ الشَّرعَ-، وعلى هذا فطلَبُ الرِّزقِ بالغشِّ والكذِبِ والظُّلْمِ طلَبٌ غيرُ مشروعٍ؛ بل وينافي الأدبَ مع اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أنَّ كثرةَ الأموالِ والأولادِ لا تَستلزِمُ القُرْبَ إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّ مِن النَّاسِ مَن يكونُ كثيرَ المالِ والولدِ وهو مِن أبْعَدِ النَّاسِ عن اللهِ سُبحانَه وتعالى! ومِن النَّاسِ مَن يكونُ قليلَ المالِ والولدِ وهو مِن أقربِ النَّاسِ إلى اللهِ تعالى[٣]! إنَّما الَّذي يُقرِّبُ مِن الله زُلْفى: الإيمانُ بما جاء به المرسَلونَ، والعملُ الصَّالحُ الَّذي هو مِن لَوازمِ الإيمان؛ لذا قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[٤].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٣١٠٩)، والحاكم (٢١٣٥).

صحَّحه الحاكمُ على شرطِ مسلمٍ، وحسَّنه ابنُ عبد البرِّ في ((التمهيد)) (٢٤/ ٤٣٥)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٤٤). والحديثُ رُويَ مِن طرقٍ أخرى.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ الحَثُّ على الإنفاقِ، فمَن أنفَق في الخيرِ فالخَلَفُ مضمونٌ له[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ دلَّ بإفرادِ النِّذارةِ عن البِشارةِ أنَّ غالِبَ الأُمَمِ الماضيةِ مِن أهلِ النِّذارةِ؛ لِتَظهَرَ مزيَّةُ هذه الأمَّةِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَبۡسُطُ﴾ ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ لله سُبحانَه[٣].

٣- قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فأكثَرُ النَّاسِ تَلتبِسُ عليهم الأُمورُ فيَخلِطون بيْنَها، ولا يَضَعون في مَواضعِها زَيْنَها وشَيْنَها، وقد أفاد هذا أنَّ حالَهم غيرُ دالٍّ على رِضا اللهِ عنهم ولا على عَدَمِه، وهذا الإبطالُ هو ما يُسمَّى في عِلمِ المُناظَرةِ نقْضًا إجماليًّا[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أنَّ الجزاءَ على الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ مُضاعَفٌ[٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ فالباءُ في قَولِه: ﴿بِمَا﴾ باءُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٢، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٣، ٢١٤).

والنَّقضُ عندَ الجدَليِّينَ: هو تخلُّفُ الحُكمِ عن الدَّليلِ. ويَنقسِمُ إلى قِسْمَينِ: إجماليٍّ، وتفصيليٍّ؛ فالإجماليُّ: تخلُّفُه للقدحِ في بعضِ مقدِّماتِه لا على التَّعيينِ. والتَّفصيليُّ: للقدحِ في مقدِّمةٍ مُعَيَّنةٍ. يُنظر: ((الغيث الهامع شرح جمع الجوامع)) لأبي زرعة العراقي (ص: ٦٣١)، ((الفوائد السنية في شرح الألفية)) للبرماوي (٥/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٤).

السَّببيَّةِ، أي: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعَل العمَلَ سببَ دُخولِ الجَنَّةِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أنَّ مَنازِلَ الجنَّةِ عاليةٌ، فالغُرْفةُ: المنزلُ العالي[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ تمامُ رُبوبيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وسُلطانِه؛ لكَونِه يَبسُطُ ويَقْدِرُ، ولا أحدَ يُمكِنُ أنْ يَعترِضَ عليه، وحتَّى لو اعتَرَضَ عليه فلا يَنفَعُ هذا الاعتِراضُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى مُدَبِّرٌ لِمَا يَشاءُ[٣].

٨- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ نَعيمَ الآخِرةِ لا يُنافي نِعمةَ الدُّنيا، فالصَّالِحونَ قد يحصُلُ لهم في الدُّنيا النِّعَمُ مع القطْعِ بحصولِ النَّعيمِ لهم في العُقْبَى بناءً على الوعدِ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ رَدٌّ على الجَبْريَّةِ -وهم الجَهمِيَّةُ- حيث أضاف الفِعلَ إلى العَبدِ، والجَبريَّةُ يقولون: إنَّ الإنسانَ مَسلوبُ القُدرةِ والاختيارِ، وفِعلُه لا يُنسَبُ إليه إلَّا على سبيلِ المَجازِ، وإلَّا فإنَّه لا اختيارَ له في فِعلِه[٥]!

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أنَّ أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ للهِ سُبحانَه وتعالى، وفيها رَدٌّ على القَدَريَّةِ؛ فالعبدُ يأتيه رزقُه كثيرًا مِن كَسْبِه: مِن تجارةٍ أو حَرْثٍ أو عمَلٍ وغيرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٢، ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٥).

ذلك، ففيه دليلٌ على أنَّ فِعلَ العبدِ مخلوقٌ لله سُبحانَه وتعالى[١].

١١- قال تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ بصيغةِ التَّفضيلِ؛ نَظرًا إلى أنَّ بَعضَ المخلوقينَ يَرزُقُ بَعضَهم، قال تعالى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ولا شَكَّ أنَّ فَضْلَ رَزقِ اللهِ خَلْقَه على رَزقِ بعضِ خَلقِه بعضَهم: كفَضلِ ذاتِه وسائرِ صفاتِه على ذواتِ خَلقِه وصِفاتِهم[٢]، وأيضًا فرِزقُ غيرِ اللهِ تعالى هو مِن رزقِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ الَّذي يُعطي إنَّما يُعطي مِن رزقِ اللهِ تعالى الَّذي أعطاه، وأيضًا فإنَّ رزقَ غيرِ اللهِ سُبحانَه وتعالى رِزقٌ محدودٌ، ليس شاملًا لكلِّ أحَدٍ، وليس شامِلًا لكلِّ زمَنٍ، بخِلافِ رِزقِ اللهِ تعالى؛ فهو رِزقٌ شامِلٌ عامٌّ، كثيرٌ دائِمٌ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ اعتِراضٌ للانتِقالِ إلى تَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممَّا ابتُلِيَ به مِن المُشرِكينَ مِن أهْلِ مكَّةَ، وبخاصَّةٍ ما قابَلَه به سادتُهم وكُبَراؤهم مِن التَّأليبِ عليه، بتَذكيرِه أنَّ تلك سُنَّةُ الرُّسلِ مِن قبْلِه؛ فليس في ذلك غَضاضةٌ عليه، والتَّعريضِ بقَومِه الَّذين عادَوه بتَذكيرِهم عاقبةَ أمثالِهم مِن أهْلِ القُرى الَّتي كذَّبَ أهْلُها برُسلِهم وأغْراهم بذلك زُعماؤُهم[٤].

- وتَخصيصُ المُتنعِّمينَ بالتَّكذيبِ في قولِه: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١١، ٢١٢).

بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾؛ لأنَّ الدَّاعيَ إليه التَّكبُّرُ والمُفاخَرةُ بزَخارفِ الدُّنيا، والانهماكُ في الشَّهواتِ، والاستهانةُ بمَن لم يَحْظَ منها؛ ولذلك ضَمُّوا التَّهكُّمَ والمُفاخَرةَ إلى التَّكذيبِ فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[1].

- وفي بناءِ قولِه: ﴿مُتۡرَفُوهَآ ﴾ للمَفعولِ تَعريضٌ بالتَّذكيرِ بنِعمةِ اللهِ عليهم؛ لعلَّهم يَشكُرونَها، ويُقلِعون عن الإشراكِ به[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ تَقفيةٌ مِن الكافرينَ على صَريحِ كُفْرِهم بالقُرآنِ وغيرِه مِن الشَّرائعِ، بكلامٍ كَنَّوْا به عن إبطالِ حَقِّيَّةِ الإسلامِ بدَليلٍ سُفسطائيٍّ؛ فجَعَلوا كثرةَ أموالِهم وأولادِهم حُجَّةً على أنَّهم أهلُ حَظٍّ عندَ اللهِ تعالى! وهذا مِن تَمويهِ الحَقائقِ بما يَحُفُّ بها مِن العوارضِ، فجَعَلوا ما حَفَّ بحالِهم في كُفرِهم مِن وَفرةِ المالِ والولَدِ حُجَّةً على أنَّهم مَظِنَّةُ العِنايةِ عندَ اللهِ، وأنَّ ما هم عليه هو الحقُّ. وهذا تَعريضٌ منهم بعَكسِ حالِ المسلمينَ؛ بأنَّ حالَ ضَعفِ المُسلمين، وقِلَّةِ عَدَدِهم، وشَظَفِ عَيْشِهم؛ حُجةٌ على أنَّهم غيرُ مَحظوظينَ عندَ اللهِ[3]!

- ولَمَّا كانت الأموالُ في الأغلَبِ سَبَبًا لكَثرةِ الأولادِ بالاستِكثارِ مِن النِّساءِ الحرائِرِ والإماءِ؛ قدَّمَها، فقال: ﴿أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا ﴾[4].

- وقولُ الكافرينَ: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ كالنَّتيجةِ لِقَولِهم: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا ﴾، وإنَّما جِيءَ فيه بحَرْفِ العطْفِ؛ لِتَرجيحِ جانبِ الفائدةِ المُستقِلَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢١٢، ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١٣).

على جانبِ الاستنتاجِ الَّذي يُومِئُ إليه ما تَقدَّمَه، وهو قولُهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾؛ فحصَلَ مِن هذا النَّظمِ استدلالٌ لِصِحَّةِ دِينِهم، ولإبطالِ ما جاء به الإسلامُ، ثمَّ الافتخارُ بذلك على المسلمينَ والضَّعةِ لجانبِ المسلمينَ، بإشارةٍ إلى قِياسٍ استثنائيٍّ بِناءً على مُلازمةٍ مَوهومةٍ، وكأنَّهم استَدَلُّوا بانتفاءِ التَّعذيبِ على أنَّهم مُقرَّبونَ عندَ اللهِ، بِناءً على قياسِ مُساواةٍ مَطْويٍّ، فكأنَّهم حَصَروا وسائلَ القُربِ عندَ اللهِ في وَفرةِ الأموالِ والأولادِ[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ خَصَّ هذه السُّورةَ بذِكرِ الرَّبِّ في قولِه: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ وذلك لأنَّه تَكرَّرَ فيها مرَّاتٍ كثيرةً؛ منها: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ [سبأ: ٣]، و﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]، و﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، و﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ [سبأ: ٢٦]، و﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[2] [سبأ: ٣١].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّه لم يَذكُرْ هنا ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، وذكَرَه بعْدَه ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]؛ لأنَّ المُرادَ بهمْ هنا الكُفَّارُ. وذكَرَهُ مع الثَّاني؛ لأنَّهم المُؤمِنون[3]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٩)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾

- جُملةُ ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مِن جِهَتِه عزَّ وعَلا خُوطِبَ به النَّاسُ. ويجوزُ أن تكونَ عطْفًا على جُملةِ ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سبأ: ٣٦]؛ فيكون ممَّا أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَقولَه لهم ويُبلِّغَه عن اللهِ تعالى، ويكون في ضَميرِ ﴿عِندَنَا﴾ الْتفاتٌ؛ مُبالَغةً في تَحقيقِ الحقِّ وتَقريرِ ما سبَقَ، وتكون ضمائرُ الخِطابِ عائدةً إلى الَّذين قالوا: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٥]؛ وهو ارتقاءٌ مِن إبطالِ المُلازَمةِ إلى الاستِدلالِ على أنَّهم لَيسوا بمَحلِّ الرِّضا مِن اللهِ تعالى، على طَريقةِ النَّقضِ التَّفصيليِّ؛ فقد أبطَلَتِ الآيةُ أنْ تكونَ أموالُهم وأولادُهم مُقرِّبةً عندَ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يُقرِّبُ إلى اللهِ إلَّا الإيمانُ والعمَلُ الصَّالحُ(١).

- وفي قولِه: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا﴾ جيءَ بالجُملةِ المَنفيَّةِ في صِيغةِ حَصرٍ بتَعريفِ المُسنَدِ إليه والمُسنَدِ؛ لأنَّ هذه الجُملةَ أُريدَ منها نَفْيُ قولِهم: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، أي: لا أنتُم؛ فكان كلامُهم في قُوَّةِ حَصْرِ التَّقريبِ إلى اللهِ في كَثرةِ الأموالِ والأولادِ، فنُفِيَ ذلك بأسْرِه. وتَكريرُ (لا) النَّافيةِ بعْدَ العاطفِ في ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم﴾؛ لِتَأكيدِ تَسلُّطِ النَّفيِ على كِلا المَذكورَينِ؛ لِيَكونَ كلُّ واحدٍ مَقصودًا بنَفْيِ كَونِه ممَّا يُقرِّبُ إلى اللهِ، ومُلتَفتًا إليه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٥).

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ في الإخبارِ عمَّن آمَنَ؛ للتَّنويهِ بشَأنِهم، وللإيذانِ بعُلُوِّ رُتبتِهم وبُعدِ مَنزلتِهم في الفضْلِ، والتَّنبيهِ على أنَّهم جَدِيرون بما يَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ. وكُنِّيَ عن التَّقريبِ بمُضاعَفةِ الجزاءِ؛ لأنَّ ذلك أمارةُ كَرامةِ المَجزيِّ عندَ اللهِ، أي: أولئك الَّذين يُقرَّبون زُلْفى، فيُجْزَون جَزاءَ الضِّعفِ على أعمالِهم لا على وَفرةِ أموالِهم وأولادِهم؛ فالاستدراكُ وَرَدَ على جَميعِ ما أفادَهُ كلامُ المشركينَ مِن الدَّعوى الباطلةِ والفَخرِ الكاذبِ؛ لِرَفْعِ تَوهُّمِ أنَّ الأموالَ والأولادَ لا تُقرِّبُ إلى اللهِ بحالٍ؛ فإنَّ مِن أموالِ المؤمنينَ صَدقاتٍ ونَفَقاتٍ، ومِن أولادِهم أعوانًا على البِرِّ، ومُجاهِدينَ، وداعِينَ لآبائِهم بالمَغفرةِ والرَّحمةِ[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ...﴾ تَعقيبٌ للتَّرغيبِ بالتَّرهيبِ؛ فكان بمَنزلةِ الاعتراضِ بيْنَ الثَّناءِ على المؤمنينَ الصَّالحينَ، وبيْنَ إرشادِهم إلى الانتفاعِ بأمْوالِهم للقُرْبِ عندَ اللهِ تعالى بجُملةِ ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ [سبأ: ٣٩] إلخ[2].

- واسمُ الإشارةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم استَحقُّوا الجَحيمَ لِأجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ. و﴿مُحۡضَرُونَ﴾ هنا كِنايةٌ عن المُلازَمةِ؛ فهو ارتقاءٌ في المعنى الَّذي دلَّت عليه أداةُ الظَّرفيَّةِ مِن إحاطةِ العذابِ بهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٦- قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ هذه الآيةُ تقريرٌ لمعنى قوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾[1].

- وفي قوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ أتْبَعَ إبطالَ أنْ تكونَ الأموالُ والأولادُ بذاتِهما وَسيلةَ قُرْبٍ لَدى اللهِ تعالى؛ ردًّا على مَزاعمِ المُشركين بما يُشبهُ مَعنى الاستدراكِ على ذلك الإبطالِ؛ مِن إثباتِ انتفاعٍ بالمالِ للتَّقرُّبِ إلى رِضا اللهِ إنِ استُعْمِلَ في طَلبِ مَرضاةِ اللهِ؛ تَفصيلًا لِمَا أُشِيرَ إليه إجمالًا مِن أنَّ ذلك قد يكونُ فيه قُربةٌ إلى اللهِ بقولِه: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[2] [سبأ: ٣٧].

- وفي قولِه: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ تَشريفٌ للمؤمنينَ بإضافتِهم إلى ضَميرِ الجلالةِ، وفي هذا امتنانٌ على الَّذين يُبسَطُ عليهم الرِّزقُ؛ بأنْ جمَعَ اللهُ لهم فضْلَ الإيمانِ وفضْلَ سَعةِ الرِّزقِ، وتَسليةٌ لِلَّذين قُدِرَ عليهم رِزْقُهم؛ بأنَّهم نالوا فضْلَ الإيمانِ وفضْلَ الصَّبرِ على ضِيقِ الحياةِ[3]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وأيضًا في تَعليقِ ﴿لَهُۥ﴾ بـ(يَقْدِرُ) إيماءٌ إلى أنَّ ذلك القَدْرَ لا يَخْلو مِن فائدةٍ للمَقدورِ عليه رِزقُه، وهي فائدةُ الثَّوابِ على الرِّضا بما قُسِمَ له، والسَّلامةِ مِن الحِسابِ عليه يومَ القِيامةِ، وفي ذلك تَوطئةٌ لقولِه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾؛ حثًّا على الإنفاقِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ترغيبٌ للأغنياءِ في الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ؛ ولذلك جُعِلَ الوَعدُ بإخلافِ ما يُنفِقُه المرْءُ كِنايةً عن التَّرغيبِ في الإنفاقِ؛ لأنَّ وَعْدَ اللهِ بإخلافِه مع تَأكيدِ الوَعدِ يَقْتضي أنَّه يُحِبُّ ذلك مِن المُنفِقينَ، وأكَّدَ ذلك الوعدَ بصِيغةِ الشَّرطِ، وبجَعْلِ جُملةِ الجوابِ اسميَّةً، وبتَقديمِ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعليِّ بقولِه: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾؛ ففي هذا الوَعدِ ثلاثةٌ مُؤكِّداتٍ دالَّةٌ على مَزيدِ العِنايةِ بتَحقيقِه؛ لِيَنتقِلَ مِن ذلك إلى الكِنايةِ عن كَونِه مَرْغوبَه تعالى[٢].

- والجارُّ والمَجرورُ ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ بَيانٌ لِمَا في (ما) مِن العُمومِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تَذييلٌ للتَّرغيبِ، والوعْدِ بزيادةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٩، ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الآيات (٤٠-٤٢)

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ٤٢﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ أولئكَ المشركينَ يومَ القيامةِ: ويَومَ يَحشُرُ اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ جَميعًا، ثُمَّ يَقولُ للمَلائِكةِ: أهؤلاء المُشرِكونَ كانوا يَعبُدونَكم مِن دوني؟! قال الملائِكةُ: نُنَزِّهُك -يا رَبَّنا- نحنُ بُرآءُ مِن المُشرِكينَ؛ فأنت ولِيُّنا مِن دُونِهم، بل كانوا يَعبُدونَ الجِنَّ، أكثَرُهم بهم مُؤمِنون!

فيُقالُ لهم: فاليومَ لا يَملِكُ بَعضُكم لبعضٍ نَفعًا ولا ضَرًّا، ونقولُ للظَّالِمينَ: ذوقوا عذابَ النَّارِ الَّتي كُنتُم تُكَذِّبونَ بها في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن أنَّ حالَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم كحالِ مَن تقدَّمَه مِن الأنبياءِ، وحالَ قَومِه كحالِ مَن تقدَّم مِن الكُفَّارِ، وبيَّنَ بُطلانَ استِدلالِهم بكثرةِ أموالِهم وأولادِهم- بيَّن ما يكونُ مِن عاقبةِ حالِهم[1].

وأيضًا لَمَّا أبطَلَ اللهُ تعالى شُبهةَ الكافِرينَ، فعُلِمَ بذلك أنَّ الأمرَ كُلَّه له، وأنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١١).

في محلِّ الخَطَرِ، وكان قد بَقِيَ مِن شُبَهِهم أنَّهم يقولونَ: نحن نعبُدُ الملائكةَ فهم يَشفَعونَ لنا، وكان الأنبياءُ عليهم السَّلامُ لا يُنكِرونَ أنَّ الملائِكةَ مُقرَّبون- أبطَلَ ما يَتعلَّقونَ به منهم، وبيَّنَ أنَّه لا أمرَ لهم، وأنَّهم بَريئون منهم[1].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: ويومَ[2] يَحشُرُ اللهُ المُشرِكينَ فيَجمَعُهم يومَ القيامةِ جميعًا[3]، ثمَّ يَقولُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١٩).

(٢) قيل: الظَّرفُ هنا متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ. وممَّن قال بهذا القولِ: مكِّي، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٨).

قال ابن عثيمين: (يحتملُ أنَّ المعنى: اذكُرْ في نفْسِك هذا اليومَ، أو اذكُرْ لغيرِك هذا اليومَ. وكِلاهما حقٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٨).

وقيل: هذا مُتَّصِلٌ بقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ [سبأ: ٣١]، أي: ولو تَراهم أيضًا يومَ يَحشُرُهم جميعًا. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢١).

(٣) قيل: المرادُ بقولِه: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾: هؤلاء الكفَّارُ بالله. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٩٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥٠).

قال ابنُ عاشور: (وضميرُ الغَيبةِ مِن ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ عائدٌ إلى ما عاد عليه ضميرُ ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [سبأ: ٣٥] الَّذي هو عائدٌ إلى الَّذين كفروا مِن قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [سبأ: ٣١]. والكلامُ كلُّه مُنتظمٌ في أحوالِ المشركينَ... ولفظُ ﴿جَمِيعًا﴾ يَعُمُّ أصنافَ المشركينَ على اختِلافِ نِحَلِهم واعتقادِهم في شِرْكِهم؛ فقد كان مُشرِكو العربِ نِحَلًا شَتَّى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢١).

وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ بهم المشركون: ابنُ الجوزي، والرَّسْعَنيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٥٣).

وقيل: المرادُ: المكَذِّبون، مَن تقدَّمَ ومَن تأخَّرَ. وممَّن اختاره: الرَّازي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٦). =

للمَلائِكةِ: أهؤلاء المُشرِكونَ كانوا يَعبُدونَكم مِن دوني[١]؟

﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١ ﴾.

﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾.

أي: قال الملائِكةُ: نُنَزِّهُك -يا رَبَّنا- تنزيهًا عن أن يَستَحِقَّ العبادةَ أحَدٌ سِواك، ونحن بُرآءُ مِن المُشرِكينَ ومِن عبادتِهم، وأنت وليُّنا الَّذي نَتَولَّاه ونُطيعُه ونَعبُدُه وَحْدَه[٢]!

﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾.

أي: بل كان هؤلاء المُشرِكونَ يَعبُدونَ الجِنَّ، وأكثَرُهم مُؤمِنونَ بالجِنِّ؛

= وقيل: المرادُ: العابِدونَ والمعبودونَ مِن دونِ الله. وممَّن قال بهذا القولِ: القرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

ممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ: الملائكةُ ومَن عبَدَها: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٣).

وقال يحيى بن سلام: (﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ﴾ يعني: المشركين وما عبَدوا). ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٦٧).

وقال البيضاوي: (﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ﴾ المُستكبِرينَ والمُستضعَفينَ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٩).

وقال البِقاعي: (وعمَّ التَّابعَ والمتبوعَ بقولِه: ﴿جَمِيعٗا ﴾). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٥١، ٢٥٢).

فيُصَدِّقونَهم ويُطيعونَهم، ويُذْعِنونَ لهم، ويَنقادونَ إليهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢).

قال ابنُ عطية: (وعبادةُ البَشَرِ للجِنِّ هي فيما نعرِفُه نحن بطاعتِهم إيَّاهم، وسماعِهم مِن وَسوستِهم وإغوائِهم؛ فهذا نوعٌ من العبادةِ، وقد يجوزُ إن كان في الأُمَمِ الكافرةِ مَن عبَدَ الجِنَّ، وفي القرآنِ آياتٌ يَظهَرُ منها أنَّ الجِنَّ عُبِدَت؛ في سورة الأنعام وغيرِها). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٤). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٠٧) و (٧/ ٤٣).

وقال ابنُ القيِّم: (ولَمَّا عبَدَ المشركون الملائكةَ بزعمِهم وقعَتْ عبادتُهم في نفْسِ الأمرِ للشَّياطين، وهم يَظُنُّون أنَّهم يَعبُدون الملائكةَ، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

فالشَّيطانُ يَدعو المُشرِكَ إلى عبادتِه، ويُوهِمُهم أنَّه مَلَكٌ، وكذلك عُبَّادُ الشَّمسِ والقمرِ والكواكبِ، وهي الَّتي تُخاطِبُهم، وتقضي لهم الحوائجَ؛ ولهذا إذا طلعَتِ الشَّمسُ قارنَها الشَّيطانُ، فيَسجُدُ لها الكفَّارُ، فيقَعُ سُجودُهم له، وكذلك عندَ غُروبِها. وكذلك مَن عبَدَ المسيحَ وأمَّه لم يَعبُدْهما، وإنَّما عبَدَ الشَّيطانَ؛ فإنَّه يَزعُمُ أنَّه يَعبُدُ مَن أمَرَه بعبادتِه وعبادةِ أمِّه، ورَضيَها لهم، وأمَرَهم بها، وهذا هو الشَّيطانُ الرَّجيمُ، لا عبدُ اللهِ ورسولُه، فنَزِّلْ هذا كلَّه على قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

فما عبَدَ أحدٌ مِن بني آدَمَ غيرَ الله -كائنًا مَن كان- إلَّا وقعَتْ عِبادتُه للشَّيطانِ، فيَستمتِعُ العابدُ بالمعبودِ في حُصولِ غرَضِه، ويَستمتِعُ المعبودُ بالعابدِ في تعظيمِه له، وإشراكِه مع الله الَّذي هو غايةُ رِضا الشَّيطانِ). ((الجواب الكافي)) (ص: ١٤٣). ويُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ١٩٢).

كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بطَلَت تمسُّكاتُ الكافِرينَ، وتقطَّعَت تعلُّقاتُهم؛ تسَبَّب عن ذلك تقريعُهم النَّاشِئُ عنه تنديمُهم(١).

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

أي: فاليومَ لا يَقدِرُ بَعضُكم على نفعِ بَعضٍ أو ضرِّه(٢)؛ فالأمرُ كلُّه لله(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢١).

(٢) قيل: هو خِطابٌ مِن الله تعالى للملائِكةِ، والمعنى: فاليومَ لا يَملِكُ بعضُكم -أيُّها الملائكةُ- لِلَّذين كانوا في الدُّنيا يَعبُدونَكم، [ولا الَّذين كانوا يَعبُدونَكم لكم]: نفعًا يَنفَعونَكم به، ولا ضَرًّا يَنالونَكم به، أو تَنالونَهم به. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، وأبو السعودِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧).

وقيل: الأظهَرُ أنَّ هذا مِن خطابِ اللهِ تعالى المُشرِكينَ والجِنَّ. وممَّن ذكر ذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ مِن خِطابِ الملائكةِ للفَريقينِ بعدَ أداءِ الشَّهادةِ عليهم. وممَّن جوَّز هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٤).

قال ابن عطية: (قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ وفي الكلامِ حذْفٌ، تقديرُه: فيُقالُ لهم -أي: مَن عبَدَ ومَن عُبِد-: اليومَ لا ﴿يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٤).

وقال ابن عاشور: (والمِلْكُ هنا بمعنَى: القُدرةِ، أي: لا يَقْدِرُ بعضُكم على ضرٍّ أو نفعِ بعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

ممَّن فسَّر النَّفعَ بالشَّفاعةِ والنَّجاةِ، والضرَّ بالعذابِ والهلاكِ: القرطبيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٠).

وممَّن فسَّر النَّفعَ بالشَّفاعةِ، والضرَّ بالتَّعذيبِ: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والخازنُ، والعُلَيمي. =

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

أي: ونَقولُ لِمَنْ وَضَعوا العبادةَ في غَيرِ مَوضِعِها، وجَعَلوها لغيرِ مَن تنبغي أن تكونَ له وَحْدَه: ذُوقوا عذابَ النَّارِ الَّتي كنتُم تُكَذِّبونَ بها في الدُّنيا[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أنَّه ينبغي تذكيرُ النَّاسِ بيومِ المعادِ؛ ووجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ قولَه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: «اذْكُرْ يومَ يحشرون» -على قولٍ في التَّفسيرِ-، أي: اذكُرْ لغيرِك أو اذكُرْ في نفْسِك، فيَشملُ أيضًا تذكيرَ النَّفْسِ، فإذا غَفَلَتْ نفْسُ الإنسانِ فيَنبغي أنْ يُذَكِّرَها الموتَ ويومَ الحشرِ؛ يُذَكِّرها مآلَه كلَّما رَكَنَتْ إلى الدُّنيا، وأرادتِ الانغماسَ فيها، فلْيُذَكِّرْها اليومَ المشهودَ الَّذي يُجْمَعُ له النَّاسُ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ كذا كُلُّ مَن تقرَّبَ إلى شَخصٍ بمعصيةِ الله، يُقَسِّي اللهُ قَلْبَه عليه، ويُبَغِّضُه فيه؛ فيُجافيه ويُعاديه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ جوازُ المسألةِ عمَّا السَّائِلُ أعلَمُ به مِن المَسؤولِ[٤].

= يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٠، ٥٢١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٩١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ إثباتُ القولِ والكلامِ للهِ تعالى، وهو كلامٌ حقيقيٌّ بحروفٍ وأصواتٍ مسموعةٍ؛ وهو غيرُ مخلوقٍ، كما هو مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ[١].

٣- في قَولِه تعالى حكايةً عن الملائكةِ: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ بيانُ ما عندَ الملائكةِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن تعظيمِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، حيثُ قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهًا عن أنْ يكونَ لك شريكٌ، لا مِنَّا ولا مِن غيْرِنا[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: لو قال قائلٌ: جَميعُهم كانوا تابعينَ للشَّياطينِ، فما وجْهُ قَولِه: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾؛ فإنَّه يُنبئُ أنَّ بَعضَهم لم يؤمِنْ بهم، ولم يُطِعْ لهم؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ الملائِكةَ احتَرَزوا عن دعوى الإحاطةِ بهم، فقالوا: ﴿أَكْثَرُهُم﴾؛ لأنَّ الَّذين رأَوْهم واطَّلَعوا على أحوالِهم كانوا يَعبُدونَ الجِنَّ ويُؤمِنونَ بهم، ولعلَّ في الوجودِ مَن لم يُطلِعِ اللهُ الملائِكةَ عليه مِنَ الكُفَّارِ.

الوَجهُ الثَّاني: هو أنَّ العبادةَ عمَلٌ ظاهِرٌ، والإيمانَ عمَلٌ باطِنٌ، فقالوا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾؛ لاطِّلاعِهم على أعمالِهم، وقالوا: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ عندَ عمَلِ القَلبِ؛ لئلَّا يَكونوا مُدَّعينَ اطِّلاعَهم على ما في القُلوبِ؛ فإنَّ القَلبَ لا اطِّلاعَ عليه إلَّا للهِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٣] [الأنفال: ٤٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سبأ: ٣١]؛ استِكمالًا لتصويرِ فَظاعةِ حالِهم يومَ الوَعدِ الَّذي أنكَروه، تَبَعًا لِما وُصِفَ مِن حالِ مُراجعةِ المُستَكبرينَ منهم والمُستَضعَفينَ، فوصَفَ هنا افتِضاحَهم بتَبرُّؤِ الملائكةِ منهم، وشَهادتِهم عليهم بأنَّهم يَعبُدونَ الجِنَّ[(١)]. وذلك على قولٍ.

- وفيه الاقتصارُ على تَقريرِ الملائكةِ واستِشهادِهم على المُشرِكينَ؛ لأنَّهم أشرَفُ شُركائِهم، وهم الصَّالِحون للخِطابِ منهم، ولأنَّ عِبادتَهم مَبدَأُ الشِّركِ وأصلُه، ولأنَّ إبطالَ إلهيَّةِ الملائكةِ يُفيدُ إبطالَ إلهيَّةِ ما هو دُونَها ممَّن عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ بدَلالةِ الفَحْوى، أي: بطَريقِ الأَوْلى؛ فإنَّ ذلك التَّقريرَ مِن أهَمِّ ما جُعِلَ الحشرُ لِأجْلِه. وتَوجيهُ الخِطابِ إلى الملائكةِ بهذا الاستفهامِ مُستعمَلٌ في تَقريعِ المُشركينَ والتَّعريضِ بهم، على طَريقةِ المَثَلِ: (إيَّاكِ أعْني واسْمَعي يا جارةْ)! والغرَضُ مِن ذلك أنْ يقولَ ويَقولوا، ويَسألَ ويُجيبوا؛ فيَكونَ تَقريعُهم أشَدَّ، وتَعييرُهم أبلَغَ، وخَجَلُهم أعظَمَ، وهو أنَّه ألْزَمُ، ويكونَ اقتصاصُ ذلك لُطْفًا لِمَن سَمِعَه، وزاجرًا لِمَن اقتُصَّ عليه[(٢)].

- وتَقديمُ المَفعولِ ﴿إِيَّاكُمْ﴾ على ﴿يَعْبُدُونَ﴾؛ للاهتمامِ، ولرِعايةِ الفاصلةِ[(٣)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٢).

أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا ... ﴾ حُكِيَ قولُ الملائكةِ دُونِ عاطفٍ؛ لِوُقوعِه في المُحاوَرةِ؛ ولذلك جِيءَ فيه بصِيغةِ الماضي ﴿ قَالُواْ ﴾؛ لأنَّ ذلك هو الغالبُ في الحِكايةِ، مع ما فيه مِن الدَّلالةِ على التَّحقُّقِ، أي: أنت الَّذي نُواليهِ مِن دُونِهم، لا مُوالاةَ بيْنَنا وبيْنَهم، وجوابُ الملائكةِ يَتضمَّنُ إقرارًا، مع التَّنزُّهِ عن لَفظِ كَونِهم مَعبودينَ كما يَتنزَّهُ مَن يَحكي كُفرَ أحدٍ، فيقولُ: قال: هو مُشرِكٌ باللهِ، وإنَّما القائلُ قال: أنا مُشرِكٌ باللهِ؛ فمَوردُ التَّنزيهِ في قولِ الملائكةِ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ﴾ هو أنْ يكونَ غيرُ اللهِ مُستحِقًّا أنْ يُعبَدَ، مع لازمِ الفائدةِ، وهو أنَّهم يَعلَمون ذلك، فلا يُضَرُّون بأنْ يَكونوا مُعبودينَ. وقولُ الملائكةِ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ﴾ تَبرُّؤٌ مِن الرِّضا بأنْ يَعبُدَهم المُشرِكون؛ لأنَّ الملائكةَ لَمَّا جَعَلوا أنفُسَهم مُوالِينَ للهِ فقدْ كذَّبوا المُشرِكين الَّذين زَعَموا لهم الإلهيَّةَ؛ لأنَّ العابدَ لا يكونُ مَعبودًا[1].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِن دُونِهِم ﴾ صِلةٌ للتَّوكيدِ؛ فـ ﴿مِن دُونِهِم ﴾ تأكيدٌ لِمَا أفادَتْه جُملةُ ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ مِن الحَصرِ؛ لِتَعريفِ الجُزأينِ[2].

- قولُه: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ ﴾ (بل) للإضرابِ الانتقاليِّ، انتقالًا مِن التَّبرُّؤِ منهم إلى الشَّهادةِ عليهم، وعلى الَّذين سَوَّلوا لهم عِبادةَ غيرِ اللهِ تعالى، وليس إضرابَ إبطالٍ؛ لأنَّ المُشرِكين المُتحدَّثَ عنهم كانوا يَعبُدون الملائكةَ. وفيه إشعارٌ لهم بما عَبَدوه وإنْ لم يُصرَّحْ به، والمعنى: بلْ كان أكثَرُ هؤلاء يَعبُدون الجِنَّ، وكان الجِنُّ راضِينَ بعِبادتِهم إيَّاهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٧)، ((تفسير =

٣- قولُه تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا ﴾ تبكيتٌ للكُفَّارِ حينَ بيَّنَ لهم أنَّ مَن عَبَدوه لا يَنفَعُ ولا يَضُرُّ، وهو كَلامٌ مُوجَّهٌ مِن جانبِ اللهِ تعالى إلى الملائكةِ، والمَقصودُ به التَّعريضُ بضَلالِ الَّذين عَبَدوا الملائكةَ والجِنَّ؛ لأنَّ الملائكةَ يَعلَمون مَضمونَ هذا الخبَرِ، فلا تُقصَدُ إفادتُهم به، والمُرادُ إظهارُ عَجزِهم وقُصورِهم عندَ عَبَدتِهم، والتَّنصيصُ على ما يُوجِبُ خَيبةَ رَجائِهم بالكلِّيَّةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مِن خِطابِ الملائكةِ للفَريقينِ بعدَ أداءِ الشَّهادةِ عليهم؛ تَوبيخًا لهم، وإظهارًا للغَضَبِ عليهم؛ تَحقيقًا للتَّبرُّؤِ منهم[(١)].

- قولُه: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا ﴾ فيه نِسبةُ عَدَمِ النَّفعِ والضَّرِّ إلى البَعضِ المُبهَمِ؛ للمُبالَغةِ فيما هو المَقصودُ الَّذي هو بَيانُ عدَمِ نَفْعِ الملائكةِ للعَبَدةِ، بنَظْمِه في سِلكِ عدَمِ نفْعِ العَبَدةِ لهم؛ كأنَّ نَفْعَ الملائكةِ لِعَبَدتِهم في الاستِحالةِ والانتِفاءِ كنَفْعِ العَبَدةِ لهم. وتَقييدُ هذا الحُكمِ بذلك اليومِ مع ثُبوتِه على الإطلاقِ؛ لانعِقادِ رَجائِهم على تَحقُّقِ النَّفعِ يومَئذٍ[(٢)].

- وقُدِّمَ الظَّرفُ على عامِلِه في قولِه: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا ﴾؛ لأنَّ النَّفعَ والضَّرَّ يومَئذٍ قد اختَصَّ صَغيرُهما وكَبيرُهما باللهِ تعالى،

= أبي السعود)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧).

قال ابن عثيمين: (الحِكمةُ في أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ ﴾ وجعَلَه مُبهَمًا؛ لِيَشملَ العابدَ والمعبودَ، والتَّابعَ والمتبوعَ؛ فكلُّ أحدٍ يومَ القيامةِ لا يَملِكُ لأحدٍ نَفعًا ولا ضَرًّا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٥٥).

خِلافَ ما كان في الدُّنيا مِن نفْعِ الجِنِّ عُبَّادَهم ببَعضِ المنافعِ الدُّنيويَّةِ، ونَفْعِ المُشركينَ الجِنَّ بخِدمةِ وَساوِسِهم، وتَنفيذِ أغراضِهم مِن الفِتنةِ والإضلالِ، وكذلك الضُّرُّ في الدُّنيا أيضًا. وقُدِّمَ النَّفعُ في حيِّزِ النَّفيِ تأييسًا لهم؛ لأنَّهم كانوا يَرجُون أنْ يَشفَعوا لهم يَومَئذٍ(١).

- وعَطْفُ نَفْيِ الضَّرِّ على نَفْيِ النَّفعِ، مع أنَّه لا بَحْثَ عنه أصلًا؛ إمَّا لِتَعميمِ العَجزِ، والدَّلالةِ على سَلْبِ مَقدرتِهم على أيِّ شَيءٍ؛ فإنَّ بَعضَ الكائناتِ يَستطيعُ أنْ يَضُرَّ، ولا يَستطيعُ أنْ يَنفَعَ؛ كالعَقربِ(٢)، أو لِحَملِ عدَمِ النَّفعِ على تَقديرِ العِبادةِ، وعدَمِ الضَّرِّ على تقديرِ تَرْكِها، فالعبادةُ أيضًا تقعُ لدَفعِ ضرِّ المعبودِ، فبُيِّن أنَّهم ليس فيهم ذلك الوجهُ الَّذي يَحسُنُ لأجْلِه عبادتُهم(٣)؛ تحقيقًا لقطعِ جميعِ الأسبابِ الَّتي كانت في دارِ التَّكليفِ مِن دارِ الجزاءِ الَّتي المقصودُ فيها تمامُ إظهارِ العَظَمةِ لله وحْدَه على أتمِّ الوُجوهِ(٤)، أو لأنَّ المُرادَ دفْعُ الضَّرِّ، على حَذْفِ المُضافِ(٥).

- وأيضًا قولُه: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [سبأ: ٤٠]، وقد وقَعَ الإخبارُ عن هذا القَولِ بعدَ الإخبارِ عن الحِوارِ الَّذي يَجري بيْنَ الملائكةِ وبيْنَ المُشركين يَومَئذٍ؛ إظهارًا لاستِحقاقِهم هذا الحُكمَ الشَّديدَ، ولِكَونِه كالمَعلولِ لِقَولِه: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٤).

- قولُه: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وَصْفُ النَّارِ بالَّتي كانوا يُكذِّبون بها؛ لِمَا في صِلةِ الموصولِ مِن إيذانٍ بغَلَطِهم وتَنْديمِهم[١].

- قولُه: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عُلِّقَ التَّكذيبُ هنا بنَفْسِ النَّارِ؛ فجِيءَ باسمِ الموصولِ المناسِبِ لها فقِيل: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، ولم يُعلَّقْ بالعذابِ كما في آيةِ سُورةِ (السَّجدةِ)، حيثُ قيل: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ القولَ المُخبَرَ عنه هنا هو قولُ اللهِ تعالى وحُكمُه، وقد أذِنَ بهم إلى جهنَّمَ وشاهَدُوها، كما قال تعالى آنفًا: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ [سبأ: ٣٣]؛ فإنَّ الَّذي يَرَى هو ما به العذابُ. وأمَّا القولُ المَحكيُّ في سُورةِ (السَّجدةِ) فهو قولُ مَلائكةِ العذابِ؛ بدليلِ قولِه: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُه[٢].

- وتَقديمُ المَجرورِ ﴿بِهَا﴾؛ للاهتِمامِ، والرِّعايةِ على الفاصلةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٢٤، ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٢٥).

الآيات (٤٢-٤٥)

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَصُدَّكُمْ﴾: أي: يَصرِفَكم ويَمنعَكم، والصَّدُّ والصُّدُودُ: الانصرافُ عن الشَّيءِ والامتناعُ، وأيضًا: الصَّرفُ والمنعُ، وأصلُ (صدد): يَؤولُ إلى إعراضٍ وعُدولٍ[1].

﴿إِفْكٌ﴾: أي: كَذِبٌ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ شَيءٍ، وصَرفِه عن جِهتِه[2].

﴿مُّفْتَرًى﴾: أي: مُختَلَقٌ، والافتِراءُ: اختِلاقُ الكَذِبِ، وأصلُه مِن: (فَرْيِ الأديمِ)، وهو: قَطْعُه، فقيل للكَذِبِ: افتراءٌ؛ لأنَّ الكاذِبَ يقطَعُ به على التَّقديرِ، مِن غيرِ تحقيقٍ[3].

﴿يَدْرُسُونَهَا﴾: أي: يَقرؤُونَها، والدَّرْسُ: الطَّريقُ الخفيُّ، يقالُ: دَرَسْتُ القرآنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ٢٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٤٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

وغيرَه؛ وذلك أنَّ الدَّارسَ يَتَتَبَّعُ ما كان قَرَأ، كالسَّالِك للطَّريقِ يَتتبَّعُه، وأصلُ (درس): يدُلُّ على خَفاءٍ وخفضٍ وعَفاءٍ[١].

﴿مِعْشَارَ﴾: أي: عُشْرَ، وأصلُ (عشر) هنا: عددٌ معلومٌ، ثمَّ يُحمَلُ عليه غيرُه[٢].

﴿نَكِيرِ﴾: أي: إنكاري وتَغْييري وعُقوبَتي، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المعرفةِ الَّتي يَسْكُنُ إليها القلبُ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جانبًا مِن أقوالِ المشركينَ في شأنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم والقرآنِ: وإذا تُتلى على مُشركي قُرَيشٍ آياتُ القُرآنِ الواضِحةُ الدَّلالةِ على أنَّها مِن عندِ اللهِ، قالوا عندَ سماعِهم لها: ما محمَّدٌ إلَّا رجلٌ يُريدُ أن يَصرِفَكم عن عِبادةِ الأصنامِ الَّتي كان يَعبُدُها آباؤكم! وقالوا: ما هذا الَّذي يَتلوه علينا إلَّا كَذِبٌ مُختَلَقٌ! وقالَ الكُفَّارُ في القُرآنِ لَمَّا جاءَهم: ما هذا إلَّا سِحرٌ ظاهِرٌ!

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه أنَّ أقوالَهم هذه لا تَستنِدُ إلى دليلٍ، فيقولُ: وما أنزَلْنا على كُفَّارِ قُرَيشٍ كُتُبًا قبْلَ القُرآنِ يَقرَؤونَها، وما أرسَلْنا إليهم قَبْلَك -يا محمَّدُ- مِن نذيرٍ يُنذِرُهم عذابَ اللهِ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩٦/ ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٢).

ثمَّ يُبيِّنُ لهم الله تعالى هَوانَ أمرِهم بالنِّسبةِ لِمَن سبَقوهم، فيقولُ: وكذَّب الَّذين مِن قبْلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ مِنَ الأُمَمِ السَّابِقةِ، وما بلغَ كفَّارُ قُرَيشٍ عُشْرَ ما آتَيْناه لأولئك المكَذِّبينَ مِن قَبْلِهم؛ مِنَ الأموالِ والأولادِ والقُوَّةِ، فلمَّا كذَّبوا أهلَكْناهم، فكيف كان إنكاري عليهم وعِقابي لهم؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ذكَرَ أنَّ المُشرِكينَ هم أهلُ النَّارِ يومَ القيامةِ، وأنَّه يُقالُ لهم يَومَئذٍ: ذوقوا عذابَها الَّذي كُنتُم به تُكَذِّبونَ- أعقَبَ ذلك بذِكرِ ما لأجْلِه استَحَقُّوا هذا العذابَ[1].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾.

أي: وإذا تُتلى على مُشركي قُرَيشٍ آياتُ القُرآنِ، والحالُ أنَّها واضِحةُ الدَّلالةِ في ألفاظِها ومَعانيها، وأنَّها حَقٌّ مِن عندِ اللهِ؛ قالوا عندَ سَماعِهم لها: ما مُحمَّدٌ إلَّا رَجُلٌ يريدُ بدَعوتِكم أن يَصرِفَكم عن عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ الَّتي كان يَعبُدُها آباؤُكم[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٥)، =

﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗى﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: ما هذا الَّذي يُتْلى علينا إلَّا كَذِبٌ مُختلَقٌ(١)!

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ لَمَّا جاءَهم القُرآنُ: ما هذا إلَّا سِحرٌ واضِحٌ(٢).

كما قال تعالى: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ۞ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٩، ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٧].

﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤﴾.

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٠-٢٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢).

ومعنى ﴿إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗى﴾: أي أنَّه كَذِبٌ في حَدِّ ذاتِه غيرُ مُطابِقٍ للواقِعِ، وهو مُختَلَقٌ على اللهِ مِن حيثُ نِسبتُه إليه؛ وعليه فـ﴿مُّفۡتَرٗى﴾ تأسيسٌ لا تأكيدٌ. وممَّن قال بهذا المعنى: العُلَيمي، والقِنَّوْجي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القنوجي)) (١١/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٣).

قال ابن عاشور: (والإفْكُ: الكَذِبُ، ووَصْفُه بالمُفترى: إمَّا أن يتوجَّهَ إلى نِسبتِه إلى اللهِ تعالى، أو أُريدَ أنَّه في ذاتِه إفكٌ، وزادوا فجعَلوه مُخترَعًا مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ليس مسبوقًا به؛ فكَوْنُه إفكًا يَرجِعُ إلى جميعِ ما في القُرآنِ، وكَوْنُه مُفترًى يُرجِعونَه إلى ما فيه مِن قَصَصِ الأوَّلينَ. وهذا القَولُ مِن بهتانِهم؛ لأنَّهم كثيرًا ما يقولونَ: أساطيرُ الأوَّلينَ؛ فليس ﴿مُّفۡتَرٗى﴾ تأكيدًا لـ﴿إِفۡكٞ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى ما ردَّ الكافِرونَ به الحَقَّ، وأنَّها أقوالٌ دونَ مَرتبةِ الشُّبهةِ، فَضلًا أن تكونَ حُجَّةً؛ ذكَرَ أنَّهم وإن أراد أحَدٌ أن يحتَجَّ لهم، فإنَّهم لا مُستندَ لهم، ولا لهم شَيءٌ يعتَمِدونَ عليه أصلًا[1].

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

أي: وما أنزَلْنا على كُفَّارِ قُرَيشٍ كُتُبًا قَبلَ القُرآنِ يَقرَؤونَها، وما أرسَلْنا إليهم قَبلَك -يا مُحمَّدُ- رَسولًا يُنذِرُهم عذابَ اللهِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٨).

قال ابنُ عطية: (المعنى: وما أرسَلْنا مِن نذيرٍ يُشافِهُهم بشَيءٍ، ولا يُباشِرُ أهلَ عَصرِهم ولا مَن قَرُب مِن آبائِهم، وإلَّا فقد كانت النِّذارةُ في العالَمِ وفي العَرَبِ مع شُعَيبٍ وصالحٍ وهودٍ، ودعوةُ الله وتوحيدُه قائمٌ، لم تَخْلُ الأرضُ مِن داعٍ إليه؛ فإنَّما معنى هذه الآيةِ: ﴿مِن نَّذِيرٍ﴾ يختَصُّ بهؤلاءِ الَّذين بعَثْناك إليهم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٤).

واختلَف المفَسِّرون في المرادِ بهذه الآيةِ، فقيل: المعنى: أنَّهم لم يَقرؤوا بُطلانَ ما جئتَ به في كتابٍ أُوتوه، ولا سَمِعوه مِن رسولٍ بُعِث إليهم؛ فليس لتكذيبِهم وجْهٌ يَتشَبَّثونَ به، ولا مُستَنَدٌ يَعتَمِدونَ عليه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٧٠٩).

وقيل: المعنى: أنَّهم قَومٌ أُمِّيُّونَ لا يَقرؤونَ ولم يُبعَثْ إليهم نبيٌّ؛ فكان الأليقُ بهم أن يَفرَحوا بالقُرآنِ وبإرسالِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأن يَقبَلوا ما جاء به؛ فهم في أشدِّ الحاجةِ لذلك؛ فكيف رفَضوا اتِّباعَ الرَّسولِ وتلقِّي القُرآنِ، وكان الأجدَرُ أن يَغتَبِطوا بذلك؟! وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٨). =

كما قال تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ۞ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢١، ٢٢].

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن بشَّر اللهُ تعالى وأنذَرَ، وأبان بالحُجَّةِ والبُرهانِ ما كان فيه المَقنَعُ لهم لو كانوا يَعقِلونَ؛ سَلَك بهم سَبيلَ التَّهديدِ والوعيدِ، وضَرَب لهم المَثَلَ بالأُمَمِ الَّتي كانت قَبْلَهم(١).

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾.

أي: وكذَّب الَّذين مِن قَبلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ مِن الأُمَمِ السَّابِقةِ، كعادٍ وثمودَ، وما بلَغَ كُفَّارُ مَكَّةَ عُشْرَ الَّذي آتَيْناه لتلك الأُمَمِ الماضيةِ؛ مِن العَدَدِ، والأموالِ، والأولادِ، والقُوَّةِ، وغَيرِ ذلك مِنَ النِّعَمِ(٢)!

= وممَّن حمَل الآيةَ على كِلا الوجهَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٠-٢٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٣).

قال السمعاني: (أكثرُ أهلِ التَّفسيرِ أنَّ المرادَ مِن الآيةِ هو أنَّ هؤلاء الكفَّارَ -وهم قُرَيشٌ- ما بلَغوا مِعشارَ ما آتَيْنا الَّذين مِن قَبْلِهم في القوَّةِ والمالِ والآلةِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٩).

كما قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ [التوبة: ٦٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ﴾ [الروم: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

أي: فكذَّب كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلي فيما جاؤوهم به مِنَ الحَقِّ، فأهلَكْناهم، فكيف كان إنكاري عليهم وعِقابي لهم[1]؟

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ أنَّ آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ بيِّناتٌ ليس فيها خَفاءٌ، وعلى هذا فما يُشكِلُ على بعضِ أهلِ العلمِ مِن أحكامِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، فليس مَصدرُه أنَّ الوَحيَ خَفِيٌّ، ولكِنَّ مَصدرَه قصورُ النَّاظرِ في الوَحيِ أو تقصيرُه: قصورُه بحيثُ لا يكونُ عنده عِلْمٌ، أو لا يكونُ عنده فَهمٌ؛ وتقصيرُه بحيثُ لا يَطلُبُ العِلمَ، ولا يَطلُبُ الفَهمَ؛ وإلَّا فإنَّ آياتِ اللهِ تعالى بيِّناتٌ، ولا يمكنُ أنْ تَحدُثَ حادِثةٌ إلى يومِ القيامةِ إلَّا في كتابِ اللهِ تعالى بيانُها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٤، ٢٧٥).

قال السعدي: (فاحذَروا -يا هؤلاءِ المكذِّبونَ- أن تَدوموا على التَّكذيبِ؛ فيَأخُذَكم كما أخَذَ مَن قَبْلَكم، ويُصيبَكم ما أصابهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢).

ولكنْ ليس كلُّ أحدٍ يستطيعُ أنْ يَتبيَّنَها مِن القرآنِ؛ فتجدُ الآيةَ الواحدةَ يتلوها جماعةٌ ويَتفكَّرونَ فيها، يَستنبِطُ أحدُهم منها مَسائِلَ عديدةً، والآخَرُ لا يَستنبِطُ منها إلَّا مسألةً أو مَسألتَينِ!

وبيانُ الآياتِ إمَّا أنْ تكونَ هي بذاتِها بَيِّنةً واضحةً، وإمَّا أنْ يكونَ عن طريقِ السُّنَّةِ: تُبَيِّنُ المُجمَلَ، وتُفَسِّرُ المُشْكِلَ، وتُقَيِّدُ المُطْلَقَ، وتُخَصِّصُ العامَّ[1].

٢- قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾، فقالوا كما حكاه الله عنهم: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾، ولم يقولوا: «عَمَّا كنتم تعبُدونَ»؛ لإثارةِ الحَمِيَّةِ في نفوسِهم؛ لأنَّ الإنسانَ يَصعُبُ عليه أنْ يَدَعَ ما كان آباؤُه عليه، لا سيَّما مِثلُ هؤلاءِ الجَهَلةِ، ولو قالوا: «عمَّا كنتُم تَعبُدونَ» لَكان يمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّهم عبَدوا على غيرِ أساسٍ، لكنْ لَمَّا قالوا: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ كأنَّ هذه العبادةَ لهذه الأصنامِ أمرٌ مُستقِرٌّ كان عليه الآباءُ، ولا ينبغي لكم أنْ تَترُكوا مِلَّةَ آبائِكم؛ ولهذا يقولونَ كما حكى اللهُ عنهم في آياتٍ أخرى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] أو ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] آيَتانِ[2]؛ لأنَّهم يَجعَلونَ آباءَهم أهلَ الرَّأيِ فيما ارتَأَوا، والتَّسديدِ فيما فَعَلوا؛ فلا يَرَونَ إلَّا حَقًّا، ولا يَفعَلونَ إلَّا صَوابًا وحِكمةً[3]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ بيانُ عُتُوِّ المكَذِّبينَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيث كانوا -مع هذه الآياتِ البَيِّناتِ- يَدَّعُونَ هذه الدَّعوى الباطِلةَ، وهي أنَّ الرَّسولَ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٦).

الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يريدُ إلَّا أنْ يَصُدَّهم عمَّا كان يَعبُدُ آباؤُهم[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ أنَّ ما جاء به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الآياتِ هو مِن أفصَحِ الكلامِ وأبلَغِه وأبيَنِه؛ فهم لم يَصِفوه بالسِّحرِ إلَّا لأنَّه يأخُذُ بالقُلوبِ، ويَجُرُّ النَّاسَ إليه جَرًّا، كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ مِن البيانِ لَسِحرًا))[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ دليلٌ على أنَّه حينَ جاءَهم لم يُفَكِّروا فيه، بل بادَروه بالإنكارِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ أنَّ مَن نَسَبَ الكَذِبَ إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما أوحى اللهُ تعالى إليه، فهو كافِرٌ؛ لأنَّه وصَفَهم بالكُفرِ مُسنَدًا إلى هذا القَولِ؛ فيكونُ ذلك سببًا لِكُفرِهم[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ بيانُ مِنَّةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى العُظمَى على العَرَبِ بما بعَثَ إليهم، وهو محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وجْهُ ذلك: أنَّهم كانوا أُمَّةً جاهِلةً ليس عندَهم كُتُبٌ تُدرَسُ، ولم يأتِهم نذيرٌ يُخبِرُهم ويُعَلِّمُهم؛ فهم أشدُّ النَّاسِ حاجةً إلى الرَّسولِ، وإذا اشتدَّتِ الحاجةُ ثمَّ جاء ما يُزيلُ تلك الحاجةَ، كان هذا أعظَمَ مِنَّةً[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٩).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٧٦٧) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٤، ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أنَّه ليس في العَرَبِ رسولٌ -بعدَ إسماعيلَ عليه السَّلامُ- إلَّا محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو كذلك، وما ذَكَرَ بعضُ المُؤَرِّخينَ مِن أنَّه وُجِدَ في الجاهليَّةِ رُسُلٌ -منهم خالدُ ابنُ سِنَان- فهذا لا أصلَ ولا صِحَّةَ له؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩]، وقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((ليسَ بيني وبينَ عيسَى نبيٌّ))[(١)].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ فيه سؤالٌ: ما معنى ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ وهو مُستغنًى عنه بقَولِه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؟

الجوابُ: لَمَّا كان معنى قَولِه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: وفَعَلَ الَّذين مِن قَبلِهم التَّكذيبَ، وأقدَموا عليه- جعَل تكذيبَ الرُّسُلِ مُسَبَّبًا عنه، ونظيرُه أن يقولَ القائِلُ: (أقدَمَ فُلانٌ على الكُفرِ، فكفَرَ بمُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلم)، ويجوزُ أن يُعطَفَ على قَولِه: ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾، كقولِك: ما بلَغ زَيدٌ مِعشارَ فَضلِ عَمرٍو فيُفضَّلَ عليه[(٢)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ وقولِه سُبحانَه: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ وغَيرِها مِن الآياتِ الَّتي تُضيفُ الفِعلَ إلى الفاعِلِ: ردٌّ على الجَبريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ العبدَ مُجبَرٌ على فِعلِه، ليس له فيه اختيارٌ[(٣)]!

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ أفرد الضَّميرَ كما هو حقُّه، ونصًّا على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٣). والحديث أخرجه مسلم (٢٣٦٥).
قال ابنُ كثير: (قال غيرُ واحدٍ مِن العلماءِ: إنَّ الله تعالى لم يبعَثْ بعدَ إسماعيلَ نبيًّا في العربِ إلَّا محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم خاتمَ الأنبياءِ). ((البداية والنهاية)) (٣/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٦).

أنَّ النُّونَ فيما مضى -في قولِه: ﴿أَرْسَلْنَآ﴾- للعَظَمةِ لا للجَمعِ؛ دفعًا لتعنُّتِ مُتعَنِّتٍ(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أنَّ الإنكارَ يكونُ بالفعلِ كما يكونُ بالقولِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ إنكارَ اللهِ تعالى عليهم ليس بالقولِ فقط، بل بالفعلِ والعقوبةِ، فعقوبةُ المجرمينَ هي إنكارٌ بالفعلِ(٢).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استِعمالُ قياسِ الأَولى؛ فإذا أخَذَ اللهُ تعالى هؤلاءِ الأقوياءَ الأشِدَّاءَ الأكثَرَ أموالًا وأولادًا بجُرْمِهم: فهؤلاء الَّذين دُونَهم مِن بابِ أَولى(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ بَيانٌ لِبَعضٍ آخَرَ مِن كُفرانِهم، وانتِقالٌ مِن حِكايةِ كُفرِهم وغُرورِهم، وازْدِهائِهم بأنفُسِهم، وتَكذيبِهم بأُصولِ الدِّيانةِ؛ إلى حِكايةِ تَكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأتبَعَ ذلك بحِكايةِ تَكذيبِهم الكتابَ والدِّينَ الَّذي جاء به؛ فكان كالفَذْلَكةِ(٤) .....

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٦، ٢٧٧).

(٤) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أنْهاهُ وفرَغَ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتَّفريعُ عليه، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد =

لِمَا تَقدَّمَ مِن كُفرِهم[١].

- قولُه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ ...﴾ فيه إيرادُ حِكايةِ تَكذيبِ الكفَّارِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُقيَّدةً بالزَّمنِ الَّذي تُتْلى عليهم فيه آياتُ اللهِ البيِّناتُ؛ للتَّعجُّبِ مِن وَقاحتِهم؛ حيثُ كذَّبوه في أجدَرِ الأوقاتِ بأنْ يُصَدِّقوه عندَها؛ لأنَّه وَقتُ ظُهورِ حُجَّةِ صِدقِه لكلِّ عاقلٍ مُتبصِّرٍ. وللاهتِمامِ بهذا الظَّرفِ والتَّعجُّبِ مِن مُتعلَّقِه قُدِّمَ الظَّرفُ على عامِلِه، والتَّشوُّقِ إلى الخبَرِ الآتي بعْدَه، وأنَّه مِن قِبَلِ البُهتانِ والكُفرِ البَواحِ[٢].

- وحُذِفَ فاعلُ التِّلاوةِ؛ لِظُهورِ أنَّه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ هو تالي آياتِ اللهِ. والإشارةُ في قولِهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واستَحْضَروه بطَريقِ الإشارةِ دونَ الاسمِ؛ إفادةً لِحُضورِه مَجلسَ التِّلاوةِ، وذلك مِن تَمامِ وَقاحتِهم، وابتَدؤوا بالطَّعنِ في التالي؛ لأنَّه الغرَضُ الَّذي يَرْمُون إليه، وأثْبَتوا له إرادةَ صَدِّهم عن دِينِ آبائِهم قَصْدَ أنْ يُثيرَ بعضُهم حَميَّةَ بَعضٍ؛ لأنَّهم يَجعَلون آباءَهم أهلَ الرَّأيِ والتَّسديدِ، والصَّوابِ والحِكمةِ؛ فلا جَرَمَ أنَّ يكونَ مُريدُ الصَّدِّ عنها مُحاوِلًا الباطلَ، وكاذبًا في قولِه؛ لأنَّ الحقَّ مُطابِقُ الواقعِ، فإبطالُ ما هو حقٌّ في زَعمِهم قولٌ غيرُ مُطابقٍ للواقعِ؛ فهو الكذِبُ[٣]! وقيل: أَتَوا بصيغةِ الحاضرِ: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ وإن كان غائبًا؛ للاحتقارِ، وقولُهم: ﴿إِلَّا

= سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٢٦).

رَجُلٌ ﴾ للإنكارِ؛ لأنَّهم أتَوْا به بصيغةِ النَّكرةِ، كأنَّهم لا يَعرِفونَه، كأنَّه رجُلٌ أجنبيٌّ منهم[١]!

- وفي التَّعبيرِ بالفِعلِ (كان) في قولِهم: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾: إشارةٌ إلى أنَّهم عَنَوا أنَّ تلك عِبادةٌ قَديمةٌ ثابتةٌ، وفي ذلك إلْهابٌ لِقُلوبِ قَومِهم وإيغارٌ لِصُدورِهم؛ لِيَتألَّبوا على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويَزْدادوا تَمسُّكًا بدِينِهم. وفي قولِهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ قد قَصَروا الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على صِفَةِ إرادةِ صَدِّهم قَصْرًا إضافيًّا[٢]، أي: إلَّا رجلٌ صادٌّ، فما هو برَسولٍ[٣].

- وفي قولِهم: ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ إضافةُ الآباءِ إلى المخاطَبينَ لا إلى أنفُسِهم؛ لِتَحريكِ عِرْقِ العَصبيَّةِ منهم؛ مُبالَغةً في تَقريرِهم على الشِّركِ، وتَنفيرِهم عن التَّوحيدِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أتْبَعوا وَصْفَ التَّالي بوَصْفِ المَتلُوِّ بأنَّه كذِبٌ مُفترًى. وإعادةُ فِعلِ القولِ؛ للاهتِمامِ بحِكايةِ قَولِهم؛ لِفَظاعتِه، وكذلك إعادةُ فِعلِ القولِ إعادةً ثابتةً؛ للاهتِمامِ بكلِّ قَولٍ مِن القَولَينِ الغَريبَينِ؛ تَشنيعًا لهما في نفْسِ السَّامعينَ[٥].

- ثمَّ حَكَى تَكذيبَ الكافرينَ الَّذي يَعُمُّ جميعَ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مِن وَحيٍ يُتْلَى، أو دَعوةٍ إلى التَّوحيدِ وغيرِه، أو استِدلالٍ عليه، أو مُعجزةٍ؛ بقولِهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، فهذا المقالُ الثَّالثُ في الآيةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٢، ٢٦٨).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٦).

ويَشملُ ما تقدَّمَ وغيرَه؛ فحِكايةُ مَقالِهم هذا تَقومُ مَقامَ التَّذييلِ[١].

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في تَكريرِ الفعلِ (قالَ)، والتَّصريحِ بذِكرِ الكفرةِ، وفي قولِه: ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، وما في اللَّامينِ مِن الإشارةِ إلى القائلينَ والمَقولِ فيه، وفي ﴿لَمَّا﴾ مِن المُبادَهةِ بالكُفرِ؛ دليلٌ على صُدورِ الكلامِ عن إنكارٍ عظيمٍ، وغَضبٍ شديدٍ، وتَعجُّبٍ مِن أمْرِهم بليغٍ؛ كأنَّه قال: وقال أولئك الكَفَرةُ المُتمرِّدون بجَراءتِهم على اللهِ، ومُكابَرتِهم لِمثلِ ذلك الحقِّ النَّيِّرِ قبْلَ أنْ يَذوقُوه: إنْ هذا إلَّا سِحْرٌ مُبينٌ، فبَتُّوا القَضاءَ على أنَّه سِحرٌ، ثمَّ بَتُّوه على أنَّه بيِّنٌ ظاهرٌ، كلُّ عاقلٍ تأمَّلَه سمَّاهُ سِحرًا[٢]!

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ...﴾ فيه تَحميقٌ لجهالتِهم، وتَسفيهٌ لِرَأيِهم، وتَعجُّبٌ مِن حالِهم، ورَفْضِهم الحقَّ حينَ لا مانعَ يَصُدُّهم[٣].

- ولم يُقيَّدْ إيتاءُ الكُتبِ بقَيدٍ -كما قُيِّدَ الإرسالُ بقولِه: ﴿قَبْلَكَ﴾-؛ لأنَّ الإيتاءَ هو التَّمكينُ مِن الشَّيءِ، وهمْ لم يَتمكَّنوا مِن القُرآنِ، بخِلافِ إرسالِ النَّذيرِ؛ فهو حاصلٌ سواءٌ تَقبَّلوه أمْ أعْرَضوا عنه[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٨).

- قولُه: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ ... ﴾ تَسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَهديدٌ لِلَّذين كذَّبوه، ومَوقعُ التَّسليةِ في قولِه: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾، ومَوقعُ التَّهديدِ بقيَّةُ الآيةِ؛ فالتَّسليةُ في أنَّ له أُسوةً بالرُّسلِ السَّابقينَ، والتَّهديدُ بتَذكيرِهم بالأُمَمِ السَّالفةِ الَّتي كذَّبَت رُسلَها، وكيف عاقَبَهم اللهُ على ذلك وكانوا أشَدَّ قوَّةً منهم[1].

- وجُملةُ ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ؛ لأنَّ المُرادَ منهم المُشرِكون، فقُدِّمَ اهتمامًا، وإيذانًا بأنَّ إيرادَ هذا الكلامِ سَببُه هؤلاء المُكذِّبون؛ تَهديدًا ووَعيدًا. والفاءُ في قولِه: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي ﴾ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ باعتِبارِ أنَّ المُفرَّعَ عُطِفَ عليه قولُه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾، وبذلك كانت جُملةُ ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي ﴾ تأكيدًا لِجُملةِ ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾، ونَظيرُه قولُه تعالى في سورة (القمرِ): ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ [القمَرِ: ٩]، وتكونُ الفاءُ الثَّانيةُ في قولِه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ تأكيدًا لفظيًّا للفاءِ في قولِه: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾. ويجوزُ ألَّا تكونَ مُعترِضةً، بلْ يكونُ قولُه: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ تَوطئةً وتَمهيدًا لقَولِه: ﴿وَمَا بَلَغُواْ ﴾، ويَنعطِفُ قولُه: ﴿فَكَذَّبُواْ﴾ على ﴿وَمَا بَلَغُواْ ﴾، أي: وما بلَغَ هؤلاءِ المُكذِّبون مِعشارَ ما آتَيْنا أولئك المُكذِّبين السَّابقينَ مِن طُولِ الأعمارِ، وقوَّةِ الأجرامِ، وكثرةِ الأموالِ؛ فكيف أقْدَموا على كُفرٍ أعظَمَ، وتَكذيبٍ أبلَغَ مِن أولئك، فكذَّبوا سيِّدَ الرُّسلِ لدَلالةِ جميعِ الرُّسلِ؟! كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ ﴾ [النحل: ١٢٠]. ويجوزُ أنْ يكونَ مِن قَبيلِ قولِه: ﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ ﴾ [الفرقان: ٣٧]، وإنَّما كذَّبوه وَحْدَه؛ لأنَّ الرِّسالةَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٩).

وصْفٌ جامعٌ، فيَلزَمُ مِن تكذيبِه تكذيبُهم[١].

- وقولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ مُفرَّعٌ على قولِه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. و(كيف) استِفهامٌ عن الحالةِ، وهو مُستعمَلٌ في التَّقريرِ والتَّفريعِ؛ فجُمْلَتا ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ في قوَّةِ جُملةٍ واحدةٍ مُفرَّعةٍ على جُملةِ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، والتَّقديرُ: وكذَّبَ الَّذين مِن قبْلِهم، فكيف كان نَكيري على تَكذيبِهم الرُّسلَ؟! ولكنْ لَمَّا كانت جُملةُ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مَقصودًا منها تَسليةُ الرَّسولِ ابتداءً، جُعِلَت مَقصورةً على ذلك؛ اهتِمامًا بذلك الغرَضِ، وانتصارًا مِن اللهِ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ خُصَّت عِبرةُ تَسبُّبِ التَّكذيبِ في العِقابِ بجُملةٍ تَخُصُّها؛ تَهويلًا للتَّكذيبِ، وهو مِن مَقاماتِ الإطنابِ، فصادَفَ أنْ كان مَضمونُ الجُملتينِ مُتَّحِدًا اتِّحادَ السَّببِ لِمُسبَّبينِ، أو العِلَّةِ لِمَعلولينِ، كعِلَّةِ السَّرقةِ للقطْعِ والغُرْمِ. وبُنِيَ النَّظمُ على هذا الأُسلوبِ الشَّيِّقِ؛ تَجنُّبًا لِثِقَلِ إعادةِ الجُملةِ إعادةً ساذَجةً؛ ففُرِّعَت الثَّانيةُ على الأُولى، وأُظهِرَ فيها مَفعولُ (كَذَّبَ)، وبُنِيَ عليه الاستِفهامُ التَّقريريُّ التَّفظيعيُّ، أو فُرِّعَ التَّكذيبُ الخاصُّ على التَّكذيبِ الَّذي هو سَجيَّتُهم العامَّةُ، على الوَجْهِ الثَّاني في مَعنى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[٢].

- ولفظُ ﴿نَكِيرِ﴾ بكَسرِ الرَّاءِ، وهو مُضافٌ إلى ياءِ المُتكلِّمِ، وحُذِفَت الياءُ للتَّخفيفِ، مع التَّنبيهِ عليها ببَقاءِ الكَسرةِ على آخِرِ الكلمةِ، ولِيُناسِبَ الفاصِلةَ، وكُتِبَ في المُصحَفِ بدُونِ ياءٍ وبوَقفٍ عليه بالسُّكونِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧٦، ٥٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤٦-٥٠)

﴿ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴿٥٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جِنَّةٍ﴾: أي: جُنونٍ، وأصلُ (جنن): السَّتْرُ والتَّسَتُّرُ؛ وسُمِّي الجُنونُ بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ العقلَ ويُغطِّيه[1].

﴿يَقۡذِفُ﴾: أي: يُلْقي، وأصلُ (قذف): يدُلُّ على الرَّميِ والطَّرحِ[2].

﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾: أي: زال الباطِلُ وهلَك؛ فلم تَبْقَ منه بقيَّةٌ يُقبِلُ بها أو يُدبِرُ، أو يُبدِئُ أو يُعيدُ؛ فالإبداءُ والإعادةُ مِن صفةِ الحيِّ، فعدمُهما عبارةٌ عن الهلاكِ، وأصلُ (بدأ): يدُلُّ على افتتاحِ الشَّيءِ، وأصلُ (عود): يدُلُّ على تثنيةٍ في الأمرِ؛ عَوْدًا بعدَ بَدْءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢) و(٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٣)، ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٣٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٠).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى ملقِّنًا نبيَّه الحُجَجَ القاطعةَ، والأقوالَ الحكيمةَ، الَّتي تهدي إلى الحقِّ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: إنَّما أنصَحُكم بخَصلةٍ واحِدةٍ: أن تقوموا مُخلِصينَ لله تعالى دونَ اتِّباعِ أهوائِكم، مُجتَمِعينَ اثنَينِ اثنَينِ، وواحِدًا واحِدًا، ثمَّ تَتفكَّروا في شأنِ مُحمَّدٍ، فتَعلَموا أنَّه ليس به مِن جُنونٍ! فما محمَّدٌ إلَّا نذيرٌ لكم يُنذِرُكم عذابًا شَديدًا.

قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: إنْ سَألتُكم أجرًا فهو لكم؛ فما أجري على البلاغِ إلَّا على اللهِ وَحْدَه، واللهُ على كُلِّ شَيءٍ رَقيبٌ.

وقُلْ لهم: إنَّ رَبِّي يُلْقي الوَحيَ على رَسولِه، وهو سبُحانَه علَّامُ الغُيوبِ.

وقُلْ لهم: جاء القرآنُ المُشتَمِلُ على الحَقِّ، وذهَبَ الباطِلُ ذَهابًا كُلِّيًّا فلم يَبقَ له بقيَّةٌ.

وقُلْ لهم: إنْ ضلَلْتُ عن الهُدى فإنَّما إثْمُ ضَلالي على نَفْسي لا عليكم، وإنِ اهتدَيتُ فذلك بتوفيقِ رَبِّي لي باتِّباعِ ما أوحى إلَيَّ، إنَّ ربِّي سَميعٌ قَريبٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه ذكَرَ الأصولَ الثَّلاثةَ في هذه الآيةِ بعدَما سَبَق منه تقريرُها بالدَّلائلِ؛ فقَولُه: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ إشارةٌ إلى التَّوحيدِ، وقَولُه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ [سبأ: ٤٦] إشارةٌ إلى الرِّسالةِ، وقَولُه: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

[سبأ: ٤٦] إشارةٌ إلى يَومِ الآخرةِ[١].

وأيضًا لَمَّا أبطل اللهُ تعالى شُبَهَ الكافِرينَ كُلَّها، وليَّن مِن عَريكتِهم بالتَّنبيهِ على التَّحذيرِ؛ فصاروا جديرينَ بقَبولِ الوَعظِ، وكان ممَّا رَمَوه به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -وحاشاه- الجنونُ وتعمُّدُ الكَذِبِ؛ فرَدَّ عليهم تعالى، فقال[٢]:

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: إنَّما أُشيرُ عليكم وأنصَحُكم بالقيامِ بخَصلةٍ واحِدةٍ فحَسْبُ[٣].

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾.

أي: أن تَقوموا بهِمَّةٍ واجتِهادٍ على وَجهِ الإخلاصِ للهِ تعالى، واستِحضارِ عَظَمتِه، دونَ اتِّباعٍ لهوًى، أو تعصُّبٍ لِعَشيرةٍ، فتَقوموا مجتَمِعينَ اثنَينِ اثنَينِ، وفَرْدًا فَردًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٠)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٢).

ممَّن قال بأنَّ المرادَ بالواحدةِ: القيامُ للهِ مَثْنى وفُرادى؛ للتَّفَكُّرِ في أمرِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن جزي)) =

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.

أي: ثمَّ تَتفكَّروا مع غَيرِكم ومع أنفُسِكم في شأنِ محمَّدٍ، فتَعلَموا أنَّه ليس بصاحِبِكم الَّذي خالطْتُموه وعرَفْتُم أحوالَه ورَجاحةَ عَقلِه: مِن جُنونٍ[1]!

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

= (٢/ ١٦٩)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٣).

وقيل: المرادُ بالواحدةِ: كَلِمةُ التَّوحيدِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٧)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٦٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٥٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٣).

قال القرطبي: (الوَقفُ عند أبي حاتم وابنِ الأنباريِّ على ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾. وقيل: ليس هو بوقفٍ؛ لأنَّ المعنى: ثمَّ تَتفكَّروا هل جرَّبتُم على صاحِبِكم كَذِبًا، أو رأيتُم فيه جِنَّةً، أو في أحوالِه مِن فسادٍ، أو اختلَف إلى أحدٍ ممَّن يَدَّعي العِلمَ بالسِّحرِ، أو تعلَّم الأقاصيصَ وقرأ الكتُبَ، أو عرَفتُموه بالطَّمَعِ في أموالِكم، أو تَقدِرونَ على مُعارَضتِه في سورةٍ واحدةٍ؟! فإذا عرَفتُم بهذا الفِكرِ صِدقَه، فما بالُ هذه المعانَدةِ؟!). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١١، ٣١٢).

وممَّن جعَل الوَقفَ على: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾، وتكونُ جملةُ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ استئنافًا مِن كلامِ اللهِ تعالى؛ تكذيبًا لهم: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٣٠).

وممَّن أثبَت محذوفًا تقديرُه: فتَعْلَموا، أو: فتتَبَيَّنوا... ونحو ذلك، على معنى: ثمَّ تَتفكَّروا فتَعْلَموا أنَّه ما بصاحِبِكم مِن جِنَّةٍ: ابنُ جُزَي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٣).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

أي: ما مُحمَّدٌ إلَّا نَذيرٌ لكم يُنذِرُكم عذابًا شَديدًا وقَريبًا قبْلَ حُلولِه بكم؛ لِكُفرِكم[1].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((صَعِدَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصَّفا ذاتَ يوم، فقال: يا صَبَاحاه[2]! فاجتمَعَت إليه قُرَيشٌ، قالوا: ما لَك؟ قال: أرأيتُم لو أخبَرْتُكم أنَّ العَدُوَّ يُصَبِّحُكم أو يُمَسِّيكم، أمَا كنتُم تُصَدِّقُوني؟ قالوا: بلى، قال: فإنِّي نذيرٌ لكم بيْنَ يَدَيْ عذابٍ شديدٍ، فقال أبو لهبٍ: تبًّا لك، ألهذا جمعْتَنا؟! فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]))[3].

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما به جِنَّةٌ؛ لِيَلزَمَ منه كَونُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨١).
قال ابن عثيمين: (يعني: ما محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا رجُلٌ مِن أعقَلِ النَّاسِ، ومِن أحَنِّ النَّاسِ على قَومِه... فالنَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هذه حالُه، رجُلٌ عاقلٌ ناصحٌ لقومِه حانٍ عليهم؛ لأنَّ الَّذي يُنذِرُك مِن العذابِ يُعتبَرُ مُحسِنًا إليك). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨١).

(٢) هذه كلِمةٌ يقولُها المُستغيثُ، وأصْلُها إذا صاحوا للغارةِ؛ لأنَّهم أكثَرُ ما كانوا يُغيرون عندَ الصَّباحِ، ويُسَمُّون يومَ الغارةِ يومَ الصَّباحِ، فكأنَّ القائلَ «يا صَباحاه» يقولُ: قد غَشِيَنا العدوُّ. وقيل: إنَّ المُتقاتِلينَ كانوا إذا جاء اللَّيلُ يَرجِعون عن القتالِ، فإذا عاد النَّهارُ عاوَدوه، فكأنَّه يريدُ بقولِه «يا صَباحاه»: قد جاء وقتُ الصَّباحِ، فتأهَّبوا للقتالِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٦، ٧).

(٣) رواه البخاري (٤٨٠١) واللفظ له، ومسلم (٢٠٨).

نَبيًّا- ذكَرَ وَجهًا آخَرَ يَلزَمُ منه أنَّه نبيٌّ، إذا لم يكُنْ مَجنونًا؛ لأنَّ مَن يَرتكِبُ العناءَ الشَّديدَ لا لغرَضٍ عاجلٍ إذا لم يكُنْ ذلك فيه ثوابٌ أُخرويٌّ يكونُ مجنونًا؛ فالنَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بدَعواه النُّبُوَّةَ يَجعَلُ نفْسَه عُرضةً للهَلاكِ عاجِلًا؛ فإنَّ كُلَّ أحدٍ يَقصِدُه ويُعاديه، ولا يَطلُبُ أجرًا في الدُّنيا؛ فهو يَفعَلُه للآخرةِ، والكاذِبُ في الآخرةِ مُعَذَّبٌ لا مُثابٌ، فلو كان كاذِبًا لَكان مجنونًا، لكِنَّه ليس بمجنونٍ؛ فليس بكاذبٍ؛ فهو نبيٌّ صادِقٌ[1].

وأيضًا لَمَّا كان ثَمَّ مانعٌ للنُّفوس آخَرُ عن اتِّباعِ الدَّاعي إلى الحَقِّ، وهو أنَّه يأخُذُ أموالَ مَن يَستجيبُ له، ويأخُذُ أُجرةً على دَعوتِه؛ بيَّن الله تعالى نزاهةَ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن هذا الأمرِ[2].

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: إنْ سألْتُكم أجرًا فهو لكم؛ فلا أُريدُ منكم أجرًا على تَبليغي رِسالةَ اللهِ إليكم، ولا تَظُنُّوا أنِّي أدعوكم إلى الإيمانِ باللهِ وطاعتِه وأُنذِرُكم عذابَه لآخُذَ شَيئًا مِن أموالِكم[3].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٦، ٨٧].

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: ما أَجْري على تَبليغِكم رِسالةَ اللهِ إلَّا على اللهِ وَحْدَه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٦).

=

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أي: واللهُ على كُلِّ شَيءٍ رَقيبٌ حاضِرٌ؛ فهو يَشهَدُ على حقيقةِ ما أقولُه لكم وأدعوكم إليه، ولو كُنتُ كاذِبًا لأخَذَني بعذابٍ، وشَهيدٌ على أنَّني بلَّغتُكم وأنذَرْتُكم، فكذَّبتُموني وخالَفْتُم، فأجري على اللهِ، وعُقوبتُكم عليه[1].

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى رِسالةَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بقَولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾، وأكَّده بقَولِه: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾، وكان مِن عادةِ المُشرِكينَ استِبعادُ تخصيصِ واحدٍ مِن بيْنِهم بإنزالِ الذِّكرِ عليه، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]- ذكَرَ ما يَصلُحُ جوابًا لهم، مع الإشارةِ إلى أنَّ الأمرَ بيَدِه، يَفعَلُ ما يُريدُ، ويُعطي ما يَشاءُ لِمَن يشاءُ[2].

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: إنَّ رَبِّي يُلقي الوَحيَ على رَسولِه[3].

= قال البِقَاعي: (فإذا ثبتَ أنَّ الدُّعاءَ [أي: الدَّعوةَ إلى الله] ليس لغَرَضٍ دُنيويٍّ، وأنَّ الدَّاعيَ أرجَحُ النَّاسِ عقلًا؛ ثبَتَ أنَّ الَّذي حمَلَه على تعريضِ نفْسِه لتلك الأخطارِ العَظيمةِ إنَّما هو أمرُ اللهِ الَّذي له الأمرُ كُلُّه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٧، ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٢، ٥٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٩١، ٢٩٢).

قال الزمخشري: (معنى ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يُلقيه ويُنزِلُه إلى أنبيائِه، أو يَرمي به الباطِلَ فيَدمَغُه ويُزهِقُه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩١). =

﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾.

أي: العلَّامُ بكُلِّ ما يَغيبُ عن خَلقِه، لا يخفَى عليه شَيءٌ[(١)].

﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ٤٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه يَقذِفُ بالحَقِّ، وكان ذلك بصيغةِ الاستِقبالِ؛ ذكَرَ أنَّ

= وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ، وهو إلقاؤُه وإنزالُه على رُسُلِه: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٦، ٣٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٧١١).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني، وهو رمْيُ الباطِلِ وإبطالُه: البِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٩١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٧).

وظاهِرُ عبارةِ الزَّجَّاجِ الجمعُ بيْنَهما؛ حيث قال: (ومعنى ﴿يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: يأتي بالحَقِّ ويَرمي بالحَقِّ، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٢٥٨).

وقال ابنُ عاشور: (والمعنى: أنَّ رَبِّي يَقذِفُكم بالحَقِّ، أو هو إشارةٌ إلى قَولِه: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ﴾ [الأنبياء: ١٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨).

قال السعدي: (فإنَّك كما ترى كيف اضمَحَلَّت أقوالُ المكَذِّبين، وتبيَّنَ كَذِبُهم وعِنادُهم، وظهَر الحقُّ وسَطَع، وبطَل الباطِلُ وانقَمَع؛ وذلك بسَبَب بيانِ ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ الَّذي يَعلَمُ ما تَنطوي عليه القُلوبُ مِن الوَساوِسِ والشُّبَهِ، ويَعلَمُ ما يُقابِلُ ذلك ويَدفَعُه مِنَ الحُجَجِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٢، ٥٣٣).

ذلك الحَقَّ قد جاء[١].

وأيضًا لَمَّا وَصَف اللهُ تعالى نفْسَه بنهايةِ العِلمِ؛ أتْبَعَه بعضَ آثارِه، فقال[٢]:

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا محمَّدُ-: جاء الحقُّ الَّذي لا يَقدِرُ أحدٌ على إزالتِه وإبطالِه، بنُزولِ القُرآنِ المُشتَمِلِ على البَيِّناتِ والحُجَجِ، وبدِينِ الإسلامِ[٣].

﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

أي: واضمَحَلَّ الباطِلُ، وذهَبَ ذَهابًا لم يَبقَ معه إقبالٌ له ولا إدبارٌ؛ فلا أثَرَ له ولا وُجودَ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٩).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالحقِّ هنا القرآنُ والإسلامُ: الثعلبيُّ، والبغوي، والرسعني، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٩).
وممَّن اقتصَر في تفسيرِ الحقِّ على الإسلامِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٥).
وقال ابن جرير: (جاء القرآنُ ووَحْيُ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٧).
وقال الماوَرْدي: (﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ فيه ثلاثةُ تأويلاتٍ؛ أحَدُها: بَعثةُ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. قاله ابنُ زَيدٍ. الثَّاني: القرآنُ. قاله قَتادةُ. الثَّالثُ: الجهادُ بالسَّيفِ. قاله ابنُ مسعودٍ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٣، ٥٣٤)، ((تفسير =

كما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((دخَل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مكَّةَ، وحَوْلَ البَيتِ سِتُّونَ وثلاثُ مئةِ نُصُبٍ، فجعَل يَطعُنُها بعُودٍ في يَدِه، ويقولُ: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٩]))[1].

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جرَى ذِكرُ الحَقِّ والباطِلِ، وكانوا يَزعُمونَ مِن مَجموعِ أقوالِهم أنَّ النَّبيَّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- غيرُ صادِقٍ في دعوى الرِّسالةِ مِن اللهِ؛ كانت أقوالُهم تَقتَضي زَعْمَهم إيَّاه على ضلالٍ، وكان الرَّدُّ عليهم قاطِعًا بأنَّه على هُدًى، بِقَولِه: ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٩]، فانتقَل هنا إلى مُتارَكةِ جِدالِهم،

= الشوكاني)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٩٤).

قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بالباطِلِ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه الشَّيطانُ، لا يَخلُقُ أحدًا ولا يَبعَثُه. قاله قَتادةُ.

والثَّاني: أنَّه الأصنامُ، لا تُبدئُ خَلْقًا ولا تُحيي. قاله الضَّحَّاكُ. وقال أبو سُلَيْمانَ: لا يَبتدئُ الصَّنمُ مِن عندِه كلامًا فيُجابَ، ولا يَرُدُّ ما جاء مِن الحَقِّ بحُجَّةٍ.

والثَّالثُ: أنَّه الباطِلُ الَّذي يُضادُّ الحَقَّ، فالمعنى: ذهَب الباطلُ بمجيءِ الحقِّ، فلم تَبْقَ منه بقيَّةٌ يُقبِلُ بها أو يُدبِرُ، أو يُبدِئُ أو يعيدُ. ذكره جماعةٌ مِن المفسِّرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٣).

(١) رواه البخاري (٤٧٢٠) واللفظ له، ومسلم (١٧٨١).

وتَرْكِهم وشأنَهم؛ لقِلَّةِ جَدوَى مُراجَعتِهم[١].

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: إن ضلَلْتُ عن الهُدى، واتَّبَعْتُ غيرَ الحَقِّ؛ فإنَّما إثمُ ضلالي وضرَرُه على نَفْسي لا عليكم[٢]!

﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾.

أي: وإنِ اتَّبعْتُ الحَقَّ واستقَمْتُ عليه، فذلك بتوفيقِ رَبِّي لي إلى اتِّباعِ القُرآنِ الَّذي يُوحيه إلَيَّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

أي: إنَّ ربِّي سَميعٌ لجَميعِ الأصواتِ والأقوالِ، قَريبٌ مِن عبادِه سُبحانَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣).

قال ابن جرير: (يقولُ: إنَّ رَبِّي سميعٌ لِما أقولُ لكم، حافِظٌ له، وهو المُجازي لي على صِدْقي في ذلك، قريبٌ مِنِّي، غيرُ بعيدٍ فيَتعذَّرَ عليه سماعُ ما أقولُ لكم وما تقولونَ وما يقولُه غيرُنا، ولكِنَّه قريبٌ مِن كُلِّ متكلِّمٍ، يَسمَعُ كُلَّ ما يَنطِقُ به، وهو أقرَبُ إليه مِن حبلِ الوَريدِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

وعن أبي موسى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَفَرٍ، فجعَلَ النَّاسُ يَجهَرونَ بالتَّكبيرِ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّها النَّاسُ، ارْبَعُوا[1] على أنفُسِكم؛ إنَّكم ليس تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائبًا، إنَّكم تَدْعونَ سَميعًا قَريبًا، وهو معكم))[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ أنَّه ينبغي لِمَن طلَبَ الحقَّ أنْ يكونَ مُخلِصًا للهِ تعالى، بعيدًا عن الهوى[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ مَن وَثِقَ بنَفْسِه في رَصانةِ عَقلِه، وأصالةِ رأيِه، قام وحْدَه؛ لِيَكونَ

= وقال البِقاعي: (علَّلَ الضَّلالَ والهدى بقَولِه: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: رَبِّي ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي: لا يَغيبُ عنه شَيءٌ مِن حالِ مَن يَكذِبُ عليه؛ فهو جديرٌ بأنَّه يَفضَحُه كما فضَحَكم في جميعِ ما تَدَّعُونَه، ولا يَبعُدُ عليه شَيءٌ لِيَحتاجَ في إدراكِه إلى تأخيرٍ؛ لِقَطعِ مَسافةٍ أو نحوِها، بل هو مُدرِكٌ لكُلِّ ما أراد كُلَّما أراد). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٣٥).

وقال ابنُ عثيمين: (يجِبُ أن تَعلَمَ أنَّه مع قُربِه بذاتِه، فهو مُستَوٍ على عَرشِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٠).

(١) ارْبَعُوا: أي: ارفُقوا بأنفُسِكم، واخفِضوا أصواتَكم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٢٦).

(٢) رواه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٢).

أصفَى لسِرِّه، وأعْوَنَ على خُلوصِ فِكرِه، ومَن خاف عليها ضمَّ إليه آخَرَ؛ ليُذَكِّرَه إن نَسيَ، ويُقَوِّمَه إن زاغَ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ﴾ جوازُ التَّعاوُنِ في طلَبِ الوُصولِ إلى الحقِّ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ دَعوةُ الإنسانِ المُعانِدِ للتَّأمُّلِ في الأمرِ والنَّظَرِ فيه؛ حتَّى لا يَتعجَّلَ بالرَّدِّ[٣]، والفِكرةُ تَهدي غالبًا إلى الصَّوابِ إذا عَرِيَ صاحِبُها عمَّا يُشوِّشُ النَّظَرَ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أنَّنا إذا أرَدْنا استِكشافَ حالِ الشَّخصِ، فإنَّنا نسألُ مُصاحِبَه الَّذي يُصاحِبُه ويُلازِمُه؛ لأنَّه أعلَمُ النَّاسِ به[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ استِعمالُ الأوصافِ الَّتي تَستلزِمُ الموافَقةَ والمُتابَعةَ، فعندَ مُخاطَبةِ آخَرَ يَنْبغي استِعمالُ الألفاظِ الَّتي تُدْنيه وتُقرِّبُه وتُؤلِّفُ قلْبَه، لا الألفاظِ الَّتي تُبعِدُه[٦].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فيه أنَّه لا ينبغي لِذي هِمَّةٍ أن يَبتغيَ شَيئًا إلَّا مِن عندِ اللهِ تعالى[٧].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٤).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَنسُبَ الخطأَ إلى نفْسِه، ويَنسُبَ الصَّوابَ إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه بنِعمتِه[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ ﴾ الاعترافُ لله عزَّ وجلَّ بالجَميلِ[٢].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ ﴾ في الآيةِ إرشادٌ مِن اللهِ تعالى إلى أنَّه وإن كان خَلَقَ للآدَميِّ عَقلًا، لكنَّه حَفَّه بقَواطِعَ مِنَ الشَّهَواتِ والحُظوظِ، والكَسَلِ والفُتورِ؛ فلا يَكادُ يَسْلَمُ منها إلَّا مَن عصَمَه اللهُ، فلمَّا كان كذلك أنزَل سبحانَه كُتُبًا، وأرسَل رُسُلًا جرَّدَهم مِن تلك القواطِعِ، فجعَل أخلاقَهم شرائِعَهم؛ فعلى كلِّ أحدٍ أن يَتَّبِعَ رُسُلَه المتخَلِّقينَ بكُتُبِه، مُتَّهِمًا عقْلَه، مُنابِذًا رأيَه، كما كان الصَّحابةُ رَضِيَ الله تعالى عنهم[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ ﴾ أنَّ النَّظَرَ في الوَحيِ -القُرآنِ والسُّنَّةِ- سَببٌ في الهدايةِ؛ لأنَّ الباءَ في قَولِه تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ ﴾ سَببيَّةٌ، وإذا كان ذلك سَببًا للهدايةِ، كان مِن العقلِ والبصيرةِ أنْ نَنظُرَ في وَحيِ اللهِ تعالى وشَرعِه، وألَّا نَطلُبَ الصَّوابَ مِن غَيرِهما[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في هذه الدَّعوةِ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ...﴾ تَقريبُ مَسالِكِ النَّظرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٥، ٥٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٥).

إليهم باختِصارِه، حيثُ وصَفَ الوعظَ بأنَّه خَصلةٌ واحدةٌ؛ لئلَّا يَتجَهَّموا الإقبالَ على هذا النَّظرِ الَّذي عَقَدوا نِيَّاتِهم على رَفضِه، فأُعلِموا بأنَّ ذلك لا يُكلِّفُهم جهدًا، ولا يُضيِّعُ عليهم زمنًا؛ فلْيَتأمَّلوا فيه قليلًا، ثمَّ يَقْضوا قَضاءَهم[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أنَّ التَّفكيرَ كما يكونُ في الآياتِ الكَونيَّةِ يكونُ كذلك في الآياتِ الشَّرعيَّةِ؛ لأنَّه هنا طلَبَ منهم التَّفَكُّرَ فيما جاء به الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي الرَّسولِ نفْسِه أيضًا[٢].

٣- كلُّ مَن تحيَّرَ في أمرٍ قد اشتَبَهَ عليه واستَبهَم، أخرَجه مِنَ الحَيرةِ فيه أن يَسألَ ويُناظِرَ، ثمَّ يُفكِّرَ ويَعتبِرَ؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ استِعمالُ الأُسلوبِ المناسِبِ للحالِ، وهذا معروفٌ في علمِ البلاغةِ: أنْ يَستعمِلَ الإنسانُ ما يُوافِقُ مُقتضى الحالِ؛ فهنا ذَكَرَ الإنذارَ دونَ البِشارةِ؛ لأنَّ المَقامَ مقامُ تخويفٍ وإنذارٍ؛ لأنه يُخاطِبُ المُكذِّبينَ. لكنْ عندَ وصفِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الوَصفَ المُطلَقَ، يقولُ سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]؛ فبدأَ بالبِشارةِ قبْلَ الإنذارِ، وهذا مِن حيثُ حالُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم المُطْلَقةُ، أمَّا في المقاماتِ الَّتي تقتضي ذِكْرَ الإنذارِ، فيُستعمَلُ فيها الإنذارُ دونَ غَيرِه[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ التَّنزُّلُ مع الخَصمِ، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٤).

على فَرضِ أنِّي سألتُ، فهو لكم[١]!

٦- قال الله تعالى لنبيِّه: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، وقال أيضًا: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ [يس: ٢١]، فلا يجوزُ أخذُ الأجرةِ على تبليغِ الإسلامِ والقرآنِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ تهديدُ الخَصمِ بما تقتضيه أسماءُ اللهِ تعالى وصِفاتُه؛ فإنَّ في ذلك تهديدًا لهم، يعني: فسيَشهدُ على تكذيبِكم وعلى تبليغِه[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾، استُدِلَّ به على استحبابِ هذا القولِ عندَ إزالةِ المنكرِ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ بيانُ أنَّ الإيمانَ والهدَى حَصَلَ بالوَحيِ النَّازلِ، لا بمُجرَّدِ العَقلِ الَّذي كان حاصِلًا قبْلَ الوَحيِ[٥].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ لَمَّا كانت النَّفْسُ مُنقادةً بل مُترامِيةً نحوَ الباطِلِ، عبَّرَ في الضَّلالِ بالمجَرَّدِ ﴿ضَلَلۡتُ﴾ ﴿أَضِلُّ﴾، وفي الهدَى بالافتِعالِ ﴿ٱهۡتَدَيۡتُ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه لا بُدَّ فيه مِن هادٍ وعِلاجٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٥).

(٥) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٤٥٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٤، ٥٣٥).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ إثباتُ الأسبابِ، وأنَّها مُؤَثِّرةٌ بإذنِ اللهِ تعالى؛ ففي ذلك رَدٌّ على الأشاعرةِ الَّذين يُنكِرونَ تأثيرَ الأسبابِ[١]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ استِئنافٌ للانتقالِ مِن حِكايةِ أحوالِ كُفرِ المُشرِكينَ، إلى دَعوتِهم للإنصافِ في النَّظرِ والتَّأمُّلِ في الحقائقِ؛ لِيَتَّضِحَ لهم خَطؤُهم، وأُرشِدوا إلى كيفيَّةِ النَّظرِ في شَأنِهم، والاختلاءِ بأنفُسِهم لِمُحاسَبتِها على سُلوكِها؛ استِقصاءً لهم في الحُجَّةِ، وإعذارًا لهم في المُجادَلةِ؛ ولذلك اجتُلِبَت صِيغةُ الحَصرِ بـ﴿إِنَّمَآ﴾، أي: ما أعِظُكم إلَّا بواحدةٍ؛ طَيًّا لِبِساطِ المُناظَرةِ، وإرساءً على الخُلاصةِ مِن المُجادَلاتِ الماضيةِ، وتقريبًا لِشُقَّةِ الخلافِ بيْنَنا وبيْنَكم[٢].

- وفي قولِه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ...﴾ افتتاحُ الأمرِ بالقولِ هنا وفي الآياتِ الأربعِ بعْدَه؛ للاهتِمامِ بما احتَوَت عليه[٣].

- في قولِه: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ طِباقٌ بَديعٌ[٤]؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ مع مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ [التوبة: ٨٢]؛ طابَقَ بيْنَ الضَّحكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقون. ومنه: طباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّديَّةُ في الصُّورةِ مُتوهَّمةً، فتبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ =

أتَى به احترازًا مِن القِيامِ جماعةً؛ لأنَّ في الاجتِماعِ تَشويشًا للخواطرِ، وحُئولًا دونَ التَّأمُّلِ والاستغراقِ في التَّفكيرِ[١]، فلم يَذكُرْ غيرَهما مِنَ الأقسامِ إشارةً إلى أنَّهم إذا كانوا على هاتينِ الحالتَينِ، كان أجدَرَ لهم بأن يَعرِفوا الحَقَّ مِن غيرِ شائبةِ حَظٍّ؛ ممَّا يكونُ في الجَمعِ الكثيرِ مِن الجِدالِ واللَّفظِ المانعِ مِن تهذيبِ الرَّأيِ، وتَثقيفِ الفِكرِ، وتنقيةِ المعاني[٢].

- والتَّعبيرُ بالقيامِ؛ إشارةً إلى الاجتِهادِ[٣].

- وقُدِّمَ ﴿مَثْنَىٰ﴾ إيذانًا بأنَّه أوثَقُ وأقرَبُ إلى الاطمئنانِ؛ لأنَّ الاستعانةَ بشَخصٍ ثانٍ أعوَنُ على الفَهمِ؛ فيكونُ المرادُ دَفْعَ عوائقِ الوُصولِ إلى الحقِّ بالنَّظرِ الصَّحيحِ الَّذي لا يُغالِطُ فيه صاحبُ هَوًى ولا شُبهةٍ، ولا يَخشى فيه النَّاظرُ تَشنيعًا ولا سُمْعةً، وللسَّلامةِ مِن العوائقِ والتَّخلُّصِ مِن البوائقِ الصَّادَّةِ عن طَريقِ الحقِّ قِيل هنا: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾؛ فإنَّ المرْءَ إذا خَلَا بنَفْسِه عندَ التَّأمُّلِ لم يَرضَ لها بغيرِ النُّصحِ، وإذا خَلا ثانيَ اثنينَ فهو إنَّما يَختارُ ثانيَه أعلَقَ أصحابِه به، وأقرَبَهم منه رأْيًا، فسَلِمَ كِلاهما مِن غِشِّ صاحبِه[٤]. وقيل:

= تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخال النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري)) للآمدي (١/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٢٢٥ - ٢٣٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٣٧٧ - ٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩، ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٣).

قُدِّمَ ﴿مَثۡنَىٰ﴾؛ لأنَّ هذا القِسمَ أكثَرُ وُجودًا في النَّاسِ[١].

- وحَرفُ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي في الرُّتبةِ؛ لأنَّ التَّفكُّرَ في أحوالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أهَمُّ في إصلاحِ حالِ المُخاطَبينَ المُعرِضينَ عن دَعوتِه، بخِلافِ القيامِ للهِ؛ فإنَّهم لا يَأبَوْنَه[٢]. وقيل:

لَمَّا كان ما طُلِب منهم هذا لأجْلِه عظيمًا، جديرًا بأن يُهتَمَّ له هذا الاهتِمامَ؛ أشار إليه بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾، أي: تَجتَهِدوا بعد التَّأنِّي وطولِ التروِّي في الفِكرِ فيما وسَمتُم به صاحِبَكم مِن أمرِ الجُنونِ[٣]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وفي إطلاقِ ﴿تَتَفَكَّرُواْ﴾ مُبالَغةٌ ليسَتْ في تَقييدِه[٤].

- قولُه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ مِن جِهَتِه تعالَى -على قولٍ-؛ للتَّنبيهِ على طَريقةِ النَّظرِ والتَّأمُّلِ؛ بأنَّ مِثلَ هذا الأمرِ العظيمِ الَّذي تَحتَه مُلكُ الدُّنيا والآخرةِ، لا يَتصدَّى لادِّعائِه إلَّا مَجنونٌ لا يُبالي بافتِضاحِه عندَ مُطالَبتِه بالبُرهانِ، وظُهورِ عَجْزِه، أو مُؤيَّدٌ مِن عندِ اللهِ، مُرشَّحٌ للنُّبوَّةِ، واثقٌ بحُجَّتِه وبُرهانِه، وإذ قد عَلِمْتُم أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أرجَحُ العالَمينَ عقْلًا، وأصدَقُهم قَولًا، وأجمَعُهم للكَمالاتِ البشريَّةِ؛ وجَبَ أنْ تُصدِّقُوه في دَعواهُ، فكيف وقد انضَمَّ إلى ذلك مُعجزاتٌ تَخِرُّ لها صُمُّ الجبالِ[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٠).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٩).

- والتَّعبيرُ ﴿بِصَاحِبِكُم﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (ما بي مِن جِنَّةٍ)؛ إذ الكلامُ جارٍ على لِسانِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفائدةُ ذلك: التَّنبيهُ على أنَّ حالَه مَعلومٌ لَدَيْهم، لا يَلتبِسُ عليهم؛ لِشِدَّةِ مُخالَطتِه بهم مُخالطةً لا تَذَرُ للجَهالةِ مَجالًا؛ فهُم عَرَفوه ونشَأَ بيْنَهم حتَّى جاءهم بالحقِّ[1]، وفي الإضافةِ ﴿بِصَاحِبِكُم﴾ زيادةُ التَّشنيعِ على هؤلاءِ الكُفَّارِ في أنَّهم يَصِفونَ صاحبَهم -الَّذي يَعرِفونَه- بهذا الوَصفِ، وأيضًا أنَّه كان أَولى بهم -وهو صاحِبُهم- أنْ يكونوا أوَّلَ النَّاسِ تصديقًا به، وأشدَّ النَّاسِ مَعونةً له[2].

- والاقتِصارُ في التَّفكُّرِ المَطلوبِ على انتفاءِ الجِنَّةِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قولِه: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ هو أنَّ أصْلَ الكفرِ هو الطَّعنُ في نُبوَّتِه، وهمْ لَمَّا طَعَنوا فيه قالوا: مَجنونٌ، وقالوا: ساحرٌ، وقالوا: كاذبٌ؛ فابتُدِئَ في إرجاعِهم إلى الحقِّ بنَفْيِ الجُنونِ عنه، حتى إذا أذْعَنوا إلى أنَّه مِن العُقلاءِ، انصَرَفَ النَّظرُ إلى أنَّ مِثلَ ما جاء به لا يَأتي به إلَّا عاقلٌ، فبَقِيَت دَعواهم أنَّه ساحِرٌ، وأنَّه كاهنٌ، وأنَّه شاعرٌ، وأنَّه كاذبٌ -حاشاهُ-؛ فأمَّا السِّحرُ والكِهانةُ فسَهلٌ نَفْيُهما بنَفْيِ خَصائصِهما، ومِن أجْلِ هذا التَّدرُّجِ الَّذي طُوِيَ تحتَ جُملةِ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾، أُعقِبَ ذلك بحَصْرِ أمْرِه في النِّذارةِ بقُرْبِ عذابٍ واقعٍ، أي: في النِّذارةِ والرِّسالةِ الصَّادقةِ[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٤، ٢٣٥).

- قولُه: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡ ...﴾ استِقصاءٌ لِبَقايا شُبَهِ التَّكذيبِ؛ لِدَحْضِها، سواءٌ منها ما تَعلَّقوا به مِن نَحوِ قولِهم: كاهنٌ، وشاعِرٌ، ومَجنونٌ، وما لم يَدَّعوه ولكنَّه قد يَخطُرُ ببالِ واحدٍ منهم؛ أنْ يَزعُموا أنَّه يُريدُ بهذه الدَّعوةِ نفْعًا لنَفْسِه يكونُ أجْرًا له على التَّعليمِ والإرشادِ، وهذه طَريقةٌ بَديعةٌ في الكِنايةِ التَّهكُّميَّةِ عن عدَمِ انتفاعِه بما يَدْعوهم إليه؛ بأنْ يُفرَضَ كالواقعِ، ثم يُرتَّبَ عليه الانكفافُ عنه، ورَدُّ ما فات منه؛ لِيُفضِيَ بذلك إلى البراءةِ منه ومِن التَّعرُّضِ له؛ فهي كِنايةٌ رَمزيَّةٌ، وأنَّهم يَعلَمون أنَّه لم يَسأَلْهم أجْرًا[(١)].

- في قولِه: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ تصريحٌ بأنَّ النَّبيَّ لا يُريدُ أجرًا منهم، وجِيءَ بالشَّرطِ بصِيغةِ الماضي لِيَدُلَّ على انتفاءِ ذلك في الماضي، فيَكونَ انتِفاؤُه في المُستقبَلِ أجدَرَ، على أنَّ وُقوعَه في سِياقِ الشَّرطِ يَقْضي بانتفائِه في المُستقبَلِ أيضًا، وهذا جارٍ مَجْرى التَّحدِّي؛ لأنَّه لو كان لِجَماعتِهم أو آحادِهم عِلمٌ بأنَّه طلَبَ أجْرًا منهم، لَجأروا حينَ هذا التَّحدِّي بمُكافَحتِه، وطالَبوه برَدِّه عليهم[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا، جَوابًا لِسُؤالٍ مُقدَّرٍ أنْ يَسأَلَ السَّامعُ: كيف لا يكونُ له على ما قام به أجْرٌ؟ فأُجِيبَ بأنَّ أجْرَه مَضمونٌ وعَدَه اللهُ به؛ لأنَّه إنَّما يقومُ بعَملٍ لِمَرْضاتِه وامتثالِ أمْرِه؛ فعليه أجْرُه[(٣)].

- قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾ تَذييلٌ باستِشهادِ اللهِ تعالى على باطنِه ونِيَّتِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٣٧).

الَّتي هي مِن جُملةِ الكائناتِ الَّتي اللهُ شَهيدٌ عليها، وعليمٌ بخَفاياها، وهو شاهدٌ على ذلك كلِّه[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ أُعِيدَ فِعلُ (قل)؛ للاهتِمامِ بالمَقولِ. والتَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ لِتَحقيقِ هذا الخبَرِ[٢].

- والتَّعبيرُ عن اسمِ اللهِ سُبحانَه بلفظِ (الرَّبِّ)، وإضافتُه إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الحقَّ في جانبِه، وأنَّه مؤيَّدٌ مِن ربِّه؛ فإنَّ الرَّبَّ يَنصُرُ مَربوبَه ويُؤيِّدُه[٣].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿رَبِّي﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾؛ للدَّلالةِ على الاختِصاصِ دونَ التَّقوِّي؛ لأنَّ تَقوِّي الجُملةِ حَصَلَ بحَرْفِ التَّأكيدِ، وهذا الاختِصاصُ باعتبارِ ما في ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ مِن معنى: النَّاصرُ لي دُونَكم؛ فماذا يَنفَعُكم اعتِزازُكم بأموالِكم وأولادِكم وقُوَّتِكم[٤]؟!

- وفي قولِه: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ تَعريضٌ بالتَّهديدِ والتَّخويفِ مِن نَصرِ اللهِ المؤمنينَ على المُشرِكينَ، ووَعدٌ بإظهارِ الإسلامِ وإعلاءِ كَلمةِ الحقِّ[٥].

- وتَخصيصُ وَصْفِ ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ مِن بيْنِ الأوصافِ الإلهيَّةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه عالِمٌ بالنِّيَّاتِ، وأنَّ القائلَ يَعلَمُ ذلك؛ فالَّذي يَعلَمُ هذا لا يَجترِئُ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٣٧، ٢٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨).

اللهِ بادِّعائه باطلًا أنَّه أرسَلَه إليكم، فالإعلامُ بهذه الصِّفةِ هنا يُشبِهُ استِعمالَ الخبَرِ في لازِمِ فائدتِه؛ وهو العِلمُ بالحُكمِ الخَبَريِّ، مع ما فيه مِن المُبالَغةِ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أُعيدَ فِعلُ (قل)؛ للاهتِمامِ بالمَقولِ، وجُملةُ ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ تأكيدٌ لِجُملةِ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ [سبأ: ٤٨]؛ فإنَّ الحقَّ قد جاء بنُزولِ القرآنِ ودَعوةِ الإسلامِ. ولَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّه ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ، أخبَرَ أنَّ الحقَّ قد جاء، وهو القرآنُ والوحيُ، وبطَلَ ما سِواهُ مِن الأديانِ؛ فلمْ يَبقَ لغيرِ الإسلامِ ثَباتٌ، لا في بَدْءٍ ولا في عاقبةٍ؛ فلا يُخافُ على الإسلامِ ما يُبطِلُه[٢].

- وعطَفَ ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ على ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾؛ لأنَّه إذا جاء الحقُّ انقشَعَ الباطِلُ مِن المَوضِعِ الذي حلَّ فيه الحقُّ، وفيه كِنايةٌ عن اضْمِحْلالِ الباطِلِ وزوالِه، وهو مَثَلٌ في الهَلاكِ بالمرَّةِ[٣].

- وأيضًا قَولُه: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّ الآيةَ الثَّانيةَ مُقرِّرةٌ للأُولى، وعلى الأوَّلِ تَكميلٌ؛ لأنَّ الأُولى إثباتٌ للحَقِّ، والثَّانيةَ إزالةٌ للباطِلِ[٤].

٥- قَولُه تَعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦٢، ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٨١).

رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴾

- صِيغةُ القَصرِ في قَولِه: ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِي﴾ لقَصرِ الضَّلالِ المَفْروضِ، أي: على نَفْسي لا عليكم؛ لأنَّهم كانوا يُحاولون أنْ يُقلعَ عمَّا دَعاهُم إليه، ولم يَقتَصِروا على صُدودِهم. أمَّا قَولُه: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ فهو كالاحتِراسِ مِن أنْ يكونَ حالُه مُقتَصِرًا على فَرضِ كَونِه مَظِنَّةَ الضَّلالِ، مع ما فيه مِن الاعتِرافِ للهِ بنِعمَتِه بأنَّ ما يَنالُه مِن خَيرٍ فهو بإرشادِ اللهِ، لا مِن نفْسِه[1].

- وبيْنَ قَولِه: ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِي﴾ وقَولِه: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ تَقابُلٌ من جِهةِ المَعْنى؛ لأنَّ النَّفْسَ كُلُّ ما عليها فهو بها، أي: أنَّ كُلَّ ما هو وَبالٌ عليها وضارٌّ لها فهو بسببِها: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وما لَها ممَّا يَنفَعُها فبِهدايةِ ربِّها وتَوفيقِه، وهذا حُكمٌ عامٌّ لكُلِّ مُكلَّفٍ، وإنَّما أمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يُسنِدَه إلى نَفْسِه؛ لأنَّ الرَّسولَ إذا دخَلَ تحتَه مع جَلالةِ مَحَلِّه وسَدادِ طَريقتِه كان غيرُه أوْلى به[2].

- واختِيرَ في جانبِ الهُدى فِعلُ ﴿ٱهۡتَدَيۡتُ﴾ الَّذي هو مُطاوِعُ (هَدَى)؛ لِما فيه من الإيماءِ إلى أنَّ له هاديًا، وبيَّنَه بقَولِه: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾؛ لِيَحصُلَ شُكرُه للهِ إجمالًا ثمَّ تفصيلًا. وفي قَولِه: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه على هُدًى؛ لأنَّه أثبَتَ أنَّ وَحيًا من اللهِ واردٌ إليه، وقد استُفيدَ أنَّ الضَّلالَ المفروضَ إنْ حصَلَ فسببُه مِن قِبَلِ نَفْسِه، مِن إسنادِ فِعلِ ﴿أَضِلُّ﴾ إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ، ثمَّ ممَّا عَقِبَه مِن قَصْرِ الضَّلالِ على الحُصولِ مِن المُتكلِّمِ، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦٤).

أعرَقُ في التَّعلُّقِ به. وفي هذا مُقابَلَةٌ يُعلَمُ منها أنَّ سببَ الضَّلالِ والاهتداءِ مُختلِفٌ مِن جِهةِ المعنى، ولا سيَّما حينَ رجَّحَ جانبَ اهتدائِه بقَولِه: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾، على أنَّ المُقابَلَةَ بيْنَ الشَّرطَينِ يَنقدِحُ بها في ذِهنِ السَّامعِ أنَّ الضَّلالَ مِن تَسْويلِ النَّفْسِ، ولو حصَلَ لَكان جِنايةً مِن النَّفْسِ عليه، وأنَّ الاهتِداءَ مِن اللهِ، وأنَّه نفْعٌ ساقَه إليه بوَحيِه[1].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ تَذييلٌ لِما أفادَتْه الجُمْلتانِ المَقولتانِ قبْلَه مِن التَّرديدِ في نِسبةِ الاهتِداءِ والضَّلالِ، أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ أنِّي على هُدًى أو ضِدِّه، ويَحصُلُ مِن ذلك عِلمُ مُقابِلِه مِن أحوالِ خُصومِه؛ لأنَّه سميعٌ لِما يقولُه الفَريقانِ، قَريبٌ ممَّا يُضمِرونَهُ فلا يَخْفَى عليه. وفيه تعريضٌ بالتَّهديدِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٤١).

الآيات (٥١-٥٤)

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَلَا فَوْتَ ﴾: أي: فلا نجاةَ ولا هربَ، والفَوتُ: التَّفَلُّتُ والخلاصُ مِن العِقابِ، وأصلُه يدُلُّ على خِلافِ إدراكِ الشَّيءِ، والوُصولِ إليه[١].

﴿ٱلتَّنَاوُشُ ﴾: أي: التَّناوُلُ، وإدراكُ ما يُريدونَ، أو التَّناوُلُ السَّهلُ أو الخَفيفُ، وأكثرُ وُرودِه في شُرْبِ الإبلِ شُرْبًا خَفيفًا مِن الحوضِ ونحوِه، وأصلُ (نوش): يدُلُّ على تَناوُلِ الشَّيءِ[٢].

﴿ وَحِيلَ ﴾: أي: حُجِزَ ومُنِعَ، وأصلُ (حول): يدُلُّ على انفِصالِ الشَّيءِ عن غَيرِه[٣].

﴿بِأَشْيَاعِهِم ﴾: أي: بأشباهِهم مِن كَفَرةِ الأُمَمِ؛ جمعُ شِيَعٍ، وشِيعٌ: جَمعُ شِيعةٍ، وهم كُلُّ قَومٍ اجتَمَعوا على أمرٍ، وأصلُه مِنَ التَّشييعِ، وهو التَّتَبُّعُ والتَّقويةُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٩)، =

﴿مُّرِيبٍ﴾: أي: مُوقِعٍ للتُّهمةِ، والرِّيبةُ: التُّهمةُ، وهي ظنُّ السوءِ، فهي قِسمٌ مِن الشَّكِّ، والرِّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتفاءُ الطُّمَأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يختمُ الله تعالى السُّورةَ بذِكْرِ حالِ الكافرينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: ولو تَرى -يا محمَّدُ- أولئك الكافِرينَ حينَ فَزِعوا عندَ رُؤيةِ عَذابِ اللهِ، فلا يَستَطيعونَ منه هَرَبًا، وأُخِذوا مِن مَكانٍ قَريبٍ، وقالوا: آمَنَّا بالحَقِّ! وكيف لهم تَناوُلُ الإيمانِ النَّافعِ في الآخرةِ، وقد ضيَّعوا وقتَ إمكانِه في دارِ الدُّنيا بكفرِهم فيها؟! وهم قد كَفَروا بالحَقِّ قبْلَ ذلك، ويَرمونَ بالغَيبِ مِن مَوضِعٍ بَعيدٍ!

ومُنِعوا عمَّا يَشتَهونَ كما فعَلَ اللهُ بنُظَرائِهم وأشباهِهم مِن الكُفَّارِ مِن قَبْلِهم؛ إنَّهم كانوا في شَكٍّ مُوقِعٍ لهم الرِّيبةَ والتُّهمةَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جاءهم التَّعريضُ بالتَّهديدِ مِن لازمِ المُتارَكةِ المدلولِ عليها بقَولِه: ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِيۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ [سبأ: ٥٠]؛ للعِلمِ بأنَّ الضَّالَّ يَستَحِقُّ العِقابَ؛ أتْبَعَ حالَهم حينَ يحُلُّ بهم الفَزَعُ مِن مُشاهَدةِ ما هُدِّدوا به[2].

= ((التفسير البسيط)) للواحدي (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٤)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤١).

وأيضًا لَمَّا أبطل اللهُ تعالى شُبَهَ الكافرينَ، وخَتَم مِن صِفاتِه بما يَقتضي البَطشَ بمَن خالَفَه؛ قال عاطِفًا على: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ ...﴾ [سبأ: ٣١][(١)]:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾.

أي: ولو تَرى الَّذين كَفَروا -يا محمَّدُ- حينَ فزَعِهم عندَ رُؤيتِهم عذابَ اللهِ[(٢)]، فلا يَستطيعون منه بُعدًا، وأُخِذوا مِن موضِعٍ قَريبٍ، فلم يَتمَكَّنوا مِنَ الفِرارِ بَعيدًا[(٣)].

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٦).

(٢) قال القرطبي: (المعنى: لو ترى إذا فَزِعوا في الدُّنيا عندَ نزولِ الموتِ أو غيرِه مِن بأسِ اللهِ تعالى بهم. رُوِي معناه عن ابنِ عبَّاسٍ. الحسَنُ: هو فزَعُهم في القُبورِ مِن الصَّيحةِ. وعنه: أنَّ ذلك الفزَعَ إنَّما هو إذا خرَجوا مِن قبورِهم. وقاله قَتادةُ. وقال ابنُ مَعْقِلٍ: إذا عايَنوا عِقابَ اللهِ يومَ القيامةِ. السُّدِّيُّ: هو فزَعُهم يومَ بدرٍ حينَ ضُرِبَت أعناقُهم بسيوفِ الملائكةِ، فلم يَستطيعوا فِرارًا ولا رجوعًا إلى التَّوبةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٤).

وقال ابنُ الجوزي: (قال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: هو الجَيشُ الذي يُخسَفُ به بالبَيْداءِ، يَبقى منهم رجُلٌ فيُخبِرُ النَّاسَ بما لَقُوا، وهذا حديثٌ مشروحٌ في التَّفسيرِ، وأنَّ هذا الجَيشَ يَؤُمُّ البَيتَ الحرامَ لتخريبِه، فيُخسَفُ بهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٣).

وقال ابنُ عثيمين عندَ تفسيرِ قَولِ الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾: (هذا يؤيِّدُ ما ذكره بعضُ المفَسِّرين -رحِمَهم اللهُ- بأنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١] يعني: عندَ الموتِ؛ لأنَّه قال: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾، وهذا فِعلٌ ماضٍ يدُلُّ على أنَّ هذا أمرٌ قد مضَى على مَن سَبَق، ولو كان يومَ القيامةِ لم يكُنْ قد مضى مِن قبْلُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٨، ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤١، ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٩).

قال ابنُ جرير: (وأخَذَهم اللهُ بعذابِه مِن موضعٍ قَريبٍ؛ لأنَّهم حيث كانوا فهم مِن اللهِ قريبٌ، لا يَبعُدونَ عنه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٤).

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾.

أي: وقالوا: آمَنَّا بالحَقِّ[(١)].

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

أي: وكيف لهم تناوُلُ الإيمانِ النَّافعِ في الآخرةِ، وقد ضيَّعوا وقتَ إمكانِه في دارِ الدُّنيا بكفرِهم فيها، وبَعُدوا عن محلِّ قَبولِه منهم، وصاروا إلى الدَّارِ الآخرةِ، فحِيلَ بيْنَهم وبيْنَه[(٢)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٢).

قال ابن الجوزي: (في هاءِ الكنايةِ أربعةُ أقوالٍ: أحدها: أنَّها تعودُ إلى الله عزَّ وجلَّ، قاله مجاهدٌ. والثاني: إلى البعثِ، قاله الحسنُ. والثالثُ: إلى الرَّسولِ، قاله قتادةُ. والرابعُ: إلى القرآنِ، قاله مقاتلٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٤).

قال ابنُ جريرٍ: (﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، يعني: آمنَّا باللهِ وبكتابِه ورسولِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٤)، ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨).

وقال ابن عاشور: (وضميرُ ﴿بِهِۦ﴾ للوعيدِ أو ليومِ البعثِ أو للنبيِّ صلى الله عليه وسلم أو القرآنِ، إذا كان الضميرُ محكيًّا مِن كلامِهم؛ لأنَّ جميعَ ما يصِحُّ معادًا للضميرِ مشاهدٌ لهم وللملائكةِ، فأجمَلوا فيما يُرادُ الإيمانُ به؛ لأنَّهم ضاق عليهم الوقتُ، فاستعجَلوه بما يحسبونَه منجيًا لهم مِن العذابِ، وإن كان الضميرُ مِن الحكايةِ فهو عائدٌ إلى الحقِّ مِن قولِه: ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ [سبأ: ٤٨]؛ لأنَّ الحقَّ يتضمَّنُ ذلك كلَّه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١١-٣١٣).

قال الشنقيطي: (والمعنى: أنَّه يُستبعَدُ كلَّ الاستبعادِ، ويَبعُدُ كلَّ البُعدِ أن يَتناوَلَ الكفَّارُ الإيمانَ النَّافعَ في الآخرةِ بعدَما ضَيَّعوا ذلك وقتَ إمكانِه في دارِ الدُّنيا. وقيل: الاستبعادُ لرَدِّهم إلى الدُّنيا مرَّةً أخرى ليؤمِنوا. والأوَّلُ أظهَرُ، ويدُلُّ عليه قولُه قبْلَه: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾، ومَن أراد تَناوُلَ شَيءٍ مِن مكانٍ بعيدٍ لا يُمكِنُه ذلك، والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٧٥). =

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾.

أي: وهم قد كفَروا بالحَقِّ قبْلَ ذلك[(١)].

﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

أي: ويَرمُونَ[(٢)] بالغَيبِ مِن مَوضِعٍ بعيدٍ[(٣)]!

= وقال ابن جرير: (وأنَّى لهم التَّوبةُ والرَّجْعةُ الَّتي قد بَعُدَتْ منهم، وصاروا منها بمَوضِعٍ بعيدٍ أن يَتناوَلوها؛ وإنَّما وصَفَ ذلك المَوضِعَ بالبُعدِ؛ لأنَّهم قالوا ذلك في القيامةِ، فقال الله: أنَّى لهم بالتَّوبةِ المقبولةِ؟! والتَّوبةُ المقبولةُ إنَّما كانت في الدُّنيا، وقد ذهبتْ الدُّنيا، فصارتْ بعيدًا مِن الآخرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٥).

(٢) قال ابنُ جرير: (يقول: وهم اليَومَ يَقذِفونَ بالغَيبِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٠).

وقال ابنُ عاشور: (﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ عَطفٌ على ﴿كَفَرُوا۟﴾، فهي حالٌ ثانية، والتَّقديرُ: وكانوا يَقذِفونَ بالغَيبِ. واختيارُ صيغةِ المضارعِ؛ لحكايةِ الحالةِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: ٣٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٤).

وقيل: المرادُ أنَّهم يَقذِفونَ بالغَيبِ في الآخرةِ. وممَّن رُوِيَ عنه هذا المعنى: ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨، ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

قال ابن الجوزي: (﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يَرمونَ بالظَّنِّ مِن مَكانٍ بَعيدٍ، وهو بُعدُهم عن العِلمِ بما يقولونَ. وفي المرادِ بمقالتِهم هذه ثلاثةُ أقوال؛ أحدُها: أنَّهم يَظُنُّون أنَّهم يُرَدُّون إلى الدُّنيا. قاله أبو صالح عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثَّاني: أنَّه قولُهم في الدُّنيا: لا بَعْثَ لنا ولا جنَّةَ ولا نارَ. قاله الحسَنُ وقَتادةُ.

والثَّالث: أنَّه قَولُهم عن رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: هو ساحِرٌ، هو كاهِنٌ، هو شاعِرٌ. قاله مجاهِدٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٤).

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾.

أي: ومُنِعوا عمَّا يَشتَهونَ[1] كما فَعَل اللهُ بنُظَرائِهم وأشباهِهم مِن الكافِرينَ مِن قَبْلِهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧، ٢١٨).

في معنى قوله: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أقوالٌ؛ منها:

أنَّ المرادَ: ما يَشتَهونَ مِن الإيمانِ وقَبولِه ونَفْعِه حينَئذٍ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: يحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٣٦).

وممَّن قال بهذا القولِ ونحوِه مِن السَّلفِ: الحسَنُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((المعرفة والتاريخ)) ليعقوب بن سفيان (٢/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٩).

وقيل: المرادُ: الشَّهواتُ واللَّذَّاتُ؛ كالأولادِ، والأموالِ، والخَدَمِ، والجنودِ. وممَّن قال بهذا القولِ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ عمَر، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٩).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ: ابنُ كثير، فقال: (والصَّحيحُ: أنَّه لا مُنافاةَ بينَ القولَينِ؛ فإنَّه قد حِيل بيْنَهم وبيْنَ شَهَواتِهم في الدُّنيا، وبينَ ما طلَبوه في الآخرةِ فمُنِعوا منه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٩).

وقيل: المرادُ بـ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾: الرُّجوعُ إلى الدُّنيا. وممَّن اختاره: السمرقندي، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٩).

وقيل: المرادُ: التَّوبةُ والإيمانُ والرُّجوعُ إلى الدُّنيا. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والثعلبيُّ، والبغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٩٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢١، ٣٢٣)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٦٤)، ((تفسير =

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

أي: إنَّهم كانوا في شَكٍّ يُوجِبُ لهم الارتيابَ والتُّهمةَ والاضطِرابَ في شأنِ الحَقِّ(١).

= القرطبي)) (١٤/ ٣١٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٩، ٥٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرونَ: والمعنى: كما فُعِل بنُظَرائهم مِن الكفارِ، مِنْ قَبْلِ هؤلاء، فإنَّهم حِيل بيْنَهم وبينَ ما يَشتَهونَ. وقال الضَّحَّاكُ: هم أصحابُ الفيلِ حينَ أرادوا خرابَ الكعبةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٤).

وقال ابنُ جُزَي: (و ﴿مِّن قَبْلُ﴾ يحتمِلُ أن يتعلَّقَ بـ ﴿فُعِلَ﴾، أو ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾؛ على حسَبِ معنى ما قبْلَه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٧).

وقال الألوسي: (﴿مِّن قَبْلُ﴾ متعلِّقٌ ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾ على أنَّ المرادَ مَن اتَّصفَ بصفتِهم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: في الزَّمانِ الأوَّلِ، ويرجِّحُه أنَّ ما يُفعَلُ بجميعِهم في الآخرةِ إنَّما هو في وقتٍ واحدٍ. أو متعلِّقٌ بـ ﴿فُعِلَ﴾ إذا كانت الحيلولةُ في الدُّنيا). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٩، ٣٢١).

قال الشوكاني: (جملةُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ تعليلٌ لِما قَبْلَها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٩).

قيل: المرادُ بشَكِّهم المُريبِ: شَكُّهم في شأنِ العذابِ ونُزولِه بهم. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٤٦).

وقيل: المرادُ: شَكُّهم في البَعثِ ونزولِ العذابِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والبغويُّ، وابنُ الجوزي، والخازنُ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥١).

وقيل: المرادُ: في أمرِ الرُّسُلِ والبَعثِ، والجنَّةِ والنَّارِ. وممَّن قال بهذا: القرطبي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٧٤). =

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أنَّ الإيمانَ بعدَ مُعايَنةِ العذابِ لا يُفيدُ، وإنَّما كان غيرَ مفيدٍ؛ لأنَّ الإيمانَ بالمُشاهَدِ لا قيمةَ له؛ فالشَّيءُ المُشاهَدُ لا بُدَّ أنْ يُؤمِنَ به كلُّ إنسانٍ، لكنَّ المحنةَ والابتِلاءَ إنَّما تكونُ في الإيمانِ بالغَيبِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1] [البقرة: ٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ فيه سؤالٌ: إنْ قيلَ: إنَّ الآخرةَ قَريبٌ، قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، فكيف قال: ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾؟

فالجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ الماضيَ كالأمسِ الدَّابرِ، وهو مِن أبعَدِ ما يكونُ؛ إذْ لا وُصولَ إليه، والمُستقبَلَ وإن كان بيْنَه وبيْنَ الحاضِرِ سِنونَ فإنَّه آتٍ؛ فيومُ القيامةِ الدُّنيا بعيدةٌ منه؛ لِمُضيِّها، ويومُ القيامةِ في الدُّنيا قريبٌ؛ لإتيانِه[2].

الوجهُ الثَّاني: أنَّ ذلك قريبٌ عندَ مَنْ آمَنَ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، أمَّا مَن لم يؤمِنْ فلا يُمكِنُه التَّصديقُ به، فيكونُ بعيدًا عندَه.

الوجهُ الثَّالِثُ: أنَّ الحِكايةَ يومَ القيامةِ، فكأنَّه قال: كانوا يَقذِفونَ مِن مكانٍ

= وقال البِقاعي: (أي: في جميعِ ما يُخبِرُهم به رُسُلُنا عنَّا مِن الجزاءِ أو غيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٥٨).

بعيدٍ، وهو الدُّنيا.

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّهم في الآخرةِ يقولونَ: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢]، وهو قَذْفٌ بالغَيبِ مِن مكانٍ بعيدٍ، وهو الدُّنيا(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ أنَّ هؤلاء لم يُحاوِلوا القُرْبَ والنَّظَرَ فيما جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، بل كانوا كالَّذي يَرمي بالحِجارةِ مِن بُعدٍ، ولا يريدُ أنْ يَقتَرِبَ لِيَتبيَّنَ الأمرَ! وهذا سوءُ أدبٍ منهم؛ لأنَّ العَقلَ يَقتضي أنْ يَدنُوا مِن الشَّيءِ لِيَتعرَّفوا إليه؛ حتَّى لا يَقذِفوه مِن بعيدٍ، لكنْ هم كانوا يَقذِفونَ بالغَيبِ مِن مَكانٍ بعيدٍ، وهذا يُبعِدُ أنْ يكونَ الإيمانُ مَقبولًا منهم(٢).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُ ...﴾ ثمَّ قال في آخِرِ الآيةِ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبٖ﴾ احتَجَّ بهذه الآيةِ بَعضُ المفَسِّرينَ أنَّ الشَّاكَّ كافِرٌ، ورَدَّ بها على مَن زعَمَ أنَّه ليس بكافرٍ، واللهُ لا يُعَذِّبُ على الشَّكِّ(٣)، فالشَّكُّ مُنافٍ للإيمانِ فيما يجِبُ الإيمانُ به؛ فلو أنَّ أحدًا شَكَّ في يومِ القيامةِ وفي البَعثِ؛ ما نفَى وجَزمَ بالنَّفيِ، ولا أقَرَّ وجَزَم بالإقرارِ: فهذا في حُكْمِ المُنكِرِ تمامًا؛ فهو كافِرٌ(٤).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: (أنَّه شَرِب ماءً باردًا فبكَى، فاشتدَّ بُكاؤُه، فقيل له: ما يُبكيكَ؟ فقال: ذكَرْتُ آيةً في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾، فعرَفْتُ أنَّ أهلَ النَّارِ لا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٢١).

يَشتَهونَ إلَّا الماءَ البارِدَ، وقال اللهُ عزَّ وجلَّ عنهم: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠])[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أنَّ مُفارَقةَ المُشتهَياتِ هو مِن أعظَمِ العُقوباتِ؛ فالفَرَحُ والسُّرورُ: بالظَّفَرِ بالمحبوبِ، والهَمُّ والغَمُّ والحزنُ والأسَفُ: بفَواتِ المحبوبِ، فأطيبُ العَيشِ عَيشُ المُحِبِّ الواصلِ إلى محبوبِه، وأمَرُّ العَيشِ عَيشُ مَن حِيلَ بيْنَه وبينَ محبوبِه[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ استِعمالُ القياسِ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ الإشارةُ إلى الاعتبارِ بمَن مضى وسَبَقَ، سواءٌ كانوا مِن أهلِ الخَيرِ أو مِن أهلِ الشَّرِّ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾

- الخِطابُ في قولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ ...﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تَسليةً له، أو لكلِّ مَن يَتأتَّى منه النَّظرُ؛ لِعِظَمِ الأمْرِ، وفَخامةِ الشَّأنِ. وحُذِفَ جَوابُ (لو)؛ للتَّهويلِ[٥]، والتَّقديرُ: لَرأيتَ أمْرًا فَظيعًا، وحالًا هائلةً[٦]، ففيه

---

(١) رواه عبد الله بن أحمدَ في زوائد ((الزهد)) (١٠٥٥)، ومن طريقه البيهقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٤٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) والقاعدةُ في هذا: أنَّ حذفَ جوابِ الشَّرطِ يدُلُّ على تعظيمِ الأمرِ وشِدَّتِه في مقاماتِ الوعيدِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٣٧٢، ٣٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤١).

إشارةٌ إلى عظيمِ ما سيَقَعُ بهؤلاء عندَ الموتِ أو يومَ القيامةِ؛ فحَذْفُ جوابِ الشَّرطِ أعظَمُ في التَّهويلِ والتَّفخيمِ، حتَّى يَذهَبَ الذِّهْنُ كلَّ مَذهَبٍ في تقديرِ ما يمكِنُ أنْ يكونَ جوابًا[١].

- والكلماتُ (لو، وإذ، فَزِعوا، وأُخِذوا، وحِيل)، كلُّها للمُضيِّ، والمُرادُ بها الاستِقبالُ؛ لأنَّ ما اللهُ فاعِلُه في المُستقبَلِ بمَنزلةِ ما كان ووُجِدَ؛ لِتَحقُّقِه[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ أي: بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -على قولٍ-؛ لمُرورِ ذِكْرِه في قولِه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾، وفي هذا إشارةٌ إلى بَيانِ النَّظمِ؛ وذلك أنَّ كُلًّا مِن الآياتِ المُصَدَّرةِ بـ﴿قُلْ ﴾ مِن قَولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم ﴾ ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلْتُكُم ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾ ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ ﴾ فيه تَذكيرٌ بَليغٌ، ووَعظٌ شافٍ كافٍ. فلمَّا خُتِمتْ هذه الآياتُ بقولِه: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ﴾ -وفيه إيماءٌ إلى مَعنى المشارَكةِ، وأنَّ تلك النَّصيحةَ ما نَفَعَتْ فيهم- قيل له مُسلِّيًا والتفتَ إلى كُلِّ مَنْ يَتأتَّى منه النَّظَرُ مُخاطبًا بقولِه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ ﴾؛ لِعِظَمِ الأمرِ، وفَخامةِ الشأنِ، أي: ولو تَرى -أيُّها النَّاظرُ- وَقْتَ فَزَعِهم وأخْذِهم فلا فَوْتَ لهم، ووقْتَ قولِهم: آمَنَّا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلا يَنفعُهُم إيمانُهم حينَئذٍ؛ لَرأيْتَ خَطْبًا جليلًا، وأمرًا هائلًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٨٨).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ[(١)].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ تمثيلٌ لطَلَبِهم ما لا يكونُ، وهو أنْ يَنفعَهم إيمانُهم في ذلك الوقتِ، كما يَنفَعُ المؤمنينَ إيمانُهم في الدُّنيا؛ مُثِّلتْ حالُهم بحالِ مَن يُريدُ أنْ يَتناوَلَ الشَّيءَ مِن غَلْوةٍ -أي: مِن نُقطةٍ بعيدةٍ- كما يَتناوَلُه الآخَرُ مِن قَيسِ ذِراعٍ -أي: مِن قريبٍ- تَناوُلًا سهلًا لا تَعَبَ فيه، وهو مُرَكَّبٌ تَمثيليٌّ يُفيدُ تَشبيهَ حالِهم -إذ فَرَّطوا في أسبابِ النَّجاةِ وقْتَ المُكْنةِ منها، حينَ كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدْعوهم ويُحرِّضُهم ويُحذِّرُهم، وقد عمَّرهم اللهُ ما يَتذكَّرُ فيه مَن تَذكَّرَ، ثمَّ جاؤوا يَطلُبون النَّجاةَ بعْدَ فواتِ وَقتِها- بحالِهم كحالِ مَن يُريدُ تَناوُشَها وتَناوُلَها وهو في مكانٍ بعيدٍ عن مُرادِه الَّذي يجِبُ تَناوُلُه، وهذا التَّمثيلُ قابلٌ لِتَفريقِ أجْزائِه؛ بأنْ يُشَبَّهَ السَّعيُ بما يَحصُلُ بسُرعةٍ بالتَّناوُشِ، ويُشَبَّهَ فواتُ المطلوبِ بالمكانِ البعيدِ كالحوضِ[(٢)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾

- يجوزُ جَعْلُ ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ تَمثيلًا لِحالِهم؛ شُبِّهوا بحالِ مَن يَقذِفُ شيئًا وهو غائبٌ عنه لا يَراهُ؛ فهو لا يُصيبُه ألْبتَّةَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٤).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾

- قَولُه: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ لم يَقُلْ: «وحَالَ اللهُ تعالى بيْنَهم»، ولا قال: «وحَالَ الكفرُ»! والنُّكتةُ في عدَمِ بيانِ الفاعلِ لأَجْلِ أنْ يكونَ الحائلُ صالحًا لأنْ تُقَدِّرَهُ بكلِّ ما يُناسِبُ الحالَ؛ إنْ شئتَ فقُلْ: حَالَ بيْنَهم وبيْنَ ما يَشتهون كُفْرُهم في الدُّنيا، وإنْ شئتَ فقُلْ: حَالَ بيْنَهم وبيْنَ ما يَشتهون تقديمُ شَهَواتِهم في الدُّنيا؛ فمَنَعَهم شهواتِهم في الآخرةِ[1].

- وفائدةُ التَّشبيهِ في قولِه: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ تَذكيرُ الأحياءِ منهم -وهم مُشركو أهلِ مكَّةَ- بما حلَّ بالأُمَمِ مِن قبْلِهم؛ لِيُوقِنوا أنَّ سُنَّةَ اللهِ واحدةٌ، وأنَّهم لا تَنفَعُهم أصنامُهم الَّتي زَعَموها شُفعاءَ عندَ اللهِ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ مَسوقةٌ لِتَعليلِ الجُمَلِ الَّتي قبْلَها، وإنَّما جُعِلَت حالتُهم شكًّا؛ لأنَّهم كانوا في بعضِ الأُمورِ شاكِّينَ، وفي بعضِها مُوقِنينَ، كما حكى الله عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ مُستأْنَفةً استئنافًا بَيانيًّا، ناشئةً عن سُؤالٍ يُثيرُه قولُه: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾؛ كأنَّ سائلًا سألَ: هل كانوا طامِعينَ في حُصولِ ما تَمَنَّوه؟ فأُجيبَ بأنَّهم كانوا يَتمَنَّون ذلك، ويَشُكُّون في استِجابتِه، فلمَّا حِيلَ بيْنَهم وبيْنَه غَشِيَهم اليأْسُ، واليأْسُ بعْدَ الشَّكِّ أوقَعُ في الحُزنِ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٥).

اليأْسِ المُتأصِّلِ[١].

- والمُرِيبُ: المُوقِعُ في الرَّيبِ. والرَّيبُ: الشَّكُّ؛ فوَصْفُ الشَّكِّ به وَصْفٌ له بما هو مُشتَقٌّ مِن مادَّتِه أو معناهُ؛ لإفادةِ المُبالَغةِ، كقَولِهم: شِعرٌ شاعرٌ، ولَيْلٌ أَلْيَلُ، أو لَيْلٌ داجٍ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٤٦).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ فاطرٍ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ فاطرٍ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (فاطرٍ)[١]، وسُورةِ (الملائكةِ)[٢].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ فاطِرٍ مَكِّيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

١- إثباتُ وحدانيَّةِ اللهِ تعالى عن طريقِ التَّذكيرِ بنِعَمِه المبثوثةِ في الكَونِ[٤].

---

(١) سُمِّيت بسُورةِ (فاطرٍ)؛ لذِكرِ هذا الاسمِ الجليلِ والنَّعتِ الجميلِ: (فاطر) في طليعتِها. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٧).

وقد وردت تسميتُها بذلك عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٧٣).

(٢) سُمِّيت بسُورةِ الملائكةِ؛ لأنَّه ذُكِرَ في أوَّلِها صِفةُ الملائكةِ، ولم يقَعْ في سورةٍ أخرى. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٧).

قال ابن عاشور: (وسُمِّيَت في «صحيحِ البخاريِّ» وفي «سننِ الترمذيِّ» وفي كثيرٍ مِن المصاحِفِ والتَّفاسيرِ «سورةَ الملائكةِ» لا غيرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٧). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) عقب حديث (٤٨٠١)، ((سنن الترمذي)) (كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)، باب (٣٦) قبل حديث (٣٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ١٩٤).

وقد وردت تَسميتُها بسورةِ الملائكةِ عن قَتادةَ، وابنِ أبي مُلَيْكةَ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٧، ٢٤٨)، ((الوسيط)) لطنطاوي (١١/ ٣١٧).

٢- إثباتُ قُدرةِ اللهِ الكاملةِ، ومنها قدرتُه على البَعثِ[١].

٣- إثباتُ صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- افتتاحُ السُّورةِ بحَمدِ الله تعالى، وخَلقِه للسَّمواتِ والأرضِ، وجَعْلِه الملائِكةَ رُسُلًا أُولي أجنِحةٍ، وتقريرِ قُدرتِه على كُلِّ شَيءٍ.

٢- ذِكرُ بعضِ مظاهرِ قُدرةِ الله تعالى في الخَلقِ، ونِعَمِه على عبادِه.

٣- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتثبيتُه ببيانِ حالِ مَن سبَقَه مِن الأنبياءِ.

٤- التَّحذيرُ مِن الدُّنيا، ومِن الاغترارِ بوَساوِسِ الشَّيطانِ.

٥- بيانُ جزاءِ المؤمنينَ، وجزاءِ الكافِرينَ.

٦- امتِنانُ اللهِ بإرسالِ الرِّياحِ، وإنزالِ المطَرِ، وإحياءِ الأرضِ المَيْتةِ، وما في ذلك مِن دَلالةٍ على البَعثِ والنُّشورِ.

٧- بيانُ أطوارِ خَلقِ الإنسانِ ومراحِلِ نمُوِّه، وآياتِ اللهِ ونِعَمِه في البِحارِ والأنهارِ.

٨- ذِكرُ افتِقارِ الخَلقِ إلى الله سُبحانَه، وغِناه عنهم سُبحانَه.

٩- تقريرُ أنَّه لا يَحمِلُ أحدٌ وِزْرَ غَيرِه، وأنَّ الَّذين يَنتَفِعونَ بالنُّذُرِ هم مَن يَخشَونَ اللهَ تعالى ويُطيعونَه.

١٠- ضَرْبُ المثَلِ للكافِرِ والمؤمِنِ، وللجاهِلِ والعالِمِ.

---

(١) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٨).

١١- تقريرُ وظيفةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتسليتُه بما أصاب الرُّسُلَ قَبْلَه، ومصيرِ مَن كفَروا بهم.

١٢- الدَّعوةُ إلى النَّظَرِ في الكَونِ، وإنزالِ اللهِ المطَرَ مِن السَّماءِ، وإخراجِ الثِّمارِ المتنَوِّعةِ الألوانِ؛ والنَّظَرِ في الجِبالِ وتعَدُّدِ ألوانِها، والنَّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ وألوانِها المتعَدِّدةِ الكثيرةِ؛ وتقريرُ أنَّ العُلماءَ هم الَّذين يَخشَونَ اللهَ.

١٣- بيانُ فَضلِ الَّذين يَتلُونَ القُرآنَ، ويُقيمونَ الصَّلاةَ، ويُنفِقونَ سِرًّا وعلانيةً.

١٤- تقريرُ أنَّ هذا الكتابَ المنَزَّلَ هو الحَقُّ يُصَدِّقُ ما بيْنَ يدَيْهِ مِن الكُتُبِ المنَزَّلةِ، وأنَّ اللهَ أوْرَثَه مَنِ اختارهم؛ وبيانُ دَرَجاتِ الوارِثينَ، وما ينتَظِرُهم مِن النَّعيمِ المُقيمِ، ثمَّ قابَلَهم بذِكرِ الكافِرين وجزائِهم.

١٥- الحديثُ عن جَهالاتِ المُشرِكينَ؛ حيثُ عَبَدوا مِن دونِ الله تعالى ما لا يملِكُ لهم ضَرًّا ولا نَفعًا، وعن مَكرِهم السَّيِّئِ الَّذي لا يَحيقُ إلَّا بأهلِه، ونَقْضِهم لعُهودِهم.

١٦- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ ببيانِ سَعةِ رَحمةِ الله تعالى بالنَّاسِ.

الآيات (١-٤)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَاطِرِ﴾: أي: خالِقِ ومُبتَدِئ، يُقالُ: فطَرَ اللهُ الخَلْقَ، أي: ابتدَأَهم، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[1].

﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: أي: اثنَينِ اثنَينِ، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا؛ لبعضِهم جَناحانِ، ولبعضِهم ثلاثةٌ، ولبعضِهم أربعةٌ[2].

﴿تُؤْفَكُونَ﴾: أي: تُصرَفونَ عن الحَقِّ، والإفكُ: كلُّ مَصروفٍ عن وَجهِه الَّذي يحِقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٥، ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٥، ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨).

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: الحَمدُ لله وَحْدَه الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، وجعَلَ الملائكةَ رُسُلًا، أصحابَ أجنِحةٍ مَثنى وثُلاثَ ورُباعَ، يَزيدُ سُبحانَه في الخَلقِ ما يَشاءُ؛ إنَّه سُبحانَه على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ يَذكُرُ تعالى أحدَ مَظاهرِ قُدرتِه، وانفرادِه تعالى بالتَّدبيرِ والعطاءِ والمنعِ، فيقولُ: ما يَفتَحِ اللهُ للنَّاسِ مِن رَحمةٍ فلا يَستطيعُ أحدٌ أن يَحبِسَها دونَه، وما يُغلِقِ اللهُ مِن رحمةٍ عن النَّاسِ فلا يستطيعُ أحدٌ أن يُرسِلَها لهم، واللهُ هو العزيزُ الغالِبُ القاهِرُ، الحكيمُ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائِقِ به.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى بذِكْرِه وشُكرِه، فيقولُ: يا أيُّها النَّاسُ اذكُروا نِعمةَ اللهِ عليكم، فانظُروا هل مِن خالقٍ غيرُ اللهِ يَرزُقُكم مِنَ السَّماءِ والأرضِ، لا إلهَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ وَحْدَه، فكيف تُصرَفونَ عن عبادتِه؟!

ثمَّ يقولُ الله تعالى مسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: وإنْ يُكَذِّبْك -يا محمَّدُ- كُفَّارُ قَومِك، فقد كُذِّبَ رُسُلٌ مِن قَبْلِك؛ فلا تَحزَنْ لذلك، وإلى اللهِ وحْدَه تُرجَعُ الأمورُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: الحمدُ[1] الكاملُ ثابتٌ ومختَصٌّ باللهِ وَحْدَه الَّذي خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ،

(١) قال ابنُ عثيمين: (الحمدُ هو وصفُ المحمودِ بالكمالِ معَ المحبةِ والتعظيمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١١)

على غيرِ مِثالٍ سابقٍ[١].

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾.

أي: جاعِلِ[٢] الملائكةِ رُسُلًا بيْنَه وبيْنَ مَن يَشاءُ مِن خَلقِه -لِتَبليغِ أوامِرِه الدِّينيَّةِ، وتدبيرِ أوامِرِه القَدَريَّةِ- أصحابَ أجنِحةٍ، فيَنزِلونَ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، ويَصعَدونَ مِن الأرضِ إلى السَّماءِ؛ فمِنهم مَن له جَناحانِ، ومنهم مَن له ثلاثةُ أجنِحةٍ، ومنهم مَن له أربعةٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٦)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٥٩٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١١).

(٢) قال ابنُ عاشور: (أمَّا ﴿جَاعِلِ﴾ فيُطلَقُ بمعنى مُكوِّن، وبمعنى مُصَيِّر، وعلى الاعتبارين يختلفُ موقعُ قَولِه: ﴿رُسُلًا﴾ بين أن يكونَ مفعولًا ثانيًا لـ ﴿جَاعِلِ﴾ أي: جعل اللهُ من الملائكة، أي: ليكونوا رسلًا منه تعالى لِما يريد أن يفعَلوه...، وبين أن يكونَ حالًا مِن ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: يجعَلُ من أحوالِهم أن يُرسَلوا، ولصلاحية المعنيَينِ أُوثِرَت مادةُ الجعلِ دون أن يُعطَفَ على مَعمولِ ﴿فَاطِرِ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهرُ أنَّ الملَكَ الواحدَ مِن صِنفٍ له جَناحانِ، وآخَرُ ثلاثةٌ، وآخَرُ أربعةٌ، وآخَرُ أكثَرُ مِن ذلك؛ لِما رُوِيَ أنَّ لِجبريلَ ستَّ مئةِ جَناحٍ، منها اثنانِ يَبلُغُ بهما المَشرِقَ إلى المغرِبِ. قاله قَتادةُ... وقالت فِرقةٌ: المعنى: أنَّ في كلِّ جانبٍ مِنَ المَلَكِ جناحَينِ، ولبعضِهم ثلاثةٌ، ولبعضِهم أربعةٌ، وإلَّا فلو كانت ثلاثةً لواحدٍ لَمَا اعتدلَتْ في مُعتادِ ما رأيْنا نحن مِن الأجنحةِ. وقيل: بل هي ثلاثةٌ لواحدٍ، كما يوجَدُ لبعضِ الحيواناتِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٩).

وقيل: يجوزُ أنْ تكونَ أعدادُ الأجنحةِ مُتغَيِّرةً لكلِّ مَلَكٍ في أوقاتٍ مُتغيِّرةٍ على حَسَبِ المسافاتِ الَّتي يُؤْمَرونَ باختِراقِها مِن السَّمواتِ والأرَضينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٠).

وقال ابن عثيمين: (كيفيَّةُ هذه الأجنحةِ لا نَعلَمُها... والشَّيءُ لا يُعرَفُ إلَّا بمُشاهَدتِه، أو مُشاهَدةِ نَظيرِه، أو الخبرِ الصَّادقِ عنه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٤).

﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: يَزيدُ في الخَلْقِ[١] ما يَشاءُ بحَسَبِ ما تقتَضيه حِكمتُه؛ فقد فضَّل بعضَ الملائِكةِ بزيادةِ الأجنِحةِ على أربعةٍ[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، لا يَستعصي عليه شَيءٌ؛ فلا تُعجِزُه زيادةُ ما يَشاءُ في الخَلْقِ كيف يَشاءُ[٣].

---

(١) قيل: قَولُه تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يعُمُّ الزِّيادةَ في خَلْقِ الملائكةِ وغيرِهم من المخلوقاتِ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥).

قال الرَّسْعَني: (والصَّحيحُ: أنَّ الآيةَ مُطْلَقةٌ تَشملُ كلَّ زيادةٍ في الخَلقِ: مِن صَباحةٍ في الوجهِ، ومَلاحةٍ في العَينِ، وفَصاحةٍ في اللِّسانِ، وسماحةٍ في النَّفْسِ، وحَصافةٍ في العقلِ، وجَزالةٍ في الرَّأيِ، وجَراءةٍ في القلبِ، إلى غيرِ ذلك مِن أنواعِ الزِّيادةِ ممَّا لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٦٩).

وقيل: المرادُ بذلك: الزِّيادةُ في خَلقِ الملائكةِ. ونَسَب القرطبيُّ هذا القولَ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ، وأنَّه يَزيدُ في أجنحتِها ما يَشاءُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٥).

قال ابنُ كثير: (منهم [أي: الملائكةِ] مَن له أكثَرُ مِن ذلك، كما جاء في الحديثِ: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأى جبريلَ لَيلةَ الإسراءِ وله ستُّ مئةِ جَناحٍ [البخاري: «٣٢٣٢» ومسلم «١٧٤»]...، ولهذا قال: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٠)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير =

﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى كَمالَ القُدرةِ؛ ذكَرَ بَيانَ نُفوذِ المَشيئةِ، ونفاذِ الأمرِ[1].

﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَا ﴾.

أي: ما يَفتَحْه اللهُ للنَّاسِ مِن رَحمةٍ، سواءٌ مِن الأرزاقِ الحِسِّيَّةِ أو المعنويَّةِ، فلا يَستطيعُ أحدٌ كائنًا مَن كان أن يَحبِسَها ويُغلِقَ أبوابَها، فيَمنَعَ عَطاءَ اللهِ عن عبادِه[2].

﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾

أي: وما يُغلِقِ اللهُ مِن رَحمةٍ[3] عن النَّاسِ ويَحبِسْها عندَه، فلا يَستطيعُ أحدٌ

= الشوكاني)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤، ٢٥).

(٣) ممَّن قال بأنَّ المحذوفَ في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ﴾ هو الرَّحمةُ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٧).

وقيل: حُذِفَ المتعلَّقُ هنا؛ لإفادةِ العمومِ في كلِّ ما يمسكُ؛ فما يُمسِكُه اللهُ يَشملُ الرَّحمةَ وغيرَها مِن الشَّرِّ والضُّرِّ. استظهره أبو حيَّان، واختاره الألوسي، وذهب إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٥، ٢٦).

كائِنًا مَن كان أن يُطلِقَها لهم[١].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو العزيزُ القَدْرِ، الغالِبُ القاهِرُ لكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعُ عليه كلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ وهو الحَكيمُ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائِقِ به، فما يَفتَحُه للخَلقِ مِن رحمتِه أو يُمسِكُه عنهم هو وَفْقُ حِكمتِه سُبحانَه، ولا يَقدِرُ أحَدٌ على نَقْضِ أمْرِه المحكَمِ المتقَنِ[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّ الحَمدَ له، وبيَّنَ بَعضَ وُجوهِ النِّعمةِ الَّتي تَستوجِبُ الحَمدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٧، ٢٧٨).

والضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ قيل: عائِدٌ على اللهِ تعالى. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦، ٢٨).

وقيل: عائدٌ على الإمساكِ. وممَّن قال بهذا: الرَّسْعَنيُّ، والبيضاوي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والعُلَيمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٧٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧، ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٧، ٢٨).

على سَبيلِ التَّفصيلِ؛ بيَّنَ نِعَمَه على سبيلِ الإجمالِ، فقال: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى -بما يُشاهِدُه كُلُّ أحدٍ في نفْسِه- أنَّه المُنعِمُ وحْدَه؛ أمَرَ بذِكرِ نِعمتِه بالاعترافِ أنَّها منه[2].

وأيضًا لَمَّا جرى ذِكرُ رحمةِ الله الَّتي تَعُمُّ النَّاسَ كُلَّهم؛ أقبَلَ على خِطابِهم بأن يَتذكَّروا نِعمةَ الله عليهم الخاصَّةَ، وهي النِّعمةُ الَّتي تَخُصُّ كُلَّ واحدٍ بخاصَّتِه، فيَأْتَلِفُ منها مجموعُ الرَّحمةِ العامَّةِ للنَّاسِ كُلِّهم، وما هي إلَّا بعضُ رحمةِ اللهِ بمَخلوقاتِه، والمقصودُ مِن تذَكُّرِ النِّعمةِ شُكْرُها، وقَدْرُها قَدْرَها[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ اذكُروا ما أنعَمَ اللهُ به عليكم، فانظُروا هل تَجِدونَ خالِقًا غيرَ اللهِ يَرزُقُكم مِنَ السَّماءِ ومِنَ الأرضِ -بالمطرِ والنَّباتِ وغيرِهما-؛ فيَستَحِقَّ العبادةَ[4]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ﴾ [الملك: ٢١].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ وحْدَه، فكيف تُصرَفونَ عن عبادةِ الخالِقِ الرَّازِقِ إلى عبادةِ مَن لا يَخلُقُ شَيئًا، ولا يَرزُقُكم شيئًا[5]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٩-٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى الأصلَ الأوَّلَ: وهو التَّوحيدُ؛ ذكَرَ الأصلَ الثَّانيَ: وهو الرِّسالةُ[١].

وأيضًا فهي عَطفٌ على ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [فاطر: ٣]، أي: وإن استمَرُّوا على انصِرافِهم عن قَبولِ دَعوتِك، ولم يَشكُروا النِّعمةَ ببَعثِك- فلا عَجَبَ؛ فقد كذَّب أقوامٌ مِن قَبْلِهم رُسُلًا مِن قَبْلُ[٢].

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾.

أي: وإن يُكَذِّبْك -يا محمَّدُ- كفَّارُ قَومِك، فتلك سُنَّةُ أمثالِهم مِن كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ الَّذين كَذَّبوا رُسُلَهم؛ فلا تَحزَنْ لذلك، ولك فيمَنْ سبَقَك مِنَ الرُّسُلِ أُسوةٌ[٣].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُ جَميعِ الأُمورِ[٤].

= (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٣، ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧).
قيل: المعنى: أنَّ أمورَ العبادِ تصيرُ إلى الله- جلَّ وعزَّ- في الآخرةِ. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والسمرقنديُّ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ انفِرادَه تعالى بالتَّدبيرِ والعَطاءِ والمَنعِ، فهذا يُوجِبُ التَّعَلُّقَ باللهِ تعالى، والافتِقارَ إليه مِن جميعِ الوُجوهِ، وألَّا يُدعَى إلَّا هو، ولا يُخافَ ولا يُرجَى إلَّا هو[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أمْرٌ بذِكرِ نِعمتِه، بالاعتِرافِ أنَّها منه؛ فإنَّ الذِّكرَ يَقودُ إلى الشُّكرِ، وهو قَيْدُ الموجودِ، وصَيْدُ المعدومِ المفقودِ[2].

= مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧١).

قال الواحدي: (﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ يعني: في الجزاءِ، مِن الثَّوابِ والعقابِ). ((الوجيز)) (ص: ١٦٠). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٢).

وقال ابنُ جرير: (﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ يقولُ تعالى ذِكْرُه: وإلى الله مَرجِعُ أمْرِك وأمْرِهم، فيُحِلُّ بهم مِن العقوبةِ -إن هم لم يُنيبوا إلى طاعتِنا في اتِّباعِك، والإقرارِ بنُبوَّتِك، وقَبولِ ما دعَوْتَهم إليه مِن النَّصيحةِ- نظيرَ ما أحلَلْنا بنُظَرائِهم مِن الأمَمِ المكَذِّبةِ رُسُلَها قَبْلَك، ومُنَجِّيك وأتْباعَك مِن ذلك؛ سُنَّتَنا بمَن قَبْلَك في رُسُلِنا وأَوْليائِنا). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٠).

وقال ابن عثيمين: (قَولُه تعالى: ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ هذا عامٌّ في أمورِ الدُّنيا والآخرةِ، وأمورِ الشَّرعِ، وأمورِ القَدَرِ؛ فكُلُّ الأمورِ تُرجَعُ إلى الله عزَّ وجلَّ... والأمورُ هنا جمْعُ أمرٍ، بمعنى الشَّأنِ، أي: شُؤونُ الدُّنيا والآخرةِ، والشُّؤونُ القَدَريَّةُ والشَّرعيةُ كُلُّها تُرجَعُ إلى الله سُبحانَه وتعالى... وإذا تُرجَعُ إلى الله وقد كُذِّبَت الرُّسُلُ، فمَصيرُ الرُّسُلِ النَّصرُ في الدُّنيا والآخرةِ، ومصيرُ المكَذِّبينَ الخِزيُ والعارُ في الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤١) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٨).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ إذا أصابَتْه الضَّرَّاءُ أنْ يَرجِعَ إلى ربِّه، وأنْ يَتعلَّقَ به؛ فإذا كانتِ الأمورُ تُرجَعُ إلى اللهِ فلْيَكُنْ طلَبُ إزالةِ الضَّررِ مِن اللهِ[١]. على قولٍ في معنى الآيةِ.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أنْ يُسنِدَ ما رزَقَه اللهُ مِن رِزْقٍ -سواءٌ كان عِلْمًا أم مالًا أم جاهًا أم ولدًا أم زَوجةً- إلى نفْسِه، فيَقولَ: إنَّما أُوتيتُه على عِلمٍ عندي[٢]! على قولٍ في معنى الآيةِ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يَمدَحُ اللهُ تعالى نَفْسَه الكريمةَ المقَدَّسةَ، على خَلقِه السَّمواتِ والأرضَ، وما اشتَمَلَتا عليه مِن المخلوقاتِ؛ لأنَّ ذلك دليلٌ على كمالِ قُدرتِه، وسَعةِ مُلكِه، وعُمومِ رَحمتِه، وبديعِ حِكمتِه، وإحاطةِ عِلمِه[٣]، حيثُ ابتدأَ خَلْقَ هذه السَّمَواتِ العظيمةِ وهذه الأرضِ على هذا النِّظامِ البَديعِ مِن غيرِ أنْ يَسبِقَ مِثالٌ يَحتذيه ويَقتدي به، ومَعلومٌ أنَّ مُبدِعَ الصَّنعةِ يُشهَدُ له بالخِبرةِ والقُدرةِ؛ لأنَّه أنشَأَ شيئًا جديدًا، وصارَ هذا الشَّيءُ الجديدُ مُنتَظِمًا على تمامِ الانتظامِ، وغايةِ الإحكامِ[٤].

٢- اسمُ الملائِكةِ والمَلَكِ يَتضَمَّنُ أنَّهم رُسُلُ اللهِ[٥]، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١).

(٥) إذ المَلَكُ مِن الأَلُوكةِ، وهي الرِّسالةُ، يقالُ: أَلِكْني إلى فُلانٍ، يُريدون به: كُنْ رسولي، وتحمَّلْ رِسالتي إليه. يُنظر: ((العين)) للخليل (٥/ ٤٠٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ٢٠٢)، ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٦٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٤٨-٥٣).

ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾، وكما قال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١]، فالملائِكةُ رُسُلُ اللهِ في تنفيذِ أمرِه الكَونيِّ الَّذي يُدبِّرُ به السَّمَواتِ والأرضَ -كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١]، وكما قال: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]- وأمْرِه الدِّينيِّ الَّذي تَنزِلُ به الملائِكةُ؛ فإنَّه قال: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[(١)] [الحج: ٧٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ ﴾ إثباتُ أنَّ الملائكةَ أجسامٌ، وليسوا أرواحًا مُجرَّدةً مِن الجِسميَّةِ[(٢)].

٤- قال الله سبحانه تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ ﴾ في ذِكرِه تعالى أنَّه جعَلَ الملائِكةَ رُسُلًا، ولم يَستثْنِ منهم أحدًا: دَليلٌ على كمالِ طاعتِهم لرَبِّهم، وانقيادِهم لأمرِه، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[(٣)] [التحريم: ٦].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ ﴾ إشارةٌ إلى سرعةِ تَنَقُّلِ الملائكةِ لقوَّةِ أجنحتِهم؛ يدُلُّ على ذلك أنَّه لولا أنَّ لهذه الأجنحةِ مَزيَّةً عظيمةً لَمَّا استحقَّتْ أنْ يُنَصَّ عليها، ولَذُكِر غيرُها كالرُّؤوسِ مثلًا! ولكنْ ذَكَر الأجنحةَ؛ لِمَا فيها مِن القوَّةِ لِحَمْلِها هؤلاءِ الملائكةِ، ولأنَّها تكونُ عندَ الإرسالِ أسرَعَ[(٤)]. فلمَّا كانت

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١، ٢٢).

الملائكةُ مُدَبِّراتٍ -بإذنِ الله- ما جعَلهم الله موَكَّلينَ فيه؛ ذكَر قوَّتَهم على ذلك، وسرعةَ سَيْرِهم[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ أنَّ اللهَ تعالى فَضَّلَ المخلوقاتِ بعضَها على بعضٍ، والزِّيادةُ مُقابِلُها نقصٌ؛ فهذا يَزيدُه قوَّةً في الجسمِ، وهذا يَزيدُه قوَّةً في العقلِ، وهذا يَزيدُه قوَّةً في الطُّولِ، وهذا يَزيدُه قوَّةً في العِلمِ... إلى آخرِه[٢]، وهذا على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٧- الرَّدُّ على القَدَريَّةِ الَّذين يَزعُمونَ أنَّ أفعالَ العبدِ غيرُ مخلوقةٍ ولا مَقدورةٍ لله! لعُمومِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وأفعالُ العبدِ مِن الأشياءِ[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وُصِفَت النِّعمةُ بـ ﴿عَلَيْكُمْ﴾؛ لأنَّ المقصودَ مِن التَّذَكُّرِ: التَّذكُّرُ الَّذي يَترتَّبُ عليه الشُّكرُ، وليس المرادُ مُطلَقَ التَّذكُّرِ، بمعنى الاعتبارِ والنَّظَرِ في بديعِ فَضلِ اللهِ[٤].

٩- في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أهمِّيَّةُ ذِكْرِ النِّعمةِ؛ لأنَّها صُدِّرَتْ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا يدُلُّ على الأهمِّيَّةِ؛ لأنَّ ما صُدِّرَ بالنِّداءِ معناه تنبيهُ المخاطَبِ على الاستماعِ[٥].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أنَّ الكفَّارَ مُخاطَبونَ بالشَّرائعِ، فكما يجِبُ على المُسلمِ أنْ يَذكُرَ نِعمةَ اللهِ، يجبُ على الكافرِ أيضًا أنْ يَذكُرَ نِعمةَ اللهِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٦).

وبناءً عليه فإنَّه يُعاقَبُ على عدَمِ ذِكْرِ النِّعمةِ في الآخرةِ، وقد يُعاقَبُ عليه أيضًا في الدُّنيا[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فيه ردٌّ على أهلِ القَدَرِ الَّذين يَدَّعونَ أنَّهم يَخلُقونَ أفعالَهم[٢]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أنَّ الإقرارَ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ يَستلزِمُ الإقرارَ بتوحيدِ الألوهيَّةِ، وهذا مأخوذٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾؛ فكما أنَّه هو الخالقُ وَحْدَه، فيجبُ أنْ يكونَ هو المعبودَ وحْدَه؛ ولهذا نقولُ: توحيدُ الألوهيَّةِ يَتضمَّنُ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ والأسماءِ والصِّفاتِ؛ لأنَّه لا يُعبَدُ إلَّا مَن عُلِمَ بأنَّه الرَّبُّ الخالقُ الكامِلُ في صِفاتِه، وتوحيدُ الرُّبوبيَّةِ يَستلزِمُ توحيدَ الألوهيَّةِ وتوحيدَ الأسماءِ والصِّفاتِ[٣].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي سورةِ (الذَّارياتِ): ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] بالحَصرِ؟

والجوابُ: أنَّ أصلَ الرِّزقِ مِن السَّماءِ، وتُشارِكُ فيه الأرضُ باعتبارِ النَّباتِ[٤].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فيه بيانُ عنايةِ اللهِ عزَّ وجلَّ برَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، حيثُ سَلَّاه بذِكرِ مَن كُذِّبَ مِن قَبْلِه؛ فإنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ أنَّ غيرَه أُصيبَ بمِثلِ مُصيبتِه تَسلَّى بذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٠، ٤٢).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ وُجوبُ تحكيم الكِتابِ والسُّنَّة، وأنَّه لا يجوزُ العُدولُ عمَّا دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ؛ لأنَّ الأمورَ والشُّؤونَ تُرجَعُ إلى اللهِ، ومنها الحُكمُ بينَ النَّاسِ؛ فيجبُ أنْ يكونَ مَرجِعُه إلى اللهِ تعالى[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

- قولُه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾ افتتاحُ السُّورةِ بالحمْدِ مُؤذِنٌ بأنَّ صِفاتٍ مِن عَظَمةِ اللهِ ستُذكَرُ فيها. وإجراءُ صِفاتِ الأفعالِ على اسمِ الجَلالةِ مِن خلْقِه السَّمواتِ والأرضَ، وأفضَلَ ما فيهما مِن الملائكةِ والمرسَلينَ؛ مُؤذِنٌ بأنَّ السُّورةَ جاءتْ لإثباتِ التَّوحيدِ وتَصديقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وإيذانُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ باستحقاقِ اللهِ إيَّاه دونَ غيرِه[٢].

- وتَخصيصُ ذِكرِ الملائكةِ مِن بيْنِ مَخلوقاتِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لِشَرَفِهم بأنَّهم سُكَّانُ السَّمواتِ، وعظيمِ خَلْقِهم، وأجْرى عليهم صِفةَ أنَّهم رُسلٌ؛ لِمُناسَبةِ المَقصودِ مِن إثباتِ الرِّسالةِ، أي: جاعِلِهم رُسلًا منه إلى المُرسَلينَ مِن البشَرِ؛ للوحْيِ بما يُرادُ تَبليغُهم إيَّاهُ للنَّاسِ[٣].

- وجُملةُ ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ ما ذُكِرَ مِن صِفاتِ الملائكةِ يُثيرُ تَعجُّبَ السَّامعِ أنْ يَتساءلَ عن هذه الصِّفةِ العَجيبةِ؛ فأُجِيبَ بهذا الاستئنافِ بأنَّ مَشيئةَ اللهِ تعالى لا تَنحصِرُ ولا تُوقَّتُ، ولكلِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٤٩).

جِنسٍ مِن أجناسِ المَخلوقاتِ مُقوِّماتُه وخَواصُّه[١]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تَعليلٌ بطَريقِ التَّحقيقِ للحُكمِ المذكورِ ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾؛ فإنَّ شُمولَ قُدرتِه تعالى لجَميعِ الأشياءِ ممَّا يُوجِبُ قُدرتَه تعالى على أنْ يَزيدَ كلَّ ما يَشاؤُه إيجابًا بيِّنًا[٢]. وفي هذا تَعريضٌ بتَسفيهِ عُقولِ الَّذين أنْكَروا الرِّسالةَ وقالوا: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]؛ فأُجيبوا بقولِ الرُّسلِ: ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾[٣] [إبراهيم: ١١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾ عبَّر عن إرسالِ هذه الرَّحمةِ بالفَتْحِ؛ إيذانًا بأنَّها أنفَسُ الخَزائنِ الَّتي يَتنافَسُ فيها المُتنافِسونَ، وأعَزُّها مَنالًا[٤].

- وتَنكيرُ الرَّحمةِ؛ للإشاعةِ والإبهامِ، أيْ: أيُّ شَيءٍ يَفتَحُ اللهُ مِن خَزائنِ رحمتِه أيَّةَ رَحمةٍ كانتْ؛ مِن نِعمةٍ وصِحَّةٍ وأمْنٍ، وعِلمٍ وحِكمةٍ، إلى غَيرِ ذلك ممَّا لا يُحاطُ به. وقيل: العمومُ مَفهومٌ مِن اسمِ الشَّرطِ، و﴿مِن رَّحۡمَةٖ﴾؛ لِبَيانِ ذلك العامِّ مِن أيِّ صِنفٍ هو[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ حُذِفَ مَفعولُه؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ عليه، والتَّقديرُ: وما يُمسِكْ مِن رَحمةٍ؛ ولم يُذكَرْ له بَيانٌ استِغناءً ببَيانِه مِن قبْلُ[(١)]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ولَمَّا كان حَبْسُ الرَّحمةِ مَكروهًا لم يُصرَّحْ به، وتُرِكَ الشَّرطُ على عُمومِه بعْدَ أنْ فُسِّرَ الشَّرطُ الأوَّلُ بالرَّحمةِ؛ دَلالةً على مَزيدِ الاعتناءِ بها؛ إيذانًا بأنَّ رَحمتَه سبَقَتْ غضَبَه، فقال: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾[(٢)].

- وضَميرُ ﴿لَهَا﴾ وضَميرُ ﴿لَهُۥ﴾ في قوله: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ عائدانِ إلى (ما) مِن قولِه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾؛ رُوعِيَ في تأْنيثِ أحَدِ الضَّميرينِ معنى (ما)؛ فإنَّه اسمٌ صادقٌ على (رَحمةٍ) وقد بُيِّنَ بها، ورُوعِيَ في تَذكيرِ الضَّميرِ الآخَرِ لَفظُ (ما)؛ لأنَّه لفظٌ لا علامةَ تأنيثٍ فيه، وهما اعتبارانِ كَثيرانِ في مِثلِه في فَصيحِ الكلامِ؛ فالمُتكلِّمُ بالخِيارِ بيْنَ أيِّ الاعتبارينِ شاء. والجمْعُ بيْنَهما في هذه الآيةِ تَفنُّنٌ، وأُوثِرَ بالتَّأنيثِ ضَميرُ (ما)؛ لأنَّها مُبيَّنةٌ بلَفظٍ مُؤنَّثٍ، وهو ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾[(٣)]. وقيل: اختِلافُ الضَّميرَينِ في قولِه: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وقولِه: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾؛ لأنَّ الموصولَ الأوَّلَ مُفسَّرٌ بالرَّحمةِ، والثَّاني مُطلَقٌ يَتناوَلُها والغضَبَ، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ رَحمَتَه سبَقَت غضَبَه[(٤)].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تَذييلٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه؛ لِيَدُلَّ على شُمولِ المَعسورِ

= السعود)) (٧/ ١٤٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢).

والمَيْسورِ، ومُعرِبٌ عن كَونِ كلٍّ مِن الفَتحِ والإمساكِ بمُوجَبِ الحِكمةِ الَّتي عليها يَدورُ أمْرُ التَّكوينِ. ورُجِّحَ فيه جانبُ الإخبارِ فعُطِفَ -وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يكونَ مَفصولًا-؛ لإفادةِ أنَّه يَفتَحُ ويُمسِكُ لِحكمةٍ يَعلَمُها، وأنَّه لا يَستطيعُ أحدٌ نقْضَ ما أبرَمَه في فتْحِ الرَّحمةِ وغيرِه مِن تَصرُّفاتِه؛ لأنَّ اللهَ عزيزٌ لا يُمكِنُ لِغَيرِه أنْ يَغلِبَه؛ فإنَّ نَقْضَ ما أبرَمَ ضَربٌ مِن الهَوانِ والمَذلَّةِ[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إنكاريٌّ في معنى النَّفيِ، والمعنَى: لا خالقَ إلَّا اللهُ وحْدَه؛ ولذلك اقترَنَ ما بعْدَه بـ (مِن) الَّتي تُزادُ لِتَأكيدِ النَّفيِ[2]. وقيل: إنَّ هذا الاستِفهامَ على جِهةِ التَّقريرِ[3].

- وجُعِلَ النَّفْيُ في قولِه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾ مُتوجِّهًا إلى القَيدِ -وهو جُملةُ الصِّفةِ ﴿يَرۡزُقُكُم﴾- كما هي سُنَّتِه في الكلامِ المُقيَّدِ؛ لأنَّ المَقصودَ التَّذكيرُ بنِعَمِ اللهِ تعالى لِيَشْكروا، ويكونَ ذلك كِنايةً عن الاستِدلالِ على انتفاءِ وَصفِ الخالقيَّةِ عن غَيرِه تعالى؛ لأنَّه لو كان غيرُه خالقًا لَكان رازقًا؛ إذ الخَلْقُ بدُونِ رِزقٍ قُصورٌ في الخالقيَّةِ؛ لأنَّ المخلوقَ بدُونِ رِزقٍ لا يَلبَثُ أنْ يَصيرَ إلى الهلاكِ والعَدَمِ، فيَكونُ خَلْقُه عَبَثًا يُنزَّهُ عنه المَوصوفُ بالإلهيَّةِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٠٣، ٦٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣).

المُقتضيةِ للحِكمةِ؛ فكانت الآيةُ مُذكِّرةً بنِعمَتَي الإيجادِ والإمدادِ[١].

- وللاهتِمامِ بهذا الاستِثناءِ -﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾- قُدِّمَ في الذِّكرِ قبْلَ ما هو في قوَّةِ المُسْتثنى منه. وجُعِلَ صِفةً لـ﴿خَٰلِقٍ﴾؛ لأنَّ (غير) صالحةٌ للاعتبارينِ[٢].

- وزِيادةُ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تَذكيرٌ بتَعدُّدِ مَصادرِ الأرزاقِ؛ فإنَّ منها سَماويَّةً كالمطَرِ -الَّذي منه شَرابٌ، ومنه طَهورٌ، وسبَبُ نَباتِ أشجارٍ وكَلَأٍ- وكالضِّياءِ مِن الشَّمسِ، والاهتداءِ بالنُّجومِ في اللَّيلِ، وكذلك أنواعُ الطَّيرِ الَّذي يُصادُ، كلُّ ذلك مِن السَّماءِ. ومِن الأرضِ أرزاقٌ كثيرةٌ؛ مِن حُبوبٍ، وثِمارٍ، وزيوتٍ، وفَواكهَ، ومَعادنَ، وأسماكِ البحارِ والأنهارِ. وفي هذا القَيدِ فائدةٌ أخرى؛ وهي دَفْعُ تَوهُّمِ الغُفَّلِ أنَّ أرزاقًا تأْتيهم مِن غَيرِ اللهِ مِن أنواعِ العَطايا الَّتي يُعْطيها بعضُهم بعضًا، والمُعاوضاتِ الَّتي يُعاوِضُها بعضُهم مع بعضٍ؛ فإنَّها لِكَثرةِ تَداوُلِها بيْنَهم قد يُلْهيهم الشُّغلُ بها عن التَّدبُّرِ في أُصولِ مَنابعِها؛ فإنَّ أُصولَ مَوادِّها مِن صُنعِ اللهِ تعالى، فآلَ ما يُعطاهُ النَّاسُ منها إلى أنَّه مِن اللهِ[٣].

- وجُملةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نَتيجةٌ عَقِبَ ذِكرِ الدَّليلِ؛ إذ رَتَّبَ الحقُّ على انفرادِه بالخالقيَّةِ والرَّازقيَّةِ انفرادَه بالإلهيَّةِ؛ لأنَّ هذَينِ الوَصفينِ هما أظهَرُ دَلائلِ الإلهيَّةِ عندَ النَّاسِ؛ فجمُلةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مُستأنَفةٌ[٤]، سيقَتْ لِتَقريرِ النَّفيِ المُستفادِ مِن قولِه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾ قَصدًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٤، ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٢١).

- قولُه: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الفاءُ لِتَفريعِ التَّعجُّبِ مِن انصرافِهم عن النَّظرِ في دَلائلِ الوَحدانيَّةِ على انفرادِه بالخالقيَّةِ والرَّازقيَّةِ؛ فالاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن انصرافِهم عن الاعترافِ بالوَحدانيَّةِ تَبعًا لِمَن يَصرِفُهم، وهمْ أولياؤهم وكُبَراؤهم[1]. أو لِتَرتيبِ إنكارِ عُدولِهم عن التَّوحيدِ إلى الإشراكِ على ما قبْلَها[2].

- وحُذِفَ الفاعلُ في قولِه: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ لأنَّ آفكِيهم أصنافٌ كَثيرونَ[3].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ انتِقالٌ مِن خِطابِ النَّاسِ إلى خِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِمُناسَبةِ جَرَيانِ خِطابِ النَّاسِ على لِسانِه، فهو مُشاهِدٌ لخِطابِهم، فلا جَرَمَ أنْ يُوجَّهَ إليه الخِطابُ بعْدَ تَوجيهِه إليهم؛ إذ المَقامُ واحدٌ، وإذ قد أبانَ لهم الحُجَّةَ على انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ حينَ خاطَبَهم بذلك، نُقِلَ الإخبارُ عن صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما أنْكَروا قَبولَه منه؛ فإنَّه لَمَّا استبانَ صِدْقُه في ذلك بالحُجَّةِ، ناسَبَ أنْ يُعرَّضَ إلى الَّذين كذَّبوه بمِثلِ عاقِبةِ الَّذين كذَّبوا الرُّسلَ مِن قبْلِه. وقد أُدمِجَ في خِلالِ ذلك تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على تَكذيبِ قَومِه إيَّاه بأنَّه لم يكُنْ مَقامُه في ذلك دونَ مَقامِ الرُّسلِ السابقينَ[4].

- وجِيءَ في هذا الشَّرطِ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ بحَرفِ (إنْ) الَّذي أصْلُه أنْ يُعلَّقَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٦).

به شَرطٌ غيرُ مَقطوعٍ بوُقوعِه؛ تَنزيلًا لهم -بعْدَما قُدِّمَت إليهم الحُجَّةُ على وَحدانيَّةِ اللهِ، المُصَدِّقةُ لِمَا جاءهم به الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فكذَّبوه فيه- مَنزلةَ مَن أيقَنَ بصِدقِ الرَّسولِ؛ فلا يكونُ فَرْضُ استِمرارِهم على تَكذيبِه إلَّا كما يُفرَضُ المُحالُ. وهذا وَجهُ إيثارِ الشَّرْطِ هنا بالفِعلِ المُضارِعِ الَّذي في حيِّزِ الشَّرْطِ يَتمخَّضُ للاستِقبالِ، أي: إنْ حدَثَ منهم تَكذيبٌ بعْدَ ما قَرَع أسماعَهم مِن البراهينِ الدَّامغةِ[١].

- وبُنِيَ الفِعلُ للمَجهولِ ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾؛ لأنَّ التَّسليةَ مَحطُّها وُقوعُ التَّكذيبِ، لا تَعيينُ المُكذِّبِ[٢].

- والمَذكورُ جَوابًا للشَّرطِ -﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾- إنَّما هو سَببٌ لِجَوابٍ مَحذوفٍ؛ إذ التَّقديرُ: وإنْ يُكذِّبوك فلا يَحزُنْك تَكذيبُهم، أو فتَأسَّ بتَكذيبِ الرُّسلِ مِن قبْلِك؛ إذ قد كُذِّبَت رُسلٌ مِن قبْلِك، فاستُغْنِيَ بالسَّببِ عن المُسبَّبِ؛ لدَلالتِه عليه[٣].

- ولم يُعرَّفْ لَفظُ (رُسُل)، وجِيءَ به مُنكَّرًا؛ لِمَا في التَّنكيرِ مِن الدَّلالةِ على تَعظيمِ أولئك الرُّسلِ؛ زِيادةً على جانبِ صِفةِ الرِّسالةِ مِن جانبِ كَثرتِهم، وتَنوُّعِ آياتِ صِدقِهم، ومع ذلك كذَّبَهم أقوامُهم[٤]!

- وأُفْرِد التَّكذيبُ بالذِّكرِ؛ اهتِمامًا بتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تنبيهًا على أنَّ الأكثَرَ يُكَذِّبُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠).

- قولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ عُطِفَ على التَّسليةِ والتَّعريضِ ما هو كالتَّأكيدِ لهما، والتَّذكيرِ بعاقبةِ مَضمونِها بأنَّ أمْرَ المُكذِّبينَ قد آلَ إلى لِقائِهم جَزاءَ تَكذيبِهم مِن لَدُنِ الَّذي تَرجِعُ إليه الأمورُ كلُّها، فكان أمْرُ أولئك المُكذِّبينَ وأمْرُ أولئك الرُّسلِ في جُملةِ عُمومِ الأُمورِ الَّتي أُرجِعَت إلى اللهِ تعالى؛ إذ لا تَخرُجُ أُمورُهم مِن نِطاقِ عُمومِ الأُمورِ. وقد اكتسَبَت هذه الجُملةُ معنى التَّذييلِ بما فيها مِن العُمومِ. و﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ جمْعُ أمْرٍ، وهو الشَّأنُ والحالُ، أي: إلى اللهِ تَرجِعُ الأحوالُ كلُّها يَتصرَّفُ فيها كيف يَشاءُ؛ فتكونُ الآيةُ تَهديدًا للمُكذِّبينَ وإنذارًا، ووَعدًا للمُكذَّبِ[1].

- قولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ فيه تقديمُ المعمولِ؛ وتقديمُ المعمولِ يفيدُ الحصرَ، فالمعنى: إلى اللهِ لا إلى غيرِه تُرجعُ الأمورُ[2].

- وفي الاقتِصارِ على ذِكرِ اختِصاصِ المَرجِعِ باللهِ تعالى مع إبهامِ الجَزاءِ ثوابًا وعِقابًا: مِن المُبالَغةِ في الوَعدِ والوعيدِ ما لا يَخْفى[3]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣).

الآيات (٥-٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡغَرُورُ﴾: أي: الشَّديدُ التَّغريرِ والخِداعِ، والمرادُ به الشَّيطانُ، يقالُ: غَرَرتُ فُلانًا: إذا أصبْتَ غِرَّتَه ونِلتَ منه ما تُريدُه، مِنَ الغِرَّةِ: وهي الغَفلةُ[(١)].

﴿حَسَرَٰتٍ﴾: جمعُ حَسْرةٍ، والحَسْرةُ: شدَّةُ الحزنِ أو النَّدَمُ الشَّديدُ وهمُّ النَّفسِ على ما فاتَ مِن الأمرِ، وأصلُ (حسر): يدُلُّ على كشْفِ الشَّيءِ، فالحسرةُ انْكِشافٌ عن حالِ النَّدامَةِ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: يا أيُّها النَّاسُ إنَّ وعْدَ اللهِ حَقٌّ كائِنٌ لا مَحالةَ؛ فلا تَغُرَّنَّكم الحياةُ الدُّنيا، ولا يَغُرَّنَّكم الشَّيطانُ بوَساوِسِه ووُعودِه الكاذِبةِ.

ثُمَّ يُبَيِّنُ عداوةَ الشَّيطانِ لابنِ آدَمَ، فيقولُ: إنَّ الشَّيطانَ لكم عَدُوٌّ فاتَّخِذوه عَدوًّا

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣، ٦٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير الثعلبي (٨/ ٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١٨٢).

واحذَروا طاعتَه؛ إنَّما يدعو الشَّيطانُ أتْباعَه لِيُضِلَّهم فيَكونوا مِن أصحابِ النَّارِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أقسامَ النَّاسِ يومَ القيامةِ، فيقولُ: الَّذين كفَروا بالحَقِّ لهم عذابٌ شَديدٌ، والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ لهم مَغفِرةٌ وأجرٌ كبيرٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى: أفمَن زُيِّن له عمَلُه السَّيِّئُ فرآه حَسَنًا كمَنْ ليس كذلك؟! فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ إضلالَه، ويَهدي مَن يشاءُ هِدايتَه؛ فلا تُهلِكْ نَفْسَك -يا محمَّدُ- حَزَنًا على هؤلاء الكافِرينَ؛ بسَبَبِ ضَلالِهم عن الحَقِّ، إنَّ اللهَ عَليمٌ بما يَصنَعونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ إنَّ ما وعَدَكم اللهُ به صِدقٌ لا شكَّ فيه، كائنٌ لا مَحالةَ[1].

﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٤).

قيل: المرادُ بوَعدِ اللهِ تعالى هنا: البَعثُ والجزاءُ على الأعمالِ. وممَّن قال بهذا القولِ: القرطبيُّ، وابنُ كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧).

وقيل: المرادُ به: البَعثُ وغَيرُه. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٤).

قال ابنُ عثيمين: (فكُلُّ ما وعَدَ اللهُ به فإنَّه حَقٌّ؛ سواءٌ البَعثُ، أو العِقابُ أو الثَّوابُ، أو النَّصرُ أو الخِذلانُ، أو غيرُ ذلك ممَّا وعد اللهُ به؛ فإنَّه حَقٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٤).

أي: فلا تَخدَعَنَّكم حياتُكم الدُّنيا، والتَّمَتُّعُ بمَلَذَّاتِها، والانشِغالُ بها[١].

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

أي: ولا يَخدَعَنَّكم الشَّيطانُ بوَساوِسِه، وأمانيِّه الباطِلةِ، ووُعودِه الكاذِبةِ[٢].

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

قيل: المرادُ: لا تَغُرَّنَّكم الدُّنيا عن الآخرةِ، والتَّزوُّدِ لها بالعَمَلِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والرسعني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤).

وقال ابن جرير: (﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ يقولُ: فلا يَغُرَّنَّكم ما أنتم فيه مِن العَيشِ في هذه الدُّنيا، ورياساتِكم الَّتي تَترأَّسون بها على ضُعفائِكم فيها: عن اتِّباعِ محمَّدٍ والإيمانِ به). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٢٧).

وممَّن جمَع بين المعنيَينِ السَّابقَينِ: ابنُ الجوزي، فقال: (﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتِها عن الإسلامِ، والتَّزوُّدِ للآخرةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤).

قيل: المعنى: لا يَغُرَّنَّكم بحِلمِ الله ومغفرتِه، فيُوَسْوِسَ لكم بأنِ اعمَلوا ما شِئتُم، وسيَتجاوَزُ الله عنكم، ويَغفِرُ لكم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزمخشري، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩).

وقال ابن جرير: (﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يقولُ: ولا يَخدَعَنَّكم باللهِ الشَّيطانُ، فيُمَنِّيَكم الأمانيَّ، ويَعِدَكم مِن الله العِدَاتِ الكاذبةَ، ويَحمِلَكم على الإصرارِ على كُفرِكم بالله). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١).

وقال الشنقيطي: (وقَولُه تعالى في آيةِ «لقمانَ» وآيةِ «فاطرٍ» المذكورتَينِ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وترتيبُه على ذلك النَّهْيَ عن أن يَغُرَّهم باللهِ الغَرورُ: دليلٌ واضِحٌ على أنَّ ممَّا يَغُرُّهم به الشَّيطانُ أنَّ وَعْدَ اللهِ بالبَعثِ ليس بحقٍّ، وأنَّه غيرُ واقعٍ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٤٦).

فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١١٩، ١٢٠].

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قال تعالى: ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾؛ ذكَرَ ما يَمنَعُ العاقِلَ مِن الاغترارِ، فقال[1]:

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ لكم عَدُوٌّ حريصٌ على إضلالِكم؛ فعادُوه أشدَّ العَداوةِ، وخالِفوه فيما يأمُرُكم، واحذَروا طاعتَه، واستَفرِغوا وُسْعَكم في محاربتِه ومُجاهَدتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

أي: إنَّما يَدْعو الشَّيطانُ أشياعَه وأتْباعَه إلى طاعتِه والقَبولِ منه، والكفرِ بالله[3]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٣) قال ابن عثيمين: (حزبُ الشَّيطانِ؛ الحِزبُ المُطلَقُ: لا شَكَّ أنَّهم الكُفَّارُ، لكِنْ مَن عصى اللهَ عزَّ وجلَّ -ولو لم يكنْ كافِرًا- في معصيةٍ مِن المعاصي، فله مِن حزبيَّةِ الشَّيطانِ بقَدرِ ما عصى اللهَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: يَدْعوهم إلى الكفرِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، =

وغرَضُه أنْ يُضِلَّهم حتَّى يَكونوا مِن أهلِ النَّارِ[(١)].

كما قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنهَى اللهُ تعالى البيانَ في غَرَضِ الشَّيطانِ إلى مُنتَهاه؛ نبَّه على ما حكَمَ به

= وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٦).

وقال الشوكاني: (إنَّما يَدْعو أشياعَه، وأتْباعَه، والمُطيعينَ له إلى معاصي اللهِ سبحانَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩).

وقال ابن جرير: (إنَّما يَدْعو حزبَه... إلى طاعتِه والقَبولِ منه، والكفرِ بالله). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

قال ابن عاشور: (واللَّامُ في قَولِه: ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يجوزُ أن تكونَ لامَ العِلَّةِ؛ فإنَّ الشَّيطانَ قد يكونُ ساعيًا لغايةِ إيقاعِ الآدَميِّينَ في العذابِ؛ نِكايةً بهم، وهي عِلَّةٌ لِلدَّعوةِ مَخفيَّةٌ في خاطِرِه الشَّيطانيِّ وإن كان لا يجهَرُ بها؛ لأنَّ إخفاءَها مِن جملةِ كَيدِه وتزيينِه. ويجوزُ أن تكونَ اللَّامُ لامَ العاقبةِ والصَّيرورةِ، مِثلُ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]. قال ابنُ عطيَّةَ: لأنَّه لم يَدْعُهم إلى السَّعيرِ، إنَّما اتَّفق أنْ صار أمْرُهم عن دعائِه إلى ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٠).

هو سُبحانَه في أشياعِه، بقَولِه مُستأنِفًا[١]:

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾.

أي: الَّذين كَفَروا بالحَقِّ لهم عذابٌ شديدٌ[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ جزاءَ حِزبِ الشَّيطانِ؛ أتْبَعَه حِزبَ اللهِ الَّذين عادَوا عَدُوَّهم، فقال[٣]:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا -تصديقًا لإيمانِهم- الأعمالَ الصَّالحةَ الخالِصةَ للهِ تعالى، والموافِقةَ لِشَرعِه: لهم مَغفِرةٌ مِن الله لذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها؛ ولهم أجرٌ كَبيرٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

قيل: المرادُ: لهم عذابُ النَّارِ في الآخرةِ. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

وقيل: المرادُ: عذابُ الدُّنيا والآخرةِ؛ ففي الدُّنيا بفَواتِ غالبِ ما يُؤَمِّلونَ، مع تفرقةِ قُلوبِهم، وانسدادِ بصائرِهم، وسَفالةِ هِمَمِهم -حتَّى إنَّهم رَضُوا أن يكونَ إلهُهم حَجَرًا-، وانحجابِ المعارِفِ -الَّتي لا لَذاذةَ في الحقيقةِ غَيرُها- عنهم. وفي الآخِرةِ بالسَّعيرِ الَّتي دعاهم الشَّيطانُ إلى صُحبتِها. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٦، ٥٧).

=

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أبان ما سَبَق تَفاوُتَ الحِزبَينِ في المآلِ بالهلاكِ والفَوزِ، وكان لا يُقدِمُ على الهلاكِ أحدٌ فيه حِسٌّ، وكان الكُفَّارُ يَدَّعونَ أنَّهم الفائِزون قناعةً بالنَّظَرِ إلى ما هم فيه، ويَدَّعون أنَّهم أبصَرُ النَّاسِ، وأحسَنُهم أعمالًا، وكذا كلُّ عاصٍ ومُبتَدِعٍ؛ كان ذلك سببًا في إنكارِ تساويهما، فأنكرَه مُبيِّنًا السَّبَبَ في ضلالِهم بما فيه تسليةٌ للمُحسِنينَ، ونَدْبٌ إلى الشُّكرِ، وحَثٌّ على مُلازَمةِ الافتقارِ والذُّلِّ، وسُؤالِ العافيةِ مِن الزَّلَلِ والزَّيغِ[1].

وأيضًا لَمَّا جَرَى تَحذيرُ النَّاسِ مُن غُرورِ الشَّيطانِ، وإيقاظُهم إلى عَداوتِه للنَّوعِ الإنسانيِّ، وتَقسيمُ النَّاسِ إلى فَريقَينِ: فَريقٌ انطَلَت عليه مَكايدُ الشَّيطانِ، واغتَرُّوا بغُرورِه، ولم يُناصِبوه العَداءَ، وفريقٌ أخَذوا حِذْرَهم منه، واحتَرَسوا مِن كَيدِه، وتَجنَّبوا السَّيرَ في مَسالِكِه، ثمَّ تَقسيمُهم إلى كافرٍ مُعذَّبٍ، ومُؤمِنٍ صالحٍ مُنْعَمٍ عليه؛ أُعقِبَ ذلك بالإيماءِ إلى استِحقاقِ حِزبِ الشَّيطانِ عذابَ السَّعيرِ، وبتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مَن لم يَخلُصوا مِن حَبائلِ الشَّيطانِ مِن

= قيل: المرادُ بالأجرِ الكبيرِ: الجنَّةُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ جُرَيْجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦).

وقيل: المرادُ: لهم أجرٌ كبيرٌ في الدُّنيا والآخرةِ؛ ففي الدُّنيا بسُهولةِ العبادةِ، ودوامِ المعرفةِ، ونحوِ ذلك؛ وفي الآخرةِ: في الجنَّةِ. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤).

أُمَّةِ دَعوتِه بأُسلوبِ المُلاطَفةِ في التَّسليةِ؛ ففُرِّعَ على جَميعِ ما تَقدَّمَ قولُه[١]:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾.

أي: أفمَنْ حُسِّنَ له عَمَلُه السَّيِّئُ، فرآه حسَنًا، كمَنْ ليس كذلك[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا * ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٨، ٦٨٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

اختُلِفَ في تقديرِ الخبرِ المحذوفِ؛ فقيل: التَّقديرُ: أفمَنْ زُيِّن له سوءُ عمَلِه فرآه حسَنًا، كمَن ليس كذلك، فلم يُزَيَّنْ له؟! وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ تيميَّةَ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٦٤).

قال السمين الحلبي: (وهو أحسَنُ لموافقتِه لفظًا ومعنًى). ((الدر المصون)) (٩/ ٢١٤).

وقيل: التَّقديرُ: أفمَن زُيِّن له سوءُ عمَلِه، كمَنْ هداه الله فرأى الحقَّ حقًّا، والباطِلَ باطلًا؟! وممَّن قال بهذا القولِ: الواحديُّ، والبغوي، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

وقيل: التَّقديرُ: أفمَن زُيِّن له سوءُ عَمَلِه فرآه حسَنًا، ذهَبَت نفْسُك حَسَراتٍ عليهم؟ وممَّن قال بهذا القولِ: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٦٧)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٥).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

أي: فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ إضلالَه، فيَصرِفُه عن الإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ؛ ويَهدي مَن يَشاءُ هدايتَه، فيَدُلُّه ويُوفِّقُه للإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣].

﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾.

أي: فلا تُهلِكْ نَفْسَك -يا محمَّدُ- حَزَنًا على الكافِرينَ؛ بسَبَبِ ضَلالِهم عن الحَقِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بما يَصنَعُه الكافِرونَ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن ذلك، وسيُجازيهم عليه(٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أنَّه يَجِبُ على الإنسانِ ألَّا يَرتبِطَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٦٥، ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٦٧).

بالدُّنيا مهما حَصَلَ له مِن زَهرتِها ونَعيمِها[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ لا يَليقُ بذي هِمَّةٍ عَليَّةٍ اتِّباعُ الدَّنيءِ، والرِّضا بالدُّونِ الزَّائِلِ عن العالي الدَّائِمِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ الإشارةُ إلى وُجوبِ العنايةِ بالآخرةِ؛ فإذا نُهينا عن الحياةِ الدُّنيا فمعناه أنَّنا نُلزَمُ بالعنايةِ بالآخرةِ؛ لأنَّها في الحقيقةِ هي المُنتَهَى، أمَّا هذه الدُّنيا فإنَّ الإنسانَ يَمُرُّ بها عابرًا فقط، حتَّى القبورُ الَّتي يَبقَى فيها الإنسانُ مِن السَّنواتِ ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ: هي مَحَلُّ عُبُورٍ[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ غايةٌ في التَّحذيرِ مِن الشَّيطانِ؛ فأخبَرَ تعالى بأنَّه عدُوٌّ، وخبَرُه حَقٌّ وصِدقٌ؛ فالواجِبُ على العاقِلِ أن يأخُذَ حِذْرَه مِن هذا العدُوِّ الَّذي قد أبان عداوتَه مِن زمنِ آدَمَ، وبَذَلَ نَفْسَه وعُمُرَه في إفسادِ أحوالِ بني آدمَ؛ قال جَلَّ مِن قائلٍ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، وقال: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، ونحن على ذلك نتولَّاه ونُطيعُه فيما يُريدُ مِنَّا ممَّا فيه هلاكُنا! وكان الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ يقولُ: (يا كذَّابُ، يا مُفتَرٍ، اتَّقِ الله، ولا تَسُبَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٩).

الشَّيطانَ في العلانيةِ، وأنت صديقُه في السِّرِّ!)، وقال ابنُ السَّمَّاكِ: (يا عجبًا لِمَن عصَى المحسِنَ بعدَ مَعرفتِه بإحسانِه، وأطاع اللَّعينَ بعدَ معرفتِه بعداوتِه!)[١].

وعداوةُ الشَّيطانِ وسيلةٌ إلى معصيتِه في كلِّ ما يأمُرُ به؛ فإنَّه لا يأمُرُ بخَيرٍ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ فيه تنبيهٌ على وُجوبِ عداوةِ الدُّعاةِ في الضَّلالةِ، المُستَمِدِّينَ مِن الشَّيطانِ[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾ فيه وَعيدٌ لِمَن أجاب دُعاءَ الشَّيطانِ، ووَعدٌ لِمَن خالَفَه، وقَطْعٌ للأمانيِّ الفارغةِ، وبِناءٌ للأمْرِ كلِّه على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ التَّحذيرُ مِن سُلوكِ الإنسانِ سُبُلَ الهَلاكِ وهو لا يَشعُرُ[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ تضَمَّنت الآيةُ غُرورَين: غُرورًا يغتَرُّه المرءُ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ويُزيِّنُ لِنَفْسِه مِن المظاهِرِ الفاتنةِ الَّتي تَلوحُ له في هذه الدُّنيا ما يَتوهَّمُه خَيرًا، ولا يَنظُرُ في عواقِبِه؛ بحيثُ تخفَى مَضارُّه في بادئِ الرَّأيِ، ولا يظُنُّ أنَّه مِن الشَّيطانِ. وغُرورًا يَتلَقَّاه ممَّن يَغُرُّه، وهو الشَّيطانُ. وكذلك الغُرورُ كُلُّه في هذا العالَمِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٠٩) و(١٤/ ٣٢٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز ابن عبد السلام (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٣).

بَعضُه يُمليه المرءُ على نَفْسِه، وبَعضُه يَتلَقَّاه مِن شياطينِ الإنسِ والجِنِّ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ جوازُ تَنَعُّمِ الإنسانِ بالدُّنيا على وَجهٍ لا تَغُرُّه؛ فلم يَقُلْ: «فلا تَتَنَعَّموا في الدُّنيا بشَيءٍ»، بل قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ دُنُوُّ الدُّنيا مرتبةً، ودناءَتُها؛ فهي وإنْ كانت حياةً لكِنَّها دُنيا، ويَستلزِمُ ذلك الثَّناءَ على الآخرةِ؛ لأنَّ وَصْفَ الضَّرَّةِ بالعَيبِ يدُلُّ على وَصفِ ضَرَّتِها بالكَمالِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[٣] [الأعلى: ١٦، ١٧].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ لَمَّا كانت عداوتُه تحتاجُ إلى مُجاهَدةٍ -لأنَّه يأتي الإنسانَ مِن قِبَلِ الشَّهَواتِ-؛ عبَّرَ بصيغةِ الافتِعالِ، فقال: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ﴾[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أمَرَ اللهُ هنا باتِّخاذِ العَدُوِّ عَدُوًّا، ولم يَندُبْ إلى العَفوِ عنه، والإغضاءِ عن عداوتِه، كما أمَرَ في قَولِه تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ونحوِ ذلك ممَّا تكَرَّر في القُرآنِ وكلامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فعداوةُ الشَّيطانِ لَمَّا كانت جِبِلِّيَّةً لا يُرجى زوالُها مع مَن يعفو عنه، لم يأمُرِ اللهُ إلَّا باتِّخاذِه عَدُوًّا؛ لأنَّه إذا لم يُتَّخَذْ عدُوًّا، لم يراقِبِ المُسلِمُ مَكايِدَه ومُخادَعتَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦١).

وقد قال اللهُ تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨]، وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٤ - ٣٦]. فهذه ثلاثُ آياتٍ ليس لهنَّ رابعةٌ في معناها، وهو أنَّ اللهَ تعالى يأمُرُ بمُصانَعةِ العدوِّ الإنسيِّ والإحسانِ إليه؛ لِيَرُدَّه عنه طبْعُه الطَّيِّبُ الأصلِ إلى المُوادَّةِ والمُصافاةِ، ويأمُرُ بالاستِعاذةِ به مِن العدوِّ الشَّيطانيِّ لا مَحالةَ؛ إذْ لا يَقْبَلُ مُصانَعةً ولا إحسانًا، ولا يَبتغي غيرَ هلاكِ ابنِ آدمَ(١).

٦- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ الأمرُ باتِّخاذِه عدوًّا تَنبيهٌ على استِفراغِ الوُسْعِ في مُحارَبتِه ومُجاهَدتِه، كأنَّه عَدُوٌّ لا يَفْتُرُ ولا يُقْصِرُ عن مُحارَبةِ العَبدِ على عَدَدِ الأنفاسِ(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بيانُ رحمةِ اللهِ تعالى بعبادِه؛ لأنَّ العِلْمَ بعَداوةِ الشَّيطانِ غيرُ مُدرَكٍ لنا، ولكِنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي أخبَرَنا به، ثمَّ حَثَّنا، بل أمَرَنا بمُخالَفتِه(٣).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فيه إشارةٌ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٥).

معنًى لطيفٍ، وهو أنَّ مَن يكونُ له عدُوٌّ، فله في أمْرِه طريقانِ:

أحدُهما: أن يُعاديَه مُجازاةً له على مُعاداتِه.

والثَّاني: أن يُذهِبَ عداوتَه بإرضائِه، فلمَّا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾، أمَرَهم بالعَداوةِ، وأشار إلى أنَّ الطَّريقَ ليس إلَّا هذا، وأمَّا الطَّريقُ الآخَرُ -وهو الإرضاءُ- فلا فائدةَ فيه؛ لأنَّكم إذا رأيتُموه واتَّبَعْتُموه، فهو لا يُؤدِّيكم إلَّا إلى السَّعيرِ[(١)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ بلاغةُ القرآنِ؛ لأنَّه لَمَّا ذكَرَ عَمَلًا واحِدًا في الكُفَّارِ ذكَرَ جزاءً واحِدًا، ولَمَّا ذكَرَ وصْفَينِ في المؤمِنينَ ذكَرَ وصفَينِ في ثَوابِهم[(٢)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ بلاغةُ القرآنِ؛ حيث يَجْمَعُ بينَ الشَّيءِ وضِدِّه، وهو مِصْداقُ قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، فقال: ﴿مَّثَانِيَ﴾ أي: تُثَنَّى فيه المعاني، وهنا لَمَّا ذكَرَ عذابَ الكافرين ذكَرَ ثوابَ المؤمنينَ[(٣)].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ أشارت الآيةُ إلى طرَفَينِ في الضَّلالِ والاهتداءِ، وطَوَتْ ما بيْنَ ذَينِك مِن المراتِبِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ ما بيْنَ ذلك ينالُهم نَصيبُهم مِن أشبَهِ أحوالِهم بأحوالِ أحدِ الفَريقَينِ، على عادةِ القُرآنِ في وَضعِ المُسلِمِ بيْن الخَوفِ والرَّجاءِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٨).

والأمَلِ والرَّهبةِ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ أنَّ الأجرَ لا يَثبُتُ إلَّا باتِّصافِ الفاعِلِ بوصفَينِ؛ أحدُهما: الإيمانُ، والثَّاني: العملُ الصَّالحُ[٢].

١٣- أنَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ يَنالونَ أجرَهم مِن وَجهَينِ: مِن زوالِ المكروهِ الثَّابتِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾، وحُصولِ المطلوبِ الثَّابتِ، بقَولِه تعالى: ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَجۡرٞ﴾ سَمَّى اللهُ عزَّ وجلَّ الثَّوابَ أجرًا؛ لأنَّه لا بُدَّ أنْ يَنالَه العامِلُ، فهو كأُجرةِ الأجيرِ، فلا بُدَّ أنْ ينالَها العامِلُ، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فسَمَّى العَمَلَ للهِ قَرضًا؛ لأنَّ القَرضَ يجبُ إيفاؤُه، فمِثْلُ هذه الآياتِ تدُلُّ على أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أوجَبَ على نفْسِه أنْ يُثيبَ العامِلَ[٤].

١٥- ليس كلُّ مَن كان قَصْدُه حَسَنًا يكونُ فِعلُه صَوابًا وحَسَنًا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾[٥]!

١٦- قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾، وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فأحيانًا يَحذِفُ فاعِلَ التَّزيينِ، وأحيانًا يَنسُبُه إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٧).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٧/ ٣٥٩).

سَبَبِه ومَن أجراه على يَدِه، وأحيانًا يُضيفُه اللهُ إليه، وهذا التَّزيينُ منه سُبحانَه خَلقًا ومشيئةً، وهو منه حَسَنٌ؛ إذ هو ابتلاءٌ واختبارٌ؛ لِيَتميَّزَ المطيعُ منهم مِن العاصي، والمؤمِنُ مِن الكافِرِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وهو مِن الشَّيطانِ قَبيحٌ، وأيضًا فتزيينُه سُبحانَه للعَبدِ عَمَلَه السَّيِّئَ: عُقوبةٌ منه له على إعراضِه عن توحيدِه وعُبوديَّتِه، وإيثارِ سَيِّئِ العمَلِ على حَسَنِه؛ فإنَّه لا بدَّ أن يُعَرِّفَه سُبحانَه السَّيِّئَ مِن الحَسَنِ، فإذا آثرَ القبيحَ واختاره، وأحبَّه ورَضِيَه لنَفْسِه؛ زيَّنه سُبحانَه له، وأعماه عن رؤيةِ قُبحِه بعدَ أنْ رآه قبيحًا، وكُلُّ ظالمٍ وفاجرٍ وفاسِقٍ لا بدَّ أن يرُيهَ اللهُ تعالى ظُلْمَه وفُجورَه وفِسقَه قَبيحًا، فإذا تمادَى عليه ارتفَعَت رؤيةُ قُبحِه مِن قَلبِه، فرُبَّما رآه حسَنًا عُقوبةً له؛ فتزيينُ الرَّبِّ تعالى عَدلٌ، وعُقوبتُه حِكمةٌ، وتزيينُ الشَّيطانِ إغواءٌ وظُلمٌ، وهو السَّبَبُ الخارجُ عن العبدِ، والسَّبَبُ الداخِلُ فيه حُبُّه وبُغضُه وإعراضُه، والرَّبُّ سُبحانَه خالِقُ الجميعِ، والجميعُ واقِعٌ بمشيئتِه وقُدرتِه، ولو شاء لهدى خَلْقَه أجمعينَ، والمعصومُ مَن عَصمَه اللهُ، والمخذولُ مَن خذَلَه اللهُ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] [الأعراف: ٥٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ الرَّدُّ على الجَبريَّةِ؛ حيث أضاف العمَلَ إليه، وهم يقولونَ: إنَّ الأعمالَ لا تُضافُ إلى الإنسانِ؛ لأنَّه مُجبَرٌ عليها[2]!

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ الرَّدُّ على القَدَريَّةِ؛ فإنَّ القَدَريَّةَ يقولونَ: «إنَّ أفعالَ العَبدِ مِن ضَلالةٍ أو هِدايةٍ لا تَتعلَّقُ بها مَشيئةُ اللهِ»، ويَرَوْنَ أنَّ الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه، ليس للهِ تعالى فيه تَعلُّقٌ إطلاقًا[3]!

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٣، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٨).

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بَشَرٌ، يَتأثَّرُ بما يَتأثَّرُ به البشَرُ مِن أسبابِ الفرحِ وأسبابِ الحزنِ، وهذا أمرٌ واقعٌ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ رُجوعٌ إلى خِطابِ النَّاسِ. وتَكريرُ نِداءِ الناسِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ لِتَأكيدِ العِظَةِ والتَّذكيرِ، وإعذارًا لهم وإنذارًا بتَحقيقِ أنَّ وعْدَ اللهِ الَّذي وَعَدَه مِن عِقابِه المُكذِّبينَ في يومِ البعثِ هو وعْدٌ واقعٌ لا يَتخلَّفُ، وذلك بعْدَ أنْ قدَّمَ لهم التَّذكيرَ بدَلائلِ الوَحدانيَّةِ المُشتمِلةِ عليها، مع الدَّلالةِ على نِعَمِ اللهِ عليهم؛ لِيَعلَموا أنَّه لا يَستحِقُّ العِبادةَ غيرُه، وأنَّه لا يَتَّصِفُ بالإلهيَّةِ الحقِّ غيرُه[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فيه تأْكيدُ الخَبرِ بـ(إنَّ)؛ إمَّا لأنَّ الخِطابَ للمُنكِرينَ، وإمَّا لِتَغليبِ فَريقِ المُنكِرينَ على المؤمنينَ؛ لأنَّهم أحوَجُ إلى تَقويةِ المَوعظةِ[٣].

- وإضافةُ الوعدِ إلى الاسمِ الأعظَمِ تَوطئةٌ لِكَونِه حقًّا؛ لأنَّ اللهَ لا يَأتي منه الباطلُ[٤]. والحقُّ هنا مُقابِلُ الكذِبِ، والمعنى: أنَّ وعْدَ اللهِ صادِقٌ، ووَصْفُ الصِّدقِ بالمَصدرِ ﴿حَقٌّ﴾ مُبالَغةٌ في حَقيقتِه[٥].

- قولُه: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ فيه تَكريرُ فِعلِ النَّهيِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ و﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم﴾؛ للمُبالَغةِ فيه، ولاختِلافِ الغُرورينِ في الكيفيَّةِ(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾

- لَمَّا كان في قولِه: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥] إبهامٌ ما في المُرادِ بالغَرورِ، عُقِّبَ ذلك ببَيانِه بأنَّ الغَرورَ هو الشَّيطانُ؛ لِيَتقرَّرَ المُسنَدُ إليه بالبَيانِ بعْدَ الإبهامِ؛ فجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ تَتنزَّلُ مِن جُملةِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ مَنزلةَ البَيانِ مِن المُبيَّنِ؛ فلذلك فُصِلَت ولم تُعطَفْ، وهذا مِن دَلالةِ تَرتيبِ الكلامِ على إرادةِ المُتكلِّمِ؛ إذ يَعلَمُ السَّامعُ مِن وُقوعِ وَصْفِ الشَّيطانِ عَقِبَ وصْفِ الغَرورِ أنَّ الغَرورَ هو الشَّيطانُ(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ فيه إظهارُ اسمِ الشَّيطانِ في مَقامِ الإضمارِ؛ للإفصاحِ عن المُرادِ بالغَرورِ أنَّه الشَّيطانُ(٣).

- وتَأكيدُ الخبَرِ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لِقَصدِ تَحقيقِه؛ لأنَّ النَّاسَ بغَفْلتِهم عن عَداوةِ الشَّيطانِ كَحالِ مَن يُنكِرُ أنَّ الشَّيطانَ عَدوٌّ(٤).

- وتَقديمُ شِبهِ الجُملةِ ﴿لَكُمۡ﴾ على مُتعلَّقِه ﴿عَدُوّٞ﴾؛ للاهتِمامِ بهذا المُتعلِّقِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٠).

- وفُرِّعَ عن الخَبرِ بأنَّ الشَّيطانَ عَدوٌّ للإنسانِ أنْ أُمِروا باتِّخاذِه عَدُوًّا بقولِه: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾؛ لأنَّهم إذا عَلِموا أنَّه عَدُوٌّ لهم حَقَّ عليهم اتِّخاذُه عَدوًّا، وإلَّا لَكانوا في حَماقةٍ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تَقريرٌ لِعَداوةِ الشَّيطانِ، وتَحذيرٌ مِن طاعتِه؛ بالتَّنبيهِ على أنَّ غَرَضَه في دَعوةِ شِيعتِه إلى اتِّباعِ الهَوَى والرُّكونِ إلى مَلاذِّ الدُّنيا، ليس تَحصيلَ مَطالبِهم ومَنافِعِهم الدُّنيويَّةِ، كما هو مَقصدُ المُتحابِّينَ في الدُّنيا عندَ سَعيِ بعضِهم في حاجةِ بعضٍ، بلْ هو تَوريطُهم وإلقاؤُهم في العذابِ المُخلَّدِ مِن حيثُ لا يَحتسِبون، وهذا يُؤكِّدُ الأمْرَ باتِّخاذِه عَدوًّا؛ لأنَّ أشدَّ النَّاسِ تَضرُّرًا به همْ حِزبُه وأولياؤه[٢]؛ فالجُملةُ تَعليلٌ لِجُملةِ ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾. وجِيءَ بها في صِيغةِ حَصْرٍ؛ لانحصارِ دَعوتِه في الغايةِ المَذكورةِ عَقِبَها بلامِ العِلَّةِ؛ كَيْلا يُتوهَّمَ أنَّ دَعوتَه تَخْلو عن تلك الغايةِ ولو في وَقتٍ ما. وبهذا العُمومِ الَّذي يَقْتضيه الحَصرُ صارتِ الجُملةُ أيضًا في مَعنى التَّذييلِ لِمَا قبْلَها كلِّه[٣].

- ومُقْتضى وُقوعِ فِعلِ ﴿يَدۡعُواْ﴾ في حيِّزِ القَصرِ أنَّ مَفعولَه -وهو قولُه: ﴿حِزۡبَهُۥ﴾- هو المَقصودُ مِن القَصرِ، أي: أنَّه يَدْعو حِزبَه، ولا يَدْعو غيرَ حِزبِه، والشَّيطانُ يَدْعو النَّاسَ كلَّهم، سواءٌ في ذلك حِزبُه ومَن لم يَركَنْ إلى دَعوتِه، إلَّا أنَّ أثَرَ دَعوتِه لا يَظهَرُ إلَّا في الَّذين يَركَنون له، فيَصيرون حِزبَه؛ قال تعالى له: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦١، ٢٦٢).

[الحجر: ٤٢]؛ فتَعيَّنَ أنَّ في الكلامِ إيجازَ حَذْفٍ(١)، والتَّقديرُ: إنَّما يَدْعو حِزبَه دَعوةً بالِغةً مَقْصدَه(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ يُفيدُ مُفادَ الفَذْلَكةِ(٣)

---

(١) الإيجاز: هو الاختصارُ والجمعُ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ مِن الكلامِ بأقلَّ مِن عباراتِ مُتعارَفِ الأوساطِ، ويكونُ الإيجازُ محمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصود. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغة كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسْنُ الإيجازِ. والإيجازُ نوعانِ؛ الأولُ: إيجازُ القصرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغةِ)، وهو ما ليس بحَذْفٍ، كقولِه تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه مع أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا عَلِم أنَّه متَى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتالِ؛ فارتفع بالقتْلِ -الَّذي هو قِصاصٌ- كثيرٌ مِن قتْلِ النَّاسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم.
الثَّاني: إيجازُ الحَذْفِ: وهو حذْفُ ما يُعلَمُ ويُفهَمُ مِن سِياقِ الكلامِ بِشرطِ وُجودِ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه؛ فقد يكونُ الإيجازُ بالحذفِ وغيرِه. والفرقُ بينَ الحذفِ والإيجازِ أن يكونَ في الحذفِ مُقَدَّرٌ، بخِلافِ الإيجازِ؛ فإنَّه عبارةٌ عن اللَّفظِ القليلِ الجامعِ للمعاني الجَمَّةِ بنفْسِه. يُنظر: ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشيق (١/ ٢٤٢)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما بعدها)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٧٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٢).

(٣) الفَذْلَكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أنْهاهُ وفرَغَ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ(البَسملة) و(الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحساب، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة =

والاستِنتاج ممَّا تَقدَّمَ. وهذا الاستِئنافُ يُشيرُ إلى أنَّ الَّذين كَفَروا همْ حِزبُ الشَّيطانِ؛ لأنَّه لَمَّا ذكَرَ أنَّ حِزبَه مِن أصحابِ السَّعيرِ، وحكَم هنا بأنَّ الَّذين كَفَروا لهم عذابٌ شَديدٌ؛ عُلِمَ أنَّ الَّذين كَفَروا مِن أصحابِ السَّعيرِ؛ إذ هو العذابُ الشَّديدُ، فعُلِمَ أنَّهم حِزبُ الشَّيطانِ بطَريقةِ قِياسٍ مَطْويٍّ؛ فالَّذين كَفَروا همْ حِزبُ الشَّيطانِ؛ لِعُكوفِهم على مُتابَعتِه وإنْ لم يُعلِنوا ذلك؛ لاقتناعِه منهم بمُلازَمةِ ما يُمْليه عليهم[١].

- وبدَأَ بالكُفَّارِ في قولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾؛ لِمُجاوَرةِ قولِه: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ﴾، فأتْبَعَ خَبرَ الكافرِ بحالِه في الآخرةِ[٢]، فبَدَأَ بما فيه التَّحذيرُ قبْلَ ما فيه التَّبشيرُ؛ مِن أجْلِ المناسَبةِ[٣].

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ ذكرُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ تَتميمٌ بأنَّ الَّذين لم يَكونوا مِن حِزبِ الشَّيطانِ قد فازوا بالخَيراتِ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ ابتِداؤُه بفاءِ التَّفريعِ ربْطٌ له بما تَقدَّمَ؛ لِيَعودَ الذِّهنُ إلى ما حُكِيَ مِن أحوالِهم؛ فالتَّفريعُ على قولِه: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ثمَّ بإبرازِ الكلامِ

= النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٣).

المُفرَّعِ في صورةِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ، واجتِلابِ المَوصولِ الَّذي تُومِئُ صِلَتُه إلى عِلَّةِ الخبرِ المَقصودِ، فأُشِيرَ إلى أنَّ وُقوعَه في هذه الحالةِ ناشئٌ مِن تَزيينِ الشَّيطانِ له سُوءَ عمَلِه(١).

- وقولُه: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ إمَّا تَقريرٌ لِما سبَقَ مِن التَّبايُنِ البَيِّنِ بيْنَ عاقِبَتَي الفَريقَينِ، ببَيانِ تَبايُنِ حالَيْهما المُؤدِّيَينِ إلى تَينِك العاقبتَينِ، والفاءُ لإنكارِ تَرْتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها، أي: أبَعْدَ كَونِ حالَيهما كما ذُكِرَ، يكونُ مَن زُيِّن له الكُفرُ مِن جِهةِ الشَّيطانِ فانهَمَك فيه، كمَن استقْبَحَه واجتنَبَه، واختارَ الإيمانَ والعملَ الصَّالحَ حتَّى لا تكونَ عاقِبَتاهما كما ذُكِرَ؟! فحُذِفَ ما حُذِفَ؛ لِدَلالةِ ما سبَقَ عليه. وإمَّا تَمهيدٌ لِمَا يَعقُبُه مِن نَهْيِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن التَّحسُّرِ والتَّحزُّنِ عليهم لِعَدمِ إسلامِهم، ببَيانِ أنَّهم لَيْسوا بأهلٍ لذلك، بلْ لأنْ يَضرِبَ عنهم صَفْحًا، ولا يُباليَ بهم قَطعًا، أي: أبَعْدَ كَونِ حالِهم كما ذُكِرَ تَتحسَّرُ عليهم؟! فحُذِفَ؛ لِمَا دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ دَلالةً بَيِّنةً. وكذلك قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ ...﴾ إلخ، تَقريرٌ له، وتَحقيقٌ للحقِّ ببَيانِ أنَّ الكُلَّ بمَشيئتِه تعالى. وإمَّا تَمْهيدٌ لِصَرْفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا كان عليه مِن الحِرصِ الشَّديدِ على إسلامِهم، والمُبالَغةِ في دَعوتِهم إليه؛ ببَيانِ استحالةِ تَحوُّلِهم عن الكُفرِ؛ لِكَونِه في غايةِ الحُسنِ عندَهم، أي: أبَعْدَ ما ذُكِرَ مَن زُيِّن له الكُفرُ مِن قِبَلِ الشَّيطانِ، فرآهُ فانهَمَك فيه، يَقبَلُ الهِدايةَ حتَّى تَطمَعَ في إسلامِه وتُتعِبَ نفْسَك في دَعوتِه؟! فحُذِفَ ما حُذِفَ؛ لِدَلالةِ ما مَرَّ مِن قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إلخ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٤).

- وهذه الآياتُ مِن الجمْعِ والتَّقسيمِ والتَّفريقِ[١]؛ فقولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ جمَعَ الفَريقينِ معًا في حُكمِ نِداءِ الناسِ، وجمَعَ ما لَهما مِن الثَّوابِ والعِقابِ في حُكمِ الوَعدِ، وحذَّرَهما معًا عن الغُرورِ بالدُّنيا والشَّيطانِ. وأمَّا التَّقسيمُ فهو قولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾؛ لأنَّه بيَّن فيه أحوالَ الفريقَينِ وما لَهما وعليهما مِن الثَّوابِ والعِقابِ. وأمَّا التَّفريقُ فقولُه: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾؛ لأنَّه فرَّقَ فيه، وبيَّن التَّفاوُتَ بيْنَ الفريقَينِ، فالفاءُ في قولِه: ﴿ أَفَمَن ﴾ للتَّعقيبِ، والهمْزةُ الدَّاخلةُ بيْنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ لإنكارِ المُساواةِ، وتَقريرِ البَونِ العَظيمِ بيْنَ الفريقينِ[٢].

- والنَّهيُ مُوَجَّهٌ إلى نَفْسِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ تَذهَبَ حَسَراتٍ على الضَّالِّينَ، ولم يُوجَّهْ إليه بأنْ يُقالَ: فلا تَذهَبْ عليهم حَسراتٍ، والرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونفْسُه مُتَّحدانِ؛ فتَوجيهُ النَّهيِ إلى نفْسِه دونَ أنْ يُقالَ: فلا تَذهَبْ عليهم حَسراتٍ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الذَّهابَ مُعبَّرٌ به عنِ التَّلفِ والانعدامِ؛ لِتَحصُلَ فائدةُ تَوزيعِ النَّهيِ والخِطابِ على شَيئينِ في ظاهرِ الأمرِ؛ فهو تَكريرُ الخِطابِ والنَّهيِ لِكِلَيهما، وهي طَريقةُ التَّجريدِ[٣] المعدودِ

---

(١) الجمْعُ والتَّقسيمُ والتَّفريقُ: أنْ يُجمعَ بيْنَ مُتعدِّدٍ في حُكمٍ، ثم يُفرَّقَ -أي: يُوقعَ التَّبايُنُ بيْنها-، ثمَّ يُضافَ لكلِّ واحدٍ ما يُناسِبُه؛ كقولِه تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾ الآياتِ؛ فالجمعُ في قولِه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ لأنَّها مُتعدِّدةٌ معنًى؛ إذِ النَّكرةُ في سياقِ النَّفْيِ تَعُمُّ. والتَّفريقُ في قولِه: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴾. والتَّقسيمُ في قولِه: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ ﴾. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((حاشية الدسوقي على مختصر المعاني)) (٤/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٠٨).

(٣) التَّجريد: أن يُنتزَعَ مِن أمرٍ ذي صِفةٍ أمرٌ آخَرُ مِثلُه في تلك الصِّفةِ، حتَّى تَصيرَ الذاتُ الواحدةُ =

في المُحسِّناتِ، وفائدةُ التَّكريرِ المُوجبِ تقريرُ الجُملةِ في النَّفْسِ[(١)].

- وجُمِعَت الحَسَراتُ -مع أنَّ اسمَ الجِنسِ صالحٌ للدَّلالةِ على تَكرارِ الأفرادِ-؛ قَصدًا للتَّنبيهِ على إرادةِ أفرادٍ كثيرةٍ مِن جِنسِ الحَسْرةِ؛ لأنَّ تَلَفَ النَّفْسِ يكونُ عندَ تَعاقُبِ الحسَراتِ الواحدةِ تِلْوَ الأُخرى؛ لدَوامِ المُتحسَّرِ منه؛ فكلُّ تَحسُّرٍ يَترُكُ حَزازةً وكَمدًا في النَّفْسِ حتى يَبلُغَ إلى الحدِّ الَّذي لا تُطيقه النَّفْسُ، فيَنفطِرَ له القلْبُ. أو لِكَثرةِ قَبائحِ أعمالِهم المُوجِبةِ للتَّأسُّفِ والتَّحسُّرِ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ مُفرَّعةٌ على ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾، وجُملةُ ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ مُفرَّعةٌ على المُفرَّعِ على جُملةِ ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ...﴾ إلخ؛ فتَؤُولُ إلى التَّفريعِ على الجُملتينِ، فيَؤُولُ إلى أنْ يكونَ النَّظمُ هكذا: أفتَتحسَّرُ على مَن زُيِّنَ لهم سُوءُ أعمالِهم فرَأَوها حَسناتٍ، واختاروا لأنفُسِهم طَريقَ الضَّلالِ؟! فلا تَذهَبْ نفْسُك عليهم حَسراتٍ، وإنَّما حَسْرَتُهم على أنفُسِهم؛ إذ رَضُوا لها باتِّباعِ الشَّيطانِ، ونَبَذوا اتِّباعَ إرشادِ اللهِ، كما دلَّ على ذلك قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾؛ تَسجيلًا عليهم أنَّهم ورَّطوا أنفُسَهم فيما أوقَعوها فيه بصُنْعِهم؛ فعُدِلَ عن النَّظمِ المألوفِ إلى هذا النَّظمِ العجيبِ، وصِيغَ

= ذاتَينِ؛ مُبالَغةً لكمالِ الوصفِ في تلكَ الذَّاتِ. كقَولِهم: لي مِنكَ صديقٌ حميمٌ، و: لَئِنْ سألْتَ فُلانًا، لَتَسْأَلَنَّ به بحرًا. يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٩)، ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٦).

بالاستِفهامِ الإنكاريِّ والنَّهيِ التَّثبيتيِّ. وقد اشتَمَلَتْ هذه الآيةُ على فاءاتٍ أربَعٍ كلُّها للسَّببيَّةِ والتَّفريعِ، وهي الَّتي بلَغَ بها نَظْمُ الآيةِ إلى هذا الإيجازِ البالغِ حَدَّ الإعجازِ، وفي اجتِماعِها ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بجَمْعِ النَّظائرِ[١].

- وأيضًا جُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ تَصلُحُ لإفادةِ التَّصبُّرِ والتَّحلُّمِ، أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بصُنْعِهم في المُخالَفةِ عن أمْرِه؛ فكما أنَّه لِحلمِه لم يُعجِّلْ بمُؤاخَذتِهم، فكُنْ أنت مُتَّصِفًا بذلك. وفي ضِمنِ هذا كِنايةٌ عن عدَمِ إفلاتِهم مِن العَذابِ على سُوءِ عَملِهم، وليس في هذه الجُملةِ مَعنى التَّعليلِ لِجُملةِ ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾؛ لأنَّ كَمَدَ نفْسِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُنْ لأجْلِ تَأخيرِ عِقابِهم، ولكنْ لأجْلِ عدَمِ اهتدائِهم[٢]. وقيل: قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ تَعليلٌ لِمَا قبْلَه، مع ما فيه مِن الوعيدِ[٣].

- وتَأكيدُ الخَبرِ بـ (إنَّ)؛ إمَّا تَمثيلٌ لحالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحالِ مَن أغفَلَه التَّحسُّرُ عليهم عن التَّأمُّلِ في إمهالِ اللهِ إيَّاهم؛ فأُكِّدَ له الخبَرُ بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾، وإمَّا لِجَعْلِ التَّأكيدِ لِمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخَبرِ؛ لِتكونَ (إنَّ) مُغْنيةً غَناءَ فاءِ التَّفريعِ، فتَتمخَّضَ الجُملةُ لِتَقريرِ التَّسليةِ والتَّعريضِ بالجزاءِ عن ذلك[٤].

- وعُبِّرَ بـ ﴿يَصۡنَعُونَ﴾ دونَ (يعملون)؛ للإشارةِ إلى أنَّهم يُدَبِّرون مَكايدَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُسلمينَ؛ فيكونُ هذا الكلامُ إيذانًا بوُجودِ باعثٍ آخَرَ على النَّزعِ عن الحَسرةِ عليهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٤ - ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٩-١١)

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾: أي: تُحرِّكُه وتَنشُرُه وتَرفَعُه وتُهَيِّجُه، أو تُنشِئُه، يُقالُ: ثارَ الغُبارُ والسَّحابُ ونحوُهما: انتشَر ساطِعًا، وقد أثَرْتُه، وأصلُ (ثور) هنا: انْبِعاثُ الشَّيءِ[١].

﴿ٱلنُّشُورُ﴾: أي: الحياةُ والمَرجِعُ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه[٢].

﴿يَبُورُ﴾: أي: يَبطُلُ ويَفسُدُ، والبَوارُ: فَرطُ الكَسادِ، وأصلُ (بور): يدُلُّ على هلاكِ الشَّيءِ[٣].

﴿نُّطۡفَةٖ﴾: النُّطفةُ: هي المَنيُّ، وقيل: الماءُ الصَّافي[٤]، وقيل: الماءُ القليلُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨).

(٤) وقال الشنقيطي: (النُّطْفةُ مختلِطةٌ مِنْ ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ، خلافًا لِمَن زَعَم أنَّها مِن ماءِ الرَّجلِ وحْدَه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٦). وذكَر الدَّليلَ على ذلك، فقال: (بدليلِ قولِه تعالى: =

وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى بعضَ مظاهرِ قدرتِه ورحمتِه، مُستدِلًّا على المَعادِ بإحيائِه الأرضَ بعدَ موتِها، فيقولُ: اللهُ الَّذي أرسَلَ الرِّياحَ بقُدرتِه فتُثيرُ سَحابًا فيَسوقُه اللهُ إلى بلدٍ لا نباتَ فيه، فيُحيي به الأرضَ المُجدِبةَ، ويُنبِتُ فيها الزَّرعَ، كذلك يُحيي اللهُ الأمواتَ، فيُخرِجُهم مِن قُبورِهم أحياءً.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ العزَّةَ الكاملةَ إنَّما هي له وحْدَه، فيقولُ: مَن كان يُريدُ العِزَّةَ فلْيَسأَلْها مِنَ اللهِ وَحْدَه؛ فإنَّ لله وحْدَه العِزَّةَ، وإلى اللهِ وحْدَه يَصعَدُ الكَلامُ الطَّيِّبُ، والعَمَلُ الصَّالحُ الَّذي يَعمَلُه العَبدُ يَرفَعُه.

ثمَّ يَذكُرُ سوءَ عاقبةِ الَّذين يَمكُرونَ السُّوءَ، فيقولُ: والَّذين يَعمَلونَ الأعمالَ السَّيِّئةَ لهم عذابٌ شَديدٌ، وعمَلُهم وخِداعُهم يَذهَبُ، ولا يَنفَعُهم بشَيءٍ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ.

ثمَّ يَذكُرُ تعالى ما يدُلُّ على كمالِ قدرتِه، وسَعةِ عِلمِه، فيقولُ: واللهُ خلَقَ أباكم آدَمَ مِن تُرابٍ، ثمَّ خَلَقَكم مِن مَنيٍّ، ثمَّ جعَلَكم ذُكْرانًا وإناثًا، وما مِن أُنثى تَحمِلُ حَملًا أو تَضَعُه إلَّا بعِلمِ اللهِ سُبحانَه، وما يُزادُ في عُمُرِ إنسانٍ أو يُنقَصُ منه إلَّا وذلك مَكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، إنَّ ذلك يسيرٌ على اللهِ سُبحانَه.

= ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: أخلاطٍ مِن ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أشياءَ مِن الأمورِ السَّماويَّةِ، وإرسالِ الملائِكةِ؛ ذكَرَ أشياءَ مِن الأُمورِ الأرضيَّةِ: الرِّياحَ وإرسالَها، وفي هذا احتِجاجٌ على مُنكِري البَعثِ، دلَّهم على المثالِ الَّذي يُعاينونَه، وهو وإحياءُ الموتَى سِيَّانِ[1].

وأيضًا لَمَّا قدَّمَ في أوَّلِ السُّورةِ الاستِدلالَ بأنَّ اللهَ فطَرَ السَّمواتِ والأرضَ وما في السَّمواتِ مِن أهلِها، وذلك أعظَمُ دَليلٍ على تَفرُّدِه بالإلهيَّةِ؛ ثنَّى هنا بالاستِدلالِ بتَصريفِ الأحوالِ بيْنَ السَّماءِ والأرضِ، وذلك بإرسالِ الرِّياحِ وتكوينِ السَّحابِ وإنزالِ المطَرِ؛ فهذا عَطْفٌ على قولِه: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2] [فاطر: ١].

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ﴾.

أي: واللهُ الَّذي أرسَلَ الرِّياحَ بقُدرتِه، فتُثيرُ سَحابًا[3]، فسُقْناه إلى بلدٍ لا نباتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٧).

(٣) قيل: معنى ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾: تُزعِجُه مِن مكانِه. وممَّن اختاره: ابنُ الجوزي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٠).

قال الواحدي: (قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾، قال الكلبيُّ: فتُنشئُ سَحابًا. والمعنى: فنُزعجُه مِن حيث هو). ((البسيط)) (١٨/ ٤٠٤).

وقال السمرقندي: (تَرفَعُه وتُهيِّجُه). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠١). =

فيه، فأخصَبْنا تلك الأرضَ المُجْدِبةَ، وأنبَتْنا فيها الزَّرعَ بعدَ يَبَسِها[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

أي: كما أحيا اللهُ الأرضَ المَيْتةَ يُحيي الأمواتَ بعدَ فَنائِهم، فيُخرِجُهم مِن قُبورِهم أحياءً[(٢)].

= وقال أبو عبيدة: («تُثيرُ» أي: تجمَعُ وتَجيءُ به وتُخرِجُه). ((مجاز القرآن)) (٢/ ١٥٢).

وقال ابنُ عاشور: (الإثارةُ: تحريكُ القارِّ تحريكًا يَضطرِبُ به عن موضِعِه، وإثارةُ السَّحابِ إنشاؤُه بما تُحدِثُه الرِّياحُ في الأجواءِ مِن رطوبةٍ تحصُلُ مِن تفاعُلِ الحرارةِ والبرودةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

قال الشوكاني: (أي: أحيَيْنا بالمطرِ الأرضَ بإنباتِ ما يَنبُتُ فيها، وإنْ لم يَتقدَّمْ ذِكرُ المطَرِ فالسَّحابُ يدُلُّ عليه، أو أحيَينا بالسَّحابِ؛ لأنَّه سَبَبُ المطرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

قال ابنُ الجوزي: (في معنى الكلامِ قولان؛ أحدُهما: كما أحيا اللهُ الأرضَ بعدَ موتِها يُحيي الموتى يومَ البعثِ... والثَّاني: كما أحيا اللهُ الأرضَ المَيْتةَ بالماءِ، كذلك يحيي اللهُ الموتَى بالماءِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٦، ٥٠٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٧٦).

وممَّن ذهب إلى معنى أنَّ النُّشورَ المذكورَ هنا يكونُ بواسطةِ ماءٍ يُنزِلُه اللهُ عزَّ وجلَّ فيحيا به الموتى: ابنُ كثير، والسعدي، ورجَّحه ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٩).

والقَولُ بأنَّ المرادَ أنَّ إحياءَ الموتى كإحياءِ الأرضِ دونَ نظرٍ للسَّبَبِ: هو ظاهِرُ اختيارِ الزمخشريِّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠١).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما بيْنَ النَّفخَتينِ أربعون. قالوا: يا أبا هريرةَ، أربعون يَومًا؟ قال أبَيْتُ! قالوا: أربعونَ شَهرًا؟ قال: أبَيْتُ! قالوا: أربعون سَنةً؟ قال: أبَيتُ[1]! ثمَّ يُنزلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ. قال: وليس مِن الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبْلَى، إلَّا عَظْمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ[2]، ومنه يُركَّبُ الخَلقُ يومَ القيامةِ))[3].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى بُرهانَ الإيمانِ؛ إشارةً إلى ما كان يَمنعُ الكُفَّارَ منه، وهو العِزَّةُ الظَّاهِرةُ الَّتي كانوا يَتوهَّمونَها مِن حيثُ إنَّهم ما كانوا في طاعةِ أحدٍ، ولم يكُنْ لهم مَن يأمُرُهم ويَنهاهم، فهم كانوا يَطلُبونَ العِزَّةَ، وهي عدَمُ التَّذَلُّلِ للرَّسولِ،

---

(١) معناه: أبَيْتُ أن أجزِمَ أنَّ المرادَ أربعون يومًا أو شهرًا أو سَنةً، بل الَّذي أجزِمُ به أنَّها أربعون مُجمَلةً؛ لأنَّه إنَّما سَمِعَ (أربعين) ولم يُعَيَّنْ له. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٤٥٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩١، ٩٢).

(٢) هو العَظْمُ اللطيفُ الَّذي في أسفلِ فقارِ الظَّهرِ، وأعلَى ما بينَ الأليتَينِ. يُنظر: ((التعليق على الموطأ)) للوقشي (١/ ٢٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩٢)، ((طرح التثريب)) للعراقي (٣/ ٣٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) واللفظ له.

وتَرْكُ الاتِّباعِ له، فقال: إن كنتُم تَطلُبون بهذا الكُفرِ العِزَّةَ في الحقيقةِ، فهي كُلُّها لله، ومَن يَتذلَّلْ له فهو العزيزُ، ومَن يَتعزَّزْ عليه فهو الذَّليلُ[١].

وأيضًا لَمَّا مضَى ذِكرُ غُرورين إجمالًا في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، فأُخِذ في تفصيلِ الغُرورِ الثَّاني من قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [فاطر: ٦] وما استَتْبَعه مِن التَّنبيهِ على كَيدِه، وانبعاثِ سُمومِ مَكرِه، والحَذرِ مِن مَصارعِ مُتابعتِه، وإبداءِ الفَرقِ بيْنَ الواقِعينَ في حبائِلِه والمُعافَيْنَ مِن أدوائِه، بِدارًا بتفصيلِ الأهَمِّ والأصلِ، وأُبقيَ تفصيلُ الغُرورِ الأوَّلِ إلى هنا، وإذ قد كان أعظَمُ غُرورِ المُشرِكين في شِركِهم ناشِئًا عن قَبولِ تعاليمِ كُبرائِهم وسادتِهم، وكان أعظَمُ دواعي القادةِ إلى تضليلِ دَهْمائِهم وصنائِعِهم هو ما يجِدونه مِن العِزَّةِ والافتتانِ بحُبِّ الرئاسةِ- لا جَرَمَ كانت إرادةُ العِزَّةِ مِلاكَ تكاتُفِ المُشرِكينَ بعضِهم مع بعضٍ، وتألُّبِهم على مُناوأةِ الإسلامِ؛ فلذلك نادَى عليهم القرآنُ بأنَّ مَن كان ذلك صارِفَه عن الدِّينِ الحَقِّ، فلْيَعلَمْ بأنَّ العِزَّةَ الحَقَّ في اتِّباعِ الإسلامِ، وأنَّ ما هم فيه مِنَ العِزَّةِ كالعَدَمِ[٢].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

أي: مَن كان يريدُ العِزَّةَ[٣] فلْيَطلُبْها مِن الله، ولْيَتسَبَّبْ لِنَيْلِها بطاعتِه؛ فإنَّ لله وَحْدَه جميعَ العِزَّةِ دونَ مَن سِواه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٩).

(٣) قال ابنُ عثيمين: (والعِزَّةُ: هي الغَلَبةُ، والمنَعَةُ، وقَهرُ الأعداءِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٨٠).

وقال ابن عاشور: (والعِزَّةُ: الشَّرَفُ والحصانةُ مِن أنْ يُنالَ بسوءٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

أي: إلى اللهِ وَحْدَه يَصعَدُ الكَلامُ الطَّيِّبُ، والعمَلُ الصَّالحُ الَّذي يَعمَلُه العبدُ خالِصًا للهِ تعالى ومُوافِقًا لِشَرعِه يَرفَعُه(١).

= ابن كثير)) (٦/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٨٠).

قال ابن جُزَي: (﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ الآية تحتمِلُ ثلاثةَ معانٍ: أحدُها -وهو الأظهَرُ: مَن كان يريدُ نَيْلَ العِزَّةِ، فلْيَطلُبْها مِن عند اللهِ؛ فإنَّ العِزَّةَ كُلَّها لله. والثَّاني: مَن كان يريدُ العِزَّةَ بمُغالبةِ الإسلام، فلله العِزَّةُ جميعًا، فالمُغالِبُ له مغلوبٌ. والثَّالثُ: مَن كان يريدُ أن يعلَمَ لِمَنِ العِزَّةُ، فلْيَعلَمْ أنَّ العِزَّةَ لله جميعًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٢).

وقال ابن عثيمين: (قَولُه تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ يرادُ به عمومُ الأنواعِ، وعُمومُ الأزمانِ، وعُمومُ الأمكنةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩٣).

قال السمعاني: (وقولُه: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: ما رُوِيَ عن الحسَنِ وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ وعِكْرِمةَ والضَّحَّاكِ وغيرِهم أنَّهم قالوا: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: العمَلُ الصَّالحُ يَرفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ.

والقولُ الثَّاني: قَولُ قَتادةَ؛ قال: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: يَرفَعُه الله.

والقولُ الثَّالثُ: والعمَلُ الصَّالحُ يَرفَعُه الكَلِمُ الطَّيِّبُ)). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٩). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٧، ٥٠٨). =

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن ما يُحصِّلُ العِزَّةَ مِن الحِكمةِ؛ بَيَّنَ ما يَكسِبُ الذِّلَّةَ، ويُوجِبُ النِّقمةَ مِن رَديءِ الهِمَّةِ، فقال[1]:

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

أي: والَّذين يَعمَلونَ الأعمالَ السَّيِّئةَ[2] لهم عذابٌ شديدٌ يُهانونَ فيه غايةَ

= وممَّن قال بالقولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، والنحاس، والسمعاني، وابن القيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ٤٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٣).

وهذا باعتبارِ أنَّه لا يَنفعُ قولٌ بلا عمَلٍ؛ إذ الإيمانُ قولٌ وعملٌ.

وممَّن قال بالقولِ الثَّاني: ابنُ عطية، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سرة فاطر)) (ص: ٨٧).

وهذا باعتبارِ أنَّ توحيدَ مرجعِ الضَّمائرِ أولى مِن تفريقِها، كما في ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٤١٤ وما بعدها).

والقولُ الثَّالثُ باعتبارِ أنَّ الضَّميرَ يرجِعُ إلى أقرَبِ مذكورٍ، ويكونُ ذلك باعتِبارِ أنَّه لا يَنفَعُ عمَلٌ إلَّا مع شهادةِ التَّوحيدِ.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩).

(٢) قال الواحدي: (﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: والَّذين يقولون الشِّركَ. وهذا معنى قولِ ابنِ عبَّاسٍ: والَّذين يُشرِكون بالله لهم عذابٌ شديدٌ. وقال الكلبيُّ: يعني: يَعمَلون السَّيِّئاتِ. وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: والَّذين يَعمَلون بالرِّياءِ. وهو قولُ مُجاهِدٍ وشَهرِ بنِ حَوْشَبٍ. وقال أبو العاليةِ: يعني: الَّذين مكَروا برسولِ الله في دارِ النَّدوةِ. وهو اختيارُ أبي إسحاقَ). ((البسيط)) (١٨/ ٤٠٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٦٥).

قيل: المرادُ بهم المُشرِكونَ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٢). =

الإهانةِ؛ جزاءَ مَكرِهم[١].

﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَوعَّدهم اللهُ بالعذابِ الشَّديدِ على مَكرِهم، أنبَأَهم أنَّ مَكرَهم لا يَرُوجُ، وأنَّ اللهَ سَيُبطِلُه، فلا يَنتفِعون منه في الدُّنيا، ويُضَرُّون بسَببِه في الآخرةِ، فقال[٢]:

﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

أي: وعمَلُ أولئكَ وخِداعُهم يَبْطُلُ ويَذهَبُ، فلا يَروجُ، ولا يَنفعُهم بشَيءٍ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[٣].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

= قال ابن كثير: (الصَّحيحُ أنَّها عامَّةٌ، والمشرِكونَ داخِلونَ فيها بطريقِ الأَولى). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٧، ٥٣٨).

قال الشنقيطي: (مِن مَكرِهم السَّيِّئاتِ كُفرُهم باللهِ، وأمْرُهم أتْباعَهم به). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨١).

وقال ابن عاشور: (المكرُ: تدبيرُ إلحاقِ الضُّرِّ بالغيرِ في خُفيةٍ؛ لئلَّا يأخُذَ حِذرَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٧، ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى دلائِلَ الآفاقِ مِن السَّمَواتِ -وما يُرسَلُ منها مِن الملائِكةِ-، والأرضِ وما يُرسَلُ فيها مِن الرِّياحِ- شَرَع في دلائِلِ الأنفُسِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه ما صيَّرَهم إليه مِن المُفاوَتةِ في الأخلاقِ؛ أتْبَعَه ما كانوا عليه مِن الوَحدةِ في جِنسِ الأصلِ، فقال[٢]:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾.

أي: واللهُ خلَقَ أباكم آدَمَ مِن ترابٍ، ثمَّ خلَقَكم مِن مَنيٍّ، ثمَّ جعَلَكم ذُكرانًا وإناثًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ... ﴾ [الحج: ٥].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

بعْدَ الاستِدلالِ بما في بَدءِ التَّكوينِ الثَّاني مِن التَّلاقُحِ بيْنَ النُّطفتَينِ، استُدِلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

قال الشوكاني: (﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: زَوَّج بعضَكم ببعضٍ، فالذَّكَرُ زَوْجُ الأنثَى، أو جَعَلكم أصنافًا ذُكْرانًا وإناثًا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٢).

بما يَنشَأُ عن ذلك مِن الأطوارِ العارضةِ للنُّطفةِ في الرَّحمِ، وهو أطوارُ الحمْلِ مِن أوَّلِه إلى الوَضعِ[١].

﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾.

أي: وما مِن أنثى تَحمِلُ حَمْلًا أو تضَعُه إلَّا واللهُ عالمٌ به، لا يخفَى عليه شَيءٌ منه، فيَعلَمُ وَقْتَ حَمْلِه ووَضْعِه، ونَوْعَه وشَكْلَه، وغيرَ ذلك مِن شُؤونِه[٢].

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾.

مُناسَبتُها لما قَبْلَها:

لا جَرَمَ أنَّ الحديثَ عن التَّكوينِ يَستتبعُ ذِكرَ الموتِ المكتوبِ على كُلِّ بَشَرٍ، فجاء بذِكرِ عِلمِه الآجالَ والأعمارَ؛ للتَّنبيهِ على سَعةِ العِلمِ الإلهيِّ[٣].

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾.

أي: وما مِن زيادةٍ في عُمُرِ إنسانٍ أو نُقصانٍ منه إلَّا وذلك مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٢)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٥٩٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩٦، ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٢، ٣٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٢).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: لا يَطولُ عُمُرُ أحَدٍ ولا يُنْقَصُ مِن عُمُرِ آخَرَ غيرِه إلَّا في كتابٍ، فوُضِعَ ﴿مِن مُّعَمَّرٖ﴾ مَوضِعَ (مِن أحدٍ)، وليس المرادُ شخصًا واحدًا، وإنَّما ذلك كقولِك: لا يُعاقِبُ اللهُ عبدًا ولا يُثيبُه إلَّا بحقٍّ، وقولِك: لِفُلانٍ عندي دِرهَمٌ ونِصْفُه، أي: نِصْفُ دِرهَمٍ آخَرَ؛ =

= ممَّن اختاره: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، ومكِّي، والبغويُّ، وابنُ جُزَي، والخازن، وابن كثير، وأبو السعود، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩٨- ١٠١).

وقيل: الضَّميرُ في قولِه: ﴿عُمُرِهِۦٓ﴾ عائدٌ على المُعَمَّرِ الأوَّلِ بعَيْنِه، واختُلِف في تأويلِه:

فقيل: معنى الآيةِ على ذلك: أنَّ اللهَ جلَّ وعزَّ قد كتَبَ عُمُرَ كُلِّ مُعَمَّرٍ، وكتَبَ: يُعَمَّرُ كذا وكذا سَنةً، وكذا وكذا شهرًا، وكذا وكذا يومًا، وكذا وكذا ساعةً، فكلُّ ما نَقَص مِن عُمُرِه مِن سَنةٍ أو شهرٍ أو يومٍ أو ساعةٍ كتب ذلك حتَّى يَبلُغَ أجَلَه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ. ونسَبَه الواحديُّ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٠٩).

قال الواحدي: (فالمُعَمَّرُ على هذا الَّذي قُدِّر له شَيءٌ مِن العُمُرِ وإن قَلَّ، وليس المُعَمَّرُ بمعنَى الطَّويلِ العُمُرِ، وهو قولُ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٤٠٩).

وقال الشوكاني: (ظاهِرُ النَّظمِ القُرآنيِّ أنَّ تطويلَ العُمُرِ وتقصيرَه: هما بقضاءِ الله وقَدَرِه؛ لأسبابٍ تقتضي التَّطويلَ، وأسبابٍ تقتضي التَّقصيرَ؛ فمِن أسبابِ التَّطويلِ: ما وردَ في صِلةِ الرَّحمِ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ونحو ذلك. ومِن أسبابِ التَّقصيرِ الاستِكثارُ مِن معاصي الله عزَّ وجَلَّ؛ فإذا كان العمُرُ المَضروبُ للرَّجُلِ مثلًا سبعين سنةً، فقد يَزيدُ الله له عليها إذا فعَل أسبابَ الزِّيادةِ، وقد يَنقُصُه منها إذا فعَل أسبابَ النُّقصانِ، والكُلُّ في كتابٍ مُبينٍ، فلا تَخالُفَ بيْنَ هذه الآيةِ وبيْن قَولِه سُبحانَه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ويؤيِّدُ هذا قَولُه سُبحانَه: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٢، ٣٩٣). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٩٠- ٤٩٢)، ((إتحاف ذوي الألباب)) لمرعي (ص: ٩٥-٩٧)، ((تفسر ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩٧-١٠٠).

وقال السعدي: (﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: عُمُرِ الَّذي كان مُعَمَّرًا عُمُرًا طويلًا ﴿إِلَّا﴾ بعِلْمِه تعالى، أو ما يُنقَصُ مِن عُمُرِ الإنسانِ الَّذي هو بصَدَدِ أن يَصِلَ إليه، لولا ما =

كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن أحَبَّ أن يُبْسَطَ له في رِزقِه، ويُنْسَأَ له في أثَرِه؛ فلْيَصِلْ رَحِمَه))(١).

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لها: ((إنَّه مَن أُعطِيَ حَظَّه مِن الرِّفقِ فقد أُعطِيَ حَظَّه مِن خَيرِ الدُّنيا والآخرةِ، وصِلةُ الرَّحِمِ وحُسْنُ الخُلُقِ وحُسْنُ الجِوارِ يَعمُرانِ الدِّيارَ، ويَزيدانِ في الأعمارِ))(٢).

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

أي: إنَّ ذلك الأمرَ العظيمَ مِن كتابةِ أعمارِ جميعِ الخَلقِ؛ ما زاد منها وما نَقَص، وتقديرِها، وإحصاءِ ساعاتِها ودقائِقِها، والإحاطةِ بها على وَجهِ التَّفصيلِ: أمرٌ يسيرٌ على اللهِ سُبحانَه، فلا يَعسُرُ عليه شَيءٌ مِن ذلك(٣).

= سلَكَه مِن أسبابِ قِصَرِ العُمُرِ؛ كالزِّنا، وعُقوقِ الوالدَينِ، وقطيعةِ الأرحامِ، ونحوِ ذلك ممَّا ذُكِر أنَّها مِن أسبابِ قِصَرِ العُمُرِ. والمعنى: أنَّ طولَ العُمُرِ وقِصَرَه، بسببٍ وبغيرِ سببٍ كلُّه بعِلمِه تعالى، وقد أثبَت ذلك ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ حوى ما يَجري على العبد في جميعِ أوقاتِه وأيَّامِ حياتِه)). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٢٥٩) واللفظ له، وأبو يعلى (٤٥٣٠)، وأبو نُعيم في ((حلية الأولياء)) (٩/ ١٥٩).

وثَّق رجالَ إسنادِه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١٠/ ٤٢٩)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٥١٩)، وصحَّح الحديثَ الوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (١٦٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- المعصيةُ تُورِثُ الذُّلَّ ولا بُدَّ؛ فإنَّ العِزَّ كُلَّ العِزِّ في طاعةِ الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ أي: مَن كان يُريدُ العزَّةَ فلْيَطلُبْها بطاعةِ اللهِ وذِكْرِه مِن الكَلِمِ الطَّيِّبِ والعمَلِ الصَّالحِ؛ فإنَّه لا يَجِدُها إلَّا في طاعتِه[١]، فمَن أطاعَ اللهَ فقد والاه فيما أطاعه فيه، وله مِن العِزِّ بحَسَبِ طاعتِه، ومَن عصاه فقد عاداه فيما عَصاه فيه، وله مِن الذُّلِّ بحَسَبِ مَعصيتِه[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ المقصودُ منه أنَّ أعمالَ المؤمنينَ هي الَّتي تَنفَعُ؛ لِيَعلمَ النَّاسُ أنَّ أعمالَ المُشركينَ سَعيٌ باطِلٌ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ﴾ إثباتُ الأسبابِ، وأنَّ المُسبَّباتِ مَربوطةٌ بأسبابِها؛ فإنَّ الفاءَ هنا للسَّببيَّةِ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ الرَّدُّ على أهلِ الكلامِ الَّذين يقولونَ: إنَّه لا يُوصَفُ بالحياةِ والمَوتِ شَيءٌ مِن الجَماداتِ؛ لأنَّه هنا أثبَتَ الحياةَ والموتَ للأرضِ، وهي مِن الجماداتِ، وقال تعالى في الأصنامِ: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[٥] [النحل: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٥٩، ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٧).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ جوازُ إضافةِ الشَّيءِ إلى سَبَبِه المعلوم، وإضافةُ الشَّيءِ إلى سَبَبِه المعلوم أمرٌ واقعٌ في القرآنِ وفي السُّنَّةِ، بمعنى: أنَّه لا يُشترَطُ أنْ تَقرِنَ معه اللهَ عزَّ وجلَّ، فإذا أضَفْتَ الشَّيءَ إلى سَببِه المعلوم وإنْ لم تكُنْ تَقْرِنُ اللهَ به؛ فلا بأسَ، لكنَّ المُحَرَّمَ أنْ يُضافَ إلى سَبَبٍ غيرِ مَعلومٍ لا شَرعًا ولا حِسًّا، أو أنْ يُضافَ إلى سَبَبِه المعلومِ مَقرونًا مع اللهِ بحَرفٍ يقتضي التَّسويةَ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ يدُلُّ على صِحَّةِ القياسِ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ لا تَنافيَ بيْنَه -وإن كان الظَّاهِرُ أنَّها له لا لِغَيرِه- وبيْنَ قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وإن كان يقتضي الاشتراكَ؛ لأنَّ العِزَّةَ في الحقيقةِ لله بالذَّاتِ، وللرَّسولِ بواسِطةِ قُربِه مِن اللهِ، وللمُؤمِنينَ بواسِطةِ الرَّسولِ؛ فالمحكومُ عليه أوَّلًا غيرُ المحكومِ عليه ثانيًا[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ دَليلٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى على سائرِ مخلوقاتِه، وأنَّه كامِلُ الأسماءِ الحُسنى والصِّفاتِ العُلا[٤]. وفيه حُجَّةٌ قاطِعةٌ لكلِّ لُبْسةٍ على مَن يَزعمُ أنَّ اللهَ بنَفْسِه في الأرضِ؛ فكيف يَصْعَدُ إليه -وَيْحَهم- العَمَلُ الصَّالحُ، وهو مع عامِلِه -بزعمِهم- في الأرضِ؟! بل هو في السَّماءِ على العَرشِ بلا مِريةٍ ولا شَكٍّ، وعِلمُه بكلِّ مكانٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٧٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٣٦).

لا يَخلو مِن عِلْمِه مَكانٌ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ حُجَّةٌ على المرجئةِ فيما يُعَرُّونَ الإيمانَ مِن العملِ الصَّالحِ! وهذا القولُ نفْسُه لا يَرفَعُه إلَّا العملُ الصَّالحُ -كما ترى، على قولٍ في التَّفسيرِ-، فكيف لا يكونُ مِن الإيمانِ؛ والقولُ -الَّذي هو عندَهم كمالُ الإيمانِ- لا يَرفعُه إلَّا العملُ[٢]؟!

٨- قد يُجعَلُ الكَلامُ قَسيمًا للعَمَلِ ليس قِسمًا منه في مِثلِ قَولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾، وقد يُجعَلُ قِسمًا منه كما في قَولِه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[٣] [الحجر: ٩٢، ٩٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَرفَعُ مِن الأعمالِ إلَّا ما كان صالِحًا -وهذا على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-، والعَمَلُ الصَّالحُ ما اشتمَلَ على وصْفَينِ: الإخلاصِ للهِ، والمتابَعةِ لِشَرعِه؛ فإنْ فُقِدَ الإخلاصُ فليس بعَمَلٍ صالحٍ؛ لأنَّه شِركٌ، وإنْ فُقِدَت المتابَعةُ فليس بعَمَلٍ صالحٍ؛ لأنَّه بِدعةٌ[٤].

١٠- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فسَمَّى السَّيِّئاتِ مَكرًا؛ لأنَّ الإنسانَ في الواقعِ يَخدَعُ نَفْسَه بها، ويَخدَعُ غيرَه بها؛ فيُمَنِّي نَفْسَه التَّوبةَ، أو يُمنِّي نَفْسَه سَعةَ حِلمِ اللهِ ومَغفرتِه، فلن يُؤاخِذَه بهذه العُقوبةِ[٥]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٦٩٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٨).

تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ﴾ إثباتُ مراتبِ القَدَرِ الأربعةِ: العِلم، والكتابةِ، والخَلْقِ، والمشيئةِ، وهذه الأخيرةُ تُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ﴾، وهذا لا يكونُ إلَّا بمشيئةِ اللهِ تعالى[1].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ﴾ فيه سُؤالٌ: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿عُمُرِهِۦٓ ﴾ يَظهَرُ رُجوعُه إلى المُعمَّرِ، فيُشكِلُ معنى الآيةِ على هذا القول؛ لأنَّ المعَمَّرَ والمنقوصَ مِن عُمُرِه ضِدَّانِ، فيَظهَرُ تنافي الضَّميرِ ومُفَسِّرِه؟

الجوابُ: أنَّ المرادَ بالمعَمَّرِ هنا جِنسُ المُعمَّرِ الَّذي هو مُطلَقُ الشَّخصِ، فيَصدُقُ بالَّذي لم يُنقَصْ مِن عُمُرِه، وبالَّذي نقَصَ مِن عُمُرِه، فصار المعنى: لا يُزادُ في عُمُرِ شَخصٍ، ولا يُنقَصُ مِن عُمُرِ شَخصٍ إلَّا في كتابٍ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾

- في هذه الآيةِ اختيرَ مِن دَلائلِ الوحدانيَّةِ: دَلالةُ تَجمُّعِ أسبابِ المطَرِ؛ لِيُفْضِيَ مِن ذلك إلى تَنظيرِ إحياءِ الأمواتِ بعْدَ أحوالِ الفَناءِ بآثارِ ذلك الصُّنْعِ العجيبِ، وأنَّ الَّذي خلَقَ وسائلَ إحياءِ الأرضِ قادرٌ على خلْقِ وسائلِ إحياءِ الَّذين ضَمَّتْهم الأرضُ، على سَبيلِ الإدماجِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٧). =

- وفي قولِه: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ إظهارُ اسمِ الجَلالةِ في مَقامِ الإضمارِ، دونَ أنْ يقولَ: (وهو الَّذي أرسَلَ الرِّياحَ)، فيَعودَ الضَّميرُ إلى اسمِ اللهِ مِن قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨][1]، فأخبَرَ عن نفْسِه بأنَّه صاحِبُ هذا الاسمِ المختَصِّ به الَّذي لا يَجهَلونَه، ولأنَّه مع الصِّلةِ يُفيدُ الحَصرَ، أي: اللهُ المُرسِلُ، ومعناه أنَّه لا مُرسِلَ سِواه[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾، فلَمْ يُؤتَ بفِعلِ الإرسالِ في هذه الآيةِ بصِيغةِ المُضارِعِ، بخِلافِ قولِه: في سُورةِ (الرُّومِ): ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ... ﴾ [الرُّوم: ٤٨] الآيةَ؛ وذلك لأنَّ القَصدَ هنا استِدلالٌ بما هو واقعٌ؛ إظهارًا لإمكانِ نَظيرِه، وأمَّا آيةُ سُورةِ (الرُّومِ) فالمَقصودُ منها الاستِدلالُ على تَجديدِ صُنْعِ اللهِ ونِعَمِه[3].

- وأيضًا قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ بلَفظِ الماضي، ثم قال: ﴿فَتُثِيرُ

= والإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ، فيُقرِنُ الغرضَ المسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((الطراز لأسرار البلاغة)) ليحيى بن حمزة المؤيد بالله (٣/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٨).

سَحَابًا ﴾ بصِيغةِ المُستقبَلِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا كان القَصدُ مِن الاستِدلالِ هو وُقوعَ الإحياءِ وتقرُّرَ وُقوعِه، جِيءَ بفِعلِ الماضي في قولِه: ﴿أَرْسَلَ﴾. وأمَّا تَغييرُه إلى المُضارعِ في قولِه: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾؛ فلِحكايةِ الحالِ العَجيبةِ الَّتي تقَعُ فيها إثارةُ الرِّياحِ السَّحابَ، وتُستحضَرَ تلك الصُّورُ البديعةُ الدَّالَّةُ على القُدرةِ الرَّبَّانيَّةِ، ولأنَّ المُرادَ بَيانُ إحداثِها بهذه الخاصِّيَّةِ؛ ولذلك أسنَدَهُ إليها، وهي طريقةٌ للبُلغاءِ في الفِعلِ الَّذي فيه خُصوصيَّةٌ بحالٍ تُستغرَبُ وتَهُمُّ السَّامعَ. ويجوزُ أنْ يكونَ اختلافُ الأفعالِ للدَّلالةِ على استِمرارِ الأمْرِ[1]. وقيل: إنَّما هذا مِن التَّفنُّنِ في الكلامِ، والتَّصرُّفِ في البَلاغةِ[2].

- ولَمَّا كان سَوقُ السَّحابِ إلى البلدِ الميِّتِ، وإحياءُ الأرضِ بالمَطرِ بعْدَ مَوتِها: مِن الدَّلائلِ على القُدرةِ الباهرةِ؛ قِيل: (فسُقْنا، وأحيَيْنا) مَعدولًا بهما عن لَفظِ الغَيبةِ إلى ما هو أدخَلُ في الاختصاصِ وأدلُّ عليه. وإيرادُ الفِعلينِ ﴿فَسُقْنَاهُ﴾ ﴿فَأَحْيَيْنَا﴾ على صِيغةِ الماضِي؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[3]. وقيل: في الأوَّلِ عرَّف نفْسَه بفِعلٍ مِن الأفعالِ، وهو الإرسالُ، ثمَّ لَمَّا عُرِفَ قال: أنا الَّذي عرَفْتَني سُقْتُ السَّحابَ، وأحيَيْتُ الأرضَ؛ ففي الأوَّلِ كان تعريفًا بالفِعلِ العجيبِ، وفي الثَّاني كان تذكيرًا بالنِّعمةِ؛ فإنَّ كمالَ نِعمةِ الرِّياحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦، ١٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٦/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦، ١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٣١).

والسُّحُبِ: بالسَّوقِ والإحياءِ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾

- قولُه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ في إخراجِ هذا الكَلامِ مُخرجَ الشَّرطِ نَوعُ تَوبيخٍ، وتَنبيهٌ للمُخاطَبينَ على خَطأِ رأْيِهم، وفَسادِ طَريقتِهم، وتَضْليلِهم فيما همْ فيه مِن طَلبِ العزَّةِ مِن غَيرِ مَوضعِها ومَكانِها، كأنَّه قِيل: أيُّها الضَّالُّون، تَنبَّهوا على خَطئِكم، وتَيَقَّنوا أنْ ليسَ الوُصولُ إلى المطلوبِ ما أنتُم عليه مِن رَوْمِ العزَّةِ مِن عندِ غيرِ اللهِ؛ لأنَّ العِزَّةَ كلَّها مِلكُ اللهِ، ومُختصَّةٌ به وبأوليائِه، وطَريقُ الوُصولِ إليها الإيمانُ والعملُ الصالحُ، واعلَموا أنَّ مَنْ أعزَّهُ اللهُ فلا مُذِلَّ له، ومَنْ أذَلَّه لا مُعِزَّ له[٢].

- والجمْعُ بيْن (كانَ) و(يُريدُ) في قولِه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾؛ للدَّلالةِ على دَوامِ الإرادةِ واستِمرارِها[٣].

- قولُه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ (مَن) شَرطيَّةٌ، وجُعِل جَوابُها ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾، وليس ثُبوتُ العِزَّةِ للهِ بمُرتَّبٍ في الوُجودِ على حُصولِ هذا الشَّرطِ، فتَعيَّنَ أنَّ ما بعْدَ فاءِ الجزاءِ هو عِلَّةُ الجوابِ، أُقِيمَت مُقامَه، واستُغْنِيَ بها عن ذِكرِه؛ إيجازًا، ولِيَحصُلَ مِن استخراجِه مِن طَيَّاتِ الكلامِ تَقرُّرُه في ذِهنِ السَّامعِ، والتَّقديرُ: مَن كان يُريدُ العِزَّةَ فلْيَستجِبْ إلى دَعوةِ الإسلامِ؛ ففيها العِزَّةُ؛ لأنَّ العِزَّةَ كلَّها للهِ تعالى، أو فلْيَطْلُبْها عندَ اللهِ، فأمَّا العِزَّةُ الَّتي يَتشبَّثون بها

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥).

فهي كخَيطِ العَنكبوتِ؛ لأنَّها واهيةٌ باليةٌ، وهذا الأسلوبُ لِتَنبيهِ المخاطَبِ على خطَأِ زَعمِه. وقد يكونُ بالعكسِ، وهو تَثبيتُ المخاطَبِ على عِلمِه؛ فتَقديمُ المجرورِ﴿فَلِلَّهِ﴾ يُفيدُ قصرًا، وهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ[(١)]؛ لِعَدمِ الاعتدادِ بما للمشركينَ مِن عِزَّةٍ ضَئيلةٍ، أي: فالعِزَّةُ للهِ لا لهم[(٢)].

- ولفظةُ ﴿جَمِيعًا﴾ أفادتِ الإحاطةَ؛ فكانتْ بمَنزلةِ التَّأكيدِ للقصرِ الادِّعائيِّ، فحصَلَت ثلاثةُ مُؤكِّداتٍ؛ فالقصرُ بَمنزلةِ تأْكيدينِ -فالحصرُ والتَّخصيصُ

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ: في اصطِلاح البلاغيِّينَ هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مِثلُ: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبْتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ؛ **فالحقيقيُّ** هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. **والإضافيُّ**: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثَرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. **والادِّعائيُّ**: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مَبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ، بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. **وقصْرُ القَلبِ**: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ مُعَيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زَيْدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرة؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧- ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٠، ٢٧١).

ليسَا إلَّا تأكيدًا على تأكيدٍ-، و﴿جَمِيعًا﴾ بمَنزلةِ تأكيدٍ ثالثٍ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ قَريبٌ مِن قولِه: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[النساء: ١٣٩]؛ فإنَّ فيه تَأْكيدَينِ: تَأكيدًا بـ (إنَّ)، وتأكيدًا بـ ﴿جَمِيعًا﴾؛ لأنَّ تلك الآيةَ نَزَلت في وَقتِ قُوَّةِ الإسلامِ؛ فلم يُحتَجْ فيها إلى تَقويةِ التَّأكيدِ مِثْلَما في هذه الآيةِ الَّتي أُكِّدَتْ بثلاثةِ مؤكِّداتٍ[٢].

- قولُه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ كما أَتْبَعَ تَفصيلَ غُرورِ الشَّيطانِ بعَواقبه في الآخرةِ بقولِه: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] الآيةَ، وبذِكرِ مُقابِلِ عَواقبه مِن حالِ المؤمنينَ، كذلك أَتْبَعَ تَفصيلَ غُرورِ الأنفُسِ أهْلَها بعَواقبه، وبذِكرِ مُقابِله أيضًا؛ لِيَلتقِيَ مآلُ الغُرورينِ ومُقابِلِهما في مُلتقًى واحدٍ، ولكنْ قُدِّم في الأوَّلَ عاقبةُ أهلِ الغُرورِ بالشَّيطانِ، ثمَّ ذُكِرَت عاقبةُ أضْدادِهم، وعُكِسَ في ما هنا؛ لِجَريانِ ذِكرِ عِزَّةِ الله؛ فقُدِّمَ ما هو المناسِبُ لآثارِ عِزَّةِ اللهِ في حِزْبِه وجُنْدِه، وجُملةُ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ مُستأْنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا بمُناسَبةِ تَفصيلِ الغُرورِ الَّذي يُوقَعُ فيه[٣].

- وتقَديمُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿إِلَيْهِ﴾ في قولِه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أفادَ أنَّ كلَّ ما يُقدَّمُ مِن الكَلِمِ الطَّيِّبِ إلى غيرِ اللهِ لا طائلَ تَحتَه[٤]. وقيل: تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ عِبارةٌ عن كَمالِ الاعتدادِ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥).

- وفي بناءِ المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَرۡفَعُهُۥ﴾ على المسنَدِ إليه (الْعَمَلُ الصَّالِحُ) ما يُفيدُ تَخصيصَ المسنَدِ إليه بالمُسنَدِ؛ فإذا انضمَّ إليه سِياقُ جُملتِه عَقِبَ سِياقِ جُملةِ القصْرِ في قولِه: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ المُشعِرِ بسَرَيانِ حُكمِ القصْرِ إليه بالقرينةِ لاتِّحادِ المَقامِ -إذ لا يُتوهَّمُ أنْ يُقصَرَ صُعودُ الكَلِمِ الطَّيِّبِ على الجانبِ الإلهيِّ، ثمَّ يُجعَلَ لِغَيرِه شَركةٌ معه في رَفعِ العملِ الصالحِ-؛ تَعيَّن معنى التَّخصيصِ، فصار المعنى: اللهُ الَّذي يَقبَلُ مِن المؤمنينَ أقوالَهم وأعمالَهم الصَّالحةَ[1].

- وجِيءَ في جانبِ العملِ الصَّالحِ بالإخبارِ عنه بجُملةِ ﴿يَرۡفَعُهُۥ﴾، ولم يُعطَفْ على ﴿ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ في حُكمِ الصُّعودِ إلى اللهِ مع تَساوي الخبرَينِ؛ لِفائدتينِ: **أُولاهما**: الإيماءُ إلى أنَّ نوعَ العملِ الصَّالحِ أهمُّ مِن نَوعِ الكَلِمِ الطَّيِّبِ على الجُملةِ؛ لأنَّ مُعظمَ العملِ الصالحِ أوسَعُ نفْعًا مِن مُعظَمِ الكَلِمِ الطَّيِّبِ (عدا كلمةَ الشَّهادتينِ وما ورَدَ تَفضيلُه مِن الأقوالِ في السُّنةِ؛ مِثلُ دُعاءِ يَومِ عَرَفةَ)؛ فلذلك أُسنِدَ إلى اللهِ رَفْعُه بنَفْسِه، على قولٍ في التَّفسيرِ. **وثانيهما**: أنَّ الكلِمَ الطَّيِّبَ يَتكيَّفُ في الهواءِ؛ فإسنادُ الصُّعودِ إليه مُناسِبٌ لِماهيَّتِه، وأمَّا العملُ الصالحُ فهو كيفيَّاتٌ عارضةٌ لِذواتٍ فاعلةٍ ومَفعولةٍ، فلا يُناسِبُه إسنادُ الصُّعودِ إليه، وإنَّما يَحسُنُ أنْ يُجعَلَ مُتعلِّقًا لِرَفْعٍ يقَعُ عليه ويُسخِّرُه إلى الارتفاعِ[2]. وقيل: تَخصيصُ العمَلِ بهذا الشَّرفِ؛ لِمَا فيه مِن الكُلْفةِ[3].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ حالِ الكَلِمِ الخَبيثِ والعَملِ السَّيِّئِ وأهلِهما، بعدَ بَيانِ حالِ الكلِمِ الطَّيِّبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٥).

والعمَلِ الصالحِ[١]. أو هذا فَريقٌ مِن الَّذين يُريدون العِزَّةَ مِن المشركينَ، وهمُ الَّذين ذكَرَهم اللهُ تعالى في قولِه: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] الآيةَ؛ فعَطْفُهم على ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ تَخصيصٌ لهم بالذِّكرِ؛ لِمَا اختَصُّوا به مِن تَدبيرِ المكْرِ، وهو مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتمامِ بذِكرِه[٢]. أو يكونُ استِطرادًا وتَقريرًا لِمَضمونِ قولِه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ على طَريقِ الاستِشهادِ والتَّمثيلِ[٣].

- و﴿ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ في قولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ مَنصوبٌ هنا على أنَّه وَصْفٌ لِمَصدرِ المَكرِ، نائبًا مَنابَ المَفعولِ المُطلَقِ المُبيِّنِ لِنَوعِ الفِعلِ؛ فكأنَّه قيل: والَّذين يَمكُرون المكرَ السَّيِّئَ. وكان حقُّ وَصْفِ المصدرِ أنْ يكونَ مُفرَدًا، كقولِه تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣]، لكنْ لَمَّا أُريدَ هنا التَّنبيهُ على أنَّ أولياءَ الشَّيطانِ لهم أنواعٌ مِن المَكرِ، عُدِلَ عن الإفرادِ إلى الجَمْعِ، وأُتِيَ به جمْعَ مُؤنَّثٍ؛ للدَّلالةِ على مَعنى الفَعَلاتِ مِن المَكرِ، فكلُّ واحدةٍ مِن مَكْرِهم هي سَيِّئةٌ[٤].

- وجِيءَ باسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ مَضمونَ الصِّلةِ عِلَّةٌ فيما يَرِدُ بعْدَها مِن الحُكمِ، أي لهم عذابٌ شديدٌ جَزاءَ مَكرِهم، وعُبِّرَ بالمُضارعِ ﴿ يَمْكُرُونَ ﴾ في الصِّلةِ؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ مَكرِهم واستِمرارِه، وأنَّه دأْبُهم وهِجِّيراهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وعبَّرَ عنهم باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ دونَ الضَّميرِ الَّذي هو مُقْتَضَى الظَّاهرِ؛ للإيذانِ بكَمالِ تَميُّزِهم بما هُم فيه مِن الشَّرِّ والفَسادِ عن سائرِ المُفسدينَ واشتهارِهم بذلك؛ فيُكنَّى بذلك عن تَمييزِ المَكرِ المُضافِ إليهم، ووُضوحِه في عِلمِ اللهِ وعِلمِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما أعلَمَهُ اللهُ به منه، فكأنَّما أُشيرَ إليهم وإلى مَكرِهم باسمِ إشارةٍ واحدٍ على سَبيلِ الإيجازِ. وما في اسمِ الإشارةِ مِن معنى البُعدِ؛ للتَّنبيهِ على تَرامي أمْرِهم في الطُّغيانِ، وبُعدِ مَنزلتِهم في العُدوانِ[1]. ولم يَقُلْ: (مَكرُ هؤلاء)؛ إمَّا استبعادًا لهم؛ لأنَّهم لَيسوا أهلًا لأنْ يُقرَّبوا، أو لأنَّهم جَعَلوا أنفُسَهم في مَحلِّ العالِينَ الَّذين يُشارُ إليهم مِن بُعدٍ؛ فبيَّنَ أنَّ هؤلاء الَّذين تَعالَوا بمَكرِهم، وإنْ كانوا في القِمَّةِ على حَسَبِ زَعْمِهم، فإنَّ هذا المكرَ يَبورُ[2].

- ووُقوعُ الفِعلِ المُضارعِ بعْدَ ضَميرِ الفَصلِ في جُملةِ ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ يَدُلُّ على التَّجدُّدِ في حُصولِ الفِعلِ، وأُتِيَ بضَميرِ الفصلِ هنا؛ لِيُفيدَ الثَّباتَ والتَّقويةَ؛ فالفصلُ هنا يُفيدُ القصْرَ، أي: مَكرُهم يَبورُ دونَ غَيرِه، ومَعلومٌ أنَّ غيرَه هنا تَعريضٌ بأنَّ اللهَ يَمكُرُ بهم مَكرًا يُصيبُ المَحزَّ منهم[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٥).

المَحَزُّ: مَوضِعُ الحَزِّ: أي: القَطعِ. وأصابَ المحَزَّ: عبارةٌ عن فِعلِ الأمرِ على ما يَنبَغي ويَليقُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ عَودٌ إلى سَوقِ دَلائلِ الوَحدانيَّةِ بدَلالةٍ عليها مِن أنفُسِ النَّاسِ، بعْدَ أنْ قدَّمَ لهمْ ما هو مِن دَلالةِ الآفاقِ بقولِه: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ [فاطر: ٩]، وابْتدَأَهم بتَذكيرِهم بأصلِ التَّكوينِ الأوَّلِ مِن تُرابٍ، وهو ما تَقرَّرَ عِلْمُه لَدى جَميعِ البَشرِ مِن أنَّ أصْلَهم -وهو البشرُ الأوَّلُ- خُلِقَ مِن طِينٍ؛ فصار ذلك حَقيقةً مُقرَّرةً في عِلمِ البشرِ. ثمَّ استَدْرَجَهم إلى التَّكوينِ الثَّاني بدَلالةِ خلْقِ النَّسلِ مِن نُطفةٍ، وذلك عِلمٌ مُستقِرٌّ في النُّفوسِ بمُشاهَدةِ الحاضرِ، وقياسِ الغائبِ على المُشاهَدِ، فكما يَجزِمُ المرْءُ بأنَّ نَسْلَه خُلِقَ مِن نُطفَتِه، يَجزِمُ بأنَّه خُلِقَ مِن نُطفةِ أبَوَيه، وهكذا يَصعَدُ إلى تَخلُّقِ أبناءِ آدَمَ وحوَّاءَ. وقولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يُشِيرُ إلى حالةٍ في التَّكوينِ الثَّاني، وهو شَرْطُه مِن الازدواجِ؛ فـ (ثُمَّ) عاطفةٌ الجُملةَ، فهي دالَّةٌ على التَّرتيبِ الرُّتبيِّ الَّذي هو أهمُّ في الغَرَضِ، أعني دَلالةَ التَّكوينِ على بَديعِ صُنْعِ الخالقِ سُبحانَه؛ فذلك مُوزَّعٌ على مَضمونِ قولِه: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾، والمعنى: ثمَّ مِن نُطفةٍ، وقد جَعَلَكم أزواجًا لِتَركيبِ تلك النُّطفةِ؛ فالاستِدلالُ بدِقَّةِ صُنْعِ النَّوعِ الإنسانيِّ مِن أعظَمِ الدَّلائلِ على وَحدانيَّةِ الصَّانعِ، وفيها غُنْيةٌ عن النَّظرِ في تأمُّلِ صُنعِ بقيَّةِ الحيوانِ(١).

- قولُه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لإيرادِ تَقريرٍ آخَرَ، أو دليلٍ آخَرَ على صِحَّةِ البَعثِ والنُّشورِ(٢).

- وقولُه: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أُدمِجَ في ذلك الاستِدلالِ دَليلُ التَّنبيهِ على إحاطةِ عِلمِ اللهِ بالكائناتِ الخفيَّةِ والظَّاهرةِ. ولِكَونِ العِلمِ بالخَفيَّاتِ أعلى قُدِّمَ ذِكرُ الحَملِ على ذِكرِ الوَضعِ، والمقصودُ مِن عَطفِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٥، ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٣٤).

الوَضعِ أنْ يُدفَعَ تَوهُّمُ وُقوفِ العِلمِ عندَ الخفيَّاتِ الَّتي هي مِن الغَيبِ دونَ الظَّواهرِ؛ بأنْ يَشتغِلَ عنها بتَدبيرِ خَفيَّاتِها، كما هو شأْنُ عُظماءِ العُلماءِ مِن الخلْقِ؛ لِظُهورِ استِحالةِ تَوجُّهِ إرادةِ الخلْقِ نحوَ مَجهولٍ عندَ مُريدِه(١).

- قولُه: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: وما يُعمَّرُ مِن أحدٍ، وإنَّما سمَّاهُ مُعمَّرًا بما هو صائرٌ إليه، وهذا مِن الكَلامِ المُتسامَحِ فيه؛ ثِقةً في تأْويلِه بأفهامِ السَّامعينَ، واتِّكالًا على تَسديدِهم مَعناهُ بعُقولِهم، وأنَّه لا يَلتبِسُ عليهم استِحالةُ الطُّولِ والقِصَرِ في عُمُرٍ واحدٍ(٢).

- وقد ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ في هذهِ الآيةِ الكريمةِ سائرَ أحوالِ الإنسانِ، وتَقلُّبَه في أطوارٍ مُختلِفةٍ ممَّا هو أُصولُها، ويُعرَفُ منه تَوابعُها ولَواحقُها على مَراتبَ ثلاثٍ كما هو عليه في الوُجودِ، وسُلِكَ فيه فنٌّ غريبٌ، وأُسلوبٌ عَجيبٌ؛ حيثُ أُخْرِجَ في جُمَلٍ ثلاثٍ على طَريقٍ يُنبِئُ عن صِفاتِ جَلالِه، وحُسنِ تَدْبيرِه مِنَ القُدرةِ الكاملةِ، والعِلمِ الشَّاملِ، وثُبوتِ القَضاءِ والقَدَرِ بحَسَبِ تلك المراتبِ؛ فبَدأَ أوَّلًا بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾؛ إظهارًا لِتَصَرُّفِهِ فيه في تلك الأطوارِ، وثَنَّى بقولِه: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾؛ بَيانًا لِلُطْفِ عِلْمِه ونُفوذِه فيما هو مِن أدَقِّ أحوالِ الإنسانِ مِن عُلْقةِ النُّطفةِ حينَ المُباشَرةِ، واستِقرارِها في مَكانةِ الرَّحِمِ، ثم ما تُكابِدُ الأُنثى مِن ثِقَلِ الحمْلِ ومُقاساةِ شِدَّتِه، وما يَجري عليها عندَ الوَضعِ مِن وجَعِ المَخاضِ، وما تَلَطَّفَ عليها مِن الخَلاصِ مِن تلك الوَرْطةِ المُهلِكةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٣، ٦٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٨).

وثَلَّث بقولِه: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ ...﴾ على إرادةِ: وما يُعَمَّرُ منكم أيُّها الناسُ مِن مُعَمَّرٍ ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾؛ إثباتًا لِقضائهِ وقَدَرِه، وأنَّ ما هو مِن خُوَيصَّةِ الإنسانِ الَّذي هو أعظمُ مَطالبِه ليس إليه، بل إلى اللهِ وإلى قَضائِه، وأنَّه مُثبَتٌ عندَه لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ عمَّا هو عليه؛ ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1] [الأعراف: ٣٤].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٢١، ٦٢٢).

الآيات (١٢-١٤)

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فُرَاتٌ﴾: أي: شَديدُ العُذوبةِ[١].

﴿سَآئِغٌ﴾: أي: سَهلٌ، وأصلُ (سوغ): يدُلُّ على سُهولةِ الشَّيءِ[٢].

﴿أُجَاجٌ﴾: أي: مُرٌّ، شَديدُ الملوحةِ، وأصلُ (أجج) هنا: يدُلُّ على شِدَّةِ المُلوحةِ[٣].

﴿حِلْيَةً﴾: أي: لُؤلؤًا ومَرجانًا، والحِلْيةُ: مَا يتحَلَّى به النَّاسُ، أيْ: يَتزيَّنونَ، وأصلُ (حلو) هنا: يدُلُّ على تَحسينِ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٢٤٥)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٥)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٥)، =

﴿مَوَاخِرَ﴾: أي: جواريَ تَشُقُّ الماءَ وتَخرِقُه مع صَوتٍ، وأصلُ (مخر): يدُلُّ على شَقٍّ وفَتْحٍ[١].

﴿يُولِجُ﴾: أي: يُدخِلُ، أو يأخُذُ منه فيَطولُ ذلك ويَقصُرُ هذا، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيءٍ[٢].

﴿وَسَخَّرَ﴾: أي: ذلَّل، والتَّسْخيرُ: سِياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قَهرًا، وأصلُ (سخر): يدلُّ على استذلالٍ[٣].

﴿قِطْمِيرٍ﴾: القِطميرُ: القِشرةُ أو اللِّفافةُ الرَّقيقةُ البَيضاءُ التي تكونُ على نَواةِ التَّمرةِ[٤].

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٩).

قيل: اللُّؤْلُؤُ: الدُّرُّ، والمَرجانُ: الخَرَزُ الأحمرُ. وقيل: المَرجانُ: صِغارُ الدُّرِّ، واللُّؤْلُؤُ: كِبارُه. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٦، ٣٤٧)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٣)، ((أساس البلاغة)) للزمخشري (٢/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٩)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٦).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالَى مبيِّنًا مَظاهرَ قُدرتِه وبديعَ صُنعِه: وما يَستوي البَحرانِ؛ فماءُ أحَدِهما حُلوُ المذاقِ، بالغُ العُذوبةِ، يُستَساغُ شُربُه، وماءُ الآخَرِ شَديدُ الملوحةِ، ومِن كُلٍّ بَحرٍ منهما تأكُلونَ لَحمًا طَريًّا، وتَستَخرِجونَ زينةً تَلبَسونَها كاللُّؤلؤِ والمَرجانِ، وترَى السُّفُنَ تَسيرُ في البَحرِ وهي تَشُقُّ الماءَ وتَدفَعُه؛ لِتَطلُبوا برُكوبِكم السُّفُنَ في البِحارِ مَعايشَكم ورِزقَ اللهِ لكم، ولعلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على ذلك.

ويَذكرُ أنواعًا أُخرى مِن مَظاهرِ قُدرتِه، فيقولُ: يُدخِلُ اللهُ اللَّيلَ في النَّهارِ فيَكونُ الضِّياءُ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ فيَكونُ الظَّلامُ، وسخَّر اللهُ لكم الشَّمسَ والقَمَرَ، فيَجريانِ في فَلَكِهما لِمَصالِحِكم إلى وَقتٍ مُحدَّدٍ مَعلومٍ عندَ اللهِ تعالَى.

ذلِكُم اللهُ ربُّكم له المُلكُ وَحدَه لا شَريكَ له. والذين تَعبُدونَهم -أيُّها المُشرِكونَ- مِن دونِ اللهِ لا يَملِكونَ أيَّ شَيءٍ، حتى القِشرةَ البَيضاءَ الرَّقيقةَ التي تكونُ على نواةِ التَّمرةِ.

إنْ تدْعوا هذه الآلهةَ المزعومةَ لا يَسمَعوا دُعاءَكم، ولو سَمِعوا دُعاءَكم ما استَجابوا لكم، ويومَ القِيامةِ يَكفُرونَ بإشراكِكم إيَّاهم في العِبادةِ مع اللهِ تعالَى، ولا يُنبِّئُك -يا محمَّدُ- مِثلُ اللهِ الخَبيرِ سُبحانَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ المرادَ ذِكرُ دَليلٍ آخَرَ على قُدرةِ اللهِ، وذلك مِن حيثُ إنَّ البحرينِ يَستويانِ

في الصُّورةِ، ويَختَلِفانِ في الماءِ؛ فإنَّ أحَدَهما عذْبٌ فُراتٌ، والآخَرَ مِلحٌ أُجاجٌ، ثمَّ إنَّهما بعدَ اختِلافِهما يُوجَدُ منهما أمورٌ مُتشابِهةٌ؛ فإنَّ اللَّحمَ الطَّريَّ يوجَدُ فيهما، والحِليةَ تُؤخَذُ منهما، ومَن يُوجِدُ في المتشابِهَينِ اختِلافًا، ومِن المختَلِفَينِ اشتِباهًا، لا يكونُ إلَّا قادِرًا مُختارًا[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه أحَدَ أصلَيهم: التُّرابَ المختَلِفَ الأصنافِ، ذكَرَ الأصلَ الآخَرَ: الماءَ الذي هو أشَدُّ امتزاجًا مِن الترابِ، ذاكِرًا اختلافَ صِنفَيه اللَّذينِ يتفرَّعانِ إلى أصنافٍ كثيرةٍ، مُنَبِّهًا على فِعلِه بالاختيارِ، ومُنكِرًا على مَن سَوَّى بَينَه سُبحانَه وبَينَ شَيءٍ، حتى أشرَكَه به مع المباعَدةِ التي لا شَيءَ بَعدَها[٢].

وأيضًا فإنَّه انتِقالٌ مِن الاستِدلالِ بالأحوالِ في الأجواءِ بينَ السَّماءِ والأرضِ على تفرُّدِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ، إلى الاستِدلالِ بما على الأرضِ مِن بِحارٍ وأنهارٍ، وما في صِفاتِها مِن دَلالةٍ زائدةٍ على دَلالةِ وُجودِ أعيانِها، على عَظيمِ مَخلوقاتِ الله تعالى[٣].

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

أي: وما يَتماثَلُ البَحرانِ اللَّذانِ خلَقَهما اللهُ مختَلِفَينِ بقُدرتِه وحِكمتِه؛ فماءُ أحَدِهما ذُو طَعمٍ طَيِّبٍ حُلوٍ، ومَذاقٍ لَذيذٍ بالغِ العُذوبةِ، يُستساغُ شُربُه، ويَسهُلُ ابتِلاعُه بلا صُعوبةٍ ولا كَراهةٍ، ومِياهُ الآخَرِ بخِلافِ ذلك؛ فهي شَديدةُ الملوحةِ والمرارةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣-٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٩، ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٠)، =

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

أي: ومِن كُلِّ بحرٍ منهما -عذْبًا كان أو مالِحًا- تأكُلونَ لَحمًا طَرِيًّا مِن أنواعِ السَّمَكِ وغَيرِه[1].

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾.

أي: وتَستَخرِجونَ مِن البَحرِ -مالِحًا كان أم عذبًا- زينةً كاللُّؤلؤِ والمَرجانِ تتحلَّونَ بلُبسِها[2].

كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾.

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٣).

قال البِقاعي: (المرادُ أنَّه مَيَّزهما سبحانَه بعد جمْعِهما في ظاهرِ الأرضِ وباطِنِها، ولم يَدَعْ أحدَهما يبغي على الآخَرِ، بل إذا حُفِرَ عل جانبِ البَحرِ الملحِ ظَهَر الماءُ عذبًا فُراتًا على مقدارِ صلاحِ الأرضِ وفَسادِها). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٦٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٤-١٠٥).

قال ابن عثيمين: (أكثرُ المفسرينَ على أنَّه لا يخرجُ إلَّا مِن المالحِ، وحمَلوا قولَه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] على أنَّ المرادَ مِن مجموعِهما لا مِن جميعِهما... لكنِ الصحيحُ أنَّه يخرجُ مِن الجميعِ؛ لأنَّ هذا هو ظاهرُ القرآنِ، والله سبحانه وتعالى أعلمُ بما خلَق... وقد ثبت الآنَ أنَّ اللؤلؤَ والمرجانَ يخرجُ مِن هذا ومِن هذا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٤- ١٠٥). ويُنظر: أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٩٣).

أي: وترَى[١] السُّفُنَ تَجري في البَحرِ، وهي تَشُقُّ الماءَ وتَدفَعُه بصُدورِها دونَ أن تَغرَقَ فيه[٢].

﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: لِتَطلُبوا بُركوبِكم السُّفُنَ في البِحارِ مَعايشَكم، وتتنقَّلوا بها لِتجاراتِكم، إلى غيرِ ذلِك[٣].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: ولَعلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على تَسخيرِه لكم ذلك[٤].

---

(١) قال ابن عثيمين: (الخِطابُ لكلِّ مَن يتوجَّهُ إليه الخِطابُ، والرؤيةُ هنا بصريَّةٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٥-١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

قال القرطبيُّ: (قال مجاهدٌ: التِّجارةُ في الفُلكِ إلى البُلدانِ البعيدةِ في مدةٍ قريبةٍ... وقيل: ما يُستخرَجُ مِن حِليتِه ويُصادُ مِن حِيتانِه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠).

ذكر ابنُ جرير أنَّ المعنى: لتشكروا اللهَ على تَسخيرِه ذلك لكم، وما رزقَكم منه من طيِّبات الرِّزق، وفاخِر الحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧).

وقيل: المرادُ: شُكرُه على تَسخيرِ الفُلكِ في البَحرِ. وممَّن اختاره: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٦-١٠٧).

وقال ابن كثير: (﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: تشكرون ربَّكم على تَسخيرِه لكم هذا الخَلْقَ العظيمَ، وهو البحر، تتصرَّفون فيه كيف شِئتم، وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيءٌ منه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠).

قيل: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللهَ على نِعمِه. وممَّن اختاره: الثعلبي، والبَغوي، والخازن، =

كما قال تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه استِدلالٌ آخَرُ باختِلافِ الأزمِنةِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه اختِلافَ الذَّواتِ الدَّالَّ على بَديعِ صُنعِه تعالى؛ أتْبَعَه تَغييرَه المعانيَ؛ آيةً على بَليغِ قُدرتِه[٢].

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾.

= والعليمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٩١)، (تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٤٥).

وقال الشوكاني: (﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللهَ على ما أنعمَ عليكم به مِن ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٣).

وقيل: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ما آتاكم مِن فضْلِه، وممَّن اختارَه القرطبيُّ والنَّسفيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٧).

أي: يُدخِلُ اللهُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ[١].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾.

أي: وذلَّل اللهُ لكم الشَّمسَ والقَمَرَ، فيَجريانِ في فَلَكِهما لمصالحِكم إلى وَقتٍ محدَّدٍ مَضروبٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١١٢-١١٣).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المعنى: يُدخِل اللَّيلَ في النهار، وذلك ما نقَص مِن اللَّيلِ أدْخَله في النَّهار فزادَه فيه، ويُولِج النَّهارَ في اللَّيلِ، وذلك ما نقَص من أجزاء النَّهارِ زادَ في أجزاء اللَّيل، فأدْخَله فيها: ابنُ جرير وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١١٢-١١٣).

وقالَ البِقاعي: (﴿ يُولِجُ ﴾، أي: يُدخِل على سَبيلِ الجَولانِ ﴿ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ فيَصير الظلامُ ضِياءً...﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ فيَصير ما كان ضِياءً ظلامًا، وتارةً يكون التوالجُ بقِصَرِ هذا وطُولِ هذا). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٧).

وقال السعديُّ: (يُدخِل هذا على هذا، وهذا على هذا، كلَّما أتَى أحدهما ذهَب الآخَرَ، ويَزيدُ أحدَهما ويَنقُص الآخَرَ، ويتساويانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

ممَّن اختارَ أنَّ المرادَ بالأجَلِ المُسمَّى هنا: يومُ القيامةِ: مقاتل بن سليمان، والسمرقندي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠).

قال السعديُّ: (فإذا جاء الأجَلُ، وقَرُب انقِضاءُ الدُّنيا، انقطع سيرُهما، وتعطَّل سُلطانُهما، وخسَفَ القَمَرُ، وكُوِّرَت الشَّمسُ، وانتَثَرت النُّجومُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

وقال أبو السعود: (قولُه تعالى ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ بيانٌ لكيفيَّةِ تسخيرِهما، أي: كلٌّ منهما يجري لمُنتهى دَورتِه أو منقطعِ حركتِه). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢).

وقيل: المرادُ: العُمومُ، فيَشمَلُ ذلك الأجَلَ اليوميَّ للمَغيبِ، فيَستمِرُّ ذلك كلَّ يومٍ حتى مجيءِ الأجَلِ الأعظَمِ، فيختَلُّ نظامُ الكونِ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٨). =

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾.

أي: ذلِكم العَظيمُ، الذي خلَقَ تلك المذكوراتِ وقام بتَسخيرِها: اللهُ خالِقُكم ورازِقُكم، ومدبِّرُ أُمورِكم، المستَحِقُّ للعِبادةِ وَحدَه، له المُلكُ التَّامُّ كُلُّه وَحدَه لا شَريكَ له[1].

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾.

أي: وأمَّا الذين تَعبُدونَهم -أيُّها المُشرِكونَ- مِن دُونِ اللهِ؛ فإنَّهم لا يَملِكونَ حتى القِشرةَ البَيضاءَ الرَّقيقةَ التي تكونُ على نواةِ التَّمرةِ[2].

= قال ابنُ عثيمين: (يمكِنُ أن نقولَ: يسيرانِ إلى أجَلٍ مُسمًّى حتى في الفَلَكِ، فمَثلًا الشَّمسُ تنزِلُ على مَدارِ الجَدْيِ في أيامِ الشِّتاءِ، ثمَّ تتنقِلُ شيئًا فشيئًا إلى أن تَصِلَ إلى مدارِ السَّرطانِ... فكلَّ يومٍ مُحدَّدٌ مكانُ الطُّلوعِ وزمانُ الطُّلوعِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٢٨).

وقال الواحديُّ في نظير هذه الآيةِ مِن سورة الرعد: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [الرعد: ٢]، قال: (قولُه: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: إلى وقتٍ معلومٍ، وهو فَناءُ الدنيا، وهذا معنى قولِ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عطاءٍ، قال: يريدُ أنَّ هذا كائنٌ إلى يوم القيامةِ. ورُوي عنه أنَّه قال: أراد بالأجَلِ المُسمَّى: انتهاؤُهما في السَّيرِ إلى درجاتِهما ومنازِلِهما، وهو قولُ الكلبيِّ؛ قال: للشَّمسِ منازِلُ معلومةٌ، كُلَّ يومٍ لها منزلٌ تنزِلُه حتى تنتهيَ إلى آخِرِ مَنازِلِها، فإذا انتهتْ إليه لم تجاوِزْه، ثم ترجِعُ؛ فهذا الأجَلُ المسمَّى، وللقَمَرِ كذلك). ((البسيط)) (١٢/ ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٨٢، ٧٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦، ٦٨٧).

قال القُرطبيُّ: (القِطميرُ: القِشرةُ الرَّقيقةُ البيضاءُ التي بينَ التَّمرةِ والنَّواةِ، قاله أكثَرُ المفسِّرين). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٣).

وقال أبو حيَّان بعدَ أنْ ذكَر الخِلافَ في معنى القِطميرِ: (وأيًّا ما كان، فهو تمثيلٌ للقليلِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢).

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه إذا انتفَى أنَّ الأصنامَ تَملِكُ شَيئًا، انتفَى عنها وَصْفُ الإلهيَّةِ بطَريقِ الأَولَى؛ فنَفَى ما كانوا يَزعُمونَه مِن أنَّها تَشفَعُ لهم[1].

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾.

أي: إنْ تدْعوا هؤلاء الآلهةَ المزعومةَ التي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ؛ لا يَسمَعوا دُعاءَكم[2].

﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾.

أي: وحتَّى لو سَمِعوا دُعاءَكم، فإنَّهم لا يَستَجيبونَ لكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

قال السعديُّ: (لا يَسمعوكم؛ لأنَّهم ما بينَ جمادٍ وأمواتٍ، وملائكةٍ مَشغولينَ بطاعةِ ربِّهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

ذكر ابنُ عثيمين أن قولَه تعالى: ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾ يَشمَلَ الاستجابةَ بالقَولِ بأنْ تقولَ هذه الأصنامُ: ماذا تريدونَ؟ والاستجابةَ بالفِعلِ، وهي إيصالُ المطلوبِ إلى هؤلاءِ الطَّالبين؛ فهي لا تستجيبُ لا لهذا ولا لهذا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٢٦)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩).

وقال القرطبيُّ: (وقيل: أيْ: لو جعَلْنا لهم عُقولًا وحياةً فسَمِعوا دُعاءَكم، لكانوا أطوعَ لله منكم، ولَما استجابوا لكم على الكُفرِ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦).

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

مناسبتُها لِمَا قبلَها:

لَمَّا كُشِفَ حالُ الأصْنام في الدُّنيا بما فيه تَأْييسٌ من انتفاعِهم بها فيها؛ كُمِّلَ كَشْفُ أمْرِها في الآخِرةِ بأنَّ تلك الأصْنامَ يُنطِقُها اللهُ، فتَتبرَّأَ من شِركِهم[(١)].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

أي: ويَومَ القِيامةِ يَكفُرونَ بما وَقعتُم فيه مِن اتِّخاذِهم شُرَكاءَ للهِ تدعونَهم مِن دُونِه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

أي: ولا أحدَ يُنبِّئُك[(٣)] -يا محمَّدُ- مِثلَ ما يُنبِّئُك اللهُ الذي يَعلَمُ بواطِنَ الأمورِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

(٣) قيل: المرادُ تحقيقُ ما أخبَر به مِن حالِ آلهتِهم، ونفيُ ما يدَّعُون لهم من الإلهيةِ. ممَّن ذكر هذا المعنى: الزمخشري، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنَّسَفي، وابن جُزي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٨٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٦٣). =

وحقائِقَها، فلا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يَفعلَ الأسبابَ

= قال ابنُ جَرير: (يقول تعالى ذِكرُه: ولا يُخبِرُك -يا محمدُ- عن آلهة هؤلاء المشركين وما يكونُ مِن أمْرِها وأمْرِ عَبَدتِها يومَ القيامةِ، مِن تَبرُّئِها منهم، وكُفرها بهم، مثل ذِي خِبرة بأمْرها وأمْرهم؛ وذلك الخبيرُ هو اللهُ الذي لا يخفَى عليه شيءٌ -كان أو يكون- سُبحانَه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥١).

وقال ابنُ كثير: (وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، أي: ولا يُخبِرُك بعواقبِ الأمورِ ومآلها وما تصيرُ إليه، مِثلُ خبيرٍ بها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١).

وقال جلال الدِّين المَحليُّ: (﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ بأحوالِ الدَّارين ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٣).

وقال البِقاعيُّ: (﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾، أي: إنباءً بليغًا عظيمًا على هذا الوَجهِ بشيءٍ مِن الأشياءِ ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، أي: بالِغِ الخبر، فلا يُمكن الطعنُ في شيءٍ ممَّا أخبر به، وأمَّا غيره فلا يُخبر خبرًا إلَّا يُوجَّه إليه نقْصٌ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

قال الكَرمانيُّ: (أجمَع المفسِّرون على أنَّ ﴿خَبِيرٍ﴾ في الآيةِ: هو اللهُ عزَّ وجلَّ). ((غرائب التفسير)) (٢/ ٩٤٨).

ممن اختار أنَّ الخِطابَ هنا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والواحدي، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٩).

وقيل: الخِطابُ هنا لكُلِّ مَن يصِحُّ منه سَماعُ هذا الكلامِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الشربيني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٤).

قال ابن عاشور: (لأنَّ هذه الجُملةَ أُرسِلَت مُرسَلَ الأمثالِ؛ فلا يَنبغي تَخصيصُ مَضمونِها بمخاطَبٍ مُعيَّنٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٤).

التي يُتَوَصَّلُ بها إلى المقصودِ، لا أنْ يبقَى في بيتِه مُنتظرًا رِزقَه، ويقولَ: إنَّه مُتوكِّلٌ على اللهِ! ففَرْقٌ بيْنَ التواكُلِ والتوكُّلِ؛ فالنَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ كان يَفْعَلُ الأسبابَ الجالبةَ للخيرِ؛ الدافعةَ للشَّرِّ، وهو سَيِّدُ المتوكِّلينَ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وجوبُ شُكرِ نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ فإنَّ اللهَ جَعَل هذه النِّعَمَ وسَخَّرها تَسخيرًا لنا؛ لنقومَ بشُكرِه سُبحانَه وتعالى، والشُّكرُ موضعُه: اللسانُ، والقلبُ، والجوارحُ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ هذا إخْبارٌ عن قُدرتِه وحِكمتِه ورَحمتِه: أنَّه جعَل البَحرينِ لمصالحِ العالَمِ الأرضيِّ كُلِّهم، وأنَّه لم يُسَوِّ بينَهما؛ لأنَّ المصلحةَ تَقتضي أنْ تكونَ الأنهارُ عَذبةً فُراتًا، سائِغًا شَرابُها؛ لِيَنتفعَ بها الشَّاربونَ والغارِسونَ والزَّارِعونَ، وأنْ يكونَ البَحرُ مِلحًا أُجاجًا؛ لِئلَّا يَفسُدَ الهواءُ المحيطُ بالأرضِ برَوائحِ ما يموتُ في البَحرِ مِن الحيواناتِ، ولأنَّه ساكِنٌ لا يَجري، فمُلوحتُه تمنَعُه مِن التغَيُّرِ، ولِتكونَ حيواناتُه أحسَنَ وألَذَّ(٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ تَسميةُ اللهِ تعالى الماءَ العَذْبَ بَحْرًا(٤).

٣- قال تعالَى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وصَفَه بالطراوةِ؛ للإشعارِ بلَطافتِه والتَّنبيهِ على المسارعةِ إلى أكْلِه؛ لئلَّا يَتسارَعَ إليه الفَسادُ كما يُنبئُ عنه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

(٤) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيِّم (ص: ٦٤).

جعْلُ كُلٍّ مِن البَحرينِ مَبدأَ أكْلِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أنَّ الغوصَ في استخراجِ حِلْيَةِ البَحرِ مُباحٌ؛ ولا يكونُ تَعَرُّضًا للهَلَكةِ ومخاطرةً بالرُّوحِ! وذلك لِمَن يُحْسِنُ العَوْمَ والغَوْصَ[٢].

٥- في قولِه: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ دَلالةُ إباحةِ التِّجارةِ، وطلَبِ الفَضلِ برُكوبِ الأخطارِ واحتمالِ الشَّدائدِ، حيثُ أخبر أنَّه سخَّرَ البحرَ؛ حتَّى أمكنَهم ركوبُه بالحِيَلِ والأسبابِ التي علَّمَها لهم؛ لأنَّ الغوَّاصَ يُخاطِرُ برُوحِه ونفْسِه، وكذلك راكبُ السَّفينةِ[٣].

٦- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ ظاهِرُ قَولِه: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ أنَّه يجوزُ للرِّجالِ أن يَلبَسوا اللُّؤلؤَ والمَرجانَ، أي: يَجعلونَه حِليةً لهم كما يجوزُ للنِّساءِ، ولا حاجةَ لِما تكلَّفه جماعةٌ مِن المفسِّرينَ في تأويلِ قَولِه: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ بقَولِه: تَلبَسُه نِساؤُهم؛ لأنَّهنَّ مِن جُملتِهم، أو لِكَونِهنَّ يَلبَسنَها لأجلِهم، وليس في الشَّريعةِ المطَهَّرةِ ما يَقتضي منْعَ الرِّجالِ مِن التحَلِّي باللُّؤلؤِ والمَرجانِ، ما لم يَستعمِلْه على صِفةٍ لا يَستَعمِلُه عليها إلَّا النِّساءُ خاصَّةً؛ فإنَّ ذلك ممنوعٌ مِن جِهةِ كَونِه تشَبُّهًا بهنَّ -وقد ورد الشَّرعُ بمَنعِه- لا مِن جهةِ كَونِه حِليةَ لؤلؤٍ أو مَرجانٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢٢/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٦/ ٤٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٤).

وجوازُ التحلِّي بالجواهِرِ والأحجارِ الكريمةِ للرجالِ هو مذهبُ الجُمهورِ، مِن المالِكيَّة، والشَّافعيَّة -على الأظهَرِ عِندَهم-، والحَنابلة، وبه قال ابنُ حَزم. يُنظر: ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (١/ ١٨٥)، ((الشرح الكبير)) للدردير (١/ ٦٤)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ١٠)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (١/ ٣٠)، ((الإقناع)) للحجاوي (١/ ٢٧٥)، ((مطالب =

٧- قولُه تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ هذا استِدْلالٌ سَنَدُه المُشاهَدةُ؛ فطالَما دَعَوُا الأصْنامَ، فلم يَسمَعوا منها جَوابًا، وطالَما دَعَوْها، فلم يَحصُلْ ما دَعَوْها لتَحْصيلِه، معَ أنَّها حاضِرةٌ بمَرأًى منهم غيرُ مَحْجوبةٍ، فعَدَمُ إجابَتِها دَليلٌ على أنَّها لا تَسمَعُ؛ لأنَّ شأنَ العَظيم أنْ يَستَجيبَ لأوْليائِه الذين يَسعَونَ في مَرْضاتِه، فقد لَزِمهم إمَّا عَجزُها، وإمَّا أنَّها لا تَفقَهُ، وهذا من أبْدعِ الاستِدْلالِ المُوطَّأِ بمُقدِّمةٍ مُتَّفَقٍ عليها[1].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ أنَّ مَن تَعلَّقَ بغيرِ اللهِ خابَ أمَلُه؛ لأنَّ هذه الأصنامَ لا تنفعُهم في الدُّنيا، ولا تَنفعُهم يومَ القِيامةِ، إذنْ خابَ أملُهم؛ هم يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ولكنْ ما قرَّبوهم! بل هذه ما زادتْهم إلَّا بُعْدًا، فأَمَلُهم قد خابَ -والعياذُ باللهِ-، وخسِروا الدُّنيا والآخِرةَ[2].

٩- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ نوعُ هذا الكُفرِ هو التبَرُّؤُ؛ فيُستفادُ منه: أنَّ هذه الأصنامَ المعبودةَ تتبرَّأُ مِن عابِديها يومَ القِيامةِ، بل إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَجمَعُ الأصنامَ وعابِديها، ويُلقِيهم في جهنَّمَ ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۞ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩]، ولكِنَّها ليستْ آلِهةً، فلا تَنفَعُ[3].

= أولي النهى)) للرحيباني (٢/ ٩٤)، ((المحلى)) لابن حزم (٩/ ٢٤٦).

وحُكي الاتفاق على أنَّ التخَتُّمَ للرِّجال بجَميعِ الأحجار مُباحٌ، من الياقوت وغيرِه. يُنظر: ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ١٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٠- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ...﴾ تضمَّنت هذه الآياتُ الأدلَّةَ والبراهينَ السَّاطِعةَ الدَّالَّةَ على أنَّه تعالى المألوهُ المعبودُ، الذي لا يَستَحِقُّ شَيئًا مِن العبادةِ سِواه، وأنَّ عبادةَ ما سِواه باطِلةٌ مُتعلِّقةٌ بباطلٍ، لا تفيدُ عابِدَه شَيئًا[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ صِيغَ هذا الاستِدلالُ على أُسلوبٍ بَديعٍ؛ إذ اقتُصِرَ فيه على التَّنبيهِ على الحِكمةِ الرَّبَّانيَّةِ في المَخلوقاتِ، وهي ناموسُ تَمايُزِها بخَصائصَ مُختلِفةٍ، واتِّحادِ أنواعِها في خَصائصَ مُتماثِلةٍ؛ استدلالًا على دَقيقِ صُنْعِ اللهِ تعالى، ويَتضمَّنُ ذلك الاستدلالَ بخَلْقِ البَحرينِ أنفُسِهما؛ لأنَّ ذِكرَ اختلافِ مَذاقِهما يَستلزِمُ تَذكُّرَ تَكوينِهما؛ فالتَّقديرُ: وخلَقَ البَحرينِ العذْبَ والأُجاجَ على صُورةٍ واحدةٍ، وخالَفَ بيْنَ أعراضِهما؛ ففي الكلامِ إيجازُ حَذْفٍ، وإنَّما قُدِّمَ مِن هذا الكلامِ تَفاوُتُ البَحرينِ في المذاقِ، واقتُصِرَ عليه؛ لأنَّه المقصودُ مِن الاستِدلالِ بأفانينِ الدَّلائلِ على دَقيقِ صُنْعِ اللهِ تعالى[2].

- وقولُه: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ إمَّا استِطْرادٌ في صِفةِ البَحْرينِ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٩).

وما فيهما مِن النِّعمِ والمَنافِعِ. وإمَّا تَكمِلةٌ للتَّمْثيلِ، أي: كما أنَّهما -وإنِ اشتَرَكا في بَعضِ الفَوائِدِ- لا يَتَساوَيانِ من حيثُ إنَّهما مُتَفاوِتانِ فيما هو المَقْصودُ بالذَّاتِ مِنَ الماءِ لَمَّا خالَطَ أحَدَهما ما أفسَدَه وغيَّرَه عن كَمالِ فِطْرتِه؛ لا يُساوي الكافِرُ المُؤمِنَ، وإنْ شارَكَه في بَعضِ الصِّفاتِ كالشَّجاعةِ والسَّخاوةِ ونحوِهما؛ لِتبايُنِهما فيما هو الخاصيَّةُ العُظْمَى؛ لِبَقاءِ أحَدِهما على فِطْرتِه الأصليَّةِ، وحِيازتِه لكَمالِه اللَّائقِ دونَ الآخَرِ. أو تَفْضيلٌ للأُجاجِ على الكافِرِ من حيثُ إنَّه يُشارِكُ العَذْبَ في مَنافِعَ كثيرةٍ، والكافِرُ خِلْوٌ من المَنافِعِ بالكُلِّيةِ[1].

- وإفرادُ ضَميرِ الخِطابِ في قَولِه: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ مع جَمعِه فيما سَبَقَ وما لَحِقَ؛ لأنَّ الخِطابَ لكُلِّ أحَدٍ تَتأتَّى منه الرُّؤيةُ دونَ المُنتَفِعينَ بالبَحْرينِ فَقَطْ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ الظَّرْفُ هنا في قَولِه: ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ على عَكسِ آيةِ سورةِ (النَّحْلِ): ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل: ١٤]؛ لأنَّ هذه الآيةَ مَسوقةٌ مَساقَ الاستِدْلالِ على دَقيقِ صُنعِ اللهِ تَعالَى في المَخْلوقاتِ، وأدمَجَ فيه الامتِنانَ بقَولِه: ﴿تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ وقَولِه: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ فكانَ المَقصِدُ الأوَّلُ من سِياقِها الاستِدْلالَ على عَظيمِ الصُّنعِ؛ فهو الأهمُّ هنا. ولَمَّا كانَ طَفْوُ الفُلكِ على الماءِ -حتى لا يَغرَقَ فيه- أظهَرَ في الاستِدْلالِ على عَظيمِ الصُّنعِ مِنَ الذي ذُكِرَ من النِّعْمةِ والامتِنانِ؛ قُدِّمَ ما يدُلُّ عليه، وهو الظَّرفيَّةُ في البَحرِ. والمَخْرُ في البَحرِ آيةُ صُنعِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٤- ٦٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٧).

أيضًا بخَلقِ وَسائِلِ ذلك، والإلْهام له، إلَّا أنَّ خُطورَ السَّفَرِ من ذلك الوَصفِ أو ما يتبادَرُ إلى الفَهمِ؛ فأُخِّرَ هُنا لأنَّه من مُسْتتبَعاتِ الغَرَضِ لا من مَقصِدِه، فهو يَستتبِعُ نِعْمةَ تَيسيرِ الأسْفارِ لقَطعِ المَسافاتِ التي لو قُطِعتْ بسَيرِ القَوافِلِ؛ لطالتْ مُدَّةُ الأسْفارِ. وبهذا يتَّضحُ الفَرقُ بيْنَ هذه الآيةِ وآيةِ سُورةِ (النَّحْلِ) في كَونِ فِعلِ (لِتَبتَغُوا) غيرَ مَعطوفٍ بالواوِ هنا، ومَعطوفًا نظيرُه في آيةِ (النَّحْلِ)؛ لأنَّ الابتغاءَ عُلِّقَ هنا بـ ﴿مَوَاخِرَ﴾؛ إيقافًا على الغَرَضِ من تَقديمِ الظَّرْفِ، وفي آيةِ (النَّحْلِ) ذُكِرَ المَخْرُ في عِدادِ الامتِنانِ؛ لأنَّه به تَيسيرُ الأسْفارِ، ثم فُصِلَ بيْنَ مَوَاخِرَ وعِلَّتِه بظَرفِ (فيه)؛ فصارَ ما يُؤمِئُ إليه الظَّرْفُ فَصْلًا بغَرَضٍ أُدمِجَ إدْماجًا، وهو الاستِدْلالُ على عَظيمِ الصُّنعِ بطَفوِ الفُلكِ على الماءِ. فلمَّا أُريدَ الانتِقالُ منه إلى غَرَضٍ آخَرَ -وهو العَودُ إلى الامتِنانِ بالمَخْرِ لنِعْمةِ التِّجارةِ في البَحرِ- عُطِفَ المُغايِرُ في الغَرَضِ[(١)].

- قولُه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فيه التعبيرُ بحَرْفِ التَّرجِّي (لعلَّ)؛ للإيذانِ بكَونِه مَرْضيًّا عندَ اللهِ تَعالَى[(٢)].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ استِدْلالٌ بما في مَظاهِرِ السَّمَواتِ من الدَّلائِلِ على بَديعِ صُنعِ اللهِ في أعظَمِ المَخْلوقاتِ؛ لِيتذكَّرَ الكُفَّارُ والنَّاسُ بذلك أنَّه الإلهُ الواحِدُ، وفي الآيةِ إدْماجٌ[(٣)] للتَّذكيرِ في خِلالِ الاستِدْلالِ؛ ففي هذه الآيةِ ذكَّرَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٠-٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٧).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٣٤٥).

بأنَّ لأعْمارِهم نِهايةً؛ تَذْكيرًا مُرادًا به الإنْذارُ والوَعيدُ، واقتِلاعُ الطُّغْيانِ والكِبْرياءِ من نُفوسِهم[(١)].

- قَولُه: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ ﴾ لَمَّا كان هذا الفِعلُ في غايةِ الإعجابِ، وكان لكَثرةِ تَكرارِه قد صار مألوفًا؛ فغُفِلَ عمَّا فيه مِن الدَّلالةِ على تَمامِ القُدرةِ- نبَّه عليه بإعادةِ الفِعلِ، فقال: ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾[(٢)].

- قولُهُ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾ عَطفٌ على ﴿ يُولِجُ ﴾، واختِلافُهما صِيغةً؛ لأنَّ إيلاجَ أحَدِ المَلَوينِ -اللَّيلِ والنَّهارِ- في الآخَرِ مُتجدِّدٌ حِينًا فحِينًا، وأمَّا تَسخيرُ النَّيِّرَينِ -الشَّمْسِ والقَمَرِ- فأمْرٌ لا تَعدُّدَ فيه، وإنَّما المُتعدِّدُ والمُتجدِّدُ آثارُه، وقد أُشيرَ إليهِ بقَولِه تَعالَى: ﴿كُلٌّ يَجۡرِي ...﴾[(٣)].

- وفيه مُناسَبَةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ نَظيرُ هذه الآيةِ في سورةِ (لُقْمانَ) في قوله: ﴿ كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ [لقمان: ٢٩]، سِوى أنَّ هذه الآيةَ جاء فيها ﴿ كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ ﴾؛ فعُدِّيَ فِعلُ يَجْري باللَّام، وجِيءَ في آيةِ سورةِ (لُقْمانَ) تَعدِيةُ فِعلِ يَجْري بحَرفِ (إلى) وليسَ ذلك مِن تعاقُبِ الحَرفَينِ -أي: ليس كُلُّ واحِدٍ مِنهما مَكانَ صاحبِه مِنْ غيرِ تَفرقةٍ-؛ لأنَّ بيْنهما بَونًا بعيدًا مِن حيثُ الوضْعُ؛ لأنَّ أحدَهما (إلى) للانتِهاءِ، والآخَر (اللام) للاختِصاصِ، وكلُّ واحِدٍ منهما مُلائمٌ لصحَّةِ الغَرضِ في مَوضعِهِ الخاصِّ؛ فقَولُ: ﴿يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ ﴾ مَعْناه: يَبلُغُه، وقَولُ: ﴿يَجۡرِي لِأَجَلٖ ﴾ يُرادُ به لإدْراكِ أجَلٍ، أي: ويَجْري لأَجْلِ أَجَلٍ، أي: لِبُلوغِه واستيفائِه. ويُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّ الغرَضَ من المعنَيَينِ الغايةُ؛ فمآلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨١ - ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٧).

المَعْنَيين واحِدٌ، وإنْ كان طَريقُه مُختلِفًا. وقيلَ: اللَّامُ تكونُ بمَعْنى (إلى) في الدَّلالةِ على الانتِهاءِ؛ فالمُخالَفةُ بيْنَ الآيتَينِ تفنُّنٌ في النَّظمِ[1].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ استِئْنافٌ واقعٌ مَوقِعَ النَّتيجةِ من الأدِلَّةِ بعدَ تَفْصيلِها، واسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مُوجَّهٌ إلى مَن جَرَتْ عليه الصِّفاتُ والأخْبارُ السَّابِقةُ من قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩] الآياتِ. وفيها إشْعارٌ بأنَّ فاعِليَّتَه لها مُوجِبةٌ لثُبوتِ الأخْبارِ المُترادِفةِ؛ فكان اسْمُه حَريًّا بالإشارةِ إليه بعدَ إجْراءِ تلك الصِّفاتِ؛ إذ بذِكْرِها يَتميَّزُ عِندَ السَّامِعينَ أكْمَلَ تَمْييزٍ حتى كأنَّه مُشاهَدٌ لأبْصارِهم، مع ما في اسْمِ الإشارةِ مِنَ البُعدِ المُستَعمَلِ كِنايةً عن تَعْظيمِ المُشارِ إليه. ومع ما يَقْتضيه إيرادُ اسمِ الإشارةِ عقِبَ أوْصافٍ كَثيرةٍ مِن التَّنبيهِ على أنَّه حَقيقٌ بما سيَرِدُ بعدَ الإشارةِ مِن أجْلِ تلك الصِّفاتِ، فأخبَرَ عنه بأنَّه صاحِبُ الاسمِ المُخْتصِّ به الذي لا يَجهَلونَه، وأخبَرَ عنه بأنَّه ربُّ الخَلائِقِ بعْدَ أنْ سُجِّلَ عليهم ما لا قِبَلَ لهم بإنْكارِه، مِن أنَّه الذي خلَقَهُم خَلْقًا مِن بعْدِ خَلقٍ، ممَّا يدُلُّ على أنَّه لا يُعجِزُه شَيءٌ؛ فهو الرَّبُّ دونَ غيرِه، وهو الذي المُلكُ والسُّلْطانُ له لا لِغَيرِه؛ أفادَ ذلك كُلَّه قولُه تَعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾؛ فانتهَضَ الدَّليلُ[2].

- قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ تَصريحٌ بأنَّ الأصْنامَ لا يَملِكونَ من المُلكِ شيئًا، ولو حَقيرًا، وهو المُمثَّلُ بالقِطْميرِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٢).

فالمَعْنى: لا يَملِكونَ شَيئًا، ولو حَقيرًا؛ فكَونُهُم لا يَملِكونَ أعظَمَ من القِطْميرِ مَعْلومٌ بفَحْوى الخِطابِ[(١)]، فإذا انْتَفَى أنَّها تَملِكُ شَيئًا، انْتَفَى عنها وَصفُ الإلهيَّةِ بطَريقِ الأَوْلى؛ فنَفى ما كانوا يَزعُمونَه من أنَّها تَشفَعُ لهم، معَ ما في ذلك من الدَّلالةِ على تَفرُّدِ اللهِ سُبْحانَه بالأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ[(٢)].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡۖ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾

- قولُهُ: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ استِئْنافٌ مُقرِّرٌ لمَضْمونِ ما قَبلَه، كاشِفٌ عن جَليَّةِ حالِ ما يَدْعونَه، أو خَبَرٌ ثانٍ عن (الَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِه)، والمَقصِدُ منه تَنبيهُ المُشرِكينَ إلى عَجزِ أصْنامِهم؛ بأنَّها لا تَسمَعُ، وليس ذلك استِدْلالًا؛ فإنَّهم كانوا يَزعُمونَ أنَّ الأصْنامَ تَسمَعُ منهم؛ فلذَلِكَ كانوا يُكلِّمونَها، ويُوجِّهونَ إليها مَحامِدَهم ومَدائِحَهم، ولكنَّه تَمهيدٌ للجُمْلةِ المَعْطوفةِ على الخَبَرِ، وهي جُمْلةُ: ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾[(٣)].

- وأُجرِيَ على الأصْنامِ مَوصولُ العاقِلِ، وضَمائرُ العُقَلاءِ في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ [فاطر: ١٣] إلى قَولِه: ﴿يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ على تَنْزيلِ الأصْنامِ

---

(١) فحْوى الخِطاب: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَوْلَى، وهو نوعان: تَنبيهٌ بالأقلِّ على الأكثرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نبَّه بالنهي عن قولِ أفٍّ على النهيِ عن الشَّتمِ والضربِ وغيرِ ذلك. وتنبيهٌ بالأكثرِ على الأقلِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٣).

مَنزِلةَ العُقَلاءِ؛ مُجاراةً للمَرْدودِ عليهم على طَريقةِ التَّهكُّمِ[١].

- وقولُه: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ تَذْييلٌ لِتَحقيقِ هذه الأخْبارِ بأنَّ المُخبِرَ بها هو الخَبيرُ بها وبغَيرِها، ولا يُخبِرُكَ أحَدٌ مِثلَ ما يُخبِرُكَ هو[٢].

- وعبَّرَ بفِعلِ الإنْباءِ؛ لأنَّ النَّبأَ هو الخَبَرُ عن حَدَثٍ خَطيرٍ مُهِمٍّ[٣].

- قَولُه: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ لَمَّا كان التَّقْديرُ: قدْ أنْبَأَكم بذلك الخَبيرُ، وكانوا لا يُقِرُّونَ بذلك، ولا يَفهَمونَه حَقَّ فَهمِه، ولا يَعمَلونَ به؛ صُرِفَ الخِطابُ عنهم إلى مَن له الفَهمُ التَّامُّ، والطاعةُ الكامِلةُ، فقال عاطِفًا على هذا الذي هَدَى إلى تَقْديرِه السِّياقُ: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ ...﴾[٤]، وهذا على القَولِ بأنَّ الخِطابَ فيه للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

وقيل: إنَّ الخِطابَ فيه لكُلِّ مَن يَصِحُّ منه سَماعُ هذا الكَلامِ؛ لأنَّ هذه الجُمْلةَ أُرسِلَت مُرسَلَ الأمْثالِ، فلمَّا أُرسِلَ هذا القَولُ مَثَلًا، وكان شَأنُ الأمْثالِ أنْ تكونَ مُوجَزةً صِيغَ على أُسلوبِ الإيجازِ؛ فحُذِفَ مُتعلَّقُ فِعلِ ﴿يُنَبِّئُكَ﴾ ومُتعلَّقُ وَصْفِ ﴿خَبِيرٍ﴾، ولم يُذكَرْ وَجهُ المُماثَلةِ؛ لِعِلْمِه من المَقامِ[٥].

- وجُعِلَ ﴿خَبِيرٍ﴾ نَكِرةً مع أنَّ المُرادَ به خَبيرٌ مُعَيَّنٌ، وهو المُتكلِّمُ فكان حقُّهُ التَّعريفَ؛ فعُدِلَ إلى تَنْكيرِهِ لقَصدِ التَّعْميمِ في سِياقِ النَّفيِ؛ لأنَّ إضافةَ كَلِمةِ (مِثْلُ) إلى (خَبيرٌ) لا تُفيدُه تَعريفًا. وجُعِلَ نَفيُ فِعلِ الإنْباءِ كِنايةً عن نَفيِ المُنبِئِ. ولعلَّ التَّركيبَ: (ولا يُوجَدُ أحَدٌ يُنبِّئُكَ بهذا الخَبَرِ يُماثِلُ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٤).

الخَبيرَ الذي أنْبَأَكَ به)، فإذا أردَفَ مُخبِرٌ خَبَرَه بهذا المَثَلِ كان ذلك كِنايةً عن كَونِ المُخْبِرِ بالخَبَرِ المَخْصوصِ يُريدُ بـ (خَبيرٌ) نفسَه للتَّلازُمِ بيْنَ مَعْنى هذا المَثَلِ وبيْنَ تَمثُّلِ المُتكلِّمِ منه؛ فالمَعْنى: ولا يُنبِّئُكَ بهذا الخَبَرِ مِثْلي؛ لأنِّي خَبَرتُه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٤).

الآيات (١٥-١٨)

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ١٧ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾: أي: لا تحمِلُ آثِمةٌ إِثْمَ أُخرى غيرِها، والوِزْرُ هو الإثمُ والذَّنْبُ، والثِّقْلُ والحِمْلُ أيضًا. وقيل: الوِزْرُ: هو الحِمْلُ الثَّقيلُ مِن الإثمِ، وهو الإثمُ العَظيمُ، وأصلُ (وزر): يدلُّ على مَا حمَلَه الإنسانُ، وعلى الثِّقلِ في الشَّيء؛ ومنه سُمِّي الإثمُ وزرًا؛ لأنَّه يُثقِلُ ظهرَ مَن يَحمِلُه[1].

﴿ مُثۡقَلَةٌ ﴾: أي: نفسٌ أثْقَلَتْها الذُّنوبُ والأوزارُ، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّةِ[2].

﴿ تُنذِرُ ﴾: أي: تُعلِمُ بما تُحذِّرُ منه، وأصلُ الإنْذارِ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، أو الإبْلاغُ[3].

﴿ يَخۡشَوۡنَ ﴾: أي: يَخافونَ، وأصلُ الخَشْيَةِ: خوفٌ يَشوبُه تعظيمٌ، وأكثرَ ما

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٧/ ٣٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٣)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٨٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٦٨)، ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

يكونُ ذلِك عنْ عِلمٍ بما يُخشَى منه. وقيل: الخَشيةُ أَشدُّ مِن الخَوْفِ[١].

﴿تَزَكَّىٰ﴾: أي: تَطهَّرَ مِن الشِّركِ والفَواحِشِ، وأصْلُ (زكي): يدُلُّ على نَماءٍ وزِيادةٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالَى عِبادَه مُنبِّهًا على فَقرِهم إليه، وغِناه عنهم، فيقولُ: يا أيُّها النَّاسُ أنتم الفُقَراءُ إلى اللهِ، واللهُ وَحْدَه هو الغَنيُّ المحمودُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، إنْ شاءَ اللهُ أهلَككم -أيُّها النَّاسُ- وأتَى بخَلقٍ غَيرِكم، وليس ذلك على اللهِ بمُمتَنِعٍ؛ لكَمالِ قُدرتِه تعالَى.

ثُمَّ يقولُ تعالَى: ولا تَحمِلُ نَفسٌ آثمةٌ إثْمَ نَفْسٍ أُخرى؛ فكلُّ إنسانٍ مُجازًى بعَمَلِه، وإنْ تَدْعُ يومَ القِيامةِ نَفسٌ مُثقَلةٌ بالذُّنوبِ مَن يَحمِلُ عنها ذُنوبَها، لا تُجَبْ، ولا يَحمِلْ أحدٌ عنها شَيئًا منه، ولو كان المَسؤولُ قَريبًا للسَّائِلِ!

ثُمَّ يقولُ تعالَى: إنَّما تُنذِرُ -يا مُحمَّدُ- الذين يَخشَونَ رَبَّهم بالغَيبِ، وأدَّوُا الصَّلواتِ تامَّةً كما أمَرَ اللهُ تعالى؛ فهؤلاء هم الذين يَنتَفِعونَ بالإنذارِ دُونَ غَيرِهم.

ثُمَّ يَحُضُّ سُبحانَه على تَزكيةِ النُّفوسِ وتَطهيرِها، فيقولُ: ومَن تزكَّى فإنَّما يَعودُ نَفْعُ ذلك عليه، وإلى اللهِ وَحْدَه المرجِعُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٠)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أَشبَعَ المقامَ أدِلَّةً ومَواعِظَ وتذكيراتٍ ممَّا فيه مَقنَعٌ لِمن نَصَب نفْسَه مَنصِبَ الانتِفاعِ والاقتِناعِ، ولم يظهَرْ معَ ذلك كُلِّه مِن أحوالِ القَومِ ما يُتوسَّمُ منه نزعُهم عن ضلالِهم، وربَّما أحدَث ذلك في نُفوسِ أهْلِ العِزَّةِ منهم إعجابًا بأنفُسِهم، واغترارًا بأنَّهم مَرغوبٌ في انضمامِهم إلى جَماعةِ المُسلِمينَ؛ فيَزيدُهم ذلك الغُرورُ قَبولًا لتَسويلِ مكائدِ الشَّيطانِ لهم أنْ يَعتَصِموا بشِركِهم- ناسَب أن يُنبِّئَهم اللهُ بأنَّه غنيٌّ عنهم[١].

وأيضًا لَمَّا اختَصَّ الله سُبحانَه بالمُلكِ، ونفَى عن شُرَكائِهم النَّفعَ؛ أنتَجَ ذلك قَولَه[٢]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ[٣] أنتُم المحتاجُونَ إلى اللهِ في كُلِّ شَيءٍ، واللهُ وَحدَه هو الغَنيُّ غِنًى مُطلَقًا مِن جَميعِ الوُجوهِ عن جَميعِ خَلقِه، وعن عِبادتِهم؛ فلا يفتَقِرُ إلى شَيءٍ سُبحانَه، ومِن غناه أنَّه يُغني الخَلقَ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ وهو المحمودُ في ذاتِه وأسمائِه، وصِفاتِه وأفعالِه، وأقوالِه وشَرعِه وقَدَرِه، المحمودُ على نِعَمِه، وإحسانِه بخَلقِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠).

(٣) قال السعديُّ: (يُخاطبُ تعالَى جميعَ الناسِ، ويُخبرُهم بحالِهم ووصفِهم، وأنَّهم فقراءُ إلى الله مِن جميعِ الوجوهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هم المشركونَ كما هو غالبُ اصطلاحِ القرآنِ، وهم المخاطبونَ بقولِه آنِفًا: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [فاطر: ١٣] الآياتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه الغنيُّ على الإطلاقِ؛ ذكَرَ ما يدُلُّ على استِغنائِه عن

= كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣-١٣٤).

قال السعديُّ: (وهو الحَميدُ في غِناه، الغنيُّ في حَمْدِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

وقال ابنُ عثيمين: (فهو غنيٌّ يُحمَدُ على غِناه؛ لأنَّه يجودُ به على غيرِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

قال ابنُ القيِّم: (الحَميدُ فَعيلٌ مِن الحَمْدِ، وهو بمعنى مَحمودٍ، وأكثرُ ما يأتي فَعيلًا في أسمائِه تعالَى، بمعنى فاعِل، كـ: سَميع وبَصير، وعَليم وقَدير، وعَليٍّ وحَكيم، وحَليم، وهو كثيرٌ... وأمَّا الحميدُ فلمْ يأتِ إلَّا بمعنى المحمودِ، وهو أبلغُ مِن المحمودِ؛ فإنَّ فعيلًا إذا عُدِلَ به عن مَفعولٍ، دلَّ على أنَّ تِلك الصِّفةَ قد صارتْ مِثلَ السَّجيَّةِ والغَريزةِ والخُلُقِ اللازمِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٣١٥).

لكنْ قال ابنُ عثيمين: (كَلِمةُ «حميد» يَصِحُّ أن تكونَ اسمَ فاعلٍ، ويصِحُّ أنْ تكونَ بمعنى اسم المفعول؛ اسمُ الفاعِلِ: لأنَّه سُبحانَه وتعالَى حامِدٌ يَحمَدُ كُلَّ مَن يستحِقُّ الحَمدَ منه؛ ولهذا يُثني على رسُلِه وأنبيائِه وعِبادِه الصَّالحين، والثناءُ عليهم هو الحَمدُ. وهو أيضًا المحمودُ على أمْرينِ: على ما له من كَمالِ الصِّفاتِ، وعلى ما له من كَمالِ الإنعامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

وقال ابنُ عاشور: (اسمُه الحَميدُ صالحٌ لمعنى المحمودِ، فيكونُ فعيلًا بمعنى مفعولٍ، وصالحٌ لمعنى كثيرِ الحَمدِ، فيكونُ مِن أمثلةِ المُبالَغةِ؛ لأنَّ اللهَ يُثيبُ على فِعلِ الخَيرِ ثوابًا جزيلًا، ويُثني على فاعِله ثناءً جميلًا؛ فكان بذلك كثيرَ الحَمدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٤٧).

العالَم، وأنَّه ليس بمُحتاجٍ إليهم، فقال[١]:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

أي: لو شاءَ اللهُ لأفْنَاكم وأهْلَكَكُم -أيُّها النَّاسُ- إنْ عَصيْتُموه، وأتَى بخَلقٍ غَيرِكم يُطِيعونَه[٢].

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

أي: وليسَ ذلِك على اللهِ بمُتعَذِّرٍ ولا مُمتَنِعٍ؛ لكَمالِ قُدرتِه سُبحانَه[٣].

كما قال تعالَى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان ما قبْلَ هذه الآيةِ مَسوقًا في غَرَضِ التَّهْديدِ، وكان الخِطابُ للنَّاسِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٦).
قال السعدي: (يحتملُ أنَّ المرادَ: إن يشأْ يُذهبْكم أيُّها الناسُ ويأتِ بغيرِكم مِن الناسِ، أطوعَ للّه منكم، ويكونُ في هذا تهديدٌ لهم بالهلاكِ والإبادةِ، وأنَّ مشيئتَه غيرُ قاصرةٍ عن ذلك.
ويحتمِلُ أنَّ المرادَ بذلك إثباتُ البعثِ والنُّشورِ، وأنَّ مشيئةَ اللَّه تعالى نافذةٌ في كلِّ شيءٍ، وفي إعادتِكم بعدَ موتِكم خلقًا جديدًا، ولكن لذلك الوقتِ أجلٌ قدَّره اللَّه، لا يتقدَّمُ عنه ولا يتأخَّرُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٩-١٤٠).

أُريدَتْ طَمْأنةُ المُسلِمينَ من عَواقِبِ التَّهْديدِ؛ فعُقِّبَ بأنَّ مَن لم يَأتِ وِزْرًا لا يَنالُه جَزاءُ الوازِرِ في الآخِرةِ، فقال(١):

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

أي: ولا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ إثمَ نَفْسٍ أُخرى؛ فكُلُّ إنسانٍ يُجازَى بعَمَلِه، ولا يَحمِلُ ذَنبَ غَيرِه(٢).

كما قال تعالَى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٥].

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

أي: وإنْ تَستَغِثْ يومَ القِيامةِ نَفْسٌ مُثقَلةٌ بالذُّنوبِ، وتَطلُبْ مَن يَحمِلُ عنها ذُنوبَها، أو يُساعِدُها في حَملِ بَعضِها: فلنْ يَحمِلَ أحَدٌ ذلك ولو شيئًا منه، ولو كان المَسؤولُ قريبًا للسَّائِلِ(٣).

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٣، ٣٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٤٤-١٤٥).

أي: إنَّما تُنذِرُ -يا محمَّدُ- إنذارًا نافِعًا مُؤثِّرًا، الذين يَخافونَ رَبَّهم مع كَونِهم لا يَرَونَه في الدُّنيا، ويَخافونَه في خَلَواتِهم غيرَ مُرائينَ أحَدًا، وأدَّوُا الصَّلواتِ على وَجهٍ تامٍّ مُستقيمٍ، كما أمَرَ اللهُ تعالى؛ فهؤلاء هم الذين يَنتَفِعونَ بالإنذارِ دونَ غَيرِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦ﴾.

أي: ومَن تَطَهَّرَ مِن دَنسِ الكُفرِ والذُّنوبِ، بالإيمانِ باللهِ والتوبةِ إليه، واستَكثَرَ مِن العَملِ الصَّالحِ؛ فإنَّما يَعودُ نَفعُ ذلك وثمرتُه على نَفْسِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٤٧-١٥٠).

قولُه: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حالٌ مِن المفعول به، أي: يخشون ربَّهم حالَ كونِه غائبًا عنهم لم يَرَوْه، أو يكون الجارُّ والمجرور حالًا من الفاعِل، أي: حال كونِهم غائبين عن الناس. وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ الآية يُمكن حمْلُها على المعنيَينِ؛ لأنَّهما لا يَتنافيانِ، وهذا مِن بلاغة القرآن. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٤٨).

قال الشوكانيُّ: (ومعنى ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أنَّهم يَخشونَه حالَ كونِهم غائبين عن عذابِه، أو يخشَوْن عذابَه وهو غائبٌ عنهم، أو يَخشونَه في الخَلواتِ عن الناسِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

وقيل: معنى التزكِّي هاهنا هو العَملُ الصَّالحُ. واختاره الثعلبيُّ، والسمعانيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢).

وقال السعديُّ: (﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦ﴾، أي: ومَن زكَّى نفْسَه بالتنقِّي من العُيوبِ =

كما قال تعالَى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى * ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧، ١٨].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه المَرجِعُ والمآلُ والمُنقَلَبُ(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ قَرَّرَ اللهُ تعالَى هذه الحالَ الثَّابتةَ التي لا تَنفَكُّ عن الإنسانِ، وهي الفَقرُ إلى اللهِ؛ مِن أجْلِ أنْ يَعمَلَ بمُقتَضى هذه الحالِ، فيَلجَأَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا يَسألَ إلَّا اللهَ(٢)؛ فالنَّاسُ فُقَراءُ إلى اللهِ مِن جميعِ الوُجوهِ:

فُقراءُ في إيجادِهم؛ فلولا إيجادُه إيَّاهم لم يُوجَدوا.

فُقَراءُ في إعدادِهم بالقُوَى والأعضاءِ والجَوارحِ التي لولا إعدادُه إيَّاهم [بها]

= -كالرِّياءِ والكِبرِ، والكَذِبِ والغِشِّ، والمكرِ والخِداعِ، والنِّفاقِ ونحو ذلك مِن الأخلاقِ الرَّذيلةِ- وتحلَّى بالأخلاقِ الجَميلةِ -مِن الصِّدقِ والإخلاصِ، والتواضُعِ ولِينِ الجانِبِ، والنُّصحِ للعِبادِ، وسلامةِ الصَّدرِ مِن الحِقدِ والحَسدِ وغيرِهما مِن مَساوئِ الأخلاقِ-: فإنَّ تزكيتَه يَعودُ نَفعُها إليه، ويَصِلُ مَقصودُها إليه، ليس يَضيعُ مِن عمَلِه شَيءٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢).

قال ابنُ جَرير: (قَولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، يَقولُ: وإلى اللهِ مَصيرُ كُلِّ عامِلٍ مِنكم -أيُّها الناسُ-، مُؤمِنِكم وكافِرِكم، وبَرِّكم وفاجِرِكم، وهو مُجازٍ جَميعَكم بما قَدَّمَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ على ما أُهِلَّ مِنه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦).

وقال ابنُ عُثَيمين: (إلى اللهِ المَصيرُ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فمَرْجِعُ الأُمورِ كُلِّها إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، سواءٌ كانتْ في الدُّنيا، أوِ الآخِرةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٢).

لَمَا استعدُّوا لأيِّ عمَلٍ كان.

فُقَراءُ في إمْدادِهم بالأقواتِ والأرزاقِ والنِّعَم الظَّاهِرةِ والباطِنةِ؛ فلولا فَضلُه وإحسانُه وتيسيرُه الأمورَ، لَما حصَل [لهم] من الرِّزقِ والنِّعَم شَيءٌ.

فُقَراءُ في صَرفِ النِّقَم عنهم، ودَفْعِ المكارهِ، وإزالةِ الكُروبِ والشَّدائدِ؛ فلولا دفْعُه عنهم، وتفريجُه لكُرُباتِهم، وإزالتُه لِعُسرِهم؛ لاستمَرَّتْ عليهم المكارِهُ والشَّدائِدُ.

فُقَراءُ إليه في تَربيتِهم بأنواعِ التربيةِ، وأجناسِ التدبيرِ.

فُقَراءُ إليه في تألُّهِهم له، وحُبِّهم له، وتعبُّدِهم، وإخلاصِ العبادةِ له تعالى؛ فلو لم يوفِّقْهم لذلك لهلَكوا وفسَدَت أرواحُهم وقُلوبُهم وأحوالُهم.

فُقَراءُ إليه في تَعليمِهم ما لا يَعلمونَ، وعَمَلِهم بما يُصلِحُهم؛ فلولا تعليمُه لم يَتعلَّموا، ولولا توفيقُه لم يَصلُحوا.

فهُمْ فُقَراءُ بالذَّاتِ إليه بكُلِّ معنًى، وبكُلِّ اعتبارٍ؛ سواءٌ شَعَروا ببعضِ أنواعِ الفَقرِ أم لم يَشعُروا، ولكِنِ الموفَّقُ منهم الذي لا يَزالُ يُشاهِدُ فَقرَه في كُلِّ حالٍ مِن أمورِ دِينِه ودُنياه، ويَتضَرَّع له، ويسألُه ألَّا يَكِلَه إلى نفْسِه طَرفةَ عَينٍ، وأنْ يُعينَه على جَميعِ أمورِه، ويَستصحِبَ هذا المعنى في كُلِّ وقتٍ؛ فهذا أحرَى بالإعانةِ التامَّةِ مِن رَبِّه وإلهِه الذي هو أرحَمُ به مِن الوالدةِ بوَلَدِها[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه إعلامٌ بأنَّه لا افتِقارَ إلَّا إليه تعالَى، ولا اتِّكالَ إلَّا عليه، وهذا يُوجِبُ عِبادتَه؛ لِكَونِه مُفتَقَرًا إليه، وعدَمَ عِبادةِ غَيرِه؛ لعدَمِ الافتِقارِ إلى غَيرِه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٠).

٣- قال تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ الحَميدُ هو الَّذي له مِن الصِّفاتِ وأسبابِ الحَمدِ ما يَقتضي أنْ يكونَ مَحمودًا وإنْ لم يَحمَدْه غيرُه؛ فهو حَميدٌ في نفْسِه، والمحمودُ مَن تَعلَّقَ به حمْدُ الحامِدينَ، والحمْدُ يَستلزِمُ الثَّناءَ والمحبَّةَ للمحمودِ؛ فمَن أحبَبْتَه ولم تُثنِ عليه لم تكُنْ حامِدًا له حتَّى تكونَ مُثنِيًا عليه مُحِبًّا له، وهذا الثَّناءُ والحُبُّ تبَعٌ للأسبابِ المقتضيةِ له، وهو ما عليه المحمودُ مِن صِفاتِ الكَمالِ، ونُعوتِ الجَلالِ، والإحسانِ إلى الغَيرِ؛ فإنَّ هذه هي أسبابُ المحبَّةِ، وكلَّما كانتْ هذه الصِّفاتُ أجمَعَ وأكمَلَ، كان الحمْدُ والحُبُّ أتمَّ وأعظمَ. واللهُ سُبحانَه له الكمالُ المُطلَقُ الَّذي لا نقْصَ فيه بوجهٍ ما، والإحسانُ كلُّه له ومِنه؛ فهو أحَقُّ بكُلِّ حمْدٍ، وبكُلِّ حُبٍّ مِن كُلِّ جِهةٍ؛ فهو أهلٌ أنْ يُحَبَّ لذاتِه ولِصِفاتِه، ولأفْعالِه ولأسمائِه، ولإحسانِه، ولكُلِّ ما صدَرَ منه سُبحانَه وتعالَى[1].

٤- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فالذين يَقبَلونَ النِّذارةَ ويَنتَفِعونَ بها: أهلُ الخَشيةِ لله بالغَيبِ، الذين يخشَونَه في حالِ السِّرِّ والعلانيةِ، والمشهَدِ والمَغيبِ؛ وأهلُ إقامةِ الصَّلاةِ بحُدودِها وشُروطِها، وأركانِها وواجباتِها، وخُشوعِها؛ لأنَّ الخَشيةَ للهِ تَستدعي مِن العَبدِ العَمَلَ بما يَخشَى مِن تَضييعِه العِقابَ، والهرَبَ ممَّا يَخشَى مِن ارتكابِه العذابَ، والصَّلاةُ تدْعو إلى الخيرِ، وتنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ[2].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا تَزَكَّى؛ فإنَّ نفْعَ تَزَكِّيه لنفْسِه، ولا يَنالُ اللهَ سُبحانَه وتعالَى مِن ذلك شيءٌ، ويَتفرَّعُ عن هذه الفائدةِ: أنَّ أوامرَ اللهِ عزَّ وجلَّ ليستْ مِن أجْلِ مَصلحةٍ تنالُه بامتثالِنا! ولكنْ مِن

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيِّم (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٨٧).

أجْلِ رَحمتِنا ومَصلحتِنا نحنُ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾[1] [الزمر: ٧].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ الحَثُّ على تزكيةِ النَّفسِ، وكلُّ إنسانٍ عاقلٍ إذا عَلِمَ أنَّ مَصلحةَ العَمَلِ تَعودُ إليه، فإنَّه سوف يَهتَمُّ به ويقومُ به، فإذا عَلِمتَ أنَّ تَزكِّيَك لنَفْسِكَ؛ حَرَصْتَ عليه غايةَ الحِرصِ، فتُزكِّي نفْسَك ظاهرًا وباطنًا؛ ظاهرًا بالأقوالِ والأفعالِ، وباطنًا بالقلوبِ[2].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ عَلَّقَ سُبحانَه الفَقرَ إليه باسمِه (الله) دونَ اسمِ الرُّبوبيَّةِ؛ لِيُؤذِنَ بنَوعي الفَقرِ؛ فإنَّ الفَقرَ نوعانِ: فَقرٌ إلى رُبوبيَّتِه، وهو فَقرُ المخلوقاتِ بأسْرِها. وفَقرٌ إلى ألوهيَّتِه، وهو فَقرُ أنبيائِه ورُسُلِه وعِبادِه الصَّالحينَ، وهذا هو الفَقرُ النَّافِعُ[3].

٢- في قَولِ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أنَّ للهِ الغنَى المطلَقَ مِن جميعِ الوجوهِ، يُستفادُ هذا مِن قولِه تعالى: ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ بـ «أل» الدالةِ على العُمومِ والاستيعابِ[4].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أنَّ غِنى اللهِ سُبحانَه وتعالى مَقرونٌ بالحَمدِ، بخِلافِ غِنَى البَشَرِ؛ فإنَّه قد لا يكونُ محمودًا؛ إمَّا بالبُخلِ، وإمَّا بكَونِه يأتي بدونِ استِحقاقٍ، كالسُّرَّاقِ واللُّصوصِ؛ فقد يكونون أغنياءَ لكنِ اكتَسَبوه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٤).

على غيرِ الوَجهِ المباحِ، أمَّا غِنَى اللهِ فهو غِنًى كامِلٌ يُحمَدُ عليه. إذَن: يُحمَدُ مِن جِهةِ الغِنَى، ومِن جهةِ الكَرَمِ بما هو غَنِيٌّ به[١].

٤- قال اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ لَمَّا كان الغَنيُّ مِن الخَلقِ لا يَسَعُ غِناه مَن يَقصِدُه، وإنْ وَسِعَهم لم يسَعْهم عَطاؤُه؛ لخَوفِ الفَقرِ، أو لغيرِ ذلك من العَوارِضِ، ولا يُمكِنُه عُمومُ النِّعمةِ في شَيءٍ من الأشياءِ، فلا يَنفَعُك، وكان سُبحانَه قد أفاض نِعَمَه على خَلقِه، وأسبَغَها ظاهِرةً وباطِنةً، وجعَلَ لهم قُدرةً على تناوُلِها، لا يَعوقُ عنه إلَّا قُدرتُه ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، وكان لا يَنقُصُ ما عندَه- كان إعطاؤُه حَمدًا، ومَنعُه حَمدًا؛ لأنَّه لا يكونُ مانعًا لغَرَضٍ، بل لِحكمةٍ تَدِقُّ عن الأفكارِ، فقال: ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾[٢].

٥- قال اللهُ سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ بيَّن سُبحانَه في هذه الآيةِ أنَّ فَقرَ العِبادِ إليه أمرٌ ذاتيٌّ لهم لا ينفَكُّ عنهم، كما أنَّ كَونَه غنيًّا حميدًا أمْرٌ ذاتيٌّ له؛ فغِناه وحَمدُه ثابتٌ له؛ لِذاتِه لا لأمرٍ أوجَبَه، وفَقرُ مَن سواه إليه ثابتٌ؛ لِذاتِه لا لأمرٍ أوجَبَه؛ فلا يُعلَّلُ هذا الفَقرُ بحُدوثٍ ولا إمكانٍ، بل هو ذاتيٌّ للفقيرِ؛ فحاجةُ العَبدِ إلى رَبِّه لِذاتِه لا لعِلَّةٍ أَوجبتْ تلك الحاجةَ، كما أنَّ غِنى الرَّبِّ سُبحانَه لذاتِه لا لأمرٍ أوجَبَ غِناه؛ فالخَلقُ فقيرٌ مُحتاجٌ إلى رَبِّه بالذَّاتِ لا بعِلَّةٍ، وكُلُّ ما يُذكَرُ ويُقرَّرُ مِن أسبابِ الفَقرِ والحاجةِ فهي أدِلَّةٌ على الفَقرِ والحاجةِ لا عِلَلٌ لذلك؛ إذ ما بالذَّاتِ لا يُعلَّلُ، فالفقيرُ بذاتِه محتاجٌ إلى الغَنيِّ بذاتِه، فما يُذكَرُ مِن إمكانٍ وحُدوثٍ واحتياجٍ فهي أدلَّةٌ على الفَقرِ لا أسبابٌ له[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١-٣٢).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٨).

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَحْمِلُ آثامَ غيرِه، ويَنبني على هذه الفائدةِ: ثُبوتُ كمالِ عَدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ لا يُحمِّلُ أحدًا وِزْرَ أحدٍ[١].

٧- قَولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾: يدُلُّ على أنَّه لا يَحمِلُ أحدٌ وِزرَ غَيرِه، وقد جاءتْ آيةٌ كريمةٌ أُخرَى تدُلُّ على أنَّ هؤلاء الضَّالِّينَ يَحمِلونَ أوزارَهم كامِلةً، ويَحمِلونَ أيضًا مِن أوزارِ الأتْباعِ الذين أضلُّوهم، وهي قولُه تعالَى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]!

والجوابُ: أنَّ هؤلاء الضَّالِّينَ ما حَمَلوا إلَّا أوزارَ أنفُسِهم؛ لأنَّهم تحمَّلوا وِزرَ الضَّلالِ ووِزرَ الإضلالِ؛ فمَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئةً فعليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها، لا يَنقُصُ ذلك من أوزارِهم شيئًا؛ لأنَّ تشريعَه لها لغيرِه ذَنبٌ من ذُنوبِه، فأُخِذَ به[٢].

فقولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فيه نفْيُ أنْ يَحمِلَ أحَدٌ وِزرَ آخَرَ، لا مُشاركةَ له للحامِلِ على اقترافِ الوِزرِ، وأمَّا قولُه سُبحانَه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]؛ فمَورِدُها في زُعَماءِ المُشرِكينَ الذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٣٢).
وقَولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ...﴾ أيضًا لا يُعارِضُ قولَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن سنَّ في الإسلامِ سنَّةً سيئةً فعليه وِزرُها ووِزرُ مَن عمِل بها بعدَه إلى يومِ القيامةِ)) [مسلم (١٠١٧)]؛ قال ابن عثيمين: (لأنَّ سنَّه إيَّاها يُعتبرُ وِزرًا؛ لأنَّه هو الذي شقَّ الطريقَ لها ومهَّد السبلَ، فلهذا كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عمِل بها إلى يومِ القيامةِ، فالآيةُ لا تُنافي الحديثَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٤٤).

موَّهوا الضَّلالةَ، وثَبَتوا عليها؛ فإنَّ أوَّلَ تلك الآيةِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ [العنكبوت: ١٢]، وكانوا يقولون ذلك لكُلِّ مَن يَستروِحونَ منه الإقبالَ على الإيمانِ بالأُخرى(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أنَّ الخَشيةَ التي هي مَحَلُّ الثَّناءِ هي ما كانتْ خَشيةً في الغَيبِ؛ لأنَّ الخَشيةَ في الظَّاهرِ قد يكونُ الحامِلُ عليها مُراعاةَ عِبادِ اللهِ، لكنْ إذا كانتْ بالغَيبِ فإنَّ هذا دليلٌ واضحٌ على أنَّ صاحِبَها مُخلِصٌ في خَشيتِه للهِ عزَّ وجلَّ(٢).

٩- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فَضيلةُ الصلاةِ؛ وأنَّها سببٌ للانتفاعِ بإنذارِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم كالخَشيةِ(٣).

١٠- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦ﴾ مُشيرًا بصيغةِ التفَعُّلِ إلى أنَّ النَّفسَ أَميلُ شَيءٍ إلى الدَّنَسِ، فلا تنقادُ إلى أحسَنِ تقويمٍ إلَّا باجتهادٍ عَظيمٍ(٤).

١١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أنَّ مَرجِعَ الخلائقِ إلى اللهِ في أحكامِهم الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ والجزائيَّةِ؛ أمَّا الأحكامُ الكونيَّةُ فظاهِرٌ أنَّ المَرجِعَ إلى اللهِ؛ لأنَّه لا أحَدَ يَستطيعُ أنْ يَرُدَّ قَضاءَ اللهِ الكَونيَّ، وأمَّا الشَّرعيَّةُ فكذلك؛ فإنَّ العِبادَ مَربوبونَ مُتَعبَّدونَ لله عزَّ وجلَّ، فكان مُقتضَى ذلك أنْ يَتمشَّوا على أحكامِه الشَّرعيَّةِ، وأمَّا الجزائيةُ فالأمرُ ظاهِرٌ؛ فإنَّه لا يُجازي العامِلينَ على عَمَلِهم إلَّا اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥).

سُبحانَه وتعالَى[١]. وذلك على قولٍ في معنى الآيةِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾

- قبْلَ أنْ يُوجَّهَ إليهم الإعْلامُ بأنَّ اللهَ غَنيٌّ عنهم وُجِّهَ إليهم إعْلامٌ بأنَّهم الفُقَراءُ إلى اللهِ؛ لأنَّ ذلك أدخَلُ للذِّلَّةِ على عَظَمَتِهم من الشُّعورِ بأنَّ اللهَ غَنيٌّ عنهم؛ فإنَّهم يُوقِنونَ بأنَّهم فُقَراءُ إلى اللهِ، ولكنَّهم لا يُوقِنونَ بالمَقصِدِ الذي يُفضي إليه عِلمُهم بذلك؛ فأُريدَ إبْلاغُ ذلك إليهم لا على وَجهِ الاستِدْلالِ، ولكِنْ على وَجهِ قَرْعِ أسْماعِهم بما لم تَكُنْ تُقرَعُ به من قبْلُ؛ عسَى أنْ يَسْتَفيقوا من غَفْلَتِهم، ويَتَكَعْكَعوا [أي: يرْتَدِعوا] عن غُرورِ أنفُسِهم، على أنَّهم لا يَخْلو جَمعُهم من أصْحابِ عُقولٍ صالِحةٍ للوُصولِ إلى حَقائِقِ الحقِّ، فأولئك إذا قُرِعَتْ أسْماعُهم بما لم يَكونوا يَسْمَعونَه مِن قبْلُ، ازْدادوا يَقينًا بمُشاهَدةِ ما كان مَحْجوبًا عن بَصائِرِهم بأسْتارِ الاشتِغالِ بفِتْنةِ ضَلالِهم، عَسَى أنْ يُؤمِنَ مَن هيَّأهُ اللهُ بفِطْرتِه للإيمانِ، فمَن بَقِيَ على كُفرِه كان بَقاؤُه مَشوبًا بحَيرةٍ ومُرِّ طَعمِ الحياةِ عِندَه، فأين ما كانتْ تتلقَّاهُ مَسامِعُهم من قِبَلِ تَمْجيدِهم، وتَمْجيدِ آبائِهم، وتَمْجيدِ آلهتِهم، ألَا تَرى أنَّهم لَمَّا عاتَبوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في بعضِ مُراجَعَتِهم عَدُّوا عليه شَتْمَ آبائِهم؛ فحَصَلَ بهذه الآيةِ فائِدَتانِ[٢].

- وجُملةُ: ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ تُفيدُ القَصرَ لِتَعريفِ جُزْأَيْها، أي: قَصرَ صِفةِ الفَقرِ على النَّاسِ المُخاطَبينَ قَصْرًا إضافيًّا بالنِّسبةِ إلى اللهِ، أي: أنتُم المُفتَقِرونَ إليه، وليس هو بمُفتَقِرٍ إليكم، وهو قَصْرُ قَلْبٍ[٣]. وقيلَ: أوقَعَ ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ خَبَرًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)). =

لـ﴿أَنتُمُ﴾، وهو مُحلًّى بلَامِ الجنسِ، وهو يُفيدُ الاختِصاصَ، وأنَّ غيرَهم من المَخْلوقاتِ ليس كذلك، وليسَ كذلك؛ لأنَّ الخَلائِقَ كلَّهم مُفتَقِرونَ إليه، لكنْ سُلِكَ فيه المُبالَغةُ، وأنَّ افتِقارَ غَيرِهم بالنِّسبةِ إلى افتِقارِهم كَلا افتِقارٍ[1].

- وفي قَولِ اللهِ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عرَّف الفُقَراءَ؛ لِيُريَهم شديدَ افتقارِهم إليه؛ إذ هم جِنسُ الفُقَراءِ، وإن كان العالَمُ بأسرِه مُفتَقِرًا إليه؛ فلِضَعفِهم جُعِلوا كأنَّهم جميعُ هذا الجِنسِ[2]؛ فـ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ بالألفِ واللامِ معناها أنَّنا في جَميعِ أحوالِنا كلِّها مُفتَقِرونَ إلى ربِّنا سُبحانَه وتعالَى[3].

- وإتْباعُ صِفةِ ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ بـ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ تَكميلٌ؛ فهو احْتِراسٌ لِدَفْعِ تَوهُّمِهم أنَّه لَمَّا كان غَنيًّا عن استِجابَتِهم وعِبادَتِهم؛ فهُم مَعْذورونَ في ألَّا يَعبُدوهُ، فنُبِّهَ على أنَّه مَوْصوفٌ بالحَمدِ لِمَن عَبَدَه واستَجابَ لِدَعْوتِه، كما وَقَع ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ في مُقابَلةِ قَولِه: ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾؛ لأنَّه لَمَّا قُيِّدَ فَقرُهم بالكَونِ إلى اللهِ، قُيِّدَ غِنى اللهِ تعالَى بوَصْفِ الحَميدِ؛ لإفادةِ أنَّ غِناهُ تعالَى مُقتَرِنٌ بجُودِه، فهو يَحمَدُ مَن يَتوجَّهُ إليه. وقيل: ذكَرَ (الحميد)؛ ليَدُلَّ به على أنَّه الغنيُّ النَّافعُ بغِناه خَلْقَه، الجَوَادُ المنعِمُ عليهم، المُستَحِقُّ بإنعامِه أنْ يَحمَدوه[4].

= وتقدم تعريف القصر بأنواعه (ص: ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٣٠- ٦٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٦).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ واقعٌ مَوقعَ البَيانِ لِمَا تَضمَّنَتْه جُمْلةُ: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] من مَعْنى قِلَّةِ الاكتِراثِ بإعْراضِهم عنِ الإسْلامِ، ومِن مَعْنى رِضاهُ على مَن يَعبُدُه؛ فهو تعالَى -لغِناهُ عنهم وغَضَبِه عليهم- لو شاءَ لأبادَهم، وأتَى بخَلْقٍ آخَرينَ يَعبُدونَه، فخَلَصَ العالَمُ مِن عُصاةِ أمْرِ اللهِ، وذلك في قُدْرتِه، ولكنَّه أمْهَلهم إعْمالًا لصِفةِ الحِلْمِ[1]، وهذا على أنَّ الخِطابَ للمشركينَ.

- ومَفْعولُ فِعلِ المَشيئةِ في قولِه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مَحْذوفٌ؛ استِغناءً بما دلَّ عليه جَوابُ الشَّرطِ، وهو يُذْهِبْكُمْ، أي: إنْ يَشَأْ إذْهابَكم[2].

- قولُه: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ زِيادةٌ في الإرْهابِ والتَّهديدِ؛ ليكونوا مُتوقِّعينَ حُلولَ التَّبديلِ بهم[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ تَعقيبٌ لِمَا سبَق -حيثُ سِيقَ بغرَضِ التَّهديدِ- بطَمأنةِ المسلمينَ بأنَّ مَن لم يَأتِ وِزْرًا لا يَنالُه جَزاءُ الوازِرِ في الآخِرةِ، وقد يكونُ وَعدًا بالإنجاءِ مِن عَذابِ الدُّنيا إذا نَزَل بالمُهدَّدينَ الإذْهابُ والإهْلاكُ، مِثلَما أهْلَكَ فَريقَ الكُفَّارِ يومَ بَدْرٍ، وأنْجَى فَريقَ المُؤمِنينَ، فيكونُ هذا وَعدًا خاصًّا؛ فمَوقعُ قَولِه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ كمَوقعِ قَولِه تَعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]؛ ولهذا فإنَّه تَأمينٌ للمُسلِمينَ من الاستِئْصالِ كقَولِه تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] بقَرينةِ قَولِه عَقِبَه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، وهو تَأمينٌ من تَعْميمِ العِقابِ في الآخِرةِ بطَريقِ الأَوْلى. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ: ولا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخرى يَومَ القِيامةِ، أي: إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ جميعًا، ولا يُعذِّبُ المُؤمِنينَ في الآخِرةِ(١).

- وفي قولِه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ جَرَى وَصْفُ الوازِرةِ على التَّأْنيثِ؛ لأنَّه أُريدَ به النَّفْسُ، ووَجهُ اخْتيارِ الإسْنادِ إلى المُؤنَّثِ بتَأْويلِ النَّفْسِ دون أنْ يَجريَ الإضْمارُ على التَّذْكيرِ بتَأْويلِ الشَّخْصِ؛ لأنَّ مَعْنى النَّفْسِ هو المُتبادَرُ للأذْهانِ عِندَ ذِكرِ الاكتِسابِ، كما في قَولِه تَعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وغيرِ ذلك مِن الآياتِ(٢).

- وقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ولم يَقُلْ: (ولا تزرُ نَفسٌ وِزرَ أُخرى)؛ لأنَّه لو قال (ولا تزرُ نفسٌ وِزرَ أُخرى) لَمَا عُلِمَ أنَّ كُلَّ نَفْسٍ وازِرةٌ مَهمومةٌ بهَمِّ وِزرِها، متحيِّرةٌ في أمرِها. ولم يجمَعْ بين الموصوفِ والصِّفةِ، فلم يَقُلْ: (ولا تَزِرُ نَفسٌ وازِرةٌ وِزرَ أُخرى)، فترَكَ ذِكرَ الموصوفِ؛ لِظُهورِ الصِّفةِ، ولُزومِها للمَوصوفِ(٣).

- وفي قَولِه: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ حُذِف مَفْعولُ ﴿تَدْعُ﴾؛ لقَصدِ العُمومِ؛ ليَعُمَّ ويَشمَلَ كُلَّ مَدعوٍّ، والتَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٧ - ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣١).

وإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ أيَّ مَدْعُوٍّ. وجُعِل الدُّعاءُ إلى الحِمْلِ؛ لأنَّ الحِمْلَ سَبَبُ الدُّعاءِ وعِلَّتُه، فالتَّقْديرُ: وإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ أحَدًا إليها لأجْلِ أنْ يَحمِلَ عنها حِمْلَها؛ فحُذِف أحَدُ مُتعلَّقَي الفِعْلِ المَجْرورِ باللَّامِ لِدَلالةِ الفِعلِ ومُتعلَّقِه المَذْكورِ على المَحْذوفِ. وهذا إشارةٌ إلى ما سيَكونُ في الآخِرةِ، أي: لو استَصْرخَتْ نَفْسٌ مَن يَحمِلُ عنها شَيئًا مِن أوْزارِها -كما كانوا يَزعُمونَ أنَّ أصْنامَهُم تَشفَعُ لهم أو لغَيرِهم- لا تَجِدُ مَن يُجيبُها لذلك[١].

- وقَولُه: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أفادَ العُمومَ والمُبالَغةَ، ووَجهُ المُبالَغةِ مِن (لو) الوَصليَّةِ: أنَّ ذا القُرْبى أرَقُّ وأشفَقُ على قَريبِه، فقد يُظَنُّ أنَّه يُغني عنه في الآخِرةِ بأنْ يُقاسِمَه الثِّقَلَ الذي يُؤدِّي به إلى العَذابِ؛ فيَخِفَّ عنه العَذابُ بالاقتِسامِ؛ فكان هذا إبْطالًا لاعتِقادِ الغَناءِ الذَّاتيِّ بالتَّضامُنِ والتَّحامُلِ، فقد كان المُشرِكونَ يَقيسونَ أُمورَ الآخِرةِ على أُمورِ الدُّنيا، فيُعلِّلونَ أنفُسَهم إذا هُدِّدوا بالبَعْثِ بأنَّه إنْ صحَّ، فإنَّ لهم يَومَئذٍ شُفَعاءَ وأنْصارًا[٢].

- قولُهُ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ استِئْنافٌ بَيانيٌّ مَسوقٌ لِبَيانِ مَن يتَّعِظُ بما ذُكِر؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَخطُرُ في نَفسِه التَّعجُّبُ من عَدَمِ تَأثُّرِ أكثَرِ المُشرِكينَ بإنْذارِه؛ فأُجيبَ بأنَّ إنْذارَه يَنتفِعُ به المُؤمِنونَ ومَن تَهيَّؤوا للإيمانِ[٣].

- وإيرادُ هذه الآيةِ عَقِبَ التي قَبلَها يُؤكِّدُ أنَّ المَقصِدَ الأوَّلَ مِن التي قَبْلَها مَوعِظةُ المُشرِكينَ وتَخويفُهم، وإبلاغُ الحَقيقةِ إليهم؛ لاقتِلاعِ مَزاعِمِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٠).

وأوْهامِهم في أمْرِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ -على قولٍ في التفسيرِ-، فأقبَلَ اللهُ على رَسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالخِطابِ؛ لِيَشعُرَ بأنَّ تلك المَواعِظَ لم تُجْدِ فيهم، وأنَّها إنَّما يَنتفعُ بها المُسلِمونَ، وهو أيضًا يُؤكِّدُ ما في الآيةِ الأُولى مِن التَّعْريضِ بتَأْمينِ المُسلِمينَ بما اقْتَضاهُ عُمومُ الإنْذارِ والوَعيدِ[١].

- قولُهُ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ...﴾ قَصْرٌ إضافيٌّ؛ فإنَّ تَعلُّقَ الفِعلِ المَقْصورِ عليه بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ تَعلُّقٌ على مَعْنى حُصولِ أثَرِ الفِعلِ. وهو قَصرُ قَلْبٍ؛ لأنَّ المَقْصودَ التَّنبيهُ على ألَّا يظُنَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ انتِفاعَ الذين لا يُؤمِنونَ بنِذارتِه[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لَمَّا كانتْ هاتانِ الصِّفتانِ -خَشيةُ الربِّ بالغيبِ، وإقامةُ الصَّلاةِ- مِن خَصائِصِ المُسلِمينَ صارَ المَعْنى: إنَّما تُنذِرُ المُؤمِنينَ؛ فعَدَلَ عن استِحْضارِهم بأشهَرِ ألْقابِهم معَ ما فيه مِن الإيجازِ إلى استِحْضارِهم بصِلَتَينِ معَ ما فيهما مِن الإطْنابِ، تَذرُّعًا بذِكرِ هاتَينِ الصِّلَتينِ إلى الثَّناءِ عليهم بإخْلاصِ الإيمانِ في الاعتِقادِ والعَمَلِ[٣].

- واختِلافُ الفِعْلينِ: ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾ ﴿وَأَقَامُواْ﴾ -حيثُ جاء أحدُهما مُضارِعًا والآخَرُ ماضيًا-؛ للدَّلالةِ على استِمرارِهم على ذلك في جَميعِ الأَزمنةِ[٤].

- وجُملةُ: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦ﴾ تَذْييلٌ جارٍ مَجْرى المَثَلِ، وذِكرُ التَّذْييلِ عَقِبَ المُذيَّلِ يُؤذِنُ بأنَّ ما تَضمَّنَه المُذيَّلُ داخِلٌ في التَّذْييلِ بادِئَ ذي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٩٠ - ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((التفسير المظهري)) (٨/ ٥٢).

بَدءٍ، مِثْلُ دُخولِ سَببِ العامِّ في عُمومِهِ من أوَّلِ وَهْلةٍ دون أنْ يُخَصَّ العامُّ به، والمَعْنى: إنَّ الذين خَشَوْا ربَّهُم بالغَيبِ وأقاموا الصَّلاةَ هُمْ مِمَّن تَزَكَّى، فانْتَفَعوا بتَزْكِيَتِهم[١].

- والمَقْصودُ من القَصْرِ في قَولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أنَّ قَبولَهُم النِّذارةَ كان لِفائِدةِ أنفُسِهم؛ ففيه تَعريضٌ بأنَّ الذين لم يَعبَؤوا بنِذارتِهِ تَرَكوا تَزْكيةَ أنفُسِهم بها، فكان تَرْكُهم ضُرًّا على أنفُسِهم[٢].

- وجُملةُ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ تَكميلٌ للتَّذْييلِ، والتَّعْريفُ في المَصيرِ للجِنْسِ، أي: المصيرُ كُلُّه إلى اللهِ، سواءٌ فيه مَصيرُ المُتزَكِّي ومَصيرُ غَيرِ المُتزَكِّي، وكُلٌّ يُجازى بما يُناسِبُه[٣].

- وتَقديمُ المَجْرورِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾؛ للاهتِمامِ، وللتَّنبيهِ على أنَّه مَصيرٌ إلى مَن اقْتَضَى اسْمُه الجَليلُ الصِّفاتِ المُناسِبةَ؛ لإقامةِ العَدلِ، وإفاضةِ الفَضْلِ، مع رِعايةِ الفاصِلةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٩١ - ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٩٢).

الآيات (١٩-٢٦)

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْحَرُورُ﴾: أي: الرِّيحُ الحارَّةُ، والنَّارُ، وأصلُه يدُلُّ على خِلافِ البَردِ والظِّلِّ[١].

﴿خَلَا﴾: أي: سلَفَ ومضَى، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تَعرِّي الشيءِ مِن الشيءِ[٢].

﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾: أي: الكُتُبِ، جمْعُ زَبورٍ، وهو: كُلُّ كِتابٍ ذي حِكمةٍ، وأصلُه يدُلُّ على قِراءةٍ وكِتابةٍ[٣].

﴿نَكِيرِ﴾: أي: إنكاري، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) (٢/ ٢٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٢٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٥٨)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى الفَرْقَ الكَبيرَ بيْنَ المُؤمِنِ والكافِرِ، وبيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وبيْنَ العِلمِ والجَهلِ؛ فالأضدادُ لا تَتساوَى، فيقولُ: ولا يَستوي الأعمى والبَصيرُ في إدراكِ المُبصَراتِ، ولا تَستوي الظُّلُماتُ والنُّورُ، ولا يَستوي الظِّلُّ ولا حَرُّ الشَّمسِ، ولا يَستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ، إنَّ اللهَ يُسمِعُ مَن يَشاءُ إسماعَه، وما أنتَ -يا محمَّدُ- بمُسمِعٍ الأمواتَ في قُبورِهم؛ ما أنت إلَّا نذيرٌ.

ثم يقول تعالى: إنَّا أرسَلْناك -يا محمَّدُ- بالحَقِّ بَشيرًا لِمَن أطاعَك، ونذيرًا لِمَن عصاك، وما مِن أُمَّةٍ مِن الأُمَمِ الماضيةِ إلَّا بعَثْنا فيهم رَسولًا يُنذِرُهم عذابَ اللهِ.

ثُمَّ يقولُ تعالَى مُسلِّيًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: وإنْ يُكَذِّبْك -يا محمَّدُ- كفَّارُ قَومِك، فقدْ كذَّبَ الذين مِن قَبلِهم رُسُلَهم، وقد جاؤُوهم بالأدِلَّةِ الظَّاهِرةِ وبالكُتُبِ الإلهيَّةِ وبالكِتابِ المنيرِ، ثمَّ أهلَكْتُ الذين كَفَروا، فكيف كان إنكاري وعِقابي؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالَى الهُدى والضَّلالةَ، ولم يَهتَدِ الكافِرُ، وهَدَى اللهُ المؤمِنَ؛ ضَرَب لهم مَثَلًا بالبَصيرِ والأعمَى؛ فالمؤمِنُ بصيرٌ حيثُ أبصَرَ الطَّريقَ الواضِحَ، والكافِرُ أعمَى[1].

وأيضًا بَعدَ أنْ بيَّنَ قِلَّةَ نَفعِ النِّذارةِ للكافِرينَ، وأنَّها لا يَنتفِعُ بها غَيرُ المُؤمِنينَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٢).

ضرَبَ للفَريقَينِ أمثالًا كاشِفةً عن اختِلافِ حالَيْهما، فقال[(١)]:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾.

أي: ولا يَستوي الأعمَى والبصيرُ في إدراكِ المُبصَراتِ، وكذا لا يَستوي الكافِرُ والمؤمِنُ، والجاهلُ والعالِمُ[(٢)].

كما قال تعالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓـُٔ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٦).

قيل: المرادُ: الكافر والمؤمن، وممن اختاره: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والواحدي، وابن الجوزي، والرازي، والرسعني، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٧).

وقيل: المرادُ بالأعمَى: الجاهِلُ، وبالبصيرِ: العالِمُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن القيِّم. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٩).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الكافرُ والمؤمنُ والجاهلُ والعالِمُ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٩).

وقال ابنُ عثيمين: (هذا مَثَلٌ حِسِّيٌّ يجب أن نَنتقِلَ منه إلى المثَلِ المعنويِّ، وأمَّا قولُ المفَسِّر [أي جلال الدِّين المحلِّي] رحمه الله: «الكافِرُ والمؤمِنُ» ففيه نظر، يعني: كأنَّه يريدُ أن يقولَ: إنَّ الأعمَى هو الكافِرُ، والبصيرَ هو المؤمِنُ، ولكنَّنا نقولُ: لا. الآيةُ يُراد بها نفيُ المساواةِ في الأمورِ الحِسِّيَّةِ الظَّاهرةِ التي لا يُنكِرُها أحدٌ؛ إذ إنَّ الكافِرَ والزِّنديقَ، والمعانِدَ والمستكبِرَ لا يُمكنُ أنْ يَدَّعُوا تَساوي الأعمَى والبَصيرِ، لكن قدْ يدَّعُون تَساويَ المؤمِنِ والكافِرِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٦).

﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ ﴾.

أي: ولا تَستوي الظُّلُماتُ معَ النُّورِ، وكذا لا تَستوي ظُلماتُ الكُفرِ ونُورُ الإيمانِ[(١)].

﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: ولا يَستوي الظِّلُّ ولا شِدةُ الحَرِّ، وكذا لا تَستوي الجَنَّةُ والنارُ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

وممَّن قال بأنَّ الظُّلُماتِ هنا هي الكُفرُ، والنُّورَ هو الإيمانُ: ابنُ جرير، والواحدي، وابن جزي، وابنُ القيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣١٧٩).

قال ابنُ عُثَيمين: (... الظَّاهِرُ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى أراد الظُّلماتِ الحِسِّيَّةَ، والنورَ الحِسِّيَّ؛ لأنَّ نفيَ الاستواءِ بيْن هذين أمرٌ لا يمكِنُ إنكارُه؛ لأنَّه مُدرَكٌ بالحِسِّ، ولكِنْ لا شكَّ أنَّ المرادَ بذلك ظُلماتُ الكُفرِ ونُورُ الإيمانِ، يعني: أنَّها إشارةٌ إلى ذلك؛ ولذلك جمَعَ الظُّلماتِ وأفرد النُّورَ؛ لأنَّ سُبُلَ الكفرِ كثيرةٌ، وأمَّا الإيمانُ فسبيلُه واحِدٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٧). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧-٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

قال ابنُ جُزي: (والحَرورُ في اللُّغةِ: شِدةُ الحرِّ بالنَّهارِ واللَّيلِ، والسَّمومُ بالنَّهارِ خاصَّةً). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٤).

وممَّن اختار أنَّ معنى الكلامِ: لا تَستوي الجنةُ والنارُ: الفرَّاءُ، والواحديُّ، والسَّمعاني، وابن القيِّم، والبِقاعي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٦٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٥٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٩)، ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣١٧٩).

وذهَب ابنُ عاشور إلى أنَّه شبَّه الكُفرَ بالحَرور، وشبَّه الإيمانَ بالظِّلِّ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢).

=

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها مَثَلٌ آخَرُ في حَقِّ المؤمِنِ والكافِرِ، كأنَّه قال تعالى: حالُ المؤمِنِ والكافِرِ فوقَ حالِ الأعمَى والبَصيرِ؛ فإنَّ الأعمَى يُشارِكُ البَصيرَ في إدراكٍ ما، والكافِرَ غيرُ مُدرِكٍ إدراكًا نافِعًا، فهو كالمَيِّت؛ ولذلك أعاد الفِعلَ، فقال[1]:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾.

أي: ولا يَستوي الأحياءُ مع الأمواتِ، وكذا لا يَستوي المؤمِنونَ مع الكُفَّارِ[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُسمِعُ مَن يَشاءُ إسماعَه[3].

= وقال ابنُ عُثَيمين: (هذا مَثَلٌ لأمرٍ حسيٍّ لا يُمكنُ إنكارُه، لكن يُنتقَلُ منه إلى أمْرٍ مَعنويٍّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٤).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالأحياءِ: المؤمِنون، وبالأمواتِ: الكُفَّارُ: ابن جرير، والرسعني، وابن القيِّم، وابن كثير، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٨٤)، ((بدائع الفوائد)) (٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢-٢٩٤)، ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣١٧٩).

قال ابنُ عُثَيمين: (الأحياءُ والأمواتُ يُرادُ به الحياةُ الحسيةُ والموتُ الحسيُّ...، والذي يماثلُ هذه الأشياءَ الحسيةَ مِن الأمورِ المعقولةِ هو مَثَلُها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٩)، ((تفسير =

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾.

أي: وليس في مَقدورِك -يا محمَّدُ- أن تُسمِعَ الأمواتَ في قُبورِهم، وكذا ليس في مَقدورِك هِدايةُ مَن لم يَشأِ اللهُ هِدايتَه[1].

= ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: يُسمِعُ آياتِ كتابِه سَماعَ فَهم وقَبولٍ مَن يشاءُ هدايتَه للإيمانِ: ابن جَرير، وابن كَثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

وقالَ البِقاعي: (﴿يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: فيَهديه ولو لم يكُنْ له قابليَّةٌ في العادةِ، كالجَماداتِ، ويُصِمُّ مَن يشاءُ فيُعميه ويَنكُسُه ويُرديه مِن أحياءِ القُلوبِ والأرواحِ، وأمواتِ المعاني والأشباحِ، والمعنى: أنَّ إسماعَهم لو كان مُستنِدًا إلى الطَّبائعِ لاستَوَوا؛ إمَّا بالإجابةِ، أو الإعراضِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٩-٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

قيل: المرادُ: لا تَستطيعُ -يا محمَّدُ- أن تُسمِعَ الكُفَّارَ الذين ماتتْ قلوبُهم سماعًا ينتَفِعونَ به. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن جَرير، والقرطبي، وابن القيِّم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٢٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٩).

قال ابنُ القيِّم: (وأمَّا قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ فسياقُ الآيةِ يدُلُّ على أنَّ المرادَ منها: أنَّ الكافِرَ الميِّتَ القَلبِ لا تَقدِرُ على إسماعِه إسماعًا ينتفعُ به، كما أنَّ مَن في القبورِ لا تقدِرُ على إسماعِهم إسماعًا ينتفعونَ به، ولم يُرِدْ سُبحانه أنَّ أصحابَ القُبورِ لا يَسمَعونَ شَيئًا البتَّةَ، كيف وقد أخبر النبيُّ أنَّهم يَسمَعونَ خَفْقَ نِعالِ المشيِّعينَ [البخاري «١٣٧٠» ومسلم «٢٨٧٤»]، وأخبَرَ أنَّ قَتلى بَدرٍ سَمِعوا كلامَه وخِطابَه [البخاري «١٣٣٨»، ومسلم «٢٨٧٠»]، وشَرَعَ السَّلامَ عليهم بصيغةِ الخِطابِ للحاضرِ الذي يَسمَعُ [مسلم «٢٤٩»]،...). ((الروح)) (ص: ٤٥).

وقيل: الأظهرُ هنا أن يكونَ المرادُ بالموتَى: الذين ماتوا حقيقةً؛ فالرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يُسمِعُ الكُفَّارَ الذين فارقوا الدُّنيا وانتَقَلوا إلى القبورِ سَماعًا ينتفِعونَ به فيَهتَدونَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٦٣-١٦٤). =

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠، ٨١].

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ما أنت -يا محمَّدُ- إلَّا نذيرٌ تُبلِّغُ رِسالةَ اللهِ سُبحانَه، سواءٌ أَستجابَ لك النَّاسُ أم لم يَستَجيبوا؛ فإنَّما جعَلَ اللهُ لك الاستِطاعةَ على الإنذارِ الذي كلَّفَك به، لا على إسماعِ مَن لم يَشَأِ اللهُ إسماعَه، أو على هِدايةِ مَن لم يَشأِ اللهُ هدايتَه[1].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نبيَّ الرَّحمةِ، وكان الاقتِصارُ على وَصفِ النِّذارةِ رُبَّما أوهَمَ غيرَ ذلك؛ أتبَعَه قَولَه[2]:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

أي: إنَّا أرسَلْناك -يا محمَّدُ- بالحَقِّ[3] .....

= وقيل المعنى: وما أنت بمُسمعٍ مَن في القبورِ الحِسِّيةِ والمعنويَّةِ إسماعًا ينفَعُهم، بل اللهُ يُسمِعُهم إن شاء؛ فلا تَذهَبْ نفسُك عليهم حَسَراتٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((الروح)) لابن القيِّم (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٦٤-١٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨). =

بشيرًا لِمَن أطاعَك، ونَذيرًا لِمَن عَصاك[١].

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

أي: وما مِن أُمَّةٍ من الأُمَمِ الماضيةِ إلَّا بعَثْنا فيهم رَسولًا يُنذِرُهم عذابَ اللهِ تعالَى[٢].

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه أعْقَبَ الثَّناءَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَسليتِه على تَكذيبِ قَومِه،

= قال الشوكاني: (﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ مِن الفاعلِ، أي: مُحِقِّينَ، أو مِن المفعولِ، أي: محقًّا، أو: نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: إرسالًا مُلتبِسًا بالحقِّ، أو هو متعلِّق بـ ﴿بَشِيرًا﴾، أي: بشيرًا بالوعدِ الحقِّ، ونذيرًا بالوعدِ الحقِّ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٧).

وقال ابنُ عُثيمين: (قولُه تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يَحتَمِلُ أن تكونَ الباءُ للتعديةِ، أي: إنَّنا أعطيناك حقًّا وأرسلناك به، ويحتَمِلُ أن يكونَ وصفًا للرِّسالةِ، يعني: أرسلناك رسالةَ حَقٍّ ... فعلَى المعنى الثاني يكونُ معنى الآيةِ: أنَّ إرسالَ النبيِّ حقٌّ. وعلى المعنى الأوَّل يكونُ معناها: أنَّ الرَّسولَ جاء بالحقِّ، وإنْ كان المعنيانِ مُتلازِمَينِ، لكِنَّهما مختَلِفانِ مِن حيثُ المورِدُ؛ فعلى الأولِ يكونُ مَورِدُ الوَصفِ الرِّسالةَ نَفسَها، وعلى الثاني يكونُ مَورِدُ الوَصفِ المُرسَلَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٧١).

وقيل: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالقُرآنِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٧٠)

وقال ابن جرير: (﴿بِٱلْحَقِّ﴾ وهو الإيمانُ بالله وشرائعِ الدِّينِ التي افترَضها على عِبادِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

وتأنيسِه بأنَّ تلك سُنَّةُ الرُّسُلِ معَ أُمَمِهم[١].

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

أي: وإنْ يُكَذِّبْك -يا مُحمَّدُ- كُفَّارُ قَومِك، فقد كَذَّب الذين مِن قَبلِهم مِنَ الأُمَمِ الماضِيةِ رُسُلَهم؛ فلسْتَ بأوَّلِ رَسولٍ كذَّبَه قَومُه؛ فلا تحزَنْ[٢]!

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾.

أي: جاءتْ تلك الأُمَمَ الماضيةَ رسُلُهم بالأدِلَّةِ الظَّاهِرةِ، وبالكُتُبِ الإلهيَّةِ، وبالكِتابِ المُنيرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩).

قال ابنُ عاشور: (والتقديرُ: إن يكَذِّبوك فلا تحزَنْ، ولا تحسَبْهم مُفلِتينَ من العِقابِ على ذلك؛ إذ قد كذَّب الأقوامُ الذين جاءتْهم رسلٌ مِن قَبلِ هؤلاء، وقدْ عاقبناهم على تَكذيبِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

قال الشَّوكاني: (قِيل: الكتابُ المنيرُ داخلٌ تحتَ الزُّبُرِ وتحتَ البيِّناتِ، والعطفُ؛ لتغايرِ المفهوماتِ، وإنْ كانت مُتَّحِدَةً فِي الصِّدْقِ. والأَولى تَخصيصُ البيِّناتِ بالمُعجزاتِ، والزُّبُرِ: بالكُتُبِ التي فيها مواعِظُ، والكتابِ: بما فيه شرائعُ وأحكامٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٧).

وقيل: الكِتابُ المنيرُ هو التَّوراةُ والإنجيلُ. وممَّن قال بهذا القول: ابنُ القيِّم، والعُلَيمي. يُنظر: ((طريق الهجرتين)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٥٠).

واختارَ ابنُ عُثَيمين أنَّه كُلُّ كِتابٍ بَعَثَ اللهُ به الرَّسولَ؛ لِيُنيرَ الطَّريقَ لأُمَّتِه؛ فيَشمَلُ التَّوراةَ والإنجيلَ وصُحُفَ إبراهيمَ، وغَيرَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٥).

قال السعديُّ: (﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي: المُضيءِ في أخبارِه الصَّادِقةِ، وأحكامِه العادِلةِ؛ فلم يكُنْ تكذيبُهم إيَّاهم ناشِئًا عن اشتباهٍ أو قُصورٍ بما جاءتهم به الرُّسُلُ، بل بسبَبِ ظُلمِهم وعِنادِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا سلَّى اللهُ تعالَى نبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ هدَّد مَن خالَفَه وعصاه، بما فعَلَ في تِلك الأمَمِ، فقالَ تعالَى[(١)]:

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: ثمَّ أهلَكْتُ أولئك الذين كَفَروا بي وبما جاءَتْهم به رسُلُهم[(٢)].

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

أي: فكيفَ كان إنكاري على تِلك الأُمَمِ المكَذِّبةِ وعِقابي[(٣)]؟

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۞ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۞ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۞ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ فكما أنَّه مِن المتقرِّرِ الذي لا يقبَلُ الشَّكَّ أنَّ هذه المذكوراتِ لا تتساوَى، فكذلك عدَمُ تَساوي المتضادَّاتِ المعنويَّةِ أَوْلَى وأَوْلى؛ فلا يَستوي

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٨).

المؤمِنُ والكافِرُ، ولا المُهتدي والضَّالُّ، ولا العالِمُ والجاهِلُ، ولا أصحابُ الجنَّةِ وأصحابُ النَّارِ، ولا أحياءُ القُلوبِ وأمواتُها؛ فبَينَ هذه الأشياءِ مِن التفاوُتِ والفَرقِ ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالَى، فإذا عُلِمَت المراتِبُ، ومُيِّزَت الأشياءُ، وبان الذي يَنبغي أنْ يُتنافَسَ في تَحصيلِه مِن ضِدِّه؛ فلْيَختَرِ الحازِمُ لِنَفسِه ما هو أَوْلَى به وأحقُّه بالإيثارِ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- نَفيُ التَّساوي في كِتابِ اللهِ تعالَى قدْ يأتي بيْنَ الفِعلَينِ، كقَولِه تعالَى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]، وقد يأتي بين الفاعِلَينِ، نحو: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥]، وقد يأتي بين الجَزاءَينِ، كقَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقد جمَع اللهُ بيْن الثَّلاثةِ في آيةٍ واحِدةٍ، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾؛ فالأعمى والبصيرُ: الجاهِلُ والعالِمُ، والظُّلُماتُ والنُّورُ: الكُفرُ والإيمانُ، والظِّلُّ والحَرورُ: الجنَّةُ والنَّارُ، والأحياءُ والأمواتُ: المؤمِنون والكُفَّارُ[2]، وذلك على قَوْلٍ في التفسيرِ فيها.

٢- قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ جيءَ بلَفظِ ﴿الظُّلُمَاتُ﴾ جَمْعًا مع إفْرادِ ﴿النُّورُ﴾؛ لتَعدُّدِ فُنونِ الباطِلِ، واتِّحادِ الحقِّ[3]. وقيلَ: جِيءَ في ﴿الظُّلُمَاتُ﴾ بلَفظِ الجمْعِ؛ لأنَّه الأغلبُ في الاستِعْمالِ؛ فهُم

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٨٨).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩).

لا يَذكُرونَ الظُّلْمةَ إلَّا بصِيغةِ الجَمعِ[١].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ والجَهميَّةِ؛ لأنَّا لا نَشُكُّ أنَّ اللهَ جَلَّ وتعالَى ضَرَبَ هذه الأمثالَ للكافِرِ والمؤمِنِ، وأنَّ الحيَّ هو المؤمِنُ، والميِّتَ هو الكافِرُ؛ فإذا كان المُسمِعُ هو اللهُ جلَّ وعلا، ولا يَستطيعُ ذو سَمعٍ أنْ يَسمَعَ بسَمعِه حتى يُسمِعَه اللهُ، وكلاهما -مِن المؤمنِ والكافرِ- ذو سَمْعٍ: عَلِمْنا أنَّ المؤمِنَ سَمِع بتوفيقِ اللهِ الموعِظةَ، فوَعاها سَمعُه، وأوصلَها إلى قَلبِه بمَشيئتِه في نجاتِه، وأنَّ الكافِرَ صَمَّ عنها بخِذلانِ اللهِ، وزَوالِ توفيقِه عنه؛ فلم تَعِها أُذنُه، ولم يَقبَلْها قلبُه؛ لخُلُوِّه مِن مَشيئةِ اللهِ في المؤمِنِ، ودُخولِه في إضلالِه[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾، وقولُه في الآيةِ الأخرى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠] فيه الجَزْمُ بنفْيِ سَماعِ الأمواتِ، ويُجْعَلُ ما ثَبَتَ فيه الحديثُ مِن السَّمَاعِ[٣] مُخَصِّصًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٣)

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٩٩).

(٣) يُنظر ما أخرجه البُخاريُّ (١٣٧٠) مِن حَديثِ ابنِ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: ((اطَّلَعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أهلِ القَليبِ، فقال: وَجَدتُم ما وَعَدَ رَبُّكم حَقًّا))؟ فقيل له: تَدْعو أمواتًا؟! فقال: ((ما أنتُم بأسمَعَ منهم، ولكِنْ لا يُجيبونَ)).
وفي رِوايةٍ ((والَّذي نَفْسي بيَدِه، ما أنتُم بأسمَعَ لِمَا أقولُ منهم، ولكِنَّهم لا يَقدِرونَ أنْ يُجيبوا)) أخرَجَه مُسلِمٌ (٢٨٧٤) مِن حَديثِ أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه.
وأخرج البخاريُّ (١٣٣٨)، ومُسلِمٌ (٢٨٧٠) مِن حَديثِ أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال نَبيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ العَبدَ إذا وُضِعَ في قَبْرِه، وتَوَلَّى عنه أصحابُه، إنَّه لَيَسمَعُ قَرْعَ نِعالِهم...)) الحَديثَ.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٧٠).

٥- قالَ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ في قَولِه تعالَى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ رَدٌّ على القَدَرِيَّةِ الذين يُنكِرونَ أنْ تكونَ أفعالُ العِبادِ بمَشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ وَصْفُ الكافرِ بأنَّه مَيِّتٌ، وأنَّه بمنزلةِ أصحابِ القُبورِ؛ وذلك: أنَّ القَلبَ الحيَّ هو الذي يَعرِفُ الحقَّ ويَقبَلُه، ويُحِبُّه ويُؤثِرُه على غَيرِه، فإذا ماتَ القَلبُ لم يَبقَ فيه إحساسٌ ولا تمييزٌ بينَ الحقِّ والباطلِ، ولا إرادةٌ للحَقِّ وكراهةٌ للباطِلِ، بمنزلةِ الجَسَدِ الميِّتِ الذي لا يُحِسُّ بلذَّةِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وألَمِ فَقدِهما[٢].

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بيانُ ما يَشتَمِلُ عليه دِينُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الحقِّ الذي ضِدُّه الباطِلُ، والباطِلُ إنْ كان في الأخبارِ فهو الكَذِبُ، وإنْ كان في الأحكامِ فهو الجَورُ والظُّلمُ؛ وعليه فرِسالةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُتضَمِّنةٌ للحَقِّ في الأخبارِ والأحكامِ؛ ففيه بيانُ فَضيلةِ هذه الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ التي جاء بها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ كلَّ ما كان حقًّا فإنَّ الشَّريعةَ جاءتْ به، سواءٌ نَصَّتْ عليه بمعناه الخاصِّ أو بالمعنى العامِّ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ بُطلانُ الاحتِجاجِ بالقَدَرِ على مَعصيةِ اللهِ، ولو كان الاحتِجاجُ بالقَدَرِ على المعاصي والمخالَفاتِ ثابتًا لم يَرتفِعْ بإرسالِ الرُّسُلِ؛ لأنَّ القَدَرَ لا يَرتفعُ بإرسالِ الرُّسُلِ؛ فالرُّسُلُ أرسلَهم اللهُ سُبحانَه وتعالَى إقامةً للحُجَّةِ على الخَلْقِ، ورحمةً بهم أيضًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص:١٧٦، ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٠).

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ بيانُ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ليس ببِدْعٍ مِن الرُّسُلِ حتى تُنكَرَ رِسالتُه ويُقالَ: كيف جاء هذا الرجُلُ برسالةٍ مِن عِندِ اللهِ؟! ويَشهَدُ لهذا قولُه تعالَى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[1] [الأحقاف: ٩].

١٠- بُطلانُ ما ذَهَبَ إليه المتكَلِّمون مِن أهلِ البِدَعِ، الذين بَنَوا عَقيدتَهم على ما يَقتضيه العَقلُ، وقالوا: ما اقتضَى العقلُ إثباتَه لله أثبتْناه، سواءٌ كان مذكورًا في الكِتاب والسُّنَّةِ أم لم يُذْكَرْ، وما نفاه العَقلُ وَجَبَ علينا نفيُه وإنْ ذُكِرَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ! وما لم يَدُلَّ العَقلُ على نفيِه وإثباتِه فإنَّنا نتوقَّفُ فيه، وأكثرُهم قالوا: نَنفيه! لأنَّه لا بُدَّ مِن دَلالةِ العَقلِ على إثباتِه، فإذا لم يَدُلَّ على إثباتِه وَجَبَ نفيُه؛ لعدم وُجودِ الدَّليل!! والرَّدُّ على ذلك يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، ووجهُ ذلك: أنَّه لو كانتِ العُقولُ هي المرجِعَ ما احتيجَ إلى إرسالِ الرُّسُلِ[2]!

١١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تَكذيبِ قَومِه، وتَأنيسُه بأنَّ تلك سُنَّةُ الرُّسُلِ معَ أُمَمِهِم[3]، وفيه عِنايةُ اللهِ تعالى بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، بذِكْرِ ما يُسَلِّيه ويُهَوِّنُ عليه الأمرَ؛ وذِكرُ المُصيبةِ المُماثِلةِ يَقتضي تَسليةَ الإنسانِ وتَهوينَ الأمْرِ عليه[4].

١٢- في قَولِه تعالَى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يَترُكِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٦).

الرُّسُلَ هَمَلًا، بل آتاهم مِن البَيِّناتِ ما يُؤمِنُ على مِثلِه البَشَرُ[١].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أنَّ الكُتُبَ السَّماويَّةَ مُتضمِّنَةٌ للنُّورِ؛ وأنَّ كلَّ مَن أخَذ بها فقدْ أخَذَ بنورٍ يَمشي به في الظُّلماتِ[٢]، وذلك على قَولٍ في تَفسيرِ الآيةِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۞ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۞ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۞ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾

- في هذه الآياتِ أرْبعةُ أمْثالٍ للمُؤمِنينَ والكافِرينَ، وللإيمانِ والكُفْرِ؛ شبَّهَ الكافِرَ بالأعْمى، والكُفْرَ بالظُّلُماتِ والحَرورِ، والكافِرَ بالمَيِّتِ، وشبَّهَ المُؤمِنَ بالبَصيرِ، وشبَّهَ الإيمانَ بالنُّورِ والظِّلِّ، وشبَّهَ المُؤمِنَ بالحَيِّ -وذلك على قَولٍ في تفسيرِها- تَشبيهَ المَعْقولِ بالمَحْسوسِ، ورُوعيَ في هذه الأشْباهِ تَوزيعُها على صِفةِ الكافِرِ والمُؤمِنِ، وعلى حالةِ الكُفرِ والإيمانِ، وعلى أثَرِ الإيمانِ وأثَرِ الكُفرِ، وقُدِّمَ تَشبيهُ حالِ الكافِرِ وكُفرِه على تَشْبيهِ حالِ المُؤمِنِ وإيمانِه ابتِداءً؛ لأنَّ الغَرَضَ الأهمَّ مِن هذا التَّشبيهِ هو تَفْظيعُ حالِ الكافِرِ، ثمَّ الانتِقالُ إلى حُسنِ حالِ ضِدِّه؛ لأنَّ هذا التَّشبيهَ جاءَ لإيضاحِ ما أفادَه القَصْرُ في قَولِه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨] مِن أنَّه قَصْرٌ إضافيٌّ قَصرُ قَلْبٍ؛ فالكافِرُ شَبيهٌ بالأعْمى في اختِلاطِ أمْرِه بيْنَ عَقلٍ وجَهالةٍ كاختِلاطِ أمْرِ الأعْمى بيْنَ إدْراكٍ وعَدَمِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ شُبِّهَ الكُفرُ بالظُّلُماتِ في أنَّه يُجعَلُ الذي أحاطَ هو به غَيرَ مُتبيِّنٍ للأشْياءِ؛ فإنَّ من خَصائِصِ الظُّلْمةِ إخْفاءَ الأشْياءِ، والكافِرُ خَفِيَتْ عنه الحَقائِقُ الاعتِقاديَّةُ، وكُلَّما بيَّنَها له القُرآنُ لم يَنتقِلْ إلى أجْلَى، كما لو وَصَفتَ الطَّريقَ للسَّائِرِ في الظَّلامِ[1].

- قولُه: ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ فيه إدْخالُ (لا) على المُتَقابِلَينِ؛ لتَذْكيرِ نَفيِ الاستواءِ، وتَوسيطُها بيْنَهما للتَّأْكيدِ[2].

- قولُه: ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ ضُرِبَ الظِّلُّ مَثَلًا لأثَرِ الإيمانِ، وضِدُّه -وهو الحَرورُ- مَثَلًا لأثَرِ الكُفرِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فالظِّلُّ مَكانُ نَعيمٍ في عُرفِ السَّامِعينَ الأوَّلينَ، وهُمُ العَرَبُ أهْلُ البِلادِ الحارَّةِ التي تَتطلَّبُ الظِّلَّ للنَّعيمِ غالبًا إلَّا في بَعضِ فَصلِ الشِّتاءِ، وقُوبِلَ بالحَرورِ؛ لأنَّه مُؤلِمٌ ومُعذِّبٌ في عُرفِهم. وفي مُقابَلَتِه بالحَرورِ إيذانٌ بأنَّ المُرادَ تَشْبيهُهُ بالظِّلِّ في حالةِ استِطابَتِه؛ فحالُ المُؤمِنِ يُشبِهُ حالَ الظِّلِّ تَطمئِنُّ فيه المَشاعِرُ، وتَصدُرُ فيه الأعْمالُ عن تَبصُّرٍ وتَرَيُّثٍ وإتْقانٍ. وحالُ الكافِرِ يُشبِهُ الحَرورَ تَضطرِبُ فيه النُّفوسُ، ولا تتمكَّنُ معه العُقولُ من التَّأمُّلِ والتَّبصُّرِ، وتَصدُرُ فيها الآراءُ والمَساعي مُعجَّلةً مُتفكِّكةً[3].

- قولُه: ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ قُدِّم في هذه الفِقْرةِ ما هو مِن حالِ المُؤمِنينَ

= حيان)) (٩/ ٢٥- ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٣٨- ٦٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٣).

على عَكسِ الفِقْراتِ الثَّلاثِ التي قَبلَها؛ لأجْلِ الرِّعايةِ على الفاصِلةِ بكَلِمةِ ﴿ٱلْحَرُورُ﴾، وفَواصِلُ القُرآنِ من مُتمِّماتِ فَصاحَتِه؛ فلها حظٌّ من الإعْجازِ[١].

وقيل: قُدِّم الأشرَفُ في مَثَلينِ -وهو الظِّلُّ والحَرورُ-، وأُخِّرَ في مَثَلينِ -وهما البَصيرُ والنُّورُ- وذلك لأنَّهم كانوا قبلَ المَبعَثِ في ضَلالةٍ؛ فكانوا كالعُمْيِ، وطَريقُهم الظُّلْمةُ، فلمَّا جاء الرَّسولُ، واهْتَدى به قَومٌ، صاروا بَصيرينَ، وطَريقُهم النُّور، وقُدِّم ما كان مُتقدِّمًا من المُتَّصِفِ بالكُفرِ وطَريقَتِه على ما كان مُتأخِّرًا من المُتَّصِفِ بالإيمانِ وطَريقتِه. ثم لَمَّا ذُكِرَ المآلُ والمَرجِعُ، قُدِّم ما يَتعلَّقُ بالرَّحْمةِ على ما يَتعلَّقُ بالغَضَبِ، كما جاءَ في الحديثِ القدسيِّ: ((سَبَقَتْ رَحْمتي غَضَبي))[٢]؛ فقُدِّم الظِّلُّ على الحَرورِ. ثم إنَّ الكافِرَ المُصِرَّ بعدَ البَعْثةِ صارَ أضَلَّ مِن الأعْمَى، وشابَهَ الأمْواتَ في عَدَمِ إدْراكِ الحقِّ، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ﴾: الذين آمَنوا بما أنزَلَ اللهُ، ﴿وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾: الذين تُلِيَت عليهمُ الآياتُ البيِّناتُ، ولم يَنتَفِعوا بها. وهؤلاء كانوا بعدَ إيمانِ مَن آمَنَ، فأخَّرَهم لوُجودِ حَياةِ المُؤمِنينَ قَبلَ مَماتِ الكافِرِ[٣].

وقيل: لَمَّا ضُرِبَ الأعمَى والبصيرُ مَثلَينِ للمُؤمِنِ والكافِرِ، عَقَّب بما كُلٌّ منهما فيه، والكافِرُ في ظُلمةٍ، والمؤمِنُ في نورٍ؛ لأنَّ البصيرَ وإن كان حديدَ البصَرِ لا بدَّ له من ضوءٍ يُبصِرُ فيه، وقَدَّم الأعمى؛ لأنَّ البصيرَ فاصِلةٌ، فحَسُنَ تأخيرُه، ولَمَّا تقدَّم الأعمى في الذِّكرِ ناسَبَ تقديمَ ما فيه؛ فلذلك قُدِّمَت الظُّلمةُ على النُّورِ، ولأنَّ النُّورَ فاصِلةٌ، ثمَّ ذكَرَ ما لكُلٍّ منهما؛ فللمُؤمِنِ الظِّلُّ، وللكافِرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٣)

(٢) أخرجه البخاريُّ (٧٥٥٣)، ومسلِمٌ (٢٧٥١) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦- ٢٧).

الحَرورُ، وأخَّرَ الحَرورَ؛ لأجلِ الفاصِلةِ[١].

- وأفرَدَ الأعْمى والبَصيرَ؛ لأنَّه قابَلَ الجِنْسَ بالجِنْسِ؛ إذ قد يُوجَدُ في أفْرادِ العُمْيانِ ما يُساوي به بعضَ أفْرادِ البُصَراءِ، كأعْمى عِندَه مِن الذَّكاءِ ما يُساوي به البَصيرَ البَليدَ؛ فالتَّفاوُتُ بيْنَ الجِنْسَينِ مَقطوعٌ به، لا بيْنَ الأفْرادِ. وأمَّا الأحياءُ والأمْواتُ، فالتَّفاوُتُ بيْنَهما أكثَرُ؛ إذ ما مِن ميِّتٍ يُساوي في الإدْراكِ حيًّا، فذُكِر أنَّ الأحياءَ لا يُساوونَ الأمْواتَ، سواءً قابَلتَ الجِنْسَ بالجِنْسِ، أمْ قابَلتَ الفَرْدَ بالفَرْدِ[٢].

- وجُعِل كُلٌّ من التَّمْثيلَينِ تَمْهيدًا وتَوطِئةً لقَولِه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾؛ لأنَّ المُرادَ بالأحياءِ: المُؤمِنونَ الذي دَخَلوا في دارِ السَّلامِ، وانْتَفَعوا بدَعْوةِ نَبيِّ الرَّحْمةِ صَلَواتُ اللهِ عليه، وبالأمْواتِ: الذين بَقَوْا خارِجينَ عن دارِ أمانِ الدَّعْوةِ، ولم يَرفَعوا لها رأسًا، وأصَرُّوا واسْتَكْبَروا[٣].

- وتَركيبُ هذه الآياتِ عَجيبٌ؛ فقد احْتَوَتْ على واواتِ عَطفٍ، وأدواتِ نَفيٍ؛ فكُلٌّ مِنَ الوَاوَينِ اللَّذينِ في قَولِه: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ ...﴾ إلخ، وقَولِه: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ ...﴾ إلخ عاطِفُ جُمْلةٍ على جُمْلةٍ، وعاطِفُ تَشْبيهاتٍ ثَلاثةٍ، بل تَشْبيهٌ منها يَجمَعُ الفَريقَينِ، والتَّقْديرُ: ولا تَسْتوي الظُّلُماتُ والنُّورُ، ولا يَسْتوي الظِّلُّ والحَرورُ، وقد صُرِّح بالمُقدَّرِ أخيرًا في قَولِه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾، وأمَّا الواواتُ الثَّلاثةُ في قَولِه: ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾، ﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾؛ فكُلُّ واوٍ عاطِفٌ مُفردًا على مُفرَدٍ؛ فهي سِتَّةُ تَشْبيهاتٍ مُوزَّعةٍ على كُلِّ

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦- ٢٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٣٧).

فَريقٍ فـ (الْبَصِيرُ) عَطفٌ على الأعْمى، و﴿ٱلنُّورُ﴾ عَطفٌ على الظُّلُماتِ، و﴿ٱلْحَرُورُ﴾ عَطفٌ على ﴿ٱلظِّلُّ﴾؛ ولذلك أُعيدَ حَرفُ النَّفيِ. وأمَّا أدواتُ النَّفيِ فاثْنانِ منها مُؤكِّدانِ للتَّغلُّبِ المُوجَّهِ إلى الجُمْلَتينِ المَعْطوفَتَينِ المَحذوفِ فِعْلاهما ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ﴾، واثْنانِ مُؤكِّدانِ لِتوجُّهِ النَّفيِ إلى المُفرَدَينِ المَعْطوفَينِ على مُفرَدَينِ في سياقِ نَفيِ التَّسْويةِ بيْنَهما وبيْنَ ما عُطِفا عليهما، وهُما واوُ ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾، وواوُ ﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾، والتَّوكيدُ بعضُه بالمِثلِ، وهو حَرفُ (لا) وبَعضُه بالمُرادِفِ، وهو حَرفُ (ما)، ولم يُؤتَ بأداةِ نَفيٍ في نَفيِ الاستِواءِ الأوَّلِ؛ لأنَّه الذي ابتُدِئَ به نَفيُ الاستِواءِ المُؤكَّدِ من بعدُ؛ فهو كُلُّه تَأْييسٌ. وهو استِعْمالٌ قُرآنيٌّ بَديعٌ في عَطفِ المَنْفيَّاتِ من المُفْرداتِ والجُمَلِ[1].

- وقولُه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ تَمثيلٌ آخَرُ للمُؤمِنينَ والكافِرينَ أبلَغُ مِن الأوَّلِ؛ ولذلك كُرِّر الفِعلُ ﴿يَسْتَوِى﴾، وأُوثِرَ صِيغةُ الجَمعِ في الطَّرَفينِ؛ تَحْقيقًا للتَّبايُنِ بيْنَ أفْرادِ الفَريقَينِ. وقيلَ: هو تَمْثيلٌ للعُلَماءِ والجَهَلةِ[2].

- وفي هذه الجُمْلةِ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ أُظهِرَ الفِعلُ الذي قُدِّر في الجُمْلتَينِ اللَّتينِ قَبلَها، وهو فِعلُ ﴿يَسْتَوِى﴾؛ لأنَّ التَّمثيلَ هنا عادَ إلى تَشْبيهِ حالِ المُسلِمينَ والكافِرينَ؛ إذ شُبِّهَ حالُ المُسلِمِ بحالِ الأحياءِ، وحالُ الكافِرينَ بحالِ الأمْواتِ، فهذا ارْتِقاءٌ في تَشْبيهِ الحالَينِ من تَشبيهِ المُؤمِنِ بالبَصيرِ، والكافِرِ بالأعْمى إلى تَشبيهِ المُؤمِنِ بالحيِّ، والكافِرِ بالميِّتِ، فلمَّا كانتِ الحياةُ هي مَبعَثَ المَدارِكِ والمَساعي كَلِّها، وكان المَوتُ قاطِعًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٣ - ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩- ١٥٠).

للمَدارِكِ والمَساعي، شُبِّه الإيمانُ بالحَياةِ في انْبعاثِ خَيرِ الدُّنيا والآخِرةِ منه، وفي تلقِّي ذلك وفَهمِه، وشُبِّهَ الكُفرُ بالمَوتِ في الانْقِطاعِ عن الأعْمالِ والمُدرَكاتِ النَّافِعةِ كُلِّها، وفي عَدَمِ تلقِّي ما يُلْقى إلى صاحِبِهِ؛ فصار المُؤمِنُ شَبيهًا بالحيِّ مُشابَهةً كامِلةً لَمَّا خَرَجَ من الكُفرِ إلى الإيمانِ، فكأنَّه بالإيمانِ نُفِخَت فيه الحَياةُ بعدَ المَوتِ، كما أشارَ إليه قَولُه تعالَى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وكان الكافِرُ شَبيهًا بالميِّتِ ما دام على كُفرِهِ. واكتُفِيَ بتَشبيهِ الكافِرِ والمُؤمِنِ في مَوضِعَينِ عن تَشْبيهِ الكُفرِ والإيمانِ وبالعَكسِ لتَلازُمِهما، وأُوتيَ تَشبيهُ الكافِرِ والمُؤمِنِ في مَوضِعَينِ لكَونِ وَجهِ الشَّبَهِ في الكافِرِ والمُؤمِنِ أوضَحَ، وعُكِسَ ذلك في مَوضِعَينِ؛ لأنَّ وَجهَ الشَّبَهِ أوضَحُ في المَوضِعَينِ الآخَرَينِ(١).

وقيل: كُرِّر الفِعلُ ﴿يَسْتَوِى﴾ مبالغةً في المنافاةِ؛ لأنَّ المنافاةَ بينَ الحياةِ والموتِ أتمُّ مِن المنافاةِ المتقدِّمةِ(٢).

- وكرَّر كَلِمةَ النَّفيِ بين الظُّلماتِ والنُّورِ، والظِّلِّ والحَرورِ، والأحياءِ والأمواتِ، ولم يكرِّرْ بين الأعمى والبصيرِ؛ وذلك لأنَّ التكريرَ للتأكيدِ، والمنافاةُ بين الظُّلمةِ والنُّورِ، والظِّلِّ والحَرورِ مُضادَّةٌ؛ فالظُّلمةُ تُنافي النُّورَ وتُضادُّه، والعمَى والبصَرُ كذلك، أمَّا الأعمى والبصيرُ فليسَا كذلك، بل الشَّخصُ الواحِدُ قد يكونُ بصيرًا، وهو بعينِه يَصيرُ أعمَى؛ فالأعمَى والبصيرُ لا مُنافاةَ بيْنَهما إلَّا مِن حيثُ الوَصفُ، والظِّلُّ والحَرورُ المنافاةُ بيْنهما ذاتيَّةٌ؛ لأنَّ المرادَ مِن الظِّلِّ عدمُ الحَرِّ والبردِ، فلمَّا كانت المنافاةُ هناك أتمَّ، أكَّدَ بالتَّكرارِ، وأمَّا الأحياءُ والأمواتُ وإنْ كانوا كالأعمَى والبَصيرِ مِن حيثُ إنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ١٢٤).

الجِسمَ الواحِدَ يكونُ حَيًّا محلًّا للحياةِ، فيَصيرُ مَيْتًا محلًّا للموتِ، ولكِنَّ المنافاةَ بين الحيِّ والميِّتِ أتمُّ مِن المنافاةِ بين الأعمَى والبصيرِ؛ فالأعمَى والبصيرُ يَشتركانِ في إدراكِ أشياءَ، ولا كذلك الحيُّ والميِّتُ، كيف والميِّتُ يُخالِفُ الحيَّ في الحَقيقةِ لا في الوَصفِ[1]؟!

- قَولُه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾؛ قُدِّم الأحياءُ؛ لشرفِ الحياةِ[2].

- وأيضًا جِيءَ بصِيغةِ الجَمعِ في (الْأحياءُ والأمْواتُ) تفنُّنًا في الكَلامِ بعدَ أنْ أورَدَ (الأعْمى والبَصيرُ) بالإفْرادِ؛ لأنَّ المُفرَدَ والجَمعَ في المُعرَّفِ بلامِ الجِنْسِ سَواءٌ إذا كان اسْمًا له أفْرادٌ، بخِلافِ النُّورِ والظِّلِّ والحَرورِ[3].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ تَعليلٌ؛ تَسليةً لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإقْناطًا له من إيمانِ المُصرِّينَ، وإيذانًا بأنَّ الهاديَ والمُضِلَّ هو اللهُ سُبْحانَهُ[4].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أُعقِبَ تَمثيلُ حالِ المُؤمِنينَ والكافِرينَ بحالِ الأحياءِ والأمْواتِ بتَوجيهِ الخِطابِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَعذِرةً له في التَّبليغِ للفَريقَينِ، وفي عَدَمِ قَبولِ تَبْليغِه لدى أحَدِ الفَريقَينِ، وتَسلِيةً له عن ضَياعِ وابِلِ نُصحِه في سِباخِ قُلوبِ الكافِرينَ، فقيلَ له: إنَّ قَبولَ الذين قَبِلوا الهُدَى واسْتَمَعوا إليه كان بتَهيئةِ اللهِ تَعالى نُفوسَهم لقَبولِ الذِّكْرِ والعِلمِ، وإنَّ عَدَمَ انْتِفاعِ المُعرِضينَ بذلك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧).

هو بسَبَبِ مَوتِ قُلوبِهم، فكأنَّهم الأمواتُ في القُبورِ، وأنتَ لا تَستطيعُ أنْ تُسمِعَ الأمْواتَ، فجاءَ قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ على مُقابَلةِ قَولِه: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُ﴾ مُقابَلةَ اللَّفِّ بالنَّشْرِ المُرتَّبِ[1]؛ فجُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ تَعليلٌ لجُمْلةِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [فاطر: ١٨]؛ لأنَّ مَعْنى القَصرِ يَنحَلُّ إلى إثْباتٍ ونَفيٍ؛ فكان مُفيدًا فَريقَينِ: فَريقًا انْتَفَعَ بالإنْذارِ، وفَريقًا لم يَنتفِعْ؛ فعُلِّلَ ذلك بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾[2].

- وقَولُه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ إشارةٌ إلى الذين لم يَشَأِ اللهُ أنْ يُسمِعَهم إنْذارَك. وعُبِّرَ بـ﴿مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ عن الذين لم تَنفَعْ فيهم النُّذُرُ، وعُبِّرَ عن الأمْواتِ بـ﴿مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾؛ لأنَّ مَن في القُبورِ أعرَقُ في الابتِعادِ عن بُلوغِ الأصْواتِ؛ لأنَّ بيْنَهم وبيْنَ المُنادي حاجِزَ الأرْضِ؛ فهذا إطْنابٌ أفاد مَعنًى لا يُفيدُه الإيجازُ، بأنْ يُقالَ: وما أنتَ بمُسْمِعِ الموتَى[3].

- وأيضًا في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ شبَّه سُبحانَه مَن لا يَستجيبُ لِرَسولِه بأصحابِ القُبورِ، وهذا مِن أحسَنِ التشبيهِ؛ فإنَّ أبدانَهم قُبورٌ لقُلوبِهم؛ فقدْ ماتتْ قلوبُهم وقُبِرت في أبدانِهم[4].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أفادَ قَصْرًا إضافيًّا بالنِّسْبةِ إلى مُعالَجةِ تَسْميعِهم الحقَّ، أي: أنتَ نَذيرٌ للمُشابِهينَ مَن في القُبورِ، ولستَ بمُدخِلٍ

(١) سبَق تعريفُ اللَّفِّ والنَّشْرِ المرتَّب (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٥ - ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٥ - ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيِّم (١/ ٢٢).

الإيمانَ في قُلوبِهم، وهذا مَسوقٌ مَساقَ المَعذِرةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَسليتِه؛ إذ كان مُهتَمًّا من عَدَمِ إيمانِهم. واقتُصِرَ على وَصفِه بالنَّذيرِ؛ لأنَّ مَساقَ الكَلامِ على المُصمِّمينَ على الكُفرِ(١).

٣- قَولُه تعالَى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾

- قولُهُ: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ استِئْنافُ ثَناءٍ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَنويهٌ به وبالإسْلامِ، وهو تَوطِئةٌ لقَولِه: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾، وفيه دَفعُ تَوهُّمِ أنْ يكونَ قَصرُه على النِّذارةِ قَصْرًا حقيقيًّا؛ لِتَبيُّنِ أنَّ قَصرَه على النِّذارةِ بالنِّسْبةِ للمُشرِكينَ الذين شابَهَ حالُهم حالَ أصْحابِ القُبورِ، أي: إنَّ رِسالَتَك تَجمَعُ بِشارةً ونِذارةً؛ فالبِشارةُ لِمَن قَبِلَ الهُدى، والنَّذارةُ لِمَن أعرَضَ عنه، وكُلُّ ذلك حَقٌّ؛ لأنَّ الجَزاءَ على حَسَبِ القَبولِ؛ فهي رِسالةٌ مُلابِسةٌ للحَقِّ، ووَضْعِ الأشياءِ مَواضِعَها(٢).

- قولُهُ: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ إبطالٌ لاستِبْعادِ المُشرِكينَ أنْ يُرسِلَ اللهُ إلى النَّاسِ بَشَرًا منهم؛ فإنَّ تلك الشُّبْهةَ كانتْ من أعظَمِ ما صدَّهُم عن التَّصْديقِ به؛ فلذلك أُتبِعَتْ دَلائلُ الرِّسالةِ بإبْطالِ الشُّبْهةِ الحاجِبةِ. وأيضًا في ذلك تَسْفيهٌ لأحْلامِهم؛ إذ رَضُوا أنْ يكونوا دون غَيرِهم مِن الأُمَمِ التي شَرُفَتْ بالرِّسالةِ(٣).

- ووَجهُ الاقتِصارِ على وَصْفِ النَّذيرِ هنا في قولِه: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾، حيثُ اكتفَى بذِكرِ النَّذيرِ عنِ البَشيرِ في آخِرِ الآيةِ بَعدَ ذِكرِهما،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧).

دُونَ الجَمعِ بيْنَه وبيْنَ وَصفِ البَشيرِ: أنَّه لَمَّا كانتِ النِّذارةُ مَشفوعةً بالبِشارةِ لا مَحالةَ، وعُلِمَ أنَّ النِّذارةَ قَرينةُ البِشارةِ، دلَّ ذِكرُها على ذِكرِها، لا سيَّما وقدِ اشتملتِ الآيةُ على ذِكرِهما واقترنَا مِن قَبْلُ. أو لأنَّ الإنذارَ هو الأهمُّ المَقْصودُ مِن البَعْثةِ؛ فعَدَمُ ذِكرِ وَصفِ البِشارةِ؛ للاكتِفاءِ بذِكْرِ القَرينةِ اكتِفاءً بدَلالةِ ما قَبلَه عليه، وأُوثِرَ وَصفُ النَّذيرِ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أشدُّ مُناسَبةً لمَقامِ خِطابِ المُكذِّبينَ. وقيل: وجْهُ الاقتصارِ على وَصْفِ النَّذيرِ هنا هو مُراعاةُ العُمومِ الذي في قَولِه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾؛ فإنَّ من الأُمَمِ مَن لم تَحصُلْ لها بِشارةٌ؛ لأنَّها لم يُؤمِنْ منها أحَدٌ [(١)].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾

- جوابُ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ مَحذوفٌ دلَّتْ عليه عِلَّتُه، وهي قَولُه: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤]، والتَّقديرُ: إنْ يُكذِّبوكَ فلا تَحْزَنْ، ولا تَحسَبْهم مُفلَتينَ من العِقابِ على ذلك؛ إذ قدْ كذَّبَ الأقْوامُ الذين جاءَتْهم رُسُلٌ من قَبلِ هؤلاء، وقدْ عاقَبْناهم على تَكْذيبِهم؛ فالفاءُ في قَولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فاءٌ فَصيحةٌ، أو تَفريعٌ على المَحْذوفِ [(٢)].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ إذ قدْ كان سِياقُ الحَديثِ في شَأنِ الأُمَمِ؛ فجُعِلَتِ التَّسْليةُ في هذه الآيةِ بحالِ الأُمَمِ مع رُسُلِهم عَكسَ ما في آيةِ (آلِ عمرانَ)، حيثُ قال: ﴿فَإِن

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩).

﴿كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آلِ عمرانَ: ١٨٤]؛ لأنَّ سِياقَ آيةِ (آلِ عِمْرانَ) كان في ردِّ مُحاوَلةِ أهْلِ الكِتابِ إفحامَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ قَبلَها: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران: ١٨٣]. وقد خُولِفَ أيضًا في هذه الآيةِ: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أُسلوبُ آيةِ (آلِ عِمْرانَ): ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]؛ إذ قُرِن كُلٌّ من (الزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) هنا بالباءِ، وجُرِّدا منها في آيةِ (آلِ عِمْرانَ)؛ وذلك لأنَّ آيةَ (آلِ عِمْرانَ) جَرَتْ في سِياقِ زَعمِ اليَهودِ ألَّا تُقبَلَ مُعجزةُ رَسولٍ إلَّا مُعجزةَ قُربانٍ تَأكُلُه النَّارُ، فقيلَ في التَّفرُّدِ ببُهتانِهم: قد كُذِّبت الرُّسُلُ الذين جاء الواحِدُ منهم بأصْنافِ المُعجزاتِ، مِثلُ عيسى عليه السَّلامُ، ومِن مُعجزاتِهم: قَرابينُ تَأكُلُها النَّارُ فكَذَّبتُموهُم، فتَرْكُ إعادةِ الباءِ هُنالك إشارةٌ إلى أنَّ الرُّسُلَ جاؤوا بالأنْواعِ الثَّلاثةِ. ولَمَّا كان المَقامُ هنا لِتَسْليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ناسَبَ أنْ يُذكَرَ ابتِلاءُ الرُّسُلِ بتَكذيبِ أُمَمِهم على اختِلافِ أحْوالِ الرُّسُلِ، فمنهم الذين أتَوْا بآياتٍ، أي: خَوارِقِ عاداتٍ فقط، مِثلُ صالِحٍ وهُودٍ ولُوطٍ، ومنهم مَن أتَوْا بالزُّبُرِ وهي المَواعِظُ التي يُؤمَرُ بكِتابَتِها وزَبْرِها، أي: تَخْطيطِها؛ لِتكونَ مَحفوظةً، وتُردَّدَ على الألسُنِ، كزَبورِ داودَ وكُتُبِ أصْحابِ الكُتُبِ من أنْبياءِ بَني إسرائيلَ، ومنهم مَن جاؤوا بالكِتابِ المُنيرِ -يَعْني كِتابَ الشَّرائعِ، وذلك على قولٍ في تَفسيرِها- مِثلُ إبراهيمَ وموسى وعيسى؛ فذِكرُ الباءِ مُشيرٌ إلى تَوزيعِ أصْنافِ المُعجزاتِ على أصْنافِ الرُّسُلِ، فزَبورُ إبراهيمَ صُحُفُه المَذكورةُ في قَولِه تَعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩]، وزَبورُ موسى كَلامُه

في المَواعِظِ الذي ليس فيه تَبليغٌ عن اللهِ، وزَبورُ عيسى أقوالُهُ المَأْثورةُ في الأناجيلِ ممَّا لم يكُنْ مَنسوبًا إلى الوَحيِ؛ فالضَّميرُ في ﴿جَآءُو﴾ للرُّسُلِ، وهو على التَّوزيعِ، أي: جاء مَجْموعُهم بهذه الأصْنافِ من الآياتِ، ولا يَلزَمُ أنْ يجيءَ كُلُّ فَردٍ منهم بجميعِها كما يُقالُ: بَنو فُلانٍ قَتَلوا فُلانًا[١].

- قَولُه: ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ (الكتاب) مُفردٌ أُريدَ به الجنسُ، فصار عامًّا؛ فالكتُبُ التي جاؤُوا بها كُتُبٌ كثيرةٌ بحسَبِ الرُّسُلِ[٢].

٥- قَولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ عاطِفةُ جُمْلةٍ: ﴿أَخَذْتُ﴾ على جُمْلةِ: ﴿جَآءَتْهُمْ﴾، أي: ثُمَّ أخَذتُهم، وأظْهَر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في مَوضِعِ ضَميرِ الغَيْبةِ؛ لذَمِّهم بما في حَيِّزِ الصِّلةِ، والإشعارِ والإيماءِ إلى أنَّ أخْذَهم لأجْلِ ما تَضمَّنَتْه صِلةُ المَوْصولِ من أنَّهم كَفَروا[٣].

- والأخْذُ مُعبِّرٌ به هنا عنِ الاستِئْصالِ والإفْناءِ؛ فشبَّهَ إهْلاكَهُم جَزاءً على تَكذيبِهم بإتْلافِ المُغيرينَ على عَدُوِّهم، يَقتُلونَهم ويَغنَمون أمْوالَهم، فتَبْقَى دِيارُهُم بَلْقَعًا، كأنَّهم أُخِذوا منها[٤].

- قولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استِفْهامٌ مُستَعمَلٌ في التَّعجُّبِ من حالِهم، وهو مُفرَّعٌ بالفاءِ على ﴿أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، والمَعْنى: أخَذتُهُم أخْذًا عَجيبًا؛ كيف تَرَونَ أُعْجوبَتَه[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٨ - ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩).

- وأيضًا قولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فيه مَزيدُ تَشْديدٍ وتَهْويلٍ[١]. والنَّكيرُ: اسمٌ لشِدَّةِ الإنْكارِ، وهو هنا كِنايةٌ عن شِدَّةِ العِقابِ؛ لأنَّ الإنكارَ يَستلزِمُ الجَزاءَ على الفِعلِ المُنكَرِ بالعِقابِ، وحُذِفتْ ياءُ المُتكلِّمِ -فأصله: (نَكيري)- تَخْفيفًا؛ ولِرعايةِ الفَواصِلِ في الوَقفِ؛ لأنَّ الفَواصِلَ يُعتبَرُ فيها الوَقْفُ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٠).

الآيتان (٢٧-٢٨)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جُدَدٌ﴾: أي: خُطوطٌ وطَرائِقُ تكونُ في الجِبالِ، واحِدُها: جُدَّةٌ، وهي: الطريقةُ الظَّاهِرةُ، وأصلُ (جدد) هنا: يدُلُّ على القَطعِ[1].

﴿وَغَرَابِيبُ﴾: جمْعُ غِربيبٍ، وهو: الشَّديدُ السَّوادِ، والعَرَبُ تقولُ للشَّديدِ السَّوادِ الذي لونُه كلَونِ الغُرابِ: أسوَدُ غِربيبٌ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالَى أدلَّةً أُخرى على عَظيمِ قُدرتِه، فيقولُ: ألم ترَ -يا مُحمَّدُ- أنَّ اللهَ أنزلَ مِنَ السَّماءِ ماءً، فأخرَجْنا به ثَمراتٍ مُختلِفةَ الألوانِ مع أنَّها جميعًا تُسقَى بماءٍ واحدٍ، وجعَلْنا بقُدرتِنا مِنَ الجِبالِ خُطوطًا وقِطَعًا ذاتَ ألوانٍ مُختَلِفةٍ؛ فمنها الأبيضُ، ومنها الأحمرُ، ومنها ما هو شَديدُ السَّوادِ؛ ومِنَ النَّاسِ والدوابِّ والأنعامِ أصنافٌ وأنواعٌ مختَلِفٌ ألوانُها اختِلافًا كذلك الاختِلافِ الكائِنِ في الجِبالِ وفي أنواعِ الثِّمارِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٣)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ١٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦١)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

ثُمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه مَن هُمْ أَوْلَى النَّاسِ بخَشيتِه، فيقولُ: إنَّما يَخشَى اللهَ تعالَى العُلَماءُ العالِمونَ باللهِ تعالَى وصِفاتِه وشَرائعِه، إنَّ اللهَ قاهِرٌ غالِبٌ، مُمتنِعٌ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقْصٍ، غَفورٌ لِذُنوبِ عِبادِه.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قرَّر اللهُ تعالَى وَحدانيَّتَه بأدِلَّةٍ قرَّبَها، وأمْثالٍ ضَرَبها؛ أتْبَعَها بأدلَّةٍ سماويَّةٍ وأرضيَّةٍ، فقال[1]:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾.

أي: ألَمْ تَرَ -يا محمَّدُ- أنَّ اللهَ أنزلَ مِن السَّماءِ ماءً، فأخرَجْنا بهذا الماءِ الواحدِ ثَمراتٍ مُختَلِفةَ الألوانِ[2]؟!

كما قال تعالَى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٣، ٤].

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٢-٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣-٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

أي: وجَعَل سُبحانَه مِن[١] الجِبالِ خُطوطًا وطَرائِقَ بيضاءَ وحَمراءَ، مُختَلِفةَ الألوانِ، وخُطوطًا وطَرائِقَ شَديدةَ السَّوادِ[٢].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها استِدلالٌ آخَرُ على قُدرةِ اللهِ تعالَى وإرادتِه[٣].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾.

أي: وكما جعَلَ اللهُ ألوانَ الثَّمَراتِ والجِبالِ مُختَلِفةً، كذلك جعَلَ النَّاسَ والدَّوابَّ[٤] والأنعامَ من الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ مُختَلِفةَ الألوانِ، كالحُمرةِ، والبَياضِ، والسَّوادِ، والصُّفرةِ، وغيرِها مِن الألوانِ[٥].

---

(١) قال ابن عاشور: (﴿مِنْ﴾ تبعيضيةٌ على معنَى: وبعضُ تُرابِ الجبالِ جُدَدٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٢، ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥-٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٩٢-١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٦).

(٤) قال ابنُ كَثير: (وهو: كُلُّ ما دبَّ على قوائِمَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٤).
وقال ابنُ عثيمين: (المرادُ بها ما عدا النَّاسَ والأنعامَ، فتَشمَلُ كُلَّ ما دَبَّ على الأرضِ إلَّا النَّاسَ والأنعامَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).
قال ابنُ عطيَّة: (قَولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِن الكلامِ الأوَّلِ، فيجيء الوَقفُ عليه حسَنًا، وإلى هذا ذهب كثيرٌ من المفسِّرين. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ من الكلامِ الثَّاني يخرُجُ مَخرجَ =

كما قال تعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قبْلَها:

لَمَّا قال تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وعَدَّدَ آياتِه وأعلامَ قُدرَته، وآثارَ صَنعَته، وما خَلَقَ مِنَ الفِطَرِ المُختَلِفةِ الأجناسِ، وما يُستَدَلُّ به عليه وعلى صِفاتِه؛ أتْبَعَ ذلك قولَه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، كأنَّه قال: إنَّما يَخشاهُ مِثلُكَ ومَن على صِفَتِكَ ممَّن عَرَفَه حَقَّ مَعرِفَته[1].

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

أي: إنَّما يَخافُ اللهَ تعالَى ويُعظِّمُه، فيتَّقي عِقابَه بطاعتِه وتَرْكِ مَعصيتِه مِن خِلقِه: العُلَماءُ العالِمونَ باللهِ تعالَى وصِفاتِه وقُدْرتِه على كُلِّ شيءٍ، والعالِمونَ بشَرائعِه[2].

كما قال تعالَى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((واللهِ

= السَّبَبِ، كأنَّه قال: كما جاءت القُدرةُ في هذا كُلِّه إنَّما يَخشَى اللهَ من عِبادِه العُلماءُ)). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن جُزي)) (٢/ ١٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢١، ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٤)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

إنِّي لأَرْجو أنْ أكونَ أخشاكم لِلهِ، وأعْلَمَكم بما أتَّقي))[١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يا أمَّةَ مُحمَّدٍ، واللهِ لو تَعلَمونَ ما أعلَمُ، لضَحِكتُم قليلًا ولبَكَيتُم كثيرًا))[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ قاهِرٌ غالِبٌ مُنتقِمٌ ممَّن كفَرَ به وعصاه، مُمتنِعٌ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ غفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ...﴾ التَّنبيهُ على أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يَتفكَّرَ في خَلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ هذا تقريرٌ، والتَّقريرُ لا يكونُ إلَّا بعدَ أنْ يَنظُرَ المُقرَّرُ فيما قُرِّرَ به؛ حتى يُقِرَّ به ويَعترِفَ[٤].

٧- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ الخَشيةُ بقَدْرِ مَعرفةِ المَخشيِّ؛ والعالِمُ يَعرِفُ اللهَ فيَخافُه ويَرجوه، وهذا دَليلٌ على أنَّ العالِمَ أعْلَى دَرجةً مِن العابِدِ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فبَيَّن أنَّ الكرامةَ بقَدرِ التَّقوى. والتَّقوى بقَدرِ العِلمِ؛ فالكرامةُ بقَدرِ العِلمِ لا بقَدرِ العَمَلِ، نَعَم، العالِمُ إذا ترَكَ العَمَلَ قَدَح ذلك في عِلمِه[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (١١١٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ (١٠٤٤) واللفظ له، ومُسلِمٌ (٩٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧-٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٠-٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٦).

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فَضيلةُ خشيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ لا يَتَّصِفُ بها إلَّا العُلَماءُ[١].

٩- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ المرادُ بالعُلَماءِ هم الذين عَلِموه بصِفاتِه وتَوحيدِه، وما يجوزُ عليه وما يجِبُ له، وما يَستحيلُ عليه؛ فعَظَّموه وقدَّروه حَقَّ قَدرِه، وخَشُوه حَقَّ خَشيتِه، ومَن ازدادَ به عِلمًا ازدادَ منه خوفًا، ومَن كان عِلمُه به أقَلَّ كان آمَنَ[٢].

١٠- مَن عرَفَ اللهَ لم يكُنْ شَيءٌ أحَبَّ إليه منه، ولم تَبقَ له رغبةٌ فيما سِواه إلَّا فيما يقرِّبُه إليه، ويُعينُه على سَفَرِه إليه، ومن عَلاماتِ المعرفةِ الهَيبةُ؛ فكلَّما ازدادتْ معرفةُ العبدِ برَبِّه ازدادتْ هيبتُه له وخَشيتُه إيَّاه، كما قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، أي: العُلَماءُ به، ومَن عرَفَ اللهَ صفَا له العَيشُ، وطابَتْ له الحياةُ، وهابه كُلُّ شَيءٍ، وذهَب عنه خوفُ المخلوقينَ، وأنِسَ باللهِ، واستوحشَ مِن النَّاسِ، وأورثَتْه المعرفةُ الحياءَ مِن اللهِ، والتعظيمَ له والإجلالَ، والمراقبةَ والمحبَّةَ، والتوكُّلَ عليه، والإنابةَ إليه، والرِّضا به، والتَّسليمَ لأمرِه[٣].

١١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فيه أنَّ العِلمَ التامَّ يَستلزِمُ الخَشيةَ؛ فمَن كان باللهِ وبأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه وأحكامِه أعلمَ، كان له أخشَى وأتْقَى[٤]، والعلماءُ باللهِ العارِفونَ به هُمُ الذين يَخْشَونه حَقَّ خَشيتِه؛ لأنَّه كلَّما كانتِ المعرفةُ للعظيمِ القَديرِ العليمِ الموصوفِ بصِفاتِ الكمالِ، المنعوتِ بالأسماءِ الحُسنَى -كلَّما كانتِ المعرفةُ به أتمَّ، والعلمُ به أكملَ، كانتِ الخشيةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيِّم (ص: ٤٠٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٨١).

له أعظمَ وأكثرَ[١]، وهذه الخَشيةُ توجِبُ له الانكِفافَ عن المعاصي، والاستِعدادَ للِقاءِ مَن يخشاه، وهذا دَليلٌ على فَضيلةِ العِلم؛ فإنَّه داعٍ إلى خَشيةِ اللهِ، وأهلُ خَشيتِه هم أهلُ كرامتِه، كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨][٢]؛ فخَوفُ العَبدِ مِن اللهِ لا يحصُلُ إلَّا إذا عَلِمَ كَونَه تعالى عالِمًا بجَميعِ المعلوماتِ، قادِرًا على كُلِّ المقدوراتِ، غيرَ راضٍ بالمُنكَراتِ والمحَرَّماتِ؛ فإذَن الخَوفُ مِن لوازمِ العِلمِ باللهِ، وبهذا يُعرَفُ نباهةُ قَدرِ العِلمِ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ دَليلٌ على أنَّ الخَشيةَ لا تَثبُتُ لأهلِها إلَّا بالعِلمِ، وأنَّ العِلمَ لا يَتكاملُ لأهله إلَّا بالفِكرِ في خَلقِ اللهِ، والإيمانِ بجميلِ صُنعِه وقُدرتِه المحيطةِ بخَلقِه؛ لأنَّه جلَّ وعلا ابتدأَ الآيةَ، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾، وذكرَ الجبالَ والنَّاسَ والأنعامَ واختِلافَ ألوانِها، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾؛ فدلَّ على أنَّ العُلَماءَ لهم فيما ذَكرَه مُعتبَرٌ وفِكرٌ، وتَولُّدُ خَشيةٍ مِن قادرٍ هذا فِعلُه وصُنعُه[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾ ذَكَرَ هذا الدَّليلَ على طريقةِ الاستِخبارِ، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾، وذكَرَ الدَّليلَ المتقَدِّمَ على طريقةِ الإخبارِ، وقال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩]، وفي ذلك وجهانِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (١/ ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٧٠٠).

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ إنزالَ الماءِ أقرَبُ إلى النَّفعِ، والمنفعةُ فيه أظهَرُ؛ فإنَّه لا يَخفَى على أحدٍ في الرُّؤيةِ أنَّ الماءَ منه حياةُ الأرضِ؛ فعظَّم دَلالتَه بالاستِفهامِ؛ لأنَّ الاستفهامَ الذي للتَّقريرِ لا يُقالُ إلَّا في الشَّيءِ الظَّاهِرِ جِدًّا، كما أنَّ مَن أبصَرَ الهِلالَ وهو خفيٌّ جدًّا، فقال له غيرُه: أين هو؟ فإنَّه يقولُ له: في الموضِعِ الفُلانيِّ، فإذا لم يَرَه يقولُ له: الحَقُّ معك؛ إنَّه خَفيٌّ وأنت معذورٌ، وإذا كان بارزًا يقولُ له: أمَا تراه؟ هذا هو ظاهِرٌ!

الوجهُ الثَّاني: وهو أنَّه ذكَرَه بعدَما قرَّر المسألةَ بدَليلٍ آخَرَ، وظهَرَ بما تقدَّم للمَدعوِّ بَصارةٌ بوجوهِ الدَّلالاتِ، فقال له: أنت صِرتَ بصيرًا بما ذكَرْناه، ولم يبقَ لك عذرٌ، ألا ترَى هذه الآيةَ[1]؟!

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ فإنَّ الباءَ هنا للسَّبَبِيَّةِ، ففي الآيةِ إثباتُ الأسبابِ، وأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قدْ قَرَنَ الأشياءَ بأسبابِها، وهذا مِن تمامِ حكمتِه؛ أنْ تكونَ الأسبابُ والمُسَبَّبَاتُ مُتلازِماتٍ؛ فمِنَ المعلومِ أنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُخْرِجَ هذه الثمراتِ بدون ماءٍ! ولكنْ قد جَعَل لكلِّ شيءٍ سببًا[2].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ بيانُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بإخراجِ هذه الثَّمَراتِ المختَلِفةِ الألوانِ مع أنَّها في أرضٍ واحدةٍ، وتُسقَى بماءٍ واحدٍ، ويَظهَرُ ذلك لك جَلِيًّا إذا نظرتَ إلى الزهورِ كيف تَجِدُ هذا الاختلافَ العجيبَ بينها مع أنَّها تُسقَى بماءٍ واحدٍ[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٦).

١٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ذكَرَ (الجبالَ) ولم يذكُرِ (الأرضَ)، كما قال في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: ٤]، مع أنَّ هذا الدَّليلَ مِثلُ ذلك؛ وذلك لأنَّ الله تعالى لَمَّا ذكرَ في الأوَّلِ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٢٧]، كان نفْسُ إخراجِ الثِّمارِ دَليلًا على القُدرةِ، ثمَّ زاد عليه بيانًا، وقال: ﴿مُّخْتَلِفًا﴾، كذلك في الجِبالِ في نَفسِها دَليلٌ للقُدرةِ والإرادةِ؛ لأنَّ كونَ الجِبالِ في بَعضِ نواحي الأرضِ دونَ بَعضِها، والاختِلافَ الذي في هيئةِ الجبلِ -فإنَّ بَعضَها يكونُ أخفَضَ، وبَعضُها أرفَعَ-: دليلُ القُدرةِ والاختيارِ، ثمَّ زاده بيانًا وقال: ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ﴾، أي: مع دَلالتِها بنَفسِها هي دالَّةٌ باختلافِ ألوانِها، كما أنَّ إخراجَ الثَّمَراتِ في نَفسِها دلائِلُ، واختلافَ ألوانِها دليلٌ[(١)].

١٧- قال تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ لَمَّا ذَكَر الغَرابيبَ -وهو الشَّديدُ السَّوادِ- لم يَذكُرْ فيه ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾؛ لأنَّه مِن حيثُ جَعَلَه شَديدَ السَّوادِ -وهو المُبالِغُ في غايةِ السَّوادِ- لم يَكُنْ له ألوانٌ، بل هذا لَونٌ واحِدٌ، بخِلافِ البيضِ والحُمْرِ؛ فإنَّها مُختَلفةٌ[(٢)].

١٨- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ اختِلافُ الألوانِ المذكورةِ: مِن غرائِبِ صُنعِه تعالَى وعَجائبِه، ومِن البراهينِ القاطِعةِ على أنَّه هو المؤثِّرُ جَلَّ وعلا، وأنَّ إسنادَ التأثيرِ للطَّبيعةِ مِن أعظَمِ الكُفرِ والضَّلالِ[(٣)].

١٩- قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٣).

[البينة: ٧] إلى قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨]، فأخبَرَ أنَّ خَيرَ البريَّةِ مَن خَشِيَ رَبَّه، وأخبَرَ في الآيةِ هنا أنَّ العُلَماءَ باللهِ هم الذين يَخشَونَه، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾؛ فحَصَل بمجموعِ الآيتَينِ أنَّ أهلَ العِلمِ باللهِ هم خيرُ البَريَّةِ وإنْ كانوا على طَبَقاتٍ في ذلك[1].

٢٠- قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يَقتضي الحَصرَ مِن الطَّرفينِ: ألَّا يخشاه إلَّا العُلماءُ، ولا يكونَ عالِمًا إلَّا مَن يخشاه؛ فلا يخشاه إلَّا عالِمٌ، وما مِن عالِمٍ إلَّا وهو يخشاه، فإذا انتفَى العِلمُ انتفتِ الخشيةُ، وإذا انتفتِ الخشيةُ دلَّت على انتِفاءِ العِلمِ[2].

٢١- قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الخشيةَ هي: الخوفُ الناتجُ عن عِلْمٍ[3].

٢٢- الخَشيةُ أخَصُّ مِن الخَوفِ؛ فإنَّ الخَشيةَ للعُلَماءِ باللهِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، فهي خَوفٌ مَقرونٌ بمَعرفةٍ؛ فالخَوفُ حَركةٌ، والخَشيةُ انجِماعٌ وانقِباضٌ وسكونٌ؛ فإنَّ الذي يرَى العدوَّ والسَّيلَ ونحوَ ذلك، له حالتانِ:

إحداهما: حركةٌ للهَرَبِ منه، وهي حالةُ الخَوفِ.

والثانيةُ: سُكونُه وقرارُه في مكانٍ لا يَصِلُ إليه فيه، وهي الخَشيةُ؛ فالخوفُ لعامَّةِ المؤمِنينَ، والخشيةُ للعُلَماءِ العارفينَ، وعلى قَدرِ العِلمِ والمعرفةِ يكونُ الخَوفُ والخشيةُ، فصاحِبُ الخوفِ يلَتَجِئُ إلى الهرَبِ والإمساكِ، وصاحِبُ

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٣).

الخَشيةِ يلتجئُ إلى الاعتِصامِ بالعِلم، ومَثَلُهما مَثَلُ مَن لا عِلمَ له بالطِّبِّ، ومَثَلُ الطَّبيبِ الحاذِقِ؛ فالأوَّلُ يَلتجئُ إلى الحِمْيةِ والهرَبِ، والطَّبيبُ يَلتجئُ إلى مَعرفتِه بالأدويةِ والأدواءِ[(١)].

٢٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يدُلُّ بالالْتزامِ على أنَّ غيرَ العُلَماءِ لا تَتأتَّى منهم خَشيةُ اللهِ؛ فدلَّ على أنَّ البَشَرَ في أحوالِ قُلوبِهم ومَداركِهم مختَلِفونَ، وهذا مِثلُ قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾[(٢)] [فاطر: ١٨].

٢٤- العُلَماءُ في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ هم العُلَماءُ باللهِ؛ العُلَماءُ بأسمائِه وصِفاتِه وآياتِه، وليس المرادُ بهم عُلَماءَ الصِّناعةِ والتكنولوجيا وما أشبهَ ذلك؛ فإنَّ هؤلاء عُلَماءُ في الدُّنيا، يَعلمونَ ظاهرًا مِن الحياةِ الدُّنيا؛ وذلك أنَّ الخَشيةَ لا تكونُ إلَّا عن عِلمٍ بحالِ المَخْشِيِّ، ومَعلومٌ أنَّ العِلمَ بهذه الصَّنائعِ لا تَعَلُّقَ له بعَظمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فهو مادِّيٌّ مَحضٌ، بخِلافِ المعرفةِ باللهِ وعظَمتِه؛ فأهلُ المعرفةِ به هم أهلُ خَشيتِه[(٣)].

٢٥- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ مَن خَشِيَ اللهَ وأطاعه، وامتثَلَ أوامِرَه واجتنَبَ نواهيَه: فهو عالِمٌ؛ لأنَّه لا يَخشاه إلَّا عالِمٌ، وعلى نفْيِ الخَشيةِ عن غيرِ العُلَماءِ، ونَفيِ العِلمِ عن غيرِ أُولي الخشيةِ أيضًا، وأنَّ مَن لم يخشَ اللهَ فليس بعالِمٍ، وبذلك فسَّرها السَّلَفُ.

وممَّا يُبيِّنُ أنَّ العِلمَ يُوجِبُ الخَشيةَ، وأنَّ فَقدَه يَستلزِمُ فَقْدَ الخَشيةِ؛ وُجوهٌ:

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (١/ ٥٠٩،٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٦/ ٢٦).

أحدُها: أنَّ العِلمَ باللهِ تعالَى وما له مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، كالكِبرياءِ والعَظَمةِ، والجَبَروتِ والعِزَّةِ.. وغيرِ ذلك: يُوجِبُ خَشيتَه؛ وعدمَ ذلك يستلزِمُ فَقْدَ هذه الخَشيةِ.

الوجهُ الثاني: أنَّ العِلمَ بتفاصيلِ أمرِ اللهِ ونَهيِه، والتَّصديقَ الجازِمَ بذلك وبما يترتَّبُ عليه مِن الوَعدِ والوَعيدِ، والثَّوابِ والعِقابِ، مع تيقُّنِ مُراقبةِ اللهِ واطِّلاعِه ومُشاهدتِه، ومَقتِه لعاصيه، وحُضورِ الكِرامِ الكاتِبينَ: كُلُّ هذا يُوجِبُ الخَشيةَ، وفِعلَ المأمورِ، وتَرْكَ المحظورِ، وإنَّما يَمنَعُ الخَشيةَ ويُوجِبُ الوقوعَ في المحظوراتِ: الغَفلةُ عن استِحضارِ هذه الأمورِ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ تصوُّرَ حَقيقةِ المَخُوفِ يُوجِبُ الهربَ منه، وتصوُّرَ حقيقةِ المحبوبِ يُوجِبُ طَلَبه، فإذا لم يَهرُبْ مِن هذا، ولم يَطلُبْ هذا؛ دلَّ على أنَّ تصوُّرَه لذلك ليس تامًّا، وإنْ كان قد تصوَّرَ الخبَرَ عنه. وتصوُّرُ الخبرِ وتصديقُه وحِفظُ حُروفِه: غيرُ تصوُّرِ المخبرِ به؛ فإذا أُخبِرَ بما هو محبوبٌ أو مكروهٌ له، ولم يُكذِّبِ الخبَرَ، بل عرَفَ صِدقَه، لكِنْ قَلبُه مَشغولٌ بأمورٍ أُخرى عن تصوُّرِ ما أُخبِرَ به: فهذا لا يَتحرَّكُ للهَرَبِ ولا للطَّلبِ.

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّ كثيرًا من الذُّنوبِ قد يكونُ سَببُ وُقوعِه جَهْلَ فاعِلِه بحَقيقةِ قُبحِه وبُغضِ اللهِ له، وتفاصيلِ الوَعيدِ عليه، وإن كان عالِمًا بأصلِ تحريمِه وقُبحِه، لكِنَّه يكونُ جاهلًا بما وردَ فيه من التَّغليظِ والتَّشديدِ ونهايةِ القُبحِ؛ فجَهلُه بذلك هو الذي جرَّأه عليه وأوقعَه فيه، ولو كان عالِمًا بحَقيقةِ قُبحِه لأوجبَ ذلك العِلمُ تَرْكَه؛ خَشيةً من عقابِه.

الوجهُ الخامِسُ: أنَّ كُلَّ مَن عَلِمَ عِلمًا تامًّا جازِمًا بأنَّ فِعلَ شَيءٍ يَضُرُّه ضَررًا راجِحًا، ولم يفعَلْه؛ فإنَّ هذا خاصَّةُ العاقِلِ، فإنَّ نفسَه تنصَرِفُ عمَّا يُعلَمُ رُجحانُ

ضَرَرِه بالطَّبعِ؛ فإنَّ اللهَ جعَل في النَّفْسِ حُبًّا لِمَا ينفَعُها، وبُغضًا لِما يضُرُّها، فلا يفعَلُ ما يَجزِمُ بأنَّه يَضُرُّها ضررًا راجِحًا، ولا يقعُ ذلك إلَّا مع ضَعيفِ العَقلِ.

الوجهُ السَّادسُ: أنَّ لذَّاتِ الذُّنوبِ لا نِسبةَ لها إلى ما فيها مِن الآلامِ والمفاسِدِ البتَّةَ؛ فإنَّ لذَّاتِها سَريعةُ الانقضاءِ، وعُقوباتِها وآلامَها أضعافُ ذلك، ومِن هاهنا يُعلَمُ أنَّه لا يُؤثِرُ لذَّاتِ الذُّنوبِ إلَّا من هو جاهِلٌ بحَقيقةِ عواقِبِها.

الوجهُ السَّابعُ: أنَّ المُقدِمَ على مُوافَقةِ المحظورِ إنَّما أوْجبَ إقدامَه عليه ما فيه مِن اللَّذَّةِ الحاصِلةِ له به، فظَنَّ أنَّه تحصُلُ له لذَّتُه العاجِلةُ، ورجَا أنْ يَتخَلَّصَ مِن تَبِعتِه بسَبَبٍ مِن الأسبابِ، ولو بالعَفوِ المجرَّدِ، فيَنالَ به لذَّةً، ولا يَلحَقَه به مَضرَّةٌ! وهذا من أعظَمِ الجَهلِ، والأمرُ بعَكسِ باطنِه؛ فإنَّ الذُّنوبَ يَتبَعُها -ولا بُدَّ- مِن الهُمومِ والآلامِ، وضِيقِ الصَّدرِ، والنَّكدِ، وظُلمةِ القَلبِ وقَسوتِه: أضعافُ أضعافِ ما فيها مِن اللَّذَّةِ، ويفوتُ بها مِن حلاوةِ الطَّاعاتِ، وأنوارِ الإيمانِ، وسُرورِ القَلبِ ببَهجةِ الحَقائِقِ والمعارِفِ: ما لا يُوازي الذَّرَّةَ منه جميعُ لذَّاتِ الدُّنيا! فيَحصُلُ لصاحِبِ المعصيةِ العِيشةُ الضَّنكُ، وتفوتُه الحياةُ الطيِّبةُ؛ فينعكِسُ قَصدُه بارتكابِ المعصيةِ[1].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استِئنافٌ في إيضاحُ ما سبَقَه مِن اختِلافِ أحوالِ الناسِ في قَبولِ الهُدى ورَفضِه؛ بسَبَبِ ما تهَيَّأتْ خِلْقةُ النُّفوسِ إليه؛ لِيَظهَرَ به أنَّ الاختِلافَ بيْنَ أفرادِ الأصْنافِ والأنواعِ ناموسٌ جِبلِّيٌّ فَطَرَ

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٧٨٦- ٨٠٧).

اللهُ عليه مَخلوقاتِ هذا العالَمِ الأرضيِّ. والخِطابُ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِيَدفَعَ عنه اغتِمامَه مِن مُشاهَدةِ عَدَمِ انتِفاعِ المُشرِكينَ بالقُرآنِ(١).

- وضُرِبَ اختِلافُ الظَّواهرِ في أفرادِ الصِّنفِ الواحِدِ مَثَلًا لاختلافِ البواطنِ؛ تَقريبًا للأفهامِ، فكان هذا الاستِئنافُ مِن الاستئنافِ البَيانيِّ؛ لأنَّ مِثلَ هذا التَّقريبِ ممَّا تَشرئِبُّ إليه الأفهامُ عندَ سَماعِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾(٢) [فاطر: ٢٢].

- وهذا الاستِفهامُ ﴿أَلَمۡ تَرَ ...﴾ تَقريريٌّ، وجاء التَّقريرُ على نَفْيِ الرُّؤيةِ؛ لأنَّ نفْيَ الرُّؤيةِ هو غيرُ الواقعِ مِن حالِهم في نفْسِ الأمرِ، ولكنَّ حالَهم يُشبِهُ حالَ مَن لا يَرَون هذا، فوقَعَ الاستِفهامُ عنه لعلَّهم لم يَرَوا ذلك؛ مُبالَغةً(٣).

- قولُه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا﴾ ذِكرُ إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ إدْماجٌ(٤) في الغَرَضِ؛ لِلاعتِبارِ بقُدرةِ اللهِ مع ما فيه مِنَ اتِّحادِ أصْلِ نَشْأةِ الأصنافِ والأنواعِ، كَقَولِه تَعالَى: ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]، وذلك أرْعَى لِلاعتِبارِ. وجيءَ بالجُملتَيْنِ الفِعليَّتَيْنِ في ﴿أَنزَلَ﴾ و﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾؛ لِأنَّ إنزالَ الماءِ وإخراجَ الثَّمَراتِ مُتجَدِّدٌ آنًا فآنًا(٥).

- والالتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ ﴿أَنزَلَ﴾ إلى التَّكَلُّمِ في ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾؛ لإظْهارِ كَمالِ الاعتِناءِ بالفِعلِ؛ لِمَا فيه مِنَ الصُّنعِ البَديعِ المُنْبِئِ عن كَمالِ القُدرةِ والحِكمةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٠)، (٢٢/ ٣٠٠).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٣٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠١).

ولأنَّ الاسمَ الظاهِرَ ﴿ٱللَّهَ﴾ أنسَبُ بمَقامِ الاستِدلالِ على ذلك؛ لأنَّه الاسمُ الجامِعُ لِمَعاني الصِّفاتِ. وضَميرُ التَّكلُّمِ في ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ أنسَبُ بما فيه مِنَ امتِنانٍ؛ لِمَا في ذلك مِنَ الفَخامةِ؛ إذْ هو مُسنَدٌ لِلمُعظِّمِ نَفسَه المُتَكلِّم، ولأنَّ نِعمةَ الإخراجِ أتَمُّ مِن نِعمةِ الإنزالِ؛ لِفائدةِ الإخراجِ، فأسنَدَ الأتَمَّ إلى ذاتِه بضَميرِ المُتَكلِّمِ، وما دُونَه بضَميرِ الغائِبِ[١].

وقيل: لأنَّه إنْ كان جاهِلًا يَقولُ: نُزولُ الماءِ بالطَّبعِ؛ لِثقلِه! فيُقالُ له: فالإخراجُ لا يُمكِنُك أنْ تقولَ فيه: إنَّه بالطَّبعِ؛ فهو بإرادةِ اللهِ، فلمَّا كان ذلك أظهَرَ، أسنَدَه إلى المتكلِّم. وقيل: لأنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ﴾ عُلِمَ اللهُ بدليلٍ، وقَرُب المتفكِّرُ فيه إلى اللهِ تعالى؛ فصار من الحاضِرينَ، فقال له: (أَخْرَجْنَا)؛ لِقُربِه[٢].

- وقَدَّمَ الاعتِبارَ باختِلافِ أحوالِ الثَّمَراتِ في قَولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا﴾؛ لِأنَّ في اختِلافِها سَعةً تُشبِهُ سَعةَ اختِلافِ الناسِ في المَنافِعِ والمَدارِكِ والعَقائِدِ[٣].

- وفي قَولِه: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا﴾ قاله بتأنيثِ الضَّميرِ في ﴿أَلۡوَٰنُهَا﴾؛ لِعَودِه إلى الثَّمَراتِ، وقال ثانيًا: ﴿مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا﴾ بتَأنيثِه أيضًا؛ لِعَودِه إلى الجِبالِ، وقال ثالثًا: ﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ بتَذكيرِه؛ لِعَودِه إلى بَعضِ المَفهومِ مِن لَفظِ ﴿مِنۡ﴾ في قَولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾[٤]. وأيضًا جُرِّدَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨- ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٠)، ((بصائر ذوي التمييز في =

قولُه: ﴿مُّخۡتَلِفًا﴾ مِن عَلامةِ التَّأنيثِ، معَ أنَّ فاعلَه جمْعٌ -وشَأنُ النَّعتِ السَّببيِّ أنْ يُوافِقَ مَرفوعَه في التَّذكيرِ وضِدِّه، والإفرادِ وضِدِّه، ولا يُوافِقُ في ذلك مَنعوتَه-؛ لأنَّه لَمَّا كان الفاعِلُ جمْعًا لِمَا لا يَعقِلُ -وهو الألوانُ- كان حَذفُ التَّاءِ في مِثلِه جائزًا في الاستِعمالِ، وآثَرَه القرآنُ إيثارًا للإيجازِ[1].

- قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ فيه تَقديمُ الخَبَرِ ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾؛ لِلاهتِمامِ، ولِلتَّشويقِ لِذِكرِ المُبتَدأِ؛ حَثًّا على التأمُّلِ والنَّظَرِ[2].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّدبيجِ -وهو أنْ يَذكُرَ المُتكَلِّمُ ألوانًا يَقصِدُ الكِنايةَ بها والتَّوريةَ بذِكرِها عن أشياءَ؛ مِن وَصْفٍ أو مَدْحٍ، أو هِجاءٍ أو نَسيبٍ، أو غَيرِ ذلك مِنَ الفُنونِ- وقد أرادَ اللهُ تَعالَى بذلك الكِنايةَ عنِ المُشتَبِهِ مِنَ الطُّرُقِ؛ لِأنَّ الجادَّةَ البَيضاءَ هي أوضَحُ الطُّرُقِ وأبيَنُها، ودُونَها الحَمراءُ، ودُونَ الحَمراءِ السَّوداءُ، كأنَّها في خَفائِها والْتِباسِ مَعالِمِها ضِدُّ البَيضاءِ في الظُّهورِ والوُضوحِ، ولَمَّا كانتْ هذه الألوانُ الثلاثةُ في الظُّهورِ لِلعَينِ طَرَفيْنِ وواسطةً بيْنَهما؛ فالطَّرَفُ الأعْلَى في الظُّهورِ البَياضُ، والطَّرَفُ الأدْنَى في الخَفاءِ السَّوادُ، والأحمَرُ بيْنَهما على وَضَحِ الألوانِ والتَّراكيبِ، وكانتْ ألوانُ الجِبالِ لا تَخرُجُ -في الأغلَبِ- عن هذه الألوانِ الثَّلاثةِ، والهِدايةُ بكُلِّ عَلَمٍ نُصِبَ لِلهدايةِ مُنقَسِمةٌ هذه القِسمةَ؛ أتَتِ الآيةُ الكَريمةُ على هذا

= لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٧-٣٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٨-٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠١ - ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٢).

التَّقسيم، فحَصَلَ فيها التَّدبيجُ مع صِحَّةِ التَّقسيم، وهي مَسرودةٌ على نَمَطٍ مُتَعارَفٍ، مَسوقةٌ لِلاعتِدادِ بالنِّعَم على ما هَدَتْ إليه مِنَ السَّعي في طَلَبِ المَصالِحِ والمَنافعِ، وتجَنُّبِ المَعاطِبِ والمَهالِكِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ[(١)].

- قَولُه: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (غَرابيبُ) جمْع غِربيبٍ، والغِربيبُ: اسمٌ للشَّيءِ الأسودِ الحالِكِ سوادُه، ولعلَّه مأخوذٌ مِن الغُرابِ لشُهرةِ الغُرابِ بالسَّوادِ. و﴿سُودٌ﴾ جمْع أَسودَ، فالغِربيبُ يَدُلُّ على أشَدَّ مِن مَعنى أسوَدَ؛ فكانَ مُقتَضى الظاهِرِ أنْ يَكونَ (غَرَابيبُ) مُتَأخِّرًا عن ﴿سُودٌ﴾؛ لِأنَّ الغِربيبَ تأكيدٌ للأسودِ، ولأنَّ الأغلَبَ أنَّهم يَقولونَ: أسوَدُ غِربيبٌ، كما يَقولونَ: أبيَضُ يَقَقٌ، وأصفَرُ فاقِعٌ، وأحمَرُ قانٍ، ولا يَقولونَ: غِربيبٌ أسوَدُ، وإنَّما خُولِفَ ذلك؛ لِلرِّعايةِ على الفَواصِلِ المَبنيَّةِ على الواوِ والياءِ السَّاكنتينِ ابتداءً مِن قولِه: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، ولِزيادةِ التَّوكيدِ؛ حيثُ يَدُلُّ على المَعنى الواحِدِ مِن طَريقَيِ الإظهارِ والإضمارِ جَميعًا[(٢)].

٢- قَولُه تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

- إيرادُ الجُملتَيْنِ ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ [فاطر: ٢٧] و﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ اسميَّتَيْنِ مع مُشارَكتِهما لِمَا قَبلَهُما مِنَ الجُملَةِ الفِعليَّةِ في الاستِشهادِ بمَضمونِهما على تَبايُنِ النَّاسِ في الأحوالِ الباطِنةِ؛ لِمَا أنَّ اختِلافَ الجِبالِ والنَّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ فيما ذُكِرَ مِنَ الألوانِ أمْرٌ مُستَمِرٌّ،

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٩- ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٣).

فعَبَّرَ عنه بما يَدُلُّ على الاستِمرارِ، وأمَّا إخراجُ الثَّمَراتِ المُختَلِفةِ فحيثُ كان أمرًا حادِثًا عبَّرَ عنه بما يَدُلُّ على الحُدوثِ[١].

- ولَمَّا كان إخراجُ الثَّمَراتِ المُختَلِفةِ فيه نوعُ خَفاءٍ علَّقَ به الرُّؤيةَ بطَريقِ الاستِفهامِ التَّقريريِّ المُنبِئِ عنِ الحَملِ عليها، والتَّرغيبِ فيها، بخِلافِ أحوالِ الجِبالِ والنَّاسِ وغيرِهما؛ فإنَّها مُشاهدَةٌ غَنيَّةٌ عنِ التأمُّلِ؛ فلذلك جُرِّدتْ عنِ التَّعليقِ بالرُّؤيةِ[٢].

- وَ(مِنْ) في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ تَبعيضيَّةٌ، والمَعنى: أنَّ المُختَلِفَ ألوانُه بَعضٌ مِنَ الناسِ، ومَجموعُ المُختَلِفاتِ كُلُّه هو الناسُ كُلُّهم، وكذلك الدَّوابُّ والأنعامُ، وهو نَظمٌ دَقيقٌ دَعا إليه الإيجازُ[٣].

- ولَمَّا كانتِ الدابَّةُ في الأصلِ اسمًا لِما دَبَّ على الأرضِ، ثمَّ غَلَبَ إطلاقُه على ما يُركَبُ، قال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ لِيَعمَّ الكُلَّ صريحًا[٤].

- قَولُه: ﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ابتِداءُ كَلامٍ يتنَزَّلُ مَنزِلةَ الإخبارِ بالنَّتيجةِ عَقِبَ ذِكرِ الدَّليلِ، والمَعنى -على قَولٍ-: كذلك أمْرُ الاختِلافِ في ظَواهِرِ الأشياءِ، المُشاهَدِ في اختِلافِ ألوانِها، وهو تَوطِئةٌ لِمَا يَرِدُ بَعدَه مِن تَفصيلِ الاستِنتاجِ بقَولِه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، أي: إنَّما يَخشَى اللهَ مِنَ البَشَرِ المُختَلِفةِ ألوانُهمُ العُلماءُ منهم؛ فجُملةُ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ مُستأنَفةٌ عن جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٢٥).

وإذا عُلِمَ ذلك دلَّ بالالتزامِ على أنَّ غيرَ العلماءِ لا تَتأتَّى منهم خَشيةُ اللهِ؛ فدلَّ على أنَّ البشرَ في أحوالِ قُلوبِهم ومَداركِهم مُختلِفونَ. وأُوثِرَ هذا الأُسلوبُ في الدَّلالةِ؛ تخَلُّصًا لِلتَّنويهِ بأهلِ العِلمِ والإيمانِ؛ ليَنتَقِلَ إلى تَفصيلِ ذلك بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾[1] [فاطر: ٢٩].

- وأيضًا قَولُه: ﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ تكمِلةٌ لِقَولِه تَعالَى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [فاطر: ١٨]، بتَعيينِ مَن يَخشاهُ عزَّ وجلَّ مِنَ النَّاسِ بعْدَ بَيانِ اختِلافِ طَبَقاتِهم، وتَبايُنِ مَراتِبِهم، أمَّا في الأوصافِ المَعنويَّةِ فبِطَريقِ التَّمثيلِ، وأمَّا في الأوصافِ الصُّوريةِ فبِطَريقِ التَّصريحِ؛ تَوفِيةً لكُلِّ واحِدةٍ منهما حَقَّها اللَّائِقَ بها مِنَ البَيانِ، أيْ: إنَّما يَخشاهُ تَعالى بالغَيبِ العالِمونَ به عزَّ وجلَّ وبما يَليقُ به مِن صِفاتِهِ الجَليلةِ، وأفعالِه الجَميلةِ[2].

- والقَصْرُ المُستَفادُ مِن ﴿إِنَّمَا﴾ قَصْرٌ إضافيٌّ[3]، أي: إنَّما يَخشاهُ تَعالى بالغَيبِ العالِمونَ به عزَّ وجلَّ وبما يَليقُ به مِن صِفاتِهِ الجَليلةِ، ولا يَخشاهُ الجُهَّالُ، وهم أهلُ الشِّركِ؛ فإنَّ مِن أخَصِّ أوصافِهِم أنَّهم أهلُ الجاهليةِ وعَدَمِ العِلْمِ. وتَقديمُ مَفعولِ ﴿يَخۡشَى﴾ على فاعِلِه -أي: تَقديمُ اسمِ اللهِ تعالَى، وتأخيرُ العُلماءِ-؛ لِأنَّ المَحصورَ فيهم خَشيةُ اللهِ هم العُلَماءُ، ومعناه: أنَّ الذين يَخْشَونَ اللهَ مِن عِبادِه العُلماءُ دُونَ غيرِهم؛ فوَجَبَ تأخيرُه على سُنَّةِ تأخيرِ المَحصورِ فيه، ولو أُخِّرَ، انعَكَس الأمْرُ؛ فكان المعنَى: أنَّهم لا يَخْشَونَ إلَّا اللهَ، كقولِه: ﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[الأحزاب: ٣٩]، وبَيْنهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١).

(٣) سبَق تعريفُه (ص: ٣٤٨).

تغايُرٌ؛ ففي الأوَّلِ بيانُ أنَّ الخاشِينَ هم العُلماءُ، وفي الثاني بيانُ أنَّ المَخشيَّ منه هو اللهُ تعالَى[١].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تَعليلٌ لِوجوبِ الخَشيةِ؛ لدَلالَتِه على أنَّه مُعاقِبٌ لِلمُصِرِّ على طُغيانِه، غَفورٌ لِلتَّائِبِ عن عِصيانِه[٢]. وهو أيضًا تَكميلٌ؛ للدَّلالةِ على استِغناءِ اللهِ تَعالى عنْ إيمانِ المُشرِكينَ، ولكنَّه يُريدُ لهم الخَيرَ، ولَمَّا كان في هذا الوَصفِ ضَرْبٌ مِنَ الإعراضِ عنهم ممَّا قد يُحدِثُ يأسًا في نُفوسِ المُقارِبينَ منهم، أُلِّفَتْ قُلوبُهم بإتْباعِ وَصفِ ﴿عَزِيزٌ﴾ بوَصفِ ﴿غَفُورٌ﴾، أي: فهو يَقبَلُ التوبةَ منهم إنْ تابوا إلى ما دَعاهم اللهُ إليه، على أنَّ في صِفةِ ﴿غَفُورٌ﴾ حَظًّا عَظيمًا لِأحَدِ طَرَفَيِ القَصْرِ، وهم العُلماءُ، أي: غَفورٌ لهم[٣].

وقيل: مُناسَبةُ ذِكرِ العِزَّةِ والمغفرةِ هنا في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ بعدَ ذِكرِ الخَشيةِ: الإشارةُ إلى أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ أهلٌ لأنْ يُخشَى؛ لأنَّه عزيزٌ، وأنَّه إذا نقَصَ شَيءٌ مِن الخَشيةِ فإنَّه يُقابِلُ بالمغفرةِ، فهو عزيزٌ؛ فلذلك كان أهلًا للخَشيةِ؛ وهو غفورٌ إذا نقَصَ شَيءٌ مما يجِبُ له من خَشيتِه عزَّ وجَلَّ[٤]، ولأنَّ العِزَّةَ دالَّةٌ على كَمالِ القُدرةِ على الانتقامِ، ولا يُوصَفُ بالمَغْفرةِ والرَّحمةِ إلَّا القادِرُ على العُقوبةِ[٥]، كما حكَى تعالَى عن عِيسَى عليه السَّلامُ قولَه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٨٦، ٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٦٤).

وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨].

- وفي قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالى في موضِعٍ آخَرَ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤] فخُولِفَ بيْنَ المَقطعَيْنِ؛ وذلك لأنَّ ما نحن فيه في سُورةِ (فاطِر) أبسَطُ وأجمَعُ مِن تلك الآيةِ التي في سُورةِ (الرَّعدِ)؛ لأنَّ فيها ذِكرَ الثِّمارِ والجِبالِ والنَّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ واختِلافِها، وهي مُختَصَّةٌ بالثَّمَراتِ[1].

- وصُدِّرتْ هذه الآيةُ بهَمزةِ الاستِفهامِ، وحَرفِ النَّفْيِ (لَمْ)؛ لإفادةِ مَزيدِ التَّقريرِ، وبالخِطابِ العامِّ؛ لِئلَّا تُختَصَّ الرُّؤيةُ براءٍ دُونَ راءٍ؛ لفَخامةِ الأمْرِ، ثم قَرَّرَ هذا المَعنى في أثنائِهما بقَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: الأمْرُ كما ذَكَرتُ، كأنَّه تَعالى يَقولُ: هذه الأشياءُ كُلُّها مُتساويةٌ في الجِسميَّةِ، واختِلافِ أنواعِها، ثم اختِلافِ كُلٍّ منها بما خُصَّ به مِنَ الأصنافِ، لا بُدَّ له مِن قادرٍ مُختارٍ قاهرٍ يتصَرَّفُ في مُلكِه كيف يَشاءُ، وهذا ظاهِرٌ جَلِيٌّ عنْدَ كُلِّ ذي عقْلٍ[2].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٩-٣٥)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبُورَ﴾: أي: تَبطُلَ وتَخسَرَ، والبَوارُ: فَرطُ الكَسادِ، وأصلُ (بور): يدُلُّ على هلاكِ الشَّيءِ[1].

﴿مُّقۡتَصِدٞ﴾: أي: غيرُ المُبالِغِ في طاعةِ ربِّه، بل يكونُ عمَلُه قَصْدًا، وهو المستوي الحالِ بيْنَ الحالَينِ؛ فهو فوقَ الظَّالِمِ لنفْسِه، ودونَ السَّابقِ بالخَيراتِ، وأصلُ (القصد): استِقامةُ الطَّريقِ[2].

﴿عَدۡنٖ﴾: أي: إقامَةٍ وخُلدٍ، واستقرارٍ وثباتٍ، يُقال: عَدَن بالمكانِ، يَعْدِنُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٥٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٢)، ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ١٠٠)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٣١٠).

عَدْنًا، إذا لَزِمه، ولم يَبْرَحْ منه، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ[١].

﴿يُحَلَّوْنَ﴾: أي: يُلْبَسون ويُزَيَّنون بالحُلِيِّ[٢].

﴿أَسَاوِرَ﴾: جمعُ أَسْوِرةٍ، وأسْوِرةٌ جَمعُ سِوارٍ، والسِّوارُ: هو الَّذي يُلبَسُ في المِعصَمِ مِن ذَهَبٍ، وهو اسمٌ مُعَرَّبٌ عن الفارسيَّةِ[٣].

﴿أَحَلَّنَا﴾: أي: أنزَلَنا وأدخَلَنا، وحَلَلْتُ: نزلْتُ، أصلُه مِن حَلِّ الأحمالِ عندَ النُّزولِ، ثمَّ جُرِّد استِعمالُه للنُّزولِ، فقيل: حَلَّ حُلُولًا، وأحَلَّه غيرُه[٤].

﴿ٱلْمُقَامَةِ﴾: أي: الإقامةِ والخُلودِ، وأصلُ (قوم) هنا: يدُلُّ على انتِصابٍ أو عَزمٍ[٥].

﴿نَصَبٌ﴾: أي: تعَبٌ وعَناءٌ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ[٦].

﴿لُغُوبٌ﴾: أي: ضَعفٌ وإعياءٌ، وأصلُ (لغب): يدُلُّ على ضَعفٍ[٧].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٢). =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾

قَولُه: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنَّصبِ، وفيه أوجُهٌ؛ أوَّلُها: أنَّه مَعطوفٌ على مَوضِعِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾؛ لأنَّ مَوضِعَهما نصبٌ. والثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ دَلَّ عليه الأوَّلُ، أي: ويُحَلَّونَ لُؤلؤًا. الثَّالثُ: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿أَسَاوِرَ﴾ و(مِنْ) زائِدةٌ فيه عندَ الأخفَشِ، ويدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١].

وقُرِئَ ﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾ بالجَرِّ[(١)] عَطفًا على ﴿ذَهَبٍ﴾. وقيل: مَجرورٌ عَطفًا على لَفظِ ﴿أَسَاوِرَ﴾[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: إنَّ الَّذين يَتلُونَ القُرآنَ، وأقاموا الصَّلواتِ، وأنفَقوا ممَّا رزَقْناهم في السِّرِّ والعَلَنِ: يَرجُونَ تجارةً رابحةً لن تَخسَرَ؛ لِيُوَفِّيَهم اللهُ أجورَ أعمالِهم تامَّةً غيرَ مَنقوصةٍ، ويزيدَهم مِن فَضلِه، إنَّ اللهَ غَفورٌ شَكورٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مثبِّتًا قلْبَ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم ومُسَلِّيًا له عمَّا أصابه:

= قال الزمخشري: (فإن قلتَ: ما الفرقُ بيْنَ النَّصَبِ واللُّغوبِ؟ قلتُ: النَّصَبُ: التَّعبُ والمَشَقَّةُ الَّتي تُصيبُ المنتصِبَ للأمرِ المزاوِلَ له. وأمَّا اللُّغوبُ فما يَلحَقُه مِن الفُتورِ بسببِ النَّصَبِ؛ فالنَّصَبُ: نفْسُ المشَقَّةِ والكُلْفةِ، واللُّغوبُ: نتيجتُه وما يَحدُثُ منه مِن الكَلالِ والفَترةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٤).

(١) سيأتي بيانُ هذه القراءةِ ومَن قرَأ بها في القراءاتِ ذاتِ الأثرِ في التَّفسيرِ.

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٢٥٣).

والَّذي أوحَينا إليك -يا محمَّدُ- مِن كِتابِ اللهِ تعالى هو الحَقُّ مُصَدِّقًا لِما بيْن يَدَيه مِن كُتُبِ الرُّسُلِ المتقَدِّمةِ؛ إنَّ اللهَ بعبادِه خَبيرٌ بَصيرٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى أقسامَ هذه الأمَّةِ، فيقولُ: ثمَّ أورَثْنا القُرآنَ أمَّةَ مُحمَّدٍ الَّتي اختَرْناها؛ فمنهم ظالمٌ لنَفْسِه يُقَصِّرُ في أداءِ بعضِ الواجباتِ، ويقعُ في بعضِ المحرَّماتِ، ومنهم المتوسِّطُ الَّذي يؤدِّي الواجباتِ ويَترُكُ المحرَّماتِ، ومنهم مُسارِعٌ في الخَيراتِ بإذنِ اللهِ تعالى؛ يَفعلُ الواجباتِ والمُستحَبَّاتِ ويَترُكُ المُحرَّماتِ والمَكروهاتِ، ذلك العَطاءُ الَّذي فَضَّلهم اللهُ به هو الفَضلُ الكبيرُ.

ثمَّ يَذكُرُ جزاءَ الَّذين أورَثهم كتابَه، فيقولُ: جنَّاتُ عَدْنٍ يَدخُلونَها في الآخِرةِ، يُلبَسونَ فيها أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلؤًا، ولِباسُهم فيها ثيابٌ مِن حريرٍ.

ثمَّ يحكي الله تعالى ما يَقولونَه بعدَ الفوزِ بالجنَّةِ: وقالوا: الحَمدُ لله الَّذي أذهَبَ عنَّا أحزانَنا، إنَّ ربَّنا لَغَفورٌ شَكورٌ؛ الَّذي أنزَلَنا الجنَّةَ لا يُصيبُنا فيها تَعَبٌ ولا ضَعفٌ أو فُتورٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى وَصْفَهم بالخَشيةِ: وهي عمَلُ القَلبِ؛ ذكَرَ أنَّهم يَتلُون كِتابَ اللهِ: وهو عمَلُ اللِّسانِ، وأقاموا الصَّلاةَ: وهو عَمَلُ الجوارحِ، ويُنفِقونَ: وهو العَمَلُ الماليُّ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١).

وأيضًا لَمَّا تقرَّر هذا تشَوَّفَ السَّامعُ إلى مَعرفةِ العُلماءِ، فكان كأنَّه قيل: هم الَّذين يُحافِظونَ على كتابِ اللهِ عِلمًا وعَمَلًا[١].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: إنَّ المؤمِنينَ الَّذين يُداوِمونَ على تِلاوةِ القُرآنِ، فيَتتبَّعونَ ألفاظَه بدراستِها، ومعانيَه باستخراجِها، ويتَّبِعونَه بالعَمَلِ بأحكامِه، والتَّصديقِ بأخبارِه[٢].

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

أي: وداوَموا على أداءِ الصَّلواتِ على وَجهٍ تامٍّ مُستقيمٍ كما أمَرَ اللهُ تعالى[٣].

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾.

أي: وأنفَقوا ممَّا رزَقْناهم مِن الأموالِ -طَلبًا لِمَرضاةِ الله تعالى- في الخَفاءِ حيثُ لا يَراهم أحدٌ، وفي العَلَنِ بمَرْأًى مِنَ النَّاسِ[٤].

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا حسَدَ إلَّا في اثنتَينِ: رجُلٌ آتاه اللهُ القُرآنَ، فهو يقومُ به آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ، ورجُلٌ آتاه اللهُ مالًا، فهو يُنفِقُه آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦، ٣٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٤، ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٤، ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦، ٣٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٦).

(٥) أخرجه البخاري (٥٠٢٥)، ومسلم (٨١٥) واللفظ له.

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾.

أي: يَرجُونَ بتِلاوتِهم كتابَ اللهِ، وإقامتِهم الصَّلاةَ، وإنفاقِهم في السِّرِّ والعَلانيةِ: تجارةً رائجةً رابحةً باقيةً، لن تَخسَرَ، ولن تَكسُدَ وتَهلِكَ[١].

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المرادُ بعدَمِ هلاكِ هذه التِّجارةِ حِفْظَها وبقاءَها إلى يومِ لقائِه؛ علَّلَه بقَولِه[٢]:

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾.

أي: لِيُؤتيَهم اللهُ أجورَ أعمالِهم الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا؛ مِن تلاوةِ القُرآنِ، والصَّلاةِ، والنَّفَقةِ: على وجْهٍ تامٍّ لا نَقْصَ فيه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦، ٣٠٧).

قال السمعاني: (والمرادُ مِن التِّجارةِ ما وعَدَه الله مِن الثَّوابِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠، ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٦، ٢٠٧).

قال البِقاعي: (في الدُّنيا إن أراد، أو في الآخِرةِ، أو فيهما). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥١).

وقال ابنُ عثيمين: (قَولُه تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ هذه اللَّامُ للعاقبةِ، وقيل: للتَّعليلِ؛ فعلى القَولِ بأنَّها للعاقبةِ تكونُ مُتعَلِّقةً بـ ﴿يَرْجُونَ﴾؛ فـ ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ عاقِبتُهم أن يوفِّيَهم اللهُ أجورَهم. وعلى أنَّها للتَّعليلِ مُتعَلِّقةٌ بـ ﴿يَتْلُونَ﴾ ﴿وَأَقَامُوا۟﴾ ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾ يعني: يَتلونَها لِيُوفِّيَهم أجورَهم، وأقاموا الصَّلاةَ لِيُوفِّيَهم أجورَهم، وأنفَقوا ممَّا رزَقْناهم لِيوفِّيَهم أجورَهم؛ يعني: قصَدوا ما رتَّب اللهُ على هذه الأعمالِ مِن الأجورِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١٢).

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: ويَزيدَهم اللهُ مِن كَرمِه فوقَ ما يَستحِقُّونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٧، ٣٨].

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت أعمالُهم لا تَنفَكُّ عن شائبةٍ ما وإن خلَصَت؛ فلم يكُنْ ثوابُها -لأنَّها مِنْ مَنِّه سُبحانَه- مُستَحَقًّا؛ علَّل توفيتَهم لها بقَولِه مؤكِّدًا؛ إعلامًا بأنَّه لا يَسَعُ النَّاسَ إلَّا عَفوُه؛ لأنَّه لن يَقدُرَ اللهَ أحَدٌ حَقَّ قَدْرِه وإن اجتهَدَ، ولو آخَذ أعْبَدَ العُبَّادِ بما يقَعُ مِن تقصيرِه أهلَكَه(٢).

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غَفورٌ لِذُنوبِهم فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، وهو شَكورٌ فيَتقبَّلُ منهم أعمالَهم وإن قَلَّت، ويُثيبُهم عليها الثَّوابَ الكثيرَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الأصلَ الأوَّلَ، وهو وُجودُ اللهِ الواحدِ، بأنواعِ الدَّلائلِ؛ مِن قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩]، وقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم﴾ [فاطر: ١١]، وقَولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ﴾ [فاطر: ٢٧]؛ ذكَرَ الأصلَ الثَّانيَ، وهو الرِّسالةُ، فقال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾.

وأيضًا كأنَّه قد ذَكَر أنَّ الَّذين يَتلُون كِتابَ اللهِ يُوفِّيهم اللهُ، فقال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ تقريرًا لِما بيَّن مِن الأجرِ والثَّوابِ في تلاوةِ كِتابِ اللهِ؛ فإنَّه حَقٌّ وصِدقٌ فتالِيه مُحِقٌّ ومُحَقِّقٌ(١).

﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾.

أي: والَّذي أوحَيْناه إليك -يا محمَّدُ- مِن كتابِ اللهِ تعالى هو الحَقُّ الكامِلُ، التَّامُّ الثَّابتُ الَّذي يجِبُ اتِّباعُه؛ مُصَدِّقًا لِما بيْنَ يديه مِن كُتُبِ الرُّسُلِ المتقَدِّمةِ(٢).

= (١٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١٧-٢٢٠).

قال السعدي: (﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ مِن الكُتبِ والرُّسلِ؛ لأنَّها أخبرَتْ به، فلمَّا وُجِد وظهَرَ، ظهَر به صِدقُها، فهي بَشَّرَتْ به وأخبَرَتْ، وهو صَدَّقَها؛ ولهذا لا يُمكِنُ أحدٌ أن يؤمنَ بالكُتبِ السَّابقةِ وهو كافرٌ بالقرآنِ أبدًا؛ لأنَّ كُفْرَه به يَنقُضُ إيمانَه بها؛ لأنَّ مِن جملةِ أخبارِها الخبرَ عن القرآنِ، ولأنَّ أخبارَها مُطابِقةٌ لأخبارِ القرآنِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ خَبيرٌ بعبادِه؛ فهو عالمٌ بدقائقِ أُمورِهم وأحوالِهم وخفاياها، بصيرٌ بهم وبأعمالِهم(١).

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾.

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾.

أي: ثمَّ أورَثْنا القُرآنَ أُمَّةَ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم الَّتي اختَرْناها مِنْ عِبادِنا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤، ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١١).

قال الرسعني: (اختلف العُلَماءُ في المرادِ بالكتابِ؛ على قَولَين:

أحدُهما: أنَّه اسمُ جنسٍ، فعلى هذا فالمرادُ بالمُصطَفَينَ قولان؛ أحدُهما: أنَّهم الأنبياءُ وأتْباعُهم، قاله الحسَنُ. فيكونُ التَّقديرُ: والَّذي أوحَيْنا إليك مِن الكتابِ هو الحقُّ، ثمَّ كُنَّا أورَثْنا الكتابَ الأنبياءَ قَبْلَك... فعلى هذا يكونُ المعنى: فمِن أُمَمِهم ظالمٌ لنَفْسه... الآيةَ. الثَّاني: أنَّهم أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، على معنى: أورَثْناهم الإيمانَ بالكُتُبِ كُلِّها، قال ابنُ عبَّاسٍ: «أورَثَ اللهُ تعالى أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم كُلَّ كتابٍ أنزله الله تعالى». فعلى هذا تقديرُ الآيةِ: أنزَلْنا الكُتُبَ المتقدِّمةَ، ثمَّ أورَثْنا أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم الإيمانَ بها. ويؤيِّدُ هذا القولَ: أنَّ حقيقةَ الإرثِ: [انتِقالُ الشَّيءِ] مِن قَومٍ إلى قومٍ.

القولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالكتاب: القرآنُ. والمعنى: ثمَّ نقَلْنا العِلمَ والحُكمَ إلى الَّذين اصطَفينا مِن عبادِنا، وهم أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلم. وهو قَولُ جمهورِ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٩١).

وقال ابنُ جُزَي: (قال عُمَرُ وابنُ مسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ وكعبٌ وعائشةُ وأكثرُ المفسِّرينَ: هذه الأصنافُ الثَّلاثةُ في أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٥).

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾.

أي: فمِنهم مَن هو ظالمٌ لنَفْسِه بالتَّقصيرِ والتَّفريطِ؛ يُفرِّطُ في بعضِ الواجباتِ، ويَفعلُ بعضَ المحرَّماتِ، ويُصِرُّ عليها(١).

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾.

أي: ومنهم مَن عمَلُه قَصْدٌ؛ يُؤدِّي الواجباتِ، ويَترُكُ المحرَّماتِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٣، ٣٧٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦١) و(١١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦، ٥٤٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٢).

قال السعدي: (فكُلُّهم اصطفاه اللهُ تعالى لوِراثةِ هذا الكتابِ وإن تفاوتَت مراتبُهم، وتميَّزَت أحوالُهم؛ فلكُلٍّ منهم قِسطٌ مِن وِراثتِه، حتَّى الظَّالمُ لنَفْسِه؛ فإنَّ ما معه مِن أصلِ الإيمانِ، وعلومِ الإيمانِ، وأعمالِ الإيمانِ: مِن وِراثةِ الكتابِ؛ لأنَّ المرادَ بوِراثةِ الكتابِ وِراثةُ عِلمِه وعَمَلِه، ودراسةُ ألفاظِه، واستخراجُ معانيه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

وفي المرادِ بالظَّالمِ لنفْسِه هاهنا أقوالٌ؛ منها: أنَّهم أهلُ الصَّغائرِ مِن هذه الأمَّةِ. ومنها: أنَّهم أهلُ الكبائرِ وأصحابُ المَشْأمةِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٧٣).

قال الشنقيطي: (الظَّالمُ لنفْسِه وهو الَّذي يُطيعُ اللهَ، ولكنَّه يَعصيه أيضًا، فهو الَّذي قال الله فيه: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ١٠٢]... وهذا على أصحِّ الأقوالِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦١) و(١١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥، ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

واختُلِف في المرادِ بالمقتصِدِ؛ فقيل: هم أصحابُ المَيْمَنةِ. وقيل: المقتصِدَ هو الَّذي يُعطي الدُّنيا حَقَّها، والآخِرةَ حَقَّها. وقيل: هو الَّذي استَوَتْ حَسَناتُه وسَيِّئاتُه. وقيل: الَّذي لم يُصِبْ كبيرةً. وقيل: هو المؤمنُ العاصي. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٨)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠١). =

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: ومِنهم المؤدِّي للفرائضِ والنَّوافلِ، التَّارِكُ للمُحرَّماتِ والمكروهاتِ، فسَبَق غَيْرَه بإذنِ اللهِ تعالى[1].

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

أي: ذلك[2] العَطاءُ الَّذي فضَّلَهم اللهُ به على غَيرِهم: هو الفَضلُ الكَبيرُ[3].

= قال الشنقيطي: (المقتصِدُ وهو الَّذي يُطيعُ اللهَ ولا يَعصيه، ولكنَّه لا يَتقرَّبُ بالنَّوافلِ مِن الطَّاعاتِ... وهذا على أصحِّ الأقوالِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦١) و(١١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

واختُلِف في السَّابقِ؛ فقيل: السَّابقُ: التَّقيُّ على الإطلاقِ. وقيل: مَن رَجَحَتْ حَسَناتُه على سَيِّئاته. وقيل: الَّذي سبَقَ إلى الأعمالِ الصَّالحةِ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٨)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠١).

وقال الشنقيطي: (السَّابقُ بالخَيراتِ: هو الَّذي يأتي بالواجباتِ، ويَجتنِبُ المُحرَّماتِ، ويَتقرَّبُ إلى الله بالطَّاعاتِ والقُرُباتِ الَّتي هي غيرُ واجبةٍ. وهذا على أصحِّ الأقوالِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧، ٢١٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بـ﴿ذَلِكَ﴾: سَبْقُ السَّابقينَ بالخَيراتِ؛ فهو الفَضلُ الكبيرُ الَّذي فضَّلهم به على مَن دُونَهم مِن المقتَصِدينَ والظَّالِمينَ لأنفُسِهم: ابنُ جرير، والزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: إيراثُهم الكتابَ: الواحديُّ، والبغوي، والرسعني، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٩٦)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن =

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكر اللهُ تعالى أحوالَهم؛ بيَّن جزاءَهم ومآلَهم[١].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ قراءتانِ:

١- قراءةُ ﴿يُدْخَلُونَهَا﴾ على معنى أنَّ غَيرَهم يُدخِلُهم[٢].

٢- قِراءةُ ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ على معنى أنَّ الدُّخولَ مِن فِعلِهم[٣].

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا ﴾.

أي: جناتُ إقامةٍ يَدخُلونَها في الآخِرةِ، فلا يَخرُجونَ منها أبدًا[٤].

= عطية)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٨).

(٢) قرأ بها أبو عَمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩٦).

قال ابنُ عثيمين: (هم إذا أُدخِلوا فقد دخَلوا، فكأنَّ القراءتينِ واحِدٌ، ولكِنْ يُستفادُ منها مِن كلمةِ ﴿يُدْخَلُونَهَا﴾ بيانُ أنَّهم يُعطَونَها كرامةً). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

ممَّن اختار أنَّ هذا بيانٌ لثَوابِ الَّذين أورَثَهم الكتابَ، وهم الأصنافُ الثَّلاثةُ: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنَّصبِ على معنى: ويُحَلَّونَ لُولُؤًا[(١)].

٢- قِراءةُ ﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾ بالجَرِّ، قيل على معنى: يُحَلَّونَ أساوِرَ مِن ذَهَبٍ وأساوِرَ مِن لُؤلُؤٍ، أو على معنى: يُحَلَّونَ أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلؤٍ، أي: يكونُ السِّوارُ الواحِدُ مُكَوَّنًا مِنَ الذَّهَبِ واللُّؤلؤِ معًا[(٢)].

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

أي: يُلبَسونَ فيها -رِجالًا ونِساءً- أساوِرَ مِن ذَهَبٍ، ويُحَلَّونَ فيها لؤلؤًا؛ زينةً لهم[(٣)].

= (٦/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٧) (٥/ ٤٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٦- ٥٧، ٨٤-٨٥) و (٢/ ٧٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو قِلابةَ الجَرْميُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٨٩).

وقيل: هذا بيانٌ لثوابِ السَّابِقينَ بالخيراتِ بإذنِ الله. وممَّن قال بهذا القول: الزمخشري، ورجَّحه الرازي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٠).

(١) قرأ بها نافعٌ وعاصمٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١١٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤١٩، ٤٢٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٧٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١١٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٢٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٧٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

أي: ولِباسُهم فيها ثيابٌ مِن حريرٍ[١].

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾.

أي: وقالوا: الحَمدُ لله[٢] الَّذي أذهَبَ عنَّا أحزانَنا، فلا يكونُ لنا حَزَنٌ أبدًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٨].

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

أي: إنَّ ربَّنا لَغَفورٌ للذُّنوبِ، فيَستُرُها ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها؛ شَكورٌ يُثيبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

وقال ابن عطية: (خصَّص المفَسِّرون في هذا الموضِعِ؛ فقال أبو الدَّرْداءِ: حَزَنُ أهوالِ القيامةِ وما يُصيبُ هناك مَن ظَلَم نفْسَه مِن الغَمِّ والحَزَنِ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: حَزَنُ جهنَّمَ. وقال عطيَّةُ: حَزَنُ الموتِ. وقال شِمْرٌ: حَزَنُ معيشةِ الدُّنيا: الخُبزِ ونحوِه. وقال قَتادةُ: حَزَنُ الدُّنيا في الخَوفِ ألَّا تُتقَبَّلَ أعمالُهم. وقيل غيرُ هذا ممَّا هو جزءٌ مِن الحَزَنِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٠).

وممَّن ذهب إلى العُمومِ في معنى الحَزَنِ دونَ تخصيصٍ: ابنُ جرير، وابنُ عطية، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

على الأعمالِ الصَّالحةِ -وإن قَلَّتْ- بالكثيرِ مِن الثَّوابِ مِن فَضلِه[١].

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى سُرورَهم وكرامتَهم بتَحليتِهم وإدخالِهم الجنَّاتِ؛ بيَّن سُرورَهم ببقائِهم فيها، وأعلَمَهم بدوامِها[٢].

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ ﴾.

أي: الَّذي أنزَلَنا الجنَّةَ وأسكَنَنا فيها، فلا نَنتَقِلُ منها أبدًا، وذلك مِن فَضلِه علينا، لا بأعمالِنا[٣].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لن يُدخِلَ أحدًا منكم عَمَلُه الجنَّةَ. قالوا: ولا أنتَ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا إلَّا أن يَتغَمَّدَني اللهُ منه بفَضلٍ ورَحمةٍ))[٤].

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾.

أي: لا يُصيبُنا في الجنَّةِ أيُّ تَعَبٍ أو مَشَقَّةٍ، ولا يُصيبُنا فيها أيُّ ضَعفٍ أو فُتورٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤٦، ٢٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧).

قال ابنُ عاشور: (المسُّ: الإصابةُ في ابتِداءِ أمرِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ في الآيةِ ما يَشملُ ثوابَ قرَّاءِ القُرآنِ؛ فإنَّهم يَصدُقُ عليهم أنَّهم مِن الَّذين يَتلونَ كِتابَ اللهِ ويُقيمونَ الصَّلاةَ، ولو لم يُصاحِبْهم التَّدَبُّرُ في القُرآنِ؛ فإنَّ للتِّلاوةِ حَظَّها مِن الثَّوابِ والتَّنَوُّرِ بأنوارِ كلامِ اللهِ[١]، وكان مُطَرِّفٌ يقولُ في هذه الآيةِ: (هذه آيةُ القُرَّاءِ)[٢]. يُشيرُ بذلك إلى دَلالتِها على فَضلِهم، وتنويهِها بذِكرِهم[٣]، وتِلاوةُ القرآنِ تَتناوَلُ تِلاوةَ لَفْظِه ومعناه، وتِلاوةُ لفظِه وسيلةٌ وطريقٌ، والمقصودُ التِّلاوةُ الحقيقيَّةُ، وهي تلاوةُ المعنى واتِّباعُه؛ تصديقًا بخبرِه، وائْتِمارًا بأمرِه، وانتِهاءً عن نَهْيِه، وائْتِمامًا به، حيثُ ما قادَكَ انقدْتَ معه، فتلاوةُ المعنَى أشرفُ مِن مجرَّدِ تلاوةِ اللَّفظِ، وأهلُها هم أهلُ القرآنِ الَّذين لهم الثَّناءُ في الدُّنيا والآخرةِ؛ فإنَّهم أهلُ مُتابَعةٍ وتلاوةٍ حقًّا[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ أنَّ المُنفِقَ ليس مانًّا على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه إنَّما يُنْفِقُ ممَّا رَزَقه اللهُ، فمهما بَلَغَتْ بك نفْسُك مِن الإعجابِ والكبرياءِ على إنفاقِكَ فاذْكُرْ قولَه تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾، كلُّ

= قال ابن كثير: (كأنَّ المرادَ بنفْيِ هذا وهذا عنهم [أي: النَّصَبِ واللُّغوبِ] أنَّهم لا تعَبَ على أبدانِهم ولا أرواحِهم، والله أعلَمُ. فمِن ذلك أنَّهم كانوا يُدْئِبون أنفُسَهم في العبادةِ في الدُّنيا، فسقَطَ عنهم التَّكليفُ بدُخولِها [أي: الجنَّةِ]، وصاروا في راحةٍ دائمةٍ مُستمِرَّةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٨).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٣٥١١٩)، وابن جرير في ((تفسيره)) (١٩/ ٣٦٦)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ٢٠٣)، ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٢).

شيءٍ تُنْفِقُه فليس لك فيه مِنَّةٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ، بل للهِ المِنَّةُ عليك به في إيجادِه؛ لأنَّه لولا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ رَزَقكَ ما حصَلَ لك، وله المِنَّةُ عليك في إنفاقِه؛ لأنَّ كثيرًا مِن النَّاسِ يَبخَلون بما آتاهم اللهُ مِن فضْلِه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، فمِن نعمةِ اللهِ عليك أنْ يَمُنَّ عليك بالإنفاقِ بعدَ أنْ مَنَّ عليك بالرزقِ والعطاءِ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ حَثٌّ على الإنفاقِ كيفما يتهيَّأُ؛ فإنْ تهيَّأ سرًّا فذاك ونِعْمَ، وإلَّا فعلانيةً، ولا يَمنَعْه ظَنُّه أن يكونَ رياءً[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ أنَّ الرَّجاءَ ينبغي أن يكونَ في مَحَلِّه؛ بحيث يكونُ الإنسانُ قد عَمِلَ عَملًا يَرجو الثَّوابَ عليه، أمَّا الرَّجاءُ بدونِ عَمَلٍ فهو مِن التَّمَنِّي الَّذي لا يَنفَعُ العبدَ؛ فلا رجاءَ إلَّا بعَمَلٍ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ فيه إشارةٌ إلى الإخلاصِ، أي: يُنفِقون لا ليُقالَ: إنَّه كَريمٌ، ولا لشَيءٍ مِن الأشياءِ غيرِ وجهِ الله؛ فإنَّ غيرَ اللهِ بائرٌ، والتَّاجِرَ فيه تجارتُه بائِرةٌ[٤]، أمَّا الَّذي يَرجو ثوابَ اللهِ ويُحْسِنُ النِّيَّةَ والقَصْدَ فهذا تجارتُه لن تَبُورَ؛ ففيه: التَّنبيهُ على الإخلاصِ، وأنَّه ينبغي على الإنسانِ أنْ يكونَ مُخْلِصًا للهِ تعالى في عَمَلِه القاصِرِ والمتعدِّي؛ فالقاصرُ كالصَّلاةِ، والمتعدِّي كالصَّدقةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١٠).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. قولُه: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ راجِعٌ إلى السَّابقِ إلى الخَيراتِ؛ لِئَلَّا يَغترَّ بعَمَلِه، بل ما سبَقَ إلى الخَيراتِ إلَّا بتوفيقِ اللهِ تعالى ومَعونتِه؛ فيَنبغي له أن يَشتَغِلَ بشُكرِ اللهِ تعالى على ما أنعَمَ به عليه[١]، ويَكْبَحَ نفْسَه عن الاستعلاءِ والفَخْرِ بالطَّاعة[٢].

٧- قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ قولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ فيه أنَّ أجَلَّ النِّعَمِ على الإطلاقِ، وأكبَرَ الفَضلِ: وِراثةُ هذا الكِتابِ[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٨- كان الحَسَنُ يقولُ: (إنَّ المؤمِنينَ قَومٌ ذلَّت -واللهِ- منهم الأسماعُ والأبصارُ والأبدانُ، حتَّى حَسِبَهم الجاهِلُ مرضَى، وهم -واللهِ- أصِحَّاءُ القُلوبِ؛ ألَا تراه يقولُ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾، واللهِ لقد كابَدوا في الدُّنيا حَزَنًا شَديدًا، وجرَى عليهم ما جرَى على مَن كان قَبْلَهم، واللهِ ما أحزَنَهم ما أحزَنَ النَّاسَ، ولكِنْ أبكاهم وأحزَنَهم الخَوفُ مِن النَّارِ)[٤]!

٩- عن إبراهيمَ التَّيميِّ، قال: (ينبغي لِمَن لم يَحزَنْ أن يخافَ أن يكونَ مِن أهلِ النَّارِ؛ لأنَّ أهلَ الجنَّةِ قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٤) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٣١).

والأثر أخرجه ابن المبارك في ((الزهد)) (٣٩٧) -ومن طريقه ابن جرير في ((التفسير)) (١٧/ ٤٩٣) و(١٩/ ٣٧٨)- بنحوه.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في ((الهم والحزن)) (٢٤)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٤/ ٢١٥) واللفظ له، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٨٧٣).

١٠- في قَولِ الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الدُّنيا منزلةٌ يَنزلُها المكلَّفُ، ويَرتحِلُ عنها(١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ في هذه الآيةِ والآيةِ السَّابقةِ لها ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] حِكمةٌ بالِغةٌ؛ فقَولُه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ إشارةٌ إلى عَمَلِ القَلبِ، وقَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ﴾ إشارةٌ إلى عَمَلِ اللِّسانِ، وقَولُه: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ إشارةٌ إلى عَمَلِ الجوارحِ، ثمَّ إنَّ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ مُتعلِّقةٌ بجانبِ تعظيمِ اللهِ والشَّفَقةِ على خَلقِه(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ تضَمَّن هذا أنَّهم يَكتَسِبونَ مِن العِلمِ الشَّرعيِّ مِن العقائِدِ والأخلاقِ والتَّكاليفِ؛ فقد أشعَرَ الفِعلُ المضارِعُ بتجَدُّدِ تِلاوتِهم؛ فإنَّ نزولَ القُرآنِ مُتجَدِّدٌ، فكُلَّما نزَل منه مِقدارٌ، تلَقَّوه وتدارَسوه(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ أنَّ الثَّوابَ في الآخرةِ لا يَنقطِعُ، بل رُبَّما نقولُ: إنَّ هذا أعَمُّ؛ بحيث يُثابُ الإنسانُ في الدُّنيا ثوابًا مُستمِرًّا إلى الآخِرةِ؛ لأنَّ الحَسَناتِ قد يرى الإنسانُ ثوابَها في الدُّنيا، ويَستمِرُّ إلى الثَّوابِ في الآخرةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٨).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أنَّ طَلَبَ الإنسانِ للثَّوابِ غايةٌ عظيمةٌ -بِناءً على أنَّ اللَّامَ هنا للتَّعليلِ- فعَمَلُ الإنسانِ مِن أجْلِ الأجرِ لا يُعَدُّ نقصًا، خِلافًا للصُّوفيَّةِ الَّذين يقولونَ: (لا تَعبُدِ اللهَ لثَوابِ اللهِ، ولكنِ اعبُدِ اللهَ للهِ)! فنَقولُ لهم: هذا خطأٌ؛ فاللهُ تعالى وَصَفَ أشرَفَ هذه الأُمَّةِ وخيْرَ هذه الأمَّةِ بأنَّهم يُريدونَ فَضلًا مِن اللهِ ورِضوانًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]، ومع ذلك لا نقولُ: «لا تَعْبُدِ اللهَ للهِ»، بل اعْبُدِ اللهَ للهِ ولثَوابِ اللهِ؛ فإنَّك لن تَصِلَ إلى اللهِ إلَّا بعدَ وُصولِك إلى ثوابِ اللهِ؛ فإنَّ لِقاءَ اللهِ اللِّقاءَ الَّذي هو الرِّضا التامُّ: إنَّما يَحصُلُ في الجنةِ[(١)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ ضمانُ الثوابِ، فالثَّوابُ مَضمونٌ للعاملِ الَّذي يَتعاملُ مع اللهِ عزَّ وجلَّ -بِناءً على أنَّ اللَّامَ هنا للعاقِبةِ-، أي: أنَّ هذا العمَلَ سوف يُوَفَّى، وفيه أيضًا وجهٌ آخَرُ لِضَمانِ الثَّوابِ: أنَّ اللهَ سَمَّاه أجرًا، والأجرُ لا بُدَّ أنْ يُدفَعَ لِمَن قام بالعَمَلِ[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه يَزيدُ كلَّ عاملٍ على أجرِه؛ لأنَّه ذو فَضلٍ، فالعاملُ فائزٌ بفَضلَينِ؛ **أحدُهما**: الفَضلُ الأولُ، وهو جَعْلُ الحَسَنةِ عَشَرةً، و**الفَضلُ الثَّاني**: ما يَزيدُ على العَشَرةِ، ولا يجوزُ أنْ تكونَ الزِّيادةُ مَصروفةً إلى التِّسعةِ؛ لأنَّ ذلك إنجازُ وَعدٍ في قَولِه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فعَشْرُ أمثالِ العَمَلِ أجرُه، والزِّيادةُ تكونُ بعدَ الأجرِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٧٠٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ ﴾ وقَولِه سُبحانَه: ﴿وَيَزِيدَهُم ﴾ دَليلٌ على ثُبوتِ الأفعالِ الاختياريَّةِ لله عزَّ وجلَّ، وهذا مَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ: أنَّهم يُثبِتونَ للهِ تعالى الأفعالَ الاختياريَّةَ -أي: الَّتي تقَعُ بمشيئتِه-؛ فإنَّه تعالى فَعَّالٌ لِمَا يريدُ(١).

٨- قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فهو سُبحانَه يَغفِرُ الكثيرَ مِن الزَّلَلِ، ويَشكُرُ القليلَ مِن العَمَلِ؛ فجَمَع لهم سُبحانَه بيْنَ الأمْرَينِ: أنْ شكَرَ سَعْيَهم، وأثابَهم عليه، واللهُ تعالى يَشكُرُ عبْدَه إذا أحسَنَ طاعتَه، ويَغفِرُ له إذا تاب إليه، فيَجمَعُ للعبدِ بيْن شُكرِه لإحسانِه، ومَغفرتِه لإساءتِه ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٢).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ فإذا كان هو الحَقَّ لزِمَ أنَّ كلَّ ما دلَّ عليه من المسائِلِ الإلهيَّةِ والغَيبيَّةِ وغَيرِها مطابِقٌ لِما في الواقعِ، فلا يجوزُ أن يُرادَ به ما يخالِفُ ظاهِرَه وما دَلَّ عليه(٣).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ اشتِمالُ القرآنِ الكريمِ على الحقِّ في أخبارِه وفي أحكامِه؛ فأخبارُه كلُّها صِدقٌ، وأحكامُه كلُّها عَدلٌ، وما خالفَ القرآنَ فهو باطلٌ؛ فقد حَصَر الحقَّ فيه(٤).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ في قَولِه: ﴿مُصَدِّقًا﴾ تقريرٌ لِكَونِه وَحيًا؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم لَمَّا لم يكُنْ قارِئًا كاتِبًا، وأتَى ببيانِ ما في كُتُبِ اللهِ؛ لا يكونُ ذلك إلَّا مِن اللهِ عالى(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٨٠، ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٨).

١٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ فيه لطيفةٌ، وهي أنَّه تعالَى جعَل القرآنَ مُصدِّقًا لِمَا مضَى -مع أنَّ ما مضَى أيضًا مصَدِّقٌ له؛ لأنَّ الوحيَ إذا نَزَل على واحدٍ جازَ أنْ يَنزِلَ على غيرِه، وهو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم-، ولم يَجعَلْ ما تَقَدَّم مصَدِّقًا للقرآنِ؛ لأنَّ القرآنَ كونُه معجزةً يَكفي في تصديقِه بأنَّه وحيٌ، وأمَّا ما تَقَدَّم فلا بُدَّ معه مِن معجزةٍ تُصَدِّقُه[1].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ رَحمةُ اللهِ تعالى بعبادِه؛ حيثُ لم يَدَعْهم هَمَلًا، بل أنزلَ إليهم الكُتُبَ الَّتي يَستنيرونَ بها في سَيرِهم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ فيه فَضْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ على هذه الأُمَّةِ؛ حيث أوْرَثَها هذا الكتابَ العظيمَ، وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ أنَّ هذه الأُمَّةَ أفضَلُ الأُمم، ودلَّ لذلك أيضًا قولُه: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[3] [آل عمران: ١١٠].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ * جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ بشارةٌ كبيرةٌ لهذه الأُمَّةِ؛ إذ قد وُعِدوا على اختلافِ أحوالِهم، مِن الظُّلمِ والقَصْدِ والمُسابقةِ معًا: بالجنَّةِ، وفيه حُجَّةٌ على المعتزلةِ في بابِ الوعيدِ؛ لإدخالِ الظَّالمِ نفْسَه الجنَّةَ مع المقتَصِدِ والسَّابقِ بالخَيراتِ بإذنِ اللهِ. وأيضًا فيه حُجَّةٌ على الشُّراةِ -الخوارجِ-؛ فإنَّهم يَعُدُّونَ صغيرَ الذَّنْبِ وكبيرَه كُفرًا، فلو كان المصطفى لَمَّا ظَلَمَ نفْسَه كَفَرَ، لَمَا دخَل الجنَّةَ أبدًا -تابَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣١).

أو لم يَتُبْ-؛ لأنَّهم لا يَرونَ التَّوبةَ ولا يقولونَ بها[١]!! وقد يقولُ قائلٌ: يمكِنُ أنْ يُعَارِضَ الخوارجُ والمعتزلةُ هذا الاستِدلالَ بأنْ يقولوا بأنَّ المرادَ بالإثمِ هنا ما دونَ الكبائرِ. فيقالُ: إنَّ ما دونَ الكبائرِ يَقَعُ مَغفورًا بفعلِ الطَّاعاتِ؛ كالصَّلواتِ الخَمْسِ، والجُمُعةِ إلى الجُمُعةِ، ورمضانَ إلى رمضانَ، وحينَئذٍ يَنتفي الظُّلْمُ بمُجرَّدِ فِعلِ هذه الطَّاعاتِ[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أنَّه قد يُرادُ بالظُّلمِ ما لا يَنقُلُ عنِ المِلَّةِ[٣].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ تفاضُلُ النَّاسِ في العَمَلِ، ويَتفرَّعُ عليه: تفاضُلُهم في الإيمانِ، والدَّليلُ على تفاضُلِهم في العمَلِ تَقسيمُهم إلى ثلاثةِ أقسامٍ، ويَلزَمُ مِن تفاضُلِهم في العَمَلِ أنْ يتفاضَلوا في الإيمانِ، فيكونُ في ذلك دليلٌ لِمَذهبِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ القائلينَ بزيادةِ الإيمانِ ونَقصِ الإيمانِ[٤].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الرَّدُّ على القَدَريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُستقِلٌّ بعَمَلِه؛ يقولُ ويَفعلُ ويَترُكُ بغيرِ إذنِ اللهِ[٥]!

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أنَّ أكبرَ فَضْلٍ يَتفضَّلُ اللهُ به على عبْدِه أنْ يُوَفِّقَه للقيامِ بطاعتِه، فمَن ورِثَ هذا الكتابَ عِلْمًا وعمَلًا

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٧٠٥، ٧٠٧، ٧٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٢).

ودعوةً، فهو الَّذي حاز الفضلَ الكبيرَ، وفي قولِه تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] إشارةٌ إلى هذا المعنى(١).

٢٠- قولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ هذا التَّقسيمُ لأُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والظَّالِمُ لنفْسِه المرادُ به: أصحابُ الذُّنوبِ المُصرُّونَ عليها، وقولُه بعدَ ذلك: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ فيه دَلالةٌ لأهلِ السُّنَّةِ على أنَّه لا يُخلَّدُ في النَّارِ أحدٌ مِن أهلِ التَّوحيدِ(٢).

٢١- قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾، وجنَّاتُ عَدْنٍ هي وَصفٌ لجملةِ الجِنانِ -وكلُّها جنَّاتُ عَدْنٍ-، فليست اسمَ جَنَّةٍ مِن جملةِ الجنَّاتِ، والاشتِقاقُ يدُلُّ على أنَّ جميعَها جنَّاتُ عَدْنٍ؛ فإنَّه مِن الإقامةِ والدَّوامِ(٣).

٢٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ الواوُ في ﴿يَدْخُلُونَهَا ﴾ شاملةٌ للظَّالمِ والمُقتصِدِ والسَّابقِ على التَّحقيقِ؛ ولذا قال بعضُ أهلِ العِلمِ: (حُقَّ لهذه الواوِ أن تُكتَبَ بماءِ العينَينِ)، فوعْدُه الصَّادقُ بجنَّاتِ عَدْنٍ لجميعِ أقسامِ هذه الأمَّةِ -وأوَّلُهم الظَّالمُ لنفْسِه- يدُلُّ على أنَّ هذه الآيةَ مِن أرجى آياتِ القرآنِ، ولم يَبْقَ مِن المُسلمينَ أحدٌ خارجٌ عن الأقسامِ الثَّلاثةِ، فالوعدُ الصَّادقُ بالجنَّةِ في الآيةِ شاملٌ لجميعِ المُسلمينَ؛ ولذا قال بعدَها مُتَّصلًا بها: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٨).

نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[1] [فاطر: ٣٦، ٣٧].

٢٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ فيه إشارةٌ إلى سُرعةِ الدُّخولِ؛ فإنَّ التَّحليةَ لو وقعَتْ خارِجًا لَكان فيه تأخيرُ الدُّخولِ؛ فقال: يَدخُلونَها وفيها تقَعُ تَحليتُهم[2].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ أنَّ الجنَّةَ ليست دارَ تكليفٍ؛ يُمنَعُ منها العبدُ ممَّا يَتنعَّمُ به، بل يَتنعَّمُ بكلِّ ما شاء؛ لأنَّنا نَعلمُ جميعًا أنَّ تَحلِّيَ الرِّجالِ في الدُّنيا بالذَّهَبِ مَمنوعٌ وحرامٌ، لكنَّه في الجنَّةِ مُباحٌ وممنوحٌ، وليس بمَمنوعٍ؛ لأنَّ الجنَّةَ لهم فيها ما يَشاؤونَ، بل أكثرُ ممَّا يَشاؤونَ ويُريدونَ[3].

٢٥- قال الله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ ذِكرُ الأساورِ مِن بينِ سائرِ الحُليِّ في مواضِعَ كثيرةٍ -كقَولِه تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: ٢١]- يدُلُّ على كَونِ المتحَلِّي غيرَ مُبتَذَلٍ في الأشغالِ؛ لأنَّ كَثرةَ الأعمالِ باليدِ، فإذا حُلِّيَت بالأساورِ دَلَّ ذلك على الفراغِ مِن الأعمالِ[4].

٢٦- قال اللهُ تعالى حِكايةً عن أهلِ الجنَّةِ قَولَهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤]، فلمَّا صاروا إلى كرامتِه بمَغفرتِه ذُنوبَهم، وشُكرِه إحسانَهم؛ قالوا ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾، وفي هذا معنى

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٦) و(٢/ ٧٢) و(٤/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٧٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤١).

التَّعليلِ، أي: بمَغفرتِه وشُكرِه وصَلْنا إلى دارِ كرامتِه؛ فإنَّه غَفَر لنا السَّيِّئاتِ، وشكَرَ لنا الحَسَناتِ[١].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ كمالُ الفرحِ والسُّرورِ لأهلِ الجنَّةِ؛ فإنَّ هذه الصِّفةَ السَّلبيَّةَ تدُلُّ على كمالِ ضِدِّها، فإذا كان الحَزَنُ مَنفيًّا عنهم؛ كان ذلك دليلًا على كمالِ سرورِهم، وأنَّه سرورٌ لا يُشابُ بحَزَنٍ أبدًا، بخِلافِ سرورِ الدُّنيا؛ فإنَّ سرورَ الدُّنيا مهما عَظُمَ مَشوبٌ بالكَدَرِ[٢].

٢٨- مِن أسماءِ الجنَّةِ: دارُ المُقامةِ؛ قال تعالى حكايةً عن أهلِها: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۞ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾[٣].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ تأبيدُ الجنَّةِ؛ لإطلاقِ قولِه تعالى: ﴿ٱلْمُقَامَةِ﴾، ولم تُقيَّدْ بزمنٍ[٤].

٣٠- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ يدُلُّ على أنَّ الله تعالى يجعَلُ أبدانَهم في نشأةٍ كاملةٍ، ويُهيِّئُ لهم مِن أسبابِ الرَّاحةِ على الدَّوامِ ما يَكونون بهذه الصِّفةِ؛ بحيث لا يَمَسُّهم نَصَبٌ ولا لُغوبٌ، ولا هَمٌّ ولا حَزَنٌ. ويدُلُّ على أنَّهم لا يَنامونَ في الجنَّةِ؛ لأنَّ النَّومَ فائدتُه زَوالُ التَّعَبِ، وحُصولُ الرَّاحةِ به، وأهلُ الجنَّةِ بخِلافِ ذلك، ولأنَّه مَوتٌ أصغَرُ، وأهلُ الجنَّةِ لا يموتونَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

٣١- في قَولِه تعالى: ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَدْخُلُ الجنةَ بعَمَلِه[١].

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ كمالُ الرَّاحةِ في الجنَّةِ، وكمالُ القُوَّةِ والنَّشاطِ؛ لأنَّ التَّعَبَ إنمَّا يَلحَقُ البدنَ الضَّعيفَ، فإذا قال قائلٌ: مِن أين عرَفْنا الكمالَ؟ فالجوابُ: مِن النَّفْيِ؛ لأنَّ نَفْيَ النَّقصِ إثباتٌ لكمالِ ضِدِّه[٢].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ أنَّ أهلَ الجنَّةِ لا يَتعَبونَ في مُزاوَلةِ الأعمالِ، ولا يَلحَقُهم إعياءٌ بعدَ ذلك، فلا يَتعَبون قَطعًا كما في الآيةِ، لكِنَّهم يَعمَلون كما في قَولِه تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ [الإنسان: ٦]، يَعمَلونَ في نعيمهم؛ يُفَجِّرونَ الأنهارَ، ويَجنونَ الثِّمارَ؛ إلَّا أنَّه بدونِ كُلْفةٍ أو مَشقَّةٍ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ﴾[٣] [الحاقة: ٢٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ استِئنافٌ لبيانِ جُملَةِ ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فالَّذين يَتْلونَ كِتابَ اللهِ همُ المُرادُ بالعُلماءِ، وقد تخَلَّصَ إلى بَيانِ فَوزِ المُؤمِنينَ الَّذين اتَّبَعوا الذِّكرَ، وخَشُوا الرَّحمنَ بالغَيبِ؛ فإنَّ حالَهم مُضادٌّ لِحالِ الَّذين لم يَسمَعوا القُرآنَ، وكانوا عنْدَ تَذكيرِهم به كحالِ أهلِ القُبورِ لا يَسمَعونَ شَيئًا؛ فبَعْدَ أنْ أثْنى عليهم ثَناءً إجماليًّا بقَولِه تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥١).

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وأجمَلَ حُسْنَ جَزائِهم بذِكرِ صِفةِ ﴿غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] -ولذلك خُتِمَتْ هذه الآيةُ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾- فُصِّلَ ذلك الثَّناءُ، وذُكِرَتْ آثارُه ومَنافِعُه[١].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ فيه ثَناءٌ مِنَ اللهِ على التَّالينَ لِكتابه العامِلينَ بشَرائِعه مِن بيْنِ المُكَذِّبينَ بها مِن سائِرِ الأُمَمِ، وفيه كِنايةٌ عن إيمانِ التَّالينَ له؛ لأنَّه لا يَتلو الكِتابَ إلَّا مَن صَدَّقَ به، وتَلَقَّاه باعتِناءٍ. و﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ هو القُرآنُ، وعَدَلَ عنِ اسمِه العَلَمِ إلى اسمِ الجِنسِ المُضافِ لاسمِ الجَلالةِ؛ لِما في إضافَتِه إليه مِن تَعظيمِ شَأنِه[٢].

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أشعَرَ الفِعلُ المُضارِعُ ﴿يَتْلُونَ﴾ بتَجَدُّدِ تِلاوَتِهم؛ فإنَّ نُزولَ القُرآنِ مُتجَدِّدٌ، فكُلَّما نَزَلَ منه مِقدارٌ تَلَقَّوْه وتَدارَسوه. وجِيءَ في جانِبِ إقامةِ الصَّلاةِ والإنفاقِ بِفِعلِ المُضِيِّ؛ لأنَّ فَرْضَ الصَّلاةِ والصَّدَقةِ قد تقرَّرَ وعَمِلوا به، فلا تَجَدُّدَ فيه، وامتِثالُ الَّذي كُلِّفوا به يَقتَضي أنَّهم مُداوِمونَ عليه[٣]؛ فعَبَّرَ في الأوَّلِ بالمُضارِعِ؛ لِأنَّ إنزالَها كان قبْلَ التَّمامِ، وتَصريحًا بتَكرارِ التِّلاوةِ تَعبُّدًا ودِراسةً؛ لِأنَّ القُرآنَ كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإبِلِ في عُقُلِها[٤]))[٥]، وفي الثَّاني والثَّالثِ بالماضي؛ حَثًّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦).

(٤) العُقُلُ جمْعُ عِقالٍ، وهو الحَبلُ الَّذي يُشَدُّ به ذِراعُ البعيرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٤٩٥).

(٥) أخرجه البخاري (٥٠٣٣)، ومسلم (٧٩١) مطولًا، واللفظ له، مِن حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

على المُبادَرةِ إلى الفِعلِ، وقد تحَصَّلَ مِن هذا أنَّه جَعَل لِفِعلِ القَلبِ -الَّذي هو الخَشيةُ- دليلًا باللِّسانِ، وآخَرَ بالأركانِ، وثالِثًا بالأموالِ[١]. وقيل: عَبَّرَ في الأوَّلِ بالمُضارِعِ؛ إشارةً إلى سُهولةِ مَصدَرِه، وفي الثَّاني بالماضي؛ إشارةً إلى أنَّه مُحَقَّقٌ وُقوعُه، مع عَدَمِ سُهولَتِه[٢].

- وفي قَولِه: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إدماجٌ[٣] للامتِنانِ، وإيماءٌ إلى أنَّه إنفاقُ شُكرٍ على نِعمةِ اللهِ عليهم بالرِّزقِ؛ فهم يُعطُونَ منه أهلَ الحاجةِ، ووَقَع الالتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ مِن قَولِه: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ إلى التَّكلُّمِ في قَولِه: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ لأنَّه المُناسِبُ لِلامتِنانِ[٤].

- وفي تقديمِ السِّرِّ على العَلانيةِ في قَولِه: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ إشارةٌ إلى أنَّه أفضَلُ؛ لِانقِطاعِ شائِبةِ الرِّياءِ منه، وذَكَر العَلانيةَ؛ لِلإشارةِ إلى أنَّهم لا يَصُدُّهم مَرأى المُشرِكينَ عنِ الإنفاقِ؛ فهم قد أعلَنوا بالإيمانِ وشرائِعِه حبَّ مَن حبَّ، أو كَرِهَ مَن كَرِهَ[٥].

- قَولُه: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً﴾ قيل: خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في إنشاءِ التَّبشيرِ، كأنَّه قيلَ: لِيَرجوا تِجارةً، وزادَه التَّعليلُ بقَولِه: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ قَرينةً على إرادةِ التَّبشيرِ، والمعنى: لِيَرجوا أن تكونَ أعمالُهم -مِن تلاوةٍ وصلاةٍ وإنفاقٍ- كتجارةٍ رابحةٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٣٣٤).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٠٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧).

- قَولُه: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ صِفةٌ لـ ﴿تِجَٰرَةً﴾، وجيءَ بهذه الجُملةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّها ليستْ كسائرِ التِّجاراتِ الدَّائرةِ بيْنَ الرِّبحِ والخُسرانِ؛ لأنَّه اشتراءُ باقٍ بفانٍ، والإخبارُ برَجائِهم مِن أكرَمِ الأكرَمينَ عِدَةٌ قَطعيَّةٌ بحُصولِ مَرجُوِّه[1].

٢- قَولُه تَعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

- قولُه: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ عِلَّةٌ لِمَدلولِه، أي: يَنتَفي عنها الكَسادُ، وتَنفُقُ عنْدَ اللهِ؛ لِيُوفِّيَهم بنَفاقِها أُجورَ أعمالِهم، أو لِمَدلولِ ما عُدَّ مِن امتِثالِهم، نَحوَ: فَعَلوا ذلك لِيُوفِّيَهم، أو عاقِبةً لـ ﴿يَرْجُونَ﴾[2].

- ووَقَعَ التِفاتٌ مِنَ التَّكلُّمِ في قَولِه: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إلى الغَيبةِ ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ ﴿وَيَزِيدَهُم﴾؛ رُجوعًا إلى سِياقِ الغَيبةِ مِن قَولِه: ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، أي: لِيُوفِّيَ اللهُ الَّذين يَتلونَ كِتابَه[3].

- قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ تَذييلٌ وعِلَّةٌ لِقَولِه: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ وذلك أنَّ الغُفرانَ والشُّكرانَ مِن شأنِ اللهِ سُبحانَه، فإنَّ مِن صِفاتِه الغَفورَ الشَّكورَ، أي: الكَثيرَ المَغفِرةِ، والشَّديدَ الشُّكرِ؛ فالغَفورُ والشَّكورُ مِن أبنِيةِ المُبالَغةِ[4].

- وأكَّدَ هذا الخَبَرَ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ زيادةً في تَحقيقِه، ولِما في التَّأكيدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧).

مِنَ الإيذانِ بكَونِ ذلك عِلَّةً لِتَوفيةِ الأُجورِ، والزِّيادةِ فيها[١].

٣- قَولُه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ ...﴾ لَمَّا كان المُبدَأُ به مِن أسبابِ ثَوابِ المؤمنينَ هو تِلاوتَهم كِتابَ اللهِ، أُعقِبَ التَّنويهُ بهم بالتَّنويهِ بالقُرآنِ، ولِأنَّ في التَّذكيرِ بجَلالِ القُرآنِ وشَرَفِه إيماءً إلى عِلَّةِ استِحقاقِ الَّذين يَتلونَه ما استَحَقُّوا. وابتُدِئَ التَّنويهُ به بأنَّه وَحيٌ مِنَ اللهِ إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وناهيك بهذه الصِّلةِ تَنويهًا بالكِتابِ، وهو يَتضَمَّنُ تَنويهًا بشَأنِ الَّذي أُنزِلَ عليه مِن قَولِه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ ففي هذا مَسَرَّةٌ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبِشارةٌ له بأنَّه أفضَلُ الرُّسُلِ، وأنَّ كِتابَه أفضَلُ الكُتُبِ، وهذه نُكتةُ تَعريفِ المُسنَدِ إليه باسمِ المَوصولِ (الَّذي) في قولِه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإشارةِ إلى وَجْهِ كَونِه الحَقَّ الكامِلَ، دُونَ الإضمارِ الَّذي هو مُقتَضى الظَّاهِرِ بأنْ يُقالَ: (وهو الكِتابُ الحَقُّ)؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تَعريفُ العَهدِ، و﴿مِنَ﴾ بَيانيَّةٌ لِمَا في المَوصولِ مِنَ الإبهامِ، والتَّقديرُ: والكِتابُ الَّذي أوحَيْنا إليك هو الحَقُّ. فقُدِّمَ المَوصولُ الَّذي حَقُّه أنْ يَقَعَ صِفةً لِلكِتابِ تَقديمًا؛ لِلتَّشويقِ بالإبهامِ؛ لِيَقَعَ بعْدَه التَّفصيلُ، فيَتمَكَّنَ مِنَ الذِّهنِ فَضْلَ تَمَكُّنٍ؛ فجُملةُ ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩]، فهي مِثلُها في حُكمِ الاستِئنافِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٠٨، ٣٠٩).

- وضَميرُ (هو) في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ ضَميرُ فَصلٍ، وهو تأكيدٌ لِما أفادَه تعريفُ المُسنَدِ مِنَ القَصرِ، والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وأفادَ تَعريفُ الجُزأيْنِ قَصْرَ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه، أي: قَصْرَ جِنسِ الحَقِّ على (الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)، وهو قَصْرٌ ادِّعائيٌّ[١] لِلمُبالَغةِ؛ لِعَدَمِ الاعتِدادِ بحَقِّيَّةِ ما عَداهُ مِنَ الكُتُبِ[٢].

- وانتَصَبَ قَولُه: ﴿مُصَدِّقٗا﴾ على الحالِ مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾، والعامِلُ في الحالِ فِعلُ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾؛ لِيُفيدَ أنَّه مع كَونِه حَقًّا بالغًا في الحَقِّيَّةِ فهو مُصَدِّقٌ لِلكُتُبِ الحَقَّةِ، ومُقرِّرٌ لِمَا اشتَمَلَتْ عليه مِنَ الحَقِّ[٣].

- وقَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ تَذييلٌ جامِعٌ لِمَا تَضمَّنَتْه الآياتُ قبْلَه مِن تَفضيلِ بَعضِ عِبادِ اللهِ على بعضٍ، ومِن انطواءِ ضَمائِرِهم على الخَشيةِ وعَدَمِها، وإقبالِ بَعضِهم على الطَّاعاتِ وإعراضِ بعضٍ، ومِن تَفضيلِ بعضِ كُتُبِ اللهِ على بعضٍ، المُقتَضي أيضًا تَفضيلَ بعضِ المُرسَلينَ بها على بعضٍ، كما أنَّ مَوقِعَ قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ مَوقِعُ إقناعِ السَّامِعينَ بأنَّ اللهَ عَليمٌ بعِبادِه، وهو يُعامِلُهم بحَسَبِ ما يَعلَمُ منهم، ويَصطَفي منهم مَن عَلِمَ أنَّه خَلَقَه كُفْئًا لِاصطِفائِه، فألْقَمَ بهذا الَّذين قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ [ص: ٨] حَجَرًا، وكأولئك أيضًا الَّذين يُنكِرونَ القُرآنَ مِن أهلِ الكِتابِ بعِلَّةِ أنَّه جاءَ مُبطِلًا لِكِتابِهم[٤].

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ تَقديمُ (الخَبيرِ) على (البَصيرِ)؛

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠).

لِأنَّه أشمَلُ، وذَكَر (البَصيرَ) عَقِبَه؛ لِلعِنايةِ بالأعمالِ الَّتي هي مِنَ المُبصَراتِ، وهي غالبُ شَرائعِ الإسلامِ. وقيل: تقديمُ (الخبيرِ)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ العُمدةَ هي الأمورُ الرُّوحانيَّةُ(١).

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) و(اللَّامِ)؛ لِلاهتِمامِ بالمَقصودِ مِن هذا الخَبَرِ(٢).

- وأيضًا في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قاله هنا بلَفظِ الجَلالةِ الصَّريحِ ﴿ٱللَّهَ﴾، وبزِيادةِ اللَّامِ في ﴿لَخَبِيرٌۢ﴾؛ لِعَدَمِ تَقَدُّمِ ذِكرِ لَفظِ الجلالةِ؛ لِأنَّ الآيةَ المُتقدِّمةَ في هذه السُّورةِ لم يَكُنْ فيها ذِكرُ اللهِ، فصَرَّحَ باسمِه سُبحانَه. وبزِيادةِ اللَّامِ؛ مُوافَقةً لِقولِه بعْدُ: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]. وقالَه في (الشُّورى): ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧] بالضَّميرِ؛ لِتقَدُّمِ لَفظِ (الله)، وبحَذفِ اللَّامِ؛ لِعَدَمِ ما يَقتَضي ذِكرَها؛ فهو مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ﴾ [الشورى: ٢٧]، فخُصَّ بالكِنايةِ(٣).

٤- قَولُه تَعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (ثمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ كما هو شأْنُها في عَطْفِها الجُمَلَ، فهي هنا لِعَطفِ الجُمَلِ عَطفًا ذِكريًّا، فالمُتعاطفاتُ بها بمَنزلةِ المُستأْنَفاتِ؛ فهذه الجُملةُ كالمستأْنَفةِ، و(ثُمَّ) لِلتَّرَقِّي في الاستِئنافِ، وهذا ارتِقاءٌ في التَّنويهِ بالقُرآنِ المُتضَمِّنِ التَّنويهَ بالرَّسولِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٠)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٩).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعُروجٌ في مَسَرَّته وتَبشيره؛ فبَعْدَ أنْ ذُكِّر بفَضيلةِ كِتابه -وهو أمْرٌ قد تقرَّرَ لَدَيْه- زِيدَ تَبشيرًا بدَوام كِتابه، وإيتائه أُمَّةً هم المُصطَفَوْنَ مِن عِبادِ اللهِ تعالى، وتبشيره بأنَّهم يَعمَلونَ به، ولا يَترُكونَه كما تَرَك أُمَمُ مَنْ قَبْلَه كُتُبَهم ورُسُلَهم؛ لِقَولِه: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ الآيَةَ، فهذه البشارةُ أهَمُّ عنْدَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الإخبارِ بأنَّ القُرآنَ حَقٌّ مُصَدِّقٌ لِمَا بيْنَ يَدَيْه؛ لِأنَّ هذه البِشارةَ لم تَكُنْ مَعلومةً عِندَه، فوَقْعُها أهَمُّ[1].

وقيل: في «ثُمَّ» -الدَّالَّةِ على التَّراخي- إشارةٌ إلى الفَترةِ بيْنَ عيسى ومحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2].

- قَولُه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ على القولِ بأنَّ ﴿ثُمَّ﴾ هنا تقتضي التَّرخيَ في الزَّمانِ، وأنْ يُقالَ: ثمَّ نورثُه بعدَك المُصْطَفيْن، فمجيءُ ﴿أَوْرَثْنَا﴾ ماضيًا: معناه: حَكَمْنا بتَوريثِه مِنك، أو نُورِثُه، فعَبَّرَ عنه بالماضي؛ لِتحَقُّقِه وتَقَرُّرِه، أو: أوْرَثْناه مِنَ الأُمَمِ السَّالِفةِ، أو وَضَع الماضيَ مَوضِعَ المُستَقبَلِ؛ تَنزيلًا لِمَا هو الكائِنُ بمَنزِلةِ الكائِنِ، أو لِأنَّ هذه الآيةَ مُتَّصِلةٌ بما سبقَ مِن قَولِه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، أي: قَدَّم اللهُ على إرسالِه -صَلَواتُ اللهِ عليه- إرسالَ الرُّسُلِ في كُلِّ أُمَّةٍ، وعَقَّبَه بما يُنبِئُ أنَّ تلك الأُمَمَ تفرَّقَتْ حِزبَيْنِ: حِزْبًا كَذَّبوا الرُّسُلَ وما أُنْزِلَ معهم، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [فاطر: ٢٥]، وحِزْبًا صَدَّقوهم وآمَنوا وتَلَوْا كِتابَ اللهِ وعَمِلوا بمُقتضاه، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟﴾ [فاطر: ٢٩]، وعلى

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠، ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣١).

هذا الوَجْهِ يَكونُ ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ ماضيًا يَجْري على ظاهِرِه، والعَطفُ على ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ﴾، ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ اعتِراضٌ؛ لِبَيانِ كَيفيَّةِ التَّوريثِ[١].

- قَولُه: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ في الإيراثِ مَعنى الإعطاءِ؛ فيَكونُ فِعلُ ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ حَقيقًا بأنْ يَنصِبَ مَفعولَيْنِ، وكان مُقتَضى الظاهِرِ أنْ يَكونَ أحَدُ المَفعولَيْنِ -الَّذي هو الآخِذُ في المَعنى- هو المَفعولَ الأوَّلَ، والآخَرُ ثانيًا، وإنَّما خُولِفَ هنا فقُدِّمَ المفعولُ الثَّاني؛ لِأمْنِ اللَّبسِ؛ قَصدًا لِلاهتِمامِ بالكِتابِ المُعطَى، وأمَّا التَّنويهُ بآخِذي الكِتابِ فقدْ حَصَلَ مِنَ الصِّلةِ[٢].

- ولَمَّا أُريدَ تَعميمُ البِشارةِ مع بَيانِ أنَّهم مَراتبُ فيما بُشِّروا به، جِيءَ بالتَّفريعِ في قَولِه: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾؛ فهو تَفصيلٌ لمَراتِبِ المُصطفَينَ؛ لِتَشملَ البِشارةُ جميعَ أصنافِهم، ولا يُظَنَّ أنَّ الظَّالِمَ لنَفْسِه مَحرومٌ منها؛ فمَناطُ الاصْطِفاءِ هو الإيمانُ والإسلامُ[٣].

- وقُدِّمَ في التَّفْصيلِ ذِكرُ الظَّالِمِ لِنَفْسِه؛ لِدَفعِ تَوهُّمِ حِرْمانِه مِن الجَنَّةِ، وتَعْجيلًا لِمَسَرَّتِه[٤]؛ فهذا المقامُ أظهرَ اللهُ فيه كرَمَه وشِدَّةَ رحمتِه ولُطفِه بعبادِه، وتعظيمَ هذا القرآنِ العظيمِ، وقوَّةَ آثارِه على مَن أوْرَثهم إيَّاه بدخولِ الجنَّةِ؛ فلذا قدَّم الظَّالمَ لئلَّا ييئسَ مِن رحمةِ الله، وأُخِّر السَّابقُ لئلَّا يُعجَبَ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢، ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣١١، ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣١٢).

بعمله فيَحبَطَ[١]. وقال بعضُ العلماء: أكثرُ أهلِ الجنَّةِ الظَّالمونَ لأنفُسِهم؛ لأنَّ الَّذين لم تقَعْ منهم معصيةٌ أقَلُّ مِن غيرِهم؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡ﴾ [ص: ٢٤]، ولَمَّا كان أكثرُ أهلِ الجنَّةِ الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بدَأ بهم؛ لأكثريَّتِهم[٢].

- وأيضًا قُدِّمَ الظَّالِمُ، ثمَّ المُقتَصِدُ، ثمَّ السَّابِقُ؛ للإيذانِ بكَثرةِ الفاسِقينَ وغَلَبَتِهم، وأنَّ المُقتَصِدينَ قَليلٌ بالإضافةِ إليهم، والسَّابِقونَ أقَلُّ مِن القَليلِ، ولأنَّ الظُّلمَ بمَعنى الجَهلِ والرُّكونِ إلى الهَوى مُقتَضى الجِبلَّةِ، والاقتِصادُ والسَّبْقُ عارِضانِ[٣]. وقيل: خَتَم بالسَّابقينَ؛ لأنَّهم الخُلاصةُ، ولِيَكونوا أقرَبَ إلى الجنَّاتِ، فهو سُبحانَه تارةً يبدأُ بالأدنى، وتارةً بالأعلى؛ بحسَبِ ما يقتَضيه الحالُ[٤].

- وفي ذِكرِ الخَيْراتِ في قولِه: ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ دَلالةٌ على أنَّها مُرادةٌ في القِسْمَينِ الأوَّلَينِ، فيَؤولُ إلى مَعْنى ظالِمٍ لنَفْسِه في الخَيراتِ، ومُقتَصِدٍ في الخَيراتِ أيضًا، ولك أنْ تَجعَلَ مَعْنى ﴿ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ أنَّه ناقِصُها مِن الخَيراتِ، وفي اختِصاصِ السَّابِقينَ بعدَ التَّقْسيمِ بذِكرِ ثَوابِهم -وذلك على قولٍ في التفسيرِ- والسُّكوتِ عن الآخَرينَ ما فيه مِن وُجوبِ الحَذَرِ. وفي قَولِه: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ تَنويهٌ بالسَّابِقينَ بأنَّ سَبْقَهم

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٧) و(٢/ ٧٣) و(٤/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٧) و(٢/ ٧٣) و(٤/ ٢٤٦، ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦).

كان بعَونٍ مِن اللهِ وتَيْسيرٍ منه، وتَنْبيهٌ على عِزَّةِ مَنالِ هذه الرُّتْبةِ، وصُعوبةِ مَأْخَذِها[١].

- وفي هذه الآيةِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ما يُعرَفُ بالجَمْعِ مع التَّقْسيمِ؛ وهو أنْ يَجمَعَ المُتكلِّمُ بيْنَ شَيْئَينِ أو أكثَرَ في حُكمٍ ثمَّ يَقسِمَ ما جَمَعَه، أو يَقسِمَ أوَّلًا ثمَّ يَجمَعَ[٢].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى السَّبْقِ بالخَيْراتِ، وما فيه مِن مَعْنى البُعْدِ مع قُربِ العَهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإشْعارِ بعُلُوِّ رُتْبتِه، وبُعدِ مَنزِلَتِه في الشَّرَفِ[٣].

- وضَميرُ الفَصْلِ ﴿هُوَ﴾؛ لتَأكيدِ القَصْرِ الحاصِلِ مِن تَعْريفِ الجُزأَينِ، وهو حَقيقيٌّ؛ لأنَّ الفَضْلَ الكَبيرَ مُنحَصِرٌ في المُشارِ إليه بذلك؛ لأنَّ كُلَّ فَضلٍ هو غَيرُ كَبيرٍ إلَّا ذلك الفَضْلَ[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بَدَلُ اشتمالٍ مِن قولِه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ فإنَّ ممَّا يَشتمِلُ عليه الفضْلُ دُخولَهم الجنَّةَ، وتَخصيصُ هذا الفضلِ مِن بيْنِ أصنافِه؛ لأنَّه أعظَمُ الفَضلِ؛ لأنَّه أمارةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٤).

على رِضْوانِ اللهِ عنهم حينَ إدْخالِهِمُ الجَنَّةَ، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ استئنافًا بَيانيًّا؛ لِبَيانِ الفضْلِ الكبيرِ، وقد بُيِّن بأعظَمِ أصنافِه. والمعنى واحدٌ. وضميرُ الجماعةِ في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ راجعٌ إلى ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ [فاطر: ٣٢] المقسَّمِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: ظالمٍ، ومُقتَصِدٍ، وسابقٍ[١].

- وفي الإخبارِ بالمُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ عن المُسنَدِ إليه ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إفادةُ تَقَوِّي الحُكم. وصَوغُ الفِعلِ (يَدخُل) بصيغةِ المُضارِعِ؛ لأنَّه مُستَقبَلٌ، وكذلك صَوغُ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾[٢].

وقدَّمَ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ على الفِعلِ؛ حتَّى لا يَبقَى مُتعَلِّقَ القَلبِ بأنَّه في أيِّ المداخِلِ يكونُ، فإذا قيل له: دارُ زَيدٍ تَدخُلُها، فبِذِكْرِ الدَّارِ يَعلَمُ مَدخَلَه، وبما عندَه مِن العِلمِ السَّابقِ بأنَّ له دُخولًا يَعلَمُ الدُّخولَ؛ فلا يَبقى له توقُّفٌ، ولا سيَّما الجنَّةِ والنَّارِ؛ فإنَّ بيْنَ الـمَدخَلَينِ بَوْنًا بعيدًا[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾

- لَفظُ ﴿وَقَالُواْ﴾ أي: يَقولونَ، ولكنْ عُبِّرَ بصِيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[٤].

- وقيل: جُملةُ ﴿وَقَالُواْ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ [فاطر:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥٦).

٣٣]؛ لئلَّا يَلزَمَ تَأويلُ الماضي بتَحقيقِ الوُقوعِ، مع أنَّه لم يُقصَدْ في قولِه: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٣]. وتلك المَقالةُ مُقارِنةٌ للتَّحْليةِ واللِّباسِ، وهو كَلامٌ يَجْري بيْنَهم ساعَتَئذٍ؛ لإنْشاءِ الثَّناءِ على اللهِ على ما خوَّلَهم مِن دُخولِ الجَنَّةِ، ولِمَا فيه مِن الكَرامةِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾ استِئْنافُ ثَناءٍ على اللهِ؛ شَكَروا به نِعْمةَ السَّلامةِ، وأثْنَوْا عليه بالمَغْفِرةِ؛ لِمَا تَجاوَزَ عمَّا اقترَفوهُ بالنِّسْبةِ للمُقتَصِدينَ والسَّابِقينَ، ولِمَا تَجاوَزَ عنه مِن تَطْويلِ العَذابِ، وقَبولِ الشَّفاعةِ بالنِّسْبةِ لمُختَلِفِ أحْوالِ الظَّالِمينَ أنفُسَهم. وأثْنَوْا على اللهِ بأنَّه شَكورٌ؛ لِمَا رَأَوْا مِن إفاضَتِه الخَيْراتِ عليهم، ومُضاعَفةِ الحَسَناتِ ممَّا هو أكثَرُ مِن صالِحاتِ أعْمالِهم[٢].

- وقيلَ: (غَفُورٌ) فيه إشارةٌ إلى دُخولِ الظَّالِمِ لِنَفْسِه الجَنَّةَ، و(شَكورٌ) فيه إشارةٌ إلى السَّابِقِ، وأنَّه كَثيرُ الحَسَناتِ[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾

- التَّصريحُ بنَفيِ الثَّاني ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾، مع استِلْزامِ نَفْيِ الأوَّلِ له ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ﴾، وتَكْريرُ الفِعلِ المَنْفيِّ؛ للمُبالَغةِ في بَيانِ انتِفاءِ كُلٍّ منهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٥، ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧).

الآيتان (٢٦-٢٧)

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾

قَولُه: ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ﴾ في (ما) هنا وجهانِ؛ **أحدُهما**: أنَّها نَكِرةٌ مَوصوفةٌ في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ مُطلَقٌ، أي: أوَلم نُعَمِّرْكم تَعميرًا يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ؟ أو في محلِّ نصبٍ على الظَّرفيَّةِ، أي: أوَلم نُعمِّرْكم زَمانًا يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ؟ **والثَّاني**: أن تكونَ (ما) موصولةً في محلِّ نَصبٍ نائبًا عن المصدرِ صِفةً لِمفعولٍ مُطلقٍ مَحذوفٍ، أي: أوَلم نُعمِّرْكم التَّعميرَ الَّذي يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ؟ ولا يجوزُ في (ما) أن تكونَ مَصدريَّةً ظرفيَّةً؛ لأنَّ الضَّميرَ في (فيه) يمنَعُ مِن ذلك؛ لِعَودِه على (ما)، و (ما) المصدريَّةُ حَرفٌ لا يعودُ عليها ضميرٌ، وكذلك لا يَصِحُّ جَعْلُ (ما) نافيةً لا لفظًا ولا مَعنًى[1].

المعنى الإجماليُّ:

بعدَ أنْ ذكَر اللهُ تعالى حالَ أهلِ الجنَّةِ ونعيمَهم، يَذكُرُ حالَ الكافرينَ وما هم

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٧٦)، ((أمالي ابن الحاجب)) (١/ ٢٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٧٣).

فيه مِن عذابٍ، فيقولُ: والَّذين كفروا لهم نارُ جَهنَّمَ، لا يُقضَى عليهم فيَموتُوا، ولا يُخَفَّفُ عنهم مِن عذابِ جَهنَّمَ فيَستَريحوا، مِثلَ هذا الجَزاءِ العَظيمِ يُجازي اللهُ كلَّ كَفورٍ، وأولئك الكُفَّارُ يَصرُخونَ في نارِ جهنَّمَ مُستَغيثينَ مِن شِدَّةِ العذابِ قائِلينَ: رَبَّنا أخرِجْنا مِن نارِ جَهنَّمَ نَعمَلْ عَمَلًا صالِحًا غيرَ الَّذي كُنَّا نَعمَلُه في الدُّنيا مِنَ الشِّركِ والمعاصي!

ثمَّ يأتيهم مِن الله الرَّدُّ الَّذي يُخزيهم، فيقولُ سبحانه لهم: أوَلَم نُطِلْ أعمارَكم في الدُّنيا إلى زَمَنٍ يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ، وجاءكم رَسولٌ يُنذِرُكم عذابَ اللهِ؟! فذوقوا عذابَ جَهنَّمَ؛ فما للكافِرينَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم مِن نَصيرٍ يَنصُرُهم مِن عذابِ اللهِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن حالَ المؤمِنينَ ومَقَرَّهم وما هم فيه مِنَ النِّعمةِ؛ بيَّنَ حالَ أعدائِهم مِن الكافِرينَ وما لهم مِن النِّقمةِ؛ زيادةً في سُرورِ المُؤمِنينَ بما قاسَوْه في الدُّنيا مِن تكَبُّرِهم عليهم وفُجورِهم[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا لهم نارُ جَهنَّمَ، لا يُقضَى عليهم[2] فيَموتوا ويَستريحوا مِن

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦١).

(٢) قال الواحدي: (أي: لا يُهلَكُون فيَستريحوا ممَّا هم فيه مِن العذابِ، وهو كقولِه: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾ [القصص: ١٥]). ((الوسيط)) (٣/ ٥٠٦).

عذابِها[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وعن أبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أمَّا أهْلُ النَّارِ الَّذين هم أهْلُها فإنَّهم لا يَموتونَ فيها ولا يَحيَونَ))[٢].

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾.

أي: ولا يُخفِّفُ اللهُ عنهم مِن عَذابِ جَهنَّمَ شَيئًا؛ فهو دائِمٌ ومُستمِرٌّ عليهم في جميعِ الأوقاتِ واللَّحَظاتِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ * قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤، ٧٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابٗا﴾ [النبأ: ٣٠].

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ العَظيمِ يُجازي اللهُ كُلَّ مُتَّصِفٍ بالكُفرِ، فلهم في الآخِرةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

نارُ جهنَّمَ؛ جَزاءً على كُفرِهم[١].

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

أي: والَّذين كفَروا يَصرُخونَ بشِدَّةٍ وهم في نارِ جَهنَّمَ، ويَصيحونَ مُستَغيثينَ مِن شِدَّةِ العذابِ: ربَّنا أخرِجْنا مِن نارِ جَهنَّمَ؛ فنَعمَلَ بطاعتِك غيرَ الَّذي كنَّا نَعمَلُه في الدُّنيا مِن الشِّركِ والكُفرِ والمعاصي[٢].

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾.

أي: فيقولُ الله لهم: أوَلم نُطِلْ أعمارَكم في الدُّنيا إلى زَمَنٍ يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ مِن ذوي الألبابِ؟ فلو كُنتُم ممَّن يَنتفعُ بالحَقِّ لانتفعتُم به في مُدَّةِ عُمُرِكم الَّذي اتَّسَع للتَّذكُّرِ[٣]!

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أَعْذَرَ[٤]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩).

(٤) أعذَرَ: الهمزةُ للإزالةِ والسَّلبِ، يعني: أزال اللهُ عُذرَ مَن بلغ في العُمُرِ إلى ستِّينَ سنةً. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٥/ ٣٠١).

اللهُ إلى امرئٍ أخَّر أجَلَه حتَّى بلَّغَه سِتِّينَ سَنَةً))[١].

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾.

أي: ويُقالُ لهم: وجاءَكم رَسولٌ مِنَ اللهِ يُنذِرُكم عذابَه[٢]، وقامَتْ عليكم الحُجَّةُ؛ فلا عُذرَ لكم[٣]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۞ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك: ٨، ٩].

﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

أي: فذوقوا عذابَ جَهنَّمَ، فما للكافرينَ -الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم في الدُّنيا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٩).

قال القرطبي: (المعنى: أنَّ مَن عَمَّره اللهُ ستِّينَ سنةً لم يَبْقَ له عذرٌ؛ لأنَّ السِّتِّينَ قريبٌ مِن مُعترَكِ المَنايا، وهو سِنُّ الإنابةِ والخُشوعِ، وترقُّبِ المَنيَّةِ ولقاءِ اللهِ تعالى؛ ففيه إعذارٌ بعدَ إعذارٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٣).

(٢) قال ابن عطيَّة: (النَّذيرُ -في قول الجُمهورِ- الأنبياءُ، وكُلُّ نبيٍّ نذيرُ أمَّتِه ومُعاصِرِه، ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نذيرُ العالَمِ في غابِرِ الزَّمانِ. وقال الطَّبَريُّ: وقيل: النَّذيرُ: الشَّيبُ. وهذا قَولٌ حَسَنٌ، إلَّا أنَّ الحُجَّةَ إنَّما تقومُ بالنِّذارةِ الشَّرعيَّةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩، ٣٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦٤).

بالكُفرِ باللهِ، ومَعصيتِه- مِن نصيرٍ يَنصُرُهم فيُنقِذُهم ممَّا هم فيه مِنَ العذابِ[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

إنَّما حَسُن طولُ العُمُرِ ونَفَع؛ لِيَحصُلَ التَّذكُّرُ والاستِدراكُ، واغتِنامُ الفُرَصِ، والتَّوبةُ النَّصوحُ، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾؛ فمَن لم يُورِثْه التَّعميرُ وطولُ البقاءِ إصلاحَ مَعايبِه، وتَدارُكَ فارِطِه[٢]، واغتنامَ بقيَّةِ أنفاسِه، فيَعمَلُ على حياةِ قَلبِه، وحصولِ النَّعيمِ المُقيمِ، وإلَّا فلا خيرَ له في حياتِه؛ فإنَّ العبدَ على جَناحِ سَفَرٍ؛ إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النَّارِ، فإذا طال عُمُرُه وحَسُن عَمَلُه كان طولُ سَفَرِه زيادةً له في حُصولِ النَّعيمِ واللَّذَّةِ، فإنَّه كُلَّما طال السَّفرُ إليها كانت الصَّبابةُ أجَلَّ وأفضَلَ، وإذا طال عُمُرُه وساء عمَلُه كان طولُ سفَرِه زيادةً في ألَمِه وعذابِه، ونزولًا له إلى أسفَلَ؛ فالمسافرُ إمَّا صاعِدٌ وإمَّا نازِلٌ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ أنَّ النَّارَ أبَديَّةٌ لا تفنَى[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ مُقابَلةُ الأقسامِ الثَّلاثةِ للَّذين أُورِثوا الكِتابَ بذِكرِ الكافِرينَ: يدُلُّ على أنَّ تلك الأقسامَ أقسامُ المؤمِنينَ، ومُقابَلةُ جزاءِ الكافِرينَ بنارِ جهنَّمَ يُوضِّحُ أنَّ الجنَّةَ دارٌ للأقسامِ الثَّلاثةِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٠).

(٢) فارِطِه: أي: ما سَبَق وتقَدَّم منه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٦٩).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٧٦).

تفاوُتٍ في الزَّمانِ والمكانِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ حُسْنُ بلاغةِ القرآنِ؛ فإذا ذَكَر شيئًا ذَكَر ما يُقابِلُه حتَّى تكونَ النَّفْسُ بيْنَ هذا وهذا؛ فإذا ذَكَر ثناءً على أهلِ الخَيرِ ذَكَر ذمًّا لأهلِ الشَّرِّ، وإذا ذَكَر جزاءَ أهلِ الخَيرِ ذَكَر جزاءَ أهلِ الشَّرِّ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾: أنَّ أهلَ النَّارِ تَتفاوَتُ منازلُهم وعذابُهم؛ ووَجْهُه: أنَّ كلَّ مُعَلَّقٍ على وَصفٍ فإنَّه يَزدادُ بزيادةِ ذلك الوصفِ، ويَنقُصُ بنُقصانِه[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا ﴾ أنَّ أهلَ النَّارِ يَتألَّمون منها ومِن عذابِها وعِقابِها؛ لأنَّهم لو ماتوا لاستراحوا، فيكونُ في هذا رَدٌّ على قَولِ مَن يقولُ مِن المعتزِلةِ وغيرِهم: إنَّ أهلَ النَّارِ تكونُ النَّارُ فيهم طبيعةً، فلا يَحترِقون فيها ولا يَتألَّمون منها! وهذا خِلافُ ما دلَّ عليه القُرآنُ، وخلافُ ما دلَّ عليه العَقلُ؛ أمَّا القرآنُ فاللهُ تعالى يقولُ: ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١]، أي: ذوقوا العذابَ الَّذي يُحرِقُكم، ويقولُ عزَّ وجلَّ: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦]، وهذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ الجلودَ تحترِقُ، ولكنْ تُبَدَّلُ لأجْلِ أنْ يَذوقوا العذابَ؛ ففيها دليلٌ على أنَّها لو احترَقَت وبَقِيتْ مُحترِقةً، فإنَّها لا تُحِسُّ بالعذابِ، فيُفَرَّقُ بيْنَها وبينَ ما إذا بُدِّلَتْ، فالصَّوابُ -بلا شَكٍّ- أنَّ أهلَ النَّارِ يَتألَّمون مِن عذابِها، وأنَّه لا تكونُ النَّارُ طبيعةً لهم[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٨، ٢٥٩).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ نارَ عِقابِ المؤمنينَ خفيفةٌ عن نارِ المُشركينَ(١).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾ ضَميرُ ﴿عَذَابِهَا﴾ عائدٌ إلى جهنَّمَ؛ لِيَشملَ ما وردَ مِن أنَّ المعذَّبينَ يُعذَّبونَ بالنَّارِ، ويُعَذَّبونَ بالزَّمهريرِ، وهو شِدَّةُ البَردِ، وكُلُّ ذلك مِن عذابِ جَهنَّمَ(٢).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ تركوا الترقُّقَ والعَمَلَ على حسَبِه في وَقتِ نَفعِه، واستَعمَلوه عندَ فواتِه، فلم يَنفَعْهم(٣)!

٩- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، فيه الرَّدُّ على الجَبريَّةِ الَّذين يَحتجُّونَ بالقَدَرِ على المعاصي، ويقولونَ: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ وجهُ الرَّدِّ مِن الآيةِ: أنَّه لو كان القَدَرُ حُجَّةً لم يَكْفِ ما ذُكِر في الاحتِجاجِ عليهم(٤).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ لَمَّا كان التَّفكُّرُ بعدَ البَعثِ غيرَ نافعٍ؛ لأنَّه بعدَ كَشفِ الغِطاءِ، عبَّرَ بالماضي فقال: ﴿مَن تَذَكَّرَ﴾؛ إعلامًا بأنَّه قد خُتِمَ على ديوانِ المتذكِّرينَ، فلا يُزادُ فيهم أحدٌ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٣).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ إثباتُ رَحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وإعذارِه لخَلقِه؛ حيث أرسَلَ إليهم الرُّسُلَ، فإنَّ إرسالَ الرُّسُلِ فيه رَحمةٌ، وفيه أيضًا إعذارٌ وإقامةُ حُجَّةٍ(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ بيانُ أنَّ الكفرَ ظُلْمٌ(٢).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ تعميمُ (الظَّالِمين) وتعميمُ (النَّصير) يقتضي أنَّ نَصرَ الظَّالِم تَجاوُزٌ للحَقِّ؛ لأنَّ الحَقَّ ألَّا يكونَ للظَّالِم نَصيرٌ؛ إذ واجِبُ الحِكمةِ والحَقِّ أن يأخُذَ المقتدِرُ على يدِ كُلِّ ظالِمٍ؛ لأنَّ الأُمَّةَ مُكلَّفةٌ بدفعِ الفَسادِ عن جماعتِها، وفي هذا إبطالٌ لخُلُقِ أهلِ الجاهليَّةِ القائلينَ في أمثالِهم: (انصُرْ أخاك ظالِمًا أو مظلومًا)، وقد ألقى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أصحابِه إبطالَ ذلك، فساقَ لهم هذا المثَلَ حتَّى سألوا عنه، ثمَّ أصلَحَ معناه مع بقاءِ لَفظِه، حينَما سأله رجُلٌ فقال: ((يا رسولَ الله، أنصُرُه إذا كان مظلومًا، أفرأيتَ إذا كان ظالمًا كيفَ أنصرُه؟! قال: تَحجُزُه، أو تَمنَعُه مِن الظُّلم، فإنَّ ذلك نصْرُه))(٣).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ دَليلٌ على أنَّ الكُفَّارَ لا تَنفَعُ فيهم الشَّفاعةُ -وهذا عامٌّ-؛ فلا أحدَ يُدافِعُ عنهم، ولا يَشفَعُ لهم(٤).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٠).

والحديث أخرجه البخاري (٦٩٥٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦٨).

- قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ وَقَع فيه الإخبارُ عن نارِ جَهنَّمَ بأنَّها لهم بلَامِ الاستِحْقاقِ؛ للدَّلالةِ على أنَّها أُعِدَّتْ لِجَزاءِ أعْمالِهِم. وقُدِّم المَجْرورُ ﴿لَهُمۡ﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾؛ للتَّشْويقِ إلى ذِكرِ المُسنَدِ إليه، حتَّى إذا سَمِعَه السَّامِعونَ تمكَّنَ مِن نُفوسِهِم تَمامَ التَّمكُّنِ(١).

- وجُمْلةُ ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾ تَذْييلٌ، والكَفورُ المُبالِغُ في الكُفرِ أو الكُفْرانِ(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا ﴾ ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ مُبالَغةٌ في (يَصْرُخونَ)؛ لأنَّه افتِعالٌ مِن الصُّراخِ، وهو الصِّياحُ بشِدَّةٍ وجُهدٍ؛ فالاصْطِراخُ مُبالَغةٌ فيه، أي: يَصيحونَ من شِدَّةِ ما نابَهم. وجُمْلةُ ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا﴾ بَيانٌ لجُمْلةِ ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾، يَحسَبونَ أنَّ رَفْعَ الأصْواتِ أقرَبُ إلى عِلمِ اللهِ بِندائِهِم، ولإظْهارِ عَدَمِ إطاقةِ ما هُمْ فيه(٣).

- وتَقْييدُ العَمَلِ الصَّالحِ بقَولِهِم: ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ يُؤذِنُ أنَّهم كانوا يَعمَلون صالِحًا آخَرَ غَيرَ الصَّالِحِ المَطْلوبِ عندَ اللهِ، وفائِدةُ هذا القَولِ زِيادةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٨).

التَّحسُّرِ والنَّدَمِ على ما عَمِلوهُ مِن غَيرِ الصَّالِحِ مع الاعترافِ به، وزوالُ وَهْمِهم؛ لظُهورِ حالِهم في الكُفرِ، ورُكوبِ المَعاصي، ولأنَّهم كانوا يَحسَبونَ أنَّهم على سِيرةٍ صالِحةٍ، وفي هذا القَولِ وَعدٌ منهم وهُم في النَّارِ بتَدارُكِ ما فاتَهم مِن الأعْمالِ الصَّالِحةِ، ولكنَّها إنابةٌ بعدَ وَقتِها[١].

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ الواوُ عاطفةٌ فِعلَ قولٍ مَحذوفًا؛ لِعلمِه مِن السِّياقِ بحَسَبِ الضَّميرِ في ﴿نُعَمِّرْكُم﴾، مَعطوفًا على جُملةِ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾؛ فإنَّ صُراخَهم كَلامٌ منهم، والتَّقديرُ: يَقولون: ربَّنا أخرِجْنا، ونقولُ: ألَمْ نُعمِّرْكم...[٢].

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ استِفْهامُ تَقْريعٍ وتَوْبيخٍ وإنْكارٍ، وعَطفُ ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ على مَعْنى ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ للتَّقْريرِ[٣]. وجُعِلَ التَّقريرُ على النَّفيِ تَوطئةً لِيُنكِرَه المقرَّرُ، حتَّى إذا قال: بلى، علِمَ أنَّه لم يَسَعْه الإنكارُ حتَّى مع تَمهيدِ وِطاءِ الإنكارِ إليه[٤].

- والاقتِصارُ على ذِكرِ النَّذيرِ؛ لأنَّ الأهمَّ مِن شأْنِه بالنِّسبةِ إليهم هو النِّذارةُ[٥].

- والفاءُ في ﴿فَذُوقُواْ﴾ هي الفَصيحةُ؛ لِتَرتيبِ الأمْرِ بالذَّوقِ على ما قَبْلَها

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤، ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٠).

مِن التَّعْميرِ، ومَجيءِ النَّذيرِ[١].

- وحُذِفَ مَفعولُ (ذُوقوا)؛ لِدَلالةِ المقامِ عليه، أي: ذُوقوا العذابَ. وهذا الأمْرُ ﴿فَذُوقُواْ﴾ مُستَعمَلٌ في مَعْنى الدَّوامِ، وهو كِنايةٌ عن عَدَمِ الخَلاصِ مِن العَذابِ[٢]. وقيل: الأمرُ هنا للإهانةِ؛ فيُهانون -والعياذُ باللهِ- بالعذابِ والتَّوبيخِ وغيرِها مِن أنواعِ الإهاناتِ[٣].

- وقَولُه: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ تَفريعٌ على ما سَبَقَ مِن الحِكايةِ؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ مِن جُمْلةِ الكَلامِ الَّذي وبَّخَهم اللهُ به؛ فهو تَذْييلٌ له، وتَفْريعٌ عليه؛ لتَأْييسِهم مِن الخَلاصِ، يعني: فأينَ الَّذين زَعَمتُم أنَّهم أوْلياؤُكم ونُصَراؤُكم؟! فما لَكمْ مِن نَصيرٍ، وعُدِلَ عن ضَميرِ الخِطابِ أنْ يُقالَ: فما لَكم مِن نَصيرٍ، إلى الاسْمِ الظَّاهِرِ بوَصْفِ (الظَّالِمينَ)؛ لإفادةِ سَببِ انتِفاءِ النَّصيرِ عنهم؛ ففي الكَلامِ إيجازٌ، أي: لأنَّكم ظالِمونَ، وما للظَّالِمينَ مِن نَصيرٍ؛ فالمَقْصودُ ابتِداءُ نَفيِ النَّصيرِ عنهم، ويَتبَعُه التَّعْميمُ بنَفيِ النَّصيرِ عن كُلِّ مَن كان مِثلَهُم مِن المُشرِكينَ. ويجوزُ أنْ يكونَ كلامًا مُستقِلًّا مُفرَّعًا على القصَّةِ، ذُيِّلَت به للسَّامِعينَ مِن قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [فاطر: ٣٦]، فليس فيه عُدولٌ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ؛ لأنَّ المقصودَ إفادةُ شُمولِ هذا الحُكمِ لكلِّ ظالِمٍ، فيَدخُلُ الَّذين كَفَروا المُتحدَّثُ عنهم في العُمومِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٠).

الآيات (٣٨-٤١)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ٣٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ٤٠ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: بالضَّمائرِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ؛ خَيرِها وشَرِّها؛ لأنَّها في الصُّدورِ، تَحُلُّها وتصاحِبُها، وذاتُ: صاحبةُ، مؤنَّثُ (ذو) بمعنى صاحبٍ[(١)].

﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: أي: خُلَفاءَ، والخَلَفُ هو التَّالي للمُتقَدِّمِ، وأصلُ (خلف): يدُلُّ على مَجيءِ شَيءٍ بعدَ شَيءٍ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٦/ ١٠٠)، ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٨٣، ١٣٨٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥) و (٢٣/ ٣٤٢).

قال ابنُ القَيِّم: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ليس المرادُ به عليمًا بمُجَرَّدِ الصُّدورِ؛ فإنَّ هذا ليس فيه كَبيرُ أمرٍ، وهو بمنزلةِ أن يُقالَ: عَليمٌ بالرُّؤوسِ والظُّهورِ والأيدي والأرجُلِ، وإنَّما المرادُ به: عليمٌ بما تُضمِرُه الصُّدورُ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، أي: بالأسرارِ الَّتي في الصُّدورِ، وصاحِبةِ الصُّدورِ؛ فأضافها إليها بلَفظٍ يَعُمُّ جميعَ ما في الصُّدورِ مِن خَيرٍ وشَرٍّ). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥).

﴿مَقْتًا﴾: أي: بُغضًا وغَضَبًا، وأصلُ (مقت): يدُلُّ على شَناءةٍ وقُبحٍ[(١)].

﴿شِرْكٌ﴾: أي: نَصيبٌ وشَرِكةٌ، وأصلُ (شرك): يدُلُّ على مُقارنةٍ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مخبرًا عن سَعةِ عِلمِه: إنَّ اللهَ تعالى عالمٌ بغَيبِ السَّمَواتِ والأرضِ، إنَّه سُبحانَه عَليمٌ بالنِّيَّاتِ وبما أَسَرَّتْه الضَّمائرُ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه كمالَ حكمتِه ورحمتِه بعبادِه، فيقولُ: هو الَّذي جعَلَكم -أيُّها النَّاسُ- خُلَفاءَ في الأرضِ لِمَن قَبْلَكم، فمَن كفَرَ فضرَرُ كُفرِه على نَفْسِه، ولا يَزيدُ الكافِرينَ كُفرُهم إلَّا بُغضًا مِنَ اللهِ، ولا يَزيدُ الكافِرينَ كُفرُهم إلَّا خَسارةً في الدُّنيا والآخِرةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانه عجْزَ آلهةِ المشركين، ونقْصَها، وبُطْلانَ الشِّركِ مِن جميعِ الوُجوهِ، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: أرَأَيْتُم مَنْ تُشرِكونَهم مع اللهِ تعالى أَرُوني ماذا خَلَقوا مِن الأرضِ حتَّى تَعبُدوهم؟! أمْ لهم شِركٌ مع اللهِ في مُلكِ السَّمَواتِ وخَلقِها؟! أمْ آتَيْناهم كِتابًا فيه مِصْداقُ هذه الشَّرِكةِ مع الله، فهم على بُرهانٍ مِن صِحَّتِها؟!

ثمَّ يُبيِّنُ الأسبابَ الَّتي حمَلَتْهم على الشِّركِ، فيقولُ: بل الحَقُّ أنَّ الظَّالِمينَ يَخدَعُ بعضُهم بعضًا، ويَعِدُ بعضُهم بعضًا بالوُعودِ الباطِلةِ!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٩).

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى جانبًا مِن عظيمِ قدرتِه، وتمامِ رحمتِه، وسَعةِ حِلمِه ومغفرتِه، فيقولُ: إنَّ اللهَ تعالى يُمسِكُ السَّمَواتِ والأرضَ؛ لِئلَّا تَزولا، ولَئِنْ زالت السَّمَواتُ والأرضُ ما أمسَكَهما أحدٌ مِن الخَلقِ، إنَّ اللهَ كان حليمًا لا يُعاجِلُكم بالعُقوبةِ، غَفورًا يَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِكم بالذُّنوبِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ مَجيءِ قَولِه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ عَقيبَ ما قبْلَه مِن قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ هو أنَّه تعالى ذَكَرَ أنَّ الكافِرينَ يُعذَّبونَ دائمًا، ومُدَّةُ كُفرِهم كانتْ مُدَّةً يَسيرةً مُنقَطِعةً؛ فأخبَرَ أنَّه تَعالى عالِمُ غَيبِ السَّمَواتِ والأرْضِ، فلا يَخْفَى عليه ما تَنْطوي عليه الصُّدورُ مِن المُضمَراتِ، وكان يَعلَمُ مِن الكافِرِ أنَّه تَمكَّنَ الكُفرُ في قَلبِه، بحيث لو دامَ إلى الأبَدِ ما آمَنَ باللهِ ولا عَبَدَه[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى جزاءَ أهلِ الدَّارَينِ، وذكَرَ أعمالَ الفَريقَينِ؛ أخبَرَ تعالى عن سَعةِ عِلمِه تعالى، واطِّلاعِه على غَيبِ السَّمَواتِ والأرضِ الَّتي غابت عن أبصارِ الخَلقِ وعن عِلمِهم، وأنَّه عالِمٌ بالسَّرائِرِ، وما تَنطوي عليه الصُّدورُ مِن الخيرِ والشَّرِّ، والزَّكاءِ وغَيرِه، فيُعطي كلًّا ما يَستحِقُّه، ويُنزِلُ كُلَّ أحدٍ مَنزِلتَه[2].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

أي: إنَّ اللهَ عالمٌ بما غاب في السَّمَواتِ والأرضِ عن الخَلقِ[١].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بالضَّمائرِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ؛ خَيرِها وشَرِّها[٢].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها تقريرٌ لقَطعِ حُجَّةِ الكافِرينَ؛ فإنَّهم لَمَّا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ﴾ [فاطر: ٣٧]؛ إشارةً إلى أنَّ التَّمكينَ والإمهالَ مُدَّةً يمكِنُ فيها المعرفةُ: قد حصَلَ وما آمنتُم، وزاد عليه بقَولِه: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]؛ زاد على ذلك بقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩]، أي: نبَّهكم بمَن مضَى وحالِ مَن انقضَى؛ فإنَّكم لو لم يحصُلْ لكم عِلمٌ بأنَّ مَن كذَّب الرُّسُلَ أُهلِك، لَكان عنادُكم أخفَى، وفسادُكم أخَفَّ، لكِنْ أُمهِلتُم وعُمِّرتُم، وأُمِرتُم على لسانِ الرُّسُلِ بما أُمِرتُم، وجُعِلتُم خلائِفَ في الأرضِ؛ فمَن كفَرَ بعدَ هذا كُلِّه، فعليه كُفرُه[٣].

وأيضًا فهذا بيانٌ لِقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٤).

أي: هو الَّذي أوجَدَكم في الأرضِ، فكيف لا يَعلَمُ ما غاب في قُلوبِكم[١]؟!

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: اللهُ الَّذي جعَلَكم -أيُّها النَّاسُ- خَلَفًا للأُمَمِ مِن قَبلِكم[٢].

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثَبَت أنَّ ذلك نِعمةٌ منه؛ عَمَرَهم فيه مُدَّةً يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ؛ تسَبَّب عنه قَولُه[٣]:

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾.

أي: فمَن كفَرَ فعلى نَفْسِه ضَرَرُ كُفرِه، وهو المعاقَبُ عليه دونَ غَيرِه[٤].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).
قال ابنُ عاشور: (الخلائِفُ: جمعُ خَليفةٍ، وهو الَّذي يَخلُفُ غَيرَه في أمرٍ كان لذلك الغيرِ... ويجوزُ أن يكونَ المعنى: هو الَّذي جعَلَكم مُتصَرِّفينَ في الأرضِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، فيكونَ الكلامُ بِشارةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ الله قدَّر أن يكونَ المُسلِمونَ أهلَ سُلطانٍ في الأرضِ بعدَ أُمَمٍ تداولَتْ سيادةَ العالَمِ، ويَظهَرُ بذلك دينُ الإسلامِ على الدِّينِ كُلِّه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

أي: ولا يَزيدُ الكافِرينَ استِمرارُهم على كُفرِهم إلَّا بُغضًا شديدًا لهم مِن رَبِّهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

أي: ولا يَزيدُ الكافِرينَ استِمرارُهم على كُفرِهم إلَّا خَسارةً وهَلاكًا في الدُّنيا والآخِرةِ[(٢)].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جرى ذِكرُ المُشرِكينَ وتَعنُّتِهم وحِسبانِ أنَّهم مَقَتوا المُسلِمينَ، عاد إلى الاحتِجاجِ عليهم في بُطلانِ إلهيَّةِ آلهتِهم، بحُجَّةِ أنَّه لا يُوجَدُ في الأرضِ شَيءٌ يُدَّعَى أنَّها خَلَقَتْه، ولا في السَّمَواتِ شَيءٌ لها فيه شِركٌ مع اللهِ؛ فأمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُحاجَّهم، ويُوجِّهَ الخِطابَ إليهم بانتِفاءِ صِفةِ الإلهيَّةِ عن أصنامِهم، وذلك بعدَ أنْ نفَى استِحقاقَها لعبادتِهم بأنَّها لا تَرزُقُهم -كما في أوَّلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٧٣).

السُّورةِ-، وبعدَ أنْ أثبَت اللهُ التصَرُّفَ في مظاهِرِ الأحداثِ الجوِّيَّةِ والأرضيَّةِ واختلافِ أحوالِها، مِن قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩]، وذكَّرَهم بَخلقِهم وخَلقِ أصلِهم، وقال عَقِبَ ذلك: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ الآيةَ [فاطر: ١٣] - عاد إلى بُطلانِ إلهيَّةِ الأصنام[١].

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: أرأيتُم مَنْ تُشرِكونَهم مع اللهِ تعالى فتَدْعونَهم مِن دونِه، أَرُوني ما الَّذي خلَقُوه مِن الأرضِ حتَّى استحَقُّوا عبادتَكم لهم[٢]؟!

﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

أي: أم لِشُركائِكم شِركٌ مع اللهِ في السَّمَواتِ؛ في خَلقِها، أو مُلكِها، أو تَدبيرِها[٣]؟!

﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا قضَى حَقَّ البُرهانِ العَقليِّ على انتِفاءِ إلهيَّةِ الَّذين يَدْعُونَ مِن دونِ اللهِ؛ انتقَلَ هنا إلى انتِفاءِ الحُجَّةِ السَّمعيَّةِ مِن اللهِ تعالى، المُثبِتةِ آلهةً دُونَه؛ لأنَّ اللهَ أعلَمُ بشُركائِه وأندادِه لو كانوا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٣، ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٦).

﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُ﴾.

أي: أم آتَيْناهم[1] كتابًا فيه ثُبوتُ الشَّرِكةِ مع اللهِ؛ فالمُشرِكونَ على بُرهانٍ وحُجَّةٍ مِن صِحَّةِ ذلك[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

﴿بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

أي: كُلُّ ذلك مُنتَفٍ؛ فلا باعِثَ لهم على مَزاعِمِهم الباطِلةِ إلَّا خِداعُ بَعضِهم بعضًا بالأمانيِّ الكاذِبةِ والآراءِ الباطِلةِ، فاتَّبَعوا أهواءَهم بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ[3].

---

(١) قال البقاعي: (﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: الشُّركاءَ أو المُشرِكينَ بهم). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٦٩).
وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ عائدٌ على المُشرِكينَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١٤).
قال الرسعني: (وجمهورُ المفسِّرينَ على أنَّ الضميرَ في ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ للمشركينَ؛ كقولِه تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾ [الروم: ٣٥]). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٠٤).
وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ عائدٌ على الشُّركاءِ: البيضاويُّ، والنسفيُّ، وأبو حيَّان، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١). =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن أنَّ آلِهتَهم لا تقدِرُ على خَلقِ شَيءٍ مِن السَّمواتِ والأرضِ؛ بَيَّن أنَّ خالِقَهما وممسِكَهما هو اللهُ، فلا يُوجَدُ حادِثٌ إلَّا بإيجادِه، ولا يبقَى إلَّا ببَقائِه[١].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ تَعالى فَسادَ أمْرِ الأصْنام، ووَقَف على الحُجَّةِ على بُطلانِها؛ عقَّبَه بذِكرِ عَظَمَتِه وقُدرَتِه؛ لِيتبيَّنَ الشَّيءُ بضِدِّه، وتَتأكَّدَ حَقارةُ الأصْنامِ بذِكرِ عَظَمةِ اللهِ[٢].

وأيضًا لَمَّا بيَّن شِركَهم قال: مُقتضى شِركِهم زوالُ السَّمَواتِ والأرضِ، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]، ويدُلُّ على هذا قَولُه تعالى في آخِرِ الآيةِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١]؛ كان حليمًا ما ترَكَ تَعذيبَهم إلَّا حِلمًا منه، وإلَّا كانوا يَستحِقُّونَ إسقاطَ السَّماءِ، وانطِباقَ الأرضِ عليهم، وإنَّما أخَّرَ إزالةَ السَّمَواتِ إلى قيامِ السَّاعةِ حِلمًا[٣].

= قال القرطبي: (وهو قَولُ السَّادةِ للسَّفلةِ: إنَّ هذه الآلهةَ تَنفعُكم وتُقرِّبُكم. وقيل: إنَّ الشَّيطانَ يَعِدُ المشركينَ ذلك. وقيل: وعدهم بأنَّهم يُنصَرونَ عليهم). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٦).

وقال ابن عاشور: (والمرادُ بالَّذين يَعِدونَهم: رؤساءُ المشركين وقادتُهم، وبالموعودينَ: عامَّتُهم ودَهماؤُهم. أو أُريدَ أنَّ كِلا الفريقين واعدٌ وموعودٌ؛ فالرُّؤساءُ وأئمَّةُ الكُفرِ يَعِدونَ العامَّةَ نَفْعَ الأصنامِ وشفاعتَها، وتقريبَها إلى اللهِ ونَصْرَها؛ غرورًا بالعامَّةِ. والعامَّةُ تَعِدُ رُؤساءَها التَّصميمَ على الشِّركِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٦، ٣٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٥).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُمسِكُ السَّمَواتِ والأرضَ بقُدرتِه إمساكًا مانِعًا مِن زوالِهما[1].

كما قال تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥].

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾.

أي: ولو زالَت السَّمَواتُ والأرضُ ما أمسَكَهما أحدٌ مِن الخَلقِ كائنًا مَن كان؛ فلا يَقدِرُ على إبقائِهما إلَّا اللهُ وَحْدَه[2].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾.

أي: إنَّ اللهَ كان حَليمًا لا يُعاجِلُ عِبادَه بالعُقوبةِ والعذابِ مع قُدرتِه التَّامَّةِ عليهم، بل يُؤخِّرُهم ويُمهِلُهم؛ غفورًا ساتِرًا لذُنوبِ عبادِه، مُتجاوِزًا عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).
قال أبو السعود: (أي: يُمسِكُهما كراهةَ زوالِهما، أو يَمنَعُهما أنْ تَزولَا؛ لأنَّ الإمساكَ مَنْعٌ). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٦).
وذكر ابنُ عاشور أنَّ المرادَ بالزَّوالِ العَدَمُ، وأيضًا التَّحَوُّلُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، فالمعنى على ذلك أنَّ اللهَ يُمسِكُ السَّمواتِ والأرضَ من أن يُعْدَما، ويُمسِكُهما مِن أن يتحوَّلَ نِظامُ حَركتِهما. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٨٨).
قال ابن الجوزي: (﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ تحتَمِلُ وَجهَين؛ أحدُهما: زوالُهما يومَ القيامةِ. والثَّاني: أن يقالَ تقديرًا وإن لم تَزولا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١٤، ٥١٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٧٣، ٢٧٤).

مُؤاخَذتِهم بها[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ التَّحذيرُ مِن أن يُضمِرَ الإنسانُ في قَلبِه ما لا يَرضاه اللهُ، ثمَّ تُحدِّثُه نَفْسُه بأنَّ هذا لا يَطَّلِعُ عليه إلَّا اللهُ، فيَغتَرُّ بإمهالِ اللهِ له[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِشارةٌ للمؤمنينَ، وإنذارٌ للكافرين؛ لأنَّ مِن جملةِ الخلافةِ أنْ يَخْلُفَ المؤمنونَ الكافرينَ في أرضِهم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧]، وكذا قولُه تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال لهم: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، ففي هذا بِشارةٌ للمؤمنِ فلا يَيْأَسْ مِن أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَجعلُ له الخلافةَ في الأرضِ؛ وإنذارٌ للكافرِ بأنْ تُجتاحَ أرضُه على أيدي المؤمنينَ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ فاللهُ مُريدٌ استِمرارَ انتِظامِ حَرَكةِ الكواكِبِ والأرضِ على هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٣).

النِّظامِ المُشاهَدِ المُسمَّى بالنِّظامِ الشَّمسيِّ، وكذلك نظامُ الكواكِبِ الأُخرى الخارجةِ عنه إلى فَلَكِ الثَّوابتِ، أي: إذا أراد اللهُ انقراضَ تلك العوالِمِ أو بَعضِها قَيَّض فيها طوارئَ الخلَلِ والفَسادِ، والخَرْقِ بعدَ الالتِئامِ؛ فتفكَّكَت وانتَشَرت إلى ما لا يَعلَمُ مَصيرَه إلَّا اللهُ تعالى، وحينَئذٍ لا يَستطيعُ غَيرُه مُدافعةَ ذلك ولا إرجاعَها إلى نظامِها السَّابقِ؛ فرُبَّما اضمحَلَّت أو اضمَحَلَّ بَعضُها، ورُبَّما أخَذتْ مَسالِكَ جديدةً مِن البقاءِ، وفي هذا إيقاظٌ للبَصائرِ؛ لِتَعلَمَ ذلك عِلمًا إجماليًّا، وتتدبَّرَ في انتِساقِ هذا النِّظامِ البَديعِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ الحَذَرُ مِن أن يَتمنَّى الإنسانُ على اللهِ الأمانيَّ، بل يجبُ أنْ يكونَ الإنسانُ فَطِنًا كَيِّسًا حازِمًا؛ فالوُعودُ الَّتي يُوعَدُ بها الإنسانُ مِن قِبَلِ الظَّالِمينَ أو مِن قِبَلِ نفْسِه إذا كانت مخالِفةً للشَّرعِ، فما هي إلَّا غُرورٌ وباطِلٌ؛ فلْيَحذَرِ الإنسانُ منها[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ المَدارَ على ما في القَلبِ، وذاتُ الصُّدورِ هي القُلوبُ؛ لأنَّها السَّاكِنةُ فيها، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[3] [الحج: ٤٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في تَوارُثِ الأُممِ بعضِها بعضًا، فإنَّه لولا ذلك لَضاقتِ الأرضُ بأهلِها، وشقَّ عليهم تحصيلُ الأرزاقِ -وإنْ كان اللهُ عزَّ وجلَّ قد يَجعلُ لهم مِن الرِّزقِ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٠).

لا يَخطُرُ بالبالِ-؛ لكنْ لا شكَّ مِن أنَّ جَعْلَ النَّاسِ يَخْلُفُ بعضُهم بعضًا -هذا يموتُ وهذا يحيا- هو الحكمةُ والرَّحمةُ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أنَّه كُلَّما ازداد الإنسانُ كُفرًا ازداد عندَ اللهِ مَقْتًا؛ وجهُ ذلك: القاعدةُ: «أنَّ الحُكمَ المُعَلَّقَ على وَصفٍ، يَزدادُ بزيادتِه، ويَنقُصُ بنُقصانِه»، وهنا الحُكْمُ مُعَلَّقٌ على الكُفرِ؛ فإذَنْ يَزدادُ مَقْتُ اللهِ عزَّ وجلَّ على الكافرِ بزيادةِ كُفرِه، ويَنقُصُ بنُقصانِ كُفرِه[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾ إثباتُ صفةٍ مِن صِفاتِ الله، وهي المَقْتُ الَّذي هو أشَدُّ البُغضِ[٣]، وهي صِفةٌ فِعليَّةٌ خبريَّةٌ ثابتةٌ لله عزَّ وجلَّ بالكتابِ والسُّنَّةِ، وهي عندَ أهلِ الحقِّ كسائرِ صِفاتِ الأفعالِ: صِفةٌ حقيقيَّةٌ لله عزَّ وجلَّ، على ما يَليقُ به، ولا تُشبِهُ ما يَتَّصِفُ به المخلوقُ مِن ذلك، ولا يَلزَمُ منها ما يَلزَمُ في المخلوقِ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ قوَّةُ القُرآنِ في أسلوبِ المُناظَرةِ، وذلك بالسَّبرِ والتَّقسيمِ[٥]؛ وَجْهُه: أنَّ اللهَ تَحدَّاهم بثلاثةِ أمورٍ: هل خَلَقوا شيئًا مِن الأرضِ؟ هل شارَكوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ٣٢١، ٣٢٢).

(٥) السَّبْرُ والتَّقسيمُ: هو حصْرُ الأوصافِ في الأصلِ المَقيسِ عليه وإبطالُ بعضِها ممَّا لا يَصلُحُ للتَّعليلِ، فيَتعيَّنُ الباقي للعِلِّيَّةِ. والتَّقسيمُ يكونُ قبْلَ السَّبرِ؛ لأنَّه تَعدادُ الأوصافِ الَّتي يُتَوهَّمُ صَلاحيتُها للتَّعليلِ ثمَّ يَسْبُرُها، أي: يَختبِرُها ليميزَ الصَّالحَ للتَّعليلِ مِن غيرِه. يُنظر: ((الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب)) للبابرتي (٢/ ٥٣٠)، ((التحبير شرح التحرير)) للمرداوي (٧/ ٣٣٥٢).

اللهَ في السَّماءِ؟ هل عندَهم كتابٌ مِن اللهِ أنَّ هذه الأصنامَ تَنفَعُهم، وإنْ لم تَكُنْ شَريكةً للهِ في السَّمَواتِ، ولم تَخْلُقْ شَيئًا مِن الأرضِ؟ والجوابُ: لا، ولو خَلَقَتْ شيئًا مِن الأرضِ لَكان لها الحَقُّ؛ لأنَّها تَخْلُقُ، ولو شاركتِ اللهَ في مُلْكِه في السَّماءِ لَكان لها الحقُّ؛ لأنَّها شريكةٌ للهِ عزَّ وجلَّ في مُلْكِه، ولو كان اللهُ أنزَلَ كتابًا يقولُ بأنَّ هذه الأصنامَ لها الحقُّ أنْ تُعبَدَ وتُدْعَى مِن دونِ اللهِ لَكان لهم شُبهةٌ أو حُجَّةٌ، فلمَّا انتفتِ الأمورُ الثلاثةُ تَبَيَّنَ أنَّه لا حُجَّةَ لهم، فينبغي في المناظَرةِ أنْ تُذْكَرَ جميعُ الأقسامِ الَّتي يمكنُ أنْ تَرِدَ في الذِّهنِ ثمَّ تُبْطَلَ؛ احترازًا ممَّا لو ذُكِر شَيءٌ واحدٌ ثمَّ بُيِّنَ بُطلانُه، فقد يُوْرَدُ عليه شَيءٌ آخَرُ[(١)].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لعلَّ استِفهامَهم عن رؤيةِ شُرَكائِهم تنبيهٌ على أنَّهم مِن الامتِهانِ والحَقارةِ بحيثُ يَراهم كُلُّ مَن يَقصِدُ رُؤيتَهم، ويَعلَمُ أنَّه لا خَلْقَ لهم، واللهُ تعالى بخِلافِ ذلك في كُلٍّ مِن الأمْرينِ، مُتَرَدٍّ برِداءِ الكِبْرِ، مُحتَجِبٌ بحِجابِ الجَلالِ والعِزِّ، وكُلُّ أحدٍ يَعلَمُ أنَّه خالِقٌ لكُلِّ مَخلوقٍ، فكيف يكونُ مَن لا يَخلُقُ كمَن يَخلُقُ[(٢)]؟!

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ اتِّصافُه بالحِلمِ والغُفرانِ في هذه الآيةِ إنَّما هو إشارةٌ إلى أنَّ السَّماءَ كادت تَزولُ، والأرضُ كذلك؛ لإشراكِ الكَفَرةِ، فيُمسِكُها حِلمًا منه عن المُشرِكينَ، وتَرَبُّصًا لِيَغفِرَ لِمَنْ آمَنَ منهم[(٣)]، فلولا حِلمُه ومَغفرتُه لَزُلْزِلَتِ السَّمَواتُ والأرضُ مِن معاصي العِبادِ، وتأمَّلْ خَتْمَ هذه الآيةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠).

باسْمَينِ مِن أسمائِه، وهما: «الحليمُ» و«الغفورُ» كيف تَجِدُ تحتَ ذلك أنَّه لولا حِلمُه عن الجُناةِ ومَغفرتُه للعُصاةِ لَمَا استقرَّت السَّمَواتُ والأرضُ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ إثباتُ الحِكمةِ؛ لأنَّه عَلَّلَ إمساكَ السَّمَواتِ والأرضِ بكَونِ ذلك مُقتضَى حِلْمِه ومَغفرتِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ استِئْنافٌ واصِلٌ بيْنَ جُمْلةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١] وجُملةِ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآيةَ [فاطر: ٤٠]؛ فتَسَلْسَلتْ مَعانيه فعادَ إلى فَذْلَكةِ[٣] الغَرضِ السَّالِفِ المُنتقَلِ عنه مِن قولِه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٥ - ٣١]؛ فكانتْ جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كالتَّذييلِ لجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ يُجازي كُلَّ ذي نِيَّةٍ على حَسَبِ ما أضْمَره؛ لِيَزدادَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقينًا بأنَّ اللهَ عالِمٌ بما يُكِنُّه المُشرِكونَ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ مُسْتأنَفةٌ، وهي كالنَّتيجةِ لجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّ ما في الصُّدورِ مِن الأُمورِ المُغيَّبةِ، فيَلزَمُ

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٩٢).

(٣) تقدم تعريفها (ص: ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢١).

مِن عِلمِ اللهِ بغَيبِ السَّمَواتِ والأرْضِ عِلمُهُ بما في صُدورِ النَّاسِ. أو هي تَعْليلٌ لِمَا قَبْلَها؛ لأنَّه إذا عَلِمَ ما في الصُّدورِ -وهو أخْفَى ما يَكونُ- فقد عَلِمَ كُلَّ غَيبٍ في العالَمِ(١).

- وجِيءَ في الإخْبارِ بعِلمِ اللهِ بالغَيبِ بصِيغةِ اسْمِ الفاعِلِ ﴿عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾، وفي الإخْبارِ بعِلمِه بذاتِ الصُّدورِ بصِيغةِ المُبالَغةِ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ لأنَّ المَقْصودَ مِن إخْبارِ المُخاطَبينَ تَنْبيهُهم على أنَّه كِنايةٌ عن انتِفاءِ أنْ يَفوتَ عِلمَه تعالى شَيءٌ، وذلك كِنايةٌ عن الجَزاءِ عليه؛ فهي كِنايةٌ رَمْزيَّةٌ(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُعترِضٌ بيْنَ جُمْلةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ، وجُملةِ ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ كَلامًا مُسْتأنَفًا مَسوقًا لِبَيانِ أحْوالِ الكافِرينَ الَّذين غَمِطوا نِعْمةَ اللهِ عليهم بعدَ أنْ استَخْلَفَهم في الأرضِ(٣).

- والخلائفُ: جمْعُ خليفةٍ، وهو الَّذي يَخلُفُ غيرَه في أمْرٍ كان لذلك الغيرِ؛ فيجوزُ أنْ يكونَ بعْدَ أُمَمٍ مَضَت، فيكونَ هذا بَيانًا لقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: هو الَّذي أوجَدَكم في الأرضِ، فكيف لا يَعلَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢١، ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦٤).

ما غاب في قُلوبِكم؟! ويَكونَ ما صَدَق[١] ضميرِ جماعةِ المخاطَبينَ شاملًا للمؤمنينَ وغيرِهم مِن النَّاسِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: هو الَّذي جعَلَكم مُتصرِّفينَ في الأرضِ، فيَكونَ الكلامُ بِشارةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ قدَّرَ أنْ يكونَ المُسلِمونَ أهْلَ سُلْطانٍ في الأرْضِ بعدَ أُمَمٍ تَداوَلَتْ سِيادةَ العالَمِ، ويَظهَرُ بذلك دِينُ الإسْلامِ على الدِّينِ كُلِّه، والجُمْلةُ الاسميَّةُ تُفيدُ تَقَوِّيَ الحُكمِ الَّذي هو جَعْلُ اللهِ المُخاطَبينَ خَلائِفَ في الأرضِ[٢].

- وقولُه: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ شَرْطٌ مُسْتَعمَلٌ للدَّلالةِ على عَدَمِ الاهتِمامِ بأمْرِ دوامِهِم على الكُفرِ[٣].

- وجُمْلةُ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ بَيانٌ لِجُمْلةِ ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾، وكان مُقتَضى ظاهِرِ هذا المَعْنى ألَّا تُعطَفَ عليها؛ لأنَّ البَيانَ لا يُعطَفُ على المُبيَّنِ، وإنَّما خُولِفَ ذلك؛ للدَّلالةِ على الاهتِمامِ بهذا البَيانِ، فجُعِلَ مُستقِلًّا بالقَصدِ إلى الإخْبارِ به، فعُطِفَتْ على الجُمْلةِ المُبيَّنةِ بمَضْمونِها تَنْبيهًا على ذلك الاستِقْلالِ، وهذا مَقصدٌ يَفوتُ لو تُرِكَ العَطفُ، أمَّا ما تُفيدُه مِن البَيانِ فهو أمْرٌ لا يَفوتُ؛ لأنَّه تَقتضيه نِسْبةُ مَعْنى الجُمْلةِ الثَّانيةِ مِن مَعْنى الجُمْلةِ الأُولى[٤].

---

(١) الماصَدَق -عندَ المَناطِقةِ-: الأفرادُ الَّتي يَتحقَّقُ فيها معنى الكلِّيِّ، ويُقابِلُه: (المفهوم)، وهو مجموعُ الصِّفاتِ والخصائصِ الموضحةِ لمعنًى كلِّيٍّ. وهو اسمٌ مركَّبٌ تركيبًا مَزجيًّا مِن (ما) و(صَدَقَ) الفعلِ الماضي، جُعِلَ اسمًا لأفرادِ الكُلِّيِّ، فـ (ماصَدَق الإنسانِ): أفرادُه، مِن زَيدٍ وعَمرٍو وغيرِهما؛ فهو اسمٌ معربٌ. يُنظر: ((حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع)) (١/ ٥٦)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و (٢/ ٧٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وتَركيبُ جُمْلةِ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ تَركيبٌ عَجيبٌ؛ لأنَّ ظاهِرَه يَقتَضي أنَّ الكافِرينَ كانوا قبْلَ الكُفرِ مَمْقوتينَ عندَ اللهِ لكُفْرِهم، فلمَّا كَفَروا بعدَ ظُهورِ الحَقِّ زادَهُم كُفرُهم مَقتًا عِندَه، وقد كان المُشرِكونَ يَتكبَّرونَ على المُسلِمينَ ويُشاقُّونَهم، ويُؤيِّسونَهم مِن الطَّماعيةِ في أنْ يَقبَلوا الإسلامَ بأنَّهم أعظَمُ مِن أنْ يَتَّبِعوهم، وأنَّهم لا يُفارِقون دِينَ آبائِهم، ويَحسَبونَ ذلك مَقتًا منهم للمُسلِمينَ، فجازاهُمُ اللهُ بزِيادةِ المَقْتِ على استِمرارِ الكُفرِ. وكذلك القولُ في معنى قولِه: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾[1].

- وقولُه: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ تَكْريرُ جُمْلةِ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾؛ لزِيادةِ التَّقريرِ والتَّنبيهِ على أنَّ اقتِضاءَ الكُفرِ لكُلٍّ واحِدٍ مِن الأمْرَينِ مُستقِلٌّ باقتِضاءِ قُبحِه، ووُجوبِ التَّجنُّبِ عنه[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقال في آخِرِ سُورةِ (الأنعام): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]؛ لأنَّ في سورةِ (الأنعام) تكرَّر ذِكرُ المخاطَبينَ مرَّاتٍ، فعرَّفهم بالإضافةِ؛ وقد جاءَ هنا على الأصلِ[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٠٠، ٣٨٨).

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ...﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ، وهو تَمهيدٌ لأنْ يُطلَبَ منهم الإخْبارُ عن شَيءٍ خَلَقَه شُرَكاؤُهم، فصار المرادُ مِن ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾: انْظُروا ما تُخْبِرونَني به مِن أحوالِ خَلْقِهم شيئًا مِن الأرضِ؛ فحصَلَ في قولِه: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ إجمالٌ فصَّلَه قولُه: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ فتكونُ جُملةُ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ﴾ بدَلًا مِن جُملةِ ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ بدَلَ اشتمالٍ، أو بدَلَ مُفصَّلٍ مِن مُجمَلٍ[(١)].

- قولُه: ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ أُضِيفَ الشُّركاءُ إلى ضَميرِ المخاطَبينَ؛ لأنَّ المرادَ بالشُّركاءِ مَن زَعَموهم شُركاءَ اللهِ في الإلهيَّةِ، أي: الشُّركاءُ عِندَكم؛ لِظُهورِ أنْ ليس المرادُ أنَّ الأصنامَ شُركاءُ مع المخاطَبينَ بشَيءٍ، فتَمحَّضَت الإضافةُ لمعنى: مُدَّعَيْكُم شُركاءَ للهِ[(٢)]. وقيل: أضافهم إليهم؛ لأنَّهم -وإن كانوا جعلوهم شُرَكاءَه- لم يَنالوا شيئًا مِن شَرِكتِه؛ لأنَّهم ما نَقَصوه شيئًا مِن مُلكِه، وإنَّما شارَكوا العابِدينَ في أموالِهم بالسَّوائبِ وغَيرِها، وفي أعمالِهم؛ فهم شركاؤُهم بالحقيقةِ لا شُرَكاؤه[(٣)].

- والموصولُ والصِّلةُ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للتَّنْبيهِ على الخَطَأِ في تلك الدَّعْوةِ، وقَرينةُ التَّخْطِئةِ تَعقيبُه بقولِه: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ فإنَّه أمْرٌ للتَّعْجيزِ؛ إذ لا يَستَطيعونَ أنْ يُرُوهُ شيئًا خَلَقَتْه الأصْنامُ؛ فيكونُ الأمْرُ التَّعْجيزيُّ في قُوَّةِ نَفيِ أنْ خَلَقوا شيئًا ما[(٤)].

- قولُه: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لَمَّا كان مَقَرُّ الأصنامِ في الأرضِ كان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٤، ٣٢٥).

مِن الرَّاجِحِ أنْ تتخيَّلَ لهم الأوْهامُ تَصرُّفًا كامِلًا في الأرضِ، فكأنَّهم آلِهةٌ أرضيَّةٌ؛ فلذلك قِيل لهم: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: فكان تَصرُّفُهم في ذلك تَصرُّفَ الخالقيَّةِ[١].

- قولُه: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ (أم) مُنقطِعةٌ للإضرابِ الانتقاليِّ، وهي تُؤذِنُ باستِفهامٍ بعْدَها، والمعنى: بلْ ألهمْ شِركٌ في السَّمواتِ؟ والسَّمواتُ قَلَّما يَخطُرُ ببالِ المشركينَ أنَّ للأصنامِ تَصرُّفًا في شُؤونِها، ولعلَّهم لم يَدَّعوا ذلك، ولكنْ جاء قولُه: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مَجِيءَ تَكْمِلةِ دَليلِ نَفيِ أُلُوهيَّةِ أصنامِ الكُفَّارِ، وذلك على سَبيلِ الفَرْضِ والاحتِمالِ، وقد كانوا يَنسُبونَ للأصنامِ بُنوَّةً للهِ تعالى؛ فمِن أجْلِ ذلك جِيءَ في جانبِ الاستدلالِ على انتفاءِ تأْثيرِ الأصنامِ في العوالِمِ السَّماويَّةِ بإبطالِ أنْ يكونَ لها شِركٌ في السَّمواتِ؛ لأنَّهم لا يَدَّعون لها في مَزاعِمِهم أكثَرَ مِن ذلك[٢].

- قولُه: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ فيه انتِفاءُ الحُجَّةِ السَّمعيَّةِ مِن اللهِ تعالى المُثبتةِ آلهةً دونَه، بعدَ إقامةِ البُرهانِ العقليِّ على انتفاءِ إلهيَّةِ الَّذين يَدْعون مِن دونِ اللهِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ الشِّركَ خَطيرٌ لا بُدَّ في إثباتِه مِن تَعاضُدِ الدَّلائِلِ[٣].

- والضَّميرُ في ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قيل: إنَّه عائِدٌ على الشُّرَكاءِ؛ لِتَناسُبِ الضَّمائِرِ، أي: هلْ مع ما جُعِلَ شُرَكاءَ للهِ كِتابٌ مِن اللهِ فيه أنَّ لهم شَفاعةً عندَه؟ فإنَّه لا يُشفَعُ عندَه إلَّا بإذْنِه. وقيلَ: عائِدٌ على المُشرِكينَ، ويكونُ الْتِفاتًا خَرَجَ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٦).

ضَميرِ الخِطابِ إلى ضَميرِ الغَيْبةِ؛ إعْراضًا عنهم، وتَنزيلًا لهم مَنزِلةَ الغائبِ الَّذي لا يَصلُحُ للخِطابِ، ومَعْناه: أنَّ عِبادةَ هؤلاء إمَّا بالعَقلِ، ولا عَقْلَ لمَن يَعبُدُ ما لا يَخلُقُ مِن الأرْضِ جُزْءًا مِن الأجْزاءِ، ولا له شِركٌ في السَّماءِ، وإمَّا بالنَّقلِ، ولم نُؤتِ المُشرِكينَ كِتابًا فيه أمْرٌ بعِبادةِ هؤلاء؛ فهذه عِبادةٌ لا عَقليَّةٌ ولا نَقليَّةٌ[١].

- ووَصَفَ (البيِّنة) بـ﴿مِّنْهُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المرادَ كَونُ الكِتابِ المَفْروضِ إيتاؤُه إيَّاهم مُشتَمِلًا على حُجَّةٍ لهم تُثبِتُ إلهيَّةَ الأصْنامِ، وليس مُطلَقَ كِتابٍ يُؤْتَوْنَه أمارةً مِن اللهِ على أنَّه راضٍ منهم بما همْ عليه كدَلالةِ المعجزاتِ على صِدقِ الرَّسولِ، وليست الخوارقُ ناطقةً بأنَّه صادقٌ، فأُريدَ: أآتيناهمْ كِتابًا ناطقًا مِثلَ ما آتَيْنا المسلمينَ القرآنَ[٢]؟

- قولُه: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ (بل) للإضرابِ الإبطاليِّ؛ كرَّ على ما سبَقَ الإبطالَ بواسطةِ (بل)، بأنَّ ذلك كلَّه مُنتَفٍ، وأنَّهم لا باعثَ لهم على مَزاعِمِهم الباطلةِ إلَّا وَعدُ بعضِهم بعضًا مواعيدَ كاذبةً يَغُرُّ بعضُهم بها بعضًا[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ استِئْنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ غايةِ قُبحِ الشِّركِ، وهو انتِقالٌ مِن نَفيِ أنْ يكونَ لشُرَكائِهم خَلْقٌ أو شِرْكةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨، ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٢٦، ٣٢٧).

تَصرُّفٍ في الكائِناتِ الَّتي في السَّماءِ والأرضِ، إلى إثْباتِ أنَّه تعالى هو القَيُّومُ على السَّمَواتِ والأرْضِ؛ لِتَبْقَيَا مَوْجودَتَينِ؛ فهو الحافِظُ بقُدرَتِه نِظامَ بَقائِهما. وأكَّدَ هذا الخَبَرَ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لِتَحْقيقِ مَعْناه، وأنَّه لا تَسامُحَ فيه، ولا مُبالَغةَ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾ الزَّوالُ يُطلَقُ على العَدَمِ، ويُطلَقُ على التَّحوُّلِ مِن مَكانٍ إلى مَكانٍ، ومنه زَوالُ الشَّمسِ عن كَبِدِ السَّماءِ، وقد اختيرَ هذا الفِعلُ (تزول) هنا دُونَ غَيرِه؛ لأنَّ المَقْصودَ مَعْناهُ المُشتَرَكُ؛ فإنَّ اللهَ يُمسِكُهُما مِن أنْ يُعْدَما، ويُمسِكُهُما مِن أنْ يَتَحوَّلَ نِظامُ حَرَكَتِهِما؛ فاللهُ مُريدٌ استِمْرارَ انتِظامِ حَرَكَةِ الكَواكِبِ والأرْضِ على هذا النِّظامِ المُشاهَدِ، وفي هذا إيقاظٌ للبَصائِرِ؛ لِتَعلَمَ ذلك عِلمًا إجْماليًّا، وتَتَدبَّرَ في انتِساقِ هذا النِّظامِ البَديعِ[2].

- وفي قولِه: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ أُسنِدَ فِعلُ ﴿زَالَتَآ﴾ إلى السَّمَواتِ والأرْضِ، على تَأْويلِ السَّمَواتِ بسَماءٍ واحِدةٍ. وأُسنِدَ الزَّوالُ إليهما؛ للعِلْمِ بأنَّ اللهَ هو الذي يُزيلُهُما؛ لقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾. وجِيءَ في نَفيِ إمْساكِ أحَدٍ بحَرفِ (مِن) المُؤكِّدةِ للنَّفيِ؛ تَنْصيصًا على عُمومِ النَّكِرةِ في سِياقِ النَّفيِ، أي: لا يَستطيعُ أحَدٌ كائِنًا مَن كان إمْساكَهما وإرْجاعَهما[3].

- وفي ذِكرِ إمْساكِ السَّمَواتِ عن الزَّوالِ بعدَ الإطْنابِ في مُحاجَّةِ المُشرِكينَ وتَفظيعِ غُرورِهِم: تَعْريضٌ بأنَّ ما يَدْعُونَ إليه مِن الفَظاعةِ مِن شَأنِه أنْ يُزَلزِلَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٨، ٣٢٩).

الأرَضينَ، ويُسقِطَ السَّماءَ كِسَفًا؛ لولا أنَّ اللهَ أرادَ بَقاءَهما لِحِكْمةٍ، وهذه دَلالةٌ مِن مُستَتبَعاتِ التَّراكيبِ باعتِبارِ مَثارِ مَقاماتِ التَّكلُّمِ بها. وهو أيضًا تَعريضٌ بالتَّهديدِ؛ ولذلك أُتبِعَ بالتَّذييلِ بوَصْفِ اللهِ تعالى بالحِلمِ والمَغفِرةِ؛ لِمَا يَشملُه صِفةُ الحَليمِ مِن حِلمِه على المُؤمِنينَ ألَّا يُزعِجَهم بفَجائعَ عَظيمةٍ، وعلى المُشرِكينَ بتَأْخيرِ مُؤاخَذَتِهم؛ فإنَّ التَّأْخيرَ مِن أثَرِ الحِلمِ، وما تَقْتضيهِ صِفةُ الغَفورِ مِن أنَّ في الإمهالِ إعْذارًا للظَّالِمينَ لعلَّهم يَرجِعون[1].

- وفِعلُ (كان) المُخبَرُ به عن ضَميرِ الجلالةِ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ مُفيدٌ لِتقرُّرِ الاتِّصافِ بالصِّفَتَينِ الحُسْنَيينِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤٢-٤٥)

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: أي: أقوى الأيمانِ وأغلَظَها مُجتَهِدينَ في تَوكيدِها. وحقيقةُ الجَهدِ: التَّعَبُ والمشَقَّةُ ومُنتهَى الطَّاقةِ، ثمَّ أُطلِقَ على أشَدِّ الفِعلِ ونِهايةِ قُوَّتِه؛ لِما بيْنَ الشِّدَّةِ والمَشقَّةِ مِن المُلازَمةِ. والأيْمانُ: جمْعُ يَمينٍ، واليمينُ: الحَلِفُ والقَسَم، قيل: أصلُه مِن اليُمْن، أي: البَركة؛ سُمِّيت بذلك لأنَّها تَحفَظُ الحقوقَ، وقيل: سُمِّي الحَلِفُ يمينًا؛ لأنَّه يكونُ بأَخْذِ اليَمينِ، أو لأنَّهم كانوا اذا تحالفوا أو توافقوا ضرَب كلُّ امْرِئٍ مِنْهم يَمينَه على يَمين صاحِبِه[1].

﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾: أي: المكرَ السَّيِّئَ، وهو مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ، وأصلُ (مكر): الاحتيالُ والخِداعُ، وأصلُ (سوء): يدُلُّ على قُبْحٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦) و(٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨، ٨٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٦٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٤٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣) و(٥/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٤).

﴿يَحِيقُ﴾: أي: يُحيطُ ويَنزِلُ، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولُ الشَّيءِ بالشَّيءِ[١].

﴿سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: أي: العَذابَ الَّذي نزَلَ بالكُفَّارِ، والسُّنَّةُ: الطَّريقةُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانٍ شَيءٍ واطِّرادِه[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وأقسَمَ مُشركو العَرَبِ باللهِ مُجتَهِدينَ في أيْمانِهم أنَّه لو جاءهم رسولٌ مِن عندِ اللهِ لَيَكونُنَّ أعظَمَ هُدًى مِن إحدى الأُمَمِ السَّابِقةِ، فلمَّا جاءهم مُحمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نَذيرًا ما زادَهم مجيئُه إلَّا نُفورًا مِنَ الحَقِّ، وضَلالًا إلى ضَلالِهم، تكبُّرًا وعُتوًّا في الأرضِ، ومكرًا سيِّئًا بالنَّاسِ، فزَيَّنوا لهم الباطِلَ، وصَدُّوهم عن الحَقِّ، ولا يَنزِلُ المَكرُ السَّيِّئُ إلَّا بأهلِه. فهل يَنتَظِرونَ إلَّا عادةَ اللهِ الجاريةَ في إهلاكِ مَن قَبْلَهم مِن المكَذِّبينَ؟! فلن تجِدَ -يا مُحمَّدُ- لسُنَّةِ اللهِ تَبديلًا.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى ما يؤكِّدُ عدَمَ تغييرِ سُنَّتِه في خَلْقِه، ويَحُضُّ على السَّيرِ في الأرضِ، والاعتبارِ بأحوالِ المُهلَكينَ السَّابِقينَ، فيقولُ: أوَلم يَسِرْ هؤلاء المُشركونَ في الأرضِ فيَنظُروا كيف كان عاقِبةُ مَن قَبْلَهم مِن الكُفَّارِ، فيَتَّعِظوا بما حَلَّ بهم مِنَ العَذابِ، وكان هؤلاء الكُفَّارُ أشَدَّ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ قُوَّةً؟!

وما كان مِن شأنِ الله تعالى أن يُعجِزَه شَيءٌ مِن الأشياءِ، سواءٌ أكانَ في السَّمواتِ أم في الأرضِ؛ لِكَمالِ عِلمِه وقُدرتِه سُبحانَه.

ثمَّ يختِمُ سبحانَه السُّورةَ الكريمةَ ببيانِ جانبٍ مِن رحمتِه، وكمالِ حِلمِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٠).

فيقولُ: ولو يُعاقِبُ اللهُ النَّاسَ بما عَمِلوه مِن الذُّنوبِ لَأهلَكَ جميعَ ما على ظَهرِ الأرضِ، ولكِنْ يُمهِلُهم سُبحانَه إلى وَقتٍ مَعلومٍ عِندَه، فإذا جاء هذا الوَقتُ فلا يَخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن أحوالِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى إنكارَ المُشرِكينَ للتَّوحيدِ؛ ذكَرَ تَكذيبَهم للرَّسولِ ومُبالَغتَهم فيه(١).

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾.

أي: وأقسَم مُشرِكو العَرَبِ باللهِ بأبلَغِ الأيْمانَ وأغلَظِها -مِن قَبْلِ بَعثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أنَّه لو جاءهم رسولٌ مِن عندِ اللهِ يُنذِرُهم عذابَ اللهِ، لَيَكونُنَّ أعظَمَ هدًى مِن إحدى الأُمَمِ السَّابِقةِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

قال ابن عثيمين: (إمَّا أن نَلتزِمَ بالعُموم ونقولَ: إنَّهم يقولون: أهدى مِن إحدى الأمَمِ مِن أيِّ أمَّةٍ كانت... فكأنَّهم يقولون: أهدى مِن كلِّ الأمَمِ، لكِنْ لم يُعَيِّنوا؛ لأنَّهم لم يَدرُوا مَن هو الَّذي على حَقٍّ. وإمَّا أن يُقالَ: خُصَّ هذا الجانِبُ بأُمَّتينِ فقط؛ لأنَّ المعروفَ أنَّهم على دينٍ هم اليهودُ والنَّصارى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٩٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: أهدَى مِن جميعِ الأُمَمِ الَّذين أُرسِلَ إليهم الرُّسُلُ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩). =

كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ * أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ * لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ * فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الصافات: ١٦٧ - ١٧٠].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾.

أي: فلمَّا جاءهم محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِيُنذِرَهم عذابَ اللهِ على شِركِهم وكُفرِهم، ما زادهم مجيئُه إلَّا نُفورًا مِن الحَقِّ، وضَلالًا إلى ضلالِهم، ولم يَصيروا أهدى مِن إحدى الأُمَمِ كما أقسَموا مِن قَبْلُ[1]!

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ بهم: اليهودُ والنَّصارى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بهم أهلُ الكتابِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٦).

وقال البِقاعي: (﴿مِنۡ إِحۡدَى﴾ أي: واحدةٍ مِن ﴿ٱلۡأُمَمِ﴾ أي: السَّالفةِ، أو مِن الأمَّةِ الَّتي لم يكُنْ في الأُمَمِ الَّتي جاءتها النُّذُرُ أهدى منها). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٩٨، ٢٩٩).

قال السعدي: (ليس إقسامُهم المذكورُ لِقَصدٍ حَسَنٍ، وطلَبٍ للحَقِّ، وإلَّا لَوُفِّقُوا له، ولكنَّه صادرٌ عن استِكبارٍ في الأرضِ على الخَلقِ، وعلى الحَقِّ، وبَهرجةٍ في كلامِهم هذا، يُريدونَ به المكرَ والخِداعَ، وأنَّهم أهلُ الحَقِّ، الحَريصونَ على طلَبِه، فيَغتَرُّ به المغترُّون، ويمشي خَلْفَهم المُقتَدون). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾.

أي: عُتوًّا على الله، وتَكبُّرًا في الأرض عن الإيمانِ به، ومَكرًا سَيِّئًا بالنَّاسِ، فقد خَدعوهم، وزيَّنوا لهم الباطِلَ؛ لِيَصُدُّوهم عن الحَقِّ(١).

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩).

قال الرازي: (﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ونصْبُه يحتمِلُ ثلاثةَ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنْ يكونَ حالًا، أي: مستكبرينَ في الأرضِ. وثانيها: أنْ يكونَ مفعولًا له، أي: للاستكبارِ. وثالثُها: أنْ يكونَ بدَلًا عن النُّفورِ). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٦).

ممَّن اختار الوجهَ الثَّانيَ: ابنُ جرير، وأبو حيَّان، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٨).

قال ابن عاشور: (لِأنَّ النُّفورَ في معنَى الفعلِ، فصَحَّ إعمالُه في المفعولِ له. والتَّقديرُ: نَفَروا لأجْلِ الاستِكبارِ في الأرضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٤).

وممَّن اختار الوجهَ الثَّالثَ -أنَّها بدَلٌ مِن كَلمةِ ﴿نُفُورًا﴾: الأخفَشُ -كما في ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١)-، والعُلَيميُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٧٧).

قال البِقاعي: (﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أي: ولأجلِ مكرِهم المكرَ الَّذي مِن شأنِه أن يَسوءَ صاحِبَه وغَيرَه، وهو إرادتُهم لإيهانِ أمرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وإطفاءِ نورِ الله. وقراءةُ عبدِ اللهِ «ومكرًا سيئًا» يدُلُّ على أنَّه مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى صفتِه). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٧٥).

وقال السمعاني: (فِي المكرِ السَّيِّئِ قولانِ؛ أحدُهما: أنَّه الشِّركُ، والآخرُ: أنَّه المكرُ برسولِ الله). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦٤).

وقال الواحدي: (والمفسِّرونَ فسَّروا المكرَ السَّيِّئَ هاهنا بالشِّركِ. والتَّقديرُ: ومكروا مكرًا سَيِّئًا، والمكرُ السَّيِّئُ: هو عمَلُهم القبيحُ مِن الشِّركِ، والمكرُ هو العملُ القبيحِ). ((البسيط)) (١٨/ ٤٤٣).

أي: ولا يَنزِلُ سُوءُ المَكرِ السَّيِّئِ إلَّا بأهلِه الَّذين يَمكُرونَه، فيَحُلُّ عليهم، ويُحيطُ بهم[١].

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: فهل يَنتَظِرُ هؤلاء المُشرِكونَ إلَّا عادةَ اللهِ الجاريةَ في الأُمَمِ السَّابِقةِ في إهلاكِهم في الدُّنيا على كُفرِهم بالحَقِّ[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢].

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

أي: فلن تَجِدَ -يا محمَّدُ- لطريقةِ اللهِ الَّتي قضاها وحَكَم بها تبديلًا لها، بل هي سُنَّةٌ ماضيةٌ، وعادةٌ جاريةٌ، فلا بُدَّ أن يُعذَّبَ هؤلاء المُشرِكونَ إن استمَرُّوا على باطِلِهم؛ ولن تجِدَ لهذه العادةِ تحويلًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٥، ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩، ٥٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٦).

قيل: معنى ﴿تَحْوِيلًا﴾: أي: تحويلَ العذابِ عنهم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٤، ٣٠٥).

وقيل: المعنى: تحويلُه مِن حالةٍ إلى حالةٍ أخفَى منها. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٧٦).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۞ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٨].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ للأوَّلينَ سُنَّةً، وهي: الإهلاكُ؛ نبَّهَهم بتذكيرِ حالِ الأوَّلينَ؛ فإنَّهم كانوا مارِّينَ على ديارِهم، رائينَ لآثارِهم[١].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: أوَلَمْ يَسِرْ هؤلاء المُشرِكونَ في الأرضِ، فيَنظُروا كيف كان عاقِبةُ كُفَّارِ الأُمَمِ الَّذين مِن قَبْلِهم، فيَتَّعِظوا بما حَلَّ بهم مِن العذابِ؛ بسَبَبِ ذُنوبِهم، فيَخافوا ويَحذَروا أن يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم[٢]؟

﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

أي: وكان كُفَّارُ الأُمَمِ السَّابِقةِ أشَدَّ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ قُوَّةً، فعذَّبَهم اللهُ بسَبَبِ ذُنوبِهم؛ فلن يَتعذَّرَ على اللهِ إهلاكُ كُفَّارِ قُرَيشٍ كما عذَّبَ أولئك[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٨).

ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[غافر: ٢١، ٢٢].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾.

أي: وإذا أراد اللهُ إهلاكَ المُشرِكينَ أو فِعلَ أيِّ شَيءٍ في السَّمَواتِ أو في الأرضِ، فلن يُعجِزَه ذلك؛ لكَمالِ عِلمِه وقُدرتِه سُبحانَه؛ فلا يخفَى عليه شَيءٌ، ولا يَتعذَّرُ عليه أمرٌ[١].

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المُشرِكونَ يَستَعجِلونَ بالوَعيدِ استِهزاءً؛ بيَّنَ أنَّه لا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ على ما كَسَبوا؛ لعلَّهم يُنيبون أو يُنيبُ بَعضُهم إلى رَبِّه، ويَثوبُ إلى رُشدِه، فقال[٢]:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

أي: ولو يُعاقِبُ اللهُ النَّاسَ على جَميعِ ما عَمِلوه مِن الذُّنوبِ ولم يُمهِلْهم، لأهلَكَ جميعَ النَّاسِ والدَّوابِّ على ظَهرِ الأرضِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة فاطر)) (ص: ٣١٦، ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: ولكِنَّ اللهَ يُمهِلُ الكافِرينَ والعُصاةَ إلى وَقتٍ مَعلومٍ عِندَه، ثمَّ يُحِلُّ بهم عِقابَه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي(٢) للظَّالم حتَّى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))(٣).

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾.

أي: فإذا جاء وَقتُ أخْذِهم فإنَّ اللهَ بعِبادِه(٤) .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) لَيُمْلي: أي: يُمهِلُ. يُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (١٧/ ١٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٣).

(٤) قيل: المرادُ بعِبادِه: المؤمِنون، فهو تسليةٌ لهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرازيُّ، وقال: (فإذا جاء الهلاكُ فالله بالعبادِ بصيرٌ؛ إمَّا أن يُنجيَهم، أو يكونَ تَوَفِّيهم تقريبًا مِن الله لا تعذيبًا). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٩).

وقيل: هذا توعُّدٌ للمُكَذِّبينَ ولِمَن يَستحِقُّ العِقابَ، أي: فيُجازيهم بأعمالِهم. وممَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: الزمخشريُّ، والقرطبي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣). =

بَصيرٌ، لا يَخفَونَ عليه سُبحانَه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ يَحُضُّ على السَّيرِ في الأرضِ بالقُلوبِ والأبدانِ؛ للاعتبارِ لا لمجَرَّدِ النَّظَرِ والغَفلَةِ، وأن يَنظُروا إلى عاقبةِ الَّذين مِن قَبْلِهم ممَّن كَذَّبوا الرُّسُلَ، وكانوا أكثَرَ منهم أموالًا وأولادًا، وأشَدَّ قُوَّةً، وعَمَروا الأرضَ أكثَرَ مِمَّا عَمَرَها هؤلاء، فلمَّا جاءهم العذابُ لم تَنفَعْهم قُوَّتُهم، ولم تُغْنِ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم مِن اللهِ شَيئًا، ونَفَذَت فيهم قُدرةُ اللهِ ومَشيئتُه[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ أي: فيَتسَبَّبَ لهم عن ذلك السَّيرِ أنَّه يَتجَدَّدُ لهم نظَرٌ واعتِبارٌ يومًا مِن الأيَّام؛ فإنَّ العاقِلَ مَن إذا رأى شيئًا تفكَّرَ فيه؛ حتَّى يعرِفَ ما يَنطِقُ به لِسانُ حالِه إنْ خفِيَ عنه ما جرَى مِن مقالِه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أنَّنا ينبغي أنْ نَنظُرَ إلى عاقبةِ السَّابقِينَ نَظَرَ اعتِبارٍ بمآلِهم حينَ كَذَّبوا رُسُلَهم، وليس اعتبارًا بقوَّتِهم وصِناعتِهم وطِرازِهم، وما أشْبَهَ ذلك[٤]!

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا

= وقيل: المرادُ بهم جميعُ العبادِ؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهم؛ فيُجازيهم بحسَبِ أعمالِهم؛ خَيرِها وشَرِّها. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٩٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣١٧).

مِن دَآبَّةٍ ﴾ فيه تذكيرٌ لهم عن أن يَغُرَّهم تأخيرُ المؤاخَذةِ، فيَحسَبوه عَجزًا أو رِضًا مِن اللهِ بما هم فيه! فعَلَّمَهم أنَّ لعذابِ اللهِ آجالًا اقتضَتْها حِكمتُه، فيها رَعْيُ مصالحِ أُمَمٍ آخَرينَ، أو استِبقاءُ أجيالٍ آتِينَ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ هذه الآيةُ وغَيرُها وما يُؤْثَرُ مِن تنَصُّرِ بعضِ العَرَبِ، ومِن اتِّساعِ بَعضِهم في التَّحَنُّفِ: يدُلُّ على أنَّ العرَبَ كانوا يَعلَمونَ رِسالةَ الرُّسُلِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ الإشارةُ إلى أنَّه لا ينبغي للإنسانِ النَّذرُ -أي: أن يَنذِرَ الطَّاعةَ؛ لأنَّه قد لا يُوَفَّقُ في القيامِ بها؛ فهؤلاء أقسَموا، ولَمَّا وُجِدَ مُوجبُ الطَّاعةِ لم يقوموا بالطَّاعةِ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ جوابُ (لَمَّا): ﴿مَّا زَادَهُمْ ﴾، وفيه دليلٌ واضِحٌ على حرفيَّةِ (لَمَّا)، لا ظَرفيَّتِها؛ إذ لو كانت ظَرفًا لم يَجُزْ أن يتقدَّمَ على عامِلِها المنفيِّ بـ (ما)[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ يُنبئُ عن الإحاطةِ الَّتي هي فَوقَ اللُّحوقِ، وفيه مِنَ التَّحذيرِ ما ليس في قَولِه: (ولا يَلحَقُ) أو (ولا يَصِلُ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٣٢، ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٦، ٢٤٧).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ المَكْرَ يكونُ سَيِّئًا ويكونُ حَسنًا، وهو كذلك؛ فإنَّ مَكْرَ اللهِ تعالى بأعدائِه الَّذين يَمكُرونَ به: مَكرٌ حَسَنٌ يُثنى عليه به، ومَكْرُ أولئك سَيِّئٌ[(١)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أنَّ مَن أرادَ السُّوءَ حاقَ به السُّوءُ، وفي المثلِ المشهورِ[(٢)]: «مَن حَفَرَ لأخيه حفرةً وَقَعَ فيها»؛ فالإنسانُ إذا أرادَ المَكْرَ -والعياذُ باللهِ- فإنَّ مَكرَه يَحيقُ به[(٣)]. عن محمَّدِ بنِ كعبٍ قال: (ثلاثٌ مَن فعَلَهُنَّ لم يَنْجُ حتَّى يُنزَلَ به: مَن مَكَر، أو بغَى، أو نَكَث)، ثمَّ قرأ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[(٤)] [الفتح: ١٠].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ فيه سُؤالٌ: كثيرًا ما نرى أنَّ الماكِرَ يَمكُرُ، ويُفيدُه المَكرُ، ويَغلِبُ الخَصمَ بالمَكرِ، والآيةُ تدُلُّ على عدَمِ ذلك؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ؛ منها:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ المكرَ المذكورَ في الآيةِ: هو المكرُ الَّذي مَكَروه مع النَّبيِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٧).
قال ابن القيِّم: (المكرُ: إيصالُ الشَّرِّ إلى الغيرِ بطريقٍ خفيٍّ، وكذلك الكَيدُ والمُخادَعةُ، ولكنَّه نَوعانِ: قبيحٌ، وهو إيصالُ ذلك لِمَن لا يَستحِقُّه. وحَسَنٌ، وهو إيصالُه إلى مُستحِقِّه عُقوبةً له؛ فالأوَّلُ مذمومٌ، والثَّاني ممدوحٌ، والرَّبُّ تعالى إنَّما يَفعلُ مِن ذلك ما يُحمَدُ عليه عدلًا منه وحِكمةً). ((إعلام الموقعين)) (٣/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((الأمثال)) لابن سلَّام (ص: ٢٧٠)، ((جمهرة الأمثال)) لأبي هلال العسكري (٢/ ٢٨٩)، ((مجمع الأمثال)) للميداني (٢/ ٢٩٧)، ((المستقصى في أمثال العرب)) للزمخشري (٢/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٧).

(٤) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٦).

صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم مِن العزمِ على القَتلِ والإخراجِ، ولم يَحِقْ إلَّا بهم؛ حيثُ قُتِلوا يومَ بَدرٍ وغَيرِه، وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ.

الوجهُ الثاني: أنَّ الأمورَ بعواقِبِها، ومَن مَكَر به غَيرُه، ونَفَذَ فيه المكرُ عاجلًا في الظَّاهِرِ؛ ففي الحقيقةِ هو الفائزُ، والماكِرُ هو الهالِكُ، وذلك مِثلُ راحةِ الكافِرِ ومَشقَّةِ المسلمِ في الدُّنيا، ويُبيِّنُ هذا المعنى قَولُه تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، يعني: إذا كان لمَكرِهم في الحالِ رَواجٌ، فالعاقِبةُ للتَّقْوى، والأمورُ بخواتيمِها، فيَهلِكونَ كما هلَكَ الأوَّلونَ[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ دَليلٌ على أنَّ هذا مِن مُقتضَى حِكمتِه سُبحانَه، وأنَّه يَقضي في الأمورِ المُتماثِلةِ بقَضاءٍ مُتماثِلٍ لا بقَضاءٍ مُخالِفٍ؛ فإذا كان قد نَصَرَ المؤمِنينَ لأنَّهم مُؤمِنون، كان هذا مُوجِبًا لنَصرِهم حيث وُجِدَ هذا الوصفُ، بخِلافِ ما إذا عَصَوا ونَقَضُوا إيمانَهم، ولهذا قال: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، فعَمَّ كلَّ سُنَّةٍ له، وهو يَعُمُّ سُنَّتَه في خَلْقِه وأمْرِه في الطبيعيَّاتِ والدِّينيَّاتِ[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ رَدٌّ على مَن يَجعَلُ اللهَ يَفعَلُ بمجرَّدِ إرادةٍ تُرَجِّحُ أحدَ المتماثلَينِ بلا مُرَجِّحٍ! فإنَّ هؤلاء ليس عندَهم له سُنَّةٌ لا تَتَبَدَّلُ، ولا حِكمةٌ تُقصَدُ! وهذا خلافُ النُّصوصِ والعُقولِ؛ فإنَّ السُّنَّةَ تقتضي تماثُلَ الآحادِ، وأنَّ حُكمَ الشَّيءِ حُكمُ نَظيرِه؛ فيقتضي التَّسويةَ بينَ المُتماثِلاتِ، وهذا خِلافُ قَولِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((الرَّد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣٩١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ كمالُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وحِكمتِه؛ حيثُ إنَّ سُنَّتَه لا تُبَدَّلُ ولا تُغَيَّرُ؛ وجْهُ كونِها مِن كَمالِ القُدرةِ: أنَّ العاجزَ لا يَستطيعُ أنْ يَجعَلَ أفعالَه على وتيرةٍ واحدةٍ، بل قد تَتخلَّفُ وتَتغيَّرُ؛ لعَجْزِه عن الاطِّرادِ، وأمَّا كَونُه مِن تمامِ الحِكمةِ فلأنَّ مُعاقَبةَ السَّابِقينَ كانت لسبَبٍ، وهذا السَّبَبُ إذا وُجِدَ في الآخِرينَ فإنَّه يَعمَلُ عمَلَه؛ لأنَّ مُقتضَى الحِكمةِ أنَّ الأسبابَ لا تَتخلَّفُ عنها مُسبَّباتُها[١].

١١- قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾، وسُنَّةُ اللهِ في الأوَّلينَ، الَّتي لا تُبدَّلُ ولا تُغَيَّرُ: أنَّ كُلَّ مَن سار في الظُّلمِ والعِنادِ، والاستِكبارِ على العِبادِ: أنْ يُحِلَّ به نِقمَتَه، وتُسلَبَ عنه نِعمتُه؛ فلْيَترقَّبْ هؤلاء ما فُعِلَ بأولئك[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾ استِعمالُ القياسِ؛ فيَقيسُ حالَ هؤلاءِ بحالِ الأوَّلينَ الَّذين كذَّبوا فعُوقِبوا[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أنَّ في التاريخِ عِبَرًا يَعتَبِرُ بها العاقلُ[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ استِعمالُ قياسِ الأَولى؛ فإذا كان اللهُ تعالى أهلَكَهم مع كَونِهم أشدَّ منهم قُوَّةً، فإنَّ إهلاكَ هؤلاءِ مِن بابِ أَولى[٥].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ مِن صفاتِ اللهِ تعالى ما يكونُ سلبيًّا -أي: منفيًّا عن اللهِ-، والقاعدةُ العامَّةُ: «أنَّ كلَّ صفةِ نقصٍ؛ فهي منفيَّةٌ عن اللهِ عزَّ وجلَّ، كما أنَّ كلَّ صفةِ كمالٍ فهي ثابتةٌ له»(١).

١٦- أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَنفي شيئًا عن نَفْسِه إلَّا لثُبوتِ كَمالِ ضِدِّه؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ﴾ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾، فيُستفادُ مِن ذلك: أنَّ كُلَّ صفةٍ مَنفيَّةٍ عن اللهِ لا يُرادُ منها مجرَّدُ النَّفْيِ؛ لأنَّ مُجرَّدَ النَّفيِ المَحْضِ ليس فيه فائدةٌ؛ إذ إنَّ النَّفيَ المَحْضَ عدَمٌ مَحْضٌ، والعَدَمُ ليس بشَيءٍ، فضلًا عن أنْ يكونَ كَمالًا، ولأنَّ النَّفيَ قد يكونُ سَبَبُه العجزَ، كما قال الشَّاعرُ(٢):

قُبَيِّلَةٌ لا يَغدِرونَ بِذِمَّةٍ ... ولا يَظلِمونَ النَّاسَ حبَّةَ خَرْدَلِ

فهذا ذَمٌّ؛ لأنَّهم -لِعَجزِهم- لا يَستطيعونَ، فلا يَظلِمونَ النَّاسَ، ولا يَغدِرون بالذِّمَمِ، وقد يكونُ سببُه عدَمَ القابليَّةِ، لا للكَمالِ، ولكنْ لأنَّه غيرُ قابلٍ لهذه الصِّفةِ، كما لو قُلتَ: «إنَّ جدارَ بيتِنا لا يَظلِمُ»، فهو صَحيحٌ أنَّه لا يَظلِمُ أحدًا، لكنْ لا لأنَّه كامِلُ العَدْلِ، ولكِنْ لأنَّه لا يَقبَلُ صِفةَ الظُّلْمِ، فنَفْيُها عنه كثُبوتِها له، حتَّى لو قلتَ: «جدارُنا يَظلِمُ» فلا أحدَ يُصَدِّقُك؛ إذَنْ: فصِفاتُ اللهِ المَنفيَّةُ الَّتي يُسمِّيها العُلَماءُ -رَحِمَهم اللهُ- السَّلبيَّةَ: تَتضَمَّنُ كمالَ الضِّدِّ، يعني: لِكَمالِ عِلمِه وقُدرَتِه فلا يُعجِزُه شَيءٌ في السَّمَواتِ ولا في الأرضِ(٣).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ الرَّدُّ على الجَبريَّةِ؛ فأثبتَ سُبحانَه للعبدِ كَسْبًا، والجَبريَّةُ يقولون: «إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على العَمَلِ لا يستطيعُ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣١٩).

(٢) هو النجاشي، واسمُه: قيسُ بنُ عَمرِو بنِ مالكٍ، مِن بني الحارثِ بنِ كعبٍ. يُنظر: ((الشعر والشعراء)) لابن قتيبة (١/ ٣١٧، ٣١٩)، ((خزانة الأدب)) للبغدادي (١/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣١٩).

يَكتسِبَ، بل يُجبَرُ على أنْ يَعمَلَ خَيرًا أو شَرًّا»[١]!

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ تمامُ قدرةِ اللهِ تعالى؛ حيث يَقْدِرُ على إهلاكِ العالَمِ بلحظةٍ[٢]!

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يُشيرُ إلى كَمالِ حِلمِه تعالى، وشِدَّةِ إمهالِه وإنظارِه أربابَ الجرائمِ والذُّنوبِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾

- قولُه: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ جَهْدُ الأيْمانِ هنا كِنايةٌ عن تَأْكيدِها[٤].

- وفي قَولِه: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ عبَّرَ عن الرَّسولِ بالنَّذيرِ؛ لأنَّ مُجادَلَةَ أهْلِ الكِتابِ للمُشرِكينَ كانتْ مُشتَمِلةً على تَخويفٍ وإنْذارٍ؛ ولذلك لم يَقتصِرْ على وَصْفِ النَّذيرِ في قولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾[٥] [المائدة: ١٩].

- قولُه: ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ إحْدَى الأُممِ هي أُمَّةٌ غيرُ مُعيَّنةٍ مِن الأُممِ ذاتِ الدِّينِ: إمَّا الأُمَّةُ النَّصرانيَّةُ، وإمَّا الأُمَّةُ اليَهوديَّةُ، أو الصَّابئةُ، وكان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٣٢).

التَّعبيرُ عنها بـ ﴿إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِ﴾ إبهامًا لها يَحتمِلُ أنْ يكونَ إبهامًا مِن كلامِ المُقْسِمينَ؛ تَجنُّبًا لمُجابَهةِ تلك الأُمَّةِ بصَريحِ التَّفضيلِ عليها. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ إبهامًا مِن كلامِ القُرآنِ على عادةِ القُرآنِ في التَّرفُّعِ عمَّا لا فائدةَ في تَعْيينِه؛ إذ المَقصودُ أنَّهم أشهَدوا اللهَ على أنَّهم إنْ جاءَهم رسولٌ يَكونوا أسبَقَ مِن غَيرِهم اهتِداءً، فإذا هُم لم يَشَمُّوا رائحةَ الاهتداءِ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ فريقٌ مِن المُشرِكينَ نَظَروا في قَسَمِهم بهَدي اليهودِ، وفريقٌ نَظَروا بهَدي النَّصارَى، وفريقٌ بهَدْيِ الصَّابئةِ؛ فجمَعَتْ عِبارةُ القُرآنِ ذلك بقَولِه: ﴿مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِ﴾؛ لِيَأتيَ على مَقالةِ كُلِّ فريقٍ مع الإيجازِ[1].

- في قولِه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بائتِلافِ اللَّفظِ مع المَعْنى، أي: أنْ تكونَ أَلْفاظُ المَعْنى المرادِ يُلائِمُ بعضُها بعضًا، ليس فيها لَفظةٌ نافِرةٌ عن إخْوانِها، غَيرُ لائقةٍ بمَكانِها، أو مَوْصوفةٌ بحُسنِ الجوارِ بحيثُ إذا كان المَعْنى غَريبًا قُحًّا، كانتْ أَلْفاظُهُ غَريبةً مَحْضةً، وبالعَكسِ، ولَمَّا كانت جَميعُ الأَلْفاظِ المُجاوِرةِ للقَسَمِ في هذه الآيةِ كُلِّها مِن المُسْتَعمَلِ المُتداوَلِ، لم تَأْتِ فيها لَفْظةٌ غَريبةٌ تَفتَقِرُ إلى مُجاوَرةِ ما يُشاكِلُها في الغَرابةِ[2].

- والاستِثْناءُ في قولِه: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ مُفرَّغٌ مِن مَفعولِ ﴿زَادَهُمۡ﴾ المحذوفِ، أي: ما أفادَهم صلاحًا وحالًا أو نَحوَ ذلك إلَّا نُفورًا؛ فيكونُ الاستثناءُ مِن تَأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه؛ لأنَّهم لم يَكونوا نافِرينَ مِن قَبْلُ[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٣).

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

- قولُه: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الاستِكبارُ: شِدَّةُ التَّكبُّرِ؛ فالسِّينُ والتاءُ فيه للمُبالَغةِ، مِثلُ استَجابَ[١].

- وجُملةُ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ تَذييلٌ أو مَوعِظةٌ، وفيه حَذفُ مُضافٍ تَقديرُه: ضُرُّ المكرِ السَّيِّئِ، أو سُوءُ المكْرِ السَّيِّئِ، كما دلَّ عليه فِعلُ ﴿يَحِيقُ﴾، فإنْ كان التَّعريفُ في المَكْرِ للجِنْسِ كان المرادُ بـ (أهْلِهِ) كُلَّ ماكِرٍ، وهذا هو الأنسَبُ بمَوقِعِ الجُمْلةِ ومَحملِها على التَّذييلِ؛ لِيَعُمَّ كُلَّ مَكرٍ وكلَّ ماكرٍ، فيَدخُلُ فيه الماكِرون بالمُسلِمينَ مِن المُشرِكينَ؛ فيَكونُ القَصرُ الَّذي في الجُمْلةِ قَصرًا ادِّعائيًّا[٢] مَبنيًّا على عَدَمِ الاعتِدادِ بالضُّرِّ القليلِ الَّذي يَحيقُ بالمَمْكورِ به بالنِّسبةِ لِمَا أعدَّه اللهُ للماكِرِ في قَدَرِه مِن مُلاقاةِ جَزائِه على مَكْرِه[٣].

- وإذا كان تَعريفُ المَكْرِ تَعريفَ العَهدِ، كان المَعْنى: ولا يَحيقُ هذا المَكرُ إلَّا بأهْلِه، أي: الَّذين جاءَهم النَّذيرُ فازْدادوا نُفورًا؛ فيَكونُ مَوقِعُ قَولِه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ مَوقعَ الوعيدِ بأنَّ اللهَ يَدفَعُ عن رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَكْرَهم، ويَحيقُ ضُرُّ مَكْرِهم بهم بأنْ يُسلِّطَ عليهم رَسولَه على غَفلةٍ منهم، فالقَصرُ حَقيقيٌّ؛ ففي الجُمْلةِ إيجازٌ[٤].

- وفي قَولِه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بإرْسالِ المَثَلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٤).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٣٥، ٣٣٦).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦٨). =

- قولُه: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ تفريعٌ على جُمْلةِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ الآيةَ. ويجوزُ أنْ يكونَ تفريعًا على جُمْلةِ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، على أنَّ تَعريفَ المكرِ للعهدِ، والخِطابُ في ﴿تَجِدَ﴾ لغَيرِ مُعيَّنٍ، فيَعُمُّ كُلَّ مُخاطَبٍ، وبذلك يَتسنَّى أنْ يَسيرَ هذا الخَبَرُ مَسيرَ الأمثالِ، وفي هذا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتهديدٌ للمُشرِكينَ[(١)].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ فاءٌ فَصيحةٌ؛ لأنَّ ما قبْلَها لَمَّا ذكَّرَ النَّاسَ بسُنَّةِ اللهِ في المكذِّبينَ، أفصَحَ عن اطِّرادِ سُنَنِ اللهِ تعالى في خلْقِه، والتَّقديرُ: إذا عَلِموا ذلك فلنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تَبديلًا. و(لن) لتأكيدِ النَّفيِ[(٢)].

- قَولُه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ التَّبديلُ: تَغييرُ الشَّيءِ عمَّا كان عليه مع بَقاءِ مادَّتِه، والتَّحويلُ: نقْلُه مِن مكانٍ إلى آخَرَ، وقال ذلك مع أنَّ سُنَّةَ اللهِ لا تُبدَّلُ ولا تُحوَّلُ؛ لأنَّه أرادَ بالأوَّلِ أنَّ العذابَ لا يُبدَّلُ بغَيرِه، وبالثَّاني أنَّه لا يُحوَّلُ عن مُستحِقِّه إلى غيرِه، وجُمِعَ بيْنَهما هنا تَتميمًا لتهديدِ المُسيءِ لقُبحِ مَكْرِه في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[(٣)].

- و(سُنَّةُ الأوَّلينَ) أُضيفتْ أوَّلًا إليهم؛ لأنَّها سُنَّتْ بهم، ثم أُضيفتْ (السُّنَّةُ) ثانيًا إلى اللهِ؛ لأنَّه هو الَّذي سنَّها، وبيَّنَ تَعالى أنَّ الانتِقامَ مِن مُكَذِّبي الرُّسُلِ

= وإرسالُ المثَلِ: عِبارةٌ عن أن يأتيَ المُتكلِّمُ في بعضِ كلامِه بما يَجري مجرى المَثَلِ السَّائرِ؛ مِن حِكمةٍ، أو نَعتٍ، أو غيرِ ذلك. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٣/ ٢٧) و (٤/ ٤١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٠).

عادةٌ لا يُبدِّلُها بغَيرِها، ولا يُحوِّلُها إلى غيرِ أهْلِها، وأنَّ ذلك كائن لا مَحالةَ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ هذا استِشهادٌ على ما قبْلَه مِن جَرَيانِ سُنَّتِه تعالى على تَعذيبِ المُكذِّبينَ بما يُشاهِدونَه، واستِدلالٌ على أنَّ مُساواتَهم للأوَّلينَ تُنذِرُ بأنْ سيَحُلَّ بهم ما حلَّ بأولئك مِن نَوعِ ما يُشاهِدونَه مِن آثارِ استِئْصالِهم في دِيارِهم[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ للإنكارِ والنَّفيِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في (الرُّوم): ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ﴾ [الروم: ٩] مِن غَيرِ واوٍ، وهنا بزيادةِ الواوِ؛ قيل: وجْهُ ذلك أنَّ الجُملةَ في سُورةِ (الرُّوم) استِئنافُ إخبارٍ عمَّا كانوا عليه، وهنا: ﴿وَكَانُوٓا۟﴾ أي: وقد كانوا؛ فالجُملةُ حالٌ، فهُما مَقصدانِ[٤].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لَمَّا عَرَض وصْفَ الأُمَمِ السَّابقةِ بأنَّهم أشدُّ قُوَّةً مِن قُريشٍ في مَعرضِ التَّمثيلِ بالأوَّلينَ تَهديدًا واستِعدادًا لِتَلقِّي مِثلِ عذابِهم؛ أتْبَعَ ذلك باحتِراسٍ عن الطَّماعيةِ في النَّجاةِ مِن مِثلِ عَذابِهم بعِلَّةِ أنَّ لهم مِن المنجِّياتِ ما لم يكُنْ للأُمَمِ الخاليةِ، كزَعْمِهم: أنَّ لهم آلهةً تَمنَعُهم مِن عَذابِ اللهِ بشَفاعتِها أو دِفاعِها؛ فقيل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وجِيءَ بلامِ الجُحودِ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٦، ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٦، ١٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣).

قَولِه: ﴿لِيُعۡجِزَهُۥ﴾ مع (كان) المَنفيَّةِ؛ لإفادةِ تأْكيدِ نَفْيِ كُلِّ شَيءٍ يَحولُ دونَ قُدرةِ اللهِ وإرادتِه، فهذه الجُملةُ كالاحتِراسِ[١].

- وقولُه: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا يُفهَمُ مِّما قبْلَه مِن استِئصالِ الأممِ السَّالفةِ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ تَعليلٌ لانتفاءِ شَيءٍ يُغالِبُ مُرادَ اللهِ بأنَّ اللهَ شديدُ العِلمِ واسِعُه، لا يَخفَى عليه شَيءٌ، وبأنَّه شديدُ القُدرةِ. وقد حصَرَ هذانِ الوَصفانِ انتفاءَ أنْ يكونَ شَيءٌ يُعجِزُ اللهَ؛ لأنَّ عَجْزَ المُريدِ عن تَحقيقِ إرادتِه: إمَّا أنْ يكونَ سببُه خَفاءَ مَوضِعِ تَحقُّقِ الإرادةِ، وهذا يُنافي إحاطةَ العِلمِ، أو عدَمَ استِطاعةِ التَّمكُّنِ منه، وهذا يُنافي عُمومَ القُدْرةِ[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾

- قولُه: ﴿عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ كنايةٌ عن الأرضِ، وعُلِمَ ذلك ممَّا تقدَّمَ وممَّا تأخَّرَ؛ فقد تقدَّمَ قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ٤٤]؛ فهو أقرَبُ المذكوراتِ الصَّالحةِ لِعَودِ الهاءِ إليها، وأمَّا ما تأخَّرَ فقَولُه: ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾؛ لأنَّ الدَّوابَّ على ظهرِ الأرضِ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ: قال هنا ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٨، ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٩).

وفي سُورةِ (النَّحلِ) قال: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١]؛ فقال في هذه الآيةِ: ﴿بِمَا كَسَبُواْ ﴾، وقال في سُورةِ (النَّحلِ): ﴿بِظُلْمِهِم ﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّ (مَا كَسَبُوا) يَعُمُّ الظُّلمَ وغيرَه. وأُوثِرَ في سُورةِ (النَّحلِ) ﴿بِظُلْمِهِم ﴾؛ لأنَّها جاءت عَقِبَ تَشنيعِ ظُلمٍ عَظيمٍ مِن ظُلْمِهم، وهو: ظُلْمُ بَناتِهم المَوْءودات، وهنالك قال: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ [النحل:٦١]، وهنا ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا ﴾، وهو تَفنُّنٌ[١].

- وفيه أيضًا مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾، وقال هنالك في سُورةِ (النَّحلِ): ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١]؛ فما هنا إيماءٌ إلى الحِكمةِ في تأخيرِهم إلى أجَلٍ مُسمًّى، والتَّقديرُ: فإذا جاء أجَلُهم أخَذَهم بما كَسَبوا، ولهذا فقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾ دليلُ جَوابِ (إذا) وليس هو جوابَها، ولذلك كان حَقيقًا بقَرْنِه بفَاءِ التَّسبُّبِ. وأمَّا ما في سُورةِ (النَّحلِ) فهو الجَوابُ، وهو تَهديدٌ بأنَّهم إذا جاء أجَلُهم وقَعَ بهم العذابُ دون إمهالٍ[٢].

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾ هو أيضًا جوابٌ عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ أنْ يُقالَ: ماذا جَنَتِ الدَّوابُّ حتَّى يَستأصِلَها اللهُ بسببِ ما كَسَبَ النَّاسُ، وكيف يُهلَكُ كُلُّ مَن على الأرضِ، وفيهم المُؤمِنونَ والصَّالِحونَ؟ فأُفيدَ أنَّ اللهَ أعلَمُ بعَدلِه؛ فأمَّا الدَّوابُّ فإنَّها مَخلوقةٌ لأجْلِ الإنسانِ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩]؛ فإهلاكُها قد يكونُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٩، ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٤٠).

إنذارًا للنَّاسِ لعلَّهم يُقلِعون عن إجْرامِهم، وأمَّا حالُ المُؤمِنينَ في حينِ إهلاكِ الكُفَّارِ، فاللهُ أعلَمُ بهم، فلعلَّ اللهَ أنْ يَجعَلَ لهم طريقًا إلى النَّجاةِ كما نجَّى هودًا ومَن معه، ولعلَّه إنْ أهلَكَهم أنْ يُعوِّضَ لهم حُسنَ الدَّارِ[١].

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ تَوعُّدٌ للمُكذِّبينَ، أي: فيُجازيهم بأعْمالِهِم[٢].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ السَّادسُ والعشرونَ

ويليه المجلدُ السَّابعُ والعشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ يس

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣).

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ سَبَأٍ ٧
أسماءُ السُّورةِ ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ٧
موضوعاتُ السُّورةِ ٧
الآيتان (١-٢) ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٩
المعنى الإجماليُّ ٩
تَفسيرُ الآيتَينِ ٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٣
بلاغةُ الآيتَينِ ١٥
الآيات (٣-٦) ٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٢
المعنى الإجماليُّ ٢٣
تَفسيرُ الآياتِ ٢٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٣
بلاغةُ الآياتِ ٣٦
الآيات (٧-٩) ٤٥

غَريبُ الكَلِماتِ ٤٥
المعنى الإجماليُّ ٤٦
تَفسيرُ الآياتِ ٤٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٢
بلاغةُ الآياتِ ٥٤
الآيتان (١٠-١١) ٦٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٢
مُشكِلُ الإعرابِ ٦٢
المعنى الإجماليُّ ٦٣
تَفسيرُ الآيتَينِ ٦٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٩
بلاغةُ الآيتَينِ ٧١
الآيات (١٢-١٤) ٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٧٣
المعنى الإجماليُّ ٧٥
تَفسيرُ الآياتِ ٧٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٨٤
بلاغةُ الآياتِ ٨٨
الآيات (١٥-١٩) ٩٢

غَريبُ الكَلِماتِ ٩٢
المعنى الإجماليُّ ٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ٩٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٠٦
بلاغةُ الآياتِ ١١٠
الآيات (٢٠-٢٣) ١١٨
غَريبُ الكَلِماتِ ١١٨
المعنى الإجماليُّ ١١٨
تَفسيرُ الآياتِ ١١٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٣٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٣٠
بلاغةُ الآياتِ ١٣٥
الآيات (٢٤-٣٠) ١٤٤
غَريبُ الكَلِماتِ ١٤٤
المعنى الإجماليُّ ١٤٥
تَفسيرُ الآياتِ ١٤٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٥٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥٦
بلاغةُ الآياتِ ١٦٠
الآيات (٣١-٣٣) ١٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ ١٧٢

المعنى الإجماليُّ ١٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ١٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٨٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٨٠
بلاغةُ الآياتِ ١٨٢
الآيات (٣٤-٣٩) ١٨٩
غَريبُ الكَلِماتِ ١٨٩
المعنى الإجماليُّ ١٩٠
تَفسيرُ الآياتِ ١٩١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٩٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٠٠
بلاغةُ الآياتِ ٢٠٢
الآيات (٤٠-٤٢) ٢٠٩
المعنى الإجماليُّ ٢٠٩
تَفسيرُ الآياتِ ٢٠٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢١٤
بلاغةُ الآياتِ ٢١٦
الآيات (٤٣-٤٥) ٢٢١
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٢١
المعنى الإجماليُّ ٢٢٢
تَفسيرُ الآياتِ ٢٢٣

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٢٧
بلاغةُ الآياتِ ٢٣١
الآيات (٤٦-٥٠) ٢٣٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٣٧
المعنى الإجماليُّ ٢٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ٢٣٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٥٠
بلاغةُ الآياتِ ٢٥٣
الآيات (٥١-٥٤) ٢٦٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٦٢
المعنى الإجماليُّ ٢٦٣
تَفسيرُ الآياتِ ٢٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٦٩
بلاغةُ الآياتِ ٢٧١
سورةُ فاطرٍ ٢٧٩
أسماءُ السُّورةِ ٢٧٩
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٢٧٩
مَقاصِدُ السُّورةِ ٢٧٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٢٨٠
الآيات (١-٤) ٢٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٨٢

المعنى الإجماليُّ ٢٨٣
تَفسيرُ الآياتِ ٢٨٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٩٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩١
بلاغةُ الآياتِ ٢٩٥
الآيات (٥-٨) ٣٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٠٣
المعنى الإجماليُّ ٣٠٣
تَفسيرُ الآياتِ ٣٠٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣١٣
بلاغةُ الآياتِ ٣١٩
الآيات (٩-١١) ٣٢٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٢٨
المعنى الإجماليُّ ٣٢٩
تَفسيرُ الآياتِ ٣٣٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٤١
بلاغةُ الآياتِ ٣٤٤
الآيات (١٢-١٤) ٣٥٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٥٦
المعنى الإجماليُّ ٣٥٨

تَفسيرُ الآياتِ ٣٥٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٦٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٦٨
بلاغةُ الآياتِ ٣٧١
الآيات (١٥-١٨) ٣٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٧٩
المعنى الإجماليُّ ٣٨٠
تَفسيرُ الآياتِ ٣٨٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٨٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٨٩
بلاغةُ الآياتِ ٣٩٣
الآيات (١٩-٢٦) ٤٠٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٠٠
المعنى الإجماليُّ ٤٠١
تَفسيرُ الآياتِ ٤٠١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤١٠
بلاغةُ الآياتِ ٤١٤
الآيتان (٢٧-٢٨) ٤٢٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٢٧
المعنى الإجماليُّ ٤٢٧
تَفسيرُ الآيتَينِ ٤٢٨

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٣٣
بلاغةُ الآيتينِ ٤٣٩
الآيات (٢٩-٣٥) ٤٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٤٨
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٥٠
المعنى الإجماليُّ ٤٥٠
تَفسيرُ الآياتِ ٤٥١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٦٦
بلاغةُ الآياتِ ٤٧٤
الآيتان (٣٦-٣٧) ٤٨٧
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٨٧
المعنى الإجماليُّ ٤٨٧
تَفسيرُ الآيتَينِ ٤٨٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٩٢
بلاغةُ الآيتَينِ ٤٩٥
الآيات (٣٨-٤١) ٤٩٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٩٩
المعنى الإجماليُّ ٥٠٠
تَفسيرُ الآياتِ ٥٠١

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥١٠
بلاغةُ الآياتِ ٥١٣
الآيات (٤٢-٤٥) ٥٢٢
غريبُ الكَلِماتِ ٥٢٢
المعنى الإجماليُّ ٥٢٣
تَفسيرُ الآياتِ ٥٢٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٣٢
بلاغةُ الآياتِ ٥٣٧
الفهرس ٥٤٧

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة يس و سورة الصافات

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بغزة

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السابع والعشرون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة يس وسورة الصافات)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد السابع والعشرون – سورة يس وسورة الصافات/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٢ هـ

٧٠٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩-٩٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – سورة يس – تفسير ٢- القرآن – سورة الصافات – تفسير

أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٨٣٧٤

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٨٣٧٤

ردمك: ٩-٩٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة يس وسورة الصافات)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السابع والعشرون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ يس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ يس

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (يس)[١].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ (يس) مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

تقريرُ أمَّهاتِ أُصولِ الدِّينِ: وَحدانيَّةِ اللهِ ربِّ العالَمينَ، والبَعثِ والجَزاءِ، والوَحيِ والرِّسالةِ[٤].

---

(١) سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بـ (يس)؛ لأنَّ اللهَ تعالى افتَتحها بها، وقد انفرَدت هذه السُّورةُ بافتتاحِها بهذَينِ الحرفَينِ، فمُيِّزَت بهما عن بقيَّةِ السُّوَرِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤١).

ويُنظر ما رُويَ في تسميتِها بهذا الاسم في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٧).

(٢) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا آيةً منها، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ ...﴾ [يس: ٤٧]؛ فمَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥).

وقيل: آيةُ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٠٨)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٦٣).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، والقُرطبيُّ، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ٩).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- التَّأكيدُ على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإثباتُ رِسالتِه.

٢- ذِكرُ قِصَّةِ أصحابِ القريةِ، وما جرَى بيْنَهم وبينَ الرُّسُلِ الَّذين أرسَلَهم اللهُ إليهم.

٣- بيانُ بعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، ونِعَمِه على عِبادِه.

٤- الإخبارُ ببَعضِ دَعاوى المُشرِكينَ الباطِلةِ، مع الرَّدِّ عليهم، وبَيانُ مَشهَدِ خُروجِهم مِن قُبورِهم يومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ.

٥- بيانُ ما أعدَّه اللهُ تعالى للمُؤمِنينَ في الجنَّةِ، وما أعدَّه للكافِرينَ، وشَهادةِ جَوارِحِهم عليهم.

٦- تنزيهُ القرآنِ عن أن يكونَ مُفتَرًى، وتَبرِئةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممَّا اتُّهِمَ به مِن نَظمِ الشِّعرِ، وتَسليتُه عمَّا أصابَه، مع بيانِ وظيفتِه، وهي البَلاغُ والإنذارُ.

٧- خُتِمَت السُّورةُ بتقريرِ البَعثِ، والرَّدِّ على أحدِ مُنكِريه.

الآيات (١-١٢)

﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ۝١٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صِرَٰطٖ﴾: أي: طريقٍ واضحٍ واسعٍ سهلٍ، قيل: أصلُ الصَّادِ فيه سينٌ؛ مِن قولِهم: سرطْتُ الطَّعامَ؛ إذا أسرعتَ بلعَه[1].

﴿حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ﴾: أي: وجَب العذابُ، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ، وصِحَّتِه[2].

﴿أَغۡلَٰلٗا﴾: أي: سَلاسِلَ، جَمْعُ غُلٍّ، وهو طَوقٌ تُشَدُّ به اليدُ إلى العُنُقِ، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٩)، ((الوجوه والنظائر)) لأبي هلال العسكري (ص: ٢٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص:٤٠٧، ٤٨٣)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧).

(غلل): يدُلُّ على إحاطةٍ وثَباتٍ[١].

﴿مُّقْمَحُونَ﴾: أي: مَرفوعو الرُّؤوسِ[٢] مع غضِّ الأبصارِ، مِن قَولِهم: بعيرٌ قامِحٌ: وهو الرَّافعُ رأسَه مِن الإبِلِ عندَ الشُّربِ؛ امتِناعًا منه، والإقْماحُ: رفْعُ الرَّأْسِ وغَضُّ البصَرِ[٣].

﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾: أي: أعمَيْناهم، وغَطَّيْنا أبصارَهم، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[٤].

﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾: أي: خُطاهم، وما استُنَّ به بَعْدَهم مِن سُنَنِهم، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي[٥].

﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾: أي: أثْبَتْناه وكَتَبْناه، والإحصاءُ: التَّحصيلُ بالعددِ، مِن لفظِ الحصى، واستِعمالُ ذلك فيه مِن حيثُ إنَّهم كانوا يَعتمِدونَه بالعدِّ، وأصلُه هنا:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠).

(٢) قال العُلَيمي: (لأنَّ مَن غُلَّت يدُه إلى ذَقَنِه، ارتفَع رأسُه). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦٩).
وقال ابن جُزَي: (والمعنى: أنَّهم لَمَّا اشتدَّتِ الأغلالُ حتَّى وصلتْ إلى أذقانِهم، اضطُرَّتْ رؤوسُهم إلى الارتفاعِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٣)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٦).

العَدُّ والإطاقةُ[١].

﴿إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: أي: اللَّوحِ المحفوظِ، والإمامُ: الكِتابُ، وأصلُ (أمم): يدُلُّ على الأصلِ والمرجِعِ، وسُمِّي اللَّوحُ المحفوظُ بذلك لِكَونِه أصلَ كلِّ ما كُتِب مِن كُتُبٍ وصُحُفٍ، وأصلُ (بين): انكِشافُ الشَّيءِ، يُقالُ: بانَ الشَّيءُ وأبانَ، إذا اتَّضَح وانكشَف[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿تَنزِيلَ﴾: بالنَّصبِ على المصدَرِ، مَفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ محذوفٍ، على معنى: نزَّل اللهُ ذلك تنزيلًا مِن العزيزِ الرَّحيم، ثمَّ أُضيفَ المصدَرُ إلى فاعِلِه فصار معرفةً، كما قال تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، أو هو منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: أعني، أو أمدَحُ. وقُرِئَ بالرَّفعِ[٣] على أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو تنزيلُ[٤].

قَولُه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١، ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٦).

(٣) قرأ ابنُ عامرٍ وحفصٌ وحمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ بنصبِ اللَّام. وقرأ الباقون بالرَّفعِ. يُنظر: ((السبعة في القراءات)) لابن مجاهد (ص: ٥٣٩)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٣)، ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص: ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٧٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٤٦).

﴿وَكُلَّ﴾: مفعولٌ به لفِعلٍ محذوفٍ يُفسِّرُه ما بعدَه، أي: وأحْصَيْنا كلَّ شيءٍ أحْصَيناه[١].

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: ﴿يسٓ﴾، وهو من الحُروفِ المُقَطَّعةِ الَّتي افتُتِحَت بها بعضُ السُّوَرِ القُرآنيَّةِ؛ للإشارةِ إلى إعجازِ القُرآنِ الكريمِ، ثمَّ أقسَمَ تعالى بالقُرآنِ الحَكيمِ أنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن رُسُلِ اللهِ، وأنَّه على طريقٍ مُستقيمٍ يُوصِلُ إلى اللهِ تعالى، وأنَّ هذا القُرآنَ تَنزيلٌ مِن اللهِ العزيزِ الرَّحيمِ؛ لِيُنذِرَ به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قومًا لم يُنذَرْ آباؤُهم مِن قَبْلِه؛ فهم غافِلونَ عن الحَقِّ.

لكنْ مِن هؤلاء الَّذين بُعِث فيهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لإنذارِهم مَن ردَّ دعوتَه، ولم يَقبَلْ النِّذارةَ، وهم الَّذين يقولُ الله فيهم: لقد وجَبَ عذابُ اللهِ على أكثَرِ مُشرِكي العَرَبِ، فهم لا يُؤمِنونَ حتَّى يأتيَهم الموتُ، فإنَّا جعَلْنا في أعناقِهم قُيودًا فهي واصِلةٌ إلى أذقانِهم، فهم مرفوعةٌ رُؤوسُهم لا يستطيعونَ خَفْضَها، وجعَلْنا مِن بيْنِ أيديهم حاجِزًا ومِن خَلفِهم حاجِزًا، فجعَلْنا على أبصارِهم غِشاوةً وأغطيةً، فلا يَرونَ شَيئًا، وإنذارُك وعدَمُه عندَهم سواءٌ، فهم لا يُؤمِنونَ بالحَقِّ الَّذي جِئتَهم به -يا محمَّدُ-!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى مَن هم أهلٌ للتَّذكيرِ، فيقولُ: إنَّما تُنذِرُ إنذارًا نافِعًا مَنِ اتَّبَع القُرآنَ، وخاف اللهَ بالغَيبِ؛ فبَشِّرْ هذا الصِّنفَ مِن النَّاسِ بمَغفرةٍ عَظيمةٍ وثَوابٍ حَسَنٍ.

ثمَّ يؤكِّدُ الله سبحانَه أنَّ البعثَ حقٌّ، وأنَّ الجزاءَ حقٌّ، فيقولُ: إنَّا نحن نَبعَثُ

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٧٩٦)، ((إعراب القرآن)) للدعاس (٣/ ٨٩).

الموتَى يومَ القيامةِ؛ لكي نُحاسِبَهم على أعمالِهم، ونكتُبُ أعمالَهم الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا، وآثارَهم الَّتي تَرَكوها بعدَ مَوتِهم، سواءٌ أكانت صالِحةً أمْ غيرَ صالحةٍ، وكُلَّ شَيءٍ أثبَتْناه في كتابٍ موضِّحٍ لكلِّ شيءٍ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يسٓ ١﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ التي افتُتِحَتْ بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

قال الشوكاني: (واختُلِف في معنى هذه اللَّفظةِ؛ فقيل: معناها: يا رجُلُ، أو يا إنسانُ... وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ وغَيرُه: هو اسمٌ مِن أسماء محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ دليلُه: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ... قال الواحديُّ: قال ابنُ عبَّاسٍ والمفَسِّرون: يريدُ: يا إنسانُ -يعني: محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم. وقال أبو بكرٍ الوَرَّاقُ: معناه: يا سيِّدَ البَشَرِ. وقال مالكٌ: هو اسمٌ مِن أسماءِ الله تعالى، رَوى ذلك عنه أشهَبُ. وحكى أبو عبدِ الرَّحمنِ السُّلَميُّ عن جعفرٍ الصَّادِقِ أنَّ معناه: يا سَيِّدُ. وقال كعبٌ: هو قَسَمٌ أقسَمَ اللهُ به). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٢). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٩).

وقال ابنُ القيِّم: (الصَّحيحُ أنَّ ﴿يسٓ﴾ بمنزلةِ ﴿حمٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾، ليست اسمًا مِن أسماءِ النَّبيِّ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٤٢٦).

وقال أيضًا: (أمَّا ما يَذكُرُه العوامُّ أنَّ ﴿يسٓ﴾ و﴿طه﴾ مِن أسماءِ النَّبيِّ، فغيرُ صَحيحٍ؛ ليس ذلك في حديثٍ صَحيحٍ ولا حَسَنٍ ولا مُرسَلٍ، ولا أثَرٍ عن صاحِبٍ، وإنَّما هذه الحروفُ مِثْلُ: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿الٓر﴾ ونحوِها). ((تحفة المودود)) (ص: ١٢٧). ونسَبَه الزَّجَّاجُ إلى أهلِ العربيَّةِ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٧٧).

وقال الشنقيطي: (قولُه تعالَى: ﴿يسٓ﴾ التَّحقيقُ أنَّه مِن جملةِ الحروفِ المُقَطَّعةِ في أوائلِ السُّورِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٦).

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

أي: أُقسِمُ بالقُرآنِ ذي الحكمةِ، المحكَمِ المتقَنِ، فلا اختِلافَ فيه ولا خَللَ، ولا يَأتيه الباطلُ مِن بينِ يَدَيْه ولا مِن خَلفِه، الحاكمِ الَّذي يجبُ الرُّجوعُ إليه(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٠-١٢).

قال أبو حيان: (الحكيم: إمَّا فعيلٌ بمعنى مُفعَلٍ...، وإمَّا للمُبالَغةِ مِن حاكمٍ، وإمَّا على معنَى السَّببِ، أي: ذي حكمةٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨).

ممَّن اختار أنَّ الحكيمَ بمعنى المُحكَمِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، ومكِّي، والقرطبي، وابنُ كثيرٍ، وجلالُ الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦٦).

وممَّن اختار أنَّ معنى الحكيمِ: ذو الحكمةِ: الخازنُ، والإيجي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

قال السعدي: (الحكيمُ الَّذي وَصْفُه الحِكمةُ، وهي وَضْعُ كلِّ شَيءٍ مَوضِعَه؛ وضْعُ الأمرِ والنَّهيِ في الموضِعِ اللَّائقِ بهما، ووضْعُ الجزاءِ بالخَيرِ والشَّرِّ في مَحلِّهما اللَّائقِ بهما؛ فأحكامُه الشَّرعيَّةُ والجزائيَّةُ كُلُّها مُشتَمِلةٌ على غايةِ الحِكمةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

وقال الزمخشري: (﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: ذي الحِكمةِ، أو: لأنَّه دليلٌ ناطِقٌ بالحِكمةِ، كالحَيِّ، أو لأنَّه كلامُ حَكيمٍ، فوُصِفَ بصِفةِ المتكلِّم به). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣).

وعلى القَولِ بأنَّه بمعنى حاكم، فالمرادُ أنَّ القرآنَ حاكِمٌ على جميعِ الكُتُبِ الَّتي أنزلها اللهُ تعالى مِن قَبْلُ، يُميِّزُ صحيحَها مِن مُحَرَّفِها، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٢).

وقال ابنُ عُثيمين: (فالقُرآنُ حَكيمٌ بكُلِّ مَعنى الحِكمةِ، وبكُلِّ معنى الإحكامِ، وبكُلِّ معنى الحُكمِ... ذو حِكمةٍ، ومُحكِمٌ، ومُحكَمٌ، وحاكِمٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١، ١٢).

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

أي: إنَّك -يا محمَّدُ- لَمِن جُملةِ المُرسلينَ إلى عبادِ اللهِ بوَحْيِه[١].

﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: على طَريقِ الهُدى المُستقيمِ الَّذي لا اعوِجاجَ فيه، الموصِلِ إلى اللهِ وإلى جنَّتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣].

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنِ اسْتَوفَى القَسَمُ جَوابَه؛ رجَعَ الكلامُ إلى بعضِ المقصودِ مِن القسَمِ، وهو تَشريفُ المُقسَمِ به، فوُسِمَ بأنَّه[٣]:

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ﴾.

أي: نَزَّل اللهُ تعالى هذا القُرآنَ تَنزيلًا مِن ذي القَدْرِ العظيمِ، الغالبِ الَّذي لا يُغلَبُ، المُمتنِعِ مِن أنْ يَنالَه سوءٌ، ومِن عِزَّتِه الانتِقامُ ممَّن كَفَر بالحَقِّ، الرَّحيمِ بمَنْ آمَنَ به واتَّبَعه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) =

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أقسَمَ تعالى على رسالةِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وأقام الأدِلَّةَ عليها؛ ذكَرَ شِدَّةَ الحاجةِ إليها، واقتِضاءَ الضَّرورةِ لها[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ المُرسَلَ والمُرسَلَ به والمُرسِلَ؛ ذكَرَ المُرسَلَ له، فقال[2]:

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ٦ ﴾.

أي: أُنزِلَ القُرآنُ لِتُنذِرَ -يا محمَّدُ- القومَ[3] الَّذينَ لم يُنذَرْ آباؤُهم برَسولٍ مِن

= (٢٢/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٩٤).

(٣) قال ابنُ عاشور: (القومُ المَوصوفون بأنَّهم لم تُنذَرْ آباؤُهم: إمَّا العَرَبُ العَدْنانيُّون؛ فإنَّهم مَضَت قرونٌ لم يأتِهم فيها نذيرٌ، ومضَى آباؤُهم لم يَسمَعوا نذيرًا، وإنَّما يُبتدأُ عَدُّ آبائِهم مِن جَدِّهم الأعلى في عمودِ نَسَبِهم الَّذي تميَّزوا به جِذْمًا وهو عَدْنانُ، لأنَّه جِذْمُ -أي: أصلُ- العرَبِ المُستَعرِبةِ، أو أُريدَ أهلُ مكَّةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٨).

وقال إسماعيل حقي: (المعنى: لِتُنذِرَ قومًا لم يُنذَرْ آباؤهم الأقرَبون؛ لِتَطاوُلِ مُدَّةِ الفَترةِ، ولم يَكونوا مِن أهلِ الكتابِ... فآباؤهم الأقدَمون أتاهم النَّذيرُ لا مَحالةَ، بخِلافِ آبائِهم الأدنَينَ، وهم قُريشٌ، فيَكونُ ذلك بمعنى قَولِه: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]). ((روح البيان)) (٧/ ٣٦٨).

وقال الرازي: (معنى قَولِه تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ أي: ما أُنذِروا بعدَما ضَلُّوا عن طريقِ الرَّسولِ المتقدِّم، واليهودُ والنَّصارى دخَلوا فيه؛ لأنَّهم لم تُنذَرْ آباؤهم الأدنَونَ بعدما ضَلُّوا، فهذا دليلٌ على كَونِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم مَبعوثًا بالحَقِّ إلى الخَلقِ كافَّةً). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٣).

وقال السمعاني: (قَولُه تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ فيه قولانِ؛ أحدُهما: أنَّ «ما» للنَّفيِ، والمعنى: لم يُنذَرْ آباؤهم أصلًا؛ فإنَّ الله تعالى ما بَعَث إلى قُرَيشٍ سِوى النَّبيِّ. =

قَبْلِك؛ فهم لذلك غافِلونَ عن الحَقِّ[١].

= والقَولُ الثَّاني: أنَّ «ما» هاهنا بمعنى الَّذي، فمعنى الآيةِ على هذا: لِتُنذِرَ قَومًا بالَّذي أُنذِرَ آباؤُهم). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦٧).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ (ما) نافيةٌ-: الأخفشُ، والزَّجَّاجُ، والثعلبيُّ، والبغوي، والخازن، وابن جُزَي، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي، وذكَر الواحديُّ أنَّه قولُ عامَّةِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٨٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٢١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: السمرقنديُّ، ونسَبَه الواحديُّ لِمُقاتلٍ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥٢).

قال ابنُ عطيَّة: (اختلَف المفسِّرون في قولِه: ﴿مَآ أُنذِرَ﴾؛ فقال عِكْرِمةُ: «ما» بمعنى: الَّذي، والتَّقديرُ: الشَّيءُ الَّذي أُنذِرَه الآباءُ مِن النَّارِ والعذابِ. ويَحتملُ أن تكونَ «ما» مصدريَّةً على هذا القولِ مِن أنَّ الآباءَ أُنذِروا. فالآباءُ على هذا كلِّه هم الأقْدَمون على مَرِّ الدُّهورِ، وقولُه تعالى: ﴿فَهُمْ﴾ مع هذا التَّأويلِ بمعنى: فإنَّهم، دخلَتِ الفاءُ لقطعِ الجُملةِ مِن الجملةِ. وقال قَتادةُ: «ما» نافيةٌ، أي: أنَّ آباءَهم لم يُنذَروا، فالآباءُ على هذا هم القريبون منهم، وهذه الآيةُ كقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤]، وهذه النِّذارةُ المنفيَّةُ هي نِذارةُ المباشَرةِ والأمرِ والنَّهيِ، وإلَّا فدَعوةُ الله تعالى مِن الأرضِ لم تَنقَطِعْ قَطُّ. وقولُه ﴿فَهُمْ﴾ على هذا: الفاءُ منه واصلةٌ بيْنَ الجُملتَينِ، ورابطةٌ للثَّانيةِ بالأُولى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١).

جملةُ: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ على القول بأنَّ (ما) نافيةٌ فالجملةُ متعلِّقةٌ بالنَّفيِ، أي: لم يُنذَروا فهم غافِلون، على أنَّ عدَمَ إنذارِهم هو سببُ غفلتِهم. وعلى القولِ الثَّاني في (ما) فالجملةُ متعلِّقةٌ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿لِتُنذِرَ﴾، كما تقولُ: أرسَلْتُك إلى فُلانٍ لِتُنذِرَه؛ فإنَّه غافل، أو فهو غافلٌ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤).

كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [القصص: ٤٦].

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾.

أي: لقد وَجَب عذابُ اللهِ على أكثَرِ مُشرِكي العَرَبِ الَّذين سبَقَ في عِلمِ اللهِ أنَّهم لا يَهتَدونَ، فأكثَرُهم مُستَمِرُّونَ على الإصرارِ على كُفرِهم حتَّى يأتيَهم الموتُ وهم على ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾.

أي: إنَّا جعَلْنا في أعناقِهم قُيودًا تَبلُغُ أذقانَهم(٢)، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٣، ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٤، ٢٥).
قال السعدي: (إنَّما حَقَّ عليهم القَولُ بعدَ أن عَرَض عليهم الحقَّ فرفَضوه؛ فحينَئذٍ عُوقِبوا بالطَّبعِ على قُلوبِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) قال الماوَرْديُّ: (وفي قَولِه: ﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ قَولانِ؛ أحدُهما: في أيديهم؛ فكنَّى بالأعناقِ عن الأيدي؛ لأنَّ الغُلَّ يكونُ في الأيدي. قاله الكلبيُّ، ... الثَّاني: أنَّها في الأعناقِ حَقيقةً؛ لأنَّ الأيديَ تُجمَعُ في الغُلِّ إلى الأعناقِ. قاله ابنُ عبَّاس). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٧).
ممَّن اختار الثانيَ، وهو أنَّ المرادَ: أنَّ الأيديَ مجموعةٌ بالقَيدِ مع الأعناقِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والسمعاني، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣)، ((الوجيز)) =

فهم رافعو رُؤوسِهم[(١)] .....

= للواحدي (ص: ٨٩٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣، ٥٦٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٤).

قال ابن كثير: (لَمَّا كان الغُلُّ إنَّما يُعْرَفُ فيما جَمَع اليدَيْنِ مع العُنُقِ، اكتَفى بذِكْرِ العُنُقِ عن اليَدَيْنِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣).

وقال ابنُ عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿فَهِيَ﴾ يحتملُ أن يعودَ على الأغلالِ، أي: هي عريضةٌ تَبلُغُ بحَرفِها الأذْقانَ، والذَّقَنُ مجتمعُ اللَّحْيَيْنِ، فيُضْطَرُّ المغلولُ إلى رفعِ وجْهِه نحوَ السَّماءِ، وذلك هو الإقماحُ...، ويحتملُ -وهو قولُ الطَّبَريِّ- أن تعودَ «هي» على الأيدي وإن لم يَتقدَّمْ لها ذِكرٌ؛ لِوُضوحِ مكانِها مِن المعنى؛ وذلك أنَّ الغُلَّ إنَّما يكونُ في العُنُقِ مع اليدَينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٧).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ على الأغلالِ: الزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، وابنُ القيم. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥))، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٥).

قال أبو حيَّان: (والظَّاهرُ عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿فَهِيَ﴾ إلى الأغلالِ؛ لأنَّها هي المذكورةُ والمُحَدَّثُ عنها). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠).

وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ على الأيدي: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، ومكِّي، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٠٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٧٩).

(١) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقوله: ﴿مُّقْمَحُونَ﴾ أي: رافِعو رؤوسهم: القرطبيُّ، والنسفي، وابن جُزَي، والسمين الحلبي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨).

وممَّن اختار أنَّ معنى المُقْمَحِ: الرَّافعُ رأسَه الغاضُّ بَصَرَه: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والبغوي، والزمخشري، والخازن، والبِقاعي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) لابن =

لا يَقْدِرونَ أنْ يُطَأْطِئُوها[١].

= قتيبة (ص: ٣٦٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١١٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٧٤).

قال ابنُ جرير: (والمُقْمَحُ: هو المُقْنِعُ، وهو أنْ يَحْدُرَ الذَّقَنَ حتَّى يَصيرَ في الصَّدرِ، ثُمَّ يَرْفَعَ رأسَه، في قولِ بعضِ أهلِ العلمِ بكلامِ العربِ مِن أهلِ البصرةِ. وفي قولِ بعضِ الكوفيِّينَ: هو الغاضُّ بصَرَه، بعدَ رَفْعِ رأسِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٥٧).

قال السمين الحلبي: (قوله: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ هذه الفاءُ لأحسَنِ ترتيبٍ؛ لأنَّه لَمَّا وصلَتِ الأغلالُ إلى الأذقانِ لعرضِها، لَزِمَ عن ذلك ارتفاعُ روؤسِهم إلى فوق، أو لَمَّا جُمِعَتِ الأيدي إلى الأذقانِ وصارت تحتَها، لَزِمَ مِن ذلك رفْعُها إلى فوق، فتَرتفعُ رؤوسُهم). ((الدر المصون)) (٩/ ٢٤٨).

ممَّن اختار معنى القولِ الأوَّلِ: النَّسَفيُّ، وابنُ جُزَي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨).

قال النسفي: (لأنَّ طَوْقَ الغُلِّ الَّذي في عُنُقِ المَغلولِ يكونُ في مُلتقى طَرَفَيْهِ تحتَ الذَّقَنِ حَلْقةٌ فيها رأسُ العمودِ خارجًا مِن الحَلْقةِ إلى الذَّقَنِ، فلا يُخْليه يُطأطِئُ رأسَه؛ فلا يَزالُ مُقْمَحًا). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٩٦). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥).

وممَّن اختار معنى القولِ الثَّاني: الأزهريُّ، والقرطبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٤/ ٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧، ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣، ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨ - ٢٩٠).

اختلف المفَسِّرون في المراد بالآيةِ؛ على قولَين: (أحدُهما: جَعْلُ الأغلالِ حَقيقةً. والثَّاني: أنَّه استعارةٌ. وعلى كُلٍّ مِن القولَينِ جماعةٌ مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ). ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٤٧). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٧). =

= ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ ذلك سيَحدُثُ حقيقةً يومَ القيامة، فلمَّا أخبَرَ تعالى أنَّهم لا يؤمِنونَ، أخبَرَ عن شَيءٍ مِن أحوالِهم في الآخرةِ-: أبو حيَّان، وجوَّزه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩).

قال ابنُ عاشور: (فيكونُ فِعلُ ﴿جَعَلْنَا﴾ مُستَقبَلًا، وعبَّر عنه بصيغةِ الماضي؛ لتَحقيقِ وُقوعِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٠).

والقولُ الثَّاني أنَّ ذلك مَثَلٌ، وأنَّه ليس هناك غُلٌّ على الحقيقةِ، نسَبَه ابنُ الجوزي إلى أكثَرِ المحقِّقينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١٧).

واختلف القائلون بهذا القولِ في الآيةِ على ثلاثةِ أقوالٍ: (أحدُها: أنَّها مَثَلٌ لِمَنعِهم عن كلِّ خَيرٍ، قاله قَتادةُ. والثَّاني: لحَبسِهم عن الإنفاقِ في سبيلِ الله بموانعَ كالأغْلالِ، قاله الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ. والثَّالثُ: لِمَنعِهم مِن الإيمانِ بالله، قاله أبو سُلَيْمانَ الدِّمَشْقيُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١٧). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٣).

ممَّن اختار أنَّه تمثيلٌ لِتَصميمِهم على الكُفرِ، وامتِناعِهم عن الهدى: يحيى بنُ سلام، والزمخشريُّ، وابنُ عطية، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٩٧).

قال الشنقيطي: (والمُرادُ بالآيةِ الكريمةِ: أنَّ هؤلاء الأشْقياءَ الَّذينَ سَبَقَتْ لهم الشَّقاوةُ في عِلْمِ اللهِ، المذْكورينَ في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، صَرَفَهم اللهُ عن الإيمانِ صَرْفًا عظيمًا مانِعًا مِن وُصولِه إليهم؛ لأنَّ مَنْ جُعِلَ في عُنُقِه غُلٌّ، وصار الغُلُّ إلى ذَقَنِه، حتَّى صار رأسُه مرفُوعًا لا يَقدِرُ أنْ يُطَأْطِئَه، وجَعَلَ أمامَه سَدًّا، وخَلْفَه سَدًّا، وجعَلَ على بَصَرِه الغِشاوةَ: لا حِيلةَ له في التَّصَرُّفِ، ولا في جَلْبِ نَفْعٍ لِنَفْسِه، ولا في دَفْعِ ضُرٍّ عنها، فالَّذين أشْقاهم اللهُ بهذه المثابةِ، لا يَصِلُ إليهم خَيْرٌ. وهذا المعنَى الَّذي دَلَّتْ عليه هذه الآيةُ الكريمةُ -مِن كَونِه جَلَّ وعلا يَصرِفُ الأشْقياءَ الَّذين سَبَقَتْ لهم الشَّقاوةُ في عِلْمِه عن الحقِّ، ويَحُولُ بيْنَهم وبيْنَه- جاء موضَّحًا في آياتٍ كثيرةٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ =

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

أي: وجعَلْنا مِن بيْنِ أيديهم حاجِزًا، ومِن خَلفِهم حاجِزًا، فغَطَّينا أبصارَهم فلا يَرَوْنَ شَيئًا(١).

=ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الكهف: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ [الجاثية: ٢٣]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٨).

وقال ابن عاشور: (... فيَجوزُ أن يكونَ تمثيلًا بأن شُبِّهَت حالةُ إعراضِهم عن التَّدبُّرِ في القرآنِ ودَعوةِ الإسلامِ والتَّأمُّلِ في حُجَجِه الواضِحةِ بحالِ قَومٍ جُعِلَت في أعناقِهم أغلالٌ غليظةٌ تَرتفعُ إلى أذقانِهم، فيَكونون كالمُقمَحينَ، أي: الرَّافِعينَ رُؤوسَهم، الغاضِّينَ أبصارَهم، لا يَلتَفِتونَ يمينًا ولا شِمالًا، فلا يَنظُرونَ إلى شَيءٍ ممَّا حَوْلَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٩).

وممَّن اختار أنَّه تمثيلٌ لحبسِهم عن الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ بموانعَ كالأغلالِ: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٧).

قال الواحديُّ: (كقولِه: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء: ٢٩] معناه: لا تُمْسِكْها عن النَّفَقةِ). ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٠).

وقال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: إنَّا جَعَلْنا أيْمانَ هؤلاءِ الكفَّارِ مَغلولةً إلى أعناقِهم بالأغلالِ، فلا تَنبسِطُ بشَيءٍ مِن الخَيراتِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٥، ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨).

قال السمين الحلبي: (قولُه تعالى هذا يحتَمِلُ الحقيقةَ والاستعارةَ). ((الدر المصون في علوم الكتاب المكنون)) (٩/ ٢٤٩).

فالقولُ الأولُ: أنَّ ذلك سيَحدُثُ حقيقةً يومَ القيامة. وممَّن استظهر هذا المعنى: أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩).

والقولُ الثاني: أنَّ هذا تمثيلٌ، والمرادُ أنَّ اللهَ تعالى جعَل لهم حاجِزًا يَحجُزُهم عن الإيمانِ، ولا يُخرِجُهم مِن الضَّلالةِ، فلا يُبصِرون الهدى والحَقَّ؛ فهم بمنزلةِ مَن سُدَّ طريقُه فلا يستطيعُ الخروجَ ممَّا هو فيه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، وابنُ القيِّم، والسعدي، =

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠ ﴾.

أي: مُستوٍ في حَقِّ هؤلاء الكافِرينَ الَّذين حَقَّ عليهم القَولُ: الإنذارُ وعَدَمُه؛ فسواءٌ أنذَرْتَهم العذابَ -يا محمَّدُ- أو تركْتَ إنذارَهم، فإنَّهم في كِلا الحالَينِ لا يُؤمِنونَ بك وبما جِئتَهم مِن الحَقِّ[1]!

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى المأيوسَ مِن انتفاعِهم بإنذارِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم؛ ذكَرَ الَّذين يَنتَفِعونَ به؛ تأنيسًا له بهم، وتقويةً له بظُهورِ ثَمرةِ إنذارِه فيهم[2].

وأيضًا لَمَّا تضمَّنَ قولُه: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يس: ١٠] أنَّ الإنذارَ في جانبِ الَّذين حقَّ عليهم القولُ أنَّهم لا يُؤمِنون هو وعَدَمُه سواءٌ، وكان ذلك قد يُوهِمُ انتفاءَ الجَدْوى مِن الغيرِ وبعضٍ مِن فَضلِ أهلِ الإيمانِ؛ أُعقِبَ ببَيانِ جَدْوى الإنذارِ بالنِّسبةِ لِمَن اتَّبَع الذِّكرَ وخشِيَ الرَّحمنَ بالغيبِ[3].

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ ﴾.

= والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٩، ١٨٠).

أي: إنَّما تُنذِرُ -يا محمَّدُ- إنذارًا نافِعًا مَنِ اتَّبَع القُرآنَ، فآمَنَ بأخبارِه، وعَمِل بأحكامِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

أي: وتُنذِرُ إنذارًا نافِعًا مَن خَشِيَ اللهَ الرَّحمنَ بالغَيبِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٢، ٣٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

قيل: معنى ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: خَشِيَ اللهَ تعالى حالَ الغَيبةِ عن النَّاسِ في الخَلَواتِ. وممن قال بهذا المعنى: ابن جرير، والزجاج، ومكي، وابن عطية، وابن كثير، والعليمي، ورجَّحه ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة يس)) (ص: ٣٦-٣٧).

وقيل: المرادُ: وخَشِيَ الرَّحمنَ والحالُ أنَّه لم يَرَ اللهَ. وممن قال بهذا المعنى: مقاتل بن سليمان، والواحدي، وجلال الدين المحلي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٧٦).

قال القرطبي: (﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: ما غاب مِن عذابِه ونارِه. قاله قَتادةُ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١)، ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٨).

قال الألوسي: (أي: خشِي عقابَ الرحمنِ حالَ كونِ العقابِ ملتبسًا بالغيبِ، أي: غائبًا عنه، وحاصلُه خشِي العقابَ قبلَ حلولِه، ومعاينةِ أهوالِه). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٩٠). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾.

أي: فبَشِّرْ -يا محمَّدُ- مَن اتَّبَع القُرآنَ وخَشِيَ الرَّحمنَ بالغَيبِ: بمَغفرةٍ لِذُنوبِه، وثوابٍ حَسَنٍ جَميلٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ * مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣١ - ٣٣].

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

في مُناسَبةِ هذه الآيةِ لِما قَبْلَها وُجوهٌ؛ منها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن الرِّسالةَ -وهي أصلٌ مِن الأُصولِ الثَّلاثةِ: (التَّوحيدِ- الرِّسالةِ- الحَشرِ) الَّتي يصيرُ بها المكَلَّفُ مُؤمِنًا مُسلِمًا- ذكَرَ أصلًا آخَرَ، وهو الحَشرُ.

وأيضًا: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ الإنذارَ والبِشارةَ بقَولِه: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ﴾، ولم يَظهَرْ ذلك بكَمالِه في الدُّنيا، فقال: إنْ لم يُرَ في الدُّنيا فاللهُ يُحيي الموتى،

= وقال البقاعي: (﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: بسببِ ما يخبرُ به مِن مقدوراتِه الغائبةِ لا سيَّما البعثِ ...، ويخشاه أيضًا خشيةً خالصةً في حالِ غيبتِه عمَّن يُرائيه مِن الناسِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

ويَجزي المُنذَرينَ، ويَجزي المُبَشَّرينَ[١].

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾.

أي: إنَّا نحن نَبعَثُ الموتى يومَ القيامةِ؛ لِنُجازيَهم على أعمالِهم[٢].

﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾.

أي: ونحن نَكتُبُ[٣] ما قدَّموه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ، ونكتُبُ ما تولَّدَ عن ذلك مِن آثارٍ، وما تسبَّبوا في إيجادِه مِن ذلك في حالِ حياتِهم وبعدَ وفاتِهم، ونكتُبُ آثارَ خُطاهم إلى الطَّاعةِ أو المعصيةِ، فنَجْزيهم على ذلك؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنَّ شَرًّا فشَرٌّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

(٣) قال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا الكتابةُ فرُسُلُه يَكتُبونَ، كما قال: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾، فأخبَرَ بالكتابةِ بقَولِه: ﴿نَحۡنُ﴾؛ لأنَّ جُندَه يَكتُبونَ بأمْرِه). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ٥١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٤٥، ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥١٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٦).

قال الشنقيطي: (قوله: ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾، فيه وجهانِ مِن التَّفسيرِ معروفانِ عندَ العلماءِ:

الأوَّلُ منهما: أنَّ معنَى ﴿مَا قَدَّمُواْ﴾: ما باشَروا فِعلَه في حياتِهم، وأنَّ معنَى آثارَهم: هو ما سَنُّوه في الإسلامِ مِن سُنَّةٍ حسنةٍ أو سَيِّئةٍ، فهو مِن آثارِهم الَّتي يُعمَلُ بها بعدَهم.

الثَّاني: أنَّ معنَى آثارَهم: خُطاهم إلى المساجدِ ونحوُها مِن فِعلِ الخَيرِ، وكذلك خُطاهم إلى الشَّرِّ، كما ثبَت عنه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «يا بني سَلِمةَ، دِيارَكم تُكْتَبْ آثارُكم»، يعني: خُطاكُم مِن بُيوتِكم إلى مَسجدِه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٩١). =

كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

وعن جَرير بن عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حَسَنةً، فعُمِلَ بها بَعْدَه؛ كُتِب له مِثلُ أجرِ مَن عَمِل بها، ولا يَنقُصُ مِن أُجورِهم شَيءٌ. ومَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سَيِّئةً، فعُمِلَ بها بَعْدَه؛ كُتِب عليه مِثلُ وِزرِ مَن عَمِل بها، ولا يَنقُصُ مِن أوزارِهم شَيءٌ))(١).

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((خَلَتِ البِقاعُ حَوْلَ المَسجِدِ، فأراد بنو سَلِمةَ أن يَنتَقِلوا إلى قُرْبِ المَسجِدِ، فبلَغَ ذلك رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال لهم: إنَّه بلَغَني أنَّكم تُريدون أن تَنتَقِلوا قُربَ المَسجِدِ. قالوا: نعَمْ يا

= ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ، وأنَّ المرادَ بآثارِهم: ما سَنُّوه مِن سُنَّةٍ حسنةٍ أو سَيِّئةٍ، واستنَّ به مَن بَعْدَهم: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، ونسَبَه الماتُريديُّ إلى عامَّةِ أهلِ التَّأويلِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨١)، ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٠٧، ٥٠٨).

وقال ابن كثير: (وفي قولِه: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ قولانِ؛ أحدُهما: نَكْتُبُ أعمالَهم الَّتي باشَروها بأنفسِهم، وآثارَهم الَّتي أثَروها مِن بعدِهم... والقولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بذلك آثارُ خُطاهم إلى الطَّاعةِ أو المعصيةِ... وهذا القولُ لا تنافيَ بيْنَه وبيْنَ الأوَّلِ، بل في هذا تنبيهٌ ودَلالةٌ على ذلك بطريقِ الأَولى والأحْرَى؛ فإنَّه إذا كانت هذه الآثارُ تُكتَبُ، فلَأَنْ تُكْتَبَ تلك الَّتي فيها قُدوةٌ بهم مِن خَيرٍ أو شَرٍّ بطريقِ الأَوْلى، واللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥).

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

رَسولَ اللهِ، قد أرَدْنا ذلك، فقال: يا بَني سَلِمةَ، دِيارَكم تُكتَبْ آثارُكم[١]، ديارَكم تُكتَبْ آثارُكم))[٢].

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قَولُه تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ رُبَّما أوهَمَ الاقتِصارَ على كتابةِ ما ذُكِرَ مِن أحوالِ الآدَميِّينَ، أو الحاجةَ إلى الكِتابةِ؛ دَلَّ على قُدرتِه على ما لا تُمكِنُ القُدرةُ عليه لأحدٍ غيرِه في أقَلِّ قَليلٍ ممَّا ذُكِرَ، فكيف بما فَوْقَه؟ فقال[٣]:

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: وكُلُّ شَيءٍ ممَّا كان أو سيَكونُ -ومِن ذلك أعمالُ العبادِ؛ خَيرِها وشَرِّها- مَحفوظٌ ومُثبَتٌ في كِتابٍ موضِّحٍ لكلِّ شَيءٍ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ[٤].

---

(١) دِيارَكم تُكتَبْ آثارُكم: أي: الزَموا ديارَكم يُكتَبْ أجرُ خُطاكم، وثَوابُ أقدامِكم؛ لكُلِّ خُطوةٍ دَرَجةٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٥٩٣).

(٢) رواه مسلم (٦٦٥).

وفي رواية الترمذي (٣٢٢٦) وابن ماجه (٧٨٥) أنَّ بني سَلِمةَ لما أرادوا الانتقالَ إلى قُربِ المسجدِ نَزَلتْ هذه الآيَةُ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾. لكنَّ سورةَ (يس) مكيةٌ، وقصةَ بني سلِمةَ كانت بالمدينةِ، فقيل: السورةُ مكيةٌ، وهذه الآيةُ وحدَها مدنيةٌ، قال ابن القيم: (وأحسنُ مِن هذا أن تكونَ [أي: الآيةُ] ذُكِرتْ عندَ هذه القصةِ، ودلَّت عليها، وذُكِّروا بها عندَها إمَّا مِن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وإمَّا مِن جبريلَ، فأُطلِق على ذلك النزولُ). ((شفاء العليل)) (ص: ٤٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٧). =

كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإمامِ المُبينِ: اللَّوحُ المحفوظُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ القيِّم، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٨).

وقيل: المرادُ: صحائِفُ الأعمالِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٤٦، ٤٧).

قال ابنُ القيم: (والإحصاءُ في الكتابِ يَتضَمَّنُ عِلْمَه بها «أي: أعمالِ العِبادِ»، وحِفْظَه لها، والإحاطةَ بعدَدِها، وإثباتَها فيه). ((شفاء العليل)) (ص: ٤٠).

وممَّن اختار أنَّ ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: بَيِّنٍ واضحٍ: ابنُ أبي زمنين، وجلال الدين المحلي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٠).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معناه: مُظهِرٌ لجميعِ الأشياءِ ممَّا كان وما سيَكونُ، مُوضِحٌ لكلِّ شَيءٍ: أبو السعود، والشوكاني، والألوسي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٤٩، ٥٠).

وذكر ابن عثيمين أن ﴿مُّبِينٍ﴾ هنا بمعنى مُظهِرٍ وموضحٍ؛ لأنَّ المُظهِرَ جامعٌ بيْنَ الظُّهورِ بنفْسِه والإظهارِ لغيرِه، وإذا كان مُوضحًا فهو واضحٌ؛ فالمعنى أشمَلُ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٤٩، ٥٠).

وقال ابن جرير: (وقيل: ﴿مُّبِينٍ﴾؛ لأنَّه يُبينُ عن حقيقةِ جميعِ ما أُثبِتَ فيه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أضاف تنزيلَ القُرآنِ إلى هذين الاسمَين: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ إشارةً إلى وُجوبِ العَمَلِ بما جاء في القُرآنِ، وأنَّ مَن لم يَعمَلْ به فإنَّ أمامَه العزيزَ الَّذي يأخُذُ أخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ. و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا القرآنَ إنزالُه مِن مُقتضى رحمتِه سُبحانَه وتعالى بخَلقِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى ما رَحِمَ خَلْقَه رحمةً أعظَمَ مِن إنزالِ القُرآنِ الكريمِ؛ لأنَّ به الحياةَ القَلبيَّةَ والبَدَنيَّةَ، والفَرديَّةَ والاجتماعيَّةَ؛ ففي الآيةِ تهديدٌ لِلَّذين يُخالِفونَ هذا القُرآنَ بأنَّه نَزَل مِن عندِ عزيزٍ يَنتَقِمُ ممَّن خالَفه، وإشارةٌ إلى أنَّ هذا القُرآنَ مِن مُقتضَى رحمتِه سُبحانَه وتعالى[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۞ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ تقومُ حُجَّةُ اللهِ على العَبدِ أوَّلًا، ويَعمَلُ هو -كاسِبًا ومُكتَسِبًا- باختيارِه ثانيًا، ويَظهَرُ لنا ما سَبَق مِن عِلمِ اللهِ فيه بعدَ أنِ اختار ما اختار ثالثًا؛ ولهذا قُدِّمَت النِّذارةُ وما يَرتَبِطُ بها على هذه الآيةِ: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الَّتي فيها بيانُ ما سبَقَ مِن عِلمِ اللهِ فيهم؛ فاللهُ سُبحانَه لم يُجازِ الخَلْقَ على مُقتضى عِلمِه فيهم -وهو العِلمُ الَّذي لا يتخلَّفُ- وإنَّما جعَلَ جزاءَهم على أعمالِهم؛ فهذا تعليمٌ لنا كيف تكونُ مُعامَلتُنا بعضِنا لبعضٍ، فلا نُجازي على مُجرَّدِ الظَّنِّ، بل ولا على مُجرَّدِ اليَقينِ، وإنَّما تكونُ المُجازاةُ بعدَ صُدورِ الأعمالِ؛ فرُبَّ شَخصٍ قَدَّرْتَ فيه الخيرَ أو الشَّرَّ، ففعَلَ ضِدَّ ما قدَّرْتَ! فلو جازَيْتَه قبْلَ الفِعلِ لَما طابقَ جزاؤُك مَوضِعَه، ولَنالَ كُلٌّ ما لا يَستحِقُّه؛ فالحِكمةُ والعَدلُ والمصلحةُ في رَبطِ المُجازاةِ بالأعمالِ، وهذا ما كان مِنَ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨).

في مُجازاةِ خَلقِه، وهذا ما يَنبغي أن نَربطَ به المُجازاةَ بيْنَنا[١].

٣- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ وقولِه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ ترهيبٌ؛ فإنَّ كُلَّ ما دعا إليه الإسلامُ مِن عقائدَ وأخلاقٍ وأعمالٍ: فهو ممَّا تَقْبَلُه الفِطَرُ السَّليمةُ، وتُدرِكُه العقولُ بالنَّظَرِ الصَّحيحِ، فمَن قابَلَ دعوةَ الإسلامِ بالإعراضِ والعِنادِ، وخالَفَ فِطرتَه، وعاكَسَ عقْلَه؛ كان حقيقًا بهذا العِقابِ الشَّديدِ مِن طَمسِ البصيرةِ، والطَّبعِ على القَلبِ؛ فذَكَر اللهُ لنا هذه العُقوبةَ بهذا التَّمثيلِ البَليغِ الَّذي صَوَّرَها في أبشَعِ صُورةٍ وأفْظَعِها -على قولٍ-؛ لِيُحَذِّرَنا مِن الإعراضِ عن الحَقِّ والعِنادِ له، ويُخَوِّفَنا بعاقبةِ ذلك على أهلِه[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ تحذيرُ الإنسانِ إذا لم يَنفتِحْ له بابُ الهدَى أن يكونَ مِن جِنْسِ أولئك، فإذا رأى الإنسانُ مِن نفْسِه أنَّه قد حِيلَ بيْنَه وبيْنَ الهدى، وصار لا يُبصِرُ الحقَّ؛ فلْيَعْلَمْ أنَّه على خطَرٍ، ولْيَتدارَكِ الأمرَ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يَذكُرُ سُبحانَه وتعالى حالةَ هؤلاء الَّذين استوَى عندَهم الشَّيءُ وضِدُّه؛ يُحَذِّرُنا منها، وممَّا يؤدِّي إليها مِن إهمالِ الفِطرةِ، وتَركِ النَّظَرِ؛ فإنَّ الإنسانَ إنَّما يَمتازُ على بقيَّةِ الحيوانِ بتَمييزِه بينَ الحقائقِ بالفِطرةِ والفِكرةِ، وإدراكِه الفوارقَ ما بيْنَها؛ فإذا سُلِبَ هذه المَزيَّةَ الْتَحَقَ بالعَجْماواتِ، بل كانت العَجْماواتُ خيرًا منه؛ لِبَقاءِ فِطرتِها سليمةً لإدراكِ ما فيها استِعدادٌ لإدراكِه[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٠، ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾ بيانُ عُلُوِّ مَرتبةِ الدَّعوةِ إلى اللهِ، والهدايةِ إلى سَبيلِه بكُلِّ وَسيلةٍ وطريقٍ مُوصِلٍ إلى ذلك؛ ونزولِ دَرجةِ الدَّاعي إلى الشَّرِّ؛ الإمامِ فيه، وأنَّه أسفَلُ الخليقةِ، وأشَدُّهم جُرمًا، وأعظَمُهم إثمًا[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾ الحَثُّ على المَشيِ للمساجدِ، وأنَّ الأبعَدَ فالأبعَدَ مِن المسجدِ أكثرُ أجرًا -كما في حديثِ قِصَّةِ بني سَلِمةَ حينَ أرادوا النُّقلةَ إلى قُربِ المسجدِ[٢]- وأنَّ الأجرَ على قَدرِ المشَقَّةِ[٣].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾ على العاقِلِ -وقد عَلِمَ أنَّه محاسَبٌ على أفعالِه وعلى آثارِ أقوالِه- ألَّا يَفعَلَ فِعلًا ولا يقولَ قَولًا حتَّى يَنظُرَ في عواقِبِه؛ فقد تكونُ تلك العواقِبُ أضَرَّ عليه مِن أصلِ القَولِ وأصلِ الفِعلِ؛ فقد يقولُ القَولَ مَرَّةً، ويَفعلُ الفِعلَ مَرَّةً، ثمَّ يَقتدي به فيه آلافٌ عديدةٌ في أزمنةٍ مُتطاوِلةٍ[٤]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ أنَّه سُبحانَه قد أحاط بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا، فهو غنيٌّ بعِلمِه عن هذه الكتابةِ، ولكِنَّه جَعَل هذا الكِتابَ إظهارًا لِعَظَمةِ مُلكِه، ولِيَعلمَ عبادُه الضَّبطَ والإحصاءَ في جميعِ أمورِهم، ولِيُبالِغوا في مُحاسَبةِ أنفُسِهم، ولِيَعلَموا أنَّ ما أصابَهم لم يَكُنْ لِيُخطِئَهم، وما أخطأَهم لم يكُنْ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

(٢) تقدَّم تخريجُه قريبًا.

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أعظمُ النَّاسِ أجرًا في الصلاةِ أبعدُهم فأبعدُهم ممشًى ...)). أخرجه البخاري (٦٥١)، ومسلم (٦٦٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢١٧). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٢٠-٦٢٢) و (٢٥/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٨).

لِيُصيبَهم؛ فيَزولَ مِن قُلوبِهم الخَوفُ مِن الحوادِثِ والمخلوقاتِ، وتَعظُمَ ثِقتُهم باللهِ، وفي ذلك أعظَمُ قُوَّةٍ في هذه الحياةِ، وأكبَرُ راحةٍ للقَلبِ مِن صُروفِها[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- هذا القُرآنُ الَّذي أعجَزَ البشَرَ لم يكُنْ بِدْعًا مِن لِسانِهم، وإنَّما مِن الحُروفِ الَّتي يُرَكِّبونَ منها كَلامَهم؛ يُشيرُ إلى هذا قولُه تعالى: ﴿يسٓ﴾؛ ولهذا لا تأتي هذه الحُروفُ الهِجائيَّةُ في أوَّلِ السُّورةِ إلَّا وَجَدْتَ بعدَها ذِكرَ القُرآنِ في الغالِبِ[٢]؛ فهذه حروفُ تَعجيزٍ وإفحامٍ وتَقريعٍ؛ لأنَّ القُرآنَ الَّذي عَجَزوا عن مُعارَضتِه مِن هذه الحُروفِ وأخَواتِها؛ فمنه تركَّبَت كَلِماتُه، فكأنَّما يُقالُ لهم: «ما هذا الَّذي عجَزتُم عنه إلَّا كلامٌ مِن جِنسِ كلامِكم، وما رُكِّبَت كَلِماتُه إلَّا مِمَّا رُكِّبَت منه كَلِماتُكم»، وهذا لِعَجزِهم أفضَحُ، ولِتَقريعِهم أوجَعُ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ عَظَمةُ القرآنِ العظيمِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أقسَمَ به، ولا يُقسِمُ إلَّا بشيءٍ مُعَظَّمٍ، والقرآنُ الكريمُ عَظيمٌ في نفسِه[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ تأكيدُ الخبرِ الهامِّ -وإنْ لم يَكُنِ المخاطَبُ مُنْكِرًا-؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه هنا يُخْبِرُ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمؤمنينَ، وهم لا يُنْكِرونَ ذلك؛ لكِنْ لأهمِّيَّتِه أكَّد[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ اتِّصالٌ لا يخفَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦).
والقاعدةُ أنَّ القَسَمَ لا يكونُ إلَّا باسمٍ مُعَظَّمٍ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٤٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٥).

بيْنَ المقسَم به -وهو القُرآنُ الحكيمُ-، وبيْن المُقسَم عليه -وهو رِسالةُ الرَّسولِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-، وأنَّه لو لم يكُنْ لرِسالته دَليلٌ ولا شاهِدٌ إلَّا هذا القرآنُ الحَكيمُ، لَكفَى به دَليلًا وشاهِدًا على رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل القُرآنُ العظيمُ أقوى الأدِلَّةِ المتَّصِلةِ المُستَمِرَّةِ على رِسالةِ الرَّسولِ؛ فأدِلَّةُ القُرآنِ كُلُّها أدلَّةٌ لرِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ العنايةُ بإثباتِ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ اللهَ تعالى أقسَمَ عليها، وأكَّدها زيادةً على القَسَمِ بـإنَّ واللَّامِ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ معنًى لطيفٌ يُعلَمُ منه فَسادُ قَولِ المُباحيَّةِ[3] الَّذين يقولون: المكَلَّفُ يصيرُ واصِلًا إلى الحَقِّ، فلا يَبقَى عليه تكليفٌ! وذلك مِن حيثُ إنَّ اللهَ بيَّن أنَّ المُرسَلينَ ما داموا في الدُّنيا فهم سالِكونَ سائِحونَ مُهتَدون مُنتَهِجون إلى السَّبيلِ المُستَقيمِ؛ فكيف ذلك الجاهِلُ العاجِزُ[4]؟!

٧- قال عز وجل: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلَ﴾ أنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ -يعني يَنْزِلُ شيئًا فشيئًا-، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] فإنه يَنْزِلُ شيئًا فشيئًا، ويُعَبَّرُ أحيانًا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦).

(٣) المباحيَّةُ أو أهلُ الإباحةِ: هم الَّذين يُسقِطون الأمرَ والنَّهيَ والتَّكاليفَ مطلقًا، ومنهم الباطنيَّةُ، وطائفةٌ مِن الصُّوفيَّةِ. يُنظر: ((تلبيس إبليس)) لابن الجوزي (ص: ٩٢)، ((اعتقادات فرق المسلمين والمشركين)) للرازي (ص: ٧٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٤٥، ٤٥٧)، ((الاعتصام)) للشاطبي (١/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٢).

عن القرآنِ بأنه أُنْزِلَ باعتبارِ نهايتِه، فإنَّه باعتبارِ النِّهايةِ يكونُ نَزَل كلُّه؛ وباعتبارِ التَّدريجِ في تنزيلِه يكونُ مُنَزَّلًا[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ؛ فالنُّزولُ لا يكونُ إلَّا مِن أعلَى[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ تنبيهٌ على أنَّ هذا الدِّينَ الَّذي نزَّله الرَّبُّ الموصوفُ بالعِزَّةِ والرَّحمةِ: هو دينُ عِزَّةٍ ورحمةٍ، ومِن مُقتضى العِزَّةِ: القُوَّةُ والمَنَعةُ والرِّفعةُ، ومِن مُقتضى الرَّحمةِ: الفَضلُ والخيرُ والمصلحةُ، وهذه كُلُّها مُتجلِّيةٌ في أحكامِ الإسلامِ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أنَّ القُرآنَ، بل الشَّرعَ كلَّه: مِن آثارِ رحمةِ اللهِ[٤].

١١- قد دلَّ استِقراءُ القرآنِ العظيمِ على أنَّ اللهَ جلَّ وعلا إذا ذكَرَ تنزيلَه لكِتابِه، أتْبَعَ ذلك ببعضِ أسمائِه الحسنى، المُتَضَمِّنةِ صِفاتِه العُلْيا؛ ففي أوَّلِ سورةِ (الزُّمَرِ) و(الجاثيةِ) و(الأحقافِ) قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١] [الجاثية: ٢] [الأحقاف: ٢]، فلمَّا ذكَرَ تنزيلَه كتابَه، بيَّن أنَّ مَبدأَ تنزيلِه كائنٌ منه جلَّ وعلا، وذكَرَ اسمَه اللهَ، واسمَه العزيزَ، والحكيمَ، وقد تكرَّر كثيرًا في القرآنِ ذِكْرُه بعضَ أسمائِه وصِفاتِه بعدَ ذِكرِ تنزيلِ القرآنِ العظيمِ؛ كقولِه في أوَّلِ سورةِ (غافرٍ): ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٩).

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ١ - ٣]، وقوله تعالى في أوَّلِ (فُصِّلَتْ): ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢]، وقوله تعالى في أوَّلِ (هُود): ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقوله في (فُصِّلَتْ): ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، وقوله تعالى في صدرِ (يس): ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ الآيةَ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ الآيةَ [الحاقة: ٤٣، ٤٤]. ولا يَخفى أنَّ ذِكْرَه جلَّ وعلا هذه الأسماءَ الحُسْنى العظيمةَ، بعدَ ذِكرِه تنزيلَ هذا القرآنِ العظيمِ، يدُلُّ بإيضاحٍ على عَظَمةِ القرآنِ العظيمِ، وجلالةِ شأنِه، وأهمِّيَّةِ نُزولِه(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ أنَّ الأمَّةَ الَّتي بُعِثَ فيها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم تكُنْ عندَها نِذارةٌ الْبَتَّةَ مِن أحدٍ(٢)، ولا يُعارِضُ هذا بعْثَ الأنبياءِ المتقدِّمينَ؛ فإنَّ هؤلاءِ القومَ لم يُدرِكوهم ولا آباؤُهم الأقرَبونَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥١، ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٩).

قال ابنُ كثير: (قال غيرُ واحدٍ مِن العلماءِ: إنَّ الله تعالى لم يَبعَثْ بعدَ إسماعيلَ نبيًّا في العربِ إلَّا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم خاتمَ الأنبياءِ). ((البداية والنهاية)) (٣/ ٢٥١).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (ومَن لم تَقُمْ عليه الحُجَّةُ في الدُّنيا بالرِّسالةِ، كالأطفالِ والمجانينِ وأهلِ الفتراتِ، فهؤلاء فيهم أقوالٌ أظهَرُها ما جاءت به الآثارُ: أنَّهم يُمتحَنون يومَ القيامةِ، فيُبعَثُ إليهم مَن يأمُرُهم بطاعتِه؛ فإنْ أطاعوه استحَقُّوا الثَّوابَ، وإن عصَوْه استحَقُّوا العذابَ). ((الجواب =

١٣- قولُه تعالَى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ يَعني بهم العربَ، وذِكرُهم وَحْدَهم لا يَنفي إرسالَه إلى مَن عَداهم كما زعَمَه بَعضُ النَّصارى، كما أنَّ ذِكرَ بَعضِ الأفرادِ لا ينفي العُمومَ؛ فقد دلَّتِ الآياتُ والأحاديثُ المتواتِرةُ على عُمومِ بَعثتِه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ والقَدَريَّة، والمرادُ بـ﴿ٱلْقَوْلُ﴾: القولُ الَّذي قال -واللهُ أعلَمُ-: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقال على إثْرِه ما أزال به كُلَّ رَيبٍ، وكشَفَ كلَّ لُبسةٍ، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، أفليس قد أخبَرَ نصًّا أنَّه حالَ بيْنَهم وبيْنَ الإيمانِ والجَنَّةِ بهذه الموانعِ الَّتي ذَكَرها؟! وهل ترَكَ مُتعَلَّقًا للقوم بعدَ هذا، لولا جَهْلُهم ومُكابَرتُهم! ثمَّ أكَّدَها بتأكيدٍ ثانٍ، فقال: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٢]!

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أنَّ أكثَرَ النَّاسِ هم مِن أهلِ جَهنَّمَ[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ سؤالٌ: هل لِمَن مات على كُفرِه حُجَّةٌ بما سبَقَ مِن عِلمِ الله فيه؟

= الصحيح)) (١/ ٣١٢). ويُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٧١٨).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٧).

الجوابُ: أنَّ حُجَّةَ الله قامَت على خَلقِه بما ركَّب فيهم مِن عَقلٍ، وما مكَّنَهم مِن اختيارٍ، وما نصَبَ لهم مِن آياتٍ مُشاهَداتٍ، وما أرسَل إليهم مِن رُسُلٍ بآياتٍ بَيِّناتٍ، وهذه كُلُّها أمورٌ معلومةٌ لديهم، ضروريَّةٌ عندَهم، لا يَستطيعون أن يُنكِروا شيئًا منها؛ فلا يُمكِنُهم أن يَجحَدوا ما عندَهم مِن عقلٍ ومِن اختيارٍ، ولا أن يَنفُوا ما يُشاهِدونَه مِن الآياتِ في المخلوقاتِ، ولا أن يُنكِروا مجيءَ الرُّسُلِ إليهم وما تَلَوْا عليهم مِن آياتٍ، وبهذه الأشياءِ قامت حُجَّةُ الله عليهم، وكان جزاؤُهم على ما اختاروه بَعْدَها لأنفُسِهم؛ فأمَّا ما سبَق مِن عِلمِ اللهِ فهو أمرٌ مُغَيَّبٌ عنهم، غيرُ مؤثِّرٍ فيهم؛ لأنَّ العِلمَ ليس مِن صفاتِ التَّأثيرِ، ولا دافعَ لهم؛ فليس لهم أن يَحتجُّوا به لأنفُسِهم؛ لأنَّهم لم يَعمَلوا لأجْلِه، كيف وهو مُغَيَّبٌ منهم؟! وإنَّما عَمِلوا باختيارِهم الَّذي يَجِدونه بالضَّرورةِ مِن أنفُسِهم[(١)].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ أنَّ مِن بلاغةِ القرآنِ الكريمِ تمثيلَ المعقولِ بالمحسوسِ[(٢)]، على أحدِ القولينِ في التَّفسيرِ.

١٨- قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، إنَّ مانعَ الإيمانِ: إمَّا أنْ يكونَ في النَّفْسِ، وإمَّا أنْ يكونَ خارجًا عنها، ولهمُ المانعانِ جميعًا: أمَّا في النَّفْسِ فالغُلُّ، وأمَّا مِن الخارجِ فالسَّدُّ، فلا يَقَعُ نظَرُهم على أنفُسِهم فيَرَوُا الآياتِ الَّتي في أنفُسِهم -لأنَّ المُقمَحَ لا يَرى نفْسَه-، ولا يقَعُ نظَرُهم على الآفاقِ؛ لأنَّ مَن بيْنَ السَّدَّينِ لا يُبصِرون الآفاقَ، فلا تَتبيَّنُ لهم الآياتُ[(٣)]، على قولٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥١).

١٩- قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨] هذا الطَّبعُ والخَتمُ على القُلوبِ، وكذلك الأغلالُ في الأعناقِ، والسَّدُّ مِن بيْنِ أيديهم ومِن خَلفِهم، وجميعُ تلك الموانعِ المانعةِ مِن الإيمانِ ووُصولِ الخَيرِ إلى القُلوبِ: إنَّما جعَلَها اللهُ عليهم بسَبَبِ مُسارَعتِهم لتكذيبِ الرُّسُلِ، والتَّمادي على الكُفرِ؛ فعاقَبَهم اللهُ على ذلك بطَمسِ البصائرِ، والخَتمِ على القُلوبِ، والطَّبعِ عليها، والغِشاوةِ على الأبصارِ؛ لأنَّ مِن شُؤمِ السَّيِّئاتِ أنَّ اللهَ جلَّ وعلا يُعاقِبُ صاحِبَها عليها: بتماديه على الشَّرِّ، والحَيلولةِ بيْنَه وبيْنَ الخَيرِ؛ جزاه اللهُ بذلك على كُفرِه جَزاءً وِفاقًا[1]، على قولٍ.

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ سؤالٌ: أنَّه إذا كان الإنذارُ وعَدَمُه سواءً؛ فلماذا الإنذارُ؟

الجوابُ مِن جِهتين:

الأُولى: أنَّه تعالى قال: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ وما قال: «سواءٌ عليك»؛ فالإنذارُ بالنِّسبةِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم ليس كعَدَمِ الإنذارِ؛ لأنَّ أحَدَهما مُخرِجٌ له عن العُهدةِ، وسَبَبٌ في زيادةِ سيادتِه عاجِلًا، وسعادتِه آجِلًا، وأمَّا بالنِّسبةِ إليهم فعلى السَّواءِ[2].

الثَّانية: أنَّ فائدةَ الإنذارِ إقامةُ الحُجَّةِ عليهم حتَّى يُعذَّبوا بذنوبِهم، لا بمُجرَّدِ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٦).

عِلمِ الله فيهم[١].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ ﴾ صِحَّةُ نَفيِ الشَّيءِ إذا كان لا يُنتفَعُ به، وإن كان موجودًا؛ فإنَّ إنذارَه لغيرِهم حاصِلٌ، لكِنْ لَمَّا لم يَنتَفِعوا به صار وُجودُه كالعَدَمِ بالنِّسبةِ لهم، أمَّا المُنذِرُ فقد قام بما يجِبُ عليه[٢].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ سؤالٌ: أنَّ الآيةَ ظاهِرُها خُصوصُ الإنذارِ بالمُنتفِعينَ به، ونظيرُها قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على عمومِ الإنذارِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ [مريم: ٩٧]، وقَولِه: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]، وقَولِه: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤]، فكيف الجَمْعُ؟

الجوابُ: أنَّ الإنذارَ في الحقيقةِ عامٌّ، وإنَّما خُصَّ في بعضِ الآياتِ بالمؤمِنينَ؛ لبيانِ أنَّهم هم المنتَفِعونَ به دونَ غَيرِهم، كما قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وبيَّن أنَّ الإنذارَ وعَدَمَه سواءٌ بالنِّسبةِ إلى إيمانِ الأشقياءِ، بقَولِه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[٣] [البقرة: ٦].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ ﴾ أنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أتْبَعَ للقُرآنِ كان أشَدَّ تأثُّرًا به، وبهذا نَعرِفُ القاعِدةَ الَّتي ذَكَرها بعضُ العُلماءِ: «الطَّاعةُ تَجلِبُ الطَّاعةَ، والمعصيةُ تَجلِبُ المعصيةَ»[٤].

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٨).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٩).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ ذُكِرَت الخَشيةُ بعدَ الاتِّباعِ؛ لأنَّها لا تَحصُلُ إلَّا به[١].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ أنَّه لا يَنتَفِعُ مِن إنذارِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا مَنِ اتَّصَفَ بهذَينِ الوصفَينِ[٢].

٢٦- قَولُه تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ ﴾ فيه لطيفةٌ: وهي أنَّ الرَّحمةَ تُورِثُ الاتِّكالَ والرَّجاءَ، فقال: مع أنَّه رحمنٌ ورحيمٌ فالعاقِلُ لا ينبغي أن يَترُكَ الخَشيةَ؛ فإنَّ كُلَّ مَن كانت نِعمتُه بسببِ رحمتِه أكثَرَ، فالخَوفُ منه أتَمُّ؛ مَخافةَ أن يَقطَعَ عنه النِّعَمَ المتواتِرةَ. وتَكملةُ اللَّطيفةِ: هي أنَّ مِن أسماءِ الله اسمَينِ يَختصَّانِ به؛ هما اللهُ والرَّحمنُ، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ ﴾ [الإسراء: ١١٠]، حتى قال بعضُ الأئِمَّةِ: هما عَلَمانِ. إذا عرَفْتَ هذا فاللهُ اسمٌ يُنبِئُ عن الهَيبةِ، والرَّحمنُ يُنبِئُ عن الرَّحمةِ، فقال في موضِعٍ: ﴿يَرۡجُواْ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٢١] [الممتحنة: ٦]، وقال هاهنا: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ ﴾؛ يعني: مع كَونِه ذا هَيبةٍ لا تَقطَعوا عنه رجاءَكم، ومع كَونِه ذا رحمةٍ لا تأمَنوه[٣].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ ﴾ التَّعبيرُ بوَصفِ «الرحمن» دونَ اسمِ الجَلالةِ؛ لِوَجهينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المُشرِكينَ كانوا يُنكِرونَ اسمَ «الرحمن» كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠].

الوَجهُ الثَّاني: الإشارةُ إلى أنَّ رَحمتَه لا تَقْتَضي عدَمَ خَشيتِه؛ فالمؤمِنُ يخشَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٧).

اللهَ مع عِلمِه برَحمتِه؛ فهو يرجو الرَّحمةَ[١]، وكلَّما عَظُمَتْ خشيتُك للهِ عَظُمَت رحمةُ اللهِ بك؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا خافه الإنسانُ وخشِيَه فإنَّه يَرحمُه؛ لأنَّه ما مِن إنسانٍ يخشَى اللهَ حقيقةً إلَّا سيَقومُ بأوامِره، ويَجتَنِبُ نواهيَه، وحينَئذٍ يكونُ مُتَعَرِّضًا للرَّحمةِ[٢].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أنَّ الخشيةَ إنَّما تكونُ خشيةً حقيقيَّةً إذا كانت بالغَيبِ، أمَّا مَن خَشِيَ اللهَ تعالى بالعلانيةِ فقد تكونُ خشيتُه مَدخولةً؛ قد يَكونُ خَشِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ مِن أجْلِ أنَّ الناسَ يَرَوْنَه! لكنْ إذا كان بالغَيبِ كان أَدَلَّ على الإخلاصِ[٣]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ هل تَنطَبِقُ هذه البِشارةُ على كلِّ واحدٍ بعَينِه ممَّنِ اتَّصَفَ بهذَينِ الوصفَينِ: اتِّباعِ الذِّكْرِ، وخشيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالغَيبِ؟

الجوابُ: لا، بل هي على سَبيلِ العمومِ، وكلُّ شَخصٍ اتَّصَفَ بما تَثبُتُ به الجنَّةُ على سبيلِ العُمومِ فإنَّنا لا نَشهَدُ له بعَينِه، ولكن يُرجَى له ذلك؛ لأنَّه في الظَّاهرِ قد انطبَقَ عليه سبَبُ الاستِحقاقِ، لكِنِ الباطِنُ لا نَعلَمُه[٤]، ولا نَدري ما يُختَمُ له به.

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ أنَّ البِشارةَ تكونُ بانتِفاءِ ما يُكْرَهُ، وبحُصولِ ما يُحَبُّ، سواءٌ حَصَل الأمْران معًا، أو حَصَل أحدُهما؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فقولُه: ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ فيه انتفاءُ ما يُكْرَهُ، وقولُه: ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ فيه حُصولُ محبوبٍ[١].

٣١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الله تعالى يُحيي قَلْبَ مَن يَشاءُ مِنَ الكُفَّارِ الَّذين قد ماتت قُلوبُهم بالضَّلالةِ، فيَهديهم بعدَ ذلك إلى الحَقِّ، كما قال تعالى بعدَ ذِكرِ قَسوةِ القُلوبِ: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]، ووَجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر هذا بعدَ أنْ ذَكَر انقِسامَ النَّاسِ إلى: مَن يَخشَى اللهَ بالغَيبِ ويَتَّبِعُ الذِّكْرَ، ومَن لم يَكُنْ كذلكَ؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ قادِرٌ على أنْ يَرُدَّ هؤلاء إلى الحَقِّ[٢].

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يَذكُرُ نفْسَه أحيانًا بصيغةِ العَظَمةِ، ومِثلُه قَولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وأحيانًا يَذكُرُ نَفْسَه بصيغةِ الواحدِ، مِثلُ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾، ووَجهُ ذلك: أنَّه واحدٌ عظيمٌ؛ فباعتبارِ الصِّفةِ يأتي ضميرُ العَظَمةِ، وباعتبارِ الوَحدانيَّةِ يأتي ضميرُ الواحِدِ[٣].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَا قَدَّمُواْ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يَكتُبُ كلَّ شيءٍ -القليلَ والكثيرَ-؛ فإنَّ «ما» اسمٌ موصولٌ، والاسمُ الموصولُ يَشْمَلُ الصَّغيرَ والكبيرَ، ويدُلُّ لذلك قولُه تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٨).

أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، ويدُلُّ عليه أيضًا في آخرِ الآيةِ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[(١)].

٣٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ؛ إذِ الإيمانُ والكفرُ والخَيرُ والشَّرُّ شَيءٌ كلُّه، فإذا كان مُحصًى في كتابِه قبْلَ الفِعلِ، فهل يَجري الفِعلُ إلَّا عليه[(٢)]؟! وذلك على القولِ بأنَّ الإمامَ هو اللَّوحُ المحفوظُ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ القَسَمُ بالقُرآنِ كِنايةٌ عن شَرَفِ قَدْرِه وتَعظيمِه عندَ اللهِ تعالى، وذلك هو المقصودُ مِن الآياتِ الأُوَلِ مِن هذه السُّورةِ، والمقصودُ مِن هذا القسَمِ تأْكيدُ الخبَرِ مع ذلك التَّنويهِ[(٣)].

- وفي تَخصيصِ القُرآنِ بالإقسامِ به أوَّلًا، وبوَصفِه بـ﴿الْحَكِيمِ﴾ ثانيًا: تَنويهٌ بشَأْنِه، وتَنبيهٌ على أنَّه كما يَشهَدُ برِسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن حيثُ نَظْمُه المعجِزُ المُنطوي على بَدائعِ الحِكَمِ، يَشهَدُ بها مِن هذه الحيثيَّةِ أيضًا؛ لِمَا أنَّ الإقسامَ بالشَّيءِ استِشهادٌ به على تَحقُّقِ مَضمونِ الجُملةِ القَسَميَّةِ، وتَقويةٌ لِثُبوتِه؛ فيَكونُ شاهدًا به، ودَليلًا عليه قَطْعًا[(٤)].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ تَأْكيدُ هذا الخبَرِ بالقسَمِ وحَرْفِ التَّأكيدِ، ولامِ الابتِداءِ: باعتبارِ كَونِه مُرادًا به التَّعريضُ بالمشركينَ الَّذين كذَّبوا بالرِّسالةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٨، ١٥٩).

فهو تأْنيسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَعريضٌ بالمشركينَ؛ فالتَّأكيدُ بالنِّسبةِ إليه زِيادةُ تَقريرٍ، وبالنِّسبةِ للمعنى الكِنائيِّ لِرَدِّ إنكارِهم[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ المقصودُ منه الإيقاظُ إلى عَظَمةِ الشَّريعةِ، وبَيانُ أنَّها أقوَمُ الشَّرائعِ وأعدَلُها، كما يُعرِبُ عنه التَّنكيرُ التَّفخيميُّ، والوَصفُ بعدَ إثباتِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُرسَلٌ كغَيرِه مِن الرُّسلِ. و﴿عَلَىٰ﴾ للاستِعلاءِ الَّذي هو بمَعنى التَّمكُّنِ، وليس الغرَضُ مِن الإخبارِ به عن المخاطَبِ إفادةَ كَونِه على صِراطٍ مُستقيمٍ؛ لأنَّ ذلك مَعلومٌ حُصولُه مِن الأخبارِ مِن كَونِه أحَدَ المرسَلينَ، ولكنَّ الغرَضَ الجمْعُ بيْنَ حالِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وبيْنَ حالِ دِينِه؛ لِيَكونَ العِلمُ بأنَّ دِينَه صِراطٌ مُستقيمٌ عِلمًا مُستقلًّا لا ضِمْنيًّا[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾

- قولُه: ﴿تَنزِيلَ﴾ مَصدرٌ بمَعنى المفعولِ؛ وعُبِّر بالتَّنزيلِ عن القُرآنِ بَيانًا لِكَمالِ عَراقتِه في كَونِه مُنزَّلًا مِن عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ كأنَّه نفْسُ التَّنزيلِ، وإظهارًا لِفَخامتِه الإضافيَّةِ بعدَ بَيانِ فَخامتِه الذَّاتيَّةِ بوَصفِه بالحِكمةِ. وقيل: مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لِفِعلِه المُضمَرِ، أي: نُزِّلَ تَنزيلَ العزيزِ الرَّحيمِ، على أنَّه استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ ما ذُكِرَ مِن فَخامةِ شأْنِ القُرآنِ، وعلى كلِّ تَقديرٍ ففيهِ فَضْلُ تأْكيدٍ لِمَضمونِ الجُملةِ القَسَميَّةِ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿تَنزِيلَ﴾ قُرِئَ بالرَّفعِ ﴿تَنْزِيلُ﴾[٤] على أنَّه خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٤) تقدَّمت الإشارةُ إلى هذه القراءةِ (ص: ١١).

للعِلم به، وهذا مِن مَواقع حَذْفِ المُسنَدِ إليه المُسمَّى الحذْفَ الجاريَ على مُتابَعةِ الاستِعمالِ في أمثالِه؛ وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذْفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. وعلى قِراءةِ ﴿ تَنزِيلَ ﴾ بالنَّصبِ على تَقديرِ: أعني -على وجهٍ-؛ فيَكونُ المعنى: أعني مِن قَسَمي قُرآنًا نَزَّلتُه، وتلك العِنايةُ زِيادةٌ في التَّنويهِ بشَأْنِه، وهي تُعادِلُ حَذْفَ المُسنَدِ إليه الَّذي في قِراءةِ الرَّفعِ[1].

- وأُضِيفَ التَّنزيلُ إلى اللهِ بعُنوانِ صِفَتي ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لأنَّ ما اشتمَلَ عليه القرآنُ لا يَعْدو أنْ يكونَ مِن آثارِ عِزَّةِ اللهِ تعالى؛ وهو ما فيه مِن حمْلِ النَّاسِ على الحقِّ، وسُلوكِ طَريقِ الهُدى دونَ مُصانَعةٍ ولا ضَعْفٍ، مع ما فيه مِن الإنذارِ والوعيدِ على العِصيانِ والكُفرانِ، أو أنْ يكونَ مِن آثارِ رَحمتِه؛ وهو ما في القُرآنِ مِن نَصْبِ الأدلَّةِ، وتَقريبِ البعيدِ، وكَشفِ الحقائقِ للنَّاظرينَ، مع ما فيه مِن البِشارةِ للَّذين يَكونونَ عندَ مَرْضاةِ اللهِ تعالى، وذلك هو ما ورَدَ بَيانُه بعدُ إجمالًا مِن قولِه: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس: ٦]، ثمَّ تَفصيلًا بقولِه: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ ﴾ [يس: ٧]، وبقولِه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾[2] [يس: ١١].

- وأيضًا في تَخصيصِ الاسمَينِ الكَريمَينِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ المُعرِبَينِ عن الغَلَبةِ التَّامَّةِ، والرَّأفةِ العامَّةِ: حَثٌّ على الإيمانِ تَرْهيبًا وتَرْغيبًا، وإشعارٌ بأنَّ تَنزيلَه ناشئٌ عن غايةِ الرَّحمةِ، حسبَما نطَقَ به قولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٦، ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٤٧).

إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[١] [الأنبياء: ١٠٧].

٥- قولُه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ اقتُصِرَ على الإنذارِ؛ لأنَّ أوَّلَ ما ابتُدِئَ به القومُ مِن التَّبليغِ إنذارُهم جَميعًا بما تَضمَّنَته أوَّلُ سُورةٍ نَزَلَت مِن قولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] الآيةَ، وما تَضمَّنَته سُورةُ (المُدثِّرِ)؛ لأنَّ القومَ جميعًا كانوا على حالةٍ لا تُرضِي اللهَ تعالى؛ فكان حالُهم يَقْتضي الإنذارَ؛ لِيُسْرِعوا إلى الإقلاعِ عن ذلك[٢].

- وفُرِّعَ على قولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ قولُه: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾، أي: فتَسبَّبَ على عَدَمِ إنذارِ آبائِهم أنَّهم مُتَّصِفون بالغَفلةِ وَصْفًا ثابتًا، والغفلةُ هنا كِنايةٌ عن الإهمالِ والإعراضِ عمَّا يَحِقُّ التَّنبُّهُ إليه. وقيل: مُتعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ﴾، أو بما يُفيدُه ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣]، واردٌ لِتَعليلِ إنذارِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو إرسالِه بغَفْلَتِهم المُحْوِجةِ إليهما، على أنَّ الضَّميرَ للقومِ خاصَّةً، فالمعنى: فهُمْ غافلُون عنه، أي: عمَّا أُنذِرَ آباؤهم الأقدَمونَ؛ لامتِدادِ المُدَّةِ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا تَفصيلٌ لحالِ القومِ الَّذين أُرسِلَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِيُنذِرَهم، فهُمْ قِسْمانِ: قِسْمٌ لم تَنفَعْ فيهم النِّذارةُ، وقِسْمٌ اتَّبَعوا الذِّكْرَ، وخافُوا اللهَ، فانْتَفَعوا بالنِّذارةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧، ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٨).

- وقولُه: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ جَوابُ القَسَمِ المحذوفِ، أيْ: واللهِ لقدْ ثبَتَ وتَحقَّقَ عليهم القولُ الْبَتَّةَ بسَببِ إصرارِهم على الكُفرِ والإنكارِ(١).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لِتَفريعِ انتفاءِ إيمانِ أكثَرِهم على القولِ الَّذي حقَّ على أكثَرِهم، والمَقولُ مَحذوفٌ؛ لِدَلالةِ تَفريعِه عليه، والتَّقديرُ: لقدْ حقَّ القولُ أنَّهم لا يُؤمِنون فهمْ لا يُؤمِنون(٢).

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ تَمثيلًا؛ بأنْ شُبِّهَت حالةُ إعراضِهم عن التَّدبُّرِ في القُرآنِ ودَعوةِ الإسلامِ، والتَّأمُّلِ في حُجَجِه الواضحةِ: بحالِ قَومٍ جُعِلَت في أعناقِهم أغلالٌ غَليظةٌ تَرتفِعُ إلى أذقانِهم، فيَكونونَ كالمُقْمَحينَ، أي: الرَّافِعينَ رُؤوسَهم، الغاضِّينَ أبصارَهم، لا يَلتفِتون يَمينًا ولا شِمالًا، فلا يَنظُرون إلى شَيءٍ ممَّا حَوْلَهم؛ فتَكونَ تمثيليَّةً، وذِكرُ ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾؛ لِتَحقيقِ كَونِ الأغلالِ مَلْزوزةً -أي: واصلةً- إلى عِظامِ الأذقانِ، بحيثُ إذا أراد المغلولُ منهم الالتِفاتَ أو أنْ يُطأطِئَ رأْسَه، وجَعَه ذَقَنُه، فلازَمَ السُّكونَ، وهذه حالةُ تَخييلِ هذه الأغلالِ، وليس كلُّ الأغلالِ مِثلَ هذه الحالةِ. وهذا التَّمثيلُ قابلٌ لِتَوزيعِ أجزاءِ المُركَّبِ التَّمثيليِّ إلى تَشبيهِ كلِّ جُزءٍ مِن الحالَينِ بجُزءٍ مِن الحالةِ الأُخرى؛ بأنْ يُشبَّهَ ما في نُفوسِهم مِن النُّفورِ عن الخَيرِ بالأغلالِ، ويُشَبَّهَ إعراضُهم عن التَّأمُّلِ والإنصافِ بالإقماحِ. ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا ...﴾ إلخ وَعيدًا بما سيَحُلُّ بهم يومَ القِيامةِ حينَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٩).

يُساقُون إلى جَهنَّمَ في الأغلالِ، كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ في سُورةِ (غافرٍ) [٧١، ٧٢]؛ فيَكونَ فِعلُ ﴿جَعَلْنَا﴾ مُستقبَلًا، وعُبِّرَ عنه بصِيغةِ الماضي لِتَحقيقِ وُقوعِه، كقولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، أي: سنَجْعَلُ في أعناقِهم أغلالًا[(١)].

- قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ في تَنكيرِ ﴿أَغْلَٰلًا﴾ مُبالَغةٌ في تَعظيمِها، وتَهويلِ أمْرِها[(٢)].

٨- قولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ هذا إمَّا تَتِمَّةٌ للتَّمثيلِ وتَكميلٌ له أيَّ تكميلٍ، أي: وجَعَلْنا مع ما ذُكِرَ مِن أمامِهم سَدًّا عظيمًا، ومِن ورائِهم سَدًّا كذلك، فغطَّيْنا بها أبصارَهم؛ فهمْ بسَببِ ذلك لا يَقدِرونَ على إبصارِ شَيءٍ ما أصلًا. وإمَّا تَمثيلٌ مُستقِلٌّ؛ فإنَّ ما ذُكِرَ مِن جَعلِهم مَحصورينَ بيْنَ سَدَّينِ هائلَينِ قد غطَّيَا أبصارَهم بحيث لا يُبصِرون شيئًا قطعًا؛ كافٍ في الكَشفِ عن كَمالِ فَظاعةِ حالِهم، وكونِهم مَحبوسينَ في ظُلُماتِ الغَيِّ والجَهالاتِ، مَحرومينَ عن النَّظرِ في الأدلَّةِ والآياتِ[(٣)].

- وإعادةُ فِعلِ ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ -إذا كان معنى قولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ [يس: ٨]، أي: جَعَلنا حالَهم كحالِ مَن في أعناقِهم أغلالٌ، فهي إلى الأذقانِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٨).

فهمْ مُقْمَحون- تأْكيدٌ لهذا الجَعْلِ. وأمَّا إذا كانت وَعيدًا بما سيَحُلُّ بهم يومَ القِيامةِ حينَ يُساقونَ إلى جهنَّمَ في الأغلالِ: فإعادةُ فِعلِ ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ لأنَّه جَعْلٌ حاصلٌ في الدُّنيا، فهو مُغايِرٌ للجَعلِ الحاصلِ يومَ القيامةِ؛ فيكونُ فِعلُ (جَعَلْنا) مُستقبَلًا، وعُبِّرَ عنه بصِيغةِ الماضي لِتَحقيقِ وُقوعِه[١].

- قولُه: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ تَفريعٌ على كِلا الفِعلَينِ: ﴿جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ [يس: ٨] ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾؛ لأنَّ في كِلا الفِعلَينِ مانعًا مِن أحوالِ النَّظرِ، وفي الكلامِ اكتِفاءٌ عن ذِكرِ ما يَتفرَّعُ ثانيًا على تَمثيلِهم بمَن جُعِلوا بيْنَ سَدَّينِ مِن عَدَمِ استطاعةِ التَّحوُّلِ عمَّا همْ عليه[٢].

- قولُه: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الإغشاءُ: وَضْعُ الغِشاءِ، وهو ما يُغطِّي الشَّيءَ، والمرادُ: أغشَيْنا أبصارَهم؛ ففي الكلامِ حَذْفُ مُضافٍ دلَّ عليه السِّياقُ، وأكَّدَه التَّفريعُ بقولِه: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ؛ لإفادةِ تَقَوِّي الحُكمِ، أي: تَحقيقِ عدَمِ إبصارِهم[٣].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بَيانٌ لِشَأنِهم بطَريقِ التَّصريحِ والتَّوبيخِ، إثْرَ بَيانِه بطَريقِ التَّمثيلِ، أي: مُستَوٍ عندَهم إنذارُك إيَّاهم وعدَمُه[٤].

- وقولُه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استِئنافٌ مُؤكِّدٌ لِمَا قبْلَه، مُبيِّنٌ لِمَا فيه مِن إجمالِ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٩).

فيه الاستِواءُ، أو حالٌ مُؤكِّدةٌ له[١].

١٠- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾

- لَمَّا كان الإقبالُ على سَماعِ القُرآنِ مُفْضيًا إلى الإيمانِ بما فيه؛ لأنَّه يُداخِلُ القلْبَ؛ أُتبِعَت صِلةُ ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ بجُملةِ ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ فكان المرادُ مِن اتِّباعِ الذِّكرِ أكمَلَ أنواعِه الَّذي لا يَعقُبُه إعراضٌ، فهو مُؤَدٍّ إلى امتثالِ المتَّبعينَ ما يَدْعوهم إليه، وهؤلاء همُ المؤمنونَ؛ تَنويهًا بشَأْنِهم وبشأنِ الإنذارِ، فهذا قَسيمُ قولِه: ﴿ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾ [يس: ٧]، وهو بَقيَّةُ تَفصيلِ قولِه: ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ [يس: ٦]، والغرَضُ تَقويةُ داعيةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الإنذارِ، والثَّناءُ على الَّذين قَبِلوا نِذارتَه فآمَنوا[٢].

- والتَّعبيرُ بفِعلِ المُضِي (اتَّبَعَ - وَخَشِيَ)؛ للدَّلالةِ على تَحقيقِ الاتِّباعِ والخَشيةِ، والمرادُ: ابتِداءُ الاتِّباعِ[٣].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ دَلَّ لَفْتُ الكلامِ عن مَظهَرِ العَظَمةِ إلى الوَصفِ بالرَّحمانيَّةِ على أنَّ أهلَ الخَشيةِ يَكفيهم في الاتِّعاظِ التَّذكيرُ بالإحسانِ[٤].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن قولِه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ -وهو قَصرُ الإنذارِ على التَّعلُّقِ بمَن اتَّبَع الذِّكرَ وخشِيَ اللهَ- هو بالتَّأويلِ الَّذي تُؤُوِّلَ به

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٩٩).

معنى فِعلِ ﴿تُنذِرُ﴾ -أي: حُصولُ فائدةِ الإنذارِ- يكونُ قَصرًا حقيقيًّا، وإنْ كان فِعلُ ﴿تُنذِرُ﴾ على ظاهرِ استِعمالِ الأفعالِ -وهو الدَّلالةُ على وُقوعِ مَصادرِها- فالقَصرُ ادِّعائيٌّ[1]، بتَنزيلِ إنذارِ الَّذين لم يَتَّبِعوا الذِّكرَ ولم يَخْشَوا مَنزِلةَ عدَمِ الإنذارِ في انتفاءِ فائدتِه، وفي ذلك كِنايةٌ تَعريضيَّةٌ بأنَّ الَّذينَ لم يَنتَفِعوا بالإنذارِ بمَنزلةِ الأمواتِ؛ لِعَدَمِ انتفاعِهم بما يَنفَعُ كلَّ عاقلٍ[2].

- قولُه: ﴿تُنذِرُ﴾ بصيغةِ المضارعِ أفاد تجديدَ الإنذارِ للمتَّبِعينَ[3].

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبْتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصرِ قَلْبٍ؛ **فالحقيقيُّ** هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. **والإضافيُّ**: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثَرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. **والادِّعائيُّ**: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مَبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ، بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. **وقصْرُ القَلبِ**: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ مُعَيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زَيْدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٤).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾؛ لِتَرتيبِ البِشارةِ أو الأمْرِ بها على ما قبْلَها مِن اتِّباعِ الذِّكرِ والخَشيةِ[١].

- والجمْعُ بيْن ﴿تُنذِرُ﴾ و﴿فَبَشِّرْهُ﴾ فيه طِباقٌ[٢]، مع بَيانِ أنَّ أوَّلَ أمْرِهم الإنذارُ، وعاقبتَهُ التَّبشيرُ[٣].

- قَولُه: ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ الأجْرُ: هو الثَّوابُ على الإيمانِ والطَّاعاتِ، ووَصْفُه بالكريمِ؛ لأنَّه الأفضلُ في نَوعِه[٤].

- وذَكَر الأجرَ بعدَ المغفرةِ؛ لأنَّ التَّحليةَ بعدَ التَّخليةِ، والتَّزيُّنَ بعدَ إزالةِ الأدْرانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٣).

(٢) الطِّباق: هو الجمْعُ بيْنَ مُتضادَّينِ مع مُراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ. وهو قِسْمانِ: لَفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]؛ طابَقَ بيْنَ الضَّحكِ والبُكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقون. ومنه: طباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّديَّةُ في الصُّورةِ مُتوهَّمةً، فتبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري)) للآمدي (١/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٢٢٥ - ٢٣٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٣٧٧ - ٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٤).

١١- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

- لَمَّا اقْتَضى القصرُ في قولِه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [يس: ١١] نفْيَ أنْ يَتعلَّقَ الإنذارُ بالَّذين لم يَتَّبِعوا الذِّكرَ ولم يَخْشَوُا الرَّحمنَ، وكان في ذلك كِنايةٌ تَعريضيَّةٌ بأنَّ الَّذين لم يَنتفِعوا بالإنذارِ بمَنزلةِ الأمواتِ؛ لِعَدمِ انتفاعِهم بما يَنفَعُ كلَّ عاقلٍ- استُطْرِدَ عقبَ ذلك بالتَّخلُّصِ إلى إثباتِ البعثِ؛ فإنَّ التَّوفيقَ الَّذي حُفَّ بمَن اتَّبَعَ الذِّكرَ وخشِيَ الرَّحمنَ هو كإحياءِ الميِّتِ؛ لأنَّ حالةَ الشِّركِ حالةُ ضَلالٍ يُشبِهُ الموتَ، والإخراجَ منه كإحياءِ الميِّتِ[1]. وقولُه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ على ذلك استِئنافٌ ابتدائيٌّ لِقَصدِ إنذارِ الَّذين لم يَتَّبِعوا الذِّكرَ، ولم يَخْشَوُا الرَّحمنَ، وهمُ الَّذين اقْتَضاهم جانبُ النَّفيِ في صِيغةِ القصْرِ في قولِه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ إحياءُ الموتَى تَوفيقَ مَن آمَنَ مِن الناسِ إلى الإيمانِ، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] الآيةَ؛ فتكونَ الجُملةُ امتِنانًا على المؤمنينَ بتَيسيرِ الإيمانِ لهم، ومَوقعُ الجُملةِ مَوقعُ التَّعليلِ لِقَولِه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾[2] [يس: ١١].

- وفي قولِه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ التَّأكيدُ بحَرفِ (إنَّ)، وضَميرُ الفصلِ (نحن) للتَّقويةِ، وهو زِيادةُ تأْكيدٍ، والمعنى: نُحْييهم للجزاءِ؛ فلذلك عُطِفَ ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾، أي: نُحْصي لهم أعمالَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٤، ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٥٤).

مِن خَيرٍ وشرٍّ قدَّموها في الدُّنيا لِنُجازِيَهم، وعَطْفُ ذلك إدماجٌ[١] للإنذارِ والتَّهديدِ بأنَّهم مُحاسَبون على أعمالِهم، ومُجازَون عليها[٢].

- والمُرادُ بكِتابةِ ما قدَّموا في قولِه: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾ الكِنايةُ عن الوعدِ بالثَّوابِ على أعمالِهم الصَّالحةِ، والثَّوابِ على آثارِهم، وكِنايةٌ عن الإحصاءِ، وعدَمِ إفلاتِ شَيءٍ مِن أعمالِهم أو إغفالِه، وهذا الاعتبارُ يُناسِبُه الاستِئنافُ الابتِدائيُّ؛ لِيَكونَ الانتقالُ بابتداءِ كلامٍ مُنبِّهًا السَّامعَ إلى ما اعتبَرَه المُتكلِّمُ في مَطاوي كَلامِه[٣].

- وأخَّرَ الكِتابةَ في الذِّكرِ مع أنَّ الكِتابةَ قبْلَ الإحياءِ، فلم يَقُلْ: «نكتُبُ ما قَدَّموا ونُحييهم»؛ وذلك لأنَّ الكتابةَ مُعظِّمةٌ لأمرِ الإحياءِ؛ لأنَّ الإحياءَ إن لم يكُنْ للحِسابِ لا يُعَظَّمُ، والكِتابةُ في نَفْسِها إنْ لم تكُنْ إحياءً وإعادةً لا يبقَى لها أثَرٌ أصلًا؛ فالإحياءُ هو المُعتبَرُ، والكِتابةُ مُؤكِّدةٌ مُعظِّمةٌ لأمرِه؛ فلهذا قدَّم الإحياءَ، ولأنَّه لَمَّا قال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ وذلك يفيدُ العَظَمةَ والجَبَروتَ،

---

(١) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلاَّ أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٥٥).

والإحياءُ عَظيمٌ يختَصُّ باللهِ، والكتابةُ دُونَه؛ فقَرَن بالتَّعريفِ الأمرَ العَظيمَ، وذكَرَ ما يُعظِّمُ ذلك العظيمَ[١].

- والإحصاءُ: حَقيقتُه العدُّ والحسابُ، وهو هنا كِنايةٌ عن الإحاطةِ والضَّبطِ، وعدَمِ تَخلُّفِ شَيءٍ عن الذِّكرِ والتَّعيينِ؛ لأنَّ الإحصاءَ والحسابَ يَستلزِمُ ألَّا يَفوتَ واحدٌ مِن المحسوباتِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٦).

الآيات (١٢-١٩)

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَعَزَّزۡنَا﴾: أي: قَوَّيْنا، وشَدَدْنا، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ[١].

﴿تَطَيَّرۡنَا﴾: أي: تشاءَمْنا، وأصلُه: التَّفاؤُلُ بالطَّيرِ (جمعُ طائرٍ)، ثمَّ يُستعمَلُ في كلِّ ما يُتفاءَلُ به ويُتشاءَمُ، وأصلُ (طير): يدُلُّ على خِفَّةِ الشَّيءِ في الهواءِ[٢].

﴿مُّسۡرِفُونَ﴾: أي: مُفْرِطونَ ومُتجاوِزونَ الحَدَّ، والسَّرَفُ: تجاوُزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يَفعَلُه الإنسانُ، وأصلُه يدُلُّ على تَعدِّي الحدِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨، ٥٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يَقرأَ على النَّاسِ قصَّةَ أصحابِ القريةِ؛ لِيَعتَبِروا ويتَّعِظوا، فيقولُ: واذكُرْ لِقَومِك -يا محمَّدُ- خبَرَ أصحابِ القَريةِ إذ جاءَها رُسُلٌ مِن اللهِ لِدَعوةِ أهلِها؛ إذ أرسَلْنا إليهم رَسولَينِ فكَذَّبوهما، فقَوَّيْناهما برَسولٍ ثالثٍ، فقال الرُّسُلُ الثَّلاثةُ لهم: إنَّا رُسُلُ اللهِ إليكم. فردَّ عليهم أهلُ القريةِ: ما أنتم إلَّا بَشَرٌ مِثلُنا، وما أنزَلَ الرَّحمنُ إليكم مِن شَيءٍ مِمَّا تَدْعونَنا إليه، ما أنتم إلَّا كاذِبونَ!

فقال لهم رُسُلُهم: ربُّنا يَعلَمُ أنَّا مُرسَلونَ إليكم، وما علينا إلَّا أن نُبَلِّغَكم ما أرسَلَنا اللهُ به إليكم. قال أهلُ القريةِ لرُسُلِهم: إنَّا تشاءَمْنا بكم، لئِنْ لم تَكُفُّوا عن دعوتِكم لَنَرجُمَنَّكم بالحِجارةِ، ولَيُصيبَنَّكم مِنَّا عذابٌ أليمٌ! قالت لهم رُسُلُهم: شُؤمُكم الَّذي جَلَب لكم البلاءَ معكم؛ بسَبَبِ ضَلالِكم، أئِنْ دَعَوْناكم للحَقِّ قُلْتُم هذا؟ بل أنتم قومٌ مُجاوِزون للحَدِّ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

في مُناسَبةِ هذه الآيةِ لِما قَبْلَها أوجُهٌ:

الوَجهُ الأوَّلُ: لَمَّا قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس: ٣]، وقال: ﴿لِتُنذِرَ﴾ [يس: ٦]؛ قال: قُلْ لهم: ﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]! بل قَبْلي جاء أصحابَ القَريةِ مُرسَلونَ، وأنذَروهم بما أنذَرْتُكم، وذكَروا التَّوحيدَ، وخَوَّفوا بالقيامةِ، وبَشَّروا بنَعيمِ دارِ الإقامةِ، وذلك على أنَّ المعنى:

واضرِبْ لأجْلِهم مَثَلًا.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه لَمَّا قال الله تعالى: إنَّ الإنذارَ لا يَنفَعُ مَن أضَلَّه اللهُ وكَتَب عليه أنَّه لا يُؤمِنُ؛ قال للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: فلا تَأْسَ، واضرِبْ لِنَفْسِك ولِقَومِك مَثَلًا، أي: مَثِّلْ لهم عندَ نَفْسِك مَثَلًا؛ حيث جاءهم ثلاثةُ رُسُلٍ ولم يُؤمِنوا، وصبَرَ الرُّسُلُ على القَتلِ والإيذاءِ، وأنت جِئتَهم واحِدًا، وقَومُك أكثَرُ مِن قَومِ الثَّلاثةِ؛ فإنَّهم جاؤوا قريةً وأنت بُعِثْتَ إلى العالَمِ، وذلك على أنَّ المعنى: واضرِبْ لأجْلِ نَفْسِك أصحابَ القَريةِ لهم مَثَلًا، أي: مَثِّلْهم عند نَفْسِك بأصحابِ القَريةِ[(١)].

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّه أعقَبَ وَصْفَ إعراضِهم وغَفْلَتِهم عن الانتِفاعِ بهَدْيِ القُرآنِ، بتَهديدِهم بعَذابِ الدُّنيا؛ إذ قد جاء في آخِرِ هذه القصَّةِ قولُه تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾[(٢)] [يس: ٢٩].

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾.

أي: واذكُرْ لِقَومِك -يا محمَّدُ- خبَرَ أصحابِ القَريةِ الَّتي جاءها رُسُلٌ مِن اللهِ لِدَعوةِ أهلِها إلى الحَقِّ؛ فلْيَعتبِروا ويَتَّعِظوا بقِصَّتِهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٧، ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ٤٨٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٢٤٥ - ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٨).

وقد نقل الماوَرْديُّ إجماعَ المفَسِّرينَ على أنَّ هذه القَريةَ هي أنْطاكِيَةُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٠).

قال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذكَرَ عن كثيرٍ مِن السَّلَفِ أنَّ هذه القريةَ هي أنطاكيةُ، وأنَّ هذا القولَ لم =

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: حينَ أرسَلْنا إلى أصحابِ القَريةِ رَسولَينِ فكَذَّبوهما، فقوَّيْناهما برَسولٍ ثالثٍ، فقال ثلاثتُهم: إنَّا رُسُلُ اللهِ إليكم[1].

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

= يُذكَرْ عن واحدٍ مِن مُتأخِّري المفَسِّرين غَيرُه، قال: (وفي ذلك نظرٌ مِن وُجوهٍ). وذكَرَ ثلاثةَ وُجوهٍ، ثمَّ قال: (فعلى هذا يَتعَيَّنُ أنَّ هذه القريةَ المذكورةَ في القُرآنِ العَظيم قَريةٌ أُخرى غيرُ أنطاكيَةَ، كما أطلَقَ ذلك غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ أيضًا، أو تكونُ أنطاكيَّةُ إن كان لَفْظُها مَحفوظًا في هذه القِصَّةِ مَدينةً أخرى غيرَ هذه المشهورةِ المعروفةِ؛ فإنَّ هذه لم يُعرَفْ أنَّها أُهلِكَت؛ لا في المِلَّةِ النَّصرانيَّةِ، ولا قبْلَ ذلك، واللهُ سُبحانه وتعالى أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٣).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٠٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (الأمرُ المنقولُ عندَ النَّصارى أنَّ هؤلاء المذكورينَ في القُرآنِ لَيسوا مِن الحواريِّينَ، وهذا أصَحُّ القولَينِ عندَ عُلَماءِ المُسلِمينَ وأئمَّةِ المفَسِّرينَ، وذكَروا أنَّ المذكورينَ في القُرآنِ في سورةِ يس ليسوا مِن الحواريِّينَ، بل كانوا قبْلَ المَسيحِ، وسَمَّوْهم بأسماءِ غيرِ الحواريِّينَ... وهذا القَولُ هو الصَّوابُ، وأنَّ هؤلاء المُرسَلينَ كانوا رُسُلًا لله قبْلَ المسيحِ، وأنَّهم كانوا قد أُرسِلوا إلى أنطاكيةَ... ولم يؤمِنْ أهلُ المدينةِ بالرُّسُلِ، بل أهلَكَهم اللهُ تعالى كما أخبَرَ في القرآنِ، ثمَّ بعدَ هذا عَمَرت أنطاكيةُ وكان أهلُها مُشرِكينَ حتَّى جاءهم مَن جاءَهم مِن الحواريِّينَ، فآمَنوا بالمسيحِ على أيديهم ودخَلوا دينَ المسيحِ. ويُقالُ: إنَّ أنطاكيةَ أوَّلُ المدائنِ الكبارِ الَّذين آمَنوا بالمسيحِ عليه السَّلامُ، وذلك بعدَ رَفْعِه إلى السَّماءِ، ولكِنْ ظَنَّ مَن ظَنَّ مِن المفَسِّرينَ أنَّ المذكورينَ في القُرآنِ هم رُسُلُ المسيحِ وهم مِن الحواريِّينَ، وهذا غلَطٌ). ((الجواب الصحيح)) (٢/ ٢٤٥-٢٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٤، ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤).

قال الواحدي: (قال أبو إسحاقَ [الزَّجَّاج]: «فقَوَّيْنا وشَدَدْنا الرِّسالةَ برَسولٍ ثالثٍ». وهو قَولُ جميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٤٦٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٨٢).

أي: قال أصحابُ القَريةِ لهم: ما أنتم إلَّا أُناسٌ مِثلُنا، فكيف أُوحِيَ إليكم[١]؟!

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾.

أي: وما أنزَل الرَّحمنُ إليكم أيَّ شَيءٍ مِمَّا تَدَّعونَ[٢]!

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾.

أي: ما أنتم إلَّا تَكذِبونَ في دَعْواكم أنَّكم رُسُلٌ مِنَ اللهِ إلينا[٣].

﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾.

أي: قالت رُسُلُهم لهم: اللهُ ربُّنا يَعلَمُ أنَّا رُسُلُه إليكم، وأنَّنا صادِقونَ[٤].

﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾.

أي: وما يجِبُ علينا إلَّا أن نُبَلِّغَكم ما أرسَلَنا اللهُ به إليكم بلاغًا مُبينًا للحَقِّ، فإنْ لم تَقْبَلوا دَعوتَنا فقد أدَّيْنا ما علينا، وليس لنا مِن الأمرِ شَيءٌ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٥، ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤).

قال الزمخشري: (قولُه: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾ جارٍ مَجرى القَسَم في التوكيدِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٠).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾.

أي: قال أصحابُ القَريةِ لِرُسُلِهم: إنَّا تشاءَمْنا بكم[1]!

﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أي: لئِنْ لم تَترُكوا دَعْواكم لَنَرْجُمَنَّكم[2]، .....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٢، ٣٦٣).

اختُلِفَ في سَبَبِ تطيُّرِهم؛ فقيل: تطيَّروا بهم بسببِ عُقوباتٍ حَلَّت بهم، أو بلاءٍ نزَل بهم؛ فقيل: احتَبَس المطَرُ عنهم. وقيل: لأنَّهم جاؤوهم بدِينٍ غيرِ دينِهم. وقيل: قد يكونُ تَطيُّرُهم مُجرَّدَ دعوى لا أصلَ لها. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٤، ٦٥).

قال ابنُ عطيَّة: (والأظهَرُ: أنَّ تَطَيُّرَ هؤلاء إنَّما كان بسبَبِ ما دخَلَ قَريتَهم مِن اختلافِ الكَلِمةِ، وافتِتانِ النَّاسِ، وهذا على نحوِ تطيُّرِ قُرَيشٍ بمُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وعلى نحوِ ما خُوطِبَ به موسى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٩).

(٢) قال الماوَرْديُّ: (﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: لَنَرجُمنَّكم بالحِجارةِ. قاله قَتادةُ. الثَّاني: لَنقتُلَنَّكم. قاله السُّدِّيُّ. الثَّالثُ: لَنَشتُمَنَّكم ونُؤذيكم. قاله النَّقَّاشُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢).

وقال الألوسي: (﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ بالحِجارةِ، قاله قَتادةُ، وذُكِرَ فيه احتِمالان: احتِمالُ أن يكونَ الرَّجمُ للقَتلِ، أي: لَنَقْتُلَنَّكم بالرَّجمِ بالحِجارةِ، واحتِمالُ أن يكونَ للأذى، أي: لَنُؤذِيَنَّكم بذلك). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٩٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: القتلُ رجمًا بالحجارةِ: الواحديُّ، والسمعاني، والعُلَيمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٥). =

ولَيُصيبَنَّكم مِنَّا عذابٌ مُوجِعٌ[(١)].

﴿ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾.

أي: قالت رُسُلُهم لهم: شُؤمُكم الَّذي جَلَب لكم البلاءَ إنَّما هو معكم؛ بسبَبِ ضَلالِكم، وليس بسَبَبِنا كما زعمتُم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ

= وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ أي: لَنَقْتُلَنَّكم. وممَّن اختار هذا القولَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والسمرقنديُّ، والبغوي، وابنُ الجوزي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٦)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦).

بل ذهَب الفرَّاءُ إلى أنَّ عامَّةَ ما في القرآنِ مِن الرَّجمِ المرادُ به: القتلُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٤).

قال ابنُ قُتَيْبَةَ: (الرَّجمُ: أصلُه الرَّميُ، ... ثمَّ يُستعارُ فيُوضَعُ مَوضِعَ القَتلِ؛ لأنَّهم كانوا يَقتُلونَ بالرَّجمِ. ورُوِيَ أنَّ ابنَ آدَمَ قَتَل أخاه رجمًا بالحجارةِ، وقُتِلَ رَجمًا بالحجارةِ، فلمَّا كان أوَّلُ القتلِ كذلك سُمِّيَ رَجْمًا وإن لم يكُنْ بالحِجارةِ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ أي: لَنَقْتُلَنَّكم). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦، ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩، ٥٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤).

قال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ هل هذا على سَبيلِ التَّنويعِ أو على سَبيلِ الجَمعِ؟ يعني: أنَّهم يَرجُمونَهم ويُعَذِّبونَهم قبْلَ الرَّجمِ، أو أنَّه على سبيلِ التَّنويعِ وأنَّ «الواوَ» بمعنى «أو»، أي: نَرجُمَنَّكم حتَّى تموتوا أو لَيَمَسَّنَّكم مِنَّا عذابٌ أليمٌ دون الرَّجمِ؟ الآيةُ تَحتَمِلُ المعنيَينِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٤).

يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ۞ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٨، ٧٩].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

﴿أَئِن ذُكِّرۡتُم﴾.

أي: أئِنْ وعَظْناكم وأمَرْناكم باتِّباعِ الحَقِّ تُقابِلونَنا بهذا الرَّدِّ[١]؟!

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما تقولون، بل أنتم قومٌ عادتُكم مُجاوَزةُ الحُدودِ، والطُّغيانُ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- إنَّ العِبرةَ تكونُ بما في القِصَّةِ مِن ضَربِ الأمثالِ؛ فليس مِن الضَّروريِّ أنْ يُعَيَّنَ المَثَلُ المضروبُ؛ فهنا قال: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ ولم يُعَيِّنِ القَريةَ، ولم يُعَيِّنْ أولئك الأصحابَ بأعيانِهم؛ لأنَّه ليس هذا محَلَّ عِبرةٍ،

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٤).

قال الألوسي: (وهو إضرابٌ انتِقاليٌّ عن الإنكارِ المذكورِ إلى الإخبارِ بما أدَّى إلى ذلك، وهو اعتيادُ الإسرافِ في كُلِّ شَيءٍ، أو إلى بيانِ استِجماعِهم للعُيوبِ كُلِّها، ويَحتمِلُ أن يكونَ إضرابًا عن غيرِ مَذكورٍ، وهو ما تَوهَّموه مِنَ العُذرِ في ذلك، أي: لا عُذرَ لكم فيه، بل أنتم قومٌ عادتُكم الإسرافُ والخروجُ عن الحُدودِ). ((تفسير الألوسي)) (٤/ ٤٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٨).

بلِ العِبرةُ في القِصَّةِ كلِّها[١]؛ فتَعيينُ تلك القريةِ لو كان فيه فائدةٌ لَعَيَّنَها اللهُ تعالى؛ فالتَّعرُّضُ لذلك -وما أشْبَهَه- مِن بابِ التَّكَلُّفِ والتَّكَلُّمِ بلا عِلمٍ؛ ولهذا إذا تكَلَّمَ أحدٌ في مِثلِ هذا تجِدُ عِندَه مِن الخَبطِ والخَلطِ والاختِلافِ الَّذي لا يَستقِرُّ له قرارٌ: ما تَعرِفُ به أنَّ طَريقَ العِلمِ الصَّحيحِ الوقوفُ مع الحقائِقِ، وتَرْكُ التَّعَرُّضِ لِما لا فائِدةَ فيه، وبذلك تَزْكو النَّفسُ، ويَزيدُ العِلمُ، مِن حيثُ يَظُنُّ الجاهِلُ أنَّ زيادةَ العِلمِ هي بذِكرِ الأقوالِ الَّتي لا دَليلَ عليها، ولا حُجَّةَ عليها، ولا يَحصُلُ منها مِنَ الفائدةِ إلَّا تشويشُ الذِّهنِ، واعتيادُ الأُمورِ المشكوكِ فيها[٢]!

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ فيه أنَّ التَّطيُّرَ كان مِن شأنِ المُكَذِّبينَ للرُّسُلِ[٣]، فالتَّطيُّرُ والتَّشاؤُمُ مِن صِفاتِ الكُفَّارِ، وعلى المُسلِمينَ اجتِنابُه، وأن يَتوكَّلوا على اللهِ، وأن يَعلَموا أنَّ الأمورَ بيَدِ اللهِ، وأنَّ الشُّؤمَ الحقيقيَّ الَّذي يَستجلِبُ كُلَّ الضَّرَرِ هو مُخالَفةُ رَبِّ العالَمينَ جلَّ وعلا، أمَّا كُلُّ فِعلٍ لم يُخالَفْ به اللهُ فهذا لا ضرَرَ فيه ولا طِيَرةَ؛ لأنَّ الله ما أباحه إلَّا لأنَّه لا ضَرَرَ فيه. وعلى المُسلِمِ أن يَتحَرَّزَ مِن هذا كُلِّه، ولا يَتشاءَمَ بشَيءٍ، وأن يَبنيَ الأمورَ على التَّوكُّلِ على اللهِ، ومُراعاةِ أوامِرِه ونواهيه[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ جوازُ تَعَدُّدِ الرُّسُلِ مع اتِّحادِ المُرْسَلِ إليه؛ لأنَّ اللهَ أرسَلَ لهذه القريةِ اثنَينِ ثمَّ عزَّزَهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٩).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٨).

بثالثٍ[١].

٢- إنَّ الَّذين يُكَذِّبون الرُّسلَ ليس عندَهم إلَّا المكابرةُ، وليس عندَهم حُجَّةٌ عقليَّةٌ أو نقليَّةٌ؛ لقولِهم: ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾، فهذه الجُمَلُ الثَّلاثُ ليس فيها أيُّ حُجَّةٍ تُسَوِّغُ تكذيبَ هؤلاء الرُّسُلِ؛ فالأُولى: أنَّهم رَدُّوهم لأنَّهم بشَرٌ مثلُهم! والرَّدُّ عليها: أنَّه لا يمكِنُ أنْ يُرْسَلَ للبشَرِ إلَّا بشَرٌ مِثلُهم، حتَّى لو أُنزِلَ إليهم ملائكةٌ؛ فإنَّ الملائكةَ لا بُدَّ أنْ يَكونوا على صورةِ البشَرِ، وحينَئذٍ تعودُ الشُّبهةُ. الثَّانيةُ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ ﴾، فهذا نفيٌ مُجَرَّدٌ بدون ذِكرِ حُجَّةٍ! وليس هذا بدليلٍ للخصمِ إطلاقًا؛ لأنَّ نفْيَ قولِ الخصمِ بدونِ حُجَّةٍ ما هو إلَّا مكابرةٌ. والثَّالثةُ كذلك في قولِهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ وَعْظٌ مِن المرسَلينَ وَعَظوا به القومَ؛ لِيَعْلَموا أنَّهم لا مَنفعةَ تَنجَرُّ لهم مِن إيمانِ القومِ، وإعلانٌ لهم بالتَّبرُّؤِ مِن عُهدةِ بَقاءِ القومِ على الشِّركِ؛ وذلك مِن شأْنِه أنْ يُثيرَ النَّظرَ الفِكريَّ في نُفوسِ القومِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أنَّه يَلزَمُ الرُّسُلَ أن يكونَ بلاغُهم مُبينًا مُظهِرًا للأمرِ على حقيقتِه، ويَتفرَّعُ على ذلك أنَّه لا إبهامَ في الشَّرائعِ، وأنَّ الشَّرائعَ كلَّها واضِحةٌ؛ فإنْ جاء إبهامٌ في نَصٍّ فهو مُبَيَّنٌ مُوضَّحٌ في نَصٍّ آخَرَ، وإن بَقِيَ الإبهامُ قائمًا فالعِلَّةُ في فَهمِ المُخاطَبِ؛ إمَّا لقُصورِه، أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٢).

لتَقصيرِه، أمَّا ما جاءتْ به الرُّسلُ فإنَّه يحصُلُ به البلاغُ المُبينُ المُظهِرُ لكُلِّ ما تحتاجُ إليه الرِّسالةُ؛ لِقَولِه: ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ أنَّ الذُّنوبَ والتَّكذيبَ للرُّسُلِ يكونُ سَببًا للمَحْقِ والبَلاءِ، وهذه هي سُنَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في جميعِ المكذِّبينَ للرُّسُلِ: أنَّ اللهَ يَبتليهم بالعُقوباتِ؛ لعلَّهم يَرجِعونَ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُم﴾ جوازُ حَذْفِ ما عُلِمَ بالسِّياقِ؛ ولا يُعَدُّ هذا نقصًا في الكلامِ وبلاغتِه! فهنا جوابُ الشَّرطِ محذوفٌ لدَلالتِه عليه، ورُبَّما يكونُ الحذفُ أبلَغَ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لأمْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَضرِبَ لِقَومِه مَثلًا بأصحابِ القَريةِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ﴾ نُسِبَ الإرسالُ إليه تعالى بِناءً على أنَّه كان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧١).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٨٢).

بأمْرِه تعالى؛ لِتكميلِ التَّمثيلِ، وتَتميمِ التَّسليةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ إيجازٌ بالحَذفِ؛ فقد حُذِفَ مَفعولُ (عَزَّزْنَا)، والتَّقديرُ: فعَزَّزْناهما بثالثٍ، وإنَّما جُنِحَ إلى هذا الحذْفِ؛ لانصبابِ الغرَضِ على المُعزَّزِ به الثَّالثِ، وإذا كان الغرَضُ هو المرادَ، وكان الكلامُ مُنصَبًّا عليه؛ كان ما سِواه مَطروحًا[٢]. وقيل: حُذِف المفعولُ -حيث لم يَقُلْ: «فعزَّزْناهما»-؛ لمعنًى لطيفٍ، وهو أنَّ المقصودَ مِن بَعثِهما نُصرةُ الحَقِّ لا نُصرتُهما، والكُلُّ مُقَوُّونَ للدِّينِ المتينِ بالبُرهانِ المُبينِ[٣].

- وأكَّدوا قولَهم: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾؛ لأجْلِ تَكذيبِهم إيَّاهم، فأكَّدوا الخبَرَ تأْكيدًا وَسَطًا، ويُسمَّى هذا ضَرْبًا طَلبيًّا[٤]. وتَقديمُ المجرورِ ﴿إِلَيۡكُم﴾؛ للاهتمامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٠).

(٤) تختلِفُ صوَرُ الخبرِ في أساليبِ اللُّغةِ باختلافِ أحوالِ المُخاطَبِ، ولا يخلو المخاطَبُ مِن أن يكونَ واحدًا مِن ثلاثةٍ:

١- خالي الذِّهنِ مِن الحُكمِ، ومِن التَّرَدُّدِ فيه؛ فهذا يُلْقى إليه الكلامُ ساذَجًا غُفلًا مِن أدواتِ التَّوكيدِ. ويُسمَّى هذا الضَّربُ: (ابتدائيًّا)؛ نحو: محمَّدٌ سافرَ.

٢- المُتَرَدِّدُ في ثبوتِ الحكمِ وعدَمِه، بألَّا يَترجَّحَ عندَه هذا على ذلك، وحينَئذٍ يَحسُنُ تقويةُ الحُكمِ بمؤكِّدٍ؛ لِيُزيلَ ذلك التَّرَدُّدَ. ويُسمَّى هذا الضَّربُ: (طلبيًّا).

٣- المُنكِرُ للحُكمِ، وهذا يجبُ أن يؤكَّدَ له الكلامُ بقدرِ إنكارِه قوَّةً وضَعفًا؛ ذاك أنَّ المتكلِّمَ أحْوَجُ ما يكونُ إلى الزِّيادةِ في تثبيتِ خبرِه إذا كان هناك مَن يُنكِرُه ويَدفَعُ صِحَّتَه، فهو حينَئذٍ يُبالغُ في تأكيدِه حتَّى يزيلَ إنكارَه. ويُسمَّى هذا الضَّربُ: (إنكاريًّا). يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٥٧، ٥٨)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٤٩، ٥٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة الميداني (١/ ١٧٨- ١٨٢).

بأمْرِ المُرسَلِ إليهم[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى لمُوسى عليه السَّلامُ في سُورةِ (القصصِ): ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ [القصص: ٣٥]، فذكَرَ المفعولَ، ولم يَذكُرْه هاهنا في قولِه: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾، مع أنَّ المقصودَ هناك أيضًا نُصرةُ الحقِّ؛ ووَجْهُه: أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ كان أفضَلَ مِن هارونَ، وهارونُ بُعِثَ معه بطَلَبِه حيثُ قال: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ [القصص: ٣٤]؛ فكان هارونُ مَبعوثًا لِيُصَدِّقَ مُوسى فيما يقولُ، ويَقومَ بما يأمُرُه، وأمَّا هما فكُلُّ واحدٍ مُستقِلٌّ ناطقٌ بالحقِّ، فكان المقصودُ في سُورةِ (القصصِ) تَقويةَ مُوسى وإرسالَ مَن يُؤنِسُ معه -وهو هارونُ-، وأمَّا هاهنا فالمقصودُ تَقويةُ الحقِّ؛ فظهَرَ الفرْقُ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾

- اختيارُ وصْفِ الرَّحمنِ في حِكايةِ قَولِ الكفَرةِ: ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ قيل: فيه إشارةٌ إلى الرَّدِّ عليهم؛ لأنَّ اللهَ لَمَّا كان رَحمنَ الدُّنيا، والإرسالُ رَحمةٌ؛ فكيف لا يُنزِلُ رَحمتَه وهو رَحمنٌ[٣]؟!

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ قَسَمٌ؛ لأنَّه استِشهادٌ باللهِ على صِدقِ مَقالتِهم، واضطَرَّهم إلى شِدَّةِ التَّوكيدِ بالقَسَمِ ما رأَوا مِن تَصميمِ كَثيرٍ مِن أهلِ القريةِ على تَكذيبِهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٦١).

ويُسمَّى هذا المقدارُ مِن التَّأكيدِ ضَرْبًا إنكاريًّا[١].

- وفي هذه الآياتِ يَبْدو التَّأكيدُ بأروَعِ صُوَرِه للخبَرِ؛ فقد قال أوَّلًا: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فأورَدَ الكلامَ ابتدائيَّ الخبَرِ، ثمَّ قال: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فأكَّده بمُؤكِّدين، وهو (إنَّ) واسميَّةُ الجُملةِ، فأورَدَ الكلامَ طَلبيًّا، ثمَّ قال: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، فترقَّى في التَّأكيدِ بثَلاثةٍ، وهي (إنَّ)، واللَّامُ، واسميَّةُ الجُملةِ، فأورَدَ الكلامَ إنكاريَّ الخبَرِ جوابًا عن إنكارِهم. وقيل: إنَّ في قولِه: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ تأْكيدًا رابعًا، وهو إجراءُ الكلامِ مُجرى القسَمِ في التَّأكيدِ به، وفي أنَّه يُجابُ بما يُجابُ به القسَمُ. وفي هذه الآيةِ ائتلافُ الفاصِلةِ مع ما يدُلُّ عليه سائرُ الكلامِ؛ فإنَّ ذِكرَ الرِّسالةِ مَهَّدَ لِذِكْرِ البلاغِ والبَيانِ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- لَمَّا كانوا -لِمَا يَرَون على الرُّسلِ مِن الآياتِ وظاهرِ الكراماتِ ممَّا يَشهَدُ ببَركتِهم، ويُمْنِ نُفوسهم وأفعالِهم- إذا ذَمُّوهم تَوقَّعوا تَكذيبَ النَّاسِ لهم؛ أكَّدوا قولَهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾[٣].

- وقولُهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ ...﴾ استأنفوه استِئنافَ النَّتائجِ على سَبيلِ التَّأكيدِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦١، ٣٦٢). وسبق تعريفُ الإخبارِ الإنكاريِّ قبْلُ.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٧).

إعلامًا بأنَّ ما أخبَروا به لا فَتْرةَ لهم عنه[١].

- ولَمَّا كان الإنسانُ قد يَفعَلُ ما لا يُوجدُ أثرُه، فقالوا مُعبِّرينَ بالمَسِّ دونَ الإمساسِ: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا﴾، أي: عاجلًا، لا مِن غيرِنا، كما تقولونَ أنتم في تَهديدِكم إيَّانا بما يَحُلُّ بنا ممَّن أرسَلَكم عذابٌ أليمٌ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ حُكِيَ قَولُ الرُّسلِ بما يُرادِفُه ويُؤدِّي معناهُ بأُسلوبٍ عَرَبيٍّ؛ تَعريضًا بأهْلِ الشِّركِ مِن قُرَيشٍ الَّذين ضُرِبَت القَريةُ مَثَلًا لهم؛ فالرُّسلُ لم يَذْكُروا مادَّةَ الطِّيَرةِ والطَّيرِ، وإنَّما أَتَوا بما يدُلُّ على أنَّ شُؤمَ القومِ مُتَّصلٌ بذَواتِهم، لا جاء مِن المرسَلينَ إليهم؛ فحُكِيَ بما يُوافِقُه في كَلامِ العربِ؛ تَعريضًا بمُشْركي مكَّةَ، وهذا بمَنزلةِ التَّجريدِ[٣] لِضَرْبِ المثَلِ لهم؛ بأنْ لُوحِظَ في حِكايةِ القصَّةِ ما هو مِن شُؤونِ المُشبَّهينَ بأصحابِ القصَّةِ[٤].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ داخلٌ على (إنِ) الشَّرطيَّةِ؛ فهو استِفهامٌ على مَحذوفٍ دلَّ عليه الكلامُ السَّابقُ، وقُيِّدَ ذلك المحذوفُ بالشَّرطِ الَّذي حُذِفَ جوابُه أيضًا؛ استِغناءً عنه بالاستفهامِ عنه،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) التَّجريد: أن يُنتزَعَ مِن أمرٍ ذي صِفةٍ أمرٌ آخَرُ مِثلُه في تلك الصِّفةِ، حتَّى تَصيرَ الذاتُ الواحدةُ ذاتَينِ؛ مُبالَغةً لكمالِ الوصفِ في تلكَ الذَّاتِ. كقَولِهم: لي مِنكَ صديقٌ حميمٌ، و: لَئِنْ سألْتَ فُلانًا، لَتَسْأَلَنَّ به بحرًا. يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٩)، ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٣، ٣٦٤).

والتَّقديرُ: أتتَشاءمُون بالتَّذكيرِ إنْ ذُكِّرْتُم[١]؟!

- قولُه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قيل: هو إضرابٌ عمَّا تَقْتضيه الشَّرطيَّةُ -﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾- مِن كَونِ التَّذكيرِ سَببًا للشُّؤمِ، أو مُصحِّحًا للتَّوعُّدِ، أي: ليس الأمرُ كذلك، بل أنتُم قَومٌ عادتُكم الإسرافُ في العِصيانِ؛ فلذلك أتاكُم الشُّؤمُ، أو في الظُّلْمِ والعُدوانِ؛ ولذلك تَوعَّدتُم وتَشاءَمْتُم بمَن يجِبُ إكرامُه والتَّبركُ به[٢].

- وفي ذِكرِ كَلمةِ ﴿قَوْمٌ﴾ إيذانٌ بأنَّ الإسرافَ مُتمكِّنٌ منهم، وبه قِوامُ قَوميَّتِهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٤، ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٥).

الآيات (٢٠-٢٧)

﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَقۡصَا﴾: أي: آخِرِ، وأصلُ (قصي): يدُلُّ على البُعدِ[1].

﴿فَطَرَنِي﴾: أي: خَلَقَني، وأصلُ الفَطرِ: الشَّقُّ، فكُلُّ مَن أظهَرَ أمرًا اختَرَعه على غيرِ مِثالٍ يُقالُ: قد فطَرَه، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتْحِ شَيءٍ وإبرازِه[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وجاء رجُلٌ مُؤمِنٌ مِن أبعَدِ مَوضِعٍ في المدينةِ مُسرِعًا إلى القَومِ الَّذين كذَّبوا الرُّسُلَ الثَّلاثةَ، قال: يا قَومِ اتَّبِعوا هؤلاء الرُّسُلَ؛ اتَّبِعوا مَن لا يَسألُكم أجرًا على البلاغِ، وهم على الحَقِّ مُهتَدونَ.

ثمَّ بيَّن الأسبابَ الَّتي حمَلَتْه على الإيمانِ، فقال: وما لي ألَّا أعبُدَ اللهَ الَّذي خلَقَني مِن العدَمِ، والَّذي إليه وَحْدَه تُرجَعونَ؟! أأتَّخِذُ مِن دونِ اللهِ آلِهةً لا تَدفَعُ عنِّي ضُرًّا إن أراده بي الرَّحمنُ، ولا يُخلِّصونَني مِن هذا الضُّرِّ؟! إنِّي إن فعَلْتُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٢).

ذلك لَفي ضلالٍ مُبينٍ.

ثمَّ أعلَن إيمانَه بكلِّ صراحةٍ وقوَّةٍ، فقال: إنِّي آمَنتُ برَبِّكم فاسمَعوا قَولي.

قيل لهذا الرَّجُلِ المؤمِنِ حينَ قتَلَه قومُه: ادخُلِ الجنَّةَ. قال: يا لَيْتَ قَومي يَعلَمونَ بمَغفِرةِ رَبِّي لي، وجَعْلِه لي مِن المُكرَمينَ بدُخولِ جنَّتِه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ﴾.

﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾.

أي: وجاء رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِن طَرَفِ المدينةِ؛ مِن أبعَدِ مَوضِعٍ فيها، مُسرِعًا إلى القَومِ الَّذين كَذَّبوا الرُّسُلَ الثَّلاثةَ(١).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾.

أي: قال: يا قَومِ اتَّبِعوا هؤلاءِ الرُّسُلَ الَّذين أرسَلَهم اللهُ إليكم(٢).

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ ﴾.

أي: اتَّبِعوا مَن لا يَسألُكم على تبليغِ رِسالةِ اللهِ أيَّ أجرٍ دُنيويٍّ، وهم مُتَّصِفونَ بأنَّهم ثابِتونَ ومُستَقيمونَ على الحَقِّ الَّذي يَدْعونَكم إليه؛ فاتَّبِعوهم تهتَدوا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧١، ٧٢).

قال ابن جرير: (ذلك أنَّ أهلَ مَدينتِه هذه عزَموا واجتمَعَت آراؤُهم على قَتلِ هؤلاء الرُّسُلِ الثَّلاثةِ، فيما ذُكِرَ، فبلَغ ذلك هذا الرَّجُلَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢١، ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠)، ((نظم =

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾.

أي: وما الَّذي يَمنَعُني مِن عبادةِ اللهِ الَّذي خلَقَني مِن العَدَمِ، والَّذي إليه وَحْدَه تُرجَعونَ، فيُجازيكم على أعمالِكم[1]؟!

كما قال تعالى حكايةً عن قَولِ هودٍ عليه السَّلامُ لِقَومِه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [هود: ٥١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى حِكايةً عن قَولِ سَحَرةِ فِرعَونَ: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [طه: ٧٢].

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: أأتَّخِذُ مِن دونِ اللهِ مَعبودًا سِواه؟! كلَّا؛ فإنَّ الرَّحمنَ إنْ أراد إصابَتي بضُرٍّ، فلا تمنَعُ هذه الآلِهةُ عنِّي أيَّ ضَرَرٍ[2].

= الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٧).

قال ابن عثيمين: (قَولُه: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ يحتمِلُ أن تكونَ الواوُ للاستئنافِ، وهو الأقرَبُ؛ لبيانِ حالِ هؤلاء الدُّعاةِ أنَّهم على هدًى، ويحتمِلُ أن تكونَ للحالِ، أي: لا يَسألونَكم أجرًا مع كَونِهم مُهتدينَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠)، ((أضواء البيان)) =

﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

أي: ولا تَقدِرُ أن تخلِّصَني مِن الضَّرَرِ إن وقَعَ عليَّ[(١)].

﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾.

أي: إنِّي إنِ اتَّخذتُ آلهةً هذه صِفتُها فإنِّي إذَنْ لَفي ضلالٍ مُبينٍ[(٢)].

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾.

أي: إنِّي آمَنتُ بربِّكم فاسمَعوا قَولي[(٣)].

= للشنقيطي (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٨٠، ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧١).

قيل: ﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى: ظاهرٍ بيِّنٍ واضحٍ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٣).

وقيل: ﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى: واضِحٍ في نَفْسِه لمن لم يكُنْ مظروفًا له، ومُوضِّحٍ لكُلِّ ناظرٍ ما هو فيه مِن الظَّلامِ. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٠).

قال الرازي: (في المخاطَبِ بقولِه: ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾ وُجوهٌ؛ أحَدُها: هُم المرسلُونَ، قال المفَسِّرونَ: أقْبَلَ القومُ عليه يُريدونَ قَتْلَه، فأَقْبَلَ هو على المرسَلينَ، وقال: إنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكم فاسْمَعوا قولي، واشْهَدوا لي. وثانيها: هم الكفَّارُ، كأنَّه لَمَّا نَصَحَهم وما نَفَعَهم، قال: فأنا آمَنْتُ فاسمَعونِ. =

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

أي: قيل لهذا الرَّجُلِ المؤمِنِ حينَ قتَلَه قَومُه: ادخُلِ الجنَّةَ[1].

﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الطَّبعُ البَشَريُّ داعيًا إلى محبَّةِ الانتقامِ ممَّن وقَعَ منه الأذَى؛ بيَّن سُبحانَه أنَّ الأصفياءَ على غيرِ ذلك الحالِ، فقال مُستأنِفًا[2]:

﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾.

أي: قال: يا لَيْتَ قَومي يَعلَمونَ بمَغفِرةِ رَبِّي لِذُنوبي، وجَعْلِه لي مِنَ الَّذين

= وثالثُها: بِرَبِّكم أيُّها السَّامِعونَ فاسْمَعونِ. على العُمومِ، كما قُلْنا في قولِ الواعظِ حيثُ يقولُ: يا مسكينُ، ما أكثَرَ أمَلَك! وما أنزَلَ عَمَلَك! يُريدُ به كُلَّ سامِعٍ يَسْمَعُه). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٣، ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٠).

قال ابنُ جُزي: (واختُلِفَ: هل دخَلَها حينَ مَوتِه كالشُّهداءِ؟ أو هل ذلك بمعنى البِشارةِ بالجنَّةِ ورُؤيتِه لِمَقعدِه منها؟). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨١).

وممَّن اختار الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠).

قال الشوكاني: (قيلَ له ذلك؛ تكريمًا له بدُخولِها بعدَ قَتلِه، كما هي سُنَّةُ اللهِ في شُهَداءِ عبادِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٤).

أكرَمَهم بدُخولِ جنَّتِه؛ وذلك بسَبَبِ إيماني باللهِ ورُسُلِه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ﴾ تَبصِرةٌ للمُؤمِنينَ وهدايةٌ لهم؛ ليَكونوا في النُّصحِ باذِلينَ جُهدَهم[٢]، فوَصْفُ الرَّجُلِ بالسَّعيِ يُفيدُ أنَّه جاء مُسرِعًا، وأنَّه بلَغَه هَمُّ أهلِ المدينةِ برَجمِ الرُّسُلِ أو تعذيبِهم، فأراد أن يَنصَحَهم؛ خشيةً عليهم وعلى الرُّسُلِ. وهذا ثَناءٌ على هذا الرَّجُلِ يُفيدُ أنَّه ممَّن يُقتدَى به في الإسراعِ إلى تغييرِ المُنكَرِ[٣]، فيَنْبغي للإنسانِ أن يَنتهِزَ الفُرَصَ في إنذارِ قومِه ومُناصَحتِهم، وألَّا يَتَوانَى، بل يُبادِرُ بالنَّصيحةِ والموعظةِ[٤].

٢- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ معنًى لطيفٌ؛ فإنَّه يُنبئُ عن إشفاقٍ عليهم وشَفَقةٍ؛ فإنَّ إضافتَهم إلى نفْسِه بقَولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ يُفيدُ أنَّه لا يريدُ بهم إلَّا خيرًا[٥]، فيَنبغي التَّلطُّفُ بالقَولِ في دعوةِ الغَيرِ؛ فإنَّ هذا يَستوجِبُ

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩١-٩٣).

قال ابنُ كثير: (مَقصودُه أنَّهم لو اطَّلعوا على ما حَصَل مِن هذا الثَّوابِ والجزاءِ والنَّعيمِ المقيمِ، لَقادهم ذلك إلى اتِّباعِ الرُّسُلِ، فرحِمَه اللهُ ورَضِيَ عنه؛ فلقد كان حريصًا على هدايةِ قَومِه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٣).

اتِّباعَه، وقَبولَ نُصْحِه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا ﴾ دَليلٌ على نَقصِ مَن يأخُذُ أجرًا على شَيءٍ مِن أفعالِ الشَّرعِ الَّتي هي لازِمةٌ له؛ كالصَّلاةِ[٢].

٤- قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا ﴾ فيَنبغي للدَّاعيةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يَترفَّعَ عن أخْذِ ما في أيدي النَّاسِ مِن الأموالِ -حتَّى وإنْ أَعْطَوه-؛ لأنَّه رُبَّما تَنْقُصُ مَنزِلتُه إذا قَبِلَ ما يُعْطَى مِن أجْلِ دعوتِه وموعظتِه[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ أنَّه يجِبُ على مَن دعا إلى اللهِ أن يكونَ على بَصيرةٍ وعلى عِلمٍ؛ لأنَّ هذا هو وَصْفُ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، فهم يَدْعونَ إلى اللهِ على هُدًى منه، وأمَّا مَن يدعو على غيرِ هدًى فإنَّه قد يُفسِدُ أكثرَ ممَّا يُصلِحُ؛ لأنَّ الَّذي يدعو على غيرِ عِلمٍ رُبَّما يَجعَلُ الشَّيءَ الحرامَ حلالًا والحلالَ حرامًا وهو لا يدري، فيَحصُلُ بذلك فَسادٌ في الدِّينِ والعَقيدةِ[٤]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ أنَّه يَنبغي للدَّاعيةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ إذا دعا إلى الحقِّ أن يَذكُرَ ما في لُزومِه مِن الفَضائلِ، وأنْ يَذكُرَ ما في مُخالَفتِه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٧).

ولا يُستفادُ مِن الآيةِ عدَمُ جوازِ أخْذِ رزقٍ مِن بيتِ المالِ للدَّعوةِ والإرشادِ، وإن كان التَّنزُّهُ عن ذلك أَوْلى. يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٩).

الضَّلالِ والسُّوءِ؛ حتى يَجمَعَ بيْنَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ أنَّ عابدي الأصنامِ يُمَوِّهُونَ على النَّاسِ بعبادتِهم؛ فيَدَّعُون أنَّهم يَعبُدونَها لِتَكونَ شفيعًا لهم عندَ اللهِ! وهذا عندَما يَسْمَعُه السَّامعُ يَظُنُّ أنَّهم يَجعلون الآلهةَ في مَرتبةٍ دونَ اللهِ -لأنَّ مرتبةَ الشَّافعِ دونَ مرتبةِ المَشفوعِ إليه-؛ فيَقولون: «إنَّهم شُفعاءُ لنا إلى اللهِ»، والحقيقةُ أنَّهم لم يَجعلوهم شُفعاءَ، بل جعَلوهم شُركاءَ للهِ؛ لأنَّهم يَعبُدونَهم كما يَعبُدونَ اللهَ. فيُستفادُ منه الحذَرُ مِن التَّلبيسِ في الأسماءِ أو بالتَّسميةِ، وأنَّ صاحبَ الباطلِ قد يُسمِّي نفْسَه بما يقتضي أنْ يكونَ على حقٍّ، وليس كذلك[٢]!

٨- قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ في هذه الآياتِ تَنبيهٌ عَظيمٌ، ودَلالةٌ على وُجوبِ كَظمِ الغَيظِ، والحِلمِ عن أهلِ الجَهلِ، والتَّرَوُّفِ على مَن أدخَلَ نفْسَه في غِمارِ الأشرارِ وأهلِ البَغيِ، والتَّشَمُّرِ في تخليصِه، والتَّلَطُّفِ في افتدائِه، والاشتِغالِ بذلك عن الشَّماتةِ به والدُّعاءِ عليه. ألَا ترى كيف تمنَّى الخيرَ لقَتَلتِه، والباغينَ له الغوائِلَ، وهم كفَرةٌ عبَدةُ أصنامٍ[٣]؟!

٩- قال قَتادةُ: (لا تَلْقَى المؤمنَ إلَّا ناصِحًا، لا تَلْقاه غاشًّا؛ لَمَّا عايَنَ ما عايَنَ مِن كرامةِ الله: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾، تمنَّى على اللهِ أن يَعلَمَ قَومُه ما عايَنَ مِن كرامةِ اللهِ له، وما هجَمَ عليه!)[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠).

(٤) أخرجه ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (١٩/ ٤٢٥). =

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أنَّ إكرامَ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يَختَصُّ بهذا الرَّجُلِ، بل هناك عالَمٌ يُكرِمُهم اللهُ تعالى؛ ففيه حَثٌّ على أنْ يَفعَلَ الإنسانُ كفِعلِه؛ لِيَنالَ ما ناله؛ فالإكرامُ مَوجودٌ لكُلِّ مَن قام بعَمَلٍ كعَمَلِه(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ مع قَولِه سُبحانَه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣]: دَلالةٌ على أنَّ القَريةَ تُسمَّى مدينةً، والمدينةَ أيضًا تُسمَّى قريةً؛ فمكَّةُ سمَّاها اللهُ تعالى قريةً، وهي أمُّ القُرَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ [محمد: ١٣]، فالقريةُ ليست هي البلدَ الصَّغيرَ -كما يَظُنُّ كثيرٌ مِن النَّاسِ- بلِ القريةُ تكونُ مدينةً؛ وذلك لأنَّ أصلَ القريةِ معناه مأخوذٌ مِن القَرْيِ، وهو التَّجمُّعُ؛ فإنَّ النَّاسَ يَجتمِعونَ فيها، فإنْ كانت بلدةً كبيرةً سُمِّيت في عُرفِ النَّاسِ مدينةً، وإنْ كانت دونَ ذلك سُمِّيتْ في عُرفِ النَّاسِ قَريةً؛ فالتَّفريقُ بيْنَ القريةِ والمدينةِ ما هو إلَّا اصطلاحٌ عُرفيٌّ فقط(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ بَلاغةٌ باهِرةٌ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا جاء مِن أقصَى المدينةِ رجُلٌ -وهو قد آمَنَ- دَلَّ على أنَّ إنذارَهم وإبلاغَهم بلَغَ إلى أقصى المدينةِ(٣).

= قال ابنُ عثيمين: (هذا الرَّجُلُ ناصِحٌ في حياتِه وبعدَ مماتِه؛ في حياتِه دعا قَومَه إلى توحيدِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وأن يُؤمِنوا ويَتَّبِعوا الرُّسُلَ، وبعدَ مماتِه تمنَّى أنَّ قَومَه يَعلَمونَ بغُفرانِ اللهِ له؛ مِن أجْلِ أن يُؤمِنوا ويَتَّبِعوا الرُّسُلَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٢).

٣- في قَولِه تعالى -عن صاحبِ ياسينَ على سبيلِ الرِّضا بهذه المقالةِ، والثَّناءِ على قائلِها، والإقرارِ له عليها-: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ دَلالةٌ على وُجوبِ اتِّباعِ الصَّحابةِ رَضِي اللهُ عنهم؛ ووجْهُه: أنَّ كلَّ واحدٍ مِن الصَّحابةِ لم يَسألْنا أجرًا، وهم مُهتَدونَ؛ بدليلِ قَولِه تعالى -خِطابًا لهم-: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، و«لَعَلَّ» مِن اللهِ واجِبةٌ[(١)].

٤- إنَّ اللهَ سُبحانَه يَحتَجُّ على فَسادِ مَذهَبِ مَن عَبَد غيرَه بالأدلَّةِ العَقليَّةِ الَّتي تَقْبَلُها الفِطَرُ والعُقولُ، ويَجعلُ ما رَكَّبه في العُقولِ مِن حُسنِ عبادةِ الخالقِ وَحْدَه، وقُبحِ عبادةِ غيرِه؛ مِن أعظَمِ الأدلَّةِ على ذلك؛ فتأمَّلْ هذا الخطابَ: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ كيف تَجدُ تحتَه أشرَفَ مَعنًى وأجَلَّه، وهو أنَّ كَوْنَه سُبحانَه فاطِرًا لعِبادِه يقتَضي عبادتَهم له، وأنَّ مَن كان مَفطورًا مخلوقًا فحَقيقٌ به أنْ يَعبُدَ فاطِرَه وخالِقَه، ولا سيَّما إذا كان مَرَدُّه إليه؛ فمَبدَؤُه منه ومَصيرُه إليه، وهذا يُوجِبُ عليه التَّفرُّغَ لعبادتِه، ثمَّ احتَجَّ عليهم بما تُقِرُّ به عقولُهم وفِطَرُهم مِن قُبحِ عبادةِ غيرِه، وأنَّها أقبَحُ شَيءٍ في العَقلِ وأنكَرُه، فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أفلا تَراه كيف لم يَحتَجَّ عليهم بمُجرَّدِ الأمرِ، بل احتَجَّ عليهم بالعَقلِ الصَّحيحِ، ومُقتضَى الفِطرةِ[(٢)]؟!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الإرشادُ إلى وُجوبِ الإخلاصِ في العبادةِ؛ لقولِه: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ فإنَّ اللهَ تعالى مُنْفَرِدٌ

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٨).

بفَطْرِ الخَلْقِ؛ فيَجبُ أنْ يُفْرَدَ بالعبادةِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أنَّ مِن كَمالِ الدَّعوةِ والتَّعليمِ قَرْنَ الحُكْمِ بدَليلِه أو عِلَّتِه؛ فإنَّ هذا كالتَّعليلِ لِقَولِه: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ﴾؛ ولهذا عَدَلَ عن قَولِه: «ما ليَ لا أعبُدُ اللهَ» إلى قَولِه: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ لِيَكونَ هذا كالدَّليلِ والتَّعليلِ لوُجوبِ إفرادِه سُبحانَه بالعبادةِ، وهذا في القُرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ كثيرٌ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تنبيهٌ لهم على مُوجِبِ الشُّكرِ، وتهديدٌ على ارتِكابِ الكُفرِ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إشارةٌ إلى الخَوفِ والرَّجاءِ، كما قال: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ وذلك لأنَّ مَن يكونُ إليه المرجعُ يُخافُ منه، ويُرجَى[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ فضيلةُ هذا الرَّجُلِ بإعلانِه الإيمانَ باللهِ عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]؛ فقد أعْلَن أنَّه مِن المسلمِينَ، ولم يَخَفْ أحدًا سوَى اللهِ تعالى[٥].

١٠- الرُّبوبيَّةُ نَوعانِ: ربوبيَّةٌ عامَّةٌ، وربوبيَّةٌ خاصَّةٌ؛ ففي قولِه: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ -مع كَونِهم مشركينَ كفَّارًا- بيانُ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى العامَّةِ، وفي قَولِه: ﴿بِمَا غَفَرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٤).

لِي رَبِّي ﴾ إثباتُ الرُّبوبيَّةِ الخاصَّةِ[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الجنَّةَ مخلوقةٌ الآنَ[٢]، وقد دلَّ على ذلك آياتٌ وأحاديثُ كثيرةٌ؛ مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، والإعدادُ بمعنى التَّهيئةِ[٣].

١٢- إثباتُ نعيمِ القبرِ؛ لقوله: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾، مع أنَّ السَّاعةَ لم تَقُمْ بَعْدُ، ولم يَدْخُلِ النَّاسُ الجنَّةَ[٤].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ أرواحَ المؤمِنينَ تَدخُلُ الجنَّةَ مِن حينِ المَوتِ، وإنَّما قال هذا بعدَما قتَلوه، ورأَى ما أعدَّ الله له[٥].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ فيه أنَّه لا يَدخُلُ أحدٌ الجنَّةَ إلَّا برَحمةِ اللهِ، وإن كان مُحسِنًا[٦].

١٥- أنَّ التَّخليةَ قبْلَ التَّحليةِ؛ لِقَولِه: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ وهذا تخليةٌ وإزالةٌ، ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ هذا تحليةٌ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٢، ٩٥، ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (١١/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٥).

(٥) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧٠٩)، ((أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور)) لابن رجب (ص: ١١٢).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ هذا عَطْفٌ على قِصَّةِ التَّحاوُرِ الجاري بيْنَ أصحابِ القريةِ والرُّسلِ الثَّلاثةِ؛ لِبَيانِ البَونِ بيْنَ حالِ المعانِدينَ مِن أهلِ القريةِ وحالِ الرَّجُلِ المؤمنِ منهم الَّذي وَعَظَهم بمَوعظةٍ بالغةٍ، وهو مِن نفَرٍ قليلٍ مِن أهْلِ القريةِ[١].

- قولُه: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾ المرادُ بالمدينةِ هنا نفْسُ القريةِ المذكورةِ في قولِه: ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ ﴾[يس: ١٣]، وعُبِّرَ عنها هنا بـ (المدينةِ) تَفَنُّنًا[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾، وقال في سُورةِ (القَصصِ) في قِصَّةٍ أُخرى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ ﴾[القصص: ٢٠]؛ فقدَّمَ قولَه: ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ على ﴿رَجُلٞ﴾ -الَّذي هو الفاعلُ- في سُورةِ (يس)، وأخَّرَه في سُورةِ (القَصَصِ)؛ ووَجْهُه: أنَّ ذِكْرَ الأوصافِ قبْلَ ذِكْرِ الموصوفِ أبلَغُ في المدحِ مِن تقديمِ ذِكْرِه على وصْفِه، فإنَّ النَّاسَ يقولون: «الرئيسُ الأجَلُّ فُلانٌ»، فالَّذي زِيدَ في مَدْحِه -وهو صاحبُ يس- أمَرَ بالمعروفِ، وأعانَ الرُّسلَ، وصبرَ على القتلِ؛ والآخَرُ إنَّما حَذَّرَ موسى مِن القتلِ، فسَلِمَ موسى بقَبُولِه مَشورتَه؛ فالأوَّلُ هو الآمِرُ بالمعروفِ والنَّاهي عن المنكَرِ، والثَّاني هو ناصحُ الآمرِ بالمعروفِ؛ فاستحقَّ الأوَّلُ الزيادةَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) والمناسبةُ المذكورةُ لابنِ هبيرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٩).

وجْهٌ آخَرُ: أنْ يُقالَ: إنَّ الفاعلَ في المَوضعَينِ لَمَّا كان نَكِرةً فالمعنى: جاءَ جاءٍ، وقد دلَّ الفِعلُ على (جاءٍ)، ولا يكونُ الجائي مِن أقصى المدينةِ في الأعمِّ الأغلبِ إلَّا رجُلًا، وكان الَّذي يُفادُ المخاطَبُ أنْ يَعلَمَ أنَّه جاء مِن مَكانٍ بَعيدٍ إلى مُجتمعِ النَّاسِ في القريةِ، وحيث لا يَقرُبُ مِن مَجاري القصَّةِ، ولا يَحضُرُ مَوضعَ الدَّعوةِ ومَشهدَ المعجزةِ؛ فقُدِّمَ ما تَبْكيتُ القومِ به أعظَمُ، والتَّعجُّبُ منه أكثَرُ، فقال: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ﴾ يَنصَحُ لهم ما لا يَنصَحون مِثلَه لأنفُسِهم، ولا يَنصَحُ لهم أقْربوهم، مع أنَّه لم يَحضُرْ جميعَ ما يَحضُرونه، ولم يُشاهِدْ مِن كلامِ الأنبياءِ ما يُشاهِدونَه! فحَثَّهم على اتِّباعِ الرُّسلِ المبعوثينَ إليهم، وقَبولِ ما يأْتون به مِن عندِ مُرسِلِهم. وأمَّا الآيةُ في سُورةِ (القصصِ) فإنَّ المرادَ: جاء مَن لا يَعرِفُه مُوسى مِن مكانٍ لم يكُنْ مُجاورًا لمكانِه، فأعلَمَه ما فيه الكفَّارُ مِن ائتِمارِهم به، فاستوى حُكمُ الفاعلِ والمكانِ الَّذي جاء منه؛ فقُدِّمَ ما أصْلُه التَّقديمُ -وهو الفاعلُ-؛ إذ لم يكُنْ هنا تَبكيتٌ للقومِ بكَونِه مِن أقصى المدينةِ كما كان ذلك في آيةِ سُورةِ (يس)[1].

وجْهٌ آخَرُ: أنَّ تقديمَ المجرورِ ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ مُشيرٌ إلى إحرازِ معنًى جليلٍ مُطلعٍ على حُكمِ السَّوابقِ مِن إيمانِ مَن بَعُدَ مَسافةً عن داعيةٍ إلى الهدايةِ، فلمْ يَضُرَّه بُعْدُ الدَّارِ، وكُفرِ مَن باشَرَ الرُّسلَ وشافَهَهم، فلمْ يَنتفِعْ بقُرْبِ الدَّارِ، وحاصلُ الإخبارِ مِن هذه الآياتِ مِثالٌ لحالِ كُفَّارِ قُريشٍ مِن أهلِ مكَّةَ، وحالِ الأنصارِ مِن أهلِ المدينةِ، حينَ جاء هؤلاء وآمَنوا به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع بُعدِ دارِهم، وعانَدَ عُتاةُ قُريشٍ فكَفَروا مع الالتحامِ في النَّسبِ واتِّحادِ الدَّارِ، ويُوضِّحُ هذا أنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ، وإنَّما افتُتِحَت بذِكرِ قُريشٍ، وهم المَعْنِيُّون بقولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ١٠٨٣).

فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس: ٦] إلى ما بَعْدُ مِن الآياتِ، فمَجيءُ الرَّجُلِ مِن أقْصَى المدينةِ مِثالٌ لِمَن بَعُدَ فلمْ يَضُرَّه بُعْدُه، وذِكرُه المُراجِعينَ للرُّسلِ مِن أصحابِ القَريةِ مِثالٌ لِمَن قَرُبَ، وطالَت مُباشَرتُه، وشاهَدَ الآياتِ، فلمْ يَنفَعْه قُرْبُه[١].

- وجْهٌ آخَرُ: أنَّ وَجْهَ تَقديمِ ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ على ﴿رَجُلٌ ﴾؛ للاهتمامِ بالثَّناءِ على أهْلِ أقْصى المدينةِ، وأنَّه قد يُوجَدُ الخَيرُ في الأطرافِ ما لا يُوجَدُ في الوسَطِ، وأنَّ الإيمانَ يَسبِقُ إليه الضُّعفاءُ؛ لأنَّهم لا يَصُدُّهم عن الحقِّ ما فيه أهلُ السِّيادةِ مِن تَرَفٍ وعَظَمةٍ؛ إذ المُعتادُ أنَّهم يَسكُنون وسَطَ المدينةِ، وأمَّا قولُه تعالى في سُورةِ (القَصَصِ) [٢٠]: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ فجاء النَّظمُ على التَّرتيبِ الأصليِّ؛ إذ لا داعيَ إلى التَّقديمِ؛ إذ كان ذلك الرَّجُلُ ناصحًا، ولم يكُنْ داعيًا للإيمانِ[٢]. وقيل: تَقدَّمَ قولُه: ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ وتأخَّرَ في (القَصَصِ)؛ تَفنُّنًا في البلاغةِ[٣].

- قولُه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ افتتاحُ خِطابِ الرَّجلِ إيَّاهم بنِدائِهم بوَصفِ القَوميَّةِ له، قَصَدَ منه أنَّ في كلامِه الإيماءَ إلى أنَّ ما سيُخاطِبُهم به هو مَحْضُ نَصيحةٍ؛ لأنَّه يُحِبُّ لِقَومِه ما يُحِبُّ لِنَفْسِه؛ ففيه تأْليفٌ لِقُلوبِهم واستِمالتُها[٤].

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ رِسالةِ المرسَلينَ حَثٌّ لهمْ على اتِّباعِهم[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال الرَّجُلُ هنا: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾،

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٨٣، ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((التحرير والتنوير)) (٢٢/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٣).

وقال مُؤمِنُ آلِ فِرعونَ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]؛ والفرْقُ بيْنَهما: أنَّ هذا الرَّجُلَ جاءَهم، وفي أوَّلِ مَجيئِه نَصَحَهم، وما رأَوا سِيرتَه، فقال: اتَّبِعوا هؤلاء الَّذين أظْهَروا لكم الدَّليلَ، وأوضَحُوا لكمُ السَّبيلَ، وأمَّا مُؤمِنُ آلِ فِرعونَ فكان فيهم، واتَّبَعَ مُوسى، ونصَحَهم مِرارًا، فقال: اتَّبِعوني في الإيمانِ بمُوسى وهارونَ عليهما السَّلامُ، واعْلَموا أنَّه لو لم يكُنْ خيرًا لَمَا اختَرْتُه لِنَفْسي -وأنتم تَعلَمون أنِّي اختَرْتُه-، ولم يكُنْ للرَّجُلِ الَّذي جاء مِن أقْصى المدينةِ أنْ يقولَ: أنتُم تَعلَمون اتِّباعي لهم[(١)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾

- جُملةُ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ مُؤكِّدةٌ لِجُملةِ ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وتَتميمٌ لها، مع زِيادةِ الإيماءِ إلى عِلَّةِ اتِّباعِهم بلَوائحِ عَلاماتِ الصِّدقِ والنُّصحِ على رِسالتِهم؛ إذ همْ يَدْعون إلى هُدًى، ولا نفْعَ يَنجَرُّ لهم مِن ذلك، فتَمحَّضَتْ دَعوتُهم لِقَصدِ هِدايةِ المرسَلِ إليهم. أي: اتَّبِعوا مَن لا تَخسَرون معهم شيئًا مِن دُنياكم، وتَربَحون صِحَّةَ دِينِكم[(٢)].

- وقدَّم بقولِه: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّ الرِّسالةَ وَصْفٌ يَقتضي وُجوبَ قَبولِ المُرسَلِ؛ ثمَّ قال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ فهذا مِن بابِ الكمالِ، وينبغي أنْ يُقَدَّمَ الوَصْفُ الموجِبُ للقَبولِ قبْلَ الوصفِ المُفَضِّلِ للقَبولِ[(٣)].

- قولُه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ قُدِّمَ في الصِّلةِ عدَمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٧).

سؤالِ الأجرِ على الاهتِداءِ؛ لأنَّ القَومَ كانوا في شَكٍّ مِن صِدقِ المرسَلينَ، وكان مِن دَواعي تَكذيبِهم اتِّهامُهم بأنَّهم يَجُرُّون لأنفُسِهم نفْعًا مِن ذلك؛ لأنَّ القومَ لَمَّا غلَبَ عليهم التَّعلُّقُ بحُبِّ المالِ، وصاروا بُعَداءَ عن إدراكِ المقاصِدِ السَّاميةِ؛ كانوا يَعُدُّون كلَّ سَعيٍ يَلُوحُ على امْرِئٍ إنَّما يَسْعى به إلى نَفْعِه؛ فقُدِّمَ ما يُزيلُ عنهم هذه الاستِرابَةَ، ولِيَتهَيَّؤوا إلى التَّأمُّلِ فيما يَدْعُونهم إليه، ولأنَّ هذا مِن قَبيلِ التَّخليةِ بالنِّسبةِ للمُرسَلينَ والمرسَلِ إليهم، والتَّخليةُ تُقدَّمُ على التَّحليةِ؛ فكانتْ جُملةُ ﴿لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ أهَمَّ في صِلةِ الموصولِ[١].

- والأجْرُ يَصدُقُ بكلِّ نفْعٍ دُنيويٍّ يَحصُلُ لأحدٍ مِن عمَلِه؛ فيَشملُ المالَ والجاهَ والرِّئاسةَ، فلمَّا نُفِيَ عنهم أنْ يَسألوا أجْرًا فقدْ نُفِيَ عنهم أنْ يَكونوا يَرْمون مِن دَعوتِهم إلى نفْعٍ دُنيويٍّ يَحصُلُ لهم. وبعدَ ذلك تَهيَّأَ الموقعُ لِجُملةِ ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، أي: وهمْ مُتَّصِفون بالاهتداءِ إلى ما يأْتي بالسَّعادةِ الأبَديَّةِ، وهمْ إنَّما يَدْعُونكم إلى أنْ تَسيروا سِيرتَهم، فإذا كانوا همْ مُهتدينَ، فإنَّ ما يَدْعونكم إليه مِن الاقتِداءِ بهم دَعوةٌ إلى الهُدى؛ فتَضمَّنَت هذه الجُملةُ بمَوقعِها بعْدَ الَّتي قبْلَها ثَناءً على المرسَلينَ وعلى ما يَدْعون إليه، وتَرغيبًا في مُتابَعتِهم[٢].

- وجاءتِ الجُملةُ الأُولى مِن الصِّلةِ فِعليَّةً مَنْفيَّةً ﴿لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾؛ لأنَّ المقصودَ نَفْيُ أنْ يَحدُثَ منهم سؤالُ أجرٍ فضْلًا عن دَوامِه وثَباتِه، وجاءتِ الجُملةُ الثَّانيةُ ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ اسميَّةً؛ لإفادةِ إثباتِ اهتدائِهم ودَوامِه، بحيث لا يَخْشَى مَن يتَّبِعُهم أنْ يكونَ في وَقتٍ مِن الأوقاتِ غيرَ مُهتَدٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٦٨).

- وخِتامُ هذه الآيةِ بقولِه: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ لم يكُنْ مُجرَّدَ زِيادةٍ، بل كان لتَوقُّفِ المَوعظةِ عليها، وكان قولُه: ﴿مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ كالتَّوطئةِ له[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لِقَصْدِ إشعارِهم بأنَّه اتَّبَعَ المرسَلينَ، وخلَعَ عِبادةَ الأوثانِ. وأبرَزَ الكلامَ في صُورةِ استِفهامٍ إنكاريٍّ، وبصِيغةِ: (ما ليَ لا أفعَلُ)، الَّتي شأْنُها أنْ يُورِدَها المتكلِّمُ في رَدٍّ على مَن أنكَرَ عليه فِعلًا، أو ملَكَه العجَبُ مِن فِعلِه، أو يُورِدَها مَن يُقدِّرُ ذلك في قلْبِه؛ ففيه إشعارٌ بأنَّهم كانوا مُنكِرينَ عليه الدَّعوةَ إلى تَصديقِ الرُّسلِ الَّذين جاؤوا بتَوحيدِ اللهِ؛ فإنَّ ذلك يَقْتضِي أنَّه سبَقَهم بما أمَرَهم به[٢].

- وهذا الخبَرُ أيضًا ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بهم، كأنَّه يقولُ: وما ليَ لا أعبُدُ، وما لَكمْ لا تَعبُدون الَّذي فطَرَكم؟! بقَرينةِ قولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ إذ جعَلَ الإسنادَ إلى ضَميرِهم تَقويةً لمعنى التَّعريضِ[٣].

- وإنَّما ابتدَأَ في قولِه: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ بإسنادِ الخبَرِ إلى نفْسِه؛ لإبرازِه في مَعرِضِ المُناصَحةِ لِنفْسِه، وهو مُريدٌ مُناصَحتَهم؛ لِيَتلطَّفَ بهم، ويُدارِئَهم فيُسمِعَهم الحقَّ على وَجهٍ لا يُثيرُ غضَبَهم، ويكونَ أعْوَنَ على قَبولِهم إيَّاه حينَ يَرَون أنَّه لا يُريدُ لهم إلَّا ما يُريدُ لِنَفْسِه، والمرادُ:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تقريعُهم على تَرْكِهم عِبادةَ خالقِهم إلى عِبادةِ غَيرِه؛ ولذلك قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مُبالَغةً في التَّهديدِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قالَهُ الجائي مِن المدينةِ، وأضافَ الفِطرةَ إلى نفْسِه، والرُّجوعَ -الَّذي هو البعثُ- إليهم، مع عِلمِه بأنَّ اللهَ فَطَرَهم وإيَّاه، وإليه يَرجِعُ هو وهمْ، فلَمْ يَقُلْ: (الَّذي فطَرَنا وإليه نَرجِعُ)، أو (فطَرَكم وإليه تُرجَعون)؛ لأنَّ الخَلْقَ والإيجادَ نِعمةٌ مِن اللهِ تعالى تُوجِبُ الشُّكرَ، والبعثَ بعدَ الموتِ للجزاءِ وَعيدٌ مِن اللهِ يُوجِبُ الزَّجرَ، فأضاف ما يَقْتضي الشُّكرَ لِنفْسِه؛ لأنَّه أَلْيَقُ بإيمانِه، وما يَقْتَضي الزَّجرَ إليهم؛ لأنَّه أَلْيَقُ بكُفْرِهم[٢].

وقيل: في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ احتباكٌ[٣]، حَذَف «وإليه أَرجِعُ» أوَّلًا لَمَّا دَلَّ عليه ثانيًا، وإنكارَه عليهم ثانيًا بما دَلَّ عليه أوَّلًا مِن إنكارِه على نَفْسِه؛ استِجلابًا لهم بإظهارِ الإنصافِ، والبُعدِ عن التَّصريحِ بالخِلافِ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧١، ٤٧٢).

(٣) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١١).

شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾

- جُملةُ ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ رُجوعٌ إلى طَريقةِ التَّعريضِ، وهي استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لاستِشعارِ سُؤالٍ عن وُقوعِ الانتفاعِ بشَفاعةِ تلك الآلهةِ عندَ الَّذي فطَرَه. والاستِفهامُ إنكاريٌّ، أي: أُنكِرُ على نَفْسي أنْ أتَّخِذَ مِن دُونِه آلهةً، أي: لا أتَّخِذُ آلهةً، والاتِّخاذُ: افتِعالٌ مِن الأخْذِ، وهو التَّناوُلُ، والتَّناوُلُ يُشعِرُ بتَحصيلِ ما لم يكُنْ قبْلُ، فالاتِّخاذُ مُشعِرٌ بأنَّه صُنِع، وذلك مِن تَمامِ التَّعريضِ بالمخاطَبينَ؛ أنَّهم جَعَلوا الأوثانَ آلهةً وليست بآلهةٍ؛ لأنَّ الإلهَ الحقَّ لا يُجعَلُ جَعْلًا، ولكنَّه مُستحِقٌّ الإلهيَّةَ بالذَّاتِ[1].

- قولُه: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ ﴾ أي: يُرِدْنِ اللهُ عزَّ وجلَّ، والتَّعبيرُ بوَصْفِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ دونَ اسمِ الجلالةِ؛ لأنَّ المشركينَ كانوا يُنكِرون اسمَ الرَّحمنِ، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]. وللإشارةِ كذلك إلى أنَّ رَحمتَه لا تَقْتضي عدَمَ خَشيتِه؛ فالمؤمنُ يَخْشى اللهَ مع عِلمِه برَحمتِه، فهو يَرْجو الرَّحمةَ. وأيضًا ذكَرَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾؛ لأنَّه اسمٌ يدُلُّ على الرَّحمةِ، ولَمَّا كان الضُّرُّ قد يَفهَمُ منه مَن يَفهَمُ مِن النَّاسِ انتفاءَ الرَّحمةِ عن المُريدِ؛ ذكَرَ ذلك باسمِ (الرَّحمن) لئلَّا يَظُنَّ ظانٌّ أو يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ هذا الوهمَ: أنَّ إرادةَ اللهِ الضُّرَّ للإنسانِ تُنافي الرَّحمةَ؛ لأنَّ إرادةَ الضُّرِّ بالإنسانِ قد يكونُ مِن رَحمةِ اللهِ بالإنسانِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]، فما يُصيبُ الإنسانَ مِن الضُّرِّ له نتائجُ حَميدةٌ، وهي الرُّجوعُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، والاعتبارُ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٤، ٣٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٨١).

- وجاءَ وصْفُ الآلهةِ المزعومةِ المفروضةِ الاتِّخاذِ بجُملةِ الشَّرطِ ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾، والمقصودُ به التَّعريضُ بالمخاطَبينَ في اتِّخاذِهم تلك الآلهةَ بعِلَّةِ أنَّها تَشفَعُ لهم عندَ اللهِ، وتُقرِّبُهم إليه زُلْفى[(١)].

- وقد عُلِمَ مِن انتفاءِ دَفْعِهم الضُّرَّ أنَّهم عاجزونَ عن جَلْبِ نَفْعٍ؛ لأنَّ دَواعيَ دَفعِ الضُّرِّ عن المولى أقْوَى وأهَمُّ، ولِحاقَ العارِ بالوليِّ في عَجْزِه عنه أشَدُّ، وإذ قد نُفِيَ عن شَفاعتِهم النَّفْعُ للمَشفوعِ فيه، فقد نُفِيَ عنهم أنْ يَشفَعوا بطَريقِ الالتِزامِ؛ لأنَّ مَن يَعلَمُ أنَّه لا يُشَفَّعُ لا يَشفَعُ، فكأنَّه قال: أأتَّخِذُ مِن دُونِه آلهةً لا شَفاعةَ لهم عندَ اللهِ؟! لإبطالِ اعتِقادِهم أنَّهم شُفعاءُ مَقبولو الشَّفاعةِ. وإذ كانت شَفاعتُهم لا تَنفَعُ -لِعَجزِهم، وعدَمِ مُساواتِهم للهِ الَّذي يَضُرُّ ويَنفَعُ في صِفاتِ الإلهيَّةِ-؛ كان انتفاءُ أنْ يُنقِذوا أَولَى. وإنَّما ذُكِرَ العُدولُ عن دَلالةِ الفَحوى[(٢)] إلى دَلالةِ المنطوقِ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تَصريحٍ؛ لِتَعلُّقِه بالإيمانِ، وهو أساسُ الصَّلاحِ[(٣)].

٥- قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ جوابٌ للاستِفهامِ الإنكاريِّ ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾؛ فحرْفُ (إذًا) جزاءٌ للمَنفيِّ لا للنَّفْيِ، أي: إنِ اتَّخَذْتُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٩).

(٢) دَلالة الفَحوى أو فحوى الخطابِ: هو إثباتُ حكمِ المنطوقِ به للمسكوتِ عنه بطريقِ الأولَى، وهو نوعانِ: تنبيهٌ بالأقلِّ على الأكثرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نبَّه بالنهيِ عن قولِ (أفٍّ) على النهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك. وتنبيهٌ بالأكثرِ على الأقلِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٩).

دونِ اللهِ آلهةً أكُنْ في ضلالٍ مُبينٍ[١].

- وأُكِّدَت الجملةُ بمؤكِّدَينِ: «إنَّ» و«اللامِ»؛ لأنَّ المُخاطَبَ منكِرٌ، فهو يُخاطِبُ قومَه الَّذين اتَّخَذوا مع اللهِ آلهةً[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾

- قولُه: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ ﴾ خِطابٌ مِن الرَّجُلِ المؤمنِ للرُّسلِ -على قولٍ في التَّفسيرِ- بطَريقِ التَّلوينِ، وإنَّما أكَّدَه بـ (إنَّ)؛ لإظهارِ صُدورِه عنه بكَمالِ الرَّغبةِ والنَّشاطِ، وأضافَ الرَّبَّ إلى ضَميرِهم؛ رَوْمًا لِزيادةِ التَّقريرِ، وإظهارًا للاختِصاصِ والاقتداءِ بهم، كأنَّه قال: بربِّكم الَّذي أرْسَلَكم، أو الَّذي تَدْعُونَنا إلى الإيمانِ به. وقِيل: الخِطابُ للكَفَرةِ؛ شافَهَهَم بذلك إظهارًا للتَّصَلُّبِ في الدِّينِ، وعدَمِ المُبالاةِ بالقتلِ، وإضافةُ الرَّبِّ إلى ضَميرِهم؛ لِتَحقيقِ الحقِّ، والتَّنبيهِ على بُطلانِ ما همْ عليه مِن اتِّخاذِ الأصنامِ أربابًا[٣].

- وأيضًا هذه الجُملةُ ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ واقعةٌ مَوقعَ الغايةِ مِن الخِطابِ، والنَّتيجةِ مِن الدَّليلِ. وهذا إعلانٌ لإيمانِه، وتَسجيلٌ عليهم بأنَّ اللهَ هو ربُّهم، لا تلك الأصنامُ. وأكَّدَ الإعلانَ بتَفريعِ ﴿فَٱسۡمَعُونِ ﴾؛ استِدعاءً لِتَحقيقِ أسماعِهم إنْ كانوا في غَفلةٍ؛ فالأمْرُ على جِهةِ المبالَغةِ والتَّنبيهِ[٤].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٩).

- قولُه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لِمَا يَنتظِرُه سامعُ القِصَّةِ مِن مَعرفةِ ما لَقِيَه مِن قَومِه بعْدَ أنْ واجَهَهم بذلك الخِطاب الجَزلِ، وهلْ اهتَدَوا بهَدْيِه، أو أعْرَضُوا عنه وتَرَكوه، أو آذَوْه كما يُؤذَى أمثالُه مِن الدَّاعينَ إلى الحقِّ، المُخالِفينَ هَوى الدَّهْماءِ؛ فيُجابُ بما دَلَّ عليه قولُه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وهو الأهمُّ عندَ المسلمينَ، وهمْ مِن المقصودينَ بمَعرفةِ مِثلِ هذا؛ لِيَزْدادوا يَقينًا وثَباتًا في إيمانِهم، وأمَّا المشرِكون فحَظُّهم مِن المثَلِ ما تَقدَّمَ وما يأْتي مِن قولِه: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾[1] [يس: ٢٩].

- وفي قولِه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ كِنايةٌ عن قتْلِه شَهيدًا في إعلاءِ كَلمةِ اللهِ؛ لأنَّ تَعقيبَ مَوعظتِه بأمْرِه بدُخولِ الجنَّةِ دَفْعةً بلا انتِقالٍ يُفيدُ بدَلالةِ الاقتضاءِ أنَّه مات، وأنَّهم قَتَلوه لِمُخالَفتِه دِينَهم، وأنَّ هذا الرَّجُلَ المؤمنَ قد أُدخِلَ الجنَّةَ عقِبَ مَوتِه؛ لأنَّه كان مِن الشُّهداءِ[2].

- والقائِلُ: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ هو اللهُ تعالى -على قَولٍ-، والمَقولُ له هو الرَّجُلُ الَّذي جاء مِن أقْصَى المدينةِ، قيل: وإنَّما لم يُذكَرْ ضَميرُ المَقولِ له مَجرورًا باللَّامِ؛ لأنَّ القولَ المذكورَ هنا قولٌ تَكوينيٌّ لا يُقصَدُ منه المُخاطَبُ به، بل يُقصَدُ حِكايةُ حُصولِه؛ لأنَّه إذا حصَلَ حصَلَ أثَرُه، كقولِه تعالى: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠][3]. أو لم يأْتِ التَّركيبِ: (قِيلَ له)؛ لانصبابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠).

الغرَضِ إلى المَقولِ وعِظَمِه، لا إلى المَقولِ له، مع كَونِه معلومًا[١].

- وإذ لمْ يُقَصَّ في المثَلِ أنَّه غادَرَ مَقامَه الَّذي قام فيه بالموعظةِ، كان ذلك إشارةً إلى أنَّه مات في مَقامِه ذلك، ويُفهَمُ منه أنَّه مات قتيلًا في ذلك الوقتِ أو بإثْرِه. وإنَّما سُلِكَ في هذا المعنى طَريقُ الكِنايةِ، ولم يُصرَّحْ بأنَّهم قَتَلوه؛ إغماضًا لهذا المعنى عن المشركينَ؛ كَيْلا يَسُرَّهم أنَّ قَومَه قَتَلوه، فيَجْعَلوه مِن جُملةِ ما ضُرِبَ به المثَلُ لهم وللرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيَطْمَعوا فيه أنَّهم يَقتُلون الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فهذه الكِنايةُ لا يَفهَمُها إلَّا أهلُ الإسلامِ الَّذين تَقرَّرَ عندَهم التَّلازُمُ بيْنَ الشَّهادةِ في سَبيلِ اللهِ ودُخولِ الجنَّةِ، أمَّا المشركون فيَحسَبون أنَّ ذلك في الآخرةِ. وقد تكونُ في الكلامِ البليغِ خَصائصُ يَختَصُّ بنَفْعِها بعضُ السَّامِعينَ[٢].

- وفي قولِه: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بائتلافِ الفاصلةِ[٣] مع ما يدُلُّ عليه سائرُ الكلامِ؛ فإنَّ ذِكرَ الجنَّةِ مهَّدَ لِفاصِلَتِها، وهو جُملةٌ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ السَّامعَ يَترقَّبُ ماذا قال حينَ غَمَره الفرَحُ بدُخولِ الجنَّةِ، والمعنى: أنَّه لم يُلْهِه دُخولُه الجنَّةَ عن حالِ قَومِه؛ فتَمنَّى أنْ يَعلَموا ماذا لَقِيَ مِن ربِّه؛ لِيَعلَموا فَضيلةَ الإيمانِ فيُؤمِنوا، وما تَمنَّى هَلاكَهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٣) ائتلافُ الفاصلةِ أو التمكينُ: هو أن يُمَهَّدَ قبلَ الفاصلةِ تمهيدٌ تأتي به الفاصلةُ مُمَكَّنةً في مكانها، مُستقرَّةً في قرارِها، مُطمئِنَّةً في موضعها، غيرَ نافرةٍ ولا قَلِقةٍ، مُتعلِّقًا معناها بمعنى الكلامِ كلِّه تَعلُّقًا تامًّا، بحيثُ لو طُرِحتْ لاختلَّ المعنى، واضطرَبَ الفَهمُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٧٩)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٨).

ولا الشَّماتةَ بهم؛ فكان مُتَّسِمًا بكَظمِ الغَيظِ، وبالحِلمِ على أهْلِ الجهلِ[١].

٨- قَولُه تعالى: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ أي: بأيِّ شَيءٍ غَفَرَ لي ربِّي، يُرِيدُ به تَفخيمَ شأنِ المُهاجَرةِ عن دِينِهم، والمُصابَرةِ على أذيَّتِهم[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ أُدخِلَت الباءُ على مَفعولِ ﴿يَعْلَمُونَ ﴾ السَّابقِ؛ لِتَضمينِه معنى: (يُخبَرون)؛ لأنَّه لا مَطمَعَ في أنْ يَحصُلَ لهم عِلمُ ذلك بالنَّظرِ والاستِدلالِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧١).

الآيات (٢٨-٣٢)

﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَٰمِدُونَ﴾: أي: مَيِّتونَ هالِكونَ، وأصلُ (خمد): يدُلُّ على سُكونِ الحَركةِ، والسُّقوطِ[(١)].

﴿يَٰحَسۡرَةً﴾: الحسرةُ: التَّلَهُّفُ والاغتِمامُ على ما فاتَ ولا يمكِنُ ارتجاعُه، وهي أشدُّ النَّدامةِ، وأصلُ (حسر): كشْفُ الشَّيءِ، فالحسرةُ انكشافٌ عن حالِ النَّدامةِ[(٢)].

﴿ٱلۡقُرُونِ﴾: جمعُ قَرْنٍ، والقَرنُ: القومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المَقترنونَ في زمنٍ واحدٍ، غير مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّةُ القرنِ مِئةُ سَنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقترانِ، وهو اجتماعُ شَيئَينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨١) و(١٨/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٧٦، ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ * وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾

(كم) هنا خَبَريَّةٌ في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، والتَّقديرُ: كثيرًا مِن القرونِ أهلَكْنا. وهي مُعَلِّقَةٌ لـ﴿يَرَوْا﴾ عن العمَلِ ذَهابًا بالخَبريَّةِ مذهَبَ الاستِفهاميَّةِ. وقيل: (كم) استفهاميَّةٌ، وعلى كُلٍّ فالجُملةُ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ سَدَّت مَسَدَّ مَفعولَي ﴿يَرَوْا﴾؛ لأنَّ الرُّؤيةَ عِلميَّةٌ، و﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ مَصدَرٌ مُؤوَّلٌ في موضعِ نَصبٍ، بَدَلٌ مِن محلِّ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ على تقديرِ: ألم يَروا أنَّ القُرونَ الَّذين أهلَكْناهم أنَّهم إليهم لا يَرجِعونَ. وقيل: المصدرُ المؤوَّلُ في محلِّ نَصبٍ على نزعِ الخافِضِ متعلق بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: بأنَّهم، وكأنَّه قيل: أهلَكْناهم بأنَّهم لا يَرجِعونَ، أي: بهذا الضَّربِ مِن الهلاكِ. وقيل: المصدَرُ المؤوَّلُ مَعمولٌ لفِعلٍ محذوفٍ دَلَّ عليه السِّياقُ، والمعنى: قَضَيْنا وحَكَمْنا أنَّهم لا يَرجِعونَ[1].

قَولُه تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾

(إنْ) نافيةٌ، و﴿كُلٌّ﴾ مُبتدأٌ وتنوينُه عِوَضٌ عن المضافِ إليه، و﴿لَمَّا﴾ بمعنى (إلَّا) الاستِثنائيَّةِ، و﴿جَمِيعٌ﴾ خبَرُ المبتدأِ ﴿كُلٌّ﴾، و﴿لَّدَيْنَا﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(١) يُنظر: ((الكتاب لسيبويه)) (٣/ ١٣٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨٥)، ((شرح كتاب سيبويه)) للسيرافي (٣/ ٣٥٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٦٠)، ((مغني اللبيب- مع حاشية الأمير)) (١/ ١٥٧، ١٥٨)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٥).

بـ﴿جَمِيعٌ﴾؛ لأنَّه بمعنى مَفعول، أي: مجموعونَ، أو مُتعَلِّقٌ بـ (مُحضَرون)، و (مُحْضَرُونَ) خبَرٌ ثانٍ لـ (كُلٌّ)، أو نعتٌ لـ ﴿جَمِيعٌ﴾ وجُمِعَ على المعنى، والمعنى: ما كُلُّهم إلَّا مجموعونَ لدينا، مُحضَرون للحِسابِ والجزاءِ. وقُرِئَ ﴿لَمَا﴾ بالتَّخفيفِ[1]؛ وعليه فـ (إنْ) مُخفَّفةٌ مِن الثَّقيلةِ، واللَّامُ في ﴿لَمَا﴾ فارقةٌ، و(ما) مَزيدةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى: وإنَّ الشَّأنَ كُلٌّ لَجميعٌ لدينا مُحضَرونَ، وهذا مَذهَبُ البصريِّينَ، وذهب الكوفيُّونَ إلى أنَّ (إنْ) نافيةٌ، واللَّامُ في ﴿لَمَا﴾ بمَعنى (إلَّا)، و (ما) مزيدةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى كما في قِراءةِ التَّشديدِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما نزَل بأصحابِ القريةِ مِن عذابِ أهلَكهم: وما أنزَلْنا على قَومِ ذلك الرَّجُلِ المؤمِنِ -بعدَ أن قتَلوه- ملائِكةً مِن السَّماءِ لإهلاكِهم، وما كُنَّا مُنزِلينَ؛ فما كانت عُقوبتُهم إلَّا صَيحةً واحِدةً، فإذا هم ميِّتون هامِدونَ! يا حَسرةً على العِبادِ؛ فما يأتيهم في الدُّنيا مِن رَسولٍ إلَّا استَهزؤوا به!

ألم يَرَوْا أنَّنا أهلَكْنا كثيرًا مِن الأُمَمِ السَّابقةِ عليهم؛ بسَبَبِ إصرارِهم على كُفرِهم، واستِهزائِهم برُسُلِهم، وأنَّ هؤلاء المُهلَكينَ لا يَرجِعون إليهم؟! وما مِن أمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا وستُحضَرُ إلينا يومَ القيامةِ؛ لِنُحاسِبَها على أعمالِها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾.

---

(١) قرأها بالتَّشديدِ: ابنُ عامرٍ وعاصمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ، والباقون بتخفيفِها. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٩٧)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٧٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٦٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن بيَّن تعالى حالَ النَّاصحِ الشَّهيدِ، ودُخولَه الجنَّةَ- أردَف ذلك ذِكرَ حالِ المتخَلِّفينَ المُخالِفينَ له[١].

وأيضًا فهو رُجوعٌ إلى قِصَّةِ أصحابِ القريةِ بعدَ أن انقَطَعَ الحديثُ عنهم بذِكْرِ الرَّجُلِ المؤمنِ الَّذي جاءَ مِن أقصَى المدينةِ ناصحًا لهم، وكان هذا الرُّجوعُ بمُناسَبةِ أنَّ القومَ قومُ ذلك الرَّجُلِ[٢].

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾.

أي: وما أنزَلْنا على قَومِ الرَّجُلِ المؤمِنِ -مِن بَعدِ قَتلِهم له- مَلائِكةً مِنَ السَّماءِ لإهلاكِهم، وما كُنَّا مُنزِلينَ لهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٨)، ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٦ - ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٢، ٥٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٨، ٩٩).

قيل: ما أنزَل الله جُندًا مِن السَّماءِ لإهلاكِهم؛ لأنَّهم أهْوَنُ مِن ذلك وأحقرُ، والأمرُ كان أيسَرَ مِن ذلك. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جُزَي، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٩).

وقال الشوكاني: (﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾... لِسَبْقِ قَضائِنا وقَدَرِنا بأنَّ إهلاكَهم بالصَّيحةِ لا بإنْزالِ الجُنْدِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢١).

وقيل: معنى الآيةِ: ما أنزَلْنا عليهم مِن رسالةٍ مِن السَّماءِ ولا نَبِيٍّ بعدَ قَتلِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢١).

قال ابنُ جُزَي: (ولَفظُ الجُندِ أَلْيَقُ بالمعنى الأوَّلِ [أي: إنزالِ ملائكةٍ لإهلاكِهم]، وكذلك ذِكرُ الصَّيحةِ بعدَ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨١). =

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: ما كانت عُقوبةُ أصحابِ القَريةِ إلَّا صَيحةً واحِدةً بلا تَكرارٍ؛ فإذا هم مَيِّتونَ هامِدونَ[1].

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: يا حَسرةً على العِبادِ[2]؛ فإنَّهم لا يأتيهم في الدُّنيا رَسولٌ مِن رُسُلِ اللهِ إلَّا

= وقال ابن جرير: (وذلك أنَّ الرِّسالةَ لا يُقالُ لها جُنْدٌ... وأنَّ الرُّسُلَ مِن بني آدمَ لا يُنْزَلونَ مِن السَّماءِ، والخبرُ في ظاهرِ هذه الآيةِ عن أنَّه لم يُنْزِلْ مِن السَّماءِ بعدَ مَهْلِكِ هذا المؤمنِ على قومِه جُندًا، وذلك بالملائكةِ أَشْبَهُ منه ببَني آدَمَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٨) بتصرف يسير.

وقال أبو حيَّان: (وأخبَرَ تعالى أنَّه لم يُنْزِلْ عليهم لإهلاكِهم جُندًا مِنَ السَّماءِ، كالحجارةِ والرِّيحِ وغيرِ ذلك). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٩).

وقال أبو السعود: (﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ وما صحَّ في حِكمتِنا أنْ نُنزِلَ لإهلاكِ قَومِه جُندًا مِن السَّماءِ؛ لِما أنَّا قَدَّرْنا لكلِّ شيءٍ سَبَبًا؛ حيثُ أهلَكْنا بعضَ مَن أهلَكْنا مِن الأُمَمِ بالحاصبِ، وبعضَهم بالصَّيحةِ، وبعضَهم بالخَسفِ، وبعضَهم بالإغراقِ، وجعَلْنا إنزالَ الجُندِ مِن خصائصِكَ في الانتِصارِ مِن قَومِك. وقيل: (ما) موصولةٌ مَعطوفةٌ على ﴿جُندٍ﴾، أي: وما كنَّا مُنزِلينَ على مَن قَبْلَهم مِن حِجارةٍ وريحٍ وأمطارٍ شديدةٍ وغيرِها). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٦ - ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١، ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦).

(٢) قال الشوكاني: (قال ابنُ جرير: المعنى: يا حسرةً مِن العبادِ على أنفُسِهم، وتَنَدُّمًا وتَلَهُّفًا في استهزائِهم برُسُلِ اللهِ، ... وقال الضَّحَّاكُ: إنَّها حَسرةُ الملائكةِ على الكُفَّارِ حينَ كذَّبوا الرُّسُلَ. وقيل: هي مِن قَولِ الرَّجُلِ الَّذي جاء مِن أقصى المدينةِ. وقيل: إنَّ القائلَ: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ هم الكُفَّارُ المكَذِّبونَ، والعِبادُ: الرُّسُلُ؛ وذلك أنَّهم لَمَّا رأَوُا العذابَ تحسَّروا على قَتلِهم، وتَمَنَّوُا الإيمانَ. قاله أبو العاليةِ، ومجاهِدٌ. وقيل: إنَّ التَّحسُّرَ عليهم هو مِن الله عزَّ وجلَّ بطريقِ الاستِعارةِ؛ لتعظيمِ ما جَنَوْهُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٨).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: يا ندامةً للعبادِ في الآخرةِ على أنفُسِها في استهزائِهم برُسُلِ اللهِ في الدُّنيا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابن جرير، والسمرقندي، والواحدي، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير =

وَقَعوا في الاستِهزاءِ به[١]!

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله سبحانَه حالَ الأوَّلينَ؛ نبَّه الحاضِرينَ[٢]، فقال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

= مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٧٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٢٧).

وقيل: المرادُ: أنَّ التحَسُّرَ واقعٌ عليهم مِن غيرِهم؛ فطِباعُ كُلِّ بشَرٍ توجِبُ عندَ سماعِه حالَهم وعذابَهم على الكُفرِ وتضييعِهم أمرَ اللهِ تعالى: أن يُشفِقَ ويَتحَسَّرَ على العبادِ؛ فهم أحِقَّاءُ بأن يَتحسَّرَ عليهم المتحَسِّرون، ويَتلهَّفَ على حالِهم المتلَهِّفون. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٢).

وقيل: هو مِن كلامِ اللهِ تعالى، واقعٌ موقعَ الرِّثاءِ للأُمَمِ المكَذِّبةِ لرُسُلِها. وممَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧).

قال ابن عثيمين: (وقيل: إنَّ التَّحَسُّرَ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ، لكِنْ ليس معناه أنَّه يتَّصِفُ به، بل المعنى أنَّه يُبيِّنُ حَسرةَ العبادِ على أنفُسِهم، يقولُ: يا حَسرةً واقِعةً على العِبادِ؛ فتكونُ «على» قريبةً مِن معنى «مِن»، يعني: أنَّ الله تعالى يُبيِّنُ أنَّ هؤلاء العبادَ المكَذِّبينَ سوف يَتحَسَّرون على تكذيبِهم، وهذا أقرَبُ إلى السِّياقِ؛ لِقَولِه: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ * يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ فالكلامُ كلامُ اللهِ، لكِنْ لَمَّا كان التَّحَسُّرُ نَدَمًا وألَمًا صار اللهُ تعالى مُنَزَّهًا عنه؛ فوجَبَ أن يكونَ المرادُ: يا حسرةً واقِعةً عليهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٠٦).

وقيل: لا مُتَحَسِّرَ أصلًا في الحقيقةِ؛ إذِ المقصودُ بيانُ أنَّ ذلك وقْتُ طلَبِ الحسرةِ حيثُ تَحَقَّقَتِ النَّدامةُ عندَ تَحقُّقِ العذابِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨، ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ٥).

أي: ألم يَرَوُا[(١)] الأُمَمَ الماضيةَ الكثيرةَ الَّتي أهلَكْناها؛ بسَبَبِ تَكذيبِهم، أو استِهزائِهم برُسُلِ اللهِ: كيف لم تكُنْ لهم رَجعةٌ إليهم[(٢)]؟

(١) ممَّن اختار أنَّهم كفَّارُ مكَّةَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٠).
وقيل: المرادُ: أهلُ مكَّةَ وغيرُهم مِن مُشرِكي العربِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: يحيى ابنُ سلام، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٢).
واختار ابنُ عاشور أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى العِبادِ كما يقتضيه تَناسُقُ الضَّمائرِ، ويَتعيَّنُ أن تُخَصَّ منه أوَّلُ أُمَّةٍ كذَّبَتْ رَسولَها، وهم قومُ نوحٍ؛ فإنَّهم لم يَسبِقْ قَبْلَهم هلاكُ أُمَّةٍ كذَّبَتْ رسولَها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٣).
قيل: معنى ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: أنَّ المُهلَكينَ لا يَرجِعونَ إلى الدُّنيا. وممَّن قال بهذا المعنى: يحيى بنُ سلام، وابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٣).
قال الرازي: (قَولُه: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فيه وجهانِ؛ أحدُهما: أُهلِكوا إهلاكًا لا رُجوعَ لهم إلى مَن في الدُّنيا.
وثانيهما: هو أنَّهم لا يَرجِعونَ إليهم، أي: الباقونَ لا يَرجِعونَ إلى المُهلَكينَ بنَسَبٍ ولا ولادةٍ، يعني: أهْلَكْناهم وقَطَعْنا نَسْلَهم، ولا شكَّ في أنَّ الإهلاكَ الَّذي يَكونُ مع قطعِ النَّسلِ أتَمُّ وأعَمُّ. والوجهُ الأوَّلُ أشهرُ نَقْلًا، والثَّاني أظهرُ عقلًا). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧١).
وقيل: المعنى: أنَّهم إلى رُسُلِ اللهِ -الَّذين استَهزؤوا بهم- لا يَرجِعونَ عن مذاهِبِهم الخبيثةِ، ولا يَخصُّونهم بالاتِّباع، فالمعنى: ألم يَرَ المكذِّبون المستهزِئون بالرُّسُلِ أنَّ القرونَ الكثيرةَ الَّتي أهلكها اللهُ بسبب ذلك: لا يَرجِعون إلى رُسُلِهم فيتَّبِعونهم، ويَترُكون تكذيبَهم والاستهزاءَ =

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان كثيرٌ مِن أهلِ الجَهلِ وذَوي الحَمِيَّةِ والأَنَفةِ لا يُبالون بالهَلاكِ في مُتابعةِ الهوى؛ اعتمادًا على أنَّ مَوتةً واحِدةً في لحظةٍ يَسيرةٍ أهْوَنُ مِن حَملِ النَّفْسِ على ما لا تُريدُ، فيكونُ لهم في كُلِّ حينٍ مَوتاتٌ- أخبَرَ تعالى أنَّ الأمرَ غيرُ مُنقَضٍ بالهلاكِ الدُّنيويِّ، بل هناك مِن الخِزيِ والذُّلِّ والهَوانِ والعُقوبةِ والإيلامِ ما لا يَنقضي أبدًا، فقال[1]:

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

أي: إنَّ كُلَّ الأممِ ستُحضَرُ يومَ القيامةِ عندَ اللهِ مُجتَمِعينَ للحِسابِ والجَزاءِ[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يَنظُرَ ويَعتبِرَ؛ بحيثُ إذا نَظَرَ في عواقبِ النَّاسِ اتَّخَذَ مِن ذلك عِبرةً؛ لأنَّ الاستِفهامَ هنا -مع كَونِه للتَّقريرِ- مُفيدٌ للتَّوبيخِ؛

= بهم، أفلا يَخْشَوْنَ أن يَقَعَ بهم مِن الهلاكِ مِثلُ ما وقع للسَّابقينَ؛ لِمُخالفتِهم لِرُسُلِهم؟ قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ١١٨-١٢٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣١)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤، ٥٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢١، ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٦).

قيل: كَلِمةُ ﴿ كُلٌّ ﴾ تُفيدُ أنَّ الإحضارَ مُحيطٌ بهم بحيث لا يَنفلِتُ فريقٌ منهم، وكلمةُ ﴿ جَمِيعٌ ﴾ تُفيدُ أنَّهم مُحضَرونَ مُجتَمِعينَ؛ فليست إحدى الكَلِمَتينِ بمُغْنِيةٍ عن ذِكرِ الأُخرى. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٦).

لأنَّ الواجِبَ على مَن نَظَر في عاقبةِ المكذِّبينَ أن يَرتدِعَ عن الكَذِبِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ وُجوبُ الاستِعدادِ لهذا اليوم؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يُخبِرْنا به لمجرَّدِ الاطِّلاعِ، ولكِنَّه أخبَرَنا به مِن أجْلِ أن نستعِدَّ له حتَّى نكونَ على أُهْبةٍ لِمَا سنُحاسَبُ عليه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أنَّ الملائكةَ مَحَلُّهُم السَّمَواتُ -وهذا هو الأصلُ-، لكنَّهم قد يَنْزِلُون إلى الأرضِ، كما في قولِه تعالى في لَيلةِ القَدْرِ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، وكالملائكةِ الَّذين يَحفظون بني آدمَ، والَّذين يَكتُبون أعمالَهم، والَّذين يَكتُبون المُتَقَدِّمينَ إلى الجُمُعةِ -على أبوابِ المساجِدِ-، وما أشْبَهَ ذلك[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾، وقولُه: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ إنزالَ الجُنودِ مِن عَظائمِ الأمورِ الَّتي لا يُؤهَّلُ لها إلَّا مِثلُ النَّبيِّ محمَّدٍ الَّذي أُنزِلَت له الملائكةُ يومَ بَدْرٍ والأحزابِ، وهذا إشارةٌ إلى تَفضيلِ اللهِ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بكلِّ شَيءٍ على كِبارِ الأنبياءِ وأُولي العَزْمِ مِن الرُّسلِ، فَضلًا عن غَيرِهم[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ بيانُ ذُلِّ كُلِّ شيءٍ لِعَظَمتِه سُبحانَه؛ بحيثُ لا يُكرِّرُ ولا يُعيدُ ما أرادَه؛ لهذا أكَّدَها بـ﴿وَٰحِدَةً﴾؛ لبيانِ أنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥).

لم يَحتاجوا إلى إعادةِ الصَّيحةِ مرَّةً ثانيةً، وهكذا جميعُ ما أمَرَ اللهُ تعالى به كَوْنًا؛ فإنَّه لا يَحتاجُ إلى إعادةٍ؛ لِقَولِه تعالى في سورةِ (القمرِ): ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾[1] [القمر: ٥٠].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ نَصٌّ صريحٌ في تكذيبِ الأُمَمِ لجَميعِ الرُّسُلِ؛ لِما تقرَّر في الأصولِ مِن أنَّ النَّكِرةَ في سياقِ النَّفيِ إذا زِيدَتْ قبْلَها «مِن» فهي نَصٌّ صريحٌ في عُمومِ النَّفيِ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ ردٌّ على القائلينَ بالرَّجْعةِ[3]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ السَّامعَ يَتشوَّفُ إلى مَعرفةِ ما كان مِن هذا الرَّجُلِ المؤمنِ الَّذي جاء مِن أقْصى المدينةِ ناصحًا لِأهْلِها، ومِن أمْرِ قَومِه الَّذين نَصَحهم فلمْ يَنتصِحوا؛ فلمَّا بُيِّن للسَّامعِ ما كان مِن أمْرِه، عُطِفَ عليه بَيانُ ما كان مِن أمْرِ القومِ بعْدَه، وافتتاحُ قِصَّةِ عِقابِهم في الدُّنيا بنَفْيِ صُورةٍ مِن صُوَرِ الانتقامِ، تَمهيدٌ للمَقصودِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٣٠).

والرَّجعةُ: مذهبٌ يؤمِنُ بالرُّجوعِ إلى الدُّنيا بعدَ الموتِ، أو برُجوعِ الإمامِ بعدَ مَوتِه أو غَيبتِه، أوَّلُ مَن قال به عبدُ الله بنُ سَبَأٍ. يُنظر: ((مقالات الإسلاميين)) للأشعري (١/ ٣٢، ٥٤)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٢/ ٨٦٢).

وقد اعترَض البِقاعي على الاستِدلالِ بالآيةِ على ذلك. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٩).

مِن أنَّهم ما حلَّ بهم إلَّا مِثلُ ما حلَّ بأمثالِهم مِن عَذابِ الاستئصالِ[١]. أو كلامٌ مُستأْنَفٌ مَسوقٌ لاحتقارِ أمْرِهم، أي: لا حاجةَ إلى إرسالِ جُنودٍ لهم؛ فأقَلُّ شَيءٍ كافٍ لإبادتِهم، واستِئصالِ شأْفَتِهم[٢].

- وأسنَد الفعلَ ﴿أَنزَلْنَا﴾ إلى نفْسِه بلفظِ التَّعظيمِ؛ لأنَّ العذابَ هو مِن بابِ الهَيبةِ[٣].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ صِلةٌ في الظَّرفِ؛ لِتَأكيدِ اتِّصالِ المظروفِ بالظَّرفِ، و(مِن) في قولِه: ﴿مِن جُندٍ﴾ مُؤكِّدةٌ لِعُمومِ ﴿جُندٍ﴾ في سِياقِ النَّفيِ، و(مِن) في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ابتدائيَّةٌ، وفي الإتيانِ بحَرْفِ (مِن) ثلاثَ مرَّاتٍ مع اختلافِ المعنى مُحسِّنُ الجِناسِ[٤].

- وفي هذا تَعريضٌ بالمشركينَ مِن أهلِ مكَّةَ؛ إذ قالوا للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٩٢]، أي: تأْتيَ باللهِ الَّذي تَدَّعِي أنَّه أرسَلَك ومعه جُندُه مِن الملائكةِ؛ لِيَثأرَ لك، فجُملةُ ﴿وَمَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥، ٦).

والجِناسُ: هو تشابُهُ لَفظَينِ في النُّطقِ، واختلافُهما في المعنى، وهو مِن المحاسنِ اللَّفظيَّةِ، وفنٌّ بديعٌ في اختيارِ الألفاظِ الَّتي تُوهِمُ في البَدْءِ التَّكريرَ، لكنَّها تُفاجِئُ بالتَّأسيسِ واختِلافِ المعنى. ويَنقسِمُ الجِناسُ إلى نَوعَينِ: لَفظيٍّ، ومعنويٍّ، وكلٌّ منهما يَندرِجُ تحتَه أنواعٌ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٠ - ٤٥٢)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣١٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٨٥، ٤٩٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٢٥ وما بعدها).

كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ نَوعَي العِقابِ المنفيِّ والمُثبَتِ؛ لِقَصدِ الرَّدِّ على المشركينَ بأنَّ سُنَّةَ اللهِ تعالى لم تَجْرِ بإنزالِ الجُنودِ على المكذِّبينَ، وشأْنُ العاصينَ أدْوَنُ مِن هذا الاهتِمامِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ الصَّيحةُ: المرَّةُ مِن الصِّياحِ، بوَزنِ فَعلةٍ؛ فوَصْفُها بـ﴿وَاحِدَةً﴾ تأْكيدٌ لِمَعنى الوَحدةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المُرادَ الجِنسُ المفرَدُ مِن بيْنِ الأجناسِ[٢].

- وأكَّدَ أمْرَ الصَّيحةِ، وحقَّقَ وَحْدتَها بقولِه: ﴿وَاحِدَةً﴾، أي: لِحَقارةِ أمْرِهم عِندَنا، ثمَّ زادَ في تَحقيرِهم ببَيانِ الإسراعِ في الإهلاكِ بقولِه: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾، أي: ثابتٌ لهم الخُمودُ، كأنَّهم ما كانتْ لهم حَركةٌ يومًا مِن الدَّهرِ[٣].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ مَجيءُ (إذا) الفُجائيَّةِ في الجُمْلةِ المُفرَّعةِ على ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾؛ لإفادةِ سُرعةِ الخُمودِ إليهم بتلك الصَّيحةِ، وفيه إيجازٌ بَديعٌ يُشيرُ إلى حَدَثٍ عظيمٍ حدَثَ بأهْلِ تلك القريةِ عَقِبَ دَعوةِ المرسَلينَ[٤].

- وفي قولِه: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ؛ شبَّهَهم بالنَّارِ الخامدةِ الَّتي صارتْ رَمادًا؛ رَمْزًا إلى أنَّ الحيَّ كالنَّارِ السَّاطعةِ في الحَرَكةِ والالتهابِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٦ - ١١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧).

والمَيتَ كالرَّمادِ[١]. وفي ذلك تَوعُّدٌ لِقُريشٍ أنْ يُصِيبَهم ما أصابَهم؛ إذ همُ المَضروبُ لهم المثَلُ[٢].

- وذُكِرَت الصَّيحةُ مرَّتينِ؛ في قولِه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾، وقولِه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وليس بتكرارٍ؛ لأنَّ الأُولى هي عقوبةُ أهلِ القريةِ، والثَّانيةَ هي النَّفخةُ الَّتي يَحْيا بها الخلْقُ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ تَذْييلٌ، وهو مِن كَلامِ اللهِ تَعالى -على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ- واقعٌ مَوقعَ الرِّثاءِ للأُمَمِ المُكذِّبةِ الرُّسُلَ، شاملٌ للأُمَّةِ المقصودةِ بِسَوْقِ الأمثالِ السَّابقةِ مِن قَولِه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣]، واطِّرادِ هذا السَّنَنِ القَبيحِ فيهم؛ فالتَّعريفُ في العِبادِ تَعريفُ الجِنسِ المُستعمَلِ في الاستِغراقِ، وهو استِغراقٌ ادِّعائيٌّ رُوعِيَ فيه حالُ الأغلَبِ على الأُمَمِ الَّتي يَأتيها رسولٌ؛ لعَدَمِ الاعتدادِ في هذا المَقامِ بِقِلَّةِ الَّذين صدَّقوا الرُّسُلَ ونَصَروهم، فكأنَّهم كُلَّهم قد كذَّبوا[٤].

- قَولُه: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ...﴾ حرْفُ النِّداءِ للتَّنبيهِ على خَطَرِ ما بعْدَه؛ لِيُصْغيَ إليه السَّامِعُ، وهو أَوْكَدُ وأبلَغُ لِتَنبيهِ المُخاطَبِ بالنِّداءِ على المَطْلوبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٧)، ((حاشية الطيبي =

- والتَّنكيرُ في قَولِه: ﴿يَٰحَسۡرَةً﴾ دلَّ على شِدَّةِ تَحَسُّرِ العِبادِ المُكَذِّبينَ للرُّسُلِ -وذلك على قولٍ-؛ وأنَّها حَسرةٌ عَظيمةٌ؛ لأنَّ التَّنكيرَ يُفيدُ أحيانًا التَّعظيمَ والشِّدَّةَ[1].

- وجُملةُ ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ ...﴾ كَلامٌ مُستأْنَفٌ مَسوقٌ لِتَعليلِ التَّحسُّرِ عليهم؛ لأنَّ قَولَه: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ وإنْ كان قد وَقَعَ بعدَ ذِكْرِ أهْلِ القَريةِ؛ فإنَّه لَمَّا عُمِّمَ على جَميعِ العِبادِ حدَثَ إيهامٌ في وَجهِ العُمومِ، فوَقَعَ بيانُه بأنَّ جميعَ العِبادِ -على أحدِ الأقوالِ- مُساوونَ لِمَن ضُرِبَ بهم المَثَلُ ومَن ضُرِبَ لهم في تلك الحالةِ المُمثَّلِ بها، ولم تَنفَعْهم المَواعظُ والنُّذُرُ البالِغةُ إليهم مِن الرَّسولِ المُرسَلِ إلى كُلِّ أُمَّةٍ منهم، فهَلَكوا؛ فعُلِمَ وَجْهُ الحَسْرةِ عليهم إجْمالًا مِن هذه الآيةِ، ثمَّ تَفصيلًا مِن قَولِه بعدُ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ

= على الكشاف)) (١٣/ ٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨).

قال الزَّجَّاجُ: (إذا قال القائلُ: ما الفائدةُ في مُناداةِ الحسرةِ، والحسرةُ ممَّا لا يُجيبُ؟

فالفائدةُ في مُناداتِها كالفائدةِ في مُناداةِ ما لا يعقلُ؛ لأنَّ النِّداءَ بابُ تنبيهٍ. إذا قلتَ: يا زَيْدُ، فإن لم تكُنْ دَعَوْتَه لِتُخاطِبَه لِغيرِ النِّداءِ فلا معنى للكلامِ، إنَّما تقولُ: يا زَيدُ، فتُنَبِّهُه بالنِّداءِ، ثمَّ تقولُ له: فعَلْتَ كذا وافعَلْ كذا، وما أحبَبْتَ ممَّا له فيه فائدةٌ، ألَا ترى أنَّك تقولُ لِمَن هو مُقْبِلٌ عليك: «يا زَيدُ، ما أحْسَنَ ما صنَعْتَ!»، ولو قلتَ له: «ما أحْسَنَ ما صنَعْتَ!» كنتَ قد بلَغْتَ في الفائدةِ ما أفهَمْتَ به، غيرَ أنَّ قولَك: «يا زَيدُ» أوْكَدُ في الكلامِ، وأبلَغُ في الإفهامِ. وكذا إذا قلتَ للمُخاطَبِ: «أنا أعجَبُ ممَّا فَعَلْتَ» فقد أفَدْتَه أنَّك مُتعجِّبٌ، ولو قلتَ: «واعَجَباه ممَّا فعلْتَ، ويا عَجَباه أتَفْعَلُ كذا وكذا!» كان دعاؤُك العجَبَ أبلَغَ في الفائدةِ، والمعنى: يا عَجَبُ أقْبِلْ؛ فإنَّه مِن أوقاتِك، وإنَّما نِداءُ العَجَبِ تنبيهٌ لِتمكِّنِ علمِ المُخاطَبِ بالتَّعجُّبِ مِن فِعلِه. وكذلك إذا قلتَ: «وَيْلٌ لِزَيدٍ، أو: وَيْلَ زَيدٍ لِمَ فعَلَ كذا وكذا؟!» كان أبلَغَ. وكذلك في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ [هود: ٧٢]، وكذلك: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، وكذلك: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٠٨).

أَهۡلَكۡنَا﴾ [يس:٣١] إلخ[١].

- وقيلَ: قَولُه: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ تَمثيلٌ لِقُريشٍ، وهُم الَّذين عاد عليهم الضَّميرُ في قَولِه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾[٢].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ على ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالرَّسولِ المُشعِرِ باستِفظاعِ الاستِهزاءِ به مع تأتِّي الفاصلةِ بهذا التَّقديمِ، فحَصَلَ منه غَرَضانِ: مِن علمِ المعاني، ومِن علمِ البَديعِ[٣]؛ فالتَّقديمُ والتَّأخيرُ مِن المعاني، والرِّعايةُ على الفاصلةِ مِن البديعِ.

٤- قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾

- قَولُه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]؛ لِما فيها مِن تَفْصيلِ الإجمالِ المُسْتفادِ منه؛ فإنَّ عاقِبةَ ذلك الاستِهزاءِ بالرَّسولِ كانت هَلاكَ المُستَهزِئينَ، فعَدَمُ اعتبارِ كُلِّ أُمَّةٍ كذَّبتْ رسولَها بعاقِبةِ المُكذِّبينَ قَبْلَها يُثيرُ الحَسْرةَ عليها وعلى نُظَرائِها كما أثارَها استِهزاؤُهم بالرَّسولِ، وقِلَّةُ التَّبصُّرِ في دَعْوتِه ونِذارتِه ودَلائِلِ صِدقِه[٤].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ إنكاريًّا، ونُزِّلتْ غَفلَتُهم عن إهْلاكِ القُرونِ مَنزلةَ عَدَمِ العِلمِ، فأُنكِرَ عليهم عَدَمُ العِلمِ بذلك، وهو أمْرٌ مَعلومٌ مَشهورٌ. ويجوزُ كَونُ الاستِفهامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨، ٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَقريريًّا، بُنِيَ التَّقريرُ على نَفيِ العِلمِ بإهلاكِ القرونِ؛ استِقصاءً لِمَعذِرَتِهم حتَّى لا يَسَعَهم إلَّا الإقرارُ بأنَّهم عالِمونَ، فيَكونَ إقرارُهم أشَدَّ لُزومًا لهم؛ لأنَّهم استُفْهِموا على النَّفيِ، فكان يَسَعُهم أنْ يَنفُوا ذلك[١].

- قَولُه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ (كَمْ) مُفادُها كَثرةٌ مُبهَمةٌ فُسِّرتْ بقَولِه: ﴿مِّنَ الْقُرُونِ﴾، وقَولُه: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قيل: بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُمْلةِ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، وفائِدةُ هذا البَدَلِ تَقريرُ تَصْويرِ الإهْلاكِ؛ لزِيادةِ التَّخويفِ، ولاستِحضارِ تلك الصُّورةِ في الإهْلاكِ، أي: إهْلاكًا لا طماعيةَ معه لِرُجوعٍ إلى الدُّنيا؛ فإنَّ ما يَشتمِلُ عليه الإهلاكُ مِن عَدَمِ الرُّجوعِ إلى الأهْلِ والأحبابِ ممَّا يَزيدُ الحَسْرةَ اتِّضاحًا[٢].

- قولُه: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿يَرْجِعُونَ﴾، وقُدِّم على مُتعلَّقِه؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بَيانٌ لرُجوعِ الكُلِّ إلى المَحْشرِ، بعدَ بَيانِ عَدَمِ الرُّجوعِ إلى الدُّنيا[٤].

- وهو مَعطوفٌ على جُمْلةِ ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١]، واقِعٌ مَوقِعَ الاحتِراسِ مِن توهُّمِ المُخاطَبينَ بالقُرآنِ أنَّ قَولَه: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ مُؤيِّدٌ اعتِقادَهم انتِفاءَ البَعْثِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١).

- وجاءتْ هذه الجُملةُ بعدَ ذِكرِ الإهْلاكِ تَبْيينًا أنَّه تَعالى ليس مَن أهْلَكَه يُتْرَكُ، بل بعدَ إهْلاكِهم جَمْعٌ وحِسابٌ، وثَوابٌ وعِقابٌ؛ ولذلك أُعقِبَ هذا بما يدُلُّ على الحَشرِ مِن قَولِه: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ وما بعدَه مِن الآياتِ[1].

- قَولُه: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي: كُلُّ القُرونِ مُحضَرونَ لدينا مُجتَمِعينَ، أي: ليس إحضارُهم في أوْقاتٍ مُختلِفةٍ، ولا في أمْكنةٍ مُتعدِّدةٍ؛ فكلمةُ (كُلٌّ) أفادتْ أنَّ الإحضارَ مُحيطٌ بهم بحيث لا يَنفلِتُ فريقٌ منهم، وكلمةُ ﴿جَمِيعٌ﴾ أفادتْ أنَّهم مُحضَرونَ مُجتمِعينَ، فليست إحدى الكلمتَينِ بمُغْنيةٍ عن ذِكرِ الأُخرَى، ألَا ترى أنَّه لو قيلَ: وإنَّ أكثَرَهم لَمَّا جَميعٌ لَدَيْنا مُحْضَرونَ، لَمَا كان تَنافٍ بيْنَ أكثَرِهم وبيْنَ (جَميعِهم)، أي: أكثَرُهم يَحضُرُ مُجتمِعينَ، فارتَفَعَ ﴿جَمِيعٌ﴾ على الخَبَريَّةِ[2].

- وتَقديمُ الظَّرفِ ﴿لَّدَيْنَا﴾ على ﴿مُحْضَرُونَ﴾؛ لمُراعاةِ الفَواصِلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١ - ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤).

الآيات (٣٣-٣٦)

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَءَايَةٌ ﴾: أي: عَلامَةٌ، ودليلٌ، وحُجَّةٌ على وحدانيَّةِ الله، وكمالِ قدرتِه، وتُطلَقُ الآيةُ أيضًا على العَجيبةِ، وأصلُ (أبي): النَّظرُ[1].

﴿وَفَجَّرْنَا﴾: أي: أنْبَعْنا، والفَجْرُ: شَقُّ الشَّيءِ شَقًّا واسعًا، يُقالُ: فَجَرْتُه فانْفَجَر، وفَجَّرْتُه فتَفَجَّرَ، وأصلُ (فجر): يدُلُّ على تفتُّحٍ في الشَّيءِ[2].

﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾: أي: الأجناسَ والأصنافَ، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢٥) و(١٩/ ٤٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦١). قال الشنقيطيُّ: (والآيةُ في القرآنِ تُطلَقُ إطلاقَين: تُطلَقُ الآيةُ على الآيةِ الكَونيَّةِ القَدَريَّةِ، وهي مِن الآيةِ بمعنى: العلامةِ، وهي ما نصَبه اللهُ جلَّ وعلا مِن آياتِه، جاعلًا لها علاماتٍ على كمالِ قُدرتِه، وأنَّه الرَّبُّ وحْدَه، المعبودُ وحْدَه، كقولِه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أي: لَعلاماتٍ ودَلالاتٍ واضحاتٍ على أنَّه الرَّبُّ المستحِقُّ أنْ يُعبَدَ وحْدَه. الإطلاقُ الثَّاني: تُطلَقُ الآيةُ في القرآنِ على الآيةِ الشَّرعيَّةِ الدِّينيَّةِ، كآياتِ هذا القرآنِ العظيمِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، =

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى الأدلَّةَ الدَّالَّةَ على وحدانيَّتِه وقدرتِه، فيقولُ: ومِن العَلاماتِ الواضِحةِ لهؤلاء المُشرِكينَ على قُدرتِنا على إحياءِ الموتى: أنَّنا نُنزِّلُ الماءَ على الأرضِ الجَدباءِ، فتَحيا وتُخرِجُ ألوانًا وأصنافًا مِن الحُبوبِ الَّتي يأكُلونَها، وأنَّنا جعَلْنا فيها بَساتينَ مِن النَّخيلِ والأعنابِ، وفجَّرْنا فيها مِن عُيونِ الماءِ؛ لِيأكُلوا مِن الثِّمارِ الَّتي جعَلْناها لهم، ولم تَصنَعْها أيديهم؛ أفلا يَشكُرُ النَّاسُ رَبَّهم الَّذي أوجَدَ لهم تلك النِّعَمَ.

تَنَزَّهَ اللهُ -تعالى- عمَّا لا يَليقُ به؛ الَّذي خلَقَ الأنواعَ والأصنافَ كُلَّها، مِن النَّباتاتِ، ومِن النَّاسِ، وممَّا لا يَعلَمونَه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ ﴾ [يس: ٣٢] كان ذلك إشارةً إلى الحَشرِ، فذكَرَ ما يدُلُّ على إمكانِه؛ قَطعًا لإنكارِهم واستِبعادِهم، وإصرارِهم وعِنادِهم، فقال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ كذلك نُحيي الموتى[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ حالَ المُرسَلينَ وإهلاكَ المكَذِّبينَ، وكان شُغلُهم التَّوحيدَ؛ ذكَرَ ما يدُلُّ عليه، وبدأ بالأرضِ؛ لِكَونِها مكانَهم، لا مُفارقةَ لهم منها عندَ الحَركةِ والسُّكونِ[2].

= ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٧٢).

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أي: وعَلامةٌ عَظيمةٌ لكفَّارِ قريشٍ[١] دالَّةٌ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ قُدرتِه على بَعثِ الموتَى، وعلى غيرِ ذلك، وهي إحياءُ اللهِ الأرضَ المُجدِبةَ، وإخراجُه منها أنواعًا مِن الحُبوبِ الَّتي يتغذَّى النَّاسُ عليها[٢].

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾.

أي: وجعَلْنا في الأرضِ -الَّتي كانت مَيْتةً فأحْيَيْناها- بَساتينَ مِن أشجارِ النَّخيلِ والأعنابِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٩].

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت الجنَّاتُ لا تَصلُحُ إلَّا بالماءِ، وكان مِن طَبعِ الماءِ الغَورُ في التُّرابِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٨٣).

قال أبو حيَّان: (والضَّميرُ في ﴿لَّهُمُ﴾ عائدٌ على كُفَّارِ قُريشٍ ومَن يجري مَجراهُم في إنكارِ الحشرِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

والرُّسوبُ بشِدَّةِ السَّرَيانِ إلى أسفَلَ؛ فكان فَوَرانُه إلى جِهةِ العُلُوِّ أمرًا باهِرًا للعَقلِ، لا يكونُ إلَّا بقَسرِ قاسرٍ حكيمٍ- قال[١]:

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾.

أي: وفجَّرْنا في الأرضِ مِن عُيونِ الماءِ[٢].

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي: لِيَأكُلَ النَّاسُ مِن ثَمَرِه[٣]، .....

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

(٣) قيل: الضمَّيرُ في ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ يعودُ إلى الله تعالى، فهو مِن فِعْلِه وخَلْقِه. وممَّن قال بهذا المعنى: الزَّمخشريُّ، والنَّسفيُّ، وذكر الرَّازيُّ أنَّه القولُ المشهورُ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٤).

وقيل: يعودُ إلى الماءِ الَّذي فجَّره اللهُ تعالى مِن الأرضِ، أي: ليأكُلوا مِن الثَّمَرِ الحاصِلِ بالماءِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مكِّي، والسمعانيُّ، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وأبو حيان. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤).

وقيل: المعنى: مِن ثَمَرِ ما تقدَّمَ ذِكرُه مِن الجنَّاتِ والنَّخيلِ. وممَّن قال بهذا في الجملةِ: ابنُ جرير، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢٠).

وما[١] .....

(١) قيل: (مَا) هنا اسمٌ موصولٌ بمعنى الَّذي، أي: لِيَأْكُلوا أيضًا ممَّا صنَعَتْه أيديهم، بالغَرسِ والحَفرِ والزِّراعةِ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكِّي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، وابن جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٢).

وقيل: المرادُ بما عَمِلَتْه أيديهم: ما يُتَّخَذُ مِن الثَّمَرِ؛ كالعصيرِ والدِّبْسِ وغيرِهما. وممَّن اختاره: البيضاوي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩).

وجمَعَ الشَّوكانيُّ بين المعنيَينِ السابقين؛ فقال: (أي: لِيَأْكُلوا مِن ثَمَرِه، ويأْكُلوا ممَّا عَمِلَتْه أيْديهم كالعصيرِ والدِّبْسِ ونحوِهما، وكذلك ما غَرَسوه وحَفَروه، على أنَّ «ما» موصولةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٣).

وقيل (مَا) نافيةٌ، والمعنى: ليست تلك الثِّمارُ مِن صُنعِ أيديهم، وليست بحَولِهم وقوَّتِهم، ولكِنْ هي مِن فِعلِ اللهِ رحمةً بهم. وممَّن قال بهذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥٥).

وقيل: الآيةُ صالحةٌ للمَعنيَينِ: أن تكونَ (ما) بمعنى (الَّذي)، وأن تكونَ نافيةً، ولا مانعَ مِن حَملِها عليهما؛ فيَشمل قولُه: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ما يَصْنَعُه النَّاسُ بأيديهم؛ كالعصيرِ والخبزِ وغيرِ ذلك، والمعنى الثَّاني: أنَّ أيديَنا لم تعملْ هذه الثَّمَراتِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢١).

قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن تكونَ «مَا» في قَولِه: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ مَوصولةً مَعطوفةً على ﴿ثَمَرِهِ﴾، أي: ليأكُلوا مِن ثمَرِ ما أخرَجْناه، ومِن ثمَرِ ما عمِلَتْه أيديهم... وضميرُ ﴿عَمِلَتْهُ﴾ على هذا عائدٌ إلى اسم الموصولِ. ويجوزُ أن يكونَ «مَا» نافيةً، والضَّميرُ عائدٌ إلى ما ذُكِرَ مِن الحَبِّ والنَّخيلِ والأعنابِ، والمعنى: أنَّ ذلك لم يَخلُقوه... ويجوزُ أن يكونَ مِن حَذفِ المفعولِ؛ =

عَمِلَتْه أيديهم[١].

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

أي: أفلا يَشكُرُ النَّاسُ رَبَّهم الَّذي أوجَدَ لهم تلك النِّعَمَ[٢]؟

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرهم الله تعالى بالشُّكرِ، وشُكْرُ الله تعالى بالعبادةِ، وهم ترَكوها وعبَدوا غيرَه وأشرَكوا؛ قال تعالى[٣]:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾.

أي: تَنَزَّهَ اللهُ عمَّا لا يَليقُ به مِن الشِّركِ وجَميعِ النَّقائِصِ؛ الَّذي خلَقَ الأصنافَ كلَّها ممَّا تُنبِتُه الأرضُ مِن النَّباتاتِ والزُّروعِ والثِّمارِ والحبوبِ[٤].

= لإرادةِ العُموم، والتَّقديرُ: وما عَمِلَت أيديهم شيئًا مِن ذلك. وكِلا الحذفَينِ شائِعٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤، ١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥، ٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

قال ابن عثيمين: (الشُّكرُ هو: القيامُ بطاعةِ المُنعِم، وصَرْفُ نِعَمِه فيما جعَلَها اللهُ له... والشُّكرُ مُتعَلَّقُه ثلاثةُ أشياءَ: القَلبُ، واللِّسانُ، والجوارحُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: ومِن النَّاسِ أنفُسِهم، فخَلَق منهم ذُكورًا وإناثًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۞ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: وممَّا لا يَعلَمُه النَّاسُ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وُجوبُ شُكرِ نِعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ اللهَ وَبَّخَ مَن لا يَشكُرُ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- كلُّ شَيءٍ يَنمو ويَتزايدُ تُسمِّيه العَرَبُ حَيًّا؛ ولذا يُسَمُّونَ النَّباتَ حَيًّا؛ لأنَّه

= قال القرطبي: (نزَّه نَفْسَه سُبحانَه عن قَولِ الكُفَّارِ؛ إذ عَبَدوا غيرَه مع ما رأَوْه مِن نِعَمِه وآثارِ قُدرتِه، وفيه تقديرُ الأمرِ، أي: سَبِّحوه ونَزِّهوه عمَّا لا يَليقُ به. وقيل: فيه معنى التَّعجُّبِ، أي: عَجبًا لهؤلاء في كُفرِهم مع ما يُشاهِدونَه مِن هذه الآياتِ! ومَن تعجَّبَ مِن شَيءٍ قال: سُبحانَ اللهِ!). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢٧).

يَنمو، ويُسَمُّونَ اليابِسَ منه -الَّذي لا يَنمو- مَيْتًا، ومِن هنا كانوا يقولون للأرضِ الجَدْبةِ القاحِلةِ: مَيْتةً؛ لأنَّ نباتَها يابِسٌ لا ينمو، فإذا نبَتَ فيها النَّباتُ الأخضَرُ النَّامي سَمَّوها: حيَّةً، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أنَّه إنْ قُلْنا: إنَّ الآيةَ مَذكورةٌ للاستِدلالِ على جوازِ إحياءِ الموتى، فكان يَكفي قَولُه: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾؛ فما الفائِدةُ من قَولِه تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾؟

الجوابُ: له فائِدةٌ بالنِّسبةِ إلى بيانِ إحياءِ الموتى؛ وذلك لأنَّه لَمَّا أحيا الأرضَ، وأخرَجَ منها حبًّا، كان ذلك إحياءً تامًّا؛ لأنَّ الأرضَ المُخضَرَّةَ الَّتي لا تُنبِتُ الزَّرعَ ولا تُخرِجُ الحَبَّ دونَ ما تُنبِتُه في الحياةِ؛ فكأنَّه قال تعالى: الَّذي أحيا الأرضَ إحياءً كامِلًا مُنْبِتًا للزَّرعِ: يُحيي الموتى إحياءً كامِلًا[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ الاستِدلالُ بالشَّاهِدِ على الغائِبِ؛ فإنَّ إحياءَ الأرضِ بعدَ الموتِ مُشاهَدٌ، ويُستَدَلُّ بها على إحياءِ اللهِ الموتى عندَ بَعثِهم يومَ القيامةِ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ قال عندَ ذِكرِ الحَبِّ: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾، وفي الأشجارِ والثِّمارِ قال: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾؛

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢٤).

وذلك لأنَّ الحَبَّ قُوتٌ لا بدَّ منه؛ فقال: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي: هم آكِلوه، وأمَّا الثِّمارُ فليست كذلك، فكأنَّه تعالى قال: إنْ كُنَّا ما أخرَجْناها كانوا يَبقَون من غيرِ أكلٍ، فأخرَجْناها لِيأكُلوها[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ بيانُ حاجةِ العبدِ لربِّه، وكأنَّ هذا الحصرَ فيه إشارةٌ إلى تحدِّي الإنسانِ أنَّه لا يمكنُ أنْ يأكُلَ إلَّا مِن هذا الَّذي أخرجَه اللهُ له -وهذا مِن فوائدِ الحصرِ-، كأنَّه يقولُ: إنْ كنتَ قادرًا فأخرِجْ لِنَفْسِك ما تأكُلُه؛ إنَّك لنْ تأكُلَ إلَّا ممَّا أخرَجْناه لك[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه نَفْعٌ كُلُّه؛ خَشَبُه، ولِيفُه، وشُعَبُه، وخُوصُه، وعراجينُه، وثمَرُه؛ طَلْعًا، وجُمَّارًا[٣]، وبُسْرًا، ورُطَبًا، وتَمْرًا؛ ولذلك -واللهُ أعلَمُ- أتَى فيه بصيغةِ جمعِ الكَثرةِ، كـ﴿ٱلْعُيُونِ﴾[٤].

٧- قَولُه تعالى: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ خَصَّص النَّخيلَ والأعنابَ بالذِّكرِ مِن سائرِ الفواكِه؛ لأنَّ ألَذَّ المطعومِ الحَلاوةُ، وهي فيها أتَمُّ، ولأنَّ التَّمرَ والعِنَبَ قُوتٌ وفاكِهةٌ، ولا كذلك غيرُهما، ولأنَّهما أعَمُّ نَفعًا؛ فإنَّها تُحمَلُ مِن البلادِ إلى الأماكِنِ البعيدةِ. فإنْ قيل: فقد ذكَرَ اللهُ الرُّمَّانَ والزَّيتونَ في (الأنعامِ)، والقَضْبَ والزَّيتونَ والتِّينَ في مواضِعَ؟

نقول: في (الأنعام) وغيرِها المقصودُ ذِكرُ الفواكِه والثِّمارِ؛ ألا ترَى إلى قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ...﴾[الأنعام: ٩٩]، وإلى قَوله: ﴿فَلْيَنظُرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢٤).

(٣) الجُمَّارُ: قلْبُ النَّخلِ، واحدتُه جُمَّارةٌ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٩٤)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٥).

ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ [عبس: ٢٤]؟ فاستوفى الأنواعَ بالذِّكرِ، وهاهنا المقصودُ ذِكرُ صِفاتِ الأرضِ؛ فاختار منها الألَذَّ الأنفَعَ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ أنَّ بني آدمَ على أصنافٍ متنوِّعةٍ، كما كان ذلك أيضًا فيما تُنبِتُه الأرضُ، بل وفي الأرضِ نفْسِها؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ ﴾ [الرعد: ٤]، فإثباتُ التَّجاوُرِ لها يقتضي أنَّ كلَّ واحدٍ منها يُخالِفُ الآخَرَ؛ لأنَّ الجارَ غيرُ جارِه، وكذلك هنا ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ يدُلُّ على أنَّ في الأرضِ أصنافًا مُنوَّعةً مِن النَّباتاتِ، كذلك ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ فيما خَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِن بني آدمَ أصنافًا: ذكرًا وأنثى، أسْوَدَ وأبيضَ، طويلًا وقصيرًا، شقيًّا وسعيدًا، ذكيًّا وبَليدًا، عاقِلًا وسَفيهًا... وهكذا؛ لِيَعتبِرَ الإنسانُ قدرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ على خَلقِ هذه الأشياءِ المُتضادَّةِ(٢).

٩- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ في قَولِه: ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ إشارةٌ إلى أسرارٍ مُودَعةٍ في خَلقِ أنْواعِ الحَيَوانِ وأصْنافِه هي الَّتي ميَّزَتْ أنْواعَه عن بَعضٍ، وميَّزَتْ أصْنافَه وذُكورَه عن إناثِه، وأُودِعَتْ فيه الرُّوحُ الَّذي امتازَ به عن النَّباتِ بتَدبيرِ شُؤونِه على حَسَبِ استِعدادِ كُلِّ نَوعٍ وكُلِّ صِنفٍ، وأشرَفُ أنواعِه هو نَوعُ الإنسانِ، فمَعنى و(مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ): مِمَّا لا يَعلَمونَه تَفصيلًا، وإن كانوا قد يَشعُرونَ به إجمالًا، فإنَّ المتأمِّلَ يَعلَمُ أنَّ في المخلوقاتِ أسرارًا خَفيَّةً لم تصِلْ أفهامُهم إلى إدراكِ كُنْهِها، ومِن ذلك الرُّوحُ؛ فقد قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٣٣).

مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقد يَتفاضَلُ النَّاسُ في إدراكِ بَعضِ تلك الخصائِصِ إجمالًا وتفصيلًا، ثمَّ يَستوُونَ في عدَمِ العِلمِ ببَعضِها، وقد يمتازُ بعضُ الطوائِفِ أو الأجيالِ بمعرفةِ شَيءٍ مِن دقائقِ الخَلقِ بسَبَبِ اكتِشافٍ أو تجرِبةٍ أو تَقَصِّي آثارٍ لم يكُنْ يَعرِفُها غيرُ أولئك، ثمَّ يَستوون فيما بَقِيَ تحتَ طَيِّ الخَفاءِ مِن دقائِقِ التَّكوينِ؛ فبهذا الشُّعورِ الإجماليِّ بها وقع عَدُّها في ضِمنِ الاعتِبارِ بآيةِ خَلقِ الأزواجِ مِن جميعِ النَّواحي[١].

١٠- قال الله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾، ولم يَقُلْ: (الحمدُ لله الَّذي خلق الأزواجَ)، بل قال: ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾؛ لأنَّ كَونَ كُلِّ شَيءٍ يحتاجُ إلى ازدواجيَّةٍ: يدُلُّ على كَمالِ الواحِدِ المتفرِّدِ الَّذي لا يماثِلُه شَيءٌ مِن مخلوقاتِه؛ فبنو آدَمَ لا بدَّ مِن ازدواجيَّةِ ذكرٍ وأُنثَى[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ إعلامُه بكثرةِ مخلوقاتِه: يدُلُّ على اتِّساعِ مُلكِه، وعِظَمِ قُدرتِه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لإيرادِ آيةٍ على البَعثِ والتَّوحيدِ[٤]. وقيل: عَطفٌ على قِصَّةِ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ [يس: ١٣]؛ فإنَّه ضرَبَ لهم مَثَلًا لحالِ إعراضِهم، وتَكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما تَشتمِلُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٦).

تلك الحالُ مِن إشراكٍ، وإنْكارٍ للبَعثِ، وأذًى للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعاقِبةِ ذلك كُلِّه، ثم أُعقِبَ ذلك بالتَّفْصيلِ؛ لإبطالِ ما اشتَمَلَتْ عليه تلك الاعتقاداتُ مِن إنْكارِ البَعثِ، ومِن الإشراكِ باللهِ، وابتُدِئَ بدَلالةِ تَقريبِ البَعثِ؛ لمُناسَبةِ الانتِقالِ مِن قَولِه: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢]، على أنَّ هذه لا تَخلو مِن دَلالتِها على الانفِرادِ بالتَّصرُّفِ، وفي ذلك إثباتُ الوَحْدانيَّةِ(١).

- وقيلَ: إنَّ قولَه: ﴿وَءَايَةٌ﴾ خَبَرٌ مُقدَّمٌ؛ للاهتِمامِ به، وتَنكيرُها للتَّفخيمِ(٢).

- وفي قَولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ...﴾ بَدَأَ بالأرضِ؛ لأنَّها مُستَقَرُّهم، حَرَكةً وسُكونًا، حَياةً ومَوتًا(٣).

- وجُملةُ ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن ﴿ٱلْأَرْضُ﴾، وهي حالٌ مُقيِّدةٌ؛ لأنَّ إحْياءَ الأرضِ هو مَناطُ الدَّلالةِ على إمْكانِ البَعثِ بعدَ المَوتِ، أو يَكونُ جُملةُ ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ بيانًا لِجُملةِ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾؛ لبَيانِ مَوقعِ الآيةِ فيها، أو بَدَلَ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾، أو استِئْنافًا بَيانيًّا؛ كأنَّ سائِلًا سَألَ: كيف كانتِ الأرضُ المَيْتةُ(٤)؟

- قَولُه: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ إخراجُ الحَبِّ مِن الأرضِ: هو إخْراجُه مِن نَباتِها، فهو جاءَ منها بواسِطةٍ، وهذا إدْماجٌ(٥) للامتِنانِ في ضِمنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢).

(٥) سبق تعريفه (ص: ٥٥).

الاستِدلالِ؛ ولذلك فُرِّعَ عليه ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾[١].

- وتَقديمُ الظَّرفِ ﴿فَمِنْهُ﴾ على ﴿يَأْكُلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الحَبَّ هو الشَّيءُ الَّذي يَتعلَّقُ به مُعظَمُ العَيشِ؛ فتَقديمُ صِفةِ الأكْلِ تُفيدُ الاختِصاصَ، وقد عُلِم أنَّ المَأْكولَ غَيرُ مُختَصٍّ به، لكنْ قُدِّمَ الحَبُّ لِيَدُلَّ على أنَّه الأصْلُ في الارتِزاقِ، والمَأْكولاتُ تابِعةٌ له، فإنَّه إذا قَلَّ نزَلَ القَحطُ، وإذا حُصِر جاء الهلاكُ؛ فالدَّوَرانُ معه؛ فإرادةُ التَّخْصيصِ على المُبالَغةِ والادِّعاءِ، نحوُ إطلاقِ اسْمِ الجِنسِ على فَردٍ مِن أفرادِه، كحاتِمٍ الجَوادِ. ويجوزُ أنْ يُقدَّمَ رِعايةً للفَواصِلِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ - قَولُه: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ أي: مِن أنْواعِ النَّخلِ والعِنبِ؛ ولذلك جُمِعَا دُونَ الحبِّ في قولِه: ﴿حَبًّا﴾؛ فإنَّ الدَّالَّ على الجِنسِ مُشعِرٌ بالاختِلافِ، ولا كذلك الدَّالُّ على الأنواعِ[٣]. فالجمعُ في النَّخيلِ والأعنابِ دونَ الحَبِّ فيه دَلالةٌ على كثرةِ اختِلافِ الأصنافِ في النَّوعِ الواحِدِ؛ الموجِبِ للتَّفاوُتِ الظَّاهِرِ في القَدرِ والطَّعمِ وغَيرِ ذلك[٤].

- قَولُه: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ في المواضِعِ التي ذَكَر الله فيها الفواكِهَ لم يَذكُرِ التَّمْرَ إلَّا بلَفظِ شَجَرتِه -وهي النَّخلةُ-، ولم يَذكُرِ العِنبَ بلَفظِ شَجَرتِه، بل ذكَرَه بلَفظِ العِنَبِ والأعنابِ، ولم يَذكُرِ الكَرْمَ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ العِنَبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣، ١٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٥).

شَجَرتُه بالنِّسبةِ إلى ثَمَرتِه حقيرةٌ قليلةُ الفائدةِ، والنَّخلَ بالنِّسبةِ إلى ثمَرتِه عظيمةٌ جَليلةُ القَدرِ، كثيرةُ الجَدوى[١]، فهو يختصُّ بمَزيدِ النَّفعِ، وآثارِ الصُّنعِ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

- قَولُه: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ مُتعلِّقٌ بـ (جَعَلْنَا)، وتَأخيرُه عن تَفْجيرِ العُيونِ؛ لأنَّه مِن مَبادِئِ الإثْمارِ، أي: وجَعَلْنا فيها جنَّاتٍ مِن نَخيلٍ، ورَتَّبْنا مَبادِئَ إثمارِها؛ لِيأكُلوا مِن ثَمَرِ ما ذُكِرَ مِن الجنَّاتِ والنَّخيلِ -على قَولٍ في التَّفسيرِ-؛ بإجراءِ الضَّميرِ مُجرَى اسمِ الإشارةِ[٣]؛ فالثِّمارُ لا تَتِمُّ إلَّا بالأنهارِ، ولا تصيرُ الأشجارُ حامِلةً للثِّمارِ إلَّا بعدَ وُجودِ الأنهارِ؛ فلهذا أُخِّرَ، بيْنَما قال: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾، فقال عَقِيبَ ذِكرِ الحَبِّ: (فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ)؛ وذلك لأنَّ الحَبَّ قُوتٌ، وهو يَتِمُّ وُجودُه بمياهِ الأمطارِ؛ ولهذا يُرى أكثَرُ البلادِ لا يكونُ بها شَيءٌ مِن الأشجارِ، والزَّرعُ والحِراثةُ لا تَبطُلُ هناك؛ اعتِمادًا على ماءِ السَّماءِ، وهذا لُطفٌ مِن الله؛ حيثُ جَعَل ما يحتاجُ إليه الإنسانُ أعَمَّ وُجودًا[٤].

- قَولُه: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ قيلَ: الضَّميرُ في قولِه: ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ للهِ تَعالى بطريقِ الالتِفاتِ، وأصْلُه: (مِنْ ثَمَرِنَا)، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا﴾؛ فنُقِلَ الكَلامُ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيْبةِ على طَريقةِ الالتِفاتِ، والإضافةُ إليه؛ لأنَّ الثَّمَرَ بخَلْقِه، والمَعْنى على ذلك: لِيَأكُلوا ممَّا خلَقَه اللهُ مِن الثَّمَرِ، وممَّا عَمِلَتْه أيْديهم مِن الغَرْسِ والسَّقيِ والتلقيحِ وغَيرِ ذلك مِن الأعمالِ إلى أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٣).

بلَغَ الثَّمَرُ مُنتهاهُ، يعني: أنَّ الثَّمَرَ في نفْسِه فِعلُ اللهِ وخَلْقُه، وفيه آثارٌ مِن كَدِّ بَني آدَمَ[١].

- وقيل: إنَّ الضَّميرَ في ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ عائِدٌ على الماءِ؛ لدَلالةِ العُيونِ عليه، ولكَونِه على حَذْفِ مُضافٍ، أي: مِن ماءِ العُيونِ، وقيلَ: على النَّخيلِ، واكْتُفِيَ به للعِلمِ في اشتِراكِ الأعيانِ فيما عُلِّقَ به النَّخيلُ مِن أكْلِ ثَمَرِه. أو يُرادُ: من ثَمَرِ المَذْكورِ، وهو الجنَّاتُ[٢].

- قَولُه: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ (ما) نافيةً، على أنَّ الثَّمَرَ خَلْقُ اللهِ، ولم تَعمَلْه أيْدي النَّاسِ، ولا يَقدِرونَ على خَلْقِه، وهذا أوفَرُ في الامتِنانِ، وأنسَبُ بسياقِ الآيةِ مَساقَ الاستِدلالِ. ويجوزُ أنْ تكونَ (ما) في قَولِه: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ مَوصولةً مَعْطوفةً على ﴿ثَمَرِهِۦ﴾، أي: لِيَأكُلوا مِن ثَمَرِ ما أخْرَجْناهُ، ومِن ثَمَرِ ما عَمِلَتْه أيْديهم؛ فيَكونَ إدْماجًا للإرشادِ إلى إقامةِ الجنَّاتِ بالخِدْمةِ، والسَّقيِ، والتَّعهُّدِ؛ لِيَكونَ ذلك أوفَرَ لأغْلالِها، وضَميرُ ﴿عَمِلَتْهُ﴾ على هذا عائِدٌ إلى اسْمِ المَوْصولِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ قِراءةُ الجمهورِ بإثْباتِ هاءِ الضَّميرِ عائِدًا إلى المَذْكورِ مِن الحَبِّ، والنَّخيلِ، والأعْنابِ، وقَرَأَ حَمزةُ والكِسائيُّ وأبو بَكرٍ عن عاصِمٍ وخَلَفٌ: ﴿وَمَا عَمِلَتْ﴾ بدُونِ هاءٍ[٤]، وكذلك هو مَرْسومٌ في المُصحَفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٠٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٩٨)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٣).

الكُوفيِّ، وهو جارٍ على حَذفِ المَفْعولِ إنْ كان مَعْلومًا، ويجوزُ أنْ يكونَ مِن حَذفِ المَفْعولِ لإرادةِ العُمومِ، والتَّقديرُ: وما عَمِلَتْ أيْديهم شيئًا مِن ذلك[١].

- والاستِفْهامُ في قَولِه: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ تَقْريعٌ وتَوبيخٌ وإنكارٌ واستقباحٌ لعَدَمِ شُكرِهم للنِّعَمِ المَعْدودةِ، والفاءُ للعَطفِ على مُقدَّرٍ يَقتضيهِ المَقامُ، أي: أَيَرَونَ هذه النِّعَمَ أو أَيَتَنعَّمونَ بها، فلا يَشْكُرونَها[٢]؟!

- وفُرِّعَ هذا الاستِفهامُ الإنكاريُّ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ على قَولِه: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لِبَيانِ عَدَمِ شُكرِهم بأنِ اتَّخذوا للَّذي أوجَدَ هذا الصُّنعَ العَجيبَ أندادًا[٣]!

- وجِيءَ بالمُضارعِ ﴿يَشْكُرُونَ﴾؛ مُبالَغةً في إنْكارِ كُفرِهم بأنَّ اللهَ حَقيقٌ بأنْ يُكرِّروا شُكرَه، فكيف يَستمِرُّونَ على الإشراكِ به[٤]؟!

٤- قولُه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قَولُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ...﴾ الجُملةُ مُستأْنَفةٌ مَسوقةٌ لِتَنزيهِه تَعالى عمَّا لا يَليقُ به، وعمَّا فَعلوهُ مِن تَركِ شُكرِه على آلائِه المَذْكورةِ، واستِعظامِ ما ذُكِر في حَيِّزِ صِلةٍ مِن بَدائعِ آثارِ قُدرتِه، وأسرارِ حكمتِه، ورَوائعِ نَعْمائِه الموجبةِ للشُّكرِ، وتَخصيصِ العبادةِ به، والتَّعجُّبِ مِن إخلالِهم بذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤، ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحالةُ هذه[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُمْلةِ ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ [يس: ٣٣] وجُمْلةِ ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ ﴾ [يس: ٣٧]؛ أثارَه ذِكرُ إحياءِ الأرضِ، وإخراجِ الحَبِّ والشَّجَرِ منها؛ فإنَّ لذلكَ أحْوالًا وإبْداعًا عَجيبًا، يُذَكِّرُ بتَعظيمِ مُودِعِ تلك الصَّنائعِ بحِكمتِه؛ وذلك تَضمَّنَ الاستِدلالَ بخَلقِ الأزواجِ على طَريقةِ الإدْماجِ[٢].

- و﴿ سُبۡحَٰنَ ﴾ عَلَمٌ للتَّسبيحِ الَّذي هو التَّبعيدُ عن السُّوءِ اعتقادًا وقَولًا، أي: اعتقادَ البُعدِ عنه والحُكمَ به، مِنْ سبَحَ في الأرضِ والماءِ؛ إذا أبعَدَ فيهما وأمْعَنَ، ومنه فَرَسٌ سَبُوحٌ، أي: واسِعُ الجرْيِ، و﴿ سُبۡحَٰنَ ﴾ هنا لإنشاءِ تَنزيهِ اللهِ تعالى عن أحوالِ المُشرِكينَ تنزيهًا عن كلِّ ما لا يليقُ بإلهيَّتِه، وأعْظَمُه الإشراكُ به. وانتِصابُه على المصدريَّةِ، ولا يَكادُ يُذكَرُ ناصِبُه، أي: أُسبِّحُ سُبْحانَه، أي: أُنزِّهُه عمَّا لا يَليقُ به عَقْدًا وعَمَلًا، تَنزيهًا خاصًّا به حقيقًا بشَأنِه، وفيه مُبالَغةٌ مِن جِهةِ الاشتِقاقِ مِن السَّبْحِ، ومِن جِهةِ النَّقلِ إلى التَّفعيلِ، ومِن جِهةِ العُدولِ عن المَصدَرِ الدَّالِّ على الجِنسِ إلى الاسمِ الموضوعِ له خاصَّةً، لا سيَّما العَلَمُ المشيرُ إلى الحَقيقةِ الحاضرةِ في الذِّهنِ، ومِن جِهةِ إقامتِه مُقامَ المَصدَرِ مع الفِعلِ. وقيلَ: هو مَصدرٌ كغُفرانٍ، أُريدَ به التَّنزُّهُ التَّامُّ، والتَّباعُدُ الكُلِّيُّ عن السُّوءِ؛ ففيه مُبالَغةٌ مِن جِهةِ إسنادِ التَّنزُّهِ إلى الذَّاتِ المُقدَّسةِ، فالمَعْنى: تَنزَّهَ بذاتِه عن كُلِّ ما لا يَليقُ به تنزُّهًا خاصًّا به؛ فالجُملةُ على هذا إخبارٌ مِن اللهِ تَعالى بتَنزُّهِه وبَراءتِه عن كُلِّ ما لا يَليقُ به مَّما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥).

وتقدم تعريف الإدماج (ص: ٥٥).

فَعَلوه وما تَرَكوه، وعلى الأوَّلِ حُكمٌ منه عزَّ وجلَّ بذلك، وتَلقينٌ للمُؤمِنينَ أنْ يَقولوهُ ويَعتقِدوا مَضمونَه، ولا يُخِلُّوا به، ولا يَغفُلوا عنه[١].

- وإجراءُ المَوْصولِ على الذَّاتِ العَلِيَّةِ في قَولِه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾؛ للإيماءِ إلى وجْهِ إنشاءِ التَّنزيهِ والتَّعظيم[٢].

- وجِيءَ بضَميرِ جَماعةِ العُقلاءِ في قَولِه: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ تَغليبًا لنَوعِ الإنسانِ؛ نَظَرًا لكَونِه المَقْصودَ بالعِبْرةِ بهذه الآيةِ، وللتَّخلُّصِ إلى تَخْصيصِه بالعِبْرةِ في قَولِه: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٣].

- وفي هذه الآياتِ خَصَّ الحقُّ سُبْحانه بالذِّكرِ أصْنافَ النَّباتِ؛ لأنَّ بها قِوامَ مَعاشِ النَّاسِ ومَعاشِ أنعامِهم ودَوابِّهم، وأصنافَ أنفُسِ النَّاسِ؛ لأنَّ العِبْرةَ بها أقْوى، ثمَّ ذُكِر ما يَعُمُّ المَخْلوقاتِ ممَّا يَعلَمُه النَّاسُ وما لا يَعلَمونه في مُختلِفِ الأقطارِ والأجيالِ والعُصورِ، وقُدِّمَ ذِكرُ النَّباتِ إيثارًا له بالأهمِّيَّةِ في هذا المقامِ؛ لأنَّه أشْبَهُ بالبَعثِ الَّذي أَوْمأَ إليه قَولُه: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٣٢]. وتَكريرُ حَرفِ (مِن) بعدَ واوِ العَطفِ للتَّوكيدِ[٤].

- وفي قَولِه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالتَّناسُبِ بيْنَ المعاني أو صِحَّةِ التَّفسيرِ[٥]، .....

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٧).

(٥) هو أنْ يأتِيَ المُتكلِّمُ في أوَّلِ كلامِه بمعنًى لا يَستقِلُّ الفَهمُ بمَعرفةِ فَحواهُ؛ إمَّا أنْ يكونَ مُجْمَلًا يحتاجُ إلى تَفصيلٍ، أو مُوجَّهًا يَفتقِرُ إلى تَوجيهٍ، أو مُحتمِلًا يحتاجُ المُرادُ منه إلى تَرجيحٍ =

وقد أتَتْ صِحَّةُ التَّفسيرِ في هذه الآيةِ مُقترِنةً بصِحَّةِ التَّقسيمِ[١]، واندَمَجَ فيهما التَّرتيبُ[٢] والتَّهْذيبُ[٣]؛ فكان فيها أربَعةُ فُنونٍ؛ فقد قدَّمَ سُبحانه النَّباتَ، وانتَقَلَ على طَريقِ البَلاغةِ إلى الأعْلى، فثَنَّى بأشرَفِ الحَيَوانِ، وهو الإنسانُ؛ لِيَستلزِمَ ذِكرُه بقيَّةَ الحَيَوانِ، ثم ثلَّثَ بقَولِه: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾، فانتَقَلَ من الخُصوصِ إلى العُمومِ؛ لِيَندرِجَ تحتَ العُمومِ[٤].

= لا يَحصُلُ إلَّا بتَفسيرِه وتَبْيينِه، ويقعُ التَّفسيرُ بعدَ الشَّرطِ أو بعدَ ما فيه معنَى الشَّرطِ، أو بعدَ الجارِّ والمجرورِ، أو بعدَ المُبتدأِ الَّذي التَّفسيرُ خبَرُه. يُنظر: ((تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٨٥)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٣٧٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣١).

(١) التَّقسيمُ الصَّحيحُ أو صحَّةُ الأقسامِ: هو استيفاءُ المُتكلِّمِ أقسامَ المعنى الَّذي هو آخِذٌ فيه، بحيث لا يُغادِرُ منه شيئًا، أو: أن يُقسِّمَ الكلامَ قِسمةً مستويةً تحتوي على جميعِ أنواعِه، ولا يَخرُجُ منها جِنسٌ مِن أجناسِه. يُنظر: ((الصناعتين: الكتابة والشعر)) للعسكري (ص: ٣٤١)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الأصبع (ص: ١٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٥٥، ٤٥٧).

(٢) التَّرتيبُ الَّذي تستدعيه البلاغةُ هو الانتقالُ في نَظْمِ الكلامِ ورَصْفِه مِن الأدنى إلى الأعلى. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٩/ ٥٤).

(٣) لأنَّ مُفرداتِ ألفاظِها مَوصوفةٌ بصِفاتِ الحُسنِ، وكلَّ لَفظةٍ سهلةُ مخارجِ الحروفِ، سَلِمَتْ مِن المحذورِ الَّذي يَقتضي تهذيبَها؛ كالتَّنافُرِ والغرابةِ ومُخالَفةِ القياسِ، بل وُضِعَتْ على أصحِّ ترتيبٍ، وأسهلِ تهذيبٍ، وحصَلَ التَّهذيبُ في نَظْمِها بحُصولِ حُسنِ التَّرتيبِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٠١)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣١٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٦٨) و(٦/ ٣٧٨) و(٩/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٧، ١٩٨).

الآيات (٢٧-٤٠)

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَسۡلَخُ﴾: أي: نُخرِجُ ونَنزِعُ، وأصلُ (سلخ): يدُلُّ على إخراجِ شَيءٍ عن جِلدِه[١].

﴿قَدَّرۡنَٰهُ﴾: أي: جعَلْنا سَيْرَه بقَدَرٍ، والتَّقديرُ: يُطلَقُ على جَعلِ الأشياءِ بقَدَرٍ ونِظامٍ مُحكَمٍ، وعلى تحديدِ المقدارِ، مِثلُ تقديرِ الأوقاتِ، والكَمِّياتِ مِن الموزوناتِ والمعدوداتِ، وأصْلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونهايتِه[٢].

﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾: العُرجُونُ: عُودُ العِذْقِ مِن النَّخلةِ، فإذا قَدُم وعَتُق، يَبِسَ وتقوَّس واصفرَّ، وأصلُ العُرجونِ: مِنَ الانعراجِ، وهو الانعِطافُ[٣].

﴿فَلَكٖ﴾: الفَلَكُ: القُطبُ الذي تَدورُ به النُّجومُ، ومجرَى الكواكِبِ، وأصلُ (فلك): يدُلُّ على استِدارةٍ في شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٤)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٥)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾

قَولُه تعالَى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ القَمَرَ: مَنصوبٌ على الاشتِغالِ[١] بفِعلٍ مَحذوفٍ يُفسِّرُه المذكورُ، والتَّقديرُ: وقَدَّرْنا القَمَر قَدَّرْناه. وقُرِئَ: ﴿وَالقَمَرُ﴾ بالرَّفعِ[٢]: مُبتدأٌ لخبرٍ محذوفٍ مُقَدَّمٍ، والتَّقديرُ: وآيةٌ لهم القَمَرُ، ويَجوزُ أنْ يكونَ مُبتدأً خَبَرُه ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾.

قَولُه: ﴿مَنَازِلَ﴾ فيه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه ظَرفٌ، أي: قَدَّرْنا مَسيرَه في مَنازِلَ. الثَّاني: أنَّه حالٌ على نِيَّةِ حَذفِ مُضافٍ، تقديرُه: ذا مَنازِلَ. الثالثُ: أنَّه مَفعولٌ ثانٍ بتَضمينِ ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ معنى: صَيَّرْنا. الرَّابعُ: أنَّه مَفعولٌ به لـ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾، والأصلُ: (قَدَّرْنا له منازِلَ)، فحُذِفَ الجارُّ، وأُوصِلَ الفِعلُ إلى الضَّميرِ فانتَصَبَ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا بعضَ دَلائلِ وَحدانيتِه، وعَظيمِ قُدرتِه: وعَلامةٌ عَظيمةٌ لهم أيضًا دالَّةٌ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ قُدرتِه على إحياءِ الموتَى: اللَّيلُ؛ حيثُ ينزِعُ اللهُ عنه النَّهارَ؛ فيصيرُ النَّاسُ في لَيلٍ مُظلِمٍ، والشَّمسُ تَجري بقُدرةِ اللهِ تعالَى إلى مَكانِ قَرارِها الَّذي قدَّرَه اللهُ لها، ذلك تَقديرُ اللهِ العزيزِ الذي لا يَغلِبُه

---

(١) الاشتغال في مصطلَح النحاة معناه: إذا تَقدَّم اسمٌ على فِعلٍ صالحٍ لأنْ يَنصِبَه لفظًا أو محلًّا، وشُغِلَ الفِعلُ عن عمِله فيه بعمَله في ضميرِه، صحَّ في الاسمِ أنْ يُنصَب بفِعلٍ لا يَظهَرُ، مماثلٍ للظاهِرِ أو مُقارِبِه. وله أحوالٌ في إعرابِه. يُنظر: ((شرح ألفية ابن مالك)) لابن الناظم (ص: ١٧٢)، ((شرح التصريح على التوضيح)) لخالد الأزهري (١/ ٤٤١).

(٢) قرأه بالرفعِ: ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو وروحٌ، وقرأه الباقونَ بالنَّصبِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٨٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ١٥٣) (٩/ ٢٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٦).

غالِبٌ، العَليم بكُلِّ شَيءٍ.

ثمَّ يَذكرُ اللهُ تعالَى آيةً أُخرَى، فيَقولُ: وقدَّرْنا سَيْرَ القمَرِ في منازِلَ؛ بأنْ يَنزِلَ في كُلِّ ليلةٍ في مَنزِلٍ، فإذا صارَ في آخِرِ منازِلِه أصبحَ في دِقَّتِه وتَقوُّسِه كعُرجونِ النَّخلةِ اليابِسِ المتقَوِّسِ.

ولا يَصِحُّ ولا يَتأتَّى للشَّمسِ أنْ تُدرِكَ القَمَر في مَسيرِه، فتجتَمِعَ معه باللَّيلِ، وكذلك لا يَصِحُّ ولا يَتأتَّى للَّيلِ أنْ يَسبِقَ النَّهارَ، فيُزاحِمَه في مَحلِّه أو وَقتِه، وإنَّما كُلُّ واحدٍ مِن الشَّمسِ والقَمَرِ، واللَّيلِ والنَّهارِ: يَدورُ في فَلَكِ السَّماءِ فيَسيرُ في هذا الكَونِ بنِظامٍ بَديعٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

بعْدَ أنْ بيَّنَ سُبحانَه مَظاهِرَ قُدْرتِه عن طَريقِ التَّأمُّلِ في الأرضِ الَّتي نَعيشُ عليها، عقَّبَ ذلك ببَيانِ مَظاهِرِ قُدْرتِه عن طَريقِ التَّأمُّلِ في تَقلُّبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وتَعاقُبِ الشَّمسِ والقَمرِ، فقال[1]:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ ﴾.

أي: وعَلامةٌ عَظيمةٌ لهم دالَّةٌ على تَوحيدِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه على إحياءِ الموتَى، وعلى غيرِ ذلك: اللَّيلُ؛ حيثُ نَنزِعُ عنه النَّهارَ، فإذا النَّاسُ قدْ صاروا في ظُلمةٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ٣١)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥، ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الوَقتينِ؛ ذكَرَ آيتَيهما، فقال:

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا ﴾.

أي: والشَّمسُ[(١)] -التي سُلِخَ النَّهارُ مِن اللَّيلِ بغَيبوبتِها- تَجري بقُدرةِ اللهِ تعالَى إلى مَوضِعِ قَرارِها الَّذي قدَّرَه اللهُ لها[(٢)].

---

(١) قيل: يحتَمِلُ أنْ تكونَ الواوُ للعَطفِ على اللَّيلِ، والتقديرُ: وآيةٌ لهم الشَّمسُ. ويجوزُ أن تكونَ الواوُ ابتدائيةً، والشَّمسُ: مبتدأ، وما بعدَها الخبَر، ويكونُ الكلامُ مُستأنَفًا مُشتَمِلًا على ذِكرِ آيةٍ مُستقلَّةٍ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٣٥-١٣٧).

قولُه: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا ﴾ فيه أقْوالٌ؛ منها: إلى مَوضِعِ قَرارِها. ومنها: أنَّ مُستَقَرَّها مَغرِبُها، لا تُجاوِزُه، ولا تُقصِّرُ عنه؛ قاله مُجاهدٌ. ومنها: لوَقتٍ واحِدٍ لا تَعْدوه؛ قاله قَتادةُ. ومنها: لوَقتٍ لها إلى يومِ القِيامةِ؛ قاله مُقاتلٌ. ومنها: تَسيرُ في مَنازِلِها حتَّى تَنتَهيَ إلى مُستَقَرِّها الَّذي لا تُجاوِزُه، ثمَّ تَرجِعُ إلى أوَّلِ مَنازِلِها؛ قاله ابنُ السَّائبِ. ومنها: إلى مُستَقرٍّ لها، ومُستَقَرُّها: أقْصَى مَنازِلِها في الغُروبِ؛ وذلك لأنَّها لا تَزالُ تَتقدَّمُ إلى أقْصى مَغارِبِها، ثمَّ تَرجِعُ؛ قاله ابنُ قُتَيْبَةَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٣، ٥٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٩)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٣، ٥٢٤).

قال ابنُ كَثيرٍ: (في مَعنى قولِه: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا﴾ قَوْلانِ:

أحَدُهما: أنَّ المُرادَ: مُستَقَرُّها المَكانيُّ، وهو تحتَ العَرشِ... كما جاءَت بذلك الأحاديثُ... والقولُ الثَّاني: أنَّ المُرادَ بمُستَقَرِّها هو: مُنْتَهى سَيْرِها، وهو يومُ القِيامةِ، يَبطُلُ سَيْرُها، وتَسكُنُ حَرَكتُها وتُكَوَّرُ، ويَنْتَهي هذا العالَمُ إلى غايَتِه، وهذا هو مُستَقَرُّها الزَّمانيُّ. قال قَتادةُ: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا﴾، أي: لوَقْتِها، ولأجَلٍ لا تَعْدُوه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٦). =

عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأبي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمسُ: أَتدري أينَ تَذهَبُ؟ قُلتُ: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، قال: فإنَّها تَذهَبُ حتَّى تَسجُدَ تحتَ العَرشِ فتَستأذِنَ، فيُؤذَنُ لها، ويُوشِكُ أنْ تَسجُدَ فلا يُقبَلَ منها، وتَستأذِنَ فلا يُؤذَنَ لها؛ يقالُ لها: ارجِعي مِن حَيثُ جِئتِ، فتَطلُعُ مِن مَغرِبِها، فذلك قَولُه تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾))[1].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سألتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن قَولِ الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا﴾؟ قال: مُستقَرُّها تحتَ العَرشِ))[2].

﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

أي: ذلك[3] تَقديرُ العَزيزِ الذي بعِزَّتِه قَهَرَ المخلوقاتِ العَظيمةَ كالشَّمسِ؛

= وقال ابنُ جُزَيٍّ: (وفي الحَديثِ: «مُستَقَرُّها تحتَ العَرشِ تَسجُدُ فيه كلَّ لَيلةٍ بعدَ غُروبِها»، وهذا أصَحُّ الأقْوالِ؛ لوُرودِه عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الحَديثِ المَرْويِّ في البُخاريِّ عن أبي ذَرٍّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٢)، ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٤).

(١) رواه البخاريُّ (٣١٩٩) واللفظ له، ومسلِمٌ (١٥٩).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٨٠٣)، ومسلمٌ (١٥٩).

(٣) قيلَ: الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى جَرْيِ الشَّمسِ؛ أي: ذلك الجَرْيُ على ذلك التَّقْديرِ. وممَّن قال بهذا المَعنى في الجُملةِ: ابنُ جَرير، والزَّمخْشريُّ، والبَيضاويُّ، والنَّسَفيُّ، والخازِنُ، والرَّسْعَنيُّ، وأبو السُّعود، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٨٤).

وقيل: الإشارةُ إلى ما ذُكِرَ مِن أمْرِ اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ. وممَّن قال بهذا: القُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١).

فهو القاهِرُ الغالِبُ سُبحانَه، وهو العَليمُ المحيطُ عِلمًا بكُلِّ شَيءٍ، الَّذي يُدبِّرُ الأمْرَ، فيطَّرِدُ على نِظامٍ عَجيبٍ، ونَهجٍ بديعٍ، لا يَعتريه وَهَنٌ، ولا يَلحَقُه خَلَلٌ[(١)].

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ آيةَ النَّهارِ -وهي الشَّمسُ-؛ أتْبَعَها آيةَ اللَّيلِ -وهي القَمرُ-[(٢)]، فقال:

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

أي: وقدَّرْنا القَمَرَ مَنازِلَ يَسيرُ فيها، ويَنزِلُ كُلَّ ليلةٍ في واحِدٍ منها، حتى يَكتَمِلَ ضَوْءُه ويَصيرَ بَدرًا، ثمَّ يَتناقَصُ شَيئًا فشَيئًا حتَّى يَعودَ هِلالًا، كعُودِ عِذْقِ النَّخلةِ اليابِسِ الأصفَرِ النَّحيلِ المتقَوِّسِ لِقِدَمِه[(٣)].

كما قالَ تعالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس: ٥].

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر الشَّمسَ والقَمَرَ، وكانتِ الشَّمسُ مُقارِنةً لِلنَّهارِ في مُخيِّلاتِ البَشَرِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٦، ٤٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٧، ٥٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣١-١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢، ٢٣).

وكان القَمَرُ مُقارِنًا لِلَّيلِ، وكان في نِظامِ اللَّيلِ والنَّهارِ مَنافعُ لِلنَّاسِ؛ اعتَرَض بذِكرِ نِظامِ الشَّمسِ والقَمَرِ في أثْناءِ الاعتِبارِ بنِظامِ اللَّيلِ والنَّهارِ(١).

وأيضًا لَمَّا تقرَّر أنَّ لكُلٍّ مِن الشَّمسِ والقَمرِ مَنازِلَ لا يَعْدوها؛ فلا يَغلِبُ ما هو آيَتُه ما هو آيةُ الآخَرِ، بل إذا جاء سُلطانُ هذا ذهَب ذاك، وإذا جاء ذاك ذهَب هذا، فإذا اجتمَعَا قامتِ السَّاعةُ- تَحرَّر أنَّ نتيجةَ هذه القَضايا(٢):

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾.

أي: لا يُمكِنُ للشَّمسِ أن تَلحَقَ القَمَرَ؛ فهذا أمرٌ مُحالٌ ومُمتَنِعٌ(٣).

﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾.

أي: ولا يَسبِقُ اللَّيلُ النَّهارَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٨، ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٤٥).

قيل: المرادُ: أنَّه لا يمكِنُ أن يجتَمِعَا، فتكونَ الأوقاتُ كُلُّها نهارًا لا لَيلَ فيها، بل لكلٍّ منهما مجرًى قدَّره اللهُ، ولكلٍّ منهما سُلطانٌ له وَقتُه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجُملة: ابنُ جَرير، وابنُ تَيميَّة، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القولِ: أبو صالح، والضَّحَّاك، وقَتادة، وعِكرمة، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩).

وقيل: المرادُ: نَفيُ أنْ تصطدِمَ الشَّمسُ بالقَمرِ، خلافًا لِما يبدو مِن قُربِ منازِلِهما؛ فإنَّ ذلك من المُسامتةِ لا مِن الاقترابِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٨، ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

أي: وكلٌّ يَدورُ في فَلَكِ السَّماءِ[(١)].

= (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤، ٢٥).

اختَلَفَت ألْفاظُ المُفسِّرينَ في تَفْسيرِ هذه الآيةِ وإنْ كانتْ مَعانيها مُتَقارِبةً:

فمِمَّن قال: إنَّ المَعنى: ولا يُدرِكُ سَوادُ اللَّيلِ ضوءَ النَّهارِ فيَغلِبَه على ضَوئِه: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٤).

وممَّن قال: إنَّ المَعنى: ولا يَدخُلُ اللَّيلُ على النَّهارِ قَبلَ انْقِضائِه: الواحديُّ، والبَغَويُّ، وجلالُ الدِّينِ المَحلِّيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥) تفسير الجلالين (ص: ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦).

وممَّن قال: إنَّ المَعنى: لا يتَّصِلُ لَيلٌ بلَيلٍ، لا يَكونُ بينَهما نَهارٌ فاصِلٌ: السَّمْعانيُّ، وابنُ جُزَيٍّ، وابنُ كَثيرٍ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩).

وممَّن قال: إنَّ المَعنى: لا يَسبِقُه فيَفوتَه، ولكنْ يُعاقِبُه: البَيضاويُّ، وأبو السُّعود، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٥).

قال ابن قتيبة: (﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ يقولُ: هما يَتعاقبانِ، ولا يَسبِقُ أحدُهما الآخَرَ: فيفوته ويَذهَب قبْلَ مجيءِ صاحبِه). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٩٣).

وقال ابنُ تيمية: (﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ لا يفوتُه ويَتقدَّمُ أمامَه حتى يكونَ بينهما برزخٌ؛ بل هو هو متَّصِلٌ به، لا هذا يَنفصِلُ عن هذا، ولا هذا يَنفصِلُ عن هذا). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٥٩٩). ويُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤٨٥).

وقيل: معنى قوله: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾، أي: آيةُ الليلِ آيةَ النهارِ، وممَّن اختاره: النَّسَفيُّ، وابنُ عَجيبة. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٤/ ٥٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥، ٢٦).

قيل المراد: بـ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾: اللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقمَرُ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٤٧). =

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ * وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ * وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ كُلُّ هذا دَليلٌ ظاهِرٌ، وبُرهانٌ باهِرٌ على عَظَمةِ الخالِقِ، وعَظَمةِ أوصافِه، خُصوصًا وَصْفَ القُدرةِ والحِكمةِ والعِلمِ في هذا الموضِعِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ فيه دلالةٌ بيِّنةٌ على ما تذهبُ إليه العربُ مِن أنَّ اللَّيلَ قبلَ النَّهارِ؛ لأنَّ السَّلخَ والكشفَ بمعنًى واحدٍ، وإذا كان ذلك، وكان الله تعالى قال: ﴿ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾، والمسلوخُ منه يكونُ قبلَ المسلوخِ، فيجبُ أن يكونَ اللَّيلُ قبلَ النَّهارِ، كما أنَّ المغطَّى قبلَ الغِطاءِ[٢].

= لكن ذكر ابنُ جُزَيٍّ أنَّه لا يُوصَفُ اللَّيلُ والنَّهارُ بالسَّبحِ في الفلَكِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١).

وقيل: المرادُ: الشَّمسُ والقمَرُ والنُّجومُ. وممَّن قال بهذا: الواحديُّ، والرَّسْعني، وجلال الدِّين المحلِّي، والعُليمي، والسعدي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٨٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦).

وقيل: المرادُ: الشمسُ والقمرُ. وممَّن اختاره: مقاتِلُ بنُ سُليمان، وابنُ أبي زَمنين، والزَّمخشريُّ، وابنُ جُزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١).

قال ابنُ جُزَيٍّ: (أتى بلفظِ «كُلٌّ»، و﴿يَسۡبَحُونَ﴾ وهو جَمعٌ، مع أنَّ الشَّمسَ والقَمرَ اثْنانِ؛ لأنَّه أرادَ جِنسَ مَطالِعِها كلَّ يومٍ ولَيلةٍ، وهي كَثيرةٌ. قالَه الزَّمَخْشَريُّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٥)

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦).

(٢) يُنظر: ((الأزمنة والأمكنة)) للمرزوقي (ص:٢١).

فالأصلُ هو الظَّلامُ، والنَّهارُ طارِئٌ عليه؛ ولهذا يُسلَخُ منه، وهو كذلك؛ فإنَّ أصلَ الضَّوءِ مِن الشَّمسِ، والشَّمسُ حادِثةٌ وواردةٌ على اللَّيلِ، فيكونُ الأصلُ الظَّلامَ، ويأتي النُّورُ بَعدَه(١).

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ تذكيرُ الخَلْقِ بهذه النِّعمةِ؛ وأنَّه لولا نِعمةُ اللهِ علينا بهذا النَّهارِ الذي يُسْلَخُ مِن اللَّيلِ لكُنَّا دائمًا في ظُلمةٍ، وهذا بلا شَكٍّ متعبٌ للناسِ، وضارٌّ بهم، قال تعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾(٢) [القصص: ٧١].

٤- أنَّ هذه الشَّمسَ مُقَدَّرةٌ تَقديرًا بالِغًا مُنَظَّمًا؛ لِقَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، ويَشهَدُ لهذا الواقعُ؛ فإنَّ هذه الشَّمسَ مُنذُ خَلَقَها اللهُ إلى أنْ تَزولَ وهي في فَلَكِها لا تَتقدَّمُ ولا تَتأخَّرُ عن السُّنَّةِ التي أمَرَها عزَّ وجلَّ أنْ تكونَ عليها، ولا ترتفعُ ولا تنخفِضُ، حتى قيلَ: إنَّها لو تنخَفِضُ مِقدارَ درجةٍ لأَحْرقتِ الأرضَ، ولو ارتفعَتْ مِقدارَ درجةٍ لجَمَّدتِ الأرضَ، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جَعَلَها على هذا التَّقديرِ البَديعِ المُحْكَمِ الذي لا يَتغيَّرُ ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾(٣).

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أنَّ هذا القَمرَ آيةٌ مِن آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، حيثُ هو مَوضوعٌ في فَلَكِه، ومع ذلك له مَنازِلُ يَنزِلُها كُلَّ ليلةٍ، فليس مُطلَقًا، ولكِنَّه مُقَدَّرٌ بمنازِلَ يَنزِلُها كُلَّ ليلةٍ، والحِكمةُ مِن هذه المنازِلِ هي أنْ يَعرِفَ النَّاسُ عددَ السِّنينَ والحِسابَ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، حتى إنَّ العالِمينَ بمنازِلِ القمرِ يَعرفونَ اللَّيلةَ مِن الشَّهرِ -وإنْ كانوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٠).

لم يَحسِبوا مِن أوَّلِ الأمرِ- بناءً على مَعرفةِ المنازِلِ؛ لأنَّ هذه المنازلَ لا تَتغيَّرُ، وحلولَ القمَرِ فيها أيضًا لا يَتغيَّرُ، فهي مُنَظَّمةٌ مِن عِندِ اللهِ عزَّ وجلَّ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ إطلاقُ القَديمِ على غيرِ اللهِ، خِلافًا للمُتفَلسِفةِ، أو الفلاسِفةِ الذين يقولون: إنَّ أخَصَّ وَصْفِ اللهِ هو القِدَمُ، وهذا خطأٌ؛ فلو كان هذا أخَصَّ وصْفِ اللهِ لم يُوصَفْ به سِوى اللهِ! والقِدَمُ لا يدلُّ على الأزليَّةِ؛ فهذا العُرجونُ وصَفه اللهُ بأنَّه قَديمٌ، ومع ذلك فإنَّه ليس أزليًّا؛ إذْ إنَّه حادِثٌ بعد أنْ لم يكُنْ، وبه يَتبيَّنُ بُطلانُ قولِ هؤلاء الذين يقولون: إنَّ أخَصَّ وصْفِ اللهِ عزَّ وجلَّ هو القِدَمُ، ولو قالوا: أخَصُّ وَصْفٍ هو الأوَّليَّةُ لكُنَّا نُوافِقُهم على ما قالوا؛ لأنَّ اللهَ هو الأوَّلُ الذي ليس قَبلَه شيءٌ، أمَّا أنْ نقولَ: إنَّ القِدَمَ أخَصُّ وَصفِ الله، مع أنَّه يُوصَفُ به الحادِثُ؛ فهذا لا يكونُ ولا يَصِحُّ(٢).

٧- قولُه تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ لَمَّا جَرَى ذِكرُ الشَّمسِ والقَمَرِ في مَعرِضِ الآياتِ الدَّالةِ على انفِرادِه تَعالَى بالخَلقِ والتَّدبيرِ، وعلى صِفاتِ أُلوهِيَّتِه التي مِن مُتَعلِّقاتِها تَعلُّقُ صِفةِ القُدرةِ بآيةِ الشَّمسِ وسَيرِها، والقَمَرِ وسَيرِه، وكان الناسُ يَعرِفونَ تَقارُبَ الشَّمسِ والقَمَرِ فيما يَراه الرَّاؤونَ، وكانوا يُقَدِّرونَ سَيرَهما بأسْماتٍ مُعلَّمةٍ بعَلاماتٍ نُجوميَّةٍ تُسمَّى بُروجًا بالنِّسبةِ لِسَيرِ الشَّمسِ، وتُسمَّى مَنازِلَ بالنِّسبةِ لِسَيرِ القَمَرِ، وكانوا يَعلَمونَ شِدَّةَ قُربِ المَنازِلِ القَمَريَّةِ مِنَ البُروجِ الشَّمسيَّةِ؛ فإنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٤).

والقَديمُ ليس من أسْماءِ اللهِ ولا صِفاتِه، ولم يَرِدْ وَصفُ اللهِ به في شَيءٍ منَ القُرآنِ والآثارِ الصَّحيحةِ، وإنْ كان يصِحُّ أنْ يُخبَرَ به عنه. يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٦١)، ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) لعَلَوي السَّقَّاف (ص: ٢٧٦).

كُلَّ بُرجٍ تُسامِتُه مَنزِلَتانِ، أو ثَلاثُ مَنازِلَ، وبَعضُ نُجومِ المَنازِلِ هي أجزاءٌ مِن نُجومِ البُروجِ؛ زادَهم اللهُ عِبرةً وتَعليمًا بأنَّ لِلشَّمسِ سَيرًا لا يُلاقي سَيرَ القَمَرِ، ولِلقَمَرِ سَيرًا لا يُلاقي سَيرَ الشَّمسِ، ولا يَمُرُّ أحَدُهما بطَرائِقِ مَسيرِ الآخَرِ، وأنَّ ما يتَراءَى لِلنَّاسِ مِن مُشاهَدةِ الشَّمسِ والقَمَرِ في جَوٍّ واحِدٍ، وفي حَجمَيْنِ مُتَقارِبَيْنِ، وما يَتَراءَى لهم مِن تَقارُبِ نُجومِ بُروجِ الشَّمسِ ونُجومِ مَنازِلِ القَمَرِ؛ إنْ هو إلَّا مِن تَخَيُّلاتِ الأبصارِ، وتَفاوُتِ المَقاديرِ بَيْنَ الأجرامِ والأبعادِ[١].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ سؤالٌ: كيف نفَى تعالى الإدراكَ عن الشَّمسِ للقَمَرِ دونَ عَكسِه؟

والجوابُ: لأنَّ سَيرَ القَمَرِ أسرعُ؛ لأنَّه يقطَعُ فَلَكَه في شهرٍ، والشَّمسُ لا تقطَعُ فلَكَها إلَّا في سَنةٍ؛ فكانتْ جَديرةً بأنْ تُوصَفَ بنفْيِ الإدراكِ؛ لبُطءِ سَيرِها، وكان القَمَرُ خَليقًا بأنْ يُوصَفَ بالسَّبقِ؛ لِسُرعةِ سَيرِه[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ جِيءَ بضميرِ ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ ضَميرَ جمعٍ؛ معَ أنَّ المتقدِّمَ ذِكرُه شيئانِ هما: الشَّمسُ والقمرُ؛ لأنَّ المرادَ إفادةُ تَعميمِ هذا الحُكمِ للشَّمسِ والقمَرِ وجَميعِ الكواكبِ -على أحدِ الأقوالِ-، وهي حَقيقةٌ عِلميَّةٌ سبَق بها القُرآنُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٢).

وقال ابنُ عاشور: (وفي الكَلامِ اكتِفاءٌ، أي: لِأنَّ التَّقديرَ: ولا القَمَرُ يُدرِكُ الشَّمسَ، ولا النَّهارُ سابِقُ اللَّيلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥).

وذكَرَ البِقاعيُّ أنَّ هذه الآيةَ من الاحْتِباكِ: نَفَى أوَّلًا إدْراكَ الشَّمسِ لقُوَّتِها دَليلًا على ما حُذِفَ مِنَ الثَّانيةِ من نَفيِ إدْراكِ القَمرِ للشَّمسِ، وذكَرَ ثانيًا سَبقَ اللَّيلِ النَّهارَ؛ لِما له مِنَ القوَّةِ بما يَعرِضُ مِنَ النَّهارِ، فيُغَشِّيه دَليلًا على حَذفِ سَبقِ النَّهارِ اللَّيلَ أوَّلًا. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ انتقالٌ إلى دَلالةِ مَظاهِرِ العَوالِمِ العُلويَّةِ على دَقيقِ نِظامِ الخالِقِ فيها، مِمَّا تُؤذِنُ به المُشاهَدةُ مع التَّبَصُّرِ، وابتُدِئَ منها بنِظامِ اللَّيلِ والنَّهارِ؛ لِتكَرُّرِ وُقوعِه أمامَ المُشاهَدةِ لِكُلِّ راءٍ[(١)].

- وجُملةُ ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ مُبيِّنةٌ لِكيفيَّةِ كَونِه آيةً[(٢)].

- وفي قَولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ شَبَّهَ النَّهارَ بجِلْدِ الشَّاةِ ونَحوِها، يُغَطِّي ما تَحتَه منها، كما يُغَطِّي النَّهارُ ظُلْمةَ اللَّيلِ في الصَّباحِ، وشَبَّهَ كَشْفَ النَّهارِ وإزالَتَه بسَلْخِ الجِلدِ عن نَحوِ الشَّاةِ؛ فصارَ اللَّيلُ بمَنزِلةِ جِسمِ الحَيوانِ المَسلوخِ منه جِلدُه، وليس اللَّيلُ بمَقصودٍ بالتَّشبيهِ، وإنَّما المَقصودُ تَشبيهُ زَوالِ النَّهارِ عنه؛ فاستَتبَعَ ذلك أنَّ اللَّيلَ يَبقَى شِبْهَ الجِسمِ المَسلوخِ عنه جِلدُه، ووَجْهُ ذلك: أنَّ الظُّلمةَ هي الحالةُ السابقةُ لِلعَوالِمِ قَبْلَ خَلقِ النُّورِ في الأجسامِ النَّيِّرةِ؛ لِأنَّ الظُّلمةَ عَدَمٌ، والنُّورَ وُجودٌ، وكانتِ المَوجوداتُ في ظُلمةٍ قَبلَ أنْ يَخلُقَ اللهُ الكَواكِبَ النَّيِّرةَ ويُوصِّلَ نورَها إلى الأجسامِ التي تَستَقبِلُها، كالأرضِ والقَمَرِ[(٣)].

- وفي قَولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ ما يُعرَفُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠١).

في البَلاغةِ بالتَّوشيحِ[١]؛ فإنَّ مَن كانَ حافِظًا لِلسُّورةِ مُتفَطِّنًا إلى أنَّ مَقاطِعَ آيِها النُّونُ المُردِفةُ، وسَمِعَ في صَدرِ الآيةِ انسِلاخَ النَّهارِ مِنَ اللَّيلِ، عَلِمَ أنَّ الفاصِلةَ تَكونُ ﴿مُّظۡلِمُونَ﴾؛ لِأنَّ مَنِ انسَلَخَ النَّهارُ عن لَيلِه أظلَمَ، أي: دَخَل في الظُّلُماتِ ما دامَت تلك الحالُ[٢].

- قَولُه: ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾، أي: داخِلونَ في الظَّلامِ مُفاجأةً، وفيه رَمزٌ إلى أنَّ الأصْلَ هو الظَّلامُ، والنُّورَ عارِضٌ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾

- قَولُه: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ﴾ تَفصيلٌ لإجْمالِ جُملةِ ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، كما دَلَّ عليه قَولُه الآتي: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]، وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ مِن كَونِه تَفصيلًا ألَّا يَعطِفَ، فيُقالَ: (الشَّمسُ تَجري لِمُستَقَرٍّ لها)؛ فخُولِفَ مُقتَضَى الظَّاهِرِ؛ لِأنَّ في هذا التَّفصيلِ آيةً خاصَّةً، وهي آيةُ سَيرِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وآيةُ الشَّمسِ المَذكورةُ هنا مُرادٌ بها دَليلٌ آخَرُ على عَظيمِ صُنعِ اللهِ تَعالَى، وهو نِظامُ الفُصولِ الأربَعةِ، وهذا استِدلالٌ بآثارِ ذلك السَّيرِ المَعروفةِ لِلناسِ مَعرِفةً إجماليَّةً بما يَحسِبونَ مِنَ الوَقتِ، وامتِدادِ اللَّيلِ والنَّهارِ[٤].

---

(١) التَّوْشيحُ -ويُسمَّى أيضًا التَّشْريعُ-: أنْ يكونَ نفْسُ الكَلامِ يدُلُّ على آخِرِه، نزَلَ المَعنى مَنزلةَ الوِشاحِ، ونزَلَ أوَّلُ الكَلامِ وآخِرُه مَنزِلةَ العاتِقِ والكَشْحِ اللَّذَينِ يَجولُ عليهما الوِشاحُ؛ ولهذا قيلَ فيه: إنَّ الفاصِلةَ تُعلَمُ قبلَ ذِكْرِها. وتَشتَمِلُ الزِّيادةُ على إضافةِ مَعنًى. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٩٥)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩).

- وقَولُه: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ إدماجٌ لِلتَّعليمِ في التَّذكيرِ، وليس مِن آيةِ الشَّمسِ لِلنَّاسِ؛ لِأنَّ النَّاسَ لا يَشعُرونَ به[١].

- واللَّامُ في قَولِه: ﴿لَّهَا﴾ لامُ الاختِصاصِ، وهو صِفةٌ لـ (مُسْتَقَرٍّ)، وعَدَل عن إضافةِ (مُستَقَرٍّ) لِضَميرِ الشَّمسِ المُغنيةِ عن إظهارِ اللَّام، إلى الإتيانِ باللَّامِ؛ لِيَتأتَّى تَنكيرُ (مُستَقَرٍّ) تَنكيرًا مُشعِرًا بتَعظيمِ ذلك المُستقَرِّ[٢].

- وذَكَر صِفتَيِ العَزيزِ العَليمِ في قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾؛ لِمُناسبةِ مَعناهما لِلتَّعلُّقِ بنِظامِ سَيرِ الكَواكِبِ؛ فالعِزَّةُ تُناسِبُ تَسخيرَ هذا الكَوكَبِ العَظيمِ، والعِلْمُ يُناسِبُ النِّظامَ البَديعَ الدَّقيقَ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾

- عُدِّيَ فِعلُ ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ إلى ضَميرِ القَمَرِ الذي هو عِبارةٌ عن ذاتِه، وإنَّما التَّقديرُ: لِسَيرِه، ولكِنْ عُدِّيَ التَّقديرُ إلى اسمِ ذاتِه دونَ ذِكرِ المُضافِ؛ مُبالَغةً في لُزومِ السَّيرِ له مِن وَقتِ خَلقِه، حتى كأنَّ تَقديرَ سَيرِه تَقديرٌ لِذاتِه[٤].

- وخُصَّ القَمَرُ بذِكرِ تَقديرِ المنازِلِ دونَ الشَّمسِ وإنْ كانتْ مُقدَّرةَ المنازِلِ؛ لظهورِ ذلك للحِسِّ في القَمَرِ، وظُهورِ تفاوُتِ نُورِه بالزِّيادةِ والنُّقصانِ في كُلِّ مَنزِلٍ؛ ولذلك كان الحِسابُ القَمَريُّ أشهَرَ وأعرَفَ عِندَ الأمَمِ، وأبعدَ مِن الغَلَطِ، وأصَحَّ للضَّبطِ مِن الحِسابِ الشَّمسيِّ، ويَشترِكُ فيه النَّاسُ دونَ الحِسابِ الشَّمسيِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٦).

- و(حتَّى) في قَولِه: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ ابتِدائيَّةٌ، ومعنى الغايةِ لا يُفارِقُ (حتَّى)، فآذَنَ ما فيها مِن مَعنى الغايةِ بمُغَيًّا مَحذوفٍ؛ فالغايةُ تَستَلزِمُ ابتداءَ شَيءٍ، والتَّقديرُ: فابتَدَأَ ضَوْءُه، وأخَذَ في الازديادِ لَيلةً قَليلةً، ثم أخَذَ في التَّناقُصِ حتَّى عادَ، أي: صارَ كالعُرجُونِ القَديمِ، أي: شَبيهًا به[1].

- قَولُه: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ العُرجونُ هو العُودُ الذي تُخرِجُه النَّخلةُ؛ فيَكونُ الثَّمَرُ في مُنتَهاهُ، وعَبَّرَ عنِ القَمرِ بهذا التَّشبيهِ؛ إذْ ليس لِضَوءِ القَمَرِ في أواخِرِ لَياليه اسمٌ يُعرَفُ به بخِلافِ أوَّلِ أجزاءِ ضَوئِه المُسمَّى هِلالًا، ولِأنَّ هذا التَّشبيهَ يُماثِلُ حالةَ استِهلالِه كما يُماثِلُ حالةَ انتِهائِه، والقَديمُ: هو البالي؛ لِأنَّه إذا انقَطَعَ الثَّمَرُ، تَقوَّسَ واصفَرَّ وتضاءَلَ، فأشبَهَ صُورةَ ما يُواجِهُ الأرضَ مِن ضَوءِ القَمَرِ في آخِرِ ليالي الشَّهرِ، وفي أوَّلِ لَيلةٍ منه. وتَركيبُ ﴿عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ صالِحٌ لِصُورةِ القَمَرِ في اللَّيلةِ الأخيرةِ، وهي التي يَعقُبُها المُحاقُ، ولِصورَتِه في اللَّيلةِ الأُولى مِنَ الشَّهرِ هو الهِلالُ، وقد بُسِطَ لهم بَيانُ سَيرِ القَمَرِ ومَنازِلِه؛ لِأنَّهم كانوا يُتقِنونَ عِلْمَه، بخِلافِ سَيرِ الشَّمسِ[2]، ولأنَّه الأصلُ في الحسابِ.

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾

- قَولُه: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ فيه افتِتاحُ الجُملةِ بحَرفِ النَّفيِ قَبلَ ذِكرِ الفِعلِ المَنفيِّ؛ لِلدَّلالةِ على أنَّها مُسَخَّرةٌ لا يَتيَسَّرُ لها إلَّا ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠٢).

أُريدَ بها، وليكونَ النَّفيُ مُتقرِّرًا في ذِهنِ السامعِ أقوى ممَّا لو قيلَ: الشَّمسُ لا يَنبَغي لها أنْ تُدرِكَ القَمَرَ؛ فكان في قَولِه: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ خُصوصِيَّتانِ[1].

- ومعنَى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ نَفيُ انبِغاءِ ذلك، أيْ: نَفيُ تأتِّيه؛ لِأنَّ الفِعلَ (انبَغى) مُطاوِعُ (بَغى) الذي هو بمَعنى طَلَب، فـ (انبَغى) يُفيدُ أنَّ الشَّيءَ طُلِبَ، فحَصَلَ لِلذي طَلَبه، يُقال: بَغاه فانبَغى له؛ فإثباتُ الانبِغاء يُفيدُ التَّمكُّنَ مِنَ الشَّيءِ، فلا يَقتَضي وُجوبًا، ونَفيُ الانبِغاءِ يُفيدُ نَفيَ إمكانِه؛ ولذلك يُكنَّى به عنِ الشَّيءِ المَحظورِ، يُقالُ: لا يَنبَغي لك كذا؛ ففَرْقٌ ما بَينَ قَولِكَ: يَنبَغي ألَّا تَفعَلَ كذا؛ وبَينَ قَولِكَ: لا يَنبَغي لك أنْ تَفعَلَ كذا. والإدراكُ: اللَّحاقُ والوصولُ إلى البُغيةِ؛ فقَولُه: ﴿أَن تُدۡرِكَ﴾ فاعِلُ ﴿يَنۢبَغِي﴾؛ فأفادَ الكَلامُ نَفيَ انبِغاءِ إدراكِ الشَّمسِ القَمَرَ[2].

- وجاء بصِيغةِ الإخبارِ عن المُسنَدِ إليه ﴿ٱلشَّمۡسُ﴾ بالمُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَنۢبَغِي﴾؛ لإفادةِ تَقَوِّي حُكمِ النَّفيِ؛ فذلك أبلَغُ في الانتِفاءِ ممَّا لو قيلَ: لا يَنبَغي لِلشَّمسِ أنْ تُدرِكَ القَمَرَ[3].

- وعُدِلَ عنِ الظَّاهِرِ، وأنْ يُقالَ: (ولا القَمَرُ سابِقُ الشَّمسِ، ولا يَسبِقُ اللَّيلُ النَّهارَ)، أي: آيةُ اللَّيلِ آيةَ النَّهارِ؛ لِيُؤذِنَ بالتَّعاقُبِ بَينَ اللَّيلِ والنَّهارِ، ومَنصوصيَّةِ التَّدبيرِ على المُعاقَبةِ؛ فإنَّه مُستفادٌ مِنَ الحَرَكةِ اليَوميَّةِ التي مَدارُ تَصرُّفِ كُلِّ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٢)؛ ففيه تفصيلٌ لوجه هذه الدَّلالة.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واحِدٍ منهما عليها[١].

- قَولُه: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾، والواوُ عاطِفةٌ؛ تَرجيحًا لجانِبِ الإخبارِ بهذه الحَقيقةِ على جانِبِ التَّذييلِ، وإلَّا فحَقُّ التَّذييلِ الفَصلُ -أي: عدَمُ العَطفِ-. وزيدَتْ قَرينةُ السِّياقِ تأكيدًا بضَميرِ الجَمعِ في قَولِه: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾، مع أنَّ المَذكورَ مِن قَبلُ شَيئانِ، لا أشياءُ، وبهذا التَّعميمِ صارَتِ الجُملةُ في مَعنَى التَّذييلِ[٢].

- قَولُه: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ تَنوينُ (كُلٌّ) تَنوينُ عِوَضٍ عنِ المُضافِ إليه المَحذوفِ، فالتَّقديرُ: وكُلُّ الكَواكِبِ والشُّموسِ والأقْمارِ؛ فإنَّ اختِلافَ الأحوالِ يُوجِبُ تَعَدُّدًا ما في الذَّاتِ[٣]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- وجُملةُ (كُلٌّ فِي فَلَكٍ) فيها مُحَسِّنُ الطَّردِ والعَكسِ؛ فإنَّها تُقرَأُ مِن آخِرِها كما تُقرَأُ مِن أوَّلِها[٤].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ غَلَّبَ ضَميرَ العُقَلاءِ -وهو الواوُ والنُّونُ في ﴿يَسۡبَحُونَ﴾-؛ لِأنَّه نَزَّلَ الشَّمسَ والقَمَرَ والنُّجومَ والكَواكِبَ مَنزِلةَ العُقَلاءِ؛ لِأنَّه لَمَّا وَصَفَهم بفِعْلِهم وهو السِّباحةُ -وهي مِن أوصافِ العُقَلاءِ- ساغَ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠٢- ٢٠٣).

الآيات (٤١-٤٤)

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الذُرِّيَّةُ: الأولادُ، وأولادُ الأولادِ، مِن (ذَرَأَ)، أي: خَلَق؛ لأنَّ الذُّريَّةَ خَلْقُ اللهِ، أو لأنَّ الولدَ ذُرِئ مِن الأبِ، وقيلَ غيرُ ذلك. والذُّرِّيَّةُ أيضًا: الآباءُ؛ لأنَّ الذَّرَّ وقَع منهم، فهو مِن الأضْدادِ[١].

﴿ٱلْفُلْكِ﴾: أي: السَّفينةِ، وواحِدُه وجمعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (فلك): يدُلُّ على الاستِدارةِ، ولعلَّ السفينةَ تُسَمَّى فُلْكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[٢].

﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾: أي: المملوءِ، وأصلُ (شحن): يدُلُّ على المَلْءِ[٣].

﴿صَرِيخَ﴾: أي: مُغيثَ ومُجيرَ، ويُطلَقُ أيضًا على المستغيثِ المستنجِدِ، وهو مِن الأضدادِ، والاستِصراخُ: الإغاثةُ والاستِغاثةُ؛ وذلك أنَّ المُنْجِدَ إذا صَرَخ به المستنجِدُ صَرَخ هو مُجيبًا بما يطمئِنُّ له، وأصلُ (صرخ): يدُلُّ على صَوتٍ رَفيعٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٣)، (١٨/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٥)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٨)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي =

﴿وَمَتَٰعًا﴾: أي: انتِفاعًا، والمتاعُ والمتعةُ ما يُنتفَعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، وأصلُ (متَع): يدُلُّ على المنفَعةِ، وامتدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ[١].

المعنى الإجمالي:

يقولُ تعالَى: وعلامةٌ عَظيمةٌ لهم أيضًا دالَّةٌ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه على إحياءِ الموتَى: أنَّا حَمَلْنا آباءَهم الأقدَمينَ -الذين آمَنوا بنوحٍ عليه السَّلامُ- في السَّفينةِ التي أمَرْناه بصُنعِها، والتي كانتْ مَملوءةً، وخلَقْنا للعِبادِ سُفُنًا أمثالَ سَفينةِ نوحٍ يَركَبونَها، وإنْ نشَأْ نُغرِقْ مَن يركَبونَ هذه السُّفُنَ في البَحرِ دونَ أن يجِدوا مَن يُغيثُهم أو مَن يُنقِذُهم مِن الغَرَقِ سِوى رَحمتِنا بهم وفَضلِنا عليهم، وتمتيعِنا إيَّاهم بالحياةِ إلى وَقتٍ مُعَيَّنٍ تنقَضي عنده آجالُهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها انتِقالٌ مِن عَدِّ آياتٍ في الأرضِ وفي السَّماءِ إلى عَدِّ آيةٍ في البَحرِ تَجمَعُ بينَ العِبرةِ والمِنَّةِ، وهي آيةُ تَسخيرِ الفُلكِ: أنْ تسيرَ على الماءِ، وتسخيرُ الماءِ لِتَطفوَ عليه دونَ أنْ يُغرِقَها[٢].

وأيضًا لَمَّا مَنَّ تعالَى بإحياءِ الأرضِ -وهي مكانُ الحيواناتِ-، بيَّنَ أنَّه لم

= (٤/ ١٠٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٧) و(١٥/ ٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦).

يقتَصِرْ عليه، بلْ بيَّن للإنسانِ طَريقًا يتَّخِذُ مِن البَحرِ، ويَسيرُ فيها كما يَسيرُ في البَرِّ، فقال[١]:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾.

أي: وعَلامةٌ عَظيمةٌ لهم[٢] دالَّةٌ على تَوحيدِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه على فِعلِ ما يَشاءُ، وعلى غيرِ ذلك: أنَّا حمَلْنا آباءَهم[٣] في السَّفينةِ المملوءةِ مِن الأَمتعةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٢٢٤).

(٢) قيل: المرادُ بهم: كفَّارُ مكةَ. وممَّن قال بهذا: مقاتِل بن سُليمان، والسَّمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٤).

وقيل: المرادُ بهم: جميعُ النَّاسِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٠).

قال الشوكانيُّ: (ثُمَّ قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فكأنَّه قال: وآيةٌ للعِبادِ أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّاتِ العِبادِ، ولا يلزَمُ أنْ يكونَ المرادُ بأحدِ الضَّميرَيْنِ البعضَ منهم، وبالضَّميرِ الآخَرِ البعضَ الآخَرَ، وهذا قولٌ حَسَنٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٧). يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٣).

وقال الماورديُّ: (قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ: أحدُها: عبرةٌ لهم؛ لأنَّ في الآياتِ اعتِبارًا. الثاني: نِعمةٌ عليهم؛ لأنَّ في الآياتِ إنعامًا. الثالث: إنذارٌ لهم؛ لأنَّ في الآياتِ إنذارًا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٩).

(٣) ممَّن اختار المعنى المذكورَ في الجُملةِ، وأنَّ المرادَ بالذُّرِّيَّةِ هنا: الآباءُ الأقدمون الذين ركِبوا السَّفينةَ معَ نوحٍ عليه السَّلامُ: ثَعلب، وابنُ جَرير، والسَّمرقندي، والواحدي، والبَغوي، وابنُ كثير، وجلال الدِّين المحلي، والعُليمي. يُنظر: ((مجالس ثعلب)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٥).

قال الواحديُّ: (لأنَّ مَن حُمِلَ مع نوحٍ كان هؤلاء مِن نَسْلِهم، والذُّرِّيَّةُ تَقعُ على الآباءِ كما تَقعُ على الأولادِ). يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٤).

والسَّفينةُ على هذا القَولِ: هي سَفينةُ نوحٍ عليه السَّلامُ، ونَسَب الرَّسْعنيُّ القَولَ بذلك إلى أكثَرِ المفَسِّرين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٤٠). =

= قال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرون: أراد: في سَفينةِ نوحٍ، فنَسَب الذُّرِّيَّةَ إلى المُخاطَبين؛ لأنَّهم مِن جِنسِهم، كأنَّه قال: ذُرِّيَّةَ النَّاسِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٥).

وقال ابنُ جُزي: (وإنْ أراد بالفُلكِ سَفينةَ نوحٍ فيَعني بالذُّرِّيَّةِ مَن كان في السَّفينةِ، وسمَّاهم ذُرِّيَّةً؛ لأنَّهم ذُرِّيَّةُ آدمَ ونُوحٍ، فالضَّميرُ في ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على هذا النَّوعِ لبني آدمَ، كأنَّه يقولُ: الذُّرِّيَّةُ منهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٣).

وقال ابنُ عُثَيمين: (والصَّوابُ أن نقولَ: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، يعني: الذُّرِّيَّةَ التي كانوا منها؛ فالإضافةُ -كما يقولُ النَّحويونَ- لأدْنى مُلابَسةٍ، فآباؤُهم بالنِّسبةِ لِنُوحٍ ذُرِّيَّةٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٠٩).

وقال الزمخشريُّ: (قيل: الفلكُ المشحونُ: سَفينةُ نوحٍ، ومعنى حَملِ اللهِ ذُرِّياتِهم فيها: أنَّه حمَل فيها آباءَهم الأقدمين، وفي أصلابِهم هم وذُرِّيَّاتُهم، وإنَّما ذكَرَ ذرِّيَّاتِهم دونَهم؛ لأنَّه أبلغُ في الامتنانِ عليهم، وأدخَلُ في التعجيبِ مِن قُدرتِه في حمْلِ أعقابِهم إلى يومِ القِيامةِ في سَفينةِ نوحٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨).

وقال الرازيُّ: (إنْ كانَ المرادُ سفينةَ نُوحٍ عليه السَّلامُ ففيه وجوهٌ:

الأَوَّلُ: أنَّ المرادَ أنَّا حَمَلْنا أولادَكم إلى يومِ القِيامةِ في ذلك الفُلكِ، ولولا ذلك لَمَا بَقِي للآدميِّ نَسْلٌ ولا عَقِبٌ وعلى هذا فقولُه: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بدلُ قولِه: «حَمَلْنَاهم» إشارَةٌ إلى كمالِ النِّعمةِ، أي: لم تَكُنِ النِّعمةُ مُقْتَصِرَةً عليكم، بلْ متعدِّيَةً إلى أعقابِكم إلى يومِ القِيامةِ، هذا ما قاله الزَّمخشريُّ. ويَحتمِلُ عِندي أنَّ يُقالَ على هذا: إنَّه تعالَى إنَّما خصَّ الذُّرِّيَّةَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ الموجودينَ كانوا كُفَّارًا لا فائدةَ في وُجودِهم فقال: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، أي: لم يَكُنِ الحملُ حَمْلًا لهم، وإنَّما كان حَمْلًا لِمَا في أصلابِهم مِن المؤمنينَ...

الثَّاني: هو أنَّ المرادَ بالذُّرِّيَّةِ الجنسُ، معناه: حَمَلْنا أجناسَهم؛ وذلك لأنَّ وَلَدَ الحيوانِ مِن جِنسِه ونوعِه، والذُّرِّيَّةُ تُطْلَقُ على الجنسِ... فقولُه: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، أي: أمثالَهم، وآباؤُهم حينئذٍ تَدْخُلُ فيهم.

الثَّالثُ: هو أنَّ الضَّميرَ فِي قولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ عَائِدٌ إلى العِبادِ حيثُ قال: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠]، وقال بعدَ ذلك: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [يس: ٣٣]، وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾ [يس: ٣٧]، وقالَ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ إذا عُلِم هذا فكأنَّه تعالَى قال: وآيةٌ للعبادِ أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّاتِ العبادِ، ولا يلزمُ أنْ يكونَ المرادُ بالضَّميرِ في الموضعَينِ أشخاصًا معيَّنينَ... قولُه تعالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾، أي: آيةٌ لكلِّ بَعضٍ منهم أنَّا حمَلْنا ذُريةَ كلِّ بعضٍ منهم، أو ذُرِّيَّةَ بعضٍ منهم). =

والحَيواناتِ: سَفينةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ[(١)].

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

= ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٣).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: أولادُهم. وممَّن اختار هذا القولَ: الزمخشري، والخازن، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٨٦).

قال الألوسيُّ: (واستظهَرَ حَمْلَه على الأولادِ مُطلقًا أبو حيَّان، وجوَّز غيرُ واحدٍ أن يُحمَلَ على الكِبارِ؛ لأنَّهم المبعوثونَ للتِّجارةِ، أي: حمَلْناهم حينَ يَبعثونَهم للتِّجارةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦)، ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٩).

وقال السَّمينُ الحلَبي: (وقيل: الأبناءُ، وذلك إذا أُريدَ بالفُلكِ جِنسُ السُّفُنِ لا سَفينةُ نُوحٍ). ((عمدة الحفاظ)) (٢/ ٤٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: جِنسُ السُّفُنِ: الرازي، وابن جُزي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦، ٢٧).

وقال الألوسيُّ: (وإرادةُ الجِنسِ مَرويَّةٌ عن ابنِ عبَّاسٍ، ومجاهدٍ، والسُّدِّي). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦).

وقال الرازيُّ: (هو أظهرُ؛ لأنَّ سَفينةَ نوحٍ لم تكُنْ بحضرَتِهم ولم يَعْلموا مَن حُمِل فيها، فأمَّا جِنسُ الفلكِ فإنَّه ظاهرٌ لكلِّ أحدٍ، وقولُه تعالَى في سفينةِ نوحٍ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، أي: بوجودِ جِنسِها ومِثلِها، ويؤيِّدُه قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١]). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٣).

وقال ابنُ جُزي: (والأظهرُ أنَّه أراد بالفلكِ جنسُ السُّفنِ، فيعني جِنسَ بني آدمَ، وإنَّما خَصَّ ذُريتَهم بالذِّكرِ؛ لأنَّه أبلغُ في الامتِنانِ عليهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٣).

وظاهرُ كلامِ ابنِ كثيرٍ الجمْعُ بينَ القَولينِ في المرادِ بالفُلكِ، حيثُ قال: (ودَلالَةٌ لهم أيضًا على قُدرَتِه تعالَى: تسخيرُه البحرَ ليحمِلَ السُّفنَ، فمِن ذلك -بل أوَّلُه- سَفينةُ نُوحٍ، عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٤، ١٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩).

أي: وخلَقْنا للعِبادِ مِن مِثلِ سَفينةِ نوحٍ ما يَركَبونَه مِن السُّفُنِ التي علَّمْناهم صَنعتَها[(١)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٣، ٤٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩، ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٤-١٥٥).

والقولُ بأنَّ المرادَ أنَّ الله تعالى خلَقَ لهم سُفُنًا مِن جِنسِ سَفينةِ نوحٍ نسَبه الرازي إلى الأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٥).

وقال الزَّجَّاج: (الأكثرُ في التفسيرِ أنَّ ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ مِن مِثلِ سَفينةِ نوحٍ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٢٨٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ في رِوايةٍ عنه، وأبو مالكٍ، والحَسَنُ في روايةٍ عنه، وأبو صالحٍ، والضحَّاكُ، وقَتادةُ في رِوايةٍ عنه، وابنُ زيدٍ، والسُّدِّيُّ في رِوايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠).

قال ابنُ القيِّم: (والأصَحُّ أنَّ المِثْلَ المخلوقَ هنا هو السُّفُنُ، وقد أخبَرَ أنَّها مَخلوقةٌ، وهي إنَّما صارتْ سُفُنًا بأعمالِ العِبادِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٥٢).

وقيل: المرادُ بقوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: الإبلُ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والنَّسَفي، والسَّمين الحلبي، والعُليمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠٥)، ((عمدة الحُفَّاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨).

قال السَّمين الحلبي: (وذلك أنَّها في حمْلِها الأشياءَ الثقيلةَ وصبرِها على عدمِ الماءِ والعلفِ كالسُّفنِ؛ ولذلك تُسمِّيها العربُ «سفنَ البرِّ»). ((عمدة الحفاظ)) (٤/ ٧٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ في رِوايةٍ عنه، وعِكرمةُ، وعبد الله بنُ شدَّاد، ومجاهدٌ، والحسنُ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩).

وممَّن جمَع بينَ القولين: البقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٣٤).

ولكنْ قال ابنُ القيِّم: (أبعَدَ مَن قال: إنَّ المِثْلَ هاهنا هو سُفُنُ البَرِّ، وهي الإبلُ؛ لوجهَين: **أحدُهما**: أنَّها لا تُسمَّى مِثْلًا للسُّفُنِ لا لُغةً ولا حَقيقةً؛ فإنَّ المِثْلَينِ ما سَدَّ أحدُهما مَسَدَّ الآخَرِ، وحقيقةُ =

كما قال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: وإنْ نشأْ نُغرِقْ مَن يَركَبونَ السُّفُنَ، في البَحرِ[١]؛ فلا مُغيثَ لهم يَطلُبونَ منه النَّجدةَ، فيَمنَعُ عنهم حُدوثَ الغَرَقِ، ولا أحَدَ يُنقِذُهم فيَنتشِلُهم مِن الماءِ بعدَ غرَقِهم فيه[٢].

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: إلَّا أن نُنجِّيَهم نحن مِنَ الغَرَقِ؛ رَحمةً مِنَّا بهم، ولِنُمتِّعَهم إلى مُنتهَى آجالِهم المعلومةِ عندَ اللهِ تعالَى[٣].

= المماثَلةِ أنْ يكونَ بينَ فُلْكٍ وفُلْكٍ، لا بينَ جَملٍ وفُلْكٍ. **الثَّاني**: أنَّ قَولَه: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ عَقِبَ ذلك: دَليلٌ على أنَّ المرادَ الفُلْكُ التي إذا رَكِبوها قَدَرْنا على إغراقِهم، فذَكَّرَهم بنِعَمِه عليهم مِن وَجهَينِ: أحدُهما: ركوبُهم إيَّاها. والثَّاني: أنْ يُسَلِّمَهم عندَ رُكوبِها مِنَ الغَرَقِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٥٢).

وقال أبو حيَّان: (قولُه: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾: يعني الإبلَ والخيلَ والبغالَ والحميرَ، والمماثلَةُ في أنَّه مركوبٌ مُبَلِّغٌ للأوطانِ فقطْ، هذا إذا كانَ الفُلكُ جنسًا. وأمَّا إنْ أُريدَ به سفينَةُ نوحٍ، فالمماثَلَةُ تكونُ في كونِها سُفُنًا مِثْلَها، وهي الموجودةُ في بني آدَمَ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٠).

(١) قيل: المرادُ بهم هنا: المشركون. وممَّن قال بهذا: ابنُ جَرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٧).

وقيل: مَن يَركبون السُّفُنَ عمومًا. وهذا اختيارُ ابنِ عطيَّة، وظاهرُ اختيار ابنِ كَثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠).

قال الشوكانيُّ: (والضَّميرُ يَرْجِعُ إمَّا إلى أَصْحَابِ الذُّرِّيَّةِ، أوْ إلى الذُّرِّيَّةِ، أَوْ إلى الجميعِ عَلَى اختلافِ الأقوالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٥)، ((تفسير الرازي)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قولِه تعالَى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أنَّ في حالِ النِّعمةِ يَنبغي ألَّا يُؤمَنَ عَذابُ اللهِ تعالَى[١].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أنَّه يجِبُ على الإنسانِ أنْ يَنْظُرَ إلى نِعَمِ اللهِ تعالَى -بالإنقاذِ مِن الشَّدائدِ، أو بحُصولِ المحبوبِ- على أنَّها فَضْلٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وليستْ بكَسْبِه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ بيانُ نِعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بما أنْعَم على هؤلاءِ بتعليمِ السُّفُنِ التي يركبونَها في البحرِ، لولا هذه السفنُ ما استطاعَ أحدٌ أنْ يَعْبُرَ مِن يابسةٍ إلى أُخرَى بينَهما ماءٌ! ولكنَّ اللهَ تعالَى أعْلَمهم بصِناعةِ هذه حتَّى وصَلوا إلى ما وصَلوا إليه[٣].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: ذُريَّاتِ العِبادِ -على قولٍ في التفسيرِ-، ولم يقُلْ: «حملناهم»! لأنَّ سَكَنَ الأرضِ عامٌّ لكلِّ أحدٍ يَسكنُها؛ فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ إلى أنْ قال: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]؛ لأنَّ الأكْلَ عامٌّ، وأمَّا الحمْلُ في السَّفينةِ فمِن الناسِ مَن لا يركبُها في عُمرِه ولا يُحمَلُ فيها؛ ولكنَّ ذُريَّةَ العبادِ لا بدَّ لهم مِن ذلك؛ فإنَّ فيهم مَن يحتاجُ إليها،

= (٢٦/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦)، (تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٤).

فيُحمَلُ فيها[١].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ سُؤالٌ: أنَّه قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [يس: ٣٣]، وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾ [يس: ٣٧]، ولم يقُلْ: (وآيةٌ لهم الفُلكُ جعَلْناها بحيثُ تحمِلُهم)، وإنَّما قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا﴾؛ وذلك لأنَّ حَمْلَهم في الفُلكِ هو العجَبُ، أمَّا نَفسُ الفُلكِ فليس بعجَبٍ؛ لأنَّه كبَيتٍ مبنيٍّ مِن خشَبٍ، وأمَّا نَفسُ الأرضِ فعَجَبٌ، ونَفْسُ اللَّيلِ عَجَبٌ؛ لا قُدرةَ عليهما لأحدٍ إلَّا اللهِ سُبحانَه[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا﴾ يُؤخذُ منه جوازُ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ حمَل فلانًا، ومِثلُه في الحديثِ[٣]: ((ما أنا حَمَلْتُكم، ولكنَّ اللهَ حمَلَكم))[٤].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أنَّ اللهَ خالِقٌ لأعمالِ العِبادِ، ووَجهُه: أنَّ السُّفُنَ إنَّما يَنجُرُ خَشَبَها ويَركبُها بنو آدمَ؛ فالفُلكُ مَعمولةٌ لهم، فإذا كان اللهُ قد أخبَرَ أنَّه خَلَقَ الفُلكَ المشحونَ، وجَعَلَ ذلك مِن آياتِه وممَّا أنعَمَ اللهُ به على عبادِه؛ عُلِمَ أنَّه خالِقُ أفعالِهم[٥].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أنَّ المُماثَلةَ قدْ لا تقتَضي المساواةَ مِن كلِّ وَجهٍ؛ فليستِ السُّفُنُ الموجودةُ -التي كانتْ في عَهدِ نُزولِ القرآنِ- ليستْ كمِثلِ سَفينةِ نوحٍ مِن كلِّ وَجهٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٨٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٣١٣٣)، ومسلِمٌ (١٦٤٩) واللفظ له، من حديثِ أبي مُوسى الأشعريِّ رَضيَ اللهُ عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٣٥٣).

(٥) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٢٦١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٥).

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى قد يُنْقِذُ الإنسانَ مِن الهلاكِ إلى أنْ يأتيَ أجلُه؛ فالخلودَ في هذه الدنيا مُتَعَذِّرٌ ومستحيلٌ، وما كان له غايةٌ فلا بُدَّ أنْ يَنقضيَ[١].

ولقد أحسَن مَن قال[٢]:

وإنْ أسْـــلَمْ فمَـــا أبقَـــى ولكِـــنْ سَـلِمْتُ مِن الحِمامِ[٣] إلى الحِمامِ[٤]

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ هذا انتقالٌ مِن عَدِّ آياتٍ في الأرضِ وفي السَّماءِ، إلى عَدِّ آيةٍ في البَحرِ تَجمَعُ بَينَ العِبرةِ والمِنَّةِ، وهي آيةُ تَسخيرِ الفُلكِ أنْ تَسيرَ على الماءِ، وتَسخيرِ الماءِ لِتَطفُوَ عليه دونَ أنْ يُغرِقَها، وقد ذَكَّرَ اللهُ الناسَ بآيةٍ عَظيمةٍ اشتُهِرتْ حتَّى كانتْ كالمُشاهَدةِ عِندَهم، وهي آيةُ إلهامِ نُوحٍ عليه السَّلامُ صُنعَ السَّفينةِ؛ لِيَحمِلَ الناسَ الذين آمَنوا، ويَحمِلَ مِن كُلِّ أنواعِ الحَيوانِ زَوجَيْنِ؛ لِيُنجيَ الأنواعَ مِنَ الهَلاكِ والاضمِحلالِ بالغَرَقِ في حادِثِ الطُّوفانِ. ولَمَّا كانتْ هذه الآيةُ حاصلةً لِفائدةِ حَملِ أزواجٍ مِن أنواعِ الحَيوانِ، جَعَلتِ الآيةُ نفْسَ الحَمْلِ إدماجًا لِلمِنَّةِ في ضِمنِ العِبرةِ، فكأنَّه قيل: وآيةٌ لهم صُنعُ الفُلكِ؛ لِنَحمِلَ ذُرِّيَّاتِهم فيه، فحَمَلناهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٨).

(٢) البيت للمتنبي، يُنظر: ((ديوانه)) (ص: ٤٨٥).

(٣) الحِمامُ: الموتُ: والمعنى: وإنْ أسْلَمَ مِن مَرضِي لم أَبْقَ خالدًا، ولكنْ سَلِمتُ مِن الموتِ بهذا المَرضِ إلى الموتِ بمَرضٍ وسَببٍ آخَرَ! يُنظر: ((الوساطه بين المتنبي وخصومه)) للجُرجاني (ص: ١٢١)، ((شرح ديوان المتنبي)) للواحدي (٤/ ١٨٢٠)، ((شرح ديوان المتنبي)) للبرقوقي (٤/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦ - ٢٧).

- وذَكَر الذُّرِّيَّاتِ في قَولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ لِأنَّ ذلك أبلَغُ في الامتِنانِ عليهم، وأدخَلُ في التَّعجيبِ مِن قُدرَتِه، في حَمْلِ أعقابِهم إلى يَومِ القِيامةِ في سَفينةِ نُوحٍ، ولأنَّه يَقتَضي أنَّ أُصولَ الناسِ والبَشَرِ مَحمولونَ بطَريقِ الكِنايةِ إيجازًا في الكَلامِ، وأنَّ أنفُسَهم مَحمولون كذلك، كأنَّه قيل: إنَّا حَمَلْنا أُصولَهم وحَمَلْناهم وحَمَلْنا ذُرِّيَّاتِهم؛ إذْ لولا نَجاةُ الأصولِ، ما جاءَتِ الذُّرِّيَّات، وكانتِ الحِكمةُ في حَملِ الأُصولِ بَقاءَ الذُّرِّيَّات؛ فكانتِ النِّعمةُ شامِلةً لِلكُلِّ. وقيل: الذُّرِّيَّةُ مِن أسماءِ الأضدادِ عِندَ كَثيرٍ، تُطلَقُ على الآباءِ والأولادِ، والمُرادُ هنا: الفريقانِ. وقيل: وتَخصيصُ الذُّرِّيَّةِ بالذِّكرِ؛ لِأنَّ استِقرارَهم في السُّفُنِ أشَقُّ، وتَماسُكَهم فيها أعجَبُ[1].

- وفُهِم مِن دَلالةِ قَولِه: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ -صَريحًا وكِنايةً- أنَّ هذه الآيةَ مُستَمرَّةٌ لِكُلِّ ناظِرٍ؛ إذْ يَشهَدونَ أسفارَهم وأسفارَ أمثالِهم في البَحرِ، وخاصَّةً سُكَّانَ الشُّطوطِ والسَّواحِلِ، فيُفهَم منه: أنَّا حَمَلْنا ونَحمِلُ وسنَحمِلُ أسلافَهم وأنفُسَهم وذُرِّيَّاتِهم[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هاهنا: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ فمَنَّ عليهم بحَملِ ذُرِّيَّتِهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]؛ فمَنَّ هناك عليهم بحَمْلِ أنفُسِهم؛ ووَجهُه: أنَّ مَن يَنفَعُ المُتعَلِّقَ بالغَيرِ يَكونُ قد نَفَعَ ذلك الغَيرَ، ومَن يَدفَعُ الضَّرَرَ عنِ المُتعَلِّقِ بالغَيرِ لا يَكونُ قد دَفَعَ الضَّرَرَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٨- ١٦٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨).

عن ذلك الغَيرِ، بل يَكونُ قد نَفَعَه. مثالُه: مَن أحسَنَ إلى وَلَدِ إنسانٍ وفَرَّحَه؛ فَرِح بفَرَحِه أبوه، وإذا دَفَع واحِدٌ الألَمَ عن وَلَدِ إنسانٍ يَكونُ قد فَرَّحَ أباه؛ ولا يَكونُ في الحَقيقةِ قد أزالَ الألَمَ عن أبيه، فعِندَ طُغيانِ الماءِ كان الضَّرَرُ يَلحَقُهم؛ فقال: دَفَعتُ عنكمُ الضَّرَرَ؛ ولو قال: دَفَعتُ عن أولادِكمُ الضَّرَرَ، لَمَا حَصَلَ بَيانُ دَفعِ الضَّرَرِ عنهم، وهاهنا أرادَ بيانَ المَنافعِ، فقال: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ لِأنَّ النَّفعَ حاصِلٌ بنَفعِ الذُّرِّيَّةِ، ويَدُلُّ على هذا أنَّه هاهنا قال: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ فإنَّ امتِلاءَ الفُلكِ مِنَ الأموالِ يَحصُلُ بذِكرِه بَيانُ المَنفَعةِ، وأمَّا دَفعُ المَضرَّةِ فلا؛ لِأنَّ الفُلكَ كُلَّما كان أثقَلَ، كان الخَلاصُ به أبطَأَ، وهُنالِكَ السَّلامةُ، فاختارَ هُنالِكَ ما يَدُلُّ على الخَلاصِ مِنَ الضَّرَرِ، وهو الجَريُ، وهاهنا ما يَدُلُّ على كَمالِ المَنفَعةِ، وهو الشَّحنُ[1]، وهذا على قَولٍ في تَفسيرِ الآيَتَينِ.

٢- قولُه تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ جُملةٌ مُعتَرِضةٌ في خِلالِ آيةِ البَحرِ، اقتَضَتْها مُراعاةُ النَّظيرِ؛ تَذكيرًا بنِعمةِ خَلْقِ الإبلِ صالِحةً لِلأسفارِ -على قولٍ في التفسيرِ-، فحُكِيَتْ آيةُ الإلهامِ بصُنعِ الفُلكِ مِن حيثُ الحِكمةُ العَظيمةُ في الإلهامِ، وتَسخيرِ البَحرِ لها، وإيجادِها في وَقتِ الحاجةِ؛ لِحفظِ النَّوعِ؛ فلذلك لم يُؤتَ في جانِبِها بفِعلِ الخَلْقِ المُختَصِّ بالإيجادِ دونَ صُنعِ الناسِ، وحُكِيَتْ آيةُ اتِّخاذِ الرَّواحِلِ بفِعلِ (خَلْقِنا)؛ فما يَركَبونَ هنا يصدُقُ على الرَّواحِلِ خاصَّةً؛ لِأنَّها التي تُشبِهُ الفُلكَ في جَعْلِها قادِرةً على قَطْعِ الرِّمالِ، كما جَعَلَ الفُلكَ صالِحًا لِمَخرِ البِحارِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨).

- قَولُه: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ على أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَخَلَقْنَا﴾ الإنشاءُ والاختِراعُ؛ فالمُرادُ الإبِلُ وما يُركَبُ، وتَكونُ (مِنْ) لِلبيانِ، وإنْ كانَ ما يَصنَعُه الإنسانُ قد يُنسَبُ إلى اللهِ خَلْقًا، وإذا أُريدَ به السُّفُنُ، تَكونُ (مِنْ) لِلتَّبعيضِ[1]؛ فـ (مِنْ) التي في قَولِه: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ -على أنَّ المرادَ: الإبلُ- بَيانيَّةٌ، بتَقديمِ البَيانِ على المُبَيَّنِ، أو مُؤكِّدةٌ، ومَجرورُها أصلُه حالٌ مِن (ما) المَوصولةِ في قَولِه: ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾، والمُرادُ المُماثَلةُ في العَظمةِ، وقُوَّةِ الحَملِ، ومُداوَمةِ السَّيرِ، وفي الشَّكلِ[2]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي: ممَّا يُماثلُ ذلك الفُلكَ من السُّفنِ فجَعَلها مَخلوقةً للهِ تَعالى، معَ كَونِها مِن مَصنوعاتِ العِبادِ؛ ليس لِمُجرَّدِ كَونِ صُنعِهم بأقدارِ اللهِ تَعالى وإلهامِه، بل لِمَزيدِ اختِصاصِ أصلِها بقُدرَتِه تَعالى، وحِكمَتِه، حَسبَما يُعرِبُ عنه قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[3] [هود: ٣٧].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عبَّرَ عن مُلابَستِهم بهذه السُّفُنِ بالرُّكوبِ في قولِه: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾؛ لِأنَّها باختِيارِهم، وعبَّرَ عن مُلابَسةِ ذُرِّيَّتِهم بفُلكِ نوحٍ عليه السَّلامُ بالحَملِ في قولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ لِكَونِها بغَيرِ شُعورٍ منهم واختِيارٍ[4].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾

- جملةُ ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس: ٤١]،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

باعتِبارِ دَلالَتِها الكِنائيَّةِ على استِمرارِ هذه الآيةِ. وهذه المِنَّةُ تَذكيرٌ بأنَّ اللهَ تَعالى الذي امتَنَّ عليهم إذا شاءَ جَعَل فيما هو نِعمةٌ على الناسِ نِقمةً لهم؛ لِحِكمةٍ يَعلَمُها، وهذا جَريٌ على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ التَّرغيبِ بالتَّرهيبِ، وعَكسِه؛ لِئلَّا يَبطَرَ الناسُ بالنِّعمةِ، ولا يَيْئَسُوا مِنَ الرَّحمةِ، وقَرينةُ ذلك أنَّه جيءَ في هذه الجُملةِ بالمُضارِعِ المُتَمحِّضِ في سِياقِ الشَّرطِ؛ لِكَونِه مُستَقبَلًا[١].

- وهم مُعتَرِفونَ بمَضمونِ قَولِه: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ...﴾، كما يَنطِقُ به قَولُه تَعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، وفي تَعليقِ الإغراقِ بمَحضِ المَشيئةِ: إشعارٌ بأنَّه قد تَكامَلَ ما يُوجِبُ إهلاكَهم مِن مَعاصيهم، ولم يَبقَ إلَّا تَعلُّقُ مَشيئَتِه تَعالى به، أي: إنْ نَشَأْ نُغرِقْهم في اليَمِّ مع ما حَمَلْناهم فيه مِنَ الفُلكِ؛ فحَديثُ خَلْقِ الإبلِ حينَئذٍ كَلامٌ جيءَ به في خِلالِ الآيةِ بطَريقِ الاستِطرادِ؛ لِكَمالِ التَّماثُلِ بَينَ الإبلِ والفُلكِ -على قولٍ في التفسيرِ-، فكَأنَّها نَوعٌ منه، أو مع ما يَركَبونَ مِنَ السُّفُنِ والزَّوارِقِ[٢].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿هُمْ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يُنقَذُونَ﴾ في قَولِه: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾؛ لِإفادةِ تَقَوِّي الحُكمِ، وهو نَفيُ إنقاذِ أحَدٍ إيَّاهم[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾

- قَولُه: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ قيل: فيه تَقسيمٌ، أي: إلَّا رَحمةً لِمَن عَلِمَ أنَّه يُؤمِنُ فيُنقِذُه اللهُ رَحمةً، ومَن عَلِمَ أنَّه لا يُؤمِنُ يَمنَعُه زَمانًا، ويَزدادُ إثْمًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧١).

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بسَلامةِ الاختِراعِ، وهو الإتيانُ بمَعنًى لم يُسبَقْ إليه؛ فإنَّ نَجاتَهم مِنَ الغَرَقِ برَحمةٍ منه تعالَى هي في حَدِّ ذاتِها مَتاعٌ يَستَمتِعونَ به، ولكِنَّه على كُلِّ حالٍ إلى أجَلٍ مُقدَّرٍ يَموتونَ فيه، لا مَندوحةَ لهم عنه؛ فهُمْ إنْ نَجَوْا مِنَ الغَرَقِ فلنْ يَنجوا ممَّا يُشبِهُه أو يُدانيه، والمَوتُ لا تَفاوتَ فيه[1].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠٦- ٢٠٧).

الآيات (٤٥-٤٧)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٧﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جانبًا مِن جَهالاتِ المشركينَ، وتمادِيهم في غَيِّهم وضلالِهم: وإذا قيل لأولئك المُشرِكين: احْذَروا ما تقدَّم قبْلَكم مِن نِقم اللهِ في الأُمم الماضيةِ بكُفرِهم أنْ يحُلَّ مثلُه بكم، واحْذَروا ما أنتُم لاقُوه مِن عذابِ اللهِ تعالَى إنْ هلكْتُم على كُفرِكم وتكذيبِكم، لعلَّكم تُرحمونَ، أعرَضوا وصَمُّوا آذانَهم.

وما تأتيهم آيةٌ مِن الآياتِ التي تدُلُّ على وَحدانيَّةِ الله تعالَى وقُدرتِه، وعلى أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم صادِقٌ في دَعوتِه؛ إلَّا أعرَضوا عنها وصَمُّوا آذانَهم.

وإذا قِيل لأولئك الكافِرينَ: أنفِقوا ممَّا رزقَكم اللهُ على المحتاجينَ، قالوا على سَبيلِ الاستِهزاءِ والسُّخريةِ: أنُطعِمُهم نحنُ ولو شاء اللهُ لأطعَمَهم هو مِن رِزقِه؟! ما أنتُم في أمْرِكم لنا بالإنفاقِ عليهم إلَّا في ضلالٍ واضحٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عدَّد تعالَى الآياتِ بقَولِه: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ [يس: ٣٣]، ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ ﴾ [يس: ٣٧]، ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾ [يس: ٤١]، وكانت الآياتُ

تُفيدُ اليَقينَ، وتُوجِبُ القَطعَ بما قال تعالَى، ولم تُفِدْهم اليَقينَ -قال: فلا أقَلَّ مِن أن يَحتَرِزوا عن العذابِ؛ فإنَّ مَن أُخبِرَ بوقوعِ عذابٍ: يتَّقيه -وإنْ لم يَقطَعْ بصِدقِ قَولِ المُخبِرِ- احتياطًا[١].

وأيضًا تَخَلَّصَ الكَلامُ مِن عَدَمِ انتِفاعِهم بالآياتِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالَى، إلى عَدَمِ انتِفاعِهم بالأقوالِ المُبَلَّغةِ إليهم في القُرآنِ مِنَ المَوعِظةِ، والتَّذكيرِ بما حَلَّ بالأُمَمِ المُكذِّبةِ أنْ يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم، وبعَدَمِ انتِفاعِهم بتَذكيرِ القُرآنِ إيَّاهم بالأدلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ سُبحانَه، وعلى البَعثِ[٢].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٥﴾.

أي: وإذا قيلَ للمُشركينَ[٣]: احْذَروا ما تَقدَّم قبْلَكم مِن نِقمِ الله في الأُمَمِ الماضيةِ بكُفرِهم أن يحُلَّ مِثلُه بكم، واحْذَروا ما أنتُم لاقُوه مِن عَذابِ اللهِ تعالَى إنْ هلكتُم على كُفرِكم وتكذيبِكم؛ لعلَّكم تنالونَ بذلك رحمةَ رَبِّكم- إذا قيل للمُشركينَ ذلك أعرَضوا[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٤٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٩-١٦٠).
وممَّن ذهَب إلى أنَّ معنى: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ﴾ ما أصابَ مَن قَبلَكم من العُقوباتِ، ومعنى: ﴿وَمَا خَلۡفَكُمۡ﴾: عذابُ الآخِرةِ: مقاتِلُ بنُ سليمان، وابنُ جَرير، ومكيٌّ، وابنُ عطية، وجلال الدِّين المحلِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير الجلالين)) للمحلي (ص: ٥٨٣). =

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: وما تأتي هؤلاءِ المُشركينَ علامةٌ دالَّةٌ على تَوحيدِ اللهِ تعالَى وصِدقِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا كانوا مُعرِضينَ عنها، فلا يَكتَرِثون بها، ولا يَتفكَّرونَ فيها[1]!

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسنُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٨).

وقيل: المعنى: اتَّقوا ما بيْن أيديكم مِن أمْرِ الآخِرةِ؛ فاعمَلوا لها، وما خلْفَكم مِن أمْرِ الدُّنيا؛ فلا تغترُّوا بها، واحْذَروا أنْ يُعاقِبَكم اللهُ فيها. وممَّن قال بهذا المعنى: السَّمرقندي، والواحدي، والعُليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، والكَلبي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨١١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٢٩).

وقيل: المرادُ بما بيْن أيديهم وما خَلْفَهم: ذُنوبُهم المتقدِّمة، وذُنوبُهم المتأخِّرة التي تَصدُرُ منهم في المستقبَلِ. وممَّن قال بهذا القول: الزَّجَّاج، وابن جُزي، وابن كثير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨١١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٢٩).

قال الألوسيُّ بعدَ أنْ ذكَر الخِلافَ: (وحاصلُ الأمْرِ على ما قيل: اتَّقوا العذابَ، أو اتَّقوا ما يَترتَّبُ العذابُ عليه). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨).

وقال ابنُ عُثَيمين بعدَ أنْ ذكَرَ الخِلافَ في الآيةِ: (الآيةُ إذا كانتْ تَحتمِلُ المعانيَ المقولةَ فيها بدونِ تعارُضٍ؛ فإنَّها تُحمَلُ على الجَميعِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦٠).

وقال الواحدي: (وجوابُ «إذا» محذوفٌ على تقديرِ: وإذا قيل لهم هذا أعرَضوا، يدلُّ على المحذوفِ قولُه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ [يس: ٤٦] أي: عبرةٌ ودلالةٌ تدلُّ على صدقِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾). ((الوسيط)) (٣/ ٥١٥). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١، ٢].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعدَ أنْ ذكَرَ إعراضَهم عن الخالِقِ؛ بيَّن قسوتَهم على المخلوقينَ[١]؛ فالمكلَّفُ عليه التَّعظيمُ لجانبِ اللهِ، والشَّفقةُ على خَلقِ اللهِ، وهم تَرَكوا التَّعظيمَ حيثُ قيلَ لهم: ﴿ٱتَّقُوا۟﴾ فلم يَتَّقوا، وتَرَكوا الشَّفقةَ على خَلْقِ اللهِ حيثُ قِيل لهم: ﴿أَنفِقُوا۟﴾ فلم يُنْفِقوا[٢].

وأيضًا لَمَّا كانت الرحمةُ بالرِّزقِ والنصرِ إنَّما تُنالُ بالرحمةِ للضُّعفاءِ، وكان الإنفاقُ خُلُقَ المؤمنينَ؛ قال مبيِّنًا أنَّهم انسلَخوا عن الإنسانيةِ جُملةً[٣]:

= كثير)) (٦/ ٥٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٧، ٤٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١).

قال ابنُ الجوزي: (وفي «الآية» قولان: أحدُهما: أنَّها الآيةُ مِن القُرآنِ. والثاني: المعجزةُ، مثلُ انشقاقِ القمرِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٩).

وقال الواحديُّ: (المرادُ بالآياتِ: الدَّلالاتُ التي يجبُ أن يَستَدِلُّوا بها على تَوحيدِ اللهِ وصِدقِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مِن خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ وما بينَهما، مع المُعجزاتِ التي أتَى بها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((البسيط)) (٨/ ١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٦).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾.

أي: وإذا قِيلَ للمُشركينَ: أنفِقوا ممَّا رزَقَكم اللهُ على غَيرِكم مِنَ المحتاجينَ، قال أولئك المشركونَ للمُؤمِنينَ: كيف نُطعِمُ -نحْنُ- هؤلاء الذين تأمُرونَنا بالإنفاقِ عليهم ولو شاء اللهُ لأطعَمَهم هو مِن رِزقِه[1]؟!

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: وقال المشركون أيضًا للمؤمنينَ: ما أنتُم بأمْرِكم لنا بالإنفاقِ ممَّا رزَقَنا اللهُ على المحتاجِينَ إلَّا في ضَلالٍ واضحٍ في غايةِ الظُّهورِ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٩، ٤٥٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٧-١٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٧).
قيل: لَمَّا أسْلَم المُستضعَفونَ مِن أقرباءِ الكُفَّارِ ومَوالِيهم، قطَع الكُفَّارُ عنهم ما كانوا يُواسونَهم به، وكان ذلك بمكَّةَ أوَّلًا قبلَ نزولِ آياتِ القِتالِ، فنَدَبَهم المؤمِنونَ إلى صِلَةِ قرابَاتِهم فقالوا: أنُطْعِمُ مَن لو يَشاءُ اللَّهُ أطْعَمه. وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٢).
وقولُهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ قيل: يحتَمِلُ أنْ يكونَ استهزاءً. وقيل: يحتَمِلُ أن يكونَ مِن بابِ الاحتجاجِ بالقَدَرِ؛ إمَّا عنادًا ومُعارَضةً للحَقِّ، أو فِرارًا من العِتابِ واللَّومِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦٧-١٦٨).
وقيل: قَصَدوا بقولِهم الإنكارَ لقدرةِ اللَّهِ، أو إنكارَ جوازِ الأمرِ بالإنفاقِ معَ قُدرةِ اللَّهِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).
قال الرَّسْعني: (قَولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يحتَمِلُ وُجوهًا:
أحدُها: أنَّه مِن تمامِ كلامِهم للمُؤمِنين. قاله قتادةُ.
والثَّاني: أنَّه إخبارٌ مِن الله تعالى وحُكمٌ عليهم بالضَّلالِ؛ حيث ردُّوا على المؤمِنينَ هذا الجَوابَ.
الثَّالِثُ: أنَّه حكايةُ قَولِ المؤمِنينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٤٤).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال سُبحانَه وتعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أنَّ الإقبالَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، واجتنابَ مَعصيتِه: سَبَبٌ للرَّحمةِ[١].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ أنَّ بني آدمَ قد يَستكبِرونَ، فيُعرِضُون عنِ الآياتِ بدونِ نَظرٍ، والواجبُ على الإنسانِ أنْ يَنظُرَ أوَّلًا، ثمَّ يَحكُمَ ثانيًا؛ ولهذا يقالُ: «الحُكمُ على الشَّيءِ فَرعٌ عن تَصوُّرِه»[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارةٌ إلى أمْرينِ: أحدُهما: أنَّ البُخلَ به في غايةِ القُبحِ؛ فإنَّ أبخلَ البُخَلاءِ مَن يَبخَلُ بمالِ الغيرِ. وثانيهما: أنَّه لا يَنبغي أنْ يمنَعَكم مِن ذلك مَخافةُ الفَقرِ؛ فإنَّ اللهَ رزَقَكم، فإذا أنفَقتُم فهو يُخلِفُه لكم ثانيًا، كما رزَقَكم أوَّلًا[٣].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أنَّ البُخلَ هو مِن صِفاتِ الكافِرينَ، وإذا كان مِن صِفاتِ الكافِرينَ فإنَّه لا يَنبغي للمُؤمنِ أنْ يَتَّصِفَ به؛ فكلُّ ما كان مِن صِفاتِ الكافِرينَ -مِن اليَهودِ والنَّصارى وغيرِهم- فإنَّ اللَّائقَ بالمسلِمِ ألَّا يَفعَلَه؛ لأنَّه إذا فَعَله صارَ مُتَشَبِّهًا بالكافِرينَ في هذه الخَصلةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا أعرَضَ عن دِينِ اللهِ واستكبرَ كان عُرضَةً للعذابِ؛ إمَّا في الدُّنيا، أو في الآخِرةِ، أو في الدُّنيا والآخِرةِ[١].

٢- قال سُبحانَه وتعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ؛ فإنَّ «لعلَّ» هذه للتَّعليلِ، ولا أحدَ يُنكِرُ أنَّ للأسبابِ تأثيرًا إلَّا مَن صُرِفَ عن مُقتضى الفِطرةِ[٢]!

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ دَليلٌ على أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُبيِّنُ لعِبادِه مِن الآياتِ ما يُؤمِنُ على مِثلِه البَشَرُ، ووجهُ ذلك: أنَّه لولا هذا لم يكُنْ في الآياتِ فائِدةٌ[٣]!

٤- إضافةُ الآياتِ إلى ربِّهم في قَولِه تعالَى: ﴿مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ فيه دَليلٌ على كمالِها ووُضوحِها، وأنَّ مِن جُملةِ تربيةِ الله لعِبادِه: أنْ أوصَل إليهم الآياتِ التي يَستدلُّونَ بها على ما يَنفعُهم في دِينِهم ودُنياهم[٤].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا أنفَقَ بأمرِ اللهِ تعالَى؛ فلا مِنَّةَ له على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو الذي أعطاه[٥].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧٠).

أَطْعَمَهُۥٓ﴾ ذَمُّ مَن يَترُكُ المأمورَ به؛ اكتِفاءً بما يَجري به القَدَرُ[١]!

٧- في قَولِهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أنَّ الإنسانَ قدْ يقولُ كَلِمةَ الحَقِّ يريدُ بها الباطِلَ؛ فنحن نُؤمِنُ بأنَّه لو شاءَ اللهُ لأطعمَ هؤلاء، لكِنَّ حِكمتَه عزَّ وجلَّ اقتضتْ أنْ يَجعَلَ هؤلاء فُقَراءَ، وهؤلاءِ أغنياءَ[٢]. فما ذكروه حُجَّةٌ باطِلةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى منَعَ الدُّنيا من الفُقَراءِ لا بُخلًا ولكِنْ ابتِلاءً، وأمَرَ الأغنياءَ بالإنفاقِ لا بحُكمِ الحاجةِ إلى أموالِهم، لكِنِ لابتلاءِ شُكرِهم[٣]، فهذا الاحتِجاجُ باطلٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى إذا ملَّك عَبدًا مالًا، ثمَّ أوجَبَ عليه فيه حَقًّا، فكأنَّه انتَزَع ذلك القَدْرَ منه؛ فلا معنى للاعتراضِ، وقد صَدَقوا في قَولِهم: لو شاءَ اللهُ أطعَمَهم، ولكِنْ كَذَبوا في الاحتِجاجِ[٤].

٨- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ احتِجاجُهم بالمشيئةِ ممَّا يدُلُّ على جَهلِهم العَظيمِ، أو تجاهُلِهم الوَخيمِ؛ فإنَّ المشيئةَ ليستْ حُجَّةً لعاصٍ أبدًا؛ فإنَّه وإنْ كان ما شاءَ اللهُ كان، وما لم يشَأْ لم يكُنْ: فإنَّه تعالَى مكَّن العِبادَ، وأعطاهم مِن القُوَّةِ ما يَقدِرونَ على فِعلِ الأمْرِ، واجتنابِ النَّهيِ، فإذا ترَكوا ما أُمِروا به كان ذلك اختيارًا منهم، لا جبرًا لهم ولا قَهرًا[٥].

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أنَّ المشركين يُقِرُّونَ بمشيئةِ اللهِ؛ وأنَّها نافذةٌ في كلِّ شيءٍ، والمشركون أو الكافِرون لا يُنْكِرونَ رُبوبيَّةَ اللهِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

عزَّ وجلَّ؛ بل يُقِرُّونَ بها، حتى الذين تظاهَروا بإنكارِها إنَّما يُنكرونها بألْسنتِهم؛ لقولِه تعالَى عن آلِ فرعونَ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، ولقولِ موسى عليه الصلاةُ والسلامُ لفرعونَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، لكنْ يُنكرون الرُّبوبيَّةَ استكبارًا ومُكابَرةً؛ وإلَّا فإنَّ قَرارةَ نُفوسِهم تَشْهَدُ بها(١).

١٠- للمُشركِينَ أساليبُ ادِّعائيَّةٌ يَستعملُونها مِن قَديم الزَّمانِ؛ حيثُ قالوا لهؤلاء القائلينَ: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ قالوا لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا الوَصفُ المَشينُ للمُؤمِنينَ مِن الكافرين لم يَزَلْ ولا يَزالُ موجودًا إلى يَومِنا هذا؛ فهم يَصِفونَ أهلَ الخيرِ بالأوصافِ الكَثيرةِ المُنَفِّرةِ منهم، أو التي يَقصِدون بها استِعداءَ الحُكَّام على هؤلاء المؤمنين؛ يقولون: هؤلاء رَجعِيُّون، وهؤلاء مُتَخَلِّفون، هؤلاء مُتَشدِّدون، هؤلاء مُتَزمِّتون! وما أشبهَ ذلك مِن الكلِماتِ التي يَصفونَ بها أولياءَ اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ إعراضِهم عنِ الآياتِ التَّنزيليَّةِ بَعدَ بَيانِ إعراضِهم عنِ الآياتِ الآفاقيَّةِ التي كانُوا يُشاهِدونَها، وعَدَمِ تَأمُّلِهم فيها(٣).

- وبِناءُ فِعلِ ﴿قِيلَ﴾ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه؛ لِظُهورِ أنَّ القائِلَ هو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في تَبليغِه عنِ اللهِ تعالَى، أي: قيلَ لهم في القُرآنِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠).

- وقولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ﴾ كقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم﴾ [سبأ: ٩]؛ وجهُ المشابَهةِ: إحاطةُ العَذابِ بهم مِن كُلِّ حَدَبٍ، وأنَّهم أينَما ساروا فإنَّه أمامَهم وخَلفَهم مُحيطٌ بهم، لا يَقدِرونَ على الخُروجِ ممَّا همْ فيه، يَدُلُّ عليه قَولُه: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ * إِلَّا رَحۡمَةً مِّنَّا﴾ [يس: ٤٣، ٤٤]؛ ولذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[(١)].

- وقولُه أيضًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ﴾ ما بيْن الأيدي: يُرادُ منه المُستَقبَلُ، وما هو خَلفٌ: يُرادُ منه الماضي، وأصْلُ هذَينِ التَّركيبينِ تَمثيلانِ، فتارةً يَنظُرونَ إلى تمثيلِ المضافِ إليه بسائرٍ إلى مكانٍ؛ فالذي بيْن يَديهِ: هو ما سَيرِدُ هو عليه، والذي مِن ورائِه هو ما خَلَّفَه خَلْفَه في سَيرِه. وتارةً يَنظُرونَ إلى تَمثيلِ المضافِ بسائرٍ؛ فهو إذا كان بين يَدي المضافِ إليه فقدْ سبقَه في السَّيرِ، فهو سابِقٌ له، وإذا كان خَلْفَ المضافِ إليه فقد تأخَّرَ عنه، فهو وارِدٌ بَعدَه، وقد فُسِّرَت هذه الآيةُ بالوَجهَينِ؛ فقيل: ما بيْن أيديكم مِن أمْرِ الآخِرةِ، وما خَلْفَكم مِن أحوالِ الأُمَمِ في الدُّنيا. وقيل: ما بيْن أيديكم: أحوالُ الأُمَمِ في الدُّنيا، وما خَلْفَكم: مِن أحوالِ الآخِرةِ[(٢)].

- وجَوابُ (إذا) في قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ مَحذوفٌ، مَدلولٌ عليه بقَولِه بَعدَه: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾؛ فكأنَّه قال: وإذا قيل لهمُ: اتَّقوا، أعرَضوا؛ لأنَّهمُ اعتَادُوه وتمَرَّنوا عليه، ثُمَّ قال: ودَأْبُهمُ الإعراضُ عِندَ كُلِّ آيةٍ ومَوعِظةٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠، ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٠).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ واقِعٌ مَوقِعَ التَّذييلِ لِمَا قَبلَه؛ ففيه تَعميمُ أحوالِهم وأحوالِ ما يُبَلَّغونَه مِنَ القُرآنِ، فكأنَّه قِيل: وإذا قِيل لهمُ: اتَّقوا، أعرَضوا، والإعراضُ دَأْبُهم في كُلِّ ما يُقالُ لهم. وهذا التذييلُ أيضًا يُؤكِّدُ ما سبَقَ مِن حديثِ الإعراضِ[١].

- وصِيغةُ المُضارِعِ ﴿تَأْتِيهِم﴾؛ لِلدَّلالةِ على الاستِمرارِ التَّجدُّدِيِّ، و(مِنْ) الأُولى صِلةٌ لِتأكيدِ العُمومِ[٢].

- وإضافةُ الآياتِ إلى اسمِ الرَّبِّ المُضافِ إلى ضَميرِهم ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ لِتَفخيمِ شَأنِها المُستَتْبِعِ لِتَهويلِ ما اجترَؤوا عليه في حَقِّها، والمُرادُ بها إمَّا الآياتُ التَّنزيليَّةُ؛ فإتيانُها نُزولُها، وإمَّا ما يَعُمُّها وغَيرَها مِنَ الآياتِ التَّكوينيَّةِ الشَّامِلةِ لِلمُعجزاتِ وغَيرِها مِن تَعاجيبِ المَصنوعاتِ التي مِنْ جُملَتِها الآياتُ الثَّلاثُ المَعدودةُ آنِفًا؛ فالمُرادُ بإتيانِها ما يَعُمُّ نُزولَ الوَحيِ، وظُهورَ تلك الأُمورِ لهم[٣].

- وكَلمةُ ﴿عَنْهَا﴾ مُتَعلِّقةٌ بـ﴿مُعْرِضِينَ﴾، قُدِّمتْ عليه مُراعاةً لِلفَواصِلِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

- قَولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: ممَّا أعطاكُم بطَريقِ التَّفضُّلِ والإنعامِ مِن أنواعِ الأموالِ؛ عبَّرَ عنها بذلكَ تَحقيقًا لِلحَقِّ، وتَرغيبًا في

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإنفاقِ، وتَنبيهًا على عِظَمِ جِنايَتِهم في تَركِ الامتِثالِ بالأمْرِ. وكذلك (مِنْ) التَّبعيضيَّةِ، أي: إذا قِيل لهم بطَريقِ النَّصيحةِ: أنفِقُوا بَعضَ ما أعطاكُمُ اللهُ تعالَى مِن فَضلِه على المُحتاجينَ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يَرُدُّ البَلاءَ ويَدفَعُ المَكارِهَ[١].

- وفي قولِه: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أظهَرَ اسمَ الجَلالةِ ولم يُضمِرْ؛ إشارةً إلى جَلالةِ الرِّزقِ بجَلالةِ مُعطِيه[٢].

- وأيضًا إظهارُ المَوصولِ مِن قَولِه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في مَقامِ الإضمارِ، مع أنَّ مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (قالوا أنُطعِمُ...) إلخ-؛ لِنُكتةِ الإشارةِ إلى أنَّ صُدورَ هذا القَولِ منهم إنَّما هو لأجلِ كُفرِهم، ولِأجلِ إيمانِ الذين سُئِلَ الإنفاقُ عليهم[٣]؛ ففيه تصريحٌ بكُفرِ هؤلاء، وأنَّهم قالوه بسَببِ الكُفرِ؛ لا بسَببِ البخلِ! وأيضًا لإفادةِ أنَّ مِثْلَ هذه المقالةِ لا تَصْدُرُ إلَّا مِن كافرٍ؛ فيكونُ الكُفرُ عامًّا لكلِّ مَن قال هذه المقالةَ[٤].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ إنكاريٌّ، وهذا الجَوابُ خَرجَ مَخرَجَ الاستِهزاءِ والتَّهكُّمِ بالمُؤمِنينَ، وبما كانوا يَقولونَه مِن تَعليقِ الأُمورِ بمَشيئةِ اللهِ، أي: لا نُطعِمُ مَن لو شاءَ اللهُ لَأطعَمَهم، بحَسبِ اعتِقادِكم أنَّ اللهَ هو المُطعِمُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠٩).

- وأيضًا التَّعبيرُ في جَوابِهم بالإطعامِ في قَولِه: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ مع أنَّ المَطلوبَ هو الإنفاقُ: إمَّا لِمُجرَّدِ التَّفنُّنِ؛ تَجنُّبًا لإعادةِ اللَّفظِ؛ فإنَّ الإنفاقَ يُرادُ منه الإطعامُ، وإمَّا لِأنَّهم سُئِلوا الإنفاقَ، وهو أعَمُّ مِنَ الإطعامِ؛ لِأنَّه يَشمَلُ الإكساءَ والإسكانَ، فأجابوا بإمساكِ الطَّعامِ، وهو أيسَرُ أنواعِ الإنفاقِ، ولأنَّهم كانوا يُعيِّرونَ مَن يَشِحُّ بإطعامِ الطَّعامِ، وإذا مَنعوا المُؤمِنينَ الطَّعامَ كان مَنعُهم ما هو فَوقَه أَحْرى[1]؛ ففيه بيانُ غايةِ مُخالفتِهم؛ وذلك لأنَّهم إذا أُمِروا بالإنفاقِ -والإنفاقُ يَدخُلُ فيه الإطعامُ وغَيرُه- فلم يأتوا بالإنفاقِ ولا بأقَلَّ منه -وهو الإطعامُ-، وقالوا: لا نُطعِمُ، وهذا كما يقولُ القائِلُ لِغَيرِه: أعطِ زَيدًا دِينارًا؛ يقولُ: لا أعطيه دِرهمًا، مع أنَّ المطابِقَ هو أنْ يقولَ: لا أُعطيه دِينارًا، ولكِنَّ المبالغةَ في هذا الوَجهِ أتمُّ؛ فكذلك هاهنا[2].

- وجُملةُ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مِن قَولِ المُشرِكينَ، يُخاطِبونَ المُؤمِنينَ، أي: ما أنتُم في قَولِكم: أنفِقوا ممَّا رَزَقَكمُ اللهُ إلَّا مُتمَكِّنٌ منكم الضَّلالُ الواضِحُ، وجَعَلوه ضَلالًا؛ لِجَهلِهم بصِفاتِ اللهِ تعالَى، وجَعلوه مُبينًا؛ لِأنَّهم يُحَكِّمونَ الظَّواهِرَ مِن أسبابِ اكتِسابِ المالِ وعَدَمِه، وهذه الجُملةُ تَعليلٌ لِلإنكارِ المُستَفادِ مِنَ الاستِفهامِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ جَوابًا مِنَ اللهِ لهم، أو حِكايةً لِجوابِ المُؤمِنينَ لهم، أو هو مِن جُملةِ جَوابِهم لِلمُؤمِنينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩- ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).

الآيات (٤٨-٥٤)

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَخِصِّمُونَ﴾: أي: يَختَصِمونَ ويَتشاجَرونَ على عادتِهم، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على مُنازَعةٍ[(١)].

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرنِ يَنفُخُ فيه إسرافيلُ، وقيل: الصُّورُ جمْعُ صُورَةٍ يَنْفُخُ فيها رُوحَها فتَحْيَا[(٢)].

﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾: أي: القُبورِ، واحِدُها: الجَدَثُ[(٣)].

﴿يَنسِلُونَ﴾: أي: يُسرِعونَ، مِن النَّسَلانِ: وهو مُقارَبةُ الخَطْوِ مع الإسراعِ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٢)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٥٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

وأصلُ (نسل): يَدُلُّ على انسِلالِ شَيءٍ بسُرعةٍ[١].

﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾: ويل: كلمةُ دُعاءٍ بالهَلاكِ والعذابِ، وتُطلَقُ كذلِك على حُلولِ الشرِّ، وتُستعمَلُ في التَّحسُّرِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾

قَولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: في ﴿هَٰذَا﴾ وجهانِ؛ أظهرُهما: أنَّه مُبتدأٌ خبرُه ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ويكونُ الوقفُ تامًّا على قَولِه: ﴿مِن مَّرۡقَدِنَا﴾، ثمَّ يَبتدئُ فيَقولُ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وهذه الجملةُ لا مَحلَّ لها مُستأنَفةٌ: مِن قَولِ الملائكةِ أو المُؤمِنينَ. ويَحتَمِلُ أن تكونَ مِن كلامِ الكُفَّارِ؛ فتكونَ في مَحلِّ نصبٍ بالقَولِ. والثاني: أنْ يكونَ ﴿هَٰذَا﴾ صِفةً لـ ﴿مَّرۡقَدِنَا﴾ في مَحلِّ جرٍّ، و﴿مَا وَعَدَ﴾ مُنقَطِعٌ عَمَّا قَبلَه. و﴿مَا﴾ مَوصولٌ اسميٌّ في محلِّ رفْعٍ مبتدأٌ، والخبَرُ مَحذوفٌ، أي: الذي وَعَدَه الرَّحمنُ حَقٌّ، أو خبَرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، والتقديرُ: هذا الذي وعَدَه الرَّحمنُ. ويَصِحُّ في ﴿مَا﴾ أنْ تكونَ مَوصولًا حرفيًّا مؤولةً مع ما بعدَها بمَصدرٍ، أي: (وَعْدُ الرَّحمنِ)، وله إعرابُ ما قبْلَه نفْسُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٨)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٥).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥٠١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٨٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٧٥).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مُبيِّنًا إنكارَ المشركينَ للبعثِ واستِبعادَهم له: ويقولُ أولئك المُشرِكون تَكذيبًا واستِهزاءً: متى يَجيءُ يومُ القِيامةِ إنْ كنتُم صادِقينَ في أنَّنا مَبعوثون فمُحاسَبون؟!

ثمَّ يردُّ اللهُ تعالَى عليهم ببيانِ بعضِ مَشاهِدِ يومِ القِيامةِ، فيقولُ: ما ينتَظِرونَ إلَّا صَيحةَ النَّفخِ في الصُّورِ عِندَ قِيامِ السَّاعةِ، فتأخُذُهم وهم يَختَصِمونَ في شُؤونِ الدُّنيا، غافِلينَ عن السَّاعةِ، فلا يَستطيعون حِينَها أنْ يُوصُوا أحدًا بشَيءٍ، ولا يَستطيعونَ الرُّجوعَ إلى أهليهم!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى حالَهم عِندَ نفخةِ البعثِ، فيقولُ: ونُفِخَ في الصُّورِ نَفخةُ البَعثِ فإذا أولئك المُشرِكونَ يَخرُجونَ مِن القُبورِ مُسرِعينَ إلى رَبِّهم، ويقولونَ: يا وَيلَنا مَن أحْيانَا مِن قُبورِنا؟! قال المؤمنون: هذا هو البَعثُ الذي وعَدَنا الرحمنُ إيَّاهُ، وقد صدَقَ رسُلُ اللهِ فيما أخبَرونا به.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه سُرعةَ حُضورِهم للحِسابِ، فيقولُ: ما كانت النفخةُ المذكورةُ إلَّا نَفخةً واحدةً فإذا هم قد أُحضِروا أجمعينَ؛ فيومَ القِيامةِ لا يَظلِمُ اللهُ أيَّ نَفسٍ شَيئًا ممَّا تَستَحِقُّه، ولا تُجزَونَ إلَّا جزاءَ أعْمالِكم التي عَمِلتُموها في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه ذُكِرَ عَقِبَ استِهزائِهم بالمُؤمِنينَ -لَمَّا مَنَعوهمُ الإنفاقَ بعِلَّةِ أنَّ اللهَ لو شاءَ لَأطعَمَهم- استِهزاءٌ آخَرُ بالمُؤمِنينَ في تَهديدِهمُ المُشرِكينَ بعَذابٍ يَحُلُّ بهم،

فكانوا يَسألونَهم هذا الوَعدَ؛ استِهزاءً بهم، بقَرينةِ قَولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ قِلَّةَ خَيرِهم المُستَنِدةَ إلى تهكُّمِهم باليومِ الذي ذُكِّروا به، بالأمرِ بالاتِّقاءِ والتَّعليلِ بترَجِّي الرحمةِ؛ أتْبَعَه حِكايةَ استِهزاءٍ آخَرَ منهم، دالٍّ على عَظيمِ جَهلِهم، بتكذيبِهم بما يُوعَدونَ على وَجهِ التَّصريحِ بذلك اليومِ، والتَّصويرِ له بما لا يَسَعُ مَن له أدْنَى عقْلٍ غيرَ الانقيادِ له؛ فقال[٢]:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: ويَقولُ المُشرِكونَ تَكذيبًا أو استهزاءً: متى يكونُ البَعثُ يومَ القِيامةِ إنْ كنتُم صادِقينَ في دعواكم أنَّنا نُبعَثُ بعدَ مَوتِنا أحياءً[٣]؟

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان استِهزاءُ الكافرينَ هذا يَسوءُ المُسلِمينَ؛ أعلَمَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُؤمِنينَ بأنَّ الوَعدَ واقِعٌ لا مَحالةَ، وأنَّهم ما يَنتَظِرونَ إلَّا صَيحةً تَأخُذُهم، فلا يُفلِتونَ مِن أخذَتِها[٤].

وأيضًا لَمَّا كان الحازِمُ مَن لا يَتهكَّمُ بشَيءٍ إلَّا إذا استعدَّ له بما هو مُحقِّقُ الدَّفعِ؛ بيَّن سفَهَهم بإتيانِها بَغتةً، وبأنَّه لا بُدَّ مِن وُقوعِها بقَولِه[٥]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٩).

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: ما يَنتَظِرونَ إلَّا صَيحةً واحِدةً حينَ يُنفَخُ في الصُّورِ عِندَ قيامِ السَّاعةِ، فتُصيبُهم وهم يختَصِمونَ في شُؤونِ دُنياهم؛ فهم في غَفلتِهم لاهونَ عنها، لم تَخطُرْ على قُلوبِهم[١]!

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لَتقومَنَّ السَّاعةُ وقدْ نشَرَ الرَّجُلانِ ثَوبَهما بيْنَهما فلا يَتبايعانِه ولا يَطويانِه! ولَتقومَنَّ السَّاعةُ وقدِ انصرَفَ الرَّجُلُ بلَبنِ لِقحَتِه[٢] فلا يَطعَمُه! ولَتقومَنَّ السَّاعةُ وهو يَليطُ حَوضَه[٣]، فلا يَسْقي فيه! ولَتقومَنَّ السَّاعةُ وقدْ رفَعَ أحَدُكم أُكْلتَه إلى فيه فلا يَطعَمُها!))[٤].

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾.

أي: فلا يَستطيعونَ حِينَها أنْ يُوصُوا أحدًا بأيِّ شَيءٍ ممَّا يُريدونَ الوَصيَّةَ به، كالأموالِ وغَيرِها[٥]!

﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٠، ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

(٢) اللِّقْحةُ: النَّاقةُ التي لها لَبَنٌ يُحلَبُ. يُنظر: ((شرح صحيح البخارى)) لابن بطال (٧/ ١٥١).

(٣) يَليطُ حوْضَه: أي: يُصْلِحُه ويَبنِيه، ويُلْصِقُ به الطِّينَ لإصلاحِه؛ ولئلَّا يَنشَفَ ماؤُه. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عِياض (٨/ ٥٠٩)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٠٧).

(٤) رواه البخاريُّ (٦٥٠٦) واللفظ له، ومسلِمٌ (٢٩٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

أي: ولا يَستطيعونَ حِينَها الرُّجوعَ إلى أهليهم[١]!

ثم بيَّن أنَّهم بَعدَ أنْ يَموتوا يُنفَخُ في الصُّورِ النَّفخةُ الثانيةُ[٢]؛ نَفخةُ البعثِ مِن القُبورِ، فقال[٣]:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

أي: ونُفِخَ في الصُّورِ نَفخةٌ ثانيةٌ للبَعثِ يومَ القِيامةِ، فإذا هم يَخرُجونَ مِن القُبورِ مُسرِعينَ إلى رَبِّهم[٤].

كما قال تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٩).

(٢) اختَلَفَ العُلَماءُ في عدَدِ النَّفَخاتِ في الصُّورِ على أقْوالٍ؛ فقيلَ: هُما نَفْخَتانِ: نَفْخةُ الفزَعِ والصَّعقِ، ونَفْخةُ البَعثِ. ممَّن ذهَبَ إلى هذا القَولِ: ابنُ جَرير، والقُرطبيُّ، والسعديُّ، وابنُ باز، وابنُ عُثَيْمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٤٩٠، ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن باز (٤/ ٣٢٨)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٦٧).
وقيل: هِي ثَلاثُ نَفَخاتٍ، وهي نفْخَة الفزعِ، ونفخَة الصَّعقِ، ونفخَة البعثِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ تَيميَّة، وابنُ كَثير. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦).
وقيل: هي أربعُ نَفَخاتٍ، وممَّن ذهَب إلى هذا: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٥٢-٥٥٣، ٥٥٨، ٥٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤١-١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٦).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قَرنٌ يُنفَخُ فيه))(١).

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تشوَّفَت النَّفسُ إلى سَماعِ ما يقولونَ إذا عايَنوا ما كانوا يُنكِرونَ؛ استأنَفَ قَولَه(٢):

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾.

أي: قال الكافِرونَ: يا وَيلَنا(٣) مَن أحيانَا فأيقَظَنا وأقامَنا مِن مَرقَدِنا(٤)؟!

---

(١) أخرجَه أبو داود (٤٧٤٢)، وأحمد (٦٥٠٧) باختلاف يسير، والترمذي (٢٤٣٠)، والنسائي (١١٤٥٦) واللفظ لهما.
حسَّنه التِّرمذيُّ، وذكَر ثُبوتَه ابنُ كَثير في ((تفسير القرآن)) (٥/ ٣٠٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٣٠)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٥٠)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٢).

(٣) قيل: هي كلِمةٌ يقولُها الواقعُ في مُصيبةٍ، أو المتحَسِّرُ، أو النادِمُ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجُملة: السعديُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٥، ١٨٩).
قال البِقاعي: (أي: ليس بحَضرتِنا اليومَ شَيءٌ يُنادِمُنا إلَّا الويلُ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٤٢-١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٦).
قيل: معنى ﴿مَّرۡقَدِنَا﴾: رَقدتُنا ومَنامُنا. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جَرير، والسَّمرقندي، والثعلبي، والعُليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٦-٤٥٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).
=

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما بيْنَ النَّفخَتينِ أربَعون -قالوا: يا أبا هُرَيرةَ، أربعون يومًا؟ قال: أبَيتُ! قالوا: أربعون شَهرًا؟ قال: أبَيتُ! قالوا: أربعون سَنةً؟ قال: أبَيتُ[١]!- ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مِن السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقلُ. قال: وليس مِن الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبلَى، إلَّا عَظمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ[٢]، ومنه يُركَّبُ الخَلقُ يَومَ القِيامةِ))[٣].

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

أي: قال المؤمِنون: هذا هو البَعثُ الذي وعَدَ به الرَّحمنُ، وقد صَدَقَ رُسُلُه فيما أخبَرونا به[٤].

= وقيل: موضِعُ رُقادِنا، وهو القُبورُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كَثير، وابن عاشور، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٥).

(١) معناه: أبَيْتُ أن أجزِمَ أنَّ المرادَ أربعون يومًا أو شهرًا أو سَنةً، بل الَّذي أجزِمُ به أنَّها أربعون مُجمَلةً؛ لأنَّه إنَّما سَمِعَ (أربعين) ولم يُعَيِّنْ له. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٤٥٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩١، ٩٢).

(٢) عَجْبُ الذَّنَبِ: هو العَظْمُ اللطيفُ الَّذي في أسفلِ فقارِ الظَّهرِ، وأعلَى ما بينَ الأليتَينِ، وهو رأسُ العُصعُصِ. يُنظر: ((التعليق على الموطأ)) للوقشي (١/ ٢٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩٢)، ((طرح التثريب)) للعراقي (٣/ ٣٠٧).

(٣) رواه البخاري (٤٩٣٥) ومسلم (٢٩٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١، ٥٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٦).

ممَّن اختار أنَّ هذا مِن كلامِ المؤمِنينَ: ابنُ جَرير، وابنُ كَثير، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أُبيُّ بنُ كعب، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، وعبدُ الرحمن بنُ أبي ليلى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥٠١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٣).

قال الشنقيطيُّ: (الكافِرُ يدعو بالوَيلِ، والمؤمِنُ يَطمَئِنُّ للوَعدِ، ومِمَّا يدُلُّ على أنَّ الجوابَ =

كما قال تعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢٠، ٢١].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الإخبارُ بالنَّفخِ لا يَنفي التعَدُّدَ، قال مُهوِّنًا مِن أمْرِ البَعثِ بالنِّسبةِ إلى قُدرتِه، مُظهِرًا للعِنايةِ بتأكيدِ كَونِها واحدةً[1].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

= مِن المؤمِنينَ لا مِنَ الملائكةِ، كما يقولُ بَعضُ النَّاسِ: ما جاء في آخِرِ السِّياقِ؛ قَولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ أي: كِلا الفريقينِ ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾. ((أضواء البيان)) (٩/ ٥٧).

وقيل: هذا مِن كلامِ الملائكةِ. وممَّن قال بهذا القول: مُقاتِلُ بن سُليمان، والفرَّاء، وابن قُتَيبة. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٢)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٠)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباس، وزيدُ بنُ أسلمَ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥٠١).

قال ابنُ كثير: (يقولونَ: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمِنونَ -قالَه غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ- ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وقال الحَسن: إنَّما يُجيبُهم بذلك الملائكةُ. ولا مُنافاةَ؛ إذ الجَمعُ ممكِنٌ، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١-٥٨٢).

وقيل: هو مِن كلامِ الكافِرينَ، وممَّن قال بهذا المعنى: الزَّجَّاج، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٤).

أي: ما كانتْ تلك النَّفخةُ المذكورةُ إلَّا نَفخةً واحِدةً، فإذا هم قدْ أُحضِروا مُجتَمِعينَ لَدَيْنا دونَ أن يتخَلَّفَ منهم أحدٌ[١].

كما قال تعالَى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [النحل: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۞ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۞ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان هذا الإحضارُ بسبَبِ العَدلِ، وإظهارِ جَميعِ صِفاتِ الكَمالِ؛ قال[٢]:

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: ففي هذا اليومِ -يومِ القِيامةِ- لا يَظلِمُ اللهُ أيَّ نَفسٍ مِن النُّفوسِ أيَّ شَيءٍ مِمَّا تَستَحقُّه[٣].

﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ولا تُجزَونَ يومَ القِيامةِ إلَّا بحَسَبِ أعمالِكم التي كنتُم تَعمَلونَها في الدُّنيا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٩)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ تمامُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ حيثُ كان مُجرَّدُ النفخِ يُوجِبُ أنْ يخرُجَ الناسُ جميعًا مِن قُبورِهم مُسرعينَ، ثمَّ قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ كلُّهم يُحضرونَ عِندَ اللهِ عزَّ وجلَّ بصيحةٍ واحدةٍ؛ إنَّ العقلَ ليحارُ حَيرةً عظيمةً في كَمالِ قُدرةِ الله عزَّ وجلَّ، فلا تستبعِدْ شيئًا على قُدرةِ اللهِ، فإذا نزَلتْ بك حاجةٌ، أو أصابَك فقرٌ، أو ألَمَّتْ بك ضائقةٌ فادْعُ اللهَ؛ فإنَّه على كُلِّ شيءٍ قديرٌ[(١)].

٢- ميزانُ العدلِ يومَ القيامةِ مستقيمُ اللِّسانِ، تبينُ فيه الذَّرَّةُ، فيُجزَى العبدُ على الكلمةِ قالها في الخيرِ، والنظرةِ نظَرها في الشرِّ، فيا مَن زادُه مِن الخيرِ طفيفٌ، احذرْ ميزانَ عدلٍ لا يَحيفُ، قال الله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾[(٢)].

٣- قال ابنُ الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أتُراكَ بأيِّ عملٍ تُجزَى، أتُراك تُهنَّى أو تُعزَّى، قلبُك عندَ الصَّلاةِ في غَيبةٍ، ولِسانُك في الصومِ في غِيبةٍ، وما صَفَتْ لك في العُمرِ رَكعةٌ، وقد مرَّ أكثرُ الأجَلِ بسُرعةٍ، فانتَبِهْ قَبْلَ أنْ يَفوتَ التدارُكُ، وفرِّغْ قلبَك قبْلَ أنْ تَفرُغَ دارُك!)[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، أي: لا يَنتظِرونَ إلَّا الصَّيحةَ

= (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٣)، ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٦/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((التبصرة)) لابن الجوزي (٢/ ١٩٨).

(٣) ((التبصرة)) لابن الجوزي (٢/ ١٩٩).

المعلومةَ، ولَمَّا كانتْ هذه الصَّيحةُ لا بُدَّ مِن وُقوعِها، جُعِلوا كأنَّهم مُنتَظِروها. فإن قِيل: هم ما كانوا ينتظِرونَ، بل كانوا يَجزمون بعَدمِها؟ فالجوابُ: أنَّ الانتظارَ فِعليٌّ؛ لأنَّهم كانوا يَفعلونَ ما يستحقُّ به فاعلُه البوارَ، وتَعجيلَ العذابِ، وتَقريبَ الساعةِ، لولا حكمُ اللهِ وقُدرتُه وعلمُه[١].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ بيانُ حالِ هؤلاء الذين تقومُ عليهم القِيامةُ، وتأخُذُهم الصَّيحةُ، وهي: الخُصومةُ والتَّنازُعُ؛ ممَّا يدُلُّ على سُوءِ أحوالِهم، وسُوءِ أخلاقِهم، وأنَّه لا هَمَّ لهم إلَّا هذه المخاصَمةُ والمنازَعةُ؛ شُحًّا وطَمعًا في الدُّنيا، وغَفلةً عن الآخرةِ؛ ولهذا جاء في الحَديثِ الصَّحيحِ: أنَّ الساعةَ لا تقومُ إلَّا على شِرارِ الخَلقِ[٢]، وهؤلاء مِن المعلومِ أنَّهم يأكُلونَ ويَشربونَ، لكنْ لم يَذكُرِ اللهُ إلَّا هذا التخاصُمَ؛ لبيانِ سُوءِ حالِهم في ذلك الزَّمَنِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الساعةَ تأتيهم وهُم في غفلةٍ، وعدمِ شعورٍ بإتيانِها[٤].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ إثباتُ النَّفخِ في الصُّورِ، وهو مِن الأمورِ الغَيبيَّةِ التي يَجبُ الإيمانُ بها دونَ التَّعَرُّضِ لكَيفيَّتِها[٥].

٥- النفخُ في الصُّوْرِ إذا وَقَعَ لم يَسْتَطِعْ أحدٌ أنْ يَتكلَّمَ، ولا يَتَزَحْزَحَ مِن مكانِه، يُؤخذُ ذلك مِن قولِه تعالَى: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةً﴾ هذا الكلامُ؛ ﴿وَلَآ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٣).

(٢) يُنظر ما أخرجه مسلم (١٩٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٣).

إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ لا يَتَزَحْزَحُون مِن مَكانِهم[١].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴾ قُدرةُ اللهِ الشَّامِلةُ، والِحكمةُ الكامِلةُ؛ حيثُ كان صوتٌ واحِدٌ يُحيي تارةً، ويُميتُ أخرى، كأنَّه رُكِّبَ فيه مِن الأسرارِ أنَّه يَكسِبُ الشَّيءَ ضِدَّ ما هو عليه مِن حَياةٍ أو موتٍ، أو غَشْيٍ أو إفاقةٍ[٢].

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴾ أنَّ جسمَ الميِّتِ يَبقَى في الأرضِ في المكانِ الذي دُفِنَ فيه إلى يومِ القِيامةِ[٣]. هذا مِن حيثُ الأصلُ وإلَّا فقَدْ يزولُ مِن مَوضِعِه بفِعلٍ مِن النَّاسِ، أو نبْشِ السِّباعِ أو السُّيولِ إلى غيرِ ذلك.

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿يَنسِلُونَ ﴾ إثباتُ البعثِ؛ وأنَّه حَياةٌ حقيقيَّةٌ؛ لأنَّ الإسراعَ لا يكونُ إلَّا بحياةٍ حقيقيَّةٍ[٤].

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا ﴾ دَلالةٌ على أنَّهم يَنامون نومةً قبْلَ البَعثِ، وهي نومةُ موتٍ[٥]، وذلك على أحدِ القولَينِ في تفسيرِ ﴿مَّرۡقَدِنَا ﴾.

١٠- في قَولِه تعالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا ﴾ سُؤالٌ: أنَّ قَولَهم ذلك سؤالٌ عن الباعِثِ؛ فكيف طابَقَه الجوابُ بقَولِه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢٤٠/ ١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٦).

ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾؟

الجوابُ: معناه: بعَثَكم الرَّحمنُ الذي وعَدَكم بالبَعثِ، وأخبَرَكم به الرَّسولُ، وإنَّما جِيء به على هذه الطريقةِ؛ تَبكيتًا لهم وتوبيخًا[(١)].

١١- قَولُه تعالى: ﴿مَّرْقَدِنَا﴾ وحَّدوه؛ إشارةً إلى أنَّهم على تَكاثُرِهم وتباعُدِهم كانوا في القِيامِ كنَفسٍ واحدةٍ[(٢)].

١٢- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾، قَولُه تعالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في هذا الموضِعِ ليس لمجرَّدِ الخَبرِ عن وعْدِه، وإنَّما ذلك للإخبارِ بأنَّه في ذلك اليوم العظيم سيرونَ مِن رحمتِه ما لا يخطُرُ على الظُّنونِ، ولا حَسِبَ به الحاسِبون، كقَولِه تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨] ونحوِ ذلك ممَّا يُذكَرُ فيه اسمُ الرَّحمنِ[(٣)]؛ فرحمةُ اللهِ يومَ القِيامةِ تتجلَّى تجلِّيًا أكثرَ منها في الدُّنيا، فإنَّ للهِ تعالَى مِئةَ رَحمةٍ جَعَل منها رحمةً في الأرضِ؛ فإذا كان يومُ القِيامةِ صارَ له مِئةُ رحمةٍ -التِّسعةُ والتِّسعون الباقيةُ؛ والرحمةُ الأُولى[(٤)]-، وهذا يدلُّ على تَجلِّي رحمةِ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

(٤) عن سَلْمانَ الفارسيِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ لله مئةَ رَحمةٍ، فمِنها رحمةٌ بها يَتراحَمُ الخلقُ بينَهم، وتِسعةٌ وتِسعونَ ليومِ القِيامةِ)). أخرجه مسلِمٌ (٢٧٥٣).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضي اللهُ عنه، أنَّه قالَ: سَمِعْتُ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقولُ: ((جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمةَ مِئةَ جُزءٍ، فأمْسَكَ عِندَه تِسْعةً وتِسْعينَ جُزءًا، وأنْزلَ في الأرضِ جُزْءًا واحدًا؛ فمِن ذلِك الجُزءِ يَتَراحَمُ الخَلقُ، حتَّى تَرفَعَ الفَرَسُ حافِرَها عن ولَدِها؛ خَشْيةَ أنْ تُصيبَه)). أخرَجه البخاريُّ (٦٠٠٠) واللفظ له، ومسلمٌ (٢٧٥٢).

اللهِ تعالى في ذلك اليوم؛ ولهذا قال هنا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[١].

١٣- الإشارةُ إلى أنَّ اللهَ تعالى يَنزِلُ للقَضاءِ بيْن عِبادِه؛ تُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ أي: عندَنا، والعِندُ يدُلُّ على القُرْبِ، وقد ثَبَتَ بالنُّصوصِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَنزِلُ للقَضاءِ بين عِبادِه، فيَقضي بيْنَهم[٢].

١٤- في قَولِه تعالَى: ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ كَونَهم ﴿يَنسِلُونَ﴾ إجباريٌّ لا اختياريٌّ[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العمَلِ، ويُستفادُ منه: كمالُ عَدلِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ لِبيانِ ضَرْبٍ آخَرَ مِن تَعسُّفِهم ورُكوبِهم مَتنَ الضَّلالةِ[٥].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ مُستَعمَلٌ كِنايةً عنِ التَّهكُّمِ والتَّكذيبِ. وأُطلِقَ الوَعدُ على الإنذارِ والتَّهديدِ بالشَّرِّ؛ لأنَّ الوَعدَ أعَمُّ، ويَتعَيَّنُ لِلخَيرِ والشَّرِّ بالقَرينةِ. واسمُ الإشارةِ لِلوَعدِ ﴿هَٰذَا﴾ مُستَعمَلٌ في الاستِخفافِ بوَعدِ العَذابِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾

- قَولُه: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، أي: ما يَنتَظِرونَ إلَّا صَعقةً أو نَفخةً عَظيمةً، والمُرادُ النَّفخةُ الأُولى التي يَنقَضي بها نِظامُ الحياةِ في هذا العالَمِ، والأُخرى التي وُعِدوا بها تَنشَأُ عنها النَّشأةُ الثانيةُ، وهي الحياةُ الأبديَّةُ -على القولِ بأنَّهما نفختانِ-؛ فيَكونُ أُسلوبُ الكَلامِ خارِجًا على الأُسلوبِ الحَكيمِ إعراضًا عن جَوابِهم؛ لِأنَّهم لم يَقصِدوا حَقيقةَ الاستِفهامِ، فأُجيبوا بأنَّ ما أُعِدَّ لهم مِنَ العَذابِ هو الأجدَرُ بأنْ يَنتَظِروه[1].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾؛ لِإفادةِ تَقَوِّي الحُكمِ، وهو أنَّ الصَّيحةَ تَأخُذُهم[2].

- وأيضًا في قولِه: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أمورٌ في الصَّيحةِ تدلُّ على هولِها وعِظَمِها؛ أحدُها: التَّنكيرُ؛ يُقالُ: لفُلانٍ مالٌ، أي: كثيرٌ، وله قلْبٌ، أي: جَريءٌ. وثانيها: ﴿وَٰحِدَةً﴾، أي: لا يُحتاجُ معها إلى ثانيةٍ. وثالثُها: ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾، أي: تعمُّهم بالأخْذِ، وتَصِلُ إلى مَن في مَشارِقِ الأرضِ ومَغاربِها، ولا شكَّ أنَّ مِثلَها لا يكونُ إلَّا عظيمًا[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾

- قَولُه: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ كِنايةٌ عن شِدَّةِ السُّرعةِ بَينَ الصَّيحةِ وهَلاكِهم؛ إذْ لا يَكونُ المُرادُ مَدلولَه الصَّريحَ؛ لِأنَّهم لا يَترُكونَ غَيرَهم بَعدَهم؛ إذِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٩).

الهَلاكُ يأتي على جَميعِ الناسِ[١].

- وتَنكيرُ ﴿تَوْصِيَةً﴾ لِلتَّقليلِ، أي: لا يَستَطيعونَ تَوصيةً مَا[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لِتَقريرِ البَعثِ يَومَ القِيامةِ[٣].

- قَولُه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ...﴾ يَجوزُ أنْ تَكونَ الواوُ اعتِراضيَّةً، وهذا الاعتِراضُ واقعٌ بَينَ جُملةِ ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ...﴾ [يس: ٤٩]، وجُملةِ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا ...﴾ [يس: ٦٦]، والمَقصودُ منه: وَعظُهم بالبَعثِ الذي أنكَروه، وبما وَراءَه[٤].

- وصِيغةُ الماضي في (نُفِخَ) مُستَعمَلةٌ في تَحقُّقِ الوقوعِ، والمَعنى: ويُنفَخُ في الصُّورِ، أي: ويَنفُخُ نافِخٌ في الصُّورِ، وهو المَلَكُ المُوكَّلُ به[٥].

- قَولُه: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ (إذا) لِلمُفاجَأةِ، وهي حُصولُ مَضمونِ الجُملةِ التي بَعدَها سَريعًا وبدونِ تَهيُّؤٍ[٦].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هاهُنا: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، وقال تَعالى في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، والقِيامُ غَيرُ النَّسَلانِ، وقَولُه في المَوضِعَيْنِ: ﴿فَإِذَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦).

هُمْ﴾ يَقتَضي أنْ يَكونَا مَعًا؛ **والجَوابُ** عن هذا مِن وَجهَيْنِ؛ **أحَدُهما**: أنَّ القِيامَ لا يُنافي المَشيَ السَّريعَ؛ لِأنَّ الماشيَ قائِمٌ، ولا يُنافي النَّظَرَ. **وثانيهما**: أنَّ السُّرعةَ مَجيءُ الأُمورِ كأنَّ الكُلَّ في زَمانٍ واحِدٍ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾

- قَولُه: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ وَصْفَ هذه الحالِ بَعدَ حِكايةِ إنكارِهم البَعثَ، وإحالَتِهم إيَّاهُ، يُثيرُ سُؤالَ مَن يَسألُ عن مَقالِهم حينَما يَرَوْنَ حَقيقةَ البَعثِ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ حُكيَ قَولُهم بصِيغةِ الماضي -مع كونِه لم يقَعْ بعْدُ-؛ إتْباعًا لِحكايةِ ما قَبلَه بصِيغةِ المُضيِّ؛ لِتَحقيقِ الوُقوعِ[٣].

- قَولُه: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ كَلِمةٌ يَقولُها الواقِعُ في مُصيبةٍ، أوِ المُتَحسِّرُ، وإنَّما قالوا ذلك؛ لِأنَّهم رَأَوْا ما أُعِدَّ لهم مِنَ العَذابِ عِندَما بُعِثوا، وحَرْفُ النِّداءِ الدَّاخِلُ على (وَيْلَنا)؛ لِلتَّنبيهِ، وتَنزيلِ الوَيْلِ مَنزِلةَ مَن يَسمَعُ فيُنادَى لِيَحضُرَ[٤].

- قَولُه: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ (مَنْ) استِفهامٌ عن فاعِلِ البَعثِ، مُستَعمَلٌ في التَّعجُّبِ والتَّحسُّرِ مِن حُصولِ البَعثِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ لَمَّا كان البَعثُ عِندَهم مُحالًا، كَنَّوْا عنِ التَّعجُّبِ مِن حُصولِه بالتَّعجُّبِ مِن فاعِلِه؛ لأنَّ الأفعالَ الغَريبةَ تَتوَجَّهُ العُقولُ إلى مَعرِفةِ فاعِلِها؛ لِأنَّهم لَمَّا بُعِثوا وأُزْجيَ بهم إلى العَذابِ، عَلِموا أنَّه بَعثٌ فَعَلَه مَن أرادَ تَعذيبَهم[١].

- قولُه: ﴿مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ المَرقَدُ: مَكانُ الرُّقادِ، وحَقيقةُ الرُّقادِ: النَّومُ، وأطلَقوا الرُّقادَ على المَوتِ والاضطِجاعِ في القُبورِ -على قولٍ في التفسيرِ- تَشبيهًا بحالةِ الرَّاقِدِ؛ لِأنَّ عَذابَ القَبرِ كان كالرُّقادِ في جَنبِ ما صاروا إليه مِن عَذابِ جَهنَّمَ. وقيل: الجامعُ بَينَهما عَدَمُ ظُهورِ الفِعلِ؛ لِأنَّ كُلًّا مِنَ النَّائِمِ والمَيِّتِ لا يَظهَرُ فيه فِعلٌ، والمُرادُ الفِعلُ الاختِياريُّ المُعتَدُّ به. وقيل: فيه تَرشيحٌ[٢]، ورَمزٌ[٣]، وإشعارٌ بأنَّهم لاختِلاطِ عُقولِهم يَظنُّونَ أنَّهم كانوا نِيامًا[٤].

- قولُه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ ابتِداءُ كَلامٍ؛ فقيلَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧).

(٢) التَّرشيح: هو أنْ يُذكَرَ شَيءٌ يلائمُ المشبَّهَ به إنْ كان في الكلام تَشبيهٌ، كما في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((أسْرَعُكنَّ لُحوقًا بي أطْوَلُكنَّ يدًا)) [البخاري (١٤٢٠) ومسلم (٢٤٥٢)]؛ فإنَّ ((أطولكنَّ)) تَرْشيحٌ لليدِ، وهو تَعبيرٌ عن النِّعمة. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٧٢).

(٣) الرَّمْزُ: هو إشارةٌ إلى المقصودِ مِن قَريبٍ مع نَوعِ خَفاءٍ، وهو كِنايةٌ قلَّت وَسائطُها مع خَفاءِ اللُّزوم، نحو: هو غَليظُ الكَبِد، كِنايةً عن القَسْوة؛ إذ ذلك تَتوقَّف على مَعرِفةِ ما كان يَعتقِدُه العربُ مِن أنَّ الكَبِدَ مَوضعُ الإحساسِ والتأثُّرِ، فيَلزَمُ مِن رِقَّتِه اللِّينُ، ومن غِلَظِه القسْوة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٨٧، ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٩)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٢/ ١٧٧)، ((معجم مقاليد العلوم)) للسيوطي (ص: ٩٨)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧).

هو مِنَ اللهِ تعالَى، على سَبيلِ التَّوبيخِ والتَّوقيفِ على إنكارِهم. ويَجوزُ أن يَكونَ مِن كَلامِ المَلائكةِ، أوِ المُؤمِنينَ، يُجيبونَ به قَولَ الكُفَّارِ: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾؛ فهذا جَوابٌ يَتضَمَّنُ بَيانَ مَن بَعَثَهم، مع تَنديمِهم على تَكذيبِهم به في الحَياةِ الدُّنيا حينَ أبلَغَهمُ الرُّسُلُ ذلك عنِ اللهِ تَعالَى، واسمُ الرَّحمنِ حِينَئذٍ مِن كَلامِ المَلائِكةِ؛ لِزيادةِ تَوبيخِ الكُفَّارِ على تَجاهُلِهم به في الدُّنيا[1].

وقيل: هو مِن كلامِ الكَفَرةِ المكذِّبينَ بالبعثِ، وهذا الكَلامُ خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في لازِمِ الفائِدةِ؛ وهو أنَّهم عَلِموا سَبَبَ ما تَعجَّبوا منه، فبَطَلَ العَجَبُ؛ فيَجوزُ أنْ يَكونوا يَقولونَ ذلك كما يَتكَلَّمُ المُتحَسِّرُ بَينَه وبَينَ نَفْسِه، وأنْ يَقولَه بَعضُهم لِبَعضٍ كُلٌّ يَظُنُّ أنَّ صاحِبَه لم يَتفَطَّنْ لِلسَّبَبِ؛ فيُريدُ أنْ يُعْلِمَه به[2].

- وأيضًا قَولُه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ جَوابٌ لِسُؤالِهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾، جِيءَ به على هذه الطريقةِ تَبكيتًا لهم وتَوبيخًا، وعلى طَريقةٍ سِيئَتْ بها قُلوبُهم، ونُعِيَتْ إليهم أحوالُهم، وذُكِّروا كُفرَهم وتَكذيبَهم، وأُخبِروا بوُقوعِ ما أُنذِروا به، وكأنَّه قيل لهم: ليس بالبَعثِ الذي عَرَفتُموه -وهو بَعثُ النَّائِمِ مِن مَرقَدِه- حتى يُهِمَّكُمُ السُّؤالُ عنِ الباعِثِ، إنَّ هذا هو البَعثُ الأكبَرُ ذو الأهوالِ والأفزاعِ، وهو الذي وَعَدَه اللهُ في كُتُبِه المُنزَّلةِ على أَلْسِنةِ رُسُلِه الصَّادِقينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٣، ٤٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧- ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٣- ٤٧٤)، ((تفسير أبي =

- وفي قولِهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أتَوْا في التَّعبيرِ عن اسمِ الجَلالةِ بصِفةِ الرَّحمنِ؛ إكمالًا لِلتَّحسُّرِ على تَكذيبِهم بالبَعثِ، بذِكرِ ما كانَ مُقارِنًا لِلبَعثِ في تَكذيبِهم، وهو إنكارُ هذا الاسمِ[1]، وهذا على أنَّه مِن قولِ الكفرةِ.

- وجُملةُ ﴿وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وهو مُستَعمَلٌ في التَّحسُّرِ على أنْ كَذَّبوا الرُّسُلَ، وجَمعُ المُرسَلينَ مع أنَّ المَحكيَّ كَلامُ المُشرِكينَ الذين يَقولونَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ [يس: ٤٨]؛ إمَّا لِأنَّهم استَحضَروا أنَّ تَكذيبَهم مُحمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان باعِثُه إحالَتَهم أنْ يَكونَ اللهُ يُرسِلُ بَشَرًا رَسولًا؛ فكان ذلك لِأنَّهم لا يُصدِّقونَ أحَدًا يَأتي برِسالةٍ مِنَ اللهِ، فلَمَّا تَحسَّروا على خَطَئِهم ذَكَروه بما يَشمَلُه ويَشمَلُ سَبَبَه، وإمَّا لِأنَّ ذلك القَولَ صَدَرَ عن جَميعِ الكُفَّارِ المَبعوثينَ مِن جَميعِ الأُمَمِ؛ فعَلِمتْ كُلُّ أُمَّةٍ خَطَأَها في تَكذيبِ رَسولِها، وخَطَأَ غَيرِها في تَكذيبِ رُسُلِهم؛ فنَطَقوا جَميعًا بما يُفصِحُ عنِ الخَطَأَيْنِ[2]، وذلك أيضًا على أنَّه مِن قولِ الكَفَرةِ.

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ فَذلَكةٌ[3] لِجُملةِ ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٤٩]، إلى قَولِه: ﴿وَصَدَقَ

= السعود)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الفَذْلكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغَ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ كَلِمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوقلة) مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُراد بالفذلكة النتيجةُ لِمَا سبَق من الكلام، والتفريعُ عليه، ومنها فذلكةُ الحساب، أي: مُجمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ بعد قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة =

ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[(١)] [يس: ٥٢].

- ووَصَفَ الصَّيحةَ بـ(وَاحِدَةً)؛ لِأنَّ ذلك الوَصفَ هو المَقصودُ مِنَ الاستِثناءِ المُفرَّغِ[(٢)]، أي: ما كان ذلك النَّفخُ إلَّا صَيحةً واحِدةً لا يُكرَّرُ استِدعاؤُهم لِلحُضورِ، بلِ النَّفخُ الواحِدُ يُخرِجُهم مِنَ القُبورِ، ويَسيرُ بهم ويُحضِرُهم لِلحِسابِ[(٣)].

- ولَمَّا كان قَولُه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ في قُوَّةِ التَّكريرِ والتَّوكيدِ لِقَولِه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [يس: ٥١]، كان ما تَفرَّعَ عليه مِن قَولِه: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بمَنزِلةِ العَطفِ على قَولِه: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، فكأنَّه مِثلُ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، و﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، وإعادةُ حَرفِ المُفاجأةِ (إذا) إيماءٌ إلى حُصولِ مَضمونِ الجُملتَيْنِ المُقترِنتَيْنِ بحَرفِ المُفاجَأةِ في مِثلِ لَمْحِ البَصَرِ، حتى كأنَّ كِليهما مُفاجَأٌ في وَقتٍ واحِدٍ[(٤)].

= النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩).

(٢) الاستثناء المُفرَّغ -ويُعْرَف أيضًا بالاستثناءِ الناقصِ-: هو الاستثناءُ الذي حُذِف المستثْنى منه مِن أركانِه، مثل: ما جاء إلَّا طالبٌ؛ فالمسْتَثنى: طالب، والأداة: إلَّا، والمستثْنى منه مَحْذوف. وقد سُمِّي مُفرَّغًا؛ لأنَّ بهذا الأسلوبِ يَتفرَّغُ ما قبْل «إلَّا» للعَملِ فيما بعْدها ولا يَشغَلُه عنه شيءٌ، وعليه تَخرُج «إلَّا» عن الاستثناءِ، ولا يُعَدُّ هذا النَّوعُ استثناءً، بل هو أُسلوبٌ للتَّوكيد فقطْ. يُنظر: ((شرح التسهيل)) لابن مالك (٢/ ٢٦٤)، ((شرح شذور الذهب)) للجوجري (٢/ ٤٨١)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، أي: مِن غَيرِ لَبْثٍ ما طَرْفةَ عَينٍ، وفيه مِن تَهوينِ أمْرِ البَعثِ والحَشرِ، والإيذانِ باستِغنائِهما عنِ الأسبابِ التي يَنوطانِ بها فيما يُشاهِدونَه؛ ما لا يَخفَى[١].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قَولُه: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ حِكايةٌ لِمَا يُقالُ لهم حِينَئذٍ؛ تَصويرًا لِلمَوعودِ، وتَمكينًا له في النُّفوسِ، وتَقريعًا لهم[٢].

- قَولُه: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ (اليَوْم) ظَرفٌ، وتَعريفُه لِلعَهدِ، وهو عَهدُ حُضورٍ، يَعني يَومَ الجَزاءِ، وفائِدةُ ذِكرِه: التَّنويهُ بذلك اليَومِ بأنَّه يَومُ العَدْلِ[٣].

- وجاءَتْ كَلِمَتا (نَفْسٌ) و(شَيْئًا) نَكِرتَيْنِ في سِياقِ النَّفيِ؛ لِيَعُمَّ انتِفاءُ كُلِّ ذلك عن كُلِّ نَفْسٍ، وانتِفاءُ كُلِّ شَيءٍ مِن حَقيقةِ الظُّلمِ، وذلك يَعُمُّ جَميعَ الأنْفُسِ، ولكنَّ المَقصودَ أنْفُسُ المُعاقَبينَ، أيْ: إنَّ جَزاءَهم على حَسَبِ سَيِّئاتِهم جَزاءٌ عادِلٌ، وإذْ قد كان تَقديرُه مِنَ اللهِ تَعالى -وهو العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ- كانتْ حَقيقةُ العَدلِ مُحقَّقةً في مِقدارِ جَزائِهم[٤].

- وأشعَرَ قَولُه: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ بالتَّعريضِ بأنَّهم سيَلقَوْنَ جَزاءً قاسِيًا، لكنَّه عادِلٌ، لا ظُلْمَ فيه؛ لِأنَّ نَفيَ الظُّلمِ يُشعِرُ بأنَّ الجَزاءَ ممَّا يُخالُ أنَّه مُتَجاوِزٌ مُعادَلةَ الجَريمةِ، وهو مَعنى ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أيْ:

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٠- ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلَّا على وِفاقِ ما كُنتُم تَعمَلونَ، وعلى مِقدارِه[١].

- قولُه: ﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، أي: إلَّا جَزاءَ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا على الاستِمرارِ مِنَ الكُفرِ والمَعاصي، على حَذفِ المُضافِ، وإقامةِ المُضافِ إليه مُقامَه؛ لِلتَّنبيهِ على قُوَّةِ التَّلازُمِ والارتِباطِ بيْنَهما كأنَّهما شَيءٌ واحِدٌ، أو إلَّا بما كُنتُم تَعمَلونَه، أي: بمُقابَلَتِه أو بسَبَبِه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢)

الآيات (٥٥-٥٨)

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَٰكِهُونَ﴾: أي: ناعِمونَ فَرِحونَ مَسرورونَ، وأصلُ (فكه): يدُلُّ على طِيبٍ واستِطابةٍ[٣].

﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾: أي: السُّرُرِ الَّتي عليها الحِجَالُ[٤]، واحِدُها: أريكةٌ، وأصلُ (أرك) هنا: يدُلُّ على إقامةٍ[٥].

﴿يَدَّعُونَ﴾: أي: يَتَمَنَّوْنَ، والعربُ تقولُ: ادَّعِ علَيَّ ما شِئتَ، أي: تَمَنَّ علَيَّ ما شِئتَ[٦].

---

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٤).

(٤) الحِجَالُ جمعُ حَجَلَةٍ: وهي كالقُبَّةِ، وموضعٌ يُزَيَّنُ بالثِّيابِ والسُّتورِ للعَروسِ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٩٨٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٦).

قال ابنُ عاشور: (وزنُ ﴿يَدَّعُونَ﴾ «يَفْتَعِلونَ»، أصلُه «يَدْتَعْيُونَ» نُقِلَتْ حركةُ الياءِ إلى العينِ طَلَبًا للتَّخفيفِ... وهذا الافتعالُ لك أنْ تجعلَه مِنْ «دَعَا»، والافْتِعالُ هنا يجعلُ فعلَ «دَعَا» قاصِرًا فينبَغي تعليقُ مجرورٍ به. والتَّقديرُ: ما يَدْعونَ لأنفسِهم... وإنْ جَعلْتَه مِن «الادِّعاءِ» فمعناه: أنَّهم يَدَّعونَ ذلك حقًّا لهم، أي: تتحدَّثُ أنفسُهم بذلك فيَؤُولُ إلى معنَى: ويتمَنَّوْنَ في أنفسِهم دونَ احتياجٍ إلى أنْ يَسْأَلوا بالقولِ فلذلك قيلَ: معنَى ﴿يَدَّعُونَ﴾: يَتمنَّوْنَ). ((تفسير ابن عاشور)) =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾

قَولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٞ﴾: مُبتدأٌ خبَرُه الفِعلُ النَّاصِبُ لـ﴿قَوۡلٗا﴾ أي: سلامٌ يُقالُ لهم قَولًا. أو التَّقديرُ: سلامٌ عليكم. أو هو مُبتدَأٌ وخبَرُه ﴿مِّن رَّبّٖ﴾، و﴿قَوۡلٗا﴾ مَصدرٌ مؤكِّدٌ لِمَضمونِ الجُملةِ، وهو مع عامِلِه مُعتَرِضٌ بينَ المبتدأِ والخبَرِ. أو هو خبَرُ مُبتدَأٍ محذوفٍ، والجملةُ بعدَه صِفتُه، أي: هو سلامٌ يُقالُ قولًا مِن رَبٍّ رحيمٍ. وقيل غيرُ ذلك. ﴿قَوۡلٗا﴾ إمَّا: مَفعولٌ مُطلَقٌ لفِعلٍ محذوفٍ كما مضَى، وإمَّا منصوبٌ على الاختِصاصِ، والجملةُ كُلُّها استِئنافٌ بيانيٌّ لا محلَّ لها[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما أعدَّه بفضلِه وكرمِه للمؤمنينَ: إنَّ أهلَ الجنَّةِ اليَومَ مُشتَغِلونَ بالنَّعيمِ المُقيمِ في الجنَّاتِ، فَرِحون مَسرورون هم وأزواجُهم في ظِلالِ الجنَّةِ على سُرُرٍ مُتَّكِئون، لهم في الجنَّةِ فواكِهُ كَثيرةٌ، ولهم فيها ما يَطلُبونَ ويَشتَهونَ، ولهم سَلامٌ مِن ربٍّ رَحيمٍ بهم، يقولُه قولًا؛ مُبالَغةً في تكريمِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ سبحانَه حالَ الكافرينَ؛ أتْبَعه بحكايةِ حالِ عِبادِه الصَّالِحينَ[2].

= (٢٣/ ٤٣). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢).

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٧٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تَعالى أهوالَ يَومِ القِيامةِ؛ أعقَبَ ذلك بحالِ السُّعداءِ والأشقياءِ[١].

وأيضًا لَمَّا قَرَّر أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ شَرعَ في تفصيلِه، وبدأ بأشرَفِ الحِزبَينِ في جوابِ مَن سألَ عن هذا الجزاءِ[٢].

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥﴾.

أي: إنَّ أهلَ الجنَّةِ في هذا اليَومِ مُشتَغِلونَ بما هم مُنغَمِسونَ فيه مِنَ اللَّذائِذِ والنِّعَمِ، بلا هَمٍّ يُصيبُهم، ولا تعَبٍ يَلحَقُهم، وإنَّما هم مُتلَذِّذونَ فَرِحونَ مَسرورونَ[٣].

﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦١ - ٤٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٨، ٤٥٩)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٥، ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٩٨، ١٩٩).

قال الرسعني: (والمرادُ بالشُّغُلِ: افتِضاضُ الأبكارِ؛ في قولِ ابنِ مسعودٍ، وسعيدِ بنِ جُبيرٍ، والحَسَنِ، وقَتادةَ، وعامَّةِ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٤٨).

وقال ابنُ جرير بعدَ أن ذكَرَ الأقوالَ في الآيةِ: (وأَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ: أن يُقالَ كما قال اللهُ جَلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ وهم أهلُها ﴿فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ بنِعَمٍ- بأنَّهم في شُغُلٍ، وذلك الشُّغُلُ الَّذي هم فيه: نِعمةٌ، وافتِضاضُ أبكارٍ، ولَهْوٌ، ولَذَّةٌ، وشُغُلٌ عمَّا يَلْقَى أهلُ النَّارِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦١، ٤٦٢).

وقال ابنُ عطيَّة: (واختَلَف النَّاسُ في تعيينِ هذا الشُّغُلِ؛ فقال ابنُ مَسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ وابنُ المسَيِّبِ: في افتِضاضِ الأبكارِ. وحكى النَّقَّاشُ عن ابنِ عبَّاسٍ: سماعُ الأوتارِ. وقال مجاهِدٌ: معناه نعيمٌ قد شَغَلَهم. وهذا هو القَولُ الصَّحيحُ، وتعيينُ شَيءٍ دونَ شَيءٍ لا قياسَ له). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت النَّفْسُ لا يَتِمُّ سُرورُها إلَّا بالقرينِ الملائِمِ؛ قال[١]:

﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: هم مع أزواجِهم[٢] يَتمتَّعونَ في ظِلالِ الجنَّةِ على السُّرُرِ الَّتي أُرخِيَ عليها ما يَستُرُها ويُزَيِّنُها، وهم مُتَّكِئونَ عليها في راحةٍ وطُمأنينةٍ ولَذَّةٍ[٣].

﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾.

أي: لأهلِ الجنَّةِ فيها فواكِهُ كَثيرةٌ مِن جميعِ أنواعِها، يأكُلونَ منها تَلَذُّذًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۞ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۞ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المرسلات: ٤١ - ٤٣].

﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾.

أي: ولهم فيها ما يَطلُبونَ ويَشتَهونَ ويَتمَنَّونَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٦).

(٢) قال ابنُ عاشور: (المرادُ بأزواجِهم: الأزواجُ اللَّاتي أُعِدَّت لهم في الجنَّةِ، ومنهنَّ مَن كُنَّ أزواجًا لهم في الدُّنيا إن كنَّ غيرَ ممنوعاتٍ مِن الجنَّةِ؛ قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ [الرعد: ٢٣]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٤، ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾.

أي: ولهم نَعيمٌ آخَرُ بالسَّلامِ عليهم مِن رَبٍّ رَحيمٍ بهم، يقولُه قولًا[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ كمالُ نَعيمِ أهلِ الجنَّةِ؛ لأنَّه كلَّما كَمَل النَّعيمُ كَمَل التَّفكُّهُ بهذه النِّعمةِ الَّتي يَتنعَّمُ بها الإنسانُ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ إشارةٌ إلى عدَمِ الوَحشةِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ سؤالٌ: كيف قال سُبحانَه في صِفةِ أهلِ الجنَّةِ ذلك، والظِّلُّ إنَّما يكونُ لِما يقَعُ عليه الشَّمسُ، ولا شَمسَ في الجنَّةِ؛ لِقَولِه

= (٦/ ٥٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٣).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ﴾ قال ابنُ قُتَيْبَةَ: ما يَتَمَنَّوْنَ، ومنه يقولُ النَّاسُ: هو في خَيرِ ما ادَّعى، أي: ما تَمَنَّى، والعربُ تقولُ: ادَّعِ ما شِئتَ، أي: تَمَنَّ ما شِئتَ. وقال الزَّجَّاجُ: وهو مأخوذٌ مِن الدُّعاءِ، والمعنى: كلُّ ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٨). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

قال الماوَرْديُّ: (قولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه سلامُ الله تعالى عليهم؛ إكرامًا لهم. قاله محمَّدُ بنُ كعبٍ. الثَّاني: أنَّه تبشيرُ الله تعالى لهم بسَلامتِهم). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٥٧).

تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣]؟!

الجوابُ عن ذلك مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ الظِّلالَ في الجنَّةِ عبارةٌ عن تكاثُفِ الأشجارِ وجَودةِ المباني، وإلَّا فلا شَمسَ تُؤذي هنالك حتَّى يكونَ ظِلٌّ يُجيرُ مِن حَرِّها[١].

الثَّاني: أنَّ الظِّلَّ هو ما يَدفَعُ أذَى الحَرِّ عَن الإنسانِ، وهواءُ الجنَّةِ يُنافِي كُلَّ أذًى، فهو ظِلٌّ على هذا المعنى، وإن لم يكُنْ هناك شَمسٌ[٢].

الثَّالِثُ: أنَّ المرادَ بالظِّلالِ نَعيمُها وراحتُها، ومنه قَولُهم: عَيشٌ ظَليلٌ[٣].

الرَّابِعُ: أنَّ المرادَ به الوِقايةُ عن مَكانِ الألمِ؛ فإنَّ الجالِسَ تحت كِنٍّ لا يَخشى المطرَ ولا حَرَّ الشَّمسِ؛ فيَكونُ به مُستَعِدًّا لِدَفعِ الألمِ[٤].

الخامِسُ: أنَّه قيل: إنَّ ظِلَّ أشجارِ الجنَّةِ مِن نُورِ قناديلِ العَرشِ -أو مِن نُورِ العَرشِ-؛ لِئلَّا تَبهَرَ أبصارَهم؛ فإنَّه أعظَمُ مِن نورِ الشَّمسِ[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ كمالُ راحةِ أهلِ الجنَّةِ؛ فإنَّ المُتَّكِئَ عادةً يكونُ مُستريحًا مُطمئنًّا، وكلَّما اطمأنَّ الإنسانُ ازدادتْ راحتُه، والاتِّكاءُ على الأرائكِ لا شكَّ أنَّه دليلٌ على راحةِ البالِ وعدمِ الانشغالِ[٦].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ إشارةٌ إلى أنْ لا جوعَ هناك؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٠٢).

التَّفَكُّهَ لا يكونُ لدفعِ الجوعِ[١]، وإنَّما يكونُ للتَّلَذُّذِ!

٦- قال الله تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ دَليلٌ على ما يَتمتَّعُ به أهلُ الجنَّةِ مِن السَّلامةِ مِن كلِّ الآفاتِ، ومِن الأمراضِ، ومِن الموتِ، ومِن غيرِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ لهم: ﴿سَلَٰمٞ﴾، وهذا اللَّفظُ الصَّادرُ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ ليس دُعاءً، ولكِنَّه خَبَرٌ مِن اللهِ، وإنَّما يكونُ مِثلُ هذا دُعاءً إذا وقَعَ مِن المخلوقِ، أمَّا إذا كان مِن الخالقِ فهو خَبَرٌ، أي: أنَّ اللهَ تعالى يُخبِرُهم بأنَّه سيُسَلِّمُهم مِن كلِّ آفةٍ[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ فيه مُبالَغةٌ في تعظيمِهم؛ لأنَّ السَّلامَ وقَعَ منه تعالى بغيرِ واسِطةٍ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا﴾ إثباتُ أنَّ اللهَ تعالى يقولُ ويَتكلَّمُ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم إنَّما وصَلوا إلى هذه المنزِلةِ برَحمةِ اللهِ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ، مَسوقٌ لِتَقريرِ أحوالِ أهلِ الجَنَّةِ؛ إغاظةً لِلكُفَّارِ، وتَقريعًا لهم، وهذا ممَّا يُقالُ لِمَن حَقَّ عليهم العَذابُ؛ إعلامًا لهم بنُزولِ مَرتَبَتِهم عن مَراتِبِ أهلِ الجَنَّةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٠).

إعلانًا بالحَقائِقِ؛ لِأنَّ ذلك عالَمُ الحَقائقِ، وإدخالًا لِلنَّدامةِ والحَسرةِ عليهم على ما فَرَّطوا فيه مِن طَلَبِ الفَوزِ في الآخِرةِ؛ فإنَّ الإخبارَ بحُسنِ حالِ أعدائِهم إثرَ بَيانِ سُوءِ حالِهم ممَّا يَزيدُهم مَساءةً على مَساءةٍ، وهذا يُؤْذِنُ بأنَّ أهلَ الجَنَّةِ عُجِّلَ بهم إلى النَّعيمِ قبْلَ أنْ يُبعَثَ إلى النَّارِ أهلُها، وأنَّ أهلَ الجَنَّةِ غَيرُ حاضِرينَ ذلك المَحضَرَ، وفي مِثلِ هذه الحِكايةِ زِيادةُ تَصويرٍ لِلمَوعودِ، وتَمكينٌ له في النُّفوسِ، وتَرغيبٌ في الحِرصِ عليه وعلى ما يُثمِرُه[1].

- والتَّعبيرُ عن حالِ أهلِ الجنَّةِ هذه بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ قبْلَ تَحقُّقِها بتَنزيلِ المُتَرقَّبِ المُتَوقَّعِ مَنزِلةَ الواقِعِ؛ لِلإيذانِ بغايةِ سُرعةِ تَحقُّقِها ووُقوعِها، ولِزيادةِ مَساءةِ المُخاطَبينَ[2].

- وفائِدةُ ذِكرِ الظَّرفِ -وهو ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾- التَّنويهُ بذلك اليَومِ بأنَّه يَومُ الفَضلِ على المُؤمِنينَ المُتَّقينَ[3].

- والظَّرفيَّةُ في قَولِه: ﴿فِي شُغُلٖ﴾ جَعَلَتْ تَلَبُّسَهم بالشُّغُلِ كأنَّهم مَظروفونَ فيه، أيْ: أحاطَ بهم شُغُلٌ عن مُشاهَدةِ مَوقِفِ أهلِ العَذابِ، صَرَفهمُ اللهُ عن مَنظَرِ المُزعِجاتِ؛ لِأنَّ مُشاهَدَتَها لا تَخلو مِن انقِباضِ النُّفوسِ، ولكَونِ هذا هو المَقصودَ عُدِلَ عن ذِكرِ ما يَشغَلُهم؛ إذْ لا غَرَضَ في ذِكرِه[4].

- قَولُه: ﴿فِي شُغُلٖ﴾ التَّنكيرُ لِلتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، أي: في أيِّ شُغُلٍ، وفي شُغُلٍ لا يُوصَفُ، أي: أنَّهم مُستَقِرُّونَ في شُغُلٍ، وأيِّ شُغُلٍ، في شُغُلٍ عَظيمِ الشَّأنِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُتَنعِّمونَ بنَعيمٍ مُقيمٍ، فائِزونَ بمُلكٍ كبيرٍ، وما ظَنُّكَ بشُغُلِ مَن سُعِدَ بدُخولِ الجَنَّةِ الَّتي هي دارُ المُتَّقينَ، ووَصَل إلى نَيلِ تلك الغِبطةِ، وذلك المُلكِ الكَبيرِ، والنَّعيمِ المُقيمِ، ووَقَعَ في تلك المَلاذِّ الَّتي أعَدَّها اللهُ لِلمُرتَضَيْنَ مِن عِبادِه؛ ثَوابًا لهم على أعمالِهم، مع كَرامةٍ وتَعظيمٍ، وذلك بعْدَ الوَلَهِ والصَّبابةِ، والتَّفَصِّي مِن مَشاقِّ التَّكليفِ، ومَضايِقِ التَّقْوى والخَشيةِ، وتَخطِّي الأهوالِ، وتَجاوُزِ الأخطارِ، وجَوازِ الصِّراطِ، ومُعايَنةِ ما لَقِيَ العُصاةُ مِنَ العَذابِ[1]؟!

- وأيضًا في تَنوينِ ﴿شُغُلٍ﴾ تَنويهٌ بأنَّ ما هُمْ فيه مِن شُغُلٍ أعلَى مِن أنْ تَرْقَى إليه رُتبةُ البَيانِ، أو يَستَطيعَ وَصْفَه اللِّسانُ، كما أنَّ في إبهامِه تَعظيمًا لِمَا هُمْ فيه مِنَ البَهجةِ والتَّلذُّذِ، وإيجازًا انطَوى تَحتَه ما لا يُعدُّ ولا يُحْصى مِن ضُروبِ المَلاذِّ الَّتي يَستَمتِعونَ بها في الجِنانِ، وأنَّ ما عَداها يُعَدُّ كَلَا شَيءٍ، كما أنَّ فيه تَصويرًا لِمَا أعَدَّه اللهُ لِعِبادِه المُتَّقينَ مِن ضُروبِ المُتعةِ وأفانينِ اللَّذَّةِ مِن افتِضاضِ أبكارٍ، وسَماعِ أوتارٍ، وتَزاوُرٍ في العَشايا والأسحارِ، وقد أكَّدَه بأنَّهم فاكِهونَ ناعِمونَ، لا يَشغَلُ بالَهم ما يَشغَلُ بالَ أهلِ الدُّنيا مِن تَصاريفِ الحياةِ، ومَشاغِلِ السِّنينِ، ولا يُنغِّصُ صَفوَهم هَمٌّ طارئٌ، أو غَمٌّ نازِلٌ، وأنَّ كُلَّ ما تَمتَدُّ إليه الأعيُنُ، وتُسافِرُ نَحوَه الظُّنونُ مِن صُنوفِ المَلاذِّ حاضِرٌ لَدَيهم، يَنالونَه وهمْ مُتَّكِئونَ على الأرائكِ، مُتَمدِّدونَ تَحتَ الظِّلالِ ممَّا وَرَدَ وَصْفُه مُجسَّدًا، وذلك كُلُّه على طَريقِ الكِنايةِ[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ جُملةٌ واقِعةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٤/ ٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٨، ٢١٩).

مَوقِعَ البَيانِ لِجُملةِ ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ...﴾؛ لِبَيانِ كَيفيَّةِ شُغُلِهم وتَفكُّهِهم، وتَكميلِهما بما يَزيدُهُم بَهجةً وسُرورًا مِن شَركةِ أزواجِهم لهمْ فيما هُمْ فيهِ مِنَ الشُّغُلِ والفَكاهَةِ[١].

- والضميرُ (هُمْ) في قَولِه: ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ﴾ يَحتمِلُ أنْ يَكونَ مُبتَدَأً، وأنْ يَكونَ تأكيدًا لِلضَّميرِ في ﴿فِي شُغُلٍ﴾ وفي ﴿فَٰكِهُونَ﴾، على أنَّ أزواجَهم يُشارِكْنَهم في ذلك الشُّغُلِ والتَّفكُّهِ والاتِّكاءِ على الأرائكِ تَحتَ الظِّلالِ[٢].

- والجارَّانِ ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ صِلَتانِ للخَبرِ ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾، قُدِّمَتا عليهِ؛ لِمُراعاةِ الفَواصِلِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ بَيانٌ لِمَا يَتمَتَّعونَ به في الجَنَّةِ مِنَ المَآكِلِ والمَشارِبِ، ويَتلَذَّذونَ به مِنَ المَلاذِّ الجُسمانيَّةِ والرُّوحانيَّةِ بعْدَ بَيانِ ما لَهُم فيها مِن مَجالِسِ الأُنْسِ، ومَحافِلِ القُدسِ؛ تَكميلًا لِبَيانِ كَيفيَّةِ ما هُم فيه مِنَ الشُّغُلِ والبَهجةِ[٤].

- والفاكِهةُ: ما يُؤكَلُ لِلتَّلذُّذِ، لا لِلشِّبَعِ، كالثِّمارِ والبُقولِ، وإنَّما خُصَّتْ بالذِّكرِ لِأنَّها عَزيزةُ النَّوالِ لِلنَّاسِ في الدُّنيا، ولِأنَّها استَجلَبَها ذِكرُ الاتِّكاءِ؛ لِأنَّ شَأْنَ المُتَّكِئينَ أنْ يَشتَغِلوا بتَناوُلِ الفَواكِهِ[٥].

- ثمَّ عَمَّمَ ما أعَدَّ لهم بقَولِه: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾، و﴿يَدَّعُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٣).

مُتَصرِّفًا مِنَ الدُّعاءِ، أو مِنَ الادِّعاءِ، أي: ما يَدْعون إليه، أو ما يَدَّعونَ في أنْفُسِهم أنَّه لهم بإلهامٍ إلهيٍّ، وصِيغَ له وَزنُ الافتِعالِ؛ لِلمُبالَغةِ[1].

- وكَلِمةُ (ما) في قَولِه: ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ مَوصولةٌ، أو مَوصوفةٌ، عبَّرَ بها عن مَدعُوٍّ عَظيمِ الشَّأْنِ، مُعَيَّنٍ أو مُبهَمٍ؛ إيذانًا بأنَّه الحَقيقُ بالدُّعاءِ دونَ ما عَداهُ، ثم صرَّحَ به رَوْمًا لِزيادةِ التَّقريرِ بالتَّحقيقِ بعْدَ التَّشويقِ، أو هي باقيةٌ على عُمومِها، قَصَد بها التَّعميمَ بعْدَ تَخصيصِ بَعضِ المَوادِّ المُعتادةِ بالذِّكرِ، وفي ذلك دَلالةٌ على أنَّهم في أقصى غايةِ البَهجةِ والغِبطةِ. وقولُه: ﴿مَا﴾ مُبتدأٌ، و(لَهُمْ) خبَرُه، والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُملةِ السَّابقةِ، وعدَمُ الاكتفاءِ بعطفِ ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ على ﴿فَٰكِهَةٌ﴾؛ لِئلَّا يُتوهَّمَ كَونُ (ما) عبارةً عن تَوابعِ الفاكهةِ وتَتِمَّاتِها[2].

٤- قولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ استِئنافٌ قُطِعَ عن أنْ يُعطَفَ على ما قَبْلَه؛ لِلاهتِمامِ بمَضمونِه، وهو الدَّلالةُ على الكَرامةِ والعِنايةِ بأهلِ الجَنَّةِ مِن جانِبِ القُدُسِ، فبَعْدَ أنْ أخبَرَ بما حَباهم به مِنَ النَّعيمِ، مُشيرًا إلى أُصولِ أصنافِه؛ أخبَرَ بأنَّ لهم ما هو أسْمَى وأعْلَى، وهو التَّكريمُ بالتَّسليمِ عليهم[3].

- وتَنكيرُ ﴿سَلَٰمٌ﴾ لِلتَّعظيمِ، ورَفْعُه لِلدَّلالةِ على الدَّوامِ والتَّحقُّقِ؛ لِأنَّ هذا القَولَ صادِرٌ عن رَبٍّ رَحيمٍ في مَقامِ التَّعظيمِ، وكان جَديرًا بأنْ يُفخَّمَ أمْرُه ويُعظَّمَ قَدْرُه، ويَكونَ جُملةً مُستَقِلَّةً مَفصولةً عمَّا سَبَقَ، وتَنوينُ ﴿قَوْلًا﴾ دالٌّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣، ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٤).

على التَّعظيمِ، وتَنوينُ ﴿رَّبِّ﴾ لِلتَّعظيمِ أيضًا، ولِأجْلِ ذلك عُدِلَ عن إضافةِ (رَبٍّ) إلى ضَميرِهم، واختِيرَ في التَّعبيرِ عنِ الذَّاتِ العَلِيَّةِ بوَصفِ الرَّبِّ؛ لِشِدَّةِ مُناسَبتِه لِلإكرامِ والرِّضا عنهم بذِكرِ أنَّهم عَبَدوه في الدُّنيا، فاعتَرَفوا برُبوبيَّتِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٧٣، ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٤).

الآيات (٥٩-٦٧)

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ٦٦ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ٦٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ﴾: أي: انفَصِلوا وانفَرِدوا، وأصلُ (ميز): يدُلُّ على انفِصالِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[(١)].

﴿جِبِلّٗا﴾: أي: خَلْقًا، وجماعةً، وأصلُ (جبل): يدُلُّ على تجمُّعِ الشَّيءِ في ارتفاعٍ[(٢)].

﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾: أي: ادخُلوها، وذُوقوا حَرَّها، وأصلُ الصَّلي: الإيقادُ بالنَّارِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).
وقال ابنُ عاشورٍ: (هو مشتَقٌّ مِن الجَبْلِ -بسكونِ الباءِ- بمعنى الخَلْقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

﴿نَخْتِمُ﴾: أي: نَطبَعُ، ونمنَعُهم مِن الكلامِ، وأصلُ (ختم): يدُلُّ على بُلوغِ آخِرِ الشَّيءِ[١].

﴿لَطَمَسْنَا﴾: أي: مَحَوْنا وأعمَيْنا، والطَّمسُ: إزالةُ الأثَرِ بالمحْوِ، وأصلُ (طمس): يدُلُّ على مَحوِ الشَّيءِ ومَسحِه[٢].

﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾: أي: جعَلْناهم قِرَدةً وخَنازيرَ أو حِجارةً، والمَسخُ: تشويهُ الخَلقِ، وتحويلُه مِن صُورةٍ إلى صورةٍ[٣].

﴿مَكَانَتِهِمْ﴾: أي: مَكانِهم، وأصلُ (مكن): يدُلُّ على الموضِعِ الحاوي للشَّيءِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى جزاءَ المجرمينَ وما يُقالُ لهم، فيقولُ: ويُقالُ يومَ القيامةِ للكافِرينَ: انفَرِدوا اليومَ -أيُّها المجرِمونَ- عن المؤمِنينَ، واخرُجوا مِن بَيْنِهم، لقد عَهِدْتُ إليكم -يا بني آدَمَ- عَهدًا مُؤكَّدًا على ألسِنةِ رُسُلي: ألَّا تَعبُدوا الشَّيطانَ؛ لأنَّه لكم عَدوٌّ ظاهِرُ العداوةِ، وأنِ اعبُدوني وحْدي، هذا الَّذي أمَرْتُكم به مِن إخلاصِ العبادةِ، والطَّاعةِ لي: هو الطَّريقُ الواضِحُ المُستَقيمُ. ولقد أضَلَّ الشَّيطانُ منكم خَلقًا كَثيرًا، أفلم تَعقِلوا عداوتَه فتَترُكوا طاعتَه؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٧، ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢، ٧٧٣).

ثمَّ يُخبِرُ الله تعالى أنَّه يُقالُ لهم: هذه جهنَّمُ ماثِلةً أمامَ أعيُنِكم، ادخُلوها وذوقُوا حَرَّها اليومَ؛ بسَبَبِ كُفرِكم في الدُّنيا.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى جانبًا آخَرَ مِن أحوالِ الكافرينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: اليومَ نَطْبَعُ على أفواهِ هؤلاء الكافِرينَ فنَجعَلُها لا تَنطِقُ، وتُكَلِّمُنا أيديهم، وتَشهَدُ عليهم أرجُلُهم بما كانوا يَكسِبونَه في الدُّنيا مِن الذُّنوبِ والآثامِ!

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه قدرتَه على هؤلاءِ الكافرينَ، وأنَّهم تحتَ تصرُّفِه، فيقولُ: ولو نشاءُ مَحْوَ أبصارِهم لَمَحَوْناها، فلو أرادوا في تلك الحالةِ المبادَرةَ إلى الطَّريقِ لِيَسيروا فيه لَما استَطاعوا ذلك، والحالةُ هذه! ولو نَشاءُ لَمَسَخْنا هؤلاء الكُفَّارَ وغيَّرْنا صُوَرَهم، وأبْطَلْنا قوَّتَهم، وهم في مكانِهم الَّذي يُقيمونَ فيه؛ فلا يَقدِرونَ أن يَمضُوا إلى الأمامِ، أو أن يَعودوا إلى الخَلفِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى جزاءَ المتَّقينَ؛ ذكَرَ جزاءَ المُجرِمين[1]، فقال:

﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩ ﴾.

أي: يُقالُ[2] يومَ القيامةِ: وتميَّزوا اليومَ -أيُّها الكافِرونَ- عن المؤمِنينَ، واخرُجوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٢).

قال ابن عطية: (﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ ... ﴾ فيه حَذفٌ تقديرُه: ونَقولُ للكَفَرةِ. وهذه مُعادِلةٌ لِقَولِه لأصحابِ الجنَّةِ: ﴿ سَلَٰمٞ ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٩).

مِن جُملتِهم مُنفَرِدينَ عنهم في موقِفِ الحَشرِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤].

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ المؤمِنينَ والمُجرِمين، كان لقائلٍ أن يَقولَ: «إنَّ الإنسانَ كان ظَلومًا جَهولًا»، والجَهلُ مِن الأعذارَ؛ فبَيَّن سُبحانَه أنَّه قد سَبَق إيضاحُ السُّبُلِ بإيضاحِ الرُّسُلِ، وقال: قد عَهِدْنا إليكم وتَلَوْنا عليكم ما ينبغي أن تَفعَلوه وما لا يَنبغي[٢].

وأيضًا لَمَّا امْتَثَلوا ما أُمِروا به مِن الامتيازِ؛ قال لهم على جهةِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ[٣]:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾.

أي: يقولُ اللهُ تعالى[٤]: ألم أُوصِكم -يا بني آدَمَ- على ألسِنةِ رُسُلي ألَّا تَعبُدوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٠-٢١٢).
قال الواحدي: (وقال السُّدِّيُّ: كونُوا على حِدَةٍ. وهذا قَولُ أكثَرِ المفَسِّرينَ، واختيارُ أبي إسحاقَ؛ قال: معناه: انفَرِدوا عن المؤمِنينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٥٠٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) لأبي إسحاقَ الزَّجَّاجِ (٤/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٧).

(٤) قال ابنُ عاشور: (إقبالٌ على جميعِ البشَرِ الَّذين جمَعَهم المحشَرُ، غيرَ أهلِ الجنَّةِ الَّذين عُجِّلوا =

الشَّيطانَ فتُطيعوه فيما أمَرَكم به؛ مِن الكُفرِ والشِّركِ بي، ومَعصيتي[(١)]؟

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا نهَى عِبادَه عن عبادةِ الشَّيطانِ؛ ذكَرَ ما يَحمِلُهم على قَبولِ ما أُمِروا به، والانتِهاءِ عمَّا نُهُوا عنه[(٢)].

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ لكم عدُوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠].

= إلى الجنَّةِ، فيَشملُ هذا جميعَ أهلِ الضَّلالةِ مِن مُشرِكينَ وغَيرِهم، ولعلَّه شامِلٌ لأهلِ الأعرافِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٤، ٢١٥).

﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا مَنَع عبادةَ الشَّيطانِ؛ حَمَل على عبادةِ الرَّحمنِ[1].

وأيضًا لَمَّا بكَّتَهم بالتَّذكيرِ بما ارتكَبوا -مع النَّهيِ عن عبادةِ العَدُوِّ- تقديمًا لدَرءِ المفاسِدِ؛ وبَّخَهم بالتَّذكيرِ بما ضَيَّعوا مع أخذِ العُهودِ مِن واجِبِ الأمرِ بعبادةِ الوَليِّ[2].

﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾.

أي: ألم أعهَدْ إليكم -يا بني آدَمَ- بعِبادتي وَحْدي وطاعتي، بامتِثالِ ما أُمِرتُم به، واجتِنابِ ما نُهِيتُم عنه؛ فإنَّ توحيدي وطاعتي ومَعصيةَ الشَّيطانِ: طَريقٌ مُستقيمٌ، وهو دينُ الإسلامِ القَويمُ[3]؟!

﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًا﴾.

أي: ولقد أضَلَّ الشَّيطانُ منكم خَلْقًا كثيرًا عن الصِّراطِ المُستَقيمِ، فصَدَّهم عن توحيدي وطاعتي[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٥، ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٢٠، ٢٢١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: أفلم تَعقِلوا عداوةَ الشَّيطانِ لكم، وإضلالَه مَن أطاعَه مِن الأُمَم السَّابقةِ، وما حلَّ بهم -بسَبَبِ ذلك- مِن العذابِ والهلاكِ، فتُطيعوني، وتَترُكوا طاعةَ الشَّيطانِ[1]؟!

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنكَرَ عليهم أن يَفعَلوا فِعلَ مَن لا عَقلَ له؛ قال مُتمِّمًا للخِزيِ[2]:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: يُقالُ لهم[3]: .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٣).

قيل: قائلُ ذلك هم خَزَنةُ النَّارِ. وممَّن ذهَب إليه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمرقنديُّ، والقرطبيُّ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير =

هذه جَهنَّمُ الَّتي كنتُم تُوعَدونَ بها في الدُّنيا[١].

﴿ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ﴾.

أي: ادخُلوها اليومَ وباشِروا نارَها، وقاسُوا حَرَّها؛ بسَبَبِ كُفرِكم في الدُّنيا[٢].

كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ * ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٣- ١٦].

﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان كأنَّه قيل: هل يَحكُمُ فيهم بعِلمِه، أو يَجري الأمرُ على قاعدةِ الدُّنيا في العملِ بالبَيِّنةِ؟ بيَّن أنَّه على أظهرَ مِن قواعدِ الدُّنيا[٣].

﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾.

أي: اليومَ نَطبَعُ على أفواهِهم، ونمنَعُهم مِنَ الكَلامِ[٤]!

= القرطبي)) (١٥/ ٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

قال السَّمعاني: (قال أهلُ التَّفسيرِ: هذا حينَ يُنكِرُ الكُفَّارُ كُفرَهم وتَكذيبَهم رُسُلَ اللهِ، فيَختِمُ اللهُ على أفواهِهم). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٥).

كما قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا عندَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فضَحِكَ، فقال: هل تَدرُونَ مِمَّ أضحَكُ؟ قُلْنا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ. قال: مِن مُخاطَبةِ العَبدِ رَبَّه؛ يقولُ: يا رَبِّ، ألم تُجِرْني مِن الظُّلم؟ قال: يقولُ: بلى. قال: فيقولُ: فإنِّي لا أُجيزُ على نفْسي إلَّا شاهِدًا مني. قال: فيقولُ: كفَى بنَفْسِك اليومَ عليك شهيدًا، وبالكرامِ الكاتِبينَ شُهودًا! قال: فيُختَمُ على فيه، فيُقالُ لأركانِه[١]: انطِقي! قال: فتَنطِقُ بأعمالِه! قال: ثمَّ يُخلَّى بيْنَه وبيْن الكَلامِ، فيقولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وسُحْقًا! فعنكُنَّ كنتُ أناضِلُ!))[٢].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه في الحديثِ المرفوعِ الطَّويلِ، وفيه: أنَّه يُقالُ للمنافقِ يومَ القيامةِ: ((الآنَ نَبعَثُ شاهِدَنا عليك، ويَتفكَّرُ في نَفْسِه: مَن ذا الَّذي يَشهَدُ علَيَّ؟! فيُختَمُ على فيه، ويُقالُ لفَخِذِه ولَحمِه وعِظامِه: انطِقي، فتَنطِقُ فَخِذُه ولَحمُه وعِظامُه بعَمَلِه! وذلك لِيُعذِرَ[٣] مِن نَفْسِه، وذلك المنافِقُ، وذلك الَّذي يَسخَطُ اللهُ عليه))[٤].

﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي: وتُكَلِّمُنا أيديهم بما عَمِلَته[٥].

---

(١) المرادُ بالأركانِ هنا: الجوارحُ. يُنظر: ((إكمال المُعْلِم)) للقاضي عياض (٨/ ٥٢٢).

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٩).

(٣) ليُعذِرَ: أي: لِيُزيلَ اللهُ عُذْرَ هذا المنافِقِ مِن قِبَلِ نَفْسِه، بكَثرةِ ذُنوبِه، وشَهادةِ أعضائِه عليه؛ بحيث لم يَبْقَ له عُذرٌ يَتمَسَّكُ به. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٢٩).

(٤) رواه مسلم (٢٩٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

أي: وتَنطِقُ أرجُلُهم، فتَشهَدُ عليهم بما كانوا يَكسِبونَه في الدُّنيا مِن الذُّنوبِ والآثامِ[1].

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ * وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠ - ٢٢].

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ٦٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ إلجاءَهم إلى الاعترافِ بالشِّركِ بعدَ إنكارِه يومَ القيامةِ، كان ذلك مُثيرًا لأن يَهجِسَ في نُفوسِ المؤمِنينَ أن يَتمَنَّوا لو سَلَك اللهُ بهم في الدُّنيا مِثلَ هذا الإلجاءِ؛ فألجأَهم إلى الإقرارِ بوحدانيَّتِه، وإلى تصديقِ رَسولِه واتِّباعِ دينِه؛ فأفاد اللهُ أنَّه لو شاء ذلك في الدُّنيا لَفَعل[2]. وهذا بِناءً على قولٍ في التَّفسيرِ

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ٦٦﴾.

أي: ولو نَشاءُ لأذهَبْنا أعيُنَ الكُفَّارِ، فلا يكونُ لها وجودٌ ولا أثَرٌ، فإذا ابتَدَروا

= (٦/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥١).

مُسرِعينَ لسُلوكِ الطَّريقِ، فلن يُبصِروه والحالةُ هذه؛ فهم لا مَحالةَ هالِكونَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرْجِعُونَ ٦٧﴾.

أي: ولو نَشاءُ لَمَسَخْنا الكُفَّارَ في أماكِنِهم الَّتي هم فيها؛ فبدَّلْنا خِلقَتَهم، وحوَّلْنا صورَتَهم، وأبطَلْنا قوَّتَهم؛ فلا يَستَطيعونَ الذَّهابَ أمامَهم، ولا الرُّجوعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٥، ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٨، ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥١، ٥٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّه يقالُ ذلك تهديدًا لهم في الدُّنيا إن لم يَرجِعوا عن كُفرِهم، فيُفعل بهم ذلك عقوبةً لهم: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٩).

قال البِقاعي: (﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: الطَّريقَ الواضِحَ الَّذي ألِفُوه واعتادوه، ولهم به غايةُ المعرفةِ، ولَمَّا كان الأعمى لا يمكِنُه في مِثلِ هذه الحالةِ المَشيُ بلا قائدٍ فضلًا عن المُسابَقةِ؛ سَبَّب عن ذلك قَولَه مُنكرًا: ﴿فَأَنَّىٰ﴾ أي: كيف ومِن أين ﴿يُبْصِرُونَ﴾ أي: فلم يَهتَدوا للصِّراطِ؛ لعدَمِ إبصارِهم، بل تَصادَموا فتَساقَطوا في المهالِكِ، وتهافَتوا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٥٩).

وقال السعدي: (﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ بأن نُذْهِبَ أبصارَهم، كما طمَسْنا على نطقِهم. ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: فبادَروا إليه؛ لأنَّه الطَّريقُ إلى الوصولِ إلى الجنَّةِ، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ وقد طُمِسَتْ أبصارُهم؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

وقيل: المرادُ مِن ذلك: الطَّمسُ المعنويُّ، أي: أن يُذهِبَ اللهُ بصائرَهم، فلا يُبصِرونَ طريقَ الهدى.

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عبَّاس رَضِيَ الله عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٤).

وقال مقاتلٌ: (﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ نزلَت في كفَّارِ مكَّةَ، يقولُ: لو نشاءُ لَحَوَّلْنا أبصارَهم مِن الضَّلالةِ إلى الهدَى ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ ولو طمستُ الكفرَ لاستبقوا الصِّراطَ، يقولُ: لأبصَروا طريقَ الهدَى، ثمَّ قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؛ فمِن أين يُبصِرونَ الهدَى إن لم أُعمِّ عليهم طريقَ الضَّلالةِ؟!). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٤).

خَلْفَهم[١]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾ التَّحذيرُ مِن الشَّيطانِ وإغوائِه؛ فهو يَسعى لإضلالِ بني آدمَ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ فائِدةُ نُطقِ الأعضاءِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ ما كان عَونًا على المعاصي صار شاهِدًا؛ فلا ينبغي لأحدٍ أن يَصحَبَ أحدًا إلَّا لله تعالى؛ لئلَّا يَفتَضِحَ ثَمَّ بسبَبِ صُحبتِه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- هذا القرآنُ الكريمُ مَثانٍ؛ تُثَنَّى فيه المعاني، فيُذكَرُ الشَّيءُ ويُذكَرُ ضِدُّه؛ لأنَّه لو ذُكِرَ ما يكونُ به الرَّجاءُ دونَ ما يكونُ فيه الخَوفُ لغَلَبَ جانبُ الرَّجاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢، ٥٣).

قال الشوكاني: (كرَّر التَّهديدَ لهم، فقال: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ المَسخُ: تبديلُ الخِلقةِ إلى حَجَرٍ، أو غيرِه مِن الجَمادِ، أو بهيمةٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٤).

وقال ابنُ عاشور: (أي: لو نَشاءُ لَمَسَخْنا الكافرين في الدُّنيا في مكانِهم الَّذي أظهَروا فيه التَّكذيبَ بالرُّسُلِ، فما استطاعوا انصرافًا إلى ما خرَجوا إليه، ولا رُجوعًا إلى ما أتَوا منه، بل لَزِموا مكانَهم؛ لِزَوالِ العَقلِ الإنسانيِّ منهم؛ بسبب المسخِ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢).

وقال السعدي: (﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ أي: لأذْهَبْنا حركتَهم ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا ﴾ إلى الأمامِ ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ إلى ورائِهم؛ ليبعدوا عن النارِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٢٤). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٩٤).

على جانبِ الخَوفِ، ووقَعَ الإنسانُ في الأمنِ مِن مَكرِ اللهِ، ولو ذُكِرَ فيه جانبُ الخوفِ دونَ جانبِ الرَّجاءِ لَوَقَعَ الإنسانُ في القُنوطِ مِن رحمةِ اللهِ؛ فكان اللهُ عزَّ وجلَّ إذا ذكَرَ النَّعيمَ ذكَرَ ضِدَّه، وإذا ذكَرَ أصحابَ الجنةِ ذكَرَ أصحابَ النَّارِ، وهكذا، كما قال تعالى هنا: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ...﴾، ثمَّ قال: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ...﴾. وهذا أحَدُ معاني قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، يعني: أنَّه تُثَنَّى فيه المعاني؛ حتَّى يَكمُلَ السَّيرُ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى على الوجهِ المطلوبِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أنَّه ينبغي لِمَن قام بعملٍ أنْ يَذْكُرَ الوصفَ المناسِبَ لهذا العملِ، فهنا لَمَّا أُمِروا بالانصرافِ وطُرِدُوا نَاسَبَ أنْ يَذْكُرَ سَبَبَ ذلك، فكأنَّه قال: «امتازوا لإجرامِكم»، ولا شكَّ أنَّ ذِكْرَ سببِ الحُكْمِ يُزيلُ الشُّبهةَ واللَّبْسَ والاعتِراضَ، ويَنبني على هذه الفائدةِ: أنَّ تعليقَ الحُكْمِ بوصفٍ يدُلُّ على أنَّ هذا الوصفَ هو عِلَّةُ ذلك الحُكْمِ، فإذا قلتَ مثلًا: أكْرِمِ المجتهِدَ مِن الطَّلبةِ؛ فهنا عَلَّقَ الإكرامَ بالاجتهادِ، وهذا يُفيدُ أنَّ علَّةَ الإكرامِ هو الاجتهادُ، فهذه القاعدةُ مفيدةٌ لطالبِ العلمِ، وهي: «أنَّ تعليقَ الحُكْمِ بوصفٍ يدُلُّ على عِلِّيَّتِه»، أي: أنَّه عِلَّةُ ذلك الحُكْمِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ إثباتُ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالخَلقِ؛ حيثُ لم يَجعَلْ إخلاصَهم له موكولًا إلى عُقولِهم، بل عَهِدَ بذلك إليهم على ألسِنةِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، لأنَّ اللهَ لو جَعَلَ الإخلاصَ موكولًا إلى العقولِ لاختلفَتِ العقولُ في ذلك اختلافًا كثيرًا؛ لأنَّ الأهواءَ لا تَنضَبِطُ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١١).

فجَعلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ذلك ممَّا تكفَّلَ به هو نَفْسُه لعِبادِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أنَّ الذُّنوبَ كلَّها جزءٌ مِن الشِّركِ، وهي مِن فروعِه؛ فإنَّها جميعَها طاعةٌ للشَّيطانِ واتِّباعٌ لخُطواتِه، وقال الشَّيطانُ: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[٢] [إبراهيم: ٢٢].

٥- كَتَب عبدُ الملِكِ بنُ مَرْوانَ إلى سعيدِ بنِ جُبيرٍ يَسألُه عن مسائلَ... فأجابَه عنها، وفيها: (تسألُ عن العبادةِ، والعبادَةُ هي الطَّاعةُ؛ ذلك أنَّه مَن أطاعَ اللهَ فيما أمرَه به وفيما نهاهُ عنه فقد آثَرَ عبادةَ اللهِ، ومَن أطاعَ الشَّيطانَ في دينِه وعمَلِه فقد عَبَد الشَّيطانَ، ألَا تَرَى أنَّ اللهَ قال للَّذين فرَّطوا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾؟ وإنَّما كانت عِبادَتُهم الشَّيطانَ أنَّهم أطاعوه في دينِهم)[٣]، فمعنى ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي: لا تُطيعوه؛ بدَليلِ أنَّ المَنهيَّ عنه ليس هو السُّجودَ له فحَسْبُ، بل الانقيادُ لأمرِه، والطَّاعةُ له؛ فالطَّاعةُ عِبادةٌ، لا يُقالُ: فنكونُ نحن مأمورينَ بعبادةِ الأُمراءِ؛ حيثُ أُمِرْنا بطاعتِهم في قَولِه تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]؛ لأنَّا نَقولُ: طاعتُهم إذا كانت بأمرِ اللهِ لا تكونُ إلَّا عبادةً للهِ وطاعةً له، وإنَّما عبادةُ الأمراءِ: طاعتُهم فيما لم يَأذَنِ اللهُ فيه[٤]. فمعنَى عبادتِهم للشَّيطانِ ليست أنَّهم سَجَدُوا للشَّيطانِ، ولا ركَعوا للشَّيطانِ، ولا صَامُوا للشَّيطانِ، ولا حَجُّوا للشَّيطانِ، وإنَّما عبادتُهم للشَّيطانِ: هي اتِّباعُهم ما شَرَعه مِن النُّظُمِ على ألْسِنةِ أوليائِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩٨).

كما في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فصَرَّحَ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنَّ مَن اتَّبَعَ تشريعَ إبليسَ وقال: بأنَّ المَيتةَ حلالٌ: أنَّه مشركٌ باللهِ، فالمرادُ بعبادتِه طاعتُه فيما شَرَع، واتِّباعُه في نُظُمِه وقوانينِه(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ أنَّ العبادةَ لا تَختَصُّ بالرُّكوعِ والسُّجودِ، والذَّبحِ والنَّذْرِ، وما أشْبَهَ ذلك، بل هي عامَّةٌ شامِلةٌ لكُلِّ طاعةٍ يكونُ فيها كَمالُ التَّذلُّلِ(٢).

٧- قال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۞ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۞ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]. فكلُّ مَن عَبَد غيرَ اللهِ فإنَّما يعبُدُ الشَّيطانَ، وإن كان يَظُنُّ أنَّه يعبُدُ الملائكةَ والأنبياءَ؛ ولهذا تتمَثَّلُ الشَّياطينُ لمَن يعبُدُ الملائكةَ والأنبياءَ والصَّالحينَ ويُخاطِبونَهم، فيَظُنُّونَ أنَّ الَّذي خاطَبَهم مَلَكٌ أو نَبيٌّ أو وليٌّ، وإنَّما هو شيطانٌ، فكلُّ مَن لم يَعبُدِ اللهَ مُخْلِصًا له الدِّينَ فلا بُدَّ أنْ يكونَ مشرِكًا عابدًا لغيرِ اللهِ، وهو في الحقيقةِ عابِدٌ للشَّيطانِ. فكلُّ واحدٍ مِن بني آدمَ إمَّا عابِدٌ للرَّحمنِ، وإمَّا عابِدٌ لِلشَّيطانِ(٣).

٨- أنَّه ينبغي التَّخليةُ قبْلَ التَّحليةِ؛ لأنَّه قال: ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ هذا تخليةٌ، ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ﴾ تحليةٌ، أي: نفْيٌ وإثباتٌ، وهذا هو التَّوحيدُ؛ فالتَّوحيدُ

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢٨٣).

مبنيٌّ على نفيٍ وإثباتٍ؛ لأنَّ النَّفيَ المُجرَّدَ تَعطيلٌ مَحضٌ وعَدَمٌ، والإثباتَ المُجَرَّدَ لا يَمنَعُ المشارَكةَ، فلا يَتِمُّ التَّوحيدُ إلَّا بنفيٍ وإثباتٍ، ويُبْدَأُ أوَّلًا بالنَّفيِ؛ لِيَرِدَ الإثباتُ على مكانٍ خالٍ مِن الشَّوائبِ خالصٍ صالحٍ لاستقرارِ الإثباتِ فيه، وهذا في القرآنِ كثيرٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، فتَبَرَّأَ أولًا مِن كلِّ معبودٍ، ثمَّ أثبتَ العبادةَ للهِ وحْدَه الَّذي فَطَرَه[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ مُجتازٌ؛ لأنَّه لو كان في دارِ إقامةٍ، فقَولُه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يكونُ له معنًى؛ لأنَّ المقيمَ يقولُ: وماذا أفعَلُ بالطَّريقِ وأنا من المُقيمينَ[٢]؟!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ مَن ساء تَصرُّفُه صَحَّ أنْ يُنفَى عنه العَقلُ وإنْ كان عاقِلًا عَقلًا ظاهِرًا، والعَقلُ عَقلان: عقلٌ هو مَناطُ التَّكليفِ، وهو عَقلُ الإدراكِ. وعَقلٌ هو مَناطُ المَدحِ والذَّمِّ، وهو عَقلُ التَّصَرُّفِ الَّذي يكونُ به الرُّشدُ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿جَهَنَّمُ﴾ بيانُ صفةِ النارِ، وأنَّها -والعياذُ باللهِ- كلُّها ظُلْمةٌ، وكلُّها سَوادٌ؛ لأنَّها مِن الجُهمةِ، أي: الظُّلمةِ والسَّوادِ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ السِّرَّ في الخَتمِ على فيه: مَنعُه من أن يَلغَطَ حالَ شهادتِها عليه، كما هو دأْبُ أهلِ العنادِ عندَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٦).

الخِصام[١].

١٣- قد يُخيَّلُ تَعارُضٌ بيْنَ هذه الآيةِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم ...﴾ وبيْن قولِه: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، ولا تَعارُضَ؛ لأنَّ آيةَ (يس) في أحوالِ المشركينَ، وآيةَ سُورةِ (النُّورِ) في أحوالِ المنافقينَ[٢].

١٤- سُئل ابنُ عبَّاسٍ: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥]، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ﴾؟ فقال: (إنَّه ذو ألوانٍ؛ مَرَّةً يَنْطِقونَ، ومَرَّةً يُخْتَمُ عليهم)[٣]. فيوم القيامةِ يومٌ طويلٌ ذو مواطِنَ مُختلِفةٍ، فيَنطِقون في وقتٍ ومكانٍ، ولا يَنطِقون في آخَرَ[٤].

١٥- قولُه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ لا يَتنافَى مع قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤٢]؛ لأنَّ عدَمَ الكتْمِ المذكورَ هناك إنَّما هو باعتبارِ إخبارِ أيدِيهم وأرجُلِهم بكلِّ ما عَمِلوا عندَ الختْمِ على أفواهِهم إذا أنْكَروا شِركَهم ومَعاصِيَهم[٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ أنَّ اللهَ تعالى أسنَدَ فِعلَ الخَتمِ إلى نَفْسِه وقال: ﴿نَخۡتِمُ﴾، وأسنَدَ الكلامَ والشَّهادةَ إلى الأيدي والأرجُلِ؛ لأنَّه لو قال تعالى: «نختِمُ على أفواهِهم، ونُنطِقُ أيديَهم» يكونُ فيه احتِمالُ أنَّ ذلك منهم كان جَبرًا وقهرًا، والإقرارُ بالإجبارِ غيرُ مَقبولٍ؛

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٠).

(٣) ذكره البخاري معلقًا في ((صحيحه)) قبل حديث (٤٩٣٠).

(٤) يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٩/ ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤١).

فقال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ أي: باختيارِها بعدَما يُقدِرُها اللهُ تعالى على الكلامِ؛ لِيَكونَ أدَلَّ على صُدورِ الذَّنبِ منهم[١].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ الخَتمُ لازِمُ الكُفَّارِ: في الدُّنيا على قُلوبِهم، وفي الآخرةِ على أفواهِهم؛ ففي الوقتِ الَّذي كان الخَتمُ على قُلوبِهم كان قَولُهم بأفواهِهم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [التوبة: ٣٠]، فلمَّا خَتَم على أفواهِهم أيضًا لزِمَ أن يكونَ قَولُهم بأعضائِهم؛ لأنَّ الإنسانَ لا يملِكُ غيرَ القَلبِ واللِّسانِ والأعضاءِ؛ فإذا لم يَبْقَ القَلبُ والفَمُ تعيَّنَ الجوارِحُ والأركانُ[٢].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ بيانُ قدرةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ فإنَّه خلافُ العادةِ أنْ تَتكَلَّمَ الأيدي والأرجُلُ، ولكنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ ولهذا لَمَّا ذَكَر اللهُ عنهم أنَّهم ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[٣] [فصلت: ٢١].

١٩- قال الله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أنكر بَعضُهم كلامَ الجوارحِ، وقال: معنى الكلامِ وُجودُ دَلالةٍ تدُلُّ على أنَّها قد عَلِمَت ما عَمِلَت! والصَّحيحُ أنَّها تتكلَّمُ حقيقةً، وغيرُ مُستبعَدٍ كَلامُ الجوارحِ في قُدرةِ اللهِ تعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٦).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ أنَّ الإنسانَ يمكنُ أنْ يَشْهَدَ بعضُه على بعضٍ؛ لأنَّ هذا الرَّجُلَ الواحدَ تَشْهَدُ عليه أعضاؤُه بما عَمِل، ويَتَفَرَّعُ على هذا: أنَّ الإنسانَ -في الدُّنيا- يمكِنُ أنْ يَشْهَدَ على نفْسِه، وشهادتُه على نفْسِه هو إقرارُه على نفْسِه(١).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أنَّ العِبرةَ في العَمَلِ بما كان فيه مِن كَسبٍ، لا بمُجَرَّدِ العَمَلِ؛ لأنَّ مُجرَّدَ العَمَلِ قد لا يكونُ كَسبًا، كما لو صدَرَ مِن جاهلٍ، أو صدَرَ مِن ساهٍ أو نائمٍ، أو ما أشْبَهَ ذلك(٢).

٢٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ مِن فوائدِ الآيةِ الكريمةِ ضَرْبُ المَثَلِ عن الأشياءِ المعقولةِ بالأشياءِ المحسوسةِ؛ فإنَّ هؤلاء لو طُمِسَتْ أعينُهم ما استطاعوا أنْ يَهتَدوا إلى السَّبيلِ، فكذلك إذا طَمَسَ اللهُ بصيرةَ القَلبِ -والعياذُ بالله- لم يَستَطِعِ الوُصولَ إلى الحقِّ، ولم يَعرِفِ الحَقَّ(٣)، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ عَطفٌ إمَّا على الجُملةِ السَّابقةِ المَسوقةِ لِبَيانِ أحوالِ أهلِ الجنَّةِ؛ عطَفَ قِصَّةَ سُوءِ حالِ هؤلاءِ وكَيفيَّةِ عِقابِهم على قِصَّةِ حُسنِ حالِ أولئك ووَصْفِ ثَوابِهم، وكأنَّ تَغييرَ السَّبكِ لِتَخييلِ كَمالِ التَّبايُنِ بيْنَ الفريقينِ وحالَيْهما، وإمَّا على مُضمَرٍ يَنساقُ إليه حِكايةُ حالِ أهلِ الجنَّةِ، كأنَّه قِيلَ إثرَ بَيانِ كَونِهم في شُغُلٍ عَظيمِ الشَّأنِ وفَوزِهم بنَعيمٍ مُقيمٍ يَقصُرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٧).

عنه البيانُ: فلْيَقَرُّوا بذلك عَينًا، وامتازُوا عنهم أَيُّهَا المُجرِمون إلى مَصيرِكم[١].

- قولُه: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ فِعلُ (امتاز) مُطاوِعُ مازَهُ؛ إذا أفرَدَه عمَّا كان مُختلِطًا معه، وُجِّهَ الأمْرُ إليهم بأنْ يَمْتازوا مُبالَغةً في الإسراعِ بحُصول المَيزِ؛ لأنَّ هذا الأمْرَ أمْرُ تَكوينٍ، والمرادُ: امتيازُهم بالابتعادِ عن الجنَّةِ، وذلك بأنَّ يَصِيروا إلى النَّارِ، فيَؤُولُ إلى معنَى: ادْخُلوا النَّارَ[٢].

- ونِداؤُهم بعُنوانِ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ للإيماءِ إلى عِلَّةِ مَيزِهم عن أهْلِ الجنَّةِ بأنَّهم مُجرِمون، فاللَّامُ في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ مَوصولةٌ، أي: أيُّها الَّذين أجْرَموا[٣].

- وحُذِفَت أداةُ النِّداءِ؛ لا لِقُربِ الكرامةِ، بل للدَّلالةِ على أنَّهم في القَبضةِ، لا مانعَ مِن غايةِ التَّصَرُّفِ فيهم لكُلِّ ما يُرادُ؛ لأنَّه لا حائِلَ دُونَهم[٤].

- وتَكريرُ كَلمةِ (اليومَ) ثلاثَ مرَّاتٍ في الحِكايةِ؛ للتَّعريضِ بالمُخاطَبين فيه -وهم الكفَّارُ الَّذين كانوا يَجحَدون وُقوعَ ذلك اليومِ- مع تأْكيدِ ذِكرِه على أسماعِهم بقولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ﴾ [يس: ٥٤]، وقولِه: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ﴾ [يس: ٥٥]، وقولِه: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ هو إشهادٌ على المشركينَ، وتَوبيخٌ وتَقْريعٌ لهم، وإلزامٌ للحُجَّةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٧)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ الاستفهامُ تقريريٌّ، والجملةُ جاريةٌ مجرَى التَّقريعِ والتَّوبيخِ والتَّبكيتِ والإلزامِ. وخُوطِبوا بعُنوانِ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾؛ لأنَّ مَقامَ التَّوبيخِ على عِبادتِهم الشَّيطانَ يَقْتضي تَذكيرَهم بأنَّهم أبناءُ الَّذي جعَلَه الشَّيطانُ عَدُوًّا له[١].

- والعهدُ: الوِصايةُ، وَوِصايةُ اللهِ بني آدَمَ بألَّا يَعبُدوا الشَّيطانَ هي ما تَقرَّرَ واشتُهِرَ في الأُمَمِ بما جاء به الرُّسلُ في العصورِ الماضيةِ، فلا يَسَعُ إنكارُه، وبهذا الاعتبارِ صحَّ الإنكارُ عليهم في حالِهم الشَّبيهةِ بحالِ مَن يَجحَدُ هذا العهدَ[٢].

- وفي قولِه تعالى: ﴿أَعْهَدْ﴾ تَوالي العينِ والهاءِ، وهما حَرفانِ مُتقارِبَا المَخرجِ مِن حُروفِ الحلْقِ، إلَّا أنَّ تَواليَهما لم يُحدِثْ ثِقلًا في النُّطقِ بالكلمةِ يُنافي الفصاحةَ بمُوجبِ تَنافُرِ الحروفِ؛ لأنَّ انتقالَ النُّطقِ في مَخرجِ العينِ مِن وسَطِ الحلْقِ إلى مَخرجِ الهاءِ مِن أقْصى الحلْقِ، خفَّفَ النُّطقَ بهما، وكذلك الانتقالُ مِن سُكونٍ إلى حَركةٍ زاد ذلك خِفَّةً[٣].

- قولُه: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ جعَلَ عِبادةَ غيرِ اللهِ عِبادةَ الشَّيطانِ؛ لأنَّه الآمِرُ بها، والمزيِّنُ لها[٤]. وعِبادةُ الشَّيطانِ: طاعتُه فيما يُوسوِسُ به إليهم ويُزيِّنه لهم، وعُبِّرَ عنها بالعِبادةِ؛ لِزيادةِ التَّحذيرِ والتَّنفيرِ عنها في مُقابَلةِ

= السعود)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١).

عِبادتِه عزَّ وجلَّ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ تَعليلٌ لِجُملةِ ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾، وقد أغنَتْ (إنَّ) عن فاءِ السَّببيَّةِ[٢].

- ووَصْفُ العدُوِّ بأنَّه ﴿مُّبِينٞ﴾؛ للمُبالَغةِ، أي: عَداوتُه واضحةٌ، ووَجْهُ وُضوحِها: أنَّ المرْءَ إذا راقَبَ عواقبَ الأعمالِ الَّتي تُوسوِسُها له نفْسُه، واتَّهمَها، وعرَضَها على وَصايا الأنبياءِ والحكماءِ؛ وَجَدَها عواقبَ نَحسةً، فوضَحَ له أنَّها مِن الشَّيطانِ بالوسوسةِ، وأنَّ الَّذي وَسوَسَ بها عدُوٌّ له؛ لأنَّه لو كان وَدودًا لَمَا أوقَعَه في الكوارثِ، ولا يُظَنُّ به الإيقاعُ في ذلك عن غيرِ بَصيرةٍ؛ لأنَّ تَكرُّرَ أمثالِ تلك الوساوسِ للمرْءِ ولأمثالِه ممَّن يَبوحُ له بأحوالِه يدُلُّ ذلك التَّكرُّرُ على أنَّها وَساوسُ مَقصودةٌ للإيقاعِ في المهالِكِ؛ فعُلِمَ أنَّ المشيرَ بها عَدُوٌّ ألَدُّ، ولعلَّ هذا المعنى هو المشارُ إليه بقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾[٣] [يس: ٦٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ عطْفٌ على ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ بإعادةِ (أن) التَّفسيريَّةِ، فهما جُملتانِ مُفسِّرتانِ لِعَهدينِ، وعُدِلَ عن الإتيانِ بصِيغةِ قَصْرٍ؛ لأنَّ في الإتيانِ بهاتَينِ الجُملتينِ زِيادةَ فائدةٍ؛ لأنَّ مِن أهلِ الضَّلالةِ الدَّهريِّينَ والمعطِّلينَ، فهمْ وإنْ لم يَعبُدوا الشَّيطانَ ولكنَّهم لم يَعبُدوا اللهَ، فكانوا خائِسينَ بالعهدِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٧، ٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٤٨).

- قولُه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ في قولِه: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي﴾[(١)].

- و﴿صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ أي: صِراطٌ بَليغٌ في بابِه، بليغٌ في استِقامتِه، جامعٌ لكلِّ شَرطٍ يجِبُ أنْ يكونَ عليه، وفي هذا تَوبيخٌ للكافرينَ مِن بني آدَمَ على العُدولِ عن الصِّراطِ المستقيمِ، والتَّفادي عن سُلوكِه، كما يَتفادَى النَّاسُ عن الطَّريقِ المُعْوَجِّ الَّذي يُؤدِّي إلى الضَّلالةِ والتَّهْلُكةِ، كأنَّه قِيل: أقَلُّ أحوالِ الطَّريقِ الَّذي هو أقْوَمُ الطُّرقِ: أنْ يُعتقَدَ فيه كما يُعتقَدُ في الطَّريقِ الَّذي لا يُضِلُّ السَّالكَ، كما يقولُ الرَّجلُ لِولَدِه وقد نصَحَه النُّصحَ البالغَ الَّذي ليس بعْدَه: هذا فيما أظَنُّ قولٌ نافعٌ غيرُ ضارٍّ؛ تَوبيخًا له على الإعراضِ عن نَصائحِه[(٢)].

- وأيضًا تَنوينُ ﴿صِرَٰطٌ﴾ وتَنكيرُه؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ والمبالَغةِ، أو للتَّبعيضِ؛ فإنَّ التَّوحيدَ سُلوكُ بعضِ الطَّريقِ المستقيمِ، وفيه إيجازٌ يُشيرُ إلى ما عُهِدَ إليهم مِن مَعصيةِ الشَّيطانِ وطاعةِ الرَّحمنِ؛ إذ لا صِراطَ أقْوَمُ منه[(٣)].

- وتَقديمُ النَّهيِ على الأمْرِ في قولِه: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۞ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾؛ لأنَّ حقَّ التَّخليةِ التَّقديمُ على التَّحليةِ كما هو مُقرَّرٌ، ولِيَتَّصِلَ به قولُه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾؛ فإنَّه إشارةٌ إلى عِبادتِه تعالى الَّتي هي عبارةٌ عن التَّوحيدِ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣، ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٩).

والإسلامِ، وهو المشارُ إليه بقولِه تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾[١] [الحجر: ٤١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًا﴾ رُجوعٌ إلى بَيانِ مُعاداةِ الشَّيطانِ، مع ظُهورِ عَداوتِه، ووُضوحِ إضلالِه لِمَن له أدْنَى عقْلٍ ورأْيٍ[٢].

- وهو جَوابُ قَسَمٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ استِئنافٌ مَسوقٌ لِتَشديدِ التَّوبيخِ، وتأْكيدِ التَّقريعِ؛ ببَيانِ أنَّ جِناياتِهم ليستْ بنَقْضِ العهْدِ فقطْ، بلْ به وبعَدَمِ الاتِّعاظِ بما شاهَدوا مِن العُقوباتِ النَّازلةِ على الأُمَمِ الخاليةِ بسَببِ طاعتِهم للشَّيطانِ؛ فالخِطابُ لِمُتأخِّريهم الَّذين مِن جُملتِهم كُفَّارُ مكَّةَ، خُصُّوا بزِيادةِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ لِتَضاعُفِ جِناياتِهم[٣]. أو عطْفٌ على ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾؛ فعَداوتُه واضحةٌ بدَليلِ التَّجرِبةِ، فكانت عِلَّةً للنَّهيِ عن عِبادةِ ما يأْمُرُهم بعِبادتِهم[٤].

- والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ للعطفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيه المقامُ، أي: أكنتُم تُشاهِدونَ آثارَ عُقوباتِهم، فلمْ تَكونوا تَعقِلون أنَّها لِضَلالِهم؟ أو فلَمْ تَكونُوا تَعقِلون شيئًا أصلًا حتَّى تَرْتدِعُوا عمَّا كانُوا عليه؛ كَيْلَا يَحيقَ بكمُ العِقابُ[٥]؟

- وأيضًا قولُه: ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ تَوبيخٌ للكافرينَ والمنكِرينَ، والاستفهامُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٦).

إنكاريٌّ عن عَدمِ كَونِهم يَعقِلون، أي: يُدرِكونَ؛ إذ لو كانوا يَعقِلون لَتَفَطَّنوا إلى إيقاعِ الشَّيطانِ بهم في مَهاوي الهلاكِ، وزِيادةُ فِعلِ الكونِ ﴿تَكُونُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ العقْلَ لم يَتكوَّنْ فيهم، ولا همْ كائنونَ به[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِمُجابَهتِهم بالمصيرِ الهائلِ الَّذي يَصِيرون اليه، بعْدَ أنْ بلَغَ الغايةَ في تَوبيخِهم وتَقريعِهم، وإلْزامِهم وتَبكيتِهم[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾

- الأمْرُ بقولِه: ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ مُستعمَلٌ في الإهانةِ والتَّنكيلِ، وإطلاقُ الصَّلْيِ على الإحراقِ: تَهكُّمٌ[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ تَعريفُ العهْدِ، أي: هذا اليومَ الحاضرَ، وأُريدَ به جوابُ ما كانوا يَقولون في الحياةِ الدُّنيا مِن استبطاءِ الوعدِ والتَّكذيبِ؛ إذ يَقولونَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، والباءُ في ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ سَببيَّةٌ، أي: بسَببِ كُفرِكم في الدُّنيا[٤].

٧- قولُه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ هذه الآيةُ خاتمةٌ لِبَيانِ أحوالِ المَعادِ، وهي كالتَّخلُّصِ إلى ذِكرِ أحوالِ المكذِّبينَ مِن قَومِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَقريعِهم وتَوبيخِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩).

وهو قولُه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾[١].

- وفي ذِكرِ لفظِ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ تَنويهٌ بذِكْرِه بحُصولِ هذا الحالِ العجيبِ فيه، وهو انتقالُ النُّطقِ مِن مَوضعِه المعتادِ إلى الأيدي والأرجُلِ[٢].

- وضَمائرُ الغَيبةِ في (أفواهِهم- أيديهمْ- أرجُلُهم- يَكسِبون) عائدةٌ على الَّذين خُوطِبوا بقولِه: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [يس: ٦٣] على طَريقةِ الالتِفاتِ؛ للإيذانِ بأنَّ ذِكرَ أحوالِهم القَبيحةِ استَدْعَى أنْ يُعرِضَ عنهم، ويَحكيَ أحوالَهم الفظيعةَ لِغَيرِهم، مع ما فيه مِن الإيماءِ إلى أنَّ ذلك مِن مُقتضياتِ الختْمِ؛ لأنَّ الخِطابَ لِتَلقِّي الجوابِ، وقد انقطَعَ بالكُلِّيَّةِ. ومواجهتُهم بهذا الإعلامِ تأْييسٌ لهم بأنَّهم لا يَنفَعُهم إنكارُ ما اطَّلَعوا عليه مِن صَحائفِ أعمالِهم[٣].

- قولُه: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ...﴾ سمَّى نُطقَ اليدِ كلامًا، ونُطقَ الرِّجْلِ شَهادةً؛ لأنَّ الغالبَ في اليدِ كَونُها فاعلةً، وفي الرِّجْلِ كَونُها حاضرةً، وقولُ الفاعلِ على نفْسِه إقرارٌ لا شَهادةٌ، وقولُ الحاضرِ على غيرِه شَهادةٌ[٤]. فاليدُ تُخبرُ عمَّا فَعَلَتْ، والرِّجْلُ تُخبرُ عمَّا فَعَلَ غيرُها؛ لأنَّ الأصلَ في المباشَرةِ اليدُ؛ ولهذا دائمًا يُعلَّقُ الكَسبُ باليَدِ، فيُقالُ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، أو ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]؛ فلهذا كانت الأيدي مُباشِرةً، والأرجُلُ شاهِدةً؛ لأنَّ الشَّاهِدَ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٨٤، ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٤).

هو الَّذي يُخبِرُ عمَّا فَعَلَ غيرُه، والفاعِلَ هو الَّذي يُخبِرُ عمَّا فَعَلَه هو بنَفْسِه[١].

وقيل: في قَولِه تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ احتِباكٌ[٢]؛ أثبَتَ الكلامَ للأيدي أوَّلًا؛ لأنَّها كانت مُباشِرةً؛ دليلًا على حَذفِه مِن حَيِّزِ الأرجُلِ ثانيًا، وأثبَتَ الشَّهادةَ للأرجُلِ ثانيًا؛ لأنَّها كانت حاضِرةً؛ دليلًا على حَذفِها مِن حَيِّزِ الأيدي أوَّلًا، وبقرينةِ أنَّ قَولَ المباشِرِ إقرارٌ، وقَولَ الحاضِرِ شَهادةٌ[٣].

- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ لَفتُ القَولِ إلى الغَيبةِ؛ إيذانًا بالإعراضِ لِتناهي الغَضَبِ[٤].

- وطُوِيَ في قولِه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم ...﴾ ما ورَدَ تفَصيلُه في آيٍ أُخَرَ؛ فقدْ قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ * ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٢، ٢٣]، وقال: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩]؛ وإنَّما طُوِيَ ذِكرُ الدَّاعي إلى خِطابِهم بهذا الكلامِ؛ لأنَّه لم يَتعلَّقْ به غرَضٌ هنا، فاقتُصِرَ على المقصودِ[٥].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ * وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٢) سبق تعريفه (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٠).

- قولُه: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ ... ﴾ ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ ... ﴾ ليس مَساقُ الشَّرطيَّتين لِمُجرَّدِ بَيانِ قُدرتِه تعالى على ما ذُكِرَ مِن عُقوبةِ الطَّمسِ والمسخِ، بلْ لِبَيانِ أنَّهم بما همْ عليه مِن الكُفرِ، ونقْضِ العهدِ، وعَدَمِ الاتِّعاظِ بما شاهَدوا مِن آثارِ دَمارِ أمثالِهم؛ أحِقَّاءُ بأنْ يُفعَلَ بهم في الدُّنيا تلكَ العُقوبةُ كما فُعِلَ بهم في الآخرةِ عُقوبةُ الختْمِ، وأنَّ المانعَ مِن ذلك ليس إلَّا عدَمُ تَعلُّقِ المشيئةِ الإلهيَّةِ به، كأنَّه قِيل: لو نَشاءُ عُقوبتَهم بما ذُكِرَ مِن الطَّمْسِ والمسخِ جَرْيًا على مُوجَبِ جِناياتِهم المستدعيةِ لها، لَفعَلْناها، ولكنَّا لم نَشأْها؛ جَرْيًا على سَنَنِ الرَّحمةِ والحكمةِ الدَّاعيتَينِ إلى إمهالِهم[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ ﴾ إيثارُ صِيغةِ الاستِقبالِ، وإنْ كان المعنى على المُضِيِّ؛ لإفادةِ أنَّ عَدَمَ الطَّمسِ على أعيُنِهم لاستِمرارِ عَدَمِ المشيئةِ[٢]، وليُتوقَّعَ في كلِّ حينٍ؛ فيَكونَ أبلَغَ في التَّهديدِ[٣].

- وجِيءَ بحَرْفِ الاستعلاءِ (على)؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ الطَّمْسِ، وإلَّا فإنْ (طمَسَ) يَتعدَّى بنَفْسِه[٤].

- قولُه: ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ الاستِباقُ: افتِعالٌ مِن السَّبقِ، والافتعالُ دالٌّ على التَّكلُّفِ والاجتهادِ في الفِعلِ، أي: فبادَرُوا[٥].

- وكذلك قولُه: ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ لا يَخلو مِن أنْ يكونَ على حذْفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٥٢).

الجارِّ وإيصالِ الفِعلِ، والأصلُ: (فاستَبقوا إلى الصِّراطِ)، أو يُضمَّنَ معنى (ابتَدَروا)، أي: ابتَدَروا الصِّراطَ مُتسابقينَ، أي: مُسرعينَ لِمَا دَهَمَهم؛ رَجاءَ أنْ يَصِلوا إلى بُيوتِهم قبْلَ أنْ يَهلِكوا فلم يُبصِروا الطَّريقَ(١).

- قولُه: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ (أنَّى) استِفهامٌ بمعنى (كيف)، وهو مُستعمَلٌ في الإنكارِ، أي: لا يُبصِرون وقد طُمِسَت أعيُنُهم، أي: لو شِئنا لَعجَّلْنا لهمْ عُقوبةً في الدُّنيا يَرتدِعون بها، فيُقْلِعوا عن إشراكِهم(٢).

- وقَدَّم الطَّمسَ والإعماءَ على المَسخِ والإعجازِ؛ لِيَكونَ الكلامُ مُدرَجًا، كأنَّه قال: إنْ أعماهم لم يَرَوا الطَّريقَ الَّذي هم عليه، وحينَئذٍ لا يَهتَدونَ إليه، ثمَّ ارتقى وقال: فلو مسَخَهم وسَلَب قُوَّتَهم بالكُلِّيَّةِ؛ لا يَهتَدونَ إلى الصِّراطِ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ؛ لأنَّه قد يُقالُ: إنَّ الأعمَى قد يَهتدي إلى الطَّريقِ بأماراتٍ عَقليَّةٍ أو حِسِّيَّةٍ غيرِ حِسِّ البَصَرِ؛ كالأصواتِ، والمشيِ بحِسِّ اللَّمسِ(٣).

- قولُه: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: مَكانِهم، إلَّا أنَّ المكانةَ أخَصُّ، فالمقصودُ مَكانُهم ومَنزِلُهم الَّذي همْ فيه قُعودٌ(٤).

- قولُه: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ كان مُقْتضى المقابَلةِ أنْ يُقالَ: ولا رُجوعًا، ولكنْ عُدِلَ إلى ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾؛ لِرعايةِ الفاصلةِ؛ فجُعِل قولُه: ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ معطوفًا على جُملة ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ وليس عطفًا على ﴿مُضِيًّا﴾؛ لأنَّ فِعلَ (استطاع) لا يَنصِبُ الجُمَلَ، والتَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٧)، ((تفسير روح البيان)) (٧/ ٣٣٤).

فما مَضَوْا ولا رَجَعُوا، فجَعَلْنا لهم العذابَ في الدُّنيا قبْلَ عذابِ الآخِرَةِ، وأَرَحْنا منهم المؤمنينَ، وتَركْناهم عِبرةً ومَوعِظةً لِمَن بعدَهم. وقيل: عُطِفَ قولُه: ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ على جُملة الشَّرطِ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ...﴾، أي: لا يَتجدَّدُ لهم بوجهٍ مِن الوجوهِ رُجوعٌ إلى حالتِهم الَّتي كانتْ قبْلَ المَسخِ؛ دَلالةً على أنَّ هذه الأمورَ حَقٌّ، لا كما يقولونَ مِن أنَّها خيالٌ وسِحرٌ، بل ثباتُها لا يُمكِنُ أحدًا مِن الخَلْقِ رفْعُه، ولا تغييرُه بنوعِ تغييرٍ، ولو قيل: (ولا رُجوعًا) لم يُفِدْ هذا المعنى النَّفيسَ[(١)].

- وقدَّم سُبحانَه المُضيَّ على الرُّجوعِ؛ لأنَّ الرُّجوعَ أهوَنُ مِن المُضيِّ؛ لأنَّ المُضيَّ لا يُنبِئُ عن سُلوكِ الطَّريقِ مِن قَبْلُ، وأمَّا الرُّجوعُ فيُنبِئُ عنه، ولا شَكَّ أنَّ سُلوكَ طَريقٍ قد رُئِيَ مرَّةً أهونُ مِن سلوكِ طريقٍ لم يُرَ؛ فقال: «لا يَستطيعونَ مُضيًّا ولا أقَلَّ مِن ذلك»، وهو الرُّجوعُ الَّذي هو أهونُ مِن المُضيِّ[(٢)]!

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢، ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٤).

الآيات (٦٨-٧٠)

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۗ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُّعَمِّرْهُ﴾: أي: نَمُدَّ له في عُمُرِه، وأصلُ (عمر): يدُلُّ على بقاءٍ وامتدادِ زَمانٍ[1].

﴿نُنَكِّسْهُ﴾: أي: نَرُدَّه إلى مِثلِ حالِه في الصِّغَرِ، وأصلُ (نكس): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ[2].

﴿وَيَحِقَّ﴾: أي: ويَجِبَ، وأصلُ (حَقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ الإنسانِ عندَما يتقدَّمُ به العُمُر: ومَن نُطِلْ في عُمُرِه نَرُدَّه إلى مِثلِ حالِه في صِغَرِه، فنَجعَلْه ضَعيفًا بعدَ أنْ كان قَويًّا؛ أفلا يَعقِلونَ أنَّ مَن قَدَر على ذلك قادِرٌ أيضًا على بَعثِه بعدَ مَوتِه؟!

ثمَّ يَرُدُّ سبحانَه على الكافرينَ الَّذين وصَفوا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّه شاعِرٌ، فيقولُ: وما عَلَّمْنا محمَّدًا الشِّعرَ، وما يَنبغي له أن يكونَ شاعِرًا؛ فما القُرآنُ إلَّا ذِكرٌ وقرآنٌ واضِحٌ للنَّاسِ؛ لِيُنذِرَ الرَّسولُ بالقُرآنِ مَن كان حيَّ القَلبِ، ولِيَحِقَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٦٧).

العذابُ على الكافِرينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى الطَّمْسَ والمسْخَ على تَقديرِ المُشَبَّهِ؛ ذكَرَ تعالى دليلًا على باهِرِ قُدرتِه في تَنكيسِ المُعَمَّرِ، وأنَّ ذلك لا يَفعَلُه إلَّا هو تعالى[1].

وأيضًا لَمَّا قَرَّر قَطْعَ الأعذارِ بسَبقِ الإنذارِ وأتَمَّه؛ شَرَع في قَطعِ عُذرٍ آخَرَ، وهو أنَّ الكافِرَ يقولُ: لم يكُنْ لُبثُنا في الدُّنيا إلَّا يَسيرًا، ولو عمَّرْتَنا لَمَا وجَدْتَ مِنَّا تقصيرًا؛ فقال اللهُ تعالى: أفلا تَعقِلونَ أنَّكم كلَّما دخَلْتُم في السِّنِّ ضَعُفتُم، وقد عَمَّرْناكم مِقدارَ ما تتمَكَّنونَ مِن البَحثِ والإدراكِ؟! كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، ثمَّ إنَّكم عَلِمتُم أنَّ الزَّمانَ كُلَّما يَعبُرُ عليكم يَزدادُ ضَعفُكم؛ فضَيَّعتُم زمانَ الإمكانِ، فلو عَمَّرْناكم أكثَرَ مِن ذلك لَكان بعدَه زمانُ الإزمانِ، ومَن لم يأتِ بالواجِبِ زَمانَ الإمكانِ، ما كان يأتي به زمانَ الإزمانِ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٤).

قال ابنُ عاشورٍ بعدَ أن استبعَد ما ذكَره المفسِّرون في وجهِ اتِّصالِ هذه الآيةِ بما قبْلَها، قال: (والوجهُ عندي أنَّ لِكَونِ جملةِ ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾ عَطفًا على جُملةِ: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ [يس: ٦٧]، فهي جملةٌ شَرطيَّةٌ عُطِفَت على جملةٍ شَرطيَّةٍ؛ فالمعطوفُ عليها جملةُ شَرطٍ امتناعيٍّ، والمعطوفةُ جملةُ شَرطٍ تعليقيٍّ، والجملةُ الأولى أفادت إمهالَهم والإملاءَ لهم، والجملةُ المعطوفةُ أفادت إنذارَهم بعاقبةٍ غيرِ محمودةٍ، ووعيدَهم بحُلولِها بهم، أي: إنْ كنَّا لم نمسَخْهم ولم نَطمِسْ على عُيونِهم، فقد أبقَيْناهم لِيَكونوا مَغلوبينَ أذِلَّةً؛ فمعنى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾ مَن نُعَمِّرْه منهم. فالتَّعميرُ بمعنى الإبقاءِ، أي: مَن نُبقيه منهم ولا نَستأصِلُه منهم، =

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾.

أي: ومَن نَمُدَّ له في عُمُرِه نَرُدَّه إلى مِثلِ حالِه في صِغَرِه؛ ضَعيفًا في جَسَدِه وعَقلِه(١).

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

أي: أفلا يَعقِلونَ قُدرةَ اللهِ في تَصريفِ خَلقِه كما يَشاءُ، ومِن ذلك قُدرتُه على بَعثِهم(٢)؟!

= أي: مِنَ المُشركينَ، فجعَلَه بينَ الأُمَمِ ذليلًا، فالتَّعميرُ المرادُ هنا كالتَّعميرِ الَّذي في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، بأنَّ معناها: ألم نُبقِكم مُدَّةً مِن الحياةِ تكفي المتأمِّلَ؟ وهو المقدَّرُ بقَولِه: ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، وليس المرادُ مِن التَّعميرِ فيها طُولَ الحياةِ وإدراكَ الهَرَمِ، كالَّذي في قَولِهم: فلانٌ مِن المعَمَّرينَ؛ فإنَّ ذلك لم يقَعْ بجميعِ أهلِ النَّارِ الَّذين خُوطِبوا بقَولِه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾، وقد طُوِيَت في الكلامِ جملةٌ تقديرُها: ولو نَشاءُ لأَهلَكْناهم، يدُلُّ عليها قَولُه: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾، أي: نُبْقِه حيًّا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٩).

قال ابن كثير: (المرادُ مِن هذا -واللهُ أعلَمُ- الإخبارُ عن هذه الدَّارِ بأنَّها دارُ زَوالٍ وانتقالٍ، لا دارُ دَوامٍ واستقرارٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٨).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير =

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ الله تعالى الوحدانيَّةَ في قولِه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠]، وفي قولِه: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦١]، وذكر الحشرَ في قولِه تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾ [يس: ٦٤]، وفي قولِه: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥] إلى غيرِ ذلك، فلَمَّا ذكر هذينِ الأصْلَينِ وبَيَّنَهما؛ ذكر الأصلَ الثَّالثَ، وهو الرِّسالةُ، فقال[(١)]:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.

أي: وما عَلَّمْنا محمَّدًا -صلَّى الله عليه وسلَّم- الشِّعرَ، وما يَنبغي له أن يكونَ شاعِرًا؛ فنَظْمُ الشِّعرِ مُمتنِعٌ عليه[(٢)].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

= القرطبي)) (١٥/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٨، ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٧، ٥٨).

قال ابنُ عطية: (الضَّميرُ في ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾ عائدٌ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، قولًا واحِدًا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٢).

وقال أيضًا: (والضميرُ في ﴿لَهُۥٓ﴾ يحتملُ أن يعودَ على محمَّدٍ، ويحتملُ أن يعودَ على القرآنِ، وإن كان لم يُذكرْ لدَلالةِ المجاوَرةِ عليه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٢).

وعلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿لَهُۥٓ﴾ عائدٌ إلى القرآنِ، فالمعنى: وما يَنبغي للقرآنِ أنْ يكونَ شِعْرًا. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٦).

أي: ما القُرآنُ[(١)] إلَّا ذِكرٌ للنَّاسِ[(٢)]، وقرآنٌ واضِحٌ مُظهِرٌ للحَقِّ، مُوضِّحٌ للنَّاسِ كُلَّ ما يَحتاجون إلى بيانِه[(٣)].

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧].

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

---

(١) ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه ﴿هُوَ﴾ المرادُ به القرآنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّي، وابنُ الجوزي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٩٣).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ على المعلَّم، أي: ما هذا الَّذي عَلَّمْناه، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾. وممَّن اختاره: ابنُ كثير، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١١١).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٠).

(٢) قيل: معنى ﴿ذِكْرٌ﴾ أي: تَذكِرةٌ. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والسمعاني، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

وقيل: المعنى: شَرَفٌ ومَوعِظةٌ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦٧)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٦٣).

وقيل: الذِّكرُ الَّذي وُصِفَ به القرآنُ يَتضمَّنُ عِدَّةَ مَعانٍ؛ هي: العِظةُ والتَّذكُّرُ، وأنَّه ذِكرٌ يُذكَرُ به اللهُ تعالى، وأنَّه رفعةٌ وشرَفٌ لِمَن يقومُ ويَعملُ به. قاله ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٤٧-٢٥٣).

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾.

أي: لِيُنذِرَ الرَّسولُ بالقُرآنِ مَن كان حيَّ القَلبِ، يَفهَمُ ويَعقِلُ آياتِ اللهِ، ويَنتفِعُ بها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: ولِيَحِقَّ العَذابُ على الكافِرينَ باللهِ، المُعرِضينَ عن القُرآنِ بعدَ أن قامت به حُجَّةُ اللهِ عليهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦٨، ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

قال السعدي: (﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: حَيَّ القلبِ واعيَه، فهو الَّذي يَزْكو على هذا القُرآنِ، وهو الَّذي يَزدادُ مِن العِلمِ منه والعَمَلِ، ويكونُ القرآنُ لقَلبِه بمنزلةِ المطرِ للأرضِ الطَّيِّبةِ الزَّاكيةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

قال الشنقيطي: (المرادُ بالقولِ... هو قولُه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، كما دَلَّتْ على ذلك آياتٌ مِنْ كتابِ اللَّهِ تعالَى؛ كقولِه تعالَى في آخرِ سورةِ «هُودٍ»: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]، وقولِه تعالَى في «السَّجدةِ»: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]. وقولِه تعالَى في أُخرياتِ «ص»: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٧).

كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يَغتنِمَ فُرَصَ العُمُرِ، وقُوَّتَه وشبابَه قبْلَ أنْ يُنَكَّسَ في الخَلقِ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ الحَثُّ على التَّعقُّلِ والتَّفكُّرِ وحُسنِ التصَرُّفِ؛ حتَّى يكونَ الإنسانُ مِن العُقَلاءِ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه سُبحانَه خَصَّ الشِّعرَ بنَفيِ التَّعليمِ مع أنَّ الكُفَّارَ كانوا يَنسُبونَ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم أشياءَ مِن جُملتِها السِّحرُ، ولم يَقُلْ: «وما عَلَّمْناه السِّحرَ»، وكذلك كانوا يَنسُبونَه إلى الكِهانةِ، ولم يَقُلْ: «وما علَّمْناه الكِهانةَ»؟

الجواب: أمَّا الكِهانةُ فكانوا يَنسُبونَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم إليها عندَما كان يُخبِرُ عن الغُيوبِ، ويكونُ كما يقولُ. وأمَّا السِّحرُ فكانوا يَنسُبونَه إليه عندَما كان يَفعَلُ ما لا يَقدِرُ عليه الغَيرُ؛ كشَقِّ القَمَرِ، وتكَلُّمِ الحَصى، وحنينِ الجِذْعِ وغيرِ ذلك. وأمَّا الشِّعرُ فكانوا يَنسُبونَه إليه عندَما كان يَتلو القُرآنَ عليهم، لكِنَّه صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم ما كان يَتحدَّى إلَّا بالقُرآنِ، كما قال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] إلى غيرِ ذلك، ولم يَقُلْ: «إنْ كُنتُم في شَكٍّ مِن رِسالتي، فأنطِقوا الجُذوعَ، أو أشبِعوا الخَلْقَ العَظيمَ، أو أخبِروا بالغُيوبِ»، فلمَّا كان تحدِّيه صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بالكَلامِ، وكانوا يَنسُبونَه إلى الشِّعرِ عندَ الكلامِ؛ خَصَّ الشِّعرَ بنَفيِ التَّعليمِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ سُؤالٌ عمَّا ورد عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الرَّجَزِ، نحوُ قَولِه:

((أنا النَّبيُّ لا كَذِبْ ... أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ))[٢]

وقولِه:

((هل أنتِ إلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ ... وفي سَبيلِ اللهِ ما لَقِيتِ))[٣]

الجوابُ: أنَّ هذا ليس بشِعرٍ عندَ الخليلِ، أو أنَّ الموزونَ بوزنِ الشِّعرِ وإن لم يكُنْ رَجَزًا: ليس بشِعرٍ عند أحدٍ؛ إذ الشِّعرُ قَولٌ مَوزونٌ مُقفًّى مقصودٌ به الشِّعرُ، والقَصدُ مُنتَفٍ فيما رُوِيَ مِن ذلك[٤]، فذلك ليس بشِعرٍ؛ لعدَمِ قَصدِه إلى الوزنِ والقافيةِ، وعلى هذا لو صدرَ مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم كلامٌ كثيرٌ موزونٌ مُقفًّى، لا يكونُ شِعرًا؛ لعدَمِ قَصدِه اللَّفظَ قَصدًا أوَّليًّا، ويؤيِّدُ ما ذكَرْنا أنَّك إذا تتبَّعتَ كلامَ النَّاسِ في الأسواقِ تجدُ فيه ما يكونُ موزونًا واقِعًا في بحرٍ مِن بحورِ الشِّعرِ، ولا يُسمَّى المتكَلِّمُ به شاعِرًا، ولا الكلامُ شِعرًا؛ لِفَقدِ القَصدِ إلى اللَّفظِ أوَّلًا. ثمَّ قَولُه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ يحقِّقُ ذلك المعنى، أي: هو

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) من حديثِ البَراءِ بنِ عازِبٍ رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦) من حديثِ جُندَبِ بنِ عبدِ الله بنِ سُفْيانَ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٥).

ذِكرٌ ومَوعِظةٌ؛ للقَصدِ إلى المعنى، والشِّعرُ لَفظٌ مُزَخرَفٌ بالقافيةِ والوزنِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أنَّه كُلَّما تَمَسَّكَ المسلمون بهذا الكتابِ العزيزِ فإنَّهم يَزدادون عِزَّةً وشَرَفًا؛ لأنَّ المُعَلَّقَ على وصْفٍ يَقْوَى بقوةِ ذلك الوصفِ، ويَضْعُفُ بضَعْفِ ذلك الوصفِ[٢]، وذلك على قولٍ في معنى الذِّكرِ.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ إثباتُ العِلَّةِ والحِكمةِ؛ تُؤخَذُ مِن لامِ التَّعليلِ[٣].

٥- إنَّ النَّاسَ انقَسَموا في هذه الدَّعوةِ إلى قِسمَينِ: قِسمٌ قَبِلَها واطمأَنَّ إليها؛ فهو حَيٌّ؛ وقسمٌ على العكسِ مِن ذلك، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لِيَتبيَّنَ أنَّ المرادَ بالحياةِ هنا حياةُ القَلبِ، وحياةُ الإيمانِ، لا الحياةُ الجَسَديَّةُ؛ لأنَّ مُقابَلةَ الشَّيءِ بالشَّيءِ تُفيدُ مَعناه. ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ ليس حياةَ جِسمٍ، لو كانت حياةَ جِسمٍ لَقال: ويَحِقَّ القَولُ على الموتى، ولكِنْ قال: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ وبهذا عرَفْنا أنَّ كُلَّ حياةٍ في مِثلِ هذا السِّياقِ فالمرادُ بها حياةُ القَلبِ، لا حياةُ الجِسمِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنَّ القُرآنَ الكريمَ حُجَّةٌ على الكافِرينَ؛ لأنَّه لن يَحِقَّ عليهم القَولُ إلَّا بعدَ أنْ تَقومَ عليهم الحُجَّةُ، ويكونَ كُفرُهم عن عِنادٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٥). ويُنظر أيضًا: ((البيان والتبين)) للجاحظ (١/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٥٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لاستِعراضِ حالِ الإنسانِ؛ كيف يَستحيلُ إلى ضَعفٍ بعدَ قُوَّةٍ، وإلى نَقصٍ بعدَ تَمامٍ[١]!

- وفُرِّعَ على الجُمَلِ الشَّرطيَّةِ الثَّلاثِ -﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ ﴾ و﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ و﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾- وما تَفرَّعَ عليها: قولُه: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾، استِئنافًا إنكاريًّا لِعَدمِ تأمُّلِهم في عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى الدَّالَّةِ على أنَّه لو شاء لَطَمَسَ على أعيُنِهم، ولو شاء لَمَسَخَهم على مَكانتِهم، وأنَّه إنْ لم يَفعَلْ ذلك فإنَّهم لا يَسْلَمون مِن نَصْرِه المُسلمينَ عليهم؛ لأنَّهم لو قاسوا مَقدوراتِ اللهِ تعالى المُشاهَدةَ لهم، لَعَلِموا أنَّ قُدرتَه على مَسْخِهم فما دونَه مِن إنزالِ مَكروهٍ بهم أيسَرُ مِن قُدْرتِه على إيجادِ المخلوقاتِ العَظيمةِ المُتْقَنةِ، وأنَّه لا حائلَ بيْن تَعلُّقِ قُدرتِه بمَسخِهم إلَّا عدَمُ إرادتِه ذلك لِحكمةٍ عَلِمَها؛ فإنَّ القُدرةَ إنَّما تَتعلَّقُ بالمقدوراتِ على وَفْقِ الإرادةِ[٢].

- قولُه: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ تَنبيهٌ على التَّفكيرِ، وتَوبيخٌ لِمَا لو عَسى أنْ يُنكِرَ مُنكِرٌ أنَّه تعالى كيف يَختِمُ على الأفواهِ يومَ القيامةِ لِتَتكلَّمَ الأيدي، وتَشهَدَ الأرجُلُ[٣].

- وقرَأَ نافعٌ، وابنُ ذَكْوانَ عن ابنِ عامرٍ، وأبو جعفرٍ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بتاءِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٨٢).

الخِطابِ، وهو خِطابٌ للَّذين وُجِّهَ إليهم قولُه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦] الآيةَ، وقرَأَ الباقونَ بياءِ الغَيبةِ[١]؛ لأنَّ تلك الجُمَلَ الشَّرطيَّةَ لا تَخْلو مِن مُواجَهةٍ بالتَّعريضِ للمُتحدَّثِ عنهم، فكانوا أحرياءَ أنْ يَعقِلوا مَغْزاها، ويَتفهَّموا مَعناها[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾

- هذه الآيةُ تَرجِعُ إلى ما تَضمَّنَه قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس: ٤٦]؛ فالمرادُ بالآياتِ آياتُ القرآنِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، فإعراضُهم عن القُرآنِ له أحوالٌ شَتَّى: بعضُها بعَدمِ الامتثالِ لِمَا يأْمُرُهم به مِن الخَيرِ مع الاستهزاءِ بالمسلمينَ، وبعضُها بالتَّكذيبِ لِمَا يُنذِرُهم به مِن الجزاءِ، ومِن إعراضِهم عنه: طَعْنُهم في آياتِ القرآنِ بأقوالٍ شتَّى؛ منها قولُهم: (هو قولُ شاعرٍ)، فلمَّا تَصدَّى القرآنُ لإبطالِ تَكذيبِهم بوَعيدٍ بالجزاءِ يومَ الحشرِ بما تَعاقَبَ مِن الكلامِ على ذلك، عاد هنا إلى طَعنِهم في ألْفاظِ القرآنِ مِن قَولِهم: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]؛ فقَولُهم: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ يَقْتضي لا مَحالةَ أنَّهم يقولونَ: القرآنُ شِعرٌ. فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨]، عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، والغرَضِ على الغرَضِ. ويجوزُ أنْ تكونَ مُستأْنَفةً استِئنافًا ابتدائيًّا، ويكونَ الواوُ للاستئنافِ؛ ولذلك اقتُصِرَ على تَنزيهِ القرآنِ عن أنْ يَكونَ شِعرًا، والنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن أنْ يكونَ شاعرًا دونَ التَّعرُّضِ لِتَنزيهِه عن أنْ يكونَ ساحرًا، أو أنْ يكونَ مَجنونًا؛ لأنَّ الغرَضَ

(١) يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٥).

الرَّدُّ على إعراضِهم عن القُرآنِ؛ فإنَّه لَمَّا قصَدَ إبطالَ مَقالاتٍ لهم في القرآنِ قال في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1] [الحاقة: ٤١، ٤٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ...﴾ بُنِيَ الرَّدُّ عليهم على طَريقةِ الكِنايةِ بنَفْيِ تَعليمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الشِّعرَ؛ لِمَا في ذلك مِن إفادةِ أنَّ القرآنَ مُعلَّمٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قِبَلِ اللهِ تعالى، وأنَّه ليس بشِعرٍ، وأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس بشاعرٍ، وانتصَبَ الشِّعرُ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لفِعلِ ﴿عَلَّمْنَاهُ﴾؛ فتَقديرُ المعنى: نحن علَّمْناهُ القرآنَ وما علَّمناهُ الشِّعرَ؛ فالقرآنُ مُوحًى إليه بتَعليمٍ مِن اللهِ، والَّذي أَوحَى به إليه ليس بشِعرٍ، وإذَنْ فالمعنى: أنَّ القرآنَ ليس مِن الشِّعرِ في شَيءٍ؛ فكانتْ هاتِه الجُملةُ ردًّا على قولِهم: هو شاعرٌ، على طَريقةِ الكِنايةِ؛ لأنَّها انتقالٌ مِن اللَّازمِ إلى الملزومِ، ودلَّ على أنَّ هذا هو المقصودُ مِن قولِه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ قولُه عَقِبَه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾، أي: ليس الَّذي علَّمناهُ إيَّاه إلَّا ذِكرًا وقُرآنًا، وما هو بشِعرٍ[2].

- وجُملةُ ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ الجُملتَينِ المتعاطفتَينِ، قُصِدَ منها إتْباعُ نفْيِ أنْ يكونَ القرآنُ المُوحَى به للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شِعرًا بنَفْيِ أنْ يكونَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شاعرًا فيما يَقولُه مِن غيرِ ما أُوحِيَ به إليه[3].

- وجُملةُ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ نَفْيَ الشِّعرِ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٥، ٥٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٦، ٥٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٢).

القُرآنِ يُثيرُ سُؤالَ مُتطلِّبٍ يقولُ: فما هو هذا الَّذي أُوحِيَ به إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ فكان قولُه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ جوابًا لِطِلْبَتِه[١].

- وجِيءَ بصِيغةِ القَصرِ (إنْ ... إلَّا) المُفيدةِ قصْرَ الوحيِ على الاتِّصافِ بالكَونِ ذِكرًا وقُرآنًا قَصْرَ قلْبٍ[٢]، أي: ليس شِعرًا كما زعَمْتُم؛ فحصَلَ بذلك استِقصاءُ الرَّدِّ عليهم، وتَأكيدُ قولِه: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾[٣].

- والذِّكرُ: مَصدرٌ وُصِفَ به الكتابُ المنزَّلُ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَصفًا للمُبالَغةِ، أي: إنْ هو إلَّا مُذكِّرٌ للنَّاسِ بما نَسُوه أو جَهِلوه[٤]، على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ حُذِفَ المعمولُ؛ لِيَدُلَّ على أنَّه مُبينٌ لجَميعِ الحَقِّ بأدِلَّتِه التَّفصيليَّةِ والإجماليَّةِ، والباطِلِ وأدِلَّةِ بُطلانِه؛ أنزله اللهُ كذلك على رَسولِه[٥].

٣- قولُه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ يَتعلَّقُ بقولِه: ﴿عَلَّمۡنَٰهُ﴾ باعتبارِ ما اتَّصَلَ به مِن نَفْيِ كَونِه شِعرًا، ثمَّ إثباتِ كَونِه ذِكرًا وقُرآنًا، أي: لأنَّ جُملةَ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ بَيانٌ لِمَا قبْلَها في قُوَّةِ أنْ لو قِيلَ: (وما علَّمناهُ إلَّا ذِكرًا وقُرآنًا مُبينًا؛ لِيُنذِرَ ...)[٦].

- وعلى قراءةِ نافعٍ، وابنِ عامرٍ، وأبي جعفرٍ، ويَعقوبَ: ﴿لِتُنْذِرَ﴾ بتاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٥).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٦).

الخِطابِ[١]؛ فيَكونُ فيه التِفاتٌ مِن ضَميرِ الغَيبةِ في قولِه: ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾ إلى ضَميرِ الخِطابِ[٢].

- قولُه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ هذا تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: مَن كان مِثلَ الحيِّ في الفَهمِ، والمقصودُ منه التَّعريضُ بالمعرِضينَ عن دَلائلِ القرآنِ بأنَّهم كالأمواتِ لا انتفاعَ لهم بعُقولِهم[٣]؛ فقولُه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: عاقِلًا مُتأمِّلًا؛ فإنَّ الغافلَ بمَنزلةِ المَيتِ، أو مُؤمنًا في عِلمِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ الحياةَ الأبديَّةَ بالإيمانِ. وتَخصيصُ الإنذارِ به؛ لأنَّه المنتفِعُ به[٤].

- وفي قَولِه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ احتِباكٌ؛ حيثُ حُذِفَ الإيمانُ أوَّلًا؛ لِمَا دَلَّ عليه مِن ضِدِّه ثانيًا، وحُذِفَ الموتُ ثانيًا؛ لِما دَلَّ عليه مِن ضِدِّه أوَّلًا[٥].

- وفي ذِكْرِ الإنذارِ عَودٌ إلى ما ابتُدِئَتْ به السُّورةُ مِن قولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦] -فهو كرَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ، وبذلك تمَّ مَجالُ الاستِدلالِ عليهم وإبطالِ شُبَهِهم- وتخلُّصٌ إلى الامتنانِ الآتي في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١] إلى قولِه: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[٦] [يس: ٧٣].

---

(١) يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٧).

- قَولُه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أفردَ الضَّميرَ هنا على اللَّفظِ؛ إشارةً إلى قِلَّةِ السُّعَداءِ، وجَمَع في الثَّاني ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ على المعنى؛ إعلامًا بكَثرةِ الأشقياءِ[1].

- وقولُه: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: المُصِرِّينَ على الكُفرِ، وجعَلَ الكافرينَ في مُقابَلةِ مَن كان حيًّا؛ إشعارًا بأنَّهم لِكُفْرِهم وسُقوطِ حُجَّتِهم وعَدمِ تأمُّلِهم أمواتٌ في الحقيقةِ؛ لأنَّ الغافلَ كالمَيتِ[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨).

الآيات (٧١-٧٦)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَنْعَـٰمًا﴾: أي: بَهائِمَ مِن إبلٍ وبقَرٍ وغَنَمٍ، وأصلُ (نعم): يدُلُّ على ترفُّهٍ، وطِيبِ عَيشٍ؛ لِما فيه مِن الخَيرِ والنِّعمةِ[1].

﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا﴾: أي: سَخَّرْناها، وأصلُ (ذلل): يدُلُّ على خُضوعٍ[2].

﴿رَكُوبُهُمْ﴾: أي: ما يَرْكَبون، والرُّكوبُ -بالضمِّ-: هو الفِعلُ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذكِّرًا المشركينَ ببعضِ النِّعمِ الَّتي أسبَغها عليهم: أوَلم يَرَ أولئك المُشرِكونَ أنَّا خلَقْنا لهم أنعامًا كثيرةً مِن الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، فهم يَتصَرَّفون فيها تصَرُّفَ المالِكِ في مِلكِه؟ وسَخَّرْناها لهم فلا تَمتنِعُ منهم في رُكوبِها ولا ذَبحِها

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٦٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤).

للأكلِ، ولهم فيها مَنافِعُ أُخرى ومَشارِبُ، فيَشرَبون مِن ألبانِها؛ أفلا يَشكُرونَ اللهَ على تلك النِّعَمِ؟! فلم يُقابِلوا نِعَمَنا عليهم بالشُّكرِ، وإنَّما قابَلوها بالجُحودِ والبَطَرِ؛ فقد ترَكوا عبادتَنا، واتَّخَذوا مِن دونِنا آلهةً؛ رَجاءَ نُصرتِها لهم!

لا تستطيعُ آلهتُهم هذه نَصْرَهم والحالُ أنَّ هؤلاء المشركين جندٌ مُحضَرونَ لهذه الآلهةِ، فكيف تَنصُرُهم وهي لا تَنصُرُ نَفْسَها؟!

ثمَّ يُسلِّي الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: فلا يَحزُنْك قَولُهم وخَوْضُهم في شأنِك -يا محمَّدُ- وكُفرُهم باللهِ وتكذيبُهم؛ إنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَه وما يُعلِنونَه، وسنُجازيهم عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنِ انْقَضَى إبطالُ مَعاقِدِ شِركِ المشركينَ؛ أخَذَ الكلامُ يَتطرَّقُ غرَضَ تَذكيرِهم بنِعَمِ اللهِ تعالى عليهم، وكيف قابَلوها بكُفرانِ النِّعمةِ، وأعْرَضوا عن شُكرِ المنعِمِ وعِبادتِه[1].

وأيضًا فهي عَطفٌ على قَولِه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [يس: ٣١]، فذاك استِعطافٌ إلى توحيدِه بالتَّحذيرِ مِن النِّقَمِ، وهذا بالتَّذكيرِ بالنِّعَمِ[2].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

أي: أوَلم يَرَ المُشرِكونَ أنَّا خلَقْنا لهم أنعامًا مِن الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، فهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٢).

يتصَرَّفونَ فيها كيف شاؤوا[١]؟!

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ٧٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المِلْكُ لا يَستلزِمُ الطَّواعيَةَ؛ قال تعالى[٢]:

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ٧٢﴾.

أي: وسَخَّرْنا هذه الأنعامَ مِن الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَم، وجعَلْناها مَقهورةً مُنقادةً لهم، فلا تمتَنِعُ منهم؛ فمنها ما يركَبونَ -كالإبِلِ، يُسافِرونَ عليها-، ويأكُلونَ مِن لحومِها[٣].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩، ٨٠].

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٧٣﴾.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾.

أي: ولهم في الأنعامِ مَنافِعُ كَثيرةٌ؛ فيَتَّخِذونَ منها لِباسًا وأثاثًا مِن أصوافِها وأوبارِها وأشعارِها، ويَنتَفِعونَ بنَسْلِها ورُكوبِها، والحَملِ عليها والحِراثةِ بها، والتَّغذِّي منها والتَّزيُّنِ بها، وبَيْعِها... وغيرِ ذلك مِن المنافِعِ، ولهم فيها أيضًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٥، ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧١).

مَشارِبُ، فيَشرَبونَ مِن أنواعِ ألبانِها[١].

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت هذه الأشياءُ مِن العَظَمةِ بمكانٍ -لو فقَدَها الإنسانُ لتكدَّرَت مَعيشتُه- سَبَّب عن ذلك استِئنافَ الإنكارِ عليهم في تخَلُّفِهم عن طاعتِه، بقَولِه[٢]:

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

أي: أفلا يَشكُرونَ اللهَ على تلك النِّعَمِ العَظيمةِ، فيَعبُدوه وحْدَه ويُطيعوه[٣]؟

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ٧٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَّرَهم نِعَمَه، وحذَّرَهم نِقَمَه؛ عجَّب منهم في سُفولِ نَظَرِهم، وقُبحِ أثَرِهم، فقال مُوَبِّخًا ومُقَرِّعًا، ومُبَكِّتًا ومُعَجِّبًا مِن زيادةِ ضَلالِهم[٤]:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ٧٤﴾.

أي: مع كُلِّ هذه الآياتِ والنِّعَمِ الإلهيَّةِ اتَّخذَ المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ مَعبوداتٍ؛ رَجاءَ نُصرتِها لهم[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير =

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: لا تَستطيعُ آلهةُ المُشرِكينَ نَصْرَ عابِديها، والحالُ أنَّ هؤلاء المشركينَ جُندٌ مُحضَرونَ لهذه الآلهةِ[1]؛ .....

= (٦/ ٥٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٠، ٧١).

(١) ممَّن اختار المعنى المذكورَ، وهو أنَّ المُشركين في الدُّنيا جُندٌ مُحضَرون لآلهتِهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والقرطبي، وابنُ جُزَي، وابنُ القيم، والبِقاعي، والشوكاني، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٤، ٤٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٨٣، ٢٨٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٧٣).

قال القرطبي: (قال الحسَنُ: يَمْنعونَ منهم، ويَدْفَعونَ عنهم. وقال قَتادةُ: أي: يَغضبونَ لهم في الدُّنيا. وقيل: المعنَى أنَّهم يَعبُدونَ الآلهةَ ويَقومونَ بها، فهم لها بمنزلةِ الجُندِ، وهي لا تستطيعُ أنْ تَنصُرَهم. وهذه الأقوالُ الثَّلاثةُ مُتقاربةُ المعنَى). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٧).

وقيل: الضَّميرُ الأوَّلُ (هم) للأصنامِ، والثاني ﴿لَهُمْ﴾ للكُفَّارِ، أي: يُحضَرونَ لهم في الآخرةِ عندَ الحسابِ، على جِهةِ التَّوبيخِ والنِّقمةِ. وممَّن اختاره: أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٤).

قال ابنُ عاشور: (ضَميرُ ﴿وَهُمْ﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى ﴿ءَالِهَةً﴾ تبعًا لضميرِ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾. وضَميرُ ﴿لَهُمْ﴾ للمُشرِكين، أي: والأصنامُ للمُشرِكين جندٌ مُحضَرون، والجندُ: العدَدُ الكثيرُ. والمُحضَرُ: الَّذي جيءَ به لِيَحضُرَ مَشهدًا. والمعنى: أنَّهم لا يَستطيعون النَّصرَ مع حضورِهم في موقِفِ المُشركينَ لمُشاهَدةِ تعذيبِهم، ومع كَونِهم عددًا كثيرًا، ولا يَقدِرونَ على نصرِ المتمسِّكينَ بهم، أي: هم عاجِزون عن ذلك، وهذا تأييسٌ للمُشركين مِن نفْعِ أصنامِهم. ويجوزُ العكسُ، أي: والمُشركون جُندٌ لأصنامِهم، مُحضَرون لخِدمتِها. ويجوزُ أن يكونَ هذا إخبارًا عن حالِهم =

فكيف تَنصُرُهم وهي لا تَنصُرُ نَفْسَها[١]؟!

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَما رَدَّ على الكافرينَ قولَهم بأنَّ النَّبيَّ شاعرٌ؛ أتَى بقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ تَسليةً للنَّبيِّ صَلواتُ اللهِ عليه، يعني: لك التَّأسِّي بربِّك؛ فإنَّه تعالى أراهم تلك الآياتِ الباهرةَ، وأَولاهم تلك النِّعَمَ المُتظاهِرةَ، وعَلِموا أنَّه المتفرِّدُ بها، ومع ذلك كابَروا وعانَدوا واتَّخذوا مِن دُونِه آلهةً أشْرَكوها به في العبادةِ؛ فإذا كان كذلك ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾؛ لأنَّا مُجازوهم على تَكذيبِهم إيَّاك، وإشراكِهم بي[٢].

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾.

أي: فلا يَحزُنْك -يا محمَّدُ- قولُ هؤلاءِ المُشرِكينَ لك: إنَّك شاعِرٌ، ومجنونٌ، وكاهِنٌ -إلى غيرِ ذلك ممَّا يَقْدَحون به في نُبوَّتِك-، ولا كُفْرُهم باللهِ وباليَومِ الآخِرِ، وتكذيبُهم بآياتِ اللهِ[٣]!

= مع أصنامِهم في الدُّنيا وفي الآخرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧١). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٤، ٤٨٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٨٣، ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان عِلمُ القادِرِ بما يَعمَلُ عَدُوُّه سببًا لأخْذِه؛ علَّل ذلك بقَولِه، مُهَدِّدًا بمَظهرِ العَظَمةِ[1]:

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

أي: إنَّا نَعلَمُ جميعَ ما يُسِرُّه المُشرِكونَ، ونَعلَمُ جميعَ ما يُعلِنونَه، وسنُجازيهم على جميعِ ذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وُجوبُ شُكْرِ اللهِ تعالى على هذه النِّعَمِ؛ ووجْهُه: أنَّه وَبَّخَ مَن لم يَشكُرْ، ولا توبيخَ إلَّا على فِعلِ مُحَرَّمٍ أو تَركِ واجبٍ، وشُكرُ المُنعِمِ كما دَلَّ عليه الشَّرعُ فقد دَلَّ عليه العَقلُ؛ فإنَّ كُلَّ إنسانٍ مَدينٌ لِمَن أنعَمَ عليه أنْ يَشكُرَه بحَسَبِ ما تقتَضيه الحالُ؛ ولهذا جاء في الحديثِ الصَّحيحِ[3]: ((مَن صَنَعَ إليكم معروفًا فكافِئوه، فإنْ لم تجِدوا ما تُكافِئونَه فادعُوا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٣) أخرجه أبو داود (١٦٧٢) واللفظ له، والنسائي (٢٥٦٧)، وأحمد (٥٣٦٥) من حديث عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما.

صحَّحه النووي في ((المجموع)) (٦/ ٢٤٥)، وابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٥/ ٢٥٠)-، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٦٧٢)، وصحح إسناده =

له حتَّى تَرَوا أنَّكم كافأتُموه))[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقْنَا لَهُم﴾ أنَّ هذه الأنعامَ مِلكٌ لنا نَنتَفِعُ بها بجَميعِ وُجوهِ الانتفاعاتِ؛ لأنَّها ما دامتْ لنا فنحن فيها أحرارٌ، إلَّا ما قام الدَّليلُ على مَنْعِه، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه يجوزُ أنْ نركَبَ ما لم تَجْرِ العادةُ برُكوبِه، مثلُ: أنْ نركَبَ البقرَ؛ ومِن الفُقَهاءِ مَن قال: يجوزُ الانتِفاعُ بهذه الحيواناتِ في غيرِ ما خُلِقَت له[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ صِحَّةُ نِسبةِ العمَلِ إلى اللهِ، لكنْ لا يُسمَّى اللهُ بالعامِلِ، كما لا يُسمَّى بالصَّانعِ أخذًا مِن قَولِه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ

= العراقي في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٣٠٠)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٧/ ١٩٥)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٥٣٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٢).

أمَّا الحديثُ الَّذي أخرجه البخاري (٣٤٧١) مِن حديث أبي هُريرةَ رضيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((بَيْنا رجُلٌ يَسوقُ بقرةً إذ رَكِبَها فضَرَبَها، فقالت: إنَّا لم نُخْلَقْ لهذا، إنَّما خُلِقْنا للحَرْثِ)) فقد استُدِلَّ به على أنَّ الدَّوابَّ لا تُستعمَلُ إلَّا فيما جرَتِ العادةُ باستِعمالِها فيه. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ١٢٠)، ((المُفْهِم لِما أَشْكَلَ من تلخيص كتاب مسلم)) للقرطبي (٦/ ٢٤٥).

لكن قال ابنُ حجر: (ويحتملُ أن يكونَ قولُها: «إنَّما خُلِقْنا للحَرْثِ» للإشارةِ إلى مُعْظَم ما خُلِقَتْ له، ولم تُرِدِ الحصرَ في ذلك؛ لأنَّه غيرُ مُرادٍ اتفاقًا؛ لأنَّ مِن أجَلِّ ما خُلِقَتْ له أنَّها تُذبَحُ وتُؤكَلُ بالاتِّفاقِ). ((فتح الباري)) (٦/ ٥١٨).

وقال المَرْداوي: (يجوزُ الانتفاعُ بالبهائم في غيرِ ما خُلِقَتْ له؛ كالبقرِ للحملِ أو الرُّكوبِ، والإبلِ والحميرِ للحَرْثِ...؛ لأنَّ مُقتضى المِلْكِ جوازُ الانتفاعِ به فيما يُمْكِنُ، وهذا مُمْكِنٌ كالَّذي خُلِق له وجرَتْ به عادةُ بعضِ النَّاسِ). ((الإنصاف)) (٩/ ٣٠٦).

شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]؛ وذلك لأنَّ بابَ الخَبرِ أوسعُ مِن بابِ الإنشاءِ والتَّسميةِ؛ فيجوزُ أنْ نَشتَقَّ مِن كلِّ اسمٍ صِفةً، ولا يجوزُ أنْ نَشتقَّ مِن كلِّ صفةٍ اسمًا؛ ولهذا نقول: «الصِّفاتُ أوسَعُ مِن الأسماءِ»، أي: بابُ صفاتِ اللهِ أوسَعُ مِن بابِ الأسماءِ؛ لأنَّ كلَّ اسمٍ مُتضَمِّنٌ لصِفةٍ، وليس كلُّ صفةٍ تَتضَمَّنُ اسمًا(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ إثباتُ اليدِ للهِ عزَّ وجلَّ، وهذه اليدُ الَّتي أضافها تعالى إلى نَفْسِه يدٌ حقيقيَّةٌ ثابتةٌ، ولكنْ بدونِ أنْ تكونَ مُماثِلةً لأيدي المخلوقينَ(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابن عثيمين: (إنَّ المرادَ باليدِ هنا نفْسُ الذَّاتِ الَّتي لها يدٌ، وقد قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، أي: بما كسَبوا، سواءٌ كان مِن كسبِ اليدِ أو الرِّجْلِ أو اللِّسانِ أو غيرِها مِن أجزاءِ البدَنِ، لكنْ يُعَبَّرُ بمِثلِ هذا التَّعبيرِ عن الفاعلِ نفْسِه. ولهذا نقولُ: إنَّ الأنعامَ لم يَخلُقْها اللهُ تعالى بيَدِه، وفَرْقٌ بيْنَ قولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، وبيْن قولِه: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]؛ فـ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ كأنَّه قال: ممَّا عَمِلْنا؛ لأنَّ المرادَ باليدِ ذاتُ اللهِ الَّتي لها يدٌ، والمرادُ بـ﴿بِيَدَىَّ﴾: اليَدانِ دونَ الذَّاتِ). ((شرح العقيدة الواسطية)) (١/ ٣٠٢).

ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٧). ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٢٧١).

وقال ابنُ القيِّم أيضًا: (لفظُ اليَدِ جاء في القرآنِ على ثلاثةِ أنواعٍ: مُفردًا، ومُثنًّى، ومجموعًا؛ فالمفردُ كقَولِه: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، والمُثنَّى كقَولِه: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، والمجموعُ كقَولِه: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾؛ فحيث ذَكَر اليَدَ مُثنَّاةً أضاف الفعلَ إلى نفْسِه بضميرِ الإفرادِ، وعَدَّى الفعلَ بالباءِ إليهما، فقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، وحيث ذكَرَها مجموعةً أضاف العمَلَ إليها ولم يُعَدِّ الفعلَ بالباءِ؛ فهذه ثلاثةُ فُروقٍ، فلا يحتمِلُ ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] مِن المجازِ ما يحتَمِلُه ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾؛ فإنَّ كُلَّ أحدٍ يَفهَمُ مِن قَولِه: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ما يَفهَمُه مِن قَولِه: عَمِلْنا وخلَقْنا، كما يُفهَمُ ذلك مِن قَولِه: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]. وأمَّا قولُه: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] فلو كان المرادُ منه مجرَّدَ الفِعلِ لم يكُنْ لذِكرِ اليدِ بعدَ نِسبةِ الفعلِ إلى الفاعلِ معنًى، فكيفَ وقد دخَلتْ عليها الباءُ، فكيفَ إذا ثُنِّيتْ؟! =

٤- إذا قيل: إنَّ لله أكثرَ من يَدَين؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾، فـ﴿أَيْدِينَآ﴾ هنا جَمْعٌ، فلْنَأخُذْ بهذا الجَمْعِ، لأنَّنا إذا أخَذْنا بالجَمعِ أخَذْنا بالمُثَنَّى وزيادة، فما الجوابُ؟

الجواب: أنَّ الله ليس له إلَّا يَدانِ اثنَتانِ، كما ثبتَ ذلك بالكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ.

ففي الكتابِ: قال تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٥٧]، وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

وأمَّا السُّنَّةُ: فإنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: ((يَأخُذُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ سَمواتِه وأرَضِيه بِيَدَيْه))[(١)]، وقال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((كِلْتَا يَدَيْهِ يمينٌ))[(٢)].

وأجمَعَ السَّلفُ على أنَّ لله يدَينِ اثنتَينِ فقط بدونِ زيادةٍ. فيكف نجمعُ بيْن هذا وبيْن قولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾؟!

فنقولُ: الجَمْعُ على أحدِ الوجهَينِ:

فإمَّا أن نقولَ بما ذهب إليه بعضُ العلماءِ مِن أنَّ أقَلَّ الجَمعِ اثنانِ؛ وعليه فـ﴿أَيْدِينَآ﴾ لا تدُلُّ على أكثَرَ مِنِ اثنتَينِ، يعني: لا يَلزَمُ أن تدُلَّ على أكثَرَ مِن اثنَينِ، وحينَئذٍ تُطابِقُ التَّثنيةَ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ولا إشكالَ فيه.

وإمَّا أن نقولَ: إنَّ المرادَ بهذا الجَمعِ التَّعظيمُ، تعظيمُ هذه اليدِ، وليس المرادُ

= وسرُّ الفرقِ أنَّ الفعلَ قد يُضافُ إلى يدِ ذي اليدِ، والمرادُ الإضافةُ إليه، كقولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]. وأمَّا إذا أُضِيف إليه الفعلُ ثمَّ عُدِّيَ بالباءِ إلى يدِه مُفرَدةً أو مُثَنَّاةً فهو ما باشَرتْه يدُه). ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) (١/ ٢٦٨). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٤٥).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

أنَّ لله تعالى أكثَرَ مِن اثنتَين[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ إشارةٌ إلى إتمامِ الإنعامِ في خَلقِ الأنعامِ؛ فإنَّه تعالى لو خلَقَها ولم يُملِّكْها الإنسانَ ما كان ينتفعُ بها[٢]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ بيانُ نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى علينا بتذليلِ هذه الأنعامِ، ولو استعصَتْ علينا ما تَمكَّنَّا مِن الانتِفاعِ بها[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ بيانُ أنَّ أفعالَ المخلوقاتِ مخلوقةٌ للهِ، لكِنَّها مَفعولةٌ للفاعِلِ مُباشَرةً؛ فهي تُنسَبُ لله عزَّ وجلَّ تقديرًا وخَلْقًا، وتُنسَبُ إلى الفاعلِ كَسبًا وعَمَلًا؛ فهذه الإبلُ المُذَلَّلةُ: الَّذي ذَلَّلَها هو اللهُ، إذَنْ أفعالُها صادرةٌ بخَلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهذا هو المذهَبُ الصَّحيحُ في هذه المسألةِ؛ مَسألةِ أفعالِ العبادِ: هل هي مخلوقةٌ للهِ، أو هي للعِبادِ استِقلالًا[٤]؟

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أنَّه يجوزُ تعذيبُ الحيوانِ إذا لم تَتِمَّ المصلحةُ إلَّا به؛ لأنَّ الأكلَ مصلحةٌ؛ ولكنْ لا أكلَ إلَّا بعدَ الذبحِ، والذَّبحُ مِن أعظَمِ ما يكونُ مِن الإيذاءِ، ولأنَّ الشَّرعَ جاء بإباحةِ وَسْمِ البهائمِ بالنَّارِ[٥] مِن أجْلِ حِفْظِ ماليَّتِها، ولأنَّ الشَّرعَ جاء بمشروعيَّةِ إشعارِ الإبلِ والبقرِ في الهَدْيِ لِيُعْلَمَ أنَّها هَدْيٌ، وإشعارُها هو شَقُّ صفحةِ سَنامِها حتَّى يَسيلَ منها الدَّمُ، وعلى

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) لكنَّ ذلك في غيرِ الوجهِ، قال النَّوويُّ: (وأمَّا الوَسْمُ في الوَجهِ فمَنهيٌّ عنه بالإجماعِ؛ للحديثِ ...). ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٩٧).
ويُنظر ما أخرجه مسلم (٢١١٦)، (٢١١٨).

هذا إذا احْتَجْنا إلى تعذيبِ الحيوانِ مِن أجْلِ حِفظِ ماليَّتِه أو غيرِ ذلك، فإنَّه لا بأسَ به، كنَتْفِ مُقَدَّمِ أجنحةِ الحمامِ لئلَّا يطيرَ؛ حتَّى يأْلَفَ المكانَ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَشَارِبُ﴾ حِلُّ ألبانِ هذه البهائم[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قد يُقالُ: إنَّ الفائدةَ مِن التَّعبيرِ بقَولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مع أنَّهم يَألَهونَ اللهَ تعالى ويَألَهونَ الأصنامَ: هي أنَّ الإنسانَ إذا اتَّخَذَ شَريكًا مع اللهِ فإنَّ اللهَ تعالى يَترُكُه وشِرْكَه، وكأنَّه لم يَألَهِ اللهَ تعالى، كما جاء في الحديثِ القُدسيِّ الصَّحيحِ[٣]: أنَّ اللهَ تعالى قال: ((أنا أغْنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ؛ مَن عَمِلَ عَمَلًا أشركَ فيه معي غيري ترَكْتُه وشِرْكَه))[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ صِحَّةُ إطلاقِ الإلهِ على غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولكنْ هل هذه الآلهةُ حقٌّ؟ الجوابُ: لا، هي آلهةٌ باطِلةٌ؛ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، فهي وإنْ سَمَّوها آلهةً، وعَبَدوها كما يَعبُدونَ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ، فإنَّها لن تكونَ آلهةً ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[٥] [النجم: ٢٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ المُبطِلَ لا بُدَّ أنْ يَتعلَّقَ بشَيءٍ يُبرِّرُ به باطِلَه، وهو هنا رَجاءُ النَّصرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ تَذكيرٌ لهم بنِعَمِ اللهِ تعالى عليهم، وكيف قابَلوها بالكُفرانِ، وأعْرَضوا عن شُكرِ المنعِمِ وعِبادتِه، واتَّخذوا لِعِبادتِهم آلهةً؛ زَعمًا بأنَّها تَنفَعُهم وتَدفَعُ عنهم، وأُدمِجَ في ذلك التَّذكيرُ بأنَّ الأنعامَ مَخلوقةٌ بقُدْرةِ اللهِ؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على ما قبْلَها مِن إبطالِ مَعاقِدِ شِركِ المشركينَ عطْفَ الغرَضِ على الغرَضِ[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ استِفهامُ إنكارٍ وتَعجُّبٍ مِن عدَمِ رُؤيةِ الكفَّارِ شواهدَ النِّعمةِ، فإنْ كانتِ الرُّؤيةُ قَلْبيَّةً، كان الإنكارُ جاريًا على مُقْتضَى الظَّاهرِ، وإنْ كانتِ الرُّؤيةُ بَصريَّةً، فالإنكارُ على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ بتَنزيلِ مُشاهَدتِهم تلك المذكوراتِ مَنزلةَ عَدمِ الرُّؤيةِ؛ لِعَدمِ جَرْيِهم على مُقْتضى العِلمِ بتلك المشاهَداتِ الَّذي يَنشَأُ عن رُؤيتِها ورُؤيةِ أحوالِها[٢].

- وفيه تَنبيهٌ بالاستِفهامِ لِقُريشٍ؛ لإعراضِها عن عِبادةِ اللهِ، وعُكوفِها على عِبادةِ الأصنامِ[٣].

- قولُه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي: ممَّا تَولَّيْنا عمَلَه، ولا يُمكِنُ لِغيرِنا أنْ يَعمَلَه، وآثَرَ صِيغةَ التَّعظيمِ والأيدي مَجموعةً؛ لِيَدُلَّ على إبداعِ خلْقٍ عجيبٍ، وإبداعِ صُنعٍ غريبٍ فيه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٩٠).

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ خصَّ في ذلك الأنعامَ بالذِّكرِ؛ لأنَّها كانتْ جُلَّ أموالِهم، ونبَّه على ما يُجعَلُ لهم مِن مِنافعِها[١].

- قولُه: ﴿أَنْعَامًا﴾ مَفعولُ ﴿خَلَقْنَا﴾، وتأْخيرُه عن الجارَّينِ المتعلِّقَينِ به -﴿لَهُم﴾ ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ﴾- مع أنَّ حقَّه التَّقدُّمُ عليهما؛ للاعتِناءِ بالمُقدَّم، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ؛ فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّرَ تَبْقَى النَّفْسُ مُترقِّبةً له، فيَتمكَّنُ عندَ وُرودِه عليها فضْلَ تَمكُّنٍ، لا سيَّما عندَ كَونِ المقدَّم مُنبئًا عن كَونِ المؤخَّرِ أمْرًا نافعًا خطيرًا، كما في النَّظمِ الكريمِ؛ فإنَّ الجارَّ الأوَّلَ المُعرِبَ عن كَونِ المؤخَّرِ مِن مَنافعِهم، والثَّانيَ المُفصِحَ عن كَونِه مِن الأُمورِ الخطيرةِ؛ يَزيدانِ النَّفْسَ شَوقًا إليه ورَغبةً فيه، ولأنَّ في تأْخيرِه جمْعًا بيْنَه وبيْنَ أحكامِه المُتفرِّعةِ عليه بقولِه تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ الآياتِ الثَّلاثَ، أي: فمَلَّكْناها إيَّاهم[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ فُرِّعَ على خلْقِها للناسِ أنَّهم لها مالِكون قادرونَ على استعمالِها فيما يَشاؤون. وهذا إدماجٌ للامتنانِ في أثناءِ التَّذكيرِ[٣].

- وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (فهمْ مالِكوها) إلى قولِه: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾؛ لِيَتأتَّى التَّنكيرُ، فيُفيدَ بتَعظيمِ المالِكينَ للأنعامِ الكِنايةَ عن تَعظيمِ المِلكِ، أي: بكَثرةِ الانتفاعِ، وهو ما أشارَ إليه تَفصيلًا وإجمالًا مِن قولِه تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾، إلى قولِه: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٦٩).

- وجِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾؛ لإفادةِ ثَباتِ هذا المِلكِ ودَوامِه[١].

- واللَّامُ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿مَٰلِكُونَ﴾ مُقوِّيةٌ لِعَمَلِه، أي: فهُم مالِكون لها بتَمليكِنا إيَّاها لهمْ، مُتصَرِّفون فيها بالاستِقلالِ، مُختصُّون بالانتفاعِ بها، لا يُزاحِمُهم في ذلك غيرُهم[٢].

- وأيضًا تَقديمُ ﴿لَهَا﴾ على ﴿مَٰلِكُونَ﴾ الَّذي هو مُتعلَّقُه؛ لِزيادةِ استِحضارِ الأنعامِ عندَ السَّامِعينَ قبْلَ سَماعِ مُتعلَّقِه؛ لِيَقَعَ كِلاهما أمْكَنَ وَقْعٍ بالتَّقديمِ وبالتَّشويقِ، وقَضى بذلك أيضًا رِعايةُ الفاصلةِ[٣].

- وفي خلالِ هذا الامتنانِ إدماجُ شَيءٍ مِن دَلائلِ الانفرادِ بالتَّصرُّفِ في الخلْقِ المبطِلةِ لإشراكِهم إيَّاه غيرَه في العِبادةِ؛ وذلك في قولِه: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا﴾، وقولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، وقولِه: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾، وقولِه: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾؛ لأنَّ معناهُ: أودَعْنا لهمْ في أضْراعِها ألبانًا يَشرَبونها، وفي أبدانِها أوبارًا وأشْعارًا يَنتفِعون بها[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾

- وقولُه: ﴿لَهُمْ﴾ هو مَحلُّ الامتِنانِ، أي: لِأجْلِهم؛ فإنَّ جميعَ المنافعِ الَّتي على الأرضِ خَلَقها اللهُ لِأجْلِ انتفاعِ الإنسانِ بها؛ تَكرِمةً له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٨، ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٧، ٦٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ الفاءُ فيه لِتَفريعِ أحكامِ التَّذليلِ على التَّذليلِ وتَفصيلِها، أي: فبَعضٌ منها رَكوبُهم، أي: مَركوبُهم، أي: مُعظَمُ مَنافِعِها الرُّكوبُ، وعدَمُ التَّعرُّضِ للحمْلِ؛ لِكَونِه مِن تَتِمَّاتِ الرُّكوبِ[١].

- وتَقديمُ المَجرورَينِ بـ (مِن) ﴿فَمِنْهَا﴾ ﴿وَمِنْهَا﴾ على ما حَقُّهما أنْ يَتأخَّرَا عنهما؛ لِزيادةِ استِحضارِ الأنعامِ عندَ السَّامعينَ قبْلَ سَماعِ مُتعلَّقِه؛ لِيَقَعَ كلاهما أمكَنَ وَقْعٍ بالتَّقديمِ وبالتَّشويقِ، وقَضى بذلك أيضًا رِعايةُ الفاصلةِ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ بعْدَ أنْ ذَكَّرَهم بنِعَمِ اللهِ، فرَّعَ على هذا التَّذكيرِ والامتِنانِ قولَه: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ استِفهامًا تَعجُّبيًّا؛ لِتَرْكِهم تَكريرَ الشُّكرِ على هذه النِّعَمِ العِدَّةِ؛ فلذلك جِيءَ بالمُضارِعِ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ المفيدِ للتَّجديدِ والاستِمرارِ؛ لأنَّ تلك النِّعمَ مُتتاليةٌ مُتعاقبةٌ في كلِّ حينٍ، وإذ قد عُجِبَ مِن عَدَمِ تَكريرِهم الشُّكرَ، كانت إفادةُ التَّعجيبِ مِن عدَمِ الشُّكرِ مِن أصْلِه بالفَحوى[٣]؛ ولذلك أعْقَبَه بقولِه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾[٤] [يس: ٧٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ المقصودُ مِن الإخبارِ باتِّخاذِهم آلهةً مِن دُونِ اللهِ: التَّعجُّبُ مِن جَرَيانِهم على خِلافِ حقِّ النِّعمةِ، ثمَّ مُخالَفةِ مُقْتضَى دَليلِ الوَحدانيَّةِ المُدمَجِ في ذِكرِ النِّعَمِ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ أُظهِرَ اسمُ الجلالةِ هنا ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٩).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٩، ٧٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٧٠).

ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾، وأُظهِرَ كذلك في سُورةِ (مَريمَ): ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴾ [مريم: ٨١]، بَيْنَما أُضمِرَ في سُورةِ (الفرقان): ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ الإتيانَ باسمِ الجلالةِ العَلَم دونَ ضَميرٍ في قولِه: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِمَا يُشعِرُ به اسمُه العَلَمُ مِن عَظَمةِ الإلهيَّةِ؛ إيماءً إلى أنَّ اتِّخاذَهم آلهةً مِن دُونِه جَراءةٌ عظيمةٌ؛ لِيَكونَ ذلك تَوطئةً لقولِه بعْدَه: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ [يس: ٧٦]، أي: فإنَّهم قالوا ما هو أشدُّ نُكْرًا، وأمَّا الإضمارُ في قولِه في سُورةِ (الفُرقانِ): ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ فلأنَّه تَقدَّمَ ذِكرُ انفرادِه بالإلهيَّةِ صَريحًا مِن قولِه: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[1] [الفرقان: ٢].

- قولُه: ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ وقَعَتْ (لعلَّ) فيه مَوقعًا غيرَ مأْلوفٍ؛ لأنَّ شأْنَ (لعلَّ) أنْ تُفيدَ إنشاءَ رَجاءِ المتكلِّم بها، وذلك غيرُ مُستقيمٍ هنا، فيَتعيَّنُ: إمَّا أنْ يكونَ شُبِّهَ شأْنُ اللهِ فيما أخبَرَ عنهم بحالِ مَن يَرْجو مِن المخبَرِ عنْهم أنْ يَحصُلَ لهم خبَرُ (لعلَّ)، وذِكرُ حَرْفِ (لعلَّ) رَمزٌ لِرَديفِ المشبَّهِ به؛ فتكون جُملةُ ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ مُعترِضةً بيْن ﴿ءَالِهَةً ﴾ وبيْن صِفَتِه، وهي جُملةُ ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾، وإمَّا أنْ يكونَ الكلامُ جَرَى على معنى الاستِفهامِ، وهو استفهامٌ إنكاريٌّ أو تَهكُّميٌّ، والجُملةُ مُعترِضةٌ أيضًا. وإمَّا أنْ يُجعَلَ الرَّجاءُ مُنصرِفًا إلى رَجاءِ المخبَرِ عنهم، أي: راجينَ أنْ تَنصُرَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٠). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ١٠٨٦).

تلك الآلهةُ، وعلى تَقديرِ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: قائلينَ: لعلَّنا نُنصَرُ، وحُكِيَ ﴿يُنصَرُونَ﴾ بالمعنى على أحَدِ وَجهينِ في حِكايةِ الأقوالِ، تقولُ: قال: أفعَلُ كذا، وقال: يَفعَلُ كذا، وتكون جُملةُ ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ استئنافًا للرَّدِّ عليهم. وإمَّا أنْ تَجعلَ (لعلَّ) للتَّعليلِ؛ فتكونَ جُملةُ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ استئنافًا، والمقصودُ الإشارةُ إلى أنَّ الكُفَّارَ يَزعُمون أنَّ الأصنامَ تَشفَعُ لهم عندَ اللهِ في أُمورِ الدُّنيا، وهمْ سالِكون في هذا الزَّعمِ مَسلَكَ ما يأْلَفونَه مِن الاعتزازِ بالمُوالاةِ والحِلْفِ بيْنَ القبائلِ والانتماءِ إلى قادتِهم، فبِمقدارِ كَثرةِ المَوالي تكونُ عِزَّةُ القبيلةِ، فقاسوا شُؤونَهم مع ربِّهم على شُؤونِهم الجاريةِ بيْنَهم، وقِياسُ أُمورِ الإلهيَّةِ على أحوالِ البَشرِ مِن أعمَقِ مَهاوي الضَّلالةِ[١]!

٥- قولُه تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ استِئنافٌ سِيقَ لِبَيانِ بُطلانِ رأْيِهم، وخَيبةِ رَجائِهم، وانعكاسِ تَدبيرِهم[٢].

- وأُجْرِيَ على الأصنامِ ضَميرُ جمْعِ العُقلاءِ في قولِه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ...﴾؛ لأنَّهم سَمَّوْهم بأسماءِ العُقلاءِ، وزَعَموا لهم إدراكًا[٣].

- قوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: والمشركون جُندٌ لأصنامِهم مُحْضَرون لخِدْمتِها. وقيل: ضَميرُ ﴿لَهُمْ﴾ للمُشركينَ، أي: والأصنامُ للمُشرِكين جُندٌ مُحضَرونَ، وهذا تأْييسٌ للمشركينَ مِن نفْعِ أصنامِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ هذا إخبارًا عن حالِهم مع أصنامِهم في الدُّنيا وفي الآخرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٠، ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ على القولِ بأنَّ الآلهةَ للكُفَّارِ جُندٌ فقد سمَّاهم جُندًا؛ إذ همْ مُعَدَّون للنِّقمةِ مِن عابديهم وللتَّوبيخِ[١].

- وفيه وَعيدٌ بعذابٍ لا يَجِدون منه مَلْجأً[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ لِتَرتيبِ النَّهيِ على ما قبْلَه، وهو عِبارةٌ عن خُسرانِهم، وحِرمانِهم عمَّا عَلَّقوا به أطماعَهم الفارغةَ، وانعكاسِ الأمْرِ عليهم بتَرتيبِ الشَّرِّ على ما رتَّبوه لِرجاءِ الخَيرِ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يُهوِّنُ الخَطْبَ، ويُورِثُ السَّلوةَ[٣].

- والنَّهيُ عن الحُزنِ في قولِه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ نَهْيٌ عن سَببِه؛ وهو اشتِغالُ بالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإعراضِهم عن قَبولِ الدِّينِ الحقِّ، وهو يَستلزِمُ الأمْرَ بالأسبابِ الصَّارفةِ للحُزنِ عن نفْسِه؛ مِن التَّسلِّي بعِنايةِ اللهِ تعالى، وعِقابِه مَن ناوَؤُه وعادَوه، واستِحضارِ صُورةِ حالِه وحالِهم في الآخِرةِ؛ حتَّى يَنقشِعَ عنه الهمُّ، ولا يُرهِقُه الحزنُ، وفي هذا تأْنيسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والنَّهيُ وإنْ كان بحسَبِ الظَّاهرِ مُتوجِّهًا إلى قولِهم، لكنَّه في الحَقيقةِ مُتوجِّهٌ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونَهيٌ له عليه السَّلامُ عن التَّأثُّرِ منه بطَريقِ الكِنايةِ على أبلَغِ وَجهٍ وآكَدِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والإضافةُ في قولِه: ﴿قَوْلُهُمْ﴾ مِن إضافةِ اسمِ الجِنسِ؛ فيَعُمُّ، أي: فلا تَحْزُنْك أقوالُهم في الإشراكِ، وإنكارِ البَعثِ، والتَّكذيبِ، والأذَى للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُؤمنينَ؛ ولذلك حُذِفَ المَقولُ، أي: لا يَحْزُنْك قولُهم الَّذي مِن شأْنِه أنْ يَحْزُنَك[١].

- قولُه: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن الحُزنِ لِقَولِهم[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تَعميمٌ؛ لِجَعْلِ التَّعليلِ تَذييلًا أيضًا[٣].

- وكذلك في قولِه: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كِنايةٌ عن مُؤاخَذتِهم بما يَقولون، أي: إنَّا مُحْصُون عليهم أقوالَهم، وما تُسِرُّه أنفُسُهم ممَّا لا يَجْهَرون به، فنُؤاخِذُهم بذلك كلِّه بما يُكافِئُه مِن عِقابِهم ونَصْرِك عليهم، ونحوِ ذلك[٤]، وفيه مِن التَّهديدِ ما هو ظاهِرٌ؛ فاللهُ تعالى يَعلَمُ ما يُسِرُّونَه وما يُعلِنونَه، وسوف يُجازيهم على ذلك يومَ القيامةِ[٥].

- وتَقديمُ السِّرِّ على العَلَنِ في قولِه: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ إمَّا للمُبالَغةِ في بَيانِ شُمولِ عِلْمِه تعالى لِجَميعِ المعلوماتِ، وفي هذا المعنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٨٨).

لا يَختلِفُ الحالُ بيْن الأشياءِ البارزةِ والكامنةِ. وإمَّا لأنَّ مَرتبةَ السِّرِّ مُتقدِّمةٌ على مَرتبةِ العلَنِ؛ إذ ما مِن شَيءٍ يُعلَنُ إلَّا وهُو أو مَباديهِ مُضمَرٌ في القلْبِ قبْلَ ذلك؛ فتَعلُّقُ عِلْمِه تعالى بحالتِه الأُولى مُتقدِّمٌ على تَعلُّقِه بِحالتهِ الثَّانيةِ حَقيقةً، أو قدَّمَ السِّرَّ للاهتمامِ به[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٣).

الآيات (٧٧-٨٢)

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿نُّطْفَةٍ﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي قَلَّ أو كَثُر، وقيل: الماءُ القليلُ، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[(١)].

﴿خَصِيمٌ﴾: أي: مُخاصِمٌ جَدِلٌ بالباطِلِ، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على المُنازَعةِ[(٢)].

﴿رَمِيمٌ﴾: أي: باليةٌ، وأصلُ (رمم): يدُلُّ على بلاءِ الشَّيءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ٤٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٦).

قال الشنقيطي: (النُّطْفة مختلِطةٌ مِن ماءِ الرَّجلِ وماءِ المرأةِ، خلافًا لِمَنْ زَعَم أنَّها مِن ماءِ الرَّجُلِ وحْدَه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٦). وذكَر الدَّليلَ على ذلك في موضعٍ آخَرَ، فقال: (بدليلِ قولِه تعالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: أخلاطٍ مِن ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤١)، =

﴿مَلَكُوتُ﴾: أي: ملْكُ، أو هو أعظَمُ الملكِ، وهو مختصٌّ بملكِ الله تعالى، والمَلَكوتُ مَصدرٌ مِن المُلْكِ، كالرَّغَبوتِ مِنَ الرَّغبةِ، والرَّهَبوتِ مِن الرَّهبةِ؛ زِيدَتْ فيه الواوُ والتاءُ، وبُنِيَ على (فَعَلُوت)، وهو بِناءُ مُبالَغةٍ؛ وأصلُ (ملك): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ، وصحَّةٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَختِمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ بإقامةِ الأدلَّةِ على كمالِ قدرتِه، وعلى أنَّ البعثَ حقٌّ، فيقولُ: أوَلم يَرَ الإنسانُ المكذِّبُ بالبَعثِ أنَّا خلَقْناه مِن مَنيٍّ، فإذا هو بالغُ الخُصومةِ، والجَدلِ بالباطِلِ، مُبينٌ عما يريدُه؟! ولم يَكتَفِ بذلك، بل ضرَبَ لنا مَثَلًا، فأنكَر قُدرتَنا على إحياءِ الموتَى، وعلى بَعثِهم يومَ القيامةِ، فقال -دونَ أن يَفطُنَ إلى أصلِ خِلقتِه-: مَن يُحيي العِظامَ وهي باليةٌ؟!

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالرَّدِّ عليه، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهذا المُنكِرِ للبَعثِ: يُحييها اللهُ تعالى الَّذي أوجَدَها مِن العدَمِ أوَّلَ مَرَّةٍ، وهو عليمٌ بخَلقِه، وهو الَّذي جعَلَ لكم مِن الشَّجَرِ الرَّطْبِ الأخضَرِ نارًا مُحرِقةً، فإذا أنتم مِن هذا الشَّجرِ تُوقِدونَ النَّارَ!

أوَلَيس اللهُ الَّذي خلق السَّمَواتِ والأرضَ بقادِرٍ على أن يُعيدَ خَلْقَ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم؟! بلى قادِرٌ سُبحانَه على أن يَبعَثَهم، وهو الكثيرُ الخَلقِ لِما يَشاءُ خَلْقَه،

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

الواسِعُ العِلمِ، فلا يخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه. إنَّما أمرُه تعالى إذا أراد إيجادَ شَيءٍ أن يقولَ له: كُنْ، فإذا هو كائِنٌ في الحالِ.

ثمَّ يختِمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ بتنزيهِه عن كلِّ نقصٍ، فيقولُ: فتَنَزَّهَ اللهُ الَّذي بيَدِه مُلكُ كُلِّ شَيءٍ، وإليه وَحْدَه تُرجَعونَ بعدَ مَوتِكم، فيُجازيكم على أعمالِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى دليلًا على عِظَمِ قُدرتِه، ووُجوبِ عِبادتِه، بقَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس: ٧١]؛ ذكَرَ دليلًا مِن الأنفُسِ أبْيَنَ مِن الأوَّلِ[١].

وأيضًا لَمَّا أُبطِلَت شُبَهُ المشركينَ في إشراكِهم بعِبادةِ اللهِ، وإحالتِهم قُدرتَه على البَعثِ، وتَكذيبِهم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في إنبائِه بذلك إبطالًا كُلِّيًّا؛ عُطِفَ الكلامُ إلى جانبِ تَسفيهِ أقوالٍ جُزْئيَّةٍ لِزُعماءِ المكذِّبين بالبَعثِ؛ تَوبيخًا لهم على وَقاحَتِهم، وكُفْرِهم بنِعمةِ ربِّهم[٢].

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: أوَلم يَرَ الإنسانُ المكذِّبُ بالبَعثِ أنَّا خلَقْناه مِن مَنِيٍّ، ثمَّ تنقَّل في الأطوارِ شيئًا فشيئًا، حتَّى كَبِرَ، وتمَّ عقلُه، فإذا هو بالِغُ الخُصومةِ، وفي غايةِ البيانِ عَمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٣).

يُريدُه، حتَّى إنَّه لَيُجادِلُ مَن أعطاه العَقلَ والقُدرةَ، مُنكِرًا قُدرتَه على إحيائِه ثانيةً[(١)]؟!

كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٨٩).

وقد ذهب جمهورُ المفَسِّرينَ -كما قال ابنُ الجوزيِّ- إلى أنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا، وفي الآيةِ الَّتي بعدَها: أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ، وصحَّحه ابنُ عطيَّةَ، وذهَبَ سعيدُ بنُ جُبَيرٍ إلى أنَّه العاصِ بنُ وائلٍ. والأوَّلُ أشهَرُ كما قال السَّمْعانيُّ. يُنظر: ((سيرة ابن هشام)) (١/ ٣٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٣).

وقال ابن كثير: (وعلى كُلِّ تقديرٍ -سواءٌ كانت هذه الآياتُ قد نزلت في أُبيِّ بنِ خلفٍ، أو في العاصِ بنِ وائلٍ، أو فيهما- فهي عامَّةٌ في كُلِّ مَن أنكر البَعثَ، والألِفُ واللَّامُ في قَولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ للجِنسِ؛ يعُمُّ كُلَّ مُنكِرٍ للبَعثِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٤).

وقال الشوكاني: (والإنسانُ المذكورُ في الآيةِ المرادُ به جنسُ الإنسانِ، كما في قولِه: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾، ولا وجْهَ لتخصيصِه بإنسانٍ مُعَيَّنٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٩).

وقال الشنقيطي: (قولُه: ﴿مُّبِينٌ﴾ على أنَّه اسمُ فاعلِ «أَبَانَ» المُتعدِّيةِ، والمفعولُ محذوفٌ للتَّعميم، أي: مُبِينٌ كُلَّ ما يُريدُ بيانَه وإظهارَه بلسانِه مِمَّا في ضميرِه؛ وذلك لأنَّ رَبَّه عَلَّمَه البيانَ، وعلى أنَّه صفةٌ مُشَبَّهةٌ مِن «أَبَانَ» اللَّازمةِ، وأنَّ المعنَى ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّنُ الخصومةِ ظاهِرُها؛ فكذلك أيضًا؛ لأنَّه ما كان بَيِّنَ الخُصومةِ إلَّا لأنَّ اللهَ عَلَّمه البيانَ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٩٠).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: ظاهرُ الخصومةِ: السمعاني، وابنُ الجوزي، والعُليمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٩)، ((نفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٠٠).

وقال البِقاعي: (بَيِّنُ القدرةِ على الخِصامِ، وموضحٌ لِما يُريدُه غايةَ الإيضاحِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ١٠٧).

ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧].

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: ومثَّلَ الكافِرُ بشَيءٍ يُريدُ به إنكارَ البَعثِ، ونَسِيَ[1] ابتِداءَ خَلقِ اللهِ له مِن نُطفةٍ -فمَن قَدَر على ذلك فهو قادِرٌ على بَعثِه-؛ فقال مُستبعِدًا ذلك: مَن الَّذي يَقدِرُ على إحياءِ عِظامِ الموتى بعدَما بَلِيَت، وصارت ترابًا تَذْرُوه الرِّياحُ، فيَتلاشَى[2]؟!

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهذا المُنكِرِ للبَعثِ: الَّذي يُحيي العِظامَ هو الَّذي خلَقَها أوَّلَ مَرَّةٍ، ولم تكُنْ شَيئًا؛ فالَّذي قدَرَ على ابتِداءِ خَلقِها لن يَعجِزَ عن إعادتِها مرَّةً أُخرى[3]!

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عَليمٌ بجَميعِ خَلقِه[4]، فيَعلَمُ كيف يُحييهم، وكيف يُميتُهم، ويَعلَمُ

---

(١) قال البِقاعي: (النِّسيانُ هنا يحتمِلُ أن يكونَ بمعنى الذُّهولِ، وأن يكونَ بمعنى التَّركِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٨)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٨، ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٢، ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٤، ٢٩٥).

(٤) قال ابن عثيمين: (هل الخَلقُ هنا بمعنى المخلوقِ أو بمعنى الفِعلِ؟... يحتمِلُ الأمْرَينِ، =

أين تفرَّقَت عِظامُهم، وتفتَّت أجسادُهم، لا يخفى عليه شَيءٌ مِن خَلقِه كائنًا ما كان[١].

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾.

أي: الَّذي يُحيي العِظامَ وهي رَميمٌ هو الَّذي خلَقَ بقُدرتِه مِن الشَّجَرِ الرَّطْبِ النَّدِيِّ البارِدِ نارًا يابِسةً مُحرِقةً[٢]!

كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۞ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۞ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة: ٧١ - ٧٣].

= لكِنِ احتِمالُ الفِعلِ أكثَرُ، يعني: كلُّ خَلقٍ فاللهُ عليمٌ به، ومِن المعلومِ أنَّ العالِمَ بالخَلقِ عالمٌ بالمخلوقِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٩).

قيل: المرادُ أنَّ الَّذي قدَرَ على إخراجِ النَّارِ اليابسةِ مِن الشَّجَرِ الأخضَرِ الَّذي هو في غايةِ الرُّطوبةِ، مع تَضادِّهما وشِدَّةِ تخالُفِهما: فهو قادِرٌ على إخراجِ الموتى مِن قبورِهم، وإحيائِهم بعدَ موتِهم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٩)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ١٣٢)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٩، ٣٠٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٩).

وقيل: المرادُ أنَّ الذي بدأ خَلْقَ هذا الشَّجرِ مِن ماءٍ حتَّى صار خَضِرًا نَضرًا ذا ثَمَرٍ ويَنْعٍ، ثمَّ أعاده إلى أن صار حَطبًا يابسًا تُوقَدُ به النَّارُ: كذلك هو فَعَّالٌ لِما يَشاءُ، قادِرٌ على ما يُريدُ، لا يَمْنَعُه شيءٌ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٩٦).

﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

أي: فإذا أنتم مِن هذا الشَّجَرِ تُوقِدونَ النَّارَ[١].

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تبيَّن الاستِدلالُ بخَلقِ أشياءَ على إمكانِ خَلقِ أمثالِها؛ ارتقَى في هذه الآيةِ إلى الاستِدلالِ بخَلقِ مَخلوقاتٍ عَظيمةٍ على إمكانِ خَلقِ ما دُونَها[٢].

وأيضًا بعْدَ أنْ ذكَرَ بَديعَ جَعْلِه مِن الشَّجرِ الأخضَرِ نارًا؛ ذكَرَ ما هو أبدَعُ وأغرَبُ مِن خلْقِ الإنسانِ مِن نُطْفةٍ، ومِن إعادةِ المَوتَى، وهو إنشاءُ هذه المخلوقاتِ العظيمةِ الغريبةِ مِن صِرْفِ العدَمِ إلى الوُجودِ، فقال[٣]:

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾.

أي: أوَليس الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ السَّبْعَ والأرضَ بقادرٍ على أن يُعيدَ خَلْقَ النَّاسِ يَومَ القيامةِ؟ فاللهُ الَّذي لم يَعجِزْ عن خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ -وهي أعظَمُ مِن خَلقِ النَّاسِ- لن يَعجِزَ عن إحياءِ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٠)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٥).

قال الزركشي: (قولُه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يظُنُّ بعضُهم أنَّ معناه: مِثل السَّمواتِ والأرضِ، وهو فاسدٌ؛ لوجهينِ: =

كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: بلى، اللهُ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ قادِرٌ على أن يَبعَثَهم يومَ القيامةِ أحياءً، وهو الكثيرُ الخَلقِ لِما يَشاءُ خَلْقَه، الواسِعُ العِلمِ؛ فلا يَخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه[1].

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

أي: إنَّما أمْرُ اللهِ إذا أراد إيجادَ أيِّ شَيءٍ أن يقولَ له مرَّةً واحِدةً بلا تَكرارٍ: كُنْ، فهو يكونُ في الحالِ كما أراد اللهُ، بلا تأخيرٍ؛ فإعادةُ إحياءِ الموتى أمرٌ هيِّنٌ ويَسيرٌ على اللهِ تعالى[2].

= أحدُهما: أنَّهم ما أنكروا إعادةَ السَّمواتِ والأرضِ حتَّى يَدُلَّ على إنكارِهم إعادَتَهما بابتدائِهما، وإنَّما أنكروا إعادةَ أنفُسِهم، فكان الضَّميرُ راجعًا إليهم؛ لِيَتحَقَّقَ حصولُ الجوابِ لهم، والرَّدُّ عليهم. الثَّاني: لتَبَيُّنِ المرادِ في قولِه: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. فإنْ قِيل: إنَّما أثْبَت قُدرتَه على إعادةِ مِثْلِهم لا على إعادَتِهم أنفُسِهم؛ فلا دَلالةَ فيه عليهم. قُلْنا: المرادُ بمِثْلِهم: هُمْ، كما في قولِه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقولِهم: مِثلي لا يَفعلُ كذا، أي: أنا). ((البرهان في علوم القرآن)) (٤/ ٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٠٢، ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٠)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠).

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

أي: فتَنَزَّهَ اللهُ الَّذي بيَدِه مُلكُ كُلِّ شَيءٍ وخَزائِنُه: عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، وعَجزٍ وجَهلٍ؛ فهو يَتصرَّفُ في كلِّ شَيءٍ كما يَشاءُ[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩].

وقال سُبحانَه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

وعن عَوفِ بنِ مالِكٍ الأشْجَعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قُمْتُ مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليلةً، فقام فقرأَ سورةَ البَقَرةِ، لا يَمُرُّ بآيةِ رَحمةٍ إلَّا وقَفَ فسَألَ، ولا يمُرُّ بآيةِ عذابٍ إلَّا وقَفَ فتعَوَّذَ. قال: ثمَّ ركَعَ بقَدْرِ قيامِه، يقولُ في رُكوعِه: سُبحانَ ذي الجَبَروتِ والمَلَكوتِ، والكِبرياءِ والعَظَمةِ. ثمَّ سجَدَ بقَدرِ قيامِه، ثمَّ قال في سُجودِه مِثلَ ذلك))[2].

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١١٣٢)، وأحمد (٢٣٩٨٠).
صححه النووي في ((المجموع)) (٤/ ٦٧)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٨٧٣)، وحسنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٧٤).

أي: وإلى اللهِ تُرَدُّونَ وتَصيرونَ بعدَ مَوتِكم، فيُجازيكم بأعمالِكم[١].

الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّ الخُصومةَ بالباطِلِ مَذمومةٌ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الآيةَ سِيقَتْ مَساقَ الذَّمِّ لا مَساقَ المَدحِ، أمَّا الخُصومةُ لإثباتِ الحَقِّ وإبطالِ الباطِلِ فإنَّها ممدوحةٌ؛ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٢] [النحل: ١٢٥].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أنَّه ينبغي للمُستدِلِّ المُناظِرِ أنْ يأتيَ بالشَّيءِ الَّذي يُقِرُّ به خَصْمُه؛ مِن أجْلِ أنْ تَقومَ عليه الحُجَّةُ، والخَصمُ هنا لا يُنكِرُ أنَّ اللهَ تعالى أنشَأَها أوَّلَ مَرَّةٍ، وهذا أدبٌ مِن أدَبِ المناظرةِ؛ لأنَّه أقرَبُ إلى الإقناعِ[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ النِّداءُ على الإنسانِ بالظُّلمِ؛ وجْهُ ذلك: كيف يكونُ هذا الَّذي خُلِقَ مِن هذه النُّطفةِ يَبلُغُ به الحَدُّ إلى أن يكونَ خَصيمًا للهِ عزَّ وجلَّ بَيِّنَ الخُصومةِ؟! إنَّ الإنسانَ يجبُ عليه إذا نَظَرَ إلى أصلِه أنْ يَعرِفَ قَدْرَ نَفْسِه، لا أنْ يكونَ مُخاصِمًا لرَبِّه عزَّ وجلَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٠).

٢- إنَّ كُلَّ مَن عارَضَ الوَحيَ بالرَّأيِ والعَقلِ فهو مِن خُصَماءِ اللهِ تعالى؛ لأنَّه قد خاصَمَ اللهَ في الوَحيِ الَّذي أنزَلَه على رَسولِه، واحتَجَّ على بُطلانِه، ويكفي العبدَ خِذلانًا وجَهلًا وعَمًى أن يكونَ خَصْمَ ربِّه تبارك وتعالى؛ ولهذا أخبَرَ تعالى عن هؤلاء المعارِضينَ للكتابِ بعُقولِهم بذلك؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ لطيفةٌ غَريبةٌ، وهي أنَّه تعالى قال: اختِلافُ صُوَرِ أعضائِه مع تَشابُهِ أجزاءِ ما خُلِقَ منه: آيةٌ ظاهِرةٌ، ومع هذا فهنالك ما هو أظهَرُ، وهو نُطقُه وفَهْمُه؛ وذلك لأنَّ النُّطفةَ جِسمٌ، فهَبْ أنَّ جاهِلًا يقولُ: إنَّه استَحالَ وتكَّونَ جِسمًا آخَرَ، لكِنَّ القُوَّةَ النَّاطِقةَ والقُوَّةَ الفاهِمةَ مِن أين تقتَضيهما النُّطفةُ؟! فإبداعُ النُّطقِ والفَهمِ أعجَبُ وأغرَبُ مِن إبداعِ الخَلقِ والجِسمِ، وهو إلى إدراكِ القُدرةِ والاختيارِ منه أقرَبُ؛ فقَولُه: ﴿خَصِيمٌ﴾ أي: ناطِقٌ، وإنَّما ذُكِرَ «الخصيمُ» مكانَ «النَّاطِق»؛ لأنَّه أعلى أحوالِ النَّاطِقِ؛ فإنَّ النَّاطِقَ مع نَفْسِه لا يُبينُ كَلامَه مِثلَ ما يُبينُه وهو يتكَلَّمُ مع غيرِه، والمتكَلِّمُ مع غيرِه إذا لم يكُنْ خَصمًا لا يُبينُ ولا يَجتَهِدُ مِثلَ ما يَجتَهِدُ إذا كان كلامُه مع خَصْمِه، وقَولُه: ﴿مُّبِينٌ﴾ إشارةٌ إلى قُوَّةِ عَقلِه، واختار الإبانةَ؛ لأنَّ العاقِلَ عندَ الإفهامِ أعلى درجةً منه عندَ عَدَمِه؛ لأنَّ المُبينَ بانَ عندَه الشَّيءُ ثمَّ أبانَه؛ فقَولُه تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ إشارةٌ إلى أدنى ما كان عليه، وقَولُه: ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إشارةٌ إلى أعلى ما حَصَل عليه[2].

٤- في هذه الآيةِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٨).

قبَّح اللهُ عزَّ وجَلَّ إنكارَهم البعْثَ تَقبيحًا لا تَرى أعجَبَ منه وأبلَغَ، وأدلَّ على تَمادي كُفْرِ الإنسانِ وإفراطِه في جُحودِ النِّعَمِ وعُقوقِ الأيادي، حيثُ قرَّرَه بأنَّ عُنْصُرَه الَّذي خلَقَه منه هو أخسُّ شَيءٍ وأمْهَنُه، وهو النُّطفةُ المَذِرَةُ الخارجةُ مِن الإحليلِ الَّذي هو قَناةُ النَّجاسةِ، ثمَّ عجَّبَ مِن حالِه بأنْ يَتصدَّى مِثلُه -على مَهانةِ أصْلِه، ودَناءةِ أوَّلِه- لِمُخاصَمةِ الجبَّارِ، ويُبْرِزَ صَفْحتَه لِمُجادَلتِه، ويَرْكَبَ مَتْنَ الباطلِ ويَلَجَّ، ويقولَ: مَن يَقدِرُ على إحياءِ الميِّتِ بعدَ ما رمت عِظامُه، ثمَّ يكونُ خِصامُه في ألْزَمِ وَصفٍ له وألْصَقِه به، وهو كَوْنُه مُنشَأً مِن مَواتٍ، وهو يُنكِرُ إنشاءَه مِن مَواتٍ، وهي المكابَرةُ الَّتي لا مَطمَحَ وَراءَها[1]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ...﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: دَليلٌ على استِعمالِ القياسِ والاعتِبارِ، والتَّعَلُّقِ بطَريقِ الأَولى؛ فإنَّ الابتداءَ أصعَبُ مِن الإعادةِ، والإعادةَ أيسَرُ مِن الابتداءِ، والقادِرُ على الأعظَمِ قادِرٌ على الأهوَنِ الأدوَنِ لا مَحالةَ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أنَّ هذا الجاحِدَ لو ذَكَرَ خَلْقَه لَمَا ضرَبَ المَثَلَ، بل لَمَّا نَسِيَ خَلْقَه ضرَبَ المَثَلَ؛ فتَحْتَ قولِه: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ ألطَفُ جوابٍ، وأبيَنُ دَليلٍ، وهذا كما تقولُ لِمَن جَحَدَك أنْ تكونَ قد أعطَيْتَه شيئًا: فُلانٌ جَحَدَني الإحسانَ إليه، ونَسِيَ الثِّيابَ الَّتي عليه، والمالَ الَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٥٥)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢١٧).

معه، والدَّارَ الَّتي هو فيها؛ حيث لا يُمكِنُه جَحْدُ أنْ يكونَ ذلك منك[١]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾، وقولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، وقولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥] ما يدُلُّ على إنكارِهم لأصلِ يومِ القيامةِ. وفي سورةِ (يونُسَ) قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وهذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّهم يَرجُونَ شَفاعةَ أصنامِهم يومَ القيامةِ؟

الجوابُ: أنَّهم يَرجُونَ شَفاعتَها في الدُّنيا لإصلاحِ معاشِهم، وفي الآخِرةِ -على تقديرِ وُجودِها-؛ لأنَّهم شاكُّونَ فيها، ويدُلُّ له قَولُه تعالى عن الكافِرِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقَولُه: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]؛ لأنَّ «إن» الشَّرطيَّةَ تدُلُّ على الشَّكِّ في حُصولِ الشَّرطِ، ويدُلُّ له قَولُه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ في الآيتَينِ المذكورتينِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بيانُ قوَّةِ الإقناعِ في إقامةِ الحُجَّةِ مِن كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فأقوى ما يَسوقُ الحُجَجَ ويُبيِّنُها هو كلامُ اللهِ؛ لأنَّ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ أبلَغُ الكلامِ وأحسَنُه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]؛ فحديثُ اللهِ عزَّ وجلَّ لا شكَّ أنَّه أصدَقُ الحديثِ وأتَمُّه، وأحسَنُه في الإقناعِ، وإقامةِ الحُجَّةِ[٣].

٩- تعليقُ الإحياءِ بالعظامِ في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٦).

فيه دَلالةٌ على أنَّ عِظامَ الحيِّ تحلُّها الحياةُ -كلَحْمِه ودَمِه-، وليست بمنزلةِ القصبِ والخشبِ؛ ولذلك تَنجسُ عِظامُ الحيوانِ الَّذي مات دونَ ذكاةٍ(١).

١٠- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ فيه بيانُ نعمةِ اللهِ علينا بجَعْلِه مِن الشَّجرِ الأخضرِ نارًا؛ ووجْهُ الدَّلالةِ أنَّه قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم﴾، وقد قَرَّرَ اللهُ هذه النِّعمةَ بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۞ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧١، ٧٢]، ولا أحدَ يُنْكِرُ ما في الطَّاقةِ الحراريَّةِ مِن المنافعِ العظيمةِ للخَلْقِ، فأنواعُها -بل أجناسُها- لا تُحصَى، فضلًا عن أفرادِها(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ دَليلٌ على تمامِ قُدرتِه، وإخراجِ الأمواتِ مِن قُبورِهم، كما أخرَجَ النَّارَ مِن الشَّجَرةِ الخَضراءِ، وفي ذلك جوابٌ عن شُبهةِ مَن قال مِن مُنكِري المعادِ: «الموتُ باردٌ يابسٌ، والحياةُ طَبعُها الرُّطوبةُ والحَرارةُ؛ فإذا حَلَّ الموتُ بالجسمِ لم يمكنْ أنْ تَحُلَّ فيه الحياةُ بعدَ ذلك؛ لِتَضادِّ ما بيْنَهما»! وهذه شبهةٌ تَليقُ بعقولِ المُكَذِّبينَ الَّذين لا سَمْعَ لهم ولا عقْلَ؛ فإنَّ الحياةَ لا تُجامِعُ الموتَ في المَحَلِّ الواحدِ لِيَلزَمَ ما قالوا، بل إذا أوجَدَ اللهُ فيه الحياةَ وطَبْعَها ارتفعَ الموتُ وطَبعُه(٣).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ الاستِدلالُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٦). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٨). والقولُ بنجاسةِ عِظامِ المَيْتةِ هو مذهبُ الجمهورِ: المالكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (١/ ٨٩)، ((المجموع)) للنووي (١/ ٢٣٦)، ((الإنصاف)) للمرداوي (١/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٠).

بالأشَدِّ على الأخَفِّ؛ لأنَّ التَّنافُرَ بيْنَ الرَّطْبِ واليابسِ والحارِّ والباردِ: أعظَمُ مِن أنْ يُعادَ الخَلْقُ، أو تُعادَ العِظامُ بعدَ رَميمِها؛ فالقادِرُ على هذا الشَّيءِ قادِرٌ على إحياءِ الموتى(١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ تقريرُ الشَّيءِ بالواقعِ، فبدَلًا مِن أنْ نُلْقِيَه تَصَوُّرًا في الذِّهنِ؛ نَذْكُرُ واقعَه بالفعلِ، فهو سُبحانَه وتعالى بَيَّنَ أنَّه جَعَلَ لنا مِن الشَّجرِ الأخضرِ نارًا، ثمَّ حَقَّقَ ذلك بذِكْرِ الأمرِ الواقعِ ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي: تُحِسُّونه بواقعِكم، وتَلْمُسُونه بأيديكم(٢).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ جوازُ إجابةِ السَّائلِ نَفْسَه في الأمرِ المُحَقَّقِ المُتقرِّرِ(٣).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كثيرًا ما يَقرِنُ تعالى بيْن خَلقِه وعِلمِه؛ لأنَّ خَلْقَ المخلوقاتِ مِن أقوى الأدِلَّةِ العَقليَّةِ على عِلمِ خالِقِها وحِكمتِه(٤).

١٦- قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه في القُدرةِ كامِلٌ، وفي قَولِه تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ عِلمَه شامِلٌ(٥).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أنَّ القرآنَ غيرُ مخلوقٍ؛ فلو كان «كُنْ» مخلوقةً لَزِمَ ألَّا يُوجَدَ شَيءٌ مِن المخلوقاتِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٩).

لأنَّ «كُنْ» تكونُ مخلوقةً بـ «كُنْ» أُخرى، وهَلُمَّ جرًّا، فلا يُوجَدُ شَيءٌ[١]!

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ إثباتُ القَولِ والكلامِ للهِ، وأنَّه يكونُ بحَرفٍ؛ لِقَولِه: ﴿كُن﴾؛ فإنَّ «كُنْ» كَلِمةٌ مُكَوَّنةٌ مِن حَرفينِ، وفيه أيضًا إثباتُ أنَّه بصوتٍ؛ لِقَولِه: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فهذا الخِطابُ مُوَجَّهٌ لِمَا أرادَه اللهُ، وهو يقتضي أنْ يكونَ هذا المرادُ سامِعًا لهذا القَولِ، ولا سماعَ إلَّا بصَوتٍ، فيكونُ في الآيةِ رَدٌّ على قولِ الأشاعرةِ في كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيث يقولون: إنَّ كلامَ اللهِ هو المعنى القائِمُ بنَفْسِه، وأنَّ ما يُسمَعُ مِن الأصواتِ والحروفِ هو عبارةٌ عن كلامِ الله! ويَرَونَ أنَّ هذا المسموعَ مَخلوقٌ[٢]!

١٩- أنَّ الصِّفةَ قد تكونُ ذاتيَّةً فِعليَّةً باعتبارين، كالكلامِ؛ فإنَّ الكلامَ باعتبارِ أصْلِه صِفةٌ ذاتيَّةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ ولا يَزالُ مُتكَلِّمًا، وباعتبارِ آحادِ الكلامِ صِفةٌ فِعليَّةٌ؛ لأنَّ الكلامَ يَتعلَّقُ بمشيئتِه سُبحانَه؛ يَتكلَّمُ متى شاء بما شاء، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ كلامٌ مُستأْنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ بُطلانِ إنكارِهم البعْثَ بعْدَ ما شاهَدوا في أنفُسِهم أوضَحَ دَلائلِه وأعدَلَ شَواهِدِه، والهمزةُ للإنكارِ والتَّعجُّبِ، والواوُ للعَطفِ عَلى جُملةٍ مُقدَّرةٍ

(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٨٧).

هي مُسْتتبِعةٌ للمَعطوفِ، أي: ألمْ يَتفكَّرِ الإنسانُ ولم يَعلَمْ عِلمًا يَقينيًّا ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ...﴾ إلخ، أو هي عَيْنُ الجُملةِ السَّابقةِ؛ أُعيدتْ تأْكيدًا للنَّكيرِ السَّابقِ، وتَمْهيدًا لإنكارِ ما هو أحقُّ منه بالإنكارِ والتَّعجُّبِ؛ لِمَا أنَّ المنكَرَ هناك عدَمُ عِلْمِهم بما يَتعلَّقُ بخَلْقِ أسبابِ مَعايِشِهم، وهاهنا عدَمُ عِلْمِهم بما يَتعلَّقُ بخَلْقِ أنفُسِهم، ولا رَيْبَ في أنَّ عِلْمَ الإنسانِ بأحوالِ نفْسِه أهَمُّ، وإحاطتَه بها أسهَلُ وأكمَلُ؛ فالإنكارُ والتَّعجُّبُ مِن الإخلالِ بذلك أدخَلُ، كأنَّه قِيل: ألمْ يَعلَمُوا خَلْقَه تعالى لأسبابِ مَعايِشِهم، ولم يَعلَمُوا خَلْقَه تعالى لأنفُسِهم أيضًا، مع كَونِ العِلمِ بذلك في غايةِ الظُّهورِ ونهايةِ الأهمِّيَّةِ؟! على معنَى أنَّ المنكَرَ الأوَّلَ بَعيدٌ قَبيحٌ، والثَّانيَ أبعَدُ وأقبحُ. ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ في ﴿أَوَلَمْ﴾ لِعَطْفِ الجُملةِ الإنكاريَّةِ الثَّانيةِ على الأُولى، على أنَّها مُتقدِّمةٌ في الاعتِبارِ، وأنَّ تَقدُّمَ الهمزةِ عليها لاقتِضائِها الصَّدارةَ في الكلامِ[1].

- وإيرادُ الإنسانِ في ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مَوردَ الضَّميرِ؛ لأنَّ مَدارَ الإنكارِ مُتعلِّقٌ بأحوالِه مِن حيثُ هو إنسانٌ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾[2] [مريم: ٦٧].

- وذِكْرُ النُّطفةِ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ تَمهيدٌ للمُفاجأةِ بكَونِه خَصيمًا مُبينًا عقِبَ خلْقِه، أي: ذلك الهيِّنُ المَنشأ قد أصبَحَ خَصيمًا عَنيدًا، ولِيُبْنَى عليه قولُه بعْدُ: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾، أي: نسِيَ خلْقَه الضَّعيفَ فتَطاوَلَ وجاوَزَ، ولأنَّ خلْقَه مِن النُّطفةِ أعجَبُ مِن إحيائِه وهو عَظْمٌ؛ مُجاراةً لِزَعْمِه في مِقدارِ الإمكانِ، وإنْ كان اللهُ يُحْيي ما هو أضعَفُ مِن العِظامِ، فيُحْيِي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٠).

الإنسانَ مِن رَمادِه، ومِن تُرابِه، ومِن عَجْبِ ذَنَبِه[١]، ومِن لا شَيءَ باقيًا منه[٢].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ عطْفٌ على الجُملةِ المنفيَّةِ، داخِلٌ في حيِّزِ الإنكارِ والتَّعجُّبِ، كأنَّه قِيل: أولمْ يرَ أنَّا خلَقْناهُ مِن أخَسِّ الأشياءِ وأمْهَنِها، ففاجَأَ خُصومَتَنا في أمْرٍ يَشهَدُ بصِحَّتِه وتَحقُّقِه مَبدأُ فِطرتِه شَهادةً بيِّنةً. وإيرادُ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على استِقرارِه في الخُصومةِ، واستمرارِه عليها. وقِيل: معنى قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: فإذا هو بعْدَما كان ماءً مَهينًا رجُلٌ مُميِّزٌ مِنْطِيقٌ قادرٌ على الخِصامِ مُبينٌ، مُعرِبٌ عمَّا في نفْسِه فصيحٌ؛ فهو حينَئذٍ مَعطوفٌ على ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾، غيرُ داخلٍ تحتَ الإنكارِ والتَّعجُّبِ، بلْ هو مِن مُتمِّماتِ شَواهدِ صِحَّةِ البعثِ[٣].

- و(إذا) في قولِه: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ للمُفاجأةِ، ووَجْهُ المُفاجأةِ: أنَّ ذلك الإنسانَ خُلِقَ لِيَعبُدَ اللهَ، ويَعلَمَ ما يَليقُ به، فإذا لمْ يَجْرِ على ذلك فكأنَّه فاجَأَ بما لمْ يكُنْ مُترَقَّبًا منه، مع إفادةِ أنَّ الخُصومةَ في شُؤونِ الإلهيَّةِ كانتْ بما بادَرَ به حين عَقَلَ[٤].

- والخَصيمُ فَعيلٌ؛ مُبالَغةٌ في معنى مُفاعِلٍ، أي: مُخاصِمٌ شَديدُ الخِصامِ، والمرادُ بـ﴿خَصِيمٌ﴾ في تلك الآيةِ: أنَّه شَديدُ الشَّكيمةِ بعْدَ أنْ كان أصْلُه نُطْفةً[٥].

---

(١) عَجْبُ الذَّنَبِ: العَظمُ بيْنَ الألْيَتَينِ الَّذي في أسفَلِ الصُّلْبِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ...﴾ مَعطوفٌ على الجُملةِ المنفيَّةِ، داخلٌ في حيِّزِ الإنكارِ والتَّقبيحِ، أو عطْفٌ على الجُملةِ الفُجائيَّةِ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، والمعنى: ففاجَأَ خُصومتَنا ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾، أي: أوْرَدَ في شأْننا قصَّةً عَجيبةً في نفْسِ الأمْرِ، هي في الغرابةِ والبُعدِ عن العُقولِ كالمَثَلِ، وهي إنكارُ إحيائِنا العِظامَ، أو قِصَّةً عَجيبةً في زَعْمِه، واستَبْعدَها وعَدَّها مِن قَبيلِ المَثَلِ، وأنْكَرَها أشدَّ الإنكارِ، وهي إحياؤُنا إيَّاها؛ فالمَثَلُ على الأوَّلِ هو إنكارُ إحيائِه تعالى للعِظامِ؛ فإنَّه أمْرٌ عَجيبٌ في نفْسِ الأمْرِ، حَقيقٌ لِغَرابتِه وبُعْدِه مِن العقولِ بأنْ يُعَدَّ مثَلًا ضَرورةَ جَزْمِ العقولِ ببُطلانِ الإنكارِ ووُقوعِ المنكَرِ؛ لكَونِه كالإنشاءِ، بلْ أهْوَنُ منه في قياسِ العقلِ، وعلى الثَّاني هو إحياؤُه تعالى لها؛ فإنَّه أمرٌ عَجيبٌ في زَعْمِه قد استَبْعَدَهُ وعَدَّه مِن قَبيلِ المثَلِ، وأنْكَرَه أشدَّ الإنكارِ، مع أنَّه في نفْسِ الأمْرِ أقرَبُ شَيءٍ مِن الوُقوعِ؛ لِكَونِه مِثلَ الإنشاءِ أو أهْوَنَ منه، وأمَّا على الثَّالثِ فلا فرْقَ بيْن أنْ يكون المَثَلُ هو الإنكارَ أو المنكَرَ[1].

وقيل: المَثَلُ: تمثيلُ الحالةِ، فالمعنَى: وأظهَر للنَّاسِ وأتَى لهم بتشبيهِ حالِ قُدرتِنا بحالِ عَجْزِ النَّاسِ؛ إذ أحال إحياءَنا العِظامَ بعدَ أن أرَمَّتْ، فهو كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، أي: لا تُشَبِّهوه بخَلْقِه فتَجعَلوا له شركاءَ؛ لوُقوعِه بعدَ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[2] [النحل: ٧٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٤، ٧٥).

- وقولُه: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ ضَرْبِهِ المثَلَ، كأنَّه قِيل: أيَّ مَثَلٍ ضرَبَ؟ أو ماذا قال؟ فقِيل: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ﴾[1].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ، مُؤكَّدٌ بقولِه: ﴿وَهِيَ رَمِيمٞ﴾، و﴿مَن﴾ عامَّةٌ في كلِّ مَن يُسنَدُ إليه الخبَرُ؛ فالمعنى: لا أحَدَ يُحْيي العِظامَ وهي رَميمٌ، تَعْجيزًا للهِ تعالى، وتَشبيهًا له بخلْقِه في أنَّهم غيرُ مَوصوفينَ بالقُدرةِ عليه؛ فشَمِلَ عُمومُه إنكارَهم أنْ يكونَ اللهُ تعالى مُحْيِيًا للعِظامِ وهي رَميمٌ، أي: في حالِ كَونِها رَميمًا، وهو بَيانٌ لِجُملةِ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا﴾[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بجَوابٍ على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ بحمْلِ استِفهامِ القائلِ على خِلافِ مُرادِه؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ لم يكُنْ قاصِدًا تَطلُّبَ تَعيينِ المُحْيي، وإنَّما أراد الاستِحالةَ، فأُجيبَ جَوابَ مَن هو مُتطلِّبٌ عِلْمًا، فقِيل له: ﴿يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾؛ فلذلك بُنِيَ الجوابُ على فِعلِ الإحياءِ مُسنَدًا للمُحْيي، على أنَّ الجوابَ صالحٌ لأنْ يكونَ إبطالًا للنَّفيِ المرادِ مِن الاستفهامِ الإنكاريِّ، كأنَّه قِيل: بلْ يُحْييها الَّذي أنْشَأَها أوَّلَ مرَّةٍ، ولم يُبْنَ الجوابُ على بَيانِ إمكانِ الإحياءِ، وإنَّما جُعِل بَيانُ الإمكانِ في جَعلِ المُسنَدِ إليه مَوصولًا؛ لِتَدُلَّ الصِّلةُ على الإمكانِ، فيَحصُلَ الغرَضانِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٥).

فالموصولُ هنا إيماءٌ إلى وَجهِ بناءِ الخبَرِ، وهو ﴿يُحْيِيهَا﴾، أي: يُحْيِيها لأنَّه أنْشَأَها أوَّلَ مرَّةٍ، فهو قادرٌ على إنشائِها ثانيَ مرَّةٍ كما أنْشَأَها أوَّلَ مرَّةٍ(١).

- وقَولُه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فيه احتِباكٌ؛ فذِكرُ الإحياءِ أوَّلًا دالٌّ على مِثلِه ثانيًا، والإنشاءِ ثانيًا دالٌّ على مِثلِه أوَّلًا، و ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في الثَّاني دالٌّ على «ثاني مَرَّةٍ» في الأوَّلِ(٢).

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ إمَّا اعتِراضٌ تَذْييليٌّ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ الجوابِ للاستِدلالِ، أو مَعطوفةٌ على الصِّلةِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. والعُدولُ إلى الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عِلْمَه تعالى بما ذُكِرَ أمرٌ مُستمِرٌّ، ليس كإنشائِه للمُنشَآتِ(٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ بدَلٌ مِن ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾ [يس: ٧٩] بدَلًا مُطابِقًا، وإنَّما لم تُعطَفِ الصِّلةُ على الصِّلةِ -فيُكْتفَى بالعطْفِ عن إعادةِ اسمِ الموصولِ-؛ لأنَّ في إعادةِ الموصولِ بَيانًا لِتَفاوُتِهما في كَيفيَّةِ الدَّلالةِ، وتأْكيدًا للأوَّلِ واهتِمامًا بالثَّاني؛ حتَّى تَستشرِفَ نفْسُ السَّامعِ لِتَلقِّي ما يَرِدُ بعْدَه، فيَفطَنَ بما في هذا الخَلْقِ مِن الغَرابةِ؛ إذ هو إيجادُ الضِّدِّ -وهو نِهايةُ الحرارةِ- مِن ضِدِّه، وهو الرُّطوبةُ، وهذا هو وَجْهُ وَصفِ الشَّجرِ بالأخضَرِ؛ إذ ليس المرادُ مِن الأخضَرِ اللَّونَ، وإنَّما المرادُ لازِمُه، وهو الرُّطوبةُ؛ لأنَّ الشَّجرَ أخضَرُ اللَّونِ ما دام حيًّا، فإذا جفَّ وزالَتْ منه الحياةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٥، ٧٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٦).

استحالَ لَونُه إلى الغُبْرةِ؛ فصارتِ الخُضرةُ كِنايةً عن رُطوبةِ النَّبْتِ وحياتِه[١].

- والجارَّانِ ﴿لَكُم﴾ ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ﴾ مُتعلِّقانِ بـ ﴿جَعَلَ﴾، قُدِّمَا على مَفعولِه الصَّريحِ ﴿نَارًا﴾، مع تأْخيرِهما عنه رُتْبةً؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[٢].

- والمُفاجأةُ المُستفادةُ مِن ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾ دالَّةٌ على عَجيبِ إلهامِ اللهِ البشَرَ لاستعمالِ الاقتِداحِ بالشَّجَرِ الأخضَرِ، واهتِدائِهم إلى خاصِّيَّتِه[٣].

- وجِيءَ بالمُسنَدِ فِعلًا مُضارِعًا ﴿تُوقِدُونَ﴾؛ لإفادةِ تكرُّرِ ذلك واستِمرارِه[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُم﴾ استِئنافٌ تَقريريٌّ؛ لِتَحقيقِ مَضمونِ الجوابِ الَّذي أُمِرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُخاطِبَهم به، ويُلزِمَهم الحُجَّةَ. والهَمزةُ في ﴿أَوَلَيۡسَ﴾ للإنكارِ، والواوُ للعطفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ، أي: أليسَ الَّذي أنْشَأَها أوَّلَ مرَّةٍ، وليس الَّذي جعَلَ لهم مِنَ الشَّجرِ الأخضَرِ نارًا، وليس الَّذى خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ مع كِبَرِ جِرْمِهما وعِظَمِ شأْنِهما بقادرٍ...[٥].

- وجِيءَ في هذا الدَّليلِ بطَريقةِ التَّقريرِ الَّذي دَلَّ عليه الاستِفهامُ التَّقريريُّ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨١، ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٦، ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٣٥).

لأنَّ هذا الدَّليلَ -لِوُضوحِه- لا يَسَعُ المُقِرَّ إلَّا الإقرارُ به؛ فإنَّ البَديهةَ قاضيةٌ بأنَّ مَن خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ هو على خلْقِ ناسٍ بعْدَ الموتِ أقدَرُ، وإنَّما وُجِّهَ التَّقريرُ إلى نَفْيِ المُقرَّرِ بثُبوتِه تَوسعةً على المُقرَّرِ إنْ أراد إنكارًا، مع تَحقُّقِ أنَّه لا يَسَعُه الإنكارُ؛ فيَكونُ إقرارُه بعْدَ تَوجيهِ التَّقريرِ إليه على نَفْيِ المقصودِ شاهدًا على أنَّه لا يَستطيعُ إلَّا أنْ يُقِرَّ[١].

- واسمُ الفاعِلِ (قادِر) في قولِه: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ مجرورٌ بالباءِ المَزيدةِ في النَّفيِ؛ لِتأْكيدِه[٢].

- والالتِفاتُ مِن الخِطابِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم﴾ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿مِّثْلَهُم﴾؛ لِمَزيدِ الاحتقارِ والازدراءِ، أي: مِثلَ أولئك البُعداءِ[٣]. وقيل: إيذانًا بأنَّهم صاروا بهذا الجدَلِ أهلًا لغايةِ الغضبِ[٤].

- وعُقِّبَ التَّقريرُ بجَوابٍ عن المُقرَّرِ بكَلمةِ ﴿بَلَىٰ﴾ الَّتي هي لِنَقْضِ النَّفيِ، أي: بلى هو قادرٌ على أنْ يَخلُقَ مِثلَهم، وهو جَوابٌ مِن جِهَتِه تعالى، وتَصريحٌ بما أفادَه الاستِفهامُ الإنكاريُّ مِن تَقريرِ ما بعْدَ النَّفيِ، وإيذانٌ بتَعيُّنِ الجوابِ، نَطَقُوا به أو تَلَعْثَموا فيه مَخافةَ الإلزامِ[٥].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: هو يَخلُقُ خلائقَ كثيرةً، وواسعُ العِلمِ بأحوالِهم ودَقائقِ تَرْتيبِها؛ فالخلَّاقُ مُبالَغةٌ لِكَثرةِ مَخلوقاتِه، فهو سُبحانه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٠١، ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٨).

المبالِغُ في الخلْقِ والعلْمِ كَيْفًا وكمًّا[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ هذه فَذْلَكةُ[٢] الاستِدلالِ، وفَصْلُ المقالِ؛ فلذلك فُصِلَت عمَّا قبْلَها كما تُفصَلُ جُملةُ النَّتيجةِ عن جُملتَيِ القِياسِ؛ فقد نتَجَ ممَّا تَقدَّمَ أنَّه تعالى إذا أراد شيئًا فإنَّه يقولُ له: (كُنْ)، وهو أخصَرُ كَلِمةٍ تُعبِّرُ عن الأمْرِ بالكونِ، أي: الاتِّصافِ بالوُجودِ[٣].

- وقولُه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فيه قصرٌ إضافيٌّ[٤]؛ لِقَلْبِ اعتِقادِهم أنَّه يَحتاجُ إلى جمْعِ مادَّةٍ وتَكييفِها، ومُضِيِّ مُدَّةٍ لإتمامِها، وفي ذلك قَطْعٌ لِمادَّةِ الشُّبهةِ، وهو قِياسُ قُدرةِ اللهِ تعالى على قُدْرةِ الخلْقِ[٥]!

٧- قولُه تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ هذا تَنزيهٌ للهِ ممَّا وصَفَه به المُشرِكون، وتَعجُّبٌ مِن أنْ يَقولوا فيه ما قالوا، وتأْكيدٌ وتَقريرٌ لِمَا سبَقَه[٦].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فَصيحةٌ تدُلُّ على كلامٍ مُقدَّرٍ، أي: إذا ظهَرَ كلُّ ما سَمِعْتُم مِن الدَّلائلِ على عَظيمِ قُدْرةِ اللهِ، وتَفرُّدِه بالإلهيَّةِ، وأنَّه يُعيدُكم بعدَ الموتِ؛ فيَنشَأُ تَنْزيهُه عن أقوالِهم في شأْنِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٩).

(٢) سبق تعريفها (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٩).

(٤) سبق تعريفه (ص: ٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢).

المُفْضيةِ إلى نَقْصِ عَظَمتِه؛ لأنَّ بيَدِه المُلْكَ الأتَمَّ لكلِّ مَوجودٍ[١]. وهذه الفاءُ أيضًا للإشارةِ إلى أنَّ ما فُصِّلَ مِن شُؤونِه تعالى مُوجِبةٌ لِتَنزُّهِه وتَنْزيهِه أكمَلَ إيجابٍ، كما أنَّ وَصْفَه تعالى بالمالكيَّةِ الكُلِّيَّةِ المُطلَقةِ للإشعارِ بأنَّها مُقْتضيةٌ لذلك أتمَّ اقتضاءٍ[٢].

- قولُه: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الملَكُوتُ: مُبالَغةٌ في المُلكِ، كالرَّحَموتِ والرَّهَبوتِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ التَّسبيحِ عَطْفَ الخبَرِ على الإنشاءِ؛ فهو ممَّا شَمِلَته الفاءُ الفصيحةُ، والمعنى: قدِ اتَّضَحَ أنَّكم صائرون إليه، غيرُ خارجينَ مِن قبْضةِ مُلْكِه، وذلك بإعادةِ خلْقِكم بعدَ الموتِ[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ لا إلى غَيرِه، وفيهِ مِن الوَعدِ والوعيدِ ما لا يَخْفى؛ فالخطاب عامٌّ للمؤمنينَ والمشركينَ، وقيل: هو وعيدٌ فقط على أنَّ الخطابَ للمشركينَ لا غير توبيخًا لهم[٥].

- وتَقديمُ (إلَيْه) على ﴿تُرۡجَعُونَ﴾؛ للاهتِمامِ ورِعايةِ الفاصلةِ؛ لأنَّهم لم يَكونوا يَزعُمون أنَّ ثمَّةَ رَجعةً إلى غيرِه، ولكنَّهم يُنكِرون المعادَ مِن أصْلِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٠).

تَفْسيرُ
سُورَةِ الصَّافَّاتِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الصَّافَّاتِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الصَّافَّات)[١].

فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمُرُ بالتَّخفيفِ، ويَؤُمُّنا بالصَّافَّاتِ))[٢].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ:

سورةُ الصَّافَّاتِ مَكِّيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِن المفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعلى أنَّ البَعثَ حَقٌّ[٤].

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بالصَّافَّاتِ؛ لافتِتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ بالصَّافَّاتِ، وهم الملائِكةُ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨١).

قال ابنُ عاشور: (اسمُها المشهورُ المتَّفَقُ عليه «الصَّافَّات»، وبذلك سُمِّيَتْ في كُتُبِ التَّفسيرِ، وكُتبِ السُّنَّةِ، وفي المصاحفِ كلِّها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨١).

(٢) أخرجه النسائي (٨٢٦) واللفظ له، وأحمد (٤٧٩٦).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٨٢٦)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٩/ ١٨٢)، ، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٧٩٦).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨١)، ((الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ٦٤).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

١- القَسَمُ بتلك الطَّوائِفِ مِن الملائِكةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى.

٢- ذِكرُ عَدَدٍ مِن الدَّلائِلِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى.

٣- ذِكرُ استِراقِ الشَّياطينِ السَّمْعَ، ورَجمِهم بالشُّهُبِ.

٤- حِكايةُ بَعضِ شُبُهاتِ المُشرِكينَ المُنكِرينَ للبَعثِ، مع الرَّدِّ عليها.

٥- ذِكرُ بَعضِ مَشاهِدِ يومِ القيامةِ، ووَصْفُ حالِ المُشرِكينَ يومَ الجَزاءِ، وما أُعِدَّ لهم، وما يَجري بيْنَهم مِن تَخاصُمٍ، ووَصْفُ حُسنِ أحوالِ المُؤمِنينَ، ونَعيمِهم، والمحاوُراتِ الَّتي تَدورُ بيْنَ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ.

٦- ذِكرُ جوانِبَ مِن قَصَصِ الأنبياءِ: قِصَّةِ نُوحٍ، وإبراهيمَ مع قَومِه ومع ابنِه إسماعيلَ، وقِصَّةِ موسى وهارونَ، وإلياسَ، ولُوطٍ، ويُونُسَ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٧- بيانُ فَسادِ عَقيدةِ المُشرِكينَ وقَولِهم: الملائِكةُ بناتُ اللهِ! وجَعلِهم بيْنَه وبيْنَ الجِنَّةِ نَسَبًا.

٨- بيانُ دَرَجاتِ الملائِكةِ في مَقامِ العِبادةِ، ووَعْدُ اللهِ رَسولَه بالنَّصرِ والتَّأييدِ.

٩- خَتْمُ السُّورةِ بتَنزيهِ اللهِ سُبحانَه وحَمْدِه، والتَّسليمِ على رُسُلِه.

الآيات (١-١٠)

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨ دُحُورٗا وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾: أي: الملائِكةِ المُصطفِّينَ لرَبِّهم في السَّماءِ، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استِواءٍ وتَساوٍ[١].

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾: أي: الملائكةِ تَسوقُ السَّحابَ، أو تَزجُرُ وتَنهَى عن معصيةِ الله، وأصلُ (زجر): يدُلُّ على طَردٍ بصَوتٍ[٢].

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾: أي: الملائكةِ تَتْلو كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وتَقرؤُه، وأصلُ (تلو): يدُلُّ على اتِّباعٍ[٣].

﴿مَّارِدٖ﴾: أي: عاتٍ خارجٍ عن الطَّاعةِ، مُتعَرٍّ عن الخَيرِ، وأصلُ (مرد): يدُلُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

على تجريدِ الشَّيءِ مِن قِشرِه، أو ما يَعلوه مِن شَعَرِه، ومنه الماردُ والمريدُ، كأنَّه تَجَرَّد مِن الخيرِ[١].

﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: أي: مَلائكةِ اللهِ، وأصلُ (ملأ): يدُلُّ على المُساواةِ والكمالِ، وأصلُ (علو): يَدُلُّ على السُّمُوِّ والارتِفاعِ[٢].

﴿دُحُورًا﴾: أي: إبعادًا وطَردًا، وأصلُ (دحر): يدُلُّ على طَردٍ[٣].

﴿وَاصِبٌ﴾: أي: دائِمٌ مُستمِرٌّ، وأصلُ (وصب): يدُلُّ على دَوامِ الشَّيءِ[٤].

﴿خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾: أي: اختلَسَ واستَرَقَ كلامَ الملائكةِ مُسارَقةً بسُرعةٍ وخِفَّةٍ، وأصلُ (خطف): يدُلُّ على أخْذِ الشَّيءِ بسُرعةٍ واستِلابٍ[٥].

﴿شِهَابٌ﴾: أي: كَوكَبٌ أو شُعلةٌ من النَّارِ، وأصلُ (شهب): يدُلُّ على بياضٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢) (٥/ ٣٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

في شَيءٍ مِن سوادٍ[١].

﴿ثَاقِبٌ﴾: أي: خارِقٌ مُضيءٌ شديدُ الإضاءةِ، يَثْقُبُ بنُورِه وإضاءتِه ما يَقَعُ عليه، وأصلُ (ثقب): يدُلُّ على نَفاذِ الشَّيءِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾

قولُه تعالى: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ الكواكبُ بَدَلٌ مِن (زِينَةٍ) أو عطْفُ بيانٍ، بمعنى: إنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بزينةٍ هي الكواكبُ، كأنَّه قال: زَيَّنَّاها بالكواكبِ. وفي قراءةٍ بالإضافةِ: ﴿بِزِينَةِ الكَوَاكِبِ﴾، على أنَّها بَيانيَّةٌ؛ لِمَا أنَّ الزِّينةَ مُبهَمةٌ، فتَقَعُ الكَواكِبُ بَيانًا لها، والمعنى: بأنَّ زينتَها الكواكبُ. وفي قراءة: ﴿بِزِينَةٍ الكَوَاكِبَ﴾ بنصبِ الكواكبِ[٣]؛ فيحتملُ أن تكونَ الزِّينةُ مصدرًا، والكواكبُ مفعولٌ به، كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤، ١٥]، والفاعلُ محذوفٌ، أي: بأنْ زيَّن الله الكواكبَ في كَونِها مُضيئةً حسَنةً في أنفُسِها، أو أنَّ الزِّينةَ اسمٌ لِما يُزانُ به، فالكواكبُ حينَئذٍ بدَلٌ منها على المحل، أو نصب بـ (أعني)، أو بدَلٌ مِن السَّماءِ الدُّنيا بدَلَ اشتِمالٍ، أي: كواكبَ السَّماءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣، ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨).

(٣) قرأ عاصمٌ وحمزةُ ﴿بِزِينَةٍ﴾ بالتَّنوينِ وجرِّ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾، وقرأ شعبةُ عن عاصمٍ بتنوينِ ﴿بِزِينَةٍ﴾ ونصبِ ﴿الكَوَاكِبَ﴾، وقرأ الباقون ﴿بِزِينَةِ﴾ بغيرِ تنوينٍ وبجرِّ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٦)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٤٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٩٨)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٧٨)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦١٠)، ((التبيان في =

المعنى الإجماليُّ:

أقسَمَ اللهُ تعالى بالملائِكةِ الَّتي تَصُفُّ في السَّماءِ صفًّا؛ امتِثالًا لأمرِ رَبِّها، والَّتي تَزجُرُ ما يأمُرُها اللهُ تعالى بزَجرِه، والَّتي تَتْلو ذِكرَ اللهِ تعالى، أقسَمَ اللهُ بذلك على أنَّه سبحانَه واحِدٌ لا شَريكَ له، وأنَّه ربُّ السَّمَواتِ والأرضِ وما بينَهما، وربُّ المشارِقِ.

ثمَّ بيَّن سُبحانَه بعدَ ذلك بعضَ مَظاهِرِ قُدرتِه في خَلقِه لهذه السَّمَواتِ، فقال: إنَّا زيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا الَّتي تَرَونَها بأعيُنِكم -أيُّها النَّاسُ- بالكواكِبِ، وحَفِظْناها مِن كُلِّ شَيطانٍ مُتمَرِّدٍ خارجٍ عن طاعتِنا يُريدُ استِراقَ السَّمْعِ.

لا يَستَطيعُ أولئك الشَّياطينُ سَماعَ الملائِكةِ في السَّماءِ إذا تكَلَّموا بما يأمُرُ اللهُ به، فإذا حاوَلوا قذَفْناهم ورَجَمْناهم بالشُّهُبِ والنِّيرانِ مِن كُلِّ جانبٍ مِن جوانبِ السَّماءِ؛ طردًا وإبعادًا لهم عن استِراقِ السَّمْعِ، ولهم عذابٌ دائِمٌ مُستَمِرٌّ، فلا يَستطيعُ أحَدٌ منهم سَماعَ الملائِكةِ في السَّماءِ إلَّا الشَّيطانُ الَّذي خَطِفَ الخَطفةَ مِن كلامِ الملائكةِ بسُرعةٍ وخِفَّةٍ، فيَتبَعُه شِهابٌ مُتوقِّدٌ نافِذٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالملائِكةِ الَّتي تَصُفُّ في السَّماءِ لِرَبِّها صَفًّا[1].

= إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٤)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٤٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤). =

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ * وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٦٤، ١٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢].

وعن جابرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خرَجَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ألَا تَصُفُّونَ كما تَصُفُّ الملائِكةُ عندَ رَبِّها؟ فقُلْنا: يا رسولَ اللهِ، وكيف تَصُفُّ الملائِكةُ عندَ ربِّها؟ قال: يُتِمُّونَ الصُّفوفَ الأُوَلَ، ويَتراصُّونَ

= قال الشنقيطي: (أكثَرُ أهلِ العِلمِ على أنَّ المرادَ بـ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ هنا، و«الزَّاجِرَاتِ»، و«التَّالِيَاتِ»: جماعاتُ الملائِكةِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٠١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٣).

وحكى ابنُ جريرٍ الإجماعَ على ذلك، فقال: (... الله تعالى ذِكرُه ابتدَأ القَسَمَ بنوعٍ مِن الملائكةِ، وهم الصَّافُّونَ، بإجماعٍ مِن أهلِ التَّأويلِ، فلأن يكونَ الَّذي بَعْدَه قَسَمًا بسائِرِ أصنافِهم أشْبَهُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٤). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٧).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المقصودَ بالصَّافَّاتِ الملائكةُ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، ومَسروقٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥).

قال الشنقيطي: (ومعنى كونِهم صافِّينَ: أن يَكونوا صُفوفًا مُتراصِّينَ بَعضُهم جَنبَ بَعضٍ في طاعةِ الله تعالى؛ مِن صلاةٍ وغيرِها. وقيل: لأنَّهم يَصُفُّونَ أجنِحَتَهم في السَّماءِ، ينتَظِرونَ أمرَ اللهِ. ويُؤيِّدُ القَولَ الأوَّلَ حديثُ حذيفةَ... في صَحيحِ مُسلِمٍ، وهو قَولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: «فُضِّلْنا على النَّاسِ بثلاثٍ: جُعِلَت صُفوفُنا كصُفوفِ الملائكةِ...»). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٠١).

وممَّن جمَعَ بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ: ابنُ القيِّم، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢).

قال ابن جُزَي: (﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ تقديرُه: والجَماعاتِ الصَّافَّاتِ، ثمَّ اختُلِفَ فيها؛ فقيل: هي الملائِكةُ الَّتي تَصُفُّ في السَّماءِ صُفوفًا لعبادةِ اللهِ. وقيل: هو مَن يَصُفُّ مِن بني آدَمَ في الصَّلَواتِ والجِهادِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٨).

وقال البِقاعي: (قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ أي: الجَماعاتِ مِن الملائكةِ، والمصَلِّينَ والمجاهِدينَ المُكَمِّلينَ أنفُسَهم بالاصطِفافِ في الطَّاعةِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٨٧).

في الصَّفِّ))[١].

وعن حُذَيْفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((فُضِّلْنا على النَّاسِ بثلاثٍ: جُعِلَت صُفوفُنا كصُفوفِ الملائِكةِ، وجُعِلَت لنا الأرضُ كُلُّها مَسجِدًا، وجُعِلت تُرْبَتُها لنا طَهورًا إذا لم نَجِدِ الماءَ))[٢].

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تَزجُرُ ما يأمُرُها اللهُ تعالى بزَجرِه[٣].

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تَتْلو ذِكْرَ اللهِ تعالى[٤].

---

(١) رواه مسلم (٤٣٠).

(٢) رواه مسلم (٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤).

قال السمعاني: (ذهب أكثَرُ المفَسِّرين أنَّ المرادَ بهم الملائِكةُ تَزجُرُ السَّحابَ؛ لِتَسوقَه إلى الموضِعِ الَّذي يُريدُه الله تعالى). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩١).

وممَّن اختار ما هو أعَمُّ مِن زَجرِ السَّحابِ، وأنَّها تَزجُرُ السَّحابَ وغَيْرَه بأمرِ اللهِ تعالى: ابنُ جُزَي، وابن القيِّم، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢).

قال ابن عاشور: (والمرادُ به: تسخيرُ الملائكةِ المخلوقاتِ الَّتي أمَرَهم اللهُ بتسخيرِها خَلْقًا أو فِعلًا؛ كتكوينِ العناصرِ، وتصريفِ الرِّياحِ، وإزجاءِ السَّحابِ إلى الآفاقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤).

وقيل: تَزجُرُ عن المعاصي بالمواعِظِ والنَّصائِحِ، أو بالذِّكرِ الَّذي تَتْلوه، أو تُلقيه إلى الأنبياءِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، =

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤﴾.

أي: إنَّ مَعبودَكم المُستَحِقَّ للعبادةِ واحِدٌ لا ثانيَ له، ولا شَريكَ له؛ فأخلِصوا

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤، ٨٥).

قيل: المرادُ: الملائكةُ تَقرأُ كُتبَ الله تعالى وتَتْلو كلامَه. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والرسعني، والنسفي، وابن القيم، والسعدي، ونسَبَه ابنُ الجوزي للجمهور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١١٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٥).

وقيل: الملائِكةُ الَّتي تَقرأُ القرآنَ. وممَّن اختاره: القرطبيُّ، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٣، ١٥).

وقيل: المرادُ بالملائكةِ هنا: جبريلُ وحْدَه عليه السَّلامُ، فيُلقي الذِّكْرَ على الأنبياءِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٥).

قال الواحديُّ: (وعلى هذا: المرادُ جِبريلُ، وذُكِرَ بلَفظِ الجَمعِ؛ إشارةً إلى أنَّه كبيرُ الملائكةِ، فهو لا يخلو مِن أعوانٍ وجنودٍ له من الملائكةِ يَعرُجونَ بعُروجِه، ويَنزِلونَ بنُزولِه). ((البسيط)) (١٩/ ٩).

قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ [المرسلات: ٥] كقَولِه تعالى هنا: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾؛ لأنَّ الذِّكرَ الَّذي تَتْلوه تُلقِيه إلى الأنبياءِ، كما كان جِبريلُ يَنزِلُ بالوَحيِ على نَبيِّنا وغيرِه مِن الأنبياءِ صَلَواتُ اللهِ وسلامُه على الجميع). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٠١).

وقال ابنُ عاشور: (﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ المُرَدِّدون لكلامِ الله تعالى الَّذي يَتلقَّونَه مِن جانبِ القُدُسِ؛ لتبليغِ بَعضِهم بعضًا، أو لِتَبليغِه إلى الرُّسُلِ، كما أشارَ إليه قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]... والمرادُ بـ«التَّالِيَاتِ»: ما يَتْلونَه مِن تسبيحٍ وتقديسٍ للهِ تعالى؛ لأنَّ ذلك التَّسبيحَ لَمَّا كان مُلَقَّنًا مِن لَدُنِ اللهِ تعالى كان كلامُهم بها تِلاوةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤، ٨٥).

له العِبادةَ وَحْدَه، ولا تُشرِكوا به شَيئًا[١].

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٌ﴾؛ أقام الدَّليلَ على ذلك بقولِه[٢]:

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾.

أي: هو خالِقُ ومالِكُ السَّمَواتِ السَّبْعِ، والأرضِ، وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ، وهو الرَّازِقُ والمُدَبِّرُ لذلك كُلِّه[٣].

﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾.

أي: وهو خالِقُ ومالِكُ ومُدَبِّرُ المشارقِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٣، ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٦).

قيل: المرادُ بالمشارقِ هنا: مشارِقُ الشَّمسِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والكرماني، وابن عطية، والقرطبي، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٦)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٨).

قال الماوَرْديُّ: (فيه [أي: المشارقِ] وجْهانِ؛ الأوَّلُ: قال قَتادةُ: ثلاثُمئةٍ وسِتُّونَ مَشرِقًا، والمغاربُ مِثلُ ذلك، تَطلُعُ الشَّمسُ كلَّ يومٍ مِن مشرقٍ، وتغرُبُ في مغربٍ. قاله السُّدِّيُّ. الثَّاني: أنَّها مئةٌ وثمانون مَشرقًا، تَطلُعُ كُلَّ يومٍ في مطلعٍ حتَّى تنتهيَ إلى آخِرِها، ثمَّ تعودُ في تلك المطالعِ حتَّى تَعودَ إلى أوَّلِها. حكاه يحيى بنُ سلَّام). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧). ويُنظر: =

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾.

أي: إنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الأُولى القريبةَ مِن النَّاسِ بالكواكِبِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥].

﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ ﴾.

أي: وحَفِظْناها بالكواكِبِ مِن كُلِّ شَيطانٍ مُتمَرِّدٍ، عاتٍ في الشَّرِّ، يريدُ استِراقَ السَّمْعِ[(٢)].

= ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٢٣)، ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ٨٨).

وقال الألوسي: (إن اعتُبر ما كانت عليه وما عادت إليه واحِدًا، كانت مئةً وثمانين، وإن نُظِر إلى تغايُرِهما كانت ثلاثَمئةٍ وستِّين، وفي هذا إسقاطُ الكَسرِ؛ فإنَّ السَّنةَ الشَّمسيَّةَ تَزيدُ على ذلك العدَدِ بنحوِ ستَّةِ أيَّام). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٦٦). ويُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩٧٠)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٤٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٦٨).

قال ابنُ جرير: (قولُه: ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ يقولُ: ومدبِّرُ مَشارقِ الشَّمسِ في الشِّتاءِ والصَّيفِ، ومَغاربِها، والقَيِّمُ على ذلك ومُصلِحُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٦).

وقيل: كُلُّ مَوضِعٍ أشرَقَت عليه الشَّمسُ فهو مَشرِقٌ، وكُلُّ مَوضِعٍ غَرَبَت عليه فهو مَغرِبٌ، كأنَّه أراد جميعَ ما أشرَقَت عليه الشَّمسُ. يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٧٠).

قال الرازي: (ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ مشارِقَ الكواكبِ؛ لأنَّ لكلِّ كوكبٍ مشرِقًا ومغربًا). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦).

واختار ابنُ عثيمينَ أنَّ المشارقَ عامَّةٌ؛ تَشملُ مَشارقَ الشَّمسِ، ومشارقَ القمرِ، ومشارقَ النُّجومِ، ومشارقَ كلِّ ما يشرقُ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٩، ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٨).

ويُطلَقُ كلٌّ مِن الكوكبِ والنَّجمِ على الآخرِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٤/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠).

قال الرسعني: (﴿وَحِفْظًا﴾ مَحمولٌ على المعنى، تقديرُه: إنَّا خلَقْنا الكواكِبَ زينةً للسَّماءِ =

كما قال الله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قِيل: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصَّافَّات: ٧]، أي: حَفِظْناها حِفظًا، فقِيل: فما يَكونُ إذَنْ[1]؟ فلَمَّا تشوَّفَ السَّامِعُ إلى مَعرفةِ هذا الحِفظِ وثَمَرتِه وبيانِ كيفيَّتِه؛ استأنَفَ قولَه[2]:

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

أي: حَفِظْنا السَّماءَ الدُّنيا مِن الشَّياطينِ، فلا يُصغُونَ إلى الملائِكةِ إذا تكَلَّموا بما يأمُرُ اللهُ به مِن شَرعٍ أو قَدَرٍ[3].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢].

= ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾. وقيل: المعنى: وحَفِظْناها حِفظًا)). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٤).
وقال ابنُ عاشور: (معنى كونِ الكواكبِ حِفظًا مِن الشَّياطينِ: أنَّ مِن جملةِ الكواكبِ الشُّهُبَ الَّتي تُرجَمُ بها الشَّياطينُ عندَ مُحاوَلتِها استِراقَ السَّمعِ. والمارِدُ: الخارجُ عن الطَّاعةِ، الَّذي لا يُلابِسُ الطَّاعةَ ساعةً؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة: ١٠١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٠، ٩١).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٨، ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٢٦-٢٩).

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ الملائكةَ تَنزِلُ في العَنانِ -وهو السَّحابُ- فتَذكُرُ الأمرَ قُضِيَ في السَّماءِ، فتَسترِقُ الشَّياطينُ السَّمعَ فتَسمَعُه، فتُوحيه إلى الكُهَّانِ، فيَكذِبونَ معها مِئةَ كَذْبةٍ مِن عندِ أنفُسِهم))[١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: أخبَرني رجُلٌ مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الأنصارِ: ((أنَّهم بَيْنَما هم جلوسٌ ليلةً مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رُمِيَ بنَجمٍ فاستنارَ، فقال لهم رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ماذا كنتُم تقولونَ في الجاهليَّةِ إذا رُمِيَ بمِثلِ هذا؟ قالوا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، كنَّا نقولُ: وُلِدَ اللَّيلةَ رجُلٌ عظيمٌ، ومات رجُلٌ عَظيمٌ! فقال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فإنَّها لا يُرمَى بها لِمَوتِ أحدٍ ولا لحياتِه، ولكِنْ رَبُّنا تباركَ وتعالى اسمُه إذا قضى أمرًا سبَّحَ حَمَلةُ العَرشِ، ثمَّ سَبَّح أهلُ السَّماءِ الَّذين يَلُونَهم، حتَّى يَبلُغَ التَّسبيحُ أهلَ هذه السَّماءِ الدُّنيا، ثمَّ قال الَّذين يَلُونَ حَمَلةَ العَرشِ لحَمَلةِ العَرشِ: ماذا قال ربُّكم؟ فيُخبِرونَهم ماذا قال، فيَستخبِرُ بَعضُ أهلِ السَّمَواتِ بَعضًا، حتَّى يَبلُغَ الخبَرُ هذه السَّماءَ الدُّنيا، فتَخطَفُ الجِنُّ السَّمْعَ فيَقذِفونَ إلى أوليائِهم، ويُرمَونَ به، فما جاؤوا به على وَجهِه فهو حَقٌّ، ولكِنَّهم يَقرِفونَ[٢] فيه ويَزيدونَ))[٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان الجِنُّ يَسمَعونَ الوَحيَ فيَستَمِعونَ الكَلِمةَ فيَزيدون فيها عَشْرًا، فيكونُ ما سَمِعوا حَقًّا، وما زادوه باطِلًا، وكانت النُّجومُ لا يُرمَى بها قبْلَ ذلك، فلمَّا بُعِث النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان أحدُهم

(١) رواه البخاري (٣٢١٠).

(٢) أي: يَخلِطونَ فيه الكَذِبَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٢٢٧).

(٣) رواه مسلم (٢٢٢٩).

لا يأتي مَقعَدَه إلَّا رُمِيَ بشِهابٍ يُحرِقُ ما أصاب، فشَكَوا ذلك إلى إبليسَ، فقال: ما هذا إلَّا مِن أمرٍ قد حدَث! فبَثَّ جُنودَه، فإذا هُم بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُصلِّي بيْنَ جَبَلَيْ نَخلةَ، فأتَوه فأخبَروه، فقال: هذا الحَدَثُ الَّذي حَدَث في الأرضِ))[1].

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾.

أي: وهم يُرمَونَ رَميًا شديدًا بالشُّهُبِ مِن كُلِّ جِهةٍ مِنَ السَّماءِ[2].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٢٤)، وأحمد (٢٤٨٢) واللَّفظُ له.

قال الترمذيُّ: حسَنٌ صحيحٌ. وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٢٤)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣).

واخْتُلِف هل كان هذا القذفُ قبْلَ المبعثِ، أو بعدَه لأجْلِ المبعثِ؛ على قولين، والجَمْعُ بيْن هذَينِ القولَين: أنَّ الرَّمْيَ بالنُّجومِ كان موجودًا قبْلَ مبعثِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فلمَّا بُعِث شُدِّد ذلك، وزِيدَ في حفظِ السَّماءِ وحراستِها؛ صَونًا لأخبارِ الغيوبِ. وممَّن اختار هذا القولَ: الزهريُّ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والسهيليُّ، والرازي، والقرطبيُّ ونسَبَه للأكثرينَ. واستحسَنه ابنُ حَجرٍ. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((الروض الأُنُف)) للسهيلي (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٦) و(١٩/ ١٣)، ((فتح الباري)) (٨/ ٦٧٢).

قال السهيلي: (وإنْ وُجِدَ اليَومَ كاهِنٌ فلا يُدفَعُ ذلك بما أخبَرَ اللهُ به مِن طَردِ الشَّياطينِ عن استِراقِ السَّمعِ؛ فإنَّ ذلك التَّغليظَ والتَّشديدَ كان زمَنَ النُّبُوَّةِ، ثمَّ بَقِيَت منه -أعني: مِن استراقِ السَّمعِ- بقايا يسيرةٌ، بدَليلِ وُجودِهم على النُّدورِ في بعضِ الأزمِنةِ، وفي بَعضِ البِلادِ). ((الروض الأُنُف)) (٢/ ٣٠٢).

شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨، ٩].

﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾.

﴿دُحُورًا﴾.

أي: يُقذَفونَ بالشُّهُبِ؛ طَردًا وإبعادًا لهم عن الوُصولِ إلى السَّماءِ لاستِراقِ السَّمْعِ(١).

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾.

أي: وللشَّياطينِ عَذابٌ دائِمٌ مُستمِرٌّ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٦، ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣).

قيل: هذا العذابُ في الآخرةِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ كثير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠).

وقال الواحدي: (قال مقاتلٌ: يعني دائمًا إلى النَّفخةِ الأولى، فهي تَجرحُ ولا تَقتُلُ. فقد بيَّنَ مقاتلٌ أنَّ المرادَ بهذا العذابِ عذابُ الدُّنيا). ((البسيط)) (١٩/ ٢٠). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٢) وليس فيه ذِكرٌ للنَّفخةِ الأولى.

وقيل: في الدُّنيا والآخِرةِ. وممَّن قال بذلك: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠).

قال ابن عثيمين: (يُعَذَّبون في هذه الدُّنيا بهذه الشُّهُبِ، ويُعَذَّبون في الآخرةِ بالعذابِ الدَّائمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠).

وقال البِقاعي: (﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ أي: في الدُّنيا بهذا وبغيرِه، وفي الآخرةِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٩٨).

قال ابنُ الجوزي: (وفي «الواصِبِ» قولانِ: =

كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٦٨ - ٧٠].

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

أي: لا يَسَّمَّعُ الشَّياطينُ شَيئًا مِن الملأِ الأعلى إلَّا مَن تَلَقَّف واختلَس منهم كَلِمةً واحِدةً بسُرعةٍ وخُفيةٍ[1]، .....

= أحدُهما: أنَّه الدَّائمُ. قاله: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، والفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ.

والثَّاني: أنَّه المُوجِعُ. قاله أبو صالحٍ، والسُّدِّيُّ. ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٦). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩).

وعزا الشوكانيُّ القولَ الأوَّلَ إلى جمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٥).

قال الواحدي: (قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ قالوا كلُّهم: دائِمٌ... ومَن فَسَّر الواصِبَ بالشَّديدِ و[الموجِع]، فهو معنًى وليس بتفسيرٍ). ((البسيط)) (١٩/ ٢٠).

وجمَعَ البِقاعي بيْن المعنيَينِ السَّابِقَينِ، فقال: (﴿وَاصِبٌ﴾ أي: دائِمٌ مُمرِضٌ مُوجِعٌ كثيرُ الإيجاعِ، مُواظِبٌ على ذلك ثابتٌ عليه). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٩٨).

(١) قال الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ من سورةِ الحِجْرِ [١٧، ١٨]: (قال بعضُ العُلَماءِ: هو استِثناءٌ مُنقَطِعٌ، وجزَم به الفخرُ الرَّازيُّ، أي: لكِنْ مَن استرقَ السَّمْعَ -أي: الخَطفةَ اليَسيرةَ- فإنَّه يَتبَعُه شِهابٌ فيُحرِقُه، كقولِه تعالَى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

وقيل: الاستِثناءُ مُتَّصِلٌ، أي: حَفِظْنا السَّماءَ مِن الشَّياطينِ أن تَسمَعَ شيئًا مِن الوحيِ وغَيرِه، ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ فإنَّا لم نحفَظْها مِن أن تَسمَعَ لخبرٍ مِن أخبارِ السَّماءِ سِوى الوَحيِ، فأمَّا الوَحيُ فلا تَسمَعُ منه شَيئًا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]. قالَه القُرطبيُّ، ونَظيرُه ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ﴾ الآيةَ؛ فإنَّه استثناءٌ مِن الواوِ في قولِه تعالَى: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ﴾ الآيةَ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٥٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠).

وقال السمعاني: (قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ قال أهلُ التَّفسيرِ: هذا استثناءٌ منقطِعٌ، =

فيَتبَعُه شِهابٌ مُتوقِّدٌ نافِذٌ[(١)].

= ومعناه: لكنْ مَن خطِف الخَطفةَ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٣). ويُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩٧١).

وقيل: الاستثناءَ مُتَّصِلٌ، وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والبِقاعي، والألوسي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠).

قال ابن عثيمين: (استثنى مِن نفي سماعِهم إلى السَّماءِ الَّذي يَخطَفُ الخَطفةَ فهو يَسمَعُ، فيَتبَعُه شِهابٌ نافذٌ يَنفُذُ فيه فيَخرِقُه أو يحرِقُه أو يَخبِلُه، ورُبَّما يَنجو مِن هذا الشِّهابِ إذا أراد الله عزَّ وجلَّ ويَصِلُ إلى الكاهنِ ويُوحي إليه بما سمِع، ثمَّ الكاهنُ يَكذِبُ مع ما سمِع كَذَباتٍ كثيرةً؛ مئةَ كَذْبةٍ أو أكثَرَ أو أقَلَّ... فصار الشَّياطينُ ثلاثةَ أقسام: قِسْمٌ لا يُمكِنُه السَّماعُ إطلاقًا، وقِسمٌ يُمكِنُ أن يَسمَعَ على سبيلِ الخَطفِ ويحرقُه الشِّهابُ، والقِسمُ الثَّالثُ يَسمَعُ على سبيلِ الخَطفِ ويَنجو، وكلُّ هذا بإذنِ الله عزَّ وجلَّ وإرادتِه تبعًا لحكمتِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠، ٣١) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣).

قال القرطبي: (يَسترِقُ الواحِدُ منهم شيئًا مِمَّا يتفاوَضُ فيه الملائِكةُ ممَّا سيَكونُ في العالَم قبْلَ أن يَعلَمَه أهلُ الأرضِ؛ وهذا لخفَّةِ أجسامِ الشَّياطينِ، فيُرجَمون بالشُّهُبِ حينَئذٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٧).

وقال ابنُ كثير: (هي الكَلِمةُ يَسمَعُها مِن السَّماءِ، فيُلقيها إلى الَّذي تحتَه، ويُلقِيها الآخَرُ إلى الَّذي تحتَه، فرُبَّما أدركَه الشِّهابُ قبْلَ أن يُلقيَها، ورُبَّما ألقاها بقَدَرِ اللهِ قبْلَ أن يأتيَه الشِّهابُ فيُحرِقَه، فيَذهَبُ بها الآخَرُ إلى الكاهِنِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦، ٧).

وقال ابنُ عاشور: (الثَّاقِبُ: الخارِقُ، أي: الَّذي يَترُكُ ثَقْبًا في الجِسمِ الَّذي يُصيبُه، أي: ثاقِبٌ له. وعن ابنِ عبَّاسٍ: الشِّهابُ لا يَقتُلُ الشَّيطانَ الَّذي يُصيبُه، ولكنَّه يَحترِقُ ويَخبِلُ، أي: يَفسُدُ قِوامُه فتَزولُ خصائِصُه، فإن لم يَضمَحِلَّ فإنَّه يُصبِحُ غيرَ قادرٍ على مُحاوَلةِ استِراقِ السَّمعِ مرَّةً أخرى، أي: إلَّا مَن تمكَّن مِن الدُّنُوِّ إلى محلٍّ يَسمَعُ فيه كلماتٍ مِن كلماتِ المَلأِ الأعلى، فيُردَفُ بشِهابٍ يَثقُبُه فلا يَرجِعُ إلى حيثُ صدَرَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠، ٣١).

كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ [الحجر: ١٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ [الجن: ٨، ٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: إنَّ نبيَّ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا قضَى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبت الملائكةُ بأجنِحَتِها؛ خُضْعانًا لِقَولِه، كأنَّه سِلسلةٌ على صَفوانٍ[٢]، فإذا فُزِّعَ[٣] عن قُلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا للَّذي قال: الحَقَّ، وهو العَليُّ الكبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقُ السَّمعِ، ومُستَرِقُ السَّمعِ هكذا: بعضُه فوقَ بَعضٍ -ووصَفَ سُفيانُ بكَفِّه فحَرَفَها، وبدَّد بيْنَ أصابِعِه- فيَسمَعُ الكَلِمةَ فيُلقيها إلى مَن تحتَه، ثمَّ يُلقيها الآخَرُ إلى مَن تحتَه، حتَّى يُلقِيَها على لسانِ السَّاحِرِ أو الكاهِنِ، فرُبَّما أدرَكَ الشِّهابُ قبْلَ أن يُلقِيَها، وربَّما ألقاها قبْلَ أن يُدرِكَه، فيَكذِبُ معها مِئةَ كَذْبةٍ، فيُقالُ: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا: كذا وكذا، فيُصَدَّقُ بتلك الكَلِمةِ الَّتي سَمِعَ مِن السَّماءِ))[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ قَسَمُ اللهِ بمَخلوقاتِه يُومِئُ إلى التَّنويهِ بشَأنِ المُقْسَمِ به، مِن حيثُ هو دالٌّ على عَظيمِ قُدرةِ الخالِقِ، أو كَونِه مُشرَّفًا عِندَ اللهِ تَعالى[٥]، فاللهُ تعالى لا يَحلِفُ بشَيءٍ مِن خَلقِه إلَّا كان هذا الشَّيءُ مِن أعظَمِ آياتِه، فيَكونُ الحَلِفُ بهذا المخلوقِ مُتضَمِّنًا للحَلِفِ بآياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ الَّتي هي

(٢) الصَّفوانُ: الحَجَرُ الأملَسُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤١).

(٣) فُزِّعَ: أي: أُزيلَ الخَوفُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ١٩٢).

(٤) رواه البخاري (٤٨٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤).

فِعلُه؛ لأنَّ عِظَمَ المخلوقِ يدُلُّ على عِظَمِ الخالقِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ حَلِفُه سُبحانَه بما شاء مِن خلْقِه؛ لأنَّه المالكُ، كما أنَّه سُبحانَه وتعالى يأمُرُ بما شاء؛ أرَأَيْتَ أمْرَ اللهِ تعالى الملائكةَ أنْ تَسجُدَ لآدَمَ، والسُّجودُ لغيرِ اللهِ شركٌ؟! لكنَّ اللهَ يأمُرُ بما شاء. أرأيْتَ أمْرَه إبراهيمَ الخَليلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يَذبَحَ ابنَه، وذَبحُ ابنِه مِن أعظمِ الكبائرِ؟! وصار بأمرِ اللهِ طاعةً لله عزَّ وجلَّ؛ كذلك الحَلِفُ بغيرِ اللهِ شِركٌ؛ ولكنْ مع هذا فلِلَّه أنْ يَحلِفَ بما شاء مِن خَلقِه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ المرادُ به الملائِكةُ، وأُنِّثَتْ باعتِبارِها جماعاتٍ، وجماعاتٌ: مُؤنَّثٌ، فالملائكةُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ جماعاتٌ مُختَلِفةٌ، كلُّ جماعةٍ لها وظيفةٌ مُعيَّنةٌ، وقد أخَذَ الزَّائِغونَ بهذا الاشتِباهِ -أي: تأنيثِ الملائكةِ- وقالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ؛ ولهذا تُذكَرُ بصيغةِ التَّأنيثِ! ولكنْ لا شكَّ أنَّ هذا مِن بابِ التَّلبيسِ والتَّشبيهِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ الملائِكةَ بصيغةِ المُذَكَّرِ ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الشورى: ٥] ولم يَقُلْ: «يُسَبِّحْنَ بحمدِ ربِّهِنَّ»[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ أنَّ الملائكةَ تتلو الذِّكْرَ -أي: تتلو القرآنَ، على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهذا يدُلُّ: على قيامِ الملائكةِ بعبادةِ اللهِ، وعلى فضيلةِ القرآنِ حيثُ تَتْلوه الملائكةُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٤).
والقاعدةُ أنَّه لا يكونُ القَسَمُ إلَّا باسم معظَّم. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٤٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٌ﴾ أهمِّيَّةُ التوحيدِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أَقسَمَ بالملائكةِ على ثبوتِ هذا التَّوحيدِ، ولأنَّ اللهَ تعالى أكَّدَه بثلاثةِ مُؤكِّداتٍ: «القَسَمِ»، «إنَّ»، «اللَّامِ»[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ احتُجَّ به على كَونِه تعالى خالِقًا لأعمالِ العِبادِ؛ لأنَّ أعمالَ العبادِ مَوجودةٌ فيما بيْنَ السَّمَواتِ والأرضِ، وهذه الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ كُلَّ ما حَصَل بيْنَ السَّمَواتِ والأرضِ فاللهُ رَبُّه ومالِكُه؛ فهذا يدُلُّ على أنَّ فِعلَ العَبدِ حصَل بخَلقِ اللهِ[٢].

٧- التَّلازُمُ بيْنَ توحيدِ الألوهيَّةِ وتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ؛ فإنَّ قَولَه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ بعدَ قولِه: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٌ﴾ كالدَّليلِ على تَوَحُّدِه بالألوهيَّةِ؛ وذلك أنَّه إذا كان مُتَوَحِّدًا بالرُّبوبيَّةِ لَزِمَ أن يكونَ مُتَوَحِّدًا في الألوهيَّةِ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١]، فكيف تَعبُدونَ غَيْرَه ممَّن لم يَخلُقْكم ولا خَلَقَ أحدًا[٣]؟!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ الإشارةُ إلى عِظَمِ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما؛ لأنَّ اللهَ أضاف الرُّبوبيَّةَ إليها في مَقامِ إقامةِ الحُجَّةِ، وهذا يدُلُّ على عِظَمِها، وأنَّها لِعظَمِها صارتْ كالدَّليلِ المُلزِمِ لتوحيدِ الألوهيَّةِ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ عنايةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بخَلْقِه؛ حيث زَيَّنَ لهم السَّقفَ الَّذي فوقَ رُؤوسِهم؛ لأنَّه لو كان مُظلِمًا حالِكًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣، ٢٤).

لا يَرونَ فيه شَيئًا مُنيرًا لَكان في ذلك شَيءٌ مِن الإيحاشِ، ولكِنَّ اللهَ تعالى اعتنَى بهذا، فزَيَّنَه لهم[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ * وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ جَعَل سُبحانَه المصابيحَ زينةً لظاهِرِها ولباطِنِها بالحراسةِ مِن الشَّياطينِ؛ فهي زينةُ الظَّاهرِ والباطنِ[٢].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ * وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ فيه سؤالٌ: الشَّيطانُ مَخلوقٌ مِن النَّارِ؛ قال تعالى حِكايةً عن إبليسَ: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ﴾ [الأعراف:١٢]، وقال: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، وأخبَرَ أنَّ الشُّهُبَ تَضُرُّهم وتُحرِقُهم، فكيف تُحرِقُ النَّارُ النَّارَ؟!

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّه أضاف الشَّياطينَ والجانَّ إلى النَّارِ حَسَبَ ما أضاف الإنسانَ إلى التُّرابِ والطِّينِ والفَخَّارِ، والمرادُ به في حَقِّ الإنسانِ أنَّ أصْلَه الطِّينُ، وليس الآدَميُّ طينًا حقيقةً، لكِنَّه كان طِينًا، كذلك الجانُّ كان نارًا في الأصلِ[٣]؛ فحقيقةُ النَّارِ لم تَبقَ فيهم على ما هي عليه قبْلَ خَلْقِهم منها، كما أنَّ حَقيقةَ الطِّينِ لم تَبقَ في الإنسِ على ما هي عليه قبْلَ خَلْقِهم منها، والإنسُ خُلِقوا مِنَ الطِّينَ ويَتضَرَّرونَ به كذلك فخَلقُ الشَّياطينِ مِن نارٍ لا يأبَى تضَرُّرَهم بها[٤].

الوَجهُ الثَّاني: يحتملُ أنَّ الشَّياطينَ وإن كانوا مِنَ النِّيرانِ إلَّا أنَّها نيرانٌ ضَعيفةٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٢).

(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((لقط المرجان في أحكام الجان)) للسيوطي (ص: ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ١١١).

فإذا وصَلَت نيرانُ الشُّهُبِ إليهم، وتلك النِّيرانُ أقوى حالًا منهم؛ لا جَرَمَ صار الأقوى مُبطِلًا للأضعَفِ، فالسِّراجُ الضَّعيفُ إذا رجَعَ في النَّارِ القَويَّةِ فإنَّه يَنطَفِئُ، فكذلك هاهنا[١].

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّه وإن كان الجِنِّيُّ مِن نارٍ فإنَّه ليس نارًا خالِصةً[٢].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴾ في وَصْفِه بالمارِدِ إشارةٌ إلى أنَّ ما يُصيبُ إخوانَه مِن الضُّرِّ بالشُّهُبِ: لا يَعِظُه عن تجديدِ مُحاولةِ الاستِراقِ؛ لِما جُبِلَ عليه طَبعُه الشَّيطانيُّ مِن المداوَمةِ على تلك السَّجايا الخَبيثةِ، كما لا يَنزجِرُ الفَراشُ عن التَّهافُتِ حولَ المِصباحِ بما يُصيبُ أطرافَ أجنِحتِه مِن مَسِّ النَّارِ[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۞ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۞ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قد يُعطي هذه الأجسامَ اللَّطيفةَ قدرةً يَصِلُونَ بها إلى السَّماءِ، ولا شكَّ أنَّهم قد يَصِلُونَ إلى السَّماءِ؛ وأنَّ لديهم مِن القوَّةِ ما هو أشدُّ مِن قوَّةِ البشرِ ذوي الأجسامِ الكثيفةِ[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ فَضيلةُ الملائكةِ؛ حيث وُصِفوا بأنَّهم الملأُ الأعلى؛ لعُلُوِّ مَكانِهم ومَكانتِهم؛ ففيهم العُلُوُّ الحِسِّيُّ والعُلُوُّ المَعنويُّ[٥].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۞ دُحُورٗا﴾ أنَّ الشَّياطينَ ليست أهلًا لِأنْ تَحُلَّ السَّماءَ، أو تَقعُدَ فيها؛ ولهذا يُقذَفونَ لإبعادِهم دُحُورًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٦- قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: دائمٌ، وفيه أنَّ الشَّياطينَ مُكلَّفونَ[١].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أنَّ هؤلاء الشَّياطينَ لا يَسَّمَّعون إلى الملأِ الأعلى السَّماعَ الكامِلَ بحيث يَنالونَ مُرادَهم؛ بسَبَبِ هذه الشُّهُبِ الَّتي تُحرِقُهم، فلا يستطيعُ الواحدُ منهم أنْ يَسمعَ سماعًا كامِلًا يُصغِي إلى الملأِ الأعلَى كما يُصغي الإنسانُ إلى شيخِه وإلى مُحَدِّثِه، بل تَجِدُهم يأتونَ إلى السَّماءِ خَطْفًا، فيَخْطَفون ما يَسمَعونَ دونَ أنْ يكونَ هناك مُهلَةٌ وتَأنٍّ؛ لأنَّها تخشَى مِنَ الشُّهُبِ[٢].

١٨- أنَّ الشَّياطينَ قد تأتي بخَبرِ السَّماءِ؛ لِقَولِه: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾، ولكِنْ قد يقولُ قائلٌ: إنَّ اللهَ قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾، ثمَّ قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، وحينَئذٍ لا يَصِلُ إلى مُرادِه؟

فالجوابُ: أنَّه قد دَلَّتِ النُّصوصُ الأُخرى على أنَّه قد يَصِلُ إلى مُرادِه، فيَصِلُ إلى الكاهنِ قبْلَ أنْ يُدْرِكَه الشِّهابُ[٣].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أنَّ الشَّياطينَ أجسامٌ؛ لأنَّه لا يُخرَقُ ولا يُحرَقُ إلَّا ما كان جِسمًا، وهو كذلك؛ فإنَّ الشَّياطينَ أجسامٌ، لكِنَّهم أجسامٌ لَطيفةٌ تَختَرِقُ الأجسامَ الكثيفةَ؛ أجسامَ البشرِ؛ ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ الشَّيطانَ يجري مِن ابنِ آدمَ مَجْرَى الدَّمِ))[٤]، كما أنَّ الرُّوحَ تجري مِن الجَسَدِ مجرى الدَّمِ، والرُّوحُ جِسمٌ لطيفٌ، فكذلك الشَّياطينُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠، ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٣٩) واللفظ له، ومسلم (٢١٧٥) من حديث صَفيَّةَ بنتِ حُيَيٍّ رضي الله عنها.

أجسامٌ لَطيفةٌ تخترِقُ الأجسامَ الكَثيفةَ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا * فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا * فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾

- فاتِحةٌ مُناسِبةٌ لِأغراضِ السُّورةِ؛ وذلك بأنَّ القَسَمَ بالمَلائكةِ مُناسِبٌ لإثباتِ الوَحدانيَّةِ؛ لِأنَّ الأصنامَ لم يَدَّعوا لها مَلائكةً، والَّذي تأتمِرُ المَلائكةُ بأمرِه هو الإلهُ الحَقُّ، ولِأنَّ المَلائِكةَ مِن جُملةِ المَخلوقاتِ الدَّالِّ خَلْقُها على عِظَمِ الخالِقِ، ويُؤْذِنُ القَسَمُ بأنَّها أشرَفُ المَخلوقاتِ العُلويَّةِ، ثمَّ إنَّ الصِّفاتِ الَّتي لُوحِظَتْ في القَسَمِ بها مُناسِبةٌ لِلأغراضِ المَذكورةِ بَعْدَها؛ فالصَّافَّاتُ يُناسِبُ عَظَمةَ رَبِّها، والزَّاجِراتُ يُناسِبُ قَذْفَ الشَّياطينِ عنِ السَّمَواتِ، ويُناسِبُ تَسييرَ الكَواكِبِ وحِفظَها مِنْ أنْ يُدرِكَ بَعضُها بَعضًا، ويُناسِبُ زَجْرَها النَّاسَ في المَحشَرِ، والتَّالياتُ ذِكرًا يُناسِبُ أحوالَ الرَّسولِ والرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما أُرسِلوا به إلى أقوامِهم. وفي الافتِتاحِ بالقَسَمِ تَشويقٌ إلى مَعرِفةِ المُقسَمِ عليه؛ لِيُقبِلَ عليه السَّامعُ بشَراشِرِه -أي: بنَفْسِه- حِرصًا ومحبَّةً؛ فقدِ استَكمَلَتْ فاتِحةُ السُّورةِ أحسَنَ وُجوهِ البَيانِ وأكمَلَها[٢].

- والقَسَمُ لِتأكيدِ الخَبَرِ مَزيدَ تَأكيدٍ؛ لِأنَّه مُقتَضى إنكارِهمُ الوَحدانيَّةَ، وهو قَسَمٌ واحِدٌ، والمُقسَمُ به نَوعٌ واحِدٌ مُختَلِفُ الأصنافِ، وهو طوائِفُ مِنَ المَلائِكةِ، وعَطفُ هذه الصِّفاتِ بالفاءِ يَقتَضي أنَّ تلك الصِّفاتِ ثابِتةٌ لِمَوصوفٍ واحِدٍ باعتِبارِ جِهةٍ تَرجِعُ إليها وَحْدَتُه، وهذا المَوصوفُ هو هذه الطَّوائِفُ مِنَ المَلائِكةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٢، ٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٨٣).

- قَولُه: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ وَصْفُ المَلائكةِ بهذا الوَصفِ يَجوزُ أنْ يَكونَ على حَقيقَتِه، فتَكونَ المَلائِكةُ في العالَمِ العُلويِّ مُصطَفَّةً صُفوفًا، وهي صُفوفٌ مُتقَدِّمٌ بَعضُها على بَعضٍ، باعتِبارِ مَراتِبِ المَلائِكةِ في الفَضلِ والقُربِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ كِنايةً عن الاستِعدادِ لامتِثالِ ما يُلْقى إليهم مِن أمْرِ اللهِ تَعالى؛ قال تَعالى حِكايةً عنهم في هذه السُّورةِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾[1] [الصَّافَّات: ١٦٥، ١٦٦].

- قَولُه: ﴿صَفّٗا﴾ وَ﴿زَجۡرٗا﴾ مَصْدَرانِ مُؤكِّدانِ لِمَا قَبْلَهما، أيْ: صَفًّا بَديعًا، وزَجْرًا بَليغًا. و﴿ذِكۡرًا﴾ في قَولِه: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ مَفعولُ (التَّاليات)، وهو أيضًا مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لِمَا قَبْلَه؛ فإنَّ التِّلاوةَ مِن بابِ الذِّكرِ[2].

- وما تُفيدُه الفاءُ في هذه الآياتِ مِن تَرتيبِ مَعطوفِها يَجوزُ أنْ يَكونَ تَرتيبًا في الفَضلِ؛ بأنْ يُرادَ أنَّ الزَّجرَ وتِلاوةَ الذِّكرِ أفضَلُ مِنَ الصَّفِّ؛ لأنَّ الاصطِفافَ مُقدِّمةٌ لها، ووسيلةٌ، والوَسيلةُ دونَ المُتوَسَّلِ إليه، وأنَّ تِلاوةَ الذِّكرِ أفضَلُ مِنَ الزَّجرِ، باعتِبارِ ما فيها مِن إصلاحِ المَخلوقاتِ المَزجورةِ بتَبليغِ الشَّرائِعِ إنْ كانتِ التِّلاوةُ تِلاوةَ الوَحيِ المُوحَى به لِلرُّسُلِ، أو بما تَشتَمِلُ عليه التِّلاوةُ مِن تَمجيدِ اللهِ تَعالى؛ فإنَّ الأعمالَ تَتفاضَلُ تارةً بتَفاضُلِ مُتَعلَّقاتِها، فيَكونَ مِن بابِ التَّرقِّي مِنَ الأدْنَى إلى الأعلى، وإمَّا على العَكسِ، أي: يُمكِنُ أنْ يكونَ الأوَّلُ هو الأفضَلَ، فيَكونَ مِن بابِ التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ لِلاعتِناءِ بالأهَمِّ، وما هو أوْلَى بالعِنايةِ وأجدَرُ بأنْ يَقرَعَ السَّمعَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٥)، =

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ * رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ جَوابُ القَسَمِ، وفائِدتُه تَعظيمُ المُقسَمِ به، وتَأكيدُ المُقسَمِ عليه، والجُملةُ تَحقيقٌ لِلحَقِّ الَّذي هو التَّوحيدُ، بما هو المَألوفُ في كَلامِهم مِنَ التَّأكيدِ القَسَميِّ، وتَمهيدٌ لِمَا يَعقُبُه مِنَ البُرهانِ في قَولِه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾؛ فإنَّ وُجودَها وانتِظامَها على هذا النَّمَطِ البَديعِ مِن أوضَحِ دَلائلِ وُجودِ الصَّانعِ وعِلْمِه وقُدرَتِه، وأعدَلِ شَواهِدِ وَحْدَتِه، ومَناطُ التَّأكيدِ صِفةُ (وَاحِدٌ)؛ لِأنَّ المُخاطَبينَ كانوا قد عَلِموا أنَّ لهم إلهًا، ولكنَّهم جَعَلوه عِدَّةَ آلهةٍ، فأبطَلَ اعتِقادَهم بإثباتِ أنَّه واحِدٌ غَيرُ مُتعَدِّدٍ، وهذا إنَّما يَقتَضي نَفْيَ الإلهيَّةِ عنِ المُتعَدِّدينَ، وأمَّا اقتِضاؤُه تَعيينَ الإلهيَّةِ للهِ تعالى فذلك حاصِلٌ بأنَّهم لا يُنكِرونَ أنَّ اللهَ تَعالى هو الرَّبُّ العَظيمُ، ولكنَّهم جَعَلوا له شُرَكاءَ، فحَصَلَ التَّعدُّدُ في مَفهومِ الإلهِ؛ فإذا بَطَلَ التَّعدُّدُ تَعيَّنَ انحِصارُ الإلهيَّةِ في رَبٍّ واحِدٍ هو اللهُ تعالى[1].

- قَولُه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ أتْبَعَ تأْكيدَ الإخبارِ عن وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى بالاستِدلالِ على تَحقيقِ ذلك الإخبارِ؛ لِأنَّ القَسَمَ لِتَأكيدِه لا يُقنِعُ المُخاطَبينَ؛ لِأنَّهم مُكذِّبونَ مَن بَلَّغَ إليهم القَسَمَ؛ فالجُملةُ

= ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٤٥).

قال الشنقيطي: (والأظهَرُ الَّذي لا يَلزَمُه إشكالٌ: أنَّ التَّرتيبَ بالفاءِ لِمُجَرَّدِ التَّرتيبِ الذِّكريِّ. والإتيانُ بأداةِ التَّرتيبِ لمجَرَّدِ التَّرتيبِ الذِّكريِّ فقط دونَ إرادةِ ترتيبِ الصِّفاتِ أو المَوصوفاتِ: أسلوبٌ عَربيٌّ مَعروفٌ جاء في القُرآنِ في مواضِعَ، وهو كثيرٌ في كلامِ العرَبِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٥، ٨٦).

استِئنافٌ بَيانيٌّ لِبَيانِ الإلهِ الواحِدِ، مع إدماجِ الاستِدلالِ على تَعيينِه بذِكرِ ما هو مِن خَصائِصِه المُقتَضي تَفرُّدَه بالإلهيةِ، فقَولُه: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ خَبَرٌ لِمُبتَدأٍ مَحذوفٍ -على قولٍ- جَرَى حَذْفُه على طَريقةِ الاستِعمالِ في حَذفِ المُسنَدِ إليه مِنَ الكَلامِ الوارِدِ بعدَ تَقدُّمِ حديثٍ عنه؛ فإنَّ المُشرِكينَ مع غُلُوِّهم في الشِّركِ لم يَتجَرَّؤوا على ادِّعاءِ الخالِقيَّةِ لِأصنامِهم، ولا التَّصرُّفِ في العوالِمِ العُلويَّةِ، وكيف يَبلُغونَ إليها وهمْ لَقًى -أي: مُلْقَون؛ لِهَوانِهم- على وَجهِ الأرضِ، فكان تَفَرُّدُ اللهِ بالخالِقيَّةِ أفْحَمَ حُجَّةٍ عليهم في بُطلانِ إلهيَّةِ الأصنامِ، وشَمِلَ قولُه: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ جَميعَ العوالِمِ المَشهودةِ لِلنَّاسِ بأجْرامِها وسُكَّانِها والمَوجوداتِ فيها[١].

- وإعادةُ ﴿ رَّبُّ ﴾ في قَولِه: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾؛ لِغايةِ ظُهورِ آثارِ الرُّبوبيَّةِ فيها، وتَجدُّدِها كُلَّ يَومٍ مع كُلِّ شُروقٍ[٢].

- وتَخصيصُ المَشارِقِ بالذِّكرِ؛ لِأنَّها أحوالٌ مَشهودةٌ كُلَّ يَومٍ، ولِأنَّها مَطالِعُ الأنوارِ، والإبصارُ بها أكلَفُ، وذِكرُها يُغْني عن ذِكرِ المَغارِبِ؛ إذْ ذاك مَفهومٌ مِنَ المَشارِقِ[٣]، أو أنَّه خصَّها توطئةً لِمَا ذَكَر بعدَها مِن تزيينِ السَّماءِ بزينةِ الكواكِبِ، وجَعْلِها حِفظًا مِن كلِّ شيطانٍ، فذِكْرُ المشارِقِ أنسَبُ بهذا المعنى وأَلْيَقُ[٤]، أو لأنَّ الشُّروقَ أقوى حالًا مِن الغُروبِ، وأكثَرُ نفعًا مِن الغُروبِ؛ فذُكِرَ المشرِقُ تنبيهًا على كثرةِ إحسانِ اللهِ تعالى على عبادِه؛ ولهذه الدَّقيقةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠).

استدَلَّ إبراهيمُ عليه السَّلامُ بالمَشرِقِ، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾[1] [البقرة: ٢٥٨].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث جَمَعَ المَشارِقَ هنا في قَولِه: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾، وحَذَفَ مُقابِلَه، وثَنَّاه في سُورةِ (الرَّحمنِ)، وجَمَعَه في (المَعارِجِ)، وأفرَدَه في (المُزَّمِّلِ)، مع ذِكرِ مُقابِلِه في الثَّلاثةِ؛ قيل: لِأنَّ القُرآنَ نَزَلَ على المَعهودِ مِن أساليبِ كَلامِ العَرَبِ وفُنونِه، ومنها الإجمالُ والتَّفصيلُ، والذِّكرُ والحَذفُ، والجَمعُ والتَّثنيةُ والإفرادُ، باعتِباراتٍ مُختلِفةٍ، فأفرَدَ وأجمَلَ في (المُزَّمِّلِ) بقَولِه: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [المزمل: ٩]، أرادَ مَشرِقَ الصَّيفِ والشِّتاءِ ومَغرِبَهما، وجَمَعَ وفَصَّلَ في (المَعارِجِ) بقَولِه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، أرادَ جَميعَ مَشارِقِ السَّنةِ ومَغارِبَها، وهي تَزيدُ على سَبعِ مِئةٍ، وثَنَّى وفَصَّلَ في (الرَّحمنِ) بقَولِه: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [الرحمن: ١٧]، أرادَ مَشرِقَي الصَّيفِ والشِّتاءِ ومَغرِبَيْهما، وجَمَعَ وحَذَفَ هنا بقَولِه: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾، أرادَ جَميعَ مَشارِقِ السَّنةِ، واقتَصَرَ عليه؛ لِدَلالَتِه على المَحذوفِ، وخَصَّ ما هنا بالجَمعِ مُوافَقةً لِلجُموعِ أوَّلَ السُّورةِ، وبالحَذفِ مُناسَبةً لِلزِّينةِ في قَولِه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصَّافَّات: ٦]؛ إذِ الزِّينةُ إنَّما تَكونُ في الأغلَبِ بالضِّياءِ والنُّورِ، وهما يَنْشآنِ مِنَ المَشرِقِ، لا مِنَ المَغرِبِ، وما في (الرَّحمنِ) بالتَّثنيةِ، مُوافَقةً لِلتَّثنيةِ في ﴿يَسۡجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]، وفي ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٦]، وبذِكرِ المُتقابِلَينِ مُوافَقةً لِبَسطِ صِفاتِه تَعالى وإنْعاماتِه ثَمَّ، وما في (المَعارِجِ) بالجَمعِ؛ مُوافَقةً لِلجَمعِ قَبْلَه وبَعْدَه، وبذِكرِ المتقابلَينِ موافقةً لِكثرةِ التَّأكيدِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٦، ٣١٧).

في القَسَمِ وجَوابِه، وما في (المُزَّمِّلِ) بالإفرادِ مُوافَقةً لِمَا قَبْلَه مِن إفرادِ ذِكرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما بعْدَه مِن إفرادِ ذِكرِ اللهِ تَعالى، وبذِكرِ المُتقابِلَينِ مُوافَقةً لِلحَصرِ في قَولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المزمل: ٩]، ولِبَسطِ أوامِرِ اللهِ تَعالى لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ، مَسوقٌ لِتَقريرِ لَطائِفِ صُنْعِه، وبَديعِ خَلقِه(٢).

- جُملةُ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ تَنزِلُ مِن جُملةِ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصَّافَّات: ٥] مَنزِلةَ الدَّليلِ على أنَّه رَبُّ السَّمَواتِ، واقتَصَرَ على رُبوبيَّةِ السَّمَواتِ؛ لِأنَّ ثُبوتَها يَقتَضي رُبوبيَّةَ الأرضِ بطَريقِ الأَوْلى، وأدمَجَ فيها مِنَّةً على النَّاسِ -بأنْ جَعَل لهم في السَّماءِ زِينةً؛ الكَواكِبَ، تَروقُ أنظارَهم؛ فإنَّ مَحاسِنَ المَناظِرِ لَذَّةٌ لِلنَّاظِرينَ-، ومِنَّةً على المُسلِمينَ بأنْ جَعَل في تلك الكَواكِبِ حِفظًا مِن تَلقِّي الشَّياطينِ لِلسَّمعِ؛ لِقَطعِ سَبيلِ اطِّلاعِ الكُهَّانِ على بَعضِ ما سيَحدُثُ في الأرضِ؛ فلا يَفتِنوا النَّاسَ في الإسلامِ، كما فَتَنوهم في الجاهليَّةِ، ولِيَكونَ ذلك تَشريفًا لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بأنْ قُطِعتِ الكِهانةُ عِندَ إرسالِه(٣)، ولِلإشارةِ إلى أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٠، ٩١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٦-٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٦، ٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٤٣).

(٣) وذلك على القولِ بأنَّه زال استِراقُهم للسَّمعِ؛ ولذلك زالت الكِهانةُ. يُنظر: ((أعلام النبوة)) للماوَرْدي (ص: ١٦٧).

ويُنظَرُ ما تقدَّمَ مِن الخلافِ في قَذفِ الشَّياطينِ: هل كان موجودًا قبلَ مَبعَثِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو كان لأجْلِ مَبعَثِه؟ (ص: ٣٢٢).

فيها مَنفعةً عَظيمةً دينيَّةً، وهي قَطعُ دابرِ الشَّكِّ في الوَحْيِ، كما أنَّ فيها مَنفَعةً دُنيويَّةً، وهي الزِّينةُ، والاهتِداءُ بها في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحرِ[١].

- قَولُه: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بالجَرِّ، بَدَلٌ مِن (زِينَةٍ)، على أنَّ المُرادَ بها الاسمُ، أيْ: ما يُزيَّنُ به، لا المَصدرُ؛ فإنَّ الكَواكبَ بأنْفُسِها وأوضاعِ بَعضِها مِن بَعضٍ زِينةٌ، وأيُّ زِينةٍ. وقُرِئَ بالإضافةِ[٢]؛ على أنَّها بَيانيَّةٌ؛ لِمَا أنَّ الزِّينةَ مُبهَمةٌ صادِقةٌ على كُلِّ ما يُزانُ به، فتَقَعُ الكَواكِبُ بَيانًا لها. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بزينةِ الكَواكِبِ ما زُيِّنتْ هي به، وهو ضَوؤُها[٣].

- قَولُه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ إقْحامُ لَفظِ (زِينَةٍ) تَأكيدٌ، والباءُ لِلسَّببيَّةِ، أيْ: زَيَّنَّا السَّماءَ بسَبَبِ زينةٍ؛ الكَواكِبِ، فكَأنَّه قيل: إنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بالكَواكِبِ تَزيينًا، فكان ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ في قُوَّةِ: بالكَواكِبِ تَزيينًا، فقَولُه: ﴿بِزِينَةٍ﴾ مَصدَرٌ مُؤكِّدٌ لِفعلِ ﴿زَيَّنَّا﴾ في المَعنى، ولكنْ حُوِّلَ التَّعليقُ، فجُعِلَ (زِينَةٍ) هو المُتعَلِّقَ بـ ﴿زَيَّنَّا﴾؛ لِيُفيدَ مَعنى التَّعليلِ ومعنى الإضافةِ في تركيبٍ واحِدٍ على طَريقةِ الإيجازِ؛ لِأنَّه قد عُلِمَ أنَّ الكَواكِبَ زينةٌ مِن تَعليقِه بفِعلِ ﴿زَيَّنَّا﴾ مِن غَيرِ حاجةٍ إلى إعادةِ (زِينَةٍ) لولا ما قُصِدَ مِن مَعنى التَّعليلِ والتَّوكيدِ[٤].

- وخَصَّ سَماءَ الدُّنيا بالذِّكرِ وبزينةِ الكَواكِبِ، مع أنَّ بَقيَّةَ السَّمَواتِ مُزيَّنةٌ بذلك؛ لِأنَّها الَّتي تُشاهَدُ بالأبصارِ، والحِفظُ مِنَ الشَّياطينِ إنَّما هو فيها وَحْدَها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٧).

(٢) يُنظر ما تقدم (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٥).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَحِفْظًا ﴾ إمَّا أنْ يَكونَ مَعطوفًا على ﴿بِزِينَةٍ﴾ مِن حيثُ المَعنى؛ لِأنَّه في الحَقيقةِ مَفعولٌ له لِقَولِه: ﴿زَيَّنَّا﴾، والتَّقديرُ: خَلَقْنا الكَواكِبَ زِينةً وحِفظًا، وإمَّا أنْ يُقَدَّرَ النَّاصِبُ ويُؤخَّرَ، وهو (زَيَّنَّاها)؛ لِيُفيدَ الاهتِمامَ، أو يُقدَّمَ، بأنْ يُقالَ: وحَفِظْناها حِفظًا؛ لِيُفيدَ التَّوكيدَ. وفيه تَوكيدٌ آخَرُ، ودَلالةٌ على أنَّ الحِفظَ أهَمُّ مِنَ التَّزيينِ وأعْنَى؛ ولذلك أتْبَعَه اللهُ عزَّ وجلَّ قَولَه: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1] [الصَّافَّات: ٨].

- وقال في سورة (النساء) ﴿شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧]، وجاءَتْ لَفظةُ ﴿مَّارِدٍ﴾ هنا؛ مُراعاةً لِلفَواصِلِ[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾

- قَولُه: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ كلامٌ مُنقَطِعٌ، مُبتَدأٌ، مُستَطرَدٌ لِمَا عليه حالُ المُسترِقةِ لِلسَّمعِ، بعدَ بَيانِ حِفظِ السَّماءِ عنهم، مع التَّنبيهِ على كَيفيَّةِ الحِفظِ، وما يَعتَريهم في أثناءِ ذلك مِنَ العَذابِ، وأنَّهم لا يَقدِرونَ أنْ يَستَمِعوا إلى كَلامِ المَلائكةِ، أو يَتسَمَّعوا، وهمْ مَقذوفونَ بالشُّهُبِ، مَدْحُورونَ عن ذلك، إلَّا مَن أُمهِلَ حتَّى خَطِفَ خَطفةً، واستَرَقَ استِراقةً؛ فعِندَها تُعاجِلُه الهَلَكةُ بإتْباعِ الشِّهابِ الثَّاقِبِ[3].

- مِن قَولِه: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ إلى قَولِه تَعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥، ٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩١، ٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٥).

ثَاقِبٌ ﴾[الصَّافَّات: ١٠] اعتِراضٌ بينَ جُملةِ ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾[الصَّافَّات: ٦]، وجُملةِ ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾[الصَّافَّات: ١١]، قُصِدَ منه وَصْفُ قِصَّةِ طَردِ الشَّياطينِ. وعلى تَقديرِ قَولِه: ﴿ وَحِفْظًا ﴾[الصَّافَّات: ٧] مَصدَرًا نائبًا مَنابَ فِعلِه، يَجوزُ جَعلُ جُملةِ ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ ﴾ بَيانًا لِكَيفيَّةِ الحِفظِ، فتَكونُ الجُملةُ في مَوقِعِ عَطفِ البَيانِ مِن جُملةِ ﴿ وَحِفْظًا ﴾، أي: انتَفَى بذلك الحِفظِ سَمعُ الشَّياطينِ لِلمَلأِ الأعلى[١].

- قَولُه: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ لَفظُ (يَسَّمَّعُ) المُعَدَّى بنَفْسِه يُفيدُ الإدراكَ، والمُعَدَّى بـ (إلى) يُفيدُ الإصغاءَ مع الإدراكِ، مُبالَغةً وتَهويلًا لِمَا يَمنَعُهم عنه[٢]. وقيل: حرفُ (إلى) يُشيرُ إلى تضمينِ فِعلِ ﴿يَسَّمَّعُونَ ﴾ معنى (ينتَهونَ)[٣].

- قَولُه: ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وَصْفُ المَلأِ بالأعلى؛ لِتَشريفِ المَوصوفِ[٤].

- قَولُه: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ إسنادُ فِعلِ (يُقْذَفُونَ) لِلمَجهولِ؛ لأنَّ القاذِفَ مَعلومٌ، وهمُ المَلائِكةُ المُوكَّلونَ بالحِفظِ المُشارِ إليه في قَولِه تَعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾[الجن: ٨][٥]. وقيل: لأنَّ النَّافعَ قَذفُهم، لا تعيينُ قاذِفِهم، مع أنَّه أدَلُّ على القُدرةِ الإلهيَّةِ عَزَّت وجَلَّت[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٩٢، ٩٣).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٧).

٦- قولُه تعالَى: ﴿ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾

- قَولُه: ﴿ دُحُورًا ﴾ عِلَّةٌ لِلقَذفِ، أي: لِلدُّحورِ، أو حالٌ بمَعنى مَدحورينَ، أو مَصدَرٌ مُؤكِّدٌ لِلقَذفِ؛ لِأنَّهما مِن وادٍ واحِدٍ[١].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾

- الخَطفُ: ابتِدارُ تَناوُلِ شَيءٍ بسُرعةٍ، والخَطفةُ: المَرَّةُ منه، فهو مَفعولٌ مُطلَقٌ لِـ (خَطِفَ)؛ لِبيانِ عَدَدِ مَرَّاتِ المَصدَرِ، أيْ: خَطفةً واحِدةً، وأُريدَ به هنا الإسراعُ بسَمعِ ما يَستَطيعونَ سَمْعَه مِن كَلامٍ غَيرِ تامٍّ[٢]، والمُرادُ: اختِلاسُ كَلامِ المَلائِكةِ مُسارَقةً، كما يُعرِبُ عنه تَعريفُ ﴿الْخَطْفَةَ﴾[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٥).

الآيات (١١-٢١)

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾: أي: سَلْهم، واستَخبِرْهم، وأصلُ (فتي): يدُلُّ على تبيينِ حُكمٍ[١].

﴿لَّازِبٍ ﴾: أي: مُلتَصِقٍ ثابتٍ، وأصلُ (لزب): يدُلُّ على ثُبوتِ شَيءٍ، ولُزومِه[٢].

﴿يَسْتَسْخِرُونَ ﴾: أي: يُبالِغونَ في السُّخْرِيةِ، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على احتِقارٍ واستِذلالٍ[٣].

﴿دَٰخِرُونَ ﴾: أي: صاغِرونَ أذِلَّاءُ، وأصلُ (دخر): يدُلُّ على الذُّلِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٨)، =

﴿زَجۡرَةٞ﴾: أي: نَفخةٌ، والزَّجرةُ: الصَّيحةُ بشِدَّةٍ وانتهارٍ، وأصلُ (زجر): يدُلُّ على طَردٍ بصَوتٍ[١].

﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾: الوَيْلُ: كَلِمةٌ تُقالُ عند الهَلَكةِ، وهي دعاءٌ بالهلاكِ والعذابِ[٢].

﴿ٱلدِّينِ﴾: أي: الجزاءِ والمحاسبةِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازيتُه، وأصلُ (دين): جِنْسٌ مِن الانقيادِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمِرًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بتوبيخِ هؤلاء المشركينَ: فاسأَلْ -يا مُحمَّدُ- أولئك المُشرِكينَ المُنكِرينَ للبَعثِ: أهُم أعظَمُ خَلْقًا أمْ مَن خلَقْنا، كالسَّمواتِ والأرضِ وغَيرِهما؟! إنَّا خلَقْناهم مِن طينٍ مُلتَصِقٍ بَعضُه ببَعضٍ!

بل عَجِبْتَ -يا محمَّدُ- مِن تَكذيبِهم بالبَعثِ، والحالُ أنَّهم يَسخَرونَ مِن تعَجُّبِك ومِن إنكارِك عليهم ذلك، وإذا ذُكِّروا بالقُرآنِ فإنَّهم لا يَنتَفِعونَ بالتَّذكيرِ، وإذا رأوا مُعجِزةً تدُلُّ على صِدقِك يُبالِغونَ في السُّخريةِ وفي الاستِهزاءِ. وقالوا: ما هذا الَّذي جِئْتَنا به إلَّا سِحرٌ واضِحٌ، أئِذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا وعِظامًا أئِنَّا لَمبعوثونَ بعدَ ذلك، وآباؤُنا الَّذين ماتوا قَبْلَنا كذلك يُبعَثون؟!

قُلْ لهم -يا محمَّدُ: نَعَم، سيَبعثُكم اللهُ أحياءً، وأنتم أذِلَّاءُ صاغِرونَ! فإنَّما هي

= ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٢٣).

صَيحةٌ واحِدةٌ، فإذا هم قِيامٌ مِن قُبورِهم يَنظُرونَ، يَقولونَ نادِمينَ على تَكذيبِهم بالبَعثِ: يا وَيْلَنا، هذا يَومُ الحِسابِ والجَزاءِ، فيُقالُ لهم: هذا يومُ الفَصلِ والقَضاءِ الَّذي كُنتُم تُكَذِّبونَ به في الدُّنيا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

افتتح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ بإثباتِ ما يَدُلُّ على وحدانيَّتِه، وهو: خَلقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما، وخَلْقُ المشارِقِ والمغارِبِ، فلمَّا أحكَمَ الكلامَ في هذا البابِ؛ فرَّع عليها إثباتَ القَولِ بالحَشرِ والنَّشرِ والقيامةِ[1].

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ ﴾.

أي: فاسأَلِ المُشرِكينَ المُنكِرينَ للبَعثِ -يا محمَّدُ-: أهُم أقوَى وأعظَمُ خَلقًا أم مَن خَلَقْنا سِواهم؛ كالسَّمَواتِ والأرضِ والكواكِبِ، والملائِكةِ والشَّياطينِ[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٤، ٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٦).

قال الألوسي: (﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾ أي: أقوى خِلقةً وأمْتَنُ بِنْيَةً، أو أصعَبُ خَلقًا وأشَقُّ إيجادًا). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٧٣).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ﴾ أي: مَن عَدَدْنا خَلْقَه ممَّن تقدَّم ذِكرُه مِن الملائكةِ والشَّياطِينِ والسَّمواتِ والأرضِ إلى غيرِ ذلك مِن المخلوقاتِ العظيمةِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والزمخشري، والرازي، والرسعني، والبيضاوي، وابن جُزَي، وابن كثير، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٨٦)، ((تفسير الزمخشري)) =

= (٤/ ٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٧٣).

قال ابنُ جُزَي: (ومَقصَدُ الآيةِ: إقامةُ الحُجَّةِ عليهم في إنكارِهم البَعثَ في الآخرةِ، كأنَّه يقولُ: هذه المخلوقاتُ أشَدُّ خَلقًا منكم، فكما قَدَرْنا على خَلْقِهم كذلك نَقدِرُ على إعادتِكم بعدَ فَنائِكم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٩).

وقال الرازي: (التَّقديرُ كأنَّه تعالى يقولُ: استَفْتِ يا محمَّدُ هؤلاء المُنكرين أهُمْ أشَدُّ خَلقًا مِن خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، وخَلقِ المَشارِقِ والمَغارِبِ، وخَلقِ الشَّياطينِ الَّذين يَصعَدون الفلَكَ؟! ولا شكَّ أنَّهم يَعترِفون بأنَّ خَلقَ هذا القِسْمِ أشَقُّ وأشَدُّ في العُرفِ مِن خَلقِ القِسمِ الأوَّلِ، فلمَّا ثبَت بالدَّلائلِ المذكورةِ في إثباتِ التَّوحيدِ كَوْنُه تعالى قادرًا على هذا القِسمِ الَّذي هو أشَدُّ وأصعبُ، فبأنْ يَكونَ قادرًا على إعادةِ الحياةِ في هذه الأجسادِ كان أَوْلى، ونظيرُ هذه الدَّلالةِ قولُه تعالى في آخرِ يس: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٢).

وقيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: إيجادُهم بعدَ موتِهم أشَدُّ خَلقًا وأشَقُّ ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مِن هذه المخلوقاتِ؟ فلا بدَّ أن يُقِرُّوا أنَّ خَلقَ السَّمَواتِ والأرضِ أكبَرُ مِن خلقِ النَّاسِ؛ فيَلزَمُهم إذَن الإقرارُ بالبَعثِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٤).

وقيل: المعنى: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ أي: مِن الأممِ الخاليةِ. وممَّن اختاره: الثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٠).

والمعنى على ذلك: أهُمْ أشَدُّ خَلقًا أمْ مَن خلَقْنا مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ قَبْلَهم، وقد أهلَكْنا أولئك حينَ كذَّبوا وكَفَروا وكانوا أشَدَّ منهم قُوَّةً وأعظَمَ بَطشًا، فما ظَنُّ هؤلاء؟! يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٧٤).

قال الزمخشري: (وليس هذا القولُ بملائم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧)

قال الطِّيبي: (لأنَّ ﴿مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مُطْلَقٌ يُحمَلُ على المُقيَّدِ، ولم يَسبِقْ للأُمَمِ الماضيةِ ذِكرٌ، وقد سبق ذِكرُ الملائكةِ والسَّمواتِ وغيرِهما؛ فوجَبَ تقييدُه بها... وأيضًا الفاءُ في قوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ يقتضي ترتُّبَ الثَّاني على الأوَّلِ). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٢٧). =

كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧].

ثُمَّ بَيَّن الله تعالى أنَّهم خُلِقوا مِن شَيءٍ ضعيفٍ، فقال[١]:

﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾.

أي: إنَّا ابتَدَأْنا خَلْقَ النَّاسِ مِن طِينٍ لاصقٍ[٢].

﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قرَّر الدَّليلَ القاطِعَ في إثباتِ إمكانِ البَعثِ والقيامةِ؛ حكى عن المُنكِرينَ أشياءَ، أوَّلُها: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتعجَّبُ مِن إصرارِهم على الإنكارِ، وهم يَسخَرونَ منه في إصرارِه على الإثباتِ[٣]!

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿عَجِبْتُ﴾ بضَمِّ التَّاءِ، على معنى: إخبارِ اللهِ تعالى عن نَفْسِه بالعَجَبِ؛ إمَّا مِن إنكارِهم البَعثَ، أو سُخريتِهم مِنَ الرَّسولِ والقُرآنِ، وتَكذيبِهم به، أو مِن اتِّخاذِهم شَريكًا مع اللهِ تعالى، وعلى هذه القِراءةِ فالآيةُ مِن آياتِ الصِّفاتِ، والعَجَبُ صِفةٌ لله يجِبُ الإيمانُ بها على الوَجهِ الَّذي يَليقُ باللهِ سُبحانَه وتعالى[٤].

= ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٠، ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧، ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٤).

(٤) قرأ بها حمزةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٦). =

٢- قِراءةُ ﴿عَجِبْتَ﴾ بفَتحِ التَّاءِ، خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

أي: بل عَجِبْتَ -يا مُحمَّدُ- مِن تَكذيبِهم بالبَعثِ بعدَ المَوتِ، وهم بخِلافِ ذلك يَسخَرونَ ممَّا تَقولُ في شأنِ البَعثِ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٣)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠١، ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٦ - ٦٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٨).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠١، ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٦، ٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٣، ٥١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١).

قال ابن عطيَّة: (أي: عَجِبتَ يا محمَّدُ مِن إعراضِهم عن الحقِّ، وعَماهُم عن الهُدى، وأن يَكونوا كافرين مع ما جِئتَهم به مِن عندِ الله). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٧).

وقيل: المرادُ: عَجَبُه ممَّا نَزَل عليه مِن القُرآنِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والسمعاني، والقرطبي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٤).

قال القُرطبي: (﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ قيل: الواوُ واوُ الحالِ، أي: عَجِبتَ منهم في حالِ سُخريتِهم. وقيل: تمَّ الكلامُ عندَ قَولِه: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾، ثمَّ استأنفَ فقال: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ أي: مِمَّا جِئتَ به إذا تَلَوْتَه عليهم. وقيل: يَسخَرونَ منك إذا دعَوْتَهم). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧١).

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ١٣ ﴾.

أي: وإذا ذُكِّرَ المُشرِكونَ بالقُرآنِ فإنَّهم لا يَنتَفِعونَ بالتَّذكيرِ[(١)]!

﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إعراضَهم عن المسموعِ؛ أتْبَعَه إعراضَهم عن المرئيِّ[(٢)].

﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤ ﴾.

أي: وإذا رأَوا مُعجِزةً ظاهِرةً تَدُلُّ على صِدقِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَسخَرونَ منها[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٣، ٥١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١).

قال ابن عاشور: (والتَّذكيرُ بأنْ يَذْكُروا ما يَغْفُلونَ عنه مِن قُدْرةِ اللهِ تعالى عليهم، ومِن تنظيرِ حالِهم بحالِ الأُمَمِ الَّتي استأْصَلَها اللهُ تعالى، فلا يَتَّعِظوا بذلك عنادًا، فأَطْلَقَ ﴿لَا يَذۡكُرُونَ﴾ على أثَرِ الفعلِ، أي لا يَحصُلُ فيهم أثَرُ تَذَكُّرِ ما يُذَكَّرونَ به وإنْ كانوا قد ذَكَروا ذلك. ويجوزُ أنْ يُرادَ: لا يَذْكُرونَ ما ذُكِّروا به، أي: لِشِدَّةِ إعراضِهم عن التَّأمُّلِ فيما ذُكِّروا به لاستِقرارِ ما ذُكِّروا به في عقولِهم، فلا يَذْكُرونَ ما هم غافِلونَ عنه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٧).

وقيل: ذُكِّروا ما يَعرِفونَه في فِطَرِهم وعُقولِهم. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٧).

قيل: معنى: ﴿يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾: يَسْخَرونَ. وممَّن قال بهذا المعنى: أبو عُبَيدةَ، وابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٦٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١). =

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ١٥ ﴾.

أي: وقال المُشرِكونَ: ما هذا الَّذي جاءَنا به محمَّدٌ إلَّا سِحرٌ في غايةِ الوُضوحِ[1].

كما قال اللهُ تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴾ [هود: ٧].

﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى يُبيِّنُ السَّبَبَ الَّذي يَحمِلُ الكافِرينَ على الاستِهزاءِ بالقَولِ بالبَعثِ، وعلى عَدَمِ الالتِفاتِ إلى الدَّلائِلِ الدَّالَّةِ على صِحَّةِ القَولِ، وعلى

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٥).

وقيل: المرادُ: أنَّهم يَطلُبونَ السُّخريةَ بها، بأن يَدْعُوَ بَعضُهم بعضًا لذلك؛ مِن شِدَّةِ استِهزائِهم. وممَّن قال بذلك: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٠٣).

وقيل: المعنى: يُبالِغون في السُّخْريةِ، فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الشوكاني، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٦).

قيل: المرادُ أنَّ المُعجِزةَ الَّتي جاءَتهم سِحرٌ. وممَّن قال بذلك: الرازيُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧١).

وقيل: المرادُ أنَّ دعوى إعادةِ الحياةِ بعدَ البِلى كلامُ سِحرٍ مُبينٌ، أي: كلامٌ لا يُفهَمُ، قُصِدَ به سِحرُ السَّامِعِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٨). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٤).

الاستِهزاءِ بجَميعِ المُعجِزاتِ، وهو قَولُهم[١]:

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

أي: قال المُشرِكونَ استِبعادًا وإنكارًا لوُقوعِ البَعثِ: أئِذا مِتْنا وصِرْنا في قُبورِنا تُرابًا وعِظامًا أئِنَّا لَمبعوثونَ أحياءً مِن بعدِ ذلك[٢]؟!

﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: أَوَيُبعَثُ أيضًا آباؤُنا الَّذين ماتوا قَبْلَنا، وطال مُكثُهم تحتَ الأرضِ، وتلاشَت أجزاؤُهم، فلم يَبقَ لها أثَرٌ[٣]؟!

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى إمكانَ البَعثِ؛ بيَّنَ وُقوعَه[٤]، فقال:

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: نَعَم، سيَبعثُكم اللهُ أحياءً بعدَ أن تَصيروا تُرابًا وعِظامًا، ويَبعَثُ آباءَكم الأوَّلينَ، وأنتم أذِلَّاءُ صاغِرونَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٤/ ٥٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٧٦، ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٦، ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٩). =

كما قال تعالى ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ في الآيةِ المتقَدِّمةِ ما يدُلُّ على إمكانِ البَعثِ والقيامةِ، ثمَّ أردَفَه بما يدُلُّ على وُقوعِ القيامةِ؛ ذكَرَ في هذه الآياتِ بعضَ تفاصيلِ أحوالِ القيامةِ[(١)]:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ١٩﴾.

أي: فإنَّما هي[(٢)] صَيحةٌ واحِدةٌ بلا تَكرارٍ، فيَخرُجونَ مِن الأرضِ أحياءً يَنظُرونَ[(٣)].

= وممَّن قال بالمعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادرُ السَّابقةُ.

قال القرطبي: (﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: صاغِرونَ أذِلَّاءُ؛ لأنَّهم إذا رأَوا وُقوعَ ما أنكَروه فلا محالةَ يَذِلُّونَ. وقيل: أي: ستَقومُ القيامةُ وإن كرِهتُم، فهذا أمرٌ واقِعٌ على رَغمِكم، وإن أنكَرْتُموه اليومَ بزَعمِكم). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٢).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ المذكورينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٥).

(٢) قال ابنُ عثيمين: (الضَّميرُ مَرجِعُه مُستفادٌ مِن الخبرِ، أي: فإنَّما الزَّجرةُ لِبَعثِهم زَجرةٌ واحِدةٌ... وقال بَعضُهم ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي: البَعثةُ الَّتي يُبعَثونَها، أي: ما بَعْثَتُهم إلَّا زَجرةٌ واحِدةٌ، أي: بزَجرةٍ واحِدةٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٥١).

وقال ابنُ عاشور: (وضميرُ ﴿هِيَ﴾ ضميرُ القصَّةِ، وهو ضميرُ الشَّأْنِ. واختِيرَ الضَّميرُ المؤَنَّثُ؛ لِيَحْسُنَ عَوْدُه إلى ﴿زَجْرَةٌ﴾، وهذا مِن أحسَنِ استِعمالاتِ ضميرِ الشَّأْنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧، ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٩، ١٠٠). =

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((... يُصعَقُ النَّاسُ، ثمَّ يُرسِلُ اللهُ -أو قال: يُنزِلُ اللهُ- مَطَرًا كأنَّه الطَّلُّ أو الظِّلُّ، فتَنبُتُ منه أجسادُ النَّاسِ، ثمَّ يُنفَخُ فيه أُخرى، فإذا هم قيامٌ يَنظُرونَ، ثمَّ يُقالُ: يا أيُّها النَّاسُ، هَلُمَّ إلى رَبِّكم ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾))[1].

﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ٢٠﴾.

أي: ويَقولُ المُشرِكونَ إذا بعَثَهم اللهُ يومَ القيامةِ نادِمينَ ومُتحَسِّرينَ على تَكذيبِهم بالبَعثِ:

يا وَيْلَنا، هذا يومُ الحِسابِ والجَزاءِ[2].

﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢١﴾.

أي: فيُقالُ لهم يومَ القيامةِ: هذا يومُ حُكمِ اللهِ وقَضائِه بيْنَ عبادِه، الَّذي كنتُم

= قال ابن جُزَي: (﴿فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ مِن النَّظَرِ بالأبصارِ، أو مِنَ الانتِظارِ، أي: يَنتَظِرونَ ما يُفعَلُ بهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٨).

وممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٧).

واختلَف أصحابُ هذا القَولِ في هذا النَّظَرِ: إلى أيِّ شَيءٍ يكونُ؟ فقيل: يَنظُرونَ إلى ما كانوا يُوعَدونَه مِن قيامِ السَّاعةِ وأهوالِها، ويُعاينونَه. وقيل: يُبصِرونَ ما يَفعَلُ اللهُ بهم مِن العَذابِ. وقيل: يَنظُرُ بَعضُهم إلى بعضٍ. تُنظر: المصادرُ السَّابقةُ.

وممَّن اختار أنَّ ﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنى: يَنتَظِرونَ: السَّمعانيُّ، وهو ظاهِرُ اختيارِ العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥١٠).

(١) رواه مسلم (٢٩٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠).

في الدُّنيا تُكذِّبونَ به[١].

كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ * فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: ٣٨، ٣٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ المخلوقُ مِن الماءِ والطِّينِ بَشَرٌ ضَعيفٌ، لا يَملِكُ لِنَفْسِه ولا لِمَن تعلَّقَ به: جَلْبَ مَنفعةٍ، ولا دَفْعَ مَضَّرةٍ؛ فإنَّ الماءَ والطِّينَ مُنفَعِلٌ لا فاعِلٌ، وعاجِزٌ مَهينٌ لا قَويٌّ مَتينٌ، فحقيقٌ بابنِ الماءِ والطِّينِ أن يَشْخَصَ عنه القلبُ لا إليه، وأنْ يُعَوِّلَ على خالقِه وحْدَه لا عليه، وأن يَجعلَ رغبتَه كلَّها فيه وفيما لَدَيْه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ﴾ أنَّه يَجبُ على الدُّعاةِ إلى الحَقِّ أن يَصبِروا على ما يَنالُهم مِن النَّاسِ مِن السُّخْريةِ، ولْيَعلَموا أنَّ العاقبةَ للمُتَّقينَ، وإذا كان الرُّسُلُ قد سَخِرَ النَّاسُ منهم؛ فكيفَ بمَن دونَهم[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠١).

قال ابنُ عطيَّة: (أجمَعوا أنَّ قَولَه تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ: ليس مِن قَولِ الكَفَرةِ، وإنَّما المعنى: يُقالُ لهم...). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٨).

وذكر الزمخشريُّ احتمالًا أن يكونَ مِن كلامِ الكَفَرةِ بعضِهم مع بعضٍ، وجَوَّزَه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠١).

واستظهره أبو حيَّانَ، قال: (والظَّاهرُ أنَّ قولَه: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ مِن كلامِ بعضِ الكفَّارِ لبعضٍ، إلى آخِرِ الجُملتَينِ، أقَرُّوا بأنَّه يومُ الجزاءِ، وأنَّه يومُ الفصلِ، وخاطَبَ بعضُهم بعضًا). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٤٣).

٣- قال تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾، وقال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ [الرعد: ٥] والتعجُّبُ مِن الباطلِ إنكارًا له، والتعجُّبُ مِن الباطل مبالغةً في إنكارِه واستقباحِه لا يصدرُ إلَّا مِن قلبٍ مملوءٍ بالإيمانِ، منوَّرٍ بالعرفانِ، وهو وسيلةٌ إلى تركِ ما أنكَره[١].

٤- أنَّه يجبُ الرَّدُّ على شُبُهاتِ أهلِ الباطِلِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يَقُلْ: اترُكْهم، بل قال: ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ أنَّه ينبغي في المُجادَلةِ أنْ يُؤتَى بما يُقِرُّ به الخَصمُ؛ لِيَكونَ حُجَّةً عليهم؛ لأنَّهم سَيُقِرُّون بأنَّ مَن خَلَقَه اللهُ أشَدُّ خَلقًا منهم؛ فإذا أقَرُّوا بذلك قامَت عليهم الحُجَّةُ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۞ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۞ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ۞ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۞ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۞ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ مَن تأمَّلَ في هذه الآياتِ عَلِمَ أنَّها ورَدَت على أحسَنِ وُجوهِ التَّرتيبِ؛

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٥٦)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٥٠).

قال ابنُ تيميَّةَ: (يجبُ أن يُعلَمَ أنَّ الأمورَ المعلومةَ مِن دينِ المسلمينَ لا بُدَّ أن يكونَ الجوابُ عمَّا يُعارِضُها جوابًا قاطعًا لا شُبْهةَ فيه، بخِلافِ ما يَسلُكُه مَن يَسلُكُه مِن أهلِ الكلامِ الَّذين يَزعُمون أنَّهم يُبيِّنون العِلمَ واليقينَ بالأدِلَّةِ والبراهين، وإنَّما يستفيدُ النَّاظرُ في كلامِهم كثرةَ الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ... فكلُّ مَن لم يُناظِرْ أهلَ الإلحادِ والبِدَعِ مُناظَرةً تَقطَعُ دابرَهم؛ لم يكُنْ أعطى الإسلامَ حقَّه، ولا وفَى بموجَبِ العِلمِ والإيمانِ، ولا حصَل بكلامِه شِفاءُ الصُّدورِ، وطُمأنينةُ النُّفوسِ، ولا أفاد كلامُه العِلمَ واليقينَ). ((درء تعارض العقل والنقل)) (١/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٩).

وذلك لأنَّه بيَّن الإمكانَ بالدَّليلِ العَقليِّ، وبيَّن وُقوعَ ذلك المُمكِنِ بالدَّليلِ السَّمعي، ومِنَ المعلومِ أنَّ الزِّيادةَ على هذا البَيانِ كالأمرِ المُمتَنِعِ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ ﴾ تَفاوُتُ الخَلقِ في العِظَمِ، فتَكونُ المخلوقاتُ مُتفاوِتةً في عِظَمِها ودَلالتِها على قُدرةِ اللهِ؛ لأنَّ ما كان أعظَمَ كان أدَلَّ على القُدرةِ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴾ الإشارةُ إلى إمكانِ البَعثِ، وأنَّ اللهَ قادِرٌ عليه؛ وَجْهُه: أنَّ القادِرَ على هذه المخلوقاتِ الَّتي هي أشَدُّ خَلْقًا مِنهم، وعلى خَلقِهم مِن الطِّينِ- قادِرٌ على إعادتِهم(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴾ بَيانُ قُدرةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ حيثُ خَلَقَ هذا الإنسانَ الخَصيمَ المُبينَ مِن هذا الطِّينِ(٤)!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ ﴾ عُلُوُّ منزلةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيث اعتبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ تَعَجُّبَه تعجُّبًا يُنَوِّهُ عنه، ومعلومٌ أنَّ الَّذي يُنَوِّهُ عن أحوالِه عظيمٌ عندَ مَن نَوَّهَ عنه، بخِلافِ مَن لا يُؤْبَهُ له، ولا يُهْتَمُّ به(٥).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتُ﴾ -على قراءةِ ضمِّ التَّاءِ(٦)-: دَليلٌ على إثباتِ صِفةِ العَجَبِ للهِ تعالى(٧). وأنواعُ العَجَبِ ثلاثةُ أقسامٍ: عجَبُ استِحسانٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٣).

(٦) تقدمَ الكلامُ على هذه القراءةِ (ص:٣٤٦).

(٧) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٨).

وعجَبُ إنكارٍ، وعَجَبُ استِفهامٍ، والعَجَبُ الَّذي بمعنى الاستِفهامِ لا يكونُ في حَقِّ اللهِ تعالى؛ لأنَّه يكونُ لخَفاءِ الأسبابِ على هذا المُستَغرِبِ للشَّيءِ المتعَجَّبِ منه، بحيثُ يأتيه بَغْتةً بدُونِ تَوقُّعٍ، وهذا مُستحيلٌ على اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ. مِثالٌ للعَجَبِ الَّذي يَحمِلُ عليه الاستِحسانُ: قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((قد عَجِب اللهُ مِن صَنيعِكما بضَيْفِكما اللَّيلةَ))[1]، ومِثالُ عجَبِ الإنكارِ مِن اللهِ تعالى قَولُه: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾، فهذا عَجَبُ إنكارٍ[2].

٨- أنَّ الجَدَّ يُسمَّى أبًا؛ لأنَّهم قالوا: ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾، وآباؤُهم الأوَّلُون أجدادٌ سابِقونَ، فالجَدُّ يُسمَّى أبًا، ويَتفرَّعُ على ذلك مسألةٌ فَرَضِيَّةٌ، وهي: أنَّ الجَدَّ يُسْقِطُ الإخوةَ، أشقاءَ كانوا أمْ لأبٍ أمْ لأمٍ[3]. كما يسقطون بالأبِ.

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ أنَّ المكذِّبين بالبعثِ يُحشَرون يومَ القيامةِ صاغِرينَ، وكما في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾[4] [الشورى: ٤٥].

- في قَولِه تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ بَيانُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ تَخرُجُ الخلائِقُ كُلُّها بزَجرةٍ واحدةٍ، وتَخرُجُ الخلائِقُ كُلُّها فَورًا بدونِ تأخيرٍ؛ ففيه دَليلٌ على القُدرةِ مِن وَجهَينِ؛ الوَجهُ الأوَّلُ: عدمُ تَكرارِ الأمرِ. والوَجهُ الثَّاني:

---

(١) جزءٌ من حديثٍ أخرجه البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧).

وهذا المذكورُ -أي: حَجْبُ الجدِّ للإخوةِ- هو قولُ أبي حنيفةَ، وهو خلافُ قولِ مالكٍ، والشَّافعيِّ، وأحمدَ. يُنظر: ((اختلاف الأئمة العلماء)) لابن هبيرة (٢/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٥٠).

سُرعةُ الائتِمارِ والامتِثالِ لأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّهم بمُجرَّدِ ما يَخرُجونَ يكونونَ أحياءً يَعقِلون ويُدرِكون، وليس كالطِّفلِ الَّذي يَخرُجُ مِن بطنِ أُمِّه لا يَعلمُ شَيئًا[٢]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾

- قَولُه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ الفاءُ تَفريعٌ على قَولِه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصَّافَّات: ٦] باعتِبارِ ما يَقتَضيه مِن عَظيمِ القُدرةِ على الإنشاءِ، أيْ: فسَلْهُم عن إنكارِهمُ البَعثَ، وإحالَتِهم إعادةَ خَلقِهم بعدَ أنْ يَصيروا عِظامًا ورُفاتًا، أخَلْقُهم حينَئذٍ أشَدُّ علينا، أمْ خَلْقُ تلك المَخلوقاتِ العَظيمةِ؟! وضَميرُ الخِطابِ مُوَجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أيْ: فسَلْهم، وهو سُؤالُ مُحاجَّةٍ وتَغليطٍ[٣].

- وضَميرُ الغَيبةِ في قَولِه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ عائدٌ إلى غَيرِ مَذكورٍ؛ لِلعِلْمِ به مِن دَلالةِ المَقامِ، وهم الَّذين أحالوا إعادةَ الخَلقِ بَعدَ المَماتِ[٤].

- وهَمزةُ ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ للاستِفهامِ المُستَعمَلِ لِلتَّقريرِ بضَعفِ خَلقِ البَشَرِ بالنِّسبةِ لِلمَخلوقاتِ السَّماويَّةِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ يَؤولُ إلى الإقرارِ؛ حيث إنَّه يُلجِئُ المُستَفهَمَ إلى الإقرارِ بالمَقصودِ مِن طَرَفَيِ الاستِفهامِ، فالاستِفتاءُ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَعنى الاستِفهام، فهو يُستعمَلُ في كُلِّ ما يُستعمَلُ فيه الاستِفهامُ، والهمزةُ أُجرِيتْ على الاستفهامِ ظاهرًا؛ لِيُجعَلَ المُقَرَّرُ غيرَ مقرَّرٍ، فيَصِحَّ دخولُ «استَفْتِهم» عليها، والفائِدةُ: الإنكارُ والتَّوبيخُ، كأنَّه لم يَعلَمْ ذلك فاستَفْهَمَ، مع أنَّ هذا الأمرَ المسؤولَ مُقرَّرٌ مُعَيَّنٌ، والأسلوبُ مِن بابِ سَوقِ المَعلومِ مَساقَ غَيرِه[1].

- وقَولُه: ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ يَحتمِلُ: أقوى خَلقًا، مِن قَولِهم: شَديدُ الخَلقِ، وفي خَلقِه شِدَّةٌ، على سَبيلِ الإنكارِ، وأصعَبُ خَلقًا وأشَقُّه، على مَعنى الرَّدِّ لِإنكارِهمُ البَعثَ والنَّشأةَ الأُخرى، وأنَّ مَن هانَ عليه خَلقُ هذه الخَلائِقِ العَظيمةِ، ولم يَصعُبْ عليه اختِراعُها؛ كان خَلقُ البَشَرِ عليه أهْوَنَ[2].

- وجاء قَولُه: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مُطلَقًا مِن غَيرِ تَقييدٍ بالبَيانِ؛ اكتِفاءً ببَيانِ ما تَقدَّمَه، كأنَّه قال: خَلَقْنا كذا وكذا مِن عَجائِبِ الخَلقِ وبَدائِعِه، فاستَفْتِهم: أهُم أشَدُّ خَلْقًا أمِ الَّذي خَلَقْناه مِن ذلك[3]؟!

- وجيءَ باسمِ العاقِلِ -وهو (مَنْ) المَوصولةُ-؛ تَغليبًا لِلعاقِلينَ مِنَ المَخلوقاتِ[4].

- قَولُه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ قَولٌ في مَوضِعِ العِلَّةِ؛ لِمَا يَتوَلَّدُ مِن مَعنى الاستِفهامِ في قَولِه: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مِنَ الإقرارِ بأنَّهم أضعَفُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦، ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦، ٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦، ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦، ٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦، ٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٥).

خَلقًا مِن خَلقِ السَّمَواتِ وعَوالِمِها؛ احتِجاجًا عليهم بأنَّ تَأتِّيَ خَلقِهم بعدَ الفَناءِ أهْوَنُ مِن تَأتِّي المَخلوقاتِ العَظيمةِ المَذكورةِ آنِفًا ولم تَكُنْ مَخلوقةً قَبْلُ؛ فإنَّهم خُلِقوا مِن طينٍ أصلُه تُرابٌ؛ لِأنَّ أصْلَهم -وهو آدَمُ- خُلِقَ مِن طينٍ، كما هو مُقرَّرٌ لَدى جَميعِ البَشَرِ، فكيف يُحيلونَ البَعثَ بمَقالاتِهم الَّتي منها قَولُهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[1] [الصَّافَّات: ١٦]؟!

- قَولُه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أضافَ الخَلقَ مِنَ الطِّينِ إليهم، والمَخلوقُ منه هو أبوهم آدَمُ؛ إذْ كانوا نَسْلَه[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾

- ﴿بَلْ﴾ لِلإضرابِ الانتِقاليِّ مِنَ التَّقريرِ التَّوبيخيِّ إلى أنَّ حالَهم عَجَبٌ، وفِعلُ المُضيِّ مُستَعمَلٌ في مَعنى الأمْرِ، وهو مِن استِعمالِ الخَبَرِ في مَعنى الطَّلَبِ؛ لِلمُبالَغةِ، والمَعنى: اعْجَبْ لهم. ويَجوزُ أنْ يَكونَ العَجَبُ قد حصَلَ مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَمَّا رأى إعراضَهم، وقِلَّةَ إنصافِهم، فيَكونَ الخَبَرُ مُستَعمَلًا في حَقيقَتِه. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الكَلامُ على تَقديرِ هَمزةِ الاستِفهامِ، أيْ: بَلْ أعَجِبتَ؟ والمَعنى على الجَميعِ أنَّ حالَهم حَرِيَّةٌ بالتَّعجُّبِ[3].

- وجيءَ بالمُضارِعِ في ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾؛ لِإفادةِ تَجدُّدِ السُّخريةِ، وأنَّهم لا يَرعَوونَ عنها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٩٧).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾

- قَولُه: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ مُبالَغةٌ في السُّخريةِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ لِلمُبالَغةِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾

- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ خَصُّوا البَعثَ بالإنكارِ؛ إعلامًا بأنَّه أعظَمُ مَقصودٍ بالنِّسبةِ إلى السِّحرِ[٢].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا ﴾ إنكاريٌّ، وأصلُه: أنُبعَثُ إذا مِتْنا؟! فبَدَّلوا الفِعليَّةَ بالاسميَّةِ، وقَدَّموا الظَّرفَ، وكَرَّروا الهَمزةَ؛ مُبالَغةً في الإنكارِ، وإشعارًا بأنَّ البَعثَ مُستَنكَرٌ في نَفْسِه، وفي هذه الحالِ أشَدُّ استِنكارًا، وكذا تَحليةُ جُملةِ ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ بـ (إنَّ) واللَّامِ، لِتأكيدِ الإنكارِ[٣].

- قَولُه: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ أيْ: كان بَعضُ أجزائِنا تُرابًا، وبَعضُها عِظامًا. وتَقديمُ التُّرابِ؛ لِأنَّه مُنقَلِبٌ مِنَ الأجزاءِ البادِيةِ[٤]، ولأنَّه أدَلُّ على مُرادِهم؛ لأنَّه أبْعَدُ عن الحياةِ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾، وقال بَعْدُ في هذه السُّورةِ: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ * يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٤).

[الصَّافَّات: ٥١-٥٣]، فقال هنا: ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾، وفيما بَعْدَه: ﴿لَمَدِينُونَ﴾، فاختَلَفا في المَكانَين، وإنْ كانا فيما يُرادُ مِن تَحقيقِ الإحياءِ بعدَ المَوتِ سواءً؛ وذلك لِمُناسَبةٍ حَسَنةٍ: أنَّ ما هنا حِكايةُ ما قاله الكُفَّارُ مِن إنكارِ البَعثِ، والمَبعوثُ هو الَّذي يُبعَثُ مِن قَبرِه، ويَحيا بعدَ مَوتِه، والمَدينُ هو المُجازَى بما كان مِن كَسبِه، والبَعثُ قَبْلَ الجَزاءِ، وهو يُفعَلُ مِن أجْلِه. وحِكايةُ الآخَرِ الَّذي قال: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٥٣] إنَّما هي عِندَ حُصولِه في النَّارِ، وهو الجَزاءُ الَّذي أنكَرَه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصَّافَّات: ٥٤، ٥٥]، فهذا المُؤمِنُ الَّذي حَكى اللهُ تعالى عنه قَولَه، وأنَّه أخبَرَ عن قَرينِه في الدُّنيا بأنَّه كان يُنكِرُ أنْ يُحيَا ويُدانَ بما صَنَعَ هو الَّذي إذا رآهُ في سَواءِ الجَحيمِ: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصَّافَّات: ٥٦، ٥٧]، فالتَّفريعُ على ما أنكَرَ إنَّما يَقَعُ إذا تَحقَّقَ وحَصَلَ فيه مِن كُفرِه، نَعوذُ باللهِ مِن عِقابِه[١]. وقِيل غيرُ ذلك[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾

- الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ تَضمَّنَ إنكارًا واستِبعادًا لِلبَعثِ، يَعنونَ أنَّ آباءَهم أقدَمُ؛ فبَعثُهم أبعَدُ وأبطَلُ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٨٩-١٠٩١)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٨، ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٩).

- قَولُه: ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ﴾ -بفَتحِ الواوِ- والواوُ واوُ العَطفِ، والهَمزةُ هَمزةُ استِفهامٍ، فهُما حَرْفانِ، وقُدِّمتْ هَمزةُ الاستِفهامِ على حَرفِ العَطفِ حسَبَ الاستِعمالِ الكَثيرِ، والتَّقديرُ: وآباؤُنا الأوَّلونَ مِثلُنا، وفي قِراءةٍ (أَوْ آباؤُنَا) -بسُكونِ واوِ (أَوْ)[1]- على أنَّ الهَمزةَ مع الواوِ حَرفٌ واحِدٌ هو (أَوْ) العاطِفةُ المُفيدةُ للتَّقسيمِ هنا، ووَجهُ العَطفِ بـ (أَوْ) هو جَعلُهمُ الآباءَ الأوَّلينَ قِسْمًا آخَرَ؛ فكان عَطفُه ارتِقاءً في إظهارِ استِحالةِ إعادةِ هذا القِسمِ؛ لِأنَّ آباءَهم طالَتْ عُصورُ فَنائِهم، فكانتْ إعادةُ حَياتِهم أوْغَلَ في الاستِحالةِ[2].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾

---

(١) وهي قراءةُ نافعٍ، وابنِ عامرٍ. وقرأ الباقون ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ﴾ بفتحِ الواوِ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٨)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٨، ٩٩).

قال الشنقيطي: (همزة الاستفهام إذا جاءت بعدَها أداةُ عطفٍ كالواوِ والفاءِ وثمَّ، نحو: ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ﴾ ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [الأعراف: ٩٧]، ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ [يونس: ٥١]- ففي ذلك وجهانِ لعلماءِ العربيَّةِ والمفسِّرينَ؛ الأوَّلُ منهما: أنَّ أداةَ العطفِ عاطفةٌ للجملةِ المُصَدَّرةِ بالاستِفهامِ على ما قبْلَها، وهمزةُ الاستِفهامِ متأخِّرةٌ رُتبةً عن حرفِ العطفِ، ولكنَّها قُدِّمَتْ عليه لفظًا لا معنًى؛ لأنَّ الأصلَ في الاستفهامِ التَّصديرُ به كما هو معلومٌ في محلِّه. والمعنى على هذا واضحٌ، وهو أنَّهم أنكَروا بَعْثَهم أنفُسَهم بأداةِ الإنكارِ الَّتي هي الهمزةُ، وعطَفوا على ذلك بالواوِ إنكارَهم بَعْثَ آبائِهم الأوَّلينَ بأداةِ الإنكارِ الَّتي هي الهمزةُ المُقَدَّمةُ عن محلِّها لفظًا لا رُتْبةً. وهذا القولُ هو قولُ الأقدمينَ مِن علماءِ العربيَّةِ، واختاره أبو حيَّانَ في «البحر المحيط»، وابنُ هشام في «مُغْني اللَّبيب»، وهو الَّذي صِرْنا نميلُ إليه أخيرًا بعدَ أن كنَّا نميلُ إلى غيرِه. الوجهُ الثَّاني: هو أنَّ همزةَ الاستفهامِ في محلِّها الأصليِّ، وأنَّها مُتعلِّقةٌ بجملةٍ محذوفةٍ، والجملةَ المُصَدَّرةَ بالاستفهامِ معطوفةٌ على المحذوفةِ بحرفِ العطفِ الَّذي بعدَ الهمزةِ، وهذا الوجهُ يميلُ إليه الزمخشريُّ في أكثرِ المواضعِ مِن كشَّافِه، ورُبَّما مالَ إلى غيرِه. وعلى هذا القولِ فالتَّقديرُ: أَمَبْعوثون نحنُ وآباؤُنا الأوَّلونَ؟). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٢٢) بتصرفٍ يسيرٍ. ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٠)، ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام (ص: ٢٢-٢٤).

- جَوابٌ على سُؤالِ ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ على طَريقةِ الأُسلوبِ الحَكيمِ[١] بصَرفِ قَصدِهم مِنَ الاستِفهامِ إلى ظاهِرِ الاستِفهامِ، فجُعِلوا كالسَّائلينَ: أيُبعَثونَ؟ فقيل لهم: نَعَمْ؛ تَقريرًا لِلبَعثِ المُستَفهَمِ عنه، أيْ: نَعَمْ تُبعَثونَ. وجيءَ بلَفظِ ﴿قُلْ﴾ غيرَ مَعطوفٍ؛ لِأنَّه جارٍ على طَريقةِ الاستِعمالِ في حِكايةِ المُحاوَراتِ[٢].

- والخِطابُ في قَولِه تَعالى: ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ لهم ولِآبائِهم بطَريقِ التَّغليبِ[٣].

- وقَولُه: ﴿دَٰخِرُونَ﴾ أيْ: صاغِرونَ، وإنَّما اكتَفَى به في الجَوابِ؛ لِسَبقِ ما يدُلُّ على جَوازِه، وقيامِ المُعجِزِ على صِدقِ المُخبَرِ عن وُقوعِه[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾

- فُرِّعَ على إثباتِ البَعثِ الحاصِلِ بقَولِه: ﴿نَعَمْ﴾ أنَّ بَعْثَهم وَشيكُ الحُصولِ، لا يَقتَضي مُعالَجةً ولا زَمَنًا، إنْ هي إلَّا إعادةٌ تَنتَظِرُ زَجْرةً واحدةً[٥].

- والجُملةُ جَوابُ شَرطٍ مُضمَرٍ، أو تَعليلٌ لِنَهيٍ مُقدَّرٍ، أيْ: إذا كانَ كذلك ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾، أو لا تَستَصعِبُوه[٦].

---

(١) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأولَى بحالِه وبالسؤالِ عنه، وهو مِن خلافُ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧).

-ووَصْفُ الزَّجرةِ بـ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ تَأكيدٌ لِمَا تُفيدُه صِيغةُ الفَعْلةِ مِن مَعنى المَرَّةِ؛ لِدَفعِ توَهُّمِ أنْ يَكونَ المُرادُ مِنَ الصَّيحةِ الجِنسَ دونَ الوُجودِ؛ لِأنَّ وَزنَ الفَعْلةِ يَجيءُ لِمَعنى المَصدَرِ دونَ المَرَّةِ. وفُرِّعَ عليه ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾، ودَلَّتْ فاءُ التَّفريعِ على تَعقيبِ المُفاجأةِ، ودَلَّ حَرفُ المُفاجَأةِ على سُرعةِ حُصولِ ذلك[١].

- وكُنيَ عن الحياةِ الكامِلةِ الَّتي لا دَهشَ يُخالِطُها بالنَّظَرِ، في قَولِه: ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ لِأنَّ النَّظَرَ لا يَكونُ إلَّا مع تَمامِ الحياةِ، وأُوثِرَ النَّظَرُ مِن بَينِ بَقيَّةِ الحَواسِّ؛ لِمَزيدِ اختِصاصِه بالمَقامِ، وهو التَّعريضُ بما اعتَراهم مِنَ البَهتِ لِمُشاهَدةِ الحَشرِ[٢].

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾

- يجوزُ أنْ تكونَ الواوُ للحالِ، أي: قائِلينَ: يا ويْلَنا، أي: يقولُ جميعُهم: يا ويلَنا، يقولُه كلُّ أحدٍ عنه وعن أصحابِه. ويجوزُ أن يكونَ عطفًا على جملةِ: ﴿يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩]. والمعنى: ونظَروا وقالوا[٣].

- قَولُه: ﴿وَقَالُواْ﴾ صِيغةُ الماضي لِلدَّلالةِ على التَّحقُّقِ والتَّقرُّرِ[٤].

- قَولُه: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا﴾ حَرفُ النِّداءِ لِلاهتِمامِ[٥].

- قَولُهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ تَعليلٌ لِدُعائِهم الوَيلَ بطَريقِ الاستِئنافِ، أيْ: اليَومُ الَّذي نُجازَى فيه بأعمالِنا، وإنَّما عَلِموا ذلك؛ لِأنَّهم كانوا يَسمَعونَ في الدُّنيا أنَّهم يُبعَثونَ ويُحاسَبونَ ويُجزَوْنَ بأعمالِهم، فلَمَّا شاهَدوا البَعثَ أيْقَنُوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠).

بما بَعْدَه أيضًا[١].

٩- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾

- يَجوزُ أنْ يَكونَ هذا كَلامًا مُوجَّهًا إليهم مِن جانِبِ اللهِ تَعالى جَوابًا عن قَولِهم: ﴿يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الصَّافَّات: ٢٠]، والخَبَرُ مُستَعمَلٌ في التَّعريضِ بالوَعيدِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ مِن كَلامِ المَلائِكةِ، وفيه تَوبيخٌ لهم وتَقريعٌ. وقيل: يَجوزُ أنْ يَكونَ مِن تَمامِ قَولِهم، أيْ: يَقولُ بَعضُهم لِبَعضٍ: هذا يَومُ الفَصلِ[٢].

- وقدَّموا الجارَّ ﴿بِهِۦ﴾؛ إشارةً إلى عَظيمِ تَكذيبِهم به[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٧).

الآيات (٢٢-٢٤)

﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ٢٦ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ٢٨ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ٣٠ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾: أي: أشباهَهم وأمثالَهم ونُظَراءَهم، أو أقرانَهم المقتدينَ بهم في أفعالِهم، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لشَيءٍ[(١)].

﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: أي: النَّارِ، والجُحْمَةُ: شدَّةُ تأجُّجِ النَّارِ، ومنه: الجحيمُ، وأصْلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها[(٢)].

﴿وَقِفُوهُمۡ﴾: أي: احبِسُوهم، وأصلُ (وقف): يدُلُّ على تمكُّثٍ في شَيءٍ[(٣)].

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾: أي: مِن قِبَلِ الدِّينِ والحَقِّ. وقيل: مِن ناحيةِ المواثيقِ والأيْمانِ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٩٠)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٩/ ٣٢، ٣٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٣٣).

واليَمينُ في كلامِ العَرَبِ تُطلَقُ على البَرَكةِ والقُوَّةِ والقُدرةِ، وأصلُها: يمينُ اليَدِ[١].

﴿سُلۡطَٰنٖ﴾: أي: حُجَّةٍ، وأصلُ السُّلطانِ: القُوَّةُ والقَهرُ، مِن التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[٢].

﴿طَٰغِينَ﴾: أي: ضالِّينَ مُتجاوِزينَ الحَقَّ، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[٣].

﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ﴾: أي: زَيَّنَّا لكم، وأضلَلْناكم، والغَيُّ: الجَهلُ، والانهِماكُ في الباطِلِ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمرِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى لملائكتِه يومَ القيامةِ: اجمَعوا الظَّالِمين ونُظراءَهم، وما كانوا يَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ تعالى، فدُلُّوهم إلى طريقِ جهنَّمَ وسُوقوهم إليها، وقِفوهم جميعًا ليُسأَلوا. فيُقالُ لهم: ما لَكم لا يَنصُرُ بَعضُكم بعضًا كما كنتُم تَتناصَرونَ في الدُّنيا على الباطِلِ؟! بل هم يومَ القيامةِ مُستسلِمونَ مُنقادون لأمرِ اللهِ.

ثمَّ يحكي الله تعالى ما يدورُ بيْنَهم مِن تَلاوُمٍ يومَ القيامةِ، فيقولُ: وأقْبَلَ هؤلاء الظَّالِمونَ بعضُهم على بعضٍ يَتلاوَمونَ، قال الأتْباعُ منهم للرُّؤساءِ: إنَّكم كنتُم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠، ٧٢٤، ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).

في الدُّنيا تأتونَنا عن اليمينِ فتُضِلُّونَنا. قال المَتْبوعونَ لأتْباعِهم: ليس الأمرُ كما تقولون؛ فإنَّكم ما كنتُم مؤمنينَ فردَدْناكم عن الإيمانِ، إنَّما الكُفرُ مِن قِبَلِكم، وما كان لنا عليكم مِن سلطانٍ، بل كنتُم قومًا ضالِّينَ مُتجاوِزينَ الحَدَّ! فوجَبَ علينا جميعًا وَعْدُ رَبِّنا بعَذابِ النَّارِ، فنحنُ جميعًا ذائِقوه، فدَعَوْناكم إلى ما كنَّا عليه، وأضْلَلْناكم عن الهدَى؛ إنَّا كنَّا ضالِّينَ.

ثمَّ يبيِّنُ الله سبحانه حُكمَه العادلَ في الجميعِ؛ في الأتْباع والمَتْبوعينَ، فيَقولُ: فإنَّهم هم والَّذين أطاعوهم في الضَّلالةِ شُركاءُ في النَّارِ، إنَّا كذلك نُجازي المجرِمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾.

أي: يُقالُ للمَلائِكةِ يومَ القيامةِ: اجمَعوا الظَّالِمينَ وأشباهَهم الَّذين عَمِلوا بمِثلِ عَمَلِهم، واجمَعوا معهم مَعبوداتِهم الَّتي كانوا يُواظِبونَ على عبادتِها في الدُّنيا مِن دونِ اللهِ تعالى[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨، ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ(أَزْوَاجَهُمْ): أشباهُهم ونُظراؤُهم: ابنُ جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والقرطبي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّاب، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، وسعيدُ ابنُ جُبَيرٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ، وأبو صالحٍ، وأبو العالِيةِ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ * إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ * لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٧ - ٩٩].

﴿... فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾.

أي: دُلُّوا الظَّالِمينَ وأشباهَهم وآلهتَهم إلى طريقِ جَهنَّمَ، وسُوقوهم إليها[1].

= قال الشنقيطي: (جمهورُ أهلِ العِلم -منهم: عُمَرُ، وابنُ عبَّاسٍ- على أنَّ المرادَ به: أشباهُهم ونُظراؤُهم؛ فعابِدُ الوَثَنِ مع عابدِ الوَثَنِ، والسَّارِقُ مع السَّارِقُ، والزَّاني مع الزَّاني، واليهوديُّ مع اليهوديِّ، والنَّصرانيُّ مع النَّصرانيِّ... وهكذا. وإطلاقُ الأزواجِ على الأصنافِ مَشهورٌ في القرآنِ، وفي كلامِ العرَبِ...). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٠٩).

وقال الواحدي: (وقال جماعةُ المفسِّرينَ: أشباهَهم وأمثالَهم، وأتْباعَهم ونُظراءَهم وضُرَباءَهم. وعلى هذا القولِ يُحمَلُ الَّذين ظلَموا على القادةِ والرُّؤساءِ، وأزواجُهم أتْباعُهم). ((الوسيط)) (٣/ ٥٢٣).

وقيل: المرادُ بهم الزَّوجاتُ الموافِقاتُ لأزواجِهنَّ في الإشراكِ باللهِ تعالى. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه -واستغربها ابنُ كثيرٍ-، ورُوِيَ عن عُمرَ بنِ الخطَّابِ، وقاله الحسَنُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣).

قال ابنُ تيميَّةَ: (ليس المرادُ أنَّه يُحشَرُ معهم زَوجاتُهم مُطلَقًا؛ فإنَّ المرأةَ الصَّالحةَ قد يكون زَوجُها فاجِرًا بل كافِرًا، كامرأةِ فِرعَونَ، وكذلك الرَّجُلُ الصَّالحُ قد تكونُ امرأتُه فاجرةً بل كافِرةً، كامرأةِ نُوحٍ ولُوطٍ، لكِنْ إذا كانت المرأةُ على دينِ زَوجِها دخَلَت في عُمومِ الأزواجِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٠). =

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: يُقالُ للمَلائِكةِ: قِفُوهم[(١)] مع نُظَرائِهم وآلهتِهم حتَّى يُسأَلوا[(٢)].

= قيل: المرادُ بقوله: ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾: فقُودوهم وسُوقوهم. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٨٤).

وقيل: المراد: فأَرشِدوهم ودُلُّوهم. وممَّن قال بهذا المعنى: السمعانيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٨٤).

وقال الشوكاني: (﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: عَرِّفوا هؤلاءِ المحشورينَ طريقَ النَّارِ، وسُوقُوهم إليها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٨).

وقال ابن عثيمين: (﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: دُلُّوهم، وهذه هدايةُ الدَّلالةِ، وهذا لا يُنافي قولَه تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]؛ فإنَّ الَّذي يُساقُ يُهدَى أيضًا، أرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَسوقُ بعيرَه ويَهديها؟ هؤلاء يُساقون وفي نفْسِ الوقتِ يُقالُ: اذهَبوا مِن هنا، اذهبوا مِن هنا، حتَّى يَصِلوا إلى النَّارِ). ((تفسير ابن عثيمين- الصافات)) (ص: ٥٨).

(١) قيل: هذا يكونُ قبْلَ سَوقِهم إلى الجَحيم، أي: قِفوهم للحِسابِ ثمَّ سُوقوهم إلى النَّارِ. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣، ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١، ٧٠٢).

وقيل: هو أمرٌ بوَقفِهم في ابتداءِ السَّيرِ بهم، أي: احبِسوهم عن السَّيرِ قليلًا؛ ليُسأَلوا سُؤالَ تأييسٍ وتحقيرٍ وتغليظٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢).

قال البغوي: (قال المفسِّرون: لَمَّا سِيقوا إلى النَّارِ حُبِسوا عندَ الصِّراطِ؛ لأنَّ السُّؤالَ عندَ الصِّراطِ، فقيل: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾). ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٢، ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣، ٧٤)، =

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((... يُصعَقُ النَّاسُ، ثم يُرسِلُ اللهُ -أو قال: يُنزِلُ اللهُ- مَطَرًا كأنَّه الطَّلُّ أو الظِّلُّ، فتَنبُتُ منه أجسادُ النَّاسِ، ثمَّ يُنفَخُ فيه أُخرى، فإذا هم قِيامٌ يَنظُرونَ، ثمَّ يُقالُ: يا أيُّها النَّاسُ، هَلُمَّ إلى رَبِّكم، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾))[1].

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فيُقالُ لهم: ما لَكم لا يَنصُرُ بَعضُكم بَعضًا، فيَمنَعَه مِن عذابِ اللهِ، ويَدفَعَ عنه الشَّقاءَ الَّذي هو فيه[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٦٢).

وقد نقل ابنُ عَطيَّةَ عن جُمهورِ المفَسِّرينَ أنَّ المرادَ: أنَّهم يُسأَلونَ عن أعمالِهم، ويُوقَفونَ على قُبحِها. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٩).

وقيل: هذا السُّؤالُ هو ما ذُكِر بعدُ، وهو قَولُه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٢٥]. وممَّن اختاره: ابنُ عاشور، وذكره ابنُ عطيَّةَ احتمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٩).

وذكر مُقاتِلٌ أنَّ خَزَنَةَ جَهنَّمَ تَسأَلُهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الزمر: ٧١]. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٦٠٥).

(١) رواه مسلم (٢٩٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢، ١٠٣).

قال الزمخشريُّ: (هذا تهكُّمٌ بهم، وتوبيخٌ لهم بالعَجزِ عن التَّناصُرِ بعدَما كانوا على خِلافِ ذلك في الدُّنيا مُتعاضِدينَ مُتناصِرينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩).

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: بل هم يومَ القيامةِ مُستَسلِمونَ لأمرِ اللهِ، مُنقادونَ إليه، قد أيْقَنوا بعَذابِه؛ فهم ذَليلونَ لا يَنطِقونَ[١].

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: وأقْبَلَ الَّذين ظَلَموا بعضُهم على بعضٍ يَتخاصَمونَ ويَتلاوَمونَ[٢].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن المُشرِكينَ أنَّه: (أقْبَلَ بعضُهم على بعضٍ يتساءَلونَ)؛ شرَحَ كيفيَّةَ ذلك التَّساؤُلِ، فقال[٣]:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: قال الأتْباعُ منهم للَّذين أضَلُّوهم: إنَّكم كُنتُم في الدُّنيا تَأتونَنا عن اليَمينِ[٤]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٠).

(٤) قال ابنُ جُزَي: (واليَمينُ هنا تَحتمِلُ ثلاثةَ معانٍ:
الأوَّلُ: أن يُرادَ بها طَريقُ الخَيرِ والصَّوابِ، وجاءت العبارةُ عن ذلك بلَفظِ اليَمينِ، كما أنَّ العبارةَ عن الشَّرِّ بالشِّمالِ، والمعنى: أنَّهم قالوا لهم: إنَّكم كنتُم تأتونَنا عن طريقِ الخَيرِ فتَصُدُّونَنا عنه.
والثَّاني: أن يُرادَ به القُوَّةُ، والمعنى على هذا: أنَّكم كنتُم تأتونَنا بقُوَّتِكم وسُلطانِكم فتَأمُرونَنا =

فتُضِلُّونَنا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ

= بالكُفرِ، وتَمنَعونَنا مِنَ الإيمانِ.

والثَّالِثُ: أن يُرادَ بها اليَمينُ الَّتي يُحلَفُ بها، أي: كُنتُم تأتونَنا بأن تَحلِفوا لنا أنَّكم على الحَقِّ، فنُصَدِّقَكم في ذلك ونتَّبِعَكم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٠).

ممَّن اختار نحوَ القَولِ الأوَّلِ، أي أنَّ المرادَ: تأتونَنا مِن قِبَلِ الدِّينِ والحَقِّ، فتَخدعُونَنا بأقوى الوُجوهِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزجَّاجُ، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٩).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ، أي أنَ المرادَ باليمينِ: القُوَّةُ والغَلَبةُ والقَهرُ: البِقاعي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢١٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠).

وممَّن اختار نحوَ القَولِ الثَّالثِ، فقال: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: عن الجِهةِ الَّتي كنَّا نأمَنُكم منها؛ لحَلِفِكم إنَّكم على الحَقِّ، فصَدَّقْناكم، فأنتم أضلَلْتُمونا: جلالُ الدِّينِ المحلِّي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥١٣).

وقال القرطبي بعدَ أنْ ذكَرَ هذه المعانيَ وغيرَها: (وكُلُّه مُتقارِبُ المعنَى). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥).

وجمَع ابنُ عثيمينَ بيْنَ هذه المعاني الثَّلاثةِ، فقال: (والحقيقةُ أنَّ كُلَّ هذه الوجوهِ واقِعةٌ مِن المتبوعينَ... فالآيةُ شامِلةٌ لهذه الوجوهِ الثَّلاثةِ؛ يَقولُ الأتْباعُ للمَتْبوعينَ: إنَّكم كنتُم تأتونَنا عن هذه الجِهةِ: الحَلِفِ، أو القُوَّةِ، أو الخَيرِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (٦٥، ٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٤).

ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وقال سُبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ [سبأ: ٣٣].

﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: قال المَتْبوعونَ لأتْباعِهم: ليس الأمرُ كما تَقولونَ مِن أنَّنا أضلَلْناكم عن الحَقِّ، ولكِنْ أنتم أضلَلْتُم أنفُسَكم بالكفرِ، فلمْ تكونوا مُؤمِنينَ باللهِ مِن قَبْلُ، ولم تَقْبَلوا الإيمانَ؛ فالكُفرُ مُتأصِّلٌ في طَبعِكم؛ فلذا تابَعتُمونا فيما أمَرْناكم به، فلا تَلومونا ولُوموا أنفُسَكم[1]!

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ [سبأ: ٣٢].

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٦٦).

أي: وما كان لنا أيُّ سُلطانٍ[١] على ما نَدْعوكم إليه مِن الضَّلالِ؛ لِنَصُدَّكم به عن اتِّباعِ الحَقِّ[٢].

﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾.

أي: وإنَّما كان الطُّغيانُ في طَبعِكم أنتم، فكُنتُم قَومًا مُتجاوِزينَ الحَدَّ، مُتكبِّرينَ عن قَبولِ الحَقِّ، غالِينَ في الكُفرِ، مُسرِفينَ في المعاصي؛ فاستَجبتُم لنا وتَرَكْتُم الحَقَّ الَّذي جاءَتْكم به الأنبياءُ[٣].

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: فوَجَب وثَبَت علينا جميعًا ما وعَدَنا به ربُّنا مِن عذابِ النَّارِ؛ فإنَّا وإيَّاكم لَذائِقوه[٤].

---

(١) قيل: السُّلطانُ هنا بمعنى الحُجَّةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦).
وقيل: هو بمعنى القَهرِ والغَلَبةِ. وممَّن قال بذلك: السعدي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٦٩).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٨].

﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢﴾.

أي: فأضْلَلْناكم عن الهدَى، ودَعَوْناكم إلى ما كنَّا عليه، إنَّا كنَّا ضالِّينَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴾ [القصص: ٦٣].

﴿ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٣﴾.

أي: فإنَّ جميعَ الأتْباعِ والمَتْبوعينَ الضَّالِّينَ مِن الإنسِ والجِنِّ مُشترِكونَ في أصلِ العذابِ يومَ القيامةِ، كما اشترَكوا في الدُّنيا في سَبَبِه، وإن تَفاوَتَ مِقدارُ عذابِ كُلٍّ منهم، كما تَفاوَتوا في مِقدارِ كُفرِهم وعِصيانِهم لرَبِّهم[(٢)].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٤﴾.

أي: إنَّا نُجازي بمِثلِ هذا الجَزاءِ كُلَّ مُتَّصِفٍ بالإجرامِ، يَكتَسِبُ الذُّنوبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥١٤).

قال البِقاعي: (﴿كُنَّا غَوِينَ﴾ أي: في طَبعِنا الغَوايةُ، وهي العُدولُ عن الطَّريقِ المُثلى إلى المهالِكِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٢٢).

وقال الشوكاني: (معنى الآيةِ: أقدَمْنا على إغوائِكم؛ لأنَّا كُنَّا مَوصوفين في أنفُسِنا بالغَوايةِ؛ فأقَرُّوا هاهنا بأنَّهم تسَبَّبوا لإغوائِهم، لكِنْ لا بطريقِ القَهرِ والغَلَبةِ، ونَفَوا عن أنفُسِهم فيما سَبَق أنَّهم قَهَروهم وغَلَبوهم، فقالوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٖ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٩).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١١).

والآثامَ، ويَختارُ الكُفرَ على الإيمانِ[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- النَّهيُ عن مُقارَنةِ الفُجَّارِ ومُزاوجتِهم، كما دلَّ على هذا قولُه تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ أي: وأشباهَهم ونُظراءَهم[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ التَّحذيرُ مِن مُصاحَبةِ أهلِ الغَوايةِ، وقد حَذَّرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن مُصاحبةِ الصَّاحِبِ السُّوءِ، فقال: ((إنَّما مَثَلُ الجليسِ الصَّالحِ والجليسِ السُّوءِ، كحامِلِ المِسكِ ونافخِ الكِيرِ؛ فحاملُ المسكِ إمَّا أنْ يُحْذِيَك[٣]، وإمَّا أنْ تَبتاعَ[٤] منه، وإمَّا أنْ تَجِدَ منه ريحًا طيِّبةً، ونَافخُ الكِيرِ إمَّا أنْ يُحرِقَ ثِيابَك، وإمَّا أنْ تَجِدَ منه ريحًا خَبيثةً))[٥].

٣- أنَّ مَن لم يَكُنْ إيمانُه راسِخًا فإنَّ الدِّعايةَ الباطِلةَ تُؤَثِّرُ عليه؛ لأنَّ المؤمِنَ إيمانًا راسِخًا لا تُضَلِّلُه الدِّعايةُ، ولا يُمكِنُ أنْ يَتحَوَّلَ عن إيمانِه الَّذي كان عليه؛ لِقَولِه: ﴿بَلۡ لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، ولو كنتُم مُؤمِنينَ حَقًّا إيمانًا ثابتًا ما أَثَّرَ عليكم إضلالُنا[٦]، فدَلَّ هذا على أنَّ مَن يَنقادُ لهم هو فاسدٌ أصلًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٢٦).

(٣) يُحذِيَك: أي: يُعطيَك مجَّانًا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٣٦).

(٤) تبتاعَ منه، أي: تَشتريَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٧٣)،
والحديث أخرجه البخاريُّ (٢١٠١)، ومسلمٌ (٢٦٢٨) واللَّفظُ له، من حديث أبي موسى الأَشْعَريِّ رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٦٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ ذكَرَ مِن صِفاتِ الَّذين ظَلَموا كَوْنَهم عابِدِينَ لِغَيرِ اللهِ تعالى، وهذا يدُلُّ على أنَّ الظَّالِمَ المُطْلَقَ هو الكافِرُ، وذلك يدُلُّ على أنَّ كُلَّ وَعيدٍ وَرَد في حَقِّ الظَّالم فهو مَصروفٌ إلى الكُفَّارِ، وممَّا يُؤكِّدُ هذا قَولُه تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1] [البقرة: ٢٥٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ إهانةُ هؤلاء المُشرِكينَ بحَشرِ أصنامِهم إلى النَّارِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ إهانةَ المعبودِ إهانةٌ للعابِدِ[2].

٣- بالعَدلِ والميزانِ قام الخَلقُ والشَّرعُ، وهو التَّسويةُ بيْنَ المُتماثِلَينِ، والتَّفريقُ بيْن المُختَلِفَينِ. وهذا كما أنَّه ثابتٌ في الدُّنيا، فهو كذلك يومَ القيامةِ؛ قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾، فأخبَرَ أنَّ سُنَّتَه لن تُبَدَّلَ ولن تتحَوَّلَ، وسُنَّتُه عادتُه الَّتي يُسَوِّي فيها بيْنَ الشَّيءِ وبيْنَ نَظيرِه الماضي، وهذا يقتَضي أنَّه سُبحانَه يَحكُمُ في الأمورِ المُتماثِلةِ بأحكامٍ مُتماثِلةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٨).
لكن قال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا لفظُ «الظُّلم المُطلَق» فيَدخُلُ فيه الكفرُ وسائرُ الذُّنوبِ؛ قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٦٢).
وقال أيضًا: (الظُّلْمُ المُطْلَقُ يَتناوَلُ الكفرَ، ولا يختصُّ بالكفرِ؛ بل يتناوَلُ ما دونَه أيضًا). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٦١).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٤٨).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ هذه الآيةُ عامَّةٌ، وفي النَّاسِ مَن يَعبُدُ الملائكةَ والصَّالِحينَ، فهل يُحشَرُ هؤلاء المعبودونَ مع هؤلاءِ العابِدينَ؟

فالجوابُ: لا؛ لأنَّ هذا العُمومَ مُخَصَّصٌ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وفي ذلك جوازُ ذِكرِ العُمومِ -وإنْ دَخَلَ فيه مَن ليس فيه- إذا بُيِّنَ في موضعٍ آخَرَ، ويَتفرَّعُ على هذا أنَّه لا يُشتَرَطُ في البَيانِ مُقارَنتُه للمُبَيَّنِ؛ لأنَّ الَّذي يَمتَنِعُ في البيانِ هو تأخيرُه عن وَقتِ الحاجةِ، فإذا بُيِّنَ في وقتِ الحاجةِ زال هذا المحظورُ، وهذا قد بُيِّنَ في آياتٍ كثيرةٍ في القُرآنِ بأنَّ المؤمِنينَ المُتَّقينَ لا يدخلونَ النَّارَ، وكلُّ الآياتِ الَّتي في وَعْدِ المؤمِنينَ والمتَّقينَ تَمنَعُ مِن دُخولِ هؤلاء في النَّارِ، وإنْ كانوا يُعبَدونَ مِن دونِ اللهِ[(١)]. وقيل: المَوصولُ عبارةٌ عن المشْرِكينَ خاصَّةً؛ جِيءَ به لِتَعليلِ الحُكمِ بما في حَيِّزِ صِلَتِه، فلا عمومَ ولا تخصيصَ[(٢)].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ يدُلُّ على أنَّ الهدَى يُستعمَلُ في الإرشادِ والدَّلالةِ على الشَّرِّ، ونظيرُ ذلك في القُرآنِ قَولُه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤][(٣)]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في تفسيرِ الهدَى في الآيةِ الكريمةِ.

٦- مراتِبُ الهُدى أربعةٌ:

إحداها: الهُدى العامُّ، وهو هدايةُ كُلِّ نَفْسٍ إلى مَصالِحِ مَعاشِها وما يُقيمُها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٥٧، ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٠).

وهذا أعَمُّ مَراتبِه، قال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣]، وقال تعالى حكايةً عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

المَرتبةُ الثَّانيةُ: الهُدى بمعنى البَيانِ والدَّلالةِ والتَّعليم، والدَّعوةِ إلى مصالح العَبدِ في مَعادِه، وهذا خاصٌّ بالمُكَلَّفينَ؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فهَداهم هُدى البَيانِ والدَّلالةِ فلم يَهتَدوا، فأضَلَّهم عُقوبةً لهم على تَركِ الاهتِداءِ أوَّلًا بعدَ أن عرَفوا الهُدى فأعرَضوا عنه، فأعماهم عنه بعدَ أنْ أراهُموه.

المرتبةُ الثَّالثةُ: الهدايةُ المُستَلزِمةُ للاهتداءِ، وهي هدايةُ التَّوفيقِ، ومَشيئةُ اللهِ لِعَبدِه الهدايةَ، وخَلْقُه دَواعيَ الهُدى وإرادتَه والقُدرةَ عليه للعَبدِ، وهذه الهدايةُ الَّتي لا يَقدِرُ عليها إلَّا اللهُ عَزَّ وجَلَّ؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

المَرتبةُ الرَّابعةُ: الهدايةُ يومَ المَعادِ إلى طَريقِ الجَنَّةِ والنَّارِ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾، وقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((والَّذي نفْسُ مُحمَّدٍ بيدِه، لَأَحَدُهم أهْدَى بمَنزِلِه في الجنَّةِ منه بمَنزِلِه كان في الدُّنيا))(١).

٧- قولُه تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾، وقولُه: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥- ٨٤).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٦٥٣٥) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه.

[يونس: ٤٥] لا يُناقِضُ قولَه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقولَه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠]؛ وذلك مِن وُجوهٍ:

الوجه الأوَّل: أنَّ يومَ القيامةِ مِقدارُهُ خَمسونَ ألْفَ سَنةٍ؛ ففيه أزْمِنةٌ وأحوالٌ مُختلِفةٌ، فيَتعارَفونَ ويَتَساءلون في بعضِها، ويَتحيَّرونَ في بعضِها؛ لشِدَّةِ الفزَعِ، فقيل: نَفْيُ السُّؤالِ عندَ اشْتِغالِهم بالصَّعقِ والمُحاسَبةِ والجَوازِ على الصِّراطِ، وإثباتُه فيما عَدا ذلك.

الوجه الثَّاني: أنَّه إذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفخةٌ واحدةٌ، شُغِلوا بأنفُسِهم عن التَّساؤُلِ، فإذا نُفِخَ فيه أُخرى، أقْبَلَ بعضُهم على بَعضٍ وقالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [يس: ٥٢]؛ فنَفْيُ السُّؤالِ بعدَ النَّفخةِ الأُولَى وقبْلَ الثَّانيةِ، وإثباتُه بعدَهما معًا.

الوجه الثَّالث: المُرادُ: لا يَتساءَلونَ بحُقوقِ النَّسبِ.

الوجه الرَّابع: أنَّ قولَه: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ صِفَةٌ للكُفَّارِ؛ وذلك لشِدَّةِ خَوفِهم، أمَّا قولُه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ فهو صِفةُ أهْلِ الجنَّةِ إذا دَخَلوها[1].

الوجه الخامس: أنَّ قولَه ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: في التَّناصُرِ، فلا يُناقِضُ نَفْيُ التَّساؤُلِ هنا إثباتَه في غَيرِه؛ لأنَّه في غَيرِ تناصُرٍ، بلْ في التَّلاوُمِ والتَّعاتُبِ والتَّخاصُمِ[2].

الوجه السَّادس: أنَّ السُّؤالَ المَنْفيَّ سُؤالٌ خاصٌّ، وهو سُؤالُ بَعضِهم العفْوَ مِن بَعضٍ فيما بيْنَهم مِنَ الحُقوقِ؛ لقُنوطِهم مِنَ الإعطاءِ، ولو كان المَسؤولُ أبًا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٦).

أو ابنًا، أو أمًّا أو زوجةً[١].

٨- إطلاقُ الشَّيءِ على مُسَبِّبِه؛ لِقَولِهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾؛ لأنَّهم لَيسوا هم الَّذين أغْوَوْهم، وإنَّما هم سَبَبُ إغوائِهم؛ فإنَّ الهِدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، لكِنَّ هؤلاء كانوا سببًا في غَوايةِ هؤلاء؛ فأضافوا الفِعلَ إليهم في قَولِهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ﴾ إثباتُ الفِعلِ لله عزَّ وجلَّ، واللهُ سُبحانَه وتعالى فَعَّالٌ لِما يُريدُ، والفِعلُ يقتَضي التَّجَدُّدَ بحَسَبِ المفعولِ؛ فخَلقُ اللهِ للسَّمَواتِ والأرضِ لم يَكُنْ أزَلِيًّا، وإنَّما كان حينَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؛ وخَلْقُ اللهِ للجَنينِ في بطنِ أمِّه لم يكُنْ أزلِيًّا، بل هو حادِثٌ حينَ حُدوثِ هذا الجَنينِ، ويَتفرَّعُ عن هذه الفائِدةِ إثباتُ أفعالِ اللهِ الاختياريَّةِ، خِلافًا لِمَن أنكَرَ ذلك، وقال: إنَّ اللهَ لا يَقومُ به فِعلٌ اختياريٌّ[٣]!

١٠- إذلالُ هؤلاء المَتْبوعينَ الَّذين كانوا في الدُّنيا يَعتَلُونَ على الخَلْقِ؛ لأنَّه جَمَعَ بيْنَهم وبيْنَ مَن يَستَعبِدونَهم في الدُّنيا ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾؛ لأنَّ الآخرةَ دارُ عَدلٍ[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أنَّ النَّاسَ عندَ اللهِ سَواءٌ؛ فكُلُّ مَنِ استَحَقَّ عِقابًا أو ثَوابًا فهو له، يعني: لم نَفعَلْ بهؤلاء وَحْدَهم، بل حُكْمُنا

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٦٤، ١٦٥). ويُنظر أيضًا: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذا شامِلٌ لكُلِّ مُجرِمٍ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ تَخلُّصٌ مِن الإنذارِ بحُصولِ البعثِ إلى الإخبارِ عمَّا يَحُلُّ بهم عقِبَه إذا ثَبَتوا على شِرْكِهم وإنكارِهم البعثَ والجزاءَ[٢].

- وذِكرُ الأزواجِ إبلاغٌ في الوعيدِ والإنذارِ؛ لئلَّا يَحسَبوا أنَّ النِّساءَ المشركاتِ لا تَبِعةَ عليهنَّ[٣]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾

- قولُه: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ﴾ عُطِفَ بفاءِ التَّعقيبِ؛ إشارةً إلى سُرعةِ الأمْرِ بهم إلى النَّارِ عقِبَ ذلك الحشْرِ[٤].

- والهِدايةُ والهَدْيُ: إرشادٌ إلى مَرْغوبٍ، وقد غلَبَت في ذلك؛ لأنَّ كونَ المَهدِيِّ راغبًا في مَعرفةِ الطَّريقِ مِن لَوازمِ فِعلِ الهدايةِ؛ ولذلك تُقابَلُ بالضَّلالةِ، وهي الحَيرةُ في الطَّريقِ؛ فذِكْرُ ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ﴾ هنا تَهكُّمٌ بالمشركينَ[٥]، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الهدَى في الآيةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨٢).

والقاعدة: «إذا كان سياقُ الآياتِ في أمورٍ خاصَّةٍ، وأراد الله أن يَحكُمَ عليها، وذلك الحُكمُ لا يختصُّ بها، بل يَشملُها وغيرَها؛ جاء الله بالحُكمِ العامِّ». يُنظر: ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ١٢٢)، ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ أمْرٌ بإيقافِهم في ابتداءِ السَّيرِ بهم؛ لِمَا أفادَهُ الأمْرُ مِن الفَورِ بقَرينةِ فاءِ التَّعقيبِ الَّتي عطَفَتْه ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾؛ كأنَّ الملائكةَ سارَعوا إلى ما أُمِروا به مِن حَشْرِهم إلى الجحيم -وذلك على قولٍ-، أي: احبِسوهم عن السَّيرِ قليلًا؛ لِيُسْألوا سُؤالَ تأْييسٍ وتَحقيرٍ وتَغليظٍ[١].

- وعُلِّل تَوقيفُهم بقولِه تعالى: ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾؛ إيذانًا مِن أوَّلِ الأمْرِ بأنْ ذلك ليس للعفْوِ عنهم، ولا لِيَسْتريحُوا بتأْخيرِ العذابِ في الجُملةِ، بلْ لِيُسْألوا[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ مُبيِّنٌ لإبهامِ ﴿مَّسْئُولُونَ﴾[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والتَّهكُّمِ والتَّعجيزِ، أي: ما لَكم لا يَنصُرُ بعضُكم بعضًا؛ فيَدفَعَ عنه الشَّقاءَ الَّذي هو فيه؟ وأين تَناصُرُكم الَّذي كُنتم تَتناصَرون في الدُّنيا وتَتألَّبون على الرَّسولِ وعلى المؤمنينَ[٤]؟!

- وتأخيرُ هذا السُّؤالِ إلى ذلك الوقتِ؛ لأنَّه وَقتُ تَنجُّزِ العذابِ، وشِدَّةِ الحاجةِ إلى النُّصرةِ، وحالةِ انقطاعِ الرَّجاءِ عنها بالكُلِّيَّةِ؛ فالتَّوبيخُ والتَّقريعُ حينَئذٍ أشَدُّ وَقعًا وتأْثيرًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢، ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨).

٥- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾

- الإضرابُ المُستفادُ مِن ﴿بَلْ﴾ إضرابٌ لإبطالِ إمكانِ التَّناصُرِ بيْنَهم، وليس ذلك ممَّا يَتوهَّمُه السَّمْعُ؛ فلذلك كان الإضرابُ تأْكيدًا لِمَا دلَّ عليه الاستفهامُ مِن التَّعجيزِ. والاستِسلامُ: الإسلامُ القويُّ، أي: إسلامُ النَّفْسِ وتَرْكُ المُدافَعةِ؛ فهو مُبالَغةٌ في (أسلَمَ)[١].

- وذِكرُ اليومِ لإظهارِ النِّكايةِ بهم، أي: زال عنهمْ ما كان لهم مِن تَناصُرٍ وتَطاوُلٍ على المسلمينَ قبْلَ اليومِ، أي: في الدُّنيا؛ إذ كانوا يَقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، أي: نحنُ جماعةٌ لا تُغلَبُ، فكان لِذِكْرِ اليومِ وَقْعٌ بَديعٌ في هذا المقامِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾

- عُبِّرَ عن إقبالِهم بصِيغةِ الماضي -وهو ممَّا سيَقَعُ يومَ القيامةِ- تَنْبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه؛ لأنَّ لذلك مَزيدَ تَأْثيرٍ في تَحذيرِ زُعمائِهم مِن التَّغريرِ بهم، وتَحذيرِ دَهْمائِهم مِن الاغترارِ بتَغريرِهم، مع أنَّ قَرينةَ الاستقبالِ ظاهرةٌ مِن السِّياقِ مِن قولِه: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ الآيةَ[٣] [الصَّافَّات: ١٩].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ بالواوِ، وقال بعْدَه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٥٠] بالفاءِ، وكذلك في سُورةِ (ن): ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠]؛ ووَجْهُه: أنَّ الأوَّلَ لِعَطْفِ جُملةٍ على جُملةٍ فحَسْبُ، والثَّانيَ لِعَطْفِ جُملةٍ على جُملةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٠٤).

بيْنَهما مُناسَبةٌ والْتِئامٌ؛ لأنَّه حكَى أحوالَ أهْلِ الجنَّةِ ومُذاكَرتَهم فيها ما كان يَجْري في الدُّنيا بيْنَهم وبيْنَ أصْدقائِهم، وهو قولُه: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٤٨ - ٥٠]، أي: يَتذاكَرون. وكذلك في ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ هو مِن كَلامِ أصحابِ الجنَّةِ لَمَّا رَأَوْها كالصَّريمِ، ونَدِموا على ما كان منهم، وجَعَلوا يَقولون: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [القلم: ٢٩]، بعْدَ أنْ ذَكَّرَهم التَّسبيحَ أوْسَطُهم، ثمَّ قال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم:٣٠]، أي: على تَرْكِهم الاستِثناءَ، وتَخافُتِهم ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾[(١)] [القلم: ٢٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ تَساؤُلِهم؛ كأنَّه قِيل: كيف تَساءَلوا؟ فقِيلَ: قالوا...[(٢)].

٨- قولُه تعالَى: ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾

- جوابُ الزُّعماءِ بقَولِهم: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ إضرابُ إبطالٍ لِزَعمِ الأتْباعِ أنَّهم الَّذين صَدُّوهم عن طَريقِ الخَيرِ، أي: بلْ هم لم يَكونوا ممَّن يَقبَلُ الإيمانَ؛ لأنَّ تَسليطَ النَّفيِ على فِعلِ الكَونِ دونَ أنْ يُقالَ: بلْ لم تُؤمِنوا، مُشعِرٌ بأنَّ الإيمانَ لم يكُنْ مِن شأْنِهم، أي: بلْ كُنتُم أنتم الآبِينَ قَبولَ الإيمانِ[(٣)].

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي: وما كان

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٢، ٢١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٤، ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

لنا عليكم مِن قَهرٍ وغَلَبةٍ -وذلك على قولٍ- حتَّى نُكرِهَكم على رَفضِ الإيمانِ؛ ولذلك أكَّدوا هذا المعنى بقَولِهم: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾، أي: كان الطُّغيانُ -وهو التَّكبُّرُ عن قَبولِ دَعوةِ رجُلٍ منكم- شأْنَكم وسَجيَّتَكم؛ فلذلك أقْحَموا لَفظَ ﴿قَوْمًا﴾ بيْن (كان) وخَبرِها؛ لأنَّ استِحضارَهم بعُنوانِ القَوميَّةِ في الطُّغيانِ يُؤْذِنُ بأنَّ الطُّغيانَ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[١].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾

- فرَّعوا على كَلامِهم اعترافَهم بأنَّهم جميعًا استَحقُّوا العذابَ؛ فقولُهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ تَفريعُ الاعتراضِ، أي: كان أمْرُ ربِّنا بإذاقتِنا عذابَ جهنَّمَ حقًّا[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ بَيانٌ لـ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾. وحُكِيَ القولُ بالمعنى على طَريقةِ الالتفاتِ، ولولا الالتفاتُ لَقال: إنَّكم لَذائقونَ، أو إنَّهم لَذائقونَ. ونُكتةُ الالتفاتِ زِيادةُ التَّنصيصِ على المَعْنيِّ بذَوقِ العذابِ؛ لأنَّهم مُتَكَلِّمون بذلك عن أنفُسِهم[٣].

- وحُذِفَ مَفعولُ (ذائقون)؛ لدَلالةِ المقامِ عليه، وهو الأمْرُ بقولِه تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾[٤] [الصَّافَّات: ٢٣].

١١- قولُه تعالَى: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾

- فرَّعوا على مَضمونِ رَدِّهم عليهم مِن قولِهم: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

﴿قَوْمًا طَٰغِينَ﴾؛ قولَهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾، أي: ما أكْرَهْناكم على الشِّركِ، ولكنَّا وَجَدْناكم مُتمسِّكينَ به، وراغِبينَ فيه، فأغْوَيْناكم، أي: فأيَّدْناكم في غَوايتِكم؛ لأنَّا كنَّا غاوِينَ، فسَوَّلْنا لكم ما اختَرْناهُ لأنفُسِنا؛ فمَوقعُ جُملةِ ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ مَوقعُ العِلَّةِ، و(إنَّ) مُغْنيةٌ غَناءَ لامِ التَّعليلِ وفاءِ التَّفريعِ[1].

- وزِيادةُ ﴿كُنَّا﴾؛ للدَّلالةِ على تَمكينِ الغَوايةِ مِن نُفوسِهم، وقد استبانَ لهم أنَّ ما كانوا عليه غَوايةٌ فأقَرُّوا بها[2].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ هذا الكلامُ مِن اللهِ تعالى مُوجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ، ويُشبِهُ أنْ يكونَ اعتراضًا بيْن حِكايةِ حِوارِ اللهِ أهلَ الشِّركِ في القيامةِ وبيْنَ تَوبيخِ اللهِ إيَّاهم بقولِه: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ [الصَّافَّات: ٣٨]، والفاءُ هي الفصيحةُ؛ لأنَّها ورَدَتْ بعْدَ تَقريرِ أحوالٍ، وكان ما بعدَ الفاءِ نَتيجةً لتلك الأحوالِ، فكانت الفاءُ مُفصِحةً عن شَرْطٍ مُقدَّرٍ، أي: إذا كان حالُهم كما سمِعْتُم فإنَّهم يومَ القيامةِ في العذابِ مُشتركون؛ لاشتراكِهم في الشِّركِ وتَمالُئِهم، أي: لا عُذْرَ للكلامِ للفريقَينِ؛ لا للزُّعماءِ بتَسويلِهم، ولا للدَّهْماءِ بنَصْرِهم، والمقصودُ هنا بَيانُ عَدَمِ إجداءِ مَعذرةِ كِلا الفريقَينِ وتَنَصُّلِه، وهذه الجُملةُ مُعترِضةٌ بيْن جُمَلِ حِكايةِ مَوقفِهم في الحِسابِ[3].

١٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تَعليلٌ لِمَا اقْتَضَتْه جُملةُ ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، أي: فإنَّ جزاءَ المجرمينَ يكونُ مِثلَ ذلك الجزاءِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُؤاخَذةِ التَّابعِ والمتْبوعِ[١].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وفي (المُرْسَلاتِ): ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٨]؛ ووَجْهُه: أنَّ في هذه السُّورةِ حِيلَ بيْنَ الضَّميرِ وبيْن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ بقولِه: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الصَّافَّات:٣٣] فأعاد، وفي (المرسَلاتِ) مُتَّصِلٌ بالأوَّلِ وهو قولُه: ﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۞ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المرسلات:١٧، ١٨]؛ فلم يُحتَجْ إلى إعادةِ الضَّميرِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٦، ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٥).

الآيات (٣٥-٤٩)

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّعِينٍ﴾: أي: ماءٍ ظاهِرٍ جارٍ، وأصلُ (معن): يدُلُّ على سُهولةٍ في جَرَيانٍ أو غيرِ ذلك(١).

﴿غَوْلٌ﴾: الغولُ: اسمٌ عامٌّ في الأذَى والضَّيرِ، فمنه صُداعُ الرَّأسِ، ومنه وجعُ البطنِ إلى غيرِ ذلك، والغَولُ: فَسادٌ يَلحَقُ في خَفاءٍ، وأصلُه: يدُلُّ على أخذٍ مِن حيثُ لا يُدرَى(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٧).

واختلفوا في ﴿مَّعِينٍ﴾ هل على وزنِ فَعيلٍ، والميمُ فيها أصليَّةٌ مِن المَعْنِ، أو على وزنِ مفعولٍ مِن العَينِ والميمُ فيها زائدةٌ، نحو مَبيعٍ ومَكيلٍ؛ فقيل: سُمِّيَت بمَعينٍ: إمَّا مِن ظُهورِها للعَينِ، يُقالُ: عانَ الماءُ: إذا ظَهَر جاريًا، أو لشِدَّةِ جَريِها؛ مِن الإمعانِ في السَّيرِ، أو لكَثرتِها؛ مِنَ المَعْنِ: وهو الكثيرُ، وسُمِّيَ الماعونُ؛ لكثرةِ الانتفاعِ به، ويُقالُ: مَشرَبٌ مَمعونٌ: لا يكادُ يَنقَطِعُ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٢)، =

﴿يُنزَفُونَ﴾: أي: لا يَسكَرونَ، ولا تَذْهَبُ عُقولُهم، والنَّزيفُ: السَّكرانُ، وأصلُ (نزف): يدُلُّ على نَفادِ شَيءٍ وانقِطاعٍ[١].

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾: أي: حابِساتُ الأبصارِ على أزواجِهنَّ، وأصلُ (قصر): يدُلُّ على الحَبسِ[٢].

﴿عِينٌ﴾: أي: واسِعاتُ العُيونِ، الواحِدةُ عَيناءُ، وأصلُ (عين): يدُلُّ على حاسَّةِ البَصَرِ[٣].

﴿بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾: أي: بَيضٌ مَصونٌ، شُبِّهْنَ ببَيضِ النَّعامِ، تَكُنُّه النَّعامةُ بالرِّيشِ مِن الرِّيحِ والغُبارِ، والعَرَبُ تُشَبِّهُ المرأةَ النَّاعِمةَ في ضِيائِها وحُسنِها وصَفوةِ النِّعمةِ عليها بالبَيضةِ، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[٤].

= ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٩/ ٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى الأسبابَ الَّتي أدَّت بالمشركينَ إلى هذا المصيرِ، فيقولُ: إنَّ أولئك المُشركين كانوا إذا قيلَ لهم في الدُّنيا: قُولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، يَتكبَّرونَ عن قَولِها، ويقولونَ: أنَقولُ ذلك ونَترُكُ عبادةَ آلهتِنا؛ اتِّباعًا لقولِ شاعرٍ مَجنونٍ؟!

ويَرُدُّ الله تعالى عليهم، فيقولُ: ليس الأمرُ كما زعموا، بل جاءهم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقُرآنِ مِن عندِ اللهِ، وصدَّق مَن كان قَبْلَه مِن المُرسَلينَ، فكانت بَعثتُه تصديقًا لهم.

ويُقرِّرُ الله تعالى جزاءَهم على قبيحِ أعمالِهم، فيقولُ: إنَّكم -أيُّها المُشركونَ- لَذائِقو العذابِ المُوجِعِ، وما تُجزَونَ إلَّا جزاءَ عَمَلِكم.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حُسنَ عاقبةِ المؤمنينِ، فيقولُ: لكنْ عبادُ اللهِ الَّذين اصطفاهم اللهُ تعالى، وأخلَصَهم لطاعتِه؛ فأولئك لهم عَطاءٌ معلومٌ: فَواكِهُ، وهم مع ذلك مُكرَمونَ في جنَّاتِ النَّعيمِ مُتقابِلينَ على السُّرُرِ، فوُجوهُهم مُتقابِلةٌ لا مُتدابِرةٌ. يُطافُ عليهم بخَمرٍ تجرى في أنهارِ الجنَّةِ، بيضاءِ اللَّونِ، لذيذةِ الطَّعمِ والرَّائحةِ عندَ الشَّاربينَ، ليس فيها أذًى أو فسادٌ يُصيبُ شارِبيها، ولا هُمْ بسَبَبِ شُربِها تَذهَبُ عُقولُهم، كما هو الحالُ في خَمرِ الدُّنيا.

وعندَهم نِساءٌ قَصَرْنَ أبصارَهنَّ على أزواجِهنَّ لا يَمُدُّونَها إلى غيرِهم؛ لشِدَّةِ مَحبَّتِهنَّ لهم، ومِن صفاتِهنَّ أنَّهن واسِعاتُ العُيونِ، كأنَّهنَّ بَيضُ النَّعامِ المَصونِ؛ في صفاءِ البَشَرةِ، ونقاءِ الجَسَدِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى يُبَيِّنُ أنَّ المُشرِكينَ إنَّما وقَعوا في ذلك العَذابِ؛ لأنَّهم كانوا مُكَذِّبينَ بالتَّوحيدِ وبالنُّبُوَّةِ[١]، فعَلَّل تَعذيبَه لهم بقَولِه[٢]:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: إنَّ المُشرِكينَ كانوا دائِمًا إذا قِيلَ لهم في الدُّنيا: قُولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، يَتكبَّرونَ عن قَولِ ذلك، ولا يَستَجيبونَ لِمَن دعاهم إليه[٣].

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ﴾ [غافر: ١٢].

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أخبَرَ أنَّ المُشرِكينَ استكبَروا على توحيدِ الإلهِ؛ أتْبَعَه الإخبارَ بأنَّهم تكَلَّموا في رَسولِه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بما لا يَرضاه[٤].

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: ويَقولونَ: أنقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ونَترُكُ عِبادةَ آلهتِنا؛ اتِّباعًا لِقَولِ شاعرٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٧٨، ٧٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٦).

مَجنونٍ[(١)]؟!

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمونَ مِن أنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم شاعِرٌ مَجنونٌ، وإنَّما هو نَبيٌّ جاء بالقُرآنِ مِن عندِ اللهِ، وفيه الأمرُ بتوحيدِ اللهِ؛ وأنَّه صَدَّقَ المُرسَلينَ الَّذين كانوا قَبْلَه، وأخبَروا بمَجيئِه، فكانت بَعثتُه تَصديقًا لهم، وشَهِدَ هو بنُبوَّتِهم، وأخبَرَ بمِثلِ ما أَخبَروا به مِنَ التَّوحيدِ وغَيرِه مِن الحَقِّ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا وَصَلَ المُشرِكونَ إلى هذا الحَدِّ مِن الطُّغيانِ، والزُّورِ الظَّاهِرِ والبُهتانِ؛ تشَوَّفَ السَّامِعُ إلى جَزائِهم، فاستأنَفَ الإخبارَ بذلك[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨٠، ٨١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٧).

وأيضًا لَمَّا كان قَولُ المُشرِكينَ السَّابِقُ: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ [الصافات: ٣١] قولًا صادِرًا منهم، يحتمِلُ أن يكونَ صِدقًا أو غَيرَه؛ أخبَرَ تعالى بالقَولِ الفَصلِ الَّذي لا يحتَمِلُ غيرَ الصِّدقِ واليَقينِ، وهو الخبَرُ الصَّادِرُ منه تعالى، فقال[١]:

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: إنَّكم لَذائِقو العذابِ المُؤلِمِ المُوجِعِ؛ بسَبَبِ شِركِكم وتكذيبِكم[٢].

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَفَ اللهُ تعالى عذابَ المُشرِكينَ بأنَّه أليمٌ؛ عَطَفَ عليه إخبارَهم بأنَّ ذلك المِقدارَ لا حَيفَ عليهم فيه؛ لأنَّه على وِفاقِ أعمالِهم الَّتي كانوا يَعمَلونَها في الدُّنيا مِن آثارِ الشِّركِ[٣].

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: وما تُجزَونَ إلَّا الَّذي كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا، فلا يَظلِمُكم اللهُ بتَعذيبِكم على ما لم تَعمَلوا[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

وقال سُبحانَه: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [يس: ٥٤].

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَف اللهُ تعالى أحوالَ المتكبِّرينَ عن قَبولِ التَّوحيدِ، المُصِرِّينَ على إنكارِ النُّبُوَّةِ؛ أردَفَه بذِكرِ حالِ المُخلَصينَ في كيفيَّةِ الثَّوابِ[١].

وأيضًا لَمَّا كان الخِطابُ في الآيةِ السَّابقةِ لَفظُه عامًّا، والمرادُ به المُشرِكونَ؛ استثنَى تعالى المؤمِنينَ، فقال[٢]:

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بفَتحِ اللَّامِ، اسمُ مَفعولٍ مِن أخلَصَ، بمعنى: أنَّ اللهَ تعالى أخلَصَهم، فصاروا مُخلَصينَ[٣].

٢- قِراءةُ ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكَسرِ اللَّامِ، اسمُ فاعلٍ مِن أخلَصَ، بمعنى: أنَّهم أخلَصوا لله دِينَهم وأعمالَهم مِنَ الشِّركِ والرِّياءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

(٣) قرأ بها نافِعٌ، وعاصِمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٩).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥). =

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: لكنْ[١] عبادُ اللهِ الَّذين أخلَصَهم اللهُ لطاعتِه، واختارَهم لخاصَّةِ رَحمتِه؛ فإنَّهم لا يَذوقونَ العَذابَ، ويَتجاوَزُ اللهُ تعالى عن سيِّئاتِهم إن كان لهم سيِّئاتٌ، ويُثيبُهم اللهُ تعالى بأعمالِهم الصَّالحةِ أضعافًا مُضاعَفةً[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾.

أي: أولئك المخلَصونَ مِن عبادِ اللهِ: لهم عَطاءٌ غيرُ مَجهولٍ[٣].

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٩)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١١).

قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه الجنَّةُ. قاله قَتادةُ. والثَّاني: أنَّه الرِّزقُ في الجنَّةِ. قاله السُّدِّيُّ، فعلى هذا في معنى ﴿مَّعْلُومٌ﴾ قولانِ؛ أحدُهما: أنَّه بمِقدارِ الغَداةِ والعَشيِّ. قاله ابنُ السَّائبِ. والثَّاني: أنَّهم حينَ يَشتَهونهُ يُؤْتَونَ به. قاله مُقاتلٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٠).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: أنَّ المرادَ الرِّزقُ في الجنَّةِ، أي: أنَّه معلومُ الوقتِ، أي: بمِقدارِ الغَداةِ والعَشيِّ، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]: السمعانيُّ، والبغوي، والثعلبي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٣).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مَّعْلُومٌ﴾ أي: حينَ يَشتَهونهُ يُؤتَونَ به، فلا يتخلَّفُ عن ميعادِه، ولا يَنتظِرُه أهلُه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١١). =

كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾ [البقرة: ٢٥].

﴿فَٰكِهُونَ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ٤٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ للمُؤمِنينَ رِزقًا؛ بيَّن ذلك الرِّزقَ ما هو، فقال[1]:

﴿فَٰكِهُونَ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ٤٢﴾.

أي: لهم فَواكِهُ مُتنوِّعةٌ يَتنعَّمونَ بها ويَتلذَّذونَ، وهم مع ما أعطاهم اللهُ مِنَ الرِّزقِ يُكرَمونَ دائِمًا بأنواعِ الكَراماتِ، فيُعَظَّمونَ ولا يُحتقَرونَ ولا يُهانُونَ[2].

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٤٣﴾.

= وذهب البِقاعي وابنُ عثيمينَ إلى العُمومِ؛ فهو مَعلومٌ وَقتُه، ومَعلومٌ نَوعُه، وغيرُ ذلك ممَّا يتعلَّقُ به. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٩٤، ٩٥).

قال ابن عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿مَّعۡلُومٞ﴾ معناه: عندَهم، فقد قَرَّتْ عيونُهم بعِلمِ ما يَستَدِرُّ عليهم مِنَ الرِّزقِ، وبأنَّ شهواتِهم تأتيهم لحينِها، وإلَّا فلو كان ذلك معلومًا عندَ الله تعالى فقط لَما تخصَّص أهلُ الجنَّةِ بشَيءٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٩٦).

قال المظهري: (فواكِهُ: جمعُ فاكِهةٍ، بَدَلٌ أو بيانٌ للرِّزقِ، وهي ما يُقصَدُ به التَّلَذُّذُ دونَ التَّغَذِّي، والقُوتُ ما يُقصَدُ به التَّغذِّي دونَ التَّلذُّذِ، والرِّزقُ يَعُمُّهما). ((التفسير المظهري)) (٨/ ١١٥).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٩٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مأكولَهم، وَصَف تعالى مَساكِنَهم[١].

وأيضا لَمَّا كان الإكرامُ لا يَتِمُّ إلَّا مع طِيبِ المُقامِ، قال[٢]:

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٤٣﴾.

أي: يُنعَّمُ عِبادُ اللهِ ويُكرَمونَ في جَنَّاتٍ ليس فيها إلَّا النَّعيمُ الحِسِّيُّ والمَعنويُّ؛ فلا بُؤسَ فيها ولا شَقاءَ[٣].

﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّلَذُّذُ لا يَكمُلُ إلَّا مع الأحبابِ، وكانت عادةُ الملوكِ الاختِصاصَ بالمحَلِّ الأعلى؛ بيَّنَ أنَّهم كُلَّهم مُلوكٌ، فقال[٤]:

﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٤﴾.

أي: يُقابِلُ أصحابُ الجنَّةِ بَعضُهم بَعضًا وهم على السُّرُرِ في غايةِ الرَّاحةِ والطُّمأنينةِ وصَفاءِ القُلوبِ، يَتحابُّونَ فيما بيْنَهم، ويَأنَسونَ باجتِماعِهم، ويُنَعَّمونَ بنَظَرِ بَعضِهم إلى بَعضٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٩٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۞ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣].

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح اللهُ تعالى صِفةَ المأكَلِ والمَسكَنِ؛ ذكَرَ بَعدَه صِفةَ الشَّرابِ[1]، فقال:

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: تُدارُ عليهم في مجالِسِهم خمرٌ مِن أنهارِ الخَمرِ الجاريةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۞ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨].

﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: بَيضاءِ اللَّونِ[3]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٢).

ويقالُ للزُّجاجةِ فيها الخَمْرُ: كأسٌ، وتُسمَّى الخمرُ نفْسُها كأسًا. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٨٤).

(٣) قيل: المرادُ: لَونُ الخَمرِ نَفْسِها. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٠)، ((تفسير =

طَعمُها طَيِّبٌ يَتلذَّذُ بها شارِبوها[١].

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قد أثبَت لخَمرِ الجنَّةِ الكَمالَ؛ نفَى عنها النَّقصَ، فقال[٢]:

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾.

أي: ليس في خَمرِ الجنَّةِ أيُّ أذًى أو فَسادٌ يُصيبُ شارِبيها؛ مِن وَجعِ بَطنٍ، وصُداعِ رأسٍ، أو غيرِ ذلك مِن الأمراضِ والآلامِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ [الواقعة: ١٩].

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يُنْزِفُونَ﴾ بكَسرِ الزَّايِ، قيل: بمعنى: لا يَنفَدُ شَرابُهم. وقيل:

= السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١).

وقيل: المرادُ: كأسُ الخَمرِ، أي: كأسٌ بَيضاءُ اللَّونِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣١، ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٢، ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٩).

قال ابن جرير: (لا أذًى فيها، ولا مَكْروهٌ على شارِبيها؛ في جِسْمٍ، ولا عقلٍ، ولا غيرِ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٥).

لا يَسكَرونَ[١].

٢- قِراءةُ ﴿يُنزَفُونَ﴾ بفَتحِ الزَّاي، أي: لا تَزولُ عُقولُهم إذا شَربوها[٢].

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

أي: ولا تَزولُ عُقولُ أهلِ الجنَّةِ؛ بسَبَبِ شُربِهم الخَمرَ، فهم لا يَسكَرونَ بشُربِها[٣].

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى صِفةَ مَشروبِ أهلِ الجنَّةِ؛ ذكَرَ عَقيبَه صِفةَ مَنكوحِهم[٤]، فقال:

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وعندَ عِبادِ اللهِ المُخلَصينَ في الجنَّةِ نِساءٌ قد قصَرْنَ أطرافَهنَّ على أزواجِهنَّ؛ فلا يَنظُرْنَ إلى غَيرِهم مِنَ الرِّجالِ، ولا يُرِدْنَ غيرَ أزواجِهنَّ، ومِن

---

(١) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣١٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٨).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣١٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٩).
قال النَّحَّاسُ: (أصلُ نَزَفَ: نَقَص، والمعنى: لا يَلحَقُهم نُقصانٌ بسُكْرٍ ولا غَيرِه؛ فنفَى اللهُ جلَّ وعَزَّ عنهم السُّكْرَ؛ لِما فيه مِن الباطلِ والسَّفَهِ). ((معاني القرآن)) (٦/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٣).

صِفاتِهنَّ أنَّ عُيونَهنَّ حِسانٌ واسِعاتٌ[(١)].

كما قال اللهُ تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٥٦].

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ٤٩﴾.

أي: كأنَّ نِساءَ أهلِ الجنَّةِ كالبَيضِ المَصونِ المَحفوظِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٧، ٥٣٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣، ١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٩).

قال ابنُ عاشور: (قاصِراتُ الطَّرْفِ، أي: حابِساتٌ أنظارَهنَّ؛ حياءً وغُنْجًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٤).

وقال السَّعدي: (قاصِراتُ الطَّرْفِ: إمَّا أنَّها قَصَرت طَرْفَها على زَوجِها؛ لعِفَّتِها وعدَمِ مُجاوزتِه لغَيرِه، ولجمالِ زَوجِها وكمالِه؛ بحيث لا تَطلُبُ في الجنَّةِ سِواه، ولا تَرغَبُ إلَّا به؛ وإمَّا لأنَّها قَصَرت طَرْفَ زَوجِها عليها، وذلك يدُلُّ على كمالِها وجمالِها الفائِقِ الَّذي أوجَبَ لزَوجِها أن يَقصُرَ طَرْفَه عليها، وقَصْرُ الطَّرْفِ أيضًا يدُلُّ على قَصرِ النَّفْسِ والمحبَّةِ عليها، وكِلا المعنيَينِ مُحتمَلٌ، وكِلاهما صحيحٌ، وكُلُّ هذا يدُلُّ على جمالِ الرِّجالِ والنِّساءِ في الجنَّةِ، ومحبَّةِ بَعضِهم بَعضًا محبَّةً لا يَطمَحُ إلى غيرِه، وشِدَّةِ عِفَّتِهم كُلِّهم، وأنَّه لا حَسَدَ فيها ولا تَباغُضَ ولا تَشاحُنَ؛ وذلك لانتفاءِ أسبابِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤١).

وقال ابنُ عثيمين: (وكِلا المعنيينِ صَحيحٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٠).

وممَّن جمَعَ بيْن كِلا القولَينِ: البِقاعي، فقال: (أي: لا تَطرِفُ واحِدةٌ مِنهنَّ إلى غيرِ زَوجِها، ولا يَدَعُه تناهي حُسنِها وفَرطُ جمالِها يَطرِفُ إلى غَيرِها). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٣٢).

وقال ابنُ القيِّم: (وقيل: قصَرْنَ طَرْفَ أزواجِهنَّ، فلا يَدَعُهم حُسنُهنَّ وجمالُهنَّ أن يَنظُروا إلى غَيرِهنَّ. وهذا صحيحٌ مِن جهةِ المعنى، وأمَّا مِن جهةِ اللَّفظِ فقاصِراتٌ: صِفةٌ مُضافةٌ إلى الفاعلِ لِحسانِ الوُجوهِ، وأصلُه قاصِرٌ طَرْفُهنَّ، أي: ليس بطامِحٍ مُتَعدٍّ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٩، ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وُجوبُ الخُضوعِ لِمَا تَقتَضيه هذه الكَلِمةُ؛ لأنَّ اللهَ ساقَها في القَومِ المُستَكبِرينَ عنها مَساقَ الذَّمِّ، وعلى هذا فمَن قَبِلَها وخَضَع لها فقد نَفَى عن نفْسِه الذَّمَّ، وقام بما

= اختلف المفَسِّرون في المرادِ بالبَيضِ المكنونِ؛ فقيل بأنَّه: بَيضُ النَّعامِ الَّذي تَكُنُّه بالرِّيشِ مِن الرِّيحِ والغُبارِ ونحوِ ذلك، وأنَّ لونَها أبيضُ في صُفرةٍ، وأنَّه أحسَنُ ألوانِ النِّساءِ، وأنَّ العَرَبَ تُشَبِّهُ المرأةَ النَّاعِمةَ في بياضِها وحُسنِ لَونِها ببَيضةِ النَّعامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، والبيضاوي، والبِقاعي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: زَيدُ بنُ أسلَمَ، وابنُ زَيدٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٨٩).

قال ابنُ عاشور: (البَيضُ المكنونُ: هو بَيضُ النَّعامِ، والنَّعامُ يُكِنُّ بَيضَه في حُفَرٍ في الرَّملِ، ويَفرُشُ لها مِن دَقيقِ رِيشِه... فيكونُ البَيضُ شَديدَ لَمعانِ اللَّونِ، وهو أبيضُ مَشوبٌ بياضُه بصُفرةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٤).

وقيل: هو بَياضُ البَيضِ الَّذي في داخِلِ القِشرِ قبل أن تَمَسَّه يَدٌ أو غيرُها، وليس المرادُ بها القِشرةَ العُليا؛ فإنَّ الطَّائِرَ يمَسُّها، والأيديَ تُباشِرُها، والعُشَّ يَلْقاها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والسُّدِّيُّ، وقَتادةُ، وعطاءٌ الخُراسانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٨٩).

قال ابنُ عثيمين: (لِرِقَّتِهنَّ وبَياضِهنَّ ونُعومةِ المَلمَسِ كأنَّها البَيضُ، أي: البياضُ الَّذي في البَيضِ، وهو مكنونٌ بِقِشرِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١١).

وقيل: المرادُ أنَّهنَّ كاللُّؤلؤِ المكنونِ، كما قال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣]. وممَّن رُوِيَ عنه ذلك: ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤١).

يَجِبُ عليه[١]. فتَحَقُّقُ التَّوحيدِ لا يكونُ إلَّا بالانقيادِ؛ فإذا عَلِمْتَ واعتقَدْتَ ولم تَنقَدْ، لم تُحَقِّقِ التَّوحيدَ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ كمالُ أدَبِ أهلِ الجنَّةِ؛ حيث كانوا يَتقابَلونَ بحيثُ لا يَقْفُو أحدُهم الآخَرَ، بل كلُّهم يَكونونَ مُستقبلًا بَعضُهم بَعضًا، وهذا لا شَكَّ أنَّه مِن كمالِ الأدبِ، والأدبُ كما أنَّه حَسَنٌ في أهلِ الجنَّةِ فهو حَسَنٌ في أهلِ الدُّنيا أيضًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ولا شَكَّ أنَّ الإنسانَ إذا كان مُؤَدَّبًا كان محبوبًا عندَ النَّاسِ؛ فالجفاءُ وعَدَمُ المبالاةِ بالنَّاسِ خُلُقٌ ذَميمٌ[٣].

٣- مِن صفاتِ المرأةِ الجَميلةِ كَونُها قاصِرةَ الطَّرفِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾[٤]، فامتَدحَ نِساءَ الجنَّةِ بكَونِهنَّ قاصِراتِ الطَّرفِ على أزواجِهنَّ، لا يَنظُرْنَ إلى غَيرِ أزواجِهنَّ، فنَظرُ المرأةِ إلى غيرِ زوجِها فِتنةٌ، ويَتفَرَّعُ على ذلك أنَّ على الإنسانِ أنْ يُراعِيَ زوجتَه في هذا البابِ، بحيثُ يَمنَعُها مِن التَّطَلُّعِ إلى غيرِه، سواءٌ كان هذا التَّطَلُّعُ إلى الرَّجُلِ مُباشَرةً، أو بواسطةِ الوَسائلِ الإعلاميَّةِ، ويَتَفَرَّعُ على هذه الفائدةِ أيضًا: أنْ يَمنَعَها مِن الخُروجِ إلى الأسواقِ إلَّا لحاجةٍ؛ لأنَّ المرأةَ إذا خرَجَتْ إلى الأسواقِ ورَأَتِ النَّاسَ فرُبَّما تُعجَبُ بأحَدِهم، ويَتَعلَّقُ قلبُها به فتَعزِفُ عن زَوجِها، ويَضعُفُ حبُّها له، ورُبَّما تُبغِضُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨٤).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الضَّميرُ في قَولِه: ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائِدٌ إلى المذكورِ السَّابِقِ، وهو قَولُه: ﴿بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾، في قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وهذا يدُلُّ على أنَّ لَفظَ (المُجرِم) المُطلَقَ: مختَصٌّ في القرآنِ بالكافِرِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أنَّه لا يَجوزُ صَرفُ شَيءٍ مِن أنواعِ العبادةِ لغَيرِ اللهِ؛ لا صلاةً ولا نَذرًا، ولا سُجودًا ولا ركوعًا، ولا حَجًّا، كلُّه يجبُ أنْ يُصرَفَ لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه هو المعبودُ حقًّا[٢].

٣- أنَّ هؤلاء المُستكبِرين لم يَكْفِهم الاستِكبارُ عن الحقِّ حتَّى قَدَحوا فيمَن جاء بالحَقِّ؛ يُؤخَذُ مِن قَولِهم: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾، فلم يَكْفِهم أنْ تَركوا الحَقَّ حتَّى هاجَموا وقَدَحوا فيمَن جاء به، وقد وُرِثَتْ هذه الطَّريقةُ -أي: القَدحُ بمَن جاء بالحَقِّ-؛ فأهلُ البِدَعِ يُسَمُّونَ أهلَ السُّنَّةِ بكُلِّ عَيبٍ ووَصفٍ قَبيحٍ؛ سَمَّوهم المُشبِّهةَ، والمُجَسِّمةَ، والحَشويَّةَ، والغُثاءَ، والنَّوابتَ، والعامَّةَ... وما أشْبَهَ ذلك مِن الكَلِماتِ الَّتي تُفيدُ القَدْحَ، ولكِنْ جَعَلَ اللهُ سُبحانَه وتعالى لكلِّ نبيٍّ عَدُوًّا مِن المجرِمينَ، ولِكُلِّ مُتَّبِعِ نَبيٍّ عَدُوًّا مِن المجرِمينَ؛ فوَرِثَ هؤلاء الأصفياءُ صَفوةَ الخَلْقِ، وهم الرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ووَرِثَ هؤلاء الأشقياءُ أشقَى الخَلْقِ الَّذين يَقدَحُون في الرُّسُلِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: صَدَّقَهم في مَجيئِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٥، ٨٦).

بالتَّوحيدِ، ونَفيِ الشَّريكِ، وهذا تَنبيهٌ على أنَّ القَولَ بالتَّوحيدِ دِينٌ لكُلِّ الأنبياءِ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الرُّسُلَ السَّابقين أخبَروا بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فمجيئُه صلَّى الله عليه وسلَّم تصديقٌ لِما أخْبَروا به مِن أنَّه سيُبعَثُ، وآخِرُهم عيسى عليه السَّلامُ، قال لقومِه: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[٢] [الصف: ٦].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لو لم يَظْهَرْ محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لَبَطَلَتْ نُبُوَّةُ سائرِ الأنبياءِ، فظُهورُ نُبوَّتِه تصديقٌ لشَهادتِهم، وشَهادةٌ لهم بالصِّدقِ، فإرسالُه مِن آياتِ الأنبياءِ قبْلَه؛ فإنَّ المُرسَلينَ بَشَّروا به، وأخبَروا بمجيئِه، فمجيئُه هو نفْسُ صِدْقِ خَبَرِه، فكأنَّ مجيئَه تصديقٌ لهم؛ إذْ هو تأويلُ ما أخبَروا به، ولا تنافيَ بيْنَ هذا وبينَ القولِ الآخَرِ: «أنَّ تصديقَه المُرسَلينَ بشَهادتِه بصِدقِهم، وإيمانِه بهم»، فإنَّه صَدَّقَهم بقولِه وبمجيئِه؛ فشَهِدَ بصِدْقِهم بنفْسِ مجيئِه؛ وشَهِدَ بصِدْقِهم بقولِه، فعادةُ اللهِ في رُسُلِه أنَّ السَّابقَ يُبَشِّرُ باللَّاحقِ؛ واللَّاحقَ يُصَدِّقُ السَّابقَ، فلو لم يَظْهَرْ محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولو لم يُبْعَثْ؛ لَبَطَلَتْ نُبُوَّةُ الأنبياءِ قبْلَه[٣]!

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: أنَّ ما دعاكم إليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن التَّوحيدِ: قد دَعَت إليه الرُّسُلُ مِن قَبْلِه، وهذا احتِجاجٌ بالنَّقلِ عَقِبَ الاحتِجاجِ بأدِلَّةِ النَّظَرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨١، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٨).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أنَّه يَجبُ علينا أنْ نُصَدِّقَ مَن سَبَقَ مِن الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ نبيَّنا صلَّى الله عليه وسلَّم صَدَّقَ المُرسَلينَ، فيَجبُ علينا نحن أنْ نُصَدِّقَ؛ لأنَّه يَجبُ على المأمومِ مُتابَعةُ الإمامِ، فإمامُنا مُحمَّدٌ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، فيجبُ علينا أنْ نَتَّبِعَه[١].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ الكُفَّارَ مُجازَونَ على أعمالِهم السَّيِّئةِ مِن الأقوالِ والأعمالِ؛ كتَمجيدِ آلهتِهم، والدُّعاءِ لها، وتكذيبِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأذاه وأذى المؤمِنينَ، وقَولِهم في أصنامِهم أنَّهم شُفَعاءُ عندَ اللهِ، وفي الملائكةِ أنَّهم بَناتُ اللهِ، ومِن قَتلِ الأنفُسِ، والغارةِ على الأموالِ، ووَأْدِ البناتِ، والزِّنا؛ فإنَّ ذلك كُلَّه ممَّا يَزيدُهم عذابًا، وهو يؤيِّدُ قَولَ الَّذين ذَهَبوا إلى أنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّريعةِ، وأنَّ ذلك واقِعٌ[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عُبِّرَ عن الجَزاءِ بالعَمَلِ، والفائِدةُ في ذلك أمْرانِ:

الأمرُ الأوَّلُ: أنْ يُعلَمَ بأنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فكما تَدينُ تُدانُ، فإذا عُبِّرَ عن الجزاءِ بالعَمَلِ فإنَّ هذا معناه أو مُقتَضاه أنَّ هذا الجزاءَ بقَدرِ العَمَلِ.

الأمرُ الثَّاني: قُوَّةُ التَّوبيخِ لهؤلاء؛ لأنَّ الجزاءَ إذا كان مِن فِعلِ غَيرِهم فإذا عُبِّرَ عنه بالجزاءِ فإنَّه يكونُ أهْوَنَ بَعضَ الشَّيءِ، لكِنْ إذا عُبِّرَ بالعَمَلِ عن الجزاءِ صار أشَدَّ في التَّوبيخِ، كأنَّه يُقالُ لهم: هذا فِعلُكم أنتم بأنفُسِكم؛ ولهذا عُبِّرَ عن الجَزاءِ بالعَمَلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٩١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أنَّ عِبادَ اللهِ عزَّ وجلَّ يَنقَسِمونَ إلى قِسمَينِ: عِبادٍ مُخلَصينَ، وعِبادٍ غَيرِ مخلَصينَ؛ فالعِبادُ بمعنى: عُبوديَّةِ القَدَرِ، هؤلاءِ غيرُ مُخلَصِينَ، بل هم كالأنعامِ -بل هم أضَلُّ-، وأمَّا العِبادُ للهِ تَعَبُّدَ شَرْعٍ فإنَّ هؤلاء هم المُخلَصونَ[١].

١٢- أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَمُنُّ على مَن يَشاءُ فيُخلِصُهم لِنَفْسِه حتَّى لا يَكونوا عَبيدًا لِغَيرِه؛ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وهذا أبلَغُ مِن «المُخلِصينَ»، وإنْ كان لكلٍّ مِنهما مَزيَّةٌ، ولكنَّ المُخْلَصَ الَّذي أخلَصَه اللهُ عزَّ وجلَّ لِنَفْسِه، فلم يكُنْ له إرادةٌ سِوى ربِّه، هذا أبلَغُ[٢].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ بناه للمَفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّ وُجودَ إكرامِهم مِن كُلِّ شَيءٍ: أمرٌ حَتمٌ لا يكونُ غَيرُه أصلًا[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أنَّ الجنَّةَ أصنافٌ وأنواعٌ، ولكِنَّها تَشترِكُ كُلُّها في أنَّها جنَّاتُ نَعيمٍ[٤].

١٥- قال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، فإنَّ مُقابَلَةَ وُجوهِهم تَدُلُّ على تقابُلِ قُلوبِهم، وتأدُّبِ بَعضِهم مع بَعضٍ؛ فلم يَستدبِرْه أو يَجعَلْه إلى جانِبِه، بل مِن كَمالِ السُّرورِ والأدَبِ ما دَلَّ عليه ذلك التَّقابُلُ[٥]. وأيضًا هذا أتَمُّ للأُنسِ؛ لأنَّ فيه أُنسَ الاجتِماعِ، وأُنسَ نَظَرِ بَعضِهم إلى بَعضٍ؛ فإنَّ رُؤيةَ الحَبيبِ والصَّديقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

تُؤنِسُ النَّفْسَ[١].

١٦- قال الله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ السُّرُرُ: جَمعُ سَريرٍ، وهو ككُرسيٍّ واسِعٍ يُمكِنُ الاضطِجاعُ عليه، وكان الجُلوسُ على السَّريرِ مِن شِعارِ الملوكِ وأضرابِهم، وذلك جلوسُ أهلِ النَّعيمِ؛ لأنَّ الجالِسَ على السَّريرِ لا يجِدُ مَلَلًا؛ لأنَّه يُغَيِّرُ جِلسَتَه كيف تتيسَّرُ له[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ سَعَةُ مَحَلَّاتِ أهلِ الجنَّةِ؛ لِكَونِهم مُتقابِلينَ على السُّرُرِ؛ لأنَّ التَّقابُلَ يؤدِّي إلى سَعةِ المكانِ، لا سيَّما مع كَثرتِهم[٣].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ راحةُ أهلِ الجنَّةِ؛ حيث كانوا مُتَفرِّغينَ على السُّرُرِ، يَتحدَّثُ بعضُهم إلى بَعضٍ، ويَأنَسُ بعضُهم إلى بَعضٍ على وَجهِ التَّقابُلِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾

- استئنافٌ بَيانيٌّ أفاد تَعليلَ جَزائِهم، وبَيانَ إجرامِهم بذِكرِ ما كانوا عليه مِن التَّكبُّرِ عن الاعترافِ بالوَحدانيَّةِ للهِ، ومِن وَصفِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما هو مُنزَّهٌ عنه وَصْفًا يَرْمُون به إلى تَكذيبِه فيما جاء به، فحَرْفُ (إنَّ) هنا ليس للتَّأكيدِ؛ لأنَّ كَونَهم كذلك ممَّا لا مُنازِعَ فيه، وإنَّما هو للاهتمامِ بالخبَرِ؛ فلذلك تُفيدُ التَّعليلَ والرَّبطَ، وتُغْني غَناءَ فاءِ التَّفريعِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٦١).

- وذُكِرَ فِعلُ الكونِ ﴿كَانُوٓاْ﴾؛ لِيَدُلَّ على أنَّ ما تَضمَّنَه الخبَرُ وَصفٌ مُتمكِّنٌ منهم، فهو غيرُ مُنقطِعٍ، ولا هُمْ حائِدونَ عنه[١].

- وفاعلُ القولِ المَبْنيِّ فِعلُه للنَّائبِ هو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فحُذِفَ للعِلمِ به[٢].

- الاستكبارُ: شِدَّةُ الكِبْرِ، فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، أي: يَتعاظَمون عن أنْ يَقبَلوا ذلك مِن رجُلٍ مِثلِهم، ولك أنْ تَجعَلَ السِّينَ والتَّاءَ للطَّلبِ، أي: إظهارِ التَّكبُّرِ، أي: يَبْدو عليهم التَّكبُّرُ والاشمئزازُ مِن هذا القولِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾

- أتَوا بالنَّفيِ على وَجهِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ؛ إظهارًا لِكَونِ ما يَدْعوهم إليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمْرٌ مُنكَرٌ لا يُطمَعُ في قَبولِهم إيَّاهُ؛ تَحذيرًا لِمَن يَسمَعُ مَقالتَهم مِن أنْ يَجولَ في خاطِرِه تَأمُّلٌ في قَولِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وقَوَّوا هذا التَّحذيرَ بجَعْلِ حَرْفِ الإنكارِ مُسلَّطًا على الجُملةِ المُؤكَّدةِ بحَرْفِ التَّوكيدِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم إذا أتَوا ما أنْكَروه كانوا قد تَحقَّقَ تَرْكُهم آلهتَهم، تَنزيلًا لِبَعضِ المخاطَبينَ مَنزلةَ مَن يَشُكُّ في أنَّ الإيمانَ بتَوحيدِ الإلهِ يُفْضي إلى تَرْكِ آلهتِهم؛ لِيَسُدُّوا على المخاطَبينَ مَنافذَ التَّردُّدِ أنْ يَتطرَّقَ منها إلى خَواطِرِهم[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ اعتِراضٌ في آخِرِ الاعتراضِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٠٧، ١٠٨).

قُصِدَت منه المُبادرةُ بتَنزيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا قالوه، و﴿بَلۡ﴾ إضرابُ إبطالٍ لِقَولِهم: ﴿لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونٍ﴾ [الصَّافَّات: ٣٦]، وبإثباتِ صِفَتِه الحقِّ لِبَيانِ حقيقةِ ما جاء به. وفي وَصفِ ما جاء به أنَّه الحقُّ ما يَكْفي لِنَفيِ أنْ يكونَ شاعرًا ومَجنونًا؛ فإنَّ المشركينَ ما أرادوا بوَصفِه بشاعرٍ أو مَجنونٍ إلَّا التَّنفيرَ مِن اتِّباعِه، فمَثَّلوه بالشَّاعرِ مِن قَبيلةٍ يَهْجو أعداءَ قَبيلتِه، أو بالمجنونِ يقولُ ما لا يَقولُه عُقلاءُ قَومِه؛ فكان قولُه تعالى: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ مُثبِتًا لكونِ الرَّسولِ على غيرِ ما وَصَفوه إثباتًا بالبَيِّنةِ، وأُتبِعَ ذلك بتَذكيرِهم بأنَّه ما جاء إلَّا بمِثلِ ما جاءت به الرُّسلُ مِن قَبْلِه، فكان الإنصافُ أنْ يُلحِقوه بالفريقِ الَّذي شابَهَهم، دونَ فَريقِ الشُّعراءِ أو المجانينِ[(١)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ۝ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

- مِن كلامِ اللهِ يومَ القيامةِ الموجَّهِ إلى المشركينَ عقِبَ تَساؤُلِهم وتَحاوُرِهم، فيَكونُ ما بيْن هذا وبيْن مُحاوَرتِهم المُنْتهيةِ بقولِهم: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ [الصَّافَّات: ٣٢] اعتراضًا، أي: فلمَّا انتهَوا مِن تَحاوُرِهم خُوطِبوا بما يَقطَعُ طَمَعَهم في قَبولِ تَنصُّلِ كِلا الفريقينِ مِن تَبِعاتِ الفريقِ الآخَرِ؛ لِيَزْدادوا تَحقُّقًا مِن العذابِ الَّذي عَلِموه مِن قَولِهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٣١]، وهذا ما تَقْتَضيه دَلالةُ اسمِ الفاعلِ في قولِه: ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ حقيقةٌ في الحالِ، أي: حالِ التَّلبُّسِ؛ فإنَّه لَمَّا قِيل لهم هذا كانوا مُشرِفينَ على الوُقوعِ في العذابِ، وذلك زمَنُ حالٍ في العُرْفِ العربيِّ[(٢)].

- في قولِه: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٠٩).

لِمُجابَهتِهم بإظهارِ كَمالِ الغضَبِ، وأنَّه بلَغَ أقْصى آمادِه وحُدودِه[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استِثناءٌ مُنقطِعٌ مِن ضَميرِ (ذَائِقُو)، وما بيْنَهما اعتراضٌ، جِيءَ به؛ مُسارعةً إلى تَحقيقِ الحقِّ ببَيانِ أنَّ ذَوقَهم العذابَ ليس إلَّا مِن جِهَتِهم، لا مِن جِهَةِ غيرِهم أصْلًا[٢].

- وهذا الاستثناءُ المُنقطِعُ في مَعنى الاستدراكِ، وهذا الاستدراكُ تَعقيبٌ على قَولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٣٣]؛ فإنَّ حالَ عِبادِ اللهِ المخلَصينَ تامُّ الضِّدِّيَّةِ لحالِ الَّذين ظَلَموا، وليس يَلزَمُ في الاستدراكِ أنْ يكونَ رَفْعَ تَوهُّمٍ، وإنَّما ذلك غالِبٌ[٣].

- وذِكرُ المؤمنينَ بوَصفِ العُبوديَّةِ المضافةِ للهِ تعالى ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، تَنويهٌ بهم وتَقريبٌ[٤]؛ ففيه شَرَفُ القائمِينَ بأمرِ اللهِ تعالى، ولا شَكَّ أنَّه فَخرٌ للإنسانِ أن يُنسَبَ إلى عبادةِ اللهِ[٥].

- والمُخلَصينَ: صِفةُ مَدْحٍ؛ لأنَّ كَونَهم عِبادَ اللهِ يَلزَمُ منه أنْ يَكونوا مُخلَصينَ[٦].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لِمَا أفادهُ الاستِثناءُ إجمالًا بَيانًا تَفْصيليًّا[٧].

- والإشارةُ إلى عِبادِ اللهِ بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ قُصِدَ منها التَّنبيهُ على أنَّهم استَحقُّوا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٠).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠).

ما بعدَ اسم الإشارةِ لِأجْلِ ما أُثبِتَ لهم مِن صِفَةِ الإخلاصِ، وذلك مِن مُقتضياتِ تَعريفِ المسنَدِ إليه بالإشارةِ، وما في اسمِ الإشارةِ مِن مَعنى البُعدِ مع قُرْبِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإشعارِ بعُلوِّ طَبقتِهم، وبُعدِ مَنْزلَتِهم في الفضلِ[(١)].

- وقولُه: ﴿مَّعْلُومٌ﴾ فيه إيجازٌ؛ فقد نابَتْ هذه الكلمةُ عن الأوقاتِ والمُدَدِ، واندرَجَت فيها العَشايا والأصائلُ والبُكَرُ، كما نابَتْ عن الطُّعومِ المُتفاوِتةِ والرَّوائحِ المُتباينةِ الَّتي تَختلِفُ في المَظهرِ، وتَتَّفِقُ في طِيبِها[(٢)].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ فُسِّرَ الرِّزقُ المعلومُ بالفواكهِ، وهي كلُّ ما يُتلذَّذُ به ولا يُتقوَّتُ لحِفْظِ الصِّحَّةِ، وتَخصيصُها بالذِّكرِ؛ لأنَّهم مُسْتغنُون عن حِفظِ الصِّحَّةِ بالأقواتِ، بأنَّهم أجسامٌ مُحكمةٌ مَخلوقةٌ للأبَدِ، فكلُّ ما يَأكُلُونه يَأكُلونه على سَبيلِ التَّلذُّذِ. وقيل: المقصودُ مِن ذِكرِ الفاكهةِ التَّنبيهُ بالأدْنى على الأعلَى، يعني: لَمَّا كانت الفاكهةُ حاضرةً أبدًا، كان الإدامُ أَولى بالحضورِ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ عطْفٌ على ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾، أي: يُعامَلون بالحَفاوةِ والبهجةِ؛ فإنَّه وسَّطَ في أثناءِ وَصفِ ما أُعِدَّ لهم مِن النَّعيمِ الجُسمانيِّ أنَّ لهم نَعيمَ الكرامةِ، وهو أهمُّ؛ لأنَّ به انتعاشَ النَّفْسِ، مع ما في ذلك مِن خُلوصِ النِّعمةِ ممَّن يُكَدِّرُها؛ وذلك لأنَّ الإحسانَ قد يكونُ غيرَ مُقترنٍ بمدْحٍ وتَعظيمٍ ولا بأذًى، وهو الغالبُ، وقد يكونُ مُقترنًا بأذًى، وذلك يُكدِّرُ مِن صَفْوِه،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠).

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فإذا كان الإحسانُ مع عِباراتِ الكرامةِ وحُسنِ التَّلقِّي فذلك الثَّوابُ. وهو كالتَّكميلِ للكلامِ السَّابقِ، أو أنَّه كالتَّذييلِ[١]. فلَمَّا ذكَرَ الأكلَ؛ بيَّنَ أنَّ ذلك الأكلَ حاصِلٌ مع الإكرامِ والتَّعظيمِ؛ لأنَّ الأكلَ الخاليَ عن التَّعظيمِ يَليقُ بالبَهائِمِ[٢]. فقولُه تعالى: ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ تَتميمٌ بَليغٌ للنَّعيمِ؛ لأنَّه رُبَّ مَرزوقٍ غَيرُ مُكرَمٍ، وذلك أعظَمُ التَّنكيدِ[٣].

٨- قولُه تعالَى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

- قولُه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: في جنَّاتٍ ليس فيها إلَّا النَّعيمُ، وهو ظرْفٌ أو حالٌ مِن المُسْتكنِّ في ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾، أو خبَرٌ ثانٍ لـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[٤].

٩- قولُه تعالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ * بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ إمَّا استئنافٌ لبيانِ ما يكونُ لهم في مجالسِ أنسِهم، أو حالٌ مِن الضميرِ في ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أو في أحدِ الجارَّينِ، وجُوِّز كونُه صفةُ لـ ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾[٥].

- ووُصِفَ الخمرُ بأنَّه ﴿مِّن مَّعِينِۭ﴾؛ لأنَّه يَجْري في الجنَّةِ في أنهارٍ كما يَجْري الماءُ في الدُّنيا، أو للإشعارِ بأنَّ ما يكونُ لهمْ بمَنزلةِ الشَّرابِ جامعٌ لِمَا يُطلَبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١١، ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٤).

مِن أنواعِ الأشربةِ؛ لِكَمالِ اللَّذَّةِ[١].

- والمَعينُ بوَزنِ فَعيلٍ، مِثالُ مُبالَغةٍ مِن المَعْنِ، وهو الإبعادُ في الفِعلِ؛ شُبِّهَ جَرْيُه بالإبعادِ في المشْيِ[٢]. وذلك على قولٍ.

- ووُصِفتْ الكأسُ بالمصدرِ في قولِه: ﴿لَذَّةٍ﴾؛ للمُبالَغةِ، بجَعلِها نفْسَ اللَّذَّةِ، فالوصفُ بالمصدرِ أبلغُ مِن الوصفِ بالمشتقِّ مِن المصدرِ، كاسمِ الفاعلِ واسمِ المفعولِ، فـقولُك: (فلانٌ عدلٌ) أبلغُ مِن: (فلانٌ عادلٌ). وجُوِّز أن تكونَ ﴿لَذَّةٍ﴾ تأنيثَ (لذٍّ) بمعنى لذيذٍ، أو على حذفٍ، أي: ذاتِ لَذَّةٍ[٣].

- وفي قولِه تعالى: ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ دونَ (لهم): إشارةٌ إلى أنَّها يَلتَذُّ بها الشَّاربُ كائنًا مَن كان[٤]، فهو مِن بابِ التَّوكيدِ، يعني أنَّهم في حالِ شُربِهم إيَّاها يَتلذَّذون بها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩١).

وقال ابن عاشور: (يقالُ: لَذَّه ولَذَّ به، والمصدرُ: اللَّذَّةُ واللَّذاذةُ... ويُقالُ: شَيءٌ لَذٌّ، أي: لذيذٌ، فهو وصفٌ بالمصدرِ، فإذا جاء بهاءِ التَّأنيثِ كما في هذه الآيةِ فهو الاسمُ لا مَحالةَ؛ لأنَّ المصدرَ الوصفَ لا يُؤَنَّثُ بتأنيثِ مَوصوفِه، يقالُ: امرأةٌ عَدْلٌ، ولا يُقالُ: امرأةٌ عَدْلةٌ. ووصْفُ الكأسِ بها كالوصفِ بالمصدرِ يُفيدُ المُبالَغةَ في تمكُّنِ الوصفِ، فقولُه تعالى: ﴿لَذَّةٍ﴾ هو أقصَى ما يؤدِّي شِدَّةَ الالتِذاذِ بكلمةٍ واحدةٍ؛ لأنَّه عُدِل به عن الوصفِ الأصليِّ لقصدِ المُبالَغةِ، وعُدِل عن المصدرِ إلى الاسمِ لِمَا في المصدرِ مِن معنَى الاشتقاقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٨).

١٠- قولُه تعالَى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ تَقديمُ الظَّرفِ المسنَدِ ﴿فِيهَا﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿غَوْلٌ﴾؛ لإفادةِ التَّخصيصِ، أي: هو مُنتَفٍ عن خمْرِ الجنَّةِ فقطْ دونَ ما يُعرَفُ مِن خمْرِ الدُّنيا، فهو قَصرُ قلْبٍ[١]. ووُقوعُ ﴿غَوْلٌ﴾ -وهو نَكِرةٌ- بعْدَ (لا) النَّافيةِ، أفاد انتفاءَ هذا الجنْسِ مِن أصْلِه[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قُدِّمَ المُسنَدُ إليه ﴿هُمْ﴾ على المُسنَدِ ﴿يُنزَفُونَ﴾، والمسنَدُ فِعلٌ؛ لِيُفِيدَ التَّقديمُ تَخصيصَ المُسنَدِ إليه بالخبَرِ الفِعليِّ، أي: بخِلافِ شارِبي الخمْرِ مِن أهلِ الدُّنيا[٣].

- وفي الآيةِ إيجازٌ بليغٌ؛ فقدْ جَمَعَت هاتانِ الكلمتانِ ﴿غَوْلٌ﴾ و﴿يُنزَفُونَ﴾ جميعَ عُيوبِ خمْرِ أهلِ النَّاسِ الَّتي حُرِّمَت بسَببِها، والمعنى: لا فيها فَسادٌ قَطُّ مِن أنواعِ الفسادِ الَّتي تكونُ في شُرْبِ الخمْرِ؛ مِن مَغْصٍ، أو صُداعٍ، أو خُمارٍ[٤]، أو عَرْبدةٍ، أو لَغوٍ، أو تأْثيمٍ، أو غيرِ ذلك، ولا همْ يَسْكَرون، وهو أعظَمُ مَفاسدِها؛ فأفْرَزَه وأفرَدَه بالذِّكرِ[٥].

١١- قولُه تعالَى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾

- ذِكرُ (عِندَ) لإفادةِ أنَّهنَّ مُلابِساتٌ لهم في مَجالسِهم الَّتي تُدارُ عليهم فيها

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣، ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١١٤).

(٤) الخُمارُ: بَقيَّةُ السُّكْرِ، أو: ما أصابك مِن ألمِها وصُداعِها وأذاها. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٩٧)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٦٨).

كأْسُ الجنَّةِ، وكان حُضورُ الجواري مَجالِسَ الشَّرابِ مِن مُكمِّلاتِ الأُنسِ والطَّرَبِ عندَ سادةِ العرَبِ(١).

- وفي الآيةِ تَشبيهٌ مُرسَلٌ؛ فالمرادُ بالبَيضِ هنا بَيضُ النَّعامِ، والمَكنونُ مِن كَنَنْتُه، أي: جعَلْتُه في كِنٍّ، والنِّساءُ يُشَبَّهْنَ بالبَيضِ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ؛ أحدُها: بالصِّحَّةِ والسَّلامةِ عن الطَّمثِ. والثَّاني: في الصِّيانةِ والسَّترِ؛ لأنَّ الطَّائرَ يَصُونُ بَيضَه ويُحصِّنُه. والثَّالثُ: في صَفاءِ اللَّونِ ونَقائِه؛ لأنَّ البيضَ يكونُ صافيَ اللَّونِ نَقِيَّه إذا كان تحتَ الطَّائرِ. وقيل: هو تَشبيهٌ عامٌّ؛ شبَّهَ جُملةَ المرأةِ بجُملةِ البَيضةِ، أراد بذلك تَناسُبَ أجزاءِ المرأةِ، وأنَّ كلَّ جُزءٍ منها نِسبتُه في الجودةِ إلى نَوعِه نِسبةُ الآخَرِ مِن أجْزائِها إلى نَوعِه؛ فنِسبةُ شَعرِها إلى عَينِها مُستويةٌ؛ إذ هما غايةٌ في نَوعِها، والبَيضةُ أشدُّ الأشياءِ تَناسُبَ أجزاءٍ؛ لأنَّها مِن حيث حُسْنُها في النَّظرِ واحدٌ(٢).

- وفي الآياتِ السَّابقةِ ترتيبٌ حسَنٌ؛ فقدْ ذكَرَ أوَّلًا: الرِّزقَ ﴿رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾، وهو ما يَتلذَّذُ به الأجسامُ. وثانيًا: الإكرامَ ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾، وهو ما يَتلذَّذُ به النُّفوسُ -ورزقٌ بإهانةٍ تَنكيدٌ-. ثمَّ ذكَرَ المحلَّ الَّذي هُمْ فيه ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾. ثمَّ أشْرَفَ المحلِّ ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، وبه لَذَّةُ التَّآنُسِ بأنَّ بعضَهم يُقابِلَ بعضًا، وهو أتَمُّ السُّرورِ وآنَسُه. ثمَّ المشروبَ ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ﴾، وأنَّهم لا يَتناوَلونَ ذلك بأنفُسِهم، بلْ يُطافُ عليهم بالكؤوسِ. ثمَّ وصَفَ ما يُطافُ عليهم به مِن الطِّيبِ، وانتفاءِ المفاسدِ. ثمَّ ذَكَرَ تَمامَ اللَّذَّةِ الجُسمانيَّةِ، وختَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٦٩).

بها كما بَدأَ باللَّذَّةِ الجُسمانيَّةِ مِن الرِّزقِ -وهي أبلَغُ الملاذِّ- وهي التَّآنُسُ بالنِّساءِ ﴿ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٌ ﴾، وأُرِيدَ تَتميمُ معنى تلك النِّعمةِ؛ فألْقَى في خَلَدِهم تَذَكُّرَ ما كانوا عليه في الدُّنيا مع القَرينِ السُّوءِ الَّذي كاد أنْ يُفوِّتَ عليهمْ هذا النَّعيمَ المُقِيمَ؛ لِيَزيدَ غِبْطَتَهم وتَبجُّحَهم، وإليه الإشارةُ بقولِه: ﴿ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾[1] [الصَّافَّات: ٥٧].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٠).

الآيات (٥٠-٦١)

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَرِينٌ﴾: أي: صاحِبٌ وصَديقٌ مُلازِمٌ، والاقتِرانُ: الازدِواجُ واجتِماعُ شَيئينِ أو أشياءَ في معنًى مِنَ المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[(١)].

﴿لَمَدِينُونَ﴾: أي: لَمَجزيُّونَ، ومُحاسَبونَ، وأصلُ (دين): يدُلُّ على جِنسٍ مِنَ الانقيادِ[(٢)].

﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: وَسَطِ النَّارِ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بيْنَ شيئينِ، وأصلُ (جحم): يدُلُّ على عِظَمِ الحَرارةِ وشِدَّتِها[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩) و(٣/ ١١٢).

﴿لَتُرْدِينِ﴾: أي: لَتُهلِكُني، والرَّدَى: الهلاكُ، والتَّرَدِّي: التَّعَرُّضُ للهَلاكِ، وأصلُ (ردي): يدُلُّ على رَميٍ أو تَرامٍ وما أشْبَهَ ذلك[1].

﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾: أي: المُعَذَّبينَ في النَّارِ، وأصلُ (حضر): يدُلُّ على وُرودٍ ومُشاهَدةٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه يُقبِلُ بَعضُ أهلِ الجنَّةِ على بَعضٍ يَتساءَلون، فيقولُ قائِلٌ منهم لأصحابِه: إنِّي كان لي قَرينٌ في الدُّنيا يقولُ لي: أَئِنَّك لَتُصَدِّقُ بوُقوعِ البَعثِ والجَزاءِ بعدَ المَوتِ؟! أئذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا وعِظامًا أئنَّا لَمُحاسَبونَ على أعمالِنا؟!

فيقولُ هذا المؤمِنُ لأصحابِه في الجنَّةِ: هل أنتم مُطَّلِعونَ؛ لِنَنظُرَ حالَ هذا القَرينِ الَّذي كان يُكَذِّبُ بالبَعثِ؟! فاطَّلَعَ المؤمِنُ فرأى قَرينَه الكافِرَ في وَسَطِ الجَحيمِ. فقال المؤمِنُ له: تاللهِ لقد كِدْتَ أن تُهلِكَني بمُحاوَلةِ إغوائِك، ولولا هِدايةُ رَبِّي لي إلى الحَقِّ لَكُنتُ مِنَ المُحضَرينَ معك في النَّارِ.

ثمَّ أقبَلَ المؤمِنُ على أصحابِه مِن أهلِ الجنَّةِ مَسرورًا فقال: أئنَّا لَمُخَلَّدونَ في هذا النَّعيمِ، ولن نموتَ مَوتةً أُخرى غيرَ مَوتَتِنا الأُولى الَّتي كانت في الدُّنيا، ولن نُعذَّبَ في النَّارِ؟! إنَّ هذا لَهُوَ الفوزُ العظيمُ. لِمِثْلِ هذا النَّعيمِ المُقيمِ فلْيَعمَلِ العامِلونَ في الدُّنيا مِنَ الصَّالحاتِ!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى نَعيمَ أهلِ الجنَّةِ، وتمامَ سُرورِهم بالمآكِلِ والمَشارِبِ، والأزواجِ الحِسانِ، والمجالِسِ الحَسَنةِ؛ ذكَرَ تَذاكُرَهم فيما بيْنَهم، ومُطارَحتَهم للأحاديثِ عن الأمورِ الماضيةِ، وأنَّهم ما زالوا في المحادَثةِ والتَّساؤُلِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان ذلك الاجتِماعُ إنَّما هو للسُّرورِ، وكان السُّرورُ لا يَتِمُّ إلَّا بالمُنادَمةِ، وكان أحلى المُنادَمةِ ما يُذَكِّرُ بحُلولِ نِعمةٍ أو انحِلالِ نِقمةٍ؛ تسَبَّبَ عن ذلك -ولا بُدَّ- قولُه تعالى[2]:

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٥٠﴾.

أي: فأقبَلَ بَعضُ أهلِ الجنَّةِ على بَعضٍ يَتساءَلونَ فيما بيْنَهم[3].

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

قال ابنُ كثير: (ذلك مِن حديثِهم على شَرابِهم، واجتِماعِهم في تَنادُمِهم، وعِشرتِهم في مَجالِسِهم، وهم جلوسٌ على السُّرُرِ، والخَدَمُ بيْن أيديهم يَسعَونَ ويَجيئونَ بكُلِّ خَيرٍ عَظيمٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥).

وقال الألوسي: (وتساؤلُهم عن المعارفِ والفضائلِ، وما جرَى لهم وعليهم في الدُّنيا، وما أحلَى تذكُّرَ ما فاتَ عندَ رفاهيةِ الحالِ، وفراغِ البالِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوى)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٢).

أي: قال قائِلٌ مِن أهلِ الجنَّةِ لجُلَسائِه: إنِّي كان لي قَرينٌ[(١)] في الدُّنيا[(٢)].

﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: كان القَرينُ يَقولُ لي: أئِنَّك لَمِنَ المُصَدِّقينَ بوُقوعِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ بعدَ الموتِ[(٣)]؟!

---

(١) قيل: المرادُ به: شَيطانٌ مِن الجِنِّ. وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٣).

وقيل: المرادُ به: صَديقٌ مُلازِمٌ مِن الإنسِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجملةِ: ابنُ عطيَّة، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٣).

وممَّن ذهب إلى إمكانِ حَملِ الآيةِ على كِلا القولينِ: ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٥).

قال ابنُ كثير: (﴿كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قال مجاهِدٌ: يعني شيطانًا. وقال العَوْفيُّ، عن ابنِ عبَّاسٍ: هو الرَّجُلُ المشركُ يكونُ له صاحِبٌ مِن أهلِ الإيمانِ في الدُّنيا. ولا تَنافيَ بيْن كلامِ مُجاهدٍ وابنِ عبَّاسٍ؛ فإنَّ الشَّيطانَ يكونُ مِن الجِنِّ، فيُوسوِسُ في النَّفْسِ، ويكونُ مِن الإنسِ فيَقولُ كلامًا تَسمَعُه الأُذُنانِ، وكِلاهما مُتعاوِنانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥).

وقيل: المرادُ به صاحِبُ الجنَّتينِ الَّذي قصَّ اللهُ خبَرَه في سورةِ الكَهفِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٢، ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

قيل: يقولُ له ذلك على وَجهِ التَّوبيخِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: البيضاوي، والبِقاعي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٨). =

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: أئِذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا وعِظامًا أئِنَّا لَمُحاسَبونَ ومَجزيُّونَ على أعمالِنا[1]؟!

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: قال الرَّجُلُ المؤمِنُ لأصحابِه في الجنَّةِ: هل أنتم مُطَّلِعونَ على النَّارِ وأهلِها، فنَنظُرَ حالَ هذا القَرينِ المكَذِّبِ بالبَعثِ[2]؟

﴿فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: فاطَّلعَ المؤمِنُ في النَّارِ فرأى قَرينَه الكافِرَ يُعذَّبُ في وَسَطِ الجَحيمِ[3].

﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: قال المؤمِنُ لَمَّا رأى قَرينَه الكافِرَ في النَّارِ: تاللهِ لقد أوشَكْتَ أن تُهلِكَني

= قال البِقاعي: (يُوبِّخُني بذلك، ويَستقصِرُ باعي في النَّظَرِ؛ استِثارةً لِهِمَّتي، وإلهابًا لِنَخوتي وحَمِيَّتي). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٣٤).

وقيل: يقولُ ذلك على وَجهِ التَّعَجُّبِ والتَّكذيبِ والاستِبعادِ، والكُفرِ والعِنادِ. ومِمَّن قال بهذا في الجملةِ: ابنُ كثير، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢١٠).

قال ابنُ عثيمين: (الآيةُ تحتمِلُ هذا وهذا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٧).

قال ابنُ الجوزي: (فأحَبَّ المؤمِنُ أن يَرى قرينَه الكافِرَ، فقال لأهلِ الجنَّةِ: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي: هل تُحِبُّونَ الاطِّلاعَ إلى النَّارِ؛ لِتَعلَموا أين مَنزِلَتُكم مِن مَنزِلَةِ أهلِها؟). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

بمُحاوَلةِ صَرفِك لي عن الإيمانِ بالبَعثِ والجَزاءِ[١].

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾.

أي: ولولا أنَّ رَبِّي أنعَمَ عليَّ بالهدايةِ إلى الحَقِّ والثَّباتِ عليه، لَكُنتُ مِنَ المُحضَرينَ معك في النَّارِ[٢]!

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لـمَّا تَمَّم كَلامَه مع الرَّجُلِ الَّذي كان قَرينًا له في الدُّنيا، وهو الآنَ مِن أهلِ النَّارِ؛ عاد إلى مُخاطَبةِ جُلَسائِه مِن أهلِ الجنَّةِ؛ قائلًا[٣]:

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾.

أي: قال المُؤمِنُ لأهلِ الجنَّةِ مُغتَبِطًا مَسرورًا بنِعمةِ اللهِ عليهم بالخُلودِ فيها أبدًا: أَلَنْ نَموتَ مَوتةً أُخرى غيرَ مَوتَتِنا الأُولى الَّتي كانت في الدُّنيا، ولن نكونَ مِن المُعَذَّبينَ في النَّارِ[٤]؟!

كما قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٧، ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢٩، ١٣٠).

ٱلْجَحِيمِ ۞ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الدخان: ٥٦، ٥٧].

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى نعيمَ الجنَّةِ ووصَفَه بهذه الأوصافِ الجَميلةِ؛ مَدَحَه وشَوَّق العامِلينَ، وحَثَّهم على العَمَلِ، فقال[1]:

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: إنَّ الخُلودَ في الجنَّةِ والنَّجاةَ مِنَ النَّارِ لَهُوَ الفَوزُ العَظيمُ[2].

كما قال تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦).

قال ابنُ عطيَّة: (يحتمِلُ أن يكونَ مِن خِطابِ المؤمِنِ لِقَرينه... ويحتمِلُ أن يكونَ مِن خِطابِ الله تعالى لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وأمَّته). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٥).

وممَّن ذهب إلى أنَّه مِن كلامِ المؤمِنِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزمخشري، والقرطبي، وابن كثير، والبِقاعي، والشوكاني، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٩٥).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ مِن قولِ المؤمنِ وأصحابِه جميعًا. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٥٣).

وظاهِرُ كلامِ السَّمرقنديِّ والسَّعديِّ أنَّه مِن كلامِ اللهِ تعالى، وهو اختيارُ ابنِ جُزَي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

أي: فلْيَعمَلِ العامِلونَ في الدُّنيا مِنَ الصَّالحاتِ؛ لِيَنالوا مِثلَ هذا النَّعيمِ، والفَوزِ العَظيمِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ كمالُ أدبِ أهلِ الجنةِ في أنَّهم عندَ المُحادَثةِ يُقبِلُ بَعضُهم على بَعضٍ، وهذا مِن كَمالِ الأدبِ: أنْ تُقبِلَ إلى مُحَدِّثِك[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٠).

قال القرطبي: (يحتمِلُ أن يكونَ مِن كلامِ المؤمِنِ... ويحتمِلُ أن يكونَ مِن قَولِ الملائكةِ. وقيل: هو مِن قَولِ الله عزَّ وجلَّ لأهلِ الدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٤). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩١).

ومِمَّن قال بأنَّه مِن كلامِ الله تعالى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٨، ٦٠٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٠).

ومِمَّن قال بأنَّه مِن كلامِ المؤمِنِ: الزمخشريُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢٢).

فيه عِبرةٌ مِن الحَذَرِ مِن قُرَناءِ السُّوءِ، ووُجوبِ الاحتراسِ مِمَّا يَدْعُونَ إليه، ويُزَيِّنونَه مِن المهالِكِ[(١)]، فصُحبةُ الأشرارِ فيها ضَرَرٌ عَظيمٌ، كما بيَّنَه اللهُ عزَّ وجَلَّ في هذه الآيةِ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أنَّه يُندَبُ للإنسانِ أنْ يَنظُرَ في ضَلالِ مَن ضَلَّ؛ لِيَتبَيَّنَ في ذلك قَدْرَ نعمةِ اللهِ عليه في الهدايةِ؛ فإنَّ الأشياءَ إنَّما تَتبيَّنُ بضِدِّها[(٣)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أنَّ التَّحَدُّثَ بنِعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ مَشروعٌ ومأمورٌ به؛ بشَرطِ أنْ يكونَ المقصودُ به الثَّناءَ على اللهِ تعالى، لا الافتخارَ على عبادِ اللهِ[(٤)]!

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ فهو أحَقُّ ما أُنفِقَت فيه نفائسُ الأنفاسِ، وأَولى ما شَمَّر إليه العارِفونَ الأكياسُ، والحَسرةُ كُلُّ الحَسرةِ أن يَمضِيَ على الحازِمِ وَقتٌ مِن أوقاتِه وهو غيرُ مُشتَغِلٍ بالعَمَلِ الَّذي يُقرِّبُ لهذه الدَّارِ، فكيف إذا كان يَسيرُ بخطاياه إلى دارِ البَوارِ[(٥)]؟! فينبغي للعاقِلِ أنْ يُذهِبَ أنفاسَه ونَفيسَه ونَفسَه في العَمَلِ لهذه الغايةِ الحَميدةِ: الوُصولِ إلى الجنَّةِ[(٦)].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ كمالُ سُرورِ أهلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٤١).

الجنَّةِ، وأنَّهم يَتحادَثونَ ويَتساءَلونَ عمَّا جرَى في الدُّنيا، والتَّحَدُّثُ عمَّا جرَى على الإنسانِ فيما سَبَقَ فيه لَذَّةٌ وراحةٌ للنَّفْسِ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ النَّاسَ في الآخرةِ تَعودُ إليهم تَذَكُّراتُهم الَّتي كانت لهم في الدُّنيا، مُصَفَّاةً مِن الخواطِرِ السَّيِّئةِ، والأكدارِ النَّفْسانيَّةِ، مُدرِكةً الحقائِقَ على ما هي عليه(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أنَّه قد يكونُ أعدَى عَدُوٍّ للإنسانِ مَن كان مُقارِنًا له(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أنَّ أحوالَ يومِ القيامةِ لا تُقاسُ بأحوالِ الدُّنيا؛ فإنَّ هذا يَنظُرُ مِن أعلى عِلِّيِّينَ إلى أسفَلِ السَّافِلينَ، فيَرى صاحبَه في سَواءِ الجَحيمِ، فيَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّ كُلَّ ما ورَد مِن أحوالِ يومِ القيامةِ -مِمَّا تَستَبعِدُه النُّفوسُ؛ لِعَدمِ مُشاهَدةِ نَظيرِه في الدُّنيا- لا ينبغي أنْ يكونَ مَحَلَّ استِبعادٍ(٤).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ جوازُ إضافةِ الشَّيءِ إلى سَبَبِه؛ فلم يَقُلْ: ولولا ربِّي(٥)!

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ احتُجَّ به على أنَّ الهُدى والضَّلالَ مِنَ اللهِ تعالى(٦). وفيه حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والجَهميَّةِ، ألَا ترَى إلى مُخاطَبةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٥).

هذا لِقَرينه الَّذي كان حَريصًا على إغوائه في الدُّنيا بما يَقولُ له: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، فأعلَمَه أنَّه لم يَنْجُ ممَّا كان يَدْعوه إليه قَرينُه ويُزَيِّنُه له إلَّا بنِعمةِ ربِّه، لا بِطاقتِه واستِطاعةِ نَفْسِه[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أنَّ نجاةَ الإنسانِ مِن عذابِ اللهِ مِن أكبرِ النِّعَمِ، ويدُلُّ لذلك أيضًا قولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]؛ حيث جَعَلَ إكمالَ الدِّينِ مِن إتمامِ النِّعمةِ، وبالدِّينِ تكونُ النَّجاةُ مِن النَّارِ، والفَوزُ بدارِ القَرارِ، فمِن أكبَرِ النِّعَمِ بلا شَكٍّ -بل هي أكبَرُ النِّعَمِ- أن يَمُنَّ اللهُ على الإنسانِ بالنَّجاةِ مِن النَّارِ ودُخولِ الجنَّةِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أنَّ الفوزَ حقيقةً هو الوُصولُ إلى دارِ كرامةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فيَترتَّبُ على هذه الفائدةِ: أنَّ الإنسانَ مهما فاز في الدُّنيا، فإنَّ فَوزَه ليس بشَيءٍ بالنِّسبةِ إلى فَوزِ الآخِرةِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ رَدٌّ على الجَبريَّةِ؛ حيثُ وُجِّهَ الأمرُ إليهم، ونُسِبَ العَمَلُ إليهم؛ لأنَّ الأمرَ بالشَّيءِ لِمَن لا يَستطيعُه: لا شكَّ أنَّه ظُلمٌ وتَكليفٌ بما لا يُطاقُ، وإثباتَ العَمَلِ أيضًا لِمَن لا إرادةَ له يُعَدُّ مَدحًا لغوًا؛ لأنَّ هؤلاء إذا كانوا مُجبَرينَ فلا يَنبغي أنْ يُمدَحوا على مَحبوبٍ، ولا أنْ يُذَمُّوا على مَكروهٍ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾

- الفاءُ في ﴿فَأَقْبَلَ﴾ للتَّفْريعِ؛ لأنَّ شأنَ المُتَجالِسينَ في مَسَرَّةٍ أنْ يَشرَعوا في الحديثِ؛ فإنَّ في الحَديثِ مع الأصحابِ والمُنتَدِمينَ لَذَّةً، فإذا استَشْعروا أنَّ ما صاروا إليه مِن النَّعيمِ كان جزاءً على ما سبَقَ مِن إيمانِهم وإخلاصِهم، تذكَّرَ بعضُهم مَن كان يُجادِلُه في ثُبوتِ البَعْثِ والجَزاءِ، فحَمِدَ اللهَ على أنْ هَداهُ لعَدَمِ الإصغاءِ إلى ذلك الصَّادِّ؛ فلذلك حُكِيَ إقْبالُ بعضِهم على بعضٍ بالمُساءلةِ بفاءِ التَّعْقيبِ[١]. وقيل: قَولُه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ معطوفٌ على قَولِه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾، والمعنى: يَشرَبونَ ويَتحادَثونَ على الشَّرابِ، فيُقبِلُ بَعضُهم على بَعضٍ يَتساءَلونَ عَمَّا جرَى لهم وعليهم في الدُّنيا[٢].

- وجِيءَ في حِكايةِ هذه الحالةِ بصِيَغِ الفِعلِ الماضي ﴿فَأَقْبَلَ﴾ مع أنَّها مُستقبَلةٌ؛ لإفادةِ تَحقيقِ وُقوعِ ذلك وتَأْكيدِه حتَّى كأنَّه قد وقَعَ، والقَرينةُ هي التَّفريعُ على الأخبارِ المُتعلِّقةِ بأحوالِ الآخِرةِ[٣].

- وقيل: سَمَّاه سُؤالًا؛ لأنَّه مع كَونِه أهلًا لِأن يُسألَ عنه، لا يخلو عن سُؤالٍ أدناه سُؤالُ المحادَثِ أن يُصغِيَ إلى الحَديثِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٣).

- وحُذِفَ المُتَساءَلُ عنه؛ لدَلالةِ ما بعدَه عليه[١]. وقيل: حُذِفَ المعمولُ والمقامُ مقامُ لذَّةٍ وسرورٍ؛ فدلَّ ذلك على أنَّهم يَتساءَلون بكلِّ ما يَلتذُّونَ بالتَّحدُّثِ به[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾

- الاستِفْهامُ في ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ، أي: ما كان يحقُّ لك أنْ تُصدِّقَ بهذا. وسُلِّطَ الاستِفهامُ على حَرفِ التَّوكيدِ؛ لإفادةِ أنَّه بَلَغَه تأكُّدُ إسلامِ قَرينِه، فجاء يُنكِرُ عليه ما تحقَّقَ عندَه، أي: أنَّ إنكارَه إسلامَه بعدَ تحقُّقِ خَبَرِه، ولولا أنَّه تحقَّقَه لَمَا ظَنَّ به ذلك[٣].

- جُملةُ ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بيَّنَتِ الإنكارَ المُجمَلَ بإنكارٍ مُفصَّلٍ، وهو إنكارُ أنْ يُبعَثَ النَّاسُ بعدَ تفرُّقِ أجْزائِهم، وتَحوُّلِها تُرابًا بعدَ المَوتِ، ثمَّ يُجازَوْا[٤].

- وجُملةُ ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ جَوابُ (إذا)، وقُرِنَت بحَرفِ التَّوكيدِ؛ لإفادةِ أنَّه بَلَغَه أنَّ صاحِبَه يُؤمِنُ بالبَعْثِ؛ فجاءَ يُنكِرُ عليه ما تحقَّقَ عِندَه[٥].

- وقيلَ هُنا: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، وفي أوَّلِ السُّورةِ ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٦]؛ لاختِلافِ القائِلينَ[٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- الاستِفْهامُ مُستعمَلٌ في العَرْضِ، عَرَضَ على رُفقائِه أنْ يَتطلَّعوا إلى رُؤيةِ قَرينِه وما صارَ إليه؛ وذلك: إمَّا لأنَّه عَلِمَ أنَّ قَرينَه ماتَ على الكُفرِ بأنْ يكونَ قد سَبَقَه بالمَوتِ، وإمَّا لأنَّه أُلقِيَ في رُوعِه أنَّ قَرينَه صارَ إلى النَّارِ، وهو مُوقِنٌ بأنَّ خازِنَ النَّارِ يُطلِعُهم على هذا القَرينِ؛ لعِلمِهم بأنَّ لأهْلِ الجَنَّةِ ما يَتَساءَلونَ. وقيلَ: القائِلُ هو اللهُ، أو بعضُ الملائكةِ، يقولُ لهم: هل تُحِبُّونَ أنْ تَطَّلِعوا على أهْلِ النَّارِ؛ لِأُرِيَكم ذلك القَرينَ، فتَعلَموا أينَ مَنزِلَتُكم مِن مَنزِلَتِهم[(١)]؟

- وقيل: الاستِفهامُ هو بمعنَى الأمرِ، أي: اطَّلِعوا[(٢)].

- وحُذِفَ متعلَّقُ ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾؛ لِدَلالةِ آخِرِ الكَلامِ عليه بقَولِه: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾، فالتَّقْديرُ: هل أنتُمْ مُطَّلِعونَ على أهْلِ النَّارِ؛ لِنَنظُرَه فيهم[(٣)]؟

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾

- في قَولِه: ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بـ(الاكتِفاءِ)، أي: فاطَّلَعَ واطَّلَعوا فرآهُ ورَأَوه في سَواءِ الجَحيمِ؛ إذ هو إنَّما عرَضَ عليهم الاطِّلاعَ؛ لِيَعلَموا تَحقيقَ ما حَدَّثَهم عن قَرينِه، واقتُصِرَ على ذِكْرِ اطِّلاعِه هو دُونَ ذِكرِ اطِّلاعِ رُفَقائِه؛ لأنَّه ابتَدَأَ بالاطِّلاعِ؛ لِيُميِّزَ قَرينَه؛ فَيُرِيَه لِرُفَقائِه[(٤)]. وقيل: لأنَّ النَّافِعَ لنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠، ١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال السعدي: (الظَّاهِرُ مِن حالِ أهلِ الجنَّةِ، وسُرورِ بَعضِهم ببَعضٍ، وموافَقةِ بَعضِهم بَعضًا: أنَّهم أجابوه لِمَا قال، وذَهَبوا تبَعًا له؛ للاطِّلاعِ على قَرينِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

وقيل: عرَض عليهم الاطِّلاعَ فاعتَرَضوه، فاطَّلَع هو بعدَ ذلك. ويحتمِلُ أنَّهم قاموا معه =

إنَّما هو قَولُه فقط في توبيخِ عَدُوِّه، وتَغبيطِ نَفْسِه ووَلِيِّه؛ فلم يُجمَعِ الضَّميرُ لِئَلَّا يلبِسَ فيُوهِمَ أنَّه للجَميعِ، وأعاده عليه وَحْدَه لِنَعتبِرَ بمَقالِه، ونتَّعِظَ بما قَصَّ علينا مِن حالِه[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ * وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾

- جُملةُ ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ وَصْفَ هذه الحالةِ يُثيرُ في نَفْسِ السَّامِعِ أنْ يَسأَلَ: فماذا حَصَل حينَ اطَّلَعَ؟ فيُجابُ بأنَّه حينَ رأى قَرينَه أخَذَ يُوبِّخُه على ما كان يُحاوِلُه منه حتَّى كاد أنْ يُلقِيَه في النَّارِ مِثلَه، وهذا التَّوبيخُ يَتضمَّنُ تَنديمَه على مُحاولةِ إرْجاعِه عن الإسلامِ[2].

- وقَولُهُ: ﴿تَٱللَّهِ﴾ قَسَمٌ فيه التَّعجُّبُ مِن سَلامَتِه منه، إذ كان قَرينُه قارَبَ أنْ يُردِيَه؛ فالقَسَمُ بالتَّاءِ مِن شَأنِه أنْ يَقَعَ فيما جوابُ قَسَمِه غَريبٌ، ومَحَلُّ الغَرابةِ هو خَلاصُه مِن شَبَكةِ قَرينِه، واختِلافُ حالِ عاقِبَتَيْهما مع ما كانا عليه مِن شِدَّةِ المُلازَمةِ والصُّحبةِ، وما حفَّه مِن نِعْمةِ الهِدايةِ، وما تورَّطَ قَرينُه فيه مِن أوْحالِ الغَوايةِ[3].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ﴾ رُجوعٌ إلى مُحاوَرةِ جُلَسائِه بعدَ إتمامِ الكَلامِ مع

= ولم يَطَّلِعوا. ويحتمِلُ أنَّهم سكَتوا وعرَف أنَّهم لا يُريدون ذلك، ثمَّ تقَدَّمَ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٧، ١١٨).

قَرينِه؛ تبجُّحًا وابتِهاجًا بما أتاحَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم من الفَضلِ العَظيمِ، والنَّعيمِ المُقيمِ[١].

- قَولُهُ: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ عَطَفَتِ الفاءُ الاستِفْهامَ على جُملةِ ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٥٤]، فالاستِفْهامُ مُوجَّهٌ مِن هذا القائِلِ إلى بَعضِ المُتَسائِلينَ، وهو مُستعمَلٌ في التَّقْريرِ المرادِ به التَّذكيرُ بنِعْمةِ الخُلودِ، فإنَّه بعدَ أنْ أطلَعَهم على مَصيرِ قَرينِه السُّوءِ أقبَلَ على رِفاقِه بإكمالِ حَديثِه تَحدُّثًا بالنِّعْمةِ، واغتِباطًا وابتِهاجًا بها، وذِكرًا لها؛ فإنَّ لذِكرِ الأشياءِ المَحْبوبةِ لَذَّةً، فما ظَنُّكَ بذِكْرِ نِعْمةٍ قد انغَمَسوا فيها، وأيْقَنوا بخُلودِها؟! ولعلَّ نَظمَ هذا التَّذكُّرِ في أُسلوبِ الاستِفْهامِ التَّقْريريِّ؛ لِقَصدِ أنْ يُسمَعَ تَكرُّرُ ذِكرِ ذلك حينَ يُجيبُه الرِّفاقُ بأنْ يقولوا: نَعَمْ، ما نحن بِمَيِّتِينَ[٢].

- الهَمْزةُ للتَّقريرِ، وفيها مَعْنى التَّعجُّبِ، والفاءُ للعَطفِ على مُقدَّرٍ يَقتَضيهِ نَظْمُ الكلامِ، أي: أنحنُ مُخَلَّدونَ، مُنعَّمونَ، فما نحنُ بميِّتينَ، أي: بمَن شَأنُه المَوتُ[٣]؟

- الظَّاهِرُ أنَّه مِن كَلامِ القائِلِ: يُسمِعُ قَرينَه على جِهةِ التَّوبيخِ له، أي: لَسْنا أهْلَ الجَنَّةِ بمَيِّتينَ، لكِنَّ المَوْتةَ الأُولى كانت لنا في الدُّنيا، بخِلافِ أهْلِ النَّارِ، ويكونُ في خِطابِه ذلك مُنكِّلًا له، مُقرِّعًا مُحزِنًا له بما أنعَمَ اللهُ به عليه مِن دُخولِ الجَنَّةِ، مُعلِمًا له بتَبايُنِ حالِه في الآخِرةِ بحالِه كما كانَتا تَتبايَنانِ في الدُّنيا مِن أنَّه ليس بعدَ المَوتِ جَزاءٌ ظَهَرَ له خِلافُه يُعذَّبُ بكُفرِه باللهِ، وإنكارِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٣).

البَعثِ. ويجوزُ أنْ يكونَ خِطابًا مِن القائِلِ لرُفَقائِه، لَمَّا رَأى ما نزَلَ بقَرينِه، وَقَفَهم على نِعَمِه تَعالى في دَيْمومةِ خُلودِهم في الجَنَّةِ، ونَعيمِهم فيها[١].

- والاستِثْناءُ في قَولِه: ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ مُنقطِعٌ؛ لأنَّ المَوتَ المَنفيَّ هو المَوتُ في الحالِ، أو الاستِقْبالِ كما هو شَأنُ اسْمِ الفاعِلِ، فتعيَّنَ أنَّ المُسْتثنى غيرُ داخِلٍ في المَنفيِّ، فهو مُنقطِعٌ، أي: لكِنَّ المَوتةَ الأُولى، وذلك الاستِدْراكُ تَأكيدٌ للنَّفيِ[٢].

- وعُطِفَ قَولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾؛ لِيَتمحَّضَ الاستِفْهامُ للتَّحدُّثِ بالنِّعْمةِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ أيضًا ما هُم بمَيِّتينَ، ولكِنَّهم مُعذَّبونَ، فحالُهم شَرٌّ من المَوتِ[٣].

- قَولُهُ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ذلك تمامُ كلامِه لِقَرينِه؛ تَقْريعًا له، أو مُعاوَدةٌ إلى مُكالَمةِ جُلَسائِه؛ تحدُّثًا بنِعْمةِ اللهِ، أو تَبجُّحًا بها، وتَعجُّبًا منها، وتَعْريضًا للقَرينِ بالتَّوبيخِ[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

- على القولِ بأنَّه حِكايةٌ لِبقيَّةِ كَلامِ القائِلِ لرِفاقِه فهو بمَنزِلةِ التَّذْييلِ والفَذْلَكةِ[٥] لِحالَتِهمُ المُشاهَدِ بعضُها والمُتحَدَّثِ عن بعضِها بقَولِه: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾[٦]. فهذا القولُ يقولُه المُؤمِنُ تَحدُّثًا بنِعْمةِ اللهِ، واغتِباطًا بحالِه،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١).

(٥) تقدم تعريفها (ص: ٢٠٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٩).

وبمَسمَعٍ مِن قَرينِه الَّذي كان مُكذِّبًا بالبَعثِ؛ لِيَكونَ تَوبيخًا له يَزيدُ به تَعذُّبًا، ولِيَحكِيَهُ اللهُ فيَكونَ لنا لُطفًا وزاجِرًا. وعلى القولِ بأنَّه مِن قَولِ اللهِ عزَّ وجلَّ فيَكونُ تقريرًا لِقَولِهم، وتَصْديقًا له، والإشارةُ إلى ما هم عليه مِن النِّعْمةِ والخُلودِ والأمْنِ مِنَ العَذابِ[1].

- وقد أُبدِعَ في تَصويرِ حُسنِ حالِهم بحَصرِ الفَوزِ فيه، حتَّى كأنَّ كلَّ فَوزٍ بالنِّسْبةِ إليه ليس بفَوزٍ، فالحَصرُ للمُبالَغةِ؛ لعَدَمِ الاعتِدادِ بغَيرِه، ثمَّ أَلْحقوا ذلك الحَصرَ بوَصفِه بـ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

٨- قولُه تعالَى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾

- تَذْييلٌ لِحكايةِ حالِ عِبادِ اللهِ المُخلَصينَ، فهو كَلامٌ مِن جانِبِ اللهِ تَعالى -على قولٍ-؛ للتَّنويهِ بما فيه عِبادُ اللهِ المُخلَصونَ، وللتَّحْريضِ على العَمَلِ بمِثلِ ما عَمِلوه ممَّا أوجَبَ لهم إخلاصَ اللهِ إيَّاهم، فالإشارةُ في قَولِه: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ إلى ما تَضمَّنَه قَولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصَّافَّات: ٤١] الآياتِ، أي: لِمِثلِ نَعيمِهم، وأُنسِهم، ومَسَرَّتِهم، ولَذَّاتِهم، وبَهجَتِهم، وخُلودِ ذلك كُلِّه[3].

- واللَّامُ في ﴿لِمِثْلِ﴾ لامُ التَّعْليلِ، وتَقديمُ المَجرورِ على عامِلِه؛ لإفادةِ القَصرِ، أي: لا لعمَلِ غَيرِه، وهو قَصْرُ قَلْبٍ[4]؛ للرَّدِّ على المُشرِكينَ الَّذين يَحسَبونَ أنَّهم يَعمَلونَ أعْمالًا صالِحةً يَتَفاخَرونَ بها مِن مثلِ المَيسِرِ، والمَعْنى: لِنَوالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧٣).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٥٢).

مِثلِ هذا، فحُذِفَ المُضافُ؛ لِدَلالةِ اللَّامِ على مَعْناهُ[١].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾ للتَّفْريعِ على مَضْمونِ القِصَّةِ المَذْكورةِ قَبْلَها مِن قَولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصَّافَّات: ٤٠] الآياتِ. والأمْرُ في ﴿فَلْيَعْمَلِ﴾ للإرْشادِ الصَّادِقِ بالواجِباتِ والمَنْدوباتِ[٢].

- والمُرادُ بالعامِلينَ: الَّذينَ يَعمَلونَ الخَيرَ، ويَسيرونَ على ما خَطَّتْ لهم شَريعةُ الإسلامِ؛ فحُذِفَ مَفعولُ (يَعْمَل) اختِصارًا؛ لِظُهورِه مِنَ المَقامِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٢-٧٤)

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿نُّزُلًا﴾: النُّزُلُ: ما يُعَدُّ للنَّازِلِ مِن ضَيفٍ وغيرِه، ومعناه في الأصلِ: الطَّعامُ الَّذي يَصلُحُ أن يَنزِلوا معه ويُقيموا فيه، والنُّزُلُ: الرِّزقُ الَّذي له سَعةٌ، وأصلُ (نزل): يدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه[1].

﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾: الزَّقُّومُ: قيل: هو ثَمَرُ شَجَرةٍ مُرَّةِ الطَّعمِ جِدًّا، يُكرَهُ أهلُ النَّارِ على تَناوُلِه، مِن قَولِهم: تَزقَّمَ هذا الطَّعامَ: إذا تَناوَلَه على تَكَرُّهٍ ومَشَقَّةٍ شَديدةٍ، وقيل: زَقُّومٌ: فَعُّولٌ مِنَ الزَّقْمِ، أي: اللَّقْمِ الشَّديدِ، والشُّربِ المُفْرِطِ، وأصلُ (زقم): يدُلُّ على جِنسٍ مِن الأكلِ[2].

﴿فِتْنَةً﴾: الفِتنةُ تُطلَقُ على العذابِ، وعلى الاختبارِ والامتحانِ، وتُطلَقُ أيضًا

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٩/ ٦١١١، ٦١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

على الضَّلالِ والشِّرْكِ والكُفرِ، وأصْلُ (فتن): يدُلُّ على اختِبارٍ وابتِلاءٍ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه[١].

﴿أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾: أي: قَعْرِ النَّارِ، وأصلُ (أصل): يدُلُّ على أساسِ الشَّيءِ[٢].

﴿طَلۡعُهَا﴾: أي: ما يَطلُعُ منها، وهو الثَّمَرُ، وسُمِّي طَلْعُ النَّخلةِ طَلْعًا؛ لطُلوعِه كُلَّ سَنةٍ، وأصلُ (طلع): يدُلُّ على ظُهورٍ وبُروزٍ[٣].

﴿لَشَوۡبًا﴾: أي: لخَلْطًا ومِزاجًا، والشَّوبُ: الخَلطُ العامُّ في كُلِّ شَيءٍ، وكُلُّ شَيءٍ خلَطْتَه بشَيءٍ فقد شِبتَه به، وأصلُ (شوب): يدُلُّ على خَلطٍ[٤].

﴿حَمِيمٍ﴾: الحَميمُ: الماءُ الشَّديدُ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم): يدُلُّ على حَرارةٍ[٥].

﴿أَلۡفَوۡاْ﴾: أي: وَجَدوا، وأصل (لفا): يَدُلُّ على انكشافِ شَيءٍ وكَشْفِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٧)، ((غريب =

﴿ءَاثَٰرِهِمۡ﴾: أي: سُنَّتِهم وطَريقتِهم، وأثَرُ الشَّيءِ: حُصولُ ما يدُلُّ على وُجودِه، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي[1].

﴿يُهۡرَعُونَ﴾: أي: يُسرِعونَ، وأصلُ (هرع): يدُلُّ على حَرَكةٍ واضطِرابٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى ما يدُلُّ على شدَّةِ التَّبايُنِ بيْنَ هذا النَّعيمِ الَّذي أعدَّه لعبادِه المُخلَصينَ، وبيْنَ الشَّقاءِ الدَّائمِ الَّذي أُعِدَّ للكافِرين، فيقولُ: أذَلِك النَّعيمُ في الجنَّةِ خَيرٌ ضيافةً أم شَجَرةُ الزَّقُّومِ الَّتي أُعِدَّت لأهلِ النَّارِ؟! إنَّا جعَلْنا تلك الشَّجَرةَ عذابًا للظَّالِمينَ في الآخرةِ، وابتِلاءً لهم في الدُّنيا، إنَّها شَجَرةٌ تَنشَأُ

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٦) و(٢٠/ ٥٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧).

قال ابن قتيبة: (يقال: أُهْرِعَ الرَّجُلُ: إذا أسرَعَ، على لفظِ ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، كما يُقالُ: أُرعِدَ). ((غريب القرآن)) (ص: ٢٠٦).

قال ابنُ الهائم: (فأوقعَ الفِعلَ بهم، وهو لهم في المعنى، كما قيل: أُولِعَ فُلانٌ بكذا، وزُهِيَ زَيدٌ، وأُرعِدَ عَمرٌو، فجُعِلوا مَفعولِينَ وهم فاعِلونَ؛ وذلك أنَّ المعنى أولَعَه طَبعُه وجِبلَّتُه، وزهاه مالُه أو جَهلُه، وأرعَدَه غَضَبُه أو وجَعُه، وأهرَعَه خَوفُه ورُعبُه؛ فلهذه العلَّةِ خَرَج هؤلاء الأسماءُ مخرَجَ المفعولِ بهم. ويُقالُ: لا يكونُ الإهراعُ إلَّا إسراعَ المذعورِ. وقال الكِسائيُّ والفَرَّاءُ: لا يكونُ الإهراعُ إلَّا إسراعًا مع رِعدةٍ). ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) (ص: ١٩١). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٧).

وقال ابن عاشور: (ويُهرَعون: بفَتحِ الرَّاءِ مَبنيًّا للمَجهولِ، مُضارِعُ: أهرَعَه، إذا جعَلَه هارِعًا، أي: حمَلَه على الهَرَعِ، وهو الإسراعُ المُفرِطُ في السَّيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٧).

في قَعرِ النَّارِ، ثَمَرُها يُشبهُ في قُبحِه رُؤوسَ الشَّياطينِ، وإنَّ هؤلاء المُشركينَ لَآكِلونَ مِن تلك الشَّجَرةِ فيَملَؤونَ منها بُطونَهم، ثمَّ إنَّ لهم إضافةً على أكْلِهم منها لَخَليطًا مِن شَرابٍ في غايةِ الحَرارةِ، ثمَّ إنَّ مَرجِعَهم -بعدَ الأكلِ مِن الزَّقُّومِ وشُربِ الحَميمِ- إلى الجَحيمِ؛ إنَّهم وجَدوا آباءَهم ضالِّينَ، فهم مُسرِعونَ في الاقتِداءِ بهم، واتِّباعِ ضَلالِهم!

ولقد ضَلَّ عن الحَقِّ قَبْلَ مشركي قُرَيشٍ أكثَرُ الأُمَمِ الماضيةِ، ولقد أرسَلْنا في تلك الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلًا يُنذِرونَهم عذابَ اللهِ؛ فانظُرْ كيف كان عاقِبةُ أولئك المُنذَرينَ، إلَّا عبادَ اللهِ الَّذين أخلَصَهم اللهُ تعالى له؛ فإنَّهم نَجَوْا مِن العذابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال بعدَ ذِكرِ أهلِ الجنَّةِ ووَصْفِها: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، أتْبَعَه بقَولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾، فأمَرَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُورِدَ ذلك على كُفَّارِ قَومِه؛ لِيَصيرَ ذلك زاجِرًا لهم عن الكُفرِ، وكما وَصَفَ مِن قَبْلُ مآكِلَ أهلِ الجنَّةِ ومَشارِبَهم، وصَفَ أيضًا في هذه الآيةِ مآكِلَ أهلِ النَّارِ ومَشارِبَهم[1].

وأيضًا لَمَّا انقَضَت قِصَّةُ المؤمِنِ وقَرينِه، وكان ذلك على سَبيلِ الاستِطرادِ مِن شَيءٍ إلى شَيءٍ؛ عاد إلى ذِكرِ الجنَّةِ والرِّزقِ الَّذي أعَدَّه اللهُ فيها لأهلِها، وعادَلَ بيْنَ ذلك الرِّزقِ وبيْنَ شَجَرةِ الزَّقُّومِ، فقال تعالى[2]:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٦).

﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢﴾.

أي: أذَلِك النَّعيمُ الَّذي أُعِدَّ للمُؤمِنينَ في الجنَّةِ مِن المآكِلِ والمشارِبِ والمَلاذِّ: خَيرٌ ضِيافةً وفَضلًا أم ما أُعِدَّ لأهلِ النَّارِ مِن شَجَرةِ الزَّقُّومِ(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ * كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ * كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ * لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ * فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٦].

﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ٦٣﴾.

أي: إنَّا جعَلْنا تلك الشَّجَرةَ عذابًا في الآخرةِ للظَّالِمينَ أنفُسَهم بالشِّركِ والتَّكذيبِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢١).

قال السمعاني: (اختلَفوا في هذه الشَّجَرةِ؛ فالأكثَرونَ أنَّها شَجَرةٌ لا يُعرَفُ لها مِثلٌ في الدُّنيا. وقال قُطْرُبٌ: هي شَجَرةٌ مُرَّةٌ خبيثةٌ تكونُ بتِهامةَ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠١).

وقال ابنُ عطيَّة: (في بَعضِ البلادِ الجَدْبةِ المجاورةِ للصَّحارى شَجَرةٌ مُرَّةٌ مَسمومةٌ لها لَبَنٌ إنْ مَسَّ جِسمَ أحدٍ تورَّم، ومات منه في أغلَبِ الأمرِ؛ تُسمَّى شَجَرةَ الزَّقُّومِ؛ والتَّزَقُّمُ في كلامِ العَرَبِ: البَلعُ على شِدَّةٍ وجَهدٍ... اختَلَفَ النَّاسُ في معناه؛ فقالت فِرقةٌ: شُبِّه بثَمَرِ شَجرةٍ مَعروفةٍ يُقالُ لها: رؤوسُ الشَّياطينِ، وهي بناحيةِ اليَمَنِ يقالُ لها: الأَسْتَن). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٥).

وقال ابنُ كثير: (يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بذلك شَجَرةً واحدةً مُعَيَّنةً، كما قال بَعضُهم مِن أنَّها شَجَرةٌ تمتَدُّ فُروعُها إلى جميعِ محالِّ جَهنَّمَ... وقد يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بذلك جِنسَ شَجَرٍ يُقالُ له: الزَّقُّومُ، كقَولِه تعالى: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعني: الزَّيتونةَ، ويُؤيِّدُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ * لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨).

وابتلاءً لهم في الدنيا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: إنَّ شَجَرةَ الزَّقُّومِ شَجَرةٌ تَنشَأُ وتُوجَدُ في قَعرِ النَّارِ[٢].

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

قال ابنُ كثير: (معنى الآيةِ: إنَّما أخبَرْناك -يا مُحمَّدُ- بشَجَرةِ الزَّقُّوم؛ اختِبارًا تَختبِرُ به النَّاسَ؛ مَن يُصَدِّقُ منهم ممَّن يُكَذِّبُ، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠).

فقيل: المرادُ بفِتنتِهم بها أنَّهم قالوا: كيف تكونُ في النَّارِ شَجَرةٌ، والنَّارُ تُحرِقُ الشَّجَرَ؟ وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والبِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٤٤، ١٤٥).

وقيل: المرادُ بالفتنةِ هنا: العذابُ، أي: تكونُ شَجَرةُ الزَّقُّومِ عذابًا ومِحنةً ونَكالًا لهم. ومِمَّن قال بذلك في الجملةِ: القاسميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١).

وممَّن جمَع بيْن القولَينِ، فقال: المعنى: مِحنةً وعذابًا لهم في الآخرةِ، وابتِلاءً لهم في الدُّنيا: الرسعنيُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٢).

قال ابنُ القيِّم: (هذه الشَّجرةُ فِتنةٌ لهم فى الدُّنيا بتكذيبِهم بها، وفِتنةٌ لهم فى الآخرةِ بأكْلِهم منها). ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٦٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

أي: ثَمَرُ هذه الشَّجَرةِ يُشبِهُ في القُبحِ والبَشاعةِ رُؤوسَ الشَّياطينِ[١].

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها في حديثِ سِحرِ لَبيدِ بنِ الأعصَمِ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مُشْطٍ ومُشاقَةٍ[٢]، وجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ[٣]، في بِئرِ ذَرْوانَ، فخرَج إليها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ثمَّ رَجَع، فقالَ لعائشةَ حينَ رجَع: ((نَخْلُها كأنَّه رُؤوسُ الشَّياطينِ))، ثمَّ دُفِنَت البِئرُ[٤].

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: سيَأكُلُ المُشرِكونَ مُضْطَرِّينَ مُكرَهينَ مِن تلك الشَّجَرةِ رغْمَ خُبثِها وقُبحِها، فيَملؤونَ منها بُطونَهم[٥].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٤، ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٤٩).
قال ابنُ كثير: (إنَّما شَبَّهها برُؤوسِ الشَّياطينِ وإن لم تكُنْ مَعروفةً عندَ المُخاطَبينَ؛ لأنَّه قد استقَرَّ في النُّفوسِ أنَّ الشَّياطينَ قَبيحةُ المَنظَرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠).

(٢) المُشطُ: واحِدُ الأمشاطِ؛ وهو الآلةُ الَّتي يُمشَطُ بها الشَّعرُ. والمُشاقَةُ: ما يُستخرَجُ مِن الكَتَّانِ عندَ تسريحِه. وفي روايةٍ: «ومُشاطَةٍ»، وهي ما يُمشطُ مِن الشَّعرِ ويخرجُ في المُشطِ منه. وقيل: المُشاقةُ بمعنى المُشاطة. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٨٨)، ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٢٩١).

(٣) هو: وِعاءُ طَلعِ النَّخلِ وغِشاؤُه إذا جَفَّ. وأراد بالذَّكَرِ فَحْلَ النَّخلِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٢٩١)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٩٥).

(٤) رواه البخاري (٣٢٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٥٠، ١٥١).

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ أنَّهم يَملَؤونَ بُطونَهم مِن شَجَرةِ الزَّقُّوم؛ ذكَرَ ما يُسقَونَ لِغَلَبةِ العَطَشِ[1]، فالكُفَّارُ إذا شَبِعوا، فحِينَئذٍ يَشتَدُّ عَطَشُهم، ويحتاجُونَ إلى الشَّرابِ؛ فعِندَ هذا وَصَفَ اللهُ شَرابَهم[2].

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: ثمَّ إنَّ لهم على ما يَأكُلونَ مِن شَجَرةِ الزَّقُّومِ لَخَلْطًا مِن شَرابٍ في غايةِ الحَرارةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠، ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥، ١٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٥).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أنَّ طَعامَهم مِنَ الزَّقُّومِ يُخلَطُ بالحَميمِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ رجب، والشنقيطي. يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٥).

وقيل: المرادُ به الماءُ المُجَمَّعُ مِن عُصاراتٍ شَتَّى؛ مِن قَيحٍ وصَديدٍ ونَحوِهما. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤١).

وقال ابنُ عاشور: (قَولُه: ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: بَعْدَها، أي: بعدَ أكْلِهم منها. والشَّوبُ: أصلُه مَصدرُ شابَ الشَّيءَ بالشَّيءِ: إذا خلَطَه به، ويُطلَقُ على الشَّيءِ المَشوبِ به؛ إطلاقًا للمَصدَرِ على المفعولِ، كالخَلقِ على المخلوقِ. وكِلا المعنيينِ محتملٌ هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥).

والحميمُ: قيل: هو الماءُ الشَّديدُ الحرارةِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤). =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [يونس: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤، ٥٥].

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: ثمَّ إنَّ مَرجِعَ المُشرِكينَ بعدَ الأكلِ مِن الزَّقُّومِ وشُربِ الحَميمِ لَإِلَى الجَحيمِ[(١)].

= وقيل: الحميمُ: هو القَيحُ السَّائِلُ مِن الدُّمَّلِ. ومِمَّن قال بهذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ في قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: بعدَ أكلِ الزَّقُّومِ، وشُربِ الحميمِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ الجوزي، وابن رجب، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٣)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٧).

قيل: يَنتقِلون وَقْتَ الأكلِ وَالشُّرْبِ إلى مكانٍ غيرِ مكانِهم، فيُذهبُ بهم عن دَرَكاتِهم في النَّارِ إلى شجرةِ الزَّقُّومِ والماءِ الحميمِ فيتضَلَّعون منهما، ثمَّ يرجعونَ إلى دَرَكاتِهم في الجحيمِ. وممَّن اختار هذا المعنى: الزمخشريُّ، والرسعني، وأبو حيَّان، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٢٦).

وقيل: بل يُورَدونَ الحَميمَ لِشُربِه، فهو خارِجُ الجَحيمِ، كما تُورَدُ الإبلُ إلى الماءِ، ثمَّ يُرَدُّونَ إلى الجَحيمِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والرسعني، وابن رجب، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٤)، ((التخويف من النار)) لابن رجب =

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ عن عذابِهم هذا، وكان سَبَبُه الجُمودَ مع العادةِ الجاريةِ على غيرِ الحَقِّ، والتَّقَيُّدَ بما أَلِفَتْه النَّفْسُ، ومالتْ إليه الطِّباعُ ممَّا أَصَّلَه مَن يَعتَقِدونَ أنَّهم أكبَرُ منهم، وأتَمُّ عَقلًا؛ عَلَّل ذلك تحذيرًا مِن مِثلِه؛ لأنَّه كان سَبَبَ هلاكِ أكثَرِ الخَلقِ[1].

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾﴾.

= (ص: ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٧).

قال البقاعي: (قَولُه تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] يدُلُّ على أنَّ ذلك خارِجَها أو خارِجَ غَمرتِها، كما تكونُ الأحواضُ في الحيشانِ خارِجَ الأماكِنِ المُعَدَّةِ للإبِلِ... ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ أي: بعدَ خُروجِهم مِن دارِ ضيافتِهم الزَّقُّوميَّةِ ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٤١).

وذكر ابنُ عاشورٍ أنَّه ينبغي أن يُفسَّرَ المرجِعُ في الآيةِ بالانتقالِ مِن حالةٍ طارئةٍ إلى حالةٍ أصليَّةٍ، لا أنَّهم يُغادِرونَ الجحيمَ ثمَّ يرجِعون إليه، وأنَّ المرادَ التَّنبيهُ على أنَّ عذابَ الأكلِ مِن الزَّقُّومِ والشَّرابِ مِن الحَميمِ: هو عذابٌ إضافيٌّ زيادةً على عذابِ الجَحيمِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥، ١٢٦).

وردَّ ابنُ عثيمين أيضًا القَولَ بأنَّهم يَخرُجونَ مِن الجَحيمِ؛ لأنَّ الله تعالى ذكَرَ أنَّ أهلَ النَّارِ لا يَخرُجونَ منها. وذهب إلى أنَّه يحتملُ أن يكونَ المرادُ التَّرتيبَ الذِّكريَّ، أي: أنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ أنواعًا مِن العُقوباتِ، ثمَّ بيَّن أنَّ مآلَهم إلى الجَحيمِ الَّذي فيه العُقوباتُ؛ وأنَّه يحتملُ أن يكونَ المعنى كما قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، فهم يُقرَّبونَ مِن أبوابِها ويُسقَونَ الحَميمَ، فيُقرَّبونَ لِتَتطَلَّعَ نُفوسُهم للخُروجِ، فإذا أمَّلوا ذلك رُدُّوا إلى أصلِ الجَحيمِ؛ فصار ذلك أشَدَّ لعَذابِهم. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٥٦).

وقيل: الزَّقُّومُ والحميمُ نُزُلٌ يُقَدَّمُ إليهم قبْلَ دخولِهم. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٢).

أي: إنَّهم وَجَدوا آباءَهم ضالِّينَ عن الحَقِّ[١].

﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ٧٠﴾.

أي: فهم مَدفوعونَ للإسراعِ والمُبادَرةِ بقُوَّةٍ في الاقتِداءِ بهم، واتِّباعِ ضَلالِهم بغيرِ دَليلٍ ولا بُرهانٍ؛ فلذا استَحَقُّوا ذلك العَذابَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٧١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذكَرَ سبحانه أنَّ المشركين يُهرَعون على آثارِ آبائِهم الأوَّلِينَ دونَ نظَرٍ ولا تَدَبُّرٍ؛ أرْدَفَه ما يوجِبُ التَّسليةِ لرَسولِه على كفرِهم وتكذيبِهم[٣].

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٧١﴾.

أي: ولقد ضَلَّ عن الحَقِّ قبْلَ مُشْرِكي قُرَيشٍ أكثَرُ الأُمَمِ الماضيةِ[٤]، فعَبَدوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ٦٥).

(٤) ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ يعودُ إلى كُفَّارِ قُرَيشٍ: ابنُ جرير، ومكِّي، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦١١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير =

غيرَ اللهِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا في الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلًا يُنذِرونَهم عذابَ اللهِ على كُفرِهم[(٢)].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: فانظُرْ[(٣)] كيف كان آخِرُ أمرِ مُشرِكي الأُمَمِ الماضيةِ الَّذين كَفَروا وكَذَّبوا برُسُلِهم، ولم ينتَفِعوا بإنذارِهم[(٤)]؟

= البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨).

(٣) قال ابنُ عادل: (هذا الخِطابُ وإن كان ظاهِرُه مع الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا أنَّ المقصودَ منه خِطابُ الكُفَّارِ؛ لأنَّهم سَمِعوا بالأخبارِ ما جَرى على قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثمودَ وغَيرِهم مِن أنواعِ العَذابِ؛ فإنْ لم يَعلَموا ذلك فلا أقَلَّ مِن ظنٍّ وخَوفٍ يحتمِلُ أنْ يكونَ زاجِرًا لهم عن كُفرِهم). ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٣١٧). وأصله عند ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨، ١٢٩).

قال ابنُ عاشور: (فالمعنى: فانظُرْ كيف كان عاقِبةُ الضَّالِّينَ الَّذين أنذَرْناهم فلم يَنتَذِروا، كما =

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٥].

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٧٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَّما كان المُنذَرونَ لَيسُوا كُلُّهم ضالِّينَ، بل مِنهم مَنْ آمَنَ وأخلَصَ الدِّينَ لله؛ استثناه اللهُ مِن الهلاكِ[1].

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٧٤﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكَسرِ اللَّام: اسمُ فاعِلٍ مِن (أخلَصَ)، بمعنى: أنَّهم أخلَصوا لله دينَهم وأعمالَهم مِنَ الشِّركِ والرِّياءِ؛ فصارت لله تعالى وَحْدَه دونَ ما سِواه[2].

= فَعَل هؤلاء الَّذين أَلْفَوْا آباءَهم ضالِّينَ فاتَّبَعوهم؛ فقد تحقَّق اشتِراكُ هؤلاء وأولئك في الضَّلالِ؛ فلا جَرَمَ أن تكونَ عاقِبةُ هؤلاء كعاقبةِ أولئك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

وقال ابن عثيمين: (قال: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، ولم يقل: «ماذا كان»، أي: انظُرْ إلى الكيفيَّةِ وإلى الغاية... لِتَستفيدَ بهذا النَّظَرِ شِدَّةَ العقوبةِ ومُلاءمتَها للذَّنبِ؛ لأنَّ الله قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ...﴾ [العنكبوت: ٤٠]، أي: إنَّ عُقوبتَه مُلائِمةٌ لذَنْبِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وأبو عَمرٍو، وابنُ عامرٍ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٨).

٢- قراءةُ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفَتحِ اللَّامِ: اسمُ مَفعولٍ مِن (أخلَصَ)، بمعنى: أنَّ الله أخلَصَهم؛ فصاروا مُخلَصينَ(١).

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ٧٤﴾.

أي: إلَّا(٢) عبادَ اللهِ الَّذين أخلَصَهم اللهُ تعالى له، واستَخلَصَهم مِنَ الكُفرِ، واختارَهم لرَحمتِه، فآمَنوا باللهِ ورُسُلِه، وأخلَصوا له أعمالَهم؛ فإنَّهم نَجَوا مِنَ الهلاكِ والعذابِ الَّذي حلَّ بقَومِهم المُنذَرينَ(٣).

كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ [هود: ٦٦].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٩).

وقد ذكَر ابنُ عثيمينَ أنَّ إخلاصَهم هم، وإخلاصَ الله لهم متلازمانِ. ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦٩).

(٢) قال ابن عاشور: (واستُثْنِيَ ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ مِن ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استِثناءً مُتَّصِلًا؛ فإنَّ عبادَ اللهِ المُخلَصينَ كانوا مِن جملةِ المُنذَرينَ، فصَدَّقُوا المُنذِرينَ، ولم يُشارِكوا المُنذَرينَ في عاقِبَتِهم المنظورِ فيها، وهي عاقِبةُ السُّوءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٩٤].

وقال جلَّ جَلالُه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٣ - ٣٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ الإشارةُ إلى ذَمِّ التَّقليدِ المخالِفِ للحَقِّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ هذا؛ تنديدًا بهم، وتَوبيخًا لهم أنْ يَجِدوا آباءَهم ضالِّينَ ثمَّ يَتَّبِعوهم، ويَدَعوا طريقَ الحَقِّ[1]! وليس المرادُ: أنَّ تَقليدَ العُلَماءِ في العِلمِ كتَقليدِ هؤلاء آباءَهم مِن جميعِ جِهاتِه، ولكِنَّا نُنَبِّهُ للمُقَلِّدِينَ أنَّ مَن لَهَا عن طَلَبِ الحُجَّةِ، والفَحصِ عن الأشياءِ، وبَذْلِ الجُهْدِ في الاستِقصاءِ في أمرِ الدِّينِ، وعَوَّلَ على التَّقليدِ؛ أدَّاه إلى ما لا تُحمَدُ عاقِبتُه، ولا يُرتَضى طريقُه، كما أدَّى هؤلاء حينَ لَهَوا عن آياتِ الرُّسُلِ، وما أَتَوهم به مِن الحقِّ عن رَبِّهم؛ فظَنُّوا أنَّ آباءَهم أصْدَقُ مِن رُسُلِهم، وأعرَفُ بمواضعِ الحُجَّةِ مِن أنفُسِهم[2]! ولو لم يُوجَدْ في القُرآنِ آيةٌ غيرُ هذه الآيةِ في ذَمِّ التَّقليدِ لَكفَى[3].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وَصَفَ الَّذين ضَلُّوا قَبْلَهم بأنَّهم أكثَرُ الأوَّلِينَ؛ لِئَلَّا يَغتَرَّ ضُعَفاءُ العُقولِ بكَثرةِ المُشرِكينَ، ولا يَعتَزُّوا بها؛ لِيَعلَموا أنَّ كَثرةَ العَدَدِ لا تُبَرِّرُ ضَلالَ الضَّالِّينَ، ولا خطَأَ المُخطِئينَ، وأنَّ الهدى والضَّلالَ لَيْسَا مِن آثارِ العَدَدِ كَثرةً وقِلَّةً، ولكِنَّهما حقيقتانِ ثابِتتانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٨).

مُستقِلَّتان، فإذا عَرَضت لإحداهما كَثرةٌ أو قِلَّةٌ، فلا تكونان فِتنةً لِقصارِ الأنظارِ، وضُعَفاءِ التَّفكيرِ؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾[1] [المائدة: ١٠٠].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فَضيلةُ الإخلاصِ[2]، وحَثُّ الإنسانِ على أنْ يكونَ مِن هؤلاء العِبادِ لِيَنجوَ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ * أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٠-٦٢] إلى قَولِه: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٧٠]، وقال أيضًا: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان: ١٥]، وقال: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

في هذه الآياتِ وأمثالِها في القُرآنِ إشكالٌ مَعروفٌ، وهو أن يُقالَ: لَفظةُ (خير) في الآياتِ المذكورةِ صيغةُ تَفضيلٍ، والمعروفُ في عِلمِ العَربيَّةِ أنَّ صِيغةَ التَّفضيلِ تَقتَضي المُشارَكةَ بيْنَ المَفضَّلِ والمُفضَّلِ عليه فيما فيه التَّفضيلُ، إلَّا أنَّ المفضَّلَ أكثَرُ فيه وأفضَلُ مِن المفضَّلِ عليه، ومعلومٌ أنَّ المُفضَّلَ عليه في الآياتِ المذكورةِ الَّذي هو عذابُ النَّارِ لا خيرَ فيه البتَّةَ، وإذَنْ فصيغةُ التَّفضيلِ فيها إشكالٌ.

والجوابُ عن هذا الإشكالِ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ صِيغةَ التَّفضيلِ قد تُطلَقُ في القُرآنِ وفي اللُّغةِ مُرادًا بها مُطلَقُ الاتِّصافِ، لا تَفضيلُ شَيءٍ على شَيءٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨).

(٢) فإخلاصُهم هم وإخلاصُ الله لهم مُتلازمانِ، كما ذكَر ابنُ عثيمينَ في المصدرِ الآتي.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦٩).

الثَّاني: أنَّ مِن أساليبِ اللُّغةِ العَربيَّةِ أنَّهم إذا أرادوا تَخصيصَ شَيءٍ بالفَضيلةِ دونَ غَيرِه جاؤوا بصيغةِ التَّفضيلِ، يُريدونَ بها خُصوصَ ذلك الشَّيءِ بالفَضلِ.

وعلى كُلِّ حالٍ فعذابُ النَّارِ شَرٌّ مَحضٌ، لا يُخالِطُه خَيرٌ البتَّةَ كما لا يَخفى، والوَجهانِ المذكورانِ في الجوابِ مُتقاربانِ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ إطلاقُ الظُّلْمِ على الكُفرِ، مع أنَّ الظُّلْمَ أعَمُّ مِن الكُفرِ، ولكِنَّ المرادَ به هنا الظُّلْمُ المُطلَقُ الَّذي أشار اللهُ إليه في قَولِه: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]؛ فالظُّلمُ المُطلَقُ هو ظُلمُ الكافرِ، والظُّلمُ المُقَيَّدُ هو ظُلمُ الفاسِقِ، فالمعاصي ظُلْمٌ لكِنَّها ظُلْمٌ مُقَيَّدٌ؛ فمَثلًا يُقالُ: هذا ظالِمٌ نَفْسَه بأكلِ الرِّبا، هذا ظالِمٌ نفْسَه بفِعلِ الزِّنا، هذا ظالِمٌ نَفْسَه بالاعتِداءِ على الخَلْقِ... وهكذا، أمَّا الظُّلمُ المُطلَقُ فهو ظُلمُ الكافرِ؛ لأنَّ الكافِرَ -والعياذُ باللهِ- لم يأتِ بعَدْلٍ إطلاقًا حتَّى يُقالَ: إنَّ ظُلمَه ظُلمٌ مُقَيَّدٌ[(٢)]!

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يُعقَلُ أن تَنبُتَ الشَّجَرةُ في جَهنَّمَ، مع أنَّ النَّارَ تُحرِقُ الشَّجرةَ؟

الجوابُ: أنَّ خالِقَ النَّارِ قادِرٌ على أن يمنَعَ النَّارَ مِن إحراقِ الشَّجَرِ، ولأنَّه إذا جاز أن يكونَ في النَّارِ زبانيَةٌ، واللهُ تعالى يمنَعُ النَّارَ عن إحراقِهم، فلِمَ لا يجوزُ مِثلُه في هذه الشَّجَرةِ[(٣)]؟

ووجهٌ آخَرُ: أنَّ الله تعالى أخبَرَ أنَّ تلك الشَّجَرةَ خَرَجت مِن أصلِ الجَحيمِ وأُنشِئَت منها، والشَّجَرةُ الَّتي أُنشِئَت من النَّارِ لا تأكُلُها النَّارُ ولا تُحرِقُها، وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠). ويُنظر أيضًا: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٦، ٣٣٧).

تأكُلُ غَيرَها مِنَ الأشجارِ الَّتي لم تَنشَأْ منها، ومِثلُ هذا جائِزٌ: أن يكونَ الشَّيءُ الَّذي يكونُ نُشوؤُه وبَدْؤُه مِن كُلِّ شَيءٍ ألَّا يُهلِكَه كَونُه في ذلك؛ كالسَّمَكِ الَّذي يكونُ أصلُ نُشوئِه في الماءِ لا يُهلِكُه الماءُ، وكذلك جميعُ دوابِّ البَحرِ، وإن كان غيرُها مِنَ الدَّوابِّ في البَرِّيَّةِ يَهلِكُ فيه ويَتلَفُ؛ فعلى ذلك الشَّجَرةُ المُنشأَةُ منها لا تُهلِكُها النَّارُ ولا تُحرِقُها، وإن كان غيرُها مِنَ الأشجارِ تأكُلُها وتُحرِقُها. واللهُ أعلَمُ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الرَّدُّ على مَن يقولُ: «إنَّ الشَّياطينَ والجِنَّ هي قُوَى الشَّرِّ، والملائِكةَ قُوَى الخيرِ، وليس هناك أجسامٌ تُحَسُّ»! ووجهُ الدَّلالةِ أنَّه أثبتَ للشَّياطينِ رُؤوسًا، ولا يُمكِنُ أن يكونَ في الأمورِ المعنويَّةِ الَّتي هي القُوى[2]!

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ فيه سُؤالٌ: إنَّا ما رأَيْنا رُؤوسَ الشَّياطينِ، فكيف يُمكِنُ تَشبيهُ شَيءٍ بها؟

أجابوا عنه مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ النَّاسَ لَمَّا اعتَقَدوا في الملائِكةِ كَمالَ الفَضلِ في الصُّورةِ والسِّيرةِ، واعتَقَدوا في الشَّياطينِ نهايةَ القُبحِ والتَّشويهِ في الصُّورةِ والسِّيرةِ؛ فكما حَسُنَ التَّشبيهُ بالمَلَكِ عندَ إرادةِ تقريرِ الكَمالِ والفَضيلةِ في قَولِه: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ [يوسف: ٣١]، فكذلك وجَبَ أن يَحسُنَ التَّشبيهُ برُؤوسِ الشَّياطينِ في القُبحِ وتَشويهِ الخِلقةِ؛ فهذا مِن بابِ التَّشبيهِ لا بالمحسوسِ، بل بالمتَخَيَّلِ، كأنَّه قيل: إنَّ أقبَحَ الأشياءِ في الوَهمِ والخيالِ هو رُؤوسُ الشَّياطينِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٥٠).

فهذه الشَّجَرةُ تُشبِهُها في قُبحِ النَّظَرِ وتَشويهِ الصُّورةِ، والَّذي يؤكِّدُ هذا أنَّ العُقَلاءَ إذا رأوا شَيئًا شديدَ الاضطرابِ، مُنكَرَ الصُّورةِ، قَبيحَ الخِلقةِ؛ قالوا: إنَّه شَيطانٌ، وإذا رأوا شَيئًا حَسَنَ الصُّورةِ والسِّيرةِ، قالوا: إنَّه مَلَكٌ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المقصودَ بالشَّياطينِ: حيَّاتٌ لها رُؤوسٌ وأعرافٌ، وهي مِن أقبَحِ الحيَّاتِ، وبها يُضرَبُ المثَلُ في القُبحِ، والعرَبُ إذا رأت مَنظَرًا قَبيحًا قالت: (كأنَّه شَيطانُ الحَماطةِ)، والحَماطةُ: شجَرةٌ مُعَيَّنةٌ.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ رُؤوسَ الشَّياطينِ نَبتٌ مَعروفٌ قَبيحُ الرأسِ[(١)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ إطلاقُ الآباءِ على الأجدادِ؛ لأنَّ الظَّاهِرَ أنَّ قَولَه: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ يَشملُ الأبَ الأدنَى والأبَ الأعلَى، وإطلاقُ الأبِ على الجَدِّ -ولو كان بعيدًا- مَعروفٌ في الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]؛ فسَمَّى اللهُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أبًا مع أنَّه جَدٌّ بَعيدٌ، ويَتفرَّعُ على هذه القاعدةِ: ترجيحُ القَولِ بأنَّ الجَدَّ مِن قِبَلِ الأبِ يُسقِطُ الإخوةَ مُطلَقًا -أي: سواءٌ كانوا أشقَّاءَ، أو لأبٍ، أو لأمٍّ- في بابِ الميراثِ، وهو القَولُ الرَّاجِحُ؛ لأنَّه أبٌ، وهذا القَولُ هو قولُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضي اللهُ عنه، ورُوِيَ عن ثلاثةَ عَشَرَ صَحابيًّا، وهو مَذهَبُ أبي حنيفةَ رحمه اللهُ، واختيارُ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ رحمه اللهُ[(٢)].

٧- في قَولِه: ﴿أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ ضَلالَهم لا يخفَى على النَّاظِرِ فيه لو تُرِكوا على الفِطرةِ العَقليَّةِ، ولم يُغَشُّوها بغِشاوةِ العِنادِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦٠). ويُنظر أيضًا: ((اختلاف الأئمة العلماء)) لابن هبيرة (٢/ ٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٣١/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٧).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ عنايةُ اللهِ عزَّ وجلَّ برَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيث كان يَضرِبُ له مِن الأمثلةِ ما يُسَلِّيه بها؛ لأنَّ سُلُوَّ الإنسانِ بغَيرِه يُهَوِّنُ عليه الأمرَ، ويَزيدُه قُوَّةً واندِفاعًا فيما يَدعو إليه[١].

٩- أنَّ اللهَ تعالى أقامَ الحُجَّةَ على كلِّ أُمَّةٍ؛ لِقَولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم﴾ أي: في الأوَّلينَ ﴿مُّنذِرِينَ﴾، ويؤيِّدُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]؛ فكلُّ الأُمَمِ قامتْ عليهم الحُجَّةُ[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أنَّ مَن لم تَبلُغْه الرِّسالةُ فلا حُجَّةَ عليه؛ لأنَّه لم يَبلُغْه الإنذارُ، وهو كذلك[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ أنَّ اللهَ لا يُعاقِبُ على الذَّنبِ إلَّا بعدَ قيامِ الحُجَّةِ؛ فهم أُنذِروا فكانتِ العاقِبةُ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾

- استِئْنافٌ بعدَ تَمامِ قِصَّةِ المُؤمِنِ ورِفاقِه، قُصِدَ منه التَّنْبيهُ إلى البَونِ بيْنَ حالِ المُؤمِنِ والكافِرِ، جرَى على عادةِ القُرآنِ في تَعْقيبِ القَصَصِ والأمْثالِ بالتَّنْبيهِ إلى مَغازيها ومَواعِظِها، فالمقصودُ بالخَبَرِ هو قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا﴾ أي: شَجَرةَ الزَّقُّومِ ﴿فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ إلى آخِرِها. وإنَّما صِيغَ الكلامُ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٧).

هذا الأُسلوبِ؛ للتَّشويقِ إلى ما يَرِدُ فيه[١].

- في قَولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ لَمَّا اختارَ المُؤمِنونَ ما أدَّى إلى الرِّزْقِ المَعْلومِ في الجَنَّةِ، واختارَ الكافِرونَ ما أدَّى إلى شَجَرةِ الزَّقُّومِ؛ قيلَ لهم ذلك تَوبيخًا على سُوءِ اختيارِهِم[٢]. والهَمْزةُ للاستِفْهامِ الإنْكاريِ التَّوْبيخيِّ[٣]. وقيل: للتَّقريرِ، والمرادُ تقريرُ قريشٍ والكفَّارِ[٤].

- الاستِفْهامُ في قَولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ مُكنًّى به عن التَّنْبيهِ على فَضلِ حالِ المُؤمِنِ وفَوزِه، وخَسارِ الكافِرِ، وهو خِطابٌ لكُلِّ سامِعٍ[٥].

- والإشارةُ بـ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدَّمَ مِن حالِ المُؤمِنينَ في النَّعيمِ والخُلودِ. وجِيءَ باسمِ الإشارةِ مُفرَدًا بتَأْويلِ المَذْكورِ، بعلامةِ بُعدِ المُشارِ إليه؛ لِتَعْظيمِه بالبُعْدِ، أي: بُعْدِ المَرتَبةِ وسُمُوِّها؛ لأنَّ الشَّيءَ النَّفيسَ الشَّريفَ يُتخيَّلُ عاليًا، والعالي يُلازِمُه البُعدُ عن المكانِ المُعتادِ، وهو السُّفلُ، وأين الثُّرَيَّا من الثَّرَى[٦]؟!

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ استِئْنافٌ لِوَصفِ شَجَرةِ الزَّقُّومِ استِئْنافًا ثانيًا مُكرَّرًا فيه كَلِمةُ ﴿إِنَّهَا﴾؛ للتَّهْويلِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٢٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾

- في قوله: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ تَشْبيهٌ، ورُؤوسُ هذه الشَّياطينِ غَيرُ مَعْروفةٍ لهم، فالتَّشْبيهُ بها حَوالةٌ على ما تُصَوِّرُ لهم المُخيِّلةُ، وطَلْعُ شَجَرةِ الزَّقُّومِ غَيرُ مَعْروفٍ، فوُصِفَ للنَّاسِ فظيعًا بَشِعًا، وشُبِّهَتْ بَشاعَتُه ببَشاعةِ رُؤوسِ الشَّياطينِ؛ لأنَّ الشَّيْطانَ مَكروهٌ مُستقبَحٌ في طِباعِ النَّاسِ؛ لاعتِقادِهم أنَّه شَرٌّ مَحضٌ لا يَخلِطُهُ خَيرٌ، وهذا التَّشْبيهُ مِن تَشْبيهِ المَعْقولِ بالمَعْقولِ، كتَشْبيهِ الإيمانِ بالحَياةِ في قَولِه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]. والمَقْصودُ منه هُنا: تَقْريبُ حالِ المُشبَّهِ، فلا يَمتنِعُ كَونُ المُشبَّهِ به غَيرَ مَعْروفٍ، ولا كونُ المُشبَّهِ كذلك، وهذه الصِّفاتُ الَّتي وُصِفَتْ بها شَجَرةُ الزَّقُّومِ بالِغةٌ حدًّا عَظيمًا مِنَ الذَّمِّ، وهذا تَشْبيهٌ تَخْييليٌّ[(١)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ﴾

- قَولُه: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ إنْذارٌ بأنَّهم آكِلونَ مِن شَجَرةِ الزَّقُّومِ إنْذارًا مُؤكَّدًا، والمعنى: أنَّهم آكِلونَ منها كَرهًا؛ وذلك من العَذابِ، وإذا كان المَأْكولُ كَريهًا يَزيدُه كَراهةً سُوءُ مَنظَرِه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧٧، ٢٧٨).

والمرادُ بالتَّخييلِ: أنَّه لا يمكِنُ وُجودُه في المشَبَّهِ به إلَّا على سبيلِ التَّخييلِ والتَّأويلِ، وقد يكونُ صعبَ الوُجودِ في الواقعِ أو متعَذِّرًا. يُنظر: ((أسرار البلاغة)) للجُرْجاني (ص: ٢٦٧)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥).

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَمَالِئُونَ﴾ فاءُ التَّفْريعِ، وفيها مَعْنى التَّعْقيبِ، أي: لا يَلبَثون أنْ تَمتلِئَ بُطونُهم مِن سُرعةِ الالْتِقامِ، وذلك تَصويرٌ لِكَراهَتِها؛ فإنَّ الطَّعامَ الكَريهَ كالدَّواءِ إذا تَناوَلَه آكِلُه أسرَعَ ببَلْعِه، وأعظَمَ لُقَمَه؛ لِئَلَّا يَستقِرَّ طَعمُه على آلةِ الذَّوقِ[١].

وقيل: لَمَّا كان الأكْلُ يَعتَقِبُه مَلْءُ البَطنِ، كان العَطفُ بالفاءِ في قَولِه: ﴿فَمَالِئُونَ﴾[٢].

- ومَلْءُ البُطونِ كِنايةٌ عن كَثْرةِ ما يَأْكلونَ منها على كَراهَتِها. وإسنادُ الأكْلِ ومَلْءِ البُطونِ إليهم إسنادٌ حَقيقيٌّ، وإنْ كانوا مُكرَهينَ على ذلك الأكْلِ والمَلْءِ[٣].

- وحَرفُ ﴿ثُمَّ﴾ في قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ لأنَّها عَطَفَتْ جُملةً، وليس للتَّراخي في الإخبارِ مَعنًى إلَّا إفادةُ أنَّ ما بعدَ حَرفِ التَّراخي أهَمُّ أو أعجَبُ ممَّا قَبْلَه، بحيث لم يكُنِ السَّامعُ يَرقُبُه، فهو أعْلى رُتْبةً باعتبارِ أنَّه زيادةٌ في العَذابِ على الَّذي سَبَقَه، فوَقْعُه أشدُّ منه، وقد أشعَرَ بذلك قَولُه: ﴿عَلَيْهَا﴾، أي: بَعْدَها، أي: بعدَ أكْلِهم منها[٤].

وقيل: لَمَّا كان الشُّربُ يَكثُرُ تَراخيهِ عن الأكْلِ، أُتِيَ بلَفظِ ﴿ثُمَّ﴾ المُقتَضيةِ المُهْلةَ[٥]. ففي العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ سِرٌّ لَطيفُ المَأخَذِ، دَقيقُ المَسلَكِ، قَلَّ مَن يَتَفطَّنُ إليه؛ فإنَّ في مَعنى التَّراخي وَجهَينِ؛ أحَدُهما: أنَّهم يَملَؤون البُطونَ مِن شَجَرِ الزَّقُّومِ، وهو حارٌّ يُحرِقُ بُطونَهم، ويَزيدُ في عَطَشِهم وغُلَّتِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧).

فلا يُسقَونَ إلَّا بعدَ مَلِيٍّ[١]؛ تَعْذيبًا بذلك العَطَشِ، ثمَّ يُسقَونَ ما هو أحَرُّ مِن العَطَشِ، وهو الشَّرابُ المَشوبُ بالحَميمِ. ووَجهٌ آخَرُ في مَعْنى التَّراخي: أنَّه ذُكِرَ الطَّعامُ بتلك الكَراهةِ والبَشاعةِ، ثمَّ ذُكِرَ الشَّرابُ بما هو أوغَلُ في الكَراهةِ وأبعَدُ في البَشاعةِ، فجاء بـ(ثُمَّ)؛ للدَّلالةِ على تَراخي حالِ الشَّرابِ عن حالِ الطَّعامِ، ومُبايَنةِ صِفَتِه لِصِفَتِه في الزِّيادةِ عليه[٢].

- في قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ (على) بمَعْنى (مع)، ويَصِحُّ أنْ تكونَ للاستِعْلاءِ؛ لأنَّ الحَميمَ يَشرَبونَه بعدَ الأكْلِ، فيَنزِلُ عليه في الأمْعاءِ[٣].

٥ - قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾

- مَعنى حَرفِ التَّراخي (ثُمَّ) في قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ أنَّهم يُذهَبُ بهم عن مَقارِّهم ومَنازِلِهم في الجَحيمِ، وهي الدَّرَكاتُ الَّتي أُسْكِنوها إلى شَجَرةِ الزَّقُّومِ، فيَأكُلونَ إلى أنْ يَتَملَّؤُوا، ويُسقَونَ بعدَ ذلك، ثمَّ يَرجِعونَ إلى دَرَكاتِهم -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فدَخَلَتْ (ثُمَّ) للدَّلالةِ على ذلك، والرُّجوعُ دَليلٌ على الانتِقالِ في وَقتِ الأكْلِ والشُّربِ إلى مَكانٍ غَيرِ مَكانِهما[٤].

- في قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ المَرجِعُ: مَكانُ الرُّجوعِ، أي: المَكانُ الَّذي يعودُ إليه الخارِجُ منه بعدَ أنْ يُفارِقَه، وقد يُستعارُ للانتِقالِ من حالةٍ طارئةٍ

---

(١) المَلِيُّ: الحينُ الطَّويلُ مِن الزَّمانِ. يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٣).

إلى حالةٍ أصليَّةٍ؛ تَشبيهًا بمُغادَرةِ المكانِ ثمَّ العَودِ إليه؛ والمُشركونَ حينَ يَطعَمون مِن شَجَرةِ الزَّقُّوم، ويَشرَبونَ الحَميمَ، لم يُفارِقوا الجَحيمَ، فأُريدَ التَّنْبيهُ على أنَّ عَذابَ الأكْلِ مِن الزَّقُّوم، والشَّرابِ مِن الحَميم زيادةٌ على عَذابِ الجَحيمِ، ألَا تَرى إلى قَولِه: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾، فليس ثَمَّةَ مُغادَرةٌ للجَحيمِ حتَّى يكونَ الرُّجوعُ حقيقةً[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾

- تَعْليلٌ لِمَا جازاهمُ اللهُ به مِن العَذابِ، وإبْداءٌ للمُناسَبةِ بيْنَه وبيْنَ جُرمِهم، فعلَّلَ استِحْقاقَهُم للوُقوعِ في تلك الشَّدائدِ كُلِّها بتَقْليدِ الآباءِ في الدِّينِ، واتِّباعِهم إيَّاهُم على الضَّلالِ، وتَركِ اتِّباعِ الدَّليلِ، وإنَّ جُرمَهم كان تَلَقِّيًا لِمَا وَجَدوا عليه آباءَهُم مِن الشِّركِ وشُعَبِه بدُونِ نَظَرٍ ولا اختيارٍ لِما يختارُه العاقِلُ، فكان مِن جَزائِهم على ذلك أنَّهم يُطعَمونَ طَعامًا مُؤلِمًا، ويُسقَونَ شَرابًا قَذِرًا بدُونِ اختيارٍ كما تَلَقَّوْا دِينَ آبائِهم تَقْليدًا واعْتِباطًا؛ فمَوقِعُ (إنَّ) مَوقعُ فاءِ السَّبَبيَّةِ، ومَعناها مَعنى لامِ التَّعْليلِ، وهي لذلك مُفيدةٌ رَبْطَ الجُملةِ بالَّتي قَبْلَها، كما تَربِطُها الفاءُ ولامُ التَّعْليلِ[2].

- قولُه: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ فيه إشْعارٌ بأنَّهم بادَروا إلى الضَّلالِ والكُفرِ من غَيرِ تَوقُّفٍ على نَظَرٍ وبَحثٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٦، ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٤).

- في قَولِه: ﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ الفاءُ فاءُ العَطفِ للتَّفْريعِ والتَّسَبُّبِ، أي: مُتفرِّعٌ على إلفائِهِم آباءَهم ضالِّينَ، أنِ اقْتَفَوْا آثارَهم تَقْليدًا بلا تأمُّلٍ، وهذا ذمٌّ لهم[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ * فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾

- عُقِّبَ وَصْفُ حالِ المُشرِكينَ في الآخِرةِ، وما عُلِّلَ به مِن أنَّهم أَلْفَوْا آباءَهم ضالِّينَ فاتَّبَعوا آباءَهم بتَنْظيرِهم بمَن سَلَفوا مِن الضَّالِّينَ، وتَذْكيرًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذلك تَسْليةً له على ما يُلاقيهِ مِن تَكْذيبِهم، واستِقْصاءً لهم في العِبْرةِ والمَوعِظةِ بما حلَّ بالأُمَمِ قَبْلَهم، فهذه الجُملةُ مَعْطوفةٌ على مَضْمونِ الجُملةِ الَّتي قَبْلَها؛ إكمالًا للتَّعْليلِ، أي: اتَّبَعوا آثارَ آبائِهِم، واقْتَدَوا بالأُمَمِ أشْياعِهم[2].

- قَولُه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ إكمالٌ للعِلَّةِ والتَّسليةِ والعِبْرةِ، والمعنى: ﴿أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي: رُسُلًا يُنذِرونَهم، أي: يُحَذِّرونَهم ما سيَحُلُّ بهم مِثلَ ما أرْسَلْناك إلى هؤلاءِ[3].

- قَولُه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ تَكريرُ القَسَمِ؛ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بتحقيقِ مَضمونِ كُلٍّ مِن الجُملتَينِ[4].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ خصَّ المُرسَلينَ بوَصفِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨).

المُنذِرينَ؛ لِمُناسَبةِ حالِ المُتحدَّثِ عنهم وأمثالِهم[١].

- وفُرِّعَ على قولِه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ قولُه: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾، وهو خِطابٌ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَرْشيحًا لِمَا في الكَلامِ السَّابِقِ مِن جانِبِ التَّسْليةِ والتَّثْبيتِ، مع التَّعْريضِ بالكَلامِ لِتَهديدِ المُشركينَ بذلك. ويجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ لكُلِّ مَن يَسمَعُ القُرآنَ؛ فشَمِلَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- والأمْرُ بالنَّظَرِ مُستعمَلٌ في التَّعْجيبِ والتَّهْويلِ، فإنْ أُريدَ بالعاقِبةِ عاقِبَتُهم في الدُّنيا؛ فالنَّظَرُ بَصَريٌّ، وإنْ أُريدَ عاقِبَتُهم في الآخِرةِ كما يَقتَضيهِ السِّياقُ؛ فالنَّظَرُ قَلْبيٌّ، ولا مانعَ مِن إرادةِ الأمْرَينِ، واستِعْمالِ المُشتَرَكِ في المَعْنَيَينِ[٣].

- وفي قَولِه: ﴿ فَٱنظُرْ ﴾ ما يَقتَضي إهْلاكَهم، وسُوءَ عاقِبَتِهم[٤].

- قَولُه: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ تَعْريفُ ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تَعْريفُ العَهدِ، وهُمُ المُنذَرونَ الَّذين أُرسِلَ إليهم المُنذِرونَ، أي: فهُمُ الضَّالُّون المُعبَّرُ عنهم بأنَّهم أكثَرُ الأوَّلينَ[٥].

- والاستِفْهامُ في قَولِه: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ تَعْجيبيٌّ؛ للتَّفْظيعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧، ١٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧٥-٨٢)

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى قصصَ بعضِ الأنبياءِ السَّابقينَ مع أقوامِهم، مبتدئًا بنُوحٍ عليه السَّلامُ، فيقولُ: ولقد نادانا نُوحٌ داعِيًا بهَلاكِ قَومِه، فأجَبْناه؛ فنِعْمَ المُجيبونَ نحنُ، ونَجَّيْنا نوحًا وأهلَه المؤمِنينَ مِنَ الغَمِّ الشَّديدِ، وجعَلْنا ذُرِّيَّةَ نوحٍ بعدَ إغراقِ قَومِه هم الباقينَ في الأرضِ، وأنعَمْنا على نوحٍ بالثَّناءِ الباقي فيمَن بعدَه، سَلامٌ عليه في العالَمينَ، مِثلَ هذا الجزاءِ نَجزي كُلَّ مَن كان مُحسِنًا.

إنَّ نوحًا مِن عبادِنا المُؤمِنينَ، ثمَّ أغرَقْنا قَومَ نُوحٍ الكافِرينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال مِن قَبْلُ: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الصافات: ٧١]، وقال: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الصافات: ٧٣]؛ أتْبَعَه بشَرحِ وقائعِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ[1]. فأُتبِعَ التَّذكيرُ والتَّسليةُ مِن جانبِ النَّظرِ في آثارِ ما حَلَّ بالأُمَمِ المرسَلِ إليهم، وما أُخبِرَ عنه مِن عاقِبَتِهم في الآخِرةِ، بتَذكيرٍ وتَسليةٍ مِن جانبِ الإخبارِ عن الرُّسلِ الَّذين كذَّبهم قَومُهم وآذَوْهم، وكيف انتصَرَ اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٩).

لهم؛ لِيَزيدَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَثبيتًا، ويُلقِمَ المشركينَ تَبكيتًا[١].

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

أي: ولقد دعانا نوحٌ أن نُهلِكَ قَومَه المُشرِكينَ، فأجَبْنا دُعاءَه فأهلَكْناهم؛ فلَنِعْمَ المجيبونَ نحنُ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ... ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المؤمنون: ٢٦].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٨].

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّه نِعمَ المُجيبُ على سَبيلِ الإجمالِ؛ بيَّنَ أنَّ الإنعامَ حَصَل في تلك الإجابةِ مِن وُجوهٍ[٣]، فقال:

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾.

أي: ونجَّيْنا نوحًا وأهلَه المُؤمِنينَ مِن الغَمِّ الشَّديدِ العَظيمِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٩)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦، ٧٧].

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: وجعَلْنا ذُرِّيَّةَ نُوحٍ بعدَ إغراقِ قَومِه هم الباقِينَ في الأرضِ؛ فجَميعُ الأُمَمِ مِن نَسْلِه[1].

= الماوردي)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٧٧، ١٧٨).

قيل: المرادُ بالكَربِ العَظيمِ: الغَرَقُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والبغوي، والقرطبي، ونسَبَه الرازي إلى أكثرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٠)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٠).

قال ابن عاشور: (المعنيُّ به الطُّوفانُ، وهو كربٌ عظيمٌ على الَّذين وقَعوا فيه، فإنجاءُ نوحٍ منه هو سلامتُه مِن الوقوعِ فيه كما عَلِمتَ؛ لأنَّه هَولٌ في المنظرِ، وخَوفٌ في العاقبةِ، والواقعُ فيه موقِنٌ بالهلاكِ. ولا يَزالُ الخوفُ يَزدادُ به حتَّى يَغمُرَه الماءُ، ثمَّ لا يَزالُ في آلامٍ مِن ضيقِ النَّفَسِ ورِعْدةِ القرِّ والخَوفِ وتحقُّقِ الهلاكِ حتَّى يَغرَقَ في الماءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣١).

وقيل: المرادُ بالكَربِ العَظيمِ: تكذيبُ قَومِ نُوحٍ الكافِرينَ وأذاهم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ كثير، والإيجي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤٤٨).

وقيل: المرادُ: مَجموعُ الأمْرَينِ: الغَرَقُ، وأذى الكافِرينَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، وابن عطيَّة، والرازي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٠)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣١). =

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: وأثنَيْنا على نُوحٍ، وأنعَمْنا عليه بالذِّكرِ الجَميلِ، والثَّناءِ الباقي في الَّذين يأتُونَ مِن بَعدِه[1].

= قال ابنُ القيم: (اتَّفَق العُلَماءُ أنَّ نُوحًا لَمَّا نَزَل مِنَ السَّفينةِ مات مَن كان معه، ثمَّ مات نَسْلُهم، ولم يبقَ غَيرُ نَسلِ نوحٍ، والدَّليلُ على هذا قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾). ((المنار المُنِيف)) (ص: ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٧ - ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٢، ١٣٣).

ممَّن قال إنَّ المعنى: أنَّ الله أبقى له الثَّناءَ الحسَنَ، والذِّكرَ الجميلَ في الآخِرينَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٠)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧).

قال البِقاعي: (﴿فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: كُلُّ مَن تأخَّرَ عن زمانِه إلى يومِ الدِّينِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٩).

وقال ابنُ عاشور: (وظاهِرُ ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ أنَّها باقيةٌ في جميعِ الأُمَمِ إلى انقِضاءِ العالَمِ... فكان نوحٌ مذكورًا بمحامِدِ الخِصالِ، حتَّى قيل: لا تجهَلُ أمَّةٌ مِن أُمَمِ الأرضِ نُوحًا وفَضْلَه وتمجيدَه، وإن اختَلَفت الأسماءُ الَّتي يُسَمُّونَه بها باختلافِ لُغاتِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٢).

وقال ابنُ عثيمين: (الظَّاهِرُ مِن الآياتِ الكريمةِ أنَّ جميعَ الأنبياءِ الَّذين جاؤوا مِن بعدِ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يُذكَرُ فيهم نوحٌ بالثَّناءِ الحَسَنِ، فتكونُ الأنبياءُ كُلُّهم والأُمَمُ يُطْرُونَ نُوحًا -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بما أثنى اللهُ به عليه؛ لأنَّه مذكورٌ في كلِّ الكُتُبِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨١).

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩﴾.

أي: سلامٌ على نوحٍ وثناءٌ حسَنٌ ثابتٌ في العالَمينَ، فلا يُذكَرُ بسُوءٍ، بل يُثْنونَ عليه ثناءً حسَنًا، ويُسلِّمون عليه، ويَدْعون له[1].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٦١، ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣، ١٣٤).

قيل: المرادُ بالعالَمينَ: كُلُّ حَيٍّ مِن الثَّقَلَينِ (الجِنِّ والإنسِ) والملائكةِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، والرازي، والرسعني، والنسفي، وابن القيم، والبِقاعي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٢٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٦).

وقيل: المرادُ بالعالَمينَ: الأُمَمُ والقُرونُ وجميعُ الطَّوائفِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣).

وقال ابن عثيمين: (المراد بـ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هنا مَن بَعْدَ نوحٍ لا مَن قَبْلَه فيما يَظهَرُ، وعلى هذا فيكونُ عامًّا يُرادُ به الخاصُّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨١).

واختلف المفَسِّرونَ في قَولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هل هو مُفَسِّرٌ للآيةِ السَّابِقةِ: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، أو هو جملةٌ استِئنافيَّةٌ مُستقِلَّةٌ عمَّا قَبْلَها؟

فمِمَّن قال بالقَولِ الأوَّلِ: الزَّجَّاجُ، والزمخشريُّ، وابنُ القيم، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٩).

قال الشوكاني: (المتروكُ هذا هو قَولُه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾، أي: ترَكْنا هذا الكلامَ بعَيْنِه، وارتفاعُه على الحكايةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٩).

قال الزمخشري: (فإن قلتَ: فما معنى قَولِه ﴿فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؟ [أي: بناءً على هذا القولِ] قلتُ: معناه الدُّعاءُ بثُبوتِ هذه التَّحيَّةِ فيهم جميعًا، وألَّا يخلوَ أحدٌ منهم منها، كأنَّه قيل: ثبَّت اللهُ التَّسليمَ على نوحٍ وأدامَه في الملائكةِ والثَّقَلينِ يُسَلِّمونَ عليه عن آخِرِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨).

وممَّن ذهب إلى القَولِ الثاني: ابنُ جرير، وابن جُزَي، والبِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير =

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح اللهُ تعالى تفاصيلَ إنعامِه على نُوح؛ أخبَرَ أنَّه إنَّما خَصَّص نوحًا عليه السَّلامُ بتلك التَّشريفاتِ الرَّفيعةِ، مِن جَعلِ الدُّنيا مملوءةً مِن ذُرِّيَّتِه، ومِن تَبقيةِ ذِكرِه الحَسَنِ في ألسِنةِ جَميعِ العالَمينَ؛ لأجْلِ أنَّه كان مُحسِنًا[1].

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذي جازَيْنا به نُوحًا[2] .....

= ابن جرير)) (١٩/ ٥٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٠، ١٨١).

قال ابن القيِّم: (مَن قال بأنَّ المتروكَ هو السَّلامُ عليهم في الآخرينَ نَفْسُه فلا ريبَ أنَّ قولَه ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾ جملةٌ في موضعِ نَصبٍ بـ «تَرَكْنَا»، والمعنى: أنَّ العالَمينَ يُسلِّمونَ على نوحٍ ومَن بَعْدَه مِن الأنبياءِ. ومَن فَسَّره [أي: قولَه: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾] بلِسانِ الصِّدقِ والثَّناءِ الحَسَنِ نَظَر إلى لازمِ السَّلامِ ومُوجَبِه، وهو الثَّناءُ عليهم وما جُعِلَ لهم [أي: للأنبياءِ] مِن لسانِ الصِّدقِ الَّذي لأجْلِه إذا ذُكِروا سُلِّم عليهم)، وذكر أنَّهما قولٌ واحدٌ، ولا ينبغي حكايتُهما على أنَّهما قولانِ. يُنظر: ((جلاء الأفهام)) (ص: ٤٥٧، ٤٥٨).

وذكر ابنُ جُزَي أنَّ معنى ﴿فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ -على القولِ بأنَّ جملةَ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استئنافيَّةٌ-: تخصيصُه بالسَّلامِ عليه بيْن العالَمينَ، كما تقولُ: أُحِبُّ فُلانًا في النَّاسِ، أي: أُحِبُّه خصوصًا مِن بيْنِ النَّاسِ. قال: (وهذا الخلافُ يجري حيث ما ذُكِر ذلك في هذه السُّورةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٠).

(٢) قيل: المرادُ بجزاءِ الله تعالى له: هو إنجاؤُه مِن الكَربِ العظيمِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧).

وقيل: المرادُ بالجزاءِ: هو إبقاءُ الثَّناءِ الحَسَنِ عليه. ومِمَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥). =

-لأنَّه كان مِنَ المُحسِنينَ-(١) نَجزي كلَّ مَن كان مُحسِنًا(٢).

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨١﴾.

أي: إنَّ نُوحًا مِن عِبادِنا المؤمِنينَ باللهِ، فوحِّدُوا اللهَ تعالى، وأخلِصوا في

= وقيل: جزى الله نوحًا بأمْرَينِ: بما تَرَك عليه في الآخِرينَ، وبما سَلَّمه في العالَمينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشري، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٨).

وممَّن ذهب إلى جميعِ تلك المعاني: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٨).

(١) قال ابن جرير: (كذلك نَجزي الَّذين يُحسِنونَ فيُطيعونَنا، ويَنتَهونَ إلى أمرِنا، ويَصبِرون على الأذى فينا). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٣).

وقال ابنُ عطيَّة: (أثنى تعالى على نُوحٍ بالإحسانِ؛ لِصَبرِه على أذى قَومِه، ومُطاوَلَتِه لهم، وغيرِ ذلك مِن عبادتِه وأفعالِه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧).

ويَشملُ الإحسانُ: الإحسانَ في عبادةِ الخالقِ، والإحسانَ إلى المخلوقِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٢، ١٨٣).

وذكر ابنُ عاشور أنَّ الإحسانَ هو الإيمانُ الخالِصُ المفسَّرُ في قَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((الإحسانُ أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنَّه يَراك)) [البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هُرَيرةَ. ومسلم (٨) من حديث عُمَرَ]. ثمَّ قال: (وأيُّ دليلٍ على إحسانِه أجلَى مِن مُصابرتِه في الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ والتَّقْوى، وما ناله مِن الأذى مِن قَومِه طُولَ مُدَّةِ دَعوتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٨).

وقيل: قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هو بيانٌ لإحسانِ نوحٍ عليه السَّلامُ. وممَّن قال بذلك: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٢-١٨٤).

عبادتِه وَحْدَه لا شَريكَ له[١].

﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٨٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى نجاةَ نُوحٍ ونجاةَ أهلِه؛ إذ كانوا مُؤمِنينَ- ذكَرَ هلاكَ غَيرِهم بالغَرَقِ[٢].

﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٨٢﴾.

أي: ثمَّ أغرَقْنا قومَ نُوحٍ الكافِرينَ[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ المقصودُ منه بيانُ أنَّ أعظَمَ الدَّرَجاتِ وأشرَفَ المقاماتِ: الإيمانُ باللهِ، والانقيادُ لطاعتِه[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عَلَّل التَّحيَّةَ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بأنَّه كان مُحسِنًا، ثمَّ عَلَّل إحسانَه بكَونِه مُؤمِنًا؛ فدَلَّ على جلالةِ الإيمانِ ومحَلِّه عندَ اللهِ[٥]، وأنَّه أرفَعُ مَنازِلِ العبادِ، وأنَّه مُشتمِلٌ على جميعِ شَرائِعِ الدِّينِ وأصولِه وفُروعِه؛ لأنَّ اللهَ مَدَح به خواصَّ خَلقِه[٦]، وعُلِمَ

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

منه أنَّ الإيمانَ هو المرادُ الأقصى مِن الإنسانِ؛ لأنَّه عَلَّل الإنجاءَ بالإحسانِ، والإحسانَ بالإيمانِ[١]. وهذا على القولِ بتفسيرِ الإحسانِ بما بعدَه وهو الإيمانُ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ إلى قَولِه: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴾ في هذه القِصَّةِ عِبرةٌ للمُشرِكينَ بما حَلَّ بقَومِ نُوحٍ، وتسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجَعْلُ نوحٍ قُدوةً له، وإيماءٌ إلى أنَّ اللهَ يَنصُرُه كما نصَرَ نُوحًا على قَومِه، ويُنَجِّيه مِن أذاهم، وتنويهٌ بشأنِ المؤمِنينَ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ إثباتُ سَمْعِ اللهِ تعالى؛ فإنَّه لا إجابةَ إلَّا بعدَ السَّمعِ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ يدُلُّ على أنَّ تلك الإجابةَ كانت مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ، وبَيانُه مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّه تعالى عبَّرَ عن ذاتِه بصيغةِ الجَمعِ، فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ ﴾، والقادِرُ العَظيمُ لا يليقُ به إلَّا الإحسانُ العَظيمُ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه أعاد صيغةَ الجَمعِ في قَولِه: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾، وذلك أيضًا يدُلُّ على تَعظيمِ تلك النِّعمةِ، لا سيَّما وقد وَصَف تلك الإجابةَ بأنَّها نِعْمَتِ الإجابةُ.

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّ الفاءَ في قَولِه: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ تدُلُّ على أنَّ حُصولَ هذه الإجابةِ مُرتَّبٌ على ذلك النِّداءِ، والحُكمُ المرَتَّبُ على الوَصفِ المُناسِبِ:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٥).

يَقتضي كَوْنَه مُعلَّلًا به، وهذا يدُلُّ على أنَّ النِّداءَ بالإخلاصِ سَبَبٌ لحُصولِ الإجابةِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ جوازُ إطلاقِ العامِّ وإنْ كان مخصوصًا؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ يَشملُ المؤمِنَ والكافِرَ منهم، وقد دلَّت آيةٌ أخرى على أنَّ مِن أهلِه مَن لم يَنْجُ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ هو الَّذي بَقِيَ نَسْلُه مِن بني آدَمَ، فكُلُّ مَن بَقِيَ مِن بعدِ نُوحٍ فهو مِن نَسلِه؛ ولهذا يُسمَّى الأبَ الثَّانيَ للبَشريَّةِ[٣]؛ فالآيةُ تُفيدُ الحَصرَ، وذلك يدُلُّ على أنَّ كُلَّ مَن سِواه وسِوى ذُرِّيَّتِه قد فَنُوا[٤]، وهذا جارٍ على أنَّ الطُّوفانَ قد عَمَّ الأرضَ كُلَّها، واستأصَلَ جميعَ البَشَرِ إلَّا مَن حمَلَهم نوحٌ في السَّفينةِ. وعُمومُ الطُّوفانِ هو مُقتضى ظواهِرِ الكِتابِ والسُّنَّةِ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ لَمَّا نَزَلَ مِن السَّفينةِ مات مَن كان معه، ثمَّ مات نَسْلُهم، ولم يَبقَ غيرُ نَسْلِ نُوحٍ، وهذا يُبطِلُ قَولَ مَن قال: «إنَّ الخَضِرَ كان قَبْلَ نوحٍ»[٦]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٧).

والآية هي قولُه تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣١، ١٣٢).

(٦) يُنظر: ((المنار المُنيف)) لابن القيم (ص: ٧٤).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فيه تَنويهٌ بنُوحٍ عليه السَّلامُ بأنَّ جَزاءَه كان هو المثالَ والإمامَ لِجزاءِ المحسنينَ على مَراتبِ إحسانِهم، وتَفاوُتِ تَقارُبِها مِن إحسانِ نُوحٍ عليه السَّلامُ، وقُوَّتِه في تَبليغِ الدَّعوةِ؛ فهو أوَّلُ مَن أُوذِيَ في اللهِ، فسَنَّ الجزاءَ لِمَن أُوذِيَ في اللهِ، وكان على قالَبِ جَزائِه، فلعلَّه أنْ يكونَ له كِفْلٌ مِن كلِّ جَزاءٍ يُجْزاهُ أحدٌ على صَبْرِه إذا أُوذِيَ في اللهِ، فثبَتَ لِنُوحٍ بهذا وَصْفُ الإحسانِ، وثبَتَ له أنَّه مَثَلٌ للمُحسنينَ في جَزائِهم على إحسانِهم[١].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ جَعَل لنُوحٍ عليه السَّلامُ ثَناءً حَسَنًا مُستَمِرًّا إلى وقتِ الآخِرينَ؛ وذلك لأنَّه مُحسِنٌ في عبادةِ الخالِقِ، مُحسِنٌ إلى الخَلقِ، وهذه سُنَّتُه تعالى في المحسِنينَ: أن يَنشُرَ لهم مِنَ الثَّناءِ على حَسَبِ إحسانِهم[٢].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ سلَّم اللهُ عليه؛ لِيَقتديَ بذلك البَشَرُ، فلا يَذكُرَه أحَدٌ مِن العالَمينَ بسُوءٍ[٣]. وذلك على القولِ بأنَّ الجملةَ استئنافيَّةٌ.

١٠- يُجزئُ السَّلامُ بقَولِ: «سَلامٌ عليكم» بحذفِ اللَّامِ؛ قال الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الأنعام: ٥٤]، لكِنْ باللَّامِ أَولى -أي: السَّلامُ عليكم-؛ لأنَّها للتَّفخيمِ والتَّكثيرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٤).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أنَّ المُحسِنَ يُجازى بمِثلِ ما جُوزيَ به نوحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وذلك بإنجائِه مِن الهَلاكِ، وسَلامةِ عِرضِه مِن الذِّكرِ السَّيِّئِ، وكُلَّما كان الإنسانُ أكثرَ إحسانًا كان أكثَرَ ثوابًا وأسلَمَ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُرَتِّبُ الجزاءَ والعقوبةَ، والثَّناءَ والقَدْحَ: على الأوصافِ لا على الأشخاصِ؛ لأنَّه هنا عَلَّقَ الجزاءَ على الإحسانِ؛ ولهذا لم يأتِ شَيءٌ مِن أحكامِ اللهِ سُبحانه وتعالى مُقَيَّدًا بشَخصٍ لِشَخصِه أبدًا، حتَّى خصائِصُ الرُّسُلِ ليست مِن بابِ خَصائصِ الأشخاصِ، لكِنْ مِن بابِ خصائِصِ الأوصافِ؛ لأنَّ فيهم وَصفًا زائدًا على غَيرِهم، وهو وَصفُ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ؛ فخُصُّوا ببعضِ الأحكامِ المناسِبَةِ لِمقامِهم، أمَّا أنْ يُخَصَّ شَخصٌ بعَيْنِه لأنَّه فُلانُ بنُ فُلانٍ مثلًا، فهذا لا يُوجَدُ في الشَّريعةِ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُرَتِّبُ الأحكامَ ويُعَلِّقُها على الأوصافِ لا على الأشخاصِ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الإشارةُ إلى كَمالِ هذَينِ الوَصفَينِ -وهما العُبوديَّةُ والإيمانُ-، وأنَّهما أشرَفُ وَصفٍ يَتَّصِفُ به الإنسانُ: أنْ يكونَ عبدًا للهِ، مؤمنًا به؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يعني: نُوحًا، ونوحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن أُولي العَزمِ مِن الرُّسُلِ، فإذا كان مِن مَناقِبِه وفَضائلِه أنْ يكونَ مِن عبادِ اللهِ المؤمِنينَ؛ دَلَّ ذلك على فَضيلةِ العُبوديَّةِ والإيمانِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ابتُدِئَ بقِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ مع قَومِه؛ فإنَّه أوَّلُ رَسولٍ بعَثَه اللهُ إلى النَّاسِ، وهو الأُسوةُ الأُولى، والقُدْوةُ المُثْلى. وابتداءُ الإخبارِ بذِكرِ نِداءِ نُوحٍ ربَّه مَوعظةٌ للمشرِكينَ؛ لِيَحْذَروا دُعاءَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ربَّه تعالى بالنَّصرِ عليهم كما دعا نُوحٌ على قَومِه(١).

- وتأْكيدُ الخبَرِ وتأْكيدُ ما فُرِّعَ عليه بلامِ القَسَمِ ﴿ وَلَقَدْ ﴾؛ لِتَحقيقِ الأمْرَينِ؛ تَحذيرًا للمشرِكينَ بعْدَ تَنزيلِهم مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ نوحًا دعا فاستُجيبَ له(٢).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ تَفريعٌ على ﴿نَادَىٰنَا ﴾، أي: نادانا فأجَبْناهُ، فحُذِفَ المُفرَّعُ؛ لدَلالةِ ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ عليه؛ لِتَضمُّنِه معنى فأجَبْناهُ جوابَ مَن يُقالُ فيه: نِعمَ المُجيبُ(٣).

- وضَميرُ المُتكلِّمِ المشارَكِ في قولِه: ﴿نَادَىٰنَا ﴾ ﴿ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعظيمِ(٤).

- وفيه إيجازٌ بالحذْفِ، والتَّقديرُ: وباللهِ لقدْ دعانا نوحٌ حينَ يَئِسَ مِن إيمانِ قَومِه بعْدَما دَعاهُم إليه أحقابًا ودُهُورًا، فلَمْ يَزِدْهم دُعاؤُه إلَّا فِرارًا ونُفورًا، فأجَبْناهُ أحسَنَ الإجابةِ، فواللهِ لَنِعْمَ المُجيبونَ نحنُ. فحُذِفَ ما حُذِفَ مِن المخصوصِ بالمدْحِ؛ ثِقةً بدَلالةِ ما ذُكِرَ عليه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

- وذُكِرَ في هذه السُّورةِ ستُّ قِصَصٍ مِن قِصَصِ الرُّسلِ مع أقوامِهم؛ لأنَّ في كلِّ قِصَّةٍ منها خاصِّيَّةً لها شَبَهٌ بحالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع قَومِه، وبحالِه الأكمَلِ في دَعوتِه؛ ففي القِصصِ كلِّها عِبرةٌ وأُسوةٌ وتَحذيرٌ، ويَجمَعُها كلَّها مُقاوَمةُ الشِّركِ ومُقاوَمةُ أهْلِه(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ التَّنجيةُ: الإنجاءُ -وهو جَعلُ الغيرِ ناجيًا-، والنَّجاةُ: الخلاصُ مِن ضُرٍّ واقعٍ، وأُطلِقَت هنا على السَّلامةِ مِن ذلك قبْلَ الوُقوعِ فيه؛ لأنَّه لمَّا حصَلَت سَلامَتُه في حينِ إحاطةِ الضُّرِّ بقَومِه، نُزِّلَت سَلامَتُه منه مع قُرْبِه منه بمَنزلةِ الخَلاصِ منه بعْدَ الوُقوعِ فيه؛ تَنزيلًا لِمُقارَبةِ وُقوعِ الفِعلِ مَنزلةَ وُقوعِه(٢).

- والمرادُ بأهْلِه: عائلتُه إلَّا مَن حَقَّ عليه القولُ منهم، وكذلك المؤمنون مِن قَومِه؛ قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]؛ فالاقتِصارُ على أهْلِه هنا؛ لِقِلَّةِ مَن آمَنَ به مِن غَيرِهم. أو أُرِيدَ بالأهْلِ أهْلُ دِينِه، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨]. وأشعَرَ قولُه: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ أنَّ استجابةَ دُعاءِ نُوحٍ كانتْ بأنْ أُهلِكَ قَومُه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٣٠).

قال ابن تيميَّةَ: (النَّجاةُ مِنَ الشَّرِّ لا تَستلزِمُ حُصولَه، بل تَستلزِمُ انعِقادَ سَبَبِه؛ فمَن طلَبَه أعداؤه لِيُهلِكوه ولم يَتمَكَّنوا منه، يقال: نجَّاه اللهُ منهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، ومعلومٌ أنَّ نوحًا لم يَغرَقْ ثمَّ خَلَص، بل نُجِّيَ مِن الغَرَقِ الَّذي أهلَكَ اللهُ به غيرَه). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٧/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣١).

- ووُصِفَ الكَرْبُ بالعظيم؛ لإفادةِ أنَّه عظيمٌ في نَوعِه، فهو غَمٌّ على غَمٍّ، والمعنيُّ به الطُّوفانُ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾

- ضَميرُ الفَصلِ في قولِه: ﴿هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ للحصْرِ، أي: لمْ يَبْقَ أحدٌ مِن النَّاسِ إلَّا مَن نجَّاهُ اللهُ مع نُوحٍ في السَّفينةِ مِن ذُرِّيَّتِه، ثمَّ مَن تَناسَلَ منهم، فلمْ يَبْقَ مِن أبناءِ آدَمَ غيرُ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ، فجميعُ الأُمَمِ مِن ذُرِّيَّةِ أولادِ نُوحٍ الثَّلاثةِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿عَلَيْهِ﴾ مُتعلِّقٌ بفِعلِ ﴿وَتَرَكْنَا﴾ بتَضمينِ هذا الفِعلِ معنى (أنْعَمْنا)، فأفادَ بمادَّتِه معنى الإبقاءِ له، فكان مُقْتَضَى الظَّاهرِ أنْ يُعدَّى هذا الفِعلُ باللَّامِ، فلمَّا ضُمِّنَ معنى (أنْعَمْنا) أفاد بمادَّتِه معنى الإبقاءِ له، أي: إعطاءَ شَيءٍ مِن الفضائلِ المدَّخرةِ الَّتي يُشْبِهُ إعطاؤُها تَرْكَ أحدٍ مَتاعًا نَفيسًا لِمَن يُخلِّيه هو له ويَخلُفُه فيه. وأفاد بتَعليقِ حَرْفِ (على) به أنَّ هذا التَّركَ مِن قَبيلِ الإنعامِ والتَّفضيلِ، وكذلك شأْنُ التَّضمينِ أنْ يُفيدَ المُضمَّنُ مُفادَ كَلمتينِ، فهو مِن أَلْطَفِ الإيجازِ. ثمَّ إنَّ مَفعولَ (تَرَكْنَا) لَمَّا كان مَحذوفًا، وكان فِعلُ (أنْعَمْنا) الَّذي ضُمِّنَه فِعلُ (تَرَكْنَا) ممَّا يَحتاجُ إلى مُتعلَّقِ معنى المفعولِ؛ كان مَحذوفًا أيضًا مع عامِلِه، فكان التَّقديرُ: وتَرَكْنا له ثَناءً وأنْعَمْنا عليه؛ فحصَلَ في قولِه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ حَذْفُ خَمْسِ كَلماتٍ، وهو إيجازٌ بَديعٌ[٣]. وذلك على قول في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٣٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- إذا كان معنى ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾: تَرَكْنا في الآخرينَ مِن الأُمَمِ أنْ يُسلِّموا عليه تَسليمًا ويَدْعوا له -على أحدِ القولينِ في التَّفسيرِ-، فما معنى ﴿فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ فإنَّه كالتَّكرارِ؟

والجوابُ: أنَّ في إعادةِ ذِكرِ العالَمينَ الشُّمولَ والاستغراقَ؛ لئلَّا يَخرُجَ أحدٌ ممَّن يَدخُلُ في العالَمينَ مِن الملائكةِ والثَّقلينِ منه -على قولٍ في التَّفسيرِ-، والحاصلُ أنَّ ﴿فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كالتَّتميمِ للمعنى السَّابقِ والمبالَغةِ فيه، ولو اكْتَفى بقولِه: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ لَقَصَّرَ عن هذا المعنى، فكان معنى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: ثبَّتَ اللهُ التَّسليمَ على نُوحٍ وأدامَه في الملائكةِ والثَّقَلينِ يُسلِّمون عليه عن آخِرِهم[(١)].

- وتَنوينُ ﴿سَلَٰمٌ﴾ للتَّعظيمِ[(٢)].

- والمرادُ بالعالَمينَ: الأُمَمُ والقُرونُ، وهو كِنايةٌ عن دَوامِ السَّلامِ عليه[(٣)]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وبعْدَه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، ثم ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، وكذلك ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾، ولم يَقُلْ في قِصَّةِ لُوطٍ ولا يُونُسَ ولا إلياسَ: ﴿سَلَٰمٌ﴾؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وكذلك ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، فقد قال: سلامٌ على كلِّ واحدٍ منهم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لِقَولِه في آخِرِ السُّورةِ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[(١)].

- وزِيدَ في سَلامِ نُوحٍ وَصْفُه بأنَّه ﴿فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دونَ السَّلامِ على غَيرِه، في قِصَّةِ إبراهيمَ، ومُوسى، وهارونَ، وإلياسَ؛ للإشارةِ إلى أنَّ التَّنويهَ بنُوحٍ كان سائرًا في جَميعِ الأُمَمِ؛ لأنَّهم كلَّهم يَنتمُون إليه، ويَذكُرونه ذِكرَ صِدقٍ[(٢)]. وقيل: لَمَّا كان لِسانُ جَميعِ أهلِ الأرضِ في زَمانِه عليه السَّلامُ واحِدًا، فكانوا كُلُّهم قَومَه، ولم يكُنْ في زمانِه نَبيٌّ، فكانت نُبُوَّتُه قُطبَ دائرةِ ذلك الوَقتِ، فكانت رِسالتُه عامَّةً لأهلِه، وكان غيرُ النَّاسِ مِن الخَلقِ لهم تَبَعًا: خَصَّه في السَّلامِ بأن قال: ﴿فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٣)].

- ومِن المناسَبةِ أيضًا: قولُه تعالى في خِتامِ قِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٨٠]، ثمَّ أعقَبَ قِصَّةَ إبراهيمَ وقِصَّةَ مُوسى وهارونَ وقِصَّةَ إلياسَ بمِثلِ هذا، إلَّا أنَّه ورَدَ في قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٩ - ١١٠]، فسَقَطَ منه لَفظُ (إنَّا)، وثبَتَ في القِصَصِ الأُخَرِ؛ ووَجْهُه: أنَّه تَقدَّمَ في قِصَّةِ إبراهيمَ بعَينِها قولُه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤ - ١٠٥]، ثمَّ لَمَّا كرَّرَ لِيَنْبَنيَ عليه قولُه: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١١١] كما في نَظائرِه مِن خِتامِ القصصِ الأُخَرِ، كرَّرَ هنا الجُملةَ بأسْرِها، وهي قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ لِيَنْبَنيَ عليها ما ورَدَ عِلَّةً مُوجِبةً لِجَزائهم؛ لِتَجْريَ هذه القصَّةُ مَجْرى نَظائرِها، ولم

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٧).

يُكرَّرْ حَرْفُ التَّأكيدِ والضَّميرُ المنصوبُ به إيجازًا واختصارًا؛ لذِكْرِه فيما تَقدَّمَ في القصَّةِ نفْسِها[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تَذْييلٌ لِمَا سبَقَ مِن كَرامةِ اللهِ نُوحًا. و(إنَّ) تُفِيدُ تَعليلًا لِمُجازاةِ اللهِ نُوحًا بما عدَّه مِن النِّعَمِ بأنَّ ذلك لأنَّه كان مُحسِنًا، أي: متُخلِّقًا بالإحسانِ[٢].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِن الكَراماتِ السَّنيَّةِ الَّتي وَقَعَتْ جَزاءً له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ مع قُرْبِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتْبتِه، وبُعدِ مَنزلتِه في الفضْلِ والشَّرفِ[٣].

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تَعليلٌ لاستحقاقِ نُوحٍ عليه السَّلامُ المُجازاةَ الموصوفةَ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فاختلَفَ مَعلولُ هذه العِلَّةِ، ومَعلولُ العِلَّةِ الَّتي قبْلَها[٤].

- وأفادَ وَصْفُه بـ ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ أنَّه ممَّن استحقَّ هذا الوصفَ، وإضافةُ وصف (عبد) إلى ضَميرِ الجلالةِ مُشعِرٌ بالتَّقريبِ، ورَفْعِ الدَّرجةِ والتَّشريفِ[٥].

- واقتُصِرَ على وَصفِ العِبادِ بالمؤمنينَ؛ تَنويهًا بشَأْنِ الإيمانِ؛ لِيَزدادَ الَّذين

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٩٢-١٠٩٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٤)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤١٠، ٤١١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤، ١٣٥).

آمَنوا إيمانًا، ويُقلِعَ المشركونَ عن الشِّركِ. وأُقحِمَ معها ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾؛ لِتَشريفِه بتلك الإضافةِ. وفي ذلك تَنبيهٌ على عَظيمِ قَدْرِ الإيمانِ[١].

- وتَكرَّرَ وَصْفُ الرُّسلِ ومَدْحُهم بأنَّهم مِن المؤمنينَ، فمدَحَ تعالى نُوحًا وغيرَه -كإبراهيم، ومُوسى، وعِيسى عليهم السَّلامُ- بذلك، مع أنَّ مَرتبةَ الرُّسلِ فوقَ مَرتبةِ المؤمنينَ؛ تَنبيهًا لنا على جَلالةِ مَحلِّ الإيمانِ وشَرَفِه، وتَرْغيبًا في تَحصيلِه، والثَّباتِ عليه، والازديادِ منه، كما قال تعالى في مَدْحِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢] [البقرة: ١٣٠].

٨- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾

- حَرفُ (ثُمَّ) للتَّرتيبِ والتَّراخي الرُّتبيَّينِ[٣]؛ لأنَّ بعضَ ما ذُكِرَ قبْلَها في الكلامِ هو ممَّا حصَلَ بعْدَ مَضمونِ جُملتِها في نفْسِ الأمْرِ كما هو بيِّنٌ، ومعنى التَّراخي الرُّتبيِّ هنا أنَّ إغراقَ الَّذين كذَّبوه مع نَجاتِه ونَجاةِ أهْلِه، أعظَمُ رُتبةً في الانتصارِ له والدَّلالةِ على وَجاهتِه عندَ اللهِ تعالى، وعلى عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى ولُطْفِه. ومعنى ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾: مَن عداهُ وعَدا أهْلَه، أي: بقيَّةُ قَومِه، وفي التَّعبيرِ عنهم بالآخَرينَ ضَرْبٌ مِن الاحتقارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤، ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٩، ٤٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٥).

(٣) وقال القرطبي: («ثمَّ» ليس للتَّراخي هاهنا، بل هو لتعديدِ النِّعَم، كقَولِه: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٦، ١٧]، أي: ثمَّ أُخبِرُكم أنِّي قد أغرَقْتُ الآخَرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٥).

الآيات (٨٢-٩٨)

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ
نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا
تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ
أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ
﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شِيعَتِهِۦ﴾: أي: أتْباعِه وأهلِ مِلَّتِه ودِينِه ومِنهاجِه، مأخوذٌ مِن الشَّياعِ: وهو الانتِشارُ والتَّقْويةُ، وأصلُ (شيع): يَدُلُّ على مُعاضَدةٍ[١].

﴿أَئِفْكًا﴾: أي: كَذِبًا، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن جِهتِه[٢].

﴿سَقِيمٌ﴾: أي: وَجِعٌ مَريضٌ، وأصلُ (سقم): يدُلُّ على مَرَضٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٧).
وقيل: مأخوذٌ مِن الشِّياعِ، وهو الحطبُ الصِّغارُ الَّذي تُشعَلُ به النَّارُ، ويُعينُ الحطبَ الكبارَ على اتِّقادِ النَّارِ. يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠).

﴿ فَرَاغَ ﴾: أي: مال في خُفيةٍ، وأصلُ (روغ): يدُلُّ على مَيلٍ[١].

﴿يَزِفُّونَ ﴾: أي: يُسرِعونَ، وأصلُ (زفف): يدُلُّ على خِفَّةٍ في كُلِّ شَيءٍ[٢].

﴿تَنْحِتُونَ ﴾: أي: تَصنَعونَ، والنَّحتُ: النَّجْرُ والبَرْيُ، وأصل (نحت): يدُلُّ على نَجرِ شَيءٍ وتَسويتِه[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾

قوله: ﴿أَئِفْكًا ﴾: في نصْبِه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنه مفعولٌ مِن أجْلِه، قُدِّمَ على المفعولِ به ﴿ءَالِهَةً ﴾؛ اهتمامًا، أي: أتُريدون آلهةً دونَ اللَّهِ إفكًا؟! الثَّاني: أن يكونَ مفعولًا به بـ ﴿تُرِيدُونَ ﴾، ويكونَ ﴿ءَالِهَةً ﴾ بدَلًا منه؛ جعَلَ الآلهةَ نفْسَ الإفكِ مُبالَغةً، فأبدلَها منه. الثَّالثُ: أنَّه حالٌ مِن فاعلِ ﴿تُرِيدُونَ ﴾، أي: أتُريدونَ آلهةً آفِكينَ[٤]؟!

المعنى الإجماليُّ:

يَحكي الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ نبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: وإنَّ مِن

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣١٩).

أتْباعِ نُوحٍ وعلى طريقتِه ومِنهاجِه لَإبراهيمَ -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ- إذ جاء إبراهيمُ ربَّه بقَلبٍ مُخلِصٍ، سَليمٍ مِنَ الشِّركِ؛ إذ قال إبراهيمُ لأبيه وقَومِه: ما هذا الَّذي تَعبُدونَه مِن دونِ اللهِ، أتُريدونَ صَرْفَ الحَقِّ عن وَجهِه الصَّحيحِ باتِّخاذِكم مَعبودًا مِن دونِ اللهِ؟! فما ظنُّكم برَبِّكم رَبِّ العالَمينَ؟!

فنَظَر إبراهيمُ نَظرةً في النُّجومِ إيهامًا لهم أنَّه يَجري على عادتِهم بالنَّظَرِ في النُّجومِ، واعتقادِ تأثيرِها، ثمَّ قال لِقَومِه بعدَ أن نظَرَ في النُّجومِ: إنِّي مريضٌ! فانصرَفَ قَومُه عنه وتَرَكوه، فتوجَّهَ إلى أصنامِهم في سُرعةٍ وخُفيةٍ، فقال لها مُخاطِبًا: ألَا تأكُلونَ هذا الطَّعامَ الموضوعَ لكم، ما لَكم لا تَنطِقونَ؟!

فأقْبَلَ على الأصنامِ بسُرعةٍ يَضرِبُها بقُوَّةٍ بيدِه اليمنَى، فأقبَلَ قومُ إبراهيمَ إليه مُسرِعينَ، فقال لهم إبراهيمُ: أتَعْبُدونَ أشياءَ تَنحِتونَها بأيديكم، واللهُ خلَقَكم وخلَقَ الَّذي تَعمَلونَه مِن أصنامِكم، فكيف تَعبُدونَها وهي مخلوقةٌ؟! فقال قَومُ إبراهيمَ: ابنُوا له بُنيانًا عاليًا، وأوقِدوا نارًا شَديدةً، فارمُوه فيها؛ جزاءً على ما فَعَل بآلهتِكم. فأرادوا أن يَمكُروا به ويُحرِقوه بالنَّارِ، فأنقَذَه اللهُ تعالى منها، وجعَلَهم الأذَلِّينَ المغلوبينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ٨٣﴾.

أي: وإنَّ مِن أتْباعِ نُوحٍ وأهلِ دينِه، وعلى طريقتِه ومِنهاجِه: إبراهيمَ -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٦).
قال الرسعني: (عامَّةُ المفسِّرينَ ذهَبوا إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿شِيعَتِهِۦ﴾ يرجِعُ إلى نوحٍ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٧).

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾.

أي: حينَ جاء إبراهيمُ ربَّه -الَّذي أحسَنَ تَربيتَه-[1] بقَلبٍ مُخلِصٍ لله، سَليمٍ مِنَ الشِّركِ والشَّكِّ، والشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ، ومَساوي الأخلاقِ؛ كالغِلِّ، والحِقدِ، والحَسَدِ[2].

كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ أنَّ إبراهيمَ جاء رَبَّه بقَلبٍ سَليمٍ؛ ذكَرَ أنَّ مِن جُملةِ آثارِ

---

(١) قيل: يحتمِلُ مجيئُه إلى رَبِّه وجهَينِ؛ أحدُهما: عندَ دعائِه إلى توحيدِه وطاعتِه. الثَّاني: عندَ إلقائِه في النَّارِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٩٢).

قال ابن جزي: (﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ عبارةٌ عن إخلاصِه وإقبالِه بكلِّيتِه على الله تعالى، وليس المرادُ المجيءُ بالجسدِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٧).

قال الزَّمخشري: (فإنْ قُلتَ: بمَ تعلَّق الظَّرفُ؟ قُلتُ: بما في الشِّيعةِ مِن معنى المُشايَعةِ، يعني: وإنَّ مِمَّن شايَعَه على دينِه وتَقْواه حينَ جاء رَبَّه بقَلبٍ سليمٍ: لَإبراهيمَ. أو بمحذوفٍ، وهو: اذكُرْ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨).

وممَّن اختار نحوَ القولِ الأوَّلِ: الرَّازي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٢).

وممَّن رجَّح القولَ الثَّانيَ -وهو أنَّ ﴿إِذْ﴾ مُتعلِّقةٌ بفِعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ-: الشوكانيُّ، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٩١، ١٩٢).

تلك السَّلامةِ: أنْ دعا أباه وقَومَه إلى التَّوحيدِ[١]، فقال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: حينَ قال إبراهيمُ لأبيه وقَومِه الَّذين يَعبُدونَ الأصنامَ: ما هذا الَّذي أنتم تُواظِبونَ على عبادتِه[٢]؟!

كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ * قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٢ - ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٠ - ٧٧].

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: أتُريدونَ صَرْفَ الحَقِّ عن وَجهِه الصَّحيحِ، باتِّخاذِكم مَعبودًا مِن دونِ اللهِ، الَّذي لا يَستَحِقُّ العبادةَ أحَدٌ سِواه[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٠).
قال الشَّوكاني: (قَولُه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بدَلٌ مِن الجُملةِ الأُولى، أو ظرفٌ لـ﴿سَلِيمٍ﴾، أو ظرفٌ لـ﴿جَآءَ﴾، والمعنى: وقْتَ قال لأبيه آزَرَ وقَومِه مِن الكُفَّارِ: أيَّ شَيءٍ تَعبُدونَ؟). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٩٤، ١٩٥).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: فما الَّذي تَظُنُّونَ أنَّ اللهَ فاعِلٌ بكم إذا لَقِيتُموه وقد عَبدتُم غَيرَه؟! وما الَّذي ظَننتُم به مِنَ السُّوءِ والنَّقصِ حتَّى أحوَجَكم ذلك إلى أنْ تجعَلوا له شُرَكاءَ مِن خَلْقِه[1]؟!

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لَمَّا وَبَّخ قَومَه على عبادةِ غيرِ اللهِ، أراد أن يُرِيَهم أنَّ أصنامَهم لا تَنفَعُ ولا تَضُرُّ؛ فعَهِدَ إلى ما يَجعَلُه مُنفَرِدًا بها حتَّى يَكسِرَها، ويُبيِّنَ لهم حالَها وعَجْزَها[2].

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: فنَظَر إبراهيمُ عليه السَّلامُ نَظرةً في النُّجومِ؛ موهِمًا لقومِه -وكانوا أهلَ تَنجيمٍ- أنَّه يَعتمِدُ عليها، ومُظهِرًا لهم أنَّه يَستدِلُّ بها على شَيءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٢٥)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٨)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٩٥، ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٨)، =

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

أي: فقال إبراهيمُ لِقَومِه بعدَ أنْ نَظَر نَظرةً في النُّجومِ: إنِّي مريضٌ؛ لِيَترُكوه وَحْدَه، فيَتِمَّ له تنفيذُ ما أراد مِن الكَيدِ لأصنامِهم[1].

= ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢١٥).

قال ابن الجوزي: (﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ فيه قولانِ؛ أحدُهما: أنَّه نظَرَ في عِلمِ النُّجومِ... والثَّاني: أنَّه نظَرَ إلى النُّجوم، لا في عِلْمِها). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ قُتَيْبَة، وقال: (قولُه: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ ولم يَقُلْ: إلى النُّجوم. وهذا كما يقالُ: فُلانٌ يَنظُرُ في النُّجوم، إذا كان يَعرِفُ حسابَها، وفُلانٌ يَنظُرُ في الفقهِ والحسابِ والنَّحوِ. وإنَّما أراد بالنَّظرِ فيها: أن يُوهِمَهم أنَّه يَعلَمُ منها ما يَعلَمون، ويَتعرَّفُ في الأمورِ مِن حيث يَتعرَّفون، وذلك أبلَغُ في المِحالِ، وألْطَفُ في المَكِيدةِ). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٠١، ٢٠٢).

وقال الزمخشري: (﴿فِي ٱلنُّجُومِ﴾: في علمِ النُّجومِ، أو في كتابِها، أو في أحكامِها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ أي: أنَّه نظَر إلى النجوم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، وابن الجوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٢٧).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٢، ١٤٣).

اختُلِف في قولِه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ فقيل: أي: سأسْقَمُ. وممَّن اختاره: ابنُ قُتَيبَةَ، والسمرقندي، والواحدي، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٣).

قال القرطبي: (فالمعنى: إنِّي سَقيمٌ فيما أستقبِلُ، فتَوَهَّموا هم أنَّه سقيمٌ السَّاعةَ، وهذا مِن مَعاريضِ الكلامِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٣). =

= واسمُ الفاعلِ يُستعمَلُ بمعنَى المُستقبَلِ كثيرًا، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠] أي: ستَمُوتُ، ولقد صَدَق عليه السَّلامُ؛ فإنَّ كُلَّ إنسانٍ لا بُدَّ أن يَسقَمَ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٧٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٩١).

وقيل: أراد أنَّه سَقيمُ القَلبِ لِكُفرِهم، فظهَرَ لهم مِن كلامِه أنَّه أراد سقمًا بالجسدِ حاضرًا، فهذا مِن المَعاريضِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٨).

قال البِقاعي: (أوْهَمَ أنَّ مُرادَه أنَّه مريضُ الجسَدِ، وأراد أنَّه مريضُ القلبِ بسببِ آلهتِهم، مُقسَّمُ الفِكرِ في أمْرِهم؛ لأنَّه يريدُ أمرًا عظيمًا، وهو كَسْرُها). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٥٤).

قال ابنُ جُزَي بعدَ ذِكرِ هذَينِ القولَينِ -أي: أنَّه سقيمٌ فيما يُستقبَلُ، أو أنَّه سقيمُ النَّفْسِ-: (وهذان التَّأويلانِ أَوْلى؛ لأنَّ نَفْيَ الكذِبِ بالجملةِ مُعارِضٌ للحديثِ، والكذبَ الصُّراحَ لا يجوزُ على الأنبياءِ عندَ أهلِ التَّحقيقِ، أمَّا المَعاريضُ فهي جائزةٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٤).

وقيل: أوهَمَهم أنَّه مطعونٌ، أي: به مرضُ الطَّاعونِ، فخافوا منه، وتَباعَدوا عنه. وممَّن اختار هذا القولَ: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ونسَبَه الواحديُّ لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٧١). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٧٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٨).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: كانوا يَتعاطَون عِلمَ النُّجوم، فعامَلَهم مِن حيث كانوا؛ لئلَّا يُنكِروا عليه؛ وذلك أنَّه أراد أن يُكايدَهم في أصنامِهم ليُلزِمَهم الحُجَّةَ في أنَّها غيرُ معبودةٍ، وكان لهم مِن الغَدِ يومٌ يَخرُجون إليه، فأراد أن يَتخلَّفَ عنهم، فاعتلَّ بالسَّقَمِ). ((الوسيط)) (٣/ ٥٢٨).

قال الألوسي: (﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ ... أوهَمَهم أنَّه تفَكَّر في أحوالِها مِن الاتِّصالِ والتَّقابُلِ ونَحوِهما مِن الأوضاعِ الَّتي تدُلُّ بزَعمِهم على الحوادِثِ؛ لِيُرتِّبَ عليه ما يَتوصَّلُ به إلى غرَضِه الَّذي يكونُ وَسيلةً الى إنقاذِهم مِمَّا هم فيه، والظَّاهِرُ بعدَ اعتبارِ الإيهامِ أنَّه إيهامُ التَّفَكُّرِ في إحكامِ طالعِ ولادتِه عليه السَّلامُ، وما يدُلُّ عليه بزَعمِهم ما تجدَّد له مِن الأوضاعِ في ذلك الوَقتِ، وهذا مِن معاريضِ الأفعالِ نَظيرُ ما وقَعَ في قصَّةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ مِن تفتيشِ أوعيةِ إخوتِه بني عَلَّاتِه قبْلَ وِعاءِ شَقيقِه؛ فإنَّ المُفتِّشَ بدأ بأوعيتِهم مع عِلمِه أنَّ الصَّاعَ ليس فيها، وأخَّرَ تفتيشَ وِعاءِ أخيه مع عِلمِه بأنَّه فيها؛ تعريضًا بأنَّه لا يَعرِفُ في أيِّ وِعاءٍ هو، ونَفْيًا للتُّهمةِ عنه لو =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لم يَكذِبْ إبراهيمُ النَّبيُّ عليه السَّلامُ قَطُّ إلَّا ثلاثَ كَذَباتٍ[١]: ثِنتينَ في ذاتِ اللهِ؛ قَولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقَولُه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وواحِدةً في شأنِ سارةَ))[٢].

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠﴾.

أي: فانصَرَف قَومُ إبراهيمَ عنه وخَلَّفوه وراءَ ظُهورِهم، بحيثُ لا يَرَونَه[٣].

= بدأ بوعاءِ الأخِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٨).

وقال ابنُ عاشور: (لم يكُنْ في لُغةِ قَومِ إبراهيمَ التَّشبيهُ البليغُ، ولا المَجازُ، ولا التَّهَكُّمُ؛ فكان ذلك عندَ قَومِه كَذِبًا، وأنَّ اللهَ أذِنَ له فِعْلَ ذلك، وأعلَمَه بتأويلِه، كما أذِنَ لأيُّوبَ أن يأخُذَ ضِغثًا مِن عِصِيٍّ، فيَضرِبَ به ضَربةً واحِدةً لِيُبِرَّ قَسَمَه؛ إذ لم تكُن الكَفَّارةُ مَشروعةً في دينِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٣).

(١) قال ابنُ كثير: (ليس هذا مِن بابِ الكَذِبِ الحقيقيِّ الَّذي يُذَمُّ فاعِلُه، حاشا وكَلَّا، وإنَّما أُطلِقَ الكَذِبُ على هذا تَجَوُّزًا، وإنَّما هو مِن المَعاريضِ في الكَلامِ؛ لِمَقصَدٍ شَرعيٍّ دينيٍّ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤، ٢٥).

وقال ابن تيميَّةَ: (الكَذِبُ على الشَّخصِ حرامٌ كُلُّه، سواءٌ كان الرَّجُلُ مُسلِمًا أو كافرًا، بَرًّا أو فاجرًا .. ولكنْ تُباحُ عندَ الحاجةِ الشَّرعيَّةِ المَعاريضُ، وقد تُسمَّى كَذِبًا؛ لأنَّ الكلامَ يَعني به المتكَلِّمُ مَعنًى، وذلك المعنى يريدُ أن يَفهمَه المُخاطَبُ، فإذا لم يَكُنْ على ما يَعنيه فهو الكَذِبُ المحضُ، وإن كان على ما يَعنيه ولكِنْ ليس على ما يَفهَمُه المُخاطَبُ فهذه المعاريضُ، وهي كَذِبٌ باعتبارِ الإفهامِ، وإن لم تكنْ كَذِبًا باعتبارِ الغايةِ السَّائغةِ، ومنه قولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لم يَكذِبْ إبراهيمُ إلَّا ثلاثَ كَذَباتٍ...))، وهذه الثَّلاثةُ مَعاريضُ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٢٢٣).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٢).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّهم تَوَلَّوا عن إبراهيمَ مُدبِرين عنه؛ خَوفًا مِن أن يُعدِيَهم السَّقَمُ الَّذي ذَكَرَ أنَّه به. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٩). =

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٩١ ﴾.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ ﴾.

أي: فحاد إبراهيمُ عن الخُروجِ مع قَومِه مُتوجِّهًا إلى أصنامِهم في سُرعةٍ وخُفيةٍ، بنَشاطٍ وهِمَّةٍ وخِفَّةٍ(١).

كما قال اللهُ تعالى حاكيًا قَولَ إبراهيمَ: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

﴿ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾.

أي: فقال مُخاطِبًا الأصنامَ(٢): ألَا تأكُلونَ هذا الطَّعامَ الموضوعَ بينَ أيديكم(٣)؟!

﴿ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ٩٢ ﴾.

= وقيل: صِيغةُ التَّفَعُّلِ في قَولِه تعالى: ﴿ فَتَوَلَّوۡاْ ﴾ تدُلُّ على استِبعادِهم مَرَضَه، إلَّا أنَّهم ترَكوه. ومِمَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٣).

(٢) قال الكِرماني: (الجمهورُ على أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قال هذا استِهزاءً بالأصنامِ). ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٣، ١٤٤).

قال القرطبي: (قيل: كان بيْنَ يَدَيِ الأصنامِ طَعامٌ تَرَكوه؛ لِيَأكُلوه إذا رَجَعوا مِنَ العيدِ، وإنَّما تَرَكوه لِتُصيبَه بَرَكةُ أصنامِهم، بزَعمِهم. وقيلَ: تَرَكوه للسَّدَنةِ. وقيل: قَرَّب هو إليها طعامًا؛ على جهةِ الاستِهزاءِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٤).

وقيل: كانت السَّدَنةُ تَزعُمُ أنَّ الأصنامَ تأكُلُ الطَّعامَ الَّذي يَضَعونَه بيْنَ يَدَيْها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٤).

أي: ما الَّذي يَمنَعُكم مِن أن تَنطِقوا[١]؟!

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾.

أي: فأقْبَلَ إبراهيمُ على الأصنامِ بسُرعةٍ ونَشاطٍ وهِمَّةٍ، يَضرِبُها بيَدِه اليُمنى بقُوَّةٍ وشِدَّةٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

أي: فأقْبَلَ قَومُ إبراهيمَ إليه وهم يُسرِعونَ في رَكضِهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٥٩ - ٦٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٤).

قال السمعاني: (قولُه: ﴿بِالْيَمِينِ﴾ فيه أقوالٌ؛ أحَدُها أنَّ معناه: يَضْرِبُهم بيمينِه، ومعنى يَضْرِبُهم أي: يَكسرُهم. ويقالُ: باليمينِ أي: بالقوَّةِ. والقولُ الثَّالثُ: باليمينِ أي: باليمينِ الَّتي سبَقَتْ منه، وهو قولُه تعالَى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٤).

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لهم: أتَعبُدونَ أشياءَ أنتم تَنحِتونَها بأيديكم[(١)]؟!

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

أي: والحالُ أنَّ اللهَ خلَقَكم وخَلَق الَّذي تَعمَلونَه مِن أصنامِكم، فكيف تَعبُدونَها وهي مخلوقةٌ لا خالِقةٌ[(٢)]؟!

عن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٦، ٨٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١، ٥٢)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٢١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٥).

ذهب كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ إلى أنَّ «ما» في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ مَوصولةٌ؛ بمعنى الَّذي. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والواحديُّ، والزمخشري، وابنُ تيميَّة، وابنُ القيِّم، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٧٧).

قال ابنُ جُزَي: (وهذا أَلْيَقُ بسياقِ الكلامِ، وأقوَى في قصدِ الاحتجاجِ على الَّذين عبَدوا الأصنامَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٥).

ورجَّح القرطبي أن تكونَ (مَا) مَصدريَّةً، أي: واللهُ خلَقَكم وعمَلَكم، واستظهَرَه ابنُ كثير، وردَّه الزمخشريُّ، وضَعَّفه ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١، ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٦)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٤٦- ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٢).

قال ابنُ كثير: (وكِلا القولَينِ مُتلازِمٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦).

خلَقَ كُلَّ صانِعٍ وصَنْعتَه))[١].

﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لَمَّا أورَدَ على قَومِه الحُجَّةَ القَويَّةَ، ولم يَقدِروا على الجَوابِ؛ عَدَلوا إلى طريقِ الإيذاءِ[٢].

﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾.

أي: قال قَومُ إبراهيمَ: ابنُوا له بُنيانًا[٣] وأوقِدوا نارًا حتَّى تَشتَدَّ، فارمُوا إبراهيمَ فيها؛ جزاءً له على ما فَعَل بآلهتِهم[٤].

كما قال اللهُ تعالى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

---

(١) أخرجه البزَّار (٢٨٣٧)، والحاكم (٨٦)، والبيهقي في ((شُعَب الإيمان)) (١٨٧) واللَّفظُ له. صحَّحه الحاكِمُ على شَرطِ مُسلم، وصحَّحه أيضًا ابنُ عساكر في ((معجم الشيوخ)) (١/ ١١٤)، وابنُ حجرٍ في ((فتح الباري)) (١٣/ ٤٩٨)، والألبانيُّ في تخريج كتاب ((السنة)) (٣٥٧)، ويُنظر: ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١٦٣٧). وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٢٠٠): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٤).

(٣) قيل: ﴿بُنْيَٰنًا﴾ عاليًا مُرتَفِعًا، وأوْقَدوا فيه النارَ، والمفسِّرونَ يَذْكرونَ مِن شدَّتِها وارتفاعِ لهبِها، وكثرةِ حطبِها شيئًا هائلًا. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٣).
وقيل: بنَوا له بُنيانًا يُشبِهُ التَّنُّورَ، ثمَّ نقلوا إليه الحطبَ، وأوْقَدوا عليه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٥).
وقيل: بل كان البُنيانُ للمَنْجَنيقِ، الَّذي رُمِيَ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: ((«حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قالها إبراهيمُ عليه السَّلامُ حينَ أُلقِيَ في النَّارِ، وقالها مُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم حينَ قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]))[(١)].

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

أي: فأراد قَومُ إبراهيمَ أن يَمكُروا به، بتدبيرِ ما فيه هلاكُه، وبُطلانُ أمْرِه، وعلُوُّ أمْرِهم، وذلك بإحراقِه بالنَّارِ؛ فأنقذَه اللهُ تعالى منها، وأبطَلَ كَيْدَ قَومِه، وجعَلَهم هم الأذَلِّينَ المغلوبينَ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩، ٧٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

٩- عِمادُ مِلَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ هو المتفرِّعُ عن قَولِ الله تعالى: ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، وذلك جِماعُ مَكارمِ الأخلاقِ[(٣)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أنَّ قُربَ النَّسَبِ مِن أهلِ الخيرِ لا يُفيدُ الإنسانَ شيئًا؛ فإبراهيمُ بالنِّسبةِ لأبيه أقرَبُ

(١) رواه البخاري (٤٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٨، ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٧).

شَيءٍ؛ لأنَّه بَضْعةٌ منه، ومع ذلك لم يَنتفعْ به أبوه، بل كان مُشرِكًا يُحَاجُّ ولدَه على ذلك[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أنَّ مَن يَتعالى على الحقِّ فإنَّ اللهَ تعالى يُجازيه بنَقيضِ قَصدِه؛ لأنَّ هؤلاء أرادوا العُلُوَّ والفَسادَ في الأرضِ، فعامَلَهم اللهُ تعالى بنَقيضِ قَصدِهم؛ فجعَلَهم الأسفَلينَ[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أنَّ أصلَ دِينِ الأنبياءِ واحِدٌ؛ فكلُّهم شِيعةٌ للآخَرِ، مُقَوٍّ لِدَعوتِه[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ جُعِل إبراهيمُ مِن شيعةِ نُوحٍ؛ لأنَّ نُوحًا قد جاءت رُسُلٌ على دينِه قبْلَ إبراهيمَ؛ منهم: هودٌ وصالحٌ؛ فقد كانا قبْلَ إبراهيمَ؛ لأنَّ القُرآنَ ذكَرَهما غيرَ مَرَّةٍ عَقِبَ ذِكرِ نُوحٍ، وقَبْلَ ذِكرِ لُوطٍ مُعاصِرِ إبراهيمَ؛ ولِقَولِ هودٍ لِقَومِه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، ولِقَولِ صالحٍ لِقَومِه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقَولِ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]؛ فجعَلَ قَومَ لوطٍ أقرَبَ زَمنًا لِقَومِه دونَ قَومِ هُودٍ وقَومِ صالحٍ، وكان لوطٌ مُعاصِرَ إبراهيمَ؛ فهؤلاء كُلُّهم شيعةٌ لِنُوحٍ، وإبراهيمُ مِن تلك الشِّيعةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٥).

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ فيه عنايةُ اللهِ سبُحانه وتعالى بإبراهيمَ عليه السَّلامُ، وذلك بإضافةِ الرُّبوبيَّةِ إليه، وهذه رُبوبيَّةٌ خاصَّةٌ، والرُّبوبيَّةُ الخاصَّةُ تقتضي عنايةً أكثرَ مِن الرُّبوبيَّةِ العامَّةِ؛ لأنَّ المَربوبينَ بالرُّبوبيَّةِ العامَّةِ شَمِلَتْهم الرَّحمةُ العامَّةُ، لكنْ في الرُّبوبيَّةِ الخاصَّةِ يكونُ لهم الرَّحمةُ الخاصَّةُ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ صِحَّةُ نسبةِ القَومِ إلى الرَّسولِ وإنْ كَذَّبوه، والانتسابُ بالنَّسَبِ لا يعني التَّبرُّؤَ مِن الدِّينِ، فيَصِحُّ أنْ يَنتَسِبَ الإنسانُ إلى أبيه الكافِرِ، ولا يقالُ: إنَّ هذا مِن بابِ المُوالاةِ، بل هذا مِن بابِ الحقيقةِ، والنَّسَبُ لا يَزولُ باختِلافِ الدِّينِ أبدًا، وانظُرْ إلى قَولِه تعالى للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، فأضافَهم إليه مع نِسبةِ تَكذيبِه إليهم، وهذا يدُلُّ على أنَّ الإنسانَ قد يكونُ مِن قومٍ كافرينَ ويُنسَبُ إليهم، وأنَّ ذلك لا يَخدِشُ في دِينِه(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ بيانُ قُبحِ ما كان عليه المُشرِكون قبْلَ النَّهيِ، وقبْلَ إنكارِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عليهم؛ ولهذا استَفهمَ استِفهامَ مُنكِرٍ، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: وخَلَقَ ما تَنحِتونَ، فكيف يجوزُ أنْ تَعبُدوا ما تَصنَعونَه بأيديكم، وتَدَعونَ ربَّ العالَمينَ؟! فلولا أنَّ حُسنَ التَّوحيدِ وعبادةِ اللهِ تعالى وَحْدَه لا شريكَ له، وقُبْحَ الشِّركِ: ثابتٌ في نَفْسِ الأمرِ، مَعلومٌ بالعَقلِ؛ لم يُخاطِبْهم بهذا؛ إذْ كانوا لم يَفعَلوا شيئًا يُذَمُّونَ عليه، بل كان فِعْلُهم كأكْلِهم وشُرْبِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٨١، ٦٨٢). =

٦- أنَّ الشِّركَ والتَّعطيلَ مَبنيَّانِ على سُوءِ الظنِّ باللهِ تعالى؛ ولهذا قال إبراهيمُ -إمامُ الحُنَفاءِ- لخُصَمائه مِن المُشركين: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وإنْ كان المعنى: ما ظنُّكم به أنْ يُعامِلَكم ويُجازيَكم به، وقد عبَدْتُم معه غيرَه، وجعلتُم له نِدًّا؟! فأنت تَجِدُ تحتَ هذا التَّهديدِ: ما ظننتُم برَبِّكم مِن السُّوءِ حتَّى عبدْتُم معه غيْرَه[1]؟!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أنَّ الكَذِبَ مَقرونٌ بالشِّركِ[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إقامةُ الحُجَّةِ على الخَصمِ بما لا يُنكِرُه؛ لأنَّ العالَمَ يَشملُ حتَّى آلهتَهم الَّتي يَعبُدونَها، فإذا كانت آلهتُهم مَربوبةً فكيف يُمكِنُ أنْ تكونَ مَعبودةً؟! هذا تَناقُضٌ؛ فإنَّ مَن أقَرَّ بانفرادِ اللهِ بالرُّبوبيَّةِ لَزِمَه أن يُقِرَّ بانفرادِه بالألوهيَّةِ وإلَّا صار مُتناقِضًا؛ إذْ لا يَستَحِقُّ العبادةَ إلَّا الرَّبُّ الخالِقُ المالِكُ المُدَبِّرُ، ومَن لم يكُنْ كذلك فإنَّه لا يَستَحِقُّ أنْ يُعبَدَ[3].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ جوازُ التَّوريةِ، وهي: أنْ يُظْهِرَ للمُخاطَبِ ما لا يُريدُه، ويَفهَمَ منه المُخاطَبُ معنًى غيرَ المرادِ[4].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾، لم يَقُلْ: (إلى النُّجومِ)، مع

= فالشِّركُ والظلمُ والكذبُ والفواحشُ ونحوُ ذلك قبحُها معلومٌ قبلَ مجيءِ الرَّسولِ، لكنَّ العقوبةَ إنَّما تُستحَقُّ بمجيءِ الرَّسولِ، وعلى هذا عامةُ السَّلفِ وأكثرُ المسلمينَ، وعليه يدلُّ الكتابُ والسُّنةُ؛ فإنَّ فيهما بيانَ أنَّ ما عليه الكفارُ هو شرٌّ وقبيحٌ وسيئٌ قبلَ الرُّسلِ، وإن كانوا لا يستحقُّون العقوبةَ إلَّا بعدَ مجيءِ الرَّسولِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٧٧).

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٠).

أنَّ النَّظَرَ إنَّما يتعدَّى بـ (إلى)، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ وفي ذلك وَجهانِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: لأنَّ (في) بمعنى (إلى)، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٩].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ النَّظَرَ هنا بمعنى الفِكرِ، وهو يَتعدَّى بـ (في) كما في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]؛ فصار المعنى: ففكَّرَ في عِلمِ النُّجومِ[(١)].

١١- ليس في قولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾ ما يدُلُّ على أنَّ للنجومِ دَلالةً على حدوثِ شَيءٍ مِن حوادثِ الأُمَمِ ولا الأشخاصِ، ومَن يَزعُمْ ذلك فقد ضلَّ[(٢)]؛ لأنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إنَّما قال هذا لِيَدفَعَ به قَومَه عن نفْسِه، ألَا ترى أنَّه عزَّ وجَلَّ قال بعدُ: ﴿فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ۞ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾؛ فبَيَّنَ تبارك وتعالى أنَّه إنَّما قال ذلك ليَدْفَعَهم به لِمَا كان عَزَمَ عليه مِن أمْرِ الأصنامِ، وليس يَحتاجُ أحَدٌ إلى مَعرفةِ: أَصحيحٌ هو أمْ سقيمٌ مِن النُّجومِ؛ لأنَّ ذلك يُوجَدُ حِسًّا، ويُعلَمُ ضَرورةً، ولا يُحتاجُ فيه إلى استِدلالٍ وبَحثٍ[(٣)]!

١٢- قَولُه تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ فيه جوازُ إسنادِ الوَصفِ إلى الإنسانِ باعتبارِ المستقبَلِ؛ فإنَّه الآنَ ليس بسقيمٍ، لكنْ كلُّ إنسانٍ عُرضةٌ لِأنْ يَسقَمَ[(٤)]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٨٥، ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢١١).

١٣- قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فيه استِعمالُ المعاريضِ؛ للمَصلَحةِ[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ أنَّ الكلامَ صِفةُ كَمالٍ، كما أنَّ العِلمَ والقُدرةَ والسَّمعَ والبَصَرَ صِفةُ كَمالٍ، وأنَّ المتَكَلِّمَ أكمَلُ ممَّن لا يتكَلَّمُ، كما أنَّ الحيَّ أكمَلُ مِن الجَمادِ؛ ولهذا عاب اللهُ الجَماداتِ المعبودةَ بأنَّها لا تَتكلَّمُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: ٨٩]، وكذلك قَولُ الخَليلِ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾، سواءٌ كان المرادُ بيانَ أنَّ العابدَ أكمَلُ مِن مَعبودِه، وهذا مُمتَنِعٌ، أو بيانَ أنَّ المعبودَ يجِبُ أنْ يكونَ مُتَّصِفًا بصِفاتِ الكَمالِ[٢].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ يُنبِئُ عن رِباطةِ جَأْشِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ إذ لم يَتلَقَّ القَومَ بالاعتِذارِ ولا بالاختِفاءِ[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ الإنكارُ على أهلِ الباطلِ بباطِلِهم عن طريقِ العَقلِ، والاحتِجاجُ على أهلِ الباطلِ بباطِلِهم عن طريقِ العَقلِ، أي: كيف تَنحِتونَه أنتم وتَصنَعونَه أنتم، ثمَّ بعدَ ذلك تَعبُدونَه؟! أليس الأَولى مِن النَّاحيةِ العَقليَّةِ أنْ يكونَ هذا المنحوتُ هو الَّذي يَعبُدُكم؟ لأنَّكم أنتم الَّذين نَحَتُّموه وأوجَدْتُموه، ولكِنَّ عُقولَهم مُنتَكِسةٌ، فصار الأمرُ بالعَكسِ؛ يَعبُدونَ ما يَنحِتونَ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٨).

قال النووي: (قال العلماءُ: فإنْ دعَتْ إلى ذلك مصلحةٌ شرعيةٌ راجحةٌ على خداعِ المخاطَبِ أو حاجةٌ لا مندوحةَ عنها إلَّا بالكذبِ، فلا بأسَ بالتَّعريضِ، وإن لم يكنْ شيءٌ مِن ذلك فهو مكروهٌ وليس بحرام، إلَّا أنْ يُتوصَّلَ به إلى أخذِ باطلٍ أو دفعِ حقٍّ، فيصيرَ حينئذٍ حرامًا، هذا ضابطُ البابِ). ((الأذكار)) (ص: ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢١٥).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أنَّ قومَ إبراهيمَ كانوا مُقِرِّينَ بالصَّانِعِ(١).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ إقامةُ الدَّليلِ على أنَّ اللهَ وَحْدَه هو الَّذي يَستَحِقُّ أنْ يُعبَدَ؛ لِقَولِه: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، فالخالقُ هو الَّذي يجِبُ أنْ يُعبَدَ(٢). فهو استدلالٌ بتوحيدِ الربوبيةِ على توحيدِ الإلهيةِ، وهذه طريقةُ القرآنِ، كما في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أنَّ أعمالَ العِبادِ مخلوقةٌ لله، سواءٌ جَعَلْنا «ما» مَصدريَّةً أمْ مَوصولةً؛ إنْ جعَلْناها مَصدريَّةً فالأمرُ واضِحٌ: «خَلَقَكم وخَلَقَ عَمَلَكم»، وإن جعَلْناها موصولةً؛ فلأنَّه إذا كان خالِقًا لِما يَعمَلونَه مِن المنحوتاتِ لَزِمَ أن يكونَ هو الخالِقَ للتَّأليفِ الَّذي أحدَثوه فيها؛ فإنَّها إنَّما صارت أوثانًا بذلك التَّأليفِ، وإلَّا فهي بدونِ ذلك ليست مَعمولةً لهم، وإذا كان خالِقًا للتَّأليفِ كان خالِقًا لأفعالِهم؛ فخَلْقُ المعمولِ فَرعٌ عن خَلقِ العَمَلِ.

وأيضًا فنَفْسُ حَرَكاتِهم تدخُلُ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾؛ فإنَّ أعراضَهم داخِلةٌ في مُسمَّى أسمائِهم؛ فالله تعالى خلَقَ الإنسانَ بجَميعِ أعراضِه، وحرَكاتُه مِن أعراضِه، فقد تبيَّنَ أنَّه خَلَق أعمالَهم بقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾، وما تولَّدَ عنها مِن النَّحتِ والتَّصويرِ بقَولِه: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ فثَبَت أنَّها دالَّةٌ على أنَّه خالِقُ هذا وهذا، وهو المطلوبُ؛ فهذه الآيةُ فيها رَدٌّ على القَدَريَّةِ الَّذين أنكَروا أنْ يكونَ لله سُبحانَه وتعالى شأنٌ في أعمالِ بني آدَمَ، وقالوا: إنَّ الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢١٥).

وليس لله فيه إرادةٌ ولا خَلْقٌ[١]!

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ رَدٌّ على الجَبريَّةِ الَّذين يَقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِه! وجْهُ الرَّدِّ: أنَّه أضاف العَمَلَ إليهم، فقال: ﴿تَعْمَلُونَ﴾، وإضافةُ العَمَلِ إلى الإنسانِ تقتضي أنَّه هو العامِلُ، وهو الفاعِلُ حقيقةً، وهو كذلك[٢].

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أرادوا بإبراهيمَ عليه السَّلامُ كيدًا، فأبطَلَ اللهُ مَكْرَهم، وجعَلَهم الأخسَرينَ الأسفَلينَ، وكذا عادةُ مَن غُلِبَ بالحُجَّةِ، رجَعَ إلى الكَيدِ[٣]!

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ بيانُ ما يُكِنُّه أعداءُ الإسلامِ للمُسلِمينَ وللإسلامِ مِن إرادةِ الكَيدِ بالإسلامِ وأهلِه، وهذا كما أنَّه في الأُمَمِ السَّابقةِ فيكونُ في الأُمَمِ اللَّاحِقةِ؛ لِقَولِ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٤] [الفرقان: ٣١].

٢٣- قَولُه تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ فيه الرَّدُّ على الجَبريَّةِ؛ فهم يَنفُونَ أنْ يكونَ للإنسانِ إرادةٌ في فِعلِه؛ لأنَّهم يَرَونَ أنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على الفِعلِ، وأنَّ فِعلَه الواقِعَ بإرادتِه كفِعلِه الواقِعِ بغيرِ إرادتِه، والكلُّ عندَهم سَواءٌ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٢١)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢١٦). ويُنظر أيضًا: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أنَّ الحُكمَ للهِ عزَّ وجَلَّ، وأنَّ بني آدمَ مهما بَلَغوا مِن الطُّغيانِ فإنَّهم تحتَ حُكمِ اللهِ تعالى وسُلْطانِه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾

- تَخلُّصٌ إلى حِكايةِ مَوقِفِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مِن قَومِه في دَعْوتِهم إلى التَّوحيدِ، وما لاقاهُ منهم، وكيف أيَّدَه اللهُ ونجَّاهُ منهم، وَقَعَ هذا التَّخلُّصُ إليه بوَصفِه مِن شيعةِ نُوحٍ؛ لِيُفيدَ بهذا الأُسلوبِ الواحِدِ تَأكيدَ الثَّناءِ على نُوحٍ، وابتِداءَ الثَّناءِ على إبراهيمَ، وتَخْليدَ مَنقَبةٍ لِنُوحٍ أنْ كان إبراهيمُ الرَّسولُ العَظيمُ مِن شيعَتِه، وناهيكَ به! وكذلك جمَعَ مَحامِدَ لإبراهيمَ في كَلِمةِ كَونِه مِن شِيعةِ نُوحٍ المُقتضي مُشارَكتَه له في صِفاتِه[٢].

- والواوُ في قوله: ﴿وَإِنَّ﴾ عاطِفةٌ؛ عَطَفَتِ القِصَّةَ الثَّانيةَ على القِصَّةِ الأُولى. ولك أنْ تَجعَلَها استِئْنافيَّةً؛ فتكونَ الجُملةُ مُستَأنَفةً مَسوقةً للشُّروعِ في قِصَّةِ إبراهيمَ بعدَ قِصَّةِ نُوحٍ[٣].

- وفيه تَوكيدُ الخَبَرِ بـ(إنَّ) ولامِ الابتِداءِ؛ للرَّدِّ على المُشرِكينَ؛ لأنَّهم يَزعُمونَ أنَّهم على مِلَّةِ إبراهيمَ[٤].

- ويَحصُلُ مِن قَولِه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ إثْباتُ مِثلِ صِفاتِ نُوحٍ لإبراهيمَ على طَريقِ الكِنايةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٥، ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٣٨).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

- (إذ) ظرْفٌ للماضي، وهو مُتعلِّقٌ بالكَونِ المُقَدَّرِ للجارِّ والمجرورِ الواقعَينِ خبرًا عن (إنَّ) في قولِه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾، أو مُتعلِّقٌ بلَفظِ (شِيعة)؛ لِمَا فيه مِن مَعنى المُشايَعةِ والمُتابَعةِ، أي: كان مِن شِيعَتِه حينَ جاء ربَّه بقلْبٍ سَليمٍ كما جاء نُوحٌ، فذلك وَقتُ كَونِه مِن شِيعَتِه، أي: لأنَّ نُوحًا جاء ربَّه بقَلْبٍ سَليمٍ. وفي ﴿إِذْ﴾ مَعْنى التَّعْليلِ لِكَونِه مِن شِيعَتِه؛ فإنَّ مَعنى التَّعليلِ كثيرُ العُروضِ لـ (إذ)[١].

- والباءُ في ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ للمُصاحَبةِ، أي: جاء معه قلْبٌ صِفَتُه السَّلامةُ، فيَؤُولُ إلى مَعنى: إذ جاء ربَّه بسَلامةِ قلْبٍ. وإنَّما ذُكِرَ القَلبُ ابتِداءً، ثُمَّ وُصِفَ بـ (سَليم)؛ لِمَا في ذِكرِ القَلبِ مِن إحْضارِ حقيقةِ ذلك القَلبِ النَّزيهِ؛ ولذلك أُوثِرَ تَنكيرُ (قَلْبٍ) دُونَ تَعْريفٍ[٢].

- وأُطلِقَ المجيءُ على مُعامَلتِه به في نفْسِه بما يُرْضي ربَّه على وَجهِ التَّمثيلِ بحالِ مَن يَجيءُ أحدًا مُلْقيًا إليه ما طلَبَه؛ فإنَّ اللهَ أمَرَه بتَزكيةِ نفْسِه فامتثَلَ؛ فأشْبَهَ حالَ مَن دَعاه فجاءَه[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾

- الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ استِفْهامٌ إنْكاريٌّ على أنْ يَعبُدوا ما يَعبُدونَه؛ ولذلك أتْبَعَه باستِفْهامٍ آخَرَ إنْكاريٍّ، وهو ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٦، ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨، ٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٧).

تُرِيدُونَ﴾؟! وهذا الَّذي اقْتَضى الإتيانَ باسْمِ الإشارةِ بعدَ (ما) الاستِفْهاميَّةِ الَّذي هو مُشرَبٌ مَعْنى المَوْصولِ المُشارِ إليه، فاقْتَضى أنَّ ما يَعبُدونَه مُشاهَدٌ لإبراهيمَ، فانْصَرَفَ الاستِفْهامُ بذلك إلى مَعْنى الإنْكارِ، بخِلافِ قولِه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ في سُورةِ (الشُّعراءِ) [الآية: ٧٠]؛ فإنَّه استِفهامٌ على مَعبوداتِهم؛ ولذلك أجابوا عنه: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾، وإنَّما أرادَ بالاستِفْهامِ هُنالك التَّمْهيدَ إلى المُحاجَّةِ، فصَوَّرَه في صُورةِ الاستِفْهامِ؛ لِسَماعِ جَوابِهم، فيَنتقِلُ إلى إبْطالِه، كما هو ظاهرٌ مِن تَرتيبِ حِجاجِه هنالك؛ فذلك حِكايةٌ لِقَولِ إبراهيمَ في ابتِداءِ دَعوتِه قَومَه، وأمَّا ما هنا فحِكايةٌ لِبَعضِ أقوالِه في إعادةِ الدَّعوةِ وتأْكيدِها[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾، بيَّنَ به مَصَبَّ الإنْكارِ في قَولِه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ وإيضاحَه، أي: كيف تُريدونَ آلِهةً إفْكًا[2]؟!

- والهَمْزةُ في قَولِه: ﴿أَئِفْكًا﴾ للاستِفْهامِ الإنْكاريِّ التَّوْبيخيِّ[3].

- وقُدِّمَ المَفْعولُ ﴿ءَالِهَةً﴾ على الفِعلِ ﴿تُرِيدُونَ﴾؛ للاهتِمامِ والعِنايةِ به[4].

- وانتَصَبَ (إفْكًا) على الحالِ مِن ضَميرِ ﴿تُرِيدُونَ﴾ -على قولٍ-، أي: آفِكينَ، والإفْكُ: الكَذِبُ. ويجوزُ أنْ يكونَ حالًا مِن ﴿ءَالِهَةً﴾، أي: آلِهةً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩١).

مَكْذوبةً، أي: مَكذوبٌ تَأْليهُها، بمَعْنى: أتُريدونَ آلِهةً مِن دُونِ اللهِ آفِكينَ؟! وقُدِّمَتِ الحالُ (إفْكًا) على صاحِبِها؛ للاهتِمامِ بالتَّعْجيلِ بالتَّعْبيرِ عن كَذِبِهم وضَلالِهِم، ولأنَّه كان الأهَمَّ عِندَه أنْ يُكافِحَهم بأنَّهم على إفْكٍ وباطِلٍ في شِركِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ (إفْكًا) مَفْعولًا، يَعْني: أتُريدونَ به إفْكًا؟! ثم فُسِّرَ الإفْكُ بقَولِه: ﴿ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ﴾، على أنَّها إفْكٌ في أنفُسِها؛ للمُبالَغةِ[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: فما ظَنُّكُم بمَن هو الحَقيقُ بالعِبادةِ؛ لأنَّ مَن كان ربًّا للعالَمينَ استَحَقَّ عليهم أنْ يَعبُدوه، وهو استِفْهامٌ أُريدَ به الإنْكارُ، والتَّوْبيخُ، والتَّحْذيرُ، والتَّوعُّدُ، والتَّوْقيفُ على الخَطَأِ[2].

- ولَمَّا كان الظَّنُّ مِن أفْعالِ القَلبِ، فتَعْدِيتُه إلى اسْمِ الذَّاتِ دُونَ إتْباعِ الاسْمِ بوَصفٍ مُتعيِّنةٌ لِتَقْديرِ وَصفٍ مُناسِبٍ، وقد حُذِفَ المُتعلِّقُ هُنا؛ لِقَصدِ التَّوسُّعِ في تَقْديرِ المَحْذوفِ بكُلِّ احتِمالٍ مُناسِبٍ تَكثيرًا للمَعاني؛ فيَجوزُ أنْ تُعتبَرَ مِن ذاتِ ربِّ العالَمينَ أوْصافُه، ويجوزُ أنْ يُعتَبَرَ منها الكُنْهُ والحَقيقةُ، فاعتِبارُ الوَصفِ على وَجهَينِ؛ أحَدُهما: المَعْنى المُشْتقُّ منه الرَّبُّ، وهو الرُّبوبيَّةُ، وهي تَبْليغُ الشَّيءِ إلى كَمالِه تَدْريجًا ورِفْقًا؛ فإنَّ المَخْلوقَ مُحتاجٌ إلى البَقاءِ والإمْدادِ، وذلك يُوجِبُ أنْ يَشكُرَ المُمَدَّ فلا يَصُدَّ عن عِبادةِ ربِّه، فيكونُ التَّقْديرُ: فما ظَنُّكم أنَّ له شُرَكاءَ، وهو المُنفرِدُ باستِحْقاقِ الشُّكرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٩، ١٤٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩١).

المُتمَثِّلِ في العِبادةِ؛ لأنَّه الَّذي أمَدَّكم بإنْعامِه؟! وثانيهما: أنْ يُعتبَرَ فيه مَعْنى المالِكيَّةِ، وهي أحَدُ مَعنَيَي الرَّبِّ، وهو مُستلزِمٌ لِمَعنى القَهرِ والقُدْرةِ على المَمْلوكِ، فيكونَ التَّقْديرُ: فما ظنُّكم ماذا يَفعَلُ بكُم مِن عِقابٍ على كُفْرانِه، وهو مالِكُكم ومالِكُ العالَمينَ؟! وأمَّا جَوازُ اعتِبارِ حَقيقةِ ربِّ العالَمينَ وكُنْهِه، فالتَّقْديرُ فيه: فما ظنُّكم بكُنْهِ الرُّبوبيَّةِ؛ فإنَّكم جاهِلونَ الصِّفاتِ الَّتي تَقتَضيها، وفي مُقدِّمَتِها الوَحْدانيَّةُ[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾

- التَّعقيبُ الَّذي أفادَتْه الفاءُ مِن قولِه: ﴿فَنَظَرَ﴾ تَعقيبٌ عُرْفيٌّ، أي: لكلِّ شَيءٍ بحَسَبِه، فيُفيدُ كلامًا مَطْويًّا يُشيرُ إلى قِصَّةِ إبراهيمَ الَّتي قال فيها: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، والَّتي تَفرَّعَ عليها قولُه تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ...﴾ إلخ[2].

- وتَقْييدُ النَّظْرةِ بصِيغةِ المرَّةِ في قَولِه: ﴿نَظْرَةً﴾ إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ ألْهَمه المَكيدةَ، وأرْشَده إلى الحُجَّةِ، وكان قَصْدُه إيهامَهم حين سَأَلوه أنْ يَعبُدَ معهم[3].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فيه ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالرَّمْزِ والإيماءِ[4]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٠، ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٢).

(٤) فنُّ الرمزِ والإيماءِ: هو أن يُريدَ المتكلِّمُ إخفاءَ أمرٍ ما في كلامِه، فيَرمُزَ في ضِمنِه رمزًا؛ إمَّا تعميةً للمُخاطَبِ، وتَبرئةً لنفْسِه، وتَنَصُّلًا مِن التَّبِعةِ، وإمَّا لِيَهتديَ بواسِطَتِه الى طريقِ استِخراجِ ما أخْفاهُ في كلامِه. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٧).

وقد كان قَومُ إبراهيمَ نجَّامينَ، فأوْهَمَهم أنَّه استَدَلَّ بأمارةٍ في عِلمِ التَّنْجيم على أنَّه يَسقَمُ، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، أي: مُشارِفٌ للسَّقَم -على قولٍ-، وكانوا يَخافونَ العَدْوى، فقال ذلك لِيُوجَسوا خَوفًا، ويَتَفرَّقوا عنه، فهَرَبوا منه إلى عِيدِهم، وتَرَكوهُ في بَيتِ الأصْنامِ ليس معه أحَدٌ، ففَعَلَ بالأصنامِ ما فَعَلَ. وقد يُوهِمُ ظاهِرُ الكَلامِ أنَّه ارتَكَبَ بذلك جَريرةَ الكَذِبِ، والأنبياءُ مَعْصومونَ عنه، والصَّحيحُ أنَّ الكَذِبَ حَرامٌ إلَّا إذا عرَّضَ عنه ووَرَّى، ولقد نوى إبراهيمُ أنَّ مَن في عُنُقِه المَوتُ سَقيمٌ، ومنه المَثَلُ: (كَفى بالسَّلامةِ داءً)، أو سَقيمُ القَلبِ عليكم؛ لِعِبادَتِكم للأصنامِ، وهي لا تضُرُّ ولا تَنفَعُ[(١)]. وقيل غيرُ ذلك.

٨- قولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾

- قَولُهُ: ﴿مُدْبِرِينَ﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ؛ لِدَفعِ تَوهُّمِ أنَّه تَوَلِّي مُخالَفةٍ وكَراهةٍ دُونَ انتِقالٍ[(٢)].

٩- قولُه تعالَى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾

- في قَولِه: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ تَفريعُ قِصَصٍ بعَطفِ بَعضِها على بَعضٍ، والمَقْصودُ مِن هذه الجُمَلِ المُتعاطِفةِ بالفاءاتِ هو الإفْضاءُ إلى قَولِه: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾، وأمَّا ما قَبْلَها فتَمْهيدٌ لها، وبَيانُ كيفيَّةِ تَمكُّنِه مِن أصْنامِهم وكَسْرِها؛ لِيُظهِرَ لِعَبَدتِها عَجْزَها[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٠، ٤٨١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٤١).

- وفِعلُ (راغَ) معناه: حادَ عن الشَّيءِ، وقد أُطلِقَ هنا على الذَّهابِ إلى أصنامِهم مُخاتَلةً لهم، ولأجْلِ الإشارةِ إلى تَضمينِه معنى الذَّهابِ عُدِّيَ بـ (إلى)[١].

- وإطلاقُ الآلهةِ على الأصْنامِ في قولِه: ﴿ءَالِهَتِهِمْ﴾ مُراعًى فيه اعتِقادُ عَبَدتِها؛ بقَرينةِ إضافَتِها إلى ضَميرِهم، أي: إلى الآلهةِ المَزْعومةِ لهم. ومُخاطَبةُ إبراهيمَ تلك الأصْنامَ بقَولِه: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ وهو في حالِ خَلْوةٍ بها، وعلى غَيرِ مَسمَعٍ مِن عَبَدتِها، قَصَد به استهزاءً بهم، وبانحطاطِها عن حالِ عَبَدتِها، ولكي يُثيرَ في نَفْسِه غَضَبًا عليها إذْ زَعَموا لها الإلهيَّةَ؛ لِيَزْدادَ قُوَّةَ عَزمٍ على كَسرِها، فليس خِطابُ إبراهيمَ للأصنامِ مُستعمَلًا في حَقيقَتِه، ولكنَّه مُستعمَلٌ في لازِمِه، وهو تَذَكُّرُ كَذِبِ الَّذينَ أَلَّهُوها، والَّذينَ سَدَنوا لها، وزَعَموا أنَّها تَأكُلُ الطَّعامَ الَّذي يَضَعونَه بيْنَ يَدَيْها، ويَزعُمونَ أنَّها تُكلِّمُهم وتُخبِرُهم[٢]!

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ بالفاءِ، وفي (الذَّارياتِ): ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧] بغَيرِ فاءٍ؛ ووَجْهُه: أنَّ ما في هذه السُّورةِ اتَّصَلَتْ جُملةٌ بخَمْسِ جُمَلٍ مَبْدوءةٍ بالفاءِ على التَّوالي، وهي: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: ٨٧-٩١]، والخِطابُ للأوْثانِ؛ تَقْريعًا لِمَن زَعَمَ أنَّها تَأكُلُ وتَشرَبُ. وفي (الذَّارياتِ) مُتَّصِلٌ بمُضمَرٍ تَقْديرُه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٣، ١٤٤).

فقرَّبَه إليهم فلم يَأكُلوا، فلمَّا رَآهُمْ لا يَأكُلون ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، والخِطابُ للمَلائكةِ؛ فجاءَ في كُلِّ مَوضِعٍ بما يُلائِمُه[١].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾

- التَّعْديةُ بـ(عَلَى) للاستِعْلاءِ، وأنَّ المَيلَ لِمَكْروهٍ[٢].

- قوله: ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ تقييدُه باليمينِ؛ للدَّلالةِ على قوَّتِه؛ فإنَّ قوَّةَ الآلةِ تَستدعي قوَّةَ الفِعلِ[٣]. وجعلَ السِّياقَ للمَصدَرِ؛ إشارةً إلى قُوَّةِ الهِمَّةِ، بحيث صار كُلُّه ضَربًا[٤].

١١- قولُه تعالَى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾

- لَمَّا عَلِموا بما فعَلَ إبراهيمُ بأصْنامِهم، أرْسَلوا إليه مَن يُحضِرُه في مَلَئِهم حوْلَ أصنامِهم، كما هو مُفصَّلٌ في سُورةِ (الأنبياءِ) -﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٩ - ٦١]-، وأُجْمِلَ هنا؛ فالتَّعقيبُ في قولِه: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ تَعقيبٌ نِسبيٌّ[٥].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ استِئْنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ إقْبالَ القَومِ إلى إبراهيمَ بحالةٍ تُنذِرُ بحَنَقِهم وإرادةِ البَطْشِ به، يُثيرُ في نَفْسِ السَّامعِ تَساؤُلًا

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٧، ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٤).

عن حالِ إبراهيمَ في تَلقِّيهِ بأُولئكَ، وهو فاقِدٌ للنَّصيرِ، مُعرَّضٌ للنَّكالِ، فيَكونُ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ جوابًا وبيانًا لِمَا يَسأَلُ عنه. ولم يَتَلقَّ إبراهيمُ عليه السَّلامُ القَومَ بالاعتِذارِ، ولا بالاختِفاءِ، ولكنَّه لَقِيَهم بالتَّهكُّمِ بهم، إذْ قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ كما في سُورةِ (الأنبياءِ) [٦٣]، ثُمَّ أنْحى عليهم باللَّائِمةِ، والتَّوْبيخِ، وتَسفيهِ أحلامِهم؛ إذْ بَلَغوا مِن السَّخافةِ أنْ يَعبُدوا صُوَرًا نَحَتوها بأيْديهم أو نَحَتَها أسْلافُهم؛ فإسْنادُ النَّحْتِ إلى المُخاطَبينَ مِن قَبيلِ إسنادِ الفِعلِ إلى القَبيلةِ إذا فَعَله بعضُها[(١)].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ تَوْبيخٌ وإنكارٌ، والإتيانُ بالمَوْصولِ والصِّلةِ؛ لِمَا تَشتمِلُ عليه الصِّلةُ مِن تَسلُّطِ فِعلِهم على مَعْبوداتِهم، أي: أنَّ شَأنَ المَعْبودِ أنْ يكونَ فاعِلًا لا مُنفَعِلًا، فمِنَ المُنكَرِ أنْ تَعبُدوا أصنامًا أنتُم نَحَتُّموها، وكان الشَّأنُ أنْ تكونَ أقَلَّ منكم[(٢)]!

١٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾

- الواوُ في قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ واوُ الحالِ، والحالُ مُستعمَلةٌ في التَّعْجيبِ، ومُؤكِّدةٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ لأنَّ في الكَلامِ حَذفًا بعدَ واوِ الحالِ، إذِ التَّقْديرُ: ولا تَعْبُدون اللهَ وهو خَلَقَكُم وخَلَقَ ما نَحتُّموهُ[(٣)].

- ومَعنى ﴿تَعْمَلُونَ﴾ تَنحِتونَ، وعُدِلَ عن إعادةِ فِعلِ ﴿تَنْحِتُونَ﴾؛ لأنَّ مَعْنى ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مُفسَّرٌ بأنَّه تَنحِتونَ، فلم يُعِدْه لكَراهيةِ تَكريرِ الكَلِمةِ، فلمَّا تقدَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٥).

لَفظُ ﴿تَنْحِتُونَ﴾ عُلِمَ أنَّ المُرادَ بـ(مَا تَعْمَلُونَ) ذلك المَعْمولُ الخاصُّ، وهو المَعْمولُ للنَّحْتِ؛ لأنَّ العَمَلَ أعَمُّ، يُقالُ: عَمِلتُ قَميصًا، وعَمِلتُ خاتَمًا[١].

- قَولُه: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ إمَّا عِبارةٌ عن الأصنام، فوَضَعه مَوضِعَ ضَميرِ ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ مَخْلوقيَّتَها للهِ عزَّ وجلَّ ليس مِن حيثُ نَحتُهم لها فقط، بلْ مِن حَيثُ سائِرُ أعْمالِهم أيضًا؛ مِن التَّصويرِ، والتَّحليةِ، والتَّزيينِ، ونحوِها، وإمَّا على عُمومِه، فيَنتظِمُ الأصْنامَ انتِظامًا أوَّليًّا، معَ ما فيه مِن تَحْقيقِ الحقِّ؛ ببَيانِ أنَّ جَميعَ ما يَعمَلونَه -كائِنًا ما كانَ- مَخْلوقٌ له سُبْحانَه[٢].

١٤- قول الله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾

- تقدَّمَتْ هذه القِصَّةُ ونَظيرُ هذه الآيةِ في سُورةِ (الأنبياءِ)، ولكِن عُبِّرَ هنا بـ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ وهُنالك بـ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٧٠]، والأسفَلُ هو المَغْلوبُ؛ لأنَّ الغالِبَ يُتخيَّلُ مُعتَلِيًا على المَغْلوبِ، فهو مُعبَّرٌ به عنِ المَغْلوبِ، والأخسَرُ هُنالك مُعبَّرٌ به عمَّن لا يَحصُلُ مِن سَعْيِه على بُغيَتِه[٣]، فأخبَرَ اللهُ تعالى في سورةِ الأنبياءِ عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، ثمَّ أخبَرَ عن الكفارِ لَمَّا ألقَوْهُ في النَّارِ وأرادوا به كيدًا: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٧٠]، والكيدُ: سعيٌ في مَضَرَّةٍ لِتُورَدَ على غفلةٍ، فذكَر مُكايَدةً بيْنَهم وبيْنَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فكادَهم ولم يَكيدوه، فخَسِرَتْ تجارتُهم، وعادت عليهم مُكايَدتُهم؛ لأنَّه كسَّر أصنامَهم، ولم يَبلُغوا مِن إحراقِه مُرادَهم، فذكَر الأخسرينَ؛ لأنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٨، ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٦).

خَسِروا فيما عامَلَهم به وعامَلوه مِن المُكايدةِ الَّتي أُضيفَتْ إليهما.

وأمَّا الآيةُ الَّتي في سورةِ (الصَّافَّاتِ) فإنَّ اللهَ تعالى أخبَر عن الكفَّارِ فيها بما اقتضى مِن الأسفلينَ، وهو أنَّه قال: ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾، فبَنَوْا له بِناءً عاليًا، ورفَعوه فوْقَه لِيَرموا به مِن هناك إلى النَّارِ الَّتي أَجَّجُوها، فلمَّا عَلَوْا ذلك البناءَ وحَطُّوه منه إلى أسفَلَ، عادُوا هم الأسفلينَ؛ لأنَّهم أُهلِكُوا في الدُّنيا، وسَفُل أمرُهم في الأُخْرى، واللهُ تعالى نجَّى نبيَّه عليه السَّلامُ وأعلاهُ عليهم، فانقلب عالي أمْرِهم في صُعودِ البِناءِ وسافِلِ أمرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فلمَّا حُطَّ إلى النَّارِ صار ذلك سافِلًا، وأمْرُ النَّبيِّ عليه السَّلامُ عاليًا؛ فلذلك اختُصَّتْ هذه الآيةُ بقولِه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾[1].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ٩٠٥، ٩٠٦)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٥٠)، ((كشف المعاني)) لابن جَمَاعة (ص: ٢٥٦)، ((القواعد والأصول وتطبيقات التدبر)) للسبت (ص: ١٠٤، ١٥٣-١٥٤).

الآيات (٩٩-١١٢)

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿السَّعْيَ﴾: أي: العَمَلَ والتَّصَرُّفَ وعَوْنَ أبيه، وأصلُ (سعي): يدُلُّ على المَشيِ السَّريعِ[(١)].

﴿أَسْلَمَا﴾: أي: استَسْلَما وفَوَّضا الأمرَ للهِ، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على انقيادٍ[(٢)].

﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾: أي: أضجَعَه على جَنْبِه على الأرضِ، والجَبينُ: جانِبُ الجَبهةِ، وللوَجهِ جَبينانِ، والجَبهةُ بيْنَهما، فالجَبينُ غيرُ الجَبهةِ، والتَّلُّ هنا: الدَّفعُ والصَّرْعُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٢)

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨١، ٥٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٣٩)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ٢٥٩)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٢).

﴿ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾: أي: الاختبارُ الظاهِرُ، وأصلُ البلاءِ: الاختبارُ والامتحانُ، وأصلُ (بين): انكِشافُ الشيءِ، يُقالُ: بانَ الشَّيءُ وأبانَ، إذا اتَّضَح وانكشَف[1].

﴿بِذِبۡحٍ﴾: أي: بكَبشٍ، والذِّبْحُ: اسمُ ما ذُبِحَ، فِعلٌ بمعنى مَفعولٍ، وأصلُ (ذبح): يدُلُّ على شَقِّ حَلقِ الحَيَواناتِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى جانبًا آخَرَ مِن قصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: وقال إبراهيمُ لَمَّا نجَّاه اللهُ تعالى مِن كَيدِ قَومِه: إنِّي مُهاجِرٌ إلى رَبِّي، وهو سيَهديني إلى طَريقِ الحَقِّ والصَّلاحِ، وقال إبراهيمُ: ربِّ ارزُقْني صالِحينَ مِن لَدُنْك، فبَشَّرْناه بأنَّه سيُولَدُ له غُلامٌ حَليمٌ وهو إسماعيلُ عليه السَّلامُ، فلمَّا بَلَغ ابنُه إسماعيلُ معه السَّعيَ، قال إبراهيمُ له: يا بُنَيَّ إنِّي أرى في المَنامِ أنَّني أذبَحُك، فماذا ترَى؟

قال له ابنُه إسماعيلُ: يا أبتِ افعَلْ ما أمَرَك اللهُ به، ستَجِدُني إن شاء اللهُ صابِرًا؛ وأسْلَمَ إبراهيمُ وابنُه أمْرَهما لله، وأضجَعَ إبراهيمُ ابنَه على جانبِ جبهتِه لِيَذبَحَه، ونادَيْناه فقُلْنا له: يا إبراهيمُ قد حقَّقتَ الرُّؤيا وعَمِلْتَ بها، إنَّا كذلك نَجزي كُلَّ مَن كان مُحسِنًا، فنُنَجِّيه مِنَ الكُرَبِ والشَّدائدِ.

إنَّ هذا الَّذي أمَرْنا به إبراهيمَ لَهُوَ الاختِبارُ الشَّديدُ، وفَدَيْنا ابنَه بكَبشٍ عَظيمٍ، وأنعَمْنا على إبراهيمَ بالثَّناءِ الباقي فيمَنْ بَعْدَه، سَلامٌ على إبراهيمَ. مِثلَ هذا الجزاءِ نَجزي كُلَّ مَن كان مُحسِنًا. إنَّ إبراهيمَ مِن عبادِنا المؤمِنينَ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢، ٣٢٧-٣٢٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٩/ ٦١٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٤).

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى مظهرًا آخَرَ مِن مَظاهِرِ فضْلِه على نبيِّه إبراهيمَ، فيقولُ: وبشَّرْناه بولادةِ ابنِه إسحاقَ، وأنَّه يكونُ نبيًّا مِنَ الصَّالِحينَ، وبارَكَ اللهُ على إبراهيمَ وعلى إسحاقَ، ومِن ذُرِّيَّتِهما مُحسِنٌ بطاعةِ اللهِ، ومِنهم ظالمٌ لِنَفْسِه ظُلمًا بيِّنًا بالكُفرِ والعِصيانِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا سَلَّم اللهُ إبراهيمَ مِن قَومِه ومِن النَّارِ الَّتي ألقَوه فيها؛ عَزَم على مُفارَقتِهم؛ لِيَتمكَّنَ مِن عبادةِ رَبِّه، ويَتضَرَّعَ له مِن غَيرِ أن يَلقَى مَن يُشَوِّشُ عليه[1].

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾.

أي: وقال إبراهيمُ لَمَّا نجَّاه اللهُ تعالى مِن كَيدِ قَومِه: إنِّي مُفارِقٌ قَومي وما هم عليه مِنَ الشِّركِ، إلى رَبِّي الَّذي خلَقَني، وهو المحسِنُ إلَيَّ، ومُدبِّرُ أمري[2]، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٥).

(٢) على أنَّ المرادَ أنَّه ذاهبٌ حقيقةً، فقد قيل: المعنى: إنِّي ذاهبٌ إلى حيثُ أتمَكَّنُ مِن عبادةِ الله تعالى. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٧).

وقيل: المعنى: ذاهبٌ إلى المكانِ الَّذي أمَرني ربِّي بالهجرةِ إليه. وممَّن اختاره: الواحديُّ، وابنُ عادل، والشوكانيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٣٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٢).

وقد هاجَر إبراهيمُ عليه السَّلامُ إلى الأرضِ المُقَدَّسةِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦١٣١).

ونسَب ابنُ الجوزي إلى الأكثَرينَ أنَّه قال ذلك حينَ أراد هِجرةَ قومِه. يُنظر: ((تفسير ابن =

سيَهديني إلى طَريقِ الصَّوابِ والخَيرِ والصَّلاحِ[(١)].

كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٨ - ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿... وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ

= الجوزي)) (٣/ ٥٤٦). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٥).

وممَّن قال مِن السَّلفِ بنحوِ هذا القولِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٠٢).

وقيل: المرادُ أنَّه ذاهبٌ إلى الله بقلبِه وعمَلِه ونيَّتِه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢١، ٢٢٢).

وممَّن اختار نحوَ المعنى المذكورِ في قولِه: ﴿سَيَهْدِينِ﴾: الرسعنيُّ، والقرطبي، والعُليمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٢).

وقال ابنُ جريرٍ: (قولُه: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ يقولُ: سيُثَبِّتُني على الهدَى الَّذي أبصَرْتُه، ويُعينُني عليه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٧).

وقيل: المعنى: سيُرشدُني إلى طريقِ الهجرةِ. ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٠٣).

قال ابنُ عاشور: (الظَّاهِرُ: أنَّ هذا القَولَ قاله علنًا في قَومِه؛ لِيَكُفُّوا عن أذاه... ويحتمِلُ أن يكونَ قال ذلك في أهلِه الَّذين يُريدُ أن يَخرُجَ بهم معه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٦).

وقال البِقاعي: («قَالَ» أي: إبراهيمُ عليه السَّلامُ لِمَن يَتوسَّمُ فيه أنَّ كَلامَه يُحْييه مِن مَوتِ الجَهلِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٥٩).

إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦، ٢٧].

﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذه الجُملةَ بقيَّةُ قَولِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّه بعدَ أنْ أخبرَ أنَّه مُهاجِرٌ، استَشْعَرَ قِلَّةَ أهْلِه، وعُقمَ امرأتِه، وثارَ ذلك الخاطِرُ في نَفْسِه عندَ إزْماعِ الرَّحيلِ؛ لأنَّ الشُّعورَ بقِلَّةِ الأهْلِ عِندَ مُفارَقةِ الأوْطانِ يكونُ أقوى؛ لأنَّ المَرءَ إذا كان بيْنَ قَومِه كان له بعضُ السُّلُوِّ بوُجودِ قَرابَتِه وأصدِقائِه(١).

﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾.

أي: وقال إبراهيمُ: رَبِّ ارزُقْني صالِحينَ مِن جملةِ الَّذين يُصلِحونَ في الأرضِ بطاعَتِك ولا يَعصُونَك؛ عِوَضًا عن قَومي الكافِرينَ الَّذين فارَقْتُهم(٢).

﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾.

أي: فبَشَّرْنا إبراهيمَ بأنَّه سيُولَدُ له ولَدٌ ذَكَرٌ، لا يَعْجَلُ بالعقوبةِ مع القدرةِ، فهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

قيل: المرادُ بقَولِ إبراهيمَ: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: طَلَبُ الولَدِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة، ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٧).

وقيل: طَلَب إبراهيمُ عليه السَّلامُ بدُعائِه ما هو أعَمُّ مِن الولَدِ، أي: هَبْ لي مِن الصَّالحينَ مَن يكونُ عَونًا لي مِن الأولادِ وغَيرِهم. ذكر هذا الوجهَ ابنُ عثيمين احتِمالًا، ومالَ إليه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٣).

في غايةِ الرَّزانةِ والثَّباتِ[١].

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لَمَّا قال: ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴾ [الصافات: ١٠١]؛ أتْبَعَه بما يَدُلُّ على حُصولِ ما بُشِّرَ به وبُلوغِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وعَدَه في الآيةِ الأُولى بكَونِ ذلك الغُلامِ حَليمًا؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ ما يدُلُّ على كَمالِ حِلمِه؛ وذلك لأنَّه كان به مِن كَمالِ الحِلمِ وفُسحةِ الصَّدرِ ما قوَّاه على احتِمالِ تلك البَليَّةِ العَظيمةِ، والإتيانِ بذلك الجَوابِ الحَسَنِ[٢].

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ ﴾.

أي: فوُهِبَ له الغُلامُ المُبشَّرُ به -وهو إسماعيلُ عليه السَّلامُ-، فكَبِرَ وتَرَعْرَعَ حتَّى بلَغَ مع والِدِه السَّعيَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٩).

قال ابن عاشور: (والحليمُ: الموصوفُ بالحِلْمِ، وهو اسمٌ يَجمَعُ أصالةَ الرَّأْيِ، ومَكارِمَ الأخلاقِ، والرَّحمةَ بالمخلوقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٥).

قيل: المرادُ ببُلوغِ السَّعيِ هنا: أنَّه صار مُطيقًا للعَمَلِ، فيُعينُ والِدَه على أعمالِه. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٩). =

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لابنِه إسماعيلَ: يا بُنيَّ، إنِّي أرَى في النَّومِ أنَّني أذبَحُك؛ أمْرًا مِنَ اللهِ تعالى(١)!

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٠٣).

وقيل: المرادُ بالسَّعيِ هنا: المَشيُ، أي: فصار يَمشي مع أبيه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٠).

قال السعدي: (﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾ الغلامُ ﴿مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ أي: أدرَك أن يَسعى معه، وبلغَ سِنًّا يكونُ في الغالبِ أحَبَّ ما يكونُ لوالِدَيه، قد ذهَبَت مَشَقَّتُه، وأقبَلَتْ مَنفعتُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

وقيل: المرادُ ببُلوغِ السَّعيِ: بُلوغُ السِّنِّ الَّتي يُكَلَّفُ فيها بأداءِ العباداتِ الَّتي فُرِضَت عليه. وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٨١، ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٦٥)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣٥٣ - ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤٥٢، ٤٥٣)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٧).

قال ابن جُزَي: (يحتملُ أن يكونَ رأَى في المنامِ الذَّبحَ وهو الفعلُ، أو أُمِر في المنامِ أنْ يَذبَحَه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٥).

ممَّن اختار القَولَ بأنَّ الذَّبيحَ هو إسماعيلُ: أبو حاتمٍ الرَّازيُّ، وابن عطية -ونسَبَه للجمهورِ-، وابنُ تيميَّةَ -ونسَبَه لأكثَرِ العُلَماءِ-، وابنُ القَيِّم، وابنُ كثير، والعليمي، والسعدي، وابنُ عاشور، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٣٢ - ٣٣٥)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥١٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٧١ - ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٦ - ١٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٣- ٢٤٥). =

﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

= وممَّن قال مِن السَّلفِ بهذا القولِ: ابنُ عُمَرَ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعبدُ الله بنُ سَلَام، وأبو الطُّفَيْلِ عامرُ بنُ واثِلةَ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه، والزُّهْريُّ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ في روايةٍ عنه، والحسَنُ البَصريُّ، وسعيدُ بنُ المُسَيِّبِ، والشَّعبيُّ، ومجاهدٌ، ويوسفُ بنُ مِهْرانَ، وأبو صالحٍ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ سابطٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٧).

وقيل: الذَّبيحُ هو إسحاقُ عليه السَّلامُ. وممَّن رجَّح ذلك: ابنُ جرير، والنحاسُ ونسَبَه لأكثرِ العلماءِ، ونسَبَه الواحديُّ إلى الأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٠، ٥٩٨)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّابِ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ، والعبَّاسُ بنُ عبدِ المُطَّلِبِ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وابنُ مسعودٍ، وأبو موسى الأشعريُّ، وأبو هُرَيرةَ، وأنسٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه، والزُّهْريُّ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ في روايةٍ عنه، وكعبُ الأحبارِ، ووهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ، ومَسروقٌ، وعُبَيدُ بنُ عُمَيرٍ، والقاسمُ بنُ أبي بَزَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٨) (١٩/ ٥٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٧).

قال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذكَر أسماءَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ الذين يُروَى عنهم القولُ بأنَّ الذَّبيحَ هو إسحاقُ عليه السَّلامُ: (وهو اختيارُ ابنِ جَريرٍ، وهذا عجَبٌ منه، وهو إحدى الرِّوايتَينِ عن ابنِ عبَّاسٍ، ولكنَّ الصَّحيحَ عنه وعن أكثرِ هؤلاءِ أنَّه إسماعيلُ عليه السَّلامُ). ((البداية والنهاية)) (١/ ٣٦٨).

وقال أيضًا: (وقد قال بأنَّه إسحاقُ طائفةٌ كثيرةٌ مِن السَّلفِ وغيرِهم، وإنَّما أخَذوه -واللهُ أعلَمُ- مِن كعبِ الأحبارِ، أو صُحُفِ أهلِ الكتابِ، وليس في ذلك حديثٌ صحيحٌ عن المعصومِ حتَّى نَترُكَ لأجْلِه ظاهرَ الكتابِ العزيزِ، ولا يُفهَمُ هذا مِن القرآنِ، بل المفهومُ بل المَنطوقُ بل النَّصُّ عندَ التَّأمُّلِ على أنَّه إسماعيلُ). ((البداية والنهاية)) (١/ ٣٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧).

وممَّن توقَّف فلم يُرَجِّحْ أحدَ القولَينِ: الزَّجَّاجُ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٨).

أي: فما الَّذي تَراه في شأنِ هذه الرُّؤيا الَّتي أخبَرْتُك بها[١]؟

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾.

أي: قال إسماعيلُ لأبيه إبراهيمَ: امتَثِلْ يا أبَتِ ما أمَرَك اللهُ به؛ طاعةً له، وانقيادًا إليه[٢].

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أي: ستَجِدُني -إن شاء اللهُ- صابرًا مِن جُملةِ الصَّابرينَ على حُكمِ اللهِ وبَلائِه، فأحتَسِبُ أجْري عندَ الله، ولا أجزَعُ مِن الذَّبحِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ [مريم: ٥٤].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾.

أي: فلَمَّا أسلَمَ إبراهيمُ وابنُه أمْرَهما إلى اللهِ تعالى، وانْقادَا لحُكمِه، ورَضِيَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٢٤).

بقَضائِه، واستعَدَّا لِتَنفيذِه[(١)].

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾.

أي: ووضَعَ إبراهيمُ ابنَه إسماعيلَ بقوَّةٍ على الأرضِ على جانبِ جَبْهتِه -على هيئةِ ما يُرادُ ذبحُه-؛ لِيَذبَحَه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٢، ١٥٣).

وممَّن ذهب في الجُملةِ إلى المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، وابنُ القيِّم، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ المذكورِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، ومُجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٠٤).

وقيل: المرادُ: فلمَّا تَشَهَّدا وذكَرَا اللهَ تعالى: إبراهيمُ على الذَّبحِ، والولَدُ على شَهادةِ الموتِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨).

قال ابن عطيَّة: (واختلف النُّحاةُ في جوابِ «لَمَّا»؛ فقال الكوفيُّونَ: الجوابُ «نادَيْناهُ»، والواوُ زائدةٌ. وقالت فِرقةٌ: الجوابُ: «تَلَّهُ»، والواو زائدةٌ، كزيادتِها في قَولِه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النبأ: ١٩]. وقال البَصريُّونَ: الجوابُ مَحذوفٌ، تقديرُه: فلمَّا أسْلَمَا أسْلَمَ وتَلَّه... وقال بعضُ البَصريِّينَ: الجوابُ محذوفٌ، وتقديرُه: فلمَّا أسْلَمَا وتَلَّه للجَبينِ أجزَلَ أجرَهما، أو نحوُ هذا ممَّا يقتضيه المعنى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨١).

وقال ابنُ جرير: (قَولُه تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ جوابُ قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾، ومعنى الكَلام: فلمَّا أسلَمَا وتَلَّه للجَبينِ، نادَيْناه أنْ يا إبراهيمُ، وأُدخِلَت الواوُ في ذلك كما أُدخِلَت في قَولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٦).

وقيل: الجوابُ محذوفٌ، تقديرُه: فلمَّا أسلَمَا وتَلَّه للجَبينِ وناديناه أنْ يا إبراهيمُ قد صدَّقْتَ الرُّؤيا، كان ما كان ممَّا تَنطِقُ به الحالُ، ولا يُحيطُ به الوَصفُ؛ مِن استِبشارِهما واغتِباطِهما، وحَمدِهما لله وشُكرِهما على ما أنعَمَ به عليهما؛ مِن دَفعِ البَلاءِ العظيمِ بعدَ حُلولِه، وما اكتَسَبا في تضاعيفِه بتَوطينِ الأنفُسِ عليه مِنَ الثَّوابِ والأعواضِ، ورِضوانِ اللهِ الَّذي ليس وراءَه مَطلوبٌ. قاله الزمخشري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨١، ٤٨٢)، ((مدارج =

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ ﴾.

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ ... ﴾.

أي: ونادَيناه فقُلْنا له: يا إبراهيمُ، قد حقَّقتَ الرُّؤيا، فصدَّقتَ الأمرَ فيها، وعَمِلْتَ به حينَ أضجَعْتَ ابنَك لِذَبحِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٧].

﴿ ... إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

أي: إنَّا كما جَزَينا إبراهيمَ ففرَّجْنا عنه كَرْبَه، كذلك نَجزي كُلَّ مَن كان مُحسِنًا، فنُنَجِّيه ممَّا هو فيه مِنَ الكُرَبِ والشَّدائِدِ[2].

= السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٣).

قال ابنُ كثير: (﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي: على الجَبينِ، وله نظائرُ في اللُّغةِ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٣).

وقال أيضًا: (معنى ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي: ألْقاه على وجْهِه؛ قيل: أراد أن يَذبَحَه مِن قفاهُ لئلَّا يُشاهِدَه في حالِ ذبحِه. قاله ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. وقيل: بل أضْجَعه كما تُضْجَعُ الذَّبائحُ، وبَقِيَ طرَفُ جبينِه لاصقًا بالأرضِ). ((البداية والنهاية)) (١/ ٣٦٤). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨).

وقال الواحدي: (والصَّحيحُ أنَّه أضْجَعه على أحدِ شِقَّيْه؛ لأنَّ الجبينَ غيرُ الجبهةِ). ((التفسير البسيط)) (١٩/ ٩٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٣، ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤١).

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾.

أي: إنَّ أمْرَنا إبراهيمَ بذَبحِ ابنِه لَهُوَ الاختِبارُ الشَّديدُ والمِحنةُ العَظيمةُ الَّتي تَبيَّنَ بها استِسلامُه لأمرِ اللهِ تعالى[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قَدَّم ما هو الأهَمُّ مِن نَهيِ إبراهيمَ عن الذَّبحِ، ومِن البِشارةِ بالجَزاءِ؛ ذكَرَ فِداءَه بما جعَلَه سُنَّةً باقيةً، يُذكَرُ بها الذِّكرَ الجَميلَ على مَرِّ الأيَّامِ وتَعاقُبِ السِّنينَ[(٢)].

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

أي: وفَدَيْنا إسماعيلَ بكَبشٍ[(٣)] عَظيمٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٧).

(٣) قال ابنُ كثير: (الصَّحيحُ الذي عليه الأكثَرونَ أنَّه فُدِيَ بكَبشٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٧، ٦٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٦).

قيل: معنى ﴿عَظِيمٍ﴾: عَظيمُ الحَجمِ، ضَخمُ الجُثَّةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، والنسفي، والنيسابوري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٧٣).

وقيل: المعنى: أنَّه عَظيمُ القَدْرِ، شَريفٌ جليلٌ. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. =

عن صَفيَّةَ بنتِ شَيْبةَ، قالت: أخبَرَتْني امرأةٌ مِن بني سُلَيم وَلَّدت عامَّةَ أهلِ دارِنا، أنَّها سألت عُثمانَ بنَ طَلْحةَ: لِمَ دعاك النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قال: ((إنِّي كُنتُ رأيْتُ قَرْنَيِ الكَبشِ حينَ دَخلْتُ البَيتَ، فنَسِيتُ أن آمُرَكَ أن تُخَمِّرَهما[1]، فخَمِّرْهما؛ فإنَّه لا يَنبغي أن يكونَ في البَيتِ شَيءٌ يَشغَلُ المُصَلِّي)). قال سُفْيانُ -هو ابنُ عُيينةَ، أحدُ رواةِ الحديثِ-: لم تَزَلْ قَرْنَا الكَبشِ في البَيتِ حتَّى احترَقَ البَيْتُ، فاحترَقَا[2].

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

أي: وأثنَيْنا على إبراهيمَ، وأنعَمْنا عليه بالذِّكرِ الجَميلِ، والثَّناءِ الباقي في الَّذين

= يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٦).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَين: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٦٨).

وقال السعدي: (كان عظيمًا مِن جهةِ أنَّه كان فِداءً لإسماعيلَ، ومِن جهةِ أنَّه مِن جُملةِ العباداتِ الجَليلةِ، ومِن جهةِ أنَّه كان قُربانًا وسُنَّةً إلى يَومِ القيامةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

قال ابنُ جرير: (لا قَولَ في ذلك أصَحُّ مِمَّا قال اللهُ جَلَّ ثناؤُه، وهو أن يُقالَ: فَداه اللهُ بذِبحٍ عَظيمٍ؛ وذلك أنَّ اللهَ عَمَّ وَصْفَه إيَّاه بالعِظَمِ دونَ تَخصيصِه؛ فهو كما عَمَّه به). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٥).

(١) أي: تغطيهما. والتَّخميرُ: التَّغطيةُ، يُقالُ: خَمِّرْ إناءَك. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٩٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٣٠) مختصرًا، وأحمد (١٦٦٣٧) واللَّفظُ له.

حسَّن إسنادَه الذَّهبيُّ في ((المهذب)) (٢/ ٨٦٦)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٠٣٠).

قال ابنُ كثير: (هذا دليلٌ مُستقِلٌّ على أنَّه [يعني: الذَّبيحَ] إسماعيلُ عليه السَّلامُ؛ فإنَّ قُريشًا تَوارَثوا قَرْنَيِ الكَبشِ الَّذي فَدى به إبراهيمُ خَلَفًا عن سَلَفٍ، وجيلًا بعدَ جيلٍ، إلى أنْ بَعَث اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢).

وقال أيضًا: (وهذا وحدَه دليلٌ على أنَّ الذَّبيحَ إسماعيلُ؛ لأنَّه كان هو المقيمَ بمكَّةَ، وإسحاقُ لا نعلمُ أنَّه قدِمها في حالِ صغرِه، والله أعلمُ). ((البداية والنهاية)) (١/ ٣٦٦).

يأتونَ مِن بَعدِه[١].

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ ﴾.

أي: سلامٌ على إبْراهيمَ وثَناءٌ حسنٌ، فلا يُذْكَرُ بسوءٍ[٢].

﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذين جزَيْنا به إبراهيمَ لأنَّه كان مِن المُحسنينَ، نَجْزي به أيضًا كلَّ مَن كان محسنًا[٣].

﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١ ﴾.

أي: إنَّ إبراهيمَ مِن عبادِنا المُؤمِنينَ باللهِ؛ فوَحِّدوا اللهَ وأخلِصوا في عبادتِه له وَحْدَه لا شريكَ له[٤].

﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٧ - ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٦١، ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣، ١٣٤).

وقال ابن جرير: (وقولُه: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ يقولُ تعالَى ذِكْرُه: أَمَنَةٌ مِن اللهِ في الأرضِ لإبراهيمَ أنْ يُذْكَرَ مِن بَعدِه إلَّا بالجميلِ مِن الذِّكْرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

أي: وبَشَّرْنا إبراهيمَ بولادةِ ابنِه إسحاقَ، وأنَّه يكونُ نَبيًّا مِن جُملةِ الصَّالِحينَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أثنى اللهُ تعالى على إبراهيمَ عليه السَّلامُ بما عالَجَ مِمَّا لم يَحصُلْ لِغَيرِه مِثلُه، وكان مِن أعظَمِ جزاءِ الإنسانِ البَرَكةُ في ذُرِّيَّتِه؛ قال[(٢)]:

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾.

أي: وأحَلَّ اللهُ بَرَكَتَه على إبراهيمَ[(٣)] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٩).

(٣) ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى إبراهيمَ عليه السَّلامُ -أي: بارَكَ اللهُ عليه وعلى ابنِه إسحاقَ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والقرطبي، والبيضاوي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٢، ١١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٨). =

وعلى إسحاقَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾.

= وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى إسماعيلَ عليه السَّلامُ، أي: بارَكَ اللهُ على إسماعيلَ وأخيه إسحاقَ. وممَّن رجَّح ذلك: البِقاعي، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٩، ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

قال البِقاعي مؤيِّدًا هذا الرَّأيَ: (﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على الغلامِ الحليم، وهو الذَّبيحُ المُحَدَّثُ عنه الَّذي جرَّ هذا الكلامَ كلَّه الحديثُ عنه، وكان آخِرُ ضميرٍ مُحَقَّقٍ عاد عليه الهاءَ في ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾، ثمَّ في ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾. وهذا عندي أَوْلى مِن إعادةِ الضَّميرِ على إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه استوفَى مدحَه. ثمَّ رأيتُ حمزةَ الكرمانيَّ صنَع هكذا... ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أي: الأخَوَينِ، ولا شكَّ أنَّ هذا أقرَبُ وأقعَدُ مِن أن يكونَ الضَّميرُ للأبِ والابنِ؛ لأنَّ قِرانَ الأخَوينِ في الإخبارِ عن ذُرِّيَّتِهما أَولَى مِن قرانِ الابنِ مع أبيه في ذلك، فيَكونُ الابنُ حينَئذٍ مِن جملةِ المُخبَرِ عنه بذُرِّيَّةِ الأبِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٦٩، ٢٧٠). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٢)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٨).

قال القرطبي: (﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ أيْ: [ثَبَّتْنا] عليهما النِّعمةَ. وقيلَ: كَثَّرْنا وَلَدَهما، أي: بارَكْنا على إبراهيمَ وعلى أولادِه، وعلى إسحاقَ حينَ أَخْرَج أنبياءَ بني إسرائيلَ مِن صُلْبِه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٢).

وقيل: المرادُ: أفَضْنا عليهما بَرَكاتِ الدِّينِ والدُّنيا. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤١٤).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الله تعالى ما أعْطَى إبراهيمَ وإسحاقَ عليهما السَّلامُ؛ نَقَل الكلامَ إلى ذُرِّيَّتِهما[١]، فقال:

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾.

أي: ومِن ذُرِّيَّتِهما مُحسِنٌ في طاعةِ الرَّحمنِ، ومنهم ظالِمٌ لِنَفْسِه ظُلمًا بَيِّنًا بالكُفرانِ والعِصيانِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أنَّه ينبغي -بل يجبُ- على الإنسانِ ألَّا يَعتمِدَ على نَفْسِه، بل يَعتمِدُ على ربِّه عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه هنا: ﴿سَيَهْدِينِ﴾[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ تَحَنُّنُ الإنسانِ إلى ربِّه بالدُّعاءِ بأنْ يأتيَ بالعباراتِ الدَّالَّةِ على التَّحَنُّنِ والتَّعَطُّفِ والافتقارِ إلى الرَّبِّ؛ لِقَولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾، فأضافَ الرُّبوبيَّةَ إلى نفْسِه مِن بابِ التَّلَطُّفِ والتَّحَنُّنِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ دَلَّت هذه الآيةُ على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المَوضِعَ الَّذي تَكثُرُ فيه الأعداءُ تَجِبُ مُهاجَرتُه؛ وذلك لأنَّ إبراهيمَ صَلواتُ اللهِ عليه وسَلامُه -مع أنَّ اللهَ سُبحانَه خَصَّه بأعظَمِ أنواعِ النُّصرةِ- لَمَّا أحَسَّ منهم بالعَداوةِ الشَّديدةِ هاجَرَ مِن تلك الدِّيارِ؛ فلأَنْ يَجِبَ ذلك على الغَيرِ كان أَولى[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ استِحبابُ بشارةِ مَن وُلِد له ولدٌ، وتهنئتِه، فلمَّا كانت البشارةُ تَسُرُّ العبدَ وتُفرحُه استُحِبَّ للمسلمِ أن يُبادِرَ إلى مسرَّةِ أخيه، وإعلامِه بما يُفرِحُه[2].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ في قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ﴾ أنَّه ينبغي لِمَن أراد أنْ يُنَفِّذَ شَيئًا مَكروهًا لِشَخصٍ: أنْ يأتيَ بأُسلوبٍ يدُلُّ على أنَّه لا يُريدُ الإضرارَ به، وإنَّما هو أمرٌ لا بُدَّ منه؛ فإنَّ إتيانَه على صيغةِ التَّلَطُّفِ هو مِن أجْلِ أنْ يُبعِدَ عنه تُهمةَ أنَّه لا يُحِبُّه[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ جوازُ حَثِّ المفضولِ للفاضلِ على فِعلِ الأوامِرِ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ أنَّه لا ينبغي للإنسانِ أنْ يَحقِرَ نَفْسَه في الأمرِ بالخَيرِ، فيَقولَ: هذا أَجَلُّ مِنِّي، هذا أعلَمُ منِّي، هذا أكبَرُ منِّي؛ فلن آمُرَه بشَيءٍ! بل نقولُ: مُرْ بالخَيرِ سواءٌ كنتَ أصغَرَ سِنًّا أو شَأْنًا مِن المأمورِ، أو مِثْلَه، أو أكبَرَ منه[4].

٧- أنَّ الصَّبرَ يكونُ على امتِثالِ الأوامِرِ، وعلى المصائبِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: الصَّابِرينَ على تَنفيذِ هذا الأمرِ، وعلى ما يَقتَضيه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٧، ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٧).

الآلامِ؛ لأنَّه ذَبحٌ[١].

٨- أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يُعَلِّقَ كلَّ أمرٍ مُستقبَلٍ على مَشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ فإنَّ هذا أمرٌ مُستقبَلٌ، واللهُ سُبحانَه وتعالى قَصَّه علينا لِنَعتبِرَ به، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، ويُؤيِّدُ هذا أيضًا شَرعُنا؛ فإنَّ اللهَ قال لِنَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٢] [الكهف: ٢٣، ٢٤]. فلَمَّا كان مِن أخلاقِ الكُمَّلِ عَدَمُ القَطعِ في المُستقبَلاتِ؛ لِما يَعلَمونَ مِن قُدرةِ الله تعالى على نَقضِ العزائِمِ بالحَيلولةِ بيْنَ المَرءِ وقَلبِه؛ قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[٣].

٩- أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَحولَ بينَ نَفْسِه وبَينَ كُلِّ شَيءٍ قد يَعوقُه عن تَنفيذِ أمرِ اللهِ؛ لِقَولِه: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾، حتَّى لا يرَى وجْهَه حينَ يَذْبَحُه؛ فإنَّ هذا يُهَوِّنُ عليهما الأمرَ، فيَهُونُ عليهما التَّنفيذُ، ورُبَّما يَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ العَمَلُ بسَدِّ الذَّرائعِ ومَنْعِها، أي: الذَّرائعِ الَّتي تَحُولُ بيْنَ المَرءِ وبيْن تَنفيذِ أمرِ اللهِ، أو تُوجِبُ أن يَقَعَ فيما نهَى اللهُ عنه[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ بيانُ حكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ فيما يُقَدِّرُه على عبدِه المؤمنِ مِن مكروهٍ؛ فلا يَقُلِ الإنسانُ: لماذا ابتلاني اللهُ تعالى بهذا دونَ غيري؟! بل يقولُ: للهِ في ذلك حِكَمٌ عظيمةٌ، واللهُ عزَّ وجلَّ يَبتلي المؤمنَ بالمصائبِ؛ فإذا صَبَر نال بذلك درجةَ الصَّابرينَ، وإذا احتَسَب الأجرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٥). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٠، ٢٣٨).

بهذا الصَّبرِ نال بذلك ثوابَ الصَّابرينَ، والصَّبرُ مرتبةٌ عاليةٌ يُوَفَّى فيها العاملُ أجْرَه بلا حسابٍ، ولا يُمكِنُ صَبْرٌ بلا مَصبورٍ عليه! بل لا بُدَّ مِن ابتلاءٍ وامتحانٍ يُعْلَمُ به قَدْرُ صَبْرِ الإنسانِ حتَّى يُثابَ على قَدْرِ ما حَصَل منه مِن الصَّبرِ(١).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّه لا يَلزَمُ مِن كَثرةِ فَضائِلِ الأبِ فَضيلةُ الابنِ(٢).

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ البَرَّ قد يَلِدُ الفاجِرَ، ولا يَلحَقُه مِن ذلك عَيبٌ ولا مَنقَصةٌ(٣)، وفيه تَنبيهٌ على أنَّ فَسادَ الأعقابِ لا يُعَدُّ غَضاضةً على الآباءِ(٤).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ النَّسَبَ لا أثَرَ له في الهُدى والضَّلالِ(٥)، وأنَّ الخَبيثَ والطَّيِّبَ لا يَجري أمْرُهما على العِرقِ والعُنصُرِ؛ فقد يَلِدُ البَرُّ الفاجِرَ، والفاجِرُ البَرَّ، وهذا ممَّا يَهدِمُ أمرَ الطَّبائعِ والعناصِرِ(٦).

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ المرءَ إنَّما يُعابُ بسُوءِ فِعلِه، ويُعاتَبُ على ما اجتَرَحت يداه، لا على ما وُجِدَ مِن أصلِه أو فَرعِه(٧)، وأنَّ مَناطَ الفَضلِ في الإنسانِ هو خِصالُ الذَّاتِ، وما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٨٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اكتسَبَ المَرءُ مِن الصَّالحاتِ، وأمَّا كرامةُ الآباءِ فتَكمِلةٌ للكَمالِ، وباعِثٌ على الاتِّسامِ بفَضائِلِ الخِلالِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لم يَقُلْ: «إلى اللهِ»؛ لأنَّ المقامَ يَختَصُّ بالرُّبوبيَّةِ أكثَرَ؛ إذْ إنَّ الرُّبوبيَّةَ مُقتضاها التَّدبيرُ، وهو الآنَ يَحتاجُ إلى مُدَبِّرٍ يُدَبِّرُه إلى ما فيه مَصلحتُه، فقال: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، وهي مِن الرُّبوبيَّةِ الخاصَّةِ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في الهِجرةِ والعُزلةِ، وأوَّلُ مَن فَعَل ذلك إبراهيمُ عليه السَّلامُ[٣].

٣- الصَّلاحُ أفضَلُ الصِّفاتِ؛ بدليلِ أنَّ الخَليلَ عليه السَّلامُ طَلَب الصَّلاحَ لِنَفْسِه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]، وطَلَبه للوَلَدِ، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وطلَبَه سُلَيمانُ عليه السَّلامُ بعدَ كَمالِ دَرَجتِه في الدِّينِ والدُّنيا، فقال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وذلك يدُلُّ على أنَّ الصَّلاحَ أشرَفُ مَقاماتِ العبادِ[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَصَفه بأنَّه مِن الصَّالِحينَ؛ لأنَّ نِعمةَ الوَلَدِ تكونُ أكمَلَ إذا كان صالِحًا؛ فإنَّ صَلاحَ الأبناءِ قُرَّةُ عَينٍ للآباءِ، ومِن صلاحِهم بِرُّهم بوالِدِيهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٨).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ ﴾ لَمَّا كان هذا الوَصفُ رُبَّما أفهَمَ الطَّيشَ، وصَفَه بما أبقَى صَفاءَه ونفَى كَدَرَه، فقال: ﴿حَلِيمٍ ﴾[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ دليلٌ أنَّ إسماعيلَ هو الذَّبيحُ؛ من وجهين:

الأوَّل: أنَّه بَشَّرَه بالذَّبيحِ، وذَكَرَ قِصَّتَه أوَّلًا؛ فلمَّا استوفى ذلك قال: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ﴾؛ فبَيَّنَ أنَّهما بِشارتانِ: بِشارةٌ بالذَّبيحِ، وبِشارةٌ ثانيةٌ بإسحاقَ. وهذا بَيِّنٌ[2].

والثاني: أنَّه ذَكَرَ في الذَّبيحِ أنَّه غُلامٌ حَليمٌ، ولَمَّا ذَكَرَ البِشارةَ بإسحاقَ ذَكَرَ البِشارةَ بغُلامٍ عَليمٍ، في غيرِ هذا الموضِعِ. والتَّخصيصُ لا بُدَّ له مِن حِكمةٍ، وهذا ممَّا يُقوِّي اقترانَ الوَصفَينِ، والحِلْمُ مُناسِبٌ للصَّبرِ الَّذي هو خُلُقُ الذَّبيحِ، وإسماعيلُ وُصِفَ بالصَّبرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]، وأيضًا فإنَّه قال في الذَّبيحِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، وقد وَصَفَ اللهُ إسماعيلَ أنَّه مِن الصَّابرينَ، ووَصَفَ اللهُ تعالى إسماعيلَ أيضًا بصِدْقِ الوَعدِ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]؛ لأنَّه وَعَدَ أباه مِن نَفْسِه الصَّبرَ على الذَّبحِ، فَوَفَّى به[3].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ إلى قَولِه: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ أنَّ العِبادةَ هي ما أمَرَ اللهُ به، وإنْ كانت في غيرِ هذا الموضِعِ مَعصِيةً؛ فإنَّ قَتْلَ الابنِ مِن أكبرِ الكبائرِ، فإذا أمَرَ اللهُ به صار طاعةً، ومِن أفضَلِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٣٣).

الطَّاعاتِ؛ لأنَّ تَنفيذَه مِن أشَقِّ ما يكونُ على النَّفْسِ، فإذا نَفَّذَه الإنسانُ -مع قوةِ الدَّاعي لِمَنعِه- كان ذلك أكمَلَ وأفضَلَ. ولهذا نَظيرٌ؛ فالسُّجودُ لغيرِ اللهِ شِركٌ، ولَمَّا أمَرَ اللهُ الملائِكةَ أنْ يَسجُدوا لآدمَ صار السُّجودُ لآدمَ طاعةً. فالحاصِلُ أنَّ العِبادةَ ما أمَرَ اللهُ به، وإنْ كان جِنسُها قد يكونُ مَعصيةً في مَوضِعٍ آخَرَ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد يَبتلي عبدَه المؤمنَ ببَلوى عَظيمةٍ شَديدةٍ على النُّفوسِ، وذلك بما أَرَى اللهُ نبيَّه إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن ذَبحِ وَلَدِه، ونحن نعلمُ أنَّ اللهَ لو قَدَّرَ على ولَدِك أنْ يموتَ لَكانت هذه مُصيبةً عظيمةً، لكنْ إذا أمَرَك اللهُ سُبحانَه وتعالى أنْ تَذبَحَه أنت بنَفْسِك صار هذا أعظَمَ وأشَدَّ، وصار الصَّبرُ على هذا الأمرِ أشدَّ وأفضَلَ مِن الصَّبرِ على مَوتِه بقَدَرٍ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٩- قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ والمقصودُ مِن هذا الابتِلاءِ إظهارُ عَزمِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وإثباتُ عُلُوِّ مَرتبتِه في طاعةِ رَبِّه؛ فإنَّ الولَدَ عَزيزٌ على نَفْسِ الوالِدِ، والوَلَدُ الوَحيدُ الَّذي هو أمَلُ الوالِدِ في مُستقبَلِه: أشَدُّ عِزَّةً على نَفْسِه لا مَحالةَ، وقد عَلِمْتَ أنَّه سأل ولَدًا؛ لِيَرِثَه نَسْلُه ولا يَرِثَه مَواليه؛ فبَعْدَ أنْ أقَرَّ اللهُ عَيْنَه بإجابةِ سُؤلِه وتَرعْرُعِ ولَدِه؛ أمَرَه بأن يَذبَحَه فيَنعَدِمَ نَسْلُه، ويَخيبَ أمَلُه، ويَزولَ أُنسُه، ويَتولَّى بيَدِه إعدامَ أحَبِّ النُّفوسِ إليه، وذلك أعظَمُ الابتِلاءِ! فقابَلَ أمْرَ رَبِّه عزَّ وجلَّ بالامتِثالِ، وحصَلَت حِكمةُ اللهِ مِن ابتِلائِه، وهذا معنى قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾[٣] [الصافات: ١٠٦]، فلم يكُنِ الذَّبحُ مَصلَحةً، ولا كان هو مَطلوبَ الرَّبِّ في نَفْسِ الأمرِ، بل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٠).

كان مُرادُ الرَّبِّ سبحانه ابتِلاءَ إبراهيمَ؛ لِيُقَدِّمَ طاعةَ رَبِّه ومَحبَّتَه على محبَّةِ الولَدِ، ولا يَبقَى في قَلبِه التِفاتٌ إلى غيرِ اللهِ؛ فإنَّه كان يُحِبُّ الولَدَ محبَّةً شَديدةً، وكان قد سأل اللهَ أن يَهَبَه إيَّاه، وهو خَليلُ اللهِ؛ فأراد تعالى تَكميلَ خُلَّتِه لله بألَّا يَبقى في قَلبِه ما يُزاحِمُ به مَحبَّةَ رَبِّه[1].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ أُورِدَ هذا التَّكليفُ في النَّومِ لا في اليَقَظةِ، وبيانُ الحِكمةِ في ذلك مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ هذا التَّكليفَ كان في نهايةِ المَشقَّةِ على الذَّابحِ والمذبوحِ؛ فورَدَ أوَّلًا في النَّومِ حتَّى يصيرَ ذلك كالمُنبِّهِ لوُرودِ هذا التَّكليفِ الشَّاقِّ، ثمَّ يتأكَّدَ حالَ النَّومِ بأحوالِ اليَقَظةِ؛ فحينَئذٍ لا يَهجُمُ هذا التَّكليفُ دَفعةً واحِدةً، بل شَيئًا فشَيئًا.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ اللهَ تعالى جعَلَ رُؤيا الأنبياءِ عليهم السَّلامُ حَقًّا؛ قال اللهُ تعالى في حَقِّ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقال عن يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وقال في حَقِّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، والمقصودُ مِن ذلك تَقويةُ الدَّلالةِ على كَونِهم صادِقينَ؛ لأنَّ الحالَ إمَّا حالُ يَقَظةٍ وإمَّا حالُ مَنامٍ، فإذا تظاهَرَت الحالتانِ على الصِّدقِ كان ذلك هو النِّهايةَ في بَيانِ كَونِهم مُحقِّينَ صادِقينَ في كُلِّ الأحوالِ[2].

الوَجهُ الثَّالِثُ: إنَّما كان في المنامِ في هذا الأمرِ الخَطِرِ جِدًّا؛ لِيُعلَمَ وُثوقُ الأنبياءِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٩).

عليهم السَّلامُ بما يأتيهم عن اللهِ في كُلِّ حالٍ[١].

١١- في قَولِ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ استَدَلَّ بهذه الآيةِ والقِصَّةِ جماعةٌ مِن عُلَماءِ الأُصولِ على صِحَّةِ النَّسخِ قبْلَ التَّمَكُّنِ مِن الفِعلِ، خِلافًا لطائفةٍ مِن المُعتزِلةِ، والدَّلالةُ مِن هذه ظاهِرةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى شَرَعَ لإبراهيمَ ذَبْحَ ولَدِه، ثمَّ نسَخَه عنه وصَرَفه إلى الفِداءِ، وإنَّما كان المقصودُ مِن شَرْعِه أوَّلًا إثابةَ الخليلِ على الصَّبرِ على ذَبحِ ولَدِه، وعَزمِه على ذلك[٢].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ الحِكمةُ في مُشاوَرةِ الابنِ في هذا البابِ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أن يُطلِعَ ابنَه على هذه الواقِعةِ؛ لِيَظهَرَ له صَبرُه في طاعةِ الله، فتَكونَ فيه قُرَّةُ عينٍ لإبراهيمَ؛ حيثُ يراه قد بلَغَ في الحِلمِ إلى هذا الحَدِّ العَظيمِ، وفي الصَّبرِ على أشَدِّ المكارِهِ إلى هذه الدَّرَجةِ العالِيةِ، ويَحصُلَ للابنِ الثَّوابُ العَظيمُ في الآخِرةِ، والثَّناءُ الحَسَنُ في الدُّنيا[٣].

الوَجهُ الثَّاني: أن يُصَبِّرَه إن جَزِعَ، ويُوطِّنَ نَفْسَه على مُلاقاةِ هذا البَلاءِ، وتَسكُنَ نَفْسُه لِما لا بُدَّ منه؛ إذ مُفاجَأةُ البلاءِ قبْلَ الشُّعورِ به أصعَبُ على النَّفْسِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠).

ويُنظر أيضًا: ((أصول السَّرَخْسي)) (٢/ ٦٣- ٦٥)، ((كشف الأسرار)) لعلاء الدين البخاري (٣/ ١٦٩- ١٧٤)، ((البحر المحيط)) للزركشي (٥/ ٢٢٦ - ٢٢٨).

ويُنظر في الاعتراضِ على هذه الفائدةِ: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٦).

الوجه الثَّالث: لِيَكتسِبَ المَثوبةَ بالانقيادِ لأمرِ الله قبْلَ نزولِه[١].

الوَجهُ الرابع: لِتَكونَ سُنَّةً في المُشاوَرةِ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ أنَّه يجوزُ امتِحانُ الشَّخصِ بما لا يُؤخَذُ رأيُه فيه، ولكِنْ للاستِعلامِ؛ فإنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يُريدُ أنْ يَنظُرَ إلى ابنِه؛ إنْ قال: لا تذبَحْني، تَرَكَ الذَّبْحَ! بل يريدُ أنْ يَعرِفَ مدى قَبولِه واستِعدادِه؛ فيَكونَ في هذا تَوريةٌ، والتَّوريةُ لا شَكَّ أنَّها جائِزةٌ للاستِعلامِ والاستِخبارِ[٣].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ فيه أنَّ رُؤْيا الأنبياءِ وَحيٌ[٤]؛ فإنَّها معصومةٌ مِن الشَّيطانِ، وهذا باتِّفاقِ الأمَّةِ، ولهذا أقدَمَ الخليلُ على ذبْحِ ابنِه إسماعيلَ عليهما السَّلامُ بالرُّؤيا، وأمَّا رُؤيا غيرِهم فتُعرَضُ على الوحيِ الصَّريحِ، فإنْ وافَقَتْه وإلَّا لم يُعمَلْ بها[٥].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ أنَّ الخَبرَ قد يكونُ بمعنى الأمرِ؛ لأنَّ هذه الرُّؤيا بمَنزلةِ الخَبَرِ؛ حيثُ لم يُقَلْ له في الرُّؤيا: اذبَحْ ولدَك، بل رأى نَفْسَه يَذبَحُ الولَدَ -على أحدِ المعنيَينِ في تأويلِ الآيةِ-، ولكِنَّ الخبَرَ قد يكونُ بمعنى الأمرِ، وهل يَحتاجُ إلى قرينةٍ في هذا أمْ لا؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٢).

قال ابن جرير: (لم يكُنْ ذلك منه مُشاورةً لابنِه في طاعةِ اللهِ، ولكِنَّه كان منه لِيَعلَمَ ما عندَ ابنِه مِن العَزمِ: هل هو مِن الصَّبرِ على أمرِ اللهِ على مِثلِ الَّذي هو عليه فيُسَرَّ بذلك، أمْ لا؟ وهو في الأحوالِ كُلِّها ماضٍ لأمرِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٢، ٥٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((صحيح البخاري)) عقب حديث (١٣٨)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٨).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٧٥).

الجوابُ: نعم، يَحتاجُ إلى قَرينةٍ؛ لأنَّ الأصلَ في الخبَرِ أنَّه لا يدُلُّ على الطَّلَبِ، ولكِنْ إذا وُجِدَتْ قرينةٌ تقتضي ذلك كان أمرًا[١].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ﴾ لَمَّا كان خِطابُ الأبِ ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ على سَبيلِ التَّرَحُّمِ، قال هو: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ على سَبيلِ التَّعظيمِ والتَّوقيرِ[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ فَضيلةُ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيثُ استَسْلَما لأمرِ اللهِ في هذا الأمرِ العَظيمِ الَّذي لا يُقدِمُ عليه إلَّا أمثالُهما، ولا شَكَّ أنَّ هذا مِن مَناقِبِهما[٣].

١٨- أنَّ الشَّارعَ قد يَأمُرُ بشَيءٍ لِيَمتَحِنَ العبدَ هل يُطيعُه أم يَعصيه، ولا يكونُ المرادُ فِعلَ المأمورِ به، كما أُمِر إبراهيمُ بذَبحِ ابنِه، ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ حَصَلَ المَقصودُ ففَداه بالذِّبْحِ، وكذلك حديثُ: الأبرصِ والأقرعِ والأعمى؛ لَمَّا بَعَثَ اللهُ إليهم مَن سألَهم الصَّدَقةَ، فلمَّا أجابَ الأعمى قال المَلَكُ: ((أمسِكْ مالَك؛ فإنَّما ابتُليتُم، فقد رَضيَ اللهُ عنك، وسَخِطَ على صاحِبَيْك))[٤]؛ فالحِكمةُ مَنشَؤُها مِن نَفْسِ الأمرِ، لا مِن نَفْسِ المأمورِ به[٥].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ إثباتُ الكلامِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ أي: يا إبراهيمُ، قد صَدَّقْتَ الرُّؤيا؛ وأنَّه بصَوتٍ؛ لِقَولِه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾، وبحرفٍ؛ لِقَولِه: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٨).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦٤) واللفظ له، ومسلم (٢٩٦٤) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٣٦).

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إلى آخِرِه[١].

٢٠- الإنسانُ إذا قَصَدَ العَمَلَ وسَعى إليه كُتِبَ له أجْرُه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ * قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾، مع أنَّه لم يَذْبَحْ، لكِنَّه فَعَل ما أُمِرَ به، ولم يَبْقَ إلَّا أنْ يُنَفِّذَه[٢].

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ مع أنَّ تَصديقَها إنما يكونُ بالذَّبحِ، ولم يُوجَدْ؟

الجوابُ عن ذلك مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ معناه: قد فَعلْتَ ما في غايةِ وُسْعِك ممَّا يَفعَلُه الذَّابحُ؛ مِن إلقاءِ وَلَدِك، وإمرارِ المُدْيةِ على حَلْقِه، ولكنَّ اللهَ منَعَها أنْ تَقطَعَ.

الثاني: أنَّ الَّذي رآه في النَّومِ مُعالَجةُ الذَّبحِ فقط، لا إراقةُ الدَّمِ، وقد فعَلَ ذلك في اليَقَظةِ؛ فكان مُصدِّقًا للرُّؤيا[٣].

الثَّالث: أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ صدَّقَ الرُّؤيا إلى أنْ نَهاهُ اللهُ عن إكمالِ مِثالِها؛ فأُطلِقَ على تَصديقِه أكثَرَها أنَّه صدَّقَها[٤].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ * قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ أنَّ التَّصديقَ إنَّما يَتِمُّ بأمْرَينِ؛ أحدُهما: اعتِقادُ الصِّدْقِ، والثَّاني: محَبَّةُ القَلبِ وانقيادُه؛ فإبراهيمُ كان مُعتَقِدًا لِصِدقِ رُؤياه مِن حينِ رآها؛ فإنَّ رُؤيا الأنبياءِ وَحْيٌ، وإنَّما جَعَلَه مُصَدِّقًا لها بعدَ أنْ فَعَلَ ما أُمِرَ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٢، ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٤).

(٥) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٥٠).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أنَّ كُلَّ مُحسِنٍ فإنَّ اللهَ تعالى يَجعَلُ له مِن كُلِّ همٍّ فَرَجًا، ويَكتُبُ له أجرَ العبادةِ وإنْ لم يَفعَلْها، إذا سَعَى في أسبابِها[١].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العمَلِ؛ فكما أحسَنَ في عبادةِ اللهِ أحسَنَ اللهُ إليه، وقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ في سورةِ (الرَّحمنِ): ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، يعني: ما جزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحسانُ، وبهذا يَتبيَّنُ لك كَمالُ فَضلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الَّذي أحسَنَ إليك أوَّلًا بتوفيقِك للطَّاعاتِ والإحسانِ، ثُمَّ أحسَنَ إليك ثانيًا بالجَزاءِ عليه[٢].

٢٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ قِصَّةُ الذَّبيحِ هذه تُؤيِّدُ أحَدَ القَولَينِ المَشهورَينِ عندَ أهلِ الأُصولِ في حِكمةِ التَّكليفِ: هل هي للامتِثالِ فقط، أو هي مُتردِّدةٌ بيْنَ الامتِثالِ والابتِلاءِ؟ لأنَّه بيَّنَ في هذه الآيةِ الكَريمةِ أنَّ حِكمةَ تَكليفِه لإبراهيمَ بذَبحِه ولَدَه ليست هي امتِثالَه ذلك بالفِعلِ؛ لأنَّه لم يُرِدْ ذَبْحَه كَونًا وقَدَرًا، وإنَّما حِكمةُ تَكليفِه بذلك مُجَرَّدُ الابتِلاءِ والاختِبارِ: هل يُصَمِّمُ على امتِثالِ ذلك أو لا؟ كما صَرَّح بذلك في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ * وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ﴾؛ فتَبيَّنَ بهذا أنَّ التَّحقيقَ أنَّ حِكمةَ التَّكليفِ مُتَرَدِّدةٌ بيْنَ الامتِثالِ والابتِلاءِ[٣].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ﴾ بيانُ أنَّ رَفْعَ الذَّبحِ عن الابنِ جُعِلَ له مُقابِلٌ لِتَكميلِ التَّنفيذِ والامتِثالِ؛ وذلك بأنْ أُمِرَ إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٨).

والسَّلامُ بأنْ يَذْبَحَ فِداءً عن ابنِه، ويكونَ هذا الذِّبْحُ -أي: المذبوحُ- عَظيمًا؛ فلهذا قال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾، يعني: أمَرْناه أنْ يَذبَحَ ذِبْحًا عَظيمًا؛ فِداءً له[١].

٢٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ احتَجَّ قَومٌ مِن العُلَماءِ بهذه الآيةِ على أنَّ مَن نذَرَ ذَبْحَ ولَدِه لَزِمَه ذَبْحُ شاةٍ، وأنكَرَ غَيرُهم هذا الاستِدلالَ، ورَأَوْا أنَّ نَذْرَ ذَبحِ الوَلَدِ مَعصيةٌ؛ فلا يكونُ فيه فِداءٌ، بخِلافِ ذَبحِ إبراهيمَ لِوَلَدِه؛ فإنَّه كان مُمتَثِلًا لأمرِ اللهِ تعالى فيه، ثمَّ فداه اللهُ تعالى بالذِّبحِ تفَضُّلًا منه، والفَرْقُ بَيِّنٌ[٢].

٢٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فُسِّرَ الذِّبحُ في الأحاديثِ والآثارِ بكَبشٍ؛ فاستدَلَّ به المالكيَّةُ على أنَّ الغَنَمَ في الضَحيَّةِ أفضَلُ مِن الإبِلِ[٣]. وفي الحديثِ عن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه، قال: ((ضحَّى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بكَبْشَينِ أمْلَحَينِ[٤] أقْرَنَينِ[٥]، ذبَحَهما بيَدِه، وسَمَّى وكَبَّرَ، ووضَعَ رِجْلَه على صِفاحِهما[٦]))[٧].

٢٩- لَطيفةٌ: مَنْصِبُ الخُلَّةِ مَنصِبٌ لا يَقْبَلُ المزاحَمةَ بغيرِ المحبوبِ، ولمَّا أَخَذ الولَدُ شُعبَةً مِن شِعَابِ القَلبِ؛ أمَرَ الله تعالى إبراهيمَ عليه السَّلامُ بذَبحِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفَرَس (٣/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٨). ويُنظر أيضًا: ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (٣/ ٣٨).

(٤) الأمْلَح: هو الَّذي فيه بَياضٌ وسَوادٌ، والبياضُ أكثَرُ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٧٠) و (١٣/ ١٢٠).

(٥) أقرنَين: أي: لكلٍّ واحدٍ منهما قَرْنانِ حسَنانِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ١٢٠).

(٦) صِفاحِهما: أي: صفحةِ العُنُقِ، وهي جانِبُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ١٢١).

(٧) رواه البخاري (٥٥٦٥)، ومسلم (١٩٦٦).

فلمَّا أَسلَمَ للامتِثالِ خرَجَتْ تلك المُزاحَمةُ، وخَلَصَت المحبَّةُ لأهلِها، فجاءَتْه البُشرى ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾، ليس المرادُ أنْ يُعَذَّبَ، ولكِنْ يُبْتَلى لِيُهَذَّبَ. ليس العَجَبُ مِن أمرِ الخَليلِ بذَبحِ الولَدِ، إنَّما العَجَبُ مِن مُباشرةِ الذَّبحِ بيَدِه، ولولا الاستِغراقُ في حُبِّ الآمِرِ لَمَا هانَ مِثلُ هذا المأمورِ؛ فلذلك جُعِلَتْ آثارُها مَثَابةً للقلوبِ تَحِنُّ إليها أعظَمَ مِن حنينِ الطُّيورِ إلى أوكارِها[١].

٣٠- قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فُهِمَ مِن ذِكرِ المُحسِنينَ أنَّ الجزاءَ إحسانٌ بمِثلِ الإحسانِ، فصار المعنى: إنَّا كذلك الإحسانِ العظيمِ الَّذي أحسَنْتَه نَجْزي المحسِنينَ، فهذا وَعدٌ بمَراتبَ عَظيمةٍ مِن الفضْلِ الرَّبَّانيِّ، وتضمَّن وَعْدَ ابنِه بإحسانٍ مِثلِه مِن جِهَةِ نَوطِ الجَزاءِ بالإحسانِ، وقد كان إحسانُ الابنِ عَظيمًا ببَذْلِ نَفْسِه[٢].

٣١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الثَّناءُ على إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بهذينِ الوَصفَينِ، وهما: العُبوديَّةُ والإيمانُ، ويَتفرَّعُ على ذلك: أنَّ مَنِ اتَّصَفَ بالعُبوديَّةِ والإيمانِ نالَه مِن الثَّناءِ بقَدْرِ ما اتَّصَفَ به منهما؛ فكُلَّما كان الإنسانُ للهِ أعبَدَ، وبه آمَنَ؛ كان الثَّناءُ عليه أكثَرَ وأعظَمَ، ولا تَغتَرَّ بما تُلاقيه في الدُّنيا مِن مُجابَهاتٍ؛ فإنَّ هذا قد يَرِدُ، ولكِنْ يكونُ امتِحانًا وابتلاءً واختِبارًا، ويكونُ الثَّناءُ ولو بعدَ مَوتِ الإنسانِ؛ فكم مِن أئمَّةٍ مِن هذه الأُمَّةِ أُوذوا في حياتِهم؟! ولكِنْ بعدَ مماتِهم صار جزاءُ هذه الأذيَّةِ أنَّ اللهَ تعالى رَفَع لهم الذِّكرَ، وصارتِ العاقِبةُ لهم والثَّناءُ الحَسَنُ بعدَ مَماتِهم، والشَّواهِدُ على ذلك كَثيرةٌ[٣].

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فَضيلةُ العُبوديَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ

(١) يُنظر: ((المدهش)) لابن الجوزي (ص: ٨٦، ٨٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٨).

والإيمانِ به؛ لأنَّه لا شَكَّ أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الثَّناءُ عليه(١).

٣٣- قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ البِشارةُ ورَدَت مَرَّتينِ: مرَّةً في قَولِه: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ فهذه الآيةُ قاطِعةٌ في أنَّ المُبَشَّرَ به هو الذَّبيحُ؛ ومرَّةً في قَولِه: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] الآيةَ. قد صَرَّح فيها أنَّ المبشَّرَ به إسحاقُ، ولم يكُنْ مِن سُؤالِ إبراهيمَ، بل قالت امرأتُه إنَّها عَجوزٌ، وإنَّه شَيخٌ، وكان ذلك في الشَّام، لَمَّا جاءت الملائِكةُ إليه؛ بسَبَبِ قَومِ لُوطٍ، وهو في أواخِرِ أمْرِه، وأمَّا البِشارةُ الأُولى لَمَّا انتَقَل مِن العِراقِ إلى الشَّام حينَ كان سِنُّه لا يُسْتغرَبُ فيه الوَلَدُ؛ ولذلك سألَه، فعَلِمْنا بذلك أنَّهما بِشارتانِ في وَقتَينِ بغُلامينِ: أحَدُهما بغيرِ سُؤالٍ، وهو إسحاقُ، صَريحًا. والثَّانيةُ: قبْلَ ذلك بسُؤالٍ، وهو غيْرُه، فقَطَعْنا بأنَّه إسماعيلُ، وهو الذَّبيحُ(٢).

٣٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في ذِكرِ الصَّلاحِ بعدَ النُّبُوَّةِ تعظيمٌ لِشأنِه، وإيماءٌ بأنَّه الغايةُ لها؛ لتَضمُّنِها معنَى الكَمالِ والتَّكميلِ(٣).

٣٥- ذَكَر اللهُ تعالى لنا في القُرآنِ بَرَكَتَه على إسحاقَ، في مِثلِ قَولِه تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾، مُنَبِّهًا لنا على ما حصَلَ في أولادِه مِن نُبُوَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ وغَيرِه، وما أُوتُوه مِنَ الكِتابِ والعِلمِ، مُستَدعيًا مِن عبادِه الإيمانَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٨٨).

بذلك والتَّصديقَ به، وألَّا يُهمِلوا مَعرِفةَ حُقوقِ هذا البَيتِ المبارَكِ، وأهلِ النُّبوَّةِ منهم، ولا يَقولَ القائِلُ: هؤلاء أنبياءُ بني إسرائيلَ لا تَعلُّقَ لنا بهم! بل يجِبُ علينا احترامُهم وتوقيرُهم والإيمانُ بهم، ومَحبَّتُهم ومُوالاتُهم والثَّناءُ عليهم -صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم أجمَعينَ[(١)].

٣٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ فيه وَعيدٌ لليَهودِ ومَن كان مِن ذُرِّيَّتِهما لم يُؤمِنْ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٢)].

٣٧- قال الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ في هذه التَّكمِلةِ إبطالُ غُرورِ المُشرِكينَ بأنَّهم مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[(٣)].

٣٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ لعَلَّ هذا مِن بابِ دَفعِ الإيهامِ؛ فإنَّه لَمَّا قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ اقتضى ذلك البَرَكةَ في ذُرِّيَّتِهما، وأنَّ مِن تمامِ البَرَكةِ: أن تَكونَ الذُّرِّيَّةُ كُلُّهم مُحسِنينَ، فأخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ مِنهم مُحسِنًا وظالِمًا[(٤)].

٣٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ دخَلَ تحتَ قَولِه: ﴿مُحْسِنٌ﴾ الأنبياءُ والمؤمِنونَ، وتحت قَولِه: (ظَالِمٌ) الكافِرُ والفاسِقُ. واللهُ أعلَمُ[(٥)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

---

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥١).

- أجْرى إبراهيمُ عليه السَّلامُ كَلامَه، وبتَّ القَولَ بأنَّ ربَّهُ سيَهْديهِ؛ جَريًا على سَنَنِ مَوعِدِ ربِّه، أو بناءً على عادةِ اللهِ تَعالى معه في هِدايَتِه وإرْشادِه، أو أظهَرَ بذلك تَوكُّلَه وتَفْويضَه أمْرَه إلى اللهِ؛ لأنَّه أرادَ إعلامَ قَومِهِ بأنَّه واثِقٌ بربِّهِ، وأنَّه لا تردُّدَ له في مُفارَقَتِهم. ورُبَّما كان مَعْناهُ: إنِّي ذَاهِبٌ إلى حيثُ أمَرَني ربِّي، وهي المُهاجَرةُ للشَّامِ، أو إلى طاعةِ ربِّي ورِضاهُ. وقَولُه: ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ أي: سيُثَبِّتُني على هُداي، ويَزيدُني هُدًى، ولم يَكُنْ كذلك حالُ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حيث قصَدَ الرَّجاءَ والطَّمَعَ، فقال حينَ قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]؛ فلذلك ذُكِرَ بصِيغةِ التَّوقُّعِ[(١)].

وقيل: إنَّ العَبدَ إذا تجلَّى له مَقاماتُ رَحمةِ الله، فقد يَجزِمُ بحُصولِ المقصودِ، وإذا تجلَّى له مَقاماتُ كَونِه غَنيًّا عن العالَمينَ، فحينَئذٍ يَستَحقِرُ نَفْسَه، فلا يجزِمُ، بل لا يُظهِرُ إلَّا الرَّجاءَ والطَّمعَ[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾

- الفاءُ في ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ﴾ للتَّعقيبِ، فإنْ كان اللهُ بشَّرَ إبراهيمَ بأنَّه يُولَدُ له ولَدٌ، أو يُوجَدُ له نَسْلٌ عقِبَ دُعائِه -كما هو الظَّاهرُ-؛ فالتَّعقيبُ على ظاهِرِه، وإنْ كان اللهُ بشَّرَه بغُلامٍ بعْدَ ذلك حِينَ حمَلَتْ منه هاجرُ جاريتُه بعْدَ خُروجِه بمُدَّةٍ طويلةٍ؛ فالتَّعقيبُ نِسبيٌّ، أي: بشَّرْناه حينَ قدَّرْنا ذلك أوَّلَ بِشارةٍ بغُلامٍ، فصار التَّعقيبُ آيِلًا -أي: عائِدًا وراجِعًا- إلى المُبادَرةِ، كما يُقالُ: تَزوَّجَ فوُلِدَ له[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٤، ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٩). =

- في قَولِهِ: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ إيجازُ قِصَرٍ[(١)]؛ فقد انطَوَتْ هذه البِشارةُ المُوجَزةُ على ثَلاثٍ: أنَّ الوَلَدَ ذَكَرٌ، وأنَّه يَبلُغُ أوانَ الحُلْمِ (أي: البلوغ)، وأنَّه يكونُ حليمًا، وأيُّ حِلمٍ أدَلُّ على ذلك مِن حِلمِه حينَ عَرَض عليه أبوهُ الذَّبحَ فلم يَضطَرِبْ، ولم يَتخاذَلْ، ولم يَعتَرِضْ على مَشيئةِ أبيهِ، بل قال: ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، ثمَّ استَسْلَم لذلك، ولم يكُنْ لِيَدورَ له في خَلَدِه أنَّ اللهَ سيَفْديهِ، وسيُهيِّئُ له كَبْشَ الفِداءِ[(٢)]!

- وهذا الغُلامُ الَّذي بُشِّرَ به إبراهيمُ هنا هو إسماعيلُ ابنُه البِكْرُ، وهذا غيرُ الغلامِ الَّذي بشَّرَه به الملائكةُ الَّذين أُرْسِلوا إلى قَومِ لُوطٍ في قولِه تعالى: ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر: ٥٣]، وقولِه: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ

= والقاعدة: أنَّ الفاءَ للتَّعقيبِ، وتعقيبُ كلِّ شيءٍ بحَسَبِه. يُنظر: ((شرح قطر الندى وبل الصدى)) لابن هشام (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٢، ٤٥٠)، ((تفسير الألوسي)) (٤/ ٢٢٤).

(١) الإيجازُ: هو الاختصارُ والجمعُ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ مِن الكلامِ بأقلَّ مِن عباراتِ مُتعارَفِ الأوساطِ. ويكونُ الإيجازُ محمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصودِ. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغةِ كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسنُ الإيجازِ. والإيجازُ نوعان؛ الأوَّلُ: إيجازُ القِصَرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغةِ)، وهو ما ليس بحَذْفٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه، مع أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا علِم أنَّه متَى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتالِ؛ فارتفع بالقتْلِ -الَّذي هو قِصاصٌ- كثيرٌ مِن قتْلِ النَّاسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم. الثَّاني: إيجازُ الحَذْفِ: وهو حذفُ ما يُعلمُ ويُفهمُ مِن سِياقِ الكلامِ بشرطِ وُجودِ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه؛ فقد يكونُ الإيجازُ بالحذفِ وغيرِه. يُنظر: ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشِيق (١/ ٢٤٢)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٧٧)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما بعدها)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٨).

وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وهو إسحاقُ عليه السلامُ، فذلك وُصِفَ بأنَّه عليمٌ، نَظَرًا لِشَرَفِ العِلمِ، وهذا وُصِفَ بـ ﴿حَلِيمٍ﴾ لِمُناسبَتِه حِلمَ إسماعيلَ عليه السلامُ؛ لِوَعدِه بالصَّبرِ في جَوابِه لسُؤالِ أبيهِ له في ذَبحِه بقَولِه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. وأيضًا ذلكَ كانتِ البِشارةُ به بمَحضرِ سارةَ أُمِّه، وقد جُعِلَت هي المُبشَّرةَ في قولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ * قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ [هود: ٧٢]، فتلك بِشارةُ كَرامةٍ، والأُولى بِشارةُ استجابةِ دُعائِه، فلمَّا وُلِدَ له إسماعيلُ تحقَّقَ أمَلُ إبراهيمَ أنْ يكونَ له وارِثٌ مِن صُلبِه، فالبِشارةُ بإسماعيلَ لمَّا كانت عَقِبَ دُعاءِ إبراهيمَ أنْ يَهَبَ اللهُ له مِن الصَّالِحينَ، عُطِفت هنا بفاءِ التَّعْقيبِ، وبِشارَتُه بإسْحاقَ ذُكِرَت في هذه السُّورةِ مَعْطوفةً بالواوِ عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

- الفاءُ في ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ فَصيحةٌ؛ لأنَّها مُفْصِحةٌ عن مُقدَّرٍ، تَقديرُه: فوُلِدَ له ويَفَعَ وبلَغَ السَّعيَ، فلمَّا بلَغَ السَّعيَ، قال: يا بُنَيَّ... إلخ[2] وحُذِف هذا المقدَّرُ؛ تعويلًا على شَهادةِ الحالِ، وإيذانًا بعَدَمِ الحاجةِ إلى التَّصريحِ به؛ لاستحالةِ التَّخلُّفِ والتَّأخُّرِ بعْدَ البِشارةِ[3].

- قَولُه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ أي: بلَغَ إسماعيلُ سِنَّ السَّعيِ مع أبيه

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨١، ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٩، ٢٠٠).

إبراهيمَ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وقيل: لما قال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ أي: القدرةَ على أنْ يسعَى. فقِيل: معَ مَن يَسعَى؟ فقِيل: معَ أبيه. والفائِدةُ في التَّكريرِ: التَّأكيدُ، والمُبالَغةُ في استِصْحابِه إيَّاه كأنَّه بلَغَ معه، واستَكْمَلَ في أخْلاقِه مِن بَدءِ حالِه، واختِصاصُ الأبِ بالمَعيَّةِ؛ لأنَّه أرفَقُ النَّاسِ بابْنِه، وأعطَفُهم عليه في الاستِصْلاحِ، وغَيْرُه رُبَّما عَنَّفَ به في الاستِسْعاءِ فلا يَحتمِلُه؛ لأنَّه لم تَستحكِمْ قُوَّتُه، ولم يَصلُبْ عُودُه، والمُرادُ: أنَّه على غَضاضةِ سِنِّه، وتَقلُّبِه في حدِّ الطُّفولةِ، كان فيه مِن رَصانةِ الحِلمِ، وفُسحةِ الصَّدرِ ما جسَّرَه على احتِمالِ تلك البَليَّةِ العَظيمةِ، والإجابةِ بذلك الجَوابِ الحَكيمِ: أُتِيَ في المَنامِ فقيلَ له: اذْبَحِ ابْنَكَ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، ورُؤْيا الأنبياءِ وَحيٌ كالوَحيِ في اليَقَظةِ؛ فلهذا قال لابْنِه: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ على سبيلِ التَّرحُّمِ، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ فذَكَرَ تَأْويلَ الرُّؤْيا، كما يقولُ المُمتَحَنُ -وقد رَأى أنَّه راكِبٌ في سَفينةٍ-: رأيتُ في المَنامِ أنِّي ناجٍ مِن هذه المِحْنةِ[١].

- والنِّداءُ في قَولِه: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ نِداءُ شَفَقةٍ وتَرحُّمٍ[٢].

- قيل: إنَّما ذُكِرَ بلَفظِ المضارِعِ ﴿أَرَىٰ﴾؛ لِتكرُّرِ الرُّؤيا، وقيل: لاستحضارِ الصورةِ الماضيةِ لنوعِ غرابةٍ[٣].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فاءُ تَفريعٍ، أو فصيحةٌ مُعرِبةٌ عن مُقدَّرٍ قد حُذِفَ؛ أي: إذا عَلِمْتَ هذا فانظُرْ ماذا ترى[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤)، ((فتح الرحمن))

- قولُه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ فيه ابتداءُ الجوابِ بالنِّداءِ، واستِحضارُ المُنادى بوَصْفِ الأُبُوَّةِ، وإضافةُ الأبِ إلى ياءِ المتكلِّمِ المُعوَّضِ عنها التَّاءُ، المُشعِرُ تَعويضُها بصِيغةِ تَرقيقٍ وتَحَنُّنٍ، وفي قولِه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ تَعظيمٌ وتَوقيرٌ لأبيهِ[1].

- والتَّعبيرُ عن الذَّبحِ بالموصولِ -وهو ﴿مَا تُؤۡمَرُ﴾- دونَ أنْ يقولَ: اذْبَحْني، يُفيدُ وَحْدَه إيماءً إلى السَّببِ الَّذي جعَلَ جوابَه امْتثالًا لِذَبْحِه. وصِيغةُ الأمْرِ في قَولِه: ﴿ٱفۡعَلۡ﴾ مُستعمَلةٌ في الإذْنِ، وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: اذْبَحْني، إلى ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾؛ للجمْعِ بيْنَ الإذنِ وتَعليلِه، أي: أذِنْتُ لك أنْ تَذْبَحني؛ لأنَّ اللهَ أمَرَك بذلك؛ ففيه تَصديقُ أبيهِ، وامتثالُ أمْرِ اللهِ فيه[2].

- وحُذِفَ المُتعلَّقُ بفِعلِ ﴿تُؤۡمَرُ﴾؛ لِظُهورِ تَقديرِه، أي: ما تُؤمَرُ به. وبقِيَ الفِعلُ كأنَّه مِن الأفعالِ المُتعدِّيةِ، وهذا الحذْفُ يُسمَّى بالحذفِ والإيصالِ[3].

- وصِيغةُ المُضارِعِ ﴿تُؤۡمَرُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الأمْرَ مُتعلِّقٌ به، مُتوجِّهٌ إليه، مُستمِرٌّ إلى حِينِ الامتثالِ به[4]، وقيل: للإيذانِ بغرابةِ ذلك، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ما قاله لم يكُنْ إلَّا عن حلمٍ غيرِ مشوبٍ بجهلٍ بحالِ المأمورِ به، وقيل: لتكرُّرِ الرُّؤْيا، وقيل غيرُ ذلك[5].

- قولُه: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾ لم يَقُلْ: يا أبتِ لا مانعَ عِندي، بل قال: ﴿ٱفۡعَلۡ﴾؛ فحَثَّه

للأنصاري (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥١، ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٢٤).

على أنْ يَفعَلَ. ولم يقُلْ: افعَلْ ما رأيْتَ، بل قال: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ حثًّا لإبراهيمَ على أنْ يَفعَلَ؛ لأنَّه إذا ذكَّرَه أنَّ هذا أمْرُ اللهِ، فإنَّه يَزيدُه قُوَّةً في تَنفيذِ هذا الأمْرِ؛ لأنَّ إسماعيلَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- خاف أنْ تُدرِكَ إبراهيمَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- رَحمةُ الولَدِ، فيُراجِعَ اللهَ عزَّ وجلَّ في ذلك، فأشار عليه أنْ يُبادِرَ بفِعلِ ما أُمِرَ به (افْعَلْ)، ولم يقُلْ: ما رأيتَ؛ لِيَكونَ هذا أشدَّ حثًّا لإبراهيمَ على الإقدامِ[(١)].

- وجُملةُ ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ جوابٌ، والجُمَلُ الَّتي قبْلَها تَمهيدٌ لهذا الجوابِ؛ فإنَّ إسماعيلَ عليه السَّلامُ بعْدَ أنْ حثَّ أباهُ على فِعلِ ما أُمِرَ به، وَعَدَه بالامتثالِ له، وبأنَّه لا يَجزَعُ ولا يَهلَعُ، بل يكونُ صابرًا، وفي ذلك تَخفيفٌ مِن عِبْءِ ما عسَى أنْ يَعرِضَ لأبيهِ مِن الحُزْنِ؛ لِكَونِه يُعامِلُ ولَدَه بما يَكرَهُ، وقد قرَنَ وَعْدَه بقولِه: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ استِعانةً على تَحقيقِه. وفي قَولِه: ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مِن المُبالَغةِ في اتِّصافِه بالصَّبرِ ما ليس في الوصفِ بـ(صابرٍ)؛ لأنَّه يُفيدُ أنَّه سيَجِدُه في عِدادِ الَّذين اشتُهِروا بالصَّبرِ وعُرِفوا به[(٢)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾

- جوابُ (لَمَّا) مَحذوفٌ -على قولٍ-؛ إيذانًا بعَدَمِ وَفاءِ التَّعبيرِ بتَفاصيلِه؛ كأنَّه قِيل: كانَ ما كانَ ممَّا لا يُحيطُ به نِطاقُ البَيانِ مِن استِبْشارِهما، وشُكْرِهما للهِ تعالَى على ما أنْعَمَ به عليهما مِن دَفْعِ البلاءِ بعْدَ حُلولِه، والتَّوفيقِ لِمَا لم يُوفَّقْ أحدٌ لِمِثلِه، وإظهارِ فَضْلِهما بذلك على العالَمينَ، مع إحرازِ الثَّوابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٢).

العظيم... إلى غيرِ ذلك[١]. وقيل: جوابُ ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾، وإنَّما جِيءَ به في صُورةِ العطْفِ؛ إيثارًا لِمَا في ذلك مِن مَعنى القصَّةِ على أنْ يكونَ جوابًا؛ لأنَّ الدَّلالةَ على الجوابِ تَحصُلُ بعَطْفِ بعضِ القصَّةِ دونَ العكْسِ، وحَذْفُ الجوابِ في مِثلِ هذا كثيرٌ في القُرآنِ، وهو مِن أساليبِه[٢].

- قولُه: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي: انْقادَا وخضَعَا، وحُذِفَ المُتعلَّقُ؛ لِظُهورِه مِن السِّياقِ، أي: أسْلَمَا لِأمْرِ اللهِ[٣].

- وقيل: دلَّ على السُّرعةِ باللَّامِ الواقعةِ مَوقعَ (على) في قولِه: ﴿لِلۡجَبِينِ﴾[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ثَناءٌ مِن اللهِ تعالى على إبراهيمَ عليه السَّلامُ بمُبادَرتِه لامتثالِ الأمْرِ، ولم يَتأخَّرْ، ولا سأَلَ مِنَ اللهِ نسْخَ ذلك[٥].

- قولُه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تَعليلٌ لِجُملةِ ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾؛ لأنَّ نِداءَ اللهِ إيَّاهُ تَرْفيعٌ لِشَأْنِه، فكان ذلك النِّداءُ جَزاءً على إحسانِه، أي: مِثلَ عَظَمةِ ذلك التَّصديقِ نَجْزي جَزاءً عظيمًا للمُحسِنينَ، أي: الكامِلينَ في الإحسانِ، أي: وأنتَ منْهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٦).

- ولِمَا يَتضمَّنُه لَفظُ الجَزاءِ مِن مَعنى المُكافأةِ ومُماثَلةِ المَجْزِيِّ عليه، عَظَّمَ شأْنَ الجزاءِ بتَشبيهِه بمُشبَّهٍ مُشارٍ إليه بإشارةِ البعيدِ، المُفيدِ بُعدًا اعتباريًّا، وهو الرِّفعةُ وعِظَمُ القَدْرِ في الشَّرفِ، فالتَّقديرُ: إنَّا نَجْزي المُحسِنينَ جَزاءً كذلك الإحسانِ الَّذي أحسَنْتَ به بتَصديقِك الرُّؤيا، مُكافأةً على مِقدارِ الإحسانِ؛ فإنَّه بَذَلَ أعزَّ الأشياءِ عليه في طاعةِ ربِّه، فبَذَلَ اللهُ إليه مِن أحسَنِ الخَيراتِ الَّتي بيَدِه تعالى، فالمُشبَّهُ والمُشبَّهُ به مَعقولانِ؛ إذ ليس واحدٌ منهما بمُشاهَدٍ، ولكنَّهما مُتخيَّلانِ بما يتَّسِعُ له التَّخيُّلُ المعهودُ عندَ المُحسِنينَ ممَّا يَقْتضيهِ اعتقادُهم في وَعْدِ الصَّادقِ مِن جزاءِ القادرِ العظيمِ. ولِمَا أفاد اسمُ الإشارةِ مِن عَظَمةِ الجزاءِ، أُكِّدَ الخبَرُ بـ (إنَّ)؛ لِدَفْعِ تَوهُّمِ المُبالَغةِ، أي: هو فوقَ ما تَعْهَدُه في العَظَمةِ، وما تُقدِّرُه العُقولُ[(١)].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ تأْكيدٌ لِمَا قبْلَها، أي: هذا التَّكليفُ الَّذي كلَّفْناك هو الاختبارُ البيِّنُ، أي: الظَّاهرُ دَلالةً على مَرتبةٍ عظيمةٍ مِن امتثالِ أمْرِ اللهِ. وجُملةُ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ في مَحلِّ العِلَّةِ لِجُملةِ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٢)].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فيه وصْفُ الذِّبحِ بأنَّه عظيمٌ، أي: شرُفَ قَدْرُ هذا الذِّبحِ؛ وهو أنَّ اللهَ فَدَى به ابنَ رسولٍ، وأبْقى به مَن سيَكونُ رَسولًا، فعِظَمُه بعِظَمِ أثَرِه، ولأنَّه سخَّرَه اللهُ لإبراهيمَ في ذلك الوقتِ وذلك المكانِ. أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٤، ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٥٥).

وُصِفَ الذِّبحُ بأنَّه عظيمٌ؛ لأنَّه مُتقبَّلٌ يَقينًا[١]. وقيل غيرُ ذلك.

- وقد أشارتْ هذه الآياتُ إلى قِصَّةِ الذِّبيحِ، ولم يُسَمِّه القُرآنُ، لعلَّه لئلَّا يُثِيرَ خِلافًا بيْن المسلِمينَ وأهلِ الكتابِ في تَعيينِ الذَّبيحِ مِن وَلَدَيْ إبراهيمَ، وكان المَقصدُ تألُّفَ أهلِ الكتابِ؛ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم في الاعترافِ برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَصديقِ القرآنِ، ولم يكُنْ ثَمَّةَ مَقصدٌ مُهِمٌّ يَتعلَّقُ بتَعيينِ الذَّبيحِ، ولا في تَخطئةِ أهلِ الكتابِ في تَعيينِه، وأمارةُ ذلك: أنَّ القُرآنَ سمَّى إسماعيلَ عليه السَّلامُ في مَواضعَ غيرِ قِصَّةِ الذَّبحِ، وسمَّى إسحاقَ عليه السَّلامُ في مَواضعَ، ومنها بِشارةُ أُمِّه على لِسانِ الملائكةِ الَّذين أُرسِلوا إلى قَومِ لُوطٍ عليه السَّلامُ، وذكَرَ اسْمَيْ إسماعيلَ وإسحاقَ عليهما السَّلامُ أنَّهما وُهِبَا لإبراهيمَ عليه السَّلامُ على الكِبَرِ، ولم يُسَمِّ أحدًا في قِصَّةِ الذَّبحِ؛ قَصْدًا للإبهامِ مع عَدَمِ فَواتِ المقصودِ مِن الفضْلِ؛ لأنَّ المقصودَ مِن القصَّةِ التَّنويهُ بشأْنِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فأيُّ ولَدَيْه كان الذَّبيحَ كان في ابتلائِه بذَبْحِه وعَزْمِه عليه، وما ظهَرَ في ذلك مِن المعجزةِ؛ تَنويهٌ عَظيمٌ بشَأْنِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[٢] [العنكبوت: ٤٦].

٨- قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

- لم تُؤكَّدْ جُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بـ (إنَّ) هنا، وأُكِّدَت مع ذِكرِ نُوحٍ وفيما تقدَّمَ مِن ذِكرِ إبراهيمَ؛ لأنَّه لَمَّا تَقدَّمَ في هذه القصَّةِ قولُه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٥]، وكان إبراهيمُ هو المَجْزيَّ؛ اكْتُفِيَ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٦).

بتَأْكيدِ نَظيرِه عن تأْكيدِه، أي: لأنَّه بالتَّأكيدِ الأوَّلِ حصَلَ الاهتمامُ، فلمْ يَبْقَ داعٍ لإعادتِه، واقتُصِرَ على تأْكيدِ معنى الجُملةِ تأْكيدًا لَفظيًّا؛ لأنَّه تَقريرٌ للعِنايةِ بجَزائِه على إحسانِه[١].

- وفي قَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى إبقاءِ ذِكرِه الجميلِ فيما بيْن الأُمَمِ، لا إلى ما أُشِيرَ إليه فيما سبَقَ؛ فلا تَكرارَ[٢].

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

- هذه بِشارةٌ أُخرى لإبراهيمَ عليه السَّلامُ ومَكرُمةٌ له، وهي غيرُ البِشارةِ بالغلامِ الحليمِ؛ فإسحاقُ غيرُ الغُلامِ الحليمِ، ومعنى البِشارةِ به البِشارةُ بوِلادتِه له؛ لأنَّ البِشارةَ لا تَتعلَّقُ بالذَّواتِ، بل تَتعلَّقُ بالمعاني[٣].

- وانتصَبَ ﴿نَبِيّٗا﴾ على الحالِ مِن (إسحاقَ)؛ فيجوزُ أنْ يكونَ حِكايةً للبِشارةِ، فيكون الحالُ حالًا مُقدَّرًا؛ لأنَّ اتِّصافَ إسحاقَ بالنُّبوَّةِ بعْدَ زَمنِ البِشارةِ بمُدَّةٍ طويلةٍ، بلْ هو لم يكُنْ مَوجودًا؛ فالمعنى: وبَشَّرْناهُ بوِلادةِ وَلدٍ اسمُه إسحاقُ مُقَدَّرًا حالُه أنَّه نبيٌّ. وإنْ كان وَضْعًا مُعْتَرِضًا في أثناءِ القصَّةِ، كان تَنويهًا بإسحاقَ، وكان حالًا حاصلةً[٤].

- وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حالٌ ثانيةٌ، وذكَرَها للتَّنويهِ بِشَأْنِ الصَّلاحِ؛ فإنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٩١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦١، ١٦٢).

الأنبياءَ مَعْدودون في زُمْرةِ أهْلِه، وإلَّا فإنَّ كلَّ نَبيٍّ لا بُدَّ أنْ يكونَ صالحًا، والنُّبوَّةُ أعظَمُ أحوالِ الصَّلاحِ؛ لِمَا معها مِن العَظَمةِ[١].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾

- ضرَبَ اللهُ قِصَّةَ إبراهيمَ وبَنِيه مَثلًا لحالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في ثَباتِه على إبطالِ الشِّركِ، وفيما لَقِيَ مِنَ المشْركينَ، وإيماءً إلى أنَّه يُهاجِرُ مِن أرْضِ الشِّركِ، وأنَّ اللهَ يَهْديهِ في هِجرتِه، ويَهَبُ له أُمَّةً عظيمةً كما وهَبَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أتْباعًا[٢].

- وفي قَولِه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ مَثَلٌ لحالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ معه مِن أهْلِ مكَّةَ، ولحالِ المشركينَ مِن أهْلِ مكَّةَ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١٤-١٢٢)

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَنَنَّا﴾: أي: تَفضَّلْنا وأنعَمْنا، وأصلُ (منن): يَدُلُّ على النِّعمةِ[1].

﴿ٱلْمُسْتَبِينَ﴾: أي: البَيِّنَ الواضِحَ، وأصلُ (بين): يدُلُّ على الانكِشافِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولقد مَنَنَّا على موسى وهارونَ، ونجَّيْناهما وقَومَهما مِنَ الغَمِّ الشَّديدِ الَّذي أصابَهم بسَبَبِ الخَوفِ مِن الغَرَقِ، ومِن فِرعَونَ وقَومِه؛ ونصَرْناهم على فِرعَونَ وقَومِه، فكانوا هم الغالِبينَ، وآتَيْنا موسى وهارونَ الكِتابَ الواضِحَ، وهو التَّوراةُ، وهدَيْناهما الطَّريقَ المُستَقيمَ الَّذي لا اعوِجاجَ فيه، وأثنَيْنا على موسى وهارونَ بالذِّكرِ الجَميلِ الباقي فيمَن بَعْدَهما، سَلامٌ على موسى وهارونَ. مِثلَ هذا الجَزاءِ نَجزي كُلَّ مَن كان مُحسِنًا، إنَّهما مِن عِبادِنا المؤمِنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى نوحًا وهو القُدوةُ الأولَى، وإبراهيمَ وهو رسولُ المِلَّةِ الحَنيفِيَّةِ الَّتي هي نواةُ الشَّجرةِ الطَّيِّبةِ شجرةِ الإسلامِ؛ ذكَر موسَى لِشِبْهِ شريعتِه بالشَّريعةِ الإسلاميَّةِ في التَّفصيلِ والجمعِ بيْنَ الدِّينِ والسُّلطانِ، فهؤلاءِ الرُّسلُ الثَّلاثةُ أُصولٌ(١).

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

أي: ولقد مَنَنَّا بنِعمَتِنا على موسى وهارونَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ۞ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾(٣)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٣).

قيل: المرادُ: نِعمةُ النُّبُوَّةِ. وممَّن قال بهذا: يحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٣).

وقيل: المرادُ: أنْعَمْنا عليهما بالنُّبوَّةِ وهلاكِ عدوِّهما. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٦).

وقيل: المرادُ: أنْعَمْنا عليهما بالنُّبوَّةِ وغيرِها مِن المنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ. وممَّن اختاره: البيضاوي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧)، (تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٣٢).

قال ابنُ عطيَّة: (المِنَّةُ على موسى وهارونَ هي في النُّبُوَّةِ، وسائرِ ما جرى معها، مِن مكانتِهما عندَ الله تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٣).

(٣) قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ ذكَرَ جلَّ وعلا مِنَّته عليهما في =

[طه: ٣٦، ٣٧].

﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ١١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه مَنَّ على موسى وهارونَ؛ فصَّلَ أقسامَ تلك المِنَّةِ(١).

﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ١١٥﴾.

أي: ونَجَّيْنا موسَى وهارونَ وقَومَهما بني إسرائيلَ مِن الغَمِّ الشَّديدِ العَظيمِ الَّذي أصابَهم؛ بسبَبِ الخَوفِ مِن الغَرَقِ، ومِن فِرعَونَ وقَومِه(٢).

= غيرِ هذا الموضِعِ؛ كقَولِه في «طه»: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ [طه: ٣٦، ٣٧]؛ لأنَّ مِن سُؤلِه الَّذي أُوتيَه إجابةَ دَعوتِه في رسالةِ أخيه هارونَ معه، ومعلومٌ أنَّ الرِّسالةَ مِن أعظَمِ المِنَنِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٩).

قال القرطبي: (قَولُه: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قيل: مِنَ الرِّقِّ الَّذي لَحِقَ بني إسرائيلَ. وقيل: مِنَ الغَرَقِ الَّذي لحِقَ فِرعَونَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: البغويُّ، وابنُ عطيَّة، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦١٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٦). =

﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن نِعمةَ النَّجاةِ مِن الأسْرِ؛ أتْبَعَها نِعمةَ الالتِذاذِ بالنَّصرِ[(١)].

﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

أي: ونصَرْناهم على فِرعَونَ وقَومِه حينَ أغرَقَهم اللهُ، فكانوا هم الغالِبينَ لهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠].

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت فائدةُ النُّصرةِ التَّمَكُّنَ مِن إقامةِ الدِّينِ؛ قال[(٣)]:

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

أي: وآتَيْنا موسى وهارونَ الكِتابَ الواضِحَ الجَليَّ، وهو التَّوراةُ الَّتي جَعَل

= وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٩، ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨١).

اللهُ فيها المواعِظَ والأحكامَ، وفصَّل فيها كُلَّ شَيءٍ يحتاجُ إليه بنو إسرائيلَ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾.

أي: وهدَيْنا موسى وهارونَ الطَّريقَ المُستَقيمَ الَّذي لا اعوِجاجَ فيه، الموصِلَ إلى اللهِ تعالى، وهو دينُ الإسلامِ الحَقُّ الَّذي بَعَث اللهُ به أنبياءَه، وشرَعَه لعِبادِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

أي: وأثنَيْنا على موسى وهارونَ، وأنعَمْنا عليهما بالذِّكرِ الجَميلِ، والثَّناءِ الباقي في الَّذين يأتُونَ مِن بَعدِهما[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤، ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير =

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

أي: سلامٌ على موسَى وهارُونَ وثَناءٌ حسَنٌ، فلا يُذْكَرانِ بسُوءٍ[١].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذي جزَيْنا به موسى وهارونَ -لأنَّهما كانا مِنَ المُحسِنينَ- نَجْزي أيضًا كلَّ مَن كان مُحسِنًا[٢].

﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

أي: إنَّ موسى وهارونَ مِن عِبادِنا المُؤمِنينَ بالله؛ فوَحِّدوا اللهَ، وأخلِصوا العبادةَ له وَحْدَه لا شَريكَ له[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ أنَّ الغَلَبَةَ صارَت في النِّهايةِ لِموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقَومِه، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أخْذُ العِبرةِ مِن ذلك بأنَّ النَّصرَ بيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، قد يَنصُرُ مَن هو ضَعيفٌ، وقد يُذِلُّ مَن هو قَويٌّ،

= الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٧ - ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ٢٥٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٦١، ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣، ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣، ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] [آل عمران: ٢٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أنَّ كُلَّ إنسانٍ مُفتقِرٌ إلى اللهِ تعالى في الهدايةِ مهما بلَغَتْ مَرتبتُه؛ فهذا موسى وهارونُ مَنَّ اللهُ عليهما بهدايتِهما الصِّراطَ المُستقيمَ، فيجِبُ على العبدِ أنْ يَرى قَدْرَ نِعمةِ اللهِ عليه بالهِدايةِ، وألَّا يُعجبَ بعِلمِه أو عمَلِه أو عبادتِه، فكم مِن أُناسٍ أضَلَّهم اللهُ وهم أقوى منه ذَكاءً[2]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لا يَجزي العامِلَ لِشَخصِه، وإنَّما يَجزيه لِعَمَلِه؛ ولهذا بَيَّنَ أنَّ هذا الجَزاءَ لا يَختَصُّ بموسى وهارونَ، بل هو لكُلِّ إنسانٍ مُحسِنٌ[3].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المقصودُ التَّنبيهُ على أنَّ الفَضيلةَ الحاصِلةَ بسَبَبِ الإيمانِ: أشرَفُ وأعلى وأكمَلُ مِن كُلِّ الفَضائِلِ، ولولا ذلك لَما حَسُنَ خَتمُ فضائِلِ موسى وهارونَ بكَونِهما مِنَ المؤمِنينَ[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في بدايةِ قِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات: ٧٥]، وفي بدايةِ قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤]، وقال هنا عزَّ وجَلَّ في بدايةِ قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾؛ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٢).

اختِلافِ مَبادِئِ القِصَصِ الثَّلاثِ إشارةٌ إلى أنَّ الله يَغضَبُ لأوليائِه: إمَّا باستِجابةِ دَعوةٍ، وإمَّا لجزاءٍ على سَلامةِ طَوِيَّةٍ وقَلبٍ سَليمٍ، وإمَّا لِرَحمةٍ منه ومِنَّةٍ على عبادِه المُستَضعَفينَ(١).

٢- وُجوهُ الإنعامِ وإن كانت كثيرةً فإنَّها مَحصورةٌ في نوعَينِ: إيصالُ المنافِعِ للمُنعَمِ عليه، ودَفعُ المَضارِّ عنه، واللهُ تعالى ذكَرَ القِسمَينِ في حَقِّ موسى وهارونَ عليهما السَّلامُ؛ فقَولُه: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ إشارةٌ إلى إيصالِ المنافِعِ إليهما، وقَولُه: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ إشارةٌ إلى دَفعِ المَضارِّ عنهما(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ أنَّ هلاكَ عدوِّك يُعتبَرُ غَلَبةً لك -سواءٌ كان هلاكُه على يَدِك أو بعذابٍ مِن عندِ اللهِ-، فإنَّه بلا شكٍّ لم يكنْ هلاكُ فِرعَونَ وقومِه على يدِ موسى وقَومِه، بل كان بفِعلِ اللهِ؛ ومع ذلك جَعَل اللهُ سُبحانَه وتعالى إنجاءَ موسى وقومِه مِن فِرعونَ غَلَبةً، والتَّخلُّصُ مِن العدوِّ يُسمَّى نصرًا وفتحًا وغَلَبَةً، كما قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في غزوةِ مُؤْتةَ: ((أخَذَ الرَّايةَ زَيْدٌ فأُصيبَ، ثمَّ أخَذَها جَعفرٌ فأُصيبَ، ثمَّ أخَذَها عبدُ اللهِ بنُ رَواحةَ فأُصيبَ، ثمَّ أخَذَها خالدُ بنُ الوليدِ مِن غَيْرِ إمْرةٍ ففُتِحَ له))(٣)، مع أنَّه لم يَنتصِرْ على الرُّوم ولم يَغلِبْهم! ولكنْ نجا منهم، فسمَّى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم هذه النَّجاةَ فَتْحًا، كما سَمَّى اللهُ تعالى هنا نجاةَ موسى وهارونَ وقَومِه مِن فِرعونَ نصرًا وغَلَبةً(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٤٦) من حديث أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٧).

٤- مادَّةُ «نَصَرَ» تتعدَّى أحيانًا بـ «مِن»، وأحيانًا تتعدَّى بـ «على»؛ فإنْ تَعَدَّتْ بـ «مِن» فمعناها المنعُ والإنجاءُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٧٧]، نصَرْناه منهم، أي: مَنَعْناه منهم؛ وإنْ تَعَدَّتْ بـ «على» صار معناها الظُّهورَ والغَلَبَةَ، كما قال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وأحيانًا لا تَتعدَّى بـ «مِن» ولا بـ «على»، فتَشملُ المعنيَين، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[(١)] [غافر: ٥١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ بيانُ عَظيمِ مِنَّةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بإيتاءِ الكتابِ لموسى وهارونَ، وهو مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ، في قَولِه: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ لأنَّ إيتاءَ الكِتابِ أعظَمُ منه. ويَتفرَّعُ على هذا: أنَّ مَن آتاه اللهُ عِلْمَ كتابِه وسُنَّةِ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، فله نَصيبٌ مِن هذه المِنَّةِ[(٢)].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ -أي: البالغَ البَيانِ- فيه الثَّناءُ على التَّوراةِ، ولا شَكَّ أنَّ التَّوراةَ هي أعظمُ كِتابٍ أنزَلَه اللهُ تعالى على بني إسرائيلَ[(٣)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُنزِلُ الكِتابَ تِبيانًا للنَّاسِ، فيُؤخَذُ مِن ذلك أنَّ العُقولَ لا تَستَقِلُّ بمَعرفةِ ما يَجِبُ لله مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الحُقوقِ، ولا بمَعرفةِ ما يجبُ له مِن الصِّفاتِ، ولا بمَعرفةِ ما يجوزُ عليه ولا ما يمتَنِعُ، فيَكونُ في ذلك رَدٌّ على مَن حَكَّموا العُقولَ في بابِ أسماءِ اللهِ وصِفاتِه[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «إلى الصِّراطِ»؛ لأنَّ المرادَ بذلك هِدايةُ التَّوفيقِ، وهدايةُ الدَّلالةِ، وانظُرْ إلى قَولِه تعالى في سُورةِ (الفاتِحةِ): ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقال في حقِّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فإذا كانتِ الهِدايةُ بمعنى الدَّلالةِ تَعَدَّتْ بـ«إلى»، وإذا كانت بمعنى الدَّلالةِ والتَّوفيقِ تَعَدَّتْ بنَفْسِها[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ جوازُ تَعَدُّدِ الرُّسُلِ في آنٍ واحدٍ، وهذا قَبْلَ بَعثةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أمَّا بعدَ بَعثتِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ فهو خاتَمُ النَّبيِّينَ، ولا نَبيَّ بَعْدَه[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنَّ البَشَرَ مهما عَلَتْ مَنزِلتُهم ومَرتبتُهم فَهم داخِلونَ ضِمنَ العُبوديَّةِ؛ لأنَّ موسى وهارونَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن أكابرِ الأنبياءِ، ومع ذلك فإنَّ اللهَ تعالى وَصَفَهما بالعُبوديَّةِ له سُبحانَه وتعالى[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٠).

للشُّروعِ في القصَّةِ الثَّالثةِ[١]. أو عطْفٌ على قولِه: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ [الصافات: ٧٥]، وذُكِرَ هنا ما كان مِنَّةً على مُوسى وهارونَ، وهو النُّبوَّةُ؛ فإنَّها أعظَمُ دَرجةً يُرفَعُ إليها الإنسانُ، ولذلك اكْتُفِيَ عن تَعيينِ الممْنونِ به؛ لِحَمْلِ الفِعلِ على أكْمَلِ مَعناهُ، وجُعِلَت مِنَّةً مِنَ اللهِ عليهما؛ لأنَّ مُوسى لم يَسأَلِ النُّبوَّةَ؛ إذ ليستِ النُّبوَّةُ بمُكتسَبةٍ، وكانت مِنَّةً على هارونَ أيضًا؛ لأنَّه إنَّما سأَلَ له مُوسَى ذلك، ولم يَسأَلْه هارونُ؛ فهي مِنَّةٌ عليه، وإرضاءٌ لِمُوسى[٢].

- قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ اللامُ جوابٌ للقسمِ المحذوفِ، و(قد) حرفُ تحقيقٍ[٣]، وهو مِن حروفِ توكيدِ الخبرِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أي: بعدَ أنْ كان قَومُهما في أسْرِ فِرعونَ وقَومِه وقَسْرِهم، مَقْهورينَ تحتَ أيْديهم العاديةِ، يَسُومُونهم سُوءَ العذابِ، وهذه التَّنجيةُ وإنْ كانتْ بحسَبِ الوُجودِ مُقارِنةً لِمَا ذُكِرَ مِن النَّصرِ والغَلَبةِ، لكنَّها لَمَّا كانتْ بحسَبِ المفهومِ عِبارةً عن التَّخليصِ مِن المكْروهِ، بُدِئَ بها، ثمَّ بالنَّصرِ الَّذي يَتحقَّقُ مَدلُولُه بمَحْضِ تَنْجيةِ المنصورِ مِن عَدُوِّه مِن غيرِ تَغليبِه عليه، ثمَّ بالغَلَبةِ؛ لِتَوفيةِ مَقامِ الامتِنانِ حَقَّه، بإظهارِ أنَّ كلَّ مَرْتبةٍ مِن هذه المراتبِ الثَّلاثِ نِعمةٌ جَليلةٌ على حِيالِها[٥].

- و(هم) مِن قولِه: ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ ضَميرُ فَصْلٍ، وهو يُفِيدُ قصْرًا، أي: همُ الغالِبينَ لِغَيرِهم، وغيرُهم لم يَغْلِبوهم، أي: لم يُغلَبوا ولو مرَّةً واحدةً؛

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢، ٢٠٣).

فإنَّ المُنتصِرَ قد يَنتصِرُ بعْدَ أنْ يُغلَبَ في مَواقعَ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾

- الكِتابُ المُستبينُ: هو التَّوراةُ، والمُسْتبينُ: القويُّ الوُضوحِ، البليغُ في البَيانِ والتَّفصيلِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، يُقالُ: استبانَ الشَّيءُ؛ إذا ظهَرَ ظُهورًا شَديدًا[٢].

- وتَعديةُ فِعلِ الإيتاءِ إلى ضَميرِ مُوسى وهارونَ عليهما السَّلامُ، مع أنَّ الَّذي أُوتِيَ التَّوراةَ هو موسى؛ مِن حيث إنَّ هارونَ كان مُعاضِدًا لِمُوسى في رِسالتِه، فكان له حظٌّ مِن إيتاءِ التَّوراةِ، كما قال اللهُ في الآيةِ الأُخرى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً ﴾ [الأنبياء: ٤٨][٣]. ولأنَّه مِثلُه في تَقبُّلِ الكتابِ، والعمَلِ بجَميعِ ما فيه، والثَّباتِ على ما يَدْعو إليه، وإنْ كان نُزولُه خاصًّا بمُوسى عليه السَّلامُ[٤].

- وفي ذِكرِ قِصَّةِ موسى وهارونَ عليهما السَّلامُ عِبرةُ مَثَلٍ كاملٍ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ في رِسالتِه، وإنزالِ القُرآنِ عليه، وهِدايتِه، وانتِشارِ دِينِه وسُلطانِه بعْدَ خُروجِه مِن دِيارِ المشْرِكينَ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٥).

الآيات (١٢٢-١٢٢)

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَعْلًا﴾: أي: رَبًّا، أو: هو اسمُ صنمٍ، والبَعْلُ: المالِكُ والسَّيِّدُ والرَّبُّ، ومنه سُمِّيَ الزَّوجُ بَعلًا، وأصلُ (بعل) هنا: يدُلُّ على الصَّاحِبِ[1].

﴿وَتَذَرُونَ﴾: أي: تَترُكونَ، وتَدَعُونَ، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه؛ لقِلَّةِ اعتِدادِه به[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وإنَّ إلياسَ لَمِن جُملةِ المُرسَلينَ، إذ قال لِقَومِه: ألا تتَّقونَ اللهَ تعالى؟! أتَعْبُدونَ صنمًا، وتَجعلونه ربًّا، وتَترُكونَ عِبادةَ اللهِ أحسَنِ الخالِقينَ؛ رَبِّكم ورَبِّ آبائِكم الأوَّلينَ؟! فكذَّبَه قَومُه فإنَّهم لَمُحضَرونَ العذابَ، إلَّا عِبادَ اللهِ الَّذين أخلَصَهم اللهُ تعالى له؛ فإنَّهم ناجونَ مِن العَذابِ. وأثنَيْنا على إلياسَ بالذِّكرِ الجَميلِ الباقي فيمَن يأتي مِن بَعدِه؛ سَلامٌ على «إل ياسين»، مِثلَ ذلك

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

الجزاءِ الَّذي جزَينا به «إل ياسينَ» نَجزي كلَّ مَن كان مُحسِنًا. إنَّ إلياسَ مِن عِبادِنا المؤمِنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أُتْبِعَ الكلامُ على رُسلٍ ثلاثةٍ أصحابِ الشَّرائعِ: نوحٍ، وإبراهيمَ، ومُوسى؛ بالخبَرِ عن ثلاثةِ أنبياءَ: إلياسَ، ولُوطٍ، ويُونسَ، وما لَقُوه مِن قَومِهم؛ وذلك كلُّه شَواهدُ لِتَسليةِ الرَّسولِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقَوارعُ مِن الموعظةِ لِكُفَّارِ قُريشٍ[(١)].

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

أي: وإنَّ إلياسَ لَرَسولٌ مِن جُملةِ رُسُلِ الله تعالى[(٢)].

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٥، ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

قال الرسعني: (قال عامةُ المفسرينَ وأهلِ العلمِ بالتاريخِ: هو نبيٌّ مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤١٦).

وقال البِقاعي: (كان أحدَ بني إسرائيلَ عندَ جميعِ المفَسِّرينَ إلَّا ابنَ مَسعودٍ وعِكْرِمةَ، وهو مِن سِبْطِ لاوِي، ومِن أولادِ هارونَ عليه السَّلامُ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٨٣).

وقال ابنُ عاشور: (إلياسُ هو إيلياءُ، مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ التَّابِعينَ لِشَريعةِ التَّوراةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

ورُوِيَ عن ابنِ مَسعودٍ أنَّ إلياسَ هو إدريسُ، وقاله عِكرَمةُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٥).

أي: حينَ قال لِقَومِه: ألا تَجعَلونَ بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه حاجِزًا، بعبادتِه وَحْدَه لا شريكَ له[(١)]؟!

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٧٣).

قيل: ﴿إِذْ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بـ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: حِينَ قالَ لقومِه... وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

قال ابن عاشور: (أي: إنَّه مِن حينِ ذلك القَولِ كان مُبَلِّغًا رِسالةَ اللهِ تعالى إلى قَومِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

وقيل: ﴿إِذْ﴾ ظَرفٌ لِفعلٍ محذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ. أي: اذكُرْ يا محمَّدُ. وممَّن قال بهذا: الواحديُّ، والرازي، والنيسابوري. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٣)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٧٤).

ممن اختار أنَّ المعنى: ألا تَتَّقون الله: ابنُ جرير، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٥).

وقال السمرقندي: (اللفظُ لفظُ الاستفهامِ، والمرادُ به الأمرُ. يعني: اتَّقوا الله تعالى). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥١).

وممن اختار أنَّ المعنى: ألا تَتَّقون عذابَ الله: البيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٢٥).

وممن اختار أنَّ المعنى ألا تخافونَ الله: الواحدي، والسمعاني، وابن الجوزي، والرازي، والنسفي، وابن كثير، والشربيني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٩٢).

واختار ابنُ عثيمينَ أنَّه حُذِف مفعولُ ﴿تَتَّقُونَ﴾ ليعمَّ، فيشملَ المعنى: ألا تَتَّقونَ الله، ألا تَتَّقونَ النار، ألا تَتَّقونَ يومَ الحسابِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الصافات)) (ص:٢٧٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خَوَّفَهم أوَّلًا على سَبيلِ الإجمالِ؛ ذكَرَ ما هو السَّبَبُ لذلك الخَوفِ، فقال[(١)]: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾.

أي: أتَعْبُدون صنمًا مِن دونِ الله، وتَجعلونه رَبًّا[(٢)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

قيل: ﴿بَعْلًا﴾ أي: ربًّا. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، وابن عادل، ونسَبَه الواحديُّ للأكثَرينَ مِن المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٣٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٨).

وممَّن قال مِن السَّلفِ بهذا القولِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١١٩).

قال البِقاعي: (﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أي: إلهًا وربًّا، وهو صنمٌ كان لهم في مدينةِ بَعْلَبَكَّ... ويحتملُ أن يكونَ علَمًا على الصَّنم المذكورِ، فيكونَ المفعولَ الثَّانيَ مَنْويًّا، وحُذِف لِيُفهِمَ الدُّعاءَ الَّذي لا دُعاءَ يُشبِهُه، وهو الدُّعاءُ بالإلهيَّةِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٨٤).

وقيل: هو اسمُ صَنَمٍ لهم كانوا يَعبُدونَه. وممَّن قال بهذا القَولِ: القرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ، والضَّحَّاكُ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١١٩).

قال القرطبي: (وبذلك سُمِّيَت مَدينتُهم: بَعلَبَكَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٦).

وقال مقاتل: (﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أتَعْبُدون ربًّا، بلُغةِ اليمَنِ الإلهُ يُسمَّى بعلًا، وكان صنَمًا مِن ذهبٍ ببَعْلَبَكَّ بأرضِ الشَّامِ، فكسَرَه إلياسُ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٧). =

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

أي: وتَترُكونَ عِبادةَ اللهِ أحسَنِ الخالِقينَ، المُستَحِقِّ للعِبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له[1]؟!

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٢٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا عابَهم على عبادةِ غيرِ اللهِ؛ صرَّحَ بالتَّوحيدِ، ونَفيِ الشُّرَكاءِ[2].

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٢٦﴾.

أي: أتَترُكونَ عِبادةَ رَبِّكم المحسِنِ إليكم، ورَبِّ آبائِكم الَّذين مِن قَبلِكم[3]؟!

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ١٢٧﴾.

أي: فكذَّب قَومُ إلياسَ رَسولَهم، فهم مُحضَرونَ في العَذابِ قَهرًا وكَرهًا[4].

= وقال النَّحَّاسُ: (عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ قال: صنَمًا. وروَى عطاءُ بنُ السَّائبِ عن عِكْرِمةَ عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ قال: ربًّا. قال أبو جعفرٍ: [أي: النَّحَّاسُ]: القولانِ صَحيحانِ، أي: تَدْعون صنَمًا عَمِلْتُموه ربًّا). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

قال الماوَرْدي: (فيه وَجْهانِ؛ أحدُهما: مَن قيلَ له: خالِقٌ. الثَّاني: أحسَنُ الصَّانِعينَ؛ لأنَّ النَّاسَ يَصنَعونَ ولا يَخلُقونَ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٦٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((الهداية)) لمكِّي (٩/ ٦١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) =

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

أي: إلَّا عِبادَ اللهِ مِن قَومِ إلياسَ ممَّن أخلَصَهم اللهُ له، واستخلَصَهم مِنَ الكُفرِ، واختارَهم لخاصَّةِ رَحمتِه، فآمَنوا باللهِ ورَسولِه، وأخلَصوا له أعمالَهم؛ فإنَّهم مُنجَّونَ مِن العَذابِ[1].

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا جاهَدَ في اللهِ تعالى، وقام بما يجِبُ عليه مِن حُسنِ الثَّناءِ؛ جازاه سُبحانَه[2].

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾.

أي: وأثنَيْنا على إلياسَ وأنعَمْنا عليه بالذِّكرِ الجَميلِ والثَّناءِ الباقي في الَّذين يَأتُونَ مِن بَعدِه[3].

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿آلِ يَاسِينَ﴾ بفَتحِ الهَمزةِ ومَدِّها، وبَعْدَها لامٌ مَكسورةٌ، فتكونُ

= للبقاعي (١٦/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٨)، ((الهداية)) لمكِّي (٩/ ٦١٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٧ - ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(آل) كَلِمةً مضافةً إلى (ياسين)، والمرادُ آلُ إلياسَ: وهم أتْباعُه. وقيل: أهلُه[١]. وهو داخلٌ فيهم[٢].

٢- قِراءةُ ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ بكَسرِ الهَمزةِ، وبعدَها لامٌ ساكِنةٌ. قيل: هو اسمُ إلياسَ، كان يُسمَّى باسمَينِ: إلياسَ، وإلياسينَ، مِثلُ: إبراهيمَ، وإبراهامَ، وميكالَ وميكائيلَ. وقيل: هو جمْعُ إلياسَ، والمرادُ: إلياسُ وأمَّتُه المؤمِنونَ[٣].

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، ويَعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٠)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٠).
وقيل: المرادُ بآلِ ياسينَ: آلُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم. وقد ردَّ هذا القولَ وضَعَّفه: ابنُ جرير، والسُّهَيليُّ، وابنُ القيِّم، والفيروزابادي، وغيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢١)، ((غوامض الأسماء المبهمة)) للسهيلي (ص: ١٥٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٦/ ٧٨).

(٢) فالرَّجُلُ حيثُ أُضيفَ إلى آلِه دخَل فيه هو، كقولِه تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقولِه تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]، وقولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((اللَّهُمَّ صَلِّ على آلِ أبي أَوْفَى)). وهذا إذا لم يُذكَرْ معه مَن أُضيفَ إليه الآلُ. يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٤).
قال ابنُ عاشور: (والأظهرُ أنَّ المرادَ بـ ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ أنصارُه الذين اتَّبعوه وأعانوه... فيكون المعنى: سلامٌ على ياسينَ وآلِه؛ لأنَّه إذا حصَلت لهم الكرامةُ؛ لأنَّهم آلُه فهو بالكرامةِ أولَى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٠).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١١)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٠).
قال ابن القيِّم: (والصَّوابُ -واللهُ أعلَمُ- في ذلك: أنَّ أصلَ الكَلِمةِ (آل ياسين) كآلِ إبراهيمَ، =

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠ ﴾.

أي: سلامٌ على إلْ ياسينَ وثَناءٌ حسنٌ، فلا يُذكَرُ بسُوءٍ[١].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أظهَرَ اللهُ سُبحانَه شَرَفَ إلياسَ عليه السَّلامُ، أو الأنبياءِ الَّذين هو أحَدُهم؛ عَلَّله مُؤَكِّدًا له، تَنبيهًا على أنَّه لا بُدَّ مِن إعلاءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأتْباعِه على كُلِّ مَن يُناوِئُهم وإن كَذَّبَت بذلك قُرَيشٌ، فقال[٢]:

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣١ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذي جزَيْنا به إلْ ياسينَ نَجزي أيضًا كُلَّ مَن كان مُحسِنًا[٣].

= فحُذِفَت الألفُ واللَّامُ مِن أوَّلِه؛ لاجتماعِ الأمثالِ، ودَلالةِ الاسمِ على موضِعِ المحذوفِ، وهذا كثيرٌ في كلامِهم: إذا اجتمَعَت الأمثالُ كَرِهوا النُّطقَ بها كُلِّها، فحذَفوا منها ما لا إلباسَ في حَذفِه، وإن كانوا لا يَحذِفونَه في موضِعٍ لا تجتمِعُ فيه الأمثالُ... ولا سيَّما عادةُ العربِ في استِعمالِها للاسمِ الأعجميِّ، وتغييرُها له؛ فيقولون مرَّةً: إلياسينَ، ومرةً إلياسَ، ومرَّةً ياسين، ورُبَّما قالوا: ياس، ويكونُ على إحدى القراءتَينِ قد وقَع على المُسَلَّمِ عليه، وعلى القراءةِ الأُخرى على آلِه). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٠٨).

وقال ابن كثير: (﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾ أي: سلامٌ على إلياسَ، والعربُ تُلحِقُ النُّونَ في أسماءٍ كثيرةٍ، وتُبدِلُها مِن غيرِها، كما قالوا: إسماعيلُ وإسماعينُ، وإسرائيلُ وإسرائينُ، وإلياسُ وإلياسينُ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٧، ٢٠٨، ٤٦١، ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣، ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣، ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه تعالى علَّلَ الحُكمَ بإحسانِه، مُؤكِّدًا لِما مضى في مِثلِه، بقَولِه[1]:

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾.

أي: إنَّ إلياسَ مِن عِبادِنا المُؤمِنينَ باللهِ؛ الموحِّدينَ الَّذين أخْلَصوا العِبادةَ لله وَحْدَه لا شَريكَ له[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾. في قَولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ مهما بَلَغ في عَرْضِ الدَّعوةِ إلى اللهِ وبَيانِها والبَلاغةِ في العِظةِ؛ فإنَّه لا يَستَلزِمُ أنْ يُؤَثِّرَ فيمَن وَجَّهَ الخِطابَ إليه؛ لأنَّ إلياسَ عليه السَّلامُ عَرَض الدَّعوةَ عليهم عَرضًا رَقيقًا، وبيَّنَ لهم الأدِلَّةَ على أنَّ اللهَ وَحْدَه المُستَحِقُّ للعبادةِ، ومع ذلك كَذَّبوه! ويَتفرَّعُ على هذه الفائِدةِ: أنَّه ينبغي للدَّاعيةِ إذا رُدَّ قولُه ألَّا يَعتبِرَ نَفْسَه مُقَصِّرًا أو فاشِلًا؛ لأنَّه أدَّى ما عليه، وهو البَلاغُ، والهدايةُ على اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، فلو أراد اللهُ بهؤلاء خَيرًا لَانقادوا للهُدى، أمَّا أنت فقد أرادَ اللهُ بك خيرًا؛ لأنَّك بَلَّغتَ ما عليك[3].

= (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦، ٧٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أنَّه ينبغي للدَّاعيةِ أنْ يُذَكِّرَ النَّاسَ بما يكونُ سَببًا لاتِّعاظِهم، فيُذَكِّرهم بأنَّ آباءَهم قد فَنُوا وذَهَبوا، وأنَّكم أنتم سوف تَذهَبونَ كما ذَهَبَ الآباءُ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُثْني على عِبادِه بما يَستَحِقُّونَ مِن الأوصافِ في الآخِرينَ؛ لِيبقَى ذِكرُهم مُخَلَّدًا؛ فإنَّه لولا أنَّ اللهَ ذَكَر هؤلاء الأنبياءَ لَطُوِيَت صَحائِفُهم، وما عُلِمَ عنهم شَيءٌ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ بيانُ تَلَطُّفِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ في دَعوةِ قَومِهم؛ لأنَّه قال: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وهذا للعَرضِ والحَثِّ -على قولٍ-، ولم يَقُلْ لهم: اتَّقوا اللهَ، مع أنَّ الرُّسُلَ قد يَقولون: اتَّقوا اللهَ، لكِنْ يُنَزِّلُ كلُّ مُخاطَبٍ مَنزِلتَه بما يَليقُ به[٣].

٣- إنْ قيلَ: كيف الجَمعُ بيْنَ قَولِه: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾، وقَولِه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾؟ **فالجوابُ**: أنَّ الخَلقَ يكونُ بمعنى الإيجادِ -ولا مُوجِدَ سِوى اللهِ-، ويكونُ بمعنى التَّقديرِ، كقَولِ زُهَيرٍ[٤]:

ولَأنتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبعـ ـضُ القَومِ يَخلُقُ ثمَّ لا يَفْري[٥]

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((ديوان زهير بن أبي سُلْمى)) (ص: ٥٦).

(٥) يَخلُقُ: أي: يُقَدِّرُ الأديمَ ويُهَيِّئُه للقَطعِ. ويَفْري: أي: يَشُقُّه كما قَدَّر. ومعنى البيتِ: أنت إذا قدَّرْتَ أمرًا وتهَيَّأْتَ له أمضَيْتَه وأنفَذْتَه بعَزمِك وقدرتِك ولم تَعجزْ عنه، بخِلافِ غيرِك؛ فإنَّ بعضَ القومِ يُقَدِّرُ ثمَّ لا قوَّةَ له ولا عزيمةَ على إنفاذِ ما قدَّره وإمضائِه، فالخَلْقُ: التَّقديرُ، والفَرْيُ: التَّنفيذُ. =

فهذا المرادُ هاهنا: أنَّ بني آدَمَ قد يُصَوِّرونَ ويُقَدِّرونَ ويَصنَعونَ الشَّيءَ؛ فاللهُ خَيرُ المصَوِّرينَ والمقَدِّرينَ. وقال الأخفَشُ: (الخالِقونَ هاهنا هم الصَّانِعونَ، فاللهُ خيرُ الخالِقينَ)[١]، فخَلْقُ الخالقِ إيجادٌ مِن عدَمٍ على ما يُريد اللهُ عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦]، أمَّا خَلْقُ المخلوقِ: فهو تحويلُ مخلوقِ الله إلى صِفةٍ أخرى[٢].

٤- تَرَتُّبُ الجَزاءِ على العَمَلِ، وتُؤخَذُ مِن الفاءِ الدَّالَّةِ على السَّبَبيَّةِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ فالجَزاءُ مُترتِّبٌ على العَمَلِ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ زيادةٌ مِنَ اللهِ في عِدادِ كَرامةِ نبيِّه عليه السَّلامُ؛ فتلك نِعمةٌ وشرَفٌ مِنَ اللهِ؛ بأنْ أَبْقَى نِعَمَه عليه في أُمَمٍ بعْدَه[٤]. وفيه بيانُ أنَّ اللهَ تعالى يُجازِي المُحسِنَ بالإحسانِ حتَّى بعدَ مَوتِه؛ لِقَولِه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾، والواقِعُ شاهِدٌ بذلك؛ فإنَّ أئمَّةَ الإسلامِ أبقَى اللهُ عليهم ثَناءً حَسَنًا في الآخِرينَ، وصَدَّ كلَّ لسانٍ يَقدَحُ فيهم؛ فجَعَلَ فيهم الثَّناءَ، وسَلَّمَهم مِن القَدْحِ[٥].

٦- لَفظُ «آلِ فُلانٍ» إذا أُطلِقَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ، دَخَلَ فيه فُلانٌ، كما في قَولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ آلِ يَاسِينَ﴾[٦] على إحدي القراءتينِ.

= يُنظر: ((شرح ديوان زهير)) لثعلب (ص: ٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٧/ ٣٨١)، ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ٥٣)، ((معارج القبول)) لحافظ حكمي (١/ ١٣٢).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٤).

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٦٢)، ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٥٧٨).

٧- في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مدَحَ اللهُ تعالى نَبيَّه بالإيمانِ، مع أنَّ مَرتبةَ الرُّسلِ فَوقَ مَرتبةِ المؤمنينَ؛ تنبيهًا لنا على جَلالةِ محلِّ الإيمانِ وشَرَفِه، وترغيبًا في تحصيلِه، والثَّباتِ عليه، والازديادِ منه(١).

٨- في قِصَّةِ إلياسَ عليه السَّلامُ إنباءٌ بأنَّ الرَّسولَ عليه أداءُ الرِّسالةِ، ولا يَلزَمُ مِن ذلك أنْ يُشاهِدَ عِقابَ المكذِّبينَ ولا هَلاكَهم؛ للرَّدِّ على المشْركينَ الَّذين قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٣- ٩٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]، وفي الآيةِ الأُخرى: ﴿وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾(٢) [مريم: ٤٠].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾

- ابتُدِئَ ذِكرُ هؤلاء الثَّلاثةِ (إلياسَ، ولُوطٍ، ويُونسَ) بجُملةِ ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّهم سَواءٌ في مَرْتبةِ الدَّعوةِ إلى دِينِ اللهِ، وفي أنَّهم لا شَرائعَ لهم. وتأْكيدُ إرسالِهم بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بالخبَرِ؛ لأنَّه قد يُغفَلُ عنه؛ إذ لمْ تكُنْ لهؤلاء الثَّلاثةِ شَريعةٌ خاصَّةٌ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾

- قَولُه: ﴿أَلَا﴾ كَلمتانِ: همْزةُ الاستِفهامِ للإنكارِ، و(لا) النَّافيةُ -على

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٦٥، ١٦٦).

قولٍ-، إنكارٌ لِعَدَمِ تَقْواهم[١].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ لِدَلالةِ ما بعْدَه عليه[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾

- الهمْزةُ في قَولِه: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا ...﴾ للاستفهامِ الإنكاريِّ[٣].

- وجِيءَ في قَولِه: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ بذِكرِ صِفَةِ اللهِ دونَ اسْمِه العَلَم؛ تَعريضًا بتَسفيهِ عُقولِ الَّذين عَبَدوا بَعْلًا؛ بأنَّهم تَرَكوا عِبادةَ الرَّبِّ المتَّصِفِ بأحسَنِ الصِّفاتِ وأكمَلِها، وعَبَدوا صَنَمًا ذاتُه وَخْشٌ -وهو الرَّديءُ من كُلِّ شيءٍ- فكأنَّه قال: أتَدْعُون صَنَمًا بَشِعًا جمَعَ عُنْصرَيِ الضَّعفِ -وهُما: المَخْلوقيَّةُ، وقُبْحُ الصُّورةِ- وتَتْرُكون مَن له صِفةُ الخالقيَّةِ والصِّفاتُ الحُسْنى[٤]؟! فالنُّكتةُ في العُدولِ عن اسمِ اللهِ الَّذي يَختَصُّ به، وهو «الله»: هي إقامةُ الحُجَّةِ عليهم بعدَمِ صَلاحيةِ مَعبودِهم للعبادةِ؛ لأنَّه لا يَستطيعُ الخَلْقَ، واللهُ وَحْدَه هو الَّذي يَقدِرُ على الخَلْقِ، وعلى أحسَنِ الخَلْقِ[٥].

- ولم يقُلْ: (وتَدَعون أحسَنَ الخالقينَ)؛ لأنَّ فِعلَ (يَدَعُ) قَليلُ الاستِعمالِ في كَلامِ العرَبِ؛ ولذلك لم يقَعْ في القرآنِ إلَّا في قِراءةٍ شاذَّةٍ لا سنَدَ لها، خِلافًا لِفِعلِ (يَذَرُ)، وسبَبُ ذلك: أنَّ فِعلَ (يَذَرُ) يَدلُّ على تَرْكٍ مع إعراضٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٧٤).

عن المتْروكِ، بخِلافِ (يَدَعُ)؛ فإنَّه يَقْتضي تَرْكًا مُؤقَّتًا[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

- قُرِئَ برَفْعِ اسمِ الجَلالةِ وما عُطِفَ عليه[٢]، فهو مُبتدَأٌ، والجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، والخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ على الخطَأِ بأنْ عَبَدوا بَعْلًا. وقُرِئَ بنَصْبِ اسمِ الجلالةِ على عَطْفِ البَيانِ لـ ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، والمقصودُ مِن البَيانِ زِيادةُ التَّصريحِ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ إيضاحٍ لأصْلِ الدِّيانةِ. وعلى كِلْتا القِراءتينِ فالكلامُ مَسوقٌ لِتَذْكيرِهم بأنَّ مِن أُصولِ دِينِهم أنَّه لا ربَّ لهم إلَّا اللهُ، وهذا أوَّلُ أُصولِ الدِّينِ؛ فإنَّه ربُّ آبائِهم؛ فإنَّ آباءَهم لمْ يَعبُدوا غيرَ اللهِ مِن عهْدِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وهو الأبُ الأوَّلُ مِن حيثُ تَميَّزَتْ أُمَّتُهم عن غَيرِهم، أو هو يَعقوبُ عليه السَّلامُ. وجمَعَ هذا الخبَرُ تَحريضًا على إبطالِ عِبادةِ الصَّنمِ (بَعْل) -على قولٍ-؛ لأنَّ في الطَّبْعِ مَحبَّةَ الاقتداءِ بالسَّلفِ في الخيْرِ[٣].

- والتَّعرُّضُ لِذِكْرِ رُبوبيَّتِه تعالى لِآبائهم في قَولِه: ﴿وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ﴾؛ لِتَأْكيدِ إنكارِ تَرْكِهم عِبادتَه تعالى، والإشعارِ ببُطلانِ آراءِ آبائِهم أيضًا[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: مُحْضَرون في العذابِ، وإنَّما أطْلَقَه؛ اكتِفاءً منه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٩).

(٢) قرأ يعقوبُ وحمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ وحفصٌ بالنَّصبِ في الأسماء الثَّلاثةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ ﴿رَبَّكُمْ﴾ ﴿وَرَبَّ﴾، وقرأ الباقون برفعِها. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٠)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٧، ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٤).

بالقَرينةِ، أو لأنَّ الإحضارَ المُطلَقَ مَخصوصٌ بالشَّرِّ عُرْفًا[١]. وقد كثُرَ إطلاقُ المُحضَرِ ونَحوِه على الَّذي يُحضَرُ لأجْلِ العِقابِ، وإحضارِ السُّوءِ؛ ولذلك حذَفَ مُتعلَّقُ (مُحْضَرُونَ)[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾

- قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استِثناءٌ يدُلُّ على أنَّ مِن قَومِه مُخلَصينَ لم يُكَذِّبوه، فهو استِثناءٌ مُتَّصِلٌ مِن ضميرِ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾. ولا يَجوزُ أنْ يَكونَ استِثناءً مِن ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ لأنَّه يَلْزَمُ أنْ يكونوا مُندرِجينَ فيمَن كذَّبَ، لكنَّهم لم يُحْضَروا لكونِهم عبادَ اللَّهِ المُخْلِصين! وهو بَيِّنُ الفسادِ. ولا يُناسِبُ أنْ يَكونَ استِثناءً مُنقطِعًا؛ إذْ يصيرُ المعنى: لكنَّ عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ مِن غيرِ قَومِه لا يُحضَرونَ للعَذابِ! ولا حاجةَ إلى هذا بوجهٍ، إذ به يَفْسُدُ نَظْمُ الكلامِ[٣].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾

- قَولُه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ يَتعلَّقُ لفظُ ﴿عَلَيْهِ﴾ بفِعلِ ﴿وَتَرَكْنَا﴾، بتَضمينِ هذا الفِعلِ معنَى (أَنعَمْنا)، فأَفادَ بمادَّتِه معنَى الإبقاءِ له، أي: إعطاءِ شَيءٍ مِنَ الفضائلِ المُدَّخَرةِ الَّتي يُشبِهُ إعطاؤُها تَرْكَ أحَدٍ مَتاعًا نفيسًا لِمَن يُخَلِّيه هو له ويَخلُفُه فيه، وشأنُ التَّضمينِ أنْ يُفيدَ المُضَمَّنُ مُفادَ كَلِمتَينِ، فهو مِن أَلْطَفِ الإيجازِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٨، ١٦٩، ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣).

- في قَولِه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ لَمَّا كان مفعولُ (تَرَكْنَا) مَحذوفًا، وكان فِعلُ (أنعَمْنا) الَّذي ضُمِّنَه فِعلُ (تَرَكْنَا) ممَّا يَحتاجُ إلى مُتعلِّقِ معنَى المفعولِ، كان محذوفًا أيضًا مع عامِلِه؛ فكان التَّقديرُ: (وتَرَكْنا له ثَناءً وأنعَمْنا عليه)؛ فحصَلَ في قَولِه: (تَرَكْنَا عَلَيْهِ) حذْفُ خَمسِ كَلِماتٍ، وهو إيجازٌ بديعٌ[1].

- قَولُه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال عَقِبَه ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ [الصافات: ٧٩]، وبعدَه ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ثمَّ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠]، وكذلك ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠] فيمَن جعَله لغةً في إلياسَ، ولم يقُلْ في قصَّةِ لوطٍ ولا يونسَ: ﴿سَلَٰمٌ﴾؛ لأنَّه لما قالَ: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فقد قال: سَلامٌ على كلِّ واحِدٍ مِنْهم؛ لقولِه في آخرِ السُّورةِ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2].

٨- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

- في قَولِه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تَعليلٌ لمُجازاةِ إلياسَ عليه السَّلامُ بتلك التَّكْرِمةِ السَّنيَّةِ مِن تَبقيةِ ذِكرِه، وتَسليمِ العالَمينَ عليه إلى آخِرِ الدَّهرِ بأنَّه كان مُحسِنًا، ثمَّ علَّلَ كَونَه مُحسِنًا بأنَّه كان عبدًا مؤمنًا؛ ليُريَك جَلالةَ محلِّ الإيمانِ، وأنَّه القُصارَى مِن صِفاتِ المدحِ والتَّعظيمِ، ويُرَغِّبَك في تَحصيلِه والازديادِ منه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٦). ويُنظر أيضًا: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨).

الآيات (١٢٢-١٢٨)

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: الباقِينَ في العَذابِ، وقيل: الماضينَ الَّذين قد هلَكوا، والغابرُ مِن الأضْدادِ؛ يكونُ بمعنَى الماضي، وبمعنَى الباقي، وأصلُ (غبر): يدُلُّ على البَقاءِ[1].

﴿مُّصْبِحِينَ﴾: أي: داخِلينَ في وَقتِ الصَّباحِ، وأصلُ (صبح): لونٌ مِن الألوانِ، وهو الحُمرةُ، وسُمِّيَ الصُّبحُ صُبحًا لِحُمرتِه[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وإنَّ لُوطًا لَمِنْ جُملةِ المُرسَلينَ إذ نجَّيْناه وأهلَه المُؤمِنينَ مِن العذابِ إلَّا زَوجتَه العَجوزَ؛ كانت مع قَومِها الباقينَ في العذابِ، ثمَّ أهلَكْنا قومَ لُوطٍ جَميعًا.

وإنَّكم لَتَمُرُّونَ عليهم أثناءَ سَفَرِكم وأنتم داخِلونَ في وقتِ الصَّباحِ، وباللَّيلِ، أفلا تَعقِلونَ فتَتَّعِظوا وتخافوا أنْ يُصيبَكم مِثلُ ما أصابَهم؟!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أتَمَّ اللهُ سُبحانَه ما أراد مِن أُمورِ المُحسِنينَ مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ المُرسَلينَ إلى ذُرِّيَّتِه في التَّسليةِ والتَّرجيةِ، وقدَّمَهم لأنَّ المِنَّةَ عليهم مِنَّةٌ عليه، والإنسانُ بابنِه أسَرُّ منه بقَريبِه، وهم الَّذين أظهَرَ اللهُ بهم ما تَرَك عليه مِن لِسانِ الصِّدقِ في الآخِرينَ- أتْبَعَهم قِصَّةَ ابنِ أخيه، فقال[1]:

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

أي: وإنَّ لُوطًا لَرَسولٌ مِن جُملةِ رُسُلِ اللهِ تعالى[2].

﴿ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

أي: اذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ نجَّيْناه وأهلَه المُؤمِنينَ مِن العذابِ الَّذي أصاب قَومَه[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

قيل: ﴿ إِذْ ﴾ ظَرفٌ لفِعلٍ محذوفٍ، تقديرُه: اذكُرْ. وممَّن قال بهذا: الواحديُّ، وابن الجوزي، والرسعني، وجلال الدين المحلي، والشوكانيُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٢٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٧، ٢٨٨). =

كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤، ٣٥].

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الكُفرُ قاطِعًا للسَّبَبِ القَريبِ، كما أنَّ الإيمانَ واصلٌ للسَّبَبِ البَعيدِ؛ قال[1]:

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

أي: إلَّا زَوجتَه العَجوزَ لم نُنَجِّها؛ فكانت مع القَومِ الباقينَ في العَذابِ[2].

= قال الشوكاني: (الظَّرفُ مُتعَلِّقٌ بمحذوفٍ هو اذكُرْ، ولا يصِحُّ تعلُّقُه بالمرسَلينَ؛ لأنَّه لم يُرسَلْ وقتَ تَنجيتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٠). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٢).

وقيل: ﴿إِذْ﴾ ظَرفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: إنَّه في حينِ إنجاءِ اللهِ إيَّاه، وإهلاكِ اللهِ قَومَه: كان قائمًا بالرِّسالةِ عن اللهِ تعالى، ناطِقًا بما أمَرَه الله. وممَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٨).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ لـ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

قال الشوكاني: (الغابرُ يكونُ بمعنى الماضي، ويكونُ بمعنى الباقي، فالمعنى: إلَّا عجوزًا في =

كما قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾[الأعراف: ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾[الحجر: ٥٩، ٦٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾[التحريم: ١٠].

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

أي: ثمَّ أهلَكْنا قومَ لُوطٍ جميعًا، فلم يَبقَ منهم أحَدٌ[١].

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

أي: وإنَّكم[٢] لَتَمُرُّونَ أثناءَ سَفَرِكم على الموضِعِ الَّذي كان فيه قَومُ لُوطٍ، وأنتم داخِلونَ في وَقتِ الصَّباحِ في أوَّلِ النَّهارِ[٣].

= الباقينَ في العذابِ، أو الماضينَ الَّذين قد هلَكوا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٨).

(٢) قيل: الخِطابُ لكُفَّارِ قُرَيشٍ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١).

وقيل: يُمكِنُ أن يكونَ الخِطابُ عامًّا لكُلِّ مَن يَمُرُّ بِقُراهم إلى يومِ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، =

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦].

﴿وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾.

﴿وَبِٱلَّيۡلِ﴾.

أي: وتَمُرُّونَ عليهم باللَّيلِ أيضًا[(١)].

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

أي: أفلَيسَتْ لديكم عُقولٌ تَتفَكَّرونَ بها، فتَعتَبِروا وتتَّعِظوا، وتَخافوا أن يُصيبَكم اللهُ بعَذابِه كما أصابَ قَومَ لوطٍ الَّذين كذَّبوا رَسولَه وخالَفوه[(٢)]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أنَّه قد تكونُ المرأةُ الكافِرةُ تحتَ الرَّجُلِ المؤمِنِ مِن غيرِ أنْ يَعلَمَ بها، وقد بَيَّنَ اللهُ سببَ ذلك -أي: سبَبَ وقوعِ العَذابِ عليها- بأنَّها كانت قد خانتْ زَوجَها بالكُفرِ مِن غيرِ أنْ يَعلَمَ؛ كما في قَولِه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٩، ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١، ١٧٢).

قال ابنُ عاشور: (وكان أهلُ مكَّةَ إذا سافَروا في تجارتِهم إلى الشَّامِ يمُرُّونَ ببلادِ فِلسطين، فيَمُرُّونَ بأرضِ لوطٍ على شاطِئِ البَحرِ الميِّتِ المسمَّى بُحيرةَ لُوطٍ...، وكانوا يمُرُّونَ بديارِ لُوطٍ بجانبِها؛ لأنَّ قُراهم غمَرَها البَحرُ الميِّتُ، وآثارُها باقيةٌ تحت الماءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَتفقَّدَ أهْلَه، وأنْ يَتحرَّى، وأنْ يَسبُرَ أمورَهم[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذكَرَ هذه القِصَّةَ؛ لِيَعتبِرَ بها مُشرِكو العَرَبِ؛ فإنَّ الَّذين كفَروا مِن قَومِه هلَكوا، والَّذين آمَنوا نَجَوْا[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أنَّ القُربَ مِن الأنبياءِ والأولياءِ لا يُغْني عن الإنسانِ شيئًا؛ لأنَّ هذه زَوجةُ نَبيٍّ، ومع ذلك هَلَكَت مع مَن هَلَكَ، فكَوْنُ الإنسانِ قريبًا مِن إنسانٍ وَلِيٍّ للهِ: لا يُفيدُه شيئًا؛ فأبو لهبٍ عَمُّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ومع ذلك ما نزَلَ القُرآنُ في أحدٍ مُعَيَّنٍ مِن الكُفَّارِ سِوى أبي لهبٍ عَمِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! وما نزَلَ القُرآنُ في تَسميةِ شَخصٍ بعَينِه مِن المُسلِمينَ إلَّا في زيدِ بنِ حارثةَ - مَولًى مِن الموالي- مِن أبعَدِ ما يكونُ عن الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ! وبهذا يَتبيَّنُ أنَّ قُربَ النَّسَبِ وقُربَ المصاهرةِ لا يُغْني عن الإنسانِ شيئًا[٣]!

٢- الإشارةُ إلى أنَّ الإنسانَ إذا رأى الشَّيءَ بعَينِه كان ذلك أقوى يَقينًا ممَّا إذا أُخبِرَ به؛ لِقَولِه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ وتُشاهِدونَ آثارَهم، وهذا يُسمَّى عَيْنَ اليَقينِ، والخُبْرُ به يُسمَّى عِلْمَ اليَقينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٣).

٣- أنَّ العَقلَ حقيقةً هو ما أرشَدَ صاحبَه إلى فِعْلِ الخيرِ وتَرْكِ الشَّرِّ، وليس العَقلُ هو الذَّكاءَ؛ فالعَقلُ شَيءٌ، والذَّكاءُ شيءٌ آخَرُ، وكلُّ مَن كان مُكَذِّبًا للرُّسُلِ، مُستكبِرًا عمَّا جاؤوا به؛ فإنَّه ليس بعاقِلٍ حتَّى وإنْ كان مِن أدهَى النَّاسِ، أو كان ذا شَرَفٍ وجاهٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقد قال اللهُ مِثلَ هذا في بَني إسرائيلَ الَّذين يأمُرونَ النَّاسَ بالبِرِّ ويَنسَونَ أنفُسَهم وهم يَتْلونَ الكِتابَ، فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾

- قَولُه: ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ (إذ) ظَرْفٌ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ تَقديرُه: واذكُرْ، أي: اذكُرْ وَقتَ تَنْجيتِنا إيَّاهُ. وعلى القولِ بأنَّ (إذ) ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فالمعنى: أنَّه في حِينِ إنجاءِ اللهِ إيَّاهُ وإهلاكِ اللهِ قَومَه، كان قائمًا بالرِّسالةِ عنِ اللهِ تعالى، ناطقًا بما أمَرَه اللهُ، وإنَّما خُصَّ حِينُ إنجائِه بجَعْلِه ظَرْفًا للكَونِ مِن المرسَلينَ؛ لأنَّ ذلك الوقتَ ظَرْفٌ للأحوالِ الدَّالَّةِ على رِسالتِه؛ إذ هي مُماثِلةٌ لأحوالِ الرُّسلِ مِن قبْلُ ومِن بعْدُ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾

- الخِطابُ لِقُريشٍ الَّذينَ سِيقَتْ هذه القصصُ لِعِظَتِهم، وتَعديةُ المرورِ بحرْفِ (على) يُعيِّنُ أنَّ الضَّميرَ المجرورَ بتَقديرِ مُضافٍ، أي: على أرْضِهم، يُقالُ: مَرَّ عليه، ومرَّ بِه، وتَعديتُه بحرْفِ (على) تُفيدُ تَمكُّنَ المرورِ أشَدَّ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١).

تَعْديتِه بالباءِ[١].

- والخبَرُ الَّذي في قَولِه: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ﴾ مُستعمَلٌ في الإيقاظِ والاعتبارِ، لا في حَقيقةِ الإخبارِ، وتأْكيدُه بحرْفِ التَّوكيدِ وباللَّامِ تأْكيدٌ للمَعْنى الَّذي استُعْمِلَ فيه[٢].

- قَولُه تعالى: ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ أي: داخِلينَ في الصَّباحِ؛ الوَقتِ الَّذي قَلَبْنا مَدائِنَهم عليهم فيه، ونَصَّ عليه؛ للتَّذكيرِ بحالِهم فيه[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾

- نَبَّههم بقَولِه: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ۞ وَبِٱلَّيۡلِ﴾ لِيَعتَبِروا؛ لأنَّ القَومَ كانوا يُسافِرونَ إلى الشَّامِ، والمسافِرُ في أكثَرِ الأمرِ إنَّما يَمشي في اللَّيلِ وفي أوَّلِ النَّهارِ؛ فلهذا السَّبَبِ عيَّن تعالى هذَينِ الوَقتَينِ[٤].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ مِن عَدَمِ فِطنةِ قُريشٍ لِدَلالةِ تلك الآثارِ على ما حلَّ بقَومِ لُوطٍ مِن سَخَطِ اللهِ، وعلى سبَبِ ذلك؛ وهو تَكذيبُ رسولِ اللهِ لُوطٍ عليه السَّلامُ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٢).

الآيات (١٢٩-١٤٨)

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَبَقَ﴾: أي: هَرَب وفَرَّ، وأصلُ (أبق): يدُلُّ على التَّباعُدِ[١].

﴿ٱلْفُلْكِ﴾: أي: السُّفنِ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ الفلكِ: الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيتْ فُلْكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[٢].

﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾: أي: المملوءِ، وأصلُ (شحن): يدُلُّ على الملءِ[٣].

﴿فَسَاهَمَ﴾: أي: قارَعَ، والسَّهمُ: ما يُرمَى به وما يُضرَبُ به مِن القِداحِ، وأصلُه: يدُلُّ على الحَظِّ والنَّصيبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥).

﴿ٱلْمُدْحَضِينَ﴾: أي: المَغلُوبينَ في القُرعةِ، وأصلُ (دحض): يدُلُّ على زَوالٍ وزَلَقٍ[١].

﴿فَٱلْتَقَمَهُ﴾: أي: فابتَلَعَه، وهو افتِعالٌ مِن اللَّقْمِ، وأصلُ (لقم): يدُلُّ على تَناوُلٍ[٢].

﴿ٱلْحُوتُ﴾: الحوتُ: العظيمُ مِن السَّمكِ، أو: السَّمكُ كلُّه، وأصلُ (حوت): مِن الاضْطِرابِ والرَّوَغانِ، والحوتُ مُضطرِبٌ أبدًا غيرُ مستقرٍّ[٣].

﴿مُلِيمٌ﴾: أي: مُسيءٌ مُذنِبٌ آتٍ بما يُلامُ عليه، وأصلُ (لوم): يدُلُّ على عَتْبٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٤)، ((المخصص)) لابن سيده (٣/ ١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦١).

قال الزَّيْنُ الرَّازيُّ: (الْحُوتُ: السَّمَكةُ... ويُؤَيِّدُ كَوْنَه مُطْلَقَ السَّمكةِ قولُه تعالَى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١] والمنقولُ في الحديثِ الصَّحيحِ أنَّها كانَتْ سمكةً في مِكْتَلٍ. وما ظَنُّكَ بزَوَّادَةِ اثنينِ خُصوصًا موسَى وصاحِبَه؟! وأدَلُّ مِنْ هذا قولُه تعالَى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣]. وأمَّا قولُه تعالَى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ فإنَّه يدُلُّ على صِحَّةِ إطلاقِ الحوتِ على السَّمكةِ الكبيرةِ، لا على حَصْرِ مُسَمَّى الحوتِ فيها كما يَظُنُّه العامَّةُ. وقال ابنُ فارِسٍ: الحوتُ: العَظيمُ مِنَ السَّمكِ). ((مختار الصحاح)) (ص: ٨٣). ويُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾: أي: فألقَيْناه وقذَفْناه بمَكانٍ خالٍ لا يَتوارى فيه بشَجَرٍ ولا غَيرِه، وأصلُ (نبذ): يدُلُّ على الطَّرحِ والإلقاءِ، وأصلُ (عري) هنا: يدُلُّ على خُلُوٍّ ومُفارَقةٍ[١].

﴿يَقْطِينٍ﴾: اليَقطينُ: الدُّبَّاءُ (القرعُ). وقيل: هو كُلُّ شَجَرٍ لا يَقومُ على ساقٍ؛ مِثلُ: القَرعِ، والبِطِّيخِ، ونَحوِهما[٢].

﴿حِينٍ﴾: أي: مُنتهى آجالِهم، وأصلُ (حين): يدُلُّ على زَمانٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وإنَّ يُونُسَ لَمِن جُملةِ المُرسَلينَ إذ هَرَب إلى السَّفينةِ المملوءةِ بالرُّكَّابِ والأمتِعةِ، فقارَعَ يُونُسُ مع رُكَّابِ السَّفينةِ؛ لِيَختاروا مَن يُلقُونَه في البَحرِ؛ لِيَخِفَّ حِملُ السَّفينةِ حينَ خافوا الغَرَقَ، فكان يونُسُ مِن جُملةِ المغلوبينَ الَّذين أُلقُوا في البَحرِ، فابتَلَعه الحوتُ والحالُ أنَّه قد فَعَل ما يُلامُ عليه!

فلولا أنَّه كان مِن المُسَبِّحينَ اللهَ تعالى لَبَقِيَ في بَطنِ الحُوتِ إلى يَومِ البَعثِ، فألقَيْنا يونُسَ في مَكانٍ مُقفِرٍ خالٍ مِن كُلِّ شَيءٍ، وهو مَريضٌ، وأنبَتْنا عليه شَجَرةً مِن يَقطينٍ؛ لِيَأكُلَ منها، وأرسَلْناه إلى مِئةِ ألْفِ إنسانٍ أو يَزيدونَ على ذلك، فآمَنوا بما جاءَهم به يُونُسَ، فمَتَّعَهم اللهُ في الدُّنيا إلى حينِ بُلوغِ آجالِهم.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٩/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أكمَلَ اللهُ سُبحانَه ما أرادَ مِن أُمورِ مَن كان على أيديهم هَلاكٌ في الدُّنيا أو في الآخِرةِ، خَتَم بمَن آلَ أمرُ قَومِه إلى سَلامةٍ وإيمانٍ، ونِعمةٍ وإحسانٍ؛ تغليبًا للتَّرجِيةِ على التَّأسيةِ والتَّعْزيةِ[١].

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

أي: وإنَّ يُونُسَ لَرَسولٌ مِن جُملةِ رُسُلِ اللهِ تعالى[٢].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: يعني: اللهَ تبارك وتعالى: ((لا ينبغي لعبدٍ لي أن يَقولَ: أنا خَيرٌ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى عليه السَّلامُ))[٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما يَنبغي لأحَدٍ أن يقولَ: أنا خيرٌ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى[٤]))[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(٣) رواه البخاري (٣٤١٦)، ومسلم (٢٣٧٦) واللَّفظُ له.

(٤) يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ أنَّ العبدَ القائلَ هو الَّذي لا يَنبغي له أن يقولَ ذلك، أي: ليس لأحدٍ أن يُفضِّلَ نفسَه على يونسَ عليه السلامُ. ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بقولِه: ((أنا)) رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وقاله تواضعًا، أي: ليس لأحدٍ أنْ يُفضِّلَني عليه، ودلَّ حديثُ أبي هريرة السابقُ على أنَّ الاحتمالَ الأوَّلَ أوْلَى. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٦٧)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ٢٩٣).

(٥) رواه البخاري (٤٦٠٣).

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ١٤٠﴾.

أي: حينَ هَرَب إلى السَّفينةِ المَملوءةِ(١).

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ١٤١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٦، ٢٩٧).

قيل: ﴿إِذْ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بـ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ عاشور، وذكره ابنُ عثيمينَ احتِمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٦).

وذهب ابنُ عثيمين إلى أنَّ المعنى على القَولِ بأنَّ ﴿إِذْ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بالمُرسَلينَ: هو أنَّ إباقَه لم يَسلُبْه الرِّسالةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٦).

وقيل: ﴿إِذْ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ. واستحسَنه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٦).

قال البغوي: (واختلَفوا في أنَّ رِسالةَ يونُسَ بنِ متَّى: متى كانت؟ فروى سعيدُ بنُ جُبَيرٍ عن ابنِ عبَّاس: أنَّها كانت بعدَ أن أخرَجَه اللهُ مِن بطنِ الحوتِ؛ بدليلِ أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ ذكَرَ في سورةِ الصَّافَّات ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾، ثمَّ ذكَر بَعْدَه: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]. وقال الآخَرون: إنَّها كانت مِن قَبْلُ؛ بدليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٣٩، ١٤٠]). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣١٥).

قال ابنُ جُزَي: (وسببُ هروبِه غضَبُه على قَومِه حينَ لم يؤمِنوا. وقيل: إنَّه أخبَرَهم أنَّ العذابَ يأتيهم في يومٍ مُعَيَّنٍ حسبَما أعلمه اللهُ، فلمَّا رأى قَومُه مَخايلَ العذابِ آمَنوا، فرفَع الله عنهم العذابَ، فخافَ أن يَنسبوه إلى الكذبِ فهرَب). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٧).

وقال السعدي: (ولم يَذكُرِ اللهُ ما غاضَبَ عليه، ولا ذَنْبَه الَّذي ارتكَبَه؛ لعَدمِ فائدتِنا بذِكرِه، وإنَّما فائدتُنا بما ذُكِّرْنا عنه أنَّه أذنَبَ، وعاقَبَه اللهُ مع كَونِه مِن الرُّسُلِ الكرامِ، وأنَّه نجَّاه بعدَ ذلك، وأزال عنه المَلامَ، وقيَّض له ما هو سَبَبُ صلاحِه. فلمَّا أَبَقَ لجأَ إلى الفُلْكِ المشحونِ بالرُّكَّابِ والأمتِعةِ، فلَمَّا رَكِبَ مع غيرِه، والفُلْكُ شاحِنٌ، ثَقُلَتِ السَّفينةُ، فاحتاجوا إلى إلقاءِ بَعضِ الرُّكْبانِ، وكأنَّهم لم يَجِدوا لأحَدٍ مَزِيَّةً في ذلك، فاقتَرَعوا على أنَّ مَن قُرِعَ وغُلِبَ أُلقِيَ في البَحرِ؛ عَدلًا مِن أهلِ السَّفينةِ، وإذا أراد اللهُ أمرًا هيَّأ أسبابَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

أي: فقارَعَ يُونُسُ مع ركَّابِ السَّفينةِ؛ لِيَختاروا مَن يُلقونَه في البَحرِ؛ لِتَخِفَّ بهم السَّفينةُ حينَ خافوا الغَرَقَ، فكان يُونُسُ مِن جُملةِ المغلوبينَ الَّذين أُلقُوا في البَحرِ[1].

﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

أي: فابتَلَعَه الحوتُ، والحالُ أنَّه قد فعَلَ ما يُلامُ عليه[2].

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

أي: فلولا أنَّ يُونُسَ كان مِنَ المُسَبِّحينَ اللهَ تعالى[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٥)، ((الطرق الحكمية)) لابن القيم (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٣، ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٧، ٢٩٨).

قال ابنُ عاشور: (كان غرَقُه في البَحرِ المسَمَّى بحرَ الرُّوم، وهو الَّذي نُسَمِّيه البحرَ الأبيضَ المتوسِّطَ، ولم يكُنْ بنَهرِ دِجلةَ كما غَلِطَ فيه بعضُ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧).

قال ابن الجوزي: (قَولُه تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: مِنَ المُصَلِّينَ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ. والثَّاني: مِنَ العابِدينَ. قاله مجاهِدٌ، ووَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ. والثَّالثُ: قولُ «لا إلهَ إلَّا أنت سُبحانَك إنِّي كنتُ مِن الظَّالِمين». قاله الحَسَنُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٢).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ونَسَبه إلى قَولِ كثيرٍ مِن المفسِّرينَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤١١) و (١٩/ ٦٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٤).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ ﴾ يعني: يونُسَ ﴿ كَانَ مِنَ ﴾ المُصَلِّينَ لله قبْلَ البَلاءِ الَّذي ابتُلِيَ به مِن العُقوبةِ بالحَبسِ في بطنِ الحُوتِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٧). =

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾.

أي: لَبقِيَ في بَطنِ الحُوتِ إلى اليَومِ الَّذي يُبعَثُ فيه العِبادُ(١).

﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥﴾.

= وممَّن اختار القَولَ الثَّالثَ: ابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٥).

قال ابن الجوزي: (فعلى هذا القَولِ يكونُ تسبيحُه في بطنِ الحوتِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٢).

وقيل: مِن الذَّاكِرينَ اللهَ كثيرًا بالتَّسبيحِ والتَّقديسِ. وممَّن اختاره: الزمخشري، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٥).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ أي: مِنَ المُصَلِّينَ لله تعالى والذَّاكرينَ إيَّاه: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٥).

قال ابنُ الجوزي: (وجمهورُ العُلَماءِ على أنَّه أراد: لولا ما تقدَّم له قبْلَ الْتِقامِ الحَوتِ إيَّاه؛ مِن التَّسبيحِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٣).

وممَّن جمَع بيْن المعاني السَّابقةِ: السعديُّ، فقال: (﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ أي: في وقتِه السَّابقِ، بكَثرةِ عبادتِه لرَبِّه، وتسبيحِه، وتحميدِه، وفي بَطنِ الحوتِ؛ حيث قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٣٨).

قال الشوكاني: (﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: لَصار بطنُ الحوتِ له قبرًا إلى يومِ البعثِ. وقيلَ: لَلَبِثَ في بَطْنِه حَيًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧١).

وقال الرازي: (واختَلَفوا في أنَّه كم لَبِثَ في بطنِ الحوتِ، ولفظُ القرآنِ لا يدُلُّ عليه). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٧).

أي: فألقَيْنا يُونُسَ في مَكانٍ مُقفِرٍ خالٍ مِنَ الشَّجَرِ والبناءِ، وهو مَريضٌ[(١)].

﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦ ﴾.

أي: وأنبَتْنا عليه شَجَرةَ يَقطينٍ[(٢)]؛ .....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣١، ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧).

(٢) قيل: المرادُ باليَقطينِ: كُلُّ شَجَرةٍ لا تقومُ على ساقٍ؛ كالدُّبَّاءِ -أي: القَرعِ-، والبِطِّيخِ، والحَنظلِ، وغيرِ ذلك. وممَّن قال بهذا القول: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣١٤).

وممَّن قال مِن السَّلفِ بنحوِ هذا القولِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٣).

وممَّن اختار أنَّها الدُّبَّاءُ (القرع): ابنُ القيِّم، والبِقاعي، وابنُ عاشور، وذكر ابنُ عطيَّةَ أنَّ القَولَ بأنَّ اليقطينَ هو القَرعُ هو المشهورُ في اللُّغةِ، ونسَبَه الواحديُّ والسَّمعانيُّ إلى جميعِ المفَسِّرينَ، ونسَبَه أبو السُّعودِ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦).

وممَّن قال مِن السَّلفِ بهذا القولِ: عبدُ الله بنُ مسعود، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو هُرَيرةَ، وعَمرُو بنُ مَيمونٍ الأَوْديُّ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، ومُغيرةُ، والضَّحَّاكُ، ووَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ، وهلالُ بنُ يَسافٍ، وعبدُ الله بنُ طاوسٍ، وعَطاءٌ الخُراسانيُّ، والسُّدِّيُّ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، ومُجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠).

قال ابنُ جُزَي: (﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴾ أي: أنبَتْناها فوقَه؛ لِتُظِلَّه وتَقيَه حَرَّ الشَّمسِ، واليَقطينُ: القَرعُ، وإنَّما خَصَّه اللهُ به؛ لأنَّه يجمَعُ بَردَ الظِّلِّ، ولِينَ اللَّمسِ، وكِبَرَ الوَرقِ، وأنَّ الذُّبابَ لا يَقرَبُه؛ فإنَّ لحمَ يُونُسَ لَمَّا خرَجَ مِن البَحرِ كان لا يحتَمِلُ الذُّبابَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٤).

قال ابنُ عاشور: (وهي كثيرةُ الوَرَقِ، تتسَلَّقُ أغصانُها في الشَّيءِ المُرتَفعِ، فالظَّاهِرُ أنَّ أغصانَ اليَقطينةِ تسَلَّقَتْ على جسَدِ يُونُسَ فكسَتْه وأظلَّتْه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧). =

لِيَقتاتَ منها، ويَنتفِعَ بها[١].

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

أي: وأرسَلْنا يُونُسَ إلى مِئةِ ألْفِ شَخصٍ أو[٢] .....

= وقال القرطبي: (قولُه :﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ يعني ﴿عَلَيۡهِ﴾ أي: عندَه، كقولِه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ﴾ [الشعراء: ١٤] أي: عندي. وقيل: ﴿عَلَيۡهِ﴾ بمعنى: له). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧).

(٢) قيل: ﴿أَوۡ﴾ هنا بمعنى: بَلْ؛ فهي تُثبِتُ وُجودَ زيادةٍ في العدَدِ على مئةِ ألْفٍ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وأبو عُبَيْدةَ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٩٣)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٣).

وقيل: هي بمعنى الواوِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ قُتَيْبَةَ، والخازنُ، ونسَبَه البَغَويُّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠، ٢٩١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٤٨).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المعنى أنَّهم يَزيدون على مِئةِ ألْفٍ -وإنِ اختَلفوا في مِقدارِ الزِّيادةِ-: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحسَنُ، والربيعُ، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ، ومكحولٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١).

وقيل: هي على أصلِها، والمعنى: أو يَزيدونَ في تَقديرِكم إذا رآهم الرَّائي منكم. وممَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: الأخفَشُ، والزمخشريُّ، والنَّسَفي، وأبو السعود. يُنظر: ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٣١٤).

ومِن قواعدِ التَّفسيرِ: أنَّه قد يَرِدُ الخِطابُ بالشَّيءِ في القرآنِ على اعتقادِ المُخاطَبِ دُونَ ما في نفْسِ الأمرِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٨٤، ٢٨٥).

وقيل: المرادُ بها التَّحقيقُ والتَّأكيدُ، أي: إنَّ عدَدَهم مِئةُ ألْفٍ لا يَنقُصونَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ القيِّم. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٥٠)، ((مدارج السالكين)) =

يَزيدونَ عليهم[١].

﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨﴾.

أي: فآمَنوا كُلُّهم بما جاءَهم به يُونُسُ، ووحَّدوا اللهَ، فلم يُعَذِّبْهم، ومتَّعَهم في الدُّنيا إلى حينِ بُلوغِ آجالِهم[٢].

= لابن القيم (١/ ٣٢٦) و (٣/ ٣٠٢).

قال البِقاعي: (لَمَّا كان العددُ الكثيرُ لا يُمكِنُ ناظِرَه الوُقوعُ فيه على حقيقةِ عدَدِه، بل يَصيرُ -وإن كان أثبَتَ النَّاسِ نظرًا- يقولُ: هم كذا، يَزيدونَ قليلًا أو يَنقُصونَه، وتارةً يَجزِمُ بأنَّهم لا يَنقُصونَ عن كذا وأمَّا الزِّيادةُ فمُمكِنةٌ، وتارةً يَغلِبُ على ظنِّه الزِّيادةُ، وهو المرادُ هنا؛ قال: ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾؛ لأنَّ التَّرجيةَ في كثرةِ الأتْباعِ أقَرُّ لِلْعَينِ، وأسَرُّ للقَلبِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٩٦).

ومِن معاني (أو): الشَّكُّ بالنسبةِ إلى المخاطبين، أي: إن الرائي يَشُكُّ عندَ رؤيتِهم.

ومِن معانيها: الإبهامُ بالنسبةِ إلى أنَّ الله تعالى أبْهَم أمْرَهم.

ومِن معانيها: الإباحةُ أي: أنَّ الناظرَ إليهم يُباحُ له أن يَحْزِرَهم بهذا القَدْرِ، أو بهذا القَدْرِ.

ومن معانيها: التخييرُ أي: هو مُخَيَّرٌ بين أَنْ يَحْزِرَهم كذا أو كذا. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ١٦٧) و (٩/ ٣٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٢٦) و(٣/ ٣٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

قال الزمخشري: (﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ﴾ المرادُ به ما سَبَق مِن إرسالِه إلى قَومِه، وهم أهلُ نِينَوَى. وقيل: هو إرسالٌ ثانٍ بعدَ ما جرى عليه إلى الأوَّلِينَ، أو إلى غيرِهم. وقيل: أسلَموا فسألوه أن يَرجِعَ إليهم فأبى؛ لأنَّ النَّبيَّ إذا هاجَرَ عن قَومِه لم يرجِعْ إليهم مُقيمًا فيهم، وقال لهم: إنَّ اللهَ باعِثٌ إليكم نَبيًّا). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢).

وقال البِقاعي: (لَمَّا لم يَتعلَّقِ الغَرَضُ بتَعيينِ المُرسَلِ إليهم، وهل هم الَّذين أبْقَى عنهم أوْ لا؟ قال: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ﴾، والجُمهورُ على أنَّهم الَّذين أُرسِلَ إليهم أوَّلًا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٩٥، ٢٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فيه بَيانُ فَضلِ التَّسبيحِ، والعَمَلِ في الرَّخاءِ[(١)]. وفيه إشارةٌ إلى حديثِ: ((تَعَرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ، يَعرِفْك في الشِّدَّةِ))[(٢)]. قال الضَّحَّاكُ: (اذكُروا اللهَ في الرَّخاءِ، يَذكُرْكم في الشِّدَّةِ؛ إنَّ يُونُسَ عليه السَّلامُ كان عَبدًا صالِحًا، وكان يَذكُرُ اللهَ، فلمَّا وَقَع في بَطنِ الحُوتِ سأل اللهَ، فقال اللهُ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وإنَّ فِرعَونَ كان عَبدًا طاغيًا ناسيًا لذِكرِ اللهِ تعالى، فلمَّا أدركَه الغَرَقُ قال: آمَنْتُ، فقال الله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١]؟!)[(٣)]، ففيه تَرغيبٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ في إكثارِ المؤمِنِ مِن ذِكرِه بما هو أهْلُه،

= كثير)) (٧/ ٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٣، ٢٩٤).

والحديث أخرجه مِن طُرُقٍ: أحمدُ (٢٨٠٣)، والطَّبَرانيُّ (١١/ ١٢٣) (١١٢٤٣)، والحاكمُ (٦٣٠٣) -واللفظُ له- مطوَّلًا مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.

صحَّح الحديثَ عبدُ الحقِّ الإشبيليُّ في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (٣/ ٣٣٣)، والقرطبيُّ في ((التفسير)) (٨/ ٣٣٥)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٢٩٦١)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨٠٣).

وحسَّنه ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحِكَم)) (١/ ٤٥٩)، وابنُ حَجَرٍ في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَرِ)) (١/ ٣٢٧)، والسَّخاويُّ في ((المقاصد الحسنة)) (١٨٨)، وحسَّنَ إسنادَه الصَّنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٤/ ٢٦٧)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٣٤٨).

وإقبالِه على عِبادتِه، وجمْعِ هَمِّه لِتَقْييدِ نِعمتِه بالشُّكرِ في وَقتِ المُهلةِ والفُسحةِ؛ لِيَنْفَعَه ذلك عِنده تعالى في المَضايقِ والشَّدائدِ[1]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ...﴾ الغَرَضُ مِن ذِكرِ يُونُسَ عليه السَّلامُ هنا تَسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يَلْقاه مِن ثِقلِ الرِّسالةِ، بأنَّ ذلك قد أثقَلَ الرُّسُلَ مِن قَبْلِه، فظَهَرت مَرتبةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في صَبرِه على ذلك، وعَدَمِ تذَمُّرِه، ولإعلامِ جميعِ النَّاسِ بأنَّه مأمورٌ مِن اللهِ تعالى بمُداوَمةِ الدَّعوةِ للدِّينِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ كانوا يَلومونَه على إلحاحِه عليهم، ودَعوتِه إيَّاهم في مُختلِفِ الأزمانِ والأحوالِ، ويَقولونَ: (لا تَغْشَنا في مجالِسِنا، فمَن جاءك مِنَّا فأسمِعْه)، كما قال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ[2]. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]؛ فلِذِكرِ قِصَّةِ يُونُسَ أثَرٌ مِن مَوعِظةِ التَّحذيرِ مِن الوُقوعِ فيما وقَعَ فيه يُونُسُ مِن غَضَبِ رَبِّه؛ ألَا ترى إلى قَولِه تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۞ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٨، ٤٩]، ولِيَعلَمَ النَّاسُ أنَّ اللهَ إذا اصطفى أحدًا للرِّسالةِ لا يُرَخِّصُ له في الفُتورِ عنها، ولا يَنسَخُ أمْرَه بذلك؛ لأنَّ اللهَ أعلَمُ حيثُ يجعَلُ رِسالاتِه[3].

٢- أنَّ مَقامَ النُّبُوَّةِ لا يَمنَعُ مِن فِعْلِ بَعضِ ما لا يكونُ مَحبوبًا إلى اللهِ، أي: أنَّ الرَّسولَ قد يقومُ بشَيءٍ لم يُؤمَرْ به. دَليلُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٥٦٦)، ومسلم (١٧٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٨).

ٱلْمَشْحُونِ﴾، فعَبَّرَ عن خُروجِه بالإباقِ؛ لأنَّه خُروجٌ لم يُؤمَرْ به[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ استُدِلَّ به على جوازِ المُساهَمةِ -يعني: القُرْعةَ-، وذلك على أنَّ شَرْعَ مَن قَبْلَنا شرعٌ لنا ما لم يَرِدْ شرعُنا بخلافِه؛ وقد وَرَدَ شرعُنا بوفاقِه؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا أراد سفرًا أَقْرَعَ بيْنَ نسائِه؛ فأيَّتُهنَّ خَرَج سَهْمُها خَرَج بها[٢].

٤- حُبُّ الإعذارِ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه يُحِبُّ الإعذارَ مِن خَلقِه -أي: إقامةَ العُذرِ لِمَا فَعَلَه عزَّ وجلَّ- حتَّى لا يُنسَبَ فِعلُه للظُّلمِ وللسَّفَهِ، وتُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾، يعني: ليس في حالٍ لا يُلامُ عليها حتَّى يُقالَ: إنَّ في هذا ظُلمًا له أو سفهًا في حقِّه! بلِ التَقَمَه الحوتُ في حالٍ هو مُستَحِقٌّ فيها لذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّ المرءَ يُحفَظُ بصالحِ عَمَلِه، ويَنجُو به مِن المُهلِكاتِ[٤]، فالطَّاعاتُ السَّابقةُ تكونُ سَبَبًا للنَّجاةِ مِن المُهْلِكاتِ اللَّاحقةِ، فيكونُ في هذا شاهِدٌ لِقَولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٩).

والحديث رواه البخاري (٢٦٨٨)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديثِ عائشةَ رضيَ الله عنها.

لكن قال ابنُ عاشور: (ليس في الآيةِ دَليلٌ على مشروعيَّةِ القُرعةِ في الفَصلِ بيْن المُتساوِيَين؛ لأنَّها لم تَحْكِ شَرعًا صحيحًا كان قبْلَ الإسلامِ؛ إذْ لا يُعرَفُ دينُ أهلِ السَّفينةِ الَّذين أجرَوُا الاستِهامَ على يُونُسَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٤).

وقال أيضًا: (ما أُجرِيَ الاستِهامُ عليه قد أجمَع المُسلِمونَ على أنَّه لا يَجري في مِثْلِه استِهامٌ). ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٣٩).

النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((تَعَرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ، يَعرِفْكَ في الشِّدَّةِ))(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أنَّه لو بَقِيَ في بَطنِ الحوتِ لَكان فيه آيةٌ مِن آياتِ اللهِ؛ أنْ يَبقَى هذا الحوتُ مِن ذلك الوَقتِ إلى يومِ القيامةِ؛ لأنَّ هذا ظاهِرُ اللَّفظِ؛ أنَّه يَبقَى في بَطنِه إلى البَعثِ(٢).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ فيه سؤالٌ: في هذه الآيةِ التَّصريحُ بنَبذِ يُونُسَ بالعَراءِ -عليه وعلى نَبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ- وقد جاءتْ آيةٌ أُخرَى يُتوَهَّمُ منها خِلافُ ذلك، وهي قَولُه تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩]؟

الجوابُ: أنَّ الامتِناعَ المدلولَ عليه بحَرفِ الامتِناعِ الَّذي هو: (لولا) مُنصَبٌّ على الجُملةِ الحاليَّةِ، لا على جوابِ (لولا). وتقريرُ المعنى: لولا أنْ تداركَه نِعمةٌ مِن رَبِّه لَنُبِذَ بالعَراءِ في حالِ كونِه مَذمومًا، لكِنَّه تداركَتْه نِعمةُ رَبِّه، فنُبِذَ بالعراءِ غيرَ مذمومٍ؛ فهذه الحالُ عُمدةٌ لا فَضلةٌ، لأنَّ المرادَ بالفَضلةِ ما ليس رُكنًا في الإسنادِ وإن توقَّفَت صِحَّةُ المعنى عليه. ونظيرُها قَولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]، وقَولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧]؛ لأنَّ النَّفيَ فيهما مُنصَبٌّ على الحالِ لا على ما قَبْلَهما(٣).

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ فيه إثباتُ تأثيرِ الأسبابِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣١٢).
والحديثُ تقدَّم تخريجُه.

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٩٨).

لأنَّ هذه الشَّجَرةَ تُظِلُّه -على قولٍ- وتُبَرِّدُ عليه، وهي لَيِّنةُ المَلمَسِ، ويُقالُ: إنَّ الذُّبابَ لا يَقَعُ عليها، واللهُ قادرٌ على أنْ يُظِلَّه بغَمامةٍ، وقادِرٌ على أنْ يُبقيَه في الشَّمسِ في العراءِ ولا يَتأثَّرُ، لكِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُبَيِّنُ لعِبادِه أنَّ الأشياءَ تكونُ بأسبابِها، فالأسبابُ مُؤَثِّرةٌ، لكِنْ لا بنَفْسِها، ولكِنْ بما أودَعَه اللهُ بها مِن أسبابِ التَّأثيرِ[(١)].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ فيه سؤالٌ: وهو: أنَّ الشَّجَرةَ في كلامِ العَرَبِ إنَّما تُقالُ لِما كان على ساقٍ مِن عُودٍ، واليقطينُ لا ساقَ له؟

والجوابُ مِن أوجُهٍ:

منها: أنَّ قولَه تعالى: ﴿شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ جاء تجوُّزًا.

ومنها: أنَّ الله أنبَتَها عليه ذاتَ ساقٍ؛ خَرقًا للعادةِ ليُونُس عليه السَّلامُ، فأخرجها عن عادةِ أمثالِها حتَّى تصيرَ عليه كالعريشِ؛ لِيَحصُلَ له ظِلٌّ؛ لأنَّه لو كان مُنبَسِطًا على الأرضِ لم يُمكِنْ أن يَستَظِلَّ به[(٢)].

ومنها: أنَّ الشَّجَرَ إذا أُطلِق كان ما له ساقٌ يقومُ عليه، لكنْ إذا قُيِّد بشَيءٍ تقيَّدَ به؛ فمُسَمَّى الشَّجَرةِ على إطلاقِه هو: ما له ساقٌ يقومُ عليه، ولكِنْ لَمَّا تقَيَّدَت هنا باليَقطينِ، فتكونُ بلا ساقٍ[(٣)].

١٠- في قَوْلِه: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ إنْ قُلْتَ: ﴿يَزِيدُونَ﴾ فِعْلٌ ولا يَصِحُّ عطفُه على المجرورِ بـ﴿إِلَىٰ﴾؛ فإنَّ حرفَ الجرِّ لا يَصِحُّ تقديرُه على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٧٠، ٣٧١).

الفعلِ، ولذلكَ لا يجوزُ: مَرَرْتُ بقائِمٍ ويَقْعُدُ، على تأويلِ: قائِمٍ وقاعِدٍ.

فالجوابُ: أنَّ ﴿يَزِيدُونَ﴾ خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ في محلِّ رفعٍ والتقديرُ: أو هم يَزيدونَ، وجازَ عطفُ الاسميَّةِ على الفعليَّةِ بـ﴿أَوْ﴾ لاشتراكِهما في مُطْلَقِ الجملةِ[1].

١١- استدلَّ بعضُ المتأخِّرينَ بقَولِه تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ على إثباتِ الإحصاءِ السُّكَّانيِّ؛ لأنَّه قال: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، فأحصاهم عَدَدًا، مع أنَّه لو قال: «فأرسَلْناه إلى قومِه» كفَى، لكنْ عَدَّهم عَدًّا، ولا نَعلَمُ لهذا فائِدةً إلَّا الإحصاءَ، ولا شكَّ أنَّ الإحصاءَ إذا كان فيه فائِدةٌ فإنَّه يكونُ مَطلوبًا[2].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ظاهِرُ تَرتيبِ ذِكرِ الإرسالِ بعدَ الإنجاءِ مِن الحُوتِ: أنَّه إعادةٌ لإرسالِه[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾

- قَولُه: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: هرَبَ إليه، وأصْلُه الهرَبُ مِن السَّيِّدِ، ويُونسُ هو عبْدٌ للهِ، وخرَجَ فارًّا مِن غَيرِ إذْنٍ مِن اللهِ؛ فحسُنَ إطلاقُ وَصفِ الإباقِ عليه[4].

---

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي(٤/ ٢٠٩). ويُنظر أيضًا: ((المحتسب)) لابن جني (٢/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٣).

- وفي قِصَّةَ يُونسَ عليه السَّلامُ جُمَلٌ مَحذوفةٌ مُقدَّرةٌ قبْلَ ذِكرِ فِراره إلى الفُلْكِ، كما في قِصَّتِه في سُورةِ (الأنبياءِ) في قَولِه: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقولِه: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جُمَلٌ مَحذوفةٌ أيضًا، وبمَجموعِ القَصصِ يَتبيَّنُ ما حُذِفَ في كلِّ قِصَّةٍ منها[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۞ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾

- تَفريعُ ﴿فَسَاهَمَ﴾ يُؤْذِنُ بجُمَلٍ مَحذوفةٍ، تَقْديرُها: فهاجَ البَحرُ، وخاف الرَّاكبونَ الغرَقَ؛ فساهَمَ[٢].

- قَولُه: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ لَمَّا آلَ وُقوعُ القُرعةِ عليه إلى رَمْيِه مِن السَّفينةِ مِن محلِّ علوٍ إلى أسفَلَ، عبَّر عن ذلك بما يدُلُّ على الزَّلقِ الَّذي يكونُ مِن علوٍ إلى سفلٍ، فقال: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ عبَّرَ بالجَمعِ؛ لإفادةِ عُمومِ البَعثِ. ولو أفرَدَ لم يُفِدْ بَعثَ الحيواناتِ العُجْمِ، ولو ثَنَّى لَظُنَّ أنَّ ذلك له وللحُوتِ خاصَّةً لِمعنًى يَخُصُّها، فلا يفيدُ بَعثَ غَيرِهما[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۞ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ فَصيحةٌ؛ لأنَّها تُفصِحُ عن كَلامٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۞ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، فالتَّقديرُ: يُسبِّحُ ربَّه في بطْنِ الحوتِ: أنْ لا إلهَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٩٣).

إلَّا أنتَ سُبحانَكَ، إنِّي كنتُ مِن الظَّالِمينَ، فاستجابَ اللهُ له ونجَّاهُ، كما في سُورةِ (الأنبياءِ)، والمعنى: فلَفَظَه الحوتُ وقَاءَه، وحمَلَه المَوجُ إلى الشَّاطئِ[١].

- والنَّبذُ: الإلْقاءُ، وأُسنِدَ نَبْذُه إلى اللهِ؛ لأنَّ اللهَ هو الَّذي سخَّرَ الحوتَ لِقَذْفِه مِن بَطنِه إلى شاطئٍ لا شجَرَ فيه[٢].

- وتَعديةُ فِعلِ (أَنْبَتْنَا) بحَرْفِ (على)، أفاد أنَّها مُسْتعليةٌ عليه فوقَه مُظِلَّةٌ له، كما يُطَنِّبُ البيتُ على الإنسانِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾

- قيل: رِسالتُه هذه هي الأُولى الَّتي أبَقَ بعْدَها، ذكَرَها آخِرَ القَصصِ؛ تَنبيهًا على رِسالتِه، ويَدُلُّ عليه قولُه: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾، وتَمتيعُ تلك الأُمَّةِ هو الَّذي أغضَبَ يُونسَ عليه السَّلامُ حتَّى أبَقَ. وقيل: المرادُ إرسالُه السَّابقُ؛ أخبَرَ أوَّلًا بأنَّه مِن المرسَلينَ على الإطلاقِ، ثمَّ أخبَرَ بأنَّه قدْ أُرسِلَ إلى أُمَّةٍ جَمَّةٍ، وكأنَّ تَوسيطَ تَذكيرِ وَقْتِ هَرَبِه إلى الفُلكِ وما بعْدَه بيْنَهما؛ لِتَذكيرِ سَببِه، وهو ما جَرَى بيْنَه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- وبيْن قَومِه؛ مِن إنذارِه إيَّاهم عَذابَ اللهِ تعالى، وتَعيينِه لِوَقْتِ حُلولِه، وتَعلُّلِهم وتَعليقِهم لِإيمانِهم بِظُهورِ أماراتِه؛ لِيُعلَمَ أنَّ إيمانَهم الَّذي سيُحْكى بعْدُ لم يكُنْ عَقِيبَ الإرسالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦).

-كما هو المُتبادَرُ مِن تَرتيبِ الإيمانِ عليه بالفاءِ-، بلْ بعْدَ اللَّتَيَّا والَّتِي[١].

- وإذا كان المرادُ بإرسالِه أنَّه على رِسالتِه الأُولى، فيكونُ قولُه: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ ﴾ عَطْفًا على قولِه: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ على سَبيلِ البَيانِ؛ لأنَّه دلَّ على ابتداءِ الحالِ وعلى انْتِهائِها، وعلى ما هو المقصودُ بالإرسالِ مِن الإيمانِ، واعتَرَض ما بيْنَهما قِصَّةٌ مِن قَصَصِه اعتِناءً بشَأْنِها؛ لِاحتِوائِها على أمْرٍ عَجيبٍ[٢].

- قولُه: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ حَرْفُ (أو) ليس للشَّكِّ؛ فهو على اللهِ مُحالٌ، وهي بمعنى (بلْ)، أو بمعنى الواوِ، أو المعنى: أوْ يَزيدون في نَظَرِهم؛ فالشَّكُّ إنَّما دخَلَ في قَولِ المخلوقينَ. وقيل: هي للإبهامِ على المخاطَبِ. وقيل: هي إضرابٌ لِمَا في الواقعِ ونفْسِ الأمْرِ، فالمعنى: أرسَلْناهُ إلى جَماعةٍ يَحزُرُهم النَّاسُ مِئةَ ألْفٍ، وهمْ أزيَدُ مِن ذلك، وفيه نُكتةٌ جَليلةٌ، وهي الانتقالُ مِن الأدْنى إلى الأعْلى؛ لِمَا له مِنَ الوقْعِ في النَّفْسِ، ولَفْتِ النَّظرِ إليه، بخِلافِ ما إذا أخبَرَ بالأعْلى مِن أوَّلِ الأمْرِ[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَـَٔامَنُواْ ﴾ للتَّعقيبِ العُرْفيِّ؛ لأنَّ يُونسَ عليه السَّلامُ لَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٩).
وبعْدَ اللَّتَيَّا والَّتي: أي: بعدَ جَهدٍ وشِدَّةٍ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٤٥٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٤، ٣١٥).

أُرسِلَ إليهم ودَعاهم، امتَنَعوا في أوَّلِ الأمْرِ، فأخْبَرَهم بوَعيدٍ بهَلاكِهم، ثمَّ خافوا فآمَنوا[١].

- ولعلَّه إنَّما لم يَختِمْ قِصَّةَ يُونسَ وقِصَّةَ لُوطٍ بما ختَمَ به سائرَ القِصصِ بالسَّلامِ عليهم؛ أو اكتِفاءً بالتَّسليمِ الشَّاملِ لكلِّ الرُّسلِ المذكورينَ في آخِرِ السُّورةِ، وقيل غيرُ ذلك[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦).

الآيات (١٤٩-١٦٢)

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ﴾: أي: سَلْهُم واستَخبِرْهم، وأصلُ (فتي) هنا: يدُلُّ على تَبيينِ حُكمٍ[(١)].

﴿ إِفۡكِهِمۡ ﴾: أي: كَذِبهم، والإفكُ: أَسوأُ الكَذِبِ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[(٢)].

﴿ سُلۡطَٰنٞ ﴾: أي: حُجَّة ظاهِرةٌ، وسُمِّيت الحُجَّةُ سُلطانًا؛ لِمَا يَلحَقُ مِن الهُجومِ على القُلوبِ، وأصلُ (سلط): يدلُّ على القُوَّةِ والقَهرِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٠٣).

﴿ٱلْجِنَّةِ﴾: أي: الجِنِّ أو الملائِكةِ، قيلَ لهم: جِنَّةٌ؛ لأنَّهم لا يُرَونَ، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَترٍ[١].

﴿نَسَبًا﴾: النَّسَبُ والنِّسْبَةُ: اشتراكٌ مِن جِهةِ أحَدِ الأبوينِ، كالاشتِراكِ مِن الآباءِ والأبناءِ، والنِّسْبة بيْن بَني الإخْوةِ وبَني الأَعْمامِ، وأصلُ (نسب): يدُلُّ على اتِّصالِ شيءٍ بشَيءٍ، وسُمِّي النَّسَبُ بذلك لاتِّصالِه وللاتِّصالِ به[٢].

﴿بِفَتِنِينَ﴾: أي: بمُضِلِّينَ، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتِلاءٍ واختِبارٍ، ثمَّ استُعْمِل فيما أخرَجه الاختبارُ إلى المكروهِ، ثمَّ أُطلِق على كُلِّ مَكروهٍ أو آيلٍ إليه، كالكُفرِ والإثمِ والتَّحريقِ، وغيرِ ذلك[٣].

﴿صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: مُقاسٍ حَرَّ النَّارِ، وأصلُ الصلي: الإيقادُ بالنَّارِ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾

(ما) في قولِه: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ اسمٌ مَوصولٌ مَعطوفٌ على اسمِ (إنَّ)، وهو الكافُ في ﴿فَإِنَّكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠).

و(ما) في قولِه: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ حِجازيَّةٌ نافيةٌ، و﴿أَنتُمۡ﴾ اسمُ (ما) مَرفوعٌ، و﴿عَلَيۡهِ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ (فاتِنينَ).

و﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ (فَاتِنِينَ) خبَرُ (ما) العامِلةِ عَمَلَ (ليس)، مجرورٌ لَفظًا، مَنصوبٌ محلًّا، والباءُ زائدةٌ فيه.

وجُملةُ: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ في محلِّ رَفعٍ خبَرُ (إنَّ).

﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ﴿إِلَّا﴾ للحَصرِ. ﴿مَنۡ﴾ مَوصولةٌ أو مَوصوفةٌ، مَبْنيَّةٌ في محَلِّ نَصبٍ مَفعولُ (فاتِنين)، والاستِثناءُ مُفرَّغٌ، والتقديرُ: فإنَّكم وآلهتَكم ما أنتُم وهم فاتِنينَ ومُفسِدينَ على اللهِ إلَّا الذين سَبَقَ في عِلْمه تعالَى أنَّهم مِن أهلِ الجَحيمِ. ويجوزُ أن تُقَدِّرَ مَفعولًا لـ (فاتنين)، أي: أحدًا، فتكونَ ﴿إِلَّا﴾ أداةَ استِثناءٍ، و﴿مَنۡ﴾ مُستثنًى مِنَ المفعولِ المحذوفِ. ﴿صَالِ﴾ خبرُ ﴿هُوَ﴾ مَرفوعٌ، وعلامةُ رَفعِه الضَّمَّةُ المقَدَّرةُ على الياءِ المحذوفةِ لالتِقاءِ السَّاكِنينَ؛ حمْلًا للخَطِّ على اللَّفظِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ تعالَى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتوبيخِ المشركين والردِّ على جَهالاتِهم، فيقولُ: فاسأَلْ -يا مُحمَّدُ- مُشرِكي قَومِك الذين يَزعُمونَ أنَّ الملائِكةَ بناتُ اللهِ تعالَى: أَلِرَبِّك البناتُ التي يَكرَهونَها، ولهم البَنونَ؟! أم خلَقْنا الملائِكةَ إناثًا وهؤلاء المُشرِكون شاهِدونَ خَلْقَهم؟!

ثمَّ يخبرُ اللهُ تعالَى عن كَذِبهم، ويردُّ عليهم، فيقولُ: ألَا إنَّهم لَيَقولونَ -مِن كَذِبهم وقَلْبِهم للحَقائِقِ-: ولَدَ اللهُ! وإنَّهم لكاذِبونَ فيما زَعَموا.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٨/ ٣١٨).

أختارَ اللهُ تعالَى لِنَفسِه البَناتِ دونَ البَنينَ؟! ما لكم كيف تَحكُمونَ هذا الحُكمَ الجائِرَ؛ أفلا تَتذكَّرونَ؟! أمْ لكُم حُجَّةٌ ظاهِرةٌ تُبَيِّنُ صِحَّةَ دَعواكم؛ فأْتُوا بكِتابٍ فيه بيانُ حُجَّتِكم إنْ كُنتُم صادِقينَ في دَعواكم.

ثمَّ يقولُ اللهُ تعالَى مبيِّنًا أحدَ أكاذيبِهم: وجعَلَ أولئك المُشرِكونَ بيْنَ اللهِ تعالى وبيْنَ الجِنِّ نَسَبًا، ولقدْ عَلِمَ الجِنُّ أنَّهم مُحضَرونَ يومَ القِيامةِ.

ثمَّ يُنزِّهُ اللهُ تعالَى نفْسَه عن هذه الافتراءاتِ، فيقولُ: تنزَّه اللهُ عمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ، إلَّا عِبادَ اللهِ الذين أخلَصَهم لطاعتِه؛ فإنَّهم لا يَصِفونَ اللهَ تعالى بالنَّقائِصِ.

ثمَّ يقولُ تعالَى مخاطبًا المشركينَ: فإنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- وما تَعبُدونَه مِن الآلهةِ المَزعومةِ لَستُم بمُضِلِّينَ أحدًا إلَّا مَن سَبَق في عِلمِ اللهِ تعالَى أنَّه مِن أهلِ النَّارِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ أقاصيصَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، عاد إلى شَرحِ مَذاهِبِ المُشرِكينَ، وبيانِ قُبحِها وسَخافتِها؛ ومِن جُملةِ أقوالِهم الباطِلةِ أنَّهم أثبَتوا الأولادَ للهِ سُبحانَه وتعالَى، ثمَّ زَعَموا أنَّها مِن جِنسِ الإناثِ، لا مِن جِنسِ الذُّكورِ[1].

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ﴾.

أي: فاسأَلْ -يا محمَّدُ- مُشرِكي قَومِك الذين يَزعُمونَ أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾.

أي: اسألْهم أيَجعَلونَ لِرَبِّك ما يَكرَهونَ مِنَ البَناتِ، ويَجعَلونَ لأنفُسِهم ما يَرغَبونَ مِن البَنين[1]؟!

كما قال الله تعالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ...﴾ إلى قوله تعالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٥٧ - ٦٢].

وقال تعالَى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

أي: أمْ خلَقَ اللهُ الملائِكةَ إناثًا وقدْ حضَر المُشرِكونَ خَلْقَه لهم، فأخبَروا أنَّهم بَناتُ اللهِ عن عِلمٍ ومُشاهَدةٍ[2]؟!

كما قال تعالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ ...﴾.

أي: ألَا إنَّ هؤلاءِ المُشرِكينَ لَيَقولونَ -مِن قَلْبِهم للحَقائِقِ، وصَرْفِها عن وَجهِها الصَّحيحِ-: ولدَ اللهُ، حِينَ زعَموا أنَّ الملائكةَ بَناتُه[3]!

= (٧/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ١١٩)، ((تفسير ابن =

﴿... وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

أي: وإنَّهم في قَولِهم هذا لَمُخبِرونَ بخِلافِ الحَقِّ والصِّدقِ المُطابِقِ للواقِعِ[1].

كما قال تعالَى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٠، ٩١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٢].

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قولِه تعالَى: ﴿أَصْطَفَى﴾ قِراءتان:

١- قراءة ﴿اصْطَفَى﴾ بوصْلِ الهَمزةِ على لفْظِ الخَبرِ، وفيه وجهانِ:

أحدُهما: أنَّه على نِيَّةِ الاستفهامِ، وإنَّما حُذِفَ للعِلمِ به. والثاني: أنَّ هذه الجُملةَ بدَلٌ مِن الجُملةِ المحكيَّةِ بالقولِ، وهي ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾، أي: يقولون كذا،

= كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

و﴿مِّنْ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ قيل: هي للتَّبعيضِ، أي: هذا الإفكُ المذكورُ هو مِن جُملةِ إفكِهم الكثيرِ.

وقيل: هي للسَّبَبيَّةِ، أي: قالوا ذلك بسَبَبِ أنَّ صَرْفَ الأمورِ عن وَجهِها الصَّحيحِ هو دَيدنُهم وعادتُهم. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

ويقولون: اصْطَفى هذا الجِنسَ على هذا الجِنسِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: وإنَّهم لكاذبون؛ قالوا: اصطفَى البناتِ، فحذف (قالوا)[١].

٢- قِراءة ﴿أَصۡطَفَى﴾ بقَطْعِ الألفِ على الاستفهامِ، على طريقةِ الإنكارِ والاستبعادِ[٢].

﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ١٥٣﴾.

أي: أَخْتارَ اللهُ تعالى لِنَفسِه البناتِ اللَّاتي يَستَنكِفُ المُشرِكونَ مِن إلحاقِهنَّ بهم، دونَ البنينَ[٣]؟!

كما قال تعالَى: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ١٥٤﴾.

أي: ما لكُم، كيف تَحكُمونَ هذا الحُكمَ الجائِرَ؛ إذ جعَلْتُم لِرَبِّكم ما لا تَرضَونَه لأنفُسِكم، واستَأثَرتُم دونَه بما تُحِبُّونَ[٤]؟!

---

(١) قرأ بها أبو جَعفر. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٠). ويُنظر لمعنى القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٣٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٠). ويُنظر لمعنى القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٥-٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

أي: أفلا تتَذَكَّرونَ، فتُدرِكونَ بُطلانَ قَولِكم[1]؟

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾.

أي: أمْ لكُم حُجَّةٌ واضِحةٌ تُبَيِّنُ صِحَّةَ دَعواكم[2]؟!

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

أي: فأْتُوا بكِتابٍ مِن عِندِ اللهِ فيه بيانُ حُجَّتِكم على ما تَقولونَ، إنْ كُنتُم صادِقينَ في دَعواكم[3].

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾.

أي: وجعَلَ المُشرِكونَ بيْنَ اللهِ تعالى وبيْنَ الجِنِّ نَسَبًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

قال البقاعي: (فإنَّ الأمرَ في غايةِ الظُّهورِ؛ لِما في عُقولِكم وطِباعِكم مِن أنَّكم لا تَرضَونَ لأنفُسِكم أخَسَّ المنازِلِ، فكيف يختارُه لِنَفسِه رَبُّكم الذي بيَدِه كُلُّ شَيءٍ؟! وإنَّه لا يكونُ الولَدُ مُطلَقًا إلَّا ممَّن له جِنسٌ، فيكونُ مُحتاجًا إلى جِنسِه، والمحتاجُ لا يكونُ إلهًا بوَجهٍ!). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٠٦-٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٢٥-٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٣، ٦٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٤، ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٥، ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٢٩). =

= قيل: المرادُ بالجِنَّةِ: الجِنُّ. وفي هذا التَّفسيرِ وَجهانِ:

الأوَّلُ: هو أنَّ المُشركينَ جَعَلوا بيْن اللهِ تعالى وبيْنَ الجِنِّ نَسَبًا حينَ قالوا: إنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ، وأمَّهاتِهنَّ مِن الجِنِّ. ومَّمن ذهَب إلى هذا المعنى: ابن القيِّم، وابن كثير، والبقاعي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عُثَيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

عن مُجاهدٍ قال: (قال كُفَّارُ قُرَيشٍ: الملائِكةُ بناتُ اللهِ، فسألَ أبو بكرٍ: مَن أمَّهاتُهنَّ؟! فقالوا: بناتُ سَرَواتٍ -أي: ساداتٍ وخَواصٍّ- الجِنِّ). أخرجه البُخاريُّ مُعَلَّقًا في صحيحِه (كتاب بدء الخلق) (بابُ ذكرِ الجِنِّ وثوابِهم وعقابِهم) قبل حديث (٣٢٩٦).

واستبْعَده الرازيُّ بناءً على أنَّ القَولَ بأنَّ أمَّهاتِ الملائكةِ مِن الجِنِّ يُسمَّى مُصاهرةً لا نَسَبًا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٠).

الثاني: هو أنَّ قومًا مِن الزَّنادقةِ يَقولون: اللهُ وإبليسُ أخوانِ؛ فالله الخيِّرُ الكريمُ، وإبليسُ هو الأخُ الشِّرِّيرُ الخَسيسُ!! فقَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ المرادُ منه هذا المذهَبُ، وهو مذهَبُ المجوسِ القائلينَ بيَزدان وإهرمن. وهذا القَولُ هو أقربُ الأقوالِ عند الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاس، وقَتادةُ في رواية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٣١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٣١).

وقيل: المرادُ بالجِنَّةِ هنا الملائِكةُ. وممَّن قال بهذا المعنى: الفرَّاء، والزَّجَّاج، والواحدي، والزمخشري، ونَسَب السمعانيُّ والقرطبيُّ هذا القَولَ إلى أكثَرِ المفَسِّرين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٩٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٥)، ((الوجيز)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٤).

وممَّن قال مِن السلفِ بهذا القولِ: مجاهدٌ، وقَتادة في رِوايةٍ، والسُّدِّي، وعِكرمة، وأبو صالح، وابن زيد، وأبو مالك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٣١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٣٣).

قال القرطبيُّ: (قال أهلُ الاشتِقاقِ: قيل لهم «جِنَّةٌ»؛ لأنَّهم لا يُرَونَ. وقال مجاهِدٌ: إنَّهم بَطنٌ مِن بُطونِ الملائكةِ يُقالُ لهم الجِنَّةُ. ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ، وروى إسرائيلُ عن السُّدِّي عن أبي مالكٍ قال: إنَّما قيل لهم جِنَّةٌ؛ لأنَّهم خُزَّانٌ على الجِنانِ، والملائكةُ كُلُّهم جِنَّةٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٤). =

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

أي: ولقد عَلِمَ الجِنُّ أنَّهم مُحضَرونَ يومَ القِيامةِ(١).

= وقيل: إنَّ النَّسَبَ الذي جَعَلوه هو أنَّهم أشركوا الشَّيطانَ في عِبادةِ اللهِ. وذهب القرطبيُّ إلى أنَّ هذا القَولَ هو أحسَنُ الأقوالِ، واستدَلَّ له بقَولِه تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٨]، أي: في العِبادةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥).

وممَّن رُوِيَ عنه ذلك مِن السَّلَف: الحسن البصري. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٢/ ١٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

ذكَر ابنُ الجوزي أنَّه على القولِ بأنَّ المرادَ بـ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾: الجِنُّ: فيكون المرادُ: ولقَدْ عَلِمَت الجنُّ ﴿إِنَّهُمْ﴾، أي: إنَّ الجِنَّ أنفُسَها ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ الحِسابَ. وأنَّه على القولِ بأنَّ المرادَ بـ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾: الملائكةُ، يكونُ المعنى: ولقَدْ عَلِمَت الملائكةُ ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إنَّ هؤلاء المُشركينَ ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ النَّارَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالجِنَّةِ: الجِنُّ، وأنَّ معنى مُحضَرون: أنَّهم مُحضَرونَ للحِسابِ يومَ القِيامةِ: ابنُ القيِّم، والبقاعي، والسعدي؛ قال ابنُ القيِّم: (أي: قد عَلِمَت الجنَّةُ إنَّهم لَمُحضَرونَ الحِسابَ. قاله مجاهِدٌ، أي: لو كان بيْنه وبيْنَهم نَسَبٌ لم يَحضُروا للحِسابِ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]، فجعَلَ سُبحانَه عُقوبتَهم بذُنوبِهم وإحضارَهم للعَذابِ مُبطِلًا لِدَعواهم الكاذِبةِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

وقال يحيى بن سلَّام: (قال الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾: الجِنُّ ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾: مُدخَلونَ في النَّارِ). ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٦).

وقيل: المعنى: ولقد عَلِمَت الجِنُّ أنَّ المُشركينَ مُحضَرونَ للعذابِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالجِنَّةِ: الملائكةُ -وأن المعنى: ولقد علمت الملائكةُ أنَّ المشركينَ الذين قالوا هذا القولَ لمحضرونَ في النَّارِ-: مقاتل بن سليمان، والزَّجَّاج، والواحدي، والنَّسَفي، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج =

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩﴾.

أي: تَنزَّهَ اللهُ عمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ مِن أنَّ لهُ تعالَى وَلَدًا، ومِن أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ؛ فتعالَى اللهُ وتبرَّأَ مِن كُلِّ نَقصٍ يَنسُبونَه إليه[1].

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ ما وصفَه به هؤلاءِ الظَّالِمونَ المُتَعَدُّونَ، بَيَّنَ أنَّ هناك أُناسًا لَيسُوا على هذه الحالِ، وهُم عِبادُ اللهِ الذين أخلَصَهم اللهُ تعالَى لِنَفسِه، وأخْلَصوا له ما يَجِبُ له؛ فهذا القُرآنُ الكريمُ مَثانٍ تُثَنَّى فيه الأشياءُ؛ فإذا ذُكِرَ فيه صِفةُ قَومٍ مَذمومةٌ، ذُكِرَ بَعدَها صِفةُ الأقوامِ المحمودةُ[2].

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٠﴾.

أي: لكنْ عِبادُ اللهِ الذين أخلَصَهم لطاعتِه، واختارَهم لِرَحمتِه؛ فإنَّهم لا يَصِفونَ اللهَ تعالَى بالنَّقائصِ، بل يَنسُبونَ إليه ما يَليقُ به تعالَى مِن صِفاتِ الكَمالِ[3].

= (٤/ ٣١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٨).

وذهَب ابنُ عاشور إلى أنَّ ضميرَ ﴿إِنَّهُمۡ﴾ عائدٌ إلى المشركين، أو إلى الجِنَّة، وأنَّ الوجهينِ مرادانِ؛ فإنَّ الفريقينِ مُعاقَبانِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٨، ٤٨٩)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن =

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا ذكَرَ الدَّلائِلَ على فَسادِ مَذهَبِ الكُفَّارِ، أتْبَعَه بما نبَّهَ به على أنَّ هؤلاءِ الكُفَّارَ لا يَقدِرونَ على حَملِ أحَدٍ على الضَّلالِ، إلَّا إذا كان قد سَبَق حُكمُ اللهِ في حَقِّه بالعَذابِ والوُقوعِ في النَّارِ[1].

وأيضًا لَمَّا نَزَّه اللهُ نَفسَه المُقدَّسةَ سُبحانَه عن كُلِّ نَقصٍ، دَلَّ على ذلك بأنَّهم

= كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

قيل: الاستِثناءُ مُنقَطِعٌ نَشأَ عن قولِهم: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي: ولقد عَلِمَتِ الجِنَّةُ أنَّ الَّذينَ قالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ لَمُحضَرونَ للعَذابِ، إلَّا عِبادَ اللهِ الَّذينَ أخلَصَهم لرحمَتِه، وخلَقَهم لجَنَّتِه. وممَّن ذهَب إلى ذلك: مُقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جَرير، والواحديُّ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥).

وقيل: الاستِثناءُ مُنقَطِعٌ نَشأَ عن قوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: لكنَّ عبادَ اللهِ المُخلَصينَ لا يَصِفونَه بما يَصِفُه المُشرِكونَ. وممَّن قال بهذا المعنى: الخَطيبُ الشِّربينيُّ، والشَّوْكانيُّ، وابنُ عاشور، إلَّا أنَّ ابن عاشور جعَل عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ همُ الملائكةَ. يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٨).

وقيل: الاستِثناءُ متَّصِلٌ على اعتبارِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائدٌ إلى جميعِ النَّاسِ، ثمَّ استَثْنى منهمُ المُخلَصينَ. وممَّن ذكَرَ هذا القولَ احتمالًا: ابنُ كَثير، والبقاعيُّ، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٣).

أو يكونُ متَّصِلًا من وجهٍ آخَرَ لقولِه تعالَى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: مَن أخلَص منهم، وآمَنَ؛ فإنَّه بَريءٌ ممَّا يَصِفُه؛ لأنَّه قد يُسلِمُ منهم نفَرٌ فيَصِفونَه بما يَليقُ به؛ لأنَّ المؤمِنَ والمُخلِصَ لا يصِفُ ربَّه إلَّا بما يَليقُ به. ذكَرَ هذا الوجهَ: الماوَرْديُّ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦١).

وجَميعَ ما يَعبُدونَه مِن دُونِه: لا يَقدِرونَ على شَيءٍ لم يُقَدِّرْه[١].

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

أي: فإنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- والذين تَعبُدونَهم مِن الآلِهةِ المَزعومةِ[٢].

﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾.

أي: لَستُم بمُضِلِّينَ أحَدًا، بحَمْلِه على عِبادةِ ما تَعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ[٣].

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾.

أي: إلَّا مَن سَبَق في عِلمِ اللهِ أنَّه سيَدخُلُ الجَحيمَ ويُعذَّبُ فيها في الآخِرةِ؛ فهو الذي يُفتَنُ ويَضِلُّ بإضلالِكم له[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٩-٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٨)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٦/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٠-٣٤١).

قال ابنُ عاشور: (ضميرُ ﴿عَلَيْهِ﴾ يجوزُ أن يكونَ عائدًا إلى اسمِ الجلالةِ في قَولِه تعالى: ﴿لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢]، أو في قَولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ١٦٠]، ويجوزُ أن يعودَ إلى «مَا تَعْبُدُونَ» بمراعاةِ إفرادِ اسمِ الموصولِ، وهو: «ما»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٠-٣٤١).

قال النحَّاسُ: (أهلُ التَّفسيرِ مُجمِعونَ -فيما عَلِمتُه- على أنَّ المعنى: ما أنتم بمُضِلِّينَ أحدًا إلَّا مَن قدَّرَ اللهُ -جلَّ وعَزَّ- عليه أن يَضِلَّ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٢٩٩). =

كما قال تعالَى عن إبليسَ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قولِه تعالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أنَّ على العاقِلِ تَصحيحَ العمَلِ بالإخلاصِ[(١)].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فإنَّ مَن يَقولُ قَولًا لا يُقيمُ عليه حُجَّةً شَرعيَّةً؛ فإنَّه كاذِبٌ مُتَعَمِّدٌ، أو قائِلٌ على اللهِ بلا عِلمٍ[(٢)].

٣- الإشارةُ إلى أنَّ مَن تابعَ أهلَ السُّوءِ في سُوئِهم؛ فإنَّه يُخشَى أنْ يكونَ ممَّن كُتِبَ عليه أنَّه مِن أصحابِ الجَحيمِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ بيانُ أنَّ هؤلاءِ المُشرِكينَ قَسَموا قِسْمةً ضِيزَى؛ حيثُ جَعَلوا للهِ البناتِ وهُم يَرغَبونَ في الأبناءِ الذُّكورِ، ويَكرَهونَ الإناثَ، فجَعَلوا للهِ ما يَكرَهونَ، وقدْ

= وقال السعدي: (المقصودُ مِن هذا بيانُ عَجزِهم وعَجزِ آلهتِهم عن إضلالِ أحدٍ، وبيانُ كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، أي: فلا تَطمَعوا بإضلالِ عبادِ اللهِ المُخلَصينَ وحِزبِه المُفلِحينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٣).

جاؤُوا في مَقالِهم هذا بأنواعٍ مِن الكُفرِ؛ منها: إيثارُ أنفُسِهم بالأفضَلِ، وجَعْلُهم لله الأقَلَّ؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف: ١٧].

ومنها: أنَّهم جَعَلوا للمَلائِكةِ المُقرَّبينَ وَصْفَ الأُنوثةِ، وهم يَتعيَّرونَ بـ (أبي الإناثِ)؛ ولذلك كرَّر اللهُ تعالى هذه الأنواعَ مِن كُفرِهم في كِتابِه غيرَ مَرَّةٍ[١]؛ فهؤلاءِ زادُوا على الشِّركِ ضَلالاتٍ أُخَرَ، كتَفضيلِ أنفُسِهم عليه، واستِهانَتِهم بالملائكةِ؛ حيثُ أَنَّثُوهم[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ ذكَرَ اللهُ عنهم في الملائِكةِ ثلاثةَ أقوالٍ في غايةِ الكُفرِ والكَذِبِ؛ فأوَّلًا: جَعَلوهم بَناتِ اللهِ، فجَعَلوا لله ولَدًا. وجَعَلوا ذلك الوَلَدَ أُنثى، ثمَّ عَبَدوهم مِن دُونِ اللهِ. وكُلٌّ منها كافٍ في التَّخليدِ في نارِ جَهَنَّمَ[٣].

٣- أنَّ كلَّ مَن ادَّعى دَعوى فإنَّه يُطالَبُ بالبَيِّنةِ عليها؛ لِقَولِه تعالَى: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾؛ فهل هم شاهِدونَ حتى يَدَّعُوا ذلك[٤]؟!

٤- قال اللهُ تعالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ فعَدَلَ عن مَظهَرِ العَظَمةِ إلى اسمِ الجَلالةِ العَلَمِ على الذَّاتِ الجامِعةِ لجَميعِ الصِّفاتِ؛ إشارةً إلى أنَّ كُلَّ صِفةٍ مِن صِفاتِه، ونَعتٍ مِن نُعوتِه: يأبَى الوَلَديَّةَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٥).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴾ الاستِدلالُ على هؤلاءِ بدَلالةِ العَقلِ، وهو أنْ يُقالَ: كيف يَصْطفي اللهُ البَناتِ على البَنينَ؟! هذا ليس بعَقلٍ وليس بمَعقولٍ، ولكنْ هم يَجعَلونَ هذا الشَّيءَ أمرًا مَعقولًا وواجبًا أيضًا: أنْ يكونَ للهِ البناتُ ولهم البَنونَ[١]!

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴾ أنَّ الحُجَّةَ سُلطانٌ لِصاحِبِها؛ لأنَّه يَكونُ بها السُّلطةُ على خَصْمِه الذي يُحاجُّه[٢].

٧- قَولُه تعالَى: ﴿ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴾ فيه إظهارُ عَدلِ اللهِ عزَّ وجلَّ في مُجادلةِ العَدُوِّ والخَصمِ؛ فلمْ يَقْتَصِرِ اللهُ عزَّ وجَلَّ على أنْ كَذَّبَهم، بل طَلَبَ منهم الحُجَّةَ إنْ كانوا صادِقينَ في دَعواهم، ومِن المعلومِ أنَّهم لن يُقِيموا الحُجَّةَ؛ ولهذا قال: ﴿ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ ﴾ أنَّ مَن تَحدَّى غَيرَه فله طَلَبُ البَيِّنةِ على ما قال ذلك الغَيرُ[٤].

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ جوازُ تَحدِّي الخَصمِ بما يَعْجِزُ عنه، وأنَّ ذلك طريقٌ مِن طُرُقِ إفحامِه؛ وذلك أنَّ الخَصمَ عِندَ المناظرةِ يمكنُ إبطالُ حُجَّتِه بعدةِ أساليبَ؛ منها: التحدِّي، ولكنْ يجبُ أنْ يكونَ التحدِّي بما لا يُمكنُ أنْ يُقِيمَ عليه البُرهانَ والدليلَ[٥].

١٠- في قَولِه تعالَى: ﴿ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أنَّ حُجَّةَ القُرآنِ حُجَّةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٥).

دامِغةٌ مُلزِمةٌ لا يُمكِنُ التخَلُّصُ منها؛ ولهذا تأتي دائِمًا بصُورةِ التَّحَدِّي؛ إظهارًا لِعَجزِ المُعَارِضِ وعَدَمِ قُدرتِه على المُعارضةِ[١].

١١- أنَّ صِفاتِ اللهِ تعالَى تكونُ سَلبيَّةً -أي: دالَّةً على النَّفي-، وتكونُ ثُبوتيَّةً -أي: دالَّةً على الإيجابِ-؛ فقَولُه تعالَى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ هذا مِن صِفاتِ النَّفي؛ لأنَّه تَنزيهٌ، وصِفاتُ النَّفي التي وَصَفَ اللهُ بها نَفسَه لا تَدُلُّ على النَّفي المُجَرَّدِ؛ لأنَّ النَّفيَ المُجَرَّدَ ليس بشَيءٍ فَضلًا عن أنْ يكونَ مَدحًا، وإنَّما تَدُلُّ على ثُبوتِ كَمالِه المُنَزَّهِ عن هذا العَيبِ، فتَنزيهُ اللهِ عمَّا لا يَليقُ به يَتضَمَّنُ كَمالَه فيما يَختَصُّ به سُبحانَه وتعالى، وهذه قاعِدةٌ في جَميعِ الصِّفاتِ المَنفيَّةِ[٢].

١٢- في قولِه تعالَى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بيانُ أنَّ عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ هم الَّذين يَنجُونَ مِن السَّيِّئاتِ التي زَيَّنها الشَّيطانُ[٣].

١٣- قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ لأجْلِ أنَّ هذه السُّورةَ سُورةُ المتجَرِّدينَ عن علائِقِ العوائِقِ عن السَّيرِ إلى اللهِ تعالَى، كرَّر وَصفَ الإخلاصِ فيها كثيرًا[٤].

١٤- أنَّ التَّوحيدَ الحَقَّ هو ما نَعَتَ اللهُ به نَفسَه على أَلْسِنةِ رُسُلِه؛ فهُمْ لم يَنعَتوه مِن تِلقاءِ أنفُسِهم، وإنَّما نَعَتوه بما أَذِنَ لهم في نَعتِه به، وقد صَرَّحَ سُبحانَه بهذا المعنَى في قَولِه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، فَنَزَّه نفْسَه عمَّا يَصِفُه به العِبادُ إلَّا المُرسَلينَ؛ فإنَّهم لم يَصِفوه مِن عندِ أنفُسِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٩).

وكذلك قَولُه تعالَى: ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ * وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1] [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

١٥- لا يَسلَمُ على مَحكِّ العقْلِ الصَّحيحِ الَّذي لا يَكذِبُ، إلَّا ما جاءَتْ به الرُّسُلُ صَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم، كما قالَ تَعالَى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾، فنَزَّه سُبْحانَه وتعالَى نفْسَه عَمَّا يَصِفُه به كلُّ أَحدٍ إلَّا المُخلَصينَ مِن عِبادِه، وهُم الرُّسُلُ ومَن تَبِعَهُم، كَمَا قالَ في الآيةِ الأُخْرَى: ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ * وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2] [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾ تَفريعٌ وعطْفٌ على ما تَقدَّمَ مِنَ الإنكارِ على المُشركينَ، وإبطالِ دَعاويهم، وضَربِ الأمثالِ لهم بنُظَرائِهم مِنَ الأُمَمِ؛ ففَرَّعَ عليه أمْرَ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإبْطالِ ما نَسَبَه المُشركونَ إلى اللهِ مِنَ الولدِ، وأمْرَه باستِفتاءِ قُرَيشٍ عن وجْهِ إنكارِ البَعثِ أوَّلًا، ثمَّ ساق الكلامَ موصولًا بعضَه ببعضٍ، ثمَّ أمَرَه باستِفتائِهم عن وجهِ القِسمةِ الضِّيزَى الَّتي قَسَموها، والاستِفتاءُ هنا سُؤالٌ على جِهةِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ على قَولِهمُ البُهتانَ على اللهِ؛ حيثُ جَعَلوا للهِ الإناثَ ولأنفُسِهمُ الذُّكورَ في قولِهم: الملائكةُ بناتُ اللهِ! مع كراهَتِهمُ الشَّديدةِ لهُنَّ، ووَأْدِهم إيَّاهُنَّ، واستِنكافِهم مِن ذِكْرِهنَّ. والمرادُ التَّهَكُّمُ عليهم بصُورةِ الاستِفتاءِ؛ إذْ يَقولونَ: ولَدَ اللهُ[3]!

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) =

- وفي قولِه: ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ... ﴾ أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هاهنا بتَبكيتِهم بطريقِ الاستِفتاءِ عن وجهِ أمرٍ مُنكَرٍ خارجٍ عن العقولِ بالكلِّيَّةِ، وهي القِسمةُ الباطلةُ اللَّازمةُ لِما كانوا عليه مِنَ الاعتِقادِ الزَّائغِ؛ حيثُ كانوا يَقولونَ كبعضِ أجناسِ العربِ؛ جُهَيْنةَ وبَني سَلِمةَ وخُزاعةَ وبَني مُلَيح: الملائكةُ بناتُ اللهِ! والفاءُ لترتيبِ الأمْرِ على ما سبَقَ مِن كَونِ أولئك الرُّسلِ الَّذينَ هُم أعلامُ الخَلقِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ عِبادَه تعالَى؛ فإنَّ ذلك ممَّا يؤكِّدُ التَّبكيتَ، ويُظهِرُ بُطْلانَ مَذهَبِهمُ الفاسِدِ، ثمَّ أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَبكيتِهم بما يَتضمَّنُه كُفْرُهمُ المذكورُ مِنَ الاستِهانةِ بالملائكةِ بجَعْلِهم إناثًا، ثمَّ أبْطَلَ أصْلَ كُفرِهمُ المُنطويَ على هذَينِ الكُفرَينِ، وهو نِسبةُ الولدِ إليه سبحانَه وتعالَى عن ذلكَ عُلوًّا كبيرًا، ولم يَنظِمْهُ في سلكِ التَّبكيتِ؛ لمُشاركتِهمُ النَّصارَى في ذلك[1].

- ووجْهُ اتِّصالِ هذا الاستِفتاءِ بفاتحةِ السُّورةِ مِن وَجْهِ كَونِه تعالَى رَبَّ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنهما، وأنَّه منافٍ للمُجانَسةِ، كما تَقرَّرَ في قَولِه تعالَى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞ ﴾[2] [الأنعام: ١٠١].

- وضَميرُ الغَيبةِ مِن قولِه: ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ﴾ عائدٌ على غَيرِ مَذكورٍ يُعلَمُ مِنَ المَقامِ[3].

- وجُملةُ ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ﴾. وبدَأ أوَّلًا بتَوبيخِهم

= (٩/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٠).

على تَفضيلِ أنفُسِهم بقَولِه: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾، وعدَلَ عن قَولِه: (أَلِرَبِّكم)؛ لِما في تَركِ الإضافةِ إليهم مِن تخسيسِهم، وشَرفِ نَبيِّه بالإضافةِ إليه، وثَنَّى بأنَّ نِسبةَ الأُنوثةِ إلى الملائكةِ يَقتضي المُشاهَدةَ، فأَنكَرَ علَيهم بقولِه: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾، أي: خَلَقْناهم وهُم لا يَشهَدونَ شَيئًا مِن حالِهم، ثمَّ أخبَرَ عنهم ثالثًا بأَعظَمِ الكُفرِ، وهو ادِّعاؤُهم أنَّه تعالى قد ولَدَ، فبلَغَ إفْكُهم إلى نِسبةِ الولدِ! ولَمَّا كان هذا فاحشًا قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾. واحتمَلَ أنْ تُخَصَّ هذه الجُملةُ بقَولِهم: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾، ويَكونَ تأكيدًا لقولِه: ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾، واحتمَلَ أنْ يَعُمَّ هذا القول[1].

وقيل: ضميرُ (لِرَبِّكَ) مُخاطَبٌ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو حِكايةٌ للاستِفتاءِ بالمعنى؛ لأنَّه إذا استَفتاهُم يقولُ: أَلِرَبِّكُمُ البَناتُ؟! وكذلك ضميرُ ﴿وَلَهُمُ﴾ مَحْكيٌّ بالمعنى؛ لأنَّه إنَّما يقولُ لهم: ولكمُ البَنونَ؟! وهذا التَّصرُّفُ يقَعُ في حِكايةِ القَولِ ونَحوِه ممَّا فيه مَعنَى القَولِ، مِثلُ الاستِفتاءِ[2].

- ومُجادَلتُهم بهذِه الجُمَلِ المُتَفَنِّنةِ رُتِّبَتْ على قانونِ المُناظَرةِ؛ فابتَدأَهم بما يُشبِهُ الاستِفسارَ عن دَعْوَيَينِ: دَعْوى أنَّ المَلائكةَ بناتُ اللهِ، ودَعْوى أنَّ الملائكةَ إناثٌ؛ بقولِه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩، ١٥٠]، ثمَّ لَمَّا كان تفسيرُهم لذلك معلومًا مِن مُتكرِّرِ أقوالِهم نُزِّلوا مَنزلةَ المُجيبِ بأنَّ المَلائكةَ بناتُ اللهِ، وأنَّ المَلائكةَ إناثٌ، وإنَّما أُريدَ مِنَ استِفسارِهم صورةُ الاستِفسارِ؛ مُضايقةً لهم، ولِيُنتَقَلَ مِن مَقامِ الاستِفسارِ إلى مَقامِ المُطالَبةِ بالدَّليلِ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨١).

دَعْواهم، فذلك الانتِقالُ ابتِداءً مِن قَولِه: ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠] وهو اسمُ فاعِلٍ مِن: (شَهِدَ)، إذا حضَرَ ورأى، ثمَّ قَولِه: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فرَدَّدَهُم بيْنَ أنْ يَكونوا قدِ استَنَدوا إلى دليلِ المُشاهَدةِ أو إلى دليلٍ غَيرِه، وهو هنا مُتعَيِّنٌ لأنْ يَكونَ خبرًا مقطوعًا بصِدقِه، ولا سبيلَ إلى ذلك إلَّا مِن عِندِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ مِثلَ هذه الدَّعْوى لا سبيلَ إلى إثباتِها غيرُ ذلك؛ فدليلُ المُشاهَدةِ مُنتَفٍ بالضَّرورةِ، ودليلُ العقلِ والنَّظرِ مُنتَفٍ أيضًا؛ إذْ لا دليلَ مِنَ العقلِ يدُلُّ على أنَّ المَلائكةَ إناثٌ ولا على أنَّهم ذُكورٌ؛ فلمَّا عُلِم أنَّ دليلَ العقلِ غَيرُ مَفروضٍ هنا، انحصَرَ الكلامُ معهم في دليلِ السَّمعِ، وهو الخبرُ الصادِقُ؛ لأنَّ أسبابَ العِلمِ للخَلقِ مُنحصِرةٌ في هذه الأدلَّةِ الثَّلاثةِ: أُشيرَ إلى دَليلِ الحِسِّ بقَولِه: ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾، وإلى دَليلَيِ العقلِ والسَّمعِ بقَولِه: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾، ثمَّ فرَّعَ عليه قَولَه: ﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وهو دليلُ السَّمعِ، فأسقَط بهذا التَّفريعِ احتِمالَ دَليلِ العقلِ؛ لأنَّ انتِفاءَه مَقطوعٌ؛ إذْ لا طريقَ إليه، وانحصَرَ دَليلُ السَّمعِ في أنَّه مِن عِندِ اللهِ؛ إذْ لا يَعلَمُ ما في غَيبِ اللهِ غَيْرُه. ثمَّ خُوطِبوا بأمرِ التَّعجيزِ بأنْ يأْتوا بكِتابٍ، أيْ: بكِتابٍ جاءَهم مِن عِندِ اللهِ، وإنَّما عَيَّنَ لهم ذلك؛ لأنَّهم يَعتَقِدونَ استِحالةَ مَجيءِ رسولٍ مِن عِندِ اللهِ، واستِحالةَ أنْ يُكَلِّمَ اللهُ أحَدًا مِن خَلقِه؛ فانحصَرَ الدَّليلُ المفروضُ مِن جانبِ السَّمعِ أنْ يَكونَ إخبارًا مِنَ اللهِ في أنْ يُنَزِّلَ عليهم كِتابٌ مِنَ السَّماءِ؛ لأنَّهم كانوا يُجَوِّزونَ ذلك؛ لقَولِهم: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]، ولن يَستَطيعوا أنْ يأْتوا بكِتابٍ فلا جَرَمَ قد اتَّضَحَ إفحامُهم بهذه المُجادَلةِ الجاريةِ على القَوانينِ العَقليَّةِ؛ ولذلك صارُوا كالمُعترِفينَ بأنْ لا دَليلَ لهم على ما زَعَموه، فانتقَلَ السَّائلُ المُستَفتِي مِن مَقامِ الاعتِراضِ في المُناظَرةِ

إلى انقلابه؛ مُستدلًّا باستنتاج مِن إفحامِهم، وذلك هو قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢]، الواقع مُعترِضًا بيْن التَّرديدِ في الدَّليلِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ مِنَ التَّبكيتِ بالاستِفتاءِ السَّابقِ إلى التَّبكيتِ بهذا[٢].

- و﴿أَمۡ﴾ مُنقطِعةٌ، بمعنَى (بلْ)، وهي لا يُفارِقُها معنَى الاستِفهامِ؛ فالكلامُ بعْدَها مُقَدَّرٌ بهَمزةِ الاستِفهامِ، أي: بلْ أخَلَقْنا الملائكةَ إناثًا؟! والاستِفهامُ إنكاريٌّ وتعجُّبيٌّ مِن جُرأتِهم وقَولِهم بلا عِلمٍ[٣].

- وضميرُ ﴿خَلَقۡنَا﴾ الْتِفاتٌ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ، وهو إذا استَفتاهُم يقولُ لهم: أمْ خَلَق الملائكةَ...؟![٤].

- قَولُه: ﴿وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾ استِهزاءٌ بالمُشركينَ، وتَجهيلٌ لهم، والإشعارُ بأنَّهم لفَرْطِ جَهلِهم يَبُتُّونَ به كأنَّهم قدْ شاهَدوا خَلْقَهم! وهو في مَوضِعِ الحالِ، وقَيْدٌ للإنكارِ، أيْ: كانوا حاضِرينَ حِينَ خَلَقْنا الملائكةَ فشَهِدوا أُنوثةَ الملائكةَ؛ لأنَّ هذا لا يَثبُتُ لأمثالِهم إلَّا بالمُشاهَدةِ؛ إذْ لا قِبَلَ لهم بعِلمِ ذلك إلَّا المُشاهَدةُ؟! وبَقيَ أنْ يَكونَ ذلك بالخَبرِ القاطِعِ، فذلك ما سيَنفِيه بقَولِه: ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ﴾ [الصافات: ١٥٦]؛ وذلك لأنَّ أُنوثةَ المَلائكةِ ليستْ مِنَ المُستحيلِ، ولكنَّه قَولٌ بلا دَليلٍ. وضميرُ ﴿وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٣- ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَحكيٌّ بالمَعنى في الاستِفتاءِ، والأصلُ: وأنتُم شاهِدونَ؟ ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَعنى: أنَّهم يَقولونَ ذلك، كالقائلِ قَولًا عن ثَلَجِ صَدرٍ وطُمأنينةِ نفْسٍ؛ لإفراطِ جَهلِهم، كأنَّهم قد شاهَدوا خَلْقَهم[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ استِئنافٌ مِن جِهتِه تعالَى غيرُ داخلٍ تحتَ الأمْرِ بالاستِفتاءِ، مَسوقٌ لإبطالِ أصْلِ مَذهَبِهمُ الفاسدِ؛ ببَيانِ أنَّ مَبْناهُ ليس إلَّا الإفكَ الصَّريحَ، والافتِراءَ القَبيحَ، مِن غيرِ أنْ يَكونَ لهم دليلٌ أو شُبهةٌ قَطعًا[٢].

- وهو ارتِقاءٌ في تَجهيلِهم بأنَّهم يَقولونَ المُستحيلَ، فضْلًا على القولِ بلا دَليلٍ؛ فلذلك سَمَّاهُ إفْكًا[٣].

- وحرفُ (أَلَا) تَنبيهٌ؛ للاهتِمامِ بالخبَرِ[٤].

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ جُملةُ اعتِراضٍ بيْن مَقالَتَي الكُفرِ مِن جُمَلِ الاستِفتاءِ؛ جاءتْ للتَّشديدِ والتَّأكيدِ في كَونِ مَقالَتِهم تلك هي مِن إفْكِهم[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ عَوْدٌ إلى الاستِفتاءِ؛ ولذلك لم تُعطَفْ لأنَّ بيْنَها وبيْنَ ما قَبْلَها كَمالَ الاتِّصالِ؛ فالمعنى: وقُلْ لهم: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾؟ والكلامُ ارتِقاءٌ في التَّجهيلِ، أيْ: لو سَلَّمْنا أنَّ اللهَ اتَّخَذَ ولَدًا، فلماذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٢).

اصْطَفى البَناتِ دُونَ الذُّكورِ، أي: اختارَ لِذَاتِه البَناتِ دُونَ البَنينَ، والبَنونَ أفضَلُ عِندَكم[١]؟!

- وأيضًا قولُه: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾ هو بمَنزلةِ التَّسليمِ في أثناءِ المُناظَرةِ، وهذا يُسمَّى المُعارَضةَ، وإنَّما أُقحِمَ في أثناءِ الاستِدلالِ عليهم ولم يُجعَلْ مع حِكايةِ دَعْواهُم؛ ليَكونَ آخِرُ الجَدَلِ معهم هو الدَّليلَ الَّذي يَجرُفُ جميعَ ما بَنَوْهُ، وهو قولُه: ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ۞ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾. فهذا مِن بديعِ النَّسيجِ الجامِعِ بيْن أُسلوبِ المُناظَرةِ، وأُسلوبِ المَوعِظةِ، وأُسلوبِ التَّعليمِ[٢]. - قولُه: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ﴾ بفَتحِ الهَمزةِ: استِفهامٌ على طَريقِ الإنكارِ والاستِبعادِ. وفيه إثباتٌ لإفْكِهم، وتقريرٌ لكَذِبِهم فيما قالوا، ببيانِ استِلزامِه لأمْرٍ بَيِّنٍ الاستِحالةِ، هو اصْطِفاؤُه تعالى البناتِ على البَنينَ. وقُرِئ ﴿اصْطَفَى﴾ بهمزةِ وَصْلٍ[٣]، على الإثباتِ بإضمارِ القَولِ، أيْ: لَكاذِبونَ في قَولِهم: (اصْطَفى)، أو جعَلَه مِن كلامِ الكَفَرةِ بدلًا عن قَولِهم: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾. وقيل: إنَّ قِراءةَ ﴿اصْطَفَى﴾ إخبارٌ بأنَّه سُبحانَه اصْطَفى البناتِ، وجَعْلُ النَّظمِ إخباريًّا لا يَمنَعُ مِن أنْ يَكونَ مِن كلامِ اللهِ على سَبيلِ الإنكارِ أيضًا[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ تقريعٌ وتوبيخٌ، واستِفهامٌ عن البُرهانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٨٥).

(٣) يُنظر ما تقدم (ص: ٦٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٣).

والحُجَّةِ[١].

- وهو بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾؛ فإنَّ إنكارَ اصْطِفاءِ البناتِ يَقتَضي عدَمَ الدَّليلِ في حُكمِهم ذلك، فأُبدِلَ ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ مِن إنكارِ ادِّعائِهمُ اصْطِفاءَ اللهِ البناتِ لنفْسِه. وقولُه: ﴿مَا لَكُمۡ﴾ (مَا) استِفهامٌ عن ذاتٍ، وهي مُبتدَأٌ و﴿لَكُمۡ﴾ خبرٌ، والمعنى: أيُّ شَيءٍ حصَلَ لكم؟ وهذا إبهامٌ، وفي الآيةِ استِفهامانِ: أحَدُهما: عنِ الشَّيءِ الَّذي حصَلَ لهم فحَكَموا هذا الحُكمَ، وثانيهما: عنِ الحالةِ الَّتي اتَّصَفوا بها لَمَّا حُكيَ هذا الحُكمُ الباطلُ. وهذا إيجازُ حَذفٍ؛ إذِ التَّقديرُ: ما لكم تَحكُمونَ هذا الحُكمَ، كيف تَحكُمونَه؟! وحُذِف مُتعلَّقُ ﴿تَحۡكُمُونَ﴾؛ لِما دَلَّ عليه الاستِفهامانِ مِن كَونِ ما حَكَموا به مُنكَرًا يَحِقُّ العَجَبُ منه، فكِلا الاستِفهامَينِ إنكارٌ وتعجُّبٌ[٢].

- وعبَّرَ بالحُكمِ؛ لاشتِهارِه فيما يُبَتُّ، فيأبَى النَّقضَ؛ فكان التعبيرُ به أعظَمَ في تقريعِهم، حيثُ أطلَقوه على ما لا أوهَى منه[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الهَمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، وهو إنكارٌ عن عدَمِ تذَكُّرِهم، أي: استِعمالِ ذُكْرِهم -بضمِّ الذَّالِ، وهو العقلُ- أي: فمُنكَرٌ عدَمُ تفَهُّمِكم فيما يَصدُرُ مِن حُكمِكم[٤].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ للعَطفِ على مُقَدَّرٍ، أي: ألَا تُلاحِظونَ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٢، ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٤).

فلا تَتَذَكَّرونَ بُطلانَه؛ فإنَّه مَركوزٌ في عقلِ كلِّ ذكيٍّ وغبيٍّ[١]؟!

٧- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ إضرابٌ وانتِقالٌ مِن تَوبيخِهم وتَبكيتِهم بما ذُكِر إلى تَبكيتِهم بتَكليفِهم ما لا يَدخُلُ تحتَ الوُجودِ أصلًا، والاستِفهامُ الَّذي تَقتَضِيه ﴿أَمْ﴾ بعْدَها إنكاريٌّ، والمَعنى: بلْ ألَكُم حُجَّةٌ واضِحةٌ نزلَتْ عليكم مِنَ السَّماءِ بأنَّ المَلائكةَ بناتُه تعالَى؛ ضَرورةَ أنَّ الحُكمَ بذلك لا بُدَّ له مِن سنَدٍ حِسِّيٍّ أو عقليٍّ؟! وحيثُ انتَفى كِلاهُما فلا بُدَّ مِن سنَدٍ نقليٍّ[٢].

٨- قولُه تعالَى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تفرَّعَ على إنكارِ أنْ تَكونَ لهم حُجَّةٌ بما قالوا أنْ خُوطِبوا بالإتيانِ بكِتابٍ مِن عِندِ اللهِ على ذلك إنْ كانوا صادِقينَ فيما زَعَموا، أيْ: فإنْ لم تأْتوا بكِتابٍ على ذلك فأنتم غَيرُ صادِقينَ. والأمرُ في قَولِه: ﴿فَأْتُوا۟﴾ أمْرُ تَعجيزٍ[٣].

- وذِكرُ لفظِ (كِتَابِكُمْ) إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ مُقتضَى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: فأْتُوا به، أيْ: السُّلطانِ المُبينِ؛ فإنَّه لا يَحتمِلُ إلَّا أنْ يَكونَ كِتابًا مِن عِندِ اللهِ. وإضافةُ (كِتابٍ) إلى ضَميرِهم مِن إضافةِ ما فيه مَعنَى المَصدرِ إلى مَعنَى المفعولِ، على طريقةِ الحذفِ والإيصالِ، والتَّقديرُ: (بكِتابٍ إليكم)؛ لأنَّ ما فيه مادَّةُ الكِتابةِ لا يَتعدَّى إلى المكتوبِ إليه بنفْسِه، بلْ بواسطةِ حرفِ الجَرِّ، وهو (إلى)[٤].

- وفي هذه الآياتِ مِنَ الإنباءِ عنِ السُّخطِ العظيمِ، والإنكارِ الفظيعِ لأقاويلِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٨٤، ١٨٥).

والاستِبعادِ الشَّديدِ لأباطيلِهم، وتَسفيهِ أحلامِهم، وتَركيكِ عقولِهم وأفهامِهم، مع استِهزاءٍ بهم وتَعجُّبٍ مِن جَهلِهم ما لا يَخفَى على مَن تأمَّلَ فيها[١].

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۖ﴾ الواو استِئنافيَّةٌ، والكلامُ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للإنحاءِ علَيهِم باللَّائمةِ واستِرْكاكِ عُقولِهم؛ بأنَّ مَن نَسَبوهم إلى اللهِ تعالَى يَعلَمونَ مَصائرَهمُ المُحْزِنةَ[٢].

- وأيضًا قَولُه: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۖ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿لَيَقُولُونَ﴾ [الصافات: ١٥١]، أي: شَفَّعوا قَولَهم: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ١٥٢]، فجَعَلوا بيْن اللهِ وبيْن الجِنِّ نَسَبًا بتلك الوِلادةِ، أي: بيَّنوا كيف حصَلَتْ تلك الوِلادةُ بأنْ جَعَلوها بيْن اللهِ تعالى وبيْن الجِنَّةِ نَسَبًا، والجِنَّةُ: الجَماعةُ مِنَ الجِنِّ؛ فتأنيثُ اللَّفظِ بتأويلِ الجَماعةِ مِثلَ تأنيثِ رَجْلَةٍ؛ الطَّائفةِ مِنَ الرِّجالِ؛ ذلك لأنَّ المُشركينَ زَعَموا أنَّ المَلائكةَ بناتُ اللهِ مِن سَرَواتِ الجِنِّ، أي: مِن فَريقِ نِساءٍ مِنَ الجِنِّ مِن أشرافِ الجِنِّ[٣]. وذلك على قَولٍ في تَفسيرِ الآيةِ.

- وفي قَولِه: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۖ﴾ الْتِفاتٌ إلى الغَيبةِ؛ للإيذانِ بانقِطاعِهم عن الجوابِ، وسُقوطِهم عن دَرجةِ الخِطابِ، واقتِضاءِ حالِهم أنْ يُعرَضَ عنهم، وتُحكَى جِناياتُهم لآخَرينَ[٤].

- وفي قَولِه: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۖ﴾ تَسميةُ المَلائكةِ (جِنَّةً) -على قولٍ-؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٥، ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

لأنَّ الجِنسَ واحِدٌ، فذكَرَهم في هذا الموضعِ باسمِ جِنسِهم، وإنَّما ذكَرَهم بهذا الاسمِ؛ وَضْعًا منهم وتقصيرًا بهم، وإنْ كانوا مُعَظَّمينَ في أنفُسِهم أنْ يَبلُغوا مَنزِلةَ المُناسَبةِ الَّتي أضافوها إليهم. وإنَّما أُعيدَ ذِكرُ هذا الادِّعاءِ؛ تَمهيدًا لِما يَعقُبه مِن قَولِه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[1].

- والنَّسَبُ: القَرابةُ العَموديَّةُ أو الأُفُقيَّةُ -أي: مِنَ الأطرافِ- والكلامُ في قَولِه: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ على حذْفِ مُضافٍ، أي: ذَوي نَسَبٍ للهِ تعالَى، وهو نَسَبُ البُنوَّةِ؛ لزَعمِهم أنَّ المَلائكةَ بَناتُ اللهِ تعالَى، أي: جَعَلوا للهِ تعالَى نَسَبًا للجِنَّةِ، ولِلْجِنَّةِ نَسَبًا للهِ[2].

- والمرادُ بقَولِه: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ المُبالَغةُ في التَّكذيبِ؛ ببيانِ أنَّ الَّذينَ يَدَّعِي هؤلاء لهم تلك النِّسبةَ، ويَعلَمونَ أنَّهم أَعْلَمُ منهم بحَقيقةِ الحالِ، يُكَذِّبونَهم في ذلك، ويَحْكُمونَ بأنَّهم مُعَذَّبونَ لأجْلِه حُكْمًا مؤكَّدًا[3].

- وقَولُه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ مُعترَضٌ بيْن جُملةِ ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾، وبيْن جُملةِ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩]. والمُحضَرونُ: المَجلُوبونَ للحُضورِ، والمرادُ: مُحضَرونُ للعِقابِ؛ بقرينةِ مَقامِ التَّوبيخِ؛ فإنَّ التَّوبيخَ يَتْبَعُه التَّهديدُ، والغالبُ في فِعلِ الإحضارِ أنْ يُرادَ به إحضارُ سُوءٍ، كما في قولِه: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧]؛ ولذلك حذَفَ مُتعلَّقُ (مُحْضَرُونَ)، فأمَّا الإتيانُ بأحدٍ لإكرامِه فيُطْلَقُ عليه المَجيءُ. والمعنَى -على قولٍ-: أنَّ الجِنَّ تَعلَمُ كَذِبَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

المُشركينَ في ذلك كَذِبًا فاحِشًا يُجازَوْنَ عليه بالإحضارِ للعَذابِ، فجعَلَ (مُحْضَرُونَ) كِنايةً عن كَذِبِهم؛ لأنَّهم لو كانوا صادِقينَ ما عُذِّبوا على قَولِهم ذلك، وظاهِرُه أنَّ هذا العِلمَ حاصِلٌ للجِنِّ فيما مضَى، ولعلَّ ذلك حصَلَ لهم مِن زمانِ تَمَكُّنِهم مِنَ استِراقِ السَّمعِ[١].

- قَولُه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ مِنَ استِعمالِ الماضي في مَوضِعِ المُستقبَلِ؛ لتحقُّقِ وُقوعِه، أي: ستَعلَمُ الجِنَّةُ ذلك يَومَ القِيامةِ، والمقصودُ: أنَّهم يَتحقَّقونَ ذلك، ولا يَستَطيعونَ دَفْعَ العَذابِ عنهم؛ فقد كانوا يَعبُدونَ الجِنَّ لاعتِقادِ وَجاهَتِهم عِندَ اللهِ بالصِّهرِ الَّذي لهم[٢]!

وقيل: الضَّميرُ في ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ للكَفَرةِ، والمعنَى: أنَّهم يَقولونَ ما يَقولونَ في المَلائكةِ، وقدْ عَلِم المَلائكةُ أنَّهم في ذلك كاذِبونَ مُفْتَرونَ، وأنَّهم مُحضَرونَ النَّارَ مُعَذَّبونَ بما يَقولونَ، والمرادُ: المُبالَغةُ في التَّكذيبِ؛ حيثُ أُضيفَ إلى عِلمِ الَّذينَ ادَّعَوْا لهم تلك النِّسبةَ، يعني: كَذَّبَهمُ اللهُ بقَولِه: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾؛ حيثُ سَمَّاهم بالجِنَّةِ، ولَمَّا أُريدَ التَّتميمُ ومَزيدُ المُبالَغةِ قيل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ حيث أَوقَعَ الجُملةَ القَسَميَّةَ حالًا وأُعيدَ لفظُ ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾؛ للتَّوضيعِ والتَّكذيبِ، وجَعلِهم عالِمينَ بأنَّ مُعْظَمَهم مُعَذَّبونَ بتلك المَقالةِ. ويَجوزُ إذا فُسِّر الجِنَّةُ بالشَّياطينِ: أنْ يَكونَ الضَّميرُ في ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ لهم، والمعنَى: أنَّ الشَّياطينَ عالِمونَ بأنَّ اللهَ يُحضِرُهمُ النَّارَ ويُعَذِّبُهم، ولو كانوا مُناسِبينَ له أو شُركاءَ في وُجوبِ الطَّاعةِ لَمَا عَذَّبَهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٨).

١٠- قولُه تعالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

- أُتبِعَتْ حِكايةُ قَولِهِمُ الباطِلِ والوَعيدِ عليه باعتِراضٍ بيْن المُستَثْنى منه والمُستَثْنى، يَتضمَّنُ إنشاءَ تَنزيهِ اللهِ تعالى عمَّا نَسَبوهُ إليه؛ فهو إنشاءٌ مِن جانبِ اللهِ تعالى؛ لتَنزيهِه، وتَلقينٌ للمؤمِنينَ بأنْ يَقتَدوا باللهِ في ذلك التَّنزيهِ، وتعجُّبٌ مِن فَظيعِ ما نَسَبوه إليه. وقيل: هو حِكايةٌ لتَنزيهِ المَلائكةِ إيَّاهُ تعالَى عمَّا وصَفَه المُشركونَ به بعْدَ تَكذيبِهم لهم في ذلكَ بتقديرِ قَولٍ معطوفٍ ﴿عَلِمَتِ﴾[1].

١١- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استِثناءٌ مُنقطِعٌ مِنَ (المُحضَرينَ)، مَعناهُ: ولكنَّ المُخلَصينَ ناجُونَ[2].

- وأيضًا جُملةُ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ١٥٩] وجُملةِ ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ١٦١] الآيةَ، والاستِثناءُ مُنقطِعٌ، والوجهُ: أنْ يَكونَ استِثناءً مُنقطِعًا نَشأَ عن قَولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩]، فهو مُرتبِطٌ به؛ لأنَّ (مَا يَصِفُونَ) أفادَ أنَّهم يَصِفونَ اللهَ بأنَّ الملائكةَ بناتُه، كما دَلَّ عليه قَولُه: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾[3] [الصافات: ١٤٩].

- وهذه الجُملةُ شَهادةٌ ببَراءةِ المُخلَصينَ مِن أنْ يَصِفُوه تعالى بذلك، مُتَضمِّنةٌ لتَبَرُّئِهم منه بحُكمِ اندِراجِهم في زُمرةِ المُخلَصينَ على أبْلَغِ وجهٍ وآكَدِه،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان) (٩/ ١٢٨))، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٧، ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٨).

على أنَّه استِثناءٌ مُنقطِعٌ مِن واوِ ﴿يَصِفُونَ﴾، كأنَّه قيل: ولقد عَلِمَتِ المَلائكةُ أنَّ المُشركينَ لَمُعَذَّبونَ؛ لقَولِهم ذلك، وقالوا: سُبحانَ اللهِ عمَّا يَصِفُونَه به، لكنْ عِبادُ اللهِ -الَّذينَ نحنُ مِن جُملتِهم- بُرآءُ مِن ذلك الوَصفِ(١).

١٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ عُقِّبَ قَولُهم في الملائكةِ والجِنِّ بهذا؛ لأنَّ قَولَهم ذلك دَعاهُم إلى عِبادةِ الجِنِّ وعِبادةِ الأصنامِ الَّتي سَوَّلَها لهم الشَّيطانُ، وحَرَّضَهم عليها الكُهَّانُ خَدَمةُ الجِنِّ؛ فعُقِّبَ ذلك بتأييسِ المُشرِكينَ مِن إدْخالِ الفِتنةِ على المؤمِنينَ في إيمانِهم بما يُحاوِلونَ منهم مِنَ الرُّجوعِ إلى الشِّركِ. أو هي فاءٌ فَصيحةٌ، والتَّقديرُ: إذا عَلِمْتُم أنَّ عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ مُنَزَّهونَ عن مِثلِ قَولِكم، فإنَّكم لا تَفتِنونَ إلَّا مَن هو صالِي الجَحيمِ(٢).

- والخِطابُ في قولِه: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ للكافِرينَ، وفيه الْتِفاتٌ مِنَ الغَيبةِ إلى الحُضورِ؛ لأنَّ الكافَ للمُخاطَبِ، والمُخاطَبُ حاضِرٌ، وما سبَقَ الضَّميرُ فيه عائدٌ إلى غائبٍ ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩]، فكلُّها بضَميرِ الغَيبةِ. والالْتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ أو العَكس له فائدةٌ، وهي تَنبيهُ المُخاطَبِ، وإظهارُ كَمالِ الاعتِناءِ بتَحقيقِ مَضمونِ الكلامِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الخِطابَ إذا كان على وَتيرةٍ واحدةٍ لم يكُنْ فيه ما يَدْعو إلى الانتِباهِ، فإذا تغَيَّرَ الأُسلوبُ انتَبَهَ الإنسانُ، وهذه الفائدةُ مُطَّرِدةٌ في كلِّ مَوضِعٍ فيه الْتِفاتٌ. وهناك فائدةٌ أُخرى تَكونُ بحسَبِ السِّياقِ وليستْ مُطَّرِدةً في كلِّ مَوضِعٍ، والفائدةُ هنا ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ هي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٨، ١٨٩).

أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى لَمَّا تَحدَّثَ عنهم بصيغةِ الغَيبةِ وكان الَّذي بعْدَ ضَمائرِ الغَيبةِ أمْرًا يَظُنُّ صاحِبُه أنَّه قادرٌ عليه، خاطَبَه مُخاطَبةَ الحاضِرِ؛ إفادةً إلى ذُلِّه وعدَمِ قُدرتِه على ما يَقصِدُ؛ فالكُفَّارُ يُحاوِلونَ فَتْنَ النَّاسِ عن دِينِهم بكُلِّ وسيلةٍ؛ تارةً بالدَّعايةِ لمَعبوداتِهم، وتارةً بالقَدْحِ في عِبادةِ اللهِ، وتارةً بالقَدْحِ في المُسلمينَ، وغيْرِ ذلك، فيَظُنُّونَ أنَّهم على شَيءٍ، فخاطَبَهمُ اللهُ تعالى بخِطابٍ صريحٍ؛ إذلالًا لهم، فقال ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ -أيُّها المُشرِكونَ- ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ مِنَ الأصنامِ، وعَبَّرَ بـ (ما) الَّتي تُستعمَلُ غالبًا في غيرِ العاقِلِ؛ لأنَّ أكثَرَ مَعبودِ المُشركينَ مِن غيرِ العاقِلِ. ويَحتمِلُ أنْ تَكونَ (ما) مَصدريَّةً، أيْ: فإنَّكم وعِبادتَكم ما أنتُم فاتِنينَ عليه أحدًا[1].

- قَولُه: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ تعليلٌ وتحقيقٌ لبراءةِ المُخلَصينَ ممَّا ذُكِر؛ ببيانِ عَجْزِهم عن إغوائِهم وإضلالِهم[2].

- قَولُه: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عِبارةٌ عن الشَّياطينِ الَّذين أَغْوَوْهُم، وفيه إيذانٌ بتَبرئتِهم عنهم وعن عِبادتِهم، كقَولِهم: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾[3] [سبأ: ٤١].

- و﴿أَنتُمْ﴾ ضَميرٌ لهم ولآلهتِهم، غُلِّب فيه المُخاطَبُ على الغائبِ، (وعلى) مُتعلِّقةٌ ﴿بِفَاتِنِينَ﴾، يُقالُ: فَتَنَ فُلانٌ على فُلانٍ امرأتَه، أي: أفسَدَها عليه، والمعنى: ما أنتُم على ما تَعبدونَه ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ بباعِثينَ على طَريقِ الفِتنةِ إلَّا ضالًّا مُستَوجِبًا للنَّارِ مِثلَكم، ولَسْتُم بفاتِنينَ عليه تعالى بإفسادِ عِبادِه وإضلالِهم. وقيل:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٩،٣٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حرفُ (على) يَتعلَّقُ بـ «فاتِنينَ»؛ إمَّا لتَضمينِ (فاتِنينَ) معنَى مُفسِدينَ إنْ كان الضَّميرُ المجرورُ بها عائدًا إلى اسمِ الجَلالةِ، وإمَّا لتَضمينِه معنَى حامِلينَ ومَسْؤولينَ، ويَكونُ (على) بمعنَى لامِ التَّعليلِ، كقَولِه: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويَكونُ تقدير مُضافٍ بيْن (على) ومَجرورِها، تَقديرُه: على عِبادةِ ما تَعبدونَ، والمعنَى: أنَّكم والشَّياطينَ لا يَتبَعُكم أحدٌ في دِينِكم إلَّا مَن عَرَّضَ نفْسَه ليَكونَ صالي الجَحيم، وهذا في معنَى قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] [الحجر: ٤٢، ٤٣].

- وحُذِف مَفعولُ ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾؛ لقَصدِ العُمومِ، والتَّقديرُ: بفاتِنينَ أحَدًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٠).

الآيات (١٦٤-١٧٠)

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ ١٦٤ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ١٦٦ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ١٦٧ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٩ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ١٧٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾: أي: الملائِكةُ صَفُّوا أقدامَهم، ووقَفوا صُفوفًا في السَّماءِ للعِبادةِ، كصُفوفِ النَّاسِ في الأرضِ، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استواءٍ وتَساوٍ بينَ شَيئَينِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ﴾

﴿مِنَّآ﴾ شِبهُ جُملةٍ جارٌّ ومجرورٌ (مِن - نَا) مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ هو مُبتدأٌ، والخبَرُ الجُملةُ مِنْ قولِه: ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ﴾ تَقديرُه: ما مِنَّا إلَّا له مَقامٌ؛ فحُذِفَ الموصوفُ وأُقيمَت صِفتُه مَقامَه. وحَذْفُ المبتدأِ مع (مِنْ) جيِّدٌ فَصيحٌ. وقيل في إعرابِه غيرُ ذلك[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى طاعةَ الملائكةِ له ومُداومتَهم على عِبادتِه وتسبيحِه، فيُخبرُ عنهم أنَّهم يقولونَ: وما مِنَّا إلَّا وله مَقامٌ مَعلومٌ لا يَتجاوَزُه، وإنَّا لنحنُ الذين نَقِفُ في السَّماءِ صُفوفًا عندَ اللهِ تعالَى، وإنَّا لنحنُ المُسَبِّحونَ اللهَ، والمُنَزِّهونَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٩).

عن النَّقائِص. والحالُ أنَّ أولئك المُشرِكينَ الضَّالِّينَ كانوا يَقولونَ قَبلَ بَعثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو أنَّ عِندَنا كِتابًا مِن السَّابِقينَ، لكُنَّا عِبادَ اللهِ الذين أخلَصَهم اللهُ لِعبادتِه. فلمَّا أتاهم ما تمَنَّوه مِن الكِتابِ كَفَروا به، فسوفَ يَعلَمُ هؤلاء الكُفَّارُ عاقِبةَ فِعلِهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ ١٦٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الملائِكةَ وَصَفوا أنفُسَهم بالمُبالَغةِ في العُبوديَّةِ؛ فإنَّهم يَصطَفُّونَ للصَّلاةِ والتَّسبيحِ، والغَرَضُ منه التَّنبيهُ على فَسادِ قَولِ مَن يَقولُ: إنَّهم أولادُ اللهِ؛ وذلك لأنَّ مُبالغتَهم في العُبوديَّةِ تَدُلُّ على اعترافِهم بالعُبوديَّةِ لِلهِ تعالَى رَبِّهم وإلهِهم[1].

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ ١٦٤﴾.

أي: يَقولُ الملائِكةُ عليهم السَّلامُ: وما مِنَّا إلَّا وله مَقامٌ مُحَدَّدٌ مَعلومٌ لا يَتجاوَزُه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٧٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩١).

قال الرازيُّ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ﴾: (الجُمهورُ على أنَّهم الملائِكةُ). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٢).

وقيل: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ﴾ مِن قول الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ للمُشرِكينَ، أي: لكلِّ واحدٍ مِنَّا ومِنكم في الآخِرةِ مقامٌ معلومٌ، وهو مقامُ الحِسابِ. وقيل: أي مِنَّا مَن له مقامُ الخوفِ، ومِنَّا مَن له مقامُ الرَّجاءِ، ومِنَّا مَن له مَقامُ الإخلاصِ، ومِنَّا مَن له مَقامُ الشُّكرِ. إلى غيرِها مِن المقاماتِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٨).

قال ابنُ جُزي: (والمقامُ المَعلومُ: يحتَمِلُ أن يرادَ به المكانُ الذي يقومونَ فيه؛ لأنَّ منهم مَن هو في السَّماءِ الدُّنيا، وفي الثَّانيةِ، وفي السَّمواتِ، وحيثُ شاء اللهُ، ويحتَمِلُ أنْ يُرادَ به المنزلةُ مِن =

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾.

أي: وإنَّا لَنحنُ الذين نَقِفُ في السَّماءِ صُفوفًا متراصِّينَ في طاعةِ الله[1].

كما قال تعالَى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ [الصافات: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢].

وعن جابرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((خرَجَ علينا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ

= العِبادةِ والتَّقريبِ والتَّشريفِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٩).

ممَّن اختارَ القَولَ الأوَّلَ: ابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والخازنُ، وابنُ كَثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٥٣).

وقيل: المرادُ أنَّ للملائكةِ مَقامًا مَكانيًّا ومَقامًا زمانيًّا، أي: لهم مَوضِعٌ ووَقتٌ يقومون فيه للهِ تعالى؛ فعِبادتُهم مُؤقَّتةٌ بزمنٍ، ومُقيَّدةٌ بمكانٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٤).

وقيل: المرادُ أنَّه ما مِنهم مِن أحدٍ إلَّا له مَقامٌ وتدبيرٌ قدْ أمَرَه اللهُ به، لا يَتعدَّاه ولا يَتجاوزُه، وليس لهم مِن الأمْرِ شَيءٌ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٦/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٤-٣٤٥).

قيل: يَصُفُّونَ لعِبادةِ اللهِ تعالَى. وممَّن قال بذلك: ابنُ جَرير، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطاب، وعبدُ الله بنُ مَسعودٍ، وابن عبَّاس، وقَتادة، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٣٢).

وقيل: يَصُفُّونَ في الصَّلاةِ والجِهادِ، ويَصُفُّونَ أجنِحَتَهم في الهواءِ، وغيرِ ذلك. وممَّن قال بهذا المعنى: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٢).

عليه وسلَّم فقال: ألَا تَصُفُّونَ كما تَصُفُّ الملائِكةُ عندَ رَبِّها؟ فقُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، وكيف تَصُفُّ الملائِكةُ عِندَ رَبِّها؟ قال: يُتِمُّونَ الصُّفوفَ الأُوَلَ، ويَتراصُّونَ في الصَّفِّ))[١].

وعن حُذَيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((فُضِّلْنا على النَّاسِ بثَلاثٍ: جُعِلَت صُفوفُنا كصُفوفِ الملائِكةِ، وجُعِلَتْ لنا الأرضُ كُلُّها مَسجِدًا، وجُعِلَت تُربتُها لنا طَهُورًا إذا لم نَجِدِ الماءَ))[٢].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

أي: وإنَّا لَنحنُ الذين نُسَبِّحُ اللهَ ونُنزِّهُه عن كُلِّ ما لا يَليقُ به مِن عُيوبٍ ونقائِصَ[٣].

---

(١) رواه مُسلِم (٤٣٠).

(٢) رواه مُسلِم (٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٥-٣٤٦).

قال الشوكاني: (﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ أي: المُنزِّهُونَ لِلَّهِ المُقَدِّسونَ له عَمَّا أضافَه إليه المشركونَ، وقيل: المصلُّونَ، وقيلَ: المرادُ بقولِهم: ﴿ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ مجموعُ التَّسبيحِ باللِّسانِ وبالصَّلاةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٦).

ممن اختار أنَّ المرادَ بـ ﴿ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾: المُنزِّهونَ لِلَّهِ عن النقائصِ وعمَّا لَا يَليقُ به: الواحدي، والبغوي، والسمعاني، والبيضاوي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

وممن اختار أن المراد المصلون؛ لأنَّ الصلاةَ يقالُ لها تسبيحٌ: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٥).

وممن جمع فقال: المرادُ: المصلونَ المنزهونَ الله عن السوءِ: الواحدي، والبغوي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآياتِ لِمَا قبلَها:

أنَّها انتِقالٌ مِن ذِكرِ كُفرِ المُشركينَ؛ بتَعدُّدِ الإلهِ، وبإنكارِ البَعثِ، وما وصَفوا به الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ السِّحرِ والجُنونِ، ثمَّ بما نَسَبوا للهِ ممَّا لا يَليقُ بإلهيَّتِه، وما تَخلَّلَ ذلك مِنَ المَواعِظِ والوَعيدِ لهم، والوَعدِ للمُؤمِنينَ، والعِبرةِ بمَصارِعِ المُكذِّبينَ السَّابِقينَ، وما لَقِيَه رُسلُ اللهِ مِن أقوامِهم؛ فانتقَلَ الكلامُ إلى ذِكرِ ما كفَرَ به المُشرِكونَ مِن تَكذيبِ القُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ هُدًى لهم[1]، وإلى ذِكرِ إخلافِهم للوَعدِ، والنقضِ لِمَا أكَّدوه مِن العَهدِ[2].

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

أي: ضلَّ مُشرِكو قُرَيشٍ عن الحَقِّ، ولم يُنزِّهوا اللهَ تعالى كما يَنبغي له سُبحانَه، والحالُ أنَّهم كانوا يَقولونَ قَبلَ بَعثةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو أنَّ عِندَنا

= قال القُرطبيُّ: (المرادُ أنَّهم يُخبِرونَ أنَّهم يَعبُدونَ اللهَ بالتَّسبيحِ والصَّلاةِ، وليسوا مَعبودينَ ولا بَناتِ اللهِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٢-٣١٣).

كِتابًا مِن السَّابِقينَ[(١)].

كما قال تعالَى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [فاطر: ٤٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٢-٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).

ممَّن اختارَ أنَّ معنَى ﴿ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: كِتابًا مِن كُتُبِ الأوَّلين: الواحدي، والزمخشري، والرازي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٣٣).

وقيل: المعنى: كتابًا مثلَ كتبِ الأوَّلين، وممَّن اختارَه: الثَّعلبي، والسَّمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٣٩).

قال ابنُ عاشور: (الذِّكْرُ: الكتابُ المقروءُ، سُمِّي ذِكْرًا لأنَّه يُذَكِّرُ النَّاسَ بما يَجِبُ عَليهم، مُسَمًّى بالمصدَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).

وقيل: المرادُ بقَولِهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: خبَرُ الأُمَمِ الخالية: كيف أُهلِكوا، وما كان مِن أمْرِهم. وممَّن قال بهذا المعنى: مُقاتِل بن سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣).

وقيل: المعنى: لو بُعِث إلينا نبيٌّ ببَيانِ الشَّرائعِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٨).

وقيل: المراد: لو أنَّ عِندَنا كِتابًا أُنزِلَ مِن السَّماءِ، كالتَّوراةِ والإنجيلِ، أو نبيًّا أتانا مِثلَ الذي أتَى اليهودَ والنَّصارى. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٥).

وقيل: المعنى: لو كان عِندَهم مَن يُذَكِّرُهم بأمْرِ اللهِ، وما كان مِن أمْرِ القُرونِ الأُولى، ويأتيهم بكتابِ اللهِ. وممَّن ذهب إليه: ابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٩).

وقيل: المرادُ: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾ أي: على أيِّ حالٍ كان مِن أحوالِه مِن كِتابٍ أو غيرِه ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مِن الرُّسُلِ الماضين. وممَّن قال بذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣١٣).

﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٦٩﴾.

أي: لَكُنَّا عِبادَ اللهِ الذين أخلَصوا للهِ تعالَى، وأخلَصَهم لعِبادتِه وطاعتِه، واختارَهم لجَنَّتِه[1].

كما قال تعالَى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧].

﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ١٧٠﴾.

﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾.

أي: فلمَّا أتاهم ما تمَنَّوه كفَروا بالقُرآنِ الذي جاءَهم به مُحمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١].

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: فسَوفَ يَعلَمُ هؤلاءِ الكُفَّارُ ما يأتيهم مِنَ الخِزْيِ والعَذابِ؛ بسَبَبِ كُفرِهم برَبِّهم، وإعراضِهم عن كِتابِه، وتَكذيبِهم رَسولَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥١-٣٥٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

أنَّه يَنبغي تأكيدُ الخِطابِ إذا كان المُخاطَبُ مُنكِرًا، أو مُتَرَدِّدًا، أو كان المعنى ذا أهميَّةٍ يَحتاجُ إلى التَّوكيدِ؛ لِقَولِه تعالَى مُخبِرًا عن الملائكةِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾؛ وذلك مِن أجْلِ تَقريرِ هؤلاء المُنكِرينَ الذين يَدَّعونَ أنَّ الملائِكةَ بناتُ اللهِ؛ فيَقولونَ: نحن نَصُفُّ للهِ تَعبُّدًا له وتَعظيمًا[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ بيانُ أنَّ الملائِكةَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مُنَزَّهُون عمَّا يَدَّعِيه هؤلاء مِن كونِهم بَناتِ اللهِ، ووجهُ ذلك: أنَّهم مُكَلَّفونَ بالعِبادةِ على حَدٍّ مَعلومٍ -على قولٍ في التفسيرِ-، ومَن كان مُكَلَّفًا بالعِبادةِ لا يُمكِنُ أنْ يكونَ ابنًا أو ولَدًا للمَعبودِ[٢]!

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ يدُلُّ على أنَّ مِن صِفاتِ الملائِكةِ أنَّ لكُلِّ واحدٍ منهم مَرتبةً لا يَتجاوَزُها، ودرجةً لا يتعدَّاها[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ فيه بيانُ بَراءةِ الملائِكةِ عليهم السَّلامُ ممَّا قالَه فيهم المُشرِكونَ، وأنَّهم عِبادُ اللهِ لا يَعصُونَه طَرفةَ عَينٍ؛ فما منهم مِن أحدٍ إلَّا له مَقامٌ وتَدبيرٌ قدْ أمَرَه اللهُ به لا يَتعدَّاه ولا يَتجاوزُه -وذلك على قَولٍ في التفسيرِ-، وليس لهم مِنَ الأمرِ شَيءٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٠٨).

٤- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ۞ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۞ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ ذلك أفظَعُ الكُفرِ؛ لأنَّه كُفرٌ بما كانوا على بَصيرةٍ مِن أمْرِه، إذ كانوا يتَمنَّونَه لأنفُسِهم، ويَغبِطونَ الأُمَمَ التي أُنزِلَ عليهم مِثلُه، فلم يكُنْ كُفرُهم عن مُباغَتةٍ، ولا عن قِلَّةِ تمكُّنٍ مِن النَّظَرِ[1].

٥- أنَّ النَّاسَ لا يُمكِنُ أنْ يكونَ لهم استِقامةٌ إلَّا بكُتُبٍ نازلةٍ مِن السَّماءِ، حتى المُشرِكونَ الكُفَّارُ يُقِرُّونَ بهذا؛ لقَولِه تعالَى: ﴿لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، وهذه الفائدةُ يَشهَدُ لها الواقعُ؛ فإنَّ الأُمَمَ الذين لم تَنزِلْ عليهمُ الكتُبُ تَجِدُهم في فَوضَى مُطَّرِدةٍ، لا يَستقيمُ لهم حالٌ، ولا يَمشونَ على خَطٍّ مُستقيمٍ، بخِلافِ الأُمَمِ التي تَنزِلُ عليها الكُتُبُ؛ فإنَّها تكونُ مُستقيمةً بقَدرِ تَمَسُّكِها بهذه الكُتُبِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ حِكايةُ اعترافِ الملائكةِ بالعُبوديَّةِ للرَّدِّ على عَبَدتِهم. ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ هذا وما قبْلَه مِن قَولِه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ١٥٩] مِن كَلامِهم؛ لِيَتَّصِلَ بقَولِه: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ﴾ [الصافات: ١٥٨]، كأنَّه قال: ولقدْ عَلِمَتِ المَلائكةُ أنَّ المُشركينَ مُعَذَّبونَ بذلك، وقالوا: سُبحانَ اللهِ؛ تَنزيهًا له عنه، ثمَّ استَثْنَوُا المُخلَصينَ؛ تَبرئةً لهم منه، ثمَّ خاطَبوا المُشركينَ بأنَّ الافتِتانَ بذلك للشَّقاوةِ المُقَدَّرةِ، ثمَّ اعترَفوا بالعُبوديَّةِ، وتَفاوُتِ مَراتِبِهم فيها لا يَتجاوَزُونَها؛ فحُذِفَ المَوصوفُ وأُقيمَتِ الصِّفةُ مُقامَه[3]، وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠).

على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ قولُه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ مِن قَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعلى هذا يَكونُ قَولُه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ اعتراضًا، وكلامُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ استِطرادًا؛ لأنَّه تعالى لَمَّا أمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالاستِفتاءِ عن وجهِ تلك القِسمةِ الضِّيزَى الَّتي قَسَموها بقَولِه: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩]، وبالإنكارِ البَليغِ واستِجهالِ النُّفوسِ واستِركاكِ العُقولِ سُخطًا عليهم وغضَبًا على تلك المقالةِ الشَّنيعةِ؛ أتَى بما دَلَّ على ضِدِّ ذلك مِن مَعنى الرِّضا عن المؤمِنينَ لأجْلِ أعْمالِهمُ الصَّالحةِ؛ مِنَ الصَّلاةِ في الجَماعاتِ، وتَسبيحِ اللهِ وتَنزيهِه عمَّا أضافَ إليه الكَفَرةُ[1].

- قولُه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ (المَقامُ): أصْلُه مكانَ القِيامِ، ولَمَّا كان القِيامُ يَكونُ في الغالِبِ لأجْلِ العَملِ؛ كثُرَ إطلاقُ المَقامِ على العَملِ الَّذي يَقومُ به المرءُ. و(المعلومُ): المُعَيَّنُ المَضبوطُ، وأُطلِقَ عليه وصْفُ مَعلومٍ؛ لأنَّ الشَّيءَ المُعَيَّنَ المَضبوطَ لا يَشتبِهُ على المُتبَصِّرِ فيه، فمَن تأمَّلَه عَلِمَه. والمعنى -على قولٍ في التَّفسيرِ-: ما مِن أحدٍ مِنَّا -مَعشَرَ المؤمِنينَ- إلَّا له صِفةٌ وعمَلٌ نحوَ خالِقِه لا يَستزِلُّه عنه شَيءٌ، ولا تَرُوجُ عليه فيه الوَساوِسُ؛ فلا تَطْمَعوا أنْ تُزِلُّونا عن عِبادةِ ربِّنا، فالمَقامُ هو صِفةُ العُبوديَّةِ للهِ؛ بقرينةِ وُقوعِ هذه الجُملةِ عَقِبَ قَولِه: ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ * مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ [الصافات: ١٦١، ١٦٢]، أي: ما أنتم بفاتِنينَ لنا، فلا يَلتبِسُ علينا فضْلُ الملائكةِ فنَرفَعَه إلى مَقامِ البُنوَّةِ للهِ تعالَى، ولا نُشَبِّهُ اعتِقادَكم في تَصرُّفِ الجِنِّ أنْ تَبلُغوا بهم

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢١٩).

مَقامَ المُصاهَرةِ للهِ تعالَى والمُداناةِ لجَلالِه، كقَولِه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾[1] [الأنعام: ١٠٠].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ فيه تَحليةُ كلامِهم بفُنونِ التَّأكيدِ -بـ (إنَّ) واللَّام، وتَوسيطِ الفَصلِ (نحن)- مِنَ التأكيدِ والاختِصاصِ؛ لأنَّهم المُواظِبونَ على ذلك دائمًا مِن غيرِ فَترةٍ دُونَ غَيرِهم، ولإبرازِ أنَّ صُدورَه عنهم بكَمالِ الرَّغبةِ والنَّشاطِ[2].

- وحُذِف مُتعلَّقُ «الصَّافُّونَ المُسَبِّحونَ»؛ لدَلالةِ قَولِه ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ [الصافات: ١٦٢] عليه، أي: الصَّافُّونَ لعِبادتِه، المُسَبِّحونَ له؛ فإنَّ الكلامَ في هذه الآياتِ كلِّها مُتعلِّقٌ بشُؤونِ اللهِ تعالَى[3].

- قَولُه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ تعريفُ جُزْأيِ الجُملةِ، وضميرُ الفَصلِ مِن قَولِه: ﴿لَنَحْنُ﴾ يُفيدانَ قَصْرًا مؤكَّدًا؛ فهو قَصرُ قَلبٍ، أي: دُونَ ما وصَفْتُموهُ به مِنَ البُنوَّةِ للهِ[4].

- وعبَّرَ في قَولِه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ بالجُملةِ الاسميةِ، وهي تفيدُ الثُّبوتَ والاستمرارَ؛ فدَلَّ على أنَّ دَأْبَ الملائكةِ التسبيحُ[5].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ۝ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٨).

ٱلْمُخْلَصِينَ ۞ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

- انتقَلَ الكلامُ إلى ذِكرِ ما كفَرَ به المُشرِكونَ مِن تكذيبِ القُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ هُدًى لهم؛ فالمقصودُ مِن هذا هو قَولُه: ﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾، أي: الذِّكرِ، وإنَّما قُدِّم له في نَظْمِ الكلامِ ما فيه تَسجيلٌ على الكافِرينَ بتَهافُتِهم في القَولِ؛ إذْ كانوا قبْلَ أنْ يأتيَهم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالكِتابِ المُبينِ يَوَدُّونَ أنْ يُشَرِّفَهمُ اللهُ بكِتابٍ لهم كما شرَّفَ الأوَّلينَ، ويَرْجونَ لو كان ذلك أنْ يَكونوا عِبادًا للهِ مُخلِصينَ له، فلمَّا جاءَهم ما رَغِبوا فيه كَفَروا به[1].

- قَولُه: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴾ تأكيدُ الخَبرِ بـ (إنْ) المُخفَّفةِ مِنَ الثَّقيلةِ، وبلامِ الابتِداءِ الفارِقةِ بيْن المُخفَّفةِ والنَّافيةِ؛ للتَّسجيلِ عليهم بتَحقيقِ وُقوعِ ذلك منهم؛ لِيُسَدَّ عليهم بابُ الإنكارِ[2]؛ فقد كانوا جادِّينَ في ذلك، ثمَّ ظهَرَ منهمُ التَّكذيبُ والنُّفورُ البَليغُ، فكَمْ بيْن أوَّلِ أمْرِهم وآخِرِه[3]!

- وإقحامُ فِعلِ ﴿ كَانُوا۟ ﴾ في قَولِه: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ خبْرَ (كان) ثابتٌ لهم في الماضي[4].

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ في (يَقولونَ)؛ لإفادةِ أنَّ ذلك تَكرَّرَ منهم[5].

- قولُه: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ۞ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ... ﴾ ﴿ مِّنَ ﴾ ابتدائيَّة، أي: ذِكرًا جائيًا مِن الرُّسُلِ الأوَّلينَ، أي: مِثل موسى وعيسى، ومُرادُهم بهذا أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٠، ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الرُّسلَ الأوَّلينَ لم يَكونوا مُرسَلينَ إليهم، ولا بَلَّغوا إليهم كِتابَهم، ولو كانوا مُرسَلينَ إليهم لآمَنوا بهم، فكانوا عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ، فذُكِرَ في جَوابِ (لو) ما هو أخَصُّ مِنَ الإيمانِ؛ ليُفيدَ معنَى الإيمانِ بدَلالةِ الفَحْوى(١).

- وفي جُملةِ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ صِيغةُ قَصرٍ؛ مِن أجْلِ كَونِ المُسنَدِ إليه مَعرفةً بالإضمارِ، والمُسنَدِ مَعرفةً بالإضافةِ، أي: لَكُنَّا عِبادَ اللهِ دُونَ غَيرِنا، ولَمَّا وُصِفَ المُسنَدُ بـ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وهو مُعرَّفٌ بِلامِ الجِنسِ، حصَلَ قَصرُ عِبادِ اللهِ الَّذينَ لهم صِفةُ الإخلاصِ في المُسنَدِ إليه، وهذا قَصرٌ ادِّعائيٌّ(٢)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣، ١٩٤).

وفحْوَى الخطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأولَى، كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظمُ مِن التَّأْفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كانَ دونَ القنطارِ؛ ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصْرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيره أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو الله وحْدَه، وهذا مِن قصْرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٢).

لِلمُبالَغةِ في ثُبوتِ صِفةِ الإخلاصِ لهم حتَّى كانوا شَبيهينَ بالمُنفرِدينَ بالإخلاصِ؛ لعدَمِ الاعتِدادِ بإخلاصِ غَيرِهم في جانبِ إخلاصِهم، وهو يَؤولُ إلى معنَى تَفضيلِ أنفُسِهم في الإخلاصِ للهِ حينَئذٍ[١].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ للتَّعقيبِ على فِعلِ ﴿لَيَقُولُونَ﴾، أي: استَمَرَّ قَولُهم حتَّى كان آخِرُه أنْ جاءَهمُ الكِتابُ فكَفَروا به. أو للفَصيحةِ، والتَّقديرُ: فكان عِندَهم ذِكرٌ فكَفَروا به، فالضَّميرُ عائدٌ إلى الذِّكرِ، وهو القُرآنُ، وبهذا كان للوَعيدِ بقَولِه: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ مَوقِعُه المُصادِفُ المَحَزَّ مِنَ الكَلامِ، وهَولُه بما ضُمِّنَه مِنَ الإبهامِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٧١-١٨٢)

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: أي: فأعْرِضْ عنهم، والفِعلُ (تولَّى) يتعدَّي بحُروفِ الجرِّ، فإذا عُدِّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنى الإعراضِ والتَّركِ، وإذا عُدِّي بنَفْسِه اقتضَى معنى الوِلايةِ والقُربِ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُرْب، يُقالُ: تباعَدَ بعْدَ ولْيٍ، أي: قُربٍ[1].

﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾: أي: بفِنائِهم، والسَّاحَةُ: المكانُ الواسِعُ، ومنه: سَاحَةُ الدَّارِ[2].

﴿فَسَآءَ﴾: أي: فقَبُحَ، والسُّوءُ: اسمٌ جامِعٌ للآفاتِ، ثمَّ استُعمِلَ في كلِّ ما يُستقبَحُ، وهو أيضًا كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٤).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبشِّرًا المؤمنِينَ بنَصرِه، ومُسلِّيًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا أصابَه مِن أعدائِه: ولقدْ سَبَق قَضاؤُنا لِرُسُلِنا بأنَّهم هم المنصورونَ، وأنَّ العاقِبةَ لهم، وأنَّ حِزبَنا هم الغالِبونَ؛ فأعرِضْ عن أولئك الكافِرينَ -يا مُحمَّدُ- إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عندَ اللَّهِ سبحانَه، وأبصِرْهم -يا مُحمَّدُ- فسوف يُبصِرونَ ما يَحُلُّ بهم، أفيَستَعجِلُ أولئك المجرِمونَ بعَذابِنا؟!

فإذا نزَلَ العَذابُ بفِنائِهم، فساءَ صَباحُ أولئك الذين أنذَرَهم رُسُلُنا فأعرَضوا عنه، ودَعْهم -يا محمَّدُ- إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عندَ اللَّهِ سبحانَه، وأبصِرْ -يا مُحمَّدُ- فسوف يَرَونَ ما يَحُلُّ بهم جزاءَ كُفرِهم، تنزَّهَ ربُّك رَبُّ العِزَّةِ عمَّا يَصِفُه به أولئك الكُفَّارُ، وسَلامٌ مِنَ اللهِ على المُرسَلينَ، والحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا هدَّدَ الكُفَّارَ بقَولِه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ -أي: عاقِبةَ كُفرِهم-؛ أردَفَه بما يُقوِّي قَلبَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

وأيضًا فهو تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما تضَمَّنَه قَولُه: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [الصافات:١٧٠]، وبيانٌ لِبَعضِ الوَعيدِ الذي في قَولِه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات:١٧٠]، بمنزلةِ بدَلِ البَعضِ مِن الكُلِّ، ولكِنَّه غُلِّبَ عليه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٤).

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

أي: ولقدْ تَقدَّمَ منَّا القَولُ والقَضاءُ والوَعْدُ لِرُسُلِنا(١).

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾.

أي: بأنَّهم هُم الَّذينَ يَنصرُهم اللهُ في الدُّنيا والآخِرةِ، وأنَّ العاقِبةَ تَكونُ لهم(٢).

كما قال تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥).

قيل: المرادُ بالكَلِمةِ: قَولُه تعالَى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]. وممَّن ذهَب إلى هذا القَولِ: مقاتل بن سليمان، والثعلبيُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٠).

وقيل: المرادُ بها ما ورَد في الآيتَينِ بَعدَها: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢، ١٧٣]. وممَّن قال بهذا القول: البقاعيُّ، والشوكانيُّ، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٥).

وقيل: المعنى: مضَى القَضاءُ والحُكمُ في أمِّ الكِتابِ، بأنَّ لهم النُّصرةَ والغَلَبةَ والعاقِبةَ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: ابن جَرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٤-٣٥٥).

قال ابن عثيمين: (المرادُ بالعبادِ هنا العبوديةُ الخاصةُ، بل أخصُّ الخاصةِ، وهي عبوديةُ الرسالةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢١).

قال الزَّمخشريُّ: (المرادُ: المَوعِدُ بعُلُوِّهم على عَدُوِّهم في مَقاوِمِ الحِجاجِ وملاحِمِ القِتالِ في الدُّنيا، وعلوِّهم عليهم في الآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢]). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧).

ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾.

أي: وإنَّ حِزبَنا المُؤمِنينَ المُدافِعينَ عن دِينِ رَبِّ العالَمينَ، هُمْ أصحابُ الغَلبةِ والظَّفَرِ على الكافِرينَ(١).

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٥٥].

وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٤﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٦-٣٥٧).

قيل: المرادُ بالجُندِ: المُرسَلونَ وأتْباعُهم. وممَّن قال بذلك في الجُملةِ: البقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٤٨).

وقيل: يَعْني حِزْبنا المؤمنين وأهلَ ولايتِنا، وممَّن قال بذلك في الجُملة: مقاتل بن سليمان، وابنُ جَرير، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ثَبَت لا محالةَ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو المنصورُ؛ لأنَّه مِن المُرسَلينَ ومِن جُندِ اللهِ، بل هو أعلاهم؛ سَبَّبَ عن ذلك قَولَه[1]:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾.

أي: فأعرِضْ -يا مُحمَّدُ- عن الذين كَفَروا إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عندَ اللَّهِ سبحانَه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٨، ٦٥٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩).

قال الشوكانيُّ: (﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: أعرِضْ عنهم إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عندَ اللَّهِ سبحانَه، وهي مُدَّةُ الكفِّ عن القِتالِ. قالَ السُّدِّيُّ ومجاهِدٌ: حتَّى نأمُرَكَ بالقِتالِ. وقالَ قتادَةُ: إلى الموتِ. وقيلَ: إلى يومِ بَدرٍ، وقيلَ: إلى يومِ فتحِ مَكَّةَ. وقيلَ: هذه الآيةُ منسوخَةٌ بآيةِ السَّيفِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧).

وممن اختار أنَّ المرادَ: إلى يومِ بدرٍ: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والبيضاوي، وابن جزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٨، ٦٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٠).

وقال السعديُّ: (أمَرَ رَسولَه بالإعراضِ عمَّن عانَدوا، ولم يَقبَلوا الحَقَّ، وأنَّه ما بَقِيَ إلَّا انتِظارُ ما يَحُلُّ بهم مِنَ العَذابِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩). ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٥).

وممن اختار أنَّ المرادَ: مدةُ الكفِّ عن القتالِ: الزمخشري، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧).

وقال العليمي: (﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: حين نأمرُكَ بقتالِهم، فالآيةُ محكمةٌ). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٥٦).

وقال السمعاني: (﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: حينِ الموتِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢١).

كما قال تعالَى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾[السجدة: ٣٠].

﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

أي: وأبصِرْهم -يا مُحمَّدُ- فسوف يُبصِرونَ ما يَحُلُّ بهم؛ جزاءَ كُفرِهم[(١)].

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

أي: أفيَطلُبُ المُشرِكونَ أن يُعَجَّلَ لهم عَذابُ اللهِ، فيَأتيَهم قبْلَ أوانِه الذي ضُرِبَ لهم[(٢)]؟!

كما قال تعالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾[النمل: ٧١، ٧٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧٣)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٦١٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

قيل: المرادُ بـ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ انظُرْ إليهم إذا عُذِّبوا. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٦١).

قال مقاتل: (﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ إذا نزَل بهم العذابُ ببدرٍ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣).

وقال ابنُ عاشور: (وليسَ المرادُ النَّظَرَ إلى ذواتِهم لكِنْ إلى أحوالِهم، أي: تأمَّلْ أحوالَهم تَرَ كيفَ ننصرُك عليهم، وهذا وَعيدٌ بما حَلَّ بهم يومَ بدْرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

وقيل: المرادُ: أنظِرْهم، وارتَقِبْ ماذا يحُلُّ بهم مِنَ العذابِ والنَّكالِ على مُخالفَتِك وتَكذيبِك. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملة: مكي، وابن كثير. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥).

وقيل: المعنى: وأبصِرْهم ببَصَرِك وبَصيرتِك عِندَ الحِينِ الذي ضرَبْناه لك وقَبلَه، كيف تُؤدِّيهم أحوالُهم وتقَلُّباتُهم كُلَّما تقَلَّبوا إلى سُفولٍ. قاله البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٦).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[١] [ص: ١٦].

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٧﴾.

أي: فإذا نزَلَ العَذابُ بفِناءِ أولئك المُستَعجِلينَ به، فما أسوَأَه مِن صَباحِ هذا الذي يَحُلُّ فيه العَذابُ على مَن أنذَرَهم رَسولُهم، فأعرَضوا عنه ولم يلتَفِتوا إلى إنذارِه[٢]!

عن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أتَى خيبَرَ ليلًا، وكان إذا أتَى قَومًا بلَيلٍ لم يُغِرْ[٣] بهم حتى يُصبِحَ، فلمَّا أصبَحَ خَرَجت اليَهودُ بمَسَاحِيهم[٤] ومَكاتِلِهم[٥]، فلمَّا رأَوْه قالوا: محمَّدٌ واللهِ، محمَّدٌ والخَميسُ[٦]!

---

(١) معنَى ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾: أي: نصيبَنا المقدَّرَ لنا مِن العذابِ الَّذي تزعُمُ وُقوعَه بنا إنْ لم نُصَدِّقْكَ ونُؤْمِنْ بك. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٦٣-٣٦٤).

(٣) مِن الإغارةِ، وهي الهُجومُ على العَدوِّ على وجْهِ الغَفلةِ، أو: تبييتُ العَدوِّ ليلًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ٢٣١)، ((عمدة القاري)) للعيني (٦/ ٢٦٥).

(٤) المَسَاحي: جمْع مِسْحاة، وهي المِجرَفةُ مِن الحَديدِ، وهي مِن آلاتِ الحرْثِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٤٩). ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٤٦٨).

(٥) المَكاتِل: جمْع مِكْتَل، وهو الزِّنْبيلُ -وهو ما يُعمَلُ مِن الْخُوصِ- والقُفَّةُ الكَبيرةُ التي يُحْمَلُ فيها التَّمْرُ وغَيْرُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ٢٢٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٥٢٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٤٦٨).

(٦) الخميس: الجيشُ؛ قيل: سُمِّيَ خميسًا لأنَّه خمسةُ أقسامٍ: مُقدِّمة، وساقة، ومَيْمنة، ومَيْسرة، وقلْب. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ٢١٩).

فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: خَرِبَت خَيبرُ، إنَّا إذا نزَلْنا بساحةِ قَومٍ فساءَ صَباحُ المُنذَرينَ))[١].

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾﴾.

أي: وأعرضْ -يا مُحمَّدُ- عنهم إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عندَ اللَّهِ سبحانَه[٢].

﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

أي: وأبصِرْ -يا مُحمَّدُ- فسوفَ يَرَونَ ما يَحُلُّ بهم؛ جَزاءَ كُفرِهم[٣].

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالَى في هذه السُّورةِ كَثيرًا مِن أقوالِ المُشرِكينَ الشَّنيعةِ التي

---

(١) رواه البخاري (٤١٩٧) واللَّفظُ له، ومُسلِمٌ (١٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧٣)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٦١٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥، ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

قال الشوكاني: (حَذْفُ مفعولِ «أَبْصِرْ» هاهنا وذِكرُه أوَّلًا؛ إمَّا لدَلالةِ الأوَّلِ عليه، فتَرَكَه هنا اختِصارًا، أو قَصدًا إلى التَّعميمِ؛ للإيذانِ بأنَّ ما يُبصِرُه من أنواعِ عذابِهم لا يُحيطُ به الوَصفُ. وقيل: هذه الجُملةُ المرادُ بها أحوالُ القِيامةِ، والجُملةُ الأُولى المرادُ بها عذابُهم في الدُّنيا، وعلى هذا فلا يكونُ مِن بابِ التَّأكيدِ، بل مِن بابِ التَّأسيسِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧). ويُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٩٨).

وقيل: المرادُ: أَبصِرْ ما تُريدُ مِن شُؤونِك التي يُهِمُّك النَّظَرُ فيها، وأمَّا هُم فصاروا بحيثُ لا يُبالَى بهم، ولا يُفكَّرُ في أمرِهم، ولا يُلتَفتُ إليهم. وممَّن قال بهذا المعنى: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٨).

وَصَفوه بها؛ نزَّه نَفسَه عنها، فقال تعالى[١]:

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

أي: تنزَّهَ ربُّك -يا مُحمَّدُ- المُختَصُّ بالعِزَّةِ، ذو القُوَّةِ والمَنَعةِ، والغَلَبةِ والقَهرِ، وعَظَمةِ القَدْرِ: عمَّا يَصِفُه به الكُفَّارُ مِن الشَّريكِ والوَلَدِ والصَّاحِبةِ، وغَيرِ ذلك ممَّا يَفتَرونَ مِن أوصافٍ لا تَليقُ باللهِ تعالَى[٢].

كما قال تعالَى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٠، ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾.

أي: وسَلامُ اللهِ في الدُّنيا والآخِرةِ علَى رُسُلِه؛ لسَلامةِ ما قالوه عنِ اللهِ تعالَى مِن كُلِّ نقْصٍ وعَيبٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٦٦-٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤٠٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩). =

كما قال تعالَى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

أي: وجَميعُ أنواعِ المحامِدِ ثابتةٌ، ومُختصَّةٌ بالمُدَبِّرِ المالِكِ الخالِقِ لجَميعِ أصنافِ الخلائِقِ[(١)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فيه بِشارةٌ عَظيمةٌ لِمَن اتَّصَف بأنَّه مِن جُندِ اللهِ بأنْ كانتْ أحوالُه مُستقيمةً، وقاتَلَ مَن أُمِرَ بقِتالِهم: أنَّه غالِبٌ مَنصورٌ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أنَّهم لو آمَنوا في هذا الوَقتِ فلنْ يَنفَعَهم؛ لأنَّه لو نَفَعهم الإيمانُ لم تَصدُقْ عليهم هذه الجُملةُ صِدْقًا كامِلًا؛ لأنَّه لو نَفَعَهم الإيمانُ لزال عنهم هذا السُّوءُ، ولكِنَّ الإيمانَ لنْ يَنفَعَهم، وهذه سُنَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في عِبادِه: إذا نَزَلَ بهمُ العَذابُ فآمَنوا: ألَّا يَنفَعَهم إيمانُهم؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ

= والمرسَلونَ هنا: قيلَ: هم المُرسَلونَ مِن البَشَرِ إلى أُمَمِهم. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جَرير، والسمعاني، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٠).

وقيل: وَصفُ المُرسَلينَ يَشمَلُ الأنبياءَ والملائِكةَ. وممَّن قال بهذا: البقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٦٩-٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٠٨).

ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[غافر: ٨٤، ٨٥]، وكلُّ هذا يُوجِبُ للإنسانِ العاقلِ أنْ يُبادِرَ بالتَّوبةِ، وألَّا يتأخَّرَ وألَّا يُهمِلَ؛ لأنَّه لا يَدري متى يُفاجِئُه الموتُ، وإذا نَزَلَ به الموتُ فإنَّه لنْ تَنفَعَه التَّوبةُ، فلا بُدَّ أنْ تكونَ التَّوبةُ في وَقتٍ تُقبَلُ فيه(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ هذه الآياتُ الكَريماتُ تَدُلُّ على أنَّ الرُّسُلَ -صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم- وأتْباعَهم: مَنصورونَ دائمًا على الأعداءِ بالحُجَّةِ والبَيانِ، ومَن أُمِرَ منهم بالجِهادِ مَنصورٌ أيضًا بالسَّيفِ والسِّنانِ، والآياتُ الدَّالَّةُ على هذا كَثيرةٌ(٢)، وفيها تَثبيتُ مَن دعا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِن أتْباعِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّ لهم الغَلَبَةَ، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٣) [المنافقون: ٨].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ تَهديدُ أعداءِ الرُّسُلِ، وأنَّهم مَخذولون؛ لأنَّه إذا كَتَبَ النَّصرَ للرَّسولِ فسيكونُ الخِذلانُ لأعدائِهم(٤).

٣- قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ إنْ قيل: هذه الآيةُ تتعلَّقُ بغلبةِ الرُّسلِ ونصرِهم على مَن ناوَأهم، وقد رأيْنا الحربَ بينَهم وبينَ أعدائِهم سجالًا، وفي أُحُدٍ كانت الغلبةُ للمشركينَ، وفي الأنبياءِ مَن قُتِل؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فالجوابُ من أوجهٍ:

منها: أنَّ الغلبةَ للرُّسلِ ولمن تبعهم في العاقبةِ، وإن وقَع في غضونِ الأمرِ خلافُ ذلك ابتلاءً وامتحانًا، فمعنى ﴿ٱلْمَنصُورُونَ﴾ و(غَالِبُونَ): أي في أكثَرِ الأحوالِ، وباعتبارِ العاقبةِ؛ فلا يُنافي أنَّهم يُغلَبونَ نادرًا، ثم تكونُ لهم العاقبةُ، وكفَى بمَشاهِدِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ مَثَلًا يُحتذَى عليها، وعِبَرًا يُعتبَرُ بها

ومنها: أن يقالَ: إنَّ النصرَ المطلقَ هو نصرُ الآخرةِ، أمَّا نصرُ الدنيا فليس بمضمونٍ.

ومنها: أنَّ المرادَ بالنصرِ انتصارُهم بالحجةِ، وظهورُ ما جاؤوا به، لا الغلبةُ الحسيةُ، وقيل غير ذلك[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا يُمكِنُ أنْ يُعَذَّبَ أحَدٌ إلَّا بعدَ إبلاغِه، وهل يَكفي بُلوغُ الحُجَّةِ أو لا بُدَّ مِن فَهْمِ الحُجَّةِ؟ لا بُدَّ مِن فَهمِ الحُجَّةِ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۝ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٨، ١٩٩]؛ لأنَّهم لا يَفهَمونَه، وإذا لم يُؤمِنوا به لعَدَمِ فَهمِهم فهُم مَعذورونَ، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، أي: بلُغَتِهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾؛ فلا بُدَّ مِن بَيانِ الحُجَّةِ[(٢)].

٥- قال اللهُ تعالَى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٧٨).

ذَكَر تَنزيهَه لِنَفسِه عمَّا لا يَليقُ بجَلالِه، ثمَّ سَلامَه على رُسُلِه، وفي اقْترانِ السَّلامِ عليهم بتَسبيحِه لنَفْسِه سِرٌّ عظيمٌ مِن أسرارِ القُرآنِ، يَتضَمَّنُ الرَّدَّ على كُلِّ مُبطِلٍ ومُبتَدِعٍ؛ فإنَّه نَزَّهَ نَفسَه تَنزيهًا مُطلَقًا، كما نَزَّهَ نَفسَه عمَّا يَقولُ خَلقُه فيه، ثم سَلَّمَ على المُرسَلينَ، وهذا يَقتَضي سَلامتَهم مِن كلِّ ما يَقولُ المُكَذِّبونَ لهم المُخالِفونَ لهم، وإذا سَلِمُوا مِن كلِّ ما رماهم به أعداؤُهم لَزِمَ سَلامةُ كلِّ ما جاؤُوا به مِن الكَذِبِ والفَسادِ، وأعظَمُ ما جاؤوا به التَّوحيدُ ومَعرِفةُ اللهِ تعالَى، ووَصفُه بما يَليقُ بجلالِه ممَّا وَصَفَ به نَفسَه على ألسِنتِهم، وإذا سَلِمَ ذلك مِن الكَذِبِ والمُحالِ والفَسادِ فهو الحقُّ المَحضُ، وما خالَفَه هو الباطِلُ والكَذِبُ والمُحالُ[1].

٦- قال اللهُ تعالَى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سبَّح نَفسَه عمَّا يَصِفُه المُفترونَ المُشرِكونَ، وسَلَّم على المُرسَلينَ؛ لِسَلامةِ ما قالوه مِن الإفكِ والشِّركِ، وحَمِدَ نفسَه؛ إذْ هو سُبحانَه المُستَحِقُّ للحَمدِ بما له مِن الأسماءِ والصِّفاتِ وبَديعِ المَخلوقاتِ[2].

٧- يُستَحَبُّ للدَّاعي أنْ يَقولَ في آخِرِ دُعائِه كما قال أهلُ الجَنَّةِ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، وحسُنَ أن يقرأَ آخِرَ الصَّافَّاتِ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]؛ فإنَّها جمَعَت تنزيهَ البارئِ تعالى عمَّا نُسِبَ إليه، والتَّسليمَ على المُرسَلينَ، والخَتمَ بالحَمدِ للَّهِ ربِّ العالَمينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((التدمرية)) لابن تيمية (ص: ٩-١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ للوَعيدِ، وتَصديرُه بالقَسَمِ؛ لغايةِ الاعتِناءِ بتحقيقِ مَضمونِه، أي: وباللهِ لقدْ سبَقَ وَعْدُنا لهم بالنُّصرةِ والغَلَبةِ[١].

- وهي أيضًا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما تَضمَّنَه قَولُه: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [الصافات: ١٧٠]، وبيانٌ لبعضِ الوعيدِ الَّذي في قَولِه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات: ١٧٠]، بمنزلةِ بَدَلِ البعضِ مِنَ الكُلِّ، ولكنَّه غلَبَ عليه جانبُ التَّسليةِ؛ فعُطِفَ بالواوِ عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ[٢].

- و(الكَلِمةُ) في قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مُرادٌ بها الكَلامُ، عُبِّرَ عنِ الكَلامِ بكَلِمةٍ؛ إشارةً إلى أنَّه مُنتظَمٌ في معنًى واحِدٍ دالٍّ على المقصودِ دَلالةً سريعةً، فشُبِّهَ بالكَلِمةِ الواحِدةِ في سُرعةِ الدَّلالةِ، وإيجازِ اللَّفظِ، وبُيِّنَتِ الكَلِمةُ -على قولٍ في التَّفسيرِ- بجُملةِ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾، أي: الكَلامِ المُتضمِّنِ وَعْدَهم بأنْ يَنصُرَهمُ اللهُ على الَّذينَ كَذَّبوهم وعادَوْهم، وهذه بِشارةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَقِبَ تَسليتِه؛ لأنَّه داخِلٌ في عُمومِ المُرسَلينَ[٣].

- ووَصَفَهم اللهُ بالعُبوديَّةِ قَبْلَ الرِّسالةِ في قولِه: ﴿لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، مع أنَّ الرِّسالةَ شَرَفٌ عَظيمٌ؛ لأنَّ كَونَهم عِبادًا للهِ عزَّ وجلَّ أشرَفُ وأعظَمُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٤، ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٣٦٤).

- قولُه: ﴿هُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ لم يُبَيِّنْ مَنِ النَّاصِرُ؛ لِيكونَ هذا أشمَلَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] [الأنفال: ٦٢].

- قَولُه: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ عطْفٌ على ما قَبْلَه، وفيه بِشارةٌ للمُؤمِنينَ؛ فإنَّ المؤمِنينَ جُندُ اللهِ، أي: أنصارُه؛ لأنَّهم نَصَروا دِينَه، وتَلَقَّوْا كَلامَه[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَنفيسٌ عنه[3].

- وقولُه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ مُفرَّعٌ على التَّسليةِ الَّتي تَضمَّنَها قَولُه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ [الصافات: ١٧١]. والتَّولِّي حقيقتُه: المُفارَقةُ، واستُعمِلَ هنا للدَّلالةِ على عدَمِ الاهتِمامِ بما يَقولونَه، وتَرْكِ النَّكدِ مِن إعراضِهم[4].

- والحِينُ: الوقتُ، وأُجمِلَ هنا إيماءً إلى تَقليلِه، أي: تَقريبِه؛ فالتَّنكيرُ للتَّحقيرِ المَعنويِّ، وهو التَّقليلُ[5].

- وقَولُه: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تهديدٌ ووَعيدٌ للمُشرِكينَ، كأنَّه قال: أَبصِرْهم على أسوأِ حالٍ، وأفظَعِ نَكالٍ حَلَّ بهم مِنَ القتلِ والأَسْرِ[6]. وذلك على قولٍ.

- وصِيغةُ الأمرِ في ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ مُستعمَلةٌ في الإرشادِ[7].

- وأيضًا قَولُه: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ عُبِّر عن ترتُّبِ نُزولِ الوعيدِ بهم بفِعلِ الإبصارِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٥، ١٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

(٦) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

للدَّلالةِ على أنَّ ما تُوُعِّدوا به واقِعٌ لا مَحالةَ، وأنَّه قريبٌ حتَّى إنَّ المَوعودَ بالنَّصرِ يَتشَوَّفُ إلى حُلولِه، فكان ذلك كِنايةً عن تَحقُّقِه وقُربِه؛ لأنَّ تَحديقَ البَصرِ لا يَكونُ إلَّا إلى شَيءٍ أَشرَفَ على الحُلولِ، أو كأنَّها قُدَّامَ ناظِرَيهِ، والمعنَى: إنَّما أمَرَ اللهُ نبيَّه -صلواتُ اللهُ وسلامُه عليه- بقَولِه: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾، والمُبصَرُ مُنتظَرٌ بعدُ؛ للدَّلالةِ على أنَّ وعْدَ اللهِ الآتيَ بمَنزلةِ الكائنِ؛ استِحضارًا لتلك الحالةِ الآتيةِ[1]. وقيل: معناه: انظُرْ إليهم، أي: مِنَ الآنَ، وعُدِّيَ (أَبصِرْ) إلى ضَميرِهمُ الدَّالِّ على ذَواتِهم، وليس المُرادُ النَّظرَ إلى ذَواتِهم، لكنْ إلى أحوالِهم، أي: تأمَّلْ أحوالَهم تَرَ كيف نَنصُرُك عليهم. وحُذِفَ ما يَتعلَّقُ به الإبصارُ مِن حالٍ أو مفعولٍ معه، بتقديرِ: وأَبصِرْهم مأْسُورينَ مَقتولينَ، أو: وأَبصِرْهم وما يُقضَى به عليهم مِن أَسْرٍ وقَتلٍ؛ لدَّلالةِ ما تقدَّمَ مِن قَولِه: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢، ١٧٣] عليه؛ إذ ليس المأمورُ به ذَواتَهم، وهذا مِن دَلالةِ الاقتِضاءِ[2].

- وتفريعُ ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ على ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ تَفريعٌ لإنذارِهم بوَعيدٍ قَريبٍ على بِشارةِ النَّبيِّ بقُربِه؛ فإنَّ ذلك المُبصَرَ يَسُرُّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويُحزِنُ أعداءَه، ففي الكلامِ اكتِفاءٌ، كأنَّه قيل: أَبصِرْهم وما يَنزِلُ بهم، فسوف تُبصِرُ ما وَعَدْناكَ، ولْيُبْصِروا ما يَنزِلُ بهم فسوف يُبصِرُونَه. وحُذِف مَفعولُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

ودَلالةُ الاقتضاءِ: هي دَلالةُ اللَّفظِ على مَقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تَقديرِه؛ لتوقُّفِ الصِّدقِ أو الصِّحةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

﴿يُبْصِرُونَ﴾؛ لدَلالةِ ما دلَّتْ عليه دَلالةُ الاقتِضاءِ[١].

- قَولُه: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أعادَه في قَولِه: ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٩]؛ تأكيدًا، أو لأنَّ الأوَّلَ في الدُّنيا، والثانيَ في الآخِرةِ[٢].

- وأيضًا قال تعالَى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾، وقال بعْدَه: ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٩]، فعَدَّى هذا الفِعلَ الأوَّلَ وهو: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾، وحذَفَ ما تعَدَّى إليه (أَبْصِرْ) في الثَّانيةِ، وكرَّرَ ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ هذا بعْدَما بَشَّرَ اللهُ تعالى به عِبادَه، حيثُ قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، ومعناهُ: إنَّ المُرسَلينَ ومَن تَبِعَهم مِنَ المؤمِنينَ إذا حارَبوا أعداءَ اللهِ بأمرِ اللهِ، فإنَّ اللهَ قدْ حكَمَ لهم بالظَّفَرِ والنَّصْرِ في عاقِبةِ أُمورِهم، وإنْ كان بعْدَ مُدَّةٍ. فقَولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٧٤]، أيْ: أَعرِضْ عن مُحارَبتِهم إلى الحِينِ الَّذي يَعلَمُ اللهُ أنَّه يُظفِرُك بهم، ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ في الوقتِ الَّذي تُنصَرُ فيه عليهم، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قَهْرَكم لهم وذُلَّهم.

فأمَّا حَذْفُ (هُمْ) في (أَبْصِرْ) الثَّانيةِ؛ فلِذِكْرِها في الأُولى، ولأنَّ هناك معانيَ أُخرى تَنضَمُّ إلى ذِكرِهم، فيُترَكُ ذِكرُ المفعولِ ليَشرعَ الفِعلُ إلى تلك المعاني كلِّها، ويَبينُ ذلك في الجوابِ عن فائدةِ تَكرارِ العامِلِ، وهي أنَّ قَولَه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٧٤] إنَّما يُرادُ به الحِينُ في الدُّنيا، وهو الوقتُ الَّذي يُنصَرُ فيه المُسلِمونَ عليهم ويُقهَرونَ بأيدِيهم.

وقولُه ثانيًا: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٨،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٤).

١٧٩]، أي: بعْدَ أنْ تُنصَرَ عليهم، فيَهلِكوا في الدُّنيا، تَوقَّعْ ما يَحُلُّ بهم في الأُخرى، ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ هناك وأنواعَ العَذابِ الَّتي تُصَبُّ عليهم، وعمَلَ النَّارِ فيهم، ثمَّ ما لهم فيها مِنَ البقاءِ والخُلودِ، ومع تَبديلِ الجُلودِ وسائرِ ما أعَدَّ اللهُ تعالى للكفَّارِ في عذابِ النَّارِ، فقَولُه: ﴿وَأَبْصِرْ﴾ مُودَعٌ فيه كلُّ ذلك: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تهديدٌ لهم، أي: سوف يَلْقَوْنَ ما أَوعَدَ اللهُ به أهلَ معصيتِه مِن أليمِ عُقوبتِه[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾

- تَفريعٌ على التَّأجيلِ المذكورِ في قَولِه: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٧٤]؛ فإنَّ ذلك لَمَّا أنذَرَهم بعَذابٍ يَحُلُّ بهم تُوُقِّعَ أنَّهم سيَقولونَ على سَبيلِ الاستِهزاءِ: أَرِنا العَذابَ الَّذي تُخَوِّفُنا به، وعَجِّلْهُ لنا. أو أنَّهم قالُوه، فلُوحِظَ ذلك، وفُرِّع عليه استِفهامٌ تعجُّبيٌّ مِنَ استِعجالِهم ما في تأخيرِه والنَّظرةِ به؛ رأفةً بهم، واستِبقاءً لهم حينًا[٢].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ استِفهامُ تَوبيخٍ[٣]، أو للتَّهديدِ والوعيدِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾

- الفاء في قَولِه: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ...﴾ فاءُ الفَصيحةِ، أي: إنْ كانوا يَستعجِلونَ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٩٦-١٠٩٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٥)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤١٢، ٤١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٢٣).

بالعَذابِ، فإذا نزَلَ بهم فبئسَ وقتُ نُزولِه[١].

- وفي قَولِه: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ مُثِّلَ العَذابُ النَّازِلُ بهم بعْدَ ما أُنذِرُوه فأَنكَرُوه، بجَيشٍ أَنذَرَ بهُجومِه قَومَه بعضُ نُصَّاحِهم، فلمْ يَلتَفِتوا إلى إنذارِه، ولا أَخَذوا أُهْبَتَهم، ولا دَبَّروا أمْرَهم تدبيرًا يُنجيهم، حتَّى أناخَ بفِنائِهم بَغْتةً، فشَنَّ علَيهمُ الغارةَ وقطَعَ دابِرَهم. وما فَصُحَتْ هذه الآيةُ، ولا كانتْ لها الرَّوعةُ الَّتي تُحِسُّ بها، ويَروقُك مَورِدُها على نفْسِك وطبعِكَ إلَّا لمَجيئِها على طريقةِ التَّمثيلِ[٢].

- قَولُه: ﴿نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: غلَبَ عليها؛ لأنَّ ذلك شأنُ النَّازِلِ بالشَّيءِ مِن غيرِ إذنِ صاحِبِه، ولا يَغلِبُ عليها إلَّا وقد غلَبَ على أهلِها فبرَكَ عليهم بُروكًا لا يَقدِرونَ معه على البُروزِ إلى تلك السَّاحةِ، وهي الفِناءُ الخالي عن الأبنيةِ كأنَّه مُتحدَّثُ القَومِ، ومَوضِعُ راحتِهم، في أيِّ وقتٍ كان بُروكُه مِن لَيلٍ أو نَهارٍ[٣].

- وخَصَّص الصَّباحَ بالذِّكرِ؛ لأنَّه كان مِن عادةِ العَربِ الإغارةُ في الصَّباحِ؛ فسُمِّيَتِ الغارةُ صباحًا؛ لأنَّها تقَعُ فيه عادةً، ولأنَّه مِن عَلائقِ الهَيئةِ المُشَبَّهِ بها؛ فإنَّ شأنَ الغارةِ أنْ تَكونَ في الصَّباحِ؛ ولذلك كان نذيرُ المَجيءِ بغارةِ عَدُوٍّ يُنادي: يا صَباحاهْ! نِداءَ نُدبةٍ وتَفجُّعٍ؛ ولذلك جعَلَ جوابَ (إذا) قَولَه: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، أي: بِئسَ الصَّباحُ صَباحُهم؛ ولهذا استَفصَحَ العربُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٦).

هذه الآيةَ[١].

- وفي وَصْفِهم بالمُنذَرينَ تَرشيحٌ للتَّمثيلِ[٢]، وتَوريةٌ في اللَّفظِ؛ لأنَّ المُشبَّهينَ مُنذَرونَ مِنَ اللهِ بالعَذابِ، والَّذينَ يَسوءُ صَباحُهم عِندَ الغارةِ هُمُ المَهزومونَ، فكأنَّه قيل: فإذا نُزِلَ بساحَتِهم كانوا مَغلوبينَ. وهذا التَّمثيلُ قابِلٌ لتَفريقِ أجزائِه في التَّشبيهِ؛ بأنْ يُشَبَّهَ العَذابُ بالجَيشِ، وحُلولُه بهم بنُزولِ الجَيشِ بساحةِ قَومٍ، وما يَلحَقُهم مِن ضُرِّ العَذابِ بضُرِّ الهزيمةِ، ووقتُ نُزولِ العَذابِ بهم بتَصبيحِ العَدُوِّ مَحلَّةَ قَومٍ[٣].

- وأيضًا في اختيارِ هذا التَّمثيلِ البَديعِ معنًى بديعٌ؛ مِن إيماءٍ إلى أنَّ العَذابَ الَّذي وُعِدوه هو -على قولٍ- ما أصابَهم يَومَ بَدرٍ مِن قتلٍ وأَسْرٍ على طريقةِ التَّوريةِ[٤].

- وقَولُه: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أقام فيه الظاهرَ مقامَ المُضْمَرِ، ومُقتضَى السِّياقِ أنْ يَقولَ: «فإذا نَزَلَ بساحتِهم فساءَ صباحُهم»! لكنَّه قال: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فأقام الظاهرَ مقامَ المُضْمَرِ، وهنا إقامةُ الظاهرِ مقامَ المُضْمَرِ له فائدةٌ لفظيةٌ ومعنويةٌ، فاللفظيةُ هي: مراعاةُ فواصِلِ الآياتِ، أمَّا المعنويةُ فهي التَّعميمُ، وانطباقُ الوَصفِ عليهم، وإقامةُ الحُجَّةِ على هؤلاء الذين نَزَل العذابُ بساحتِهم؛ وهي أنَّهم قد أُنْذِروا ولم يكُن لهم عُذْرٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٢٥).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٩٨).

واستحقُّوا العَذابَ بعَدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[(١)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ الآيةَ [الصافات: ١٧٧]؛ لأنَّ معنَى المَعطوفِ عليها: الوعدُ بأنَّ اللهَ سيَنتقِمُ منهم، فعطَفَ عليه أمْرَه رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بألَّا يَهتَمَّ بعِنادِهم، وهذه نَظيرُ الَّتي سبَقَتْها المُفرَّعةِ بالفاءِ؛ فلذلك يَحصُلُ منها تأكيدُ نَظيرتِها، على أنَّه قد يَكونُ هذا التَّولِّي غيْرَ الأوَّلِ، وإلى حِينٍ آخَرَ وإبصارٍ آخَرَ، فالظَّاهِرُ أنَّه تَولٍّ عمَّن يَبقَى مِنَ المُشركينَ بعْدَ حُلولِ العَذابِ الَّذي استُعجِلوهُ، فيَحتمِلُ أنْ يَكونَ حينًا مِن أوقاتِ الدُّنيا، فهو إنذارٌ بفتحِ مكَّةَ، ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ إلى حِينٍ مِن أحيانِ الآخِرةِ، وإنَّما جُعِل ذلك غايةً لتَولِّي النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنهم؛ لأنَّ تَوليةَ العَذابِ عنهم غايةٌ لتَولِّي النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنهم؛ لأنَّ تَولِّيَه عنهم مُستمِرٌّ إلى يَومِ القِيامةِ؛ فإنَّ مُدَّةَ لَحاقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالرَّفيقِ الأعْلى لَمَّا كانتْ مُتَّصِلةً بتَولِّيهِ عنهم جُعِلَتْ تلك المُدَّةُ كأنَّها ظَرفٌ للتَّولِّي يَنتهي بحِينِ إحضارِهم للعِقابِ، فيَكونُ قَولُه: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ مُرادًا به الأبدُ[(٢)].

- وكَرَّر الأمرُ بالتَّولِّي؛ تأنيسًا له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولِيَكونَ ذلك تَسليةً على تَسليةٍ، وتأكيدًا لوُقوعِ الميعادِ إلى تأكيدٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨، ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١).

٦- قولُه تعالَى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، تَذييلًا لخِطابِه المُبتدَأِ بقَولِه: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ ﴾ الآيةَ [الصافات: ١٤٩]؛ فإنَّه خُلاصةٌ جامِعةٌ لِما حَوَتْه مِن تَنزيهِ اللهِ، وتأييدِه رُسُلَه. وهذه الآيةُ فَذْلَكةٌ[١] لِما احتَوَتْ عليه السُّورةُ مِنَ الأغراضِ؛ جمَعَتْ تَنزيهَ اللهِ، والثَّناءَ على الرُّسلِ والملائكةِ، وحَمْدَ اللهِ على ما سبَقَ ذِكرُه مِن نِعَمِه على المُسلِمينَ؛ مِن هُدًى، ونَصرٍ، وفَوزٍ بالنَّعيمِ المُقيمِ[٢].

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُعْرِبةِ عن التَّربيةِ والتَّكميلِ والمالِكيَّةِ الكُلِّيةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تشريفًا له بإضافتِه وخِطابِه أوَّلًا، وإلى العِزَّةِ ثانيًا، كأنَّه قيلَ: سُبحانَ مَن هو مُرَبِّيكَ ومُكَمِّلُكَ ومالِكُ العِزَّةِ والغَلَبةِ على الإطلاقِ عمَّا يَصِفُه المُشرِكونَ به مِنَ الأشياءِ الَّتي منها تَرْكُ نُصرتِكَ عليهم، كما يدُلُّ عليه استِعجالُهم بالعَذابِ[٣]، وأيضًا في إضافةِ الرَّبِّ إليه وإلى العِزَّةِ إشارةٌ إلى اختِصاصِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وكُلِّ مَن وافَقَه في أمْرِه عن جميعِ الخَلقِ بالعِزَّةِ، وإنْ رُئِيَ في ظاهِرِ الأمرِ غيرُ ذلك[٤].

- وأُضيفَ الرَّبُّ إلى العِزَّةِ؛ لاختِصاصِه بها، مع التَّوصيفِ بصِفاتِ الكَمالِ. ويَجوزُ أنْ يُرادَ: أنَّه ما مِن عزَّةٍ لأحدٍ مِنَ الملوكِ وغَيرِهم إلَّا وهو ربُّها

(١) تقدم تعريفه (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٨، ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٩).

ومالِكُها؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦][(١)].

- و(رَبُّ) هنا بمعنَى: مالِكٍ، ومعنَى كَونِه تعالى مالِكَ العِزَّةِ: أنَّه مُنفرِدٌ بالعِزَّةِ الحقيقيَّةِ، وهي العِزَّةُ الَّتي لا يَشوبُها افتِقارٌ؛ فإضافةُ ﴿رَبِّ﴾ إلى ﴿ٱلْعِزَّةِ﴾ على معنَى لامِ الاختِصاصِ، كما يُقالُ: صاحِبُ صِدقٍ، لِمَن اختُصَّ بالصِّدقِ وكان عريقًا فيه. والتَّعريفُ في ﴿ٱلْعِزَّةِ﴾ هو تعريفُ الجِنسِ؛ فيَقتضِي انفِرادَه تعالى به؛ لأنَّ ما يَثبُتُ لغَيرِه مِن ذلك الجِنسِ كالعدَمِ[(٢)].

- قَولُه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تعميمٌ للرُّسلِ بالتَّسليمِ، بعْدَ تَخصيصِ بعضِهم[(٣)]، وفيه تَشريفٌ لهم عليهم السَّلامُ، وتَنويهٌ بشأنِهم، وإيذانٌ بأنَّهم سالِمونَ عن كلِّ المَكارِهِ، فائِزونَ بجَميعِ المآرِبِ[(٤)].

- وتَنكيرُ (سَلام) للتَّعظيمِ. ووصفُ المُرسَلينَ يَشملُ الأنبياءَ والمَلائكةَ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ فإنَّ المَلائكةَ مُرسَلونَ فيما يَقومونَ به مِن تَنفيذِ أمْرِ اللهِ[(٥)].

- قَولُه: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: والحَمدُ للهِ علَى ما أفاضَ عليهم وعلى مَن اتَّبَعَهم مِنَ النِّعَمِ وحُسنِ العاقبةِ؛ ولذلك أخَّرَه عن التَّسليمِ. ولعلَّ تَوسيطَ التَّسليمِ على المُرسَلينَ بيْن تَسبيحِه تعالَى وتَحميدِه؛ لختْمِ السُّورةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩، ٢٠٠).

الكريمةِ بحَمدِه تعالَى، مع ما فيه مِنَ الإشعارِ بأنَّ توفيقَه تعالى للتَّسليمِ عليهم مِن جُملةِ النِّعَمِ المُوجِبةِ للحمدِ؛ وذلك أنَّه لَمَّا كانتْ النُّفوسُ وإنْ تفاوتَتْ في مراتِبِ الكَمالِ لا تَسلَمُ مِن نقْصٍ أو حَيرةٍ، كانتْ في حاجةٍ إلى مُرشِدينَ يُبَلِّغونَها مَراتِبَ الكمالِ بإرشادِ اللهِ تعالَى، وذلك بواسِطةِ الرُّسلِ إلى النَّاسِ، وبواسِطةِ المُبَلِّغينَ مِنَ المَلائكةِ إلى الرُّسلِ، وكانتْ غايةُ ذلك هي بُلوغَ الكمالِ في الدُّنيا، والفوزَ بالنَّعيمِ الدَّائمِ في الآخِرةِ، وتلك نِعمةٌ تَستَوجِبُ على النَّاسِ حَمْدَ اللهِ تعالى على ذلكَ؛ لأنَّ الحمْدَ يَقتَضي اتِّصافَ المحمودِ بالفضائلِ، وإنعامَه بالفَواضِلِ، وأَعْظَمُها نِعمةُ الهِدايةِ بواسِطةِ الرُّسلِ؛ فهُمُ المُبلِّغونَ إرشادَ اللهِ إلى الخَلقِ[1].

- وفي قَولِه: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إشارةٌ إلى وَصْفِه عزَّ وجلَّ بصِفاتِه الكَريمةِ الثُّبوتيَّةِ بعْدَ التَّنبيهِ على اتِّصافِه تعالى بجَميعِ صِفاته السَّلبيةِ، وإيذانٌ باستِتباعِها للأفعالِ الجَميلةِ الَّتي مِن جُملتِها إفاضتُه عليهم مِن فُنُونِ الكراماتِ السَّنيَّةِ، والكمالاتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، وإسباغُه عليهم وعلى مَن تَبِعَهم صُنوفَ النَّعماءِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، المُوجِبةِ لحَمدِه تعالَى، وإشعارٌ بأنَّ ما وُعِدَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ النُّصرةِ والغَلَبةِ قد تحقَّقتْ، والمرادُ: تَنبيهُ المؤمِنينَ على كَيفيَّةِ تَسبيحِه تعالَى وتَحميدِه، والتَّسليمِ على رُسلِه الَّذين هُم وسائطُ بيْنهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١، ٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩).

وبيْنه -عزَّ وعَلا- في فَيَضانِ الكَمالاتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ عليهم[١].

- وأيضًا في قَولِه تعالَى: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ حَمِدَ اللهُ نَفسَه بَعدَ أنْ نَزَّهَها في قولِه: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ لأنَّ في الحَمدِ كمالَ الصِّفاتِ، وفي التَّسبيحِ تَنزيهًا عنِ العُيوبِ؛ فجَمَعَ في الآيةِ بينَ التَّنزيهِ عن العُيوبِ بالتَّسبيحِ، وبينَ إثباتِ الكَمالِ بالحَمدِ[٢]؛ فالتَّسبيحُ لَمَّا كان يَتضمَّنُ التَّنزيهَ والتَّبرئةَ مِنَ النَّقصِ بدَلالةِ المُطابَقةِ، ويَستلزِمُ إثباتَ الكمالِ، كما أنَّ الحمدَ يدُلُّ على إثْباتِ صِفاتِ الكَمالِ مُطابَقةً، ويَستلزِمُ التَّنزيهَ مِنَ النَّقصِ؛ قرَنَ بيْنهما في هذا الموضِعِ، وفي مواضِعَ كَثيرةٍ مِنَ القُرآنِ[٣].

- وفي الانتِقالِ مِنَ الآياتِ السَّابِقةِ إلى التَّسبيحِ والتَّسليمِ في قولِه: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۞ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إيذانٌ بانتِهاءِ السُّورةِ، على طَريقةِ بَراعةِ الخَتمِ، مع كَونِها مِن جَوامعِ الكَلِمِ[٤].

- وقد اشتمَلَتِ هذه السُّورةُ العظيمةُ على ذِكرِ ما قاله المُشرِكونَ في اللهِ ونَسَبوا إليه ممَّا هو مُنَزَّهٌ عنه، وما عاناهُ المُرسَلونَ مِن جِهَتِهم، وما خُوِّلوه في العاقبةِ مِنَ النُّصرةِ عليهم، فختَمَها بجَوامعِ ذلك؛ مِن تَنزيهِ ذاتِه عمَّا وصَفَه به المُشرِكونَ، والتَّسليمِ على المُرسَلينَ، ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩).

على ما قَيَّضَ لهم مِن حُسنِ العَواقِبِ. والغرضُ: تعليمُ المؤمِنينَ أنْ يَقولوا ذلك، ولا يُخِلُّوا به، ولا يَغفُلوا عن مُضَمَّناتِ كِتابِه الكريمِ، ومُودَعاتِ قُرآنِه المَجيدِ[1].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ السَّابعُ والعشرونَ

ويليه المجلدُ الثَّامنُ والعشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ ص

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

الفهرس

سورةُ يس ٧
أسماءُ السُّورةِ ٧
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٨
الآيات (١-١٢) ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٩
مُشكِلُ الإعرابِ ١١
المعنى الإجماليُّ ١٢
تَفسيرُ الآياتِ ١٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٣
بلاغةُ الآياتِ ٤٤
الآيات (١٣-١٩) ٥٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٧
المعنى الإجماليُّ ٥٨
تَفسيرُ الآياتِ ٥٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٥
بلاغةُ الآياتِ ٦٧

الآيات (٢٠-٢٧) ٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٧٣
المعنى الإجماليُّ ٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٧٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٨١
بلاغةُ الآياتِ ٨٥
الآيات (٢٨-٣٢) ٩٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٩٨
مُشكِلُ الإعرابِ ٩٩
المعنى الإجماليُّ ١٠٠
تَفسيرُ الآياتِ ١٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٠٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٠٦
بلاغةُ الآياتِ ١٠٧
الآيات (٣٣-٣٦) ١١٥
غَريبُ الكَلِماتِ ١١٥
المعنى الإجماليُّ ١١٦
تَفسيرُ الآياتِ ١١٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٢١
بلاغةُ الآياتِ ١٢٥

الآيات (٣٧-٤٠) ١٣٤
غَريبُ الكَلِماتِ ١٣٤
مُشكِلُ الإعرابِ ١٣٥
المعنى الإجماليُّ ١٣٥
تَفسيرُ الآياتِ ١٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤٢
بلاغةُ الآياتِ ١٤٦
الآيات (٤١-٤٤) ١٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ ١٥٢
المعنى الإجمالي ١٥٣
تَفسيرُ الآياتِ ١٥٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥٩
بلاغةُ الآياتِ ١٦١
الآيات (٤٥-٤٧) ١٦٧
المعنى الإجماليُّ ١٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٧٣
بلاغةُ الآياتِ ١٧٥
الآيات (٤٨-٥٤) ١٨٠
غَريبُ الكَلِماتِ ١٨٠

مُشكِلُ الإعرابِ ١٨١
المعنى الإجماليُّ ١٨٢
تَفسيرُ الآياتِ ١٨٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٩٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩٠
بلاغةُ الآياتِ ١٩٤
الآيات (٥٥-٥٨) ٢٠٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٠٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٠٥
المعنى الإجماليُّ ٢٠٥
تَفسيرُ الآياتِ ٢٠٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٠٨
بلاغةُ الآياتِ ٢١٠
الآيات (٥٩-٦٧) ٢١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٢١٦
المعنى الإجماليُّ ٢١٧
تَفسيرُ الآياتِ ٢١٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٢٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٢٧
بلاغةُ الآياتِ ٢٣٤
الآيات (٦٨-٧٠) ٢٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٤٦

المعنى الإجماليُّ ٢٤٦
تَفسيرُ الآياتِ ٢٤٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٥٢
بلاغةُ الآياتِ ٢٥٥
الآيات (٧١-٧٦) ٢٦١
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٦١
المعنى الإجماليُّ ٢٦١
تَفسيرُ الآياتِ ٢٦٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٦٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٦٨
بلاغةُ الآياتِ ٢٧٣
الآيات (٧٧-٨٣) ٢٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٨٢
المعنى الإجماليُّ ٢٨٣
تَفسيرُ الآياتِ ٢٨٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩١
بلاغةُ الآياتِ ٢٩٧
سورةُ الصَّافَّاتِ ٣٠٩
أسماءُ السُّورةِ ٣٠٩
بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ ٣٠٩

مَقاصِدُ السُّورةِ ٣٠٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ..... ٣١٠
الآيات (١-١٠)..... ٣١١
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٣١١
مُشكِلُ الإعرابِ..... ٣١٣
المعنى الإجماليُّ..... ٣١٤
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٣٢٦
بلاغةُ الآياتِ..... ٣٣٢
الآيات (١١-٢١)..... ٣٤٢
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٣٤٢
المعنى الإجماليُّ..... ٣٤٣
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٤٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ..... ٣٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٣٥٤
بلاغةُ الآياتِ..... ٣٥٧
الآيات (٢٢-٣٤)..... ٣٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٣٦٦
المعنى الإجماليُّ..... ٣٦٧
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٦٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ..... ٣٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٣٧٨

بلاغةُ الآياتِ ٣٨٣
الآيات (٣٥-٤٩) ٣٩٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٩٠
المعنى الإجماليُّ ٣٩٢
تَفسيرُ الآياتِ ٣٩٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٠٦
بلاغةُ الآياتِ ٤١٠
الآيات (٥٠-٦١) ٤٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٢٠
المعنى الإجماليُّ ٤٢١
تَفسيرُ الآياتِ ٤٢٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٢٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٢٨
بلاغةُ الآياتِ ٤٣١
الآيات (٦٢-٧٤) ٤٣٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٣٩
المعنى الإجماليُّ ٤٤١
تَفسيرُ الآياتِ ٤٤٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٥٤
بلاغةُ الآياتِ ٤٥٨

الآيات (٧٥-٨٢) ٤٦٦
المعنى الإجماليُّ ٤٦٦
تَفسيرُ الآياتِ ٤٦٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٧٤
بلاغةُ الآياتِ ٤٧٧
الآيات (٨٣-٩٨) ٤٨٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٨٥
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٨٦
المعنى الإجماليُّ ٤٨٦
تَفسيرُ الآياتِ ٤٨٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٩٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٩٩
بلاغةُ الآياتِ ٥٠٦
الآيات (٩٩-١١٣) ٥١٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٥١٧
المعنى الإجماليُّ ٥١٨
تَفسيرُ الآياتِ ٥١٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٣٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٣٧
بلاغةُ الآياتِ ٥٤٩
الآيات (١١٤-١٢٢) ٥٦١

غَريبُ الكَلِماتِ ٥٦١
المعنى الإجماليُّ ٥٦١
تَفسيرُ الآياتِ ٥٦١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٦٧
بلاغةُ الآياتِ ٥٧٠
الآيات (١٢٣-١٣٢) ٥٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٧٣
المعنى الإجماليُّ ٥٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ٥٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٨١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٨٢
بلاغةُ الآياتِ ٥٨٤
الآيات (١٣٣-١٣٨) ٥٨٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٨٩
المعنى الإجماليُّ ٥٨٩
تَفسيرُ الآياتِ ٥٩٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٩٤
بلاغةُ الآياتِ ٥٩٥
الآيات (١٣٩-١٤٨) ٥٩٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٩٧

المعنى الإجماليُّ ٥٩٩
تَفسيرُ الآياتِ ٦٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٠٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٠٨
بلاغةُ الآياتِ ٦١٢
الآيات (١٤٩-١٦٣) ٦١٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٦١٧
مُشكِلُ الإعرابِ ٦١٨
المعنى الإجماليُّ ٦١٩
تَفسيرُ الآياتِ ٦٢٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٣٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٣٠
بلاغةُ الآياتِ ٦٣٤
الآيات (١٦٤-١٧٠) ٦٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٥٠
مُشكِلُ الإعرابِ ٦٥٠
المعنى الإجماليُّ ٦٥٠
تَفسيرُ الآياتِ ٦٥١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٥٧
بلاغةُ الآياتِ ٦٥٨
الآيات (١٧١-١٨٢) ٦٦٤

غَريبُ الكَلِماتِ ٦٦٤
المعنى الإجماليُّ ٦٦٥
تَفسيرُ الآياتِ ٦٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٧٤
بلاغةُ الآياتِ ٦٧٧
الفهرس ٦٩٣

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة ص

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بغزة

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثامن والعشرون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة ص)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد الثامن والعشرون – سورة ص/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٢ هـ

٣٥٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٦-٩٤-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٢ ١٤٤٢/٩١٥٠

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٩١٥٠

ردمك: ٦-٩٤-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة ص)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثامن والعشرون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ ص

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ ص

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (ص)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ (ص) مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِن المفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، وعلى صِدقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ البَعثَ حَقٌّ، مع الرَّدِّ على شُبُهاتِ المُشرِكينَ[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- بيانُ مَوقِفِ المُشرِكينَ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنكارِهم لنُبُوَّتِه وما جاء به مِن التَّوحيدِ.

٢- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِن قَومِه، بذِكرِ عَدَدٍ مِن

---

(١) سُمِّيَت سورةَ (ص)؛ لافتِتاحِها بها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٩).
قال ابنُ عاشور: (سُمِّيتْ في المصاحفِ وكُتُبِ التَّفسيرِ وكُتُبِ السُّنَّةِ والآثارِ عن السَّلَفِ سورةَ «صاد»، كما يُنطَقُ باسمِ حرفِ الصَّادِ؛ تَسميةً لها بأوَّلِ كَلِمةٍ منها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠١).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّة، وابن الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ١٢٧).

الأُمَمِ الَّتي كَذَّبَت رُسُلَها، مع أمْرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالصَّبرِ.

٣- حِكايةُ قِصَّةِ داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ.

٤- ذِكرُ قِصَّةِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ، وابتِلاءِ اللهِ له، وصَبرِه على ذلك.

٥- ثناءُ اللهِ على أنبيائِه: إبراهيمَ، وإسحاقَ، ويَعقوبَ، وإسماعيلَ، والْيَسَعَ، وذي الكِفْلِ.

٦- ذِكرُ بَعضِ ما أعَدَّه اللهُ تعالى للمُتَّقينَ مِن نَعيمٍ، وما أعَدَّه للطَّاغينَ مِن عَذابٍ ونَكالٍ.

٧- ذِكرُ جانِبٍ مِن قِصَّةِ آدَمَ وإبليسَ.

الآيات (١-٢)

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿عِزَّةٖ﴾: العِزَّةُ: المُغالَبَةُ والمُمانَعةُ، مِن قَولِهم: أرضٌ عَزازٌ، أي: صُلْبةٌ، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ[١].

﴿وَشِقَاقٖ﴾: أي: عَداوةٍ ومُبايَنةٍ ومُخالَفةٍ، وأصلُ الشِّقاقِ: الانصِداعُ، ومنه الشِّقاقُ؛ لأنَّه يُؤدِّي إلى انصِداعِ الجماعَةِ وتفَرُّقِها، وقيل: الشِّقاقُ: المخالفةُ، وكونُك في شِقٍّ غيرِ شِقِّ صاحبِك، أو مِن: شَقِّ العصا بينَك وبينَه[٢].

﴿قَرۡنٖ﴾: القرنُ: القَومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المُقترنونَ في زمنٍ واحدٍ، غير مُقَدَّرٍ بمُدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مُدَّةُ القرنِ مِئةُ سَنةٍ، وقيل: ثَمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِنَ الاقترانِ، وهو اجتِماعُ شَيئَينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمْعِ شيءٍ إلى شيءٍ[٣].

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾: أي: ليس الحِينُ حينَ فِرارٍ ولا مَهرَبٍ، وأصلُ (نوص):

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤، ٣٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٣٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

يدُلُّ على ترَدُّدٍ ومَجيءٍ وذَهابٍ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۞ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۞ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ﴾

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ (الواو) واوُ القَسَمِ حَرفُ جَرٍّ. (القُرآنِ) مجرورٌ بـ(الواو)، والجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقانِ بفعلٍ مَحذوفٍ تقديرُه: أُقسِمُ. (ذي) نعتٌ للقُرآنِ مجرورٌ. ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ مضافٌ إليه مجرورٌ.

وجوابُ القَسَمِ فيه أقوالٌ كثيرةٌ؛ أحدُها: أنَّه قَولُه: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾، والأصلُ: لَكَمْ أهلَكْنا، فحَذَفَ اللَّامَ. الثَّاني: أنَّه قولُه: ﴿إِن كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ [ص: ١٤]. الثَّالِثُ: أنَّه مَحذوفٌ، واختَلَفوا في تقديرِه[٢].

قَولُه: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾ الواوُ: واوُ الحالِ. (لاتَ) حرفُ نفيٍ يَعمَلُ عمَلَ (ليس)، واسمُه محذوفٌ تقديرُه: الحِينُ. ﴿حِينَ﴾ خبَرُ (لاتَ) مَنصوبٌ، والجُملةُ حاليَّةٌ مِن فاعِلِ (نادَوْا) في مَحلِّ نَصبٍ، أي: استغاثوا والحالُ أنَّه لا مَهرَبَ ولا مَنجَى[٣].

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ١٦٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٧).

و(لات) حرفُ نفيٍ، أصلُه (لا)، وزِيدتْ عليها التاءُ، كما زِيدت في (ثُمَّتَ). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٣٣٤)، ((التذييل والتكميل)) لأبي حيان (٤/ ٢٨٧).

(٢) ويُنظر ما سيأتي (ص: ١٢).

وقد استبعَد ابنُ القيِّم القولَ الأوَّلَ والثانيَ في جوابِ القسمِ. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١١).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٣٤٤-٣٤٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٠١).

المعنى الإجماليُّ:

افتُتِحَت هذه السُّورةُ الكَريمةُ بحرفِ (ص)، وهو مِن الحُروفِ المُقَطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القُرآنِ؛ للإشارةِ إلى إعجازِه، ثمَّ أقسَمَ اللهُ تعالى بالقُرآنِ ذي الشَّرَفِ والتَّذكيرِ على أنَّه ما كان الأمرُ كما يَقولُ هؤلاءِ الكُفَّارُ، وأنَّهم إنَّما لم يَنتَفِعوا بالقُرآنِ؛ لأنَّهم في استِكبارٍ عنه، وأنَفةٍ مِن قَبولِه والإيمانِ به.

ثمَّ يُحذِّرُهم الله تعالى مِن أنْ يُصيبَهم ما أصاب الأُمَمَ مِن قَبْلِهم بسببِ مُخالَفَتِهم للرُّسلِ وتكذيبِهم الكتبَ المُنزلةَ، فيقولُ: وما أكثَرَ ما أهلَكَ اللهُ قَبْلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ مِن الأُمَمِ المُكَذِّبةِ بسَبَبِ كُفرِهم وتَكذيبِهم! فنادَى أولئك الكُفَّارُ مُستَغيثينَ برَبِّهم حينَ نَزَل بهم العَذابُ، وليس ذلك الوَقتُ وَقتَ خَلاصٍ وفِرارٍ مِن الهلاكِ بالتَّوبةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾.

﴿صٓ﴾.

هذا الحرفُ مِن الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، يأتي لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضَتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[1].

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾.

أي: أُقسِمُ بالقُرآنِ ذي الشَّرَفِ، العَظيمِ القَدْرِ، المُذَكِّرِ للعبادِ بما هم عنه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

غافِلونَ[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠، ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣).

قيل: المرادُ بالذِّكرِ: الشَّرفُ. وممَّن اختاره: السمرقندي، والواحدي، والسمعاني، والنسفي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٤٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وأبو حَصينٍ، وأبو صالحٍ، وإسماعيلُ بنُ أبي خالدٍ، والسُّدِّيُّ، وابنُ عُيَيْنَةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١).

وقيل: ﴿ذِى ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: ذي التَّذكيرِ لكم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والشربيني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١).

قال ابنُ كثيرٍ: (ولا مُنافاةَ بيْنَ القَولَينِ؛ فإنَّه كتابٌ شريفٌ مُشتَمِلٌ على التَّذكيرِ والإعذارِ والإنذارِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١).

وممَّن جمَع بينَ المعنيينِ السابقينِ: أي أنَّ الذكرَ معناه الشَّرَفُ والتَّذكيرُ: ابنُ القيِّم، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠، ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤).

وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يُرادَ بالذِّكرِ ذِكرُ اللِّسانِ، وهو على معنى: الَّذي يُذكَرُ، بالبناءِ للنَّائبِ، أي: والقُرآنِ المذكورِ، أي: المَمدوحِ المُستَحِقِّ الثَّناءَ، على أحدِ التَّفسيرَينِ في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي: شَرَفُكم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣).

واختلف المُفسِّرونَ في جوابِ هذا القَسَمِ على عِدَّةِ أقوالٍ؛ منها: أنَّه مَحذوفٌ دَلَّ عليه قَولُه =

كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴾ [طه: ١١٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ ﴾.

أي: إنَّما لم يَنتَفِعِ الكافِرونَ بالقُرآنِ؛ لأنَّهم في استِكبارٍ عنه، وأَنَفةٍ وامتِناعٍ مِن

= تعالى بعدَها: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴾ [ص: ٢]، وتقديرُه: «ما الأمرُ كما يقولُ هؤلاء الكافِرونَ، بل هم في عِزَّةٍ وشِقاقٍ». وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن عطية، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢٧).

وذكر الشِّنقيطيُّ أنَّ المُقْسَمَ على نَفْيِه يَشملُ ثلاثةَ أشياءَ مُتلازمةٍ:

الأوَّلُ: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُرسَلٌ مِن الله حَقًّا، وأنَّ الأمرَ ليس كما يقولُ الكُفَّارُ.

والثَّاني: أنَّ الإلهَ المعبودَ جَلَّ وعلا واحِدٌ، لا كما يَقولُه الكُفَّارُ.

والثَّالثُ: أنَّ اللهَ جلَّ وعلا يَبعَثُ مَن يموتُ، وأنَّ الأمرَ ليس كما يقولُه الكُفَّارُ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢٧).

وقيل: لم يُذكَرْ جوابُ القَسَمِ؛ لأنَّ في المُقسَمِ به ما يدُلُّ عليه؛ فما في المُقسَمِ به مِن تعظيمِ القُرآنِ ووَصفِه بأنَّه ذو الذِّكرِ، المُتضَمِّن لتذكيرِ العبادِ ما يحتاجونَ إليه؛ وللشَّرَفِ والقَدْرِ، وكَونِه حَقًّا مِن عندِ اللهِ غيرَ مُفترًى كما يقولُه الكافِرونَ: ما يدُلُّ على جوابِ القَسَمِ المحذوفِ، فيكونُ تقديرُه: إنَّ القُرآنَ لَحَقٌّ. وممَّن ذهب إلى هذا التَّقديرِ: ابنُ القيِّم. وذكر أنَّه معنَى قَولِ كثيرٍ مِن المفَسِّرينَ. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠، ١١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩).

قَبولِه والإيمانِ به، ومُشاقَّةٍ ومُعانَدةٍ وخِلافٍ ومُخاصَمةٍ في رَدِّه وإبطالِه، أو في القَدحِ بمَنْ جاء به[١].

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف المُشرِكينَ بالعِزَّةِ والشِّقاقِ؛ خَوَّفَهم، فقال[٢]:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾.

أي: ما أكثَرَ ما أهلَكْنا مِنَ الأُمَمِ المُكَذِّبةِ قَبْلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ؛ بسَبَبِ كُفرِهم وتَكذيبِهم برَسولِهم، ومُخالَفتِهم كِتابَ رَبِّهم[٣]!

كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤، ٥].

﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

أي: فنادَى كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ رَبَّهم، واستغاثوا بالتَّوبةِ إليه حينَ نَزَل بهم العَذابُ، وليس ذلك الوَقتُ وَقتَ خلاصٍ وفِرارٍ مِن الهلاكِ بالتَّوبةِ، والتَّضَرُّعِ إلى اللهِ تعالى وَحْدَه، والإنابةِ إليه؛ فلا يَنفَعُهم ذلك حينَئذٍ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١، ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢، ٥٣)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ * قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ فيه أنَّ التَّوبةَ لا تَنفَعُ إلَّا عندَ التَّمَكُّنِ والاختيارِ، لا عندَ الغَلَبةِ والاضْطِرارِ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تأمَّلِ السُّورَ الَّتي اشتَمَلتْ على الحروفِ المُفرَدةِ، كيف تَجِدُ السُّورةَ مَبنيَّةً على كَلِمةِ ذلك الحرفِ؛ فتأمَّلْ ما اشتمَلَتْ عليه سُورةُ «ص» مِن الخُصوماتِ المُتعدِّدةِ؛ فأوَّلُها خُصومةُ الكُفَّارِ مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] إلى آخرِ كلامِهم، ثمَّ اختِصامُ الخَصْمَينِ عندَ داودَ عليه السَّلامُ، ثمَّ تَخاصُمُ أهلِ النَّارِ، ثمَّ اختِصامُ المَلأِ الأعلى في العِلْمِ -وهو الدَّرَجاتُ والكَفَّاراتُ-، ثمَّ مُخاصَمةُ إبليسَ واعتِراضُه على ربِّه في أمرِه بالسُّجودِ لآدمَ، ثمَّ خِصامُه ثانيًا في شأنِ بَنيه، وحَلِفُه لَيُغْوِيَنَّهم أجمعينَ إلَّا أهلَ الإخلاصِ منهم؛ فلْيتأمَّلِ اللَّبيبُ الفَطِنُ: هل يَليقُ بهذه السُّورةِ غيرُ «ص»[(٢)]؟!

= (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٣١، ٣٣٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٧٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بحَرفٍ، تكلَّمَ به بالحُروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتكلَّمُ النَّاسُ بها ويَتركَّبُ منها كَلامُهم(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ أنَّ الكُفَّارَ لا يَسكُتونَ على كُفرِهم، ويَستَمِرُّونَ في طُغيانِهم وأنَفَتِهم، بل يُحاوِلونَ أنْ يَصُدُّوا عِبادَ اللهِ عن دينِ الله؛ لأنَّهم في شِقاقٍ دائمٍ؛ يُشَاقُّون اللهَ ورَسولَه(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ أنَّ الكُفَّارَ في عِزَّةٍ وشِقاقٍ مع الحَقِّ دائمًا؛ سواءٌ مع الله، أو مع الرَّسولِ، أو مع وَرَثةِ الرَّسولِ -وهم العُلَماءُ-، أو مع أتْباعِ الرَّسولِ عُمومًا -وهم المؤمِنونَ-؛ فهم في شِقاقٍ دائمٍ مع الحَقِّ(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ الزَّجرُ عن الأَنَفةِ مِن اتِّباعِ الحقِّ، وبيانُ أنَّ ذلك مِن خِصالِ الَّذين كفروا، والأَنَفةُ مِن مُتابَعةِ الحقِّ وسيلةٌ إلى تركِه، والأَنَفةُ مِن الحقِّ قبيحةٌ، كما أنَّ الأَنَفةَ مِنَ الباطلِ حسَنةٌ(٤).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ تحذيرُ هؤلاء المُكذِّبين، وأنَّهم لن يُعجِزوا اللهَ في شَيءٍ كما لم يُعجِزْه مَن سَبَقَهم ممَّن كان قَبْلَهم مِن الأُمَمِ الَّتي أُهلِكَت(٥).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ أنَّ التَّكذيبَ للرُّسُلِ كان كثيرًا؛ لأنَّ إهلاكَ القرونِ إنَّما كان بسببِ تكذيبِهم؛ فإذا كَثُرَت القُرونُ المُهْلَكةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢).

فلازِمُ ذلك أنْ يَكْثُرَ التَّكذيبُ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أنَّ الأُممَ المُهْلَكةَ إذا نَزَل بهمُ العذابُ فليس هناك فِرارٌ مِن هذا العَذابِ الَّذي نَزَل بهم، ولا تَنفَعُهم استِغاثةٌ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ جاءتْ فاتحةُ السُّورةِ مُناسِبةً لجَميعِ أغراضِها؛ إذِ ابتُدِئتْ بالقَسَمِ بالقُرآنِ الَّذي كذَّبَ به المُشرِكونَ، وجاء المُقسَمُ عليه أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وكلُّ ما ذُكِر فيها مِن أحوالِ المُكذِّبينَ سبَبُه اعتِزازُهم وشِقاقُهم، ومِن أحوالِ المؤمِنينَ سبَبُه ضِدُّ ذلك، مع ما في الافتِتاحِ بالقَسَمِ مِنَ التَّشويقِ إلى ما بعْدَه؛ فكانتْ فاتِحتُها مُستكمِلةً خصائصَ حُسنِ الابتِداءِ[٣].

- والواوُ في قَولِه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ للقَسَمِ، وأقسَمَ اللهُ سُبحانَه بالقُرآنِ قَسَمَ تَنويهٍ به. ووصَفَ القُرآنَ بـ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾؛ لأنَّ (ذي) تُضافُ إلى الأشياءِ الرَّفيعةِ، فتَجري على مُتَّصِفٍ مَقصودٍ التَّنويهُ به[٤].

- وجوابُ القسَمِ في قَولِه: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ إمَّا مَحذوفٌ، وهو ما يُنْبِئُ عنه التَّحدِّي والأمرُ والإقسامُ به؛ مِن كَونِ المُتحدَّى به مُعجِزًا، وكَونِ المأمورِ به واجبًا، وكَونِ المُقسَمِ به حقيقًا بالإعظامِ، أي: أُقسِمُ بالقرآنِ إنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣).

لَمُعجِزٌ، أو لَواجِبٌ العمَلُ به، أو لَحقيقٌ بالإعظام. والغرَضُ مِن حذفِ جوابِ القسَمِ هنا، قيل: هو الإعراضُ عنه إلى ما هو أَجْدَرُ بالذِّكرِ، وهو صِفةُ الَّذينَ كفَروا وكذَّبوا القُرآنَ؛ عِنادًا أو شِقاقًا منهم، ومعنَى ذلك أنَّ الكَلامَ أخَذَ في الثَّناءِ على القرآنِ ثمَّ انقطَعَ عن ذلك إلى ما هو أهَمُّ، وهو بيانُ سببِ إعراضِ المُعرِضينَ عنه؛ لاعتِزازِهم بأنفُسِهم وشِقاقِهم؛ فوقَعَ العُدولُ عن جوابِ القسَمِ استِغناءً بما يُفيدُ مُفادَ ذلك الجوابِ. وإمَّا هو الكلامُ المَرموزُ إليه ونفْسُ الجُملةِ المذكورةِ قبْلَ القَسَمِ؛ فإنَّ التَّسميةَ تَنويهٌ بشأنِ المُسمَّى، وتَنبيهٌ على عِظَمِ خَطَرِه، أي: إنَّه لَصادقٌ. وقيل: الجوابُ ما دَلَّ عليه الجُملةُ الإضرابيَّةُ، أي: ما كفَرَ به مَن كفَرَ لِخلَلٍ وجَدَه فيه، ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ...﴾ إلخ[1].

- قَولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ حرفُ (بَلْ) للإضرابِ الإبطاليِّ؛ لإبطالِ تَوهُّمٍ يَنشأُ عن الكَلامِ الَّذي قبْلَه؛ إذْ دَلَّ وصْفُ القرآنِ بـ ﴿ذِي ٱلذِّكْرِ﴾ أنَّ القرآنَ مُذَكِّرٌ سامعيهِ تذكيرًا ناجِعًا، فعقَّبَ بإزالةِ تَوهُّمِ مَن يَتَوهَّمُ أنَّ عدَمَ تذَكُّرِ الكفَّارِ ليس لِضَعفٍ في تَذكيرِ القرآنِ، ولكنْ لأنَّهم مُتعَزِّزونَ مُشاقُّونَ؛ فحرفُ (بَلْ) في مِثلِ هذا بمَنزلةِ حرفِ الاستِدراكِ، والمقصودُ منه تحقيقُ أنَّه ذو ذِكرٍ، وإزالةُ الشُّبهةِ الَّتي قد تَعرِضُ في ذلك؛ فليس امتِناعُهم مِنَ الإيمانِ بالقرآنِ لنَقصٍ في عُلُوِّه ومَجدِه، ولكنْ لأنَّهم عَجِبوا أنْ جاءَهم به رجُلٌ منهم.

ويُمكِنُ أنْ نَجعَلَ (بَلْ) إضرابَ انتِقالٍ مِنَ الشُّروعِ في التَّنويهِ بالقرآنِ إلى بيانِ سببِ إعراضِ المُعرِضينَ عنه؛ لأنَّ في بيانِ ذلك السببِ تحقيقًا للتَّنويهِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٣، ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣- ٣٠٥).

بالقرآنِ[١]. أو للانتِقالِ مِن هذا القَسَمِ والمُقسَمِ عليه إلى حالةِ تَعزُّزِ الكفَّارِ ومُشاقَّتِهم في قَبولِ رسالتِكَ وامتِثالِ ما جِئتَ به والاعترافِ بالحقِّ[٢].

- وقيل: إنَّ فائدةَ ﴿بَلِ﴾ هاهنا في قَولِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ تصحيحُ ما قبْلَه، وإبطالُ ما بعْدَه؛ فإنَّه دَلَّ بقَولِه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أنَّ القرآنَ مَقَرٌّ للتَّذكيرِ، وأنَّ امتِناعَ الكفَّارِ مِنَ الإصغاءِ إليه أنْ ليس مَوضعًا للذِّكرِ، بلْ لتَعزُّزِهم ومُشاقَّتِهم[٣].

- وأيضًا لَمَّا كانت الأجوبةُ مُنبئةً عن انتِفاءِ الرَّيبِ عن مَضمونِ القرآنِ بالكُلِّيَّةِ إنباءً بَيِّنًا؛ كان قولُه تعالَى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إضرابًا عن ذلك، كأنَّه قيل: لا رَيْبَ فيه قَطعًا، وليس عدَمُ إذعانِ الكَفَرةِ له لشائبةِ رَيبٍ ما فيه، بلْ هُم في استِكبارٍ وحَمِيَّةٍ شديدةٍ، وشِقاقٍ بعيدٍ للهِ تعالى ولرسولِه؛ ولذلك لا يُذْعِنونَ له[٤].

- قَولُه: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۞ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ انتِظامُه وبلاغتُه تَظهَرُ مِن وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يَكونَ قد ذكَرَ اسمَ هذا الحَرْفِ مِن حروفِ المُعجَمِ على سبيلِ التَّحدِّي والتَّنبيهِ على الإعجازِ، ثمَّ أتْبَعَه القَسَمَ مَحذوفَ الجَوابِ؛ لدَلالةِ التَّحدِّي عليه، كأنَّه قال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ إنَّه لَكلامٌ مُعجِزٌ.

والثَّاني: أنْ يَكونَ ﴿صٓ﴾ خبرَ مُبتدأٍ مَحذوفٍ على أنَّها اسمٌ للسُّورةِ، كأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٢٦، ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٤١، ١٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٣، ٢١٤).

قال: هذه (ص)، يعنى: هذه السُّورةُ الَّتي أعجزَتِ العرَبَ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، كما تقولُ: هذا حاتمٌ واللهِ، تُريدُ: هذا هو المشهورُ بالسَّخاءِ واللهِ، وكذلك إذا أقسَمَ بها، كأنَّه قال: أقسَمْتُ بـ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ إنَّه لَمُعجِزٌ، ثمَّ قال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ﴾ واستِكبارٍ عن الإذعانِ لذلك والاعترافِ بالحقِّ ﴿وَشِقَاقٍ﴾ للهِ ورسولِه. وإذا جعَلْتَها مُقْسَمًا بها وعطَفْتَ عليها ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ جاز لك أنْ تُريدَ بالقُرآنِ التَّنزيلَ كلَّه، وأنْ تُريدَ السُّورةَ بعَيْنِها، ومعناهُ: أُقسِمُ بالسُّورةِ الشَّريفةِ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، كما تقولُ: مرَرْتُ بالرَّجُلِ الكريمِ وبالنَّسَمةِ المُبارَكةِ، ولا تُريدُ بالنَّسَمةِ غيْرَ الرَّجُلِ. والذِّكرُ: الشَّرفُ والشُّهرةُ، مِن قَولِكَ: فُلانٌ مَذكورٌ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. أو: الذِّكرى والمَوعظةُ. أو: ذِكرُ ما يُحتاجُ إليه في الدِّينِ مِنَ الشَّرائعِ وغَيرِها؛ كأَقاصيصِ الأنبياءِ، والوعدِ والوعيدِ[(١)].

- قَولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ قيل: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ دُونَ (الكافِرونَ)؛ لِما في صِلَةِ المَوصولِ مِنَ الإيماءِ إلى الإخبارِ عنهم بأنَّهم في عِزَّةٍ وشِقاقٍ، والعِزَّةُ تَحومُ إطلاقاتُها في الكَلامِ حَوْلَ معاني المَنَعةِ والغَلَبةِ والتَّكبُّرِ، فإنْ كان ذلك جاريًا على أسبابٍ واقعةٍ فهي العِزَّةُ الحقيقيَّةُ، وإنْ كان عن غُرورٍ وإعجابٍ بالنَّفْسِ فهي عِزَّةٌ مُزَوَّرةٌ، وهي هنا عِزَّةٌ باطلةٌ أيضًا؛ لأنَّها إباءٌ مِنَ الحقِّ، وإعجابٌ بالنَّفْسِ[(٢)].

- وفي قَولِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ جاء التَّعبيرُ بـ (في) المُعبِّرةِ عن معنَى الظَّرفيَّةِ المُعبِّرةِ عن قُوَّةِ التَّلبُّسِ بالعِزَّةِ، واستِغراقِهم فيها، والمعنَى:

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٨))، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٥).

مُتلبِّسونَ بعِزَّةٍ على الحقِّ[١].

- والتَّنكيرُ في ﴿عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾؛ للدَّلالةِ على شِدَّتِهما وتَفاقُمِهما[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ العِزَّةَ عنِ الحقِّ والشِّقاقَ للهِ ولرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّا يُثيرُ في خاطرِ السَّامعِ أنْ يَسألَ عن جزاءِ ذلك؛ فوقَعَ هذا بيانًا له، وكان هذا البيانُ إخبارًا مُرفَقًا بحُجَّةٍ -مِن قَبيلِ قِياسِ التَّمثيلِ[٣]؛ لأنَّ قولَه: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ يُؤْذِنُ بأنَّهم مِثلُهم في العِزَّةِ والشِّقاقِ-، ومُتضَمِّنًا تحذيرًا مِنَ التَّريُّثِ عن إجابةِ دَعوةِ الحقِّ، أي: يَنزِلُ بهمُ العَذابُ فلا يَنفَعُهم ندَمٌ ولا مَتابٌ، كما لم يَنفَعِ القُرونَ مِن قَبْلِهم[٤].

- قَولُه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ ﴿كَمْ﴾ اسمٌ دالٌّ على عَددٍ كثيرٍ، و﴿قَرْنٍ﴾ تَمييزٌ لإبهامِ العَددِ، أي: عددًا كثيرًا مِنَ القرونِ[٥].

- وقَولُه: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ ظَرفًا مُستقَرًّا[٦]، جُعِلَ صِفةً لـ﴿قَرْنٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣).

(٣) قياس التَّمثيلِ: هو: حمْلُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المشتركَ الكُلِّيَّ، أو: إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما، مِثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ هو القياسُ الأصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) الظَّرْف المُستقَرُّ -بفتح القاف-: سُمِّي بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذين الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّي ظرفًا لَغوًا؛ =

مُقدَّمةً عليه؛ فوقعَتْ حالًا، وإنَّما قُدِّمَ للاهتِمام بمَضمونِه؛ ليُفيدَ الاهتمامُ إيماءً إلى أنَّهم أُسْوةٌ لهم في العِزَّةِ والشِّقاقِ، وأنَّ ذلك سببُ إهلاكِهم. ويَجوزُ أنْ يَكونَ مُتعلِّقًا بـ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ على أنَّه ظَرفٌ لَغْوٌ، وقُدِّم على مَفعولِ فِعلِه مع أنَّ المَفعولَ أَوْلى بالسَّبقِ مِن بَقيَّةِ مَعمولاتِ الفِعلِ؛ لِيَكونَ تَقديمُه اهتِمامًا به إيماءً إلى الإهلاكِ كما في الوَجهِ الأوَّلِ[١].

- وفي قَولِه: ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ فَرَّع على الإهلاكِ أنَّهم نادَوْا فلمْ يَنفَعْهم نِداؤُهم؛ تحذيرًا مِن أنْ يقَعَ هؤلاء في مِثلِ ما وقعَتْ فيه القُرونُ مِن قَبْلِهم؛ إذْ أضاعوا الفُرصةَ فنادَوْا بعْدَ فَواتِها، فلمْ يُفِدْهم نِداؤُهم ولا دُعاؤُهم. والمرادُ بالنِّداءِ في ﴿فَنَادَواْ﴾: نِداؤهمُ اللهَ تعالى تَضَرُّعًا[٢].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ وعيدٌ لِذَوي العِزَّةِ والشِّقاقِ، على كُفرِهم واستِكبارِهم، ببَيانِ ما أصاب مَن قَبْلَهم مِنَ المُستكبِرينَ[٣].

= لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٤).

الآيات (٤-١١)

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ١٠ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عُجَابٌ﴾: أي: عجيبٌ، أو بليغٌ في العجبِ، يُقالُ: هذا أمرٌ عَجيبٌ، وذلك إذا اسْتُكْبِر واستُعْظِم، وقيل: العُجابُ: هو الَّذي جاوَز حدَّ العَجَبِ، وأصلُ (عجب) هنا: يدلُّ على كِبْرٍ واسْتِكبارٍ للشَّيءِ[1].

﴿ٱلۡمَلَأُ﴾: أي: أشرافُ النَّاسِ ووُجوهُهم ورُؤَساؤُهم، أو: الجماعةُ يجتمعونَ على رأيٍ، فيَملؤونَ القلوبَ هَيْبةً، والعيونَ جلالةً، ويُقالُ: فلانٌ مِلءُ العيونِ، أي: مُعَظَّمٌ عندَ مَن رآه، وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنَّهم يَتمالَؤون، أي: يَتظاهَرونَ ويَتساندونَ، أو: مِن قولِهم: فلانٌ مليءٌ بكذا، إذا كان مطيقًا له؛ لأنَّهم مُلِئوا بترتيبِ المُهِمَّاتِ، وأحْسَنوا في تَدبيرِها، وأصلُ (ملأ): يدُلُّ على الكَمالِ[2].

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (١/ ٢٣٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٩٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٦).

﴿ٱلْمِلَّةِ﴾: أي: الدِّين والطَّريقة، ثمَّ نُقِلَت إلى أصولِ الشَّرائع، وهي هنا النَّصرانيَّةُ، والمِلَّةُ مُشتَقَّةٌ مِن أملَلْتُ (أي: أملَيْتُ)؛ لأنَّها تُبنَى على مَسموعٍ ومَتلُوٍّ، فإذا أُريدَ الدِّينُ باعتِبارِ الدُّعاءِ إليه قيل: مِلَّةٌ، وإذا أُريدَ باعتبارِ الطَّاعةِ والانقيادِ له قيل: دينٌ[١].

﴿ٱخْتِلَٰفٌ﴾: أي: كَذِبٌ وتخَرُّصٌ، وأصلُ (خلق): يدُلُّ على تَقديرِ الشَّيءِ[٢].

﴿فَلْيَرْتَقُوا۟﴾: أي: فلْيَصعَدوا، وأصلُ (رقي): يدُلُّ على صُعودٍ وارتِقاءٍ[٣].

﴿ٱلْأَسْبَٰبِ﴾: أي: طُرُقِ السَّماءِ وأبوابِها، وكلُّ ما يُتوصَّلُ به إلى شَيءٍ يُسمَّى سَبَبًا، وأصلُه: الحَبلُ[٤].

﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾: أي: الفِرَقِ والجَماعاتِ المُجتَمِعةِ، مِن قَولِهم: تحزَّبَ القَومُ: إذا اجتَمَعوا، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجمُّعِ الشَّيءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣، ٧٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢)، ((غريب =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهزُومٌ مِّنَ ٱلأَحزَابِ﴾

﴿جُندٌ﴾ مُبتدَأٌ مَرفوعٌ، أو خبَرٌ لمُبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: هم جُندٌ. ﴿مَّا﴾ زائدةٌ، أو نعتُ ﴿جُندٌ﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾: نَعتٌ لـ ﴿جُندٌ﴾ أو نَعتٌ ثانٍ؛ حَسَبَ إعرابِ (ما)، أو خبَرُ ﴿جُندٌ﴾، أو ظَرفٌ لِـ ﴿مَهزُومٌ﴾.

و﴿مَهزُومٌ﴾: خبَرُ المُبتدَأِ، أو خبَرٌ ثانٍ، أو نعتُ ﴿جُندٌ﴾.

﴿مِّنَ ٱلأَحزَابِ﴾ نعتٌ لـ ﴿جُندٌ﴾، أو مُتعَلِّقٌ بـ ﴿مَهزُومٌ﴾، أو نعتٌ لـ ﴿مَهزُومٌ﴾[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَحكي الله تعالى جانبًا ممَّا كان عليه المشركونَ مِن عِنادٍ وتكذيبٍ، فيقولُ: وعَجِبَ كُفَّارُ قُرَيشٍ أنْ جاءَهم مُنذِرٌ منهم؛ لِيُنذِرَهم عذابَ اللهِ، وقالوا: هذا ساحِرٌ كذَّابٌ! أيَأْمُرُنا أن نَعبُدَ إلهًا واحِدًا، ونَترُكَ عبادةَ آلهتِنا؟! إنَّ هذا لَشَيءٌ شَديدُ العَجَبِ!

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه حِرصَهم على صرْفِ النَّاسِ عن دعوةِ الحقِّ، فيقولُ: وانطلَقَ الأشرافُ من كفَّارِ قريشٍ قائِلينَ: امضُوا على دينِكم، واصبِروا على عبادةِ آلهتِكم، إنَّ هذا الَّذي يَدعوكم إليه محمَّدٌ لَشَيءٌ يُريدُ به الرِّئاسةَ والاستِعلاءَ

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٩٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٦٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٠٧).

علينا، ما سَمِعْنا بهذا في مِلَّةِ النَّصرانيَّةِ، ما هذا الَّذي يقولُه محمَّدٌ إلَّا كَذِبٌ اختلَقَه مِن عندِ نَفْسِه!

ثمَّ يُصَرِّحون بالسَّببِ الَّذي حال بيْنَهم وبيْنَ الإيمانِ وهو الحسدُ، فيقولون: أأَنزَلَ اللهُ عليه القُرآنَ مِن دُونِنا؟!

ويردُّ الله عليهم، فيقولُ: بل هؤلاء المُشرِكونَ في شَكٍّ مِن كَونِ هذا القُرآنِ حَقًّا مِن عندِ اللهِ، بل لَمَّا يَذوقوا عذابي بَعْدُ!

ثمَّ يُنكِرُ الله سبحانَه عليهم اعتراضَهم على اختيارِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم للرِّسالةِ، ويُبيِّنُ أنَّه المُتصرِّفُ في مُلْكِه الفعَّالُ لِمَا يَشاءُ، فيقولُ: أمْ عِندَهم مَفاتيحُ رَحمةِ رَبِّك -يا مُحمَّدُ- العزيزِ الوهَّابِ؟ أمْ لهم مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما؟ فإنْ كان لهم ذلك فلْيَصعَدوا في الطُّرُقِ الَّتي تُوصِلُهم إلى ما نَملِكُه حتَّى يَستولوا عليه، ويُدَبِّروا أمْرَه، بحيثُ يَكونونَ قادِرينَ على القيامِ بما يُريدونَه!

ثمَّ يُبشِّرُ الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالنَّصرِ عليهم، فيقولُ: فلا تُبالِ بما يَقولونَ -يا مُحمَّدُ-؛ فهم جُندٌ مَهزومونَ ومَغلوبونَ عمَّا قَريبٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن الكُفَّارِ أنَّهم في عِزَّةٍ وشِقاقٍ؛ أردَفَ بما صدَرَ عنهم مِن كَلِماتِهم الفاسِدةِ، مِن نِسبتِهم السِّحرَ والكَذِبَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٨).

أي: وعَجِبَ كُفَّارُ قُرَيشٍ أنْ جاءَهم رسولٌ منهم[١] -وهو مُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم-؛ لِيُنذِرَهم عذابَ اللهِ على كُفرِهم وشِرْكِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق: ١، ٢].

﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾.

---

(١) قيل: المرادُ بـ﴿مِّنْهُمْ ﴾: مِن جِنسِهم البَشَريِّ، فلم يُرسَلْ إليهم مَلَكٌ مِن الملائكةِ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣).

وقيل: المرادُ: مِن قَومِهم وأقاربِهم، فهم يَعرِفونَه حَقَّ المعرفةِ، ويَعلَمونَ صِدقَه وأمانتَه ورجاحةَ عَقلِه. ذكَرَ هذا الوجهَ: الرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٧).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السّابقَينِ: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣، ٢٤).

وقال السمرقندي: (﴿مِّنْهُمْ ﴾ يعني: مِن العرَبِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٨).

وقال البِقاعي: (﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي: مِن البشَرِ، ثمَّ مِن العرَبِ، ثمَّ مِن قُرَيشٍ، ولم يكُنْ مِن الملائكةِ مثلًا، وكان يَنبغي لهم ألَّا يَعجَبوا مِن ذلك؛ فإنَّ كَوْنَ النَّذيرِ بما يَحُلُّ مِن المصائبِ مِن القومِ المُنذَرينَ -مع كَونِه أشرَفَ لهم- أقعَدُ في النِّذارةِ؛ لأنَّهم أعرَفُ به وبما هو مُنطَوٍ عليه؛ مِن صِدقٍ وشفَقةٍ وغيرِ ذلك، وهو الَّذي جرَتْ به العَوائدُ في القديمِ والحديثِ؛ لِكَونِهم إليه أمْيَلَ، فهم لِكلامِه أقْبَلُ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

قال ابن عاشور: (المعنى: أنَّه استقَرَّ في نُفوسِهم استِحالةُ بَعثةِ رَسولٍ منهم، فذلك سبَبٌ آخَرُ لانصِرافِهم عن التَّذَكُّرِ بالقُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٨).

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ عن مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا ساحِرٌ، وليس بنَبيٍّ كما يَزعُمُ[١]!

﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ قَولَهم النَّاشِئَ عن عَجَبِهم؛ ذكَرَ سَبَبَه؛ لِيُعلَمَ أنَّ حالَهم هو الَّذي يُعجَبُ منه، لا حالَ مَن أنذَرَهم[٢].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى حكَى جميعَ ما عَوَّلوا عليه في إثباتِ كَونِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كاذِبًا، وهي ثلاثةُ أشياءَ؛ أحَدُها: ما يَتعَلَّقُ بالإلهيَّاتِ. وثانيها: ما يَتعَلَّقُ بالنُّبُوَّاتِ. وثالِثُها: ما يَتعَلَّقُ بالمَعادِ؛ أمَّا الشُّبهةُ المُتعَلِّقةُ بالإلهيَّاتِ فهي قَولُهم هنا[٣]:

﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٣).

قيل: مرادُهم بقَولِهم: ﴿سَٰحِرٌ﴾: أنَّه يجيءُ بالكَلامِ المُمَوَّهِ الَّذي يَخدَعُ به النَّاسَ. وقيل: المرادُ: يُفَرِّقُ بسِحرِه بيْن الوالِدِ وولَدِه، والرَّجُلِ وزَوجتِه. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٩).

وقيل: أرادوا هو ساحِرٌ بما يُظهِرُه مِن مُعجِزاتٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: البيضاوي، وابن عجيبة، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٣).

وممَّن قال: إنَّ مرادَهم بقولِهم: ساحرٌ: أنَّه يُفرِّقُ بيْنَ الاثنَينِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٥).

وممَّن جمَع بيْن هذه المعاني: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٧).

أي: أيَأمُرُنا بتَركِ عِبادةِ آلهتِنا كُلِّها، والاقتِصارِ على عبادةِ اللهِ وَحْدَه[١]؟!

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

أي: إنَّ هذا الأمرَ لَشَيءٌ في غايةِ العَجَبِ[٢]!

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾.

أي: وانطلَقَ الأشرافُ والكُبَراءُ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ قائِلينَ[٣]: امضُوا فاستَمِرُّوا على دينِكم، واصبِروا على عبادةِ آلهتِكم، ولا تَستَجيبوا لِما يَدْعوكم إليه محمَّدٌ مِن توحيدِ اللهِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٩).

(٣) قيل: يقولُ ذلك بعضُهم لبعضٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٣). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٠).

وقيل: يقولونَ ذلك لأتْباعِهم. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

قال ابنُ عثيمين: (هل المرادُ هنا المشيُ بالقَدَم؟ أو المرادُ المَشيُ على الطَّريقةِ، بمعنى: سِيروا على طريقتِكم، واصبِروا على آلهتِكم؟ مَن نظَرَ إلى الانطلاقِ ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ قال: إنَّ المرادَ بذلك المَشْيُ بالقَدَمِ، بمعنى أنَّهم إذا انطلقوا حثَّ بعضُهم بعضًا على المشيِ والسَّيرِ؛ لئلَّا يَعودوا فيُعَرِّجوا على ما انطلقوا منه، كأنَّهم إنَّما يَنطَلِقونَ فِرارًا... وإذا نظَرْنا إلى المعنى أو إلى عُمومِ أحوالهم قُلْنا: إنَّ المرادَ بذلك المشيُ على الطَّريقةِ، يعني: سِيروا على طريقتِكم =

كما قال اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۞ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾.

أي: إنَّ ما يَدْعونا إليه محمَّدٌ مِن إفرادِ العبادةِ للهِ، وتَركِ عبادةِ آلهتِنا: لَشَيءٌ يُريدُ به الرِّئاسةَ والاستِعلاءَ علينا، فنكونُ له أتْباعًا يَحكُمُ فينا بما يَشاءُ(١).

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: ما سَمِعْنا بهذا الَّذي يَدْعونا إليه مُحمَّدٌ مِن توحيدِ اللهِ في مِلَّةِ النَّصرانيَّةِ(٢).

= ولايُهِمَّنَّكم أحَدٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣٠، ٣١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥١).

وقال البِقاعي: (﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ أي: قائلًا كلٌّ منهم لذلك، آمِرًا لِنَفْسِه ولصاحِبِه بالجِدِّ في المُفارَقةِ حالًا ومقالًا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٣٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالأمرِ بالمشيِ: الاستِمرارُ على الدِّينِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: إنَّ هذا التَّوحيدَ الَّذي جاء به محمَّدٌ أمرٌ يُريدُه بشِدَّةٍ، أي: هو ساعٍ بجِدٍّ وعَزمٍ لِتَحقيقِه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣١).

وقيل: المرادُ: إنَّ الصبرَ لشيءٌ مطلوبٌ؛ لأنَّه محمودُ العاقبةِ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١، ٢٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير =

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٞ﴾.

أي: ما هذا الَّذي يَقولُه مُحمَّدٌ إلَّا كَذِبٌ اختلَقَه مِن قِبَلِ نَفْسِه[1].

= القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمِلَّةِ الآخِرةِ: النَّصرانيَّةُ -فهي آخِرُ ديانةٍ قَبْلَهم، والنَّصارى يقولونَ: إنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والرسعني، وجلال الدين المحلي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٥٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣٥، ٣٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، والسُّدِّيُّ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٤٦).

وقيل: المرادُ: اليهوديَّةُ والنَّصرانيَّةُ. وممَّن قال بهذا القولِ: السمرقنديُّ، ونسَبَه الماتُريديُّ إلى عامَّةِ أهلِ التَّأويلِ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٠٧).

وقيل: المرادُ: دينُ قُرَيشٍ. وممَّن اختار هذا القولَ: العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥).

قال السعدي: (﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: في الوقتِ الأخيرِ، فلا أدرَكْنا عليه آباءَنا، ولا آباؤُنا أدركوا آباءَهم عليه، فامْضوا على الَّذي مضَى عليه آباؤُكم؛ فإنَّه الحقُّ، وما هذا الَّذي دعا إليه محمَّدٌ إلا اختلاقٌ اختلَقه، وكذِبٌ افتراه! وهذه أيضًا شُبهةٌ مِن جنسِ شبهتِهم الأُولَى، حيثُ ردُّوا الحقَّ بما ليس بحُجَّةٍ لِرَدِّ أدنَى قولٍ، وهو أنَّه قولٌ مخالفٌ لِما عليه آباؤُهم الضَّالُّونَ، فأينَ في هذا ما يدُلُّ على بطلانِه؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

وقيل: المرادُ: اليهوديَّةُ والنَّصرانيَّةُ ودينُ آبائِهم. وممَّن قال بهذا القولِ: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن =

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا هو الأصلُ الثَّاني مِن أُصولِ كُفرِ المُشرِكينَ، وهو أصلُ إنكارِ بَعثةِ رَسولٍ منهم[1]، وهذه هي الشُّبهةُ الثَّانيةُ لأولئك الكُفَّارِ، وهي الشُّبهةُ المُتعَلِّقةُ بالنُّبُوَّاتِ، وهي قَولُهم: إنَّ محمَّدًا لَمَّا كان مُساوِيًا لِغَيرِه في الذَّاتِ، والصِّفاتِ، والخِلقةِ الظَّاهِرةِ، والأخلاقِ الباطِنةِ؛ فكيف يُعقَلُ أن يختَصَّ هو بهذه الدَّرَجةِ العاليةِ، والمَنزِلةِ الشَّريفةِ[2]؟!

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا ﴾.

أي: قالوا استِبعادًا واستِنكارًا: أأَنزَلَ اللهُ القُرآنَ على مُحمَّدٍ، فخُصَّ بالوَحيِ مِن دُونِنا[3]؟!

كما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي ﴾.

= عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣٧).

قال الزمخشري: (قَولُهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٞ ﴾ كلامٌ مُخالِفٌ لاعتِقادِهم فيه، يقولونَه على سَبيلِ الحسَدِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٣٧).

أي: بل[١] المُشرِكونَ في شَكٍّ مِن كَونِ القُرآنِ حَقًّا أُوحيَ إلى محمَّدٍ مِن عندِ اللهِ[٢].

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾.

أي: بلْ لم يَنزِلْ بَعْدُ بالمُشرِكينَ عَذابي؛ لِتَكذيبِهم رَسولي، وشَكِّهم في كتابي الَّذي أنزَلْتُه عليه، فلو أصابَهم العَذابُ لَأيْقَنوا بصِدقِ ما كانوا يَشُكُّونَ فيه، ويُكَذِّبونَ به[٣].

---

(١) قيل: المرادُ: إبطالُ ونَفيُ ألَّا يكونوا عالِمينَ بأنَّ مُحمَّدًا لم يَزَلْ صَدوقًا فيما بيْنَهم. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢).

وقيل: المعنى: ليس تخصيصُ اللهِ وإنعامُه جاريًا على شهواتِهم. وممَّن قال بهذا: ابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٤).

وقيل: المعنى: أنَّهم ليست لهم حُجَّةٌ ولا بُرهانٌ، ولا عندَهم عِلمٌ ولا بَيِّنةٌ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جُزَي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

وقيل: المعنى: إنَّهم ليسوا جازِمينَ بما قالوا، وإن أكَّدوه غايةَ التَّأكيدِ. وممَّن قال به: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٦).

وقيل: المرادُ: إبطالُ ما ادَّعَوه مِن إرادتِهم نُزولَ القُرآنِ على غيرِ مُحمَّدٍ، أي: هم في شَكٍّ مِن ذِكري، فكيف يَقولونَ: لو نُزِّل على غيرِ محمَّدٍ، والشَّاكُّ في الأصلِ لا يَطلُبُ الفَرعَ أصلًا؟! وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

قال القرطبي: (إنَّما اغتَرُّوا بطُولِ الإمهالِ، ولو ذاقوا عذابي على الشِّركِ لَزال عنهم الشَّكُّ، ولَما قالوا ذلك، ولكِنْ لا يَنفَعُ الإيمانُ حينَئذٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢).

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾.

أي: أمْ عِندَ المُشرِكينَ مَفاتيحُ رَحمةِ رَبِّك -يا محمَّدُ- العزيزِ الغالِبِ على أمْرِه، الوهَّابِ ما يَشاءُ لِمَن يَشاءُ مِن عبادِه؛ مِن نُبُوَّةٍ، ومُلْكٍ، ونِعمةٍ، فيَهَبوها لِمَن شاؤُوا[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٣، ٥٤].

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا استَفهَمَ استِفهامَ إنكارٍ في قَولِه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾، وكان ذلك دليلًا على انتِفاءِ تَصرُّفِهم في خزائِنِ رَحمةِ رَبِّك؛ أتَى بالإنكارِ والتَّوبيخِ بانتِفاءِ ما هو أعَمُّ[2].

وأيضًا لَمَّا سَلَب عنهم التَّصَرُّفَ في الخزائِنِ؛ أتْبَعَه نَفْيَ المُلْكِ عمَّا شاهَدوا منها، وهو جزءٌ يَسيرٌ جِدًّا[3].

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾.

أي: أمْ للمُشرِكينَ مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما؟ فإنْ كان لهم ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٨).

فلْيَصعَدوا إذَنْ في الطُّرُقِ المُوصِلةِ لهم إلى السَّماءِ إن استَطاعوا، بحيثُ يَكونونَ قادِرينَ على القيامِ بما يُريدونَه[١]!

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قال الله تعالى: إنْ كانوا يَملِكون السَّمَواتِ والأرضَ فلْيَرتَقوا في الأسبابِ؛ ذكَرَ عَقِيبَه أنَّهم جُندٌ مِن الأحزابِ مُنهَزِمونَ ضَعيفونَ، فكيف يَكونونَ مالِكي السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما[٢]؟!

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧).

قيل: المرادُ: فلْيَصعَدوا إلى السَّمَواتِ، ولْيَمنَعوا الملائِكةَ مِن إنزالِ الوَحيِ على محمَّدٍ، ولْيَخُصُّوا مَن شاؤُوا بالرِّسالةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥١).

قال البقاعي: (لِيَستوُوا على العَرشِ الَّذي هو أمارةُ المُلكِ، فيُدَبِّروا العالَمَ، فيَخُصُّوا مَن شاؤُوا بالرِّسالةِ؛ لِيُعلمَ أنَّ لهم ذلك، وأنَّه لا يَسوغُ لأحدٍ أن يختَصَّ دُونَهم بشَيءٍ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٣٨).

وقيل: المعنى: إنْ كان لهم مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما فكان لهم شَيءٌ مِن ذلك، فلْيَصعَدوا إن استطاعوا في أسبابِ السَّمواتِ؛ لِيَخبُروا حقائِقَ الأشياءِ، فيَتكَلَّموا عن عِلمٍ في كُنهِ الإلهِ وصِفاتِه، وفي إمكانِ البَعثِ وعَدَمِه، وفي صِدقِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم أو ضِدِّه، ولْيَفتَحوا خزائِنَ الرَّحمةِ فيُفيضوا منها على مَن يُعجِبُهم، ويَحرِموا مَن لا يَرمُقونَه بعينِ استِحسانٍ. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٠).

أي: كُفَّارُ قُرَيشٍ جُندٌ مَهزومٌ ذَليلٌ مِنَ المُتحَزِّبينَ على إبطالِ الحَقِّ(١).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨، ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦).

قال القرطبي: (الكلامُ مرتبطٌ بما قبلُ، أَيْ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ وهم جندٌ مِن الأحزابِ مَهْزومونَ، فلا تَغُمَّكَ عِزَّتُهم وشقاقُهم، فإنِّي أهزمُ جَمْعَهم، وأسْلُبُ عِزَّهم. وهذا تأنيسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، وقد فَعَل بهم هذا في يومِ بدرٍ. قالَ قتادَةُ: وَعَد اللَّهُ أنَّه سيهزمُهم وهم بمكَّةَ فجاءَ تأويلُها يومَ بدرٍ. وَ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارَةٌ لبدرٍ وهو موضعُ تحزُّبِهم لقتالِ محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم. وقيلَ: المرادُ بالأحزابِ الَّذينَ أتوا المدينةَ وتحزَّبوا على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ... وقيلَ: أرادَ بالأحزابِ القرونَ الماضيةَ مِن الكفَّارِ. أي: هؤلاءِ جُنْدٌ على طريقةِ أولئك). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣).

وممن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾ أي: قريشٌ الذين هُزِموا وقُتلوا يوم بدر: ابن جرير، وابن أبي زمنين، ومكي، والبغوي، والخازن. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨، ٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٨٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢)، وينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦).

وقيل: المرادُ: أنَّهم جندٌ مغلوبٌ، أي: ممنوعٌ عن أنْ يصعَدَ إلى السَّماءِ، وممن اختاره: الفرَّاء، والثعلبي، وقواه ابن عطية. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٩٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٥).

قال الشنقيطي بعد أن ذكر أنَّ صيغةَ الأمرِ في قولِه: ﴿فَلْيَرْتَقُواْ﴾ للتعجيز: (قولُه -جلَّ وعلا- بعدَ ذلك التعجيزِ: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يُفهَمُ منه أنَّه لو تنطَّع جندٌ مِن الأحزابِ للارتقاءِ في أسبابِ السَّماءِ، أنَّه يرجِعُ مهزومًا صاغِرًا داخِرًا ذليلًا). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٥٨).

وممن اختار أن المراد: أنَّهم حتى إن استطاعوا الوصولَ إلى السَّماءِ فإنَّهم مهزومون هنالكَ: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٥٨-٥٩).

وقال ابن قتيبة: (و﴿جُندٌ﴾ بمعنى: حزب لهذه الآلهةِ، يقولُ: هم حزبٌ عندَ ذلك مقموعٌ ذليلٌ مِن الأحزابِ، أي: عندَ هذه المحنِ، وعندَ هذا القولِ، لأنَّهم لا يقدِرونَ أن يدَّعوا لآلهتِهم شيئًا مِن هذا، ولا لأنفسِهم). ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩) بتصرف.

كما قال الله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٤، ٤٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ وُجوبُ تقديم الأهَمِّ في الدَّعوةِ إلى اللهِ؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم أوَّلَ ما دعا هؤلاءِ إلى التَّوحيدِ لم يَقُلْ: صَلُّوا ولا زَكُّوا ولا صُوموا ولا حُجُّوا، بل دعاهم إلى التَّوحيدِ، وهذا هو شأنُ القُرآنِ، وهذا هو شأنُ سُنَّةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ العَمليَّةِ؛ فإنَّه لَمَّا بَعَث مُعاذًا إلى اليَمَنِ أمَرَه أنْ يَدْعوَهم أوَّلَ ما يَدْعوهم إليه: إلى شَهادةِ «أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ»[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ إذا تواصى الكُفَّارُ فيما بيْنَهم بالصَّبرِ على آلهتِهم، فالمؤمنونَ أَولَى بالصَّبرِ على عبادةِ مَعبودِهم، والاستِقامةِ في دينِهم[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ * أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾ أنَّ الخَلْقَ لا يَملِكونَ خزائنَ رحمةِ اللهِ، ولا يَملِكونَ السمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما؛ ولهذا كان الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يقولُ: ((اللَّهُمَّ لا مانعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ))[(٣)]، وفي حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: ((واعلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمَعوا على أنْ يَنفعوك بشَيءٍ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣٢).

والحديث أخرجه البخاري (١٣٩٥) واللفظ له، ومسلم (١٩) من حديث عبدالله بن عبَّاس رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) مطولًا من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

لم يَنفعوك إلَّا بشَيءٍ قد كَتَبه اللهُ لك، وإنِ اجتمعوا على أنْ يَضُرُّوك بشَيءٍ؛ لم يَضُرُّوك إلَّا بشَيءٍ قد كَتَبَه اللهُ عليك))[١].

ويَتَفَرَّعُ على هذه الفائدةِ أنَّه لا ينبغي للإنسانِ أنْ يُعَلِّقَ رجاءَه إلَّا باللهِ عزَّ وجلَّ، فإنْ فعَل ذلك سَخَّرَ اللهُ له المخلوقاتِ، حتَّى البَشَرُ يُسَخِّرُهم له، لكنْ إذا تَعَلَّقَ بغيرِ اللهِ وُكِلَ إلى مَن تَعَلَّقَ به[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أنَّه لا ينبغي التَّحَدِّي إلَّا بما لا يَستطيعُه المُتَحَدَّى، وهذا يُفيدُ في بابِ المُناظرةِ، وفي بابِ النَّظَرِ؛ لأنَّ النَّاسَ ناظِرٌ ومُناظِرٌ؛ فالنَّاظِرُ هو الَّذي يَتأمَّلُ الأدِلَّةَ مِن ذاتِ نَفْسِه ويَحكُمُ عليها، والمُناظِرُ هو الَّذي يُناقِشُها مع غَيرِه، فمِن فوائِدِ النَّظَرِ والمُناظَرةِ أنَّ الإنسانَ لا يَفرِضُ شَيئًا على وَجهِ التَّحَدِّي إلَّا إذا عَلِم أنَّه غيرُ مُمكِنٍ للمُتَحَدَّى؛ لأنَّه لو فَرَضَ شَيئًا يَتَحَدَّى به، ثمَّ أتَى به المُتَحَدَّى؛ بَطَلَتْ حُجَّتُه وانهارتْ، وانهارتْ قُوَّةُ المدافَعةِ والمهاجَمةِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ في هذه الآيةِ والَّتي بعدَها دَلالةٌ على إفراطِ القومِ في الجَهالةِ، وتَوَغُّلِهم في الضَّلالةِ؛ حيث نسَبوا السِّحرَ

---

(١) أخرجه مطولًا الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩) واللفظ له
صحَّحه الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٥١٦)، وابنُ عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤٣)، وحسَّنَ ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحِكَم)) (١/ ٤٥٩) روايةَ الترمذيِّ، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٣٣)، وقال شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٦٦٩): (إسنادُه قويٌّ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٥، ٥٦).

والكذِبَ إلى مَن ظهَرَتْ آياتُ رسالتِه، ومُعجزاتُ نُبُوَّتِه، وتَعجَّبوا مِن إثباتِ الوحدانيَّةِ لله تعالى الَّذي خلَقَ ورزَقَ مع إنارةِ براهينِها، ولم يَتعجَّبوا مِن الشِّركِ وعبادةِ الأحجارِ مع وُضوحِ بُطلانِه[١]! وأيضًا لأنَّه لم يأتِهم أحدٌ غَريبٌ عليهم؛ لا في جِنسِه ولا في نَسَبِه؛ فالَّذي جاءهم جِنْسُه بَشَرٌ مِثلُهم، ونَسَبُه منهم؛ مِن قُرَيشٍ، ومع ذلك يَعجَبونَ استِنكارًا ممَّا جاءَهم[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أنَّ التَّعجُّبَ مِن الحقِّ إنكارًا له مِن خِصالِ الَّذين كفروا، وقال تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۞ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ١، ٢]. ولا تعجُّبَ إلَّا مِن مُستغرَبٍ، فالوَيْلُ كلُّ الوَيلِ لِمَن كان الحقُّ عندَه غريبًا، وطُوبى لِمَن تعجَّبَ مِن الباطلِ لِغَرابَتِه عندَه[٣]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: ٤، ٥] أنَّ أعداءَ الرُّسُلِ لا يُعادونهم عداءً شخصيًّا؛ ولكنَّهم يُعادونهم عداءً معنويًّا لِمَا جاؤوا به مِن الرسالةِ، ويَتَفَرَّعُ على هذه الفائدةِ أنَّ كلَّ مَنِ اتَّبَعَ الرَّسولَ سَيَجِدُ له أعداءً مِن الكافرينَ والمنافقينَ، ويَتَفَرَّعُ على ذلك تسليةُ مَن وَجَد عداءً مِن أعداءِ اللهِ لِتَمَسُّكِه بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه، فإنَّه يُقالُ: هذا العِداءُ الَّذي حَصَل لك قد حَصَل لِمَن هو خيرٌ منك؛ فلا تَعْجَبْ[٤]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ أنَّ أعداءَ الرُّسُلِ -بل

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٦).

أعداءَ الرِّسالةِ- يُطْلِقُون ألقابَ السُّوءِ على مَن تَمَسَّكَ بالشَّرعِ، وقد حَصَل هذا[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أنَّ هؤلاء المُكَذِّبين للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يُقيموا عليه حُجَّةً، وليس عندَهم إلَّا السَّبُّ والعَيبُ! وكذا شأنُ كلِّ ضعيفِ الحُجَّةِ: أن يَسُبَّ ويَشتُمَ، ويَتَّخِذَ مِن هذا السِّلاحِ مَهْرَبًا ممَّا هو فيه مِن عجزٍ عن مُقارَعةِ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ، بخِلافِ المُحِقِّ؛ فإنَّه يُدْلِي بحُجَّتِه بهدوءٍ، دونَ سبٍّ أو قذفٍ[٢].

٦- بيانُ قُوَّةِ تأثيرِ كلامِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم في نُفوسِ القَومِ؛ لِقَولِهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾، والسَّاحِرُ يُؤَثِّرُ في المَسحورِ[٣].

٧- أنَّ أهلَ الباطلِ يَحْنُون على باطلِهم، ويُحافِظونَ عليه، ويَخافونَ مِن تَزَعْزُعِه؛ لِقَولِه: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾، وهكذا أهلُ الباطلِ تَجِدُهم دائمًا يَحوطُون باطِلَهم بالسِّياجِ الَّذي يَمنَعُ مِن الوُصولِ إليه على وَجهٍ يُمَزِّقُ هذا الباطِلَ[٤].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يُقصَدُ، أي: له قَصدٌ ونيَّةٌ غيرُ صالحةٍ في ذلك، وهذه شُبهةٌ لا تَرُوجُ إلَّا على السُّفَهاءِ؛ فإنَّ مَن دعا إلى قَولٍ حَقٍّ أو غيرِ حَقٍّ: لا يُرَدُّ قَولُه بالقَدحِ في نيَّتِه؛ فنِيَّتُه وعَمَلُه له، وإنَّما يُرَدُّ بمُقابَلتِه بما يُبطِلُه ويُفسِدُه مِن الحُجَجِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣).

والبَراهين[١]!

٩- قَولُه تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ فيه الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ اللهَ سُبحانَه بنَفْسِه في الأرضِ[٢]! وإثباتُ العُلوِّ لله سُبحانه؛ فالنُّزولُ لا يكونُ إلَّا مِن عُلْوٍ، والقرآنُ كلامُ اللهِ، فإذا كان القرآنُ منزلٌ لَزِم أن يكونَ المُتكلِّمُ به عاليًا[٣].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ مَبدأَ تكذيبِهم لم يكُنْ إلَّا الحَسَدَ، وقُصورَ النَّظَرِ على الحُطامِ الدُّنيويِّ[٤].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي﴾ عدَلَ عن مَظهَرِ العَظَمةِ إلى الإفرادِ؛ لأنَّ هذا السِّياقَ للتَّوحيدِ؛ فالإفرادُ أَولى به، ولِيَكونَ نَصًّا على المرادِ بعدَ ذِكرِ آلهتِهم؛ قَطعًا لِشُبَهِ مُتعنِّتيهم[٥].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أنَّ الكلماتِ تُفَسَّرُ بحسَبِ السِّياقِ، فالذَّوقُ في الأصلِ إنَّما هو للطَّعامِ والشَّرابِ؛ ولكنْ قد يُرادُ به ما أصابَ الإنسانَ إصابةً مباشرةً؛ فإنه يُسمَّى مَذُوقًا[٦].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ المرادُ مِن هذا الكَلامِ مُغايرٌ للمُرادِ مِن قَولِه: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾، والفَرقُ أنَّ خزائِنَ اللهِ تعالى غيرُ مُتناهِيةٍ، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]، ومِن جُملةِ تلك الخزائِنِ: هذه السَّمَواتُ والأرضُ، فلمَّا ذكَرَ الخزائِنَ أوَّلًا على

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٤٦).

عُمومِها أردَفَها بذِكرِ مُلكِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، يعني: أنَّ هذه الأشياءَ أحدُ أنواعِ خزائِنِ اللهِ؛ فإذا كنتُم عاجِزينَ عن هذا القِسمِ، فبأنْ تكونوا عاجِزينَ عن كُلِّ خزائِنِ اللهِ كان أَوْلى[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ عِظَمُ ما بيْنَ السَّماءِ والأرضِ؛ ووجهُه: أنَّ اللهَ تعالى جَعَل ما بيْنَهما قَسيمًا لهما، والقَسيمُ لا بُدَّ أنْ يكونَ مُعادِلًا أو مُقارِبًا لقَسيمِه، لا يُمكِنُ أنْ تأتيَ بشَيءٍ عظيمٍ تُقارِنُ بيْنَه وبيْنَ شَيءٍ بعيدٍ منه في العِظَمِ[٢]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ بعْدَ أنْ كُشِف ما انطَوَتْ عليه نُفوسُهم مِنَ العِزَّةِ والشِّقاقِ، وإحالةِ بَعثةِ رسولٍ للبشَرِ مِن جِنسِهم، حُوسِبوا بما صَرَّحوا به مِنَ القَولِ؛ إشارةً بهذا التَّرتيبِ إلى أنَّ مَقالتَهم هذه نتيجةٌ لعقيدتِهم تلك[٣].

- وأيضًا قَولُه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ حِكايةٌ لأباطيلِهمُ المُتفرِّعةِ على ما حُكيَ مِن استِكبارِهم وشِقاقِهم، أي: عَجِبُوا مِن أنْ جاءَهم رسولٌ مِن جِنسِهم، بلْ أَدْوَنُ مِنهم في الرِّياسةِ الدُّنيويَّةِ والمالِ، على معنَى أنَّهم عَدُّوا ذلك أمرًا عجيبًا خارِجًا عنِ احتِمالِ الوُقوعِ، وأَنكَرُوه أشَدَّ الإنكار، لا أنَّهمُ اعتَقَدُوا وُقوعَه وتَعَجَّبوا منه[٤].

- وفي قَولِه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ عَبَّر عنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٤).

وسلَّمَ بوَصفِ المُنذِرِ، ووُصِفَ بأنَّه منهم؛ للإشارةِ إلى سُوءِ نظَرِهم مِن عَجَبِهم؛ لأنَّ شأنَ النَّذيرِ أنْ يَكونَ مِنَ القَومِ ممَّن يَنصَحُ لهم، فكَوْنُه منهم أَوْلى مِن أنْ يَكونَ مِن غَيرِهم، ثمَّ إنْ كان التَّبعيضُ المُستفادُ مِن حرفِ (مِن) مُرادًا به أنَّه بعضُ العربِ أو بعضُ قُرَيشٍ؛ فأَمْرُ تَجهيلِهم في عَجَبِهم مِن هذا النَّذيرِ بَيِّنٌ، وإنْ كان مُرادًا به أنَّه بعضُ البشَرِ، فتَجهيلُهم لِأنَّ مَن كان مِن جِنسِهم أَجدَرُ بأنْ يَنصَحَ لهم مِن رسولٍ مِن جِنسٍ آخَرَ كالمَلائكةِ، وهذه جَدارةٌ عُرْفيَّةٌ[١].

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ لَمَّا كان تَعجُّبُهم مِن مُطلَقِ نِذارتِه لا مُبالَغتِه فيها، أتَى باسمِ الفاعِلِ دونَ فَعيلٍ، فقال: ﴿مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾[٢].

- وعُبِّرَ بجُملةِ ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، ولم يُقَلْ: (وقالوا)؛ فوُضِعَ فيه الظَّاهرُ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ إظهارًا للغضبِ عليهم، وتَنبيهًا على الصِّفةِ الَّتي أوجبَتْ لهمُ العجَبَ، حتَّى نَسَبوا مَن جاء بالهُدى والتَّوحيدِ إلى السِّحرِ والكَذِبِ، ودَلالةً على أنَّ هذا القَولَ لا يَجسُرُ عليه إلَّا الكافِرونَ المُتَوَغِّلونَ في الكفرِ، المُنهمِكونَ في الغَيِّ، ولقَصدِ وَصْفِهم بأنَّهم كافِرونَ برَبِّهم مُقابَلةً لِمَا وَصَموا به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فوُصِفوا بما هو شَتمٌ لهم يَجمَعُ ضُروبًا مِنَ الشَّتمِ تأصيلًا وتفريعًا، وهو الكفرُ الَّذي هو جِماعُ فَسادِ التَّفكيرِ، وفاسِدِ الأعمالِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٢٧).

- وفي قَولِه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قاله هنا بالواوِ، وقال في سورةِ (ق): ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢]؛ فقاله بالفاءِ. ووجْهُ ذلك: أنَّ ما في سُورةِ (ق) أشَدُّ اتِّصالًا منه في سورة (ص)؛ لأنَّ ما في (ص) مُتَّصِلٌ بما قبْلَه اتِّصالًا مَعنويًّا فقطْ، وهو أنَّهم عَجِبوا مِن مَجيءِ المُنذِرِ، وقالوا: هذا ساحرٌ كذَّابٌ! وما في سورةِ (ق) مُتَّصِلٌ بما قبْلَه اتِّصالًا لَفظيًّا ومَعنويًّا، وهو أنَّهم عَجِبوا عَقِبَ الإخبارِ عنهم بأنَّهم عَجِبوا، فقالوا: هذا شَيءٌ عجيبٌ؛ فناسَبَ فيه ذِكرُ الفاءِ دُونَ ما هنا[1].

- وأشارُوا بلفظِ ﴿هَٰذَا﴾ في قَولِه: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ استَعمَلوا اسمَ الإشارةِ لتَحقيرِ مِثلِه في قَولِهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾[2] [الأنبياء: ٣٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ﴾

- قَولُه: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ﴾ الهمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّعجُّبيِّ؛ ولذلك أتْبَعوهُ بما هو كالعِلَّةِ لقَولِهم: ﴿سَٰحِرٞ﴾، وهو: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ﴾ أي: يُتعجَّبُ منه، كما يُتعجَّبُ مِن شَعوذةِ السَّاحرِ، أو تعَجَّبوا مِن هذا الحَصرِ؛ لأنَّهم قاسُوا الغائبَ على الشَّاهِدِ؛ جَهلًا منهم، وارتِطامًا بسُوءِ الغَفلةِ[3].

- وأيضًا قَولُه: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ﴾ مِثلُ قَولِه: ﴿وَجَعَلُواْ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٢٧).

ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]؛ في أنَّ معنَى الجَعلِ التَّصييرُ في القَولِ على سبيلِ الدَّعْوَى والزَّعمِ، كأنَّه قال: أجَعَلَ الجَماعةَ واحِدًا في قَولِه؟! لأنَّ ذلك في الفِعلِ مُحالٌ، فلا يَقدِرُ أحَدٌ أنْ يَجعَلَ الجَماعةَ إنسانًا واحدًا(١).

- و ﴿عُجَابٌ﴾: أي: بَليغٌ في العجَبِ، وهو وصْفٌ للشَّيءِ الَّذي يُتعجَّبُ منه كثيرًا؛ لأنَّ وزنَ (فُعالٍ) يدُلُّ على تَمكُّنِ الوَصفِ، مِثلَ: (طُوالٍ) بمعنَى المُفرِطِ في الطُّولِ، و(كُرام) بمعنَى الكثيرِ الكَرَمِ، فهو أبْلَغُ مِن كريمٍ. وقد ابتَدَؤوا الإنكارَ بأوَّلِ أصلٍ مِن أُصولِ كُفرِهم؛ فإنَّ أُصولَ كُفرِهم ثلاثةٌ: الإشراكُ، وتَكذيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنكارُ البَعثِ والجَزاءِ في الآخِرةِ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾

- (أنْ) في قَولِه: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ تفسيريَّةٌ؛ ولَمَّا أُسنِدَ الانطِلاقُ إلى المَلأِ منهم على أنَّهم ما كانوا لِيَنطَلِقوا إلَّا لتَدبيرٍ في ماذا يَصنَعونَ، فكان ذلك مُقتَضيًا تَحاوُرًا وتَقاوُلًا احتِيجَ إلى تَفسيرِه بجُملةِ ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ...﴾ إلخ(٣)، وكان انطِلاقُهم مُضَمَّنًا معنَى القَولِ(٤).

- والتَّعبيرُ بحَرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قَولِه: ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ يدُلُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣).

على تَضمينِ (اصْبِرُوا) معنَى: اعكُفوا واثبُتوا[١].

- وجملةُ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالصَّبرِ على آلهتِهم؛ لقَصدِ تَقويةِ شَكِّهم في صحَّةِ دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّها شَيءٌ أرادَه لغرَضٍ، أي: ليس صادِقًا، ولكنَّه مَصنوعٌ مُرادٌ منه مَقصَدٌ، كما يُقالُ: هذا أمْرٌ دُبِّرَ بلَيلٍ؛ فالإشارةُ بـ ﴿هَٰذَا﴾ إلى ما كانوا يَسمَعونَه مِن دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيَّاهم أنْ يَقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ[٢].

- وقيل: إنَّ جملةَ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ كَلِمةٌ تُذكَرُ للتَّهديدِ والتَّخويفِ، والمعنى -على قولٍ-: إنَّه ليس غَرَضُه مِن هذا القَولِ تَقريرًا للدِّينِ، وإنَّما غَرَضُه أنْ يَستَوليَ علينا، فيَحكُمَ في أموالِنا وأولادِنا بما يُريدُ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ، أو مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾؛ لأنَّ عدَمَ سَماعِ مِثلِه يُبيِّنُ أنَّه شَيءٌ مُصطَنَعٌ مُبتَدَعٌ. وإعادةُ اسمِ الإشارةِ مِن وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ لقَصدِ زيادةِ تَمييزِه. ونَفيُ السَّماعِ هنا خبَرٌ مُستعمَلٌ كِنايةً عن الاستِبعادِ، والاتِّهامِ بالكَذِبِ[٤].

- والمَجرورُ ﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ ظَرفًا مُستقَرًّا[٥] في مَوضِعِ الحالِ مِن اسمِ الإشارةِ؛ بيانًا للمَقصودِ مِنَ الإشارةِ، مُتعلِّقًا بفِعلِ ﴿سَمِعۡنَا﴾، والمعنَى: ما سَمِعْنا بهذا قبْلَ اليَومِ؛ فلا نَعتَدُّ به. ويَجوزُ على هذا التَّقديرِ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٢).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٢١).

يَكونَ المُرادُ بـ﴿ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دِينَ النَّصارى، وعليه فالمُشرِكونَ استَشهَدوا على بُطلانِ تَوحيدِ الإلهِ بأنَّ دِينَ النَّصارى الَّذي ظهَرَ قبْلَ الإسلامِ أثبَتَ تَعدُّدَ الآلهةِ، ويَكونَ نَفْيُ السَّماعِ كِنايةً عن سَماعِ ضِدِّه، وهو تَعدُّدُ الآلهةِ. ويَجوزُ أنْ يُريدوا بـ ﴿ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الَّتي هُم عليها؛ فقولُهم: ﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ كِنايةٌ عن استِمرارِ انتِفاءِ هذا إلى الزَّمنِ الأخيرِ، فيُعلَمُ أنَّ انتِفاءَه في مِلَّتِهمُ الأُولى بالأحْرَى[1].

- وجملةُ ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٞ﴾ مُبَيِّنةٌ لجُملةِ ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾، وهذا هو المُتحصِّلُ مِن كَلامِهمُ المَبدوءِ بـ﴿ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾؛ فهذه الجُملةُ كالفَذْلَكةِ[2] لكَلامِهم[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾

- قَولُه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ، ومَناطُ الإنكارِ هو الظَّرفُ: ﴿مِنۢ بَيۡنِنَا﴾، وهو في مَوضِعِ حالٍ مِن ضَميرِ ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ أنكَروا أنْ يُختَصَّ بالشَّرفِ مِن بيْنِ أشرافِهم ورُؤسائِهم، ويُنزَلَ عليه الكِتابُ مِن بيْنِهم، كما قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٢، ٢١٣).

(٢) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٣).

٣١]، فهُم قالوا ذلك قديمًا ورَدَّدُوه مِرارًا؛ تَنفيسًا عن الغَيظِ الَّذي تَجيشُ به نُفوسُهم، والمَوْجِدةِ الَّتي تَعتلِجُ في ضَمائرِهم، فهذا الإنكارُ ترجمةٌ عمَّا كانت تَغْلي به صُدورُهم مِنَ الحسَدِ على ما أُوتيَ مِن شرَفِ النُّبوَّةِ مِن بيْنِهم، ولم يُريدوا بهذا الإنكارِ تَجويزَ أصلِ الرِّسالةِ عنِ اللهِ، وإنَّما مُرادُهمُ استِقصاءُ الاستِبعادِ؛ فإنَّهم أَنكَروا أصْلَ الرِّسالةِ كما اقتَضاهُ قَولُه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ [ص: ٤] وغَيرُه مِنَ الآياتِ[(١)].

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ مِن كلامِ عُمومِ الكافِرينَ المَحْكيِّ بقَولِه: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]؛ فيَكونَ مُتَّصِلًا بقَولِه: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، ويَكونَ قَولُه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ بيانًا لجُملةِ ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]؛ لأنَّ تَقديرَه: هذا كذَّابٌ؛ إذْ هو خبَرٌ ثانٍ لـ (كان)، ولِكَونِه بيانًا لِلَّذي قبْلَه لم يُعطَفْ عليه، ويَكونَ ما بيْنَهما مِن قَولِه: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾ [ص: ٦] إلى قَولِه: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٞ﴾ [ص: ٧] اعتِراضًا بيْن جُملتَيِ البَيانِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ مِن تمامِ كَلامِ المَلأِ، واستُغنيَ به عن بَيانِ جُملةِ ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]؛ لأنَّ نُطقَ المَلأِ به كافٍ في قَولِ الآخَرينَ بمُوجَبِه؛ فاستَغنَوا عن بَيانِ جُملةِ ﴿كَذَّابٌ﴾[(٢)] [ص: ٤].

- قَولُه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا...﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قاله هنا بلفظِ: ﴿أَءُنزِلَ﴾، وفي سُورةِ (القمر) قالَه بلفظِ: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ [القمر: ٢٥]؛ ومُناسَبةُ ذلك -فيما قيل-: أنَّ ما هنا حِكايةٌ عن كفَّارِ قُرَيشٍ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٣).

فناسَبَ التَّعبيرُ به لِوُقوعِه إنكارًا لِما قَرأَهُ عليهمُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن قَولِه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وما في سُورةِ (القَمر) حِكايةٌ عن قَومِ صالحٍ، وكانت الأنبياءُ تُلْقَى إليهم صُحُفٌ مَكتوبةٌ؛ فناسَبَ التَّعبيرُ بـ (أُلْقِيَ).

وقُدِّم الجارُّ والمَجرورُ على الذِّكرِ هنا؛ مُوافَقةً لِما قَرأَهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على المُنكِرينَ، وعكَسَ في (القَمرِ)؛ جَريًا على الأصلِ مِن تَقديمِ المَفعولِ بلا واسِطةٍ على المَفعولِ بواسِطةٍ[1]، واللهُ أعلَمُ.

- قَولُه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ جوابًا عن قَولِهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾، أي: ليس قَصدُهمُ الطَّعنَ في اختِصاصِكَ بالرِّسالةِ، ولكنَّهم شاكُّونَ في أصلِ إنزالِه، فتكون ﴿بَل﴾ إضرابًا إبطاليًّا؛ تكذيبًا لِما يَظهَرُ مِن إنكارِهم إنزالَ الذِّكرِ عليه مِن بيْنِهم على ما تَقدَّمَ، أي: إنَّما قَصدُهمُ الشَّكُّ في أنَّ اللهَ يُوحي إلى أحَدٍ بالرِّسالةِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ انتِقالًا مِن خبرٍ عنهم إلى خبرٍ آخَرَ، فيَكونَ استِئنافًا، وتَكونَ ﴿بَل﴾ للإضرابِ الانتِقاليِّ، والمعنَى: وهُم في شَكٍّ مِن ذِكري، أي: في شَكٍّ مِن كُنْهِ القرآنِ؛ فمرَّةً يَقولونَ: افتَراهُ، ومرَّةً يَقولونَ: شِعرٌ، ومرَّةً: سِحرٌ، ومرَّةً: أساطيرُ الأوَّلينَ، ومرَّةً: قَولُ كاهِنٍ! فالمُرادُ بالشَّكِّ حقيقتُه، أي: التَّردُّدُ في العِلمِ[2].

- وقَولُه تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ قيل: الظَّاهرُ أنَّه مُتَّصِلٌ بفاتحةِ السُّورةِ، أي: بـ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]؛ لأنَّهما حَديثانِ في الذِّكرِ، ومِن قَولِه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾ [ص: ٤] إلى هاهنا حديثٌ في النُّبوَّةِ؛

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٤).

فيَكونُ ﴿بَلۡ﴾ إضرابًا عمَّا أُثبِتَ في الإضرابِ السَّابِقِ، كأنَّه لَمَّا قيل: أقسَمْتُ بـ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١] أنَّ صِدقَه ظاهِرٌ، ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ﴾ [ص: ٢]: في عِنادٍ واستِكبارٍ عنِ الإذعانِ لذلك، وفي (شِقَاقٍ) [ص: ٢] للهِ ولرَسولِه، ثمَّ عقَّبَ بقَولِه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ [ص: ٤] مُستطردًا، وبيَّن تَعجُّبَهم بقَولِه: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] بِناءً على التَّقليدِ، ثمَّ بقَولِه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ بِناءً على الحسدِ- فُهِمَ مِن ذلك أنَّهم مُتَرَدِّدونَ في أنفُسِهم في أنَّ القرآنَ إمَّا حقٌّ وإمَّا باطلٌ، يَقولونَ في أنفُسِهم: إمَّا وإمَّا؛ فحينَ نَظَروا إلى نَظمِه وإعجازِه قالوا: حقٌّ، وحينَ نَظَروا إلى التَّقليدِ إلى أنَّهم أحَقُّ به منه قالوا: هو باطلٌ، فأضرَبَ اللهُ تعالى عن إثباتِ العِزَّةِ والشِّقاقِ بقَولِه: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي﴾، وحينَ كان بِناءُ الشَّكِّ على شُبهةٍ رَكيكةٍ ومُقدِّمةٍ واهيةٍ لا تُقاوِمُ ذلك اليقينَ، أضرَبَ عنه بقَولِه: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾، ثمَّ جيءَ بإضرابٍ آخَرَ على أسلوبٍ غيْرِ الأوَّلِ، وهو قَولُه: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾[1] [ص: ٩].

- قَولُه: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي﴾ الإخبارُ بأنَّهم في شَكٍّ يَقتَضي كَذِبَهم في قَولِهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾[2].

- إضافةُ الذِّكرِ إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ -وهو اللهُ تعالى- في قَولِه: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ إضافةُ تَشريفٍ، ولتَحقيقِ كَونِه مِن عِندِ اللهِ. والذِّكرُ على هذا الوجهِ هو عَيْنُ المُرادِ مِن قَولِه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾، وإنَّما وقَعَ التَّعبيرُ عنه بالظَّاهِرِ دُونَ الضَّميرِ؛ تَوصُّلًا إلى التَّنويهِ به بأنَّه مِن عِندِ اللهِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩).

تعالى[١].

- في قَولِه: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي﴾ جُعِلَتْ مُلابَسةُ الشَّكِّ إيَّاهم بمنزلةِ الظَّرفِ المُحيطِ بالمظروفِ في أنَّه لا يَخْلو منه جانبٌ مِن جَوانِبِه[٢].

- و﴿مِّن﴾ في قَولِه: ﴿مِّن ذِكۡرِي﴾ ابتِدائيَّةٌ؛ لكَونِ الشَّكِّ صِفةً لهم، أي: نَشأَ لهمُ الشَّكُّ مِن شأنِ ذِكري، أي: مِن جانِبِ نَفْيِ وُقوعِه، أو في جانبِ ما يَصِفونَه به[٣].

- قولُه: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ ﴿بَل﴾ للإضرابِ، أي: إنَّهم لم يَذُوقوا عَذابي بعْدُ، فإذا ذاقُوه زالَ عنهم ما بهم مِنَ الشَّكِّ والحسَدِ حينَئذٍ، يعني: أنَّهم لا يُصَدِّقونَ به إلَّا أنْ يَمَسَّهُمُ العَذابُ مُضْطَرِّينَ إلى تَصديقِه. وفي ﴿لَّمَّا﴾ دَلالةٌ على أنَّ ذَوْقَهمُ العَذابَ على شرَفِ الوُقوعِ، والمعنَى: أنَّهم لا يُصَدِّقونَ به حتَّى يَمَسَّهمُ العَذابُ. وقيل: لم يَذُوقوا عذابي الموعودَ في القرآنِ؛ ولذلك شَكُّوا فيه، وهذا يُبَيِّنُ أنَّ الَّذي جَرَّأهم على هذا الشِّقاقِ أنَّهم لَمَّا تأخَّرَ حُلولُ العَذابِ بهم ظَنُّوا وَعيدَه كاذِبًا، فأخَذوا في البَذاءةِ والاستِهزاءِ، ولو ذاقوا العَذابَ لأُلقِمَتْ أفواهُهمُ الحَجَرَ.

والإضرابُ هنا مُتعلِّقٌ بالكَلامَينِ السَّابِقَينِ، بمعنَى: أنَّه لَمَّا وَبَّخَهم أوَّلًا على ما بهم مِنَ الحسَدِ وما تَغْلي به صُدورُهم على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما اختُصَّ بشرَفِ النُّبوَّةِ مِن بيْنِهم، ثمَّ على الشَّكِّ فيما لا شَكَّ فيه، ولا يَحومُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢١٤، ٢١٥).

حَوْلَه؛ جاءَ بتَوبيخٍ أغلَظَ منهما[١].

- وأيضًا قَولُه: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: (عذابي)، وإضافةُ ﴿عَذَابِ﴾ إلى ياءِ المُتكلِّم؛ لاختِصاصِه باللهِ؛ لأنَّه مُقَدِّرُه، وقاضٍ به عليهم، ولِوُقوعِه على حالةٍ غَيرِ جاريةٍ على المعتادِ؛ إذِ الشَّأنُ أنْ يَستأصِلَ الجَيشُ القَويُّ الجَيشَ القليلَ. وحُذِفَتْ ياءُ المُتكلِّم؛ تَخفيفًا للفاصِلةِ، وأُبقيَتِ الكَسرةُ دليلًا عليها[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾

- قَولُه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ ﴿أَمْ﴾ مُنقطِعةٌ، وهي للإضرابِ الانتِقاليِّ، وهي مُشعِرةٌ باستِفهامٍ بعْدَها هو للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ إنكارًا لقَولِهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]، أي: ليست خَزائنُ فَضلِ اللهِ تعالى عِندَهم فيَتصَدَّوا لحِرمانِ مَن يَشاؤُونَ حِرمانَه مِن مَواهِبِ الخَيرِ؛ فإنَّ المَواهِبَ مِنَ اللهِ يُصيبُ بها مَن يَشاءُ، فهو يَختارُ للنُّبوَّةِ مَن يَصطَفيه، وليس الاختِيارُ لهم فيَجعَلوا مَن لم يُقَدِّموهُ عليهم في دِينِهم غيْرَ أهلٍ لِأنْ يَختارَهُ اللهُ[٣].

- وتقديمُ الظَّرفِ ﴿عِندَهُمْ﴾؛ للاهتِمامِ؛ لأنَّه مَناطُ الإنكارِ، وهو كقَولِه تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[٤] [الزخرف: ٣٢].

- والخَزائنُ: جمْعُ خِزانةٍ -بكسرِ الخاءِ- وهي البَيتُ الَّذي يُخزنُ فيه المالُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٥، ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٦).

أو الطَّعامُ، والخَزْنُ: الحِفظُ والحِرْزُ. والرَّحمةُ: ما به رِفْقٌ بالغَيرِ وإحسانٌ إليه، وفي قولِه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ شُبِّهَتْ رحمةُ اللهِ بالشَّيءِ النَّفيسِ المَخزونِ الَّذي تَطمَحُ إليه النُّفوسِ في أنَّه لا يُعطَى إلَّا بمَشيئةِ خازِنِه[١].

- الإضافةُ في ﴿خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ على معنَى لامِ الاختِصاصِ. والعُدولُ عنِ اسمِ الجَلالةِ (الله) إلى وصْفِ (الرَّبِّ)؛ لأنَّ له مَزيدَ مُناسَبةٍ للغرَضِ الَّذي الكَلامُ فيه؛ إيماءً إلى أنَّ تَشريفَه إيَّاهُ بالنُّبوَّةِ، واللُّطفَ به مِن آثارِ صِفةِ رُبوبيَّتِه له؛ لأنَّ وَصْفَ الرَّبِّ مُؤْذِنٌ بالعِنايةِ والتَّربيةِ، والإبلاغِ إلى الكَمالِ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ أُجريَ على الرَّبِّ صِفةُ (العَزيز)؛ لإبطالِ تَدخُّلِهم في تَصرُّفاتِه، وصِفةُ (الوَهَّاب)؛ لإبطالِ جَعلِهمُ الحِرمانَ مِنَ الخَيرِ تابِعًا لرَغَباتِهم دُونَ موادَّةِ اللهِ تعالى[٣].

وأيضًا فالعزيزُ: لمُقابَلةِ هؤلاء الَّذين كانوا في عِزَّةٍ وشِقَاقٍ؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ عِزَّةَ اللهِ فوقَ عِزَّتِهم وأَنَفَتِهم وحَمِيَّتِهم؛ وأنَّه غالبٌ لهم وقاهرٌ لهم، والوَهَّابُ بالنِّسبةِ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم يعني أنَّه وَهَبَه النُّبُوَّةَ[٤].

- ومعنَى المُبالَغةِ في ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ راجِعٌ إلى خطَرِ المَوهِبةِ وعِظَمِها، وهي: النُّبوَّةُ[٥].

٧- قَولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾

- قَولُه: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ إلى رَدٍّ يأتي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٤٧).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٣٩).

على جميعِ مَزاعِمِهم، ويَشملُ بإجمالِه جميعَ النُّقوضِ التَّفصيليَّةِ لمَزاعِمِهم بكَلِمةٍ جامِعةٍ كالحَوصَلةِ؛ فيُشْبِهُ التَّذييلَ لِما يَتضمَّنُه مِن عُمومِ المُلكِ، وعُمومِ الأماكِنِ المُقتَضي عُمومَ العِلمِ، وعُمومَ التَّصرُّفِ، يَنعَى عليهم قَولَهم في المُغَيَّباتِ بلا عِلمٍ، وتَحكُّمَهم في مَراتبِ المَوجوداتِ بدُونِ قُدرةٍ ولا غِنًى[1].

- وفي قَولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كأنَّه لَمَّا أنكَر عليهمُ التَّصرُّفَ في نُبوَّتِه بأنْ ليس عِندَهم خَزائنُ رحمتِه الَّتي لا نِهايةَ لها؛ أردَفَ ذلك بأنَّه ليس لهم مَدخَلٌ في أمرِ هذا العالَمِ الجُسمانيِّ الَّذي هو جُزءٌ يَسيرٌ مِن خَزائنِه، فمِن أين لهم أنْ يَتصرَّفوا فيه، وحتَّى يَتكلَّموا في الأمورِ الرَّبانيَّةِ، ويَتحكَّموا في التَّدابيرِ الإلهيَّةِ الَّتي يَستأثِرُ بها ربُّ العِزَّةِ والكِبرياءِ؟! والخُلاصةُ: أنَّه تَرقَّى مِنَ الإضرابِ الأوَّلِ، وتَمَّم ما أفادَه مِنَ المُبالَغةِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ أفادَ تَقريرًا بأنَّ اللهَ العزيزَ الوهَّابَ وضَعَ عِندَهم خَزائنَه وأمَرَهم أنْ يَقسِموها على مَن أرادوا؛ فإنَّ قَولَه: ﴿أَمْ لَهُمْ مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ دَلَّ على اتِّصافِهم بصِفةِ الرُّبوبيَّةِ واستِقلالِهم بالمالِكيَّةِ تَهكُّمًا، انظُرْ إلى هذا التَّغليظِ في شأنِ الحاسِدِ وحسَدِه[2]؟!

- والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ ﴿أَمْ﴾ المُنقطِعةِ في قَولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تَهكُّميٌّ تَوبيخيٌّ، وليس إنكاريًّا؛ لأنَّ تَفريعَ أمْرِ التَّعجيزِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣١).

عليه يُعَيِّنُ أنَّه تَهكُّميٌّ[١]!

- قَولُه: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ الفاءُ هنا هي الفَصيحةُ، أي: هي جَوابُ شَرطٍ مُقَدَّرٍ، تَقديرُه: إنْ زعَموا ذلك، فلْيَصْعَدوا في المَعارِجِ الموصِّلةِ إلى العَرشِ حتَّى يَستَووا عليه[٢]!

- وأيضًا قَولُه: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ تَهكُّمٌ مِنَ اللهِ بهم غايةَ التَّهكُّم، كأنَّه قيل: وإنْ كانوا يَصلُحونَ لتَدبيرِ الخَلائقِ والتَّصرُّفِ في قِسمةِ الرَّحمةِ، وكانتْ عِندَهمُ الحِكمةُ الَّتي يُمَيِّزونَ بها بيْن مَن هو حَقيقٌ بإيتاءِ النُّبوَّةِ دُونَ مَن لا تَحِقُّ له؛ ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾: فلْيَصعَدوا في المَعارِجِ والطُّرقِ الَّتي يُتَوصَّلُ بها إلى العَرشِ، حتَّى يَستَووا عليه ويُدَبِّروا أمْرَ العالَمِ ومَلكوتَ اللهِ، ويُنزِلوا الوَحيَ إلى مَن يَختارُونَ ويَستَصوبونَ، ثمَّ خَسَأهُم خَسْأةً عن ذلك بقَولِه: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾، يُريدُ: ما هُم إلَّا جَيشٌ مِنَ الكفَّارِ المُتحزِّبينَ على رُسلِ اللهِ، مَهزومٌ مَكسورٌ عمَّا قريبٍ، فلا تُبالِ بما يَقولونَ، ولا تَكتَرِثْ لِما به يَهْذُونَ[٣].

- قَولُه: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ الأمرُ في ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ﴾ للتَّعجيزِ، والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ لعَهدِ الجِنسِ؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ لكلِّ مَحلٍّ مُرتفِعٍ أسبابًا يُصعَدُ بها إليه[٤].

- وحرفُ الظَّرفيَّةِ (في) في قَولِه: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ يدُلُّ على التَّمكُّنِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧).

مِنَ الأسبابِ حتَّى كأنَّها ظُروفٌ مُحيطةٌ بالمُرتَقِينَ[(١)].

٨- قولُه تعالَى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾

- قَولُه: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ استِئنافًا يَتَّصِلُ بقَولِه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ...﴾ [ص: ٣] الآيةَ، أُريدَ به وصْلُ الكَلامِ السَّابِقِ؛ ليُفضيَ به إلى قَولِه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [ص: ١٢] إلى قَولِه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤].

ويَجوزُ أنْ يَكونَ استِئنافًا ابتِدائيًّا مُستقِلًّا خارِجًا مَخرجَ البِشارةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ هؤلاء جُندٌ مِنَ الأحزابِ مَهزومٌ، أي: مُقَدَّرٌ انهِزامُه في القَريبِ، وهذه البِشارةُ مُعجِزةٌ مِنَ الإخبارِ بالغَيبِ خُتِم بها وَصْفُ أحوالِهم، وعادةُ الأخبارِ الجاريةِ مَجرى البِشارةِ أو النِّذارةِ بأمرٍ مُغَيَّبٍ أنْ تَكونَ مَرموزةً، والرَّمزُ في هذه البِشارةِ هو اسمُ الإشارةِ مِن قَولِه: ﴿هُنَالِكَ﴾؛ فإنَّه ليس في الكلامِ ما يَصلُحُ لأنْ يُشارَ إليه بدُونِ تأوُّلٍ، فلْنَجْعَلْه إشارةً إلى مكانٍ أَطْلَعَ اللهُ عليه نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو مَكانُ بَدرٍ.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ لَفظُ (الأحزابِ) في هذه الآيةِ إشارةً خَفيَّةً إلى انهِزامِ الأحزابِ أيَّامَ الخَندَقِ؛ فإنَّها عُرِفَتْ بغَزوةِ الأحزابِ، وسَمَّاهمُ اللهُ الأحزابَ في السُّورةِ الَّتي نزَلَتْ فيهم، فتَكونَ تلك التَّسميةُ إلهامًا، وهذا في عِدادِ المُعجِزاتِ الخَفيَّةِ.

وعلى كلِّ الأوجُهِ فالآيةُ تَسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَثبيتٌ له، وبِشارةٌ بأنَّ دِينَه سيَظهَرُ على الكفَّارِ[(٢)].

وقيل: الظَّاهِرُ أنَّ قَولَه: ﴿هُنَالِكَ﴾ يُشارُ به للمَكانِ الَّذي تَفاوَضوا فيه مع

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧، ٢١٨).

رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتلكَ الكَلِماتِ السَّابِقةِ، وهو مكَّةُ؛ فيَكونُ ذلك إخبارًا بالغَيبِ عن هزيمتِهم بمكَّةَ يَومَ الفَتحِ؛ فالمعنَى أنَّهم يَصيرونَ مَهزومينَ بمكَّةَ يَومَ الفَتحِ.

وقيل: لعلَّ اختيارَ اسمِ الإشارةِ البعيدِ (هنالك) رمزٌ إلى أنَّ هذا الانهِزامَ سيَكونُ في مكانٍ بَعيدٍ غَيرِ مكَّةَ، فلا تَكونُ الآيةُ مُشيرةً إلى فَتحِ مكَّةَ؛ لأنَّ ذلك الفَتحَ لم يَقَعْ فيه عَذابٌ للمُكَذِّبينَ، بلْ عَفا اللهُ عنهم وكانوا الطُّلَقاءَ[(١)].

وقيل: ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارةٌ إلى الارتِقاءِ في الأسبابِ، أي: هؤلاءِ القَومُ إنْ رامُوا ذلك جُندٌ مَهزومٌ. وقيل: أُشيرَ بـ ﴿هُنَالِكَ﴾ إلى جُملةِ الأصنامِ وعَضُدِها، أي: هُم جُندٌ مَهزومٌ في هذه السَّبيلِ[(٢)].

- و قيل: ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارةٌ إلى حيثُ وَضَعوا فيه أنفُسَهم مِنَ الانتِدابِ لمِثلِ ذلك القَولِ العَظيمِ -يعني: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] - مِن قَولِهم لِمَن يُنتَدَبُ لأمرٍ ليس مِن أهْلِه: (لَسْتَ هُنالِكَ) -أي: ليس هذا ممَّا يَليقُ بأمثالِك؛ لأنَّك أحَطُّ مَنزلةً من أنْ تُباشِرَه؛ فظهَرَ أنَّ ﴿هُنَالِكَ﴾ هنا كنايةٌ عن تَحقيرِ شأنِهم- فسوف تَراهم مَهزومينَ مَكسورينَ عن قَريبٍ، فمِن أينَ لهمُ التَّدابيرُ الإلهيَّةُ، والتَّصرُّفُ في الأمورِ الربَّانيَّةِ؟! ولا تَكتَرِثْ بقَولِهم، ولا تُبالِ بهم[(٣)].

- و(ما) في قَولِه: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ حرفٌ زائدٌ يؤكِّدُ معنَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٩).

ما قَبْلَه؛ فهي تَوكيدٌ لِما دَلَّ عليه ﴿جُندٌ﴾ بمَعناهُ، وفيها معنَى الاستِعظام، إلَّا أنَّه على سبيلِ الهُزْءِ؛ فإنَّ حاصِلَ الكَلام ودَلالةَ المَقام مُؤْذِنانِ بالتَّحقيرِ والتَّقليلِ؛ فإنَّ (ما) إذا كانت صِفةً تُستعمَلُ للتَّعظيمِ أو التَّحقيرِ، فالثَّاني هو المُرادُ هنا؛ فتحصَّلَ أنَّ تَنكيرَ ﴿جُندٌ﴾ للتَّعظيمِ، أي: جُندٌ عظيمٌ؛ لأنَّ التَّنوينَ وإنْ دَلَّ على التَّعظيمِ فليس نَصًّا، فصار بالتَّوكيدِ نَصًّا. فإنْ كانت الآيةُ مُشيرةً إلى يَومِ بَدْرٍ فتَعظيمُ جُندٍ؛ لأنَّ رِجالَه عُظماءُ قُرَيشٍ، مِثلُ أبي جَهلٍ وأُمَيَّةَ بنِ خلَفٍ، وإنْ كانت مُشيرةً إلى يَومِ الأحزابِ فتَعظيمُ جُندٍ؛ لكَثرةِ رِجالِه مِن قَبائلِ العرَبِ.

وقيل: إنَّ التَّنوينَ في ﴿جُندٌ﴾ للنَّوعيةِ، أي: ما هُم إلَّا جُندٌ مِنَ الجُنودِ الَّذين كَذَّبوا فأُهلِكوا[1].

- ووَصْفُ ﴿جُندٌ﴾ بأنَّه ﴿مَهْزُومٌ﴾ على معنَى الاستِقبالِ، أي: سيُهزَمُ؛ تنبيهًا على تحقيقِ وُقوعِه، فكأنَّه مِنَ القُربِ بحيثُ هو كالواقِعِ في الحالِ[2].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ للتَّبعيضِ، أي: إنَّ هؤلاء الجُندَ مِن جُملةِ الأُمَمِ والأحزابِ الَّذينَ تَعصَّبوا في الباطِلِ، وكَذَّبوا الرُّسلَ، وهو تَعريضٌ لهم بالوعيدِ بأنْ يَحُلَّ بهم ما حَلَّ بالأُمَمِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٩).

الآيات (١٢-١٦)

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾: أي: صاحِبُ البِناءِ المُحكَمِ والمُلكِ الثَّابِتِ، والعَرَبُ تَقولُ: هم في عزٍّ ثابِتِ الأوتادِ، ومُلكٍ ثابتِ الأوتادِ، يُريدونَ أنَّه دائِمٌ شَديدٌ. وقيلَ: صاحِبُ القُوَّةِ والبَطشِ والجُنودِ والجُموعِ الكثيرةِ الَّذين يُقَوُّونَ أمْرَه، ويَشُدُّونَ مُلكَه، كما يقوِّي الوَتِدُ[1] الشَّيءَ، فأصلُ هذا أنَّ بيوتَ العربِ كانت تُثبَّتُ بالأوتادِ، وقيل غيرُ ذلك[2].

﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾: هم قَومُ شُعَيبٍ، والأيْكةُ: الشَّجَرُ المُلتَفُّ المُجتمِعُ، وأصلُ (أيك): يدُلُّ على اجتِماعِ شَجَرٍ[3].

﴿فَوَاقٍ﴾: أي: رُجوعٍ وارتدادٍ، وقيل: راحةٍ لا يُفيقونَ فيها، كما يُفيقُ المريضُ والمَغْشيُّ عليه. وفُواق -بضمِّ الفاءِ- أي: انتِظار. وقيل: الفواقُ بضمِّ الفاءِ وفتحِها

---

(١) الوَتِدُ: ما ثُبِّتَ في الأرضِ أو الحائِطِ من خَشَبٍ ونَحوِه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦٤٦)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٣٢٤)، ((المعجم الوسيط)) (٢/ ١٠٠٩)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٣/ ٢٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٥)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٢٢٥).

بمعنًى واحدٍ، وهو ما بيْنَ الحَلْبتَينِ، وأصلُ (فوق) هنا: يدُلُّ على أَوْبةٍ ورُجوعٍ[١].

﴿قِطَّنَا﴾: أي: عذابَنا ونَصيبَنا وحِسابَنا، ويُقالُ لكِتابِ الحِسابِ: قِطٌّ، واشتِقاقُه مِن القَطِّ: وهو القَطعُ، وكذلك النَّصيبُ هو القِطعةُ مِن الشَّيءِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا ممَّا أصاب الأُممَ السَّابقةَ مِن العذابِ والنَّكالِ حينَ كذَّبتْ رُسلَها؛ حتَّى يَعتبرَ المشركونَ، فيقولُ: كذَّبتْ قبْلَ مُشركي قُرَيشٍ قَومُ نُوحٍ، وعادٌ قَومُ هُودٍ، وفِرعَونُ صاحِبُ الأوتادِ، وثمودُ قَومُ صالحٍ، وقَومُ لوطٍ، وأصحابُ الأشجارِ المُلتَفَّةِ الَّذين أُرسِلَ إليهم شُعَيبٌ؛ أولئك الأحزابُ الَّذين تَحزَّبوا على الكُفرِ والتَّكذيبِ، كُلُّ هؤلاء الأحزابِ كَذَّب رُسُلَ اللهِ؛ فوجَبَ عليهم عِقابُ اللهِ.

وما يَنتَظِرُ مُشرِكو قُرَيشٍ إلَّا نَفخةً واحدةً يَنفُخُها إسرافيلُ في الصُّورِ ليس لها مِن رجوعٍ ولا إمهالٍ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى ما كان عليه هؤلاء المشركونَ مِن جهالةٍ وسَفَهٍ، حيثُ تعجَّلوا العِقابَ قبْلَ وُقوعِه بهم، فيقولُ: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ تكذيبًا واستِهزاءً: يا رَبَّنا عَجِّلْ لنا نَصيبَنا مِنَ العَذابِ قبْلَ يومِ القيامةِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢)، ((الغريبين)) للهروي (٥/ ١٥٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٦).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر في الجوابِ عن شُبهةِ القَومِ أنَّهم إنَّما تَوانَوا وتكاسَلوا في النَّظَرِ والاستِدلالِ لأجْلِ أنَّهم لم يَنزِلْ بهم العَذابُ؛ بيَّنَ تعالى في هذه الآيةِ أنَّ أقوامَ سائرِ الأنبياءِ هكذا كانوا، ثمَّ بالآخرةِ نَزَل ذلك العِقابُ، والمقصودُ منه تخويفُ أولئك الكُفَّارِ الَّذين كانوا يُكَذِّبونَ الرَّسولَ في إخبارِه عن نُزولِ العِقابِ عليهم[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه أهلَكَ قبْلَ قُرَيشٍ قُرونًا كثيرةً لَمَّا كَذَّبوا رُسُلَهم؛ سَرَد منهم هنا مَن لهم تعلُّقٌ بعِرفانِه[2].

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢﴾.

أي: كذَّبَتْ قبْلَ مُشرِكي قُرَيشٍ قَومُ نُوحٍ، وعادٌ قَومُ هُودٍ، وفِرعَونُ صاحِبُ الأوتادِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).
واختلَف المفسِّرون في معنى الأوتادِ على أقوالٍ؛ منها:
أنَّها الأوتادُ المعروفةُ؛ فكان فِرعَونُ يَتَّخِذُها إمَّا لتعذيبِ النَّاسِ، وإمَّا لأنَّه كان يُلعَبُ له بها. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير. ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١).
وممَّن قال مِن المفسِّرينَ: إنَّها كانت تُستخدَمُ للتَّعذيبِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وجلال الدين المحلي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٩)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٠٢). =

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ١٠].

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾.

أي: وكذَّبتْ قبْلَ مُشركي قُرَيشٍ ثَمودُ قَومُ صالحٍ، وقَومُ لوطٍ، وأصحابُ الأشجارِ المُلتَفَّةِ[1] الَّذين أُرسِلَ إليهم شُعَيبٌ، أولئك الأحزابُ الَّذين تَحزَّبوا

= قال الواحدي: (قال المُفسِّرونَ: كانت له أوتادٌ يُعَذِّبُ النَّاسَ عليها). ((الوسيط)) (٣/ ٥٤١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨١).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّها ملاعبُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، وعطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨١).

وقيل: الأوتادُ: هي البناياتُ العظيمةُ العاليةُ. وممَّن اختار هذا القولَ في الجملةِ: ابنُ عطية، والغزنوي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٥)، ((باهر البرهان)) للغزنوي (٢/ ١٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢١).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ البُنيانُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨٠).

وقيل: ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾: أي: ذو الملكِ الثَّابتِ الشَّديدِ. وممَّن اختار هذا القولَ: السمرقنديُّ، والواحدي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧).

وقيل: المرادُ بالأوتادِ: ما لديه مِن الأسبابِ الموجِبةِ لِثَباتِ المُلكِ وتَقويتِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

قال الشنقيطي: (العلماءُ مختلِفونَ: هل أصحابُ الأيْكةِ هم مَدْيَنُ أنفُسُهم، فيكون شُعيبٌ =

على الكُفرِ باللهِ، وتكذيبِ رُسُلِه، ورَدِّ الحَقِّ[(١)].

= أُرسِلَ إلى أُمَّةٍ واحدةٍ، أو مَدْيَنُ أُمَّةٌ وأصحابُ الأيْكةِ أمَّةٌ أخرى، فيكون شعيبٌ قد أُرسِلَ إلى أُمَّتَيْنِ؟ هذا خلافٌ معروفٌ بَيْنَ العلماءِ، وأكثرُ أهلِ العلمِ على أنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ، كانوا يعبدونَ أيْكةً، أي: شجرًا مُلْتَفًّا، وأنَّ اللهَ سمَّاهم مرَّةً بنسَبِهم «مدين»، ومرَّةً أضافهم إلى الأيْكةِ الَّتي يَعبُدونَها. وجزَمَ بصحَّةِ هذا ابنُ كثيرٍ في تاريخِه وتفسيرِه، ومِمَّن اشتهر عنه أنَّهم أُمَّتَانِ: قَتادةُ وجماعةٌ، وهو خلافٌ معروفٌ. والَّذين قالوا: إنَّهما أُمَّتانِ قالوا: في «مدين» قال: إنَّه أخوهم، حيث قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]، أمَّا أصحابُ الأيْكةِ فلم يَقُلْ: إنَّه أخوهم، بل قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧]، ولم يقلْ: أخوهم شعيبٌ. وأُجيبَ عن هذا بأنَّه لَمَّا ذَكَر مَدْيَنَ ذَكَر الجَدَّ الَّذي يَشملُ القبيلةَ ومِنْ جُملتِها شعيبٌ، ذكَر أنَّه أخوهم مِن النَّسَبِ. أمَّا قولُه: ﴿أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ فمعناه: أنَّهم يَعبُدونها، ولَمَّا ذَكَرهم في مقامِ الشِّركِ وعبادةِ غيرِ اللهِ لم يُدْخِلْ معهم شُعَيبًا في ذلك وهم أُمَّةٌ واحدةٌ. هكذا قاله بعضُهم، واللهُ أعلَمُ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٧٢).

والقولُ بأنَّ أصحابَ الأيْكةِ هم أهلُ مَدْيَنَ هو قولُ أكثرِ أهلِ العلمِ، واختاره ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، وممَّن ذهب إليه مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٤٣٨).

وذهب قَتادةُ -كما في ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٧)- ومقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشورٍ إلى أنَّ مَدْيَنَ غيرُ أصحابِ الأيْكةِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١، ٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير سورة ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٦٧، ٦٨).

قال السمرقندي: (سُمُّوا أحزابًا؛ لأنَّهم تحزَّبوا على أنبيائِهم، أي: تجمَّعوا). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٠).

وقال الشربيني: (وقيل: المعنى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ مُبالَغةً في وَصفِهم بالقُوَّةِ، كما يُقالُ: فُلانٌ هو الرَّجُلُ، أي: أولئك الأحزابُ مع كمالِ قُوَّتِهم لَمَّا كان عاقِبَتُهم هي الهلاكَ والبَوارَ، فكيف حالُ هؤلاء الضُّعَفاءِ المَساكينِ إذا نزَل عليهم العذابُ، وفي الآيةِ زَجرٌ وتَخويفٌ للسَّامِعينَ). ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٠٢).

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧].

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: كُلُّ تلك الأحزابِ قد وقَعَت في تَكذيبِ رُسُلِ اللهِ؛ فوجَبَ عليهم عِقابُ اللهِ؛ فلْيَحذَرِ المكَذِّبونَ بمُحمَّدٍ أن يُعاقَبوا كما عُوقِبَ مَن قَبْلَهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه: ﴿فَوَاقٍ﴾ قراءاتان:

١- قراءةُ ﴿فُوَاقٍ﴾ بضمِّ الفاءِ، أي: تأخيرٍ، وتوقُّفٍ مِقدارَ فُواقِ ناقةٍ، وهي ما بيْنَ حَلْبَتي اللَّبنِ، وقيل: رجوعٍ، وقيل: تَردادٍ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٦٨-٧٠).

(٢) قرأ بها حمزةُ والكِسائيُّ وخَلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١). =

٢- قراءةُ ﴿فَوَاقٍ﴾ بفتحِ الفاءِ، أي: راحةٍ، وقيل: رجوعٍ، وقيل: تَردادٍ، وقيل: القراءتانِ بمعنًى واحدٍ، فالفتحُ والضمُّ لُغتانِ(١).

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بيَّن عِقابَ كفَّارِ قريشٍ إثرَ بيانِ عِقابِ أضرابِهم، فقال(٢):

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ١٥﴾.

أي: وما يَنتَظِرُ المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ إلَّا سَماعَ النَّفخةِ الأُولى في الصُّورِ، وهي نَفخةٌ ما لها مِن رجوعٍ ولا إمهالٍ(٣).

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٦٣).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٦٣).

قال ابنُ عاشور: (جمهورُ أهلِ اللُّغةِ على أنَّ الفَتحَ والضَّمَّ فيه سواءٌ، وذهب أبو عُبَيدةَ والفَرَّاءُ إلى أنَّ بيْنَ المفتوحِ والمضمومِ فَرقًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤).

قال ابنُ جرير: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك أنَّهما لُغتانِ؛ وذلك أنَّا لم نَجِدْ أحدًا مِن المُتقَدِّمينَ على اختلافِهم في قراءتِه يُفَرِّقون بيْن معنى الضَّمِّ فيه والفتحِ، ولو كان مُختَلِفَ المعنى باختِلافِ الفَتحِ فيه والضَّمِّ لقد كانوا فرَّقوا بيْن ذلك في المعنى). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٥- ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٧٣-٧٥).

قال ابنُ عاشور: (تَتَبَّعتُ اصطِلاحَ القُرآنِ فوَجَدْتُه إذا استعمل «هَؤُلَاءِ» ولم يكُنْ معه مُشارٌ =

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

= إليه مذكورٌ: أنَّه يريدُ به المُشرِكينَ مِن أهلِ مَكَّةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالصَّيحةِ: النَّفخةُ الأُولى في الصُّورِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والرسعني، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٠)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٢٦١٠)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٦).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤).

قال الشوكاني: (﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ما يَنتَظِرونَ إلَّا صَيحةً، وهي النَّفخةُ الكائِنةُ عندَ قيامِ السَّاعةِ. وقيل: هي النَّفخةُ الثَّانيةُ. وعلى الأوَّلِ: المرادُ مَن عاصَرَ نبيَّنا صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الكُفَّارِ، وعلى الثَّاني: المرادُ كُفَّارُ الأُمَمِ المذكورةِ، أي: ليس بيْنَهم وبيْن حُلولِ ما أعَدَّ الله لهم مِن عذابٍ إلَّا أن يُنفَخَ في الصُّورِ النَّفخةُ الثَّانيةُ. وقيل: المرادُ بالصَّيحةِ: عذابٌ يَفجَؤُهم في الدُّنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٦).

واختُلِف في معنى قولِه: ﴿مِن فَوَاقٍ﴾؛ فقيل: المعنى: ما لتلك الصَّيحةِ مِن فُتورٍ ولا انقِطاعٍ ولا تَردادٍ، فهي مُمتدَّةٌ لا تقطيعَ فيها. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٦، ١٥٧).

وقيل: المعنى: ما لَها مِن توقُّفٍ مِقدارَ فَواقٍ، فإذا جاء وقتُها لم يُمهلْ هذا القَدر. وممَّن اختار هذا المعنى: النيسابوري، وأبو السعود، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤).

وقيل: المعنى: ليس بعدَها رجوعٌ إلى الدُّنيا ولا مَرَدٌّ. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

قال الشوكاني: (ومعنى الآيةِ: أنَّ تلك الصَّيحةَ هي ميعادُ عَذابِهم، فإذا جاءت لم تَرجِعْ، ولا تُرَدُّ عنهم، ولا تُصرَفُ منهم، ولا تتوقَّفُ مِقدارَ فَواقِ ناقةٍ، وهي ما بيْنَ حَلْبَتَيِ الحالِبِ لها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٦). =

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذا الأصلُ الثَّالِثُ مِن أُصولِ كُفرِ المُشرِكينَ، وهو إنكارُ البَعثِ والجَزاءِ؛ فهو عَطفٌ على ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، فذكَرَ قَولَهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، ثمَّ ذكَرَ قَولَهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] وما عَقَبَه من عواقِبِ مِثلِ ذلك القَولِ؛ فأفضَى القَولُ إلى أصلِهم الثَّالِثِ[١].

وأيضًا لَمَّا عَجَّب منهم بما مضَى، وأبطَلَ شُبَهَهم، وعَرَّفهم أنَّهم قد عَرَّضوا أنفُسَهم للهلاكِ تَعريضًا قَريبًا؛ أتْبَع ذلك تَعجيبًا أشَدَّ مِن الأوَّلِ، فقال[٢]:

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ استِهزاءً وتَكذيبًا: يا رَبَّنا عجِّلْ لنا نَصيبَنا الَّذي تُوعِّدْنا به مِن العذابِ قبْلَ يومِ القيامةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ فيه الاعتبارُ بالأغلَبِ، وأنَّ

= وقال ابنُ عثيمين: (ويمكِنُ أن نقولَ: إنَّ القِراءتَينِ تَجمَعانِ المَعنيَينِ؛ فيَكونُ معنى ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي: ما لها مِن رُجوعٍ ولا إمهالٍ). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٧٥). وذكَرَ البِقاعي احتِمالاتٍ أخرى في معنى الآيةِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٧، ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦، ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٧٤، ٧٥).

الكُلَّ قد يُطلَقُ على الأغلَبِ؛ لأنَّ قَومَ نوحٍ عليه السَّلامُ لم يُكَذِّبوا كلُّهم؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وكذلك عادٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨]، وكذلك لُوطٌ عليه السَّلامُ؛ آمَنَ معه مَن آمَنَ مِن أهلِه، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥]، كذلك فِرعَونُ لم يُؤْمِنْ إلَّا حينَما أدرَكَه الغَرَقُ إيمانًا لا يَنفَعُه، وكذلك صالحٌ عليه السَّلامُ آمَنَ معه مَن آمَنَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أنَّ تكذيبَ الرُّسُلِ سَبَبٌ للعُقوبةِ، و(الفاءُ) هنا سَبَبيَّةٌ، وهي عاطِفةٌ تدُلُّ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، ففيها سَبَبيَّةٌ وتَعقيبٌ، وأنَّ العِقابَ حلَّ بهم وهم ما زالوا على تكذيبِهم[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ يُؤخَذُ منه فائدةٌ، وهي شِدَّةُ هذه العُقوبةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أضافَها إلى نَفْسِه، وقد قال سُبحانَه وتعالى عن نَفْسِه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣] [المائدة: ٩٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا﴾ اعترافُ المُشرِكينَ بالرُّبوبيَّةِ، فهم مُقِرُّون بالرُّبوبيَّةِ، ومُقِرُّونَ بانفِرادِ اللهِ تعالى بها؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٤] [لقمان: ٢٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا﴾ أنَّ الإقرارَ بالرُّبوبيَّةِ لا يُخرِجُ الإنسانَ مِن الكُفرِ إذا كان لم يُقِرَّ بتَوحيدِ الألوهيَّةِ؛ لأنَّ هؤلاء مُقِرُّون بالرُّبوبيَّةِ، وأنَّ اللهَ هو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٨).

الخالقُ الرَّازقُ، والمُنفرِدُ بالخَلقِ والرزقِ، لكِنَّهم يُشرِكونَ به في العِبادةِ؛ يَعبُدونَ معه غيرَه، فلم يُدْخِلْهم ذلك في الإسلامِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا﴾ بُطلانُ ما ذَهَبَ إليه كثيرٌ مِن المتكلِّمين في تفسيرِ التَّوحيدِ؛ حيث قالوا في تفسيرِ التَّوحيدِ: «أنْ تؤمِنَ بأنَّ اللهَ واحدٌ في ذاتِه لا قَسيمَ له، واحِدٌ في أفعالِه لا شَريكَ له، واحِدٌ في صفاتِه لا شَبيهَ له»؛ هذا هو التَّوحيدُ عندَ عامَّةِ المُتكَلِّمينَ، ولم يَتعَرَّضوا فيه لِذِكرِ الألوهيَّةِ إطلاقًا! فما ذكروه لم يَدخُلْ فيه توحيدُ الألوهيَّةِ الَّذي جاءتِ الرُّسُلِ بتَحقيقِه وإثباتِه والقِتالِ عليه، لم يَقولوا: واحِدٌ في ألوهيَّتِه لا يُعبَدُ غيرُه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه ببيانِ أحوالِ العُتاةِ الطُّغاةِ الَّذينَ هؤلاءِ جُندٌ ما مِن جُنودِهم، ممَّا فَعَلوا مِنَ التَّكذيبِ، وفُعِل بهم مِنَ العِقابِ[٣].

- ولَمَّا كان قَولُه: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١] تَسليةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووعْدًا له بالنَّصرِ، وتَعريضًا بوَعيدِ مُكذِّبيهِ؛ جيءَ بما هو كالبَيانِ لهذا التَّعريضِ، والدَّليلِ على المَصيرِ المَقصودِ على طريقةِ قياسِ المُساواةِ[٤]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٧).

(٤) القياسُ: تقدَّمَ تعريفُه عندَ الأصوليِّينَ (ص: ٢١)، وهو عندَ أهلِ المنطقِ: قولٌ مؤلَّفٌ مِن قضايا إذا سَلِمَتْ لزِم عنها لِذَاتِها قولٌ آخَرُ؛ كقولِنا: «العالَمُ متغيِّرٌ، وكلُّ متغيِّرٍ حادثٌ»؛ فإنَّه قولٌ مرَكَّبٌ مِن قضيَّتَينِ، إذا سَلِمتَا لَزِم عنهما لِذاتِهما: العالَمُ حادِثٌ. =

وهو قولُه هنا: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾[1].

- قولُه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ حُذِف مَفعولُ ﴿كَذَّبَتْ﴾؛ لأنَّه سيَرِدُ ما يُبَيِّنُه في قَولِه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾[2].

- قولُه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ خُصَّ فِرعونُ بإسنادِ التَّكذيبِ إليه دُونَ قَومِه؛ لأنَّ اللهَ أرسَلَ موسى عليه السَّلامُ إلى فِرعونَ لِيُطْلِقَ بَني إسرائيلَ، فكَذَّبَ موسى، فأمَرَ اللهُ موسى بمُجادَلةِ فِرعونَ لإبطالِ كُفرِه، فتَسَلْسَلَ الجِدالُ في العقيدةِ، ووجَبَ إشهارُ أنَّ فِرعونَ وقَومَه في ضَلالٍ؛ لِئلَّا يَغتَرَّ بَنو إسرائيلَ بشُبُهاتِ فِرعونَ، ثمَّ كان فِرعونُ عَقِب ذلك مُضمِرًا أذَى موسى عليه السَّلامُ ومُعلِنًا بتَكذيبِه[3].

- ووُصِف فِرعونُ بأنَّه ﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾؛ لعَظَمةِ مُلكِه وقوَّتِه، فلمْ يكُنْ ذلك لِيَحولَ بيْنَه وبيْن عَذابِ اللهِ. وعُبِّر بالأوتادِ هنا عن ثَباتِ المُلكِ والعِزِّ، ورُسوخِ السَّلطنةِ واستِقامةِ الأمْرِ، مِن ثَباتِ البَيتِ المُطنَّبِ بأوتادٍ، أو

= وقياسُ المُساواةِ: هو كلُّ قياسٍ مرَكَّبٍ مِن قضيتَينِ يكونُ مُتعلقُ محمولِ الصُّغرى موضوعًا في الكبرى؛ فإنَّ استِلزامَه لا بالذَّاتِ، بل بواسطةِ مقدمةٍ أجنبيَّةٍ، حيثُ تَصدُقُ يَتحقَّقُ الاستِلزامُ؛ كقولِنا: (أ) مساوٍ لـ (ب)، و (ب) مساوٍ لـ (ج)؛ فإنَّه يلزمه (أ) مساوٍ لـ (ج)، ولكن لا لنفْسِه، بل بواسطةِ مقدمةٍ أجنبيَّةٍ، أي: مقدمةٍ غيرِ لازمةٍ لإحدى مقدمتَي القياسِ. وحيث لا تصدُقُ لا يَتحقَّقُ، كقولِنا: (أ) نصفٌ لـ (ب)، و (ب) نصفٌ لـ (ج)؛ فلا يصدقُ (أ) نصفٌ لـ (ج)؛ إذ نصْفُ النِّصفِ ليس بنصفٍ، بل هو ربعٌ.

يُنظر: ((بيان المختصر)) للأصفهاني (١/ ٣٦)، ((أصول الفقه)) لابن مفلح (١/ ٢١)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٨١، ١٨٢)، ((كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم)) للتهانوي (٢/ ١٣٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المعنى: ذُو الجُموعِ الكثيرةِ؛ سُمُّوا بذلك لأنَّ بعضَهم يَشُدُّ بعضًا، كالوتِدِ يَشُدُّ البناءَ[١]. وقيل غيرُ ذلك.

- وفي قَولِه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ مُناسَبَةٌ حسَنةٌ، حيثُ ختَمَ أواخِرَ آياتِه هنا بما قبْلَ آخِرِه ألْفٌ، وختَمَ آياتِ قَولِه في سورةِ (ق): ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ بما قبْلَ آخِرِه ياءٌ أو واوٌ؛ موافَقةً لبَقيَّةِ فَواصِلِ السُّورتَينِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾

- جُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ وجُملةِ ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾، واسمُ الإشارةِ مُستعمَلٌ في التَّعظيمِ، أي: تَعظيمِ القوَّةِ[٣].

- وقُصِد بهذه الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الإعلامُ والتَّأكيدُ، والتَّنبيهُ بأنَّ الأحزابَ الَّذينَ جُعِل الجُندُ المَهزومُ منهم هُمْ هُمْ، وأنَّهم هُمُ الَّذينَ وُجِد مِنهمُ التَّكذيبُ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ إشارةً إلى جميعِ الأحزابِ؛ لاستِحضارِهم بالذِّكرِ، أو لأنَّهم كالحُضورِ عِندَ اللهِ[٤].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾ استِغراقٌ ادِّعائيٌّ، وهو المُسمَّى بالدَّلالةِ على معنَى الكَمالِ، مِثلُ: هُمُ القَومُ، وأنت الرَّجُلُ. والحَصرُ المُستفادُ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٨-٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦، ٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧).

تعريفِ المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه حَصْرٌ ادِّعائيٌّ[١]، قُصِرَتْ صِفةُ الأحزابِ على المُشارِ إليهم بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بادِّعاءِ الأُمَمِ، وأنَّ غَيْرَهم لَمَّا يَبلُغوا مَبلَغَ أنْ يُعَدُّوا مِنَ الأحزابِ؛ فظاهِرُ القَصرِ ولامُ الكَمالِ لتأكيدِ معنَى الكَمالِ، والمعنَى: أولئك المَذْكورونَ هُمُ الأُمَمُ، لا تُضاهِيهم أُمَمٌ في القُوَّةِ والشِّدَّةِ، وهذا تعريضٌ بتَخويفِ مُشرِكي العرَبِ مِن أنْ يَنزِلَ بهم ما نزَلَ بأولئكَ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾

- قَولُه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ استِئنافٌ جيءَ به تَقريرًا لتَكذيبِهم، وبيانًا لكَيْفيَّتِه، وتَمهيدًا لِما يَعقُبُه[٣].

- وجُملةُ ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ مؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ إلى قَولِه ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾؛ أخبَرَ أوَّلًا عنهم بأنَّهم كَذَّبوا، وأكَّدَ ذلك بالإخبارِ عنهم بأنَّهم ليسوا إلَّا مُكذِّبينَ على

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكور منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و (٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢١، ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧).

وَجهِ الحَصرِ، كأنَّهم لا صِفةَ لهم إلَّا تَكذيبُ الرُّسلِ؛ لِتَوَغُّلِهم فيها، وكَونِها هِجِّيراهُم[١].

- وفي قَولِه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ ذكَرَ تكذيبَ الأحزابِ أوَّلًا في الجُملةِ الخَبريَّةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ على وَجهِ الإبهامِ، ثمَّ جاء بالجُملةِ الاستِثنائيَّةِ ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ فأوْضَحه فيها بأنَّ كلَّ واحِدٍ مِنَ الأحزابِ كَذَّبَ جميعَ الرُّسلِ؛ لأنَّهم إذا كَذَّبوا واحدًا منهم فقد كَذَّبوهم جميعًا.

وقيل: ما كلُّ حِزبٍ إلَّا كَذَّب رسولَه على نَهجِ مُقابَلةِ الجَمعِ بالجَمعِ. وفي تَكريرِ التَّكذيبِ، وإيضاحِه بعْدَ إبهامِه، والتَّنويعِ في تَكريرِه بالجُملةِ الخَبريَّةِ أوَّلًا وبالاستِثنائيَّةِ ثانيًا، وما في الاستِثنائيَّةِ مِنَ الوَضعِ على وَجهِ التَّوكيدِ والتَّخصيصِ: أنواعٌ مِنَ المُبالَغةِ المُسَجِّلةِ عليهم باستِحقاقِ أشَدِّ العِقابِ وأَبْلَغِه، ثمَّ قال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: فوجَبَ لذلك أنْ أُعاقِبَهم حَقَّ عِقابِهم[٢].

وجيءَ بالمُسنَدِ فِعلًا في قَولِه: ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾؛ ليُفيدَ تَقديمُ المُسنَدِ إليه عليه تَخصيصَ المُسنَدِ إليه بالمُسنَدِ الفِعليِّ، فحصَلَ بهذا النَّظمِ تأكيدُ الحَصرِ[٣].

- وقد حصَلَ تَسجيلُ التَّكذيبِ عليهم بفُنونٍ مِن تَقويةِ ذلك التَّسجيلِ؛ وهي إبهامُ مَفعولِ ﴿كَذَّبَتۡ﴾ في قَولِه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾، ثم تَفصيلُه بقَولِه: ﴿إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦، ٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٢).

كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ وما في قَولِه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ مِنَ الحَصرِ، وما في تأكيدِه بالمُسنَدِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿إِلَّا كَذَّبَ﴾، وما في جَعلِ المُكَذَّبِ به جميعَ الرُّسلِ، فأنتَجَ ذلك التَّسجيلُ استِحقاقَهم عَذابَ اللهِ في قَولِه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: عِقابي، فحُذِفتْ ياءُ المُتكلِّمِ؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ، وأُبقيَتِ الكَسرةُ في حالةِ الوَصلِ[1].

- وتَعديةُ ﴿كَذَّبَ﴾ إلى ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ بصِيغةِ الجَمعِ -مع أنَّ كلَّ أُمَّةٍ إنَّما كذَّبَتْ رَسولَها- مَقصودٌ منه تَفظيعُ التَّكذيبِ؛ لأنَّ الأُمَّةَ إنَّما كذَّبَتْ رَسولَها مُستَنِدةً لحُجَّةٍ سُفسْطائيَّةٍ[2] هي استِحالةُ أنْ يَكونَ واحدٌ مِنَ البشَرِ رَسولًا مِنَ اللهِ، فهذه السَّفْسَطةُ تَقتَضي أنَّهم يُكَذِّبونَ جميعَ الرُّسلِ[3].

- وقَولُه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: تَحقَّقَ وكان حَقًّا؛ لأنَّه اقتَضاهُ عظيمُ جُرمِهم. والعِقابُ: هو ما حَلَّ بكلِّ أُمَّةٍ منهم مِنَ العَذابِ، وهو الغرَقُ والتَّمزيقُ بالرِّيحِ، والغرَقُ أيضًا، والصَّيحةُ، والخَسفُ، وعَذابُ يَومِ الظُّلَّةِ. وفي هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٨).

(٢) السُفِسْطائيَّةُ: فرقةٌ يونانيَّةٌ قديمةٌ، وهم أصنافٌ ثلاثةٌ: فمِنهم الَّذين ينفون حقائقَ الاشياءِ كلَّها، ومنهم الَّذين شكُّوا فى وجودِ الحقائقِ، ومنهم مَن ذهَب إلى أنَّ حقائقَ الاشياءِ تابِعَةٌ للاعتقادِ، وصحَّحوا جميعَ الاعتقاداتِ معَ تضادِّها وتنافيها. يُنظر: ((الفرق بين الفرق)) للبغدادي (ص: ٣١١)، ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (١/ ١٤)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٢/ ١٠٧٣).

والسَّفْسَطَةُ: هي قياسٌ مركَّبٌ مِن الوهميَّاتِ، والغرضُ منه تغليطُ الخصمِ وإسكاتُه. وهي كلمةٌ يونانيَّةٌ معناها: الغلطُ، والحِكمةُ المُموَّهَةُ. والغلطُ يقعُ بوجوهٍ كثيرةٍ: مِن جهةِ اللفظِ، أو مِن جهةِ المعنَى، أو مِن طريقِ الحذفِ والإضمارِ، أو في تركيبِ المقدِّماتِ الوهميَّةِ مكانَ القطعيَّةِ إلى غيرِ ذلك. يُنظر: ((تقريب الوصول)) لابن جزي (ص: ١٤٩)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١١٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٩/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٢).

تَعريضٌ بالتَّهديدِ لِمُشركي قُرَيشٍ بعَذابٍ مِثلِ عَذابِ أولئك؛ لاتِّحادِهم في مُوجِبِه[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾

- قَولُه: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ ...﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ أيضًا مَسوقٌ لتَقريرِ عِقابِ كُفَّارِ مَكَّةَ بعْدَ بَيانِ عِقابِ مَن سَبَقوهم في الغَوايةِ، وأَضرابِهم مِنَ الأحزابِ الَّذينَ أُخبِرَ فيما سبَقَ بأنَّهم جُندٌ حَقيرٌ مِنهم مَهزومٌ عن قَريبٍ؛ فإنَّ ذلكَ ممَّا يُوجِبُ انتِظارَ السَّامعِ وتَرَقُّبَه إلى بَيانِه قَطْعًا. وفي الإشارةِ إليهم بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تَحقيرٌ لشأنِهم، وتَهوينٌ لأمرِهم[٢].

- قَولُه: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارةٌ إلى كُفَّارِ قُرَيشٍ؛ لِأنَّ تَجدُّدَ دَعوَتِهم ووَعيدَهم وتَكذيبَهم يَومًا فيَومًا جَعَلَهم كالحاضِرينَ؛ فكانتِ الإشارةُ مَفهومًا منها أنَّها إليهم، ولِمَا أنَّ أسماءَ الإشارةِ تَقتَضي أنْ يَكونَ المُشارُ إليه مَحسوسًا، أو في حُكمِ المَحسوسِ، أشارَ إليهم باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ لاستِحضارِهم بالذِّكرِ، أو لِأنَّهم كالحُضورِ عِندَ اللهِ، مع ما في اسمِ الإشارةِ مِن تَحقيرٍ لهم، فـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مُشارٌ به إلى الَّذين أدبَروا عنكَ ﴿فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ [ص: ٢]، وغايةُ جهدِهم أنْ يَكونوا مِنَ الأحزابِ الَّذين تَحزَّبوا على جُندِنا، فأخَذْناهم بما هو مَشهورٌ مِن وَقائِعِنا ومَعروفٌ مِن أيَّامِنا بأصنافِ العَذابِ، ولم تُغنِ عنهم كَثرَتُهم ولا قُوَّتُهم شَيئًا، ولم يَضُرَّ جُندَنا ضَعفُهم ولا قِلَّتُهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦، ٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤٤)، =

- قَولُه: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ فيه وَصْفُ الصَّيحةِ بواحِدةٍ؛ إشارةً إلى أنَّ الصَّاعِقةَ عظيمةٌ مُهلِكةٌ، أو أنَّ النَّفخةَ واحِدةٌ، وهي نَفخةُ الصَّعقِ(١).

- وأُسنِدَ الانتِظارُ إليهم بقولِه: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في حِينِ أنَّهم غافِلونَ عن ذلك ومُكَذِّبونَ بظاهِرِه؛ فإنَّهم يَنتظِرُ بهم ذلك المُسلِمونَ المَوعودونَ بالنَّصرِ، أو يَنتظِرُ بهمُ المَلائكةُ المُوَكَّلونَ بحَشرِهم عِندَ النَّفخةِ، فلمَّا كانوا مُتعلَّقَ الانتِظارِ أُسنِدَ فِعلُ ﴿يَنظُرُ﴾ إليهم؛ لِمُلابَسةِ المَفعوليَّةِ، على نَحوِ: ﴿فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٢١](٢) [القارعة: ٧].

- ولَمَّا أَشعَرَ قَولُه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤] بتَهديدِ مُشرِكي قُرَيشٍ بعَذابٍ يَنتظِرُهم جَرْيًا على سُنَّةِ اللهِ في جزاءِ المُكذِّبينَ رُسُلَه؛ عُطِف على جُملةِ الإخبارِ عن حُلولِ العَذابِ بالأحزابِ السَّابِقينَ جُملةُ تَوَعُّدٍ بعذابِ الَّذينَ ماثَلوهم في التَّكذيبِ، وهي قَولُه: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾(٣).

- قَولُه: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ الفَواقُ هي المُدَّةُ الَّتي بيْنَ الحَلْبتَينِ، وهي ساعةٌ قَليلةٌ، والمُرادُ بقَولِه: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ أنَّه ليس بعدَها إمهالٌ بقَدرِ الفَواقِ، وعَبَّرَ بذلك عن سُرعةِ الأخْذِ وعَدَمِ الإمهالِ، ولو لِمُدَّةٍ يَسيرةٍ، فإذا جاءَ وَقتُها لم تَستَأخِرْ هذا القَدْرَ مِنَ الزَّمانِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٢٣).

سَاعَةً﴾ [الأعراف: ٣٤]. وقيل غيرُ ذلك[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسوقٌ لسَردِ أَنماطٍ مِن تَمَحُّلِهم واستِهزائِهم بعْدَ أنْ نزَلَ قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، وحكايةٌ لحالةِ استِخفافِ الكافِرينَ بالبَعثِ والجَزاءِ وتَكذيبِهم ذلك، وتَكذيبِهم بوَعيدِ القُرآنِ إيَّاهُم، فلمَّا هَدَّدَهمُ القُرآنُ بعَذابِ اللهِ قالوا: ربَّنا عَجِّلْ لنا نَصيبَنا مِنَ العَذابِ في الدُّنيا قبْلَ يَومِ الحِسابِ؛ إظهارًا لعدَمِ اكتِراثِهم بالوَعيدِ وتَكذيبِه؛ لِئلَّا يَظُنَّ المُسلِمونَ أنَّ استِخفافَهم بالوَعيدِ لأنَّهم لا يؤْمِنونَ بالبَعثِ، فأبانُوا لهم أنَّهم لا يُصَدِّقونَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في كلِّ وعيدٍ حتَّى الوَعيدِ بعَذابِ الدُّنيا الَّذي يَعتَقِدونَ أنَّه في تَصرُّفِ اللهِ. فالقَولُ هذا قالُوه على وَجهِ الاستِهزاءِ، وحُكيَ عنهم هنا؛ إظهارًا لرَقاعَتِهم وتَصلُّبِهم في الكُفرِ. وتَسميتُهم يَومَ الحِسابِ أيضًا مِنَ التَّهكُّمِ؛ لأنَّهم لا يؤْمِنونَ بالحِسابِ[٢].

- وتصديرُ دُعائِهم بالنِّداءِ المذكورِ في قَولِه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾؛ للإمعانِ في الاستِهزاءِ، كأنَّهم يَدْعُون ذلك بكَمالِ الرَّغبةِ والابتِهالِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤- ٢٢٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٨).

الآيات (١٧-٢٠)

﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡأَيۡدِ﴾: أي: القُوَّةِ الشَّديدةِ، وأصلُ (أيد): يدُلُّ على القُوَّةِ والحِفظِ[١].

﴿أَوَّابٞ﴾: أي: رَجَّاعٌ توَّابٌ، مِن قَولِهم: آبَ الرَّجُلُ إلى أهلِه: إذا رجَعَ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[٢].

﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾: أي: آخِرِ النَّهارِ مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، أو مِن الظُّهرِ إلى نِصفِ اللَّيلِ، أو صَلاةِ العَصرِ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظَلامٍ وقِلَّةِ وُضوحٍ[٣].

﴿وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾: أي: وَقتِ إشراقِ الشَّمسِ، أي: سُطوعِها وصَفاءِ ضَوئِها، وهو وَقتُ صَلاةِ الضُّحى، وهو غيرُ الشُّروقِ؛ لأنَّ الشُّروقَ هو وَقتُ طُلوعِ الشَّمسِ. يُقالُ: شَرَقَت الشَّمسُ: إذا طَلَعَت، وأشرَقَت: إذا أضاءَت. وأصلُ (شرق): يدُلُّ

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

على إضاءةٍ وفَتحٍ[١].

﴿مَحۡشُورَةٞ﴾: أي: مَجموعةً، وأصلُ الحَشرِ: يدُلُّ على السَّوقِ والبَعثِ[٢].

﴿وَشَدَدۡنَا﴾: أي: قَوَّيْنا، والشَّدُّ: العَقدُ القَويُّ، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ[٣].

﴿ٱلۡحِكۡمَةَ﴾: أي: النُّبُوَّةَ، وإصابةَ الصَّوابِ في القولِ والفعلِ، وأصلُ (حكم): يدُلُّ على المَنعِ، والحِكمةُ هذا قياسُها؛ لأنَّها تَمنَعُ من الجَهلِ[٤].

﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾: أي: بَيانَ الكَلامِ وبلاغَتَه، وجَمْعَه للمَعنى المقصودِ الفاصِلِ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ وإبانتِه[٥].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، آمِرًا له بالصَّبرِ: اصبِرْ -يا مُحمَّدُ-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢ / ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦، ٣٢٦، ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨) و(٤/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

على ما يَقولُه أولئك المُشرِكونَ، واذكُرْ عَبدَنا داودَ ذا القُوَّةِ؛ إنَّه كثيرُ التَّوبةِ والرُّجوعِ إلى رَبِّه.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى بعضَ مظاهرِ فضلِه على عبدِه داودَ عيه السَّلامُ، فيقولُ: إنَّا سَخَّرْنا الجِبالَ معه يُسَبِّحْنَ اللهَ آخِرَ النَّهارِ وأوَّلَه، وسَخَّرْنا الطَّيرَ مَجموعةً له، كلٌّ له رَجَّاعٌ، يُسبِّحُ بتَسبيحِه، وقَوَّيْنا مُلْكَ داودَ وثبَّتْناه، وآتَيْناه الحِكمةَ، والفَصْلَ في الكلامِ وفي الحُكمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الكُفَّارَ لَمَّا بالَغوا في السَّفاهةِ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيثُ قالوا: إنَّه ساحِرٌ كذَّابٌ، وقالوا له على سَبيلِ الاستِهزاءِ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾؛ أمَرَه اللهُ تعالى بالصَّبرِ على سَفاهتِهم[1].

﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

أي: اصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يَقولُه مُشرِكو قَومِك مِن كُلِّ ما يَسوؤُك مِن أقوالِهم[2].

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ رَسولَه بالصَّبرِ على قَومِه، أمَرَه أن يَستعينَ على الصَّبرِ بالعبادةِ لله

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

وَحْدَه، ويَتذكَّرَ حالَ العابِدينَ[(١)].

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- عَبْدَنا داودَ ذا القُوَّةِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٧).

قال الشوكاني: (ومعنى ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾: اذكُرْ قِصَّتَه؛ فإنَّك تجدُ فيها ما تتسلَّى به). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٧).

والمرادُ بالقُوَّةِ: قيل: هي القُوَّةُ على العبادةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والثعلبيُّ، والواحدي، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي، ونسَبَه الماتُريديُّ إلى عامَّةِ أهلِ التَّأويلِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٦).

وقيل: المرادُ: القُوَّةُ في العِلمِ والعَمَلِ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٧).

وقال ابن عطيَّة: (الأَيْدِ: القوَّةِ، وهي في داودَ مُتضمنةٌ قوَّةَ البدَنِ، وقوَّتَه على الطَّاعةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٦). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٥).

وقال ابن جُزَي: (وكان داودُ جمَعَ قوَّةَ البدنِ، والقوَّةَ في الدِّينِ، والمُلكِ، والجنودِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٣).

وقيل: المرادُ: مُطلَقُ القُوَّةِ، سواءٌ في العبادةِ، أو في المُلكِ، أو فيما سِوى ذلك؛ فهو ذو أَيْدٍ في كُلِّ ما تكونُ القُوَّةُ فيه صِفةَ مَدحٍ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٨٤).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال له: ((أَحَبُّ الصَّلاةِ إلى اللهِ صَلاةُ داودَ عليه السَّلامُ، وأَحَبُّ الصِّيامِ إلى اللهِ صِيامُ داودَ، وكان يَنامُ نِصفَ اللَّيلِ، ويَقومُ ثُلُثَه، وينامُ سُدُسَه، ويَصومُ يَومًا، ويُفطِرُ يَومًا))(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال عن النَّبيِّ داودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((كان أعْبَدَ النَّاسِ))(٢).

وعن عبدِ اللَّه بنِ عَمرٍو رَضِي اللَّه عنهما: قال: ((بَلَغ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنِّي أسْرُدُ الصَّومَ، ...)) الحديث. وفيه: قالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((فصُمْ صيامَ داودَ عليه السَّلامُ. قالَ: وكيفَ؟ قال: كانَ يصومُ يومًا ويُفْطِرُ يومًا، ولا يَفِرُّ إذا لاقَى))(٣).

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾.

أي: إنَّه كَثيرُ التَّوبةِ والتَّضَرُّعِ والوُقوفِ عندَ حُدودِ اللهِ، رجَّاعٌ عمَّا يَكرَهُه اللهُ إلى ما يُحِبُّه ويَرضاه(٤).

﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾.

أي: إنَّا ذلَّلْنا الجِبالَ يُسَبِّحْنَ اللهَ مع داودَ في آخِرِ النَّهارِ، ويُسَبِّحْنَ معه في وَقتِ ارتفاعِ الشَّمسِ حينَ تُضيءُ ويَصفو شُعاعُها، وهو وَقتُ الضُّحى(٥).

---

(١) رواه البخاري (١١٣١) واللفظ له، ومسلم (١١٥٩).

(٢) رواه مسلم (١١٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٧٧)، ومسلم (١١٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٠-٣٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) =

كما قال اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾.

أي: وسَخَّرْنا الطَّيرَ مَجموعةً لداودَ(١).

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

أي: كلٌّ رجَّاعٌ له، يُسَبِّحُ بتَسبيحِه(٢).

= (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٨٨، ٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

ممَّن اختار أنَّ الضميرَ في ﴿لَهُۥٓ﴾ يعودُ إلى داودَ عليه السَّلامُ: ابنُ جرير، والرسعني، والقرطبي، والبيضاوي، وابنُ كثير، والبِقاعي، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٠-٩٢).

قال الرسعني: (﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: كلُّ واحدٍ مِن الجبالِ والطَّيرِ رجَّاعٌ إلى طاعةِ داودَ وأمرِه، =

كما قال اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾.

أي: وقَوَّيْنا مُلْكَ داودَ وثبَّتْناه[1].

= أو كلٌّ لأجْلِ داودَ، أي: لأجْلِ تسبيحِه مُسَبِّحٌ؛ لأنَّها كانت تُسبِّحُ بتسبيحِه). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٦١).

ممَّن اختار المعنى الأوَّلَ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢١٥).

وممَّن اختار المعنى الثَّانيَ: ابنُ جُزَي، والنيسابوري، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩).

وقيل: ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: مطيعٌ لداودَ، يسَبِّحُ بتسبيحِه. وممَّن اختار هذا المعنى: القرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣).

وقال ابنُ عثيمين: (أي: كُلٌّ لداودَ رجَّاعٌ، أي: مُرجِّعٌ معه؛ إذا سَبَّح سَبَّحت الجبالُ، وإذا سَبَّح سبَّحت الطُّيورُ المجموعةُ إليه. وقيل: إنَّ الأوَّابَ: الرَّجَّاعُ... والمعنيان مُتلازِمانِ؛ لأنَّه إذا كان رجَّاعًا يَرجِعُ إلى داودَ لِيُسَبِّحَ معه فهو مُرجِّعٌ معه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩١).

وقيل: إنَّ الضميرَ في ﴿لَهُۥٓ﴾ يرجعُ إلى الله. وممَّن اختاره: الشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

قال الشوكاني: (كلُّ واحدٍ مِن داودَ والجبالِ والطَّيرِ رَجَّاعٌ إلى طاعةِ اللهِ وأمْرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨).

وقال البيضاوي: (﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ كُلُّ واحدٍ مِن الجِبالِ والطَّيرِ؛ لأجْلِ تَسبيحِه: رَجَّاعٌ إلى التَّسبيحِ، والفَرقُ بيْنَه وبيْن ما قَبْلَه أنَّه يدُلُّ على الموافقةِ في التَّسبيحِ، وهذا على المداومةِ عليها، أو كُلٌّ منهما ومِن داودَ عليه السَّلامُ مُرجِّعٌ لله التَّسبيحَ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

أي: وآتَيْناه القُدرةَ على وَضعِ الأشياءِ في مَواضِعِها الصَّحيحةِ اللَّائقةِ بها وَفْقَ ما أُوتِيَه مِن النُّبوَّةِ والعِلمِ بحَقائِقِ الأشياءِ وفَهمِها ومَعرفةِ الصَّوابِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

أي: وآتَيْنا داودَ الفَصْلَ في الكلامِ -فكان ذا بيانٍ وفَصاحةٍ- وفي الحُكمِ،

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

قال البِقاعي: (﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النُّبُوَّةَ الَّتي يَنشَأُ عنها العِلمُ بالأشياءِ على ما هي عليه، ووضْعُ الأشياءِ في أحكَمِ مَواضِعِها، فالحِكمةُ: العَمَلُ بالعِلمِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٥٥).

وممَّن قال بأنَّ الحِكمةَ هي النُّبُوَّةُ: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨).

وممَّن اختار أنَّ الحكمةَ هي النُّبوَّةُ والإصابةُ في الأمورِ: البغويُّ، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٠).

وممَّن اختار أنَّ الحكمةَ هي الفَهمُ والعِلمُ: مقاتلُ بنُ سُلَيْمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٥).

قال ابنُ جرير: (الحِكمةُ مأخوذةٌ مِن الحُكمِ وفَصلِ القَضاءِ، وهي الإصابةُ، والإصابةُ في الأمورِ إنَّما تكونُ عن فَهمٍ بها وعِلمٍ ومَعرفةٍ، والنُّبوَّةُ مِن أقسامِه؛ لأنَّ الأنبياءَ مُسَدَّدونَ مُفَهَّمونَ، ومُوَفَّقونَ لإصابةِ الصَّوابِ في الأمورِ، فالنُّبوَّةُ بَعضُ معاني الحِكمةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢) بتصرف.

فكان يَفصِلُ بيْنَ الخُصومِ[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٥).

قيل: المرادُ: بلاغةُ الكلامِ وجَمْعُه للمعنى المقصودِ، بحيث لا يحتاجُ سامعُه إلى زيادةِ تِبيانٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

وقيل: المرادُ: الفصلُ في القضاءِ والخصوماتِ بيْن النَّاسِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: الشوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابِقَينِ، واختار العمومَ في المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٥).

قال ابنُ كثيرٍ: (وقَولُه: ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ قال شُرَيحٌ القاضي والشَّعبيُّ: فَصْلُ الخِطابِ: الشُّهودُ والأَيْمانُ. وقال قَتادةُ: شاهِدانِ على المُدَّعِي، أو يمينُ المُدَّعَى عليه، هو فَصْلُ الخِطابِ الَّذي فَصَل به الأنبياءُ والرُّسُلُ -أو قال: المؤمِنونَ والصَّالحونَ- وهو قضاءُ هذه الأمَّةِ إلى يومِ القيامةِ. وكذا قال أبو عبدِ الرَّحمنِ السُّلَميُّ. وقال مجاهِدٌ والسُّدِّيُّ: هو إصابةُ القَضاءِ وفَهْمُه. وقال مجاهِدٌ أيضًا: هو الفَصلُ في الكلامِ وفي الحُكمِ. وهذا يَشملُ هذا كُلَّه، وهو المرادُ، واختاره ابنُ جريرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٩).

وقال ابنُ جرير: (الصَّوابُ أن يُعَمَّ الخبَرُ كما عَمَّه اللهُ، فيُقالَ: أُوتيَ داودُ فَصْلَ الخِطابِ في القَضاءِ والمحاورةِ والخُطَبِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢).

وقال ابن كثير: (وهذا لا ينافي ما رُويَ عن أبي موسى، أنَّه قولُ: أمَّا بَعْدُ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٣٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩، ٢٣٠).

وقال ابنُ عثيمين: (هل المعنى أنَّه يَفصِلُ الخِطابَ الصَّادِرَ مِن غَيرِه، بمعنى: أنَّه يَفصِلُ بيْنَ الخُصومِ ما تخاطَبوا فيه... أو فَصْلُ الخِطابِ يعني خِطابَه هو... كان فَصلًا، أي: ذا بيانٍ وفَصاحةٍ؟ نقولُ: المَعْنَيانِ مُحتمَلانِ؛ فالآيةُ تحتمِلُ هذا وتحتمِلُ هذا، وهما لا يَتنافَيانِ؛ فيَجِبُ أن تكونَ الآيةُ محمولةً عليهما). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٥).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى يَمدَحُ ويُحِبُّ القُوَّةَ في طاعتِه؛ قُوَّةَ القَلبِ والبَدَنِ؛ فإنَّه يَحصُلُ منها مِن آثارِ الطَّاعةِ وحُسنِها وكَثرتِها ما لا يَحصُلُ مع الوَهَنِ وعَدَمِ القُوَّةِ، وأنَّ العبدَ يَنبغي له تعاطي أسبابِها، وعدَمُ الرُّكونِ إلى الكَسَلِ والبَطالةِ المُخِلَّةِ بالقُوَى، المُضعِفةِ للنَّفْسِ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ فيه أنَّ الرُّجوعَ إلى اللهِ تعالى في جميعِ الأُمورِ: مِن أوصافِ أنبياءِ اللهِ وخواصِّ خَلْقِه، كما أثنى اللهُ على داودَ وسُلَيمانَ بذلك؛ فلْيَقتَدِ بهما المُقتَدونَ، ولْيَهتَدِ بهُداهم السَّالِكونَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[٢] [الأنعام: ٩٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتأثَّرُ بتكذيبِهم؛ ولهذا أمَرَه اللهُ بالصَّبرِ، وهذا أمرٌ لا شَكَّ فيه[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ أمَرَ تعالى محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -على جَلالةِ قَدْرِه- بأن يَقتديَ في الصَّبرِ على طاعةِ اللهِ بداودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذلك تَشريفٌ عَظيمٌ، وإكرامٌ لِداودَ عليه السَّلامُ؛ حيث أمَرَ اللهُ أفضَلَ الخَلقِ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَقتديَ به في مَكارِمِ الأخلاقِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٤).

٣- إنْ قيل: ما المناسبةُ بينَ أمرِ الله لنبيِّنا محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصبرِ على أقوالِ الكفَّارِ وبينَ أمرِه له بذكرِ داودَ؟

فالجوابُ: أنَّ ذِكرَ داودَ ومَن بعدَه مِن الأنبياءِ في هذه السورةِ فيه تسليةٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ووعدٌ له بالنَّصرِ وتفريجِ الكربِ، وإعانةٌ له على ما أُمِر به مِن الصبرِ، وذلك أنَّ الله ذكَر ما أنعَم به على داودَ مِن تسخيرِ الطيرِ والجبالِ، وشدةِ مُلكِه، وإعطائِه الحكمةَ وفصلَ الخطابِ، ثمَّ الخاتمةَ له في الآخرةِ بالزلفَى وحسنِ المآبِ، فكأنَّه يقولُ: يا محمدُ كما أنعَمْنا على داودَ بهذه النِّعمِ كذلك نُنعِمُ عليك، فاصبِرْ ولا تحزَنْ على ما يقولونَ، ثمَّ ذكَر ما أعطَى سليمانَ مِن الملكِ العظيمِ، وتسخيرِ الريحِ والجنِّ والخاتمةِ بالزلفَى وحُسنِ المآبِ، ثمَّ ذكَر مَن ذكَر بعدَ ذلك مِن الأنبياءِ.

والمقصدُ: ذِكرُ الإنعامِ عليهم لتقويةِ قلبِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأيضًا فإنَّ داودَ وسليمانَ وأيوبَ أصابتهم شدائدُ ثمَّ فرَّجها الله عنهم، وأعقَبها بالخيرِ العظيمِ، فأمَر نبيَّنا محمدا صلَّى الله عليه وسلَّم بذكرِهم، ليُعلِمَه أنَّه يُفرِّجُ عنه ما يلقَى من إذايةِ قومِه، ويعقبُها بالنصرِ والظهورِ عليهم، فالمناسبةُ في ذلك ظاهرةٌ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ؛ لأنَّ الجُملةَ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ تَعليليَّةٌ، فداودُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَوصوفٌ بالقُوَّةِ والعُبوديَّةِ؛ وذلك لأنَّه رَجَّاعٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وكلُّ مَن كان رَجَّاعًا إلى اللهِ فسوف يكونُ قويًّا في عُبوديَّتِه[(٢)].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ استُدِلَّ به

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٨٧).

على مَشروعيَّةِ صَلاةِ الضُّحى[١]، مع الأحاديثِ المشهورةِ الثَّابتةِ في ذلك.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ أنَّ للجَمادِ إرادةً؛ لأنَّ التَّسبيحَ لا بُدَّ أنْ يكونَ بإرادةٍ، ويدُلُّ على ذلك أيضًا قولُه تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[٢] [الإسراء: ٤٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُنطِقُ الجَمادَ بأصواتٍ يَفهَمُها مَن يَفهَمُها مِن الآدَمِيِّينَ[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ فيه أنَّ مِن أكبَرِ نِعَمِ اللهِ على عَبدِه: أن يَرزُقَه العِلمَ النَّافِعَ، ويَعرِفَ الحُكمَ والفَصلَ بيْن النَّاسِ -على قولٍ في التَّفسيرِ في معنى الآيةِ-، كما امتَنَّ اللهُ به على عَبدِه داودَ عليه السَّلامُ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أُعقِبتْ حِكايةُ أقوالِ مُشْرِكي قُرَيشٍ مِنَ التَّكذيبِ ابتِداءً مِن قَولِه: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] إلى هنا، بأمْرِ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصَّبرِ على أقوالِهم؛ إذْ كان جميعُها أذًى: إمَّا صريحًا، كما قالوا: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، وإمَّا ضِمنًا، وذلك ما في سائرِ أقوالِهم مِن إنكارِ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٥)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

عليه وسلَّمَ، والاستِهزاءِ بقَولِهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] مِن إثباتِ أنَّ الإلهَ واحِدٌ، ويَشمُلُ ما يَقولونَه ممَّا لم يُحْكَ في أوَّلِ هذه السُّورةِ[١].

- قَولُه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ عَطفًا على قَولِه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ بأنْ أُتْبِعَ أمْرُه بالصَّبرِ بالأمرِ بالائتساءِ ببعضِ الأنبياءِ السَّابِقينَ فيما لَقُوهُ مِنَ النَّاسِ، ثمَّ كانتْ لهم عاقِبةُ النَّصرِ، وكَشفِ الكُرَبِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ عطفًا على مَجموعِ ما تَقدَّمَ عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، والغرَضُ هوَ هو[٢].

- وابتُدِئَ بذِكرِ داودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ اللهَ أَعطاهُ مُلْكًا وسُلطانًا لم يكُنْ لآبائِه؛ ففي ذِكرِه إيماءٌ إلى أنَّ شأنَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سيَصيرُ إلى العِزَّةِ والسُّلطانِ، ولم يكُنْ له سلَفٌ ولا جُندٌ؛ فقد كان حالُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَشْبَهَ بحالِ داودَ عليه السَّلامُ[٣].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أُدمِجَ في خِلالِ قصَّةِ داودَ عليه السَّلامُ الإيماءُ إلى التَّحذيرِ مِنَ الضَّجَرِ في ذاتِ اللهِ تعالى، واتِّقاءِ مُراعاةِ حُظوظِ النَّفْسِ في سِياسةِ الأُمَّةِ؛ إبعادًا لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن مَهاوي الخطأِ والزَّلَلِ، وتأديبًا له في أوَّلِ أمْرِه وآخِرِه[٤].

- ووصْفُ داودَ عليه السَّلامُ بقَولِه: ﴿عَبْدَنَا﴾ وَصْفُ تَشريفٍ بالإضافةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٦).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٢٦، ٢٢٧).

بقَرينةِ المَقام[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ أي: رَجَّاعٌ إلى مَرضاةِ اللهِ تعالى، وهو تَعليلٌ لكَونِه ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾، ودليلٌ على أنَّ المُرادَ به القوَّةُ في الدِّينِ؛ فإنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يَصومُ يومًا ويُفطِرُ يَومًا، ويَقومُ نِصفَ اللَّيلِ، وكَونُه تعليلًا لهذا المعنى لأنَّ ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ يَحتمِلُ أنْ يَكونَ في الجِسمِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، وأنْ يَكونَ في الدِّينِ، فلمَّا جيءَ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ أعلَمَ أنَّ المُرادَ القوَّةُ في الدِّينِ[٢]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

وقيل: إنَّ جملةَ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ تعليلٌ للأمرِ بذِكرِه؛ إيماءً إلى أنَّ الأمرَ لقَصدِ الاقتِداءِ به، كما قال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]؛ فالجُملةُ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ وجُملةِ بيانِها، وهي: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾

- قَولُه: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتعليلِ قوَّتِه في الدِّينِ وأوَّابيَّتِه إلى مَرضاتِه تعالى. و(مع) مُتعلِّقةٌ بالتَّسخيرِ، وإيثارُها هنا على اللَّامِ؛ لِما أُشيرَ إليه في سُورةِ (الأنبياءِ) مِن أنَّ تسخيرَ الجِبالِ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يكُنْ بطريقِ تَفويضِ التَّصرُّفِ الكُلِّيِّ فيها إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كتَسخيرِ الرِّيحِ وغَيرِها لسُلَيمانَ عليه السَّلامُ، بل بطريقِ التَّبَعيَّةِ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والاقتِداءِ به في عِبادةِ اللهِ تعالى؛ قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَخَّرۡنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٧).

مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨١].

وقيل: إنَّ (مع) مُتعلِّقةٌ بما بعْدَها، وهو أقرَبُ بالنِّسبةِ إلى ما في سورةِ (الأنبياء)[١]، فهي ظَرفٌ لـ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾، وقُدِّم على مُتعَلَّقِه؛ للاهتِمامِ بمَعِيَّتِه المَذكورةِ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا﴾، أي: اذكُرْ فَضائلَه وما أَنعَمْنا عليه مِن تَسخيرِ الجِبالِ وكَيْتَ وكَيْتَ[٣].

- وجُملةُ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ حالٌ، واختيرَ الفِعلُ المُضارِعُ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ دُونَ الوَصفِ (مُسَبِّحاتٍ) الَّذي هو الشَّأنُ في الحالِ؛ لأنَّه أُريدَ الدَّلالةُ على تَجدُّدِ تَسبيحِ الجِبالِ معه كلَّما حضَرَ فيها، ولِما في المُضارِعِ مِن استِحضارِ تلك الحالةِ الخارقةِ للعادةِ مِن حُدوثِ التَّسبيحِ مِنَ الجِبالِ شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، وحالًا بعْدَ حالٍ، وكأنَّ السَّامِعَ حاضِرٌ تلك الجِبالَ يَسمَعُها تُسَبِّحُ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ المَحشورةُ: المُجتمِعةُ حَوْلَه عِندَ قِراءتِه الزَّبورَ، ولم يُؤْتَ في صِفةِ الطَّيرِ بالحَشرِ بالمُضارِعِ كما جيءَ به في ﴿يُسَبِّحْنَ﴾؛ إذِ الحَشرُ يَكونَ دَفْعةً، فلا يَقتَضي المَقامُ دَلالةً على تَجدُّدٍ ولا على استِحضارِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٢).

الصُّورةِ؛ فجيءَ به اسمًا لا فِعلًا، وذلك أبلَغُ مِن أن يُقالَ: وسَخَّرْنا الطَّيرَ يُحشَرْنَ- على أنَّ الحَشرَ يوجَدُ مِن حاشِرِها شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، والحاشِرُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ حَشْرَها جُملةً واحدةً أدَلُّ على القُدرةِ منه مُدرجًا[١].

- قَولُه: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ استِئنافٌ مُقَرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبْلَه، مُصرِّحٌ بما فُهِم منه إجمالًا مِن تَسبيحِ الطَّيرِ، أي: كُلُّ واحدٍ مِنَ الجبالِ والطَّيرِ لأجْلِ تَسبيحِه رَجَّاعٌ إلى التَّسبيحِ، وذلك على قولٍ[٢]، وتَنوينُ ﴿كُلٌّ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه[٣].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ لامُ التَّقويةِ. وتَقديمُ المَجرورِ على مُتعلَّقِه؛ للاهتِمامِ بالضَّميرِ المجرورِ[٤].

- وجَعَل الخَبَرَ ﴿أَوَّابٞ﴾ مُفرَدًا؛ قيل: إشارةً إلى شِدَّةِ زَجَلِها بالتَّأويبِ وعَظَمَتِه، والإفرادُ أيضًا يُفيدُ الحُكمَ على كُلِّ فَردٍ، ولو جَمَع لَطَرَقه احتِمالُ أنَّ الحُكمَ على المَجموعِ يُقَيِّدُ الجَمْعَ. و ﴿أَوَّابٞ﴾ هذا غَيرُ ﴿أَوَّابٞ﴾ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص: ١٧]؛ فلمْ تَتكرَّرِ الفاصِلةُ، والفَرقُ بَيْنَه وبيْنَ ما قَبْلَه أنَّه يدُلُّ على المُوافَقةِ في التَّسبيحِ، وهذا على المُداوَمةِ عليها، أو: كُلٌّ منهما ومِن داودَ عليه السَّلامُ مُرَجِّعٌ للهِ التَّسبيحَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

- وفي قَولِه: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ وُضِعَ الأوَّابُ مَوضِعَ المُسَبِّحِ: إمَّا لأنَّها كانت تُرجِّعُ التَّسبيحَ، والمُرجِّعُ رجَّاعٌ؛ لأنَّه يَرجِعُ إلى فِعلِه رُجوعًا بعْدَ رُجوعٍ، وإمَّا لأنَّ الأوَّابَ -وهو التَّوَّابُ الكثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ وطلَبِ مَرْضاتِه- مِن عادتِه أنْ يُكثِرَ ذِكرَ اللهِ، ويُديمَ تَسبيحَه وتَقديسَه، فأصلُ الكَلامِ: كلٌّ مِنَ الجِبالِ والطَّيرِ لأجْلِ تَسبيحِ داودَ مُسَبِّحٌ، فقيل: ﴿أَوَّابٞ﴾؛ لأنَّ كلَّ مُرَجِّعٍ للتَّسبيحِ راجِعٌ إليه، كما أنَّ كلَّ مُكذِّبٍ للحقِّ كاذِبٌ، وإنَّما عدَلَ منه إلى الأوَّابِ لنُكتةٍ؛ وهي: إمَّا أنْ يَكونَ كِنايةً عن التَّرجيعِ في التَّسبيحِ مِنَ (الأَوْبِ): الرُّجوعِ، أو عن كَثرةِ التَّسبيحِ؛ لأنَّ الأوَّابَ -أي: التَّوَّابَ- مِن عادتِه أنْ يُكثِرَ التَّسبيحَ، ولو تُرِكَ على ظاهِرِه لم يُعلَمْ ذلك، ولو قيل: كلٌّ له كالأوَّابِ -أي: التَّوَّابِ، على التَّشبيهِ- لم يُفهَمْ منه المَقصودُ صريحًا[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾

- قَولُه: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ أي: قَوَّيْناهُ بالهَيبةِ والنُّصرةِ وكَثرةِ الجُنودِ، وهي عِبارةٌ شامِلةٌ لِما وهَبَه اللهُ تعالى مِن قوَّةٍ وجُندٍ ونِعمةٍ. والشَّدُّ: الإمساكُ وتَمكُّنُ اليَدِ ممَّا تُمسِكُه؛ فيَكونُ لقَصدِ النَّفعِ كما هنا، ويَكونُ لقَصدِ الضُّرِّ كقَولِه: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [يونس: ٨٨]، فشَدُّ المُلكِ هو تَقويةُ مُلكِه، وسَلامتُه مِن أضرارِ ثَورةٍ لَديهِ، ومِن غَلَبةِ أعدائِه عليه في حُروبِه[2].

- ووصْفُ القَولِ بـ(الفَصلِ) وَصْفٌ بالمَصدرِ، أي: فاصِلٌ، والفاصِلُ: الفارِقُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

بيْن شَيئَينِ، وهو ضِدُّ الواصلِ، والمعنَى: أنَّ داودَ عليه السَّلامُ أُوتيَ مِن أَصالةِ الرَّأيِ وفَصاحةِ القَولِ ما إذا تَكلَّمَ جاء بكَلامٍ فاصِلٍ بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، شأنُ كَلامِ الأنبياءِ والحُكَماءِ[١]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨).

الآيات (٢١-٢٦)

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُواْ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَبَؤُاْ﴾: النَّبأُ: خَبَرٌ عَظيمٌ يَحصُلُ به عِلمٌ، وأصلُ (نبأ): يدُلُّ على الإتيانِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والخَبَرُ يأتي مِن مَكانٍ إلى مَكانٍ(١).

﴿ٱلْخَصْمِ﴾: أي: المُتخاصِمَينِ والمُتنازِعَينِ، ويَقَعُ على الواحِدِ والاثنَينِ والجَماعةِ، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على مُنازَعةٍ(٢).

﴿تَسَوَّرُواْ﴾: أي: صَعِدوا وتَسَلَّقوا، يُقالُ: تَسَوَّرتُ الحائِطَ والسُّورَ: إذا عَلَوْتَه، وأصلُ (سور): يدُلُّ على عُلُوٍّ وارتِفاعٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩)، ((الكليات)) =

﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾: المِحرابُ: مُقَدَّمُ كُلِّ مَجلِسٍ ومُصَلًّى وأشرَفُه، ويُطلقُ على المَسجدِ، وموضعِ العبادةِ، والغُرفةِ، والموضعِ العالي الشَّريفِ[١].

﴿بَغَىٰ﴾: أي: طغَى، وتعدَّى، والبَغْيُ: الظُّلْمُ، وأيضًا قَصْدُ الفسادِ، وأصلُ البغيِ: تَجاوُزُ الحدِّ، يقال: بَغَى الجرحُ، أي: تَجاوَزَ الحدَّ في فسادِه[٢].

﴿تُشْطِطْ﴾: أي: تَجُرْ وتُسرِفْ وتَتجاوَزْ، وأصلُ (شطط): يدُلُّ على المَيلِ[٣].

﴿سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾: أي: قَصْدَ الطَّريقِ المُستقيمِ ووسَطَه، والصِّراطُ: الطَّريقُ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بيْنَ شيئَينِ[٤].

﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾: أي: انزِلْ عنها لي، واجعَلْني كافِلَها، وأصلُ (كفل): يدُلُّ على

= للكفوي (ص: ٣٢١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٢٨) و(١٤/ ٣٣٦) و(٢٠/ ٥٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٢٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((العين)) للخليل (٦/ ٢١٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩).
وقال ابن جني: (﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾، أي: ولا تُبعِدْ، وهو مِن الشَّطِّ، وهو الجانبُ، فمعناه أخذُ جانبِ الشيءِ، وتركُ وسطِه وأقربِه). ((المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها)) (٢/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩).

تَضمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ[١].

﴿وَعَزَّنِي﴾: أي: غلَبَني وقهَرَني، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ[٢].

﴿ٱلْخُلَطَآءِ﴾: أي: الشُّرَكاءِ، وأصلُ (خلط): يدُلُّ على الجَمعِ[٣].

﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾: أي: ألقَى بنفْسِه إلى الأرضِ ساجدًا، والخُرورُ والخَرُّ: السُّقوطُ مِنْ عُلُوٍّ إلى الأرضِ، وخرَّ: سقَط على وَجهِه، وأصلُ (خرر): هو اضْطِرابٌ، وسُقوطٌ مع صوتٍ، و﴿رَاكِعًا﴾: أي: ساجدًا، عبَّر بالرُّكوعِ عنه؛ لأنَّ كلَّ واحِدٍ منهما نوعٌ مِنَ الانحناءِ، وأصلُ (ركع): يدُلُّ على انحناءٍ في الإنسانِ وغيرِه[٤].

﴿وَأَنَابَ﴾: أي: رجَعَ وتابَ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (١/ ١٢٣) و(٣/ ٥٤) و(٤/ ٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩، ٤٣٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

﴿لَزُلْفَىٰ﴾: أي: قُرْبةً ودَرَجةً ومَنزِلةً، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تَقدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[(١)].

﴿مَـَٔابٍ﴾: أي: مَرجِعٍ ومُنقَلَبٍ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وهل أتاك -يا مُحمَّدُ- نَبَأُ المُتخاصِمَينِ حينَ تسَلَّقا على داودَ مِحْرابَه، حينَ دخَلوا عليه فجأةً ففَزِعَ منهم! قالوا له: لا تخَفْ، نحن خَصْمانِ بَغى بَعضُنا على بَعضٍ؛ فاحكُمْ بَيْنَنا بالحُكمِ الحَقِّ، ولا تَتجاوَزْه إلى غَيرِه، وأرشِدْنا بحُكمِك العادِلِ إلى طَريقِ الحَقِّ الواضِحِ.

قال أحَدُ الخَصْمَينِ لِداودَ: إنَّ هذا أخي له تِسعٌ وتِسعونَ نَعجةً، ولِيَ نَعجةٌ واحِدةٌ لا أملِكُ غَيْرَها، فقال لي أخي: مَلِّكْني إيَّاها بحيثُ تكونُ تحتَ كَفالَتي، وغَلَبَني في المُحاجَّةِ والمُخاطَبةِ! قال داودُ لِلمُتظَلِّمِ منهما: لقد ظلَمَك أخوك بسُؤالِه ضَمَّ نَعجتِك إلى نعاجِه الكثيرةِ، وإنَّ كثيرًا مِن الشُّرَكاءِ لَيَعتدي بعضُهم على بَعضٍ، ويَطمَعُ بَعضُهم في مالِ الآخَرِ، إلَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ؛ فإنَّهم لا يَقعونَ في ذلك، وقليلٌ أولئك.

وغَلَب على ظَنِّ داودَ بعدَ قَضائِه بيْنَ الخَصمَينِ أنَّما اختبَرْناه، فطَلَب مِن رَبِّه مَغفِرةَ ذَنْبِه، وألقَى بنفْسِه إلى الأرضِ ساجدًا، ورجَعَ إلى رَبِّه، فغفَرْنا لداودَ ذلك الذَّنْبَ، وإنَّ له عِندَنا مَنزِلةً عاليةً وحُسنَ مُنقَلَبٍ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨).

ثمَّ يقولُ تعالى موجِّهًا نبيَّه داودَ عليه السَّلامُ ووُلاةَ الأمورِ: يا داودُ إنَّا جعَلْناك خَليفةً في الأرضِ؛ فاحكُمْ بيْنَ النَّاسِ بالعَدلِ، ولا تتَّبِعْ هوى نَفْسِك فيُضِلَّك عن طريقِ الحَقِّ، إنَّ الَّذين يَميلونَ عن طَريقِ اللهِ لهم عذابٌ شَديدٌ؛ بسَبَبِ نِسيانِهم يومَ القيامةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أثنى اللهُ تعالى على داودَ عليه السَّلامُ بما أثنَى؛ ذكَرَ قِصَّتَه هذه؛ لِيُعلَمَ أنَّ مِثلَ قِصَّتِه لا يَقدَحُ في الثَّناءِ عليه، والتَّعظيمِ لِقَدْرِه، وإن تضَمَّنَت استِغفارَه رَبَّه[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه آتَى نَبيَّه داودَ الفَصلَ في الخِطابِ بيْنَ النَّاسِ -على قَولٍ في التَّفسيرِ-، وكان مَعروفًا بذلك مَقصودًا؛ ذكَرَ تعالى نبَأَ خَصمَينِ اختَصَما عِندَه في قَضيَّةٍ، جعَلَهما اللهُ فِتنةً لداودَ عليه السَّلامُ، ومَوعِظةً لخَلَلٍ ارتكَبَه، فتاب اللهُ عليه، وغَفَر له[2].

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾.

أي: وهل أتاك -يا مُحمَّدُ- نبأُ المتخاصِمَينِ في قَضيَّةٍ، وخبَرُهما العَجيبُ مع داودَ[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٧-٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٧، ٩٨).

﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾.

أي: حينَ تَسَلَّقَ(١) المُتخاصِمانَ المِحْرابَ(٢).

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْۖ قَالُواْ لَا تَخَفْۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾.

---

(١) قال القرطبي: (ومعنَى: ﴿تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ أتَوْه مِن أعلى سُورِه. يُقالُ: تَسَوَّرَ الحائطَ: تَسَلَّقَه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٥). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٧١).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ يقولُ: دخَلوا عليه مِن غيرِ بابِ المحرابِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

والمِحرابُ: قيل: هو مُقَدَّمُ كُلِّ مَجلِسٍ وبيتٍ وأشرَفُه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٢١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٤٦).

وقيل: المحرابُ هنا: الغُرفةُ. وممَّن اختاره: يحيى بنُ سلَّام -نسَبَه إليه الماوَرْديُّ-، وقال الواحديُّ: (المِحرابُ كالغُرفةِ). يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٦).

قال ابن عطيَّة: (المحراب: الموضعُ الأرْفَعُ مِن القَصرِ أو المسجدِ، وهو مَوضِعُ التَّعبُّدِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨).

وممَّن اختار أنَّ المحرابَ محلُّ العبادةِ: السعدي، ونصَّ ابنُ أبي زَمَنِين على أنَّه المسجدُ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٨٥).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّه المسجدُ: مُجاهِدٌ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٦١).

قال الرَّازي: (وأمَّا المحرابُ فالمرادُ منه البيتُ الَّذي كان داودُ يَدخُلُ فيه ويَشتَغِلُ بطاعةِ رَبِّه، وسُمِّيَ ذلك البَيتُ بالمحرابِ؛ لاشتِمالِه على المحرابِ، كما يُسمَّى الشَّيءُ بأشرَفِ أجزائِه). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠).

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾.

أي: حينَ دَخَلوا على داودَ بَغتةً فذُعِرَ وخافَ منهم(١).

﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

أي: قالوا لِداودَ لَمَّا رأَوْا فَزَعَه مِن دُخولِهم عليه: لا تخَفْ؛ نحن خَصْمانِ(٢)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣، ٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

قال الرازي: (قال تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ والسَّببُ أنَّ داودَ عليه السَّلامُ لَمَّا رآهما قد دَخَلوا عليه لا مِن الطَّريقِ المعتادِ، عَلِم أنَّهم إنَّما دَخَلوا عليه للشَّرِّ، فلا جَرَمَ فزِع منهم). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٢).

وقال البِقاعي: (كان على وَجهٍ يَهُولُ أمرُه؛ إمَّا لِكَونِه في موضِعٍ لا يَقدِرُ عليه أحدٌ، أو غيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٥٧).

(٢) ذكَر الله تعالى هنا أنَّهما خَصْمانِ، وقال في أوَّلِ القصةِ: ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ وهو اسمٌ يَصلُحُ للواحِدِ والاثنينِ والجَمعِ، والمذكَّرِ والمؤنَّثِ، أمَّا قوله: ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ و﴿دَخَلُواْ﴾ بالجَمْعِ؛ فلأنَّ الجمْعَ يَتناوَلُ الاثنينِ فصاعِدًا، فمعنى الجَمعِ في الاثنينِ مَوجودٌ؛ لأنَّ معنى الجَمعِ ضَمُّ شَيءٍ إلى شَيءٍ، أو: جمَع؛ لأنَّه جاء مع كلٍّ منهما فِرقةٌ، كالعاضِدةِ والمُؤنِسةِ، أو يكون معنَى خَصْمانِ: فريقانِ، فيكونُ ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ و﴿دَخَلُواْ﴾ عائدًا على الخَصمِ الَّذي هو جمعُ الفريقَينِ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٩، ١٠٠).

وقد اختُلِف: هلِ الخَصْمانِ كانا مِن الملائكةِ أم مِن بني آدَمَ؟

ممَّن اختار أنَّهما كانا مِن الملائكةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّي، والواحدي، والعُلَيمي، وممَّن نقَل اتِّفاقَ المفسِّرينَ وعدَمَ اختلافِهم في ذلك: النَّحَّاسُ، وابنُ عطية، وابن جُزَي، والثعالبي، ونسَب القرطبيُّ هذا القولَ لأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٤)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣١). =

تَعدَّى أحَدُنا على صاحبِه، وتجاوَزَ حُدودَه بغَيرِ حَقٍّ[١].

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾.

أي: فاقْضِ بيْنَنا بالعَدلِ، ولا تَجُرْ في القَضاءِ فتَتجاوَزَ الحَدَّ[٢].

﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

أي: ودُلَّنا وأرشِدْنا بحُكمِك العادِلِ بيْنَنا إلى طَريقِ الحَقِّ الواضِحِ الَّذي لا الْتِباسَ فيه ولا إفراطَ ولا تَفريطَ[٣].

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣﴾.

= قال القرطبي: (وعَيَّنهما جماعةٌ فقالوا: إنَّهما جبريلُ وميكائيلُ. وقيل: مَلَكينِ في صورةِ إنسِيَّيْنِ بَعَثَهما اللهُ إليه في يومِ عِبادتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٦).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الخَصمينِ كانا مِن بني آدمَ، وأنَّ اختِصامَهم كان على الحقيقةِ لا التَّمثيلِ، وأنَّ الآيةَ على ظاهرِها: النَّقَّاشُ -كما في ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٦)- وابنُ حزمٍ، وهو ظاهرُ اختيارِ الرَّازي، واختاره السُّبْكيُّ، وأبو حيَّانَ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((الفِصَل)) لابن حزم (٤/ ١٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨١)، ((القول المحمود)) للسبكي (ص: ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٠١).

قال ابن حزم: (وإنَّما كان ذلك الخَصمُ قومًا مِن بني آدمَ بلا شكٍّ مُختصِمينَ فِي نِعاجٍ مِن الغَنَمِ على الحقيقةِ بيْنَهم، بغَى أحَدُهما على الآخَرِ على نصِّ الآيةِ). ((الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل)) (٤/ ١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤، ٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٣).

قال البقاعي: (﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا﴾: أي: طلَب طلبةَ علوٍ واستطالةٍ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٠٢، ١٠٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّهم لَمَّا أخبَروا عن وُقوعِ الخُصومةِ على سَبيلِ الإجمالِ؛ أردَفوه ببَيانِ سَبَبِ تلك الخُصومةِ على سَبيلِ التَّفصيلِ، فقال[١]:

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ﴾.

أي: قال أحَدُ الخَصمَينِ لِداودَ: إنَّ هذا أخي له تِسعٌ وتِسعونَ نَعجةً[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((الفصل)) لابن حزم (٤/ ١٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٠٣، ١٠٤).

قيل: المرادُ بقوله: ﴿أَخِي﴾ أُخوَّةُ الدِّينِ، أو أُخوَّةُ النَّسَبِ، أو أخوَّةُ الصَّداقةِ والأُلْفةِ، أو أخوَّةُ الشركةِ والخُلطةِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

واختُلِف في المرادِ بالنَّعجةِ على قولَينِ؛ فقيل: المرادُ: أُنثَى الضَّأنِ. وقيل: المرادُ بها الكنايةُ عن المرأةِ.

ممَّن ذهب إلى إبقاءِ لَفظِ النَّعجةِ على حقيقتِها مِن كَونِها أنثى الضَّأنِ، وأنها ليست كنايةً عن المرأةِ: ابنُ حزم، وأبو حيَّان، والنيسابوري، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل)) لابن حزم (٤/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٠٤).

وقد ذهب كثيرٌ مِن المفسِّرينَ، ومنهم ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والزمخشري، والسعدي: إلى أنَّ المرادَ بالنَّعجةِ: المرأةُ، وأنَّ ذِكرَ النَّعجةِ مَثَلٌ ضَرَبه الخَصمُ لداودَ عليه السَّلامُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

قال الأزهري: (والعربُ تَكْني بالنَّعجةِ والشَّاةِ عن المرأةِ). ((تهذيب اللغة)) (١/ ٢٤٥). ويُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (١/ ٢٢٥) و(٢/ ١٧٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٩٧).

وقال القرطبي: (العربُ تَكْني عن المرأةِ بالنَّعجةِ والشَّاةِ؛ لِما هي عليه مِن السُّكونِ والمَعْجَزةِ =

﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾.

أي: وليَ نَعجةٌ واحِدةٌ لا أملِكُ غَيْرَها، فقال لي أخي: أعطِنيها وضُمَّها إلَيَّ؛ فتكونَ تحتَ يدي[1].

= وضَعفِ الجانبِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٢).

وأيضًا لِما بيْنَهما مِن الملائمةِ في الرَّحمةِ وكثرةِ التَّآلُفِ. يُنظر: ((الطراز لأسرار البلاغة)) ليحيى بن حمزة (١/ ٢١٥).

قال البغوي: (قال الحُسَينُ بنُ الفضلِ: هذا تَعريضٌ للتَّنبيهِ والتَّفهيمِ؛ لأنَّه لم يكُنْ هناك نِعاجٌ ولا بَغْيٌ، فهو كقولِهم: ضرَب زَيدٌ عَمرًا، أو اشترى بَكْرٌ دارًا، ولا ضربٌ هنالك ولا شِراءٌ). ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٠).

وقال ابنُ القيِّم: (تخريجُ هذا الكلامِ على المعاريضِ لا يَكادُ يَتأتَّى، وإنَّما وَجْهُه أنَّه كلامٌ خرَج على ضربِ المثالِ: أي: إذا كان كذلك فكيف الحُكمُ بيْنَنا؟ ونظيرُ هذا قَولُ المَلَكِ للثَّلاثةِ الَّذين أراد اللهُ أن يَبتليَهم: «مسكينٌ وغريبٌ وعابرُ سبيلٍ، وقد تقَطَّعَت بيَ الحِبالُ، ولا بلاغَ لي اليومَ إلَّا باللهِ ثمَّ بك، فأسألُك بالَّذي أعطاك هذا المالَ بعيرًا أتَبَلَّغُ به في سفري هذا» [البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤)]، وهذا ليس بتعريضٍ، وإنَّما هو تصريحٌ على وَجهِ ضَربِ المثالِ، وإيهامِ أنِّي أنا صاحِبُ هذه القضيَّةِ، كما أَوْهَمَ المَلَكانِ داودَ أنَّهما صاحِبا القِصَّةِ؛ لِيَتِمَّ الامتحانُ). ((إعلام الموقعين)) (٣/ ١٦٩).

وقال ابنُ عاشور: (ليس في قَولِ الخَصمَينِ: ﴿هَٰذَآ أَخِي﴾ ولا في فَرضِهما الخُصومةَ الَّتي هي غيرُ واقِعةٍ: ارتكابُ الكَذِبِ؛ لأنَّ هذا مِن الأخبارِ المخالِفةِ للواقعِ الَّتي لا يُريدُ المُخبِرُ بها أن يَظُنَّ المُخبَرُ -بالفتحِ- وُقوعَها إلَّا رَيْثَما يَحصُلُ الغَرَضُ مِن العِبرةِ بها، ثمَّ يَنكَشِفُ له باطِنُها فيَعلَمُ أنَّها لم تَقَعْ، وما يجري في خِلالِها مِن الأوصافِ والنِّسَبِ غيرِ الواقِعةِ فإنَّما هو على سبيلِ الفَرضِ والتَّقديرِ، وعلى نيَّةِ المُشابَهةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٨). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((التفسير المنير)) للزحيلي (٢٣/ ١٨٦).

ذهب كثيرٌ مِن المفسِّرينَ -ومنهم ابنُ جرير، والقرطبي، والشوكاني- إلى أنَّ المرادَ: ولِيَ امرأةٌ واحِدةٌ، فقال لي أخي: انزِلْ لي عنها وضُمَّها إلَيَّ حتَّى أكفُلَها وأصيرَ زَوجًا لها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٩).

﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾.

أي: غلَبَني وقَهَرني في خِطابِه معي؛ لِيَأخُذَ مِنِّي نعجتي الوحيدةَ[1]!

﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾.

أي: قال داودُ للخَصمِ المتظَلِّم مِن صاحِبِه: لقد ظلَمَك أخوك بسُؤالِه أخْذَ نَعجتِك الوحيدةِ؛ لِيَضُمَّها إلى نِعاجِه الكثيرةِ[2].

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).
قال النيسابوري: (ليس السُّؤالُ هاهنا سؤالَ خُضوعٍ وتفَضُّلٍ، وإنَّما هو سؤالُ مُطالَبةٍ ومُعازَّةٍ). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٩).
وقال ابن عاشور: (﴿وَعَزَّنِي﴾ غَلَبني في مُخاطَبتِه، أي: أظهَر في الكلامِ عِزَّةً عليَّ وتطاوُلًا... والمعنى: أنَّه سأله أن يعطيَه نعجتَه، ولَمَّا رأى منه تمنُّعًا اشتدَّ عليه بالكلامِ وهَدَّده). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١، ٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٤٢)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥، ٢٣٦).
وقد ذهب ابنُ جرير وغيرُه -كما تقدَّم- إلى أنَّ المرادَ بالنَّعجةِ في هذه القِصَّةِ المرأةُ، أي: لقد ظلمَك أخوك بسؤالِه امرأتَك الواحِدةَ إلى التِّسعِ والتِّسعينَ مِن نسائِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١، ٦٢).
قال الواحدي: (أي: إن كان الأمرُ على ما تقولُ فقد ظلمَك أخوك بما كلَّفَك مِن تَحَوُّلِك عن امرأتِك؛ لِيَتزَوَّجَها هو). ((الوسيط)) (٣/ ٥٤٧).

أي: وإنَّ عادةَ كثيرٍ مِن الشُّرَكاءِ أن يَتعدَّى بعضُهم على بعضٍ، ويَظلِمَ بعضُهم بعضًا[١].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡ﴾.

أي: إلَّا الَّذين آمَنوا منهم بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ؛ فإنَّه لا يقَعُ منهم بَغْيٌ على شُرَكائِهم، وقَليلٌ هم أولئك[٢].

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٧)، ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالخُلَطاءِ الشُّرَكاءُ: ابنُ جرير، والنحاس، والسمعاني، والبغوي، والرسعني، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ١٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٧٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٩).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ يعني: الشُّرَكاءَ، واحدُهم: خليطٌ، وهو المُخالِطُ في المالِ، وإنَّما قال هذا؛ لأنَّه ظنَّهما شريكَينِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦٨).

وقال ابن جُزَي: (الخلطاءُ هم الشُّرَكاءُ في الأموالِ، ولكنِ الخُلْطةُ أعَمُّ مِن الشَّركةِ، ألَا ترى أنَّ الخُلطةَ في المواشي ليست بشركةٍ في رقابِها؟ وقصَد داودُ بهذا الكلامِ الوعظَ للخَصمِ الَّذي بغَى، والتَّسليةَ بالتَّأسِّي للخَصمِ الَّذي بُغِيَ عليه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٩).

وقيل: ﴿ٱلۡخُلَطَآءِ﴾: أي: الأصحابِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٠٨، ١٠٩).

أي: وغَلَب على ظَنِّ داودَ بعدَ قَضائِه بيْن الخَصمَينِ أنَّما ابتَلَيْناه[١].

﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾.

أي: فطلَبَ مِن رَبِّه أن يَغفِرَ له ذَنْبَه؛ سَترًا له، وتَجاوُزًا عن مؤاخَذتِه به[٢]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣، ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

قال البيضاوي: (﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾: ابتَلَيْناه بالذَّنْبِ، أو امتَحَنَّاه بتلك الحُكومةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧).

(٢) قال ابن عطيَّة: (لا خِلافَ بيْنَ أهلِ التَّأويلِ أنَّهم إنَّما كانوا ملائِكةً بَعَثَهم اللهُ ضَرْبَ مَثَلٍ لداودَ عليه السَّلامُ، فاختَصَموا إليه في نازلةٍ قد وقع هو في نحوِها، فأفتى بفُتيا هي واقِعةٌ عليه في نازلتِه، ولَمَّا شَعَر وفَهِم المرادَ، خَرَّ وأناب واستغفَرَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨).

قال الثعالبي: (وأمَّا نازِلتُه الَّتي وَقَع فيها، ففيها للقُصَّاصِ تطويلٌ، فلم نَرَ سوقَ جميعِ ذلك؛ لعدَمِ صِحَّتِه). ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٦٢).

وقال ابنُ كثير: (وقد ذكَر كثيرٌ مِن المفسِّرينَ مِن السَّلفِ والخلَفِ هاهنا قصصًا وأخبارًا أكثرُها إسرائيليَّاتٌ، ومنها ما هو مكذوبٌ لا محالةَ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٣٠٩). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠).

وقال القاضي عياضٌ: (وأمَّا قصَّةُ داودَ عليه السَّلامُ فلا يجبُ أن يُلتفَتَ إلى ما سطره فيه الأَخْباريُّون عن أهلِ الكتابِ الَّذين بدَّلوا وغيَّروا ونقَلَه بعضُ المفسِّرينَ، ولم يَنُصَّ اللهُ على شَيءٍ مِن ذلك، ولا ورد في حديثٍ صحيحٍ). ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى)) (٢/ ١٦٣).

ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٥٢- ٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٧).

وذكر السبكي أنَّ المغفورَ في الآيةِ أحدُ ثلاثةِ أمورٍ: (إمَّا ظَنُّه، وإمَّا اشتغالُه بالحُكم عن العبادةِ، وإمَّا اشتغالُه بالعبادةِ عن الحكمِ، كما أشعَر به قولُه: ﴿ٱلۡمِحۡرَابَ﴾). ((القول المحمود)) (ص: ١٧).

وقيل: ظنَّ دَاوُد عليه السَّلام أن يكونَ ما آتاهُ الله عزَّ وجل مِن سَعَةِ المُلكِ العظيمِ فِتْنةً، فاستغفَر اللهَ تعالى مِن هذا الظَّنِّ، فغفَر له؛ إذْ لم يكُنْ ما آتاه الله تعالى مِن ذلك فتنةً. واختاره ابنُ حزم. يُنظر: ((الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل)) (٤/ ١٥). =

وألقَى بنَفْسِه إلى الأرضِ ساجدًا[١]، ورجَعَ إلى ربِّه وإلى رِضوانِه مِن خَطيئتِه

= وقيل: إنَّه فَزِع منهم ظانًّا أنَّهم يَغتالونَه، فلمَّا اتَّضَح له أنَّهم جاؤُوا في حُكومةٍ، ولم يقَعْ ما كان ظنَّه؛ استغفَر اللهَ مِن هذا الظَّنِّ، فغفَر له. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥١).

وقيل: إنَّ تلك الزَّلَّةَ إنَّما حَصَلت لأنَّه قضَى لأحدِ الخَصمَينِ قبْلَ أنْ يَسمَعَ كلامَ الخصمِ الثَّانِي. واختاره الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨١). وردَّه ابنُ العربي والسعديُّ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١). ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٧).

قال النحاس: (﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ فيقالُ: إنَّ هذه خطيَّةُ داودَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾، مِن غيرِ تثبيتِ بَيِّنةٍ، ولا إقرارٍ مِن الخَصمِ، ولا سؤالٍ لِخَصْمِه هل كان هذا كذا أمْ لم يَكُنْ؟ هذا قولٌ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٣٠٩).

وقال القرطبيُّ بعدَ ذِكرِ كلامِ النَّحَّاسِ: (وهو حسَنٌ إن شاء الله تعالى). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٥).

واختار ابنُ عثيمينَ أنَّ اللهَ اختَبره بهذه الخصومةِ؛ وذلك لدخولِه المِحرابَ وإغلاقِه البابَ عليه، مُخالِفًا مقتضَى وظيفتِه، وما أُمِر به مِن الحُكمِ بيْنَ النَّاسِ، وأيضًا لحُكمِه بعدَ سماعِه مِن أحدِ الخَصمينِ دونَ الثَّاني، وليس في القرآنِ أنَّه سمِع جوابَ الثَّاني. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١١، ١١٢).

قال السعدي: (وهذا الذَّنْبُ الَّذي صَدَرَ مِن داودَ عليه السَّلامُ لم يَذكُرْه اللهُ؛ لعَدَمِ الحاجةِ إلى ذِكْرِه، فالتَّعَرُّضُ له مِن بابِ التَّكَلُّفِ، وإنَّما الفائدةُ ما قَصَّه اللهُ علينا مِن لُطفِه به وتَوبتِه وإنابتِه، وأنَّه ارتفَعَ مَحَلُّه؛ فكان بعدَ التَّوبةِ أحسَنَ منه قَبْلَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(١) نفى ابنُ العربيِّ وجودَ خِلافٍ بيْن العُلماءِ في أنَّ المرادَ بالرُّكوعِ هنا: السُّجودُ. وذكَرَ ابنُ تيميَّةَ اتِّفاقَ العُلَماءِ عليه. واعترض ابنُ عاشورٍ بأنَّ الخلافَ موجودٌ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٥٧)، ((جامع الرسائل)) لابن تيميَّةَ (١/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٠).

وقيل: ذُكِر الرُّكوعُ مع أنَّ المرادَ به السُّجودُ؛ لأنَّه سجَد بعدَ أن كان راكعًا، أي: فخُرورُه كان مِن رُكوعٍ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠).

قال ابن تيميَّةَ: (وقد ثبَتَ بالنَّصِّ الصَّحيحِ واتِّفاقِ النَّاسِ أنَّ داودَ سجَد... والآثارُ عن السَّلفِ متواترةٌ بأنَّ داودَ سجَد، فكُلُّ ساجدٍ راكِعٌ، وليس كلُّ راكِعٍ ساجدًا؛ فإنَّه إذا سجَد مِن قيامٍ انحنى انحناءَ الرَّاكعِ وزاد فإنَّه يَصيرُ ساجدًا، ولو صلَّى قاعدًا أيضًا انحنَى انحناءَ الرُّكوعِ وزاد فإنَّه =

تائِبًا[١].

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قرأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو على المِنبَرِ ﴿صٓ﴾، فلمَّا بلَغَ السَّجدةَ نَزَل فسَجَد، وسَجَد النَّاسُ معه، فلمَّا كان يومٌ آخَرُ قَرَأها، فلمَّا بلَغَ السَّجدةَ تَشَزَّنَ[٢] النَّاسُ للسُّجودِ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّما هي تَوبةُ نَبيٍّ، ولَكِنِّي رأيْتُكم تَشَزَّنْتُم للسُّجودِ، فنَزَل فسَجَد وسَجَدوا))[٣].

= يصيرُ ساجِدًا؛ فالسَّاجدُ راكِعٌ وزيادةٌ؛ فلهذا جازَ أن يُسمَّى راكِعًا... ومِن النَّاسِ مَن قالَ في قصَّةِ داودَ: إنَّه خَرَّ ساجِدًا بعدَ ما كان راكِعًا... وهذا قولٌ ضعيفٌ، والقرآنُ إنَّما فيه: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾، لم يقُلْ: خرَّ بعدَ ما كان راكِعًا... ولعلَّ داودَ سجَد مِن قيامٍ، وقيل: خرَّ راكعًا؛ ليبينَ أنَّ سُجودَه كان مِن قيامٍ، وهو أكمَلُ، ولَفْظُ خَرَّ يدُلُّ على أنَّه وصَل إلى الأرضِ، فجمع له معنى السُّجودِ والرُّكوعِ. ((جامع الرسائل)) (١/ ٣٣-٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٢، ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٢، ١١٣).

وقد اختلفَ العلماءُ في هذا الموضعِ: هل هو مِن مواضعِ السُّجودِ أو لا؟ فمذهَبُ الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ وبعضِ الشَّافعيَّةِ وروايةٌ عن أحمدَ أنَّه مِن مواضعِ سجودِ التِّلاوةِ. وممَّن اختاره: ابنُ المُنذِرِ، وابنُ حزمٍ، وابنُ بازٍ، وابنُ عُثَيمينَ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٢/ ١٠٣)، ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (١/ ٣٥٠)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٦١)، ((المغني)) لابن قدامة (١/ ٤٤١)، ((الأوسط)) لابن المنذر (٥/ ٢٦١)، ((المحلى)) لابن حزم (٣/ ٣٢٢)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٢٤/ ٤٠٦)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٤/ ٩٨).

(٢) التَّشَزُّنُ: التَّأهُّبُ والتَّهيُّؤُ للشَّيءِ، والاستِعدادُ له. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٧١).

(٣) أخرجه أبو داودَ (١٤١٠) واللَّفظُ له، والدارِميُّ (١٤٦٦)، وابنُ خُزَيْمةَ (١٤٥٥).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٧٦٥)، وصحَّح إسنادَه البَيْهَقيُّ في ((السنن الكبرى)) (٢/ ٣١٨)، والنوويُّ في ((المجموع)) (٤/ ٦٠)، وابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٧/ ٥٣)، والشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٣/ ١٢٠)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٢٧٦٥). وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٤١٠).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَجَد في ﴿صٓ﴾، وقال: سَجَدَها داودُ تَوبةً، ونَسجُدُها شُكرًا))[١].

وعنه أيضًا قال: ((﴿صٓ﴾ ليس مِن عزائِمِ السُّجودِ، وقد رأيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَسجُدُ فيها))[٢].

وعن العَوَّامِ، قال: ((سألْتُ مُجاهِدًا عن سَجدةِ ﴿صٓ﴾، فقال: سألْتُ ابنَ عَبَّاسٍ: مِن أين سَجَدْتَ؟ فقال: أوَما تَقرأُ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]؟ فكان داودُ ممَّن أُمِرَ نَبيُّكم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَقتَديَ به، فسجَدَها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[٣].

﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٢٥﴾.

﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾.

أي: فسَتَرْنا لداودَ ذلك الذَّنْبَ، وتَجاوَزْنا عن مُؤاخَذتِه به[٤].

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾.

---

(١) أخرجه النسائي (٩٥٧) واللفظ له، والطبراني (١٢/ ٣٤) (١٢٣٨٦)، والدارقطني (١/ ٤٠٧). قال ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (١/ ١٥١): (رجالُه على شرط البخاري). ووثَّق رواتَه ابنُ حجر في ((الدراية)) (١/ ٢١١)، وقال في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (١/ ٤٥٩): (أصلُه في البخاريِّ). وجَوَّد إسنادَه الشوكانيُّ في ((تفسيره)) (٤/ ٦٠٢)، وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٩٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠).

أي: وإنَّ لِداودَ عِندَنا لَقُربةً مِنَّا ومَنزِلةً رَفيعةً، وحُسْنَ مَرجِعٍ ومُنقَلَبٍ[١].

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: يا داودُ إنَّا استَخلَفْناك في الأرضِ[٢] بعدَ مَن كان قَبْلَك؛ لِتأمُرَ بالمعروفِ، وتَنهَى عن المُنكَرِ، وتُدَبِّرَ أمورَ أهلِها الدِّينيَّةَ والدُّنيويَّةَ بأمْرِنا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

قيل: المرادُ بـ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾: حُسنُ مَرجِعٍ في الآخرةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٢).

وقيل: المرادُ: حُسنُ مَرجِعٍ في كُلِّ ما يُؤمِّلُ مِن الخَيرِ، وفَوقَ ذلك. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٣).

(٢) قيل: الأرضُ هي أرضُ مملكتِه المعهودة، أي: جعَلْناك خليفةً في أرضِ إسرائيلَ. وممَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٢).

وقيل: المرادُ: الأرضُ كُلُّها؛ إشارةً إلى إطلاقِ أمْرِه في جميعِها، فلا جُناحَ عليه فيما فعَلَ في أيِّ بلدٍ أرادَها؛ فهو كان خليفةً في بيتِ المقدِسِ بالفِعلِ، وهو خليفةٌ في جميعِ الأرضِ بالقُوَّةِ، بمعنى: أنَّه مهما حكَمَ فيها صَحَّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٦٦).

قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يُجعَلَ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مرادًا به جميعُ الأرضِ؛ فإنَّ داودَ كان في زمَنِه أعظَمَ مُلوكِ الأرضِ؛ فهو مُتصَرِّفٌ في مملكتِه، ويَخافُ بأسَه ملوكُ الأرضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٢).

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: فاحكُمْ بيْن النَّاسِ بالعَدلِ والإنصافِ، وذلك بالحَقِّ المُنَزَّلِ مِن عندِ اللهِ تعالى[١].

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا تَتَّبِعْ هوَى نَفْسِك المُخالِفَ لأمرِ اللهِ؛ فيُضِلَّك الهوَى عن اتِّباعِ الحَقِّ المُوصِلِ لِرِضوانِ اللهِ وجَنَّتِه، ويُوقِعَك في الجَورِ والظُّلمِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ ما تَرتَّبَ على اتِّباعِ الهَوى، وهو الإضْلالُ عن سَبيلِ اللهِ؛ ذَكَر عِقابَ الضَّالِّ[٣]، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَحيدونَ عن طَريقِ اللهِ لهم عذابٌ شَديدٌ؛ بسَبَبِ نِسيانِهم يومَ القيامةِ، وتَرْكِهم الإيمانَ به، والاستِعدادَ له بالأعمالِ الصَّالحةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٥)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٢، ٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٦). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ فيه أنَّ داودَ عليه السَّلامُ كان في أغلَبِ أحوالِه مُلازِمًا مِحرابَه لعبادةِ رَبِّه؛ ولهذا تسَوَّر الخَصمانِ عليه المحرابَ؛ لأنَّه كان إذا خلا في مِحرابِه لا يأتيه أحدٌ، فلم يجعَلْ كُلَّ وَقتِه للنَّاسِ، مع كثرةِ ما يَرِدُ عليه مِنَ الأحكامِ، بل جعَلَ له وَقتًا يخلو فيه برَبِّه، وتَقَرُّ عَينُه بعبادتِه، وتُعينُه على الإخلاصِ في جميعِ أمورِه[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ﴾ فيه أنَّه ينبغي استِعمالُ الأدَبِ في الدُّخولِ على الحُكَّامِ وغَيرِهم؛ فإنَّ الخَصمَينِ لَمَّا دخَلَا على داودَ عليه السَّلامُ في حالةٍ غيرِ مُعتادةٍ، ومِن غيرِ البابِ المعهودِ؛ فَزِعَ منهم، واشتَدَّ عليه ذلك، ورآه غيرَ لائقٍ بالحالِ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ ...﴾ الآياتِ، في هذه القِصَّةِ دَليلٌ على التَّلَطُّفِ في رَدِّ الإنسانِ عن مَكروهٍ صَنَعه، وألَّا يُؤخَذَ بالعُنفِ ما أمكَنَ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ

= قال مكِّي: (قال عِكْرِمةُ: هذا مِن التَّقديمِ والتَّأخيرِ. والتَّقديرُ عندَه: لهم يومَ الحسابِ عذابٌ شديدٌ ﴿بِمَا نَسُواْ﴾ أي: بما ترَكوا أمرَ الله والقضاءَ بالعدلِ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٠/ ٦٢٣٨). واختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٧).

وقال ابن كثير: (قال السُّدِّيُّ: «لهم عذابٌ شديدٌ بما تَرَكوا أنْ يعمَلوا ليومِ الحسابِ». وهذا القولُ أمشَى على ظاهِرِ الآيةِ. فاللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢١).

فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ فيه أنَّه لا يَمنَعُ الحاكِمَ مِن الحُكمِ بالحَقِّ سُوءُ أدَبِ الخَصمِ، وفِعلُه ما لا يَنبَغي[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ فيه أنَّ المَوعوظَ والمَنصوحَ ولو كان كبيرَ القَدْرِ، جَليلَ العِلمِ، إذا نصَحه أحَدٌ أو وعَظَه: لا يَغضَبُ ولا يَشمَئِزُّ، بل يُبادِرُه بالقَبولِ والشُّكرِ؛ فإنَّ الخَصمَينِ نصَحَا داودَ عليه السَّلامُ، فلم يَشمَئِزَّ ولم يَغضَبْ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ دَليلٌ على أنَّ الخُصومَ إذا خاطَبوا الحاكِمَ بمِثلِه، وقالوا: «اعْدِلْ في حُكمِك، ولا تَجُرْ علينا»! لم يكُنْ ذلك منهما سُوءَ أدَبٍ، ولا يُجوزُ للحاكِمِ أنْ يَجِدَ عليهما، ولا يُعاقِبَهما[٣]، فمُخاطَبَةُ الخَصمِ لِداودَ بهذا خارِجةٌ مَخرجَ الحِرصِ على إظهارِ الحَقِّ، وهو في مَعنى الذِّكرَى بالواجِبِ؛ فلذلك لا يُعَدُّ مِثلُها جَفاءً لِلحاكِمِ والقاضي، وهو مِن قَبيلِ: اتَّقِ اللهَ في أمْري. وصُدورُه قَبْلَ الحُكمِ أقرَبُ إلى مَعنى التَّذكيرِ، وأبعَدُ عن الجَفاءِ، فإنْ وَقَع بعدَ الحُكمِ كان أقرَبَ إلى الجَفاءِ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيه أنَّ ما معهم مِن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ يَمنَعُهم مِنَ الظُّلمِ[٥]. وكُلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا وأكثرَ عَمَلًا مِن الصَّالحاتِ، كان أبْعَدَ عن الظُّلمِ والبَغيِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٧).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أنَّ العَمَلَ لا يَنفَعُ إلَّا إذا بُنِيَ على الإيمانِ وكان صالِحًا، فعَمَلٌ بلا إيمانٍ لا يُقبَلُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]، وكذلك لو كان هناك إيمانٌ لكِنْ لم يكنِ العَمَلُ صالِحًا؛ لِفَقْدِ الإخلاصِ أو الاتِّباعِ فيه، فإنَّه لا يَنفعُ[١].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُفيدُ أنَّ بَغْيَ أحَدِ المُتعاشِرَينِ على عَشيرِه: مُتَفَشٍّ بيْن النَّاسِ غيرِ الصَّالحينَ مِن المؤمِنينَ[٢].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيه أنَّ المخالطةَ بيْن الأقارِبِ والأصحابِ، وكثرةَ التَّعَلُّقاتِ الدُّنيويَّةِ الماليَّةِ: مُوجِبةٌ للتَّعادي بيْنَهم، وبَغْيِ بعضِهم على بعضٍ، وأنَّه لا يَرُدُّ عن ذلك إلَّا استِعمالُ تقوى اللهِ، والصَّبرُ على الأُمورِ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وأنَّ هذا مِن أقَلِّ شَيءٍ في النَّاسِ[٣].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ذِكرُ غالِبِ أحوالِ الخُلَطاءِ أراد به الموعِظةَ لهما بعدَ القَضاءِ بَيْنَهما، على عادةِ أهلِ الخَيرِ مِن انتِهازِ فُرَصِ الهدايةِ؛ فأراد داودُ عليه السَّلامُ أن يُرَغِّبَهما في إيثارِ عادةِ الخُلَطاءِ الصَّالحينَ، وأن يُكَرِّهَ إليهما الظُّلْمَ والاعتِداءَ. ويُستفادُ مِن المَقامِ أنَّه يأسَفُ لحالِهما، وأنَّه أراد تَسليةَ المظلومِ عَمَّا جرَى عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

مِن خَليطِه، وأنَّ له أُسوةً في أكثَرِ الخُلَطاءِ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أنَّ الحاكمَ لا يَحكُمُ حتَّى يَستوعِبَ حُجَجَ الخَصمَينِ[٢]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أنَّ الحاكمَ الذي نَصَب نفْسَه لِيَكونَ حَكَمًا بيْنَ العِبادِ لا يَحِلُّ له أنْ يَختفِيَ عنهم في الوقتِ الَّذي يكونُ وقتًا للتَّحاكم، وفيه أنَّ الاشتِغالَ بما فيه مصلحةٌ عامَّةٌ أفضلُ مِن الاشتغالِ بما فيه مصلحةٌ خاصَّةٌ[٣]. وهذا على القولِ بأنَّ داودَ عليه السَّلامُ كان قد أغلَق بابَه، أو جعَل عليه حاجبًا يمنعُ النَّاسَ مِن الدُّخولِ عليه.

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ الظنُّ بمعنى العِلم -واللهُ أعلمُ- أي: عَلِمَ داودُ، والدَّليلُ عليه استِغفارُه وتوبتُه؛ لأنَّ بالشَّكِّ لا يَتحقَّقُ الذَّنْبُ؛ فلِلتَّائِبينَ بعدَه أنْ يَقتَدوا به -صلَّى الله عليه وسلَّم- في التَّوبةِ، فيَستَغفِروا خارِّينَ بيْنَ يَدَيْ ربِّهم في السُّجودِ؛ لأنَّه أجْدَرُ بالغُفرانِ لصاحبِه إذا تذَلَّلَ بالسُّجودِ لخالِقِه[٤].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ۩ ۞ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ فيه أنَّ الاستغفارَ والعِبادةَ -خُصوصًا الصَّلاةَ- مِن مُكَفِّراتِ الذُّنوبِ؛ فإنَّ اللهَ رَتَّب مَغفِرةَ ذَنْبِ داودَ على استِغفارِه وسُجودِه[٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ أنَّه لا ينبغي للشَّخصِ إذا وُكِل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

إليه تَوَلِّي القضاءِ أنْ يَفِرَّ منه ما دام يَعرِفُ مِن نفْسِه الكفاءةَ؛ حتَّى لا يتَعطَّلَ هذا المَنصِبُ العظيمُ الَّذي هو مَنصِبُ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، فإذا أتاه دونَ سؤالٍ فلْيَستَعِنْ بالله، واللهُ يُعينُه عليه[١]، فمَنصِبُ القَضاءِ فَرْضُ كفايةٍ -كما قال ذلك أهلُ العِلمِ- وإذا لم يُوجَدْ إلَّا الشَّخصُ المُعَيَّنُ المُؤَهَّلُ، فإنَّه يَكونُ في حقِّه فرضَ عَينٍ[٢].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ فيه أنَّه ينبغي للحاكِمِ أن يَحذَرَ الهَوى، ويَجعَلَه منه على بالٍ؛ فإنَّ النُّفوسَ لا تخلو منه، بل يُجاهِدُ نَفْسَه بأن يكونَ الحَقُّ مَقصودَه، وأن يُلقِيَ عنه وقتَ الحُكمِ كُلَّ مَحبَّةٍ أو بُغضٍ لأحَدِ الخَصمَينِ[٣].

١٨- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ فيه أنَّ السَّبَبَ الأوَّلَ لحُصولِ الضَّلالِ هو نِسيانُ يَومِ الحِسابِ؛ لأنَّه لو كان مُتذكِّرًا ليَومِ الحِسابِ لَمَا أعرَضَ عن إعدادِ الزَّادِ لِيَومِ المعادِ، ولَمَا صارَ مُستَغرِقًا في هذه اللَّذَّاتِ الفاسِدةِ[٤].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ الحَذَرُ مِن الانغِماسِ في الدُّنيا؛ الَّذي يُوجِبُ نِسيانَ يومِ الحسابِ، وكلُّ لَهْوٍ يَصُدُّ عن سبيلِ اللهِ يُنسِي يومَ الحسابِ[٥].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ فيه التَّرهيبُ مِن نسيانِ القيامةِ، قال

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٩).

تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾[١] [الأعراف: ٥١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ إلى آخرِ القِصَّةِ: أنَّ الحُكْمَ بينَ النَّاسِ أفضَلُ مِن العباداتِ الخاصَّةِ؛ لأنَّ نَفعَه مُتَعَدٍّ، والعباداتِ الخاصَّةَ نَفعُها قاصِرٌ[٢]. وذلك على القولِ بأنَّ داودَ عليه السَّلامُ كان قد أغلَق بابَه، أو جعَل عليه حاجبًا يمنعُ النَّاسَ مِن الدُّخولِ عليه.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ﴾ أنَّ الأنبياءَ يَلحَقُهم مِن الطَّبائعِ البَشَريَّةِ ما يَلحَقُ غَيْرَهم؛ حيث لَحِقَه الفَزَعُ كما يَلحَقُ سائرَ النَّاسِ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ في هذه القِصَّةِ دليلٌ على جوازِ القَضاءِ في المَسجِدِ[٤]، وذلك على قولٍ في معنى المحرابِ.

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ﴾ نَصَّ على الأُخُوَّةِ؛ لاقتِضائِها عَدَمَ البَغيِ، وأنَّ بَغْيَه الصَّادِرَ منه أعظَمُ مِن غَيرِه، سواءٌ كانت أُخوَّةً في الدِّينِ أو النَّسَبِ أو الصَّداقةِ[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ فيه جَوازُ

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٥٦)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

المعاريضِ مِن القَولِ[١] -وذلك على قولٍ في معنى الآيةِ-؛ والمعاريضُ غيرُ مَعدودةٍ في عِدادِ الكَذِبِ[٢].

٦- لَباقةُ هَذينِ الخَصمَينِ؛ حيثُ لم تُثِرِ الخُصومةُ ضَغينتَهما؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾، مع أنَّه قال في الأوَّلِ: ﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ لكِنْ هذا البَغيُ لم تُفقَدْ به الأُخُوَّةُ؛ لِقَولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ فيه دَليلٌ شَرعيٌّ على جَوازِ وَضعِ القِصَصِ التَّمثيليَّةِ الَّتي يُقصَدُ منها التَّربيةُ والمَوعِظةُ، ولا يَتحَمَّلُ واضِعُها جُرحةَ الكَذِبِ[٤]، وذلك على أحَدِ القَولَينِ في معنى الآيةِ.

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ فيه سؤالٌ: كيف جاز لداودَ عليه السَّلامُ أن يَحكُمَ على أحَدِ الخَصمَينِ بمُجَرَّدِ قَولِ خَصمِه؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ هذا الكلامَ ليس ابتداءً مِن داودَ عليه السَّلامُ إثرَ فَراغِ لَفظِ المُدَّعِي، ولا فُتيا بظاهِرِ كَلامِه قَبْلَ ظُهورِ ما يَجِبُ، فذلك على تقديرِ: لَئِنْ كان ما تقولُ، لَقد ظَلَمَك. أي: أنَّ هذا الحكمَ كان مشروطًا بشرطِ كونِه صادقًا في دعواه.

الوجهُ الثَّاني: أنَّه ثَمَّ مَحذوفٌ، أي: فأقَرَّ المُدَّعَى عليه، فقال: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ﴾، ولكِنَّه لم يُحْكَ في القُرآنِ اعترافُ المُدَّعَى عليه؛ لأنَّه معلومٌ مِن الشَّرائعِ كُلِّها؛

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٨).

إذ لا يَحكُمُ الحاكِمُ إلَّا بعدَ إجابةِ المُدَّعَى عليه[١].

الوجهُ الثَّالِثُ: أن يكونَ التَّقديرُ أنَّ الخَصمَ الَّذي هذا شأنُه يكونُ قد ظَلَمك[٢].

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّه مِن المعلومِ مِن السِّياقِ السَّابِقِ مِن كَلامِهما: أنَّ هذا هو الواقِعُ؛ فلهذا لم يحتَجْ أن يَتكلَّمَ الآخَرُ؛ فلا وَجْهَ للاعتِراضِ[٣].

الوجهُ الخامِسُ: أنَّه قد عَلِمَ داودُ عليه السَّلامُ مِن تَساوُقِهما للخُصومةِ ومِن سُكوتِ أحَدِ الخَصمَينِ أنَّهما مُتقارِبانِ على ما وَصَفه الحاكي منهما[٤].

الوجهُ السَّادسُ: أنَّ هذه كانت خطيئةَ داودَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ مِن غيرِ تثبُّتٍ ببيِّنةٍ، ولا إقرارٍ مِن الخَصمِ هل كان هذا كذا أو لم يكُنْ[٥].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ استُدِلَّ به على جوازِ الشَّرِكةِ[٦].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ دَليلٌ على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٤).
وقال الثعلبي: (حُذِف الاعترافُ؛ لأنَّ ظاهرَ الآيةِ دالٌّ عليه، كقولِ العرَبِ: أمَرْتُك بالتِّجارةِ فكسَبْتَ الأموالَ [أي: فاتَّجرتَ فاكتسبتَ الأموالَ]). ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٥).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢١).
قال ابنُ قُدامةَ: (الشركةُ: هي الاجتماعُ في استحقاقٍ أو تصَرُّفٍ، وهي ثابتةٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ؛ أمَّا الكتابُ فقولُ الله تعالى: ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾ [النساء: ١٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾. والخُلَطاءُ هم الشُّرَكاءُ ...). ((المغني)) (٥/ ٣).

العَرَبَ -وإنْ سَمَّتِ النِّساءَ بالنِّعاجِ- فهي في هذا الموضِعِ نِعاجُ الغَنَمِ -على أحدِ القولَينِ-؛ لأنَّ الخُلَطاءَ لا يكونونَ في النِّساءِ، إنَّما يَكونونَ في الغَنَمِ[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أنَّ أكثَرَ الشُّرَكاءِ يَحصُلُ مِن أحدِهم بَغْيٌ على الآخَرِ، وهذا مِن الغَريبِ أن يَكونَ الإنسانُ كُلَّما قَرُبَ إلى الشَّخصِ تُوُقِّعَ منه البَغيُ أكثرَ ممَّا لو كان بعيدًا؛ لأنَّ البعيدَ ليس بيْنَه وبيْنَه صِلةٌ، لكنَّ الَّذي بيْنَه وبيْنَه صِلةٌ وهو الشَّريكُ: هو الَّذي رُبَّما يَجحَدُه أو يُنكِرُه، أو يَفعَلُ شيئًا لم يَأذَنْ به أو ما شابَهَ ذلك[٢].

١٢- قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أنَّ الجَمعَ بيْن هذَينِ الوَصفَينِ؛ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ: قَليلٌ[٣].

١٣- قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ في قَولِ الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ حَثٌّ للخَصْمَينِ أن يَكونا مِنَ الصَّالِحينَ؛ لِما هو مُتقَرِّرٌ في النُّفوسِ مِن نَفاسةِ كُلِّ شَيءٍ قَليلٍ[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أنَّ الأنبياءَ عليهم السَّلامُ قد يُفتَنونَ ويُختَبَرونَ، ولكِنَّ الفِتنةَ الَّتي يُفتَنُ بها الأنبياءُ لا يُمكِنُ أنْ تَعودَ إلى إبطالِ مُقَوِّماتِ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ؛ كالفِتنةِ التي تَعودُ إلى الكَذِبِ، أو الشِّركِ، أو الأخلاقِ الرَّديئةِ، وما أشبَهَها، هذا لا يُمكِنُ أنْ يَقَعَ مِن الأنبياءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٥٢). وتقدَّم ذِكرُ الخلافِ في ذلك (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٨).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أنَّ العبدَ بعدَ التَّوبةِ يعودُ خيرًا ممَّا كان[١].

١٦- قَولُ الله تعالى في حقِّ داودَ عليه السَّلامُ: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، وقولُه عن سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي...﴾ إلى أن قال عنه: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ يُبيِّنُ إكرامَ اللهِ لِعَبدِه داودَ وسُلَيمانَ؛ بالقُربِ منه، وحُسنِ الثَّوابِ، وألَّا يُظَنَّ أنَّ ما جرَى لهما مُنقِصٌ لدَرَجتِهما عندَ الله تعالى، وهذا مِن تمامِ لُطفِه سبحانه بعبادِه المُخلَصينَ: أنَّه إذا غَفَر لهم، وأزال أثَرَ ذُنوبِهم، أزال الآثارَ المترتِّبةَ عليه كلَّها، حتَّى ما يقَعُ في قُلوبِ الخَلقِ؛ فإنَّهم إذا عَلِموا ببَعضِ ذُنوبِهم وقَعَ في قُلوبِهم نُزولُهم عن دَرَجتِهم الأُولى، فأزال اللهُ تعالى هذه الآثارَ، وما ذاك بعزيزٍ على الكريمِ الغَفَّارِ[٢].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۞ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ يُبيِّنُ اعتِناءَ اللهِ تعالى بأنبيائِه وأصفيائِه عندَما يقَعُ منهم بَعضُ الخَلَلِ، بفِتنتِه إيَّاهم، وابتلائِهم بما به يَزولُ عنهم المحذورُ، ويَعودون إلى أكمَلَ مِن حالتِهم الأُولى، كما جرَى لداودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ[٣].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أنَّه يجِبُ الحُكمُ بيْنَ النَّاسِ بالحقِّ؛ سواءٌ كان ذلك في طريقِ الحُكمِ أو في نفْسِ الحُكمِ، أمَّا طريقُ الحكمِ؛ فهو معاملةُ الخَصمينِ بحيثُ تكونُ المعامَلةُ بيْنَهما على وجهِ العدلِ، وألَّا يميلَ إلى أحَدِ الخَصمَينِ أو يحابيه؛ لِقَرابةٍ، أو لجاهِه، أو سبَبٍ يقتَضي المَيلَ، ويُؤيِّدُ

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذا قَولُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾، وأمَّا في الحكمِ؛ فأنْ يَحكُمَ بما تقتضيه الشَّريعةُ[١].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ فيه أنَّ الحُكمَ بيْنَ النَّاسِ مَرتبةٌ دينيَّةٌ تولَّاها رُسُلُ اللهِ وخواصُّ خَلقِه، وأنَّ وَظيفةَ القائِمِ بها: الحُكمُ بالحَقِّ، ومُجانبةُ الهوى؛ فالحُكمُ بالحَقِّ يَقتَضي العِلمَ بالأُمورِ الشَّرعيَّةِ، والعِلمَ بصُورةِ القَضيَّةِ المحكومِ فيها، وكيفيَّةَ إدخالِها في الحُكمِ الشَّرعيِّ؛ فالجاهِلُ بأحَدِ الأمْرَينِ لا يَصلُحُ للحُكمِ، ولا يَحِلُّ له الإقدامُ عليه[٢].

٢٠- المعروفُ في استعمالِ الهوَى عندَ الإطلاقِ: أنَّه المَيلُ إلى خلافِ الحقِّ، كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٣].

٢١- قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾، ولذلك اشترَط العُلَماءُ في الخَليفةِ شُروطًا كُلُّها تَحومُ حوْلَ الحَيلولةِ بيْنَه وبيْنَ اتِّباعِ الهوَى، وما يُوازيه مِنَ الوُقوعِ في الباطِلِ، وهي: التَّكليفُ، والحُرِّيَّةُ، والعَدالةُ، والذُّكورةُ[٤].

٢٢- مُجَرَّدُ الحبِّ والبغضِ هو هوًى، لكنَّ المُحَرَّمَ منه هو اتِّباعُ حُبِّه وبُغْضِه بغيرِ هُدًى مِن اللهِ؛ ولهذا قال اللهُ سبحانه لنَبيِّه داودَ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾، فأخبَرَ أنَّ مَنِ

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٦٠-٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٦). ويُنظر أيضًا: ((الأم)) للشافعي (٧/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٥، ٢٤٦).

اتَّبَعَ هواه أضَلَّه ذلك عن سَبيلِ اللهِ، وهو هُداهُ الَّذي بَعَثَ به رَسولَه، وهو السَّبيلُ إليه[١].

٢٣- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لم يَنْهَه عن هوى النَّفْسِ، ولكِنْ نهاه عن اتِّباعِ هواها؛ لأنَّ النَّفْسَ قد تَهوى في الحُكمِ بغيرِ حَقٍّ؛ حيث قال: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾؛ لأنَّ النَّفْسَ أُنشِئَت على الهوى والمَيلِ إلى اللَّذَّاتِ والشَّهواتِ، وعلى ذلك طُبِعَت وبُنِيَت؛ فيكونُ في هواها إلى ما تَهوى مدفوعًا غيرَ مالِكٍ ولا قادِرٍ على دَفْعِه؛ لذلك لم يَنْهَه عن هواها، ولكِنْ نهاه عن اتِّباعِ هواها، ويَقدِرُ على مَنْعِها بالعَقلِ، ورَدِّها إلى اتِّباعِ الحَقِّ؛ لذلك كان ما ذَكَر. واللهُ أعلَمُ[٢].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ اتِّباعَ الهوَى يَجلِبُ للإنسانِ الضَّلالَ، كما أنَّه هو نَفْسُه ضَلالٌ، فإذا اتَّبَعتَ الهوى في قَضيَّةٍ ما فانتَظِرِ اتِّباعَ الهوى في القَضيَّةِ الَّتي تليها؛ لأنَّ المَعصيةَ قَبْلَ أنْ يَقَعَ فيها الإنسانُ يَجِدُ نَفْسَه تَستوحِشُ منها وتَنفِرُ، فإذا فَعَلَها مَرَّةً هانتْ عليه، وانكسرَ الحِجابُ، فإذا هانتْ عليه أوَّلَ مَرَّةٍ هانتْ عليه الثَّانيةُ ثمَّ الثَّالثةُ، حتَّى تُصبِحَ وكأنَّها لا شَيءَ؛ ولهذا يَضرِبُ العامَّةُ مَثَلًا له فائدةٌ، يقولونَ: «بكثرةِ الإمسَاسِ يَقِلُّ الإحساسُ»، يعني: إذا أكثَرَ الإنسانُ مُماسَّةَ الشَّيءِ قَلَّ إحساسُه به[٣].

٢٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في جَعلِ الضَّلالِ عن سَبيلِ اللهِ، ونِسيانِ يومِ الحِسابِ سَبَبينِ لاستِحقاقِ العَذابِ الشَّديدِ: تَنبيهٌ على

(١) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٧).

تلازُمِهما؛ فإنَّ الضَّلالَ عن سَبيلِ اللهِ يُفضي إلى الإعراضِ عن مُراقَبةِ الجَزاءِ[١].

٢٦- أنَّ دينَ اللهِ تعالى واحِدٌ لا يَتشعَّبُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فأفرَدَها، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ فسَبيلُ اللهِ واحِدةٌ، وما خالَفَها فهو المُتَشَتِّتُ؛ فهذا سَبَبُه الهوى، وهذا سَبَبُه خَشيةُ الناسِ، وهذا سَبَبُه كذا، وهذا سَبَبُه كذا؛ فتتفَرَّقُ السُّبُلُ[٢].

٢٧- أنَّ مِن أسبابِ الضَّلالِ عن سَبيلِ اللهِ نِسيانَ يومِ الحِسابِ، والغفلةَ عنه، والانغماسَ في الدُّنيا حتَّى تُنسِيَ الإنسانَ ما خُلِقَ له، وما هو مُقبِلٌ عليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: غَفَلوا عنه، وليس المرادُ بالنِّسيانِ الذُّهولَ الَّذي يُعفَى عنه، بلِ المرادُ بالنِّسيانِ التَّركُ الَّذي هو الغَفلةُ، وعَدَمُ المُبالاةِ به[٣].

٢٨- إثباتُ الأسبابِ؛ تُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ لأنَّ الباءَ هذه للسَّبَبيَّةِ[٤].

٢٩- مُناسَبةُ ذِكرِ الله تعالى قصَّةَ داودَ عليه السَّلامُ في سورةِ (ص): أنَّهم لَمَّا قالوا ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ [ص: ٨] كان في ذلك الكلامِ إشعارٌ بهَضمِ جانبِه، فغار الله لذلك، وبيَّن أنَّهم ليس عندَهم خزائنُ رحمتِه، ولا لهم مُلكٌ، وأنَّهم جندٌ مهزومون. وكأنَّه يقولُ: وما قدرُ هؤلاء؟ ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧] واذكُرْ مَن آتَيْناه المُلكَ العظيمَ في الدُّنيا، مع ما لَه في الآخرةِ، وهو أخوك،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٩).

وأنت عندَنا أرفَعُ رتبةً منه. وفي ذلك تسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلم مِن وجهينِ:

أحدهما: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا شكَّ أنَّه يَفرَحُ لإخوتِه الأنبياءِ بما يَحصُلُ لهم مِن الخَيرِ، كما لو حصَل لِنَفْسِه، سواء بسواء، وأكثر.

والثَّاني: أنَّه يعلمُ أنَّ رتبتَه عندَ الله أكمَلُ. وإذا ذكَر هذَينِ الأمْرَينِ، احتقَر قُرَيشًا فيه، وعلِم أنَّ الَّذي أُوتوه وافتَخَروا به لا شيءَ. فهذا وجهُ المناسبةِ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لإيرادِ قِصَّةِ داودَ عليه السَّلامُ[(٢)]. أو مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ [ص: ١٨]، والإنشاءُ هنا في معنَى الخَبَرِ؛ فإنَّ هذه الجُملةَ قصَّتْ شأنًا مِن شأنِ داودَ مع ربِّه تعالى، فهي نَظيرُ ما قَبْلَها[(٣)].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ ظاهِرُه الاستِفهامُ، ومَعناهُ: الدَّلالةُ على أنَّه مِنَ الأنباءِ العَجيبةِ الَّتي حَقُّها أنْ تَشيعَ ولا تَخفَى على أحَدٍ، وفي الاستِفهامِ معنَى التَّشويقِ إلى استِماعِه؛ وذلك أنَّ هذه القِصَّةَ إنْ كانتْ مَعلومةً للسَّامِعِ فيَكونُ في الاستِفهامِ بَعثٌ له، وتَحريضٌ على إشاعَتِها، وإعلامِ النَّاسِ بها، أي: كأنَّك ما عَلِمْتَها حيثُ تُخْفيها، ولا تؤدِّي حقَّها مِن الإذاعةِ، وإنْ لم تكُنْ معلومةً كان تأنيبًا على التَّقاعُدِ عن استِعلامِها، وتَشويقًا إلى استِماعِها. والخِطابُ يَجوزُ أنْ يَكونَ لكلِّ سامِعٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((القول المحمود)) للسبكي (ص: ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((حاشية الطيبي =

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ للعَهدِ الذِّهنيِّ، أي: عهدِ فَردٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ مِن جنسِه، أي: نَبأُ خَصمٍ مُعَيَّنٍ هذا خَبَرُه. والخَصمُ: اسمٌ يُطلَقُ على الواحِدِ وأكثَرَ[١]، وأُريدَ به هنا خَصْمانِ؛ لقَولِه بعْدَه: ﴿خَصْمَانِ﴾ [ص: ٢٢]، أو نحنُ فَوجانِ مُتَخاصِمانِ، على تَسميةِ مُصاحِبِ الخَصمِ خَصمًا[٢]، وقيل غيرُ ذلك[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْۖ قَالُواْ لَا تَخَفْۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾

- قَولُه: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ استِئنافٌ وَقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ نَشَأَ مِن حِكايةِ فَزَعِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ كأنَّه قيلَ: فماذا قالوا عِندَ مُشاهَدَتِهم لِفَزَعِه؟ فقيل: قالوا -إزالةً لِفَزَعِه-: ﴿لَا تَخَفْۖ خَصْمَانِ ...﴾[٤].

- وجاءَ ضَميرُ المُتَكَلِّمِ ومعه غَيرُه في قولِه: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا﴾؛ رَعْيًا لِمَعنى ﴿خَصْمَانِ﴾، ولم يُبَيِّنا الباغيَ منهما؛ لأنَّ مَقامَ تَسكينِ رَوْعِ دَاودَ يَقتَضي الإيجازَ بالإجمالِ، ثم يَعقُبُه التَّفصيلُ، ولإظهارِ الأدَبِ مع الحاكِمِ؛ فلا يَتَولَّيانِ تَعيينَ الباغي منهما، بل يَترُكانِه لِلحاكِمِ يُعيِّنُ الباغيَ منهما في حُكمِه حينَ قال لِأحَدِهما: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾[٥] [ص: ٢٤].

= على الكشاف)) (١٣/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٦).

(١) و(الخَصْمُ) في الأصلِ مَصدَرُ (خَصَمَه)، والعَرَبُ إذا نعتَت بالمَصدَرِ أفردَتْه وذكَّرَتْه، وعليه فالخَصمُ يُرادُ به الجَماعةُ والواحِدُ والاثنانِ، ويجوزُ جَمْعُه وتثنيتُه؛ لِتَناسي أصلِه الَّذي هو المصدَرُ، وتنزيلِه مَنزِلةَ الوصفِ. يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٣).

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ تفريعٌ على قَولِه: ﴿خَصۡمَانِ﴾؛ لِأنَّ داودَ عليه السَّلامُ لَمَّا كان مَلِكًا، وكان اللَّذانِ حَضَرَا عِندَه خَصمَيْنِ؛ كان طَلَبُ الحُكمِ بَيْنَهما مُفرَّعًا على ذلك. والباءُ في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ لِلمُلابَسةِ، وهي مُتعَلِّقةٌ بقَولِه: ﴿فَٱحۡكُم﴾، وهذا مُجرَّدُ طَلَبٍ منهما لِلحَقِّ[١].

- والنَّهيُ في قَولِه: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ مُستَعمَلٌ في التَّذكيرِ والإرشادِ[٢].

- وقَولُهما: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ يَصرِفُ عن إرادةِ الجَفاءِ مِن قَولِهما: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾؛ لأنَّهما عَرَفا أنَّه لا يَقولُ إلَّا حَقًّا، وأنَّهما تَطَلَّبَا منه الهُدَى، وعُبِّر بالهُدَى هنا عن البَيانِ، وإيضاحِ الصَّوابِ[٣].

- قولُه: ﴿سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ ضُرِب مثلًا لِعَيْنِ الحقِّ ومحضِه الَّذي لا يَشوبُه باطِلٌ، وعُبِّر به عنه؛ لِأنَّ الصِّراطَ الطَّريقُ الواسِعُ، والسَّواءُ منه هو الَّذي لا الْتِواءَ فيه، ولا شُعَبَ تَتشَعَّبُ منه، فهو أسرَعُ إيصالًا إلى المَقصودِ باستِوائِه، وأبعَدُ عن الالتِباسِ بسَلامَتِه مِنَ التَّشَعُّبِ[٤].

- ومَجموعُ قَولِه: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ تَمثيلٌ لِحالِ الحاكِمِ بالعَدلِ بحالِ المُرشِدِ الدَّالِّ على الطَّريقِ المُوصلةِ؛ فهو مِنَ التَّمثيلِ القابِلِ تَجزِئةَ التَّشبيهِ في أجزائِه[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

فِي ٱلۡخِطَابِ ﴾

- قَولُه: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ استِئنافٌ لِبَيانِ ما فيه الخُصومةُ، أيْ: أخي في الدِّينِ، أو في الصُّحبةِ، والتَّعرُّضُ لذلك تَمهيدٌ لِبَيانِ كَمالِ قُبحِ ما فَعَل به صاحِبُه[١].

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿أَخِي﴾ بَدَلًا مِن اسمِ الإشارةِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ خَبَرَ ﴿إِنَّ﴾، وهو أوْلَى؛ لِأنَّ فيه زيادةَ استِفظاعِ اعتِدائِه عليه[٢].

- قيل: الظَّاهِرُ إبقاءُ لَفظِ النَّعجةِ على حَقيقَتِه مِن كَونِها أُنثى الضَّأْنِ؛ لِأنَّ ذلك الإخبارَ كان صادِرًا مِنَ المَلائِكةِ -على قولٍ-، على سَبيلِ التَّصويرِ لِلمَسألةِ، والفَرضِ لها مِن غَيرِ تَلَبُّسٍ بشَيءٍ منها، فمَثَّلوا بقِصَّةِ رَجُلٍ له نَعجةٌ، ولِخَليطِه تِسعٌ وتِسعونَ، فأرادَ صاحِبُه تَتِمَّةَ المِئةِ، فطَمِعَ في نَعجةِ خَليطِه، وأرادَ انتِزاعَها منه، وحاجَّهُ في ذلك مُحاجَّةَ حَريصٍ على بُلوغِ مُرادِه، ويدُلُّ على ذلك قَولُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ [ص: ٢٤]، وهذا التَّصويرُ والتَّمثيلُ أبلَغُ في المَقصودِ، وأدَلُّ على المُرادِ[٣].

- وقيل: إنَّ لَفظَ النَّعجةِ كِنايةٌ عنِ المَرأةِ؛ فقد كانوا يَكْنون عنِ المرأةِ بالنَّعجةِ والشَّاةِ، والكِنايةُ والتَّمثيلُ فيما يُساقُ لِلتَّعريضِ أبلَغُ في المَقصودِ، وفي مَعنى ذِكرِ النِّعاجِ نُكتةٌ بَليغةٌ؛ لِأنَّ تَحاكُمَهم في نَفْسِه كان تَمثيلًا، أيْ: تَعريضًا وتَوريةً، وكان كَلامُهم تَمثيلًا، أيْ: تَعريضًا وتَوريةً؛ لِأنَّ التَّمثيلَ أبلَغُ في التَّوبيخِ؛ ولِلتَّنبيهِ على أنَّه أمرٌ يُستَحْيا مِن كَشفِه، فيُكَنَّى عنه، كما يُكَنَّى عمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٠، ٣٥١).

يُستَسمَجُ الإفصاحُ به[١].

- وقولُه: ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: اجْعَلْها في كَفالَتي، أي: حِفْظي، وهو كِنايةٌ عن الإعطاءِ والهِبةِ، أيْ: هَبْها لي[٢].

- قَولُه: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ أي: غَلَبَني في مُخاطَبَتِه، أيْ: أظهَرَ في الكَلامِ عِزَّةً عليَّ وتَطاوُلًا؛ فجَعَلَ الخِطابَ ظَرفًا لِلعِزَّةِ؛ لِأنَّ الخِطابَ دَلَّ على العِزَّةِ والغَلَبةِ؛ فوَقَعَ تَنزيلُ المَدلولِ مَنزِلةَ المَظروفِ، وهو كَثيرٌ في الاستِعمالِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾

- قَولُه: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ جَوابُ قَسَمٍ مَحذوفٍ؛ قَصَد به المُبالَغةَ في إنكارِ فِعلِ خَليطِه، وتَهجينِ طَمَعِه[٤].

- وفي قَولِه: ﴿بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ﴾ أضافَ المَصدَرَ إلى المَفعولِ، وضَمَّنَ السُّؤالَ مَعنى الإضافةِ والضَّمِّ، أيْ: بإضافةِ نَعجَتِكَ على سَبيلِ السُّؤالِ والطَّلَبِ؛ ولذلك عَدَّاهُ بـ (إلى)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٨- ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).

=

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ كِنايةٌ عن أمْرِهما بأنْ يَكونَا مِنَ المُؤمِنينَ الصَّالِحينَ، وأنَّ ما فَعَلَه أحَدُهما ليس مِن شَأنِ الصَّالِحينَ[1].

- وزِيادةُ (ما) بَعدَ (قَلِيلٌ) في قَولِه: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾؛ لِقَصدِ الإبهامِ، وفي هذا الإبهامِ إيذانٌ بالتَّعَجُّبِ مِن قِلَّتِهم بمَعونةِ السِّياقِ والمَقامِ. وقيل: (ما) صِلةٌ، تُفيدُ معنى التَّعظيمِ والتَّعَجُّبِ[2].

- وسَوقُ نَبَأِ الخَصمَيْنِ عَقِبَ التَّنويهِ بداودَ عليه السَّلامُ ليس إلَّا تَتميمًا لِلتَّنويهِ به؛ لِدَفعِ ما قد يُتَوهَّمُ أنَّه يَنقُضُ ما ذُكِرَ مِن فَضائِلِه ممَّا جاءَ في كِتابِ اليَهودِ في ذِكرِ هذه القِصَّةِ مِن أغلاطٍ باطِلةٍ تُنافي مَقامَ النُّبوَّةِ؛ فأُريدَ بَيانُ المِقدارِ الصَّادِقِ منها، وتَذييلُه بأنَّ ما صَدَرَ عن داودَ عليه السَّلامُ يَستَوجِبُ العِتابَ، ولا يَقتَضي العِقابَ؛ ولذلك خُتِمتْ بقَولِه: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[3] [ص: ٢٥].

- وأيضًا جاءتْ قِصَّةُ داودَ عليه السَّلامُ على طَريقةِ التَّمثيلِ والتَّعريضِ دونَ التَّصريحِ؛ لِكَونِها أبلَغَ في التَّوبيخِ، مِن قِبَلِ أنَّ التَّأمُّلَ إذا أدَّاهُ إلى الشُّعورِ بالمُعَرَّضِ به، كان أوْقَعَ في نَفْسِه، وأشَدَّ تَمكُّنًا مِن قَلبِه، وأعظَمَ أثَرًا فيه،

= وقال ابنُ جريرٍ: (قال داودُ للخَصمِ المُتظلِّمِ مِن صاحِبِه: لقد ظلَمك صاحبُك بسؤالِه نعجتَك إلى نعاجِه، وهذا مما حُذِفتْ منه الهاءُ، فأُضيف بسقوطِ الهاءِ منه إلى المفعولِ به). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٧).

وأجلَبَ لاحتِشامِه وحَيائِه، وأدْعى إلى التَّنَبُّهِ على الخَطَأِ فيه مِن أنْ يُبادِرَه به صَريحًا، مع مُراعاةِ حُسنِ الأدَبِ بتَركِ المُجاهَرةِ[١]. وذلك بِناءً على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وجاء الفَصلُ في القِصَّةِ على وَجهِ التَّحاكُمِ إلى داودَ عليه السَّلامُ لِيَحكُمَ بما حَكَم به مِن قَولِه: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾؛ حتى يَكونَ مَحجوجًا بحُكمِه، ومُعتَرِفًا على نَفْسِه بظُلْمِه[٢]. وذلك بِناءً على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وعَبَّرَ بالرَّاكِعِ عنِ السَّاجِدِ في قَولِه: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾؛ لِأنَّه يَنحَني ويَخضَعُ كالسَّاجِدِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ قدِ استَغفَرَ اللهَ لِذَنْبِه، وأحرَمَ برَكعَتَي الاستِغفارِ والإنابةِ؛ فيَكونَ المَعنى: وخرَّ لِلسُّجودِ راكِعًا، أيْ: مُصَلِّيًا؛ لِأنَّ الرُّكوعَ يُجعَلُ عِبارةً عنِ الصَّلاةِ[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾

- قولُه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ للإشارةِ إلى ما دَلَّتْ عليه خُصومةُ الخَصْمَينِ مِن تَمثيلِ ما فَعَله داودُ عليه السَّلامُ بصُورةِ قَضيةِ الخَصمَينِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهذا مِن لَطائِفِ القُرآنِ؛ إذْ طَوى القِصَّةَ الَّتي تَمثَّلَ له فيها الخَصمانِ، ثمَّ أشارَ إلى المَطويِّ باسمِ الإشارةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٤١).

- وأتْبَعَ اللهُ سُبحانَه الخَبَرَ عنِ الغُفرانِ له بما هو أرفَعُ دَرَجةً؛ وهو أنَّه مِنَ المُقرَّبينَ عِندَ اللهِ، المَرْضيِّ عنهم، وأنَّه لم يُوقَفْ به عِندَ حَدِّ الغُفرانِ لا غَيرُ، فقالَ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. وتَأكيدُ الخَبَرِ -بـ (إنَّ) واللَّام-؛ لِإزالةِ تَوهُّمِ أنَّ اللهَ غَضِبَ عليه إذْ فَتَنَه؛ تَنزيلًا لِمَقامِ الاستِغرابِ مَنزِلةَ مَقامِ الإنكارِ[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾

- قَولُه: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لِحِكايةِ ما خُوطِبَ به داودُ عليه السَّلامُ بعدَ ما تَقدَّمَ، وهو مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ مَعطوفٍ على قَولِه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص: ٢٥]، أيْ: صَفَحْنا عنه، وذَكَّرْناه بنِعمةِ المُلْكِ، ووَعَظْناه؛ فجَمَعَ له بهذا تَنويهًا بشَأنِه، وإرشادًا لِلواجِبِ[2].

- وافتِتاحُ الخِطابِ بالنِّداءِ في قَولِه: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ﴾؛ لاستِرعاءِ وَعيِه، واهتِمامِه بما سَيُقالُ له[3].

- وقَولُه: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مُفرَّعٌ على جَعْلِه خَليفةً؛ فأمَرَه بأنْ يَحكُمَ بيْنَ النَّاسِ بالحَقِّ؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ ذلك واجِبُه، وأنَّه أحَقُّ النَّاسِ بالحُكمِ بالعَدلِ؛ ذلك لِأنَّه هو المَرجِعُ لِلمَظلومينَ، والَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٢).

تُرفَعُ إليه مَظالِمُ الظَّلَمةِ مِنَ الوُلاةِ، فإذا كان عادِلًا خَشِيَه الوُلاةُ والأُمراءُ؛ لِأنَّه ألِفَ العَدلَ، وكَرِهَ الظُّلْمَ فلا يُقِرُّ ما يَجري منه في رَعيَّتِه كُلَّما بَلَغَه، فيَكونَ الناسُ في حَذَرٍ مِن أنْ يَصدُرَ عنهم ما عَسى أنْ يُرفَعَ إلى الخَليفةِ فيَقتَصَّ مِنَ الظَّالِمِ، وأمَّا إنْ كانَ الخَليفةُ يَظلِمُ في حُكمِه، فإنَّه يَألَفُ الظُّلْمَ، فلا يُغضِبُه إذا رُفِعتْ إليه مَظلِمةُ شَخصٍ، ولا يَحرِصُ على إنصافِ المَظلومِ، والمُرادُ بالنَّاسِ ناسُ مَملَكَتِه؛ فالتَّعريفُ لِلعَهدِ، أو هو لِلاستِغراقِ العُرفيِّ[١].

- وأيضًا قَولُه: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أمْرٌ بالدَّيمومةِ، وتَنبيهٌ لِغَيرِه ممَّن وَلِيَ أُمورَ النَّاسِ؛ فمِن حيثُ هو مَعصومٌ لا يَحكُمُ إلَّا بالحَقِّ أُمِرَ أوَّلًا بالحُكمِ، ولَمَّا كان الهَوى قد يَعرِضُ لِغَيرِ المَعصومِ أُمِرَ باجتِنابِه، وذَكَرَ نَتيجةَ اتِّباعِه؛ وهي إضلالُه عن سَبيلِ اللهِ[٢].

- وتَقدَّمَ الأمْرُ بالحُكمِ بالحَقِّ على قَولِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾؛ لِيَكونَ تَوطِئةً لِلنَّهيِ عن اتِّباعِ الهَوى؛ سَدًّا لِذَريعةِ الوُقوعِ في خَطَأِ الحَقِّ؛ فإنَّ داودَ عليه السَّلامُ ممَّن حَكَمَ بالحَقِّ، فأمْرُه به باعتِبارِ المُستَقبَلِ[٣].

- والهَوى: كِنايةٌ عن الباطِلِ والجَورِ والظُّلمِ[٤].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡهَوَىٰ﴾ تَعريفُ الجِنسِ المُفيدُ لِلاستِغراقِ؛ فالنَّهيُ يَعُمُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٣).

وقال الشنقيطي: (مَعلومٌ أنَّ نَبيَّ اللهِ داودَ لا يَحكُمُ بغيرِ الحَقِّ، ولا يَتَّبِعُ الهوى فيُضِلُّه عن سَبيلِ اللهِ، ولكِنَّ اللهَ تعالى يأمُرُ أنبياءَه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وينهاهم؛ لِيُشرِّعَ لأُمَمِهم). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٤٤).

كُلَّ ما هو هَوًى؛ سواءٌ كان هَوى المُخاطَبِ، أو هَوى غَيرِه، مِثلَ هَوى زَوجِه ووَلَدِه، وسَيِّدِه وصَديقِه[١].

- وأيضًا النَّهيُ عن اتِّباعِ الهَوى تَحذيرٌ له، وإيقاظٌ؛ لِيَحذَرَ مِن جَرَّاءِ الهَوى، ويَتَّهِمَ هَوى نَفْسِه، ويَتعَقَّبَه، فلا يَنقادَ إليه فيما يَدعوه إليه إلَّا بعدَ التَّأمُّلِ والتَّثبُّتِ، والاسترسالُ في اتِّباعِ الشَّهَواتِ وُقوعٌ في الرَّذائِلِ في الأغلَبِ؛ ولهذا جَعَلَ هنا الضَّلالَ عن سَبيلِ اللهِ مُسبَّبًا عنِ اتِّباعِ الهَوى، وهو تَسبُّبٌ أغلَبيٌّ عُرفيٌّ؛ فشَبَّهَ الهَوى بسائِرٍ في طَريقٍ مهلكةٍ، وعَبَّرَ عن ذلك بالإضْلالِ عن طَريقِ الرَّشادِ، المُعبَّرِ عنه بسَبيلِ اللهِ؛ فإنَّ الَّذي يَتَّبِعُ سائِرًا غَيرَ عارِفٍ بطَريقِ المَنازِلِ النَّافِعةِ، لا يَلبَثُ أنْ يَجِدَ نَفْسَه وإيَّاه في مهلكةٍ أو مَقطَعةِ طَريقٍ[٢].

- وقَولُه: ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ جَوابٌ لِلنَّهيِ في قولِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾[٣].

- وقَولُه: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه الثَّناءُ العظيمُ على شَريعةِ اللهِ؛ وذلك بإضافتِها إلى اللهِ؛ لأنَّ كلَّ ما أُضيفَ إلى اللهِ -إذا كانتِ الإضافةُ خاصَّةً- فإنَّ الإضافةَ تدُلُّ على شَرَفِه[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ ...﴾ يَظهَرُ أنَّها ممَّا خاطَبَ اللهُ به داودَ عليه السَّلامُ؛ فهي في مَوقِعِ العِلَّةِ لِلنَّهيِ؛ فكانت (إنَّ) مُغْنيةً عن فاءِ التَّسبُّبِ والتَّرتُّبِ، فالشَّيءُ الَّذي يُفضي إلى العَذابِ الشَّديدِ خَليقٌ بأنْ يُنهَى عنه. وإنْ كانتِ الجُملةُ كلامًا مُنفَصِلًا عن خِطابِ داودَ عليه السَّلامُ كانت مُعتَرِضةً ومُستَأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِبَيانِ خَطَرِ الضَّلالِ عن سَبيلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٨).

اللهِ[١]. وأتَى بهذه الجملةِ الاستئنافيَّةِ الاستقلاليَّةِ؛ أوَّلًا: تفاديًا لمُخاطَبةِ داودَ عليه السَّلامُ بذلك، وثانيًا: لِيَكونَ أَعَمَّ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ إظهارُ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في مَوقِعِ الإضمارِ -حيثُ لم يقُلْ: (سَبيله)-؛ لِزيادةِ التَّقريرِ، والإيذانِ بكَمالِ شَناعةِ الضَّلالِ عنه[٣].

- وجِيءَ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لِلإيماءِ إلى أنَّ الصِّلةَ عِلَّةٌ لاستِحقاقِ العَذابِ[٤].

- والعُمومُ الَّذي في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُكسِبُ الجُملةَ وصْفَ التَّذييلِ[٥].

- واللَّامُ في ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ لِلاختِصاصِ[٦].

- والباءُ في ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ سَبَبيَّةٌ، و(ما) مَصدَريَّةٌ، أيْ: بسَبَبِ نِسيانِهم يَومَ الحِسابِ[٧].

- والنِّسيانُ في قَولِه: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾: مُعبَّرٌ به عن الإعراضِ الشَّديدِ؛ لأنَّه يُشبِهُ نِسيانَ المُعرَضِ عنه[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٧-٢٩)

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَوَيْلٌ﴾: وَيلٌ: كَلِمةٌ تُقالُ عندَ الهَلَكةِ، والويلُ: الحزنُ والهلاكُ والمشَقَّةُ مِن العذابِ، وقيل: الوَيلُ: وادٍ في جَهنَّمَ[(١)].

﴿مُبَٰرَكٌ﴾: البَرَكَةُ: مِن الزِّيادةِ والنَّماءِ، وهي ثُبوتُ الخَيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ، والمُبارَكُ ما فيه ذلِك الخَيرُ، وأصل (برك): يدُلُّ على ثباتِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾: أي: لِيَتأمَّلوا في معانيه، ويَتبصَّروا ما فيه؛ يُقال: تدبَّرتُ الأمرَ، أي: نظرتُ في عاقبتِه، والتَّدبيرُ: قَيْسُ دُبُرِ الكلامِ بقُبُلِه، ثمَّ جُعِل كلُّ تمييزٍ تدبيرًا، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه، خِلافُ قُبُلِه[(٣)].

﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي: العقولِ الزَّكيَّةِ، مُفردُها لُبٌّ، وأصْلُ اللُّبِّ: الخُلُوصُ والجَودةُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٢٣٦).
قال الراغب: (ومَن قال: «ويلٌ»: وادٍ في جهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ «ويلًا» في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد مَن قال الله تعالى ذلك فيه فقد استحقَّ مقرًّا مِن النَّارِ، وثبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢٧، ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨٧).

والشَّيءُ المُنتقَى[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُنزِّهًا نفْسَه عن العبثِ ومتوعِّدًا الكفَّارَ الَّذين يَظنُّونَ ذلك: وما خلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بَيْنَهما خَلْقًا باطِلًا لا حِكمةَ فيه، ذلك ظَنُّ الَّذين كَفَروا، فوَيلٌ للَّذين كَفَروا مِن عذابِ النَّارِ في الآخِرةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ حِكمتَه اقتضَتْ عدمَ المساواةِ بيْنَ الأخيارِ والأشرارِ، فيقولُ: بل أنجعَلُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ كالَّذين يُفسِدونَ في الأرضِ؟!

بل أنجعَلُ المتَّقينَ كالَّذينَ يَنتَهِكونَ حُرُماتِ الله؟ كلَّا؛ لا يَستَوونَ عندَ اللهِ.

ثمَّ يُثْني الله سبحانَه على القرآنِ الكريمِ، ويُبيِّنُ حكمةَ إنزالِه، فيقولُ: هذا القُرآنُ أنزَلْناه إليك -يا مُحمَّدُ- مُبارَكٌ، كَثيرُ النَّفعِ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ لِيتدَبَّرَ النَّاسُ آياتِه، ولِيَتذَكَّرَ أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جَرَى في خِطابِ داودَ عليه السَّلامُ ذِكرُ نِسيانِ يَومِ الحِسابِ وترتيبُ العذابِ الشَّديدِ على إنكارِه، وكان أقصى غاياتِ ذلك النِّسيانِ جحودُ وُقوعِه -لِأنَّه يُفْضي إلى عَدَمِ مُراعاتِه ومُراقَبَتِه أبَدًا-؛ اعتُرِضَ بيْنَ القِصَّتَينِ بثَلاثِ آياتٍ لِبَيانِ حِكمةِ اللهِ تَعالى في جَعلِ الجَزاءِ ويَومِه احتِجاجًا على مُنكِريهِ مِنَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

المُشرِكين[١].

وأيضًا بعدَ أنْ ذكَر أنَّ الَّذين يَضِلُّونَ عن سَبيلِ اللهِ لهم العذابُ الشَّديدُ يومَ الحِسابِ؛ لِظَنِّهم أنَّه ليس بكائنٍ- أعقَبَ هذا ببيانِ أنَّ هذا اليومَ آتٍ لا رَيْبَ فيه؛ لأنَّه سُبحانَه لم يَخلُقِ الخَلقَ عَبَثًا، بل خلَقَهم لعبادتِه وتوحيدِه، ثمَّ يَجمَعُهم يومَ الجَمعِ فيُثيبُ المُطيعينَ، ويُعذِّبُ الكافِرين[٢].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾.

أي: وما خَلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بَيْنَهما عَبَثًا ولَعِبًا ولَهْوًا بلا غايةٍ ولا حِكمةٍ[٣].

كما قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَٰلَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩١)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٥٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٢، ١٣٣).

قال ابنُ القيِّم: (اتَّفَق المفَسِّرون على أنَّ الحَقَّ الذي خُلِقَت به السَّمَواتُ والأرضُ هو الأمرُ والنَّهيُ، وما يترتَّبُ عليهما من الثَّوابِ والعِقابِ؛ فمن جَحَد ذلك وجَحَد رسالةَ الرُّسُلِ، وكَفَر بالمعادِ، وأحال حوادثَ العالَمِ على حَرَكاتِ الكواكِبِ؛ فقد زعم أنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ أبطَلُ الباطِلِ، وأنَّ العالَمَ خُلِقَ عَبَثًا، وتُرِكَ سُدًى، وخُلِّيَ هَمَلًا! وغايةُ ما خُلِقَ له أن يكونَ مُتمَتِّعًا باللَّذَّاتِ الحِسِّيَّةِ، كالبهائمِ، في هذه المدَّةِ القصيرةِ جدًّا، ثمَّ يُفارِقُ الوجودَ، وتُحدِثُ حَرَكاتُ الكواكِبِ أشخاصًا مِثلَه هكذا أبدًا؛ فأيُّ باطِلٍ أبطَلُ مِن هذا؟! وأيُّ عَبَثٍ فوقَ هذا؟!). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٢٠١).

ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۞ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٧].

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: الظَّنُّ بأنَّا خَلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بَيْنَهما باطِلًا: هو ظَنُّ الَّذين كفَروا باللهِ واليومِ الآخِرِ، فلم يَعرِفوا عَظَمةَ اللهِ وحِكمَتَه[1].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

أي: فوَيلٌ للَّذين كَفَروا مِن عذابِ النَّارِ في الآخِرةِ[2].

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى على سَبيلِ الإجمالِ: أنَّ إنكارَ الحَشرِ والنَّشرِ يُوجِبُ الشَّكَّ في حِكمةِ اللهِ تعالى؛ بيَّنَ ذلك على سَبيلِ التَّفصيلِ؛ فإنَّنا نرَى في الدُّنيا مَن أطاعَ اللهَ، واحتَرَز عن مَعصيتِه: في الفَقرِ والزَّمانةِ وأنواعِ البَلاءِ، ونرَى الكَفَرةَ والفُسَّاقَ في الرَّاحةِ والغِبطةِ؛ فلو لم يكُنْ حَشرٌ ونَشرٌ ومَعادٌ، فحينَئذٍ يكونُ حالُ المطيعِ أدْوَنَ مِن حالِ العاصي، وذلك لا يَليقُ بحِكمةِ الحَكيمِ الرَّحيمِ، وإذا كان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٢، ١٣٣).

ذلك قادِحًا في الحِكمةِ ثَبَت أنَّ إنكارَ الحَشرِ والنَّشرِ يُوجِبُ إنكارَ حِكمةِ اللهِ[١].

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: بلْ أنجعَلُ الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله تعالى، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه: كالَّذين يُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفرِ والشِّركِ والمعاصي[٢]؟!

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.

أي: بلْ أنجعَلُ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعذابَه، بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه: كالَّذينَ يَنتَهِكونَ حُرُماتِه؟ كلَّا؛ فأولئك لا يَستَوونَ عندَ اللهِ، ولا بُدَّ أن يُجازيَ كُلًّا منهم بما يَستَحِقُّه[٣].

كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٠).

قال الشنقيطي: «أَمْ» في قَولِه تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ﴾، وقولِه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾: كِلْتاهما مُنقَطِعةٌ. و«أم» المُنقطِعةُ فيها لعُلَماءِ العَربيَّةِ ثلاثةُ مَذاهِبَ:

الأوَّلُ: أنَّها بمعنى همزةِ استِفهامِ الإنكارِ.

الثَّاني: أنَّها بمعنى «بل» الإضرابيَّةِ.

والثَّالثُ: أنَّها تَشمَلُ معنى الإنكارِ والإضرابِ مَعًا، وهو الَّذي اختاره بعضُ المحقِّقينَ، وعليه فالإضرابُ بها هنا انتقاليٌّ لا إبطاليٌّ، ووجْهُ الإنكارِ بها عليهم واضِحٌ؛ لأنَّ مَن ظَنَّ بالله الحَكيمِ الخَبيرِ أنَّه يُساوي بيْنَ الصَّالحِ المُصلِحِ، والمفسِدِ الفاجِرِ، فقد ظنَّ ظنًّا قَبيحًا جديرًا بالإنكارِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٤٣، ٣٤٤).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ * وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[الجاثية: ٢١، ٢٢].

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا انتَفَت التَّسويةُ؛ بَيَّن ما تَصلُحُ به لِمُتَّبِعِه السَّعادةُ الأبَديَّةُ، وهو كِتابُ اللهِ تعالى[١].

وأيضًا لَمَّا ثَبَت بما ذُكِرَ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا ما ذُكِرَ في هذا الذِّكرِ مِن البراهينِ الَّتي لا يأْباها إلَّا مَدخولُ الفِكرِ، مُخالَطُ العَقلِ؛ ثَبَت أنَّه ذو الذِّكرِ والشَّرَفِ الأعظَمِ، فقال تعالى مُنَبِّهًا على ذلك: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ الآيةَ[٢].

وأيضًا بعدَ الإمعانِ في تَهديدِ المُشرِكينَ، وتَجهيلِهم على إعراضِهم عن التَّدبُّرِ بحِكمةِ الجَزاءِ ويَومِ الحِسابِ عليه، والاحتِجاجِ عليهم؛ أعرَضَ اللهُ عن خِطابِ المُشرِكين، ووَجَّهَ الخِطابَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالثَّناءِ على الكِتابِ المُنَزَّلِ عليه، وكان هذا القُرآنُ قد بَيَّنَ لهم ما فيه لهم مَقنَعٌ، وردَّ على شبهاتِهم، وأنَّه إنْ حَرَمَ المُشرِكونَ أنْفُسَهم مِنَ الانتِفاعِ به، فقد انتَفَعَ به أُولو الألبابِ، وهمُ المُؤمِنونَ[٣].

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾.

أي: هذا القُرآنُ أنزَلْناه إليك -يا مُحمَّدُ-، وهو دائِمُ الخَيرِ، غزيرُ العِلمِ، كثيرُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥١).

النَّفعِ في الدُّنيا والآخرةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

أي: أنزَلْناه؛ لِيَتدَبَّرَ النَّاسُ آياتِه، فيَتفَهَّموا ويَتتَبَّعوا ظواهِرَ ألفاظِه ويتأمَّلوها، ويُكثِروا مِن إمعانِ النَّظَرِ وإعادةِ الفِكرِ فيها؛ لِيَفهَموا ما وراءَها مِن المعاني والحِكَمِ والأسرارِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

أي: ولِيَتَذكَّرَ أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ ما غَفَلوا عنه، فيَرتَدِعوا عن كُلِّ ضَلالةٍ، ويَهتَدوا إلى الرَّشادِ في كُلِّ أمرٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤١، ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٤).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يدُلُّ على الحَثِّ على تَدبُّرِ القُرآنِ، وأنَّه مِن أفضَلِ الأعمالِ، وأنَّ القِراءةَ المُشتَمِلةَ على التَّدَبُّرِ أفضَلُ مِن سُرعةِ التِّلاوةِ الَّتي لا يَحصُلُ بها هذا المَقصودُ[١]. وأنَّ تحديقَ ناظِرِ القَلبِ إلى معاني القرآنِ، وجَمعَ الفِكرِ على تدَبُّرِه وتعَقُّلِه؛ هو المقصودُ بإنزالِه، لا مجرَّدُ تِلاوتِه بلا فَهمٍ ولا تدَبُّرٍ[٢]، وقد ذَمَّ الله تعالى الَّذين يَقرؤونه قراءةً لا تَتجاوَزُ ألفاظَه إلى معانيها ومَراميها، فقال تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، ﴿أَمَانِيَّ﴾: يعني قراءةً لفظيَّةً فقط، فوصَفَهم اللهُ بأنهم أُمِّيُّونَ؛ لأنَّهم لم يَنتفِعوا بالقرآنِ؛ إذْ لا يُمكِنُ أنْ يُنتفَعَ بالقرآنِ إلَّا بفَهمِ معانيه، فإذا لم تُفهَمْ معانيه صار العربيُّ والعجميُّ على حَدٍّ سواءٍ[٣]. والله تعالى إنَّما أنزَل كتابَه لِيَتأدَّبَ عِبادُه بآدابِه، ويَتخلَّقوا بأخلاقِه، ويَتأمَّلوا ما فيه مِن الثَّناءِ على الله تعالى، وما لم يُتدبَّرْ ذلك حتَّى يُفهَمَ لا يُمكِنُ العملُ به؛ فإنَّه رسائلُ أرسَلَها الله إلى عِبادِه لِيُنفذوها، لا لِتُقرأَ عليهم فلا يَفهموها ولا يُقيموها[٤].

٢- ما أحَقَّ مَن عَلِم كِتابَ اللهِ أن يَزدَجِرَ بنواهيه، ويَتذكَّرَ ما شُرِحَ له فيه، ويَخشَى اللهَ ويتَّقِيَه، ويُراقِبَه ويَستحيِيَه! فإنَّه حُمِّل أعباءَ الرُّسُلِ، وصار شهيدًا في القيامةِ على مَن خالَفَ مِن أهلِ المِلَلِ، ومَن أُوتيَ عِلمَ القُرآنِ فلم يَنتفِعْ، وزجَرَتْه نواهيه فلم يَرتَدِعْ، وارتكَبَ مِن المآثِمِ قَبيحًا، ومِنَ الجرائِمِ فُضُوحًا؛ كان القُرآنُ حُجَّةً عليه، وخَصمًا لَديه؛ فالواجِبُ على مَن خَصَّه اللهُ بحِفظِ كِتابِه أن يَتلوَه حَقَّ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٦٧).

تِلاوتِه، ويَتدَبَّرَ حقائِقَ عِبارتِه، ويَتفَهَّمَ عَجائِبَه، ويَتبَيَّنَ غرائِبَه؛ قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[١].

٣- قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ لا شَيءَ أنفَعُ للقَلبِ مِن قِراءةِ القُرآنِ بالتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ؛ فإنَّه جامعٌ لجَميعِ منَازِلِ السَّائِرينَ، وأحوالِ العامِلينَ، ومَقاماتِ العارِفينَ، وهو الَّذي يُورِثُ المَحَبَّةَ والشَّوقَ، والخَوفَ والرَّجاءَ، والإنابةَ والتَّوكُّلَ، والرِّضا والتَّفويضَ، والشُّكرَ والصَّبرَ، وسائِرَ الأحوالِ الَّتي بها حياةُ القَلبِ وكَمالُه[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ الحَثُّ على العِنايةِ بهذا الكتابِ والتِزامِه؛ لأنَّه إذا كان مُبارَكًا فإنَّ كُلَّ أحدٍ مِن البَشَرِ يريدُ أنْ يَنالَ بَركةَ هذا الشَّيءِ المُبارَكِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إثباتُ الحِكمةِ في أفعالِ اللهِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗا﴾؛ إذْ لو انتفتِ الحكمةُ لأمْكَنَ أنْ تُخلَقَ السَّماءُ والأرضُ باطِلًا[٤]!

٢- قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗا﴾ وقد بُنِيتْ هذه الحُجَّةُ على الاستِدلالِ بأحوالِ المُشاهَداتِ، وهي أحوالُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما، والمُشرِكونَ يَعلَمونَ أنَّ اللهَ هو خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما، فأُقيمَ الدَّليلُ على أساسِ مُقدِّمةٍ لا نِزاعَ فيها، فإذا استَقرَّتْ هذه المُقدِّمةُ تَعيَّنَ أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ١).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٦).

إنكارَ البَعثِ والجَزاءِ يَلزَمُه أنْ يَكونَ مُنكِرُه قائِلًا بأنَّ خَلْقَ السَّماءِ والأرضِ وما بَيْنَهما شَيءٌ مِنَ الباطِلِ، وقد دَلَّتِ الدَّلائِلُ الأُخرى على أنَّه لا يَكونُ في خَلقِ ذلك شَيءٌ مِنَ الباطِلِ بقياسِ الخَفيِّ على الظَّاهِرِ؛ فبَطَلَ ما يُفْضي إلى القَولِ بأنَّ في خَلقِ بَعضِ ما ذُكِرَ شيئًا مِنَ الباطِلِ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ احتُجَّ به على كَونِه تعالى خالِقًا لأعمالِ العبادِ؛ فهذه الآيةُ تدُلُّ على كَونِه تعالى خالِقًا لكُلِّ ما بيْنَ السَّمَواتِ والأرضِ، وأعمالُ العِبادِ حاصِلةٌ بيْنَ السَّماءِ والأرضِ؛ فوجَبَ أن يكونَ اللهُ تعالى خالِقًا لها[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أنَّه لا أحدَ يَظُنُّ أنَّ ذلك باطِلٌ إلَّا الكافِرُ، وأنَّ مَن ظَنَّ ذلك فهو كافِرٌ، والفَرقُ بيْنَ الفائِدَتينِ: أنَّ الفائِدةَ الأُولى يكونُ الكُفرُ سابقًا على هذا الظَّنِّ، فيكونُ الكُفرُ سببًا لهذا الظَّنِّ. أمَّا الفائدةُ الثَّانيةُ: أنَّ هذا الظَّنَّ سابِقٌ على الكُفرِ؛ فيكونُ هذا الظَّنُّ سَببًا للكُفرِ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ يدُلُّ على أنَّ مَن ظَنَّ باللهِ ما لا يَليقُ به -جَلَّ وعلا- فله النَّارُ[٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إذا قيل: وإذا كانوا مُقِرِّينَ بأنَّ اللهَ خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما -بدَليلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٦- ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٢).

قَولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]- فبِمَ جُعِلوا ظانِّينَ أنَّه خَلَقَها لِلعَبَثِ، لا لِلحِكمةِ؟

فالجَوابُ عن ذلك: أنَّه لَمَّا كان إنكارُهم لِلبَعثِ والحِسابِ والثَّوابِ والعِقابِ مُؤَدِّيًا إلى أنَّ خَلْقَها عَبَثٌ وباطِلٌ؛ جُعِلوا كأنَّهم يَظُنُّونَ ذلك ويَقولونَه؛ لِأنَّ الجَزاءَ هو الَّذي سَبَقتْ إليه الحِكمةُ في خَلقِ العالَمِ، فمَن جَحَده فقد جَحَد الحِكمةَ مِن أصْلِها، ومَن جَحَد الحِكمةَ في خَلقِ العالَمِ فقد سَفَّهَ الخالِقَ، وظَهَر بذلك أنَّه لا يَعرِفُه ولا يَقدُرُه حَقَّ قَدْرِه، فكان إقرارُه بكَونِه خالِقًا كَلَا إقرارٍ[(١)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالحَ سَبَبٌ لصَلاحِ الأرضِ، وهذا يُؤيِّدُه آياتٌ كثيرةٌ؛ مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[(٢)] [الأعراف: ٩٦].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ المعاصِيَ سَبَبٌ للفَسادِ في الأرضِ؛ لأنَّه قابَلَ هذا بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، ويَشهَدُ لهذا قَولُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]؛ فكلُّ فَسادٍ يَحدُثُ في الأرضِ مِن جَدبٍ وفَقْرٍ ومَرَضٍ، وفَسادِ ثِمارٍ وغَيرِ ذلك؛ فإنَّه بسَبَبِ المعاصي بما كسَبَت أيدي النَّاسِ[(٣)].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ ذكَرَ أعلَى أحوالِ الفَسادِ؛ إشارةً إلى أنَّه يَغفِرُ ما دونَ ذلك لِمَن يَشاءُ، وذكرَ أعلَى أحوالِ التَّقوى؛ إيماءً إلى أنَّه لا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُوصَفُ بها ويَستَحِقُّ جَزاءَها إلَّا الرَّاسِخُ فيها، تَرغيبًا للمُؤمِنِ في أنْ يَترقَّى إلى أوْجِها[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أنَّ اللهَ تعالى لا يُمكِنُ أنْ يَجعَلَ المتَّقِينَ كالفُجَّارِ في مآلِهم؛ فالمُتَّقي في جَنَّاتِ النَّعيمِ، والفاجِرُ في عذابِ الجَحيمِ[٢].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ استدَلَّ به الفُقَهاءُ على استِحبابِ تدَبُّرِ القِراءةِ[٣].

١٢- قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ فيه إثباتُ عُلُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، والإنزالُ لا يكونُ إلَّا مِن العُلوِّ[٤].

١٣- قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾، ومِن بَرَكةِ القُرآنِ أنه يُستَشفَى به، كما دَلَّتْ على ذلك آياتٌ كثيرةٌ أخرى؛ يُستَشفَى به مِن أمراضِ القُلوبِ، ومِن أمراضِ الأبدانِ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥] [يونس: ٥٧].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ فَضيلةُ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيثُ كان أهلًا لِأَنْ يُنزَلَ عليه القُرآنُ، والقُرآنُ لا يُنزَلُ إلَّا على مَن هو أهلٌ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٢).

وقال ابن عثيمين: (تَدَبُّرُ القرآنِ فَرْضٌ؛ لأنَّ العملَ بالقرآنِ فَرْضٌ؛ ولا يَتِمُّ العملُ إلَّا بالتَّدبُّرِ؛ وما لا يَتِمُّ الفرضُ إلَّا به فهو فرضٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٥).

لإنزالِه عليه؛ لِجَمعِه صِفاتِ الكَمالِ البَشَريَّةَ[١].

١٥- قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ كُلُّ آياتِ القُرآنِ إمَّا مُرشِدةٌ إلى خَيرٍ، وإمَّا صارِفةٌ عن شَرٍّ وفَسادٍ، وذلك سَبَبُ الخَيرِ في العاجِلِ والآجِلِ، ولا بَرَكةَ أعظَمُ مِن ذلك[٢].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ استدَلَّ به النُّحاةُ على جوازِ الوَصفِ بالجُملةِ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ قَبْلَ الوَصفِ بالمُفرَدِ ﴿مُبَٰرَكٞ﴾، خِلافًا لِمَن مَنَعَه[٣].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ فيه أنَّ مَن تَذَكَّرَ بالقرآنِ فهو صاحبُ عَقْلٍ، ومَن لم يَتَذَكَّرْ فليس له عَقْلُ رُشدٍ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ جَعَلَ التَّذكُّرَ لِمَنِ اتَّصَفوا بالعقولِ[٤]. وأنَّه بحَسَبِ لُبِّ الإنسانِ وعَقلِه يَحصُلُ له التَّذكُّرُ والانتِفاعُ بهذا الكِتابِ[٥].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أنَّ القُرآنَ الكَريمَ نَزَلَ مَوعِظةً للنَّاسِ، كما قال اللهُ تعالى في آياتٍ أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨]؛ فالقُرآنُ نَزَلَ لِيُؤثِّرَ، ولم يَنزِلْ لِيتبَرَّكَ الإنسانُ بقِراءتِه، أو يَنالَ الأجرَ بقراءتِه فقط، ولكِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥١٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

لا بُدَّ أنْ يُؤَثِّرَ تَذَكُّرًا ومَوعِظةً[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أنَّ لُبَّ الإنسانِ ورُوحَه هو العَقلُ؛ عَقلُ الرُّشْدِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى سمَّى هذه العُقولَ ألبابًا[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾

- قَولُه: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗا﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مُقرِّرٌ لِمَا قَبْلَه مِن أمْرِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ، أيْ: وما خَلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بَيْنَهما مِنَ المَخلوقاتِ على هذا النِّظامِ البَديعِ الَّذي تَحارُ في فَهمِه العُقولُ خَلقًا باطِلًا، أي: خاليًا عن الغايةِ الجَليلةِ، والحِكمةِ الباهِرةِ، بل مُنطَويًا على الحَقِّ المُبينِ، والحِكَمِ البالِغةِ[٣].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لإفادةِ تَرتُّبِ ثُبوتِ الوَيلِ لهم على ظَنِّهم الباطِلِ، كما أنَّه عَبَّرَ بالاسمِ المَوصولِ بَدَلًا مِن ضَميرِهم؛ لِمَا تُشيرُ إليه الصِّلةُ مِن أنَّهمُ استَحَقُّوا العِقابَ على سُوءِ اعتِقادِهم، وسُوءِ أعمالِهم، وأنَّ ذلك أيضًا مِن آثارِ انتِفاءِ الباطِلِ عن خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما؛ لِأنَّهم كانوا على باطِلٍ في إعراضِهم عن الاستِدلالِ بنِظامِ السَّمَواتِ والأرضِ، وفي ارتِكابِهم مَفاسِدَ عَوائِدِ الشِّركِ ومِلَّتِه، وقد تَمَتَّعوا بالحياةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٤).

الدُّنيا أكثَرَ ممَّا تَمتَّعَ بها الصَّالِحونَ؛ فلا جَرَمَ استَحَقُّوا جَزاءَ أعمالِهم[١].

- ولَفظُ (وَيْلٌ) يدُلُّ على أشَدِّ السُّوءِ، وكَلِمةُ (وَيْلٌ له) تُقالُ للتَّعجُّبِ مِن شِدَّةِ سُوءِ حالةِ المُتَحدَّثِ عنه، وهي هنا كِنايةٌ عن شِدَّةِ عَذابِهم في النارِ[٢].

- و(مِنْ) في قَولِه: ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ تَعليليَّةٌ، كما في قَولِه: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة: ٧٩]، ونَظائِرِه، مُفيدةٌ لِعلِّيَّةِ النَّارِ؛ لِثُبوتِ الوَيلِ لهم صَريحًا بَعدَ الإشعارِ بعِلِّيَّةِ ما يُؤدِّي إليها مِن ظَنِّهم وكُفرِهم، أيْ: فوَيْلٌ لهم بِسَببِ النَّارِ المُترَتِّبةِ على ظَنِّهم وكُفرِهم، ويجوزُ أن تكونَ (مِنْ) ابتدائيةً أو بيانيةً[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (أَمْ) مُنقَطِعةٌ، أفادَتْ إضْرابًا انتِقاليًّا، وهو ارتِقاءٌ في الاستِدلالِ على ثُبوتِ البَعثِ، وبَيانٌ لِمَا هو مِن مُقتَضى خَلقِ السَّماءِ والأرضِ بالحَقِّ، بَعدَ أنْ سِيقَ ذلك بوَجهِ الاستِدلالِ الجُمَليِّ، وقد كان هذا الانتِقالُ بِناءً على ما اقتَضاهُ قَولُه: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [ص: ٢٧]؛ فلِأجْلِ ذلك بُنِيَ على استِفهامٍ مُقدَّرٍ بَعدَ (أَمْ)، وهو مِن لَوازِمِ استِعمالِها، وهو استِفهامٌ إنْكاريٌّ لإنكارِ التَّسويةِ بيْنَ الحِزبَينِ الَّتي هي مِن لَوازِمِ خَلقِها باطِلًا؛ لِيَدُلَّ على نَفيِه، والمَعنى: لو انتَفَى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٩).

البَعثُ والجَزاءُ -كما تَزعُمونَ- لاستَوَتْ عِندَ اللهِ أحوالُ الصَّالِحينَ وأحوالُ المُفسِدينَ، ومَن سَوَّى بَيْنَهم كان سَفيهًا، ولم يَكُنْ حَكيمًا[١].

- والتَّشبيهُ في قَولِه: ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لِلتَّسويةِ، والمَعنى: إنكارُ أنْ يَكونوا سَواءً في جَعلِ اللهِ، أيْ: إذا لم يُجازَ كُلُّ فَريقٍ بما يَستَحِقُّه على عَمَلِه؛ فالمُشاهَدُ في هذه الحَياةِ الدُّنيا خِلافُ ذلك، فتَعيَّنَ أنْ يَكونَ الجَزاءُ في عالَمٍ آخَرَ، وهو الَّذي يُسلَكُ له النَّاسُ بَعدَ البَعثِ، وقد أُخِذَ في الاستِدلالِ جانِبُ المُساواةِ بيْنَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ وبيْنَ المُفسِدينَ في الأرضِ؛ لِأنَّه يُوجَدُ كَثيرٌ مِنَ الفَريقَينِ مُتَساوونَ في حالةِ الحياةِ الدُّنيا في النِّعمةِ، أو في التَّوَسُّطِ، أو في البُؤسِ والخَصاصةِ، فحالةُ المُساواةِ كافيةٌ لِتَكونَ مَناطَ الاستِدلالِ على إبطالِ ظَنِّ الَّذين كَفَروا بقَطعِ النَّظَرِ عن حالةٍ أُخرَى أوْلَى بالدَّلالةِ؛ وهي المُقابَلةُ بيْنَ فَريقِ المُفسِدينَ أُولي النِّعمةِ، وفَريقِ الصَّالِحينَ أُولي البُؤسِ، وعن حالةٍ دونَ ذلك؛ وهي فَريقُ المُفسِدينَ أصحابِ البُؤسِ والخَصاصةِ، وفَريقُ الصَّالِحينَ أُولي النِّعمةِ؛ لأنَّها لا تَستَرعي خاطِرَ النَّاظِرِ[٢].

- و(أَمْ) في قَولِه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ مُنقَطِعةٌ أيضًا، ومُفادُها إضرابُ انتِقالٍ عن تَقريرِ أمْرِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ بما مَرَّ مِن نَفيِ خَلقِ العالَمِ خَاليًا مِنَ الحِكَمِ والمَصالِحِ، إلى تَقريرِه وتَحقيقِه، ولِلارتِقاءِ في الاستِدلالِ على أنَّ الحِكمةَ الرَّبَّانيَّةَ بمُراعاةِ الحَقِّ وانتِفاعِ الباطِلِ في الخَلقِ تَقتَضي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٩، ٢٥٠).

الجَزاءَ والبَعثَ لِأجْلِه[١].

- قَولُه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ مَعنى الاستِفهامِ الَّذي تَقتَضيه (أَمْ) الإنكارُ، وهذا الارتِقاءُ في الاستِدلالِ؛ لِقَصدِ زِيادةِ التَّشنيعِ على مُنكِري البَعثِ والجَزاءِ، بأنَّ ظَنَّهم ذلك يَقتَضي أنْ جَعَلَ اللهُ المُتَّقينَ مُساوينَ لِلفُجَّارِ في أحوالِ وُجودِ الفَريقَيْنِ، فأنكَرَ التَّسويةَ بيْنَ الفَريقَينِ، ونَفاها على أبلَغِ وَجهٍ وآكَدِه، أيْ: بلْ أنَجعَلُ المُؤمِنينَ المُصلِحينَ كالكَفَرةِ المُفسِدينَ في أقطارِ الأرضِ؟! كما يَقتَضيهِ عَدَمُ البَعثِ، وما يَترتَّبُ عليهِ مِنَ الجَزاءِ؛ لِاستِواءِ الفَريقَينِ في التَّمتُّعِ بالحَياةِ الدُّنيا، بلِ الكَفَرةُ أوفَرُ حَظًّا منها مِن المُؤمِنينَ، لكِنَّ ذلك الجَعلَ مُحالٌ؛ فتَعيَّنَ البَعثُ والجَزاءُ حَتمًا؛ لِرَفعِ الأوَّلينَ إلى أعْلى عِلِّيِّينَ، ورَدِّ الآخَرينَ إلى أسفَلِ سافِلينَ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ إطنابٌ مَقصودٌ منه زِيادةُ التَّهويلِ والتَّفظيعِ على الَّذين ظَنُّوا ظَنًّا يُفْضي إلى أنَّ اللهَ خَلَقَ شَيئًا مِنَ السَّماءِ والأرضِ وما بَيْنَهما باطِلًا؛ فإنَّ في الانتِقالِ مِن دَلالةِ الأضعَفِ إلى دَلالةِ الأقوَى، وفي تَكريرِ أداةِ الإنكارِ: شأنًا عَظيمًا مِن فَضحِ أمْرِ الضَّالِّينَ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

- قَولُه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ استِئنافٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٠).

مُعتَرَضٌ، وفي هذا الاستِئنافِ نَظَرٌ إلى قَولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]؛ إعادةً لِلتَّنويهِ بشأنِ القُرآنِ، كما سَيُعادُ ذلك في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾[١] [ص: ٤٩].

- وتَنكيرُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ لِلتَّعظيمِ؛ لِأنَّ الكِتابَ مَعلومٌ، فما كان تَنكيرُه إلَّا لِتَعظيمِ شَأنِه[٢].

- وفي قَولِه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ تَعريضٌ بأنَّ الَّذين لم يَتذَكَّروا بالقُرآنِ لَيسوا مِن أهلِ العُقولِ، وأنَّ التَّذكُّرَ مِن شأْنِ المُسلِمينَ الَّذين يَستَمِعونَ القَولَ فيَتَّبِعونَ أحسَنَه؛ فهُمْ مِمَّن تَدبَّروا آياتِه فاستَنبَطوا مِنَ المَعاني ما لم يَعلَموا، ومَن قَرَأَهُ فتَذكَّرَ به ما كان عَلِمَه وتَذكَّر به حَقًّا كان عليه أنْ يَرعاهُ، والكافِرونَ أعرَضوا عنِ التَّدبُّرِ؛ فلا جَرَمَ فاتَهُمُ التَّذكُّرُ[٣].

- وأسنَدَ التَّدبُّرَ إلى الجَميعِ في قَولِه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وهو التَّفكُّرُ في الآياتِ، والتَّأمُّلُ الَّذي يُفْضي بصاحِبِه إلى النَّظَرِ في عَواقِبِ الأشياءِ، وأسنَدَ التَّذكُّرَ إلى أُولي العُقولِ؛ لِأنَّ ذا العَقلِ فيه ما يَهديه إلى الحَقِّ، وهو عَقلُه، فلا يَحتاجُ إلَّا إلى ما يُذكِّرُه فيَتذَكَّر[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٣).

الآيات (٣٠-٤٠)

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نِعْمَ﴾: كلمةٌ تُستعمَلُ في المدحِ بإزاءِ (بِئْسَ)[١].

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾: أي: الخَيلُ القائِمةُ على ثلاثِ قوائِمَ، وأقامت واحِدةً على طَرفِ الحافِرِ، وأصلُ (صفن): يدُلُّ على جِنسٍ مِن القيامِ[٢].

﴿ٱلْجِيَادُ﴾: أي: الخَيلُ السِّراعُ، جمعُ جوادٍ، وأصلُ (جود): يدُلُّ على تسَمُّحٍ بالشَّيءِ، وكَثرةِ عَطاءٍ[٣].

﴿تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾: أي: استتَرَتْ وتَغيَّبت بما يَحجُبُها عن الأبصارِ، يُقالُ:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧)،

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

وارَيْتُ كذا: إذا ستَرْتَه، والتَّواري: الاستتارُ، وأصلُ (حجب): المنعُ[١].

﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا﴾: طَفِق مِن أفعالِ المُقارَبةِ للشُّروعِ فِي الفعلِ، يُقالُ: طَفِق يَفعَلُ كذا، كما يُقالُ: ظَلَّ يَفعلُ كذا، وأخَذ يفعلُ كذا، وأصلُ (مسح): يدُلُّ على إمرارِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، ويُطلَقُ على القطعِ، يُقالُ: مسَح رأسَه؛ إذا قطَعه[٢].

﴿بِٱلسُّوقِ﴾: جمعُ ساقٍ؛ وسمِّيَت بذلك لأنَّ الماشيَ يَنساقُ عليها[٣].

﴿رُخَآءً﴾: أي: رِخوةً لَيِّنةً، وأصلُ (رخو): يدُلُّ على لِينٍ[٤].

﴿حَيۡثُ أَصَابَ﴾: أي: حيثُ أراد، مِن قولِهم: أصاب اللهُ بك خيرًا: أي: أراد الله بك خيرًا، وأصلُ (صوب): يدُلُّ على نزولِ شَيءٍ واستِقرارِه قَرارَه[٥].

﴿مُقَرَّنِينَ﴾: أي: مَشدُودينَ، قد قُرِنَ بَعضُهم إلى بَعضٍ، أو مُقَرَّنةً أيديهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٥/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٣) و(٥/ ٣٢٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٧٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣١).

وأرجُلُهم إلى رِقابِهم، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿ٱلْأَصْفَادِ﴾: أي: الأغلالِ والقُيودِ، واحدُها صَفَدٌ، كأصنامٍ وصنَمٍ، وأصلُ (صفد): يدُلُّ على شَدٍّ بشَيءٍ[٢].

﴿فَٱمْنُنْ﴾: أي: أعْطِ وأنْفِقْ، وأصلُ (المنة): النِّعمةُ الثَّقيلةُ[٣].

﴿لَزُلْفَىٰ﴾: أي: قُرْبى، ومَنزِلةً عاليةً، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على اندفاعٍ وتقدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شَيءٍ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾

قَولُه: ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ في نَصبِه أوجهٌ:

أحدُها: أنَّه مَفعولُ ﴿أَحْبَبْتُ﴾؛ لتَضمينِه معنى (آثَرْتُ)، و﴿عَن﴾ بمعنى (على)، أي: آثَرْتُ حُبَّ الخَيرِ على ذِكْرِ رَبِّي.

الثاني: أنَّ ﴿حُبَّ﴾ مفعولٌ مُطلَقٌ لـ﴿أَحْبَبْتُ﴾ على حَذْفِ الزَّوائدِ، أو نائبُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٠)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (٣/ ١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٠/ ٦٢٣٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٤٤).

عن المصدَرِ؛ لأنَّه اسمُ مَصدرٍ.

الثالثُ: أنَّه مَصدرٌ تشبيهيٌّ منصوبٌ، أي: حُبًّا مِثلَ حُبِّ الخَيرِ.

الرَّابعُ: قيل: إنَّ ﴿أَحْبَبْتُ﴾ مِنْ أحَبَّ البعيرُ: إذا سَقَطَ وبَرَك مِن الإعياءِ. والمعنى: قَعَدْتُ عن ذِكْر ربِّي، فيكونُ ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ مَفعولًا لأجْلِه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جانبًا مِن قصَّةِ سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ: ووَهَبْنا لداودَ ابنَه سُلَيمانَ، نِعْمَ العَبدُ سُلَيمانُ؛ فهو كثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى؛ إذ عُرِضَ عليه آخِرَ النَّهارِ الخُيولُ الَّتي مِن صِفاتِها أنَّها لا تَعتمِدُ بجَميعِ قوائِمِها على الأرضِ إذا وقَفَت، وأنَّها سريعةُ العَدْوِ، فقال سُلَيمانُ: إنِّي أحبَبتُ حُبَّ الخَيلِ عن ذِكرِ رَبِّي. إلى أنْ غابَتْ، ثمَّ أمَرَ مَن تحتَ يَدِه فقال: أعيدُوا لي تلك الخَيلَ، فلمَّا أعادوها إليه شَرَع يَمسَحُ سِيقانَها وأعناقَها.

ثمَّ يقولُ تعالى: ولقد اختبَرْنا سُلَيمانَ، وألقَيْنا على كُرسِيِّه جَسَدًا، ثمَّ رجَعَ سُلَيمانُ إلى رَبِّه وتابَ وقال: ربِّ اغفِرْ لي، وهَبْ لي مُلكًا لا يكونُ لأحدٍ مِن بَعدي؛ إنَّك أنت الوهَّابُ. فاستجابَ اللهُ تعالى له دُعاءَه؛ فسَخَّرَ له الرِّيحَ تَجري رِخوةً لَيِّنةً إلى حيثُ أراد، وسخَّرَ له الشَّياطينَ؛ كُلَّ بنَّاءٍ منهم وكُلَّ غَوَّاصٍ، وآخَرينَ مِن مَرَدةِ الشَّياطينِ مُوثَقينَ في القُيودِ.

ثمَّ قال اللهُ تعالى لنَبيِّه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: هذا المُلكُ هو عَطاؤُنا لك؛ فأعْطِ مَن شِئْتَ، وامنَعْ مَن شِئتَ؛ فلا حِسابَ عليك، ولا حرَجَ في ذلك، وإنَّ لك عِندَنا مَنزِلةً عاليةً، وحُسنَ مَرجِعٍ.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٠٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٧٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٢٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٣٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أثنَى اللهُ تعالى على داودَ عليه السَّلامُ، وذكَرَ ما جرَى له ومنه؛ أثنَى على ابنِه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ[1]، فقال:

﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَ ﴾.

أي: ووهَبْنا لِداودَ ابنَه سُلَيمانَ[2].

﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾.

أي: نِعمَ العَبدُ سُلَيمانُ؛ فهو كثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى[3].

﴿ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ٣١ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٩).

قيل: رَجَّاعٌ إلى الله في جميعِ أحوالِه؛ بالتَّألُّهِ والإنابةِ، والمَحَبَّةِ والذِّكرِ، والدُّعاءِ والتَّضرُّعِ، والاجتِهادِ في مَرْضاةِ الله، وتقديمِها على كلِّ شَيءٍ. قاله السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

وقيل: المرادُ: أنَّه أوَّابٌ إلى أمرِ الله ونَهْيِه، أي: إذا حصَل له ما يُبعِدُه عن ذلك تَذَكَّر فآبَ، أي: فتاب. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٤).

أي: إذ[١] عُرِضَ على سُلَيمانَ في آخِرِ النَّهارِ الخَيلُ الَّتي مِن صِفاتِها أنَّها لا تَعتمِدُ بجَميعِ قوائِمِها على الأرضِ إذا وقَفَت[٢]، وأنَّها سريعةٌ في عَدْوِها إذا ركَضَت[٣].

---

(١) قيل: ﴿ إِذْ ﴾ مِن صِلةِ ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: إنَّه تَوَّابٌ إلى اللهِ مِن خَطيئتِه الَّتي أخطأها حينَ عُرِضَ عليه بالعَشيِّ الصَّافناتُ الجِيادُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨١).

وقيل: ﴿ إِذْ ﴾ مفعولٌ به لفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ يا مُحمَّدُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: البِقاعي، وأبو السعود. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٤).

(٢) ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ أي: الَّتي تَقِفُ على ثلاثِ قوائِمَ وطَرَفِ حافرِ القائمةِ الرَّابعةِ؛ بحيث لا تَعتمِدُ عليها في وُقوفِها: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والثعلبي، وابن كثير، وابن عاشور، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٠٠)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٢).

قال ابنُ عاشور: (وتلك مِن علاماتِ خِفَّتِه الدَّالَّةِ على كَرمِ أصلِ الفَرَسِ، وحُسنِ خِلالِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٠).

وقيل: هي القائِمةُ عُمومًا، سواءٌ كانت على ثلاثٍ أو غيرِ ثلاثٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٣).

وممَّن اختار مِن السَّلفِ أنَّ الصُّفُونَ: القيامُ وبَسْطُ القوائمِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨١ - ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٩: ١٥٦).

و﴿ٱلْجِيَادُ﴾ قيل: هي السَّريعةُ في عَدْوِها. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، =

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾.

أي: فقال سُلَيمانُ: إنِّي أحبَبتُ حُبَّ الخَيلِ[1] .....

= والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٣).

قال ابنُ عثيمين: (فهي إذا استُوقِفَت وقَفَت على أحسَنِ هَيئةٍ... وإذا ركَضَت ركَضَت على أكمَلِ هَيئةٍ... وهذا غايةُ ما يكونُ مِن جَمالِ الخَيلِ: أن تكونَ هيئتُها حينَ الوُقوفِ ممَّا يَسُرُّ النَّفْسَ، وأن يكونَ فِعلُها وأداؤُها حينَ السَّيرِ ممَّا يَنفَعُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٠).

وقيل: هي مِنَ الجَودةِ، بمعنى النَّفاسةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

(١) قال السمعاني: (أمَّا ﴿ٱلۡخَيۡرِ﴾ فأكثَرُ المفسِّرينَ على أنَّها الخَيلُ في هذه الآيةِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٩).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ معنى هذا يختلِفُ على حَسَبِ الاختلافِ في القِصَّةِ؛ فأمَّا الَّذين قالوا: إنَّ سُلَيمانَ عَقَرَ الخَيلَ لَمَّا اشتَغَل بها حتَّى فاتَتْه الصَّلاةُ، فاختلَفوا في هذا على ثلاثةِ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّ ﴿ٱلۡخَيۡرِ﴾ هنا يُرادُ به الخَيلُ، وزعَموا أنَّ الخَيلَ يقالُ لها: خَيرٌ، و﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ بمعنى: آثَرْتُ، أو بمعنى فِعلٍ يَتعدَّى بـ «عن»، كأنَّه قال: آثَرتُ حُبَّ الخَيلِ فشَغَلني عن ذِكرِ رَبِّي.

والآخَرُ: أنَّ ﴿ٱلۡخَيۡرِ﴾ هنا يُرادُ به المالُ؛ لأنَّ الخَيلَ وغَيرَها مالٌ؛ فهو كقَولِه تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، أي: مالًا.

والثَّالِثُ: أنَّ المفعولَ مَحذوفٌ، و﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ مَصدرٌ، والتَّقديرُ: أحبَبتُ هذه الخَيلَ مِثلَ حُبِّ الخيرِ، فشَغَلني عن ذِكرِ رَبِّي.

وأمَّا الَّذين قالوا: كان يُصَلِّي فعُرِضَت عليه الخَيلُ فأشار بإزالتِها، فالمعنى أنَّه قال: إنِّي أحبَبتُ حُبَّ الخَيرِ الَّذي عندَ اللهِ في الآخرةِ؛ بسَبَبِ ذِكرِ رَبِّي، وشغَلَني ذلك عن النَّظَرِ إلى الخَيلِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٨).

وقال الشوكاني: (و«عن» في ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ بمعنَى «على». والمعنَى: آثَرْتُ حُبَّ الخَيلِ على ذِكرِ رَبِّي). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٥). =

عن ذِكرِ ربِّي[(١)] .....

= وقال ابن كثير: (ذَكَر غيرُ واحدٍ مِن السَّلفِ والمفسِّرينَ أنَّه اشتَغَل بعَرْضِها حتَّى فاتَ وقتُ صلاةِ العصرِ، والَّذي يُقْطَعُ به أنَّه لم يَترُكْها عمدًا، بل نِسيانًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥).

ممَّن اختار أنَّ فِعلَ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ ضُمِّن معنى (آثرْتُ)، أي: آثَرْتُ حُبَّ الخَيرِ على ذِكرِ ربِّي: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤٠٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٣١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

وقال ابن عاشور: (وأصلُ تركيبِ ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾: أحببتُ الخيرَ حُبًّا، فحُوِّل التَّركيبُ إلى ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾؛ فصار حُبُّ الخَيرِ تمييزًا لإسنادِ نِسبةِ المَحَبَّةِ إلى نفْسِه، لغرضِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

وقال ابنُ جرير: (ويعني بقوله: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: أحببْتُ حبًّا للخيرِ، ثمَّ أُضيف الحبُّ إلى الخيرِ. وعُنيَ بالخيرِ في هذا الموضعِ الخيلُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٣).

وقال ابن عثيمين: (﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ الأولى على بابِها، و﴿حُبَّ﴾ الثَّانيةُ على بابِها مِن بابِ التَّوكيدِ، كأنَّه أحَبَّ حُبَّ الخيلِ، فضلًا عن الخَيلِ، ومَن أحَبَّ حُبَّ الشَّيءِ لَزِم أن يكونَ مُحِبًّا للشَّيءِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٢).

وقيل: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ بمعنَى أنَّ هذه المحبَّةَ الشَّديدةَ إنَّما حَصَلتْ عن ذِكرِ اللهِ وأمْرِه، لا عن الشَّهوةِ والهوَى. وممَّن اختاره: الرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٠).

(١) قيل: المرادُ بالذِّكرِ هنا: الصَّلاةُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالب، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٧٧).

ذكر غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ والمفَسِّرين أنَّها صلاةُ العَصرِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥).

وقال ابن عاشور: (لعلَّها صلاةٌ كان رتَّبَها لِنَفْسِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

وقيل: المرادُ: عُمومُ الذِّكرِ، ويدخلُ فيه صَلاةُ العصرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٢، ١٥٣).

إلى أنْ غابَتْ عن أعيُنِ النَّاظِرينَ[١].

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ٣٣﴾.

أي: أعيدُوا لي تلك الخَيلَ، فلمَّا أعادوها إليه شَرَع يَمسَحُ سِيقانَها وأعناقَها[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٣ - ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٤، ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٣٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٩، ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

وممَّن قال: إنَّ الَّتي توارتْ بالحِجابِ هي الشَّمسُ وَقتَ غُروبِها: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، وابن رجب، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٥)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٣٣٨)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٦).

قال ابن عثيمين: (الحجابُ هو الأرضُ، فالَّذي يَستُرُها إذا غابَتْ هي الأرضُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٤).

وقيل: الضَّميرُ في ﴿تَوَارَتۡ﴾ عائدٌ على ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾، أي: دخَلَت اصطَبلاتِها، فهي الحِجابُ. واستظهر هذا المعنى: أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٤).

قال الرازي: (لو قُلْنا: المرادُ: حتَّى تَوَارَتِ الصَّافِناتُ بالحجابِ، كان معناه أنَّه حِينَ وَقَع بَصَرُه عليها حالَ جَرْيِها كان يقولُ هذه الكلمةَ إلى أنْ غابَتْ عن عَيْنِه، وذلك مُناسِبٌ... قالَ: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾، ثُمَّ قالَ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾، وعَودُ الضَّميرِ إلى أقرَبِ المَذكورَينِ أولَى، وأقربُ المَذكورَينِ هو الصَّافناتُ الجِيادُ، وأمَّا العَشِيُّ فأبعَدُهما؛ فكان عَودُ ذلك الضَّميرِ إلى الصَّافناتِ أولَى). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٠، ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٠، ٣٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٥، ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٥).

اختلَف المفسِّرونَ في المرادِ من قولِه تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾:

فقيل: إنَّ المراد: قَتْلُ سُلَيمانَ للخَيلِ، وأنَّه قطَع أعناقَها وسُوقَها. وممَّن اختاره: ابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبي، والبغوي ونسَبَه إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ، والزمخشري، وهو ظاهِرُ اختيار ابن الجوزي، واختاره القرطبيُّ، والبيضاوي، وابن القيِّم، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره البِقاعي، =

= والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٠١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٨)، ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٠، ٣٨١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٥، ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٥).

قال ابن الجوزي: (هذا اختيارُ السُّدِّيِّ، ومُقاتلٍ، والفَرَّاءِ، وأبي عُبَيدةَ، والزَّجَّاجِ، وابنِ قُتَيْبَةَ، وأبي سُلَيْمانَ الدِّمَشْقيِّ، والجمهورِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٤)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤٠٥)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٨٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٣١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ، وابنُ السَّائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥).

قال ابن كثير: (قد يكونُ في شرعِهم جوازُ مِثلِ هذا، ولا سِيَّما إذا كان غضَبًا لله عزَّ وجلَّ بسببِ أنَّه اشتَغَل بها حتَّى خَرَج وقتُ الصَّلاةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥).

وقيل: المرادُ: مَسَحَ عليها؛ حُبًّا وإكرامًا لها. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والنَّحَّاسُ، والجَصَّاصُ، وابنُ حزم، والقاضي أبو يعلى-كما في ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢)- والرازيُّ، وأبو حيَّان، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٦٤٦)، ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٥٠٢)، ((الفِصَل)) لابن حزم (٤/ ١٥، ١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩١، ٣٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٨٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، والزُّهْريُّ، وابنُ كَيْسانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥).

قال أصحابُ هذا القولِ: وهذا القولُ أشْبَهُ بتأويلِ الآيةِ؛ لأنَّ القولَ بأنَّه قتَلها جمَع على سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ أنواعًا مِن الأفعالِ المذمومةِ؛ منها: تركُ الصَّلاةِ، وأنَّه استولَى عليه الاشتغالُ =

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

أي: ولقد ابتَلَيْنا سُلَيمانَ واختبَرْناه، وألقَيْنا على كُرسِيِّه جَسَدًا[١]، ثمَّ رجَعَ سُلَيمانُ إلى رَبِّه، فعَلِمَ أنَّ الَّذي حَلَّ به مِنَ البلاءِ بسَبَبِ ذَنْبٍ صَدَر منه، فتاب إلى رَبِّه[٢].

= بحبِّ الدُّنيا إلى حيثُ نَسِيَ الصَّلاةَ، وأنَّه بعدَ الإتيانِ بهذا الذَّنْبِ العظيم لم يَشتغِلْ بالتَّوبةِ والإنابةِ البتَّةَ، بل عاقَب خَيلًا لا ذنْبَ لها، ومثَّل بها، وأتلَفَ مالًا مُنتفَعًا به. يُنظر: ((الفصل)) لابن حزم (٤/ ١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩١).

قال الرازي: (والصَّوابُ أنْ نقولَ: إنَّ رباطَ الخيلِ كان مَندوبًا إليه في دينِهم، كما أنَّه كذلك في دينِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثُمَّ إنَّ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ احتاج إلى الغزوِ فجَلَس، وأمَر بإحضارِ الخَيلِ، وأمَر بإجْرائِها، وذَكَر أنِّي لا أُحِبُّها لأجْلِ الدُّنيا ونَصيبِ النَّفْسِ، وإنَّما أُحِبُّها لأمْرِ اللهِ وطَلَبِ تَقويةِ دينِه، وهو المرادُ مِن قولِه: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾، ثمَّ إنَّه عليه السَّلامُ أمَر بإعدائِها وتسييرِها ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾، أي: غابَتْ عن بصرِه، ثمَّ أمَر الرَّائِضينَ بأنْ يَرُدُّوا تلكَ الخَيلَ إليه، فلمَّا عادَتْ إليه طَفِقَ يَمسَحُ سُوقَها وأعناقَها، والغرضُ مِن ذلكَ المسحِ أمورٌ:

الأوَّلُ: تشريفًا لها، وإبانةً لعِزَّتِها؛ لِكَونِها مِن أعظَمِ الأعوانِ في دفعِ العَدُوِّ.

الثَّاني: أنَّه أرادَ أن يُظهِرَ أنَّه في ضبطِ السِّياسةِ والمُلكِ يَتَّضِعُ إلى حيثُ يُباشِرُ أكثرَ الأمورِ بنفْسِه.

الثَّالثُ: أنَّه كان أعْلَمَ بأحوالِ الخَيلِ وأمراضِها وعُيوبِها، فكان يَمتحِنُها ويَمسَحُ سُوقَها وأعناقَها حَتَّى يَعلمَ هل فيها ما يدُلُّ على المرضِ؟ فهذا التَّفسيرُ الَّذي ذَكَرْناه يَنطَبِقُ عليه لفظُ القرآنِ انْطِباقًا مُطابِقًا مُوافِقًا). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩١).

وقيل: المرادُ أنَّه كوى سُوقَها وأعناقَها بكَيِّ الصَّدَقةِ، وحَبَّسها في سبيلِ اللهِ تعالى. حكاه الثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٤-١٦٨).

(٢) قيل: المرادُ بقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾: شَيطانٌ جلَسَ على كُرسيِّ مُلكِه. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن أبي زَمَنينَ، ومكِّي، والواحدي، وابن عطية، وابن حجر، والسعدي. وجعَلَه ابنُ عثيمينَ قَولًا مُحتَمَلًا، وأنَّه أقربُ الأقوالِ إلى =

= ظاهِرِ اللَّفظِ، ونسَبه القرطبيُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٤-١٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٨).

وقيل: المرادُ هو ما جاء في الحديثِ أنَّه قال: لَأَطُوفَنَّ اللَّيلةَ على سبعينَ امرأةً، كُلُّ واحدةٍ تأتي بفارسٍ يُجاهِدُ في سبيلِ اللهِ، ولم يَقُلْ: إن شاء اللهُ، فطاف عليهنَّ، فلم تَحمِلْ إلَّا امرأةٌ واحِدةٌ، وجاءَتْه بشِقِّ رَجُلٍ. قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لو قالَها لَجاهَدوا في سبيلِ اللهِ)) [البخاري (٣٤٢٤)] وفي روايةٍ: ((ولو قالَ: إنْ شاءَ اللهُ، لم يَحْنَثْ، وكان دَرَكًا له في حاجَتِه)) [مسلم (١٦٥٤)]. فالمرادُ بقَولِه: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ هو هذا، والجَسَدُ المُلْقى هو المولودُ شِقَّ رَجُلٍ. وقد استظهر هذا القولَ: البيضاويُّ، وأبو السعود، والألوسي، والشنقيطي، وذكر أبو حيَّان أنَّ هذا القَولَ هو أقرَبُ ما قيل في ذلك. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٥، ١٥٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٠).

قال الألوسي: (وغايتُه تَرْكُ الأَولى، فليس بذَنْبٍ، وإن عدَّه هو عليه السَّلامُ ذنْبًا، فالمرادُ بالجسَدِ ذلك الشِّقُّ الَّذي وُلِد له، ومعنى إلقائه على كُرسيِّه وضْعُ القابلةِ له عليه لِيَراه). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٩٠). ويُنظر: ((حاشية الشهاب تفسير البيضاوي)) (٧/ ٣١١).

وقال الشنقيطيُّ في تفسير الآيةِ (٢٣) من سورة الكهف: (اعلَمْ أنَّ هذا الحديثَ الصَّحيحَ بيَّن معنى قولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ الآيةَ، وأنَّ فتنةَ سُلَيمانَ كانت بسببِ تركِه قولَ «إن شاء الله»، وأنَّه لم يَلِدْ مِن تلك النِّساءِ إلَّا واحدةٌ نِصْفَ إنسانٍ، وأنَّ ذلك الجسَدَ الَّذي هو نِصفُ إنسانٍ هو الَّذي أُلْقِيَ على كُرسيِّه بعدَ مَوتِه في قولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ الآيةَ. فما يَذكُرُه المفسِّرون في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ الآيةَ، مِن قصَّةِ الشَّيطانِ الَّذي أخَذ الخاتمَ وجلَس على كُرسيِّ سُلَيمانَ، وطَرِدِ سُلَيمانَ عن مُلكِه حتَّى وجَد الخاتمَ في بطنِ السَّمكةِ الَّتي أعطاها له مَن كان يَعملُ عندَه بأجرٍ مطرودًا عن مُلكِه، =

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾.

أي: قال سُلَيمانُ: رَبِّ استُرْ علَيَّ ذنْبي، وتَجاوَزْ عن مُؤاخَذَتي به[1].

﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾.

أي: وهَبْ لي مُلكًا لا يكونُ لأحَدٍ سِوايَ مِثلُه[2].

= إلى آخرِ القِصَّةِ: لا يخفى أنَّه باطلٌ لا أصلَ له، وأنَّه لا يَليقُ بمقامِ النُّبوَّةِ، فهي مِن الإسرائيليَّاتِ الَّتي لا يَخفى أنَّها باطلةٌ. والظَّاهرُ في معنى الآيةِ هو ما ذكَرْنا، وقد دلَّتِ السُّنَّةُ الصَّحيحةُ عليه في الجملةِ، واختاره بعضُ المُحقِّقينَ، والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٥٤).

وقال القاضي عياضٌ: (ولا يَصِحُّ ما نقله الأَخْباريُّون مِن تشبُّهِ الشَّيطانِ به، وتسلُّطِه على مُلكِه، وتصرُّفِه في أمَّتِه بالجَورِ في حُكمِه؛ لأنَّ الشَّياطينَ لا يُسَلَّطون على مِثلِ هذا، وقد عُصِم الأنبياءُ مِن مِثلِه). ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى - وحاشية الشُّمُنِّي)) (٢/ ١٦٧).

وذكر ابنُ عثيمين احتمالًا أن يكونَ المرادُ سليمانَ نفْسَه، سلَبَ اللهُ تعالى منه التَّفكيرَ وتدبيرَ شؤونِ المملكةِ، فصار لا يُحسِنُ التَّدبيرَ، وأنَّ هذا الاحتمالَ أقرَبُ مِن حيثُ المعنى؛ لأنَّ الإنسانَ إذا سُلِب عقله وتفكيره فهو بمنزلةِ الجسدِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٦).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٧، ١٦٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٩٦)، ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى - وحاشية الشمني)) (٢/ ١٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٨، ١٦٩).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ: ابنُ عطية، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: لا يَصلُحُ لأحدٍ أن يَسلُبَنيه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي، =

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ سُلَيمانَ بنَ داودَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا بنى بيتَ المَقدِسِ سأل اللهَ عزَّ وجَلَّ خِلالًا ثلاثةً: سأل اللهَ عزَّ وجلَّ حُكمًا يُصادِفُ حُكمَه، فأُوتِيَه، وسأل اللهَ عزَّ وجَلَّ مُلكًا لا ينبغي لأحَدٍ مِن بَعدِه، فأوتِيَه، وسأل اللهَ عزَّ وجَلَّ حينَ فَرَغ مِن بناءِ المسجِدِ ألَّا يأتيَه أحَدٌ لا يَنهَزُه[1] إلَّا الصَّلاةُ فيه أن يُخرِجَه مِن خَطيئتِه كيَومَ ولَدَتْه أمُّه))[2].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ عِفريتًا مِن الجِنِّ جَعَل يَفتِكُ[3] علَيَّ البارحةَ؛ لِيَقطَعَ علَيَّ الصَّلاةَ، وإنَّ اللهَ أمكَنَني منه فذَعَتُّه[4]، فلقد هَمَمْتُ أن أربِطَه إلى جَنبِ ساريةٍ مِن سواري المسجِدِ، حتَّى تُصبِحوا تَنظُرونَ إليه أجمَعونَ -أو كُلُّكم- ثمَّ ذكَرْتُ قَولَ أخي

= والسمعاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٣، ١٠٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٤٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وعطاءُ بنُ أبي رباحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٥).

(١) لا يَنهَزُه: أي: لا يُحَرِّكُه ويَدفَعُه. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن الجوزي (٢/ ٤٤٥).

(٢) أخرجه النَّسائي (٦٩٣) واللفظ له، وابن ماجه (١٤٠٨)، وأحمد (٦٦٤٤).

صحَّحه ابنُ حبَّان في ((صحيحه)) (١٦٣٣)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ١٨٨)، وابنُ القيِّم في ((المنار المُنيف)) (٧٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٦٩٣)، وصحَّح إسنادَه القرطبيُّ في ((التفسير)) (٥/ ٢٠٧)، والنوويُّ في ((المجموع)) (٨/ ٢٧٨)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ١٢٨)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (١٦٣٣).

(٣) أي: يغفلُه عن الصلاةِ ويَشغلُه. وأصل الفَتكِ: القتلُ على غفلةٍ وغِرَّةٍ. يُنظر: ((مطالع الأنوار على صحاح الآثار)) لابن قُرْقُول (٥/ ١٩١)، ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) لأبي العباس القرطبي (٢/ ١٥٠).

(٤) أي: خنَقْتُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ٢٩).

سُلَيمانَ: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾، فرَدَّه اللهُ خاسِئًا))[١].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم قام فصلَّى صلاةَ الصُّبحِ وهو خَلْفَه، فقرأَ فالتبَسَتْ[٢] عليه القِراءةُ، فلمَّا فرَغَ مِن صلاتِه قال: لو رأيتُموني وإبليسَ، فأهوَيتُ بيَدي، فما زِلتُ أخنُقُه حتَّى وَجدْتُ بَرْدَ لُعابِه بيْنَ إصْبَعَيَّ هاتَينِ: الإبهامِ والَّتي تليها! ولولا دَعوةُ أخي سُلَيمانَ لأصبَحَ مَربوطًا بساريةٍ مِن سواري المسجدِ يَتلاعَبُ به صِبيانُ المدينةِ! فمَن استطاع منكم ألَّا يَحولَ بيْنَه وبيْنَ القِبلةِ أحَدٌ فلْيَفعَلْ))[٣].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾.

أي: إنَّك كثيرُ الهِباتِ والعَطاءِ لِمَن تَشاءُ مِمَّا تَشاءُ مِن خزائِنِ رَحمتِك وفَضلِك[٤].

﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾.

أي: فاستَجَبْنا دُعاءَ سُلَيمانَ بإعطائِه مُلكًا عَظيمًا لا ينبغي لأحَدٍ مِن بَعدِه، فذَلَّلْنا لأجْلِه الرِّيحَ طائِعةً له كيفما يأمُرُها، فتَهُبُّ رِخوةً في غايةِ اللِّينِ إلى حيثُ أراد[٥].

---

(١) رواه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١) واللفظ له.

(٢) التَبَسَت: أي: اختَلَطت واشتَبَهَت. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٧٨).

(٣) أخرجه أبو داودَ (٦٩٩) مختصرًا، وأحمدُ (١١٧٨٠) واللفظ له.

جوَّد إسنادَه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (٦/ ٢٩٣)، وابنُ رجب في ((فتح الباري)) (٦/ ٤٩٧)، ووثَّق رجالَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٩٠)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٦٩٩): (حسَنٌ صحيحٌ).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٧)، ((تفسير ان عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٤، ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٥)، ((تفسير =

﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ ﴾.

أي: وسَخَّرْنا له الشَّياطينَ، فذلَّلنا كُلَّ بَنَّاءٍ منهم، فيَبنونَ له ما يأمُرُهم ببِنائِه؛ وذَلَّلْنا كُلَّ غوَّاصٍ منهم، فيَغوصونَ له في البِحارِ، فيَستَخرِجونَ له اللآلِئَ وغَيرَها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٢، ١٣].

﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨ ﴾.

أي: وذَلَّلْنا لسُلَيمانَ آخَرينَ مِن مَرَدةِ الشَّياطينِ حتَّى قَرَنَهم في القُيودِ، وأوثَقَهم في الأغلالِ[2].

= البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير ان عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٩، ١٧٠).

قال الزَّجَّاجُ: (﴿حَيۡثُ أَصَابَ﴾ إجماعُ المفَسِّرينَ وأهلِ اللُّغةِ أنَّه حيث أراد، وحقيقتُه: قَصَدَ، وكذلك قَولُك للمُجيبِ في المسألةِ: أصَبْتَ، أي: قصَدْتَ، فلم تُخطِئِ الجوابَ). ((معاني القرآن)) (٤/ ٣٣٣).

وقال الماوَرْدي: (﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾ يحتمِلُ وجهَينِ؛ أحدُهما: تَحمِلُ ما يأمُرُها. الثَّاني: تَجري إلى حيثُ يأمُرُها). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لِنَبيِّه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: هذا المُلكُ الَّذي سألْتَ هو عَطاءٌ عَظيمٌ واسِعٌ وهَبْناه لك؛ فأعْطِ مَن شِئتَ مِنَ النَّاسِ، واحرِمْ مَن شِئتَ؛ فلا حرَجَ ولا مُؤاخَذةَ عليك في ذلك(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٠ - ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

قال ابن جُزَي: (﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ الإشارةُ إلى المُلكِ الَّذي أعطاه الله له، والمعنى: أنَّ الله قال له: أعطِ مَن شِئتَ، وامنَعْ مَن شِئتَ. وقيل: المعنى: امنُنْ على مَن شِئتَ مِن الجنِّ بالإطلاقِ مِن القُيودِ، وأمسِكْ مَن شِئتَ منهم في القيودِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٩).

وممَّن اختار الأوَّلَ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن تيميَّة، وابن جُزَي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٠، ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

وممَّن اختار المعنى الثَّانيَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٦).

قال الماوَرْدي: (﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُه؛ أحدُها: بغيرِ تقديرٍ فيما تُعطي وتَمنعُ، حكاه ابنُ عيسى. الثَّاني: بغيرِ حرَجٍ، قاله مجاهدٌ. الثَّالثُ: بغيرِ حسابٍ تُحاسَبُ عليه يومَ القيامةِ، قاله سعيدُ بنُ جُبَيْر). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٠٠).

وممَّن قال: إنَّ معنى ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾: بغيرِ مُؤاخَذةٍ عليك في ذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن تيميَّة، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، والضَّحَّاكُ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، وسعيدُ ابنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٦). =

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما أنعَمَ به على سُلَيمانَ في الدُّنيا؛ أردَفَه بإنعامِه عليه في الآخِرةِ[(١)].

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: وإنَّ لِسُلَيمانَ عِندَنا قُربةً مِنَّا ومَنزِلةً عاليةً، وحُسنَ مَرجِعٍ[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ أنَّ الأولادَ هِبةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ للعَبدِ، ويَتفرَّعُ على ذلك أنَّه يَجِبُ على العَبدِ شُكرُ اللهِ على هذه النِّعمةِ[(٣)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾

= قال السَّعدي: (أي: لا حرَجَ عليك في ذلك ولا حِسابَ؛ لِعلمِه تعالى بكَمالِ عَدلِه، وحُسنِ أحكامِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

وقيل: المرادُ: أنَّه عَطاءٌ واسِعٌ لا تَضييقَ عليك فيه، على أن جُمْلَتَيْ ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ مُعْترِضَتانِ بيْن قولِه: ﴿عَطَآؤُنَا﴾ وقَولِه: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٧).

وقيل: المرادُ: أعطِ مَن شِئتَ بغيرِ حِسابٍ؛ لأنَّك لا تخشى مِن نَقصِه، ولا تُسألُ عنه في الآخرةِ؛ لأنَّه قد أُذِنَ لك؛ فنَفْيُ الحِسابِ عنه يُفيدُ شيئينِ: الكَثرةَ، وعدَمَ المؤاخَذةِ في إعطاءٍ أو مَنعٍ. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٦).

فيه -على قولٍ في التَّفسيرِ- أنَّ كُلَّ ما شَغَل العَبدَ عن اللهِ تعالى، فإنَّه مَشؤومٌ مَذمومٌ، فلْيُفارِقْه، ولْيُقبِلْ على ما هو أنفَعُ له[١].

٣- قَولُ الله تعالى حكايةً عن سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ فجَعَل سُلَيمانُ يُعَرقِبُ[٢] سُوقَها ويُقطِّعُ أعناقَها -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لِحِرمانِ نَفْسِه منها، مع محبَّتِه إيَّاها؛ تَوبةً منه، وتربيةً لِنَفْسِه، وهذه طريقةٌ جَليلةٌ مِن طرائِقِ تَربيةِ النَّفْسِ، ومَظاهِرِ كَمالِ التَّوبةِ بالنِّسبةِ إلى ما كان سَبَبًا في الهَفوةِ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ۝ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ الآياتُ المُتعَلِّقةُ بنَدَمِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ على الاشتِغالِ بالخَيلِ عن ذِكرِ اللهِ -على قولٍ في التَّفسيرِ- مَوقِعُ أُسوةٍ به في مُبادَرةِ التَّوبةِ، وتحذيرٌ مِن الوُقوعِ في الغفلةِ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ يدُلُّ على أنَّه يَجبُ تَقديمُ مُهِمِّ الدِّينِ على مُهِمِّ الدُّنيا؛ لأنَّ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ طَلَبَ المَغفِرةَ أوَّلًا، ثمَّ بَعْدَه طَلَبَ المَملَكةَ[٥]؛ وذلك لأنَّ زَوالَ أثَرِ الذُّنوبِ هو الَّذي يَحصُلُ به المقصودُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) أي: يَقْطَعُ عُرْقُوبَها، وهو الوَتَرُ الَّذي خَلْفَ الكَعبَينِ بيْنَ مَفْصِلِ القَدَمِ والسَّاقِ مِن ذَواتِ الأرْبَعِ، وهو مِنَ الإنسانِ فُوَيْقَ العَقِبِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٤).

فالذُّنوبُ في الحقيقةِ تَتراكَمُ على القَلبِ، وتَمنَعُه مِن كثيرٍ مِن المصالحِ، فيَسألُ الإنسانُ التَّخَلُّصَ مِن آثارِ هذه الذُّنوبِ قبْلَ أنْ يَسألَ ما يُريدُ(١).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ يدُلُّ على أنَّ طَلبَ المَغفرةِ مِن اللهِ تعالى سبَبٌ لانفِتاحِ أبوابِ الخَيراتِ في الدُّنيا؛ لأنَّ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ طَلَبَ المَغفِرةَ أوَّلًا، ثمَّ توسَّلَ به إلى طَلَبِ المَملَكةِ(٢).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ فيه تنبيهٌ على القاعِدةِ المَشهورةِ: (مَن تركَ شَيئًا لله عوَّضه اللهُ خيرًا منه)؛ فسُليَمانُ عليه السَّلامُ عَقَرَ الجِيادَ الصَّافِناتِ المحبوبةَ للنُّفوسِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ تقديمًا لمحبَّةِ اللهِ، فعَوَّضه اللهُ خيرًا مِن ذلك، بأنْ سَخَّرَ له الرِّيحَ الرُّخاءَ اللَّيِّنةَ الَّتي تجري بأمْرِه إلى حيثُ أرادَ وقَصَد، غُدُوُّها شَهرٌ، ورَواحُها شَهرٌ، وسَخَّرَ له الشَّياطينَ أهلَ الاقتِدارِ على الأعمالِ الَّتي لا يَقدِرُ عليها الآدَميُّونَ(٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ فيه أنَّ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ مِن مِنَنِ اللهِ وفضائلِه على داودَ عليه السَّلامُ؛ حيثُ وهَبَه له، وأنَّ مِن أكبَرِ نِعَمِ اللهِ على عَبدِه أن يَهَبَ له ولَدًا صالِحًا، فإنْ كان عالِمًا كان نورًا على نورٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢). ويُنظر أيضًا: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾، ثمَّ قال بعدَه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وهذه الكَلِمةُ للتَّعليلِ؛ فهذا يدُلُّ على أنَّه إنَّما كان نِعْمَ العَبدُ لأنَّه كان أوَّابًا، فيَلزَمُ أنَّ كُلَّ مَن كان كثيرَ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى في أكثَرِ الأوقاتِ، وفي أكثَرِ المُهِمَّاتِ؛ كان مَوصوفًا بأنَّه نِعمَ العَبدُ[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ فيه إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ؛ فقولُه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ هو سَبَبُ الثَّناءِ عليه[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ فضيلةُ الأَوبةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، والرُّجوعِ إليه بالقَلبِ والعَمَلِ؛ لأنَّ اللهَ أثنَى على سُلَيمانَ بسَبَبِ ذلك[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ أنَّ الصَّلاةَ يقالُ لها: «ذِكْرٌ» كما هي، وفيها أفعالٌ[4]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أنَّ الأرضَ كُرَويَّةٌ؛ لأنَّه لَمَّا أثْبَت أنَّها تَتوارَى بالحِجابِ دلَّ هذا على أنَّ الأرضَ هي الَّتي تَحْجُبُها، وهي كما تُشاهدُ تَنْزِلُ شيئًا فشيئًا حتَّى تكونَ في الأرضِ، فيدُلُّ ذلك على أنَّ الأرضَ كرويَّةٌ، وهذا أيضًا أمرٌ مقطوعٌ به، ولا إشكالَ فيه؛ فهو ظاهرٌ مِن القرآنِ، وظاهرٌ في الواقعِ؛ ففي القرآنِ يقول اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣] وذلك يكونُ يومَ القيامةِ، فقولُه: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ يدُلُّ على أنَّها قبْلَ هذا ليست ممدودةً، بل هي كرويَّةٌ، وهذا لا يُعارِضُ قولَه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٥٨).

ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۞ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۞ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]؛ لأنَّ سَطْحَها باعتبارِ المُشاهَدةِ، فأنت الآنَ إذا وَقَفْتَ على الأرضِ تجدُها مستويةً إلى مَدِّ البصرِ[١].

٧- يَنقَسِمُ الأنبياءُ عليهم السَّلامُ إلى عَبدٍ رَسولٍ، ونَبيٍّ مَلِكٍ، وقد خَيَّرَ اللهُ سُبحانَه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيْنَ أنْ يكونَ عَبدًا رَسولًا، وبيْنَ أنْ يكونَ نَبيًّا مَلِكًا، فاختار أنْ يكونَ عبدًا رَسولًا.

فالنَّبيُّ المَلِكُ مِثلُ داودَ وسُلَيمانَ ونحوِهما -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ-؛ قال اللهُ تعالى في قِصَّةِ سُلَيمانَ الَّذي: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۞ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۞ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۞ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۞ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: أعْطِ مَن شِئتَ، واحرِمْ مَن شِئْتَ، لا حِسابَ عليك؛ فالنَّبيُّ المَلِكُ يَفعَلُ ما فَرَض اللهُ عليه، ويَترُكُ ما حَرَّم اللهُ عليه، ويَتصَرَّفُ في الوِلايةِ والمالِ بما يُحِبُّه ويختارُ مِن غَيرِ إثمٍ عليه.

وأمَّا العَبدُ الرَّسولُ فلا يُعطي أحدًا إلَّا بأمرِ رَبِّه، ولا يُعطي مَن يَشاءُ ويَحرِمُ مَن يَشاءُ، بل جاء عنه أنَّه قال: ((ما أُعْطيكم ولا أَمْنَعُكم، أنا قاسِمٌ، أضَعُ حيثُ أُمِرتُ))[٢].

والمقصودُ هنا أنَّ العَبدَ الرَّسولَ هو أفضَلُ مِن النَّبيِّ المَلِكِ، كما أنَّ إبراهيمَ وموسى وعيسى ومُحمَّدًا -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- أفضَلُ مِن يُوسُفَ وداودَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣١١٧) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

وسُلَيمانَ -عليهم السَّلامُ[١].

٨- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ فيه جوازُ الذُّنوبِ على الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وذلك أنَّه لو لم يكنْ ذَنْبٌ لَمَا استَغفرَ، وفيه أيضًا أنهم مُحتاجون إلى مَغفرةِ اللهِ[٢].

٩- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ هذا أدبُ الأنبياءِ والصَّالحينَ مِن طَلَبِ المَغفِرةِ مِنَ اللهِ؛ هَضمًا لِلنَّفْسِ، وإظهارًا لِلذِّلَّةِ والخُشوعِ، وطَلَبًا لِلتَّرَقِّي في المَقاماتِ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ أنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مَعنيُّونَ أكثرَ بأمورِ الآخرةِ؛ ولهذا طَلَبَ مِن اللهِ المَغفِرةَ قبْلَ أنْ يَطلُبَ المُلْكَ[٤].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ إنْ قيل: كيف سأل سُلَيْمانُ المُلكَ، وهو مِن ناحيةِ الدُّنيا، وهو نَبيٌّ مِن الأنبياءِ، وإنَّما يَرغَبُ في المُلْكِ أهلُ الدُّنيا المُؤثِرونَ لها على الآخِرةِ؟

فالجواب: أنَّ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ إنَّما سأل المُلكَ لسياسةِ النَّاسِ، وإنصافِ بَعضِهم مِن بَعضٍ، والقيامِ بحَقِّ اللهِ، ولِيَستعينَ به على طاعةِ الله، ولم يَسألْه لأجْلِ مَيلِه إلى الدُّنيا، وهو كقَولِ يُوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٧٤).

حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[(١)] [يوسف: ٥٥].

وأيضًا فرَغبتُه إلى رَبِّه فيما يَرغَبُ إليه مِن المُلْكِ لم تكُنْ -إن شاء اللهُ- به رَغبةٌ في الدُّنيا، ولكِنْ إرادةٌ منه أن يَعلَمَ مَنزِلتَه من اللهِ في إجابتِه فيما رَغِبَ إليه فيه، وقَبولِه تَوبتَه، وإجابتِه دُعاءَه[(٢)].

١٢- إن قال لنا قائِلٌ: ما وجْهُ مَسألةِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ ربَّه مُلْكًا لا ينبغي لأحَدٍ مِن بَعدِه، وما كان يَضُرُّه أن يكونَ كُلُّ مَن بعدَه يُؤتَى مِثلَ الَّذي أُوتيَ مِن ذلك؟

فالجوابُ: أنَّ مَسألتَه رَبَّه مُلْكًا لا ينبغي لأحَدٍ مِن بَعدِه، قد قيلَ: إنَّ معنى ذلك: هَبْ لي مُلْكًا لا أُسلَبُه، وإنَّما معناه عندَ هؤلاء: هَبْ لي مُلكًا لا ينبغي لأحَدٍ مِن بَعدي أن يَسلُبَنيه.

وقد يَتَّجِهُ ذلك أن يكونَ بمعنى: لا ينبغي لأحَدٍ سِوايَ مِن أهلِ زماني، فيَكونَ حُجَّةً وعَلَمًا لي على نُبُوَّتي، وأنِّي رسولٌ لك إليهم مَبعوثٌ؛ إذ كانت الرُّسُلُ لا بدَّ لها مِن أعلامٍ تُفارِقُ بها سائِرَ النَّاسِ سِواهم. ويَتَّجِهُ أيضًا لأن يكونَ مَعناه: وهَبْ لي مُلكًا تَخُصُّني به، لا تُعطيه أحدًا غيري، تَشريفًا مِنك لي بذلك وتَكرِمةً؛ لِتُبَيِّنَ مَنزلتي منك به مِن مَنازِلِ مَن سِوايَ[(٣)].

وقيل: أرادَ أنْ يَقولَ: مُلْكًا عَظيمًا، فقال: لا يَنبَغي لِأحَدٍ مِن بَعدِي، ولم يَقصِدْ بذلك إلَّا عِظَمَ المُلْكِ وسَعَتَه، كما تَقولُ: لِفُلانٍ ما ليس لِأحَدٍ مِنَ الفَضلِ والمالِ، ورُبَّما كان لِلنَّاسِ أمثالُ ذلك، ولكِنَّكَ تُريدُ تَعظيمَ ما عِندَه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٢٥٦)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٣، ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((فتح الرحمن)) =

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ فيه أنَّ تَسخيرَ الشَّياطينِ لا يكونُ لأحَدٍ بعدَ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ[١].

١٤- قولُه تعالى حكايةً عن سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ فيه جوازُ طَلَبِ الإنسانِ المُلْكَ؛ ولكنْ يُشترَطُ في ذلك أنْ يكونَ لدى الإنسانِ استِعدادٌ للقيامِ بما سَأل[٢].

١٥- التَّوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بالاسمِ المناسِبِ لِمَا يَدعو به؛ لأنَّ قَولَه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ يُناسِبُ قَولَه: ﴿وَهَبۡ لِي﴾، وهذا هو أحدُ معاني قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فإنَّ أحدَ معانيها أنْ تَجعَلَها وَسيلةً لِمَا تدعو به؛ فإنْ أرَدْتَ أنْ تسألَ المَغفِرةَ تَقولُ: يا غَفورُ، أوِ الرَّحمةَ فتَقولُ: يا رحيمُ... وهكذا[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾ أنَّ اللهَ تعالى قد يُسَخِّرُ شَيئًا مِن الكَونِ لعبدٍ مِن عِبادِه، كما سَخَّرَ الرِّيحَ لسُلَيمانَ عليه السَّلامُ، فإنَّه مِن الجائزِ أنْ يُسَخِّرَها لغيرِه إذا دُعِيَ[٤].

١٧- الرِّياحُ لها شعورٌ واختيارٌ؛ لقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ لأنَّه إذا كان يأمُرُها وتَشْعُرُ بالأمرِ ثمَّ تمتثلُ؛ فهو دليلٌ أنَّ لها شعورًا ولها إرادةً[٥].

١٨- قال الله تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾ وصَفَ اللهُ تعالى الرِّيحَ

= للأنصاري (ص: ٤٨٨، ٤٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٨).

المذكورةَ هنا بأنَّها تَجري بأمرِه رُخاءً، ووصَفَها في سورةِ (الأنبياء) بأنَّها عاصِفةٌ، أي: شَديدةُ الهُبوبِ، فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، والعاصِفةُ غَيرُ التي تجري رُخاءً، فكيف يُجمَعُ بيْنَهما؟

والجوابُ: مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّها عاصِفةٌ في بعضِ الأوقاتِ، ولَيِّنةٌ رُخاءٌ في بَعضِها؛ بحَسَبِ الحاجةِ، كأنْ تَعصِفَ ويَشتَدَّ هُبوبُها في أوَّلِ الأمرِ، حتَّى تَرفَعَ البِساطَ الَّذي عليه سُلَيمانُ وجُنودُه، فإذا ارتفَعَ سارت به رُخاءً حيثُ أصاب[١]، أو يكونَ ذلك باختِلافِ الأحوالِ؛ فإذا أراد سُلَيمانُ عليه السَّلامُ الإسراعَ في السَّيرِ سارت عاصِفةً، وإذا أراد اللِّينَ سارت رُخاءً، والمقامُ قَرينةٌ على أنَّ المرادَ المُواتاةُ لإرادةِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ المُشعِرُ باختِلافِ مَقصدِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ منها[٢].

الثَّاني: أنَّها كانت في نَفْسِها رَخيَّةً طَيِّبةً كالنَّسيمِ، فإذا مَرَّت بكُرسِيِّه أبعَدَت به في مُدَّةٍ يَسيرةٍ، على ما قال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، فكان جَمْعُها بيْنَ الأمْرَينِ: أن تكونَ رُخاءً في نَفْسِها، وعاصِفةً في عَمَلِها، مع طاعَتِها لسُلَيمانَ، وهُبوبِها على حَسَبِ ما يُريدُ[٣].

الثَّالث: أنَّ الرُّخاءَ في البُداءةِ، والعصْفَ بعْدَ ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٣).

الرَّابع: أنَّها كانت رُخاءً في ذهابِه، وعاصفةً في رجوعِه إلى وطنِه؛ لأنَّ عادةَ المسافرينَ الإسراعُ في الرُّجوعِ[(١)].

١٩- قال الله تعالى هنا: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، وقال في (الأنبياء): ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، والسُّؤالُ هو أنَّه في سورةِ (الأنبياء) خَصَّ جَرْيَها به بكَونِه إلى الأرضِ الَّتي بارك فيها للعالَمينَ، وفي سورةِ (ص) قال: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ وقَولُه: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ يدُلُّ على التَّعميمِ في الأمكِنةِ الَّتي يُريدُ الذَّهابَ إليها على الرِّيحِ؟

والجوابُ: أنَّ قَولَه: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ يدُلُّ على أنَّها تجري بأمْرِه حَيثُ أراد مِن أقطارِ الأرضِ، وقَولَه: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾؛ لأنَّ مَسكَنَه فيها، وهي الشَّامُ، فتَرُدُّه إلى الشَّامِ، وعليه فقَولُه: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ في حالةِ الذَّهابِ، وقولُه: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ في حالةِ الإيابِ إلى محَلِّ السُّكنى؛ فانفَكَّت الجِهةُ، فزال الإشكالُ[(٢)].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ جوازُ التَّعزيرِ -إذا كان بحقٍّ، ولِمَن يَستحِقُّ- بمثلِ هذا العَمَلِ، أي: بالشَّدِّ والغَلِّ؛ وذلك لأنَّ التَّعزيرَ لا يَختَصُّ بعُقوبةٍ مُعَيَّنةٍ؛ لأنَّ المقصودَ به الإصلاحُ، فأيُّ عُقوبةٍ كان بها الإصلاحُ فهي الواجِبةُ[(٣)].

٢١- في قِصَّةِ داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ التَّنبيهُ على كَثرةِ خَيرِ اللهِ وبِرِّه بعَبيدِه: أنْ يَمُنَّ عليهم بصَالحِ الأعمالِ ومَكارِمِ الأخلاقِ، ثمَّ يُثنيَ عليهم بها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨١).

وهو المتفَضِّلُ الوهَّابُ[١].

٢٢- في قِصَّةِ داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ: أنَّ الأنبياءَ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم مَعصومون مِنَ الخَطَأِ فيما يُبَلِّغونَ عن اللهِ تعالى؛ لأنَّ مَقصودَ الرِّسالةِ لا يَحصُلُ إلَّا بذلك، وأنَّه قد يجري منهم بعضُ مُقتَضياتِ الطَّبيعةِ مِن المعاصي، ولكِنَّ اللهَ يَتدارَكُهم، ويُبادِرُهم بلُطفِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ الكَلامُ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَسطِ قِصَّةِ سُلَيمانَ بَعدَ أنْ بَسَطَ قِصَّةَ داودَ، وجَعَل التَّخلُّصَ إلى مَناقِبِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ مِن جِهةِ أنَّه مِن مِنَنِ اللهِ على داودَ عليه السَّلامُ؛ فكانت قِصَّةُ سُلَيمانَ كالتَّكمِلةِ لِقِصَّةِ داودَ. ولهذه النُّكتةِ لم تُفتَتَحْ قِصَّةُ سُلَيمانَ بعِبارةِ: (وَاذْكُرْ)، كما افتُتِحتْ قِصَّةُ داودَ، ثم قِصَّةُ أيُّوبَ، والقِصَصُ بَعْدَها، مُفَصَّلُها ومُجمَلُها، غَيرَ أنَّها لم تَخْلُ مِن مَواضِعِ أُسوةٍ وعِبرةٍ وتَحذيرٍ على عادةِ القُرآنِ في انتهازِ فُرَصِ الإرشادِ[٣].

- وجُملةُ ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ثَناءٌ على سُلَيمانَ ومَدحٌ له بأنَّه مِن جُملةِ مَنِ استَحَقُّوا عُنوانَ (العَبدُ للهِ)، وهو العُنوانُ المَقصودُ منه التَّقريبُ بالقَرينةِ، والمَخصوصُ بالمَدحِ مَحذوفٌ؛ لِتَقدُّمِ ذِكرِه، أيْ: نِعْمَ العَبدُ سُلَيمانُ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تَعليلٌ لِلثَّناءِ عليه بـ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾. والأوَّابُ: مُبالَغةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٨).

في الآئبِ، أيْ: كَثيرُ الأوْبِ، أيْ: الرُّجوعِ إلى اللهِ؛ بقَرينةِ أنَّه مادِحُه[١]. ووُضِعَ ﴿أَوَّابٌ﴾ مَوضِعَ المُسبِّحِ؛ لِأنَّ الأوَّابَ -وهو التَّوَّابُ الكَثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تَعالى- مِن عِبادَتِه أنْ يُكثِرَ ذِكرَ اللهِ، ويُديمَ تَسبيحَه، مُؤَوِّبًا لِلتَّسبيحِ، مُرَجِّعًا له؛ لِأنَّ كُلَّ مُؤَوِّبٍ أوَّابٌ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾

- تعَلَّقَ ﴿إِذْ عُرِضَ﴾ بـ ﴿أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] تَعليقَ تَعليلٍ؛ لِظُهورِ أنْ ليس المُرادُ أنَّه أوَّابٌ في هذه القِصَّةِ فقط؛ لِأنَّ صِيغةَ ﴿أَوَّابٌ﴾ تَقتَضي المُبالَغةَ، والأصلُ منها الكَثرةُ؛ فتَعيَّنَ أنَّ ذِكرَ قِصَّةٍ مِن حَوادِثِ أَوْبَتِه كان لِأنَّها يَنجَلي فيها عِظَمُ أوْبَتِه. وذِكرُ العَشيِّ هنا ليس لِمُجرَّدِ التَّوقيتِ؛ بل لِيُبْنى عليه قَولُه: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[٣] [ص: ٣٢].

- وتأخيرُ ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ عن الظَّرفَينِ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ﴾؛ لِلتَّشويقِ إلى المُؤَخَّرِ[٤].

- والصَّافِناتُ: وَصْفٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ، استُغنيَ عن ذِكرِه لِدَلالةِ الصِّفةِ عليه؛ لِأنَّ الصَّافِنَ لا يكونُ إلَّا مِنَ الخَيلِ والأفراسِ، وهو الَّذي يَقِفُ على ثَلاثِ قَوائِمَ وطَرَفِ حافِرِ القائِمةِ الرَّابِعةِ، لا يُمكِّنُ القائِمةَ الرَّابِعةَ مِنَ الأرضِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾

- كَرَّرَ لَفظَ الحُبِّ مع تَعديَتِه بحَرفِ (عَنْ)؛ لِأنَّ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ هنا بمَعنى آثَرتُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، أيْ: آثَروه، و(عَنْ) بمَعنى (على)، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨]؛ فيَصيرُ المَعنى: آثَرتُ حُبَّ الخَيرِ على ذِكرِ رَبِّي[١].

وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- أو ضَمَّنَ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ مَعنى عَوَّضتُ، فعُدِّيَ بـ (عن) في قَولِه: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾؛ فصارَ المَعنى: أحبَبتُ الخَيرَ حُبًّا، فجاوَزتُ ذِكرَ رَبِّي[٢].

- قال سُلَيمانُ عَقِبَ عَرضِ الخَيلِ: إنِّي أحبَبتُ الخَيلَ فغَفَلتُ عن صَلاتي للهِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وكَلامُه هذا خَبرٌ مُستَعمَلٌ في التَّحسُّرِ؛ اعترافًا بما صَدَر عنه مِنَ الاشتِغالِ بها عنِ الصَّلاةِ، ونَدَمًا عليه، وتَمهيدًا لِمَا يَعقُبُه مِنَ الأمْرِ بردِّها وعَقرِها. والتَّعقيبُ باعتِبارِ أواخِرِ العَرضِ المُستَمِرِّ دُونَ ابتِدائِه، والتَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ اعترافَه ونَدَمَه عن صَميمِ القَلبِ، لا لِتَحقيقِ مَضمونِ الخَبَرِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ فصيحةٌ، مفصِحةٌ عن جملةٍ قد حُذِفتْ ثقةً بدلالةِ الحالِ عليها، وإيذانًا بغايةِ سُرعةِ الامتِثالِ بالأمْرِ،

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٦).

أيْ: فرَدُّوها عليه، فأخَذَ يَمسَحُ...[١]، وقيل: الفاءُ تَعقيبيَّةٌ[٢].

- وحَرفُ التَّعريفِ في ﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ عِوَضٌ عنِ المُضافِ إليه، أيْ: بسُوقِها وأعناقِها[٣].

- والباءُ في ﴿بِٱلسُّوقِ﴾ مَزيدةٌ لِلتَّأكيدِ؛ أيْ: تَأكيدِ اتِّصالِ الفِعلِ بمَفعولِه[٤].

- قَولُه: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ اختُلِفَ في مَعناه، ويَترَتَّبُ على ذلك اختِلافُ الدَّلالاتِ البَلاغيَّةِ؛ فقيلَ: معنى (طَفِقَ) يَمسَحُ أعرافَ الخَيلِ وسُوقَها بيَدِه حُبًّا لها، وهذا هو الجاري على المُناسِبِ لِمَقامِ نَبيٍّ، والأوْفَقُ بحَقيقةِ المَسحِ، ولكِنَّه يَقتَضي إجراءَ تَرتيبِ الجُمَلِ على خِلافِ مُقتَضى الظَّاهِرِ؛ بأنْ يَكونَ قَولُه: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ مُتَّصِلًا بقَولِه: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ [ص: ٣١]، أيْ: بَعدَ أنِ استَعرَضَها وانصَرفوا بها لِتأويَ إلى مَذاوِدِها، قال: رُدُّوها عليَّ، فطَفِقَ مَسحًا بالسُّوقِ والأعناقِ؛ إكرامًا لها ولِحُبِّها، ويُجعَلَ قَولُه: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] مُعتَرِضًا بَيْنَهما، وإنَّما قُدِّمَ؛ لِلتَّعجيلِ بذِكرِ نَدَمِه على تَفريطِه في ذِكرِ اللهِ في بَعضِ أوقاتِ ذِكرِه، أيْ: أنَّه لم يَستَغرِقْ في الذُّهولِ، بل بادَرَ الذِّكرى بمُجَرَّدِ فَواتِ وَقتِ الذِّكرِ الَّذي اعتادَه؛ إذْ لا يُناسِبُ أنْ يَكونَ قَولُه: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ مِن آثارِ نَدَمِه وتَحَسُّرِه، على هذا التَّفسيرِ، وهذا يُفيدُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((لمصدر السابق)).

بأنَّ فَواتَ وَقتِ ذِكرِه نَشَأ عن ذلك الرَّدِّ الَّذي أمَرَ به بقَولِه: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾؛ فإنَّهمُ اعتادوا أنْ يَعرِضوها عليه ويَنصَرِفوا، وقد بَقِيَ ما يَكفي مِنَ الوَقتِ لِلذِّكرِ، فلَمَّا حَمَلتْه بَهجَتُه بها على أنْ أمَرَ بإرجاعِها، واشتَغَل بمَسحِ أعناقِها وسُوقِها، خَرَج وَقتُ ذِكرِه فتَندَّمَ وتَحسَّرَ.

وقيل: إنَّ سُليمانَ لَمَّا نَدِمَ على اشتغالِه بالخَيلِ حتَّى أضاع ذِكرَ اللهِ في وقْتٍ كان يَذكُرُ اللهَ فيه؛ أَمَرَ أنْ تُرَدَّ عليه الخَيلُ الَّتي شَغلَتْه، فجَعَل يُعَرقِبُ سُوقَها ويُقطِّعُ أعناقَها؛ لِحِرْمانِ نفْسِه منها، مع محبَّتِه إيَّاها؛ توبةً منه، وتربيةً لنفْسِه. وأراد ذَبْحَها؛ لِيأكُلَها الفقراءُ. وقيل: لَعَلَّ المَسحَ مُعبَّرٌ به عنِ التَّوسيمِ بسِمةِ الخَيلِ المَوقوفةِ في سَبيلِ اللهِ بكَيِّ نارٍ، أو كَشطِ جِلدٍ؛ لِأنَّ ذلك يُزيلُ الجِلدةَ الرَّقيقةَ الَّتي على ظاهِرِ الجِلدِ، فشُبِّهتْ تلك الإزالةُ بإزالةِ المَسحِ ما على ظَهرِ المَمسوحِ مِن مُلتَصِقٍ به، وعلى هذينِ التَّأويلينِ يكونُ قولُه: ﴿فَطَفِقَ﴾ تَعقيبًا على ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ وعلى مَحذوفٍ بعْدَه، والتَّقديرُ: فرَدُّوها عليه فطَفِقَ[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ...﴾

- عَطَفَ ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ بحَرفِ (ثُمَّ) المُفيدِ لِلتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ لِأنَّ رُتبةَ الإنابةِ أعظَمُ ذِكرٍ في قَولِه: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾[2] [ص: ٣٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾

- في قَولِه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ قَدَّمَ الاستِغفارَ على استيهابِ المُلْكِ؛ جَريًا على عادةِ الأنبياءِ والصَّالِحينَ في الأدَبِ، في تَقديمِهم أمْرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٧، ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٦١).

دِينِهم على أُمورِ دُنياهم، ووُجوبِ تَقديمِ ما يَجعَلُ الدُّعاءَ بصَدَدِ الإجابةِ[١].

- وفي إرْدافِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ طَلَبَ المَغفِرةِ باستيهابِ مُلْكٍ لا يَنبَغي لِأحَدٍ مِن بَعدِه؛ لِأنَّه تَوقَّعَ مِن غَضَبِ اللهِ أمْرَيْنِ: العِقابَ في الآخِرةِ، وسَلْبَ النِّعمةِ في الدُّنيا، وكان سُلَيمانُ يَومَئِذٍ في مُلْكٍ عَظيمٍ، فسُؤالُ مَوهِبةِ المُلْكِ مُرادٌ به استِدامةُ ذلك المُلْكِ، وصيغةُ الطَّلَبِ تَرِدُ لِطَلَبِ الدَّوامِ[٢].

- وتَنكيرُ ﴿مُلْكًا﴾ لِلتَّعظيمِ[٣].

- وارتَقَى سُلَيمانُ في تَدَرُّجِ سُؤالِه إلى أنْ وَصَفَ ﴿مُلْكًا﴾ بأنَّه لا يَنبَغي لِأحَدٍ مِن بَعدِه، أيْ: لا يَتأتَّى لِأحَدٍ مِن بَعدِه، أيْ: لا يُعطيهِ اللهُ أحَدًا يَبتَغيه مِن بَعدِه، فكَنَّى بـ ﴿لَّا يَنۢبَغِي﴾ عن مَعنى (لا يُعطى لِأحَدٍ)، أيْ: لا تُعطيه أحَدًا مِن بَعدي، وهذا مِنَ التَّأدُّبِ في دُعائِه؛ إذْ لم يَقُلْ: لا تُعطِه أحَدًا مِن بَعدي[٤].

- وحَكى اللهُ دُعاءَ سُلَيمانَ، وهو سِرٌّ بيْنَه وبيْنَ رَبِّه؛ إشعارًا بأنَّه ألهَمَه إيَّاه، وأنَّه استَجابَ له دَعوَتَه؛ تَعريفًا برِضاه عنه، وبأنَّه جَعَلَ استِجابَتَه مَكرُمةَ تَوبَتِه[٥].

- وجُملةُ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ عِلَّةٌ لِلسُّؤالِ كُلِّه، والدُّعاءِ بالمَغفِرةِ والهِبةِ، وتَمهيدٌ لِلإجابةِ؛ فقامَتْ (إنَّ) مَقامَ حَرفِ التَّفريعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦١، ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٦٠).

- قَولُه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ (أَنْتَ) ضَميرُ فَصلٍ، وأفادَ الفَصلُ به قَصرًا؛ فصارَ المَعنى: أنتَ القَويُّ المَوهِبةِ، لا غَيرُكَ؛ لِأنَّ اللهَ يَهَبُ ما لا يَملِكُ غَيرُه أنْ يَهَبَه[1].

- ولَمَّا بالَغَ سُلَيمانُ عليه السَّلامُ في صِفةِ هذا المُلْكِ الَّذي طَلَبه، أتى في صِفَتِه تعالى باللَّفظِ الدَّالِّ على المُبالَغةِ، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾، أيْ: الكَثيرُ الهِباتِ، لا يَتَعاظَمُ عِندَه هِبةٌ[2].

- ودَلَّتْ صِيغةُ المُبالَغةِ في ﴿ٱلۡوَهَّابُ﴾ على أنَّه تَعالى يَهَبُ الكَثيرَ والعَظيمَ؛ لِأنَّ المُبالَغةَ تُفيدُ شِدَّةَ الكَمِّيَّةِ، أو شِدَّةَ الكَيفيَّةِ، أو كِلتَيْهما، بقَرينةِ مَقامِ الدُّعاءِ، فمَغفِرةُ الذَّنبِ مِنَ المَواهِبِ العَظيمةِ؛ لِمَا يُرَتَّبُ عليه مِن دَرَجاتِ الآخِرةِ، وإعطاءُ مِثلِ هذا المُلْكِ هو هِبةٌ عَظيمةٌ[3].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾

- قَولُه: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ اقتَضَتِ الفاءُ وتَرتيبُ الجُمَلِ أنَّ تَسخيرَ الرِّيحِ وتَسخيرَ الشَّياطينِ كانا بَعْدَ أنْ سألَ اللهَ مُلْكًا لا يَنبَغي لِأحَدٍ مِن بَعدِه؛ أنْ أعطاه هاتَينِ المَوهِبَتَينِ؛ زِيادةً في قُوَّةِ مُلْكِه، وتَحقيقًا لاستِجابةِ دَعوَتِه؛ لِأنَّه إنَّما سألَ مُلْكًا لا يَنبَغي لِأحَدٍ غَيرِه، ولم يَسألِ الزِّيادةَ فيما أُعطيَه مِنَ المُلْكِ، ولَعَلَّ اللهَ أرادَ أنْ يُعطيَه هاتَينِ المَوهِبتَينِ، وألَّا يُعطيَهما أحَدًا بَعْدَه، حتَّى إذا أعطَى أحَدًا بعْدَه مُلْكًا مِثلَ مُلْكِه فيما عدا هاتَينِ المَوهِبتَينِ؛ لم يَكُنْ قد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٣).

أخلَفَ إجابَتَه[١].

- واللَّامُ في ﴿لَهُۥ﴾ لِلعِلَّةِ، أيْ: لِأجْلِه، أيْ: ذلك التَّسخيرُ كَرامةٌ مِنَ اللهِ له بأنْ جَعَل تَصريفَ الرِّياحِ مُقدَّرًا على نَحوِ رَغبَتِه[٢].

- قَولُه: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ قُرِئَ ﴿الرِّيَاحَ﴾ بالجَمْعِ[٣]، وهو أعَمُّ؛ لِعِظَمِ مُلْكِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، وإنْ كان المُفرَدُ بمَعنى الجَمعِ؛ لِكَونِه اسْمَ جِنسٍ[٤].

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾

- ﴿كُلَّ﴾ هنا مُستَعمَلةٌ في مَعنى الكَثيرِ، والبَنَّاءُ: الَّذي يَبني، وهو اسمُ فاعِلٍ مَصوغٌ على زِنةِ المُبالَغةِ؛ لِلدَّلالةِ على مَعنى الصِّناعةِ، مِثلُ نَجَّارٍ وقَصَّارٍ وحَدَّادٍ، والغَوَّاصُ: الَّذي يَغوصُ في البَحرِ لاستِخراجِ مَحارِ اللُّؤلُؤِ، وهو أيضًا مِمَّا صِيغَ على وَزنِ المُبالَغةِ؛ لِلدَّلالةِ على الصِّناعةِ[٥].

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ عَطفٌ على ﴿كُلَّ﴾، كأنَّه فَصَّلَ الشَّياطينَ إلى عَمَلةٍ استَعمَلَهم في الأعمالِ الشَّاقَّةِ، كالبِناءِ والغَوصِ، ومَرَدةٍ قَرَنَ بَعضَهم مع بَعضٍ في السَّلاسِلِ؛ لِيَكُفُّوا عن الشَّرِّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) قرأها أبو جعفرٍ بالجمعِ، والباقون بالإفرادِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٦).

- والمُقرَّنُ: اسمُ مَفعولٍ مِن (قَرَنَه)، مُبالَغةً في قَرَنَه، أيْ: جَعَلَه قَرينًا لِغَيرِه، لا يَنفَكُّ أحَدُهما عن الآخَرِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ المعنى: مُقرَّنينَ في الأصفادِ حَقيقةً، ويَجوزُ أنْ يَكونَ تَمثيلًا لِمَنعِ الشَّياطينِ مِنَ التَّفلُّتِ[١].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾

- قَولُه: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ إشارةٌ لِمَا أعطاه اللهُ تَعالى مِنَ المُلْكِ الضَّخمِ، وتَسخيرِ الرِّيحِ والإنْسِ والجِنِّ والطَّيرِ، والإضافةُ لِتَعظيمِ شأنِ المُضافِ؛ لانتِسابِه إلى المُضافِ إليه، فكَأنَّه قيلَ: هذا عَطاءٌ عَظيمٌ أعطَيْناكَه، أو هذا عَطاؤُنا واسِعًا، وأنَّه مُفوَّضٌ إليه تَفويضًا كُلِّيًّا[٢].

- قَولُه: ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ أمْرٌ مُستَعمَلٌ في الإذْنِ والإباحةِ، وهو مُشتَقٌّ مِنَ المَنِّ المُكَنَّى به عن الإنعامِ، وَقَّفَه على قَدْرِ النِّعمةِ، ثمَّ أباحَ له التَّصرُّفَ فيها بمَشيئَتِه، وهو تعالى قد عَلِمَ أنَّه لا يَتصَرَّفُ إلَّا بطاعةِ اللهِ[٣].

- وجُملَتا ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ مُعتَرِضتانِ بَينَ قَولِه: ﴿عَطَآؤُنَا﴾ وقَولِه: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾، وهو تَفريعٌ مُقدَّمٌ مِن تَأخيرٍ، والتَّقديمُ لِتَعجيلِ المَسرَّةِ بالنِّعمةِ[٤]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٧).

- أتْبَعَ اللهُ الخَبَرَ عن العَطاءِ والمَنِّ عليه بما هو أرفَعُ دَرَجةً؛ وهو أنَّه مِنَ المُقرَّبينَ عِندَ اللهِ المَرْضيِّ عنهم، وأنَّه لم يُوقَفْ به عِندَ حَدِّ العَطاءِ لا غَيرُ. وتأكيدُ الجُملةِ بـ «إنَّ» واللَّامِ؛ لإزالةِ تَوهُّمِ أنَّ اللهَ غَضِبَ عليه إذْ فَتَنَه؛ تَنزيلًا لِمَقامِ الاستِغرابِ مَنزِلةَ مَقامِ الإنكارِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤١).

الآيات (٤١-٤٤)

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِنُصۡبٖ﴾: أي: بِشَرٍّ ومَشقَّةٍ وعَناءٍ، والنُّصْبُ والنَّصَبُ: التَّعَبُ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ[1].

﴿ٱرۡكُضۡ﴾: أي: اضرِبْ، والرَّكضُ: حَرَكةُ الرِّجلِ، وأصلُه يدُلُّ على حَرَكةٍ[2].

﴿ضِغۡثٗا﴾: أي: حُزمةً وقَبضةً مِنَ الحَشيشِ أو نَحوِه، وأصلُ (ضغث): يدُلُّ على التِباسِ شَيءٍ بشَيءٍ[3].

﴿وَلَا تَحۡنَثۡ﴾: أي: قد برَّتْ يمينُك، والحِنْثُ في اليمينِ: نَقْضُها والخُلْفُ فيها،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٠٦).
قال ابن فارس: (ومِن البابِ: النَّصَبُ: العناءُ، ومعناهُ أنَّ الإنسانَ لا يَزالُ مُنتصِبًا حتَّى يُعْيِيَ). ((مقاييس اللغة)) (٥/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦١).

وأصلُ (حنث): يدُلُّ على ذَنْبٍ وحَرَجٍ وإثمٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- عَبْدَنا أيُّوبَ حينَ نادَى رَبَّه قائلًا: يا رَبِّ، إنِّي مَسَّنيَ الشَّيطانُ بتَعَبٍ وألمٍ.

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى إجابتَه لدعاءِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ وما مَنَّ به عليه، فيقولُ: فاستَجَبْنا لأيُّوبَ، وقُلْنا له: اضرِبْ برِجْلِك الأرضَ، ففعَل فنَبَعَ منها الماءُ، فقُلْنا له: هذا ماءٌ باردٌ تَغتَسِلُ به وتَشرَبُ منه، فلمَّا فَعَل ذلك أيُّوبُ كشَفَ اللهُ ما به مِن ضُرٍّ، ووَهَب له أهلَه في الدُّنيا ومِثلَهم مَعَهم؛ رَحمةً مِنَ اللهِ تعالى، وتَذكيرًا لأصحابِ العُقولِ الصَّحيحةِ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى مِنَّةً أُخرَى امتنَّ بها على أيُّوبَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: وقُلْنا له بعدَ شِفائِه: خُذْ بيَدِك حُزمةً صَغيرةً مِن الحَشيشِ فيها مِئةُ عُودٍ؛ فاضرِبْ بها ضَربةً واحِدةً مَن حَلَفْتَ أن تَضرِبَه مئةَ ضَربةٍ، وبذلك تكونُ غيرَ حانثٍ في يمينِك، إنَّا وجَدْنا أيُّوبَ صابِرًا على البَلاءِ العَظيمِ، نِعْمَ العَبدُ أيُّوبُ؛ فهو كَثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ سُبحانَه نَبيَّه بالصَّبرِ، وذَكَر ابتِلاءَ داودَ وسُلَيمانَ، وأثْنَى عليهما؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠).

ذَكَر مَن كان أشَدَّ ابتِلاءً منهما، وأنَّه كان في غايةِ الصَّبرِ، بحيثُ أثْنَى اللهُ عليه بذلك[١].

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- عبْدَنا أيُّوبَ[٢] حينَ استغاثَ باللهِ تعالى قائِلًا: يا رَبِّ، إنِّي أصابَني الشَّيطانُ بتَعَبٍ وألَمٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أيُّوبَ نَبيَّ اللهِ كان في بَلائِه ثمانيَ عَشْرةَ سَنةً، فرفَضَه القَريبُ والبَعيدُ، إلَّا رجُلانِ مِن إخوانِه كانا مِن أخَصِّ إخوانِه، كانا يَغْدُوانِ إليه ويَرُوحانِ إليه، فقال أحَدُهما لصاحِبِه: أتعلَمُ، واللهِ لقد أذنَبَ أيُّوبُ ذَنْبًا ما أذنَبَه أحَدٌ! قال صاحِبُه: وما ذاك؟! قال: منذُ ثماني عَشْرةَ سَنةً لم يَرحَمْه اللهُ فيَكشِفَ عنه! فلمَّا راحا إليه لم يَصبِرِ الرَّجُلُ حتَّى ذكَرَ ذلك له، فقال أيُّوبُ: لا أدري ما يقولُ! غيرَ أنَّ اللهَ يَعلَمُ أنِّي كنتُ أمُرُّ على الرَّجُلَينِ يَتنازَعانِ فيَذْكُرانِ اللهَ[٤]، فأرجِعُ إلى بيتي فأُكفِّرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٠).

(٢) قال ابنُ عطيةَ: (أيُّوبُ هو نبيٌّ مِن بني إسرائيلَ، مِن ذُرِّيَّةِ يَعقوبَ عليه السَّلامُ، وهو نبيٌّ ابتُلِيَ في جَسَدِه ومالِه وأهلِه، وسَلِمَ دينُه ومُعتَقَدُه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٥-١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٣، ١٨٤).
قال ابنُ جرير: (معنى الكلام: إذ نادى ربَّه مُستغيثًا به، أنِّي مَسَّنيَ الشَّيطانُ ببلاءٍ في جَسدي، وعذابٍ بذَهابِ مالي وولدي). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٧).

(٤) فيَذْكُرانِ اللهَ: أي: يَحلِفان بالله. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٣).

عنهما؛ كراهيةَ أن يُذكَرَ اللهُ إلَّا في حَقٍّ! قال: وكان يَخرُجُ إلى حاجتِه، فإذا قضى حاجتَه أمسَكَت امرأتُه بيَدِه حتَّى يَبلُغَ، فلمَّا كان ذاتَ يومٍ أبطأ عليها وأُوحِيَ إلى أيُّوبَ في مكانِه أن: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ [ص: ٤٢]، فاستبطَأَتْه فلَقِيَتْه يَنتَظِرُ، وأقبَلَ عليها قد أذهَبَ اللهُ ما به مِن البَلاءِ، وهو على أحسَنِ ما كان! فلمَّا رأَتْه قالت: أيْ باركَ اللهُ فيك، هل رأيتَ نبيَّ اللهِ، هذا المُبتلى؟ وواللهِ على ذلك ما رأيتُ أحدًا أشبَهَ به منك إذ كان صَحيحًا! قال: فإنِّي أنا هو. وكان له أنْدَرانِ[(١)]: أنْدَرٌ للقَمحِ، وأندَرٌ للشَّعيرِ، فبَعَث اللهُ سَحابتَينِ، فلمَّا كانت إحداهما على أندَرِ القَمحِ أفرَغَت فيه الذَّهَبَ حتَّى فاض، وأفرَغَت الأخرى على أندَرِ الشَّعيرِ الوَرِقَ[(٢)] حتَّى فاض))[(٣)].

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾.

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾.

أي: فاستَجَبْنا لأيُّوبَ، وقُلْنا له: اضرِبْ برِجْلِك الأرضَ، فحرِّكْها بها وادفَعْها[(٤)].

---

(١) الأندَرُ: البَيْدَرُ (الجُرْنُ) الَّذي يُجمَعُ فيه الطَّعامُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/ ٢٠٠)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٤/ ١٩٤).

(٢) الوَرِقَ: أي: الفِضَّةَ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٦/ ٤٥٨).

(٣) أخرجه البزار (٦٣٣٣)، وأبو يعلى (٣٦١٧) واللفظ له، وابن حبان (٢٨٩٨).

صحَّحه ابن حبَّان، والألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١٧)، والوادعي في ((صحيح دلائل النبوة)) (٤٢٤)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٤٨٥): أصَحُّ ما ورد. وصحَّحه الحاكمُ على شرطِ الشَّيخَينِ في ((المستدرك)) (٤١١٥)، وصَحَّح إسنادَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ١٤٢)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٢٨٩٨): (إسنادُه على شرطِ مُسلمٍ).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) =

﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾.

أي: فضَرَب أيُّوبُ الأرضَ برِجْلِه، فنَبَع منها ماءٌ، فقُلْنا له: هذا ماءٌ بارِدٌ تَغتَسِلُ به، وتَشرَبُ منه[1].

= (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٥).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ بالرَّكضِ بالرِّجلِ: ضَرْبُها وتحريكُها: ابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ووهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٧).

وقال البِقاعي: (أي: قُلْنا له: اضرِبِ الأرضَ، وأوجِدِ الرَّكضَ، وهو المشيُ والتَّحريكُ والإسراعُ والاستِحثاثُ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٩٠، ٣٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٧، ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٥).

قال ابنُ جرير: (عَنى بقَولِه: ﴿مُغۡتَسَلُۢ﴾ ما يُغتسَلُ به مِن الماءِ، يُقالُ منه: هذا مُغتَسَلٌ وغَسولٌ للَّذي يُغتسَلُ به مِن الماءِ، وقَولُه: ﴿وَشَرَابٞ﴾ يعني: ويَشرَبُ منه، والموضِعُ الذي يُغتَسَلُ فيه يُسمَّى مُغتَسَلًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٨).

وقال البقاعي: (﴿مُغۡتَسَلُۢ﴾ أي: ماءٌ يُغتسَلُ به، ومَوضِعُه وزمانُه). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٩١).

وقال ابن عطية: (فشَرِبَ منها، فذهَبَ كُلُّ مَرَضٍ في داخِلِ جَسَدِه، ثمَّ اغتسَل فذهَبَ ما كان في ظاهِرِ بدَنِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٧).

قيل: أنبَع اللهُ لأيُّوبَ عينَينِ، اغتسَلَ مِن إحداهما، وشَرِبَ مِن الأخرى. وممَّن قال بهذا: ابنُ كثير، ونسَبَه ابنُ الجَوزيِّ إلى جمهورِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٨).

وقيل: هي عينٌ واحِدةٌ، اغتسَل أيُّوبُ منها، وشَرِبَ مِن مائِها. وممَّن ذهب إلى أنَّ هذا المعنى هو ظاهِرُ الآيةِ: الرَّازيُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٩٨). =

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا﴾.

أي: فاغتَسَل أيُّوبُ، وشَرِبَ مِن ذلك الماءِ، فكَشَف اللهُ ما به مِن ضُرٍّ وداءٍ، ووهَبَ له في الدُّنيا أهْلَه[1]، ومِثلَهم معهم؛ رَحمةً مِنَ اللهِ تعالى[2].

كما قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

= وقيل: جائِزٌ أن يكونَ لَمَّا ضَرَب برِجْلِه الأرضَ وركَضَها، نبَع منها عَيْنان: إحداهما للاغتِسالِ فيها، والأخرى للشُّربِ منها؛ فكانت الَّتي للشُّربِ منها ماؤُها باردٌ على ما يوافِقُ للشُّربِ ويُختارُ له، والأخرى ماؤُها ما يوافِقُ للاغتِسالِ، وهو دونَه في البرودةِ، على ما قاله أهلُ التَّأويلِ عامَّةً... وجائِزٌ أن يكونَ العَينُ واحِدةً إلَّا أنَّه لَمَّا اغتسَل منها كان ماؤُها فاترًا يوافقُ للاغتِسالِ، وإذا شرِب منها كان ماؤُها باردًا يوافقُ للشُّربِ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٣٣).

(١) قال ابن جرير: (وهَبْنا له أهْلَه مِن زَوجةٍ ووَلَدٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٥، ١٨٦).

قال ابن الجوزي: (﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فيه أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّ اللهَ تعالى أحيا له أهلَه بأعيانِهم، وآتاه مِثلَهم معهم في الدُّنيا. قاله ابنُ مسعودٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ... والثَّاني: أنَّهم كانوا قد غُيِّبوا عنه ولم يموتوا، فآتاه إيَّاهم في الدُّنيا ومِثلَهم معهم في الآخِرةِ. رواه هشامٌ عن الحسَنِ. والثَّالثُ: آتاه اللهُ أُجورَ أهلِه في الآخرةِ، وآتاه مِثلَهم في الدُّنيا. قاله نَوْفٌ، ومجاهدٌ. والرَّابعُ: آتاه أهلَه ومِثلَهم معهم في الآخرةِ. حكاه الزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٠١) و (٤/ ٣٣٥).

وقال الرازي: (قيل: هم عَينُ أهلِه وزيادةُ مِثلِهم، وقيل: غيرُهم مِثلُهم، والأوَّلُ أَولى؛ لأنَّه هو الظَّاهِرُ، فلا يجوزُ العُدولُ عنه مِن غيرِ ضَرورةٍ، ثمَّ اختلَفوا؛ فقال بعضُهم: معناه: أزَلْنا عنهم السَّقَمَ، فعادوا أصِحَّاءَ، وقال بعضُهم: بل حَضَروا عندَه بعدَ أن غابوا عنه، واجتَمَعوا بعدَ أن تفرَّقوا. وقال بعضُهم: بل تمكَّنَ منهم وتمكَّنوا منه فيما يتَّصِلُ بالعِشرةِ وبالخِدمةِ؛ أمَّا قَولُه تعالى: ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فالأقرَبُ أنَّه تعالى متَّعَه بصِحَّتِه وبمالِه، وقوَّاه حتَّى كثُرَ نَسْلُه، وصار أهلُه ضِعفَ ما كان، وأضعافَ ذلك). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٩).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((بَيْنَما أيُّوبُ يَغتَسِلُ عُريانًا، خَرَّ عليه رِجْلُ جَرَادٍ[١] مِن ذَهَبٍ، فجَعَل يَحْثِي[٢] في ثَوبِه، فناداه رَبُّه: يا أيُّوبُ، ألَمْ أكُنْ أغنَيْتُك عمَّا تَرى؟! قال: بلى يا رَبِّ، ولكِنْ لا غِنَى لي عن بَرَكَتِك!))[٣].

﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

أي: وتَذكيرًا لأصحابِ العُقولِ الصَّحيحةِ؛ لِيَعتَبِروا ويَتَّعِظوا، فيَقتَدوا بأيُّوبَ في صَبرِه، ويَعلَموا أنَّ عاقِبةَ الصَّبرِ الفَرَجُ، وأنَّ اللهَ يُجيبُ دُعاءَ عَبدِه إذا دعاه؛ فلا يَيْأسُوا مِن رَحمةِ الله[٤].

كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٤٤﴾.

﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾.

أي: وخُذْ بيَدِك -يا أيُّوبُ- حُزمةً مِن حَشيشٍ أو شماريخَ أو نحوِ ذلك، فاضرِبْ بها ضَربةً واحِدةً، فتبَرَّ بيَمينِك، ولا تَحنَثَ فيما حلَفْتَ عليه مِنَ الضَّربِ[٥].

---

(١) رِجْلُ جَرادٍ: أي: جماعةٌ مِن جَرادٍ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٣٧٣).

(٢) يَحْثي: أي: يأخُذُ بيَديه جميعًا ويَرمِي. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٣٧٣).

(٣) رواه البخاري (٣٣٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٨، ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٨)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير =

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾.

أي: إنَّا وجَدْنا أيُّوبَ صابِرًا على البَلاءِ العَظيمِ الَّذي ابتُلِيَ به[1].

﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

أي: نِعْمَ العَبدُ أيُّوبُ؛ فهو كَثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ هذه هي القِصَّةُ الثَّالِثةُ مِن القِصَصِ المذكورةِ في هذه السُّورةِ، وداودُ وسُلَيمانُ كانا ممَّن أفاض اللهُ عليه أصنافَ الآلاءِ والنَّعْماءِ، وأيوبُ كان ممَّن خَصَّه اللهُ تعالى بأنواعِ البَلاءِ، والمقصودُ مِن جميعِ هذه القِصَصِ الاعتبارُ، كأنَّ الله تعالى قال: يا محمَّدُ، اصبِرْ على سَفاهةِ قَومِك؛ فإنَّه ما كان في الدُّنيا أكثَرُ نِعمةً ومالًا وجاهًا مِن داودَ وسُلَيمانَ عليهما

= ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٠).

مُعظَمُ المفَسِّرينَ على أنَّ أيُّوبَ عليه السَّلامُ كان قد أقسَمَ على ضَربِ زَوجتِه مِئةَ جَلدةٍ؛ بسَبَبِ غَضَبِه عليها في أمرٍ ما قد اختَلَفوا في بيانِه وتحديدِه. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابنُ عثيمين: (مَفعولُ ﴿فَٱضْرِب﴾ محذوفٌ، وحُذِفَ -والعِلمُ عندَ الله- للسَّترِ...، وليس المقصودُ أن نَعرِفَ عينَ المضروبِ، ولكِنَّ المقصودَ أنَّ الضَّربَ الَّذي كان قد حَلَف عليه يَحصُلُ بأخْذِ هذا الضِّغْثِ والضَّربِ به). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤).

قال ابنُ عاشور: (أي: أنعَمْنا عليه بجَبرِ حالِه؛ لأنَّا وجَدْناه صابِرًا على ما أصابه... ومعنى ﴿وَجَدْنَٰهُ﴾: أنَّه ظهَرَ في صَبرِه ما كان في عِلمِ الله منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤).

السَّلامُ، وما كان في الدُّنيا أكثَرُ بلاءً ومِحنةً مِن أيُّوبَ عليه السَّلامُ؛ فتأمَّلْ في أحوالِ هؤلاء؛ لِتَعرِفَ أنَّ أحوالَ الدُّنيا لا تَنتَظِمُ لأحَدٍ، وأنَّ العاقِلَ لا بُدَّ له مِن الصَّبرِ على المَكارِهِ[١].

٢- الشَّكوى إلى اللهِ سُبحانَه لا تُنافي الصَّبرَ بوَجهٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى قال عن أيُّوبَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ مع إخبارِه عنه بالشَّكوى إليه، في قَولِه: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾[٢] [الأنبياء: ٨٣]، فما صدَرَ مِن أيُّوبَ: دُعاءٌ، وإظهارُ فَقرٍ، وحاجةٌ إلى رَبِّه، لا شكوى ولا جَزَعٌ[٣].

٣- عن عُمرَ بنِ السَّكَنِ، قال: (كنتُ عندَ سُفْيانَ بنِ عُيَيْنةَ، فقام إليه رجُلٌ مِن أهلِ بغدادَ، فقال: يا أبا محمَّدٍ، أخبِرْني عن قولِ مُطَرِّفٍ: «لَأَنْ أُعافى فأشكُرَ، أحَبُّ إلَيَّ مِن أن أُبتلَى فأصبِرَ»، أهو أحَبُّ إليك أمْ قولُ أخيه أبي العلاءِ: «اللَّهُمَّ رَضيتُ لِنَفْسي ما رضيتَ لي»؟ قال: فسكَتَ سكتةً، ثمَّ قال: قَولُ مُطَرِّفٍ أحَبُّ إلَيَّ، فقال الرَّجُلُ: كيف وقد رَضيَ هذا لِنَفْسِه ما رَضيَه اللهُ له؟! فقال سُفْيانُ: إنِّي قرأتُ القرآنَ فوجَدْتُ صِفةَ سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ مع العافيةِ الَّتي كان فيها: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، ووجَدْتُ صِفةَ أيُّوبَ عليه السَّلامُ مع البلاءِ الَّذي كان فيه: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، فاستَوَتِ الصِّفَتانِ، وهذا مُعافًى، وهذا مُبتَلًى، فوجَدْتُ الشُّكرَ قد قام مَقامَ الصَّبرِ، فلمَّا اعتدَلَا كانت العافيةُ مع الشُّكرِ أحَبَّ إلَيَّ مِن البلاءِ مع الصَّبرِ)[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٨).

(٤) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ٢١٢) و (٧/ ٢٨٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فيه تَنبيهٌ لأُولي الألبابِ على أنَّ مَن صَبَر ظَفِر[١]، فاللهُ تعالى يَمُنُّ على العَبدِ بأكثرَ ممَّا فَقَد إذا صَبَر واحتسَبَ؛ لأنَّ أيُّوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وَهَبَ اللهُ له أهلَه ومِثلَهم مَعَهم، فاصبِرْ تَظفَرْ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيه تَذكيرٌ لِغَيرِه؛ لِيتأسَّى به كُلُّ مُبتلًى، ويَرجو مِثلَ ما رجا؛ فإنَّ رَحمةَ اللهِ واسِعةٌ، وهو عندَ القُلوبِ المُنكَسِرةِ، فما بيْنَه وبيْنَ الإجابةِ إلَّا حُسْنُ الإنابةِ؛ فمَن دام إقبالُه عليه أغناه عن غَيرِه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ بيانُ أنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَملِكونَ لأنفُسِهم نَفعًا ولا ضَرًّا[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ جوازُ إضافةِ الأشياءِ إلى أسبابِها؛ لأنَّ أيُّوبَ عليه السَّلامُ أضافَ هذا الضُّرَّ إلى الشَّيطانِ؛ لأنَّه سَبَبُه[٥].

٣- في قَولِه تعالى عن أيُّوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أنَّ الشَّيطانَ قد يُسَلَّطُ على بعضِ الأنبياءِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٩). =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ جوازُ التَّوسُّلِ إلى اللهِ تعالى بحالِ العَبدِ؛ لأنَّ أيُّوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تَوَسَّلَ إلى اللهِ تعالى بحالِه، وهو أنَّه مَسَّه الشَّيطانُ بنُصْبٍ وعَذابٍ، ونظيرُ هذا قَولُ موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤]، فتَوَسَّلَ إلى اللهِ تعالى بذِكْرِ حالِه، وأنَّه فَقيرٌ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى، وهذا أحدُ أنواعِ التَّوسُّلِ الجائزِ[(١)].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾، لَمَّا كان قد حَصَل عِندَ أيُّوبَ عليه السَّلامُ نَوعانِ مِن المَكروهِ: الغَمُّ الشَّديدُ بسَبَبِ زَوالِ الخَيراتِ وحُصولِ المَكروهاتِ، والألمُ الشَّديدُ في الجِسمِ- لا جَرَمَ ذكَرَ اللهُ تعالى لَفْظَينِ، وهما: (النُّصْبُ) و(العَذابُ)[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يُجيبُ دَعوةَ المُضْطَرِّينَ إليه، إذا صَدَق الإنسانُ في دَعوتِه[(٣)].

= ذكر الشنقيطيُّ أنَّه يُمكِنُ أن يكونَ الشَّيطانُ قد سلَّطه الله على جسَدِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ ومالِه وأهلِه ابتِلاءً؛ لِيَظهَرَ صبرُه الجميلُ، وتكونَ له العاقبةُ الحميدةُ في الدُّنيا والآخرةِ، ويَرجِعَ له كلُّ ما أُصيبَ فيه، ثمَّ قال: (وهذا لا يُنافي أنَّ الشَّيطانَ لا سُلْطانَ له على مِثلِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ التَّسليطَ على الأهلِ والمالِ والجسدِ مِن جنسِ الأسبابِ الَّتي تَنشأُ عنها الأعراضُ البَشَريَّةُ، كالمرضِ، وذلك يقعُ للأنبياءِ؛ فإنَّهم يُصيبُهم المرضُ، وموتُ الأهلِ، وهلاكُ المالِ لأسبابٍ مُتنَوِّعةٍ. ولا مانعَ مِن أن يكونَ [من] جملةِ تلك الأسبابِ تسليطُ الشَّيطانِ على ذلك للابتِلاءِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٩).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ ولو شاء اللهُ تعالى لأنبَعَ له الماءَ بدونِ الرَّكضِ بالرِّجْلِ، ولكِنَّ اللهَ تعالى جَعَل ذلك سَببًا[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى قد يَجعَلُ السَّبَبَ الضَّعيفَ الَّذي لا يَقومُ بالمُسَبَّبِ سَببًا مُؤثِّرًا، كما أنَّه قادِرٌ على أنْ يَمنَعَ السَّببَ المُؤَثِّرَ فلا يُؤَثِّرُ؛ فالرَّكضُ بالرِّجْلِ ليس مِن العادةِ أنْ يُنبِعَ الماءَ، والإلقاءُ في النَّارِ مِن العادةِ أنْ يُحرِقَ؛ فإبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُلقِيَ في النَّارِ ولم يحتَرِقْ، وأيُّوبُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ رَكَضَ برِجْلِه الأرضَ فَنبَعَ الماءُ؛ ففيه دليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى قد يَجعَلُ السَّبَبَ الضَّعيفَ قَويًّا مُؤَثِّرًا، ويَجعَلُ السَّبَبَ القويَّ المُؤَثِّرَ غيرَ مُؤَثِّرٍ[٢].

٩- قَولُه تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ أي: اضرِبْ برِجْلِك الأرضَ، فضَرَب الأرضَ بها فنَبَع منها الماءُ بإذنِ اللهِ دونَ مُساعدةٍ مِن أحَدٍ، أو حاجةٍ إلى حَفَّارٍ؛ فاللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، وهذه إحدى الضَّرَباتِ الَّتي نَبَع بها الماءُ على أنَّه آيةٌ مِن آياتِ اللهِ. والثَّانيةُ: ضَربُ موسى عليه السَّلامُ للحَجَرِ، فانفجَرَت منه اثنَتَا عَشْرةَ عَينًا. والثَّالثةُ: ضَربُ جِبريلَ عليه السَّلامُ بجَناحَيه مكانَ زَمزمَ فنَبَع الماءُ[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ فيه جوازُ استِعمالِ الحِيَلِ المباحةِ، وهذا الحُكمُ ثابتٌ حتَّى في الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ، فلو حَلَف رجُلٌ على أن يَضرِبَ شخصًا مِئةَ مرَّةٍ، وكان هذا الشَّخصُ لا يَتحمَّلُ الضَّربَ مئةَ مرَّةٍ؛ قال أهلُ العلمِ: فله أنْ يأخُذَ ضِغْثًا به مِئةُ شِمْراخٍ، ويَضْرِبَ به ضربةً واحدةً. وبَنَوْا على هذا ما لو زنى رجُلٌ مريضٌ مرضًا لا يُرجى زوالُه، ولا يَتحمَّلُ الضَّربَ مِئةً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٥).

على انفرادِ؛ قالوا: فإنه يُجْمَعْ له ضِغْثٌ به مِئةُ عُودٍ، ويُضرَبُ به ضربةً واحدةً[١]؛ أخْذًا بما أفْتى اللهُ عزَّ وجلَّ به أيُّوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ دَليلٌ على جَوازِ ضَربِ النِّساءِ فيما دعا إلى صَلاحِهنَّ وأدَبِهنَّ وأَوْبِهنَّ إلى اللهِ جلَّ وتعالى[٣].

١٢- في براءةِ أيُّوبَ صلَّى الله عليه مِن يمينِه وبِرِّه فيها بإعمالِ الضِّغث مرَّةً

---

(١) يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٤٨).
والقولُ المذكورُ هو مذهبُ الجمهورِ مِن الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ في الجملةِ. يُنظر: ((البناية شرح الهداية)) للعيني (٦/ ٢٩٢)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (٤/ ١٥٤)، ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٤٨)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ٨٢).
وذلك خلافًا للمالكيَّةِ. يُنظر: ((المدونة)) (١/ ٦١٠) و(٤/ ٥١٣)، ((التاج والإكليل)) للمَوَّاق (٣/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٦).
قال الْكِيَا الهَرَّاسي: (فأخبَرَ الله تعالى أنَّه إذا فعَل ذلك فقد بَرَّ في يمينِه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾، وهو قَولُ الشَّافعيِّ، ومَذهَبُ أبي حنيفةَ، ومحمَّدٍ، وزُفَرَ. وقال مالِكٌ: لا يَبَرُّ. ورأى أنَّ ذلك مختَصًّا بأيُّوبَ، وقال: لا يَحنَثُ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٦١).
قال الرازي: (وهذه الرُّخصةُ باقيةٌ). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٩).
وقال ابنُ تيميَّةَ: (مَن تَأمَّل الآيةَ عَلِم أنَّ هذه الفُتْيا خاصَّةُ الحُكم؛ فإنَّها لو كانت عامَّةً في حقِّ كلِّ أحدٍ لم يُخَفَّفْ على نبيٍّ كريمٍ مُوجَبُ يمينِه، ولم يكُنْ في اقتِصاصِها علينا كبيرُ عِبرةٍ! فإنَّما يُقَصُّ ما خَرَج عن نظائرِه ليُعتبَرَ به، أمَّا ما كان مقتضى العبارةِ والقياسِ فلا يُقَصُّ، ولأنَّه قد قال عَقيبَ هذه الفُتْيا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾، وهذه الجملةُ خَرَجتْ مخرَجَ التَّعليلِ كما في نظائرِه، فعُلِم أنَّ اللهَ إنَّما أفْتاه بهذا جزاءً له على صبرِه؛ تخفيفًا عنه ورحمةً به؛ لأنَّ هذا هو مُوجَبُ هذه اليمين، و... معلومٌ أنَّ اللهَ سُبحانَه إنَّما أفتاهُ بهذا لئلَّا يَحْنَثَ كما أخبَرَ اللهُ سبحانَه ... وهذا يدُلُّ على أنَّ كفَّارةَ الأيمانِ لم تكُنْ مشروعةً في تلكَ الشَّريعةِ، بل ليس في اليمينِ إلَّا البِرُّ أو الحِنْثُ). ((الفتاوى الكبرى)) (٦/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٦٥). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٦١).

واحدةً -كما في قولِه تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾- دليلٌ واضحٌ وحُجَّةٌ لِمَن يقول: الأَيْمانُ على الأسماءِ ليس على المعاني؛ لإحاطةِ العِلم بأنَّ مُماسَّةَ شَماريخِ الضِّغْثِ لا يُؤْلِمُ المضروبَ كما يُؤْلِمُه تفريقُ عددِ الضَّربِ عليه، وأيُّوبُ عليه السَّلامُ لا مَحالةَ حينَ حَلَف عليها قَصَدَ لِضَرْبٍ مُفَرَّقٍ يُعَدُّ عَدًّا -واحدًا بعدَ آخَرَ-، إذْ مُحالٌ أنْ يكونَ عَرَف الضِّغْثَ قَبْلَ أنْ يأمُرَه اللهُ به! وكذا ضَرْبُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ الزَّانيَ النِّضْوَ[1] الخَلْقِ بِعِثْكَالٍ[2] النَّخلِ ضربةً واحدةً بما فيه مِئةُ شِمْراخٍ[3]؛ وقد أَمَر اللهُ بجَلْدِ مئةٍ! فهو يؤكِّدُ هذا[4].

١٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ إنْ قيلَ: كيف وَجَده صابرًا وقد شكا إليه ما به واسترحمَه؟

فالجَوابُ: أنَّ الشَّكوى إلى اللهِ عزَّ وعلا لا تُسَمَّى جَزَعًا، ولقد قال يَعقوبُ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وكذلك شكوى العَليلِ إلى الطَّبيبِ؛ وذلك أنَّ أصبرَ النَّاسِ على البَلاءِ لا يخلو مِن تمَنِّي العافيةِ وطَلَبِها، فإذا صَحَّ أن يُسَمَّى صابرًا مع تمنِّي العافيةِ، وطَلَبِ الشِّفاءِ، فلْيُسَمَّ صابرًا مع اللَّجَأِ إلى اللهِ تعالى، والدُّعاءِ بكَشفِ ما به، ومع التَّعالُجِ ومُشاوَرةِ الأطِبَّاءِ[5].

---

(١) النِّضْوُ: المَهْزُولُ مِنَ الإبلِ وغيرِها. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٤٠/ ٩٨).

(٢) العِثْكالُ: هو عِذْقُ النَّخلَةِ بما فيه مِن الشَّماريخِ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ١١).

(٣) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٣٠٩)، وابن ماجه (٢٥٧٤)، وأحمد (٢١٩٣٥).
ذكر ثبوتَه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٣/ ٤٠٧)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((بلوغ المرام)) (٣٦٨)، والشوكانيُّ في ((الدراري المضية)) (٣٨٩)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٠٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢١٩٣٥).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٨).

١٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ فيه أنَّ الحِنْثَ[١] في اليَمينِ في الأصلِ حَرامٌ؛ ولكِنَّ اللهَ تعالى يَسَّرَ لعبادِه، وأجاز لهم الحِنثَ مع الكَفَّارةِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩] إلى قَولِه: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، قال العلماءُ: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ أي: لا تُكثِروا اليَمينَ، وقال بَعضُهم: أي: احفَظوها مِن الحِنْثِ، فلا تَحنَثوا فيها. والوجهانِ كِلاهما لا يَتنافَيانِ[٢].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ للرَّجُلِ أن يَحلِفَ ولا يَستَثنيَ[٣].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الاستِثناءَ شَرطُه الاتِّصالُ؛ إذ لو لم يُشتَرَطْ لأمَرَه تعالى بالاستِثناءِ، ولم يَحتَجْ إلى الضَّربِ بالضِّغْثِ[٤].

١٧- عن عَطاءٍ: أنَّ رجُلًا قال: (إنِّي حلَفْتُ ألَّا أكسُوَ امرأتي دِرعًا حتَّى تَقِفَ بعَرَفةَ! فقال: احمِلْها على حِمارٍ، ثمَّ اذهَبْ فقِفْ بها بعَرَفةَ. فقال: إنَّما نَوَيتُ يومَ عَرَفةَ! فقال عَطاءٌ: وأيُّوبُ حينَ حَلَف لَيَجلِدَنَّ امرَأتَه مِئةَ جَلدةٍ: أنَوَى أن يَضرِبَها بالضِّغْثِ؟! إنَّما أمَرَه اللهُ أن يأخُذَ ضِغثًا فيَضرِبَها به. قال عَطاءٌ: إنَّما القُرآنُ عِبَرٌ)[٥].

---

(١) الحِنْثُ: الخُلْفُ في اليَمينِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٢، ٢٢٣).

وعزاه السيوطيُّ إلى سعيدِ بنِ منصورٍ، وصحَّح إسنادَه. =

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أنَّه سبحانَه أثْنَى على عبدِه أيُّوبَ بأحسَنِ الثَّناءِ على صبرِه؛ فأَطْلَق عليه: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ بكَونِه وَجَده صابرًا؛ وهذا يدُلُّ على أنَّ مَن لم يَصبِرْ إذا ابتُلِيَ فإنَّه بِئْسَ العبدُ[(١)].

١٩- قال تعالى عن أيُّوبَ عليه السَّلامُ: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾؛ وذلك لأنَّه خرَج مِن البلاءِ على الوجهِ الَّذي دخَل فيه، فأيُّوبُ عليه السَّلامُ كان أحدَ الأغنياءِ مِن الأنبياءِ قبْلَ البلاءِ وبعدَه، وإنَّما ابتُليَ بذهابِ مالِه وولدِه وعظيمِ الدَّاءِ في جسَدِه، وكذلك الأنبياءُ صلواتُ الله عليهم وسلامُه صبروا على ما به امتُحِنوا وفُتِنوا، فأيُّوبُ عليه السَّلامُ دخَل في البلاءِ على صِفةٍ، فخرَج منه كما دخَل فيه، وما تغيَّرَ منه حالٌ ولا مَقالٌ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ - هذا مَثَلٌ ثانٍ ذُكِّرَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ أُسوةً به في الصَّبرِ على أذَى قَومِه، والالتِجاءِ إلى اللهِ في كَشفِ الضُّرِّ، وهو عَطفٌ على ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، ولِكَونِه مَقصودًا بالمَثَلِ هنا أُعيدَ معه فِعلُ (اذْكُرْ)، ولم يَذكُرْ ذلك في قِصَّةِ سُلَيمانَ؛ لِكَمالِ الاتِّصالِ بيْنَ سُلَيمانَ وداودَ عليهما السَّلامُ، كأنَّ قِصَّتَيْهما قِصَّةٌ واحِدةٌ[(٣)].

= وأخرجه حربٌ الكرمانيُّ في مسائله (من كتاب النكاح إلى نهاية الكتاب) (١/ ٤٥٧)، عن سعيدِ بنِ منصورٍ بسندِه إلى عطاءٍ.

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٦٦).

- وأيضًا لَمَّا كانت تَعديةُ فِعلِ (اذْكُرْ) إلى اسم أيُّوبَ على تَقديرِ مُضافٍ؛ لِأنَّ المَقصودَ تَذكُّرُ الحالةِ الخاصَّةِ به؛ كان قَولُه: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بَدَلَ اشتِمالٍ مِن أيُّوبَ؛ لِأنَّ زَمَنَ نِدائِه رَبَّه مِمَّا تَشتَمِلُ عليه أحوالُ أيُّوبَ عليه السَّلامُ. وخُصَّ هذا الحالُ بالذِّكرِ مِن بَينِ أحوالِه؛ لِأنَّ المَقصودَ تَذكُّرُ الحالةِ الخاصَّةِ به، ولِأنَّه مَظهَرُ تَوكُّلِه على الله، واستِجابةِ اللهِ دُعاءَه بكَشفِ الضُّرِّ عنه[1].

- والنِّداءُ: نِداءُ دُعاءٍ؛ لِأنَّ الدُّعاءَ يُفتَتَحُ بمِثلِ: يا رَبِّ، ونَحوِه، وقَولُه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ مُتَعلِّقٌ بقَولِه: ﴿نَادَىٰ﴾، بحَذفِ الباءِ المَحذوفةِ مع (أنَّ)، أيْ: نادَى بأنِّي مَسَّنيَ الشَّيطانُ، وهو في الأصلِ جُملةٌ مُبيِّنةٌ لِجُملةِ ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، والخَبَرُ مُستَعمَلٌ في الدُّعاءِ والشِّكايةِ[2].

- ونَسَب المَسَّ إلى الشَّيطانِ؛ لِأنَّه قد راعَى الأدَبَ في ذلك؛ حيث لم يَنسُبْه إلى اللهِ في دُعائِه، مع أنَّه فاعِلُه، ولا يَقدِرُ عليه إلَّا هو. قيلَ: أرادَ ما كان يُوَسوِسُ به إليه في مَرَضِه مِن تَعظيمِ ما نَزَل به مِنَ البَلاءِ، ويُغريه على الكَراهةِ والجَزَعِ، فالتَجَأ إلى اللهِ تعالى في أنْ يَكفيَه ذلك بكَشفِ البَلاءِ، أو بالتَّوفيقِ في دَفعِه ورَدِّه بالصَّبرِ الجَميلِ، أو لِأنَّه وَسوَسَ إلى أتْباعِه حتَّى رَفَضوه، وأخرَجوه مِن ديارِهم، وقيل غير ذلك[3].

- وفي قَولِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ ظاهِرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٦٨، ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٦٨).

إسنادِ المَسِّ بالنُّصْبِ والعَذابِ إلى الشَّيطانِ أنَّ الشَّيطانَ مَسَّ أيُّوبَ بهما، أيْ: أصابَه بهما حَقيقةً، مع أنَّ النُّصبَ والعَذابَ هُما الماسَّانِ أيُّوبَ، ففي سُورةِ (الأنبياءِ) ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فأسنَدَ المَسَّ إلى الضُّرِّ، والضُّرُّ هو النُّصْبُ والعَذابُ، والجمْعُ بيْنَهما: أنْ تُحمَلَ الباءُ على مَعنى السَّببيَّةِ بجَعلِ النُّصبِ والعَذابِ مُسبِّبَينِ لِمَسِّ الشَّيطانِ إيَّاه، أيْ: مَسَّني بوَسواسٍ سَبَبُه نُصبٌ وعَذابٌ، فجَعَلَ الشَّيطانُ يُوَسوِسُ إلى أيُّوبَ بتَعظيمِ النُّصبِ والعَذابِ عِندَه، ويُلْقي إليه أنَّه لم يَكُنْ مُستَحِقًّا لذلك العَذابِ؛ لِيُلقيَ في نَفْسِ أيُّوبَ سُوءَ الظَّنِّ باللهِ، أو السُّخطَ مِن ذلك. أو تُحمَلُ الباءُ على المُصاحَبةِ، أيْ: مَسَّني بوَسوَسةٍ مُصاحِبةٍ لِضُرٍّ وعَذابٍ، ففي قَولِ أيُّوبَ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ كِنايةٌ لَطيفةٌ عن طَلَبِ لُطفِ اللهِ به، ورَفعِ النُّصْبِ والعَذابِ عنه بأنَّهما صارا مَدخَلًا لِلشَّيطانِ إلى نَفْسِه، فَطَلَبَ العِصْمةَ مِن ذلك، على نَحْوِ قَولِ يُوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[1] [يوسف: ٣٣].

- وتَنوينُ ﴿بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ لِلتَّعظيمِ، أو لِلنَّوعيَّةِ، وعَدَلَ عن تَعريفِهما؛ لِأنَّهما مَعلومانِ للهِ[2].

- وقَولُ أيُّوبَ عليه السَّلامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ ليس هذا تَمامَ دُعائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل مِن جُملَتِه قَولُه: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فاكتَفى هاهنا عن ذِكرِه بما في سُورةِ (الأنبياءِ): ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، كما تَرَكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٧٠).

هناك ذِكرَ الشَّيطانِ؛ ثِقةً بما ذُكِرَ هاهنا[١].

- واقتِصارُ أيُّوبَ عليه السَّلامُ في دُعائِه على التَّعريضِ بإزالةِ النُّصْبِ والعَذابِ يُشعِرُ بأنَّه لم يُصَبْ بغَيرِ الضُّرِّ في بَدَنِه، ويحتمِلُ أنْ يَكونَ قد أصابَه تَلَفُ المالِ، وهَلاكُ العِيالِ؛ فيَكونَ اقتِصارُه على النُّصْبِ والعَذابِ في دُعائِه لِأنَّ في هَلاكِ الأهلِ والمالِ نُصْبًا وعَذابًا لِلنَّفْسِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ إمَّا حِكايةٌ لِمَا قيلَ له، أو مَقولةٌ لِقَولٍ مَحذوفٍ، أيْ: قُلْنا له: اركُضْ برِجْلِكَ، وذلك إيذانٌ بأنَّ هذا استِجابةٌ لِدُعاءِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ. والرَّكضُ: الضَّربُ في الأرضِ بالرِّجلِ؛ فقَولُه: ﴿بِرِجۡلِكَ﴾ زيادةٌ في بَيانِ مَعنى الفِعلِ[٣].

- وجُملةُ ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ﴾ إمَّا حِكايةٌ لِمَا قيلَ له، أو مَقولةٌ لِقَولٍ مَحذوفٍ دَلَّ عليه المَقولُ الأوَّلُ، وفي الكَلامِ حَذفٌ دَلَّتْ عليه الإشارةُ؛ فالتَّقديرُ: فرَكَض الأرضَ، فنَبَع ماءٌ، فقُلْنا له: هذا مُغتَسَلٌ بارِدٌ وشَرابٌ، فالإشارةُ إلى ماءٍ؛ لِأنَّه الَّذي يُغتَسَلُ به ويُشرَبُ[٤].

- قَولُه: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ وَصْفُ الماءِ بذلك في سياقِ الثَّناءِ عليه مُشيرٌ إلى أنَّ ذلك الماءَ فيه شِفاؤُه إذا اغتَسَل به، وشَرِب منه؛ لِيَتناسَبَ قَولُ اللهِ له مع نِدائِه رَبَّه؛ لِظُهورِ أنَّ القَولَ عَقِبَ النِّداءِ هو قَولُ استِجابةِ الدُّعاءِ مِنَ المَدعُوِّ. و ﴿مُغۡتَسَلُۢ﴾ اسمُ مَفعولٍ مِن فِعلِ (اغتَسَلَ)، أي: مُغتَسَلٌ به؛ فهو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

على حَذفِ حَرفِ الجَرِّ، وإيصالِ المُغتَسَلِ القاصِرِ إلى المَفعولِ[١].

- ووَصْفُ الماءِ بـ﴿بَارِدٌ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ به زَوالَ ما بِأَيُّوبَ مِنَ الحُمَّى مِنَ القُروحِ[٢].

- واستُغنيَ بالتَّنوينِ عن وَصفِ (شَرَابٌ)؛ إذْ مِنَ المَعلومِ أنَّ الماءَ شَرابٌ، فلولا إرادةُ التَّعظيمِ بالتَّنوينِ لَكانَ الإخبارُ عنِ الماءِ بأنَّه شَرابٌ إخبارًا بأمْرٍ مَعلومٍ، ومَرجِعُ تَعظيمِ (شَرَابٌ) إلى كَونِه عَظيمًا لِأَيُّوبَ، وهو شِفاءُ ما به مِن مَرضٍ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

- قَولُه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ مَعطوفٌ على مُقدَّرٍ مُتَرتِّبٍ على مُقدَّرٍ آخَرَ يَقتَضيه القَولُ المُقدَّرُ آنِفًا، كأنَّه قيلَ: فاغتَسَل وشَرِب، فكَشَفْنا بذلك ما به مِن ضُرٍّ، كما في سُورةِ (الأنبياءِ) ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾[٤] [الأنبياء: ٨٤].

- ولم يَتقَدَّمْ في هذه الآيةِ ولا في آيةِ سُورةِ (الأنبياءِ) أنَّ أيُّوبَ عليه السَّلامُ رُزِئَ أهلَه؛ قيل: يَجوزُ أنْ يَكونَ مَعنى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أنَّ اللهَ تَعالى أبْقَى له أهلَه، فلم يُصَبْ فيهم بما يَكرَهُ، وزَادَه بَنينَ وحَفَدةً، ويُؤيِّدُ هذا المَحمَلَ وُقوعُ كَلِمةِ ﴿مَّعَهُمْ﴾ عَقِبَ كَلِمةِ ﴿وَمِثْلَهُم﴾؛ فإنَّ (مع) تُشعِرُ بأنَّ المَوهوبَ لاحِقٌ بأهلِه، ومَزيدٌ فيهم، فليس في الآيةِ تَقديرُ مُضافٍ في قَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٩).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ نَظيرُ هذه الآيةِ في قَولِه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، وما بيْنَ الآيَتَيْنِ مِن تَغييرٍ يَسيرٍ هو مُجَرَّدُ تَفنُّنٍ في التَّعبيرِ، لا يَقتَضي تَفاوُتًا في البَلاغةِ، وأمَّا ما بَيْنَهما مِن مُخالَفةٍ في قَولِه هنا: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وقَولِه في سُورةِ (الأنبياءِ): ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]؛ فقَولُه هنا: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الذِّكْرى: التَّذكيرُ بما خَفيَ، أو بما يَخفَى، وأُولو الألبابِ هم أهلُ العُقولِ، أيْ: تَذكِرةً لِأهلِ النَّظَرِ والاستِدلالِ؛ فإنَّ في قِصَّةِ أيُّوبَ مُجمَلِها ومُفَصَّلِها ما إذا سَمِعه العُقَلاءُ المُعتَبِرونَ بالحَوادِثِ، والقائِسونَ على النَّظائِرِ؛ استَدَلُّوا على أنَّ صَبرَه قُدوةٌ لِكُلِّ مَن هو في حَرَجٍ أنْ يَنتَظِرَ الفَرَجَ، وأمَّا الَّذي في سُورةِ (الأنبياءِ)؛ فإنَّه جيءَ به شاهِدًا على أنَّ النُّبُوَّةَ لا تُنافي البَشريَّةَ، وأنَّ الأنبياءَ يَعتَريهم مِنَ الأحداثِ ما يَعتَري البَشَرَ ممَّا لا يَنقُصُ منهم في نَظَرِ العَقلِ والحِكمةِ، وأنَّهم إنَّما يَقومونَ بأمْرِ اللهِ، وأنَّهم مُعَرَّضونَ لِأذَى النَّاسِ مِمَّا لا يُخِلُّ بحُرمَتِهمُ الحَقيقيَّةِ، وذَكَر مِنَ الأنبياءِ مَنِ ابتُلِيَ مِن قَومِه فصَبَر، ومَنِ ابتُلِيَ مِن غَيرِهم فصَبَر، وكيف كانت عاقِبةُ صَبرِهم واحِدةً، مع اختِلافِ الأسبابِ الدَّاعيةِ إليه؛ فكانت في ذلك آياتٌ لِلعابِدينَ، أيْ: المُمتَثِلينَ أمْرَ اللهِ، المُجتَنِبينَ نَهْيَه؛ فإنَّ ممَّا أمَرَ به اللهُ الصَّبرَ على ما يَلحَقُ المَرءَ مِن ضُرٍّ لا يَستَطيعُ دَفْعَه؛ لِكَونِ دَفْعِه خارِجًا عن طاقَتِه، فخَتَم بخاتِمةِ أنَّ في ذلك آياتٍ للعابِدينَ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٧٢، ٢٧٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ في الكَلام حَذفٌ دَلَّتْ عليه صِيغةُ الكَلامِ، تَقديرُه: وكان حَلَف لَيَضرِبَنَّ امرأتَه مِئةَ ضَربةٍ؛ لِسَبَبٍ جَرى منها، وكانتْ مُحسِنةً له، فجَعَلْنا له خَلاصًا مِن يَمينِه بقَولِنا: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾. وقيلَ: هو مَعطوفٌ على ﴿ ٱرْكُضْ ﴾، أو على (وَهَبْنَا) بتَقديرِ (قُلْنا)، أيْ: وقُلْنا: خُذْ بيَدِكَ... إلخ. والأوَّلُ أقرَبُ لَفظًا، وهذا أنسَبُ مَعنًى؛ فإنَّ الحاجةَ إلى هذا الأمْرِ لا تَمَسُّ إلَّا بعدَ الصِّحَّةِ[1].

- قَولُه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ عِلَّةٌ لِجُملةِ ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ [ص: ٤٢]، وجُملةِ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ ﴾ [ص: ٤٣]، أيْ: أنعَمْنا عليه بجَبرِ حالِه؛ لِأنَّا وَجَدْناه صابِرًا على ما أصابَه؛ فهو قُدوةٌ لِلمأمورِ بقَولِه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [ص: ١٧] صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فكانت (إنَّ) مُغْنيةً عن فاءِ التَّفريعِ[2].

- قولُه: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ فِعلٌ وفاعِلٌ، والمَخصوصُ بالمَدحِ مَحذوفٌ؛ لِلعِلْمِ به، أيْ: هو، أو: أيُّوبُ. و﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ تَعليلٌ لِمَدحِه، أيْ: رَجَّاعٌ إلى اللهِ تعالى. وقَولُه هنا: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ مِثلُ قَولِه في سُلَيمانَ: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]، وكان سُلَيمانُ أوَّابًا للهِ مِن فِتنةِ الغِنى والنَّعيمِ، وأيُّوبُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٥).

أوَّابًا للهِ مِن فِتنةِ الضُّرِّ والاحتِياجِ، وكان الثَّناءُ عليهما مُتَماثِلًا؛ لِاستِوائِهما في الأَوْبةِ، وإنِ اختَلَفتِ الدَّواعي[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٦٨).

الآيات (٤٥-٤٨)

﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾: أي: أصحابِ القُوَّةِ والبَصائِرِ في الدِّينِ، وأصلُ (أيد): يدُلُّ على القُوَّةِ، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على عِلمٍ بالشَّيءِ[١].

﴿ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾: أي: ذِكرُ الدَّارِ الآخِرةِ، وأصلُ (ذكر): يدُلُّ على خِلافِ النِّسيانِ[٢].

﴿ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ﴾: أي: المُختارينَ، والاصطِفاءُ: تَناوُلُ صَفوِ الشَّيءِ، وأصلُ (صفو): يدُلُّ على خُلوصٍ مِن كُلِّ شَوبٍ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾

قَولُه: ﴿ بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾ فيها وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ (خَالِصَة) مَصدرٌ بمعنى الإخلاصِ، فيكونُ ﴿ ذِكۡرَى ﴾ مَفعولًا به للمَصدَرِ، أي: بأن أخلَصوا ذِكْرى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣، ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨).

الدَّارِ، أو يكونُ المعنى: بأنْ أخلَصْنا نحنُ لهم ذِكرى الدَّارِ. وأنْ يكونَ بمعنى الخُلوصِ، فيكونَ ﴿ذِكۡرَى﴾ فاعِلًا للمَصدَرِ مَرفوعًا به، أي: بأنْ خَلَصَتْ لهم ذِكْرَى الدَّارِ. الثَّاني: أن يكونُ (خالِصة) اسمَ فاعلٍ على بابِه، و﴿ذِكۡرَى﴾ بَدَلًا منه، أو عَطْفَ بيانٍ له، أو مَقطوعًا عنه إلى النَّصبِ على المفعوليَّةِ بإضمارِ أعني، أو الرَّفعِ على الخبريَّةِ بإضمارِ (هي)[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى عددًا مِن الأنبياءِ على سبيلِ الإجمالِ، فيقولُ: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- عِبادَنا: إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ؛ أصحابَ القُوَّةِ والبَصيرةِ في دينِ اللهِ، إنَّا خَصَصْناهم بخاصَّةٍ امتازُوا بها هي ذِكرُ الدَّارِ الآخِرةِ، بالعَمَلِ لها، مع الزُّهدِ في الدُّنيا، وإنَّهم عِندَنا لَمِنَ الَّذين اصطفاهم اللهُ، ومِن عبادِه الأخيارِ.

ثمَّ يقولُ تعالى: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- إسماعيلَ واليَسَعَ وذا الكِفلِ؛ فإنَّ كلًّا منهم مِن الأخيارِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾.

أي: واذكرْ -يا مُحمَّدُ- عِبادَنا إبراهيمَ، وابنَه إسحاقَ، وابنَ ابنِه يَعقوبَ: أصحابَ القُوَّةِ والبَصيرةِ في دينِ اللهِ تعالى[2].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٠٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٤)، ((منهاج السنة)) لابن تيميَّة (٢/ ١٣)، ((جامع الرسائل)) لابن تيميَّة (٢/ ١٨٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٧/ ٥٤٠، ٥٤١) و(١٩/ ١٧٠، ١٧١)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي =

﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى﴾ بالإضافةِ. قيل: المعنى: إنَّا أخلَصْناهم بأفضَلِ ما في الدَّارِ الآخرةِ. وقيل: المعنى: نزَعَ اللهُ ما في قُلوبِهم مِن حُبِّ الدُّنيا وذِكرِها، وأخلَصَهم بحُبِّ الآخرةِ والرَّغبةِ فيها، والزُّهدِ في الدُّنيا. وقيل «خالِصة»: مَصدرٌ بمعنى الإخلاصِ، أي: بإخلاصِهم ذِكرى الدَّارِ. وقيلَ غيرُ ذلك[1].

= (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٩، ٢٠٠).

قال ابنُ جرير: (الأيدي: القوَّةُ، والأبصارُ: العقولُ. فإنْ قال لنا قائلٌ: وما الأيدي مِن القُوَّةِ، والأيدي إنَّما هي جمْعُ يدٍ، واليدُ جارحةٌ؟ وما العُقولُ مِن الأبصارِ، وإنَّما الأبصارُ جمعُ بَصرٍ؟ قيل: إنَّ ذلك مَثَلٌ؛ وذلك أنَّ باليَدِ البَطشَ، وبالبَطشِ تُعرَفُ قُوَّةُ القَويِّ؛ فلذلك قيل للقَويِّ: ذو يَدٍ. وأمَّا البصَرُ فإنَّه عَنى به بصَرَ القَلبِ، وبه تُنالُ مَعرفةُ الأشياءِ؛ فلذلك قيل للرَّجُلِ العالِمِ بالشَّيءِ: بصيرٌ به، وقد يمكِنُ أن يكونَ عَنى بقَولِه: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾ أولي الأيدي عندَ اللهِ بالأعمالِ الصَّالحةِ؛ فجعَلَ اللهُ أعمالَهم الصَّالحةَ الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا أيديًا لهم عندَ الله؛ تمثيلًا لها باليدِ تكونُ عندَ الرَّجُلِ لآخَرَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٦).

وقال النحَّاسُ: (فأمَّا ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فمُتَّفَقٌ على تأويلِها أنَّها البصائرُ في الدِّينِ، وأمَّا ﴿ٱلۡأَيۡدِي﴾ فمُختَلَفٌ في تأويلِها؛ فأهلُ التَّفسيرِ يقولون: إنَّها القُوَّةُ في الدِّينِ، وقومٌ يقولونَ: الأيدي جمعُ يدٍ، وهي النِّعمةُ، أي: هم أصحابُ النِّعَمِ، أي: الَّذين أنعَمَ اللهُ عليهم، وقيل: هم أصحابُ النِّعَمِ والإحسانِ؛ لأنَّهم قد أحسَنوا، وقَدَّموا خَيرًا). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٣١٣).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (قَولُه تعالى: ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ عبارةٌ عن البصائرِ، أي: يُبصِرونَ الحقائِقَ، ويَنظُرونَ بنورِ اللهِ تعالى، وبنحوِ هذا فسَّر الجميعُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٩).

وقال ابنُ القيِّمِ: (﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فالأيدي: القُوَى والعزائِمُ في ذاتِ اللهِ، والأبصارُ: البصائرُ في أمرِ اللهِ. وعباراتُ السَّلَفِ تدورُ على ذلك). ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ١٦٧).

(١) قرأ بها نافعٌ وأبو جعفرٍ المَدَنيَّانِ، وهشامٌ عن ابنِ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٧ - ١١٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٨).

٢- قراءةُ: ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكۡرَى﴾ بالتَّنوين. قيل: المعنى: إنَّا أخلَصْناهم بخالصةٍ هي ذِكْرى الدَّارِ، أي: أنَّهم كانوا يُذَكِّرون النَّاسَ بالدَّارِ الآخرةِ، ويَدْعونهم إلى العملِ لها بطاعةِ الله. وقيل: المعنى: أنَّ اللهَ تعالى قد أخلَصهم بعملِهم للآخرةِ وذِكْرِهم لها، أي: فجعَلهم له خالِصينَ بالإكثارِ مِن ذِكرِ الآخرةِ، والرُّجوعِ إلى الله. وقيل: الدَّارُ يجوزُ أن يُرادَ بها الدُّنيا، أي: لِيَتذكَّروا الدُّنيا ويَزهَدوا فيها، ولِتَخلصَ لهم بالثَّناءِ الحسَنِ عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾[1] [مريم: ٥٠].

﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦﴾.

أي: إنَّا جعَلْناهم خالِصينَ لنا بخصلةٍ خالِصةٍ، لا شَوْبَ فيها، هي تذكُّرُهم دائمًا للدَّارِ الآخرةِ، والعملُ لها، والزُّهدُ في الدُّنيا[2].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٧ - ١١٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٠١).

قال ابنُ جُزَي: (معنى ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾: جعَلْناهم خالِصينَ لنا، أو أخلَصْناهم دونَ غَيرِهم، وخالِصة: صِفةٌ حُذِفَ مَوصوفُها، تقديرُه: بخَصلةٍ خالِصةٍ، وأمَّا الباءُ في قَولِه: ﴿بِخَالِصَةٖ﴾ فإنْ كان ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾ بمعنى: جعَلْناهم خالِصينَ؛ فالباءُ سَبَبيَّةٌ للتَّعليلِ، وإن كان ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾ بمعنى: خصَصْناهم؛ فالباءِ لِتَعديةِ الفِعلِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١).

وقال أيضًا: (وإن أرادَ بالدَّارِ: الدُّنيا؛ فالمعنى: حُسْنُ الثَّناءِ، والذِّكرُ الجَميلُ في الدُّنيا، كقَولِه: ﴿لِسَانَ صِدۡقٖ﴾ [الشعراء: ٨٤]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ القيِّم، فقال: (﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ أي: خَصَصْناهم بخَصيصةٍ، وهو الذِّكرُ الجميلُ الَّذي يُذْكَرونَ به في هذه الدَّارِ، وهو لِسانُ الصِّدقِ الَّذي سأله إبراهيمُ الخَليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيث قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: =

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: وإنَّ إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ عندَ اللهِ لَمِنَ الَّذين اصطفاهم، ومِن عِبادِه الأخيارِ(١).

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- إسماعيلَ والْيَسَعَ وذا الكِفْلِ؛ فإنَّ كُلًّا منهم مِنَ الأخيارِ(٢).

= ٨٤]، وقال سُبحانَه وتعالى عنه وعن بَنيه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]). ((الجواب الكافي)) (ص: ٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧).

وقوله: ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ قيل: معناه: الَّذين اختارهم اللهُ لِرسالتِه. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبيضاوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥).

وقيل: ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمعُ (خَيِّر) بالتَّشديدِ، والتَّخفيفِ، كأمواتٍ جمع مَيِّتٍ ومَيْتٍ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الواحديُّ، والرسعني، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠١).

قال ابن عثيمين: (الخيِّر على وزنِ فيعلٍ، وهو كثيرُ الخيرِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٨).

قال السعدي: (اختارهم اللهُ مِن الخَلقِ، واختار لهم أكمَلَ الأحوالِ؛ مِن الأعمالِ والأخلاقِ، والصِّفاتِ الحميدةِ، والخِصالِ السَّديدةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

وقال الشوكاني: (المرادُ مِن ذِكرِ هؤلاء أنَّهم مِن جُملةِ مَن صبَرَ مِن الأنبياءِ، وتحمَّلوا الشَّدائدَ =

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦].

وقال سبحانَه: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

= في دينِ الله. أمَر الله رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ يَذكُرَهم؛ لِيَسلُكَ مسلكَهم في الصَّبرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٢).

والْيَسَع اسمُ نبيٍّ مِن الأنبياءِ، ذُكِر معهم هنا، وفي سورةِ (الأنعام) الآية (٨٦)، وهو اسمٌ أعجميٌّ، ودخَلت عليه الألفُ واللامُ زائدتينِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٩٠).

واختَلَف العلماءُ في ذي الكِفْلِ، هل هو نبيٌّ أم لا؟

فذهَب مقاتلُ بنُ سليمانَ، والرازي، والقرطبي، وابنُ كثير، والبقاعي، والعُليمي، والسعدي إلى أنَّه نبيٌّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

قال ابن كثير: (وأمَّا ذو الكِفْلِ فالظَّاهرُ مِنَ السِّياقِ أنَّه ما قُرِنَ معَ الأَنبياءِ إلَّا وهو نَبِيٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٣).

وممن قال بذلك مِن السلفِ: الحسنُ، وعطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧).

وقيل: لم يكن نبيًّا، ونسَبه القرطبي إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٨).

وممن قال بذلك مِن السلفِ: أبو موسى الأشعري، ومجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٧١)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧).

وتوقَّفَ ابنُ جرير في ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٨).

واستظهر ابنُ عثيمينَ أنَّ معنى (ذي الكفل) صاحبُ العملِ الكثيرِ، والجدِّ والنَّشاطِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٣).

وقال الألوسي: (وقيل في تسميتِه «ذا الكفل» أقوالٌ مضطربةٌ لا تصحُّ، والله تعالى أعلم). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٧٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ أي: البَصائِرِ في دينِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ؛ فبالبصائِرِ يُدرَكُ الحَقُّ ويُعرَفُ، وبالقُوى يُتمَكَّنُ مِن تبليغِه وتَنفيذِه والدَّعوةِ إليه، ولذلك كان وَرَثةُ الرُّسُلِ وخُلَفاءُ الأنبياءِ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- هم الَّذين قاموا بالدِّينِ عِلمًا وعَمَلًا ودَعوةً إلى اللهِ -عزَّ وجَلَّ- ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهؤلاء أتْباعُ الرُّسُلِ -صَلَواتُ اللهِ عليهم وسَلامُه- حَقًّا، وهؤلاء هم الَّذين جَمَعوا بيْنَ البَصيرةِ في الدِّينِ، والقُوَّةِ على الدَّعوةِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: أنَّه ينبغي ذِكرُ أهلِ الخيرِ بالثَّناءِ؛ لأنَّ في ذلك فائِدَتينِ:

الفائِدةُ الأُولى: إحياءُ ذِكْرِ هؤلاء؛ لِيَتبيَّنَ فَضلُهم، ويُدْعَى لهم.

والفائِدةُ الثَّانيةُ: الاقتِداءُ بهم، واتِّباعُهم فيما هم عليه ممَّا استحَقُّوا به الثَّناءَ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّ مَن أَنعَمَ اللهُ عليه بهذه الصِّفَةِ -وهي تَذَكُّرُ الدَّارِ الآخرةِ- فإنَّ هذا مِن الأمْرِ الَّذي يَستَحِقُّ الثَّناءَ عليه هو، ويَستَحِقُّ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ عليه الشُّكرَ؛ حيث لم يَجعَلْ هذا مِمَّن يَنطوي في سِلْكِ أهلِ الدُّنيا[٢]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾ إطلاقُ الدَّارِ؛ للإشعارِ بأنَّها الدَّارُ الحَقيقيَّةُ، والدُّنيا مَعبَرٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٢٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ احتَجَّ العُلَماءُ بهذه الآيةِ في إثباتِ عِصمةِ الأنبياءِ[(١)]؛ لأنَّه تعالى حَكَم عليهم بكَونِهم أخيارًا على الإطلاقِ، وهذا يَعُمُّ حُصولَ الخَيريَّةِ في جَميعِ الأفعالِ والصِّفاتِ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾

- ذِكرُ هؤلاء الثَّلاثةِ ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ذِكرُ اقتِداءٍ واتِّساءٍ بهم؛ فأمَّا إبراهيمُ عليه السَّلامُ فبما عُرِفَ مِن صَبرِه على أذى قَومِه، وإلقائِه في النَّارِ، وابتِلائِه بتَكليفِ ذَبحِ ابْنِه، وأمَّا ذِكرُ إسحاقَ ويَعقوبَ فاستِطرادٌ بمُناسَبةِ ذِكرِ إبراهيمَ، ولِمَا اشتَرَكا به مِنَ الفَضائِلِ مع أبيهما؛ لِيَقتَديَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بثَلاثَتِهم في القُوَّةِ في إقامةِ الدِّينِ، والبَصيرةِ في حَقائِقِ الأُمورِ. وابتُدِئَ بإبراهيمَ؛ لِتَفضيلِه بمَقامِ الرِّسالةِ والشَّريعةِ، وعُطِفَ عليه ذِكرُ ابنِه، وعُطِفَ على ابنِه ابنُه يَعقوبُ[(٣)].

---

(١) قال ابنُ تيميَّة: (القَولُ بأنَّ الأنبياءَ مَعصومونَ مِن الكبائرِ دونَ الصَّغائرِ هو قولُ أكثَرِ عُلَماءِ الإسلامِ، وجميعِ الطَّوائِفِ، حتَّى إنَّه قَولُ أكثَرِ أهلِ الكَلامِ، كما ذكَرَ أبو الحسَنِ الآمِديُّ أنَّ هذا قَولُ أكثَرِ الأشعَريَّةِ، وهو أيضًا قَولُ أكثَرِ أهلِ التَّفسيرِ والحَديثِ والفُقَهاءِ، بل لم يُنقَلْ عن السَّلَفِ والأئمَّةِ والصَّحابةِ والتَّابعينَ وتابعيهم إلَّا ما يُوافِقُ هذا القَولَ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣١٩).

وقال أيضًا: (أهلُ السُّنَّةِ مُتَّفِقونَ على أنَّ الأنبياءَ مَعصومون فيما يُبَلِّغونَه عن اللهِ تعالى، وهذا هو مَقصودُ الرِّسالةِ). ((منهاج السنة)) (١/ ٤٧٠).

وقال ابنُ حزم: (يَقَعُ مِن الأنبياءِ السَّهوُ عن غيرِ قَصدٍ، ويَقَعُ منهم أيضًا قَصدُ الشَّيءِ يُريدونَ به وَجْهَ الله تعالى والتَّقَرُّبَ به منه، فيُوافِقُ خِلافَ مُرادِ الله تعالى، إلَّا أنَّه تعالى لا يُقِرُّهم على شَيءٍ مِن هذينِ الوَجهَينِ). ((الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل)) (٤/ ٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٦).

- قَولُه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ﴾ قُرِئَ ﴿عَبۡدَنَآ﴾[١]؛ إمَّا على أنَّ إبراهيمَ وحْدَه -لِمَزيدِ شَرَفِه- عَطفُ بَيانٍ، وقيلَ: بَدَلٌ، وقيلَ: نُصِبَ بإضمارِ (أَعْنِي)، والباقيانِ عَطفٌ على (عَبدَنا)، وإمَّا على أنَّ (عَبدَنا) اسمُ جِنسٍ وُضِعَ مَوضِعَ الجَمعِ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ كِنايةٌ عنِ العَمَلِ الصَّالِحِ، والفِكرِ، كأنَّ الَّذين لا يَعمَلونَ أعمالَ الآخِرةِ، ولا يُجاهِدونَ في اللهِ، ولا يُفَكِّرونَ أفكارَ ذَوي الدِّياناتِ، ولا يَستَبصِرونَ؛ في حُكمِ الزَّمْنى الَّذين لا يَقدِرونَ على إعْمالِ جَوارِحِهم، والمَسلوبي العُقولِ الَّذين لا استِبصارَ بهم، وفيه تَعريضٌ بكُلِّ مَن لم يَكُنْ مِن عُمَّالِ اللهِ مِنَ الجَهَلةِ البَطَّالينَ، ولا مِنَ المُستَبصِرينَ في دِينِ اللهِ، وتَوبيخٌ على تَركِهمُ المُجاهَدةَ والتَّأمُّلَ مع كَونِهم مُتَمكِّنينَ منهما[٣].

- قَولُه: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾ أي: القُوَّةِ الشَّديدةِ، والأعمالِ السَّديدةِ؛ لأنَّ الأيديَ أعظَمُ آلاتِ ذلك[٤]، أو لأنَّ أكثَرَها بمُباشَرتِها[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ عِلَّةٌ لِلأمْرِ بذِكرِهم، ولِمَا وُصِفوا به مِن شَرَفِ العُبوديَّةِ، وعُلُوِّ الرُّتبةِ في العِلْمِ؛ لِأنَّ ذِكرَهم يُكسِبُ الذَّاكِرَ الاقتِداءَ بهم في إخلاصِهم، ورَجاءَ الفَوزِ بما فازوا به مِنَ الاصطِفاءِ

---

(١) قرأ ابنُ كثيرٍ ﴿عَبۡدَنَآ﴾ بغيرِ ألِفٍ، وقرَأ الباقون ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ بالألِفِ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٢٢).

والأفضَليَّةِ في الخَيرِ، والمَعنى: أخلَصْناهم بسَبَبِ هذه الخَصلةِ، وبأنَّهم مِن أهلِها، أو أخلَصْناهم بتَوفيقِهم لها، واللُّطفِ بهم في اختيارِها؛ وذلك لِأنَّ مَطمَحَ نَظَرِهم فيما يأْتونَ ويَذَرونَ جِوارُ اللهِ، والفَوزُ بلِقائِه، وذلك في الآخِرةِ، أوِ المَعنى: أخلَصْناهم: جَعَلْناهم خالِصينَ، فالهَمزةُ لِلتَّعديةِ، أيْ: طَهَّرْناهم مِن دَرَنِ النُّفوسِ، فصارَتْ نُفوسُهم نَقيَّةً مِنَ العُيوبِ العارِضةِ لِلبَشَرِ، وهذا الإخلاصُ هو مَعنى العِصمةِ اللَّازِمةِ لِلنُّبُوَّةِ(١).

- قَولُه: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾ إسنادُ الإخلاصِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه أمْرٌ لا يَحصُلُ لِلنَّفْسِ البَشَريَّةِ إلَّا بجَعلٍ خاصٍّ مِنَ اللهِ تَعالى، وعِنايةٍ لَدُنِّيَّةٍ، بحيثُ تُنزَعُ مِنَ النَّفْسِ غَلَبَةُ الهَوى في كُلِّ حالٍ، وتُصرَفُ النَّفْسُ إلى الخَيرِ المَحضِ؛ فلا تَبقَى في النَّفْسِ إلَّا نَزَعاتٌ خَفيفةٌ تُقلِعُ النَّفْسُ عنها سَريعًا بمُجرَّدِ خُطورِها(٢).

- وقَولُه: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ أيْ: بخَصلةٍ خالِصةٍ لا شَوْبَ فيها، ثم فَسَّرَها بـ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾؛ شَهادةً لِذِكرى الدَّارِ بالخُلوصِ والصَّفاءِ وانتِفاءِ الكُدورةِ عنها. وقيلَ: أيْ: جَعَلْناهم خالِصينَ لنا بخَصلةٍ خالِصةٍ عَظيمةِ الشَّأنِ، كما يُنبِئُ عنه التَّنكيرُ التَّفخيميُّ. وقُرِئَ ﴿بِخَالِصَةِ﴾ بدونِ تنوينٍ؛ لِإضافَتِه إلى ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾، والإضافةُ بَيانيَّةٌ؛ لِأنَّ ذِكرى الدَّارِ هي نَفْسُها الخالِصةُ، فكَأنَّه قيلَ: بذِكرى الدَّارِ. وإنَّما ذَكَر لَفظَ (خَالِصة)؛ لِيَقَعَ إجمالٌ ثمَّ يُفَصَّلُ بالإضافةِ؛ لِلتَّنبيهِ على دِقَّةِ هذا الخُلوصِ. والتَّعريفُ بالإضافةِ؛ لِأنَّها أقصى طَريقٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٧).

لِلتَّعريفِ في هذا المَقامِ[١].

- والباءُ في ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ لِلسَّبَبِيَّةِ؛ تَنبيهًا على سَبَبِ عِصمَتِهم، وعَبَّرَ عن هذا السَّبَبِ تَعبيرًا مُجمَلًا؛ تَنبيهًا على أنَّه أمْرٌ عَظيمٌ دَقيقٌ لا يُتصَوَّرُ بالكُنْهِ، ولكِنْ يُعرَفُ بالوَجْهِ؛ ولذلك استَحضَرَ هذا السَّبَبَ بوَصفٍ مُشتَقٍّ مِن فِعلِ ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾، ثم بُيِّنتْ هذه الخالِصةُ بأقصَى ما تُعبِّرُ عنه اللُّغةُ، وهي أنَّها ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾[٢].

- والذِّكرى: اسمُ مَصدَرٍ يَدُلُّ على قُوَّةِ مَعنى المَصدَرِ، مِثلُ: الرُّجْعى، والبُقْيا؛ لِأنَّ زِيادةَ المَبنى تَقتَضي زِيادةَ المَعنى، والدَّارُ المَعهودةُ لِأمثالِهم هي الدَّارُ الآخِرةُ، أيْ: بحيث لا يَنسَوْنَ الآخِرةَ، ولا يُقْبِلونَ على الدُّنيا، فالدَّارُ الَّتي هي مَحَلُّ عِنايَتِهم هي الدَّارُ الآخِرةُ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ هذا عطفٌ على ما قَبْلَه؛ لِأنَّه مِمَّا يَبعَثُ على ذِكرِهم بأنَّهمُ اصطَفاهمُ اللهُ مِن بَينِ خَلقِه، فقَرَّبَهم إليه، وجَعَلَهم أخيارًا. وصيغَتا ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ تَدُلَّانِ على شِدَّةِ الوَصفِ في المَوصوفِ[٤].

- و﴿عِندَنَا﴾ ظَرفٌ مَعمولٌ لِمَحذوفٍ، دَلَّ عليه ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾، أيْ: وإنَّهم مُصطَفَوْنَ عِندَنا، أو مَعمولٌ لِـ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾، وإنْ كان بـ(ال)؛ لِأنَّهم يَتسَمَّحونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٤، ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٧، ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٧٩).

في الظَّرفِ والمَجرورِ ما لا يَتسَمَّحونَ في غَيرِهما، أو على التَّبيينِ، أيْ: أعْني عِندَنا، ويَعني بالعِنديَّةِ: المَكانةَ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾

- قولهُ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ ﴾ فُصِلَ ذِكرُه عن ذِكرِ أبيه وأخيه؛ لِلإشعارِ بعَراقَتِه في الصَّبرِ، الَّذي هُو المَقصودُ بالتَّذكيرِ. وقيلَ: لِأنَّ إسماعيلَ كان جَدَّ الأُمَّةِ العَربيَّةِ، أيْ: مُعظَمِها؛ فإنَّه أبو العَدنانيِّينَ، وجَدٌّ لِلأُمِّ لِمُعظَمِ القَحطانِيِّينَ؛ لِأنَّ زَوجَ إسماعيلَ جُرهُميَّةٌ؛ فلذلك قُطِعَ عن عَطفِه على ذِكرِ إبراهيمَ، وعادَ الكَلامُ إليه هنا[٢]، أو أفرَدَه بالذِّكرِ؛ دَلالةً على أنَّه أصلٌ عَظيمٌ برأسِه مِن أُصولِ الأئِمَّةِ الأعلامِ[٣].

- وقَرَنَ ذِكرَ إسماعيلَ بذِكرِ اليَسَعَ وذي الكِفلِ عليهم السَّلامُ، بعَطفِ اسمَيْهما على اسمِه؛ لِوَجهٍ دَقيقٍ في البَلاغةِ؛ فأمَّا عَطفُ اليَسَعَ على إسماعيلَ؛ فلِأنَّ اليَسَعَ كان مَقامُه في بَني إسرائيلَ كمَقامِ إسماعيلَ في بَني إبراهيمَ، وأمَّا عَطفُ ذي الكِفلِ على إسماعيلَ؛ فلِأنَّه مُماثِلٌ لِإسماعيلَ في صِفةِ الصَّبرِ؛ قال اللهُ تَعالى في سُورةِ (الأنبياءِ): ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٤] [الأنبياء: ٨٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٩، ٢٨٠).

الآيات (٤٩-٥٤)

﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَدۡنٖ﴾: أي: إقامَةٍ وخُلدٍ، واستِقرارٍ وثباتٍ، يُقالُ: عَدَن بالمكانِ، يَعْدِنُ عَدْنًا، إذا لَزِمه، ولم يَبْرَحْ منه، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ[١].

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾: أي: حابِساتُ الأبصارِ على أزواجِهنَّ، وأصلُ (قصر): يدُلُّ على الحَبسِ[٢].

﴿أَتۡرَابٌ﴾: أي: مُتساوِياتٌ في السِّنِّ، وأصلُ (ترب): يدُلُّ على تَساوي شَيئَينِ[٣].

﴿نَفَادٍ﴾: أي: فَناءٍ وانقِطاعٍ، وأصلُ (نفد): يدُلُّ على انقِطاعِ شَيءٍ وفَنائِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا عاقبةَ المتَّقينَ وما لَهم مِن النَّعيمِ في الآخرةِ: هذا الَّذي تقدَّمَ مِن ذِكرِ هؤلاء الأنبياءِ ذِكرٌ جَميلٌ في الدُّنيا، وشَرَفٌ يُذْكَرونَ به أبدًا، وإنَّ لِلمُتَّقينَ لَحُسْنَ مَرجِعٍ يَصيرونَ إليه في الآخِرةِ، وهو جَنَّاتُ إقامةٍ دائمةٍ، يَبقَونَ فيها أبدًا، مَفتوحةً لهم أبوابُها، مُتَّكِئينَ في تلك الجنَّاتِ، يَطلُبونَ فيها فواكِهَ كثيرةً وشَرابًا.

وعندَ هؤلاء المتَّقينَ نِساءٌ قاصِراتٌ أطرافَهنَّ على أزواجِهنِّ، فلا يَتطَلَّعْنَ إلى غَيرِهم؛ لشِدَّةِ مَحبَّتِهنَّ لهم، مُتساوياتُ الأعمارِ.

هذا ما نَعِدُكم به -أيُّها المُؤمِنونَ- لِيَومِ الحِسابِ؛ جزاءً على أعمالِكم الصَّالحةِ.

ثُمَّ يخبرُ اللهُ تعالى عن دوامِ هذا النَّعيمِ، فيقولُ: إنَّ هذا الَّذي ذكَرْناه لكم مِن الجَزاءِ لَرِزْقُنا، ليس له زَوالٌ ولا انقِطاعٌ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على سَفاهةِ قَومِه، وذَكَر جُملةً مِنَ الأنبياءِ وأحوالِهم؛ ذَكَر ما يَؤولُ إليه حالُ المُؤمنينَ والكافِرينَ مِنَ الجَزاءِ، ومَقَرَّ كُلِّ واحِدٍ مِنَ الفَريقَينِ[1]، وذلك يوجِبُ الصَّبرَ على تكاليفِ اللهِ تعالى[2].

﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠١).

أي: هذا الَّذي يُتْلَى عليكم ممَّا تقدَّم مِن أوصافِ الأنبياءِ شرَفٌ وثَناءٌ جميلٌ يُذْكَرون به أبدًا، وكيف لا يكونُ شرَفًا والمُثْني عليهم ربُّ العالَمينَ(١)؟!

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٢).

قولُه: ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم في هذه السُّورةِ مِن ذِكرِ الأنبياءِ. وقيل: الإشارةُ إلى القرآنِ بجملتِه. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٢).

وقال ابنُ عطية: (﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ يحتمِلُ معنيَين؛ أحدُهما: أن يُشيرَ إلى مدحِ مَن ذُكِرَ، وإبقاءِ الشَّرَفِ له...، والثَّاني: أن يُشيرَ بهذا إلى القُرآنِ؛ إذ هو ذِكرٌ للعالَمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٠).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ؛ أنَّ الذِّكرَ بمعنى الشَّرفِ والثَّناءِ الجميلِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وابنُ الجوزي، والرسعني، والقرطبي، والعليمي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٦٧).

قال الألوسي: (وشاع الذِّكرُ بهذا المعنى [أي: الشَّرَفِ]؛ لأنَّ الشَّرَفَ يَلزَمُه الشُّهرةُ والذِّكرُ بيْن النَّاسِ، فتُجُوِّزَ به عنه بعَلاقةِ اللُّزومِ، والمرادُ: في ذِكرِ قَصَصِهم وتنويهِ اللهِ تعالى بهم شَرَفٌ عَظيمٌ لهم). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٠٣). ويُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٣١٥).

وممَّن اختار أنَّ الذِّكرَ هنا بمعنى التَّذكيرِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابنُ كثير، ورجَّحه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٤).

قال ابنُ كثير: (وقَولُه: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي: هذا فَصلٌ فيه ذِكرٌ لِمَن يَتذَكَّرُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧).

وقال البِقاعي: (﴿هَٰذَا﴾ أي: ما تَلَوْناه عليك مِن أمورِهم وأمورِ غَيرِهم ﴿ذِكْرٌ﴾ أي: شَرَفٌ في الدُّنيا، ومَوعِظةٌ مِن ذِكرِ القُرآنِ ذي الذِّكرِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٠٠).

وقيل: المعنى: هذا المذكورُ مِن الآياتِ نوعٌ مِن الذِّكرِ الَّذي هو القرآنُ، وذَكَرَ ذلك للانتقالِ =

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

هذا شُروعٌ في بَيانِ أجْرِهمُ الجَزيلِ في الآجِلِ بَعدَ بَيانِ ذِكرِهمُ الجَميلِ في العاجِلِ[1].

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

أي: وإنَّ للَّذينَ يَتَّقونَ سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه: لَحُسْنَ مَرجِعٍ يَصيرونَ إليه في الآخِرةِ[2].

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠﴾.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

أي: لهم حُسنُ مآبٍ، وهو جَنَّاتُ إقامةٍ دائِمةٍ، يَبقَونَ فيها أبدًا، فلا يُخرَجونَ

= مِن نوعٍ مِن الكلامِ إلى آخَرَ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والرازيُّ، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٦).

قال الرَّازيُّ في بيانِ هذا الوَجهِ: إنَّ الله تعالى (إنَّما شرَحَ ذِكرَ أحوالِ هؤلاء الأنبياءِ عليهم السَّلامُ؛ لأجْلِ أن يَصبِرَ مُحمَّدٌ عليه السَّلامُ على تحمُّلِ سَفاهةِ قَومِه، فلمَّا تمَّم بيانَ هذا الطَّريقِ، وأراد أن يَذكُرَ عَقيبَه طَريقًا آخَرَ يُوجِبُ الصَّبرَ على سَفاهةِ الجُهَّالِ، وأراد أن يُمَيِّزَ أحَدَ البابَينِ عن الآخَرِ: لا جَرَمَ قال: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾، ثمَّ شَرَع في تقريرِ البابِ الثَّاني، فقال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾، كما أنَّ المصَنِّفَ إذا تمَّم كلامًا قال: هذا بابٌ، ثمَّ شَرَع في بابٍ آخَرَ، وإذا فَرَغ الكاتِبُ مِن فَصلٍ مِن كِتابِه وأراد الشُّروعَ في آخَرَ، قال: هذا وقد كان كَيْتَ وكَيْتَ، والدَّليلُ عليه أنَّه لَمَّا أتَمَّ ذِكرَ أهلِ الجنَّةِ وأراد أن يُردِفَه بذِكرِ أهلِ النَّارِ قال: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٥٥]). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

مِنها، ولا يُريدونَ التَّحَوُّلَ عنها[١].

﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾.

أي: مُفتَّحةً لهم أبوابُها[٢].

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إقامَتَهم ويُسْرَ دُخولِهم؛ وَصَف حالَهم إذ ذاك، فقال[٣]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٥٥٠).

قال الشوكاني: (قال الحسَنُ: إنَّ الأبوابَ يُقالُ لها: انْفَتِحي فتَنفتِحُ، انْغَلِقي فتَنغَلِقُ. وقيلَ: تَفتحُ لهم الملائكةُ الأبوابَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٣).

وقال ابنُ جريرٍ: (فإنْ قال لنا قائلٌ: وما في قولِه: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ مِن فائدةِ خبرٍ حتَّى ذُكِر ذلك؟

قيل: فإنَّ الفائدةَ في ذلك إخبارُ الله تعالى عنها أنَّ أبوابَها تُفتَحُ لهم بغيرِ فتحِ سُكَّانِها إيَّاها بمعاناةٍ بيدٍ ولا جارحةٍ، ولكن بالأمرِ فيما ذُكِر). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٢).

وقال البِقاعي: (﴿لَّهُمُ﴾ أي: لا لِغَيرِهم ﴿ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ الَّتي لها والَّتي فيها، فلا يَلحَقُهم في دُخولِها ذُلُّ الحجابِ، ولا كُلْفةُ الاستِئذانِ، تَستَقبِلُهم الملائِكةُ بالتَّبجيلِ والإكرامِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٠١، ٤٠٢).

ويحتمِلُ قَولُه: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ أبوابَ الجنَّةِ، يقالُ له: ادخُلْ أيَّ بابٍ مِن أبوابِها شِئْتَ، على ما يَقولُه بَعضُ النَّاسِ. وجائِزٌ أن يكونَ أبوابُ كُلِّ أحَدٍ مِنهم في الجنَّةِ تكونُ مُفتَّحةً؛ لأنَّ إغلاقَ الأبوابِ إنَّما يكونُ في الدُّنيا: إمَّا لخَوفِ السَّرِقةِ، أو نظَرِ النَّاسِ إلى أهلِه وحَرَمِه، وخَوفِ نَظَرِ أهلِه إلى النَّاسِ؛ لهذا المعنى تُتَّخَذُ الأبوابُ في الدُّنيا والغَلَقُ والإغلاقُ دُونَهم، وليس ذلك المعنى في الجنَّةِ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٣٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٢).

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ٥١﴾.

أي: مُتَّكِئينَ في تلك الجنَّاتِ، يَطلُبونَ فيها فَواكِهَ كَثيرةً مِن فاكِهةِ الجنَّةِ، وشَرابًا مِن شَرابِها[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ * هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ * لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٥ - ٥٧].

﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أمْرَ المَسكَنِ، وأمْرَ المأكولِ والمَشروبِ؛ ذكَرَ عَقِيبَه أمْرَ المَنكوحِ[2].

وأيضًا لَمَّا كان الأكلُ والشُّربُ داعيَينِ إلى النِّساءِ، لاسيَّما مع الرَّاحةِ؛ قال[3]:

﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ٥٢﴾.

أي: وعندَ المُتَّقينَ فيها نِساءٌ قاصِراتٌ أطرافَهنَّ على أزواجِهنَّ، فلا يَرينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

قيل: ﴿وَشَرَابٖ﴾ أي: وشَرابٍ كَثيرٍ. فحُذِفَت: «كثير»؛ لدَلالةِ الكلامِ عليها. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والرازي، والقرطبي، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٣).

وقال ابن كثير: (أي: مِن أيِّ أنواعِه شاؤوا أتَتْهم به الخُدَّامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٢).

سِواهم، ولا يُرِدْنَ غَيرَهم[(١)]، وهُنَّ شابَّاتٌ مُتَساوياتٌ أعمارُهنَّ[(٢)].

(١) قال ابن القيِّم: (المفسِّرون كُلُّهم على أنَّ المعنى: قصَرْنَ طَرْفَهنَّ على أزواجِهنَّ؛ فلا يَطمَحْنَ إلى غيرِهم. وقيل: قصَرْنَ طَرْفَ أزواجِهنِّ، فلا يَدَعُهم حُسنُهنَّ وجمالُهنَّ أن يَنظُروا إلى غَيرِهنَّ. وهذا صحيحٌ مِن جهةِ المعنى، وأمَّا مِن جهةِ اللَّفظِ فقاصِراتٌ: صِفةٌ مُضافةٌ إلى الفاعلِ لِحسانِ الوُجوهِ، وأصلُه قاصِرٌ طَرْفُهنَّ، أي: ليس بطامِحٍ مُتَعدٍّ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٠).

وممَّن ذهب إلى حَملِ الآيةِ على كِلا المعنيَينِ: السعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

ممَّن اختار أنهنَّ أترابٌ بَعضُهنَّ لِبَعضٍ، مستوياتُ الأسنانِ فهُنَّ في سِنٍّ واحدةٍ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والبغويُّ، وأبو حيَّان، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٩٩).

وقيل: هُنَّ أترابٌ لأزواجِهنَّ؛ أسنانُهنَّ كأسنانِهم. وممَّن اختار هذا المعنى: أبو القاسمِ النَّيسابوريُّ، والنسفي. يُنظر: ((إيجاز البيان عن معاني القرآن)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٧١٦)، ((تفسير النسفي)) (٦/ ١٦٠).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ فقال: المرادُ أنَّهنَّ أترابٌ بَعضُهنَّ لبَعضٍ، وأنَّهنَّ أترابٌ لأزواجِهنَّ أيضًا: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٧).

قال ابن عاشور: (الظَّاهِرُ أنَّ ﴿أَتْرَابٌ﴾ وَصْفٌ قائِمٌ بجميعِ نِساءِ الجنَّةِ مِن مخلوقاتِ الجنَّةِ، ومِن النِّساءِ اللَّاتي كُنَّ أزواجًا في الدُّنيا لأصحابِ الجنَّةِ؛ فلا يكونُ بعَضُهنَّ أحسَنَ شَبابًا مِن بَعضٍ، فلا يَلحَقُ بعضَ أهلِ الجنَّةِ غَضٌّ إذا كانت نساءُ غَيرِه أجَدَّ شَبابًا، ولئلَّا تَتفاوَتَ نِساءُ الواحِدِ =

كما قال الله تباركَ وتعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨، ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣١ - ٣٣].

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: هذا الجَزاءُ المذكورُ هو ما يَعِدُكم اللهُ به -أيُّها المُتَّقونَ- ليَومِ الحِسابِ؛ جَزاءً لكم على أعمالِكم الصَّالحةِ[1].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: إنَّ هذا الجَزاءَ المَذكورَ للمُتَّقينَ في الجنَّةِ لَرِزقُنا الَّذي نُعطيهم إيَّاه؛ كرامةً مِنَّا لهم، ليس له زَوالٌ ولا انقِطاعٌ عنهم أبَدًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ الحَثُّ على التَّقْوى، وذلك

= مِن المتَّقينَ في شَرخِ الشَّبابِ، فيَكونَ النَّعيمُ بالأقَلِّ شَبابًا دونَ النَّعيمِ بالأجَدِّ مِنهنَّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((أضواء البيان)) الشنقيطي (٦/ ٣٤٨).

قال الشوكاني: (﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: هذا الجزاءُ الَّذي وُعِدْتُم به لأجْلِ يومِ الحسابِ؛ فإنَّ الحسابَ عِلَّةٌ للوصولِ إلى الجزاءِ، أو المعنَى: في يومِ الحسابِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٣).

بذِكرِ ثَوابِها؛ لأنَّ الحَثَّ على الشَّيءِ يكونُ بالأمرِ به -كما هو ظاهِرٌ-، ويكونُ بالوَعيدِ على تَركِه، والثَّناءِ على فِعلِه، وطُرُقُ الحَثِّ على الشَّيءِ مُتنَوِّعةٌ، ومنها ذِكرُ حُسْنِ المآبِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ حَثُّ النَّاسِ على العَمَلِ؛ لأنَّه كُلَّما تَذَكَّرَ الإنسانُ أنَّه سوف يُحاسَبُ عن عَمَلِه فإنَّه سوف يَحرِصُ ويَجتهِدُ في العَمَلِ؛ حتَّى لا يُحاسَبَ على شَيءٍ يكونُ عليه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ بِشارةُ المتَّقينَ بأنَّ لهم حُسْنَ المآبِ -أي: المرجِع-، وعلى العَكسِ مِن ذلك: غيرُ المتَّقينَ لهم سُوءُ المآبِ؛ لأنَّ اللهَ إذا حَكَمَ للشَّيءِ بصِفةٍ مِن الصِّفاتِ فإنَّه يُحكَمُ له بضِدِّه إذا انتَفَتْ هذه الصِّفةُ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ هذا دليلٌ على الأمانِ التَّامِّ، وأنَّه ليس في جنَّاتِ عَدنٍ ما يُوجِبُ أن تُغلَقَ لأجْلِه أبوابُها[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ فلا يَحتاجونَ أن يَفْتَحوها هم، بل هم مَخْدومون[٥]، فأفاد ذلك كثرةَ الخَدَمِ[٦].

٤- تأمَّلْ قولَه سُبحانَه: ﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ كيف تَجِدُ تحتَه معنًى بديعًا، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١١).

أنَّهم إذا دَخلوا الجنَّةَ لم تُغْلَقْ أبوابُها عليهم، بل تبقَى مُفَتَّحةً كما هي، وأمَّا النَّارُ فإذا دَخَلَها أهلُها أُغلِقَتْ عليهم أبوابُها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨] أي: مُطبَقةٌ، ومنه سُمِّيَ البابُ وَصيدًا، وهي مُؤْصَدةٌ في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ، قد جُعِلَتِ العَمَدُ مُمسِكةً للأبوابِ مِن خَلْفِها -على قولٍ- كالحَجَرِ العظيمِ الَّذي يُجعَلُ خَلْفَ البابِ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ الاتِّكاءُ: مِن هَيئاتِ أهلِ السَّعادةِ. وقولُه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ يَدُلُّ على أنَّ عِندَهم مَن يَستَخدِمونَه فيما يَستَدعونَ؛ كَقَولِه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾[٢] [الإنسان: ١٩].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ هذا يَدُلُّ على كَمالِ النَّعيمِ، وكَمالِ الرَّاحةِ والطُّمَأنينةِ، وتمامِ اللَّذَّةِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ كمالُ عِفَّةِ هؤلاءِ النِّساءِ؛ لِكَونِهنَّ قاصِراتِ الطَّرْفِ على أزواجِهنَّ، لا يَنظُرنَ إلى غيرِ أزواجِهنَّ، وفيها كمالُ جمالِ هؤلاءِ النِّساءِ حِسًّا ومعنًى؛ لأنَّهنَّ يَقصُرْنَ أطرافَ أزواجِهنَّ عليهنَّ، فالزَّوجُ لا يَنظُرُ إلى غيرِها؛ لأنَّها قد مَلأتْ عَينَه، وسَرَّت قَلبَه[٤]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ دَلالةٌ على بقاءِ نَعيمِ الجنَّةِ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١١).

(٥) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (١/ ٣١٠).

لِلإيذانِ بانتِهاءِ ما تَقدَّمَ مِن قَصَصٍ، والشُّروعِ في مَوضوعٍ آخَرَ، ولَمَّا كان ما يَذكُرُه نَوعًا مِن أنواعِ التَّنزيلِ، قالَ: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۗ﴾، وهي جُملةٌ فَصَلتِ الكَلامَ السَّابِقَ عن الكَلامِ الآتي بَعدَها؛ قَصدًا لِانتِقالِ الكَلامِ مِن غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، مِثلَ جُملةِ (أمَّا بَعدُ)، وهذا الأُسلوبُ مِنَ الانتِقالِ هو المُسَمَّى في عُرفِ عُلَماءِ الأدَبِ: الاقتِضابَ[1]. وذلك على قولٍ.

- وصَرَّح بالخَبَرِ في قَولِه: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۗ﴾؛ لِلاهتِمامِ بتَعيينِ الخَبَرِ، أيْ: هذا شَرَفٌ لهم، وذِكرٌ جَميلٌ يُذْكَرونَ به أبَدًا، أو نَوعٌ مِنَ الذِّكرِ الَّذي هو القُرآنُ، وبابٌ منه مُشتَمِلٌ على أنباءِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ، وأرادَ أنْ يَذكُرَ على عَقِبِه بابًا آخَرَ، وهو ذِكرُ الجَنَّةِ وأهلِها[2].

- قَولُه: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۗ﴾ قيل: المَقصودُ مِنَ المُشارِ إليه التَّذكُّرُ والاقتِداءُ، فلا يَأخُذِ السَّامِعُ اسمَ الإشارةِ مأْخَذَ الفَصلِ المُجرَّدِ والانتِقالِ الاقتِضابيِّ، مع إرادةِ التَّوجيهِ بلَفظِ (ذِكرٌ)، بتَحميلِه مَعنى حُسنِ السُّمعةِ، أيْ: هذا ذِكرٌ لِأولئك المُسَمَّينَ في الآخَرينَ، مع أنَّه تَذكِرةٌ لِلمُقتَدينَ، ومِن هنا احتُمِلَ أنْ تَكونَ الإشارةُ بهذا إلى القُرآنِ، أيْ: القُرآنُ ذِكرٌ؛ فتَكونَ الجُملةُ استِئنافًا ابتِدائيًّا لِلتَّنويهِ بشَأنِ القُرآنِ[3].

- قَولُه: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ المُرادُ بالمُتَّقينَ إمَّا الجِنسُ، وهم داخِلونَ في الحُكمِ دُخولًا أوَّليًّا، وإمَّا المَذكورونَ أنْفُسُهم؛ عَبَّرَ عنهم بذلك مَدْحًا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨١).

لهم بالتَّقْوى الَّتي هي الغايةُ القاصيةُ مِنَ الكَمالِ[١].

- واللَّام في ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لامُ الاختِصاصِ، أيْ: لهم حُسنُ مآبٍ يومَ الجَزاءِ[٢].

- وأظهَرَ الوَصفَ الَّذي أدَّاهم إلى هذا المآبِ؛ تَعميمًا لكُلِّ مَنِ اقتدَى بهم؛ حَثًّا على الاقتِداءِ، فقال: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾

- تَفتيحُ الأبوابِ كِنايةٌ عن التَّمكينِ مِنَ الانتِفاعِ بنَعيمِها؛ لِأنَّ تَفتيحَ الأبوابِ يَستَلزِمُ الإذْنَ بالدُّخولِ، وهو يَستَلزِمُ التَّخليةَ بيْنَ الدَّاخِلِ وبيْنَ الانتِفاعِ بما وراءَ الأبوابِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾

- قَولُه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ استِئنافٌ لِبيانِ حالِهم فيها[٥].

- والاقتِصارُ على ذِكرِ الفاكِهةِ؛ للإشعارِ بأنَّ مَطاعِمَهم لِمَحضِ التَّلذُّذِ والتَّفكُّهِ، وليستْ لِلتَّغذِّي وإقامةِ الجِسمِ؛ فإنَّ التَّغذِّيَ لِلتَّحلُّلِ، ولا تَحلُّلَ ثَمَّةَ[٦].

وقيل: المقصودُ مِن ذِكرِ الفاكهةِ التَّنبيهُ بالأدْنى على الأعلَى، يعني: لَمَّا كانت

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٤).

الفاكهةُ حاضرةً أبدًا، كان الإدامُ أَولى بالحضورِ[١].

- والشَّرابُ: اسمٌ للمشروبِ، وغَلَب إطلاقُه على الخَمرِ إذا لم يَكُنْ في الكلامِ ذِكْرٌ للماءِ، وتَنوينُ (شَرَاب) هنا لِلتَّعظيم، أيْ: شَرابٍ نَفيسٍ في جِنسِه. قيل: لَمَّا كانتِ الفاكِهةُ يَتَنوَّعُ وَصْفُها بالكَثرةِ، وكَثرَتُها باختِلافِ أنواعِها، وكَثرةِ كُلِّ نَوعٍ منها، ولَمَّا كانَ الشَّرابُ نَوعًا واحِدًا وهو الخَمرُ؛ أُفرِدَ. وقيل: التَّقديرُ: وشرابٌ كثيرٌ، لكنْ حُذِف (كثيرٌ)؛ لدَلالةِ ما قبْلُ، ورعايةً للفاصلةِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾

- إسنادُ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ إلى ضَميرِهِنَّ إسنادٌ حَقيقيٌّ، أيْ: لا يُوَجِّهنَ أنظارَهُنَّ إلى غَيرِهم، وذلك كِنايةٌ عن قَصرِ مَحَبَّتِهِنَّ على أزواجِهِنَّ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَعنى: أنَّهُنَّ يَقصُرنَ أطرافَ أزواجِهِنَّ عليهِنَّ، فلا تَتوَجَّهُ أنظارُ أزواجِهِنَّ إلى غَيرِهِنَّ؛ اكتِفاءً منهم بحُسنِهِنَّ؛ وذلك كِنايةٌ عن تَمامِ حُسنِهِنَّ في أنظارِ أزواجِهِنَّ بحيث لا يَتعَلَّقُ استِحسانُهم بغَيرِهِنَّ[٣].

- وقَولُه: ﴿أَتْرَابٌ﴾ كأنَّ اللِّدَاتِ[٤] سُمِّينَ أتْرابًا؛ لِأنَّ التُّرابَ مَسَّهُنَّ في وَقتٍ واحِدٍ، وإنَّما جُعِلنَ على سِنٍّ واحِدةٍ؛ لِأنَّ التَّحابَّ بيْنَ الأقرانِ أثبَتُ. وقيلَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٤) اللِّدَات: جمعُ اللِّدَةِ -بالكسر-، وهو الَّذي يولَدُ معك في وقتٍ واحدٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٩/ ٣٢٦).

هُنَّ أترابٌ لِأزواجِهِنَّ، أسنانُهُنَّ كأسنانِهم، أو بَعضُهُنَّ لِبَعضٍ، لا عَجوزَ فيهِنَّ ولا صَبيَّةَ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ مُؤكِّدٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٤٩]، والإشارةُ إذَنْ إلى ما سَبَقَ ذِكرُه مِن قَولِه: ﴿لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٤٩]. وجيءَ باسمِ الإشارةِ القَريبِ ﴿هَٰذَا﴾؛ تَنزيلًا لِلمُشارِ إليه مَنزِلةَ المُشارِ إليه الحاضِرِ؛ إيماءً إلى أنَّه مُحَقَّقٌ وُقوعُه تَبشيرًا لِلمُتَّقينَ[٢].

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ في قَولِه: ﴿تُوعَدُونَ﴾ على ظاهِرِه، ويَجوزُ أنْ يَكونَ كَلامًا يُقالُ لِلمُتَّقينَ في الجَنَّةِ، فتَكونَ الجُملةُ مَقولَ قَولٍ مَحذوفٍ، هو في مَحَلِّ حالٍ ثانيةٍ مِنَ (المُتَّقِينَ)، والتَّقديرُ: مَقولًا لهم: هذا ما تُوعَدونَ لِيَومِ الحِسابِ[٣].

- قولُه: ﴿تُوعَدُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ فيه التِفاتٌ مِنَ الغَيبةِ إلى الخِطابِ، وهو أَلْيَقُ بمقامِ الامتِنانِ والتَّكريمِ، وتَشريفِ المُتَّقينَ بعِزِّ الحُضورِ لِخِطابِ اللهِ تَعالى، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ الكلامُ لِلمُتَّقينَ في الجنَّةِ، فالخِطابُ لهم على ظاهِرِه. وقرئ ﴿يُوعَدُونَ﴾ بياءِ الغَيبةِ[٤]، وهو يوافقُ ما قبْلَه مِن الآياتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٨٣، ٢٨٤).

(٤) قرأها بالياءِ للغَيْبةِ: ابنُ كثير، وأبو عَمرٍو، وقرأها الباقون بالتَّاءِ للخِطابِ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٤)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٤).

- واللَّامُ في ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ لامُ العِلَّةِ، أيْ: وُعِدتُموه لِأجْلِ يَومِ الحِسابِ، والمَعنى: لِأجْلِ الجَزاءِ يَومَ الحِسابِ؛ فإنَّ الحِسابَ عِلَّةٌ لِلوُصولِ إلى الجَزاءِ، فلَمَّا كانَ الحِسابُ مُؤْذِنًا بالجَزاءِ، جُعِلَ اليَومُ هو العِلَّةَ، وهذه اللَّامُ تُفيدُ مَعنى التَّوقيتِ تَبَعًا، كقَولِه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]؛ تَنزيلًا لِلوَقتِ مَنزِلةَ العِلَّةِ(١).

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ فيه التَّوكيدُ بـ(إنَّ)؛ لِلاهتِمامِ(٢).

- والعُدولُ عن الضَّميرِ إلى اسمِ الإشارةِ في قَولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا﴾؛ لِكَمالِ العِنايةِ بتَمييزِه وتَوجيهِ ذِهنِ السَّامِعِ إليه(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٨٤).

الآيات (٥٥-٦٤)

﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِلطَّٰغِينَ﴾: أي: الضَّالِّينَ المُتجاوِزينَ الحَدَّ، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[١].

﴿فَبِئۡسَ﴾: بئسَ: كلمةٌ موضوعةٌ لإنشاءِ الذَّمِّ، مستوفيةٌ لجميعِه[٢].

﴿ٱلۡمِهَادُ﴾: أي: الفِراشُ والقَرارُ، والمَهدُ: ما يُهيَّأُ للصَّبيِّ، وأصلُ المهادِ: المكانُ المُمَهَّدُ المُوطَّأُ[٣].

﴿حَمِيمٞ﴾: أي: ماءٌ شَديدُ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم): يدُلُّ على الحَرارةِ[٤].

﴿وَغَسَّاقٞ﴾: أي: ما يَسيلُ مِن جُلودِ أهلِ النَّارِ، وهو الصَّديدُ، مِن قَولِهم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).

(٢) يُنظر: ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

غَسَقَتْ عَينُه: إذا انصَبَّتْ، والغَسَقانُ: الانصِبابُ. وقيل: هو الزَّمهريرُ الَّذي انتهَى بَرْدُه، يُحرِقُهم ببَرْدِه كما تُحرِقُهم النَّارُ بحَرِّها[١].

﴿شَكۡلِهِۦٓ﴾: أي: مِثْلِه وضَرْبِه ونَظيرِه، وأصلُ (شكل): يدُلُّ على مُماثَلةٍ[٢].

﴿أَزۡوَٰجٞ﴾: أي: أنواعٌ وأصنافٌ، يُقالُ لِكُلِّ ما يَقترِنُ بآخَرَ مُماثِلًا له أو مُضادًّا: زَوجٌ، وأصلُ (زوج): يَدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[٣].

﴿فَوۡجٞ﴾: أي: فِرقةٌ وجماعةٌ، وأصلُ (فوج): يدُلُّ على تَجمُّعٍ[٤].

﴿مُّقۡتَحِمُ﴾: أي: داخِلٌ كُرهًا، والاقتِحامُ: الدُّخولُ في الشَّيءِ بشِدَّةٍ وصُعوبةٍ، وأصلُ (قحم): يدُلُّ على وُرودِ الشَّيءِ بدونِ رَوِيَّةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٣٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦١).

﴿صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾: أي: مُقاسو حَرِّها وشِدَّتِها، وأصلُ الصلي: الإيقادُ بالنَّارِ[١].

﴿زَاغَتۡ﴾: أي: عدَلتْ ومالَتْ، وأصلُ الزيغِ: المَيلُ عن الاستقامةِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾

﴿هَٰذَا﴾: مُبتدَأٌ، وفي الخبَرِ وَجهانِ؛ أحدُهما: ﴿فَلۡيَذُوقُوهُ﴾، و﴿حَمِيمٞ﴾ بدَلٌ مِن ﴿هَٰذَا﴾، أو خبَرُ مُبتَدأٍ مَحذوفٍ، أي: هو حَميمٌ، أو مُبتدأٌ وخبَرُه محذوفٌ، أي: مِنه حَميمٌ وغَسَّاقٌ، أو خبرٌ ثانٍ لـ﴿هَٰذَا﴾. والوَجهُ الثَّاني: أن يكونَ ﴿حَمِيمٞ﴾ خبَرَ ﴿هَٰذَا﴾، و﴿فَلۡيَذُوقُوهُ﴾ مُعتَرِضٌ بَيْنَهما لا محلَّ له. وقيل: ﴿هَٰذَا﴾ في مَوضِعِ نَصبٍ على الاشتِغالِ بفِعلٍ مَحذوفٍ يُفسِّرُه المذكورُ، أي: فلْيَذوقوا هذا، ثمَّ استأنفَ فقال: ﴿حَمِيمٞ﴾ أي: هو حَميمٌ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾

قَولُه: ﴿تَخَاصُمُ﴾ فيه أوجُهٌ:

أحدُها: أنَّه بَدَلٌ مِن (حَقٌّ)، أو عَطفُ بَيانٍ.

الثَّاني: أنَّه خبَرٌ ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾.

الثَّالِثُ: أنَّه خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: هو تُخاصُمُ، والجملةُ بيانٌ لاسمِ الإشارةِ،

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٨٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٣٤).

وقيل غيرُ ذلك[١].

المعنى الإجماليُّ:

بعدَما انتهى الحديثُ عن المؤمِنينَ وحُسنِ عاقِبتِهم؛ شَرَع تعالى يُبَيِّنُ حالَ الكافِرينَ وسُوءَ مُنقَلَبِهم، فقال: هذا الَّذي ذُكِرَ مِن الجزاءِ هو شأنُ المتَّقينَ، وإنَّ لِلَّذين تَجاوَزوا حُدودَ اللهِ بالكُفرِ والعِصيانِ لَشَرَّ مَرجِعٍ يَصيرونَ إليه في الآخِرةِ؛ جهنَّمَ يَدخُلونَها ويُقاسُونَ حَرَّها؛ فبِئسَ الفِراشُ هي، هذا هو عَذابُنا الَّذي أعدَدْناه لهم؛ ماءٌ بالِغُ الحَرارةِ، وقَيحٌ وصَديدٌ يَسيلانِ مِن أجسادِهم، فلْيَذوقوه، ولهم عَذابٌ آخَرُ على شاكِلةِ الحَميمِ والغَسَّاقِ يُعذَّبونَ به.

ثمَّ حكَى سُبحانَه أنَّه يُقالُ: هذا جَمعٌ كَثيرٌ مِن أتْباعِكم وإخوانِكم داخِلونَ معكم النَّارَ لا مَرحَبًا ولا أهلًا بهم؛ إنَّهم داخِلونَ النَّارَ، ومُقاسُونَ حَرَّها!

فقال الفَوجُ الدَّاخِلونَ في النَّارِ: بل أنتم لا مَرحبًا بكم؛ إذ دَعَوْتُمونا في الدُّنيا إلى الكُفرِ فاتَّبَعْناكم؛ فتَسبَّبْتُم لنا في دُخولِ النَّارِ معكم، فبِئسَ القَرارُ والمَنزِلُ لنا ولكم: جَهنَّمُ!

ثمَّ قال الأتْباعُ: ربَّنا مَن أضَلَّنا في الدُّنيا فكان سَبَبًا في دُخولِنا النَّارَ، فضاعِفْ له العذابَ فيها.

وقال أولئك الطَّاغون: ما بالُنا لا نرَى معنا رِجالًا مِن فُقَراءِ المؤمِنينَ كُنَّا نَعُدُّهم في الدُّنيا أشرارًا، أكان تحقيرُنا إيَّاهم في الدُّنيا وسخريتُنا واستهزاؤُنا منهم خطأً وما دخَلوا النارَ معَنا؟ أمْ دخَلوها ولكِنْ أبصارُنا لا تَراهم وزاغَت عنهم؟!

ثمَّ يقولُ تعالى مؤكِّدًا ما أخبَر به، وهو أصدَقُ القائلينَ: إنَّ ذلك الَّذي

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٠٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٩٤).

قصَصْناه مِن تخاصُمِ أهلِ النَّارِ فيما بيْنَهم وتلاعُنِهم: حَقٌّ لا شَكَّ فيه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ٥٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف ثوابَ المتَّقينَ، وصَفَ بَعدَه عِقابَ الطَّاغينَ؛ لِيَكونَ الوَعيدُ مَذكورًا عَقِيبَ الوَعدِ، والتَّرهيبُ عَقيبَ التَّرغيبِ[1].

﴿ هَٰذَاۚ ﴾.

أي: هذا الَّذي ذُكِرَ مِن الجزاءِ هو شَأنُ المتَّقينَ[2].

﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴾.

أي: وإنَّ لِلَّذين لم يَصبِروا على ما أُمِروا به، واجتِنابِ ما نُهُوا عنه، فتَجاوَزوا حُدودَ اللهِ بالكُفرِ والظُّلمِ ومَعصيةِ اللهِ تعالى: لَشَرَّ مَرجِعٍ يَصيرونَ إليه في الآخِرةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٣).

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: ابنُ جرير، وابنُ جُزَي، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال البِقاعي: (﴿ هَٰذَاۚ ﴾ أي: الأمرُ العظيمُ الَّذي هو جديرٌ بأن يُجعَلَ نُصبَ العَينِ، وهو أنَّه لكُلٍّ مِن الفريقَينِ ما ذُكِرَ وإنْ أنكَرَه الكَفَرةُ. وحَذفُ الخبَرِ بعدَ إثباتِه في الأوَّلِ أهْوَلُ؛ لِيَذهَبَ الوَهمُ فيه كُلَّ مَذهَبٍ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: وهو جَهنَّمُ، فيَدخُلونَها ويُقاسُونَ حَرَّها، فبِئسَ الفِراشُ الَّذي افتَرَشوه لأنفُسِهم في الآخِرةِ؛ بسَبَبِ طُغيانِهم في الدُّنيا(١).

﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ ﴾.

أي: هذا ماءٌ بالِغُ الحَرارةِ، وصديدٌ يَسيلُ مِن أجسادِ أهلِ النَّارِ، فلْيَذوقُوه(٢)!

= (٧/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٣).

وذهب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ المرادَ بالطَّاغينَ هنا: عُظَماءُ أهلِ الشِّركِ؛ لأنَّهم تكبَّروا بعظَمتِهم على قَبولِ الإسلامِ، وأعرَضوا عن دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بكِبرٍ واستِهزاءٍ، وحَكَموا على عامَّةِ قَومِهم بالابتِعادِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعن المُسلِمينَ، وعن سَماعِ القُرآنِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٣، ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٦).

ممَّن اختار أنَّ في الآية تقديمًا وتأخيرًا، أي: هذا حميمٌ وغسَّاقٌ فلْيَذوقوه: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والنَّحَّاسُ، وابنُ أبي زَمَنِين، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٦)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٥).

وقال الفَرَّاءُ بعدَ أن ذكَرَ الوجهَ السَّابقَ: (وإن شِئتَ جعَلْتُه مُستأنَفًا، وجعلْتَ الكلامَ قبْلَه مكتفيًا، كأنَّك قُلْتَ: هذا فلْيَذوقوه، ثمَّ قلتَ: منه حميمٌ ومنه غَسَّاقٌ). ((معاني القرآن)) (٢/ ٤١٠).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٠).

وقال الماوَرْديُّ: (﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي: منه حميمٌ ومنه غسَّاقٌ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٠٦).

ويُنظر ما تقدَّم في مُشكِلِ الإعرابِ (ص: ٢٤٥). =

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ٥٨﴾.

أي: ولهم عَذابٌ آخَرُ مِن نحوِ الحَميمِ والغَسَّاقِ، وعلى شاكِلتِه، ذو أنواعٍ وأصنافٍ يُعذَّبونَ بها[1].

= وممَّن اختار أنَّ الغَسَّاقَ هو ما يَسيلُ مِن صديدِ أهلِ النَّارِ: ابنُ جرير، وابنُ جُزَي، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٦).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعبدُ الله بنُ عَمرٍو، وقَتادةُ، وإبراهيمُ، وابنُ زَيدٍ، وعطيَّةُ العَوفيُّ، وأبو رَزِينٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٩٩).

قال السعدي: (هو أكْرَهُ ما يكونُ مِن الشَّرابِ، مِن قَيحٍ وصَديدٍ، مُرِّ المذاقِ، كَريهِ الرَّائِحةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

وقيل: الغَسَّاقُ ضِدُّ الحميم، فهو البارِدُ الَّذي لا يُستطاعُ؛ مِن شِدَّةِ بَردِه المؤلِم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٩).

قال ابنُ عاشور: (الغَسَّاقُ: سائِلٌ يَسيلُ في جَهنَّمَ، وأحسَبُ أنَّ هذا الاسمَ بهذا الوزنِ أطلَقَه القرآنُ على سائلٍ كَريهٍ يُسقَونَه، كقَولِه: ﴿بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]، وأحسَبُ أنَّه لم تكُنْ هذه الزِّنةُ مِن هذه المادَّةِ مَعروفةً عندَ العَرَبِ، وبذلك يُومِئُ كلامُ الرَّاغِبِ، وهذا سَبَبُ اختلافِ المفَسِّرينَ في المرادِ منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٦).

وذهب البِقاعي إلى جميعِ هذه المعاني وغيرِها، فعَرَّف الغَسَّاق بأنَّه سائِلٌ مُنتِنٌ عَظيمٌ جِدًّا، بارِدٌ أسْوَدُ مُظلِمٌ شَديدٌ في جميعِ هذه الصِّفاتِ مِن صَديدٍ ونَحوِه. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣١ - ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٧). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ * كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

وعن أبي هُرَيرةَ رضي اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المَيِّتُ تَحضُرُه الملائِكةُ، فإذا كان الرَّجُلُ صالحًا قالوا: اخرُجي أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ... وإذا كان الرَّجُلُ السَّوءُ قال: اخرُجي أيَّتُها النَّفْسُ الخَبيثةُ كانت في الجَسَدِ الخَبيثِ، اخرُجي ذميمةً، وأبْشِري بحَميمٍ وغَسَّاقٍ وآخَرَ مِن شَكلِه أزواجٍ، فلا يَزالُ يُقالُ لها ذلك حتَّى تَخرُجَ، ثمَّ يُعرَجُ بها إلى السَّماءِ، فلا يُفتحُ لها، فيُقالُ: مَن هذا؟ فيُقالُ: فُلانٌ، فيُقالُ: لا مَرحبًا بالنَّفْسِ الخَبيثةِ كانت في الجسَدِ الخَبيثِ، ارجِعي ذَميمةً؛ فإنَّها لا تُفتَّحُ لكِ أبوابُ السَّماءِ، فيُرسَلُ بها مِنَ السَّماءِ، ثمَّ تَصيرُ إلى القَبرِ))[1].

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾﴾.

= قال ابنُ جُزَي: (﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ (آخرُ) مَعطوفٌ على ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾، تقديرُه: وعذابٌ آخَرُ. قيل: يعني الزَّمهريرَ، ومعنى ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ مِن مِثلِه ونَوعِه، أي: مِن مِثلِ العَذابِ المذكورِ، و﴿أَزْوَٰجٌ﴾ معناه أصنافٌ، وهو صِفةٌ للحَميمِ والغَسَّاقِ والعذابِ الآخَرِ، والمعنى: أنَّهما أصنافٌ مِن العذابِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١).

وقال ابن كثير: (أَمَّا الحميمُ فهو: الحارُّ الَّذي قد انتهَى حَرُّه، وأمَّا الغَسَّاقُ فهو: ضِدُّه، وهو البارِدُ الَّذي لا يُستطاعُ مِن شِدَّةِ بردِه المؤلِمِ؛ ولهذا قال: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ أي: وأشياءُ مِن هذا القبيلِ، الشَّيءُ وضِدُّه يُعاقَبونَ بها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨).

(١) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٤٢)، وابن ماجه (٤٢٦٢) واللفظ له، وأحمد (٨٧٦٩).

صَحَّح الحديثَ الذهبيُّ في ((العرش)) (٢٩)، وابنُ القيِّم في ((الروح)) (٢/ ٥٨٩)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢٦٢). وصَحَّح إسنادَه ابنُ جرير في ((تهذيب الآثار- مسند عمر)) (٢/ ٤٩١، ٥٠٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَفَ مَسْكَنَ الطَّاغِينَ ومَأكولَهم؛ حكَى أحوالَهم مع الَّذين كانوا أحِبَّاءَ لهم في الدُّنيا أوَّلًا، ثمَّ مع الَّذين كانوا أعداءً لهم في الدُّنيا ثانيًا[1].

﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ﴾.

أي: هذه جَماعةٌ كَبيرةٌ مُقتَحِمونَ النَّارَ مَعكم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٣، ١٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٨).

قيل: القائِلُ لهم ذلك: هم ملائِكةُ العذابِ (خزنة النَّار- الزَّبانِيَة). وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ عطية، وابن الجوزي، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١١)،))تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ﴾ هذا قولُ الزَّبانيةِ للقادةِ المتقدِّمينَ في الكفرِ إذا جاؤوهم بالأتْباعِ. وقيل: بل هو قولُ الملائكةِ لأهلِ النَّارِ كلَّما جاؤوهم بأمَّةٍ بعدَ أُمَّةٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٠).

وقيل: هذا مِن كلامِ أهلِ النَّارِ بعضِهم لبعضٍ. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٧).

واختار ابنُ كثير أنَّ هذا الكلامَ تقولُه الطَّائفةُ الَّتي تدخلُ قبْلَ الأخرَى إذا أقْبَلَتِ الَّتي بعدَها مع الخَزَنةِ مِن الزَّبانيةِ.

واختار ابنُ عاشور أنَّ هذا الكلامَ يقولُه الطَّاغونَ بعضُهم لبعضٍ.

والمرادُ بالفَوجِ المُقتَحِمِ: قيل: الأتْباعُ، والضَّميرُ في ﴿مَّعَكُمۡ﴾ يعودُ إلى رؤسائِهم. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عطية، وابن الجوزي، وابن جُزَي، والبِقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٧). =

﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾.

أي: لا اتَّسَعَت مَداخِلُهم ومَنازِلُهم في النَّارِ؛ إنَّهم داخِلوها ومُقاسُونَ حَرَّها[1].

= وقال مكِّي: (ثمَّ قال تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أي: هذه فِرقةٌ مقتحمةٌ معكم في النَّارِ، وذلك دُخولُ أمَّةٍ مِن الكفَّارِ بعدَ أمَّةٍ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٠/ ٦٢٧٨).

قال الماوَرْديُّ: (وفي الفَوجِ قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّهم بنو إبليسَ. والثَّاني: بنو آدمَ، قاله الحسَنُ. والقولُ الثَّاني: أنَّ كِلا الفَوجَينِ بنو آدَمَ، إلَّا أنَّ الأوَّلَ الرُّؤساءُ، والثَّانيَ الأتْباعُ. وحكى النَّقَّاشُ أنَّ الفَوجَ الأوَّلَ قادةُ المشركينَ ومُطعِموهم يومَ بَدرٍ، والفَوجَ الثَّانيَ أتْباعُهم ببَدرٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٠٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٤، ١٣٥)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٢٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٣)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩).

قال ابن جُزَي: (﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي: لا يَلْقَون رُحْبًا ولا خيرًا، وهو دعاءٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ هذا مِن قولِ السَّادةِ والرُّؤساءِ والقادةِ الطَّاغينَ الَّذينَ كانوا قد دَخَلوا النَّارَ قبْلَ هذا الفَوجِ المُقتحِمِ: ابنُ جرير، والثعلبي، والواحدي، والزمخشري، والنسفي، وابن جزي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير الشوكاني (٤/ ٥٠٧).

وممَّن اختار أنَّه مِن قولِ بعضِ أهلِ النَّارِ لبعضٍ (المتقدِّمينَ في النَّارِ للدَّاخِلينَ عليهم): مكِّي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

وقيل: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ هو مِن تمام كلام الخَزَنةِ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٢).

وممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ مِن كلامِ الخَزَنةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٢).

وممَّن اختار أنَّه مِن كلامِ السَّادةِ والرُّؤساءِ والقادةِ: الثعلبيُّ، والواحدي، والزمخشري، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٤)، ((الوجيز)) للواحدي =

﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٦٠﴾.

﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَا﴾.

أي: قال لهم الفَوجُ الدَّاخِلونَ النَّارَ: بل[1] أنتم لا اتَّسَعَتْ بكم أماكِنُكم؛ فأنتم دَعَوْتُمونا في الدُّنيا إلى الضَّلالِ الَّذي أفضَى بنا في الآخِرةِ إلى هذا المصيرِ[2]!

﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾.

أي: فبِئسَ المُستَقَرُّ النَّارُ[3].

﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابًا ضِعۡفًا فِي ٱلنَّارِ ٦١﴾.

أي: وقال الأتْباعُ: ربَّنا مَن أضَلَّنا في الدُّنيا فكان سَبَبًا في استِحقاقِنا عذابَ النَّارِ، فضاعِفْ له العذابَ فيها زيادةً على عَذابِه[4].

= (ص: ٩٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٧).

(١) قال ابنُ عاشور: (﴿بَلۡ﴾ للإضرابِ الإبطاليِّ؛ لِرَدِّ الشَّتمِ عليهم، وأنَّهم أَولى به منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٥)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٧٣، ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

قال ابن عاشور: (﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡ﴾... أي: أنتم أَولى بالشَّتمِ والكراهيةِ بأن يُقالَ: لا مَرحبًا بكم؛ لأنَّكم الَّذين تَسبَّبْتُم لأنفُسِكم ولنا في هذا العذابِ، بإغرائِكم إيَّانا على التَّكذيبِ والدَّوامِ على الكُفرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٨، ٢٨٩).

قال ابن جُزَي: (الضَّمير في ﴿قَدَّمۡتُمُوهُ﴾ للعذابِ، ومعنى ﴿قَدَّمۡتُمُوهُ﴾: أوجَبْتُموه لنا بما قدَّمْتُم في الدُّنيا مِن إغوائِنا، وأمْرِكم لنا بالكفرِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٤)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) =

﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ٦٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعدَ أن شَرَح أحوالَ الكُفَّارِ مع الَّذين كانوا أحبابًا لهم في الدُّنيا؛ شَرَح أحوالَهم مع الَّذين كانوا أعداءً لهم في الدُّنيا[1].

﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ٦٢﴾.

أي وقال الطَّاغُونَ: ما بالُنا لا نَرى مَعَنا رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهم في الدُّنيا أشرارًا[2]

= للبقاعي (١٦/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩١).

قال ابنُ القيِّم: (يجوزُ أن يكونَ الأتْباعُ دَعَوا على سادتِهم وكُبَرائِهم وأئمَّتِهم به؛ لأنَّهم هم الَّذين حَمَلوهم عليه، ودَعَوهم إليه، ويجوزُ أن يكونَ جَميعُ أهلِ النَّارِ سألوا ربَّهم أن يَزيدَ مَن سَنَّ لهم الشِّركَ وتكذيبَ الرُّسُلِ -صلَّى اللهُ عليهم وسلَّم- ضِعفًا، وهم الشَّياطينُ). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٧٤).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والرسعني، والقرطبي، والبقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٨).

ونسَب ابنُ الجوزيِّ إلى ابنِ السَّائبِ: أنَّه قولُ جميعِ أهلِ النَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٥).

(٢) قال ابنُ عاشور: (أي: كنَّا نَحْسَبُهم أشقياءَ قد خَسِروا لَذَّةَ الحياةِ باتِّباعِهم الإسلامَ، ورِضاهم بشَظَفِ العيشِ، وهم يَعنُونَ أمثالَ بلالٍ، وعمَّارِ بنِ ياسرٍ، وصُهَيبٍ، وخَبَّابٍ، وسَلمانَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٢).

وممَّن قال بأنَّهم يَعْنون: مُستضعَفي المؤمنينَ: ابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢).

وقال البِقاعي: ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ أي: الأراذلِ الَّذين لا خيرَ فيهم بأنَّهم قد قطعوا الرَّحِمَ، وفرَّقوا بيْنَ العشيرةِ، وأفسَدوا ذاتَ البَينِ، وغيَّروا الدِّينَ بكَونِهم لا يَزالون يُخالِفون النَّاسَ في أقوالِهم =

لا خَلاقَ لهم، يَعنُونَ بذلك المؤمنينَ[١]؟!

﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

أ- قولُه: ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ ﴾ فيه قراءتانِ:

١- قِراءةُ: ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ﴾ بوَصلِ الهَمزةِ، فتَكونُ جُملةً خَبريَّةً، أي: إنَّا اتَّخَذْناهم سِخْرِيًّا[٢].

٢- قِراءةُ: ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ ﴾ بقَطعِ الهَمزةِ على الاستِفهامِ، بمعنى: هل اتَّخَذْناهم سِخْريًّا، ولم يكونوا كذلك[٣]؟!

= وأفعالِهم، مع ما كانوا فيه مِن الضَّعفِ والذُّلِّ والهَوانِ وسوءِ الحالِ في الدُّنيا، فيَظُنُّ أهلُها نقْصَ حظِّهم منها، وكثرةَ مصائبهم فيها لسوءِ حالِهم عندَ الله!). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤١٠).

وقال ابنُ عطيَّة: (الضَّميرُ في: «قَالُوا» لأشرافِ الكُفَّارِ ورُؤَسائِهم، أخبَرَ اللهُ عنهم أنَّهم يَتذكَّرونَ إذا دخَلوا النَّارَ لِقَومٍ مِن مُستَضعَفي المؤمنينَ، فيقولونَ هذه المقالةَ، وهذا مُطَّرِدٌ في كُلِّ أمَّةٍ جاءَها رَسولٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وشِمْرُ بنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٠١).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بهم المؤمِنونَ دونَ أن يَخصُصَهم بالمُستَضعَفينَ منهم: ابنُ كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

(٢) قرأ بها أبو عَمرٍو، وحمزةُ، والكِسائيُّ، ويعقوبُ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١، ٣٦٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١، ٣٦٢). =

ب- قولُه: ﴿سِخْرِيًّا﴾ فيه قراءتانِ:

١- قِراءةُ: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضَمِّ السِّينِ. قيل: مِنَ السُّخرةِ والاستِخدامِ. وقيل: هي بمعنى الاستِهزاءِ كالقِراءةِ الأُخرى(١).

٢- قِراءةُ: ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكَسرِ السِّينِ. بمعنى: الاستِهزاءِ(٢).

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: أكان تحقيرُنا إيَّاهم في الدُّنيا وسخريتُنا واستهزاؤُنا منهم خطأً؛ فلم يَكونوا كذلك، وما دخَلوا النَّارَ معَنا، أم مالَتْ عنهم أبصارُنا، فلا نَراهم وهم في النَّارِ قد دخَلوها معَنا(٣)؟

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢).

(١) قرأ بها نافعٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٦، ١٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٧١، ٣٧٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٦، ١٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٧١، ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).
قال ابنُ عطيةَ: (﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ بألِفِ الاستفهامِ، ومعناها: تقريرُ أنفُسِهم على هذا على جهةِ التَّوبيخِ لها والأسَفِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥١). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٢].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ٦٤﴾.

أي: إنَّ ذلك الَّذي ذُكِر مِن مُراجَعاتِ أهلِ النَّارِ فيما بيْنَهم، ودُعاءِ بَعضِهم على بَعضٍ: لَحَقٌّ وصِدقٌ ثابِتٌ لا بُدَّ أن يقَعَ يومَ القيامةِ كما أخبَرَ اللهُ تعالى عنهم[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ مع قَولِه سُبحانَه: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ أنَّ الأفضلَ للدَّاعِيةِ أنْ يَجعَلَ دَعوتَه مُشتَمِلةً على التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ وذلك لأنَّ الدَّعوةَ إذا كانت مُقتَصِرةً على التَّرغيبِ صارتْ

= قال ابن جزي: (﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ هذا يحتمِلُ ثلاثةَ أوجهٍ:

أحدُها: أنْ يكونَ معادلًا لقولِهم: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا﴾، والمعنى: ما لنا لا نراهم في جهنَّمَ، فهم ليسوا فيها، أم هم فيها ولكِنْ زاغَتْ عنهم أبصارُنا؟ ومعنى ﴿زَاغَتۡ عَنۡهُمُ﴾ مالت فلم نرَهم.

الثاني: أنْ يكونَ معادلًا لقولِهم: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ والمعنى: أتَّخذناهم سخريًّا. و«أم زاغت الأبصار» على هذا: مالت عن النَّظرِ إليهم احتقارًا لهم.

الثالث: أنْ تكونَ «أم» منقطعةً بمعنى «بل والهمزةِ» فلا تعادلُ شيئًا مما قبلَها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٨، ١٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٣، ٢٩٤).

قيل: أهلُ النَّارِ هنا هم الخالِدونَ فيها، كقَولِهم: أهلُ قريةِ كذا؛ فإنَّه لا يَشملُ المغتربَ بيْنَهم، وأنَّه وقتَ نُزولِ هذه الآيةِ لم يكُنْ في مكَّةَ غَيرُ المُسلمينَ الصَّالحينَ، وغيرُ المُشركين، فوصْفُ أهلِ النَّارِ يومَئذٍ لا يَتحقَّقُ إلَّا في المُشركينَ دونَ عُصاةِ المُسلِمينَ. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٤).

سَبَبًا للأمْنِ مِن مَكرِ اللهِ، وأنْ يَتمادَى الإنسانُ في مَعصيةِ اللهِ ويَرجو اللهَ، وإذا كانت مُقتصِرةً على التَّرهيبِ صارتْ سَبَبًا للقُنوطِ مِن رَحمةِ اللهِ، واستِبعادِ الرَّحمةِ، وهذا ضَرَرٌ، بل ينبغي أنْ يكونَ الدَّاعِيةُ جامِعًا بيْنَ هذا وهذا؛ لِيَحْمِلَ النَّاسَ على الرَّجاءِ وعلى الخَوفِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾ أنَّ هذا الخِصامَ الَّذي يَقَعُ بيْنَ أهلِ النَّارِ حَقٌّ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائِدةِ: أنَّه يجبُ على كلِّ أحدٍ ألَّا يَغتَرَّ بالسَّادةِ والمَتبوعِينَ، بل يكونُ هَمُّه نَفْسَه(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- كمالُ القُرآنِ في التَّعليمِ والتَّبليغِ، وأنَّه مَثانٍ؛ إذا ذَكَر المتَّقينَ وثَوابَهم ذَكَر المجرِمينَ وعِقابَهم؛ ولهذا قال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾، الطَّاغون ضِدُّ المتَّقينَ؛ لهم شَرُّ مآبٍ(٣).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ أنَّ أهلَ النَّارِ يَتذَكَّرونَ ما جَرَى لهم في الدُّنيا(٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ أنَّ الأتْباعَ والمتبوعِينَ مِن أهلِ النَّارِ كلَّهم يَكونونَ في النَّارِ، فلا يُعذَرُ هؤلاء بتبَعيَّتِهم للسَّادةِ والكُبَراءِ، ولكِنْ هذا ليس على إطلاقِه؛ فإنَّه قد دَلَّتِ النُّصوصُ على أنَّه لا يُعَذَّبُ أحَدٌ حتَّى تقومَ عليه الحُجَّةُ، وعلى هذا فيُحمَلُ الأتْباعُ هنا على الأتْباعِ الَّذين بَلَغَتْهم الحُجَّةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٤).

وبَلَّغَتْهم الرُّسُلُ، ولكنْ قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]؛ ولهذا قال تعالى في سورةِ (الأحزاب): ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۞ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۞ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]؛ فدلَّ هذا على أنَّ هؤلاءِ الأتْباعَ قد قامتْ عليهمُ الحُجَّةُ؛ ولهذا يَقولونَ: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ مُستَعمَلٌ في الانتِقالِ مِن غَرَضٍ إلى غَرَضٍ؛ تَنهيةً لِلغَرَضِ الَّذي قَبْلَه. واسمُ الإشارةِ (هذا) في هذا المَقامِ مِنَ الفَصلِ الَّذي هو خَيرٌ مِنَ الوَصلِ، وهي عَلاقةٌ وَكيدةٌ بيْنَ الخُروجِ مِنَ الكَلامِ إلى كَلامٍ آخَرَ[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾

- جُملةُ ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حالٌ مِن ﴿جَهَنَّمَ﴾، مُؤكِّدةٌ لِمَعنى اللَّامِ الَّذي هو عامِلٌ في (الطَّاغِينَ)؛ فإنَّ معنى اللَّامِ أنَّهم تَختَصُّ بهم جَهنَّمُ، واختِصاصُها بهم هو ذَوقُ عَذابِها؛ لِأنَّ العَذابَ ذاتيٌّ لِجَهنَّمَ[(٣)].

- والفاءُ في ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ لِتَرتيبِ الإخبارِ وتَسَبُّبِه على ما قَبْلَه، والمَعنى: جَهنَّمَ يَصلَوْنها، فيَتسَبَّبُ على ذلك أنْ نَذكُرَ ذَمَّ هذا المَقرِّ لهم، وهذا استِعمالٌ بَديعٌ كَثيرٌ في القُرآنِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والْمِهادُ: المَهدُ والمُفترَشُ، شَبَّهَ ما تَحتَهم مِنَ النارِ بالمِهادِ الَّذي يَفترِشُه النَّائِمُ، والمَخصوصُ بالذَّمِّ مَحذوفٌ، وهو جَهنَّمُ؛ لِقَولِه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾[1] [الأعراف: ٤١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾

- قوله: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ إشارةُ القَريبِ ﴿هَٰذَا﴾ لِتَقريبِ الإنذارِ[2].

- و(غَسَّاقٌ) بالتَّشديدِ مُبالَغةٌ في (غاسِقٌ)، بمَعنى سائِلٍ، وصِيغَ له هذا الوَزنُ؛ لِيَكونَ اسْمًا لِشَيءٍ يُشبِهُ ما يَغسِقُ به الجُرحُ[3]؛ ولذلك سُمِّيَ المُهلَ والصَّديدَ في آياتٍ أُخرى[4].

- وجُملةُ ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ مُعتَرِضةٌ بيْنَ اسمِ الإشارةِ والخَبَرِ عنه -على أحدِ الأقوالِ-، وهذا مِنَ الاعتِراضِ المُقتَرِنِ بالفاءِ دُونَ الواوِ، والفاءُ فيه؛ لِتَرتيبِ الإخبارِ وتَسَبُّبِه على ما قَبْلَه[5].

- وقولُه: ﴿وَءَاخَرُ﴾ صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ دَلَّتْ عليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿هَٰذَا﴾ وضَميرُ ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾، ووَصْفُ (آخَرُ) يدُلُّ على مُغايِرٍ، وقَولُه: ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ يدُلُّ على أنَّه مُغايِرٌ له بالذَّاتِ، ومُوافِقٌ في النَّوعِ؛ فحَصَل مِن ذلك أنَّه عَذابٌ آخَرُ، أو مَذوقٌ آخَرُ مِن شَكلِ هذا المَذوقِ مِن مِثلِه في الشِّدَّةِ والفَظاعةِ. وتَوحيدُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ مع أنَّ مُعادَه ﴿حَمِيمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٦).

(٣) غَسَق الجرحُ: أي: سالَ منه ماءٌ أصفرُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٨٦، ٢٨٧).

وَغَسَّاقٌ ﴾، على أنَّه لِمَا ذُكِرَ، أو لِلشَّرابِ الشَّامِلِ لِلحَميمِ والغَسَّاقِ، أو لِلغَسَّاقِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴾ هذا ابتِداءُ كَلامٍ حُكيَ به تَخاصُمُ المُشرِكينَ في النَّارِ فيما بَيْنَهم إذا دَخَلوها، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى في آخِرِه: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٦٤]، وجَرَيانُه بَيْنَهم لِيَزدادوا مَقْتًا؛ بأنْ يُضافَ إلى عَذابِهمُ الجُسمانيِّ عَذابُ أنْفُسِهم برُجوعِ بَعضِهم على بَعضٍ بالتَّنديمِ وسُوءِ المُعامَلةِ، وأُسلوبُ الكَلامِ يَقتَضي مُتكَلِّمًا صادِرًا منه، وأُسلوبُ المُقاوَلةِ يَقتَضي أنَّ المُتكَلِّمَ به همُ الطَّاغونَ الَّذين لهم شَرُّ المآبِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لِأنَّهم أساسُ هذه القَضيَّةِ، فالتَّقديرُ: يَقولونَ -أي: الطَّاغونَ- بَعضُهم لِبَعضٍ: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ ﴾، أيْ: يَقولونَ مُشيرينَ إلى فَوجٍ مِن أهلِ النَّارِ أُقحِمَ فيهم، ليسوا مِن أكْفَائِهم ولا مِن طَبَقَتِهم، وهم فَوجُ الأتْباعِ مِنَ المُشرِكينَ الَّذين اتَّبَعوا الطَّاغينَ في الحياةِ الدُّنيا، وذلك ما دَلَّ عليه قَولُه: ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَا ﴾ [ص: ٦٠]، أيْ: أنتم سَبَبُ إحضارِ هذا العَذابِ لنا[٢].

- قولُه: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ ﴾ الاقتِحامُ: الدُّخولُ في النَّاسِ، و(مع) مُؤْذِنةٌ بأنَّ المُتَكلِّمينَ مَتبوعونَ، وأنَّ الفَوجَ المُقتَحِمَ أتْباعٌ لهم، فأُدخِلوا فيهم مُدخَلَ التَّابِعِ مع المَتبوعِ بعَلاماتٍ تُشعِرُ بذلك[٣].

- وقولُه: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡ ﴾ دُعاءٌ منهم على أتْباعِهم، وهي جُملةٌ مُعتَرِضةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٨٨).

مُستَأنَفةٌ لإنشاءِ ذَمِّ الفَوجِ، و ﴿لَا مَرۡحَبَۢا﴾ نَفيٌ لِكَلِمةٍ يَقولُها المَزورُ لِزائِرِه، وهي إنشاءُ دُعاءِ الوافِدِ، فإذا أرادوا كَراهيةَ الوافِدِ والدُّعاءَ عليه قالوا: لا مَرحَبًا به، كأنَّهم أرادوا النَّفيَ بمَجموعِ الكَلِمةِ. قيل: إنَّما قالوا ذلك؛ لِأنَّهم كَرِهوا أنْ يَكونوا هم وأتْباعُهم في مَكانٍ واحِدٍ، جَريًا على خُلُقِ جاهِلِيَّتِهم مِنَ الكِبرياءِ واحتِقارِ الضُّعَفاءِ[1]. وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡ﴾ هي مِن إتمامِ كَلامِ الخَزَنةِ بطَريقِ الدُّعاءِ على الفَوجِ بضِيقِ المَكانِ. أو صِفةٌ لِلفَوجِ. أو حالٌ منه، أيْ: مَقولٌ -أو مَقولًا- في حَقِّهم: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡ﴾، أيْ: لا أتَوْا مَرحَبًا، أو لا رَحُبَتْ بهمُ الدَّارُ مَرحَبًا[2]، و﴿بِهِمۡ﴾ بَيانٌ لِلمَدعُوِّ عليهم، أيْ: بَيانٌ لِمَن وُجِّهَ الدُّعاءُ لهم، أيْ: إيضاحًا لِلسَّامِعِ أنَّ الدُّعاءَ على أصحابِ الضَّميرِ المَجرورِ بالباءِ، فكانتِ الباءُ فيه لِلتَّبيينِ[3].

- وقَولُه: ﴿إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ قيل: هو تَعليلٌ مِن جِهةِ الخَزَنةِ لِاستِحقاقِهمُ الدُّعاءَ عليهم، أو وَصْفَهم بما ذُكِر[4]. وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ هي خَبَرٌ ثانٍ عن اسمِ الإشارةِ، والخَبَرُ مُستعمَلٌ في التَّضَجُّرِ منهم، أيْ: إنَّهم مُضايقونَنا في مَضيقِ النَّارِ، كما أوْمَأ إليه قَولُهم: ﴿مُّقۡتَحِمُ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡ﴾[5].

٥- قولُه تعالَى: ﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾، أيْ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٥، ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٩).

قال الفَوجُ: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾، وهو رَدٌّ على الرُّؤَساءِ ما دَعَوْا به عليهم، وعَلَّلوا ذلك فذَكَروا أنَّ ما وَقَعوا فيه مِنَ العَذابِ وصَلْيِ النارِ، إنَّما هو بما ألقَيتُم إلينا وزَيَّنتُموه مِنَ الكُفرِ، فكَأنَّكم قَدَّمتُم لنا العَذابَ أو الصَّلْيَ. وإذا كان ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾ مِن كَلامِ الخَزَنةِ، فلمْ يَجِئِ التَّركيبُ: قالوا: بل هؤلاء لا مَرحَبًا بهم، بل جاءَ بخِطابِ الأتْباعِ لِلرُّؤساءِ؛ لِتَكونَ المُواجَهةُ لِمَن كانوا لا يَقدِرونَ على مُواجَهَتِهم في الدُّنيا بقَبيحٍ، أشْفَى لِصُدورِهم -حيث تَسَبَّبوا في كُفرِهم-، وأنْكى لِلرُّؤَساءِ[1].

- وجيءَ بحِكايةِ قَولِهم على طَريقةِ المُحاوَراتِ؛ فلذلك جُرِّدَ مِن حَرفِ العَطفِ؛ فقولُه: ﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾، أيْ: فسَمِعَهم الأتْباعُ فقالوا: ﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾؛ إضرابًا عن كَلامِهم. وحَرفُ ﴿بَلۡ﴾ لِلإضْرابِ الإبطاليِّ؛ لِرَدِّ الشَّتمِ عليهم، وأنَّهم أَوْلى به منهم[2].

- وذُكِر ضَميرُ المُخاطَبينَ في قَولِه: ﴿أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾ لِلتَّنصُّلِ مِن شَتمِهم، أيْ: أنتم المَشتومونَ، أيْ: أَوْلى بالشَّتمِ منَّا[3].

- وفي قَولِه: ﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾ لَعَلَّهم إنَّما خاطَبُوهم مع أنَّ الظَّاهِرَ أنْ يَقولُوا بطَريقِ الاعتِذارِ إلى الخَزَنةِ: بل هُم لا مَرحَبًا بهم... إلخ؛ قَصْدًا منهم إلى إظهارِ صِدقِهم بالمُخاطَبةِ مع الرُّؤَساءِ، والتَّحاكُمِ إلى الخَزَنةِ؛ طَمَعًا في قَضائِهم بتَخفيفِ عَذابِهم، أو تَضعيفِ عَذابِ خُصَمائِهم، أيْ: بل أنتم أحَقُّ بما قيلَ لنا أو قُلتُم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٣).

- وإذا كان قَولُه: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ مِن كَلامِ الخَزَنةِ فماذا يُصنَعُ بقَولِه: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾، والمُخاطَبونَ -أعني: رُؤَساءَهم- لم يَتكَلَّموا بما يَكونُ هذا جَوابًا لهم؟

فالجوابُ: كأنَّه قيلَ: هذا الَّذي دعا به علينا الخَزَنةُ أنتُم يا رُؤَساءُ أحَقُّ به منَّا؛ لإغوائِكم إيَّانا، وتَسبُّبِكم فيما نحن فيه مِنَ العَذابِ، كما لو زَيَّنَ قَومٌ لِقَومٍ بَعضَ المَساوي فارتَكَبوها، فقيلَ لِلمُزَيِّنينَ: أخْزى اللهُ هؤلاء، ما أسْوَأَ فِعلَهم! فقال المُزَيَّنُ لهم لِلمُزَيِّنينَ: بل أنتُم أَوْلى بالخِزيِ منَّا؛ فلولا أنتم لم نَرتَكِبْ ذلك[1].

- وجُملةُ ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ عِلَّةٌ لِقَلبِ سَبَبِ الشَّتمِ إليهم، وتَعليلٌ لِأحَقِّيَّتِهم بذلك، أيْ: لِأنَّكم قَدَّمتُمُ العَذابَ لنا؛ فضَميرُ النَّصبِ في ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ عائِدٌ إلى العَذابِ المُشاهَدِ، وهو حاضِرٌ في الذِّهنِ غَيرُ مَذكورٍ في اللَّفظِ[2].

- ووُقوعُ ﴿أَنتُمْ﴾ قَبلَ ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ المُسنَدِ الفِعليِّ، يُفيدُ الحَصرَ، أيْ: لم يُضِلَّنا غَيرُكم؛ فأنتُم أحِقَّاءُ بالعَذابِ[3].

- قَولُه: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ ذَمٌّ لِإقامَتِهم في جَهنَّمَ؛ تَشنيعًا عليهم فيما تَسَبَّبوا لِأنْفُسِهم فيه، وقَصَدُوا بذَمِّها تَغليظَ جِنايةِ الرُّؤساءِ عليهم[4].

٦- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ لم يَكتَفِ الأتْباعُ بردِّ الدُّعاءِ على رُؤَسائِهم، ولا بمُواجَهَتِهم بقَولِ: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لَنَا ﴾، حتَّى سَأَلوا مِنَ اللهِ أنْ يَزيدَ رُؤَساءَهم ضِعفًا مِنَ النارِ، والمَعنى: مَن حَمَلَنا على عَمَلِ السُّوءِ حتَّى صار جَزاؤُنا النَّارَ، فزِدْه عَذابًا ضِعفًا. ولَمَّا كان الرُّؤَساءُ ضُلَّالًا في أنْفُسِهم، وأضَلُّوا أتْباعَهم؛ ناسَبَ أنْ يَدعُوا عليهم بأنْ يَزيدَهم ضِعفًا، كما جاءَ: ((مَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سَيِّئةً كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها مِن بَعدِه مِن غيرِ أن يَنقُصَ مِن أوزارِهم شَيءٌ))[١]؛ فعلى هذا: الضَّميرُ في قَولِه: ﴿قَالُواْ﴾ لِلأتْباعِ، و ﴿مَن قَدَّمَ﴾ هُمُ الرُّؤَساءُ[٢].

- قولُه: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا ...﴾، أيْ: قال الأتْباعُ لِمَتبوعيهم في النَّارِ هذا الكَلامَ، وتَوسيطُه بَينَ كَلامَيْهم؛ لِمَا بَيْنَهما مِنَ التَّبايُنِ البَيِّنِ ذاتًا وخِطابًا[٣].

وفيه إعادةُ فِعلِ القَولِ؛ لِإفادةِ أنَّ القائِلينَ همُ الأتْباعُ، فأُعيدَ فِعلُ القَولِ تَأكيدًا لِلفِعلِ الأوَّلِ؛ لِقَصدِ تَأكيدِ فاعِلِ القَولِ تَبَعًا؛ لأنَّه مُحتملٌ لِضَميرِ القائِلينَ[٤].

- والمَقصودُ مِن حِكايةِ قَولِهم هذا تَحذيرُ كُبَراءِ المُشرِكينَ مِن عَواقِبِ رِئاسَتِهم وزَعامَتِهمُ الَّتي يَجُرُّونَ بها الوَيلاتِ على أتْباعِهم، فيُوقِعونَهم في هاويةِ السُّوءِ حتَّى لا يَجِدَ الأتْباعُ لهم جَزاءً بَعدَ الفَوتِ إلَّا طَلَبَ مُضاعَفةِ العَذابِ لهم[٥].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾

- عَطفٌ على ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ [ص: ٥٩]، على ما قُدِّرَ فيه مِن

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٩، ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فِعلِ قَولٍ مَحذوفٍ -على قولٍ-، فهذا مِن قَولِ الطَّاغينَ؛ فإنَّهمُ الَّذين كانوا يَحقِرونَ المُسلِمينَ[(١)].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ استِفهامٌ يُلقيه بَعضُهم لِبَعضٍ تَلَهُّفًا على عَدَمِ رُؤيَتِهم مَن عَرَفوهم مِنَ المُسلِمينَ، مُكَنًّى به عن مَلامِ بَعضِهم لِبَعضٍ على تَحقيرِهمُ المُسلِمينَ، واعتِرافِهم بالخَطَأِ في حِسْبانِهم. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الاستِفهامُ حَقيقيًّا؛ استَفهَموا عن مَصيرِ المُسلِمينَ؛ لِأنَّهم لم يَرَوْهم يَومَئذٍ؛ إذْ قد عَلِموا أنَّ النَّاسَ صاروا إلى عالَمٍ آخَرَ، وهو الَّذي كانوا يُنذَرونَ به، ويَكونَ قَولُهم: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ تَمهيدًا لِقَولِهم: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾[(٢)] [ص: ٦٣].

٨- قولُه تعالَى: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾

- الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لِإنكارِ الكافِرينَ على أنْفُسِهم وتأنيبِهم لها في الاستِسخارِ مِنَ المُؤمِنينَ والزَّيغِ عنهم، ولِتَقريرِ أنْفُسِهم على هذا، على جِهةِ التَّوبيخِ لها والأسَفِ، أيْ: أتَّخَذْناهم سِخريًّا ولم يَكونوا كذلك[(٣)]؟

- وجُملةُ ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ بَدَلٌ مِن جُملةِ ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ [ص: ٦٢]، و(ال) في ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ عِوضٌ عنِ المُضافِ إليه، أيْ: أبصارُنا؛ فيَكونُ المَعنى: أكان تَحقيرُنا إيَّاهم في الدُّنيا خَطَأً[(٤)]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٣).

- وكَنَّى عن تَحقيرِهم لِلمُسلِمينَ في الدُّنيا باتِّخاذِهم سِخرِيًّا؛ لِأنَّ في فِعلِ ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ إيماءً إلى أنَّهم ليسوا بأهلٍ لِلسُّخريةِ، وهذا تَنَدُّمٌ منهم على الاستِسخارِ بهم[1]. والسُّخريُّ دالٌّ على شِدَّةِ الاستِهزاءِ؛ لِأنَّ ياءَه في الأصْلِ ياءُ نَسَبٍ، وياءُ النَّسَبِ تأتي لِلمُبالَغةِ في الوَصفِ[2].

- ولَفظُ ﴿أَمْ﴾ إنْ كان قَولُه: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ استِفهامًا: إمَّا مُصرَّحًا بهَمزَتِه كقِراءةِ مَن قَرَأ كذلك، أو مُؤوَّلًا بالاستِفهامِ، وحُذِفتِ الهَمزةُ لِلدَّلالةِ، فالظَّاهِرُ أنَّها مُتَّصِلةٌ؛ لِتَقدُّمِ الهَمزةِ، وقولُه: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ له وجهانِ مِن الاتِّصالِ؛ أحدهما: أنْ يتَّصِلَ بقولِه: ﴿مَا لَنَا﴾ أي: ما لنا لا نَراهم في النَّارِ، كأنَّهم ليسوا فيها؟ بلْ أزاغَتْ عنهم أبصارُنا فلا نراهم وهم فيها؟

والوجه الثاني: أنْ يتَّصِلَ بـ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾، إمَّا أنْ تكونَ (أم) متصلةً على معنى: أيُّ الفِعلَيْنِ فَعَلْنا بهم: الاستِسخارُ منهم، أم ازدِراؤُهم وتَحقيرُهم وأنَّ أبصارَنا كانت تَعلو عنهم، وتَقتَحِمُهم؟ ويَكونُ استِفهامًا على مَعنى الإنكارِ على أنْفُسِهم؛ لِلاستِسخارِ والزَّيغِ جَميعًا. وقيلَ: كُلَّ ذلك قد فَعَلوا؛ اتَّخَذوهم سِخريًّا، وزاغَتْ عنهم أبصارُهم مُحقِّرةً لهم. وفي ﴿زَاغَتْ﴾ دونَ (أزغنا) مبالغةٌ عظيمةٌ كأنَّ العينَ بنفسِها تمجُّهم لقبحِ منظرِهم. وإنْ كانَ قَولُه: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ ليس استِفهامًا، فـ﴿أَمْ﴾ مُنقَطِعةٌ، ويَجوزُ أنْ تَكونَ مُنقَطِعةً أيضًا مع تَقدُّمِ الاستِفهامِ، فالتَّقديرُ: بل أزاغَتْ عنهمُ الأبصارُ.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ قَولُهم: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ له تَعلُّقٌ بقَولِه: ﴿مَا لَنَا لَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نَرَىٰ رِجَالًا ﴾؛ لِأنَّ الاستِفهامَ أوَّلًا دَلَّ على انتِفاءِ رُؤيَتِهم إيَّاهم، وذلك دَليلٌ على أنَّهم ليسوا معهم، ثمَّ جَوَّزوا أنْ يَكونوا معهم، ولكنَّ أبصارَهم لم تَرَهم[١].

٩- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ تَذييلٌ وتَنهيةٌ لِوَصفِ حالِ الطَّاغينَ وأتْباعِهم، وعَذابِهم، وجِدالِهم[٢].

- وتأْكيدُ الخَبَرِ بحرفَي التَّوكيدِ (إنَّ واللَّام) في قولِه: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ ﴾ مَنظورٌ فيه لِمَا يَلزَمُ الخَبَرَ مِنَ التَّعريضِ بوَعيدِ المُشرِكينَ وإثباتِ حَشرِهم وجَزائِهم بأنَّه حَقٌّ، أي: ثابِتٌ[٣].

- وقَولُه: ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ خَبَرُ مُبتَدأٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ بَيانٌ لـ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، وفي الإبهامِ أوَّلًا والتَّبيينِ ثانيًا مَزيدُ تَقريرٍ له[٤].

- في قَولِه: ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ تَشبيهُ تَقاوُلِهم وما يَدورُ بَيْنَهم مِن حِوارٍ ويَتَبادَلونَه مِن سُؤالٍ وجَوابٍ بما يَجري بيْنَ المُتَخاصِمينَ مِن نَحوِ ذلك؛ لِأنَّ قَولَ الرُّؤَساءِ لِتابِعيهم: ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ [ص: ٥٩]، وقَولَ التَّابِعينَ: ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴾ [ص: ٦٠]؛ لا يَعدو الخُصومةَ الَّتي يَتَراشَقُها المُتَخاصِمونَ، أو كان ذَمُّهم لِبَعضِهم أشَدَّ مِنَ المُخاصَمةِ.

وأُضيفَ هذا التَّخاصُمُ إلى أهلِ النارِ كُلِّهمُ اعتِبارًا بغالِبِ أهلِها؛ لِأنَّ غالِبَ أهلِ النَّارِ أهلُ الضَّلالاتِ الاعتِقاديَّةِ، وهم لا يَعْدُونَ أنْ يَكونوا دُعاةً لِلضَّلالِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٤).

أو أتْباعًا لِلدُّعاةِ إليه؛ فكُلُّهم يَجري بَيْنَهم هذا التَّخاصُمُ، أمَّا مَن كان في النَّارِ مِنَ العُصاةِ فكَثيرٌ منهم ليس عِصيانُه إلَّا تَبَعًا لِهَواه مع كَونِه على عِلمٍ بأنَّ ما يأتيه ضَلالةٌ، لم يُسَوِّلْه له أحَدٌ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٨).

الآيات (٦٥-٧٠)

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

قَولُه: ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ في هذا المصدَرِ وَجهانِ:

أحدُهما: أنَّه مع ما في حَيِّزِه في محلِّ رفعٍ نائِبُ فاعلٍ، أي: ما يُوحَى إلَيَّ إلَّا الإنذارُ، أو: إلَّا كَوني نَذيرًا مُبينًا.

والثَّاني: أنَّه في مَحلِّ نَصبٍ أو جرٍّ على نزَعِ الخافِضِ. ونائِبُ الفاعِلِ على هذا الجارُّ والمجرورُ، أي: ما يُوْحى إلَيَّ إلَّا للإنذارِ أو لِكَوني نَذيرًا. أو نائِبُ الفاعِلِ ضَميرُ ما يَدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: ما يُوْحى إلَيَّ ما لم أكُنْ أعلَمُه مِن اختِصامِ الملأِ الأعلَى إلَّا للإنذارِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُلقِّنًا رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم الرَّدَّ الَّذي يرُدُّ به على المشركينَ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك المُشرِكينَ: إنَّما أنا مُنذِرٌ أُنذِرُكم عَذابَ اللهِ، وما مِن مَعبودٍ بحَقٍّ إلَّا اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ، خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما مِنَ الخَلقِ، العزيزُ الَّذي لا يَغلِبُه شَيءٌ، الغَفَّارُ ذُنوبَ عِبادِه.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢١٢).

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه أنْ يُبيِّنَ لهم أنَّ ما جاءهم به مِن عندِ ربِّه أمرٌ عظيمٌ، لا يَليقُ بعاقلٍ أنْ يُعرِضَ عنه، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهم: هذا القُرآنُ خَبَرٌ عَظيمٌ، أنتم مُنصَرِفونَ عنه، ما ليَ مِن عِلمٍ باختِلافِ الملائكةِ في شَأنِ آدَمَ، فإنَّما يُوحَى إلَيَّ ما لم أكُنْ أعلَمُه مِن اختِصامِ الملأِ الأعلى؛ لأنِّي رَسولٌ مِن عندِ اللهِ تعالى، أُنذِرُكم إنذارًا واضِحًا بَيِّنًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى في أوَّلِ السُّورةِ أنَّ مُحمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لَمَّا دعا النَّاسَ إلى أنَّه لا إلهَ إلَّا إلهٌ واحِدٌ، وإلى أنَّه رَسولٌ مُبينٌ مِن عندِ الله، وإلى أنَّ القَولَ بالقيامةِ حَقٌّ؛ فأولئك الكُفَّارُ أظهَروا السَّفاهةَ، وقالوا: إنَّه ساحِرٌ كَذَّابٌ، واستَهزَؤوا بقَولِه، ثمَّ إنَّه تعالى ذَكَر قَصَصَ الأنبياءِ؛ لِيَصيرَ ذلك حامِلًا لمُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- على التَّأسِّي بالأنبياءِ عليهم السَّلامُ في الصَّبرِ على سَفاهةِ القَومِ، ولِيَصيرَ ذلك رادِعًا للكُفَّارِ عن الإصرارِ على الكُفرِ والسَّفاهةِ، وداعيًا إلى قَبولِ الإيمانِ، ولَمَّا تَمَّم اللهُ تعالى ذلك الطَّريقَ؛ أردَفَه بطَريقٍ آخَرَ وهو شَرحُ نَعيمِ أهلِ الثَّوابِ، وشَرحُ عِقابِ أهلِ العِقابِ، فلمَّا تَمَّم اللهُ تعالى هذه البياناتِ؛ عاد إلى تقريرِ المَطالِبِ المذكورةِ في أوَّلِ السُّورةِ، وهي: تقريرُ التَّوحيدِ والنُّبُوَّةِ والبَعثِ[1].

وأيضًا فهذا راجِعٌ إلى قَولِه: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وإلى قَولِه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]، فلَمَّا ابتَدَرهمُ الجَوابُ عن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٦).

ذلك التَّكذيبِ بأنْ نَظَّرَ حالَهم بحالِ الأُمَمِ المُكذِّبةِ مِن قَبلِهم، ولِتَنظيرِ حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحالِ الأنبياءِ الَّذين صَبَروا، واستَوعَبَ ذلك بما فيه مَقنَعٌ؛ عادَ الكَلامُ إلى تَحقيقِ مَقامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن قَومِه، فأمَرَه اللهُ أنْ يَقولَ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ مُقابِلَ قَولِهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وأنْ يَقولَ: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مُقابِلَ إنكارِهمُ التَّوحيدَ كقَولِهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾[1] [ص: ٥].

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك المُشرِكينَ: إنَّما أنا مُنذِرٌ أُنذِرُكم عذابَ اللهِ على كُفرِكم به[2].

﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾.

أي: وما مِن مَعبودٍ تَصلُحُ له العِبادةُ إلَّا اللهُ الواحِدُ الَّذي لا شَريكَ له، القَهَّارُ الَّذي قهَرَ كُلَّ شَيءٍ بقُدرتِه[3].

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٦٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ ذِكرَ كَونِه سُبحانَه قَهَّارًا مُشعِرٌ بالتَّرهيبِ والتَّخويفِ، فلمَّا ذَكَر ذلك أردَفَه بما يدُلُّ على الرَّجاءِ والتَّرغيبِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٤، ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٩، ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٦).

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

أي: خالِقُ ومالِكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما مِنَ الخَلقِ، المُتصَرِّفُ في ذلك كُلِّه[١].

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

أي: العَزيزُ ذو القَدْرِ العَظيمِ، الَّذي يَغلِبُ كُلَّ شَيءٍ ولا يَغلِبُه شَيءٌ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الغَفَّارُ الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[٢].

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك المُكَذِّبينَ: هذا القُرآنُ -المُشتَمِلُ على توحيدِ اللهِ، وإثباتِ رِسالتي، ووُقوعِ البَعثِ والجَزاءِ بعدَ الموتِ، وغيرِ ذلك- خبَرٌ عَظيمٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢٧، ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالنَّبأ العظيم: القُرآنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحدي، والبقاعي، وابن عثيمين. وحكَى الواحديُّ فيه الإجماعَ، ونسَبه ابنُ الجوزي إلى الجُمهورِ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، وشُرَيحٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٥). =

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: أنتم مُنصَرِفونَ عن تَصديقِه، وقَبولِه، وتَدَبُّرِه، والعمَلِ به[1].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: لولا وَحيُ اللهِ إلَيَّ لَمَا عَلِمْتُ باختِلافِ الملائِكةِ في السَّماءِ في شأنِ آدَمَ[2]؛ فإخباري بذلك دَليلٌ واضِحٌ على صِدقِ نُبُوَّتي، وأنَّ القُرآنَ حَقٌّ مِن

= قال ابنُ عطية: (الإشارةُ بقَولِه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ إلى التَّوحيدِ والمَعادِ، فهي إلى القُرآنِ وجميعِ ما تضَمَّنَه وعدُه أنَّ التَّصديقَ به نجاةٌ، والتَّكذيبَ به هَلَكةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٣).

وقيل: المرادُ بالنَّبأِ نَبأُ خلقِ آدمَ وما جرَى بعدَه. وقيل: المرادُ به: خبرُ الحشرِ وما أُعِدَّ فيه للمتَّقينَ مِن حُسْنِ مآبٍ، وللطَّاغينَ مِن شرِّ مآبٍ... يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٥، ٤١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٠).

(٢) ممَّن اختار أنَّ اختِصامَ الملائِكةِ في شأنِ آدَمَ حينَ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والثعلبي -ونسَبه لأكثرِ المفسِّرينَ-، ومكِّي، والبغوي، والقرطبي، وأبو حيان، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، ونسَبَه الماتُريديُّ لعامَّةِ أهلِ التَّأويلِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤١، ١٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٤٤). =

عندِ اللهِ تعالى[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ

= وممَّن قال بنحوِ ذلك من السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٢).

قال ابنُ كثير: (وقولُه: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: لولا الوحيُ مِن أينَ كنتُ أدري باختلافِ الملأِ الأعلَى؟ يعني: في شأنِ آدَمَ وامتناعِ إبليسَ مِن السُّجودِ له، ومُحاجَّتِه رَبَّه في تفضيلِه عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠).

وقال ابن عطيَّة: (وقالت فِرقةٌ: بل اختصامُهم في الكفَّاراتِ وغَفرِ الذُّنوبِ ونحوِه؛ فإنَّ العبدَ إذا فعَل حسنةً اختلَف الملائكةُ في قدرِ ثوابِه في ذلك حتَّى يَقضيَ اللهُ بما شاء، وورد في هذا حديثٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٣).

وقال السمعاني: (اختصامُ الملائكةِ هو كلامُهم في هذه الأعمالِ [مشْيِ الأقدامِ إلى الجماعاتِ، وإسباغِ الوُضوءِ على المكروهاتِ، والجلوسِ في المَساجِدِ بعدَ الصَّلاةِ...]، وأقدارِ المَثوبةِ فيها، وزيادةِ بعضِ الأعمالِ على البعضِ في الثَّوابِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥٤).

وذكر ابنُ كثيرٍ الحديثَ الواردَ في اختصامِ المَلأِ الأعلى في ((مسند أحمد)) (٢٢١٠٩) والترمذي (٣٢٣٥)، ثمَّ قال: (وليس هذا الاختِصامُ هو الاختصامَ المذكورَ في القرآنِ؛ فإنَّ هذا قد فُسِّر، وأمَّا الاختِصامُ الَّذي في القرآنِ فقد فُسِّرَ بعدَ هذا، وهو قولُه تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ...﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨١).

وقيل: اختِصامُ الملأِ الأعلى يَشملُ اختِصامَ الملائكةِ في شأنِ آدَمَ، وفي الدَّرَجاتِ العُلا، وغيرِها ممَّا يَختَصِمُ فيه الملائكةُ. وممَّن ذهب إلى هذا العُموم: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٠، ٢٣١). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٦، ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٤].

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قُرَيشٍ: ما يُوحي اللهُ إلَيَّ ما لم أكُنْ أعلَمُه مِن اختِصامِ الملَأِ الأعلى إلَّا لأنِّي نَذيرٌ لكم ظاهِرُ النِّذارةِ، أُنذِرُكم بما يُوحَى إلَيَّ إنذارًا واضِحًا لا لَبْسَ فيه[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ إثباتُ القَهْرِ التَّامِّ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾، وهذا يَستَلزِمُ للمُؤمِنِ به أن يَخافَ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ مِن قَهرِه، ويَستَلزِمُ أيضًا تقويةَ المؤمِنِ الواثِقِ باللهِ في قَهْرِ أعدائِه؛ لأنَّك إذا وَثِقتَ بأنَّ اللهَ هو القَهَّارُ، وأنَّ اللهَ معك لِكَونِك أتَيْتَ بالأوصافِ الَّتي تَستوجِبُ مَعيَّةَ اللهِ لك؛ فإنَّ هذا يُقَوِّيك على عَدُوِّك، وتَعلَمُ أنَّ هذا العَدُوَّ لا بُدَّ أنْ يكونَ مَقهورًا بقَهْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ هذا الَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٩).
قال الرازي: (يعني: أنا ما عرَفْتُ هذه المُخاصَمةَ إلَّا بالوَحيِ، وإنَّما أَوحى اللهُ إليَّ هذه القِصَّةَ؛ لأُنذِرَكم بها، ولِتَصيرَ هذه القِصَّةَ حامِلةً لكم على الإخلاصِ في الطَّاعةِ، والاحترازِ عن الجَهلِ والتَّقليدِ). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢٩).

يجبُ ويَستَحِقُّ أن يُعبَدَ دونَ مَن لا يَخلُقُ ولا يَرزُقُ، ولا يَضُرُّ ولا يَنفَعُ، ولا يَملِكُ مِن الأمرِ شَيئًا، وليس له قُوَّةُ الاقتِدارِ، ولا بيَدِه مَغفِرةُ الذُّنوبِ والأوزارِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ أنَّه متى عَظُمَ هذا النَّبأُ العَظيمُ عَظُمَ مَن يأخُذُ بهذا النَّبأِ؛ لأنَّه أساسٌ ومِنهاجٌ وطَريقٌ، فإذا عَظُمَ عَظُمَ الآخِذُ به؛ ولهذا كانت الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ عَظيمةً مَرموقةً مَهيبةً حينَ كانت آخِذةً به[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ أنَّه ينبغي في الكلامِ مُراعاةُ الحالِ؛ حيثُ إنَّ المقامَ هنا مَقامُ تهديدٍ؛ فلهذا اقتَصَرَ على الإنذارِ فقط؛ مع أنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[٣] [البقرة: ١١٩].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أنَّ الأسماءَ لا تُغَيِّرُ المُسَمَّياتِ؛ فإنَّ هناك مَن يُسَمَّى إلهًا، ولكِنَّه حَقًّا ليس بإلهٍ! ويَتفَرَّعُ عن هذه الفائدةِ أنَّنا لو سَمَّينا الشَّيءَ المُحَرَّمَ باسم حَلالٍ؛ فإنه لا يَتغَيَّرُ الحُكْمُ فيه؛ ولهذا جاء في الحديثِ: ((أنه يَشْرَبُ الخَمرَ أُناسٌ يُسَمُّونَها بغيرِ اسمِها!))[٤]، وهذا يدُلُّ على أنَّ الأسماءَ لا تُغَيِّرُ المُسَمَّياتِ والحقائِقَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٨).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٨٨)، وابن ماجه (٤٠٢٠)، وأحمد (٢٢٩٠٠) من حديث أبي مالكٍ الأشعَريِّ رضي الله عنه.

صحَّحه ابنُ حبَّان في ((صحيحه)) (٦٧٥٨)، وابنُ حجر في ((تغليق التعليق)) (٥/ ٢١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٦٨٨)، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٣٦٨٨)، وصحَّح إسنادَه ابنُ القيِّم في ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٣٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢٨).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ قَرَنَ سُبحانَه العِزَّةَ بالمَغفِرةِ؛ وإذا اجتمعتِ العِزَّةُ والمَغفِرةُ حَصَلَ مِن ذلك مَعنًى مُرَكَّبٌ مِن اجتماعِهما، وهو أكمَلُ ممَّا لو انفردَ أحدُهما، ولا شكَّ أنَّ غَلَبَةَ المغفرةِ على العِزَّةِ فيها نَقصٌ، وغَلَبَةَ العِزَّةِ على المغفرةِ فيها نَقصٌ، فإذا اجتَمَعا جميعًا صار هذا أكمَلَ، أي: أنَّ عِزَّتَه وغَلَبتَه وقَهرَه لا تخلو مِن المَغفِرةِ، بخلافِ مَن يَتَّصِفُ بالعِزَّةِ مِن المخلوقِين؛ فإنَّه في الغالبِ تكونُ عِزَّتُه تَغْلِبُ مَغفِرتَه، أو مَنِ اتَّصَفَ بالمغفرةِ، فتَجِدُ عندَه ضَعفًا وليس عِندَه عِزَّةٌ[1]. وأيضًا قرَن بيْنَهما سبحانَه لبيانِ أنَّ مغفرتَه صادرةٌ عن عزَّةٍ لا عن عجزٍ، كما حكَى تعالى عن عيسَى عليه السَّلامُ قولَه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

٤- قَولُه تعالى حكايةً عن نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ فيه نَفيُ عِلْمِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالغَيبِ، سَواءٌ كان مُستقبَلًا أم حاضِرًا ولكِنَّه غائِبٌ عنه، فالآيةُ فيها نَفيُ عِلمٍ بمَلَأٍ مَوجودٍ لكِنَّه غائِبٌ عنه، فإذا كان لا يَعلَمُ الغائبَ الموجودَ فالغائِبُ عنه المُنتَظَرُ مِن بابِ أَولَى[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ بيانُ عُلُوِّ مَرتبةِ الملائكةِ، كما أنَّ مَكانَهم كذلك عالٍ؛ لأنَّهم في السَّمَواتِ، كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾[3] [النجم: ٢٦].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: الملائكةُ لا يجوزُ أن يُقالَ: إنَّهم اختَصَموا بسَبَبِ قَولِهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فإنَّ المُخاصَمةَ مع اللهِ كُفرٌ؟

الجوابُ: أنَّه لا شَكَّ أنَّه جرَى هناك سُؤالٌ وجَوابٌ، وذلك يُشابِهُ المُخاصَمةَ والمُناظَرةَ؛ فلهذا السَّبَبِ حَسُنَ إطلاقُ لَفظِ المخاصَمةِ عليه[١]، وقيل غيرُ ذلك[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ أنَّه لا يُمكِنُ أنْ يكونَ في شريعةِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شَيءٌ مَجهولٌ أبدًا، بل كلُّ ما جاء به فهو بَيِّنٌ، لكنَّ الجَهلَ أمرٌ نِسبيٌّ؛ قد يكونُ المجهولُ شيئًا مُعَيَّنًا لبَعضِ النَّاسِ، وهو بَيِّنٌ مَعلومٌ لأُناسٍ آخَرينَ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ﴾ ردٌّ لقولِهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]؛ فإنَّ الإنذارَ ينافي السحرَ والكذِبَ. وقد يُقالُ: المرادُ إنَّما أنا رسولٌ منذرٌ لا ساحرٌ كذَّابٌ، وفيه مِن الحسنِ ما فيه؛ فإنَّ كلَّ واحدٍ مِن وصفَي الرسالةِ والإنذارِ يُنافي كلَّ واحدٍ مِن وصفَي السِّحرِ والكذبِ، لكنْ منافاةُ الرسالةِ للسحرِ أظهرُ[٤].

- وفي إبهامِ ﴿مُنذِرٞ﴾ تَفخيمُ أمْرِ ما يُنذِرُ به[٥].

- قوله: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ ذِكرُ صِفةِ (الواحِد) تأكيدٌ لِمَدلولِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣١٤).

﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾؛ إيماءً إلى رَدِّ إنكارِهم، وذِكرُ صِفةِ القَهَّارِ تَعريضٌ بتَهديدِ المُشرِكينَ بأنَّ اللهَ قادِرٌ على قَهرِهم، أيْ: غَلبِهم[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾

- في هذه الأوصافِ ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۞ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ تَقريرٌ لِلتَّوحيدِ، ووَعدٌ لِلمُوحِّدينَ، ووَعيدٌ لِلمُشرِكينَ، وتَثنيةُ ما يُشعِرُ بالوَعيدِ مِن وَصفَيِ القَهرِ والعِزَّةِ، وتَقديمُهما على وَصفِ المَغفِرةِ؛ لِتَوفيةِ مَقامِ الإنذارِ حَقَّه[٢].

- وفي قَولِه: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ تَصريحٌ بعُمومِ رُبوبيَّتِه تعالى، وأنَّه لا شَريكَ له في شَيءٍ منها[٣].

- ووَصفُ العَزيزِ في قَولِه: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ تَمهيدٌ لِلوَصفِ بالغَفَّارِ، أيْ: الغَفَّارُ عن عِزَّةٍ ومَقدِرةٍ، لا عن عَجزٍ ومَلَقٍ، أو مُراعاةِ جانِبٍ مُساوٍ، والمَقصودُ مِن وَصفِ الغَفَّارِ هنا استِدعاءُ المُشرِكينَ إلى التَّوحيدِ بَعدَ تَهديدِهم بمُفادِ وَصفِ القَهَّارِ؛ لِكَيْ لا يَيئسوا مِن قَبولِ التَّوبةِ بسَبَبِ كَثرةِ ما سِيقَ إليهم مِنَ الوَعيدِ؛ جَريًا على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ، والعكس[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ فيه إعادةُ الأمْرِ بالقَولِ هنا مُستأنَفًا، والعُدولُ عنِ الإتيانِ بحَرفٍ يَعطِفُ المَقولَ -أعني: ﴿هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾- على المَقولِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السَّابِقِ -أعني: ﴿أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ [ص: ٦٥]-؛ عُدولٌ يُشعِرُ بالاهتِمامِ بالمَقولِ هنا؛ كيْ لا يُؤتَى به تابعًا لِمَقولٍ آخَرَ، فيَضعُفَ تَصدِّي السَّامِعينَ لِوَعيِه، ولِلإيذانِ بأنَّ المَقولَ أمْرٌ جَليلٌ له شَأنٌ خَطيرٌ، لا بُدَّ مِنَ الاعتِناءِ به أمْرًا وائْتِمارًا[١].

- وأيضًا جُملةُ ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ...﴾ يَجوزُ أنْ تَكونَ في مَوقِعِ الاستِئنافِ الابتِدائيِّ؛ انتِقالًا مِن غَرَضِ وَصفِ أحوالِ أهلِ المَحشَرِ إلى غَرَضِ قِصَّةِ خَلقِ آدَمَ، وشَقاءِ الشَّيطانِ، فيَكونَ ضَميرُ ﴿هُوَ﴾ ضَميرَ شَأنٍ يُفَسِّرُه ما بَعْدَه، وما يُبَيِّنُ به ما بعْدَه مِن قَولِه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، جُعِلَ هذا كالمُقدِّمةِ لِقِصَّةِ خَلقِ آدَمَ؛ تَشويقًا لِتَلقِّيها، فيَكونَ المُرادُ بالنَّبَأِ نَبَأَ خَلْقِ آدَمَ وما جَرى بعْدَه، ويَكونَ ضَميرُ ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ عائِدًا إلى (المَلأِ الأعلى)؛ لِأنَّ المَلَأَ جَماعةٌ، ويُرادُ بالاختِصامِ -على قولٍ- الاختِلافُ الَّذي جَرى بيْنَ الشَّيطانِ وبيْنَ مَن بَلَّغَ إليه مِنَ المَلائِكةِ أمْرَ اللهِ بالسُّجودِ لِآدَمَ، فالمَلائِكةُ همُ المَلأُ الأعلى، وكان الشَّيطانُ بَيْنَهم؛ فعُدَّ منهم قبْلَ أنْ يُطرَدَ مِنَ السَّماءِ.

ويَجوزُ أنْ تَكونَ الجملةُ تَذييلًا لِلَّذي سَبَقَ مِن قَولِه: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٤٩] إلى هنا، تَذييلًا يُشعِرُ بالتَّنويهِ به، وبطَلَبِ الإقبالِ على التَّدبُّرِ فيه، والاعتِبارِ به، وعليه يَكونُ ضَميرُ ﴿هُوَ﴾ ضَميرًا عائِدًا إلى الكَلامِ السَّابِقِ على تأويلِه بالمَذكورِ؛ فلذلك أُتيَ لِتَعريفِه بضَميرِ المُفرَدِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ استِئنافٌ لِلَفتِ انتِباهِهم، ولِلنَّعيِ عليهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٥، ٢٩٦).

سُوءَ صَنيعِهم بالنَّبَأِ العَظيمِ، وتَوبيخٌ وتَحميقٌ لِلمُعرِضينَ عن النَّبَأِ العَظيمِ؛ ببَيانِ أنَّهم لا يَقدُرونَ قَدْرَه الجَليلَ، حيثُ يُعرِضونَ عنه مع عَظَمَتِه، وكَونِه مُوجِبًا لِلإقبالِ الكُلِّيِّ عليه، وتَلَقِّيه بحُسنِ القَبولِ(١).

- وجيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ في قَولِه: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾؛ لإفادةِ إثباتِ إعراضِهم، وتَمكُّنِه منهم، فأمَّا إعراضُهم عنِ النَّبَأِ بمَعناه الأوَّلِ -خبَرُ الحشْرِ وما أُعِدَّ فيه للمُتَّقينَ مِن حُسنِ مآبٍ، وللطَّاغينَ مِن شرِّ مآبٍ- فظاهِرٌ؛ لأنَّه طالما أنذَرَهم بعَذابِ الآخِرةِ ووَصَفه، فلم يَكتَرِثوا بذلك، ولا ارعَوَوْا عن كُفرِهم، وأمَّا إعراضُهم عن النَّبَأِ بمَعناه الثَّاني -نبَأُ خَلْقِ آدَمَ وما جَرى بعدَه- فتأويلُ تَمكُّنِه مِن نُفوسِهم عَدَمُ استِعدادِهم لِلاعتِبارِ بمَغزاهُ مِن تَحقُّقِ أنَّ ما هم فيه هو وَسوَسةٌ مِنَ الشَّيطانِ؛ قَصدًا لِلشَّرِّ بهم(٢).

- ولعلَّ هذه الآيةَ مِن هذه السُّورةِ هي أوَّلُ ما نزَلَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن ذِكرِ قصَّةِ خلْقِ آدَمَ، وسُجودِ الملائكةِ، وإباءِ إبليسَ مِن السُّجودِ؛ فإنَّ هذه السُّورةَ في تَرتيبِ نُزولِ سُوَرِ القُرآنِ -إنْ ثبَت- لا يُوجَدُ ذِكرُ قِصَّةِ آدَمَ في سُورةٍ نَزَلتْ قَبْلَها؛ فذلك وَجهُ التَّوطئةِ لِلقِصَّةِ بأساليبِ العِنايةِ والاهتِمامِ ممَّا خَلا غَيرُها عن مِثلِه، وبأنَّها نَبَأٌ كانوا مُعرِضينَ عنه(٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِتَحقيقِ أنَّه نَبَأٌ عَظيمٌ واردٌ مِن جِهتِه تَعالى بذِكرِ نَبَأٍ مِن أنبائِه على التَّفصيلِ مِن غَيرِ سابِقةِ مَعرِفةٍ به، ولا مُباشَرةِ سَبَبٍ مِن أسبابِها المُعتادةِ؛ فإنَّ ذلك حُجَّةٌ بَيِّنةٌ دالَّةٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٠، ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ ذلك بطَريقِ الوَحيِ مِن عِندِ اللهِ تَعالى، وأنَّ سائِرَ أنبائِه أيضًا كذلك[١]. أو اعتِراضُ إبلاغٍ في التَّوبيخِ على الإعراضِ عن النَّبأِ العَظيم، وحُجَّةٌ على تَحقُّقِ النَّبأِ بسَببِ أنَّه مُوحًى به مِنَ اللهِ، وليس لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سَبيلٌ إلى عِلْمِه لولا وَحيُ اللهِ إليه به. وذِكرُ فِعلِ (كان) دالٌّ على أنَّ المَنفيَّ عِلمُه بذلك فيما مَضى مِنَ الزَّمَنِ قَبْلَ أنْ يُوحَى إليه بذلك[٢].

- والباءُ في قَولِه: ﴿بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ﴾؛ لِتَعديةِ ﴿عِلۡمِ﴾ لِتَضمينِه مَعنى الإحاطةِ، وهو استِعمالٌ شائعٌ في تَعديةِ العِلْمِ.

ويَجوزُ على مَعنى أنَّ النَّبَأَ خلْقُ آدَمَ وما جَرى بعْدَه أنْ تَكونَ الباءُ ظَرفيَّةً، أيْ: ما كان لي عِلْمٌ كائِنٌ في المَلَأِ الأعلى، أيْ: ما كُنتُ حاضِرًا في المَلَأِ الأعلى؛ فهي كالباءِ في قَولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾[٣] [القصص: ٤٤].

- والمَلَأُ: الجَماعةُ ذاتُ الشَّأنِ، ووَصَفَه بالأعْلى في قولِه: ﴿بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ﴾؛ لِأنَّ المُرادَ مَلَأُ السَّمَواتِ، وهمُ المَلائِكةُ[٤].

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ ﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾ في مَوضِعِ المُضيِّ؛ لِقَصدِ استِحضارِ الحالةِ[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ اعتِراضٌ وُسِّطَ بيْنَ إجمالِ اختِصامِهم وتَفصيلِه؛ تَقريرًا لِثُبوتِ عِلْمِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتَعيينًا لِسَبَبِه،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٩٨).

إلَّا أنَّ بَيانَ انتِفائِه فيما سَبَقَ لَمَّا كان مُنبئًا عن ثُبوتِه الآنَ، ومِنَ البَيِّنِ عَدَمُ مُلابَسَتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بشَيءٍ مِن مَباديه المَعهودةِ؛ تَعيَّنَ أنَّه ليس إلَّا بطَريقِ الوَحيِ حَتمًا؛ فجَعَل ذلك أمْرًا مُسلَّمَ الثُّبوتِ، غَنيًّا عن الإخبارِ به قَصْدًا، وجَعَل مَصَبَّ الفائِدةِ والمَقصودَ إخبارَ ما هو داعٍ إلى الوَحيِ، ومُصحِّحٌ له؛ تَحقيقًا لِقَولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ [ص: ٦٥]، في ضِمنِ تَحقيقِ عِلْمِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بقِصَّةِ المَلَأِ الأعلَى[(١)].

- جملةُ ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾، أي: ما عَلِمتُ بذلك النَّبأِ إلَّا بوَحيٍ مِنَ اللهِ، وإنَّما أَوْحى اللهُ إلَيَّ ذلك لِأكونَ نَذيرًا مُبينًا.

- وهذه الجُملةُ قيل: رُكِّبَتْ مِن طَريقَينِ للقَصرِ: أحَدُهما طريقُ النَّفيِ والاستِثناءِ، والآخَرُ طريقُ (أنَّما) المَفتوحةِ الهمزةِ، المفيدةِ للحَصرِ، والَّذي يقتَضيه مقامُ الكلامِ هنا أنَّ المعنى للتَّعليلِ، والتَّقديرُ: إلَّا لأنَّما أنا نذيرٌ، أي: إلَّا لعِلَّةِ الإنذارِ، أي: ما أُوحيَ إلَيَّ نبأُ الملأِ الأعلى إلَّا لأُنذِرَكم به، أو معناه: ما يُوحى إلَيَّ إلَّا للإنذارِ، وليس لمجرَّدِ القَصَصِ، وهذه مُهمَّةُ الرُّسُلِ، وليس لهم أن يَدَّعُوا أنَّهم أكثَرُ مِن رُسُلٍ مُنذِرينَ، وإنْ شِئتَ جعَلْتَ المعنى: ما يُوحَى إلَيَّ إلَّا لأنِّي نذيرٌ مُبينٌ؛ فبان أنَّ سَبَبَ الوَحيِ إليه أنَّه نذيرٌ مُبينٌ للنَّاسِ[(٢)].

- وقيل: يَجوزُ أنْ يَرتفِعَ قَولُه: ﴿أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ على معنَى: ما يُوحَى إلَيَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤١١، ٤١٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٩).

إلَّا هذا، وهو أنْ أُنذِرَ وأُبَلِّغَ ولا أُفَرِّطَ في ذلك، أي: ما أُومَرُ إلَّا بهذا الأمرِ وحْدَه، وليس إلَيَّ غيْرُ ذلك؛ مِن علمِ ما يدورُ في الملأِ الأعلَى، ويَستَلزِمُ هذانِ الحَصرانِ حَصرًا ثالِثًا، وهو: أنَّ إخبارَ القُرآنِ وَحيٌ مِنَ اللهِ، وليس أساطيرَ الأوَّلينَ كما زَعَموا[1].

- وقيل: وُرودَ هذَينِ الحَصرَينِ في الآيةِ كأنَّه صلَواتُ اللهِ عليه لم يُوحَ إليه إلَّا لاختِصاصِ النِّذارةِ، أو لم يؤمَرْ إلَّا باختِصاصِ الإنذارِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ مُشرِكونَ، وكانَ الَّذي يُنكِرونَ عليه صلواتُ اللهِ عليه الإنذارَ والدَّعوةَ إلى التَّوحيدِ، كما مضَى مِن مُفتَتَحِ السُّورةِ إلى أنْ بلَغَ إلى قَولِه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾، فما أُوثِرَ اختِصاصُ الإنذارِ إلَّا لاختِصاصٍ مِنَ المُنذَرينَ، وبذا أمَرَهم، وكانَ الواجبُ قَلْعَ الشِّركِ، وإزالةَ ما يَنبَغي إزالتُه، فإذا أُزيلَ ذلك وبُدِّلَ بالإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ جازَ أنْ يُبَشَّروا، كما قال تعالى: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢]، كأنَّه قال صلَواتُ اللهِ عليه: ما يوحَى الآنَ في شأنِكم إلَّا لِأنْ أُنذِرَكم، وأُوضحَ لكم حقيقةَ الأمرِ بما أوحَى اللهُ إلَيَّ[2].

- وقيل: هذه الحصورُ: اثنانِ منها إضافيَّانِ[3]، وهما قصرُ ما يُوحى إليه على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣١٥، ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٩- ٣٠٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨١).

(٣) القصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ =

علَّةِ النِّذارةِ، وقصرُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم على صِفةِ النِّذارةِ، وكِلاهما قلبٌ لاعتقادِهم أنَّهم يَسمَعون القرآنَ لِيَتَّخِذوه لَعِبًا، واعتِقادِهم أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم ساحرٌ أو مجنونٌ، وعُلِم مِن هذا أنَّ ذِكرَ نَبأِ خَلْقِ آدَمَ قُصِد به الإنذارُ مِن كَيدِ الشَّيطانِ[١].

- قوله: ﴿يُوحَىٰٓ﴾ بناه للمَفعولِ؛ لأنَّ ذلك كافٍ في تَنبيهِهم على مَوضعِ الإشارةِ في أنَّ دعواه إنَّما هي النُبُوَّةُ لا الإلهيَّةُ[٢].

- وقُرِئَ ﴿إِنَّمَا﴾ بالكَسرِ على الحِكايةِ[٣]، وعلى تَقديرِ القَولِ، أيْ: ما يُوحَى إلَّا هذه الجُملةُ، والمعنى: أي: قَصْري على النِّذارةِ لا أنِّي أُنجِزُ ما يَتوعَّدُ به اللهُ؛ فـ﴿أَنَّمَآ﴾ مفعولُ ﴿يُوحَىٰٓ﴾ القائِمُ مقامَ الفاعِلِ في القراءتَينِ، وإن اختَلَف التَّوجيهانِ؛ فالتَّقديرُ على قراءةِ الجَماعةِ بالفَتحِ: إلَّا الإنذارُ أو إلَّا كَوني نَذيرًا، وعلى قراءةِ الكَسرِ: إلَّا هذا القَولُ، وهو أنِّي أقولُ لكم كذا[٤].

= شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن ابن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥). ويُنظر ما تقدم (ص: ٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٧).

(٣) قرأها بكسرِ الهمزةِ أبو جعفرٍ، وقرأها الباقونَ بالفتحِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٠).

الآيات (٧١-٨٥)

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ
سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ
يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ
خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ
ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ
وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَقَعُواْ﴾: أي: فَخِرُّوا له، والوقوعُ: يدُلُّ على سُقوطِ شيءٍ[(١)].

﴿إِبْلِيسَ﴾: هو أبو الشَّياطينِ، وأصْلُ الإبلاسِ: اليأسُ، والحُزنُ المعترِضُ مِن شِدَّةِ اليأسِ، ومِنه اشتُقَّ إبليسُ. وقيل: هو اسمٌ أعجميٌّ[(٢)].

﴿رَجِيمٌ﴾: أي: مَطرودٌ مِن رحمةِ اللهِ تعالَى، وأصلُ الرَّجمِ: الرَّميُ بالحِجارةِ، ثم تُؤخَذُ منه بقيَّةُ المعاني[(٣)].

﴿فَأَنظِرْنِيٓ﴾: أي: أخِّرْني، وأصْلُ (نظر): يدُلُّ على تأمُّلِ الشَّيءِ ومُعايَنتِه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((المقاييس)) لابن فارس (٦/ ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩).
و(قعوا) فعلُ أمرٍ، والواوُ فاعلٌ. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، =

﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾: أي: لأُضِلَّنَّهم، ولأستَدْعِيَنَّهم إلى المعاصي، ولأُزَيِّنَنَّ لهم، والغَيُّ: الجَهلُ والانهِماكُ في الباطِلِ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمْرِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

﴿فَٱلْحَقُّ﴾ مُبتدأٌ مَرفوعٌ، وخبَرُه محذوفٌ تَقديرُه (منِّي) أو (قَسَمي). أو الخبَرُ جملةُ القَسَمِ وجوابُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾، ويجوزُ أن يكونَ (الحقُّ) خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه (أنا)، أو (قَولي).

﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ (الواو) اعتراضيَّةٌ، (الحقَّ) مَفعولٌ به مُقدَّمٌ مَنصوبٌ. وجُملةُ ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ اعتراضيَّةٌ، لا محلَّ لها مِن الإعرابِ.

وجُملةُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جوابُ قَسَمٍ مُقدَّرٍ لا مَحلَّ لها مِن الإعرابِ، وجملةُ القَسَمِ المقدَّرةِ (أُقْسِمُ بالحَقِّ) معَ الجوابِ في مَحلِّ رَفْعٍ، خبَرُ المبتدأِ، أو استئنافيةٌ لا محَلَّ لها[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبرُ تعالَى عن قولِه للمَلائِكةِ، ومعهم إبليسُ: إنِّي سأخلُقُ بَشَرًا مِن طِينٍ،

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١، ١٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٠٠)، ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام (ص: ٥١٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٤٦).

فإذا اكتمَلَ خَلقُ آدَمَ، ونَفخْتُ فيه الرُّوحَ، فخِرُّوا له ساجِدينَ تَحيَّةً وتَكريمًا؛ فامتثَلَ الملائِكةُ كُلُّهم أمْرَ اللهِ، فسَجَدوا لآدَمَ إلَّا إبليسَ، تكبَّرَ عن السُّجودِ، وكان مِنَ الكافِرينَ.

قال اللهُ تعالَى: يا إبليسُ، ما منَعَك مِن السُّجودِ لِآدَمَ الَّذي خلَقْتُه بيَدَيَّ؟ أتكبَّرْتَ عن السُّجودِ له بغَيرِ حَقٍّ، أم كنتَ ممَّن علَا على غيرِه؟! فقال إبليسُ: أنا خيرٌ مِن آدَمَ؛ خلَقْتَني من نارٍ، وخلَقْتَه مِن طِينٍ!

فقال اللهُ تعالَى لإبليسَ: فاخرُجْ من الجنَّةِ؛ فإنَّك مَرجومٌ، وإنَّ عليك لَعنتي إلى يومِ القِيامةِ.

قال إبليسُ: رَبِّ فأخِّرْ أجَلي ولا تُعَذِّبْني إلى يومِ بَعثِ الخَلائِقِ.

فقال اللهُ له: فإنَّك مِن المُؤخَّرينَ إلى وَقتِ النَّفخةِ الأُولى؛ يومِ يموتُ الخلائِقُ أجمَعون.

فقال إبليسُ: فبِعزَّتِك -يا رَبِّ- لأُضِلَّنَّ آدَمَ وذُرِّيَّتَه أجمعينَ، إلَّا عِبادَك الذين أخلَصْتَهم لك وَحدَك، وعَصَمْتَهم مِنِّي.

قال اللهُ تعالى: فالحقُّ، وأنا أقولُ الحَقَّ، لأملأنَّ جهنَّمَ منك وممَّن تَبِعَك مِن بَني آدَمَ أجمَعينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كانتْ قُرَيشٌ خالَفوا الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ بسَبَبِ الحَسَدِ والكِبرِ؛ ذكَرَ حالَ إبليسَ؛ حيثُ خالَفَ أمْرَ اللهِ بسَبَبِ الحَسَدِ والكِبرِ، وما آلَ إليه

مِنَ اللَّعنةِ والطَّردِ مِن رَحمةِ اللهِ؛ لِيَزدجِرَ عن ذلك مَن فيه شَيءٌ مِنهما[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه خُصومةَ الملائكةِ إجمالًا فيما تقدَّمَ؛ ذكَرَها هنا تَفصيلًا، فقال[٢]:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ٧١﴾.

أي: ما كان ليَ مِن عِلمٍ باختِصامِ الملأِ الأعْلَى حِينَ قال اللهُ تعالى للمَلائِكةِ: إنِّي سأخْلُقُ بَشَرًا[٣] مِن طِينٍ، هو آدَمُ عليه السَّلامُ[٤].

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾.

أي: فإذا اكتَمَل خَلْقُ آدَمَ، وصار جَسَدًا تامًّا مُتقَنًا، ونَفخْتُ فيه الرُّوحَ التي هي مِن خَلقِي، فخِرُّوا على الأرضِ ساجِدينَ لآدَمَ؛ تَحيَّةً له وتَكريمًا وتَعظيمًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠).

(٣) قال الشوكانيُّ: (﴿بَشَرًا﴾: أي: جِسمًا مِن جِنسِ البَشرِ مأخوذٌ مِن مُباشرتِه للأرضِ، أو مِن كونِه باديَ البشرةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٤-٢٣٦).

قال النيسابوريُّ: (لا خِلافَ في أنَّ الإضافةَ في قَولِه تعالَى: ﴿رُّوحِي﴾ للتَّشريفِ والتكريمِ، مِثلُ: ناقةِ اللهِ، وبيتِ اللهِ). ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢٢٠). ويُنظر: ((الرُّوح)) لابن القيِّم (ص: ١٥٤ - ١٥٦).

وقال الواحديُّ: (قال الكلبي: فخِرُّوا له ساجِدينَ سَجدةَ تحيَّةٍ، ولم تكُنْ سَجدةَ طاعةٍ، ونحوَ هذا قال جميعُ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٢/ ٦٠١).

وقال ابنُ العربيِّ: (اتَّفَقت الأمَّةُ على أنَّ السُّجودَ لآدمَ عليه السلامُ لم يكُنْ سجودَ عِبادةٍ). =

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

أي: فلمَّا خلَقَ اللهُ آدَمَ ونفَخَ فيه الرُّوحَ، سَجَد كلُّ الملائِكةِ لآدَمَ؛ امتِثالًا لأمْرِ اللهِ تعالَى[١].

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ ﴾.

أي: إلَّا[٢] إبليسَ تَكبَّرَ عن السُّجودِ لآدَمَ؛ تعَظُّمًا وأنَفةً[٣].

كما قال تعالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

أي: وكان إبليسُ مِن الكافِرينَ[٤].

= ((أحكام القرآن)) (١/ ٢٧)، ونقَل الرازي أيضًا الإجماعَ على ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

(٢) قال الشوكانيُّ: (الاستِثناءُ مُتَّصِلٌ على تَقديرِ أنَّه كان متَّصِفًا بصفاتِ الملائكةِ، داخِلًا في عدادِهم، فغُلِّبوا عليه. أو مُنقَطِعٌ على ما هو الظَّاهِرُ مِن عدَمِ دُخولِه فيهم، أي: لكِنْ إبليسُ استكبَرَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠١).

قال الشوكاني: (كان استكبارُه استكبارَ كُفرٍ، فلذلك كان مِن الكافرينَ أي: صار مِنهم =

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ﴾.

أي: قال اللهُ: يا إبليسُ، أيُّ شَيءٍ مَنَعَك من السُّجودِ لِلَّذي كرَّمتُه بخَلْقِه بيَدَيَّ[1]؟

= بمُخالَفَتِه لأمرِ اللَّهِ واستكبارِه عن طاعَتِه، أوْ كان مِن الكافرينَ في عِلْمِ اللَّهِ سُبحانَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠).

ممن ذهَب إلى أنَّ المرادَ: كان قدْ سبَق في عِلمِ اللهِ أنَّه مِن الكافِرينَ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٥).

وممن ذهب إلى أن المعنى: صارَ مِن الكافِرينَ بإباء الأمرِ: النسفي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٤).

قال ابن عاشور: (فعلُ «كانَ» الَّذي وَقَع في هذا الكلامِ حِكايةً لكفرِه الواقعِ في ذلك الوَقتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠١)، ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٤).

وقال الزمخشري: (﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أُريدَ وُجودُ كُفرِه ذلك الوَقتَ، وإن لم يكُنْ قَبْلَه كافرًا، لأنَّ «كانَ» مُطلَقٌ في جِنسِ الأوقاتِ الماضيةِ؛ فهو صالِحٌ لأيِّها شِئتَ، ويجوزُ أن يرادَ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في الأزمِنةِ الماضيةِ في عِلمِ اللهِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٥).

وقال ابنُ كثير: (امتَثَلَ الملائِكةُ كُلُّهم ذلك سوى إبليسَ، ولم يكنْ منهم جِنسًا، كان مِن الجِنِّ فخانه طَبعُه وجِبِلَّتُه أحوَجَ ما كان إليه، فاستَنكفَ عن السُّجودِ لآدَمَ، وخاصَمَ رَبَّه عزَّ وجلَّ فيه!). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٥)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

قال أبو الحسن الأشعريُّ: (أجمَعوا على أنَّه عزَّ وجَلَّ يَسمَعُ ويَرى، وأنَّ له تعالى يَدينِ مَبسوطتَينِ... وأنَّ يَديهِ تعالى غيرُ نِعمتِه). ((رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب)) (ص: ١٢٧).

وقال البغويُّ: (كلُّ ما جاء مِن هذا القَبيلِ في الكِتابِ أو السُّنَّةِ -كاليَدِ، والإصبعِ، والعينِ، والمجيءِ، والإتيانِ- فالإيمانُ بها فَرضٌ، والامتِناعُ عن الخَوضِ فيها واجِبٌ؛ فالمُهتدي مَن سلَك فيها طريقَ التَّسليمِ، والخائِضُ فيها زائِغٌ، والمنكِرُ مُعَطِّلٌ، والمكَيِّفُ مُشَبِّهٌ). ((شرح =

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾.

أي: هل تَعظَّمتَ عن السُّجودِ لآدمَ، وحدَث لك الاستِكبارُ الآنَ، فتركتَ السُّجودَ له، أمْ كُنتَ كذلك مِن قَبلُ مِن المتكبِّرينَ العالِينَ، ممَّنْ لا يَليقُ أنْ تُكلَّفَ مِثلَ هذا؛ لعلوِّ مكانِك[1].

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: قال إبليسُ مُجيبًا ربَّه: أنا خيرٌ مِن آدَمَ؛ لأنَّك خلَقْتَني مِن نارٍ، وخلَقْتَ آدَمَ مِن طِينٍ؛ فلَمْ أسجُدْ له[2].

= السنة)) (١٥/ ٢٥٧). ويُنظر: ((الإبانة عن أصول الديانة)) للأشعري (ص: ١٢٥ - ١٢٨)، ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)) للَّالَكائي (٣/ ٤٥٧)، ((الأسماء والصفات)) للبيهقي (٢/ ١١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٣٦٢ - ٣٧٠).

(١) ممَّن اختارَ المعنى المذكورَ في الجُملةِ: ابنُ جَرير، وابنُ عطيَّة، والرازي، والثعالبي، وابن جُزَي، وابن عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٩).

والاستِفهامُ هنا على وَجهِ التوبيخِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٣).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: أستكبرْتَ وتعظَّمْتَ بنفْسِك عن السُّجودِ لآدمَ، أمْ كُنتَ مِن القومِ الذين يَتكبَّرون، فتكبَّرتَ عن السُّجودِ؛ لكونِك منهم؟ ممَّن اختاره في الجُملةِ: السمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والخازن، والعليمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٦).

قال البقاعيُّ: (﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ أي: طلَبْتَ أن تكونَ أعلَى منه وأنت تعلَمُ أنَّك دونَه؟! فأنتَ بذلك ظالِمٌ، فكُنتَ مِن المُستكبرينَ العَريقينَ في وَصْفِ الظُّلم؛ فإنَّ مَن اجترَأ على أدناه أوشَكَ أن يَصِلَ إلى أعلاه. ﴿أَمْ كُنتَ﴾ أي: ممَّا لك مِن الجبِلَّةِ الرَّاسِخةِ ﴿مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أي: الكُبَراءِ المُستَحقِّينَ للكِبرِ، وأنا لا أعلَمُ ذلك فنقَصْتُك مِن مَنزِلتِك، فكنتُ جائرًا في أمري؟!). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٥، ١٤٦)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٢٨٨)، ((تفسير =

كما قالَ تعالَى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: فاخرُجْ مِن الجَنَّةِ(١)؛ فإنَّك مَرجومٌ(٢).

= ابن كثير)) (٧/ ٨١، ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

(١) ممَّن اختار القولَ المذكورَ؛ أنَّ المرادَ: الخروجُ مِن الجنَّةِ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والزمخشريُّ، والقرطبيُّ، والخازن، والبقاعيُّ، والعُلَيميُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥).

وقيل: المرادُ: الخروجُ مِنَ السَّماءِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابن أبي زمنين، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٠).

وقال السعديُّ: (مِن السَّماءِ والمَحلِّ الكريم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

وقيل: ﴿مِنْهَا﴾: أي: مِن زُمرةِ الملائكةِ وجُملتِهم. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

قيل: المرادُ بـ﴿رَجِيمٌ﴾: أي: مَلعونٌ، وممَّن اختارَ هذا القولَ: مقاتلُ بن سليمان، والزَّجَّاج، ومكي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٨٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٨٨).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلفِ: قَتادة، والضَّحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٦).

وقال ابنُ جَرير: (مرجومٌ بالقولِ، مشتومٌ ملعونٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٦)، ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٣).

وقيل: المرادُ: مطرودٌ. وممَّن ذهَب إلى ذلك: البغوي، والزمخشري، والنَّسَفي، والخازن، وجلال الدِّين المَحلي، والعُلَيمي، وابن عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٨)، =

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

أي: وإنَّ طَرْدي وإبعادي لك مِن رَحمتي: مُستَمِرٌّ وحاقٌّ عليك إلى يَومِ القِيامةِ؛ إذ يُجازَى العِبادُ، ويُلاقِي فيه إبليسُ جَزاءَه[١].

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

أي: قال إبليسُ: رَبِّ فأخِّرْ أجَلي وأمْهِلْني ولا تُعَذِّبْني إلى اليَومِ الذي تَبعَثُ فيه خَلْقَك[٢].

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: فإنَّك مِنَ المؤخَّرينَ المُمهَلينَ[٣].

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾.

= ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٠).

وقيل: المراد: مَرجومٌ بالكواكِبِ والشُّهُبِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩).

واختارَ الشوكانيُّ أنَّ المرادَ: مَرجومٌ بالكواكبِ، مَطرودٌ مِن كلِّ خيرٍ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٤-٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

قال القرطبي: (أراد الملعونُ ألَّا يموتَ، فلم يُجَبْ إلى ذلك، وأُخِّرَ إلى وَقتٍ مَعلومٍ، وهو يومٌ يموتُ الخَلقُ فيه، فأُخِّرَ إليه؛ تهاونًا به). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

أي: إلى اليَومِ الذي يَموتُ فيه الخلائِقُ، وهو وَقتُ النَّفخةِ الأُولى[(١)].

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

أي: قال إبليسُ: فبعِزَّتِك[(٢)] لأُضِلَّنَّ آدَمَ وذُرِّيَّتَه أجمَعينَ[(٣)].

كما قال تعالَى حكايةً عن إبليسَ: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفَتحِ اللَّامِ: اسمُ مَفعولٍ مِن أخلَصَ، بمعنى: أنَّ اللهَ تعالَى أخلَصَهم لعِبادتِه، واختارَهم، فصاروا مُخلَصينَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٦-٤٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤١).

(٢) الباءُ في قولِه ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ للقَسَمِ، ويحتَمِلُ أن تكونَ للاستِعانةِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤١-٢٤٢).
ممَّن اختارَ أنَّ هذا قَسَمٌ بعِزَّةِ الله تعالى: الزمخشريُّ، وابنُ عطية، والقُرطبيُّ، وابن جُزي، وأبو السُّعود، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤١-٢٤٢).

(٤) قرأ بها نافع، وعاصم، وحمزة، والكِسائي، وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).=

٢- قِراءةُ: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكَسرِ اللَّام: اسمُ فاعِلٍ مِن أخلَصَ، بمعنى: أنَّهم أخلَصوا للهِ دِينَهم، وأعمالَهم مِنَ الشِّركِ والرِّياءِ[1].

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: إلَّا عِبادَكَ الذين أخلَصْتَهم لعِبادتِك، وعصَمْتَهم مِنِّي، فلا أستطيعُ إغواءَهم[2].

كما قالَ الله تباركَ وتعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ بالرَّفعِ. قيل: بمعنى: فاللهُ الحَقُّ، أو فأنا الحَقُّ، أو فهذا الحَقُّ، أو فالحَقُّ منِّي، أو فوَعدُ اللهِ هو الحَقُّ، أو فالحَقُّ قَسَمي[3].

= ويُنظرُ لِمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((الحُجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حُجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٩).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٧).

(٣) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٦/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٦).

٢- قِراءةُ: ﴿فَالْحَقَّ﴾ بالنَّصب. قيل: بمعنَى: حقًّا لأملأنَّ جَهنَّمَ. وقيل: التَّقديرُ: فيُحِقُّ اللهُ الحَقَّ. وقيل: نُصِبَ على الإغراءِ، أي: فاتَّبِعوا الحَقَّ، أو الْزَموا الحَقَّ(١).

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾.

أي: قال اللهُ: فالحقُّ(٢)، وأنا أقولُ الحَقَّ(٣).

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٦/ ٨٧، ٨٨).

(٢) كلمةُ ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ مرفوعةٌ؛ إمَّا لأنَّها خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، تقديره: أنا الحقُّ، أو: قولي الحقُّ، أو تكونُ مبتدأً لخبرٍ محذوفٍ تقديرُه فالحقُّ منِّي، أو يكونُ الخبرُ ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٢).

وممَّن اختار أنَّ التقدير: فأنا الحَقُّ: الزجَّاج، والسمعانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥٥)

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٩).

وممَّن اختار أنَّ التقديرَ: فالحقُّ منِّي: البغوي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٨).

وممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ مبتدأٌ ضُمِّن معنى القسَمِ، وجوابُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ...﴾، ويكونُ في هذا الجوابِ كفايةٌ عن خَبرِ المبتدأِ: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٣).

وذكر البقاعيُّ -بناءً على قِراءةِ الرفعِ هذه- أنَّ قولَه: (﴿فَٱلْحَقُّ﴾ يكونُ هو المقسَمَ به، أي: فالحقُّ قَسَمي، والجوابُ ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ وما بينَهما اعتراضٌ مبيِّنٌ أنَّ هذا ممَّا لا يُخلَفُ أصلًا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٧).

قال القرطبي: (ولا اختلافَ في الثَّاني [أي قوله: ﴿وَٱلْحَقَّ﴾] في أنَّه منصوبٌ بـ ﴿أَقُولُ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٠).

كما قال تعالَى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢].

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

أي: لَأملأنَّ جَهنَّمَ مِن جِنسِك مِن الشَّياطينِ[(١)] -يا إبليسُ- وممَّن تَبِعَك مِن بَني آدَمَ أجمَعينَ[(٢)].

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ

---

(١) ممَّن قال بالمعنى المذكورِ: الزمخشري، والرازي، والرَّسْعني، والبيضاوي، والنَّسَفي، والبقاعي، والشوكاني، وابن عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٧-٤٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٣).

ونحوُ المعنى المذكورِ قولُ مَن قال: إنَّ معنى ﴿مِنكَ﴾ أي: مِن نفْسِك ومِن ذُرِّيتِك- وممَّن قال به: مكي، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والعُليمي. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٩١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥).

فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۞ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ المقصودُ مِن ذِكرِ هذه القِصَّةِ: تَنبيهُ بَني آدَمَ في هذا المقامِ علَى شَرفِ أبيهم آدَمَ، وتَبيينُ عداوةِ عدوِّهم إبليسَ لهم، وما هو مُنطوٍ عليه مِنَ الحسَدِ لهم ولأبيهم آدَمَ؛ ليَحْذَروه، ولا يتَّبعوا طرائقَه[1]، والمَنعُ مِن الحَسَدِ والكِبرِ؛ وذلك لأنَّ إبليسَ إنَّما وقَعَ فيما وقَعَ فيه بسَبَبِ الحَسَدِ والكِبرِ، والكُفَّارُ إنَّما نازَعوا مُحمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بسبَبِ الحسَدِ والكِبرِ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۞ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۞ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ كانتْ نَزعةُ الكِبرِ والعِصيانِ كامِنةً في جِبلَّةِ إبليسَ، ولم يكُنْ مِن الملأِ الذي كان معهم مُثيرٌ لِما سكَنَ في نفْسِه مِن طَبعِ الكِبرِ والعِصيانِ، فلمَّا طرأَ على ذلك الملأِ مَخلوقٌ جديدٌ، وأُمِرَ أهلُ الملأِ الأعْلَى بتَعظيمِه؛ كان ذلك مُوريًا زِنادَ الكِبرِ في نفْسِ إبليسَ؛ فنشأَ عنه الكُفرُ باللهِ، وعِصيانُ أمْرِه، وهذا ناموسٌ خِلْقيٌّ جعَلَه اللهُ مَبدأً لهذا العالَمِ قبلَ تَعميرِه، وهو أنْ تكونَ الحوادِثُ والمضائِقُ معيارَ الأخلاقِ والفَضيلةِ؛ فلا يُحكَمُ على نَفسٍ بتزكيةٍ أو ضِدِّها إلَّا بعدَ تَجربتِها، ومُلاحَظةِ تصَرُّفاتِها عند حُلولِ الحوادِثِ بها[3].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ أنَّ مَن قَدَّمَ العَقلَ على السَّمعِ فإنَّما هو مُتَّبِعٌ لخُطواتِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ قَدَّمَ ما يَدَّعي أنَّه عَقلٌ على السَّمعِ، فأخطأَ في ذلك؛ فهكذا كلُّ مَن قَدَّمَ العَقلَ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٠١-٣٠٢).

السَّمعِ، سواءٌ في العِلميَّاتِ -وهي عِلمُ العقائدِ- أو في العَمَليَّاتِ؛ فإنَّه مُشابِهٌ لإبليسَ، مُتَّبِعٌ لخُطُواتِه، واعلَمْ أنَّ كُلَّ بَليَّةٍ تَقَعُ مِن تحريفِ الكَلِمِ عن مَواضِعِه، والاستكبارِ عن عِبادةِ اللهِ، وغيرِ ذلك: فأصلُها مِن إبليسَ[(١)].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ أنَّ مِن أسبابِ الإعانةِ أنْ يَستعينَ الإنسانُ بما يُناسِبُ المقامَ مِن أسماءِ اللهِ وصِفاتِه؛ لأنَّه لم يَقُلْ: «فبِمَغفِرتِك لأُغوينَّهم»؛ لأنَّه يُريدُ أنْ يَتَسَلَّطَ، والسُّلطةُ يُناسِبُها مِن الصِّفاتِ «العِزَّةُ» دونَ «المغفرةِ»[(٢)].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أنَّ إبليسَ وَعَدَ -مُتَوسِّلًا بعِزَّةِ اللهِ- أنْ يُغويَ جميعَ بني آدمَ، ويَتفرَّعُ عن هذه الفائدةِ أنَّه يَجِبُ الحَذَرُ مِن إبليسَ ووَساوسِه، فإذا وَجَدْتَ في نَفْسِك تأخُّرًا في الخَيرِ فاستَعِذْ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، وإذا وَجدْتَ في نَفْسِك إقدامًا على الشَّرِّ فاستَعِذْ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ؛ قال تعالَى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾[(٣)] [البقرة: ٢٦٨].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى وَعَدَ جَهنَّمَ بمَلئِها، ويَتفرَّعُ عن هذه الفائدةِ الحذَرُ الشَّديدُ مِن أنْ يكونَ الإنسانُ مِن أهلِ جَهنَّمَ -نعوذُ باللهِ منها- وفي الصَّحيحَينِ أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا تزالُ جَهنَّمُ يُلقَى فيها وتَقولُ: هل مِن مَزيدٍ؟ حتى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فيها قَدَمَه؛ فيَنزَوي[(٤)] بعضُها إلى بَعضٍ، وتقولُ: قَطْ قَطْ[(٥)]))[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) فيَنزَوي: أي: فيَجتمِعُ ويَنقبِضُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١٠/ ٣٦٩).

(٥) قَطْ قَطْ: أي: حَسْبي حَسْبي، قد اكتفَيتُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١٠/ ٣٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٢). =

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ﴾ إثباتُ الكَلامِ للهِ عزَّ وجلَّ، وإثباتُ أنَّ كلامَه بصَوتٍ مَسموعٍ تَسمَعُه الملائكةُ، كما في هذه القِصَّةِ، وإثباتُ أنَّه بحَرفٍ، أي: بحُروفٍ مُتتابِعةٍ يَتبَعُ بَعضُها بَعضًا؛ لِقَولِه: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، وكُلُّ هذا تأكيدٌ لِمَذهَبِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ، وفي هذا أيضًا إثباتُ أنَّ الكَلامَ يتعلَّقُ بمَشيئتِه سُبحانَه[1].

٢- صَحَّ أنْ يَقولَ لهم: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾، وما عَرَفوا ما البَشَرُ، ولا عَهِدوا به قَبلُ، ووَجهُه: أنْ يَكونَ قد قال لهم: إنِّي خالِقٌ خَلْقًا مِن صِفَتِه كَيْتَ وكَيْتَ، ولكِنَّه حين حَكاه اقتَصَرَ على الاسمِ.

وقيلَ: ولَعَلَّ ما جرَى عِندَ وُقوعِ المَحكيِّ ليس هذا الاسمَ الذي لم يُخلَقْ مُسَمَّاهُ حِينَئذٍ، فَضلًا على تَسميَتِه به، بلْ عِبارةٌ كاشِفةٌ عن حالِه، وإنَّما عَبَّرَ عنه بهذا الاسمِ عِندَ الحِكايةِ[2].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ إثباتُ أنَّ أصلَ بني آدمَ هو الطِّينُ؛ ولهذا جاءتْ طبائِعُ بني آدمَ وألوانُهم مُختلِفةً كاختِلافِ الأرضِ، أو كاختِلافِ تُربةِ الأرضِ؛ فيها السَّهلُ واللَّيِّنُ، والأحمرُ والأبيضُ والأسودُ، والحَزْنُ والصَّعْبُ؛ لأنَّهم خُلِقُوا مِن هذه التُّربةِ، فصارَ اختلافُهم كاختِلافِ

= والحديث أخرجه البُخاريُّ (٧٣٨٤)، ومسلمٌ (٢٨٤٨) واللفظ له، مِن حديثِ أنسِ بنِ مالِكٍ رَضي اللهُ عنه.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٥).

الأصلِ الذي خُلِقُوا منه[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، فيه سؤالٌ: ذكَر هاهنا أنَّه خلَق البشرَ مِن طِينٍ، وقد جاء في آياتٍ أُخَرَ ما يَدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، وكقَولِه تعالَى: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقولِه: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

والجوابُ: أنَّه ذكَرَ أطوارَ ذلك التُّرابِ، فذكَرَ طَورَه الأوَّلَ بقَولِه: ﴿مِن تُرَابٍ﴾، ثُمَّ بُلَّ فصارَ طِينًا لازِبًا، ثم خُمِّرَ فصار حمَأً مسنونًا، ثمَّ يَبِسَ فصار صَلصالًا كالفَخَّارِ[٢]، فثبَت أنَّه لا منافاةَ بينَ الكلِّ[٣].

٥- في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ إثباتُ الأفعالِ للهِ تعالَى، وبيانُ أنَّ أفعالَه تَتعلَّقُ بمَشيئتِه؛ لأنَّ «إذا» شَرطيةٌ تُفيدُ المُستقبَلَ[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ يدُلُّ على تَفخيمِ شأنِ آدَمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه تعالَى خلَقَ ما خلَقَ مِن الكَونَينِ (العلويِّ والسفليِّ)، والجنَّةِ والنَّارِ، والعَرشِ والكُرسيِّ، والملائِكةِ، ولم يَقُلْ في صِفةِ شَيءٍ منها ما قاله في صِفةِ آدَمَ -عليه السَّلامُ- وأولادِه، ولم يأمُرْ بالسُّجودِ لِشَيءٍ غَيرِه[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ جوازُ تعليقِ الأمرِ بالشَّرطِ، أي: إذا جازَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٩)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٣، ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٩).

تعليقُ الأمرِ بالشرطِ؛ فإنَّ المأمورَ به يمكنُ أنْ يَنْفُذَ فيه الشَّرطُ؛ ولهذا قال الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ لِضُبَاعَةَ بنتِ الزبيرِ -وقد اشتكَتْ إليه عِندَ إرادةِ الحجِّ- قال: ((حُجِّي واشترطي، قولي: اللهمَّ مَحِلِّي حيثُ حَبَسْتَنِي))[١].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ تَشريفُ الرُّوحِ التي نُفِخَتْ في آدَمَ عليه السَّلامُ، وهذا تَشريفٌ مِن وجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ اللهَ هو الذي نَفَخَها، ولم يأمُرْ أحدًا مِن الملائِكةِ بنَفخِها.

والثَّاني: أنَّ اللهَ أضاف هذه الرُّوحَ إلى نَفسِه المُقَدَّسةِ[٢].

٩- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف ساغ السُّجودُ لِغَيرِ اللهِ تعالى؟

الجوابُ: أنَّ السَّجدةَ كانتْ لآدمَ عليه السَّلامُ تَعظيمًا له وتَحِيَّةً له، كالسَّلامِ منهم عليه، وقدْ أجْمَع المسلمونَ على أنَّ ذلك السُّجودَ ليس سُجودَ عِبادةٍ[٣].

وأيضًا فالأصلُ أنَّ سُجودَ الملائِكةِ لآدَمَ كان على الجَبهةِ، ولَمَّا وقَع ذلك امتِثالًا لأمْرِ اللهِ كان طاعةً مِن الطَّاعاتِ، كما أنَّ قَتْلَ النَّفسِ بغيرِ حَقٍّ مِن كَبائرِ الذُّنوبِ، لكِنْ لَمَّا أُمِرَ إبراهيمُ الخَليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بذَبحِ ابنِه فامتَثَل أمْرَ اللهِ، وشَرَع في تنفيذِ الذَّبحِ؛ صار طاعةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٥).

والحديث أخرجه البخاري (٥٠٨٩) واللفظ له، ومسلم (١٢٠٧) من حديثِ عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٨٨-٨٩).

١٠- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ في قَولِه تعالَى: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ جوازُ تَوَجُّهِ الأمْرِ -الخِطابِ- إلى العُمومِ، وإنْ كان فيهم مِن غَيرِ جِنسِهم؛ فإنَّ إبليسَ -بلا شَكٍّ- مِن غيرِ الملائِكةِ أصلًا ونِهايةً، لكِنَّه كان فيهم؛ فصَحَّ أنْ يَتَوَجَّه الخِطابُ إليه، وهذا ظاهِرٌ. لو أنَّك أمَرْتَ جماعةً بالسُّجودِ وفيهم مَن ليس منهم، ولكِنَّه على صِفتِهم ويَعمَلُ بعَمَلِهم، فتَخَلَّفَ، لا بُدَّ أنْ تَلومَه؛ لأنَّ الخِطابَ مُوَجَّهٌ للجَميعِ[(١)].

١١- قولُه تعالَى: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فيه أنَّ الاستكبارَ عن أمْرِ اللهِ كُفْرٌ؛ فمعنَى قولِه: ﴿ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: جزاءً لاستكبارِه كان مِن الكافِرين[(٢)]؟

١٢- في قَولِه تعالَى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ ﴾ أنَّ كلامَ اللهِ تعالَى يَتعلَّقُ بمَشيئتِه؛ حيثُ صَدَّرَ هذا القولَ بعْدَ استِكبارِ إبليسَ وتَركِه السُّجودَ[(٣)].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ قد يَستَدِلُّ به مَن رأى أنَّ (لا) في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٢] زائدةٌ؛ حيثُ سقَطَتْ هنا، والقِصَّةُ واحِدةٌ[(٤)].

١٤- قال تعالَى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ * قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ كُلُّ مَن رَدَّ نُصوصَ الوَحيِ بالأقيِسَةِ فسَلَفُه في ذلك إبليسُ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٤٥٤).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٣).

١٥- قَولُه تعالَى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ﴾ فيه إثباتُ اليَدَينِ للهِ تعالَى؛ لِقَولِه تعالَى: ﴿بِيَدَيَّ ﴾، وهذه صِيغةُ تَثنيةٍ تُفيدُ أنَّ للهِ تعالَى يَدينِ اثنتَينِ تَليقُ بجلالِه[١].

١٦- في قَولِه تعالَى: ﴿بِيَدَيَّ ﴾ الرَّدُّ على أهلِ التَّعطيلِ الذين قالوا: إنَّ المرادَ باليَدِ النِّعمةُ أو القوَّةُ؛ وذلك أنَّ النِّعمةَ أو القُوَّةَ لا تأتي بصِيغةِ التَّثنيةِ؛ لأنَّ صِيغةَ التَّثنيةِ تدُلُّ على الحَصرِ؛ وقوةُ اللهِ غيرُ مَحصورةٍ، ونِعَمُه أيضًا غيرُ محصورةٍ؛ قال تعالَى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾[٢] [النحل: ١٨].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿بِيَدَيَّ ﴾ أنَّ يَدَ اللهِ تعالى لا تُماثِلُ أيديَ المخلوقينَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أضافَها إلى نَفسِه، والمضافُ يكونُ حَسَبَ المضافِ إليه، فكما أنَّ ذاتَ اللهِ مُقَدَّسةٌ لا تُماثِلُ ذواتِ المَخلوقينَ كذلك صِفاتُه[٣].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ فيه استِعمالُ الحَصْرِ -أو كما يقولون: السَّبرُ والتَّقسيمُ[٤]- في المناظَرةِ والمجادَلةِ؛ فمعنَى الآيةِ: هل أنتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابنُ القيِّم: (لا ريبَ أنَّ العرَبَ تقولُ: لفُلانٍ عِندي يَدٌ، وقال عُروةُ بنُ مَسعودٍ للصِّدِّيقِ: «لولا يدٌ لك عندي لم أَجْزِك بها لأجَبْتُك». ولكِنْ وقوعُ اليدِ في هذا التركيبِ الذي أضاف سُبحانَه فيه الفِعلَ إلى نفْسِه، ثمَّ تعدَّى الفِعلَ إلى اليَدِ بالباءِ التي هي نظيرُ: كَتبتُ بالقَلَمِ، وهي اليَدُ، وجَعْلُ ذلك خاصَّةً خَصَّ بها صَفيَّه آدَمَ دونَ البشَرِ، كما خَصَّ المسيحَ بأنَّه نَفَخ فيه مِن رُوحِه، وخَصَّ موسى بأنَّه كَلَّمه بلا واسِطةٍ: فهذا مِمَّا يُحيلُ تأويلَ اليَدِ في النَّصِّ بالنِّعمةِ، وإنْ كانتْ في تركيبٍ آخَرَ تَصلُحُ لذلك؛ فلا يلزَمُ مِن صلاحِيةِ اللَّفظِ لِمعنًى ما في تركيبٍ صلاحيتُه له في كلِّ تركيبٍ). ((الصواعق المرسلة)) (١/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٧).

(٤) السَّبْرُ والتَّقسيمُ: هو حصْرُ الأوصافِ في الأصلِ المَقيسِ عليه وإبطالُ بعضِها ممَّا لا يَصلُحُ =

استكبَرْتَ في نَفسِك، وأنتَ لستَ أهلًا للعُلُوِّ؟ أو كنتَ عاليًا في أصلِكَ حتى تَمتَنعَ عن السُّجودِ؟ أمْ أنتَ أكبَرُ وفي مَرتبةٍ عاليةٍ أعْلى مِن آدمَ حتى تَمتَنعَ عن السُّجودِ[(١)]؟

١٩- حُجَّةُ إبليسَ في قولِه: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ هي حُجَّةٌ باطلةٌ؛ لأنَّه عارضَ النصَّ بالقِياسِ[(٢)].

= للتَّعليلِ، فيَتعيَّنُ الباقي للعِلِّيَّةِ. والتَّقسيمُ يكونُ قبْلَ السَّبرِ؛ لأنَّه تَعدادُ الأوصافِ الَّتي يُتَوهَّمُ صَلاحيتُها للتَّعليلِ ثمَّ يَسْبُرُها، أي: يَختبِرُها ليميزَ الصَّالحَ للتَّعليلِ مِن غيرِه. يُنظر: ((الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب)) للبابرتي (٢/ ٥٣٠)، ((التحبير شرح التحرير)) للمرداوي (٧/ ٣٣٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥).

وذكَر ابنُ تيميةَ أنَّ حُجةَ إبليس فاسدةٌ بالعقلِ، وذلك مِن خَمسةِ وجوهٍ:

أحدُها: أنَّه ادَّعَى أنَّ النارَ خيرٌ مِن الطينِ! وهذا قدْ يُمْنَعُ؛ فإنَّ الطينَ فيه السَّكينةُ والوقارُ والاستقرارُ والثباتُ والإمساكُ ونحو ذلك؛ وفي النارِ الخِفَّةُ والحِدَّةُ والطَّيْشُ! والطِّينُ فيه الماءُ والترابُ.

الثاني: أنَّه -وإنْ كانتِ النارُ خيرًا مِن الطِّينِ- فلا يجبُ أنْ يكونَ المخلوقُ مِن الأفضلِ أفضلَ؛ فإنَّ الفرعَ قد يَخْتَصُّ بما لا يكونُ في أصلِه، وهذا الترابُ يُخْلَقُ منه مِن الحيوانِ والمعادنِ والنباتِ ما هو خيرٌ منه، والاحتجاجُ على فَضْلِ الإنسانِ على غيرِه بفضلِ أصلِه على أصلِه! حُجَّةٌ فاسدةٌ احتجَّ بها إبليسُ، وهي حُجَّةُ الذين يَفْخَرون بأنسابهم.

الثالثُ: أنه -وإنْ كان مخلوقًا مِن طِينٍ- فقد حَصَلَ له بنفخِ الرُّوحِ المُقَدَّسَةِ فيه ما شَرُفَ به؛ فلهذا قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ فعَلَّقَ السُّجودَ بأنْ يُنْفَخَ فيه مِن رُوحِه، فالموجِبُ للتفضيلِ هذا المعنى الشريفُ الذي ليس لإبليسَ مثلُه.

الرابعُ: أنه مخلوقٌ بيدي اللهِ تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾.

الخامسُ: أنَّه لو فُرِضَ أنَّه أَفْضَلُ؛ فقد يُقالُ: إكرامُ الأفضلِ للمفضولِ ليس بمُستنكَرٍ! يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال الشوكاني: (علَّل ما ادَّعاه مِن كَونِه خَيرًا منه، بقَولِه: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ وفي =

٢٠- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ أنَّ الإنسانَ قدْ يَعمَى عن الحَقِّ، فيَستَدِلُّ بما هو حُجَّةٌ عليه، يَظُنُّ أنَّه حُجَّةٌ له؛ وذلك أنَّ أهلَ العلمِ ذكَروا في هذا المقامِ بيانَ أنَّ ما خُلِقَ منه آدَمُ خَيرٌ ممَّا خُلِقَ منه إبليسُ[(١)].

٢١- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ أنَّ إبليسَ أعلَمُ بحَقائِقِ صِفاتِ اللهِ تعالَى مِن كَثيرٍ مِن أهلِ التَّعطيلِ؛ فالذين فَسَّروا اليدَ بالقُوَّةِ هنا لو كان تَفسيرُهم صَحيحًا لقال إبليسُ: «يا رَبِّ، وأنا خلَقْتَني بيدَيكَ»؛ لأنَّ اللهَ خَلَقَ إبليسَ بقُوَّتِه كما خَلَقَ آدَمَ، لكِنَّ إبليسَ فَهِمَ أنَّ المرادَ باليدِ غيرُ القُوَّةِ؛ ولهذا لم يَنْقُصْ فَضيلةَ آدمَ بأنَّه هو خُلِقَ بيَدِ اللهِ[(٢)].

٢٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ احتُجَّ به في مَسألةِ أنَّ الكُلَّ بقَضاءِ اللهِ، فهو إخبارٌ مِن اللهِ تعالى بأنَّ إبليسَ لا يُؤمِنُ، فلو آمَنَ لانقلبَ خبَرُ اللهِ الصِّدقُ كَذِبًا، وهو مُحالٌ؛ فكان صُدورُ الإيمانِ منه مُحالًا مع أنَّه أُمِرَ به[(٣)].

٢٣- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۞ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ أنَّ اللهَ قد يُقَدِّرُ أسبابَ الشَّرِّ لحِكمةٍ، وذلك بإجابةِ دُعاءِ إبليسَ أنْ يُنظِرَه إلى يومِ

= زَعمه أنَّ عُنصُرَ النَّارِ أشرَفُ مِن عنصُرِ الطِّينِ! وذهَبَ عنه أنَّ النَّارَ إنَّما هي بمنزلةِ الخادِمِ لعُنصُرِ الطِّينِ؛ إن احتيجَ إليها استُدعِيَت كما يُستدعَى الخادِمُ، وإن استُغنِيَ عنها طُرِدَت، وأيضًا فالطِّينُ يَستولي على النَّارِ فيُطفِئُها، وأيضًا فهي لا تُوجَدُ إلَّا بما أصلُه مِن عُنصُرِ الأرضِ؛ وعلى كُلِّ حالٍ فقد شَرُفَ آدَمُ بشَرَفٍ وكَرُمَ بكَرامةٍ لا يُوازيها شَيءٌ مِن شَرَفِ العناصِرِ؛ وذلك أنَّ اللهَ خلَقَه بيَديه، ونَفَخَ فيه مِن رُوحِه! والجواهِرُ في أنفُسِها مُتجانِسةٌ، وإنَّما تَشْرُف بعارِضٍ مِن عوارِضِها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٤، ٣٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٠، ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٦).

الوَقتِ المعلومِ، وإبليسُ لا شكَّ أنَّه مَبدَأُ كُلِّ شَرٍّ، ولكِنَّ اللهَ تعالى أبقاه لحِكمةٍ عَظيمةٍ، ولولا بقاءُ إبليسَ ما وُجِدَ عاصٍ في الأرضِ، وإذا انتفَى العِصيانُ صارَ الناسُ أُمَّةً واحِدةً، ولم يكنِ الإيمانُ مَزيَّةً، ولم يكنْ جِهادٌ، ولا أمرٌ بالمعروفِ، ولا نهيٌ عن المُنكَرِ، ولو كان النَّاسُ أُمَّةً واحدةً لتَعطَّلَ كثيرٌ مِن شَعائرِ الإسلامِ؛ فكان مِن الحِكمةِ بقاءُ إبليسَ، وبقاءُ ما يَدعو إليه إبليسُ[(١)].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ إنْ قال قائِلٌ: فهل أحَدٌ مُنظَرٌ إلى ذلك اليومِ سِوى إبليسَ، فيُقالَ له: إنَّك منهم؟

الجوابُ: نعمْ، مَن لم يَقبِضِ اللهُ رُوحَه مِن خَلْقِه إلى ذلك اليَومِ مِمَّن تقومُ عليه السَّاعةُ؛ فهُم مِن المُنظَرينَ بآجالِهم إليه؛ ولذلك قيل لإبليسَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥]، بمعنى: إنَّك مِمَّن لا يُميتُه اللهُ إلَّا ذلك اليومَ[(٢)].

٢٥- قال تعالى حكايةً عن إبليسَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والعِزَّةُ: القَهرُ والسُّلطانُ، وعِزَّةُ اللهِ هي العِزَّةُ الكامِلةُ التي لا تَختَلُّ حَقيقَتُها، ولا يَتَخلَّفُ سُلطانُها. وأقسَمَ الشَّيطانُ بعِزَّةِ اللهِ؛ تَحقيقًا لقِيامِه بالإغواءِ دُونَ تَخلُّفٍ، وإنَّما أقسَمَ على ذلك وهو يَعلَمُ عَظمةَ هذا القَسَمِ؛ لِأنَّه وَجَدَ في نَفْسِه أنَّ اللهَ أقدَرَه على القِيامِ بالإغواءِ والوَسوَسةِ، وقد قال في سُورةِ (الحِجرِ): ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، وقَسَمُ إبليسَ بها ناشِئٌ عن عِلْمِه بأنَّه لا يَستَطيعُ الإغواءَ إلَّا لِأنَّ اللهَ أقدَرَه، ولولا ذلك لم يَستَطِعْ نَقضَ قُدرةِ اللهِ تَعالى[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٦).

٢٦- في قَولِه تعالَى عن إبليسَ: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ لَفظَ «الغَيِّ» إذا أُطلِقَ تناولَ كلَّ مَعصيةٍ للهِ[١].

٢٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ إبليسَ لا يُغوي عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ، وقال تعالَى في صِفةِ يُوسُفَ: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فيُستفادُ مِن مَجموعِ هاتينِ الآيتَينِ أنَّ إبليسَ ما أغْوَى يوسُفَ عليه السَّلامُ، وذلك يدُلُّ على كذِبِ ما نُسِبَ إلى يوسُفَ عليه السَّلامُ مِن القَبائحِ[٢].

٢٨- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلَصَهم اللهُ تعالَى لطاعتِه، فأخلَصوا قَصْدَهم لها، وعُرِفَ مِن الاستِثناءِ أنَّهم قَليلٌ، وأنَّ الغُواةَ هم الأصلُ[٣].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ أنَّ كلَّ ما قَدَّرَه اللهُ تعالى فهو حَقٌّ -سواءٌ كان ملائمًا للبشرِ أو غيرَ ملائم-، وجهُ ذلك: أنَّ كلَّ شيءٍ قَدَّرَه اللهُ كائنٌ بقوله: «كُنْ»، و «كُنْ» قولٌ، فإذا كانَ كُلُّ ما قاله اللهُ حَقًّا لَزِمَ أنْ يكونَ كلُّ ما قضاه حَقًّا، وهو كذلك، ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ: ((الخيرُ كلُّه في يديك؛ والشَّرُّ ليس إليك))[٤].

٣٠- في قَولِه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ المرادُ: الجِنسُ، ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ المرادُ: النَّاسُ الذين أقسَمْتَ أنْ تُغويَهم؛ ولهذا كانتِ النَّارُ دارًا لصِنفَينِ مِن

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٢).

والحديث أخرجه مسلم (٧٧١) مطوَّلًا، من حديثِ عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه.

المخلوقاتِ فقط، وهما الجِنُّ والإنسُ؛ فالملائكةُ ليسُوا مِن أهلِها، والوُحوشُ والحشَراتُ وغيرُها ليسوا مِن أهلِها[١].

٣١- في قَولِه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أنَّ مَن لم يُكَلَّفْ في الدُّنيا مِن الصِّبيانِ والمجانينِ، ومَن مات في الفَترةِ: لا يُحكَمُ لهم بالنَّارِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه أقسَمَ أنَّه لا بُدَّ أنْ يَملأَ جَهنَّمَ مِن إبليسَ وأتْباعِه -وأتْباعُه همُ العُصاةُ- ولا مَعصيةَ إلَّا بعدَ التَّكليفِ؛ فلو دَخَلَها الصَّبيُّ والمجنونُ لدَخَلَها مَن هو مِن غيرِ أتباعِه؛ فلم تَمتَلِئْ منهم[٢]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ لَمَّا أمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّه صَلَواتُ اللهِ عليه بأنْ يَقولَ: ﴿هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾، أيْ: هذا الذي أنبَأْتُكم به مِن كَوْني رَسولًا مُنذِرًا، وأنَّ اللهَ واحِدٌ لا شَريكَ له، وقَهَّارٌ ومالِكٌ للعالَمينَ، وعَزيزٌ غَفَّارٌ، وأدمَجَ فيه مَعنى العِبادةِ، وأنَّه تَعالى ما خَلَقَ الخَلقَ إلَّا لِيُعبَدَ ويُعرَفَ، وأرادَ أنْ يُعَظِّمَ ذلكَ؛ فأمَرَ نَبيَّه صَلَواتُ اللهِ عليه بأنْ يُعَظِّمَه ثانيًا ويَقولَ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩]، أيْ: بفَضلِ هذا واختِصاصِه ببَني آدَمَ واختِصامِ المَلائكةِ فيه، واغتِباطِهم لِلبَشَرِ، وما أُمِروا بالسُّجودِ لِآدَمَ إلَّا لِتلكَ الكَراماتِ والفَضائِلِ، إلَّا أنَّ اللهَ تَعالى أعلَمَني بالوَحيِ وأمَرَني بالدَّعوةِ فيه، والإنذارِ لِمَنِ امتَنَعَ منه؛ فيَكونُ قَولُه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ مُستَطردًا لِحَديثِ الخُصومةِ في فَضائِلِ البَشَرِ؛ لِمَا فيه مِنَ التَّكرِمةِ لِآدَمَ مِن كَونِه مَسجودًا لِلمَلائكةِ، واللهُ أعلَمُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٦٤٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣١٩).

- وهو شُروعٌ في تَفصيلِ ما أُجمِلَ مِنَ الاختِصامِ، الذي هو ما جرَى بَينَهم مِنَ التَّقاوُلِ، وحيثُ كان تَكليمُه تَعالى إيَّاهم بواسِطةِ المَلَكِ صَحَّ إسنادُ الاختِصامِ إلى المَلائِكةِ، والقِصَّةُ التي دَخَلتْ (إذْ) عليها مُشتَمِلةٌ على تَقاوُلِ المَلائِكةِ وإبليسَ في خَلقِ آدَمَ عليه السَّلامُ، واستِحقاقِه لِلخِلافةِ والسُّجودِ، غَيرَ أنَّها اختُصِرتِ؛ اكتِفاءً بذلك، واقتِصارًا على ما هو المَقصودُ منها، وهو وَعظُ المُشرِكينَ وإنذارُهم على استِكبارِهم على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بمِثلِ ما حاقَ بإبليسَ على استِكبارِه على آدَمَ عليه السَّلامُ[1].

- قَولُه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ فيه التَّعرُّضُ لِعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِتَشريفِه، والإيذانِ بأنَّ وَحيَ هذا النَّبَأِ إليه تَربيةٌ وتأييدٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. والكافُ واردٌ باعتِبارِ حالِ الآمِرِ؛ لِكَونِه أدَلَّ على كَونِه وَحيًا مُنزَّلًا مِن عِندِه تَعالى، كما في قَولِه تَعالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، دُونَ حالِ المَأمورِ، وإلَّا لَقيلَ: رَبِّي؛ لِأنَّه داخِلٌ في حَيِّزِ الأمْرِ[2].

- وفي قَولِه: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ ما ليسَ في صِيغةِ المُضارِعِ؛ مِنَ الدَّلالةِ على أنَّه تَعالَى فاعِلٌ له البَتَّةَ، مِنْ غَيرِ صارِفٍ يَلويهِ، ولا عاطِفٍ يَثْنيهِ[3].

- قولُه: ﴿مِّن طِينٍ﴾ نَعتٌ لِكَلِمةِ ﴿بَشَرًا﴾، وقد أغْنى بهذا الوَصفِ عنِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

النُّعوتِ البَشريَّةِ كُلِّها، وتِلك هي بَراعةُ الإيجازِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾

- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ التَّسويةُ: تعديلُ ذاتِ الشيءِ، وقدْ أُطلِقتْ هنا على اعتِدالِ العناصِرِ فيه واكتمالِها بحيثُ صارتْ قابلةً لنَفْخِ الرُّوحِ[٢].

- قَولُه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ إضافةُ الرُّوحِ إلى اللهِ؛ لِشَرَفِ الإنسانِ وطَهارَتِه[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾

- اللَّامُ في ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لِلاستِغراقِ، دَخَلتْ على صِيغةِ الجَمعِ؛ فتُفيدُ الشُّمولَ، ثم أكَّدَ بقَولِه: ﴿كُلُّهُمْ﴾؛ لِدَفعِ تَوهُّمِ غَيرِ الشُّمولِ والإحاطةِ، و﴿أَجْمَعُونَ﴾ لِلاجتِماعِ، فأفادَا مَعًا أنَّهم سَجَدوا عن آخِرِهم، ما بَقِيَ منهم مَلَكٌ إلَّا سَجَدَ، وأنَّهم سَجَدوا جَميعًا في وَقتٍ واحِدٍ، غَيرَ مُتَفرِّقينَ في أوقاتٍ، على أنَّ مُطلَقَ الأمْرِ في هذا المَقامِ لا يُفيدُ إلَّا الفَورَ[٤].

- قَولُه: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ، أيْ: فخَلَقَه فسَوَّاه فنَفَخَ فيه الرُّوحَ، فسَجَدَ له المَلائكةُ كلُّهمْ، بحيثُ لم يَبْقَ منهم أحَدٌ إلَّا سَجَدَ ﴿أَجْمَعُونَ﴾، أيْ: بطَريقِ المَعيَّةِ، بحَيثُ لم يَتأخَّرْ في ذلك أحَدٌ منهم عن أحَدٍ، ولا اختِصاصَ لِإفادةِ هذا المَعنى بالحاليَّةِ، بلْ يُفيدُ التَّأكيدَ أيضًا. وقيلَ: أُكِّدَ بتَأكيدَيْنِ؛

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٢).

مُبالَغةً في التَّعميمِ هذا[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ وَقَعَ في سُورةِ (الحِجرِ): ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ﴾ [الحجر: ٣١]، وفي هذه السُّورةِ: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ﴾، فيَكونُ ما في هذه الآيةِ يُبيِّنُ الباعِثَ على الإبايةِ، ووَقَعتْ هنا زيادةُ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وهي بَيانٌ لِكَونِ المُرادِ في سُورةِ (الحِجرِ) مِن قَولِه: ﴿أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١]، الإبايةَ مِنَ الكَونِ مِنَ السَّاجِدينَ للهِ، أيْ: المُنَزِّهينَ اللهَ عنِ الظُّلمِ والجَهلِ[٢].

- قولُه: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ استِثناءٌ مُتَّصِلٌ؛ لِمَا أنَّه كانَ جِنِّيًّا مُفرَدًا مَغمورًا بأُلوفٍ مِنَ المَلائِكةِ، مَوصُوفًا بصِفاتِهم، فغُلِّبُوا عليه، ثم استُثنيَ استِثناءَ واحدٍ منهم، أو مُنقَطِعٌ. وقولُه تعالَى: ﴿ٱسۡتَكۡبَرَ﴾ على الأوَّلِ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لِكَيفيَّةِ تَركِ السُّجودِ المَفهومِ مِنَ الاستِثناءِ؛ فإنَّ تَركَه يحتمِلُ أنْ يَكونَ لِلتَّأمُّلِ والتَّروِّي، وبه يَتحَقَّقُ أنَّه لِلإباءِ والاستِكبارِ، وعلى الثَّاني يَجوزُ اتِّصالُه بما قَبلَه، أيْ: لكِنَّ إبليسَ استَكبَرَ[٣].

- قَولُه: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الآيةُ مِن الاحتِباكِ[٤]: ذكَرَ فِعلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٢).

(٤) الاحْتِباك: هو الحذْفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذْفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القُرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو =

الاستِكبارِ أولًا دَليلًا على فِعلِ الكُفرِ ثانيًا، ووَصَف الكُفرَ ثانيًا دَليلًا على وَصْفِ الاستِكبارِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك: أنَّ ما ذكَرَه أقعَدُ في التَّحذيرِ بأنَّ مَن وقَع منه كِبرٌ جرَّه إلى الكُفرِ(١).

٥- قولُه تعالَى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾

- في قَولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ﴾ عَبَّرَ عن آدَمَ باسمِ (ما) المَوصولةِ، وهو حينَئذٍ إنسانٌ؛ لِأنَّ سُجودَ المَلائكةِ لِآدَمَ كان بَعدَ خَلقِه وتَعليمِه الأسماءَ، كما في سُورةِ البَقَرةِ(٢). وقيل: كأنَّه يقولُ سبحانَه: لِمَ عصيتني وتَكَبَّرْتَ على ما لم تَخْلُقْه وخلقتُه أنا وشَرَّفْتُه؛ وأمَرْتُك بالسُّجودِ له؟ فهذا موضِعُ «ما»؛ لأنَّ معناها أبلغُ؛ ولفْظُها أعَمُّ، وهو في الحُجَّةِ أوقعُ؛ وللعُذرِ والشُّبهةِ أَقْطَعُ، فلو قال: ما منَعَك أنْ تسجُدَ لـ «مَن» خلقتُ؟ لكان استِفهامًا مجرَّدًا مِن تَوبيخٍ وتَبكيتٍ، ولَتُوُهِّمَ أنَّه وَجَب السُّجودُ له مِن حيثُ كان يَعْقِلُ؛ ولعلَّه موجودٌ في ذاتِه وعيْنِه! وليس المرادُ كذلك، وإنَّما المرادُ توبيخُه وتبكيتُه على ترْكِ سُجودِه لِمَا خَلَقَ اللهُ وأَمَرَه بالسُّجودِ له؛ ولهذا عَدَلَ عن اسمِ آدمَ العَلَمِ معَ كونِه أخَصَّ؛ وأتَى بالاسمِ الموصولِ الدَّالِّ على أنَّ جِهةَ التشريفِ المقتضيةَ لسجودِه له؛ كونُه خَلَقه بيديه، وأنتَ لو وضعتَ مكانَ «ما» لفظةَ «مَن» لَمَا رأيتَ هذا المعنى المذكورَ في الصِّلَةِ! وأنَّ «ما» جِيءَ بها وصلةً إلى ذِكْرِ الصِّلَةِ، فتأمَّلْ ذلك؛ فلا معنى -إذنْ- للتعيين بالذِّكْرِ!

= مِن أَلْطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٣).

إذْ لو أُرِيْدَ التعيينُ لكان بالاسمِ العَلَمِ أَوْلَى وأَحْرَى[١].

- والهَمزةُ في قَولِه: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾، للإنكارِ التَّوبيخيِّ، وقيلَ: لِلتَّقريرِ، ويَحتَمِلُ أنْ تَكونَ الجُملةُ إخبارًا، خُوطِبَ بذلك على سَبيلِ التَّقريعِ، والمَعنى: بلْ أنتَ مِنَ العالينَ عِندَ نَفسِكَ؛ استِخفافًا به، وفيه مَزيدٌ مِنَ الإنكارِ على إبليسَ، ومَزيدٌ مِنَ التَّوبيخِ، فجَمَعه وأدخَلَه في زُمرةِ العالينَ[٢]؟

٦- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ هذا إبداءٌ لِلمانعِ مِنَ السُّجودِ، أيْ: لو كانَ مَخلوقًا مِن نارٍ لَمَا سَجَدْتُ له؛ لأنَّه مَخلوقٌ مِثلي؛ فكيف أسجُدُ لِمَن هو دُوني؛ لِأنَّه مِن طِينٍ، والنارُ تَغلِبُ الطِّينَ وتأكُلُه؟ وقد جَرَتِ الجُملةُ الثانيةُ مِنَ الأُولى -وهي ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾- مَجرى المَعطوفِ عَطْفَ البَيانِ مِنَ المَعطوفِ عليه في البَيانِ والإيضاحِ؛ فهي دَليلٌ على المانعِ لإبليسَ مِنَ السُّجودِ في ظَنِّه، ولم يَرِدْ في القُرآنِ أنَّ اللهَ رَدَّ عليه هذا التَّأصيلَ؛ لأنَّه أحقَرُ مِن ذلك، فلَعَنَه وطَرَدَه؛ لأنَّه ادَّعى باطِلًا، وعَصَى رَبَّه استِكبارًا، وطَردُه أجمَعُ؛ لإبطالِ عِلْمِه، ودَحْضِ دَليلِه[٣].

- وقَولُه: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ادِّعاءٌ مِن إبليسَ -عليه اللَّعنةُ- لِشَيءٍ مُستَلزِمٍ لِمَنعِه مِنَ السُّجودِ على زَعمِه، وإشعارٌ بأنَّه لا يَليقُ أنْ يَسجُدَ الفاضِلُ لِلمَفضولِ كما يُعرِبُ عنه قَولُه: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٣).

حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[١] [الحجر: ٣٣].

- وقَولُه: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ تَعليلٌ لِمَا ادَّعاهُ مِن فَضلِه علَيهِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-، ولقد أخطَأ اللَّعينُ حيثُ خَصَّ الفَضلَ بما مِن جِهةِ المادَّةِ والعُنصُرِ -مع أنَّ عنصرَ آدَمَ أفضَلُ-، وزَلَّ عنه ما مِن جِهةِ الفاعِلِ، كَمَا أنبَأَ عَنْهُ قَولُه: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، وما مِن جِهةِ الصُّورةِ، كما نَبَّه عليه قَولُه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، وما مِن جِهةِ الغايةِ، وهو مِلاكُ الأمْرِ؛ ولذلك أُمِرَ المَلائِكةُ بسُجودِهم عليهمُ السَّلامُ، حين ظَهَر لهم أنَّه أعلَمُ منهم بما يَدورُ عليه أمْرُ الخِلافةِ في الأرضِ، وأنَّ له خَواصَّ ليستْ لِغَيرِه[٢].

٧- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾

- ضَميرُ ﴿قَالَ﴾ عائِدٌ إلى اللهِ تَعالَى، على طَريقةِ حِكايةِ المُقاوَلاتِ، وفَرَّعَ أمْرَه بالخُروجِ مِنَ الجَنَّةِ بالفاءِ على ما تَقدَّمَه مِنَ السُّؤالِ والجَوابِ؛ لِأنَّ جَوابَه دَلَّ على كَونِ خُبثٍ في نَفْسِه بَدَتْ آثارُه في عَمَلِه، فلم يَصلُحْ لِمُخالَطةِ أهلِ المَلَأِ الأعلَى[٣].

- وقَولُه: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ تَعليلٌ لِلأمْرِ بالخُروجِ، أيْ: مَطرودٌ مِن كُلِّ خَيرٍ وكَرامةٍ؛ فإنَّ مَن يُطرَدُ يُرجَمُ بالحِجارةِ، أو شَيطانٌ يُرجَمُ بالشُّهُبِ[٤]. وقيل غيرُ ذلك.

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧).

- اللَّعنةُ: الإبعادُ مِن رَحمةِ اللهِ، وأُضيفَ إلى اللهِ لِتَشنيعِ مُتَعلَّقِها، وهو المَلعونُ؛ لِأنَّ المَلعونَ مِن جانبِ اللهِ هو أشنَعُ مَلعونٍ. وتَقييدُ اللَّعنةِ بالإضافةِ مع إطلاقِها في قَولِه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥]؛ لِمَا أنَّ لَعنةَ اللَّاعِنينَ مِنَ المَلائِكةِ والثَّقَلَينِ أيضًا مِن جِهتِه تَعالى، وأنَّهم يَدْعُونَ عليه بلَعنةِ اللهِ تَعالى، وإبعادِه مِنَ الرَّحمةِ[1].

- قَولُه: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، أيْ: إلى يَومِ الجَزاءِ والعُقوبةِ، وفيه إيذانٌ بأنَّ اللَّعنةَ مع كَمالِ فَظاعَتِها ليستْ جَزاءً لِجنايَتِه، بل هي أُنموذجٌ لِمَا سَيَلقاه مُستَمِرًّا إلى ذلك اليَوم، لكِنْ لا يَدُلُّ على أنَّ غايةَ لَعنةِ اللهِ تَعالى لِإبليسَ إلى يَومِ القِيامةِ، ثم تَنقَطِعُ عنه اللَّعنةُ بقيامِ القِيامةِ، وكيف تَنقَطِعُ وقدْ قال تَعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وإبليسُ أظلَمُ الظَّلَمةِ؟ والمُرادُ أنَّ عليه اللَّعنةَ طُوالَ مُدَّةِ الدُّنيا، فإذا كان يَومُ القِيامةِ اقتَرَنَ له باللَّعنةِ مِن أنواعِ العَذابِ ما يَنسَى معه اللَّعنةَ؛ فكَأنَّها انقَطَعتْ. ويَتعَلَّقُ بذلك ثَلاثُ عِباراتٍ: ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وهو: يَومُ الجَزاءِ، و﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧] وهو يَومُ الحَشرِ، و﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٨١] وهو الوَقتُ الذي فيه النَّفخةُ الأُولى، ولا ارتيابَ أنَّ إغواءَه إنَّما يَنتَهي إلى آخِرِ أيَّامِ التَّكليفِ، وهو الوَقتُ المَعلومُ؛ ولِهذا لَمَّا طَلَبَ الإغواءَ إلى يَومِ البَعثِ أُجيبَ إلى يَومِ الوَقتِ المَعلومِ، واختِصاصُ يَومِ الدِّينِ؛ لِأجْلِ أنَّ الجَزاءَ والعَذابَ إنَّما يُبتَدآنِ منه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٢٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥).

٩- قولُه تعالَى: ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾، أيْ: أمهِلْني وأخِّرْني، والفاءُ مُتَعلِّقةٌ بمَحذوفٍ يَنسَحِبُ عليه الكَلامُ، أيْ: إذا جَعَلتَني رَجيمًا فأمهِلْني ولا تُمِتْني ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[1].

- قَولُه: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ وُرودُ الجَوابِ بالجُملةِ الاسميَّةِ مع التَّعرُّضِ لِشُمولِ ما سَألَه لِآخَرينَ على وَجهٍ يُشعِرُ بكَونِ السَّائلِ تَبعًا لهم في ذلك؛ دَليلٌ واضِحٌ على أنَّه إخبارٌ بالإنظارِ المُقَدَّرِ لهم أزَلًا، لا إنشاءً لإنظارٍ خاصٍّ به قد وَقَعَ إجابةً لِدُعائِه، وأنَّ استِنظارَه كانَ طَلَبًا لِتأخيرِ المَوتِ؛ إذْ بِهِ يَتحقَّقُ كَونُه منهم، لا لِتأخيرِ العُقوبةِ كما قيلَ؛ فإنَّ ذلكَ مَعلومٌ مِن إضافةِ اليَومِ إلى الدِّينِ، أيْ: إنَّكَ مِن جُملةِ الذينَ أُخِّرَتْ آجالُهم أزَلًا حَسبَما تَقتَضيه حِكمةُ التَّكوينِ[2].

- قولُه: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ وهو وَقتُ النَّفخةِ الأُولى، لا إلى وَقتِ البَعثِ الذي هو المَسؤولُ؛ فالفاءُ في قوله: ﴿فَإِنَّكَ﴾ ليستْ لِرَبطِ الإنظارِ نَفْسِه بالاستِنظارِ، بل لِرَبطِ الإخبارِ المَذكورِ به، كما في قَولِ مَن قال: (فإنْ تَرحَمْ فأنتَ لِذاكَ أهلٌ)؛ فإنَّه لا إمكانَ لِجَعلِ الفاءِ فيه لِرَبطِ ما له تَعالى مِنَ الأهليَّةِ القَديمةِ لِلرَّحمةِ بوُقوعِ الرَّحمةِ الحادِثةِ، بلْ هي لِرَبطِ الإخبارِ بتِلك الأهليَّةِ لِلرَّحمةِ بوُقوعِها هذا. وقد تُرِكَ التَّوقيتُ في سُورةِ (الأعرافِ)، كما تُرِكَ النِّداءُ والفاءُ في الاستِنظارِ والإنظارِ؛ تَعويلًا على ما ذُكِرَ هاهنا، وفي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٣٧، ٢٣٨).

سُورةِ (الحِجرِ)، وإنْ خَطَرَ ببالكَ أنَّ كُلَّ وَجهٍ مِن وُجوهِ النَّظمِ الكَريمِ لا بُدَّ أنْ يَكونَ له مَقامٌ يَقتَضيه مُغايرٌ لِمَقامِ غَيرِه، وأنَّ ما حُكيَ مِنَ اللَّعينِ إنَّما صَدَرَ عنه مَرَّةً، وكذا جَوابُه لم يَقَعْ إلَّا دَفعةً، فمَقامُ الاستِنظارِ والإنظارِ إنِ اقتَضَى أحدَ الوُجوهِ المَحكيَّةِ فذلك الوَجهُ هو المُطابِقُ لِمُقتَضى الحالِ، والبالِغُ إلى رُتبةِ البَلاغةِ ودَرَجةِ الإعجازِ، وأمَّا ما عَداهُ مِنَ الوُجوهِ فهو بمَعزِلٍ مِن بُلوغِ طَبَقةِ البَلاغةِ، فَضلًا على العُروجِ إلى مَعارِجِ الإعجازِ[1].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾

- الباءُ في قولِه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ لِلقَسَمِ، والفاءُ لِتَفريعِ كَلامِه على أمْرِ اللهِ إيَّاه بالخُروجِ مِنَ الجَنَّةِ وعِقابِه إيَّاه باللَّعنةِ الدَّائِمةِ، وهذا التَّفريعُ مِن تَركيبِ كَلامِ مُتَكلِّمٍ على كَلامِ مُتكَلِّمٍ آخَرَ، وهو المُلقَّبُ بـ (عَطفِ التَّلقينِ)[2] في قَولِه تَعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]. وقيلَ: الفاءُ لِتَرتيبِ مَضمونِ الجُملةِ على الإنظارِ، ولا يُنافيه قولُه تعالَى: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦]؛ فإنَّ إغواءَه تَعالى إيَّاه أثَرٌ مِن آثارِ قُدرتِه تَعالى وعِزَّتِه، وحُكمٌ مِن أحكامِ قَهرِه وسَلطَنَتِه، فمَآلُ الإقسامِ بهما واحِدٌ، ولَعَلَّ اللَّعينَ أقسَمَ بهما جَميعًا، فحَكى تارةً قَسَمَه بأحَدِهما، وأُخرى بالآخَرِ، أيْ: فأُقسِمُ بعِزَّتِك ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٨).

(٢) عطْف التلقين: هو أن يُلقِّنَ المخاطَبُ المتكلِّمَ بالعطف. أو: هو عطْفُ المخاطَبِ كلامًا على ما وقَع في كلامِ المتكلِّمِ تنزيلًا لنفْسه في منزلةِ المتكلِّمِ يُكملُ له شيئًا ترَكَه المتكلِّمُ؛ إمَّا عن غفلةٍ، وإمَّا عن اقتصارٍ، فيُلقِّنُ المخاطَبُ المتكلِّمَ ما تَدارَكَه، بحيثُ يلتئمُ مِن الكلامينِ كلامٌ تامٌّ في اعتقاد المخاطَب. أو: هو عطفُ المتكلِّمِ كلامًا على كلامٍ صدَرَ مِن المخاطَب؛ إيماءً إلى أنَّ حقَّه أنْ يكونَ مِن بقيَّة كلامِه وألَّا يُغفلَه. يُنظر: ((كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم)) للتهانوي (٢/ ١١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٠٤) و (٢٤/ ١٦٥).

أيْ: ذُرِّيَّةَ آدَمَ بتَزيينِ المَعَاصي لهم[١].

١١- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾

- الفاءُ لِترتيبِ ما بَعدَها على ما قَبلَها، أيْ: فالحَقُّ قَسَمي، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [ص: ٨٥]، على أنَّ الحَقَّ إمَّا اسمُه تَعالَى، أو نَقيضُ الباطِلِ، عَظَّمَه اللهُ تَعالى بإقسامِه به، أو فأنا الحَقُّ، أو فقَوْلِي الحَقُّ، وقولُه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] حينَئِذٍ جَوابٌ لِقَسَمٍ مَحذوفٍ، أيْ: واللهِ لأملأنَّ... وقولُه تعالَى: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ على كُلِّ تَقديرٍ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ على الوَجهَيْنِ الأوَّلَيْنِ لِمَضمونِ الجُملةِ القَسَميَّةِ، وعلى الوَجهِ الثَّالثِ لِمَضمونِ الجُملةِ المُتقَدِّمةِ، أعني: فقَوْلي الحَقُّ، وقُوبِلَ تأكيدُ عَزمِ الشَّيطانِ الذي دَلَّ عليه قَولُه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [ص: ٨٢] بتأكيدٍ مِثلِه، وهو لَفظُ (الحَقِّ) الدَّالِّ على أنَّ ما بَعدَه حَقٌّ ثابتٌ لا يَتخَلَّفُ، ولم يَزِدْ في تأكيدِ الخَبَرِ على لَفظِ (الحَقِّ)؛ تَذكيرًا بأنَّ وَعدَ اللهِ تَعالى حَقٌّ لا يَحتاجُ إلى قَسَمٍ عليه؛ تَرَفُّعًا مِن جَلالِ اللهِ عن أنْ يُقابِلَ كَلامَ الشَّيطانِ بقَسَمٍ مِثلِه؛ ولذلك زادَ هذا المَعنى تَقريرًا بالجُملةِ المُعتَرِضةِ وهي: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾. ﴿وَٱلْحَقَّ﴾ مَنصوبٌ على أنَّه مَفعولٌ لِمَا بَعدَه، وقُدِّمَ عليه؛ لِلقَصرِ، أو الاختِصاصِ، وهو بمَعنَى: لا أقولُ إلَّا الحَقَّ، أو هو على حِكايةِ لَفظِ المُقسَمِ به، ولا حاجةَ إلى القَسَمِ، ومَعناه التَّوكيدُ والتَّسديدُ[٢].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٦، ١٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٦، ٣٠٧).

- (مِنْ) في قَولِه: ﴿مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ بَيانيَّةٌ، وهي هنا بَيانٌ لِمَا دَلَّ عليه ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ مِن مِقدارٍ مُبهَم، فبُيِّنَ بآيةِ ﴿مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾، وكافُ الخِطابِ في قَولِه: ﴿مِنكَ﴾ في مَعنى اسمِ الجِنسِ، أيْ: مِن جِنسِكَ الشَّياطينِ؛ إذْ لا تَكونُ ذاتُ إبليسَ مِلئًا لِجَهنَّمَ، وإذْ قدْ عَطَفَ عليه ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، أيْ: مَن تَبِعَكَ مِنَ الذين أغوَيتَهم مِن بَني آدَمَ، فلا جائِزَ أنْ يَبقى مَن عدا هذَيْنِ مِنَ الشَّياطينِ والجِنَّةِ غَيرُ مِلءٍ لِجَهنَّمَ[1].

- ولَفظُ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لا يَخلو أنْ يُؤكَّدَ به الضَّميرُ في ﴿مِنْهُمْ﴾ أوِ الكافُ في ﴿مِنكَ﴾ مع (مَنْ تَبِعَكَ)، ومَعناه: لَأملَأنَّ جَهنَّمَ مِنَ المَتبوعِينَ والتَّابِعينَ أجمَعينَ، لا أترُكُ منهم أحَدًا، أو: لَأمْلَأنَّها مِنَ الشَّياطينِ ومِمَّن تَبِعَهم مِن جَميعِ النَّاسِ، لا تَفاوُتَ في ذلك بَينَ ناسٍ وناسٍ بَعدَ وُجودِ الأتْباعِ منهم مِن أولادِ الأنبياءِ وغَيرِهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٧).

الآيات (٨٦-٨٨)

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾: أي: المُتصَنِّعينَ المدَّعينَ ما ليس عندَهم؛ فلا أتكَلَّفُ إتيانَكم بما لم يأمُرْني اللهُ به. وتكَلُّفُ الشَّيءِ: ما يَفعَلُه الإنسانُ بإظهارِ كَلَفٍ مع مَشقَّةٍ تنالُه في تعاطيه، وصارت الكُلفةُ في التَّعارُفِ اسمًا للمشَقَّةِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: لا أسألُكم على تَبْليغي إيَّاكم رِسالةَ رَبِّي أجرًا دُنيويًّا، وما أنا مِن الذين يَتصنَّعون ويتَحلَّوْن بما ليسوا مِن أهلِه حتَّى أنتحِلَ النُّبوَّةَ، وأتقوَّلَ القُرآنَ، ما هذا القُرآنُ إلَّا تَذكيرٌ مِنَ اللهِ تعالى للجِنِّ والإنسِ، وشَرَفٌ عَظيمٌ لهما في اتِّباعِ أوامِرِه وتَرْكِ نَواهيه، ولَتَعلَمُنَّ صِدقَ أخْبارِ القُرآنِ، وتحقُّقَ ما فيه بعدَ وَقتٍ من الزمانِ، مُحدَّدٍ في عِلمِ اللهِ تعالَى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تَمَّ ما أرادَ مِنَ الدَّليلِ على أنَّ ما ذَكَر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للمُشرِكينَ نَبأٌ عَظيمٌ هم عنه مُعرِضونَ، بما أخبَرَ به مِن الغَيبِ معَ ما له مِن الإعجازِ، فثَبَت

(١) ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

بذلك ما اقتضَى أنَّه صادِقٌ في نِسبتِه إلى اللهِ تعالى، وخَتَم بالتَّحذيرِ مِن اتِّباعِ إبليسَ؛ أمَرَه تعالَى بالبَراءةِ مِن طَريقِه، وأنْ يَنفيَ عن نَفسِه ما قدْ يُحمَلُ على التقَوُّلِ بقَولِه[1]:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: لا أسألُكم على تَبْليغي إيَّاكم القُرآنَ ورِسالةَ ربِّي أجرًا دُنيويًّا تُعطونَني إيَّاه[2].

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

أي: وما أنا مِن الذين يَتصنَّعون ويتَحلَّوْن بما ليسوا مِن أهلِه -على ما عرَفتُم مِن حالي- حتَّى أنتحِلَ النُّبوَّةَ، وأتقوَّلَ القُرآنَ، وأتكلَّفَ ما لم أُؤمَرْ به[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٢).

قال ابنُ عاشور: (المعنى عُمومُ نَفيِ سُؤالِه الأجرَ منهم مِن يوم بُعِث إلى وَقتِ نُزولِ هذه الآيةِ، وهو قِياسُ استِقراءٍ؛ لأنَّهم إذا استَقْرَوا أحوالَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما مضَى، وجَدوا انتِفاءَ سُؤالِه أجرًا: أمرًا عامًّا بالاستقراءِ التَّامِّ الحاصِلِ مِن جميعِ أفراد المُشرِكينَ في جميعِ مُخالطاتِهم إيَّاه؛ فهو أمرٌ مُتواتِرٌ بينهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ: الزمخشري، والرسعني، والبيضاوي، والنسفي، وابن جزي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٧).

قال الماورديُّ: (﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدها: وما أنا مِن المتكلِّفينَ لهذا القُرآنِ مِن تِلقاءِ نفْسي. =

عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (يا أيُّها النَّاسُ، مَن عَلِمَ شَيئًا فلْيَقُلْ به، ومَن لم يَعلَمْ فلْيَقُل: اللهُ أعلَمُ؛ فإنَّ مِن العِلمِ أنْ يقولَ لِما لا يَعلَمُ: اللهُ أعلَمُ؛ قال اللهُ عزَّ وجَلَّ لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾)[1].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

= الثاني: وما أنا مِن المتكلِّفين لأنْ آمرَكم بما لم أؤمرْ به.

الثالث: وما أنا بالذي أُكلِّفُكم الأجْرَ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١١٢).

ممَّن اختار القولَ الأوَّل: أي: ما أنا بالمتقوِّلين لهذا القُرآنِ مِن تلقاءِ نفْسي: مقاتلُ بنُ سليمان، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والخازن، وجلال الدِّين المحلي، والعُليمي، وابن عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٤).

قال ابنُ جَرير: (﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ يقولُ: وما أنا ممَّن يتكلَّفُ تَخرُّصَه وافتِراءَه، فتقولون: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤] و﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧]). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٠).

وقال ابن كثير: (﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: وما أزيدُ على ما أرسَلَني اللَّهُ به، ولا أبْتَغي زيادَةً عليه بل ما أُمِرتُ به أدَّيتُه، لا أزيدُ عليه ولا أنقصُ منه، وإنَّما أبْتَغي بذلك وجهَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ والدَّارَ الآخرةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٢).

وقال البقاعيُّ: (﴿ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: المتحلِّينَ بما ليسوا مِن أهلِه مِن قولٍ ولا فِعلٍ، الذين يُكلِّفون أنفسَهم تَزويرَ الكلامِ والتصنُّعَ فيه وترتيبَه على طريقٍ مِن الطُّرقِ بنَظمٍ أو نثرٍ: سَجْعٍ أو خُطبٍ أو غيرِ ذلك، أو وضْعِ أنفسِهم في غيرِ مَواضعِها، كما فعَل إبليسُ؛ لستُ منهم بسَبيلٍ، ولا أُعَدُّ في عِدادِهم بوجهٍ، لا أفعلُ أفعالَهم، ولا أحبُّهم ولا أتعصبُ لهم). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٣٢-٤٣٣).

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٠٩) واللفظ له، ومُسلِمٌ (٢٧٩٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أثبَتَ اللهُ تعالى ما يقتَضي أنَّ القُرآنَ مِن عندِ اللهِ، وأزال الموانِعَ؛ بيَّن حقيقتَه التي لا يتعدَّاها إلى ما نَسَبوه إليه، بِقَولِه[1]:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: ما هذا القُرآنُ إلَّا تَذكيرٌ مِنَ اللهِ تعالَى لجَميعِ الجِنِّ والإنسِ، وشَرَفٌ ورِفعةٌ لهم إنْ عَمِلوا وتمَسَّكوا به[2].

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: ولَتعلَمُنَّ -أيُّها المشركونَ- صِدقَ أخبارِ القُرآنِ، وتَحقُّقَ ما فيه مِنَ الوَعدِ والوَعيدِ؛ بعدَ وَقتٍ مِن الزَّمانِ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٣-٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٤).

ممَّن اختارَ المعنَى المذكورَ للذِّكرِ في الجملةِ: البقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٣-٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٠، ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٩).

قال ابنُ جَرير: (لا حَدَّ عند العَرَبِ للحِينِ لا يُجاوَزُ ولا يُقصَرُ عنه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٢). يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٦٠)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٣/ ٤٤٦).

قال ابن جزي: (﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ هذا وعيدٌ، أي: لتعلمُنَّ صِدقَ خبرِه بعدَ حينٍ، والحِينُ يومُ القيامةِ، أو موتُهم، أو ظهورُ الإسلامِ يومَ بدرٍ وغيرِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٤). =

كما قال تعالَى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالَى لِنَبيِّه عليه السَّلامُ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ ولم يُطلِقْ لأحدٍ أنْ يُبلِّغَ عن اللهِ ما ائْتَمَنه عليه مِن عِلمِه ووَحْيِه بعَرَضِ الدُّنيا. وكذلك العُلماءُ نَعُدُّهم خُلفاءَ الرُّسلِ، وهمْ مُبلِّغون عن اللهِ؛ فليس لأحدٍ منْهم أنْ يَأخُذَ عليه نَوالًا مِن حُطامِ الدُّنيا؛ فقدْ كان العُلماءُ يَتوقَّون في حالةِ البَيعِ والشِّراءِ أنْ يُحابُوا أو يُزادُوا لِمكانِهم مِن العِلمِ. ورُوِيَ عن الحسَنِ البصْريِّ أنَّه قِيل له: هذا لكَ بكذا؟ فقال: (إنَّما جِئتُ أشْتَري بدِرْهمي لا بدِيني)[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ فيه ذَمُّ التكَلُّفِ[(٢)]، والنَّهيُ عنه وعن التصَنُّعِ، وهو نَوعٌ مِنَ النِّفاقِ، وضَربٌ مِن الرِّياءِ[(٣)].

٣- خَتَمَ الله سُبْحانَه هذه السُّورةَ بهذه الخاتِمةِ الشَّريفةِ؛ لأنَّه تعالَي ذَكَرَ طُرُقًا كَثيرةً دالَّةً على وُجوبِ الاحْتِياطِ في طَلَبِ الدِّينِ، ثُمَّ قال عندَ الخَتْمِ: هذا الَّذي أدْعُو النَّاسَ إليْه يَجِبُ أنْ يُنْظَرَ في حالِ الدَّاعِي وفي حالِ الدَّعْوةِ؛ لِيَظْهَرَ أنَّه حقٌّ أو باطِلٌ. أمَّا الدَّاعِي -وهو أنَا- فأنَا لا أسْألُكم على هذه الدَّعْوةِ أجْرًا ومالًا،

= قال ابن كثير: (قالَ قتادةُ: بعدَ الموتِ. وقال عِكرِمةُ: يعني يومَ القيامةِ. ولا منافاةَ بينَ القولَيْنِ؛ فإنَّ مَن ماتَ فقَدْ دَخَل في حكمِ القيامةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٣). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٩).

وقال ابنُ عُثَيمين: (هناك أشياءُ أخبَرَ عنها القُرآنُ مَضَتْ وانقَضَتْ؛ فهذه عَلِمَها بعدَ حِينٍ مَن سَبَقَ هذه الحوادِثَ وأدركَها، وهناك حوادِثُ ستأتي يَعلَمُها بعدَ حينٍ مَن يُدرِكُها، وأمَّا الذي يُدرِكُه جميعُ النَّاسِ فهو ما يكونُ يومَ القِيامةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٥).

(١) يُنظر: ((المنهيات)) للحكيم الترمذي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٤٦).

ومن الظَّاهِرِ أنَّ الكذَّابَ لا يَنقطِعُ طَمَعُه عن طَلَبِ المالِ البتَّةَ، وكان صلَّى اللهُ عليْه وسلَّم بَعِيدًا عن الدُّنْيا عَديمَ الرَّغْبَةِ فيها. وأمَّا كَيفِيَّةُ الدَّعْوةِ فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ فيه ما لا مَزيدَ عليه في التَّخويفِ والتَّرهيبِ والتَّهديدِ لِمَن أصرَّ على الجهلِ والتقليدِ، وأبَى قَبولَ البيِّناتِ، وأنه سيعلَمُ بعدَ حِينٍ إنْ كان مُصيبًا في هذا الإعراض، أو مُخطئًا[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أُخِذَ منه أنَّ ما جاء به مِنَ الدِّينِ: لا تكَلُّفَ فيه، أي: لا مَشَقَّةَ في تكاليفِه، وهو معنى سَماحةِ الإسلامِ[٣].

٢- قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه السُّورةُ العظيمةُ مشتملةٌ على الذِّكرِ الحكيمِ، والنبأِ العظيمِ، وإقامةِ الحُجَجِ والبراهينِ، على مَن كذَّب بالقرآنِ وعارَضه، وكذَّب مَن جاء به، والإخبارِ عن عبادِ الله المخلَصينَ، وجزاءِ المتَّقينَ والطَّاغينَ، فلهذا أقسَم في أوَّلِها بأنَّه ذو الذِّكرِ، ووصَفه في آخرِها بأنَّه ذِكرٌ للعالَمينَ، وأكثَرَ التَّذكيرَ بها فيما بينَ ذلك، كقولِه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ﴾، ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾، ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ﴾، ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أنَّ آياتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

وسلَّم تأتي مُتتابِعةً، منها ما عُلِمَ في عَهدِه، ومنها ما عُلِمَ بعدَ ذلك، ومنها ما لا يُعلَمُ إلَّا يومَ القِيامةِ[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ إنَّما أخَّروا إلى هذا الحِينِ؛ لِيُبلِغَ في الإعذارِ إليهم، فتَنقَطِعَ حُجَجُهم، وتَتناهى ذُنوبُهم التي يَستَحِقُّونَ الأخذَ بها[٢].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أنَّ اللهَ تعالى تَكَفَّلَ بأن يُعْلِمَ النَّاسَ صِدقَ نَبَأِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لِقَولِه: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ فإنَّ هذه الجُملةَ خَبَريَّةٌ مُؤكَّدةٌ بثَلاثةِ مُؤكِّداتٍ: اللَّامِ، والقَسَمِ المُقَدَّرِ، ونونِ التَّوكيدِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ لَمَّا أمَرَ اللهُ رَسولَه بإبلاغِ المَواعِظِ والعِبَرِ التي تَضَمَّنَتْها هذه السُّورةُ أمَرَه عِندَ انتِهائِها أنْ يَقرَعَ أسماعَهم بهذا الكَلامِ الذي هو كالفَذلَكةِ[٤] لِلسُّورةِ؛ تَنهيةً لها؛ تَسجيلًا عليهم أنَّه ما جاءَهم إلَّا بما يَنفَعُهم، وليس طالِبًا مِن ذلك جَزاءً، أيْ: لو سألَهم عليه أجْرًا لَراجَ اتِّهامُهم إيَّاه بالكَذِبِ لِنَفعِ نَفْسِه، فلَمَّا انتَفَى ذلك وَجَبَ أنْ يَنتَفِيَ تَوهُّمُ اتِّهامِه بالكَذِبِ؛ لِأنَّ وازِعَ العَقلِ يَصرِفُ صاحِبَه عن أنْ يَكذِبَ لِغَيرِ نَفْعٍ يَرجوه لِنَفْسِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٨).

(٤) تقدَّم تعريفه (ص: ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٨).

- قَولُه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ هذا إبطالٌ لِقَولِهم: ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] المَحكيِّ عنهم في أوَّلِ السُّورةِ، وإقامةُ الحُجَّةِ على صِدقِ رِسالَتِه(١).

- وضَميرُ ﴿عَلَيْهِ﴾ عائدٌ إلى القُرآنِ المَعلومِ مِنَ المَقامِ؛ فإنَّ مَبدَأَ السُّورةِ قَولُه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]؛ فهذا مِن رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ(٢).

- والتَّكلُّفُ: مُعالَجةُ الكُلْفةِ، وهي ما يَشُقُّ على المَرءِ عَمَلُه والتِزامُه؛ لِكَونِه يُحرِجُه أو يَشُقُّ عليه، ومادَّةُ التَّفعُّلِ تَدُلُّ على مُعالَجةِ ما ليس بسَهلٍ، فالمُتكلِّفُ هو الذي يَتطَلَّبُ ما ليس له، أو يَدَّعي عِلْمَ ما لا يَعلَمُه؛ فالمَعنى هنا: ما أنا بمُدَّعٍ النُّبوَّةَ باطِلًا مِن غَيرِ أنْ يُوحى إلَيَّ، وهو رَدٌّ لِقَولِهم: ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وبذلك كان كالنَّتيجةِ لِقَولِه: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ لِأنَّ المُتكلِّفَ شَيئًا إنَّما يَطلُبُ مِن تَكلُّفِه نَفعًا؛ فالمَعنى: ومَا أنا مِمَّن يَدَّعونَ ما ليس لهم(٣).

- وتَركيبُ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أبلَغُ، وأشَدُّ في نَفْيِ التَّكلُّفِ مِن أنْ يَقولَ: وما أنا مُتكلِّفًا، أو: ما أنا بمُتَكلِّفٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ورَدُّ العَجُز على الصَّدر: هو جَعْلُ أحدِ اللَّفظين المُكرَّرين -المتَّفقَينِ في اللَّفظِ والمعنَى، أو المُتجانسَينِ المُتفقَينِ في اللَّفظِ دون المعنى، أو المُلحقَينِ بهما، بأنْ جمَعَهما اشتقاقٌ أو شبهُه- في أوَّلِ الكلام، ثم إعادةُ ذلك في آخِرِ الكلام، كقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، وهو مِن جِهاتِ الحُسنِ في الكَلامِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٣٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((علوم البلاغة)) للميداني (ص: ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٩).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] اشتِمالَ نَفْيِ الشَّيءِ على ثُبوتِ ضِدِّه؛ فلَمَّا نَفَى بقَولِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] أنْ يَكونَ تَقَوَّلَ القُرآنَ على اللهِ؛ ثَبَتَ مِن ذلك أنَّ القُرآنَ ذِكرٌ لِلناسِ ذَكَّرَهمُ اللهُ به، أيْ: ليس هو بالأساطيرِ أو التُّرَّهاتِ، ولكَ أنْ تَجعَلَها تَذييلًا؛ إذْ لا مُنافاةَ بَينَهما هنا. وعُمومُ (العالَمينَ) يُكسِبُ الجُملةَ مَعنى التَّذييلِ لِلجُملَتَيْنِ قَبلَها[(١)].

- والقَصرُ الذي اشتَمَلَتْ عليه جُملةُ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ قَصرُ قَلبٍ[(٢)] إضافيٍّ، أيْ: هو ذِكرٌ، لا أساطيرُ، ولا سِحرٌ، ولا شِعرٌ، ولا غَيرُ ذلك؛ لِلرَّدِّ على المُشرِكينَ ما وَسَموا به القُرآنَ مِن غَيرِ صِفاتِه الحَقيقيَّةِ[(٣)].

- وأيضًا هذه الآيةُ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أثبَتَتْ -مِن كَونِ القُرآنِ ذِكرًا- ما أثبَتَتْه أوَّلُ آيةٍ في السُّورةِ ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١] على أتَمِّ وَجهٍ، مع زيادةِ الوَعيدِ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾؛ فانعطَفَ الآخِرُ على الأوَّلِ، واتَّصَلَ به أحسَنَ اتِّصالٍ وأجمَلَ[(٤)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]، باعتِبارِ ما يَشتَمِلُ عليه القَصرُ مِن جانِبِ الإثباتِ، أيْ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٩، ٣١٠).

(٢) قصْر القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لمن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ معيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٥).

وستَعلَمونَ خَبَرَ هذا القُرآنِ بَعدَ زَمانٍ عِلْمًا جَزمًا فيَزولُ شَكُّكم فيه، فالكَلامُ إخبارٌ عنِ المُستَقبَلِ كما هو مُقتَضى وُجودِ نُونِ التَّوكيدِ[١].

- وفيه مِنَ التَّهديدِ لهم ما لا يَخْفى، وخَتَم الكَلامَ بتَسجيلِ التَّبليغِ، وأنَّ فائِدةَ ما أبلَغَهم به لهم، لا لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وخَتَمَ بالمُواعَدةِ لِوَقتٍ يَقينِهم بنَبيِّه، وهذا مُؤْذِنٌ بانتِهاءِ الكَلامِ، ومُراعاةِ حُسنِ الخِتامِ[٢].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّامنُ والعشرونَ

ويليه المجلدُ التَّاسعُ والعشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الزُّمَر

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٠).

ذكَرَ القاضي عِياضٌ أنَّ من وُجوهِ إعْجازِ القُرآنِ: مُشاكَلةَ بَعضِ أجْزائِه بَعضًا، وحُسنَ ائْتِلافِ أنْواعِها، والْتِئامِ أقْسامِها، وحُسنَ التَّخلُّصِ من قصَّةٍ إلى أُخْرى، والخُروجِ من بابٍ إلى غَيرِه على اخْتِلافِ مَعانيه، وانْقِسامَ السُّورةِ الواحِدةِ إلى أمْرٍ ونَهيٍ، وخَبرٍ واستِخْبارٍ، ووَعدٍ ووَعيدٍ، وإثْباتِ نُبوَّةٍ، وتَوْحيدٍ وتَفْريدٍ، وتَرْغيبٍ وتَرْهيبٍ إلى غيرِ ذلك من فَوائدِه دونَ خلَلٍ يَتخلَّلُ فُصولَه، والكلامُ الفَصيحُ إذا اعْتَوَرَه مثلُ هذا ضعُفَت قوَّتُه، ولانَتْ جَزالَتُه، وقَلَّ رَوْنقُه، وتَقلقَلَت ألْفاظُه. ثمَّ قال: (فتأمَّلْ أوَّلَ «ص»، وما جُمِعَ فيها من أخْبارِ الكُفَّارِ وشِقاقِهم، وتَقْريعِهم بإهْلاكِ القُرونِ مِن قَبلِهم، وما ذُكِرَ من تَكْذيبِهم بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعجُّبِهم ممَّا أتَى به، والخَبرِ عنِ اجتِماعِ مَلَئِهم على الكُفرِ، وما ظهَرَ منَ الحسَدِ في كَلامِهم، وتَعْجيزِهم، وتَوْهينِهم، ووَعيدِهم بخِزيِ الدُّنْيا والآخِرةِ، وتَكْذيبِ الأُمَمِ قَبلَهم، وإهْلاكِ اللهِ لهم، ووَعيدُ هؤلاء مثْلَ مُصابِهم، وتَصبيرَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على أذاهُم، وتَسليَتَه بكلِّ ما تَقدَّمَ ذِكرُه، ثمَّ أخَذ في ذِكرِ داوُدَ وقَصصِ الأنْبياءِ، كلُّ هذا في أوْجَزِ كلامٍ وأحسَنِ نِظامٍ). ((الشِّفا بتَعريفِ حُقوقِ المُصطَفى - وحاشيةُ الشُّمُنِّيِّ)) (١/ ٢٧٩، ٢٨٠).

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ ص ٧
أسماءُ السُّورةِ ٧
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٧
الآيات (١-٣) ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٩
مُشكِلُ الإعرابِ ١٠
المعنى الإجماليُّ ١١
تَفسيرُ الآياتِ ١١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥
بلاغةُ الآياتِ ١٧
الآيات (٤-١١) ٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٣
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٥
المعنى الإجماليُّ ٢٥
تَفسيرُ الآياتِ ٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٨

بلاغةُ الآياتِ ٤٢
الآيات (١٢-١٦) ٥٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٩
المعنى الإجماليُّ ٦٠
تَفسيرُ الآياتِ ٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٧
بلاغةُ الآياتِ ٦٩
الآيات (١٧-٢٠) ٧٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٧٨
المعنى الإجماليُّ ٧٩
تَفسيرُ الآياتِ ٨٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٨٧
بلاغةُ الآياتِ ٨٩
الآيات (٢١-٢٦) ٩٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٩٦
المعنى الإجماليُّ ٩٩
تَفسيرُ الآياتِ ١٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١١٩
بلاغةُ الآياتِ ١٢٧
الآيات (٢٧-٢٩) ١٣٨

غَريبُ الكَلِماتِ ١٣٨
المعنى الإجماليُّ ١٣٩
تَفسيرُ الآياتِ ١٣٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤٦
بلاغةُ الآياتِ ١٥١
الآيات (٣٠-٤٠) ١٥٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١٥٦
مُشكِلُ الإعرابِ ١٥٨
المعنى الإجماليُّ ١٥٩
تَفسيرُ الآياتِ ١٦٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٧٥
بلاغةُ الآياتِ ١٨٣
الآيات (٤١-٤٤) ١٩٣
غَريبُ الكَلِماتِ ١٩٣
المعنى الإجماليُّ ١٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ١٩٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٠٢
بلاغةُ الآياتِ ٢٠٨
الآيات (٤٥-٤٨) ٢١٦

غَريبُ الكَلِماتِ ٢١٦
مُشكِلُ الإعرابِ ٢١٦
المعنى الإجماليُّ ٢١٧
تَفسيرُ الآياتِ ٢١٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٢٢
بلاغةُ الآياتِ ٢٢٣
الآيات (٤٩-٥٤) ٢٢٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٢٨
المعنى الإجماليُّ ٢٢٩
تَفسيرُ الآياتِ ٢٢٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٣٦
بلاغةُ الآياتِ ٢٣٧
الآيات (٥٥-٦٤) ٢٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٤٣
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٤٥
المعنى الإجماليُّ ٢٤٦
تَفسيرُ الآياتِ ٢٤٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٥٨
بلاغةُ الآياتِ ٢٥٩

الآيات (٦٥-٧٠) ٢٧٠
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٧٠
المعنى الإجماليُّ ٢٧٠
تَفسيرُ الآياتِ ٢٧١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٧٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٧٧
بلاغةُ الآياتِ ٢٧٩
الآيات (٧١-٨٥) ٢٨٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٨٧
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٨٨
المعنى الإجماليُّ ٢٨٨
تَفسيرُ الآياتِ ٢٨٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٩٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٠٢
بلاغةُ الآياتِ ٣١١
الآيات (٨٦-٨٨) ٣٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٢٣
المعنى الإجماليُّ ٣٢٣
تَفسيرُ الآياتِ ٣٢٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٢٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٢٨
بلاغةُ الآياتِ ٣٢٩

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة الزمر

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد التاسع والعشرون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الزمر)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد التاسع والعشرون - سورة الزمر/

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٢ هـ

٤٩٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٣-٩٥-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - سورة الزمر - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٩٥٥٤

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٩٥٥٤

ردمك: ٣-٩٥-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الزمر)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد التاسع والعشرون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ
سُورَةِ الزُّمَرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الزُّمَرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الزُّمَرِ)[١].

فعن عائِشةَ رَضِي الله عنها أنَّها قالت: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا ينامُ على فِراشِه حتَّى يَقرأَ كُلَّ لَيلةٍ ببَني إسرائيلَ والزُّمَرِ))[٢].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرؤُها كُلَّ لَيلةٍ:

كما جاء في حديثِ عائِشةَ رَضِيَ الله عنها السَّابقِ.

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الزُّمَرِ مَكِّيَّةٌ[٣]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٤].

---

(١) سُمِّيَت السُّورةُ بذلك؛ لاشتِمالِها على الآيةِ الَّتي ذُكِرَ فيها زُمَرُ الفَريقَينِ، ولِوقوعِ هذا اللَّفظِ فيها دونَ غَيرِها مِن سُوَرِ القرآن. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٢٠) واللفظ له، وأحمد (٢٤٣٨٨)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٤٤).

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ)، ووثَّق رجالَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٧٥)، وحسَّنه ابنُ حجرٍ في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٦٥)، وجوَّد إسنادَه ووثَّقَ رجالَه ابنُ باز في ((النكت على التقريب)) (١٧٢)، وصَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٩٢٠).

(٣) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا آيَتَينِ نزَلَتا بالمدينةِ؛ إحداهما قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ ...﴾ [الزمر: ٢٣]، والأُخرى قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ ...﴾ [الزمر: ٥٣]. وقيل: إلَّا سَبْعَ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ ...﴾ [الزمر: ٥٣] إلى آخِرِ السَّبعِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٩).

(٤) ممَّن حكى الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٨٧).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

إثباتُ تفَرُّدِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ، وإبطالُ الشِّركِ[١].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- التَّنويهُ بشَأنِ القُرآنِ، والثَّناءُ على اللهِ تعالى الَّذي أنزَلَه على نَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالحَقِّ.

٢- الأمرُ بإخلاصِ العبادةِ لله، وبَيانُ شُبهةِ الَّذين عَبَدوا غَيرَه وإبطالُها، وذِكرُ بَعضِ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّتِه؛ مِن خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ، وتَسخيرِه الشَّمسَ والقَمَرَ، وخَلقِ الإنسانِ... إلى غيرِ ذلك.

٣- مُقارَنةٌ بيْنَ أحوالِ الكافِرينَ وأحوالِ المؤمِنينَ، وبَيانُ عاقِبةِ الصَّابِرينَ.

٤- ذِكرُ بَعضِ التَّوجيهاتِ للمُؤمِنينَ، وبَيانُ حُسنِ عاقِبتِهم؛ ووَعيدُ مَن عَبَد غَيرَ اللهِ، وبَيانُ ما أُعِدَّ لهم مِنَ العذابِ.

٥- بَيانُ بَعضِ دَلائِلِ وَحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِه.

٦- ذِكرُ إنزالِ اللهِ تعالى للقُرآنِ، ومَدحُه وبيانُ حالِ المؤمِنينَ معه.

٧- الحَديثُ عن بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، ومُحاجَّةِ المُشرِكينَ، وبَيانُ ما هم عليه مِن ضَلالٍ، وما لَهم مِن سُوءِ العاقِبةِ.

٨- ذِكرُ حالِ الإنسانِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٢).

٩- ذِكرُ ما يدُلُّ على سَعةِ رَحمةِ اللهِ سُبحانَه بعِبادِه، ودَعوتُهم إلى الإنابةِ إليه قبْلَ نُزولِ العَذابِ، والنَّدَمِ على التَّفريطِ حيثُ لا يَنفَعُ النَّدَمُ.

١٠- عَرضُ بَعضِ مَشاهِدِ يَومِ القيامةِ وأهوالِها، وأحوالِ الكافِرينَ والمؤمِنينَ، وما أُعِدَّ لكُلٍّ منهما، وتَسبيحُ المَلائِكةِ الحافِّينَ مِن حَولِ العَرشِ بحَمدِ رَبِّهم، وخَتْمُ السُّورةِ بحَمدِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

الآيات (١-٤)

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَوْلِيَآءَ﴾: أي: أصنامًا يَتولَّونَهم بعبادتِهم ودعائِهم، وأصْلُ (ولي): يدُلُّ على القُرْبِ، سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ[(١)].

﴿زُلْفَىٰٓ﴾: أي: قُربةً ودَرَجةً ومَنزِلةً، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تَقدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[(٢)].

﴿لَّٱصْطَفَىٰ﴾: أي: لَاختار، ولَاجتبَى، وأصلُ (صفو): خُلوصُ الشَّيءِ مِن كلِّ شَوبٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن هذا القُرآنِ الكَريم أنَّه تَنزيلٌ مِن عِندِه سُبحانَه، وهو العزيزُ الغالِبُ، المُمتَنعُ عليه كلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

ثمَّ يُخاطِبُ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائِلًا له: إنَّا أنزَلْنا إليك -يا مُحمَّدُ- القُرآنَ بالحَقِّ، فاعبُدِ اللهَ مُخلِصًا له وَحْدَه في جميعِ عِباداتِك. ألَا للهِ وحْدَه الطَّاعةُ الخالِصةُ مِن الشِّركِ والرِّياءِ.

ثمَّ يذكرُ سُبحانَه ما عليه المُشرِكونَ مِن ضَلالٍ، فيقولُ: والمُشرِكونَ الَّذين اتَّخَذوا مَعبوداتٍ باطِلةً يَعبُدونها مِن دونِ اللهِ يَقولونَ: ما نَعبُدُ هذه المعبوداتِ إلَّا لِتُقَرِّبَنا إلى اللهِ قُرْبى! إنَّ اللهَ يَفصِلُ بيْنَهم يومَ القيامةِ فيما هم فيه مُختَلِفونَ في الدُّنيا، إنَّ اللهَ لا يَهدي مَن هو كاذِبٌ شديدُ الكُفرِ.

ثُمَّ يُبَيِّنُ الله سبحانَه أنَّه لا وَلَدَ له؛ ردًّا على مَن زعَم ذلك، فيقولُ: لو أراد اللهُ سُبحانَه وتعالى أن يتَّخِذَ لنَفْسِه ولَدًا لَاختار ما يَشاءُ مِمَّا يَخلُقُه، ولم يَكِلْ ذلك إلى المُشرِكينَ لِيَختاروا له ما شاؤوا بأهوائِهم! تَنزَّهَ اللهُ عن الولَدِ، وعمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ، هو الواحِدُ في ذاتِه وأسمائِه، وصفاتِه وأفعالِه؛ القهَّارُ الَّذي ذلَّ له وخضَع كُلُّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾.

أي: تَنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ شديدِ القوَّةِ، الغالِبِ الَّذي لا يَغلِبُه شَيءٌ، والمُمتَنع عليه كلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الحَكيمِ في شَرعِه وخَلقِه وقَدَرِه، فيَضَعُ كُلَّ

شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائقِ به[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: إنَّا أنزَلْنا إليك -يا مُحمَّدُ- القُرآنَ المُشتَمِلَ على الحقِّ؛ فأخبارُه صادِقةٌ، وأحكامُه عادِلةٌ، ومِن ذلك الإخبارُ بألوهيَّةِ اللهِ، والأمرُ بعبادتِه وَحْدَه لا شَريكَ له[٢].

﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى أنَّ هذا الكِتابَ مُشتَمِلٌ على الحَقِّ والصِّدقِ؛ أردَفَه ببَيانِ بَعضِ ما فيه مِن الحَقِّ والصِّدقِ[٣].

وأيضًا لَمَّا امتَنَّ تعالى على رَسولِه بإنزالِ الكِتابِ عليه بالحَقِّ، وكان الحَقُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣-١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٩، ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥).
والباءُ في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ قيل: للملابَسةِ، أي: أنزَلْنا إليكَ القرآنَ مُلابِسًا للحقِّ. وقيل: للسَّببيَّةِ، أي: أنزَلْناه بسببِ الحقِّ، أي: إثباتِه وإظهارِه. وقيل: للتَّعديةِ، أي: أنَّ ما اشتَمَل عليه القرآنُ فهو حقٌّ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣١).

إخلاصَ العبادةِ لله؛ أمَرَه تعالى بعبادتِه[١].

وأيضًا لَمَّا كان الكِتابُ نازِلًا مِنَ الحَقِّ، مُشتَمِلًا على الحَقِّ لِهدايةِ الخَلقِ، على أشرَفِ الخَلقِ؛ عَظُمَت فيه النِّعمةُ وجَلَّت، ووجَبَ القِيامُ بشُكرِها، وذلك بإخلاصِ الدِّينِ لله؛ فلهذا قال[٢]:

﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

أي: فاعبُدِ اللهَ مُخلِصًا له وَحْدَه في جميعِ عباداتِك الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، ولا تُشرِكْ به شَيئًا، ولا تَقصِدْ بعِبادتِك حَظًّا دُنيويًّا[٣].

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ الله سُبحانَه رسولَه بهذا الأمرِ نادى باستِحقاقِه لذلك، وأنَّه لم يَطلُبْ غَيرَ حَقِّه، وأنَّ ذلك لا يُتصَوَّرُ أن يكونَ لِغَيرِه سُبحانَه[٤].

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾.

أي: ألَا لله وَحْدَه الطَّاعةُ والعِبادةُ النَّقيَّةُ مِن شوائِبِ الشِّركِ والرِّياءِ، فهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤١).

المُستَحِقُّ وحْدَه لإفرادِه بالعبادةِ؛ فلا يَقبَلُ مِن العَمَلِ إلَّا ما كان خالِصًا له وحْدَه دونَ ما سِواه[١].

عن أبي أُمامةَ الباهِليِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: أرأيْتَ رَجُلًا غَزا يَلتَمِسُ الأجرَ والذِّكرَ، ما لَه؟ فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا شَيءَ له! فأعادها ثلاثَ مَرَّاتٍ، يقولُ له رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا شَيءَ له! ثمَّ قال: إنَّ اللهَ لا يَقبَلُ مِن العَمَلِ إلَّا ما كان له خالِصًا، وابتُغِيَ به وَجهُه))[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن سُبحانَه أنَّ رأسَ العباداتِ ورَئيسَها الإخلاصُ في التَّوحيدِ؛ أردفَه بذَمِّ طَريقةِ المُشرِكينَ[٣]، وبيَّن شُبهتَهم الَّتي احتجُّوا بها للإشراكِ به تعالى[٤] الَّذي هو مُخالِفٌ للإخلاصِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٧، ٣١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٢).

(٢) أخرجه من طُرقٍ: النَّسائيُّ (٣١٤٠) واللَّفظُ له، والطبرانيُّ (٨/ ١٦٥) (٧٦٢٨).
جوَّد إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٤٠)، وابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٨١)، وابن حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٣٥)، والصنعاني في ((سبل السلام)) (٤/ ٦٨)، وحسَّن إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٥/ ١١٢)، وقال الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٣١٤٠): (حسَنٌ صحيحٌ).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٥). ويُنظر أيضًا: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٣٦).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾.

أي: والمُشركونَ الَّذين اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ يَتولَّونَهم ويَعبُدونَهم يقولونَ: ما نَعبُدُهم إلَّا لِيُقرِّبونا إلى اللهِ قُربةً منه ومَنزِلَةً في الدُّنيا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَفصِلُ بَيْنَهم(٢) .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢١، ٣٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٩-٣١).

قال السعدي: (أي: لِتَرفعَ حوائِجَنا لله، وتَشفَعَ لنا عندَه، وإلَّا فنحن نعلَمُ أنَّها لا تَخلُقُ، ولا تَرزُقُ، ولا تَملِكُ مِن الأمرِ شيئًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي (١٥/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٤).

وقال الشوكاني: (والموصولُ [أي: قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾]: عبارةٌ عن المشركين، ومحلُّه الرَّفعُ على الابتداءِ، وخبرُه قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾، وجملةُ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ بتقديرِ القولِ، والاستثناءُ مُفرَّغٌ مِن أعمِّ العللِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٥). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١).

(٢) اختَلف المفسِّرونَ في عَودِ الضَّميرِ في قوله: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾؛ فقيل: أي: بيْنَ أهلِ الأديانِ. وممَّن اختاره: ابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٥).

وقيل: بيْنَ الكفَرةِ والمشركين، ومُقابليهم مِن المُسلِمينَ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: البيضاويُّ، والنسفي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨). =

يومَ القيامةِ فيما هم فيه يَختَلِفونَ في الدُّنيا[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُوَفِّقُ إلى الحَقِّ كُلَّ مَن هو كاذِبٌ على الله، شَديدُ الكُفرِ به، فيَصِفُه بما لا يَليقُ به، ويتَّخِذُ مِن دُونِه أولياءَ، ويَدَّعي أنَّ عِبادتَهم تُقرِّبُهم إلى اللهِ زُلْفى[٢]!

﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ

= وقيل: الضَّميرُ عائدٌ إلى الَّذين اتَّخَذوا أولياءَ. والمرادُ بـ﴿مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: اختِلافُ طرائِقِهم في العبادةِ، وفي أنواعِها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢).

قال ابن عاشور: (ومعنى الحُكمِ بيْنَهم أنَّه يُبَيِّنُ لهم ضلالَهم جميعًا يومَ القيامةِ؛ إذ ليس معنى الحُكمِ بيْنَهم مُقتضيًا الحُكمَ لفريقٍ منهم على فريقٍ آخَرَ، بل قد يكونُ الحُكمُ بيْنَ المُتخاصِمَينِ بإبطالِ دَعوى جميعِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٢).

وقال الواحدي: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ بيْن أهلِ الأديانِ، وهم الَّذين اتَّخذوا مِن دونِه أولياءَ). ((الوسيط)) (٣/ ٥٧٠).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى الَّذين اتَّخَذوا أولياءَ مِن دون الله، وأوليائِهم، أي: بيْنَ المُتَّخِذينَ والمُتَّخَذينَ، والمعنى: إنَّ الله يَحكُمُ بيْنَهم بأنَّه يُدخِلُ الملائكةَ وعيسى عليهم السَّلامُ الجنَّةَ، ويُدخِلُهم النَّارَ مع الحجارةِ الَّتي نَحَتوها وعبَدوها مِن دون الله تعالى. وممَّن اختار هذا القولَ: الزمخشريُّ، والرسعني، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٣).

وقال العُلَيمي: (بيْنَ العابدِ والمعبودِ، والمسلمِ والكافرِ). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٣، ٣٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٣، ٣٤).

ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ سُبحانَه بالحُكمِ بيْنَهم، فكان ذلك -مع تضَمُّنِه التَّهديدَ- وافيًا بنَفيِ الشَّريكِ، كافيًا في ذلك؛ لأنَّ المحكومَ فيه لا يجوزُ أن يكونَ قَسيمًا للحاكِمِ، فلم يَبْقَ في شَيءٍ مِن ذلك شُبهةٌ إلَّا عندَ ادِّعاءِ الوَلَديَّةِ: قال نافيًا لها على سَبيلِ الاستِئنافِ، جوابًا لِمَن يقولُ: فما حالُ مَن يتولَّى الولَدَ[1]:

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: لو أراد اللهُ أن يَتَّخِذَ لنَفْسِه ولَدًا لاختارَ ما يَشاءُ مِمَّا يَخلُقُه، ولم يَكِلْ ذلك إلى المُشرِكينَ لِيَختاروا له ما شاؤوا بأهوائِهم[2]!

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾.

أي: تَنزَّهَ اللهُ عن الوَلَدِ، وعمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ مِن النَّقائِصِ والعُيوبِ[3].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

أي: هو اللهُ الواحِدُ في ذاتِه وأسمائِه، وصِفاتِه وأفعالِه، لا شَبيهَ له مِن خَلْقِه،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٨، ٥١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٥، ٣٢٦).

قال ابن كثير: (هذا شَرطٌ لا يَلزَمُ وُقوعُه ولا جوازُه، بل هو مُحالٌ، وإنَّما قَصَد تَجهيلَهم فيما ادَّعَوه وزَعَموه... ويجوزُ تعليقُ الشَّرطِ على المُستحيلِ؛ لِقَصدِ المتكَلِّمِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

ولا نِدَّ له ولا شَريكَ ولا نَظيرَ؛ وهو القَهَّارُ الَّذي قهَرَ كُلَّ شَيءٍ وغَلَبه بقُدرتِه، فذَلَّ له وخَضَع[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في وَصفِ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الله تعالى أنزَلَ القرآنَ بالحِكمةِ ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وفي هذا إرشادٌ إلى وُجوبِ التَّدبُّرِ في معاني هذا الكِتابِ؛ لِيُتوصَّلَ بذلك التَّدبُّرِ إلى العِلمِ بأنَّه حَقٌّ مِن عندِ الله؛ قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[٢] [فصلت: ٥٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أنَّ العِبادةَ دِينٌ يَدينُ به الإنسانُ، ومعنى كَونِه دِينًا: أنَّه يَعمَلُ لِيُثابَ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائِدةِ: أنَّه ينبغي للإنسانِ حينَ العبادةِ أن يُلاحِظَ هذا المعنى -وهو أنَّه يَعمَلُ لِيُثابَ- لأنَّه إذا شَعَر بهذا الشُّعورِ فسوف يُتقِنُ العَمَلَ؛ إذ إنَّ العَقلَ يَهدي الإنسانَ إلى أنَّ الثَّوابَ على قَدْرِ العَمَلِ؛ إنْ أحسنْتَ العمَلَ حَسُنَ الثَّوابُ، وإنْ قَصَّرْتَ فالثَّوابُ يَنقُصُ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ التَّحذيرُ مِن الكَذِبِ وخِصالِ الكُفرِ، وأنَّ الكَذِبَ سببٌ لِمَنعِ الهدايةِ، والقاعِدةُ في ذلك: «أنَّ الحُكمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ وُجِدَ بوُجودِه»، وانتفَى بانتفائِه، ويدُلُّ لهذا أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إيَّاكم والكَذِبَ؛ فإنَّ الكَذِبَ يَهدي إلى الفُجورِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٧).

وإنَّ الفُجورَ يَهدي إلى النَّارِ))[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ أنَّ الصِّدقَ سَبَبٌ للهِدايةِ. وَجْهُه: أنَّه إذا كان الكذِبُ سَببًا للغَوايةِ، فضِدُّه سببٌ لضِدِّه؛ فيَكونُ الصِّدقُ سَببًا للهدايةِ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: التَّرغيبُ في الصِّدقِ، والصِّدقُ يَكونُ مع اللهِ، ومع رَسولِ اللهِ، ومع عِبادِ اللهِ؛ فالصِّدْقُ مع اللهِ هو بالإخلاصِ له، ومع الرَّسولِ هو باتِّباعِه، ومعَ عِبادِ اللهِ هو بحُسنِ المعاملةِ؛ فعليك بالصِّدقِ: ((فإنَّ الصِّدقَ يَهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يَهدي إلى الجنَّةِ، وما يَزالُ الرَّجُلُ يَصدُقُ ويَتَحَرَّى الصِّدقَ حتَّى يُكتَبَ عندَ اللهِ صِدِّيقًا))[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ دَلَّ استِقراءُ القُرآنِ العَظيمِ على أنَّ اللهَ جَلَّ وعلا إذا ذكَرَ تَنزيلَه لكِتابِه، أتْبَعَ ذلك ببَعضِ أسمائِه الحُسنى المُتضَمِّنةِ صِفاتِه العُليا؛ ففي أوَّلِ هذه السُّورةِ الكريمةِ لَمَّا ذكَرَ تَنزيلَه كِتابَه، بيَّن أنَّ مَبدأَ تَنزيلِه كائِنٌ منه جَلَّ وعلا، وذكرَ اسمَه (اللهَ)، واسمَه (العزيزَ) و(الحَكيمَ)، ولا يخفَى أنَّ ذِكرَه جَلَّ وعلا هذه الأسماءَ الحُسنى العَظيمةَ بعدَ ذِكرِه تَنزيلَ هذا القُرآنِ العَظيمِ: يدُلُّ بإيضاحٍ على عَظَمةِ القُرآنِ العَظيمِ، وجَلالةِ شَأنِه، وأهمِّيَّةِ نُزولِه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ غيرُ مَخلوقٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٧).
والحديث أخرجه مسلم (٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٧).
والحديثُ جزءٌ من حديثِ ابنِ مسعودٍ الذي تقدَّم تخريجُه قريبًا.

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥١).

ووجْهُ كَونِه مُنَزَّلًا ظاهِرٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ووجْهُ كَونِه غيرَ مخلوقٍ: أنَّ الإنزالَ إذا أُضِيفَ إلى عَينٍ قائمةٍ بنَفْسِها فهذه العَينُ مَخلوقةٌ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وإذا أُضِيفَ إلى وَصفٍ كان هذا الوَصفُ حسَبَ الموصوفِ، والكلامُ وَصفٌ؛ فإذا كان اللهُ أنزَلَ القرآنَ -وهو كَلامٌ- وأضافه إلى نَفْسِه، فهو عزَّ وجَلَّ -هو بصِفاتِه- أزَلِيٌّ أبَدِيٌّ ليس بمَخلوقٍ، واجبُ الوجودِ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أنَّ القُرآنَ نازِلٌ ممَّن هذا وَصْفُه -والكلامُ وَصفٌ للمُتكَلِّم، والوَصفُ يَتْبَعُ الموصوفَ- فكما أنَّ الله تعالى هو الكامِلُ مِن كلِّ وَجهٍ، الَّذي لا مَثيلَ له؛ فكذلك كلامُه كامِلٌ مِن كُلِّ وَجهٍ، لا مَثيلَ له؛ فهذا وَحْدَه كافٍ في وَصفِ القُرآنِ، دالٌّ على مَرتبتِه[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ دَليلٌ على عُلُوِّ اللهِ؛ وَجْهُه: أنَّه قال: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، ومِن: للابتداءِ؛ فإذا كان ابتِداءُ الكتابِ مِن عندِ اللهِ -وهو مُنَزَّلٌ- دَلَّ على عُلُوِّ مَن كان مِن عِندِه، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ سؤالٌ: لَفظُ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الزمر: ١] يُشعِرُ بأنَّه تعالى أنزَلَه منَجَّمًا على سبيلِ التَّدريجِ، ولفظُ «الإنزالِ» يُشعِرُ بأنَّه تعالى أنزَلَه دَفعةً واحِدةً؟

الجوابُ: أنَّ طَريقَ الجَمعِ أن يُقالَ: إنَّا حكَمْنا حُكمًا كُلِّيًّا بأن نُوصِلَ إليك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٨). ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٥-١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١١٧، ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٨).

هذا الكِتابَ، وهذا هو الإنزالُ، ثمَّ أوصَلْناه إليك نَجمًا نَجمًا على وَفقِ المصالحِ، وهذا هو التَّنزيلُ[١].

أو: أنَّه نزَل جملةً واحدةً مِن اللَّوحِ المحفوظِ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ثمَّ أُنزِل بعدَ ذلك مُفرَّقًا[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ﴾ أنَّ مَن لم يَبْلُغْه القُرآنُ لم تَلزَمْه العِبادةُ، ووَجهُ ذلك: أنَّ الفاءَ للتَّفريعِ -وعَلامةُ فاءِ التَّفريعِ أنَّ ما بعدَها يكونُ مُرَتَّبًا على ما قبْلَها- فالمعنى: «فلإنزالِنا إليك الكتابَ اعبُدِ اللهَ مخلِصًا له الدِّينَ»، ويدُلُّ لهذا آياتٌ أُخرَى، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[٣] [الإسراء: ١٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ إنزالَ الكِتابِ عليه نِعمةٌ كُبرى، تَقتَضي أنْ يُقابِلَها الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالشُّكرِ بإفرادِ الله تعالى بالعِبادةِ، وإيماءٌ إلى أنَّ إشراكَ المُشرِكينَ باللهِ غَيرَه في العِبادةِ كُفرٌ لنِعَمِه الَّتي أنعَمَ بها؛ فإنَّ الشُّكرَ صَرفُ العَبدِ جَميعَ ما أنعَمَ اللهُ به عليه فيما خُلِقَ لأجْلِه، وفي العِبادةِ تَحقيقُ هذا المَعنى؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[٤] [الذاريات: ٥٦].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ أنَّ اللهَ تعالى لا يَقبَلُ إلَّا دِينًا خالِصًا، وأمَّا ما سِواه فليس لله، حتَّى وإنْ أشرَكْتَ به مع الله؛ لأنَّ الدِّينَ لله: هو الخالِصُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٤٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤،٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٦).

النَّقيُّ مِن شوائِبِ الشِّركِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ وُجوبُ الإخلاصِ للهِ في العبادةِ، والإخلاصُ: تَنقيةُ الشَّيءِ مِمَّا يَشُوبُه؛ ولهذا جاء في الحديثِ الصَّحيحِ: أنَّ اللهَ تعالى قال: ((أنا أغنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ؛ مَن عَمِلَ عمَلًا أشرَكَ فيه معيَ غيري تَرَكْتُه وشِرْكَه))[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ غِنَى اللهِ عزَّ وجلَّ الغِنى التَّامَّ، ووَجهُ ذلك: أنَّه إذا كان اللهُ لا يَقبَلُ إلَّا ما كان خالِصًا، دلَّ على غِناه عن عَمَلِ العِبادِ؛ لأنَّه -وحاشاه مِن ذلك- لو كان فَقيرًا مُحتاجًا لِذلك لَاكتفَى بما يأتيه منهم، ولو على سَبيلِ المُشارَكةِ، كالإنسانِ المُحتاجِ يَقبَلُ منك ما كان خاصًّا له، وما كان مُشتَرَكًا، فلمَّا كان اللهُ لا يَقبَلُ إلَّا ما كان خالِصًا عُلِمَ بهذا غِناه عن العِبادِ، وإلى هذا يُشيرُ قولُه تعالى في الحديثِ القُدُسيِّ: ((أنا أغنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ))[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أنَّه لَمَّا كان الإنسانُ مَفطورًا على الخُضوعِ للمَلِكِ الدَّيَّانِ، ولا يَلتَفِتُ إلى غيرِه إلَّا بمُعالَجةِ النَّفْسِ بما لَها مِنَ الهوى والطُّغيانِ؛ عبَّرَ بصيغةِ الافتِعالِ، فقال: ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، أي: عالَجوا عُقولَهم حتَّى صَرَفوها عن الله[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦).

والحديث أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥).

والحديثُ تقدَّم تخريجُه قريبًا.

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٤).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ تَنبيهٌ على خَطَئِهم في رِضاهم بالأدْنَى عن الأعلَى، ومَعلومٌ أنَّ كُلَّ شَيءٍ دُونَه[١].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أنَّ المُشرِكينَ في عَهدِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُقِرُّون بوُجودِ اللهِ تعالى، وأنَّه أعظَمُ مِن كلِّ عَظيمٍ، فهم مُعتَرِفونَ باللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه أعظَمُ مِن أصنامِهم؛ ولهذا جَعَلوها وسيلةً للتَّقَرُّبِ إليه[٢].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أنَّ اتِّخاذَ الوَسائِطِ مِن دُونِ اللهِ هو مِن أصولِ كُفرِ الكُفَّارِ[٣].

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ هذه الشُّبهةُ هي الَّتي اعتَمَدها المُشرِكونَ في قديمِ الدَّهرِ وحَديثِه، وجاءَتْهم الرُّسُلُ -صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم أجمعينَ- بردِّها والنَّهيِ عنها، والدَّعوةِ إلى إفرادِ العبادةِ للهِ وَحْدَه لا شَريكَ له، وأنَّ هذا شَيءٌ اختَرَعه المُشرِكونَ مِن عندِ أنفُسِهم، لم يأذَنِ اللهُ فيه، ولا رَضِيَ به، بل أبغَضَه ونهَى عنه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وأخبَرَ أنَّ الملائكةَ الَّتي في السَّمَواتِ -مِن المقرَّبينَ وغَيرِهم- كُلُّهم عَبيدٌ خاضِعونَ لله، لا يَشفَعونَ عِندَه إلَّا بإذنِه لِمَنِ ارتَضَى، وليسوا عندَه كالأُمراءِ عندَ مُلوكِهم، يَشفَعونَ عِندَهم بغيرِ إذنِهم فيما أحَبَّه الملوكُ وأبَوْه، ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٠٣).

ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]. تعالى اللهُ عن ذلك(١).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أنَّ هؤلاء قاسُوا الَّذي ليس كمِثلِه شَيءٌ، المَلِكَ العَظيمَ: بالملوكِ، وزَعَموا بعُقولِهم الفاسِدةِ ورأيِهم السَّقيمِ أنَّ الملوكَ كما أنَّه لا يُوصَلُ إليهم إلَّا بوُجَهاءَ وشُفَعاءَ ووُزراءَ يَرفَعونَ إليهم حوائِجَ رعاياهم، ويَستَعطِفونَهم عليهم، ويُمهِّدون لهم الأمرَ في ذلك؛ أنَّ الله تعالى كذلك! وهذا القياسُ مِن أفسَدِ الأقيسةِ، وهو يَتضَمَّنُ التَّسويةَ بيْنَ الخالِقِ والمخلوقِ، مع ثُبوتِ الفَرقِ العظيمِ عقلًا ونَقلًا وفِطرةً؛ فإنَّ الملوكَ إنَّما احتاجوا للوَساطةِ بيْنَهم وبيْنَ رعاياهم لأنَّهم لا يَعلَمونَ أحوالَهم، فيَحتاجُون مَن يُعلِمُهم بأحوالِهم، ورُبَّما لا يكونُ في قُلوبِهم رَحمةٌ لصاحِبِ الحاجةِ، فيَحتاجُون مَن يُعَطِّفُهم عليه، ويَسترحِمُه لهم، ويحتاجونَ إلى الشُّفَعاءِ والوُزَراءِ، ويخافونَ مِنهم؛ فيَقضُونَ حوائِجَ مَن توسَّطوا لهم؛ مُراعاةً لهم، ومُداراةً لخواطِرِهم، وهم أيضًا فُقَراءُ؛ قد يَمنَعونَ لِما يَخشَونَ مِن الفَقرِ، وأمَّا الرَّبُّ تعالى فهو الَّذي أحاط عِلمُه بظواهِرِ الأمورِ وبواطِنِها، الَّذي لا يَحتاجُ مَن يُخبِرُه بأحوالِ رعيَّتِه وعبادِه، وهو تعالى أرحَمُ الرَّاحِمينَ، وأجوَدُ الأجوَدِينَ، لا يَحتاجُ إلى أحَدٍ مِن خَلْقِه يَجعَلُه راحِمًا لعبادِه، بل هو أرحَمُ بهم مِن أنفُسِهم ووالِديهم، وهو الَّذي يَحُثُّهم ويَدْعوهم إلى الأسبابِ الَّتي يَنالُونَ بها رَحمتَه، وهو يريدُ مِن مَصالِحِهم ما لا يُريدونَه لأنفُسِهم، وهو الغَنيُّ الَّذي له الغِنى التَّامُّ المُطلَقُ، الَّذي لو اجتمَعَ الخَلقُ مِن أوَّلِهم وآخِرِهم في صَعيدٍ واحدٍ فسَألوه، فأعطَى كلًّا منهم ما سَأل وتمنَّى: لم يَنقُصوا مِن غِناه شيئًا، ولم يَنقُصوا ممَّا عندَه إلَّا كما يَنقُصُ البَحرُ إذا غُمِسَ فيه المِخْيَطُ! وجميعُ الشُّفَعاءِ يَخافونَه؛ فلا يَشفَعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥).

منهم أحَدٌ إلَّا بإذْنِه، وله الشَّفاعةُ كُلُّها. فبهذه الفُروقِ يُعلَمُ جَهلُ المُشرِكينَ به، وسَفَهُهم العَظيمُ، وشِدَّةُ جَراءتِهم عليه، ويُعلَمُ أيضًا الحِكمةُ في كَونِ الشِّركِ لا يَغفِرُه اللهُ تعالى؛ لأنَّه يَتضَمَّنُ القَدْحَ في الله تعالى؛ ولهذا قال حاكِمًا بيْنَ الفريقَينِ: المُخلِصينَ والمُشرِكينَ -على قولٍ في التَّفسيرِ- وفي ضِمنِه التَّهديدُ للمُشرِكينَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾[1]!

١٧- لَمَّا حكَى الله تعالى مَذهبَ المشركينَ اقتَصَر في الجوابِ على مجرَّدِ التَّهديدِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الرَّجُلَ المُبطِلَ إذا ذَكَر مَذهَبًا باطِلًا، وكان مُصِرًّا عليه؛ فالطَّريقُ في علاجِه أن يُحتالَ بحِيلةٍ تُوجِبُ زَوالَ ذلك الإصرارِ عن قَلبِه، فإذا زال الإصرارُ عن قَلبِه فبعدَ ذلك يُسمِعُه الدَّليلَ الدَّالَّ على بُطلانِه؛ فيَكونُ هذا الطَّريقُ أفضَى إلى المقصودِ[2].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أنَّهم ليس لهم أصلٌ يَضبِطُهم؛ فهم لا يَرجِعونَ إلَّا إلى الخَلفِ كيفَما تقلَّبوا؛ لأنَّهم مَظروفون لذلك العمَلِ الَّذي مبناه الهوى الَّذي هو مَنشَأُ الاختِلافِ، فكيف إذا انضَمَّ إلى ذلك خِلافُ المُخلِصينَ وإنكارُهم عليهم، الَّذي أرشَدَ إليه اعتِذارُهم؟! فظهَرَ مِن هذا أنَّ اختِلافَ الأئمَّةِ في فَهمِ كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لقواعِدَ مُعتبَرةٍ استَنبطوها مِن ذلك لا يَخرُجونَ عنها: ليس مِن الخِلافِ المذمومِ؛ لِوَحدةِ ما يَرجِعونَ إليه مِنَ الأصلِ الصَّحيحِ الثَّابتِ عن اللهِ[3].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ أنَّ الكُفرَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٦).

سَبَبٌ للغَوايةِ، ويُؤَيِّدُ هذا قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥][١]، وأنَّ مَن أصَرَّ على الكَذِبِ والكُفرِ بَقِيَ مَحرومًا مِن الهِدايةِ[٢].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ أي: دائِمٌ على كُفرِه وكَذِبِه، أو لا يَهديه إلى حُجَّةٍ يُلزِمُ بها المؤمِنينَ[٣]، أو يكونُ المعنى: إنَّ اللهَ لا يَهدي الكاذبَ الكفَّارَ في حالِ كذبِه وكفرِه، أو يَكونُ لفظُها العمومَ ومعناها الخصوصَ فيمَن ختَم الله عليه بالكفرِ، وقضَى في الأزلِ أنَّه لا يؤمنُ أبدًا، وإلَّا فقد وُجِد الكاذبُ الكَفَّارُ وقد هُدِيَ كثيرًا[٤].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ دَليلٌ على أنَّ المؤمِنَ هداه اللهُ إلى إيمانِه، وهو حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ في أشياءَ؛ فمِنها: ما يَزعُمونَ أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه ليس له في فِعلِ العبدِ صُنعٌ بمَعونةٍ ولا غَيرِها! وقد أخبَرَ نصًّا هاهنا أنَّ الكافرَ مُحتاجٌ إلى هدايةِ اللهِ إيَّاه، وأنَّ المؤمِنَ به اهتدى. ومنها: ما يَلزَمُهم في ادِّعاءِ العَدْلِ الَّذي لا يَعقِلونَه، مِن مُطالَبةِ الكافرِ بالإيمانِ، وعُقوبتِه على الكُفرِ، وليس يَقدِرُ على ما أُمِرَ به إلَّا بهِدايةِ آمِرِه[٥]!

٢٢- قَولُه تعالى: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ المقصودُ مِن هذه الآيةِ إبطالُ إلهيَّةِ أصنامِ المشركينَ، وقد بُنِيَ الدَّليلُ على قاعِدةِ استِحالةِ الوَلَدِ على اللهِ تَعالى؛ إذْ بُنيَ القياسُ الشَّرطيُّ[٦] على فَرضِ اتِّخاذِ الوَلَدِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩١، ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٨).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣).

(٦) يُنظر: ((المستصفى)) للغزالي (ص: ١٦٣)، ((الموافقات)) للشاطبي (٥/ ٤٢١).

لا على فَرضِ التَّوَلُّدِ، فاقتَضى أنَّ المُرادَ باتِّخاذِ الوَلَدِ التَّبَنِّي؛ لِأنَّ إبطالَ التَّبَنِّي بهذا الاستِدلالِ يَستَلزِمُ إبطالَ تَوَلُّدِ الابنِ بالأَوْلى، وعَزَّزَ المَقصودَ مِن ذِكرِ فِعلِ الاتِّخاذِ بتَعقيبِه بفِعلِ الاصطِفاءِ على طَريقةِ مُجاراةِ الخَصمِ المُخطِئِ؛ لِيُغيرَ في مَهواةِ خَطَئِه، أيْ: لو كان لِأحَدٍ مِنَ اللهِ نِسبةُ بُنوَّةٍ لَكانت تلك النِّسبةُ التَّبَنِّيَ، لا غَيرُ؛ إذْ لا تُعقَلُ بُنوَّةٌ للهِ غَيرُ التَّبَنِّي، ولو كان اللهُ مُتبَنِّيًا لَاختارَ ما هو الأليَقُ بالتَّبَنِّي مِن مَخلوقاتِه دُونَ الحِجارةِ الَّتي زَعَمتُموها بَناتٍ للهِ. وإذا بَطَلتْ بُنوَّةُ تلك الأصنامِ الثَّلاثةِ المَزعومةِ، بَطَلتْ إلَهيَّةُ سائِرِ الأصنامِ الأُخرى الَّتي اعتَرَفوا بأنَّها في مَرتَبةٍ دونَ مَرتَبةِ اللَّاتِ والعُزَّى ومَناةَ بطَريقِ الأَوْلى، واتِّفاقِ الخَصمَيْنِ؛ فقدِ اقتَضى الكَلامُ دَليلَيْنِ، طُوِيَ أحَدُهما، وهو دَليلُ استِحالةِ الوَلَدِ بالمَعنى الحَقيقيِّ عن اللهِ تعالى، وذُكِرَ دَليلُ إبطالِ التَّبَنِّي لِمَا لا يَليقُ أنْ يَتَبَنَّاه الحَكيمُ[(١)].

٢٣- قَولُه تعالى: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ فيه بيانُ كمالِ سُلطانِ اللهِ سُبحانه وتعالى، وأنَّه لو أراد شَيئًا لم يَمتنعْ عليه، ومِن وَجهٍ آخَرَ: أنَّ فيه رَدًّا لِدَعواهم بأنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، أو المسيحَ ابنُ اللهِ، أو عُزَيرًا، فيَقولُ: لو أراد اللهُ أنْ يَتَّخِذَ ولدًا لَاصطفى ما يَشاءُ دون أنْ يَتَّخِذَ ما ادَّعَوه[(٢)]!

٢٤- قَولُه تعالى: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ فيه إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للهِ عزَّ وجَلَّ. والأفعالُ الاختياريَّةُ للهِ ثابتةٌ بالسَّمعِ والعَقلِ؛ أمَّا السَّمعُ فما أكثرَ الأفعالَ الَّتي يُضيفُها اللهُ عزَّ وجلَّ إلى نَفْسِه، وأمَّا العَقلُ فلِأنَّ الفاعِلَ بالاختيارِ أكمَلُ ممَّن لا يَفعَلُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٣).

٢٥- قَولُه تعالى: ﴿سُبۡحَـٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ أي: الواحِدُ في ذاتِه، وفي أسمائِه، وفي صِفاتِه، وفي أفعالِه؛ فلا شَبيهَ له في شَيءٍ مِن ذلك، ولا مُماثِلَ؛ فلو كان له ولَدٌ لاقتَضَى أن يَكونَ شَبيهًا له في وَحدتِه؛ لأنَّه بَعضُه وجُزءٌ منه، ووَحدتُه تعالى وقَهرُه مُتلازِمانِ؛ فالواحِدُ لا يكونُ إلَّا قهَّارًا، والقهَّارُ لا يكونُ إلَّا واحِدًا، وذلك يَنفي الشَّرِكةَ له مِن كُلِّ وَجهٍ[١]، وكَونُه قَهَّارًا يَمنَعُ مِن ثُبوتِ الولَدِ له؛ لأنَّ المُحتاجَ إلى الولَدِ هو الَّذي يَموتُ فيَحتاجُ إلى ولَدٍ يَقومُ مَقامَه؛ فالمُحتاجُ إلى الولَدِ هو الَّذي يكونُ مَقهورًا بالموتِ، أمَّا الَّذي يكونُ قاهِرًا ولا يَقهَرُه غَيرُه فيكونُ الولَدُ في حَقِّه مُحالًا؛ فثَبَت أنَّ في قَولِه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ ألفاظًا مُشتَمِلةً على دلائِلَ قاطِعةٍ في نَفيِ الولَدِ عنِ اللهِ تعالى[٢].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ أنَّ الولَدَ لا يَحصُلُ إلَّا مِن الزَّوجِ والزَّوجةِ، والزَّوجانِ لا بُدَّ أن يكونَا مِن جِنسٍ واحِدٍ؛ فلو كان له -تعالى- ولَدٌ لَما كان واحِدًا، بل كانت زَوجتُه مِن جِنسِه[٣]!

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ إثباتُ الوَحدانيَّةِ له سبحانَه، وهذا يُبطِلُ الشَّريكَ في الإلهيَّةِ على تفاوُتِ مَراتبِه، وإثباتُ ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ يُبطِلُ ما زَعَموه مِن أنَّ أولياءَهم تُقَرِّبُهم إلى اللهِ زُلْفى وتَشفَعُ لهم[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ فاتِحةٌ أنيقةٌ في التَّنويهِ بالقُرآنِ، جُعِلَت مُقدِّمةً لهذه السُّورةِ؛ لأنَّ القُرآنَ جامِعٌ لِمَا حَوَتْه وغيرِه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٧).

أُصولِ الدِّينِ[١].

- و﴿تَنزِيلُ﴾ خَبَرٌ لِمُبتَدَأٍ مَحذوفٍ هو اسمُ إشارةٍ، أُشيرَ به إلى السُّورةِ تَنزيلًا لها مَنزِلةَ الحاضِرِ المُشارِ إليه؛ لِكَونِها على شَرَفِ الذِّكرِ والحُضورِ. وقيلَ: إنَّه خَبَرٌ، والمُبتَدأُ (هو)؛ لِيَعودَ على قَولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]، كأنَّه قيلَ: وهذا الذِّكرُ ما هو؟ فقيلَ: هو تَنزيلُ الكِتابِ[٢].

- وأيضًا ﴿تَنزِيلُ﴾: مَصدرُ (نَزَّلَ) المضاعَفِ، وهو مُشعِرٌ بأنَّه أنزَلَه مُنجَّمًا. واختيارُ هذه الصِّيغةِ هنا للرَّدِّ على الطَّاعنينَ؛ لأنَّ مِن جُملةِ ما تَعلَّلوا به قولَهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾[٣] [الفرقان: ٣٢].

- وأُجْرِيَ على اسمِ الجَلالةِ الوَصفُ بـ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ ما يَنزِلُ منه يأْتي على ما يُناسِبُ الصِّفتَينِ؛ فيكونُ عَزيزًا؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، أي: القرآنُ عزيزٌ غالبٌ بالحُجَّةِ لِمَن كذَّبَ به، وغالِبٌ بالفَضْلِ لِما سِواهُ مِن الكُتبِ، مِن حيثُ إنَّ الغَلَبةَ تَستلزِمُ التَّفضُّلَ والتَّفوُّقَ، وغالِبٌ لِبُلغاءِ العرَبِ؛ إذ أعجَزَهم عن مُعارَضةِ سُورةٍ منه، ويكونُ حَكيمًا مِثلَ صِفَةِ مُنزِّلِه[٤].

- والحَكيمُ: إمَّا بمعنى الحاكِمِ؛ فالقرآنُ أيضًا حاكمٌ على مُعارِضيه بالحُجَّةِ، وحاكمٌ على غَيرِه مِن الكُتبِ السَّماويَّةِ بما فيه مِن التَّفصيلِ والبيانِ؛ قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. وإمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٤).

بمعنى: المُحكِم المُتقِن؛ فالقُرآنُ مُشتمِلٌ على البَيانِ الَّذي لا يَحتمِلُ الخطَأَ، وإمَّا بمعنى الموصوفِ بالحِكمةِ؛ فالقُرآنُ مُشتمِلٌ على الحِكمةِ كاتِّصافِ مُنزِّلِه بها. على أنَّ في هذَينِ الوَصفَينِ إيماءً إلى أنَّ القُرآنَ مُعجِزٌ ببَلاغةِ لَفظِه، وبإعجازِه العِلميِّ؛ إذِ اشتَمَلَ على عُلومٍ لم يَكُنْ لِلنَّاسِ عِلْمٌ بها[١].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ لِلعَهدِ، وهو القُرآنُ المَعهودُ بَيْنَهم عِندَ كُلِّ تَذكيرٍ، وكُلِّ مُجادَلةٍ[٢]. ويَجوزُ أنْ يَكونَ لَفظُ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ اسمًا عامًّا لِجَميعِ ما تَنَزَّلَ مِن عِندِ اللهِ مِنَ الكُتُبِ، وكأنَّه أخبَرَ إخبارًا مُجرَّدًا أنَّ الكُتُبَ الهاديةَ الشَّارعةَ إنَّما تَنزيلُها مِنَ اللهِ، وجَعَل هذا الإخبارَ تَقدِمةً وتَوطِئةً لِقَولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[٣] [الزمر: ٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾

- قَولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ استِئنافٌ وشُروعٌ في بَيانِ شَأنِ المُنَزَّلِ إليه، وما يَجِبُ عليه، إثْرَ بَيانِ شَأنِ المُنزَّلِ، وكَونِه مِن عِندِ اللهِ تَعالى[٤].

- وافتِتاحُ الجُملةِ بحَرفِ (إنَّ) مُراعًى فيه ما استُعمِلَ فيه الخَبَرُ مِنَ الامتِنانِ؛ فيُحمَلُ حَرفُ (إنَّ) على الاهتِمامِ بالخَبَرِ. وما أُريدَ به مِنَ التَّعريضِ بالَّذين أنكَروا أنْ يَكونَ مُنَزَّلًا مِنَ اللهِ، فيُحمَلُ حَرفُ (إنَّ) على التَّأكيدِ؛ استِعمالًا لِلمُشتَرَكِ في مَعنَيَيْه، ولِمَا أنَّ ما في هذه الآيةِ مِن زِيادةِ الإعلانِ بصِدقِ النَّبيِّ المُنَزَّلِ عليه الكِتابُ جَديرٌ بالتَّأكيدِ؛ لِأنَّ دَليلَ صِدقِه ليس في ذاتِه، بل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٤، ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٨).

هو قائِمٌ بالإعجازِ الَّذي في القُرآنِ، وبغَيرِه مِنَ المُعجزاتِ؛ فكان مُقتَضَى التَّأكيدِ مَوجودًا، بخِلافِ مُقتَضى الحالِ في قَولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١]؛ فجُملةُ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ تَتنَزَّلُ مَنزِلةَ البَيانِ لِجُملةِ ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾[1] [الزمر: ١].

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فيه إعادةُ لَفظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لتَعظيمِه، ولِمَزيدِ الاعتناءِ بشأنِه؛ جَريًا على خِلافِ مُقتَضَى الظَّاهِرِ بالإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ. فهو تكريرٌ على جِهةِ التَّفخيمِ والتَّعظيمِ؛ أُبرِز في جُملةٍ أخرَى مَلحوظًا فيه إسنادُ إنزالِه إلى ضَميرِ العَظَمةِ، وتَشريفُ مَن أُنزِلَ إليه بالخِطابِ، وتَخصيصُه بالحَقِّ[2].

- والباءُ في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ لِلمُلابَسةِ، وهي ظَرفٌ مُستَقَرٌّ[3] هو حالٌ مِنَ الكِتابِ، أيْ: أنزَلْنا إليكَ القُرآنَ مُلابِسًا لِلحَقِّ في جَميعِ مَعانيه ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، أو بسَبَبِ إثباتِ الحَقِّ وإظهارِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥).

(٣) الظَّرْف المُستقَرُّ -بفتح القاف-: سُمِّي بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّي ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

وتَفصيلِه، وإمَّا مُتعَلِّقةٌ بمَحذوفٍ هو حالٌ مِن نُونِ العَظَمةِ[١].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ لِتَرتيبِ الأمْرِ بالعِبادةِ على إنزالِ الكِتابِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالحَقِّ؛ فأُمِرَ بأنْ يَعبُدَ اللهَ مُخلِصًا له العِبادةَ، مُمَحِّضًا له الدِّينَ مِن شَوائِبِ الشِّركِ والرِّياءِ، حَسبَما بُيِّنَ في تَضاعيفِ ما أُنزِلَ إليكَ. وفي هذا التَّفريعِ تَعريضٌ بما يُناسِبُ المَعنى التَّعريضيَّ في المُفَرَّعِ عليه، وهو أنَّ المُعرَّضَ بهم أنْ يَعبُدوا اللهَ مُخلِصينَ له الدِّينَ، عليهم أنْ يَدَّبَّروا في المَعنى المُعَرَّضِ به[٢].

- قَولُه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ المَقصودُ مِنَ الأمْرِ بالعِبادةِ التَّوطِئةُ إلى تَقييدِ العِبادةِ بحالةِ الإخلاصِ مِن قَولِه: ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، فالمَأمورُ به عِبادةٌ خاصَّةٌ؛ ولذلك لم يَكُنِ الأمْرُ بالعِبادةِ مُستَعمَلًا في مَعنى الأمْرِ بالدَّوامِ عليها، ولذلك أيضًا لم يُؤتَ في هذا التَّركيبِ بصِيغةِ قَصرٍ، خِلافَ قَولِه: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ [الزمر: ٦٦]؛ لِأنَّ المَقصودَ هنا زِيادةُ التَّصريحِ بالإخلاصِ، والرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُنَزَّهٌ عن أنْ يَعبُدَ غيرَ اللهِ[٣].

- قَولُه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ الإخلاصُ: الإمحاضُ وعَدَمُ الشَّوبِ بمُغايِرٍ، وهو يَشمَلُ الإفرادَ، وسُمِّيَتِ السُّورةُ الَّتي فيها تَوحيدُ اللهِ (سُورةَ الإخلاصِ)، أيْ: إفرادُ اللهِ بالإلَهيَّةِ، وأُوثِرَ الإخلاصُ هنا لِإفادةِ التَّوحيدِ، وأخَصَّ منه؛ وهو أنْ تَكونَ عِبادةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رَبَّه غَيرَ مَشوبةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥، ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥، ٣١٦).

بحَظٍّ دُنيَويٍّ[١].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، بلَفظِ ﴿إِلَيۡكَ﴾، وقال فيما بعْدُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦ﴾ [الزمر: ٤١]، بلَفظِ ﴿عَلَيۡكَ﴾؛ ووَجْهُه: أنَّ ﴿إِلَيۡكَ﴾ و﴿عَلَيۡكَ﴾ هنا مُترادِفَتانِ على معنًى واحدٍ مِن معنى الخِطابِ؛ فتارةً يُراعى وُصولُ المنزَّلِ بواسطةِ المَلَكِ، وتارةً يُراعى وُصولُه مِن عندِ اللهِ سُبحانه مِن غيرِ واسطةٍ، فإذا رُوعِيَ هذا قيل: (عليك)، وإذا رُوعِي الأوَّلُ قِيل: (إليك)، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [البقرة: ٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، والأوَّلُ أكثَرُ، فبُدِئَ هنا به. ثمَّ إنَّه ورَدَ في الآيةِ الثَّانيةِ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾، واللَّامُ الجارَّةُ في قولِه: ﴿لِلنَّاسِ﴾ تُفيدُ الاختصاصَ، وتُرادِفُ كثيرًا لفظةَ (إلى)، فلو ورَدَتِ الآيةُ الثَّانيةُ بـ (إلى)، فقِيل: (إنَّا أنْزَلْنا إليك الكتابَ للنَّاسِ)، لَكان ذلك كالمُرادِفِ لِقولِه: (إنَّا أنْزَلْنا إليك الكتابَ إلى النَّاسِ)، وكان يكونُ فيه إيصالُ الفِعلِ إلى مَجرورينِ بحرْفٍ واحدٍ، وليس أحدُهما مَعطوفًا على الآخَرِ! فجِيءَ بالآيتَينِ على ما يُناسِبُ ويُلائمُ، واللهُ أعلمُ[٢]. وقيل: إنَّ (على) تَتضمَّنُ معنَى (فوق)، وأنْ يكون الوحيُ جاءه مِن تلك الجهةِ، وإنَّ (إلى) للنِّهايةِ، فلا تَختَصُّ بجهةٍ دونَ جهةٍ؛ ولذلك كان أكثرُ المواضعِ الَّتي ذُكِرَ فيها إنزالُ القرآنِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عُدِّيَ بـ (على)، كقولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، وقولِه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، وقولِه: ﴿وَنَزَّلۡنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٢٤).

عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [النحل: ٨٩]، وأكثَرُ ما ذُكِرَ إنزالُه على النَّاسِ جاء مُعدًّى بـ (إلى)، كقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾[1] [النساء: ١٧٤].

وقيل: إنَّ كلَّ مَوضعٍ خاطَبَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ ففيه تَكليفٌ، وإذا خاطَبَه بقولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ﴾ ففيه تَخفيفٌ؛ فالَّذي في أوَّلِ السُّورةِ (إليك)؛ فكلَّفَه الإخلاصَ في العبادةِ، والَّذي في آخِرِها (عليك)، فختَمَ الآيةَ بقولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١]، أي: لستَ بمسؤولٍ عنهم؛ فخفَّفَ عنه ذلك[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾

- قَولُه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ استِئنافٌ؛ لِلتَّخلُّصِ إلى استِحقاقِه تعالى الإفرادَ بالعِبادةِ، وهو غَرَضُ السُّورةِ، وأفادَ التَّعليلَ لِلأمْرِ بالعِبادةِ الخالِصةِ للهِ؛ لِأنَّه إذا كان الدِّينُ الخالِصُ مُستَحَقًّا للهِ وخاصًّا به، كان الأمْرُ بالإخلاصِ له مُصيبًا مَحَزَّه[3]؛ فصارَ أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإخلاصِ العِبادةِ له مُسَبَّبًا عن نِعمةِ إنزالِ الكِتابِ إليه، ومُقتَضًى لِكَونِه مُستَحِقَّ الإخلاصِ في العِبادةِ اقتِضاءَ الكُلِّيَّةِ لِجُزئيَّاتِها، وبهذا العُمومِ أفادَتِ الجُملةُ مَعنى التَّذييلِ،

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٠٥-١١٠٩).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٧).

(٣) المَحَزُّ: مَوضِعُ الحَزِّ: أي: القَطعِ. وأصابَ المحَزَّ: عبارةٌ عن فِعلِ الأمرِ على ما يَنبَغي ويَليقُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

فتَحمَّلتْ ثَلاثةَ مَواقِعَ، كُلُّها تَقتَضي الفَصلَ[١].

- وأيضًا افتُتِحتِ هذه الجُملةُ بأداةِ التَّنبيهِ (ألَا)؛ تَنويهًا بمَضمونِها لِتَتَلقَّاه النَّفْسُ بشَراشِرِها -أي: بجُملتِها أو بكُلِّيتِها-، وذلك هو ما رَجَّحَ اعتِبارَ الاستِئنافِ فيها، وجَعَل مَعنى التَّعليلِ حاصِلًا تَبَعًا مِنْ ذِكرِ إخلاصٍ عامٍّ بَعدَ إخلاصٍ خاصٍّ، ومَورِدُهما واحِدٌ[٢].

- واللَّامُ في ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ لامُ المِلْكِ، الَّذي هو بمَعنى الاستِحقاقِ، أيْ: لا يَحِقُّ الدِّينُ الخالِصُ -أيْ: الطَّاعةُ غَيرُ المَشوبةِ- إلَّا له[٣].

- وتَقديمُ المُسنَدِ في قَولِه: ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ؛ فأفادَ قولُه: ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ أنَّه مُستحِقُّه، وأنَّه مُختَصٌّ به[٤].

- وفي إبرازِ اسمِ (اللَّه) الجامِعِ: شأنٌ عَظيمٌ، وخَطبٌ جَليلٌ؛ لِإفادةِ إيجابِ اختِصاصِه بأنْ تُخلَصَ له العِبادةُ[٥].

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾؛ لِزيادةِ تَحقيقِ مَعنى الإخلاصِ للهِ في العِبادةِ، وأنَّه خُلوصٌ كامِلٌ لا يَشوبُه شَيءٌ مِنَ الإشراكِ، ولا إشراكُ الَّذين زَعَموا أنَّهمُ اتَّخَذوا أولياءَ وعَبَدوهم حِرصًا على القُربِ مِنَ اللهِ، يَزعُمونَه عُذرًا لهم، فقَولُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٧، ٣١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٣٦).

مِن فَسادِ الوَضعِ، وقَلبِ حَقيقةِ العِبادةِ؛ بأنْ جَعَلوا عِبادةَ غَيرِ اللهِ وَسيلةً إلى القُربِ مِنَ اللهِ، فنَقَضوا بهذه الوَسيلةِ مَقصدَها، وتَطَلَّبوا القُربةَ بما أبْعَدَها، والوَسيلةُ إذا أفضَتْ إلى إبطالِ المَقصدِ كان التَّوسُّلُ بها ضَربًا مِنَ العَبَثِ[1].

- والاستِثناءُ في قَولِه: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾ استِثناءٌ مِن عِلَلٍ مَحذوفةٍ، أيْ: ما نَعبُدُهم لِشَيءٍ إلَّا لِعِلَّةِ أنْ يُقَرِّبونا إلى اللهِ؛ فيُفيدُ قَصرًا على هذه العِلَّةِ قَصرَ قَلبٍ إضافيًّا[2]، أيْ: دُونَ ما شَنَّعتُم علينا مِن أنَّنا كَفَرْنا نِعمةَ خالِقِنا إذْ عَبَدْنا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢١).

(٢) القصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

غَيرَه[١]!

- وقَولُهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ فيه احتباكٌ[٢]: فذَكَر فِعلَ التَّقريبِ أوَّلًا؛ دَليلًا على فِعلِ الزَّلَفِ ثانيًا، واسمَ الزَّلَفِ ثانيًا؛ دَليلًا على الاسمِ مِن التَّقريبِ أوَّلًا[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ وَعيدٌ وتَهديدٌ لهم على قَولِهم ذلك؛ فعُلِمَ منه إبطالُ تَعَلُّلِهم في قَولِهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾؛ لِأنَّ الواقِعَ أنَّهم عَبَدوا الأصنامَ أكثَرَ مِن عِبادَتِهم للهِ[٤].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أيْ: بَيْنَهم وبيْنَ خُصَمائِهمُ الَّذين همُ المُخلِصونَ لِلدِّينِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وقد حُذِفَ لِدَلالةِ الحالِ عليهِ[٥].

- وعلى القولِ بأنَّ ضَميرَ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ عائدٌ إلى الَّذينَ اتَّخذوا أولياءَ، وأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ اختلافُ طرائِقِهم في عبادةِ الأصنامِ وفي أنواعِها- فنَظمُ قَولِه: ﴿هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ يفيدُ أمْرَينِ: أنَّ الاختِلافَ ثابِتٌ لهم، وأنَّه مُتكَرِّرٌ مُتَجدِّدٌ؛ فالأوَّلُ مِن تَقديمِ المُسنَدِ إليه ﴿هُمۡ﴾ على الخَبَرِ الفِعليِّ ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾، والآخَرُ مِن كَونِ المُسنَدِ فِعلًا مُضارِعًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٢).

(٢) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٢).

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ خَبَرًا ثانيًا عن قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، وهو كِنايةٌ عن كَونِهم كاذِبينَ في قَولِهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، وعن كَونِهم كَفَّارينَ بسَبَبِ ذلك، وكِنايةٌ عن كَونِهم ضالِّينَ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِأنَّ قَولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ يُثيرُ في نُفوسِ السَّامِعينَ سُؤالًا عن مَصيرِ حالِهم في الدُّنيا مِن جَرَّاءِ اتِّخاذِهم أولياءَ مِن دُونِه، فيُجابُ بأنَّ اللهَ لا يَهدي مَن هو كاذِبٌ كَفَّارٌ، أيْ: يَذَرُهم في ضَلالِهم، ويُمهِلُهم إلى يَومِ الجَزاءِ، بعدَ أنْ بَيَّنَ لهمُ الدِّينَ فخالَفوه[1].

- وقيل: الجُملةُ تَعليلٌ لِمَا ذُكِرَ مِن حُكمِه تَعالى، واعتِراضٌ لِلتَّأكيدِ، ودفْعِ ذلك التَّأويلِ[2].

- وعُلِمَ مِن مُقارَنةِ وَصفِهم بالكَذِبِ بوَصفِهم بالأبلَغيَّةِ في الكُفرِ أنَّهم مُتبالِغونَ في الكَذِبِ أيضًا؛ لِأنَّ كَذِبَهمُ المَذمومَ إنَّما هو كَذِبُهم في كُفريَّاتِهم؛ فلَزِمَ مِن مُبالَغةِ الكُفرِ مُبالَغةُ الكَذِبِ فيه[3].

- والمُرادُ بـ﴿مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ الَّذين اتَّخَذوا مِن دونِه أولياءَ، أيْ: المُشرِكونَ، فكان مُقتَضَى الظَّاهِرِ الإتيانَ بضَميرِهم، وعُدِلَ عنه إلى الإضمارِ، والتَّعبيرِ عنهم بطَريقِ المَوصوليَّةِ؛ لِمَا في المَوصولِ مِنَ الصَّلاحيةِ لإفادةِ الإيماءِ إلى عِلَّةِ الفِعلِ؛ لِيُفيدَ أنَّ سَبَبَ حِرمانِهمُ التَّوفيقَ هو كَذِبُهم وشِدَّةُ كُفرِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٢٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ مَوقِعُ هذه الآيةِ مَوقِعُ الاحتِجاجِ على أنَّ المُشرِكينَ كاذِبونَ وكَفَّارونَ في اتِّخاذِهم أولياءَ مِن دونِ اللهِ، وفي قَولِهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وأنَّ اللهَ حَرَمَهمُ الهُدى، وذلك ما تَضَمَّنَه قَولُه قَبْلَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، فقَصَد إبطالَ شِركِهم بإبطالِ أقْواه، وهو عَدُّهم في جُملةِ شُرَكائِهم شُرَكاءَ زَعَموا لهم بُنُوَّةً لله تعالى، حيثُ قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦]؛ فإنَّ المُشرِكينَ يَزعُمونَ أنَّ اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ بَناتٌ لله، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾[1] [النجم: ١٩- ٢١].

- وقَولُه: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ قيل: إنَّه استِئنافٌ مَسوقٌ لِتَحقيقِ الحَقِّ، وإبطالِ القَولِ بأنَّ المَلائكةَ بَناتُ اللهِ، وأنَّ عيسى ابنُه -تَعالى عن ذلك عُلوًّا كَبيرًا-؛ ببَيانِ استِحالةِ اتِّخاذِ الوَلَدِ في حَقِّه تعالى على الإطلاقِ؛ لِيَندَرِجَ فيه استِحالةُ ما قيل اندِراجًا أوَّليًّا[2].

- في قولِه: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ عَبَّر بـ «ما» دونَ «مَن»؛ وذلك لأنَّ «ما» أعَمُّ مِن «مَن»، وأيضًا لأنَّه إذا أُريدَ ملاحظةُ الصِّفةِ فإنه يُعَبَّرُ بـ «ما» عن «مَن»، وهنا يُرادُ ملاحظةُ الصِّفةِ، وهي: العبادةُ[3].

- وجُملةُ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تَقريرٌ لِمَا ذُكِرَ مِن استِحالةِ اتِّخاذِ الشُّرَكاءِ والأولياءِ والوَلَدِ في حَقِّه تَعالى، وتَأكيدٌ له ببَيانِ تَنَزُّهِه تَعالى عنه، أيْ: تَنَزَّهَ بالذَّاتِ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١، ٢٤٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨، ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٠).

ذلك تَنَزُّهَه الخاصَّ به[١].

- وقولُه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لِتَنَزُّهِه تعالى بحَسَبِ الصِّفاتِ إثْرَ بَيانِ تَنَزُّهِه تعالى عنه بحَسَبِ الذَّاتِ؛ فإنَّ صِفةَ الأُلوهيَّةِ المُستَتبِعةَ لِسائِرِ صِفاتِ الكَمالِ، النَّافيةَ لِسِماتِ النُّقصانِ، والوَحدةَ الذَّاتيَّةَ المُوجِبةَ لِامتِناعِ المُماثَلةِ والمُشارَكةِ بَيْنَه تعالى وبيْنَ غَيرِه على الإطلاقِ، مِمَّا يَقضِي بتَنَزُّهِه تعالى عمَّا قالوا قضاءً مُتقَنًا. وكذا وَصفُ القَهَّاريَّةِ؛ لِمَا أنَّ اتِّخاذَ الوَلَدِ شَأنُ مَن يَكونُ تَحتَ مَلَكوتِ الغَيرِ عُرضةً لِلفَناءِ؛ لِيَقومَ وَلَدُه مَقامَه عِندَ فَنائِه، ومَن هو مُستَحيلُ الفَناءِ قَهَّارٌ لِكُلِّ الكَائِناتِ، كيف يُتَصوَّرُ أنْ يَتَّخِذَ مِنَ الأشياءِ الفانيةِ ما يَقومُ مَقامَه[٢]؟!

- وأيضًا جُملةُ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ دَليلٌ لِتَنزيهِ اللهِ المُستَفادِ مِن ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ فجُملةُ ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ تَمهيدٌ لِلوَصفَينِ، وذِكرُ اسمِه العَلَمِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لِإحضارِه في الأذهانِ بالاسمِ المُختَصِّ به؛ فلِذلك لم يَقُلْ: هو الواحِدُ القَهَّارُ، كما قال بَعدُ: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥]. وإثباتُ الوَحدانيَّةِ له يُبطِلُ الشَّريكَ في الإلهيَّةِ على تَفاوُتِ مَراتِبِه، وإثباتُ القَهَّارِ يُبطِلُ ما زَعَموه مِن أنَّ أولياءَهم يُقَرِّبونَهم إلى اللهِ زُلْفى ويَشفَعونَ لهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٧).

الآيتان (٥-٦)

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُكَوِّرُ﴾: تكويرُ اللَّيلِ على النَّهارِ: تَغشيتُه إيَّاه حتَّى يُذهِبَ ضَوءَه، وتكويرُ النَّهارِ على اللَّيلِ: تَغشيتُه إيَّاه حتَّى يُذهِبَ ظُلمَتَه، والتَّكويرُ في اللُّغةِ: طَرحُ الشَّيءِ بَعضِه على بَعضٍ، يُقالُ: كَوَّرَ المتاعَ، أي: ألقى بعضَه على بعضٍ. وأصلُ (كور): يدُلُّ على لَفٍّ وجَمعٍ[1].

﴿وَسَخَّرَ﴾: أي: ذلَّل، والتَّسخيرُ: سياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قَهْرًا، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله سُبحانَه مظاهِرَ وَحدانيَّتِه وقدرتِه، فيُخبِرُ أنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ بالحِكمةِ والصَّوابِ، ولم يَخلُقْهما عَبَثًا ولا باطِلًا، سُبحانَه وتعالى، وأنَّه يُديرُ اللَّيلَ على النَّهارِ حتَّى يَذهَبَ ضَوؤُه، ويُديرُ النَّهارَ على اللَّيلِ حتَّى تَذهبَ ظُلمتُه،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢).

وسَخَّر سُبحانَه الشَّمسَ والقَمَرَ، كُلُّ واحدٍ منهما يَسيرُ سَريعًا لِوَقتٍ مَعلومٍ عندَ الله. ألَا إنَّ اللهَ الَّذي خلَقَ هذه المخلوقاتِ وسَخَّرها لعِبادِه هو العزيزُ الغالِبُ، الغَفَّارُ ذُنوبَ عِبادِه.

ثمَّ يقولُ تعالى: خلَقَكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ- مِن نَفْسٍ واحِدةٍ، وهي آدَمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ثمَّ خَلَق اللهُ مِن آدَمَ زَوجَتَه، وأنزل لكم مِن الأنعامِ ثمانيةَ أزواجٍ، وهي الذُّكورُ والإناثُ مِن الإبلِ، والبَقَرِ، والضَّأنِ، والمَعْزِ. يَخلُقُكم اللهُ في بُطونِ أمَّهاتِكم طَورًا بعدَ طَورٍ في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ: ظُلمةِ بَطنِ الأُمِّ، وظُلمةِ الرَّحِمِ، وظُلمةِ المَشيمةِ، ذلكم الَّذي فعَلَ كُلَّ ما تقدَّمَ هو اللهُ رَبُّكم له وَحْدَه المُلْكُ كُلُّه، لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو سُبحانَه، فكيف تَميلونَ عن الحَقِّ؟!

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نزَّه تعالى نفْسَه ووصَف ذاتَه بالوَحدةِ والقَهرِ؛ ذكَر ما دلَّ على ذلك مِن اختراعِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ بالحقِّ، وتكويرِ اللَّيلِ والنهارِ، وتَسخيرِ الشَّمسِ والقَمرِ، وجَريِهما على نِظامٍ واحدٍ، واتِّساقِ أمرِهما على ما أرادَ إلى أجَلٍ مُسمًّى[1].

وأيضًا لَمَّا طَعَن تعالى في إلهيَّةِ الأصنامِ؛ ذكَرَ عَقِيبَها الصِّفاتِ الَّتي باعتبارِها تَحصُلُ الإلهيَّةُ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٣).

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: خَلَق اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ السَّمَواتِ والأرضَ بالأمرِ الثَّابتِ، وبالحِكمةِ والصَّوابِ والنَّفعِ؛ خَلقًا تامًّا مُتقَنًا، لا خيالَ فيه ولا سِحرَ، ولا اختِلالَ ولا عَيبَ ولا نَقصَ؛ خَلقًا دالًّا على وَحدانيَّتِه وقَهْرِه لكُلِّ شَيءٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾.

أي: يُغشِي اللَّيلَ النَّهارَ ويُديرُه عليه حتَّى يَذهبَ ضوؤُه، ويُغشِي النَّهارَ اللَّيلَ ويُديرُه عليه حتَّى تَذهبَ ظُلمتُه، وسَخَّرهما يَجْريانِ مُتَعاقِبَيْنِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: ٥٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٥-٤٧).
قال القرطبي: (أي: هو القادِرُ على الكَمالِ، المُستغني عن الصَّاحِبةِ والوَلَدِ، ومَن كان هكذا فحَقُّه أن يُفرَدَ بالعبادةِ لا أنَّه يُشرَكُ به، ونبَّه بهذا على أنَّ له أنْ يَتعَبَّدَ العِبادَ بما شاءَ، وقد فعَلَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٥/ ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٢، ٤٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧، ٤٨).

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾.

أي: وذلَّل اللهُ الشَّمسَ والقَمَرَ، كلَّ واحِدٍ مِنهما يَسيرُ سَريعًا في مَنازِلِه لِوَقتٍ مَعلومٍ عندَ اللهِ تعالى[1].

﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾.

أي: ألَا إنَّ اللهَ الَّذي خَلَق هذه المخلوقاتِ وسَخَّرها لعِبادِه: هو شديدُ القوَّةِ، الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الغَفَّارُ الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[2].

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٩).

قيل: المرادُ بالأجَلِ المُسمَّى: يومُ القيامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٩).

قال ابن الجوزي: (﴿لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: إلى الأجَلِ الَّذي وقَّت اللهُ للدُّنيا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨).

وقيل: الأجَلُ المُسمَّى هو: الوَقتُ الَّذي ينتهي فيه سَيرُ الشَّمسِ والقَمَرِ إلى المنازِلِ المُرتَّبةِ لِغُروبِها وطُلوعِها. وممَّن ذهب إلى ذلك: الكَلْبيُّ، ويُروى عن ابنِ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٩، ٥٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أَتْبَعَ اللهُ تعالى ذِكرَ الدَّلائِلِ الفَلَكيَّةِ بذِكرِ الدَّلائِلِ المأخوذةِ مِن هذا العالَمِ الأسفَلِ؛ فبدأ بذِكرِ الإنسانِ[(١)]، فقال تعالى:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

أي: خلَقَكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ[(٢)]- مِن نَفْسٍ واحِدةٍ، وهي آدَمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٨].

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

أي: ثمَّ خَلَق اللهُ مِن آدَمَ زَوجتَه[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٣).

(٢) ممَّن اختار أنَّ الخِطابَ هنا للنَّاسِ: ابنُ جرير، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٤).
وقيل: الخِطابُ للَّذِين يَدْعونَ آلهةً غيرَ اللهِ. وممَّن قال بهذا: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦١)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ١٦٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٤-٥٦).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((استَوصوا بالنِّساءِ؛ فإنَّ المرأةَ خُلِقَت مِن ضِلَع، وإنَّ أعْوَجَ شَيءٍ في الضِّلَعِ أعلاه، فإنْ ذهَبْتَ تُقيمُه كسَرْتَه، وإنْ ترَكْتَه لم يَزَلْ أعوَجَ؛ فاستَوصوا بالنِّساءِ))(١).

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الاستِدلالَ بخَلْقِه الإنسانَ على وُجودِ الصَّانعِ؛ ذكر عَقِيبَه الاستِدلالَ بوُجودِ الحَيوانِ عليه(٢).

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾.

أي: وأنزَلَ اللهُ لكم مِنَ الأنعامِ ثمانيةَ أزواجٍ، وهي الذُّكورُ والإناثُ مِن الإبِلِ، والبَقَرِ، والضَّأنِ، والمَعْزِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤].

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ خَلْقَ أبينا وأُمِّنا؛ ذكرَ ابتِداءَ خَلْقِنا(٤).

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٣٣١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾.

أي: يَخلُقُكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ[١]- في بُطونِ أُمَّهاتِكم طَورًا بعدَ طَورٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حدَّثَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو الصَّادِقُ المصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أمِّه أربعينَ يومًا، ثمَّ يَكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك))[٣].

﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾.

أي: يَخلُقُكم اللهُ في ظُلمةِ بَطنِ الأمِّ، وظُلمةِ الرَّحِمِ، وظُلمةِ المَشيمةِ[٤] الَّتي

---

(١) قيل: المرادُ: خَلقُ النَّاسِ. وممَّن نصَّ على ذلك: ابنُ جرير، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

وقيل: المرادُ: خَلْقُ النَّاسِ والأنعامِ. وممَّن ذهب إليه: البيضاوي، والبِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٣).

وقال النيسابوري: (والمقصودُ ذِكرُ تَخليقِ الحيوانِ على الإطلاقِ بعدَ ذِكرِ تخليقِ الإنسانِ والأنعامِ، إلَّا أنَّه غَلَّب أُولِي العَقلِ؛ لِشَرَفِهم). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٣، ١٦٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٧).

(٣) رواه البخاري (٣٢٠٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٤٣).

(٤) قال ابن عاشور: (هي غِشاءٌ مِن جِلدٍ يُخلَقُ مع الجنينِ مُحيطًا به؛ لِيَقيَه ولِيَكونَ به استِقلالُه =

تكونُ على الجَنينِ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۞ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٥، ٦].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾.

أي: ذلكم العَليُّ العَظيمُ الَّذي فَعَل كُلَّ ما تقَدَّم ذِكرُه: اللهُ المتَّصِفُ بصِفاتِ الكَمالِ، رَبُّكم الخالِقُ الرَّازِقُ المدَبِّرُ، له وَحْدَه مُلْكُ كُلِّ شَيءٍ، والمتصَرِّفُ وحْدَه في كُلِّ شَيءٍ كما يَشاءُ سُبحانَه[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۞ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو وَحْدَه لا شَريكَ له، ولا تَنبغي العبادةُ لِغَيرِه[٣].

= مِمَّا يَنجَرُّ إليه مِن الأغذيةِ في دَورتِه الدَّمَويَّةِ الخاصَّةِ به دونَ أمِّه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٦)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٩، ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦، ٨٧)، ((تفسير =

﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾.

أي: فمِن أيِّ جِهةٍ تَضِلُّونَ عن الحَقِّ؟! وكيف يَصرِفُكم صارِفٌ عنه بعدَ هذا البيانِ وتلك الدَّلائِلِ الوَاضِحةِ[1]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ بعدَ ذِكرِ الأنواعِ الثَّلاثةِ مِن الدَّلائِلِ الفَلَكيَّةِ: أنَّ خَلْقَ هذه الأجرامِ العَظيمةِ وإن دَلَّ على كَونِه عَزيزًا -أي: كامِلَ القُدرةِ- إلَّا أنَّه غَفَّارٌ عَظيمُ الرَّحمةِ والفَضلِ والإحسانِ؛ فإنَّه لَمَّا كان الإخبارُ عن كَونِه عَظيمَ القُدرةِ يُوجِبُ الخَوفَ والرَّهبةَ، فكَونُه غَفَّارًا يُوجِبُ كَثرةَ الرَّحمةِ، وكَثرةُ الرَّحمةِ تُوجِبُ الرَّجاءَ والرَّغبةَ[2].

٢- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ في وَصفِ ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ مُناسَبةٌ لذِكرِ الأجَلِ؛ لأنَّ المَغفِرةَ يَظهَرُ أثَرُها بعدَ البَعثِ الَّذي يكونُ بعدَ الموتِ وانتِهاءِ الأجَلِ؛ تحريضًا على البِدارِ

= السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٩-٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٣).

بالتَّوبةِ قبْلَ الموتِ حينَ يَفوتُ التَّدارُكُ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ إثباتُ خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ، وهذه الفائدةُ يَترتَّبُ عليها: الرَّدُّ على الطَّبائعيِّينَ والفلاسِفةِ الَّذين يَقولونَ بقِدَمِ العالَمِ، وأنَّ العالَمَ أزَليٌّ، وأنَّ هذه السَّمَواتِ ليس لها أوَّلُ، بل هي مَوجودةٌ في الأزَلِ! فهذه الآيةَ تَرُدُّ عليهم؛ لأنَّه تعالى يَقولُ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أوجَدَها بعدَ العَدَمِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ فيه إثباتُ كُرَويَّةِ الأرضِ، ومَعلومٌ أنَّ الليلَ والنَّهارَ يَتعاقَبانِ على الأرضِ؛ فإذا كان سَيرُهما تَكويرًا دلَّ على أنَّ الأرضَ كُرَويَّةٌ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ إثباتُ كمالِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بتَكويرِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وقد أشار اللهُ إلى ذلك في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ۞ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابنُ حزم: (إنَّ أحدًا مِن أئمَّةِ المُسلِمينَ المُستَحقِّينَ لاسمِ الإمامةِ بالعِلمِ رَضِيَ اللهُ عنهم: لم يُنكِروا تكويرَ الأرضِ، ولا يُحفَظُ لأحَدٍ منهم في دَفْعِه كَلِمةٌ، بل البراهينُ مِن القُرآنِ والسُّنَّةِ قد جاءت بتكويرِها؛ قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: ٥]، وهذا أوضَحُ بَيانٍ في تكويرِ بَعضِها على بَعضٍ، مأخوذٌ مِن كَورِ العِمامةِ، وهو: إدارتُها، وهذا نَصٌّ على تكويرِ الأرضِ ودَوَرانِ الشَّمسِ كذلك). ((الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل)) (٢/ ٧٨).

إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢]، ولو اجتمعَ الخَلقُ كُلُّهم على أنْ يأتوا باللَّيلِ في مَوضعِ النَّهارِ أو بالنَّهارِ في مَوضِعِ اللَّيلِ، ما استَطاعوا[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ دَليلٌ على أنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ يَجريانِ جَريًا حِسِّيًّا مَكانيًّا؛ لأنَّ تَسخيرَ المتحرِّكِ بحَرَكتِه أظهرُ مِن تَسخيرِ الثَّابتِ الَّذي لا يَتحَرَّكُ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ سُؤالٌ: كيف عَطَف بـ «ثُمَّ» مع أنَّ خَلْقَ حوَّاءَ مِن آدَمَ سابِقٌ على خَلْقِنا منه؟!

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتَّرتيبِ في الإخبارِ لا في الإيجادِ.

الثَّاني: أنَّ المعطوفَ مُتعَلِّقٌ بمعنى ﴿وَٰحِدَةٖ﴾، و﴿ثُمَّ﴾ عاطِفةٌ عليه لا على ﴿خَلَقَكُم﴾، فمعناه: «خلَقَكم مِن نَفْسٍ واحدةٍ أُفرِدَت بالإيجادِ، ثمَّ شُفِعَت بزَوجٍ».

الثَّالثُ: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿خَلَقَكُم﴾، لكِنَّ المرادَ بخَلْقِهم خَلْقُهم يومَ أخذِ الميثاقِ، لا هذا الخَلقُ الَّذي هم فيه الآنَ بالتَّوالُدِ والتَّناسُلِ؛ وذلك أنَّ اللهَ خَلَق آدَمَ عليه السَّلامُ، ثمَّ أخرَجَ أولادَه مِن ظَهرِه كالذَّرِّ، وأخَذَ عليهم الميثاقَ، ثمَّ رَدَّهم إلى ظَهْرِه[٣]، .....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٧٤).

(٣) يُنظَر ما أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٩١)، وأحمد (٢٤٥٥) من حديث ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما. =

ثمَّ خَلَق منه حوَّاءَ[١].

الرَّابعُ: أنَّها للتَّرتيبِ في الأحوالِ والرُّتَبِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أنَّ أصلَ البشريةِ مِن آدمَ؛ وفيه ردٌّ على الفكرةِ الملحدةِ: أنَّ أصلَ الإنسانِ قِرْدٌ، وأنَّ النَّاسَ تطوَّروا مِن القرودِ إلى البشريَّةِ! ولا شكَّ أنَّ اعتقادَ ذلك كفرٌ؛ لأنَّه تكذيبٌ للقرآنِ، وقد بَيَّنَ اللهُ سُبحانَه وتعالى كيف خَلَق الإنسانَ في مواضعَ مِن القرآنِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الإشارةُ إلى أنَّ تكوينَ هذه الخليقةِ مِن زَوجَينِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فكلُّ شَيءٍ مِن الخليقةِ فلا بُدَّ لتركيبِه مِن زوجَينِ؛ كالمياهِ، والهواءِ، وغيرِهما[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ سُؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّ

= والحديث جوَّد إسنادَه وقوَّاه على شرطِ مسلمٍ ابنُ كثيرٍ في ((البداية والنهاية)) (١/ ٨٣)، وقال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٢٨): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ)، وقال الشوكاني في ((فتح القدير)) (٢/ ٣٧٠): (إسناده لا مطعنَ فيه)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ١٥١)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (١٧٠١)، ووثَّق رجالَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٤٥٥).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٣).

واختار هذا القولَ ابنُ جرير، وقال: (وبذلك جاءَت الرِّوايةُ عن جماعةٍ مِن أصحابِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٢). واختاره أيضًا: القَصَّابُ. يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٥١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦٢).

الأنعامَ مَخلوقةٌ في الأرضِ لا مُنَزَّلةٌ مِن السَّماءِ؟!

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ الأنعامَ لَمَّا كانت لا تَعيشُ إلَّا بالنَّباتِ، والنَّباتُ لا يَعيشُ إلَّا بالمطَرِ، والمطَرُ مُنَزَّلٌ مِنَ السَّماءِ؛ وَصَفَها بالإنزالِ، مِن تَسميةِ المسَبَّبِ باسمِ سَبَبِ سَبَبِه.

الثَّاني: أنَّ مَعناه: «وقَضَى لكم»؛ لأنَّ قَضاءَه مُنَزَّلٌ مِن السَّماءِ مِن حيثُ كُتِبَ في اللَّوحِ المَحفوظِ.

الثَّالثُ: أنَّ المعنى «خلَقَها في الجنَّةِ، ثمَّ أنزَلَها على آدَمَ عليه السَّلامُ بعدَ إنزالِه إلى الأرضِ»[(١)]، فمِنَ الممكنِ نزولُ أصلِ هذا الحيوانِ؛ كنُزولِ أصلِ الإنسانِ والجنِّ[(٢)].

الرَّابعُ: أنَّ إطلاقَ الإنزالِ هنا بمعنى التَّذليلِ والتَّمكينِ.

الخامسُ: أن يكونَ إنزالُ الأنعامِ إنزالَها الحَقيقيَّ، أي: إنزالَ أُصولِها مِن سَفينةِ نوحٍ؛ قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠]، فيكونُ الإنزالُ هو الإهباطَ، قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[(٣)] [هود: ٤٨].

السَّادسُ: أنَّ الإنزالَ هنا بمعنى الخَلْقِ؛ لأنَّها أُضيفَتْ إلى أعْيانٍ، وهي الأنعامُ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٦).

السَّابعُ: أنَّ اللهَ تعالى يُنزِلُ الماءَ مِن أصلابِ الذُّكورِ إلى بُطونِ الإناثِ، ثمَّ يُنزِلُ الأجِنَّةَ مِن بطونِ الإناثِ إلى الأرضِ، ومِن المشهورِ في اللُّغةِ أنَّه يُقالُ عن ابنِ آدَمَ: أنزَل الماءَ أو المَنيَّ، فالأنعامُ يَعلو بعضُها بعضًا وهي قائمةٌ أو قاعدةٌ، وتَلِدُ وهي كذلك قائمة، فيُنزِلُ اللهُ تعالى منها أولادَها، وتسميةُ ذلك إنزالًا ليس بدُونِ تسميةِ إخراجِ المَنيِّ إنزالًا، بل أبلَغُ[(١)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ إذا نَظَرْتَ هذه العِبارةَ مع العِبارةِ عن خَلقِ الإنسانِ، وهي قَولُه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾؛ فَهِمْتَ أنَّ الأنعامَ خُلِقَ كُلُّ ذَكَرِها وأُنثاها على انفرادِه، لا أنَّ أحدًا منها مِن صاحِبِه، وذلك أدَلُّ على إطلاقِ التَّصَرُّفِ وتَنويعِه مِمَّا لو جُعِلَ خَلْقُها مِثلَ خَلْقِ الآدَميِّ[(٢)].

١٠- في ذِكرِ هذه الظُّلُماتِ في قَولِه تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ تَنبيهٌ على إحاطةِ عِلمِ اللهِ تعالى بالأشياءِ، ونُفوذِ قُدرتِه إليها في أشَدِّ ما تكونُ فيه مِن الخَفاءِ[(٣)]، فقد ركَّب تعالى عِظامَ الإنسانِ بعضَها ببعضٍ، وكساها اللَّحمَ، وجعَل فيها العُروقَ والعصَبَ، وفتَح مجاريَ البَولِ والغائطِ، وفتَح العيونَ والآذانَ والأفواهَ، وفرَّق الأصابعَ، وشَدَّ رُؤوسَها بالأظفارِ، إلى غيرِ ذلك مِن غرائبِ صُنعِه وعجائبِه، وكلُّ هذا في تلك الظُّلُماتِ الثَّلاثِ -ظُلمةِ البطنِ، وظُلمةِ الرَّحِمِ، وظُلمةِ المَشيمةِ-، لم يَحتَجْ إلى شقِّ بطنِ أمِّه وإزالةِ تلك الظُّلُماتِ، أو أن يُسَلِّطَ عليها أشعةً كهربائيةً! العِلمُ والبصرُ نافذٌ لهذا الصُّنعِ الغريبِ العجيبِ في بطنِ أمِّه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٤).

يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦]؛ ولذا لَمَّا قال: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾، قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1].

١١- ذِكْرُ الرُّبوبيَّةِ بعدَ الأُلوهيَّةِ في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ فيه إشارةٌ إلى التَّربيةِ الخاصَّةِ في حالِ الحَملِ، وإلى العنايةِ التَّامَّةِ؛ لأنَّ الحَملَ في بَطنِ أُمِّه لا يُمكِنُ لأحَدٍ أنْ يَصِلَ إليه، لا بِجَلبِ مَنفَعةٍ، ولا بِدَفعِ مَضَرَّةٍ، ولكِنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى هو الَّذي يَتولَّى العنايةَ به[2].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾

- قولُه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ ...﴾ هذه الجُملةُ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وتَفصيلٌ لِبَعضِ أفعالِه تعالى الدَّالَّةِ على تَفرُّدِه بما ذُكِرَ مِنَ الصِّفاتِ الجَليلةِ؛ فإنَّ خَلْقَ هذه العَوالِمِ والتَّصرُّفَ فيها -على شِدَّتِها وعَظَمَتِها- يُبَيِّنُ معنى الوَحدانيَّةِ ومَعنى القَهَّاريَّةِ؛ فتكونُ جُملةُ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤] ذاتَ اتِّصالَينِ: اتِّصالٍ بجُملةِ ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا﴾ [الزمر: ٤] كاتِّصالِ التَّذييلِ، واتِّصالٍ بجُملةِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ اتِّصالَ التَّمهيدِ؛ فالقَهَّاريَّةُ المُطلَقةُ تُنافي قَبولَ الزَّوالِ المُحوِجِ إلى الولدِ، ثمَّ استدلَّ على ذلك بقولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٩، ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٩).

وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ يُغشي كلَّ واحدٍ منهما الآخَرَ كأنَّه يَلُفُّه عليه لَفَّ اللِّباسِ باللابِسِ، أو يُغيِّبُه به كما يُغيَّبُ الملفوفُ باللِّفافةِ، أو يَجعلُه كارًّا عليه كُرورًا مُتتابِعًا تَتابُعَ أكوارِ العِمامةِ. وقد انتُقِلَ مِنَ الاستِدلالِ باقتِضاءِ حَقيقةِ الإلَهيَّةِ نَفْيَ الشَّريكِ، إلى الاستِدلالِ بخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ على أنَّه المُنفرِدُ بالخَلقِ، وأنَّه واحِدٌ لا يُشارَكُ، قَهَّارٌ لا يُغالَبُ؛ إذْ لا يَستَطيعُ شُركاؤُهم خَلْقَ العَوالِمِ[(١)].

- وأيضًا قولُه: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ بَيانٌ لِكَيفيَّةِ تَصرُّفِه تَعالى فيهما بَعدَ بَيانِ خَلقِهما[(٢)].

- واستِعمالُ التَّكويرِ هنا في قولِه: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ مِن محاسِنِ البَلاغةِ؛ فالتَّكويرُ حَقيقَتُه: اللَّفُّ واللَّيُّ، ومُثِّلَتْ به هنا هَيئةُ غِشْيانِ اللَّيلِ على النَّهارِ في جُزءٍ مِن سَطحِ الأرضِ وعَكسُ ذلك على التَّعاقُبِ بهَيئةِ كَوْرِ العِمامةِ؛ إذْ تَغشى اللَّيَّةُ اللَّيَّةَ الَّتي قَبْلَها، وهو تَمثيلٌ بَديعٌ قابِلٌ لِلتَّجزِئةِ بأنْ تُشَبَّهَ الأرضُ بالرَّأسِ، ويُشَبَّهَ تَعاوُرُ اللَّيلِ والنَّهارِ عليها بلَفِّ طَيَّاتِ العِمامةِ. قيل: ومِمَّا يَزيدُه إبداعًا إيثارُ مادَّةِ التَّكويرِ الَّذي هو مُعجِزةٌ عِلْميَّةٌ مِن مُعجِزاتِ القرآنِ؛ فإنَّ مادَّةَ التَّكويرِ جائيةٌ مِن اسمِ الكُرَةِ، وهي الجسمُ المستديرُ مِن جَميعِ جِهاتِه على التَّساوي، والأرضُ كُرَويَّةُ الشَّكلِ في الواقِعِ، وذلك كان يَجهَلُه العَرَبُ وجُمهورُ البَشَرِ يَومَئِذٍ، فأوْمَأ القُرآنُ إليه بوَصفِ العَرَضَينِ اللَّذَيْنِ يَعتَريانِ الأرضَ على التَّعاقُبِ، وهُما النُّورُ والظُّلمةُ، أو اللَّيلُ والنَّهارُ؛ إذْ جَعَلَ تَعاوُرَهما تَكويرًا؛ لِأنَّ عَرَضَ الكُرةِ يَكونُ كُرَويًّا تَبَعًا لِذاتِها، فلَمَّا كان

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨، ٣٢٩).

سِياقُ هذه الآيةِ لِلاستِدلالِ على الإلَهيَّةِ الحقَّةِ بإنشاءِ السَّمَواتِ والأرضِ، اختيرَ لِلاستِدلالِ على ما يَتبَعُ ذلك الإنشاءَ مِن خَلْقِ العَرَضَيْنِ العَظيمَينِ لِلأرضِ مادَّةُ التَّكويرِ دُونَ غَيرِها؛ لِأنَّ تلك الآيةَ مَسوقةٌ لِلدَّلالةِ على سَعةِ التَّصرُّفِ في المَخلوقاتِ، فكان تَصويرُ ذلك بإغشاءِ اللَّيلِ والنَّهارِ خاصَّةً؛ لِأنَّه دَلَّ على قُوَّةِ التَّمكُّنِ مِن تَغييرِه أعراضَ مَخلوقاتِه؛ ولذلك اقتُصِرَ على تَغييرِ أعظَمِ عَرَضٍ -وهو النُّورُ- بتَسليطِ الظُّلمةِ عليه؛ لِتكونَ هاتِه الآيةُ لِمَن يَأتي مِنَ المُسلِمينَ الَّذين يَطَّلِعونَ على عِلْمِ الهَيئةِ؛ فتَكونَ مُعجِزةً عِندَهم[1].

- وكذلك قولُه: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ يَحتَمِلُ ثَلاثةَ أوْجُهٍ مِنَ التَّشبيهِ؛ أحَدُها: أنْ يَكونَ مِن تَشبيهِ المَحسوسِ بالمَحسوسِ، ووَجهُ الشَّبَهِ أُمورٌ، ولكنْ في حُكمٍ واحِدٍ، وهو تَشبيهُ الهَيئةِ الحاصِلةِ مِن اختِلاطِ اللَّيلِ بالنَّهارِ عِندَ طُلوعِ الفَجرَيْنِ وظُهورِ الخَيطَينِ في قَولِه: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]؛ بالهَيئةِ الحاصِلةِ مِن لَفِّ اللِّباسِ على اللَّابِسِ، بحيثُ لا يَطَّرِدُ اللِّباسُ في التَّستُّرِ. وثانيها: تَشبيهُ مَحسوسٍ بمَحسوسٍ، والوَجهُ واحِدٌ حَقيقةً؛ شَبَّهَ غِشيانَ كُلِّ واحِدٍ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ الآخَرَ في قَولِه تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقَولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، بشَيءٍ ظاهِرٍ لَفَّ ما غَيَّبَه عن مَطامِحِ الأبصارِ. وثالِثُها: يَحتمِلُ أنْ يَكونَ تَمثيلًا؛ بأنْ يُشَبَّهَ حالةُ كُرورِ اللَّيلِ والنَّهارِ، ومَجيءِ أحَدِهما في أثَرِ بَعضٍ، وما يَتَّصِلُ بها مِنَ المَنافِعِ -كقَولِه: ﴿جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]- بحالةِ تَتابُعِ أكوارِ العِمامةِ بَعضِها عَقِيبَ بَعضٍ، وما يَتَّصِلُ بها مِنَ الحُسنِ؛ فإنَّها كالتِّيجانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨، ٣٢٩).

لِلعَرَبِ، وما يَحصُلُ مِنَ التَّغييرِ وتَبديلِ الأحوالِ[١].

- وأُوثِرَ التَّعبيرُ بالمُضارِعِ في هذه الجُملةِ ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ﴾؛ لِلدَّلالةِ على تَجدُّدِ ذلك وتَكَرُّرِه، أو لِاستِحضارِ حالةِ التَّكويرِ تَبَعًا لِاستِحضارِ آثارِها؛ فإنَّ حالةَ تَكويرِ اللهِ اللَّيلَ على النَّهارِ غَيرُ مُشاهَدةٍ، وإنَّما المُشاهَدُ أثَرُها، وتَجَدُّدُ الأثَرِ يدُلُّ على تَجَدُّدِ التَّأثيرِ[٢].

- وعُطِفتْ جُملةُ ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ على جُملةِ ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾؛ لِأنَّ ذلك التَّسخيرَ مُناسِبٌ لِتكويرِ اللَّيلِ على النَّهارِ وعَكسِه؛ فإنَّ ذلك التَّكويرَ مِن آثارِ ذلك التَّسخيرِ؛ فتلك المُناسَبةُ اقتَضَتْ عَطفَ الجُملةِ الَّتي تَضَمَّنَتْه على الجُملةِ الَّتي قَبْلَها[٣].

- قولُه: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ بَيانٌ لِكَيفيَّةِ تَسخيرِهما، أيْ: كُلٌّ منهما يَجري لِمُنتَهى دَورَتِه، أو مُنقَطَعِ حَرَكَتِه[٤].

- وقد جاء في آياتٍ أُخرى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [لقمان: ٢٩]، بحرْفِ انتهاءِ الغايةِ (إلى)، ولامُ العِلَّةِ وحرْفُ الغايةِ مُتقارِبانِ في المعنى الأصليِّ، واختِلافُ التَّعبيرِ بهما تَفنُّنٌ في الكلامِ[٥].

- قولُه: ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، وهو في مَعنى الوَعيدِ والوَعدِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٢، ١١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٤٠، ٣٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٤، ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٠).

فإنَّ وَصْفَ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ كِنايةٌ عن أنَّه يَفعَلُ ما يَشاءُ، لا غالِبَ له، فلا تُجْدي المُشرِكينَ عِبادةُ أوليائِهم، ووَصْفَ ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ مُؤْذِنٌ باستِدعائِهم إلى التَّوبةِ باتِّباعِ الإسلامِ. وفي افتِتاحِ الجُملةِ بحَرفِ التَّنبيهِ إيذانٌ بأهَمِّيَّةِ مَدلولِها الصَّريحِ والكِنائيِّ[(١)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ بَيانٌ لِبَعضٍ آخَرَ مِن أفعالِ اللهِ الدَّالَّةِ على ما ذُكِرَ، وانتِقالٌ إلى الاستِدلالِ بخَلقِ النَّاسِ، وهو الخَلقُ العَجيبُ، وأُدمِجَ فيه الاستِدلالُ بخَلقِ أصلِهم، وهو نَفْسٌ واحِدةٌ تَشعَّبَ منها عَدَدٌ عَظيمٌ، وبخَلقِ زَوجِ آدَمَ لِيَتقَوَّمَ ناموسُ التَّناسُلِ. والجُملةُ يجوزُ أنْ تكونَ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ الجلالةِ، ويجوزُ أنْ تكونَ استئنافًا ابتدائيًّا؛ تَكريرًا للاستدلالِ[(٢)].

- وتُرِكَ عَطْفُ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ...﴾ على خَلقِ السَّمَواتِ؛ لِلإيذانِ باستِقلالِه في الدَّلالةِ، ولِتَعلُّقِه بالعالَمِ السُّفليِّ. والبُداءةُ بخَلقِ الإنسانِ؛ لِعَراقَتِه في الدَّلالةِ؛ لِمَا فيه مِن تَعاجيبِ آثارِ القُدرةِ، وأسرارِ الحِكمةِ، وأصالَتِه في المَعرِفةِ؛ فإنَّ الإنسانَ بحالِ نَفْسِه أعرَفُ[(٣)].

- وعلى القَولِ بأنَّ الخِطابَ في قَولِه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ...﴾ لِلمُشرِكينَ؛ بدَليلِ قَولِه بَعدَه: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾، فهو التِفاتٌ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣).

مِنَ الغَيبةِ إلى الخِطابِ، ونُكتَتُه: أنَّه لَمَّا أخبَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنهم بطَريقِ الغَيبةِ، أقْبَلَ على خِطابِهم؛ لِيَجمَعَ في تَوجيهِ الاستِدلالِ إليهم بيْن طَريقَيِ التَّعريضِ والتَّصريحِ(١).

- وقدْ تَقدَّمَ نَظيرُ هذه الجُملةِ في سُورةِ (الأعرافِ)، إلَّا أنَّ في هذه الجُملةِ عُطِفَ قولُه: ﴿جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ بحرْفِ (ثُمَّ) الدَّالِّ على التَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ مَساقَها الاستِدلالُ على الوَحدانيَّةِ وإبطالِ الشَّريكِ بمَراتبه؛ فكان خَلْقُ آدَمَ دليلًا على عَظيمِ قُدْرتِه تعالى، وخلْقُ زَوجِه مِن نفْسِه دَليلًا آخَرَ مُستقِلَّ الدَّلالةِ على عَظيمِ قُدْرتِه. فعُطِفَ بحرْفِ (ثُمَّ) الدَّالِّ في عطْفِ الجُمَلِ على التَّراخي الرُّتبيِّ؛ إشارةً إلى استِقلالِ الجُملةِ المعطوفةِ بها بالدَّلالةِ مِثلَ الجُملةِ المعطوفةِ هي عليها، فكان خلْقُ زَوجِ آدَمَ منه أدَلَّ على عَظيمِ القُدْرةِ مِن خلْقِ النَّاسِ مِن تلك النَّفْسِ الواحدةِ ومِن زَوجِها؛ لأنَّه خلْقٌ لم تَجْرِ به عادةٌ؛ فكان ذلك الخلْقُ أجلَبَ لِعَجَبِ السَّامعِ مِن خلْقِ الناسِ، فجيءَ له بحرْفِ التَّراخي المُستعمَلِ في تَراخي المنزلةِ لا في تَراخي الزَّمنِ؛ لأنَّ زمَنَ خلْقِ زَوجِ آدَمَ سابقٌ على خلْقِ النَّاسِ. فأمَّا آيةُ (الأعرافِ) -﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]- فمَساقُها مَساقُ الامتِنانِ على النَّاسِ بنِعمةِ الإيجادِ؛ فذُكِرَ الأصْلانِ للنَّاسِ، مَعطوفًا أحَدُهما على الآخَرِ بحَرفِ التَّشريكِ في الحُكمِ الَّذي هو الكَونُ أصلًا لِخَلقِ النَّاسِ. وقيلَ: المَعطوفُ مُتعَلِّقٌ بمَعنى ﴿وَٰحِدَةٍ﴾؛ فـ﴿ثُمَّ﴾ عاطِفةٌ عليه، لا على ﴿خَلَقَكُم﴾، فمَعناه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أُفرِدَتْ بالإيجادِ، ثمَّ شُفِعتْ بزَوجٍ، فكانت هاهنا على بابِها؛ لِتَراخي الوُجودِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٣، ١١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((حاشية =

- وقولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ بيانٌ واستِدلالٌ آخَرُ بما خَلَقَه اللهُ تعالى مِنَ الأنعامِ، عُطِفَ على الاستِدلالِ بخَلقِ الإنسانِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ بالقُرآنِ يَومَئِذٍ قِوامُ حَياتِهم بالأنعامِ، ولا تَخلو الأُمَمُ يَومَئِذٍ مِنَ الحاجةِ إلى الأنعامِ، ولم تَزَلِ الحاجةُ إلى الأنعامِ حافَّةً بالبَشَرِ في قِوامِ حياتِهم، وهذا اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وبيْن ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾؛ لِمُناسَبةِ أزواجِ الأنعامِ لِزَوجِ النَّفْسِ الواحدةِ. وأُدمِجَ في هذا الاستِدلالِ امتِنانٌ بما فيها مِنَ المَنافِعِ لِلنَّاسِ؛ لِمَا دلَّ عليه قولُه: ﴿لَكُم﴾؛ لأنَّ في الأنعامِ مَوادَّ عظيمةً لِبَقاءِ الإنسانِ، وهي الَّتي في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٥- ٧]، وقولِه: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[(١)] [النحل: ٨٠].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ تَقديمُ الظَّرفَيْنِ ﴿لَكُم﴾ ﴿مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ على المَفعولِ الصَّريحِ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾؛ لِلاعتِناءِ بما قُدِّمَ، والتَّشويقِ إلى ما أُخِّرَ؛ فإنَّ كَوْنَ الإنزالِ لِمَنافِعِهم وكَوْنَه مِنَ الجِهةِ العاليةِ، مِنَ الأُمورِ المُهمَّةِ المُشَوِّقةِ إلى ما أُنزِلَ لا مَحالةَ[(٢)].

- وخَصَّها سُبحانَه بالذِّكرِ -مع أنَّه أنزَلَ لِمَصالحِ عِبادِه مِنَ البَهائِمِ غَيرَها-

---

= الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣).

لِكَثرةِ نَفعِها، وعُمومِ مَصالِحِها، ولِشَرَفِها، ولاختِصاصِها بأشياءَ لا يَصلُحُ غَيرُها؛ كالأُضحِيَّةِ، والهَدْيِ، والعَقيقةِ، ووُجوبِ الزَّكاةِ فيها، واختِصاصِها بالدِّيَةِ[١].

- وقولُه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ كَيفيَّةِ خَلقِهم وأطوارِه المُختَلِفةِ الدَّالَّةِ على القُدرةِ الباهِرةِ، واستِدلالٌ بتَطَوُّرِ خَلْقِ الإنسانِ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وحِكمَتِه ودَقائِقِ صُنعِه[٢]. وقيل: هو بَيانٌ لِكَيفيَّةِ خَلقِ ما ذُكِرَ مِنَ الأناسيِّ والأنعامِ؛ إظهارًا لِمَا فيها مِن عَجائِبِ القُدرةِ، غَيرَ أنَّه غَلَّبَ أُولِي العَقلِ، أو خَصَّهم بالخِطابِ؛ لِأنَّهمُ المَقصودونَ[٣].

- والتَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾؛ لِإفادةِ تَجدُّدِ الخَلقِ وتَدَرُّجِه وتَكَرُّرِه، مع استِحضارِ صُورةِ هذا التَّطوُّرِ العَجيبِ استِحضارًا بالوَجهِ والإجمالِ الحاصِلِ لِلأذهانِ على حَسَبِ اختِلافِ مَراتِبِ إدراكِها[٤].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارةٌ إليه تعالى باعتِبارِ أفعالِه المَذكورةِ، وما فيه مِن مَعْنى البُعدِ؛ لِلإيذانِ ببُعدِ مَنزِلَتِه تعالى في العَظَمةِ والكِبرياءِ[٥]. وبَعدَ أنْ أُجرِيَ على اسمِ اللهِ تعالى مِنَ الأخبارِ والصِّفاتِ القاضيةِ بأنَّه المُتصَرِّفُ في الأكْوانِ كُلِّها: جَواهِرِها وأعراضِها، ظاهِرِها وخَفيِّها، ما يُرشِدُ العاقِلَ إلى أنَّه المُنفَرِدُ بالتَّصرُّفِ، المُستَحِقُّ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣).

العِبادةَ، المُنفَرِدُ بالإلَهيَّةِ؛ أعقَبَ ذلك باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾؛ لِلتَّنبيه على أنَّ اللهَ حَقيقٌ بما يَرِدُ بَعْدَه؛ مِن أجْلِ تلك التَّصرُّفاتِ والصِّفاتِ. والجُملةُ فَذلَكةٌ[١]، ونَتيجةٌ أنتَجَتْها الأدِلَّةُ السَّابِقةُ عليها مِن قَولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٥]؛ ولِذلك فُصِلتْ. واسمُ الإشارةِ لِتَمييزِ صاحِبِ تلك الصِّفاتِ عن غَيرِه تَمييزًا يُفْضي إلى ما يَرِدُ بَعدَ اسمِ الإشارةِ، والمَعنى: ذلكمُ الَّذي خَلَقَ وسَخَّرَ، وأنشأَ النَّاسَ والأنعامَ، وخَلَقَ الإنسانَ أطوارًا؛ هو اللهُ؛ فلا تُشرِكوا معه غَيرَه؛ إذْ لم تَبقَ شُبهةٌ تَعذِرُ أهلَ الشِّركِ بشِركِهم[٢].

- والإتيانُ باسمِه تعالى العَلَمِ في قَولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لإحضارِ المُسَمَّى في الأذهانِ باسمٍ مُختَصٍّ؛ زِيادةً في البَيانِ؛ لأنَّ حالَ المُخاطَبينَ نُزِّلَ مَنزِلةَ حالِ مَن لم يَعلَمْ أنَّ فاعِلَ تلك الأفعالِ العَظيمةِ هو اللهُ تَعالى[٣].

- ووَصْفُه بالرُّبوبيَّةِ في قَولِه: ﴿رَبُّكُمْ﴾ تَذكيرٌ لهم بنِعمةِ الإيجادِ والإمدادِ، وهو معنَى الرُّبوبيَّةِ، وتَوطِئةٌ لِلتَّسجيلِ عليهم بكُفرانِ نِعمَتِه الآتي في قَولِه: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[٤] [الزمر: ٧].

---

(١) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و (الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٣٥، ٣٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٦).

- وقولُه: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيه تَقديمُ المَجرورِ ﴿لَهُ﴾؛ لإفادةِ الحَصرِ الادِّعائيِّ[١]، أي: المُلْكُ للهِ، لا لِغَيرِه، فالإلَهيَّةُ هي المُلْكُ الحَقُّ؛ ولذلك كان ادِّعاؤُهم شُركاءَ لِلإلهِ الحَقِّ خَطَأً، فكان الحَصرُ الادِّعائيُّ لإبطالِ ادِّعاءِ المُشرِكينَ. وجُملةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ الحَصرِ في قَولِه: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾[٢].

- والاستِفهامُ في ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ مُفَرَّعٌ على ما قَبْلَه، وهو استِفهامٌ إنكاريٌّ عن انصِرافِهم عن تَوحيدِ اللهِ تعالى، ولَمَّا كان الانصِرافُ حالةً، استُفهِمَ عنها بكَلِمةِ (أَنَّى)، الَّتي هي هنا بمَعنى (كيف)[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ جعَلَهم مَصروفينَ عن التَّوحيدِ، ولم يَذكُرْ لهم صارفًا؛ فجاءَ بالفِعلِ المَبنيِّ لِلمَجهولِ ﴿تُصْرَفُونَ﴾، ولم يَقُلْ لهم: فأنَّى تَنصَرِفونَ؛ نَعيًا عليهم بأنَّهم كالمَقودينَ إلى الكُفرِ غَيرِ المُستَقِلِّينَ بأُمورِهم، يَصرِفُهمُ الصَّارِفونَ، يَعني أئِمَّةَ الكُفرِ، أو الشَّياطينَ المُوَسوِسينَ لهم، وذلك إلْهابٌ لِأنْفُسِهم؛ لِيَكُفُّوا عن امتِثالِ أئِمَّتِهم الَّذين يَقولونَ لهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ عسَى أنْ يَنظُروا بأنْفُسِهم في دَلائِلِ الوَحدانيَّةِ المَذكورةِ لهم[٤].

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٦).

الآيتان (٧-٨)

﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: أي: لا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ إثْمَ نَفْسٍ أُخرَى، ولا تُؤخَذُ نَفْسٌ بذَنْبِ غَيرِها، والوِزْرُ: الإثمُ والثِّقْلُ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقْلِ في الشَّيءِ[(١)].

﴿خَوَّلَهُۥ﴾: أي: أعطاه ومَلَّكه، وأصلُ (خول): يدُلُّ على تَعهُّدِ شَيءٍ[(٢)].

﴿أَندَادًا﴾: أي: أمثالًا، ونُظَراءَ، وشُرَكاءَ، وحَقيقةُ النِّدِّ: المِثْلُ المُناوِئُ المُخالِفُ، وأصلُه مِن قَولِهم: ندَّ: إذا نَفَر؛ ولهذا يُقالُ للضِّدِّ: نِدٌّ، ثمَّ استُعمِلَ في المِثْلِ وإن لم يكُنْ هناك مُخالَفةٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٦).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبَيِّنًا أنَّه غنيٌّ عن خَلقِه، وأنَّهم هم الفقراءُ إليه: إنْ تَكفُروا -أيُّها النَّاسُ- باللهِ تعالى، فإنَّه سُبحانَه غَنيٌّ عنكم وعن عبادتِكم إيَّاه، وهو سُبحانَه لا يَرضى لعِبادِه الكُفرَ، وإنْ تَشكُروا رَبَّكم يَرْضَ شُكْرَكم ويُثِبْكم عليه.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه كمالَ عدلِه، فيقولُ: ولا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ إثمَ نَفْسٍ أُخرى؛ فكُلُّ إنسانٍ يُجازَى بعمَلِه، ولا يَحمِلُ ذَنْبَ غَيرِه، ثمَّ إلى ربِّكم وَحْدَه مَصيرُكم، فيُخبِرُكم يومَ القيامةِ بما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُضمِرُه الصُّدورُ مِن أسرارٍ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى طبيعةَ الإنسانِ في حالَتَي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، فيقولُ: وإذا أصابَ الإنسانَ ضُرٌّ وشِدَّةٌ دعا رَبَّه لِيَكشِفَ عنه ضُرَّه، ورجَعَ إليه وَحْدَه، ثمَّ إذا كشَفَ اللهُ ضُرَّه، وأعطاه نِعمةً منه، نَسِيَ الضُّرَّ الَّذي كان يَتضَرَّعُ إلى رَبِّه أن يَكشِفَه عنه مِن قَبْلُ، وجعَلَ لله شُرَكاءَ ونَظائِرَ يَعبُدُها؛ لِيُضِلَّ النَّاسَ بذلك الفِعلِ عن سَبيلِ اللهِ وعن دينِه الَّذي ارتضاه لعِبادِه!

قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهذا الإنسانِ الَّذي جعَلَ لله شُرَكاءَ في العبادةِ: تمتَّعْ بكُفرِك زَمانًا قَليلًا، إنَّك مِن أصحابِ النَّارِ المُلازِمينَ لها، والخالِدينَ فيها.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧ ﴾.

﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ ﴾.

أي: إنْ تَكفُروا باللهِ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن إيمانِكم به، وعبادتِكم إيَّاه، فلا يَنفَعُه إيمانُكم وطاعتُكم، ولا يَضُرُّه كُفرُكم ومَعصيتُكم؛ فهو الغَنيُّ عن كُلِّ ما سِواه[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٨].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما رَوى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّه قال: ((يا عِبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجَرِ قَلبِ رجُلٍ واحِدٍ، ما نَقَص ذلك مِن مُلْكي شَيئًا))[٢].

﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾.

أي: ولا يَرضَى اللهُ لِعبادِه أن يَكفُروا به، ولا يُحِبُّ ذلك[٣].

﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾.

أي: وإن تَشكُروا ربَّكم بالإيمانِ به وتوحيدِه وطاعتِه، يَرْضَ شُكرَكم له، ويُحِبَّه منكم، ويُثِبْكم عليه[٤].

كما قال تعالى: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴾ [النساء: ١٤٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٩)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ قَبْلَها أنَّ في المُخاطَبينَ كافِرًا وشاكِرًا، وهم في بَلَدٍ واحِدٍ، بَيْنَهم وشائِجُ القَرابةِ والوَلاءِ؛ فرُبَّما تَحرَّجَ المُؤمِنونَ مِن أنْ يَمَسَّهم إثْمٌ مِن جَرَّاءِ كُفرِ أقرِبائِهم وأوليائِهم، أو أنَّهم خَشُوا أنْ يُصيبَ اللهُ الكافِرينَ بعَذابٍ في الدُّنيا، فيَلحَقَ منه القاطِنينَ معهم بمَكَّةَ؛ فأنْبَأهمُ اللهُ بأنَّ كُفرَ أولئك لا يَنقُصُ إيمانَ هؤلاء، وأرادَ اطمِئنانَهم على أنْفُسِهم[1].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

أي: ولا تَحمِلُ نَفْسٌ آثمةٌ[2] إثمَ نَفْسٍ غَيرِها؛ فكُلُّ إنسانٍ يُجازَى بعَمَلِه، ولا يَحمِلُ ذَنْبَ غَيرِه[3].

كما قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٠، ٣٤١).

(٢) قال ابن عاشور: (وتأنيثُ ﴿وَازِرَةٌ﴾ و﴿أُخْرَىٰ﴾ باعتِبارِ إرادةِ معنَى النَّفْسِ في قولِه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨]. والمعنَى: لا تحمِلُ نفْسٌ وِزرَ نفْسٍ أخرَى، أي: لا تُغْني نفْسٌ عن نفْسٍ شيئًا مِن إثمِها، فلا تَطمَعُ نفْسٌ بإعانةِ ذَويها وأقربائِها، وكذلك لا تَخشى نفْسٌ صالحةٌ أنْ تُؤاخَذَ بتَبِعةِ نفْسٍ أُخرى مِن ذَويها أو قرابتِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤١).

وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ الوازرةَ هنا تَشملُ الوازرةَ حُكمًا -وهي الَّتي يمكِنُ أن تتحمَّلَ الإثمَ وإن لم تعمَلْه، وهي النَّفْسُ المكلَّفةُ- والوازرةَ فعلًا، وهي الَّتي فعَلَتِ الإثمَ حقيقةً. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦٩، ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦٩، ٧٠).

وعن عمرِو بنِ الأحوَصِ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ في حجَّةِ الوَداعِ: ((ألا لا يجني جانٍ إلَّا على نفسِه[١]، لا يجني والدٌ على ولدِه، ولا مولودٌ على والدِه))[٢].

وعن أبي رِمْثةَ رضي الله عنه، قال: ((انطلقتُ مع أبي نحوَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ثمَّ إنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال لأبي: ابنُكَ هذا؟ قال: إي ورَبِّ الكعبةِ،... ثمَّ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: أما إنَّه لا يَجني عليكَ ولا تَجني عليه[٣]. وقرَأ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾...))[٤].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) الجناية: الذَّنْبُ والجُرْمُ وما يفعلُه الإنسانُ ممَّا يُوجِبُ عليه العذابَ أو القِصاصَ في الدُّنيا والآخرةِ. والمعنَى: أنَّه لا يُطالَبُ بجنايةِ غيرِه مِن أقاربِه وأباعِدِه، فإذا جنَى أحدُهما جِنايةً لا يُعاقَبُ بها الآخَرُ، كقولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. ينظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٣٠٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٨٧) مطولًا، وابن ماجه (٢٦٦٩)، وأحمد (١٦٠٦٤).
قال الترمذي: (حسن صحيح)، وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ١٧٩)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٦٦٩)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦٠٦٤)، وحسَّن إسناده ابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٦٦٣).

(٣) أي: إنْ جَنَى لم تُؤْخَذْ بجنايتِه، وإنْ جَنيْتَ لم يُؤخَذْ بجنايتِك. يُنظر: ((المسائل والأجوبة)) لابن قتيبة (ص: ١٠٦).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٤٩٥) واللفظ له، وأحمد (٧١٠٩)، وابن حبان في ((صحيحه)) (٥٩٩٥) وأخرجه النسائي (٤٨٣٢) مختصرًا.
صحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٥/ ٢٣)، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١١٧)، وابن الملقن في ((البدر المنير)) (٨/ ٤٧٣)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٤٩٥)، وصحَّح إسنادَه: الحاكم في ((المستدرك)) (٣٥٩٠)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٢/ ٧٥)، وشعيب الأرناؤوط -على شرط مسلم- في تخريج ((مسند أحمد)) (٧١٠٩).

أي: ثمَّ إلى ربِّكم وَحْدَه مَصيرُكم بعدَ مَوتِكم، فيُخبِرُكم يومَ القيامةِ بما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ(١).

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُضمِرُه صُدورُ العبادِ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن ذلك(٢).

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن فَسادَ القَولِ بالشِّركِ، وبَيَّن أنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يجِبُ أن يُعبَدَ؛ بَيَّن في هذه الآيةِ أنَّ طَريقةَ هؤلاء الكُفَّارِ الَّذين يَعبُدونَ الأصنامَ: مُتناقِضةٌ؛ وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠).

قال ابن عاشور: (وذاتُ: صاحبةُ، مؤنَّث «ذو» بمعنى صاحبٍ، صِفةٌ لِمَحذوفٍ تقديرُه الأعمالُ، أي: بالأعمالِ صاحبةِ الصُّدورِ، أي: المُستقِرَّةِ في النَّوايا، فعَبَّر بالصُّدورِ عما يَحلُّ بها، والصُّدورُ مُرادٌ بها القلوبُ المُعَبَّرُ بها عمَّا به الإدراكُ والعزمُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٢).

وقال ابنُ القَيِّم: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ليس المرادُ به عليمًا بمُجَرَّدِ الصُّدورِ؛ فإنَّ هذا ليس فيه كَبيرُ أمرٍ، وهو بمنزلةِ أن يُقالَ: عَليمٌ بالرُّؤوسِ والظُّهورِ والأيدي والأرجُلِ، وإنَّما المرادُ به: عليمٌ بما تُضمِرُه الصُّدورُ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، أي: بالأسرارِ الَّتي في الصُّدورِ، وصاحِبةِ الصُّدورِ؛ فأضافها إليها بلَفظٍ يَعُمُّ جميعَ ما في الصُّدورِ مِن خَيرٍ وشَرٍّ). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٨٤).

لأنَّهم إذا مَسَّهم نَوعٌ مِن أنواعِ الضُّرِّ لم يَرجِعوا في طَلَبِ دَفعِه إلَّا إلى الله، وإذا زال ذلك الضُّرُّ عنهم رجَعوا إلى عبادةِ الأصنامِ! ومعلومٌ أنَّهم إنَّما رَجَعوا إلى اللهِ تعالى عندَ حُصولِ الضُّرِّ؛ لأنَّه هو القادِرُ على إيصالِ الخَيرِ ودَفعِ الضُّرِّ، وإذا عَرَفوا أنَّ الأمرَ كذلك في بَعضِ الأحوالِ كان الواجِبُ عليهم أن يَعتَرِفوا به في كُلِّ الأحوالِ؛ فثَبَت أنَّ طَريقتَهم في هذا البابِ مُتناقِضةٌ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر سُبحانَه أنَّه المُختَصُّ بالمُلْكِ وَحْدَه، وأتْبَعَه بما يُرضيه وما يُسخِطُه؛ أقام الدَّليلَ على ذلك الاختِصاصِ -مع أنَّه أوضَحُ مِن الشَّمسِ- بدَليلٍ وِجدانيٍّ لكُلِّ أحَدٍ، على وجْهٍ ذمَّهم فيه بالتَّناقُضِ الَّذي هم أعظَمُ النَّاسِ ذَمًّا له، ونُفرةً منه، وذَمًّا به، فقال[٢]:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾.

أي: وإذا أصاب الإنسانَ[٣] كَربٌ وشِدَّةٌ دعا رَبَّه؛ لِيَكشِفَ عنه ضُرَّه، راجِعًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٢).

(٣) قيل: المرادُ بالإنسانِ هنا: الكافِرُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عطية، والرسعني، والقرطبي، وابن عادل، وجلال الدين المحلي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٤٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٠، ١٧١).

قال ابن عاشور: (المرادُ بالإنسانِ كلُّ مُشركٍ، فالتَّعريفُ تعريفُ الجنسِ، والمرادُ جماعةٌ مِن النَّاسِ وهم أهلُ الشِّركِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥).

وقيلَ: المرادُ بالإنسانِ أقوامٌ مُعَيَّنونَ، مِثلُ عُتْبَةَ بنِ ربيعةَ وغيرِه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٧).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ: المؤمِنُ والكافِرُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٢).

إليه وَحْدَه، مُعرِضًا عمَّا سِواه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾.

أي: ثمَّ إذا منَحَه اللهُ نِعمةً مِنه نَسِيَ الضُّرَّ الَّذي كان يَتضَرَّعُ إلى رَبِّه أن يَكشِفَه عنه، واستمَرَّ على شِركِه[٢]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٠، ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨٢، ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧١، ١٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٧٠) و (٢٢/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٣).

وممَّن قال بأنَّ النِّسيانَ يعودُ على الضُّرِّ، أي: نَسِيَ ما مَسَّه مِن ضُرٍّ كان يَدْعو اللهَ لدَفْعِه عنه: الرسعنيُّ، وابنُ تيميَّة، والبِقاعي، والعُلَيمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٧٠) و(٢٢/ ٣٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٣).

وقيل: النِّسيانُ يعودُ على الدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ لِرَبِّه لكَشفِ الضُّرِّ عنه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، وابن كثير. وجوَّزه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، (تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٣).

وقيل: المعنى: نَسِيَ اللهَ تعالى الَّذي دعاه وتضَرَّع إليه. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٨).

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس: ١٢].

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿لِيَضِلَّ﴾ على معنى: أنَّه يَضِلُّ بنَفْسِه[١].

٢- قِراءةُ: ﴿لِّيُضِلَّ﴾ على معنى: أنَّه يُضِلُّ غَيرَه[٢].

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

أي: وجعَلَ شُرَكاءَ للهِ مِن الأصنامِ أو غَيرِها، فيَعبُدُهم؛ ليُضِلَّ غَيرَه عن طريقِ اللهِ، الموصِلِ إليه وإلى رِضوانِه[٣].

---

(١) قرأ بها: ابنُ كثير، وأبو عَمرٍو، ورُوَيسٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).
واختُلِف عن رُوَيسٍ؛ فروى التَّمَّارُ مِن كلِّ طُرُقِه إلَّا طريقَ أبي الطَّيِّبِ بفتحِ الياءِ، ومِن طريقِ أبي الطَّيِّبِ بضَمِّ الياءِ. يُنظر: ((المصدر السابق)).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٩).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٢٠). ويُنظر أيضًا: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٣).
قال ابن عثيمين: (وهاتانِ القِراءتانِ كِلْتاهما صحيحةٌ، وكلُّ واحدةٍ تُفيدُ معنًى يُكملُ معنَى الأخرى؛ فهو يَضِلُّ بنفْسِه، ويُضِلُّ غيرَه أيضًا... فمجموعُ القِراءتَينِ فيهما فائدةٌ لا تحصُلُ بانفرادِ إحداهما). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨٤-٨٧).
قال السعدي: (﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: لِيَضِلَّ بنفْسِه، ويُضِلَّ غيرَه؛ لأنَّ الإضلالَ فرعٌ عن الضَّلالِ، فأتى بالملزومِ لِيَدُلَّ على اللَّازِمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠). =

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى عنهم هذا الفِعلَ المُتناقِضَ؛ هَدَّدَهم، فقال[1]:

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهذا الإنسانِ الَّذي تلك حالُه وطريقتُه: عِشْ مُتمَتِّعًا بكُفرِك يَسيرًا مُدَّةَ حياتِك الفانيةِ، إنَّك في الآخرةِ مِن أهلِ النَّارِ المُلازِمينَ لها أبدًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ مَوعِظةٌ عَظيمةٌ في أن يَعلَمَ الإنسانُ أنَّ حَرَكاتِه في الدُّنيا وسَكَناتِه؛ أنَّ ما فيها مِن نَفعٍ فهو عائِدٌ إلى خُصوصِ نَفْسِه، وما فيها مِن ضُرٍّ فهو عائِدٌ إلى خُصوصِ نَفْسِه؛ فلْيَجتهِدِ الإنسانُ وَقتَ إمكانِ الفُرصةِ أن يُسلِّمَ نَفْسَه مِن البَلايا، وأن يَكسِبَها الخَيراتِ؛ فحَرَكاتُ الإنسانِ في دارِ الدُّنيا إنَّما يَبني بها بَيتَه الَّذي إليه مَصيرُه الأخيرُ، وهو إمَّا غُرفةٌ مِن غُرَفِ الجنَّةِ، أو سِجنٌ مِن سُجونِ النَّارِ؛ فعلى كُلِّ مُكَلَّفٍ أن يَتأمَّلَ في نورِ القُرآنِ في الحياةِ الدُّنيا، في صِحَّتِه وفراغِه، ويَعلَمَ أنَّ حَرَكاتِه مِن أقوالِه، وأفعالِه،

= وقال ابن عاشور: (وقَرَأ الجمهورُ ﴿لِّيُضِلَّ﴾ بضمِّ الياءِ، أيْ: لِيُضِلَّ النَّاسَ بعدَ أنْ أضلَّ نفْسَه؛ إذْ لا يُضِلُّ النَّاسَ إلَّا ضالٌّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٣، ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٤، ٣٤٥).

ونِيَّاتِه، وقُصودِه: إنَّما يَبني بها مَقَرَّه الأخيرَ النِّهائيَّ: إمَّا غُرفةٌ مِن غُرَفِ الجنَّةِ، وإمَّا سِجنٌ مِن سُجونِ النَّارِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ أنَّ المرجِعَ إلى اللهِ يومَ القيامةِ، ويتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: وُجوبُ الاستعدادِ لهذا اللِّقاءِ وهذا المرجِعِ، والاستِعدادُ له يكون بتركِ المعاصي وفِعلِ الطَّاعاتِ، فما دام المرجِعُ إلى اللهِ فلا يمكنُ أن تَرجِعَ إلى غيرِه؛ ومهما كان فإنَّ مَرجِعَكم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فهو منه المُبتدَأُ، وإليه المُنتهَى(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إنَّما ذَكَر اللهُ هذه الجُملةَ بعدَ قَولِه تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الحِسابَ يَكونُ على ما في القَلبِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۞ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٨، ٩]، فالمدارُ يومَ القيامةِ على ما في القَلبِ، أمَّا في الدُّنيا فالمدارُ على الأعمالِ الظَّاهِرةِ؛ ولهذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعامِلُ المُنافِقينَ مُعاملةَ المُسلِمينَ؛ لأنَّهم كانوا يَتظاهَرونَ بالإسلامِ، ونحن نحاسِبُ النَّاسَ في الدُّنيا على ما يَظهَرُ مِن أعمالِهم، ونَكِلُ سرائِرَهم إلى الله، أمَّا في الآخرةِ فإنَّ الحِسابَ على ما في القَلبِ؛ ولهذا يجِبُ على الإنسانِ أن يَعتنيَ بصَلاحِ قَلبِه قبْلَ صلاحِ جِسمِه؛ لأنَّ صَلاحَ الجِسمِ واجِهةٌ أمامَ الخَلقِ، لكِنْ صَلاحُ القَلبِ هو الَّذي يكونُ بيْنَ الإنسانِ وبيْنَ رَبِّه عزَّ وجَلَّ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ تَقريعٌ لِمَن يُهمِلُ الدُّعاءَ في الرَّخاءِ، ويَفزَعُ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٤).

إليه في الشِّدَّةِ، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وليس ذلك مِن أخلاقِ المؤمنينَ؛ إذ مِن أخلاقِهم إكثارُ الدُّعاءِ في الرَّخاءِ عُدَّةً للشِّدَّةِ؛ فقد ورَد أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لابنِ عبَّاسٍ: ((تَعَرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ، يَعرِفْك في الشِّدَّةِ))[1]؛ فلا ينبغي للمُؤمنِ أن يَستَنَّ بالكافرِ ولا يَفزَعَ إلى الدُّعاءِ إلَّا عندَ الشَّدائدِ[2]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أنَّه كما يكونُ الاقتداءُ بالقولِ يكونُ الاقتداءُ بالفعلِ؛ لأنَّ هذا الكافرَ جَعَل لله أندادًا؛ وكان جعلُه للأندادِ سببًا لضلالِ غيرِه، لذا قال: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، ولم يَقُلْ: ودعا النَّاسَ ليَضِلُّوا عن سبيلِ اللهِ! بل جَعَل فِعلَه سببًا لضلالِ النَّاسِ، ويَتفرَّعُ على هذا فائدةٌ، وهي: تحذيرُ الإنسانِ -ولا سيَّما القدوةُ- مِن المُخالَفةِ؛ لأنَّ النَّاسَ سوف يَقتدونَ به، ويَحتجُّون بفِعلِه[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾

---

(١) أخرجه مِن طُرقٍ: أحمدُ (٢٨٠٣) باختلافٍ يسيرٍ، والطبرانيُّ (١١/ ٢٢٣) (١١٥٦٠)، والحاكمُ (٦٣٠٣) واللفظ لهما من حديث عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما.
صَحَّحه عبدُ الحَقِّ الإشبيليُّ في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (٣/ ٣٣٣)، والقرطبي في ((التفسير)) (٨/ ٣٣٥)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٩٦١)، وشُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨٠٣)، وحسَّنه ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (١/ ٣٢٧)، والسخاوي في ((المقاصد الحسنة)) (١٨٨).
وحسَّن إسنادَه الصَّنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٤/ ٢٦٧)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩٤).

إخبارٌ عن عدَم محبَّتِه سبحانه لهذا الأمرِ، وعدَمِ رِضاهُ به بعدَ وُقوعِه؛ فهذا صريحٌ في إبطالِ قَولِ مَن تأوَّلَ هذا النصَّ وغيرَه على أنَّه لا يُحِبُّه ممَّن لم يقَعْ منه، ويُحِبُّه إذا وقَعَ، وهذا مِن أعظَمِ الباطلِ والكَذِبِ على الله، بل هو سُبحانَه يَكرَهُه ويُبغِضُه قبْلَ وُقوعِه، وحالَ وقوعِه، وبعدَ وُقوعِه؛ فإنَّه من القبائحِ والخبائثِ، واللهُ مُنَزَّهٌ عن مَحبَّةِ القَبيحِ والخَبيثِ، بل هو أَكْرَهُ شَيءٍ إليه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾، فالله تعالى يكرهُ بعضَ الأعيانِ والأفعالِ والصِّفاتِ، وإنْ كانت واقعةً بمشيئتِه، فهو يبغِضُها ويمقُتُها كما يُبغضُ ذاتَ إبليسَ وذواتَ جنودِه، ويبغضُ أعمالَهم، ولا يحِبُّ ذلك، وإنْ وُجِد بمشيئتِه[1] [الإسراء: ٣٨].

٢- أنَّه لا تَلازُمَ بيْنَ الرِّضا والإرادةِ؛ وَجْهُه: أنَّه تعالى قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ مع أنَّه أخبَرَ في آياتٍ كثيرةٍ أنَّ الكُفرَ واقِعٌ بإرادتِه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فإذا جمَعْنا بيْن هذا وهذا عرَفْنا بأنَّه لا تَلازُمَ بيْن الرِّضا والإرادةِ؛ فقد يُريدُ ما لا يَرضاه، وقد يَرضى ما لا يُريدُه؛ فهو -مثلًا- يَرضى مِن كلِّ واحدٍ مِن النَّاسِ أن يَشكُرَ للهِ، لكنَّه ما أراد ذلك[2]، وفي ذلك تكذيبٌ لِدعوى الكُفَّارِ: «أنَّه لَمَّا كان كُفرُهم وعِصيانُهم بمَشيئةِ اللهِ، وأنَّه لو شاء لَمَنَعَهم مِن ذلك؛ فعَدَمُ مَنعِه لهم دليلٌ على رضاه بفِعلِهم!». فالكُفَّارُ زَعَموا أنَّ الإرادةَ الكَونيَّةَ يَلزَمُها الرِّضا، وهو زَعمٌ باطِلٌ، بل اللهُ يريدُ بإرادتِه الكَونيَّةِ ما لا يَرضاه، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] مع قَولِه: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، والَّذي يُلازِمُ الرِّضا حقًّا إنَّما هو الإرادةُ الشَّرعيَّةُ[3].

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٧٦).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٩٨).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ سُؤالٌ: أنَّ الآيةَ دَلَّت على أنَّه لا يَحمِلُ أحَدٌ وِزرَ غَيرِه، فما الجَمعُ مع قَولِه تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]؛ حيث تدُلُّ هذه الآيةُ الكريمةُ على أنَّ هؤلاء الضَّالِّينَ يَحمِلونَ أوزارَهم كامِلةً، ويَحمِلونَ أيضًا مِن أوزارِ الأتْباعِ الَّذين أضَلُّوهم؟

الجوابُ: أنَّ هؤلاء الضَّالِّينَ ما حَمَلوا إلَّا أوزارَ أنفُسِهم؛ لأنَّهم تحَمَّلوا وِزرَ الضَّلالِ ووِزرَ الإضلالِ؛ ((ومَن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سَيِّئةً كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها مِن بَعدِه، مِن غَيْرِ أن يَنقُصَ مِن أوزارِهم شَيءٌ))[1]؛ لأنَّ تشريعَه السَّيِّئةَ لِغَيرِه ذنْبٌ مِن ذُنوبِه؛ فأُخِذَ به، وبهذا يَزولُ الإشكالُ أيضًا في قَولِه تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[2] [العنكبوت: ١٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣٢).

قال الشنقيطي: (في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ سؤالٌ: أنَّ اللهَ نَصَّ فيه أنَّه لا يُؤاخِذُ أحَدًا بِفِعلِ أحَدٍ آخَرَ، وقد جاءت مسألتانِ وَقَعَت فيهما المؤاخَذةُ بفِعلِ الغَيرِ؛ الأُولى: تحمُّلُ العاقِلةِ للدِّيَةِ... الثَّانيةُ: ما ثبَتَ في الصَّحيحِ عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما أنَّه قال: «إنَّ الميِّتَ لَيُعَذَّبُ ببُكاءِ أهلِه عليه». [البخاري «١٣٠٤» - مسلم «٩٢٨»]، وهذا كأنَّه عُذِّبَ بفِعلِ غَيرِه!

الجوابُ: أجاب العُلماءُ عن هذا بأجوبةٍ، فقالوا: أمَّا العاقِلةُ فإنَّ الإنسانَ القاتِلَ خَطأً لا ذنبَ عليه؛ لأنَّه لا يَقصِدُ شَيئًا، ولا مُؤاخَذةَ عليه عندَ الله إجماعًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، ويقولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢]، والكَفَّارةُ الَّتي وَجَبَت عليه قال بَعضُ العُلماءِ: إنَّما هي مُؤاخَذةٌ لعَدَمِ شِدَّةِ التَّحفُّظِ والتَّحرُّزِ أوَّلًا، والتَّسبُّبِ في عدَمِ وُقوعِ الخطأِ، أمَّا بعدَ وُقوعِ الخطَأِ فلا إثمَ فيه قطعًا. قالوا: هذا رجُلٌ مُسلِمٌ لَزِمَتْه دِيَةٌ، وهو لم يَقصِدْ سُوءًا، ولم يَقصِدْ بها ذَنْبًا ولا جريمةً، فالله جَلَّ وعلا أمَرَ عاقِلَتَه مِن أهلِ ديوانِه -ممَّن يقولُ بالدِّيوانِ- أو مِن عَصَبتِه -ممَّن =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَحمِلُ آثامَ غَيرِه، ويَنبني على هذه الفائدةِ: ثبوتُ كمالِ عَدلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيث لا يَحمِلُ أحدٌ وِزرَ أحَدٍ[(١)].

٥- قَولُه تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه بيانُ شُمولِ عِلْمِ اللهِ تعالى، فقولُه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بالَّذي كنتُم تَعمَلونَ كلِّه؛ صَغيرِه وكَبيرِه، والخِطابُ لجَميعِ النَّاسِ[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ القلبَ هو الَّذي عليه مَدارُ الصَّلاحِ؛ لأنَّه إذا كان الحسابُ على ما في القلبِ فيكونُ مدارُ الصلاحِ عليه، ويؤيِّدُه قولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ألَا وإنَّ في الجسَدِ مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلَح الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدتْ فَسَد الجسدُ كلُّه؛ ألَا وهي

= يَقصُرُها على العَصَبةِ-؛ أمَرَهم أن يُساعِدوه، وخالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ يُدَبِّرُ على البَعضِ مِن البَعضِ، ويأمُرُ البَعضَ بمُساعدةِ البَعضِ؛ إكرامًا وجريًا على مكارِمِ الأخلاقِ، كما أمَرَ بأن تُؤخَذَ الزَّكاةُ مِن أغنيائِنا وتُرَدَّ على فُقَرائِنا، فهذه إعانةٌ مَحضٌ، ومكارِمُ أخلاقٍ جاء القرآنُ بها؛ مُعاوَنةً لذلك الإنسانِ، كما أوجَبَ الزَّكاةَ مُساعدةً للفَقيرِ، وما جرى مجرى ذلك.

أمَّا حديثُ ابنِ عُمَرَ فللعُلماءِ عنه أجوبةٌ كثيرةٌ؛ منها: أنَّهم حَمَلوه على الميِّتِ الَّذي أوصاهم أن يَبكُوا عليه، أو: عَرَفَ أنَّه إذا مات يَبكُون عليه ولم يَنْهَهم...[فالأوَّلُ:] لأنَّه أمَرَ بها في الدُّنيا وهو مِن فِعْلِه، ...[والثَّاني: لأنَّه] عَلِم أنَّه إذا مات يَفعَلونَه ولم يَنْهَهم؛ فهو مُتسَبِّبٌ بعَدَمِ نَهْيِهم.

وقال بعضُ العُلَماءِ: تَعذيبُه ببُكاءِ أهلِه: أنَّ أهلَه إذا بَكَوا عليه: أنَّ اللهَ يُطلِعُه على ذلك، ويأسَفُ ويَحزَنُ مِن حُزنِ أهْلِه، إلى غيرِ ذلك مِن الأقوالِ، وأظهَرُها الأوَّلُ). ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣٢-٦٣٤).

واختار ابنُ عُثيمين أنَّ المرادَ بالعَذابِ في هذا الحديثِ: التَّألُّمُ النَّفْسيُّ، لا العذابُ البَدَنيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير سورة فاطر)) لابن عثيمين (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨٠).

القلبُ))[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أنَّ عبادةَ الضَّرورةِ لا تنفَعُ غالبًا، أي أنَّ الإنسانَ إذا عَرَف ربَّه عندَ الضَّرورةِ فقطْ فالغالبُ أنَّه لا يَنتفِعُ بهذه العبادةِ؛ لأنَّها ليست عبادةً عن رغبةٍ، ولكنَّها عبادةٌ مِن أجْلِ إنجاءِ الإنسانِ مِن الهَلَكَةِ، وإنْ كان أحيانًا يَنتفِعُ، فرُبَّما يكونُ هذا سببًا لفَتْحِ اللهِ عليه، كما يُوجَدُ الآنَ مِن النَّاسِ مثلًا مَن يُصابُ بمرضٍ شديدٍ، ويَخافُ منه الهلاكَ؛ فيُنيبُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ويدعو اللهَ سُبحانَه وتعالى؛ ثم يَمُنُّ اللهُ عليه بالاستمرارِ، لكنَّ الغالبَ أنَّ التَّعبُّدَ ضرورةً لا يُفيدُ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ أنَّ الكافِرَ يُؤمِنُ برُبوبيَّةِ اللهِ، وأنَّ إيمانَه هذا باللهِ لا يُخرِجُه مِن الكُفرِ؛ فالإيمانُ باللهِ وبرُبوبيَّتِه لا يكفي، ولا يُخرِجُ الإنسانَ مِن الكُفرِ، ودليلُ ذلك: أنَّ المُشرِكينَ الَّذين بُعِثَ فيهم رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كانوا يُقِرُّون باللهِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، يعني: يُقِرُّونَ بأنَّ الَّذي خَلَقَهم هو اللهُ، ويَصِفُونه بالصِّفاتِ الكاملةِ، ومع ذلك فهم كفَّارٌ استباحَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم دماءَهم ونِساءَهم وأموالَهم وذُرِّيَّتَهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨١).

والحديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ﴾ التَّعبيرُ بـ «خوَّل»، وفيه أنَّ عَطاءَه سُبحانَه ابتِداءً فَضلٌ منه، لا يَستَحِقُّ أحَدٌ عليه شيئًا؛ لأنَّ التَّخويلَ لا يكونُ جَزاءً، بل ابتِداءً[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُجيبُ دعوةَ المُضْطَرِّ ولو كان كافرًا[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا نِدَّ له؛ لأنَّ اللهَ أنْكَر على مَن جَعَلوا له أندادًا؛ فيكونُ في هذا رَدٌّ على أهلِ التَّمثيلِ الَّذين أَثْبَتوا للهِ الصِّفاتِ مع التَّمثيلِ؛ فقالوا: إنَّ اللهَ تعالى له وجْهٌ كوُجوهِنا! ويَدٌ كأيدينا! وعينٌ كأعيُنِنا! وساقٌ كسُوقِنا! وهكذا[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا﴾ إشارةٌ إلى قِلَّةِ زَمَنِ الدُّنيا وما فيها في جَنبِ الآخِرةِ[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أنَّهم لا يُفارِقونَها؛ فإنَّ الصُّحبةَ تُشعِرُ بالمُلازَمةِ، فأصحابُ النَّارِ: المُخَلَّدونَ فيها[٥].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٥).

تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

- قولُه: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ ﴾ أُتْبِعَ إنكارُ انصِرافِهم عن تَوحيدِ اللهِ بَعدَ ما ظَهَر على ثُبوتِه مِنَ الأدِلَّةِ، بأنْ أُعلِموا بأنَّ كُفرَهم إنْ أصَرُّوا عليه لا يَضُرُّ اللهَ، وإنَّما يَضُرُّ أنْفُسَهم، وهذا شُروعٌ في الإنذارِ والتَّهديدِ لِلكافِرينَ، ومُقابَلَتِه بالتَّرغيبِ والبِشارةِ لِلمُؤمِنينَ؛ فالجُملةُ مُستَأنَفةٌ واقِعةٌ مَوقِعَ النَّتيجةِ لِمَا سَبَقَ مِن إثباتِ تَوحيدِ اللهِ بالإلَهيَّةِ؛ فجُملةُ ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ ﴾ مُبيِّنةٌ لِإنكارِ انصِرافِهم عنِ التَّوحيدِ، أيْ: إنْ كَفَرتُم بَعدَ هذا الزَّمَنِ، فاعلَموا أنَّ اللهَ غَنيٌّ عنكم، ومَعناه: غَنيٌّ عن إقرارِكم له بالوَحدانيَّةِ، أيْ: غَيرُ مُفتَقِرٍ له، وهذا كِنايةٌ عن كَونِ طَلَبِ التَّوحيدِ منهم لِنَفعِهم، ودَفْعِ الضُّرِّ عنهم، لا لِنَفعِ اللهِ، ولتَذكيرِهم بهذا، والخَبرُ مُستَعمَلٌ كِنايةً في تَنبيهِ المُخاطَبِ على الخَطَأِ مِن فِعلِه[1].

- قولُه: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ جُملةٌ مُستَطرَدةٌ كالتَّتميمِ لِلشَّرطِ الأوَّلِ، تَعريضًا بهم وبكُفرِهم، وهو مع الشَّرطِ كالمُقابِلِ لِلشَّرطِ الثَّاني، والمَعنى: أنَّهم ليسوا مِن جُملةِ عِبادِه المُرتَضَيْنَ، بلْ هم مِنَ الَّذين سَخِطَ اللهُ عليهم[2]. أو اعتِراضٌ بيْنَ الشَّرطَينِ؛ لِقَصدِ الاحتِراسِ مِن أنْ يَتوهَّمَ السَّامِعونَ أنَّ اللهَ لا يَكتَرِثُ بكُفرِهم ولا يَعبَأُ به، فيَتَوهَّموا أنَّه والشُّكرَ سَواءٌ عِندَه؛ لِيَتأكَّدَ بذلك مَعنى استِعمالِ الخَبَرِ في تَنبيهِ المُخاطَبِ على الخَطَأِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٧).

قولُه: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ قال: ﴿لِعِبَادِهِ﴾، ولم يَقُل: «مِن عبادِه»، أو: «عن عِبادِه»؛ لأنَّ اللَّامَ أبلَغُ في كَونِ هذا الشَّيءِ لا يليقُ بهم[١].

- قَولُه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ فيه تَعريضٌ بالمُتارَكةِ، وقَطْعِ اللَّجاجِ مع المُشرِكينَ، وأنَّ قُصارَى المُؤمِنينَ أنْ يُرشِدوا الضُّلَّالَ، لا أنْ يُلجِئوهم إلى الإيمانِ[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ لِلتَّرتيبَينِ: الرُّتبيِّ والتَّراخي، أيْ: وأعظَمُ مِن كَونِ اللهِ غَنيًّا عنكم أنَّه أعَدَّ لكمُ الجَزاءَ على كُفرِكم، وسَتَرجِعونَ إليه[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ نَظيرُه في آخرِ سُورةِ (الأنعام)، وإنَّما جاءَ في آيةِ (الأنعام): ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤]؛ لِأنَّها وَقَعَتْ إثْرَ آياتٍ كَثيرةٍ تَضَمَّنتْ الاختِلافَ بيْنَ أحوالِ المُؤمِنينَ وأحوالِ المُشرِكينَ، ولم يَجِئْ مِثلُ ذلك هنا؛ فلذلك قيلَ هنا: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، أيْ: مِن كُفرِ مَن كَفَر، وشُكرِ مَن شَكَر[٤].

- وقولُه: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فيه تَعريضٌ بالوَعدِ والوَعيدِ[٥]؛ ففيها تهديدٌ للعاصي، وبِشارةٌ للمُطيعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٠، ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٦).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تَعليلٌ لِجُملةِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لِأنَّ العَليمَ بذاتِ الصُّدورِ لا يُغادِرُ شَيئًا إلَّا عَلِمَه، فإذا أنبَأ بأعمالِهم كان إنباؤُه كامِلًا(١).

- وقيل: إنَّ قولَه: (يُنَبِّئُكُمْ) فيه إشارةٌ إلى اللُّطفِ والإحسانِ، حيثُ لم يقُلْ: يُؤاخِذُكم؛ لأنَّه ثبَتَ في الصَّحيحِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ يُدْني المؤمنَ فيَضَعُ عليه كَنَفَه(٢) ويَسترُه، فيقولُ: أتَعرِفُ ذنْبَ كذا؟ أتَعرِفُ ذنْبَ كذا؟ فيقولُ: نعمْ، أيْ رَبِّ. حتَّى إذا قَرَّره بذُنوبِه ورَأَى في نفْسِه أنَّه هَلَك قال: سترْتُها عليكَ في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لكَ اليومَ))(٣)؛ فهذا إنباءٌ بدونِ مؤاخَذةٍ؛ ولهذا قال هنا: (يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). ثمَّ إنَّ المؤاخَذةَ إليه، والإنباءَ وَعْدٌ عليه؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]؛ ولهذا كان الكفَّارُ لا يُنَبَّؤونَ بعمَلِهم كما يُنَبَّأُ المؤمنُ، يعني أنَّ اللهَ يَخْلو به ويَستُرُ عليه، ويُقرِّرُه بذُنوبِه معه وحْدَه، أمَّا الكفَّارُ -والعياذُ باللهِ- فيُنادَى على رُؤوسِ الأشهادِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، واللهُ أعلَمُ(٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤١، ٣٤٢).

(٢) كَنَفَه: أي: سِتْرَه وعَفْوَه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٧٣).

نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ هذا مِثالٌ لِتَقلُّبِ المُشرِكينَ بيْنَ إشراكِهم مع اللهِ غَيرَه في العِبادةِ، وبيْنَ إظهارِ احتياجِهم إليه، فذلك عُنوانٌ على مَبلَغِ كُفرِهم وأقْصاه، والجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [الزمر: ٦] الآيةَ؛ لاشتراكِ الجُملتَينِ في الدَّلالةِ على أنَّ اللهَ مُنفردٌ بالتَّصرُّفِ، مُستوجِبٌ للشُّكرِ، وعلى أنَّ الكُفرَ به قَبيحٌ، وتَتضَمَّنُ الاستِدلالَ على وحدانيَّةِ إلهيَّتِه، بدَليلٍ مِن أحوالِ المُشرِكينَ به؛ فإنَّهم إذا مَسَّهمُ الضُّرُّ لَجَؤوا إليه وَحْدَه، وإذا أصابَتْهم نِعمةٌ أعرَضوا عن شُكرِه، وجَعَلوا له شُركاءَ؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، ولكِنَّ عُمومَه هنا عُمومٌ عُرفيٌّ لِفَريقٍ مِنَ الإنسانِ، وهم أهلُ الشِّركِ خاصَّةً؛ لِأنَّ قَولَه: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ لا يَتَّفِقُ مع حالِ المُؤمِنينَ(١).

- وذِكرُ (الإنسانِ) في ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ؛ لِأنَّ المَقصودَ به المُخاطَبونَ بقَولِه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الزمر: ٦]، إلى قَولِه: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٧]، فكان مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: وإذا مَسَّكمُ الضُّرُّ دَعَوْتُم رَبَّكم... إلخ، فعُدِلَ إلى الإظهارِ؛ لِمَا في مَعنى (الإنسانِ) مِن مُراعاةِ ما في الإنسانيَّةِ مِنَ التَّقلُّبِ والاضطِرابِ، إلَّا مَن عَصَمَه اللهُ بالتَّوفيقِ، ولِأنَّ في اسمِ (الإنسانِ) مُناسَبةً مع النِّسيانِ الآتي في قَولِه: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٤٢، ٣٤٣).

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ اللَّامُ في قَولِه: ﴿لِّيُضِلَّ﴾ لامُ العاقِبةِ؛ لِأنَّ الإضلالَ لَمَّا كان نَتيجةَ الجَعلِ جازَ تَعليلُ الجَعلِ به، كأنَّه هو العِلَّةُ لِلجاعِلِ[(١)].

- قولُه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ذِكرَ حالةِ الإنسانِ الكافرِ المُعرِضِ عن شُكرِ ربِّه، يُثيرُ وَصْفُها سُؤالَ السَّامعِ عن عاقِبةِ هذا الكافرِ[(٢)].

- وصِيغةُ الأمْرِ في قولِه: ﴿تَمَتَّعْ﴾ مُستعمَلةٌ في الإمهالِ المرادِ منه الإنذارُ والوعيدُ[(٣)]. وهو أمْرُ تَهديدٍ فيه إشعارٌ بأنَّ الكُفرَ نَوعُ تَشَهٍّ لا سَنَدَ له، وإقناطٌ للكافِرينَ مِنَ التَّمتُّعِ في الآخِرةِ؛ ولذلك علَّله بقولِه: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ على سَبيلِ الاستِئنافِ للمُبالَغةِ[(٤)].

- ومُتعلَّقُ التَّمتُّعِ في قولِه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ مَحذوفٌ، دَلَّ عليه سِياقُ التَّهديدِ، والتَّقديرُ: تَمَتَّعْ بالسَّلامةِ مِنَ العَذابِ في زَمَنِ كُفرِكَ، أو مُتَكسِّبًا بكُفرِكَ تَمَتُّعًا قَليلًا؛ فأنتَ آيِلٌ إلى العَذابِ؛ لِأنَّكَ مِن أصحابِ النارِ[(٥)].

- ووَصْفُ التَّمتُّعِ بالقَليلِ؛ لِأنَّ مُدَّةَ الحَياةِ الدُّنيا قَليلةٌ بالنِّسبةِ إلى العَذابِ في الآخِرةِ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٤).

قَلِيلٌ﴾[١] [التوبة: ٣٨].

- وجُملةُ ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ بَيانٌ لِلمَقصودِ مِن جُملةِ ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾، وهو الإنذارُ بالمَصيرِ إلى النَّارِ بَعدَ مُدَّةِ الحَياةِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٩-١٠)

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَٰنِتٌ﴾: أي: دائِمُ الطَّاعةِ، أو: مُصَلٍّ، أو: قائِمٌ في صلاتِه، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دينٍ[١].

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾: أي: ساعاتِ اللَّيلِ، وأصلُه: يدُلُّ على ساعةٍ مِن الزَّمانِ[٢].

﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي: أصحابُ العقولِ الزَّكيَّةِ، ومفردُ ألبابٍ: لُبٌّ، وأصلُ اللُّبِّ: الخُلوصُ والجَوْدةُ، والشَّيءُ المُنتقَى[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١).
قال ابن القيِّم: (القنوت... هو الطَّاعةُ الدَّائمةُ؛ فيَدخُلُ فيه القيامُ، والذِّكرُ، والدُّعاءُ، وأنواعُ الطَّاعةِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١) و(٥/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠١).
وآناء جمْعٌ، مُفْرَدُه: إِنْيٌ وإِنًى وأَنا وإنو. يُنظر: ((التبيان في آداب حملة القرآن)) للنووي (ص: ٢٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى نافيًا المُساواةَ بيْنَ الإنسانِ المُشرِكِ وبيْنَ الإنسانِ الملازِمِ لطاعةِ رَبِّه: آلَّذي هو مُطيعٌ لِرَبِّه قائِمٌ ساعاتِ اللَّيلِ لعبادتِه ساجِدًا وقائِمًا، يَحْذَرُ عذابَ الآخِرةِ، ويَرجو رحمةَ رَبِّه: كمَنْ هو جاعِلٌ لله تعالى شُرَكاءَ في العبادةِ؟!

ثمَّ يَنفي اللهُ تعالى أيضًا المساواةَ بيْنَ العالِمِ والجاهِلِ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: هل يَستوي العُلَماءُ العامِلونَ بعِلمِهم، القانِتونَ لله؛ والجُهَّالُ الَّذين لا يَعلَمونَ ولا يَعمَلونَ؟ كلَّا، لا يَستَوونَ؛ إنَّما يَتذكَّرُ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ!

ثمَّ يقولُ تعالى: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لعِباديَ المؤمِنينَ: اتَّقوا رَبَّكم، لِلَّذين أحسَنوا العَمَلَ في هذه الحياةِ الدُّنيا حَسَنةٌ، وأرضُ اللهِ فَسيحةٌ، وبلادُه كَثيرةٌ، فإذا عجَزْتُم عن عِبادتي في أرضٍ فتحَوَّلوا إلى أرضٍ أُخرَى تَتَمكَّنونَ فيها مِنَ العبادةِ؛ فلا عُذرَ لأحَدٍ في تَركِ الهِجرةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى عاقبةَ الصَّبرِ، فيقولُ: إنَّما يُوفَّى الصَّابِرونَ أجْرَهم تامًّا كثيرًا بغيرِ حَدٍّ ولا عَدٍّ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح تَعالى شَيئًا مِن أحوالِ الظَّالِمينَ الضَّالِّينَ المُشرِكينَ؛ أردَفَه بشَرحِ أحوالِ المُهتَدينَ المُوَحِّدينَ، فقال[1]:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٨).

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿أَمَنْ﴾ بتخفيفِ الميم. وهي همزةُ الاستِفهام دَخَلَتْ على (مَنْ) بمعنى (الَّذي)، والاستِفهامُ للتَّقريرِ، ومُقابِلُه مَحذوفٌ تقديرُه: أَمَنْ هو قانتٌ كمَنْ جعَلَ للهِ أندادًا؟ أو أَمَنْ هو قانِتٌ كغيرِه؟ وقيل: الهَمزةُ للنِّداءِ، و(مَنْ) مُنادى، أي: يا مَن هو قانتٌ، قُلْ كَيْتَ وكَيْتَ، أو أبشِرْ؛ إنَّك مِن أهلِ الجنَّةِ[(١)].

٢- قِراءةُ: ﴿ أَمَّنْ﴾ بتَشديدِ الميم، على إدخالِ (أم) على (مَن) الموصولةِ، وإدغامِ الميم. وفي (أم) قولانِ؛ أحدُهما: أنَّها مُتَّصِلةٌ، ومُعادِلُها محذوفٌ تقديرُه: آلكافِرُ خيرٌ أم الَّذي هو قانِتٌ؟ وقيل: (أم) في ﴿ أَمَّنْ﴾ مُنقَطِعةٌ، فتتقَدَّرُ بـ (بل والهمزةِ) أي: بل أمَنْ هو قانِتٌ كغيرِه، أو كالكافِرِ المَقولِ له: تمتَّعْ بكُفْرِك[(٢)]؟

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ ﴾.

أي: أذَلِكَ الكافِرُ الَّذي يَتمتَّعُ بكُفرِه قَليلًا وهو مِن أصحابِ النَّارِ خَيرٌ أم المُطيعُ للهِ، المُصَلِّي ساعاتِ اللَّيلِ ساجِدًا وقائِمًا، وهو على حَذَرٍ وخَوفٍ مِن الآخرةِ، ورَجاءٍ وطَمَعٍ في نَيلِ رَحمةِ اللهِ تعالى[(٣)]؟

---

(١) قرأ بها ابنُ كثير، ونافعٌ، وحمزةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٨، ٣٠٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٢٠، ٦٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤١٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٨، ٣٠٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٢٠، ٦٢١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٥-١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٢)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أفضَلُ الصَّلاةِ طُولُ القُنوتِ))(١).

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دخل على شابٍّ وهو في الموتِ، فقال: كيفَ تَجِدُك؟ قال: واللهِ يا رَسولَ اللهِ، إنِّي أرجو اللهَ، وإنِّي أخافُ ذُنوبي! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا يَجتَمِعانِ في قَلبِ عَبدٍ في مِثلِ هذا الموطِنِ إلَّا أعطاه اللهُ ما يَرجو، وآمَنَه ممَّا يَخافُ))(٢).

= القرطبي)) (١٥/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٥، ٣٤٦).

قال القرطبي: (وفي ﴿قَٰنِتٌ﴾ أربعةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها: أنَّه المطيعُ. قاله ابنُ مسعودٍ. الثَّاني: أنَّه الخاشِعُ في صلاتِه. قاله ابنُ شِهابٍ. الثَّالثُ: أنَّه القائِمُ في صلاتِه. قاله يحيى بنُ سلام. الرَّابعُ: أنَّه الدَّاعي لرَبِّه. وقولُ ابنِ مَسعودٍ يَجمَعُ ذلك). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٩).

وممَّن قال بأنَّ القنوتَ هو الطَّاعةُ: ابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠).

وقيل: القنوتُ هو دوامُ الطَّاعةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الزَّجَّاجُ، وابنُ تيميَّة، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٤٧)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩٨).

وقيل: هو دوامُ الإخلاصِ لله تعالى في العبادةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٦).

(١) رواه مسلم (٧٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٩٨٣) واللَّفظ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠٩٠١)، وابنُ ماجه (٤٢٦١). =

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر العَمَلَ؛ ذَكَر العِلمَ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان الحامِلُ على الخَوفِ والرَّجاءِ والعَمَلِ إنَّما هو العِلمُ النَّافِعُ، وكان العِلمُ الَّذي لا يَنفَعُ كالجَهلِ، أو الجَهلُ خَيرٌ- كان جوابُ ما تقدَّم مِن الاستفهامِ: لا يَستويانِ؛ لأنَّ المُخلِصَ عالِمٌ، والمُشرِكَ جاهِلٌ؛ فأمَرَه بالجَوابِ بقَولِه[(٢)]:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: هل يَستوي العُلَماءُ بدِينِ اللهِ العامِلونَ بعِلمِهم، القانِتون لِرَبِّهم، مع الجُهَّالِ الَّذين لا يَعلَمونَ ذلك، ولا يَعمَلونَ به؟ كلَّا، لا يَستَوونَ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

= حسَّنه ابنُ العربيِّ في ((عارضة الأحوذي)) (٢/ ٣٧٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٩٨٣)، وجوَّد إسنادَه النوويُّ في ((الخلاصة)) (٢/ ٩٠٢)، وابنُ المُلَقِّنِ في ((تحفة المحتاج)) (١/ ٥٨٢)، والصَّنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٢/ ١٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٧، ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٨، ٣٤٩).

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مدارُ السَّدادِ التَّذَكُّرَ، وكان مدارُ التَّذَكُّرِ الَّذي به الصَّلاحُ والفَسادُ هو القَلبَ؛ لأنَّه مرَكزُ العَقلِ الَّذي هو آلةُ العِلمِ، وكان القَلبُ الَّذي لا يَحمِلُ على الصَّلاحِ عَدَمًا، بل العَدَمُ خَيرٌ منه- قال[1]:

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

أي: إنَّما يَتذكَّرُ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ، فيَتَّبِعونَ الحَقَّ، ويُؤْثِرونَ العِلمَ على الجَهلِ، وطاعةَ اللهِ على مَعصيتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥١).

قال الشوكاني: (هذه الجملةُ ليست مِن جملةِ الكلامِ المأمورِ به، بل مِن جِهةِ اللهِ سُبحانَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٠).

وقال الألوسي: (وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كلامٌ مُستقِلٌّ، غيرُ داخلٍ عندَ الكافَّةِ في الكلامِ المأمورِ، واردٌ مِن جِهتِه تعالى). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٣٧).

وقيل: ليس قولُه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كلامًا مُستقِلًّا، إنَّما هو واقعٌ مَوقِعَ التَّعليلِ لنَفيِ الاستواءِ بيْنَ العالِمِ وغيرِه. وذهب إليه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أُجرِيَ الثَّناءُ على المُؤمِنينَ بإقبالِهم على عبادةِ اللهِ في أشَدِّ الآناءِ، وبشِدَّةِ مُراقبتِهم إيَّاه بالخَوفِ والرَّجاءِ، وبتَمييزِهم بصِفةِ العِلمِ والعَقلِ والتَّذَكُّرِ، بخِلافِ حالِ المُشرِكينَ في ذلك كُلِّه؛ أتْبَعَ ذلك بأمرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإقبالِ على خِطابِهم؛ للاستِزادةِ مِن ثباتِهم، ورِباطةِ جَأْشِهم[١].

وأيضًا بعدَ أنْ نفَى المساواةَ بيْنَ مَن يَعلَمُ ومَن لا يَعلَمُ- أردَفَه أمْرَ رسولِه أن يَنصَحَ المؤمنينَ بجُملةِ نصائِحَ[٢]، فقال:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِعباديَ المؤمِنينَ: اتَّقوا ربَّكم، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[٣].

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ سُبحانَه المُؤمِنينَ بالاتِّقاءِ؛ بَيَّن لهم ما في هذا الاتِّقاءِ مِن الفوائِدِ، فقال تعالى[٤]:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١١، ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٠).

أي: للَّذين أحسَنوا العَمَلَ في هذه الحياةِ الدُّنيا حَسَنةٌ(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [البقرة: ٢٠١، ٢٠٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٣، ٣٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٣-١١٥).

وقيل: المعنى: للَّذين أحسَنوا في الدُّنيا حَسَنةٌ في الآخرةِ، وهي الجنَّةُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عطية، وابن جُزَي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٠).

قال الماتُريدي: (قال عامَّةُ أهلِ التَّأويلِ: لِلَّذِينَ أحسَنوا في هذه الدُّنيا حسَنةٌ لهم في الآخرةِ). ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٦٦).

وقال الماوَرْدي: (قَولُه عَزَّ وجَلَّ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: معناه: للَّذين أحسَنوا في هذه الدُّنيا حَسَنةٌ في الآخِرةِ، وهي الجنَّةُ. الثَّاني: للَّذين أحسَنوا في الدُّنيا حَسَنةٌ في الدُّنيا، فيكونُ ذلك زائدًا على ثَوابِ الآخِرةِ. وفيما أُريدَ بالحَسَنةِ الَّتي لهم في الدُّنيا أربعةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: العافيةُ والصِّحَّةُ. قاله السُّدِّيُّ. الثَّاني: ما رزَقَهم اللهُ مِن خيرِ الدُّنيا. قاله يحيى بنُ سلام. الثَّالثُ: ما أعطاهم مِن طاعتِه في الدُّنيا وجَنَّتِه في الآخِرةِ. قاله الحَسَنُ. الرَّابعُ: الظَّفَرُ والغنائمُ. حكاه النَّقَّاشُ. ويحتمِلُ خامسًا: أنَّ الحَسَنةَ في الدُّنيا الثَّناءُ، وفي الآخرةِ الجزاءُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١١٨).

وفسَّر السعديُّ الحسنةَ بأنَّها رزقٌ واسعٌ، وعِيشةٌ هنيَّةٌ، وطُمَأنينةُ قلبٍ، وأمْنٌ وسرورٌ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بالَّذين أحسَنوا: الَّذين اتَّقَوُا اللهَ، وهم المؤمِنونَ المَوصوفونَ بما تقدَّمَ مِن قَولِه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ﴾ [الزمر: ٩] الآيةَ؛ لأنَّ تلك الخِصالَ تدُلُّ على الإحسانِ المفَسَّرِ بقَولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ، فإنْ لم تكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ» [البخاري «٥٠» ومسلم «٩»]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٣).

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ ﴾ [النحل: ٩٧].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لا يَظلِمُ مُؤمِنًا حَسَنةً؛ يُعطَى بها في الدُّنيا، ويُجزَى بها في الآخِرةِ، وأمَّا الكافِرُ فيُطعَمُ بحَسَناتِ ما عَمِلَ بها لله في الدُّنيا، حتَّى إذا أفضَى إلى الآخِرةِ لم تكُنْ له حَسَنةٌ يُجزَى بها))(١).

﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

في قَولِه تعالى: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ مناسَبةٌ مع قولِه سُبحانَه: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾، وهي أنَّ مِن جملةِ الإحسانِ في الدُّنيا الهجرةَ لا شَكَّ؛ لأنَّ الهجرةَ مِن أكبَرِ ما يدُلُّ على صِدْقِ العاملِ؛ إذْ إنَّ المُهاجِرَ يَدَعُ أهلَه ووطنَه وعشيرتَه ومالَه للهِ(٢).

وأيضًا لَمَّا كان رُبَّما عَرَض للإنسانِ في أرضٍ مَن يَمنَعُه الإحسانَ، ويَحمِلُه على العِصيانِ؛ حَثَّ سُبحانَه على الهِجرةِ إلى حيثُ يَزولُ عنه ذلك المانِعُ؛ تنبيهًا على أنَّ مِثلَ هذا ليس عُذرًا في التَّقصيرِ(٣).

وأيضًا لَمَّا قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾ كان لبَعضِ النُّفوسِ

(١) رواه مسلم (٢٨٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧١).

مَجالٌ في هذا الموضِعِ، وهو أنَّ النَّصَّ عامٌّ: أنَّه كُلُّ مَن أحسَنَ فله في الدُّنيا حَسَنةٌ، فما بالُ مَن آمَنَ في أرضٍ يُضطَهَدُ فيها ويُمتَهَنُ، لا يحصُلُ له ذلك؟! دفَعَ هذا الظَّنَّ بِقَولِه[1]:

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾.

أي: وأرضُ اللهِ فَسيحةٌ، فمَن لم يَستَطِعْ أن يَعبُدَ اللهَ في أرضٍ فلْيُهاجِرْ إلى أُخرى يَتمَكَّنُ فيها مِن إقامةِ دينِه؛ فلا عُذرَ لأحَدٍ في تَرْكِ الهِجرةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الصَّبرُ على هِجرةِ الوَطَنِ -ولا سيَّما إن كان ثَمَّ أهلٌ وعَشيرةٌ- شَديدًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧١، ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٥).

وذَكَر الماوَرْديُّ احتِمالًا مال إليه، وهو أنَّ المرادَ بسَعةِ الأرضِ: سَعةُ الرِّزقِ؛ لأنَّه يَرزُقُهم مِن الأرضِ، فيَكونُ معناه: ورزقُ اللهِ واسِعٌ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١١٩).

قال القرطبيُّ بعدَ أن ذكَرَ كلامَ الماوَرْديِّ: (فتكونُ الآيةُ دليلًا على الانتِقالِ مِن الأرضِ الغالِيةِ، إلى الأرضِ الرَّاخيةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤١).

وقيل: المرادُ بالأرضِ: أرضُ الجنَّةِ، رغَّبَهم في سَعَتِها، وسَعةِ نعيمِها. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٠).

جِدًّا؛ ذَكَر ما للصَّابِرِ على ذلك[١].

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: إنَّما يُعطَى الصَّابِرونَ على البَلاءِ، وعلى طاعةِ اللهِ وعن مَعصيتِه: ثَوابًا تامًّا كَثيرًا، بغيرِ حَدٍّ ولا عَدٍّ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ...﴾ أنَّه تعالى نبَّه على أنَّ الانتِفاعَ بالعَمَلِ إنَّما يَحصُلُ إذا كان الإنسانُ مُواظِبًا عليه؛ فإنَّ القُنوتَ عِبارةٌ عن كَونِ الرَّجُلِ قائِمًا بما يجِبُ عليه مِنَ الطَّاعاتِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ العمَلَ إنَّما يُفيدُ إذا واظَبَ عليه الإنسانُ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ...﴾ أنَّ القرآنَ الكريمَ يَفْتَحُ للإنسانِ الاستِدلالَ العقليَّ، يعني أنَّه يَعْرِضُ الأشياءَ عَرضًا عقليًّا؛ وذلك بطلب

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٦-١١٨).

قال ابن عطية: (هذا يَحتمِلُ مَعنيَينِ؛ أحَدُهما: أنَّ الصَّابِرَ يُوفَّى أجْرَه، ثمَّ لا يُحاسَبُ عن نَعيمٍ، ولا يُتابَعُ بذُنوبٍ... والمعنى الثَّاني: أنَّ أُجورَ الصَّابرينَ تُوفَّى بغيرِ حَصرٍ ولا عَدٍّ، بل جُزافًا، وهذه استِعارةٌ للكثرةِ الَّتي لا تُحصى... وإلى هذا التَّأويلِ ذهب جُمهورُ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٢).

ممَّن ذهب مِن السَّلفِ إلى نحوِ المعنى الثَّاني: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وقَتادةُ، وابنُ جُرَيجٍ، وابنُ عَونٍ، وسُلَيمانُ بنُ القاسمِ، ومحمَّدُ بنُ مَيمونٍ. يُنظر: ((الصبر والثواب عليه)) لابن أبي الدنيا (ص: ٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٨).

التَّدَبُّرِ والتَّفَهُّمِ، فمثلًا: إذا عَرَضْتَ حالَ القانتِ وحالَ العاصي على العقلِ؛ سيقولُ: لا يَسْتَويان؛ مَن هو قانتٌ آناءَ اللَّيلِ ليس كمَن هو عاصٍ! وهذه مِن الطُّرُقِ الَّتي يَنبغي لطالبِ العلمِ أنْ يَتَّخِذَها عندَ المُناظَرةِ سبيلًا إلى إفحامِ الخَصمِ؛ لأنَّ كثيرًا مِن الخصومِ قد لا يَقتنِعون بمُجرَّدِ الدَّليلِ الأثَريِّ؛ فنَسوقُ إليهم الدَّليلَ النَّظريَّ، ولا سيَّما في الوقتِ الحاضرِ؛ حيثُ اتَّخَذَ كثيرٌ مِن النَّاسِ -إنْ لم يكُنْ: أكثرُهم- طريقَ إبليسَ سبيلًا؛ وهو مُعارَضةُ السَّمعِ بما يَظُنُّه عقلًا! يعني: مُعارَضةَ النُّصوصِ بما يَظُنُّونَ أنَّه عقلٌ، ونحن نَعْلَمُ عِلمَ اليقينِ أنَّه ليس في النُّصوصِ ما يُخالِفُ العقلَ الصَّريحَ أبدًا، بل في النُّصوصِ ما يُؤيِّدُه العقلُ الصَّريحُ، ويكونُ هذا شاهدًا لهذا؛ كلٌّ منهما يَقوَى بالآخَرِ[(١)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ فيه أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يكونَ في سَيرِه إلى اللهِ جامعًا بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فَضيلةُ العِلمِ، ولكنْ يجِبُ أن نَعلمَ أنَّ العِلمَ يَشرُفُ بشَرَفِ مَوضوعِه، وعلى هذا فأفضَلُ العُلومِ العِلمُ بأسماءِ اللهِ وصِفاتِه؛ لأنَّ هذا أشرَفُ مَوضوعاتِ العِلمِ؛ ثمَّ العِلمُ بأحكامِه: ((مَن يُرِدِ اللهُ به خَيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ))[(٣)].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فيه أنَّ مِن الدَّعوةِ إلى اللهِ، ومِن حُسْنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٩).

والحديث أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاويةَ بنِ أبي سُفْيانَ رضي الله عنهما.

الدَّعوةِ: إقامةَ الحُجَّةِ؛ فإنَّه لا عُذْرَ لأحدٍ أنْ يقولَ: لا أَجِدُ مَلجأً، أو لا أجِدُ مُهاجَرًا[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فيه فضيلةُ الصَّبرِ[٢]، عن عُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ أنَّه خَطَبَ النَّاسَ فقال: (ما أنعَمَ اللهُ على عبدٍ نِعمةً فانتَزَعها منه، فعاضَه مكانَ ما انتَزَع منه الصَّبرَ: إلَّا كان ما عوَّضه اللهُ خيرًا مِمَّا انتَزَع منه)، ثمَّ تلا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] أنَّ كلَّ مَن خَشِيَ اللهَ سُبحانَه وتعالى وأطاعَه وتَرَكَ مَعصيتَه: فهو عالِمٌ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ...﴾ إلى آخرِ الآيةِ: أنَّه بدأ فيها بذِكرِ العَمَلِ، وخَتَمها بذِكرِ العِلمِ؛ أمَّا العَمَلُ فكَونُه قانتًا ساجدًا قائمًا، وأمَّا العِلمُ فقَولُه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلَمَّا ذَكَر العملَ ذَكَر العِلمَ، وهذا يدُلُّ على أنَّ كَمالَ الإنسانِ مَحصورٌ في هذَينِ المَقصودَينِ[٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ تَنبيهٌ على فَضلِ قيامِ اللَّيلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١٥٣).

والأثر أخرجه ابن أبي الدنيا في ((الصبر والثواب عليه)) (٢٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٩).

وأنَّه أرجَحُ مِن قيامِ النَّهارِ، ويُؤكِّدُه وُجوهٌ:

الأوَّلُ: أنَّ عِبادةَ اللَّيلِ أستَرُ عن العُيونِ؛ فتَكونُ أبْعَدَ عن الرِّياءِ.

الثَّاني: أنَّ الظُّلمةَ تمنَعُ مِن الإبصارِ، ونَومَ الخَلقِ يَمنَعُ مِن السَّماعِ؛ فإذا صار القَلبُ فارِغًا عن الاشتِغالِ بالأحوالِ الخارجيَّةِ عاد إلى المطلوبِ الأصليِّ، وهو مَعرِفةُ اللهِ وعبادتُه.

الثَّالِثُ: أنَّ اللَّيلَ وَقتُ النَّومِ، فتَركُه يكونُ أشَقَّ؛ فيكونُ الثَّوابُ أكثَرَ.

الرَّابِعُ: قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[1] [المزمل: ٦].

الخامِسُ: قَولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أفضلُ الصَّلاةِ بعدَ الفريضةِ صلاةُ اللَّيلِ))[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ فَضيلةُ القيامِ والسُّجودِ مِن بيْنِ أركانِ الصَّلاةِ؛ وذلك أنَّ القيامَ شَريفٌ بذِكرِه، والسُّجودَ شَريفٌ بهَيئتِه[3].

٥- قَولُه تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ الرَّدُّ على مَن ذَمَّ العباداتِ خَوفًا مِن النَّارِ، أو رَجاءَ الجنَّةِ، وقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((حَوْلَها نُدَنْدِنُ))[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٠٧).

والحديث أخرجه مسلم (١١٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٢٤).

والحديث أخرجه أبو داود (٧٩٢)، وأحمدُ (١٥٨٩٨) عن بعض أصحاب النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. =

٦- قَولُه تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أنَّه قال في مَقام الخَوفِ: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ فما أضاف الحَذَرَ إلى نَفْسِه، وفي مَقام الرَّجاءِ أضافه إلى نَفْسِه، وهذا يدُلُّ على أنَّ جانِبَ الرَّجاءِ أكمَلُ وأليَقُ بحَضرةِ اللهِ تعالى[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ حُجَّةٌ لِمَن قال: العالِمُ -وإنْ لم يَعمَلْ بعِلمِه- أفضَلُ مِن جاهلٍ لا يَعمَلُ: بالخَبرِ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ وتعالى فَرَضَ العِلمَ والعملَ معًا؛ فمَن أطاعَه في العِلْمِ فقد جاء بشَطْرِ الأمرِ، وبَقِيَ عليه الشَّطْرُ، ويُوشِكُ الشَّطْرُ الَّذي أطاع فيه أنْ يُلْحِقَه بالشَّطْرِ الآخَرِ، والجاهِلُ مُضَيِّعٌ لجَميعِه، وغيرُ آخِذٍ عُدَّةَ العَمَلِ، ودَليلَ النجاةِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ مَدحُ العِلمِ ورِفعةُ قَدْرِه، وذَمُّ الجَهلِ ونَقصُه[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ إنَّما وَصَفَ اللهُ تعالى الكُفَّارَ بأنَّهم لا يَعلَمونَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وإن أعطاهم آلَةَ العِلمِ فإنَّهم أعرَضوا عن تَحصيلِ العِلمِ؛ فلِهذا جعَلَهم اللهُ تعالى كأنَّهم لَيسُوا مِن أُولي الألبابِ؛ مِن حيثُ إنَّهم لم يَنتَفِعوا بعُقولِهم وقُلوبِهم، وفي هذا تَنبيهٌ على فَضيلةِ العِلمِ[٤].

= صحَّحه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٢٢٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٧٩٢)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((المجموع)) (٣/ ٤٧١)، و((الأذكار)) (ص: ٦٨)، وصحَّحه على شرطِ الشَّيخَينِ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٥٨٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٦).

١٠- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيه الثَّناءُ على ذوي العقولِ؛ حيثُ جَعَلهم هم المُتذَكِّرينَ المُتَّعِظينَ المُنتفعينَ بما يَسمعونَ، وأنَّ مَن لا يَتذكَّرُ فهو ناقصُ العقلِ؛ لأنَّه إذا كان لا يَتذكَّرُ إلَّا أصحابُ العقولِ؛ فمَن لا يَتذكَّرُ يكونُ ناقصَ العقلِ ولا شكَّ، ونقصانُ عقْلِه بحسَبِ نَقْصِه مِن التَّذَكُّرِ، ووجْهُ ذلك مِن الناحيةِ العقليَّةِ النَّظريَّةِ: أنَّ الإنسانَ العاقلَ لا يمكِنُ أنْ يَختارَ لنفْسِه إلَّا ما فيه النجاةُ؛ ولا نجاةَ مِن عذابِ اللهِ إلَّا بالتَّذَكُّرِ والاتِّعاظِ؛ فلهذا كان العقلُ السَّليمُ يَستلزِمُ أنْ يَتذكَّرَ الإنسانُ ويَتَّعِظَ مِن أجْلِ طَلَبِ ما هو أحَظُّ للنَّفْسِ وأنفعُ ﴿وَلَلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾[1] [الضحى: ٤].

١١- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ فيه أنَّه لا بُدَّ مع الإيمانِ مِن التَّقْوى[2].

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ هناك بِشارةٌ نَصَّ عليها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بقَولِه: ((لا يَزالُ مِن أمَّتي أُمَّةٌ قائمةٌ بأمرِ الله، لا يَضُرُّهم مَن خَذَلهم ولا مَن خالَفَهم، حتَّى يأتيَهم أمرُ الله وهم على ذلك))[3]، تُشيرُ إليه هذه الآيةُ، وتَرمي إليه مِن قَريبٍ، وهو أنَّه تعالى أخبَرَ أنَّ أرضَه واسِعةٌ، فمهما مُنِعتُم مِن عبادتِه في مَوضِعٍ فهاجِروا إلى غَيرِها، وهذا عامٌّ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ؛ فلا بُدَّ أن يكونَ لكُلِّ مُهاجِرٍ مَلجأٌ مِن المُسلِمينَ يَلجَأُ إليه، ومَوضِعٌ يَتمَكَّنُ مِن إقامةِ دينِه فيه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٤١) واللفظ له، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاويةَ بنِ أبي سُفيانَ رضي الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠، ٧٢١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ حَثٌّ على الهِجرةِ مِن البَلَدِ الَّذي تَظهَرُ فيه المعاصي، ونَظيرُه قَولُه تعالى: ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧][(١)]. وفيه أيضًا أنَّ الإنسانَ إذا كان في محَلٍّ لا يَتمَكَّنُ فيه مِن إقامةِ دِينِه على الوَجهِ المطلوبِ؛ فعليه أن يُهاجِرَ منه في مَناكِبِ أرضِ اللهِ الواسِعةِ؛ حتَّى يجِدَ محَلًّا تُمكِنُه فيه إقامةُ دينِه[(٢)].

١٤- كَرَمُ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ حيثُ جَعَلَ الثَّوابَ بمَنزلةِ الأجرِ، كأنَّه مُعاوَضةٌ يُعاوِضُ به العامِلُ؛ لِقَولِه: ﴿أَجۡرَهُم﴾[(٣)].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ على قِراءةِ ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ بتَشديدِ مِيمِ (مَن)، على أنَّه لَفظٌ مُركَّبٌ مِن كَلمتَينِ (أمْ) و(مَن)؛ فأُدْغِمَت مِيمُ (أمْ) في مِيمِ (مَن)؛ ففي معناهُ وَجهانِ؛ أحدُهما: أنْ تكونَ (أمْ) مُعادِلةً لِهَمزةِ استِفهامٍ مَحذوفةٍ مع جُملَتِها، دلَّت عليها (أمْ)؛ لاقتِضائِها مُعادِلًا. ودلَّ عليها تَعقيبُه بـ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنَّ التَّسويةَ لا تكونُ إلَّا بيْن شَيئينِ؛ فالتَّقديرُ: أهذا الجاعلُ للهِ أندادًا الكافرُ خيرٌ أمَّن هو قانتٌ؟ والاستِفهامُ حقيقيٌّ، والمقصودُ لازمُه، وهو التَّنبيهُ على الخطَأِ عندَ التَّأمُّلِ. والوجهُ الثَّاني: أنْ تكونَ (أمْ) مُنقطعةً لِمُجرَّدِ الإضرابِ الانتقاليِّ.

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٢٠).

و(أمْ) تَقْتضي استِفهامًا مُقدَّرًا بعْدَها، ومعنى الكلامِ هنا: دعْ تَهديدَهم بعذابِ النَّارِ، وانتقِلْ بهم إلى هذا السُّؤالِ: الَّذي هو قانتٌ وقائمٌ، ويَحذَرُ اللهَ ويَرْجو رحمتَه. والمعنى: أذَلِكَ الإنسانُ الَّذي جعَلَ للهِ أندادًا هو قانتٌ... إلخ، والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ؛ لِظُهورِ أنَّه لا تَتلاقى تلك الصِّفاتُ الأربعُ -القُنوتُ، والسُّجودُ والقيامُ، والحَذَرُ، ورَجاءُ رَحمةِ اللهِ- مع صِفةِ جَعْلِه للهِ أندادًا. و(أَمْ) إمَّا مُتَّصِلةٌ قد حُذِفَ مُعادِلُها؛ ثِقةً بدَلالةِ مَساقِ الكَلامِ عليه، كأنَّه قيلَ له -تَأكيدًا لِلتَّهديدِ وتَهَكُّمًا به-: أأنتَ أحسَنُ حالًا ومَآلًا، أمَّن هو قائِمٌ بمَواجِبِ الطَّاعاتِ، ودائمٌ على أداءِ وظائفِ العِباداتِ في ساعاتِ اللَّيلِ حالَتَي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، لا عِندَ مَساسِ الضُّرِّ فقطْ كدَأبِكَ؟! وإمَّا مُنقَطِعةٌ، وما فيها مِنَ الإضْرابِ؛ لِلانتِقالِ مِنَ التَّهديدِ إلى التَّبكيتِ بتَكليفِ الجَوابِ المُلجِئِ إلى الاعترافِ بما بَيْنَهما مِنَ التَّبايُنِ البَيِّنِ، كأنَّه قيلَ: بلْ أمَّن هو قانِتٌ... إلخ، أفْضَلُ أمَّن هو كافِرٌ مِثلُكَ.

وعلى قِراءةِ ﴿أَمَنْ﴾ بتَخفيفِ الميمِ -على أنَّ الهمزةَ دخَلَت على (مَن) الموصولةِ-؛ فيجوزُ أنْ تكونَ الهمزةُ همزةَ استِفهامٍ، و(مَن) مُبتدأٌ، والخبَرُ مَحذوفٌ دلَّ عليه الكلامُ قبْلَه مِن ذِكرِ الكافرِ في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ إلى قولِه: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨]. والاستِفهامُ إنكاريٌّ، والقَرينةُ على إرادةِ الإنكارِ تَعقيبُه بقولِه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لِظُهورِ أنَّ (هل) فيه للاستِفهامِ الإنكاريِّ، وبقَرينةِ صِلَةِ الموصولِ. تَقديرُه: أمَن هو قانتٌ أفْضَلُ أمَّن هو كافرٌ؟ والاستِفهامُ حينَئذٍ تَقريريٌّ، ويُقدَّرُ له مُعادلٌ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه عَقِبَه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٥، ٣٤٦).

- وتَخصيصُ اللَّيلِ بقُنوتِ القانتينَ؛ لِأنَّ العِبادةَ باللَّيلِ أعْوَنُ على تَمَحُّضِ القَلبِ لِذِكرِ اللهِ، وأبْعَدُ عن مُداخَلةِ الرِّياءِ، وأدَلُّ على إيثارِ عِبادةِ اللهِ على حَظِّ النَّفْسِ مِنَ الرَّاحةِ والنَّومِ؛ فإنَّ اللَّيلَ أدْعى إلى طَلَبِ الرَّاحةِ، فإذا آثَرَ المَرءُ العِبادةَ فيه، استَنارَ قَلبُه بحُبِّ التَّقَرُّبِ إلى الله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، فلا جَرَمَ كان تَخصيصُ اللَّيلِ بالذِّكرِ دالًّا على أنَّ هذا القانِتَ لا يَخلو مِنَ السُّجودِ والقِيامِ آناءَ النَّهارِ، بدَلالةِ فَحوى الخِطابِ[(١)]؛ قال تَعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا﴾ [المزمل: ٧]، وبذلك يَتِمُّ انطِباقُ هذه الصِّلةِ على حالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(٢)].

- وتَقديمُ السُّجودِ على القِيامِ في قولِه: ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾؛ لِكَونِه أدْخَلَ في مَعنى العِبادةِ[(٣)].

- وأيضًا قَولُه: ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ حالانِ مُبيِّنانِ لِـ﴿قَٰنِتٌ﴾، ومُؤَكِّدانِ لِمَعناه. وجُملةُ ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ حالانِ؛ فالحالُ الأوَّلُ والثَّاني لِوَصفِ عَمَلِه الظَّاهِرِ، والجُملَتانِ اللَّتانِ هما ثالِثٌ ورابِعٌ لِوَصفِ عَمَلِ قَلبِه، وهو أنَّه بيْنَ الخَوفِ مِن سَيِّئاتِه وفَلَتاتِه، وبيْنَ الرَّجاءِ لِرَحمةِ رَبِّه أنْ يُثيبَه على حَسَناتِه. وفي هذا تَمامُ المُقابَلةِ بيْنَ حالِ المُؤمِنينَ الجاريةِ على وَفْقِ حالِ

---

(١) فحْوى الخِطابِ: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطَريقِ الأَولى، وهو نوعانِ:
الأوَّلُ: تَنبيهٌ بالأقَلِّ على الأكثَرِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نَبَّه بالنَّهيِ عن قَولِ أُفٍّ على النَّهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك، ومِثلُه قَولُه تعالى: ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥].
الثَّاني: تنبيهٌ بالأكثَرِ على الأقَلِّ، كقَولِه تعالى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥].
يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥).

نَبيِّهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبيْنَ حالِ أهلِ الشِّركِ الَّذين لا يَدْعونَ اللهَ إلَّا في نادرِ الأوقاتِ، وهي أوقاتُ الاضطِرارِ، ثمَّ يُشركونَ به بعدَ ذلك؛ فلا اهتِمامَ لهم إلَّا بعاجِلِ الدُّنيا، لا يَحذَرونَ الآخِرةَ ولا يَرجونَ ثَوابَها[١]!

- وقَولُه: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ فيه احتِباكٌ[٢]؛ فذكَرَ السُّجودَ دَليلًا على الرُّكوعِ، والقيامَ دَليلًا على القُعودِ، والسِّرُّ في ذِكرِ ما ذُكِرَ، وتَركِ ما تُرِكَ: أنَّ السُّجودَ يدُلُّ على العِبادةِ، وقَرْنُ القيامِ به دالٌّ على أنَّه قيامٌ منه، فهو عِبادةٌ، وذلك مع الإيذانِ بأنَّهما أعظَمُ الأركانِ؛ فهو نَدبٌ إلى تطويلِهما على الرُّكنَينِ الآخَرينِ[٣].

- وقولُه: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ قيل: هو استِئنافٌ لِلتَّعليلِ، وَقَع جَوابًا عَمَّا نَشَأ مِن حِكايةِ حالِه مِنَ القُنوتِ والسُّجودِ والقِيامِ، كأنَّه قيلَ: ما بالُه يَفعَلُ ذلك؟ فقيلَ: يَحذَرُ عَذابَ الآخِرةِ ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، فيَنجُو بذلك مِمَّا يَحذَرُه، ويَفوزُ بما يَرجوه، كما يُنبِئُ عنه التَّعَرُّضُ لِعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُنبِئةِ عنِ التَّبليغِ إلى الكَمالِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِ الرَّاجي، لا أنَّه يَحذَرُ ضُرَّ الدُّنيا ويَرجُو خَيرَها فَقطْ[٤].

- قولُه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ مَوقِعُه كمَوقِعِ قَولِه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ [الزمر: ٨]، أثارَه وَصْفُ المُؤمِنِ الطَّائِعِ، والمَعنى: أعلِمْهم -يا أيُّها الرَّسولُ- بأنَّ هذا المُؤمِنَ العالِمَ بحَقِّ رَبِّه ليس سَواءً لِلكافِرِ الجاهِلِ برَبِّه. وإعادةُ فِعلِ ﴿قُلْ﴾؛ لِلاهتِمامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٦، ٣٤٧).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥).

بهذا المَقولِ، ولِاسترعاءِ الأسماعِ إليه[١].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ، والمَقصودُ: إثباتُ عَدَمِ المُساواةِ بيْن الفَريقَين، وعَدَمُ المُساواةِ يُكنَّى به عن التَّفضيلِ، والمُرادُ: تَفضيلُ الَّذين يَعلَمونَ على الَّذين لا يَعلَمونَ، كقولِه تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ [النساء: ٩٥] الآيةَ، فيُعرَفُ المُفضَّلُ بالتَّصريحِ، كما في آيةِ ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ [النساء: ٩٥]، أو بالقَرينةِ، كما في قولِه هنا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ إلخ؛ لِظُهورِ أنَّ العِلمَ كَمالٌ، ولِتَعْقيبِه بقولِه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢]. أو الاستِفهامُ للتَّنبيهِ على أنَّ كَوْنَ الأَوَّلينَ في أعلَى مَعارجِ الخَيرِ، وكَوْنَ الآخَرينَ في أقْصَى مَدارجِ الشَّرِّ، مِنَ الظُّهورِ بحيثُ لا يَكادُ يَخْفَى على أحدٍ؛ مِن مُنصفٍ ومُكابرٍ. وقيل: واردٌ على سَبيلِ التَّشبيهِ، أيْ: كما لا يَستَوي العالِمونَ والجاهِلونَ، كذلك لا يَستَوي القانِتونَ والعاصونَ[٣].

- ووُقوعُ فِعلِ ﴿يَسْتَوِي﴾ في حَيِّزِ النَّفيِ يَكسِبُه عُمومَ النَّفيِ لِجَميعِ جِهاتِ الاستِواءِ، وإذْ قد كان نَفْيُ الاستِواءِ كِنايةً عنِ الفَضلِ، آلَ إلى إثباتِ الفَضلِ لِلَّذين يَعلَمونَ على وَجهِ العُمومِ[٤].

- وأرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ العامِلينَ مِن عُلَماءِ الدِّيانةِ، كأنَّه جَعَلَ مَن لا يَعمَلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٩).

غَيرَ عالِمٍ، وفيه ازدِراءٌ عَظيمٌ بالَّذين يَقتَنونَ العُلومَ ثم لا يَقنُتونَ، ويَفْتَنُّون فيها ثم يُفتَنونَ بالدُّنيا؛ فهم عِندَ اللهِ جَهَلةٌ، حيثُ جَعَلَ القانِتينَ هُمُ العُلماءَ باعتِبارِ القُوَّةِ العِلميَّةِ، بَعدَ نَفيِه باعتِبارِ القُوَّةِ العَمَليَّةِ على وَجهٍ أبلَغَ؛ لِمَزيدِ فَضلِ العِلْمِ[1].

- وفِعلُ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ في المَوضِعَينِ مُنزَّلٌ مَنزلةَ اللَّازِمِ؛ فلم يُذكَرْ له مَفعولٌ، والمَعنى: الَّذين اتَّصَفوا بصِفةِ العِلْمِ، وليس المَقصودُ الَّذين عَلِموا شَيئًا مُعَيَّنًا حتَّى يَكونَ مِن حَذفِ المَفعولَينِ اختِصارًا؛ إذْ ليس المَعنى عليه[2].

- وعَدَل في قولِه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عن أنْ يَقولَ: (هل يَستَوي هذا وذاك) إلى التَّعبيرِ بالمَوصولِ؛ إدْماجًا لِلثَّناءِ على فَريقٍ، ولِذَمِّ فَريقٍ بأنَّ أهلَ الإيمانِ أهلُ عِلْمٍ، وأهلَ الشِّركِ أهلُ جَهالةٍ، فأغنَتِ الجُملةُ بما فيها مِن إدماجٍ[3] عن ذِكرِ جُملَتَينِ؛ فالَّذين يَعلَمونَ هم أهلُ الإيمانِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، والَّذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٨).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

لا يَعلَمونَ هم أهلُ الشِّركِ الجاهِلونُ؛ قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٤]. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الإيمانَ أخو العِلْمِ؛ لِأنَّ كِلَيْهما نُورٌ ومعرفةٌ حقٌّ، وأنَّ الكُفرَ أخو الضَّلالِ؛ لِأنَّه والضَّلالَ ظُلمةٌ وأوهامٌ باطِلةٌ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ كَلامٌ مُستقِلٌّ غيرُ داخلٍ في الكلامِ المأمورِ به، واردٌ مِن جِهَتِه تعالى بعْدَ الأمْرِ بما ذُكِرَ مِن القَوارعِ الزَّاجرةِ عن الكُفْرِ والمعاصِي؛ لِبَيانِ عدَمِ تأْثيرِها في قُلوبِ الكَفرةِ؛ لاختلالِ عُقولِهم، وهو أيضًا كالتَّوطئةِ لإفرادِ المؤمِنينَ بالخِطابِ، والإعراضِ عن غيرِهم؛ أي: إنَّما يَتَّعِظُ بهذه البياناتِ الواضحةِ أصحابُ العقولِ الخالصةِ عن شوائبِ الخَللِ، وأمَّا هؤلاءِ فبمَعزلٍ عن ذلك(٢).

- وقيل: قولُه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ واقِعٌ مَوقِعَ التَّعليلِ لِنَفيِ الاستِواءِ بيْنَ العالِمِ وغَيرِه، والمَقصودُ منه تَفضيلُ العالِمِ والعِلْمِ؛ فإنَّ كلمةَ (إنَّما) مُركَّبةٌ مِن حرفَينِ: (إنَّ) و(ما) الكافَّةِ، أو النَّافيةِ؛ فكانت (إنَّ) فيه مُفِيدةً لِتَعليلِ ما قبْلَها، مُغْنيةً غَناءَ فاءِ التَّعليلِ؛ إذ لا فرْقَ بيْن (إنَّ) المفرَدةِ و(إنَّ) المركَّبةِ مع (ما)، بلْ أفادَها التَّركيبُ زِيادةَ تأْكيدٍ، وهو نفْيُ الحُكمِ الَّذي أثبَتَتْه (إنَّ) عن غيرِ مَن أثبَتَتْه له. وقد أُخِذَ في تَعليلِ ذلك جانِبُ إثباتِ التَّذَكُّرِ للعالِمينَ، ونَفيه مِن غَيرِ العالِمينَ، بطَريقِ الحَصرِ؛ لِأنَّ جانِبَ التَّذكُّرِ هو جانِبُ العَمَلِ الدِّينيِّ، وهو المَقصدُ الأهَمُّ في الإسلامِ؛ لِأنَّ به تَزكيةَ النَّفْسِ والسَّعادةَ الأبَديَّةَ، والألبابُ: العُقولُ، وأُولو الألبابِ: هم أهلُ العُقولِ الصَّحيحةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٣٧).

وهم أهلُ العِلْم، فلَمَّا كان أهلُ العِلْمِ هم أهلَ التَّذكُّرِ دُونَ غيرِهم، أفادَ عَدَمَ استِواءِ الَّذين يَعلَمونَ والَّذين لا يَعلَمونَ، فليس قَولُه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كَلامًا مُستَقِلًّا[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ...﴾ أُمِرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَذكيرِ المُؤمِنينَ، وحَمْلِهم على التَّقْوى والطَّاعةِ، إثْرَ تَخصيصِ التَّذكُّرِ بأُولي الألبابِ؛ إيذانًا بأنَّهم هم، كما سيُصَرَّحُ به، أيْ: قُل لهم قَولي هذا بعَينِه[٢].

- وابتِداءُ المَقولِ بالنِّداءِ وبوَصفِ العُبوديَّةِ المُضافِ إلى ضَميرِ اللهِ تَعالى فيه تَشريفٌ لهم، ومَزيدُ اعتِناءٍ بشَأنِ المَأمورِ به؛ فإنَّ نَقْلَ عَينِ أمْرِ اللهِ أدخَلُ في إيجابِ الامتِثالِ به، وهذا وضْعٌ لهم في مَقامِ المُخاطَبةِ مِنَ اللهِ، وهي دَرَجةٌ عَظيمةٌ[٣].

- وقولُه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قرَأَه العَشَرةُ بدُونِ ياءٍ في الوصْلِ والوقْفِ[٤]، بخِلافِ قولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] الآتي في هذه السُّورةِ؛ فالمُخالَفةُ بيْنَهما مُجرَّدُ تَفنُّنٍ. وقد يُوجَّهُ هذا التَّخالُفُ بأنَّ المخاطَبينَ في هذه الآيةِ همْ عِبادُ اللهِ المتَّقون؛ فانتِسابُهم إلى اللهِ مُقرَّرٌ، فاستُغْنِيَ عن إظهارِ ضَميرِ الجَلالةِ في إضافتِهم إليه، بخِلافِ الآيةِ الآتيةِ، فليس في كَلمةِ ﴿يَٰعِبَادِ﴾ مِن هذه الآيةِ إلَّا وَجهٌ واحدٌ باتِّفاقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ١٣٨).

العشَرةِ؛ ولذلك كتَبَها كُتَّابُ المصحَفِ بدُونِ ياءٍ بعْدَ الدَّالِ[١].

- وفي استِحضارِ عِبادِ اللهِ بالمَوصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: إيماءٌ إلى أنَّ تَقرُّرَ إيمانِهم مِمَّا يَقتَضي التَّقْوى والامتِثالَ لِلمُهاجَرةِ[٢].

- والأمْرُ بالتَّقْوى في قولِه: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ مُرادٌ به الدَّوامُ على المَأمورِ به؛ لِأنَّهم مُتَّقونَ مِن قَبْلُ، وهو يُشعِرُ بأنَّهم قد نَزَل بهم مِنَ الأذَى في الدِّينِ ما يُخشَى عليهم معه أنْ يُقَصِّروا في تَقْواهم، وهذا الأمْرُ تَمهيدٌ لِمَا سَيُوجَّهُ إليهم مِن أمْرِهم بالهِجرةِ؛ لِلسَّلامةِ مِنَ الأذى في دِينِهم، وهو ما عَرَّضَ به في قَولِه: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾[٣].

- وجُملةُ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ وما عُطِفَ عليها: استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ إيرادَ الأمْرِ بالتَّقوى للمتَّصفينَ بها يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن المقصودِ مِن ذلك الأمْرِ، فأُرِيدَ بَيانُه بقولِه: (أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ)، ولكن جُعِل قَولُه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ تَمهيدًا؛ لِقَصدِ تَعجيلِ التَّكَفُّلِ لهم بمُوافَقةِ الحُسْنى في هِجرَتِهم. ويَجوزُ أنْ تَكونَ جُملةُ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ مَسوقةً مَساقَ التَّعليلِ لِلأمْرِ بالتَّقْوى الواقِعِ بَعدَها[٤]، أو لِوُجوبِ الامتِثالِ به، وإيرادُ الإحسانِ في حَيِّزِ الصِّلةِ دُونَ التَّقْوى؛ لِلإيذانِ بأنَّه مِن بابِ الإحسانِ، وأنَّهما مُتَلازِمانِ، والمُرادُ بـ (الَّذين أحسَنوا): الَّذين اتَّقَوُا اللهَ، وهمُ المُؤمِنونَ الموصوفون بما تقدَّم مِن قولِه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ [الزمر: ٩] الآيةَ، فعَدَلَ عن التَّعبيرِ بضَميرِ الخِطابِ بأنْ يُقالَ: لَكم في الدُّنيا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٥٣).

حَسَنةٌ، إلى الإتيانِ باسمِ المَوصولِ الظَّاهِرِ، وهو (الَّذين أحسَنوا)؛ لِيَشملَ المُخاطَبينَ وغَيرَهم مِمَّن ثَبَتتْ له هذه الصِّلةُ، وذلك في مَعنى: اتَّقوا رَبَّكم لِتَكونوا مُحسِنينَ؛ فإنَّ لِلَّذين أحسَنوا حَسَنةً عَظيمةً؛ فكونوا منهم. وتَقديمُ المُسنَدِ في ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾؛ لِلاهتِمامِ بالمُحسَنِ إليهم، وأنَّهم أحْرياءُ بالإحسانِ[1].

- وتَوسيطُ قولِه: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بيْن ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ وبيْن ﴿حَسَنَةٞ﴾ نَظْمٌ بليغٌ حسَنٌ ممَّا اختُصَّ به القُرآنُ في مَواقعِ الكَلِمِ؛ لإكثارِ المعاني الَّتي يَسمَحُ بها النَّظْمُ، وهذا مِن طُرُقِ إعجازِ القرآنِ؛ فيَجوزُ أنْ يَكونَ قَولُه: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ حالًا مِن ﴿حَسَنَةٞ﴾ قُدِّمَ على صاحِبِ الحالِ؛ لِلتَّنبيهِ مِن أوَّلِ الكَلامِ على أنَّها جَزاؤُهم في الدُّنيا؛ لِقِلَّةِ خُطورِ ذلك في بالِهم، ضَمِنَ اللهُ لهم تَعجيلَ الجَزاءِ الحَسَنِ في الدُّنيا قبْلَ ثَوابِ الآخِرةِ، على نحوِ ما أثْنى على مَن يقولُ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ [البقرة: ٢٠١]، ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ مُتَعَلِّقًا بفعلِ ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ على أنَّه ظرفٌ لُغَويٌّ[2]، أي: فَعَلوا الحسناتِ في الدُّنيا، فيكونُ المقصودُ التَّنبيهَ على المبادرةِ بالحسناتِ في الحياةِ الدُّنيا قبلَ الفواتِ، والتَّنبيهَ على عدمِ التَّقصيرِ في ذلك[3].

- وفي قولِه: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ جاء في نَظيرِ هذه الجُملةِ في سُورةِ (النَّحلِ) قولُه: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ [النحل:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٣).

(٢) الظَّرْفُ اللُّغويُّ: هو ما كان العاملُ فيه مذكورًا، نحو: زيدٌ حصَل في الدَّارِ. ينظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٣، ٣٥٤).

٣٠]، أي: خيرٌ مِن أُمورِ الدُّنيا، ويَكونَ الاقتِصارُ على حَسَنةِ الدُّنيا في آيةِ (الزُّمَر) هنا؛ لِأنَّها مَسوقةٌ لِتَثبيتِ المُسلِمينَ على ما يُلاقونَه مِنَ الأذَى، ولِأمْرِهم بالهِجرةِ عن دارِ الشِّركِ والفِتنةِ في الدِّينِ، فأمَّا ثَوابُ الآخِرةِ فأمْرٌ مُقَرَّرٌ عِندَهم مِن قبْلُ، ومُوماٌ إليه بقَولِه بَعدَه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أيْ: يُوَفَّوْنَ أجرَهم في الآخِرةِ[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ فيه نُكتةٌ، وهي أنَّ اسمَ الإشارةِ لِلإشعارِ بأنَّ الدَّارَ الدُّنيا نِعْمَ الدَّارُ إنْ جُعِلَتْ مَكانًا لِلعَمَلِ، وحَرثًا لِلآخِرةِ[2].

- وتَنوينُ ﴿حَسَنَةٌ﴾ لِلتَّعظيمِ، وهو بالنِّسبةِ لِحَسَنةِ الآخِرةِ لِلتَّعظيمِ الذَّاتيِّ، وبالنِّسبةِ لِحَسَنةِ الدُّنيا تَعظيمٌ وَصْفيٌّ، أيْ: حَسَنةٌ أعظَمُ مِنَ المُتَعارَفِ، وأيًّا ما كان فاسْمُ الإشارةِ في قَولِه: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ لِتَمييزِ المُشارِ إليه، وإحضارِه في الأذهانِ، وعليه فالمُرادُ بـ﴿حَسَنَةٌ﴾ يَحتمِلُ حَسَنةَ الآخِرةِ، ويَحتمِلُ حَسَنةَ الدُّنيا[3].

- وقولُه: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، مُستَأنَفٌ لِتَعليلِ الأمْرِ بالتَّقْوى، وإنَّما قُيِّدَ الفِعلُ بالظَّرفِ -وهو ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾- لِلإشعارِ بأنَّ الدُّنيا مَكانُ الإحسانِ، ومَزرَعةٌ لِحَرثِ الآخِرةِ، فأُريدَ تَتميمُ ذلك المَعنى، فقيلَ: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾؛ لِئلَّا يَعتَذِرَ العامِلُ لِتَفريطِه في الأعمالِ بالاعتِلالِ بالأوطانِ، وأنَّه لم يَكُنْ مُتَمكِّنًا مِنَ الإحسانِ في أرضِه، كأنَّه قيلَ لهم: اتَّقوا رَبَّكم فيما تَأتونَ به وتَذَرونَ، وتَيَقَّنوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٤).

بحُصولِ أمْرَيْنِ: جَزاءِ الإحسانِ، وفُسحةِ المَكانِ، فهاجِروا وتَحَوَّلوا إنْ لم تَتمكَّنوا مِنَ التَّقْوى في أرضِكم، ثمَّ اتَّجَه لهم أنْ يَسألوا ويَقولوا: فماذا يَكونُ بَعدَ تلك الحَسَنةِ لنا مِنَ الأجْرِ حِينَئِذٍ؟ فأُجيبوا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، يعني أنَّ اللهَ تعالى وَفَّي أجْرَ مَن سَبَق عليكم مِنَ الأنبياءِ والصَّالِحينَ بصَبرِهم على مُهاجَرَتِهم إلى غَيرِ بِلادِهم؛ لِيَزدادوا إحسانًا إلى إحسانِهم، وطاعةً إلى طاعَتِهم، فلَكُمُ الأجْرُ وتَوفيَتُه إذا اقتَفَيتُم أثَرَهم، واقتَدَيتُم بهُداهم[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ عَطفٌ على قَولِه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ عَطفَ المَقصودِ على التَّوطِئةِ، وهو خَبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بالحَثِّ على الهِجرةِ في الأرضِ؛ فِرارًا بدِينِهم مِنَ الفِتَنِ، بقَرينةِ أنَّ كَونَ الأرضِ واسِعةً أمْرٌ مَعلومٌ، لا يَتعَلَّقُ الغَرَضُ بإفادَتِه، وإنَّما كُنِّيَ به عن لازِمِ مَعناه، والوَجهُ أنْ تَكونَ جُملةُ ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ مُعتَرِضةً، والواوُ اعتِراضيَّةٌ؛ لِأنَّ تلك الجُملةَ جَرَتْ مَجرى المَثَلِ، ونُكتةُ الكِنايةِ هنا: إلقاءُ الإشارةِ إليهم بلُطفٍ وتَأنيسٍ دُونَ صَريحِ الأمْرِ؛ لِمَا في مُفارَقةِ الأوطانِ مِنَ الغَمِّ على النَّفْسِ، وأمَّا الآيةُ الَّتي في سُورةِ (النِّساءِ): ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]؛ فإنَّها حِكايةُ تَوبيخِ المَلائِكةِ لِمَن لم يُهاجِروا[2].

- ومَوقِعُ جُملةِ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ مَوقِعُ التَّذييلِ لِجُملةِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٤، ٣٥٥).

﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ وما عُطِفَ عليها؛ لِأنَّ مُفارَقةَ الوَطَنِ والتَّغرُّبَ والسَّفَرَ مَشاقٌّ لا يَستَطيعُها إلَّا صابِرٌ؛ فذَيَّلَ الأمْرَ به بتَعظيمِ أجْرِ الصَّابِرينَ لِيَكونَ إعلامًا للمُخاطَبينَ بأنَّ أجرَهم على ذلك عَظيمٌ؛ لِأنَّهم حِينَئذٍ مِنَ الصَّابِرينَ الَّذين أجْرُهم بغَيرِ حِسابٍ. وصِيغةُ العُمومِ في قَولِه: ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ تَشمَلُ كُلَّ مَن صَبَرَ على مَشَقَّةٍ في القِيامِ بواجِباتِ الدِّينِ، وامتِثالِ المَأموراتِ، واجتِنابِ المَنهيَّاتِ، ومَراتِبُ هذا الصَّبرِ مُتفاوِتةٌ، وبقَدْرِها يَتفاوَتُ الأجْرُ[١].

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ تَرغيبٌ في التَّقْوى المَأمورِ بها. وإيثارُ (الصَّابِرينَ) على (المُتَّقينَ)؛ لِلإيذانِ بأنَّهم حائِزونَ لِفَضيلةِ الصَّبرِ كحيازَتِهم لِفَضيلةِ الإحسانِ؛ لِمَا أُشيرَ إليه مِن استِلزامِ التَّقْوى لهما، مع ما فيه مِن زيادةِ حثٍّ على المُصابَرةِ والمُجاهَدةِ في تَحمُّلِ مَشاقِّ المُهاجَرةِ ومَتاعِبِها[٢].

- والحَصرُ المُستَفادُ مِن ﴿إِنَّمَا﴾ مُنصَبٌّ على القَيدِ، وهو ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾، والمَعنى: ما يُوَفَّى الصَّابِرونَ أجْرَهم إلَّا بغَيرِ حِسابٍ، وهو قَصرُ قَلبٍ[٣] مَبنيٌّ على قَلبِ ظَنِّ الصَّابرينَ أنَّ أجْرَ صَبرِهم بمِقدارِ صَبرِهم، أيْ: أنَّ أجْرَهم لا يَزيدُ على مِقدارِ مَشَقَّةِ صَبرِهم[٤].

- وفي ذِكرِ التَّوفيةِ وإضافةِ الأجْرِ إلى ضَميرِهم ﴿أَجۡرَهُم﴾، تَأنيسٌ لهم بأنَّهمُ استَحَقُّوا ذلك، لا مِنَّةَ عليهم فيه، وإنْ كانتِ المِنَّةُ للهِ على كُلِّ حالٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٦).

(٣) تقدم تعريفه (ص:٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقولُه: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ كِنايةٌ عنِ الوَفرةِ والتَّعظيم؛ لِأنَّ الشَّيءَ الكثيرَ لا يُتصَدَّى لِعَدِّه، والشَّيءَ العظيمَ لا يُحاطُ بمِقدارِه؛ فإنَّ الإحاطةَ بالمِقدارِ ضَربٌ مِنَ الحِسابِ، وذلك شَأنُ ثَوابِ الآخِرةِ الَّذي لا يَخطُرُ على قَلبِ بَشَرٍ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٥).

الآيات (١١-١٦)

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ظُلَلٌ﴾: أي: أطباقٌ وسُرادِقاتٌ، والظُّلَّةُ: شَيءٌ مُرتَفِعٌ مِن بِناءٍ أو أعوادٍ، يَستَظِلُّ به الجالِسُ تَحتَه، وأصلُ (ظلل): يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشَيءٍ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

قَولُه: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾: في هذه اللَّام وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّها للتَّعليلِ، ويكونُ المأمورُ به مَحذوفًا، تَقديرُه: وأُمِرْتُ أن أعبُدَ اللهَ لِأنْ أكونَ. الثَّاني: أن تكونَ اللَّامُ مَزيدةً في المَفعولِ للتَّأكيدِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُبيِّنَ للنَّاسِ ما أمَره به سبحانَه، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: إنِّي أُمِرتُ أنْ أعبُدَ اللهَ تعالى وَحْدَه عِبادةً خالِصةً لا شِركَ فيها ولا رِياءَ، وأُمِرتُ بذلك؛ لأجْلِ أن أكونَ أوَّلَ المُسلِمينَ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤١٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٦٠).

قُلْ: إنِّي أخافُ إن عَصَيتُ رَبِّي عذابَ يَومٍ عَظيمٍ.

قُلِ: اللهُ وَحْدَه أعبُدُه وأُخلِصُ له في طاعتي، ولا أُشرِكُ به شَيئًا؛ فاعبُدوا -أيُّها المُشرِكونَ- ما شِئتُم مِن دُونِه سُبحانَه!

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُبيِّنَ سوءَ عاقبةِ مَن أعرَض عن دعوةِ الحقِّ، فيقولُ: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: إنَّ الخاسِرينَ هم الَّذين خَسِروا أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ بالحِرمانِ مِن الجنَّةِ، ودُخولِ النَّارِ، ألَا ذلك الخُسرانُ هو الخُسرانُ الواضِحُ؛ لهم مِن فَوقِهم أطباقٌ مِن النَّارِ تَلتَهِبُ عليهم، ومِن تَحتِهم أطباقٌ مِن النَّارِ، ذلك العذابُ يُخوِّفُ اللهُ به عِبادَه؛ فاتَّقوا اللهَ يا عِبادَ اللهِ، بامتِثالِ ما أَمَر، واجتِنابِ ما عنه نهى وزَجَر.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ: إنِّي أُمِرتُ بإفرادِ اللهِ تعالى وَحْدَه في جَميعِ عِباداتي الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، وإخلاصِها له؛ فلا ينبغي أن أُشرِكَ به شَيئًا[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

قيل: أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقَولِ ذلك للمُشرِكينَ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، وابن عطية، وأبو حيان، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٧).

وقيل: أُمِر أن يقولَ ذلك للنَّاسِ. وممَّن قال به: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [النمل: ٩١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٦].

﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان للعبادةِ رُكنانِ: عَمَلُ القَلبِ وعَمَلُ الجَوارِحِ، وكان عمَلُ القلبِ أشرَفَ مِن عَمَلِ الجوارحِ؛ قَدَّمَه سُبحانَه بقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: مُخلِصًا له التَّوحيدَ، لا أُشرِكُ به شيئًا، ثمَّ ذَكَر عَقِبَه الأدْوَنَ، وهو عَمَلُ الجوارحِ، وهو الإسلامُ المذكورُ في قَولِه[1]:

﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾.

أي: وأُمِرتُ بإفرادِه بالعبادةِ؛ لأجْلِ أن أكونَ بذلك أوَّلَ المُسلِمينَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٢٦).

قال الزمخشري في تفسيرِ قَولِه: ﴿أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾: (أي: مُقَدَّمَهم وسابِقَهم في الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٨).

وممَّن قال بهذا القولِ أيضًا: البيضاويُّ، والنسفي، والنيسابوري. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٦١٨).

وقيل: المرادُ: أوَّلُ المُسلِمينَ مِن أُمَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢١).

قال ابنُ عثيمين: (وهناك احتِمالٌ آخَرُ: أنَّ الأوَّليَّةَ هنا أوَّليَّةُ الصِّفةِ، يعني: أنَّني أسبَقُ المسلمينَ =

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أمْرَه بالإخلاصِ بالقَلبِ، وبالأعمالِ المخصوصةِ، وكان الأمرُ يَحتمِلُ الوُجوبَ ويَحتمِلُ النَّدبَ؛ بيَّنَ أنَّ ذلك الأمرَ للوُجوبِ، فقال[1]:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: قُلْ: إنِّي أخافُ إن عَصَيتُ ربِّي فيما أمَرَني به مِن تَوحيدِه وإخلاصِ العِبادةِ له: عذابَ يومِ القيامةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

= مِن حيثُ التَّقَدُّمُ إلى الإسلامِ... لأنَّنا نعلَمُ أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم هو أوَّلُ مَن يَنقادُ لله سُبحانَه وتعالى، وأنَّه أعظَمُ النَّاسِ انقيادًا، وأشَدُّهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٢٦، ١٢٧).

وقال ابن عاشور: (المقصودُ أنَّه مأمورٌ بأنْ يكونَ أقوَى المسلمينَ إسلامًا، بحيثُ أنَّ ما يقومُ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أمورِ الإسلامِ أعظَمُ مِمَّا يقومُ به كلُّ مُسلمٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن ما أُمِرَ به، وأعلَمَ أنَّه يَخافُ مِن مُخالَفةِ الأمرِ له بذلك، فأفهَمَ أنَّه مُمتَثِلٌ لِما أُمِرَ به؛ أمَرَه سُبحانَه بأن يُصَرِّحَ بذلك؛ لأنَّ للتَّصريحِ مِن المَزيَّةِ ما لا يَخفَى[(١)].

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾.

أي: قُلِ: اللهُ وَحْدَه أُفرِدُه بعبادتي، وأُخلِصُ له في طاعتي، ولا أُشرِكُ به شَيئًا[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾.

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾.

أي: فاعبُدوا -أيُّها المُشرِكونَ- مِن دُونِ اللهِ أيَّ شَيءٍ شِئتُموه مِنَ الأوثانِ أو غَيرِها؛ اتِّباعًا لأهوائِكم بلا بُرهانٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٩).

قال الشَّوكاني: (هذا الأمرُ للتَّهديدِ والتَّقريعِ والتَّوبيخِ، كقَولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠]). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٢، ٥٢٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٤). =

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: إنَّ الخاسِرينَ حَقيقةً هم الَّذين خَسِروا أنفُسَهم بحِرمانِها مِنَ الجنَّةِ، واستِحقاقِها دُخولَ النَّارِ، وخَسِروا أهليهم يومَ القيامةِ كذلك(١).

= وممَّن قال بأنَّ الأمرَ هنا للتَّهديدِ: ابنُ عطية، وابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٥).

قال ابنُ عثيمين: (هذا يحتمِلُ أن يكونَ تَهديدًا، ويحتمِلُ أن يكونَ تَحدِّيًا... والقاعِدةُ عندَنا في التَّفسيرِ: أنَّه إذا كانت الآيةُ تَحمِلُ مَعنيَينِ لا يَتنافَيانِ تُحمَلُ عليهما جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨١)، ((تفسير العز بن عبد السلام)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٠، ٣٦١).

قيل: المرادُ بخُسرانِهم أهليهم يومَ القيامةِ: أنَّهم يُفرَّقُ بيْنَهم وبيْن أهليهم، فلا التِقاءَ لهم أبدًا، سواءٌ ذهب أهلوهم إلى الجنَّةِ، أو سكنوا جميعًا النَّارَ، ولكنْ لا اجتِماعَ لهم ولا سرور. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣٤، ١٣٥). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٦).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ -أي: أنَّه لا يكونُ لهم أهلٌ في النَّارِ يَرجِعون إليهم-: ابنُ زَيدٍ، ومُجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨١).

قال الشوكاني: (وأمَّا خُسْرانُهم لِأهْليهم فلأنَّهم إنْ كانوا معهم في النَّارِ فلا يَنتفِعونَ بهم، وإنْ كانوا في الجنَّةِ فقد حِيلَ بيْنَهم وبيْنَهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٢).

وقال البِقاعي: (ولَمَّا كان أعَزُّ ما على الإنسانِ بعدَ نفْسِه أهْلَه الَّذين عِزُّه بهم؛ قال: ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾، أي: لِأنَّهم إن كانوا مِثلَهم فحالُهم في الخَسارةِ كحالِهم، ولا يُمكِنُ أحدًا منهم أن يواسيَ =

﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أي: ألَا إنَّ خُسرانَ المُشرِكينَ أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ هو الخُسرانُ الواضِحُ الَّذي لا خُسرانَ مِثلُه[1].

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر خُسرانَهم أنفُسَهم وأهليهم؛ ذَكَر حالَهم في جَهنَّمَ[2].

وأيضًا لَمَّا شرَحَ الله تعالى أحوالَ حِرمانِهم مِن الرِّبحِ، وبيَّن كَيفيَّةَ خُسرانِهم؛ بيَّن أنَّهم لم يَقتَصِروا على الحِرمانِ والخُسرانِ، بل ضَمُّوا إليه استِحقاقَ العَذابِ العَظيمِ، والعِقابِ الشَّديدِ؛ فقال[3]:

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

أي: للخاسِرينَ يومَ القيامةِ أطباقٌ مِن النَّارِ مِن فَوقِهم ومِن تَحتِهم، محيطةٌ

= صاحبَه بوجهٍ؛ فإنَّه لِكُلٍّ منهم شأنٌ يُغْنيه، وإن كانوا ناجينَ فلا اجتِماعَ بيْنَهم). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٧٦).

وقيلَ: خُسرانُ الأهلِ: أنَّهم لو آمَنوا لَكانَ لهم في الجنَّةِ أهلٌ مِن الحُورِ العِينِ. وممَّن اختار هذا القولَ: الخازنُ، وجلالُ الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٩).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٤).

بهم، تلتهِبُ عليهم[(١)].

كما قال سُبحانَه: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾.

أي: ذلك الَّذي أخبَرَ اللهُ به مِن عذابِ الخاسِرينَ يومَ القيامةِ: يُخَوِّفُ به

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦١، ٣٦٢).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالظُّلَلِ: الأطباقُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، وابن الجوزي، والبيضاوي، والنسفي، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٨٤).

قال الشوكاني: (وسُمِّيَ ما تحتَهم ظُلَلًا؛ لأنَّها تُظِلُّ مَن تحتَها مِن أهلِ النَّارِ؛ لأنَّ طبقاتِ النَّارِ صارَ في كلِّ طبقةٍ منها طائفةٌ مِن طوائفِ الكفَّارِ، ومِثلُ هذه الآيةِ قولُه: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾، وقولُه: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٣).

وقال ابن جرير: (﴿ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ وذلك كهيئةِ الظُّلَلِ المَبنيَّةِ مِن النَّارِ، ﴿ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ يقولُ: ومِن تحتِهم مِن النَّارِ ما يَعلوهم، حتَّى يَصيرَ ما يَعلوهم منها مِن تحتِهم ظُلَلًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٢).

وقال السعدي: (﴿ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي: قِطَعُ عذابٍ كالسَّحابِ العظيمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

وقيل: المرادُ أنَّهم مُعلَّقونَ في غَمَراتِ الاضطرابِ، يُصعِدُهم اللَّهيبُ تارةً، ويَهبِطُهم انعكاسُه عليهم برُجوعِه إليهم مرَّةً أخرَى، فلا قرارَ لهم أصلًا، كما يكونُ الحَبُّ في الماءِ على النَّارِ، يَغلي به صعودًا وهبوطًا، فلا يَقِرُّ في أسفَلِ القِدرِ أصلًا. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٧).

عِبادَه[١].

﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

أي: فاتَّقوا اللهَ يا عبادَ اللهِ، بامتِثالِ ما أمَر، واجتِنابِ ما نهَى عنه وزَجَر؛ للنَّجاةِ مِن سَخَطِه وعَذابِه[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ هذا يَشتَمِلُ على قَيدَينِ؛ أحدُهما: الأمرُ بعبادةِ اللهِ. الثَّاني: كَونُ تلك العبادةِ خالِصةً عن شوائِبِ الشِّركِ الجَليِّ، وشَوائِبِ الشِّركِ الخَفيِّ، وإنَّما خَصَّ اللهُ تعالى الرَّسولَ بهذا الأمرِ؛ لِيُنبِّهَ على أنَّ غَيرَه بذلك أحَقُّ؛ فهو كالتَّرغيبِ للغَيرِ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ* وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فلأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو الدَّاعي الهادي للخَلقِ إلى رَبِّهم يَقتضي ذلك أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أوَّلُ مَن ائتَمَر بما يأمُرُ به، وأوَّلُ مَن أسلَمَ، وهذا الأمرُ لا بُدَّ مِن إيقاعِه أيضًا مِمَّن زَعَم أنَّه مِن أتْباعِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فلا بُدَّ مِن الإسلامِ في الأعمالِ الظَّاهِرةِ، والإخلاصِ لله في الأعمالِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أنَّ اللهَ تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٢، ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

أمَرَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجريَ هذا الكَلامَ على نَفْسِه، والمقصودُ منه المُبالَغةُ في زَجرِ الغَيرِ عن المعاصي؛ لأنَّه مع جلالةِ قَدرِه وشَرَفِ نُبُوَّتِه إذا وَجَب أن يكونَ خائفًا حَذِرًا عن المعاصي، فغَيرُه بذلك أَولى[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ فيه أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يُعلِنَ بالحَقِّ الَّذي هو عليه، ولا يُبالي بمَنْ خالَفَه[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَسيرَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ على جانبٍ مِن الخَوفِ مِن العذابِ، وأنْ يَخافَ ممَّا خَوَّفَه اللهُ؛ حتَّى يُحَقِّقَ العبوديَّةَ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إذا جمَعْتَ بيْن قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾، عرَفْتَ شِدَّةَ امتِثالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لرَبِّه، وأنَّه عَبَد اللهَ مُخلِصًا له الدِّينَ، وأعلَنَ ذلك للمَلأِ غيرَ مُبالٍ بمُخالَفتِهم[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ فيه أنَّ الإنسانَ مأمورٌ بأنْ يُعلِنَ ما أمَرَ اللهُ به مِن عبادتِه؛ ولهذا فائدتانِ؛ الفائدةُ الأُولى: الحَثُّ على اتِّباعِه في هذا. والفائدةُ الثَّانيةُ: بيانُ استِحقاقِ اللهِ سُبحانَه وتعالى لذلك، وأنَّه هو المُستَحِقُّ أن يُعبَدَ وَحْدَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أنَّ مَن لم يُخْلِصْ لم يَكُنْ قد أَتَى بالأمرِ، ويَتَفَرَّعُ على هذه القاعدةِ: أنَّ عمَلَه يكونُ مردودًا عليه؛ فإذا أشركَ يكونُ قد عَمِل عمَلًا ليس عليه أمرُ اللهِ ورسولِه، وقد قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن عَمِلَ عملًا ليس عليه أمْرُنا فهو رَدٌّ))(١).

٤- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ﴾ أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم عبدٌ مأمورٌ، ويَتفرَّعُ على هذا: أنَّه ليس له مِن الأمرِ شَيءٌ، وقد صَرَّحَ اللهُ بذلك في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ويَتفرَّعُ على ذلك أيضًا ضَلالُ أولئك القومِ الَّذين يَدْعُونَ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُغِيثَهم، أو أنْ يَجلِبَ لهمُ الخَيرَ، ويَدفَعَ عنهم الشَّرَّ(٢)!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أنَّه لَمَّا كان الإسلامُ هو دينَ الأنبياءِ في خاصَّتِهم، كان في هذه الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أفضَلُ الرُّسُلِ؛ لِشُمولِ لَفظِ المُسلِمينَ للرُّسُلِ السَّابِقينَ(٣)، على القَولِ بأنَّ ﴿أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بمعنى أقوَى المُسلِمينَ إسلامًا.

٦- قولُه: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيه جوازُ وَصْفِ غيرِ اللهِ بالعِظَمِ، فوصَفه بذلك لِشِدَّتِه وأهوالِه، وشِدَّةِ ما يكونُ فيه، وقد قال اللهُ تعالى عن ملكةِ سَبَأٍ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] إلى غيرِ ذلك، فوصْفُ غيرِ اللهِ بالعِظَمِ لا بأسَ به؛ لكنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٢٣).
والحديث ذكره البخاريُّ معلَّقًا بصيغة الجزمِ قبل حديث (٢١٤٢)، وأخرجه موصولًا مسلمٌ (١٧١٨) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٨).

العِظَمَ المُطْلَقَ إنَّما يكونُ للهِ عزَّ وجلَّ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أنَّ ظاهِرَ الأمرِ للوُجوبِ؛ وذلك لأنَّه قال: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾، ثمَّ قال بَعْدَه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ فيَكونُ معنى هذا العِصيانِ: تَرْكَ الأمرِ الَّذي تقَدَّم ذِكرُه، وذلك يَقتَضي أن يكونَ تارِكُ الأمرِ عاصِيًا، والعاصي يَترتَّبُ عليه الخَوفُ مِن العِقابِ، ولا مَعنى للوُجوبِ إلَّا ذلك[٢].

٨- أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُحتاجٌ إلى العَمَلِ الَّذي يُنجيه مِن عَذابِ اللهِ؛ لِقَولِه: ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ بالياءِ بالإضافةِ، وهو كذلك، ولَمَّا حَدَّثَ أصحابَه بأنَّه: ((ما مِن أحدٍ يُدخِلُه عمَلُه الجنَّةَ، فقيل: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال: ولا أنا، إلَّا أن يَتغمَّدَني ربِّي برحمةٍ))[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أنَّ عُمُرَ الإنسانِ حقيقةً هو ما أمضاه في طاعةِ اللهِ؛ ولهذا وَصَفَ اللهُ هؤلاء بأنَّهم قد خَسِروا أنفُسَهم؛ لأنَّهم لم يَعمَلوا خيرًا[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ أنَّ أهلَ الشِّركِ يومَ القيامةِ لا يَجتمِعونَ بأهْليهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣٥).
والحديث أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٧٢) (٢٨١٦) -واللَّفظُ له- من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ سُؤالٌ: أنَّ الظُّلَلَ ما على الإنسانِ، فكيف سُمِّيَ ما تحتَه بالظُّلَلِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّه مِن بابِ إطلاقِ اسمِ أحَدِ الضِّدَّينِ على الآخَرِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

الثَّاني: أنَّ الَّذي يكونُ تحتَه يكونُ ظُلَّةً لإنسانٍ آخَرَ تَحتَه؛ لأنَّ النَّارَ دَرَكاتٌ، كما أنَّ الجنَّةَ دَرَجاتٌ.

الثَّالِثُ: أنَّ الظُّلَّةَ التَّحتانيَّةَ إذا كانت مُشابِهةً للظُّلَّةِ الفَوقانيَّةِ في الحرارةِ والإحراقِ والإيذاءِ، أُطلِقَ اسمُ أحَدِهما على الآخَرِ؛ لأجْلِ المُماثَلةِ والمُشابَهةِ[(١)].

الرَّابعُ: أنَّ ما تحتَهم يَلتَهِبُ ويَتصاعَدُ منه شَيءٌ حتَّى يكونَ ظُلَّةً؛ فسُمِّيَ ظُلَّةً باعتِبارِ ما آلَ إليه أخيرًا[(٢)].

الخامِسُ: أنَّ المرادَ إحاطةُ النَّارِ بهم مِن جميعِ الجِهاتِ[(٣)].

١٢- رُبَّما احتَجَّ بَعضُهم بقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ على القَولِ بأنَّه ما ثَمَّ عذابٌ أصلًا، وإنَّما هو تخويفٌ لا حقيقةَ له! وهذا مِن أقوالِ الملاحِدةِ والكُفَّارِ. فيُقالُ لهذا: التَّخويفُ إنَّما يكونُ تَخويفًا إذا كان هناك مَخُوفٌ يُمكِنُ وُقوعُه بالمُخَوَّفِ، فإنْ لم يكُنْ هناك ما يُمكِنُ وُقوعُه امتَنَعَ التَّخويفُ، لكِنْ يكونُ حاصِلُه إيهامَ الخائِفينَ بما لا حَقيقةَ له، كما تُوهِمُ الصَّبيَّ الصَّغيرَ. ومَعلومٌ أنَّ مِثلَ هذا لا يَحصُلُ به تخويفٌ للعُقَلاءِ المُمَيِّزينَ؛ لأنَّهم إذا عَلِموا أنَّه ليس هناك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٨).

شَيءٌ مَخوفٌ زال الخَوفُ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أُمِرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ببَيانِ ما أُمِرَ به هو نَفْسُه مِنَ الإخلاصِ في عِبادةِ اللهِ، الَّذي هو عِبارةٌ عَمَّا أُمِرَ به المُؤمِنونَ مِنَ التَّقْوى؛ مُبالَغةً في حَثِّهم على الإتيانِ بما كُلِّفوه، وتَمهيدًا لِمَا يَعقُبُه مِمَّا خُوطِبَ به المُشرِكونَ[٢].

- وفي قولِه: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ جاءتْ هنا بتَعريفِ لَفظِ ﴿ٱلدِّينَ﴾ بـ(أل)، وقال بَعدُ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]، مُعَرِّفًا لَفظَ الدِّينِ بالإضافةِ؛ ووَجْهه: أنَّ قَولَه: ﴿ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ إخبارٌ عنِ المُتَكلِّمِ؛ فناسَبتِ الإضافةُ إليه، وأنَّ قَولَه: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ ليس إخبارًا عنِ المُتكَلِّمِ، وإنَّما الإخبارُ: ﴿أُمِرْتُ﴾ فَقَطْ، وما بَعدَه فَضلةٌ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

- عُطِفَ فِعلُ (أُمِرْتُ) هنا على فِعلِ ﴿أُمِرْتُ﴾ مِن قولِه: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، ووَجهُ هذا العَطفِ: أنَّهما ليسا بمَعنًى واحِدٍ؛ لاختِلافِ جِهَتَيْهما؛ وذلك أنَّ الأمْرَ بالإخلاصِ وتَكليفَه شَيءٌ، والأمْرَ به لِيُحرِزَ القائِمُ به قَصَبَ السَّبقِ في الدِّينِ شَيءٌ آخَرُ، وإذا اختَلَفَ الشَّيءُ وَجهًا ووصفًا يُنزَّلُ بذلك مَنزِلةَ شَيئَينِ مُختَلِفَينِ، فالتَّقديرُ: أُمِرْتُ بإخلاصِ الدِّينِ، وأُمِرْتُ بذلك لأنَّ أكونَ مِن السَّابِقينَ. أو: وأُمِرتُ بذلك لأجلِ أن أكونَ مقدَّمَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٥).

المسلمينَ في الدُّنيا والآخرةِ؛ لأنَّ إحرازَ قَصَبِ السَّبقِ في الدِّينِ بالإخلاصِ فيه، وإخلاصُه عليه الصلاةُ والسلامُ أتمُّ مِن إخلاصِ كلِّ مخلصٍ، فالمرادُ بالأوليَّةِ الأوليَّةُ في الشَّرفِ والرُّتبةِ[١].

وقيل: لَفظُ «أُمِرْتُ» أوَّلًا في عَمَلِ القَلبِ، وثانيًا في عَملِ الجوارِحِ، ولا يكونُ هذا تكريرًا[٢].

- وفي قَولِه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عدَّى ﴿أُمِرْتُ﴾ الأوَّلَ بـ«أن»، وعدَّى ﴿أُمِرْتُ﴾ الثَّاني باللَّامِ فقال: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ القصدَ في الأمرِ الثَّاني غيرُ القصدِ في الأمرِ الأوَّلِ، وذلك أنَّ الأوَّلَ يَتعدَّى إلى العبادةِ، والثَّاني معناه: «وأُمِرتُ أن أعبُدَ اللهَ لأنْ أكونَ أوَّلَ المسلمينَ»، أي: إنَّما أُمِرتُ بإخلاصِ العبادةِ لله تعالى، وبُعِثتُ رسولًا لأن أكونَ أوَّلَ مَن يَبدأُ بطاعةِ الله تعالى وعبادتِه على الإخلاصِ المطلوبِ؛ فاللَّامُ ليست مقحمةً -على ما ذهب إليه كثيرٌ مِن النَّحْويِّينَ- وإنَّما معناه ما ذكَرْنا مِن أنَّ الأمرَ بالعبادةِ لأجْلِ أن يفعلَ أوَّلًا ما أُمِر به، ثمَّ يحمِلَ النَّاسَ على مِثلِه[٣]، فقولُه: ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عِلَّةٌ لـ﴿أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾؛ فالتَّقديرُ: وأُمِرْتُ بذلك؛ لأنْ أكونَ أوَّلَ المسلمينَ، فمُتعلَّقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١١٠). ويُنظر أيضًا: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٥).

﴿أُمِرْتُ﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ عليه[١].
فدخلَتِ اللَّامُ لأنَّ مُتعلَّقَ (أُمِرْتُ) الثَّاني غيرُ الأوَّلِ؛ لاختِلافِ جِهتَيْهِما[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

- على القَولِ بأنَّ المخاطَبَ بقولِه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ هو المشركونَ، فإعادةُ الأمْرِ بالقَولِ للتَّأكيدِ؛ اهتمامًا بهذا المَقولِ. وعلى أنَّ المخاطَبَ المؤمنونَ، فإعادةُ فِعلِ ﴿قُلْ﴾؛ لِأجْلِ اختِلافِ المقصودينَ بتَوجيهِ القَولِ إليهم[٣].

- والمرادُ بقولِه: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يَومُ القِيامةِ، ووُصِفَ بالعَظَمةِ؛ لِعَظَمةِ ما فيهِ مِنَ الدَّواهي والأهوالِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ أعادَ الأمْرَ بعِبادةِ اللهِ هنا بعدَ قولِه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]؛ لِأنَّ الأوَّلَ إخبارٌ بأنَّه مَأمورٌ مِن جِهةِ اللهِ بإحداثِ العِبادةِ والإخلاصِ، والثَّاني: إخبارٌ بأنَّه يَختَصُّ اللهَ وَحْدَه دُونَ غَيرِه بعِبادَتِه مُخلِصًا له دِينَه، ولِدَلالَتِه على ذلك قَدَّمَ المَعبودَ (الله سُبحانَه) على فِعلِ العِبادةِ، وأخَّرَه في الأوَّلِ؛ فالكَلامُ أوَّلًا واقعٌ في الفِعلِ نَفْسِه وإيجادِه، وثانيًا فيمَن يَفعَلُ الفِعلَ لِأجْلِه، فأخبَرَ بامتِثالِه بالأمْرِ على أبلَغِ وَجهٍ وآكَدِه؛ إظهارًا لِتَصلُّبِه في الدِّينِ، وحَسمًا لِأطماعِهمُ الفارِغةِ، وتَمهيدًا لِتَهديدِهم بقَولِه: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١٥]. وقيل: تَقديمُ اسمِ الجَلالةِ في قولِه: ﴿قُلِ

---

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٨).
(٢) يُنظر: ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) لابن جماعة (ص: ٣١٤، ٣١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٨، ٣٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٧).

ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ دالٌّ على الاهتِمامِ بمَن يَعبُدُ، وليس الاختِصاصَ[(١)].

- وأيضًا أُمِرَ بأنْ يُعيدَ التَّصريحَ بأنَّه يَعبُدُ اللهَ وحْدَه؛ تَأكيدًا لقولِه: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]؛ لأهمِّيَّتِه، وإنْ كان مُفادُ الجملتَينِ واحدًا؛ لأنَّهما معًا تُفيدانِ أنَّه لا يَعبُدُ إلَّا اللهَ تعالى، باعتبارِ تَقْييدِ ﴿أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾ الأوَّلِ بقَيدِ ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وباعتبارِ تَقديمِ المفعولِ على (أَعْبُدُ) الثَّاني، فتأكَّدَ معنى التَّوحيدِ مرَّتينِ؛ لِيَتقرَّرَ ثلاثَ مرَّاتٍ، وتَمهيدًا لقولِه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، وهو المقصودُ[(٢)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ الفاءُ في قَولِه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ﴾ لِتَفريعِ الكَلامِ الَّذي بَعدَها على الكَلامِ قَبْلَها؛ فهو تَفريعٌ ذِكريٌّ، والأمْرُ مُستَعمَلٌ في مَعنى التَّخليةِ، ويُعبَّرُ عنه بالتَّسويةِ، والمَقصودُ: التَّسويةُ في ذلك عِندَ المُتكَلِّمِ، فتَكونُ التَّسويةُ كِنايةً عن قِلَّةِ الاكتِراثِ بفِعلِ المُخاطَبِ، أيْ: إنَّ ذلك لا يَضُرُّني. وقيل: صِيغةُ الأمْرِ على جِهةِ التَّهديدِ[(٣)].

- وجُعِلَتِ الصِّلةُ فِعلَ المَشيئةِ ﴿شِئۡتُم﴾؛ إيماءً إلى أنَّ رائِدَهم في تَعيينِ مَعبوداتِهم هو مُجرَّدُ المَشيئةِ والهَوى بلا دَليلٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٩).

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ مِنَ الدَّلالةِ على شِدَّةِ الغَضَبِ عليهم ما لا يَخفى، كأنَّهم لَمَّا لم يَنتَهُوا عمَّا نُهوا عنه أُمِروا به؛ كي يَحِلَّ بهمُ العِقابُ[١].

- قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ أعقَبَ أمْرَ التَّسويةِ في شَأنِهم بشَيءٍ مِنَ المَوعِظةِ؛ حِرصًا على إصلاحِهم، على عادةِ القُرآنِ، ولُوحِظَ في إبلاغِهم هذه المَوعِظةَ مَقامُ ما سَبَق مِنَ التَّخليةِ بيْنَهم وبيْنَ شَأنِهم؛ جَمعًا بيْن الإرشادِ وبيْن التَّوبيخِ؛ فجيءَ بالمَوعظةِ على طَريقِ التَّعريضِ والحَديثِ عنِ الغائِبِ، والمُرادُ المُخاطَبونَ[٢].

- وافتُتِحَ المَقولُ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ تَنبيهًا على أنَّه واقِعٌ[٣].

- وتَعريفُ ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، أيْ: إنَّ الجِنسَ الَّذين عُرِفوا بالخُسرانِ همُ الَّذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهليهم، وتَعريفُ المُسنَدِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ والمُسنَدِ إليه ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ مِن طَريقِ القَصرِ؛ فيُفيدُ هذا التَّركيبُ قَصرَ جِنسِ الخاسِرينَ على الَّذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهليهم، وهو قَصرُ مُبالَغةٍ؛ لِكَمالِ جِنسِ الخُسرانِ في الَّذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهليهم، فخُسرانُ غَيرِهم كَلا خُسرانٍ[٤].

- ولَمَّا كانَ الكَلامُ مَسوقًا بطَريقِ التَّعريضِ بالَّذين دارَ الجِدالُ معهم مِن قَولِه: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ [الزمر: ٧]، إلى قَولِه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ [الزمر: ١٥]؛ عُلِمَ أنَّ المُرادَ بالَّذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهليهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٠).

همُ الَّذين جَرى الجِدالُ معهم، فأفادَ مَعنى: إنَّ الخاسِرينَ أنتم، إلَّا أنَّ وجْهَ العُدولِ عن الضَّميرِ إلى المَوصوليَّةِ في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ لإدماجِ وَعيدِهم بأنَّهم يَخسَرونَ أنفُسَهُم وأهْلِيهم يومَ القِيامةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ تَتميمٌ[٢]، كأنَّه قيلَ: خَسِروا رَأسَ المالِ والرِّبحَ[٣].

- قولُه: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ استِئنافٌ، بمَنزِلةِ الفَذْلَكةِ[٤] والنَّتيجةِ مِنَ الكَلامِ السَّابِقِ، والتَّذييلِ له؛ لأنَّ وَصْفَ الَّذين خَسِروا بأنَّهم خَسِروا أحَبَّ ما عِندَهم، وبأنَّهمُ الَّذين انحَصَر فيهم جِنسُ الخاسِرينَ: يُستَخلَصُ منه أنَّ خَسارَتَهم أعظَمُ خَسارةٍ وأوضَحُها لِلعِيانِ؛ ولذلك أُوثِرَتْ خَسارَتُهم باسمِ ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ الَّذي هو اسمُ مَصدَرِ الخَسارةِ، وهو دالٌّ على قُوَّةِ المَصدَرِ والمُبالَغةِ فيه، وأُشيرَ إلى العِنايةِ والاهتِمامِ بوَصفِ خَسارَتِهم، وتَهويلِها؛ فصُدِّرَتِ الجُملةُ بحَرفِ التَّنبيهِ، ووُسِّطَ ضَميرُ الفَصلِ بيْنَ المُبتَدأِ والخَبَرِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٠).

(٢) التَّتميمُ: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثِّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٠).

(٤) تقدم تعريفها (ص: ٦٣).

وعُرِّفَ ﴿ٱلْخُسْرَانُ﴾، كأنَّه مِمَّا تُعورِفَ أمْرُه، واشتُهِرَ هَوْلُه، ووَصَفَه بـ﴿ٱلْمُبِينُ﴾، فجَعَلَ خُسرانَهم غايةً في الفَظاعةِ، ونِهايةً في الشَّناعةِ(١).

٦- قولُه تعالَى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾

- قولُه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وخُصَّ بالإبدالِ؛ لِأنَّه أشَدُّ خُسرانِهم عليهم؛ لِتَسلُّطِه على إهلاكِ أجسامِهم(٢).

- و(الظُّلَلُ): جمعُ ظُلَّةٍ، وهي شَيءٌ مُرتَفِعٌ مِن بِناءٍ أو أعوادٍ، مِثلُ الصُّفَّةِ، يَستَظِلُّ به الجالِسُ تَحتَه، مُشتَقَّةٌ مِنَ الظِّلِّ؛ لِأنَّها يَكونُ لها ظِلٌّ في الشَّمسِ، وهي هنا لِلتَّعبيرِ عن الطَّبَقةِ الَّتي تَعلو أهلَ النَّارِ في نارِ جَهنَّمَ، بقَرينةِ قَولِه: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، شُبِّهتْ بالظُّلَّةِ في العُلوِّ والغِشْيانِ، مع ما فيها مِنَ التَّهكُّمِ بهم؛ لِأنَّهم يَتمَنَّونَ ما يَحجُبُ عنهم حَرَّ النارِ، فعُبِّرَ عن طَبَقاتِ النَّارِ بالظُّلَلِ إشارةً إلى أنَّهم لا واقيَ لهم مِن حَرِّ النَّارِ، على نَحوِ تَأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه(٣).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ تَذييلٌ لِلتَّهديدِ بالوَعيدِ مِن قَولِه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [الزمر: ١٥] الآيةَ. أو استِئنافٌ بَيانيٌّ بتَقديرِ سُؤالٍ يَخطُرُ في نَفْسِ السَّامِعِ لِوَصفِ عَذابِهم بأنَّه ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩١، ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦١، ٣٦٢).

مِن فَوقِهم، وظُلَلٌ مِن تَحتِهم، أنْ يَقولَ سائِلٌ: ما يَنفَعُ إعدادُ العَذابِ لهمْ في الآخِرةِ بَعدَ فَواتِ تَدارُكِ كُفرِهم؟ فأُجيبَ بأنَّ اللهَ جَعَلَ ذلك العَذابَ الفَظيعَ في الآخِرةِ لِتَخويفِ اللهِ عِبادَه حينَ يَأمُرُهم بالاستِقامةِ، ويَشرَعُ لهمُ الشَّرائِعَ؛ لِيَعلَموا أنَّهم إذا لم يَستَجيبوا للهِ ورُسُلِه تَكونُ تلك عاقِبَتَهم، ولَمَّا كان وَعيدُ اللهِ خَبَرًا منه، ولا يَكونُ إلَّا صِدقًا؛ حَقَّقَ لهم في الآخِرةِ ما تَوَعَّدَهم به في الحياةِ، وتَخويفُ اللهِ به مَعناه أنَّه يُخوِّفُهم بالإخبارِ به وبوَصفِه، أمَّا إذاقَتُهم إيَّاه فهي تَحقيقٌ لِلوَعيدِ[١].

- ويُعلَمُ مِن قولِه: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ بطَريقِ المُقابَلةِ جَعْلُ الجَنَّةِ لِتَرغيبِ عِبادِ اللهِ في التَّقْوى، إلَّا أنَّه طُوِيَ ذِكرُه؛ لِأنَّ السِّياقَ مَوعِظةٌ لِأهلِ الشِّركِ؛ فاللهُ جَعَلَ الجَنَّةَ وجَهنَّمَ إتمامًا لِحِكمَتِه ومُرادِه مِن نِظامِ الحَياةِ الدُّنيا؛ لِيَكونَ النَّاسُ فيها على أكمَلِ ما تَرتَقي إليه النَّفْسُ الزَّكيَّةُ[٢].

- قولُه: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ تَفريعٌ وتَعقيبٌ لِجُملةِ ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾؛ لِأنَّ التَّخويفَ مُؤْذِنٌ بأنَّ العَذابَ أُعِدَّ لِأهلِ العِصيانِ، فناسَبَ أنْ يُعقَبَ بأمْرِ النَّاسِ بالتَّقْوى؛ لِلتَّفادي مِنَ العَذابِ[٣].

- وهذه عِظةٌ مِنَ اللهِ تَعالى بالِغةٌ مُنطَويةٌ على غايةِ اللُّطفِ والمَرحَمةِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ قَدَّمَ النِّداءَ على التَّفريعِ، مع أنَّ مُقتَضى الظَّاهِرِ تَأخيرُه عنه، كَقَولِه: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]؛ لِأنَّ المَقامَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨).

هنا مَقامُ تَحذيرٍ وتَرهيبٍ؛ فهو جَديرٌ باسترعاءِ ألبابِ المُخاطَبينَ إلى ما سَيَرِدُ مِن بَعدُ مِنَ التَّفريعِ على التَّخويفِ، بخِلافِ آيةِ سورةِ البَقَرةِ؛ فإنَّها في سِياقِ التَّرغيبِ في إكمالِ أعمالِ الحَجِّ والتَّزَوُّدِ لِلآخِرةِ؛ فلِذلك جاءَ الأمْرُ بالتَّقْوى فيها مَعطوفًا بالواوِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٣).

الآيات (١٧-٢٠)

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾: الطَّاغوتُ هو كُلُّ ذِي طُغْيانٍ على الله، فكلُّ معبودٍ مِن دُونِ الله إذا لم يَكُنْ كارِهًا لذلك: طاغوتٌ؛ إنسانًا كان ذلك المعبودُ، أو شيطانًا، أو وَثَنًا، أو صَنمًا، كائِنًا ما كان مِن شَيءٍ، والمُطاعُ في معصيةِ اللهِ طاغوتٌ، وكذلك السَّاحِرُ والكاهِنُ، واشتِقاقُه مِن الطُّغيانِ: وهو الظُّلْمُ والبَغْيُ، وأصلُه: يدُلُّ على مُجاوَزةِ الحَدِّ في العِصيانِ[1].

﴿وَأَنَابُوٓاْ﴾: أي: تابوا ورَجعوا، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[2].

﴿حَقَّ﴾: أي: وجَب ولَزِمَ، والحَقُّ في أصلِه: المُطابَقةُ والموافَقةُ، وأصلُ (حَقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

﴿غُرَفٌ﴾: أي: مَنازِلُ عاليةٌ في الجنَّةِ، جمْعُ غُرفةٍ: وهي العُلِّيَّةُ[١] المُشرِفةُ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما أعدَّه للمتَّقينَ: والَّذين ابتَعدوا عن عبادةِ كُلِّ ما يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ تعالى، ورجَعوا إلى اللهِ تعالى: لهم البُشرى في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فبَشِّرْ -يا مُحمَّدُ- عباديَ الَّذين يَستَمِعونَ القَولَ فيَتَّبِعونَ أحسَنَ ما فيه، أولئك هم الَّذين أرشَدَهم اللهُ ووفَّقَهم، وأولئك هم أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ.

ثمَّ يقولُ تعالى مسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: أفمَنْ وجَبَ عليه العذابُ في سابقِ عِلمِ الله لكُفرِه، أفأنت -يا محمَّدُ- تَستطيعُ إنقاذَه مِن النَّارِ؟!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حُسنَ عاقبةِ المتَّقينَ، فيقولُ: لكِنِ الَّذين اتَّقوا ربَّهم لهم في الجنَّةِ غُرَفٌ عاليةٌ، بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، تجري مِن تحتِها الأنهارُ، وعَدَهم اللهُ تعالى بذلك وعْدًا لا يَتخَلَّفُ؛ فهو سُبحانَه لا يُخلِفُ ما وعَدَ به عِبادَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى وَعيدَ عَبَدةِ الأصنامِ والأوثانِ؛ ذكَرَ وعْدَ مَن اجتنَبَ عِبادتَها، واحتَرَز عن الشِّركِ؛ لِيَكونَ الوَعدُ مَقرونًا بالوعيدِ أبدًا، فيَحصُلَ كمالُ التَّرغيبِ

(١) العُلِّيَّةُ: الغُرفةُ في الطبقةِ الثانيةِ مِن الدَّارِ وما فوقَها. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (٢/ ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢).

والتَّرهيبِ[(١)].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾

أي: والَّذين ابتَعَدوا عن عبادةِ الطَّاغوتِ[(٢)]، وتابوا إلى اللهِ تعالى مِنَ الشِّركِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٤).

(٢) قيل: هو الشَّيطانُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والسمعاني، والزمخشري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٣).

قال الرازي: (اخْتَلَفوا في أنَّ المرادَ مِن الطَّاغوتِ هاهنا الشَّيطانُ أم الأوثانُ، فقيل: إنَّه الشَّيطانُ، فإنْ قِيل: إنَّهم ما عَبَدوا الشَّيطانَ وإنَّما عَبَدوا الصَّنمَ، قُلْنا: الدَّاعي إلى عِبادةِ الصَّنمِ لَمَّا كان هو الشَّيطانَ كان الإقدامُ على عِبادةِ الصَّنَمِ عِبادةً للشَّيطانِ). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٥).

وقال ابن عطية: (الطَّاغوت: كُلُّ ما يُعبَدُ مِن دونِ الله. والطَّاغوتُ أيضًا: الشَّيطانُ، وبه فسَّر هنا مجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ، وأوقعه هنا على جماعةِ الشَّياطينِ؛ ولذلك أنَّث الضَّميرَ بعدُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٥).

وقيل: الطَّاغوتُ: الأوثانُ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٣١).

قال الشنقيطي: (الأصنامُ تدخُلُ في الطَّاغوتِ دُخولًا أوَّليًّا). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٥٥).

فإن قِيلَ: لِمَ سُمِّيت بذلك مع أنَّه لا فعلَ لها، والطُّغاةُ هم الَّذينَ يَعْبُدونَها؟

أُجيبَ عن ذلك: بأنَّه لَمَّا حَصَل الطُّغيانُ عندَ مُشاهَدَتِها والقُربِ منها، وُصِفتْ بهذه الصِّفةِ؛ إطلاقًا لاسمِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ بحَسَبِ الظَّاهرِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٥).

وقيل: الطَّاغوتُ: الكاهِنُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ السَّائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١).

وقيل: الطَّاغوتُ: اسمٌ لكلِّ ما عُبدَ مِن دُونِ الله؛ فكُلُّ مُشركٍ إلهُه طاغوتُه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ القيِّم، والسعديُّ. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير =

والعِصيانِ، وأقبلوا على طاعةِ الرَّحمنِ: لهم البُشرى بالخَيرِ في الدُّنيا والآخِرةِ[(١)].

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ...﴾

= السعدي)) (ص: ٧٢١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٢، ١٤٣).

قال ابنُ القَيِّم: (الطَّاغوتُ: كُلُّ ما تَجاوَزَ به العبدُ حَدَّه مِن معبودٍ أو مَتبوعٍ أو مُطاعٍ). ((إعلام الموقعين)) (١/ ٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٢-١٤٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالبُشرى هنا: عُمومُ البُشرى في الدُّنيا والآخرةِ: الزمخشريُّ، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٤، ١٤٥).

قال السعدي: (﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ الَّتي لا يُقادِرُ قَدْرَها ولا يَعلَمُ وَصْفَها إلَّا مَن أكرمَهم بها، وهذا شامِلٌ للبُشرى في الحياةِ الدُّنيا بالثَّناءِ الحَسَنِ، والرُّؤيا الصَّالحةِ، والعنايةِ الرَّبانيَّةِ مِن الله، الَّتي يَرَون في خِلالِها أنَّه مُريدٌ لإكرامِهم في الدُّنيا والآخرةِ، ولهم البُشرَى في الآخرةِ عندَ الموتِ، وفي القبرِ، وفي القيامةِ، وخاتمةُ البُشْرى ما يُبشِّرُهم به الرَّبُّ الكريمُ مِن دَوامِ رِضوانِه وبِرِّه وإحسانِه، وحلولِ أمانِه في الجنَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

وقيل: المرادُ أنهم يُبشَّرون في الدُّنيا بالفوزِ بالجنَّةِ في الآخرةِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والثعلبي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٤).

وقيل: البُشرى المرادُ بها: الجنَّةُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٠٨).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ الله تعالى أنَّ لهم البُشرى أمَرَ نبيَّه ببِشارتِهم، وذكَرَ الوَصفَ الَّذي استحَقُّوا به البِشارةَ[١].

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ...﴾

أي: فبَشِّرْ -يا محمَّدُ- عِباديَ الَّذين يَستَمِعونَ القَولَ[٢] فيَتَّبِعونَ أحسَنَ ما فيه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

(٢) قال السمين الحلبي: (قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ﴾: الظَّاهرُ أنه نعتٌ لـ «عبادي»، أو بدَلٌ منه، أو بيانٌ له. وقيل: يجوزُ أنْ يكونَ مبتدأً). ((الدر المصون)) (٩/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٥ - ٣٦٧).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾: هم المُجتنِبونَ الطَّاغوتَ، المُنيبون إلى الله. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرازي، وأبو حيان، والسمين الحلبي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤١٩).

وقيل: المرادُ بالعِبادِ هنا العمومُ؛ فيدخُلُ المَوصوفونَ بالاجتِنابِ والإنابةِ إليه دُخولًا أوَّليًّا. وممَّن اختاره: الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٣).

واختلف المفسِّرون أيضًا في معنى قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾؛ على أقوالٍ: القولُ الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بالقولِ: عمومُ الكلام، وجميعُ الأقوالِ حسَنِها وسَيِّئِها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن عطية، وأبو حيَّان، والثعالبي، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٩).

قال ابنُ الجوزي في بيانِ هذا القولِ: (أنَّه الرَّجُلُ يَجلِسُ مع القَومِ فيَسْمَعُ كلامَهم، فيَعمَلُ بالمَحاسِنِ ويُحدِّثُ بها، ويَكُفُّ عن المَساوِئِ ولا يُظهِرُها، قاله ابنُ السَّائبِ). ((تفسير ابن =

= الجوزي)) (٤/ ١٢).

وقال ابن عطية: (وقَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ كلامٌ عامٌّ في جميعِ الأقوالِ، وإنَّما القَصدُ الثَّناءُ على هؤلاءِ ببَصائِرَ هي لهم، وقَوام في نَظَرِهم؛ حتى إنَّهم إذا سَمِعوا قَولًا مَيَّزوه واتَّبَعوا أحسَنَه. واختلَف المفَسِّرون في العبارةِ عن هذا؛ فقالت فِرقةٌ: أحسَنُ القَولِ كِتابُ اللهِ، أي: إذا سَمِعوا الأقاويلَ وسَمِعوا القرآنَ اتَّبَعوا القُرآنَ. وقالت فِرقةٌ: القَولُ هو القُرآنُ، وأحسَنُه: ما فيه مِن عَفْوٍ وصَفحٍ واحتِمالٍ على صَبرٍ، ونحوِ ذلك. وقال قَتادةُ: أحسَنُ القَولِ طاعةُ اللهِ. وهذه أمثِلةٌ، وما قُلْناه أوَّلًا يَعُمُّها). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٥).

وقال السَّعدي: (وأحسَنُه على الإطلاقِ كَلامُ اللهِ وكَلامُ رَسولِه، كما قال في هذه السُّورةِ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] الآيةَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

وخصَّه ابنُ عُثيمينَ بالقَولِ الحَسَنِ لا بكُلِّ قَولٍ، أي: إنَّ هؤلاء العِبادَ يَستَمِعونَ القَولَ الحَسَنَ فيَتَّبِعونَ أحسَنَه، فأمَّا القَولُ السَّيِّئُ أو اللَّغوُ فإنَّهم يُعرِضونَ عنه، ولا يَستَمِعونَ إليه أصلًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]؛ فإذا كانوا لا يَستَمِعونَ إلى الكَلامِ الَّذي لا فائِدةَ منه فهُم أبعَدُ عن الاستِماعِ إلى الكَلامِ المحَرَّمِ مِن بابِ أَولى. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٦، ١٤٧).

القولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالقولِ هاهنا: ما قاله اللهُ ورسوله. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ القيم، والشنقيطي. يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٥٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٦ - ٣٥٨).

قال الشنقيطي موضِّحًا هذا القولَ الَّذي اختاره: (المراد بالقولِ ما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِن وحيِ الكِتابِ والسُّنَّةِ، ومِن إطلاقِ القولِ على القرآنِ قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]... وقولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ أي: يُقَدِّمون الأحسَنَ، الَّذي هو أشدُّ حُسنًا... وأمَّا كَوْنُ القرآنِ فيه الأحسَنُ والحسَنُ، فقد دلَّتْ عليه آياتٌ مِن كتابِه. واعلَمْ أوَّلًا أنَّه لا شكَّ في أنَّ الواجبَ أحسَنُ مِن المندوبِ، وأنَّ المندوبَ أحسَنُ مِن مُطلَقِ الحسَنِ، فإذا سمِعوا مثلًا قولَه تعالى: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧] قدَّموا فِعلَ الخَيرِ الواجبِ على فعلِ الخَيرِ المندوبِ، وقدَّموا هذا الأخيرَ على مُطلَقِ الحسَنِ الَّذي هو الجائزُ؛ ولذا كان الجزاءُ بخصوصِ الأحسَنِ الَّذي هو الواجبُ والمندوبُ، لا على مُطلَقِ الحسَنِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: =

= ٩٧]... ومِن أمثلةِ التَّرغيبِ في الأخذِ بالأحسَنِ وأفْضَليَّتِه مع جوازِ الأخذِ بالحسَنِ قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]... وكقولِه جلَّ وعلا مُثْنيًا على مَن تَصَدَّق فأبدَى صدَقتَه: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ [البقرة: ٢٧١]، ثمَّ بيَّن أنَّ إخفاءَها وإيتاءَها الفقراءَ خيرٌ مِن إبدائِها في قولِه: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وكقولِه في نِصفِ الصَّداقِ اللَّازمِ للزَّوجةِ بالطَّلاقِ قبْلَ الدُّخولِ: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ولا شكَّ أنَّ أخْذَ كلِّ واحدٍ مِن الزَّوجَينِ النِّصْفَ حسَنٌ؛ لأنَّ اللهَ شرَعه في كتابِه في قولِه: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، مع أنَّه رغَّب كلَّ واحدٍ منهما أن يَعفوَ للآخَرِ عن نِصفِه، وبيَّن أنَّ ذلك أقرَبُ للتَّقْوى، وذلك في قولِه بعدَه: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وقد قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ثمَّ أرشدَ إلى الأحسَنِ بقولِه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]، ثمَّ أرشد إلى الأحسَنِ في قولِه: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٥٦ - ٣٥٨).

وقال ابنُ القيِّمِ: (القولُ هاهنا ما قاله اللهُ ورسولُه، واتِّباعُ أحسَنِه هو الاقتداءُ به؛ فهذا أحسَنُ مِن قولِ كلِّ قائلٍ عَداه). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٥٢٥).

القولُ الثَّالثُ: أنَّ المرادَ: القرآنُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام -ونسَبَه إليه الماوَرْديُّ -، وابنُ تيميَّةَ، ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢).

قال مقاتلُ بنُ سُليمانَ: (﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ يعني: القرآنَ ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ يعني: أحسَنَ ما في القرآنِ مِن طاعةِ الله عزَّ وجلَّ، ولا يَتَّبِعون المعاصيَ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٣).

وقال ابن تيميَّةَ: (والمرادُ بالقولِ القرآنُ، كما فسَّره بذلك سلَفُ الأمَّةِ وأئمَّتُها، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، واللَّامُ لتعريفِ القولِ المعهودِ؛ فإنَّ السُّورةَ كلَّها إنَّما تضمَّنتْ مدْحَ القرآنِ واستماعِه). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥).

وتقدَّم في كلام ابنِ عطيَّةَ والشِّنقيطيِّ بيانُ معنَى ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ بناءً على هذا القولِ.

ويُنظر ما في قولِه تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ مِن أوجُهٍ أخرى في: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٠).

كما قال تعالى عن موسى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر: ٥٥].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾

أي: أولئك العِبادُ العالو المَنزِلةِ والرُّتبةِ: هم الَّذين أرشَدَهم اللهُ ووفَّقَهم لِمَعرفةِ الحَقِّ والعَمَلِ به[١].

عن عليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ((أنَّه كان إذا قامَ إلى الصَّلاةِ، قال: وَجَّهْتُ وجهِيَ لِلَّذي فَطَر السَّمواتِ والأرضَ حَنيفًا، وما أنا مِن المشركينَ، إنَّ صَلاتي، ونُسُكِي، ومَحْيايَ، ومَماتي للهِ رَبِّ العالَمينَ، لا شريكَ له، وبذلك أُمِرْتُ وأنا مِن المسلمينَ، اللَّهُمَّ أنت المَلِكُ لا إلهَ إلَّا أنت، أنت ربِّي، وأنا عبْدُكَ، ظَلَمْتُ نفْسي، واعتَرَفْتُ بذَنْبي، فاغفِرْ لي ذُنوبي جميعًا، إنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ، واهْدِني لأحسَنِ الأخلاقِ لا يَهدي لأحسَنِها إلَّا أنت، واصْرِفْ عنِّي سَيِّئَها لا يَصْرِفُ عنِّي سَيِّئَها إلَّا أنت، لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، والخَيرُ كلُّه في يدَيكَ، والشَّرُّ ليس إليكَ، أنا بك وإليكَ، تبارَكْتَ وتَعالَيْتَ، أستغفِرُك وأتوبُ إليكَ...))[٢].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا استفتَحَ الصَّلاةَ كبَّرَ، ثمَّ قال: إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحْيايَ ومَماتي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٧، ١٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١).

للهِ رَبِّ العالَمينَ، لا شَريكَ له، وبذلك أُمِرتُ وأنا مِنَ المُسلِمينَ، اللَّهُمَّ اهدني لأحسَنِ الأعمالِ وأحسَنِ الأخلاقِ، لا يَهدي لأحسَنِها إلَّا أنتَ، وقِني سَيِّئَ الأعمالِ وسَيِّئَ الأخلاقِ، لا يَقِي سَيِّئَها إلَّا أنت))[١].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

أي: وأولئك هم أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ، الَّذين انتَفَعوا بها في مَعرِفةِ الحقِّ واتِّباعِه[٢].

﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خَصَّ سُبحانَه البشارةَ بالمُحسِنينَ، عُلِمَ أنَّ غَيْرَهم قد حُكِمَ بشَقاوتِه، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -لِما جُبِلَ عليه مِن عَظيمِ الرَّحمةِ، ومَزيدِ الشَّفَقةِ- جَديرًا بالأسَفِ على مَن أعرَضَ؛ سَبَّبَ عن أسَفِه عليهم قَولَه[٣]:

﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾

أي: أفمَنْ وَجَب عليه العَذابُ في سابقِ عِلمِ الله لِكُفرِه تَقدِرُ -يا محمَّدُ- على هدايتِه في الدُّنيا، وإنقاذِه مِن النَّارِ يومَ القيامةِ[٤]؟!

---

(١) أخرجه النَّسائي (٨٩٦) واللَّفظُ له، والطبراني في ((الدعاء)) (٤٩٩)، والدارقطني (١/ ٢٩٨). صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٨٩٦)، وقوَّى إسنادَه الذهبيُّ في ((تنقيح التحقيق)) (١/ ١٤١)، ووثَّق رجالَه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٧، ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨١)، ((تفسير =

= القرطبي)) (١٥/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢).

قال الخازن: (﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ قال ابنُ عبَّاس: سبَق في عِلم الله تعالى أنَّه في النَّارِ. وقيل: ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ قولُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾. وقيل: قولُه: «هؤلاءِ في النَّارِ ولا أُبالي»). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٤). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٤).

ممَّن اختار نحوَ القولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، وابن الجوزي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩١).

وقيل: المرادُ بكلمةِ العذابِ هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وممن اختاره: ابنُ عثيمين، قال: (الصَّحيحُ أنَّ المرادَ بكلمةِ العذابِ هي ما ذكَره الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أنَّهم مِن أهلِ النَّارِ، هؤلاء لا يُمكِنُ أن يُؤمِنوا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٥٣).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أي: أنَّ المرادَ قولُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ...﴾-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٤٣).

وممَّن اختار القولَ الثَّالثَ: العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٦١).

قال ابن الجوزي: (﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ إنْ قيل: كيف اجتمَع في هذه الآيةِ استِفهامانِ بلا جوابٍ؟

قيل: أمَّا الفَرَّاءُ فإنَّه يقولُ: هذا ممَّا يُرادُ به استِفهامٌ واحدٌ، فسبق الاستِفهامُ إلى غيرِ مَوضِعه، فرُدَّ إلى مَوضِعه الَّذي هو له، فيَكونُ المعنى: أفأنتَ تُنقِذُ مَن في النَّارِ مَن حقَّتْ عليه كَلمةُ العذابِ؟ ومِثلُه: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥] فردَّ ﴿أَنَّكُمْ﴾ مرَّتَين، والمعنى: أيَعِدُكم أنَّكم مُخرَجون إذا مِتُّمْ؟ ومِثلُه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ [آل عمران: ١٨٨]، ثمَّ قال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ [آل عمران: ١٨٨]، فردَّ «تَحسَبَنَّ» مرَّتَين، والمعنى: لا تَحسَبَنَّ الَّذين يَفرَحون بمَفازةٍ مِن العذابِ.

وقال الزَّجَّاجُ: يجوزُ أن يكونَ في الكلامِ محذوفٌ، تقديرُه: أفمَنْ حقَّ عليه كَلِمةُ العذابِ فيَتخلَّصُ منه أو يَنجو، أفأنتَ تُنقِذُه؟ قال المفسِّرون: أفأنتَ تُخَلِّصُه ممَّا قُدِّر له فتَجعَله =

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّما مَثَلي ومَثَلُ النَّاسِ كمَثَلِ رَجُلٍ استَوقَدَ نارًا، فلمَّا أضاءتْ ما حَوْلَه جَعَلَ الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ الَّتي تَقَعُ في النَّارِ يَقَعْنَ فيها، فجعَلَ يَنزِعُهنَّ ويَغلِبْنَه فيَقتَحِمْنَ[١] فيها، فأنا آخِذٌ بحُجَزِكم[٢] عن النَّارِ، وهم يَقتَحِمونَ فيها))[٣].

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر حالَ الكُفَّارِ في النَّارِ وأنَّ الخاسِرينَ لهم ظُلَلٌ؛ ذكَرَ حالَ المؤمِنينَ، وناسَبَ الاستِدراكَ هنا؛ إذ هو واقِعٌ بينَ الكافِرينَ والمؤمِنينَ؛ فقال[٤]:

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾

أي: لكِنِ الَّذين اتَّقَوا رَبَّهم في الدُّنيا، بامتِثالِ أمْرِه، واجتِنابِ نَهْيِه: لهم في الجنَّةِ بِناياتٌ عاليةٌ، بَعضُها فَوقَ بَعضٍ[٥].

= مؤمنًا؟ والمعنى: ما تَقدِرُ على ذلك). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤١٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(١) فيَقتَحِمْنَ: أي: فيَدخُلْنَ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٩/ ٢٧٧).

(٢) بحُجَزِكُم: جَمعُ حُجْزةٍ، وهي مَعقِدُ الإزارِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٩/ ٢٧٧).

(٣) رواه البخاري (٦٤٨٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩١)، ((نظم الدرر)) =

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ لَيَتراءَوْنَ أهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهم، كما تَتراءَونَ الكوكَبَ الدُّرِّيَّ[١] الغابِرَ مِن الأُفُقِ[٢]، مِن المَشرِقِ أو المَغرِبِ؛ لِتَفاضُلِ ما بيْنَهم. قالوا: يا رسولَ اللهِ، تلك مَنازِلُ الأنبياءِ لا يَبلُغُها غَيرُهم. قال: بلى، والَّذي نَفْسي بيَدِه، رِجالٌ آمَنوا باللهِ، وصَدَّقوا المُرسَلينَ))[٣].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ لَيَتراءَونَ الغُرفةَ في الجنَّةِ كما تَراءَونَ الكوكَبَ في السَّماءِ))[٤].

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت المنازِلُ لا تَطيبُ إلَّا بالماءِ، وكان الجاري أشرَفَ وأحسَنَ؛ قال[٥]:

= للبقاعي (١٦/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٦٢-١٦٥).

(١) الدُّرِّيَّ: أي: الشَّديدَ الإضاءةِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥).

(٢) الغابرَ: أي: الباقِيَ في الأفُقِ بعدَ انتِشارِ ضَوءِ الفَجرِ، وإنَّما يَستنيرُ في ذلك الوقتِ الكوكبُ الشَّديدُ الإضاءةِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥).

(٣) رواه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) واللَّفظ له.

(٤) رواه البخاري (٦٥٥٥)، ومسلم (٢٨٣٠) واللَّفظ له.

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٢).

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾

أي: تَجري مِن تحتِ تلك الغُرَفِ الأنهارُ المُتدَفِّقةُ[١].

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر يومَ القيامةِ وما يكونُ فيه؛ بَيَّن أنَّه أمرٌ لا بُدَّ منه، فقال[٢]:

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾

أي: وَعَدَهم اللهُ تلك الغُرَفَ والمَنازِلَ وعْدًا مؤكَّدًا لا يُخلِفُه؛ فاللهُ لا يُخلِفُ ما وَعَد به عِبادَه، بل يُوفِي به سُبحانَه[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ أنَّ رأسَ السَّعاداتِ، ومَركزَ الخَيراتِ، ومَعدِنَ الكَراماتِ: هو الإعراضُ عن غَيرِ اللهِ تعالى، والإقبالُ بالكُلِّيَّةِ على طاعةِ اللهِ[٤].

٢- قال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ فإذا رأيتَ مِن نَفْسِك الحرصَ على استِماعِ قَولِ الخَيرِ واتِّباعِ أحْسَنِه فاعلَمْ أنَّ هذا مِن هدايةِ اللهِ لك؛ لأنَّه قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٧).

وإذا رأيتَ مِن نَفْسِك كراهةَ الاستِماعِ إلى القولِ الحَسَنِ فاتَّهِم نَفْسَك؛ لأنَّ اللهَ جَعَل الهِدايةَ في هؤلاء القَومِ، فإذا لم يَحصُلْ لك هذا فاتَّهِمْ نفْسَك، وصَحِّحِ الخطأَ، وأقبِلْ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ﴾ فيه حضٌّ على التَّقْوَى[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أنَّ التَّوحيدَ لا يَتِمُّ إلَّا باجتِنابِ الطَّاغوتِ، والإخلاصِ للهِ تعالى[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ هذا مِن أحسَنِ الاحترازِ مِن الحَكيمِ العَليمِ؛ لأنَّ المدحَ إنَّما يَتناوَلُ المجتَنِبَ لها في عِبادتِها[٤].

٣- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾، فدَلَّ ثَناءُ اللهِ على عِبادِه المُؤمِنينَ الكُمَّلِ بأنَّهم أحرَزوا صِفةَ اتِّباعِ أحسَنِ القَولِ الَّذي يَسمَعونَه، على شَرَفِ النَّظَرِ والاستِدلالِ؛ لِلتَّفرِقةِ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وللتَّفرِقةِ بيْنَ الصَّوابِ والخَطَأِ، ولِغَلقِ المَجالِ في وَجهِ الشُّبهةِ، ونَفيِ تَلَبُّسِ السَّفسَطةِ[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ حَثُّ أهلِ الكِتابِ على اتِّباعِ هذا القُرآنِ العَظيمِ؛ فإنَّ كُتُبَ اللهِ كُلَّها حَسَنةٌ، وهذا القُرآنُ أحسَنُها كَلامًا ومَعانيَ ونِظامًا؛ لا يَشُكُّ في هذا أحَدٌ له أدنَى ذَوقٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٠).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ حُجَّةٌ على المُقَلِّدِينَ؛ إذِ القولُ المسموعُ لا يَخلو مِن أنْ يكونَ قولَ مَن يكونُ قولُه حُجَّةً، أو قولَ مَن لا يكونُ قولُه حُجَّةً، فلمَّا كان قولُ مَن يكونُ حُجَّةً حسَنًا كلُّه لا تزييفَ فيه؛ عُلِمَ أنَّه المُتَّبَعُ دونَ قولِ مَن لا يكونُ حُجَّةً(١).

٦- هنا سُؤالٌ مَشهورٌ، وهو أنَّه تعالى قال: ﴿يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾، فقد قَسَّم القَولَ إلى حَسَنٍ وأحسَنَ، والقُرآنُ كُلُّه مُتَّبَعٌ. وهذا على أنَّ المرادَ بالقولِ القرآنُ.

فيُقالُ: الجَوابُ مِن أوجُهٍ:

منها: أنَّ هذا مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، ومِثلُ قَولِه: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]؛ فقد أمَرَ المُؤمِنينَ باتِّباعِ أحسَنِ ما أُنزِلَ إليهم مِن رَبِّهم، وأمَرَ بني إسرائيلَ أن يأخُذوا بأحسَنِ التَّوراةِ، وهذا أبلَغُ مِن تلك الآيةِ؛ فإنَّ تلك إنَّما فيها مدْحٌ باتِّباعِ الأحسَنِ، ولا رَيبَ أنَّ القُرآنَ فيه الخَبَرُ والأمرُ بالحَسَنِ والأحسَنِ، واتِّباعُ القَولِ إنَّما هو العَمَلُ بمُقتضاه، ومُقتضاه فيه حَسَنٌ وأحسَنُ، ليس كُلُّه أحسَنَ، وإنْ كان القُرآنُ في نَفْسِه أحسَنَ الحديثِ؛ ففَرْقٌ بيْن حُسنِ الكلامِ بالنِّسبةِ إلى غَيرِه مِن الكَلامِ، وبيْنَ حُسنِه بالنِّسبةِ إلى مُقتضاه المأمورِ والمُخبَرِ عنه.

ومنها: أن يُقالَ: إنَّه قال: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، والقُرآنُ تضَمَّنَ خَبرًا وأمرًا؛ فالخَبرُ عن الأبرارِ والمقرَّبينَ، وعن الكُفَّارِ والفُجَّارِ؛ فلا رَيبَ أنَّ اتِّباعَ الصِّنفَينِ (الأبرارِ والمقرَّبينَ)

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١، ٢٢).

حَسَنٌ، واتِّباعَ المقرَّبينَ أحسَنُ، والأمرُ يتَضَمَّنُ الأمرَ بالواجباتِ والمُستحَبَّاتِ، ولا رَيبَ أنَّ الاقتِصارَ على فِعلِ الواجباتِ حَسَنٌ، وفِعلَ المُستحَبَّاتِ معها أحسَنُ، ومَنِ اتَّبَعَ الأحسَنَ فاقتدى بالمقرَّبينَ وتقرَّبَ إلى اللهِ بالنَّوافِلِ بعدَ الفرائِضِ كان أحَقَّ بالبُشرى. وعلى هذا فقَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]: هو أيضًا أمرٌ بذلك؛ لكِنَّ الأمرَ يَعُمُّ أمرَ الإيجابِ والاستِحبابِ؛ فهم مأمورونَ بما في ذلك مِن واجبٍ أمرَ إيجابٍ، وبما فيه مِن مُستحَبٍّ أمْرَ استحبابٍ، كما هم مأمورونَ مِثلَ ذلك في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، وقَولِه: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، والمعروفُ يتناوَلُ القِسمَينِ، وقَولِه: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، وهو يَعُمُّ القِسمَينِ، وقَولِه: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧]، وأمثالِ ذلك[١].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: أصحابُ العُقولِ؛ لأنَّ الإنسانَ كُلَّما كان للحَقِّ أتْبَعَ كان أكمَلَ عَقلًا، وكُلَّما نَقَص اتِّباعُه للحَقِّ كان أدَلَّ على قِلَّةِ عَقلِه؛ فأعقَلُ النَّاسِ أتْبَعُهم لدِينِ اللهِ لا شَكَّ؛ لأنَّهم هم الَّذين عِندَهم الحَزمُ وانتِهازُ الفُرَصِ وحِفظُ الوَقتِ[٢].

٨- أنَّه لا تلازُمَ بيْن الذَّكاءِ والعَقلِ؛ فالذَّكاءُ شَيءٌ والعَقلُ شَيءٌ آخَرُ، حتَّى في عَقلِ الإدراكِ لا تلازُمَ بيْن الذَّكاءِ وعَقلِ الإدراكِ؛ لأنَّ مِن النَّاسِ مَن تَجِدُه ذَكيًّا شديدَ الملاحظةِ، يَفهَمُ الشَّيءَ بسُرعةٍ، ويُعطي الجوابَ بسرعةٍ، لكِنَّه في التَّصَرُّفِ أحمقُ ليس عندَه عَقلٌ! ومِن النَّاسِ مَن يكونُ بالعَكسِ؛ عندَه شيءٌ مِن

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥-٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٨).

البلادةِ، ولكِنَّه في التَّصرُّفِ عاقِلٌ مُتَأَنٍّ، ولكنَّ أعقلَ النَّاسِ أطْوَعُهم للهِ تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[(١)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أنَّ الإنقاذَ أُطلِقَ على الإلحاحِ في الإنذارِ -مِن إطلاقِ اسمِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ- وأنَّ ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ مَن هو صائِرٌ إلى النَّارِ، فلا مُتمَسَّكَ للمُعتَزِلةِ في الاستِدلالِ بالآيةِ على نَفيِ الشَّفاعةِ المُحمَّديَّةِ لأهلِ الكبائِرِ، على أنَّنا لو سَلَّمْنا أنَّ الآيةَ مَسوقةٌ في غَرَضِ الشَّفاعةِ فإنَّما نَفَت الشَّفاعةَ لأهلِ الشِّركِ؛ لأنَّ ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ يَحتمِلُ العَهدَ -وهم المُتحَدَّثُ عنهم في هذه الآيةِ- ولا خِلافَ في أنَّ المُشرِكينَ لا شَفاعةَ فيهم؛ قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، على أنَّ المنفيَّ هو أن يكونَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنقِذًا لِمَن أراد اللهُ عَدَمَ إنقاذِه، فأمَّا الشَّفاعةُ فهي سؤالُ اللهِ أن يُنقِذَه[(٢)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يستطيعُ أنْ يُنقِذَ مَن في النَّارِ، وإذا كان هذا للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم فغَيْرُه مِن بابِ أَولى[(٣)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ بيانُ عُلُوِّ مَنزلةِ المتَّقينَ؛ لأنَّ الاستِدراكَ هنا كأنَّه انتِشالٌ لهم ممَّا سَبَق ذِكرُه مِن الوَعيدِ الشَّديدِ لهؤلاء الَّذين حَقَّت عليهم كَلِمةُ العَذابِ[(٤)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ دَقيقةٌ شَريفةٌ، وهي أنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٧).

تعالى في كثيرٍ مِن آياتِ الوَعدِ صَرَّح بأنَّ هذا وعْدُ الله، وأنَّه لا يُخلِفُ وَعْدَه، ولم يَذكُرْ في آياتِ الوَعيدِ ألبتَّةَ مِثلَ هذا التَّأكيدِ والتَّقويةِ؛ وذلك يدُلُّ على أنَّ جانِبَ الوَعدِ أرجَحُ مِن جانبِ الوَعيدِ، بخِلافِ ما يقولُه المُعتَزِلةُ[١].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ إنَّما كان كذلك؛ لِكَمالِ صِدقِه، وكَمالِ قُدرتِه؛ لأنَّ إخلافَ الميعادِ إمَّا أن يكونَ لكَذِبِ الواعِدِ، وإمَّا أن يكونَ لِعَجزِه، واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن هذا وهذا؛ فهو كامِلُ الصِّدقِ، كامِلُ القُدرةِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ لَمَّا انتَهى تَهديدُ المُشرِكينَ، ومَوعِظةُ الخَلائِقِ أجمَعينَ؛ ثُنِيَ عِنانُ الخِطابِ إلى جانِبِ المُؤمِنينَ فيما يَختَصُّ بهم مِنَ البِشارةِ مُقابَلةً لِنِذارةِ المُشرِكينَ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ فيه التَّعبيرُ عن المُؤمِنينَ بالَّذين اجتَنَبوا الطَّاغوتَ؛ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإيماءِ إلى وَجهِ بِناءِ الخَبَرِ، وهو ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، وهذا مُقابِلُ قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾[٤] [الزمر: ١٦].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ تَشبيهُ الشَّيطانِ بالطَّاغوتِ -على أحدِ الأقوالِ-، وفيه وُجوهٌ ثَلاثةٌ مِنَ المُبالَغةِ: تَسميَتُه بالمَصدَرِ، كأنَّه نَفْسُ الطُّغيانِ. وبِناؤُه على (فَعَلوتٌ)، وهي صِيغةُ مُبالَغةٍ، كالرَّحَموتِ، وهي الرَّحمةُ الواسِعةُ، والمَلَكوتِ وهو المُلْكُ الواسِعُ. والثَّالثُ: تَقديمُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٦٤).

لامِه على عَينِه؛ لِيُفيدَ اختِصاصَه بهذه التَّسميةِ[١].

- قَولُه: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ فيه تَقديمُ المُسنَدِ (لهم)؛ لِإفادةِ القَصرِ، وهو قَصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ، وهو قَصرٌ إضافيٌّ قَصرَ تَعيينٍ[٢].

- ولم يُبَيِّنِ اللهُ وقتَ البُشرى؛ فهو شاملٌ للبُشْرى في الدُّنيا وفي الآخرةِ[٣].

- وفُرِّعَ على قَولِه: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ قَولُه: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، وهمُ الَّذين اجتَنَبوا الطَّاغوتَ؛ فعُدِلَ عن الإتيانِ بضَميرِهم بأنْ يُقالَ: فبَشِّرْهم، إلى الإظهارِ باسمِ العِبادِ مُضافًا إلى ضَميرِ اللهِ تعالى، وبالصِّلةِ؛ لِزيادةِ مَدحِهم بصِفتَينِ أُخرَيَينِ، وهُما: صِفةُ العُبوديَّةِ للهِ، أيْ: عُبوديَّةِ التَّقرُّبِ، وصِفةُ استِماعِ القَولِ واتِّباعِ أحسَنِه[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ همُ المَوصوفونَ بالاجتِنابِ والإنابةِ بأعيانِهم، لكنْ وُضِعَ مَوضِعَ ضَميرِهمُ الظَّاهِرُ؛ تَشريفًا لهم بالإضافةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ١١٨، ١٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٠٣).

قال السمين: (وأصلُ الطاغوت... «طغووت» أو «طغيوت» فقُلِبت الكلمةُ بأنْ أُخِّرتْ عينُها إلى موضعِ لامِها، ولامُها إلى موضعِ عينِها، فصارت طغيوتًا أو طيغوتًا، فتحرَّك حرفُ العلةِ، وانفتَح ما قبلَه، فقُلِبت الفاءُ؛ فوزنُه بعدَ القلبِ «فلعوت»). ((عمدة الحفاظ)) (٢/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٥).

والقصر تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٥).

ودَلالةً على أنَّ مَدارَ اتِّصافِهم بالوَصفَينِ الجَليلَينِ كَونُهم نُقَّادًا في الدِّينِ؛ يُمَيِّزونَ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ، ويُؤْثِرونَ الأفضَلَ فالأفضَلَ، ولِيَترَتَّبَ على الظَّاهِرِ الوَصفُ، وهو ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ﴾[1].

- وأيضًا في المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ اتِّباعَ أحسَنِ القَولِ سَبَبٌ في حُصولِ هِدايةِ اللهِ إيَّاهم[2].

- وقولُه: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ ثَناءٌ عليهم بنُفوذِ بَصائِرِهم وتَمييزِهمُ الأحسَنَ، فإذا سَمِعوا قَولًا تَبَصَّروه، واسمُ التَّفضيلِ (أحْسَن) ليس مُستَعمَلًا في تَفاوُتِ المَوصوفِ به في الفَضلِ على غَيرِه؛ فهو لِلدَّلالةِ على قُوَّةِ الوَصفِ[3]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ مُستَأنَفةٌ لِاستِرعاءِ الذِّهنِ لِتَلَقِّي هذا الخَبَرِ، وأُكِّدَ هذا الاستِرعاءُ بجَعلِ المُسنَدِ إليه اسمَ إشارةٍ؛ لِيَتمَيَّزَ المُشارُ إليهم أكمَلَ تميُّزٍ، مع التَّنبيهِ على أنَّهم كانوا أحْرياءَ بهذه العِنايةِ الرَّبَّانيَّةِ لِأجْلِ ما اتَّصَفوا به مِنَ الصِّفاتِ المَذكورةِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[4].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ؛ لِلإيذانِ بعُلوِّ رُتبَتِهم، وبُعدِ مَنزِلَتِهم في الفَضلِ[5].

- وقد أفادَ تَعريفُ الجُزأيْنِ في قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ قَصْرَ الهِدايةِ عليهم، وهو قَصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ، وهو قَصرٌ إضافيٌّ قَصرَ تَعيينٍ، أيْ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨).

دُونَ الخاسِرينَ الَّذين خَسِروا أنفُسَهم وأهليهم[١].

- وفي قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا كان في هؤلاء المُجْتَبَينَ العالُو الرُّتبةِ جدًّا وغيرُهم، أبرَزَ المفعولَ فقال مُحوِّلًا الأسلوبَ إلى الاسمِ الأعظَمِ؛ إشارةً إلى عَظيمِ هِدايتِهم؛ فقال: ﴿هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما له مِن صِفاتِ الكَمالِ؛ فبيَّن سُبحانه أنْ لا وُصولَ إليه إلَّا به، وهذا بخِلافِ آيةِ (الأنعام)؛ حيثُ ذكَرَ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فحذَفَ المفعولَ؛ لِتَصيرَ هِدايتُهم مُكرَّرةً بوُجوبِ تَسليطِ العاملِ على المَوصولِ الَّذي أعادَ عليه الضَّميرَ في هذه الآيةِ[٢].

- وأشارَتْ جُملةُ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ إلى مَعنى تَهَيُّئِهم لِلاهتِداءِ بما فَطَرَهمُ اللهُ عليه مِن عُقولٍ كامِلةٍ، وأصْلُ الخِلقةِ مَيَّالةٌ لِفَهمِ الحَقائِقِ، غَيرُ مُكتَرِثةٍ بالمَألوفِ، ولا مُراعاةِ الباطِلِ، على تَفاوُتِ تلك العُقولِ في مَدى سُرعةِ البُلوغِ لِلاهتِداءِ. وأُشيرَ إلى رُسوخِ هذه الأحوالِ في عُقولِهم بذِكرِ ضَميرِ الفَصلِ ﴿هُمۡ﴾، مع كَلِمةِ ﴿أُوْلُواْ﴾ الدَّالَّةِ على أنَّ المَوصوفَ بها مُمسِكٌ بما أُضيفَتْ إليه كَلِمةُ ﴿أُوْلُواْ﴾، وبما دَلَّ عليه تَعريفُ ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مِن مَعنى الكَمالِ[٣].

- وأشارَ إعادةُ اسمِ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى تَمَيُّزِهم بهذه الخَصلةِ مِن بَينِ نُظَرائِهم وأهلِ عَصرِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقد أفادَ تَعريفُ الجُزأيْنِ في قَولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ قَصْرَ العقْلِ عليهم، وهو قَصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ، وهو قَصرٌ إضافيٌّ قَصرَ تَعيينٍ، أيْ: دونَ مَسْلوبي العُقولِ[(١)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لَمَّا أفادَ الحَصرُ في قَولِه: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ [الزمر: ١٧]، والحَصرانِ اللَّذانِ في قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]؛ أنَّ مَن سِواهم -وهمُ المُشرِكونَ- لا بُشْرى لهم، ولم يَهدِهمُ اللهُ، ولا ألبابَ لهم؛ لِعَدَمِ انتِفاعِهم بعُقولِهم، وكان حاصِلُ ذلك أنَّ المُشرِكينَ مَحرومونَ مِن حُسنِ العاقِبةِ بالنَّعيمِ الخالِدِ؛ لِحِرمانِهم مِنَ الطَّاعةِ الَّتي هي سَبَبُه -فُرِّعَ على ذلك استِفهامٌ إنكاريٌّ مُفيدٌ التَّنبيهَ على انتِفاءِ الطَّماعيةِ في هِدايةِ الفَريقِ الَّذي حَقَّتْ عليه كَلِمةُ العَذابِ، وهمُ الَّذين قُصِدَ إقصاؤُهم عن البُشرى، والهِدايةِ، والانتِفاعِ بعُقولِهم، بالقصْرِ المَصوغةِ عليه صِيغُ القصْرِ الثَّلاثِ المتقدِّمةِ[(٢)].

- وقولُه: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ ...﴾ بيانٌ لأحوالِ أضْدادِ المذكورينَ على طَريقةِ الإجمالِ، وتسجيلٌ عليهم بحِرمانِ الهِدايةِ، وهم عَبَدةُ الطَّاغوتِ، ومُتَّبِعو خُطواتِها، كما يُلَوِّحُ به التَّعبيرُ عنهم بـ(مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ)[(٣)].

- وفي هذه الآيةِ جاء نَظمُ الكلامِ على طَريقةٍ مُبتَكَرةٍ في الخَبَرِ المُهتَمِّ به؛ بأنْ يُؤكَّدَ مَضمونُه الثَّابتُ لِلخَبَرِ عنه، بإثباتِ نَقيضِ -أو ضِدِّ- ذلك المَضمونِ لِضِدِّ المُخبَرِ عنه؛ لِيَتقَرَّرَ مَضمونُ الخَبَرِ مَرَّتَينِ: مَرَّةً بأصْلِه، ومَرَّةً بنَقيضِه أو ضِدِّه، لِضِدِّ المُخبَرِ عنه، فبعْدَ أنْ أُشِيرَ إلى المَوصوفِينَ مرَّتينِ، فُرِّعَ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨).

بعْدَه إثباتُ ضِدِّ حُكمِهم لِمَن هم مُتَّصِفون بضِدِّ حالِهم. وبهذا يَظهَرُ حُسنُ مَوقِعِ الفاءِ؛ لِتَفريعِ هذه الجُملةِ على جُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]؛ لِأنَّ التَّفريعَ يَقتَضي اتِّصالًا وارتِباطًا بيْن المُفرَّعِ والمُفرَّعِ عليه(١).

- قولُه: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ معنى (حقَّ) هنا تحقَّق، وحقُّ كلمةِ العذابِ عليهم ضِدُّ هدْيِ الله الآخَرينَ، وكَوْنُهم في النَّارِ ضِدُّ كَونِ الآخَرينَ لهم البُشْرى، وترتيبُ المُتضادَّينِ جرَى على طريقةِ شِبهِ اللَّفِّ والنَّشرِ المعكوسِ(٢)، وهو مِثلُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦، ٧] بعدَ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٨، ٣٦٩).

(٢) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

رَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤، ٥]؛ فإنَّ قولَه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ضدٌّ لقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، وقولَه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ضدُّ قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

- وقولُه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ يُفيدُ أنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يَقدِرُ على الإنقاذِ مِنَ النَّارِ وَحْدَه، لا يَقدِرُ على ذلك أحَدٌ غيرُه، فكما لا تَقدِرُ أنتَ أنْ تُنقِذَ الدَّاخِلَ في النَّارِ مِنَ النَّارِ، لا تَقدِرُ أنْ تُخَلِّصَه ممَّا هو فيه مِن استِحقاقِ العَذابِ بتَحصيلِ الإيمانِ فيه؛ فتَقديمُ الفاعلِ المعنويِّ على الفِعلِ، وإيلاؤُه همزةَ الإنكارِ؛ يدُلُّ على أنَّ الكلامَ في الفاعلِ لا في الفعلِ، أي: لَسْتَ أنت الفاعلَ لهذا الفعلِ، بل فاعِلُه غيرُك، وهو اللهُ وحْدَه[2].

- و(مَن) مِن قولِه تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ قيل: المرادُ بها أبو لهبٍ وولَدُه، ومَن تخلَّفَ عن الإيمانِ مِن عَشيرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فيكونُ (مَن) مُبتدأً حُذِفَ خبَرُه. والتَّقديرُ: تُنقِذُه مِن النَّارِ، كما دلَّ عليه ما بَعْدَه، وتكونُ جُملةُ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ تَذييلًا، أي: أنت لا تُنقِذُ الَّذين في النَّارِ. والهمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، والهمزةُ الثَّانيةُ كذلك، وهي تأكيدٌ للَّتي قبْلَها؛ للاهتِمامِ بشَأنِ هذا الاستِفهامِ الإنكاريِّ.

ويجوزُ أنْ تكونَ (مَن) في قولِه: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ شرطيَّةً، بناءً على أنَّ الفاءَ في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ يَحسُنُ أنْ تكونَ لِمَعنًى غيرِ معنَى التَّفريعِ المستفادِ مِن الَّتي قبْلَها، وإلَّا كانت مُؤكِّدةً للأُولى، وذلك يَنقُصُ معنًى مِن الآيةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٦٥).

ويجوزُ أنْ تكونَ (مَن) الأُولى موصولةً مُبتدأً، وخبرُه ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، وتكونَ الفاءُ في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ مؤكِّدةً للفاءِ الأُولى في قولِه: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ ...﴾ إلخ؛ فتكونَ الهَمْزةُ والفاءُ معًا مُؤكِّدتَينِ للهمْزةِ الأُولى والفاءِ الَّتي معها؛ لاتِّصالِهما، ولأنَّ جُملةَ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ صادقةٌ على ما صدَقَت عليه جُملةُ ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾، ويكونَ الاستفهامُ الإنكاريُّ جاريًا على غالبِ استعمالِه؛ مِن تَوجُّهِه إلى كلامٍ لا شرْطَ فيه. وأصلُ الكلامِ -على اعتبارِ (مَن) شرطيَّةً-: أمَنْ تَحْقُقُ عليه كلمةُ العذابِ في المستقبَلِ، فأنت لا تُنقِذُه منه؛ فتكونُ همزةُ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، وتكونُ همزةُ ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ افتُتِحَ بها الكلامُ المُتضمِّنُ الإنكارَ؛ للتَّنبيهِ مِن أوَّلِ الأمْرِ على أنَّ الكلامَ يَتضمَّنُ إنكارًا. وأصلُ الكلامِ على اعتبارِ (مَن) الأُولى مَوصولةً: الَّذين تَحِقُّ عليهم كلمةُ العذابِ أنت لا تُنقِذُهم مِن النَّارِ، فتكونُ الهمزةُ في قولِه: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، وتكونُ همزةُ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ تأْكيدًا للهمزةِ الأُولى[1].

- وتَجريدُ فِعلِ ﴿حَقَّ﴾ مِن تاءِ التَّأنيثِ، مع أنَّ فاعِلَه مُؤنَّثُ اللَّفظِ -وهو ﴿كَلِمَةُ﴾-؛ لأنَّ الفاعلَ اكتسَبَ التَّذكيرَ ممَّا أُضِيفَ هو إليه، نظرًا لإمكانِ الاستِغناءِ عن المُضافِ بالمُضافِ إليه، فكأنَّه قِيل: أفمَن حقَّ عليه العذابُ. وفائِدةُ إقْحامِ ﴿كَلِمَةُ﴾؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ ذلك أمْرُ اللهِ ووَعيدُه[2].

- و﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ هم مَن حَقَّ عليهم كَلِمةُ العَذابِ؛ لِأنَّ كَلِمةَ العَذابِ هي أنْ يَكونوا مِن أهلِ النَّارِ، فوَقَع إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، والأصلُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٩، ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧١).

(أفأنتَ تُنقِذُه مِنَ النارِ)، وفائدةُ هذا الإظهارِ: تَهويلُ حالَتِهم؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن حَرفِ الظَّرفيَّةِ المُصوِّرِ لِحالةِ إحاطةِ النَّارِ بهم، مع ما فيه مِن تَشهيرٍ بحالِهم، وإظهارٍ لِخِسَّةِ مَنازِلِهم، أيْ: أفأنتَ تُريدُ إنقاذَهم مِنَ الوُقوعِ في النَّارِ وهمُ الآنَ في النَّارِ؛ لِأنَّه مُحقَّقٌ مَصيرُهم إلى النارِ، فشَبَّهَ تَحقُّقَ الوُقوعِ في المُستَقبَلِ بتَحقُّقِه في الحالِ[١].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخَبَرِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ مُفيدٌ لِتَقَوِّي الحُكمِ؛ وهو إنكارُ أنْ يَكونَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَكريرِ دَعوَتِه يُخَلِّصُهم مِن تَحقُّقِ الوَعيدِ، أو يُحصِّلُ لهمُ الهِدايةَ إذا لم يُقَدِّرْها اللهُ لهم[٢].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَهوينًا عليه بَعضَ حِرصِه على تَكريرِ دَعوَتِهم إلى الإسلامِ، وحُزنَه على إعراضِهم وضَلالِهم، وإلَّا فلم يَكُنِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالَّذي يَظُنُّ أنَّه يُنقِذُهم مِن وَعيدِ اللهِ؛ ولذلك اجتُلِبَ فِعلُ الإنقاذِ هنا؛ تَشبيهًا لِحالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حِرصِه على هَدْيِهم وبُلوغِ جهدِه في إقناعِهم بتَصديقِ دَعوَتِه، وحالِهم في انغماسِهم في مُوجِباتِ وَعيدِهم؛ بحالِ مَن يُحاوِلُ إنقاذَ ساقِطٍ في النَّارِ قد أحاطَتِ النَّارُ بجَوانِبِه استِحقاقًا قَضى به مَن لا يُرَدُّ مُرادُه، فحالُهم تُشبِهُ حالَ وُقوعِهم في النَّارِ مِنَ الآنَ؛ لِتَحقُّقِ وُقوعِه[٣].

- وقد اشتَمَلَتْ هذه الآيةُ على نُكَتٍ بَديعةٍ مِنَ الإعجازِ؛ إذْ أفادَت أنَّ هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفَريقَ مِن أهلِ الشِّركِ الَّذين يَكمُنُ الكُفرُ في قُلوبِهم، حَقَّتْ عليهم كَلِمةُ اللهِ بتَعذيبِهم، فهم لا يُؤمِنونَ، وأنَّ حالَهمُ الآنَ كحالِ مَن وَقَع في النَّارِ، فهو هالِكٌ لا مَحالةَ، وأنَّ حالَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حِرصِه على هَديِهم كحالِ مَن رَأى ساقِطًا في النَّارِ فاندَفَع بدافِعِ الشَّفَقةِ إلى مُحاوَلةِ إنقاذِه، ولكِنَّه لا يَستَطيعُ ذلك؛ فلِذلك أُنكِرَتْ شِدَّةُ حِرصِه على تَخليصِهم، فكان إيداعُ هذا المَعنى في جُملَتَينِ نِهايةً في الإيجازِ، مع قَرنِه بما دَلَّ عليه تَأكيدُ الهَمزةِ والفاءِ في الجُملةِ الثَّانيةِ مِنَ الإطنابِ في مَقامِ الصَّراحةِ. وحاصِلُ نَظمِ هذا التَّركيبِ: أفمَنْ حَقَّ عليه كَلِمةُ العَذابِ فهو في النَّارِ؛ أفأنتَ تُنقِذُه وتُنقِذُ مَن في النَّارِ[1]؟!

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾

- في قولِه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ...﴾ أُعيدَتْ بِشارةُ الَّذين اجتَنَبوا الطَّاغوتَ؛ تَفصيلًا لِلإجمالِ الواقِعِ مِن قَبْلُ. وافتُتِحَ الإخبارُ عنهم بحَرفِ الاستِدراكِ؛ لِزيادةِ تَقريرِ الفارِقِ بيْنَ حالِ المُؤمِنينَ وحالِ المُشرِكينَ والمُضادَّةِ بَيْنَهما، فحَرفُ الاستِدراكِ هنا لِمُجرَّدِ الإشعارِ بتَضادِّ الحالَيْنِ؛ لِيَعلَمَ السَّامِعُ أنَّه سيَتلَقَّى حُكمًا مُخالِفًا لِمَا سبَقَ، فحَصَل في قَضيةِ الَّذين اجتَنَبوا عِبادةَ الطَّاغوتِ تَقريرٌ على تَقريرٍ، ابتُدِئَ بالإشارَتَينِ في قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]، ثمَّ بما أُعقِبَ مِن تَفريعِ حالِ أضْدادِهم على ذِكرِ أحوالِهم، ثمَّ بالاستِدراكِ الفارِقِ بيْنَ حالِهم وحالِ أضْدادِهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٣).

- والمُرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ هُمُ الَّذين اجتَنَبوا عِبادةَ الطَّاغوتِ، وأنابوا إلى الله، واتَّبَعوا أحسَنَ القَولِ، واهتَدَوْا بهَدْيِ الله، وكانوا أُولي الألبابِ؛ فعَدَلَ عن الإتيانِ بضَميرِهم هنا إلى المَوصولِ؛ لِقَصدِ مَدحِهم بمَدلولِ الصِّلةِ، ولِلإيماءِ إلى أنَّ الصِّلةَ سَبَبٌ لِلحُكمِ المَحكومِ به على المَوصولِ، وهو نَوالُهمُ الغُرَفَ[1].

- وعُدِلَ أيضًا عن اسمِ الجَلالةِ إلى وَصْفِ الرَّبِّ المُضافِ إلى ضَميرِ المُتَّقينَ في قَولِه: ﴿ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾؛ لِمَا في تلك الإضافةِ مِن تَشريفِهم برِضا رَبِّهم عنهم[2].

- وقولُه: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ مُقابِلُ ما جُعِلَ لِأهلِ النَّارِ في قَولِه: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ [الزمر: ١٦]، وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ خُولِفَ بيْنَ الحالَتَينِ: فجُعِلَ لِلمُتَّقينَ غُرَفٌ مَوصوفةٌ بأنَّها فَوقَها غُرَفٌ، وجُعِلتْ لِلمُشرِكينَ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ، وعُطِفَ عليها أنَّ مِن تَحتِهم ظُلَلًا؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ المُتَّقينَ مُتَنعِّمونَ بالتَّنقُّلِ في تلك الغُرَفِ، وإلى أنَّ المُشرِكينَ مَحبوسونَ في مَكانِهم، وأنَّ الظُّلَلَ مِنَ النَّارِ مِن فَوقِهم ومِن تَحتِهم؛ لِتَتَظاهَرَ الظُّلَلُ بتَوجيهِ لَفحِ النَّارِ إليهم مِن جَميعِ جِهاتِهم[3].

- وذِكرُ الغُرَفِ المَبنيَّةِ في قولِه: ﴿مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾؛ لِلدَّلالةِ على أنَّها غُرَفٌ حَقيقةً، ليستْ أشياءَ مُشابِهةً لِلغُرَفِ؛ فَرْقًا بَيْنَها وبيْنَ الظُّلَلِ الَّتي جُعِلتْ لِلَّذين خَسِروا يَومَ القِيامةِ؛ فإنَّ ظُلَلَهم كانتْ مِن نارٍ. وقيل: ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ مِثلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المنازلِ اللَّاصقةِ للأرضِ؛ فذِكرُ الوصفِ تَمهيدٌ لقولِه: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ الأنهارَ لا تَجْري إلَّا تحتَ المنازلِ السُّفليَّةِ، أي: لم يَفُتِ الغُرَفَ شَيءٌ مِن مَحاسنِ المنازلِ السُّفليَّةِ. وقِيل: أُرِيدَ أنَّها مُهيَّأةٌ لهم مِنَ الآنَ، فهي موجودةٌ؛ لأنَّ اسمَ المفعولِ كاسمِ الفاعلِ في اقتِضائِه الاتِّصافَ بالوصفِ في زمَنِ الحالِ؛ فيكونُ إيماءً إلى أنَّ الجنَّةَ مَخلوقةٌ مِنَ الآنَ.

ويجوزُ أنْ يكونَ الوصفُ احترازًا عن نَوعٍ مِن الغُرَفِ تكونُ نَحتًا في الحَجَرِ في الجبالِ، مِثلُ غُرَفِ ثَمودَ، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ وَصفًا للغُرَفِ باعتبارِ ما دلَّ عليه لَفْظُها مِن معنى المبنيِّ المُعْتَلي؛ فيكونَ الوصفُ دالًّا على تَمكُّنِ المعنى الموصوفِ، أي: مَبنيَّةٌ بِناءً بالغًا الغايةَ في نَوعِه، كقولِهم: لَيلٌ أَلْيَلُ (أي: شديدُ الظُّلمةِ)، وظِلٌّ ظَليلٌ[1].

- قولُه: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ إضافةُ ﴿وَعْدَ﴾ إلى اسمِ الجَلالةِ مُؤْذِنةٌ بأنَّه وعْدٌ مُوفًى به؛ فوَقَعتْ جُملةُ ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ بَيانًا لِمَعنى ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٤، ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٧٥).

الآيات (٢١-٢٢)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَسَلَكَهُۥ﴾: أي: فأجْراه وأدخَلَه، وأصلُ (سلك): يدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ[(١)].

﴿يَنَٰبِيعَ﴾: أي: عُيونًا تَنبُعُ، ومفردُها: يَنبوعٌ، مِن قَولِهم: نَبَع الماءُ: إذا ظهَرَ وفارَ، وأصلُ (نبع): يدُلُّ على خُروجِ الماءِ مِن العَينِ[(٢)].

﴿يَهِيجُ﴾: أي: يَيبَسُ ويَجِفُّ، يُقالُ: هاج النَّبتُ هِياجًا، أي: يَبِسَ، وأرضٌ هائِجةٌ: يَبِسَ بَقلُها واصفَرَّ، وأصل (هيج): يدُلُّ على ثَوَرانِ شَيءٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٨) و(٢٠/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣).

﴿حُطَٰمًا﴾: أي: فُتاتًا مُكَسَّرًا، مِن تحطَّمَ العُودُ: إذا تفَتَّت مِن اليُبْسِ، وأصلُ (حطم): يدُلُّ على كَسرِ الشَّيءِ[١].

﴿مَّثَانِيَ﴾: أي: تُثَنَّى وتُكَرَّرُ فيه الأنباءُ والأخبارُ، والقَضاءُ والأحكامُ والحُجَجُ، وأصلُ (ثني): يدُلُّ على تَكريرِ الشَّيءِ[٢].

﴿تَقْشَعِرُّ﴾: أي: تَنقَبِضُ وتَضطَرِبُ مِنَ الخَوفِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾

﴿يَنَٰبِيعَ﴾: مَنصوبٌ على نَزعِ الخافِضِ، أي: سَلَكه في ينابيعَ، أو مَفعولٌ به ثانٍ بتَضمينِ سَلَكه معنى: جعَلَه، أو مَنصوبٌ على الحالِ مِن الضَّميرِ في (سَلَكَه)، أي: فأَجْراه عُيونًا في الأرضِ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٠)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١٠٧٩)، ((إعراب القرآن)) للدعاس (٣/ ١٣٦).

﴿كِتَٰبًا﴾: بَدَلٌ مَنصوبٌ مِنْ ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾: نَعتٌ لـ ﴿كِتَٰبًا﴾، ﴿مَّثَانِيَ﴾: نَعتٌ ثانٍ، أو حالٌ مِن ﴿كِتَٰبًا﴾ لِوَصفِه، أو تَمييزٌ مَنقولٌ مِن الفاعِليَّةِ، أي: مُتشابِهًا مَثانِيه. ﴿تَقۡشَعِرُّ﴾: نَعْتٌ ثَالِثٌ لـ ﴿كِتَٰبًا﴾ أو حالٌ مِنه؛ لاختِصاصِه بالصِّفةِ، أو مُستأنَفٌ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا سرعةَ زوالِ الحياةِ الدُّنيا: ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنزَلَ مِن السَّماءِ مَطَرًا، فأدخَلَه في الأرضِ، وجعَلَه فيها عُيونًا جاريةً، ثمَّ يُنبِتُ به زُروعًا مُختَلِفةَ الألوانِ، ثمَّ يُصابُ هذا الزَّرعُ بالجَفافِ، فتَراه مُصفَرًّا مِن بَعدِ اخضِرارِه ونَضارتِه، ثمَّ يَجعَلُه اللهُ فُتاتًا مُتكَسِّرًا؟! إنَّ في ذلك لَذِكرَى لأهلِ العُقولِ الصَّحيحةِ.

ثمَّ يَنفي اللهُ تعالى المُساواةَ بيْنَ المؤمنِ والكافرِ، وبيْنَ المُهتدي والضَّالِّ، فيقولُ: أفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَه للإسلامِ فهو على بَصيرةٍ وهِدايةٍ مِن رَبِّه، كمَنْ قَسا قَلبُه وغَلُظ؟! فوَيْلٌ للقاسيةِ قُلوبُهم إذا سَمِعوا ذِكرَ اللهِ الَّذي مِن شَأنِه أن تَلينَ له القُلوبُ، أولئك في ضَلالٍ ظاهِرٍ عن الحَقِّ.

ثمَّ يَمدَحُ تعالى كتابَه، فيقولُ: اللهُ نزَّلَ القُرآنَ الَّذي هو أحسَنُ الحديثِ، كِتابًا يُشبِهُ بَعضُه بَعضًا في فَصاحتِه وبَلاغتِه، وفي نَظمِه وإعجازِه، وفي صِحَّةِ مَعانيه وأحكامِه، تُثَنَّى وتُكرَّرُ فيه القِصَصُ والمواعِظُ، والأمثالُ والأحكامُ، والوَعدُ والوَعيدُ.

ثمَّ يُبيِّنُ حالَ المؤمنينَ الصَّادِقينَ عندَ سماعِ القرآنِ، وأثرَه فيهم، فيقولُ: تَضطَرِبُ وتَتقبَّضُ منه جُلودُ الَّذين يَخشَونَ رَبَّهم، ثمَّ تَلينُ جُلودُهم وتَسكُنُ

(١) يُنظر: ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١١١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٢٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٧١).

قُلوبُهم إلى كِتابِ اللهِ، ذلك هُدى اللهِ يَهدي به مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ومَن يُضْلِلْه اللهُ فلا هادِيَ له.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَف الآخِرةَ بصِفاتٍ تُوجِبُ الرَّغبةَ العَظيمةَ لأُولي الألبابِ فيها؛ وَصَف الدُّنيا بصِفةٍ تُوجِبُ اشتِدادَ النفرةِ عنها[١].

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ سُبحانَه بقُدرتِه على البَعثِ؛ دَلَّ عليها بما يَتكَرَّرُ مُشاهَدتُه مِن مِثلِها[٢].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

أي: ألَمْ تَرَ[٣] أنَّ اللهَ أنزَلَ المطَرَ مِن السَّماءِ، فأدخَلَه في الأرضِ وأجراه فيها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٣).

(٣) ذكر ابنُ عاشور أنَّ الخطابُ لكُلِّ مَن يَصْلُحُ للخِطابِ، فليسَ المرادُ به مُخاطَبًا مُعَيَّنًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٧).

وقال ابنُ عطيَّة: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكُلُّ بَشَرٍ داخِلٌ معه في معناه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٦-١٧٠). =

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨].

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾

أي: ثمَّ يُنبِتُ اللهُ بهذا الماءِ زُروعًا مُختَلِفةَ الألوانِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾

أي: ثُمَّ يَيبسُ الزَّرعُ ويجِفُّ فتَراه مُصفَرَّ اللَّونِ بعدَ تلك البَهجةِ والنَّضْرةِ(٢).

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾

أي: ثمَّ يَجعَلُ اللهُ الزَّرعَ الذَّابِلَ فُتاتًا مُتكَسِّرًا(٣).

= قال الشوكاني: (اليَنبُوعُ: عَينُ الماءِ، والأمكِنةُ الَّتي يَنبُعُ منها الماءُ، والمعنى: أدخَلَ الماءَ النَّازِلَ مِن السَّماءِ في الأرضِ، وجعَلَه فيها عُيونًا جاريةً، أو جعَلَه في يَنابيعَ، أي: في أمكِنةٍ يَنبُعُ منها الماءُ، فهو على الوَجهِ الثَّاني مَنصوبٌ بنَزعِ الخافِضِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَمَّ هذا المِنوالُ البَديعُ الدَّالُّ بلا شَكٍّ لكُلِّ مَن رآه على أنَّ فاعِلَه قادِرٌ على الإعادةِ لِما يُريدُ بعدَ الإبادةِ، كما قدَرَ على الإيجادِ مِن العَدَمِ، والإفادةِ لكُلِّ ما لم يكُنْ؛ قال على سَبيلِ التَّأكيدِ للتَّنبيهِ على أنَّ إنكارَهم غايةٌ في الحُمقِ والجُمودِ[1]:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

أي: إنَّ في ذلك[2] لَذِكْرى يَتذكَّرُ بها أهلُ العُقولِ الصَّحيحةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٤).

(٢) الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدَّم ذِكرُه مِن إنزالِ المطرِ إلى آخِرِ الأطوارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨).

قيل: إنَّ ما ذُكِرَ تَذكيرٌ وتَنبيهٌ على أنَّه لا بُدَّ مِن صانعٍ حَكيمٍ، وأنَّ ذلك كائِنٌ عن تقديرٍ وتَدبيرٍ، لا عن تَعطيلٍ وإهمالٍ. قاله الزمخشري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٢).

وقيل: إنَّه مَثَلٌ للدُّنيا؛ فالدُّنيا هكذا، تكونُ خَضِرةً نَضِرةً حَسناءَ، ثمَّ تعودُ عَجوزًا شَوهاءَ، والشَّابُّ يعودُ شَيخًا هَرِمًا كبيرًا ضَعيفًا، وبعدَ ذلك كُلِّه الموتُ. قال ابنُ كثير: (وكثيرًا ما يَضربُ اللهُ تعالى مَثَلَ الحياةِ الدُّنيا بما يُنزِلُ اللهُ مِن السَّماءِ مِن ماءٍ، ويُنبِتُ به زُروعًا وثمارًا، ثمَّ يكونُ بعدَ ذلك حُطامًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٥).

وقيل: إنَّها ذِكرى للبَعثِ مِن القُبورِ وإحياءِ الموتى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧). =

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى الدَّلائِلَ على وُجوبِ الإقبالِ على طاعةِ اللهِ تعالى، ووُجوبِ الإعراضِ عن الدُّنيا ولَذَّاتِها؛ ذكَرَ أنَّ الانتِفاعَ بهذه البَياناتِ لا يَكمُلُ إلَّا إذا شَرَح الصُّدورَ، ونَوَّر القُلوبَ[1].

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾

أي: أفمَنْ وسَّع اللهُ قَلبَه لِمَعرفتِه، وفَسَحَه للإقرارِ بوَحدانيَّتِه، والخُضوعِ لطاعتِه، والعَمَلِ بدِينِه، فهو على بَصيرةٍ ويَقينٍ مِن رَبِّه، وشُعورٍ بالرَّاحةِ والطُّمأنينةِ والسُّرورِ: كمَنْ ليس كذلك ممَّن هو ضَيِّقُ الصَّدرِ عن استِماعِ الحَقِّ واتِّباعِه، قاسي القَلبِ، مُعرِضٌ عن ذِكرِ الرَّبِّ تعالى[2]؟!

= وقيل: يَذْكُرونَ به عنايةَ رَبِّهم ورَحمتَه بعِبادِه؛ حيث يَسَّرَ لهم هذا الماءَ، وخَزَنَه بخزائِنِ الأرضِ تبَعًا لِمَصالِحِهم، ويَذكُرونَ به كَمالَ قُدرتِه، وأنَّه يُحيي الموتى، كما أحيا الأرضَ بعدَ مَوتِها، ويَذكُرونَ به أنَّ الفاعِلَ لذلك هو المُستَحِقُّ للعِبادةِ. قاله السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢).

قال الماوردي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فيه وجهانِ؛ أحدُهما: وسَّع صَدرَه للإسلامِ حتَّى يثبت فيه، قاله ابنُ عبَّاسٍ والسُّدِّيُّ. الثَّاني: وسَّع صَدرَه بالإسلامِ بالفرحِ به والطمأنينةِ إليه. فعلى هذا لا يجوزُ أن يكونَ الشرحُ قبلَ الإسلامِ، وعلى الوجهِ الأوَّلِ يجوزُ أن يكونَ الشرحُ قبلَ الإسلامِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾

أي: فوَيلٌ للَّذين تَقسو قُلوبُهم إذا سَمِعوا ذِكرَ اللهِ؛ فلا تَلينُ لكِتابِه، ولا تَتذكَّرُ آياتِه، ولا تَطمَئِنُّ عندَ ذِكرِه، ولا تَخشَعُ ولا تَعِي، بل هي مُعرِضةٌ عن رَبِّها[1]!

= (١٥/ ٢٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٩، ٣٨٠).

قال الزَّجَّاجُ: (المعنَى: أفمَنْ شرَح اللهُ صدرَه فاهتدَى كمَنْ طبع على قلبِه فلم يَهْتَدِ لِقَسْوتِه؟ والجوابُ متروكٌ؛ لأنَّ الكلامَ دَالٌّ عليه. ويؤكِّدُ ذلك قولُه جلَّ وعزَّ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧٧، ١٧٨).

قال الزَّجَّاجُ: (يُقال: قَسا قَلبُه عن ذِكرِ اللهِ، ومِن ذِكْرِ اللهِ؛ فمَن قال: مِن ذِكْرِ اللهِ، فالمعنى: كُلَّما تُلِيَ عليه ذِكرُ اللهِ قَسا قَلْبُه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]. ومَن قال: عن ذِكْرِ اللهِ، فالمعنى: أنَّه غَلُظ قَلبُه وجَفا عن قَبولِ ذِكْرِ اللهِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٥١).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: الزمخشريُّ، والقرطبي، والبيضاوي، والخازن، وأبو حيان، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٨٧).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني: ابنُ جرير، ومكِّي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٦).

قال السمعاني: (قَولُه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: الَّذين لا يَذْكُرونَ اللهَ، وكلُّ مَن ترَك ذِكرَ الله فقد قسَا قلبُه). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٥).

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

أي: أولئك القاسِيةُ قُلوبُهم مِن ذِكرِ اللهِ: في ضَلالٍ ظاهرٍ عن الحَقِّ[(١)].

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ سُبحانَه عن هؤلاءِ المَمدوحينَ أنَّهم يَستَمِعونَ القَولَ فيَتَّبِعونَ أحْسَنَه؛ كأنَّه قيل: هل مِن طَريقٍ إلى مَعرفةِ أحسَنِه حتَّى نَتَّصِفَ بصِفاتِ أُولي الألبابِ، وحتَّى نَعرِفَ أنَّ مَن آثَرَه عَلِمْنا أنَّه مِن أُولي الألبابِ؟ قيل: نَعَمْ، أحْسَنُه ما نَصَّ اللهُ تعالى عليه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[(٢)].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أُنزِلَ القُرآنُ على رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتلا عليهم زَمانًا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، لو قَصَصْتَ علينا! فأنزل اللهُ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١] إلى قَولِه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢).

عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، فتلاها عليهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زمانًا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، لو حدَّثْتَنا، فأنزَلَ الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ...﴾ [الزمر: ٢٣] الآيةَ، كُلُّ ذلك يُؤْمَرونَ بالقُرآنِ))(١).

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾

أي: اللهُ نزَّل القرآنَ الَّذي هو أحسَنُ الحَديثِ، كِتابًا يُشبِهُ بَعضُه بَعضًا في صِدقِ الأخبارِ، وعَدلِ الأحكامِ، وبَلاغةِ الألفاظِ، وشَرَفِ المعاني؛ فلا تَفاوُتَ فيه في لَفظٍ ولا مَعنًى، ويُصَدِّقُ بَعضُه بَعضًا، فلا اختِلافَ فيه ولا تَضادَّ(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

وقال جَلَّ ثناؤُه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ

---

(١) أخرجه البزار (١١٥٣)، وابن حبان (٦٢٠٩)، والحاكم (٣٣١٩).
حَسَّنه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٦/ ٢٢٢)، وابنُ حجر في ((المطالب العالية)) (٤/ ١٢٦)، وصَحَّحه الألباني في ((صحيح الموارد)) (١٤٦٢)، وحَسَّن إسنادَه ابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٠)، وقوَّاه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٦٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (٧/ ٩٣).

وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

وعن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا خَطَب يقولُ: أمَّا بَعْدُ، فإنَّ خَيْرَ الحَديثِ كِتابُ اللهِ، وخَيرَ الهُدْى هُدَى مُحمَّدٍ، وشَرَّ الأُمورِ مُحْدَثاتُها، وكُلَّ بِدعةٍ ضَلالةٌ))[١].

﴿مَّثَانِيَ﴾

أي: يُثنَّى ما فيه؛ كالوَعدِ والوَعيدِ، والقصصِ، والأحكامِ[٢].

﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٧، ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: يُكرَّرُ ما فيه؛ كالأخبارِ والقَصَصِ، والأحكامِ والحُجَجِ، والمواعِظِ، والوَعدِ والوَعيدِ. وممَّن قال بهذا المعنَى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزمخشري، وابن عطية، والقرطبي، وابن تيميَّة، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣).

قال ابن تيميَّةَ: (﴿مَّثَانِيَ﴾ يُثَنِّي اللهُ فيه الأقسامَ ويَستوفيها. والحقائِقُ: إمَّا مُتماثِلةٌ، وهي «المُتشابِهُ»، وإمَّا مُماثِلةٌ، وهي: الأصنافُ والأقسامُ والأنواعُ، وهي «المَثاني». و«التَّثنيةُ» يُرادُ بها: جِنسُ التَّعديدِ مِن غيرِ اقتِصارٍ على اثنَينِ فقط). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٤٠٧).

وقيل: معنى ﴿مَّثَانِيَ﴾: اقترانُ المعنى بما يُقابِلُه؛ فإذا ذُكِرَت النَّارُ ذُكِرَت بعدَها الجنَّةُ، وإذا ذُكِرَ المؤمنون ذُكِرَ بَعدَهم الكافِرون... وهكذا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٨٨، ١٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٤٦).

وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ مِن السَّلَفِ: سفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٤).

أي: تَضطَرِبُ وتَتقبَّضُ جُلودُ الَّذين يَخشَونَ رَبَّهم إذا تَلَوُا القُرآنَ أو سَمِعوه[١].

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾

أي: ثمَّ تَلينُ جُلودُهم، وتَسكُنُ وتَطمَئِنُّ قُلوبُهم إلى كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾ [الأنفال: ٢].

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾

أي: ذلك هُدى اللهِ، يَهدي به مَن يَشاءُ مِن عِبادِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٠، ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

قيل: المرادُ بـ ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: إلى العمَلِ بما في كتابِ اللهِ، والتَّصديقِ به. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٣٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٢٧).

وقيل: المرادُ: أنَّها تَلينُ عندَ سَماعِ آياتِ الرَّحمةِ والرَّجاءِ والتَّرغيبِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والبَغَويُّ، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٩، ٣٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥).

قال الواحدي: (﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ إذا ذُكِرَتْ آياتُ الرَّحمةِ، وهذا معنى قولِ جميعِ المفسِّرينَ). ((الوسيط)) (٣/ ٥٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩١، ٣٩٢). =

كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾

أي: ومَن يُضْلِلْه اللهُ عن الحَقِّ فلا أحَدَ يَهديه إليه[١].

= قال ابنُ عطيَّةَ: (قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ يحتمِلُ أن يُشيرَ إلى القرآنِ، أي: ذلك الَّذي هذه صِفَتُه: هُدَى الله. ويحتمِلُ أن يُشيرَ إلى الخَشيةِ واقْشِعْرارِ الجُلودِ، أي: ذلك أمارةُ هُدى اللهِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٨).

وقال ابنُ عثيمين: (يحتملُ أن يكونَ المشارُ إليه باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾: ما حصَلَ لهم مِن الخَشيةِ، وعلى هذا فيَكونُ المرادُ بالهدايةِ هِدايةَ التَّوفيقِ؛ لأنَّ الخَشيةَ عَمَلٌ. ويحتملُ أن يكونَ المشارُ إليه بـ﴿ذَٰلِكَ﴾: الكِتابَ الَّذي هو أحسَنُ الحديثِ؛ فتكون الهدايةُ هنا هدايةَ دَلالةٍ؛ لأنَّ الكِتابَ يَهدي، بمعنى: يَدُلُّ، والتَّوفيقُ بيَدِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٣).

وممَّن قال بأنَّ الإشارةَ هنا تعودُ إلى القرآنِ: البَغَويُّ، والقرطبي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧٧).

وممَّن قال بأنَّ الإشارةَ تعودُ إلى ما ذكَره الله تعالى مِن تأثيرِ القرآنِ الَّذي يُوجِبُ الخشيةَ واقْشِعْرارَ الجُلودِ ولِينَها: ابنُ جرير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩١).

قال ابن كثير: (قولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: هذه صِفةُ مَن هداه اللهُ، ومَن كان على خِلافِ ذلك فهو ممَّن أضَلَّه اللهُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥).

وممَّن جمَع بيْن المَعنَيَينِ: البِقاعي، فقال: (﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ العظيمُ الغريبُ مِن الحديثِ المنزَّلِ، والقبضِ والبَسطِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٧).

كما قال الله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَستَعمِلَ عقْلَه في مخلوقاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِيَتذكَّرَ به فيما في هذه المخلوقاتِ مِن عَظَمةِ الخالِقِ؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ أنَّ الهدايةَ بيَدِ اللهِ تعالى، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه متى عَلِم الإنسانُ أنَّ الهدايةَ بيَدِ اللهِ تعالى؛ فإنَّه لا يَلْتَفِتُ في طلبِ الهدايةِ إلَّا إلى اللهِ تعالى، وإذا عَلِم أنَّ الهدايةَ بيَدِ اللهِ تعالى فلا يُعْجَبُ بنَفْسِه إذا اهتدَى! بل يقولُ لِنَفْسِه: لولا أنَّ اللهَ تعالى هَداه لَكان ضالًّا، فلا يقولُ: إنَّما أُوتيتُه على عِلْمٍ عندي! أو يقولُ: هذا لي! بل يَعتَرِفُ بفَضْلِ اللهِ تعالى عليه؛ وأنَّه لولا هدايةُ اللهِ تعالى ما انتَفَعَ إلى يومِ الدِّينِ[(٢)].

٣- قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إذا رأيْتَ مِن قلبِك عدَمَ لِينٍ لِذِكْرِ اللهِ فعالِجْ نفْسَك لِتَسْلَمَ مِن هذا الوعيدِ، فأحيانًا يَقْسُو القلبُ ولا يَلِينُ، ويَقرأُ الآياتِ العظيمةَ الرَّادِعةَ ولا يَتأثَّرُ! وأحيانًا يَقرأُ نَفْسَ الآياتِ ثمَّ يَتأثَّرُ، فإذا عَرَفْتَ مِن نَفْسِك قَسوةَ القلبِ فالْجَأْ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، واسألْه أنْ يُلينَ قلبَك لِذِكْرِه، وتَأَهَّبْ للوعيدِ إذا لم يَتدارَكْك اللهُ تعالى بلُطْفِه ومغفرتِه[(٣)].

٤- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٤).

ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ قَولُه تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾ هذا مِن جَلالةِ القُرآنِ وحُسنِه؛ فإنَّه تعالى لَمَّا عَلِم احتياجَ الخَلقِ إلى مَعانيه المُزَكِّيةِ للقُلوبِ، المكَمِّلةِ للأخلاقِ، وأنَّ تلك المعانيَ للقُلوبِ بمنزلةِ الماءِ لِسَقيِ الأشجارِ، فكما أنَّ الأشجارَ كُلَّما بَعُدَ عَهْدُها بسَقيِ الماءِ نَقَصَت، بل رُبَّما تَلِفَت، وكُلَّما تكَرَّر سَقْيُها حَسُنَت وأثمَرَت أنواعَ الثِّمارِ النَّافِعةِ؛ فكذلك القَلبُ يَحتاجُ دائمًا إلى تكَرُّرِ معاني كلامِ اللهِ تعالى عليه، وأنَّه لو تكرَّر عليه المعنى مَرَّةً واحِدةً في جميعِ القُرآنِ لم يقَعْ منه مَوقِعًا، ولم تحصُلِ النَّتيجةُ منه، وهكذا ينبغي للقارئِ للقُرآنِ المُتدَبِّرِ لِمَعانيه ألَّا يَدَعَ التَّدَبُّرَ في جميعِ المواضِعِ منه؛ فإنَّه يَحصُلُ له بسَبَبِ ذلك خيرٌ كثيرٌ، ونَفعٌ غَزيرٌ[(١)].

٥- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾ أنَّ القُرآنَ قد بَلَغَ الغايةَ في البَلاغةِ؛ لِكَونِه يأتي مَثانيَ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائِدةِ: أنَّه يَنبغي لِمَن تَكَلَّمَ في مَوعِظةِ النَّاسِ ألَّا يأتيَ بالتَّرغيبِ المُطْلَقِ ولا بالتَّرهيبِ المُطلَقِ؛ وذلك أنَّه إذا أتى بالتَّرغيبِ المُطلَقِ حَمَلَهم على الرَّجاءِ فتَهاوَنوا، وإذا أتى بالتَّرهيبِ المُطلَقِ حَمَلَهم على اليَأسِ فقَنَطوا مِن رَحمةِ اللهِ تعالى؛ فالَّذي ينبغي للإنسانِ الَّذي يَتكلَّمُ مع النَّاسِ في المواعِظِ أنْ يَتكلَّمَ أحيانًا بهذا، وأحيانًا بهذا؛ حتَّى لا يَحمِلَ النَّاسَ على القُنوطِ أو على الرَّجاءِ الَّذي يُوجِبُ الأمْنَ مِن مَكْرِ اللهِ تعالى[(٢)].

٦- أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَلْجَأَ إلى اللهِ تعالى وحْدَه في طلبِ الهدايةِ؛ لقولِه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٧).

تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وكان النَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ -وهو الهادي المَهْديُّ- يَستَفْتِحُ ويقولُ: ((اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرائيلَ، ومِيكائيلَ، وإسرافيلَ، فاطِرَ السَّمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ؛ أنت تَحْكُمُ بيْنَ عِبادِك فيما كانوا فيه يَختَلِفون، اهْدِني لِمَا اختُلِفَ فيه مِن الحقِّ بإذْنِك؛ إنَّك تَهْدي مَن تَشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ))[١]، فهذا وهو النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فكيف بنا نحن؟! فعليك أنْ تَلْجَأَ إلى ربِّك في طلبِ الهِدايةِ؛ وألَّا تَعتمِدَ على نفْسِك، بل اعتمِدْ على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ تعالى مَرْجِعُك[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنَّ كلَّ ماءٍ نَبَع مِن الأرضِ فهو طَهورٌ، ووجْهُ ذلك: أنَّ الماءَ النَّابعَ مِن الأرضِ هو الماءُ النَّازِلُ مِن السَّماءِ، وكُلُّ ماءٍ نَزَلَ مِن السَّماءِ فهو طَهورٌ، كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾[٣] [الفرقان: ٤٨].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بيانُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ورَحمتِه بالعِبادِ؛ حيثُ سَلَكَ هذا الماءَ يَنابيعَ في الأرضِ، ولم يَبْقَ راكِدًا على ظَهرِها؛ لِمَا في ذلك مِن الحِكمةِ والرَّحمةِ، فنراه مخزونًا في الأرضِ متى احتاجَه النَّاسُ استَخرَجوه[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ، وأنَّ السَّببَ لا يَستَقِلُّ بالتَّأثيرِ في المُسَبَّبِ؛ فقد أضاف الإخراجَ إلى اللهِ تعالى، وهذا هو الَّذي عليه

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (٢٠٦/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧٣).

سَلَفُ الأُمَّةِ وأئمَّتُها؛ فالأسبابُ لها تأثيرٌ في المُسَبَّبات، ولكِنَّ تأثيرَها بفِعلِ اللهِ تعالى[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أنَّ كَمالَ الدُّنيا مُؤْذِنٌ بنَقصِها؛ لأنَّ اللهَ تعالى ضَرَبَ ذلك مَثَلًا للدُّنيا[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أنَّ مَن شرَحَ اللهُ تعالى صَدْرَه للإسلامِ فقَبِلَ الحقَّ، فإنَّه على نورٍ مِن اللهِ تعالى، ويَتفرَّعُ عليها زيادةُ عِلمِه؛ لأنَّ العِلمَ نورٌ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤]، ويَتفرَّعُ عليها قُوَّةُ الفِراسةِ، بمعنى: أنَّ اللهَ تعالى يُعطي الإنسانَ فِراسةً بحيث يَعلَمُ أحوالَ النَّاسِ مِن لَمَحاتِ وُجوهِهم، بل أكثَرَ مِن ذلك؛ يَستَدِلُّ بالحاضرِ على الغائبِ، ويُعطيه اللهُ تعالى استِنتاجاتٍ لا تَكونُ لِغَيرِه[٣].

٦- أنَّ أعْظَمَ أسبابِ شَرحِ الصَّدرِ التَّوحيدُ، وعلى حَسَبِ كَمالِه وقُوَّتِه وزيادتِه يكونُ انشِراحُ صَدرِ صاحبِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ تعالى، ووجْهُه: أنَّه إذا كان القرآنُ كلامَه، ووُصِفَ القرآنُ بأنَّه مُنَزَّلٌ؛ دلَّ على أنَّ المتكَلِّمَ به عالٍ، وعُلُوُّ اللهِ عزَّ وجلَّ يَنقَسِمُ إلى قِسْمَينِ: عُلُوِّ ذاتٍ، وعُلُوِّ صِفةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((زاد المَعاد)) لابن القيم (٢/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٤).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ﴾ بصيغةِ الإفرادِ: دَلالةٌ على أنَّ المرادَ بالضَّمائرِ الَّتي فيها صيغةُ الجَمعِ في الإنزالِ، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ [الحجر: ٩]؛ أنَّ المرادَ بهما التَّعظيمُ قَطعًا، ولاستِحالةِ التَّعَدُّدِ، أو إرادةِ معنى الجَمعِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أنَّ القُرآنَ أحسَنُ الحَديثِ بحَسَبِ لَفظِه؛ وذلك مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أن يكونَ ذلك الحُسنُ لأجْلِ الفَصاحةِ والجَزالةِ.

الثَّاني: أن يكونَ بحَسَبِ النَّظْمِ في الأُسلوبِ؛ وذلك لأنَّ القُرآنَ ليس مِن جِنسِ الشِّعرِ، ولا مِن جِنسِ الخُطَبِ، ولا مِن جِنسِ الرَّسائِلِ، بل هو نوعٌ يُخالِفُ الكُلَّ، مع أنَّ كُلَّ ذي طَبعٍ سَليمٍ يَستَطيبُه ويَستَلِذُّه.

وهو أحسَنُ الحَديثِ لأجْلِ المعنى، وفيه وُجوهٌ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّه كِتابٌ مُنَزَّهٌ عن التَّناقُضِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]، ومِثلُ هذا الكِتابِ إذا خلا عن التَّناقُضِ كان ذلك مِن المُعجِزاتِ.

الوَجهُ الثَّاني: اشتِمالُه على الغُيوبِ الكثيرةِ في الماضي والمُستقبَلِ.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ العُلومَ الموجودةَ فيه كثيرةٌ جِدًّا[٢].

١٠- قولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٗا﴾ فيه أنَّ القرآنَ مكتوبٌ؛ فهو يُكْتَبُ في ثلاثةِ مواضعَ: اللَّوحِ المحفوظِ، الصُّحُفِ الَّتي بأيدي الملائكةِ، الصُّحُفِ الَّتي بأيدينا[٣].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٥).

١١- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ القرآنَ كلَّه مُتشابِهٌ، وفي سُورةِ (آلِ عِمرانَ): ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران: ٧] تدُلُّ على أنَّ مِن القرآنِ مُحْكَمًا ومنه مُتشابِهًا، وقولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] يدُلُّ على أنَّ كلَّه مُحْكَمٌ.

ووَجْهُ الجمْعِ بيْن هذه الآياتِ: أنَّ معنى كَونِه كلِّه مُحْكَمًا -وهو ما يُعرَفُ بالإحكامِ العامِّ-: أنَّه في غايةِ الإحكامِ -أي: الإتقانِ- في ألفاظِه ومَعانيه وإعجازِه؛ أخبارُه صِدْقٌ، وأحكامُه عَدْلٌ، لا تَعْتريه وَصْمةٌ ولا عَيبٌ؛ لا في الألفاظِ ولا في المعاني. ومعنى كَونِه مُتشابِهًا -ويُعرَفُ بالتَّشابُهِ العامِّ-: أنَّ آياتِه يُشبِهُ بعضُها بعضًا في الحُسنِ، والصِّدقِ، والإعجازِ، والسَّلامةِ مِن جَميعِ العيوبِ. ومعنى كَونِ بَعضِه مُحْكَمًا وبعضِه مُتشابِهًا -وهو الإحكامُ الخاصُّ والتَّشابُهُ الخاصُّ-: أنَّ المُحكَمَ منه هو واضحُ المعنى لكلِّ النَّاسِ، كقولِه: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]، والمُتشابِهَ هو ما خفِيَ عِلمُه على غيرِ الرَّاسخينَ في العِلمِ -بِناءً على أنَّ الواوَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٧] عاطفةٌ-، أو هو ما استأْثَرَ اللهُ بعِلمِه، بِناءً على أنَّ الواوَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ استئنافيَّةٌ لا عاطفةٌ[1].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٣٨).

قال ابن عثيمين: (الوقف عندَ قولِه: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهو قولُ جمهورِ السَّلفِ والخلَفِ، وبناءً عليه يكونُ المرادُ بالتَّأويلِ في قولِه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]: الحقيقةَ الَّتي يَؤولُ الكلامُ إليها، لا التَّفسيرَ الَّذي هو بيانُ المعنى). ((تقريب التدمرية)) (ص: ٧١).

وقال أيضًا: (إنَّ وصْفَ القرآنِ جميعِه بالإحكامِ، ووصْفَه جميعِه بالتَّشابُهِ لا يَتعارَضانِ، والجمعُ بيْنَهما: أنَّ الكلامَ المُحْكَمَ المُتقَنَ يُشْبِهُ بعضُه بعضًا في الكمالِ والصِّدقِ؛ فلا يَتناقَضُ في أحكامِه، ولا يَتكاذَبُ في أخبارِه. وأمَّا وصْفُ القرآنِ بأنَّ بعضَه مُحْكَمٌ وبعضَه مُتشابِهٌ فلا =

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾ تَنبيهٌ على ناحيةٍ مِن نواحي إعجازِ القُرآنِ، وهي: عدَمُ الملَلِ مِن سَماعِه، وأنَّه كُلَّما تكَرَّر غَرَضٌ مِن أغراضِه زاده تكَرُّرُه قَبولًا وحلاوةً في نُفوسِ السَّامِعينَ[١].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ أُعجُوبةُ جَمعِ القُرآنِ بيْنَ التَّأثيرَينِ المُتضادَّينِ: مَرَّةً بتأثيرِ الرَّهبةِ، ومرَّةً بتأثيرِ الرَّغبةِ؛ وذلك لِيَكونَ المُسلِمونَ في مُعامَلةِ رَبِّهم جارِينَ على ما يَقتَضيه جَلالُه، وما يَقتَضيه حِلمُه ورَحمتُه، وهذه الجِهةُ اقتَضاها الجَمعُ بيْنَ الجِهَتينِ المُصَرَّحِ بهما -وهما: جِهةُ القُشَعْريرةِ، وجِهةُ اللِّينِ- مع كَونِ المَوصوفِ بالأمْرَينِ فَريقًا واحِدًا، وهم الَّذين يَخشَونَ رَبَّهم، والمقصودُ وَصْفُهم بالتَّأثُّرَينِ عندَ تَعاقُبِ آياتِ الرَّحمةِ بعدَ آياتِ الرَّهبةِ[٢].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال قَتادةُ: (هذا نَعْتُ أولياءِ اللهِ؛ نعَتَهم اللهُ بأن تَقشَعِرَّ جُلودُهم، وتَبكيَ أعيُنُهم، وتَطمَئِنَّ قُلوبُهم إلى ذِكرِ اللهِ، ولم يَنعَتْهم بذَهابِ عُقولِهم، والغَشَيانِ عليهم، وإنَّما هذا في أهلِ البِدَعِ، وهذا مِنَ الشَّيطانِ)[٣].

١٥- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لِينُ القُلوبِ هو زَوالُ قَساوتِها؛ لحُدوثِ الخُشوعِ فيها والرِّقَّةِ، وقد قَبَّح اللهُ مَن لا يَخشَعُ قَلبُه

= تَعارُضَ بيْنَهما أصلًا؛ لأنَّ كلَّ وصْفٍ واردٌ على محلٍّ لم يَرِدْ عليه الآخَرُ؛ فبعضُ القرآنِ مُحْكَمٌ ظاهرُ المعنى، وبعضُه مُتشابِهٌ خَفيُّ المعنى). ((تقريب التدمرية)) (ص: ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في ((تفسيره)) (٣/ ١٣٠) (٢٦٢٦). ويُنظر: ((تلبيس إبليس)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٣-٢٢٨)، ((الاعتصام)) للشاطبي (٢/ ١٢١-١٢٥).

لِسَماعِ كِتابِه وتدَبُّرِه؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[1] [الحديد: ١٦].

١٦- أنَّ ذِكْرَ اللهِ عزَّ وجَلَّ سَبَبٌ لِلِينِ القُلوبِ وطُمأنينتِها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، ويَشهَدُ لهذا قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[2] [الرعد: ٢٨].

١٧- مِن وجوهِ إعجازِ القرآنِ الكريمِ: الرَّوعةُ التي تلحقُ قلوبَ سامعيه وأسماعَهم عندَ سماعِه، والهيبةُ التي تعتريهم عندَ تلاوتِه لقوةِ حالِه وإنافةِ خطرِه، وهي على المكذِّبينَ به أعظمُ، حتى كانوا يستثقِلونَ سماعَه، ويزيدُهم نفورًا كما قال تعالى، ويودُّون انقطاعَه لكراهتِهم له.

وأمَّا المؤمنُ فلا تزالُ روعتُه به وهيبتُه إياه معَ تلاوتِه تُوليه انجذابًا، وتكسبُه هشاشةً لميلِ قلبِه إليه، وتصديقِه به؛ قال الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ ...﴾ الآية [الحشر: ٢١]. ويدلُّ على أنَّ هذا شيءٌ خُصَّ به أنَّه يعتري مَن لا يفهمُ معانيَه، ولا يعلمُ تفاسيرَه.

وهذه الروعةُ قد اعترَتْ جماعةً قبلَ الإسلامِ وبعدَه، فمِنهم مَن أسلمَ لها لأوَّلِ وهلةٍ وآمَن به، ومنهم مَن كفَر، فعن جُبيرِ بنِ مطعمٍ قال: ((سمِعْتُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقرأُ في المغربِ بـ(الطور) فلمَّا بلَغ هذه الآيةَ: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] إلى قوله: ﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧]

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٨).

كاد قلبي أنْ يطيرَ))[١]، وفي رواية[٢]: (وذلك أولَ ما وقَر الإيمانُ في قلبي)[٣].

١٨- قولُه تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيه إثباتُ أنَّ الهدايةَ بمشيئةِ اللهِ تعالى، وهذه الآيةُ فَرْدٌ مِن أفرادِ أدلَّةٍ كثيرةٍ تدُلُّ على أنَّ فِعلَ العبدِ واقعٌ بمشيئةِ اللهِ تعالى، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٤] [التكوير: ٢٨، ٢٩].

١٩- قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ فيه أنَّ اسمَ الهادي يُطلَقُ على غَيرِ اللهِ تعالى، وكما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]؛ فالهادي تُطلَقُ على اللهِ تعالى وعلى غيرِه، لكنِ الَّذي يَمتنعُ إطلاقُه على غَيرِه هو هدايةُ التَّوفيقِ؛ فإنَّ هِدايةَ التَّوفيقِ لا تَكونُ إلَّا للهِ تعالى وَحْدَه، أمَّا هِدايةُ الدَّلالةِ فإنَّها تَكونُ للهِ تعالى ولِغَيرِه[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ استِئنافٌ واردٌ إمَّا لِتَمثيلِ الحَياةِ الدُّنيا في سُرعةِ الزَّوالِ، وقُربِ الاضمِحلالِ بما ذُكِر مِن أحوالِ الزَّرعِ؛ تَرغيبًا عن زَخارِفِها وزينَتِها، وتَحذيرًا مِنَ الاغترارِ بزَهرتِها، كما في نَظائِرِ قَولِه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ الآيةَ [يونس: ٢٤]. أو لِلاستِشهادِ على تَحقُّقِ المَوعودِ مِنَ الأنهارِ الجاريةِ مِن

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٤). وأخرجه مسلم مختصرًا (٤٦٣).

(٢) أخرجها البخاري (٤٠٢٣).

(٣) يُنظر: ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى- وحاشية الشمني)) (١/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٥).

تَحتِ الغُرَفِ بما يُشاهَدُ مِن إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ، وما يَترَتَّبُ عليهِ مِن آثارِ قُدرَتِه تَعالى، وأحكامِ حِكمَتِه ورَحمَتِه[1].

- أو هو استِئنافٌ ابتِدائيٌّ انتُقِلَ به إلى غَرَضِ التَّنويهِ بالقُرآنِ، وما احتَوى عليه مِن هُدى الإسلامِ، وهو الغَرَضُ الَّذي ابتُدِئَتْ به السُّورةُ، وانثَنى الكَلامُ منه إلى الاستِطرادِ بقَولِه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] إلى هنا؛ فهذا تَمهيدٌ لِقَولِه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢]، إلى قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣]، فمُثِّلَتْ حالةُ إنزالِ القُرآنِ، واهتِداءِ المُؤمِنينَ به، والوَعدِ بنَماءِ ذلك الاهتِداءِ: بحالةِ إنزالِ المَطَرِ ونَباتِ الزَّرعِ به واكتِمالِه، وهذا التَّمثيلُ قابِلٌ لِتَجزِئةِ أجزائِه على أجزاءِ الحالةِ المُشَبَّهِ بها: فإنزالُ الماءِ مِنَ السَّماءِ تَشبيهٌ لإنزالِ القُرآنِ لإحياءِ القُلوبِ، وإسلاكُ الماءِ يَنابيعَ في الأرضِ تَشبيهٌ لِتَبليغِ القُرآنِ لِلنَّاسِ، وإخراجُ الزَّرعِ المُختَلِفِ الألوانِ تَشبيهٌ لِحالِ اختِلافِ النَّاسِ مِن طَيِّبٍ وغَيرِه، ونافِعٍ وضارٍّ، وهَياجُ الزَّرعِ تَشبيهٌ لِتَكاثُرِ المُؤمِنينَ بيْنَ المُشرِكينَ، وأمَّا قَولُه: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فهو إدماجٌ[2] لِلتَّذكيرِ بحالةِ المَماتِ، واستِواءِ النَّاسِ فيها مِن نافِعٍ وضارٍّ، وفي تَعقيبِ هذا بقَولِه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢]، إلى قَولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣] إشارةٌ إلى العِبرةِ مِن هذا التَّمثيلِ.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَعنى أصالةً وإدماجًا على عَكسِ ما ذُكِرَ؛ فيَكونَ عَوْدًا إلى الاستِدلالِ على تَفَرُّدِ اللهِ تَعالى بالإلَهيَّةِ، بدَليلٍ مِن مَخلوقاتِه الَّتي يُشاهِدُها النَّاسُ مُشاهَدةً مُتكَرِّرةً، فيكونَ قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٩).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٠٩).

إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مُتَّصِلًا بقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦] المتَّصِلِ بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ [الزمر: ٥]، ويكونَ ما بيَّنَّاه مِن تَمثيلِ حالِ نُزولِ القُرآنِ وانتِفاعِ المُؤمِنينَ إدماجًا في هذا الاستِدلالِ، وقد أُدمِجَ في أثناءِ الكَلامِ إيماء إلى إمكانِ إحياءِ النَّاسِ حياةً ثانيةً(١).

- والاستِفهامُ في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ، والخِطابُ لِكُلِّ مَن يَصلُحُ لِلخِطابِ؛ فليس المُرادُ به مُخاطَبًا مُعَيَّنًا، وهو خِطابٌ وتَوقيفٌ لِلسَّامعِ على ما يُعتَبَرُ به مِن أفعالِ اللهِ الدَّالَّةِ على فَناءِ الدُّنيا واضمِحلالِها(٢).

- وعُطِفَ قَولُه: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ بحَرفِ (ثُمَّ)؛ لإفادةِ التَّراخي الرُّتْبيِّ، أو الزَّمانِ؛ لأنَّ إخراجَ الزَّرعِ مِنَ الأرضِ بعدَ إقحالِها أوقَعُ في نُفوسِ النَّاسِ؛ لأنَّه أقرَبُ لِأبصارِهم، وأنفَعُ لِعَيشِهم، وإذْ هو المَقصودُ مِنَ المَطَرِ(٣). وصيغةُ المُضارِعِ؛ لِاستِحضارِ الصُّورةِ(٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾، بلَفظِ ﴿يَجْعَلُهُۥ﴾، وفي سورةِ (الحَديدِ) قال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد: ٢٠] بلَفظِ ﴿يَكُونُ﴾؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ آيةَ (الزُّمَرِ) ورَدَتْ مَوردَ التَّنبيهِ على الاعتبارِ، وبالنَّصِّيَّةِ على ذلك افتُتِحَت الآيةُ، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ...﴾؛ فنسَبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٦، ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٩، ٢٥٠).

سُبحانه كلَّ حالةٍ مِن تقَلُّباتِ الزَّرعِ إلى نفْسِه، وتَنقُّلاتِه -مِن لَدُنْ خُروجِه ونَباتِه وما بعْدَ ذلك إلى تحطُّمِه- إلى نفْسِه -إذ لا طمَعَ لمخلوقٍ في إعادةِ شَيءٍ مِن ذلك-، ثمَّ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فافتُتِحَت الآيةُ واختُتِمَت بالتَّنبيهِ على الاعتبارِ، فلمَّا كان مَبْناها على ذلك ناسَبَ نِسبةُ الفِعلِ إليه تعالى؛ فقال: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ﴾.

وأمَّا آيةُ (الحديدِ) فورَدَتْ مِثالًا للدُّنيا وغُرورِها، وإعراضِ الكافرِ عن سُرعةِ تَقلُّبِها وزَوالِها وفَنائِها؛ فلمَّا قُصِدَ هنا المثالُ ناسَبَ هذا المقصودَ قولُه: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾؛ إذ لمْ يَتقدَّمْ في أوَّلِ الآيةِ النِّسبةُ للفاعلِ، اكتِفاءً بما هو غيرُ خافٍ على كلِّ ذي عقْلٍ سليمٍ؛ فجَرى آخِرُها على ما يَجْري عليه أوَّلُها -كما جَرى في آيةِ (الزُّمَرِ) مِن آخِرِها مِن التَّنبيهِ على ما جَرى عليه أوَّلُها-، وتَناسَبَ ذلك كلُّه، ولم يكُنْ -بِناءً على ما صُدِّرَت به كلُّ آيةٍ منهما- أنْ يكونَ في آيةِ (الزُّمَرِ): ﴿ثُمَّ يَكُونُ﴾، ولا في آيةِ (الحديدِ): ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ﴾، بلْ ورَدَ كلٌّ على ما يُناسِبُ، واللهُ أعلَمُ[(١)].

- قَولُه: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ عُلِّقتْ هذه الحَالةُ بجَعْلِ اللهِ تعالى، كالإخراجِ؛ لكَونِها مِنَ الآثارِ القَويَّةِ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مُبيِّنةٌ لِلاستِفهامِ التَّقريريِّ، وفَذْلَكةٌ[(٣)] لِلأطوارِ المُستَفهَمِ عنها؛ فالإشارةُ بذلك إلى المَذكورِ مِنَ الإنزالِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٥٥، ١٢٥٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٢٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٥). ويُنظر أيضًا: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٠).

(٣) تقدَّمَ تعريفُه (ص: ٦٣).

إلى آخرِ الأطوارِ، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ لِلإيذانِ ببُعدِ مَنزِلَتِه في الغَرابةِ والدَّلالةِ على ما قُصِدَ بَيانُه[١].

- والمُرادُ: ذِكْرى بالدَّلالةِ على ما يَغفُلُ عنه العاقِلُ، ويَجوزُ أنْ تَكونَ الذِّكرى لِمَا يَذهَلُ عنه العاقِلُ مِمَّا تَشتَمِلُ عليه هذه الأحوالُ مِن مَبدَئِها إلى مُنتَهاها، فمِن ذلك أنَّها تَصلُحُ مِثالًا لِتَقريبِ البَعثِ، فتَتَضمَّنُ الآيةُ إدماجَ[٢] تَقريبِ البَعثِ وإمكانِه، مع الاستِدلالِ على انفِرادِ اللهِ تَعالى بالتَّصرُّفِ، ومِن ذلك أنَّها تَصلُحُ مَثَلًا لِلحياةِ الدُّنيا، والمَقصودُ تَشبيهُ الحالةِ بالحالةِ، فلا يُعتبَرُ التَّجَوُّزُ في مُفرَداتِ هذا المُرَكَّبِ؛ بأنْ يُطلَبَ لِكُلِّ طَورٍ مِن أطوارِ الدُّنيا طَورٌ يُشَبَّه به مِن أطوارِ النَّباتِ، ومنها أنَّها مَثَلٌ لِأطوارِ الإنسانِ مِن طَورِ النُّطَفِ إلى الشَّبابِ إلى الشَّيخوخةِ، ثمَّ الهَلاكِ، والمَقصودُ تَشبيهُ الحالةِ بالحالةِ، مع إمكانِ تَوزيعِ تَشبيهِ كُلِّ طَورٍ مِن أطوارِ الحالةِ المُشَبَّهةِ بطَورٍ مِن أطوارِ الحالةِ المُشَبَّهِ بها[٣].

- قولُه: ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أُولو الألبابِ همُ الَّذين يَنتَفِعونَ بألبابِهم، فيَهتدونَ بما نُصِبَ لهم مِنَ الأدِلَّةِ، وهمُ الَّذين استَدَلُّوا فآمَنوا، وفي هذا تَعريضٌ بأنَّ الَّذين لم يَستَفيدوا مِنَ الأدِلَّةِ بمَنزِلةِ مَن عَدِموا العُقولَ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ استِئنافٌ جارٍ مَجرى التَّعليلِ لِمَا قَبْلَه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨).

(٢) تقدَّمَ تعريفُه (ص: ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨، ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٧٩).

تَخصيصِ الذِّكرى بأُولي الألبابِ[١].

- قولُه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فيه حذْفُ خَبَرِ (مَنْ)؛ لِدَلالةِ ما بَعْدَه عليه، والتَّقديرُ: أكُلُّ النَّاسِ سَواءٌ[٢]؟! أو دَلَّ عليه قَولُه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ [الزمر: ٢٠]، ممَّا اقتَضاه حَرفُ الاستِدراكِ (لكن) مِن مُخالَفةِ حالِه لِحالِ مَن حَقَّ عليه كَلِمةُ العَذابِ، والتَّقديرُ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مِثلُ الَّذي حَقَّ عليه كَلِمةُ العَذابِ؛ فهو في ظُلمةِ الكُفرِ؟! أو تَقديرُه: مِثلُ مَن قَسا قَلبُه؟! بدَلالةِ قَولِه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾، وهذا مِن دَلالةِ اللَّاحِقِ[٣].

- ومِن رَشاقةِ ألفاظِ القُرآنِ إيثارُ كَلِمةِ ﴿شَرَحَ﴾ لِلدَّلالةِ على قَبولِ الإسلامِ؛ لِأنَّ تعاليمَ الإسلامِ وأخلاقَه وآدابَه تُكسِبُ المُسلِمَ فَرَحًا بحالِه، ومَسَرَّةً برِضا رَبِّه، واستِخفافًا لِلمَصائِبِ والكَوارِثِ؛ لِجَزمِه بأنَّه على حَقٍّ في أمْرِه، وأنَّه مُثابٌ على ضُرِّه، وأنَّه راجٍ رَحمةَ رَبِّه في الدُّنيا والآخِرةِ، ولِعَدَمِ مُخالَطةِ الشَّكِّ والحَيرةِ ضَميرَه[٤].

- واللَّامُ في ﴿لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ لامُ العِلَّةِ، أيْ: شَرَحَه لِأجْلِ الإسلامِ، أيْ: لِأجْلِ قَبولِه[٥]. وذلك على وجهٍ في التفسيرِ.

- وعُبِّرَ بالنُّورِ هنا في قولِه: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ عن الهُدى ووُضوحِ الحَقِّ؛ لِأنَّ النُّورَ به تَنجَلي الأشياءُ، ويَخرُجُ المُبصِرُ مِن غَياهِبِ الضَّلالةِ، وتَردُّدِ اللَّبسِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٠).

بيْن الحَقائِقِ والأشباحِ، وأفادَ حَرفُ الاستعلاءِ (على) التَّمَكُّنَ مِنَ النُّورِ[١].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ على وصْفِ حالِ مَن شَرَحَ اللهُ صَدرَه لِلإسلامِ فهو على نُورٍ مِن رَبِّه، وهو يدُلُّ على حالِ ضِدِّه؛ وهمُ الَّذين لم يَشرَحِ اللهُ صُدورَهم لِلإسلامِ؛ فكانت لِقُلوبِهم قَساوةٌ فُطِروا عليها، فلا تَسلُكُ دَعوةُ الخَيرِ إلى قُلوبِهم. وأُجمِلَ سُوءُ حالِهم بما تدُلُّ عليه كَلِمةُ ﴿فَوَيْلٌ﴾ مِن بُلوغِهم أقصَى غاياتِ الشَّقاوةِ والتَّعاسةِ[٢].

- والمُرادُ بذِكرِ اللهِ: القُرآنُ، وإضافَتُه إلى اللهِ زيادةُ تَشريفٍ له[٣]، ولأنَّه كلامُه عزَّ وجلَّ.

- وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فيه احتِباكٌ[٤]؛ ذكَرَ أوَّلًا: الشَّرحَ والنُّورَ دَليلًا على حَذفِ ضِدِّه ثانيًا، وثانيًا: الوَيْلَ للقاسي، والضَّلالَ؛ دليلًا على حَذفِ ضِدِّه أوَّلًا[٥].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مُستَأنَفٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِأنَّ ما قَبْلَه مِنَ الحُكمِ بأنَّ قَساوةَ قُلوبِهم مِن أجْلِ أنْ يُذكَرَ اللهُ عِندَهم، يُثيرُ في نَفْسِ السَّامعِ أنْ يَتَساءَلَ: كيف كان ذِكرُ اللهِ سَبَبَ قَساوةِ قُلوبِهم؟ فأُفيدَ بأنَّ سَبَبَ ذلك هو أنَّهم مُتَمَكِّنونَ مِنَ الضَّلالةِ، مُنغَمِسونَ في حَمْأَتِها، فكان ضَلالُهم أشَدَّ مِن أنْ يَتقَشَّعَ حينَ يَسمَعونَ ذِكْرَ اللهِ.

وافتِتاحُ هذه الجُملةِ باسمِ الإشارةِ عَقِبَ ما وُصِفوا به مِن قَساوةِ القُلوبِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨١، ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٢).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٦).

لإفادةِ أنَّ ما سيُذْكَرُ مِن حالِهم بعْدَ الإشارةِ إليهم، صاروا به أحْرياءَ لأجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ، فكان مَضمونُ قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ -وهو الضَّلالُ الشَّديدُ- عِلَّةً لِقَسوةِ قُلوبِهم حَسبَما اقتَضاه وُقوعُ جُملَتِه استِئنافًا بَيانيًّا، وكان مَضمونُها مَفعولًا لِقَسوةِ قُلوبِهم حَسبَما اقتَضاه تَصديرُ جُملَتِها باسمِ الإشارةِ عَقِبَ وَصْفِ المُشارِ إليهم بأوصافٍ[(١)].

- وقَولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ فيه الإشارةُ إليهم بإشارةِ البَعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنويهِ بسُفولِهم، وانحِطاطِ مَرتبَتِهم[(٢)].

- وما أحسَنَ التَّعبيرَ بـ(في) الَّتي للظَّرفيَّةِ، في هذا الموضعِ! حيث تُشيرُ إلى أنَّ الضَّلالَ قد أحاطَ بهم مِن كلِّ جانبٍ، كما تُحِيطُ الحُجْرةُ بساكِنِها، وإذا كان الضَّلالُ قد أحاطَ بهم مِن كلِّ جانبٍ، فإنَّه لا يُرْجى لهم خيرٌ -والعياذُ باللهِ تعالى-؛ لأنَّهم في ضَلالٍ مُبينٍ[(٣)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ ...﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ نَشأ بمُناسَبةِ المُضادَّةِ بيْن مَضمونِ جُملةِ ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] وبيْنَ مَضمونِ هذه الجُملةِ؛ وهو أنَّ القُرآنَ يُلينُ قُلوبَ الَّذين يَخشَوْنَ رَبَّهم؛ لِأنَّ مَضمونَ الجُملةِ السَّابقةِ يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن وَجهِ قَسوةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٢، ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٩).

قُلوبِ الضَّالِّينَ مِن ذِكرِ اللهِ؛ فكانتْ جُملةُ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، إلى قَولِه: ﴿مِنۡ هَادٍ﴾ مُبَيِّنةً أنَّ قَساوةَ قُلوبِ الضَّالِّينَ مِن سَماعِ القُرآنِ إنَّما هي لِرَيْنٍ في قُلوبِهم وعُقولِهم، لا لِنَقصٍ في هِدايَتِه[1].

- وهذه الجُملةُ تَكميلٌ؛ لِلتَّنويهِ بالقُرآنِ المُفتَتَحِ به غَرَضُ السُّورةِ، وسيُقَفَّى بثَناءٍ آخَرَ عِندَ قَولِه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]، ثمَّ بقَولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الزمر: ٤١]، ثم بقَولِه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾[2] [الزمر: ٥٥].

- وإيقاعُ اسمِ اللهِ مُبتدَأً، وبِناءُ ﴿نَزَّلَ﴾ عليه: فيه تَفْخيمٌ لأحسَنِ الحديثِ، ورَفْعٌ منه، واستِشْهادٌ على حُسنِه، وتَأكيدٌ لاستِنادِه إلى اللهِ تعالى، وأنَّه مِن عِندِه، وأنَّ مِثلَه لا يجوزُ أنْ يَصدُرَ إلَّا عنه، وتَنْبيهٌ على أنَّه وَحْيٌ مُعجِزٌ مُباينٌ لِسائرِ الأحاديثِ، حيثُ نَزَّلَه العَليمُ بنِهايةِ مَحاسِنِ الأخْبارِ والذِّكرِ[3]، وحِكْمةُ البَدءِ باسْمِ اللهِ هو البُداءةُ بالأشرَفِ ثمَّ تذكرُ ما تُسنَدُ إليه، وهو كثيرٌ في القُرآنِ، كَقَولِه: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾[4] [الحج: ٧٥].

- والإخبارُ عنِ اسمِ الجَلالةِ بالخَبَرِ الفِعليِّ ﴿نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ يدُلُّ على تَقويةِ الحُكمِ وتَحقيقِه، ويُفيدُ مع التَّقويةِ دَلالةً على الاختِصاصِ، أي: اختِصاصَ تَنزيلِ الكِتابِ باللهِ تعالى؛ ففيه إثباتُ أنَّه مُنَزَّلٌ مِن الله تعالى، وأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥).

مِثلَ هذا الكَلامِ في حُسنِ نَظمِهِ وغَرابَتِه، وكَونِه جامِعًا للمَعارِفِ الحقَّةِ، وحائِزًا لِمَحاسِنِ الأخلاقِ، ومَكارِمِ الشِّيَمِ، لا يَنبَغي أنْ يَصدُرَ إلَّا عمَّنِ استُجمِعَ فيه الأسماءُ الحُسْنى والصِّفاتُ العُلْيا، وذلك أيضًا كِنايةٌ عن كَونِه وَحيًا مِن عِندِ اللهِ، لا مِن وضْعِ البَشَرِ؛ فدَلَّتِ الجُملةُ على تَقَوٍّ واختِصاصٍ بالصَّراحةِ، وعلى اختِصاصٍ بالكِنايةِ، وإذْ أُخِذَ مَفهومُ القَصرِ ومَفهومُ الكِنايةِ -وهو المُغايِرُ لِمَنطوقِهما- كذلك يُؤخَذُ مُغايِرُ التَّنزيلِ فِعلًا يَليقُ بوَضعِ البَشَرِ، فالتَّقديرُ: لا غَيرُ اللهِ وَضَعَه، رَدًّا لِقَولِ المُشرِكينَ: هو أساطيرُ الأوَّلينَ[(١)].

- ومُفادُ تَقْديمِ لَفظِ الجلالةِ على الخَبَرِ الفِعْليِّ فيه تَحْقيقٌ لِمَا تَضمَّنَتْه الإضافةُ مِن التَّعْظيمِ لِشَأنِ المُضافِ في قَولِه تعالى: ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]؛ فالمُرادُ بـ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ عَينُ المُرادِ بـ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وهو القُرآنُ، عَدَل عن ذِكرِ ضَميرِه؛ لِقَصدِ إجراءِ الأوصافِ عليه، وهي قَولُه: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ إلخ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾ وُصِفَ القُرآنُ بأنَّه أحسَنُ الحَديثِ، أيْ: أحسَنُ الخَبَرِ، والتَّعريفُ لِلجنسِ، وسُمِّيَ حَديثًا؛ لِأنَّ شَأنَ الإخبارِ أنْ يَكونَ عن أمْرٍ حَدَثَ ووُجِدَ، وسُمِّيَ القُرآنُ حَديثًا باسمِ بَعضِ ما اشتَمَلَ عليه مِن أخبارِ الأُمَمِ والوَعدِ والوَعيدِ، وأمَّا ما فيه مِن الإنشاءِ مِن أمْرٍ ونهْيٍ ونحوِهما، فإنَّه لَمَّا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُبلِّغَه للنَّاسِ؛ آلَ إلى أنَّه إخبارٌ عن أمْرِ اللهِ ونهْيِه[(٣)].

- ووُصِفَ القُرآنُ أيضًا بأنَّه كِتابٌ، أيْ: مَجموعُ كَلامٍ مُرادٍ قِراءَتُه وتِلاوَتُه

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٣، ٣٨٤).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٤).

والاستِفادةُ منه، مأمورٍ بكِتابَتِه؛ لِيَبقى حُجَّةً على مَرِّ الزَّمانِ؛ فإنَّ جَعْلَ الكَلامِ كِتابًا يَقتَضي أهمِّيَّةَ ذلك الكَلامِ، والعِنايةَ بتَنسيقِه، والاهتِمامَ بحِفظِه على حالَتِه، ولَمَّا سمَّى اللهُ القُرآنَ كِتابًا، كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَأمُرُ كُتَّابَ الوَحْيِ مِن أصْحابِه أنْ يَكتُبوا كُلَّ آيةٍ تَنزِلُ مِن الوَحْيِ في المَوضِعِ المُعَيَّنِ لها بيْنَ أخَواتِها؛ استِنادًا إلى أمْرٍ مِن اللهِ؛ لأنَّ اللهَ أشارَ إلى الأمْرِ بكِتابتِه في مَواضِعَ كَثيرةٍ، مِن أوَّلِها قَولُه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، وقَولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾[1] [الواقعة: ٧٧، ٧٨].

- وفي قولِه: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ وُصِفَ الكتابُ بأنَّه مُتشابِهٌ، أي: مُتشابِهةٌ أجزاؤُه، مُتماثِلةٌ في فَصاحةِ ألْفاظِها، وشرَفَ مَعانيها، ولا تَناقُضَ فيها ولا تَعارُضَ؛ فهي مُتكافئةٌ في الشَّرَفِ والحُسنِ، فمَعانيه مُتشابِهةٌ في صِحَّتِها وأحكامِها، وابتِنائِها على الحقِّ والصِّدْقِ، وإصابتِها المِحَزَّ[2] مِن الحُجَّةِ، وتَبْكيتِ الخُصومِ، وكَونِها صلاحًا للنَّاسِ وهُدًى، وألفاظُه مُتماثِلةٌ في الشَّرَفِ والفصاحةِ، والإصابةِ للأغراضِ مِن المعاني، بحيث تَبلُغُ ألفاظُه ومَعانيه أقْصى ما تَحتمِلُه أشرَفُ لُغةٍ للبشرِ -وهي اللُّغةُ العربيَّةُ-؛ مُفرَداتٍ ونظْمًا، فتَجاوَبَ نَظْمُه وتَأليفُه في الإعْجازِ، وبذلك كان مُعجزًا لكلِّ بَليغٍ عن أنْ يَأتيَ بمِثْلِه، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ جَميعَ آياتِ القُرآنِ بالغةٌ الطَّرَفَ الأعلَى مِن البَلاغةِ، وأنَّها مُتَساويةٌ في ذلك بحَسَبِ ما يَقتَضيه حالُ كُلِّ آيةٍ مِنها، وأمَّا تَفاوُتُها في كثرةِ الخُصوصيَّاتِ وقِلَّتِها، فذلك تابعٌ لاختلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٥).

(٢) المَحَزُّ: مَوضِعُ الحَزِّ، أي: القَطعِ. وأصابَ المحَزَّ: عبارةٌ عن فِعلِ الأمرِ على ما يَنبَغي ويَليقُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

المقاماتِ ومُقتضياتِ الأحوالِ؛ فإنَّ بلاغةَ الكلامِ مُطابَقتُه لِمُقتضَى الحالِ، والطَّرَفُ الأعلَى مِن البلاغةِ هو مُطابَقةُ الكلامِ لِجَميعِ ما يَقتضِيه الحالُ؛ فآياتُ القرآنِ مُتماثِلةٌ مُتشابِهةٌ في الحُسْنِ لَدى أهْلِ الذَّوقِ مِن البُلَغاءِ بالسَّليقةِ أو بالعِلْمِ، وهو في هذا مُخالِفٌ لِغَيرِه مِن الكلامِ البليغِ؛ فإنَّ ذلك لا يَخْلو عن تَفاوُتٍ رُبَّما بلَغَ بعْضُه مَبلَغَ ألَّا يُشبِهَ بقيَّتَه، وهذا المعنى ممَّا يَدخُلُ في قولِه تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]؛ فالكاتبُ البليغُ والشَّاعرُ المُجيدُ لا يَخْلو كلامُ أحدٍ منهما مِن ضَعفٍ في بَعضِه، وأيضًا لا تَتشابَهُ أقوالُ أحدٍ منهما، بلْ تجدُ لكلٍّ منهما قِطَعًا مُتفاوِتةً في الحُسْنِ والبلاغةِ وصِحَّةِ المعاني. وبما قُرِّر تَعلَمُ أنَّ المُتشابِهَ هنا مُرادٌ به معنًى غيرُ المرادِ في قولِه تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٧]؛ لاختِلافِ ما فيه التَّشابُهُ[(١)].

- ووُصِفَ القُرآنُ بكَونِه ﴿مَّثَانِيَ ﴾ وهو جَمعُ (مُثَنًّى) جَمْعًا على غَيرِ قِياسٍ، أو اسْمُ جَمْعٍ بمَعْنى مُردَّدٍ ومُكرَّرٍ؛ لِمَا ثُنِّيَ من قَصَصِه، وأنْبائِه، وأحْكامِه، وأوامِرِه، ونَواهيه، ووَعْدِه، ووَعيدِه، ومَواعِظِه، وقيلَ: لأنَّه يُثنَّى في التِّلاوةِ. ويجوزُ كَوْنُه جَمْعَ (مَثْنًى)، وهو اسمٌ لجعلِ المَعْدودِ أزواجًا اثنَينِ، اثنَينِ، مِن التَّثنيةِ، بمَعْنى التَّكريرِ والإعادةِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ [الملك: ٤]، أي: كَرَّةً بعدَ كرَّةٍ، وكِلا الاحتِمالَينِ يُطلَقُ على مَعْنى التَّكْريرِ، فكُنِّيَ عن مَعنى التَّكريرِ بمادَّةِ التَّثنيةِ؛ لِأنَّ التَّثنيةَ أُولى مَراتِبِ التَّكريرِ، فالقرآنُ ﴿مَّثَانِيَ ﴾؛ لأنَّه مُكرَّرُ الأغراضِ، وهذا يَتضَمَّنُ امتِنانًا على الأُمَّةِ بأنَّ أغراضَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٥، ٣٨٦).

كِتابِها مُكرَّرةٌ فيه؛ لِتكونَ مَقاصِدُه أرسَخَ في نُفوسِها، ولِيَسمَعَها مَن فاتَه سَماعُ أمثالِها مِن قَبْلُ[١].

- ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَّثَانِيَ﴾ بَيانًا لِكَونِه ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾؛ لأنَّ القِصصَ المُكرَّرةَ لا تكونُ إلَّا مُتشابِهةً[٢].

- ووَصْفُ المُفرَدِ ﴿كِتَٰبًا﴾ باللَّفظِ الجَمعِ ﴿مَّثَانِيَ﴾ -وهو مُقتَضٍ التَّعدُّدَ- يُعيِّنُ أنَّ هذا الوَصْفَ جَرَى عليه باعتِبارِ أجْزائِه، أي: سُوَرِه أو آياتِه، باعتِبارِ أنَّ كُلَّ غَرَضٍ منه يُكرَّرُ، أي: باعتِبارِ تَباعيضِه؛ لِأنَّ الكِتابَ جُملةٌ ذاتُ تَفاصيلَ، ألَا تَراكَ تَقولُ: القُرآنُ أسباعٌ وأخماسٌ، وسُوَرٌ وآياتٌ، وأقاصيصُ وأحكامٌ، ومَواعِظُ مُكَرَّراتٌ، ونَظيرُه قَولُكَ: الإنسانُ عِظامٌ وعُروقٌ وأعصابٌ[٣].

- قولُه: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ...﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ آثارِ القُرآنِ العظيمِ الظَّاهِرةِ في سامِعيه، بعدَ بَيانِ أوصافِه في نَفْسِه، ولِتَقريرِ كَونِه أحسَنَ الحَديثِ، أو صفةٌ لـ﴿كِتَٰبًا﴾، أو حالٌ منهُ لتخصُّصِه بالصِّفةِ[٤].

- وهذا الوَصفُ مُرتَّبٌ على الوَصفِ قَبْلَه، وهو كَوْنُ القُرآنِ مَثانيَ، أيْ: مُثَنًّى الأغراضِ، وهو مُشتَمِلٌ على عِدَّةِ جِهاتٍ؛ منها: وَصْفُ القُرآنِ بالجَلالةِ والرَّوعةِ في قُلوبِ سامِعيه؛ وذلك لِمَا في آياتِه الكَثيرةِ مِنَ المَوعِظةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٦، ٣٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١٠، ٤١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥١).

الَّتي تَوْجَلُ منها القُلوبُ، وهو وصْفُ كَمالٍ؛ لِأنَّه مِن آثارِ قُوَّةِ تأثيرِ كلامِه في النُّفوسِ. ومِن جِهاتِ هذا الوَصفِ: لِينُ قُلوبِ المُؤمِنينَ عِندَ سَماعِه أيضًا عَقِبَ وَجَلِها العارِضِ مِن سَماعِه قَبْلُ. الجِهةُ الثَّالِثةُ مِن جِهاتِ هذا الوَصفِ: أُعْجوبةُ جَمعِهِ بيْنَ التَّأثيرَينِ المُتَضادَّينِ: مرَّةً بتَأْثيرِ الرَّهْبةِ، ومرَّةً بتَأْثيرِ الرَّغْبةِ[1].

- وقدِ اقتَضى قَولُه: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أنَّ القُرآنَ يَشتَمِلُ على مَعانٍ تَقشَعِرُّ منها الجُلودُ، وهي المَعاني المَوسومةُ بالجَزالةِ الَّتي تُثيرُ في النُّفوسِ رَوعةً وجَلالةً ورَهبةً تَبعَثُ على امتِثالِ السَّامِعينَ له، وعَمَلِهم بما يَتَلقَّونَه مِن قَوارِعِ القُرآنِ وزَواجِرِه، وكُنِّيَ عن ذلك بحالةٍ تُقارِنُ انفِعالَ الخَشيةِ والرَّهبةِ في النَّفْسِ؛ لِأنَّ الإنسانَ إذا ارتاعَ وخَشيَ، اقشَعَرَّ جِلدُه مِن أثَرِ هذا الانفِعالِ، ومَعنى ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾: تَقشَعِرُّ مِن سَماعِه وفَهمِه؛ فإنَّ السَّماعَ والفَهْمَ يَومَئذٍ مُتَقارِنانِ؛ لأنَّ السَّامِعينَ أهْلُ اللِّسانِ، يُقالُ: اقْشعَرَّ الجِلدُ: إذا تقبَّضَ تَقبُّضًا شَديدًا، وتَركيبُه مِن حُروفِ القشْعِ، وهو الأديمُ اليابِسُ، مُضمومًا إليها حرفٌ رابعٌ، وهو الرَّاءُ؛ لِيَكونُ رُباعيًّا ودالًّا على معنًى زائدٍ؛ يقال: اقْشَعَرَّ جِلدُه مِن الخَوفِ، وقَفَّ شَعرُه، وهو مَثَلٌ في شِدَّةِ الخَوفِ، وكِنايةٌ عن وَجَلِ القُلوبِ الَّذي تَلزَمُه قُشَعْريرةٌ في الجِلدِ غالِبًا، فيجوزُ أنْ يُريدَ به اللهُ سُبْحانَه التَّمْثيلَ؛ تَصْويرًا لإفْراطِ خَشيَتِهم، وأنْ يُريدَ التَّحقيقَ، والمَعْنى: أنَّهم إذا سَمِعوا بالقُرآنِ وبآياتِ وَعيدِه: أصابَتْهم خَشْيةٌ تَقشعِرُّ منها جُلودُهم، ثُمَّ إذا ذَكَروا اللهَ ورَحْمَتَه وَجُودَه بالمَغْفِرةِ: لَانَتْ جُلودُهم وقُلوبُهم، وزالَ عنها ما كان بها مِن الخَشْيةِ والقُشَعْريرةِ. وقيلَ: إنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٧ - ٢٨٩).

المَعنى أنَّ القُرآنَ لَمَّا كان في غايةِ الجَزالةِ والبَلاغةِ، كانوا إذا رَأَوْا عَجْزَهم عن مُعارَضَتِه اقشَعَرَّتِ الجُلودُ منه؛ إعظامًا له، وتَعَجُّبًا مِن حُسنِه وبَلاغَتِه، ثمَّ تَلينُ جُلودُهم وقُلوبُهم إلى ذِكرِ اللهِ(١).

- وخَصَّ القُشَعْريرةَ بالَّذين يَخْشَون ربَّهم، باعتِبارِ ما سيُرْدَفُ به مِن قولِه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ﴾(٢).

- وضُمِّنَ ﴿تَلِينُ﴾ مَعنى تَطمَئِنُّ جُلودُهم لَيِّنةً غَيرَ مُنقَبِضةٍ، وقُلوبُهم راجيةٌ غَيرُ خاشيةٍ؛ ولذلك عَدَّاه بـ﴿إِلَىٰ﴾(٣). على أنَّ ذِكرَ اللِّينِ هنا أبلَغُ مِن ذِكرِ الطُّمأنينةِ؛ لأنَّ القُشَعْريرةَ تَقْتضي نُشوزَ الجِلدِ وارتفاعَه وتَصلُّبَه، والَّذي يُقابِلُ ذلك اللِّينُ والهُدوءُ؛ فذِكرُ اللِّينِ هنا؛ لأنَّ الجِلدَ إذا اقشعَرَّ يَتصلَّبُ، ولهذا تجِدُ أطرافَ الإنسانِ تَبرُدُ؛ لانحسارِ الدَّمِ عنها بعضَ الشَّيءِ، فإذا هدَأَ الرَّوعُ فإنَّه يَلينُ ويَزولُ ذلك التَّصلُّبُ(٤).

- واللِّينُ: مُعبَّرٌ به عن القَبولِ والسُّرورِ، وهو ضِدٌّ للقَساوةِ الَّتي في قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، فإنَّ المُؤمِنَ إذا سَمِعَ آياتِ الوَعيدِ والتَّهْديدِ يَخْشى ربَّه، ويَتَجنَّبُ ما حذَّرَ منه، فيَقشعِرُّ جِلدُه، فإذا عقَّبَ ذلك بآياتِ البِشارةِ والوَعدِ استَبْشَرَ وفَرِحَ، وعرَضَ أعْمالَهُ على تلك

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥، ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٧، ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩١).

الآياتِ، فرأى نفْسَه مُتحلِّيةً بالعَمَلِ الَّذي وَعَدَ اللهُ عليه بالثَّوابِ، فاطمَأَنَّتْ نَفْسُه، وانقَلَبَ الوَجَلُ والخَوفُ رجاءً وتَرقُّبًا، فذلك مَعْنى لِينِ القُلوبِ[١].

- وجُمِعَ بيْنَ الجُلودِ والقُلوبِ في قَولِه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، ولم يُكتَفَ بأحَدِ الأمْرَينِ عنِ الآخَرِ كما اكتُفِيَ في قَولِه: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ لِأنَّ اقشِعرارَ الجُلودِ حالةٌ طارِئةٌ عليها، لا يَكونُ إلَّا مِن وَجَلِ القُلوبِ ورَوعَتِها، فكُنِّيَ به عن تلك الرَّوعةِ، وأمَّا لِينُ الجُلودِ عَقِبَ تلك القُشَعْريرةِ فهو رُجوعُ الجُلودِ إلى حالَتِها السَّابِقةِ قبْلَ اقشِعرارِها، وذلك قد يَحصُلُ عن تَناسٍ أو تَشاغُلٍ بَعدَ تلك الرَّوعةِ، فعُطِفَ عليه لِينُ القُلوبِ؛ لِيُعلَمَ أنَّه لِينٌ خاصٌّ ناشئٌ عنِ اطمِئنانِ القُلوبِ بالذِّكرِ، كما قال تَعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وليس مُجَرَّدَ رُجوعِ الجُلودِ إلى حالَتِها الَّتي كانت قبْلَ القُشَعْريرةِ، ولم يُكتَفَ بذِكرِ لِينِ القُلوبِ عن لِينِ الجُلودِ؛ لِأنَّه قُصِدَ أنَّ لِينَ القُلوبِ أفعَمَها حتَّى ظَهَر أثَرُه على ظاهِرِ الجُلودِ[٢]. أو ذُكِرَتِ الجُلودُ وَحْدَها أوَّلًا، ثمَّ قُرِنتْ بها القُلوبُ؛ لِأنَّه إذا ذُكِرتِ الخَشيةُ الَّتي مَحَلُّها القُلوبُ فقد ذُكِرتِ القُلوبُ، فكان ذِكرُ القُلوبِ لِتقدُّمِ الخَشْيةِ الَّتي هي مِن عَوارِضِها، فكأنَّه قيلَ: تَقشَعِرُّ جُلودُهم مِن آياتِ الوَعيدِ، وتَخشى قُلوبُهم في أوَّلِ وَهْلةٍ، فإذا ذَكَروا اللهَ ومَبْنى أمْرِه على الرَّأفةِ والمَرحَمةِ، استَبدَلوا بالخَشيةِ رَجاءً في قُلوبِهم، وبالقُشَعْريرةِ لِينًا في جُلودِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١١).

- وقيلَ: إنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف القُرآنَ المَجيدَ، وبالَغَ في مَدحِه حتَّى بَلَغ غايَتَه مِنَ الكَمالِ، على ما سَبَق في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾، وأرادَ أنْ يُبيِّنَ كيفيَّةَ هِدايَتِه لِلخَلقِ، فإنَّ جُلَّ الغَرَضِ مِنَ الكُتُبِ السَّماويَّةِ الهِدايةُ؛ قال: ﴿مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾، يَعْني: مَن أرادُ اللهُ أنْ يَهدِيَه به أوْقَعَ في قَلبِهِ الخَشْيةَ، كقَولِه: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ثُمَّ يَتأثَّرُ منه ظاهِرُه بأنْ يأخُذَه في بَدءِ الحالِ قُشَعْريرةٌ في الجِلْدِ؛ لِضَعفِ الحالِ أو قُوَّةِ سَطْوةِ الوارِدِ، فإذا أدْمَنَ سَماعَه، وأَلِفَ أنْوارَه، تَلينُ جُلودُه، فيتأثَّرُ منه القَلْبُ، فيَطمَئِنُّ إليه، فتَنقلِبُ النَّفْسُ الأمَّارةُ مُطمَئِنَّةً، ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فكما يتأثَّرُ الظَّاهِرُ مِن القَلبِ في بَدءِ الحالِ، يَنعَكِسُ في ثاني الحالِ، ويتأثَّرُ القَلْبُ مِن الظَّاهِرِ؛ ولذلك جُعِلَ اقْشِعرارُ الجِلدِ تابعًا لِخَشْيةِ اللهِ أوَّلًا، ولِينُ القَلْبِ تابعًا لِلِينِ الجِلْدِ ثانيًا، فيَستَمِدُّ الظَّاهِرُ مِن الباطِنِ أنْوارَه، والباطِنُ مِن الظَّاهِرِ آثارَه، فلا يَزالانِ يَتَناوَبانِ حتَّى يَصعَدَ السَّالِكُ بذلك إلى مَدارِجِ القُدسِ، ومَعارِجِ الكَمالِ، فيَتوطَّنُ في مَخدَعِ القُربِ، ثمَّ يَفيضُ نورُهُ المُسْتَفيضُ على الغَيرِ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وكُشِفَ عن القِناعِ، حيث أشارَ مَن صَحِبَ أولئك ورآهُمْ خاشِينَ راجِينَ، فكان ذلك مُرغِّبًا لهم في الاقتِداءِ بسيرتِهِم، وسُلوكِ طَريقَتِهِم، رَزَقَنا اللهُ الاقتِداءَ بهم بفَضلِه وجُودِه[1].

- وكان في ذِكْرِ القُلوبِ في هذه الجُملةِ دليلٌ على تأثُّرِها عِندَ السَّماعِ، فاكْتَفَى بقُشَعْريرةِ الجُلودِ عن ذِكرِ خَشْيةِ القُلوبِ لِقيامِ المُسبَّبِ مَقامَ السَّبَبِ، فلمَّا ذكَرَ اللِّينَ ذَكَرهما، وفي ذِكرِ اللِّينِ دَليلٌ على المَحذوفِ الَّذي هو رَحمةُ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٧٣، ٣٧٤).

اللهِ، كما كان في قَولِه: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] دَليلٌ بقَولِه: ﴿وَجِلَتْ﴾ عن ذِكرِ المَحذوفِ، أي: إذا ذُكِرَ وَعيدُ اللهِ وبَطشُه[١].

- و(ذِكْر اللَّه) هو (أَحْسَنُ الْحَدِيثِ)، وعُدِلَ عن ضَميرِه في قولِه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لِبُعدِ الـمعادِ، وعُدِلَ عن إعادةِ اسمِه السَّابِقِ؛ لِمَدحِه بأنَّه ذِكرٌ مِنَ اللهِ بَعدَ أنْ مُدِحَ بأنَّه أحسَنُ الحَديثِ، والمُرادُ بذِكرِ اللهِ: ما في آياتِه مِن ذِكرِ الرَّحمةِ والبِشارةِ؛ وذلك أنَّ القُرآنَ ما ذَكَرَ مَوعِظةً وتَرهيبًا إلَّا أعقَبَها بتَرغيبٍ وبِشارةٍ[٢].

وقيل: مفعولُ ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ محذوفٌ، والتقديرُ: إلى ذكرِ الله رحمتَه وثوابَه وجنتَه. وحُذف؛ للعِلم به[٣].

- وقيل: لم يَقُلْ سُبحانَه: «لذكرِ اللهِ»! بل قال: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وكأنَّ هذا اللِّينَ صار له غايةً، وهو ذِكْرُ اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

- واقتُصِرَ على ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، مِن غَيرِ ذِكرِ الرَّحمةِ؛ لِأنَّ أصْلَ أمْرِه الرَّحمةُ والرَّأفةُ، ورَحمَتُه سابِقةٌ غَضَبَه، فلِأصالةِ رَحمَتِه إذا ذُكِرَ لم يَخطُرْ بالبالِ قَبْلَ كُلِّ شَيءٍ مِن صِفاتِه إلَّا كَونُه رَؤوفًا رَحيمًا[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ذُكِرَ للمؤمنينَ هنا في هذه الآيةِ حالتانِ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لِوُقوعِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٤).

بعْدَ قولِه: ﴿مَّثَانِيَ﴾، وفي سُورةِ (الأنفالِ) اقتُصِرَ على وَصْفِ اللهِ المؤمنينَ بالوَجَلِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ المقامَ هنا لِبَيانِ تأثُّرِ المؤمنينَ بالقرآنِ، والمقامَ هنالك للثَّناءِ على المؤمنينَ بالخشيةِ مِن اللهِ في غيرِ حالةِ قِراءةِ القرآنِ(١).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ فإنَّ إجراءَ الصِّفاتِ الغُرِّ على القُرآنِ الدَّالَّةِ على أنَّه قدِ استَكمَلَ أقصَى ما يُوصَفُ به كَلامٌ بالِغٌ في نُفوسِ المُخاطَبينَ كيف سُلِكَتْ آثارُه إلى نُفوسِ الَّذين يَخشَوْنَ رَبَّهم؛ مِمَّا يُثيرُ سُؤالًا يَهجِسُ في نَفْسِ السَّامِعِ أنْ يَقولَ: كيف لم تَتأثَّرْ به نُفوسُ فَريقِ المُصِرِّينَ على الكُفرِ وهو يَقرَعُ أسماعَهم يَومًا فيَومًا؟ فتَقَعُ جُملةُ ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ جَوابًا عن هذا السُّؤالِ الهاجِسِ(٢).

- والإشارةُ إلى مَضمونِ صِفاتِ القُرآنِ المَذكورةِ وتأثُّرِ المُؤمِنينَ بهَدْيِه، أيْ: ذلك المَذكورُ هُدى اللهِ، أيْ: جَعَله اللهُ سَبَبًا كامِلًا جامِعًا لِوَسائِلِ الهُدى.

ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، وهو الكتابُ، أي: ذلك القرآنُ هُدى اللهِ، أي: دليلُ هُدى اللهِ ومَقصدُه؛ اهتدى به مَن شاء اللهُ اهتِداءَه، وكفَرَ به مَن شاء اللهُ ضَلالَه(٣).

- وجُملةُ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ تَذييلٌ للاستِئنافِ البَيانيِّ(٤).

- وفي قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩١، ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩٢).

هَادٍ﴾ احتِباكٌ[١]؛ ذكَرَ أوَّلًا: إطلاقَ أمْرِه في الهدايةِ دَليلًا على حَذفِ مِثلِه في الضَّلالِ، وثانيًا: انسِدادَ بابِ الهدايةِ على مَن أضَلَّه دَليلًا على حَذْفِ مِثْلِه فيمَن هداه، وهي دامِغةٌ للقَدَريَّةِ[٢].

(١) تقدَّمَ تعريفُه (ص: ٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩١).

الآيات (٢٤-٢٦)

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْخِزْيَ﴾: أي: الذُّلَّ والهوانَ، بما أنزَل بهم مِن العذابِ والنَّكالِ، وأصلُ الخِزيِ: الإبعادُ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: أفمَن يَلْقى النَّارَ بوَجهِه يَومَ القيامةِ لِيَكُفَّها عن نَفْسِه: خَيرٌ أمَّنْ هو آمِنٌ مِن العذابِ؟ ويُقالُ للظَّالِمينَ: ذُوقوا جزاءَ ما كُنتُم تَكسِبونَ مِن الكُفرِ والعِصيانِ.

كذَّب الَّذين مِن قَبْلِهم مِن كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ، فأهلَكَهم اللهُ بالعَذابِ مِن حيثُ لا يَشعُرونَ، فأذاقهم اللهُ العذابَ الَّذي يُذِلُّهم ويُخزِيهم في الحياةِ الدُّنيا، ولَعذابُ الآخرةِ أكبَرُ، لو كانوا يَعلَمونَ ذلك لاتَّعَظوا وآمَنوا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ اللهُ عزَّ وجلَّ الإنكارَ على مَن سَوَّى بيْنَ مَن شَرَح صَدْرَه ومَن ضَيَّق، وما تَبِعَه، وخَتَم بأنَّ الأوَّلَ مُهتَدٍ، والثَّانيَ ضالٌّ؛ شَرَع في بيانِ ما لِكُلٍّ منهما[١].

وأيضًا لَمَّا حَكَم على القاسيةِ قُلوبُهم بحُكمٍ في الدُّنيا، وهو الضَّلالُ التَّامُّ؛ حَكَم عليهم في الآخِرةِ بحُكمٍ آخَرَ، وهو العَذابُ الشَّديدُ، فقال[٢]:

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

أي: أفمَن يتَّقي بوَجهِه العَذابَ السَّيِّئَ يومَ القيامةِ خَيرٌ أمَّنْ ليس كذلك، فهو مِنَ الآمِنينَ المُنعَّمينَ[٣]؟

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

أي: ويُقالُ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم في الدُّنيا بالكُفرِ والمعاصي: ذوقوا جزاءَ ما

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٧).

قال ابن جُزَي: (ومعنى ﴿يَتَّقِي﴾ يَلْقَى النَّارَ بوجْهِه لِيَكُفَّها عن نفْسِه؛ وذلك أنَّ الإنسانَ إذا لَقِيَ شيئًا مِن المَخاوفِ استقبَله بيدَيْه، وأيدي هؤلاء مَغلولةٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٠).

وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال عَطاءٌ وابنُ زَيدٍ: يُرْمَى به مكتوفًا في النَّارِ، فأوَّلُ شَيءٍ تَمَسُّ منه وَجْهُه. وقال مُجاهِدٌ: يُجَرُّ على وَجْهِه في النَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥١).

وقال البِقاعي: (دلَّ على أنَّ يَدَه الَّتي جَرَت العادةُ بأنَّه يَتَّقي بها المَخاوِفَ مَغلولةٌ، بقَولِه: ﴿بِوَجْهِهِۦ﴾ الَّذي كان يَقيه المخاوفَ ويَحميه منها، بجَعْلِه -وهو أشرَفُ أعضائه- وِقايةً يَقي به غيرَه مِن بَدَنِه ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾... يُرمَى به في النَّارِ منكوسًا وهو مُكَبَّلٌ، لا شَيءَ له مِن أعضائه مُطلَقٌ يَرُدُّ به عن وَجْهِه... ويُسحَبُ في النَّارِ على وَجهِه). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٩٢).

كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن كُفرٍ وعِصيانٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ٢٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٨].

﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

أي: كذَّب كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلَهم، فأهلَكَهم اللهُ بعَذابٍ جاءَهم مِن جِهةٍ لم يَتوقَّعوا مَجيئَه منها(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٥).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: مِن قَبلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والبغويُّ، وابن الجوزي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٦).

وقيل: المرادُ العُمومُ؛ فيَشملُ كُفَّارَ مَكَّةَ وغَيرَهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٠٧-٢٠٨).

قال أبو حيان: (﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾: مِن الجهةِ الَّتي لا يَشعُرونَ أنَّ العذابَ يأتيهم مِن قِبَلِها، ولا يَخطُرُ ببالِهم أنَّ الشَّرَّ يأتيهم منها، كانوا في أمْنٍ وغِبطةٍ وسرورٍ، فإذا هم مُعَذَّبونَ مَخزيُّونَ ذَليلونَ في الدُّنيا؛ مِن ممسوخٍ ومقتولٍ ومأسورٍ ومَنفيٍّ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٧).

وقال ابنُ عاشور: (﴿حَيْثُ﴾ ظَرفُ مَكانٍ، أي: جاء العذابُ الَّذين مِن قَبْلِهم مِن مَكانٍ لا يَشعُرونَ =

كما قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ * أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ [الأعراف: ٩٦ - ١٠٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: فعَجَّل اللهُ لِكُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ عَذابَ الذُّلِّ والهَوانِ في الحياةِ الدُّنيا[1].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان انتِظارُ الفَرَجِ مِمَّا يُسَلِّي، قال مُعْلِمًا أنَّ عَذابَهم دائِمٌ على سَبيلِ التَّرقِّي إلى ما هو أشَدُّ[2]:

= به؛ فقَومٌ أتاهم مِن جهةِ السَّماءِ بالصَّواعِقِ، وقَومٌ أتاهم مِنَ الجَوِّ مِثلُ رِيحِ عادٍ... وقَومٌ أتاهم مِن تحتِهم بالزَّلازِلِ والخَسْفِ...، وقَومٌ أتاهم مِن نَبعِ الماءِ مِن الأرضِ مِثلُ قَومِ نُوحٍ، وقَومٌ عَمَّ عليهم البَحرُ مِثلُ قَومِ فِرعَونَ ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٥، ٣٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٤).

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولَعذابُ الآخِرةِ أكبَرُ مِن عَذابِ الدُّنيا، فلو كانوا يَعلَمونَ ذلك لاعتَبَروا واتَّعَظوا، فآمَنوا ولم يُعَرِّضوا أنفُسَهم لِعَذابِ اللهِ تعالى(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جُعِل إتيانُه مِن مَأمَنِهم؛ لِيَكونَ ذلك أوجَعَ للمُعَذَّبِ، وأدَلَّ على القُدرةِ، بأنَّه سَواءٌ عندَه تعالى الإتيانُ بالعذابِ مِن جِهةٍ يُتوقَّعُ منها، ومِن جِهةٍ لا يُتوقَّعُ أن يأتيَ منها شَرٌّ ما -فَضلًا عمَّا أُخِذوا به- بل لا يُتوقَّعُ منها إلَّا الخَيرُ(٢)!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أنَّه لَمَّا بَيَّن أنَّه أتاهم العَذابُ في الدُّنيا؛ بَيَّنَ أيضًا أنَّه أتاهم الخِزيُ، وهو الذُّلُّ والصَّغارُ والهَوانُ؛ والفائِدةُ في ذِكرِ هذا القَيدِ: أنَّ العذابَ التَّامَّ هو أن يَحصُلَ فيه الألمُ مَقرونًا بالهَوانِ والذُّلِّ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٠٩).
قال الشوكاني: (﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كانوا مِمَّنْ يعلمُ الأشياءَ، ويتَفَكَّرُ فيها، ويعمَلُ بمقتضَى عِلْمِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٨).
وقيل: المعنى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ ما حَلَّ بهم سَبَبُه تكذيبُهم رُسُلَهم كما كَذَّب هؤلاءِ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٤٩).

ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ استِئنافٌ جارٍ مَجرى التَّعليلِ لِمَا قَبْلَه مِن تَبايُنِ حالَي المُهتَدي والضَّالِّ[1]. أو اعتراضٌ بيْن الثَّناءِ على القُرآنِ فيما مضَى وقولِه الآتي: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الزمر: ٢٧]. وقيل: هو تَفريعٌ على جُملةِ ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، بدَلالةِ مَجموعِ الجُملتَينِ على فَريقينِ: فَريقٍ مُهتدٍ، وفريقٍ ضالٍّ، ففُرِّعَ على ذلك هذا الاستِفهامُ، وفي الكلامِ حذْفٌ، تَقديرُه: كمَنْ أمِنَ العذابَ، أو كمَنْ هو في النَّعيمِ؟ والاستِفهامُ تَقريريٌّ، أو إنكاريٌّ، والمَقصودُ: عَدَمُ التَّسويةِ بيْن مَن هو في العَذابِ، وهو الضَّالُّ، ومَن هو في النَّعيمِ، وهو الَّذي هداه اللهُ، وحُذِفَ حالُ الفَريقِ الآخَرِ؛ لِظُهورِه مِنَ المُقابَلةِ الَّتي اقتَضاها الاستِفهامُ، وتَقديرُ الكَلامِ: أفمَن يَتَّقي بوَجهِه سُوءَ العَذابِ لِأنَّ اللهَ أضَلَّه، كمَنْ أمِنَ مِنَ العَذابِ لِأنَّ اللهَ هَداه؟ ويَجوزُ أنْ يَكونَ الكَلامُ تَفريعًا على جُملةِ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، تَفريعًا لِتَعيينِ ماصَدَقَ[2] (مَنْ) في قَولِه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، ويَكونَ (مَن يَتَّقي) خَبَرًا لِمُبتَدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: أفهو مَن يَتَّقي بوَجهِه سُوءَ العَذابِ؟ والاستِفهامُ لِلتَّقريرِ[3].

- قولُه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إذا كان وَجْهُ الإنسانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٢).

(٢) الماصَدَق -عندَ المَناطِقةِ-: الأفرادُ الَّتي يتحقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ، ويُقابِلُه: المفهومُ، وهو: مجموعُ الصِّفاتِ والخصائصِ الموضحةِ لمعنًى كُلِّيٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و (٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحبنكة (ص: ٤٥، ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٢، ٣٩٣).

ليس مِن شأْنِه أنْ يُوقَى به شَيءٌ مِن الجسَدِ؛ إذ الوجهُ أعَزُّ ما في الجسَدِ، وهو يُوقَى ولا يُتَّقى به؛ فإنَّ مِن جِبِلَّةِ الإنسانِ إذا تَوقَّعَ ما يُصِيبُ جسَدَه، ستَرَ وَجْهَه خوفًا عليه؛ فتعيَّنَ أنْ يكونَ الاتِّقاءُ بالوَجهِ مُستعمَلًا كِنايةً عن عَدَمِ الاتِّقاءِ، على طَريقةِ التَّهكُّمِ أو التَّلميحِ، فكأنَّه قِيل: مَن يَطلُبُ وِقايةَ وَجهِه، فلا يَجِدُ ما يَقِيه به إلَّا وَجهَه، وهذا مِن إثباتِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ نفْيَه[1].

- قَولُه: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ فيه احتِباكٌ[2]؛ فذَكَر الاستِفهامَ أوَّلًا دَليلًا على حَذفِ مُتعَلَّقِه ثانيًا، وما يُقالُ للظَّالِمِ ثانيًا دَليلًا على ما يُقالُ للعَدلِ أوَّلًا[3].

- قولُه: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ جاءَ فِعلُ ﴿وَقِيلَ﴾ بصِيغةِ المُضيِّ وهو واقِعٌ في المُستَقبَلِ؛ لِأنَّه لِتَحقُّقِ وُقوعِه نُزِّلَ مَنزِلةَ فِعلٍ مَضى. ويَجوزُ أنْ يَكونَ جُملةُ ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ، بتَقديرِ (قد)؛ ولذلك لا يُحتاجُ إلى تأويلِ صِيغةِ المُضيِّ على مَعنى الأمْرِ المُحقَّقِ وُقوعُه[4].

- والتَّعبيرُ هنا بـ(الظَّالِمينَ) إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ -على القولِ بأنَّ المرادَ بالظالِمينَ هنا المشرِكونَ المُتحدَّثُ عنهم-؛ لِلإيماءِ إلى أنَّ ما يُلاقونَه مِنَ العَذابِ مُسَبَّبٌ على ظُلمِهم، أيْ: شِركِهم، أي: أفمَن يَتَّقي بوَجهِه سُوءَ العَذابِ فلا يَجِدُ وِقايةً تُنجيه مِن ذَوقِ العَذابِ؟ فيُقالُ لهم: ذُوقوا العَذابَ.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ المُرادُ بالظَّالِمينَ جَميعَ الَّذين أشرَكوا باللهِ مِنَ الأُمَمِ، غَيرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٤).

خاصٍّ بالمُشرِكينَ المُتَحدَّثِ عنهم؛ فيَكونَ (الظَّالِمينَ) إظهارًا على أصْلِه؛ لِقَصدِ التَّعميمِ؛ فتكونَ الجُملةُ في مَعنى التَّذييلِ، أيْ: ويُقالُ لِهؤلاء وأشباهِهم، ويَظهَرُ بذلك وَجهُ تَعقيبِه بقَولِه: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[1] [الزمر: ٢٥].

- قولُه: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ المَذوقُ هو العَذابُ؛ فهو جَزاءُ ما اكتَسَبوه في الدُّنيا مِنَ الشِّركِ وشَرائِعِه، فجُعِلَ المَذوقُ نَفْسَ ما كانوا يَكسِبونَ؛ مُبالَغةً مُشيرةً إلى أنَّ الجَزاءَ وَفْقَ أعمالِهم، وأنَّ اللهَ عادِلٌ في تَعذيبِهم[2].

- وأُوثِرَ ﴿تَكْسِبُونَ﴾ على (تَعمَلونَ)؛ لِأنَّ خِطابَهم كان في حالِ اتِّقائِهم سُوءَ العَذابِ، ولا يَخلو حالُ المُعذَّبِ مِنَ التَّبرُّمِ الَّذي هو كالإنكارِ على مُعَذِّبِه؛ فجيءَ بالصِّلةِ الدَّالَّةِ على أنَّ ما ذاقوه جَزاءُ ما اكتَسَبوه؛ قَطعًا لِتَبرُّمِهم[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لِأنَّ ما ذُكِر قَبْلَه مِن مَصيرِ المُشرِكينَ إلى سُوءِ العَذابِ يَومَ القِيامةِ ويَومَ يُقالُ لِلظَّالِمينَ هم وأمثالِهم: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]؛ يُثيرُ في نُفوسِ المُؤمِنينَ سُؤالًا عن تَمتُّعِ المُشرِكينَ بالنِّعمةِ في الدُّنيا، ويَتمَنَّوْنَ أنْ يُجعَلَ لهمُ العَذابُ؛ فكان جَوابًا عن ذلك قَولُه: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أيْ: هم مَظِنَّةُ أنْ يَأتيَهم العَذابُ، كما أتَى العَذابُ الَّذين مِن قَبلِهم، إذْ أتاهمُ العَذابُ في الدُّنيا بدُونِ إنذارٍ، غَيرَ مُترقِّبينَ مَجيئَه، فكان عَذابُ الدُّنيا خِزيًا يُخزي به اللهُ مَن يَشاءُ مِنَ الظَّالِمينَ، وأمَّا عَذابُ الآخِرةِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٣، ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فجَزاءٌ يَجزي به اللهُ الظَّالِمينَ على ظُلمِهم[١].

- وضَميرُ ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ عائِدٌ على (مَنْ) في قولِه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] باعتبارِ أنَّ معنى (مَن) جمْعٌ، وفي هذا تَعريضٌ بإنذارِ المُشرِكينَ بعَذابٍ يَحِلُّ بهم في الدُّنيا، وهو عذابُ السَّيفِ الَّذي أخزاهم اللهُ به يومَ بَدرٍ؛ فالمرادُ بالعذابِ الَّذي أتَى الَّذين مِن قبْلِهم: هو عذابُ الدُّنيا؛ لأنَّه الَّذي يُوصَفُ بالإتيانِ مِن حيثُ لا يَشعُرونَ[٢].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ دالَّةٌ على تَسَبُّبِ التَّكذيبِ في إتيانِ العَذابِ إليهم، فلَمَّا ساواهم مُشرِكو العَرَبِ في تَكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كان سَبَبُ حُلولِ العَذابِ بأولئك مَوجودًا فيهم، فهو مُنذِرٌ بأنَّهم يَحِلُّ بهم مِثلُ ما حَلَّ بأولئك[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ في هذه الآيةِ احتِباكٌ[٤]، حيثُ ذكَرَ (الخِزْي) أوَّلًا دليلًا على إرادتِه ثانيًا، و(الأكْبَر) ثانيًا دليلًا على الكَبيرِ أوَّلًا. وسِرُّ هذا الاحتِباكِ: تَغليظُ الأمْرِ عليهم -بالجمْعِ بيْن الخِزيِ والعذابِ- لِمَا فَعَلوا برُسلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، بخِلافِ ما في سُورةِ (فُصِّلت) في قولِه تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦]؛ فإنَّ سِياقَه للطَّعنِ في الوَحدانيَّةِ، وهي لِكثرةِ أدلَّتِها، وبُعدِها عن الشُّكوكِ، وعظيمِ المتَّصِفِ بها، وعدَمِ تأْثيرِه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السبق)).

(٤) تقدَّمَ تعريفُه (ص: ٣٧).

بشَيءٍ؛ يَكفي في نَكالِ الكافرِ به مُطلَقُ العذابِ[١].

- وعُطِفَ قَولُه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ على ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لِلاحتِراسِ، أيْ: إنَّ عَذابَ الآخِرةِ هو الجَزاءُ، وأمَّا عَذابُ الدُّنيا فقد يُصيبُ اللهُ به بَعضَ الظَّلَمةِ زِيادةَ خِزيٍ لهم[٢].

- وقولُه: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ جُملةٌ مُعتَرِضةٌ في آخِرِ الكَلامِ، ومَفعولُ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ دَلَّ عليه الكَلامُ المُتقَدِّمُ، أيْ: لو كان هؤلاء يَعلَمونَ أنَّ اللهَ أذاقَ الآخَرينَ الخِزيَ في الدُّنيا بسَبَبِ تَكذيبِهمُ الرُّسُلَ، وأنَّ اللهَ أعَدَّ لهم عَذابًا في الآخِرةِ هو أشَدُّ، وضَميرُ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ عائِدٌ إلى ما عادَ إليه ضَميرُ ﴿قَبْلِهِمْ﴾ [الزمر: ٢٥].

وجَوابُ ﴿لَوْ﴾ مَحذوفٌ، دَلَّ عليه التَّعريضُ بالوَعيدِ في قَولِه: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الزمر: ٢٥] الآيةَ، تَقديرُه: لو كانوا يَعلَمونَ أنَّ ما حَلَّ بهم سَبَبُه تَكذيبُهم رُسُلَهم كما كَذَّبَ هؤلاء مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣]. على قولٍ في التفسيرِ.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٧-٣١)

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾: أي: لا اعوِجاجَ فيه ولا انحِرافَ، وقيل: العِوَجُ -بالكَسرِ- في المعاني، والعَوَجُ -بالفتحِ- في الأعيانِ، وأصلُ (عوج): يدُلُّ على مَيلٍ[١].

﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾: أي: مُختَلِفونَ مُتنازِعونَ، وأصلُ (شكس): يدُلُّ على سُوءِ خُلُقٍ[٢].

﴿سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾: أي: خالصًا له، لا يَشرَكُه فيه غيرُه[٣].

﴿تَخْتَصِمُونَ﴾: أي: تَتنازَعونَ، وتَختلِفونَ، وأصلُ (خصم): مُنازَعةٌ، وأصلُ المُخاصَمةِ: أن يَتعلَّقَ كلُّ واحدٍ بخُصْمِ الآخَرِ، أي: جانِبِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٧) و (١٩/ ٣٠١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٢١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٤).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

قَولُه: ﴿ قُرْءَانًا ﴾: مَنصوبٌ على الحالِ مِن اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا ﴾ المُبَيَّنِ بالقُرآنِ، وهي حالٌ مُوَطِّئَةٌ؛ لأنَّ الحالَ في الحقيقةِ ﴿عَرَبِيًّا﴾، و﴿ قُرْءَانًا ﴾ تَوطِئَةٌ له. وقيل: إنَّه مَنصوبٌ بمُقدَّرٍ، تقديرُه: أعْني، أو أخُصُّ، أو أمْدَحُ، ونحو ذلك. وقيل: يجوزُ نَصبُه على المفعوليَّةِ بـ﴿يَتَذَكَّرُونَ ﴾، أي: يَتذكَّرونَ قُرآنًا.

قَولُه: ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ نعتٌ ثانٍ لـ﴿ قُرْءَانًا ﴾، أو حالٌ منه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُثْنِيًا على كتابِه الكريمِ: ولقد بَيَّنَّا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ يَحتاجُونَ إليه في أُمورِهم وشُؤونِهم؛ لعلَّهم يَتذَكَّرون فيَتَّعِظونَ؛ قُرآنًا عَربيًّا لا اعوِجاجَ فيه، ولا تَناقُضَ ولا اختِلافَ؛ لَعَلَّهم يَتَّقونَ اللهَ، فيَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويَجتَنِبونَ نواهيَه.

ثمَّ يَضرِبُ اللهُ تعالى مَثَلًا للمُشرِكِ الَّذي يَعبُدُ آلِهةً شَتَّى، بعَبدٍ مَملوكٍ لِشُرَكاءَ مُتنازِعينَ؛ لِسُوءِ أخلاقِهم وطِباعِهم، وهذا العَبدُ مُوَزَّعٌ ومُمَزَّقٌ بيْنَهم، كلٌّ منهم يَستَخدِمُه بقَدْرِ مِلْكِه فيه، وهو حائِرٌ بيْنَهم جَميعًا؛ لا يُمكِنُه أن يُرضِيَهم جَميعًا، ولا يَملِكُ أن يُطيعَ أهواءَهم المُتنازِعةَ.

ويَضرِبُ سُبحانَه مَثَلًا للمُوحِّدِ الَّذي يَعبُدُ اللهَ وَحْدَه، بعَبدٍ مَملوكٍ لسَيِّدٍ

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٢٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٨)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١٠٨٠).

واحِدٍ، وخالِصٍ له، وليس لِغَيرِه مِن سَبيلٍ عليه؛ فهو في سَلامةٍ وراحةٍ مِن تَشاحُنِ الشُّرَكاءِ فيه، فهل يَستوي هَذانِ في العُقولِ؟ كلَّا لا يَستويانِ؛ فكذلك لا يَستوي المُشرِكُ الَّذي يَعبُدُ آلِهةً كَثيرةً، والموحِّدُ الَّذي لا يَعبُدُ إلَّا اللهَ وَحْدَه. الحَمدُ للهِ، بل أكثَرُهم لا يَعلَمونَ!

ثمَّ يُخبِرُ اللهُ سبحانَه رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ الموتَ سيَنزِلُ به كما سيَنزِلُ بأعدائِه، فيقولُ: إنَّك -يا مُحمَّدُ- صائِرٌ إلى الموتِ، وكذلك قَومُك سيَموتونَ، ثمَّ إنَّكم جَميعًا يومَ القيامةِ عِندَ ربِّكم تَختَصِمونَ فيما كُنتُم تَختَلِفونَ فيه في الدُّنيا، فيَفصِلُ اللهُ بيْنَكم بالحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى هذه الفوائدَ المُتكاثِرةَ والنَّفائسَ المُتوافرةَ في هذه المَطالِبِ؛ بيَّن تعالى أنَّه بلَغت هذه البياناتُ إلى حدِّ الكمالِ والتمامِ[1].

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾.

أي: ولقد ذكَرْنا وبَيَّنَّا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ كُلَّ صِنفٍ ممَّا يَحتاجُونَ إليه مِنَ الأمثالِ[2].

كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٠٩).

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨].

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

أي: لَعلَّهم يَتذَكَّرونَ الحَقَّ، فيَتَّعِظونَ ويَنزَجِرونَ عمَّا هم فيه مِن ضَلالٍ[(١)].

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾.

أي: قُرآنًا عَرَبيًّا، لا اعوِجاجَ فيه؛ فلا لَبْسَ فيه ولا اختِلافَ، ولا خَلَلَ ولا تَناقُضَ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ [الكهف: ١].

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

أي: جعَلْناه قرآنًا عربيًّا غيرَ ذي عِوَجٍ؛ لِيَفْهَمَه النَّاسُ ويَعْملوا به؛ فيَتَّقوا سخَطَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

الله وعذابَه، بامتِثالِ أوامرِه، واجتِنابِ نواهيه[١].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بالَغَ تعالى في شَرحِ وَعيدِ الكُفَّارِ؛ أردَفَه بذِكرِ مَثَلٍ ما يدُلُّ على فَسادِ مَذهَبِهم، وقُبحِ طريقتِهم، فقال[٢]:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾.

أي: ذكَرَ اللهُ تعالى مَثَلًا للمُشرِكِ الَّذي يَعبُدُ آلِهةً شتَّى، بعَبدٍ مملوكٍ لِشُرَكاءَ مُتنازِعينَ سَيِّئةٍ أخلاقُهم، وكلٌّ مِنهم يَستَخدِمُه بقَدْرِ مِلْكِه فيه؛ فهو يُعاني منهم لاختِلافِهم، ولا يَقِرُّ له قَرارٌ، ولا يُمكِنُه أن يُرضِيَهم جميعًا؛ وضرَب مَثَلًا للمُوَحِّدِ الَّذي يَعبُدُ اللهَ وَحْدَه، بعَبدٍ خالِصٍ لرَجُلٍ واحِدٍ، لا يَملِكُه غَيرُه؛ فعَلِمَ مَقاصِدَ سَيِّدِه، وعَرَف الطَّريقَ إلى رِضاه، وهو في سَلامةٍ وطُمَأنينةٍ وراحةٍ مِن تَشاحُنِ الشُّرَكاءِ فيه، مع رَحمةِ مالِكِه به، وشَفَقَتِه عليه، وإحسانِه إليه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

قال البِقاعي: (أي: لِيَكونَ حالُهم بعدَ التَّذَكُّرِ النَّاشِئِ عن التَّذكيرِ حالَ مَن يُرجى له أن يَجعَلَ بيْنَه وبيْن غَضَبِ اللهِ وقايةً). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٦، ١٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٣٣)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٣، ١٤٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٤)، ((تفسير =

﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾.

أي: فهل يَستوي في العُقولِ العَبدُ المَملوكُ لِشُرَكاءَ مُتشاكِسينَ، والمملوكُ لسَيِّدٍ واحِدٍ؟ كلَّا، لا يَستَويانِ؛ فكذلك لا يَستوي المُشرِكُ الَّذي يَعبُدُ آلِهةً كَثيرةً، والموَحِّدُ الَّذي لا يَعبُدُ إلَّا اللهَ وَحْدَه[1].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَطَل القَولُ بإثباتِ الشُّرَكاءِ والأندادِ، وثَبَت أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ الواحِدُ الأحَدُ الحَقُّ؛ ثَبَت أنَّ الحَمْدَ له لا لِغَيرِه[2].

وأيضًا لَمَّا سَبَقَت هذه الدَّلائِلُ الظَّاهِرةُ، والبَيِّناتُ الباهِرةُ؛ قال: الحَمدُ لله على حُصولِ هذه البياناتِ، وظهورِ هذه البَيِّناتِ، وإن كان أكثَرُ الخَلقِ لم يَعرِفوها، ولم يَقِفوا عليها[3].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

أي: الحَمدُ[4] لله وَحْدَه دونَ كُلِّ مَن سِواه، الَّذي أقام بهذا المَثَلِ الواضِحِ

= ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٧، ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١٨، ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) الحمدُ: هو وصْفُ المحمودِ بالكمالِ محبَّةً وتعظيمًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧).

الحُجَّةَ على المُشرِكينَ، وأبان الحَقَّ مِن الباطِلِ؛ فلا يَنبغي أن يكونَ له شَريكٌ[١].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: بل أكثَرُهم[٢] لا يَعلَمونَ الحَقَّ، فهم لا يَعلَمونَ أنَّ المُوحِّدَ والمُشرِكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

قال الماوَرْدي: (﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يحتمِلُ وجهَينِ؛ أحَدُهما: على احتِجاجِه بالمَثَلِ الَّذي خَصَمَ به المُشرِكينَ. الثَّاني: على هِدايتِه الَّتي أعان بها المؤمِنينَ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٤).

(٢) قيل: أكثرُ على بابِها، والمرادُ بقولِه: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثرُ النَّاسِ، وهم المشركون. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٨٨).

قال الشوكاني: (فإنَّ المؤمِنينَ باللهِ يَعلَمونَ ما في التَّوحيدِ مِن رِفعةِ شَأنِه، وعُلُوِّ مَكانِه، وأنَّ الشِّركَ لا يُماثِلُه بوَجهٍ مِن الوُجوهِ، ولا يُساويه في وَصفٍ مِن الأوصافِ، ويَعلَمونَ أنَّ اللهَ سُبحانَه يَستَحِقُّ الحَمدَ على هذه النِّعمةِ، وأنَّ الحَمدَ مُختَصٌّ به). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٠).

وقال ابنُ عثيمين: (فأكثَرُ الخَلقِ لا يَعلَمونَ؛ إمَّا لجَهلِهم، أو لِغَيِّهم، فإن كانوا لِجَهلِهم... فهم قد انتفى عنهم العِلمُ، وإن كان لِغَيِّهم فإنَّ العِلمَ انتفى عنهم لانتِفاءِ فائِدتِه؛ حيثُ لم يَسترشِدوا به). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٢٤).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ على المشركين، قال ابنُ جرير: (بل أكثرُ هؤلاءِ المشركينَ باللهِ لا يَعلَمونَ أنَّهما لا يَستَويانِ، فهم بجهلِهم بذلك يَعْبُدونَ آلِهةً شَتَّى مِن دونِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠).

وذكَر ابنُ عاشور أنَّ الله تعالى قال: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأن أكثَرَ المشركينَ عامَّةٌ أتْباعٌ لزُعمائِهم الَّذينَ سَنُّوا لهم الإشْراكَ وشَرائِعَه. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٣).

وقال ابن عطيَّة: (و«أكثر» في هذه الآيةِ على بابِها؛ لأنَّا وجَدْنا الأقَلَّ عَلِمَ أمْرَ التَّوحيدِ، وتكلَّم به، ورفَض الأصنامَ؛ كوَرَقةَ، وزَيدٍ، وقُسٍّ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٠).

وقيل: المرادُ بالأكثَرِ الكُلُّ. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦١٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧).

والأكثَرُ قد يُذْكَرُ ويُرادُ به الجميعُ؛ لأنَّ أكثَرَ الشَّيءِ يَقومُ مَقامَ الكلِّ؛ فذِكْرُ الأكثَرِ كذِكْرِ الجميعِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٥).

لا يَستَويانِ، وأنَّ عِبادةَ رَبٍّ واحدٍ خَيرٌ مِن عِبادةِ أربابٍ شَتَّى؛ فيَعبُدونَ غَيرَ اللهِ ويُشرِكونَ به(١)!

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا لم يَلتَفِتوا إلى هذه الدَّلائِلِ الباهِرةِ، أخبَرَ سُبحانَه الجَميعَ بأنَّهم مَيِّتونَ وصائِرونَ إليه، وأنَّ اختِصامَكم يكونُ بيْنَ يَدَيه يومَ القيامةِ، وهو الحَكَمُ العَدلُ؛ فيَتمَيَّزُ المُحِقُّ مِن المُبطِلِ، والنَّبيُّ عليه السَّلامُ وأتْباعُه: المُحِقُّونَ الفائِزونَ بالظَّفَرِ والغَلَبةِ، والكافِرونَ هم المُبطِلونَ(٢).

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾.

أي: إنَّك -يا مُحمَّدُ- صائرٌ إلى الموتِ لا مَحالةَ، وإنَّ جَميعَ قَومِك؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهم، سيَموتونَ كذلك(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١٩، ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٤).

قال القرطبي: (هو خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أخبَرَه بمَوتِه ومَوتِهم، فاحتمَلَ خَمسةَ أوجُهٍ؛ أحدُها: أن يكونَ ذلك تحذيرًا مِن الآخرةِ. الثَّاني: أن يُذَكِّرَه حَثًّا على العمَلِ. الثَّالثُ: أن يُذَكِّرَه تَوطِئةً للمَوتِ. الرَّابعُ: لئلَّا يَختَلِفوا في مَوتِه كما اختَلَفت الأمَمُ في غيرِه، حتَّى إنَّ عُمَرَ رَضِيَ الله عنه لَمَّا أنكر مَوتَه احتَجَّ أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنه بهذه الآيةِ، فأمسَك [البخاري «١٢٤٢»]. الخامسُ: لِيُعْلِمَه أنَّ اللهَ تعالى قد سَوَّى فيه بيْن خَلْقِه مع تفاضُلِهم في غيرِه؛ لِتَكثُرَ فيه السَّلوةُ، وتَقِلَّ فيه الحَسرةُ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٠، ٥٠١). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: ثمَّ إنَّكم تَختَصِمونَ يومَ القيامةِ عِندَ اللهِ رَبِّكم فيما كُنتُم تَختَلِفونَ فيه في الدُّنيا، فيَفصِلُ بيْنكم بالحَقِّ(١).

= ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُم﴾: جميعُ العالَمِ، وكلُّ العبادِ؛ أتباعُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وغيرُهم: ابنُ عطية، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٠).

وممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُم﴾: المكذِّبونَ مِن قومِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، والمؤمنونَ منهم: ابن جرير، ومكي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٧).

وقال ابنُ عاشور: (وضميرُ الغيبةِ في ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ للمشركينَ المتحدَّثِ عنهم، وأمَّا المؤمنونَ فلا غرضَ هنا للإخبارِ بأنَّهم ميتونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٤).

وممن اختار أنَّ الضميرَ يعودُ إلى الكفَّارِ: ابن جزي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

قال ابن كثير: (هذه الآيةُ وإن كان سياقُها في المؤمنينَ والكافِرينَ، وذِكرِ الخُصومةِ بيْنَهم في الدَّارِ الآخِرةِ؛ فإنَّها شامِلةٌ لكُلِّ مُتنازِعَينِ في الدُّنيا، فإنَّه تعادُ عليهم الخُصومةُ في الدَّارِ الآخِرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦، ٩٨).

كما قال الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣].

وقال الله سُبحانَه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ، عن الزُّبَيرِ بنِ العوَّامِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نَزَلت هذه السُّورةُ على رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾ قال الزُّبَيرُ: أيْ رَسولَ الله، أيُكَرَّرُ علينا ما كان بَيْنَنا في الدُّنيا مع خَواصِّ الذُّنوبِ[١]؟ قال: نعَمْ، لَيُكَرَّرَنَّ عليكم حتَّى يُؤدَّى إلى كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه! فقال الزُّبَيرُ: واللهِ إنَّ الأمرَ لَشَديدٌ))[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ أنَّه ينبغي للمُعَلِّمِ غيرَه أنْ يُكْثِرَ له مِن ضَربِ الأمثالِ الَّتي تُعينُه على فَهمِ المعنى؛ لأنَّ هذا هو أُسلوبُ القُرآنِ الكريمِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾ تذكيرٌ بأنَّ النَّاسَ كُلَّهم صائِرونَ إلى المَوتِ؛ فإنَّ الموتَ آخِرُ ما

---

(١) أي: مع السُّؤالِ عن الذُّنوبِ المخصوصةِ بكلِّ أحدٍ مِنَّا. يُنظر: ((حاشية السندي على مسند الإمام أحمد بن حنبل)) (١/ ٢٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٦)، وأحمد (١٤٣٤) واللفظُ له.

قال الترمذيُّ: (حسَنٌ صحيحٌ). وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٣٦)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٣/ ٢١)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١٢).

يُذَكَّرُ به السَّادِرُ في غُلَوائِه[١] إذا كان قد اغتَرَّ بعَظَمةِ الحياةِ، ولم يَتفَكَّرْ في اختيارِ طَريقِ السَّلامةِ والنَّجاةِ[٢]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ خُصَّت أمثالُ القُرآنِ بالذِّكرِ مِن بيْنِ مزايا القُرآنِ؛ لأجْلِ لَفْتِ بَصائِرِهم للتَّدَبُّرِ في ناحيةٍ عَظيمةٍ مِن نواحي إعجازِه، وهي بلاغةُ أمثالِه؛ فإنَّ بُلَغاءَهم كانوا يَتنافَسونَ في جَودةِ الأمثالِ وإصابتِها المحَزَّ مِن تشبيهِ الحالةِ بالحالةِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ كُلَّ مَثَلٍ في القُرآنِ فإنَّ فيه دَليلًا على إثباتِ القياسِ[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيه إثباتُ العِلَلِ والحِكَمِ في أفعالِ اللهِ تعالى وشَرعِه[٥]، والرَّدُّ على الجَهميَّةِ وأشباهِهم ممَّن أنكَروا حِكمةَ اللهِ تعالى، وقالوا: «إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَفعَلُ الشَّيءَ لا لِعِلَّةٍ وحِكمةٍ، ولكنْ لِمُجَرَّدِ المَشيئةِ»! ووجْهُ ذلك: أنَّ «لعلَّ» هنا للتَّعليلِ، والتَّعليلُ يعني: إثباتَ الحِكمةِ[٦].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ثناءٌ على القُرآنِ مِن حيثُ إنَّه كلامٌ، باستِقامةِ

---

(١) السَّادِرُ: الَّذي لا يَهتَمُّ لِشَيءٍ، ولا يُبالي ما صَنَع. والغُلَواءُ: الغُلُوُّ والتَّجاوُزُ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١١/ ٥٢٨) و (٣٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ألفاظِه؛ لأنَّ اللُّغةَ العَربيَّةَ أفصَحُ لُغاتِ البَشَرِ[١].

٥- قَولُه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ يُستدَلُّ به على أنَّه لا يُوجدُ في القرآنِ لفظٌ أعجميٌّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ القرآنَ كلَّه بأنَّه عربيٌّ، وهذا يقتضي أنَّه ليس فيه شَيءٌ مِن لغةِ العَجَمِ، ولا شكَّ أنَّ هذا هو الواقعُ؛ فليس في القرآنِ لفظٌ أعجميٌّ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ دَلالةٌ على شَرَفِ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ وعِظَمِها[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ يعني: ليس فيه خَلَلٌ ولا نَقْصٌ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ؛ لا في ألفاظِه، ولا في مَعانيه، وهذا يَستلزِمُ كَمالَ اعتِدالِه واستِقامتِه، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾[٤] [الكهف: ١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ جوازُ الشَّرِكةِ، وأنَّها مُشاعةٌ[٥].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أنَّ الحَمدَ المُطلَقَ إنَّما يكونُ للهِ عزَّ وجلَّ، أمَّا غيرُه فهو وإنْ حُمِدَ فليس حَمْدُه على الإطلاقِ، بل يُحمَدُ على شَيءٍ مُعَيَّنٍ وجُزءٍ مُعَيَّنٍ ممَّا يُحمَدُ عليه، أمَّا الحَمدُ على الإطلاقِ فهو للهِ ربِّ العالَمينَ عزَّ وجلَّ؛ فهو المحمودُ على كُلِّ حالٍ[٦].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يُشعِرُ بوقوعِ الهلاكِ بالذين أشرَكوا باللهِ غيرَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١٥). ويُنظر أيضًا: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٢٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٢٥).

كقولِه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] [الأنعام: ٤٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] دَلالةٌ بظاهِرِها على أنَّ الشُّهَداءَ أحياءٌ غيرُ أمواتٍ، وقد قال في الآيةِ هنا لِمَن هو أفضَلُ مِن كُلِّ الشُّهَداءِ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾؟

الجوابُ: أنَّ الشُّهَداءَ يَموتونَ المَوتةَ الدُّنيَويَّةَ، فتُورَثُ أموالُهم، وتُنكَحُ نِساؤُهم بإجماعِ المُسلِمينَ، وهذه المَوتةُ هي الَّتي أخبَرَ اللهُ تعالى نَبيَّه أنَّه يموتُها صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأمَّا الحياةُ الَّتي أثْبَتَها اللهُ للشُّهَداءِ في القُرآنِ، وحياتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّتي ثَبَت في الحديثِ أنَّه يَرُدُّ بها السَّلامَ على مَن سَلَّم عليه[2]: فكِلْتاهما حياةٌ بَرزخيَّةٌ ليست مَعقولةً لأهلِ الدُّنيا، فأمَّا ما جاء في الشُّهَداءِ، فقد نَصَّ تعالى على ذلك بقَولِه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾، وقد فسَّرها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّهم تُجعَلُ أرواحُهم في حواصِلِ طُيورٍ خُضرٍ تَرتَعُ في الجنَّةِ وتأوي إلى قناديلَ مُعَلَّقةٍ تحتَ العَرشِ[3]؛ فهم يتنَعَّمون بذلك، وأمَّا ما ثبت عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أنَّه لا يُسَلِّمُ عليه أحدٌ إلَّا رَدَّ اللهُ عليه رُوحَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٤١)، وأحمد (١٠٨١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
صحَّحه ابنُ باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (١٤/ ١٥٨)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٠٤١)، وصحَّح إسنادَه النَّوويُّ في ((المجموع)) (٨/ ٢٧٢)، وجوَّده العِراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٤٠٩)، وحسَّنه السَّخاويُّ في ((القول البديع)) (ص: ٢٢٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٢٠٤١). وقال ابن حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٤٨٨): (رواته ثقات).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

حتَّى يَرُدَّ عليه السَّلامَ[١]، وأنَّ اللهَ وكَلَ ملائِكةً يُبَلِّغونَه سَلامَ أُمَّتِه[٢]؛ فإنَّ تلك الحياةَ أيضًا لا يَعقِلُ حقيقتَها أهلُ الدُّنيا، وهي ثابتةٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع أنَّ رُوحَه الكريمةَ في أعلى عِلِّيِّينَ مع الرَّفيقِ الأعلى فَوقَ أرواحِ الشُّهَداءِ؛ فتَعَلُّقُ هذه الرُّوحِ الطَّاهرةِ -الَّتي هي في أعلى عِلِّيِّينَ- بهذا البَدَنِ الشَّريفِ الَّذي لا تأكُلُه الأرضُ: يَعلَمُ اللهُ حَقيقتَه ولا يَعلَمُها الخَلْقُ، كما قال في جِنسِ ذلك: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾، ولو كانت كالحياةِ الَّتي يَعرِفُها أهلُ الدُّنيا لَمَا قال الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عنه إنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مات[٣]، ولَمَا جاز دَفْنُه، ولا نُصِبَ خَليفةٌ غَيرُه، ولا قُتِل عُثمانُ، ولا اختلَف أصحابُه، ولا جرَى على عائِشةَ ما جرى، ولَسألوه عن الأحكامِ الَّتي اختلَفوا فيها بعدَه كالعَولِ[٤]، وميراثِ الجَدِّ والإخوةِ... ونحو ذلك، وممَّا يُقرِّبُ هذا للذِّهنِ حياةُ النَّائِمِ؛ فإنَّه يُخالِفُ الحيَّ في جميعِ التَّصَرُّفاتِ، مع أنَّه يُدرِكُ الرُّؤيا، ويَعقِلُ المعانيَ[٥]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا الاختِصامَ مِن مُقتَضَى

---

(١) تقدَّم تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه النسائي (١٢٨٢)، وأحمد (٣٦٦٦) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.
صحَّحه ابنُ حبَّانَ في ((صحيحه)) (٩١٤)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٩/ ٣١١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٢٨٢)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٤٥٦)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ١٥٤)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٣/ ٣٨٦).

(٣) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٦٦٨) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٤) العَول: هو زيادةُ السِّهامِ على أجزاءِ أصلِ المسألةِ وارتفاعُها، أو زيادةُ السِّهامِ على الفريضةِ، فتَعولُ المسألةُ إلى سِهامِ الفريضةِ، فيَدخُلُ النُّقصانُ عليهم بقَدرِ حِصَصِهم. يُنظر: ((تحرير ألفاظ التنبيه)) للنووي (ص: ٢٤٧)، ((المطلع على ألفاظ المقنع)) للبعلي (ص: ٣٦٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤، ٢٥).

رُبوبيَّتِه عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه حَكَمٌ عَدلٌ، ومِن عَدلِه أنَّه يَفصِلُ بيْنَ المُتنازِعِينَ فيه يومَ القيامةِ كما يَفصِلُ بيْنَ المُتنازِعِينَ في الحُقوقِ الخاصَّةِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، وهو تَتِمَّةٌ لِلتَّنويهِ بالقُرآنِ وإرشادِه، ولِلتَّعريضِ بتَسفيهِ أحلامِ الَّذين كَذَّبوا به، وأعرَضوا عن الاهتِداءِ بهَدْيِه(٢).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ فيه تَأكيدُ الخَبَرِ بلامِ القَسَمِ وحَرفِ التَّحقيقِ (قدْ)، وهو مَنظورٌ فيه إلى حالِ الفَريقِ الَّذين لم يَتَدبَّروا القُرآنَ، وطَعَنوا فيه، وأنكَروا أنَّه مِن عِندِ اللهِ(٣).

- والتَّعريفُ في (النَّاسِ) لِلاستِغراقِ، أي: لِجَميعِ النَّاسِ؛ فإنَّ اللهَ بَعَثَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِلنَّاسِ كافَّةً(٤).

- وتَنوينُ ﴿مَثَلٍ﴾ لِلتَّعظيمِ والشَّرَفِ، أيْ: مِن كُلِّ أشرَفِ الأمثالِ، فالمَعنى: ذَكَرْنا لِلنَّاسِ في القُرآنِ أمثالًا هي بَعضٌ مِن كُلِّ أنفَعِ الأمثالِ وأشرَفِها(٥).

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

- انتَصَبَ ﴿قُرْءَانًا﴾ على الحالِ مِن اسمِ الإشارةِ المُبَيَّنِ بالقُرآنِ؛ فالحالُ هنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٦، ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُوطِّئةٌ -على أحدِ الأقوالِ-، والمَقصودُ مِنَ الحالِ التَّوَرُّكُ على المُشركينَ؛ حيثُ تَلَقَّوُا القُرآنَ تَلقِّيَ مَن سَمِعَ كَلامًا لم يَفهَمْه، كأنَّه بِلُغةٍ غَيرِ لُغَتِه، لا يُعيرُه بالًا، كقَولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، مع التَّحدِّي لهم بأنَّهم عَجَزوا عن مُعارَضَتِه وهو مِن لُغَتِهم[١].

- قولُه: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ هذا ثَناءٌ على القُرآنِ بكَمالِ مَعانيه بَعدَ أنْ أُثنيَ عليه باستِقامةِ ألفاظِه، ووَجْهُ العُدولِ عن وَصْفِه بالاستِقامةِ إلى وَصفِه بانتِفاءِ العِوَجِ عنه التَّوسُّلُ إلى إيقاعِ ﴿عِوَجٍ﴾ وهو نَكِرةٌ في سياقِ ما هو بمَعنى النَّفيِ، وهو كَلِمةُ (غَير)، فيُفيدُ انتِفاءَ جِنسِ العِوَجِ على وَجهِ عُمومِ النَّفيِ، أيْ: ليس فيه عِوَجٌ قَطُّ، ولا اختِلافَ فيه بوَجهٍ مِن الوُجوهِ، والاستقامةُ يجوزُ أن تكونَ مِن وجْهٍ دونَ وجهٍ؛ فقولُه: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أبْلَغُ مِن المستقيمِ، وأخَصُّ بالمعاني، ولِأنَّ لَفْظَ ﴿عِوَجٍ﴾ مُختَصٌّ باختِلالِ المَعاني، فيَكونُ الكَلامُ نَصًّا في استِقامةِ مَعاني القُرآنِ؛ لِأنَّ الدَّلالةَ على استِقامةِ ألفاظِه ونَظْمِه قدِ استُفيدَتْ مِن وَصْفِه بكَونِه عَرَبيًّا[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وقال قبْلُ: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]؛ لِأنَّهم إذا تَذَكَّروا يُسِّرتْ عليهمُ التَّقْوى، ولِأنَّ التَّذكُّرَ أنسَبُ بضَربِ الأمثالِ؛ لِأنَّ في الأمثالِ عِبرةً بأحوالِ المُمَثَّلِ به، فهي مُفْضيةٌ إلى التَّذكُّرِ، والاتِّقاءُ أنسَبُ بانتِفاءِ العِوَجِ؛ لِأنَّه إذا استَقامَتْ مَعانيه واتَّضَحتْ، كان العَمَلُ بما يَدعو إليه أيسَرَ، وذلك هو التَّقْوى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٩).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ الآيةَ، استِئنافٌ، وهو مِن قَبيلِ التَّعرُّضِ إلى المَقصودِ بَعدَ المُقدِّمةِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧] تَوطِئةٌ لِهذا المَثَلِ المَضروبِ لِحالِ أهلِ الشِّركِ وحالِ أهلِ التَّوحيدِ، وفي هذا الانتِقالِ تَخلُّصٌ؛ أُتْبِعَ تَذكيرُهم بما ضُرِبَ لهم في القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ على وَجهِ إجمالِ العُمومِ؛ استِقصاءً في التَّذكيرِ، ومُعاوَدةً لِلإرشادِ، وتَخلُّصًا مِن وَصفِ القُرآنِ بأنَّ فيه مِن كُلِّ مَثَلٍ؛ إلى تَمثيلِ حالِ الَّذين كَفَروا بحالٍ خاصٍّ، فهذا المَثَلُ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾، إلى قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]؛ فهو مَثَلٌ لِحالِ مَن شَرَحَ اللهُ صُدورَهم لِلإسلامِ، وحالِ مَن قَسَتْ قُلوبُهم(١).

- قولُه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا ...﴾ فيه مَجيءُ فِعلِ ﴿ضَرَبَ﴾ بصِيغةِ الماضي، مع أنَّ ضَرْبَ هذا المَثلِ ما حَصَل إلَّا في زَمَنِ نُزولِ هذه الآيةِ؛ لِتَقريبِ زَمَنِ الحالِ مِن زَمَنِ الماضي؛ لِقَصدِ التَّشويقِ إلى عِلْمِ هذا المَثَلِ، فيُجعَلُ كالإخبارِ عن أمْرٍ حَصَل؛ لِأنَّ النُّفوسَ أرغَبُ في عِلْمِه، كقَولِ المُثَوِّبِ: قد قامَتِ الصَّلاةُ، وفيه التَّنبيهُ على أنَّه أمْرٌ مُحقَّقُ الوُقوعِ(٢). وقيل: إنَّ فِعلَ (ضرَبَ) مُستعمَلٌ في معنى الأمْرِ، فالمعنى: اضرِبْ لهم مَثلًا، وقُلْ لهم: ما تَقولون في رجُلٍ مِن المَماليكِ قد اشترَكَ فيه شُركاءُ... إلخ؟ والخبَرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هنا مُستعمَلٌ في الطَّلبِ؛ فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَمَّا سمِعَ قولَه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الزمر: ٢٧]، عَلِم أنَّه سيَنزِلُ عليه مَثَلٌ مِن أمثالِ القرآنِ، فأنْبَأه اللهُ بصِدقِ ما عَلِمَه، وجَعَله -لِتَحقُّقِه- كأنَّه ماضٍ. والاستِفهامُ في قولِه: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ سؤالُ تَبكيتٍ؛ فعُدِلَ عن مُقْتضى الظَّاهرِ مِن إلقاءِ ضَرْبِ المثَلِ بصِيغةِ الأمْرِ، إلى إلقائِه بصِيغةِ المُضِيِّ؛ لإفادةِ صِدقِ عِلمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

وقد يُقال: إنَّما عُدِل عن أنْ يُصاغَ بصِيغةِ الطَّلبِ -كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢]، ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥]، ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣]- إلى أنْ صِيغَ بصِيغةِ الخبرِ؛ لِيُتَوسَّلَ بذلك إلى إسنادِه إلى اللهِ؛ تَنويهًا بشَأْنِ المثَلِ[(١)].

- قولُه: ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ...﴾ وما بَعْدَه في مَوضِعِ البَيانِ لـ ﴿مَثَلًا﴾، وجَعْلُ المُمَثَّلِ به حالةَ رَجُلٍ، ليس لِلاحترازِ عنِ امرأةٍ أو طِفلٍ؛ ولكنْ لِأنَّ الرَّجُلَ هو الَّذي يَسبِقُ إلى أذهانِ النَّاسِ في المُخاطَباتِ والحِكاياتِ، ولِأنَّ ما يُرادُ مِنَ الرَّجُلِ مِنَ الأعمالِ أكثَرُ ممَّا يُرادُ مِنَ المَرأةِ والصَّبيِّ، ولِأنَّ الرَّجُلَ أشَدُّ شُعورًا بما هو فيه مِنَ الدَّعةِ أو الكَدِّ، وأمَّا المَرأةُ والصَّبيُّ فقد يَغفُلانِ ويَلهَيانِ[(٢)].

- وهذا تَمثيلٌ لِحالِ المُشرِكِ في تَقسُّمِ عَقلِه بيْنَ آلِهةٍ كَثيرينَ، فهو في حَيرةٍ وشَكٍّ مِن رِضا بَعضِهم عنه، وغَضَبِ بَعضٍ، وفي تَردُّدِ عِبادَتِه إنْ أرضى بها أحَدَ آلِهَتِه، لَعَلَّه يُغضِبُ بها ضِدَّه؛ فرَغَباتُهم مُختَلِفةٌ، وبَعضُ القَبائِلِ أوْلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٤) و (٢٣/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٤٠١).

ببَعضِ الأصنامِ مِن بَعضٍ، ويَبقَى هو ضائِعًا لا يَدري على أيِّهم يَعتَمِدُ؛ فهَمُّه شَعاعٌ (مُتفرِّقٌ)، وقَلْبُه أوزاعٌ -بحالِ مَملوكٍ اشتَرَك فيه مالِكونَ لا يَخلونَ مِن أنْ يَكونَ بَيْنَهمُ اختِلافٌ وتَنازُعٌ، فهم يَتعاوَرونَه في مِهَنٍ شَتَّى، ويَتَدافَعونَه في حَوائِجِهم، فهو حَيرانُ في إرضائِهم، تَعبانُ في أداءِ حُقوقِهم، لا يَستَقِلُّ لَحظةً، ولا يَتمَكَّنُ مِن استِراحةٍ، ويُقابِلُه تَمثيلُ حالِ المُسلِمِ المُوحِّدِ؛ يَقومُ بما كَلَّفَه رَبُّه، عارِفًا بمَرضاتِه، مُؤمِّلًا رِضاه وجَزاءَه، مُستَقِرَّ البالِ؛ بحالِ العَبدِ المَملوكِ الخالِصِ لِمالِكٍ واحِدٍ، قد عَرَف مُرادَ مَولاه، وعَلِم ما أوجَبَه عليه؛ ففَهْمُه واحِدٌ، وقَلبُه مُجتَمِعٌ، وكذلك الحالُ في كُلِّ مُتَّبِعِ حَقٍّ ومُتَّبِعِ باطِلٍ؛ فإنَّ الحَقَّ هو المُوافِقُ لِمَا في الوُجودِ والواقِعِ، والباطِلَ مُخالِفٌ لِما في الواقِعِ، فمُتَّبِعُ الحَقِّ لا يَعتَرِضُه ما يُشَوِّشُ عليه بالَه، ولا ما يُثقِلُ عليه أعمالَه، ومُتَّبِعُ الباطِلِ يَتَعثَّرُ به في مَزالِقِ الخُطى، ويَتَخَبَّطُ في أعمالِه بيْن تَناقُضٍ وخَطَأٍ[1].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ تَقريريًّا، ويَجوزُ أنْ يَكونَ إنكاريًّا، وجيءَ فيه بـ﴿هَلْ﴾؛ لِتَحقيقِ التَّقريرِ أو الإنكارِ، والاقتِصارُ في التَّمييزِ على الواحِدِ لِبَيانِ الجِنسِ، وقد عُرِفَ التَّعدُّدُ مِن فاعِلِ ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾[2]. وأيضًا جاء التَّعبيرُ بقولِه: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ ولم يقُلْ: مَثَلَينِ؛ لأنَّهما كِلَيْهما ضُرِبَا مثَلًا واحدًا؛ فجَرى المثَلُ بالتَّوحيدِ، كما قال جَلَّ ثَناؤه: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]؛ إذ كان مَعناهما

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠١، ٤٠٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٢).

واحدًا في الآيةِ[١].

- وجُملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ جَوابًا لِلاستِفهامِ التَّقريريِّ، بِناءً على أنَّ أحَدَ الظَّرفَينِ المُقَرَّرَ عليهما مُحقَّقُ الوُقوعِ، لا يَسَعُ المُقرَّرَ عليه إلَّا الإقرارُ به، فيُقَدَّرونَ: أنَّهم أقَرُّوا بعَدَمِ استِوائِهما في الحالةِ، أيْ: بأنَّ أحَدَهما أفضَلُ مِنَ الآخَرِ؛ فإنَّ مِثلَ هذا الاستِفهامِ لا يَنتظِرُ السَّائلُ جوابًا عنه. وقد يُبنى على أنَّ المَسؤولَ اعتَرَف، فيُؤتَى بما يُناسِبُ اعترافَه كما هنا، فكَأنَّهم قالوا: لا يَستَويانِ، وذلك هو ما يَبتَغيه المُتكَلِّمُ مِن استِفهامِه، فلَمَّا وافَقَ جَوابُهم بُغيةَ المُستَفهِمِ حَمِدَ اللهَ على نُهوضِ حُجَّتِه، فتَكونُ الجُملةُ استِئنافًا؛ فمَوقِعُها كمَوقِعِ النَّتيجةِ بَعدَ الدَّليلِ، وتكون جُملةُ ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قَرينةً على أنَّهم نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن عَلِم فأقَرَّ، وأنَّهم ليسوا كذلك في الأمْرِ نَفْسِه. ويَجوزُ أنْ تَكونَ مُعتَرِضةً إذا جُعِلَ الاستِفهامُ إنكاريًّا، فتَكونَ مُعتَرِضةً بيْنَ الإنكارِ وبيْنَ الإضرابِ الانتِقاليِّ في قَولِه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أيْ: لا يَعلَمونَ عَدَمَ استِواءِ الحالَتَيْنِ، ولو عَلِموا لاختاروا لأنفُسِهمُ الحُسنَى منهما، ولَمَا أصَرُّوا على الإشراكِ، وأفادَ هذا أنَّ ما انتَحَلوه مِنَ الشِّركِ وتَكاذيبِه لا يَمُتُّ إلى العِلْمِ بصِلةٍ؛ فهو جَهالةٌ واختِلاقٌ[٢].

- قولُه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿بَلۡ﴾ لِلإضرابِ الانتِقاليِّ؛ تَسجيلًا عليهم بالجَهلِ المُفرِطِ، وأنَّهم مِمَّن طُبِعَ على قُلوبِهم، فلا يَلتَفِتونَ إلى هذه البَيانات الظَّاهِرةِ، والحُجَجِ المُتَظاهِرةِ، مع كمالِ ظُهورِها، فيَبْقَون في وَرطةِ الشِّركِ والضَّلالِ، وأسنَدَ عَدَمَ العِلْمِ لِأكثَرِهم؛ لِأنَّ أكثَرَهم عامَّةٌ أتْباعٌ لِزُعَمائِهمُ الَّذين سَنُّوا لهمُ الإشراكَ وشَرائِعَه؛ انتِفاعًا بالجاهِ والثَّناءِ الكاذِبِ، بحيثُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٢، ٤٠٣).

غَشَّى ذلك على عَمَلِهم[١]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾

- جُمْلَتا ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ استِئنافٌ، تَمهيدٌ لِمَا يَعقُبُه مِنَ الاختِصامِ يَومَ القيامةِ، وعُطِفَ على هاتَينِ الجُملتَينِ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ بحَرفِ (ثُمَّ) الدَّالِّ على التَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لأنَّ الإنباءَ بالفَصلِ بيْنَهم يَومَ القيامةِ أهَمُّ في هذا المَقامِ مِنَ الإنباءِ بأنَّهم صائِرونَ إلى المَوتِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ قَدَّم تذكيرَهم بأنَّ النَّاسَ كلَّهم صائِرونَ إلى الموتِ، وهذا مِن انتِهازِ القُرآنِ فُرَصَ الإرشادِ والمَوعِظةِ؛ فالمَقصودُ هو قَولُه: ﴿إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، فاغتُنِمَ هذا الغَرَضُ لِيُجتَلَبَ معه مَوعِظةٌ بما يَتقَدَّمُه مِنَ الحَوادِثِ؛ عَسى أنْ يَكونَ لهم بها مُعتَبَرٌ، فحَصَلتْ بهذا فَوائِدُ؛ منها: تَمهيدُ ذِكرِ يَومِ القِيامةِ، ومِنها التَّذكيرُ بزَوالِ هذه الحَياةِ، فهذانِ عامَّانِ لِلمُشرِكينَ والمُؤمِنينَ. ومنها: حَثُّ المُؤمِنينَ على المُبادَرةِ لِلعَمَلِ الصَّالِحِ. ومِنها: إشعارُهم بأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَموتُ كما مات النَّبيُّونَ مِن قَبلِه؛ لِيَغتَنِموا الانتِفاعَ به في حَياتِه، ويَحرِصوا على مُلازَمةِ مَجلِسِه. ومنها: ألَّا يَختَلِفوا في مَوتِه كما اختَلَفتِ الأُمَمُ في غَيرِه. ومنها: تَعليمُ المُسلِمينَ أنَّ اللهَ سَوَّى في المَوتِ بيْنَ الخَلقِ دُونَ رَعْيٍ لِتَفاضُلِهم في الحياةِ؛ لِتَكثُرَ السَّلوةُ، وتَقِلَّ الحَسرةُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٣، ٤٠٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٤).

- والخِطابُ في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في التَّعريضِ بالمُشركينَ؛ إذْ كانوا يَقولونَ: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، والمَعنى: أنَّ المَوتَ يأتيكَ ويأتيهم، فما يُدري القائِلينَ: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أنْ يَكونوا يَموتونَ قَبْلَكَ؟! وتَأكيدُ الخَبرَيْنِ بـ (إنَّ)؛ لِتَحقيقِ المَعنى التَّعريضيِّ المَقصودِ منهما[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ تَأكيدُ هذه الجُملةِ بـ (إنَّ)؛ لِرَدِّ إنكارِ المُشركينَ البَعثَ[٢].

- وتَقديمُ ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ على ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾؛ لِلاهتِمامِ، ورِعايةِ الفاصِلةِ[٣].

- والاختِصامُ: قيل: هو كِنايةٌ عنِ الحُكمِ بيْنَهم، أيْ: يَحكُمُ بيْنَكم فيما اختَصَمتُم فيه في الدُّنيا؛ مِن إثباتِ المُشركينَ آلِهةً، وإبطالِكم ذلك؛ فهو كقَولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٤]. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الاختِصامُ أُطلِقَ على حِكايةِ ما وَقَعَ بيْنَهم في الدُّنيا حينَ تُعرَضُ أعمالُهم، كما يُقالُ: هذا تَخاصُمُ فُلانٍ وفُلانٍ، في طالعِ مَحضَرِ خُصومةٍ ومُقاوَلةٍ بيْنَهما يُقرَأُ بيْن يَدَي القاضي. ويَجوزُ أنْ تُصوَّرَ خُصومةٌ بيْن الفَريقَينِ يومَئذٍ؛ لِيُفتَضَحَ المُبطِلونَ، ويُبهَجَ أهلُ الحَقِّ، على نَحوِ قَولِه تَعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾[٤] [ص: ٦٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٢-٣٥)

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَثْوًى﴾: أي: منزلٌ ومقامٌ ومَأوًى، والثَّواءُ: الإقامةُ مع الاستِقرارِ[1].

﴿لِيُكَفِّرَ﴾: أي: لِيَستُرَ، ولا يؤاخِذَ، وأصلُ (كفر): سترٌ وتغطيةٌ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى محذِّرًا المشركينَ الَّذين افتَرَوا على الله، وكذَّبوا بالحقِّ: لا أحَدَ أظْلَمُ مِمَّن كذَبَ على اللهِ، وكذَّبَ بالحَقِّ إذ جاءَه مِن قِبَلِ الرَّسولِ، أليس في جَهنَّمَ مُستقَرٌّ للكافِرينَ؟

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه حُسْنَ عاقِبةِ أهلِ الصِّدقِ والإيمانِ، فيقولُ: والَّذين دَعَوا إلى القُرآنِ وما اشتمَلَ عليه مِنَ الحَقِّ، وصَدَّقوا به، أولئكَ هم المتَّقونَ. لهم عِندَ رَبِّهم ما يَشاؤونَ، وذلك جزاءُ الَّذين أحْسَنوا في الدُّنيا؛ لِيُكفِّرَ اللهُ عن المحسِنينَ أسْوَأَ الَّذي عَمِلوه مِنَ السَّيِّئاتِ، ويَجزيَهم اللهُ ثوابَهم بأحسَنِ الَّذي كانوا يَعمَلونَه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤).

في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾.

أي: لا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن كذَبَ على اللهِ، فنَسَب إليه باطِلًا -كمَن زعَمَ أنَّ لله شُرَكاءَ في عبادتِه- وكذَّب بالحَقِّ المُشتَمِلِ على الصِّدقِ حينَ بلَغَه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥، ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٠-٢٣٢).

قال الماوَرْدي: (وفي «الصِّدقِ» قَولانِ؛ أحَدُهما: أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: القُرآنُ. قاله مجاهِدٌ وقَتادةُ. ويحتمِلُ ثالثًا: أنَّه البَعثُ والجَزاءُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالصِّدقِ هنا: التَّوحيدُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الإخبارُ بوحدانيَّةِ الله تعالى، وأنَّه يَبعَثُ عبادَه للجزاءِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٣، ٥٠٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالصِّدق هنا: القُرآنُ: ابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: التَّوحيدُ والقرآنُ: السمرقنديُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨).

وممَّن اختار العمومَ، وأنَّ المرادَ: ما جاء به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم: الزمخشري، وابن عطية، والبيضاوي، وأبو حيَّان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: أليس في جَهنَّمَ مَأوًى ومُستَقَرٌّ لأولئك الَّذين كَفَروا؛ بكَذِبِهم على اللهِ، وتكذيبِهم بالصِّدقِ لَمَّا جاءهم، وكذلك لِكُلِّ كافِرٍ باللهِ تعالى[1]؟

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى الكاذِبَ المكَذِّبَ، وجِنايتَه وعُقوبتَه؛ ذكَرَ الصَّادِقَ المصَدِّقَ وثَوابَه[2].

= ابن عطية)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٠).

قال ابن عثيمين: (قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ أي: بما كان صادِقًا؛ سواءٌ في القرآنِ أو في السُّنَّةِ، فإنَّه داخلٌ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٢-٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أي: والَّذين دَعَوا إلى القُرآنِ وما اشتمَلَ عليه مِنَ الحَقِّ، وصدَّقوا به: هم الَّذين تَتحَقَّقُ فيهم صِفةُ التَّقْوى لله تعالى(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٦، ٢٠٨)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٢/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤١-٢٤٤).

قال ابن جرير: (اختَلَف أهلُ التَّأويلِ في الَّذي جاءَ بالصِّدْقِ وصَدَّق به، وما ذلك؟ فقال بعضُهم: الَّذي جاءَ بالصِّدْقِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قالوا: والصِّدْقُ الَّذي جاء به: لا إلهَ إلَّا اللهُ، والَّذي صَدَّق به أيضًا هو رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم...

وقال آخَرونَ: الَّذي جاء بالصِّدْقِ: رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والَّذي صَدَّقَ به: أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه...

وقال آخَرونَ: الَّذي جاء بالصَّدْقِ: رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والصِّدْقُ: القرآنُ، والمُصَدِّقون به: المؤمِنونَ...

وقال آخَرونَ: الَّذي جاء بالصِّدْقِ جبريلُ، والصِّدْقُ: القرآنُ الَّذي جاء به مِن عِنْدِ اللهِ، وصَدَّق به رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم...

وقال آخَرونَ: الَّذي جاء بالصِّدْقِ: المؤمِنون، والصِّدْقُ: القرآنُ، وهم المُصَدِّقون به ...). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٤، ٢٠٥). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (ذكر البخاريُّ في «صحيحه» تفسيرَ مجاهِدٍ، وهو أصَحُّ تفاسيرِ التَّابعينَ، قال: «﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ القُرآنِ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ المؤمِنُ يجيءُ يومَ القيامةِ يقولُ: هذا الَّذي أعطَيْتَني عَمِلتُ بما فيه». فذكَرَ الصِّدقَ والمصَدِّقَ به مُثْنيًا عليه، وذكَرَ الكاذِبَ والمكَذِّبَ للحَقِّ، وهما نوعانِ مِن القَولِ مَلْعونانِ هما وأهلُهما). ((الاستقامة)) (١/ ٢٢٤، ٢٢٥). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٢٥) و(٩/ ١٥٢).

وقال ابنُ كثير: (وهذا القولُ عن مُجاهِدٍ يَشمِلُ كلَّ المؤمنينَ؛ فإنَّ المؤمنَ يقولُ الحقَّ ويَعمَلُ به، والرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم أَوْلى النَّاسِ بالدُّخولِ في هذه الآيةِ على هذا التَّفسيرِ؛ فإنَّه جاء بالصِّدقِ، وصَدَّقَ المُرسَلينَ، وآمَنَ بما أُنزِل إليه مِن ربِّه والمؤمنونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (لَفظُ الآيةِ عامٌّ مُطلَقٌ، لا يَختَصُّ بأبي بَكرٍ ولا بعَليٍّ، بل كلُّ مَن دخَلَ في =

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا مَدَحَهم على تَقْواهم؛ قال في جوابِ مَن سأَلَ عن ثَوابِهم، لافِتًا القَولَ إلى صِفةِ الإحسانِ تعريفًا بمَزيدِ إكرامِهم(١):

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾.

= عُمومِها دخَل في حُكمِها، ولا رَيبَ أنَّ أبا بكرٍ وعُمَرَ وعُثمانَ وعَليًّا أحَقُّ هذه الأمَّةِ بالدُّخولِ فيها، لكِنَّها لا تختَصُّ بهم، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ * وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٢، ٣٣] الآيةَ، فقد ذمَّ اللهُ سبحانه وتعالى الكاذِبَ على الله والمكذِّبَ بالصِّدقِ، وهذا ذمٌّ عامٌّ). ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ١٨٩، ١٩٠). ويُنظر: ((مقدمة في أصول التفسير)) لابن تيمية (ص: ٣٧).

وقال ابن جرير: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه عَنى بقولِه: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ كلَّ مَن دعا إلى توحيدِ الله، وتصديقِ رُسُلِه، والعملِ بما ابتُعِث به رسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ مِن بيْنِ رسولِ الله وأتْباعِه والمؤمنينَ به، وأن يُقالَ: الصِّدقُ هو القرآنُ، وشَهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، والمُصَدِّقُ به: المؤمنونَ بالقرآنِ، مِن جميعِ خَلْقِ الله كائنًا مَن كان، مِن نبيِّ الله وأتْباعِه...). ثم ذكَرَ حُجَّتَه في ترجيحِ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٦).

وقال ابن عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ معادلٌ لقولِه: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ﴾ [الزمر: ٣٢]، ﴿فَمَنۡ﴾ هنالك للجميعِ والعُموم، فكذلك هاهنا هي للجنسِ أيضًا، كأنَّه قال: والفريقُ الَّذي جاء بعضُه بالصِّدقِ وصدَّق بعضُه، ويستقيمُ المعنى واللَّفظُ على هذا التَّرتيبِ ...، وهو أصْوَبُ الأقوالِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣١).

وقال السعدي: (﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ في قولِه وعمَلِه، فدخل في ذلك الأنبياءُ ومَن قام مَقامَهم، ممَّن صدَق فيما قاله عن خبرِ الله وأحكامِه، وفيما فعَلَه مِن خِصالِ الصِّدقِ. ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أي: بالصِّدقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٦).

أي: لأولئك المتَّقينَ عندَ رَبِّهم يومَ القيامةِ ما تَشتَهيه أنفُسُهم في الجنَّةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق: ٣٥].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: ذلك النَّعيمُ ثَوابُ الَّذين أحسَنوا في الدُّنيا[٢].

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٥﴾.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾.

أي: لِيُكفِّرَ[٣] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

قوله: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ هم الَّذين أحسَنوا في عبادةِ الله، فعبَدوه كأنَّهم يَرَوْنه، فإن لم يَكونوا يَرَوْنه فإنَّه يَراهم، وأحسَنوا إلى عِبادِ الله. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٦).

قال ابن عاشور: (الإحسانُ: هو كمالُ التَّقْوى؛ لأنَّه فسَّره النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه: «أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه» [البخاريُّ «٥٠»، ومسلم «٩»]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩).

(٣) قيل: التَّعليلُ هنا راجِعٌ إلى جزاء المحسِنينَ، أي: وجزى هؤلاء المحسِنينَ رَبُّهم بإحسانِهم؛ كي يُكَفِّرَ عنهم أسْوَأَ الَّذي عَمِلوه في الدُّنيا مِن أعمالٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والكرماني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٤١)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠١٤). =

اللهُ عن المُحسِنينَ أسْوَأَ الَّذي عَمِلوه مِنَ السَّيِّئاتِ[(١)].

= قال الرسعني: (قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ اللَّامُ مِن صِلةِ قولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٣٤]). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٥٢).

وقال أبو السعود: (﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ إلخ مُتعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ [الزمر: ٣٤]، لكنْ لا باعتِبارِ مَنطوقِه؛ ضرورةَ أنَّ التَّكفيرَ المذكورَ لا يُتصَوَّرُ كَوْنُه غايةً لِثُبوتِ ما يَشاؤونَ لهم في الآخرةِ، كيف لا وهو بعضُ ما سيَثْبُتُ لهم فيها، بل باعتِبارِ فَحْواهُ؛ فإنَّه حيثُ لم يكنْ إخبارًا بما ثبت لهم فيما مَضَى -بل بما سيَثْبُتُ لهم فيما سيأتي- كان في معنَى الوعدِ به). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤).

وقيل: التَّعليلُ راجِعٌ إلى الإحسانِ، أي: لَمَّا كان المحسِنُ مَن جَعَل أكبَرَ ذُنوبِه نُصبَ عَينَيه، وعَمِل على هَدْمِه؛ علَّل الإحسانَ بقَولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾، كأنَّه قال: المحسِنون الَّذين أحسَنوا لهذا الغَرَضِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٧).

وقيل: اللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾ لامُ العاقبةِ، أي: عاقِبةُ التَّقْوى أن يُكفِّرَ اللهُ عنهم أسْوَأَ الَّذي عَمِلوا. واستظهَر هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٨).

وقال النَّيسابوري: (قولُه: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾ ظاهرُه تعلُّقُه بـ ﴿يَشَآءُونَ﴾؛ فتكونُ لامَ العاقبةِ). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٦).

ويحتمِلُ أن تكونَ للتَّعليلِ، بمعنى: أنَّهم اتَّقَوُا اللهَ؛ مِن أجْلِ التَّكفيرِ. ذكره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠).

قال ابنُ عاشور: (و﴿أَسْوَأَ﴾ يَجوزُ أن يكونَ باقيًا على ظاهرِ اسمِ التَّفضيلِ مِن اقتِضاءِ مُفَضَّلٍ عليه... ويجوزُ أن يكونَ «أَسْوَأ» مَسْلوبَ المُفاضَلةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠).

والقولُ بأنَّ أسْوَأَ اسمُ تفضيلٍ: هو ظاهرُ اختيارِ ابنِ جرير، ومكِّي، وابن الجوزي، واختاره الرسعني، واستظهره أبو حيان، وهو اختيار الشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣١). =

= وممَّن اختار أنَّ المعنى: أنَّ اللهَ تعالى يُكَفِّرُ عنهم أسْوَأَ أعمالِهم، فما ظَنُّك بغيرِ الأسْوَأِ، فإذا غفَر لهم ما هو الأسْوَأُ مِن أعمالِهم غفَر لهم ما دونَه بطريقةِ الأَوْلى: الرسعنيُّ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣١).

وقال الماوَرْدي: (قولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ قبْلَ الإيمانِ والتَّوبةِ. ووَجْهٌ آخَرُ: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ مِنَ الصَّغائِرِ؛ لأنَّهم يَتَّقونَ الكبائِرَ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٧).

وانتقَد الرَّسْعَنيُّ هذَينِ الوَجهَينِ بأنَّه لا معنَى لهما؛ لأنَّ مَدلولَ الأوَّلِ أنَّ المُصَدِّقَ لا يَعمَلُ عَمَلًا يُوصَفُ بالأسوَأِ، ولأنَّ الثَّانيَ مُشعِرٌ أنَّ المُصدِّقَ لا يَقَعُ في كبيرةٍ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٥٢).

وقال الألوسي: (وقال غيرُ واحدٍ: «أفْعَلُ» على ما هو الشَّائعُ، والأسْوَأُ: الكفرُ السَّابقُ على التَّقْوى والإحسانِ، والمرادُ: تكفيرُ جميعِ ما سلَف منهم قبْلَ الإيمانِ مِن المعاصي بطريقٍ برهانيٍّ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦٠).

وذكر ابنُ عاشور أنَّه بِناءً على هذا القولِ فالمرادُ بأسْوَأِ عَمَلِهم هو: أعظَمُه سُوءًا، وهو الشِّركُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠).

وقال الرَّسْعَني: (وقيل: الَّذي فَرَطَ منهم هو عندَهم الأسْوَأُ؛ لاستِعظامِهم المعصيةَ، والحَسَنُ الَّذي يَعمَلونَه هو عندَ الله الأحسَنُ؛ لحُسنِ إخلاصِهم فيه؛ فلذلك ذَكَر سَيِّئَهم بالأسْوَأِ، وحَسَنَهم بالأحسَنِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٥٢). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٠).

وقال الألوسي: (لأنَّ التَّفضيلَ هنا مِن بابِ الزِّيادةِ المُطْلَقةِ مِن غيرِ نظرٍ إلى مُفَضَّلٍ عليه، نظرًا إلى وُصولِه إلى أقصى الغايةِ الكماليَّةِ، ثمَّ لَمَّا كانوا مُتَّقِينَ كامِلِي التُّقَى لم يكُنْ في عمَلِهم أسْوَأُ إلَّا فرضًا وتقديرًا). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦٠).

وممَّن نصَّ على أنَّ ﴿أَسْوَأَ﴾ بمعنى سَيِّئٍ، أي: أنَّه مَسلوبُ المُفاضَلةِ: جلالُ الدِّينِ المحلي. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١١).

قال النسفي: (إضافةُ ﴿أَسْوَأَ﴾ و«أحسَن» مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى ما هو بعضُه مِن غيرِ تفضيلٍ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٨٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨).

وقال أبو السعود: (وإضافةُ الأسوأِ والأحسنِ إلى ما بعدَهما ليستْ مِن قبيلِ إضافةِ المفضَّلِ إلى المفضَّلِ عليه، بل مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى بعضِه؛ للقصدِ إلى التَّحقيقِ والتَّوضيحِ، مِن غيرِ =

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر سبحانَه ما يَدُلُّ على دفعِ المَضارِّ عنهم؛ ذَكَر ما يدُلُّ على جَلْبِ أعظَمِ المنافعِ إليهم[1].

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: ويَجزيَهم اللهُ ثَوابَهم بأحسَنِ الَّذي كانوا يَعمَلونَه مِنَ الطَّاعاتِ[2].

= اعتبارِ تفضيلِه عليه، وإنَّما المُعتبرُ فيهما مطلقُ الفضلِ والزِّيادةِ، لا على المضافِ إليه المعيَّنِ بخصوصِه...، وحمْلُ الزِّيادةِ على الحقيقةِ وإنْ أمكَنَ في الأوَّلِ [أي: قولِه: ﴿أَسْوَأَ﴾] بناءً على أنَّ تخصيصَ الأسْوَأِ بالذِّكرِ لبيانِ تكفيرِ ما دُونَه بطريقِ الأولويَّةِ ضرورةَ استِلزامِ تكفيرِ الأسْوَأِ لتكفيرِ السَّيِّئِ، لكنْ لَمَّا لم يكُنْ ذلك في الأحسَنِ كان الأحسَنُ نظْمَهما في سلكٍ واحدٍ مِن الاعتِبارِ). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠).

وقال السعدي: (عَمَلُ الإنسانِ له ثَلاثُ حالاتٍ: إمَّا أسْوَأُ، أو أحسَنُ، أو لا أسْوَأُ ولا أحسَنُ؛ والقِسمُ الأخيرُ قِسمُ المباحاتِ وما لا يَتعَلَّقُ به ثَوابٌ ولا عِقابٌ، والأسْوَأُ: المعاصي كُلُّها، والأحسَنُ: الطَّاعاتُ كُلُّها؛ فبهذا التَّفصيلِ يَتبَيَّنُ معنى الآيةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧).

قال أبو حيان: (والظَّاهرُ أنَّ ﴿بِأَحْسَنِ﴾ أفعَلُ تفضيلٍ، فقيل: لِينظرَ إلى أحسَنِ طاعاتِه فيُجزى الباقي في الجزاءِ على قياسِه، وإن تخلَّف عنه بالتَّقصيرِ. وقيل: بأحسَنِ ثَوابِ أعمالِهم. وقيل: بأحسَنَ مِن عمَلِهم، وهو الجنَّةُ، وهذا يَنْبو عنه ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى﴾). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤، ٢٠٥).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: يَجزيهم بأجرِ أحسَنِ الأعمالِ، وهي الجنَّةُ: الماوَرْديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧).

وقيل: المرادُ بالأحسَنِ: الأحسَنُ مِن الطَّاعاتِ؛ فثَمَّ حَسَنٌ وأحسَنُ منها، فإذا كان جزاءُ أحسَنِ أعمالِهم أنَّ لهم ما يَشاؤونَ عندَ رَبِّهم، كان جزاءُ ما هو دونَ الأحسَنِ مِن أعمالِهم جَزاءً دُونَ =

قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦، ٩٧].

= ذلك. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١).

وممَّن نصَّ على أنَّ أحْسَنَ هنا بمعنى حَسَنٍ، أي: أنَّه مَسلوبُ المُفاضَلةِ: جلالُ الدِّينِ المحلِّي. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١١).

وقيل: المعنى: يَجزيهم بمحاسِنِ أعمالِهم، ولا يَجزيهم بمَساوئِها. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ الجوزي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٧٠).

وقيل: المرادُ بالأحسَنِ: الطَّاعاتُ كُلُّها. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

قال الشوكاني: (وإضافةُ الأحسَنِ إلى ما بَعْدَه ليست مِن إضافةِ المفَضَّلِ إلى المفَضَّلِ عليه، بل مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى بَعضِه؛ قَصدًا إلى التَّوضيحِ، مِن غَيرِ اعتِبارِ تَفضيلٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣١). ويُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٨٠).

قال الزمخشري: (وأمَّا التَّفضيلُ فإيذانٌ بأنَّ... الحَسَنَ الَّذي يَعمَلونَه هو عندَ اللهِ الأحسَنُ؛ لحُسنِ إخلاصِهم فيه، فلذلك ذكَرَ... حَسَنَهم بالأحسَنِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨).

وقيل: المعنى: أنَّ اللهَ يَعُدُّ لهم مَحاسِنَ أعمالِهم بأحسَنِها في زيادةِ الأجرِ وعِظَمِه؛ لفَرطِ إخلاصِهم فيها. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البيضاوي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٤٨).

قال الألوسي: (جُوِّزَ أن يكونَ المعنى: لَنَجزيَنَّهم بحَسَبِ أحسَنِ أفرادِ أعمالِهم، أي: لَنُعطيَنَّهم بمُقابَلةِ الفَردِ الأَدنى مِن أعمالِهم ما نُعطيه بمُقابَلةِ الفَردِ الأعلى منها مِنَ الأجرِ الجَزيلِ، لا أنَّا نُعطي الأجرَ بحَسَبِ أفرادِها المُتفاوِتةِ في مَراتِبِ الحُسنِ بأنْ نَجزيَ الحَسَنَ منها بالحَسَنِ، والأحسَنَ بالأحسَنِ). ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٦١).

وقال ابنُ عثيمين: (بَشَّرهم بأنَّه يَجزيهم أحسَنَ ما كانوا يَعمَلونَ، لا أنَّه يَجزيهم الحَسَنةَ بمِثلِها، بل أحسَنَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٠).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا أحسَنَ أحَدُكم إسلامَه، فكُلُّ حَسَنةٍ يَعمَلُها تُكتَبُ له بعَشرِ أمثالِها إلى سَبْعِ مِئةِ ضِعفٍ، وكُلُّ سَيِّئةٍ يَعمَلُها تُكتَبُ له بمِثلِها))(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- تجِدُ كثيرًا من المُنتَسِبينَ إلى عِلمٍ ودينٍ لا يَكذِبونَ فيما يَقولونَه، بل لا يَقولونَ إلَّا الصِّدقَ، لكِنْ لا يَقبَلونَ ما يُخبِرُ به غَيرُهم مِنَ الصِّدقِ، بل يَحمِلُهم الهَوى والجَهلُ على تَكذيبِ غَيرِهم وإن كان صادِقًا؛ إمَّا تكذيبِ نَظيرِه، وإمَّا تكذيبِ مَن ليس مِن طائفتِه. ونَفْسُ تَكذيبِ الصَّادِقِ هو مِنَ الكَذِبِ؛ ولهذا قرَنَه بالكاذِبِ على اللهِ، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾: هو مَن شَأنُه الصِّدقُ في قَولِه وعَمَلِه وحالِه، فالصِّدقُ: في هذه الثَّلاثةِ؛ فالصِّدقُ في الأقوالِ: استِواءُ اللِّسانِ على الأقوالِ كاستِواءِ السُّنبُلةِ على ساقِها، والصِّدقُ في الأعمالِ: استِواءُ الأفعالِ على الأمرِ والمُتابعةِ كاستِواءِ الرَّأسِ على الجَسَدِ، والصِّدقُ في الأحوالِ: استِواءُ أعمالِ القَلبِ والجوارِحِ على الإخلاصِ، واستِفراغُ الوُسعِ، وبَذْلُ الطَّاقةِ؛ فبذلك يكونُ العَبدُ مِن الَّذين جاؤوا بالصِّدقِ، وبحَسَبِ كمالِ هذه الأُمورِ فيه وقيامِها به تكونُ صِدِّيقيَّتُه(٣)، ولا يَكْفي صِدقُك، بل لا بدَّ مِن صدقِك وتصديقِك للصادِقينَ، فكثيرٌ مِن النَّاسِ

(١) رواه البخاري (٤٢) واللَّفظُ له، ومسلم (١٢٩).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٥٨).

يَصدُقُ، ولكنْ يَمنَعُه مِن التَّصديقِ كِبْرٌ أو حسدٌ أو غيرُ ذلك[١]، فلا بدَّ في المدحِ مِن الصِّدقِ والتَّصديقِ؛ فصِدقُه يدُلُّ على عِلمِه وعدلِه، وتصديقُه يدُلُّ على تَواضُعِه وعدَمِ استِكبارِه[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فيه الحَثُّ على الإحسانِ؛ والأمرُ بالإحسانِ والحَثُّ عليه كثيرٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ، والإحسانُ يَتَضَمَّنُ الإحسانَ في عبادةِ اللهِ تعالى، والإحسانَ إلى عبادِ اللهِ تعالى، والإحسانُ إلى عبادِ اللهِ تعالى يكونُ بالقولِ وبالفعلِ وبالجاهِ وغيرِ ذلك مِن أنواعِ الإحسانِ، فلا تَدَّخِرْ وُسْعًا في بَذْلِ الإحسانِ إلى إخوانِك؛ فإنَّ ذلك ممَّا يكونُ سببًا لدُخولِ الجنَّةِ، ويكونُ أيضًا سببًا في عَونِ اللهِ تعالى لك؛ فإنَّ اللهَ تعالى في عَوْنِ العبدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيه[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فيه أنَّ الكَذِبَ على اللهِ تعالى أظلَمُ أنواعِ الكَذِبِ، وإذا كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ كَذِبًا علَيَّ ليس ككَذِبٍ على أحَدٍ!))[٤]، فما بالُكم بالكَذِبِ على اللهِ تعالى الَّذي أرسَلَه[٥]؟!

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ فيه

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم في مقدمة ((صحيحه)) (٤) من حديث المُغيرةِ بنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٧).

سؤالٌ، فـ (أظلمُ) صيغةُ تفضيلٍ، أي: أنَّه يفوقُ غيرَه، ويفضلُه في الظُّلمِ، وإذا كان المعنى: لا أحدَ أظلمُ ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾، فإنَّ هذا يُشكِلُ عليه آياتٌ أُخرى، كقولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]، مما قد يُتوهَّمُ منه شِبهُ تعارضٍ.

الجوابُ مِن وجهَين:

أحدُهما: أنَّه لا تعارُضَ أصلًا بيْن الآياتِ؛ وإنَّما دلَّت الآياتُ على أنَّ كلَّ مَن ذُكِرَ في قولِه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا يُمكِنُ أنْ يَفوقَه أحدٌ مِن أهلِ الدُّنيا في الظُّلمِ، إلَّا أنَّهم جميعًا مُتساوونَ لا يَفوقُ بعضُهم بعضًا، وهمْ يَفوقون غيرَهم في الظُّلمِ، كما لو قلْتَ: ليس في هذا البلدِ أعلَمُ مِن زَيدٍ، وليس فيه أعلَمُ مِن عَمرٍو -وزيدٌ وعمرٌو مُستويانِ في العِلمِ-؛ فتكون صادقًا، ولا مُعارَضةَ بيْن قولَيك.

الوجهُ الثَّاني: أنَّها تَتخصَّصُ بِصلاتِها، وعليه فيكونُ المعنى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [الأعراف: ٣٧]: أنَّه لا أحَدَ مِن جِنسِ المفترينَ أظلَمُ ممَّن افترى على اللهِ كذِبًا، ولا أحَدَ مِن جِنسِ المانِعينَ أظْلَمُ ممَّن منَعَ مَساجِدَ اللهِ، ولا أحَدَ مِن جِنسِ المكذِّبينَ أظلَمُ ممَّنْ كذَبَ على اللهِ وكذَّبَ بالصِّدْقِ... وهكذا[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وُجوبُ التَّحَرِّي في تفسيرِ القُرآنِ؛ لأنَّ المُفَسِّرَ للقُرآنِ شاهِدٌ على اللهِ تعالى بأنَّه أرادَ كذا وكذا، وقد

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢)، و(٣/ ٢٠٩). ويُنظر أيضًا: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٧٤-٧٧).
والوجهُ الأوَّلُ مُخرَّجٌ على قاعدةِ: (نفْيُ التَّفضيلِ لا يَستلزِمُ نفْيَ المُساواةِ). يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٥٢٨).

يكونُ الأمرُ على خِلافِ ذلك، فيكونُ كاذِبًا على اللهِ[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أنَّ مَنِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ وهو كاذِبٌ فهو مِن أكفَرِ الكُفَّارِ، وأظلَمِ الظَّالِمينَ[٢].

٥- أنَّ مَن كَذَّبَ بالشَّيءِ المباشِرِ له فهو أعظمُ ممَّن كَذَّب بما سَمِع؛ لأنَّ الواسِطةَ بيْنَه وبيْنَ الواقعِ قد تُضْعِفُ مَقامَ الصِّدْقِ عندَه؛ لقَولِه تبارك وتعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾[٣].

٦- قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ في قَولِه: ﴿مَثْوًى﴾ بَيانُ خَطَأِ ما يُطلِقُه كَثيرٌ مِن النَّاسِ اليومَ: إذا مات الإنسانُ قالوا: ذَهَبَ إلى مَثواهُ الأخيرِ! فإذا جُعِلَ القَبرُ هو المَثوى الأخيرَ فلا بَعثَ، ولكِنَّ كَثيرًا مِن العامَّةِ يأخُذونَ الكَلِماتِ لا يُفَكِّرون في معناها، والمَثوى الأخيرُ هو إمَّا الجنَّةُ وإمَّا النَّارُ، وعلى هذا فيَجِبُ التَّنبُّهُ لهذه العبارةِ[٤]!

٧- قولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه أنَّ المؤمنَ لا يَخْلُدُ في النَّارِ؛ لقولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، والمؤمنُ ليستِ النَّارُ مَثوًى له! بل إنْ عُذِّبَ في النَّارِ - على قَدْرِ ذَنْبِه - فمآلُه إلى الجنَّةِ[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ فائدةٌ أصوليَّةٌ، وهي: أنَّ المَوصولَ مِن صِيَغِ العُمومِ؛ فقد أخبَرَ عن الاسمِ المَوصولِ (الَّذي) -وهو اسمٌ مُفرَدٌ- بكلمةٍ دالَّةٍ على الجَمعِ، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ولم يقُلْ: هو المُتَّقي، وذلك لأنَّ الاسمَ الموصولَ يُفيدُ العُمومَ، وإن كان مُفرَدًا[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مَدْحُ مَن جاء بالصِّدقِ وصَدَّق بالحَقِّ الَّذي جاءه، وهذه حالُ مَن لم يَقبَلْ إلَّا الصِّدقَ، ولم يَرُدَّ ما يَجيئُه به غَيرُه مِن الصِّدقِ، بل قَبِلَه ولم يُعارِضْ بيْنَهما، ولم يَدفَعْ أحَدَهما بالآخَرِ[٢]، وأمَّا مَن لم يُصَدِّقْ بما يَشُكُّ فيه فلا حَرَجَ عليه[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ سُؤالٌ: هذا الوَعدُ يَدخُلُ فيه كُلُّ ما يَرغَبُ المكَلَّفُ فيه، فإنْ قيلَ: لا شَكَّ أنَّ الكَمالَ مَحبوبٌ لِذَاتِه، مَرغوبٌ فيه لِذَاتِه، وأهلُ الجنَّةِ لا شَكَّ أنَّهم عُقَلاءُ، فإذا شاهَدوا الدَّرَجاتِ العاليةَ الَّتي هي للأنبياءِ وأكابِرِ الأَولياءِ، عَرَفوا أنَّها خَيراتٌ عاليةٌ، ودَرَجاتٌ كامِلةٌ، والعِلمُ بالشَّيءِ مِن حيثُ إنَّه كَمالٌ وخَيرٌ يُوجِبُ المَيلَ إليه، والرَّغبةَ فيه، وإذا كان كذلك فهم يَشاؤونَ حُصولَ تلك الدَّرَجاتِ لأنفُسِهم؛ فوَجَب حُصولُها لهم بحُكمِ هذه الآيةِ! وأيضًا فإنْ لم يَحصُلْ لهم ذلك المرادُ كانوا في الغُصَّةِ ووَحشةِ القَلبِ!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤١، ٢٤٥).

قال الشنقيطي: (قد تَقَرَّرَ عندَ العلماءِ أن لفظةَ «الَّذي» تأتي بمعنَى «الَّذين»، وإتيانُ «الَّذي» بمعنَى «الَّذين» أمْرٌ لا شَكَّ فيه، وهو كثيرٌ في القرآنِ وفي كلامِ العربِ، وإيضاحُه: أنَّ لفْظَ «الَّذي» مُفْرَدٌ، وأنَّ معناها جَمْعٌ؛ لأنَّه اسمٌ مَوصولٌ، والمَوصولاتُ صِيَغُ عُمومٍ؛ تَعُمُّ كلَّ ما تَشملُه صِلاتُها، فقد يُراعَى لفظُ «الَّذي» فيُفرَدُ، وقد يُراعى معناه وهو شاملٌ لِكُلِّ ما تَشملُه صِلَتُه فيَعُمُّ، ويكونُ بمعنَى الجَمعِ. وإتيانُ «الَّذي» بمعنَى «الَّذين» في القرآنِ العظيمِ وفي كلامِ العربِ كثيرٌ جِدًّا، فمِن أمثلتِه في القرآنِ العظيمِ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ﴾ [البقرة: ١٧] أي: كمثلِ الَّذينَ اسْتَوْقَدُوا، بدليلِ قولِه بعدَه يَليهِ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]. وكقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾؛ لأنَّ معناه: والَّذين جاؤوا بالصِّدقِ وصَدَّقُوا به، بدليلِ قولِه بعدَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾). ((العذب النمير)) (٥/ ٦٣٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٥).

الجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى يُزيلُ الحِقدَ والحَسَدَ عن قُلوبِ أهلِ الآخِرةِ، وذلك يقتَضي أنَّ أحوالَهم في الآخرةِ بخِلافِ أحوالِهم في الدُّنيا(١).

ويجوزُ أنَّ اللهَ يُلهِمُهم أنْ يَشاؤوا ما لا يتجاوزُ قَدْرَ ما عيَّن اللهُ مِن الدَّرجاتِ في الجنَّةِ؛ فإنَّ أهلَ الجنَّةِ مُتفاوِتونَ في الدَّرَجاتِ.

ويجوزُ أنَّ ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ ممَّا يقعُ تحتَ أنظارِهم في قُصورِهم، ويَحجُبُ اللهُ عنهم ما فوقَ ذلك بحيثُ لا يَسألون إلَّا ما هو مِن عطاءِ أمثالِهم، وهو عظيمٌ، ويَقلعُ اللهُ مِن نفوسِهم ما ليس مِن حُظوظِهم.

ويجوزُ أنَّ ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ كنايةٌ عن سَعةِ ما يُعطَوْنَه(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أنَّهم سَلَّموا له في الأُولى ما يَشاءُ؛ فسَلَّم لهم في الأُخرى ما يَشاؤونَ(٣).

١٢- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥] فهؤلاء الصِّدِّيقونَ المُتَّقونَ قد أخبَرَ سُبحانَه أنَّ لهم أعمالًا سَيِّئةً يُكَفِّرُها، ولا رَيبَ أنَّها ظُلمٌ للنَّفْسِ، وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٥]، فأخبَرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨، ٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٦).

سُبحانَه عن صِفاتِ المتَّقينَ، وأنَّهم يقَعُ منهم ظُلمُ النَّفْسِ، والفاحِشةُ، لكِنْ لا يُصِرُّونَ على ذلك[١]. فليس مِن شرطِ أولياءِ اللهِ المُتَّقينَ ألَّا يَكونوا مُخْطِئينَ في بعضِ الأشياءِ خطأً مغفورًا لهم! بل ولا مِن شرطِهم تَرْكُ الصَّغائرِ مُطلقًا! بل ولا مِن شرطِهم تَرْكُ الكبائرِ أو الكفرِ الَّذي تَعْقُبُه التَّوبةُ! فقد وَصَفَهم اللهُ تعالى بأنَّهم هم المُتَّقونَ -والمُتَّقون هم أولياءُ اللهِ-؛ ومع هذا فأَخْبَر أنَّه يُكَفِّرُ عنهم أسْوَأَ الَّذي عمِلوا[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ «أسوأُ» اسمُ تفضيلٍ، وهو على بابِه -وذلك على قولٍ-؛ فإذا كان اللهُ تعالى يُكَفِّرُ عنهم أسْوَأَ ما عَمِلوا، فما دونَه مِن بابِ أَولى، ويكونُ التَّعبيرُ بالأسْوَأِ مِن بابِ البِشارةِ لهم[٣]، وفيه دَلالةٌ على سُقوطِ العِقابِ عنهم على أكمَلِ الوُجوهِ، ومعنَى تكفيرِها أن يَستُرَها عليهم بالمَغفِرةِ[٤]، وقد عُلِمَ أنَّه إذا مُحِيَ الأكبَرُ انمحَى الأصغَرُ؛ لأنَّ الحَسَناتِ يُذهِبْنَ السَّيِّئاتِ؛ فلِلَّه دَرُّ أهلِ البَصائرِ، والإخلاصِ في الإعلانِ والسَّرائرِ[٥].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، وقولُه: ﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فيه أنَّ الخَطَراتِ الَّتي تَخطُرُ على القُلوبِ لا حُكمَ لها؛ وقد جاء الحديثُ مُؤَيِّدًا لذلك، فقال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ اللهَ تَجاوَزَ عن أُمَّتي ما حَدَّثَتْ به أنفُسَها، ما لم تَعمَلْ أو تَتكلَّمْ))[٦].

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٤٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٠). =

١٥- قال تعالى: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فمَن كان في هذه الدَّارِ مُحسِنًا في وَقتٍ ما، يَعبُدُ اللهَ كأنَّه يَراه؛ فهو في الآخِرةِ كُلَّ حينٍ يَراه[١]! قال القُشَيْرِيُّ: (ثمَّ أحسَنُ الأعمالِ عليها أحسَنُ الثَّوابِ، وأحسَنُ الثَّوابِ الرُّؤيةُ؛ فيَجِبُ أن تكونَ على الدَّوامِ)[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ بيانٌ وتَفسيرٌ للَّذين يكونُ بيْنَهم الخُصومةُ[٣].

- وأفادَتِ الفاءُ في قولِه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ تَفْريعَ ما بعدَها على ما قَبْلَها تَفريعَ القَضاءِ عن الخُصومةِ الَّتي في قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]؛ فالاختِصامُ كُنِّيَ به عن الحُكمِ بيْنَهم فيما خالَفوا فيه وأنْكَروهُ[٤]. وقد كُنِّيَ عن كَونِهم مَدينِينَ بتَحْقيقِ أنَّهم أظلَمُ؛ لأنَّ مِن العَدلِ ألَّا يُقَرَّ الظَّالِمُ على ظُلمِه، فإذا وُصِفَ الخَصمُ بأنَّه ظالِمٌ، عُلِمَ أنَّه مَحْكومٌ عليه[٥].

= والحديث أخرجه البخاري (٥٢٦٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٢٧) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وأيضًا في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ قد عُدِلَ عن صَوغِ الحُكمِ عليهم بصِيغةِ الإخْبارِ إلى صَوغِه في صُورةِ الاستِفْهامِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ السَّامِعَ لا يَسَعُه إلَّا الجَوابُ بأنَّهم أظلَمُ؛ فالاستِفهامُ كِنَايةٌ، مُرادٌ به أنَّهم أظلَمُ الظَّالِمِين، وأنَّه لا ظالِمَ أظلَمُ منهم، فآلَ مَعْناه إلى نَفيِ أنْ يكونَ فَريقٌ أظلَمَ منهم؛ فإنَّهم أتَوْا أصْنافًا مِن الظُّلمِ العَظيمِ: ظُلمِ الاعتِداءِ على حُرمةِ الرَّبِّ بالكَذِبِ في صِفاتِه؛ إذْ زَعَموا أنَّ له شُرَكاءَ في الرُّبوبيَّةِ، والكَذِبِ عليه بادِّعاءِ أنَّه أمَرَهم بما هم عليه مِن الباطِلِ، وظُلمِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَكْذيبِه، وظُلمِ القُرآنِ بنِسْبَتِه إلى الباطِلِ، وظُلمِ المُؤمِنينَ بالأذى، وظُلمِ حَقائِقِ العالَمِ بقَلْبِها وإفْسادِها، وظُلمِ أنفُسِهم بإقْحامِها في العذابِ الخالِدِ[1].

- وعُدِلَ عن الإتيانِ بضَميرِهم إلى الإتيانِ بالموصولِ ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن الإيماءِ إلى وَجهِ كَونِهم أظلَمَ النَّاسِ، وإنَّما اقتُصِرَ في التَّعْليلِ على أنَّهم كَذَبوا على اللهِ، وكَذَّبوا بالصِّدقِ؛ لأنَّ هَذَينِ الكَذِبَينِ هُما جِماعُ ما أتَوْا به مِن الظُّلمِ[2].

- قولُه: ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي: وَقْتَ مَجيئِه، وهذا يدُلُّ على أنَّه كذَّبَ بالحَقِّ بمُجرَّدِ بُلوغِه إيَّاه بدُونِ مُهلةٍ، وفاجَأَهُ بالتَّكْذيبِ مِن غَيرِ فِكرٍ، ولا ارْتياءٍ، ولا نَظَرٍ، ومِن غَيرِ وَقفةٍ لإعْمالِ رُؤيةٍ، ولا اهتِمامٍ بمَيْزٍ بيْنَ حقٍّ وباطِلٍ، بلْ وَقتَ مَجيئِه كذَّبَ به[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥، ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦).

- وجمُلةُ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ مُبيِّنةٌ لِمَضْمونِ جُملةِ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾، أي: أنَّ ظُلْمَهم أوجَبَ أنْ يَكونَ مَثْواهُم في جَهنَّمَ[١].

- والاستِفْهامُ ﴿أَلَيْسَ﴾ تَقْريريٌّ، وإنَّما وُجِّهَ الاستِفْهامُ إلى نَفْيِ ما المقصودُ التَّقْريرُ به، جَرْيًا على الغالِبِ في الاستِفْهامِ التَّقْريريِّ، وهي طَريقةُ إرْخاءِ العِنانِ للمُقرَّرِ بحيثُ يُفتَحُ له بابُ الإنكارِ، عِلمًا مِن المُتكلِّمِ بأنَّ المُخاطَبَ لا يَسَعُه الإنكارُ، فلا يَلبَثُ أنْ يُقِرَّ بالإثباتِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الاستِفْهامُ إنْكاريًّا؛ ردًّا لاعتِقادِهِم أنَّهم ناجُونَ مِن النَّارِ، الدَّالِّ عليه تَصميمُهم على الإعْراضِ عن التَّدبُّرِ في دَعْوةِ القُرآنِ[٢].

- وفيه تَوعُّدٌ للكافِرينَ تَوعُّدًا فيه احتِقارُهم على جِهةِ التَّوقيفِ[٣].

- وقولُه: ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ ممَّا قامَ فيه الظَّاهِرُ مَقامَ المُضمَرِ، أي: مَثوًى لهم، وفيه تَنبيهٌ على عِلَّةِ كَذِبِهم وتَكْذيبِهم، وهو الكُفرُ[٤]، وأفاد الإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ أيضًا العمومَ -أي أنَّه مَثْوًى له ولغيرِه مِن الكافرينَ-، وتسجيلَ الوصفِ على هؤلاء بأنَّهم كفَّارٌ[٥].

أو التَّعريفُ في (الكافِرينَ) للجِنْسِ المُفيدِ للاستِغْراقِ، فشَمِلَ الكافِرينَ المُتحَدَّثَ عنهم شُمولًا أوَّليًّا، وتكونُ الجُملةُ مُفيدةً للتَّذْييلِ أيضًا، ويكونُ اقتِضاءُ مَصيرِ الكافِرينَ المُتحَدَّثِ عنهم إلى النَّارِ ثابتًا بشِبهِ الدَّليلِ الَّذي يعُمُّ مَصيرَ جَميعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦، ٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٢).

الجِنْسِ الَّذي هُمْ من أصْنافِه، وليس في الكلامِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ[١].

- والجَمْعُ في الكافِرينَ باعتِبارِ معْنَى (مَن) في قَولِه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ فإنَّه يُرادُ به جَمْعٌ، كما أنَّ الإفْرادَ في الضَّمائرِ السَّابقةِ باعتِبارِ لَفظِها، أو لجِنْسِ الكَفَرةِ، وهُم داخِلونَ في الحُكمِ دُخولًا أوَّليًّا[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

- جُملةُ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ صِلةُ مَوصولٍ مَحْذوفٍ، تَقْديرُه: والَّذي صدَّقَ به، والقَرينةُ ظاهِرةٌ؛ لأنَّ الَّذي صَدَّقَ غَيرُ الَّذي جاءَ بالصِّدقِ؛ فالعَطفُ عَطفُ جُملةٍ كامِلةٍ، وليس عَطْفَ جُملةِ صِلةٍ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ كِنايةٌ عن كَونِه صَلَواتُ اللهِ عليه صارَ صادِقًا بسَبَبِ القُرآنِ؛ وذلك أنَّه صَلَواتُ اللهِ عليه جاءَ بالصِّدقِ الَّذي هو القُرآنُ -على أحدِ الأوجُهِ في التَّفسيرِ-، وسُمِّيَ بالصِّدقِ مُبالَغةً، كما أشارَ إليه بقَولِه: ﴿بِٱلصِّدْقِ﴾ أي: بالأمْرِ الَّذي هو الصِّدقُ بعَينِه، أي: جاءَ بالقُرآنِ الَّذي هو مَحضُ الصِّدقِ، والحالُ أنَّه هو السَّبَبُ في صَيْرورتِه صادِقًا؛ لأنَّه مُعجِزةٌ، والمُعجِزةُ تَصْديقٌ مِن اللهِ الَّذي لا يُصَدِّقُ إلَّا الصَّادِقَ[٤].

- وقولُه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ مُعادِلٌ لِقَولِه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾. وقَولُه: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ مُقابِلٌ لِقَولِه: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾، و(الَّذي) جِنسٌ، كأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٨٥).

قال: والفريقُ الَّذي جاء بالصِّدقِ، ويدُلُّ عليه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾؛ فإنَّه جمْعٌ، كما أنَّ قولَه: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ يُرادُ به جمْعٌ؛ ولذلك قال: ﴿مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ فإنَّه سبحانه لَمَّا ذَكَر الظَّالِمينَ بالكذِبِ ذَكَر أضْدادَهم الَّذين يُخاصِمونَهم عِندَ ربِّهم -وهم المُحسِنون- بالصِّدقِ، ولعلَّه أفْردَ الضَّميرَ إشارةً إلى قِلَّةِ المَوصوفِ بهذا الوصفِ مِن الصِّدقِ، وهذا الفريقُ هو الرُّسُلُ وأتْباعُهم؛ ولذلك حصَرَ التَّقْوَى فيهم بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[1].

- والضَّميرُ في (بِه) في قولِه: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ﴾ يجوزُ أنْ يعودَ على (الصِّدقِ)، ويجوزُ أنْ يعودَ على (الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ)، والتَّصْديقُ بكِلَيْهِما مُتلازِمٌ، وإذْ قد كان المُصَدِّقونَ بالقُرآنِ أو بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَن ثَبَتَ له هذا الوَصْفُ كان مُرادًا به أصْحابُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهُم جمَاعةٌ، فلا تَقَعُ صِفَتُهم صِلةً (للَّذِي)؛ لأنَّ أصْلَه للمُفرَدِ؛ فتَعيَّنَ تَأويلُه بـ (فَريقٍ)، وقَرينَتُه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾، وإنَّما أُفرِدَ عائِدُ المَوْصولِ في قَولِه: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ رَعْيًا لِلَفْظِ (الَّذي)؛ وذلك كُلُّه مِن الإيجازِ[2].

وقيلَ: جِيءَ بقَولِه: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ على الإفْرادِ، ثمَّ حُمِلَ عليه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾، وحُكِمَ بقَولِه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾، والتَّأويلُ أنْ يُقالَ: إنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إمامُ أُمَّتِه وقُدوَتُهم، وإنَّ مَجيئَه بالصِّدقِ وتَصْديقَه كمَجيئِهم به وتَصْديقِهم، كما يُقالُ لِرَئيسِ القَومِ وكَبيرِهِم: يا فُلانُ، افْعَلوا، ونحوُه قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨).

أي: مُوسى وقَومَه، بدَليلِ قَولِه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[١] [المؤمنون: ٤٩].

- وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ خَبرٌ عن اسْمِ المَوصُولِ (الَّذي). وجِيءَ باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وهو للبعيدِ -مع دُنُوِّ التَّحدُّثِ عنهم- لعُلُوِّ مرتبتِهم[٢]، وللعِنايةِ بتَمْييزِهم أكمَلَ تَمْييزٍ. وضَميرُ الفَصْلِ ﴿هُمُ﴾ يُفيدُ قَصْرَ جِنْسِ المُتَّقينَ على الَّذي جاءَ بالصِّدقِ وصَدَّقَ به؛ لأنَّه لا مُتَّقِيَ يَومَئذٍ غَيرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه، وكُلُّهم مُتَّقونَ، والمَعْنى: أولئك هُمُ الَّذين تحقَّقَ فيهم ما أُريدَ مِن إنْزالِ القُرآنِ الَّذي أُشيرَ إليه في قَولِه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٣] [الزمر: ٢٨].

- وفي هذه الآيةِ والآيةِ السَّابِقةِ احتِباكٌ[٤]: فذَكَر الكَذِبَ والتَّكذيبَ أوَّلًا؛ دليلًا على الصِّدقِ والتَّصديقِ ثانيًا، والاتِّقاءَ وجزاءَه وما يَتْبَعُه ثانيًا؛ دَليلًا على ضِدِّه أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّه ذَكَر في شِقِّ المُسيءِ أنْكَأَ ما يكونُ مِن الكَذِبِ والتَّكذيبِ في أقبَحِ مَواضِعِه -ولا سيَّما عندَ العرَبِ-، وأسَرَّ ما يكونُ في شِقِّ المحسِنِ مِن استِقامةِ الطَّبعِ وحُسنِ الجَزاءِ[٥].

- وجُملةُ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بيانيًّا؛ لأنَّهم لَمَّا قُصِرَ عليهم جِنسُ المُتَّقينَ كان ذلك مُشعِرًا بمَزِيَّةٍ عَظيمةٍ، فكان يَقتَضي أنْ يَسأَلَ السَّامِعُ عن جَزاءِ هذه المَزِيَّةِ؛ فبُيِّنَ له أنَّ لهم ما يَشاؤُونَ عِندَ اللهِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٦).

و﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ هو ما يُريدونَ ويَتمنَّونَ، أي: يُعْطيهمُ اللهُ ما يَطلُبونَ في الجَنَّةِ. ويجوزُ أنَّ ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ كِنايةٌ عَن سَعةِ ما يُعطَوْنَه[١].

- وفي قَولِه: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عُدِلَ عن اسْمِ الجَلالةِ إلى وَصْفِ ﴿رَبِّهِمْ﴾؛ إيماءً إلى أنَّه يُعْطيهم عطاءَ الرُّبوبيَّةِ، والإيثارِ بالخَيرِ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تَنويهٌ بالوَعدِ الصَّادِقِ مِن اللهِ، والمُشارُ إليه هو ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾؛ لِمَا تَضمَّنَه مِن أنَّه جَزاءٌ لهم على التَّصْديقِ، وأُشيرَ إليه باسْمِ الإشارةِ؛ لِتضَمُّنِه تَعْظيمًا لِشَأنِ المُشارِ إليه[٣].

- والمُرادُ بالمُحْسِنينَ: أولئك المَوْصوفونَ بأنَّهم المُتَّقونَ، وكان مُقتَضَى الظَّاهِرِ أنْ يُؤْتى بضَميرِهم فيُقالَ: ذلك جَزاؤُهم؛ فوقَعَ الإظهارُ في مَقامِ الإضْمارِ لإفادةِ الثَّناءِ عليهم بأنَّهم مُحسِنونَ، ونُبِّهَ بالظَّاهِرِ على العِلَّةِ المُقتَضِيةِ لِحُصولِ الثَّوابِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

- اللَّامُ في قولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ...﴾ للتَّعْليلِ، وهي مُتعلِّقةٌ بـ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: الَّذين أحْسَنُوا لِيُكفِّرَ، أو تَتعلَّقُ بفِعلٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، والمَعْنى: أنَّ اللهَ وَعَدَهُم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨، ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩).

وَعْدًا مُطلَقًا؛ لِيُكفِّرَ عنهم أَسْوَأَ ما عَمِلوهُ، أي: ما وَعَدَهُم بذلك الجَزاءِ إلَّا لأنَّه أرادَ أنْ يُكفِّرَ عنهم سَيِّئاتِ ما عَمِلوا، والمَقْصودُ مِن هذا الخَبَرِ إعْلامُهم به؛ لِيَطمَئِنُّوا من عَدَمِ مُؤاخَذَتِهم على ما فَرَطَ منهم مِن الشِّركِ وأحْوالِه[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ ...﴾ إظهارُ اسْمِ الجَلالةِ (الله) في مَوضِعِ الإضْمارِ بضَميرِ (ربِّهم)؛ لِزَيادةِ تَمكُّنِ الإخبارِ بتَكْفيرِ سيِّئاتِهم تَمْكينًا لاطْمِئْنانِ نُفوسِهم بوَعْدِ رَبِّهم، ولإبرازِ كَمالِ الاعتِناءِ بمَضْمونِ الكلامِ[2].

- وإضافةُ الأسْوَأِ والأحسَنِ إلى ما بَعْدَهما في قَولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ قيل: هي مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى بَعضِه؛ للقَصدِ إلى التَّحْقيقِ والتَّوْضيحِ مِن غَيرِ اعتِبارِ تَفْضيلِه عليه، والزِّيادةُ المُعتَبَرةُ فيهما هي في الأوَّلِ بالنَّظرِ إلى ما يَليقُ بحالِهم مِن استِعْظامِ سَيِّئاتِهم وإنْ قَلَّتْ، واستِصْغارِ حَسَناتِهم وإنْ جَلَّتْ، والثَّاني بالنَّظَرِ إلى لُطفِ أكرَمِ الأكْرَمينَ مِن استِكْثارِ الحَسَنةِ اليَسيرةِ، ومُقابَلَتِها بالمَثُوباتِ الكَثيرةِ[3].

- والجَمْعُ بيْنَ صِيغتَيِ الماضِي والمُستَقبَلِ في صِلةِ المَوْصولِ الثَّاني ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دُونَ الأوَّلِ ﴿ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾؛ للإيذانِ باستِمْرارِهم على

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥).

الأعمالِ الصَّالحةِ بخِلافِ السَّيِّئةِ[١]، ودوامِهم على الخَيرِ مجدِّدينَ له وقتًا بعدَ وقتٍ؛ لأنَّه في طبائعِهم، فهم عَريقونَ في تعاطيه[٢].

- والباءُ في قَولِه: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ للسَّبَبيَّةِ، أي: يَجْزيهم أجْرًا على أحسَنِ أعْمالِهم، وإذا كان الجَزاءُ على العَمَلِ الأحسَنِ بهذا الوَعدِ، وهو ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ فدَلَّ على أنَّهم يُجازَونَ على ما هو دُونَ الأحسَنِ مِن مَحاسِنِ أعْمالِهم؛ بدَلالةِ إيذانِ وَصفِ (الأحسَنِ) بأنَّ عِلَّةَ الجَزاءِ هِيَ الأحسَنيَّةُ، وهي تَتضمَّنُ أنَّ لِمَعْنى الحُسنِ تأثيرًا في الجَزاءِ، فإذا كان جزاءُ أحسَنِ أعْمالِهم أنَّ لهم ما يَشاؤُونَ عِندَ ربِّهم، كان جزاءُ ما هو دُونَ الأحسَنِ مِن أعْمالِهم جزاءً دُونَ ذلك؛ بأنْ يُجازَوْا بزِيادةٍ وتَنْفيلٍ على ما استَحَقُّوهُ على أحسَنِ أعْمالِهم بزِيادةِ تَنعُّمٍ، أو كَرامةٍ، أو نَحوِ ذلك[٣]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، بلَفظِ (الَّذي)، وقال في سُورةِ (النَّحلِ): ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦]، بلَفظِ (ما)؛ ووَجْهُه: أنَّ هذه السُّورةَ خُصَّتْ بـ(الَّذي)؛ لِيُوافِقَ ما قبْلَه، وهو: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾، وقبْلَه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾، وخُصَّت سُورةُ (النَّحلِ) بـ(ما) للمُوافَقةِ أيضًا، وهو قولُه: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النحل: ٩٥]، و﴿مَا عِندَكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١).

يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[النحل: ٩٦]؛ فتَلاءَمَ اللَّفظانِ في السُّورتينِ[١]. وقيل: لَمَّا كان مَقصودُ هذه السُّورةِ أخَصَّ مِن مَقصودِ سُورةِ (النَّحلِ)، وكانت (الَّذي) و(مَنْ) أقَلَّ إبهامًا مِن (ما)؛ قال: (الَّذي)، أي: العمَلُ الَّذي، وهو مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى ما هو بعْضُه، كخاتمِ فِضَّةٍ[٢].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٨).

الآيات (٣٦-٤١)

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾: أي: اللهُ كافِيَّ، يُقالُ: أعطاني فأحْسَبَني، أيْ: كَفاني، وأصلُ (حسب) هنا: الكِفايةُ[١].

﴿مَكَانَتِكُمْ﴾: أي: طَريقتِكم الَّتي أنتم عليها، تقولُ للرَّجُلِ إذا أمَرْتَه أن يَثبُتَ على حالِه: على مكانَتِك يا فُلانُ، أي: اثبُتْ على ما أنت عليه[٢].

﴿يُخْزِيهِ﴾: أي: يُذِلُّه ويُهينُه، وأصلُه هنا: الإبعادُ[٣].

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾: أي: يَنزِلُ به، ويجِبُ عليه، وأصلُ (حلل): فَتْحُ الشَّيءِ، ومنه:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٩- ٦١)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠) و(٨/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٦٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٠).

حلَّ أي: نزَل؛ لأنَّ المسافِرَ يَشُدُّ ويَعقِدُ، فإذا نزلَ حَلَّ[١].

﴿بِوَكِيلٍ﴾: أي: حافِظٍ وكَفيلٍ، وأصلُ (وكل): يدُلُّ على اعتِمادِ غَيرِك في أمْرِك[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: أليس اللهُ بكافٍ عَبْدَه كُلَّ سُوءٍ؟! ويُخَوِّفُك مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- بمَنْ دونَ اللهِ! ومَن يُضِلَّه اللهُ عن طريقِ الحَقِّ فلا أحَدَ يَهديه إليه، ومَن يَهدِه اللهُ إلى الحَقِّ فلا أحَدَ يُضِلُّه، أليس اللهُ بعزيزٍ ذي انتِقامٍ مِن الكُفَّارِ والمكَذِّبينَ؟!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى ما كان عليه هؤلاءِ المشركونَ مِن تناقُضٍ، فيقولُ: ولئِنْ سألْتَ المُشرِكينَ -يا مُحمَّدُ-: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه. قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهم: أرَأيْتُم الآلِهةَ الَّتي تَدْعُونَها مِن دونِ اللهِ: هل تَقدِرُ أن تَكشِفَ عنِّي ما يُصيبُني مِن ضُرٍّ إن أراده اللهُ بي، أو هل تَقدِرُ أن تمنَعَ عنِّي رَحمةَ رَبِّي إن أرادَها اللهُ بي؟!

قُلْ -يا مُحمَّدُ-: يَكفيني اللهُ وَحْدَه، عليه وَحْدَه يَعتَمِدُ المتوكِّلونَ.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُهدِّدَهم بسوءِ المصيرِ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: يا قَومِ، اعمَلوا على طريقتِكم ومنهجِكم فأنا عامِلٌ بمَنهجي الَّذي أمَرَني اللهُ به؛ فسوف تَعلَمونَ مَن يأتيه في الدُّنيا عَذابٌ يُخزيه ويُذِلُّه، ومَن يَنزِلُ عليه عَذابٌ مُستَمِرٌّ لا يُفارِقُه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨، ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

ثمَّ يقولُ تعالى مُسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّا أنزَلْنا عليك -يا مُحمَّدُ- القُرآنَ للنَّاسِ بالحَقِّ، فمَنِ اهتدَى فإنَّما يَعودُ نَفْعُ ذلك على نَفْسِه، ومَن ضَلَّ فإنَّما يَعودُ وَبالُ ذلك على نَفْسِه، وما أنتَ -يا مُحمَّدُ- بمُوكَّلٍ باهتِداءِ النَّاسِ؛ فتَقهَرَهم على اتِّباعِ الحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ضرَب اللهُ عزَّ وجلَّ مَثَلًا للمُشرِكينَ والمُؤمِنينَ بمَثَلِ رَجُلٍ فيه شُرَكاءُ مُتَشاكِسونَ ورَجُلٍ خالِصٍ لِرَجُلٍ، كان ذلك المَثَلُ مُثيرًا لأنْ يقولَ قائِلُ المُشرِكينَ: لَتَتألَّبَنَّ شُركاؤُنا على الَّذي جاء يُحَقِّرُها ويَسُبُّها، ومُثيرًا لِحَمِيَّةِ المُشرِكينَ أنْ يَنتَصِروا لآلِهَتِهم، ورُبَّما أنْطَقَتْهم حَمِيَّتُهم بتَخْويفِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلمَّا حَكى تَكْذيبَهم النَّبيَّ عَطَفَ الكَلامَ إلى ما هدَّدوه به وخوَّفوه مِن شَرِّ أصْنامِهم[1].

وأيضًا لَمَّا فُهِم مِن قولِه: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢] أنَّ المشركينَ يُكَذِّبونَه، وكان مِن طبْعِ الآدَميِّ الاهتِمامُ بمِثلِ ذلك ولا سيَّما إذا كان المُكَذِّبُ كثيرًا وقَوِيًّا، وتقرَّر أنَّه سُبحانَه الحَكَمُ العدْلُ بيْنَ المُتخاصِمينَ وغيرِهم في الدُّنيا والآخرةِ، ولَزِمَ كلَّ سامِعٍ الإقرارُ بالآخرةِ، وبشَّرَ المُحسِنينَ وحذَّرَ المُسيئينَ، وكان مِن المعلومِ أنَّهم يُحَذِّرونَه آلهتَهم كما يُحَذِّرُهم إلهَه؛ حَسُنَ كُلَّ الحُسنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢).

قولُه مُقرًّا للكِفايةِ غايةَ الإقرارِ، ومُنكرًا لِنَفْيِها كلَّ الإنكارِ[١]:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿عِبَادَهُۥ﴾ جَمعُ عَبدٍ، فيَدخُلُ فيهم كُلُّ مَن عبَدَ اللهَ مِن الأنبياءِ والمُؤمِنينَ. وقيل: المرادُ: عِبادُه الأنبياءُ[٢].

٢- قِراءةُ: ﴿عَبْدَهُۥ﴾ بالإفرادِ. قيل: المرادُ به: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقيل: يحتمِلُ أنَّه لَفظُ جِنسٍ يَشملُ جميعَ عبادِ اللهِ، فتَكونُ بمعنى القِراءةِ الأُولى[٣].

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾.

أي: أليس اللهُ كافيًا مَن قام بعُبوديَّتِه[٤] .....

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٨).

(٢) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٨)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٩٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢، ٣٦٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٨)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥).

(٤) قيل: المرادُ بـ﴿عَبْدَهُۥ﴾: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والزمخشري، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣).
وقيل: المرادُ العُمومُ في كُلِّ مَن قام بعُبوديَّةِ اللهِ تعالى وأداءِ حُقوقِه، فكُلُّ مَن كان عبدًا لله تعالى حقًّا فإنَّ اللهَ تعالى كافيه. ومِمَّن ذهب إلى هذا العُموم: ابنُ القيِّم، وابنُ كثير، وابن رجب، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، =

كلَّ سُوءٍ، وعاصِمًا له مِن كُلِّ كَيدٍ[١]؟

كما قال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقال الله سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ المقَدِّمةَ؛ رَتَّب عليها النَّتيجةَ المطلوبةَ؛ فإنَّه إذا ثبَت أنَّ اللهَ كافٍ عبْدَه، كان التَّخويفُ بغيرِ الله عبَثًا وباطلًا[٢].

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

أي: ويُخَوِّفُك مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- بمَنْ دونَ اللهِ أنَّهم يَنالونَك بسُوءٍ[٣]!

= ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢، ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٥، ٢٥٦).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾: مِن دونِ اللهِ مِن الأوثانِ والأصنامِ، أي: ممَّا يَعبُدون. ومِمَّن ذهب إلى هذا في الجُملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابن الجوزي، وابن كثير، =

كما قال تعالى حكايةً عن قَولِ عادٍ لِنَبيِّهم هودٍ عليه السَّلامُ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ [هود: ٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أطنَبَ سُبحانَه في شَرحِ الوَعيدِ والوَعدِ، والتَّرهيبِ والتَّرغيبِ؛ خَتَم الكَلامَ بخاتِمةٍ هي الفَصلُ الحَقُّ(١).

وأيضًا لَمَّا اشتمَلَت الآيةُ على مُهتَدِينَ وضالِّينَ؛ أخبَرَ أنَّ ذلك كُلَّه هو فاعِلُه(٢).

وأيضًا لَمَّا كان مِنَ الحَقِّ الواضِحِ كالشَّمسِ أنَّ ما قالوه لا يَقولُه عاقِلٌ، وكان التَّقديرُ: «فقد أضَلَّهم اللهُ إهانةً لهم، وهداك إكرامًا لك»؛ بيَّنَ أنَّه سُبحانَه قسَرَهم

= والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ومجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٢٩).

وقيل: المرادُ: العمومُ؛ فمَن دونَ اللهِ يَشملُ الأصنامَ وغيرَها، كالجِنِّ، وذَوِي السُّلطانِ، وغَيرِهم. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٥، ٢٥٦).

قال القرطبي: (ويَدخُلُ في الآيةِ تخويفُهم النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بكثرةِ جمعِهم وقوَّتِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٥).

على ذلك؛ لِيَكونَ إضلالُه لهم آيةً، كما أنَّ هُداه لِمَن هداه آيةٌ؛ فقال مُخَفِّفًا عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في إذهابِ نَفْسِه عليهم حَسَراتٍ، دامِغًا للقَدَرِيَّةِ[١]:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

أي: ومَن يُضِلَّه اللهُ عن طريقِ الحَقِّ فلا أحدَ يَهديه إليه[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾.

أي: ومَن يَهْدِه اللهُ إلى الحَقِّ فلا أحَدَ يُضِلُّه عنه[٣].

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا لم تَبقَ شُبهةٌ ولا شَيءٌ مِن شَكٍّ أنَّ الهاديَ المُضِلَّ إنَّما هو اللهُ وَحْدَه، وأنَّه جَعَل شَيئًا واحِدًا سَبَبًا لضَلالِ قَومٍ -لِيَكونَ ضَلالُهم في الظَّاهِرِ عِلَّةً للنِّقمةِ- وهُدًى لآخَرينَ، فيَكونَ هُداهم سَبَبًا للنِّعمةِ؛ بلَغَ النِّهايةَ في الحُسنِ قَولُه[٤]:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٠).

أي: أليس اللهُ عَزيزًا في انتِقامِه مِن الكُفَّارِ، مَنيعَ الجَنابِ، قاهِرًا للعبادِ، وبعِزَّتِه يَكفي عَبْدَه ويَدفَعُ عنه مَكْرَ أعدائِه؛ ذا انتِقامٍ مِن الجاحِدينَ وحدانيَّتَه، المكَذِّبينَ رُسُلَه، العاصِينَ أمْرَه[1]؟

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أطنَبَ تعالى في وعيدِ المُشرِكينَ، وفي وَعْدِ الموحِّدينَ؛ عاد إلى إقامةِ الدَّليلِ على تَزييفِ طريقةِ عَبَدةِ الأصنامِ[2].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

أي: ولَئِنْ سألْتَ المُشرِكينَ -يا مُحمَّدُ-: مَنِ الَّذي خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه هو خالِقُهما[3].

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١١، ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

قال القرطبي: (وإذا كان اللهُ هو الخالِقَ، فكيف يُخَوِّفونك بآلهتِهم الَّتي هي مخلوقةٌ لله تعالى، وأنت رَسولُ الله الَّذي خلَقَها، وخَلَق السَّمواتِ والأرضَ؟!). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨).

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا أقَرُّوا بالخالقِ -وهو اللهُ سُبحانَه- أخْبَرهم أنَّه تَعالَى هو المُتصرِّفُ في نَبيِّهِ بما أرادَ؛ فإنَّ تلك الأصْنامَ الَّتي يَدْعونَها آلِهةً مِن دُونِهِ لا تَكشِفُ ضُرًّا، ولا تُمسِكُ رَحْمةً، أي: صِحَّةً وسَعةً في الرِّزقِ ونحو ذلك[1].

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشركينَ الَّذين أقَرُّوا بأنَّ اللهَ وَحْدَه خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ: أرأَيْتُم الآلِهةَ الَّتي تَدْعونَها مِن دُونِ اللهِ: هل تَقدِرُ على كَشْفِ ما يُصيبُني مِن ضُرٍّ إن أراد اللهُ أن يُصيبَني به[2]؟

﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾.

أي: أو هل تَقدِرُ آلهتُكم أن تَمنَعَ عنِّي رَحمةَ رَبِّي إن أراد اللهُ أن يُصيبَني بها[3]؟

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦، ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقرَّر أنَّه تعالى كافِيه، وأنَّ أصنامَهم لا تَضُرُّ ولا تَنفَعُ؛ أمَرَه تعالى أن يُعلِمُ أنَّه تعالى هو حَسْبُه، أي: كافيه[١].

﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: يَكفيني اللهُ وَحْدَه مِن كُلِّ شَيءٍ، فأنا أفَوِّضُ إليه جميعَ أُموري، وأعتَمِدُ عليه وَحْدَه دونَ غَيرِه؛ على اللهِ وَحْدَه يَعتَمِدُ المتوكِّلونَ في جَلْبِ مَصالِحِهم، ودَفْعِ مَضارِّهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أبلَغَهم اللهُ مِن المَوعِظةِ أقصَى مَبلَغٍ، ونَصَب لهم مِنَ الحُجَجِ أسْطَعَ حُجَّةٍ، وثَبَّت رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أرسَخَ تَثبيتٍ: لا جَرَمَ أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُوادِعَهم مُوادَعةَ مُستَقرِبِ النَّصرِ، ويُواعِدَهم ما أُعِدَّ لهم مِن خُسرٍ[٣].

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: يا قَومِ، اعمَلوا على طَريقتِكم ومَنهَجِكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨، ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩).

وحالَتِكم الَّتي رَضِيتُموها لأنفُسِكم، وجمَدْتُم عليها[١]، أمَّا أنا فعامِلٌ بمَنهجي الَّذي أمَرَني اللهُ به[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ * وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا

---

(١) قال الشوكاني: (﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على حالَتِكم الَّتي أنتم عليها، وتمكَّنْتُم منها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٣).

قيل: المرادُ: ما هم عليه مِنَ الشِّركِ بالله تعالى. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنين، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

وقيل: المرادُ: ما هم عليه مِن العداوةِ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن قال بذلك: الزمخشريُّ، وأبو السعود، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠).

وقيل: المرادُ كِلا الأمْرَينِ، أي: ما هم عليه مِن الكُفرِ والعداوةِ والإيذاءِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: النسفيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (١/ ٥٣٩) و (٣/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٢، ٢٨٣).

قال الشوكاني: (﴿إِنِّى عَـٰمِلٌ﴾ أي: على حالتي الَّتي أنا عليها، وتمكَّنْتُ منها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٣).

قيل: المرادُ بقَولِه: ﴿إِنِّى عَـٰمِلٌ﴾: على ما أنا عليه مِن الهدَى. وممَّن اختاره: ابنُ أبي زَمَنين، والماوَرْديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٨).

وقال الخازنُ: (﴿إِنِّى عَـٰمِلٌ﴾ أي: بما أُمِرتُ به مِن إقامةِ الدِّينِ). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٨).

وقال السعدي: (﴿إِنِّى عَـٰمِلٌ﴾ على ما دعَوْتُكم إليه مِن إخلاصِ الدِّينِ لله تعالى وَحْدَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

وقال ابنُ عاشورٍ: (أرادَ مِنْ ﴿إِنِّى عَـٰمِلٌ﴾ أنَّه ثابتٌ على عَمَلِه في نُصحِهم ودعوتِهم إلى ما يُنَجِّيهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠).

مُنتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢].

﴿... فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

أي: فسوفَ تَعلَمونَ مَن يأتيه في الدُّنيا عذابٌ مِنَ اللهِ يُذِلُّه ويُهينُه[1].

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

أي: ومَن يَنزِلُ عليه في وَقتِه المحدَّدِ له عَذابٌ مُستَمِرٌّ لا يُفارِقُه[2].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى فَسادَ مَذاهِبِ المشركين؛ تارةً بالدَّلائِلِ، وتارةً بضَربِ الأمثالِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٣-٢٨٥).

قال الشوكاني: (أي: يُهينُه ويُذِلُّه في الدُّنيا، فيَظهَرُ عندَ ذلك أنَّه المُبطِلُ، وخَصْمَه المُحِقُّ، والمرادُ بهذا العذابِ عذابُ الدُّنيا، وما حلَّ بهم مِن القَتلِ والأسْرِ، والقَهرِ والذِّلَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٣-٢٨٤).

والعذابُ المقيمُ هو عذابُ النَّارِ يومَ القيامةِ؛ فهم مُخلَّدونَ فيه. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١).

وتارةً بذِكرِ الوَعدِ والوَعيدِ، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعظُمُ عليه إصرارُهم على الكُفرِ، وعَدَمُ إيمانِهم ورُجوعِهم إلى ما أنزَلَ اللهُ سبحانه وتَعالى عليه- أردَفَه بكَلامٍ يُزيلُ ذلك الحُزنَ العَظيمَ عن قَلبِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأخْبَره أنَّه أنزَلَ عليه الكِتابَ -وهو القُرآنُ- بالحقِّ؛ لأجْلِ النَّاسِ؛ إذ فيه تَكاليفُهم[1].

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: إنَّا أنزَلْنا عليك -يا مُحمَّدُ- القُرآنَ للنَّاسِ بالحَقِّ، فتُنذِرُهم به، وتُبَيِّنُ لهم الهُدى[2].

كما قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ * يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١).

قَولُه تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ يحتمِلُ معنيَينِ؛ الأوَّلُ: أنَّ القُرآنَ مُشتَمِلٌ على الحَقِّ في أخبارِه وأحكامِه. والثَّاني: أنَّ نُزولَه حَقٌّ مِن عندِ اللهِ تعالى، ليس بباطِلٍ، بخِلافِ أخبارِ الكُهَّانِ الواردةِ مِن الشَّياطينِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٨، ٢٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٣).

قال البِقاعي: (﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُصاحِبًا له، لا يَقدِرُ الخَلقُ على أن يُزيحوا مَعنًى مِن معانيه عن قَصْدِه، ولا لَفظًا مِن ألفاظِه عن سَبيلِه وحَدِّه، بل هو مُعجِزٌ في معانيه -حاضِرةً كانت أو غائبةً- ونُظومِه، وألفاظِه وأسماءِ سُوَرِه وآياتِه وجَميعِ رُسومِه؛ فلا بُدَّ مِن إتيانِ ما فيه مِن وَعدٍ ووَعيدٍ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥١٦).

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تسَبَّبَ عن عِلمِ ذلك وُجوبُ المبادَرةِ إلى الإذعانِ له؛ لِفَوزِ الدَّارَينِ؛ حَسُنَ جِدًّا قَولُه تعالى -تَسليةً له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لعَظيمِ ما لَه مِنَ الشَّفَقةِ عليهم، وتهديدًا لهم-[1]:

﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦ﴾.

أي: فمَن عَمِلَ بالقُرآنِ واتَّبَعَه، فإنَّما يعودُ نَفْعُ ذلك على نَفْسِه[2].

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان رُبَّما وقَعَ في وَهم أنَّه يَلحَقُ الدَّاعيَ بعدَ البَيانِ مِن إثمِ الضَّالِّ، وكان السِّياقُ لِتَهديدِ الضَّالِّينَ؛ زاد في التَّأكيدِ، فقال[3]:

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾.

أي: ومَن ضَلَّ عن الحَقِّ، فلم يُؤمِنْ بالقُرآنِ ويَتَّبِعْه؛ فإنَّما يعودُ وَبالُ ذلك

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٨، ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٦).

وضَرَرُه على نَفْسِه، لا على غَيرِه[١].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

أي: وما أنتَ -يا مُحمَّدُ- بمُوكَّلٍ باهتِداءِ النَّاسِ؛ فتَقهَرَهم على اتِّباعِ الحَقِّ، ولا بمُراقِبٍ لأعمالِهم، ولا حَفيظٍ عليها، ولا مُحاسِبٍ لهم، وإنَّما عليك البَلاغُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- لله تعالى على العَبدِ عُبوديَّةُ الضَّرَّاءِ، وله عُبوديَّةٌ عليه فيما يَكرَهُ، كما له عُبوديَّةٌ فيما يُحِبُّ، وأكثَرُ الخَلقِ يُعطُونَ العُبوديَّةَ فيما يُحِبُّونَ، والشَّأنُ في إعطاءِ العُبوديَّةِ في المَكارِهِ؛ فبِهِ تَفاوَتَتْ مراتِبُ العِبادِ، وبحَسَبِه كانت مَنازِلُهم عندَ اللهِ تعالى، فمَنْ كان عبدًا لله في الحالتَينِ، قائمًا بحَقِّه في المكروهِ والمحبوبِ؛ فذلك الَّذي تَناوَلَه قَولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ فمَن قام بحُقوقِ اللهِ عليه فإنَّ اللهَ يَتكَفَّلُ له بالقِيامِ بجَميعِ مَصالِحِه في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فمَن أراد أن يَتولَّى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

(٣) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥).

اللهُ حِفظَه ورِعايتَه في أمورِه كُلِّها فلْيُراعِ حُقوقَ اللهِ عليه، ومَن أراد ألَّا يُصيبَه شَيءٌ مِمَّا يَكرَهُ فلا يأتِ شَيئًا مِمَّا يَكرَهُه اللهُ منه. كان بَعضُ السَّلَفِ يَدورُ على المجالِسِ ويَقولُ: (مَن أحَبَّ أن تَدومَ له العافيةُ فلْيَتَّقِ اللهَ عزَّ وجلَّ)[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ الحَثُّ على تحقيقِ العبوديَّةِ للهِ تعالى؛ لأنَّك إذا حَقَّقْتَ العبوديَّةَ تَحَقَّقَتْ لك الكِفايةُ، فإذا كانتِ الكفايةُ مُرَتَّبةً على وَصفِ العُبوديَّةِ حَصَل للعابدِ مِن هذه الكفايةِ بقَدْرِ عبوديَّتِه، على القاعدةِ «أنَّ الحُكمَ المُعَلَّقَ بوَصفٍ، يَقوَى بقُوَّتِه، ويَضعُفُ بضَعْفِه»[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أنَّه جَرَت العادةُ أنَّ المُبطِلينَ يُخَوِّفونَ المُحِقِّينَ بالتَّخويفاتِ الكَثيرةِ، فحَسَمَ اللهُ مادَّةَ هذه الشُّبهةِ بقَولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[٣]، فلَمَّا ثَبَت أنَّ اللهَ كافٍ عَبْدَه، كان التَّخويفُ بغيرِ اللهِ عَبَثًا وباطِلًا[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَطْلُبُ الهدايةَ إلَّا مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّه وحْدَه هو الَّذي يُضِلُّ ويَهدي؛ فتُطْلَبُ الهدايةُ منه؛ لأنَّه ليس المرادُ بهذه الآيةِ التَّيئيسَ مِن هدايةِ الخَلْقِ! ولكنَّ المرادَ الرُّجوعُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في هدايةِ الخَلْقِ[٥].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ الرَّدُّ على المُعتزِلةِ

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٦٠).

الَّذين يَقولُونَ: إنَّ الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه؛ يَهدي نَفْسَه، ويُضِلُّ نفْسَه، ولا عَلاقةَ لِمَشيئةِ اللهِ تعالى في فِعلِه[1]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ أنَّ هذه الدَّلائِلَ والبَيِّناتِ لا تَنفَعُ إلَّا إذا خَصَّ اللهُ العَبدَ بالهدايةِ والتَّوفيقِ[2].

٣- قال تعالى: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ولم يَقُلْ: «مُنتَقِمٌ»، ولم تأتِ «المُنتَقِمُ» في أسماءِ اللهِ تعالى في حديثٍ صحيحٍ، وإنَّما جاءتْ باسمِ الفاعلِ مُقيَّدةً، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، فلم يَقُلْ: «إنَّا مُنتَقِمونَ»، فهو سبحانَه يُوصَفُ بالانتقامِ مُقيَّدًا، وقال تعالى: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: صاحِبِ انتقامٍ في مَوضِعِه، فاللهُ تعالى يُوصَفُ بأنَّ الانتِقامَ يَصدُرُ منه، لا أنَّه «مُنتَقِمٌ»؛ فـ «المُنتَقِمُ» ليس مِن أسماءِ اللهِ تعالى؛ لا مَقرونًا بالعَفوِ، ولا مُنفَرِدًا عنه، خِلافًا لِمَا ذَهَبَ إليه بعضُ العلماءِ مِن أنَّه إذا قُرِنَتْ بالعَفوِ فلا بأسَ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أنَّ هؤلاء المُشرِكينَ مُقِرُّونَ بوُجودِ الإلهِ القادِرِ العالمِ الحَكيمِ الرَّحيمِ[4]، وفيه أنَّ الإقرارَ بالرُّبوبيَّةِ وَحْدَها لا يَنفَعُ العبدَ، ولا يُدْخِلُه في الإسلامِ، ودليلُ ذلك: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قاتَلَ المُقرِّينَ بالرُّبوبيَّةِ، واستباحَ دِماءَهم ونِساءَهم وأموالَهم، ولو كان إقرارُهم بالرُّبوبيَّةِ وحْدَها نافعًا لَكانت دماؤُهم مَعصومةً، وأموالُهم مَعصومةً، وأهلوهم مَعصومينَ، وفي هذا ردٌّ على أولئكَ المتكلِّمينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٥١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٤).

الَّذين يَجعَلونَ تَوحيدَ الألوهيَّةِ هو تَوحيدَ الرُّبوبيَّةِ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ تسليةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّ اللهَ تعالى أمَرَه بذلك تَبشيرًا له، وتَسليةً بأنَّه ستَكونُ العاقِبةُ له(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أنَّ عذابَ أهلِ النَّارِ مُقيمٌ لا يَنفَكُّ عنهم، ويَتفرَّعُ على ذلك: أنَّ فيها ما دلَّ عليه القُرآنُ والسُّنَّةُ مِن أنَّ أهلَ النَّارِ مُخلَّدون فيها أبدًا، وأنَّها لا تَفنَى، وأنَّ القَولَ بفَنائِها قَولٌ ضعيفٌ، بل باطِلٌ؛ لِمُخالَفتِه للكِتابِ والسُّنَّةِ(٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بيانُ أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى أنزَلَه وهو كلامٌ، ليس ذاتًا مُعَيَّنةً كالحديدِ الَّذي قال اللهُ تعالى فيه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وكالمواشي الَّتي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، فالقرآنُ كلامٌ، فإذا كان كلامًا فإنَّه لا يكونُ مَخلوقًا؛ لأنَّ الكلامَ صِفةُ المتكلِّمِ، والمتكلِّمُ به -وهو اللهُ- هو الأوَّلُ والآخِرُ، والظَّاهرُ والباطِنُ(٤).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ تعالى؛ لأنَّه قال: ﴿أَنزَلْنَا﴾، والإنزالُ لا يكونُ إلَّا مِن عُلوٍّ(٥).

٩- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ قولُه تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٧١، ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ الله سبحانَه وتعالى أنزَل القرآنَ الكريمَ لمصلحةِ الخَلْقِ؛ وأنَّه لم يَنزِلْ ضِدَّ مَصالحِهم[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ عُمومُ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لقولِه تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾، ولم يَقُلْ: «لقومِك» مثلًا! بل للنَّاسِ عمومًا[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ الرَّدُّ على الجَبريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِه! ووَجْهُ ذلك: أنَّه أضاف الاهتِداءَ والضَّلالَ إلى العَبدِ؛ فدلَّ هذا على أنَّه فِعلُه الَّذي اختارَ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أنَّ الدَّاعيَ المُبَلِّغَ لِشَريعةِ اللهِ تعالى إذا بَلَّغَ على الوَجهِ الَّذي أُمِرَ به فقد بَرِئَتْ ذِمَّتُه، ولا يَلزَمُه شَيءٌ وراءَ ذلك، ووجْهُ الدَّلالةِ منها: أنَّه إذا كان إمامُ الدَّاعينَ المُبَلِّغينَ مُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم ليس وَكيلًا على النَّاسِ، ولا حفيظًا عليهم؛ فمَنْ دونَه مِن بابِ أَولى[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾

- ما أحسَنَ هذا النَّظْمَ! وما أَلْطَفَ مَوقِعَ مَعْنى الكِفايةِ، وتَخْصيصَ لَفظِ (العَبْدِ)، ووَصْفَ الأصْنامِ بالَّذين مِن دُونِه في هذا المقامِ! وما أدَقَّ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٦).

التَّعْريضَ بحالِ عَبْدٍ يُثبِتُ مَعْبوداتٍ شَتَّى، ويَدَّعي كُلُّ واحدٍ عُبودِيَّتَه، ويَبْقَى هو مُتحيِّرًا ضائِعًا، وحالِ عَبدٍ لم يُثبِتْ إلَّا مَعْبودًا واحِدًا، فهو قائِمٌ بما كَلَّفَه، عارِفٌ بما يَرْضاهُ[١]!

- قولُه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ الهَمْزةُ في ﴿أَلَيْسَ﴾ للاستِفْهامِ التَّقْريريِّ؛ لأنَّ هَمْزةَ الإنكارِ إذا دَخَلَتْ على النَّفْيِ أثْبَتَتْه بطَريقِ المُبالَغةِ؛ فالاستِفْهامُ إنكارٌ عليهم ظَنَّهم أنْ لا حامِيَ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن ضُرِّ الأصْنامِ، فأُفيدَ مَعْنى إثباتِ الكفايةِ وتَقْريرِها[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ تَمْهيدٌ لِقَولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ قُدِّمَ عليه لِتَعْجيلِ مَساءةِ المُشركينَ بذلك، ويَستَتبِعُ ذلك تعجيلَ مَسَرَّةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ اللهَ ضامِنٌ له الوِقايةَ. وأصْلُ النَّظْمِ: (ويُخوِّفونَكَ بالَّذين مِن دُونِ اللهِ واللهُ كافِيكَ)؛ فغُيِّرَ مَجْرى النَّظمِ لهذا الغَرَضِ. ولكَ أنْ تَجعَلَ نَظْمَ الكَلامِ على تَرْتيبِه في اللَّفظِ؛ فتَجعَلَ جُملةَ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ استِئْنافًا، وتَصيرُ جُملةُ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ حالًا[٣].

- وفيه تَسْليةٌ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا قالتْ له قُريشٌ: إنَّا نَخافُ أنْ تَخبِلَكَ آلهتُنا، ويُصيبَكَ مَضَرَّتُها لِعَيبِكَ إيَّاها[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢، ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥).

- وحُذِفَ المَفْعولُ الثَّاني لـ (كَافٍ)؛ لِظُهورِ أنَّ المَقْصودَ كافِيكَ أذاهُم، فأمَّا الأصْنامُ فلا تَستطيعُ أذًى حتَّى يُكْفاهُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

- ووَقَعَ التَّعبيرُ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالاسْمِ الظَّاهِرِ، وهو ﴿عَبْدَهُۥ﴾ دُونَ ضَميرِ الخِطابِ؛ لأنَّ المَقْصودَ تَوجيهُ الكَلامِ إلى المُشرِكينَ. وفي استِحْضارِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بوَصفِ العُبوديَّةِ، وإضافَتِه إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ مَعْنًى عَظيمٌ مِن تَشْريفِه بهذه الإضافةِ، وتَحْقيقِ أنَّه غَيرُ مُسْلِمِه إلى أعْدائِه[٢]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والواوُ في قولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يُمكِنُ أنْ تكونَ للحالِ؛ فتكونَ الجُملةُ حاليَّةً، والمَعْنى: (أليس اللهُ كافِيَكَ حالَ تَخْويفِهم إيَّاكَ؟)، هذا إذا أرادَ بالعَبدِ نَبيَّهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ويجوزُ جعْلُها استِئْنافيَّةً؛ فتكونُ الجُملةُ مُستأنَفةً مَسوقةً لِتَفْنيدِ ما يَعمِدونَ إليه مِن تَخْويفٍ بالأصْنامِ[٣].

- والخِطابُ في قَولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو الْتِفاتٌ مِن ضَميرِ الغَيبةِ العائِدِ على ﴿عَبْدَهُۥ﴾، ونُكتةُ هذا الالتِفاتِ: هو تَمْحيضُ قَصْدِ النَّبيِّ بمَضْمونِ هذه الجُملةِ، بخِلافِ جُملةِ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[٤].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ تَهَكُّمٌ بهم؛ لأنَّهم خَوَّفوه مِن أصْنامِهم، وهي لا تَقدِرُ على نَفْعٍ ولا ضُرٍّ، ونَظيرُ هذا التَّخْويفِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣).

قَولُ قَومِ هُودٍ له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾[1] [هود: ٥٤].

- وعبَّر عنهم وهُم حِجارةٌ بمَوْصولِ العُقلاءِ (الَّذينَ)؛ مُجاراةً للمُشركينَ؛ لِكَثْرةِ استِعْمالِ التَّعْبيرِ عنهم في الكَلامِ بصِيَغِ العُقَلاءِ؛ لأنَّهم يَعتَقِدونها مُدْرِكةً[2].

- قولُه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ * وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ الآيةَ، وجُملةِ ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾؛ قُصِدَ مِن هذا الاعتِراضِ أنَّ ضَلالَهم داءٌ عَياءٌ -أي: صَعبٌ لا دواءَ له، كأنَّه أعيا الأطبَّاءَ-؛ لأنَّه ضَلالٌ مُكوَّنٌ في نُفوسِهم وجِبِلَّتِهم قد ثَبَّتَتْه الأيَّامُ، ورَسَّخَه تعاقُبُ الأجيالُ، فرانَ بغِشاوَتِه على ألْبابِهم[3].

- وفي قَولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ أُريدَ مِن نَفيِ الهادي نَفيُ حُصولِ الاهتِداءِ؛ فكُنِّيَ عن عَدَمِ حُصولِ الهُدَى بانتِفاءِ الهادي؛ لأنَّ عَدَمَ الاهتِداءِ يَجعَلُ هادِيَهم كالمَنْفيِّ، ونَظيرُ ذلك قَولُه: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، والآيتانِ مُتَساوِيَتانِ في إفادةِ نَفْيِ جِنسِ الهادي، إلَّا أنَّ إفادةَ ذلك هُنا بزِيادةِ (مِنْ) تَنْصيصًا على نَفيِ الجِنْسِ، وفي آيةِ (الأعْرافِ) ببِناءِ ﴿هَادِيَ﴾ على الفَتْحِ بعدَ (لا) النَّافِيَةِ للجِنْسِ؛ فإنَّ بِناءَ اسْمِها على الفَتحِ مُشعِرٌ بأنَّ المُرادَ نَفيُ الجِنْسِ نصًّا، والاختِلافُ بيْنَ الأُسلُوبَينِ تَفنُّنٌ في الكَلامِ، وهو مِن مَقاصِدِ البُلَغاءِ.

وتَقْديمُ ﴿لَهُۥ﴾ هنا على ﴿هَادِيَ﴾؛ للاهتِمامِ بضَميرِهم في مَقامِ نَفْيِ الهادي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٠) و(٢١/ ١٤٧) و(٢٤/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٤).

لهم؛ لأنَّ ضَلالَهم المَحْكيَّ هنا بالِغٌ في الشَّناعةِ؛ إذْ بَلَغ بهم حَدَّ الطَّمَعِ في تَخْويفِ النَّبيِّ بأصْنامِهم في حالِ ظُهورِ عَدَمِ اعتِدادِه بأصْنامِهم لِكُلِّ مُتأمِّلٍ مِن حالِ دَعْوَتِه، وإذْ بَلَغ بهم اعتِقادَ مَقدِرةِ أصْنامِهم، مع الغَفْلةِ عن قُدْرةِ الرَّبِّ الحَقِّ، بخِلافِ آيةِ (الأعْرافِ)؛ فإنَّ فيها ذِكْرَ إعْراضِهم عن النَّظَرِ في مَلَكوتِ السَّمَواتِ والأرضِ، وهو ضَلالٌ دُونَ ضَلالِ التَّخْويفِ مِن بأْسِ أصْنامِهم[١].

- والَّذي اقتضَى جُملةَ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ هنا: أنَّ الكَلامَ اقْتَضى فَريقَينِ: فَريقًا مُتمسِّكًا باللهِ القَادِرِ على النَّفْعِ والضُّرِّ، وهو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُؤمِنونَ، وفريقًا آخَرَ مُسْتَمسِكًا بالأصْنامِ العاجِزةِ عن الأمْرَينِ؛ فلمَّا بُيِّنَ أنَّ ضَلالَ الفَريقِ الثَّاني ضَلالٌ مَكينٌ، ببَيانِ أنَّ هُدى الفَريقِ الآخَرِ راسِخٌ مَتينٌ؛ فلا مَطمَعَ للفَريقِ الضَّالِّ بأنْ يَجُرُّوا المُهتَدينَ إلى ضَلالِهم[٢].

- وقولُه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ تَعْليلٌ لإنكارِ انتِفاءِ كِفايةِ اللهِ عن ذلك كإنْكارِ أنَّ اللهَ عَزيزٌ ذو انتِقامٍ؛ فلذلك فُصِلَتِ الجُملةُ عن الَّتي قَبْلَها[٣].

- والاستِفْهامُ تَقْريريٌّ؛ لأنَّ العِلمَ بعِزَّةِ اللهِ مُتقرِّرٌ في النُّفوسِ؛ لاعتِرافِ الكُلِّ بإلَهيَّتِه، والإلهيَّةُ تَقتَضي العِزَّةَ، ولأنَّ العِلمَ بأنَّه مُنتقِمٌ مُتقرِّرٌ مِن مُشاهَدةِ آثارِ أخْذِه لِبَعضِ الأُمَمِ مِثلِ عادٍ وثَمودَ، فإذا كانوا يُقِرُّونَ للهِ بالوَصفَينِ المَذكُورَينِ، فما عليهم إلَّا أنْ يَعلَموا أنَّه كافٍ عَبْدَه بعِزَّتِه، فلا يَقدِرُ أحَدٌ على إصابةِ عَبدِه بسُوءٍ، وبانتِقامِه مِن الَّذين يَبتَغونَ لِعَبدِه الأذَى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٢).

- وفيه وَعيدٌ لِقُريشٍ، ووَعْدٌ للمُؤمِنينَ بأنَّه يَنتقِمُ لهم منهم، ويَنصُرُهم عليهم[١].

- وإظهارُ الاسْمِ الجَليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في مَوقعِ الإضْمارِ؛ لِتَحْقيقِ مَضْمونِ الكَلامِ، وتَربيةِ المَهابةِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧] وجُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ فالواوُ اعتِراضيَّةٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ مَعْطوفًا على جُملةِ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وهو تَمْهيدٌ لِمَا يأتي بَعْدَه مِن قَولِه: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه قُصِدَ به التَّوطِئةُ إليه بما لا نِزاعَ فيه؛ لأنَّهم يَعترِفونَ بأنَّ اللهَ هو المُتصرِّفُ في عَظائمِ الأُمورِ، أي: خلَقَهُما وما تَحْويانِه[٣].

- وجاءَتْ جُملةُ ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على أُسلوبِ حِكايةِ المُقاوَلةِ والمُجاوَبةِ لِكَلامِهِم المَحْكيِّ بجُملةِ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؛ ولذلك لم تُعطَفِ الثَّانيةُ بالواوِ ولا بالفاءِ، والمَعْنى: لَيَقولُنَّ اللهُ، فقُلْ تَبْكيتًا لهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ إلخ[٤].

- والفاءُ مِن ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ لِتَفْريعِ الاستِفْهامِ الإنْكاريِّ على جَوابِهم، تَفْريعًا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦).

يُفيدُ مُحاجَّتَهم على لازِمِ اعترافِهم بأنَّ اللهَ هو خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ، وهذا تَفْريعُ الإلْزامِ على الإقْرارِ، والنَّتيجةِ على الدَّليلِ؛ فإنَّهم لَمَّا أقَرُّوا بأنَّه خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ يَلزَمُهُم أنْ يُقِرُّوا بأنَّه المُتصرِّفُ فيما تَحْويهِ السَّمَواتُ والأرضُ[(١)].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا﴾ أنَّه لَمَّا كان السَّائلُ النَّصوحُ يَنبغي له أن يُنَبِّهَ الخَصْمَ على محلِّ النُّكتةِ؛ لِيَنتبهَ مِن غفلتِه فيَرجِعَ عن غلطتِه؛ عبَّر بأداةِ ما لا يَعقِلُ (ما) عن مَعبوداتِهم بعدَ التَّعبيرِ عنها سابقًا بأداةِ الذُّكورِ العُقلاءِ (الَّذِينَ) [الزمر: ٣٦]؛ بيانًا لِغَلَطِهم[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ جِيءَ بحَرفِ (هل) في جَوابِ الشَّرطِ -وهي للاستِفْهامِ الإنْكاريِّ-؛ تَأْكيدًا لِمَا أفادَتْه هَمْزةُ الاستِفْهامِ، مع ما في (هَلْ) من إفادةِ التَّحْقيقِ[(٣)].

- وضَميرُ (هُنَّ) في قولِه: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ عائِدٌ إلى (مَا) المَوْصولةِ، وكذلك الضَّمائرُ المُؤنَّثةُ الواردةُ بَعْدَه ظاهِرةٌ ومُستَتِرةٌ؛ إمَّا لأنَّ ما صَدَقَ[(٤)] (مَا) المَوْصولةِ هُنا أحْجارٌ غَيرُ عاقِلةٍ، وجَمْعُ غَيرِ العُقَلاءِ يَجْري على اعتِبارِ التَّأنيثِ، ولأنَّ ذلك يُصيِّرُ الكَلامَ مِن قَبيلِ الكَلامِ المُوجَّهِ بأنَّ آلِهتَهم كالإناثِ لا تَقدِرُ على النَّصْرِ؛ ففيه تَضْعيفٌ وتَعْجيزٌ عمَّا طالَبَهم به مِن كَشْفِ الضُّرِّ وإمْساكِ الرَّحْمةِ؛ لأنَّ الأُنوثةَ مِن بابِ اللِّينِ والرَّخاوَةِ، كما أنَّ الذُّكورةَ مِن بابِ الشِّدَّةِ والصَّلابةِ، كأنَّه قال: الإناثُ اللَّاتي هُنَّ اللَّاتُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧).

(٤) تقدَّم تعريفه (ص: ٢١٥).

والعُزَّى ومَناةُ أضعَفُ ممَّا تَدَّعُونَ لَهُنَّ وأعجَزُ، وفيه تَهكُّمٌ أيضًا[١].

- والجَوابُ في هذا الاستِخْبارِ ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ مَحْذوفٌ؛ وإنَّما تُرِكَ الجوابُ لاستِغناءِ السَّامعِ بمَعرفةِ ذلك، ودَلالةِ ما ظهَرَ مِن الكلامِ عليه، والتَّقْديرُ: فإنَّهم سَيَقولونَ: لا تَقدِرُ على شَيءٍ مِن ذلك[٢].

- وعُدِلَ عن تَعديةِ فِعْلِ الإرادةِ لِلضُّرِّ والرَّحمةِ في قولِه: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ إلى تَعديَتِه لِضَميرِ المُتكلِّمِ، مع أنَّ مُتعلَّقَ الإراداتِ المَعاني دُونَ الذَّواتِ؛ فكان مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (إنْ أرادَ ضُرِّي أو أرادَ رَحْمَتي)؛ وذلك لِقَصْدِ الاهتِمامِ بالمُرادِ به؛ لإيصالِ المُرادِ إليه حتَّى كأنَّ ذاتَه هي المُرادُ لِمَنْ يُريدُ إيصالَ شَيءٍ إليه[٣].

- وأيضًا إنَّما فَرَض إرادةَ الضُّرِّ وإرادةَ الرَّحْمةِ في نَفْسِه دُونَ أنْ يقولَ: (إنْ أرادَكُم)؛ لأنَّ الكَلامَ مُوجَّهٌ إلى ما خَوَّفوه مِن ضُرِّ أصْنامِهم إيَّاه؛ فأُمِر بأنْ يُقرِّرَهم أوَّلًا بأنَّ خالِقَ العالَمِ هو اللهُ وَحْدَه، ثُمَّ يقولَ لهم بعدَ التَّقْريرِ: فإذا أرادني خالِقُ العالَمِ الَّذي أقرَرْتُم به بضُرٍّ مِن مَرَضٍ أو فَقرٍ أو غَيرِ ذلك من النَّوازِلِ، أو بِرَحْمةٍ مِن صِحَّةٍ أو غِنًى أو نَحوِهما، هل هؤلاءِ اللَّاتي خَوَّفْتُموني إيَّاهُنَّ كاشِفاتٌ عَنِّي ضُرَّه أو مُمْسِكاتٌ رَحْمَتَه؟ وأيضًا لِمَا فيه مِن الإيذانِ بإمْحاضِ النَّصيحةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧، ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩٢)، =

- قولُه: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لَمَّا أَلْقَمَهمُ الحَجَرَ وقَطَعَهم حتَّى لا يُجيبوا بكلمةٍ، قال: حَسْبِيَ اللهُ كافِيًا لِمَعَرَّةِ أوْثانِكُم، عليه يَتوكَّلُ المُتوكِّلُون. وفيه تَهكُّمٌ؛ لأنَّه لا مَعَرَّةَ للأوْثانِ[(١)].

- وفي قولِه: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أُعيدَ الأمْرُ بالقَولِ، ولم يَنتظِمْ ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ في جُملةِ الأمْرِ الأوَّلِ؛ لأنَّ هذا المَأْمورَ بأنْ يقولَه ليس المَقْصودُ تَوْجيهَه إلى المُشركينَ؛ فإنَّ فيما سَبَقه مَقنَعًا مِن قِلَّةِ الاكتِراثِ بأصْنامِهم، وإنَّما المَقْصودُ أنْ يكونَ هذا القَولُ شِعارَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في جَميعِ شُؤونِه، وفيه حَظٌّ للمُؤمِنينَ معه حاصِلٌ مِن قَولِه: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ فإعادةُ فِعلِ ﴿قُلْ﴾ للتَّنبيهِ على استِقْلالِ هذا الغَرَضِ عن الغَرَضِ الَّذي قَبْلَه[(٢)].

- والحَسْبُ: الكافي، وحُذِفَ المُتعلِّقُ في هذه الجُملةِ لِعُمومِ المُتعلِّقاتِ، أي: حَسْبِيَ اللهُ مِن كُلِّ شَيءٍ، وفي كُلِّ حالٍ، والمُرادُ بقَولِه اعتِقادُه، ثمَّ تَذَكُّرُه، ثمَّ الإعلانُ به؛ لِتَعْليمِ المُسلِمينَ، وإغاظةِ المُشركينَ[(٣)].

- وجُملةُ ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يجوزُ أنْ تَكونَ ممَّا أُمِرَ بأنْ يَقولَه تَذكُّرًا مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَعْليمًا للمُسلِمينَ، فتكونَ الجُملةُ تَذْييلًا للَّتي قَبْلَها؛ لأنَّها أعَمُّ منها باعتِبارِ القائِلينَ؛ لأنَّ (حَسْبِيَ اللهُ) يَؤولُ إلى مَعْنى: تَوكَّلتُ على اللهِ، أي: حَسْبِي أنا، وحَسْبُ كُلِّ مُتوكِّلٍ، أي: كُلِّ مُؤمِنٍ يَعرِفُ

= ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩، ١٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨).

اللهَ حقَّ مَعرِفَتِه، ويَعتَمِدُ على كِفايَتِه دُونَ غَيرِه؛ فتَعْريفُ ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ للعُمومِ العُرفيِّ[1]، أي: المُتوكِّلونَ الحَقيقيُّونَ؛ إذْ لا عِبْرَةَ بغَيرِهم. ويجوزُ أنْ تَكونَ هذه الجُملةُ ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ مِن كَلامِ اللهِ تعالى خاطَبَ به رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولم يَأمُرْه بأنْ يَقولَه؛ فتَكونَ الجُملةُ تَعْليلًا للأمْرِ بقَولِ: حَسْبِيَ اللهُ، أي: اجْعَلِ اللهَ حَسْبَكَ؛ لأنَّ أهْلَ التَّوكُّلِ يَتوكَّلونَ على اللهِ دُونَ غَيرِه، وهُمُ الرُّسُلُ والصَّالِحونَ، فكُنْ مِثلَهم في ذلك[2].

- وتَقْديمُ المَجْرورِ ﴿عَلَيْهِ﴾ على ﴿يَتَوَكَّلُ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ؛ لأنَّ أهْلَ التَّوكُّلِ الحَقيقيِّينَ لا يَتوكَّلونَ إلَّا على اللهِ تعالى، وذلك تَعْريضٌ بالمُشرِكينَ؛ إذ اعْتَمَدوا في أُمورِهم على أصْنامِهم[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

- لم تُعطَفْ جُملةُ ﴿قُلْ﴾ على جُملةِ ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]؛ لِدَفعِ

---

(١) العُموم العُرْفي: هو نقْلُ العُرفِ للَّفظِ مِن معناه اللُّغويِّ، واستِعمالُه في معنًى أعَمَّ منه وتكرَّر استِعمالُه فيه، حتَّى شاع فأصبحَ حقيقةً عُرفيَّةً، ومِن صِيَغِ الدَّلالةِ على العموم عُرفًا دونَ اللغة: صيغةُ (أكل) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]؛ فالمعنى اللُّغويُّ لِلَفْظةِ (أكل) واضحٌ، لكنَّه غيرُ مرادٍ للشَّارعِ هنا، وإنَّما أراد ما هو أعَمُّ منه عُرْفًا، وهو أنَّ كلَّ إتلافٍ لمالِ الغيرِ وحقِّه، وكلَّ تَجاوُزٍ عليه بدونِ مُسَوِّغٍ شرعيٍّ، فهو مُحرَّمٌ كحُرمةِ الأكْلِ بالمعنى اللُّغويِّ دونَ إذنِ صاحبِه، أو بدونِ حقٍّ. يُنظر: ((الإشارة في معرفة الأصول)) لأبي الوليد الباجي (ص: ٥)، ((المحصول في علم الأصول)) للفخر الرازي (١/ ٥١٦)، ((مفتاح الوصول)) لأبي عبد الله التلمساني (ص: ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَوهُّمِ أنْ يَكونَ أمْرُه ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ لِقَصدِ إبلاغِه إلى المُشرِكينَ، ولأنَّها انتِقالٌ مِن غَرَضِ الدَّعوةِ والمُحاجَّةِ إلى غَرَضِ التَّهْديدِ، وابْتَدَأَ المَقولُ بالنِّداءِ بوَصفِ القَومِ؛ لِمَا يُشعِرُ به مِن التَّرقيقِ لِحالِهم، والأَسَفِ على ضَلالِهم؛ لأنَّ كَونَهم قَومَه يَقتَضي ألَّا يَدَّخِرَهم نُصحًا[1].

- قولُه: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ كان مُقتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (فإنِّي عاملٌ على مَكانتي)، وإنَّما حُذِفَ؛ للاختصارِ، ولِما فيه مِن زِيادةِ الوعيدِ، والإيذانِ بأنَّ حالَه لا تقِفُ، وتَزدادُ كلَّ يومٍ قوَّةً وشِدَّةً؛ لأنَّ اللهَ ناصِرُه ومُعِينُه، ومُظهِرُه على الدِّينِ كلِّه، والدَّليلُ على أنَّ في تَرْكِ ذِكرِ (مَكانتي) زيادةً في الوعيدِ والإنذارِ، وأنَّ حالَه لم تزَلْ في التَّزايُدِ إلى الأبدِ قولُه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، وكيف أنَّه توعَّدَهم بكَونِه مَنْصورًا عليهم، غالِبًا عليهم في الدُّنيا والآخِرةِ؛ لأنَّهم إذا أتاهُمُ الخِزيُ والعَذابُ فذاك عِزُّه وغَلَبَتُه، مِن حيثُ إنَّ الغَلَبةَ تَتِمُّ له بعِزِّ عَزيزٍ مِن أوْليائِه، أو بِذُلِّ ذَليلٍ مِن أعدائِه، وكان مِن حَقِّ الظَّاهرِ أنْ يقولَ: (فسوفَ تَعْلَمونَ مَكانَتي وأنِّي غالِبٌ عليكم في الدُّنيا والآخرةِ)؛ فوُضِعَ مَوضِعَ (عَذابِ الدُّنيا) قَولُه: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: عذابٌ مُخزٍ له، وهو يومُ بدرٍ، ووُضِعَ موضعَ (عَذابِ الآخِرَةِ) قَولُه: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، أي: يَنزِلُ عليه أو يحِلُّ عليه -حُلولَ الدَّينِ الَّذي لا انفكاكَ عنه- عذابٌ دائمٌ، وهو عذابُ النَّارِ؛ فحُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾؛ لِيَعُمَّ كُلَّ مُتعلِّقٍ يَصلُحُ أنْ يَتعلَّقَ بعامِلٍ مع الاختِصارِ؛ فإنَّ مُقابَلَتَه بقَولِه: ﴿ٱعْمَلُوا۟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩، ٢٠).

عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ يدُلُّ على أنَّه أرادَ مِن ﴿إِنِّي عَامِلٞ﴾ أنَّه ثابتٌ على عَمَلِه في نُصحِهم ودَعْوَتِهم إلى ما يُنجيهم، وأنَّ حَذْفَ ذلك مُشعِرٌ بأنَّه لا يَقتصِرُ على مِقْدارِ مَكانَتِه وحالَتِه، بل حالُه تَزْدادُ كُلَّ حينٍ قُوَّةً وشِدَّةً، لا يَعْتريها تَقْصيرٌ، ولا يُثبِّطُها إعْراضُهم، وهذا مِن مُستَتْبَعاتِ الحَذفِ[١].

- وأُسنِدَ فِعلُ ﴿يَأۡتِيهِ﴾ إلى العَذابِ المُخْزي؛ لأنَّ الإتيانَ مُشعِرٌ بأنَّه يُفاجِئُهم كما يَأْتي الطَّارِقُ، وكذلك إسنادُ فِعْلِ (يَحِلُّ) إلى العَذابِ المُقيمِ؛ لأنَّ الحُلولَ مُشعِرٌ بالمُلازَمةِ والإقامةِ معهم، وهو عذابُ الخُلودِ؛ ولذلك يُسمَّى مَنزِلُ القَومِ (حِلَّةً)، ويُقالُ للقَومِ القاطِنينَ غَيرِ المُسافِرينَ: هُمْ حِلالٌ، فكان الفِعلُ مُناسِبًا لِوَصْفِه بالمُقيمِ[٢].

- وتَنْوينُ ﴿عَذَابٞ﴾ في المَوضِعَينِ؛ للتَّعْظيمِ المُرادِ به التَّهْويلُ[٣].

- وتَعدِيةُ فِعْلِ (يَحِلُّ) بحَرفِ (على)؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِه[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تَعالى هنا: ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾؛ لِيَكونَ التَّهْديدُ بعَذابٍ خِزيٍ في الدُّنيا، وعَذابٍ مُقيمٍ في الآخِرةِ؛ فأمَّا قَولُه: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، فلم يُذكَرْ فيها العَذابُ؛ لأنَّها جاءَتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣٤) و(٥/ ٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩٣، ٣٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعدَ تَهْديدِهم بقَولِه: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[١] [الأنعام: ١٣٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾

- قيل: إنَّ قولَه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ...﴾ تَعْليلٌ للأمْرِ بأنْ يقولَ لهم: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، المُفيدِ مُوادَعَتَهم، وتَهْوينَ تَصْميمِ كُفْرِهم عليه، وتَثْبيتَه على دَعْوتِه، والمَعْنى: لأنَّا نَزَّلْنا عليك الكِتابَ بالحَقِّ لِفائِدةِ النَّاسِ[٢].

- واللَّامُ في ﴿لِلنَّاسِ﴾ للعِلَّةِ، أي: لأَجْلِ النَّاسِ. وفي الكَلامِ مُضافٌ مَفْهومٌ ممَّا تُؤذِنُ به اللَّامُ مِن مَعْنى الفائِدةِ والنَّفعِ، أي: لِنَفعِ النَّاسِ، أو ممَّا يُؤذِنُ به التَّفْريعُ في قَولِه: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ...﴾ إلخ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾، أي: لَسْتَ مأمورًا بإرغامِهم على الاهتِداءِ، فصِيغَ الخَبرُ في جُملةٍ اسميَّةٍ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ حُكمِ النَّفيِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ خُولِفَ بيْنَه وبيْنَ قَولِه في صَدرِ السُّورةِ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٢]؛ لأنَّ تلك في غَرَضِ التَّنويهِ بشَأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فناسَبَ أنْ يكونَ إنْزالُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٢).

الكِتابِ إليه، وأمَّا هنا فالمعنى: أنَّ مَن ضلَّ فلمْ يَهتَدِ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فضَلالُه على نفْسِه، وما عليه مِن ضَلالِهم تَبِعةٌ[1].

- وأيضًا تقدَّمَ نَظيرُ هذه الآيةِ: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾ في آخِرِ سُورةِ (يُونس): ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٨]، وفي آخِرِ سُورةِ (النَّمْلِ) في قَولِه: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ * وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢]، ولكِنْ جِيءَ في تَينِكَ الآيتَينِ بصِيغةِ قَصرِ الاهتِداءِ على نَفْسِ المُهْتدي ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾، وتُرِكَ ذلك في هذه السُّورةِ، حيث قال: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦ﴾؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ تَينِكَ الآيتَينِ وارِدَتانِ بالأمْرِ بمُخاطَبةِ المُشرِكينَ؛ فكان المَقامُ فيهما مُناسِبًا لإفادةِ أنَّ فائِدةَ اهتِدائِهم لا تَعودُ إلَّا لأنفُسِهم، أي: ليستْ لي مَنفَعةٌ مِن اهتِدائِهم، خلافًا لهذه الآيةِ؛ فإنَّها خِطابٌ مُوجَّهٌ مِن اللهِ تعالى إلى رَسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليس فيها حالُ مَن يُنزَّلُ مَنزِلةَ المُدِلِّ باهْتِدائِه. أمَّا قَولُه: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾ فصِيغةُ القَصرِ فيه لِتَنْزيلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أسَفِه على ضَلالِهم المُفْضِي بهم إلى العَذابِ، مَنزِلةَ مَن يَعودُ عليه مِن ضَلالِهم ضُرٌّ؛ فخُوطِبَ بصِيغةِ القَصرِ، وهو قَصرُ قَلبٍ[2] على خِلافِ مُقتَضَى الظَّاهِرِ؛ ولذلك اتَّحَدَتِ الآياتُ الثَّلاثُ في الاشتِمالِ على القَصرِ بالنِّسْبةِ لجانِبِ ضَلالِهم؛ فإنَّ قَولَه في سُورةِ (النَّمْلِ): ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢] في مَعْنى قولِه هنا: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾، أي:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٣٦).

ليس ضَلالُكُم علَيَّ؛ فإنَّما أنا مِن المُنذِرينَ، وهذه نُكَتٌ مِن دَقائِقِ إعْجازِ القُرآنِ[١].

- وقيل: إنَّما قال هنا: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ بحذفِ (فإنَّما يَهْتدي) -المذكورِ في (يُونس) و(الإسراء)-؛ اكتِفاءً بما ذكَرَه بقولِه قبْلُ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٦).

الآيات (٤٢-٤٥)

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿شُفَعَآءَ﴾: جَمْعُ شَفيعٍ، والشَّفاعةُ: الانْضِمامُ إلى آخَرَ نُصْرةً له، وسؤالًا عنه، وشَفَعَ لِفُلانٍ: إذا جاءَ مُلْتَمِسًا مَطْلَبَه، ومُعِينًا له؛ والشَّفْعُ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه، وأصلُ (شفع): يدلُّ على مقارنةِ الشيئينِ[(١)].

﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾: أي: انقَبَضَت ونَفَرَت، يُقالُ: اشمأَزَّ الرَّجُلُ اشمِئزازًا: انقَبَض، واجتَمَع بَعضُه إلى بَعضٍ[(٢)].

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: أي: يَفرَحونَ، وأصلُ (بشر): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجَمالٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٩).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبَيِّنًا كمالَ قدرتِه، ونفاذَ مشيئتِه: اللهُ يَتوفَّى الأرواحَ حينَ انقِضاءِ أجَلِ أصحابِها، ويَتوفَّى اللهُ الأرواحَ الَّتي لم يَنقَضِ بَعْدُ أجَلُ أصحابِها، في نَومِهم؛ فيَحبِسُ اللهُ الأرواحَ الَّتي حَكَم على أصحابِها بالمَوتِ، فلا يَرُدُّ أرواحَهم إلى أجسادِهم، ويُرسِلُ اللهُ أرواحَ الأحياءِ حينَ استيقاظِهم مِن مَنامِهم، فتَعودُ إلى أجسادِهم فلا يَتوفَّاها اللهُ الوَفاةَ الكُبرى إلَّا حينَ انقِضاءِ أجَلِهم في الحياةِ الدُّنيا، إنَّ في ذلك لَعَلاماتٍ وعِظاتٍ لِقَومٍ يَتفَكَّرونَ.

ثمَّ يقولُ الله تعالى منكرًا على المشركينَ: أمِ اتَّخَذ أولئك المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ آلِهةً يَعبُدونَها؛ لِتَشفَعَ لهم عندَ اللهِ؟

ثمَّ يأمرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يردَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ لهم يا مُحمَّدُ: أيَتَّخِذونَ تلك الأصنامَ شُفَعاءَ لهم، ولو كانت لا تَملِكُ شَيئًا ولا تَعقِلُ؟!

ثُمَّ يأمرُ نبيَّه أنْ يُخْبِرَهم أنَّ الشَّفاعةَ لِلهِ وَحْدَه، فيقولُ: قُلْ لهم يا مُحمَّدُ: لله وَحْدَه الشَّفاعةُ جَميعًا، فلا يَملِكُ أحَدٌ سِواه شيئًا منها، وهو وَحْدَه يأذَنُ بها لِمَن شاء، له سُبحانَه وتعالى وَحْدَه مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، ثمَّ إليه وَحْدَه تُرجَعونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه أحوالَ هؤلاء المشرِكينَ عندَما يُذكَرُ وحْدَه، فيقولُ: وإذا ذُكِرَ اللهُ تعالى وَحْدَه دونَ غَيرِه مِن المعبوداتِ الباطِلةِ انقَبَضَت قُلوبُ المُشرِكين، وإذا ذُكِرَت آلهتُهم اشتدَّ فرَحُهم واستَبشَروا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَيَّن تعالى في الآيةِ السَّابِقةِ أنَّ الهِدايةَ والضَّلالَ لا يَحصُلانِ إلَّا مِنَ اللهِ تعالى؛ وذلك لأنَّ الهِدايةَ تُشبِهُ الحياةَ واليَقَظةَ، والضَّلالَ يُشبِهُ الموتَ والنَّومَ، وكما أنَّ الحياةَ واليَقَظةَ -وكذلك الموتُ والنَّومُ- لا يَحصُلانِ إلَّا بتخليقِ اللهِ عزَّ وجَلَّ وإيجادِه؛ فكذلك الهدايةُ والضَّلالُ لا يَحصُلانِ إلَّا مِنَ الله تعالى، ومَن عَرَف هذه الدَّقيقةَ فقد عَرَف سِرَّ اللهِ تعالى في القَدَرِ، ومَن عَرَف سِرَّ اللهِ تعالى في القَدَر هانت عليه المصائِبُ؛ فيَصيرُ التَّنبيهُ على هذه الدَّقيقةِ سَبَبًا لِزَوالِ ذلك الحُزنِ عن قَلبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهذا وَجهُ النَّظمِ في الآيةِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى أنَّه أنزَلَ الكتابَ على رسولِه بالحقِّ للنَّاسِ؛ نَبَّه على آيةٍ مِن آياتِه الكُبْرى تدُلُّ على الوَحدانِيَّةِ، لا يَشْرَكُه في ذلك صَنَمٌ ولا غيرُه، فقال[(٢)]:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا ﴾.

أي: اللهُ يَتوفَّى الأرواحَ حينَ انقِضاءِ أجَلِ أصحابِها[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٦)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٥٧٠، ٥٧١)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٠، ٢١، ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣، ٢٤).

قال القرطبي: (اختلَف النَّاسُ مِن هذه الآيةِ في النَّفْسِ والرُّوحِ؛ هل هما شَيءٌ واحدٌ أو شَيْئانِ؟ ... والأظهرُ أنَّهما شَيءٌ واحدٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦١).

وقال أبو حيَّان: (الَّذي يدُلُّ عليه الحديثُ واللُّغةُ أنَّ النَّفْسَ والرُّوحَ مُترادِفانِ، وأنَّ فِراقَ ذلك مِن الجسدِ هو الموتُ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٧).

وقال ابنُ القَيِّم: (الأنفُسُ هاهنا هي الأرواحُ قَطعًا). ((الروح)) (ص: ١٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (الأنفُسُ: جمعُ نَفْسٍ، وهي الشَّخصُ والذَّاتُ؛ قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾، وتُطلَقُ على الرُّوحِ الَّذي به الحياةُ والإدراكُ، ومعنى التَّوفِّي يَتعلَّقُ بالأنفُسِ على =

﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾.

أي: ويَتوفَّى اللهُ في المنامِ الأرواحَ الَّتي لم يَنقَضِ بَعْدُ أجَلُ أصحابِها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ [الأنعام: ٦٠].

﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾.

أي: فيَحبِسُ اللهُ الأرواحَ الَّتي حَكَم على أصحابِها بالموتِ، فلا يَرُدُّ أرواحَهم إلى أجسادِهم في الدُّنيا[2].

﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾.

أي: ويُرسِلُ اللهُ أرواحَ الأحياءِ حينَ استيقاظِهم مِن مَنامِهم، فتَعودُ إلى أجسادِهم، فلا يَتوفَّاها اللهُ الوَفاةَ الكُبرى إلَّا حينَ انقِضاءِ أجَلِهم في الحياةِ

= كِلا الإطلاقَينِ، والمعنى: يَتوفَّى النَّاسَ الَّذين يَموتون؛ فإنَّ الَّذي يُوصَفُ بالموتِ هو الذَّاتُ لا الرُّوحُ، وإنَّ توَفِّيَها سَلْبُ الأرواحِ عنها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤).

قال ابنُ عطيَّة: (يكفيك أنَّ في هذه الآيةِ ﴿يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾، وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «إنَّ اللهَ قَبَض أرواحَنا حينَ شاء، ورَدَّها علينا حينَ شاء» في حديث بلالٍ في الوادي؛ فقد نَطَقَت الشَّريعةُ بقَبضِ الرُّوحِ والنَّفْسِ في النَّوم، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، فظاهِرٌ أنَّ التَّفصيلَ والخَوضَ في هذا كُلُّه عَناءٌ، وإن كان قد تعَرَّضَ للقَولِ في هذا ونحوِه أئمَّةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٣، ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٦)، ((شرح حديث النزول)) لابن تيمية (ص: ٩٤)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٠، ٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥).

الدُّنيا[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا أوى أحَدُكم إلى فِراشِه فلْيَأخُذْ داخِلةَ إزارِه[٢]، فلْيَنفُضْ بها فِراشَه، ولْيُسَمِّ اللهَ؛ فإنَّه لا يَعلَمُ ما خَلَفَه بَعْدَه على فِراشِه[٣]، فإذا أراد أن يَضْطَجِعَ فلْيَضْطَجِعْ على شِقِّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥).

قال ابنُ القيِّم: (أحَدُ القَولَينِ في الآيةِ... أنَّ المُمسَكةَ مَن تُوُفِّيَت وفاةَ الموتِ أوَّلًا، والمُرسَلةَ مَن تُوُفِّيَت وفاةَ النَّومِ، والمعنى على هذا القَولِ: أنَّه يَتوفَّى نَفْسَ الميِّتِ فيُمسِكُها ولا يُرسِلُها إلى جَسَدِها قبْلَ يومِ القيامةِ، ويَتوفَّى نَفْسَ النَّائمِ ثمَّ يُرسِلُها إلى جَسَدِه إلى بَقيَّةِ أجَلِها فيَتوفَّاها الوَفاةَ الأُخرى.

والقَولُ الثَّاني في الآيةِ: أنَّ المُمسَكةَ والمُرسَلةَ في الآيةِ كِلاهما تُوُفِّيَ وَفاةَ النَّومِ؛ فمَن استكمَلَت أجَلَها أمسَكَها عِندَه، فلا يَرُدُّها إلى جَسَدِها، ومَن لم تَستكمِلْ أجَلَها رَدَّها إلى جَسَدِها لتَستكمِلَه.

واختار شيخُ الإسلامِ هذا القولَ، وقال: عليه يدُلُّ القُرآنُ والسُّنَّةُ، قال: فإنَّه سُبحانَه ذَكَر إمساكَ الَّتي قضَى عليها المَوتَ مِن هذه الأنفُسِ الَّتي تَوَفَّاها وَفاةَ النَّومِ، وأمَّا الَّتي توَفَّاها حين مَوْتِها فتلك لم يَصِفْها بإمساكٍ ولا بإرسالٍ، بل هي قِسمٌ ثالثٌ.

والَّذي يَترجَّحُ هو القَولُ الأوَّلُ؛ لأنَّه سُبحانَه أخبَرَ بوفاتَينِ: وَفاةٍ كُبرى، وهي وفاةُ المَوتِ، ووَفاةٍ صُغرى، وهي وَفاةُ النَّومِ، وقَسَّم الأرواحَ قِسْمَينِ: قِسمًا قَضَى عليها بالموتِ فأمسَكَها عِندَه، وهي الَّتي تَوفَّاها وفاةَ الموتِ، وقِسمًا لها بقيَّةُ أجَلٍ، فرَدَّها إلى جَسَدِها إلى استِكمالِ أجَلِها، وجَعَل سُبحانَه الإمساكَ والإرسالَ حُكمَينِ للوَفاتَينِ المذكورتَينِ أوَّلًا؛ فهذه مُمسَكةٌ، وهذه مُرسَلةٌ، وأخبَرَ أنَّ الَّتي لم تَمُتْ هي الَّتي توَفَّاها في مَنامِها، فلو كان قد قَسَّم وَفاةَ النَّومِ إلى قِسمَينِ: وَفاةِ مَوتٍ، ووَفاةِ نَومٍ؛ لم يَقُلْ: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾؛ فإنَّها مِن حينِ قُبِضَت ماتت، وهو سُبحانَه قد أخبَرَ أنَّها لم تَمُتْ، فكيف يقولُ بعدَ ذلك ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾؟!). ((الروح)) (ص: ٢٠). ويُنظر: ((شرح حديث النزول)) لابن تيمية (ص: ٩٤).

(٢) داخِلةَ إزارِه: أي: طَرَفَ الإزارِ المُتَدَلِّي الدَّاخِلَ إلى البَدَنِ، الَّذي يَلِي الجَسَدَ. يُنظر: ((غريب الحديث)) لأبي عبيد (٤/ ٧٠)، ((تفسير الموطأ)) للقَنازِعي (٢/ ٧٦١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٣٧).

(٣) أيْ: ما صارَ بعْدَه خَلَفًا وبَدَلًا عنه إذا غابَ. وقيل: معناه: لا يَدْري ما وَقَع في فِراشِه بعدَما =

الأيمَنِ، ولْيَقُلْ: سُبحانَك اللَّهُمَّ رَبِّي، بك وضَعْتُ جنبي، وبك أرفَعُه، إنْ أمسَكْتَ نَفْسي فاغفِرْ لها، وإنْ أرسَلْتَها فاحفَظْها بما تحفَظُ به عِبادَك الصَّالِحينَ))[١].

وعن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أوَى إلى فِراشِه قال: باسمِك أموتُ وأحْيا، وإذا قام قال: الحَمدُ لله الَّذي أحيانَا بعدَ ما أماتَنا، وإليه النُّشورُ))[٢].

وعن أبي قَتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سِرْنا معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَيْلَةً، فقال: بعضُ القوم: لو عَرَّسْتَ[٣] بنا يا رسولَ اللهِ، قال: أخافُ أنْ تَناموا عن الصَّلاةِ، قال بلالٌ: أنا أُوقِظُكم، فاضْطَجَعوا، وأسْنَد بلالٌ ظهرَه إلى راحِلَتِه، فغَلَبَتْه عَيْناهُ فنام، فاسْتَيْقَظ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد طَلَع حَاجِبُ الشَّمْسِ، فقال: يا بلالُ، أينَ ما قُلْتَ؟ قال: ما أُلْقِيَتْ عَلَيَّ نَوْمَةٌ مِثْلُها قَطُّ، قال: إنَّ اللهَ قَبَض أرواحَكم حِينَ شاءَ، ورَدَّها عليكم حِينَ شاءَ، يا بلالُ، قُمْ فأَذِّنْ بالنَّاسِ بالصَّلاةِ، فتوَضَّأَ، فلَمَّا ارْتَفَعت الشَّمسُ وابياضَّتْ، قام فصَلَّى))[٤].

وفي روايةٍ عن أبي قَتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ قَبَض أرواحَكم حينَ شاء، ورَدَّها حينَ شاء، فقَضَوا حوائِجَهم، وتَوَضَّؤُوا إلى أن طَلَعَت الشَّمسُ وابيَضَّتْ، فقام فصَلَّى))[٥].

= خَرَج مِنه مِنْ تُرابٍ أو قَذاةٍ أو هَوامَّ. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٦/ ١٨٧٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ١٢٧).

(١) رواه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٦٣١٢).

(٣) التعريسُ: نزولُ المسافرِ لغيرِ إقامةٍ، وأصلُه نزولُ آخرِ الليلِ للنَّومِ والراحةِ، ويُستعمَلُ في كلِّ وقتٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٥٥) و(٢/ ٦٧).

(٤) رواه البخاري (٥٩٥).

(٥) رواه البخاري (٧٤٧١).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: إنَّ في هذا التَّوَفِّي للأرواحِ وإمساكِها وإرسالِها: لَعَلاماتٍ ودَلائِلَ، وعِبَرًا وعِظاتٍ للَّذينَ يَتفكَّرونَ في شأنِها، فيَستَدِلُّونَ بها على كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، واستِحقاقِه العِبادةَ وَحْدَه دونَ غَيرِه، وعلى تَحقُّقِ وُقوعِ البَعثِ... وغَيرِ ذلك[1].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

انتِقالٌ مِن تَشنيعِ إشراكِهم إلى إبطالِ مَعاذيرِهم في شِركِهم؛ ذلك أنَّهم لَمَّا دمَغَتْهم حُجَجُ القُرآنِ باستِحالةِ أن يكونَ لله شُرَكاءُ؛ تمحَّلوا تأويلًا لشِركِهم، فقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] كما حُكِيَ عنهم في أوَّلِ هذه السُّورةِ، فلمَّا استُوفِيَت الحُجَجُ على إبطالِ الشِّركِ؛ أقْبَلَ هنا على إبطالِ تأويلِهم منه، ومَعذرتِهم[2].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾.

أي: أم اتَّخَذ المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ آلِهةً يَعبُدونَها؛ لِتَشفَعَ لهم عندَ اللهِ في قَضاءِ حاجاتِهم[3]؟

﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢).

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: أيَتَّخِذونَ تلك الأصنامَ شُفَعاءَ لهم، ولو كانت لا تَملِكُ شَيئًا، ولا تَعقِلُ[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۞ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَفَى أنْ يكونَ لأصْنامِهم شَيءٌ مِن الشَّفاعةِ في عُمومِ نَفيِ مِلْكِ شَيءٍ مِن المَوْجوداتِ عن الأصْنام، قُوبِلَ بقَولِه: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾، أي: الشَّفاعةُ كُلُّها للهِ، وأُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يقولَ ذلك لهم؛ لِيَعلَموا أنَّ الشَّفاعةَ لا يَملِكُها إلَّا اللهُ[٢].

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: للهِ وَحْدَه الشَّفاعةُ، ومَرجِعُها كُلِّها إليه؛ فلا يَملِكُ أحَدٌ سِواه شَيئًا منها، وهو وَحْدَه مَن يأذَنُ بها إنْ شاء، لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣١١-٣١٤).
قال الشوكاني: (ومعنَى ﴿لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾: أنَّهم غيرُ مالكينَ لشَيءٍ مِن الأشياءِ، وتَدخُلُ الشَّفاعةُ في ذلك دخولًا أوَّليًّا، ﴿وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ شيئًا؛ لأنَّها جماداتٌ لا عقلَ لها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، =

كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: لله وَحْدَه مُلكُ السَّمَواتِ ومُلكُ الأرضِ، وله وَحْدَه التَّصَرُّفُ فيهما كما يُريدُ؛ فاعبُدوا اللهَ المالِكَ كُلَّ شَيءٍ، الَّذي يَقدِرُ على نَفْعِكم وضَرِّكم، ولا تَعبُدوا غَيْرَه مِمَّا لا يَملِكُ شَيئًا(١).

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: ثُمَّ إلى اللهِ مَصيرُكم يومَ القيامةِ لا إلى غَيرِه، فيَحكُمُ بيْنَكم، ويُجازي كُلًّا منكم(٢).

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا دَلَّ على أنَّ شُفَعاءَهم ليسَت بأهلٍ للشَّفاعةِ، وعلى أنَّ الأمرَ كُلَّه مَقصورٌ

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٥).

عليه، وخَتَم بأنَّه لا بُدَّ مِن الرُّجوعِ إليه المُقتَضي لِأنْ تُصرَفَ الهِمَمُ كُلُّها نَحوَه، وتُوَجَّهَ العزائِمُ جَميعُها تِلْقاءَه، ولأنَّه لا يُخشَى سِواه، ولا يُرجَى غَيرُه- ذكَرَ حالًا مِن أحوالِهم[١].

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾.

أي: وإذا أُفرِدَ اللهُ تعالى وَحْدَه بالذِّكرِ دُونَ غَيرِه مِنَ المعبوداتِ الباطِلةِ انقَبَضَت قُلوبُ المُشرِكينَ الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ، وتمعَّرَت وُجوهُهم ونَفَروا؛ كراهيةً لِتَوحيدِ اللهِ سُبحانَه[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ [الحج: ٧١، ٧٢].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾.

أي: وإذا ذُكِرَت آلِهتُهم بالخَيرِ اشتَدَّ فَرَحُهم، وظَهَرَ السُّرورُ على وُجوهِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٤، ٥٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢٩، ٣٣٠).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه الحَثُّ على التَّفَكُّرِ، وأنَّه مِفتاحُ العِلمِ[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فالواجِبُ أن تُطلَبَ الشَّفاعةُ مِمَّن يَملِكُها، وهو اللهُ تعالى، وأن تُخلَصَ له العِبادةُ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ هذا يدُلُّ على أنَّ المُتوفِّيَ هو اللهُ فقط، وتأكَّدَ هذا بقَولِه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢]، وبقَولِه: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وبقَولِه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، ثمَّ إنَّ اللهَ تعالى قال في آيةٍ أُخرى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، وقال في آيةٍ ثالثةٍ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١].

الجوابُ: أنَّ المتوفِّيَ في الحقيقةِ هو اللهُ، إلَّا أنَّه تعالى أسنَد في عالَمِ الأسبابِ كُلَّ نَوعٍ مِن أنواعِ الأعمالِ إلى مَلَكٍ مِن الملائِكةِ؛ فأسنَد قَبضَ الأرواحِ إلى مَلَكِ الموتِ -وهو رئيسٌ وتحتَه أتْباعٌ وأعْوانٌ- فأُضيفَ التَّوفِّي في هذه الآيةِ إلى اللهِ تعالى بالإضافةِ الحَقيقيَّةِ، وفي الآيةِ الثَّانيةِ إلى مَلَكِ المَوتِ؛ لأنَّه هو الرَّئيسُ في هذا العَمَلِ، وإلى سائِرِ الملائِكةِ؛ لأنَّهم هم الأتْباعُ لِمَلَكِ الموتِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٧). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٣، ٣٧٤) و(٦/ ١٨٥)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٨٤).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا ﴾ أنَّه سُبحانَه سَوَّى في الاسم بيْنَ الوفاتَينِ مع اختِلافِ المَعنَيَينِ، وفيه حُجَّةٌ على الجَهميَّةِ في امتِناعِهم مِن تَسميةِ الشَّيءِ باسمِ غَيرِه إذا خالفَه في بَعضِ صفاتِه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾ أنَّ الرُّوحَ مخلوقةٌ؛ ودلَّ لذلك: أنَّها تُوصَفُ بالوفاةِ والقبضِ والإمساكِ والإرسالِ؛ وهذا شأنُ المخلوقِ المُحدَثِ المَرْبوبِ[٢]، ودلَّ أيضًا على أنَّها جسمٌ قائمٌ بنفْسِه؛ مُخالِفٌ جوهرُه جوهرَ البدنِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا ﴾ يَظهَرُ مِن التَّقديرِ -الَّذي هدَى إليه قطعًا السِّياقُ- أنَّ النَّفْسَ الَّتي تنامُ هي الَّتي تموتُ، وهي الرُّوحُ[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا ﴾ يدُلُّ على أنَّ النَّائِمَ قد خرَجت الرُّوحُ مِن جسَدِه، ونحنُ نعلمُ قطعًا أنَّ الرُّوحَ في جسَدِه، ألَا ترَى أنَّه يَتنفَّسُ ويرَى الرُّؤْيا، وذلك لا يكونُ إلَّا مع قيامِ الرُّوحِ[٥]؟

والجوابُ عنه: أنَّ انفِصالَ رُوحِ النَّائمِ عنه، ورُجوعَها إليه، سمَّاه اللهُ تعالى وفاةً، ويُسمَّى مَوتًا وحياةً، كما كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ إذا استيقظَ مِن منامِه: ((الحمدُ لله الَّذي أحْيانا بعدَ ما أماتنا، وإليه النُّشورُ))[٦]، ومع هذا فلا

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٤٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٠).

(٦) أخرجه البخاري (٦٣١٢) من حديث حذيفةَ رضي الله عنه. =

يُنافي ذلك أن يكونَ النَّائمُ حيًّا[١].

وقيل: إنَّ النَّفْسَ على وجهَينِ؛ أحدُهما: النَّفْسُ المميِّزةُ الَّتي تكونُ لها إدراكُ الأشياءِ. والآخرُ: هي النَّفْسُ الَّتي بها الحياةُ.

ويُقالُ: للإنسانِ نفْسٌ ورُوحٌ، فعندَ النَّومِ تخرُجُ النَّفْسُ وتبقَى الرُّوحُ، وهذا القولُ قريبٌ مِن السَّابقِ[٢].

٦- قَولُه سُبحانَه وتعالى: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾ فيه أنَّ النَّومَ وَفاةٌ؛ ويَشهَدُ لذلك قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[٣] [الأنعام: ٦٠].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ إثباتُ وَصْفِ اللهِ تعالى بالإمساكِ والإرسالِ؛ فهو يُمْسِكُ ويُرْسِلُ[٤].

٨- قال تعالى: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾، أي: يَمنَعُها أن تَرجِعَ إلى الحياةِ. وإطلاقُ الإمساكِ على بقاءِ حالةِ الموتِ تَمثيلٌ لِدَوامِ تلك الحالةِ، ومِن لَطائِفِه أنَّ أهلَ الميِّتِ يَتمَنَّونَ عَوْدَ مَيِّتِهم لو وَجَدوا إلى عَودِه سَبيلًا، ولكِنَّ اللهَ لم يَسمَحْ لِنَفْسٍ ماتت أن تَعودَ إلى الحياةِ[٥]، إلَّا ما استُثْنِيَ ممَّا أخبَرَ اللهُ عنه؛ كقتيلِ

= وأخرجه أيضًا (٦٣٢٥) من حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه.

وأخرجه مسلم (٢٧١١) من حديث البَراءِ رضي الله عنه.

(١) يُنظر: ((أهوال القبور)) لابن رجب (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ٣٢٥). ويُنظر أيضًا: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥).

بني إسرائيلَ وغيرِه مِن الأُلوفِ الَّذين خرَجوا مِن ديارِهم حذَرَ الموتِ.

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ رَدٌّ على المُعتزِلةِ والقَدَريَّةِ فيما يَزعُمونَ: أنَّ المَقتولَ مَيِّتٌ بغَيرِ أجَلِه، وقاتِلَه قاطِعٌ حياتَه الموهوبةَ له مِن عندِ رَبِّه[1]!

١٠- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، جَعَل الله ما تدُلُّ عليه حالَتَا المَوتِ والنَّومِ مِن دَلائِلَ آياتٍ كثيرةً؛ لأنَّهما حالَتانِ عَجيبَتانِ، ثمَّ في كُلِّ حالةٍ تَصرُّفٌ يُغايِرُ التَّصرُّفَ الَّذي في الأُخرى؛ ففي حالةِ المَوتِ سَلْبُ الحَياةِ عن الجِسمِ، وبقاءُ الجِسمِ كالجَمادِ، ومَنعٌ مِن أنْ تَعودَ إليه الحَياةُ، وفي حالةِ النَّومِ سَلبُ بَعضِ الحَياةِ عن الجِسْمِ حتَّى يَكونَ كالميِّتِ، وما هو بميِّتٍ، ثمَّ مَنْحُ الحَياةِ أنْ تَعودَ إليه، دَوالَيْكَ إلى أنْ يَأتِيَ إبَّانُ سَلْبِها عنه سَلْبًا مُستَمِرًّا[2].

١١- قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فأخبَرَ أنَّ الشَّفاعةَ لِمَن له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، وهو اللهُ وَحْدَه؛ فهو الَّذي يَشفَعُ بنَفْسِه إلى نَفْسِه؛ لِيَرحَمَ عَبْدَه، فيَأذَنَ هو لِمَن يَشاءُ أن يَشفَعَ فيه؛ فصارت الشَّفاعةُ في الحقيقةِ إنَّما هي له، والَّذي يَشفَعُ عِندَه إنَّما يَشفَعُ بإذْنِه له وأمْرِه بعدَ شفاعتِه سُبحانَه إلى نَفْسِه، وهي إرادتُه مِن نَفْسِه أن يَرحَمَ عَبْدَه. وهذا ضِدُّ الشَّفاعةِ الشِّركيَّةِ الَّتي أثبَتَها هؤلاء المُشرِكونَ ومَن وافَقَهم، وهي الَّتي أبطَلَها اللهُ سُبحانَه في كتابِه، بقَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦).

مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ ﴾[1] [البقرة: ٢٥٤].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾ فيه إقامةُ الحُجَّةِ العَقليَّةِ في مُجادَلةِ الخَصمِ، فإذا كانوا لا يَملِكونَ شَيئًا، فكيف تَتَّخِذونَهم شُفَعاءَ وتَعبُدونَهم مِن دونِ اللهِ تعالى[2]؟!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ إثباتُ الشَّفاعةِ، ووَجْهُ إثباتِها: أنَّه لولا وُجودُها ما صحَّ أنْ يقولَ تعالى: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾، وفيه أيضا ردٌّ على المُعتزِلةِ والخَوارجِ؛ لأنَّ المُعتزِلةَ والخوارِجَ يُنكِرونَ الشَّفاعةَ في أهلِ الكبائرِ، سواءٌ أدَخلوا النَّارَ أم لم يَدْخُلوها؛ وذلك لأنَّ أهلَ الكبائرِ عندَ المُعتزِلةِ والخوارجِ مُخَلَّدون في النَّارِ، لكِنَّهم عندَ الخوارجِ كفَّارٌ، وعندَ المُعتزِلةِ لا مُؤمِنونَ ولا كافِرونَ، بل في مَنزِلةٍ بيْنَ مَنزِلَتينِ[3]!

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ بصيغةِ الحَصرِ، سؤالٌ: أنَّه كيف قال ذلك مع أنَّ للأنبياءِ والعُلَماءِ والشُّهَداءِ والأطفالِ شَفاعةً؟

الجَوابُ: أنَّ معناه أنَّ أحدًا لا يَملِكُها إلَّا بتَمليكِه سبحانَه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾[4] [الأنبياء: ٢٨].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ أنَّه لا أحدَ يَشْفَعُ إلَّا بإذْنِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٦). ويُنظر أيضًا: ((أنموذج جليل)) لزين الدين الرازي (ص: ٤٤٩).

تعالى، ووجْهُه: أنَّه إذا كانتِ الشَّفاعةُ خاصَّةً باللهِ؛ فإنَّها لا تكونُ إلَّا منه وإليه[١].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ إثباتُ شَفاعاتٍ مُتعَدِّدةٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾؛ لأنَّ «جميعًا» تَقتضي أن يكونَ هناك شَيءٌ مَجموعٌ؛ فهناك شفاعةٌ في الدُّنيا، وشفاعةٌ في الآخرةِ، وشفاعةٌ في جلبِ نفْعٍ، وشفاعةٌ في دفعِ ضُرٍّ[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَذكُرُ الشَّيءَ مُنذِرًا بلازِمِه؛ لأنَّ مُجَرَّدَ الرُّجوعِ ليس فيه شَيءٌ يُذكَرُ، لكِنَّ المرادَ الرُّجوعُ الَّذي يَحصُلُ به الحِسابُ والجَزاءُ[٣].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ أنَّ استِبشارَهم بالاقتِصارِ على ذِكْرِ أصنامِهم مُؤذِنٌ بأنَّهم يُرجِّحونَ جانِبَ الأصنامِ على جانِبِ اللهِ تعالى[٤]، ويدُلُّ على شدَّةِ تَعَلُّقِ هؤلاء بأصنامِهم، حيثُ يَكرَهونَ ما يُضادُّها مِن التَّوحيدِ، وإذا ذُكِرَتْ هذه الأصنامُ استَبْشَروا[٥]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا ...﴾ الآيةَ، يَصلُحُ هذا أنْ يَكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٢، ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٣٢).

مَثَلًا لحالِ ضَلالِ الضَّالِّينَ وهُدى المُهتدينَ، نَشَأ عن قَولِه: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ [الزمر: ٤١]، والمَعْنى: أنَّ استِمْرارَ الضَّالِّ على ضَلالِه قد يَحصُلُ بعدَه اهتِداءٌ، وقد يُوافيهِ أجَلُه وهو في ضَلالِه؛ فضُرِبَ المَثَلُ لذلك بنَومِ النَّائِمِ قد تَعقُبُه إفاقةٌ، وقد يموتُ النَّائِمُ في نَومِه، وهذا تَهْوينٌ على نَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ برَجاءِ إيمانِ كَثيرٍ ممَّن هُمْ يَومَئذٍ في ضَلالٍ وشِركٍ كما تحقَّقَ ذلك، فتكونُ الجُملةُ تَعْليلًا للجُملةِ قَبْلَها، ولها اتِّصالٌ بقَولِه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ إلى قَولِه: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

ويجوزُ أنْ يكونَ انتِقالًا إلى استِدْلالٍ على تفرُّدِ اللهِ تعالى بالتَّصرُّفِ في الأحْوالِ؛ فإنَّه ذُكِرَ دَليلُ التَّصرُّفِ بخَلْقِ الذَّواتِ ابتِداءً مِن قَولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ إلى قَولِه: ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ [الزمر: ٥، ٦]، ثمَّ دَليلُ التَّصرُّفِ بخَلقِ أحْوالِ ذَواتٍ، وإنشاءِ ذَواتٍ مِن تلك الأحْوالِ، وذلك مِن قَولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قَولِه: ﴿لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١]، وأعقَبَ كُلَّ دَليلٍ بما يَظهَرُ فيه أثَرُه مِن المَوعِظةِ والعِبْرةِ والزَّجْرِ عن مُخالَفةِ مُقتَضاهُ، فانتَقَلَ هنا إلى الاستِدلالِ بحالةٍ عَجيبةٍ مِن أحوالِ أنفُسِ المَخْلوقاتِ، وهي حالةُ المَوتِ، وحالةُ النَّومِ، وقد أنبَأَ عن الاستِدْلالِ قَولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فهذا دَليلٌ للنَّاسِ مِن أنفُسِهم؛ فتَكونَ الجُملةُ استِئْنافًا ابتِدائيًّا للتَّدرُّجِ في الاستِدْلالِ، ولها اتِّصالٌ بجُملةِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الزمر: ٥] وجُملةِ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ [الزمر: ٢١] المُتقدِّمَتَينِ. وعلى كِلَا الوَجْهَينِ أفادتِ الآيةُ إبرازَ حَقيقَتَينِ عَظيمَتَينِ مِن نَواميسِ

الحَياتَينِ النَّفْسيَّةِ والجَسَديَّةِ[١].

- وقولُه: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا ... ﴾ فيه تَقْديمُ اسْمِ الجَلالةِ على الخَبَرِ الفِعْليِّ؛ لإفادةِ تَخْصيصِه بِمَضْمونِ الخَبَرِ، أي: اللهُ يَتوَفَّى الأنفُسَ لا غَيْرُه، فهو قَصرٌ حَقيقيٌّ[٢]؛ لإظهارِ فَسادِ أنْ أشْرَكوا به آلِهةً لا تَملِكُ تَصرُّفًا في أحْوالِ النَّاسِ[٣].

- وقولُه: ﴿ٱلۡأَنفُسَ﴾ عبَّر عن جمعِ الكثرةِ بجمعِ القلَّةِ؛ إشارةً إلى أنَّها -وإن تجاوَزت الحصرَ- فهي كنفسٍ واحدةٍ[٤].

- والفاءُ في ﴿فَيُمۡسِكُ﴾ فاءُ الفَصيحةِ؛ لأنَّ ما تقدَّمَ يَقتَضي مِقدارًا يُفصِحُ عنه الفاءُ؛ لِبَيانِ تَوَفِّي النُّفوسِ في المنامِ[٥].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ مُستأنَفةٌ كما تُذكَرُ النَّتيجةُ عَقِبَ الدَّليلِ، أي: إنَّ في حالةِ الإماتةِ والإنامةِ دَلائلَ على انفرادِ اللهِ تعالى بالتَّصرُّفِ، وأنَّه المُستَحِقُّ للعِبادةِ دُونَ غَيرِه، وأنْ ليس المَقْصودُ مِن هذا الخَبَرِ الإخْبارَ باختِلافِ حالَتَي المَوتِ والنَّومِ، بلِ المَقْصودُ التَّفكُّرُ والنَّظَرُ في مَضرِبِ المَثَلِ، وفي دَقائِقِ صُنعِ اللهِ، والتَّذْكيرُ بما تَنْطَوي عليه مِن دَقائِقِ الحِكْمةِ الَّتي تَمُرُّ على كُلِّ إنسانٍ كُلَّ يَومٍ في نَفْسِه، وتَمُرُّ على كَثيرٍ مِن النَّاسِ في آلِهم، وفي عَشائِرِهم، وهم مُعرِضونَ عمَّا في ذلك مِن الحِكَمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣).

(٢) تقدَّم تعريفه (ص: ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣، ٢٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥).

وبَديعِ الصُّنعِ[١].

- وتَأْكيدُ الخَبَرِ بحَرفِ (إنَّ)؛ لِتَنْزيلِ مُعظَمِ النَّاسِ مَنزِلةَ المُنكِرِ لتلك الآياتِ؛ لِعَدَمِ جَرْيِهم في أحْوالِهم على مُقتَضى ما تدُلُّ عليه[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾

- (أَمْ) في قولِه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ مُنقَطِعةٌ -تُقدَّرُ بـ (بل) والهمزةِ-، وهي للإضرابِ الانتِقاليِّ، انتِقالًا مِن تَشْنيعِ إشْراكِهم إلى إبطالِ مَعاذيرِهم في شِرْكِهم[٣].

- والاستِفْهامُ الَّذي تُشعِرُ به (أَمْ) -فإنَّها بمعنى: (أَبَلْ)- هو للإنكارِ والتَّقْريرِ والتَّوْبيخِ، بمَعْنى أنَّ تَأويلَهم وعُذرَهم مُنكَرٌ كما كان المُعْتذَرُ عنه مُنكَرًا، فلم يَقْضُوا بهذه المَعذِرةِ وَطَرًا[٤].

- قَولُه: ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾ الهَمْزةُ في ﴿أَوَلَوۡ﴾ للاستِفْهامِ الإنْكاريِّ؛ لإنكارِ الواقِعِ واستِقْباحِه والتَّوْبيخِ عليه، ومَدْخولُها مَحْذوفٌ، تَقْديرُه: (أَيَشْفَعونَ؟!)، والمَعْنى: أَيَشْفَعونَ في حالةِ كَونِهم لا يَملِكون ولا يَعقِلون، وذلك عامُّ النَّقصِ، فكيف يَشفَعُ هؤلاءِ؟! ولذلك أتْبَعه بما اشْتَمَل على الاسْمِ الجامِعِ والمِلْكِ على الإطلاقِ دُنيا وأُخرى مِن غَيرِ مُنازِعٍ فيه، حيثُ قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥، ٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٦، ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧).

وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الآيةَ. أو هي هَمْزةٌ للاستِفْهام؛ لإنكارِ وُقوعِ الشَّفاعةِ منهم، ونفْيِ ذلك عنهم، على أنَّ المُرادَ بَيانُ أنَّ ما فَعَلوا ليس مِن اتِّخاذِ الشُّفَعاءِ في شَيءٍ؛ لأنَّه فَرعُ كَونِ الأوْثانِ شُفَعاءَ، وذلك أظهَرُ المُحالاتِ، فالمُقدَّرُ حينَئذٍ غَيرُ ما قُدِّرَ أوَّلًا. وعلى أيِّ تَقْديرٍ كان، فالواوُ للعَطْفِ على شَرطيَّةٍ قد حُذِفَتْ؛ لِدَلالةِ المَذْكورةِ عليها، أي: أَيَشْفَعونَ لو كانُوا يَملِكونَ شَيئًا، ولو كانُوا لا يَملِكونَ... إلخ، وجَوابُ (لو) مَحْذوفٌ؛ لِدَلالةِ المَذْكورِ عليه[١].

- وأفادَ تَنْكيرُ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في سِياقِ النَّفيِ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ عُمومَ كُلِّ ما يُملَكُ؛ فيَدخُلُ في عُمومِه جَميعُ أنْواعِ الشَّفاعةِ[٢].

- ولَمَّا كانتِ الشَّفاعةُ أمْرًا مَعْنويًّا، كان مَعْنى مِلكِها تَحْصيلَ إجابَتِها. والكَلامُ تَهكُّمٌ؛ إذ كيف يَشفَعُ مَن لا يَعقِلُ؟! فإنَّه لِعَدَمِ عَقْلِه لا يُتصوَّرُ خُطورُ مَعْنى الشَّفاعةِ عِندَه، فَضْلًا عن أنْ تَتوجَّهَ إرادَتُه إلى الاستِشْفاعِ؛ فاتِّخاذُهم شُفَعاءَ مِن الحَماقةِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾

- في قولِه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ تَقْديمُ الخَبَرِ المَجْرورِ ﴿لِّلَّهِ﴾ على المُبتَدَأِ ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾؛ لإفادةِ الحَصرِ. واللَّامُ للمِلْكِ، أي: قَصرُ مِلْكِ الشَّفاعةِ على اللهِ تعالى، لا يَملِكُ أحَدٌ الشَّفاعةَ عِندَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨).

- و﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ مِن الشَّفاعةِ مُفيدةٌ للاستِغْراقِ، أي: لا يَشِذُّ جُزْئِيٌّ مِن جُزْئيَّاتِ حَقيقةِ الشَّفاعةِ عن كَونِه مِلْكًا للهِ، وقد تَأكَّدَ بلازِمِ هذه الحالِ ما دلَّ عليه الحَصرُ مِن انتِفاءِ أنْ يكونَ شَيءٌ مِن الشَّفاعةِ لِغَيرِ اللهِ[١].

- وقولُه: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تَقْريرٌ لِما قبْلَه وتَأْكيدٌ، أي: له مِلْكُهما، وما فيهما مِن المَخْلوقاتِ[٢].

- وجُملةُ ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لِتَعْميمِ انفِرادِ اللهِ بالتَّصرُّفِ في السَّمَواتِ والأرضِ، الشَّامِلِ للتَّصرُّفِ في مُؤاخَذةِ المَخْلوقاتِ، وتَسْييرِ أُمورِهم؛ فمَوقِعُها مَوقِعُ التَّذْييلِ المُفيدِ لِتَقْريرِ الجُملةِ الَّتي قَبْلَه وزِيادةٌ، فإذا كان ذلك المُلكُ له، فلا يَستَطيعُ أحَدٌ صَرْفَه عن أمْرٍ أرادَ وُقوعَه إلى ضِدِّ ذلك الأمْرِ في مُدَّةِ وُجودِ السَّمَواتِ والأرضِ، وهذا إبطالٌ لِأنْ تَكونَ لآلِهَتِهم شَفاعةٌ لهم في أحْوالِهم في الدُّنيا[٣].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ على ما قبْلَه؛ للإشارةِ إلى إثْباتِ البَعْثِ، وإلى أنَّه لا يَشفَعُ أحَدٌ عِندَ اللهِ بعدَ الحَشْرِ إلَّا مَن أَذِنَ له اللهُ بذلك[٤].

- وأيضًا لَمَّا أخبَرَ أنَّه له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، هدَّدَهم بقَولِه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، فيَعلَمونَ أنَّهم لا يَشفَعونَ، ويَخيبُ سَعيُكم في عِبادَتِهم[٥].

- وحَرفُ (ثُمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتْبيِّ كشَأنِها في عَطفِ الجُمَلِ؛ ذلك لأنَّ مَضْمونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٨).

﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أنَّ للهِ مُلكَ الآخِرةِ كما كان له مُلكُ الدُّنيا، ومُلكُ الآخِرةِ أعظَمُ؛ لِسَعةِ مَمْلوكاتِه وبَقائِها[١].

- وَتَقْديمُ ﴿إِلَيۡهِ﴾ على ﴿تُرۡجَعُونَ﴾؛ للاهتِمامِ والتَّقَوِّي، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٢]، وللدَّلالةِ على الحصرِ؛ إذِ المعنى: إليه لا إلى غيرِه[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ [الزمر: ٤٣]؛ فحَكَى اللهُ تعالى عنهم ذلك إنكارًا وتَعجُّبًا، ولإظهارِ تَناقُضِهم في أقْوالِهم المُشعِرِ بأنَّ ما يَقولونَه أقضيةٌ سُفُسطائيَّةٌ[٤] يَقولونَها للتَّنصُّلِ مِن دَمَغاتِ الحُجَجِ الَّتي جَبَهَهم بها القُرآنُ؛ فإنَّهم يَعتَذِرونَ تارَةً على إشْراكِهم بأنَّ شُركاءَهُم شُفَعاءُ لهم عِندَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٣٤١).

(٤) السُفِسْطائيَّةُ: فرقةٌ يونانيّةٌ قديمةٌ، وهم أصنافٌ ثلاثةٌ: فمِنهم الَّذين ينفون حقائقَ الاشياءِ كلَّها، ومنهم الَّذين شكُّوا فى وجودِ الحقائقِ، ومنهم مَن ذهَب إلى أنَّ حقائقَ الاشياءِ تابِعَةٌ للاعتقادِ، وصحَّحوا جميعَ الاعتقاداتِ معَ تضادِّها وتنافيها. يُنظر: ((الفرق بين الفرق)) للبغدادي (ص: ٣١١)، ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (١/ ١٤)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٢/ ١٠٧٣).

والسَّفْسَطَةُ: هي قياسٌ مركَّبٌ مِن الوهميَّاتِ، والغرضُ منه تغليطُ الخصمِ وإسكاتُه. وهي كلمةٌ يونانيَّةٌ معناها: الغلطُ، والحِكمةُ المُمَوَّهَةُ. والغلطُ يقعُ بوجوهٍ كثيرةٍ: مِن جهةِ اللفظِ، أو مِن جهةِ المعنَى، أو مِن طريقِ الحذفِ والإضمارِ، أو في تركيبِ المقدِّماتِ الوهميَّةِ مكانَ القطعيَّةِ إلى غيرِ ذلك. يُنظر: ((تقريب الوصول)) لابن جزي (ص: ١٤٩)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١١٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٩/ ٣٥٣).

اللهِ، وهذا يَقتَضي أنَّهم مُعتَرِفونَ بأنَّ اللهَ هو إلَهُهم وإلهُ شُرَكائِهم، ثُمَّ إذا ذَكَر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ واحِدٌ، أو ذَكَر المُسلِمونَ كَلِمةَ (لا إلَهَ إلَّا اللهُ)؛ اشْمَأَزَّتْ قُلوبُهم مِن الاقتِصارِ على ذِكْرِ اللهِ، فلا يَرضَونَ بالسُّكوتِ عن وَصفِ أصْنامِهم بالإلهيَّةِ! وذلك مُؤذِنٌ بأنَّهم يُسَوُّونَها باللهِ تعالى[١].

- وقولُه: ﴿وَحۡدَهُ﴾ على القولِ بأنَّه مَصدَرٌ، أي: هو مَفْعولٌ مُطلَقٌ لِفعلِ (ذُكِرَ)؛ لِبَيانِ نَوعِه، أي: ذِكْرًا وَحْدًا، أي: لم يُذكَرْ مع اسْمِ اللهِ أسماءُ أصْنامِهم. وإضافةُ المَصدَرِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ لاشْتِهارِ المُضافِ إليه بهذا الوَحْدِ[٢].

- ونبَّهَ اللهُ سُبحانَه وتَعالى بوَضعِ قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ على أنَّهم إنَّما اشْمَأَزُّوا لأنَّهم رَكَنوا إلى اللَّذَّاتِ العاجِلةِ، وانْغَمَسوا في الشَّهَواتِ النَّفْسانيَّةِ، فإذا سَمِعوا بأنْ لا إلَهَ إلَّا هو وَحْدَه، واسْتَلزَمَ ذلك العِبادةَ والتَّجافِيَ عن دارِ الغُرورِ، والإنابةَ إلى دارِ الخُلودِ؛ ظَهَرَتْ آثارُ الكآبةِ على وُجوهِهم، وانقَبَضَتْ قُلوبُهم، وضاقتْ صُدورُهم، وإذا ذُكِرَتِ الأصْنامُ مالتْ قُلوبُهم إلى اللَّذَّاتِ العاجِلةِ، واسْتَبْشَروا وفَرِحوا[٣].

- والتَّعْبيرُ عنِ المُشرِكينَ بـ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لأنَّهم عُرِفوا بهذه الصِّلةِ بيْنَ النَّاسِ، مع قَصدِ إعادةِ تَذْكيرِهم بوُقوعِ القيامةِ[٤].

- والتَّعْبيرُ عن آلِهَتِهم بـ﴿ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾، دُونَ لَفظِ: (شُرَكائِهم أو شُفَعائِهم)؛ للإيماءِ إلى أنَّ عِلَّةَ استِبْشارِهم بذلك الذِّكْرِ هو أنَّه ذِكْرُ مَنْ هُم دُونَ اللهِ، أي:

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨، ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠).

ذِكرٌ مُناسِبٌ لهذه الصِّلةِ، أي: هو ذِكرٌ خالٍ عن اسْمِ اللهِ، فالمَعْنى: وإذا ذُكِر شُرَكاؤُهُم دُونَ ذِكْرِ اللهِ إذا هُمْ يَستَبْشِرون[١].

- قَولُه: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ كَلِمةُ (إِذَا) لِلمُفاجَأةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم يُعاجِلُهم الاستِبْشارُ حِينَئذٍ مِن فَرْطِ حُبِّهم آلِهَتَهم؛ ولذلك جِيءَ بالمُضارِعِ في ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ دُونَ أنْ يُقالَ: مُستَبشِرونَ؛ لإفادةِ تَجدُّدِ استِبْشارِهِم[٢].

- وقد بُولِغَ في بَيانِ حالَيهم القَبيحَتَينِ بمُقابَلةِ الاشْمِئْزازِ بالاستِبْشارِ مقابلةً كامِلةً؛ لأنَّ الاشمئزازَ غايةُ الكراهيةِ، والاستبشارُ غايةُ الفرحِ، والاشْمِئْزازُ: امتِلاءُ القَلبِ غَمًّا وغَيظًا، فيَظهَرُ أثَرُه، وهو الانقِباضُ في الوَجهِ، والاستِبْشارُ: امتِلاؤُه سُرورًا، فيَظهَرُ أثَرُه، وهو الانبِساطُ والتَّهلُّلُ في الوَجهِ[٣].

- والاقتِصارُ على التَّعرُّضِ لِهَذَينِ الذِّكْرينِ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ لأنَّهما أظهَرُ في سُوءِ نِيَّاتِ المُشرِكينَ نَحوَ اللهِ تعالى، وفي بُطلانِ اعتِذارِهِم بأنَّهم ما يَعبُدونَ الأصْنامَ إلَّا لِيُقَرِّبوهُم إلى اللهِ، ويَشْفَعوا لهم عِندَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩).

الآيات (٤٦-٤٨)

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: خالِقَهما ومُبدِعَهما ومُبتَدِئَهما، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[١].

﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ﴾: أي: لَبَذَلوا ذلك افتداءً مِن النَّارِ، والفِدَى والفِداءُ: حِفظُ الإنسانِ عن النَّائبةِ بما يَبذُلُه عنه، وافْتَدى: إذا بذَلَ ذلك عن نفْسِه، والافتداءُ: جَعْلُ أحدِ الشَّيئينِ بدَلًا مِن الآخَرِ، وأصلُ (فدي) هنا: أنْ يُجْعَلَ شَيءٌ مكانَ شَيءٍ حِمًى له[٢].

﴿يَحْتَسِبُونَ﴾: أي: يَظُنُّونَ، مِن حَسِبْتُ، أي: ظَنَنْتُ، والحِسْبانُ: الظَّنُّ، وأصلُ (حسب) هنا: العَدُّ؛ لأنَّه إذا قال: حَسِبْتُه كَذا، فكأنَّه قال: هو في الَّذي أعُدُّه مِنَ الأمورِ الكائنةِ[٣].

﴿وَحَاقَ﴾: أي: أحاطَ ونَزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٣٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٩)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٤٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وآمِرًا له بتفويضِ الأمورِ إليه: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: اللَّهُمَّ خالِقَ السَّمَواتِ والأرضِ على غَيرِ مِثالٍ سابِقٍ، عالِمَ ما غاب عن الخَلقِ، وما ظهَرَ لهم، أنتَ وَحْدَكَ تَقضي بيْنَ عِبادِك يومَ القيامةِ بالعَدلِ فيما كانوا يَختَلِفونَ فيه في الدُّنيا.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى ما للمشركينَ مِن سوءِ المصيرِ، فيقولُ: ولو أنَّ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ ما في الأرضِ جَميعًا ومِثلَه معه، لَقَدَّموه فِداءً لأنفُسِهم مِنَ العذابِ السَّيِّئِ يومَ القيامةِ، وظهَرَ لهم يومَ القيامةِ مِن عذابِ اللهِ ما لم يَخطُرْ ببالِهم، وظهَرَ لهم سَيِّئاتُ ما عَمِلوا في الدُّنيا، وأحاط بالكافِرينَ العذابُ الَّذي كانوا يَسْخَرونَ منه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أكثَرُ ما تَقدَّمَ مِن السُّورةِ مُشعِرًا بالاختِلافِ بيْنَ المشركينَ والمؤمنينَ، وبأنَّ المشركينَ مُصمِّمون على باطِلِهم على ما غمَرَهم مِن حُجَجِ الحقِّ دونَ إغناءِ الآياتِ والنُّذُرِ عنهم؛ أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَقولَ هذا القَولَ؛ تَنفيسًا عنه مِن كَدَرِ الأسى على قَومِه، وإعذارًا لهم بالنِّذارةِ، وإشعارًا

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦).

لهم بأنَّ الحَقَّ في جانِبِهم مُضاعٌ، وأنَّه لا يُجدي فيهم إنذارُه واجتِهادُه، وأنَّ الأجدَرَ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُتارَكَتُهم، وأنْ يُفَوِّضَ الحُكمَ في خِلافِهم إلى الله[١].

وأيضا لَمَّا أخبَرَ عن سَخافةِ عُقولِهم باشمِئزازِهم مِن ذِكرِ اللهِ، واستِبشارِهم بذِكرِ الأصنامِ؛ أمَرَه أن يدعوَ بأسماءِ اللهِ العُظمى -مِنَ القُدرةِ، والعِلمِ، ونِسبةِ الحُكمِ إليه-؛ إذ غَيرُه لا قُدرةَ له، ولا عِلمَ تامٌّ، ولا حُكْمَ، وفي ذلك وَصفٌ لحالِهم السَّيِّئِ، ووعيدٌ لهم، وتَسليةٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- داعيًا ربَّك وَحْدَه: يا اللهُ يا خالِقَ السَّمَواتِ والأرضِ على غَيرِ مثالٍ سابِقٍ[٣].

﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

أي: يا عالِمَ ما غاب عن الخَلقِ، وما ظَهَرَ لهم، فلا يخفَى عليك شَيءٌ مِن ذلك[٤].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((يا رَسولَ اللهِ، مُرْني بكَلِماتٍ أقولُهنَّ إذا أصبحْتُ وإذا أمسَيتُ. قال: قُل: اللَّهُمَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٩)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٩)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١).

فاطِرَ السَّمَواتِ والأرضِ، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، رَبَّ كُلِّ شَيءٍ ومَليكَه، أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا أنت، أعوذُ بك مِن شَرِّ نَفْسي، وشَرِّ الشَّيطانِ وشِرْكِه. قال: قُلْها إذا أصبَحْتَ، وإذا أمسَيْتَ، وإذا أخذْتَ مَضْجَعَك))[1].

﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾.

أي: أنتَ وَحْدَكَ تَقضي بيْنَ عِبادِك يومَ القيامةِ بالعَدلِ فيما كانوا يَختلِفونَ فيه في الدُّنيا[2].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

---

(١) أخرجه أبو داودَ (٥٠٦٧) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (٣٣٩٢)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٦٩٩)، وأحمد (٧٩٦١).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصحَّحه ابنُ حبَّانَ في ((صحيحه)) (٦٩٢)، وابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (ص: ١٢٨)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٣٦٣)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٠٦٧)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥٠٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٣٤).

قال الشوكاني: (معنى ﴿تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾: تُجازي المحسِنَ بإحسانِه، وتُعاقِبُ المُسيءَ بإساءتِه؛ فإنَّه بذلك يَظهَرُ مَن هو المحِقُّ، ومَن هو المُبطِلُ، ويَرتَفِعُ عِندَه خلافُ المختَلِفينَ، وتَخاصُمُ المُتخاصِمينَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٦).

وقال ابن عاشور: (الحُكمُ يَصدُقُ بحُكمِ الآخِرةِ، وهو المحقَّقُ الَّذي لا يُخلَفُ، ويَشملُ حُكمَ الدُّنيا بنَصرِ المحِقِّ على المُبطِلِ إذا شاءَ اللهُ أن يُعَجِّلَ بَعضَ حُكمِه بأن يُعَجِّلَ لهم العذابَ في الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٢). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٥).

ومعنى قَولِه تعالى: ﴿فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: قيل: اختِلافُهم في الهُدى والضَّلالةِ. وقيل: اختِلافُهم في الحُقوقِ والمظالِمِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٠).

عن أبي سَلَمةَ بنِ عَبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوفٍ، قال: ((سألتُ عائشةَ أمَّ المؤمِنينَ: بأيِّ شَيءٍ كان نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَفتَتِحُ صَلاتَه إذا قام مِنَ اللَّيلِ؟ قالت: كان إذا قام مِنَ اللَّيلِ افتتَحَ صَلاتَه: اللَّهُمَّ ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطِرَ السَّمَواتِ والأرضِ، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، أنت تَحكُمُ بيْنَ عِبادِك فيما كانوا فيه يَختَلِفونَ، اهدِني لِما اختُلِفَ فيه مِنَ الحَقِّ بإذْنِك؛ إنَّك تَهدي مَن تَشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ))[1].

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّه الحاكِمُ بيْنَ عِبادِه، وذكَرَ مَقالةَ المُشرِكينَ وشناعتَها؛ كأنَّ النُّفوسَ تشَوَّفَت إلى ما يَفعَلُ اللهُ بهم يومَ القيامةِ، فأخبَرَ أنَّ لهم سُوءَ العَذابِ، أي: أشَدَّه وأفْظَعَه، كما قالوا أشَدَّ الكُفرِ وأشْنَعَه[2].

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾.

أي: ولو أنَّ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ جَميعَ ما في الأرضِ وضِعْفَ ذلك معه، لَقَدَّموه فِداءً يَفدُونَ به أنفُسَهم للنَّجاةِ مِن العَذابِ السَّيِّئِ يومَ القيامةِ[3].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ

---

(١) رواه مسلم (٧٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤٠-٣٤٢).

ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨].

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾.

أي: وظَهَر للظَّالِمينَ يومَ القيامةِ مِن أمرِ اللهِ وعَذابِه الَّذي أعدَّه لهم: ما لم يكُنْ يَخطُرُ ببالِهم، ولم يَقَعْ لهم في ظُنونِهم، وقد كانوا يَحكُمونَ لأنفُسِهم بغَيرِ ذلك[(١)].

كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾.

أي: وظَهَرَ للمُشرِكينَ يومَ القيامةِ السَّيِّئاتُ الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٥).

قيل: المرادُ: تَبدو لهم نَفْسُ سَيِّئاتِهم فيَرَونَها في كتُبِهم إذا أُعطُوها بشَمائِلِهم. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والبغوي، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨).

وقيل: المرادُ: الجزاءُ، أي: يَظهَرُ لهم عِقابُ ما كَسَبوه. وممَّن قال بذلك: السمرقنديُّ، ومكِّي، والرازي، والقرطبي، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٠)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٣٥٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، =

كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: ٥].

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

أي: وأحاط بالكافِرينَ ولَزِمَهم عذابُ اللهِ الَّذي كانوا يَسخَرونَ منه في الدُّنيا[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ تحذيرُ المرءِ مِن المخالَفةِ؛ لأنَّه إذا آمَنَ بأنَّ اللهَ عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ؛ فسوف يَحْذَرُ؛ لأنَّه مهما عَمِل فاللهُ تعالى عالِمٌ به[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ التَّحذيرُ مِن الظُّلْمِ؛ لأنَّ ذِكْرَ هذا يعني: التَّحذيرَ منه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ التَّوسُّلُ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى بأفعالِه[٤].

٢- قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٧).

تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ في تفويضِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الحُكمَ في خِلافِهم إلى اللَّهِ إشارةٌ إلى أنَّ الَّذي فوَّض أمْرَه إلى اللهِ هو الواثِقُ بأحَقِّيَّةِ دِينِه، المُطمَئِنُّ بأنَّ التَّحكيمَ يُظهِرُ حَقَّه، وباطِلَ خَصمِه[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ تسليةُ المؤمنينَ؛ لِكَونِ اللهِ تعالى يَحْكُمُ بيْنَهم فيما يَختلِفون فيه مع الكفَّارِ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴾ سُؤالٌ: أنَّ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴾ [العاديات: ٦، ٧] دَلالةً على أنَّ الإنسانَ شاهِدٌ على كُنودِ نَفْسِه -أي: مُبالَغتِه في الكُفرِ- وهذه بخِلافِ الآيةِ الشَّاهِدِ عِندَنا!

الجوابُ عن هذا مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ شَهادةَ الإنسانِ بأنَّه كَنودٌ هي شَهادةُ حالِه بظُهورِ كُنودِه، والحالُ رُبَّما تكفي عن المَقالِ.

الثَّاني: أنَّ شَهادتَه على نَفْسِه بذلك هي يومَ القيامةِ، كما يدُلُّ له قَولُه تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقَولُه تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، وقَولُه تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

الثَّالِثُ: أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴾ راجِعٌ إلى رَبِّ الإنسانِ المذكورِ في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾، وعليه فلا إشكالَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٣٩).

الآيةِ، ولكِنْ رُجوعُه إلى الإنسانِ أظهَرُ، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٞ﴾[1] [العاديات: ٨].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّهم لَيسُوا بمُؤمِنينَ؛ لأنَّ المؤمِنَ لا يَستَهزِئُ بوَعيدِ ربِّه، وإنِ اغْتَرَّ بذَنْبِه؛ فهؤلاء همُ اليَهودُ والنَّصارى ومَن يرَى مِن الكُفَّارِ أنَّ عمَلَه الَّذي يَتقرَّبُ به إلى اللهِ يُجازَى عليه بخَيرٍ، فيَبدو له مِن ربِّه خِلافُ ما قَدَّرَ[2]!

٦- قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ رُبَّما ظَنَّ الإنسانُ أنَّه على الاعتِقادِ الحَقِّ، والعَمَلِ الصَّالحِ، ثمَّ إنَّه يومَ القيامةِ يَظهَرُ له أنَّ اعتِقادَه كان ضَلالًا، وعمَلَه كان ذَنْبًا؛ فهناك تَحصُلُ الخَجالةُ العَظيمةُ، والحَسرةُ الكامِلةُ، والأسَفُ الشَّديدُ[3].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ تهويلٌ للأمرِ بإبهامِه؛ لِيَكونَ ضِدَّ ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾[4] [السجدة: ١٧].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ إثباتُ الكَسبِ للعبدِ؛ فيكونُ فيه رَدٌّ على الجَبريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِه! فنقولُ لهم: بلِ الإنسانُ غيرُ مُجبَرٍ، وعمَلُه مِن كَسْبِه[5].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤٧).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أنَّ الاستِهزاءَ باللهِ تعالى وآياتِه: سَبَبٌ للعذابِ، وهو كُفرٌ مُخرِجٌ عن المِلَّةِ؛ لِقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم﴾[1] [التوبة: ٦٥، ٦٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

- جُعِلَ هذا الدُّعاءُ مُعترِضًا بيْنَ كَلامَينِ؛ اهتِمامًا به، وتَوكيدًا لِلوَعيدِ[2].

- وفي قَولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ ...﴾ ابتُدِئَ خِطابُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِرَبِّه بالنِّداءِ؛ لِأنَّ المَقامَ مَقامُ تَوجيهٍ وتَحاكُمٍ. وإجراءُ الوَصفَينِ على اسمِ الجَلالةِ ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ لِمَا فيهما مِنَ المُناسَبةِ بخُضوعِ الخَلقِ كُلِّهم لِحُكمِه، وشُمولِ عِلْمِه لِدَخائِلِهم مِن مُحِقٍّ ومُبطِلٍ[3].

- ووَصْفُ ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُشعِرٌ بصِفةِ القُدرةِ، وتَقديمُه قبْلَ وصْفِ العِلْمِ؛ لِأنَّ شُعورَ النَّاسِ بقُدرَتِه سابِقٌ على شُعورِهم بعِلْمِه، ولأنَّ القُدرةَ أشَدُّ مُناسَبةً لِطَلَبِ الحُكمِ؛ لأنَّ الحُكمَ إلزامٌ وقَهرٌ، فهو مِن آثارِ القُدرةِ مُباشرةً[4].

- قَولُه: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤٧).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الدُّعاءِ، والمَعنى: احكُمْ بَيْنَنا[١].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿أَنتَ﴾ على الخَبَرِ الفِعليِّ ﴿تَحۡكُمُ﴾؛ لِإفادةِ الاختِصاصِ، أيْ: أنتَ لا غَيرُكَ، وإذْ لم يَكُنْ في الفَريقَينِ مَن يَعتَقِدُ أنَّ غيرَ اللهِ يَحكُمُ بيْنَ الناسِ في مِثلِ هذا الاختِلافِ فيَكونَ الرَّدُّ عليه بمُفادِ القَصرِ؛ تَعيَّنَ أنَّ القَصرَ مُستَعمَلٌ كِنايةً تَلويحيَّةً عن شِدَّةِ شَكيمَتِهم في العِنادِ، وعَدَمِ الإنصافِ والانصياعِ إلى قَواطِعِ الحُجَجِ، بحيث إنَّ مَن يَتطلَّبُ حاكمًا فيهم لا يَجِدُ حاكمًا فيهم إلَّا اللهَ تعالى. وهذا أيضًا يُومِئُ إلى العُذرِ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قِيامِه بأقصَى ما كُلِّفَ به؛ لِأنَّ هذا القَولَ إنَّما يَصدُرُ عمَّن بَذَلَ وُسْعَه فيما وَجَبَ عليه، فلَمَّا لَقَّنَه رَبُّه أنْ يَقولَه كان ذلك في مَعنى: إنَّكَ أبلَغْتَ وأدَّيتَ الرِّسالةَ، فلم يَبْقَ إلَّا ما يَدخُلُ تَحتَ قُدرةِ اللهِ تعالى الَّتي لا يُعجِزُها الألِدَّاءُ أمثالُ قَومِكَ، وفيه تَسليةٌ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وفيه وَعيدٌ لِلمُعانِدينَ[٢].

- والعُدولُ عنِ الإضمارِ إلى الاسمِ الظَّاهِرِ في قَولِه: ﴿بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾ دُونَ أنْ يَقولَ: (بَيْنَنا)؛ لِمَا في ﴿عِبَادِكَ﴾ مِنَ العُمومِ؛ لأنَّه جَمعٌ مُضافٌ، فيَشمَلُ الحُكمَ بَيْنَهم في قَضيَّتِهم هذه، والحُكمَ بيْنَ كُلِّ مُختَلِفَينِ؛ لِأنَّ التَّعميمَ أنسَبُ بالدُّعاءِ والمُباهَلةِ[٣].

- والإتيانُ بفِعلِ الكَونِ ﴿كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ صِلةً لـ﴿مَا﴾ المَوصولةِ؛ لِيَدُلَّ على تَحَقُّقِ الاختِلافِ، وكَونُ خَبَرِ (كانَ) مُضارِعًا تَعريضٌ بأنَّه اختِلافٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣١، ٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣١).

مُتَجَدِّدٌ؛ إذْ لا طَماعِيةَ في ارْعِواءِ المُشرِكينَ عن باطِلِهم[١].

- وتَقديمُ ﴿فِيهِ﴾ على ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾؛ لِلرِّعايةِ على الفاصِلةِ، مع الاهتِمامِ بالأمْرِ المُختَلَفِ فيه[٢].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ سِيقَ الكَلامُ في الأمْرِ بالدُّعاءِ في الأسماءِ الحُسْنى، والأمْرِ بالتَّفويضِ في الحُكمِ بَيْنَهم إلى اللهِ تَعالى، وأُدمِجَ فيه مَعانٍ أربَعةٌ؛ أحَدُها: قَولُه: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ﴾، دَلَّ على الاختِصاصِ؛ لِأنَّه مِن قَبيلِ: أنتَ عَرَفتَ، وأفادَ أنَّه تَعالى هو وَحْدَه يَحكُمُ بيْنَهم، فدَلَّ ذلك على شِدَّةِ شَكيمَتِهم في الكُفرِ والعِنادِ، وهو كِنايةٌ. وثانيها: اعتِذارٌ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِأنَّ هذا القَولَ إنَّما يَصدُرُ عمَّن بَذَلَ وُسْعَه فيما وَجَبَ عليه، أيْ: أبلَغتَ وأدَّيتَ ما عليكَ، بَقيَ الآنَ على مَن هو أحكَمُ الحاكِمينَ هو وَحْدَه يَحكُمُ بَيْنَهم. وثالِثُها: تَسليةٌ له صَلَواتُ اللهِ عليه؛ لِأنَّه كانَ حَريصًا على إيمانِ القَومِ؛ ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [الكهف: ٦]، وهذه الآيةُ كالمُتارَكةِ والمُوادَعةِ واليَأْسِ مِن إيمانِهم، واليَأْسُ إحدى الرَّاحَتَينِ. ورابِعُها: وَعيدٌ لهم، ولا وَعيدَ بَعْدَه؛ فقولُه: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دَلَّ على القُدرةِ التَّامَّةِ، وقَولُه: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ دَلَّ على العِلْمِ الشَّامِلِ، وأنَّه عالِمٌ بما ظَهَرَ منهم وما بَطَنَ، فيُجازيهم عليه، وقَولُه: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ دَلَّ على القَضاءِ الحَقِّ والحُكمِ العَدلِ، واللهُ أعلَمُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠١، ٤٠٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ نَمَطٍ مِن أنماطِ الهَولِ الَّذي يَنتَظِرُهم، والعَذابِ الشَّديدِ الَّذي أُعِدَّ لهم، ولِبَيانِ آثارِ الحُكمِ الَّذي استَدعاه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وغايةِ شِدَّتِه وفَظاعَتِه[1]. أو عَطفٌ على جُملةِ ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ [الزمر: ٤٦] إلَخ؛ لِأنَّها تُشيرُ إلى أنَّ الحَقَّ في جانِبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ الحُكمَ سَيَكونُ على المُشرِكينَ، فأعقَبَ ذلك بتَهويلِ ما سيَكونُ به الحُكمُ بأنَّه لو وَجَدَ المُشرِكونَ فِديةً منه بالِغةً ما بَلَغتْ لَافتَدَوْا بها[2].

- وإنْ جُعِلَ قولُه: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عامًّا، كانتِ الآيةُ اعتِراضًا بَعْدَ اعتِراضٍ. وإذا جُعِلَ مِن إقامةِ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ إشعارًا بالعِلِّيَّةِ، كان استِطرادًا بعدَ اعتِراضٍ[3].

- وقولُه: ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ يَشملُ كُلَّ عَزيزٍ عليهم مِن أهليهم وأموالِهم، بل وأنْفُسِهم؛ فهو أهوَنُ مِن سُوءِ العَذابِ يَومَ القِيامةِ، ووَجهُ التَّهويلِ في ذلك هو ما يَستَلزِمُه مِلكُ هذه الأشياءِ مِنَ الشُّحِّ بها في مُتَعارَفِ النُّفوسِ[4].

- وتَضَمَّنَ حَرفُ الشَّرطِ (لو) أنَّ كَونَ ما في الأرضِ لهم مُنتَفٍ؛ فأفادَ أنْ لا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣).

فِداءَ لهم مِن سُوءِ العَذابِ، فهذا وَعيدٌ شَديدٌ، وإقناطٌ كُلِّيٌّ لهم مِنَ الخَلاصِ[١].

- وعُطِفَ على هذا التَّأييسِ تَهويلٌ آخَرُ في عِظَمِ ما يَنالُهم مِنَ العَذابِ، وهو ما في المَوصولِ مِن قَولِه: ﴿مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ مِنَ الإيهامِ الَّذي تَذهَبُ فيه نَفْسُ السَّامِعِ إلى كُلِّ تَصويرٍ مِنَ الشِّدَّةِ[٢].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ ابتِدائيَّةٌ، أيْ: ظَهَرَ لهم مِمَّا أعَدَّ اللهُ لهمُ الَّذي لم يَكونوا يَظُنُّونَه. والاحتِسابُ: مُبالَغةٌ في الحِسابِ، بمَعنى الظَّنِّ، مِثلَ: اقتَرَبَ بمَعنى قَرُبَ، والمَعنى: ما لم يَكونوا يَظُنُّونَه، وذلك كِنايةٌ عن كَونِه مُتَجاوِزًا أقصى ما يَتَخَيَّلُه المُتَخَيِّلُ حينَ يَسمَعُ أوصافَه؛ فلا التِفاتَ في هذه الكِنايةِ إلى كَونِهم كانوا مُكَذِّبينَ بالبَعثِ، فلمْ يَكُنْ يَخطُرُ ببالِهم[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عَطفٌ على ما تَقَدَّمَ، ويُمكِنُ أنْ يَكونَ الكَلامُ مُستَأنَفًا مَسوقًا لإبرازِ وَعيدِهم في أبلَغِ ما يَكونُ الوَعيدُ والتَّهديدُ[٤].

- و﴿سَيِّـَٔاتُ﴾ جَمْعُ سَيِّئةٍ، وهو وَصفٌ أُضيفَ إلى مَوصوفِه، وهو المَوصولُ ﴿مَا كَسَبُوا۟﴾، أيْ: مَكسوباتهمُ السَّيِّئات، وتَأنيثُها باعتِبارِ شُهرةِ إطلاقِ السَّيِّئةِ على الفَعلةِ، وإنْ كان فيما كَسَبوه ما هو مِن فاسِدِ الاعتِقادِ؛ كاعتِقادِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٩).

الشُّرَكاءِ للهِ، وإضمارِ البُغضِ لِلرَّسولِ والصَّالِحينَ، والأحقادِ والتَّحاسُدِ، فجَرى تَأنيثُ الوَصفِ على تَغليبِ السَّيِّئاتِ العَمليَّةِ -مِثلَ الغَصْبِ والقَتلِ والفَواحِشِ- تَغليبًا لَفظيًّا؛ لِكَثرةِ الاستِعمالِ[١].

- وأُوثِرَ فِعلُ ﴿كَسَبُواْ﴾ على فِعلِ (عَمِلوا)؛ لِقَطعِ تَبَرُّمِهم مِنَ العَذابِ بتَسجيلِ أنَّهمُ اكتَسَبوا أسبابَه بأنْفُسِهم[٢].

- قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يحتملُ أن يكونَ هذا على حذفِ مُضافٍ تقديرُه: حاقَ بهم جزاءُ ما كانوا به يَسْتهزِئونَ، ويحتملُ أن يكونَ الكلامُ دونَ حذفٍ، ومعناه: حاقَ بهم العذابُ الَّذي كانوا به يَستهزِئونَ[٣].

- وقيل: الباءُ في قَولِه: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ لِلسَّبَبيَّةِ[٤].

- وتَقديمُ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لِلاهتِمامِ به، ولِلرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾، وقال في سُورةِ (الجاثيةِ): ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ [الجاثية: ٣٣]؛ ووَجهُ ذلك: أنَّ ﴿مَا كَسَبُواْ﴾ في هذه السُّورةِ وَقَع بيْنَ ألفاظِ الكَسبِ، وهو ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]، وما تَبِعَه مِن ذِكرِ السَّبَبِ بَعْدَها في قَولِه: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [الزمر:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣، ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥٠، ٥١]، وأمَّا في سُورةِ (الجاثيةِ) فوَقَع بيْنَ ألفاظِ العَمَلِ، وهي ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩]، و﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٣٠]، وبعْدَه ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ [الجاثية: ٣٣]؛ فخُصَّتْ كُلُّ سُورةٍ بما اقتَضاه طَرَفاه[١].

وقيل غيرُ ذلك[٢].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١١٧، ١١١٨)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٨، ٢١٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٦، ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٢٦-٤٢٨).

الآيات (٤٩-٥٢)

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَوَّلْنَٰهُ﴾: أي: مَلَّكْناه وأعطَيْناه، وأصلُه: يدُلُّ على تَعهُّدِ الشَّيءِ[(١)].

﴿فِتْنَةٌ﴾: أي: اختبارٌ، وابتلاءٌ، وامتحانٌ، وأصلُ الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه[(٢)].

﴿يَبْسُطُ﴾: أي: يُوَسِّعُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ[(٣)].

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه، كأنَّما جُعِلَ رِزقُه بقَدْرٍ يَسيرٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢ / ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ الإنسانِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ: فإذا أصاب الإنسانَ ضَرَرٌ أو كَربٌ دَعانا؛ لِنَكشِفَ عنه ما أصابه، ثمَّ إذا أعطَيْناه نِعمةً مِنَّا قال: إنَّما أُعطيتُ ذلك على عِلمٍ! بل هذه النِّعمةُ فِتنةٌ له، ولكِنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمونَ ذلك.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى المصيرَ السَّيِّئَ لقائلِ تلك المقالةِ، فيقولُ: قد قال هذه المقالةَ مَنْ سبَقَهم مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، فما أغْنَى عنهم ما كَسَبوه شَيئًا مِن العَذابِ. فحَلَّ عليهم عِقابُ كَسبِهم، والَّذين ظَلَموا مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ سيُصيبُهم أيضًا عِقابُ كَسبِهم، وما هم بمُعجِزينَ اللهَ تعالى؛ فهو قادِرٌ على عِقابِهم.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا عظيمَ قدرتِه، وبديعَ حكمتِه: أوَلَمْ يَعلَموا أنَّ اللهَ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ لِقَومٍ يُؤمِنونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذه حكايةُ طريقةٍ أُخرَى مِن طرائقِهم الفاسدةِ[1]، فبَعْدَ أنْ حكَى عن المشركينَ بعضَ هَنَواتِهم[2] .....

= للراغب (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٨).

(٢) الهَنَوات: خِصالُ سُوءٍ. يُنظر: ((أساس البلاغة)) للزمخشري (٢/ ٣٨١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٣٦٦).

الفاسِدةِ- حكَى عنهم هَناةً أخرَى[١].

وأيضًا لَمَّا قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، وأخبَرَ عن ظُهورِ هذا لهم؛ عَلَّلَه بأنَّهم كانوا يَفعَلونَ ما لم يَكُنْ في العادةِ يُتوقَّعُ منهم، وهو مُجازاةُ الإحسانِ بالإساءةِ، وقد كانوا جَديرينَ بضِدِّه؛ فقال[٢]:

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾.

أي: فإذا أصاب الإنسانَ[٣] ضَرَرٌ وشِدَّةٌ وكَربٌ دعانا؛ لِنَكشِفَ عنه ذلك[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

أي: ثمَّ إذا أعطَيْناه نِعمةً مِن غِنًى أو عافيةٍ أو غَيرِ ذلك، قال: إنَّما أُعطِيتُ ذلك على عِلمٍ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٤/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٧).

(٣) قيل: المرادُ: جِنسُ الإنسانِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عطيَّة، والبيضاوي، وأبو السعود، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).
قال أبو السعود: (إخبارٌ عن الجنسِ بما يَفعَلُه غالبُ أفرادِه). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨).
وقال السعدي: (يخبِرُ تعالى عن حالةِ الإنسانِ وطبيعتِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).
وقيل: المرادُ بالإنسانِ: كُلُّ مُشرِكٍ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾ [فصلت: ٥٠].

﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ؛ أنَّه أُوتِيَ تلك النِّعمةَ على عِلمٍ، إنَّما هذه النِّعمةُ الَّتي أنعَمْنا بها عليه بلاءٌ واختبارٌ[1]!

= القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

قيل: معنى قَولِه: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: أي: على عِلمٍ مِنِّي بطُرُقِ اكتِسابِها. واستظهر هذا المعنى ابنُ جُزَي، وذهب إليه البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٦).

وقيل: المعنى: على عِلمٍ مِن اللهِ بأنِّي له أهلٌ، ومُستَحِقٌّ له؛ لِشَرَفي، ورِضاه بعَمَلي، وكَرَمي عليه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وقَتادةُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٣٤).

وممَّن جمع بيْنَ المعنيَينِ السَّابِقَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥١).

قال ابنُ عطية: (يحتمِلُ أنْ يريدَ: على عِلمٍ مِنِّي بوَجهِ المكاسِبِ والتِّجاراتِ، وغير ذلك. قاله قَتادةُ؛ ففي هذا التَّأويلِ إعجابٌ بالنَّفْسِ، وتعاطٍ مُفرطٌ، ونحوُ هذا. ويحتمِلُ أن يريدَ: على عِلمٍ مِنَ الله فيَّ، وشَيءٍ سَبَق لي، واستِحقاقٍ حُزتُه عندَ اللهِ لا يَضُرُّني معه شَيءٌ؛ ففي هذا التَّأويلِ اغترارٌ باللهِ تعالى، وعَجزٌ وتَمَنٍّ على اللهِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

وممَّن قال بأنَّ الفِتنةَ هنا عائدةٌ على النِّعمةِ الَّتي خَوَّله اللهُ تعالى إيَّاها: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن القيم، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: ١٥].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لجَهلِهم لا يَعلَمونَ أنَّ اللهَ يُعطي النِّعَمَ لعِبادِه؛ فِتنةً لهم(١).

﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان كُفَّارُ قُرَيشٍ مَقصودينَ بهذا قَصدًا عَظيمًا، وإن كان شامِلًا بإطلاقِه غَيرَهم مِن الأوَّلِينَ والآخِرينَ؛ قال مُوَضِّحًا لذلك(٢):

﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

أي: قد قال هذه المقالةَ -إنَّما أُوتِيتُه على عِلمٍ- وادَّعى هذه الدَّعوَى: مَنْ سلَف مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ(٣).

= (٧/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

وقيل: المرادُ بالفِتنةِ: قَولُه: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٠).

قال الرازي: (و﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ هم قارونُ وقومُه، حيثُ قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [القصص: ٧٨]، وقومُه راضونَ به، فكأنَّهم قالوها. ويجوزُ أيضًا أنْ يكونَ في الأُمَمِ الخاليةِ قائِلونَ مِثْلَها). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٩).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالَى ذِكْرُه: قد قال هذه المَقالةَ -يعني قولَهم لنعمةِ اللهِ الَّتي خَوَّلهم =

كما قال تعالى حاكيًا عن قارونَ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥].

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

أي: فما دفَع عنهم ما كَسَبوه شَيئًا مِن العَذابِ لَمَّا جاءَهم[1].

= وهم مشركونَ: أُوتِيناه على عِلْم عِندَنا- ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يعني: الَّذينَ مِن قَبلِ مشركي قُريشٍ مِن الأُمَمِ الخالِيةِ لِرُسُلِها؛ تكذيبًا منهم لهم، واستِهزاءً بهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٧).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: الشِّركُ والكفرُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦٠).

وقيل: المرادُ: ما كانوا يَكْسِبونَ مِن أموالٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعالبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٧).

وقيل: ما كانوا يَكْسِبونَ مِن أموالٍ وأولادٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦).

وقيل: ما كانوا يَكْسِبونَ مِن المالِ والجاهِ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥٨).

وقيل: المرادُ: ما كانوا يَكْسِبونَ مِن مَتاعِ الدُّنيا. وممَّن اختاره: البيضاويُّ، والنسفي، وأبو =

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾.

أي: فأصابَهم جزاءُ سَيِّئاتِ أعمالِهم، وحلَّ عليهم وَبالُ ما كَسَبوه[١].

كما قال تعالى عن قارونَ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾.

أي: والَّذين ظَلَموا مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ سيُصيبُهم أيضًا وَبالُ ما كَسَبوه[٢].

﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

أي: ولن يُعجِزوا اللهَ فيَغلِبوه أو يَفُوتُوه ويَسبِقُوه بالهَربِ في الأرضِ؛ فلا يَقدِرَ على عِقابِهم[٣]!

ثمَّ أقام سبحانَه الدَّليلَ على عظيمِ قدرتِه، وبديعِ حكمتِه، فقال[٤]:

= السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٧).

قال البِقاعي: (تسبَّب عن عدَمِ الإغناءِ أنَّه أصابَهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾، أي: وَبالُ ذلك، وما يَسوءُ مِن آثارِه). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٤/ ٢٠).

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ٥٢﴾.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

أي: أوَلَم يَعلَمْ أولئك الَّذين يَزعُمونَ أنَّهم أُوتُوا النِّعَمَ على عِلمٍ: أنَّ اللهَ يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم[1]؟

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ في توسيعِ اللهِ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، وتَضييقِه على مَن يَشاءُ: لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ للمُؤمِنينَ، فيَستَدِلُّونَ بها على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعلى حِكمتِه ورَحمتِه، وتفَرُّدِه بالتَّصَرُّفِ في أرزاقِ عِبادِه، وغيرِ ذلك[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ اللُّجوءُ إلى اللهِ تعالى؛ حيثُ إنَّ جميعَ ما كَسَبه مِن مالٍ أو جاهٍ، أو ولدٍ أو زوجةٍ، أو غيرِه: لا يُغْني عنه مِن اللهِ تعالى شَيئًا، فلا يُرجَعُ إلَّا إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ[3]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أنَّ المشركين في زمانِنا الَّذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥٨).

يَدْعُون مع اللهِ تعالى غيرَه أشَدُّ شِرْكًا مِن السَّابِقينَ؛ لأنَّ السَّابِقينَ إنَّما كانوا يُشرِكون في الرَّخاءِ، وإذا مَسَّهم الضُّرُّ لَجَؤُوا إلى اللهِ تعالى، أمَّا اللَّاحِقون فإنَّهم يُشرِكون في حالِ الشِّدَّةِ كما يُشرِكون في حالِ الرَّخاءِ إذا أصابَهم الضُّرُّ؛ فيُنادُون: يا فُلانُ! يا فلانُ! يا فلانُ! فهذا أشدُّ شِرْكًا مِن الأوَّلِينَ، وهذا أيضًا مخالِفٌ للفِطرةِ الَّتي فُطِرَ النَّاسُ عليها؛ لأنَّ الإنسانَ لا يَلْجَأُ عندَ الشدائدِ إلَّا بمَن يُؤمِنُ أنَّه يَكْشِفُ هذه الشدائدَ[(١)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى يَبتَلي بالنِّعَم كما يَبتَلي بالنِّقَم؛ وقد قال سُلَيمانُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠][(٢)]، وأكثرُ النَّاسِ غافِلونَ عن هذه المسألةِ؛ أي: عن كَونِ اللهِ سُبحانَه وتعالى يَبْتَلِيهم بالنِّعَم، فيَظُنُّون أنَّ النِّعَمَ دليلٌ على الرِّضا، فيَستمِرُّونَ في معاصيهم، وقد يكونُ هذا مِن بابِ الاستِدراجِ بالنِّعَم حتَّى يَهْلِكَ الإنسانُ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وصحَّ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّ اللهَ لَيُمْلِي للظَّالِمِ حتَّى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْهُ))[(٣)].

٣- قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ فيه أنَّ عَمَلَ الإنسانِ كَسْبٌ له، وفيه ردٌّ على الجبريةِ الذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُجْبَرٌ على عملِه؛ فليس كسبًا له؛ ولا يُضافُ إليه[(٤)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث أخرجه البخاري (٤٦٨٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥٨).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ الإيمانَ وسيلةٌ للاهتِداءِ ومعرفةِ الآياتِ، وإذا كان هذا الحُكْمُ مُعَلَّقًا على هذا الوصفِ؛ فإنَّ القاعدةَ: أنَّ ما عُلِّقَ على وَصْفٍ فإنَّه يَقوى بقوَّتِه، ويَضْعُفُ بضَعْفِه، فكُلَّما قَوِيَ الإيمانُ ظَهَرَ للإنسانِ مِن آياتِ اللهِ تعالى ما لم يَظْهَرْ له مع ضَعفِ الإيمانِ، وكلَّما ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَتْ معرفةُ الإنسانِ وإدراكُه للآياتِ الَّتي يُنْزِلُها اللهُ عزَّ وجلَّ مِن الوَحيِ؛ والَّتي يُقَدِّرُها مِن القضاءِ[(١)].

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خُصَّ المؤمِنُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه هو الَّذي يَتدَبَّرُ الآياتِ ويَنتفعُ بها، ويَعلَمُ أنَّ سَعةَ الرِّزقِ قد تكونُ مَكرًا واستِدراجًا، وتَقتيرَه رِفْعةً وإعظامًا[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عُطِفَتْ هذه الآيةُ بالفاءِ هاهنا، وعُطِفَ مِثلُها في أوَّلِ السُّورةِ بالواوِ، وفي ذلك وَجْهانِ:

الأوَّلُ: أنَّ الفاءَ لِتَفريعِ هذا الكلامِ على قولِه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥] الآيةَ، وما بيْنَهما اعتِراضٌ مُسلسَلٌ بعضُه مع بعضٍ للمُناسَباتِ. وتَفريعُ ما بعْدَ الفاءِ تَفريعُ وَصْفِ بعْضٍ مِن غرائبِ أحوالِهم على بعْضٍ، وهل أغرَبُ مِن فَزَعِهم إلى اللهِ وَحْدَه بالدُّعاءِ إذا مَسَّهمُ الضُّرُّ وقد كانوا يَشمَئِزُّونَ مِن ذِكرِ اسمِه وَحْدَه؟! فهذا تَناقُضٌ مِن أفعالِهم وتَعكيسٌ؛ فإنَّه تَسَبُّبُ حَديثٍ على حَديثٍ، وليس تَسَبُّبًا على الوُجودِ. وهذه النُّكتةُ هي الفارِقةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦٤، ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٧).

بيْن العَطفِ بالفاءِ هنا وعَطفِ نَظيرِها بالواوِ في قَولِه أوَّلَ السُّورةِ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨]؛ فإنَّها لم تَقَعْ مُسَبَّبةً، بل ناسَبَتْ ما قَبْلَها، فعُطِفتْ عليه بالواوِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الَّذي يَظهَرُ في الرَّبطِ: أنَّه لَمَّا قال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الزمر: ٤٧] الآيةَ، كان ذلك إشعارًا بما يَنالُ الظَّالِمينَ مِن شِدَّةِ العَذابِ، وأنَّه يَظهَرُ لهم يَومَ القِيامةِ مِنَ العَذابِ ما لم يَكُنْ في حِسابِهم؛ أتْبَعَ ذلك بما يدُلُّ على ظُلمِ الإنسانِ وبَغْيِه؛ إذْ كان إذا مَسَّه ضُرٌّ دعا رَبَّه، فإذا أحسَنَ إليه لم يَنسِبْ ذلك إليه[1]!

- والمقصودُ بالتَّفريعِ هو قولُه: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾، وأمَّا ما بعْدَه فتَتميمٌ واستطرادٌ[2].

- تَقدَّمَ نَظيرُ صَدْرِ هذه الآيةِ في قولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ﴾ [الزمر: ٨] الآيةَ، والمرادُ بالإنسانِ كلُّ مُشرِكٍ -على قولٍ-؛ فالتَّعريفُ تَعريفُ الجِنسِ، والمُرادُ جَماعةٌ مِنَ الناسِ، وهم أهلُ الشِّركِ؛ فهو لِلاستِغراقِ العُرفيِّ، والمُخالَفةُ بَيْنَ الآيَتَينِ تَفَنُّنٌ، ولِئَلَّا تَخلُوَ إعادةُ الآيةِ مِن فائِدةٍ زائِدةٍ كما هو عادةُ القرآنِ في القصصِ المكرَّرةِ[3].

- وتَخصيصُ ذِكرِ الإنسانِ مِن إقامةِ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ لِلتَّلويحِ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٤، ٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قَولِه: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾[(١)] [عبس: ١٧].

- وتَذكيرُ ضَميرِ الغائِبِ في قَولِه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾ وإنْ كان عائدًا إلى ﴿نِعۡمَةٗ﴾؛ لِأنَّ مَعناها مُذَكَّرٌ، وهو الإنعامُ والإحسانُ أو المالُ، أو المَعنى: شَيئًا مِنَ النِّعمةِ، أو لِأنَّها تَشتَمِلُ على مُذَكَّرٍ ومُؤَنَّثٍ، فغُلِّبَ المُذَكَّرُ، أو على تَأويلِ حِكايةِ مَقالَتِهم بأنَّها صادِرةٌ منهم في حالِ حُضورِ ما بيْنَ أيديهم مِن أنواعِ النِّعَمِ، فهو مِن عَودِ الضَّميرِ إلى ذاتٍ مُشاهَدةٍ، فالضَّميرُ بمَنزِلةِ اسمِ الإشارةِ، كقَولِه: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأحقاف: ٢٤][(٢)]. وقيل غيرُ ذلك[(٣)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ خُولِفَ بيْنَ هذه الآيةِ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ وبيْنَ آيةِ سُورةِ (القَصَصِ) في قَولِه: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]، فلم يَذكُرْ هنا ﴿عِندِيٓۚ﴾؛ لِأنَّ المُرادَ بالعِلمِ هنا مُجرَّدُ الفِطنةِ والتَّدبيرِ -على قول في التفسيرِ-، وأُريدَ هنالك عِلْمٌ خاصٌّ به، قيل: هو الَّذي اكتَسب قارونُ بسببِ معرفتِه به مالًا عظيمًا، وأمَّا ما هنا فهو العِلْمُ الَّذي يُوجَدُ في جَميعِ أهلِ الرَّأيِ والتَّدبيرِ، والمَعنى: أنَّه يَقولُ ذلك إذا ذَكَّرَه بنِعمةِ اللهِ عليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أو أحَدُ المُؤمِنينَ، وبذلك يَظهَرُ مَوقعُ صيغةِ الحَصرِ؛ لِأنَّه قَصَدَ قَلْبَ كَلامِ مَن يَقولُ له: إنَّ ذلك مِن رَحمةِ اللهِ به[(٤)].

- قولُه: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ حَرفُ (بَلْ) لِلإضرابِ الإبطاليِّ، إضرابٌ عن

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥، ٣٦).

دَعْواه أنَّه إنَّما أُوتيَ على عِلْمٍ، بل تلك النِّعمةُ فِتنةٌ -على قولٍ-، أيْ: مِحنةٌ وابتِلاءٌ له أيَشكُرُ أمْ يَكفُرُ، وهو رَدٌّ لِمَا قالَه، وتَغييرُ السَّبكِ؛ لِلمُبالَغةِ فيه، والإيذانِ بأنَّ ذلك ليس مِن بابِ الإيتاءِ المُنبِئِ عنِ الكَرامةِ، وإنَّما هو أمْرٌ مُباينٌ له بالكُلِّيَّةِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

- جُملةُ ﴿قَدْ قَالَهَا ...﴾ مُبيِّنةٌ لِمَضمونِ ﴿هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩]؛ لأنَّ بَيانَ مَغَبَّةِ الَّذين قالوا هذا القولَ في شأْنِ النِّعمةِ الَّتي تَنالُهم، يُبيِّنُ أنَّ نِعمةَ هؤلاء كانتْ فِتنةً لهم(٢).

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ لِتَفريعِ عَدَمِ إغناءِ ما كَسَبوه على مَقالَتِهم تلك؛ فإنَّ عَدَمَ الإغناءِ مُشعِرٌ بأنَّهم حَلَّ بهم مِنَ السُّوءِ ما شَأْنُ مِثلِه أنْ يَتطَلَّبَ صاحِبُه الافتِداءَ منه، فإذا كان ذلك السُّوءُ عَظيمًا لم يَكُنْ له فِداءٌ؛ ففي الكَلامِ إيجازُ حَذفٍ يُبيِّنُه قَولُه بَعْدَه: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٥١]، فالفاءُ فيها مُفرَّعةٌ على جُملةِ ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾، أيْ: تَسَبَّبَ على انتِفاءِ إغناءِ الكَسبِ عنهم حُلولُ العِقابِ بهم، وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ في تَرتيبِ الجُمَلِ أنْ تَكونَ جُملةُ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٥١] مُقَدَّمةً على جُملةِ ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾؛ لأنَّ الإغناءَ إنَّما يُترقَّبُ عِندَ حُلولِ الضَّيرِ بهم، فإذا تَقرَّرَ عَدَمُ الإغناءِ يُذكَرُ بَعْدَه حُلولُ المُصيبةِ، فعُكِسَ التَّرتيبُ على خِلافِ مُقتَضى الظَّاهِرِ؛ لِقَصدِ التَّعجيلِ بإبطالِ مَقالةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٧).

قائِلِهم ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [الزمر: ٤٩]، أيْ: لو كان لِعِلْمِهم أَثَرٌ في جَلبِ النِّعمةِ لهم لَكانَ له أَثَرٌ في دَفعِ الضُّرِّ عنهم[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أيْ: جَزاءُ سَيِّئاتِ أعمالِهم، أو جَزاءُ أعمالِهم، وسَمَّاه سَيِّئةً؛ لِأنَّه في مُقابَلةِ أعمالِهمُ السَّيِّئةِ؛ رَمْزًا إلى أنَّ جَميعَ أعمالِهم كذلك[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩]؛ فبَعْدَ أنْ وصَفَ أكثرَهم بانتفاءِ العِلمِ بأنَّ الرَّحمةَ لهم فِتنةٌ وابتلاءٌ، عطَفَ عليه إنكارَ انتفاءِ عِلمِهم بذلك، وإهمالَهم النَّظرَ في الأدلَّةِ المفيدةِ للعِلمِ، وصَمَّهم آذانَهم عن الآياتِ الَّتي تُذكِّرُهم بذلك، حتَّى بَقُوا في جَهالةٍ مُركَّبةٍ، وكان الشَّأنُ أنْ يَعلَموا أنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ ويَقدِرُ، أي: يُعطي الخيرَ مَن يَشاءُ، ويمنعُ مَن يَشاءُ[٣].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ لِلإنكارِ على المُشرِكينَ في انتِفاءِ عِلْمِهم بذلك؛ لأنَّهم تَسبَّبوا في انتِفاءِ العِلمِ، فالإنكارُ عليهم يَتضَمَّنُ تَوبيخًا. واقتُصِرَ في الإنكارِ على إنكارِ انتِفاءِ العِلمِ بأنَّ بَسْطَ الرِّزقِ وقَدْرَه مِن فِعلِ اللهِ تعالى؛ لِأنَّه أدْنى لمُشاهَدَتِهم أحوالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٨).

قَومِهم، فكمْ مِن كادٍّ غيرُ مَرزوقٍ، وكم مِن آخَرَ يَجيئُه الرِّزقُ مِن حيث لا يَحتَسِبُ[١]!

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ جُعِل في ذلك آياتٌ كثيرةٌ؛ لِأنَّ اختِلافَ أحوالِ الرِّزقِ الدَّالَّةِ على أنَّ التَّصرُّفَ بيَدِ اللهِ تعالى يُنبِئُ عن بَقيَّةِ الأحوالِ، فتَحصُلُ في ذلك آياتٌ كثيرةٌ دالَّةٌ على انفِرادِ اللهِ تعالى بالتَّصرُّفِ في نفْسِ الأمرِ[٢].

- قولُه: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ جُعِلتِ الآياتُ لِقَومٍ يُؤمِنونَ وخُصُّوا بالذِّكرِ؛ لِأنَّ المُؤمِنينَ قد عَلِموا ذلك وتَخَلَّقوا به، ولم تَكُنْ فيه آياتٌ لِلمُشرِكينَ الغافِلينَ عنه[٣].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقال في سُورةِ (الرُّوم): ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ [الروم: ٣٧]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّه في (الزُّمَرِ) اتَّصَل بقولِه: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾، وبعْدَه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ فحَسُنَ ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾. وأمَّا في سُورةِ (الرُّومِ)؛ فلأنَّ بَسْطَ الرِّزقِ هو ممَّا يُشاهَدُ ويُرى؛ فجاء في تلك السُّورةِ على ما يَقْتضيهِ اللَّفظُ والمعنى، مع فصاحةِ التَّفنُّنِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٨، ٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) لابن جماعة (ص: ٢٩٤، ٢٩٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٩).

الآيات (٥٢-٥٩)

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَسْرَفُواْ﴾: أي: تَجاوَزُوا الحدَّ في العِصيانِ، وأصلُه: يدُلُّ على تَعدِّي الحَدِّ[١].

﴿تَقْنَطُواْ﴾: أي: تَيْأَسوا، والقُنوطُ: اليأسُ مِنَ الخَيرِ، وأصلُ (قنط): يدُلُّ على اليأْسِ مِن الشَّيءِ[٢].

﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾: أي: ارجِعوا وأقْبِلوا، والإنابةُ: الرُّجوعُ إلى اللهِ بالإخلاصِ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادِ مكانٍ، ورُجوعٍ إليه[٣].

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فَجأةً، وأصلُ (بغت): يدُلُّ على مُفاجأةِ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، =

﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾: الحسرةُ: النَّدمُ، والاغتِمامُ على ما فاتَ ولا يُمكِنُ ارتجاعُه، والتَّلهُّفُ عليه، وقيل: الحسرةُ شِدَّةُ النَّدامةِ، حتَّى يبقَى النَّادمُ كالحَسيرِ مِن الدَّوابِّ، وهو الَّذي لا مَنفعةَ فيه، وأصلُ (حسر): كشفُ الشَّيءِ، فالحسرةُ انكِشافٌ عن حالِ النَّدامةِ[1].

﴿فَرَّطۡتُ﴾: أي: قَصَّرتُ، وأصلُ (فرط): يدُلُّ على إزالةِ شَيءٍ مِن مكانِه، وتَنحيتِه عنه[2].

﴿جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾: أي: جانِبِه تعالى، أو أمْرِه، أو حَقِّه[3].

﴿كَرَّةً﴾: أي: رَجعةً إلى الدُّنيا، والكَرُّ: الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ[4].

= ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٧٦).
قال القرطبي: (والأصلُ «يا حَسْرَتِي»، فأُبْدِل مِن الياءِ ألِفٌ؛ لأنَّها أخفُّ وأمكَنُ في الاستِغاثةِ بمدِّ الصَّوتِ، ورُبَّما أَلْحَقوا بها الهاءَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

المعنى الإجماليُّ:

يَنهَى اللهُ تعالى عن اليأسِ مِن رحمتِه، ويَفتحُ لعِبادِه بابَ رحمتِه، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِعِباديَ الَّذين أسرَفوا على أنفُسِهم، وأكثَروا مِنَ السَّيِّئاتِ: لا تَيأسُوا مِن رَحمةِ اللهِ، إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ كُلَّها؛ إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الغَفورُ الرَّحيمُ، وارجِعوا -أيُّها النَّاسُ- إلى رَبِّكم، وتُوبوا إليه، واستَسلِموا له مِن قَبلِ أن يأتيَكم عذابُ اللهِ، ثمَّ لا تُنصَرونَ.

ثمَّ يأمُرُ تعالى باتِّباعِ أوامرِ القرآنِ ونواهيه، فيقولُ: واتَّبِعوا القُرآنَ، وامتَثِلوا أوامِرَه، واجتَنِبوا نواهيَه؛ مِن قَبلِ أن يأتيَكم عذابُ اللهِ فَجأةً، وأنتم لا تَشعُرونَ؛ لئلَّا تقولَ نَفْسٌ يومَ القيامةِ تَحَسُّرًا على عدَمِ التَّوبةِ: يا حَسرتي على ما ضَيَّعتُ وقَصَّرتُ في حقِّ اللهِ، والحالُ أنَّني كنتُ مِن السَّاخِرينَ، أو تقولَ نَفْسٌ: لو أنَّ اللهَ هداني إلى الحَقِّ لَكُنتُ مِن المتَّقينَ، أو تَقولَ نَفْسٌ حينَ تَرى العذابَ في الآخِرةِ: لَيْتَ لي رَجعةً إلى الدُّنيا، فأكونَ مِن الَّذين أحسَنوا العَمَلَ.

فيَقولُ اللهُ تعالى: ليس الأمرُ كما تَقولُ؛ فقد جاءتك آياتُ القُرآنِ فكَذَّبتَ بها واستكبَرْتَ عن قَبولِها، وكُنتَ مِن الكافِرينَ بها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَدَّد تعالى على الكفَّارِ وذَكَر ما أعدَّ لهم مِن العذابِ، وأنَّهم لو كان لأحدِهم ما في الأرضِ ومِثلَه معه لافْتَدى به مِن عذابِ اللهِ؛ ذَكَر ما في إحسانِه

مِن غُفرانِ الذُّنوبِ إذا آمَن العبدُ ورَجَع إلى اللهِ[١]، فلَمَّا أطنَبَ سُبحانَه في الوَعيدِ؛ أردَفَه بشَرحِ كَمالِ رَحمتِه وفَضلِه وإحسانِه في حَقِّ العَبيدِ[٢]، وهذا على عادةِ هذا الكِتابِ المجيدِ مِن مُداواةِ النُّفوسِ بمَزيجِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ[٣].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: ((أنَّ ناسًا مِن أهلِ الشِّركِ كانوا قد قَتَلوا وأكثَروا، وزَنَوا وأكثَروا، فأتَوا مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالوا: إنَّ الَّذي تقولُ وتدعو إليه لَحَسَنٌ لو تُخبِرُنا أنَّ لِما عَمِلْنا كَفَّارةً، فنزَل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزَلت: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾))[٤].

﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- مُبلِّغًا عن الله أنَّه يقولُ[٥]: يا عبادِيَ الَّذين أكثَروا مِنَ السَّيِّئاتِ بالكُفرِ أو المعاصي، فأثقَلوا أنفُسَهم بالآثامِ: لا يَنقَطِعْ رَجاؤُكم وتَيأسُوا مِن رحمةِ اللهِ، مُعتَقِدينَ أنَّ الله لن يَغفِرَ لكم ذُنوبَكم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٩).

(٤) رواه البخاري (٤٨١٠) واللَّفظُ له، ومسلم (١٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٦٦).

قال السعدي: (﴿قُلۡ﴾ يا أيُّها الرَّسولُ ومَن قام مَقامَه مِن الدُّعاةِ لدينِ الله، مُخبِرًا للعِبادِ عن ربِّهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٦، ١٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٣، ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤١، ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦٦-٣٦٩).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لو يَعلَمُ الكافِرُ ما عندَ اللهِ مِن الرَّحمةِ، ما قَنَطَ مِن جَنَّتِه أحَدٌ))[(١)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَستُرُ الذُّنوبَ كُلَّها، ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((والَّذي نفْسي بيَدِه، لو لم تُذْنِبوا لَذَهَب اللهُ بكم، ولَجاءَ بقَومٍ يُذْنِبون، فيَستغفِرونَ اللهَ فيَغفِرُ لهم))[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١١/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦٩، ٣٧٠).

قال البِقاعي: (سبَقَ منه القَولُ؛ أنَّه إنَّما يَغفِرُ الشِّركَ بالتَّوبةِ عنه، وأمَّا غيرُه فيَغفِرُه إن شاء بتَوبةٍ، وإن شاء بلا تَوبةٍ، ولا يَقدِرُ أحَدٌ أن يَمنَعَه مِن شَيءٍ من ذلك). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٣٤).

وقال ابنُ عاشور: (هذه المغفِرةُ تقتَضي أسبابًا أُجمِلَت هنا، وفُصِّلَت في دلائِلَ أخرى مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ منها قَولُه تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وتلك الدَّلائِلُ يَجمَعُها أنَّ للغُفرانِ أسبابًا تَطرأُ على المُذنِبِ، ولولا ذلك لَكانت المؤاخَذةُ بالذُّنوبِ عَبَثًا يُنَزَّهُ عنه الحكيمُ تعالى، كيف وقد سمَّاها ذُنوبًا وتوعَّد عليها، فكان قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ دعوةً إلى تطلُّبِ أسبابِ هذه المغفرةِ، فإذا طلَبها المذنِبُ عَرَف تفصيلَها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢).

(٣) رواه مسلم (٢٧٤٩).

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((قال اللهُ تبارك وتعالى: يا ابنَ آدَمَ إنَّك ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني غفَرتُ لك على ما كان فيك ولا أُبالي، يا ابنَ آدَمَ لو بلَغَتْ ذُنوبُك عَنانَ[١] السَّماءِ ثمَّ استَغفَرْتَني غفَرْتُ لك ولا أُبالي، يا ابنَ آدَمَ إنَّك لو أَتَيْتَني بقُرابِ[٢] الأرضِ خَطايا ثمَّ لَقيتَني لا تُشرِكُ بي شَيئًا لَأَتَيْتُك بقُرابِها مَغفِرةً))[٣].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه البالِغُ المَغفِرةِ لِذُنوبِ عِبادِه، العَظيمُ الرَّحمةِ بهم[٤].

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت الآيةُ السَّابقةُ فيها فُسحةٌ عَظيمةٌ للمُسرِفِ؛ أتْبَعَها بأنَّ الإنابةَ -وهي

---

(١) عَنانَ السَّماءِ: أي: سَحابَها وما علا منها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦٢٠).

(٢) بقُرابِ الأرضِ: أي: بمِثْلِها وقدرِها، أو: بما يقاربُ ملأَها. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ٣٤)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٧/ ٣٨٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٣٠٥)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ٢٣١).

صحَّح الحديثَ ابنُ القيِّم في ((أعلام الموقعين)) (١/ ٢٠٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٤٠)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((رياض الصالحين)) (٤٤٢)، وقال ابن رجب في ((جامع العلوم والحِكَم)) (٢/ ٤٠٠): (إسنادُه لا بأس به).

والحديثُ أخرجه من طريقٍ آخَرَ ابنُ شاهين في ((الترغيب في فضائل الأعمال)) (١٧٩)، والضياءُ في ((الأحاديث المختارة)) (٤/ ٣٩٩).

وصحَّح إسنادَه الضياءُ المقدسيُّ، وصحَّحه ابنُ القيِّم في ((هداية الحيارى)) (٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣١)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٧٤، ٢٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٧١-٣٧٣).

الرُّجوعُ- مَطلوبةٌ مأمورٌ بها، ثمَّ توعَّدَ مَن لم يَتُبْ بالعَذابِ؛ حتَّى لا يَبقَى المرءُ كالمُمِلِّ مِن الطَّاعةِ، والمتَّكِلِ على الغُفرانِ دونَ إنابةٍ(١)!

وأيضًا لَمَّا فَتَح لهم بابَ الرَّجاءِ؛ أعْقَبه بالإرشادِ إلى وسيلةِ المغفرةِ(٢).

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾.

أي: وارجِعوا -أيُّها النَّاسُ- إلى رَبِّكم، بالتَّوبةِ إليه وطاعتِه وَحْدَه، واستَسلِموا واخضَعوا له، وانقادُوا إليه(٣).

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

أي: مِن قَبلِ أن يأتيَكم عَذابُ اللهِ على كُفرِكم به، ومَعصيتِكم إيَّاه، ثمَّ لا يَنصُرُكم ناصِرٌ(٤).

كما قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٦، ٣٨٧).

قال ابنُ عاشور: (هذا الخِطابُ يأخُذُ كُلُّ فَريقٍ منه بنصيبٍ؛ فنَصيبُ المُشرِكينَ الإنابةُ إلى التَّوحيدِ، واتِّباعُ دينِ الإسلامِ. ونصيبُ المؤمِنينَ منه التَّوبةُ إذا أسرَفوا على أنفُسِهم، والإكثارُ مِن الحَسَناتِ، وأمَّا الإسلامُ فحاصِلٌ لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٩).

ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧].

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بالإنابةِ والإسلامِ إليه كأنَّه قيل: ما الإنابةُ والإسلامُ؟ وما جزئيَّاتُها وأعمالُها؟ فأجابَ تعالى بقولِه[1]:

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾.

أي: واتَّبِعوا القُرآنَ فصَدِّقوا أخبارَه، واتَّعِظوا واعتَبِروا بقَصَصِه وأمثالِه، وامتَثِلوا أوامِرَه، واجتَنِبوا نواهيَه، وكِلُوا مُتشابِهَه إلى عالِمِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٦).

قيل: المرادُ بـ﴿أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ﴾: القرآنُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، وابنُ جُزَي، وأبو حيان، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٤).

وقيل: المرادُ: الأمرُ باتِّباعِ القُرآنِ الَّذي هو أحسَنُ ما نَزَل مِن كُتُبِ اللهِ، واتِّباعِ أحاسِنِ ما فيه. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩١).

قال ابن عطية: (وقَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ﴾ معناه: أنَّ القُرآنَ العزيزَ تضَمَّنَ عَقائِدَ نَيِّرةً، وأوامِرَ ونَواهيَ مُنجِيةً، وعِداتٍ على الطَّاعاتِ والبِرِّ، وحُدودًا على المعاصي، ووَعيدًا على =

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾.

أي: مِن قَبلِ أن يأتيَكم عذابُ اللهِ فَجأةً وأنتم غافِلونَ لا تَشعُرونَ بمَجيئِه[1].

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خَوَّفَهم سُبحانَه بالعَذابِ؛ بَيَّن تعالى أنَّ بتَقديرِ نُزولِ العَذابِ عليهم ماذا يَقولون؛ فحَكى اللهُ تعالى عنهم ثلاثةَ أنواعٍ مِن الكَلِماتِ[2].

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾.

أي: لِئَلَّا[3] تقولَ نَفْسٌ يومَ القيامةِ تَحسُّرًا على عدَمِ التَّوبةِ: يا ندامَتي على ما

= بَعضِها؛ فالأحسَنُ أن يَسلُكَ الإنسانُ طَريقَ التَّفَهُّمِ والتَّحصيلِ، وطَريقَ الطَّاعةِ والانتِهاءِ، والعَفوِ في الأُمورِ ونَحوِ ذلك، فهو أحسَنُ مِن أن يَسلُكَ طَريقَ الغَفلةِ والمَعصيةِ فيُجزَى، أو يَقَع تحتَ الوَعيدِ، فهذا المعنى هو المقصودُ بـ﴿أَحۡسَنَ﴾. ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٧).

وفي معنى الآيةِ أقوالٌ أخرى. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠).

وقد سبق ذِكرُ الخِلافِ في معنى قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨] (ص: ١٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٦٦).

(٣) قال الشوكاني: (قال البَصريُّونَ: أيْ: حَذَرًا أنْ تقولَ. وقال الكوفيُّونَ: لئلَّا تقولَ. قال المُبَرِّدُ: بادِروا خَوْفَ أنْ تقولَ، أو حَذَرًا مِن أنْ تقولَ نفْسٌ. وقال الزَّجَّاجُ: خَوْفَ أنْ تَصيروا إلى حالٍ تقولونَ فيها: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٠). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٨).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ «أَنْ» في موضعِ نصبٍ، أي: كراهةَ =

قصَّرتُ في حَقِّ اللهِ، وضَيَّعتُ مِن العملِ بما أمَرني به[١].

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾.

أي: والحالُ أنَّني كُنتُ مِن السَّاخِرينَ مِن أمْرِ اللهِ وكِتابِه، ورَسولِه والمُؤمِنينَ[٢].

= ﴿أَن تَقُولَ﴾ ... وقيل: أيْ: مِن قبلِ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾؛ لأنَّه قال قبْلَ هذا: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: وأنِيبوا إلى ربِّكم، وأسلِموا له؛ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾، بمعنى: لئلَّا تقولَ نفْسٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٣).

وذكر البِقاعي أنَّ هذ الجملةَ تعليلٌ للإقبالِ على الاتِّباعِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٣٧).

وجعل ابنُ عاشورٍ قولَه: ﴿أَن تَقُولَ﴾ تَعْليلًا للأوامرِ في قولِه: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤] ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ﴾ [الزمر: ٥٥]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٥، ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٧- ٣٩٩).

قال ابنُ تيميَّةَ: (...لا يُعرَفُ عالِمٌ مَشهورٌ عند المُسلِمينَ، ولا طائِفةٌ مَشهورةٌ مِن طوائفِ المُسلِمينَ: أثبَتوا لله جَنْبًا نظيرَ جَنبِ الإنسانِ، وهذا اللَّفظُ جاء في القُرآنِ في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، فليس في مجرَّدِ الإضافةِ ما يَستلزِمُ أنْ يكونَ المضافُ إلى الله صِفةً له... وفي القُرآنِ ما يُبيِّنُ أنَّه ليس المرادُ بالجَنبِ ما هو نَظيرُ جَنْبِ الإنسانِ؛ فإنَّه قال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، والتَّفريطُ ليس في شَيءٍ مِن صِفاتِ الله عزَّ وجلَّ، والإنسانُ إذا قال: فلانٌ قد فَرَّط في جَنبِ فُلانٍ أو جانِبِه، لا يريدُ به أنَّ التَّفريطَ وقَعَ في شَيءٍ مِن نَفْسِ ذلك الشَّخصِ، بل يريدُ به أنَّه فَرَّط في جِهتِه وفي حَقِّه). ((الجواب الصحيح)) (٣/ ١٤٥، ١٤٦). ويُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ١٤)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٢٥٠)، ((الاعتصام)) للشاطبي (٣/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((صفات الله عزَّ وجلَّ الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ١١٣، ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩، ١١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٢].

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ولِئَلَّا تَقولَ نَفْسٌ: لو أنَّ اللهَ هداني إلى الحَقِّ لَكُنتُ مِن الَّذين اتَّقَوه فأطاعوه، واجتَنَبوا الشِّركَ به، ومَعصيتَه[1].

= (٧/ ١١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٠٠، ٤٠١).

قال قَتادةُ: (فلمْ يَكْفِه أنْ ضَيَّع طاعةَ اللهِ، حتَّى جعَل يَسْخَرُ بأهلِ طاعةِ اللهِ!). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٠٨، ٤٠٩).

قال القرطبي: (هذا القَولُ: لو أنَّ اللهَ هداني لاهتَدَيْتُ: قَولٌ صِدقٌ، وهو قريبٌ مِن احتِجاجِ المُشرِكينَ فيما أخبَرَ الرَّبُّ جلَّ وعَزَّ عنهم في قَولِه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ فهي كَلِمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطِلٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٢).

وقال الألوسي: (وفسَّر غيرُ واحدٍ الهدايةَ هنا بالإرشادِ والدَّلالةِ الموصولةِ؛ بناءً على أنَّه الأنسَبُ بالشَّرطيَّةِ، والمُطابقُ للرَّدِّ بقولِه سبحانه: ﴿بَلَىٰ ...﴾ إلخ، ... وأيًّا ما كان فالظَّاهرُ أنَّ هذه المقالةَ في الآخرةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٧٣).

وقال السعدي: (﴿لَوْ﴾ في هذا الموضعِ للتَّمنِّي، أي: لَيْتَ أنَّ الله هداني فأكونَ مُتَّقيًا له، فأسْلَمَ مِن العِقابِ، وأستحِقَّ الثَّوابَ، وليست ﴿لَوْ﴾ هنا شرطيَّةً؛ لأنَّها لو كانت شرطيَّةً لَكانوا مُحتجِّينَ بالقضاءِ والقدَرِ على ضلالِهم، وهو حُجَّةٌ باطلةٌ، ويومَ القيامةِ تَضمَحِلُّ كلُّ حجَّةٍ باطلةٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٨).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كُلُّ أهلِ النَّارِ يَرى مَقعَدَه مِن الجَنَّةِ، فيَقولُ: لو أنَّ اللهَ هداني، فيَكونُ عليه حَسْرةٌ، وكُلُّ أهلِ الجَنَّةِ يَرى مَقعَدَه مِنَ النَّارِ، فيَقولُ: لولا أنَّ اللهَ هداني، فيكونُ له شُكرٌ))[1].

﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ حالَ النَّفْسِ في الاعترافِ بالبُطلانِ، ثمَّ الفَزَعِ إلى الزُّورِ والبُهتانِ؛ أتْبَعَه التَّمنِّيَ الَّذي لا يُفيدُ غيرَ الخُسرانِ، فقال[2]:

﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾.

أي: أو لِئَلَّا تَقولَ نَفْسٌ حينَ ترَى عذابَ اللهِ في الآخِرةِ: لَيْتَ لي رَجعةً إلى الدُّنيا فأكونَ مِن الَّذين أحسَنوا العَمَلَ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

---

(١) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٥٤) مختصرًا، وأحمد (١٠٦٥٢) واللَّفظُ له. صحَّحه الحاكمُ على شرطِ الشَّيخينِ في ((المستدرك)) (٢/ ٤٧٣)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٤٠٢): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٤٥١٤)، وصَحَّح شعيبٌ الأرناؤوطُ إسنادَه على شرط البخاريِّ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤١١-٤١٣).

﴿ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٩ ﴾.

أي: يَقولُ اللهُ مُكَذِّبًا له: ليس الأمرُ كما تَقولُ؛ فقد جاءتك آياتُ القُرآنِ الدَّالَّةُ على الحَقِّ، فكَذَّبْتَ بها واستكبَرْتَ عن قَبولِها واتِّباعِها، وكنتَ في الدُّنيا مِن الكافِرينَ بها؛ فلا عُذرَ لك[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ أنَّه لا يَحِلُّ لأحدٍ أنْ يَقْنَطَ مِن رحمةِ اللهِ -وإنْ عَظُمَتْ ذنوبُه-، ولا أنْ يُقَنِّطَ النَّاسَ مِن رحمةِ اللهِ[٢]، فقوله: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ﴾ نهيٌ، والأصلُ في النَّهيِ التَّحريمُ، والقُنوطَ مِن رحمةِ اللهِ مِن كبائرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّه ظَنُّ ما لا يَليقُ باللهِ جلَّ وعلا؛ فإنَّ اللَّائقَ باللهِ عزَّ وجلَّ أنَّ مَن لَجَأ إليه فإنَّه أكرمُ الأكرمينَ لا يُخَيِّبُه، فإذا قَنَطْتَ مِن رحمتِه فقد اسْتَهَنْتَ بحقِّه سُبحانَه وتعالى[٣]. وهذا النَّهيُ عن القُنوطِ يَقتضي الأمرَ بالرَّجاءِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ فيه وُجوبُ الإخلاصِ للهِ[٥]، وأنَّه مِن دونِ إخلاصٍ لا تُفيدُ الأعمالُ الظَّاهرةُ والباطنةُ شيئًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٨).

﴿ بَلَىٰ ﴾ جوابُ النَّفيِ؛ لأنَّ معنى قولِه: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ أنَّه ما هداني! فلا جَرَمَ حَسُنَ ذِكرُ لفظةِ ﴿ بَلَىٰ ﴾ بعدَه. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٩، ٣٦٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ كلُّ هذا حَثٌّ على المُبادَرةِ وانتِهازِ الفُرصةِ[١]، فمتى واتَتْكَ الفرصةُ فلا تُضَيِّعْها[٢].

٤- في قولِه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ الحذرُ من نزولِ العذابِ عندَ المخالَفةِ، فلا أحدَ يَأْمَنُ عذابَ اللهِ تعالى! فالإنسانُ إذا لم يتُبْ إلى اللهِ تعالى مبادرةً؛ فإنَّ العذابَ ربما يَنْزِلُ به[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ المُفَرِّطَ سيَتَحَسَّرُ على تفريطِه، ويَنبني على هذه الفائدةِ: أنَّه ينبغي أنْ يكونَ الإنسانُ حازمًا ذا نشاطٍ وقوَّةٍ؛ حتَّى لا تَفوتَه الأمورُ، ثمَّ بعدَ ذلك يَنْدَمُ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ تدُلُّ على الرَّحمةِ مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّه سَمَّى المُذنِبَ بـ«العبد»، والعُبوديَّةُ مُفسَّرةٌ بالحاجةِ والذِّلَّةِ والمَسكَنةِ، واللَّائِقُ بالرَّحيمِ الكَريمِ إفاضةُ الخَيرِ والرَّحمةِ على المِسكينِ المُحتاجِ.

الثَّاني: أنَّه تعالى أضافهم إلى نَفْسِه بياءِ الإضافةِ، فقال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٢).

وشَرَفُ الإضافةِ إليه يفيدُ الأمْنَ مِنَ العذابِ.

الثَّالِثُ: أنَّه تعالى قال: ﴿أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ومعناه: أنَّ ضرَرَ تلك الذُّنوبِ ما عاد إليه، بل هو عائِدٌ إليهم، فيَكفيهم مِن تلك الذُّنوبِ عَودُ مَضارِّها إليهم، ولا حاجةَ إلى إلحاقِ ضرَرٍ آخَرَ بهم!

الرَّابعُ: أنَّه قال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، نَهاهم عن القُنوطِ، فيَستلزِمُ هذا أمرًا بالرَّجاءِ، والكريمُ إذا أمَرَ بالرَّجاءِ فلا يَليقُ به إلَّا الكرَمُ.

الخامِسُ: أنَّه تعالى قال أوَّلًا: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾، وكان المُتبادرُ أن يقولَ: «لا تقنَطوا مِن رحمتي»، لكِنَّه ترَك هذا اللَّفظَ، وقال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ قَولَه: «الله» هو أعظَمُ أسماءِ اللهِ وأجَلُّها، فالرَّحمةُ المضافةُ إليه يجِبُ أن تكونَ أعظَمَ أنواعِ الرَّحمةِ والفَضلِ.

السَّادِسُ: أنَّه لَمَّا قال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ كان المُتبادرُ أن يقولَ: «إنَّه يغفِرُ الذُّنوبَ جميعًا»، ولكِنَّه لم يقُلْ ذلك، بل أعاد اسمَ اللهِ، وقَرَن به لَفظةَ «إنَّ» المفيدةَ لأعظَمِ وُجوهِ التَّأكيدِ، وكُلُّ ذلك يدُلُّ على المبالغةِ في الوَعدِ بالرَّحمةِ.

السَّابعُ: أنَّه لو قال: ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ لَكان المقصودُ حاصِلًا، لكِنَّه أردَفَه باللَّفظِ الدَّالِّ على التَّأكيدِ، فقال: ﴿جَمِيعًا﴾، وهذا أيضًا مِن المؤكِّداتِ.

الثَّامِنُ: أنَّه وَصَف نَفسَه بكَونِه غَفورًا، ولَفظُ الغَفورِ يُفيدُ المبالغةَ.

التَّاسِعُ: أنَّه وَصَف نَفْسَه بكَونِه رَحيمًا، والرَّحمةُ تفيدُ فائدةً على المغفِرةِ؛ فكان قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ إشارةً إلى إزالةِ مُوجِباتِ العِقابِ، وقَولُه: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ إشارةً إلى تحصيلِ مُوجِباتِ الرَّحمةِ والثَّوابِ.

العاشِرُ: أنَّ قَولَه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يُفيدُ الحَصرَ، ومعناه: أنَّه لا غَفورَ

ولا رَحيمَ إلَّا هو، وذلك يُفيدُ الكَمالَ في وَصفِه سُبحانَه بالغُفرانِ والرَّحمةِ؛ فهذه الوُجوهُ العَشَرةُ مَجموعةٌ في هذه الآيةِ، وهي بأسْرِها دالَّةٌ على كَمالِ الرَّحمةِ والغُفرانِ[١].

٢- قال جلَّ وعلا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ﴾ عنايةُ اللهِ عزَّ وجلَّ بهذا الأمرِ -أي: بإبلاغِ عبادِه أنَّه يَغفِرُ الذُّنوبَ جميعًا-؛ حيث أمَرَ نبيَّه أمرًا خاصًّا بأنْ يُبْلِغَ النَّاسَ هذه القَضيَّةَ، فالقرآنُ كلُّه أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُبَلِّغَه؛ لقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، لكنْ هناك أشياءُ خاصَّةٌ يَنُصُّ اللهُ عليها أنْ يُبَلِّغَها، وهذا يقتضي العنايةَ بها[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الأمرُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن خالِقِ السَّمواتِ والأرضِ بأنْ يُوَجِّهَ هذا الخِطابَ العَظيمَ لخُصوصِ المُسرفينَ؛ ففيه دَلالةٌ على سَعةِ رَحمةِ اللهِ جَلَّ وعلا، فلم يقُل: «الَّذين آمَنوا»، ولا «الَّذين أخلَصوا»، خَصَّ به المُسرفينَ على أنفُسِهم[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾ الآيةَ: الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ الكبائِرَ لا تُغفَرُ[٤]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾ الآيةَ: دَلالةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤١).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٢٥).

على أنَّ المُسرِفينَ ليس لهم أن يَقنَطوا مِن رحمةِ اللهِ، مع أنَّه جاءت آيةٌ تدُلُّ على خِلافِ ذلك، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣]؟

الجوابُ: أنَّ الإسرافَ يكونُ بالكُفرِ، ويكونُ بارتكابِ المعاصي دونَ الكُفرِ؛ فآيةُ ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في الإسرافِ الَّذي هو كُفرٌ، وآيةُ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في الإسرافِ بالمعاصي دونَ الكُفرِ.

ويُجابُ أيضًا بأنَّ آيةَ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ فيما إذا لم يَتوبوا، وأنَّ قولَه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ فيما إذا تابوا[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾ الآيةَ: دَلالةٌ على غُفرانِ جميعِ الذُّنوبِ، مع أنَّه دَلَّت آياتٌ أُخَرُ على أنَّ مِن الذُّنوبِ ما لا يُغفَرُ، وهو الشِّركُ باللهِ تعالى؟

الجوابُ: أنَّ آيةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] مُخصِّصةٌ لهذه. وقال بَعضُ العُلَماءِ: هذه مُقَيَّدةٌ بالتَّوبةِ، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾؛ فإنَّه عَطفٌ على قَولِه: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾، وعليه فلا إشكالَ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أفهَمَ تَقييدُ الإسرافِ بأنَّه على أنفُسِهم أنَّ الإسرافَ على الغَيرِ لا يُغفَرُ إلَّا بالخُروجِ عن عُهدةِ ذلك الغَيرِ[٣].

٨- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، ومادةُ «الغفرِ» ترجِعُ إلى السَّترِ؛ وهو يَقتَضي وُجودَ المستورِ واحتياجَه للسَّترِ؛ فدلَّ ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ على أنَّ الذُّنوبَ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٤).

ثابتةٌ -أي: المؤاخَذةُ بها ثابتةٌ- واللهُ يَغفِرُها، أي: يُزيلُ المؤاخَذةَ بها وقَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليلٌ لجُملةِ ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، أي: لا يُعجِزُه أن يَغفِرَ جَميعَ الذُّنوبِ مهما بلغ جميعُها مِن الكَثرةِ؛ لأنَّه شديدُ الغُفرانِ، شَديدُ الرَّحمةِ؛ فبَطَل بهذه الآيةِ قَولُ المُرجِئةِ: إنَّه لا يَضُرُّ مع الإيمانِ شَيءٌ[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أنَّ أحكامَ اللهِ تعالى مِن مُقتَضى أسمائِه وصِفاتِه، وأحكامُه هنا جَزائيَّةٌ؛ فلِكَونِه غَفورًا رَحيمًا كان ذا مَغفِرةٍ، فغَفَر لِمَن تابَ[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إثباتُ اسمَينِ مِن أسماءِ اللهِ تعالى عَظيمَينِ، يَقترِنانِ كَثيرًا في القُرآنِ؛ هما: «الغفور» و«الرَّحيم»، ووَجْهُ اقترانِهما: أنَّ بالأوَّلِ زَوالَ المكروهِ. وبالثَّاني: حُصولَ المطلوبِ؛ فيَتكَوَّنُ مِن اجتِماعِهما وَصْفٌ زائِدٌ على الوَصفِ عندَ انفرادِهما؛ لأنَّه إذا انفردَ «الغفورُ» استفَدْنا المغفِرةَ منه، وإنِ انفرَدَ «الرَّحيمُ» استفَدْنا الرَّحمةَ، لكِنْ إذا اجتَمَعا استفَدْنا فائِدةً جديدةً، وهي: أنَّ مَغفِرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ مَقرونةٌ برَحمتِه، فهو جامعٌ بيْن المَغفرةِ والرَّحمةِ[3].

١١- قَولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ فيه الإشارةُ إلى أنَّ الإنسانَ بعدَ التَّوبةِ قد يكونُ خَيرًا منه قبْلَها، وقبْلَ فِعْلِ الذَّنْبِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ تَقتَضي عَطاءً جديدًا، وهذا هو المُشاهَدُ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ ذَكَر عن آدَمَ أنَّه لَمَّا عصَى ربَّه وغَوى وتابَ، قال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، وهذه المَنقَبةُ -وهي الاجتِباءُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٣).

والهِدايةُ- لم تُذكَرْ له قَبْلُ[١].

١٢- قولُه تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ فيه وُجوبُ الإنابةِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّ الأصلَ في الأمرِ الوُجوبُ إلَّا بدليلٍ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ دَليلٌ على أنَّ كَشْفَ العذابِ والعُقوباتِ يَكونُ بالمُسارَعةِ في الطَّاعاتِ، والمُسارَعةِ إلى التَّوبةِ والنَّداماتِ، ويَدخُلُ في هذا المعنى ما نُدِبَ إليه النَّاسُ مِن إحداثِ التَّوبةِ، والتَّقدُّمِ في الطَّاعةِ إذا أرادوا الخُروجَ إلى الاستِسقاءِ في حينِ الجَدْبِ والقَحْطِ؛ وذلك أنَّ مَنْعَ القَطْرِ لا يكونُ إلَّا بسخْطةٍ، ولا السُّقْيا إلَّا برَحمةٍ، فإذا قَدَّموا الطَّاعاتِ كانوا أقرَبَ إلى الإجاباتِ، وأجدَرَ برَفعِ العُقوباتِ[٣].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ فيه وُجوبُ اتِّباعِ القرآنِ، وتحريمُ اتِّباعِ غيرِه؛ لأنَّه إذا وَجَب اتِّباعُ القرآنِ؛ فضِدُّه حرامٌ، ولكنْ إذا قال قائلٌ: هل تقولون: إنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنا شرعٌ لنا؟

فالجوابُ: على القَولِ بأنَّ شَرْعَ مَن قَبْلَنا شَرْعٌ لنا ما لم يأتِ شرْعُنا بخِلافِه، فنحن نتَّبِعُه لا لأنَّه شرْعُ مَن قبْلَنا، ولكنْ لأنَّ شَرْعَنا دَلَّنا على العملِ به[٤].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ الثَّناءُ على القرآنِ الكريمِ؛ لأنَّه أحسَنُ ما أُنْزِلَ إلى العِبادِ؛ في ذاتِه، وفي أخبارِه، وفي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٣).

أحكامِه، وفي آثارِه؛ فلَمْ تَنَلْ أُمَّةٌ العِزَّةَ والكرامةَ كما نالَتْه هذه الأُمَّةُ بما آتاها اللهُ تعالى مِن القرآنِ[١].

١٦- قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي: عالِجوا أنفُسَكم وكلِّفوها أنْ تَتَّبِعَ ﴿أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، ولَمَّا كان هذا شَديدًا على النَّفْسِ رَغَّب فيه بقَولِه تعالى -بمظهَرِ صِفةِ الإحسانِ مَوضِعَ الإضمارِ-: ﴿مِّن رَّبِّكُم﴾، أي: الَّذي لم يَزَلْ يُحسِنُ إليكم، وأنتم تُبارِزونَه بالعظائِمِ[٢]!

١٧- قولُه تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ فيه إثباتُ عُلُوِّ اللهِ تعالى؛ وجْهُ ذلك: أنَّ النُّزولَ لا يكونُ إلَّا مِن أعلَى[٣].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أنَّ إنزالَ القرآنِ إلينا مِن كمالِ ربوبيَّتِه تعالى، حيثُ أضاف إنزالَه إلى نفْسِه بوصفِ الرُّبوبيَّةِ، فمِن كمالِ ربوبيَّتِه تعالى لِخَلْقِه وتربيتِه لهم أنْ نَزَّلَ إليهم هذا القرآنَ[٤].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وُجوبُ العملِ بما في القرآنِ؛ لأنَّه نَزَل مِن الرَّبِّ، والرَّبُّ له السُّلطانُ الكاملُ على خَلْقِه، ومُقتضى رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى لنا: أنْ نعملَ بما أنزَل إلينا[٥].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أنَّ التَّقْوَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٥).

سببٌ للنَّجاةِ مِن العذابِ[١].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي ﴾ إبطالُ الاحتِجاجِ بالقَدَرِ على مَعصيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ووجْهُه: أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ إرسالَ الرُّسُلِ حُجَّةً، ولو كان القَدَرُ حُجَّةً لصاحِبِه لم يَبطُلْ بإرسالِ الرُّسُلِ[٢]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- الكلامُ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ الزَّواجِرَ السَّابِقةَ تُثيرُ في نُفوسِ المُواجَهينَ بها خاطِرَ التَّساؤُلِ عن مَسالِكِ النَّجاةِ، فتَتَلاحَمُ فيها الخَواطِرُ المَلَكيَّةِ والخَواطِرُ الشَّيطانيَّةُ، إلى أنْ يُرْسِيَ التَّلاحُمُ على انتِصارِ إحدى الطَّائِفَتَينِ، فكان في إنارةِ السَّبيلِ لها ما يُسَهِّلُ خَطْوَ الحائِرينَ في ظُلُماتِ الشَّكِّ، ويَرتَفِقُ بها ويُواسِيها بعْدَ أنْ أثخَنَتْها جُروحُ التَّوبيخِ والزَّجرِ والوَعيدِ، ويُضَمِّدُ تلك الجِراحةَ، والحَليمُ يَزجُرُ ويَلينُ، وتُثيرُ في نَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَشيةَ أنْ يُحيطَ غَضَبُ اللهِ بالَّذين دَعاهم إليه فأعرَضوا، أو حَبَّبَهم في الحَقِّ فأبغَضوا، فلَعَلَّه لا يَفتَحُ لهم بابَ التَّوبةِ، ولا يقبَلُ منهم بعدَ إعراضِهم أَوْبةً، ولا سيَّما بعْدَ أنْ أمَرَه بتَفويضِ الأمْرِ إلى حُكمِه المُشتَمِّ منه تَرَقُّبُ قَطعِ الجِدالِ وفَصمِه، فكانَ أمْرُه لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُناديَهم بهذه الدَّعوةِ تَنفيسًا عليه، وتَفتيحًا لِبابِ الأَوْبةِ إليه. فهذا كلامٌ يَنحَلُّ إلى استئنافَينِ؛ فجُملةُ ﴿قُلۡ﴾ استِئنافٌ لِبَيانِ ما تَرقَّبَه أفضلُ النَّبيِّينَ صلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١٦).

عليه وسلَّمَ، أي: بلِّغْ عنِّي هذا القولَ. وجُملةُ ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ مِن خِطابِ اللهِ لهم[(١)].

- وأيضًا قولُه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾ فيه إقبالُه سُبحانه عليهم، وفي ذلك مُنتَهى الاطمِئنانِ لهم؛ لِمَحوِ ما سَبَقَ لهم مِن ذُنوبٍ وأوضارٍ، والإشعارِ بأنَّ أمامَهم مَندوحةٌ مِنَ الوَقتِ لِاستِدراكِ ما فَرَطَ، ورَأْبِ ما انصَدَع. وفيه نِداؤُهم، وفي ذلك مِنَ التَّودُّدِ إليهم والتَّلَطُّفِ بهم ما يُهيبُ بذَوي المُسْكةِ مِنَ العُقولِ منهم إلى المُبادَرةِ بالإنابةِ والرُّجوعِ بالتَّوبةِ. وفيه إضافتُهم إليه إضافةَ تَشريفٍ لهم، وأنَّهم خُلَقاءُ بآصِرةِ العُبوديَّةِ، يَمُتُّونَ بها إليه سُبحانَه، وذلك كافٍ لِمُقابَلَتِهم ذلك بالمِثلِ وإعلانِ التَّوبةِ؛ لِلازدِلافِ إليه بها[(٢)].

- والخِطابُ بقَولِه: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ تَمهيدٌ بإجمالٍ يأتي بَيانُه في الآياتِ بَعْدَه مِن قَولِه: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]، وبَعْدَ هذا؛ فعُمومُ (عِبَادِيَ) وعُمومُ صِلةِ ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ يَشملُ أهْلَ المَعاصي مِنَ المُسلِمينَ، وإنْ كان المَقصودُ الأصليُّ مِنَ الخِطابِ المُشرِكينَ، على عادةِ الكَلامِ البَليغِ مِن كَثرةِ المَقاصِدِ والمعاني الَّتي تُفَرَّغُ في قَوالِبَ تَسَعُها[(٣)].

- ولَعَلَّ وجْهَ ثُبوتِ الياءِ في ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ في هذه الآيةِ دُونَ نَظيرِها -وهو قَولُه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الزمر: ١٠]-: أنَّ الخِطابَ هنا لِلَّذين أسرَفوا، وفي مُقَدِّمَتِهمُ المُشرِكونَ، وكُلُّهم مَظِنَّةُ تَطَرُّقِ اليَأْسِ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٩- ٤١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٠)،

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٠، ٤١).

رَحمةِ اللهِ إلى نُفوسِهم، فكان إثباتُ ياءِ المُتكلِّم في خِطابِهم زِيادةَ تَصريح بعَلامةِ التَّكَلُّمِ؛ تَقويةً لِنسبةِ عُبودِيَّتِهم إلى اللهِ تَعالى؛ إيماءً إلى أنَّ شَأنَ الرَّبِّ الرَّحمةُ بعِبادِه[١].

- وفِعلُ (أسْرَفَ) الأكثَرُ أنْ يُعدَّى إلى مُتعلَّقِه بحَرْفِ (في)، وتَعديتُه هنا بـ (على)؛ لأنَّ الإكثارَ هنا مِن أعمالٍ تَتحمَّلُها النَّفْسُ وتَثقُلُ بها، وذلك مُتعارَفٌ في التَّبِعاتِ والعُدْوانِ، تقول: أكثَرْتُ على فُلانٍ؛ فمعنى ﴿أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: أنَّهم جَلَبوا لأنفُسِهم ما تُثقِلُهم تَبِعَتُه؛ لِيَشملَ ما اقْتَرَفوه مِن شِركٍ وسيِّئاتٍ[٢].

- وإضافةُ الرَّحمةِ إلى اللهِ الْتِفاتٌ مِن ضَميرِ المُتكلِّمِ إلى الاسمِ الغائبِ؛ لأنَّ في إضافتِها تَخصيصًا للرَّحمةِ بالاسمِ الكريمِ، وبيانًا لِسَعةِ الرَّحمةِ؛ إذْ أُضِيفَتْ إلى اللهِ الَّذي هو أَعظَمُ الأسماءِ؛ لأنَّه العَلَمُ المُحتَوي على مَعاني جميعِ الأسماءِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن اليأْسِ مِن رَحمةِ اللهِ[٤].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وَضْعُ اسمِ الجَلالةِ (الله) مَوضِعَ الضَّميرِ؛ لدَلالتِه على أنَّه المُستَغْني والمُنعِمُ على الإطلاقِ. وفيه التَّأكيدُ بـ (الجميعِ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٤١، ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٩).

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليلٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وهو تعليلٌ على المُبالَغةِ وإفادةِ الحَصرِ[(١)].

- وإبرازُ الجُملةِ مِن قولِه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مُؤكَّدةً بـ (إنَّ) وبضميرِ الفَصلِ (هو) المُقتَضي -عِندَ البعضِ- الحَصرَ، وبالصِّفتَينِ المُودَعتَينِ (الغفور - الرحيم): مُبالَغةٌ في الوعدِ بالغُفرانِ[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

- في قولِه: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ إيذانٌ بوعيدٍ قريبٍ إنْ لم يُنيبوا ويُسلِموا كما يُلمِحُ إليه فِعلُ ﴿يَأْتِيَكُمُ﴾. والتَّعريفُ في ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وهو يَقتَضي أنَّهم إنْ لم يُنيبوا ويُسلِموا يأتِهمُ العَذابُ[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالإيضاحِ[(٤)]؛ فلِقائلٍ أنْ يَقولَ: لِمَ لَمْ يُعطَفْ ﴿تُنصَرُونَ﴾ على ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ﴾ المنصوبِ؟ **والجوابُ عن هذا الإشكالِ**: أنَّه أرادَ -وهو أعلَمُ- العِدَةَ بإخبارِهم أنَّه لن يَنصُرَهم أبدًا في الاستِقبالِ ما داموا مُصِرِّينَ على عدَمِ الإنابةِ، مُحجِمينَ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٣).

(٤) الإيضاح: هو أن يَذكُرَ المتكلِّمُ كلامًا في ظاهِرِه لَبْسٌ، ثمَّ يوضِّحَه في بقيَّةِ كلامِه، والإشكالُ الَّذي يحلُّه الإيضاحُ يكونُ في معاني البديعِ مِن الألفاظِ وفي إعرابِها. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٢/ ٢٣).

الإسلامِ[١].

- وأَتَى بـ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالةِ على المُهْلةِ، يعني: مهما طَلَبْتُم مِن ناصرٍ، وطالَتْ مُدَّةُ طلبِكم للنَّاصرِ- فإنَّكم لن تَجِدوا مَن يَنصُرُكم مِن عذابِ اللهِ تعالى[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ لا يَتعارَضُ هذا مع كَونِ القرآنِ كلِّه حَسَنًا، فـ(أحسَنُ) اسمُ تَفضيلٍ مُستعمَلٌ في معنَى كامِلِ الحُسنِ. وإضافةُ ﴿أَحۡسَنَ﴾ إلى ﴿مَآ أُنزِلَ﴾ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى المَوصوفِ، ومَعناهُ: أحسَنَ وَحْيٍ، وهو القرآنُ كلُّه، أو: أحسَنَ القرآنِ؛ آياتِه المُحْكَماتِ، أو آياتِه الَّتي تَضمَّنَتْ أمْرَ طاعةٍ أو إحسانٍ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾

- السِّرُّ في تَنكيرِ النَّفْسِ في قولِه: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ﴾ التَّقليلُ؛ لأنَّ المُرادَ بها بعضُ الأنفُسِ، وهي نفْسُ الكافِرِ، وأنَّها نفْسٌ مُتَمَيِّزةٌ مِنَ الأنفُسِ بهذه السِّمةِ مِنَ اللَّجاجِ في الكُفرِ، ورُبَّما أُريدَ بها التَّكثيرُ، كقولِ القائلِ: رُبَّ بلدٍ قطَعْتُ، ورُبَّ بطَلٍ قارَعْتُ، وهو يَقصِدُ بلادًا وأبطالًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٦، ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير =

- قولُه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ فيه تَشبيهُ الحسرةِ بالعاقلِ الَّذي يُنادَى لِيُقْبِلَ، أي: هذا وقتُكِ فاحضُري. والنِّداءُ مِن رَوادِفِ المُشَبَّهِ به المَحذوفِ، ومعنَى نداءِ الحسرةِ: أي: يا حَسرَتي احضُري؛ فأنا مُحتاجٌ إليكِ، أي: إلى التَّحسُّرِ. وشاعَ ذلك في كلامِهم حتَّى صارتْ هذه الكَلِمةُ كالمَثَلِ لشِدَّةِ التَّحسُّرِ(١).

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ تَعديةُ الحَسرةِ بحرفِ الاستِعلاءِ (على) كما هو غالِبُها؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ التَّحسُّرِ مِن مَدخولِ (عَلَى)(٢).

- قولُه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ جنبُ اللهِ: كِنايةٌ

= أبي حيان)) (٩/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٥).

قال الزَّجَّاجُ: (إذا قال القائلُ: ما الفائدةُ في مُناداةِ الحسرةِ، والحسرةُ ممَّا لا يُجيبُ؟

فالفائدةُ في مُناداتِها كالفائدةِ في مُناداةِ ما لا يعقلُ؛ لأنَّ النِّداءَ بابُ تنبيهٍ. إذا قلتَ: يا زَيْدُ، فإن لم تكُنْ دَعَوْتَه لِتُخاطِبَه لِغيرِ النِّداءِ فلا معنى للكلامِ، إنَّما تقولُ: يا زَيدُ، فتُنَبِّهُه بالنِّداءِ، ثمَّ تقولُ له: فعَلْتَ كذا وافعَلْ كذا، وما أحبَبْتَ ممَّا له فيه فائدةٌ، ألَا ترى أنَّك تقولُ لِمَن هو مُقْبِلٌ عليك: «يا زَيدُ، ما أحْسَنَ ما صنَعْتَ!»، ولو قلتَ له: «ما أحْسَنَ ما صنَعْتَ!» كنتَ قد بلَغْتَ في الفائدةِ ما أفهَمْتَ به، غيرَ أنَّ قولَك: «يا زَيدُ» أوْكَدُ في الكلامِ، وأبلَغُ في الإفهامِ. وكذا إذا قلتَ للمُخاطَبِ: «أنا أعجَبُ ممَّا فَعَلْتَ» فقد أفَدْتَه أنَّك مُتعجِّبٌ، ولو قلتَ: «واعَجَباه ممَّا فعلْتَ، ويا عَجَباه أتَفْعَلُ كذا وكذا!» كان دعاؤُك العجَبَ أبلَغَ في الفائدةِ، والمعنى: يا عَجَبُ أقْبِلْ؛ فإنَّه مِن أوقاتِك، وإنَّما نِداءُ العَجَبِ تنبيهٌ لِتمكِّن عِلمِ المُخاطَبِ بالتَّعجُّبِ مِن فِعلِه. وكذلك إذا قلتَ: «وَيْلٌ لِزَيدٍ، أو: وَيْلَ زَيدٍ لِمَ فعَلَ كذا وكذا؟!» كان أبلَغَ. وكذلك في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢]، وكذلك: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، وكذلك: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٤).

فيها مُبالَغةٌ، والجَنْبُ: الجانِبُ، يُقالُ: أنا في جَنبِ فُلانٍ وجانِبِه وناحيتِه، وفُلانٌ لَيِّنُ الجَنبِ والجانِبِ، ثمَّ قالوا: فَرَّطَ في جَنبِه وفي جانِبِه، يُريدونَ: في حَقِّه، أي: شأنِ اللهِ وصِفاتِه ووَصاياهُ، وقيل غيرُ ذلك[١].

- وجملةُ ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في إنشاءِ النَّدامةِ على ما فاتَها مِن قَبولِ ما جاءَها به الرَّسولُ مِنَ الهُدى فكانتْ تَسخَرُ منه، والجُملةُ حالٌ مِن فاعِلِ ﴿فَرَّطتُ﴾، أي: فرَّطْتُ في جَنبِ اللهِ تَفريطَ السَّاخِرِ لا تَفريطَ الغافِلِ، وهذا إقرارٌ بصورةِ التَّفريطِ. وقيل: الجملةُ استِئنافُ إخبارٍ عن نفْسِه بما كان عليه في الدُّنيا[٢].

وقولُه: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أشَدُّ مُبالَغةً في الدَّلالةِ على اتِّصافِهم بالسُّخريةِ مِن أنْ يُقالَ: وإنْ كنتُ لَساخِرةً[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

- في قولِه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ حُكِيَ كَلامُ النَّفْسِ في ذلك المَوقفِ على تَرتيبِه الطَّبيعيِّ في جَوَلانِه في الخاطِرِ بالابتِداءِ بالتَّحسُّرِ على ما أَوقعَتْ فيه نفْسَها، وهذا مِنَ الكِنايةِ عن التَّفجُّعِ والنَّدَمِ على ما فَرَّطَتْ فيه مِن طاعةِ اللهِ، ثمَّ بالاعتِذارِ والتَّنصُّلِ طَمَعًا أنْ يُنَجِّيَها

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٧، ١٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٧).

ذلك، ثمَّ بتَمنِّي أنْ تَعودَ إلى الدُّنيا لتَعمَلَ الإحسانَ، فهذا التَّرتيبُ في النَّظمِ هو أَحْكَمُ تَرتيبٍ، ولو رُتِّب الكَلامُ على خِلافِه لَفاتَتِ الإشارةُ إلى تَوَلُّدِ هذه المعاني في الخاطِرِ حينَما يأتيهِمُ العَذابُ(١).

- وتَكرارُ حَرفِ (أو) في قولِه: ﴿أَن تَقُولَ﴾ للتَّنويعِ لِمَا تَقولُه النَّفْسُ في ذلك اليَومِ العَصيبِ، وللدَّلالةِ على أنَّ أقوالَهم لا تَخْلو منه تَحيُّرًا وتَعلُّلًا بما لا طائلَ تَحتَه، ولا يُسفِرُ عن فائدةٍ(٢).

٦- قولُه تعالَى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ حَرفُ (بَلَى) حَرفٌ لإبطالِ مَنفيٍّ أو فيه رائحةُ النَّفيِ؛ لقَصدِ إثبات ما نُفِيَ قَبْلَه؛ فتَعَيَّنَ أنْ تَكونَ هنا جوابًا لقولِ النَّفْسِ: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]؛ لِمَا تَقتَضيه ﴿لَوْ﴾ الَّتي استُعمِلَتْ للتَّمنِّي مِن انتِفاءِ ما تَمنَّاهُ، وهو أنْ يَكونَ اللهُ هَداهُ لِيَكونَ مِنَ المُتَّقينَ، أي: لم يَهْدِني اللهُ فلمْ أتَّقِ(٣).

- وجملةُ ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ تفصيلٌ للإبطالِ وبَيانٌ له، وهو مِثلُ الجَوابِ بالتَّسليمِ بعْدَ المَنعِ، أي: هَداكَ اللهُ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقد قُوبِلَ كَلامُ النَّفْسِ بجَوابٍ يُقابِلُه على عددِ قَرائِنِه -أي: فِقَرِه-[١] الثَّلاثِ؛ وذلك بقولِه: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾، وهذا مُقابِلُ ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]، ثمَّ بقَولِه: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾، وهو مُقابِلُ قَولِها: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] أي: ليست نِهايةُ أمْرِكَ التَّفريطَ، بلْ أَعظَمَ منه وهو الاستِكبارُ، ثمَّ بقولِه: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وهذا مُقابِلُ قَولِ النَّفْسِ: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]؛ فهذه قَرائنُ ثلاثٌ، والمعنَى: أنَّ اللهَ هَداكَ في الدُّنيا بالإرشادِ بآياتِ القرآنِ، فقابَلْتَ الإرشادَ بالتَّكذيبِ والاستِكبارِ والكُفرِ بها؛ فلا عُذرَ لك[٢].

- قولُه: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ جاء الجوابُ على طَريقةِ النَّشرِ المُشَوَّشِ بعْدَ اللَّفِّ[٣] رَعْيًا لمُقتَضى ذلك التَّشويشِ، وهو أنْ يَقَعَ ابتِداءُ النَّشرِ بإبطالِ الأهَمِّ ممَّا اشتمَلَ عليه اللَّفُّ، وهو ما ساقُوهُ على معنَى التَّنصُّلِ والاعتِذارِ مِن قَولِهم: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ [الزمر: ٥٧]؛ لقَصدِ المُبادَرةِ بإعلامِهم بما يَدحَضُ مَعذِرتَهم، ثمَّ عاد إلى إبطالِ قَولِهم: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، فأبطَل بقَولِه: ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾، ثمَّ أكمَلَ بإبطالِ قَولِهم: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨] بقَولِه: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. ولم يأتِ جَوابٌ عن قولِ النَّفْسِ: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦]؛ لأنَّه إقرارٌ. ولو لم يُسلَكْ هذا الأُسلوبُ في النَّشرِ لهذا اللَّفِّ لَفاتَ التَّعجيلُ بدَحْضِ المَعذِرةِ، ولَفاتَتْ مُقابَلةُ القَرائنِ الثَّلاثِ المُجابِ

(١) القرائنُ القرآنيَّةُ: جمْعُ قرينةٍ، وهي الفقرةُ ذاتُ الفاصِلةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٨).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٦٢).

عنها بقَرائنَ أمثالِها؛ لِما عَلِمتَ مِن أنَّ الإبطالَ رُوعيَ فيه قَرائنُ ثلاثٌ على وِزانِ أقوالِ النَّفْسِ، وأنَّ ترتيبَ أقوالِ النَّفْسِ كان جاريًا على التَّرتيبِ الطَّبيعيِّ، فلو لم يُشَوَّشِ النَّشرُ لَوَجَبَ أنْ يُقتَصَرَ فيه على أقَلَّ مِن عدَدِ قَرائنِ اللَّفِّ، فتَفوتَ نُكتةُ المُقابَلةِ الَّتي هي شأنُ الجِدالِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٨).

الآيات (٦٠-٦٦)

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَثْوًى﴾: أي: مَنزِلٌ ومقامٌ ومأوًى، والثَّواءُ: الإقامةُ مع الاستِقرارِ؛ يُقالُ: ثَوَى يَثْوي ثَواءً، وأصلُ (ثوي): يدلُّ على الإقامةِ[١].

﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: أي: بفَوزِهم ومَنجاتِهم وفَلاحِهم، والفَوزُ: الظَّفَرُ بالخَيرِ مع حُصولِ السَّلامةِ، وأصلُه: يدُلُّ على النَّجاةِ[٢].

﴿مَقَالِيدُ﴾: أي: مَفاتيحُ، وقيل: هي الخَزائِنُ، سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَحفَظُ الأشياءَ وتَحوزُها، وقيل: أصلُها كلمةٌ فارسيةٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦١، ٦٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، =

﴿لَيَحۡبَطَنَّ﴾: أي: لَيَبْطُلَنَّ؛ فالحَبَطُ: البُطلانُ والألمُ، وأصلُه: أن تُكثِرَ الدَّابَّةُ أكلًا حتَّى يَنتفِخَ بطنُها فتَموتَ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى حالَ الكافرينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: ويومَ القيامةِ ترَى المُشرِكينَ الَّذين كَذَبوا على اللهِ وُجوهُهم مُسْوَدَّةٌ، أليس في جَهنَّمَ مُستَقَرٌّ للمُتكبِّرينَ؟

ثمَّ يُبيِّنُ حالَ المؤمنينَ، فيقولُ: ويُنجِّي اللهُ الَّذين اتَّقَوا اللهَ بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتِنابِ ما نهَى، بفَوزِهم: بالنَّجاةِ مِن النَّارِ، ودُخولِهم جَنَّتَه، لا يُصيبُهم في الآخِرةِ سُوءٌ، ولا هم يَحزَنونَ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى ما يدُلُّ على كمالِ قدرتِه، فيقولُ: اللهُ وَحْدَه خالِقُ كُلِّ شَيءٍ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قائِمٌ وحافِظٌ، له سُبحانَه وَحْدَه خزائِنُ السَّمَواتِ والأرضِ ومفاتيحُها. والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ أولئك هم الخاسِرونَ.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يوبِّخَ الكافرينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قُرَيشٍ: أتأمُرونَني بعبادةِ غيرِ اللهِ تعالى، أيُّها الجاهِلونَ؟!

ثمَّ يُحذِّرُ سبحانَه مِن الشِّركِ أبْلَغَ تحذيرٍ، فيقولُ: ولقد أُوحِيَ إليك -يا مُحمَّدُ- وإلى الَّذين مِن قَبْلِك مِن الأنبياءِ: لَئِنْ أشرَكْتَ باللهِ لَيَبطُلَنَّ عَمَلُك، ولَتَكونَنَّ مِن

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩، ٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٤).

ومقاليدُ جمعٌ وَاحِدُه مقليدٌ ومقلادٌ ومقلدٌ، ويُقالُ: هو جمعٌ لا واحِدَ له مِن لفظِه. يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٣٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

الخاسِرينَ، بل اعبُدِ اللهَ وَحْدَه -يا مُحمَّدُ- وكُنْ مِنَ الشَّاكِرينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ مَقالةَ الكافِرِ؛ ذكَرَ ما يَعرِضُ له يومَ القيامةِ مِن الإنذارِ بسُوءِ مُنقَلَبِه، وفي ضِمنِه وعَيدٌ لِمُعاصِريه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾.

أي: وتَرى[٢] يومَ القيامةِ المُشرِكينَ الَّذين كَذَبوا على اللهِ -بادِّعاءِ أنَّ له شَريكًا أو وَلَدًا، أو زعْمِ أنَّه شَرَعَ شَيئًا وهو لم يَشرَعْه، إلى غيرِ ذلك- وُجوهُهم قد اسودَّتْ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٥).

(٢) قال الألوسي: (الخِطابُ إمَّا لسَيِّدِ المُخاطَبينَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإمَّا لِكُلِّ مَن تَتأتَّى منه الرُّؤيةُ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٧٤).

ممَّن اختار الأوَّلَ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٦٨).

وممَّن اختار أنَّ الخِطابَ لغيرِ مُعَيَّنٍ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٠).

قال السعدي: (الكَذِبُ على اللهِ يَشمَلُ: الكَذِبَ عليه باتِّخاذِ الشَّريكِ والوَلَدِ والصَّاحِبةِ، والإخبارَ عنه بما لا يَليقُ بجَلالِه، أو ادِّعاءَ النُّبُوَّةِ، أو القَولَ في شَرعِه بما لم يَقُلْه، والإخبارَ بأنَّه قالَه وشَرَعَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨). =

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

أي: أليس في جَهنَّمَ مَقامٌ ومُستَقَرٌّ للَّذين تَكَبَّروا عن الحَقِّ، فأعرَضوا عن توحيدِ اللهِ، وقَبولِ شَرعِه، وامتَنَعوا عن طاعتِه في أمْرِه ونَهْيِه[١]؟

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كان في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ. قال رجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أن يكونَ ثَوبُه حَسَنًا، ونَعْلُه حَسَنةً. قال: إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ. الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ[٢]، وغَمْطُ النَّاسِ[٣]))[٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((يُحشَرُ المُتكَبِّرونَ يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ[٥] في صُوَرِ الرِّجالِ، يَغْشاهم الذُّلُّ مِن

= وقال البِقاعي: (ويَدخُلُ فيه كُلُّ مَن تكَلَّم في الدِّينِ بجَهلٍ، وكلُّ مَن كَذَب وهو يَعلَمُ أنَّه كاذِبٌ، في أيِّ شَيءٍ كان؛ فإنَّه مِن حيثُ إنَّ فِعلَه فِعلُ مَن يَظُنُّ أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ كَذِبَه أو لا يَقدِرُ على جَزائِه، كأنَّه كَذَب على اللهِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

(٢) بطَرُ الحَقِّ: دَفْعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتجبُّرًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٣) الغَمْطُ: الازدِراءُ والاحتِقارُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٩٠).

(٤) رواه مسلم (٩١).

(٥) أمثالَ الذَّرِّ: أي: مِثلَ الذَّرَّةِ -وهي النَّملةُ الصَّغيرةُ- في الصِّغَرِ والحَقارةِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٥/ ٢٥٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٢).

كُلِّ مَكانٍ، فيُساقُونَ إلى سِجنٍ في جَهنَّمَ يُسمَّى «بُولَسَ»، تَعلوهم نارُ الأنْيارِ[١]، يُسْقَونَ مِن عُصارةِ أهلِ النَّارِ؛ طِينةِ الخَبالِ[٢]))[٣].

﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ حالةَ المتكبِّرينَ؛ ذكَرَ حالةَ المتَّقينَ، فقال[٤]:

﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ ﴾.

أي: ويُنَجِّي اللهُ الَّذين اتَّقَوُا اللهَ بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتِنابِ ما نهَى، بفوزِهم: بنَجاتِهم مِن النَّارِ، ودُخولِهم الجنَّةَ[٥].

---

(١) نارُ الأنْيارِ: أي: نارُ النِّيرانِ، وإضافةُ النَّارِ إليها للمُبالغةِ، كأنَّ هذه النَّارَ لِفَرطِ إحراقِها وشِدَّةِ حَرِّها تَفعَلُ بسائرِ النِّيرانِ ما تَفعَلُ النَّارُ بغَيرِها، أو لأنَّها أصلُ نِيرانِ العالَمِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٣).

(٢) طِينةِ الخَبالِ: تفسيرٌ لِما قَبْلَه، وهو اسمُ عُصارةِ أهلِ النَّارِ، وهو ما يَسيلُ منهم مِنَ الصَّديدِ والقَيحِ والدَّمِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢) واللَّفظُ له، وأحمد (٦٦٧٧).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٩٢)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ١٥٧)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١١/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٢).

قال ابنُ عاشور: (الباءُ للمُلابَسةِ، أي: مُتلبِّسينَ بالفَوزِ، أو الباءُ للسَّببيَّةِ، أي: بسَبَبِ ما حَصَلوا عليه مِنَ الفَوزِ. ويجوزُ أن تكونَ المفازةُ اسمًا للفَلاةِ، سُمِّيَت مفازةً باسمِ مكانِ الفَوزِ، أي: النَّجاةِ، وتأنيثُها بتأويلِ البُقعةِ، وسَمَّوْها مَفازةً باعتبارِ أنَّ مَن حَلَّ بها سَلِمَ مِن أن يَلحَقَه عَدُوُّه، وعلى هذا المعنى فالباءُ بمعنى «في». والمفازةُ: الجنَّةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٢). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا * جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣١ - ٣٦].

﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

= وقال ابن الجوزي في معنى ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: (وفيها للمفسِّرينَ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: بفضائلِهم، قاله السُّدِّيُّ. والثَّاني: بأعمالِهم، قاله ابنُ السَّائبِ، ومُقاتِلٌ. والثَّالثُ: بفَوزِهم مِن النَّارِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: بنَجاتِهم بأعمالِهم الحسَنةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثَّعلبيُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: بفَلاحِهم: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٩٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: بمكانِ فَوزِهم مِن الجنَّةِ: جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٨٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦١).

وقيل: معنى قَولِه تعالى: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بسَبَبِ ما سبَقَ لهم من السَّعادةِ والفَوزِ عند الله تعالى. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١).

وقال الزمخشري: (﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: بفَلاحِهم، يُقالُ: فاز بكذا؛ إذا أفلَحَ به، وظَفِرَ بمُرادِه منه. وتفسيرُ المَفازةِ قولُه: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، كأنَّه قيل: ما مَفازَتُهم؟ فقيل: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾، أي: يُنجِّيهم بنَفْيِ السُّوءِ والحزنِ عنهم. أو بسببِ مَنْجاتِهم، مِن قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، أي: بمَنجاةٍ منه، لأنَّ النَّجاةَ مِن أعظَمِ الفَلاحِ، وسببُ مَنجاتِهم العملُ الصَّالحُ؛ ولهذا فسَّر ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما المَفازةَ بالأعمالِ الحسَنةِ. ويجوزُ: بسببِ فَلاحِهم؛ لأنَّ العملَ الصَّالحَ سببُ الفَلاحِ، وهو دُخولُ الجنَّةِ. ويجوزُ أن يُسمَّى العملُ الصَّالحُ في نفْسِه مَفازةً؛ لأنَّه سببُها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠).

وقال البِقاعي: (﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بسببِ أنَّهم عدُّوا أنفُسَهم في مَفازةٍ بعيدةٍ مَخوفةٍ، فوقَفوا فيها عن كلِّ عمَلٍ إلَّا بدليلٍ؛ لئلَّا يَمشوا بغيرِ دليلٍ فيَهلِكوا، فأدَّتْهم تَقْواهم إلى الفوزِ، -وهو الظَّفَرُ بالمُرادِ- وزمانِه ومكانِه الَّذي سُمِّيَتِ المَفازةُ به تَفاؤُلًا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٤٣).

أي: لا يُصيبُ المتَّقينَ في الآخِرةِ سُوءٌ، ولا يُصيبُهم حُزنٌ أبَدًا[١].

كما قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٥، ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣].

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أطال الكلامَ في شَرحِ الوَعدِ والوَعيدِ؛ عاد إلى دَلائِلِ الإلهيَّةِ والتَّوحيدِ، فقال[٢]:

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه خالِقُ الأشياءِ كُلِّها، فهو ربُّها ومالِكُها، والمتفرِّدُ بالتَّصرُّفِ فيها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

قال ابنُ جريرٍ: (﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتَهم مِن آرابِ الدُّنيا، إذْ صاروا إلى كرامةِ اللهِ، ونعيمِ الجِنانِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤١).

وقال ابن كثير: (﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: ولا يَحْزُنُهم الفزعُ الأكبرُ، بل هم آمِنونَ مِن كلِّ فزَعٍ، مُزَحْزَحونَ عن كُلِّ شرٍّ، مُؤمَّلون كُلَّ خَيرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

أي: واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قائِمٌ وحافِظٌ، ومُدَبِّرٌ له[(١)].

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: أزِمَّةُ الأمورِ بيَدِ اللهِ تعالى وَحْدَه لا شَريكَ له، فعِندَه وَحْدَه خَزائِنُ السَّمَواتِ والأرضِ ومفاتيحُها، وهو المُنفَرِدُ بتَدبيرِها والتَّصَرُّفِ فيها[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣١).

قال ابن كثير: (قَولُه: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال مجاهِدٌ: المَقاليدُ هي: المفاتيحُ... وقال السُّدِّيُّ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خزائِنُ السَّمَواتِ والأرضِ. والمعنى على كِلا القولَينِ: أنَّ أزِمَّةَ الأمورِ بيَدِه، له المُلكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢).

وقال ابن جرير: (يعني تعالَى ذِكرُه بقولِه: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: له مفاتيحُ خزائِنِ السَّمواتِ والأرضِ، وبيَدِه مَغاليقُ الخَيرِ والشَّرِّ ومفاتيحُها، فما يَفْتَحْ مِن رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها، وما يُمْسِكْ فلا مُرسِلَ له مِن بَعدِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٨).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يدُ اللهِ مَلْأى لا تَغيضُها[١] نَفَقةٌ، سَحَّاءُ اللَّيلَ والنَّهارَ[٢]، أرَأَيْتُم ما أنفَقَ مُنذُ خَلَقَ السَّماءَ والأرضَ؟ فإنَّه لم يَغِضْ ما في يَدِه، وكان عَرشُه على الماءِ، وبيَدِه الميزانُ، يَخفِضُ ويَرفَعُ))[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن مِن عَظَمتِه ما يَقتَضي أن تَمتلِئَ القُلوبُ له إجلالًا وإكرامًا؛ ذكَرَ حالَ مَن عَكَس القَضيَّةَ فلم يَقدُرْه حَقَّ قَدْرِه[٤]!

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ وحُجَجِه الدَّالَّةِ عليه -سُبحانَه- وعلى وَحدانيَّتِه: أولئك هم الَّذين خَسِروا نَصيبَهم مِنَ الخَيرِ الَّذي بيَدِ اللهِ تعالى؛ فهم مَخذولونَ في الدُّنيا عن الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ، مُخَلَّدونَ يومَ القيامةِ في النَّارِ، مَحرومونَ مِن دُخولِ الجنَّةِ[٥].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

---

(١) لا تَغيضُها: أي: لا تَنقُصُها. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١٠/ ٣٨٦).

(٢) سَحَّاءُ اللَّيلَ والنَّهارَ: أي: دائمةُ الصَّبِّ والهَطلِ بالعَطاءِ. يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٤) واللفظ له، ومسلم (٩٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٣).

﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قُرَيشٍ: أتأمُرونَني بعِبادةِ غَيرِ اللهِ تعالى، أيُّها الجاهِلونَ بعَظَمتِه وباستِحقاقِه العِبادةَ وَحْدَه دونَ ما سِواه[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩ ﴾ [القلم: ٨، ٩].

﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾.

أي: ولقد أُوحِيَ إليك -يا مُحمَّدُ- وأُوحِيَ إلى الَّذين مِن قَبْلِك مِنَ الأنبياءِ: لَئِنْ أشرَكْتَ باللهِ لَيَبطُلَنَّ عَمَلُك الصَّالِحُ، فلا يُثيبُك اللهُ عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٧، ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٨، ٥٩).

قال الشوكاني: (هذا الكلامُ مِن بابِ التَّعريضِ لِغَيرِ الرُّسُلِ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه قد عَصَمَهم عن الشِّركِ، ووَجْهُ إيرادِه على هذا الوَجهِ: التَّحذيرُ والإنذارُ للعبادِ مِن الشِّركِ؛ لأنَّه إذا كان مُوجِبًا لإحباطِ عَمَلِ الأنبياءِ على الفَرضِ والتَّقديرِ، فهو مُحبِطٌ لعَمَلِ غَيرِهم مِن أُمَمِهم بطَريقِ الأَولى). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٤).

وقال القاسمي: (وإطلاقُ الإحباطِ هنا يَستَدِلُّ به مَن ذَهَب إلى أنَّ الرِّدَّةَ مُبطِلةٌ للعَمَلِ مُطلَقًا، كالحَنَفيَّةِ. وغيرُهم يرَى الإحباطَ مُقيَّدًا بالاستمرارِ عليه إلى الموتِ، وأنَّه هو المُحبِطُ في =

كما قال الله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤ - ٨٨].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

= الحقيقةِ، وأنَّه إنَّما تَرَكَ التَّقييدَ به اعتِمادًا على التَّصريحِ به في آيةٍ أخرى، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٩٥).

وممَّن اختار أنَّ هذه الآيةَ مُقَيَّدةٌ بالموتِ على الشِّركِ، كما في الآيةِ الأخرى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]: ابنُ تيميَّة، والشوكاني. يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أمَّا الرِّدَّةُ عن الإسلام بأن يَصيرَ الرَّجُلُ كافِرًا مُشرِكًا أو كِتابيًّا، فإنَّه إذا مات على ذلك حَبِطَ عَمَلُه باتِّفاقِ العُلَماءِ، كما نَطَق بذلك القُرآنُ في غيرِ مَوضِعٍ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقَولِه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥]، وقَولِه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقَولِه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾. ولكِنْ تَنازَعوا فيما إذا ارتَدَّ ثمَّ عاد إلى الإسلامِ: هل تَحبَطُ الأعمالُ الَّتي عَمِلَها قبْلَ الرِّدَّةِ أم لا تَحبَطُ إلَّا إذا مات مُرتدًّا؟ على قولَينِ مَشهورَينِ، هما قَولانِ في مَذهَبِ الإمامِ أحمَدَ. والحُبوطُ: مَذهَبُ أبي حنيفةَ ومالكٍ. والوُقوفُ: مَذهَبُ الشَّافعيِّ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٥٧). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٦٢).

﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

أي: ولَتَكونَنَّ -إنْ أشرَكْتَ باللهِ- مِن جُملةِ الَّذين خَسِروا ثوابَ أعمالِهم، واستحقُّوا عذابَ اللهِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾.

أي: بَلِ[2] اعبُدِ اللهَ وَحْدَه -يا مُحمَّدُ- دونَ ما سِواه مِن الآلهةِ، مُخلِصًا له في عِبادتِك[3].

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت عِبادتُه لا يُمكِنُ أن تَقَع إلَّا شُكرًا؛ لِما له مِن عُمومِ النِّعَمِ سابِقًا ولاحِقًا -وشُكرُ المُنعِمِ واجِبٌ- نَبَّه على ذلك[4].

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩).

(٢) قيل: ﴿بَلِ﴾ لإبطالِ مَضمونِ جُملةِ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾، أي: بل لا تُشرِكْ، أو لإبطالِ مَضمونِ جُملةِ ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩، ٦٠). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩، ٦٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٨).

أي: وكُنْ مِنَ الشَّاكِرينَ لله على نِعَمِه بالأعمالِ الصَّالِحةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا صلَّى قام حتَّى تَفطَّرَ رِجْلاه! قالت عائِشةُ: يا رَسولَ اللهِ، أتصنَعُ هذا وقد غُفِرَ لك ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِك وما تأخَّرَ؟! فقال: يا عائِشةُ، أفلا أكونُ عَبدًا شَكورًا؟!))[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ التَّحذيرُ مِن التَّكَبُّرِ، وأنَّ عُقوبةَ المُتكبِّرين دُخولُ النَّارِ، بل إذا كان التَّكبُّرُ تكبُّرًا مُطلَقًا فإنَّ عُقوبتَه السُّكنى في النَّارِ، والخُلودُ في النَّارِ، أمَّا مَن تَكَبَّرَ مُطلَقَ تَكَبُّرٍ فهذا لا يُحكَمُ له بالخُلودِ في النَّارِ؛ لأنَّه قد يَتكبَّرُ عن بَعضِ الحَقِّ، أو يَتكَبَّرُ على الخَلقِ؛ فلا يَستَحِقُّ الخُلودَ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ فيه التَّرغيبُ في هذا الوصفِ الجليلِ الَّذي هو التَّقْوى[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لَفْتُ نَظَرِ الإنسانِ إلى ألَّا يَستعينَ إلَّا باللهِ تعالى، ولا يَسألَ إلَّا اللهَ تعالى، ولا يَتوكَّلَ إلَّا على اللهِ تعالى؛ وجْهُ ذلك: أنَّه هو الَّذي له مَقاليدُ السَّمواتِ والأرضِ؛ فإذًا لا تَلتفِتْ إلى غيرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٥).

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٥).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ ﴾ فيه وُجوبُ إخلاصِ العبادةِ للهِ تعالى؛ والإخلاصُ للهِ تعالى هو مِن شُكْرِ اللهِ؛ لأنَّه أعقَبَ قَولَه: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ ﴾ بقَولِه تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فيه وُجوبُ الشُّكرِ على كلِّ أحدٍ[2]، وكما أنَّ اللهَ تعالى يُشكَرُ على النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ، كصِحَّةِ الجسمِ وعافيتِه، وحُصولِ الرِّزقِ وغَيرِ ذلك؛ كذلك يُشكَرُ ويُثْنَى عليه بالنِّعَمِ الدِّينيَّةِ، كالتَّوفيقِ للإخلاصِ والتَّقْوى. بل نِعَمُ الدِّينِ هي النِّعَمُ على الحقيقةِ، وفي تدبُّرِ أنَّها مِنَ اللهِ تعالى، والشُّكرِ للهِ عليها: سَلامةٌ مِن آفةِ العُجبِ الَّتي تَعرِضُ لكثيرٍ مِن العامِلينَ؛ بسَبَبِ جَهْلِهم[3]!

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ ﴾ فكما سَوَّدوا وَجْهَ الحَقِّ بالكَذِبِ، سَوَّد اللهُ وُجوهَهم؛ جزاءً مِن جِنسِ عَمَلِهم[4].

٢- الحاكِمُ والمُفتي والشَّاهِدُ: كُلٌّ مِنهم مُخبِرٌ عن حُكمِ اللهِ؛ فالحاكِمُ مُخبِرٌ مُنفِّذٌ، والمُفتي مُخبِرٌ غيرُ مُنفِّذٍ، والشَّاهِدُ مُخبِرٌ عن الحُكمِ الكَونيِّ القَدَريِّ المُطابِقِ للحُكمِ الدِّينيِّ الأمْريِّ؛ فمَنْ أخبَرَ منهم عمَّا يَعلَمُ خِلافَه فهو كاذِبٌ على اللهِ عَمدًا ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ ﴾، ولا أظلَمَ مِمَّن كَذَب على اللهِ وعلى دينِه، وإنْ أخبَروا بما لم يَعلَموا فقد كَذَبوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٢٨).

على اللهِ جَهلًا وإنْ أصابوا في الباطِنِ، وأخبَروا بما لم يأذَنِ اللهُ لهم في الإخبارِ به، وهم أسْوَأُ حالًا مِن القاذِفِ إذا رأى الفاحِشةَ وَحْدَه فأخبَرَ بها؛ فإنَّه كاذِبٌ عندَ اللهِ، وإن أخبَرَ بالواقِعِ؛ فإنَّ اللهَ لم يأذَنْ له في الإخبارِ بها إلَّا إذا كان رابِعَ أربعةٍ، فإنْ كان كاذِبًا عندَ اللهِ في خبَرٍ مُطابِقٍ لِمَخْبَرِه؛ حيثُ لم يأذَنْ له في الإخبارِ به، فكيف بمَن أخبَرَ عن حُكمِه بما لم يَعلَمْ أنَّ اللهَ حَكَمَ به، ولم يأذَنْ له في الإخبارِ به؟! وهذه الآياتُ وإن كانت في حَقِّ المُشرِكينَ والكُفَّارِ فإنَّها مُتناوِلةٌ لِمَن كَذَب على اللهِ في تَوحيدِه ودِينِه، وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، ولا تَتناوَلُ المُخطِئَ المأجورَ إذا بَذَل جُهْدَه واستَفرَغَ وُسْعَه في إصابةِ حُكمِ اللهِ وشَرْعِه؛ فإنَّ هذا هو الَّذي فَرَضه اللهُ عليه، فلا يَتناوَلُ المُطيعَ لله وإنْ أخطَأ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أنَّ هؤلاء النَّاجينَ لا يَمَسُّهُم سوءٌ في المستقبَلِ؛ ولا يَحزَنونَ على شَيءٍ مَضَى؛ وبذلك يَتِمُّ نعيمُهم؛ لأنَّ النَّعيمَ يَنْقُصُ إذا أصاب الإنسانَ هَمٌّ أو غَمٌّ للمُستقبَلِ، ويَنْقُصُ أيضًا إذا أصابَه حُزْنٌ على الماضي، أمَّا إذا عَرَف أنَّه كَسَبَ الماضيَ، وأنَّه لن يَنالَه سوءٌ في المستقبَلِ؛ فسوف يَتِمُّ له النَّعيمُ(٢).

٤- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ هذا عامٌّ مَحفوظٌ لا يَخرُجُ عنه شَيءٌ مِن العالَمِ؛ أعيانِه وأفعالِه، وحَرَكاتِه وسَكَناتِه، وليس مخصوصًا بذاتِه وصِفاتِه؛ فإنَّه الخالِقُ بذاتِه وصِفاتِه، وما سِواه مخلوقٌ له، واللَّفظُ قد فَرَّق بيْن الخالِقِ والمخلوقِ، وصِفاتُه سُبحانَه داخِلةٌ في مُسمَّى اسمِه؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه اسمٌ للإلهِ المَوصوفِ بكُلِّ صِفةِ كَمالٍ، المنَزَّهِ عن كُلِّ صِفةِ نَقصٍ ومِثالٍ، والعالَمُ قِسْمانِ:

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢٧).

أعيانٌ وأفعالٌ، وهو الخالِقُ لأعيانِه، وما يَصدُرُ عنها مِن الأفعالِ، كما أنَّه العالِمُ بتفاصيلِ ذلك؛ فلا يَخرُجُ شَيءٌ منه عن عِلمِه، ولا عن قُدرتِه، ولا عن خَلْقِه ومَشيئتِه[١].

٥- استدَلَّ الجَهميَّةُ على قَولِهم الباطِلِ بخَلقِ القُرآنِ، بقَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦]، قالوا: والقُرآنُ شَيءٌ! فأجابهم السَّلَفُ بأنَّ القُرآنَ كَلامُه، وكلامُه مِن صِفاتِه، وصِفاتُه داخِلةٌ في مُسمَّى اسمِه؛ كعِلْمِه وقُدرتِه وحياتِه، وسَمْعِه وبصَرِه، ووَجْهِه ويَدَيه؛ فليس اللهُ اسمًا لِذاتٍ لا نَعْتَ لها ولا صِفةَ ولا فِعلَ، ولا وَجْهَ ولا يَدينِ؛ ذلك إلهٌ مَعدومٌ مَفروضٌ في الأذهانِ، لا وُجودَ له في الأعيانِ[٢]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الرَّدُّ على القَدَريَّةِ الَّذين قالوا: إنَّ الإنسانَ خالِقُ أفعالِه. ووجهُ الرَّدِّ: أنَّ أفعالَ العِبادِ شَيءٌ مِن الأشياءِ؛ فتكونُ داخِلةً في العُمومِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ هذه العِبارةُ وما أشبَهَها ممَّا هو كثيرٌ في القُرآنِ: تدُلُّ على أنَّ جَميعَ الأشياءِ -غيرَ اللهِ- مَخلوقةٌ؛ ففيها ردٌّ على كُلِّ مَن قال بقِدَمِ بَعضِ المَخلوقاتِ، كالفلاسِفةِ القائِلينَ بقِدَمِ الأرضِ والسَّمَواتِ، وكالقائِلينَ بقِدَمِ الأرواحِ، ونحوِ ذلك مِن أقوالِ أهلِ الباطِلِ المتضَمِّنةِ تَعطيلَ الخالِقِ عن خَلْقِه[٤]!

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أنَّ أعمالَ العبادِ مَخلوقةٌ للهِ تعالى؛ لأنَّ فِعلَ العَبدِ لو وَقَع بتَخليقِ العبدِ لَكان ذلك الفِعلُ غيرَ مَوكولٍ إلى اللهِ تعالى؛ فلم يَكُنِ اللهُ تعالى وكيلًا عليه، وذلك يُنافي عُمومَ الآيةِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ عنايةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بما خَلَقَ؛ لأنَّه لَمَّا ذَكَرَ أنَّه خَلَق كلَّ شيءٍ بَيَّنَ أنَّه على كلِّ شيءٍ وكيلٌ، وهذا يدُلُّ على عنايةِ اللهِ تبارَك وتعالى بخَلْقِه[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذه المقَدِّمةُ تُشيرُ إلى أنَّ اللهَ تعالى هو مُعطي ما يَشاءُ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه، ومِن أعظَمِ ذلك النُّبوَّةُ وهَدْيُ الشَّريعةِ؛ فإنَّ جَهْلَ المُشرِكينَ بذلك هو الَّذي جرَّأهم على أنْ أنكَروا اختِصاصَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالرِّسالةِ دُونَهم، واختِصاصَ أتْباعِه بالهُدى، فقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾[٣] [الأنعام: ٥٣]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أنَّه إذا كان المشركونَ يُحاوِلونَ أنْ يُشْرِكَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فما بالُك بأتْباعِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟! فإنَّهم سوفَ يُحاوِلونَ أنْ يَجعلوهم مُشركينَ أكثرَ مِن مُحاوَلتِهم إشراكَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويَتَفرَّعُ على هذه الفائدةِ: الحذرُ مِن دعاةِ الشِّركِ والكفرِ، الَّذين يُحاوِلونَ بكلِّ ما يَستطيعونَ أنْ يُضَلِّلُوا المُسلِمينَ، ويَعمَلونَ على إخراجِهم مِن دينِهم[٤].

١٢- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٩).

في تَقديرِ فَرضِ وُقوعِ الإشراكِ مِنَ الرَّسولِ والَّذينَ مِن قَبْلِه مع تَحقُّقِ عِصمَتِهم: التَّنبيهُ على عِظَمِ أمْرِ التَّوحيدِ، وخَطَرِ الإشراكِ؛ لِيَعلَمَ النَّاسُ أنَّ أعلى الدَّرجاتِ في الفَضلِ لو فُرِضَ أنْ يَأتيَ عليها الإشراكُ لَمَا أَبقَى منها أثرًا، ولَدَحَضَها دَحْضًا[1]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أنَّ الشِّركَ -والعياذُ باللهِ- مَحبَطةٌ للعَمَلِ، وأنَّه يُبطِلُ جَميعَ أعمالِ الإنسانِ[2]، ويُستدَلُّ بهذه الآيةِ على حُبوطِ عَمَلِ المرتَدِّ مِن صلاةٍ وغَيرِها[3].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أنَّ في نُبُوَّةِ جَميعِ الأنبياءِ أنَّ الشِّركَ مُحبِطٌ لجَميعِ الأعمالِ، كما قال تعالى في سورةِ (الأنعام) لَمَّا عدَّدَ كَثيرًا مِن أنبيائِه ورُسُلِه؛ قال عنهم: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4] [الأنعام: ٨٨].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ سُؤالٌ: كيف صَحَّ هذا الكلامُ مع عِلمِ اللهِ تعالى أنَّ رُسُلَه لا يُشرِكونَ ولا تَحبَطُ أعمالُهم؟! **الجوابُ**: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ هو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٩).

قال ابنُ العربي: (إنَّه بيانٌ أنَّ الكُفرَ يُحبِطُ العمَلَ كيف كان، ولا يَعني به الكُفرَ الأصليَّ؛ لأنَّه لم يكُنْ فيه عَمَلٌ يُحبَطُ، وإنَّما يعني به أنَّ الكُفرَ يُحبِطُ العَمَلَ الَّذي كان مع الإيمانِ... وقد بَيَّن اللهُ تعالى ذلك بقَولِه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥]، فمَن كَفَر مِن أهلِ الإيمانِ حَبِطَ عَمَلُه). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

على سَبيلِ الفَرضِ، والمُحالاتُ يَصِحُّ فَرْضُها[١]، وهو شرطٌ، والشَّرطُ لا يَقتضي جَوازَ الوُقوعِ، كقولِه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ الآيةَ [الزخرف: ٨١] على القولِ بأنَّ (إنْ) شرطيَّةٌ، وقولِه: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ الآيةَ [الأنبياء: ١٧]، وقولِه: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ الآيةَ[٢] [الزمر: ٤].

وقيل: الخِطابُ في قولِه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ كالخِطابِ العامِّ المُوَجَّهِ لجميعِ النَّاسِ وإن كان لفظُه مفردًا، كما هو معروفٌ، كقولِ طَرَفةَ بنِ العبدِ[٣]:

ستُبْدي لك الأيَّامُ ما كنتَ جاهلًا ... ويأتيك بالأخبارِ مَنْ لم تُزَوِّدِ[٤]

فإنَّ هذا الخِطابَ لَفْظُه كأنَّه مُفرَدٌ، ومعناه عامٌّ موجَّهٌ لكلِّ مَن يصِحُّ منه الخِطابُ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ عطْفٌ على إحْدَى الجُمَلِ المُتقَدِّمةِ المُتَعلِّقةِ بعَذابِ المُشركينَ في الدُّنيا والآخِرةِ، والأحسَنُ أنْ يَكونَ عَطفًا على جملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٥١]، أي: في الدُّنيا كما أَصابَ الَّذينَ مِن قَبْلِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٨٧) و (٤/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((ديوان طرفة بن العبد)) (ص: ٢٩).

(٤) قوله: (ويأتيكَ بالأخبارِ مَن لم تُزَوِّدِ) معناه: يأتيك بالخبرِ مَن لم تَسألْه عن ذلك. يُنظر: ((شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات)) لأبي بكر الأنباري (ص: ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٨٦).

ويَومَ القيامةِ تَسْوَدُّ وُجوهُهم، فيَجوزُ أنْ يَكونَ اسْوِدادُ الوُجوهِ حقيقةً جَعَلَه اللهُ عَلامةً لهم، وجعَلَ بَقيَّةَ النَّاسِ بخِلافِهم، وقد جعَلَ اللهُ اسْوِدادَ الوُجوهِ يَومَ القيامةِ عَلامةً على سوءِ المَصيرِ، كما جعَلَ بَياضَها عَلامةً على حُسنِ المَصيرِ[١]. ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ عبَّرَ بالسَّوادِ عن اربِدادِ[٢] وُجوهِهم، وغالِبِ همِّهم، وظاهِرِ كآبَتِهم[٣].

- و﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هُمُ الَّذينَ نَسَبوا إليه ما هو مُنَزَّهٌ عنه مِنَ الشَّريكِ وغيرِ ذلك مِن تَكاذيبِ الشِّركِ؛ فـ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هُمُ الَّذينَ ظَلَموا، الَّذينَ ذُكِروا في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: ٥١]، وُصِفوا أوَّلًا بالظُّلْمِ، ثمَّ وُصِفوا بالكَذِبِ على اللهِ في حكايةٍ أخرى؛ فليس قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ[٤].

- وجملةُ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ واقِعةٌ مَوقعَ الاستِئنافِ البَيانيِّ لجُملةِ ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾، ولتَعليلِ اسْوِدادِ وُجوهِهم؛ لأنَّ السَّامعَ يَسألُ عن سببِ اسْوِدادِ الوُجوهِ، فيُجابُ بأنَّ في جَهنَّمَ مَثْواهُم، يعني: لأنَّ السَّوادَ يُناسِبُ ما سيَلْفَحُ وُجوهَهم مِن مَسِّ النَّارِ، فأُجيبَ بطريقةِ الاستِفهامِ التَّقريريِّ؛ لتَقريرِ ما قَبْلَه مِن رُؤيتِهم كذلك، بتَنزيلِ السَّائلِ المُقَدَّرِ مَنزِلةَ مَن يَعلَمُ أنَّ مَثْواهُم جَهنَّمُ، فلا يَليقُ به أنْ يَغفُلَ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٩).

(٢) الارْبِدادُ والرُّبْدَة: الغُبْرةُ، أو لَونٌ إلى الغُبْرةِ، وقيل: هو لونٌ بيْن السَّوادِ والغُبْرةِ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (٢/ ٢٤٦)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٨/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٠).

مُناسَبةِ سَوادِ وُجوهِهم لِمَصيرِهم إلى النَّارِ؛ فإنَّ للدَّخائلِ عَناوينَها[١].

- وتعريفُ المُتكبِّرينَ في قولِه: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ للاستِغراقِ، ووَصْفُهم بالمُتكبِّرينَ إيماءٌ إلى أنَّ عِقابَهم بتَسويدِ وُجوهِهم كان مُناسِبًا لكِبريائِهم؛ لأنَّ المُتكبِّرَ إذا كان سَيِّئَ الوَجهِ انكسَرَتْ كِبرياؤُه؛ لأنَّ الكِبرياءَ تَضعُفُ بمِقدارِ شُعورِ صاحِبِها بمَعرفةِ النَّاسِ نَقائصَه[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ ...﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] إلى آخِرِها، أي: ويُنَجِّي اللهُ الَّذينَ اتَّقوا مِن جَهنَّمَ؛ لأنَّهم ليسوا بمُتكبِّرينَ، وهذا إيذانٌ بأنَّ التَّقْوى تُنافي التَّكبُّرَ؛ لأنَّ التَّقوى كمالُ الخُلُقِ الشَّرعيِّ، وتَقتَضي اجتِنابَ المَنْهيَّاتِ، وامتِثالَ الأمرِ في الظَّاهرِ والباطِنِ. والكِبْرُ مرَضٌ قَلْبيٌّ باطِنيٌّ، فإذا كان الكِبْرُ مُلْقيًا صاحِبَه في النَّارِ بحُكمِ قَولِه: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، فضِدُّ أولئك ناجُون منها وهُمُ المُتَّقونَ؛ إذِ التَّقْوى تَحولُ دُونَ أسبابِ العِقابِ الَّتي منها الكِبْرُ، فالَّذينَ اتَّقوا هُم أهْلُ التَّقْوى وهي مَعروفةٌ؛ ولذلك فِعلُ ﴿ٱتَّقَوْاْ﴾ مُنَزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازمِ لا يُقَدَّرُ له مَفعولٌ[٣].

- وإضافةُ مَفازةٍ إلى ضَميرِهم في قولِه: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٠، ٥١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٥١، ٥٢).

كِنايةٌ عن شِدَّةِ تَلَبُّسِهم بالفَوزِ حتَّى عُرِفَ بهم، كما يُقالُ: فازَ فَوْزَ فُلانٍ، وهذه الإضافةُ لتَعريفِها بهم، أي: المَفازةِ الَّتي عَلِمتُم أنَّها لهم، وهي الجَنَّةُ، وقد عُلِم ذلك مِن آياتٍ وأخبارٍ؛ منها قولُه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۞ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۞ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾[1] [النبأ: ٣١ - ٣٣].

- وجملةُ ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مُبيِّنةٌ ومُفسِّرةٌ لجُملةِ ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾، كأنَّه قيل: ما مَفازَتُهم؟ فقيل: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾، أي: يُنَجِّيهم بنَفْيِ السُّوءِ والحُزنِ عنهم؛ لأنَّ نَفْيَ مَسِّ السُّوءِ هو إنجاؤُهم، ونَفْيَ الحُزنِ عنهم نَفْيٌ لأثَرِ المَسِّ السُّوءِ، وهي حالٌ مُفيدةٌ لكَونِ نَجاتِهم أو فَوْزِهم بالجَنَّةِ غَيْرَ مَسبوقةٍ بمَساسِ العَذابِ والحُزنِ[2].

- وجيءَ في جانبِ نَفْيِ السُّوءِ بالجُملةِ الفِعليَّةِ ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾؛ لأنَّ ذلك لنَفْيِ حالةِ أهْلِ النَّارِ عنهم، وأهْلُ النَّارِ في مَسٍّ مِنَ السُّوءِ مُتَجدِّدٍ، وجيءَ في نَفْيِ الحُزنِ عنهم بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ لأنَّ أهْلَ النَّارِ أيضًا في حُزنٍ وغَمٍّ ثابتٍ لازمٍ لهم. ومِن لَطيفِ التَّعبيرِ هذا التَّفَنُّنُ؛ فإنَّ شأنَ الأَسْواءِ الجسَديَّةِ تَجدُّدُ آلامِها، وشأنَ الأكدارِ القَلبيَّةِ دَوامُ الإحساسِ بها[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ تَمهيدٌ لقولِه: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤] في ذِكرِ تَمسُّكِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والرُّسلِ مِن قَبْلِه بالتَّوحيدِ، ونَبْذِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٣).

الشِّركِ والبَراءةِ منه، والتَّصلُّبِ في مَقاوَمتِه، والتَّصميم على قَطعِ دابِرِه. وجُعِلَتِ الجُمَلُ الثَّلاثُ مِن قَولِه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مُقدِّماتٍ تؤيِّدُ ما يَجيءُ بَعْدَها مِن قولِه: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾[1] [الزمر: ٦٤].

- وجيءَ بجملةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ مَعطوفةً؛ لِأنَّ مَدلولَها مُغايرٌ لِمَدلولِ الَّتي قَبْلَها مِن قولِه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾. والوكيلُ: المُتصرِّفُ في شَيءٍ بدُونِ تَعقُّبٍ، ولَمَّا لم يُعَلَّقْ بذلك الوَصفِ شَيءٌ عُلِم أنَّه مَوكولٌ إليه جِنسُ التَّصرُّفِ وحقيقتُه الَّتي تَعُمُّ جميعَ أفرادِ ما يُتصَرَّفُ فيه؛ فعَمَّ تَصرُّفُه أحوالَ جميعِ المَوجوداتِ مِن تقديرِ الأعمالِ والآجالِ والحرَكاتِ، وهذه المُقدِّمةُ تَقتَضي الاحتياجَ إليه بالإمدادِ، فهُمْ بعْدَ أنْ أَوجَدَهم لم يَستَغْنوا عنه لَمحةً ما[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾

- جملةُ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جيءَ بها مَفصولةً؛ لأنَّها تُفيدُ بيانَ الجُملةِ الَّتي قَبْلَها مِن قولِه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾؛ فإنَّ الوكيلَ على شَيءٍ يَكونُ هو المُتصرِّفَ في العطاءِ والمنعِ[3].

- وفيها مَزيدُ دَلالةٍ على الاستِقلالِ والاستِبدادِ؛ لأنَّ الخزائنَ لا يَدخُلُها ولا يَتصرَّفُ فيها إلَّا مَن بيَدِه مَفاتيحُها؛ فهي كِنايةٌ عن حِفظِ ذَخائرِها، فذَخائرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأرضِ عَناصِرُها ومَعادِنُها وكَيفيَّاتُ أجوائِها وبِحارِها، وذَخائرُ السَّمواتِ سَيْرُ كَواكِبِها وتَصرُّفاتِ أرواحِها في عَوالِمِها وعَوالِمِنا وما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى، ولَمَّا كانت تلك العناصِرُ والقُوى شَديدةَ النَّفعِ للنَّاسِ، وكان النَّاسُ في حاجةٍ إليها؛ شُبِّهَتْ بنَفائسِ المَخزوناتِ[1].

- وقَدَّمَ الخَبَرَ في قَولِه: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ﴾، وتقديمُ الخَبَرِ يُفيدُ الحصرَ، أي: أنَّ المُدَبِّرَ للسَّمواتِ والأرضِ هو اللهُ تعالى وحْدَه[2].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾، وما بيْنَهما اعتِراضٌ للدَّلالةِ على أنَّه مُهَيمِنٌ على العبادِ، مُطَّلِعٌ على أفْعالِهِم، مُجازٍ عليها، وقد جُعِل مُتَّصِلًا بما يليهِ على أنَّ كُلَّ شَيءٍ في السَّمَواتِ والأرضِ فاللهُ خالِقُه، وفاتِحُ بابِهِ، والَّذين كَفَروا وجَحَدوا أنْ يكونَ الأمْرُ كذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[3].

- وتَغْييرُ النَّظْمِ من التَّعْبيرِ بالجُمْلةِ الفِعْليَّةِ ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ...﴾ إلى التَّعْبيرِ بالجُمْلةِ الاسميَّةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ للإشْعارِ بأنَّ العُمْدةَ في فَلاحِ المُؤمِنينَ فَضْلُ اللهِ، فلذا جعَل نجاتَهم مُسنَدةً له تعالى، غيرَ ثابتةٍ قبْلَ ذلك بالاستِحقاقِ والأعمالِ، بخلافِ هلاكِ الكفرةِ؛ فإنَّهم قدَّموه لأنفُسِهم بما اتَّصَفوا به مِن الكفرِ والضَّلالِ، كما أنَّ فيه التَّصْريحَ بالوَعْدِ والتَّعْريضَ بالوعيدِ، حيثُ قيل: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، ولم يُقَلِ: الهالِكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢).

أو المعَذَّبونَ أو نحوَه[١].

وقيل: لَمَّا كان التَّقديرُ: فالَّذين آمَنوا باللهِ، وتقبَّلوا آياتِه أولئك هم الفائزونَ، عطَف عليه قولَه الَّذي اقتضاه سياقُ التَّهديدِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[٢].

- وفي قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ تَخْصيصُ الخَسارِ بهم؛ لأنَّ غَيرَهُم ذو حظٍّ مِن الرَّحْمةِ والثَّوابِ، مع ما في اسْمِ الإشارةِ مِن البُعدِ، فهُمُ البُعَداءُ الَّذين كَفَروا، فإنَّهم خَسِروا نُفوسَهُم وكُلَّ شَيءٍ يَتَّصِلُ بها على وَجهِ النَّفعِ؛ لأنَّ كُفرَهم أقبَحُ الكُفرِ مِن حيث إنَّه مُتعلِّقٌ بأظهَرِ الأشياءِ، وهي الآياتُ الظَّاهِرةُ[٣].

- وكذلك جملةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ تَحتمِلُ الاعتِراضَ، ولكنَّ اقترانَها بالواوِ بعْدَ نَظائِرِها يُرَجِّحُ أنْ تكونَ الواوُ فيها عاطفةً، وأنَّها مَقصودةٌ بالعَطفِ على ما قَبْلَها؛ لأنَّ فيها زيادةً على مُفادِ الجُملةِ قَبْلَها، وهي مُقدِّمةٌ مَقصودٌ بها تَجهيلُ الَّذينَ كَفَروا الَّذينَ هُم ضِدُّ المَقصودِ مِن هذه المُقدِّماتِ مِنَ الاهتِداءِ؛ فإنَّ الاستِدلالَ على الحقِّ بإبطالِ ضِدِّه ضَربٌ مِن ضُروبِ الاستِدلالِ؛ لأنَّ الاستِدلالَ يَعودُ إلى تَرغيبٍ وتَنفيرٍ، فإذا كان الَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ خاسِرينَ؛ لا جَرَمَ كان الَّذينَ آمَنوا بآياتِ اللهِ هُمُ الفائزينَ[٤].

- وأيضًا جُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ تُقابِلُ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧، ٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٤٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٥).

جُملةَ ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ [الزمر: ٦١] المُنتقَلَ منها إلى هؤلاء الآياتِ، وهي مع ذلك مُفيدةٌ إنذارَهم وإضْعافَ آرائِهم؛ لأنَّ مَوقِعَها بعْدَ دَلائلِ الوَحدانيَّةِ -وهي آياتٌ دالَّةٌ على أنَّ اللهَ واحِدٌ- يَقتَضي التَّنديدَ عليهم في عدَمِ الاهتِداءِ بها[١].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ وُصِف (الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ) بأنَّهمُ ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾؛ لأنَّهم كَفَروا بآياتِ مَن له مَقاليدُ خَزائنِ الخَيرِ، فعَرَّضوا أنفُسَهم للحِرمانِ ممَّا في خَزائنِه، وأعظَمُها خَزائنُ خَيرِ الآخرةِ[٢].

- والإخبارُ عن (الَّذِينَ كَفَرُوا) باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم خَسِروا لأجْلِ ما وُصِفوا به قبْلَ اسمِ الإشارةِ، وهو الكُفرُ بآياتِ اللهِ[٣].

- وتَوسُّطُ ضَميرِ الفَصلِ ﴿هُمُ ﴾؛ لإفادةِ حَصرِ الخَسارةِ فيهم، وهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ[٤] بِناءً على عدَمِ الاعتِدادِ بخَسارةِ غَيرِهم بالنِّسبةِ إلى خَسارتِهم؛ فخَسارتُهم أعظَمُ خَسارةٍ[٥].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ هو نَتيجةُ المُقدِّماتِ السَّابقةِ، وهو المَقصودُ بالإثباتِ؛ فالفاءُ في قولِه: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ ﴾ لتَفريعِ الكلامِ الَّذي أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَقولَه على الكلامِ المُوحَى به إليه لِيَقرَعَ به أسماعَهم؛ فإنَّ الحقائقَ المُتَقدِّمةَ موَجَّهةٌ إلى المُشرِكينَ، فبَعْدَ تَقرُّرِها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٥٦).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٦).

عِندَهم وإنذارِهم على مُخالَفةِ حالِهم لِما تَقتَضيهِ تلك الحقائقُ أُمِر الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يوَجِّهَ إليهم هذا الاستِفهامَ الإنكاريَّ مُنَوَّعًا على ما قَبْلَه؛ إذْ كانت أنفُسُهم قد خَسِئَتْ بما جَبَهَها مِنَ الكلامِ السَّابِقِ تأييسًا لهم مِن محاولةِ صَرفِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن التَّوحيدِ إلى عِبادةِ غَيرِ اللهِ[١].

- وتَوسُّطُ فِعلِ ﴿ قُلْ ﴾ في قولِه: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ اعتِراضٌ بيْن التَّفريعِ والمُفرَّعِ عنه؛ لتَصييرِ المَقامِ لِخطابِ المُشرِكينَ خاصَّةً بعْدَ أنْ كان مَقامُ الكَلامِ قَبْلَه مَقامَ البَيانِ لكلِّ سامِعٍ مِنَ المؤمِنينَ وغَيرِهم؛ فكان قولُه: ﴿ قُلْ ﴾ هو الواسِطةَ في جَعلِ التَّفريعِ خاصًّا بهم، وهذا مِن بَديعِ النَّظمِ ووَفرةِ المَعاني، وهو حقيقٌ بأنْ يُسمَّى (تلوينَ البِساطِ). و﴿ تَأْمُرُوٓنِّيٓ ﴾ اعتِراضٌ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم أَمَروه به عَقِيبَ ذلك وقالوا: استَلِمْ بعضَ آلِهَتِنا ونؤْمِنْ بإلهِكَ؛ لفَرطِ غَباوَتِهم[٢].

- قولُه: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ لَمَّا كان الأمرُ بعِبادةِ غَيرِ اللهِ لا يَصدُرُ إلَّا مِن غَبيٍّ جاهِلٍ، ناداهُم بالوَصفِ المُقتَضي ذلك، فقال: ﴿ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾[٣].

- ونداؤُهم بوَصفِ الجاهِلينَ في قولِه: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ تَقريعٌ لهم بعْدَ أنْ وُصِفوا بالخُسرانِ؛ ليُجمَعَ لهم بيْنَ نَقصِ الآخرةِ ونَقصِ الدُّنيا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٧).

- وحُذِف مَفعولُ ﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾؛ لتَنزيلِ الفِعلِ مَنزِلةَ اللَّازِم، كأنَّ الجهلَ صار لهم سَجيَّةً، فلا يَفقَهونَ شَيئًا؛ فهُم جاهِلونَ بما أفادَتْه الدَّلائلُ مِنَ الوَحدانيَّةِ الَّتي لو عَلِموها لَمَا أَشرَكوا، ولَمَا دَعَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى اتِّباعِ شِركِهم، وهُم جاهِلونَ بمَراتِبِ النُّفوسِ الكامِلةِ جَهلًا أَطمَعَهم أنْ يَصرِفوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن التَّوحيدِ، وأنْ يَستَزِلُّوه بخُزَعْبلاتِهم وإطماعِهم إيَّاهُ أنْ يَعبُدوا اللهَ إنْ هو شارَكَهم في عِبادةِ أصنامِهم، يَحسَبونَ الدِّينَ مُساوَمةً ومُغابَنةً وتَطفيفًا[1]!

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ كلامٌ واردٌ على طريقةِ الفَرضِ؛ لتَهْييجِ الرُّسلِ وإقناطِ الكَفَرةِ، والإيذانِ بغايةِ شَناعةِ الإشراكِ وقُبْحِه. وإطلاقُ الإحباطِ يَحتمِلُ أنْ يَكونَ مِن خَصائصِهم؛ لأنَّ شِركَهم أَقبَحُ، أو يَكونَ على التَّقييدِ بالمَوتِ، كما صُرِّح في قَولِه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وعَطْفُ: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ مِن عَطفِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ. ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ المعنَى: ولَتَكونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ بسَببِ حُبوطِ العمَلِ. ويَحتمِلُ: ولتَكونَنَّ في الآخرةِ مِن جُملةِ الخاسِرينَ الَّذينَ خَسِروا أنفُسَهم إنْ مِتَّ على الرِّدَّةِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ غضَبُ اللهِ على الرَّسولِ أشَدَّ، فلا يُمهِلَه بعْدَ الرِّدَّةِ، ألَا ترى إلى قَولِه تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾[2] [الإسراء: ٧٥].

- وهذه الآيةُ تمثيلٌ لحالِ مَن أشرَكَ بعْدَ التَّوحيدِ؛ فإنَّ الإشراكَ قد طَلَب

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٧، ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢).

به مُبتَكِروهُ زيادةَ القُرْبِ مِنَ اللهِ إذْ قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فكان حالُهم كحالِ التَّاجِرِ الَّذي طلَبَ الزِّيادةَ على ما عِندَه مِنَ المالِ، ولكنَّه طلَبَ الرِّبحَ مِن غَيرِ بابِه، فباءَ بخُسرانِه وتَبابِه[1].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ إنْ قيلَ: المُوحَى إليهم جماعةٌ؛ فكيف قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ على الإفرادِ؟

قيل: لأنَّ معناه: أُوحِيَ إليك: لَئِنْ أشركْتَ ليَحبطَنَّ عمَلُك، وإلى الَّذين مِن قَبلِك مِثلُه؛ فيكون فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، تَقديرُه: ولقد أُوحيَ إليك لئنْ أَشرَكْتَ، وكذلك أُوحِيَ إلى الَّذينَ مِن قَبْلِكَ. أو أُوحيَ إليك وإلى كُلِّ واحدٍ منهم: لئنْ أشركتَ. وقيل: فيه إضمارُ نائبِ الفاعِلِ، تَقديرُه: ولقد أُوحيَ إليك وإلى الَّذينَ مِن قَبْلِكَ التَّوحيدُ، ثمَّ ابتَدأَ فقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾[2].

- والتَّاءُ في ﴿أَشْرَكْتَ﴾ تاءُ الخِطابِ لكلِّ مَن أُوحيَ إليه بمَضمونِ هذه الجُملةِ مِنَ الأنبياءِ؛ فتَكونُ الجُملةُ بَيانًا لِما أُوحيَ إليه وإلى الَّذينَ مِن قَبْلِه. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فتَكونَ الجُملةُ بَيانًا لجُملةِ ﴿أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾، ويَكونَ ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ اعتِراضًا؛ لأنَّ البَيانَ تابِعٌ للمُبَيَّنِ عُمومُه ونحوه. وأيًّا ما كان فالمَقصودُ بالخِطابِ تَعريضٌ بقَومِ الَّذي أُوحيَ إليه؛ لأنَّ فَرْضَ إشراكِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غَيرُ مُتَوقَّعٍ[3].

- وقولُه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٨).

إلى قولِه: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ تأييدٌ لأمرِ النَّبيِّ بأنْ يَقولَ للمُشرِكينَ تلكَ المَقالةَ مَقالةَ إنكارٍ أنْ يَطمَعوا منه في عِبادةِ اللهِ، بأنَّه قَولٌ استَحَقُّوا أنْ يُرْمَوا بغِلظتِه؛ لأنَّهم جاهِلونَ بالأدِلَّةِ، وجاهِلونَ بنفْسِ الرَّسولِ وزَكائِها. وأعقَبَ بأنَّهم جاهِلونَ بأنَّ التَّوحيدَ هو سُنَّةُ الأنبياءِ، وأنَّهم لا يَتطَرَّقُ الإشراكُ حوالَيْ قُلوبِهم، فالمَقصودُ الأهَمُّ مِن هذا الخبَرِ التَّعريضُ بالمُشركينَ إذْ حاوَلوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الاعترافِ بإلهيَّةِ أصنامِهم. وتأكيدُ الخبَرِ بلامِ القَسَمِ وبحَرفِ (قد) تأكيدٌ لِمَا فيه مِنَ التَّعريضِ للمُشرِكينَ[1].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (بل) لإبطالِ مَضمونِ جملةِ ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ ﴾، أي: بلْ لا تُشرِكْ. أو لإبطالِ مَضمونِ جملةِ ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ ﴾؛ فهو رَدٌّ لِما أَمَروهُ به مِن استِلامِ بعضِ آلهتِهم[2].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدۡ ﴾ يَظهَرُ أنَّها تَفريعٌ على التَّحذيرِ مِن حَبطِ العمَلِ ومِنَ الخُسرانِ، فحصَلَ باجتِماعِ (بل) والفاءِ في صَدرِ الجُملةِ أنْ جَمعَتْ غَرَضَينِ: غرَضَ إبطالِ كلامِهم، وغرضَ التَّحذيرِ مِن أحوالِهم، وهذا وَجْهٌ رَشيقٌ[3].

- قولُه: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فيه تقديمُ المَعمولِ ﴿ٱللَّهَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩).

على ﴿فَٱعۡبُدۡ﴾؛ لإفادةِ القَصرِ والاختِصاصِ، كما تَقدَّمَ في قولِه في هذه السُّورةِ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ [الزمر: ١٤] أيْ: أعبُدُ اللهَ لا غَيْرَه، وهذا في مَقامِ الرَّدِّ على المُشركينَ كما تَضَمَّنَه قولُه: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، ولولا دَلالةُ التَّقديمِ على القَصرِ والاختِصاصِ لم يَكُنْ ردًّا لِما أمَروه به؛ فإنَّهم لم يأمُروه بتركِ عبادةِ الله، بل باستلامِ آلهتِهم والشِّركِ[1].

- قوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أيْ: إنعامَه عليك، وفيه إشارةٌ الى مُوجبِ الاختِصاصِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨).

الآيات (٦٧-٧٠)

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾: أي: ومَا عظَّموا الله حقَّ عظمتِه، ولا وصَفوه بصِفَتِه الَّتي تَنْبَغي له تعالَى، ولا نزَّهوه عمَّا لا يليقُ به، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايتِه[1].

﴿قَبْضَتُهُۥ﴾: أي: مَقْبوضةٌ له، والقَبْضُ: تَناولُ الشَّيءِ بجَميعِ الكَفِّ، وأصلُ (قبض): يَدُلُّ على شَيءٍ مأْخوذٍ وتَجَمُّعٍ في شَيءٍ[2].

﴿مَطْوِيَّٰتُۢ﴾: مِن الطَّيِّ الذي هو ضِدُّ النَّشرِ، وأصل (طوي): يدُلُّ على إدراجِ شَيءٍ حتَّى يُدرَجَ بعْضُه في بعضٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص ٦٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٥).

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرْنِ الذي يَنفُخُ فيه إسرافيلُ[١].

﴿فَصَعِقَ﴾: أي: مات، وأصلُ (صعق): يدُلُّ على شَدَّةِ صَوتٍ[٢].

﴿وَأَشْرَقَتِ﴾: أي: أضاءتْ، يُقالُ: شَرَقَت الشَّمسُ؛ إذا طَلَعت، وأشْرَقَت؛ إذا أضاءتْ، وأصلُ (شرق): يدُلُّ على إضاءةٍ وفتْحٍ[٣].

﴿وَوُفِّيَتْ﴾: أي: جُوزِيَتْ مُكَمَّلًا، والتَّوفيةُ: إعطاءُ الشَّيءِ وقَضاؤُه وافيًا لا نَقْصَ فيه، وأصلُ (وفي): يدُلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى وَحْدانيَّتَه، وعظَمتَه، وكَمالَ قُدرتِه، وما عليه المشركونَ مِن جَهالةٍ، فيقولُ: وما عَظَّم المُشركونَ اللهَ سُبحانَه حَقَّ تَعظيمِه؛ حيثُ عَبَدوا معه غَيرَه، والحالُ أنَّ الأرضَ كُلَّها في قَبضتِه، يَقبِضُها سُبحانَه يومَ القِيامةِ، والسَّمَواتِ السَّبعَ كُلَّها يَطْويها اللهُ تعالَى بيَدِه اليُمنى، تَنزَّه اللهُ وعَلا عُلُوًّا عَظيمًا عن شِركِ أولئك المُشرِكينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ سُبحانَه بعضَ مَشاهدِ يومِ القِيامةِ، فيقولُ: ونُفِخَ في البُوقِ يومَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٤)، ((تفسير الطبري)) (٢٠/ ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٨).

القِيامةِ نَفخةٌ، فصَعِقَ بها أهلُ السَّمَواتِ وأهلُ الأرضِ إلَّا مَن شاء اللهُ، ثمَّ نُفِخَ فيه نَفخةٌ ثانيةٌ فإذا الذين صَعِقوا قِيامٌ يَنظُرونَ، وأضاءتْ أرضُ المَحشَرِ بنُورِ رَبِّها إذا تَجلَّى لِفَصلِ القَضاءِ بيْنَ عِبادِه، ووُضِعَت كُتُبُ أعمالِ العبادِ لِمُحاسبتِهم ومُجازاتِهم، وجِيءَ بالنَّبيِّين وبالذين يَشهَدونَ على النَّاسِ بأعمالِهم، وحَكَم اللهُ بيْنَ العِبادِ يومَ القِيامةِ بالعَدلِ التَّامِّ، ولا يَظلِمُهم رَبُّهم شَيئًا، ووَفَّى اللهُ كُلَّ نَفسٍ جَزاءَ عَمَلِها مِن خيْرٍ أو شَرٍّ، واللهُ أعلَمُ بما يَفعَلُ عِبادُه في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكَى سُبحانَه عن المُشرِكينَ أنَّهم أمَروا الرَّسولَ بعِبادةِ الأصنامِ، ثمَّ إنَّه تعالَى أقام الدَّلائِلَ على فَسادِ قَولِهم، وأمَرَ الرَّسولَ بأنْ يَعبُدَ اللهَ ولا يَعبُدَ شَيئًا آخَرَ سِواه؛ بَيَّن أنَّهم لو عَرَفوا اللهَ حَقَّ مَعرفتِه لَما جَعَلوا هذه الأشياءَ الخَسيسةَ مُشارِكةً له المَعبوديَّةَ، فقال[1]:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾.

أي: وما عظَّم المُشرِكونَ اللهَ كما يَنْبغي له؛ حيثُ عَبَدوا معه غَيرَه، ولم يَصِفُوه بصِفَتِه الَّتي تَنْبَغي له تعالَى[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٧)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٦٣، ١٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٧).

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالَى أنَّهم ما عَظَّموه تَعظيمًا لائِقًا به، أردَفَه بما يدُلُّ على كَمالِ عَظَمتِه، ونِهايةِ جَلالتِه[١].

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أي: ما قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْرِه، والحالُ أنَّ الأرضَ كُلَّها في قَبضتِه، يَقبِضُها بيَدِه يومَ القِيامةِ[٢].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّ اللهَ يَقبِضُ يومَ القِيامةِ الأرضَ، وتكونُ السَّمَواتُ بيَمينِه، ثمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ!))[٣].

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٥)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٧٨٦، ٧٨٧)، ((مختصر الصواعق المرسلة)) للموصلي (ص: ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

قال ابنُ كَثيرٍ: (وقد وَرَدتْ أحاديثُ كثيرةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بهذه الآيةِ الكريمةِ، والطَّريقُ فيها وفي أمثالِها مَذهبُ السَّلَفِ، وهو إمْرارُها كما جاءَتْ مِن غيرِ تَكييفٍ ولا تَحْريفٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٣).

وقال ابنُ عُثَيْمين ردًّا على مَن فسَّر القبضَ بالملكِ والتَّصرُّفِ، قال: (وفي هذا نظرٌ ظاهرٌ، بل هذا تحريفٌ؛ لأنَّ الملكَ والتَّصرُّفَ... يومَ القيامةِ وقبْلَ يومِ القيامةِ، لكنَّ القبضةَ بمعنى المقبوضةِ التي تكونُ في اليدِ تُحيطُ بها اليدُ، فالصَّوابُ المُتعيِّنُ أن يُقالَ: المرادُ بالقبضةِ أنَّها في قبضةِ يدِه عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٨).

(٣) رواه البخاري (٧٤١٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٨).

أي: والسَّمَواتُ السَّبعُ كُلُّها يَطويها اللهُ بيَدِه اليُمنى[(١)].

كما قال تعالَى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[الأنبياء: ١٠٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يَقبِضُ اللهُ الأرضَ، ويَطوي السَّمَواتِ بيَمينِه، ثمَّ يَقولُ: أنا المَلِكُ، أين مُلوكُ الأرضِ؟!))[(٢)].

وعن مُجاهِدٍ قال: قال ابنُ عبَّاس: ((أتْدري ما سَعةُ جَهنَّمَ؟ قُلتُ: لا، قال: أجَلْ، واللهِ ما تَدري! حدَّثَتْني عائِشةُ أنَّها سَألَت رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن قَولِه: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، قالت: قُلتُ: فأين النَّاسُ يَومَئذٍ يا رَسولِ اللهِ؟ قال: على جِسرِ جَهنَّمَ))[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٥٠-٤٥٢).

قال ابنُ تَيميَّةَ: (لم يَكُنِ العَرشُ داخلًا فيما يُقبَضُ ويُطوَى ويُبدَّلُ ويُغيَّرُ، كما قال في الآيةِ: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٤ - ١٧]). ((بيان تلبيس الجهمية)) (١/ ٤٦٩).

(٢) رواه البخاري (٤٨١٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٤١) واللفظ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٥٣)، وأحمد (٢٤٨٥٦).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه). وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٣٦٣٠)، وصحَّح الحديثَ ابنُ الملقِّن في ((شرح البخاري)) (١٩/ ١٧٨)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٤١)، وصحَّح إسناده شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٤٨٥٦).

وأخرجه من طريقٍ آخَرَ وبلفظٍ مُقارِبٍ: التِّرمذيُّ (٣٢٤٢) عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها أنَّها قالت: ((يا رَسولَ اللهِ ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، فأين المؤمِنونَ يومَئذٍ؟! قال: على الصِّراطِ يا عائِشةُ)). =

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء حَبْرٌ[١] إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا محمَّدُ -أو يا أبا القاسِم- إنَّ اللهَ تعالى يُمسِكُ السَّمَواتِ يومَ القِيامةِ على إصْبَعٍ، والأَرَضينَ على إصْبَعٍ، والجِبالَ والشَّجَرَ على إصْبَعٍ، والماءَ والثَّرَى على إصْبَعٍ، وسائِرَ الخَلقِ على إصْبَعٍ، ثمَّ يَهُزُّهنَّ، فيَقولُ: أنا المَلِكُ، أنا المَلِكُ! فضَحِكَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَعجُّبًا ممَّا قال الحَبرُ؛ تصديقًا له، ثمَّ قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾))[٢].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أي: تَنزَّه اللهُ وعَلا عن شِركِ المُشرِكينَ عُلُوًّا عَظيمًا[٣].

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا خَوَّفَهم تعالَى مِن عَظَمتِه؛ خَوَّفهم بأحوالِ يومِ القِيامةِ، ورَغَّبَهم ورَهَّبَهم[٤].

وأيضًا لَمَّا قَدَّرَ كَمالَ عَظَمتِه بما سَبَق ذِكرُه؛ أردَفَه بذِكرِ طَريقةٍ أُخرَى تدُلُّ

= قال الترمذيُّ: (حسنٌ صحيحٌ). وصحَّحه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٣١٤)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٤٢).

(١) الحَبْر: العالِم، والمرادُ هنا حَبْرٌ مِن أحبارِ اليَهودِ آنذاكَ. يُنظر: ((إكمال المعلِم)) للقاضي عياض (٨/ ٣١٥، ٣١٦)، ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٢٧٠).

(٢) رواه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

أيضًا على كَمالِ قُدرتِه وعَظَمتِه، وذلك بشَرحِ مُقَدِّماتِ يومِ القِيامةِ؛ لأنَّ نَفْخَ الصُّورِ يكونُ قبْلَ ذلك اليَومِ، فقال[1]:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: ويُنفَخُ في البُوقِ العَظيمِ يومَ القِيامةِ نَفخةٌ يَموتُ بها أهلُ السَّمَواتِ وأهلُ الأرضِ إلَّا مَن استَثناه اللهُ منهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤، ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

قيل: هذه النَّفخةُ: هي النَّفخةُ الأُولى. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: ابنُ جَرير، والسعدي، وعِندَه أنَّهما نَفختانِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

قال السعديُّ: (هذه النَّفخةُ الأولى نَفخةُ الصَّعقِ، ونَفخةُ الفَزَعِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

وقيل: هي النَّفخةُ الثَّانيةُ مِن نَفَخاتٍ ثلاثٍ. وممَّن قال بذلك: ابنُ تَيميةَ، وابن كثير. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦).

قال ابنُ كَثيرٍ: (وهي التي يَموتُ بها الأحياءُ مِن أهلِ السَّمَواتِ والأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦).

وقال أيضًا: (أوَّلُ ذلك نَفخةُ الفَزَعِ، ثمَّ يَعقُبُها نَفخةُ الصَّعقِ حينَ يَصعَقُ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ إلَّا مَن شاء الله، ثمَّ بَعدَها نَفخةُ القيامِ لرَبِّ العالَمينَ، والبَعثِ والنُّشورِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١١).

وقيل: هي النَّفخةُ الثَّالثةُ مِن أربعِ نَفَخاتٍ، والأُولى مِن نفْخَتينِ خاصَّتينِ بيَومِ القِيامةِ بعْدَ وقوعِ البَعثِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: البقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٢-٥٥٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالصَّعقِ هنا: الموتُ: ابنُ جَرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦).

وقيل: المرادُ بالصَّعقِ هنا: الغَشْيُ، أي: يَقَعُ الخَلقُ مَغشيًّا عليهم دونَ مَوتٍ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: البقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٣). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: ((استَبَّ رَجُلانِ: رجُلٌ مِن المُسلِمينَ، ورجُلٌ مِن اليَهودِ؛ قال المُسلِمُ: والذي اصْطفَى محمَّدًا على العالَمينَ، فقال اليهوديُّ: والذي اصْطفَى موسَى على العالَمينَ، فرَفَع المُسلِمُ يَدَه عِندَ ذلك فلَطَم وَجْهَ اليَهوديِّ، فذهَبَ اليَهوديُّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخبَرَه بما كان مِن أمْرِه وأمْرِ المُسلِمِ، فدعا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المُسلِمَ، فسَأَلَه عن ذلك، فأخبَرَه، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا تُخَيِّروني على مُوسى؛ فإنَّ النَّاسَ يَصعَقونَ يومَ القِيامةِ فأَصعَقُ معهم، فأكونُ أوَّلَ مَن يُفيقُ، فإذا مُوسى باطِشٌ[(١)] جانِبَ العَرشِ! فلا أدْري أكان فيمَن صَعِقَ فأفاقَ قَبْلي، أو كان ممَّن استَثنى اللهُ!))[(٢)].

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

أي: ثمَّ يُنفَخُ في البُوقِ نَفخةٌ ثانيةٌ[(٣)]، .....

= قال السَّعديُّ: (﴿فَصَعِقَ﴾ أي: غُشِيَ أو ماتَ، على اختِلافِ القَولينِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

واختلَف المفسِّرون فيمَن استثنَى اللهُ تعالى من الصَّعقِ؛ فقال القاسميُّ: (﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: مِن خَواصِّ الملائكةِ، أو مِن الشُّهَداءِ، رُوِيَ ذلك عن بَعضِ التابعين. وقال قَتادةُ: قد استثنى اللهُ، واللهُ أعلمُ إلى ما صارتْ ثُنْيتُه. وهذا هو الوَجهُ؛ إذ لا يُصارُ إلى بَيانِ المُبهَماتِ إلَّا بقاطعٍ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٦٠).

(١) باطشٌ: أي: آخِذٌ بقُوَّةٍ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١٠/ ٤٢٤).

(٢) رواه البخاري (٢٤١١) واللفظ له، ومسلم (٢٣٧٣).

(٣) قيل: هي النَّفخةُ الثَّانيةُ، وهي نفْخةُ البَعثِ والنُّشورِ، وإحياءِ العِبادِ مِن القُبورِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جَرير، والماوَرْديُّ، وأبو السُّعود، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٩).

وقيل: هي نَفخةُ البَعثِ، ولكِنَّها الثَّالثةُ بعْدَ نَفختَيِ الفَزَعِ ثمَّ الصَّعقِ. وممَّن ذهَب إلى هذا: ابنُ =

فإذا الذين صَعِقوا قدْ قاموا يَنظُرونَ[(١)].

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾.

أي: وأضاءت أرضُ المحشَرِ بنُورِ رَبِّها إذا تجلَّى لِفَصلِ القَضاءِ بيْنَ عِبادِه[(٢)].

كما قال تعالَى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢].

= كَثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦) وَ(٨/ ٢١١).

وقيل: هي النَّفخةُ الرَّابعةُ التي يُفيقُ بها العِبادُ مِن غَشْيَتِهم، وهي الثَّانيةُ مِن نفْختَينِ بعْد البَعثِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القول: البقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٣، ٥٥٨- ٥٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٩، ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٩، ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٥، ٦٦).

واختلَف المفَسِّرون في معنى ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ فقيل: يَقلِبون أبصارَهم في الجِهاتِ نظَرَ المبهوتِ إذا فاجأهُ خطْبٌ. وممَّن اختاره الزَّمخشريُّ، وابنُ عادلٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٥٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٧).

وقيل: يَنظُرونَ إلى أهوالِ يومِ القِيامةِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨١).

وقيل: النَّظَرُ هنا بمعنى الإبصارِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم حَيُوا حَياةً كامِلةً لا غِشاوةَ معها على أبْصارِهم. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٥).

وقيل: هذا النَّظَرُ بمعنى الانتِظارِ، أي: يَنتَظِرون أمْرَ اللهِ فيهم. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والبَغَويُّ، والخازن. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القِيامةِ على أرضٍ بَيضاءَ عَفراءَ[١]، كقُرصةِ النَّقِيِّ[٢]، ليس فيها عَلَمٌ[٣] لأحَدٍ))[٤].

وعن أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لا يَنامُ، ولا يَنْبغي له أن يَنامَ، يَخفِضُ القِسطَ ويَرفَعُه، يُرفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهارِ، وعَمَلُ النَّهارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيلِ، حِجابُه النُّورُ، لو كشَفَه لَأحْرَقَت سُبُحاتُ[٥] وَجْهِه ما انتهَى إليه بَصَرُه مِن خَلْقِه))[٦].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ شَقيقٍ، قال: قُلتُ لأبي ذَرٍّ: لو رأيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَسَألتُه. فقال: عن أيِّ شَيءٍ كُنتَ تَسألُه؟ قال: كنتُ أسألُه: هلْ رأيتَ رَبَّك؟ قال أبو ذَرٍّ: قدْ سألتُ، فقال: ((رأيتُ نُورًا))[٧].

---

(١) عَفْراءَ، أي: غيرِ شَديدةِ البَياضِ، بلْ يَضرِبُ بياضُها إلى الحُمرةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥١٠).

(٢) كقُرصَةِ النَّقِيِّ: القُرصةُ: الرَّغيفُ، والنَّقِيُّ: هو الدَّقيقُ المنخولُ المُنظَّفُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥١٠).

(٣) عَلَمٌ: أي: عَلامةٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥١٠).

(٤) رواه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠) واللفظ له.

قال البخاري: (قالَ سهلٌ أوْ غيرُه: «ليسَ فيها مَعْلَمٌ لأحدٍ»).

قال ابن حجر: (وقَع هذا الكلامُ الأخيرُ لمسلمٍ... مدرجًا بالحديثِ، ولفظُه: «ليس فيها علمٌ لأحدٍ»). ((فتح الباري)) (١١/ ٣٧٥).

(٥) سُبُحاتُ: جَمعُ سُبْحَةٍ: أيْ: أنوارُ وَجْهِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١٦٦).

(٦) رواه مسلم (١٧٩).

(٧) رواه مسلم (١٧٨).

ومعْنَى قولِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لأبي ذَرٍّ: ((رَأَيْتُ نُورًا)): أنَّه رَأَى الحجابَ؛ ففي ((صحيح مسلم)) (١٧٩) أيضًا عن أبي مُوسَى الأشعريِّ رَضِي اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((حِجابُه النُّورُ، لوْ كَشَفه لَأحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجْهِه ما انتهَى إليه بَصَرُه =

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾.

أي: وأُحضِرَت كُتُبُ أعْمالِ العِبادِ يومَ القِيامةِ، ووُضِعَتْ لِمُحاسبتِهم ومُجازاتِهم بما فيها مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[(١)].

كما قال تعالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾.

أي: وجِيءَ بالنَّبِيِّينَ لِيَسألَهم رَبُّهم عمَّا أجابتَهْم به أُمَمُهم، وجِيءَ بالَّذين يَشهَدونَ على النَّاسِ بأعْمالِهم[(٢)].

= مِن خَلْقِه))، وجاء في رِوايةٍ لحديثِ أبي ذَرٍّ عندَ مسلم أيضًا (١٧٨): ((نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ)): أي: النُّورُ الَّذي هو الحجابُ يَمنَعُ مِن رُؤيَتِه سُبحانَه؛ فأنَّى أَراهُ؟ أي: فكيْفَ أراهُ والنُّورُ حِجابٌ بيْني وبيْنَه يَمنَعُني مِن رُؤيتِه؟! وهذا صَريحٌ في نفْيِ رُؤيةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم رَبَّه بعَيْني رأسِه في الدُّنيا. يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤٨)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٦٥-٤٦٧).

وقيل: يَجوزُ أنْ يَكونَ المُرادُ بالكِتابِ: كُتُبَ الشَّرائعِ الَّتي شَرَعها اللهُ للعِبادِ على ألْسِنةِ الرُّسلِ، ويَكونَ إحضارُها شاهِدةً على الأُمَمِ بتَفاصيلِ ما بَلَّغَه الرُّسلُ إليهم؛ لئلَّا يَزعُموا أنَّهم لم تَبلُغْهمُ الأحكامُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٢، ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٢، ٢٨٣)، =

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧).

اختلَف المفَسِّرون في المرادِ بالشُّهداءِ هنا؛ فقيل: همْ أُمَّةُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَشهَدونَ للرُّسُلِ في تَبليغِهم رِسالةَ اللهِ إلى أُمَمِهم. وممَّن ذهَب إلى هذا القول: ابنُ جَرير، ومَكِّي، والقُرْطبيُّ، وابنُ عُثَيْمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٢-٢٦٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٢- ٢٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٦٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩٤).

وقيل: الشُّهَداءُ هم الملائكةُ الحَفَظةُ الذين يُحصُونَ أعمالَ العِبادِ مِن خيرٍ وشَرٍّ. وممَّن ذهَب إلى هذا القول: ابنُ كَثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: عَطاءٌ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩٤).

وقيل: الشُّهَداءُ من الملائكة والمؤمنين، وممَّن اختاره: البيضاوي، وأبو السُّعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٣).

وقيل: هم الملائكةُ، وأعضاءُ الإنسان، والأرضُ. وممَّن ذهَب إلى هذا القول: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

وقيل: هم الرُّسُلُ مِن البَشَرِ الذين أُرسِلوا إلى الأُمَم؛ لأنَّه لا يُقضَى بيْنَ الأُمَّةِ حتى يأتيَ رَسولُها، كما قال تعالَى في سُورةِ (يونس): ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]، وممَّن ذهَب إلى هذا القول: الشِّنقيطيُّ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٨).

قال الشِّنقيطيُّ: (قدْ بيَّن تعالى أنَّ الشَّهيدَ على كُلِّ أمَّةٍ مِن أنفُسِ الأمَّة؛ فدَلَّ على أنَّه ليس مِن الملائكة، وذلك في قَولِه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩]، والرُّسُلُ مِن أنفُسِ الأُمَم، كما قال تعالَى في نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٦٨).

وقيل: هم الذين قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٣). =

كما قال تعالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴾ [النساء: ٤١].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُجاءُ بنُوحٍ يومَ القِيامةِ، فيُقالُ له: هل بلَّغْتَ؟ فيقولُ: نعَمْ يا رَبِّ، فتُسألُ أمَّتُه: هلْ بلَّغَكم؟ فيقولونَ: ما جاءَنا مِن نَذيرٍ! فيقولُ: مَن شُهودُك؟ فيقولُ: محمَّدٌ وأمَّتُه، فيُجاءُ بكم، فتَشهَدونَ. ثمَّ قرأَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ قال: عَدْلًا، ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ [البقرة: ١٤٣]))[(١)].

﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾.

أي: ويَحكُمُ اللهُ بيْنَ العِبادِ يومَ القِيامةِ بالعَدلِ التَّامِّ، ولا يَظلِمُهم شَيئًا؛ فلا يُعاقِبُ أحَدًا بما لم يَعمَلْه، أو يُحَمِّلُه ذَنْبَ غَيرِه، أو يَنقُصُه مِن أجْرِه، أو يَزيدُ في سَيِّئاتِه[(٢)].

كما قال تعالَى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٦٢).

(١) رواه البخاري (٧٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧، ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٦٨-٤٦٩).

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠﴾.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾.

أي: ويُوَفِّي اللهُ كُلَّ نَفْسٍ جَزاءَ عَمَلِها مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[١].

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المرادُ بالشُّهَداءِ إقامةَ الحُقوقِ على ما يَتعارَفُه العِبادُ، وكان ذلك ربَّما أوهَمَ نَقْصًا في العِلمِ؛ قال[٢]:

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

أي: واللهُ أعلَمُ مِنَ النَّبيِّينَ والشُّهَداءِ بما يَفعَلُ عِبادُه في الدُّنيا، وسيُجازيهم يومَ القِيامةِ بحَسَبِ أفعالِهم[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أنَّه يَجِبُ أنْ يُعَظَّمَ اللهُ تعالَى حَقَّ تَعظيمِه بقَدْرِ المُستطاعِ؛ لقولِه تَبارَك وتعالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٣).

قال السَّمرْقَنديُّ: (أخبَرَ أنَّه لم يَدْعُ الشُّهَداءَ لِيَشهَدوا بما يَعلَمون، بل هو أعلَمُ بما يَفعَلونَ، وإنَّما يَدْعو الشُّهَداءَ لِتأكيدِ الحُجَّةِ عليهم). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٤). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦).

وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولقولِه تعالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وإلَّا فمَن الذي يُحصي أنْ يُعظِّمَ اللهَ تعالىَ حَقَّ تَعظيمِه، على الوَجهِ الذي أرادَه اللهُ عزَّ وجلَّ[(١)]؟!

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ رُوِي عن بعضِ السَّلفِ أنَّه قال: (مَن أراد أنْ يُشاهِدَ يوْمَ القيامةِ -يعني: بقَلْبِه- فلْيَقرَأْ آخِرَ سُورةِ الزُّمَرِ)[(٢)].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أنَّه يَجِبُ على الإنسانِ الحذرُ مِن العَمَلِ بما لا يُرضي اللهَ تعالَى؛ لأنَّ اللهَ تعالَى يَعلَمُ ذلك، والإنسانُ الحَيُّ القَلبِ لا شَكَّ أنَّه سيَخجَلُ إذا عَلِمَ أنَّ اللهَ تعالَى يَعلَمُ عَمَلَه، فعَمِلَ ما لا يُرضِيه[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، قولُه تعالَى: ﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ، وهي دالَّةٌ على أنَّ المرادَ بالأرضِ الأرَضونَ السَّبعُ؛ فإنَّ هذا التَّأكيدَ لا يحسُنُ إدخالُه إلَّا على الجمْعِ، ويَشهَدُ لذلك قولُه الآتي: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، ولأنَّ الموضعَ مَوضعُ تَعظيمٍ، فهو مُقتضٍ للمبالَغةِ، والمعنى: الأرَضونَ جميعًا ذواتُ قبضتِه؛ يَقبِضُهنَّ قبْضةً واحدةً[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٣، ١٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ١٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٥٤٣)، ((تفسير القنوجي)) (١٢/ ١٤٣).

قال البِقاعيُّ: (لمَّا كان ما يُدْرِكون منها مِن السَّعةِ والكِبَرِ كافيًا في العظَمةِ، وإنْ لم يُدرِكوا أنَّها سَبعٌ؛ أكَّد بما يَصلُحُ لجميعِ طَبقاتِها؛ تَنبيهًا للبُصراءِ على أنَّها سَبعٌ مِن غيرِ تَصريحٍ به فقال: ﴿جَمِيعًا﴾). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٤٩).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾، وقَولُه تعالَى: ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ فيه إثباتُ اليَدِ للهِ تعالَى[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ فيه تَنبيهٌ على عَظَمتِه سُبحانَه، وحَقارةِ الأفعالِ العِظامِ الَّتي تَتحَيَّرُ فيها الأوهامُ بالإضافةِ إلى قُدرتِه، ودَلالةٌ على أنَّ تَخريبَ العالَمِ أهْوَنُ شَيءٍ عليه[٢].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنَّ الصَّعْقَ شاملٌ لكلِّ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ إلَّا مَن شاء اللهُ تعالَى، وهمْ أقلُّ ممَّن يَصْعَقُون؛ لأنَّ الغالبَ أنَّ المُسْتَثْنَى يكونُ أقلَّ مِن المُسْتَثْنَى منه[٣].

٥- قال تعالَى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ في قَولِه تعالَى: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ قِيامَهم يَحصُلُ عقِبَ هذه النَّفخةِ الأخيرةِ في الحالِ، مِن غيْرِ تَراخٍ؛ لأنَّ الفاءَ تدُلُّ على التَّعقيبِ[٤].

٦- قَولُه تعالَى: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ فيه إثباتُ النُّورِ صِفةً للهِ تعالَى[٥].

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أنَّ الأنوارَ الموجودةَ تَذهَبُ يومَ القِيامةِ وتَضمَحِلُّ -وهو كذلك-؛ فإنَّ اللهَ تعالَى أخبَرَ أنَّ الشَّمسَ تُكَوَّرُ، والقَمَرَ يُخسَفُ، والنُّجومَ تَندَثِرُ، ويكونُ النَّاسُ في ظُلمةٍ، فتُشرِقُ عندَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧٠)، ويُنظر: ((صفات الله)) للسقَّاف (ص: ٣٥٦).

ذلك الأرضُ بنُورِ رَبِّها عندما يَتجَلَّى ويَجيءُ للفَصلِ بيْنهم، وذلك اليومَ يَجعَلُ اللهُ للخَلقِ قُوَّةً، ويُنشِئُهم نَشأةً يَقوَونَ على ألَّا يُحرِقَهم نُورُه سُبحانَه وتعالَى، ويَتمَكَّنونَ أيضًا مِن رُؤيتِه؛ وإلَّا فنُورُه تعالَى عَظيمٌ، لو كشَفَه لَأحرَقَت سُبُحاتُ وَجْهِه ما انتهى إليه بَصَرُه مِن خَلْقِه(١).

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيه انتفاءُ الظُّلمِ في ذلك اليوم، وانتفاءُ الظُّلمِ هنا ليس المرادُ به نفْيَ الظُّلمِ فقط، بلِ المرادُ به إثباتُ كَمالِ العدْلِ الذي ليس فيه ظُلمٌ بوَجْهٍ مِن الوُجوهِ(٢).

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ فيه عَدْلُ اللهِ تعالَى في جَزائِه؛ لِقَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ لا زِيادةً ولا نَقصًا، ويُؤكِّدُ ذلك قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾؛ فإذا كان أعلمَ بما يَفعَلونَ، وهو حَكَمٌ عَدْلٌ، عُلِمَ أنَّه لن يَنْقُصَ الإنسانَ مِن أجْرِه شَيئًا(٣).

١٠- لمَّا بيَّن اللهُ تعالَى أنَّه يَحضُرُ في مَحفِلِ القيامةِ جميعُ ما يُحتاجُ إليه في فصْلِ الحكوماتِ وقطْعِ الخُصوماتِ؛ بيَّن تعالَى أنَّه يُوصَلُ إلى كلِّ أحدٍ حقُّه، وعبَّر تعالَى عن هذا المعنى بأربعِ عباراتٍ؛ أوَّلُها قولُه تعالَى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾، وثانيها قولُه: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وثالثُها قولُه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: وُفِّيَت كلُّ نفْسٍ جَزاءَ ما عَمِلَت، ورابعُها قولُه: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، يعني أنَّه تعالَى إذا لم يكُنْ عالمًا بكَيفيَّاتِ أحوالِهم، فلعلَّه لا يَقْضي بالحقِّ لأجْلِ عدَمِ العلمِ، أمَّا إذا كان عالمًا بمَقاديرِ أفعالِهم وبكَيْفيَّاتِها امتَنَعَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧٦).

دُخولُ الخطأِ في ذلك الحكمِ، فثَبَتَ أنَّه تعالَى عبَّر عن هذا المقصودِ بهذه العباراتِ المختلفةِ، والمقصودُ المبالغةُ في تَقْريرِ أنَّ كلَّ مُكلَّفٍ فإنَّه يَصِلُ إلى حقِّه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

- قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ معطوفًا على جُملةِ ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣]، ويَكونَ قولُه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ إلخ مُعترِضًا بيْن الجُملتَين، اقتَضاها التَّناسُبُ مع جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣].

ويَجوزُ أنْ تكونَ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]؛ فتكونَ جُملةُ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ وجُملةُ ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كِلْتاهُما مَعطوفتَينِ على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]. والمعنى هو هو، إلَّا أنَّ الحالَ أوضَحُ إفصاحًا عنه.

ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ عَطْفَ غَرَضٍ على غَرَضٍ انتُقِلَ به إلى وَصْفِ يَومِ القِيامةِ وأحوالِ الفَريقَينِ فيه، وجُملةُ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ اعتِراضًا[٢].

- وهذا الأسلوبُ مِن بابِ الكِنايةِ؛ لأنَّ تَعظيمَكَ الشَّيءَ، واحترامَكَ إيَّاهُ، وقِيامَك بواجِبِه؛ مُستلزِمٌ لتَقديرِك إيَّاهُ في نفْسِكَ حَقَّ تَقْديرِه، وهو مُستلزِمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٠، ٦١).

لأنْ تكونَ قدْ عَرَفْتَه حَقَّ مَعرفتِه[١].

- والإخبارُ عن الأرضِ بهذا المَصدرِ ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾ الَّذي هو بمعنَى المَفعولِ، أي: مَقبوضةٌ، كالخَلْقِ بمعنَى المَخلوقِ؛ للمُبالَغةِ في الاتِّصافِ بالمعنَى المَصدريِّ؛ لأنَّ المَوضِعَ مَوضِعُ تَفخيمٍ، فهو مُقتَضٍ المُبالَغةَ، وإنَّما صِيغَ لها وَزنُ المَرَّةِ؛ تَحقيرًا لها في جانِبِ عَظَمةِ مُلكِ اللهِ تعالَى، والقَبضةُ تدُلُّ على تَمامِ التَّمكُّنِ مِنَ المَقبوضِ، وأنَّ المَقبوضَ لا تَصَرُّفَ له ولا تَحرُّكَ[٢].

- وقَدَّمَ الأرضَ على السَّمواتِ؛ لمُباشَرتِهم بها، ومَعرفتِهم بحَقيقتِها[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ...﴾ انتقالٌ مِن إجْمالِ عَظَمةِ القُدرةِ يَومَ القِيامةِ إلى تَفصيلِها؛ فالجُملةُ مِن عَطفِ القِصَّةِ على القِصَّةِ، ومُناسَبةُ العَطفِ ظاهِرةٌ[٤].

- قولُه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ...﴾ عبَّرَ بالماضي في قولِه: ﴿وَنُفِخَ﴾ وقولِه: ﴿فَصَعِقَ﴾؛ لأنَّه مُحقَّقُ الوُقوعِ. وابتُدِئَتِ الجُملةُ بحَديثِ النَّفخِ في الصُّورِ؛ إذْ هو مِيقاتُ يَومِ القِيامةِ وما يَتقدَّمُه مِن مَوتِ كلِّ حَيٍّ على وَجْهِ الأرضِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (١٢/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٤٦).

- قولُه: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لمَّا كان المقامُ للتَّهويلِ، وكان التَّصريحُ أهوَلَ، أعاد الفاعلَ بلفْظِه فقال: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾[(١)].

- قولُه: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (ثُمَّ) حرفُ عَطفٍ للتَّرتيبِ مع التَّراخي؛ لِبُعْدِ ما بيْن النَّفختَينِ. ويَجوزُ أنْ تُفيدَ مع ذلك المُهلةَ المُناسِبةَ لِما بيْن النَّفختَينِ[(٢)].

- قولُه: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ إنَّما ذُكِرَتِ النَّفخةُ الأُخرَى في هذه الآيةِ، ولم تُذكَرْ في قولِه في سُورةِ (النَّمل): ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]؛ لأنَّ تِلك في غَرَضِ المَوعظةِ بفَناءِ الدُّنيا، وهذه الآيةَ في غَرَضِ عَظَمةِ شَأنِ اللهِ في يَومِ القِيامةِ، وكذلك وَصْفُ النَّفخةِ بالواحِدةِ في سُورةِ (الحاقَّة): ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣- ١٥]، وذُكِرَتْ هنا نَفختانِ[(٣)].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ ضَميرُ (هُمْ) عائدٌ على مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ فيما بَقيَ مِن مَفهومِه بعْدَ التَّخصيصِ بـ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، و(إذَا) للمُفاجأةِ؛ للتَّنبيهِ على سُرعةِ حُلولِ الحَياةِ فيهم، وقِيامِهم إثْرَه[(٤)].

- وجُملةُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ حالٌ، وفائدةُ هذه الحالِ الدَّلالةُ على أنَّهم حَيُوا حَياةً

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كاملةً لا غِشاوةَ معها على أبصارِهم، أي: لا دَهَشَ فيها[١]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ التَّعريفُ في الأرضِ تَعريفُ العَهدِ الذِّكريِّ الضِّمنيِّ؛ فقدْ تَضمَّنَ قولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] أنَّهم قِيامٌ على قَرارٍ؛ فإنَّ القِيامَ يَستَدعي مَكانًا تَقومُ فيه تلك الخَلائقُ، وهو أرضُ الحَشرِ، وليس المرادُ الأرضَ الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا؛ قال تعالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾[٢] [إبراهيم: ٤٨].

- قولُه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إضافةُ (رَبٍّ) إلى ضَميرِ الأرضِ لتَشريفِ المُضافِ إليه[٣]، وإضافةُ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالَى إلى شَيءٍ مُعَيَّنٍ تَقتَضي تَعظيمَ هذا الشَّيءِ[٤].

- وفي قَولِه: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ عَدَلَ الكَلامَ عن الاسمِ الأعظَمِ (الله) إلى صِفةِ الإحسانِ ﴿رَبِّهَا﴾؛ لغَلَبةِ الرَّحمةِ، لا سِيَّما في ذلك اليَومِ؛ فإنَّه لا يَدخُلُ أحَدٌ الجنَّةَ إلَّا بها[٥].

- وتعريفُ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ في قولِه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٥، ٦٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٦، ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦١).

وُضِعَتِ الكُتُبُ، وهي صَحائفُ أعْمالِ العِبادِ، أُحضِرَتْ للحِسابِ بما فيها مِن صالحٍ وسَيِّئٍ، وأُعطيَ كلُّ واحدٍ كِتابَه وصَحائفَ أعمالِه المُدَوَّنةَ فيها حَسناتُه أو سَيِّئاتُه، ووُحِّدَ على اسمِ الجنسِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ له كِتابٌ على حِدَةٍ. والوَضعُ: الحَطُّ، والمُرادُ به هنا: الإحضارُ، والآيةُ تَهديدٌ جاءَ في سِياقِ الخبَرِ[(١)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أيْ: جُوزِيَتْ على أعْمالِها جَزاءً مُكَمَّلًا، واللهُ أعلَمُ بما يَفعَلونَ؛ فلا يَحتاجُ إلى كاتِبٍ ولا شاهِدٍ، وفي ذلك وَعيدٌ وزِيادةُ تَهديدٍ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ مُضافٌ مَحذوفٌ، أي: جَزاءَ ما عَمِلَتْ؛ لظُهورِ أنَّ ما عَمِلَه المرءُ لا يُوَفَّاهُ بعْدَ أنْ عَمِلَه، وإنَّما يُوفَّى جَزاءَه[(٣)].

- وعُبِّر بالماضي في قولِه: ﴿وَأَشْرَقَتِ﴾، ﴿وَوُضِعَ﴾، ﴿وَجِاْيٓءَ﴾، ﴿وَوُفِّيَتْ﴾؛ لأنَّه مُحَقَّقُ الوُقوعِ[(٤)].

- قيل: في قَولِه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ احتِباكٌ[(٥)]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٣)، ((فتح الرحمن في تفسير القرآن)) للأنصاري (٦/ ٨٩)، ((روح البيان)) (٨/ ١٤٠) للخلوتي الحنفي، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٦٤- ٦٨).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٣٧).

فإنَّ ذِكرَ ﴿مَّا عَمِلَتۡ﴾ أولًا يدُلُّ على ما فَعَلت ثانيًا، وذِكرُ (ما يَفعَلون) ثانيًا يدُلُّ عليه ما يَفعَلونَ أوَّلًا، وسِرُّه أنَّ ما ذُكِر أوْفَقُ للمُرادِ مِن نفْيِ الظُّلمِ على حُكمِ الوَعدِ بالعدْلِ والفضلِ؛ لأنَّ فيه الجزاءَ على كلِّ ما بُنِي على عِلمٍ، وأمَّا المُشْتهَى فما ذكَر أنَّه يُجازَى عليه! بلِ اللهُ يَعلَمُه[1].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٤).

وقدْ فرَّق البِقاعيُّ بيْن العَملِ والفِعلِ هنا؛ فقال: (﴿مَّا عَمِلَتۡ﴾ أي: مِن الحَسناتِ، لذلك عبَّر بالعَملِ الذي لا يكونُ إلَّا مع العِلم... ﴿بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي: ممَّا عُمِل به بداعيةٍ مِن النفْسِ، سواءٌ كان مع مُراعاةِ العِلمِ أوْ لا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٦٤).

الآيتان (٧١-٧٢)

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَسِيقَ﴾: أي: وحُشِر، والسَّوْقُ يَقْتَضي الحثَّ على المَسيرِ بعُنْفٍ، وهو الغالبُ فيه[١].

﴿زُمَرًا﴾: أي: جَماعاتٍ وأفْواجًا مُتفرِّقةً، وأصلُ (زمر) هنا: يدُلُّ على جِنْسٍ مِن الأصواتِ، واشتُقَّت الزُّمرةُ -بمعْنى الجماعةِ- مِن هذا؛ لأنَّها إذا اجْتَمَعتْ كانَتْ لها جَلَبَةٌ[٢].

﴿حَقَّتۡ﴾: أي: وجَبَت، والحقُّ نَقيضُ الباطلِ، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ تعالَى مُبيِّنًا مَصيرَ الكافرينَ وما يَقولُه لهم خَزَنَةُ جَهنَّمَ: وسِيقَ الكُفَّارُ يَومَ القِيامةِ إلى جَهنَّمَ جَماعاتٍ مُتفرِّقةً، حتَّى إذا جاؤُوا جَهنَّمَ فُتِحَت لهم أبْوابُها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٧)، ((تفسير الطبري)) (٢٠/ ٢٦٥)، (مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٣).

السَّبعةُ، وقال لهمْ خَزَنَةُ جَهنَّمَ: ألمْ يَأتِكم رسُلٌ مِنكم يقرؤُونَ عليكمْ آياتِ رَبِّكم، ويُخَوِّفونَكم لِقاءَ يوْمِ القِيامةِ؟

قال الَّذين كَفَروا مُجيبينَ خَزَنَةَ جَهنَّمَ: بلَى! قدْ كان ذلك، ولكِنْ وَجَب عَذابُ اللهِ على الكافِرينَ. قيل لهمْ: ادخُلوا أبوابَ جَهنَّمَ ماكِثينَ فيها أبدًا؛ فبِئسَ مَقامُ المتكَبِّرينَ نارُ جَهنَّمَ!

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالَى أشياءَ مِن أحوالِ يومِ القِيامةِ على سَبيلِ الإجمالِ؛ بَيَّن بعْدُ كَيفيَّةَ أحوالِ الفَريقَينِ، وما أفضَى إليه كُلُّ واحدٍ مِنهما[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالَى حُكمَه بيْنَ عِبادِه الذينَ جمَعَهم في خَلْقِه ورِزقِه وتَدبيرِه، واجتِماعَهم في الدُّنيا، واجتِماعَهم في مَوقِفِ القِيامةِ؛ فرَّقَهم تعالَى عندَ جَزائِهم، كما افتَرَقوا في الدُّنيا بالإيمانِ والكُفرِ، والتَّقوى والفُجورِ[2].

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾.

أي: ويُساقُ الكُفَّارُ يوْمَ القِيامةِ إلى جَهنَّمَ جَماعاتٍ مُتفَرِّقةً[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، =

كما قال تعالَى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ٨٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾.

أي: حتَّى إذا بلَغَ الكُفَّارُ جهنَّمَ فُتِحَت لهمْ أبْوابُها السَّبعةُ فَجأةً فَوْرَ وُصولِهم[1].

قال تَعالَى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ

= ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٩).

قال الرسعني: (سَوْق الكفار: طردُهم إلى النَّارِ، وزجرُهم بأبلغِ ما يكونُ مِن العنفِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٧٩).

ممَّن اختار أنَّ معْنى ﴿زُمَرًا﴾: جَماعاتٌ متفرِّقةٌ: أبو عُبَيدة، وابنُ عطيَّةَ، وجلالُ الدِّين المحلِّي، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦).

قال السعديُّ: (ويُساقون إليها ﴿زُمَرًا﴾ أي: فِرَقًا مُتفرِّقةً، كلُّ زُمرةٍ معَ الزُّمْرةِ التي تُناسِبُ عَمَلَها، وتُشاكِلُ سَعْيَها، يَلعَنُ بَعضُهم بعضًا، ويَبرَأُ بَعضُهم من بعضٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

وقال ابنُ عاشورٍ: (إنَّما جُعِلوا زُمَرًا؛ لاختلافِ دَرَجاتِ كُفرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٩).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧٩-٤٨٠).

قيل: يُساقُ كُفَّارُ كُلِّ أمَّةٍ على حِدَةٍ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: مُقاتِلُ بنُ سُليمان، والثَّعلبيُّ، والبَغَويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨٠-٤٨١).

مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٣، ٤٤].

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾.

أي: وقال لهم خَزَنَةُ جَهنَّمَ القائِمونَ عليها، الموكَّلونَ بها: ألَمْ يَأتِكم رسُلٌ مِنكم(١) يقرؤُونَ عليكم آياتِ رَبِّكم التي أنْزَلَها إليكم(٢)؟

---

(١) قيل: المرادُ: مِن جِنسِكم البَشَريِّ. وممَّن قال بهذا المعنى: السَّمَرْقنديُّ، ومكِّيٌّ، وابنُ عطيَّةَ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، وأبو حيَّانَ، وابنُ كَثير. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨).

وعبَّر عن ذلك المعنى مُقاتلُ بن سُلَيمان، والواحديُّ، وابنُ الجَوْزيِّ، والبغويُّ، والشَّوكانيُّ؛ بقولِهم: مِن أنفُسِكم. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦).

وقيل: المرادُ: مِن قَومِكم، فتَعرِفونَ صِدْقَهم وأمانتَهم. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: القاسميُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٩٧).

قال ابنُ عُثَيمين: (يقولُ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، وهذا أبلَغُ مِن أن يُقالَ: مِن أنفُسِكم؛ فمُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قُرَيشٍ مِن بَني هاشِم، يَعرِفونَه ويَعرِفونَ أباه ويَعرِفونَ أجدادَه، ويَصِفونَه بالأمينِ ويَثِقونَ به... ولهذا قال تعالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]: مِن جِنسِهم؛ لأنَّ الرَّسولَ ليس مَلَكًا، وقال تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]؛ لأنَّه مِنَ العَرَبِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨١-٤٨٢).

وقال السعديُّ -والظاهرُ أنَّه جمَع بينَ القولَين-: (﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: مِن جِنسِكم تَعرِفونَهم، وتَعرِفونَ صِدقَهم، وتَتمكَّنونَ مِن التَّلقِّي عنهم؟). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨٠-٤٨٢).

﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾.

أي: ويُخَوِّفونَكم ويُحَذِّرونَكم شَرَّ يَومِ القِيامةِ، ومَصيرَكم إليه؛ فتَستَعِدُّوا له بالتَّقوى[1]؟

﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

أي: قال الذين كَفَروا مُجيبينَ خَزَنَةَ جَهنَّمَ: بلَى! قدْ أتَتْنا رسُلٌ مِنَّا يقرؤُونَ علينا وَحْيَ رَبِّنا، ويُنذِرونَنا يوْمَ القِيامةِ، ولكِنْ كذَّبْناهم، ووَجَبتْ كَلِمةُ العذابِ -في عِلمِ اللهِ السَّابقِ- على الكافِرينَ به وبآياتِه ورُسُلِه[2].

قال ابن عاشور: (التِّلاوةُ: قِراءةُ الرِّسالَةِ والكتابِ؛ لأنَّ القارِئَ يَتْلو بعضَ الكلامِ ببَعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٠).

وقال ابن كثير: (﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ ﴾ أيْ: يُقيمونَ عليكم الحُجَجَ والبراهينَ على صِحَّةِ ما دَعَوْكم إليه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨، ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨١-٤٨٢).

قيل: معنى ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: وجَبَت كَلِمةُ اللهِ أنَّ عَذابَه لأهلِ الكُفرِ به. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جَرير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

قال ابنُ كَثير: (﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: ولكنْ كذَّبْناهم وخَالَفْناهم؛ لِمَا سَبَق إلينا مِن الشِّقوةِ الَّتي كنَّا نَسْتَحِقُّها حيثُ عَدَلْنا عن الحقِّ إلى الباطلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٩).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (أي: الكَلِمةُ المُقتَضيةُ مِن اللهِ تعالَى تَخليدَهم في النَّارِ، وهي عِبارةٌ عن قَضائِه السَّابِقِ لهم بذلك، وهي التي في قَولِه تعالَى لإبليسَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٥]). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣). =

كما قال الله تعالَى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣- ١٠٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ * وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١١].

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: فيُقالُ لهم: ادْخُلوا أبوابَ جَهنَّمَ السَّبعةَ ماكِثينَ فيها أبدًا، لا يَنقَطِعُ عنكم

= وممَّن فسَّر الكلمةَ بقولِه تعالَى لإبليسَ في سُورةِ (ص): مُقاتلُ بنُ سُليمان، والثَّعلبيُّ، والسَّمعانيُّ، والكرمانيُّ، والبَغَويُّ، وأبو حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٨٢)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٢١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤).

قال الشِّنْقيطيُّ: (المرادُ بالكَلمةِ هو قولُه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، كما دلَّتْ على ذلك آياتٌ من كِتابِ اللهِ تعالى؛ كقَولِه تعالَى في آخِرِ سُورةِ «هودٍ»: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، وقولِه تعالَى في «السَّجدةِ»: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السَّجدةُ: ١٣]. وقولِه تعالى في أُخْرَياتِ «ص»: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤- ٨٥]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٧) بتصرف. ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦).

عَذابُها، ولا أنتمْ تُخرَجونَ منها[١].

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان سَببُ كُفرِهم بالآياتِ هو التَّكبُّرَ؛ قالوا لهم[٢]:

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

أي: فبِئْسَ المَقامُ والمُستقَرُّ للمُتكبِّرينَ عن الحَقِّ، نارُ جَهنَّمَ[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالَى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أنَّهم تكبَّروا عن الحَقِّ، فجازاهم اللهُ مِن جِنسِ عَمَلِهم بالإهانةِ والذُّلِّ والخِزْيِ[٤]، وفي ذلك التَّحذيرُ مِن الكِبْرِ؛ لئلَّا يكونَ الإنسانُ مِن أصحابِ النَّارِ، فالنَّارُ مَثْوَى أهلِ الكِبْرِ، وأمَّا أهلُ التَّواضُعِ فمَأْواهم الجنَّةُ؛ فالمتواضِعون للحَقِّ وللخَلْقِ هؤلاء في الجنَّةِ، والمتكبِّرون عن الحقِّ وعن الخَلْقِ هؤلاء مَثْواهم النَّارُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

قال السعديُّ: (كلُّ طائفةٍ تَدخُلُ مِن البابِ الذي يُناسِبُها ويُوافِقُ عَمَلَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٥).

وقال ابنُ عاشورٍ: (دخولُ البابِ: وُلوجُه لوُصولِ ما وراءَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٩٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أنَّ أبوابَ جَهنَّمَ لا تُفتحُ إلَّا إذا جاءَتْ هذه الزُّمَرُ، كسائرِ أبوابِ السُّجونِ؛ فإنَّها لا تَزالُ مُغْلقةً حتَّى يَأتِيَ أصحابُ الجرائمِ الذين يُسْجَنون فيها، فتُفتَحُ ثم تُغلَقُ عليهم[١].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ أنَّه لا وُجوبَ قَبْلَ مَجيءِ الشَّرعِ؛ لأنَّ الملائِكةَ بَيَّنوا أنَّه ما بَقِيَ لهم عِلَّةٌ ولا عُذرٌ بعْدَ مَجيءِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، ولو لم يكُنْ مَجيءُ الأنبياءِ شَرطًا في استِحقاقِ العَذابِ لَمَا بَقِيَ في هذا الكلامِ فائدةٌ[٢]؛ فالآيةُ دلَّتْ على أنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ إلَّا مَن أرْسَل إليه رَسولًا تَقومُ به الحُجَّةُ عليه، ودلَّ على ذلك أيضًا قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقولُه: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، إلى غيْرِ ذلك مِن النُّصوصِ[٣].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه قدْ أقامَ الحُجَّةَ على خَلْقِه برُسُلِه، وقال تعالَى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك: ٨، ٩]، إلى غيْرِ ذلك[٤].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ فيه تَمامُ الحُجَّةِ على بَني آدمَ بإرسالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٧٣٥).

الرُّسُلِ منهم؛ لأنَّهم لوْ كانوا مِن غيْرِ الجنسِ لم تَتِمَّ الحُجَّةُ، فإذا كانوا مِن الجِنسِ نَفْسِه، بلْ مِن القَبيلةِ نَفْسِها، تَمَّتِ الحُجَّةُ[١].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ أنَّ ما جاءتْ به الرُّسُلُ مِن الوحْيِ حُجَّةٌ مُلْزِمَةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى سَمَّاها آيَاتٍ، والآيةُ: العلامةُ المعَيِّنَةُ لِمَا دَلَّتْ عليه؛ فهي حُجَّةٌ مُلْزِمةٌ لكلِّ مَن سَمِعها[٢].

٦- اجتماعُ العذابِ القَلْبيِّ والبَدَنيِّ على أهلِ النَّارِ؛ أمَّا البَدَنيُّ فظاهِرٌ، وأمَّا القَلْبيُّ فما يَحْصُلُ لهم مِن التَّوبيخِ والتَّقريعِ، كما في قَولِه تعالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ...﴾، والتَّوبيخُ ليْس بالأمرِ الهَيِّنِ -لا سيَّما في مِثلِ هذا الحالِ-؛ لأنَّهم إذا ذُكِّروا بهذه النِّعمةِ في حالٍ لا يَتمكَّنونَ مِن استدراكِ ما فات، كان ذلك أشَدَّ حَسْرةً، والعِياذُ باللهِ[٣]!

٧- قولُه تعالَى: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ فيه أنَّه ما مِن رَسولٍ إلَّا وقدْ أتَى بكِتابٍ، ويُؤيِّدُ هذا قولُه سُبحانَه وتعالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقولُه تعالَى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، لكنَّنا لا نَعْلَمُ كلَّ كِتابٍ أُوتِيَه رَسولٌ! فالذي نَعْرِفُه: التَّوراةُ، والإنجيلُ، والزَّبُورُ، وصُحفُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والقُرآنُ[٤].

٨- قَولُه تعالَى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ فيه بَيانُ مُقتَضَى رُبوبيَّةِ اللهِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٥).

أنَّها رُبوبيَّةٌ مَبنيَّةٌ على الرَّحمةِ، فلوْ أنَّ اللهَ تعالَى تَرَكَنا هَمَلًا، لم تكُنْ رُبوبيَّتُه تامَّةً، لكِنَّه سُبحانَه وتعالَى لم يَترُكْنا هَمَلًا، بلْ أرسَلَ إلينا الرُّسُلَ؛ فتَمَّتْ بذلك الرُّبوبيَّةُ التي كان مُقتضاها هِدايةَ الخَلْقِ(١).

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أنَّ جميعَ أهلِ النَّارِ قدْ أنْذَرَتْهم الرُّسلُ في دارِ الدُّنيا؛ فعَصَوْا أمْرَ ربِّهم(٢)؛ فـ﴿بَلَىٰ﴾ حرْفُ جَوابٍ لإثباتِ النَّفيِ المُصَدَّرِ بالاستفهامِ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾، وأفاد إقرارَ المُكَذِّبين في ذلك اليومِ إقرارًا كاملًا(٣).

١٠- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ سُؤالٌ: أنَّ في هذه الآيةِ وأمثالِها أنَّهم لَمَّا سُئِلوا اعترَفوا وأقَرُّوا بما كانوا فيه، وأخْبَروا بالواقعِ، وأيضًا في القُرآنِ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على إنكارِهم وحَلِفِهم على الإنكارِ، كقَولِه عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]! فهذه الآياتُ تدُلُّ على إنكارِهم لِما جاؤوا به مِن الكُفرِ، وتلك تدُلُّ على إقرارِهم!

والجوابُ: أنَّه قدْ سُئِلَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما عن ذلِك، فأجاب: أنَّهم إذا رأَوا أنَّ أهلَ الشِّركِ لا خَلاصَ لهم، قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فعِندَ ذلك يَختِمُ اللهُ على ألْسِنتِهم، وتَشهَدُ أيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يَكسِبونَ(٤)،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨٦).

(٤) عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: (جاء رجُلٌ إلى ابنِ عبَّاسٍ، فقال: أشْياءُ تَختلِفُ علَيَّ في القُرآنِ، فقال: ما هو؟ أشَكٌّ في القُرآنِ؟! قال: ليس بالشَّكِّ، ولكنَّه اخْتِلافٌ. قال: فهاتِ ما اختلَفَ عليكَ مِن ذلك. قال: أسمَعُ اللهَ يقولُ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]؛ فقدْ كَتَموا. فقال ابنُ عبَّاسٍ: أمَّا قولُه: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعامُ: ٢٣]؛ فإنَّهم لمَّا رَأَوْا يومَ القِيامةِ أنَّ اللهَ =

قال تعالَى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]... فهذه الأسرارُ التي تُقالُ ويُفصِحُ عنها إنَّما هي لأيْديهم وألسِنَتِهم وجُلودِهم، كما قال تعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[1] [فصلت: ٢٢].

وأيضًا فإنَّ يوْمَ القِيامةِ يومٌ طويلٌ، والأحوالُ فيه مُختلِفةٌ؛ فتارةً يُقِرُّونَ، وأُخرَى يَجْحَدونَ، وذلك يدُلُّ على شِدَّةِ خَوفِهم، واضطرابِ أحوالِهم؛ فإنَّ مَن عَظُمَ خَوفُه كَثُرَ الاضطرابُ في كَلامِه[2].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ تَنفيذٌ للقَضاءِ الذي جاء في قولِه: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقولِه: ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ [الزمر: ٧٠]؛ فإنَّ عاقِبةَ ذلك ونَتيجتَه إيداعُ المُجْرمينَ في العِقابِ، وإيداعُ الصَّالحينَ في دارِ الثَّوابِ. وابتُدِئَ في الخبَرِ بذِكرِ مُستحقِّي العِقابِ؛

= يَغفِرُ لأهْلِ الإسْلام، ويَغفِرُ الذُّنوبَ، ولا يَغفِرُ شِركًا، ولا يَتعاظَمُه ذَنْبٌ أنْ يَغفِرَه؛ جحَدَ المُشرِكونَ فقالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾؛ رَجاءَ أنْ يَغفِرَ لهم، فختَم على أفْواهِهم، وتكلَّمَتْ أيْديهم وأرجُلُهم بما كانوا يَعمَلونَ، فعِندَ ذلك ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]. أخرَجَه عبدُ الرَّزَّاقِ في ((تفسيره)) (١/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ومن طريقِه ابنُ جَرير في ((تفسيره)) (٧/ ٤٣).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٥، ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥١).

لأنَّه الأهمُّ في هذا المقامِ؛ إذْ هو مَقامُ إعادةِ الموعظةِ والتَّرهيبِ للذين لم يَتَّعِظوا بما تَكرَّرَ في القُرآنِ مِن العِظاتِ مِثلِ هذه، فأمَّا أهلُ الثَّوابِ فقدْ حصَلَ المقصودُ منهم، فما يُذكَرُ عنهم فإنَّما هو تَكريرُ بِشارةٍ وثَناءٍ(١).

- قولُه: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ جَوابُ ﴿إِذَا﴾، وأغْنى ذِكرُ ﴿إِذَا﴾ عن الإتيانِ بـ (لمَّا) التَّوقيتيَّةِ، والتَّقديرُ: فلمَّا جاؤوها فُتِحَت أبوابُها، أي: وكانتْ مُغلقةً؛ لِتُفتَحَ في وُجوهِهم حِين مَجيئِهم فَجْأةً تَهويلًا ورُعْبًا(٢).

- قولُه: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ قُرِئَ ﴿فُتِّحَتْ﴾ بتَشديدِ التَّاءِ(٣)؛ للمُبالَغةِ في الفتْحِ(٤).

- والاستفهامُ الموجَّهُ مِن خَزَنةِ جَهنَّمَ إلى أهلِ النَّارِ في قولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ استفهامٌ تَقريريٌّ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والزَّجْرِ والتَّقريعِ، كما دلَّ عليه قولُهم بعْدَه: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، و﴿مِّنكُمْ﴾ صِفةٌ لـ ﴿رُسُلٌ﴾، والمقصودُ مِن الوَصْفِ التَّورُّكُ عليهم؛ لأنَّهم كانوا يَقولون: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾(٥) [القمر: ٢٤].

- وفي قولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ أُسْنِدَت التِّلاوةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٨، ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٩).

(٣) قرَأ عاصمٌ وحمْزةُ والكِسائيُّ وخَلَف بالتخفيفِ هنا وفي الآيةِ (٧٣)، وقرَأ الباقونَ بالتَّشديدِ فيهما. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٢٥)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٠).

إلى جَميعِ الرُّسلِ وإنْ كان فيهم مَن ليْس له كِتابٌ، على طَريقةِ التَّغليبِ[١].

- وأُضِيف اليوْمُ إليهم في قولِه: ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؛ لأنَّ المرادَ لِقاءُ وقْتِكم هذا، وهو وقْتُ دُخولِهم النَّارَ، لا يومُ القِيامةِ، واستِعمالُ لفْظِ اليومِ والأيَّامِ في أوقاتِ الشِّدَّةِ مُستفيضٌ[٢].

- قولُه: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لم يُعطَفْ فِعلُ ﴿قَالُواْ﴾ على ما قبْلَه؛ لأنَّه جاء في مَعرِضِ المقاوَلةِ في المُحاوَراتِ[٣].

- مَحلُّ الاستِدراكِ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هو ما طُوِيَ في الكلامِ ممَّا اقْتَضى أنْ تَحِقَّ عليهم كَلِماتُ الوَعيدِ؛ وذلك بإعراضِهم عن الإصغاءِ لأمْرِ الرُّسلِ، فالتَّقديرُ: ولكنْ تَكبَّرْنا وعانَدْنا، فحَقَّتْ كَلِمةُ العذابِ على الكافرينَ[٤].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: علينا؛ فوُضِعَ الظَّاهرُ مَوضعَ الضَّميرِ، فصرَّحوا بالوصْفِ المُوجِبِ لهمُ العِقابَ، وللدَّلالةِ على اختِصاصِ ذلك بالكَفَرةِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٠).

- قولُه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ فيه إبهامُ القائلِ؛ لِتَهويلِ المَقُولِ[١].

وقيل: حُذِف الفاعلُ في قولِه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ كأنَّ الكونَ كلَّه نطَق بذلك وقالَه لهم، حتَّى تقولَه أعضاؤُهم وأرواحُهم وأرضُهم وسَماؤُهم[٢]، وكلُّ مَن رآهم وعَلِم حالَهم يَشهَدُ عليهم بأنَّهم مُستحِقُّون للعَذابِ؛ ولهذا لم يُسنِدْ هذا القولَ إلى قائلٍ معيَّنٍ، بلْ أطْلَقه؛ لِيدُلَّ على أنَّ الكونَ شاهدٌ عليهم بأنَّهم مُستحِقُّونَ ما همْ فيه بما حكَم العدْلُ الخبيرُ عليهمْ به[٣]. وقيل: عبَّر بالمبنيِّ للمفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّهم وصَلوا إلى أقصَى ما يكونُ مِن الذُّلِّ؛ بحيثُ إنَّهم يَمتثِلونَ قوْلَ كلِّ قائلٍ جَلَّ أو قَلَّ[٤]!

- والمَخصوصُ بالذَّمِّ في قولِه: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ مَحذوفٌ، دلَّ عليه ما قبْلَه، والتَّقديرُ: بِئسَ مَثوَى المتكبِّرين جَهنَّمُ، ووُصِفوا بالمتكبِّرين؛ لأنَّهم أعْرَضوا عن قَبولِ الإسلامِ تَكبُّرًا عن أنْ يَتَّبِعوا واحِدًا منْهم[٥].

- وفي الآيةِ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ فتحتَ قَوْلِ خَزَنةِ النَّارِ لأهْلِها: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، وقَوْلِ خَزَنةِ الجنَّةِ لأهلِها: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ سِرٌّ لَطيفٌ ومعْنًى بَديعٌ لا يَخفَى على المتأمِّلِ، وهو أنَّها لَمَّا كانتْ النَّارُ دارَ العُقوبةِ، وأبوابُها أفظَعَ شَيءٍ، وأشَدَّه حَرًّا، وأعظَمَه غمًّا، يَستَقبِلُ فيها الدَّاخِلُ مِن العذابِ ما هو أشَدُّ منها، ويَدْنو مِن الغَمِّ والخِزْيِ والحُزنِ والكَرْبِ بدُخولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٦٤-٦٥)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١).

الأبوابِ، فقِيلَ: ادخُلوا أبوابَها؛ صَغارًا لهم، وإذلالًا وخِزيًا، ثمَّ قيل لهم: لا يَقتَصِرْ بكمْ على مُجرَّدِ دُخولِ الأبوابِ الفَظيعةِ، ولكِنْ وَراءَها الخُلودُ في النَّارِ. وأمَّا الجنَّةُ فهي دارُ الكَرامةِ، والمَنزِلُ الذي أعَدَّه اللهُ لأوليائِه؛ فبُشِّروا مِن أوَّلِ وَهْلةٍ بالدُّخولِ إلى المقاعِدِ والمنازِلِ والخُلودِ فيها[1].

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٣).

الآيات (٧٢-٧٥)

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَتَبَوَّأُ﴾: أي: نَنزِلُ ونَسكُنُ، وأصلُ (بوأ): يدُلُّ على رُجوعٍ إلى شَيءٍ[1].

﴿فَنِعْمَ﴾: نِعْمَ: كَلِمةٌ تُستعمَلُ في المدحِ، وهي مُقابِلُ (بِئْسَ) التي للذَّمِّ[2].

﴿حَآفِّينَ﴾: أي: مُحيطينَ ومُطيفِينَ بحافَتَيهِ، وأصلُ (حفف): يدُلُّ على إطافةِ شَيءٍ بشَيءٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى مَصيرَ المتَّقينَ، وما يَقولونَه عِندَما يَرَونَ النَّعيمَ المقيمَ الذي أعَدَّه لهم، فيَقولُ: وسِيقَ الذين اتَّقَوا رَبَّهم إلى الجنَّةِ أفْواجًا وجَماعاتٍ، حتَّى إذا جاؤُوا الجنَّةَ، وفُتِحَت لهم أبْوابُها، وقال خَزَنةُ الجنَّةِ للمُتَّقِينَ: تَحيَّةٌ وأمَنَةٌ مِنَ اللهِ لكم، طِبتُم، فادخُلوا الجنَّةَ، ماكِثينَ فيها أبدًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٥).

وقال المتَّقون: الحَمدُ للهِ وَحْدَه الذي حَقَّق لنا ما وعَدَنا به، وملَّكَنا أرضَ الجنَّةِ نتَّخِذُ منها سَكنًا حيثُ نُحِبُّ، ونَنزِلُ في أيِّ مَكانٍ شِئْناه منها؛ فنِعمَ ثَوابُ العامِلينَ الجنَّةُ!

وترَى الملائِكةَ مُحيطِينَ بعَرشِ الرَّحمنِ يُنزِّهون ربَّهم مِن كُلِّ العُيوبِ والنَّقائِصِ تَنزيهًا مُقترِنًا بحَمدِه تعالَى، وحَكَم اللهُ بيْن عِبادِه بالعَدلِ التَّامِّ. وقيل: الحَمدُ لله رَبِّ العالَمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح سُبحانَه أحوالَ أهلِ العِقابِ في الآيةِ المتقَدِّمةِ؛ شَرَح أحوالَ أهلِ الثَّوابِ في هذه الآيةِ، فقال[1]:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ﴾.

أي: ويُساقُ يوْمَ القِيامةِ الذين اتَّقَوا رَبَّهم بامتِثالِ ما أمَرَ واجتِنابِ ما نهَى: إلى الجنَّةِ أفواجًا وجَماعاتٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٥، ٢٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦، ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

قال الرسعني: (سوقُ المتقينَ: سوقُ مراكبِهم إسراعًا بهم إلى ما أُعِدَّ لهم مِن الكرامةِ في الجنَّةِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٧٩).

وقال ابنُ كثيرٍ: (﴿زُمَرًا﴾ أي: جَماعةً بعدَ جماعةٍ: المقرَّبون، ثمَّ الأبرارُ، ثمَّ الذين يَلُونَهم، =

كما قال تعالَى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ [مريم: ٨٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ أوَّلَ زُمرةٍ يَدخُلونَ الجنَّةَ على صُورةِ القَمرِ ليلةَ البدْرِ، والذين يَلونَهم على أشَدِّ كَوكبٍ دُرِّيٍّ[١] في السَّماءِ إضاءةً؛ لا يَبولون، ولا يَتغوَّطون، ولا يَمتَخِطونَ، ولا يَتْفُلونَ، أمشاطُهم الذَّهَبُ، ورَشْحُهم[٢] المِسكُ، ومَجامِرُهم الأَلُوَّةُ[٣]، وأزواجُهم الحُورُ العِينُ، أخلاقُهم على خُلُقِ رجُلٍ واحدٍ[٤]، على صُورةِ أبيهم آدمَ؛ سِتُّونَ ذِراعًا في السَّماءِ))[٥].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾.

أي: حتَّى إذا بلَغَ المتَّقونَ الجنَّةَ، وفُتِحت لهمْ أبوابُها[٦].

= ثمَّ الذين يَلُونَهم، كلُّ طائفةٍ مع مَن يُناسِبُهم: الأنبياءُ مع الأنبياءِ، والصِّدِّيقونَ مع أشكالِهم، والشُّهداءُ مع أضرابِهم، والعُلَماءُ مع أقرانِهم، وكُلُّ صِنفٍ مع صِنفٍ، كُلُّ زُمرةٍ تُناسِبُ بَعضُها بعضًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٩).

(١) دُرِّيٍّ: أي: مُضيءٍ مُتلالِئٍ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥).

(٢) رَشْحُهم: أي: عَرَقُهم. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٣٢١).

(٣) مَجامِرُهم الأَلُوَّةُ: المجامِرُ: جَمعُ مِجمَرةٍ، وهي المِبخَرةُ، سُمِّيَت مِجمَرةً لأنَّها يُوضَعُ فيها الجَمرُ لِيَفوحَ به ما يُوضَعُ فيها مِنَ البَخورِ، والأَلُوَّةُ: العُودُ الهِنديُّ، جُعِلَت مَجامِرُهم نَفْسَ العُودِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٧٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٢٤).

(٤) على خُلُقِ رجُلٍ واحدٍ: رُوِيَ (خُلُق) بضَمِّ الخاءِ واللَّام، أي: أنَّهم على قَلبٍ واحِدٍ، أخلاقُهم مُتساويةٌ في الحُسنِ والكَمالِ، ورُوِي (خَلْق): بفَتحِ الخاء وتَسكينِ اللَّام، أي: أنَّهم في سِنٍّ واحدةٍ، مُتشابِهونَ فيما بيْنهم في الخِلْقةِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٧٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٥٨١)، ((الكوكب الوهاج)) للهرري (٢٥/ ٤٩٤).

(٥) رواه البخاري (٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤) واللفظ له.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١، ٧٢). =

عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى عليه وسلَّم قال: ((ما

= اختلَف المفسِّرون في جَوابِ ﴿إِذَا﴾ في هذه الآيةِ؛ فقيل: مَحذوفٌ، تَقديرُه: دَخَلوها. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جَرير، والزَّجَّاج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٦٤).

وقيل: المحذوفُ تقديرُه: سَعِدوا وطابوا، وسُرُّوا وفَرِحوا. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢١).

وعلى هذينِ الوَجهَينِ فتكونُ الجملةُ مِنْ قَولِه: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ في مَحلِّ نصْبٍ على الحالِ.

وقيل: الواوُ للعَطفِ على الجوابِ المحذوفِ، تَقديرُه: حتى إذا جاؤُوها هُذِّبوا ونُقُّوا وفُتِحَت أبوابُها. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٩٨).

وقيل: جوابُ ﴿إِذَا﴾ قَولُه: ﴿وَفُتِحَتْ﴾، والواوُ زائدةٌ، وهو رأيُ الكوفيِّينَ والأخفَشِ. أو الجوابُ قَولُه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ على زِيادةِ الواوِ أيضًا، أي: حتى إذا جاؤُوها قال لهم خَزَنَتُها. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٤٧).

قال القُرطبيُّ: (قد قيل: إنَّ زِيادةَ الواوِ دَليلٌ على أنَّ الأبوابَ فُتِحَت لهم قبْل أنْ يأتُوا؛ لكَرامتِهم على اللهِ تعالى، والتَّقديرُ: حتى إذا جاؤوها وأبوابُها مُفتَّحةٌ؛ بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠]، وحُذِفت الواوُ في قِصَّةِ أهلِ النَّارِ؛ لأنَّهم وَقَفوا على النَّارِ وفُتِحَت بعْد وُقوفِهم؛ إذلالًا وتَرويعًا لهم. ذكَره المهْدويُّ، وحكَى معناه النحَّاسُ قَبْلَه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٥). ويُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٧، ١٨)، ((تفسير المهدوي)) (٥/ ٥٣٩).

وقال ابنُ عُثَيمين: (دعْوَى أنَّ أبوابَها فُتِحت قبْلَ مَجيئِهم دَعوى لا يُسعِفُها الدَّليلُ؛ بل الدليلُ على خِلافِها؛ لأنَّهم إذا جاؤوها لا يَجدونها مَفتوحةً، بل يَجدونَها مُغْلقةً، ثم يَشفَعُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن تُفتَح الأبوابُ لأهلِها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٠١).

وقيل: إنَّ هذه واوٌ تُسمَّى (واوَ الثَّمانيةِ) تَدخُلُ على ما هو ثامِنٌ: إمَّا لأنَّه ثامِنٌ في التَّعدادِ، نَحوُ قَولِه تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢]؛ فإنَّه الوَصفُ الثَّامِنُ في التَّعدادِ، وإمَّا لأنَّ فيه مادةَ ثمانيةٍ، كقَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، فقالوا في ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾: جيءَ بالواوِ؛ لأنَّ أبوابَ الجنَّةِ ثمانيةٌ. يُنظر ما قيل في هذه (الواو): ((مغني اللبيب)) لابن هشام الأنصاري (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٢).

مِنكم مِن أحدٍ يَتوضَّأُ فيَبلُغُ -أو فيُسبِغُ- الوُضوءَ، ثمَّ يقولُ: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا عَبدُ اللهِ ورَسولُه؛ إلَّا فُتِحَت له أبوابُ الجنَّةِ الثَّمانيةُ، يَدخُلُ مِن أيِّها شاءَ))[١].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((في الجنَّةِ ثَمانيةُ أبوابٍ، فيها بابٌ يُسمَّى الرَّيَّانَ، لا يَدخُلُه إلَّا الصَّائِمونَ))[٢].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((آتِي بابَ الجنَّةِ يوْمَ القِيامةِ فأستفتِحُ، فيَقولُ الخازِنُ: مَن أنت؟ فأقولُ: مُحمَّدٌ، فيقولُ: بك أُمِرتُ لا أفتَحُ لأحدٍ قَبْلَك))[٣].

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: وقال خَزَنَةُ الجَنَّةِ المُوكَّلونَ بها للمُتَّقينَ: تَحيَّةٌ وأمَنَةٌ مِنَ اللهِ لكم، فلا يَنالُكم شَرٌّ ولا مَكروهٌ[٤].

﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

أي: طابَت أعْمالُكم وأقْوالُكم، فصَلَحْتُم لِسُكنى الجنَّةِ، فادخُلوها ماكِثينَ فيها أبدًا[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٣٤).

(٢) رواه البخاري (٣٢٥٧) واللفظ له، ومسلِم (١١٥٢).

(٣) رواه مسلم (١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٦)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٩٩).

قال ابنُ عُثَيمين: (هذا خبَرٌ وليس دُعاءً، فيما يَظهَرُ... فكأنَّها تُخبِرُهم بأنَّهم حَلَّ عليهم السَّلامُ؛ لأنَّ الجنَّةَ هي دارُ السَّلامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٧)، ((زاد =

قال تعالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

= المعاد)) لابن القيم (١/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٢، ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

في قولِه تعالى: ﴿ طِبْتُمْ ﴾ أقْوالٌ؛ منها: طابَ لكمُ المُقامُ، قاله ابنُ عبَّاسٍ.

ومنها: طِبْتُم بطاعةِ اللهِ، قاله مُجاهِدٌ.

ومنها: أنَّهم طُيِّبوا قَبْلَ دُخولِ الجنَّةِ بالمَغْفرةِ، واقتُصَّ من بَعْضِهم لِبَعضٍ، فلمَّا هُذِّبوا قالت لهمُ الخَزَنةُ: طِبْتُم، قاله قَتادةُ. واقْتِصاصُ بَعضِهم من بَعضٍ وتَهْذيبُهم قبْلَ دُخولِ الجنَّةِ ورَد فيه حَديثُ أبي سَعيدٍ عندَ البُخاريِّ (٦٥٣٥).

ومنها: كُنْتم طيِّبينَ في الدُّنْيا، قاله الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجَوزي)) (٤/ ٢٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٣٦٤).

ممَّن اخْتارَ أنَّ المرادَ: طابَ لكمُ المُقامُ: العُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير العُليمي)) (٦/ ٩٢).

وممَّن اخْتار في الجُملةِ أنَّ المرادَ: طِبْتم من دَنَسِ المعاصي، وطَهُرتم مِن خَبَثِ الخَطايا: الرازيُّ، والرَّسْعَنيُّ، والبيضاويُّ، والشَّوكانيُّ، والقاسِميُّ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٠)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨٨).

قال السعديُّ: (﴿ طِبْتُمْ ﴾؛ أي: طابَت قُلوبُكم بمَعرفةِ اللهِ ومَحبَّتِه وخَشيَتِه، وألسِنَتُكم بذِكْرِه، وجَوارِحُكم بطاعَتِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

وممَّن اخْتار أنَّ المرادَ: طَابَتْ أعْمَالُكم في الدُّنيا، فطَابَ اليَومَ مَثوَاكُم: ابنُ جَريرٍ، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٣٩٠).

قال ابنُ كَثيرٍ: (وقولُه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾: أي: طابَتْ أعْمالُكم وأقْوالُكم، وطابَ سَعْيُكم فطابَ جَزاؤُكم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٢).

وممَّن اخْتار أنَّ المرادَ ﴿ طِبْتُمْ ﴾: أي أعْمالًا، ومُعتَقدًا، ومُستَقرًّا، وجَزاءً: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٥).

وسلَّم: ((يَخلُصُ المؤمِنونَ مِن النَّارِ، فيُحبَسُون على قَنطرةٍ[١] بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيُقَصُّ[٢] لِبَعضِهم مِن بَعضٍ مَظالِمُ كانت بيْنَهم في الدُّنيا، حتَّى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دُخولِ الجنَّةِ؛ فوالَّذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لَأحَدُهم أَهدَى بمَنزِلِه في الجنَّةِ منه بمَنزِلِه كان في الدُّنيا))[٣].

وعن عبْدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((الجنَّةُ لا يَدخُلُها إلَّا نَفْسٌ مُسلِمةٌ))[٤].

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾.

أي: وقال المُتَّقونَ: الحَمدُ للهِ وَحْدَه الذي حَقَّق لنا ما وعَدَنا مِنَ الثَّوابِ على طاعتِه في الدُّنيا، فأنجَزَه لنا في الآخِرةِ[٥].

كما قال تعالَى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

---

(١) القَنطرةُ: الجسْرُ، وهي عبارةٌ عن الصِّراطِ الممدودِ بيْنَ الجنةِ والنارِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٥٢٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٦٢).

(٢) فيُقَصُّ: أي: يُمكَّنُ صاحِبُ الحَقِّ مِن أخْذِ القِصاصِ، وهو أنْ يَفعلَ به مِثلَ فِعلِه؛ مِن قتْلٍ، أو قَطعٍ، أو ضرْبٍ، أو جرْحٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٧٢).

(٣) رواه البخاري (٦٥٣٥).

(٤) رواه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٩).

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ * ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُ﴾.

أي: وملَّكَنا اللهُ أرضَ الجنَّةِ[1] نَسكُنُ منها حيثُ نُحِبُّ ونَشْتَهي، ونَنزِلُ في

(١) قال الماوَرْديُّ: (في هذه الأرضِ قَوْلانِ؛ أحَدُهما: أرضُ الجنَّةِ...، الثاني: أرضُ الدُّنْيا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٨).

ممَّن اخْتار القولَ الأوَّلَ: مُقاتِلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والثَّعْلبيُّ، والسَّمْعانيُّ، وابنُ عَطيَّةَ، وابنُ الجَوْزيِّ، والرازيُّ، وابنُ جُزَيٍّ، والسعديُّ، وغَيرُهم، ونسَبَه الماوَرْديُّ لأكثَرِ المُفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ -في رِوايةِ عَطاءٍ-، وأبو العاليةِ، وأبو صالحٍ، وقَتادةُ، ومُجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ، وسَعيدُ بنُ جُبيرٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٣).

لكنْ قال ابنُ عُثَيْمين: (وهذا التَّفسيرُ يَرِدُ عليه أمْرانِ:

الأمرُ الأوَّلُ: أنَّ الأرضَ إذا أُطلِقَت فهي الأرضُ المقابلةُ للسَّماءِ، وهي أرضُنا هذه.

الأمرُ الثَّاني: أنَّه تعالَى قال: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، وكان مُقْتَضى السِّياقِ إذا كانتِ الأرضُ هي الجنَّةَ أنْ يُقالَ: (وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ نَشَاءُ)، فلا يَأْتي بالظَّاهِرِ؛ لأنَّ الظَّاهرَ في هذا المكانِ لا مَعْنى له). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الزمر)) (ص: ٥٠٦).

قال الواحِديُّ: (ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه قال: يَعني الدُّنْيا تَصيرُ للمؤمِنينَ مِن هذه الأمَّةِ، وهذا حُكمٌ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ بإظْهارِ الدِّينِ وقَهرِ الكافِرينَ). ((البسيط)) (١٥/ ٢٢٨).

وممَّن اخْتار أنَّ المرادَ بالأرضِ هنا المقابِلةُ للسَّماءِ: ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الزمر)) (ص: ٥٠٦). =

أيِّ مَكانٍ شِئْناه منها، فأينَ شِئْنا حَلَلْنا[(١)].

كما قال تعالَى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:

= وذكَر أنَّ (أل) هنا للعَهدِ، وأنَّ مَعنى الإيراثِ -على القولِ بأنَّها أرضُ الدُّنيا- هو ما يَسْتَولي عليه المسلِمونَ مِن أراضي الكُفَّارِ، وإيراثٌ آخَرُ: أنَّ وُجودَهم على الأرضِ بحقٍّ، ووجودَ الكُفَّارِ بغَيرِ حقٍّ، لكنَّ اللهَ أبْقاهُم لحِكْمةٍ. يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٠٦، ٥٠٧).

واستَبعَدَ أبو حيَّانَ القولَ بأنَّها أرضُ الدُّنْيا، وقال الألوسيُّ: (ليس بشَيءٍ). يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

قيل: معْنى وِراثةِ الجَنَّة: أنَّ أهلَها أخَذوا فيها المواضعَ التي كانت لأهلِ النار لو كانوا آمَنوا وأطاعوا اللهَ في الدُّنيا. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جَرير، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ جُزَي، والعُليمي، ونسَبه القُرطبيُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٧).

وقيل: معْنى (أَوْرَثْنَا): ملَّكَنا نَتَصَرَّفُ فيها كما نشاءُ، تَشبيهًا بحالِ الوارثِ وتَصَرُّفِه فيما يَرِثُه. وممَّن اختار هذا المعنى: الخازنُ، وأبو حيَّانَ، والنَّسفيُّ. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٩٥).

قال البِقاعيُّ: (جعَل حالَنا فيها في تَمامِ الملكِ، وعدَمِ التسبُّبِ في الحقيقةِ فيه حالَ الوارثِ الذي هو بعْدَ مَوروثِه، ولا شَيءَ بعْدَه، ولا مُنازِعَ له). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٧٠).

وقيل غيرُ ذلك في سَببِ التعبيرِ بالإرثِ هنا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٠).

((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومَنزِلٌ في النَّارِ، فإذا مات فدَخَل النَّارَ وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذلك قَولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]))[١].

﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾.

أي: فنِعْمَ ثَوابُ العامِلينَ بطاعةِ اللهِ في الدُّنيا: نَعيمُ الجنَّةِ في الآخِرةِ[٢].

﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥﴾.

﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾.

أي: وتَرى يا مُحمَّدُ[٣] الملائِكةَ مُحيطينَ بعَرشِ الرَّحمنِ[٤].

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

(٣) قال الألوسي: (الخِطابُ لسَيِّد المُخاطَبين صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجُوِّز أنْ يكونَ لكُلِّ مَن تَصِحُّ منه الرُّؤيةُ، كأنَّه قيل: وتَرى -أيُّها الرَّائي- الملائِكةَ حافِّينَ مِن حَولِ العَرشِ، أي: حولَ العَرشِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).
وقال ابنُ عاشورٍ: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيكونُ إيذانًا بأنَّها رُؤيةُ دُنُوٍّ مِن العَرشِ وملائكتِه، وذلك تَكريمٌ له بأنْ يكونَ قدْ حَواه مَوكِبُ الملائكةِ الذين حَولَ العَرشِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٧)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٣٦٢).
قال البقاعيُّ: (فإدخالُ ﴿مِنۡ﴾ يُفهِمُ أنَّهم مع كَثرتِهم إلى حَدٍّ لا يُحصيه إلَّا اللهُ: لا يَملَؤونَ ما حَولَه!). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٧١).

أي: يُنَزِّهون ربَّهم عن كُلِّ العُيوبِ والنَّقائِصِ تَنزيهًا مُقترِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ؛ مَحبَّةً له وتَعظيمًا[1].

كما قال تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧].

﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: وحَكَم اللهُ بيْنَ عِبادِه بالعَدلِ التَّامِّ[2].

﴿وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ويُقالُ: الحَمدُ للهِ تعالى وَحْدَه الخالِقِ المالِكِ، الرَّازِقِ المُدَبِّرِ لجَميعِ الخلائِقِ[3].

كما قال تعالَى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۞

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

قال الشَّوكانيُّ: (﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بيْنَ العبادِ بإدخالِ بعضِهم الجنَّةَ، وبعضِهم النَّارَ، وقيل: بيْنَ النَّبيينَ الذين جِيءَ بهم معَ الشهداءِ وبيْنَ أُممِهم بالحقِّ، وقيل: بيْنَ الملائكةِ بإقامتِهم في مَنازِلِهم على حسبِ درجاتِهم، والأوَّلُ أولَى). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥١٦).

وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۚ﴾ إغراءُ النُّفُوسِ على العَمَلِ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تَبيَّنَ له الفَرقُ العظيمُ والتَّبايُنُ الكبيرُ بيْنَ أهلِ النَّارِ وأهلِ الجنَّةِ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ عِندَه ما يَحُثُّه ويُزعِجُه إزعاجًا إلى العَمَلِ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ[1].

٢- حَرَّم اللهُ سُبحانَه الجنَّةَ على مَن في قَلبِه نَجاسةٌ وخُبثٌ، ولا يَدخُلُها إلَّا بعْد طِيبِه وطُهْرِه؛ فإنَّها دارُ الطَّيِّبينَ؛ ولهذا يُقالُ لهم: ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، أي: ادخُلوها بسَبَبِ طِيبِكم، والبِشارةُ عندَ الموتِ لهؤلاء دونَ غَيرِهم، كما قال تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]؛ فالجنَّةُ لا يَدخُلُها خَبيثٌ، ولا مَن فيه شَيءٌ مِن الخُبْثِ؛ فمَن تَطهَّرَ في الدُّنيا، ولَقِيَ اللهَ طاهِرًا مِن نَجاساتِه؛ دخَلَها بغيرِ مُعَوِّقٍ، ومَن لم يَتطهَّرْ في الدُّنيا؛ فإنْ كانت نَجاستُه عَينيَّةً -كالكافِرِ- لم يَدخُلْها بحالٍ، وإنْ كانت نجاستُه كَسبيَّةً عارِضةً دَخَلها بعْدَما يَتطَهَّرُ في النَّارِ مِن تلك النَّجاسةِ، ثمَّ يَخرُجُ منها، حتَّى إنَّ أهلَ الإيمانِ إذا جازُوا الصِّراطَ حُبِسوا على قَنطرةٍ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيُهَذَّبونَ ويُنَقَّونَ مِن بَقايا بَقِيَت عليهم، قَصَرَتْ بهم عن الجنَّةِ، ولم تُوجِبْ لهم دُخولَ النَّارِ، حتَّى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دُخولِ الجنَّةِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ فيه أنَّ التَّقْوى سَببٌ لدُخولِ الجنَّةِ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ تَرتيبَ الحُكْمِ على الوَصفِ يدُلُّ على عِلِّيَّتِه؛ يعني: إذا رُتِّبَ الحُكْمُ على وَصْفٍ دَلَّ ذلك على أنَّ هذا الوصفَ هو عِلَّةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٥٦).

الحُكْم، فالسِّياقُ إلى الجنَّةِ هو بسَببِ التَّقوَى؛ إذنْ: تُفيدُ الآيةُ أنَّ التَّقْوى سَببٌ لدُخولِ الجنَّةِ؛ ويُؤيِّدُ هذا قولُه تعالَى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾[1] [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ وكذا: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧١]، هذه الآياتُ وَصَفَت مَصيرَ أهلِ الكُفرِ، ومَصيرَ المتَّقينَ يومَ الحَشرِ، وسكَتَت عن مَصيرِ أهلِ المعاصي الذين لم يَلتَحِقوا بالمتَّقين بالتَّوبةِ مِن الكبائِرِ، وغُفرانِ الصَّغائِرِ باجتِنابِ الكَبائِرِ، وهذه عادةُ القُرآنِ في الإعراضِ عن وَصْفِ رِجالٍ مِن الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ بمَعصيةِ رَبِّهم إلَّا عندَ الاقتِضاءِ لِبَيانِ الأحكامِ؛ فإنَّ الكبائِرَ مِن أمْرِ الجاهليَّةِ. فما كان لأهلِ الإسلامِ أنْ يَقَعوا فيها، فإذا وَقَعوا فيها فعليْهم بالتَّوبةِ، فإذا ماتُوا غيْرَ تائِبينَ فإنَّ اللهَ تعالَى يُحصِي لهم حَسَناتِ أعمالِهم، وطَيِّباتِ نَواياهم، فيُقاصُّهم بها إنْ شاء، ثمَّ هم فيما دونَ ذلك يَقتَرِبونَ مِن العِقابِ بمِقدارِ اقترابِهم مِن حالِ أهلِ الكُفرِ في وَفْرةِ المعاصي، فيُؤمَرُ بهم إلى النَّارِ، أو إلى الجنَّةِ، ومنهم أهلُ الأعرافِ[2].

٣- في قَولِه تعالَى عن الجنَّةِ: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ وكذا عن النار: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]؛ دَليلٌ على أنَّ النَّارَ والجنَّةَ لهما أبوابٌ تُفتَحُ وتُغلَقُ، وأنَّ لكلٍّ منهما خَزَنةً، وهما الدَّارانِ الخالصتانِ اللَّتانِ لا يَدخُلُ فيهما إلَّا مَن استَحقَّهما؛ بخِلافِ سائرِ الأمكنةِ والدُّورِ[3].

٤- قال تعالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

قال خَزَنَةُ أهْلِ الجنَّةِ لأهْلِها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾، فبَدؤوهُم بالسَّلام المتضَمِّنِ للسَّلامةِ مِن كلِّ شَرٍّ ومَكْروهٍ؛ أي: سَلِمتُم فلا يَلحَقُكم بعْدَ اليوم ما تَكرَهونَ، ثمَّ قال لهم: ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾؛ أي: سَلامَتُكم ودُخولُها بطِيبِكُم؛ فإنَّ اللهَ حرَّمَها إلَّا على الطَّيِّبينَ، فبَشَّروهم بالسَّلامةِ، والطِّيبِ، والدُّخولِ، والخُلودِ[1].

٥- قال تعالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، فالجنَّةُ دارُ الطَّيِّبينَ، لا يَدخُلُها إلَّا طيِّبٌ، وأمَّا النَّارُ فإنَّها دارُ الخُبثِ في الأقْوالِ، والأعْمالِ، والمآكِلِ، والمشارِبِ، ودارُ الخَبيثينَ؛ فاللهُ تعالَى يَجمَعُ الخَبيثَ بَعضَه إلى بَعضٍ، فيَركُمُه[2] كما يُركَمُ الشَّيءُ لتَراكُبِ بَعضِه على بَعضٍ، ثمَّ يَجعَلُه في جَهنَّمَ معَ أهْلِه، فليْس فيها إلَّا خَبيثٌ.

ولَمَّا كان النَّاسُ على ثَلاثِ طبَقاتٍ: طيِّبٌ لا يَشينُه خَبيثٌ، وخَبيثٌ لا طيِّبَ فيه، وآخَرونَ فيهم خُبثٌ وطِيبٌ، دُورُهم ثَلاثةٌ: دارُ الطَّيِّبِ المحْضِ، ودارُ الخَبيثِ المحْضِ، وهاتانِ الدَّارانِ لا تَفْنَيانِ، ودارٌ لمَن معَه خُبثٌ وطِيبٌ، وهي الدَّارُ الَّتي تَفْنى، وهي دارُ العُصاةِ؛ فإنَّه لا يَبْقي في جَهنَّمَ مِن عُصاةِ الموَحِّدينَ أحَدٌ؛ فإنَّه إذا عُذِّبوا بقَدْرِ جَزائِهم أُخرِجوا مِن النَّارِ فأُدخِلوا الجنَّةَ، ولا يَبْقى إلَّا دارُ الطِّيبِ المحْضِ، ودارُ الخُبثِ المحْضِ[3].

٦- أنَّ أهلَ الجنَّةِ في مَنازِلِهم لا يُريدونَ غيْرَها؛ لقولِه تعالَى: ﴿حَيۡثُ نَشَآءُ﴾، وهذا مِن تَمامِ النَّعيمِ؛ لأنَّ الإنسانَ لو تَطَلَّعَ إلى مَنازِلِ غيْرِه، لَرَأى أنَّه لم يَكْمُلْ له النَّعيمُ، يقولُ مثلًا: فلانٌ أحسنُ منِّي قصْرًا! فلانٌ أكثرُ منِّي مالًا! فيَتَنَغَّصُ عليه

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٥٣).
(٢) رَكَم الشَّيءَ: إذا جَمَعه وألْقَى بعضَه على بعضٍ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٠).
(٣) يُنظر: ((الوابل الصيب من الكلم الطيب)) لابن القيم (ص: ٢٠).

النَّعيمُ، لكنْ إذا رأى أنَّه في المكانِ الذي يَشاؤُه، ولا يُريدُ التَّحَوُّلَ عنه؛ فإنَّ هذا مِن كَمالِ النَّعيمِ، قال اللهُ تعالَى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾[1] [الكهف: ١٠٨].

٧- قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ في قَولِه تعالَى: ﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ بَيانُ مِنَّةِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى بالجَزاءِ؛ حيثُ جَعَله أجْرًا، وكأنَّه أجرٌ مَفْروضٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أرادوا بـ«العامِلينَ» أنفُسَهم -أي: عامِلِي الخَيرِ- وهذا مِن التَّصريحِ بالحَقائِقِ، وليس فيه عَيْبُ تَزكيةِ النَّفسِ؛ لأنَّ ذلك العالَمَ عالَمُ الحقائِقِ الكامِلةِ المجَرَّدةِ عن شَوبِ النَّقائِصِ[3].

٩- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ ذكَرَ هنا أنَّ الملائكةَ تَحُفُّ مِن حَولِ العَرشِ، وذكَرَ في مَوضِعٍ آخَرَ أنَّ له حَمَلةً، فقال: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وجَمَع في مَوضِعٍ ثالثٍ بيْنَ حَمَلتِه ومَن حَولَه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥١١).

قال الألوسيُّ: (﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾: أي: يَتبوَّأُ كلٌّ منَّا في أيِّ مكانٍ أرادَه مِن جنَّتِه الواسِعةِ، لا أنَّ كلًّا منهم يَتبوَّأُ في أيِّ مكانٍ من مُطلَقِ الجنَّةِ، أو مِن جنَّاتِ غَيرِه المُعيَّنةِ لذلك الغَيرِ، فلا يُقالُ: إنَّه يَلزَمُ جَوازُ تَبوُّءِ الجَميعِ في مكانٍ واحدٍ وَحْدةً حَقيقةً، وهو مُحالٌ، أو أنْ يأخُذَ أحَدُهم جنَّةَ غَيرِه، وهو غَيرُ مُرادٍ.

وقيلَ: الكَلامُ على ظاهِرِه، ولكلٍّ منهم أنْ يَتبوَّأَ في أيِّ مكانٍ شاء مِن مُطلَقِ الجنَّةِ، ومن جنَّاتِ غَيرِه، إلَّا أنَّه لا يَشاءُ غيْرَ مَكانِه؛ لسَلامةِ نفْسِه، وعِصْمةِ اللهِ تعالى له عن تلك المَشيئةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٣).

وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[(١)] [غافر: ٧].

١٠- في قَولِه تعالَى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بيانُ أنَّ اللهَ تعالَى يَختِمُ الأمورَ بالحَمدِ، كقَولِه تعالَى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، وكقَولِه تعالَى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٢)] [يونس: ١٠].

١١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل: إنَّ اللهَ تعالَى ابتَدأَ ذِكرَ الخَلقِ بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في قَولِه سُبحانَه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، وخَتَم بالحَمدِ في آخِرِ الأمرِ، وهو استِقرارُ الفَريقَينِ في مَنازِلِهم؛ فنَبَّه بذلك على تَحميدِه في بِدايةِ كُلِّ أمرٍ وخاتِمتِه. واللهُ أعلَمُ بمُرادِه وأسرارِ كِتابِه[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ في قولِه: ﴿وَسِيقَ﴾ -بالنِّسبةِ لأهلِ النَّارِ وأهلِ الجنَّةِ؛ إذ عُبِّرَ عن الذَّهابِ بالفَريقينِ جَميعًا بلَفظٍ واحدٍ-: نَوعُ بَلاغةٍ دَقيقُ المسلَكِ؛ وهو أنْ يأتيَ المتكلِّمُ بكلمةٍ واحدةٍ، فتكونُ تارةً دالَّةً على الهَوانِ والعِقابِ، ثمَّ يأْتي بها ثانيةً، فتكونُ دالَّةً على الإكرامِ وحُسْنِ الثَّوابِ، والمرادُ بسَوقِ أهلِ النَّارِ طَرْدُهم إليها بالهَوانِ

(١) يُنظر: ((الرسالة العرشية)) لابن تيمية (ص: ٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦٥).

والعُنْفِ كما يُفعَلُ بالأَسارَى والخارجينَ على السُّلطانِ إذا سِيقوا إلى حَبْسٍ أو قتْلٍ. والمرادُ بسَوقِ أهْلِ الجنَّةِ مَساقُ إعزازٍ وتَشريفٍ؛ للإسراعِ بهم إلى دارِ الكَرامةِ، وقيل: سَوقُ مَراكِبِهم؛ لأنَّه لا يُذهَبُ بهم إلَّا راكبينَ، وحَثُّها إسراعًا إلى دارِ الكرامةِ والرِّضوانِ، كما يُفعَلُ بمَن يُشرَّفُ ويُكرَّمُ مِن الوافدينَ على بَعضِ الملوكِ؛ فشتَّانَ ما بيْنَ السَّوقينِ![1]

- وأيضًا اختيارُ لَفظِ (السَّوقِ)، وبِناءُ الفِعلِ للمَفعولِ؛ لِلدَّلالةِ على عَظَمةِ الكِبْرياءِ والجَلالِ، ولِتُوافِقَ ما خُتِم به الكلامُ بما بُدِئَ به؛ ألَا تَرَى كيف قِيل: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾؟ فكما أنَّ ذلك المَجيءَ لا يدُلُّ على فَضْلِهم وكَرامتِهم، بلْ على الكِبْرياءِ والجَلالِ، وكذلك هذا السَّوقُ. ويُمكِنُ أنْ يُجْرى على المشاكَلةِ؛ فإنَّه لَمَّا نُسِبَ السَّوقُ إلى الكفَّارِ، وانضمَّ معه مَقامُ الجَبروتِ والكِبْرياءِ، قِيل: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾[2].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قال في أهلِ النَّارِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]، وقال هنا في أهلِ الجنَّةِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ بزيادة الواوِ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ أهلَ النَّارِ بمُجرَّدِ وُصولِهم إليها فُتِحَت لهمْ أبوابُها مِن غيرِ إنظارٍ ولا إمهالٍ، ولِيَكونَ فتْحُها في وُجوهِهم وعلى وُصولِهم أعظَمَ لِحَرِّها، وأشدَّ لِعَذابِها، وأمَّا الجنَّةُ؛ فإنَّها الدَّارُ العاليةُ الغاليةُ، التي لا يُوصَلُ إليها، ولا يَنالُها كلُّ أحدٍ إلَّا مَن أتَى بالوَسائلِ الموصِلةِ إليها، ومع ذلك فيَحتاجون لِدُخولِها لِشَفاعةِ أكرَمِ الشُّفعاءِ على اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٤٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٥١).
وقد انتقَدَ الطِّيبيُّ هذا القولَ الثانيَ. يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤٨).

تعالَى؛ فلمْ تُفتَحْ لهمْ بمُجرَّدِ ما وَصَلوا إليها، بلْ يَسْتشفِعون إلى اللهِ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى يَشفَعَ؛ فيُشفِّعُه اللهُ تعالَى[١]. وقيل: إنَّها واوُ الحالِ، أي: جاؤوها وقدْ فُتِحَت أبوابُها قبْلَ مَجيئِهم، بخِلافِ أبوابِ النَّارِ؛ فإنَّها إنَّما فُتِحَت عندَ مَجيئِهم، والسِّرُّ في ذلك: أنْ يَتعجَّلوا الفرَحَ والسُّرورَ إذا رأَوا الأبوابَ مُفتَّحةً، وأهلُ النَّارِ يَأْتونها وأبوابُها مُغلَقةٌ؛ لِيَكونَ أشدَّ لِحَرِّها، أو أنَّ الوقوفَ على البابِ المغلَقِ نَوعُ ذُلٍّ وهَوانٍ؛ فصِينَ أهْلُ الجنَّةِ عنه، أو أنَّ الكريمَ يُعجِّلُ المثوبةَ ويُؤخِّرُ العُقوبةَ، أو اعتُبِرَ في ذلك عادةُ دارِ الدُّنيا؛ لأنَّ عادةَ مَن في مَنازِلِها مِن الخدَمِ إذا بُشِّروا بقُدومِ أهْلِ المنازِلِ؛ فتْحُ أبوابِها قبْلَ مَجيئِهم -استبشارًا وتطلُّعًا إليهم-، وعادةَ أهلِ الحُبوسِ إذا شُدِّدَ في أمْرِها؛ ألَّا تُفتَحَ أبوابُها إلَّا عندَ الدُّخولِ إليها أو الخروجِ[٢]. أو فُتِحتْ أبوابُها؛ إكرامًا لهم -قبْلَ وُصولِهم- إليها بنفْسِ الفتْحِ وبما يَخرُجُ إليهم مِن رائحتِها، ويرَوْنَ مِن زَهْرتِها وبَهْجتِها[٣]. وقيل غيرُ ذلك في زِيادةِ الواوِ[٤].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ ﴿إِذَا﴾ ظَرْفُ مُسْتقبَلٍ مُتضمِّنٌ معْنى الشَّرْطِ، وجُملةُ ﴿جَآءُوهَا﴾ في مَحلِّ جَرٍّ بإضافةِ الظَّرْفِ إليها، وجَوابُها هنا مَحذوفٌ -على قوْلٍ-؛ لأنَّه في صِفَةِ أهْلِ الجنَّةِ؛ فدَلَّ بحَذْفِه على أنَّه شَيءٌ لا يُكتَنَهُ، ولا يُحيطُ به الوصْفُ، كأنَّه قِيل: حصَلوا على النَّعيمِ المقيمِ الذي لا يَشوبُه التَّنغيصُ والتَّكديرُ، وإنَّما صار الحذْفُ في مِثلِ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١، ٧٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٨).

(٤) ويُنظر ما تقدَّم في حاشية تفسير الآية (ص: ٤٥٩).

أبلَغَ مِن الذِّكرِ؛ للإيذانِ بأنَّ لهم حِينئذٍ مِن فُنونِ الكراماتِ ما لا يَحدِقُ به نِطاقُ العباراتِ، فتَذهَبُ النَّفْسُ فيه كلَّ مَذهَبٍ، ولو ذُكِرَ الجوابُ لَقصُرَ عن الوجْهِ الذي تَضمَّنَه البَيانُ[1]، فحُذِف؛ تَفخيمًا لِشأنِه وتَعظيمًا لقَدْرِه؛ كعادتِهم في حذْفِ الأجوبةِ[2].

- وهذه الآياتُ السَّابقةُ مِن بابِ الجمْعِ معَ التَّقسيمِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ [الزمر: ٧٠] جمَعَ الأنفُسَ كلَّها في حُكمِ تَوفيةِ أُجورِ الأعْمالِ صالحِها وسَيِّئِها. وقولَه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وقولَه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ إلى آخرِ الآياتِ؛ تَقسيمٌ لذلك الجمْعِ، وتَفصيلٌ لذلك المُجمَلِ، وقدْ أُوثِرَ فيهما ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ على الكافرينَ والمتَّقِين؛ لِيَدُلَّ على العُمومِ[3].

- قولُه: ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ عقَّبَ دُخولَها على الطِّيبِ بحَرفِ الفاءِ الَّذي يؤْذِنُ بأنَّه سَببٌ للدُّخولِ؛ أي: بسَببِ طِيبِكم، قيلَ لكمُ: ادْخُلوها[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ ...﴾ عطْفُ هذا الكلامِ يُؤذِنُ بأنَّ قولَهم ذلك غيْرُ جَوابٍ لِقَولِ الملائكةِ، بلْ حَمِدوا اللهَ على ما منَحَهم مِن النَّعيمِ الذي وَعَدَهم به، وإنَّما وعَدَهم به بعُنوانِ الأعمالِ الصَّالحةِ، فلمَّا كانوا أصحابَ الأعمالِ الصَّالحةِ، جَعَلوا وَعْدَ العامِلينَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((الوابل الصيب من الكلم الطيب)) لابن القيم (ص: ٢٠).

للصَّالحاتِ وَعْدًا لهم؛ لِتَحقُّقِ المعلَّقِ عليه الوعدُ فيهم[١].

- قولُه: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ والأصلُ هو «فنِعْم أجْرُنا»، ولكنَّه قال: ﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ تَرْغيبًا في الأعمالِ، وحثًّا على عدَمِ الاتِّكالِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ...﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِوَصفِ الملائكةِ المقرَّبينَ في ذلِك اليوم. أو هو عَطْفٌ على ما قبْلَه مِن ذِكرِ أحوالِ يوْمِ القِيامةِ التي عُطِفَ بعضُها على بعضٍ؛ ابتداءً مِن قولِه: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨]، أنَّ مِن جُملةِ تلك الأحوالِ حَفَّ الملائكةِ حوْلَ العرْشِ. والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فيكونُ إيذانًا بأنَّها رُؤيةُ دُنوٍّ مِن العرْشِ ومَلائكتِه، وذلك تَكريمٌ له بأنْ يكونَ قدْ حَواهُ مَوكبُ الملائكةِ الذين حوْلَ العرْشِ[٣].

- وفي استِحضارِ اللهِ تعالَى بوَصْفِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ قُرْبَهم مِن العرْشِ تَرفيعٌ في مَقامِ العُبوديَّةِ الملازِمةِ للخلائقِ[٤].

- قولُه: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ تَأْكيدٌ لِجُملةِ ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩] المتقدِّمةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ تَوكيدًا لِجُملةِ ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، ويجوزُ أنْ يكونَ حِكايةَ قولٍ آخَرَ لِقائلينَ مِن الملائكةِ والرُّسلِ وأهْلِ الجنَّةِ؛ فهو أعمُّ مِن القولِ المتقدِّمِ الذي هو قوْلُ المَسُوقينَ إلى الجنَّةِ مِن المتَّقينَ، فهذا قوْلُهم يَحمَدون اللهَ على عَدْلِ قَضائِه وجَميعِ صِفاتِ كَمالِه[1].

- قَولُه: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حُذِفَ فاعِلُ القَولِ؛ إشعارًا بالعُموم، وأنَّ الكونَ كلَّه قال: «الحَمدُ للهِ ربِّ العالَمين»؛ لِمَا شاهَدوا مِن حِكمةِ الحَقِّ وعَدْلِه وفَضْلِه؛ فيَحمَدُه أهلُ السَّمواتِ وأهلُ الأرضِ، والأبرارُ والفُجَّارُ، والإنسُ والجِنُّ، حتَّى أهلُ النَّارِ، قال الحسنُ: (لقدْ دخَلوا النَّارَ وإنَّ حمْدَه لَفي قُلوبِهم، ما وجَدوا عليه سبيلًا)[2].

وقيل: لم يُبَيِّنْ أنَّ ذلك القائِلَ مَن هو؟! والمقصودُ مِن هذا الإبهامِ التَّنبيهُ على أنَّ خاتِمةَ كَلامِ العُقَلاءِ في الثَّناءِ على حَضرةِ الجَلالِ والكِبرياءِ ليْس إلَّا أنْ يَقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وتَأكَّدَ هذا بقَولِه تعالَى في صِفةِ أهلِ الجنَّةِ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3] [يونس: ١٠].

- والمَقْضيُّ بيْنهم إمَّا جميعُ العِبادِ، وإمَّا الملائكةُ بإقامتِهم في مَنازِلِهم على حسَبِ تَفاضُلِهم؛ فعلَى الأوَّلِ تكريرُ الحمْدِ في قولِه: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لإناطةِ معنًى زائدٍ به؛ لأنَّ الأوَّلَ للتَّفضلةِ بيْن الفريقينِ بحسَبِ الوعْدِ والوعيدِ، والسَّخطِ والرِّضوانِ، والثَّاني للتَّفرقةِ بيْنهما بحسَبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٦٢)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٦٤-٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨١).

الأبدانِ: فَريقٌ في الجنَّةِ، وفَريقٌ في السَّعيرِ، فتكونُ الآيةُ كالتَّتميمِ بالنِّسبةِ إلى الأُولى في إتمامِ القضاءِ، وعلى الثَّاني كالتَّكميلِ؛ لأنَّ ذلك القضاءَ في حقِّ بني آدَمَ، وهذا في حقِّ الملائكةِ[١].

- وقد تميَّزَ خِتامُ سُورةِ الزُّمَرِ بذِكرِ أحوالِ القِيامةِ والتَّحميدِ والتَّسبيحِ، كما تَميَّزَ بالجَزالةِ في اللَّفظِ، والمرادُ بالجَزالةِ كوْنُ اللَّفظِ مَتينًا قويًّا، على عُذوبةٍ في الفَمِ، وحَلاوةِ جَرْسِه في السَّمْعِ، ولو تأمَّلَ المتأمِّلُ قَوارعَ القُرآنِ عندَ ذِكرِ الحِسابِ والعذابِ، والميزانِ والصِّراطِ، وعندَ ذِكرِ الموتِ ومُفارَقةِ الدُّنيا، وما جَرى هذا المَجْرى؛ فإنَّه لا يَرى شيئًا مِن ذلك وَحْشِيَّ الألْفاظِ، ولا مُتوعِّرًا مُوغِلًا في الجَساوةِ والنُّبوِّ[٢].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ التَّاسعُ والعشرونَ

ويليه المجلدُ الثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ غافِرٍ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤٩، ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٤٥٠).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ الزُّمَرِ ١٣
أسماءُ السُّورةِ ١٣
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ١٣
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ١٤
موضوعاتُ السُّورةِ ١٤
الآيات (١-٤) ١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١٦
المعنى الإجماليُّ ١٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٥
بلاغةُ الآياتِ ٣٤
الآيتان (٥-٦) ٤٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٧
المعنى الإجماليُّ ٤٧
تَفسيرُ الآيتينِ ٤٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٦
بلاغةُ الآيتينِ ٦١

الآيتان (٧-٨) ٧١
غَريبُ الكَلِماتِ ٧١
المعنى الإجماليُّ ٧٢
تَفسيرُ الآيتَينِ ٧٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٨٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٨٢
بلاغةُ الآيتَينِ ٨٧
الآيتان (٩-١٠) ٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٩٤
المعنى الإجماليُّ ٩٥
تَفسيرُ الآيتَينِ ٩٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٠٦
بلاغةُ الآيتَينِ ١١٠
الآيات (١١-١٦) ١٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ ١٢٤
مُشكِلُ الإعرابِ ١٢٤
المعنى الإجماليُّ ١٢٤
تَفسيرُ الآياتِ ١٢٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٣٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٣٣
بلاغةُ الآياتِ ١٣٧

الآيات (١٧-٢٠) ١٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١٤٦
المعنى الإجماليُّ ١٤٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٤٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥٩
بلاغةُ الآياتِ ١٦٣
الآيات (٢١-٢٣) ١٧٥
غَريبُ الكَلِماتِ ١٧٥
مُشكِلُ الإعرابِ ١٧٦
المعنى الإجماليُّ ١٧٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٧٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٨٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩٠
بلاغةُ الآياتِ ١٩٦
الآيات (٢٤-٢٦) ٢١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٢١٦
المعنى الإجماليُّ ٢١٦
تَفسيرُ الآياتِ ٢١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٢٠
بلاغةُ الآياتِ ٢٢٠
الآيات (٢٧-٣١) ٢٢٦

غَريبُ الكَلِماتِ ٢٢٦
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٢٧
المعنى الإجماليُّ ٢٢٧
تَفسيرُ الآياتِ ٢٢٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٣٦
بلاغةُ الآياتِ ٢٤٠
الآيات (٣٢-٣٥) ٢٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٤٨
المعنى الإجماليُّ ٢٤٨
تَفسيرُ الآياتِ ٢٤٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٥٩
بلاغةُ الآياتِ ٢٦٥
الآيات (٣٦-٤١) ٢٧٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٧٥
المعنى الإجماليُّ ٢٧٦
تَفسيرُ الآياتِ ٢٧٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٨٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩٠
بلاغةُ الآياتِ ٢٩٣
الآيات (٤٢-٤٥) ٣٠٨

غَريبُ الكَلِماتِ ٣٠٨
المعنى الإجماليُّ ٣٠٩
تَفسيرُ الآياتِ ٣٠٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣١٨
بلاغةُ الآياتِ ٣٢٣
الآيات (٤٦-٤٨) ٣٣٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٣٢
المعنى الإجماليُّ ٣٣٣
تَفسيرُ الآياتِ ٣٣٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٣٨
بلاغةُ الآياتِ ٣٤١
الآيات (٤٩-٥٢) ٣٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٤٨
المعنى الإجماليُّ ٣٤٩
تَفسيرُ الآياتِ ٣٤٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٥٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٥٥
بلاغةُ الآياتِ ٣٥٧
الآيات (٥٣-٥٩) ٣٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٦٣

المعنى الإجماليُّ ٣٦٥
تَفسيرُ الآياتِ ٣٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٧٦
بلاغةُ الآياتِ ٣٨٣
الآيات (٦٠-٦٦) ٣٩٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٩٣
المعنى الإجماليُّ ٣٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ٣٩٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٠٥
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٠٦
بلاغةُ الآياتِ ٤١١
الآيات (٦٧-٧٠) ٤٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٢٤
المعنى الإجماليُّ ٤٢٥
تَفسيرُ الآياتِ ٤٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٣٨
بلاغةُ الآياتِ ٤٤١
الآيتان (٧١-٧٢) ٤٤٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٤٧
المعنى الإجماليُّ ٤٤٧

تَفسيرُ الآيتينِ ٤٤٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٥٤
بلاغةُ الآيتينِ ٤٥٧
الآيات (٧٣-٧٥) ٤٦٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٦٢
المعنى الإجماليُّ ٤٦٢
تَفسيرُ الآياتِ ٤٦٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٧٣
بلاغةُ الآياتِ ٤٧٧
الفهرس ٤٨٥

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة غافر

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثلاثون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة غافر)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد الثلاثون – سورة غافر / القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٢ هـ

٤٣٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٠-٩٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – سورة غافر – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/١٠٣٣٨

رقم الإيداع: ١٤٤٢/١٠٣٣٨

ردمك: ٠-٩٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة غافر)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثلاثون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ غافِرٍ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ غافرٍ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: غافرٍ[١]، وسُورةِ المُؤمِنِ[٢].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

سورةُ غافرٍ هي أوَّلُ السُّوَرِ السَّبْعِ الَّتي تَبدَأُ بقَولِه تعالى: ﴿حمٓ﴾، ويُطلَقُ على هذه السُّورِ (الحواميم)[٣].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ غافرٍ مَكِّيَّةٌ[٤]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٥].

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بهذا الاسمِ؛ لذِكْرِه في أوَّلِها؛ قال ابنُ عاشور: (تُسمَّى سورةَ غافرٍ؛ لذِكرِ وَصْفِه تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾[غافر: ٣] في أوَّلِها، وبهذا الاسمِ اشتَهَرتْ في مَصاحفِ المغربِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٥).

(٢) سُمِّيَت بهذا الاسمِ؛ لاشتِمالِها على حديثِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٩).

قال ابنُ عاشور: (وبذلك اشتَهَرت في مصاحفِ المَشرقِ، وبذلك تَرجَمها البخاريُّ في «صحيحِه»، والتِّرمذيُّ في «الجامعِ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٥). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٢٦)، ((سنن الترمذي)) (٥/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ٢٥٥).

والحواميم هي: (غافر)، و(فصلت)، و(الشورى)، و(الزخرف)، و(الدخان)، و(الجاثية)، و(الأحقاف)، ويقالُ لها أيضًا: (ذوات حم)، و(آل حم). يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٩٠٧)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٢٢٤).

(٤) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلاَّ آيَتَينِ منها نزلَتَا بالمدينةِ، وهما: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ...﴾[غافر: ٥٦]، والَّتي بعْدَها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٤١).

(٥) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٣٢).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

إبطالُ جَدَلِ الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ[(١)].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- افتِتاحُ السُّورةِ بالثَّناءِ على اللهِ تعالى.

٢- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا لَقِيَه مِن المُشرِكينَ.

٣- بيانُ وظيفةِ الملائِكةِ الَّذين يَحمِلونَ العَرشَ، وأنَّ منها الاستِغفارَ للمُؤمِنينَ، والدُّعاءَ لهم.

٤- دَعوةُ العِبادِ إلى إخلاصِ الطَّاعةِ له، وتَذكيرُهم بأهوالِ يومِ القيامةِ، وأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٠).

قال الألوسي نقلًا عن القَزْويني في ((الكشف)): (... ولو تُؤمِّلَ في هذه السُّورةِ الكريمةِ حقَّ التَّأمُّلِ، وُجِد جُلُّ الكلامِ فيها مبنيًّا على ردِّ المُجادِلينَ في آياتِ الله المُشتمِلةِ على التَّوحيدِ والبعثِ، وتبيينِ وجْهِ الرَّدِّ في ذلك بفنونٍ مختلِفةٍ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٤).

وقال ابنُ عاشور: (إذ كان مِن أوَّلِها قَولُه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، وتكَرَّر ذلك خَمْسَ مرَّاتٍ فيها؛ فنَبَّه على إبطالِ جِدالِهم في مُناسَباتِ الإبطالِ كُلِّها؛ إذ ابتُدِئَ بإبطالِه على الإجمالِ عَقِبَ الآياتِ الثَّلاثِ مِن أوَّلِها بقَولِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، ثمَّ بإبطالِه بقَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٣٥]، ثمَّ بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ [غافر: ٥٦]، ثمَّ بقَولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩]، وذلك كُلُّه إيماءٌ إلى أنَّ الباعِثَ لهم على المجادَلةِ في آياتِ اللهِ هو ما اشتمَلَ عليه القرآنُ مِن إبطالِ الشِّركِ؛ فلذلك أعقَبَ كُلَّ طريقةٍ مِن طرائقِ إبطالِ شِرْكِهم بالإنحاءِ على جِدالِهم في آياتِ اللهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٠).

المُلْكَ في هذا اليومِ لله وَحْدَه.

٥- ذِكرُ جانبٍ مِن قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ مع فِرعَونَ وهامانَ وقارونَ، وما وَعَظ به الرَّجُلُ المؤمِنُ مِن آلِ فِرعَونَ قَومَه.

٦- حِكايةُ جانبٍ مِن المُحاوَراتِ الَّتي تَدورُ بيْنَ الضُّعَفاءِ والمتكَبِّرينَ في النَّارِ، وما يَقولونَه لِخَزَنةِ جَهنَّمَ.

٧- التَّنبيهُ على دَلائلِ تفرُّدِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ إجمالًا، وإبطالُ عبادةِ ما يَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ.

٨- ذِكرُ ألوانٍ مِن نِعَمِ اللهِ على النَّاسِ؛ لكي يَشكُروه عليها.

٩- الحَديثُ عن الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ بغيرِ عِلمٍ، وتوبيخُهم وتهديدُهم بسُوءِ المصيرِ، وأمْرُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على أذاهم، مع تذكيرِه بأحوالِ الرُّسُلِ السَّابِقينَ مع أقوامِهم.

١٠- إنذارُ مُشرِكي مكَّةَ بأنَّ مَصيرَهم سيَكونُ كمَصيرِ مَن قَبْلَهم مِمَّن أشرك، وذلك في حالِ بقائِهم على كُفرِهم، وأنَّهم إذا نزَل بهم عذابُ اللهِ فلن يَنفَعَهم الإيمانُ حينَئذٍ.

الآيات (١-٢)

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلتَّوۡبِ﴾: أي: التَّوبةِ، وهو مصدرُ تابَ يَتوبُ، والتَّوبُ: ترْكُ الذَّنْبِ على أجمَلِ الوُجوهِ، وقيلَ: التَّوبُ جمعُ تَوبةٍ، وأصلُ (توب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[1].

﴿ٱلطَّوۡلِ﴾: أي: القُدرةِ والغِنى والفَضلِ، وأصلُ (طول): يدُلُّ على فَضلٍ وامتِدادٍ في شَيءٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

بدأت هذه السُّورةُ الكريمةُ بقَولِه تعالى: ﴿حمٓ﴾، المشتمِلِ على حرفَينِ مِن الحُروفِ المُقَطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القُرآنِ؛ وذلك للإشارةِ إلى إعجازِه، ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ هذا القُرآنَ الكريمَ تَنزيلٌ مِن عندِ اللهِ العزيزِ، العَليمِ، غافِرِ ذُنوبِ عبادِه، وقابِلِ تَوبةِ التَّائبينَ، شَديدِ العِقابِ، ذي الفَضلِ والإنعامِ الواسِعِ، لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا هو وَحْدَه دونَ ما سِواه، وإليه وَحْدَه مَرجِعُ العبادِ، فيُجازيهم بأعمالِهم؛ خَيرِها وشَرِّها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥١).

قال البِقاعي: (جَعْلُه اسمَ جِنسٍ كأخَواتِه أنسَبُ مِن جَعْلِه بيْنَها جَمعًا كتَمْرٍ وتَمرةٍ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٦).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ١﴾.

هذانِ الحرفانِ مِن الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ؛ لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضَتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[١].

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٢﴾.

أي: تَنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ القاهِرِ الغالِبِ، المَنيعِ الجَنابِ، الممتنعِ عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ، ذي القدرِ والسيادةِ؛ العليمِ الَّذي أحاط عِلمُه بكُلِّ شَيءٍ[٢].

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾.

أي: سَاتِرِ ذُنوبِ عبادِه، ومُتجاوِزٍ عن مُؤاخَذتِهم بها[٣].

﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾.

أي: وقابِلِ تَوبةِ التَّائِبينَ مِن الشِّركِ وجَميعِ المعاصي[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١، ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عبد السلام)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((إنَّ اللهَ يَقبَلُ تَوبةَ العَبدِ ما لم يُغَرْغِرْ[١])))[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن تابَ قبلَ أنْ تطلُعَ الشَّمسُ مِن مغربِها، تابَ الله عليه))[٣].

﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾.

أي: شديدِ العِقابِ لِمَن يَستحِقُّ مِن عِبادِه[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لو

---

(١) أي: ما لم تَبلُغْ رُوحُه حُلقومَه، فيكون بمنزلةِ الشَّيءِ الَّذي يَتغَرغَرُ به المريضُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٦٠).

(٢) رواه الترمذيُّ (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد (٦١٦٠).
قال الترمذيُّ: (حسَنٌ غريبٌ). وقال ابن القطَّان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٤١٢): (محتملٌ أن يُقال فيه: صحيحٌ). وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٩/ ١٨)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٣٧).

(٣) رواه مسلم (٢٧٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣).
قال ابن جرير: (فلا تَتَّكِلوا على سَعةِ رَحمتِه، ولكِنْ كونوا منه على حَذَرٍ، باجتنابِ معاصيه، وأداءِ فرائِضِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٨).

يَعلَمُ المؤمِنُ ما عندَ اللهِ مِن العُقوبةِ ما طَمِعَ بجَنَّتِه أحَدٌ، ولو يَعلَمُ الكافِرُ ما عندَ اللهِ مِن الرَّحمةِ ما قَنَط مِن جنَّتِه أحَدٌ))[١].

﴿ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾.

أي: صاحبِ الغنَى الواسِعِ، والفَضلِ والإنعامِ على خَلْقِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا اللهُ وَحْدَه دونَ ما سِواه[٣].

﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: إلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُ العِبادِ، فيُجازيهم بأعمالِهم؛ خَيرِها وشَرِّها[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٥) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالمصيرِ إلى الله تعالى: الرُّجوعُ إليه يومَ القيامةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ الحَثُّ على كُلِّ ما تَكونُ به المَغفِرةُ. وَجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى لم يُخبِرْنا بأنَّه غافِرُ الذَّنْبِ مِن أجْلِ أن نعلَمَ أنَّه غافِرٌ فقط، لكِنْ مِن أجْلِ أن نتعَرَّضَ لِمَغفرتِه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾؛ تأنيسًا لِمَن استجاب بحَمدِه، وأناب بلُطفِه، وجريًا على حُكمِ الرَّحمةِ وتَغليبِها، ثمَّ قال: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾؛ ليأخُذَ المؤمِنُ بلازِمِ عُبوديَّتِه مِن الخَوفِ والرَّجاءِ[٢]، فهذه الآيةُ قد اجتَمع فيها الرَّجاءُ والخَوفُ، وهي كقولِه تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]؛ حيثُ يُقرَنُ هذان الوصْفانِ كثيرًا في مواضعَ متعدِّدةٍ مِن القرآنِ؛ ليبقَى العبدُ بيْنَ الرَّجاءِ والخَوفِ[٣] في السَّيرِ إلى اللهِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ أنَّ المَصيرَ إلى اللهِ، وأنَّه غافِرُ الذَّنْبِ وقابِلُ التَّوبِ وشَديدُ العِقابِ؛ فإنَّه يَرجو مِن وَجهٍ، ويَخافُ مِن وَجهٍ آخَرَ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ أنَّ عِقابَ الله تعالى شديدٌ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: الحذرُ مِن التَّعرُّضِ لِعقابِه، وقد قال الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه صلَّى الله عليه

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عُمرَ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٧٢). وقيل: المرادُ: إليه المرجِعُ في كُلِّ شَيءٍ في الدُّنيا والآخرةِ، كالحُكمِ بيْنَ النَّاسِ، وتدبيرِ الأمورِ؛ وإليه المرجِعُ بعدَ الموتِ. وممَّن ذهب إلى هذا العموم: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٠). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٦٣).

وسلَّم: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١] [المائدة: ٩٨].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ مُشعِرٌ بتَرجيحِ جانِبِ الرَّحمةِ والفَضلِ؛ لأنَّه تعالى لَمَّا أراد أن يَصِفَ نَفْسَه بأنَّه شديدُ العِقابِ ذكَرَ قَبْلَه أمْرَينِ كُلُّ واحدٍ منهما يَقتضي زَوالَ العِقابِ، وهو كَونُه ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، وذكَرَ بَعْدَه ما يدُلُّ على حُصولِ الرَّحمةِ العَظيمةِ، وهو قَولُه: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾، فكَونُه ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ لَمَّا كان مَسبوقًا بتَيْنِك الصِّفَتينِ، ومَلحوقًا بهذه الصِّفةِ؛ دَلَّ ذلك على أنَّ جانِبَ الرَّحمةِ والكَرَمِ أرجَحُ[٢]، وفي هذا تَصديقُ الحَديثِ الصَّحيحِ وشاهِدٌ له، وهو قَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لَمَّا خَلَق اللهُ الخَلْقَ، كَتَب في كتابِه، فهو عندَه فوقَ العرشِ: إنَّ رحمَتي تَغلِبُ غَضَبي))[٣]، وفي لَفظٍ: ((سَبَقَتْ غضبي))[٤]، وقد سبَقَت صِفةُ الرَّحمةِ هنا وغَلَبَت[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿حمٓ * تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ وَجْهُ المُناسَبةِ بذِكرِ نُزولِ القُرآنِ مِن اللهِ المَوصوفِ بهذه الأوصافِ: أنَّ هذه الأوصافَ مُستلزِمةٌ لجَميعِ ما يَشتَمِلُ عليه القُرآنُ مِن المعاني؛ فإنَّ القُرآنَ إمَّا إخبارٌ عن أسماءِ اللهِ وصِفاتِه وأفعالِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٤، ٤٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١) واللَّفظُ له من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٥٤) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٣).

وهذه أسماءٌ وأوصافٌ وأفعالٌ. وإمَّا إخبارٌ عن الغُيوبِ الماضيةِ والمُستَقبَلةِ، فهي مِن تعليمِ العليمِ لعِبادِه. وإمَّا إخبارٌ عن نِعَمِه العَظيمةِ وآلائِه الجَسيمةِ، وما يُوصِلُ إلى ذلك مِن الأوامِرِ، فذلك يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾. وإما إخبارٌ عن نِقَمِه الشَّديدةِ، وعمَّا يُوجِبُها ويَقتَضيها مِن المعاصي، فذلك يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾. وإمَّا دَعوةٌ للمُذنِبينَ إلى التَّوبةِ والإنابةِ والاستِغفارِ، فذلك يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾. وإمَّا إخبارٌ بأنَّه وَحْدَه المألوهُ المعبودُ، معَ إقامةِ الأدِلَّةِ العَقليَّةِ والنَّقليَّةِ على ذلك، والحَثِّ عليه، والنَّهيِ عن عِبادةِ ما سِوى اللهِ، وإقامةِ الأدِلَّةِ العَقليَّةِ والنَّقليَّةِ على فَسادِها والتَّرهيبِ منها، فذلك يدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. وإمَّا إخبارٌ عن حُكمِه الجزائيِّ العَدلِ، وثوابِ المُحسِنينَ، وعِقابِ العاصينَ، فهذا يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾. فهذا جميعُ ما يَشتَمِلُ عليه القُرآنُ مِن المطالِبِ العالياتِ[1]، وأيضًا فبَعْدَ أن بَيَّنَ أنَّ الكِتابَ مُنَزَّلٌ مِنَ الله بيَّنَ أنَّه تعالى مَوصوفٌ بصِفاتِ الجَلالِ، وسِماتِ العَظَمةِ؛ ليَصيرَ ذلك حامِلًا على التَّشميرِ عن ساقِ الجِدِّ عندَ الاستِماعِ، وزَجرِه عن التَّهاوُنِ والتَّواني فيه[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿حمٓ﴾ أنَّ القُرآنَ الكَريمَ حُروفٌ، تكَلَّمَ اللهُ به بحُروفٍ؛ ففيه الرَّدُّ على الأشاعِرةِ ومَن سلَك سبيلَهم، الَّذين يقولون: إنَّ كلامَ اللهِ هو المعنى القائِمُ بالنَّفْسِ، وأنَّ اللهَ لا يَتكَلَّمُ بحَرفٍ وصَوتٍ، لكِنْ يَخلُقُ حُروفًا وأصواتًا تُسمَعُ تَعبيرًا عمَّا في نفْسِه! وحقيقةُ هذا القَولِ نَفيُ الكلامِ؛ لأنَّ ما في النَّفْسِ مِن المعلوماتِ المُرتَّبةِ ليست كلامًا، ولكِنَّها مَعلوماتٌ؛ عِلمٌ، وليست كلامًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٠).

٣- قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ التَّنزيلُ يَستلزِمُ عُلُوَّ المُنزَّلِ مِن عِندِه، ولا تَعقِلُ العَرَبُ مِن لُغتِها -بل ولا غَيرُها مِن الأُمَمِ السَّليمةِ الفِطرةِ- إلَّا ذلك، وقد أخبَرَ سُبحانَه أنَّ تنزيلَ الكِتابِ منه؛ فهذا يدُلُّ على شَيئينِ:

أحَدُهما: عُلُوُّه تعالى على خَلْقِه.

والثَّاني: أنَّه هو المتكَلِّمُ بالكتابِ المُنزَّلِ مِن عِندِه لا غَيرُه؛ فإنَّه أخبَرَ أنَّه منه، وهذا يَقتضي أن يكونَ منه قولًا، كما أنَّه منه تنزيلًا؛ فإنَّ غيرَه لو كان هو المتكَلِّمَ به لَكان الكِتابُ مِن ذلك الغَيرِ؛ فإنَّ الكلامَ إنَّما يُضافُ إلى المتكَلِّم به، ومِثلُ هذا: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣]، ومِثلُه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، ومِثلُه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ فاستَمسِكْ بحَرفِ «مِنْ» في هذه المواضِعِ؛ فإنَّه يَقطَعُ شَغَبَ المُعتَزِلةِ والجَهميَّةِ، وتأمَّلْ كيف قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ﴾ ولم يقُلْ: «تنزيلُه»! فتضَمَّنَت الآيةُ إثباتَ عُلُوِّه وكلامِه، وثُبوتَ الرِّسالةِ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ القُرآنَ غيرُ مَخلوقٍ[(٢)]؛ وذلك لأنَّ ما كان مِنَ اللهِ إنْ كان عَيْنًا قائمةً أو صِفةً قائمةً بغَيرِها -كما في السَّمَواتِ والأرضِ، والنِّعَمِ، والرُّوحِ الَّذي أرسَلَه إلى مَريمَ وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩]- كان مخلوقًا، وإن كان صِفةً لا تقومُ بنَفْسِها ولا يتَّصِفُ بها المخلوقُ، لم يكُنْ مخلوقًا، كالقُرآنِ؛ فإنَّ ذلك قائِمٌ باللهِ، وما يَقومُ باللهِ لا يكونُ مَخلوقًا[(٣)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ وصْفُ القرآنِ الكريمِ بالكتابِ، وهو بمعنى

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٧١).

مَكتوبٍ؛ وذلك لأنَّه يُكتَبُ؛ فهو مَكتوبٌ بالمصاحفِ الَّتي بأيدينا، والصُّحُفِ الَّتي بأيدي الملائكةِ؛ قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: ١٢، ١٣]، ومكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ؛ قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[(١)] [البروج: ٢١، ٢٢].

٦- قال تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، وتَضمَّنَ هذان الاسْمانِ صِفتَيِ القُدرةِ والعِلمِ، وخَلْقَ أعمالِ العِبادِ، وحُدوثَ كُلِّ ما سِوى اللهِ؛ لأنَّ القَدَرَ هو قُدرةُ اللهِ، كما قال أحمدُ بنُ حَنبلٍ؛ فتضَمَّنَت إثباتَ القَدَرِ، ولأنَّ عِزَّتَه تَمنَعُ أن يكونَ في مُلكِه ما لا يَشاؤُه، أو أن يَشاءَ ما لا يكونُ؛ فكانت عِزَّتُه تُبطِلُ ذلك، وكذلك كَمالُ قُدرتِه يُوجِبُ أن يكونَ خالِقَ كُلِّ شَيءٍ، وذلك يَنفي أن يكونَ في العالَمِ شَيءٌ قَديمٌ لا يَتعَلَّقُ به خَلْقُه؛ لأنَّ كَمالَ قُدرتِه وعِزَّتِه يُبطِلُ ذلك[(٢)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ جمَعَ جَلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ بيْنَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والوَعدِ والوَعيدِ؛ لأنَّ مَطامعَ العُقَلاءِ مَحصورةٌ في أمْرَينِ؛ هما: جَلبُ النَّفعِ، ودَفعُ الضُّرِّ[(٣)].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ فكما أنَّه لا يُؤْيِسُ أهلَ الإجرامِ والآثامِ مِن عَفْوِه، وقَبولِ تَوبةِ مَن تاب منهم مِن جُرْمِه، كذلك لا يُؤَمِّنُهم مِن عِقابِه وانتِقامِه منهم بما استحَلُّوا مِن مَحارِمِه، ورَكِبوا مِن مَعاصِيه[(٤)].

٩- قال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ والذَّنْبُ مُخالَفةُ شَرعِه وأمْرِه؛ فتَضَمَّنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٨).

هذان الاسْمانِ إثباتَ شَرعِه وإحسانِه وفَضلِه[١].

١٠- قال تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ لَمَّا ذكَرَ تعالى شِدَّةَ عِقابِه أردَفَه بما يُطمِعُ في رحمتِه، وهو قَولُه: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾؛ فجاء ذلك وعيدًا اكتَنَفَه وَعْدانِ[٢].

١١- قَولُه تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ هذا جزاؤُه للمُذنِبينَ، و﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ جزاؤُه للمُحسِنينَ؛ فتضَمَّنَت الآيةُ إثباتَ الثَّوابِ والعِقابِ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ إثباتُ التَّوحيدِ والمَعادِ[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾

- قولُه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ المقصودُ بتَوجيهِ هذا الخبَرِ هُمُ المُشرِكونَ المُنكِرونَ أنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ؛ فتَجريدُ الخبَرِ عن المؤكِّدِ إخراجٌ على خِلافِ مُقتَضَى الظَّاهِرِ بجَعلِ المُنْكِرِ كغَيرِ المُنكِرِ؛ لأنَّه يَحُفُّ به مِنَ الأدلَّةِ ما إنْ تأمَّلَه ارتَدَع عن إنكارِه، فما كان مِن حَقِّه أنْ يُنكِرَ ذلك[٥]!

- ووصْفُ اللهِ تعالَى بوَصفَيِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ هنا تَعريضٌ بأنَّ مُنكِري تَنزيلِ الكِتابِ منه مَغلوبونَ مَقهورونَ، وبأنَّ اللهَ يَعلَمُ ما تُكِنُّه نُفوسُهم؛ فهو مُحاسِبُهم على ذلك. ورمزٌ إلى أنَّ القرآنَ كلامُ العزيزِ العليمِ؛ فلا يَقدِرُ غَيرُ اللهِ على أنْ يأتيَ بمِثلِه. وفي ذِكرِهما رمزٌ إلى أنَّ اللهَ أعلَمُ حيث يَجعَلُ رسالتَه، وأنَّه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٨، ٧٩).

لا يُجاري أهواءَ النَّاسِ فيمَن يُرَشِّحونَه لذلك مِن كُبَرائِهم؛ ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وهُما صِفتانِ دالَّتانِ على المُبالَغةِ في القُدرةِ والغَلَبةِ والعِلمِ[١]. وأيضًا فهذه السُّورةُ تَتحدَّثُ عن المكَذِّبينَ للرُّسُلِ، وما جرَى عليهم مِنَ الهَلاكِ والانتِقامِ؛ فالَّذي يُناسِبُ ذلك: العِزَّةُ الَّتي فيها الغَلَبةُ والأخْذُ؛ فلهذا جاء هنا «العَزيزُ»، وجاء «العَليمُ»؛ لِيُفيدَ أنَّه لعِزَّته أخَذَ هؤلاء المكَذِّبينَ، ولعِلْمِه أنزَلَ الكُتُبَ، وعَلِمَ كيفَ يأخُذُ هؤلاء المكَذِّبينَ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ ...﴾ أُجريَ على اسمِ اللهِ تعالى مِن صِفاتِه ما فيه تَعريضٌ بدَعْوتِهم إلى الإقلاعِ عمَّا هُم فيه، فكانتْ فاتحةُ السُّورةِ مِثلَ دِيباجةِ الخُطبةِ؛ مُشيرةً إلى الغرَضِ مِن تَنزيلِ هذه السُّورةِ. وفي إتْباعِ الوصفَينِ العَظيمَينِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ بأوصافٍ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ تَرشيحٌ[٣] لذلك التَّعريضِ، كأنَّه يقولُ: إنْ كنتُم أذنَبْتُم بالكُفرِ بالقرآنِ، فإنَّ تَدارُكَ ذَنْبِكم في مُكنَتِكم؛ لأنَّ اللهَ مُقَرَّرٌ اتِّصافُه بقَبولِ التَّوبةِ، وبغُفرانِ الذَّنْبِ، فكما غفَرَ لِمَن تابوا مِنَ الأُمَمِ فقَبِلَ إيمانَهم، يَغفِرُ لِمَن يَتوبُ منكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٢).

(٣) التَّرشيحُ: هو أنْ يأتيَ المتكلمُ بكلمةٍ لا تصلُحُ لضربٍ مِن المحاسنِ، حتَّى يُؤتَى بلفظةٍ ترشِّحُها وتؤهِّلُها لذلك. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لأبن أبي الأصبع (ص: ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن =

- والذَّنْبُ في قولِه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ هنا مفردٌ محلَّى بـ «أل»، فيكونُ عامًّا، أي: أنَّ الله جلَّ وعلا يغفرُ الذُّنوبَ جميعًا[١].

- وتَقديمُ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ على (قَابِلِ التَّوْبِ) مع أنَّه مُرتَّبٌ عليه في الحُصولِ؛ للاهتِمامِ بتَعجيلِ الإعلامِ به لِمَنِ استعَدَّ لتَدارُكِ أمْرِه؛ فوصْفُ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ تَعريضٌ بالتَّرغيبِ، وصِفتَا ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ تَعريضٌ بالتَّرهيبِ[٢].

- قولُه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ اختلفَتْ هذه الصِّفاتُ تعريفًا وتنكيرًا، والمَوصوفُ مَعرفةٌ يَقتَضي أنْ يَكونَ مِثلُه مَعارِفَ؛ وذلك أنَّ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ مَعرِفتانِ؛ لأنَّه لم يُرَدْ بهما حُدوثُ الفِعلَينِ، وأنَّه يَغفِرُ الذَّنْبَ ويَقبَلُ التَّوبَ الآنَ أو غدًا حتَّى يَكونَا في تَقديرِ الانفِصالِ، فتَكونَ إضافَتُهما غيْرَ حقيقيَّةٍ، وإنَّما أُريدَ ثُبوتُ ذلك ودوامُه. وتَنكيرُ ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ لأنَّه في تقديرِ: شديدٌ عِقابُه، فيَجوزُ أنْ يُقالَ: قد تُعُمِّدَ تَنكيرُه وإبهامُه؛ للدَّلالةِ على فَرْطِ الشِّدَّةِ، وعلى ما

= عاشور)) (٢٤/ ٧٧ - ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٩، ٨٠).

قال ابن عاشور: (والطَّوْلُ يُطلقُ على سَعةِ الفضلِ وسَعةِ المالِ، ويُطلقُ على مُطلقِ القُدرةِ، وظاهِرُه الإطلاقُ، ووُقوعُه مع شديدِ العِقابِ ومُزاوجَتُها بوصْفَيْ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ لِيُشيرَ إلى التَّخويفِ بعذابِ الآخرةِ مِن وصْفِ شديدِ العقابِ، وبعذابِ الدُّنيا مِن وصفِ ذي الطَّوْلِ، كقولِه: ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤٢]، وقولِه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ [الأنعام: ٣٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٠، ٨١) بتصرفٍ يسيرٍ.

وتقدَّم في الفوائدِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ يدُلُّ على حُصولِ الرَّحمةِ العَظيمةِ، ويُطمِعُ فيها.

لا شَيءَ أدهَى منه وأمَرُّ؛ لِزيادةِ الإنذارِ[١].

- قولهُ: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ جُرِّد المصدَرُ؛ لِيُفهِمَ أنَّ أدنَى ما يُطلَقُ عليه الاسمُ كافٍ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ أُتيَ بالواوِ في الوَصفَينِ الأوَّلَينِ، وحُذِفَت في الوصفَينِ الآخَرينِ؛ لأنَّ غُفرانَ الذَّنْبِ وقَبولَ التَّوبِ قد يُظَنُّ أنَّهما يَجريانِ مجرى الوَصفِ الواحِدِ؛ لِتَلازُمِهما؛ فمَن غَفَر الذَّنْبَ قَبِلَ التَّوبَ، فكان في عَطفِ أحَدِهما على الآخَرِ ما يَدُلُّ على أنَّهما صِفتانِ وفِعلانِ مُتغايِرانِ، ومَفهومانِ مختَلِفانِ لكُلٍّ منهما حُكمُه، أحَدُهما يَتعلَّقُ بالإساءةِ والإعراضِ، وهو المَغفِرةُ، والثَّاني يَتعلَّقُ بالإحسانِ والإقبالِ على اللهِ تعالى والرُّجوعِ إليه، وهو التَّوبةُ؛ فتُقبَلُ هذه الحَسَنةُ، وتُغفَرُ تلك السَّيِّئةُ، وحَسَّنَ العطفَ هاهنا هذا التَّغايُرُ الظَّاهِرُ، وكلَّما كان التَّغايرُ أبْيَنَ كان العَطفُ أحسَنَ؛ ولهذا جاء العَطفُ في قَولِه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وتُرِكَ في قَولِه: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقَولِه: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾[٣] [الحشر: ٢٤].

- وقيل: عُطِفَتْ صِفةُ ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ بالواوِ على صِفةِ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، ولم تُفصَلْ؛ إشارةً إلى نُكتةٍ جليلةٍ، وهي إفادةُ أنْ يَجمَعَ للمُذنِبِ التَّائبِ بيْنَ رحمتَينِ: بيْن أنْ يَقبَلَ تَوبتَه فيَجعَلَها له طاعةً، وبيْن أنْ يَمحوَ عنه بها الذُّنوبَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٨، ١٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٥٧، ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٢).

الَّتي تاب منها، ونَدِمَ على فِعلِها، فيُصبِحَ كأنَّه لم يَفعَلْها، كأنَّه قال: جامِعُ المَغفرةِ والقَبولِ، وهذا فَضلٌ مِنَ اللهِ(١).

وأمَّا قَولُه: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ فتُرِكَ العَطفُ بيْنَهما؛ لنُكتةٍ بَديعةٍ، وهي: الدَّلالةُ على اجتِماعِ هذينِ الأمْرَينِ في ذاتِه سُبحانَه، وأنَّه حالَ كَونِه شَديدَ العِقابِ فهو ذو الطَّولِ، وطَولُه لا يُنافي شِدَّةَ عِقابِه، بل هما مُجتَمِعانِ له، بخِلافِ قَولِه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد: ٣]؛ فإنَّ الأوَّليَّةَ لا تُجامِعُ الآخِريَّةَ؛ فأوَّليَّتُه أزليَّتُه، وآخِريَّتُه أبَديَّتُه(٢).

- والوَصفُ بـ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ إفضاءٌ بصَريحِ الوَعيدِ على التَّكذيبِ بالقُرآنِ؛ لأنَّ مَجيئَه بعدَ قَولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٢] يُفيدُ أنَّه المَقصودُ مِن هذا الكلامِ بواسِطةِ دَلالةِ مُستَتبَعاتِ التَّراكيبِ(٣).

- قولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لَمَّا ذكَرَ جُملةً مِن صِفاتِه العُلا الذَّاتيَّةِ والفِعليَّةِ، ذكَرَ أنَّه المُنفرِدُ بالأُلوهيَّةِ والوَحدانيَّةِ، المَرجوعُ إليه في الحشرِ بأنَّ المصيرَ والمَرجِعَ إليه؛ تَسجيلًا لبُطلانِ الشِّركِ، وإفسادًا لإحالَتِهمُ البَعثَ(٤).

- وجُملةُ ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ إنذارٌ بالبَعثِ والجَزاءِ؛ لأنَّه لَمَّا أُجريَتْ صِفاتُ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾، أُثيرَ في الكلامِ الإطماعُ والتَّخويفُ؛ فكان حَقيقًا بأنْ يَشعروا بأنَّ المصيرَ إمَّا إلى ثَوابِه وإمَّا إلى عِقابِه، فلْيَزِنوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١).

أنفُسَهم؛ لِيَضَعوها حيثُ يَلوحُ مِن حالِهم[١].

- وقولُه: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: إليه فحَسْبُ، لا إلى غَيرِه، لا استِقلالًا ولا اشتِراكًا، فيَجزي كُلًّا مِنَ المُطيعِ والعاصي؛ فتقديمُ المَجرورِ ﴿إِلَيۡهِ﴾ لإفادةِ الاختِصاصِ[٢]. وقيل: إنَّ تقديمَ المَجرورِ في ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ للاهتِمامِ، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ بحَرفَينِ: حَرفِ لِينٍ، وحَرفٍ صَحيحٍ؛ مِثلَ: ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]، و﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، و﴿عِقَابِ﴾[٣] [غافر: ٥].

- وقد اشتملَتْ فاتحةُ سُورةِ (غافرٍ) على ما يُشيرُ إلى جَوامِعِ أغراضِها، ويُناسِبُ الخَوضَ في تَكذيبِ المُشركينَ بالقرآنِ، ويُشيرُ إلى أنَّهم قد اعتَزُّوا بقوَّتِهم ومَكانَتِهم، وأنَّ ذلك زائلٌ عنهم كما زال عن أُمَمٍ أشَدَّ منهم؛ فاستَوفَتْ هذه الفاتحةُ كَمالَ ما يُطلَبُ في فَواتِحِ الأغراضِ ممَّا يُسمَّى بَراعةَ المَطْلَعِ أو بَراعةَ الاستِهلالِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤-٦)

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَغۡرُرۡكَ﴾: أي: يَخدَعْك، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، وأصلُ (غرر) هنا: نُقصانٌ[١].

﴿تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾: أي: تَصَرُّفُهم في البِلادِ، وتَرَدُّدُهم في أسفارِهم سالِمينَ، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[٢].

﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ﴾: أي: الأُممُ الَّذين تحزَّبوا وتجمَّعوا على رُسلِهم بالتَّكذيبِ، مِن قَولِهم: تحزَّبَ القَومُ: إذا اجتَمَعوا، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجمُّعِ الشَّيءِ[٣].

﴿وَهَمَّتۡ﴾: الهمُّ: جَرَيانُ الشَّيءِ في القلبِ، وأصلُ (همم): يدُلُّ على ذَوْبٍ وجَرَيانٍ ودَبيبٍ وما أشْبَهَ ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦ / ١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٣).

﴿لِيُدْحِضُواْ﴾: أي: لِيُبطِلوا ويُذهِبوا، وأصلُ (دحض): يدُلُّ على زَوالٍ[١].

﴿حَقَّتْ﴾: أي: وجَبَتْ ولَزِمَتْ، والحَقُّ في أصلِه: المُطابَقةُ والموافَقةُ، وأصلُ (حَقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾

قَولُه: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ مصدرٌ مُؤَوَّلٌ في محلِّ نَصبٍ أو جَرٍّ بنَزعِ الخافِضِ، وهو لامُ التَّعليلِ، أي: لأنَّهم أصحابُ النَّارِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ في محلِّ رَفعٍ بدلًا مِنْ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بَدَلًا مُطابِقًا أو بدَلَ اشتِمالٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ما يُجادِلُ بالباطِلِ في آياتِ اللهِ إلَّا الكافِرونَ، فلا يَخدَعْك -يا مُحمَّدُ- تصَرُّفُ الكُفَّارِ في الأرضِ، وتمتُّعُهم في الدُّنيا سالِمينَ مع كُفرِهم بالله.

ثُمَّ يقولُ تعالَى مُسَلِّيًا لنبيِّه مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كذَّبَت قَبْلَهم قَومُ نُوحٍ ومَنْ بَعْدَهم مِمَّن تحزَّبوا واتَّفَقوا على رُسُلِهم، وهمَّت كُلُّ أمَّةٍ مِن أولئك الكُفَّارِ المتحَزِّبينَ بقَتلِ رَسولِهم، وجادَلوا رَسولَهم بالباطِلِ؛ لِيُزيلوا به الحَقَّ ويُبطِلوه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٥٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٤/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٨).

فأخَذْتُهم بعذابي، فكيف كان عِقابي؟! وكما وجَبَ العذابُ على كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ، كذلك وَجَب العذابُ على جميع الكُفَّارِ؛ أنَّهم في الآخِرةِ أصحابُ النَّارِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قرَّرَ اللهُ تعالى أنَّ القُرآنَ كِتابٌ أنزَلَه؛ ليُهتَدَى به في الدِّينِ- ذكَرَ أحوالَ مَن يُجادِلُ لغَرَضِ إبطالِه، وإخفاءِ أمْرِه، فقال تعالى[1]:

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: ما يُجادِلُ بالباطِلِ في آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ إلَّا الكافِرونَ الَّذين يَرُدُّونَها، ويَطعُنونَ فيها، يَقصِدونَ إدحاضَ الحَقِّ، وإطفاءَ نُورِ اللهِ تعالى[2].

كما قال الله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦].

﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾.

أي: فلا يَخدَعْك -يا مُحمَّدُ- تصَرُّفُ الكُفَّارِ في الأرضِ، وتَرَدُّدُهم فيها بالأسفارِ وأنواعِ المكاسِبِ وغَيرِها، وتمتُّعُهم في الدُّنيا سالِمينَ مع كُفرِهم بالله؛ فتَظُنَّ بهم ظَنًّا حَسَنًا، وأنَّهم على الحَقِّ، أو أنَّ اللهَ لا يُؤاخِذُهم بذُنوبِهم؛ فاللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٢، ٨٣).

عالمٌ بحالِهم، فيُمهِلُهم ويَستَدرِجُهم بالنِّعَمِ حتَّى يُهلِكَهم[١].

كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان جِدالُ الكفَّارِ ناشئًا عن تَكذيبِ ما جاء به الرَّسولُ عليه السَّلامُ مِن آياتِ اللهِ؛ ذكَرَ مَن كَذَّبَ قَبْلَهم مِنَ الأُمَمِ السَّالِفةِ، وما صار إليه حالُهم مِن حُلولِ نَقِماتِ اللهِ بهم؛ ليَرتَدِعَ بهم كفَّارُ مَن بُعِث الرَّسولُ عليه السَّلامُ إليهم[٢].

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾.

أي: كذَّبت الأُمَمُ الماضيةُ رُسُلَها مِن قَبْلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ، وهم قَومُ نُوحٍ، ومَنْ بَعْدَهم مِنَ الأُمَمِ المكَذِّبةِ مِمَّن تحَزَّبوا واتَّفَقوا على إبطالِ الحَقِّ، ونَصرِ الباطِلِ؛ كعادٍ، وثمودَ، وقَومِ لُوطٍ، وأصحابِ مَدْينَ، وقَومِ فِرعَونَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٣، ٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٣، ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٤، ٨٥).

قال ابن عثيمين: (هذا كالتَّعليلِ لقولِه: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، يعني: فلينظر عاقبة مَن كان قبْلَهم حينَ كذَّبوا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٤).

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾.

أي: وهَمَّ كُلُّ قَومٍ مِن أولئك الكُفَّارِ المتحَزِّبينَ مِن تلك الأُمَمِ بقَتلِ رَسولِهم الَّذي كَذَّبوه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٥).

وممَّن قال بأنَّ الأخْذَ هنا يعني: القتْلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٥).

وقيل: المرادُ: الحَبسُ والتَّعذيبُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٧).

وقال الزمخشري: (﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ لِيَتمكَّنوا منه، ومِن الإيقاعِ به، وإصابَتِه بما أرادوا مِن تعذيبٍ أو قَتلٍ؛ ويُقالُ للأسيرِ: أخِيذٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١).

واختار الرَّازيُّ العُمومَ، فقال: (وقولُه: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: وعَزَمتْ كلُّ أُمَّةٍ مِن هؤلاءِ الأحزابِ أنْ يأخُذوا رسولَهم لِيَقْتُلوه ويُعَذِّبوه ويَحْبِسوه). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٦).

وممَّن اختار العمومَ أيضًا: أبو حيَّان، والألوسي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٩٨).

أي: وجادَلوا رَسولَهم بالباطِلِ؛ لِيُزيلوا به الحَقَّ ويُبطِلوه[١].

﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

أي: فأخَذْتُهم بعَذابٍ أهلَكَهم، فكيف كان عِقابي الَّذي أصابَهم[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨].

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾.

أي: وكما وَجَب العَذابُ على كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ، كذلك وَجَب العَذابُ على جَميعِ الكُفَّارِ؛ أنَّهم الملازِمونَ في الآخِرةِ عَذابَ النَّارِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٧).

قال ابن كثير: (أي: فكيف بلَغَك عذابي لهم، ونَكالي بهم؟! قد كان شديدًا مُوجِعًا مُؤلِمًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١).

قال الشنقيطي: (المراد بالكلمةِ هو قولُه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، كما دلَّت على ذلك آياتٌ مِن كتابِ الله تعالى؛ كقولِه تعالى في آخرِ سورةِ «هود»: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقولِه تعالى في «السجدة»: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقولِه تعالى في أخريات «ص»: =

= ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٧) بتصرف.

وممَّن اختار أنَّ كلمةَ العذابِ هي قولُه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، ومكِّي، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٦٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١).

قال ابنُ القيِّم: (الكَلِمةُ التي حَقَّت كَلِمتانِ: كلمةُ الإضلالِ، وكَلِمةُ العذابِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وكَلِمتُه سُبحانَه إنَّما حَقَّت عليهم بالعذابِ؛ بسَبَبِ كُفرِهم، فحَقَّت عليهم كَلِمةُ حُجَّتِه، وكَلِمةُ عَدلِه بعُقوبتِه). ((مدارج السالكين)) (١/ ٢٣٤).

وقال السعدي: (﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: كما حقَّتْ على أولئك، حقَّتْ عليهم كلمةُ الضَّلالِ الَّتي نشأت عنها كلمةُ العذابِ؛ ولهذا قال: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

وقال الزمخشري: (كما وجَب إهلاكُ أولئك الأُمَمِ، كذلك وجَب إهلاكُ هؤلاء؛ لأنَّ عِلَّةً واحدةً تَجمَعُهم: أنَّهم مِن أصحابِ النَّارِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٩٨).

وممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ للتَّعليلِ، أي: لأنَّهم أصحابُ النَّارِ، أو لأجْلِ أنَّهم مُستحِقُّونَ للنَّارِ: الزمخشري، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٠٢).

قال ابن عاشور: (وقولُه: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يجوزُ أن يكونَ بدَلًا مِن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بدلًا مطابِقًا، فيكونَ ضميرُ ﴿أَنَّهُمْ﴾ عائدٌ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، أي: حَقَّ عليهم أن يَكونوا أصحابَ النَّارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٨).

وقال ابن جرير: (اختلَف أهلُ العربيَّةِ في موضعِ قَولِه: ﴿أَنَّهُمْ﴾؛ فقال بعضُ نَحْويِّي البَصرةِ: معنى ذلك: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: أي: لأنَّهم، أو: بأنَّهم،... وكان غيرُه يقولُ: ﴿أَنَّهُمْ﴾ بدَلٌ مِن الكلمةِ، كأنَّه: حَقَّتِ الكلمةُ حقًّا أنَّهم أصحابُ النَّارِ. والصَّوابُ مِن القولِ في ذلك أنَّ قولَه: ﴿أَنَّهُمْ﴾ ترجمةٌ عن الكلمةِ، بمعنى: وكذلك حقَّ عليهم عذابُ =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيه أنَّ الجِدالَ في تَقريرِ الباطِلِ مَذمومٌ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ فيه أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أن يَغتَرَّ بحالةِ الإنسانِ الدُّنيويَّةِ، ويَظُنَّ أنَّ إعطاءَ اللهِ إيَّاه في الدُّنيا دليلٌ على محبَّتِه له، وأنَّه على الحَقِّ! بل الواجِبُ على العَبدِ أن يَعتبرَ النَّاسَ بالحَقِّ، ويَنظُرَ إلى الحقائِقِ الشَّرعيَّةِ، ويَزِنَ بها النَّاسَ، ولا يَزِنَ الحَقَّ بالنَّاسِ[٢]، فإنَّ بَعضَ المُسلِمينَ ضُعفاءِ الإيمانِ انبَهَروا بما عليه الكُفَّارُ، وظَنُّوا أنَّ ما هم عليه مِن تحَلُّلِ الأخلاقِ، وفَسادِ العقائِدِ، والكُفرِ: هو الَّذي أوجَبَ أن يَكونوا على هذا المُستوى مِن التَّقَدُّمِ المادِّيِّ، فانبَهَروا بذلك، وانفَلَتوا مِنَ الدِّينِ[٣]!

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مُعارَضةُ أقوالِ الرُّسُلِ بأقوالِ غَيرِهم: مِن فِعلِ الكُفَّارِ، كما قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وكُلُّ مَن عارَضَ القُرآنَ وجادَلَ في ذلك بعَقلِه ورَأيِه، فهو داخِلٌ في ذلك، وإنْ لم يَزعُمْ تَقديمَ كَلامِه على كَلامِ اللهِ ورَسولِه، بل إذا قال ما يُوجِبُ المِرْيةَ والشَّكَّ في كلامِ اللهِ فقد دخَلَ في ذلك،

= النَّارِ، الَّذي وعَد اللهُ أهلَ الكفرِ به). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٠).

فكيفَ بمَن يَزعُمُ أنَّ ما يَقولُه بعَقلِه ورَأيِه مُقَدَّمٌ على نُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ[١]؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يُمْلي للكفَّارِ، ويُمهِلُهم ويُمَكِّنُهم مِن التَّقلُّبِ في البلادِ حيث شاؤُوا[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ جعَل سبحانَه الأحزابَ المكذِّبينَ كلَّهم مِن بَعدِ قَومِ نوحٍ، وهذا يدُلُّ على أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ هو أوَّلُ الرُّسلِ، وهذا أمرٌ معلومٌ متقرِّرٌ في عدَّةِ آياتٍ وفي الأحاديثِ أيضًا، وبه نَعلَمُ أنَّ مَن زعَم أنَّ إدريسَ عليه السَّلامُ كان قبْلَ نوحٍ عليه السَّلامُ فإنَّه مخطئٌ، ولا وجْهَ لقولِه[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ بيانُ ما تَنطوي عليه صدورُ المكذِّبينَ للرُّسلِ مِن الهَمِّ بقتلِهم، يعني: أنَّ المكذِّبينَ للرُّسلِ لم يَقتصِروا على أنْ يُكذِّبوا فقط، بل هَمُّوا بالقتلِ، والقتلُ والاغتيالُ والسَّجنُ والسَّبُّ والشَّتمُ كلُّه سلاحُ العاجزِ؛ لأنَّ القادرَ على دفْعِ الحُجَّةِ هو الَّذي يَدفَعُ الحُجَّةَ بحُجَّةٍ مِثلِها، أمَّا أن يَستعمِلَ سُلطتَه فهذا يدُلُّ على عجْزِه؛ ولهذا قال فِرعَونُ لموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقال أبو إبراهيمَ «آزَرُ»: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾[٤] [مريم: ٤٦].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ لقولِه: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾؛ لأنَّ الفاءَ للسَّببيَّةِ، وإثباتُ الأسبابِ

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حقٌّ، وهو مقتضَى حِكمةِ الله عزَّ وجلَّ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ إثباتُ تقديرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ للأشياءِ، أي: إثباتُ أنَّ الأشياءَ قد كُتِبَت مِن قَبْلُ، وهذا لا يُنافي إرسالَ الرُّسُلِ، ولا يُنافي الأمرَ بما أَمَر به، ولا النَّهيَ عمَّا نهى اللهُ عنه؛ لأنَّ اللهَ تعالى أعطى الإنسانَ عَقلًا ورُشدًا وبَصيرةً يَعرِفُ كيف يَتصَرَّفُ، فإذا أُرسِلَت الرُّسُلُ مع الفِطرةِ الأُولى ثمَّ عانَدَ، فقد قامت عليه الحُجَّةُ[٢].

٧- في قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ إثباتُ الكلامِ لله؛ لقولِه: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ومِن عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّ اللهَ تعالى يَتكلَّمُ بكلامٍ مَسموعٍ، وبحَرْفٍ[٣].

٨- في قولِ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ عنايةُ الله عزَّ وجلَّ برسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيثُ أضاف إليه الرُّبوبيَّةَ، فقال: ﴿رَبِّكَ﴾، وهذه الرُّبوبيَّةُ خاصَّةٌ؛ لأنَّ رُبوبيَّةَ الله عزَّ وجلَّ نَوعانِ: عامَّةٌ وخاصَّةٌ، فالعامَّةُ: الشَّامِلةُ لكلِّ شَيءٍ، والخاصَّةُ: المُختصَّةُ بما أُضيفَتْ له[٤].

٩- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ خُلودُ الَّذين كَفَروا في النَّارِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، ووَجْهُ ذلك: أنَّ الصُّحبةَ تَقتضي المُلازَمةَ، ولا يُمكِنُ أن تكونَ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ لِمَن تُوُعِّدوا بدُخولِ النَّارِ ثمَّ يُخرَجونَ منها، إنَّما تكونُ لِمَن هم أهلُ النَّارِ الَّذين هم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٥).

أهلُها وأصحابُها[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾

- قولُه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ نشَأَ مِن قَولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]، المُقتَضي أنَّ كَوْنَ القرآنِ مُنَزَّلًا مِن عِندِ اللهِ أمْرٌ لا رَيبَ فيه، فيَنشأُ في نُفوسِ السَّامِعينَ أنْ يَقولوا: فما بالُ هؤلاء المُجادِلينَ في صِدقِ نِسبةِ القرآنِ إلى اللهِ لم تُقنِعْهم دَلائلُ نُزولِ القرآنِ مِنَ اللهِ؟ فأُجيبَ بأنَّه ما يُجادِلُ في صِدقِ القرآنِ إلَّا الَّذينَ كَفَروا باللهِ. وإذْ قد كان كُفْرُ المُكَذِّبينَ بالقرآنِ أمرًا معلومًا، كان الإخبارُ عنهم بأنَّهم كافِرونَ غيْرَ مَقصودٍ منه إفادةُ اتِّصافِهم بالكُفرِ؛ فتعَيَّنَ أنْ يَكونَ الخبَرُ غيْرَ مُستعمَلٍ في فائدةِ الخبَرِ، لا بمَنطوقِه ولا بمَفهومِه؛ فإنَّ مَفهومَ الحَصرِ -وهو أنَّ الَّذينَ آمَنوا لا يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ- كذلك أمْرٌ مَعلومٌ مُقرَّرٌ، فيَجوزُ أنْ يُجعَلَ المُرادُ بالَّذينَ كَفَروا نَفْسَ المُجادِلينَ في آياتِ اللهِ، وأنَّ المُرادَ بكُفرِهم كُفْرُهم بوَحدانيَّةِ اللهِ بسببِ إشراكِهم، فالمَعنى: لا عَجَبَ في جِدالِهم بآياتِ اللهِ؛ فإنَّهم أتَوْا بما هو أعظَمُ، وهو الإشراكُ. ويَجوزُ أنْ يُجعَلَ المُرادُ بالَّذينَ كَفَروا جميعَ الكافِرينَ باللهِ مِنَ السَّابِقينَ والحاضِرينَ، أي: ما الجَدَلُ في آياتِ اللهِ إلَّا مِن شأنِ أهْلِ الكُفرِ والإشراكِ، ومُجادَلةُ مُشرِكي مكَّةَ شُعْبةٌ مِن شُعَبِ مُجادَلةِ كلِّ الكافِرينَ؛ فيَكونَ استِدلالًا بالأعَمِّ على الخاصِّ. وعلى كِلا الوَجهَينِ تُرِكَ عَطفُ هذه الجُملةِ على الَّتي قَبْلَها[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٨٣، ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١، ٨٢).

- والمُرادُ بالمُجادَلةِ هنا في قولِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المُجادَلةُ بالباطِلِ، بقَرينةِ السِّياقِ؛ فمعنى ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في صِدقِ آياتِ اللهِ، بقَرينةِ قَولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]؛ فتعَيَّنَ تَقديرُ مُضافٍ دَلَّ عليه المَقامُ(١).

- وصِيغةُ المُفاعَلةِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾؛ للمُبالَغةِ في الفِعلِ مِن جانبٍ واحدٍ؛ لإفادةِ التَّكرُّرِ(٢).

- ولِتَعلُّقِ (في) الظَّرفيَّةِ بالجِدالِ، ولِدُخولِه على نفْسِ الآياتِ دُونَ أحوالِها في قَولِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ مَوقِعٌ عظيمٌ مِنَ البَلاغةِ؛ لأنَّ الظَّرفيَّةَ تَحوي جميعَ أصنافِ الجِدالِ. وجُعِل مَجرورُ الحَرفِ نفْسَ الآياتِ دُونَ تَعيينِ نَحوِ «صِدقِها»، أو «وُقوعِها»، أو «صِنفِها»؛ فكان قَولُه: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جامِعًا للجدَلِ بأنواعِه، ولمُتعلَّقِ الجدَلِ باختِلافِ أحوالِه، والمرادُ الجِدالُ بالباطِلِ؛ كما دَلَّ عليه تَنظيرُ حالِهم بحالِ مَن قال فيهم: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [غافر: ٥]، فإذا أُريدَ الجِدالُ بالحقِّ يُقَيَّدُ فِعلُ الجِدالِ بما يدُلُّ عليه، والمعنى: ما يُجادِلُ في آياتِ اللهِ أنَّها مِن عِندِ اللهِ؛ فإنَّ القرآنَ تَحدَّاهم أنْ يأتوا بمِثلِه فعَجَزوا، وإنَّما هو تَلفيقٌ وتَستُّرٌ عن عَجزِهم عن ذلك، واعتِصامٌ بالمُكابَرةِ، فمُجادَلتُهم بعدَ ما تَقدَّمَ مِنَ التَّحدِّي دالَّةٌ على تَمكُّنِ الكفرِ منهم، وأنَّهم مُعانِدونَ، وبذلك حصَلَ المقصودُ مِن فائدةِ هذا، وإلَّا فكَوْنُهم كُفَّارًا مَعلومٌ(٣).

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ في قَولِه: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دُونَ أنْ يَقولَ: (في آياتِه)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٨٢، ٨٣).

لتَفظيعِ أمْرِها بالصَّريحِ؛ لأنَّ ذِكرَ اسمِ الجَلالةِ مؤْذِنٌ بتَفظيعِ جِدالِهم وكُفرِهم، وللتَّصريحِ بزِيادةِ التَّنويهِ بالقرآنِ[١].

- وفُرِّع قَولُه: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ على مَضمونِ ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ مُقتَضى تلك الجُملةِ أنَّ المُجادِلينَ في آياتِ اللهِ هُم أهلُ الكفرِ، وذلك مِن شأنِه أنْ يُثيرَ في نفْسِ مَن يَراهُم في متعةٍ ونِعمةٍ أنْ يَتساءَلَ في نفْسِه: كيف يَترُكُهمُ اللهُ على ذلك؟ ويَظُنَّ أنَّهم أَمِنوا مِن عَذابِ اللهِ؛ ففُرِّع عليه الجَوابُ ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، أي: إنَّما هو استِدراجٌ ومِقدارٌ مِن حِلمِ اللهِ ورحمتِه بهم وقتًا ما، أو أنَّ مَعناهُ: نحنُ نعلمُ أنَّهم يُجادِلونَ في آياتِنا إصرارًا على الكُفرِ، فلا يُوهِمْكَ تَقلُّبُهم في البلادِ أنَّا لا نؤاخِذُهم بذلك؛ فإنَّا نأخُذُهم أَخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ[٢].

- والتَّقلُّبُ: اختِلافُ الأحوالِ، وهو كِنايةٌ عن تَناوُلِ مَحبوبٍ ومَرغوبٍ. والبِلادُ: الأرضُ، وأُريدَ بها هنا الدُّنيا؛ كِنايةً عن الحَياةِ[٣].

- والمُخاطَبُ بالنَّهيِ في قَولِه: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ غيْرَ مُعَيَّنٍ؛ فيَعُمَّ كلَّ مَن شأنُه أنْ يَغُرَّه تَقَلُّبُ الَّذينَ كَفَروا في البِلادِ، وعلى هذا يَكونُ النَّهيُ جاريًا على حقيقةِ بابِه، أي: موَجَّهًا إلى مَن يُتَوقَّعُ منه الغُرورُ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الخِطابُ موَجَّهًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، على أنْ تَكونَ صيغةُ النَّهيِ تَمثيليَّةً؛ بتَمثيلِ حالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في استِبطائِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٣).

عِقابَ الكافِرينَ بحالِ مَن غَرَّهُ تَقَلُّبُهم في البِلادِ سالِمينَ[١]. أو يكونَ نهَى اللهُ جلَّ وعلا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم في هذه الآيةِ الكريمةِ -ليُشرِّعَ لأُمَّتِه- عن أنْ يُغرَّه تقلُّبُ الَّذين كفَروا في بلادِ الله[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾

- قولُه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ...﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، باعتبارِ التَّفريعِ الواقِعِ عَقِبَ هاتِهِ الجُمَلِ مِن قَولِه: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ فالمَعنى: سبَقَتْهم أُمَمٌ بتَكذيبِ الرُّسُلِ كما كَذَّبوكَ، وجادَلوا بالباطِلِ رُسُلَهم كما جادَلَكَ هؤلاء، فأخَذْتُهم، فكيف رأيْتَ عِقابي إيَّاهُم؟ كذلك مثلُ هؤلاء في إمهالِهم إلى أنْ آخُذَهُم[٣].

- وبَدأ بقَومِ نوحٍ؛ إذْ كان عليه السَّلامُ أوَّلَ رَسولٍ في الأرضِ، وعطَفَ على قَومِه الأحزابَ، وهُمُ الَّذينَ تَحزَّبوا على الرُّسُلِ ولم يَقْبَلوا ما جاؤُوا به مِن عِندِ اللهِ، ومنهم: عادٌ، وثَمودُ، وفِرعونُ وأتْباعُه[٤].

- قولُه: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ قال: (هَمَّتْ)، ثمَّ بيَّن أنَّهم هَمُّوا بأخْذِ رسولِهم؛ فكان فيه إجمالٌ، وأَعقَبَه تَفصيلٌ. واختيرَ الفِعلُ ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ هنا؛ لِيَشملَ مُختلفَ ما همَّتْ به كُلُّ أمَّةٍ برَسولِها؛ مِن قتلٍ أو غيرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٣، ٨٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٥).

- وفي قوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ قُدِّمَ الهَمُّ بالأخذِ على الجِدالِ بالباطِلِ؛ لأنَّ الرُّسُلَ لَمَّا عصَمَهمُ اللهُ منهم أنْ يَقتُلوهم رَجَعوا إلى الجِدالِ بالباطِلِ(١).

- والباءُ في ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ للمُلابَسةِ، أي: جادَلوا مُلابِسينَ للباطِلِ، أو الباءُ للآلةِ، بتَنزيلِ الباطِلِ مَنزِلةَ الآلةِ لجِدالِهم(٢).

- ويُفهَمُ مِن تَفريعِ قَولِه: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ على قَولِه: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ إنذارُ المُشرِكينَ أنَّ هَمَّهم بقَتلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو مُنتهَى أمَدِ الإمهالِ لهم، فإذا صَمَّموا العَزمَ على ذلك أخَذَهمُ اللهُ كما أخَذَ الأُمَمَ المُكَذِّبةَ قَبْلَهم حينَ همَّتْ كلُّ أمَّةٍ برسولِهم لِيأخُذوه؛ فإنَّ قُرَيشًا لَمَّا هَمُّوا بقتلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَنْجاهُ اللهُ منهم بالهِجرةِ، ثمَّ أمكَنَه مِن نَواصيهم يَومَ بَدرٍ؛ فالمقصودُ مِن تَعدادِ جرائمِ الأُمَمِ السَّابِقةِ؛ مِن تَكذيبِ الرُّسُلِ، والهَمِّ بقَتلِهم، والجِدالِ بالباطِلِ: تَنظيرُ حالِ المُشرِكينَ النَّازِلِ فيهم قَولُه: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤] بحالِ الأُمَمِ السَّابِقينَ سَواءً؛ لِيَنطبِقَ الوعيدُ على حالِهم أكمَلَ انطِباقٍ في قَولِه: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾(٣).

- قولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الاستِفهامُ بـ (كيف) مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن حالةِ العِقابِ، واستِعظامٌ لِما حَلَّ بهم، وذلك يَقتَضي أنَّ المُخاطَبَ بالاستِفهامِ قد شاهَدَ ذلك الأخْذَ والعِقابَ، وإنَّما بُنيَ ذلك على مُشاهَدةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

آثارِ ذلك الأخْذِ في مُرورِ الكثيرِ على دِيارِهم في الأسفارِ، وفي سَماعِ الأخبارِ عن نُزولِ العِقابِ بهم وتَوصيفِهم، فنُزِّلَ جميعُ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ مَن شاهَدَ نُزولَ العَذابِ بهم؛ ففي هذا الاستِفهامِ تَحقيقٌ وتَثبيتٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡ﴾. ويَجوزُ أنْ يَكونَ في هذا الاستِفهامِ معنَى التَّقريرِ؛ بِناءً على أنَّ المَقصودَ بقَولِه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡ﴾ التَّعريضُ بتَهديدِ المُشرِكينَ مِن قُرَيشٍ، بتَنبيهِهم على ما حَلَّ بالأُمَمِ قَبْلَهم؛ لأنَّهم أمثالُهم في الإشراكِ والتَّكذيبِ؛ فلذلك يَكونُ الاستِفهامُ عمَّا حَلَّ بنُظَرائِهم تَقريريًّا لهم بذلك[1].

- وقولُه: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡ﴾ أي: بالعِقابِ؛ ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ فالأخْذُ واقعٌ موقعَ العِقابِ، وهذا بِناءً على أنَّ الاستِفهامَ تقريريٌّ، وعلى القول بأنَّه للتَّعظيمِ يكونُ معنَى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فما أعْظَمَ عِقابي وأشَدَّه، حيثُ أزالهم عن آخِرِهم[2]! ولَمَّا كان أخْذُه عظيمًا، دلَّ على عظَمتِه بأنَّه أهلٌ لأنْ يُسأَلَ عن حالِه؛ لزِيادةِ عَظَمةِ الأخْذةِ في قوَّةِ بطْشِها، وسُرعةِ إهلاكِها، وخرْقِها للعوائدِ؛ فقال: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الواوُ عاطفةٌ على جملةِ ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾، أي: ومِثلُ ذلك الحقِّ حَقَّتْ كَلِماتُ ربِّكَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٧، ٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠).

فالمُشارُ إليه المَصدرُ المأخوذُ مِن قَولِه: ﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، وهو يُفيدُ أنَّ المُشَبَّهَ بلَغَ الغايةَ في وَجهِ الشَّبَهِ، حتَّى لو أرادَ أحَدٌ أنْ يُشَبِّهَه لم يُشَبِّهْهُ إلَّا بنفْسِه. ويجوزُ جعْلُ المُشارِ إليه الأخْذَ المأخوذَ مِن قَولِه: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡ﴾ [غافر: ٥]، أيْ: ومِثلُ ذلك الأخذِ الَّذي أخَذَ اللهُ به قَومَ نوحٍ والأحزابَ مِن بَعدِهم حَقَّتْ كَلِماتُ اللهِ على الَّذين كفَروا، فعُلِمَ مِن تَشبيهِ تَحقُّقِ كَلِماتِ اللهِ على الَّذين كَفَروا بذلك الأخذِ؛ لأنَّ ذلك الأخْذَ كان تَحقيقًا لكَلِماتِ اللهِ، أي: تَصديقًا لِمَا أخبَرَهم به مِنَ الوَعيدِ، فالمُرادُ بالَّذينَ كَفَروا جميعُ الكافِرينَ، فالكلامُ تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ، فهو تَذْييلٌ؛ لأنَّ المُرادَ بالأحزابِ الأُمَمُ المَعهودةُ الَّتي ذُكِرتْ قِصَصُها؛ فيَكونُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أعَمَّ، وبذلك يَكونُ التَّشبيهُ في قَولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ جاريًا على أصلِ التَّشبيهِ مِنَ المُغايَرةِ بيْن المُشَبَّهِ والمُشَبَّهِ به. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المُرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ عَيْنَ المُرادِ بقَولِه آنِفًا: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، أي: مِثلُ أخْذِ قَومِ نوحٍ والأحزابِ حَقَّتْ كَلِماتُ ربِّكَ على كفَّارِ قَومِكَ، أيْ: حَقَّتْ عليهم كَلِماتُ الوَعيدِ إذا لم يُقلِعوا عن كُفرِهم[(١)].

- قولُه: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قُرِئَ بالإفرادِ، وقُرِئَ بصيغةِ الجَمعِ ﴿كَلِمَاتُ﴾[(٢)]، والإفرادُ هنا مُساوٍ للجَمعِ؛ لأنَّ المُرادَ به الجِنسُ، بقَرينةِ أنَّ الضَّميرَ المَجرورَ بـ ﴿عَلَى﴾ تَعلَّقَ بفِعلِ ﴿حَقَّتۡ﴾، وهو ضَميرُ جَمعٍ؛ فلا جَرَمَ أنْ تَكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٧، ٨٨).

(٢) قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو جعفرٍ بالجَمعِ ﴿كَلِمَاتُ﴾، والباقون بالإفرادِ. يُنظر: ((المبسوط في القراءات العشر)) لأبي بكر الأصبهاني (ص: ٣٨٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٢٧)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٢).

الكَلِمةُ جِنسًا صادقًا بالمُتَعدِّدِ بحسَبِ تَعدُّدِ أزمانِ كَلِماتِ الوَعيدِ، وتَعدُّدِ الأُمَمِ المُتوعَّدةِ[١].

- قولُه: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ بدَلًا مِن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بدَلًا مُطابِقًا؛ فيَكونَ ضَميرُ ﴿أَنَّهُمْ﴾ عائدًا إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، أي: حَقَّ عليهم أنْ يَكونوا أصحابَ النَّارِ، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ غيرُ مُعاقِبٍ أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ (أمَّةَ الدَّعوةِ) بالاستِئصالِ؛ لأنَّه أراد أنْ يُخرِجَ منهم ذُرِّيَّةً مؤمِنينَ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المعنى: لأنَّهم أصحابُ النَّارِ، على تقديرِ لامِ تَعليلٍ مَحذوفةٍ على طَريقةِ كَثرةِ حَذفِها قبْلَ (أنَّ)؛ فيَكونَ ضميرُ ﴿أَنَّهُمْ﴾ عائدًا إلى جميعِ ما ذُكِرَ قَبْلَه مِن قَومِ نوحٍ والأحزابِ مِن بَعدِهم ومِنَ الَّذينَ كَفَروا. وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ قُرَيشٌ، ومَعناهُ: كما وجَبَ إهلاكُ أولئك الأُمَمِ، كذلك وجَبَ إهلاكُ هؤلاء؛ لأنَّ عِلَّةً واحدةً تَجمَعُهم: أنَّهم مِن أصحابِ النَّارِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٨).

الآيات (٧-٩)

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾.

غريب الكلمات:

﴿عَدۡنٍ﴾: أي: إقامةٍ واستِقرارٍ وثباتٍ، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ[1].

﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾: الذُّرِّيَّةُ: الأولادُ وأولادُ الأولادِ، فهي اسمٌ يَجمعُ نَسْلَ الإنسانِ مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، قيل: أصلُها مِن (ذرَأ)، أي: خلَق؛ لأنَّها خلْقُ الله، وحُذِفت الهمزةُ منها، وقيل: أصلُها مِن الذَّرِّ، بمعنَى التَّفريقِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذَرَّهم في الأرضِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى عن حمَلةِ العَرشِ ومَن حَوْلَه، وعن كمالِ لُطفِه بعبادِه المؤمنينَ، وأنَّه قيَّض هؤلاء الملائكةَ أنْ يَدْعوا لهم، فيقولُ: الملائِكةُ الَّذين يَحملونَ عَرشَ الرَّحمنِ ومَن حَوْلَ العَرشِ يُنَزِّهونَ رَبَّهم عن النَّقائِصِ، ويُؤمِنونَ به، ويَطلُبونَ مِن اللهِ المَغفِرةَ للَّذين آمَنوا قائِلينَ: ربَّنا وَسِعَتْ رحمتُك كُلَّ شَيءٍ، ووَسِعَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

عِلمُك كلَّ شَيءٍ؛ فاغفِرْ للَّذين تابوا واتَّبَعوا دينَ الإسلامِ، واصرِفْ عنهم عذابَ الجَحيمِ.

ربَّنا وأدخِلْهم جنَّاتِ عَدْنٍ الَّتي وعَدْتَهم، وأدخِلْ معهم مَنْ صلَحَ في الدُّنيا مِن آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّيَّاتِهم؛ إنَّك أنت العزيزُ الَّذي لا يُغالَبُ، الحَكيمُ في شَرعِك وقَدَرِك، وقِهِمْ يا ربَّنا السَّيِّئاتِ، ومَن تَصرِفْ عنه عاقِبةَ سَيِّئاتِه يومَ القيامةِ فقد رَحِمْتَه، وذلك هو الفَوزُ العظيمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الكُفَّارَ يُبالِغونَ في إظهارِ العَداوةِ مع المؤمِنينَ؛ بيَّنَ أنَّ أشرَفَ طَبقاتِ المخلوقاتِ هم الملائكةُ الَّذين هم حَمَلةُ العَرشِ، والحافُّونَ حَوْلَ العَرشِ؛ يُبالِغونَ في إظهارِ المَحَبَّةِ والنُّصرةِ للمُؤمِنينَ، كأنَّه تعالى يقولُ: إنْ كان هؤلاء الأراذِلُ يُبالِغونَ في العَداوةِ، فلا تُبالِ بهم، ولا تَلتَفِتْ إليهم، ولا تُقِمْ لهم وَزنًا؛ فإنَّ حَمَلةَ العَرشِ معك، والحافُّونَ مِن حَوْلِ العَرشِ معك يَنصُرونَك[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ جِدالَ الكفَّارِ في آياتِ اللهِ وعِصيانَهم؛ ذكَرَ طاعةَ هؤلاء المُصطَفَينَ مِن خَلقِه، وهُم حَمَلةُ العَرشِ ومَن حَوْلَه، وهُمُ الحافُّونَ به مِنَ المَلائكةِ[2].

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٧).

أي: الملائكةُ الَّذين يَحملونَ عَرشَ الرَّحمنِ والملائكةُ المُقرَّبونَ الَّذين يَحُفُّونَ بالعَرشِ يُنَزِّهونَ رَبَّهم عن النَّقائصِ تَنزيهًا مُقترِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ؛ مَحَبَّةً وتعظيمًا، ويُؤمِنونَ برَبِّهم، فيُقِرُّونَ بوُجودِه ورُبوبيَّتِه وألوهيَّتِه، وأسمائِه وصِفاتِه، ويُقِرُّونَ بأنَّه الإلهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه؛ فلا يَستَكبِرونَ عن عِبادتِه[1].

قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧].

وعن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ((أُذِنَ لي أن أُحَدِّثَ عن مَلَكٍ من مَلائِكةِ اللهِ مِن حَمَلةِ العَرشِ: إنَّ ما بيْنَ شَحْمةِ أُذُنِه إلى عاتِقِه مَسيرةُ سَبْعِمئةِ عامٍ!))[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٨٨، ٨٩).

قال الرسعني: (﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ وهم أربعةُ أملاكٍ، فإذا كان يومُ القيامةِ جُعِلوا ثمانيةً). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٩١). ونسَبه ابنُ الجوزيِّ إلى قولِ الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣١).

وقال ابنُ عثيمين: (والمشهورُ أنَّ حمَلَتَه الآنَ أربعةٌ، وفي يومِ القيامةِ يَكونون ثمانيةً). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٨٧).

قال جلالُ الدِّينِ المحلي، والشِّربيني: في قولِه تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: يقولونَ: سبحانَ اللهِ وبحمدِه. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١٨)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦٥).

وقال السعدي: (﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ هذا مدحٌ لهم بكثرةِ عبادتِهم للهِ تعالى، وخصوصًا التسبيحَ والتحميدَ. وسائرُ العباداتِ تدخُلُ في تسبيحِ الله وتحميدِه؛ لأنَّها تنزيهٌ له عن كونِ العبدِ يصرفُها لغيرِه، وحمدٌ له تعالى، بل الحمدُ هو العبادةُ للهِ تعالى، وأمَّا قولُ العبدِ: «سبحانَ اللهِ وبحمدِه» فهو داخلٌ في ذلك، وهو مِن جملةِ العباداتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٤٧٢٧) واللَّفظُ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٤٢١) بلفظ: ((سبعين))، والبيهقي في ((الأسماء والصفات)) (٨٤٦). =

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: ويَطلُبونَ مِن الله المَغفرةَ للَّذين آمَنوا بما يجِبُ الإيمانُ به، وأقَرُّوا بوَحدانيَّةِ الله، وتَبَرَّؤوا مِن كُلِّ مَعبودٍ سِواه[1].

كما قال الله سبحانَه وتعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت المَغفِرةَ لها لوازِمُ لا تَتِمُّ إلَّا بها غيرُ ما يَتبادَرُ إلى كثيرٍ مِن الأذهانِ؛ أنَّ سُؤالَها وطَلَبَها غايتُه مُجَرَّدُ مَغفرةِ الذُّنوبِ- ذكَرَ تعالى صِفةَ دُعائِهم لهم بالمَغفِرةِ، بذِكرِ ما لا تَتِمُّ إلَّا به، فقال[2]:

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

أي: تَقولُ الملائِكةُ: يا رَبَّنا وَسِعَتْ رَحمتُك كُلَّ شَيءٍ، ووَسِعَ عِلمُك كُلَّ شَيءٍ، فما مِن شَيءٍ إلَّا شَمِلَتْه رحمتُك، ونالَه منها حَظٌّ ونصيبٌ، وأحاطَ به عِلمُك[3].

= صَحَّح إسنادَه الذهبيُّ في ((العلو)) (ص: ٩٧)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٧٢٧)، وجوَّده ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٨/ ٢٣٩)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١/ ٨٠): (رجالُه رجالُ الصَّحيح). وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٣٣): (إسنادُه على شرط الصَّحيح). وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٧٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٥)، =

﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾.

أي: فاستُرِ الذُّنوبَ وتَجاوَزْ عن المؤاخَذةِ بها: للَّذين تابوا مِنَ الشِّركِ والمعاصي، والتَزَموا بما شرَعْتَه مِن دينِ الإسلامِ، فوَحَّدوك وعَمِلوا بما أمَرْتَهم به، وانتَهَوا عمَّا نَهَيْتَهم عنه[١].

﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

أي: واصرِفْ عنهم عذابَ النَّارِ يومَ القيامةِ[٢].

﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا طَلَبَ الملائكةُ مِنَ اللهِ إزالةَ العَذابِ عنهم؛ أردَفوه بأنْ طَلَبوا مِنَ اللهِ إيصالَ الثَّوابِ إليهم[٣]؛ إذ كانت النَّجاةُ مِنَ العذابِ لا تَستلزِمُ الثَّوابَ[٤].

= ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٨٩).

قال ابنُ عثيمين: (جملةُ ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ هي عبارةٌ عن توسُّلٍ، أي: توسَّلوا بسَعةِ عِلمِ اللهِ ورَحمتِه إلى مَطلوبِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١، ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤).

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾.

أي: يا رَبَّنا وأدخِلِ الَّذين تابُوا واتَّبَعوا سَبيلَك جنَّاتِ عَدْنٍ الَّتي وعَدْتَهم بإدخالِهم إيَّاها(١).

كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا * جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٠ - ٦٣].

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾.

أي: وأدخِلْ جنَّاتِ عَدْنٍ أيضًا مَنْ صَلَح في الدُّنيا مِن آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّيَّاتِهم، فآمَنَ وعَمِلَ الصَّالحاتِ(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٥، ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

قال الشَّوكاني: (المرادُ بالصَّلاحِ هاهنا: الإيمانُ باللهِ، والعَمَلُ بما شرَعَه اللهُ؛ فمَنْ فَعَل ذلك فقد صَلَح لدُخولِ الجنَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٣).

أي: إنَّك أنت العزيزُ الَّذي لا يُغالَبُ، ولا يُرامُ جَنابُه، فأنت ذو القَدْرِ والسِّيادةِ، الغالِبُ القاهِرُ لكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الحَكيمُ في شَرْعِك وقَدَرِك وتدبيرِ خَلْقِك، فتَضَعُ كلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[١].

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان طلَبُ الغُفرانِ يَتضمَّنُ إسقاطَ العَذابِ؛ أَردَفوهُ بالتَّضرُّعِ بوِقايَتِهِمُ العَذابَ على سبيلِ المُبالَغةِ والتَّأكيدِ[٢].

وأيضًا لمَّا كان الإنسانُ قد يُغفرُ له ويُكرمُ، وفيه مِن الأخلاقِ ما رُبَّما حمَله على بعضِ الأفعالِ النَّاقِصةِ، دَعَوْا لهم بالكمالِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، فقالوا[٣]:

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾.

أي: واحفَظِ المؤمِنينَ الَّذين تابوا واتَّبَعوا سَبيلَك مِمَّا يَسوؤُهم، مِن ارتِكابِ الأعمالِ السَّيِّئةِ، وعُقوباتِها الَّتي تَسوءُ أصحابَها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥، ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٣).

قال ابنُ جُزَي: (يحتمِلُ أن يكونَ المعنى: قِهِمُ السَّيِّئاتِ نَفْسَها، بحيثُ لا يَفعَلونَها، أو يكونَ المعنى: قِهِمْ جزاءَ السَّيِّئاتِ، فلا تُؤاخِذْهم بها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٨). وبنحوِه قال =

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾.

أي: ومَن تَصْرِفْ عنه سوءَ عاقِبةِ سَيِّئاتِه يومَ القيامةِ فقد رَحِمْتَه بالنَّجاةِ مِن عَذابِك، ودُخولِ جنَّتِك[1].

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

= ابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦).

واختار مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ أنَّ المرادَ بالسَّيِّئاتِ: الشِّركُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٧).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني، وهو وِقايَتُهم عاقِبةَ السَّيِّئاتِ وهو العذابُ: ابنُ جرير، والسمرقندي، والثعلبي، والنسفي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١١١، ١١٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٧).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ -أي: قِهِمُ الأعمالَ السَّيِّئةَ وجزاءَها-: ابنُ القيِّم، والسعدي. يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

قال ابنُ القيِّم: (وِقايةُ السَّيِّئاتِ نَوعانِ؛ أحدُهما: وِقايةُ فِعلِها بالتَّوفيقِ فلا تَصدُرُ منه. والثَّاني: وقايةُ جزائِها بالمَغفرةِ فلا يُعاقَبُ عليها، فتضَمَّنَتِ الآيةُ سُؤالَ الأمْرَينِ). ((الجواب الكافي)) (ص: ١١٥).

وقال ابن عاشور: (السَّيِّئاتُ هنا جمْعُ سَيِّئةٍ، وهي الحالةُ أو الفَعلةُ الَّتي تَسوءُ مَن تعلَّقَت به، مِثلُ ما في قَولِه تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ [غافر: ٤٥]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: ١٣١]... والمرادُ: إبلاغُ هؤلاء المؤمِنينَ أعلى درجاتِ الرِّضا والقَبولِ يومَ الجزاءِ، بحيث لا يَنالُهم العذابُ، ويَكونونَ في بُحبُوحةِ النَّعيمِ، ولا يَعتريهم ما يُكَدِّرُهم مِن نحوِ التَّوبيخِ والفَضيحةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٣، ٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٤).

أي: والنَّجاةُ مِن النَّارِ ودُخولُ الجنَّةِ في الآخرةِ هو الفَوزُ الكبيرُ الَّذي لا فَوْزَ مِثلُه[١].

كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا مِن جُملةِ فَوائِدِ الإيمانِ وفَضائِلِه الكثيرةِ جِدًّا: أنَّ الملائِكةَ الَّذين لا ذُنوبَ عليهم يَستَغفِرونَ لأهلِ الإيمانِ؛ فالمؤمِنُ بإيمانِه تسَبَّبَ لهذا الفَضلِ العَظيمِ[٢]. وفيه الحَثُّ على الإيمانِ؛ حتَّى تَدخُلَ ضِمْنَ مَن تَستَغفِرُ لهم الملائِكةُ، والإيمانُ كلُّه خَيرٌ وسُرورٌ، ونِعمةٌ في القَلبِ، ونِعمةٌ في البَدَنِ، حتَّى البلاءُ الَّذي يُصيبُ المؤمِنَ هو له خَيرٌ؛ لذا فاحرِصْ على تَحقيقِ إيمانِك بفِعلِ الوَسائِلِ الَّتي تُنَمِّي هذا الإيمانَ وتُغَذِّيه وتُقَوِّيه[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ الاشتِراكَ في الإيمانِ يَجِبُ أن يكونَ أدعى شَيءٍ إلى النَّصيحةِ، وأبْعَثَه على إمحاضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١١٢-١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٩٣).

الشَّفَقةِ، وإن تفاوَتَت الأجناسُ، وتباعَدَت الأماكِنُ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ فيه أنَّ السُّنَّةَ في الدُّعاءِ أن يُبدَأَ فيه بالثَّناءِ على اللهِ تعالى، ثمَّ يُذكَرَ الدُّعاءُ عَقِيبَه[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فيه سَعَةُ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فإنْ قال قائلٌ: كيف يَصِحُّ ذلك وأكثرُ بني آدمَ كُفَّارٌ! فأين الرَّحمةُ؟

فالجواب: هم مَرحومونَ بالرَّحمةِ العامَّةِ، مَن يُخرِجُ لهمُ النَّباتَ؟ مَن يُنزِلُ لهمُ المطرَ؟ مَن يَجْعَلُهم أصِحَّاءَ؟ مَن يُمَتِّعُهم بالأسماعِ والأبصارِ إلَّا اللهُ؟! وهذه رحمةٌ، فرحمةُ اللهِ وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ[٣]، وفي الآيةِ أيضًا سَعَةُ عِلْمِ اللهِ تعالى؛ لقولِه: ﴿وَعِلْمًا﴾، ويَترتَّبُ على هاتَينِ الفائدتَينِ أنَّ الإنسانَ متى عَلِمَ ذلك تَعَرَّضَ لرحمةِ اللهِ لعلَّه يَكونُ مِن الدَّاخِلينَ فيها، وإذا آمَنَ بسَعَةِ عِلْمِ اللهِ استحيا مِن اللهِ أنْ يَفْقِدَه حيثُ أمَرَه، أو يَجِدَه حيثُ نَهاه[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ إثباتُ أنَّ لهذا العَرشِ حَمَلةً، وإثباتُ الحَمَلةِ له -مع قُدرةِ اللهِ سُبحانه وتعالى على إمساكِه بدونِ حَمَلةٍ- إشعارٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩١).

(٣) قال ابن عاشور: (ولَمَّا كان سِياقُ هذا الدُّعاءِ أنَّه واقِعٌ في الدُّنيا... اندفَعَ ما عسى أنْ يُقالَ: إنَّ رحمةَ اللهِ لا تَسَعُ المُشركينَ يَومَ القِيامةِ؛ إذْ هُم في عَذابٍ خالدٍ؛ فلا حاجةَ إلى تَخصيصِ عُمومِ كلِّ شَيءٍ بالنِّسبةِ إلى سَعةِ الرَّحمةِ بمُخَصِّصاتِ الأدلَّةِ المُنفصِلةِ القاضيةِ بعدَمِ سَعةِ رحمةِ اللهِ للمُشركينَ بعْدَ الحِسابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٣).

بتَعظيمِه، وأنَّه عظيمٌ مُعتنًى به؛ ولهذا فإنَّ اللهَ قال في السَّمَواتِ: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [الرعد: ٢] ولم يَذْكُرْ لها حَمَلةً، والعَرشُ ذَكَرَ له حَمَلةً مع أنَّ الَّذي أمسَك السَّمَواتِ والأرضَ أنْ تَزولا قادِرٌ على إمساكِ العَرشِ بلا حَمَلةٍ، لكِنْ هذا مِن بابِ التَّعظيمِ والتَّنويهِ بشَرَفِه وعَظَمتِه(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ تَدُلُّ على أنَّ استِغفارَ الملائِكةِ لأهلِ الأرضِ خاصٌّ بالمؤمِنينَ منهم، وقد جاءت آيةٌ أُخرى يدُلُّ ظاهِرُها على خِلافِ ذلك، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]؟

الجواب: أنَّ آيةَ (غافر) مُخَصِّصةٌ لآيةِ (الشورى)، والمعنى: ويَستَغفِرونَ لِمَن في الأرضِ مِنَ المؤمِنينَ؛ لِوُجوبِ تَخصيصِ العامِّ بالخاصِّ(٢).

٣- دُعاءُ الملائكةِ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ...﴾ إلى آخِرِ الدُّعاءِ، تَضَمَّنَ أمورًا؛ منها:

أوَّلًا: قد تَضَمَّنَ هذا الدُّعاءُ مِن الملائكةِ كَمالَ مَعرفتِهم برَبِّهم، والتَّوسُّلَ إلى اللهِ بأسمائِه الحُسنى الَّتي يُحِبُّ مِن عِبادِه التَّوسُّلَ بها إليه، والدُّعاءَ بما يناسِبُ ما دَعَوُا اللهَ فيه؛ فلمَّا كان دعاؤُهم بحُصولِ الرَّحمةِ، وإزالةِ أثَرِ ما اقتَضَتْه النُّفوسُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧).

البَشَريَّةُ الَّتي عَلِمَ اللهُ نَقْصَها واقتِضاءَها لِما اقتَضَتْه مِنَ المعاصي، ونحوِ ذلك مِن المَبادئِ والأسبابِ الَّتي قد أحاط اللهُ بها عِلمًا- تَوَسَّلوا بالرَّحيم العَليم، وتضَمَّن كَمالَ أدَبِهم مع اللهِ تعالى بإقرارِهم برُبوبيَّتِه لهم الرُّبوبيَّةَ العامَّةَ والخاصَّةَ، وأنَّه ليس لهم مِنَ الأمرِ شَيءٌ، وإنَّما دُعاؤُهم لرَبِّهم صَدَر مِن فَقيرٍ بالذَّاتِ مِن جَميعِ الوُجوهِ لا يُدِلُّ على رَبِّه بحالةٍ مِن الأحوالِ، إنْ هو إلَّا فَضْلُ اللهِ وكَرَمُه وإحسانُه.

ثانيًا: تضَمَّن أيضًا مُوافقَتَهم لرَبِّهم تمامَ المُوافَقةِ، بمَحبَّةِ ما يُحِبُّه مِن الأعمالِ الَّتي هي العِباداتُ الَّتي قاموا بها، واجتَهَدوا اجتِهادَ المُحِبِّينَ، ومِن العُمَّالِ الَّذين هم المؤمِنونَ الَّذين يحِبُّهم اللهُ تعالى مِن بيْنِ خَلْقِه؛ فسائِرُ الخَلقِ المُكَلَّفينَ يُبغِضُهم اللهُ إلَّا المؤمِنينَ منهم، فمِن مَحَبَّةِ الملائكةِ لهم دَعَوُا اللهَ، واجتَهَدوا في صَلاحِ أحوالِهم؛ لأنَّ الدُّعاءَ للشَّخصِ مِن أدَلِّ الدَّلائِلِ على مَحَبَّتِه؛ لأنَّه لا يدعو إلَّا لِمَن يُحِبُّه.

ثالثًا: تضَمَّن ما شَرَحه اللهُ وفَصَّله مِن دُعائِهم بعْدَ قَولِه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ التَّنبيهَ اللَّطيفَ على كيفيَّةِ تدَبُّرِ كِتابِه، وألَّا يَكونَ المُتدَبِّرُ مُقتَصِرًا على مجرَّدِ معنى اللَّفظِ بمُفردِه، بل يَنبغي له أن يَتدبَّرَ معنى اللَّفظِ، فإذا فَهِمَه فَهمًا صَحيحًا على وَجْهِه نظَرَ بعَقلِه إلى ذلك الأمرِ، والطُّرُقِ المُوصِلةِ إليه، وما لا يَتِمُّ إلَّا به، وما يتوقَّفُ عليه، وجزَم بأنَّ اللهَ أراده، كما يَجزِمُ أنَّه أراد المعنى الخاصَّ الدَّالَّ عليه اللَّفظُ، والَّذي يُوجِبُ له الجَزمَ بأنَّ اللهَ أراده أمْرانِ؛ أحَدُهما: مَعرفتُه وجَزْمُه بأنَّه مِن توابِعِ المعنى والمتوقِّفُ عليه. والثَّاني: عِلمُه بأنَّ اللهَ بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ، وأنَّ اللهَ أمَرَ عِبادَه بالتَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ في كتابِه. وقد عَلِمَ تعالى ما يَلزَمُ مِن تلك المعاني، وهو المُخبِرُ بأنَّ كِتابَه هُدًى ونُورٌ وتِبيانٌ لكُلِّ شَيءٍ، وأنَّه أفصَحُ الكَلامِ وأجَلُّه إيضاحًا، فبذلك يَحصُلُ للعَبدِ مِن العِلمِ العَظيمِ والخَيرِ الكثيرِ

بحَسَبِ ما وفَّقَه اللهُ له.

رابعًا: قَولُ الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ تضَمَّن أنَّ المقارِنَ مِن زَوجٍ وولَدٍ وصاحِبٍ: يَسعَدُ بقَرينِه، ويَكونُ اتِّصالُه به سَببًا لخَيرٍ يَحصُلُ له خارِجًا عن عَمَلِه وسَبَبِ عَمَلِه، كما كانت الملائِكةُ تدعو للمؤمِنينَ ولِمَن صَلَح مِن آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّيَّاتِهم، وقد يُقالُ: إنَّه لا بُدَّ مِن وُجودِ صَلاحِهم؛ لِقَولِه: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾؛ فحينَئذٍ يكونُ ذلك مِن نتيجةِ عَمَلِهم[1].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ يُوجِبُ أنَّ لله تعالى عَرشًا يُحمَلُ، ويُوجِبُ أنَّ ذلك العَرشَ ليس هو المُلْكَ، كما تَقولُه طائِفةٌ مِن الجَهميَّةِ؛ فإنَّ المُلْكَ هو مجموعُ الخَلقِ، فهنا دَلَّت الآيةُ على أنَّ لله ملائِكةً مِن جُملةِ خَلْقِه يَحمِلونَ عَرشَه، وآخَرونَ يكونونَ حَوْلَه[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ لَمَّا كان رُبَّما وقَعَ وَهمٌ أنَّه سُبحانَه مُحتاجٌ إلى حَملِهم لِعَرشِه، أو إلى عَرشِه، أو إلى شَيءٍ؛ نَبَّه بالتَّسبيحِ على أنَّه غَنيٌّ عن كُلِّ شَيءٍ[3].

٦- المَيتُ يَنتفِعُ بدُعاءِ الخَلْقِ له، واتَّفقَ أئمَّةُ الإسلامِ على ذلك، ودلَّ عليه كِتابُ الله تعالى؛ كقَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ...﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿وَقِهِمُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢).

ٱلسَّيِّـَٔاتِ ...﴾؛ فقد أخبرَ سُبحانَه أنَّ الملائِكةَ يَدْعُونَ للمُؤمِنينَ بالمَغفِرةِ، ووِقايةِ العَذابِ، ودُخولِ الجنَّةِ(١).

٧- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ تأمَّلْ ما تضَمَّنَه هذا الخبَرُ عن الملائِكةِ مِن مَدْحِهم بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، والإحسانِ إلى المؤمِنينَ بالاستِغفارِ لهم، وقَدَّموا بيْنَ يَدَيِ استِغفارِهم تَوسُّلَهم إلى اللهِ تعالى بسَعةِ عِلمِه وسَعةِ رَحمتِه؛ فسَعةُ عِلمِه تَتضَمَّنُ عِلمَه بذُنوبِهم وأسبابِها، وضَعفِهم عن العِصمةِ، واستيلاءِ عَدُوِّهم وأنفُسِهم وهواهم وطِباعِهم، وما زُيِّنَ لهم مِن الدُّنيا وزينتِها، وعِلمَه بهم إذ أنشَأَهم مِن الأرضِ وإذ هم أجِنَّةٌ في بُطونِ أمَّهاتِهم، وعِلمَه السَّابِقَ بأنَّهم لا بُدَّ أن يَعصُوه، وأنَّه يُحِبُّ العَفوَ والمَغفِرةَ، وغيرَ ذلك مِن سَعةِ عِلمِه الَّذي لا يُحيطُ به أحَدٌ سِواه. وسَعةُ رَحمتِه تَتضَمَّنُ أنَّه لا يَهلِكُ عليه أحَدٌ مِن المؤمِنينَ به أهلِ تَوحيدِه ومَحبَّتِه؛ فإنَّه واسِعُ الرَّحمةِ لا يَخرُجُ عن دائرةِ رَحمتِه إلَّا الأشقياءُ، ولا أشقَى ممَّن لم تَسَعْه رَحمتُه الَّتي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ(٢).

٨- قولُه تعالى: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ فيه أنَّ الملائكةَ مُكَلَّفون، ووجْهُ الدَّلالةِ: أنَّهم لولا أنَّهم مُكَلَّفون قد قاموا بما كُلِّفوا به؛ لم يَكونوا مُستحِقِّينَ للثَّناءِ بالإيمانِ! لو كان هذا مِن طبيعتِهم وسَجِيَّتِهم لم يكنْ للثَّناءِ عليهم بذلك كبيرُ فائدةٍ(٣).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿وَمَن

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٩٣).

صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ دليلٌ على كرامةِ المؤمنِ على اللهِ؛ إذْ قد أَلْهَم حَمَلةَ عرْشِه ومَن حَوْلَه الاستِغفارَ له، والدُّعاءَ، وما فيه -له ولآبائِه وأزواجِه وذُرِّيَّاتِه- النَّجاةُ[١].

١٠- قال الوَزيرُ ابنُ هُبَيرةَ في قَولِه تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾: (عَلِمَت الملائِكةُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُحِبُّ عبادَه المؤمِنينَ، فتَقرَّبوا إليه بالشَّفاعةِ فيهم، وأحسَنُ القُرَبِ أنْ يُسأَلَ المُحِبُّ إكرامَ حَبيبِه؛ فإنَّك لو سألْتَ شَخصًا أن يَزيدَ في إكرامِ وَلَدِه لارتفَعْتَ عندَه؛ حيثُ تَحُثُّه على إكرامِ مَحبوبِه)[٢].

١١- يُتوسَّلُ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى بصِفاتِه كما يُتَوَسَّلُ إليه بأسمائِه، فهنا تَوَسَّلَ الملائِكةُ إلى اللهِ بالرُّبوبيَّةِ في قَولِهم: ﴿رَبَّنَا﴾، وتوسَّلوا إليه بسَعةِ الرَّحمةِ: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾، وبسَعةِ العلمِ: ﴿وَعِلْمًا﴾، والتَّوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بصِفاتِه هو مِن أسبابِ إجابةِ الدُّعاءِ، كالتَّوسُّلِ إليه بأسمائِه[٣].

١٢- الدُّعاءُ في أكثَرِ الأمرِ مَذكورٌ بلَفظِ (رَبَّنا)، ويدُلُّ عليه أنَّ الملائِكةَ عندَ الدُّعاءِ قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾، وقال آدَمُ عليه السَّلامُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال نوحٌ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧]، إلى غيرِ ذلك؛ فثَبَت أنَّ مِن أرضَى الدُّعاءِ أن يُناديَ العَبدُ رَبَّه بقَولِه: (يا رَبِّ)[٤]؛ ففيه استِعطافُ العَبدِ لِمَولاه الَّذي ربَّاه وقام بمَصالِحه مِن لَدُنْ نَشأتِه إلى وَقتِ ندائِه؛ فهو جَديرٌ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٠).

بألَّا يُناديَه إلَّا بلَفظِ الرَّبِّ[١] المُقتضي للقيامِ بأمورِ العِبادِ وإصلاحِها، فكان العبدُ مُتعلِّقًا بمَنْ شأنُه التَّربيةُ والرِّفقُ والإحسانُ، قائلًا: يا مَن هو المُصلِحُ لِشُؤونِنا على الإطلاقِ، أتِمَّ لنا ذلك بكذا، وهو مُقتضى ما يَدعو به. وإنَّما أتى «اللَّهُمَّ» في مواضعَ قليلةٍ، ولِمَعانٍ اقتضَتْها الأحوالُ[٢].

١٣- جَعْلُ الرَّحمةِ عِلَّةً للمَغفرةِ في قولِ الملائكةِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ ظاهِرٌ، أمَّا جَعْلُ العِلمِ عِلَّةً للمَغفرةِ، فمَعناهُ: حقِّقْنا أنَّ رحمتَك وَسِعَتْ كلَّ شَيءٍ فاغفِرْ للَّذينَ تابوا، وعرِّفْنا أنَّ عِلمَك أحاطَ بكلِّ شَيءٍ فأَنجِحْ مَقاصِدَهم ما عَلِموا وما لم يَعلَموا؛ فإنَّك أَعلَمُ بأحوالِهم ومَصالِحِهم[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ دعاءُ حمَلةِ العَرشِ ومَن حَوْلَه للتَّائبينَ المُتَّبِعينَ سبيلَ اللهِ بالمغفرةِ؛ وفيه دليلٌ على أنَّ التَّائبَ وغيرَ التَّائبِ مُحتاجٌ إلى مغفرةِ اللهِ ورِضوانِه؛ لا يُنَجِّيه عمَلُه دونَ أنْ يَجودَ عليه مَولاه برحمتِه[٤].

١٥- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ فهذا دعاءُ الملائكةِ للمُؤمنينَ التَّائبينَ المُتَّبِعينَ لكِتابِه وسُنَّةِ رَسولِه، الَّذين لا سبيلَ لهم غيرُهما؛ فلا يَطمَعْ غيرُ هؤلاء بإجابةِ هذه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٦٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧).

الدَّعوةِ؛ إذْ لم يَتَّصِفْ بصِفاتِ المَدعُوِّ له بها[١]!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ أنَّ مؤمني الجِنِّ يَدخُلونَ الجَنَّةَ، ودليلُ ذلك أنَّ كلَّ مؤمنٍ غَفَر اللهُ له ووقاه عذابَ الجحيم؛ فقد وَعَده الجَنَّةَ، والجِنُّ قد ثَبَت في حقِّ مؤمنِهم الإيمانُ، ومغفرةُ الذَّنْبِ، ووِقايةُ النَّارِ، كما في قولِه تعالى عن نَفَرٍ مِن الجِنِّ أنَّهم قالوا لقومِهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأحقاف: ٣١]؛ فتَعَيَّنَ دُخولُهم الجَنَّةَ[٢].

١٧- قولُه تعالى حكايةً عن الملائكةِ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ فيه أنَّ مِن تحقيقِ التَّوبةِ اتِّباعَ سَبيلِ اللهِ؛ ولهذا نَجِدُ أنَّ اللهَ تعالى يَقرِنُ دائمًا مع التَّوبةِ ذِكْرَ العَمَلِ الصَّالحِ، كقَولِه تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾[٣] [الفرقان: ٧٠].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ أنَّ الشَّيءَ لا يَتِمُّ إلَّا بانتِفاءِ المُؤذي، وحُصولِ المطلوبِ؛ وَجْهُ ذلك: أنَّهم لَمَّا انتَهَوا مِن دُعاءِ اللهِ تعالى بانتِفاءِ المُؤذي، سألوا اللهَ تعالى حُصولَ المطلوبِ، وهو إدخالُ الجنَّاتِ[٤].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ التَّوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بإجابةِ الدُّعاءِ، كأنَّهم يقولونَ: أدْخِلْهم هذا؛ لأنَّك وعَدْتَهم إيَّاه؛ فيكونُ مِن بابِ التَّوسُّلِ بوَعدِه

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٦٢).
(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٨).

إلى تحقُّقِ مَوعودِه[١].

٢٠- قولُهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ فيه أنَّ مِن تمامِ النَّعيمِ أنْ يَجمَعَ اللهُ بيْنَ الإنسانِ وبيْن قَرابَتِه وزَوجِه، فإنْ قال قائلٌ: هل يَلزَمُ مِن ذلك أنْ يكونوا في درجةٍ واحدةٍ؟

قُلْنا: لا يَلزَمُ، ولكِنَّ الأزواجَ لا بُدَّ أنْ يَكونوا في دَرَجةِ أزواجِهم، والذُّرِّيَّةُ ذَكَر اللهُ سبحانه وتعالى في سورةِ (الطُّور) أنَّها في دَرَجةِ آبائِهم أيضًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، وهذا يدُلُّ على أنَّ الذُّرِّيَّةَ الَّذين لم يَبلُغوا مَنازِلَ آبائِهم أنَّهم يُرفَعونَ حتَّى يَكونوا في مَنازِلِ آبائِهم، وأنَّ ذلك لا يَقتضي نَقْصَ الآباءِ مِن المَنازِلِ؛ ولذلك قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾[٢].

٢١- قولُهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ فيه الاحترازُ في الدُّعاءِ عن التَّعميمِ؛ حيثُ قالوا: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾، ولم يَقولوا: (وآباءَهم وأزواجَهم وذُرِّيَّاتِهم)، ومِن ذلك قولُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ﴾ أي: أهلَ المسجدِ الحرامِ ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]؛ فقال: ﴿أَهْلَهُۥ﴾ ثم أبدَلَ منها قَولَه: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فاحترَزَ، ولكِنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ يعني: أرزُقُ مَن في هذا البلدِ ولو كانوا كُفَّارًا، لكِنْ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ فيَنبغي للإنسانِ في الدُّعاءِ أنْ يَحترِزَ مِن التَّعميمِ الَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٨، ١٠٩).

قد يَتناوَلُ مَن لا يَستحِقُّ الدُّعاءَ، فيَكونُ في دعائِه هذا نَوعٌ مِن الاعتداءِ[١].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ أثبَتَ سبحانه الزَّوجيَّةَ لهنَّ بعدَ دُخولِ الجنَّةِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ زَوجةَ الإنسانِ في الدُّنيا تكونُ زوجتَه في الآخرةِ إذا كانت مِن أهلِ الجنَّةِ[٢].

٢٣- أخبَرَ سُبحانَه عن ملائكتِه أنَّهم قالوا عَقِيبَ هذه الدَّعوةِ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، أي: مَصدَرُ ذلك وسَبَبُه وغايتُه صادِرٌ عن كَمالِ قُدرتِك وكمالِ عِلمِك؛ فإنَّ العِزَّةَ كَمالُ القُدرةِ، والحِكمةَ كَمالُ العِلمِ، وبهاتَينِ الصِّفَتينِ يَقضي سُبحانَه وتعالى ما شاء، ويأمُرُ ويَنهى، ويُثيبُ ويُعاقِبُ؛ فهاتانِ الصِّفتانِ مَصدَرُ الخَلقِ والأمرِ[٣].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾ أنَّ الملائكةَ الَّذين يَحمِلونَ العَرشَ ومَن حوْلَه يَسألونَ اللهَ تعالى أن يَقِيَ الَّذين آمَنوا السَّيِّئاتِ -أي: عذابَها (على قولٍ في التَّفسيرِ)- حتَّى يَتِمَّ لهمُ المطلوبُ، فإنْ قال قائلٌ: أليس هذا حاصِلًا مِمَّا سبَقَ ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ﴿وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾؟

قُلْنا: بلى، ولكِنْ مقامُ الدُّعاءِ ينبغي فيه البَسطُ؛ لعِدَّةِ أسبابٍ:

السَّببُ الأوَّلُ: لأنَّه عِبادةٌ، فكُلَّما بَسَطْتَ فيه ازدَدْتَ تَعبُّدًا وتَقرُّبًا للهِ.

الثَّاني: أنَّه تفصيلٌ، والتَّفصيلُ خيرٌ مِن الإجمالِ؛ لأنَّه قد يكونُ في التَّفصيلِ ما يَغيبُ عنك عندَ الإجمالِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١١٦).

الثَّالثُ: أنَّه انبساطٌ مع اللهِ الَّذي هو أحَبُّ شَيءٍ إليك، والحَديثُ مع المحبوبِ لا شكَّ أنَّ كلَّ أحدٍ يُحِبُّ أن يَطولَ؛ انظُرْ إلى قَولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ذَنْبي كُلَّه؛ دِقَّه وجِلَّه[1]، وأوَّلَه وآخِرَه، وعلانيتَه وسِرَّه))[2]، ((اللَّهمَّ اغفِرْ لي ما قدَّمْتُ وما أخَّرْتُ، وما أسرَرتُ وما أعلَنْتُ، وما أنت أعلَمُ به مِنِّي))[3]، وكان يَكفي عن هذا كُلِّه أن يَقولَ: اللَّهمَّ اغفِرْ لي ذنْبي. لكِنَّ البَسطَ له تأثيرٌ على القَلبِ[4].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾ أنَّ الرَّحمةَ كما تكونُ في جَلبِ المحبوبِ، تكونُ في دَفعِ المكروهِ[5].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ استِئْنافٌ ابتِدائيٌّ اقتَضاهُ الانتِقالُ مِن ذِكرِ الوعيدِ المُؤْذِنِ بذَمِّ الَّذين كَفَروا إلى ذِكرِ الثَّناءِ على المؤمِنينَ؛ فإنَّ الكلامَ الجاريَ على أَلْسِنةِ المَلائكةِ مِثلُ الكلامِ

(١) دِقَّه: أي: دَقيقَه وصَغيرَه. وجِلَّه: أي: جَليلَه وكَبيرَه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٧٢١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٣) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩) واللفظ له، من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١١٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٧).

الجاري على ألْسِنةِ الرُّسُلِ؛ إذِ الجميعُ مِن وَحيِ اللهِ، والمُناسَبةُ: المُضادَّةُ بيْنَ الحالَينِ والمَقالَينِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ استِئنافًا بَيانيًّا ناشِئًا عن وعيدِ المُجادِلينَ في آياتِ اللهِ أنْ يَسألَ سائلٌ عن حالِ الَّذينَ لا يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ فآمَنوا بها[١]. أو هو استِئنافٌ مَسوقٌ لتَسليةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ببَيانِ أنَّ أشرافَ المَلائكةِ عليهمُ السَّلامُ مُثابِرونَ على ولايةِ مَن معَه مِنَ المؤمِنينَ، ونُصْرتِهم، واستِدعاءِ ما يُسعِدُهم في الدَّارَينِ[٢].

- والباءُ في قَولِه: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ للمُلابَسةِ، أيْ: يُسَبِّحونَ اللهَ تَسبيحًا مُصاحِبًا للحمدِ؛ فحُذِف مَفعولُ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ لدَلالةِ المُتعلِّقِ به عليه[٣].

- قولُه: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ فيه وصْفُ حَمَلةِ العرشِ بالإيمانِ -مع أنَّ إيمانَهم به مَعلومٌ لكلِّ أحَدٍ-؛ لإظهارِ شَرَفِ الإيمانِ وفَضلِه، والتَّرغيبِ فيه، وتَعظيمًا لأهلِه، كما وُصِف الأنبياءُ عليهمُ السَّلامُ بالإيمانِ والصَّلاحِ، والإشعارِ بعِلَّةِ دُعائِهم للمؤمِنينَ، حَسَبَما يَنطِقُ به قَولُه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ فإنَّ المُشارَكةَ في الإيمانِ أقْوى المُناسَباتِ وأتَمُّها، وأَدْعى الدَّواعي إلى النُّصحِ والشَّفَقةِ، وللتَّعريضِ بالمُشرِكينَ أنْ لم يَكونوا مِثلَ أشرَفِ أجناسِ المَخلوقاتِ، مِثلُ قَولِه تعالى في حقِّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٤] [الأنعام: ١٦١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٩).

- قولُه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في نَظْمِ استِغفارِ المَلائكةِ للمؤمِنينَ في سِلْكِ وظائِفِهم المَفروضةِ عليهم مِن تَسبيحِهم، وتَحميدِهم، وإيمانِهم: إيذانٌ بكمالِ اعتِنائِهم به، وإشعارٌ بوُقوعِه عِندَ اللهِ تعالى في مَوقِعِ القَبولِ[١].

- والإخبارُ عن صِنفَيِ المَلائكةِ بأنَّهم يُسَبِّحونَ ويؤْمِنونَ به تَوطئةٌ وتمهيدٌ للإخبارِ عنهم بأنَّهم يَستغفِرونَ للَّذينَ آمَنوا، فذلك هو المقصودُ مِنَ الخبَرِ، فقُدِّم له ما فيه تحقيقُ استِجابةِ استِغفارِهم؛ لصُدورِه ممَّن دأْبُهمُ التَّسبيحُ، وصِفَتُهمُ الإيمانُ[٢].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ ﴿وَيُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ مُفيدةٌ لتَجدُّدِ ذلك وتَكرُّرِه، وذلك مُشعِرٌ بأنَّ المُرادَ أنَّهم يَفعَلونَ ذلك في الدُّنيا[٣].

- وخُصَّ في هذه الآيةِ طائفةٌ مِنَ المَلائكةِ مَوصوفةٌ بأوصافٍ تَقتَضي رِفْعةَ شأنِهم؛ تَذَرُّعًا مِن ذلك إلى التَّنويهِ بشَأنِ المؤمِنينَ الَّذينَ تَستغفِرُ لهم هذه الطَّائفةُ الشَّريفةُ مِنَ المَلائكةِ[٤].

- قولُه: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ...﴾ افتُتِح دُعاءُ المَلائكةِ للمؤمِنينَ بالنِّداءِ؛ لأنَّه أدخَلُ في التَّضرُّعِ، وأرْجَى للإجابةِ، وفيها قولٌ مَحذوفٌ دلَّتْ عليه طريقةُ التَّكلُّمِ، وتقديرُ الكلامِ أنَّهم يَقولونَ: رَبَّنا ...[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٩، ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦١).

- وفي قولِهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ توجَّهوا إلى اللهِ بالثَّناءِ بسَعةِ رحمتِه وعِلمِه؛ لأنَّ سَعةَ الرَّحمةِ ممَّا يُطمِعُ باستِجابةِ الغُفرانِ، وسَعةَ العِلمِ تَتعلَّقُ بثُبوتِ إيمانِ الَّذينَ آمَنوا. ومعنَى السَّعةِ في الصِّفتَينِ: كَثرةُ تَعلُّقاتِهما، وذِكرُ سَعةِ العِلمِ كِنايةٌ عن يَقينِهم بصِدقِ إيمانِ المؤمِنينَ؛ فهو بمَنزِلةِ قَولِ القائلِ: أنت تَعلَمُ أنَّهم آمَنوا بك ووَحَّدوكَ[(١)].

- وجِيءَ في وَصفِه تعالى بالرَّحمةِ الواسِعةِ والعِلمِ الواسِعِ بأُسلوبِ التَّمييزِ المُحَوَّلِ عن النِّسبةِ ﴿وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾؛ لِما في تَركيبِه مِنَ المُبالَغةِ بإسنادِ السَّعةِ إلى الذَّاتِ ظاهِرًا، حتَّى كأنَّ ذاتَه رحمةٌ وعِلمٌ واسِعانِ كلَّ شَيءٍ، فهيَ الَّتي وَسِعَتْ، فذلك إجمالٌ يَستَشرِفُ به السَّامعُ إلى ما يَرِدُ بَعْدَه، فيَجيءُ بَعْدَه التَّمييزُ المُبيِّنُ لنِسبةِ السَّعةِ أنَّها مِن جانبِ الرَّحمةِ وجانبِ العِلمِ، وهي فائدةُ تَمييزِ النِّسبةِ في كلامِ العربِ؛ لأنَّ للتَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ تَمكينًا للصِّفةِ في النَّفْسِ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ تقديمُ الرَّحمةِ على العِلمِ؛ لأنَّها المقصودةُ بالذَّاتِ هاهنا؛ لأنَّهم بها يَستَمطِرونَ إحسانَه، ويَتَوسَّلونَ بها إلى حُصولِ مَطلوبِهم مِن سؤالِ المَغفرةِ[(٣)].

- وفائدةُ العُدولِ عن المُضمَرِ وأنَّه لم يُقَلْ: (فاغفِرْ لهم)، بل قيل: ﴿لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ هي: أنَّ الملائكةَ كما علَّلوا الغُفرانَ في حقِّ مُفيضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧).

الخَيراتِ بالعِلمِ الشَّامِلِ والرَّحمةِ الواسِعةِ، عَلَّلوا قابلَ الفَيضِ أيضًا بالتَّوبةِ عن الشِّركِ، واتِّباعِ سبيلِ الإسلامِ[١].

- ومَفعولُ ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾ مَحذوفٌ؛ للعِلمِ، أيْ: اغفِرْ لهم ما تابوا منه، أي: ذُنوبَ الَّذينَ تابوا[٢].

- وتفرَّعَ على التَّوطئةِ بمُناجاةِ اللهِ تعالى ما هو المُتَوسَّلُ إليه منها، وهو طلَبُ المَغفرةِ للَّذينَ تابوا؛ لأنَّه إذا كان قد عَلِم صِدقَ تَوبةِ مَن تابَ منهم، وكانت رحمتُه وَسِعَتْ كلَّ شَيءٍ؛ فقد استَحَقُّوا أنْ تَشملَهم رَحمتُه؛ لأنَّهم أَحْرياءُ بها[٣].

- قولُه: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ عطْفٌ على ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾، فهو مِن جُملةِ التَّفريعِ؛ فإنَّ الغُفرانَ يَقتَضي هذه الوِقايةَ؛ لأنَّ غُفرانَ الذَّنْبِ هو عدَمُ المؤاخَذةِ به. وعَذابُ الجَحيمِ جعَلَه اللهُ لجَزاءِ المُذْنِبينَ، إلَّا أنَّهم عَضَّدوا دَلالةَ الالتِزامِ بدَلالةِ المُطابَقةِ[٤]؛ إظهارًا للحِرصِ على المَطلوبِ[٥]، وهو تصريحٌ بعدَ إشعارٍ؛ للتَّأكيدِ والدَّلالةِ على شدَّةِ العَذابِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١).

(٤) الدَّلالةُ اللَّفظيَّةُ الوَضْعيَّةُ تَنقسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: دَلالةِ المُطابَقةِ، ودَلالةِ التَّضَمُّنِ، ودَلالةِ الالتِزامِ؛ فدَلالةُ المُطابَقةِ: هي دَلالةُ اللَّفظِ على تمامِ مُسَمَّاهُ؛ كدَلالةِ الإنسانِ والأسدِ على حقيقتَيْهِما. ودَلالةُ التَّضمُّنِ: دَلالةُ اللَّفظِ على بعضِ مُسَمَّاهُ؛ كدَلالةِ البَيتِ على السَّقفِ أو الحائطِ. ودَلالةُ الالتِزامِ: دَلالةُ اللَّفظِ على معنًى آخَرَ خارِجٍ عن معناه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٩، ٣٣٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٢٠٩، ٢١٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن ابن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٣٠، ١٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧، ٢٦٨).

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ إعادةُ النِّداءِ ﴿رَبَّنَا﴾ في خِلالِ جُمَلِ الدُّعاءِ اعتراضٌ؛ للتَّأكيدِ بزيادةِ التَّضرُّعِ، وهذا ارتِقاءٌ مِن طلَبِ وِقايَتِهمُ العَذابَ إلى طلَبِ إدخالِهم مَكانَ النَّعيمِ[1].

- وجعَلوا هذه الجُملةَ مَعطوفةً على ما سَبَق لا مُستأنَفةً، أي: لم يَقولوا: (ربَّنا أدخِلْهم)، بل قالوا: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾؛ لتحَقُّقِ ما قبْلَها؛ لأنَّ العَطفَ يَقتضي ثُبوتَ المَعطوفِ عليه وكَوْنَه أصلًا، فكأنَّهم قالوا: ربَّنا واجمَعْ لهم مع ما سبَقَ أن تُدخِلَهم جنَّاتِ عَدْنٍ[2].

- وفي قَولِه: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ نوعٌ طَريفٌ مِن أنواعِ البَلاغةِ، وهو ما يعرفُ بـ «الإسجالِ بعدَ المُغالَطةِ»، وهو أنْ يَقصِدَ المُتكلِّمُ غَرَضًا مِن مَمدوحٍ، فيأتيَ بألفاظٍ تُقرِّرُ بُلوغَه ذلك الغرَضَ؛ إسجالًا منه على المَمدوحِ به، وبيانُ ذلك: أنْ يَشترِطَ شَرطًا يَلزَمُ مِن وُقوعِه وُقوعُ ذلك الغرَضِ، ثمَّ يُخبِرَ بوُقوعِه مُغالَطةً -وإنْ لم يَكُنْ قد وقَعَ بَعْدُ- لِيَقعَ المَشروطُ، وقد يَقَعُ الإسجالُ لغَيرِ مُغالَطةٍ، وهذا القِسْمُ هو الَّذي يأتي في الكتابِ العزيزِ كثيرًا، ومنه هذه الآيةُ الكريمةُ، حيث سجَّلَ المولى سبحانَه على ألْسِنةِ عِبادِه تحقيقَ مَوعودِه على لِسانِ رَسولِه؛ ففي قولِه: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ أنَّ هذا الوعدَ قد أصبح مُبرَمًا لا انفكاكَ لإبرامِه، وهذا هو الغرضُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٥).

الحقيقيُّ مِن الدُّعاءِ للمؤمنينَ؛ فبان بذلك تقريرُ هذا الغرضِ وتأكيدُه، وأنَّ الحقَّ سبحانَه سَيَفي به لعِبادِه المؤمنينَ في الآخِرةِ كما وعَدَهم(١).

- قولُه: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ عطْفٌ على الضَّميرِ (هُم) الأوَّلِ في ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾، أي: أَدخِلْهُم ومعهم هؤلاءِ؛ لِيَتِمَّ سُرورُهم، ويَتضاعَفَ ابتِهاجُهم، وهو دعاءٌ بأنْ يَجعَلَهمُ اللهُ معهم في مَساكِنَ مُتقارِبةٍ، أو يُمكِنُ أنْ يَكونَ مَعطوفًا على الضَّميرِ الثَّاني في ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾؛ لبَيانِ عُمومِ الوعدِ. وقيل: هو عطْفٌ على الثَّاني في ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾، لكنْ لا بِناءً عَلى الوَعدِ العامِّ للكلِّ كما قيلَ؛ إذْ لا يَبقى حينَئذٍ للعَطفِ وَجْهٌ، بلْ بِناءً على الوعدِ الخاصِّ بهم بقولِه تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] بأنْ يَكونُوا أعلى درجةً مِن ذُرِّيَّتِهم(٢).

- ورُتِّبَتِ القَراباتُ في هذه الآيةِ على ترتيبِها الطَّبيعيِّ؛ فإنَّ الآباءَ أسبَقُ عَلاقةً بالأبناءِ، ثمَّ الأزواجُ، ثمَّ الذُّرِّيَّاتُ(٣). وقيل: قدَّموا الآباءَ؛ لأنَّ الآباءَ أحَقُّ النَّاسِ بالإجلالِ، وقدَّموا الأزواجَ في اللَّفظِ على الذُّرِّيَّةِ؛ لأنَّهم أشَدُّ إلصاقًا بالشَّخصِ(٤).

- وجملةُ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تَعليلٌ لِما قَبْلَها، وهي اعتِراضٌ بيْن الدَّعَواتِ؛ استِقصاءً للرَّغبةِ في الإجابةِ بداعي مَحبَّةِ المَلائكةِ لأهلِ

---

(١) يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٧٤، ٥٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٢/ ١٤٢) و(٨/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٢، ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٧١).

الصَّلاحِ؛ لِما بيْن نُفوسِهم والنُّفوسِ المَلَكيَّةِ مِنَ التَّناسُبِ[١].

- واقترانُ هذه الجُملةِ بحرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بها، و(إنَّ) في مِثلِ هذا المَقامِ تُغْني غَناءَ فاءِ السَّببيَّةِ، أي: فعِزَّتُك وحِكمتُك هُما اللَّتانِ جَرَّأتَانا على سؤالِ ذلك مِن جَلالِكَ؛ فالعِزَّةُ تَقتَضي الاستِغناءَ عن الانتِفاعِ بالأشياءِ النَّفيسةِ، فلمَّا وعَدَ الصَّالِحينَ الجَنَّةَ لم يَكُنْ للهِ ما يَضِنُّه بذلك، فلا يَصدُرُ منه مَطْلٌ، والحِكمةُ تَقتَضي مُعامَلةَ المُحسِنِ بالإحسانِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ ﴾، أي: امنَعْهُم مِنَ الوُقوعِ فيها؛ حتَّى لا يَترتَّبَ عليها جَزاؤُها، أو العُقوباتِ؛ لأنَّ جزاءَ السَّيِّئةِ سيِّئةٌ مِثلُها، أو قِهِمْ جَزاءَ السَّيِّئاتِ الَّتي اجترَحوها؛ فحُذِفَ المُضافُ، وهو تَعميمٌ بعدَ تَخصيصٍ، أو مَخصوصٌ بالأتْباعِ فعلى هذا يكونُ الدعاءُ الأوَّلُ للمَتْبوعينَ، أو المعاصي في الدُّنيا؛ فقولُه: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ ﴾، أي: ومَن تَقِها في الدُّنيا فقد رَحِمْتَه في الآخِرةِ، كأنَّهم طَلَبوا السَّببَ بعدَ ما سَألوا المُسَبَّبَ[٣].

- لا تَكرارَ في قولِه: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ ﴾ وقولِه: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾؛ لعدَمِ تَوافُقِ المَدعُوِّ؛ إذِ الدُّعاءُ الأوَّلُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨).

للَّذينَ تابوا، والثَّاني لهم ولِمَن صَلَح مِن المَذكورينَ، أو لاختِلافِ الدُّعائينِ إذا أُريدَ بالسَّيِّئاتِ أنفُسُها؛ فذلك وِقايةُ عَذابِ الجَحيمِ، وهذا وِقايةُ الوُقوعِ في السَّيِّئاتِ[١].

- وصِيغَتْ كَلِمةُ (سَيِّئة) على وَزنِ فَيْعَلة؛ للمُبالَغةِ في قِيامِ الوَصفِ بالمَوصوفِ، أي: وقِهِمْ مِن كلِّ ما يَسوؤُهم؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ للجِنسِ، وهو صالحٌ لإفادةِ الاستِغراقِ، فوُقوعُه في سِياقِ ما هو كالنَّفيِ -وهو فِعلُ الوِقايةِ- يُفيدُ عُمومَ الجِنسِ، على أنَّ بِساطَ الدُّعاءِ يَقتَضي عُمومَ الجِنسِ ولو بدُونِ لامِ نَفيٍ[٢].

- وقولُه: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ تَذييلٌ، أي: وكلُّ مَن وُقِيَ السَّيِّئاتِ يَومَ القِيامةِ فقد نالَتْهُ رحمةُ اللهِ، أي: نالَتْهُ الرَّحمةُ كامِلةً، ففِعلُ ﴿رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ مُرادٌ به تَعظيمُ مَصدَرِه[٣].

- والتَّنوينُ في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ تَنوينُ العِوَضِ، والمَحذوفُ جُملةٌ عُوِّضَ منها التَّنوينُ، ولم تَتقَدَّمْ جُملةٌ يَكونُ التَّنوينُ عِوَضًا منها؛ فلا بدَّ مِنَ تَقديرِ جُملةٍ يَكونُ التَّنوينُ عِوَضًا منها يدُلُّ عليها معنَى الكلامِ، وهي: ومَن تَقِ السَّيِّئاتِ -أي: جزاءَها- يَومَ إذْ يُؤاخَذُ بها فقد رَحِمْتَهُ، أو يومَ إذْ تُدخِلُهم جنَّاتِ عدْنٍ[٤].

- قولُه: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ ما في اسمِ الإشارةِ (ذَلِكَ) مِن معنَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٢).

البُعدِ؛ للإشعارِ ببُعْدِ دَرجةِ المُشارِ إليه، مع التَّنويهِ والتَّعظيمِ[١].

- ووُصِفُ ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ بـ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾؛ لأنَّه فَوْزٌ بالنَّعيمِ خالِصًا مِن الكُدراتِ الَّتي تَنقُصُ حلاوةَ النِّعمةِ[٢].

- وقَولُه: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ فيه احتِباكٌ[٣]؛ فذُكِرَ إدخالُ الجنَّاتِ أوَّلًا؛ دَليلًا على حَذفِ النَّجاةِ مِن النَّارِ ثانيًا، ووِقايةُ السَّيِّئاتِ ثانيًا؛ دَليلًا على التَّوفيقِ للصَّالحاتِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك: التَّشويقُ إلى المحبوبِ، وهو الجِنانُ، بعَمَلِ المحبوبِ، وهو الصَّالِحُ، والتَّنفيرُ مِن النِّيرانِ باجتنابِ المَمقوتِ مِن الأعمالِ، وهو السَّيِّئُ؛ فذُكِرَ المُسَبَّبُ أوَّلًا، وحُذِفَ السَّبَبُ؛ لأنَّه لا سَبَبَ في الحقيقةِ إلَّا الرَّحمةُ، وذُكِرَ السَّبَبُ ثانيًا في إدخالِ النَّارِ، وحُذِفَ المُسَبَّبُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٤).

(٣) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦، ١٧).

الآيات (١٠-١٤)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَمَقْتُ﴾: المَقتُ: البُغضُ الشَّديدُ[1].

﴿يُنِيبُ﴾: أي: يَرجِعُ ويَتوبُ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى ما يُقالُ للكافِرينَ وهم يُعذَّبونَ في النَّارِ، فيقولُ: إنَّ الكافِرينَ يُنادَونَ وهم في النَّارِ: لَبُغْضُ اللهِ لكم في الدُّنيا حينَ كُنتُم تُدْعَونَ فيها إلى الإيمانِ فتَكفُرونَ- أعظَمُ مِن بُغضِكم اليومَ لأنفُسِكم!

ثمَّ يَحكي سبحانَه ما يقولُه الكافرونَ بعدَ أنْ أنزَل بهم عِقابَه، فيقولُ: قالوا: يا رَبَّنا أمَتَّنا موتَتَينِ اثنتَينِ -قبْلَ نَفخِ الرُّوحِ فيهم، وعندَ انتِهاءِ آجالِهم-، وأحيَيْتَنا إحيائتَينِ اثنتَينِ -بنَفخِ الرُّوحِ فيهم في الدُّنيا، وحينَ بَعثِهم يومَ القيامةِ-، فأقرَرْنا

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥١).

بذُنوبِنا، فهل مِن طريقٍ للخُروجِ مِن النَّارِ؟

فأُجيبوا بأنَّه لا سَبيلَ لِخُروجِكم مِنَ النَّارِ؛ لأنَّكم كنتُم في الدُّنيا إذا دُعيَ اللهُ وَحْدَه كفَرْتُم بوَحدانيَّتِه، وإن يُجعَلْ له شَريكٌ في عبادتِه تُؤمِنوا بالشِّركِ؛ فالقَضاءُ العادِلُ للهِ العَليِّ الكبيرِ.

ثمَّ يَذكُرُ سُبحانَه ما يدُلُّ على وحدانيَّتِه وكمالِ قُدرتِه، وعلى رحمتِه بعِبادِه، فيقولُ: وهو وَحْدَه الَّذي يُريكم -أيُّها النَّاسُ- آياتِه الدَّالَّةَ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه، ويُنزِلُ لكم رِزقًا مِن السَّماءِ، وما يَتذكَّرُ ويَتَّعِظُ إلَّا مَن يَرجِعُ إلى اللهِ تعالى؛ فادعُوا اللهَ وَحْدَه مُخلِصينَ له الدِّينَ ولو كَرِهَ الكافِرونَ ذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ شَيئًا مِن أحوالِ المؤمِنينَ؛ ذكَرَ شَيئًا مِن أحوالِ الكافِرينَ، وما يَجري لهم في الآخِرةِ؛ مِن اعترافِهم بذُنوبِهم، واستِحقاقِهمُ العَذابَ، وسؤالِهمُ الرُّجوعَ إلى الدُّنيا(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر سبحانَه حالَ أصحابِ النَّارِ، وأنَّها حَقَّتْ عليهم كلمةُ العذابِ، وأنَّهم أصحابُ النَّارِ؛ ذَكَر أحوالَهم بعدَ دُخولِ النَّارِ(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٤).

أي: إنَّ الكافرين يُنادَونَ وهم في النَّارِ يُعذَّبونَ: لَبُغْضُ اللهِ الشَّديدُ لكم في الدُّنيا حينَ كُنتُم تُدْعَونَ فيها إلى الإيمانِ، فتَكفُرونَ- أعظَمُ مِن بُغضِكم الشَّديدِ اليَومَ لأنفُسِكم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ [فاطر: ٣٩].

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

وجْهُ اتِّصالِ هذه الآيةِ بما قَبْلَها: أنَّهم كانوا في الدُّنيا يَكفُرونَ بالبعثِ، فلمَّا دخَلوا النَّارَ مقَتوا أنفُسَهم على ذلك، فأقَرُّوا به حينَئذٍ ليُرضُوا اللهَ بإقرارِهم حينَئذٍ، فقولُهم: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إقرارٌ بالبعثِ على أكملِ الوُجوهِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١١٨-١٢٠).

والمعنى المذكورُ في قولِه: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ مبنيٌّ على أنَّه مصدرٌ مضافٌ إلى الفاعلِ، أي: لَمَقْتُ الله إيَّاكم في الدُّنيا على كفرِكم، ويحتملُ أيضًا أن يكونَ المعنى: لَمَقْتُ الله إيَّاكم اليومَ حينَ شاهَدْتُم ما وُعِدْتُم به أكبرُ مِن مَقتِكم أنفُسَكم. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٠).

قال أبو حيَّان: (والظَّاهرُ أنَّ مَقْتَ اللهِ إيَّاهم هو في الدُّنيا، ويَضْعُفُ أنْ يكونَ في الآخرةِ كما قال بعضُهم؛ لبَقاءِ ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ مُفْلَتًا مِن الكلامِ، لِكَونِه ليس له عاملٌ تَقَدَّم، ولا مُفَسِّرٌ لعاملٍ. فإذا كان المَقْتُ السَّابقُ في الدُّنيا أمْكَنَ أنْ يُضْمَرَ له عاملٌ تقديرُه: مَقْتُكم إذْ تُدْعَوْن). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٠).

ويحتملُ أن يكونَ المَقْتُ مُضافًا إلى مفعولِه لا إلى فاعِلِه، ويكونَ المعنى: لَمَقْتُكم اللهَ حينَ تُدْعَوْنَ إلى الإيمانِ أكبرُ مِن مَقتِكم أنفُسَكم اليومَ. واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١١٨).

طمعًا منهم أنْ يَخرجوا عن المَقتِ الَّذي مقَتَهم الله؛ إذ كانوا يُدعَونَ إلى الإسلامِ فيَكفرونَ(١).

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾.

أي: قال أولئك الكافِرونَ مِن أهلِ النَّارِ: يا رَبَّنا أمَتَّنا مَوتَتَينِ اثنتَينِ -حينَ كانوا نُطَفًا قبْلَ نَفخِ الرُّوحِ فيهم، ثمَّ عندَ انتهاءِ آجالِهم في الدُّنيا-، وأحيَيْتَنا إحيائتَينِ اثنتَينِ، بنَفخِ الرُّوحِ فيهم في الدُّنيا، وحينَ بَعثِهم يومَ القيامةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٤، ١٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٧٥)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٧، ٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٤، ٣٧٥).

وممَّن ذهبَ إلى المعنى المذكورِ هنا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابنُ عطيَّة، وابن تيميَّة، وابن القيم، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال القرطبي: (اختلَف أهلُ التَّأويلِ في معنى قَولِهم: ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾؛ فقال ابنُ مَسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ: كانوا أمواتًا في أصلابِ آبائِهم، ثمَّ أحياهم، ثمَّ أماتهم المَوتةَ الَّتي لا بدَّ منها في الدُّنيا، ثمَّ أحياهم للبَعثِ والقيامة؛ فهاتان حياتانِ وموتَتانِ... وقال السُّدِّيُّ: أُميتوا في الدُّنيا، ثمَّ أحياهم في القبورِ للمسألةِ، ثمَّ أُميتوا، ثمَّ أُحيُوا في الآخرةِ... وقال ابنُ زَيدٍ: خلَقَهم في ظَهرِ آدَمَ، وأخرَجَهم وأحياهم وأخَذَ عليهم الميثاقَ، ثمَّ أماتهم، ثمَّ أحياهم في الدُّنيا، ثمَّ أماتَهم). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٧، ٢٩٨).

أي: فأقرَرْنا بما اقترَفْناه مِنَ الذُّنوبِ في الدُّنيا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾.

أي: فهل مِن طَريقٍ أو وَسيلةٍ للخُروجِ مِن النَّارِ[٢]؟

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾.

أي: فأُجيبوا بأنَّه لا سَبيلَ لكم للخُروجِ مِن النَّارِ؛ لأنَّكم كنتُم في الدُّنيا إذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَه كفَرْتُم بوَحدانيَّتِه، وإن يُجعَلْ له شَريكٌ في عبادتِه تُؤمِنوا بالشِّركِ[٣]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٢٧-١٢٩).

قال ابنُ عاشور: (الدُّعاءُ: النِّداءُ، والتَّوجُّهُ بالخِطابِ. وكِلا المعنيَينِ يُستعمَلُ فيه الدُّعاءُ، ويُطلَقُ الدُّعاءُ على العبادةِ... فالمعنى: إذا نُودِيَ اللهُ بمَسمَعِكم نداءً دالًّا على أنَّه إلهٌ واحِدٌ، مِثلُ آياتِ القُرآنِ الدَّالَّةِ على نداءِ اللهِ بالوَحدانيَّةِ؛ فالدُّعاءُ هنا: الإعلانُ والذِّكرُ؛ ولذلك قُوبِلَ بقَولِه: ﴿كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾، والدُّعاءُ بهذا المعنى أعَمُّ مِن الدُّعاءِ بمعنى سؤالِ الحاجاتِ، ولكِنَّه يَشمَلُه، أو إذا عُبِدَ اللهُ وَحْدَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٠).

لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾.

أي: فالقَضاءُ العادلُ بيْنَ العِبادِ للهِ وَحْدَه العَليِّ الذَّاتِ والقَدْرِ والصِّفاتِ؛ القاهِرِ لكُلِّ شَيءٍ، العَليِّ عن أن يكونَ له شَريكٌ؛ الكبيرِ، ذي الكِبرياءِ والعَظَمةِ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه؛ فكُلُّ شَيءٍ دُونَه مُتصاغِرٌ له(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٢٩-١٣٥، ١٤٢).

قال ابن عطية: (فالحكمُ اليومَ بعذابِكم وتخليدِكم في النَّارِ للهِ، لا لتلك التي كنتُم تُشركونها معه في الألوهيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٠). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣).

وقال ابن عثيمين: (حكمُ الله ينقسمُ إلى قسمينِ: كونيٍّ وشرعيٍّ، فالكونيُّ ما قضَى به على عبادِه كونًا وتقديرًا، والشرعيُّ ما قضَى به على عبادِه شرعًا وتنظيمًا... وقولُه: ﴿فَٱلْحُكْمُ﴾ هنا يشملُ الأمرينِ جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٢٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى ما يوجِبُ التَّهديدَ الشَّديدَ في حقِّ المُشرِكينَ؛ أَردَفَه بذِكرِ ما يدُلُّ على كَمالِ قُدرتِه وحِكمتِه؛ ليَصيرَ ذلك دليلًا على أنَّه لا يَجوزُ جَعْلُ الأحجارِ المَنحوتةِ والخُشُبِ المَعبودةِ شُرَكاءَ للهِ[1].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه الَّذي يُريكم -أيُّها النَّاسُ- آياتِه الدَّالَّةَ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه، وكَمالِ صِفاتِه وأفعالِه[2].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٦، ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٦).

قيل: هذه الآياتُ تَشملُ الآياتِ الكونيَّةَ والقرآنيَّةَ والمعجزاتِ الجاريةَ على أيدي الرُّسلِ عليهم السَّلامُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٢).

وقيل: المرادُ بها: الآياتُ الكونيَّةُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢).

وقيل: هي الآياتُ الكونيَّةُ، وآثارُ العقوباتِ الَّتي حلَّت بالأقوامِ المُهلَكينَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ، ووافقه الشنقيطيُّ وزاد عليها معجزاتِ الرُّسلِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٧).

وقال السعدي: (يذكرُ تعالى نِعَمَه العظيمةَ على عبادِه، بتبيينِ الحقِّ مِن الباطلِ، بما يُري عِبادَه مِن آياتِه النَّفْسيَّةِ والآفاقيَّةِ والقرآنيَّةِ، الدَّالَّةِ على كلِّ مطلوبٍ مقصودٍ، الموضحةِ للهدى مِن الضَّلالِ، بحيث لا يبقَى عندَ النَّاظرِ فيها والمُتأمِّلِ لها أدنَى شكٍّ في معرفةِ الحقائقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

ٱلثِّقَالَ ﴾ [الرعد: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ [غافر: ٧٩ - ٨١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾.

أي: ويُنَزِّلُ اللهُ لأجْلِكم -أيُّها النَّاسُ- رِزقًا مِنَ السَّماءِ[1].

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٥].

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢).

المرادُ بالرِّزقِ هنا: المطَرُ الَّذي تخرُجُ به الزُّروعُ والثِّمارُ. ومِمَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

قال ابنُ عاشور: (تنزيلُ الرِّزقِ مِن السَّماءِ هو نُزولُ المطَرِ؛ لأنَّ المطَرَ سَبَبُ الرِّزقِ، وهو في نَفْسِه آيةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢).

وقال ابن عثيمين: (﴿رِزْقًا﴾ أي: ماءً يكونُ به الرِّزقُ، فالَّذي ينزلُ ماءٌ يكونُ به الرِّزقُ، فهو نفْسُه رزقٌ... وبه يكونُ الرِّزقُ... والثَّمراتُ أرزاقٌ تُؤكلُ، والماءُ رزقٌ يُشربُ، فهو رزقٌ بكلِّ حالٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٤٥).

وقال ابن عطية: (وتنزيلُ الرزقِ: هو في تنزيلِ المطرِ، وفي تنزيلِ القضاءِ والحُكمِ، بنيلِ ما ينالُه المرءُ في تجارةٍ وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٠).

أي: وما يَتذكَّرُ بالآياتِ فيَعتَبِرُ ويَتَّعِظُ حينَ يُذكَّرُ بها إلَّا مَن يُنيبُ إلى اللهِ تعالى بالرُّجوعِ عن الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي، إلى الإيمانِ والتَّوحيدِ والطَّاعةِ، والإقبالِ على مَحبَّتِه وخَشيتِه، والتَّضَرُّعِ إليه[1].

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت الآياتُ تُثمِرُ التَّذَكُّرَ، والتَّذكُّرُ يُوجِبُ الإخلاصَ لله؛ رَتَّب عليه قَولَه[2]:

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾.

أي: فادعُوا اللهَ وَحْدَه مُخلِصينَ له، غيرَ مُشرِكينَ به شَيئًا في كُلِّ حالٍ، حتَّى في حالِ كَراهةِ الكافِرينَ إفرادَكم العبادةَ للهِ وَحْدَه[3].

كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥٣).

قال ابن تيميَّة: (وقولُه تعالَى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هو دعاءُ العبادةِ، والمعنَى: اعبُدُوه وحْدَه، وأَخْلِصوا عِبادَتَه، لا تَعْبُدوا معه غيرَه). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٣).

وقال السعدي: (هذا شامِلٌ لدُعاءِ العبادةِ، ودُعاءِ المسألةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

وعن أبي الزُّبَيرِ[١]، قال: ((كان ابنُ الزُّبَيرِ[٢] يَقولُ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ حينَ يُسَلِّمُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له، له المُلْكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، لا إلهَ إلَّا اللهُ، ولا نَعبُدُ إلَّا إيَّاه، له النِّعمةُ وله الفَضلُ، وله الثَّناءُ الحَسَنُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ مُخلِصينَ له الدِّينَ، ولو كَرِهَ الكافِرونَ، وقال: كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُهَلِّلُ[٣] بهِنَّ دُبُرَ[٤] كُلِّ صَلاةٍ))[٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- ما تَتَغذَّى به الرُّوحُ أهمُّ مما يَتغذَّى به البَدَنُ؛ لقولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾؛ وجْهُ الدلالةِ أنَّه قَدَّمَ إراءةَ الآياتِ على الرِّزْقِ الَّذي يَنزِلُ مِن السَّماءِ، وهذا يدُلُّ على أنَّه أهَمُّ، وهو كذلك، هذا هو الواقعُ؛ وذلك لأنَّ فَقْدَ الغذاءِ البدَنيِّ لا يكونُ فيه إلَّا شيءٌ لا بُدَّ منه وهو الموتُ، حتَّى لو كان الإنسانُ في أَنْعَمِ ما يكونُ مِن نعيمِ البَدَنِ وأتْرَفِ ما يكونُ فلا بُدَّ أنْ يموتَ، لكنَّ غذاءَ الرُّوحِ هو الَّذي يَحتاجُ إلى مُعاناةٍ ومُعالَجةٍ؛ وبفَقْدِه يكونُ الهلاكُ في الدُّنيا والآخرةِ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٦] [الزمر: ١٥].

٢- في قَولِ الله تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مُراغَمةُ الكُفَّارِ في الإخلاصِ للهِ وفي العَمَلِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ويَنبني

---

(١) هو محمَّدُ بنُ مُسلِمِ بنِ تَدْرُسَ.

(٢) أي: عبدُ الله بنُ الزُّبيرِ بنِ العوَّامِ رضي الله عنهما.

(٣) يُهَلِّلُ: أي: يُعلِنُ بذلك، ويَرفَعُ صَوتَه. يُنظر: ((مطالع الأنوار)) لابن قُرْقُول (٦/ ١٢٧).

(٤) دُبُرَ: أي: عَقِبَها وخَلْفَها، أو في آخِرِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٧٥٦).

(٥) رواه مسلم (٥٩٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٤٦).

على ذلك أنَّه يَجِبُ على الإنسانِ أنْ يَقومَ بالواجِبِ ولو كَرِهَ ذلك غَيرُه، ولا يُحابيَ أحَدًا في هذا[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أنَّ الكافرين تَبَيَّنَ لهم ما هم عليه مِن الضَّلالِ والكُفرِ حينَ رأوُا العِقابَ؛ وَجْهُه: أنَّهم مَقَتوا أنفُسَهم في ذلك الوَقتِ حينَ رأوُا العذابَ، وهذا يدُلُّ على أنَّهم تَبَيَّنَ لهمُ الضَّلالُ في ذلك اليَومِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ إثباتُ المَقتِ للهِ تعالى، أي: أنَّ اللهَ يُبغِضُ، والمَقْتُ هو أشَدُّ البُغضِ، والبُغضُ مِن الصِّفاتِ الفِعليَّةِ الَّتي تَتعَلَّقُ بمَشيئتِه وإرادتِه سبحانه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ أنه لا يَجوزُ الحُكْمُ بالقوانينِ المُخالِفةِ للشَّريعةِ، وهذه الجملةُ تُفيدُ الحصرَ؛ أي: الحُكْمُ للهِ لا لغيرِه[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿ٱلْعَلِيِّ﴾ فيه إثباتُ العُلُوِّ للهِ عزَّ وجلَّ، فالعليُّ: الذي له العلوُّ المطلَقُ مِن جميعِ الوجوهِ: علوُّ الذَّاتِ- فهو نَفْسُه سُبحانَه وتعالى فوقَ كلِّ شَيءٍ-، وعلوُّ القدْرِ، وعلوُّ القَهرِ[٥].

٥- قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أهَمُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٣٦). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٣٩).

المُهِمَّاتِ رِعايةُ مَصالحِ الأديانِ، ومَصالحِ الأبدانِ؛ فهو سُبحانَه وتعالى راعَى مَصالِحَ أديانِ العِبادِ بإظهارِ البَيِّناتِ والآياتِ، وراعَى مصالِحَ أبدانِهم بإنزالِ الرِّزقِ مِن السَّماءِ؛ فمَوقِعُ الآياتِ مِن الأديانِ كمَوقِعِ الأرزاقِ مِن الأبدانِ، فالآياتُ لحياةِ الأديانِ، والأرزاقُ لحياةِ الأبدانِ، وعندَ حُصولِهما يَحصُلُ الإنعامُ على أقوى الاعتِباراتِ، وأكمَلِ الجِهاتِ[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ جعَلَه تذَكُّرًا؛ لأنَّه مَركوزٌ في العُقولِ دلائِلُ التَّوحيدِ، ثمَّ قد يَعرِضُ الاشتِغالُ بعبادةِ غَيرِ اللهِ، فيَمنَعُ مِن تجلِّي نورِ العَقلِ، فإذا تاب إلى اللهِ تذكَّرَ[٢].

٧- إنَّ مِن حكمةِ الله إنزالَ المطرِ مِن السَّماءِ، قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾؛ لأنَّ المطرَ إذا نَزَلَ مِن أعلى شَمِلَ قِمَمَ الجبالِ؛ فيَشْملُ السَّهْلَ والوَعْرَ والنَّازِلَ والعاليَ، وهذه مِن الحكمةِ أنْ يكونَ المطرُ يَنْزِلُ مِن فوقٍ حتَّى يَشملَ الأرضَ كلَّها[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أنَّه كلَّما كان الإنسانُ أكثرَ إنابةً إلى اللهِ كان أقوَى تَذَكُّرًا بالآياتِ؛ لأنَّ الحُكمَ المُعلَّقَ على وصْفٍ يَقوَى بقوَّتِه ويَضْعُفُ بضَعفِه، فإذا كان التَّذَكُّرُ لِمَن يُنيبُ؛ فكلَّما كان الإنسانُ أقوَى إنابةً كان أقوى تَذَكُّرًا[٤].

٩- في قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ وُجوبُ إخلاصِ العبادةِ للهِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٧).

فمَن تَعَبَّدَ لِغيرِ اللهِ استقلالًا؛ فقد صَرَفَ شيئًا مِن أنواعِ العبادةِ لغيرِ اللهِ؛ فيَكونُ بذلك مشركًا شركًا أكبرَ، وأمَّا إذا فَعَل العبادةَ للهِ لكنْ رَائَى فيها أو سَمَّعَ فهذا لا يكونُ مشركًا شركًا أكبرَ؛ ولكنَّه مشركٌ شركًا أصغرَ، وعبادتُه مردودةٌ عليه؛ لقولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم -فيما رواه عن ربِّه-: ((أنا أغْنى الشُّركاءِ عنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عمَلًا أَشْرَكَ فيه معي غيري تَرَكْتُه وشِرْكَه))[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾

- مُقابَلةُ سُؤالِ الملائكةِ للمؤمِنينَ بالنَّعيمِ الخالصِ يَومَ القِيامةِ بما يُخاطَبُ به المُشركونَ يَومَئذٍ مِنَ التَّوبيخِ والتَّنديمِ، وما يُراجِعونَ به مِن طلَبِ العَفوِ؛ مؤْذِنةٌ بتَقديرِ معنَى الوعدِ باستِجابةِ دُعاءِ المَلائكةِ للمؤمِنينَ، فطَيُّ ذِكرِ ذلك ضَربٌ مِنَ الإيجازِ، والانتِقالُ منه إلى بَيانِ ما سيَحُلُّ بالمُشركينَ يَومَئذٍ ضَربٌ مِنَ الأُسلوبِ الحكيمِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ﴾ الآياتِ مُستأنَفٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ كأنَّ سائلًا سَألَ عن تَقبُّلِ دعاءِ المَلائكةِ للمؤمِنينَ، فأُجيبَ بأنَّ الأهَمَّ أنْ يَسألَ عن ضِدِّ ذلك. وفي هذا الأُسلوبِ إيماءٌ ورمزٌ إلى أنَّ المُهِمَّ مِن هذه الآياتِ كلِّها هو مَوعظةُ أهلِ الشِّركِ، رُجوعًا إلى قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[2] [غافر: ٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥٣).
والحديث أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٤، ٩٥).

- قولُه: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ التَّقديرُ: لَمَقْتُ اللهِ إيَّاكم، أو لَمَقْتُ اللهِ أنفُسَكم أكبَرُ مِن مَقتِكم أنفُسَكم، وحُذِف المَفعولُ؛ لدَلالةِ ما بعْدَه عليه في قولِه: ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ فاستُغنيَ بذِكرِها مرَّةً. وقيل: مَعناهُ: لَمَقْتُ اللهِ إيَّاكمُ الآنَ أكبَرُ مِن مَقتِ بعضِكم لبَعضٍ[١].

- وفي ذِكرِ ﴿يُنَادَوْنَ﴾ ما يدُلُّ على كلامٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: إنَّ الَّذينَ كَفَروا يَمقُتُهمُ اللهُ ويُنادَونَ: لَمَقْتُ اللهِ... إلخ[٢].

- وقولُه: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ تعليلٌ للحُكمِ لِما بيْن الظَّرفِ والسَّببِ مِن عَلاقةِ اللُّزومِ، وإنَّما جُعِل ﴿إِذْ﴾ تَعليلًا لا ظَرفًا في هذا الوَجهِ؛ لأنَّهم لم يَمقُتوا أنفُسَهم حينَ دُعُوا إلى الإيمانِ، وإنَّما مَقَتُوها في النَّارِ، وعِندَ ذلك لا يُدْعَونَ إلى الإيمانِ[٣].

- وبُنيَ فِعلُ ﴿تُدْعَوْنَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعِلُه؛ للعِلمِ بالفاعِلِ؛ لظُهورِ أنَّ الداعيَ هو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو الرُّسُلُ عليهمُ السَّلامُ[٤]، وأيضًا للإشارةِ إلى أنَّ الإيمانَ لِظُهورِ دَلائِلِه ينبغي أن يُقبَلَ مِن أيِّ داعٍ كان[٥].

- وجِيءَ بالمُضارِعِ في ﴿تُدْعَوْنَ﴾ و(تَكْفُرُونَ)؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٥، ٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧).

دَعوتِهم إلى الإيمانِ، وتكرُّرِ كُفرِهم، أي: تَجَدُّدِه[١].

- وتَفريعُ ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ بالفاءِ على ﴿تُدْعَوْنَ﴾ يُفيدُ أنَّهم أعقَبوا الدَّعوةَ بالكُفرِ، أيْ: بتَجديدِ كُفرِهمُ السَّابِقِ، وبإعلانِه، أيْ: دُونَ أنْ يَتمَهَّلوا مُهلةَ النَّظرِ والتَّدبُّرِ فيما دُعُوا إليه[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ جوابٌ عن النِّداءِ الَّذي نُودُوا به مِن قِبَلِ اللهِ تعالى؛ فحَكَى مَقالَهم على طَريقةِ حِكايةِ المُحاوَراتِ بحَذفِ حرفِ العَطفِ، طَمِعوا أنْ يَكونَ اعترافُهم بذُنوبِهم وَسيلةً إلى مَنحِهم خُروجًا مِنَ العَذابِ خُروجًا ما لِيَستريحوا منه ولو بعضَ الزَّمنِ؛ وذلك لأنَّ النِّداءَ المُوَجَّهَ إليهم مِن قِبَلِ اللهِ أَوْهَمَهم أنَّ فيه إقبالًا عليهم[٣].

- وانتصَبَ ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ في المَوضعَينِ على الصِّفةِ لمَفعولٍ مُطْلَقٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: مَوتَتَينِ اثنتَينِ، وإحياءَتَينِ اثنتَينِ[٤].

- قولُه: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ المقصودُ مِنَ الاعترافِ هو اعترافُهم بالحياةِ الثَّانيةِ؛ لأنَّهم كانوا يُنكِرونَها، وأمَّا المَوْتَتانِ والحياةُ الأُولى فإنَّما ذُكِرْنَ إدماجًا[٥]؛ للاستِدلالِ في صُلبِ الاعترافِ تَزَلُّفًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٩٨).

(٥) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المُتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن =

منهم، أيْ: أيْقَنَّا أنَّ الحياةَ الثَّانيةَ حَقٌّ، وذلك تَعريضٌ بأنَّ إقرارَهم صِدقٌ لا مُواربةَ فيه ولا تَصَنُّعَ؛ لأنَّه حاصِلٌ عن دليلٍ؛ ولذلك جُعِلَ مُسَبَّبًا على هذا الكلامِ بعطْفِه بفاءِ السَّببيَّةِ في قولِه: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾؛ فإنَّهم لَمَّا رأَوُا الإماتةَ والإحياءَ قد تَكرَّرَا عليهم، عَلِموا بأنَّ اللهَ قادرٌ على الإعادةِ قُدرتَه على الإنشاءِ، فاعترَفوا بذُنوبِهمُ الَّتي اقترَفوها مِن إنكارِ البَعثِ وما تَبِعَه مِن مَعاصيهم[(١)].

- وتَفرَّعَ قَولُهم: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ على قَولِهم: ﴿وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ باعتبار أنَّ إحدى الإحياءتَينِ كانتِ السَّببَ في تَحقُّقِ ذُنوبِهمُ الَّتي مِن أُصولِها إنكارُهمُ البَعثَ، فلمَّا رأَوُا البَعثَ رأْيَ العَينِ أَيْقَنوا بأنَّهم مُذنِبونَ إذْ أنْكَروهُ، ومُذنِبونَ بما استَكثَروهُ مِنَ الذُّنوبِ؛ لاغترارِهم بالأمنِ مِنَ المؤاخَذةِ عليهم بعدَ الحياةِ العاجِلةِ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ إنشاءُ إقرارٍ بالذُّنوبِ؛ ولذلك جيءَ فيه بالفِعلِ الماضي كما هو غالِبُ صِيَغِ الخَبَرِ المُستعمَلِ في الإنشاءِ، والمعنى: نَعترِفُ

= مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحمدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٨).

بذُنوبنا. وجَعَلوا اعترافَهم بذُنوبِهم ضَربًا مِنَ التَّوبةِ، تَوَهُّمًا منهم أنَّ التَّوبةَ تَنفَعُ يَومَئذٍ؛ فلذلك فَرَّعوا عليه: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ فالاستِفهامُ مُستعمَلٌ في العَرضِ والاستِعطافِ كُلِّيًّا لرَفعِ العَذابِ(١).

- وفي هذا الاستِفهامِ ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ يَأسٌ مُقنِطٌ، واستِحالةٌ مُفرِطةٌ، كأنَّهم لفَرطِ ما يُكابِدونَه يَتَمَنَّوْنَ الخروجَ مِن هذا الأسى المُطبِقِ مِنَ الهَولِ المُستحكِمِ، ولكنْ أيُّ تَمَنٍّ؟ إنَّه تَمنِّي مَن غلَبَ عليه اليأسُ والقُنوطُ؛ ولهذا جاء الجوابُ على حسَبِ ذلك، وهو قولُه: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ [غافر: ١٢]، ومَعناهُ: أنَّ السَّببَ يَعودُ إلى كُفرِكم، فلا تَطمَعوا في زَوالِ ما أنتم فيه؛ لأنَّه جَريرتُكم، وعلى أنفُسِكم تَقَعُ المَلامةُ. وقيل: قالوا ذلك على نحوٍ فيه نوعُ استِبعادٍ للخروجِ مِنَ النَّارِ واستِشعارِ يأسٍ منه، لا أنَّهم قالوه بطَريقِ القُنوطِ البَحتِ، وإنَّما يَقولونَ ذلك تَعَلُّلًا وتَحَيُّرًا(٢).

- قولُه: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ حرفُ (مِنْ) زائدٌ لتَوكيدِ العُمومِ الَّذي في النَّكِرةِ؛ ليُفيدَ تَطَلُّبَهم كلَّ سبيلٍ للخُروجِ(٣).

- وتَنكيرُ ﴿خُرُوجٖ﴾ و﴿سَبِيلٖ﴾ للنَّوعيَّةِ؛ تَلَطُّفًا في السُّؤالِ، أيْ: إلى شَيءٍ مِنَ الخروجِ قليلٍ أو كثيرٍ، سواءٌ أكان سريعًا أمْ بطيئًا. أو التَّنكيرُ للإبهامِ، أيْ: مِن سبيلٍ ما كَيْفَما كان، بحقٍّ أو بعَفْوٍ، بتخفيفٍ أو غَيرِ ذلك؛ لأنَّ كلَّ خروجٍ يَنتفِعونَ به راحةٌ مِنَ العَذابِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن =

٣- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ ...﴾ جوابٌ لهم باستِحالةِ حُصولِ ما يَرجُونَه، ببَيانِ ما يُوجِبُها مِن أعمالِهمُ السَّيِّئةِ. وعدَلَ عن جَوابِهم بالحِرمانِ مِنَ الخُروجِ مِنَ النَّارِ إلى ذِكرِ سَببِ وُقوعِهم في العَذابِ، وإذْ قد كانوا عالِمينَ به حينَ قالوا: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ [غافر: ١١]؛ كانت إعادةُ التَّوقيفِ عليه بعْدَ سؤالِ الصَّفحِ عنه كِنايةً عنِ استِدامتِه، وعدَمِ استِجابةِ سُؤالِهمُ الخروجَ منه، على وَجهٍ يُشعِرُ بتَحقيرِهم، وزِيدَ ذلك تحقيقًا بقولِه: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾[(١)].

- والباءُ في ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ للسَّبَبيَّةِ، أي: بسَببِ كُفرِكم إذا دُعيَ اللهُ وحْدَه، وضميرُ ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ ضميرُ الشَّأنِ، وهو مُفَسَّرٌ بما بعْدَه مِن قولِه: ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾؛ فالسَّببُ هو مَضمونُ القِصَّةِ الَّذي حاصِلُ سَبكِه: بكُفرِكم بالوَحدانيَّةِ وإيمانِكم بالشِّركِ. و﴿إِذَا﴾ مُستعمَلةٌ هنا في الزَّمنِ الماضي؛ لأنَّ دُعاءَ اللهِ واقِعٌ في الحياةِ الدُّنيا، وكذلك كُفرُهم بوَحدانيَّةِ اللهِ، فالدُّعاءُ الَّذي مَضى مع كُفرِهم به كان سبَبَ وُقوعِهم في العَذابِ[(٢)].

- ومَجيءُ ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ في الفِعلَينِ مؤَوَّلٌ بالماضي، بقَرينةِ ما قَبْلَه. وإيثارُ صِيغةِ المُضارِعِ في الفِعلَينِ؛ لدَلالتِهما

= عاشور)) (٢٤/ ٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٩، ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٩).

على تَكرُّرِ ذلك منهم في الحَياةِ الدُّنيا؛ فإنَّ لتَكرُّرِه أثرًا في مُضاعَفةِ العَذابِ لهم[١].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ جيءَ في الشَّرطِ الأوَّلِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿إِذَا﴾ الَّتي الغالِبُ في شَرطِها تَحقُّقُ وُقوعِه؛ إشارةً إلى أنَّ دُعاءَ اللهِ وحْدَه أمْرٌ مُحَقَّقٌ بيْنَ المؤمِنينَ لا تَخْلو عنه أيَّامُهم ولا مَجامِعُهم، معَ ما تُفيدُ ﴿إِذَا﴾ مِنَ الرَّغبةِ في حُصولِ مَضمونِ شَرطِها. وجيءَ في الشَّرطِ الثَّاني بحرفِ (إنْ) الَّتي أصْلُها عدَمُ الجَزمِ بوُقوعِ شَرطِها، أو أنَّ شَرْطَها أمرٌ مَفروضٌ، مع أنَّ الإشراكَ مُحَقَّقٌ؛ تَنزيلًا للمُحَقَّقِ مَنزِلةَ المَشكوكِ المَفروضِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ دَلائلَ بُطلانِ الشِّركِ واضِحةٌ بأدْنى تأمُّلٍ وتدَبُّرٍ، فنُزِّلَ إشراكُهمُ المُحَقَّقُ مَنزِلةَ المَفروضِ؛ لأنَّ المَقامَ مُشتمِلٌ على ما يَقلَعُ مَضمونَ الشَّرطِ مِن أصْلِه، فلا يَصلُحُ إلَّا لفَرْضِه، على نَحوِ ما يُفرَضُ المَعدومُ مَوجودًا، أو المُحالُ مُمكِنًا[٢].

- وأيضًا في إيرادِ ﴿إِذَا﴾ وصِيغةِ الماضي في الشَّرطيَّةِ الأُولى، و(إنْ) وصِيغةِ المُضارِعِ في الثَّانيةِ ما لا يَخْفى مِنَ الدَّلالةِ على كَمالِ سوءِ حالِهم[٣].

- ومُتعلَّقُ ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ و﴿تُؤۡمِنُواْ﴾ مَحذوفانِ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَهما، والتَّقديرُ: كَفَرْتُم بتَوحيدِه وتؤْمِنوا بالشُّركاءِ[٤].

- قولُه: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ الألِفُ واللَّامُ في (الحُكم) للجِنسِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠١).

واللَّامُ في ﴿لِلَّهِ﴾ للمِلكِ، أي: جِنسُ الحُكمِ مِلكٌ للهِ، وهذا يُفيدُ قَصْرَ هذا الجِنسِ على الكَونِ للهِ، وهو قَصْرٌ حَقيقيٌّ[١]؛ إذْ لا حُكمَ يومَ القِيامةِ لغَيرِ اللهِ تعالى[٢].

- وإيثارُ صِفَتَي ﴿ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ بالذِّكرِ هنا؛ لأنَّ مَعْناهما مُناسِبٌ لحِرمانِهم مِنَ الخُروجِ مِنَ النَّارِ، أي: لعدَمِ نَقضِ حُكمِ اللهِ عليهم بالخُلودِ في النَّارِ؛ فهو العَليُّ، ومِن جملةِ ما يَقتَضيهِ ذلك تَمامُ العِلمِ، وتَمامُ العَدلِ؛ فلذلك لا يَحكُمُ إلَّا بما تَقتَضيهِ الحِكمةُ والعَدلُ، ووَصْفُ الكبيرِ كذلك[٣]، فالكبيرُ: الَّذي له الكبرياءُ والعَظَمةُ والمَجدُ، في أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، المُتَنزِّهُ عن كلِّ آفةٍ وعَيبٍ ونقصٍ، فإذا كان الحُكمُ له تعالى، وقد حكَم عليكم بالخلودِ الدَّائمِ؛ فحُكمُه لا يُغيَّرُ ولا يُبدَّلُ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾

---

(١) القصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ والحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١٧٥، ١٧٦)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥، ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّدليلِ على أنَّ الحُكمَ له سبحانه[١].

- قولُه: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ تَنزيلُ الرِّزقِ مِنَ السَّماءِ هو نُزولُ المطَرِ؛ لأنَّ المطَرَ سَبَبُ الرِّزقِ، وهو في نفْسِه آيةٌ أُدمِجَ معها امتِنانٌ؛ ولذلك عُقِّبَ الأمْرانِ بقولِه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[٢].

- وإفرادُ إنزالِ الرِّزقِ بالذِّكرِ -مع كَونِه مِن جملةِ الآياتِ الدَّالَّةِ على كمالِ قُدرتِه تعالى-؛ لتَفرُّدِه بعُنوانِ كَونِه مِن آثارِ رحمتِه وجَلائلِ نِعمتِه الموجِبةِ للشُّكرِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ تقديمُ ﴿لَكُم﴾ على مَفعولِ (يُنَزِّلُ) وهو ﴿رِزْقًا﴾؛ لكمالِ الامتِنانِ بأنْ جعَلَ تَنزيلَ الرِّزقِ لأجْلِ النَّاسِ، ولو أُخِّرَ المَجرورُ لَصارَ صِفةً لـ ﴿رِزْقًا﴾؛ فلا يُفيدُ أنَّ التَّنزيلَ لأجْلِ المُخاطَبينَ، بلْ يُفيدُ أنَّ الرِّزقَ صالحٌ للمُخاطَبينَ، وبيْن المَعنَيَينِ بَوْنٌ بعيدٌ؛ فكان تَقديمُ المَجرورِ في التَّرتيبِ على مَفعولِ الفِعلِ على خِلافِ مُقتَضى الظَّاهِرِ؛ لأنَّ حقَّ المَفعولِ أنْ يَتقدَّمَ على غَيرِه مِن مُتعلِّقاتِ الفِعلِ، وإنَّما خُولِفَ الظَّاهِرُ لهذه النُّكتةِ اللَّطيفةِ[٤].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُرِيكُمْ﴾ ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ تدُلُّ على أنَّ المُرادَ إراءَةٌ مُتَجدِّدةٌ وتَنزيلٌ مُتَجدِّدٌ، وإنَّما يَكونُ ذلك في الدُّنيا؛ فتَعَيَّنَ أنَّ الخِطابَ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢، ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٣).

مُستأنَفٌ مُرادٌ به المؤمِنونَ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وليس مِن بَقيَّةِ خِطابِ المُشركينَ في جَهنَّمَ، ويَزيدُ ذلك تأييدًا قولُه: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[1] [غافر: ١٤].

- وعُدِّيَ فِعلَا (يُري) (ويُنَزِّلُ) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ وهُمُ المؤمِنونَ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لأنَّهمُ الَّذينَ انتَفَعوا بالآياتِ فآمَنوا، وانتَفَعوا بالرِّزقِ فشَكَروا بالعملِ بالطَّاعاتِ، فجعَلَ غيرَهم بمَنزِلةِ غَيرِ المَقصودينَ بالآياتِ؛ لأنَّهم لم يَنتَفِعوا بها؛ ولذلك ذُيِّلَتْ إراءةُ الآياتِ وإنزالُ الرِّزقِ لهم بقولِه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾، أي: مَن آمَنَ ونَبَذَ الشِّركَ؛ لأنَّ الشِّركَ يَصُدُّ أهْلَه عن الإنصافِ، وإعمالِ النَّظَرِ في الأدِلَّةِ[2].

- وفي التَّعبيرِ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يُنِيبُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنابةَ المُحصِّلةَ للمَطلوبِ هي الإنابةُ المُتجدِّدةُ المُتكرِّرةُ، وإذْ قد كان المُخاطَبونَ مُنيبينَ إلى اللهِ كان قولُه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ دالًّا بدَلالةِ الاقتِضاءِ على أنَّهم رأَوُا الآياتِ واطْمأنُّوا بها، وأنَّهم عَرَفوا قَدْرَ النِّعمةِ وشَكَروها؛ فكان بيْن الإنابةِ وبيْن التَّذكُّرِ تَلازُمٌ عاديٌّ؛ ولذلك فجُملةُ ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ تَذييلٌ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ هي الفَصيحةُ، أي: إذا كان الأمرُ كما ذُكِر

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٧، ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فادْعُوا، وهو تَفريعٌ على ما شاهَدوا مِنَ الآياتِ، وما أُفيضَ عليهم مِنَ الرِّزقِ، وعلى أنَّهم المُرْجَونَ للتَّذَكُّرِ، والمعنى: أنَّ اللهَ أَراكُم آياتِه، وأَنزَلَ لكمُ الرِّزقَ، وما يَتذَكَّرُ بذلك إلَّا المُنِيبونَ، وأنتم منهم، فادْعُوا اللهَ مُخلِصينَ؛ لتَوَفُّرِ دَواعي تلك العِبادةِ(١).

- والأمرُ بالدُّعاءِ هنا مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ؛ لأنَّ المؤمِنينَ قد دَعَوُا اللهَ مُخلِصينَ له، فالمَقصودُ: دُوموا على ذلك ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ لأنَّ كَراهيةَ الكافِرينَ ذلك مِنَ المؤمِنينَ تَكونُ سَببًا لِمُحاوَلتِهم صَرْفَهم عن ذلك بكلِّ وَسيلةٍ يَجِدونَ إليها سبيلًا، فيُخشى ذلك أنْ يَفتِنَ فَريقًا مِنَ المؤمِنينَ، فالكراهيةُ كِنايةٌ عن المُقاوَمةِ والصَّدِّ؛ لأنَّهما لازِمانِ للكَراهيةِ؛ لأنَّ شأنَ الكارِهِ ألَّا يَصبِرَ على دَوامِ ما يَكرَهُه(٢).

- قولُه: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ فيه إظهارُ اسمِ الجَلالةِ؛ لأنَّ الكلامَ تَفريعٌ لاستِجدادِ غرَضٍ آخَرَ، فجُعِل مُستقِلًّا عمَّا قَبْلَه(٣).

- قولُه: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (لَوْ) وَصْليَّةٌ تُفيدُ أنَّ شَرْطَها أقصَى ما يَكونُ مِنَ الأحوالِ الَّتي يُرادُ تَقييدُ عامِلِ الحالِ بها، أيْ: اعْبُدوه في كلِّ حالٍ حتَّى في حالِ كَراهيةِ الكافِرينَ ذلك؛ لأنَّ كَراهيةَ الكافِرينَ ذلك -والمؤمِنونَ بيْنَ ظَهرانَيْهِم وفي بلدٍ فيه سُلْطانُ الكافِرينَ- مَظِنَّةٌ لأنْ يَصُدَّهم ذلك عن دُعاءِ اللهِ مُخلِصينَ له الدِّينَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٤، ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٥-١٧)

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٌۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾: أي: العَلِيُّ الأعلَى، مُرتفِعُ الدَّرَجاتِ، وأصلُ (رفع): يدُلُّ على خلافِ الوضعِ. وأصلُ (درج): يدُلُّ على مُضِيِّ الشَّيءِ، والمُضِيِّ في الشَّيءِ[1].

﴿ٱلرُّوحَ﴾: أي: الوحْيَ، وسُمِّيَ الوحْيُ رُوحًا؛ لأنَّ حياةَ القُلوبِ والأرواحِ به، كما أنَّ حياةَ الأبدانِ بالأرواحِ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ وفُسْحةٍ واطِّرادٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالى مِن جلالِه وكمالِه وعَظَمتِه ما يَقْتضي إخلاصَ العبادةِ له، فيقولُ: اللهُ هو العَليُّ الأعلَى، صاحِبُ العَرشِ العَظيمِ، يُنزِّلُ الوَحيَ مِنْ أمْرِه على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه وهم الرُّسلُ؛ لِيُخَوِّفَ النَّاسَ ويُحَذِّرَهم يومَ القيامةِ.

ثمَّ يَذكُرُ بعضَ أحوالِ النَّاسِ في هذا اليومِ، فيقولُ: وهو اليَومُ الَّذي يَبرُزُ فيه

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٣، ٢٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤١١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٣٦٣).

النَّاسُ بعدَ خُروجِهم مِن قُبورِهم في صَعيدٍ واحِدٍ، لا يَخفَى على اللهِ مِنَ النَّاسِ شَيءٌ.

ثمَّ يَقولُ اللهُ يومَ القيامةِ: لِمَنِ المُلكُ اليَومَ؟ فيُجيبُ نَفْسَه تعالى فيَقولُ: لله الواحِدِ الَّذي لا شَريكَ له، القَهَّارِ الَّذي قَهَر وغَلَب كُلَّ شَيءٍ، اليَومَ يُثابُ كُلُّ عاملٍ بما عَمِلَ، لا ظُلْمَ اليَومَ؛ إنَّ اللهَ سَريعٌ حِسابُه لعِبادِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ مِن صِفاتِ كِبريائِه وإكرامِه كَوْنَه مُظهِرًا للآياتِ، مُنزِلًا للأرزاقِ؛ ذَكَر في هذه الآيةِ ثَلاثةً أُخرى مِن صِفاتِ الجَلالِ والعَظَمةِ، وهو قَولُه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا قال تعالى في الآيةِ السَّابِقةِ: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]؛ ذكَرَ مِن جَلالِه وكَمالِه ما يَقتَضي إخلاصَ العِبادةِ له، فقال[2]:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾.

أي: هو العَلِيُّ الأعلى فَوقَ السَّمَواتِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥٩، ١٦٠). =

كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٣، ٤].

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾.

أي: صاحِبُ العَرشِ العَظيم، العالي على جَميعِ المخلوقاتِ، وقد استَوى عليه استواءً يَليقُ بعَظَمتِه وجَلالِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: يُنزِّلُ اللهُ الوَحيَ مِنْ أمْرِه[(٢)] .....

= قال السعدي: (﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: العَلِيُّ الأعلَى، الَّذي استوى على العرشِ واختصَّ به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

وقال ابن عثيمين: (وتفسيرُ الآيةِ المُتعيِّنُ أن نقولَ: إنَّه رفيعُ الدَّرَجاتِ، أي: هو نفْسُه عزَّ وجلَّ مُرتفِعٌ، بل رفيعُ الدَّرَجاتِ، أتى بالصِّفةَ المُشَبَّهةِ الدَّالَّةِ على الثُّبوتِ والدَّوامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٠).

وقيل: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي: رافعُ السَّمواتِ السَّبْعِ، قاله سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والكَلْبيُّ. وقيل: معناه: عظيمُ الصِّفاتِ، قاله ابنُ زيادٍ. وقيل: هو رَفْعُه دَرَجاتِ أوليائِه، قاله يحيى. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٤٧).

وأنكَر ابنُ عثيمينَ تفسيرَ ذلك بعظيمِ الصِّفاتِ، أو رافعِ دَرَجاتِ المؤمنينَ، وجعَله مِن تحريفِ الكَلِمِ عن مَواضِعِه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٠).

(٢) قال السعدي: (﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ أي: الوحيَ الذي للأرواحِ والقلوبِ بمنزلةِ الأرواحِ للأجسادِ، فكما أنَّ الجسَدَ بدونِ الرُّوحِ لا يحيا ولا يعيشُ، فالرُّوحُ والقلبُ بدونِ روحِ الوَحْيِ لا يصلُحُ ولا يُفلِحُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤). =

على مَن يَشاءُ مِن عبادِه، وهم الرُّسُلُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

أي: لِيُخَوِّفَ النَّاسَ ويُحَذِّرَهم يومَ القيامةِ[(٢)].

= وقال ابنُ الجوزي: (قَولُه تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ: أحَدُها: مِن قضائِه. قاله ابن عباس. والثاني: بأمْرِه. قاله مقاتل. والثالث: مِن قَولِه تعالى. ذَكَره الثعلبي). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢).

قال مقاتلٌ: (بإذنه)، وفي سورةِ (النحل) في قولِه تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢] قال: (بأمرِه) وممن اختار أنَّ المرادَ: بأمرِه: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٥٩) و(٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: مِن قَولِه وكلامِه تعالى: الثعلبي، والقرطبي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٠-١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٤، ٢٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٠-١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

وممَّن قال بأنَّ المُنذِرَ هو الرَّسولُ: ابن جرير، والقرطبي، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابن عثيمين: (الرَّسولُ لا شَكَّ أنَّه هو المنذِرُ مُباشَرةً، ويحتَمِلُ أنَّ الفاعِلَ يعودُ على فاعلِ ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، أي: لِيُنذِرَ اللهُ. والحِكمةُ مِن عَدَمِ ذِكرِ الفاعِلِ -واللهُ أعلمُ- =

كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾.

أي: يومَ يكونُ النَّاسُ بعدَ خُروجِهم مِن قُبورِهم ظاهِرينَ في صَعيدٍ واحِدٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾.

= لِيَصلُحَ الفِعلُ للأمرَينِ، أي: لِيَكونَ صالِحًا لأنْ يعودَ الإنذارُ إلى اللهِ، وأن يعودَ إلى الرَّسولِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦١) بتصرف.

وقال ابنُ كثير: (قال عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ اسمٌ مِن أسماءِ يومِ القيامةِ حَذَّر منه عبادَه. وقال ابنُ جريج: قال ابنُ عبَّاسٍ: يلتقي فيه آدَمُ وآخِرُ ولَدِه. وقال ابنُ زيد: يلتقي فيه العِبادُ. وقال قتادةُ والسُّدِّي، وبلالُ بنُ سعد، وسُفيانُ بن عيينة: يلتقي فيه أهلُ السَّماءِ وأهلُ الأرضِ. وقال قتادةُ أيضًا: يلتقي فيه أهلُ السَّماءِ وأهلُ الأرض، والخالِقُ والخَلْقُ. وقال ميمونُ ابنُ مِهرانَ: يلتقي فيه الظَّالِمُ والمظلومُ. وقد يُقالُ: إنَّ يومَ القيامةِ هو يَشمَلُ هذا كُلَّه، ويَشمَلُ أنَّ كُلَّ عاملٍ سيلقى ما عَمِلَ مِن خيرٍ وشَرٍّ. كما قاله آخَرونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٥-١٣٦).

وقال ابن عثيمين: (... ولو قلنا بمعنًى أعمَّ: لِتَلاقي الخلائقِ في ذلك اليوم؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ يُلاقيه الآخرُ حتى الوحوشَ؛ ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ فسُمِّي يومَ التلاقي؛ لِتَلاقي الخلقِ فيه، يَحشُرُ الله عزَّ وجلَّ الخلائقَ كلَّها في ذلك اليومِ فيتلاقَونَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٧، ٢٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

أي: لا يَخفَى على اللهِ مِن النَّاسِ شَيءٌ مِن ذَواتِهم وأحوالِهم، وظواهِرِهم وبواطِنِهم(١).

﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾.

أي: يَقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ: لِمَنِ المُلكُ اليومَ؟ فيُجيبُ نَفْسَه تعالى فيَقولُ: للهِ الواحِدِ القَهَّارِ؛ الواحِدِ الَّذي لا شَريكَ له في مُلكِه، ولا مِثْلَ له في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، القَهَّارِ الَّذي قَهَر وغَلَب كُلَّ شَيءٍ؛ فكُلُّ ما سِواه خاضِعٌ له(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٩، ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٧).

قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ اتَّفَقوا على أنَّ هذا يقولُه الله عزَّ وجلَّ بعدَ فَناءِ الخلائق). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣).

وممَّن قال بأنَّ السَّائِلَ والمُجيبَ هو اللهُ تعالى: ابنُ جرير، والواحديُّ -ونسَبَه لجماعةِ المفَسِّرينَ-، والقرطبيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ، وعَطاءٌ، وشَهْرُ بنُ حَوْشَبٍ، ومحمَّدُ ابنُ كعبٍ القُرَظيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٣٦)، ((الأهوال)) لابن أبي الدنيا (ص: ٤٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦).

وقيل: إنَّ الخلائقَ كلَّهم يُجيبونَه فيقولونَ: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾، قاله ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣).

وقال الرازي: (لا يَبعُدُ أن يكونَ... السَّائِلُ جَمعًا مِن الملائكةِ، والمُجيبُ جَمعًا آخَرينَ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٠، ٥٠١).

=

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((يَقبِضُ اللهُ تبارك وتعالى الأرضَ يومَ القيامةِ، ويَطوي السَّماءَ بيَمينِه، ثمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ! أين مُلوكُ الأرضِ؟!))[١].

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قرَّر الله تعالى أنَّ الملكَ لله وحدَه في ذلك اليومِ؛ عدَّد نتائجَ ذلك، وهي أنَّ كلَّ نفسٍ تجزَى ما كسَبتْ، وأنَّ الظُّلمَ مأمونٌ[٢].

وأيضًا لَمَّا شَرَح الله سُبحانَه صِفاتِ القَهرِ في ذلك اليَومِ؛ أردَفَه ببَيانِ صِفاتِ العَدلِ والفَضلِ في ذلك اليَومِ[٣].

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن إذعانِ كُلِّ نَفْسٍ بانقِطاعِ الأسبابِ؛ أخبَرَهم بما يَزيدُ رُعبَهم، ويَبعَثُ رَغَبَهم ورَهَبَهم، وهو نتيجةُ تفَرُّدِه بالمُلْكِ، فقال[٤]:

= وقال النَّحَّاس: (أصَحُّ ما قيل فيه: ما رواه أبو وائلٍ عن ابنِ مَسعودٍ، قال: يُحشَرُ النَّاسُ على أرضٍ بَيضاءَ مِثلِ الفِضَّةِ، لم يُعصَ اللهُ جَلَّ وعَزَّ عليها، فيُؤمَرُ مُنادٍ أن يُنادِيَ: لِمَنِ المُلكُ اليَومَ؟ فهذا قَولٌ بيِّنٌ، فأمَّا أن يكونَ هذا والخَلقُ غيرُ موجودينَ فبعيدٌ؛ لأنَّه لا فائدةَ فيه. والقَولُ الأوَّلُ صَحيحٌ عن ابنِ مَسعودٍ، وليس هو ممَّا يُؤخَذُ بالقياسِ، ولا بالتَّأويلِ. والمعنى على قولِه: فيُنادي منادٍ يومَ القيامةِ؛ لِيُقرِّرَ النَّاسَ: لِمَنِ المُلكُ اليومَ؟ فيَقولُ العِبادُ مُؤمِنُهم وكافِرُهم: لله الواحِدِ القهَّارِ! فيَقولُ المؤمِنونَ هذا سرورًا وتَلْذاذًا، ويقولُ الكافِرونَ هذا رَغمًا وانقيادًا وخُضوعًا). ((إعراب القرآن)) (٤/ ٢١، ٢٢). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٨٠).

(١) رواه البخاري (٦٥١٩)، ومسلم (٢٧٨٧) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨).

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾.

أي: اليَومَ يُثابُ كُلُّ عاملٍ بما عَمِلَه في الدُّنيا جزاءً مُناسِبًا لعَمَلِه مِن خيرٍ أو شَرٍّ(١).

كما قال تعالى: ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

﴿لَا ظُلۡمَ﴾.

أي: لا ظُلْمَ يومَ القيامةِ على أحَدٍ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ؛ فلا يُعاقَبُ أحَدٌ بذَنْبِ غَيرِه، ولا يُعاقَبُ بأكثَرَ مِمَّا يَستَحِقُّ، ولا يُزادُ في سَيِّئاتِه شَيءٌ، ولا يُنقَصُ مِن حَسَناتِه شَيءٌ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما رَوى عن اللهِ تبارَك وتعالى أنَّه قال: ((يا عِبادي، إنِّي حَرَّمتُ الظُّلْمَ على نفْسي، وجعَلْتُه بيْنَكم مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَموا))(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

قال ابنُ عثيمين: (﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: لا ظُلمَ واقِعٌ مِن الله، ولا ظُلمَ واقِعٌ مِن الخَلقِ بَعضِهم لبَعضٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٧٠).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٧).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو سُرعةٍ بالِغةٍ في مُحاسَبةِ عِبادِه يومَ القيامةِ على ما عَمِلوا في الدُّنيا(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المُرادَ: إنَّ الله ذو سرعةٍ في مُحاسَبةِ عِبادِه، وأنَّ الحسابَ لا يُبطِئُ؛ لأنَّ اللهَ لا يَشغَلُه حسابٌ عن حسابٍ، فيُحاسِبُ الخَلْقَ كلَّه في وقتٍ واحدٍ كما يُحاسِبُ نفْسًا واحدةً، وهو أسرَعُ الحاسِبينَ، فلا يَحتاجُ إلى تفكُّرٍ كما يَحتاجُه غيرُه: ابنُ جرير، والزمخشري، وابن عطية، والقرطبي، وابن كثير، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢).

وقال السعدي: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: لا تَستَبْطِئوا ذلك اليَومَ؛ فإنَّه آتٍ، وكلُّ آتٍ قريبٌ، وهو أيضًا سريعُ المُحاسَبةِ لعِبادِه يومَ القيامةِ؛ لإحاطةِ عِلمِه، وكمالِ قُدرتِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

وقال ابنُ كثيرٍ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ (إبراهيمَ)، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١]، قال: (يحتملُ أنْ يكونَ كقولِه تعالَى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، ويحتملُ أنَّه في حالِ مُحاسَبتِه لعبدِه سريعُ النَّجازِ؛ لأنَّه يَعلَمُ كلَّ شَيءٍ، ولا يَخفَى عليه خافيةٌ، وإنَّ جميعَ الخلقِ بالنِّسبةِ إلى قُدرتِه كالواحدِ مِنهم، كقولِه تعالَى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنَى قولِ مُجاهِدٍ: سَرِيعُ الْحِسَابِ إحصاءً. ويحتملُ أنْ يكونَ المَعْنَيانِ مُرادَينِ، واللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٣).

واختار ابنُ عثيمين في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ (النُّورِ)، وهو قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] أنَّ المعنيَينِ مُرادانِ؛ الأوَّلُ: قُرْبُ وقتِ المُجازاةِ، فتكونُ السُّرعةُ زَمَنيَّةً، أي: أنَّ حسابَه للعِبادِ قَرُبَ، والثَّاني: إنجازُ الحسابِ، فتكونُ السُّرعةُ عمَليَّةً، أي: أنَّه في مُحاسَبتِه سريعٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٧٦).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ التَّحذيرُ مِن خِزْيِ يومِ القيامةِ؛ لأنَّه يومُ التَّلاقِ، ولا شَكَّ أنَّ العُقوبةَ إذا كانت لا يَطَّلعُ عليها إلَّا القَليلُ أهْوَنُ مِمَّا إذا اطَّلَع عليها الكثيرُ، فكيف إذا اطَّلَع عليها الخَلقُ كُلُّهم؟! تكونُ أشَدَّ وأعظَمَ[١]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ إثباتُ صِفَتينِ مِن صِفاتِ اللهِ، دَلَّ عليهما قَولُه تعالى: ﴿ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾، وهما الوَحدانيَّةُ والقَهرُ، ويَترتَّبُ على ذلك مِن النَّاحيةِ المَسلَكيَّةِ أنَّ الإنسانَ إذا اعتقَدَ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى واحِدٌ، لم يَلتَفِتْ إلى أحَدٍ سِواه، وإذا اعتَقَد أنَّ اللهَ قَهَّارٌ خاف مِن قَهْرِه، واستعان بقَهرِه على عَدُوِّه[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ فيه تَرجيةٌ للفَريقَينِ وتَخويفٌ؛ لأنَّ الظَّالِمَ يَخشى إسراعَ الأخذِ بالعَذابِ، والمؤمِنَ يَرجو إسراعَ البَسطِ بالثَّوابِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ إثباتُ عُلُوِّ الذَّاتِ؛ ذاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ يُشيرُ إلى أنَّ النُّبُوَّةَ غَيرُ مُكتَسَبةٍ؛ لأنَّه جيءَ بفِعلِ الإلقاءِ، وبكَونِ الرُّوحِ مِن أمْرِه في قَولِه: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾، وبصِلةِ ﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾؛ فآذَنَ بأنَّ ذلك بمَحضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩، ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٢).

اختِيارِه وعِلْمِه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[١] [الأنعام: ١٢٤]، فهي فَضْلٌ مِن اللهِ سبحانَه وتعالى على مَن يشاءُ مِن عبادِه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ إثباتُ الحكمةِ للهِ تعالى؛ وأنَّ أفعالَه سبحانَه مقرونةٌ بالحكمةِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿لِيُنذِرَ﴾، واللَّامُ لِلتَّعليلِ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ ذِكْرُ هذا الكَلامِ في هذا الموضِعِ لائِقٌ جِدًّا؛ لأنَّه تعالى لَمَّا بَيَّن أنَّه لا ظُلْمَ؛ بيَّنَ أنَّه سَريعُ الحِسابِ، وذلك يدُلُّ على أنَّه يَصِلُ إليهم ما يَستَحِقُّونَه في الحالِ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ في الآيةِ إيماءٌ إلى أنَّ تأخيرَ القَضاءِ بالحَقِّ بعدَ تَبيُّنِه للقاضي، بدونِ عُذرٍ: ضَربٌ مِن ضُروبِ الجَورِ؛ لأنَّ الحَقَّ إن كان حَقَّ العبادِ فتأخيرُ الحُكمِ لصاحِبِ الحَقِّ إبقاءٌ لحَقِّه بيَدِ غَيرِه، ففيه تَعطيلُ انتِفاعِه بحَقِّه بُرهةً مِن الزَّمانِ، وذلك ظُلمٌ، ولَعَلَّ صاحِبَ الحَقِّ في حاجةٍ إلى تَعجيلِ حَقِّه لِنَفعِ مُعَطَّلٍ، أو لِدَفعِ ضُرٍّ جاثمٍ، ولَعَلَّه أن يَهلِكَ في مُدَّةِ تأخيرِ حَقِّه، فلا ينتَفِعَ به، أو لعَلَّ الشَّيءَ المحكومَ به يَتلَفُ بعارِضٍ أو قَصدٍ، فلا يَصِلُ إليه صاحِبُه بَعْدُ. وإن كان الحَقُّ حَقَّ اللهِ كان تأخيرُ القَضاءِ فيه إقرارًا للمُنكَرِ[٥].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٧، ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢، ١١٣).

عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾

- قولُه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ خَبَرانِ آخَرانِ لقولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: ١٣]، وقولُه: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ خبرٌ آخَرُ، مُنبئٌ عن إنزالِ الرِّزقِ الرُّوحانيِّ -الَّذي هُو الوحيُ- بعدَ بَيانِ إنزالِ الرِّزقِ الجُسمانيِّ -الَّذي هُو المطرُ-، أي: يُنزِلُ الوحيَ الجاريَ مِن القلوبِ مَنزلةَ الرُّوحِ مِنَ الأجسادِ[١].

- والإلقاءُ: حَقيقتُه رمْيُ الشَّيءِ مِن اليَدِ إلى الأرضِ، ويُعبَّرُ به عن الإعطاءِ إذا كان غيرَ مُترقَّبٍ، وعُبِّرَ به هنا عن الوحْيِ؛ لأنَّه يَجيءُ فَجأةً على غيرِ تَرقُّبٍ، كإلْقاءِ الشَّيءِ إلى الأرضِ[٢].

- قولُه: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ تَخلُّصٌ مِن ذِكرِ النُّبوَّةِ إلى النِّذارةِ بيَومِ الجزاءِ؛ لِيَعودَ وصْفُ يومِ الجزاءِ الَّذي انقطَعَ الكلامُ عليه مِن قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ [غافر: ١٢]... إلخ[٣].

- والضَّميرُ المُستترُ في ﴿لِيُنذِرَ﴾ قيل: إنَّه عائدٌ إلى اسمِ الجلالةِ مِن قولِه: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ [غافر: ١٤]، وقيل: الأحسَنُ أنْ يعودَ على ﴿مَن﴾ المَوصولةِ مِن قولِه: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، أي: لِيُنذِرَ مَن أَلْقى عليه الرُّوحَ قومَه، ولأنَّ فيه تَخلُّصًا إلى ذِكرِ الرَّسولِ الأعظَمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذي هو بصَددِ الإنذارِ دونَ الرُّسلِ الَّذين سَبَقوا؛ إذ لا تُلائمُهم صِيغةُ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٠٨).

المضارِعِ، ولأنَّه مُرجِّحٌ لإظهارِ اسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٌ﴾[1].

- و﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ إمَّا ظرفٌ للمفعولِ الثَّاني لـ (يُنْذِرَ)، وحُذِفَ المفعولُ الأوَّلُ لِظُهورِه، أي: لِيُنذِرَ النَّاسَ العذابَ يومَ التَّلاقِ، وهو يومُ القِيامةِ؛ لأنَّه يَتلاقَى فيهِ الأرواحُ والأجسامُ وأهلُ السَّمواتِ والأرضِ، أو هو المفعولُ الثَّاني اتِّساعًا، أوْ أصالةً؛ فإنَّه مِن شِدَّةِ هَولِه وفَظاعتِه حَقيقٌ بالإنذارِ أصالةً[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٌۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾

- جملةُ ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٌ﴾ استئنافٌ لِبَيانِ بُروزِهم، وتَقريرٌ له، وإزاحةٌ لِما كان يَتوهَّمُه المتوهِّمونَ في الدُّنيا مِن الاستتارِ تَوهُّمًا باطلًا؛ بأنَّهم إذا استَتَروا بالحيطانِ والحُجُبِ: أنَّ اللهَ لا يَراهم ويَخْفى عليه أعمالُهم! فهم اليومَ صائرونَ مِن البُروزِ والانكشافِ إلى حالٍ لا يَتوهَّمون فيها مِثلَ ما كانوا يَتوهَّمونَه، والمعنى: أنَّهم واضحةٌ ظَواهِرُهم وبَواطِنُهم؛ فإنَّ ذلك مُقْتضى قولِه: ﴿مِنۡهُمۡ شَيۡءٌ﴾[3].

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ إظهارَه أصرَحُ؛ لِبُعدِ مَعادِه بما عَقِبَه مِن قولِه: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، ولأنَّ ضَميرَ ﴿لِيُنذِرَ﴾ عائدٌ إلى ﴿مَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٨، ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٩).

يَشَآءُ﴾[١]. وذلك على قولٍ.

- ومعنى ﴿مِنۡهُم﴾: مِن مَجموعِهم، أي: مِن مَجموعِ أحوالِهم وشُؤونِهم؛ ولهذا أُوثِرَ ضَميرُ الجمْعِ؛ لِما فيه مِن الإجمالِ الصَّالحِ لِتَقديرِ مُضافٍ مُناسِبٍ للمَقامِ. وأُوثِرَ أيضًا لفظُ ﴿شَيۡءٌ﴾؛ لِتوغُّلِه في العُمومِ، ولم يقُلْ: لا يَخْفى على اللهِ منهم أحدٌ، أو لا يَخْفى على اللهِ مِن أحدٍ شَيءٌ، أي: مِن أجزاءِ جِسْمِه؛ فالمعنى: لا يَخْفى على اللهِ شَيءٌ مِن أحوالِهم؛ ظاهِرِها وباطِنِها[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ إمَّا تَقريريٌّ؛ لِيَشهَدَ الطُّغاةُ مِن أهْلِ المَحشَرِ على أنفُسِهم أنَّهم كانوا في الدُّنيا مُخطِئينَ فيما يَزْعُمونَه لأنفُسِهم مِن مُلْكٍ لأصنامِهم حينَ يُضيفونَ إليها التَّصرُّفَ في مَمالِكَ مِن الأرضِ والسَّماءِ، ويجوزُ أيضًا أنْ يكونَ الاستفهامُ كِنايةً عن التَّشويقِ إلى ما يَرِدُ بعْدَه مِن الجوابِ؛ لأنَّ الشَّأْنَ أنَّ الَّذي يَسمَعُ استِفهامًا يَترقَّبُ جَوابَه، فيَتمكَّنُ مِن نفْسِه الجوابُ عندَ سَماعِه فضْلَ تَمكُّنٍ، على أنَّ حُصولَ التَّشويقِ لا يَفوتُ على اعتبارِ الاستفهامِ للتَّقريرِ[٣].

- قولُه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ إنَّما خُصَّ التَّقريرُ باليومِ، وإنْ كان المُلْكُ له تَعالى في ذلك اليومِ وفي غَيرِه؛ لِظُهورِ ذلك للكَفَرةِ والجَهَلةِ، ووُضوحِه يومَ القيامةِ[٤].

- وجملةُ ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ مِن بقيَّةِ القولِ المُقَدَّرِ الصَّادرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٠٩، ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٥).

مِن جانبِ اللهِ تعالى؛ بأنْ يَصدُرَ مِن ذلك الجانبِ استِفهامٌ، ويَصدُرَ منه جَوابُه؛ لأنَّه لَمَّا كان الاستِفهامُ مُستعمَلًا في التَّقريرِ أو التَّشويقِ، كان مِن الشَّأنِ أنْ يَتولَّى النَّاطقُ به الجوابَ عنه، ويجوزُ أنْ تكونَ مَقولَ قولٍ آخَرَ مَحذوفٍ، أي: فيقولُ المَسؤولونَ: للهِ الواحدِ القهَّارِ؛ إقرارًا منهم بذلك، والتَّقديرُ: فيقولُ البارزونَ: للهِ الواحدِ القهَّارِ، فتَكونَ مُعترِضةً(١).

- وذِكْرُ الصِّفتَينِ ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ دونِ غَيرِهما مِن الصِّفاتِ العُلَى؛ لأنَّ لِمَعْنَيَيْهِما مَزيدَ مُناسَبةٍ بقولِه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ حيثُ شُوهِدَت دَلائلُ الوَحدانيَّةِ للهِ، وقَهْرُه جميعَ الطُّغاةِ والجبَّارينَ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لَمَّا تَقرَّرَ أنَّ المُلْكَ للهِ وحْدَه في ذلك اليومِ بمَجموعِ الجُملتَينِ السَّابقتَينِ؛ عُدِّدَت آثارُ التَّصرُّفِ بذلك المُلْكِ، وهي الحُكْمُ على العِبادِ بنَتائجِ أعمالِهم، وأنَّه حُكْمٌ عادلٌ لا يَشوبُه ظُلْمٌ، وأنَّه عاجلٌ لا يُبطِئُ؛ لأنَّ اللهَ لا يَشغَلُه عن إقامةِ الحقِّ شاغلٌ، ولا هو بحاجةٍ إلى التَّدبُّرِ والتَّأمُّلِ في طُرقِ قَضائِه، وعلى هذه النَّتائجِ جاء تَرتيبُ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾، ثمَّ ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾، ثمَّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، وجُملةُ ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ ...﴾ إلخ واقعةٌ مَوقعَ البَيانِ لِما في جُملةِ ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] وجَوابِها مِن إجمالٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١١، ١١٢).

- قولُه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ قيل: إنَّه كأنَّه نَتيجةٌ لِما سبَقَ، وتَحقيقُه أنَّ النُّفوسَ تَكتسِبُ بالعقائدِ والأعمالِ هَيئاتٍ تُوجِبُ لَذَّتَها وألَمَها، لكنَّها لا تَشعُرُ بها في الدُّنيا؛ لِعَوائقَ تَشغَلُها، فإذا قامتْ قِيامتُها زالَتِ العوائقُ، وأدْرَكَت لذَّتَها وألَمَها[1]. وقيل: إنَّه إمَّا مِنْ تَتمَّةِ الجَوابِ؛ لِبَيانِ حُكمِ اختصاصِ المُلكِ بِهِ تعالَى ونَتيجتِه الَّتي هيَ الحُكْم السَّوِيُّ والقضاءُ الحقُّ. أوْ هو حِكايةٌ لِمَا سَيَقولُه تعالى يَومَئذٍ عَقِيبَ السُّؤالِ والجوابِ، أيْ: تُجْزى كلُّ نفْسٍ مِن النُّفوسِ البَرَّةِ والفاجرةِ بما كسَبَتْ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[2].

- وقَولُه: ﴿تُجۡزَىٰ﴾ بناه للمَفعولِ؛ لأنَّ المُرغَّبَ المُرَهَّبَ نَفْسُ الجَزاءِ، ولِبَيانِ سُهولتِه عليه سُبحانَه[3].

- وجُملةُ ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ واقِعةٌ مَوقِعَ بَدَلِ الاشتِمالِ مِن جُملةِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾، أي: جزاءً عادلًا لا ظُلْمَ فيه، أي: ليس فيه أقَلُّ شَوبٍ مِن الظُّلمِ، حسَبَما اقتضاهُ وُقوعُ النَّكِرةِ بعْدَ (لا) النَّافيةِ للجنْسِ[4].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ واقِعةٌ مَوقعَ التَّعليلِ لِوُقوعِ الجزاءِ في ذلك اليوم، ولانتِفاءِ الظُّلمِ عن ذلك الجزاءِ. وتأْخيرُها عن تَينِك الجُملتَينِ مُشيرٌ إلى أنَّها عِلَّةٌ لهما؛ فحرْفُ التَّوكيدِ (إنَّ) واقعٌ مَوقِعَ فاءِ السَّببيَّةِ، كما هو شأْنُ (إنَّ) إذا جاءتْ في غيرِ مَقامِ ردِّ الإنكارِ؛ فسُرْعةُ الحِسابِ تَقْتضي سُرعةَ الحكْمِ، وسُرعةُ الحكْمِ تَقْتضي تَملُّؤَ الحاكمِ مِن العِلْمِ بالحقِّ، ومِن

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢).

تَقديرِ جزاءِ كلِّ عاملٍ على عمَلِه دونَ تردُّدٍ ولا بحْثٍ؛ لأنَّ الحاكمَ علَّامُ الغُيوبِ؛ فكان قولُه: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ عِلَّةً لجميعِ ما تَقدَّمَه في هذا الغرَضِ، والمعنى: أنَّ اللهَ مُحاسِبُهم حسابًا سريعًا؛ لأنَّه سريعُ الحسابِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٩).

الآيات (١٨-٢٠)

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْآزِفَةِ﴾: أي: القيامةِ، سُمِّيت بذلك لِقُربِها، وأصلُ (أزف): يدُلُّ على الدُّنُوِّ والمُقارَبةِ[١].

﴿ٱلْحَنَاجِرِ﴾: أي: الحُلُوقِ، جمعُ حَنْجَرةٍ: وهي آخرُ الحَلْقِ ممَّا يَلِي الفَمَ، أو: طرَفُ المَرِيءِ ممَّا يَلي الفَمَ، وترَاه ناتِئًا مِنْ خَارِجِ الحَلْقِ[٢].

﴿كَٰظِمِينَ﴾: أي: مَكروبينَ مُمتَلِئينَ خَوفًا وحُزنًا، والكَظْمُ: تَرَدُّدُ الغَيظِ والخَوفِ والحُزنِ في القَلبِ حتَّى يَضيقَ به، وأصلُ (كظم): يدُلُّ على إمساكٍ وجَمعٍ للشَّيءِ[٣].

﴿حَمِيمٍ﴾: أي: قَريبٍ مُشفِقٍ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على دُنُوٍّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠١)، ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) لابن عبد البر (٢٣/ ٣٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((مطالع الأنوار على صحاح الآثار)) لابن قُرْقُول (٢/ ٣١٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، =

﴿شَفِيعٍ﴾: أي: شافعٍ، فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، والشَّفاعةُ: الانضِمامُ إلى آخَرَ نُصرةً له، وسُؤالًا عنه، والشَّفعُ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه، وأصلُ (شفع): يدُلُّ على مُقارَنةِ الشَّيئَينِ[1].

﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾: أي: خِيانَتَها، وهي مُسارَقةُ النَّظَرِ إلى ما لا يَحِلُّ، وأصلُ (خون): يدُلُّ على تَنَقُّصٍ، وذلك نُقصانُ الوَفاءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُحذِّرَ النَّاسَ مِن أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: وخَوِّفِ النَّاسَ -يا مُحمَّدُ- وحَذِّرْهم مِن يومِ القيامةِ وما فيه مِن أهوالٍ، حينَ تَبلُغُ قُلوبُ العِبادِ حناجِرَهم؛ مِن شِدَّةِ خَوفِهم، فلا يَقدِرونَ على الكَلامِ، ليس للظَّالِمينَ يومَ القيامةِ قَريبٌ مُحِبٌّ أو مُشفِقٌ، وليس لهم شَفيعٌ تُقبَلُ شَفاعتُه فيهم.

ثمَّ يقولُ تعالى مؤكِّدًا سَعةَ عِلمِه سبحانَه، وإحاطتَه بكلِّ شَيءٍ: يَعلَمُ اللهُ خيانةَ أعيُنِ عِبادِه، وما تَنطوي عليه صُدورُهم.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (١/ ٣٠٦).

قال الشنقيطي: (وأصلُ الشَّفاعةِ مُشتقَّةٌ مِن الشَّفعِ، والشَّفعُ ضِدُّ الوترِ، وإنَّما قيل للشَّفيعِ: شفيعٌ؛ لأنَّ صاحِبَ الحاجةِ كان فردًا في حاجتِه، فلمَّا جاء إلى مَن يَشفَعُ له شَفَعَه، فصارا اثنَينِ في حاجتِه). ((العذب النمير)) (١/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٣).

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّ الحُكمَ الحقَّ في هذا اليومِ مَرجِعُه إليه وحْدَه، فيقولُ: واللهُ يَحكُمُ بيْنَ عِبادِه بالعَدلِ التَّامِّ. والَّذينَ يَدْعوهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَحكُمونَ بشَيءٍ، إنَّ اللهَ هو السَّميعُ البَصيرُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾.

أي: وخَوِّفِ النَّاسَ[1] -يا مُحمَّدُ- وحَذِّرْهم مِن يَومِ القيامةِ وما فيه مِن أهوالٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۞ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨].

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾.

أي: حينَ تَبلُغُ قُلوبُ العِبادِ حَناجِرَهم؛ مِن شِدَّةِ خَوفِهم، فعَلِقَت فيها، فلا تَخرُجُ مِن أبدانِهم فيَموتوا، ولا تَرجِعُ إلى مَواضِعِها، قد امتلأَتْ خَوفًا وغَمًّا

---

(١) ممَّن اختارَ المعنَى المذْكورَ: ابنُ عطيَّةَ، والشَّوكانيُّ، والشِّنقيطي، وعبارةُ ابنِ عطيَّةَ (العالَم)، وعبارةُ الشَّوكاني (العِباد). يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٢).

وقال ابن جرير: (وأنْذِرْ يا محمَّدُ مُشْركي قَومِكَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٠).

وممَّن اختار أنَّ المُرادَ: أهلُ مكَّةَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٠).

ورُعبًا، فلا يَقدِرونَ على الكَلامِ[١].

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

أي: ليس للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ يومَ القيامةِ قَريبٌ أو صاحِبٌ مُحِبٌّ مُشفِقٌ يَدفَعُ عنهم عذابَ اللهِ، وليس لهم شَفيعٌ يَشفَعُ لهم عندَ اللهِ؛ فيُجابَ فيما سألَ، وتُقبَلَ شَفاعتُه فيهم[٢].

كما قال تعالى حاكيًا عن أهلِ النَّارِ قولَهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ [الحاقة: ٣٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨١، ٣٨٢).

وقيل: إنَّ المرادَ بكَونِ القلوبِ لَدى الحناجرِ: بيانُ شِدَّةِ الهَولِ، وفظاعةِ الأمرِ؛ وعليه فالآيةُ كقولِه تعالَى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]، وهو زِلزالُ خَوفٍ وفزَعٍ، لا زِلزالُ حركةِ الأرضِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨١).

وهذه الحالُ قيل: إنَّها عامَّةٌ للمؤمنينَ وللكافِرين، لكنْ لا يَلْحَقُ المؤمنينَ شَرٌّ مِن ذلك اليَومِ. واختار ذلك ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٨٢).

وقيل: قولُه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ تَخصيصٌ لِقَولِه سُبحانَه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾، فدلَّ على أنَّ الفَزَعَ إنَّما هو للكُفَّارِ، فالظَّالِمون همُ الكافِرونَ في هذا الموضِعِ. واختاره القَصَّابُ. يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٤).

قال الماوَرْدي: (﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: يُجابُ إلى الشَّفاعةِ، وسُمِّيت الإجابةُ طاعةً؛ لموافَقتِها إرادةَ المُجابِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٤٩).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١٠ - ١٤].

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ بإنذارِه يومَ الآزفةِ، وما يَعرِضُ فيه مِن شِدَّةِ الكَرْبِ والغَمِّ، وأنَّ الظَّالمَ لا يَجِدُ مَن يَحمِيه مِن ذلك، ولا مَن يَشفَعُ له؛ ذكَرَ اطِّلاعَه تعالى على جَميعِ ما يَصدُرُ مِن العبدِ، وأنَّه مُجازًى بما عَمِلَ؛ لِيَكونَ على حذَرٍ مِن ذلك اليومِ إذا علِمَ أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على أعمالِه[1].

وأيضًا بعدَ أنْ أيْأَسَهم اللهُ تعالى مِن شَفيعٍ يَسعَى لهم في عدَمِ المُؤاخَذةِ بذُنوبِهم؛ أيأَسَهم مِن أن يَتوهَّموا أنَّهم يَستَطيعونَ إخفاءَ شَيءٍ مِن نيَّاتِهم، أو أدنَى حَركاتِ أعمالِهم على ربِّهم[2].

وأيضًا لَمَّا كانت الشَّفاعةُ إنَّما تَقَعُ وتَنفَعُ بشَرطِ بَراءةِ المشفوعِ له مِن الذَّنْبِ؛ إمَّا بالاعترافِ بما نُسِبَ إليه والإقلاعِ عنه، وإمَّا بالاعتذارِ عنه، وكان ذلك إنَّما يجري عندَ المخلوقينَ على الظَّاهِرِ؛ ولذلك كانوا رُبَّما وقَع لهم الغَلَطُ فيمَن لو عَلِموا باطِنَه لَما قَبِلوا الشَّفاعةَ فيه- عَلَّل تعالى ما تقَدَّمَ بعِلْمِه أنَّ المشفوعَ له ليس بأهلٍ لِقَبولِ الشَّفاعةِ فيه؛ لإحاطةِ عِلْمِه، فقال[3]:

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢).

أي: يَعلَمُ اللهُ خيانةَ الأعيُنِ[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

والخائنةُ: مصدرٌ كالخيانةِ، أو اسمُ فاعلٍ فيكونُ مِن بابِ إضافةِ الصِّفةِ لمَوصوفِها، أي: الأعْيُنَ الخائنةَ، أو تكونُ صِفةً لِمَوصوفٍ محذوفٍ دَلَّ عليه الأعينُ، أي: يَعلَمُ نظرةَ الأعيُنِ الخائنةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين)) (ص: ١٨٥).

قال ابنُ الجوزي: (للمُفَسِّرينَ فيها أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّه الرَّجُلُ يكونُ في القَومِ، فتَمُرُّ به المرأةُ فيُريهم أنَّه يَغُضُّ بَصَرَه، فإذا رأى منهم غَفلةً لَحَظَ إليها، فإنْ خاف أن يَفطِنوا له غَضَّ بصَرَه. قاله ابنُ عبَّاسٍ. والثَّاني: أنَّه نظَرُ العَينِ إلى ما نُهيَ عنه. قاله مُجاهِدٌ. والثَّالثُ: الغَمزُ بالعَينِ. قاله الضَّحَّاكُ والسُّدِّيُّ. قال قَتادةُ: هو الغَمزُ بالعَينِ فيما لا يُحِبُّه اللهُ ولا يَرضاه. والرَّابعُ: النَّظرةُ بعدَ النَّظرةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣).

ممَّن اختار أنَّ خائنةَ الأعيُنِ هي مُسارَقتُها النَّظرَ إلى ما لا يحلُّ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، والخازن، والعُليمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

وممَّن اختار أنَّها الغمزةُ فيما لا يحلُّ بالعَينِ، والنَّظرةُ في المعصيةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٩).

وممَّن اختار أنَّها: النَّظرُ إلى المُحرَّماتِ: الكرمانيُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ الشِّنقيطيِّ. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٩).

قال ابن عاشور: (ومعنَى: ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾: خيانةَ النَّظَرِ، أي: مُسارَقَةَ النَّظرِ لشيءٍ بحضرةِ مَن لا يُحِبُّ النَّظرَ إليه... والمرادُ بـ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾: النَّظرةُ المقصودُ منها إشعارُ المنظورِ إليه بما يَسوءُ غيرَه الحاضرَ؛ استِهزاءً به، أو إغراءً به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٦).

وقال ابن عطيَّة: (وهذه الآيةُ عبارةٌ عن عِلمِ الله تعالى بجميعِ الخَفيَّاتِ، فمِن ذلك كسرُ الجفونِ والغمزُ بالعَينِ أو النَّظرةُ الَّتي تُفهِمُ معنًى، أو يُريدُ بها صاحبُها معنًى، ومِن هذا قولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم حينَ جاءه عبدُ الله بنُ أبي سَرْحٍ لِيُسْلِمَ بعدَ رِدَّتِه بشَفاعةِ عُثمانَ، فتَلَكَّأ عليه رسولُ =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ أخفى أفعالِ الظَّاهِرِ؛ أتْبَعَه أخفَى ما في الباطِنِ، فقال[1]:

﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ ما تَنطوي عليه صُدورُهم مِنَ الضَّمائِرِ[2].

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٢٠﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾.

= الله صلَّى الله عليه وسلَّم ثمَّ بايَعه، ثمَّ قال عليه السَّلامُ لأصحابِه: هلَّا قام إليه رجُلٌ حينَ تلكَّأتُ عليه فضرَب عُنُقَه؟ فقالوا: يا رسولَ الله، ألَا أَوْمَأْتَ إلينا؟ فقال عليه السَّلامُ: ما يَنبغي لِنَبيٍّ أن تكونَ له خائنةُ الأعيُنِ [أبو داود (٢٦٨٣، ٤٣٥٩)، والنسائي (٤٠٦٧)]). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٣).

وقال الألوسي: (﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ أي: النَّظرةَ الخائنةَ؛ كالنَّظرةِ إلى غيرِ المَحْرَمِ، واستِراقِ النَّظرِ إليه، وغيرِ ذلك). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣١٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٦).

قولُه تعالى: ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ فيه ثلاثةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: الوَسوسةُ، قاله السُّدِّيُّ. الثَّاني: ما تُضمِرُه عندَما ترَى امرأةً إذا أنت قدرْتَ عليها أتَزْني بها أم لا، قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّالثُ: ما يُسِرُّه الإنسانُ مِن أمانةٍ أو خيانةٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٠).

أي: واللهُ يَحكُمُ بيْنَ عِبادِه بالعَدلِ التَّامِّ، ومِن ذلك مُجازاتُه لكُلِّ مَن غَضَّ بَصَرَه وأخفَى الخَيرَ، أو خانت عَينُه وأضمَرَ الشَّرَّ[١].

كما قال الله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾.

أي: والَّذين يَدْعوهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَحكُمونَ بشَيءٍ؛ فهم لا يَعلَمونَ شَيئًا، ولا يَملِكونَ شَيئًا، ولا يَقدِرونَ على شَيءٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لكُلِّ صَوتٍ، البَصيرُ بكُلِّ شَيءٍ[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ قال

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

في أوَّلِ هاتَينِ الآيتَينِ: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ ﴾، ثمَّ وصَفَها بهذه الأوصافِ المقتَضيةِ للاستِعدادِ لذلك اليَومِ العَظيمِ؛ لاشتِمالِها على التَّرغيبِ والتَّرهيبِ[١].

٢- يَنبغي للدَّاعيةِ أنْ يكونَ مُخَوِّفًا أحيانًا، ومُبَشِّرًا أحيانًا؛ مِن أجْلِ أنْ يُحَرِّكَ القلوبَ، ويَنبغي في الإنذارِ أنْ يُذَكِّرَ الدَّاعيةُ النَّاسَ أحوالَ يومِ القيامةِ وأهوالَها؛ قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ ﴾[٢]، أي: أنذِرْهم يومَ القيامةِ، بمعنى: خَوِّفْهم إيَّاه، وهدِّدْهم بما فيه مِن الأهوالِ العِظامِ؛ لِيَستعِدُّوا لذلك في الدُّنيا بالإيمانِ والطاعةِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ يُخبِرُ تعالَى عن عِلمِه التَّامِّ المُحيطِ بجميعِ الأشياءِ؛ جليلِها وحقيرِها، صغيرِها وكبيرِها، دقيقِها ولطيفِها؛ لِيَحذَرَ النَّاسُ عِلمَه فيهم، فيَسْتَحْيوا مِن اللهِ حَقَّ الحَياءِ، ويَتَّقوه حقَّ تَقْواه، ويُراقِبوه مُراقبةَ مَن يَعلَمُ أنَّه يَراه؛ فإنَّه تعالَى يَعلَمُ العَينَ الخائنةَ وإنْ أبدَتْ أمانةً، ويَعلَمُ ما تَنطوي عليه خبايا الصُّدورِ مِن الضَّمائرِ والسَّرائرِ[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ ﴾ فيه ذَمُّ النَّظَرِ إلى ما لا يَجوزُ[٥]، والزَّجْرُ عن ذلك، وتهديدُ مَن لم يَمتثِلْه، ولم يَغُضَّ بَصَرَه عن الحرامِ، فقد أمَرَ اللهُ تعالى بغضِّ البصرِ فقال: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ [النور: ٣٠]، وقال: ﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ ﴾[٦] [النور: ٣١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٦).

(٦) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٩).

٥- كلُّ عمَلٍ لا يحِلُّ فهو خيانةٌ، وإن كان بأدنَى إشارةٍ، وقد نبَّه الله على هذا بقولِه: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾، وهي مُسارَقةُ النَّظرُ إلى ما لا يحلُّ، والإشارةُ بطَرْفِ العَينِ فيما يَحرُمُ، فحقٌّ على المسلمِ أن يَحذَرَ مِن الخيانةِ دقيقِها وجليلِها، وخصوصًا ما اتَّصل بالنَّاسِ منها، ويَتنبَّهَ مِن أقلِّ كلمةٍ، وأدنَى إشارةٍ توقِعُه في خطرِها[1].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ يُوجِبُ عَظيمَ الخَوفِ؛ لأنَّ الحاكِمَ إذا كان عالِمًا بجَميعِ الأحوالِ، لا يَقضي إلَّا بالحَقِّ فيما دَقَّ وجَلَّ؛ خافه الخَلْقُ غايةً[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ لا حُجَّةَ للمُعتَزِلةِ بهذه الآيةِ على نَفْيِ الشَّفاعةِ عن المُذنِبينَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى نفَى أن يَحصُلَ للظَّالِمينَ شَفيعٌ يُطاعُ، وهذا لا يدُلُّ على نفْيِ الشَّفيعِ، كقَولِك: (ما عندي كتابٌ يُباعُ)، فهذا يَقتضي نفْيَ كِتابٍ يُباعُ، ولا يَقتَضي نفْيَ الكِتابِ؛ فهذا يَنفي أنَّ لهم شَفيعًا يُطيعُه اللهُ تعالى؛ لأنَّه ليس في الوُجودِ أحَدٌ أعلى حالًا مِن اللهِ تعالى حتَّى يقالَ إنَّ اللهَ يُطيعُه ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ [يونس: ٣].

وأيضًا فلَفظُ الظَّالِمينَ إمَّا أن يُفيدَ الاستِغراقَ، وإمَّا ألَّا يُفيدَ: فإنْ أفاد الاستِغراقَ كان المرادُ مِن الظَّالِمينَ مَجموعَهم وجُملتَهم، ويَدخُلُ في مجموعِ هذا الكَلامِ الكُفَّارُ، وهذا المجموعُ ليس له شفيعٌ؛ لأنَّ بَعضَ هذا المجموعِ هم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٨).

الكُفَّارُ، وليس لهم شَفيعٌ؛ فحينَئِذٍ لا يكونُ لهذا المجموعِ شَفيعٌ، وإنْ لم يُفِدِ الاستِغراقَ كان المرادُ مِن الظَّالِمينَ بَعضَ مَن كان مَوصوفًا بهذه الصِّفةِ، فبعضُ الموصوفينَ بهذه الصِّفةِ ممَّنْ ليس لهم شفيعٌ هم الكفَّارُ.

وأيضًا فإنَّ المرادَ بالظَّالِمينَ في هذه الآيةِ هاهنا الكُفَّارُ؛ لأنَّها ورَدَت في زَجرِ الكُفَّارِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣]؛ فوَجَب أن يكونَ مُختَصًّا بهم، فلا شَفاعةَ في حَقِّ الكُفَّارِ[١].

فإنْ قال قائِلٌ: الظُّلمُ أعَمُّ مِن الكُفرِ، فكيف فَسَّرتُم الظُّلمَ هنا بالكُفرِ؟

قُلْنا: لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ولأنَّ ما دونَ الكُفرِ مِن المعاصي تُمكِنُ فيه الشَّفاعةُ؛ فإنَّ الشَّفاعةَ ثابِتةٌ لأهلِ الكبائِرِ مِن هذه الأُمَّةِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ تحذيرُ هؤلاء الكُفَّارِ مِن ذلك اليومِ؛ فإنَّهم في الدُّنيا يَجِدونَ مَن يُناصِرُهم ويُواليهم، ويُساعِدُهم ويُعاوِنُهم، ولكنْ في الآخرةِ لا يَجِدونَ شَيئًا مِن ذلك[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ فيه جوازُ المقارَنةِ بيْنَ شيئَينِ لا يَشترِكانِ في المعنى؛ مِن أجْلِ إقامةِ الحُجَّةِ، فما قال سبحانه: (لا يَقضون بالحقِّ)، إنَّما قال: ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾، يعني: ليس لهم أيُّ حُكْمٍ، وليس لهم أيُّ سُلطةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ مُعترِضٌ بيْن جُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧] وجُملةِ ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ [غافر: ١٩]، والمناسَبةُ أنَّ ذِكرَ الحسابِ به يَقْتضي التَّذكيرَ بالاستِعدادِ ليومِ الحِسابِ، وهو يومُ الآزفةِ(١).

- والآزفةُ في قولِه: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾ صِفةٌ لِمَحذوفٍ، تَقديرُه: يومَ السَّاعةِ الآزفةِ، أو الطَّامةِ الآزفةِ، ونحوَ هذا(٢).

- وقولُه: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ ذلك في يومِ القِيامةِ حَقيقةً، ويَبْقَون أحياءً معَ ذلك، بخِلافِ حالةِ الدُّنيا؛ فإنَّ مَن انتقَلَ قلْبُه إلى حَنْجرتِه مات، ويجوزُ أنْ يكونَ ذلك كِنايةً عمَّا يَبْلُغون إليه مِن شِدَّةِ الجزَعِ(٣).

- وإنَّما جمَعَ الكاظِمَ جمْعَ السَّلامةِ فقال: ﴿كَٰظِمِينَ ﴾؛ لأنَّه وَصَفَ القُلوبَ بالكَظْمِ الَّذي هو مِن أفعالِ العُقلاءِ(٤).

- قولُه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ التَّعريفُ في (الظَّالِمين) للاستِغراقِ؛ لِيَعُمَّ كلَّ ظالمٍ، أي: مُشرِكٍ، فيَشملَ الظَّالِمينَ المُنْذَرين، ومَن مضَى مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧١).

أمثالِهم، فيَكونَ بمَنزلةِ التَّذييلِ؛ ولذلك فليس ذِكرُ الظَّالِمينَ مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ[١].

- وقيل: إنْ كانت الضَّمائرُ للكُفَّارِ -وهو الظَّاهرُ- كان وَضْعُ (الظَّالِمين) مَوضِعَ ضَميرِهم؛ للدَّلالةِ على اختِصاصِ ذلك بهم، وللتَّسجيلِ عليهم بالظُّلمِ، وأنَّ العَذابَ لِظُلْمِهم[٢].

- ووَصْفُ ﴿شَفِيعٍ﴾ بجُملةِ ﴿يُطَاعُ﴾ وَصْفٌ كاشفٌ؛ إذ ليس المرادُ أنَّ لهم شُفعاءَ لا تُطاعُ شَفاعتُهم؛ لِظُهورِ قِلَّةِ جَدْوى ذلك، ولكنْ لَمَّا كان شأْنُ مَن يَتعرَّضُ للشَّفاعةِ أنْ يَثِقَ بطاعةِ المشفوعِ عِندَه له جِيءَ بهذا الوصْفِ. وأُتبِعَ ﴿شَفِيعٍ﴾ بوَصْفِ ﴿يُطَاعُ﴾؛ لِتَلازُمِهما عُرْفًا؛ فهو مِن إيرادِ نفْيِ الصِّفةِ اللَّازمةِ للموصوفِ، والمقصودُ: نفْيُ الموصوفِ بضَرْبٍ مِن الكِنايةِ التَّلميحيَّةِ، والمعنى: أنَّ الشَّفيعَ إذا لم يُطَعْ فليس بشَفيعٍ، فنَفَى الصِّفةَ والمَوصوفَ، أي: لا شَفيعَ فيُطاع، واللهُ لا يَجتَرِئُ أحدٌ على الشَّفاعةِ عِندَه إلَّا إذا أذِنَ له، فلا يَشفَعُ عندَه إلَّا مَن يُطاعُ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾

- يجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ خَبرًا عن مُبتدأٍ مَحذوفٍ، هو ضَميرٌ عائدٌ إلى اسمِ الجَلالةِ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٠).

١٧]، ومجموعُ الظَّاهرِ والمقدَّرِ استِئنافٌ؛ للمُبالَغةِ في الإنذارِ؛ لأنَّهم إذا ذُكِّروا بأنَّ اللهَ يَعلَمُ الخَفايا، كان إنذارًا بالغًا يَقْتضي الحذَرَ مِن كلِّ اعتقادٍ أو عمَلٍ نَهاهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عنه.

ويجوزُ أنْ تكونَ خبرًا ثانيًا عن اسمِ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ على كِلَا التَّقديرينِ[(١)].

- وقيل: هو خبرٌ آخَرُ لقولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: ١٣]؛ للدَّلالةِ على أنَّه ما مِن خَفِيٍّ إلَّا وهو مُتعلَّقُ العِلمِ والجزاءِ[(٢)].

- فإنْ قيل: لم لا يُجعَلُ قولُه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ عِلَّةً لقولِه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، كما في قولِه تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فكأنَّه قِيل: ما للظَّالمينَ مِن شَفيعٍ؛ لِمَا يَعلَمُ اللهُ منهم الخِيانةَ سِرًّا وعلانيةً، ظاهرًا وباطنًا؟

والجوابُ: أنَّه إذا جُعِل مِن الأخبارِ المستقِلَّةِ بالدَّلالةِ لإثباتِ وَصفِ العِلمِ، ويَتَّصلُ به حديثُ العدْلِ والقضاءِ الحقِّ، ويكونُ تَخلُّصًا إلى ذَمِّ آلهتِهم، ولا يَفوتُ تَعليلُ نفْيِ الشَّفاعةِ أيضًا على سَبيلِ الإدماجِ[(٣)]؛ لاقترانِه به- كان أحسَنَ مِن تَعليقِه بنفْيِ الشَّفاعةِ وحْدَه[(٤)].

- و﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ مَصدرٌ مُضافٌ إلى فاعِلِه؛ فالخائنةُ مَصدرٌ على وزْنِ اسمِ الفاعلِ، مِثلُ العافيةِ للمُعافاةِ، والعاقبةِ، والكاذبةِ. ويجوزُ إبقاءُ ﴿خَآئِنَةَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٨٦).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٩١).

على ظاهرِ اسم الفاعلِ؛ فيكونُ صِفةً لموصوفٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿ٱلْأَعْيُنِ﴾، أي: يَعلَمُ نَظرةَ الأعيُنِ الخائنةِ[١]، فجعَل النَّظرَ بمنزلةِ شَيءٍ يُسرَقُ مِن المنظورِ إليه، ولذا عبِّر فيه بالاستِراقِ. وقيل: هو وصْفٌ مُضافٌ إلى موصوفِه[٢].

- ولَمَّا كان السِّياقُ هنا للإبلاغِ في أنَّ عِلمَه تعالى مُحيطٌ بكُلِّ كُلِّيٍّ وجُزئيٍّ، فكان مِنَ المعلومِ أنَّ الحالَ يَقتَضي جمْعَ الكَثرةِ، وأنَّه ما عَدَل عنه إلى جمعِ القِلَّةِ إلَّا للإشارةِ إلى أنَّ عِلمَه تعالى بالكَثيرِ كعِلْمِه بالقَليلِ، الكُلُّ عليه هَيِّنٌ، فالكثيرُ عِندَه في ذلك قَليلٌ؛ فلذا قال: ﴿ٱلْأَعْيُنِ﴾[٣].

- و(مَا تُخْفِي الصُّدُورُ) هي النِّيَّاتُ والعزائمُ الَّتي يُضمِرُها صاحبُها في نفْسِه[٤]، وعبَّر عن القلوبِ بالصدورِ؛ لأنَّها مواضعُ القلوبِ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۗ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۗ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾، أي: والَّذي هذه صِفاتُه وأحوالُه لا يَقْضي إلَّا بالحقِّ والعدْلِ؛ لاستِغنائِه عن الظُّلْمِ، وآلهتُكم لا يَقْضون بشَيءٍ؛ فهذا تَهكُّمٌ بالأصنامِ وقدْحٌ فيهم؛ لأنَّ ما لا يُوصَفُ بالقُدرةِ لا يُقال فيه: يَقْضي، أو لا يَقْضي[٦]، فلم يَقُلْ سبحانه: (لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢).

يَقضونَ بالباطلِ)، بل قال: ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ ليَشملَ الباطلَ وغيرَ الباطلِ، يعني: ليس لهم قضاءٌ إطلاقًا؛ لأنهم مَرْبوبون مَملوكونَ، فلا يَقضونَ بشيءٍ[1]. و(شيء) نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ، فتَعُمُّ كلَّ شَيءٍ؛ فدلَّ على أنَّ هذه الأصنامَ لا تنفعُ عابديها إطلاقًا[2].

- وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُؤتَى بجُملةِ ﴿يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ مَعطوفةً بالواوِ على جُملةِ ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ [غافر: ١٩]، فيُقال: (ويَقْضي بالحقِّ)، ولكنْ عُدِلَ عن ذلك فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لِما في الاسمِ العَلَمِ للهِ تعالى مِن الإشعارِ بما يَقْتضيهِ المُسمَّى به مِن صِفاتِ الكمالِ، الَّتي منها العدْلُ في القضاءِ، ولِيَحصُلَ مِن تَقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ تَقَوِّي المعنى، أي: أنَّ ذلك مِن القضاءِ بالحقِّ، والجُملةُ مِن تَمامِ الغرَضِ الَّذي سِيقَت إليه جملةُ ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ [غافر: ١٩]، وكِلْتاهما ناظرةٌ إلى قولِه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ﴾ [غافر: ١٨]، أي: إنَّ ذلك مِن القضاءِ بالحقِّ[3].

- وجُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ ناظرةٌ إلى جُملةِ ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ﴾ [غافر: ١٨]؛ فبَعْدَ أنْ نُفيَ عن أصنامِهم الشَّفاعةُ، نُفِيَ عنها القضاءُ بشَيءٍ ما بالحقِّ أو بالباطلِ؛ وذلك إظهارٌ لِعَجْزِها. ولا تَحسبَنَّ جُملةَ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ مَسوقةً ضَميمةً إلى جُملةِ ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لِيُفيدَ مَجموعُ الجُملتَينِ قصْرَ القضاءِ بالحقِّ على اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٧).

تعالى قَصرَ قلْبٍ[١]، أي: دونَ الأصنام؛ لأنَّ المنفيَّ عن آلهتِهم أعمُّ مِن المُثبَتِ للهِ تعالى، وليس مِثلُ ذلك ممَّا يُضادُّ صِيغةَ القصْرِ؛ فكَفَى في إفادتِه تَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعليِّ بحَمْلِه على إرادةِ الاختِصاصِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾؛ فالمرادُ مِن قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ التَّذكيرُ بعَجْزِ الَّذين يَدْعونهم، وأنَّهم غيرُ أهلٍ للإلهيَّةِ، وهذه طريقةٌ في إثباتِ صِفةٍ لموصوفٍ، ثمَّ تعقيبُ ذلك بإظهارِ نَقيضِه فيما يُعَدُّ مُساويًا له[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ على قراءةِ ﴿تَدۡعُونَ﴾ بالتَّاءِ[٣]، فيكون فيها التِفاتٌ؛ لِقَرْعِ أسماعِ المشركينَ بذلك. أو على إضمارِ (قُل)، أي: قُلْ لهم يا محمَّدُ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ مُقرِّرةٌ لِجُمَلِ ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ إلى قولِه: ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ [غافر: ١٩، ٢٠]؛ فتَوسيطُ ضَميرِ الفصْلِ مُفيدٌ للقصْرِ، وهو تَعريضٌ بأنَّ آلهتَهم لا تَسمَعُ ولا

---

(١) قصرُ القلبِ: هو أنْ يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ معيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).
ويُنظر ما تقدم (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٧، ١١٨).

(٣) قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ بالتَّاءِ، والباقون بالياءِ. يُنظر: ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ١٠٢)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٨).

تُبصِرُ، فكيف يَنسِبون إليها الإلهيَّةَ؟! وإثباتُ المُبالَغةِ في السَّمعِ والبصَرِ للهِ تعالى يُقرِّرُ معنى ﴿يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾، وتأْكيدُ الجُملةِ بحرْفِ التَّأكيدِ تَحقيقٌ للقَصْرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٨).

الآيتان (٢١-٢٢)

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَءَاثَارًا﴾: أي: ما تُرِكَ في الأرضِ مِنَ البِناياتِ والمَعالِمِ والحُصونِ، وأثَرُ الشَّيءِ: حُصولُ ما يدُلُّ على وُجودِه، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي[1].

﴿وَاقٍ﴾: أي: حافِظٍ ونافعٍ، والوِقايةُ: حِفظُ الشَّيءِ مِمَّا يُؤذيه ويَضُرُّه، وأصلُ (وقي): يدُلُّ على دَفعِ شَيءٍ عن شَيءٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى: أوَلَم يَسِرْ أولئك المُشرِكونَ من قُريشٍ في الأرضِ، فيَنظُروا مُعتَبِرينَ كيف كانتْ نهايةُ مَن قَبلَهم مِنَ الأُمَمِ الماضِيةِ؛ كانوا أشَدَّ قُوَّةً مِنهم، وأعظَمَ آثارًا في الأرضِ مِنهم، فعاقَبَهمُ اللهُ بذُنوبِهم فأهلَكَهم، ولم يكُنْ لهم مَن يَقيهم مِنَ اللهِ تعالَى.

ثُمَّ يَذكُرُ تعالَى عِلَّةَ أخْذِه إيَّاهم، وذُنوبَهمُ الَّتي ارْتَكَبوها، فيقولُ: ذلك العَذابُ لأنَّهم كانتْ تأتيهم رسُلُهم بالبَيِّناتِ على توحيدِ اللهِ وصِدقِ رُسُلِه، فكَفَروا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

فأخَذَهمُ اللهُ بعَذابِه فأهلَكَهم؛ إنَّ اللهَ قَويٌّ شَديدُ العِقابِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَـٰرًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا خَوَّفَ اللهُ تعالى الكُفَّارَ بعَذابِ الآخِرةِ؛ أردَفَه ببَيانِ تَخويفِهم بأحوالِ الدُّنيا[١].

وأيضًا لَمَّا وعَظَهمُ اللهُ سُبحانَه بصادِقِ الأخبارِ عن قَومِ نُوحٍ ومَن تَبِعَهم، وختَمَه بالإنذارِ بما يقَعُ في دارِ القَرارِ للظَّالِمينَ؛ أتْبَعَه الوَعظَ والتَّخويفَ بالمُشاهَدةِ مِن تتَبُّعِ الدِّيارِ والاعتبارِ[٢].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: أوَلَم يَسِرْ أولئكَ المُشرِكونَ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ في الأرضِ، فيَنظُروا مُعتَبِرينَ نهايةَ أمْرِ مَن كان قَبلَهم مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ[٣]؟

﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَـٰرًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: كان كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ أشَدَّ قوَّةً مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ، وأعظَمَ آثارًا في الأرضِ منهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤-٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥). =

كما قال تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ [الروم: ٩].

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

أي: فلمْ تَنفَعْهم شِدَّةُ قُوَّتِهم ولا آثارُهم في الأرضِ؛ حيثُ عاقَبَهمُ اللهُ فأهلَكَهم بسَببِ ذُنوبِهم[(١)].

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

أي: ولم يَكُنْ لهم حِينَ جاءَهم عذابُ اللهِ أحدٌ يَقيهم منه، ويدفعُه عنهم[(٢)].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

= قال ابنُ تيميَّةَ: (القُوَّةُ تَعُمُّ قُوَّةَ الإدراكِ النَّظريَّةَ، وقُوَّةَ الحَركةِ العَمَليَّةَ، وقال في الآيةِ الأُخرى: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٨٢]، فأخبَرَ بفَضلِهم في الكَمِّ والكَيفِ، وأنَّهم أشَدُّ في أنفُسِهم، وفي آثارِهم في الأرضِ). ((مجموع الفتاوى)) (٩/ ٤٠).

قال الماورديُّ: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فيه وجهان: أحدهما: يعني بطشًا، قاله يحيى. الثاني: قدرةً، قاله ابنُ عيسى). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٠).

وقال السعديُّ: (كانوا أشدَّ قوةً مِن هؤلاء في العَدَدِ والعُدَدِ وكِبَرِ الأجسامِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

والآثارُ في الأَرض؛ قيل: هي الأبنيةُ والمساكنُ وسائِرُ العِماراتِ. وقيل: هي المباني والمآثرُ والصِّيتُ الدُّنياوي. وقيل: حُصونُهم وقصورُهم وعساكِرُهم. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه أخْذَهم؛ ذكَرَ سببَه بما حاصِلُه أنَّ الاستِهانةَ بالرَّسولِ استِهانةٌ بمَن أرسَلَه(١).

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ﴾.

أي: إنَّما نَزَل ذلك العَذابُ بهم؛ لأنَّهم كانتْ تأتيهم رسُلُهم بالدَّلالاتِ الواضِحاتِ على تَوحيدِ اللهِ وصِدقِ رُسُلِه، فكفَروا، وجَحَدوا توحيدَ اللهِ، وكَذَّبوا رسُلَه؛ فعاقَبَهم اللهُ بعَذابِه فأهلَكَهم(٢).

﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو قُوَّةٍ عَظيمةٍ؛ فلا يُعجِزُه شَيءٌ، ولا يَقهَرُه شَيءٌ سُبحانَه، وعِقابُه شَديدٌ على مَن يَستَحِقُّه(٣).

كما قال تعالَى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٥٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ المعنى: أنَّ العاقِلَ مَن اعتبَرَ بغَيرِه؛ فإنَّ الذين مضَوْا مِنَ الكُفَّارِ كانوا أشَدَّ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سوة غافر)) (ص: ٢١١-٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٩).

قُوَّةً مِن هؤلاء الحاضِرينَ مِنَ الكُفَّارِ، وأقْوى آثارًا في الأرضِ مِنهم، فلمَّا كَذَّبوا رُسُلَهم أهلكَهمُ اللهُ بضُروبِ الهلاكِ مُعَجِّلًا، حتى إنَّ هؤلاء الحاضِرينَ مِنَ الكُفَّارِ يُشاهِدونَ تلك الآثارَ؛ فحَذَّرهمُ اللهُ تعالَى مِن مِثلِ ذلك بهذا القَولِ، وبَيَّنَ بقَولِه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١] أنَّه لَمَّا نَزَل العذابُ بهم عِندَ أخْذِه تعالَى لهم لم يَجِدوا مَن يُعينُهم ويُخَلِّصُهم، ثمَّ بَيَّن أنَّ ذلك نَزَل بهم؛ لأجْلِ أنَّهم كَفَروا وكَذَّبوا الرُّسلَ، فحَذَّر قَومَ الرَّسولِ مِن مِثلِه، وخَتَم الكَلامَ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢]؛ مُبالَغةً في التَّحذيرِ والتَّخويفِ(١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنَّ السَّيرَ في أرضِ المُكَذِّبين، وتَبَيُّنَ ما أحَلَّ اللهُ بهم مِنَ النَّكالِ، إذا كان على سَبيلِ العِبرةِ بما جرَى لهم مِنَ الهَلاكِ؛ فلا بأسَ به، وبِناءً على ذلك نَعرِفُ أنَّ الذين يَذهَبونَ الآنَ إلى دِيارِ ثمودَ للاطِّلاعِ على قُوَّتِهم والاعتِبارِ بصَنعَتِهم: هُمْ على خَطأٍ عَظيمٍ؛ لأنَّهم لم يَسيروا في الأرضِ السَّيرَ الذي أمَرَ اللهُ به، بل ساروا في الأرضِ السَّيرَ الذي نهَى عنه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا تَدْخُلوا على هؤلاءِ القَومِ المُعَذَّبينَ، إلَّا أنْ تَكونوا باكِينَ، فإنْ لَمْ تَكونوا باكِينَ فلا تَدْخُلوا عليهم؛ أنْ يُصيبَكُم مِثلُ ما أصابَهُم))(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نَبَّه على آثارِهم؛ لأنَّ آثارَهم لم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

والحديثُ أخرجه البُخاريُّ (٤٣٣)، ومُسلِم (٢٩٨٠) من حديثِ عبد الله بن عُمرَ رضي الله عنهما.

يَندَرِسْ بَعضُها إلى هذا الزَّمانِ، وقد مضَى عليها أُلوفٌ مِنَ السِّنينَ، وأمَّا المتأخِّرونَ فتَنطَمِسُ آثارُهم في أقَلَّ مِن قَرنٍ[١].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أنَّ هؤلاء الذين كانوا مِن قَبلِهم كانوا أشدَّ منهم قوةً في الأبْدانِ، وقوةً في الصِّناعةِ، وقوةً في الآثارِ؛ ومع هذا لم تمنَعْهم قوَّتُهم هذه مِن أخْذِ اللهِ لهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ فلا يقي دونَ ما أرادَ اللهُ؛ لا قصورٌ ولا مدافعُ، ولا طائراتٌ ولا أيُّ شيءٍ، فإذا أرادَ بقومٍ سُوءًا فلا مَرَدَّ له، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[٢] [الرعد: ١١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فيه إثباتُ عَدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه لا يُؤاخِذُ أحدًا بدونِ ذنْبٍ[٣].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إثباتُ الأسبابِ، وأنَّ اللهَ تعالى ربَطَ المُسَبَّباتِ بأسبابِها، وهذا يدُلُّ على تمامِ حِكمةِ اللهِ، وأنَّه عزَّ وجلَّ لم يَفعَلْ شيئًا عَبَثًا، ولا لِمُجَرَّدِ المشيئةِ، خِلافًا لِمَن قال مِن الجَبريَّةِ وغَيرِهم: إنَّ اللهَ تعالى يَفعَلُ ما يَشاءُ لِمُجَرَّدِ المشيئةِ، وليس لحِكمةٍ، وأنكَروا حِكمةَ اللهِ! فيُقالُ لهم: الحِكمةُ هي غايةُ الحُكمِ، أي: أنَّ الحِكمةَ أكبَرُ ما يَدُلُّ على البُعدِ عن السَّفَهِ واللَّعِبِ، والحِكمةُ التي يَشرَعُ اللهُ الشَّرائعَ مِن أجْلِها لا تعودُ إلى نَفسِها إلَّا مِن حيثُ الكَمالُ فقط، أمَّا المَصلحةُ فالذي يَنتَفِعُ بها هم الخَلقُ، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فإنَّ حِكمتَه لا تعودُ إليه بشَيءٍ سِوى

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٠٧، ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٢١٣).

بيانِ كَمالِ صِفاتِه عزَّ وجَلَّ[١].

بَلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَـٰرًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ هذا انتقالٌ مِن إنذارِهم بعَذابِ الآخِرةِ على كُفْرِهم، إلى مَوعظتِهم وتَحذيرِهم مِن أنْ يَحُلَّ بهم عذابُ الدُّنيا قبْلَ عَذابِ الآخِرةِ كما حَلَّ بأُمَمٍ أمثالِهم[٢].

- والواوُ في ﴿أَوَلَمْ﴾ عاطفةٌ جُملةَ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ على جُمْلةِ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ ...﴾ إلخ [غافر: ١٨]. والاستفهامُ تَقريريٌّ، والتَّقريرُ مُوجَّهٌ للَّذين ساروا مِن قُريشٍ ونَظَروا آثارَ الأُمَمِ الذين أبادَهم اللهُ جَزاءَ تَكذيبِهم رُسلَهم؛ فهُمْ شاهَدوا ذلك في رِحلتَيْهم رِحلةِ الشِّتاءِ ورِحلةِ الصَّيفِ، وإنَّهم حَدَّثوا بما شاهَدوه مَن تَضُمُّهم نَوادِيهم ومَجالِسُهم؛ فقد صار مَعلومًا للجميعِ، فبهذا الاعتبارِ أُسنِدَ الفِعلُ المقرَّرُ به إلى ضَميرِ الجمْعِ على الجُملةِ[٣]. أو تكونُ الهمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ؛ أنكَرَ عليهم عدَمَ الاعتبارِ بأحوالِ غَيرِهم، والواوُ عاطفةٌ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ، أي: أَغَفَلُوا ولم يَسِيروا[٤].

- وجُملةُ: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ...﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِتَفصيلِ الإجمالِ الذي في قولِه: ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ لأنَّ العِبرةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٣).

بالتَّفريعِ بعْدَها بقولِه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾[١].

- وضَميرُ الفصْلِ (هُمْ) في جُملةِ ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ ...﴾؛ لِتوكيدِ الحُكْمِ وتَقويتِه، وليسَ مُرادًا به قَصرُ المُسْنَدِ على المُسْنَدِ إليه؛ إذْ ليسَ للقَصْرِ معنًى هنا[٢].

- والفاءُ في ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لِتَفريعِ الأخْذِ على كَونِهم أشدَّ قوَّةً مِن قُريشٍ؛ لأنَّ القوَّةَ أُرِيدَ بها هنا الكِنايةُ عن الإباءِ مِن الحَقِّ والنُّفورِ مِن الدَّعوةِ؛ فالتَّقديرُ: فأعْرَضوا، أو فكَفَروا فأخَذَهم اللهُ، والأخْذُ: الاستِئصالُ والإهلاكُ؛ كُنِّيَ عن العِقابِ بالأخْذِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ (مِن) الأُولى مُتعلِّقةٌ بلَفظِ ﴿وَاقٖ﴾، قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ؛ للاهتمامِ بالمجرورِ، و(مِن) الثَّانيةُ صِلةٌ؛ لِتأكيدِ النَّفْيِ بحرْفِ (ما)[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ (ذلك) إشارةٌ إلى المذكورِ، وهو أخْذُ اللهِ إيَّاهم بذُنوبِهم، والباءُ للسَّببيَّةِ، أي: ذلك الأخْذُ بسَببِ أنَّهم كانتْ تأْتِيهم رُسلُهم بالبيِّناتِ فكَفَروا بهم، وفي هذا تَفصيلٌ للإجمالِ الذي في قولِه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾، والجُملةُ بعْدَ (أنَّ) المفتوحةِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٢١).

تأويلِ مَصدرٍ؛ فالتَّقديرُ: ذلك بسَببِ تَحقُّقِ مَجيءِ الرُّسلِ إليهم فكُفْرِهم بهم[١].

- وأفادَ المضارِعُ في قولِه: ﴿تَأْتِيهِمْ﴾ تَجدُّدَ الإتيانِ مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ لِمَجموعِ تلك الأُمَمِ، أي: يأْتي لكلِّ أُمَّةٍ منهم رسولٌ؛ فجَمْعُ الضَّميرِ في ﴿تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾، وجمْعُ الرُّسلِ في قولِه: ﴿رُسُلُهُم﴾ مِن مُقابَلةِ الجمْعِ بالجمْعِ؛ فالمعنى: أنَّ كلَّ أُمَّةٍ منهم أتاها رسولٌ. ولم يُؤتَ بالمضارِعِ في قولِه: ﴿فَكَفَرُوا۟﴾؛ لأنَّ كُفْرَ أولئك الأُمَمِ واحِدٌ، وهو الإشراكُ، وتكذيبُ الرُّسلِ[٢].

- وكُرِّرَ قولُه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بعْدَ أنْ تَقدَّمَ نَظيرُه في قولِه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ...﴾ إلخ [غافر: ٢١]؛ إطنابًا لِتَقريرِ أخْذِ اللهِ إيَّاهم بكُفْرِهم برُسلِهم، وتَهويلًا على المنذَرينَ بهم أنْ يُساوُوهم في عاقِبتِهم كما ساوَوْهُم في أسْبابِها[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تَعليلٌ وتَبْيينٌ لأخْذِ اللهِ إيَّاهم، وكيفيَّتِه، وسُرعةِ أخْذِه المُستفادةِ مِن فاءِ التَّعقيبِ؛ فالقويُّ لا يُعجِزُه شَيءٌ، فلا يُعطِّلُ مُرادَه ولا يَتريَّثُ، و﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ بَيانٌ لذلك الأخْذِ على حَدِّ قولِه تعالَى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٤] [القمر: ٤٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بجمْعِ الضَّميرِ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾، وقال في سُورةِ (التَّغابُن): ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٤).

كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [التغابن: ٦] بإفرادِه ﴿بِأَنَّهُۥ﴾؛ وذلك مُوافقةٌ هنا لِما قبْلَه في قولِه: ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ إلى آخِرِه، وأفْرَدَه هناك؛ لأنَّه ضَميرُ الشَّأنِ زِيدَ توصُّلًا إلى دُخولِ «أنَّ» على «كان»[١].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٩، ٢٢٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠١).

الآيات (٢٢-٢٧)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَسُلْطَٰنٍ﴾: أي: حُجَّةٍ وبُرهانٍ، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقهرُ، مِن التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[(١)].

﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾: أي: استَبقُوهنَّ أحياءً، والاستحياءُ: الإبقاءُ حَيًّا، واستَفعَلَ فيه بمعنى أفعَلَ، وأصلُ (حيي): يدُلُّ على خِلافِ الموتِ[(٢)].

﴿ذَرُونِىٓ﴾: أي: اتْرُكوني، ودَعُوني، يُقالُ: فلانٌ يَذَرُ الشيءَ، أي: يَرْميه لِقلَّةِ اعتِدادِه به[(٣)].

﴿عُذْتُ﴾: أي: التجَأْتُ واعتَصَمْتُ واستَجَرْتُ، وأصلُ العَوذِ: الالتِجاءُ إلى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

الغَيرِ، والتعَلُّقُ به[١].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالَى جانبًا مِن قِصَّةِ موسى عليه السلامُ معَ فرعونَ، مُسَلِّيًا لنبيِّه صلَّى اللَّه عليه وسَلَّم، بذِكرِ نموذجٍ مِن أحوالِ المكذِّبينَ بالرُّسلِ، فيقولُ: ولقدْ أرسَلْنا موسى بمُعجزاتِنا وبحُجَّةٍ ظاهِرةٍ مُوضِّحةٍ للحَقِّ، إلى فِرعَونَ، ووَزيرِه هامانَ، وقارونَ، فقالوا: إنَّ موسى ساحِرٌ كَذَّابٌ! فلمَّا جاءَهم موسَى بالحَقِّ مِن عِندِ اللهِ قالوا: اقتُلوا أبناءَ الَّذين آمَنوا معَ موسى، واستَبقُوا نِساءَهم أحياءً. وما كَيدُهم هذا إلَّا كَيدٌ باطلٌ زائِلٌ!

وقال فِرعَونُ: اتْرُكوني أقتُلْ موسى، ولْيَدْعُ رَبَّه فيَمنَعَه مِنِّي؛ إنِّي أخافُ -لو ترَكْتُ موسى- أن يُغَيِّرَ دِينَكم بسِحْرِه، أو أنْ يُظهِرَ في أرضِ مِصرَ الفَسادَ! وقال موسى: إنِّي أستَجيرُ وأعتَصِمُ برَبِّي ورَبِّكم مِن كُلِّ مُتكَبِّرٍ لا يُؤمِنُ بيَومِ القِيامةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا سلَّى اللهُ تعالى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذِكرِ الكُفَّارِ الذين كذَّبوا الأنبياءَ قَبْلَه، وبمُشاهَدةِ آثارِهم؛ سلَّاه أيضًا بذِكرِ موسَى عليه السَّلامُ، وأنَّه معَ قوَّةِ مُعجزاتِه بعَثَه إلى فِرعَونَ وهامانَ وقارونَ، فكَذَّبوه، وقالوا: هو ساحِرٌ كذَّابٌ[٢]!

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٦).

أي: ولقدْ أرسَلْنا موسى بمُعجِزاتِنا، وبحُجَّةٍ ظاهِرةٍ مُظهِرةٍ للحَقِّ(١).

كما قال تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: إلى فِرعَونَ مَلِكِ مِصرَ، ووَزيرِه هامانَ، وقارونَ الذي كان مِن قَومِ مُوسَى فبغَى عليهم؛ فقالوا عن مُوسَى: هو ساحِرٌ فيما يُرينا مِن آياتٍ، كذَّابٌ في زَعْمِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٦، ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢١٦-٢٢٠).

ممَّن قال: إنَّ المرادَ بقولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: المعجزاتُ: السمعاني، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣).

وممَّن قال: المرادُ بها الآياتُ التسعُ؛ أي: المذكورةُ في قولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١]: السمرقندي، والقرطبي، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٩).

وممن قال: إنَّ المرادَ بالسلطانِ: الحجةُ: مقاتل بن سليمان، والزجاج، والسمرقندي، ومكي، والسمعاني، والقرطبي، والبيضاوي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤١٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣١٥).

قال البقاعيُّ: (﴿وَسُلْطَٰنٍ ﴾ أي: أمرٍ قاهِرٍ عَظيمٍ جِدًّا، لا حِيلةَ لهم في مُدافَعةِ شَيءٍ منه ﴿مُّبِينٍ ﴾ أي: بَيِّنٍ في نَفسِه، مُنادٍ لكُلِّ مَن يُمكِنُ اطِّلاعُه عليه أنَّه ظاهِرٌ جِدًّا، وذلك الأمرُ هو الذي كان يمنَعُ فِرعَونَ مِن الوُصولِ إلى أذاه مع ما له مِن القُوَّةِ والسُّلطانِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٨).

أنَّ اللهَ أرسَلَه إلينا[١].

كما قال تعالَى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡ﴾.

أي: فلمَّا جاءَهم مُوسى بالحَقِّ مِن عِندِ اللهِ، لم يُذعِنوا له، وقالوا: اقتُلوا أبناءَ الذين آمَنوا مع مُوسى، واستَبْقُوا نِساءَهم أحياءً[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٢، ١٢٣).
قال ابنُ كثير: (هذا أمرٌ ثانٍ مِن فِرعَونَ بقَتلِ ذُكورِ بني إسرائيلَ؛ أمَّا الأوَّلُ: فكان لأجْلِ الاحترازِ مِن وُجودِ موسى، أو لإذلالِ هذا الشَّعبِ وتَقليلِ عَدَدِهم، أو لِمَجموعِ الأمْرَينِ. وأمَّا الأمرُ الثَّاني: فلِلعلَّةِ الثَّانيةِ: لإهانةِ هذا الشَّعبِ، ولكي يَتشاءَموا بمُوسى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٨).
ممَّن اختار أنَّ الأمرَ بالقتلِ مِن فرعونَ: مقاتلُ بنُ سليمان، والماتريدي، ومكي، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٠)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤١٩، ٦٤٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥).
وممَّن قال: إنَّ المرادَ بقوله: ﴿قَالُواْ﴾: فرعونُ وقومُه: الثعلبي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٩). =

كما قال تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

أي: كادُوا هذه المَكِيدةَ زاعِمينَ أنَّهم إذا قَتَلوا أبناءَهم واستَحْيَوا نِساءَهم، لم يَقْوَوا، وبَقُوا تحتَ عُبُوديَّتِهم؛ فما كيْدُهم هذا إلَّا كَيدٌ باطِلٌ مُضمَحِلٌّ؛ فلا يَتمُّ لهم ما قَصَدوه به[1].

كما قال الله سُبحانَه: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧].

وقال سُبحانَه عن أصحابِ الفيلِ: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: ٢].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالَى بفِعلِ فِرعَونَ بمَن تابَعَ موسى عليه السَّلامُ؛ أخبَرَ عن

= وقال ابنُ عطية وأبو حيان: إنَّ المرادَ: فرعونُ، وهامانُ، وقارونُ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٣، ١٢٤).

فِعلِه معه بما عُلِمَ به أنَّه عاجِزٌ؛ فقال[١]:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾.

أي: وقال فِرعَونُ: دَعوني أقتُلْ مُوسى، ولْيَدْعُ رَبَّه الذي يَزعُمُ أنَّه أرسَلَه إلينا؛ فيَمنَعَه منِّي[٢]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٠).

قيل: إنَّما قال فرعونُ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّهم كانوا يكُفُّونَه عن قتلِه، ويمنعونَه منه، وممن اختار هذا المعنى: السَّمرقندي، والواحدي، والبغوي، وابنُ الجوزي، والرَّسعني، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٠٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٠).

قيل: إنَّما منَعوه عن قتلِه؛ لأنَّه كان فيهم مَن يعتقِدُ بقلبِه أنَّه كان صادِقًا، وقيل: كان في خاصةِ قومِ فرعونَ مَن يمنعُه مِن قتلِه خوفًا مِن الهلاكِ، وقيل: قالوا: لا تقتُلْه؛ فإنَّه هو ساحرٌ ضعيفٌ، فلا يقدِرُ أنْ يغلبَ سحرَنا، وإن قتلته قالت العامَّةُ: كان محقًّا صادقًا، وعجزوا عن جوابِه فقتلوه. وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٢).

وقال السمرقندي: (وذلك أنَّ قومَه كانوا يقولونَ: أرجِئْه وأخاه، ولا تقتُلْه حتَّى لا يُفسدوا عليك الملكَ. فقال لهم فرعونُ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾؛ فإنِّي أعلمُ أنَّ صلاحَ مُلكي في قتلِه). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٣). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٤/ ٥٢٦).

وقيل: إنَّ فرعونَ كانَ قد استيقنَ أنَّ موسَى عليه السلامُ نبيٌّ، وأنَّ ما جاءَ بِه آياتٌ باهرةٌ، وما هو بسحرٍ ولكنْ كان يخافُ إنْ همَّ بقتلِه أنْ يُعاجَلَ بالهلاكِ، وكانَ قولُه هذا تمويهًا على قومِه، وإيهامًا أنَّهم هم الكافُّونَ له عن قتلِه، وممن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والنسفي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣١٦). =

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾.

أي: قال فِرعَونُ مُعَلِّلًا إرادتَه قَتْلَ موسى: إنِّي أخافُ -لو ترَكْتُ مُوسى- أن يُغَيِّرَ دِينَكم الذي أنتُم عليه بسِحْرِه[1]!

﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾.

أي: أو أنْ يُظهِرَ مُوسى في أرضِ مِصرَ الفَسادَ[2].

= وقال ابنُ عطيةَ: (الظاهرُ مِن أمرِ فرعونَ أنَّه لما بهَرتْ آياتُ موسَى عليه السلامُ انهدَّ ركنُه، واضْطَربتْ معتقداتُ أصحابِه، ولم يفقِدْ منهم مَن يجاذبُه الخلافَ في أمرِه، وذلك بيِّنٌ مِن غيرِ ما موضعٍ مِن قصتِهما، وفي هذه الآيةِ على ذلك دليلان: أحدهما: قولُه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ فليسَتْ هذه مِن ألفاظِ الجبابرةِ المتمكِّنينَ مِن إنفاذِ أوامرِهم. والدليلُ الثاني: مقالةُ المؤمنِ وما صدَع به، وأنَّ مكاشفتَه لفرعونَ أكثرُ مِن مساترتِه، وحكمَه بنُبوَّةِ موسَى أظهرُ مِن توريتِه في أمرِه. وأمَّا فرعونُ فإنَّما لجأ إلى المخرقةِ والاضطرابِ والتَّعاطي، ومِن ذلك قولُه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: إنِّي لا أُبالي عن ربِّ موسَى، ثمَّ رجَع إلى قومِه يُريهم النَّصيحةَ والحمايةَ لهم فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ...﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥).

قال الواحديُّ: (معنى «أو» وقوعُ أحدِ الشَّيئَينِ، المعنى: أخافُ أن يُبدِّلَ دِينَكم، وإنْ لم يُبَدِّلْه أوقَعَ فيه الفَسادَ). ((الوسيط)) (٤/ ٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالأرضِ هنا: أرضُ مِصرَ: مقاتل بن سليمان، وابن جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٠).

قال ابن عاشور: (الأرضُ: هي المعهودةُ عِندَهم، وهي مملكةُ فِرعَونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥).

وقيل: المرادُ بقَولِ فِرعَونَ: ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾: هو إظهارُ موسى عِبادةَ رَبِّه، وتغييرُ دِينِهم وتبديلُه. ومِمَّن قال بذلك في الجُملة: ابن جرير، والثعلبي، البَغوي، والرَّسْعني، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٢)، ((تفسير =

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧﴾.

أي: وقال موسى: إنِّي أستَجيرُ وأعتَصِمُ برَبِّي ورَبِّكم مِن كُلِّ مُتكَبِّرٍ مُتعاظِمٍ عن الحَقِّ، لا يُؤمِنُ بيَومِ القِيامةِ الَّذي يحاسِبُ اللهُ فيه عِبادَه، ويُجازيهم على أعمالِهم[1].

= البغوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥).

قال قتادة: (والفسادُ عِندَه أنْ يُعمَلَ بطاعةِ اللهِ). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٠).

وقيل: هو أنْ يُقَتِّلَ أبناءَكم ويَستحْيِيَ نساءَكم، كما فعَلْتُم بقَومِه يفعَلُ بكم. قاله مقاتل بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُريجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٨٤).

وقيل: المرادُ أنَّه يَقَعُ بينَ النَّاسِ خِلافٌ بسبَبِ موسى. ومِمَّن قال بهذا: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٠).

وقيل: الفسادُ: هو ما يُفسدُ دُنياهم مِن التحارُبِ والتهارُجِ، وممَّن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والبيضاوي، والنَّسَفي، وأبو حيان، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤).

وقيل: المرادُ: فَسادُ المعايِشِ؛ فإنَّه إذا غَلَب قَوِيَ على مَن سِواه، فسَفَك الدِّماءَ وسَبَى الذُّرِّيَّةَ، وانتهَبَ الأموالَ؛ ففَسَدت الدُّنيا مع فسادِ الدِّينِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥١).

قال ابنُ جُزَيٍّ: (يَعني: فَسادَ أحْوالِهم في الدُّنْيا). ((تفسير ابن جُزَيٍّ)) (٢/ ٢٣٠).

وقال الرازيُّ: (المَقصودُ من هذا الكَلامِ بَيانُ السَّببِ الموجِبِ لقَتلِه، وهو أنَّ وُجودَه يُوجِبُ إمَّا فَسادَ الدِّينِ أو فَسادَ الدُّنيا، أمَّا فَسادُ الدِّينِ؛ فلأنَّ القومَ اعتَقَدوا أنَّ الدِّينَ الصَّحيحَ هو الَّذي كانوا عليه، فلمَّا كان موسى ساعيًا في إفْسادِه كان في اعْتِقادِهم أنَّه ساعٍ في إفْسادِ الدِّينِ الحقِّ، وأمَّا فَسادُ الدُّنيا؛ فهو أنَّه لا بدَّ وأنْ يجتَمِعَ عليه قومٌ، ويَصيرَ ذلك سَببًا لوُقوعِ الخُصوماتِ، وإثارةِ الفِتَنِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن =

كما قال الله تعالَى حاكيًا قَولَ موسى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

وعن أبي مُوسَى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا خاف قَومًا قال: ((اللـهُمَّ إنَّا نَجعَلُك في نُحورِهم، ونَعوذُ بك مِن شُرورِهم))[(١)].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ الطَّريقَ المؤكَّدَ المُعتبَرَ في دَفعِ الشُّرورِ والآفاتِ عن النَّفسِ: الاعتِمادُ على اللهِ، والتوكُّلُ على عِصمةِ اللهِ تعالَى[(٢)].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ جاء بذِكرِ الرَّبِّ

= كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٣).

قيل: هذا الخِطابُ من موسى لفِرعَونَ ومَلَئِه. ومِمَّن قال بهذا القول: ابن جرير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٣٦).

وقيل: هذا الخِطابُ مِن موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ. ومِمَّن قال بهذا القول: الزمخشري، والبيضاوي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٦، ١٢٧).

(١) أخرجه أبو داود (١٥٣٧)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٦٣١)، وأحمد (١٩٧٢٠).

صحَّحه ابن حبان في ((الصحيح)) (٤٧٦٥)، والحاكمُ على شرط الشيخينِ في ((المستدرك)) (٢٦٢٩)، وصحَّح إسنادَه النووي في ((المجموع)) (٤/ ٣٩٦)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٤٢٩)، وقال ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٢٧): (حسنٌ غريبٌ). وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٥٣٧)، وحَسَّنه شُعَيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٩٧٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٧).

مُضافًا إلى ضَميرِ نفْسِه مُبتدأً به، ثمَّ إلى ضَميرِ قوْمِه ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ علَى عادةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ مِن البَداءةِ بأنفُسِهم في الدُّعاءِ، وإشارةً إلى أنَّ الاجتماعَ على الدُّعاءِ واتِّفاقَ الأرواحِ على التَّوجُّهِ والطَّلبِ؛ أبلَغُ في إنجاحِ الحاجاتِ؛ ولذلك شُرِعَت الجماعةُ في الصَّلواتِ. وصِفةُ الرُّبوبيَّةِ المشْعِرة بالحِفظِ والتَّربيةِ للتَّوسُّلِ بها إلى اللهِ تعالَى خُصوصيَّةٌ عَظيمةٌ في إنجاحِ المطالبِ؛ لِما فيها مِن التَّملُّقِ والتَّعطُّفِ، والانضيافِ إلى اللهِ تعالَى بأخصِّ أنواعِ التَّقرُّبِ، على أنَّه أتى بها مُتحقِّقًا بالتَّعلُّقِ بها مِن حيث أطْلَقَها فِرعونُ في قولِه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦] على وجْهِ التَّهكُّمِ والاستهزاءِ، فاستَظهَرَ بتَعلُّقِه بها وثِقتِه بها على عكْسِ ما ظَنَّه فِرعونُ(١).

٣- قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ قدْ أراد مُوسى عليه السَّلامُ بتَشريكِه قوْمَه معه في إضافةِ الرَّبِّ أنْ يُشاركوه في هذا الخيْرِ؛ إذ كَمالُ إيمانِ العبْدِ أنْ يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفْسِه، وبهذا يَتخلَّقُ العبدُ بالوَدوديَّةِ، وليس في العبادِ أوَدُّ لهم مِن الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢).

٤- في قولِه: ﴿عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ لم يَأْتِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في دفْعِ الشِّدَّةِ إلَّا بأنِ استعاذَ باللهِ واعتَمَدَ عليه؛ فلا جرَمَ أنْ صانَه اللهُ عن كلِّ بَلِيَّةٍ، وأوْصَلَه إلى كلِّ أُمنيَّةٍ؛ فكما أنَّ عِندَ القِراءةِ يقولُ المسلمُ: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، فاللهُ تعالَى يَصونُ دِينَه وإخلاصَه عن وَساوسِ شَياطينِ الجِنِّ، فكذلك عندَ تَوجُّهِ الآفاتِ والمخافاتِ مِن شَياطينِ الإنسِ؛ إذا قال المسلمُ: (أعوذُ باللهِ) فاللهُ يَصونُه عن كلِّ الآفاتِ والمخافاتِ؛ فمعنَى قولِه: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ كأنَّ

(١) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) للغزي (٧/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٧٩، ٢٨٠).

العبْدَ يقولُ: إنَّ اللهَ سُبحانه هو الذي رَبَّاني، وإلى دَرَجاتِ الخيْرِ رَقَّاني، ومِن الآفاتِ وَقَّاني، وأعْطاني نِعَمًا لا حدَّ لها ولا حصْرَ، فلمَّا كان المولى ليْس إلَّا اللهَ وجَبَ ألَّا يَرجِعَ العاقلُ في دفْعِ كلِّ الآفاتِ إلَّا إلى حِفظِ اللهِ تعالَى[١].

٥- قولُه: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ الاستقراءُ يدُلُّ على أنَّه كلَّما كان الرَّجلُ أعظَمَ استكبارًا عن عِبادةِ اللهِ، كان أعظَمَ إشراكًا باللهِ؛ لأنَّه كلَّما استَكبَرَ عن عِبادةِ اللهِ ازدادَ فقْرُه وحاجتُه إلى المرادِ المحبوبِ الذي هو المقصودُ؛ مَقصودُ القلْبِ بالقصْدِ الأوَّلِ، فيكونُ مُشرِكًا بما استَعبَدَه مِن ذلك، ولنْ يَستغنِيَ القلْبُ عن جَميعِ المخلوقاتِ إلَّا بأنْ يكونَ اللهُ هو مَوْلاهُ الذي لا يَعبُدُ إلَّا إيَّاه، ولا يَستعينُ إلَّا به، ولا يَتوكَّلُ إلَّا عليه، ولا يَفرَحُ إلَّا بما يُحِبُّه ويَرْضاه، ولا يَكرَهُ إلَّا ما يُبغِضُه الرَّبُّ ويَكرَهُه، ولا يُوالي إلَّا مَن والاهُ اللهُ، ولا يُعادي إلَّا مَن عاداهُ اللهُ، ولا يُحِبُّ إلَّا للهِ، ولا يُبغِضُ شيئًا إلَّا للهِ، ولا يُعْطي إلَّا للهِ، ولا يَمنَعُ إلَّا للهِ، فكلَّما قَوِيَ إخلاصُ دِينِه للهِ كمَلَت عُبوديَّتُه واستِغْناؤه عن المخلوقاتِ، وبكَمالِ عُبوديَّتِه للهِ يُبرِّئُه مِن الكِبرِ والشِّركِ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ لَعلَّك تَعلَمُ وتَفهَمُ مِن دُعاءِ مُوسى هذا في مُقابَلةِ قوْلِ فِرعونَ، وهو يَعلَمُ أنَّه مَحفوظٌ منه -لقولِه تعالَى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]- أنَّ العبْدَ لا يَنْبغي له أنْ يَغفُلَ عن ذِكرِ اللهِ تعالَى عندَ كلِّ قَليلٍ وكثيرٍ، واللَّجاءِ إليه في كلِّ خطْبٍ حَقيرٍ وجَليلٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٧، ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) للغزي (٧/ ٢٨٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالَى لا يُرسِلُ رَسولًا إلَّا بآيةٍ بَيِّنةٍ تَدُلُّ على صِدقِه، وقدْ أكَّدَ ذلك الحَديثُ الثَّابتُ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما مِن الأنبياءِ مِن نبيٍّ إلَّا قد أُعطِيَ مِن الآياتِ ما مِثلُه آمَنَ عليه البَشَرُ))[(١)].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾ أنَّ الزُّعماءَ يقومونَ مَقامَ الأتْباعِ؛ لأنَّ الرِّسالةَ ليستْ إلى هؤلاءِ الثَّلاثةِ فقط، بلْ إلى آلِ فِرعَونَ كلِّهم، لكِنَّ الأسيادَ يقومونَ مَقامَ الأتْباعِ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾ أنَّ العُتاةَ المُعانِدينَ للرُّسُلِ تتنَوَّعُ أسبابُ عِنادِهم ومُعارضتِهم للرُّسُلِ؛ قد تكونُ السُّلطةَ، وقد تكونُ الوَزارةَ، وقد يكونُ المالَ، وقدْ تكونُ القُوَّةَ البَدنيَّةَ؛ ففي هذه الآيةِ ثلاثةُ أسبابٍ: المُلْكُ. والثَّاني: الوَزارةُ. والثَّالثُ: المالُ. وفي عادٍ القُوَّةُ البَدنيَّةُ، قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[(٣)] [فصلت: ١٥].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أنَّ ما قالوه في رَدِّ الدَّعوةِ مُجرَّدُ دَعوى؛ لأنَّهم لم يُقيموا على دَعواهم أيَّ دليلٍ، بل قالوا: «ساحِرٌ كذَّابٌ»، وهذا يَلجَأُ إليه الضُّعَفاءُ العاجِزونَ؛ إذا عَجَزوا عن مُدافعةِ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ ذهَبوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٢١).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢) مطوَّلًا، واللفظُ له، مِن حديث أبي هُرَيرَةَ رَضيَ اللهُ عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلى السَّبِّ والشَّتمِ، وما أشبهَ ذلك[١]!

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى قدْ يُسَلِّطُ أعداءَه على المؤمِنينَ امتِحانًا وابتِلاءً، والواقعُ كذلك، وقد يكونُ الإنسانُ كُلَّما اشتدَّ إيمانُه اشتَدَّ إيذاءُ أعداءِ اللهِ له[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، أي: إلَّا في مُجانَبةٍ للسَّدادِ المُوصِلِ إلى الظَّفَرِ والفَوزِ، وكذا أفعالُ الفَجَرةِ مع أولياءِ اللهِ؛ ما حَفَر أحَدٌ منهم لأحَدٍ منهم حُفرةَ مَكرٍ إلَّا أرْكَسَه اللهُ فيها[٣].

٧- قولُه: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ فيه البُشرى التَّامَّةُ للمُؤمِنينَ بأنَّ الكُفَّارَ مهْما كادوا فإنَّ كيْدَهم ضائعٌ وهالكٌ، لنْ يَنفَعَهم، ولنْ يَسْتفيدوا منه شيئًا، وإنِ استَفادوا فإنَّما يَسْتفيدون فائدةً مُؤقَّتةً؛ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤] [الأعراف: ١٢٨].

٨- في قولِه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦] خوْفُ الكفَّارِ مِن سِلاحِ المؤمنينَ بالدُّعاءِ، وإنْ كان المقصودُ التَّحدِّيَ، لكنْ لا شَكَّ أنَّه قدْ فَهِم أنَّ الدُّعاءَ سِلاحٌ لمُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٥].

٩- في قولِه: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أنَّ الموجِبَ للإقدامِ على إيذاءِ النَّاسِ أمرانِ؛ أحدُهما: كوْنُ الإنسانِ مُتكبِّرًا قاسيَ القلْبِ، والثَّاني: كونُه مُنكِرًا للبعثِ والقيامةِ؛ وذلك لأنَّ المُتكبِّرَ القاسيَ قدْ يَحمِلُه طبْعُه على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص ٢٣٥).

إيذاءِ النَّاسِ، إلَّا أنَّه إذا كان مُقِرًّا بالبعثِ والحسابِ صار خوْفُه مِن الحسابِ مانعًا له مِن الجرْيِ على مُوجبِ تَكبُّرِه، فإذا لم يَحصُلْ عنده الإيمانُ بالبعثِ والقيامةِ كانت الطَّبيعةُ داعيةً له إلى الإيذاءِ، والمانعُ -وهو الخوْفُ مِن السُّؤالِ والحسابِ- زائلًا، وإذا كان الخوْفُ مِن السُّؤالِ والحسابِ زائلًا، فلا جَرَمَ تَحصُلُ القسْوةُ والإيذاءُ[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ الواوُ استئنافيَّةٌ، والجُملةُ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ للشُّروعِ في قِصَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ[٢].

- وفيه تَسليةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهذه القِصَّةُ تَزيدُ على ما أُجمِلَ مِن قَصصِ أُمَمٍ أُخرى أنَّ فيها عِبرتَينِ: عِبرةً بكَيدِ المكذِّبينَ وعِنادِهم ثمَّ هَلاكِهم، وعِبرةً بصَبْرِ المؤمنينَ وثَباتِهم ثم نَصْرِهم، وفي كِلْتا العِبرتَينِ وَعيدٌ لِقُريشٍ أنْ يَحُلَّ بهم ما حَلَّ بفِرْعونَ وقَومِه مِن نِقْماتِ اللهِ، ووَعدٌ للمؤمنينَ بالظَّفَرِ والنَّصْرِ وحُسْنِ العاقبةِ[٣].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ على ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ لِتَغايُرِ الوَصفَينِ، أو لإفرادِ بعضِ المُعجزاتِ كالعَصا؛ تَفْخيمًا لِشأْنِه[٤].

وقيل: إنَّ الآياتِ سُلطانٌ وحُجَّةٌ للرُّسُلِ على مَن أُرسِلوا إليهم، وعلى هذا فيكونُ عَطفُ «سلطان» على «آيات» مِن بابِ عَطْفِ الشَّيءِ على نَفسِه؛ لبيانِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣).

فائِدتِه وثَمَرتِه؛ فالآياتُ هي السُّلطانُ، ويُستفادُ مِن الآيةِ كذلك أنَّ الآياتِ لا بُدَّ أنْ تكونَ مُبينةً مُظهِرةً للحَقِّ(١).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾ نصَّ على هامانَ وقارونَ؛ لِمَكانتِهما في الكُفرِ، ولأنَّهما أشهَرُ أتْباعِ فِرعَونَ(٢).

- قولُه: ﴿فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾ لم يَقولوا: سَحَّارٌ، كما قالوا: ﴿كَذَّابٞ﴾؛ لأنَّهم كانوا يَزعُمون أنَّه ساحرٌ، وأنَّ سَحَرَتَهم أسْحَرُ منه، كما قالوا: ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٣٧](٣)، ولئَلَّا يَتوهَّمَ أحَدٌ أنَّه يمدَحُه بالبَراعةِ في عِلمِ السِّحرِ، فتتحَرَّكَ الهِمَمُ للإقبالِ عليه للاستِفادةِ منه(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: أظهَرَ لهم الآياتِ الحقَّ، أي: الواضحةَ، فأطلَقَ ﴿جَآءَهُم﴾ على ظُهورِ الحقِّ(٥).

- وقولُه: ﴿مِنۡ عِندِنَا﴾ وَصفٌ للحقِّ؛ لإفادةِ أنَّه حقٌّ خارقٌ للعادةِ لا يكونُ إلَّا مِن تَسخيرِ اللهِ وتأْييدِه، وهو آياتُ نُبوَّتِه التِّسعُ(٦).

- ووَجهُ وُقوعِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا﴾ بعْدَ قولِه: ﴿أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [غافر: ٢٣] مع اتِّحادِ مُفادِ الجُملتَينِ؛ فإنَّ مُفادَ جُملةِ ﴿جَآءَهُم﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٧٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُساوٍ لِمُفادِ جُملةِ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، ومُفادَ قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُساوٍ لِمُفادِ قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ [غافر: ٢٣]-: أنَّ الأوَّلَ للتَّنويهِ برِسالةِ مُوسى وعَظَمةِ مَوقِفِه أمامَ أعظَمِ مُلوكِ الأرضِ يَومئذٍ، وأمَّا قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ فهو بَيانٌ لِدَعوتِه إيَّاهم وما نشَأَ عنها، وتَقديرُ الكلامِ: أرسَلْنا مُوسى بآياتِنا إلى فِرْعونَ، فلمَّا جاءهُم بالحقِّ، فسُلِكَت في هذا النَّظْمِ طَريقةُ الإطنابِ؛ للتَّنويهِ والتَّشريفِ، وجُملةُ ﴿فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ مُعترِضةٌ[١].

- قولُه: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ اعتِراضٌ جِيءَ به في تَضاعيفِ ما حُكِيَ عنهم مِن الأباطيلِ؛ للمُسارعةِ إلى بَيانِ بُطلانِ ما أظْهَروه مِن الإبراقِ والإرعادِ واضمِحْلالِه بالمرَّةِ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ سُمِّيَ هذا الرَّأيُ كَيدًا؛ لأنَّهم تَشاوَروا فيه فيما بيْنهم دونَ أنْ يَعلَمَ بذلك مُوسى والذين آمَنوا معه، وأنَّهم أضْمَروه ولم يُعْلِنوه، ثُمَّ شغَلَهم عن إنفاذِه ما حَلَّ بهم مِن المصائبِ التي ذُكِرت في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ ...﴾ الآيةَ [الأعراف: ١٣٠]، ثُمَّ بقولِه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] الآيةَ[٣].

- واللَّامُ في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ للعهْدِ، والإظهارُ في مَوضعِ الإضمارِ فلمْ يقُلْ: (وما كيدُهم)؛ لِذمِّهم بالكُفْرِ، والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ وتَعميمِه، أو تكونُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٣، ١٢٤).

للجِنْسِ، وهم داخِلون فيه دُخولًا أوَّليًّا[١]؛ فتدبَّرْ هذه النُّكتةَ التي يَكثُرُ مُرورُها في كِتابِ اللهِ تعالَى: إذا كان السِّياقُ في قِصَّةٍ مُعَيَّنةٍ أو على شَيءٍ مُعَيَّنٍ، وأرادَ اللهُ أن يحكُمَ على ذلك المُعَيَّنِ بحُكمٍ لا يختَصُّ به، ذكَرَ الحُكْمَ وعلَّقَه على الوَصفِ العامِّ؛ لِيَكونَ أعَمَّ، وتندَرِجَ فيه الصُّورةُ التي سِيقَ الكلامُ لأجْلِها، ولِيَندفعَ الإيهامُ باختِصاصِ الحُكمِ بذلك المعَيَّنِ؛ فلهذا لم يَقُلْ: (وما كيدُهم إلَّا في ضَلالٍ)، بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾

- ومعنى ﴿ذَرُونِىٓ﴾ إعْلامُهم بعَزْمِه بضَرْبٍ مِن إظْهارِ مَيلِه لذلك، وانتظارِه الموافَقةَ عليه، بحيث يُمثِّلُ حالَه وحالَ المخاطَبينَ بحالِ مَن يُريدُ فِعلَ شَيءٍ فيُصَدُّ عنه، فلِرَغبتِه فيه يقولُ لِمَن يَصُدُّه: دَعْني أفعَلْ كذا؛ لأنَّ ذلك التَّركيبَ ممَّا يُخاطَبُ به الممانعُ والملائمُ، ثمَّ استُعْمِلَ هذا في التَّعبيرِ عن الرَّغبةِ ولم يكُنْ ثَمةَ مُعارِضٌ أو مُمانِعٌ، وهو استِعمالٌ شائعٌ في هذا وما يُرادِفُه، مِثلُ: دَعْني وخَلِّني، وذلك يَستتبِعُ كِنايةً عن خَطَرِ ذلك العمَلِ وصُعوبةِ تَحصيلِه؛ لأنَّ مِثلَه ممَّا يَمنَعُ المستَشارُ مُستشيرَه مِن الإقدامِ عليه، وكان قولُه: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ تَمويهًا على قَومِه، وإيهامًا أنَّهم هم الذين يَكُفُّونه، وما كان يَكُفُّه إلَّا ما في نفْسِه مِن هَولِ الفزَعِ -وذلك على قولٍ-؛ ولذلك عطَفَ عليه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾؛ لأنَّ مُوسى خوَّفَهم عذابَ اللهِ، وتحدَّاهم بالآياتِ التِّسعِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ويُنظر أيضًا: ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) =

- ولامُ الأمْرِ في ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ مُستعمَلةٌ في التَّسويةِ، وإظهارِ التَّجلُّدِ، وعدَمِ الاكتراثِ بدُعاءِ مُوسى ربَّه. وقيل: المقصودُ بالأمْرِ هنا التَّعجيزُ، بزَعْمِه[١].

- وجُملةُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ تَعليلٌ للعزْمِ على قتْلِ مُوسى، والإضافةُ في قولِه: ﴿دِينَكُمْ﴾ تَعريضٌ بأنَّهم أَولى بالذَّبِّ عن الدِّينِ، وإنْ كان هو دِينَه أيضًا، لكنَّه تَجرَّدَ في مُشاوَرتِهم عن أنْ يكونَ فيه مُراعاةٌ لِحَظِّ نفْسِه، كما قالوا همْ: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]؛ وذلك كلُّه إلهابٌ وتَحضيضٌ[٢].

- قولُه: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ معنى إظهارِ مُوسى الفَسادَ عِندَهم أنَّه يَتسبَّبُ في ظُهورِه بدَعوتِه إلى تَغييرِ ما همْ عليه مِن الدِّيانةِ والعوائدِ، وعُبِّرَ بالإظهارِ عن الفُشُوِّ والانتشارِ[٣].

- ولَمَّا كان حُبُّ النَّاسِ لأديانِهم فَوقَ حُبِّهم لأموالِهم، لا جَرَمَ بدأ فِرعَونُ بذِكرِ الدِّينِ[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ قيل: هذا حِكايةُ كَلامٍ صَدَرَ مِن مُوسى في غَيرِ حَضْرةِ فِرعونَ؛ لأنَّ مُوسَى لم يكُنْ ممَّن يَضُمُّه مَلأُ استشارةِ فِرْعونَ حين قال لِقَومِه: ﴿ذَرُونِيٓ

= (٧/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٤، ١٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٧).

أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦]، ولكنَّ مُوسى لَمَّا بلَغَه ما قالَه فِرعونُ في مَلَئِه، قال مُوسى في قُومِه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾؛ ولذلك حُكِيَ فِعلُ قولِه مَعطوفًا بالواوِ؛ لأنَّ ذلك القولَ لم يقَعْ في مُحاوَرةٍ مع مَقالِ فِرعونَ، بخِلافِ الأقوالِ المحكيَّةِ في سُورةِ (الشُّعراءِ) مِن قولِه: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾، إلى قولِه: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1] [الشعراء: ١٨ - ٣١].

- قولُه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ صدَّرَ الكلامَ بـ(إنَّ) تأْكيدًا، وإظْهارًا لِمَزيدِ الاعتناءِ بمَضمونِه، وفرْطِ الرَّغبةِ فيه، وإشْعارًا أنَّ السَّببَ المؤكِّدَ في دفْعِ الشَّرِّ هو العِياذُ باللهِ[2]. وأيضًا تأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ) مُتوجِّهٌ إلى لازِمِ الخبَرِ؛ وهو أنَّ اللهَ ضمِنَ له السَّلامةَ، وأكَّدَ ذلك؛ لِتَنزيلِ بعْضِ قَومِه -أو جُلِّهم- مَنزلةَ مَن يَتردَّدُ في ذلك لِما رَأى مِن إشفاقِهم عليه[3].

- وكذلك في قولِه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ خَصَّ اسمَ الرَّبِّ؛ لأنَّ المطلوبَ هو الحِفظُ والتَّربيةُ، وأضافَه إليه وإليهم؛ حثًّا لهم علَى مُوافَقتِه؛ لِما في تَظاهُرِ الأرواحِ مِن استِجلابِ الإجابةِ. وللإيماءِ إلى أنَّ عليهم ألَّا يَجْزَعوا مِن مُناوأةِ فِرْعونَ لهم، وأنَّ عليهم أنْ يَعوذوا باللهِ مِن كلِّ ما يُفْظِعُهم؛ ففيه إيماءٌ إلى تَوجيهِ العَوذِ به؛ لأنَّ العبْدَ يَعوذُ بمَولاهُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥، ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٧).

- وقولُه: ﴿كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ يَشمَلُ فِرْعونَ وغيرَه مِن الجَبابرةِ، ولكنَّه قال ذلك على طَريقِ التَّعريضِ؛ فكان أبلَغَ، وجُعِلَت صِفةُ ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ مُغنيةً عن صِفةِ الكُفْرِ أو الإشراكِ؛ لأنَّها تَتضمَّنُ الإشراكَ وزِيادةً؛ لأنَّه إذا اجتمَعَ في الرَّجلِ التَّجبُّرُ والتَّكذيبُ بالجزاءِ، قَلَّت مُبالاتُه بعواقبِ أعمالِه؛ فكمَلَتْ فيه أسبابُ القسْوةِ والجُرأةِ على اللهِ وعِبادِه، ولم يَترُكْ عَظيمةً إلَّا ارْتكَبَها[1]. وقيل: لم يَذكُرْ فِرعَونَ في هذا الدُّعاءِ؛ لأنَّه كان قد سَبَق له حَقُّ تَربيةٍ على موسى مِن بَعضِ الوُجوهِ، فتَرَك التَّعيينَ رِعايةً لذلك الحَقِّ[2].

- قولُه: ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ يَعْني يوْمَ القِيامةِ، وعدَلَ عن (يوْم القيامةِ) إلى (يوْم الحسابِ)؛ لأنَّ الحسابَ أشدُّ خوْفًا مِن (يوْم القيامةِ)، إذا قِيل للإنسانِ: إنَّك سوْفَ تُحاسَبُ على ما عَمِلْتَ مِن خيْرٍ وشَرٍّ؛ فإنَّه سوْفَ يَخافُ ويَوجَلُ، ويَستقيمُ؛ فيَرتدِعُ عن المعاصي، ويَقومُ بالأوامرِ[3].

- ومِن بَلاغةِ القُرآنِ أنَّ اللهَ سُبحانه وتعالَى يُكرِّرُ ذِكرَ قِصَّةِ مُوسى، ويَبسُطُها تارةً، ويَختصِرُها تارةً، ويُنوِّعُها؛ فقدْ جَمَعت بيْن الكثرةِ والتَّنويعِ مِن حيث الأسلوبُ والتَّنويعُ مِن حيث البسْطُ والاختصارُ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عاش في قومٍ مُشركين أوَّلَ الرِّسالةِ، وفي قوْمٍ يَهودَ بعْدَ الهجرةِ، ولهذا جاءت السُّوَرُ المكِّيَّةُ يُذكَرُ فيها قِصَّةُ مُوسى ببسْطٍ واختصارٍ تارةً؛ لأجْلِ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص ٢٣٧).

يَتهيَّأَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لمجادَلةِ اليهودِ الذين سَتكونُ الهجرةُ إلى بلدٍ همْ ساكنونَ فيه، ولهذا لا تَجِدُ قِصَّةَ نَبيٍّ مِثلَ قِصَّةِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لا في تَنوُّعِها، ولا في تَكرارِها، ولا في أُسلوبِها[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص ٢٢٠).

الآيتان (٢٨-٢٩)

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿مُسْرِفٌ﴾: السَّرَفُ: تجاوزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يَفعَلُه الإنسانُ، وأصلُ (سرف): تعدِّي الحَدِّ[1].

﴿بَأْسِ ٱللَّهِ﴾: أي: عذابِه، وأصْلُ (بأس): الشِّدَّةُ وما شابَهها[2].

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالَى: وقال رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِن قَومِ فِرعَونَ يُسِرُّ إيمانَه باللهِ: أتَقتُلونَ موسى مِن أجْلِ قَولِه: رَبِّيَ اللهُ، وقد جاءَكم بالدَّلائِلِ الواضِحةِ مِن رَبِّكم؟! وإنْ كان كاذِبًا في دَعواه فعليه ضَرَرُ كَذِبِه، وإنْ كان صادِقًا في دَعواه فكَذَّبتُموه يُصِبْكم بَعضُ ما يَعِدُكم ويُهدِّدُكم به مِنَ العُقوباتِ، إنَّ اللهَ لا يَهدي مَن هو مُتجاوِزٌ للحَدِّ، كذَّابٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

يا قَومِ لكم الغَلَبةُ والسُّلطانُ اليومَ في أرضِ مِصرَ؛ فمَن يَدفَعُ عنَّا عذابَ اللهِ إنْ حَلَّ بنا؟! قال فِرعَونُ: ما أُشيرُ عليكم إلَّا بما أعتقدُه، وأرَى أنَّه هو الحقُّ والصوابُ، وما أدعوكم إلَّا إلى طريقِ الحَقِّ والسَّدادِ!

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا حكَى عن موسى عليه السَّلامُ أنَّه ما زاد في دَفْعِ مَكْرِ فِرعَونَ وشَرِّه على الاستِعاذةِ باللهِ؛ بيَّنَ أنَّه تعالَى قيَّضَ إنسانًا آخَرَ غيرَ موسى حتى ذَبَّ عنه على أحسَنِ الوُجوهِ، وبالغَ في تَسكينِ تلك الفِتنةِ، واجتهَدَ في إزالةِ ذلك الشَّرِّ[1].

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾.

أي: وقال رجُلٌ مُؤمِنٌ مِن قَومِ فِرعَونَ يُخفي عنهم إيمانَه باللهِ وبنُبُوَّةِ موسى: كيفَ تستَحِلُّون قتْلَ موسَى مِن أجْلِ قَولِه: رَبِّيَ اللهُ ؟! فاقبَلوا قَولَه أو ارفُضوه؛ فإنَّه لا ذنْبَ له يَستحِقُّ به القتلَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١١، ٣١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٣، ٣٨٤).

عن عُروةَ بنِ الزُّبَيرِ، قال: ((سألتُ عبدَ اللهِ بنَ عَمرٍو عن أشَدِّ ما صنَعَ المُشرِكونَ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ قال: رأيتُ عُقبةَ بنَ أبي مُعَيطٍ جاء إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يُصَلِّي، فوضَعَ رِداءَه في عُنُقِه فخَنَقَه به خَنقًا شديدًا، فجاء أبو بكرٍ حتَّى دفَعَه عنه، فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؟!))[(١)].

﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

أي: ولم يكُنْ قولُه أيضًا مجرَّدًا عن البيِّناتِ؛ فقد جاءَكم بالدَّلائِلِ الواضِحاتِ، فلِمَ تَستحِلُّونَ قَتْلَه[(٢)]؟!

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾.

أي: وإنْ كان موسى كاذِبًا في دعواه فإنَّما يَعودُ ضَرَرُ كَذِبِه عليه، وليسَ عليكم في ذلِك ضَرَرٌ[(٣)].

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

أي: وإنْ كان موسى صادِقًا في دعواه فكذَّبتُموه، فلا بُدَّ أن يُصيبَكم بَعضُ ما يَعِدُكم ويَتهدَّدُكم به مِن العُقوباتِ؛ فلا حاجةَ لكم -إذَنْ- إلى قَتْلِه[(٤)]!

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٦٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٢، ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧). =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يَهدي للحَقِّ مَن هو مُظهِرٌ للفَسادِ، مُتجاوِزٌ للحَدِّ، مُفترٍ للكَذِبِ[١].

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ لَمَّا أقام أنواعَ الدَّلائِلِ على أنَّه لا يجوزُ الإقدامُ على قَتلِ موسى؛ خوَّفَهم في ذلك بعَذابِ اللهِ[٢].

وأيضًا لَمَّا توسَّمَ نُهوضَ حُجَّتِه بيْنَهم، وأنَّها داخَلَت نُفوسَهم، أَمِن بأْسَهم، وانتهَزَ فُرصةَ انكسارِ قُلوبِهم، فصارَحَهم بمَقصودِه مِن الإيمانِ بمُوسى؛ على سَننِ الخُطباءِ وأهْلِ الجدَلِ بعْدَ تَقريرِ المقدِّماتِ والحُجَجِ أنْ يَهْجُموا على الغرَضِ المقصودِ، فوعَظَهم بهذه الموعظةِ[٣].

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ﴿يَعِدُكُمۡ﴾: العذابُ الذي توعَّدهم به موسى عليه السَّلامُ: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة، ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١١).

وقيل: المرادُ العُمومُ؛ فهو يَشمَلُ ما وعَدَهم مِن الخيرِ إنْ وافَقوه، وما وعدَهم مِنَ الشَّرِّ إنْ خالَفوه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧).

قال الشوكانيُّ: (هذا مِن تمامِ كلامِ الرَّجُلِ المؤمِنِ، وهو احتِجاجٌ آخَرُ ذو وَجهَينِ: أحدُهما: أنَّه لو كان مُسرِفًا كذَّابًا لَما هداه اللهُ إلى البيِّناتِ، ولا أيَّده بالمُعجِزاتِ. وثانيهما: أنَّه إذا كان كذلك خذَلَه اللهُ وأهلَكَه، فلا حاجةَ لكم إلى قَتْلِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦١). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤٢-٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣١-١٣٢).

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: يا قَومِ لكم الغَلَبةُ والسُّلطانُ اليومَ في أرضِ مِصرَ، والعُلُوُّ على أهلِها[١].

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾.

أي: فمَن يَدفَعُ عنَّا عذابَ اللهِ إنْ حَلَّ بنا؟! فقُوَّتُنا لنْ تنفَعَنا شَيئًا إنْ جاءَتْنا عُقوبةُ اللهِ[٢].

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾.

أي: قال فِرعَونُ: ما أُشيرُ عليكم ولا أقولُ لكم إلَّا ما أعتقدُه، وأرَى أنَّه هو الحَقُّ والصَّوابُ، فلا أُظهِرُ لكم شيئًا خِلافَ ما أُبطِنُه[٣]!

﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

أي: وما أدْعوكم إلَّا إلى طَريقِ الحَقِّ والسَّدادِ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤٨-٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧).

قال القُرطبي: (﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي: مِن عذابِ اللهِ؛ تحذيرًا لهم مِن نِقَمِه إنْ كان موسى صادقًا، فذكَّر وحذَّر، فعلِم فِرعَونُ ظُهورَ حُجَّتِه، فقال: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾) ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا﴾ مُراعاةُ الخَصمِ فيما يُؤَلِّفُه ويُقَرِّبُه؛ لأنَّه بدَأَ بما كانوا يَعتَقِدونَ، وهو كَذِبُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فبدَأَ بالكَذِبِ قبلَ أنْ يَبدَأَ بالصِّدقِ؛ مِن أجْلِ تأليفِهم؛ ولم يَبدَأْ بالصِّدقِ الذي هو أحدُ الاحتِمالَينِ[1]، تلَطُّفًا في الاستِكفافِ -أي: طلَبِ الكَفِّ عن موسى عليه السَّلامُ-، واستِنزالًا عن الأذَى، فلمْ يكُنْ ذلك لشَكٍّ منه في رِسالتِه وصِدقِه[2].

٢- في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾، وقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤] إشارةٌ إلى أنَّ الإصرارَ على المعاصي، والكَذبَ، والارتيابَ في الدِّين قدْ يكونُ سببًا لسَدِّ أبوابِ الهِدايةِ عن العَبدِ، بخِلافِ الطَّاعةِ فإنَّها تَفتَحُ بابَ الهُدَى؛ لأنَّها شُكرٌ، وقدْ قال تعالَى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧]، والنِّعمةُ قَيْدُها شُكرُها، وفي كُفرانِها تعريضٌ لها للزَّوالِ، وذلك إنَّما أوردَه مؤمنُ آلِ فِرعونَ على سَبيلِ النَّصيحةِ لهم والتَّحذيرِ، وهو مِن الحِكَمِ البالِغةِ، وفيه أنَّ مِن أحوالِ الصِّدِّيقينَ النُّطقَ بالحِكمةِ[3].

٣- قولُه: ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ فيه حُسْنُ احترازِ هذا الرَّجُلِ المؤمنِ؛ فقال: ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يعني: وأمَّا في المستقبلِ فقد يَزُولُ مُلْكُكم؛ لكنِ اشكُروا

= كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٥٠).

قال الشنقيطيُّ: (كان غَرَضُ فِرعَونَ بهذا الكَذِبِ التَّدليسَ والتَّمويهَ؛ لِيَظُنَّ جَهَلَةُ قَومِه أنَّ معه الحَقَّ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) للغزي (٤/ ١٠٢).

النِّعمةَ الحاضِرةَ، وذِكْرُ حُسْنِ خَطابةِ هذا الرَّجُلِ أو احترازاتِه أو ما أشبهَ ذلك؛ ليس معناه الإخبارَ عن قِصَّةٍ مَضَتْ وتاريخٍ مَضَى! لا، وإنَّما مِن أجْلِ أخْذِ العِبرةِ والسَّيْرِ عليها؛ لأنَّ الثَّناءَ على هذا الرَّجُلِ بخِطابِه ومُعالجتِه للأُمورِ يعني الحَثَّ على اتِّباعِ طريقِه[١].

٤- قولُه: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ فيه التَّلَطُّفُ بالخِطابِ حتى يُشعِرَ الإنسانَ المخاطَبَ وكأنَّه هو أوَّلُ مَن يُرادُ بهذا الأمرِ أو بهذا الخِطابِ؛ فقال: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ ولم يَقُلْ: فمَن يَنصرُكم مِن بأسِ اللهِ إنْ جاءَكم! كلُّ هذا مِن بابِ التَّنَزُّلِ مع هؤلاء؛ وإشعارِهم بأنَّه واحدٌ منهم[٢]، فأدرَجَ نَفْسَه فيهم عندَ ذِكرِ الشَّرِّ بعدَ إفرادِه لهم بالمُلْكِ؛ إبعادًا للتُّهمةِ[٣]، وتَطْييبًا لِقُلوبِهم، وإيذانًا بأنَّه مُناصِحٌ لهم، ساعٍ في تَحصيلِ ما يُجْديهم، ودَفْعِ ما يُرْدِيهم سَعْيَه في حَقِّ نفْسِه؛ لِيتأثَّروا بنُصْحِه، ولِيُرِيَهم أنَّه يأبَى لِقَومِه ما يَأْباه لِنَفسِه، وأنَّ المصيبةَ إنْ حلَّتْ لا تُصِيبُ بعْضَهم دونَ بعضٍ[٤].

٥- في قولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩] إشارةٌ إلى أنَّ مِن شأنِ الصِّدِّيقينَ التَّذكرةَ بالنِّعمِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٢).

ذكَر ابنُ عثيمين أنَّه قد يُقالُ: إنَّ في هذا إشارةً إلى أنَّ العذابَ إذا نَزَلَ يَعُمُّ الصالحَ والفاسدَ؛ ويكونُ قولُه: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ يُرادُ به حقيقتُه، أي: أنَّه هو سيُصيبُه ما أصابَهم، وشاهِدُه قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال: ٢٥]، ثم قال: (وهذا ليس ببعيدٍ). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٥٥).

وأنَّها يَنبغي أنْ تُعرَفَ وتُشكَرَ، ولا تُكفَرَ؛ لتدومَ، أو لتُحمدَ عواقِبُها، والتحذيرَ مِن الاغترارِ بالمُلكِ، والحولِ والقوَّةِ، والظهورِ والغَلبةِ حَذرًا مِن غِبِّ ذلك[١].

٦- في خِطابِ مُؤمِنِ آلِ فِرعونَ: أنَّ مِن شأنِ الصِّدِّيقينَ النَّصيحةَ، والنُّصرةَ للدِّينِ والحقِّ، ولأولياءِ اللهِ تعالَى، والأمْرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المُنكَرِ، والأخْذَ بيَدِ المظلومِ، والتَّلطُّفَ في الإنكارِ على الظالمِ إذا كان ذا شَوكةٍ وغَلبةٍ، والتأنُّقَ في الاحتيالِ للتخليصِ منه، ومُناظرتَه في أثناءِ ذلك على ألْطَفِ الوُجوهِ وأَوْضَحِها في بَيانِ الحقِّ والإلزامِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، فيه أنَّ اللهَ يُقيِّضُ لعِبادِه الصَّالحينَ حُماةً عِندَ الشَّدائدِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ فيه جَوازُ إخفاءِ الإيمانِ إذا خاف الإنسانُ على نَفسِه؛ لِقَولِه: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾، ولكِنْ إذا كان الإنسانُ لا يَستطيعُ أن يَعيشَ مُؤمِنًا إلَّا بالكِتمانِ؛ فإنَّه في دِينِ الإسلامِ تَجبُ عليه الهِجرةُ، ولكِنْ بشَرطِ أنْ يكونَ قادِرًا عليها، فإنْ كان عاجِزًا فإنَّ اللهَ تعالَى قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۞ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[٤] [النساء: ٩٨، ٩٩].

---

(١) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) للغزي (٤/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٤٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ...﴾ فيه استِدراجُ المُخاطَبِ؛ وذلك أنَّه لَمَّا رأى فِرعَونَ قد عزَمَ على قَتلِ موسى، والقَومَ على تَكذيبِه؛ أراد الانتِصارَ له بطَريقٍ يُخفي عليهم بها أنَّه مِن أتْباعِه، فجاءَهم مِن طَريقِ النُّصحِ والملاطَفةِ، فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، ولم يذكُرِ اسمَه، بلْ قال: ﴿رَجُلًا﴾ يُوهِمُ أنَّه لا يَعرِفُه ولا يُدافِعُ عنه، ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، ولم يَقُلْ: (رجُلًا مُؤمِنًا باللهِ)، أو (هو نَبيُّ الله)؛ إذ لو قال شيئًا مِن ذلك لعَلِموا أنَّه مِن أتْباعِه، ولم يَقبَلوا قَولَه؛ ثمَّ أتْبَعَه بما بعدَ ذلك، فقَدَّمَ قَولَه: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾؛ مُوافَقةً لِرَأيِهم فيه، ثمَّ تلاه بقَولِه: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾، ولو قال: هو صادِقٌ في كُلِّ ما يَعِدُكم لعَلِموا أنَّه مِن أتْباعِه، وأنَّه يَزعُمُ أنَّه نبيٌّ، وأنَّه يُصَدِّقُه؛ فإنَّ الأنبياءَ لا تُخِلُّ بشَيءٍ ممَّا يَقولونَه؛ ثمَّ أتبَعَه بكَلامٍ يُفهَمُ منه أنَّه ليس بمُصَدِّقٍ، وهو قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[1].

٤- قولُه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ فيه الإنكارُ على مَن عَمِلَ عمَلًا بدونِ سَببٍ يَقتضيه؛ وقولُ الإنسان: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ ليس سَببًا للقتْلِ! بلْ على الأقلِّ يُتْرَكُ وشأنَه، أمَّا أنْ يُقْتَلَ لهذا السَّببِ، فإنَّ هذا مُنْكَرٌ، ولا يجوزُ إقرارُه[2].

٥- قَولُه: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: يَسبِقُ إلى الذِّهنِ في هذه الآيةِ تَوهُّمُ المنافاةِ بيْنَ الشَّرطِ والجزاءِ في البَعضِ؛ لأنَّ المناسِبَ لاشتراطِ الصِّدقِ هو أنْ يُصيبَهم جَميعُ الذي يَعِدُهم لا بَعضُه، مع أنَّه تعالَى لم يَقُل: (وإن يكُ صادِقًا يُصِبْكم كلُّ الذي يَعِدُكم)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤٤).

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بالبَعضِ الذي يُصيبُهم هو: البَعضُ العاجِلُ الذي هو عذابُ الدُّنيا؛ لأنَّهم أشَدُّ خَوفًا مِن العذابِ العاجِلِ، ولأنَّهم أقرَبُ إلى التَّصديقِ بعذابِ الدُّنيا منهم بعذابِ الآخِرةِ[١]، وتكونُ (بعض) باقيةً على مَعناها؛ لأنَّه وعَدَهم على كُفْرِهم الهلاكَ في الدُّنيا، والعذابَ في الآخرةِ؛ فهلاكُهم في الدُّنيا بعضُ ما وعَدَهم به[٢].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المعنى: إنْ يكُ صادِقًا فلا أقَلَّ مِن أن يُصيبَكم بعضُ الذي يَعِدُكم، وعلى هذا فالنُّكتةُ هي المُبالَغةُ في التَّحذيرِ؛ لأنَّه إذا حَذَّرهم مِن إصابةِ البَعضِ أفاد أنَّه مُهلِكٌ مَخُوفٌ، فما بالُ الكُلِّ؟! وفيه إظهارٌ لكَمالِ الإنصافِ، وعدَمِ التعَصُّبِ؛ ولذا قدَّم احتِمالَ كَونِه كاذِبًا.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ لَفظةَ (البعض) يُرادُ بها الكُلُّ؛ وعليه فمعنَى ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾: كُلُّ الذي يَعِدُكم[٣].

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّ المعنى: وإنْ تَبَيَّنَ لكم صِدقُه يُصِبْكم بعضُ ما توعَّدَكم به، أي: تُصِبْكم بوارِقُه، فتَعلَموا صِدقَه فتَتَّبِعوه، وهذا وَجهُ التَّعبيرِ بـ(بعض) دونَ أن يقولَ: (يُصِبْكم الَّذي يَعِدُكم به)[٤].

الوَجهُ الخامس: أنَّه أثبَتَ أنَّه صادِقٌ في جَميعِ ما يَعِدُ، ولكنَّه أرْدَفَه ﴿يُصِبۡكُم

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (٩/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٢، ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٠، ٥٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (٩/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٠).

بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾؛ لِيَهضِمَه بعضَ حَقِّه في ظاهِرِ الكلامِ، فيُريهم أنَّه ليس بكلامِ مَن أعطاه حَقَّه وافيًا، فضلًا أنْ يَتعصَّبَ له، أو فضْلًا عن أنْ يَذُبَّ عنه[١].

٦- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ فيه أنَّ الذي وَصْفُه السَّرَفُ والكَذِبُ لا يَنفَكُّ عنهما: لا يَهدِيه اللهُ، ولا يُوَفِّقُه للخيرِ؛ لأنَّه رَدَّ الحَقَّ بعْدَ أنْ وَصَل إليه وعَرَفه، فجزاؤُه أن يُعاقِبَه اللهُ بأنْ يمنَعَه الهُدى، كما قال تعالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] [البقرة: ٢٥٨].

٧- قولُه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أدخَلَ قَومَه في الخِطابِ فناداهم؛ لِيَستهويَهم إلى تَعضيدِه أمامَ فِرعَونَ، فلا يَجِدَ فِرعَونُ بُدًّا مِن الانصياعِ إلى اتِّفاقِهم وتَظاهُرِهم، وأيضًا فإنَّ تَشريكَ قَومِه في الموعِظةِ أدخَلُ في بابِ النَّصيحةِ[٣].

٨- قولُه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ المقصودُ: تخويفُ فِرعَونَ مِن زَوالِ مُلكِه، ولكِنَّه جَعَل المُلْكَ لِقَومِه؛ لِتَجنُّبِ مُواجَهةِ فِرعَونَ بفَرضِ زَوالِ مُلكِه[٤]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المُلكَ إنْ لم يَحُطْه صاحبُه بالعدلِ والإنصافِ، والكفِّ عن الجَورِ والانكفافِ، فهو

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُتعرِّضٌ لزوالِ مُلكِه، بلْ لنزولِ هُلْكِه[١].

٩- قال تعالَى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ تفطَّنَ فِرْعونُ إلى أنَّه المعرَّضُ به في خِطابِ الرَّجلِ المؤمِنِ قومَه، فقاطَعَه كلامَه، وبيَّن سببَ عَزْمِه على قتْلِ مُوسى عليه السَّلامُ؛ بأنَّه ما عرَضَ عليهم ذلك إلَّا لأنَّه لا يَرى نفْعًا إلَّا في قتْلِ مُوسى، ولا يَستصوبُ غيرَ ذلك، ويَرى ذلك هو سَبيلَ الرَّشادِ، وكأنَّه أراد ألَّا يَترُكَ لِنَصيحةِ مُؤمنِهم مَدْخلًا إلى نُفوسِ مَلَئِه؛ خِيفةَ أنْ يَتأثَّروا بنُصْحِه، فلا يُساعِدوا فِرْعونَ على قتْلِ مُوسى[٢].

بَلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ...﴾ قيل: عَطْفُ قولِ هذا الرَّجلِ يَقْتضي أنَّه قال قولَه هذا في غيرِ مَجلِسِ شُورى فِرعونَ؛ لأنَّه لو كان قولُه جاريًا مَجرَى المحاوَرةِ مع فِرعونَ في مَجلِسِ استشارتِه، أو كان أجابَ به عن قولِ فِرْعونَ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦]؛ لكانتْ حِكايةُ قَولِه بدونِ عطْفٍ على طَريقةِ المُحاوراتِ[٣].

- وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أتَى بـ﴿رَجُلًا﴾ النَّكرةِ؛ إبهامًا للأمْرِ، وشِدَّةً في إخفائِه، وإبعادًا للتُّهمةِ عن نفْسِه؛ لئلَّا يظُنَّ أحدٌ أنَّه كان يَعرِفُ مُوسى، وأنَّه

(١) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) للغزي (٧/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٢٧، ١٢٨).

يُدافِعُ عنه عن مَعرفةٍ[١].

- وأرادَ بقولِه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا ...﴾ إلى آخِرِه أنْ يَسْعى لحِفْظِ مُوسى مِن القتْلِ بفَتْحِ بابِ المجادَلةِ في شأْنِه؛ لِتَشكيكِ فِرْعونَ في تَكذيبِه بمُوسى[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ استفهامُ إنكارٍ وتَبكيتٍ لهم، أي: يَقبُحُ بكم أنْ تَقتُلوا رجُلًا لأنَّه يقولُ: ربِّيَ اللهُ، أي: ولم يُجبِرْكم على أنْ تُؤمنوا به، ولكنَّه قال لكم قولًا، فاقْبَلوه أو ارْفُضوه، فهذا مَحمَلُ قولِه: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ الذي يَدلُّ على حصْرِ الرُّبوبيَّةِ في اللهِ سُبحانه[٣].

- وقولُه: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ مَجرورٌ بلامِ التَّعليلِ المُقدَّرةِ، والتقديرُ: لِأنْ يقولَ. وذكَرَ اسمَ (اللهِ)؛ لأنَّه الذي ذكَرَه مُوسى ولم يكُنْ مِن أسماءِ آلهةِ القِبْطِ[٤].

- قولُه: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ارْتقاءٌ في الحِجاجِ بعْدَ أنِ استأْنَسَ في خِطابِ قَومِه بالكلامِ الموجَّهِ، فارْتَقى إلى التَّصريحِ بتَصديقِ مُوسى بعِلَّةِ أنَّه جاء بالبيِّناتِ، أي: الحُجَجِ الواضحةِ بصِدْقِه، وإلى التَّصريحِ بأنَّ الذي سمَّاه اللهُ في قولِه: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ هو ربُّ المخاطَبينَ فقال: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أضافَ الربَّ إليهم بعدَ ذِكرِ البيِّناتِ احتجاجًا عليهم، واستنزالًا لَهمُ عن رُتبةِ المكابرةِ، واستدراجًا لهم إلى الاعترافِ به، ثمَّ أخذَهُم بالاحتجاجِ مِن بابِ الاحتِياطِ فقالَ: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾[1].

- قولُه: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ ...﴾ الآيةَ، كلامٌ مُنصِفٌ؛ فقدِ استَدْرَجَهم هذا الرَّجلُ المؤمِنُ باستشهادِه على صِدْقِ مُوسى عليه السَّلامُ مِن عِندِ مَن تُنسَبُ إليه الرُّبوبيَّةُ ببيِّناتٍ عدَّةٍ لا ببيِّنةٍ واحدةٍ، وأتَى بها مَعرِفةً؛ لِيُلَيِّنَ بذلك جِماحَهم[2]، ويَكسِرَ مِن سَوْرتِهم -أي: سَطوتِهم واعتدائِهم-، ثم أخَذَهم بالاحتِجاجِ بطَريقِ التَّقسيمِ، فقال: لا يَخْلو أنْ يكونَ صادقًا أو كاذبًا؛ فإنْ يَكُ كاذبًا فضرَرُ كذِبِه عائدٌ عليه، أو صادِقًا فأنتم مُستهْدَفون لإصابتِكم ببَعضِ ما يَعِدُكم به، وهذا فيه مُبالَغةٌ في التَّحذيرِ، وإظهارٌ للإنصافِ وعدَمِ التَّعصُّبِ. وكذلك قدَّمَ الكاذِبَ على الصَّادقِ لهذا الغرَضِ، وزِيادةً في التَّباعُدِ عن ظنِّهم به الانتصارَ لِمُوسى، فأرادَ أنْ يَظهَرَ في مَظهَرِ المهتَمِّ بأمْرِ قَومِه ابتداءً[3].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ يجوزُ أنَّها مِن قولِ مُؤمنِ آلِ فِرْعونَ، فالمقصودُ منها تَعليلُ قولِه: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤).

(٢) الجَموحُ مِن الرِّجال: الذي يَركَبُ هواه فلا يُمكِن رَدُّه. ويُقَالُ: جَمَحَ وطَمَحَ: إذا أَسْرَع ولَمْ يَرُدَّ وجهَه شيءٌ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣٦٠)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٢/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٨٠، ٤٨١).

يَكُ صَـادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمۡ﴾، أي: لأنَّ اللهَ لا يُقِرُّه على كذِبِه؛ فإنْ كان كاذبًا على اللهِ، فلا يَلبَثُ أنْ يَفتضِحَ أمْرُه أو يُهلِكَه؛ لأنَّ اللهَ لا يُمهِلُ الكاذبَ عليه، ولأنَّه إذا جاءَكم بخَوارقِ العاداتِ فقدْ تبيَّنَ صِدْقُه؛ لأنَّ اللهَ لا يَخرِقُ العادةَ بعْدَ تَحدِّي المتحدِّي بها إلَّا لِيَجعَلَها أمارةً على أنَّه مُرسَلٌ منه؛ لأنَّ تَصديقَ الكاذبِ مُحالٌ على اللهِ تعالَى. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةً مُعترِضةً بيْن كلاميْ مُؤمنِ آلِ فِرعونَ ليستْ مِن حِكايةِ كلامِه، وإنَّما هي قولٌ مِن جانبِ اللهِ في قُرآنِه، يُقصَدُ منها تَزكيةُ هذا الرَّجُلِ المؤمِنِ؛ إذ هداهُ اللهُ للحقِّ، وأنَّه تقِيٌّ صادقٌ؛ فيكونُ نفْيُ الهِدايةِ عن المسرِفِ الكذَّابِ كِنايةً عن تقْوى هذا الرَّجلِ وصِدْقِه؛ لأنَّه نطَقَ عن هدًى، واللهُ لا يُعْطي الهدَى مَن هو مُسرِفٌ كذَّابٌ[1].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٌ كَذَّابٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى عُلوِّ شأْنِ مُوسى عليه السَّلامُ، وأنَّ مَن اصطفاهُ اللهُ للنُّبوَّةِ لا يُمكِنُ أنْ يقَعَ منه إسرافٌ ولا كذِبٌ، وفيه تَعريضٌ بفِرْعونَ؛ إذ هو غايةُ الإسرافِ على نفْسِه بقتْلِ أبناءِ المؤمنينَ، وفي غايةِ الكذِبِ؛ إذ ادَّعى الإلهيَّةَ والرُّبوبيَّةَ، ومَن هذا شأْنُه لا يَهْديه اللهُ[2].

- والمسْرِفُ: مُتجاوزُ المعروفِ في شَيءٍ؛ قيل: المُرادُ هنا مُسرِفٌ في الكذِبِ؛ لأنَّ أعظَمَ الكذِبِ أنْ يكونَ على اللهِ. وإذا كان المرادُ الإسرافَ في الكذِبِ، تعيَّنَ أنَّ قولَه: ﴿كَذَّابٌ﴾ عطْفُ بَيانٍ وليس خبَرًا ثانيًا؛ إذ ليس ثَمَّةَ إسرافٌ هنا غيرَ إسرافِ الكذِبِ[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٠، ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

- فيه حُسنُ تَرتيبٍ، حيثُ ابتدَأَ بنُصْحِ فِرعونَ لأنَّه الذي بيَدِه الأمْرُ والنَّهيُ، وثنَّى بنَصيحةِ الحاضرينَ مِن قَومِه؛ تَحذيرًا لهم مِن مَصائبَ تُصيبُهم مِن جرَّاءِ امتثالِهم أمْرَ فِرْعونَ بقتْلِ مُوسى؛ فإنَّ ذلك يُهِمُّهم كما يُهِمُّ فِرْعونَ، ولا يَخْفى ما في نِدائهم بعُنوانِ أنَّهم قومُه مِن الاستصغاءِ لِنُصْحِه، وتَرقيقِ قُلوبِهم لِقَولِه[١].

- وابتدَأَ الموعظةَ بقولِه: ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فناداهمْ بالمُلْكِ الذي هو أعظَمُ مَراتبِ الدُّنيا، ونسَبَ ما يسُرُّهم مِن المُلكِ والظُّهورِ في الأرضِ إليهم خاصَّةً، وهذا خِطابٌ مِن جِهةِ شَهواتِهم، وفيه تَذكيرٌ بنِعمةِ اللهِ عليهم، وتَمهيدٌ لِتَخويفِهم مِن غضَبِ اللهِ، يعني: لا تَغُرَّنَّكم عظَمَتُكم ومُلْكُكم؛ فإنَّهما مُعرَّضانِ للزَّوالِ إنْ غضِبَ اللهُ عليكم[٢].

- و(مَن) في قولِه: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ عن كلِّ ناصرٍ؛ فالمعنَى: فلا نصْرَ لنا مِن بأْسِ اللهِ[٣].

- قولُه: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ لكونِ كلامِ فِرْعونَ صدَرَ مَصدرَ المقاطَعةِ لِكلامِ المؤمِنِ، جاء فِعلُ قَولِ فِرْعونَ مَفصولًا غيرَ مَعطوفٍ، وهي طريقةُ حِكايةِ المقاولاتِ والمحاوَرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ إضافةُ السَّبيلِ إلى الرَّشادِ معناه أي: ما أَهْدِيكم وأُشِيرُ عليكم إلَّا بعمَلٍ فيه رَشادٌ، وكأنَّه يُعرِّضُ بأنَّ كلامَ مُؤمنِهم سَفاهةُ رأْيٍ، وأتَى بـ(ما - وإلَّا) للحصْرِ والتَّأكيدِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٣).

الآيات (٢٠-٢٥)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿دَأۡبِ﴾: أي: عادةِ وشَأنِ، وأمْرِ، وفِعلِ، وأصلُ (دأب): يدُلُّ على ملازَمةٍ ودوامٍ، يُقالُ: دأبْتُ في الأمرِ دأبًا: إذا أدمنْتَ العملَ والتَّعبَ فيه[١].

﴿تُوَلُّونَ﴾: أي: تهرُبونَ، والتَّولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ[٢].

﴿مُدۡبِرِينَ﴾: أي: هارِبينَ، والإدبارُ: الذَّهابُ إلى جِهةِ الخَلفِ، وأصلُ (دبر): يدُلُّ على خِلافِ القُبُلِ[٣].

﴿مُّرۡتَابٌ﴾: أي: شاكٌّ، والرَّيبُ: الشَّكُّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، =

﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾: أي: عَظُمَ بُغضًا، والمَقْتُ: البُغضُ الشَّديدُ لِمنْ تراه تعاطى القَبيحَ[(١)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾

قَولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ فيه أوجُهٌ؛ **أحدُها**: أنَّه في مَحَلِّ نَصبٍ، بَدَلٌ مِنْ ﴿مَنْ﴾ في قَولِه: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾، وإنَّما جُمِع ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اعتِبارًا بمعنَى ﴿مَنْ﴾. **الثاني**: أنْ يكونَ مُبتدأً، خبَرُه ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾، ويكونُ فاعلُ ﴿كَبُرَ﴾ ضَميرًا عائدًا على جِدالِهم المفهومِ مِن قَولِه: ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾، والتَّقديرُ: كَبُرَ جِدالُهم مَقْتًا. **الثَّالِثُ**: أنْ يكونَ مُبتدأً، خبَرُه ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾، والعائِدُ من جُملةِ الخَبرِ على المبتَدأِ محذوفٌ، أي: على كُلِّ قلبِ مُتكبِّرٍ منهم، و﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ أيضًا، أي: الأمرُ كذلك. **الرَّابعُ**: أنْ يكونَ خبَرَ مبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: هم الذين. **الخامِسُ**: أنْ يكونَ مُبتدأً، وخبَرُه مَحذوفٌ، أي: مُعانِدون ونَحوُه. **السَّادِسُ**: أنْ يكونَ مَنصوبًا على المفعوليَّةِ بإضْمارِ (أعني). وقيل: غيرُ ذلك[(٢)].

= ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٧٨)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٠٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وقال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: يا قَومِ إنِّي أخافُ عليكم -إنْ قتَلْتُم موسى- يومًا مِثلَ أيَّامِ الأحزابِ الذين تحَزَّبوا على رُسُلِهم فأهلَكهم اللهُ؛ مِثلَ عادةِ قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ، والذين جاؤُوا بَعدَهم؛ حيثُ كَذَّبوا رسُلَهم، فأهلَكَهم اللهُ، وما يُريدُ اللهُ ظُلمًا لعِبادِه!

ويا قَومِ إنِّي أخافُ عليكم يومَ القِيامةِ؛ يومَ تَفِرُّون هارِبينَ مِن عَذابِ اللهِ، ما لكم مِنَ اللهِ مَن يَمنَعُكم مِن عَذابِه، ومَن يُضِلَّه اللهُ عن الحَقِّ فلا أحَدَ يَهْديه.

ولقدْ جاء يُوسُفُ إلى أسْلافِكم مِن قَبلِ موسى بالحُجَجِ الواضِحةِ، فما زِلتُم -تَبَعًا لأسلافِكم- في شَكٍّ مِمَّا جاءَكم به يوسُفُ، حتى إذا مات يوسُفُ قال أسلافُكم: لن يُرسِلَ اللهُ مِن بَعدِ يوسُفَ رَسولًا غيرَه، مثلَ ذلك الإضلالِ يُضِلُّ اللهُ مَن هو مُسرِفٌ على نَفسِه، شاكٌّ مُرتابٌ في الحَقِّ!

الذين يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ بغَيرِ دَليلٍ أتاهم، عَظُمَ بُغضُ اللهِ والمؤمِنينَ لهم، كذلك يَختِمُ اللهُ على كُلِّ قَلبِ مُتكَبِّرٍ عن الحَقِّ، جَبَّارٍ على الخَلقِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا المؤمِنَ لَمَّا رأى ما لَحِقَ فِرعَونَ مِن الخَوَرِ -أي: الضَّعْف- والخَوفِ، أتَى بنَوعٍ آخَرَ مِن التَّهديدِ، وخَوَّفَهم أنْ يُصيبَهم ما أصابَ الأُمَمَ السَّابِقةَ مِن استِئصالِ الهَلاكِ حين كَذَّبوا رسُلَهم، وقَوِيَت نَفْسُه حتَّى سَرَد عليه ما سَرَد، ولم

يَهَبْ فِرعَونَ[١].

وأيضًا لَمَّا نصَحَ المؤمنُ القومَ بقولِه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، وأثبَتَ أنَّ موسى عليه السَّلامُ نَبيٌّ صادِقٌ ثابتةٌ نُبوَّتُه، واجِبٌ اتِّباعُه، وما قصَّرَ في النُّصحِ، وما زاد فِرعونُ اللَّعينُ على ما بدَأَ أوَّلًا: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، فحينئذٍ أيِسَ المؤمِنُ واستشْعَرَ الخوفَ، وأيقَنَ أنَّ حُجَّةَ اللهِ لَزِمَتْهم؛ قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾؛ لأنَّه تعالى بعَثَ إليهم الرُّسلَ بالبيِّناتِ كرَسولِكم فلمْ يُؤمِنوا، فدَمَّرَهم اللهُ[٢].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ٣٠﴾.

أي: وقال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: يا قَومِ إنِّي أخافُ عليكم -إنْ قتَلْتُم موسى- يومًا يَحُلُّ فيه هلاكُكم مِثلَ أيَّامِ الأُمَمِ التي تحَزَّبتْ على رُسُلِها، واجتَمَعَتْ على تَكذيبِهم؛ فأهلَكَهم اللهُ تعالَى[٣].

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ٣١﴾.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

أي: مِثْلَ عادةِ قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ، والأُمَمِ الذين جاؤُوا بَعْدَهم، كقَومِ لُوطٍ وشُعَيبٍ؛ الذين لَزِموا تَكذيبَ رُسُلِهم، فأهلَكَهم اللهُ بعَذابِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٤).

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾.

أي: ولا يُريدُ اللهُ أيَّ ظُلمٍ لعِبادِه، وإنَّما أهلَكَ أحزابَ الكُفرِ مِن الأُمَمِ الماضيةِ؛ بسَبَبِ كُفرِهم به، ومُخالفتِهم أمْرَه، وتَكذيبِهم رُسُلَه؛ فأهلَكَهم بذُنوبِهم(١).

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۞ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥١، ٥٢].

وقال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا خَوَّفَهم أنْ يَحُلَّ بهم في الدُّنيا ما حَلَّ بالأحزابِ، خَوَّفَهم أمْرَ الآخِرةِ(٢).

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾.

أي: ويا قَومِ إنِّي أخافُ عليكم يومَ القِيامةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٥، ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٦، ٣١٩)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠، ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٦).

قال الرازي: (أجمع المفَسِّرون على أنَّ يومَ التَّنادِ يومُ القِيامةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٢).

وقال ابن عطية: (يَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ التَّذكيرَ بكلِّ نِداءٍ في القِيامةِ فيه مَشقَّةٌ على الكُفَّارِ =

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كانتْ عادةُ المتنادِينَ الإقبالَ؛ وصَفَ ذلك اليومَ بضِدِّ ذلك لشِدَّةِ الأهوالِ[(١)].

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾.

أي: يومَ تَفِرُّونَ هارِبينَ مِن عَذابِ اللهِ[(٢)].

﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾.

= والعُصاةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٨).

وقال ابن عاشور: (و﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ هو يومُ الحِسابِ والحَشرِ، سُمِّي يومَ التَّنادِ؛ لأنَّ الخلقَ يَتَنادونَ يومئِذٍ: فمِن مُسْتَشْفِعٍ ومِن مُتَضَرِّعٍ، ومِن مسلِّمٍ ومُهَنِّئٍ، ومِن مُوَبِّخٍ ومِن مُعتذِرٍ، ومِن آمِرٍ ومِن مُعلِنٍ بالطَّاعةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ [فصلت: ٤٧]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٥٠] ونحوَ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٦) بتصرُّف.

وقال الشوكاني: (المعنَى: يومَ يُنادي بعضُهم بعضًا، أو يُنادي أهلُ النَّارِ أهلَ الجنَّةِ، وأهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ، أو يُنادَى فيه بسعادَةِ السُّعداءِ، وشقاوةِ الأشقياءِ، أو يومَ يُنادَى فِيه كلُّ أُناسٍ بإمامِهم، ولا مانعَ مِن الحمْلِ على جميعِ هذه المعاني). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٣).

وقال ابنُ كثيرٍ بعدَ أنْ ذكَر عددًا مِن النِّداءاتِ يومَ القيامةِ: (اختار البغويُّ وغيرُه: أنَّه سُمِّي بذلك لمجموعِ ذلك، وهو قولٌ حسنٌ جيدٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٧١).

أي: ما لكم مِنَ اللهِ أيُّ مانعٍ يَمنَعُكم مِن عَذابِه[١].

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ [يونس: ٢٧].

وقال تعالَى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ * فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ [الطارق: ٩، ١٠].

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾.

أي: ومَن يَخذُلْه اللهُ عن الحَقِّ فلا أحَدَ يَهديه إليه[٢].

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ لَمَّا قال: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [غافر: ٣٣] ذكَرَ لهذا مَثَلًا، وهو أنَّ يُوسُفَ لَمَّا جاءهم بالبَيِّناتِ الباهِرةِ فأصَرُّوا على الشَّكِّ والشُّبهةِ، ولم يَنتَفِعوا بتلك الدَّلائِلِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ مَن أضَلَّه اللهُ فما له مِن هادٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٢).

وأيضًا لَمَّا كان حاصِلُ ما مضَى مِن حالِهم في أمْرِ مُوسى عليه السَّلامُ: أنَّه جاءَهم بالبَيِّناتِ فشَكُّوا فيها، وخَتَم بتَحذيرِهم مِن عَذابِ الدُّنيا والآخِرةِ؛ عَطَف عليه شَكَّ آبائِهم في مِثلِ ذلك[(١)].

وأيضًا لَمَّا تَوسَّمَ فيهم قِلَّةَ جَدوى النُّصحِ لهم، وأنَّهم مُصمِّمون على تَكذيبِ مُوسى؛ ارتَقى في مَوعظتِهم إلى اللَّومِ على ما مَضى، ولِتَذكيرِهم بأنَّهم مِن ذُرِّيَّةِ قَومٍ كذَّبوا يُوسُفَ لَمَّا جاءَهم بالبيِّناتِ؛ فتَكذيبُ المُرشِدين إلى الحقِّ شِنْشِنةٌ (عادةٌ وطبيعةٌ) مَعروفةٌ في أسلافِهم، فتكونُ سَجِيَّةً فيهم[(٢)].

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: قال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: ولقدْ جاء يُوسُفُ إلى أسلافِكم مِن قَبلِ موسى بالحُجَجِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على تَوحيدِ اللهِ، وصِدقِ نبُوَّتِه[(٣)].

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧).

قال ابنُ عاشور: (البَيِّناتُ: إخبارُه بما هو مَغيبٌ عنهم من أحوالِهم بطريقِ الوَحيِ في تعبيرِ الرُّؤى، وكذلك آيةُ العِصمةِ التي انفرد بها مِن بينهم، وشَهِدَت له بها امرأةُ العزيزِ، وشاهِدُ أهلِها، حتى قال المَلِكُ: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف: ٥٤]، فكانت دلائِلُ نُبُوَّةِ يُوسُفَ واضِحةً، ولكِنَّهم لم يَستخلِصوا منها استِدلالًا يَقتَفونَ به أثَرَه في صلاحِ آخِرتِهم، وحَرَصوا على الانتِفاعِ به في تدبيرِ أمورِ دُنياهم؛ فأودَعوه خزائِنَ أموالِهم، وتدبيرَ مملكتِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٩). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٣).

وقال ابن عطية: (البَيِّناتُ التي جاء بها يوسُفُ لم تُعَيَّنْ لنا حتى نَقِفَ على مُعجِزاتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣١).

أي: فما زِلتُم -تَبَعًا لأسلافِكم- تَشُكُّونَ فيما جاء به يوسُفُ مِن البَيِّناتِ، فلم تُؤمِنوا الإيمانَ الواجِبَ الخاليَ مِن الشَّكِّ(١).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾.

أي: حتَّى إذا مات يُوسُفُ قال أسلافُكم بالظَّنِّ الباطِلِ: لن يُرسِلَ اللهُ مِن بَعدِ يُوسُفَ رَسولًا غَيرَه(٢).

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾.

أي: قال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: كما أضَلَّكم اللهُ حِينَ لم تَقبَلوا ما جاءَكم به يُوسُفُ؛ لإسرافِكم وارتيابِكم، يُضِلُّ اللهُ كُلَّ مَن هو مُسرِفٌ على نَفسِه بالكُفرِ أو الظُّلمِ أو العِصيانِ، ذو شَكٍّ وريبةٍ واضطِرابٍ في شأنِ الحَقِّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٠).

قال البقاعيُّ: (هذا ليس إقرارًا منهم برِسالتِه، بل هو ضَمٌّ منهم إلى الشَّكِّ في رِسالتِه التَّكذيبَ برِسالةِ مَن بَعدَه، والحَجْرَ على المَلِكِ الأعظَمِ في عِبادِه وبلادِه، والإخبارَ عنه بما يُنافي كمالَه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٦٥).

وقال ابنُ عاشور: (أي: قال أسلافُكم في وَقتِ وفاة يُوسُفَ: لا يَبعَثُ اللهُ في المستقبَلِ أبدًا رَسولًا بعدَ يُوسُفَ، يعنون: أنَّا كُنَّا مُتردِّدين في الإيمانِ بيُوسُفَ، فقدِ استرَحْنا من التَرَدُّدِ؛ فإنَّه لا يَجيءُ مَن يدَّعي الرِّسالةَ عن اللهِ مِن بَعدِه، وهذا قَولٌ جرَى منهم على عادةِ المعانِدينَ والمقاوِمينَ لأهلِ الإصلاحِ والفَضلِ: أنْ يَعتَرِفوا بفَضلِهم بعد الموتِ تندُّمًا على ما فاتهم من خيرٍ كانوا يَدعُونَهم إليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٥-٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، =

كما قال تعالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال الله سُبحانَه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

﴿ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

أنَّه لَمَّا ظهَر ظُهورًا لا يحتَمِلُ شَكًّا بما أتَى به موسى عليه السَّلامُ مِن البَيِّنات: أنَّ شَكَّهم في رِسالةِ الماضي، وجَزْمَهم في الحُكمِ بنَفي رِسالةِ الآتي: أعظَمُ ضَلالٍ، وأنَّه مِن الجِدالِ الذي لا معنى له إلَّا صرْفُ المحِقِّ عَمَّا هو عليه مِن الحَقِّ إلى ما عليه المجادِلُ مِن الضَّلالِ؛ وَصَل بذلك قَولَه على سَبيلِ الاستِنتاجِ ذَمًّا لهم بعبارةٍ تَعُمُّ غيرَهم[1]:

﴿ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

أي: الذين[2] يُجادِلون بالباطِلِ في آياتِ اللهِ وحُجَجِه التي جاءَتْ بها الرُّسُلُ

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٧٩-٢٨٠).

استظهر ابنُ عاشورٍ أنَّ قولَه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ إلَى قولِه: ﴿جَبَّارٍ﴾. كُلُّه مِنْ كلامِ اللهِ تعالَى. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٦).

(٢) قيل: هذا وَصفٌ لِمن سَبَق ذِكرُهم في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ =

بغيرِ دَليلٍ عِندَهم مِنَ اللهِ[١]: عَظُمَ بُغضُ اللهِ والمؤمِنينَ لهم ولجِدالِهم[٢].

﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾.

أي: كما طبَع اللهُ على قُلوبِ هؤلاءِ المجادلينَ[٣] يَختِمُ اللهُ على قَلبِ كُلِّ مُتكَبِّرٍ عن الحَقِّ، مُتعاظِمٍ على الخَلقِ، مُبالِغٍ في الظُّلمِ والعُدوانِ[٤].

= مُّرۡتَابٌ ﴾. وممَّن قال بهذا: ابن جرير، والسمرقندي، والقرطبي، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

وقيل: الجُملةُ هنا مُنفَصِلةٌ عمَّا قَبلَها، وليستْ ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ بدلًا مِن (مَنْ) في قَولِه: ﴿مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴾. ومِمَّن قال بهذا القول: ابن تَيميَّة. يُنظر: ((الاستقامة)) (١/ ١٩).

(١) عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما قال: (كلُّ سُلطانٍ في القرآنِ فهو حُجَّةٌ). رواه البخاري في ((صَحيحِه)) مُعَلَّقًا (٦/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٢، ٣٢٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٥)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ١٨، ٢١، ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٦-٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٣، ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٨٥-٢٨٧).

قال القُرطبي: (قيل: هذا مِن كَلامِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ. وقيل: ابتداءُ خِطابٍ مِنَ الله تعالى). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٤).

قال ابن كثير: (مَن كانت هذه صفتَه، يطبعُ الله على قلبه، فلا يعرفُ بعدَ ذلك معروفًا، ولا ينكرُ منكرًا؛ ولهذا قال: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ ﴾ أي: على اتباعِ الحقِّ ﴿جَبَّارٖ ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٤، ١٤٥).

قال الفرَّاء: (المعنى في تقدُّمِ القَلبِ وتأخُّرِه واحِدٌ، واللهُ أعلم. قال: سَمِعتُ بعضَ العَرَبِ: يُرَجِّلُ شَعْرَه يومَ كُلِّ جُمعةٍ، يريدُ: كُلَّ يومِ جُمُعةٍ، والمعنى واحِدٌ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٩). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ كرَّر ذلك الرَّجُلُ الذي آمَن دَعوةَ قَومِه، غيرَ آيِسٍ مِن هِدايتِهم، كما هي حالةُ الدُّعاةِ إلى اللهِ تعالَى؛ لا يزالون يَدعُونَ إلى رَبِّهم، ولا يَرُدُّهم عن ذلك رادٌّ، ولا يَثنِيهم عُتُوُّ مَن دَعَوه عن تَكرارِ الدَّعوةِ[(١)].

٢- قولُه: ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۞ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ فيه تحذيرُ اللَّاحِقِ أنْ يُصيبَه ما أصاب السابقَ، ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالَى سُنَّتُه في خَلْقِه واحدةٌ، هو لا يُعَذِّبُ هؤلاء لأنَّه يَكرهُ أشخاصَهم! بلْ يُعَذِّبُ هؤلاء لأنَّه يَكْرَهُ عمَلَهم، فإذا وُجِدَ عمَلُهم في آخَرينَ؛ فالكراهةُ حاصلةٌ، وهو كقولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، وحَذَّرَ شُعيبٌ قومَه أنْ يُصيبَهم ما أصاب مَن قَبْلَهم؛ فالحاصلُ أنَّ الأممَ لا بُدَّ أنْ يَتَّعِظَ اللاحِقُ بالسابقِ بناءً على أنَّ سُنَّةَ اللهِ واحدةٌ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يكونَ لديه عِلْمٌ بما سَبَقَ؛ فإنَّ التاريخَ عِبَرٌ سواءٌ في هذه المسألةِ الكبيرةِ أو في المسائلِ الصَّغيرةِ؛ اقرأِ التاريخَ يَتبيَّنْ لك ما قَدَّرَه اللهُ على العِبادِ، وأنَّ سُنَّةَ اللهِ سُبحانَه

= ويُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٢٢٣).

وقال ابن عطية: (ويتَّجِهُ أن يكونَ المرادُ عمومَ قلبِ المتكبرِ الجبَّارِ بالطَّبْعِ، أي: لا ذرةَ فيه مِن إيمانٍ ولا مقاربة، فهي عبارةٌ عن شدةِ إظلامِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٩).

ومِمَّن رجح أن المراد: الطبع على عموم القلوبِ لكلِّ متكبرٍ جبارٍ، وليس عمومَ القلبِ الواحدِ: القرطبي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٩٦-٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٦٣).

وتعالَى في السَّابِقينَ ستكونُ في اللَّاحِقينَ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أنَّ ما يَكرهُه اللهُ فإنَّ المؤمنينَ يَكرهونَه، وهذه علامةُ الإيمانِ، فلتُؤخَذْ قياسًا وميزانَ عَدْلٍ؛ متَى رأَى الإنسانُ مِن نفسِه أنَّه يَكرَهُ ما يَكرهُه اللهُ، ويُحِبُّ ما يُحِبُّه اللهُ فذلك الإيمانُ، دلَّ عليه هذه الآيةُ وغيرُها مِن الآياتِ والأحاديثِ، ودلَّ عليها العقلُ أيضًا؛ لأنَّ مِن كَمالِ المحبةِ محبَّةَ ما يُحِبُّه المحبوبُ، وكراهةَ ما يَكرهُه[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إلى قولِه سبحانَه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ أنَّه لا يجوزُ أنْ يكونَ الظُّلمُ -المنفيُّ عنِ اللهِ- شيئًا ممتنِعًا غيرَ مَقدورٍ عليه! يُبَيِّنُ هذا أنَّ ذلك العِقابَ لم يكنْ ظلمًا! لاستحقاقِهم ذلك، وأنَّ اللهَ لا يريدُ الظلمَ، والأمرُ الذي لا يُمكِنُ القُدرةُ عليه لا يَصْلُحُ أنْ يُمْدَحَ الممدوحُ بعدمِ إرادتِه! وإنَّما يكونُ المدحُ بتركِ الأفعالِ إذا كان الممدوحُ قادرًا عليها، فعُلِمَ أنَّ اللهَ قادرٌ على ما نَزَّه نَفْسَه عنه مِن الظلمِ، وأنَّه لا يَفعَلُه، وبذلك يَصِحُّ قولُه في الحديثِ القدسيِّ: ((إني حَرَّمْتُ الظُّلمَ على نفْسِي))[٣]، وأنَّ التحريمَ هو المنعُ؛ وهذا لا يجوزُ أنْ يكونَ فيما هو ممتنِعٌ لذاتِه[٤].

٢- في قَولِه: ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۞ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أنَّ أخبارَ الأنبياءِ مِن عَجائبَ وآياتٍ كانتْ مُنتَشِرةً مُتواتِرةً في العالَمِ، وقد عَلِمَ النَّاسُ أنَّها آياتٌ للأنبياءِ وعُقوبةٌ لمُكذِّبيهم؛ ولهذا كانوا يَذكُرونَها عِندَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٢٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٤٤).

نَظائرِها للاعتبارِ[١].

٣- في قَولِه: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أنَّ قومَ نوحٍ وعادٍ وثمودَ كانوا أوَّلَ الأحزابِ[٢].

٤- قال اللهُ تعالى حِكايةً لِقَولِ مُؤمنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ وهذا يَقْتضي أنَّ القِبطَ كانوا على عِلمٍ بما حَلَّ بقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ؛ فأمَّا قَومُ نُوحٍ فكان طُوفانُهم مَشهورًا، وأمَّا عادٌ وثمودُ فلِقُربِ بلادِهم مِن البِلادِ المِصريَّةِ، وكان عظيمًا لا يَخفَى على مُجاوِريهم[٣].

٥- في قَولِه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أنَّ اللهَ يَتَّصِفُ بالصِّفاتِ المنفيَّةِ التي يُعَبِّرُ عنها بَعضُ العُلَماءِ بالصِّفاتِ السَّلبيَّةِ؛ لأنَّ النَّفيَ سَلْبٌ[٤].

٦- قولُه تعالَى حِكايةً لِقَولِ مُؤمنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ زادَ مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ في الوَعظِ والتَّخويفِ، وأفصَحَ عن إيمانِه؛ إمَّا مُستَسلِمًا مُوَطِّنًا نَفسَه على القَتلِ، أو واثِقًا بأنَّهم لا يَقصِدونَه بسُوءٍ، وقدْ وقاه اللهُ شَرَّهم بقَولِه الحَقِّ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾[٥] [غافر: ٤٥].

٧- في قَولِه: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ أنَّ يومَ القِيامةِ له أحوالٌ، وقدْ قالَ اللهُ تعالَى في

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٦٤).
واللهُ تعالَى يُمدَحُ بالنَّفيِ إذا تَضَمَّن أمرًا وُجوديًّا، كمدحِه بنَفْيِ الظُّلمِ، المتضمِّنِ كمالَ عدلِه وعِلْمِه وغِناه. يُنظر: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠).

سورةِ (طه): ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ [طه: ١٠٨]، وهنا يَذكُرُ أنَّه يومُ تَنَادٍ -والنِّداءُ هو الصَّوتُ الرَّفيعُ- وعلى هذا فيكونُ الجَمعُ بينَ هذه الآيةِ وبينَ قَولِه: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ هو أنَّ يومَ القيامةِ له أحوالٌ؛ لأنَّ يومَ القيامةِ مِقدارُه خمسون ألفَ سَنَةٍ؛ فلا بُدَّ أنْ تتغيَّرَ أحوالُ النَّاسِ[١].

٨- في قَولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ الرَّدُّ على المعتزلةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه؛ يَهدي نفْسَه ويُضِلُّ نَفسَه، ولا عَلاقةَ لِمَشيئةِ اللهِ تعالى في فِعلِه[٢]!

٩- في قَولِه: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أنَّ مَلِكَ مِصرَ وقَومَه زمَنَ يُوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانوا كُفَّارًا[٣].

١٠- في قَولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾ أنَّ أولئك الَّذين بُعِثَ إليهم يُوسُفُ كانوا يُقِرُّونَ باللهِ[٤]، ومع ذلك لم يَنْفَعْهم إقرارُهم باللهِ؛ لأنَّ الإيمانَ بوُجودِ اللهِ لا يَكْفي في التَّوحيدِ والخَلاصِ مِن عَذابِ اللهِ[٥].

١١- في قَولِه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ أنَّ إضلالَ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يكونُ إلَّا في مَحَلِّ مَن هو أهلٌ للإضلالِ[٦].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ أنَّ مَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٨٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٢٨٣).

لَزِمَ حَدَّه، وأيقَنَ بما يجبُ الإيقانُ به، فإنَّه أبعدُ النَّاسِ عن الإضلالِ؛ يُؤخَذُ هذا مِن المفهوم، فإذا كان اللهُ يُضِلُّ مَن هو مُسرِفٌ مرتابٌ فإنَّه يَهدي مَن لَزِمَ حَدَّه، وأيقَنَ في أمْرِه وآمَنَ بذلك(١).

١٣- قال تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾، وكذلك قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾، فذكَرَ ضَلالَ الأوَّلِ، وذكَرَ تَجبُّرَ الثاني؛ وذلك لأنَّ الأوَّلَ مُرْتابٌ، ففاتَه العِلمُ حيثُ ابْتَغى الهُدى في غَيرِه، والثانيَ جبَّارٌ عمِلَ بخِلافِ ما فيه، فقصَمَه اللهُ، وهذان الوَصْفانِ يَجمَعانِ العِلمَ والعَملَ. وفي ذلك بَيانُ أنَّ كلَّ عِلمٍ دِينٍ لا يُطلَبُ منَ القُرآنِ فهو ضَلالٌ، كفاسِدِ كَلامِ الفَلاسِفةِ والمُتكَلِّمةِ والمتَصوِّفةِ والمُتفَقِّهةِ، وكلُّ عاقلٍ يَترُكُ كتابَ اللهِ مُريدًا للعُلوِّ في الأرضِ والفسادِ؛ فإنَّ اللهَ يَقصِمُه، فالضَّالُّ لم يَحصُلْ له المَطلوبُ، بل يُعذَّبُ بالعمَلِ الَّذي لا فائدةَ فيه، والجبَّارُ حصَّلَ لذَّةً فقصَمَه اللهُ عليها، فهذا عَذابٌ بإزاءِ لذَّاتِه الَّتي طلَبَها بالباطِلِ، وذلك يُعذَّبُ بسَعيِه الباطِلِ الَّذي لم يُفِدْه(٢).

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ذَمُّه لهم بأنَّهم يُجادِلونَ بغَيرِ سُلطانٍ: فيه دَلالةٌ على أنَّ الجِدالَ بالحُجَّةِ حَسَنٌ وحَقٌّ، وفيه إبطالٌ للتَّقليدِ(٣).

١٥- قال اللهُ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لا يَجوزُ لأحَدٍ أن يُعارِضَ كِتابَ اللهِ بغيرِ كِتابٍ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٢١)

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٣).

فمَن عارَضَ كِتابَ اللهِ وجادَلَ فيه بما يُسَمِّيه مَعقولاتٍ وبَراهينَ وأقيسةً، أو ما يُسَمِّيه مُكاشَفاتٍ ومَواجيدَ وأذواقًا، مِن غيرِ أنْ يأتيَ على ما يقولُه بكِتابٍ مُنَزَّلٍ- فقدْ جادَلَ في آياتِ اللهِ بغيرِ سُلطانٍ. ومُعارضةُ القُرآنِ بمَعقولٍ أو قِياسٍ: هذا لم يكُنْ يَستَحِلُّه أحَدٌ مِن السَّلَفِ، وإنَّما ابتُدِعَ ذلك لَمَّا ظهَرَت الجَهميَّةُ والمُعتَزِلةُ ونَحوُهم ممَّن بَنَوا أُصولَ دِينِهم على ما سَمَّوه مَعقولًا، ورَدُّوا القُرآنَ إليه، وقالوا: إذا تعارَضَ العَقلُ والشَّرعُ إمَّا أنْ يُفَوَّضَ أو يُتأَوَّلَ؛ فهؤلاء مِن أعظَمِ المجادِلينَ في آياتِ اللهِ بغيرِ سُلطانٍ أتاهم[1].

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ مِن أعظَمِ الجِدالِ في آياتِ اللهِ جِدالُ مَن يُعارِضُ النَّقلَ بالعَقلِ، ثمَّ يُقَدِّمُه عليه؛ فإنَّ جِدالَه يَتضَمَّنُ أربَعةَ مَقاماتٍ:

أحدُها: أنَّه يُبيِّنُ أنَّ الأدِلَّةَ النَّقليَّةَ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ لا تُفيدُ عِلمًا ولا يقينًا.

الثَّاني: أنَّ ظاهِرَها يدُلُّ على الباطِلِ والتَّشبيهِ والتَّمثيلِ.

الثَّالِثُ: أنَّ صَريحَ العَقلِ يُخالِفُها.

الرَّابعُ: أنَّه يتعَيَّنُ تقديمُه عليها، ولا يَصِلُ إلى هذه المقاماتِ إلَّا بأعظَمِ الجِدالِ.

فهو مُرادٌ بهذه الآياتِ قَطعًا، وأعمالُهم شاهِدةٌ عليهم لِمَن لم يَطَّلِعْ على حَقيقةِ أقوالِهم، وهي التكَبُّرُ والتجَبُّرُ، والفَرَحُ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ، والمرَحُ، وطَلَبُ العُلُوِّ في الأرضِ والفَسادِ، ولا تَجِدُ من يُعارِضُ الوَحيَ بالعَقلِ ويُقَدِّمُه عليه إلَّا بهذه المنزلةِ؛ فهذه عُلومُهم وعقائِدُهم، وهذه إرادتُهم وأعمالُهم[2].

---

(١) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٢٢-٢٣).

(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١١٣٠-١١٣١).

١٧- في قَولِه تعالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أنَّه ليس لأحَدٍ مِن خَلْقِ اللهِ كائنًا مَن كان أنْ يُبطِلَ قَولًا، أو يُحَرِّمَ فِعلًا إلَّا بسُلطانِ الحُجَّةِ، وإلَّا كان ممَّن قال اللهُ فيه ذلك[١].

١٨- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ ﴾، أي: بغيرِ حُجَّةٍ وبُرهانٍ، وهذا وَصفٌ لازِمٌ لكُلِّ مَن جادَلَ في آياتِ اللهِ؛ فإنَّه مِن المُحالِ أنْ يُجادِلَ بسُلطانٍ؛ لأنَّ الحَقَّ لا يُعارِضُه مُعارِضٌ، فلا يُمكِنُ أن يُعارَضَ بدَليلٍ شَرعيٍّ أو عقليٍّ أصلًا[٢]؛ فقَولُه: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ فيه أنَّه لا سُلطانَ لكلِّ إنسانٍ جادَلَ لإدحاضِ الحَقِّ وإظهارِ الباطِلِ، يُؤخذُ مِن قَولِه: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾؛ فهذا الوَصفُ وَصفٌ لبيانِ الواقِعِ، وليس وَصفًا مُقَيِّدًا، والفَرقُ أنَّنا لو قُلْنا: إنَّه وَصفٌ مُقَيِّدٌ صارَ الذين يُجادِلون في آياتِ اللهِ لإبطالِها: أحيانًا يكونُ معهم سُلطانٌ، وأحيانًا لا يكونُ معهم سُلطانٌ! والواقِعُ أنَّه ليس لهم سُلطانٌ، والقَيدُ المُبَيِّنُ للواقِعِ ليس له مَفهومٌ، وهذا آتٍ في القُرآنِ كَثيرًا، وإنَّما المَقصودُ به -أي: بالقَيدِ المُبَيِّنِ للواقِعِ- الاستِدلالُ، يعني: فكأنَّه تعليلٌ للمَوصوفِ[٣].

١٩- قَولُه تعالَى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فيه إثباتُ المَقْتِ للهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه يَتفاضَلُ، فيكونُ مَقْتُه على شَخصٍ أو طائفةٍ أكبرَ مِن مَقْتِه على شَخصٍ أو طائفةٍ أُخرَى[٤].

٢٠- في قَولِه تعالَى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ ﴾ إثباتُ العِنْدِيَّةِ للهِ تعالَى، ثمَّ العِنْدِيَّةُ نوعانِ: عِندِيَّةُ وَصفٍ، وعِندِيَّةُ قُرْبٍ؛ فقَولُ اللهِ تبارَكَ وتعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩١).

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] هذه عِنْديَّة قُربٍ، وقولُه هنا: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ عِنديَّةُ وَصفٍ؛ لأنَّ المَقْتَ ليس شَيئًا مُنفَصِلًا بائنًا عن اللهِ حتى يَكونَ عِنديَّةَ قُرْبٍ، بل هذا عِنديَّةُ وَصفٍ، كما يُقالُ: فلانٌ عندي عزيزٌ، أي: إنَّ عِزَّتَه قائمةٌ به، فهذه عِنديَّةُ وصفٍ، لا قُربٍ[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ لَمَّا كان هذا تَكملةً لكلامِ الذي آمَنَ، ولم يكُنْ فيه تَعريجٌ على مُحاوَرةِ فِرعونَ على قولِه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ...﴾ [غافر: ٢٩] إلخ، وكان الَّذي آمَنَ قد جعَلَ كلامَ فِرعونَ في البَينِ، واسترْسَلَ يُكمِلُ مَقالَتَه؛ عُطِفَ فِعلُ قولِه بـ(الواوِ)؛ لِيَتَّصِلَ كلامُه بالكَلامِ الذي قبْلَه، ولئلَّا يُتوهَّمَ أنَّه قَصَدَ به مُراجعةَ فِرعونَ، ولكنَّه قصَدَ إكمالَ خِطابِه، وعُبِّرَ عنه بـ﴿ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾؛ لأنَّه قد عُرِفَ بمَضمونِ الصِّلةِ بعْدَ ما تقدَّمَ[٢].

- وإعادَتُه نِداءَ قَومِه بقولِه: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ تأْكيدٌ لِما قصَدَه مِن النِّداءِ الأوَّلِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يومُ الأحزابِ مُرادٌ به الجِنسُ لا يومٌ مُعيَّنٌ؛ بقَرينةِ إضافتِه إلى جمْعٍ أزمانُهُم مُتباعِدةٌ؛ فالتَّقديرُ: مِثلَ أيَّامِ الأحزابِ؛ فإفرادُ (يوم) للإيجازِ؛ لأنَّه لَمَّا أضافَه إلى الأحزابِ، وفسَّرَهم بقَومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، ومعلومٌ أنَّ كلَّ حِزبٍ كان له يَومُ دَمارٍ؛ اقتَصَرَ على الواحِدِ مِن الجمْعِ؛ لأنَّ المُضافَ إليه أغْنى عن ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٣، ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير أبي =

وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه لَمَّا كان أقَلُّ ما يُخشَى يَكفي العاقِلَ، وكانتْ قُدرةُ اللهِ سُبحانَه عليهم كُلِّهم على حَدٍّ سَواءٍ لا تفاوُتَ فيها، فكان هلاكُهم كُلِّهم كهَلاكِ نَفْسٍ واحِدةٍ- أفردَ فقال: ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾، مع أنَّ إفرادَه أروعُ وأقوَى في التَّخويفِ وأفظَعُ؛ للإشارةِ إلى قُوَّةِ اللهِ تعالَى، وأنَّه قادِرٌ على إهلاكِهم في أقَلِّ زَمانٍ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾

- لَمَّا كان قولُه: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ بَيانًا لقولِه: ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾، كان ما يُضافانِ إليه مُتَّحِدًا لا مَحالةَ، فصارَ الأحزابُ والدَّأْبُ في معنًى واحِدٍ، وإنَّما يتِمُّ ذلك بتَقديرِ مُضافٍ مُتَّحِدٍ فيهما؛ فالتَّقديرُ: مِثلَ يومِ جَزاءِ الأحزابِ، مِثلَ يومِ جَزاءِ دَأْبِ قومِ نُوحٍ وعادٍ وثمودَ، أي: جَزاءِ عَمَلِهم[٢].

- قَولُه: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ لَمَّا كان هؤلاء أقوَى الأُمَمِ اكتفَى بهم، وأجمَلَ مَن بَعدَهم[٣].

- وجُملةُ ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ مُعترِضةٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، وهي اعتراضٌ بيْن كلامَيه المُتعاطفَينِ، أي: أخافُ عليكم جَزاءً عادلًا مِن اللهِ، وهو جَزاءُ الإشراكِ[٤].

- قَولُه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فيه مُبالَغةٌ في نَفيِ الظُّلمِ؛ حيثُ عَلَّقَه بالإرادةِ،

= حيان)) (٩/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٩-٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٥).

فإذا نفاه عن الإرادةِ كان نفيُه عن الوُقوعِ أَوْلَى وأَحْرَى[١].

- قولُه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ الظُّلمُ يُطلَقُ على الشِّركِ، ويُطلَقُ على المُعامَلةِ بغيرِ الحقِّ، وقدْ جمَع قولُه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ نفْيَ الظُّلمِ بمَعنَيَيهِ على طَريقةِ استِعمالِ المشترَكِ في مَعنَيَيهِ. وفيه تَقديمُ اسمِ الجَلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ على الخبَرِ الفِعليِّ ﴿يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾؛ لإفادةِ قَصرِ مَدلولِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه، وإذ كان المُسنَدُ واقعًا في سِياقِ النَّفيِ، فالمعنى: قَصْرُ نفْيِ إرادةِ الظُّلمِ على اللهِ تعالى قصْرَ قلْبٍ[٢]، أي: اللهُ لا يُريدُ ظُلْمًا للعِبادِ، بلْ غيرُه يُريدونه لهم، وهم قادةُ الشِّركِ وأئمَّتُه؛ إذ يَدْعُونهم إليه، ويَزْعُمون أنَّ اللهَ أمَرَهم به؛ قال تعالَى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]؛ هذا على المعنى الأوَّلِ للظُّلمِ، وأمَّا على المعنى الثَّاني، فالمعنى: ما اللهُ يُريدُ أنْ يَظلِمَ عِبادَه، ولكنَّهم يَظلِمون أنفُسَهم باتِّباعِ أئمَّتِهم على غيرِ بَصيرةٍ؛ فلمْ يَخرُجْ تَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعليِّ في سِياقِ النَّفيِ في هذه الآيةِ عن مَهْيَعِ[٣] استِعمالِه في إفادةِ قَصرِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ أعقَبَ تَخويفَهم بعِقابِ الدُّنيا الذي حَلَّ مِثلُه بقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثمودَ والَّذين مِن بعْدِهم؛ بأنْ خوَّفَهم وأنْذَرَهم عذابَ الآخِرةِ، عاطِفًا جُملتَه على جُملةِ عذابِ الدُّنيا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٧).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٢٨).

(٣) المهيع: الطَّريقُ الواسِعُ الواضِحُ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٧٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٥، ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٣٦).

- وأقْحَمَ بيْن حرْفِ العَطْفِ والمعطوفِ نِداءَ قَومِه ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾؛ تأْكيدًا لِما قصَدَه مِن النِّداءِ الأوَّلِ[١].

- ومِن بَديعِ البَلاغةِ: ذِكرُ وَصفِ ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ لليومِ في هذا المقامِ؛ لِيُذكِّرَهم أنَّه في مَوقفِه بيْنهم يُناديهم بـ(يا قوم) ناصِحًا، ومُريدًا خَلاصَهم مِن كلِّ نِداءٍ مُفزِعٍ يومَ القِيامةِ، وتأْهِيلَهم لكُلِّ نِداءٍ سارٍّ فيه[٢].

- وعلى قِراءةِ ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ بدُونِ ياءٍ في الوصلِ والوقفِ، وهو غيرُ مُنوَّنٍ، ولكنْ عُومِلَ مُعامَلةَ المُنوَّنِ؛ فهو لِقَصْدِ الرِّعايةِ على الفواصلِ. وقُرِئَ ﴿يَوْمَ التَّنَادِي﴾ بإثْباتِ الياءِ على الأصْلِ[٣]؛ اعتبارًا بأنَّ الفاصلةَ هي قولُه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾

- (مِن) الدَّاخلةُ على ﴿عَاصِمٖ﴾ صِلةٌ لِتَأكيدِ النَّفيِ[٥].

- وجُملةُ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾؛ لِتَضمُّنِها معنى: إنِّي أرْشَدْتُكم إلى الحَذَرِ مِن يومِ التَّنادي. وفي الكلامِ إيجازٌ بحَذْفِ جُمَلٍ تَدلُّ عليها الجُملةُ المعطوفةُ، والتَّقديرُ: هذا إرشادٌ لكمْ؛ فإنْ هَداكم اللهُ عمِلْتُم به، وإنْ أعرَضْتُم عنه فذلك لأنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) قرأ ﴿التَّنَادِي﴾ بإثباتِ الياءِ: ابنُ كثير وَيَعقوبُ، وأثبتَهما فِي الوصلِ: ورش وَابْن وردان، وقرأ الباقون بحذْفها ﴿ٱلتَّنَادِ﴾. يُنظر: ((تحبير التيسير)) لابن الجزري (ص: ٥٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٦، ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٣٧).

أضَلَّكم، ومَن يُضلِلِ اللهُ فما له مِن هادٍ، وفي هذه الجُملةِ معنَى التَّذييلِ[١].

- والمرادُ مِن قولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ العمومُ الشَّاملُ لكلِّ مَن حرَمَه اللهُ التَّوفيقَ. وفيه تَعريضٌ بتَوقُّعِه أنْ يكونَ فِرعونُ وقومُه مِن جُملةِ هذا العُمومِ، وآثَرَ لهم هذا هنا دونَ أنْ يقولَ: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]؛ لأنَّه أحسَّ منهم الإعراضَ، ولمْ يَتوسَّمْ فيهم مَخائلَ الانتفاعِ بنُصْحِه ومَوعظتِه[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ تَوبيخٌ مُوجَّهٌ لهم مِن المؤمِنِ؛ بأنَّ يُوسفَ عليه السَّلامُ أتاكمْ بالمُعجِزاتِ فشَكَكْتُم فيها، ولم تَزالوا شاكِّينَ كافرينَ...[٣].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (قدْ) ولامِ القسَمِ لِتَحقيقِه؛ لأنَّهم مَظِنَّةُ أنْ يُنكِروه لِبُعدِ عَهْدِهم به[٤].

- قولُه: ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾ عُدِّيَ فِعلُ ﴿جَآءَكُم﴾ إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ، وأُسنِدَ ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ﴾ و﴿قُلۡتُمۡ﴾ إلى ضَميرِهم أيضًا، وهمْ ما كانوا مَوجودينَ حِينئذٍ؛ قصْدًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٨).

لِحَمْلِ تَبِعةِ أسلافِهم عليهم، وتَسجيلًا عليهم بأنَّ التَّكذيبَ للنَّاصحينَ، واضطرابَ عُقولِهم في الانتفاعِ بدَلائلِ الصِّدقِ؛ قد وَرِثوه عن أسلافِهم في جِبلَّتِهم، وتَقرَّرَ في نُفوسِهم، فانتقالُه إليهم جِيلًا بعْدَ جِيلٍ[١].

- وفي قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ كأنَّه عبَّرَ بالهَلاكِ؛ إيهامًا لهم أنَّه غيرُ مُعظِّمٍ له، وأنَّه إنَّما يقولُ ما يُشعِرُ بالتَّعظيمِ؛ لأجْلِ مَحْضِ النَّصيحةِ والنَّظرِ في العاقبةِ[٢].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ إلى قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ مِن كَلامِ اللهِ تعالى -على قولٍ- مُعترِضٌ بيْن كَلامِ المؤمنِ وكلامِ فِرعونَ؛ فإنَّ هذا مِن المعاني الإسلاميَّةِ، قُصِدَ منه العِبرةُ بحالِ المُكذِّبينَ بمُوسى تَعريضًا بمُشْركي قُريشٍ، أي: كضَلالِ قَومِ فِرعونَ يُضِلُّ اللهُ مَن هو مُسرِفٌ مُرتابٌ أمْثالُكم، فكذلك يكونُ جَزاؤُكم[٣].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ إلى الضَّلالِ المأْخوذِ مِن قولِه: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾، أي: مِثلَ ذلك الضَّلالِ يُضِلُّ اللهُ المُسرِفين المُرتابين، أي: أنَّ ضَلالَ المُشرِكين في تَكذيبِهم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِثلُ ضَلالِ قَومِ فِرعونَ في تَكذيبِهم مُوسى عليه السَّلامُ[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٤٢).

- قولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ﴾ فيه اختِيارُ التعبيرِ بالمضارِعِ ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾؛ لإفادةِ تَجدُّدِ مُجادلَتِهم وتَكرُّرِها، وأنَّهم لا يَنفَكُّون عنها، وهذا صَريحٌ في ذَمِّهم، وكِنايةٌ عن ذَمِّ جِدالِهم الذي أوجَبَ ضَلالَهم. وفي الموصوليَّةِ ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ...﴾ إيماءٌ إلى عِلَّةِ إضلالِهم، وهو تَكرُّرُ مُجادلَتِهم قَصْدًا للباطِلِ[(١)].

- وهذه الصِّفةُ ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ﴾ مَوجودةٌ في فِرعونَ وقومِه، وقد عدَلَ الواعظُ عن مُخاطَبتِهم إلى الاسمِ الغائِبِ؛ لِحُسْنِ مُحاوَرتِه لهم، واستِجلابِ قُلوبِهم، وأبرَزَ ذلك في صُورةٍ تُذكِّرُهم، فلم يَخُصَّهم بالخِطابِ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ خبَرٌ، مِن بابِ الإخبارِ بالإنشاءِ، وهي إنشاءُ ذَمِّ جِدالِهم المقصودِ منه كَمُّ (أي: تَغطيةُ وسَدُّ) فَمِ الحقِّ، أي: كبُرَ جِدالُهم مَقتًا عندَ اللهِ، وفي هذا تَفظيعٌ صَريحٌ لِجِدالِهم بعْدَ أنِ استُفيدَ مِن صِلَةِ الموصولِ أنَّ جِدالَهم هو سبَبُ إضلالِهم ذلك الإضلالَ المَكينَ؛ فحصَلَ بهذا الاستِئنافِ تَقريرُ فَظاعةِ جِدالِهم بطريقَيِ الكِنايةِ والتَّصريحِ[(٣)].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ قيل: لأنَّ كونَه مقْتًا عِندَ اللهِ لا يَحصُلُ في عِلمِ الناسِ إلَّا بالخبَرِ، فزِيدَ الخبَرُ تأْييدًا بالمُشاهَدةِ؛ فإنَّ الذين آمَنوا -على قِلَّتِهم يَومئذٍ- يَظهَرُ بيْنَهم بُغضُ مُجادَلةِ المشركينَ. والأظهرُ: أنَّ اللهَ أرادَ التَّنويهَ بالمؤمنينَ، ولم يُرِدْ إقْناعَ المشركينَ؛ فإنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٨٥).

لا يَعْبَؤون ببُغضِ المؤمنِينَ، ولا يُصدِّقون ببُغضِ اللهِ إيَّاهم؛ فالمقصودُ الثَّناءُ على المؤمنينَ بأنَّهم يَكرَهون الباطِلَ، مع الإشارةِ إلى تَبْجيلِ مَكانتِهم بأنْ ضُمَّتْ عِنديَّتُهم إلى عِنديَّةِ اللهِ تعالى[١].

- وفي إسنادِ كَراهيةِ الجِدالِ في آياتِ اللهِ بغيرِ سُلطانٍ في قولِه: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للمُؤمنِينَ: تَلقينٌ للمُؤمنِينَ بالإعراضِ عن مُجادَلةِ المشركينَ، على نحْوِ ما في قولِه تعالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾[٢] [القصص: ٥٥].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ استِئنافٌ للدَّلالةِ على المُوجِبِ لِجدالِهم[٣].

- وقُرِئَ ﴿قَلْبٍ﴾ بالتَّنوينِ[٤] على وَصْفِه بالتَّكبُّرِ والتَّجبُّرِ؛ لأنَّه مَركَزُهما ومَنبَعُهما، كما تقولُ: رأَتِ العينُ، وسمِعَت الأُذُنُ[٥].

- والمُتكبِّرُ: ذو الكِبْرِ المبالَغِ فيه؛ ولذلك عُبِّرَ بصِيغةِ التَّكلُّفِ (مُتفعِّل)[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٧).

(٤) قرأ أبو عَمرو وابنُ ذَكوان بالتنوينِ، والباقون بدون تَنوينٍ. يُنظر: ((الإقناع في القراءات السبع)) لابن البَاذِش (ص: ٣٧١)، ((تحبير التيسير في القراءات العشر)) لابن الجزري (ص: ٥٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٤).

الآيات (٣٦-٤٠)

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَرْحًا﴾: أي: بِناءً وقَصرًا عاليًا، وأصلُ (صرح): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبُروزِه[١].

﴿تَبَابٍ﴾: أي: بُطلانٍ وخَسارٍ وذَهابٍ، والتَّبابُ: الاستِمرارُ في الخُسرانِ[٢].

﴿مَتَٰعٌ﴾: أي: مَنفعةٌ ومُتعةٌ قليلةٌ غيرُ باقيةٍ، والمَتاعُ والمُتعةُ: ما يُنتفَعُ به انتِفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، ثمَّ يَنقضي عن قَريبٍ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على مَنفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ[٣].

﴿ٱلْقَرَارِ﴾: أي: المُستَقَرِّ الَّذي لا يَزولُ، وأصلُ (قرر) هنا: يدُلُّ على تمكُّنٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وقال فِرعَونُ لهامانَ: يا هامانُ ابْنِ لي بِناءً عظيمًا مُرتَفِعًا؛ لَعَلِّي أصِلُ إلى طُرُقِ السَّمواتِ وأبوابِها المُوصِلةِ إلى إلهِ موسى، فأنظُرَ إليه، وإنِّي لَأَظُنُّ موسى كاذِبًا في دَعواه أنَّ في السَّماءِ إلهًا! وكذلك زُيِّنَ لِفرعَونَ سُوءُ عَمَلِه، وصُرِفَ عن طريقِ الحَقِّ، وما كَيْدُ فِرعَونَ إلَّا في خَسارٍ وهَلاكٍ!

وقال الَّذي آمَنَ ناصِحًا لِقَومِه: يا قَومِ اتَّبِعوني أُبَيِّنْ لكم طريقَ الحَقِّ، ويا قَومِ إنَّما هذه الحياةُ الدُّنيا مَتاعٌ، وإنَّ الدَّارَ الآخِرةَ هي دارُ الاستِقرارِ والخُلودِ؛ مَن عَمِلَ في الدُّنيا سَيِّئةً فلا يُجزى في الآخِرةِ إلَّا سَيِّئةً مِثلَها، ومَن عَمِلَ صالحًا وهو مؤمِنٌ باللهِ ورُسُلِه فأولئك يَدخُلونَ الجنَّةَ، يُرزَقونَ فيها بلا حِسابٍ ولا عَدَدٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَفَ اللهُ تعالى فِرعَونَ بكَونِه مُتكَبِّرًا جبَّارًا؛ بيَّنَ أنَّه أبلَغَ في البَلادةِ والحَماقةِ إلى أنْ قَصَدَ الصُّعودَ إلى السَّمَواتِ[1]!

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا ﴾.

أي: وقال فِرعَونُ لهامانَ: يا هامانُ ابْنِ لي بِناءً عَظيمًا شاهِقًا[2].

كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

﴿... لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿... لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾.

أي: رجاءَ الوُصولِ لطُرُقِ السَّمواتِ وأبوابِها الَّتي تُوصِلُني إلى إلهِ موسى فأنظُرَ إليه[1]!

كما قال تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

قال ابن الجوزي في معنى الأسبابِ: (قال ابنُ عبَّاسٍ وقَتادةُ: يعني: أبوابَها. وقال أبو صالحٍ: طُرُقَها. وقال غيرُه: المعنى: لَعَلِّي أبلُغُ الطُّرقَ مِن سماءٍ إلى سماءٍ. وقال الزَّجَّاجُ: لَعَلِّي أبلُغُ ما يؤدِّيني إلى السَّمَواتِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الأبوابُ: السَّمعانيُّ، وابنُ القيِّمِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الطُّرقُ: الواحديُّ، والنيسابوري، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٤).

قال الرَّسْعَني: (قوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ * أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ يعني: أبوابَها وطُرقَها، وهذا قولُ عامَّةِ المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦١٨).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى العُمومِ دونَ تخصيصٍ؛ فذكَر أنَّ السَّببَ هو كلُّ ما تُسُبِّبَ به إلى الوُصولِ إلى ما يُطلَبُ؛ مِن مَنزِلٍ أو بابٍ أو طريقٍ وغيرِ ذلك، فالمعنى: لَعَلِّي أبْلُغُ مِن أسبابِ السَّمواتِ أسبابًا أتَسَبَّبُ بها إلى رؤيةِ إلهِ موسى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٦).

إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾.

أي: وإنِّي لَأَظُنُّ موسى كاذبًا في دَعْواه أنَّ في السَّماء إلهًا[(١)]!

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾.

أي: وهكذا زُيِّنَ لِفرعونَ عَمَلُه السَّيِّئُ، فرأَى الباطِلَ حَسَنًا[(٢)]!

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٧٥)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيميَّة (٦/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

قال ابن كثير: (﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ يحتملُ هذا معنيَين؛ أحدُهما: وإنِّي لَأَظُنُّه كاذبًا في قولِه: إنَّ للعالَم ربًّا غيري. والثَّاني: في دَعْواه أنَّ اللهَ أرسَلَه. والأوَّلُ أشْبَهُ بظاهِرِ حالِ فِرعونَ؛ فإنَّه كان يُنكِرُ ظاهرَ إثباتِ الصَّانِع، والثَّاني أقرَبُ إلى اللَّفظِ؛ حيث قال: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾، أي: فأسألَه هل أرسَلَه أمْ لا؟ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ أي: في دَعْواه ذلك. وإنَّما كان مقصودُ فِرعونَ أن يَصُدَّ النَّاسَ عن تصديقِ موسى عليه السَّلامُ، وأن يَحُثَّهم على تكذيبِه). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٩٠).

وقال الذهبي: (﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ يعني: أظُنُّ مُوسى كاذِبًا أنَّ إلهَه في السَّماءِ). ((العرش)) (٢/ ٢٠). ويُنظر: ((التوحيد)) لابن خزيمة (١/ ٢٦٣)، ((الإبانة)) لأبي الحسن الأشعري (ص: ١٠٦)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٨).

قال ابنُ جرير: (يقولُ الله تعالى ذِكرُه: وهكذا زَيَّن اللهُ لفِرعَونَ -حينَ عَتَا عليه وتَمرَّد- قبيحَ عَمَلِه، حتَّى سَوَّلَتْ له نفْسُه بُلوغَ أسبابِ السَّمواتِ؛ لِيَطَّلعَ إلى إلهِ مُوسى). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٧).

وقال القرطبي: (﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: الشِّركُ والتَّكذيبُ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٥).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَصُدَّ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿وَصُدَّ﴾ بضَمِّ الصَّادِ على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، أي: مُنِعَ مِن طريقِ الحَقِّ[١].

٢- قِراءةُ ﴿وَصَدَّ﴾ بفَتحِ الصَّادِ إسنادًا إلى الفاعِلِ، فقيل: المعنى: صَدَّ نَفْسَه عن الحَقِّ. وقيل: صَدَّ غَيْرَه عن الحَقِّ[٢].

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: ومُنِعَ فِرعَونُ، وصُرِفَ عن طَريقِ الحَقِّ[٣].

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾.

أي: وما احتيالُ فِرعَونَ الَّذي احتاله للاطِّلاعِ إلى إلهِ موسى -بزَعْمِه- إلَّا في خَسارٍ وهَلاكٍ لا يَنالُ به شَيئًا مِمَّا أرادَه[٤].

---

(١) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣١٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٣٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣١٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٣٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٦).
قال ابنُ القيِّم: (صَدَّ بفتح الصَّادِ، ويحتمِلُ وجهَينِ؛ أحدُهما: أعرَضَ، فيَكونُ لازِمًا. والثَّاني: يكونُ صَدَّ غَيرَه، فيكونُ مُتعدِّيًا، والقِراءتانِ كالآيتَينِ؛ لا يَتناقَضانِ). ((شفاء العليل)) (ص: ٩٦).
وذكر ابنُ عثيمين أنَّها تَشملُ المعنيَينِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨﴾.

أي: وقال الَّذي آمَنَ ناصِحًا لِقَومِه: يا قَومِ إنِ اتَّبَعتُموني أُبَيِّنْ لكم الطَّريقَ الصَّحيحَ الَّذي تَصِلونَ به إلى الجنَّةِ[1].

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾.

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾.

أي: يا قَومِ ما هذه الحياةُ الدُّنيا إلَّا مَتاعٌ قَليلٌ فانٍ لا يَبقَى[2].

﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾.

أي: وإنَّ الدَّارَ الآخِرةَ هي دارُ الاستِقرارِ والخُلودِ؛ إمَّا في نعيمِ الجنَّةِ، أو

= (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٨).

قال الماوَرْدي: (﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: في خُسرانٍ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: في ضلالٍ. قاله قَتادةُ. وفيه وجْهانِ: أحدُهما: في الدُّنيا؛ لِما أطْلَعَه الله عليه مِن هلاكِه. الثَّاني: في الآخِرةِ؛ لِمَصيرِه إلى النَّارِ. قاله الكَلْبيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٧).

وقال ابن عطيَّة: (وتَبُّ فِرعَونَ ظاهِرٌ؛ لأنَّه خَسِرَ مالَه في الصَّرحِ وغَيرِه، وخَسِرَ مُلكَه، وخَسِرَ نَفْسَه، وخُلِّدَ في جهنَّمَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٠).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بكَيدِه: ما أمَرَ به مِن بناءِ الصَّرحِ، والغايةُ منه، وسُمِّيَ كيدًا؛ لأنَّه عَمَلٌ ليس المرادُ به ظاهِرَه، بل أُريدَ به الإفضاءُ إلى إيهامِ قَومِه كَذِبَ موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١١، ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

عذابِ النَّارِ؛ فاعمَلوا لآخِرتِكم الَّتي لا زَوالَ لها، ولا انتِقالَ منها[١].

ثُمَّ بَيَّن كيفَ تحصُلُ المُجازاةُ في الآخرةِ[٢]، فقال:

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾.

أي: مَن عَمِلَ في الدُّنيا سَيِّئةً مِن كُفرٍ أو شِركٍ أو مَعصيةٍ، فلا يَجزيه اللهُ في الآخِرةِ إلَّا سَيِّئةً واحِدةً مِثلَها بلا زيادةٍ، فيُعاقِبُه بما يَسوؤُه؛ جَزاءً بما عَمِلَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٠].

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾.

أي: ومَن عَمِلَ مِن العبادِ -سواءٌ كان ذكرًا أو أنثى- عمَلًا صالِحًا، بامتِثالِ أمْرِ اللهِ واجتِنابِ نَهْيِه، وهو مُؤمِنٌ باللهِ ورُسُلِه: فأولئك يَدخُلونَ الجنَّةَ في الآخِرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٣، ٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

قال الشوكاني: (والظَّاهِرُ شمولُ الآيةِ لكلِّ ما يُطلَقُ عليه اسمُ السَّيِّئةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١٧-٣١٩).

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: يُرزَقونَ فيها ثوابًا كَثيرًا لا نَفادَ له، بلا حَدٍّ ولا عَدٍّ(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى حكايةً عن فِرعونَ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ أنَّ رؤساءَ الضَّلالِ وأئمَّةَ الضَّلالِ يَدْعُونَ النَّاسَ إلى الضَّلالِ بكُلِّ ما يَستطيعونَ، ويُحاولونَ أنْ يَحُولوا بيْنَهم وبيْنَ الحَقِّ، وقَولُ فِرعَونَ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ أي: موسى ﴿كَٰذِبًا﴾ في أنَّ له إلهًا غيري؛ قال هذا تمويهًا على أصحابِه، وخوفًا أنْ يَقَعَ في نُفوسِهم شَيءٌ حينَ أمَر وزيرَه أنْ يَبنيَ له صَرحًا، قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، وفِرعَونُ في هذه المقالةِ كاذِبٌ؛ فهو لا يَظُنُّ أنَّ موسى كاذِبٌ؛ فلا تَغْتَرَّ برُؤساءِ الضَّلالِ وأئمَّةِ الضَّلالِ وما يقولونَ مِن التَّمويهِ والدَّجَلِ، وليس هذا مقصورًا على أئمَّةِ السُّلطةِ الَّذين لهم السُّلطةُ، بل حتَّى على أئمَّةِ الدَّعوةِ الَّذين يَدْعُون النَّاسَ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥١).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

قال قَتادةُ: (لا واللهِ ما هناكم مِكْيالٌ ولا ميزانٌ). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣١).

وقيل: المعنى: أنَّهم يُرزَقونَ في الجنَّةِ بغيرِ تَبِعةٍ عليهم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمان، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١٩).

قال ابنُ عثيمين: (يعني: لا يُحاسَبون عليه، ولا يَنقُدونَ له ثمنًا... لا يُطلَبُ مِن الإنسانِ عِوَضٌ، ولا يَلحَقُه تَبِعةٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١٩، ٣٢٢).

أفكارِهم الهَدَّامةِ وأخلاقِهم السَّافلةِ؛ تَجِدُ عندَهم مِن التَّمويهِ والتَّضليلِ ما يُوجِبُ أنْ يكونَ فَخًّا يَقَعُ به مَن ليس له بَصيرةٌ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ ﴾ عبَّر بالفِعلِ إشارةً إلى أنَّه يَنبغي لأدنى أهلِ الإيمانِ ألَّا يَحقِرَ نَفْسَه عن الوَعظِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أنَّه يَنبغي للدَّاعِيةِ إذا دعا إلى شَيءٍ أنْ يُبَيِّنَ ما يكونُ به تَرغيبُ المَدعُوِّ؛ حتَّى يَنشَطَ ويَفعَلَ(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ فيه تَفصيلُ سَبيلِ الرَّشادِ، وأنَّها العُدولُ عمَّا يَفنى إلى ما يَبقى(٤)، فتضَمَّنَتْ هذه الآيةُ فائدتَينِ؛ هما: الزُّهْدُ في الدُّنيا، والرَّغبةُ في الآخرةِ(٥).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ فيه التَّحقيرُ للدُّنيا، والتَّصغيرُ لِشَأنِها؛ لأنَّ الإخلادَ إليها أصلُ الشَّرِّ كُلِّه، ومنه يَتشَعَّبُ ما يُؤدِّي إلى سَخَطِ اللهِ تعالى(٦).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ... ﴾ الآيةَ: أنَّه في مَقامِ التَّهديدِ يَنبغي أنْ يُبدَأَ بما يدُلُّ على التَّهديدِ قبْلَ أنْ يُبدَأَ بما يدُلُّ على التَّرغيبِ؛ لأنَّه هنا بَدَأَ بالسَّيِّئةِ ثمَّ أعقَبَ بالصَّالحِ، وانظُرْ إلى قَولِ اللهِ تبارك وتعالى في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٠٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١٤).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١٥).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٢).

مَقامِ ذِكْرِ الأحكامِ الشَّرعيَّة، قال: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨]، ولَمَّا أراد جلَّ وعلا أنْ يَتحدَّثَ عن نَفْسِه ويُبَيِّنَ كَمالَ صِفاتِه قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]؛ فلِكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ، فالإنسانُ ينبغي له أنْ يُرَتِّبَ المعانيَ حَسَبَ ما تقتضيه الحالُ؛ لا يُلْقِي الحديثَ على عَواهِنِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾ تعليلُه بالتَّرَجِّي الَّذي لا يكونُ إلَّا في المُمكِنِ: دَليلٌ على أنَّه كان يُلَبِّسُ على قَومِه وهو يَعرِفُ الحَقَّ؛ فإنَّ عاقِلًا لا يَعُدُّ ما رامَه في عِدادِ المُمكِنِ العاديِّ[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ -ومَن وافقهم- لِمَا يَزعُمونَ أنَّه سُبحانَه ليس بنَفْسِه في السَّماءِ! وهذا المعنى مِن قَولِ فِرعَونَ -وفِرعَونُ كافرٌ- قد قَطَعَ كلَّ رَيبٍ أنَّه لا مَحالةَ في السَّماءِ؛ إذ مُحالٌ أنْ يقولَ فِرعَونُ إلَّا بعدَ أنْ سَمِعَ موسى عليه السَّلامُ يَدْعوه إلى مَن هو في السَّماءِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَبتَلي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٢٠).

يُقالُ: رَمَى الكلامَ على عَواهِنِه: أي: لم يُبالِ أصابَ أمْ أخطأَ، ولم يَتَدبَّرْه، وأورَدَه مِن غيرِ فِكرٍ ورَوِيَّةٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢١٦٩)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٥/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٧).

قال الذهبي: (لو لم يكُنْ موسى عليه السَّلامُ يدعوه إلى إلهٍ في السَّماءِ لَما قال هذا؛ إذ لو كان موسى قال له: إنَّ الإلهَ الَّذي أدعوك إليه ليس في السَّماءِ، لَكان هذا القَولُ مِن فِرعَونَ عبَثًا، ولَكان بِناؤُه القَصرَ جُنونًا). ((العرش)) (٢/ ٢٠).

العبدَ فيُزَيِّنُ له سوءَ عمَلِه، ويدُلُّ لهذا قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾[1] [الأنعام: ١٠٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ فيما ذُكِرَ مِن التَّزيينِ لِفرعَونَ سوءَ عمَلِه؛ فإنْ كان أراد به أنَّه سُبحانَه هو الَّذي زَيَّنَ له، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٤] فهو ما يُريدونَ رَدَّه، وإنْ أراد أنَّ الشَّيطانَ زَيَّنَ له، كقَولِه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤] فهو تَبَعٌ للهِ في ذلك؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ جلَّ جَلالُه تَبَعًا له[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَصِحُّ هذا الكَلامُ، مع أنَّ كُفرَ ساعةٍ يُوجِبُ عِقابَ الأبَدِ؟

الجوابُ: أنَّ الكافِرَ يَعتَقِدُ في كُفرِه كَوْنَه طاعةً وإيمانًا؛ فلهذا السَّبَبِ يكونُ الكافِرُ على عَزمٍ أن يَبقَى مُصِرًّا على ذلك الاعتِقادِ أبدًا؛ فلا جَرَمَ كان عِقابُه مُؤَبَّدًا، بخِلافِ الفاسِقِ: فإنَّه يَعتقِدُ فيه كَوْنَه خِيانةً ومَعصيةً، فيَكونُ على عَزمٍ ألَّا يبقَى مُصِرًّا عليه؛ فلا جَرَمَ كان عِقابُ الفاسِقِ مُنقَطِعًا[3].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ الجِناياتِ تُغرَّمُ بمِثْلِها[4]. وهذه الآيةُ أصلٌ كبيرٌ في عُلومِ الشَّريعةِ فيما يَتعَلَّقُ بأحكامِ الجِناياتِ؛ فإنَّه يَقتَضي أن يكونَ المِثْلُ مَشروعًا، وأن يكونَ الزَّائِدُ على المِثْلِ غيرَ مَشروعٍ؛ فالأحكامُ الكثيرةُ في بابِ الجناياتِ على النُّفوسِ وعلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨).

الأعضاءِ وعلى الأموالِ: يمكِنُ تَفريعُها على هذه الآيةِ[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ واقِعٌ في مُقابَلةِ قَولِه: ﴿إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾، يعني: أنَّ جَزاءَ السَّيِّئةِ له حِسابٌ وتقديرٌ؛ لِئَلَّا يَزيدَ على الاستِحقاقِ، فأمَّا جزاءُ العَمَلِ الصَّالِحِ فَبِغَيرِ تقديرٍ ولا حِسابٍ، بل ما شِئتَ مِن الزِّيادةِ على الحَقِّ والكَثرةِ والسَّعةِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ جانِبَ الرَّحمةِ والفَضلِ راجِحٌ على جانِبِ القَهرِ والعِقابِ[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٥ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ هذه مَقالةٌ أُخرى لِفِرْعونَ في مَجلسٍ آخَرَ غيرِ المجلِسِ الَّذي حاجَّه فيه مُوسى؛ ولذلك عُطِفَ قولُه بالواوِ[٣].

- قولُه: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٥ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ انتصَبَ ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على البدَلِ المُطابِقِ لقولِه: ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾، وجِيءَ بأُسلوبٍ مِن الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ؛ للتَّشويقِ إلى المرادِ بالأسبابِ؛ تَفخيمًا لِشأْنِها وشأْنِ عمَلِه؛ لأنَّه أمْرٌ عَجيبٌ؛ لِيُورَدَ على نفْسٍ مُتشَوِّقةٍ إلى مَعرفتِه، وهي نفْسُ هامانَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٦)، =

- وقولُه: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال في سورةِ (القَصَص): ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٨] بحذْفِ ﴿أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وذكَرَها هنا؛ وذلك لأنَّ ما في (القَصَص) تَقَدَّمَه ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، مِن غَيرِ ذِكرِ أرضٍ وغَيرِها؛ فناسَبَه الحذْفُ، وما هنا تَقدَّمَه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]؛ فناسَبَه مُقابَلتُه بالسَّماءِ في قولِه: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[1] [غافر: ٣٦، ٣٧].

- وجُملةُ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ مُعترِضةٌ؛ للاحتِراسِ مِن أنْ يَظُنَّ هامانُ وقَومُه أنَّ دَعوةَ مُوسى أوهَنَت منه يَقينَه بدِينِه وآلهتِه، وأنَّه يَرومُ أنْ يَبحَثَ بَحثَ مُتأمِّلٍ ناظِرٍ في أدلَّةِ المعرفةِ، فحقَّقَ لهم أنَّه ما أراد بذلك إلَّا نفْيَ ما ادَّعاهُ مُوسى بدَليلِ الحسِّ. وجِيءَ بحَرْفِ التَّوكيدِ المعزَّزِ بلامِ الابتِداءِ في ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾؛ لِيَنْفِيَ عن نفْسِه اتِّهامَ وَزيرِه إيَّاهُ بتَزلزُلِ اعتِقادِه في دِينِه، والمعنى: أنِّي أفعَلُ ذلك لِيَظهَرَ كذِبُ مُوسى[2].

- والظَّنُّ هنا مُستعمَلٌ في مَعنى اليقينِ والقطْعِ؛ ولذلك سمَّى اللهُ عَزْمَه هذا كَيْدًا في قولِه: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾[3].

- وقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾؛ لِبَيانِ حالِ اعتِقادِه وعمَلِه، بعْدَ أنْ بيَّنَ حالَ أقوالِه، والمعنى: أنَّه

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٠).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال قولًا مُنبعثًا عن ضَلالِ اعتِقادٍ، ومُغريًا بفَسادِ الأعمالِ؛ ولهذا الاعتبارِ -اعتِبارِ جَميعِ أحوالِ فِرعونَ- لم تُفصَلْ هذه الجُملةُ عن الَّتي قبْلَها؛ إذ لم يُقصَدْ بها ابتِداءُ قصَّةٍ أُخرى، وهذا يُسمَّى بالتَّوسُّطِ بيْنَ كَمالَيِ الاتِّصالِ والانقِطاعِ في بابِ الفَصْلِ والوَصْلِ مِن عِلمِ المعاني[١].

- وافتِتاحُ الجُملةِ بلَفظِ (كَذَلِكَ)، أي: مِثلَ ذلك التَّزيينِ -أي: تَزْيينِ عَمَلِ فِرعونَ- زُيِّنَ له سُوءُ عمَلِه: مُبالَغةٌ في أنَّ تَزْيينَ عمَلِه له بلَغَ مِن القُوَّةِ في نَوعِه ما لا يُوجَدُ له شَبَهٌ يُشَبَّهُ به، فمَنْ أراد تَشبيهَه فلْيُشَبِّهْه بعَينِه! وبُنِيَ فِعلُ ﴿زُيِّنَ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنَّ المقصودَ مَعرفةُ مَفعولِ التَّزيينِ لا مَعرفةُ فاعِلِه، أي: حصَلَ له تَزيينُ سُوءِ عَمَلِه في نفْسِه، فحَسِبَ الباطلَ حقًّا، والضَّلالَ اهتِداءً[٢].

- وتَعريفُ السَّبيلِ في قولِه: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ للعهْدِ، أي: سَبيلِ اللهِ، أو سَبيلِ الخَيرِ، أو سَبيلِ الهُدى، ويجوزُ أنْ يكونَ التَّعريفُ للدَّلالةِ على الكَمالِ في النَّوعِ، أي: صُدَّ عن السَّبيلِ الكاملِ الصَّالحِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) .

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَقالٌ في مَقامٍ آخَرَ قالَه مُؤمنُ آلِ فِرعونَ، فهذه المقالاتُ المعطوفةُ بالواوِ مَقالاتٌ مُتفرِّقةٌ، فابتدَأَ مَوعظتَه بنِدائِهم؛ لِيَلْفِتَ إليه أذهانَهم، ويَسْتصغيَ أسماعَهم، وبعُنوانِ أنَّهم قَومُه؛ لِتَصْغى إليه أفْئدتُهم[1].

- ورتَّبَ خُطْبتَه على أُسلوبِ تَقديمِ الإجمالِ ثمَّ تَعقيبِه بالتَّفصيلِ؛ فابتدَأَ بقولِه: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾. وسَبيلُ الرَّشادِ مُجمَلٌ، وهو على إجمالِه ممَّا تَتوقُ إليه النُّفوسُ؛ فرَبْطُ حُصولِه باتِّباعِهم إيَّاه ممَّا يُقبِلُ بهم على تَلَقِّي ما يُفسِّرُ هذا السَّبيلَ، ويَسْترعي أسماعَهم إلى ما يقولُه؛ إذ لعلَّه سَيأْتيهم بما تَرغَبُه أنفُسُهم؛ إذ قد يَظُنُّون أنَّه نقَّحَ رأْيَه، ونخَلَ مَقالَه، وأنَّه سَيأْتي بما هو الحقُّ الملائمُ لهم[2].

- قولُه: ﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ الرَّشادُ نَقيضُ الغَيِّ، وفيه تَعريضٌ شَبيهٌ بالتَّصريحِ أنَّ ما عليه فِرعونُ وقَومُه هو سَبيلُ الغَيِّ[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾

- قولُه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ أعاد النِّداءَ تأْكيدًا لإقبالِهم؛ إذ لاحَتْ بَوارِقُه، فأكمَلَ مُقدِّمتَه بتَفصيلِ ما أجمَلَه؛ يُذكِّرُهم بأنَّ الحياةَ الدُّنيا مَحدودةٌ بأجَلٍ غيرِ طَويلٍ، وأنَّ وراءَها حياةً أبَديَّةً؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّ أشَدَّ دِفاعِهم عن دِينِهم مُنبعِثٌ عن مَحبَّةِ السِّيادةِ والرَّفاهيةِ، وذلك مِن مَتاعِ الدُّنيا الزَّائلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٨، ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧).

وأنَّ الخَيرَ لهم هو العمَلُ للسَّعادةِ الأبَديَّةِ، وقد بنَى هذه المُقدِّمةَ على ما كانوا عليه مِن مَعرفةِ أنَّ وراءَ هذه الحَياةِ حَياةً أبَديَّةً فيها حَقيقةُ السَّعادةِ والشَّقاءِ، وفيها الجزاءُ على الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ بالنَّعيمِ أو العذابِ؛ إذ كانت دِيانتُهم تُثبِتُ حياةً أُخرى بعْدَ الحياةِ الدُّنيا، ولكنَّها حرَّفَت مُعظَمَ وَسائلِ السَّعادةِ والشَّقاوةِ، فهذه حقائقُ مُسَلَّمةٌ عِندَهم على إجْمالِها، وهي مِن نوعِ الأصولِ الموضوعةِ في صِناعةِ الجدَلِ، وبذلك تمَّتْ مُقدِّمةُ خُطْبتِه، وتَهيَّأتْ نُفوسُهم لِبَيانِ مَقصدِه المفسِّرِ لإجمالِ مُقدِّمتِه[1].

- وكرَّرَ قَولَه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾؛ زيادةً في استِعطافِهم بكَونِهم أهلَه، فهو غيرُ مُتَّهَمٍ في نُصحِهم؛ لأنَّه لا يُريدُ لهم إلَّا ما يُريدُ لِنَفْسِه[2].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن قَولِه: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ قَصْرُ مَوصوفٍ على صِفةٍ، أي: لا صِفةَ للدُّنيا إلَّا أنَّها نفْعٌ مُؤقَّتٌ، وهو قصْرُ قلْبٍ[3]؛ لِتَنزيلِ قَومِه في تَهالُكِهم على مَنافِعِ الدُّنيا مَنزِلةَ مَن يَحسَبُها مَنافعَ خالدةً[4].

- وفيه تفسيرُ ما أجْمَلَه في قولِه: ﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، حيثُ افتَتَحَ بذمِّ الدُّنيا وتَصغيرِ شأنِها؛ لأنَّ الإخلادَ إليها منه يَتشعَّبُ جميعُ ما يُؤدِّي إلى سَخطِ اللهِ، ويَجلِبُ الشقاوةَ في العاقبةِ، وثنَّى بتعظيمِ الآخِرةِ، والاطِّلاعِ على حقيقتِها، وأنَّها هي الوطنُ والمُستقَرُّ، وذَكَر الأعمالَ سيِّئَها وحسَنَها وعاقبةَ كلٍّ منهما؛ لِيُثبِّطَ عمَّا يُتلِفُ، ويُنشِّطَ لِمَا يُزلِفُ، ثمَّ وازَنَ بيْنَ الدَّعْوتَينِ: دَعوةٍ إلى دِينِ اللهِ الَّذي ثَمَرتُه النَّجاةُ، ودَعوتِهم إلى اتِّخاذِ الأندادِ الَّذي عاقِبَتُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٢).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٩).

النَّارُ، وحذَّر، وأنْذَر، واجتهَد في ذلك واحتشَدَ[١].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن ضَميرِ الفصْلِ في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ قصْرُ قلْبٍ، أي: لا الدُّنيا، نَظيرُ القصْرِ في قولِه: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾، وهو مُؤكِّدٌ للقصْرِ في قولِه: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ مِن تأْكيدِ إثباتِ ضِدِّ الحُكْمِ لِضِدِّ المحكومِ عليه[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

- جُمْلتَا ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ إلى آخرِهما، بَيانٌ لِجُملةِ ﴿وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[٣].

- قولُه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لَعلَّ تَقسيمَ العُمَّالِ، وجَعْلَ الجزاءِ جُملةً اسميَّةً مُصَدَّرةً باسمِ الإشارةِ، وتفضيلَ الثَّوابِ؛ لِتَغليبِ الرَّحمةِ، وجَعْلَ العمَلِ عُمْدةً، والإيمانِ حالًا؛ للدَّلالةِ على أنَّه شَرْطٌ في اعتبارِ العمَلِ، وأنَّ ثَوابَه أعلى مِن ذلك[٤].

- وقولُه: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بَيانٌ لِمَا في (مَن) مِن الإبهامِ مِن جانبِ احتِمالِ التَّعميمِ؛ فلَفْظُ ﴿ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ مُرادٌ به عُمومُ النَّاسِ بذِكرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٩، ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧).

صِنْفَيهم؛ تَنصيصًا على إرادةِ العُمومِ[١]؛ وتَعريضًا بفِرعونَ وخاصَّتِه أنَّهم غيرُ مُفلَتِينَ مِن الجزاءِ[٢].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه يَستحِقُّ ما سيُذكَرُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن الأوصافِ، وهي عمَلُ الصَّالحاتِ مع الإيمانِ، زِيادةً على استِفادةِ ذلك مِن تَعليقِه على الجُملةِ الشَّرطيَّةِ[٣].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ في جُملةِ جَوابِ الشَّرطِ؛ لإفادةِ الحَصْرِ، والمعنى: أنَّكم إنْ مُتُّمْ على الشِّركِ والعمَلِ السَّيِّئِ لا تَدخُلُونها[٤].

- قولُه: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ كِنايةٌ على سَعةِ الرِّزقِ ووَفْرَتِه، وهو واقعٌ في مُقابَلةِ ﴿إِلَّا مِثۡلَهَا﴾[٥].

---

(١) وذكَر ابنُ عاشورٍ أنَّه ليس المقصودُ به إفادةَ مُساواةِ الأنثى للذَّكَرِ في الجزاءِ على الأعمالِ؛ إذ لا مُناسَبةَ له في هذا المقامِ، لكِنْ جَعَل ابنُ عُثيمينَ مِن فوائدِ الآيةِ مُساواةَ الأنثَى للذَّكَرِ في الجزاءِ على الأعمالِ، واشتِراكَهما في الثَّوابِ والعِقابِ، وجَعَل نظيرَ هذه الآيةِ قولَه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥١).

الآيات (٤١-٤٦)

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَا جَرَمَ﴾: أي: حقًّا، وهي كَلِمةٌ تَرِدُ بمعْنَى تَحقيقِ الشَّيءِ، فقِيل: أصْلُها التَّبرِئةُ، بمعنَى: لا بُدَّ، ثُمَّ استُعْمِلت في معنى: حقًّا. وقيلَ: جَرَمَ بمعْنَى كسَبَ. وقيلَ: بمعنَى: وجَبَ وحَقَّ، و (لا) رَدٌّ لِمَا قبْلَها مِن الكلام، ثُمَّ يُبْتَدأُ بها[1].

﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي: أرُدُّ الأمرَ إليه، وأتوكَّلُ عليه، وأُسلِّمُ أمْري إليه، وأصلُ (فوض): يدُلُّ على اتِّكالٍ في الأمرِ على آخَرَ وردِّه عليه[2].

﴿وَحَاقَ﴾: أي: أحاطَ ونَزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزُولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٢٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

﴿غُدُوًّا﴾: جمعُ غَداةٍ: وهي أوَّلُ النَّهارِ، وأصلُ (غدو): يَدُلُّ على زَمانٍ[١].

﴿وَعَشِيًّا﴾: العَشِيُّ: مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، أو: آخِرُ النَّهارِ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظلامٍ، وقِلَّةِ وُضوحِ الشَّيءِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قال مُؤمِنُ آلِ فِرعَون لِقَومِه: ويا قَومي ما لي أدعوكم إلى سَبيلِ النَّجاةِ، وتَدعُونَني إلى طَريقِ النَّارِ؟! تَدعُونَني لِأكفُرَ باللهِ وأُشرِكَ به ما لا أعلَمُ عليه دَليلًا، وأنا أدعوكم إلى عبادةِ العَزيزِ الغَفَّارِ! حقًّا لا شكَّ فيه أنَّ الَّذي تَدْعونَني إلى عبادتِه مِن الأوثانِ لا يَصلُحُ للألوهيَّةِ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ، وأنَّ مَرجِعَنا جميعًا بعدَ مماتِنا إلى الله، وأنَّ الَّذين تَعَدَّوا حُدودَ اللهِ هم أصحابُ النَّارِ.

فستَتَذَكَّرونَ ما نَصحتُكم به، وتَعلَمونَ صِدقي، وأُسَلِّمُ أمْري إلى الله؛ إنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على عِبادِه، لا يَخفَى عليه منهم شَيءٌ. فدفَعَ اللهُ عنه كَيْدَهم، ونَزَل بفِرعَونَ وأتْباعِه العَذابُ السَّيِّئُ؛ النَّارُ يُعرَضُون عليها كُلَّ صَباحٍ ومَساءٍ؛ ليُعذَّبوا بها إلى أن تقومَ السَّاعةُ، ويومَ القيامةِ يُقولُ اللهُ للملائكةِ: أَدخِلوا قومَ فِرعَونَ أشدَّ العَذابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١﴾.

أي: قال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: ويا قَومي ما لي[٣] أدعُوكم إلى سَبيلِ النَّجاةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٩ - ٦٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧) و(٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

(٣) قيل: المعنى: ما لَكم، كما يُقالُ: ما لي أراكَ حزينًا؟ معناه: ما لَك؟ ومعنَى الآيةِ: أخبِروني =

مِن العَذابِ، وتَدعُونَني أنتم إلى طَريقِ النَّارِ[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر هذا المؤمِنُ أنَّه يَدعوهم إلى النَّجاةِ، وهم يَدْعُونَه إلى النَّارِ؛ فسَّرَ ذلك بأنَّهم يَدْعُونَه إلى الكُفرِ باللهِ، وإلى الشِّركِ به[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ المُسبَّبَينِ ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ ذكَرَ

= عنكم كيف هذه الحالُ؟ ومِمَّن قال بذلك: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥).

قال ابن عاشور: (أصلُ استِعمالِ: ما لي أفعلُ، وما لي لا أفعلُ ونحوِه، أنْ يكونَ استِفهامًا عن فِعلٍ أو حالٍ ثَبَت للمجرورِ باللَّامِ «وهي لامُ الاختِصاصِ»، ومعنَى لامِ الاختصاصِ يَكسِبُ مَدخولَها حالةً خَفيًّا سَبَبُها الَّذي عُلِّقَ بمَدخولِ اللَّامِ، نحوَ قولِه تعالَى: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [التَّوْبَة: ٣٨]، ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ [النَّمل: ٢٠]، وقولِكَ لِمَنْ يَستوقِفُكَ: ما لَكَ؟ فتكونُ الجُملةُ الَّتي بعدَ اسمِ الاستِفهامِ وخبرِه جُملةً فِعليَّةً. وتَركيبُ: «ما لي» ونحوِه، هو كتَركيبِ: «هل لَكَ» ونحوِه في قولِه تعالَى: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨] ... فإذا قامَتِ القرينةُ على انتِفاءِ إرادةِ الاستِفهامِ الحقيقيِّ انصَرَف ذلك إلى التَّعَجُّبِ مِن الحالةِ، أو إلى الإنكارِ أوْ نحوِ ذلك. فالمعنَى هنا على التَّعَجُّبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٢، ١٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٩).

سببَهما ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾، وهو دُعاؤهم إلى الكُفْرِ والشِّركِ، ودُعاؤه إيَّاهم إلى الإيمانِ والتَّوحيدِ[١].

﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾.

أي: تَدْعُونَني لِأكفُرَ باللهِ وأُشرِكَ به ما لا أعلَمُ دَليلًا على صِحَّتِه[٢].

﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾.

أي: وأنا أدعوكم إلى عبادةِ العَزيزِ ذي القَهرِ والانتِقامِ مِمَّن استكبَرَ عن الحَقِّ وكَفَر به، البالِغِ المَغفرةَ لِمَن تابَ إليه[٣].

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣ ﴾.

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾.

أي: حَقًّا يَقينًا لا شَكَّ فيه أنَّ الَّذي تَدْعُونَني إلى عبادتِه مِن الأوثانِ: عاجِزٌ لا يَصلُحُ لِلألوهيَّةِ في الدُّنيا والآخِرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٧/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٣).
قال الشنقيطي: (الظَّاهِرُ أنَّ جُملةَ قَولِه: ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ ﴾ بدَلٌ مِن قَولِه: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾؛ لأنَّ الدَّعوةَ إلى الكُفرِ باللهِ والإشراكِ به: دعوةٌ إلى النَّارِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ * إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

وقال الله سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

= ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٢٨-٣٣١).

قيل: المرادُ: ليس له استِجابةُ دَعوةٍ تَنفَعُ، فلا يُجيبُ داعِيَه لا في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والسمعاني، والرسعني، والخازن. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٧).

وقيل: المعنى: أنَّه ليس له قَدْرٌ وحَقٌّ، فلا يَستَحِقُّ الدَّعوةَ إليه، والحَثَّ على عبادتِه، أو اللُّجوءَ إليه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عطية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

وقال الكَلْبي: (ليس له شفاعةٌ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ). يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٨).

وقال مكِّي: (لا يَنفُذُ له أمرٌ ولا نهيٌ ولا شفاعةٌ في الدَّارَينِ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٠/ ٦٤٣٦، ٦٤٣٧).

وقيل: ليست له دَعوةٌ إلى عبادتِه في الدُّنيا؛ لأنَّ الأوثانَ لا تَدَّعي الرُّبوبيَّةَ، ولا تدعو إلى عبادتِها، وفي الآخرةِ تَتبرَّأُ مِن عابِديها، أمَّا المعبودُ بالحقِّ فيَدعو العِبادَ إلى طاعتِه، ثمَّ يدعو العِبادُ إليها إظهارًا لدعوةِ ربِّهم. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠، ٢٦١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٌ﴾ أي: إلى نفْسِه قَطُّ بالعبادةِ: العُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢١).

أي: ولا شَكَّ أيضًا أنَّ مَرجِعَنا جميعًا بعدَ مماتِنا إلى الله، فيُجازي كلَّ عامِلٍ بحَسَبِ عَمَلِه[١].

﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

أي: ولا شَكَّ أنَّ الَّذين تَعَدَّوا حُدودَ اللهِ؛ كالوُقوعِ في الشِّركِ، وسَفكِ الدِّماءِ بغَيرِ حَقٍّ: هم أصحابُ النَّارِ المُلازِمونَ لها عندَ مَرجِعِنا إلى الله[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

وعن مُعاوِيةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((كُلُّ ذَنْبٍ عسَى اللهُ أن يَغفِرَه إلَّا الرَّجُلَ يَقتُلُ المؤمِنَ مُتعَمِّدًا، أو الرَّجُلَ يَموتُ كافِرًا))[٣].

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾.

أي: فسوفَ تَتذَكَّرونَ ما نَصحتُكم به، وتَعلَمونَ صِدقي، وتَندَمونَ حينَ يأتيكم عَذابُ اللهِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٣١).

(٣) أخرجه النسائي (٣٩٨٤) واللَّفظُ له، وأحمد (١٦٩٠٧).
وثَّق رجالَه الشَّوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (٧/ ١٩٦) وذكر أنَّ له شاهدًا، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٢١)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٩٨٤)، وصحَّحه لغيرِه شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦٩٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: وأُسَلِّمُ أمْري إلى الله، وأتَوَكَّلُ عليه، وأعتَصِمُ به[١].

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمَرَ رجُلًا إذا أخَذَ مَضجَعَه مِنَ اللَّيلِ أن يقولَ: اللَّهُمَّ أسلَمْتُ نَفْسي إليك، ووجَّهتُ وَجْهي إليك، وألجَأْتُ ظَهري إليك، وفَوَّضتُ أمري إليك؛ رَغبةً ورَهبةً إليك، لا مَلجَأَ ولا مَنجَا مِنك إلَّا إليك، آمَنتُ بكِتابِك الَّذي أنزَلْتَ، وبِرَسولِك الَّذي أرسَلْتَ، فإنْ مات ماتَ على الفِطرةِ))[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على عِبادِه، عالِمٌ بأعمالِهم وأحوالِهم وأُمورِهم كُلِّها، لا يَخفى عليه منهم شَيءٌ[٣].

= (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٦).

قال القرطبي: (قيل: هذا يدُلُّ على أنَّهم أرادوا قتلَه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٨).

وقال الرازي: (﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهذا كلامُ مَن هُدِّد بأمرٍ يخافُه، فكأنَّهم خَوَّفوه بالقتلِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٠).

(٢) رواه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٧).

قيل: المعنى: إنَّ الله عالمٌ بأمورِ عبادِه، ومَن المطيعُ منهم، والعاصي له، والمُستحِقُّ للثوابِ، والمُستوجِبُ للعِقابِ. قاله ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٦).

وبمعناه قال مكِّي، والنسفي، والقاسمي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٤٣٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١١). =

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ ذلك الرَّجُلَ لم يُقَصِّرْ في تقريرِ الدِّينِ الحَقِّ، وفي الذَّبِّ عنه، فاللهُ تعالى رَدَّ عنه كَيْدَ الكافِرينَ، وقَصْدَ القاصِدينَ(١).

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾.

أي: فحَفِظَ اللهُ مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ، ودَفَع عنه كَيْدَهم(٢).

= وقيل: يَعلَمُ المُحِقَّ مِن المُبطِلِ. وممَّن قال به: الثعلبيُّ، والبغوي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢١).

وقال الواحدي، وابن الجوزي، والرسعني: ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾ بأوليائِه وأعدائِه. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٢٠).

وقيل: المرادُ: يَهدي مَن يَستحِقُّ الهِدايةَ، ويُضِلُّ مَن يَستحِقُّ الإضلالَ. قاله ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦).

وقيل: المعنى: يَعلَمُ مَن يَستحِقُّ النُّصرةَ لاتِّصافِه بأوصافِ الكمالِ، ويَعلَمُ مَن يَمكُرُ فيَرُدُّ مَكْرَه عليه بما لَه مِن الإحاطةِ. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٠).

وقيل: أي: يَعلَمُ حالي وضَعفي فيَمنَعُني منكم، ويَكفيني شرَّكم، ويَعلَمُ أحوالَكم فلا تَتصرَّفون إلَّا بإرادتِه ومَشيئتِه، فإنْ سلَّطكم عليَّ فبِحِكمةٍ منه تعالى، وعن إرادتِه ومَشيئتِه صدَر ذلك. قاله: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

وقيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ فيَحرُسُ مَن يَلوذُ به -منهم- مِن المَكارِهِ. وممَّن قال به في الجملةِ: البيضاويُّ، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٨).

قيل: المرادُ بسَيِّئاتِ مَكرِهم: أضرارُ مَكرِهم وشدائِدُه. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾.

أي: ونَزَل وأحاطَ بفِرعَونَ وأتْباعِه ما ساءَهم مِن عذابِ اللهِ، الَّذي وَجَبَ عليهم[1].

= والبِقاعي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٨).

وقيل: ﴿سَيِّـَٔاتِ﴾ هنا مِن بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى مَوصوفِها، أي: المكْرَ السَّيِّئَ. وممَّن قال بهذا المعنى: الشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٢).

وقال الشنقيطي: (بعضُ العُلَماءِ يقولُ: نجَّاه اللهُ منهم مع موسى وقَومِه، وبَعضُهم يقولُ: صَعِدَ جَبَلًا فأعجَزَهم اللهُ عنه ونجَّاه منهم، وكُلُّ هذا لا دليلَ عليه، وغايةُ ما دَلَّ عليه القُرآنُ أنَّ اللهَ وَقاه سَيِّئاتِ مَكْرِهم، أي: حَفِظَه ونجَّاه منها). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٨٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٨، ٣٨٩).

قيل: آلُ فِرعَونَ في هذا الموضِعِ: أتْباعُه وأهلُ طاعتِه مِن قَومِه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٦)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١١٨).

قال مكِّي: (وقولُه: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ يدُلُّ على أنَّ فِرعونَ في أشَدِّ ما في العذابِ؛ لأنَّ مَن كان على دِينِه إذا حلَّ به أشَدُّ العذابِ، فهو أحرَى أن يحلَّ عليه أشدُّ مِن ذلك). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٠/ ٦٤٤٠).

وقيل: المرادُ بآلِ فِرعَونَ: فِرعونُ نفْسُه. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤).

وقيل: المرادُ بآلِ فِرعَونَ: فِرعَونُ وقَومُه. وممَّن قال بهذا القولِ: البيضاويُّ، والبِقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٠، ٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

= (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٢٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٢).

واختلف المفسِّرونَ في المرادِ بقولِه: ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾؛ فقيل: هو نارُ جهنَّمَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠).

قال الزمخشري: (النَّارُ بدَلٌ مِن ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾. أو خبرُ مبتدَأٍ محذوفٍ، كأنَّ قائلًا قال: ما سوءُ العذابِ؟ فقيل: هو النَّارُ. أو مبتدأٌ خبرُه ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾، وفي هذا الوجهِ تعظيمٌ للنَّارِ، وتهويلٌ مِن عذابِها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠).

وقيل: المرادُ: الغرقُ. ومِمَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والرازيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٧، ١٥٨).

قال ابن عاشور: (وإنَّما كانَ الغرقُ سوءَ عذابٍ؛ لأنَّ الغريقَ يُعَذَّبُ باحتباسِ النَّفَسِ مُدَّةً وهو يَطْفو على الماءِ، ويَغوصُ فيه، وَيُرْعِبُه هولُ الأمواجِ، وهو موقنٌ بالهلاكِ، ثُمَّ يكونُ عُرضةً لأكلِ الحيتانِ حَيًّا ومَيِّتًا، وذلك ألمٌ في الحياةِ، وخِزيٌ بعدَ المماتِ يُذْكَرونَ به بيْنَ النَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٨).

وقيل: ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾: الغرقُ وما بعدَه مِن النَّارِ وعذابِها. ومِمَّن قال بهذا القولِ: الثعلبيُّ، والبغوي، وابن عطية، وابن كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢٢).

قال ابن كثير: (هو: الغرقُ في اليَمِّ، ثمَّ النُّقْلةُ منه إلى الجحيم؛ فإنَّ أرواحَهم تُعرضُ على النَّارِ صباحًا ومساءً إلى قيامِ السَّاعةِ، فإذا كان يومُ القيامةِ اجتمعتْ أرواحُهم وأجسادُهم في النَّارِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٨، ٣٨٩).

وقال ابن عثيمين: (قوله: ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ هذا أيضًا مِن بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى مَوصوفِها. أي المعنى: العذابُ السَّيِّئُ، والغرَقُ لا شكَّ أنَّه مِن سوءِ العذابِ، لكنْ هناك عذاباتٌ أخرى أُصيبَ بها آلُ فِرعَونَ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، كلُّ هذا مِن سوءِ العذابِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٣) بتصرُّف.

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾.

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾.

أي: يُعرَضونَ على النَّارِ كلَّ صَباحٍ ومَساءٍ؛ ليُعذَّبوا بها إلى أن تَقومَ السَّاعةُ[1].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ۞ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٤، ٤٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أحَدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقعَدُه بالغَداةِ والعَشِيِّ؛ إن كان مِن أهلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٧، ٣٣٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦).

قال القُرطبي: (الجمهورُ على أنَّ هذا العَرضَ في البَرزخِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٨).

قال الزمخشري: (﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ في هذَينِ الوَقتَينِ يُعَذَّبونَ بالنَّارِ، وفيما بيْنَ ذلك اللهُ أعلَمُ بحالِهم؛ فإمَّا أن يُعَذَّبوا بجِنسٍ آخَرَ مِن العذابِ، أو يُنَفَّسَ عنهم، ويجوزُ أن يكون ﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾: عِبارةً عن الدَّوامِ، هذا ما دامَتِ الدُّنيا). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠). ويُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير القنوجي)) (١٢/ ١٩٦).

وقال البِقاعي: (﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ أي: في البَرزخِ ﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ أي: غادِينَ ورائِحينَ في وَقتِ استِرواحِهم بالأكلِ واستِلذاذِهم به، هذا دأبُهم طولَ أيَّامِ البرزخِ، وكان عليهم في هذا العَرضِ زِيادةُ نَكَدٍ فَوقَ ما وَرَد عامًّا مِمَّا روى مالِكٌ والشَّيخانِ وغَيرُهم عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «إنَّ أحَدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقعَدُه بالغَداةِ والعَشِيِّ...»، ولعلَّ زيادةَ النَّكَدِ أنَّهم هم المعروضونَ، فيُذهَبُ بهم في الأغلالِ يُساقُونَ لِيَنظُروا ما أعَدَّ اللهُ لهم، وعامَّةُ النَّاسِ يقتصرُ في ذلك على أن يُكشَفَ لهم -وهم في محالِّهم- عن مقاعِدِهم). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٨١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٤).

الجنَّةِ فمِن أهلِ الجَنَّةِ، وإنْ كان مِن أهلِ النَّارِ فمِن أهلِ النَّارِ، يُقال: هذا مَقعَدُك حتَّى يَبعَثَك اللهُ إليه يومَ القيامةِ))[١].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾ قِراءتانِ:

٥- قِراءةُ: ﴿ٱدْخُلُوا﴾ بهمزةِ وصْلٍ مضمومةٍ، وضمِّ الخاءِ، على الأمرِ لهم بالدُّخولِ، والمعنى: ويومَ تقومُ السَّاعةُ نقولُ: ادخُلوا يا آلَ فِرعونَ...، ونصْبُ ﴿ءَالَ﴾ على هذه القراءةِ؛ لأنَّه نِداءٌ مضافٌ[٢].

٦- قِراءةُ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾ بهمزةِ قطْعٍ مفتوحةٍ، وكسرِ الخاءِ، على جِهةِ الأمرِ للملائكةِ بإدخالِهم، أي: يُقالُ للملائكةِ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، ونصْبُ ﴿ءَالَ﴾ على هذه القراءةِ؛ لأنَّه مفعولٌ به[٣].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

أي: ويومَ القيامةِ يُقولُ اللهُ للملائكةِ[٤]: أدخِلوا فِرعَونَ وأتْباعَه أشَدَّ عذابِ

---

(١) رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٢) قَرأ بها ابنُ كثيرٍ وابنُ عَمرٍو وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٣٣).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٧).

النَّارِ[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى حكايةً عن مُؤمنٍ آلِ فرعونَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهكذا يجبُ على كلِّ مؤمنٍ إذا أراد أنْ تُقضَى أمورُه وتُسَهَّلَ؛ أن يُفَوِّضَ أمْرَه إلى اللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال لِنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢] [الأنفال: ٦٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ * فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ فيه دَليلٌ واضِحٌ على أنَّ التَّوَكُّلَ الصَّادِقَ على اللهِ، وتَفويضَ الأُمورِ إليه: سَبَبٌ للحِفظِ والوقايةِ مِن كُلِّ سُوءٍ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ التَّحذيرُ مِن أعداءِ المُسلِمينَ؛ لِقَولِه: ﴿مَا مَكَرُواْ﴾، وأنَّ أعداءَ المُسلِمينَ قد لا يُواجِهونَهم بالعداوةِ، ولكِنَّهم يَمكُرونَ بهم؛ فلْيَحْذَرِ المؤمنُ مَكْرَ أعداءِ اللهِ، وهذا في القُرآنِ كثيرٌ؛ قال اللهُ تعالى لِنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾[٤] [الطارق: ١٥ - ١٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٠، ٣٤١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- كلُّ مَنِ استفرَغ وُسْعَه استحقَّ الثَّوابَ، وكذلك الكفَّارُ: مَن بلَغه دَعْوةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في دارِ الكفرِ، وعَلِم أنَّه رسولُ الله، فآمَنَ به، وآمَن بما أُنزِل عليه، واتَّقَى الله ما استطاعَ، كما فعَل النَّجاشيُّ وغيرُه، ولم تُمكِنْه الهِجرةُ إلى دارِ الإسلامِ، ولا التِزامُ جميعِ شرائعِ الإسلامِ؛ لِكَونِه ممنوعًا مِن الهجرةِ، وممنوعًا مِن إظهارِ دينِه، وليس عندَه مَن يُعلِّمُه جميعَ شرائعِ الإسلامِ- فهذا مؤمنٌ مِن أهلِ الجنةِ، كما كان مؤمنُ آلِ فِرعَونَ مع قَومِ فِرعَونَ، وكما كانت امرأةُ فِرعَونَ[(١)].

٢- قومُ فِرعَونَ قد يَكونونَ أعرَضوا عن الله بالكُلِّيَّةِ بعدَ أن كانوا مشركينَ به، واستجابوا لفِرعَونَ في قولِه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] و: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]. ولهذا لَمَّا خاطبَهم المؤمنُ ذكَر الأمْرَينِ، فقال: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾، فذكَر الكفرَ به الَّذي قد يَتناوَلُ جُحودَه، وذكَر الإشراكَ به أيضًا؛ فكان كلامُه مُتناوِلًا للمقالتَيْنِ والحالَيْنِ جميعًا[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ استِعمالُ التَّعريضِ؛ لأنَّه لا شَكَّ أنَّ أوَّلَ مَن يَدخُلُ في هذه الجُملةِ هؤلاء، لكِنَّه لم يَشَأْ أنْ يَتكلَّمَ بذلك صَريحًا[(٣)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ أنَّ النَّارَ موجودةٌ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٣٨).

الآنَ[١].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ قال ابنُ سِيرينَ: (كان أبو هُريرةَ يأتينا بعدَ صَلاةِ العَصرِ، فيَقولُ: عَرَجَتْ ملائِكةٌ، وهَبَطَت ملائِكةٌ، وعُرِضَ آلُ فِرعَونَ على النَّارِ، فلا يَسمَعُه أحَدٌ إلَّا يَتعوَّذُ باللهِ مِن النَّارِ)[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ إثباتُ عذابِ القَبرِ[٣]؛ لأنَّه يَقتَضي عَرْضَ النَّارِ عليهم غُدُوًّا وعَشيًّا، وليس المرادُ منه يومَ القيامةِ؛ لأنَّه قال: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، وليس المرادُ منه أيضًا الدُّنيا؛ لأنَّ عَرْضَ النَّارِ عليهم غُدُوًّا وعَشيًّا ما كان حاصِلًا في الدُّنيا؛ فثَبَت أنَّ هذا العَرْضَ إنَّما حَصَل بعدَ المَوتِ وقبْلَ يومِ القيامةِ، وذلك يدُلُّ على إثباتِ عَذابِ القَبرِ في حَقِّ هؤلاء، وإذ ثَبَت في حَقِّهم ثَبَت في حَقِّ غَيرِهم؛ لأنَّه لا قائِلَ بالفَرقِ[٤].

٧- عذابُ القَبرِ نَوعانِ: نَوعٌ دائِمٌ -سِوى ما ورَدَ في بعضِ الأحاديثِ أنَّه يُخَفَّفُ عنهم ما بيْنَ النَّفخَتَينِ- ويدُلُّ على دَوامِه قَولُه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾، ويدُلُّ عليه أيضًا حَديثُ سَمُرةَ الَّذي رواه البُخاريُّ في رُؤْيا النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وفيه: ((فهو يُفعَلُ به ذلك إلى يَومِ القيامةِ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور)) لابن رجب (ص: ٤٢).

ويُنظر ما أخرجه اللَّالَكائيُّ (٢١٤٢)، والبيهقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٣٩٦) من طريق ميمونِ ابنِ مَيْسَرةَ عن أبي هريرةَ بنحوِه.

(٣) يُنظر: ((الرُّوح)) لابن القيم (ص: ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢١).

(٥) أخرجه البخاري (١٣٨٦). ولفظُه: ((أمَّا الَّذي رأيْتَه يُشَقُّ شِدْقُه، فكذَّابٌ يُحَدِّثُ بالكَذْبةِ، فتُحْمَلُ عنه حتَّى تَبْلُغَ الآفاقَ، فيُصْنَعُ به إلى يومِ القيامةِ، والَّذي رأيْتَه يُشْدَخُ رأسُه، فرجُلٌ عَلَّمه اللهُ =

والنَّوعُ الثَّاني: إلى مُدَّةٍ ثمَّ يَنقَطِعُ، وهو عذابُ بَعضِ العُصاةِ الَّذين خَفَّت جرائِمُهم، فيُعَذَّبُ بحَسَبِ جُرمِه، ثمَّ يُخَفَّفُ عنه، كما يُعذَّبُ في النَّارِ مُدَّةً، ثمَّ يَزولُ عنه العَذابُ، وقد ينقَطِعُ عنه العذابُ بدُعاءٍ أو صَدَقةٍ أو استِغفارٍ أو ثَوابِ حَجٍّ تَصِلُ إليه مِن بَعضِ أقاربِه أو غَيرِهم(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ أنَّ هذا العَرْضَ قبْلَ الحَشرِ؛ إذْ هم بعدَ الحَشرِ إذا دَخَلوها فهم دائِمونَ فيها، مُعَذَّبونَ بسَرمَدِ العَذابِ، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، فإنَّما العَرْضُ بالغُدُوِّ والعَشِيِّ على مَن ليس دائِمًا فيها، وقد أكَّدَ ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، فهذا عَذابٌ سِوى العَرضِ، وفي مَحَلٍّ غَيرِ مَحَلِّ العَرْضِ(٢).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ استدَلَّ به مَن قال: إنَّ أرواحَ الكُفَّارِ بعدَ مُفارَقةِ البَدَنِ ليس مَقَرُّها النَّارَ(٣).

١٠- لَفظُ «آلِ فُلانٍ» إذا أُطلِقَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ دَخَلَ فيه فُلانٌ، كما في قَولِه تعالى: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، وقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقولِه: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: ٣٤]، ومنه قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((اللَّهُمَّ صَلِّ على

= القُرآنَ، فنامَ عنه باللَّيلِ ولم يَعْمَلْ فيه بالنَّهارِ، يُفْعَلُ به إلى يومِ القيامةِ)).

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٦).

ويُنظر الكلامُ عن مُستقَرِّ الأرواحِ في البرزخ في ((الرُّوح)) لابن القيِّم (ص: ١١٥).

آلِ أبي أَوْفَى))[١].

١١- إذا قيل: إنْ قال الله تعالى في المنافِقينَ: إنَّهم في الدَّرْكِ الأسفَلِ مِن النَّارِ، وقال في آلِ فِرعَونَ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، فأيُّهما أشَدُّ عَذابًا: المُنافِقونَ أم آلُ فِرعَونَ؟

والجوابُ: أنَّ الدَّرْكَ الأسْفَلَ يَجوزُ أن يكونَ هو أشَدَّ العَذابِ، فسُمِّيَ باسمَينِ مُختَلِفَينِ، كما يقول القائِلُ: أدخِلْ فُلانًا المُطبقَ[٢]، ثمَّ يقولُ بعدَ ذلك: أدخِلْه أضْيَقَ المجالِسِ وأشَدَّها، فيكونُ هذا مُوافِقًا للأوَّلِ، غيرَ مُخالِفٍ له[٣].

١٢- أنَّ تَفاوُتَ أهلِ النَّارِ في العَذابِ هو بحَسَبِ تفاوُتِ أعمالِهم الَّتي دخَلوا بها النَّارَ، فليس عِقابُ مَن تَغلَّظ كُفرُه، وأفسَدَ في الأرضِ، ودعا إلى الكُفرِ: كمَن ليس كذلك؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وكذلك تَفاوُتُ عذابِ عُصاةِ الموحِّدينَ في النَّارِ بحَسَبِ أعمالِهم؛ فليس عقوبةُ أهلِ الكبائِرِ كعُقوبةِ أصحابِ الصَّغائِرِ، وقد يُخَفَّفُ عن بَعضِهم العذابُ بحَسَناتٍ أُخَرَ له، أو بما شاء اللهُ مِن الأسبابِ[٤].

١٣- قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ هذا تنبيهٌ على أنَّ فِرعَونَ نَفْسَه في الأشَدِّ مِن ذلك؛ لأنَّهم إنَّما دَخَلوا أشَدَّ العَذابِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٦٢).

والحديث رواه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ أبي أَوْفَى رضي الله عنه.

(٢) المُطبَقُ: سِجنٌ تحتَ الأرضِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٦/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٧/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٨٢).

تَبَعًا له؛ فإنَّه هو الَّذي استخَفَّهم فأطاعوه، وغَرَّهم فاتَّبَعوه؛ ولهذا يكونُ يومَ القيامةِ إمامَهم وفَرَطَهم[١] في هذا الوِردِ؛ قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨]. والمقصودُ: أنَّهم استَحَقُّوا أشَدَّ العذابِ؛ لِغلَظِ كُفرِهم، وصَدِّهم عن سَبيلِ اللهِ، وعُقوبتِهم مَنْ آمَنَ باللهِ[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أعاد نِداءَهم، وعُطِفَت حِكايتُه بواوِ العطْفِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ نِداءَه اشتمَلَ على ما يَقْتضي في لُغتِهم أنَّ الكلامَ قد تَخطَّى مِن غرَضٍ إلى غرَضٍ، وأنَّه سيَطْرُقُ ما يُغايِرُ أوَّلَ كَلامِه مُغايرةً ما تُشبِهُ مُغايرةَ المتعاطفَينِ في لُغةِ العرَبِ، وأنَّه سيَرْتَقي باستِدراجِهم في دَرَجِ الاستِدلالِ إلى المقصودِ بعْدَ المقدِّماتِ؛ فانتقَلَ هنا إلى أنْ أنكَرَ عليهم شيئًا جَرى منهم نحوه؛ وهو أنَّهم أعْقَبوا مَوعظتَه إيَّاهم بدَعوتِه للإقلاعِ عن ذلك، وأنْ يَتمسَّكَ بدِينِهم، وهذا شَيءٌ مَطْويٌّ في خِلالِ القصَّةِ دلَّتْ عليه حِكايةُ إنكارِه عليهم، وهو كلامُ آيِسٍ مِن استِجابتِهم؛ لقولِه فيه: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٤]، ومُتوقِّعٍ أذاهم؛ لقولِه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤]، ولقولِه تعالى آخِرَ القصَّةِ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ [غافر: ٤٥]، فصرَّحَ هنا وبيَّن بأنَّه لم يَزَلْ يَدعوهم إلى اتِّباعِ ما جاء به مُوسى، وفي

---

(١) أي: مُتقدِّمَهم وسابقَهم، والفَرَطُ والفارِطُ هو الَّذي يَسبِقُ القَومَ إلى الماءِ لِيُصلِحَ لهم الحِياضَ والدِّلاءَ ونحوَها حتَّى يَرِدُوا فيَشرَبوا. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطَّابي (٣/ ٢٢٧٤)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (٩/ ١٥٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٠٩).

قال البقاعي: (وإذا كان هذا لآلِه لِأَجْلِه؛ كان له أعظَمُ منه مِن بابِ الأَوْلى). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٨٢).

اتِّباعِه النَّجاةُ مِن عَذابِ الآخرةِ[١].

- وقيل: قد جِيءَ بالواوِ في النِّداءِ الثَّالثِ ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ خِلافًا للنِّداءِ الثَّاني؛ لأنَّ النِّداءَ الثَّانيَ بمنزلةِ بَيانٍ للأوَّلِ وتَفسيرٍ له، فأُعطِيَ حُكمَه في عَدَمِ دُخولِ الواوِ عليه، وأمَّا الثَّالثُ فداخلٌ على كَلامٍ ليس بتلك المنزلةِ[٢].

- وتَكريرُ نِدائِهم فيه زِيادةُ تَنبيهٍ لهم، وإيقاظٌ عن سِنَةِ الغَفلةِ. وفيه أنَّهم قَومُه وعَشيرتُه، وهمْ فيما يُوبِقُهم، وهو يَعلَمُ وَجْهَ خَلاصِهم، ونَصيحتُهم عليه واجبةٌ، فهو يَتحزَّنُ لهم ويَتلطَّفُ بهم، ويَسْتدعي ذلك ألَّا يَتَّهِموه؛ فإنَّ سُرورَهم سُرورُه، وغَمَّهم غَمُّه، ويَنزِلوا على تَنصيحِه لهم[٣].

- والاستِفهامُ في ﴿مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ استِفهامٌ تَعجُّبيٌّ؛ فإنَّه يَعجَبُ مِن دَعوتِهم إيَّاه لِدِينِهم، مع ما رَأَوْا مِن حِرْصِه على نُصْحِهم، ودَعوتِهم إلى النَّجاةِ، وما أتاهم به مِن الدَّلائلِ على صِحَّةِ دَعوتِه، وبُطلانِ دَعوتِهم[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾

- جُملةُ ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ ...﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥١، ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨، ١٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨، ١٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٢).

لأنَّ الدَّعوةَ إلى النَّارِ أمْرٌ مُجمَلٌ مُستغرَبٌ، فبَيَّنه ببَيانِ أنَّهم يَدْعونه إلى التَّلبُّسِ بالأسبابِ الموجِبةِ عَذابَ النَّارِ، والمعنى: تَدْعونني للكفْرِ باللهِ، وإشراكِ ما لا أعلَمُ مع اللهِ في الإلهيَّةِ، ومعنى ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ما ليس لي بصِحَّتِه أو بوُجودِه عِلمٌ، والكلامُ كِنايةٌ عن كَونِه يَعلَمُ أنَّها ليستْ آلهةً بطَريقِ الكِنايةِ بنَفْيِ اللَّازمِ عن نَفْيِ الملزومِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ الأُلوهيَّةَ لا بُدَّ لها مِن بُرهانٍ يُوجِبُ العِلمَ بها؛ فاعتِقادُها لا يصِحُّ إلَّا عن إيقانٍ، وعُطِفَ عليه ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾؛ فكان بَيانًا لِمُجمَلِ جُملةِ ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾[1].

- وجاء في حقِّهم بالجُملةِ الفِعليَّةِ ﴿وَتَدْعُونَنِى﴾ الَّتي لا تَقْتضي تَوكيدًا؛ إذ دَعوتُهم باطلةٌ لا ثُبوتَ لها فتُؤكَّدَ[2].

- وإبرازُ ضَميرِ المتكلِّمِ في قولِه: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾؛ لإفادةِ تَقَوِّي الخبَرِ بتَقديمِ المُسنَدِ إليه على خَبَرِه الفِعليِّ[3].

- وأوصَلَ سَببَ دُعائِهم بمُسَبَّبِه، وهو الكُفرُ والنَّارُ ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾، وأخَّرَ سببَ مُسبَّبِه ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾؛ لِيَكونَ افتِتاحُ كَلامِه واختِتامُه بما يَدْعو إلى الخَيرِ[4].

- وعُدِلَ عن اسمِ الجَلالةِ إلى الصِّفتَينِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾؛ لإدماجِ الاستِدلالِ على استِحقاقِه تعالى الإفرادَ بالإلهيَّةِ والعِبادةِ، بوَصْفِه العزيزِ؛ لأنَّه لا تَنالُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠).

النَّاسُ، بخِلافِ أصنامِهم؛ فإنَّها ذَليلةٌ تُوضَعُ على الأرضِ، ويَلتصِقُ بها القَتامُ -أي: الغُبارُ- وتُلوِّثُها الطُّيورُ بذَرْقِها[١]، ولإدماجِ تَرغيبِهم في الإقلاعِ عن الشِّركِ بأنَّ الموحَّدَ بالإلهيَّةِ يَغفِرُ لهم ما سلَفَ مِن شِرْكِهم به؛ حتَّى لا يَيْئسوا مِن عَفْوِه بعْدَ أنْ أساؤُوا إليه[٢].

- وبدأ هنا باسم العَزيزِ؛ لأنَّ المقامَ يَقتَضيه؛ إذ إنَّ هؤلاء أقباطٌ مِن آلِ فِرعَونَ يَظُنُّونَ أنَّ العِزَّةَ لهم، ولم يَقُلْ: (إلى الغَفورِ الرَّحيمِ)، بل قال: ﴿إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾، يعني: العزيزَ الغالِبَ، فيُهلِكُكم إذا أنتم كفَرْتُم به أو أشركْتُم به؛ ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ يَغفِرُ لكم ما سَبَق إن أنتم آمَنْتُم به، وهذا مِن تمامِ فِقهِ هذا الرَّجُلِ المؤمِنِ؛ فالمقامُ يَقتَضي ذِكرَ اسمِه العزيزِ؛ لأنَّ هؤلاء يَدَّعُونَ أنَّهم فوقَ النَّاسِ، وأنَّ رَبَّهم فِرعَونُ، وأنَّه لا غالِبَ له[٣]!

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾

- قولُه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ...﴾ واقعٌ مَوقِعَ التَّعليلِ لِجُملَتَيْ ﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّه إذا تَحقَّقَ أنْ لا دَعوةَ للأصنامِ في الدُّنيا بدَليلِ المشاهَدةِ، ولا في الآخرةِ بدَلالةِ الفَحْوى؛ فقدْ تَحقَّق أنَّها لا تُنْجي أتْباعَها في الدُّنيا، ولا يُفيدُهم دُعاؤُها ولا نِداؤُها، وتَحقَّقَ إذَنْ أنَّ المرْجُوَّ للإنعامِ في الدُّنيا والآخرةِ هو الرَّبُّ الَّذي يَدْعوهم هو إليه، وهذا دَليلٌ إقناعيٌّ غيرُ قاطعٍ للمُنازِعِ في إلهيَّةِ ربِّ هذا المؤمِنِ، ولكنَّه أراد إقْناعَهم،

(١) الذَّرقُ مِنَ الطَّائرِ كالتَّغَوُّطِ مِن الإنسانِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٢٥).

واستَحْفَظَهم دَليلَه؛ لأنَّهم سيَظهَرُ لهم قَريبًا أنَّ ربَّ مُوسى له دَعوةٌ في الدُّنيا؛ ثِقةً منه بأنَّهم سيَرَون انتصارَ مُوسى على فِرعونَ، ويَرَونَ صَرْفَ فِرعونَ عن قتْلِ مُوسى بعْدَ عَزْمِه عليه، فيَعلَمون أنَّ الَّذي دَعا إليه مُوسى هو المُتصرِّفُ في الدُّنيا، فيَعلَمون أنَّه المُتصرِّفُ في الآخرةِ[1].

- وفِعلُ الدَّعوةِ (دعا) إذا رُبِطَ بمُتعلَّقٍ غَيرِ مَفعولِه يُعدَّى تارةً باللَّامِ، وهو الأكثرُ في الكلامِ، ويُعدَّى بحَرْفِ (إلى)، وهو الأكثَرُ في القرآنِ؛ لِمَا يَشتمِلُ عليه مِن الاعتباراتِ؛ ولذلك عُلِّقَ به مَعمولُه في هذه الآياتِ أربَعَ مرَّاتٍ بـ (إلى) ومرَّةً باللَّامِ، مع ما في رَبْطِ فِعلِ الدَّعوةِ بمُتعلَّقِه -الَّذي هو مِن المَعنويَّاتِ- مِن مُناسَبةِ لامِ التَّعليلِ، مِثلُ ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ ﴾، ورَبْطِه بما هو ذاتٌ بحَرْفِ (إلى) في قولِه: ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ ﴾؛ فإنَّ النَّجاةَ هي نَجاةٌ مِن النَّارِ؛ فهي نَجاةٌ مِن أمْرٍ مَحسوسٍ، وقولِه: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾، وقولِه: ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ و﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لأنَّ حرْفَ (إلى) دالٌّ على الانتهاءِ؛ لأنَّ الَّذي يَدْعو أحدًا إلى شَيءٍ إنَّما يَدْعوه إلى أنْ يَنتهِيَ إليه، فالدُّعاءُ إلى اللهِ الدُّعاءُ إلى تَوحيدِهِ؛ فشُبِّهَ بشَيءٍ مَحسوسٍ تَشبيهَ المعقولِ بالمحسوسِ، وشُبِّهَ اعتقادُه صِحَّتَه بالوُصولِ إلى الشَّيءِ المَسْعيِّ إليه، وشُبِّهَت الدَّعوةُ إليه بالدَّلالةِ على الشَّيءِ المرغوبِ الوصولُ إليه[2].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عطْفَ اللَّازمِ على مَلزومِه؛ لأنَّه إذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٤، ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٥٣).

تبيَّن أنَّ ربَّ مُوسى المُسمَّى (الله) هو الَّذي له الدَّعوةُ، تبيَّن أنَّ المَرَدَّ -أي: المصيرَ- إلى الله؛ في الدُّنيا بالالتِجاءِ والاستِنصارِ، وفي الآخرةِ بالحُكْمِ والجزاءِ، ولو عُطِفَ مَضمونُ هذه الجُملةِ بالفاءِ المفيدةِ للتَّفريعِ لَكانت حَقيقةً بها، ولكنْ عُدِلَ عن ذلك إلى عطْفِها بالواوِ؛ اهتِمامًا بشَأْنِها؛ لِتَكونَ مُستقِلَّةَ الدَّلالةِ بنفْسِها، غيرَ باحثٍ سامِعُها على ما تَرتبِطُ به؛ لأنَّ الشَّيءَ المُتفرِّعَ على شَيءٍ يُعتبَرُ تابعًا له. وكذلك جُملةُ ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بالنِّسبةِ إلى تَفرُّعِ مَضمونِها على مَضمونِ جُملةِ ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه إذا كان المصيرُ إليه كان الحُكْمُ والجزاءُ بيْن الصَّائرينَ إليه مِن مُثابٍ ومُعاقَبٍ، فيَتعيَّنُ أنَّ المعاقَبَ هم الكافرونَ بالله[1].

- وتَعريفُ ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ تَعريفُ الجنْسِ المُفيدِ للاستِغراقِ، وهو تَعريضٌ بالَّذين يُخاطِبُهم؛ إذ هم مُسرِفون على كلِّ تَقديرٍ؛ فهمْ مُسرِفون في إفراطِ كُفْرِهم بالرَّبِّ الَّذي دعا إليه مُوسى، ومُسرِفون فيما يَسْتتبِعُ ذلك مِن المعاصي والجرائمِ؛ فضَميرُ الفصْلِ في قولِه: ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يُفيدُ قصْرًا ادِّعائيًّا[2]؛ لأنَّهم المُتناهُون في صُحبةِ النَّارِ بسَببِ الخُلودِ، بخِلافِ عُصاةِ المؤمنينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٥).

(٢) القصرُ الادِّعائي: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاء والمبالَغةِ، بتنزيلِ غَيرِ المذكورِ مَنزلةَ العدَمِ، وقصْرُ الشيء على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٦)، ((عروس الأفراح)) للسبكي (١/ ٣٩٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٤، ٥٤٥).

ويُنظر ما تقدم (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٥، ١٥٦).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ ختَمَ المؤمنُ كَلامَه بخاتمةٍ لَطيفةٍ تُوجِبُ التَّخويفَ والتَّهديدَ، وهي قولُه: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾، أي: إذا حلَّ بكم عِقابُ اللهِ، وهذا الكلامُ مُتارَكةٌ لِقَومِه، وتَنهيةٌ لِخِطابِه إيَّاهم، ولَعلَّه استَشْعَرَ مِن مَلامِحِهم أو مِن مُقاطعتِهم كَلامَه بعباراتِ الإنكارِ، ما أيْأَسَه مِن تَأثُّرِهم بكَلامِه، فتَحدَّاهم بأنَّهم إنْ أعْرَضوا عن الانتِصاحِ لِنُصْحِه، سيَنْدَمون حينَ يَرَونَ العذابَ؛ إمَّا في الدُّنيا، كما اقتضاهُ تَهديدُه لهم بقولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ [غافر: ٣٠]، أو في الآخرةِ، كما اقتضاهُ قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ [غافر: ٣٢]؛ فالفاءُ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[1] [غافر: ٤١].

- وقولُه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾، ومَساقُ هذه الجُملةِ مَساقُ الانتِصافِ منهم؛ لِمَا أظْهَروه له مِن الشَّرِّ، يعني: أنِّي أَكِلُ شَأْني وشَأْنَكم معي إلى قَضاءِ اللهِ وقدَرِه، لا إليكمْ ولا إلى أصنامِكم؛ فهو يَجْزي كلَّ فاعلٍ بما فَعَل، وهذا كَلامُ مُنصِفٍ؛ فالمُرادُ بـ﴿أَمْرِيٓ ﴾ شأْني ومُهِمِّي، ويدُلُّ لمعنى الانتِصافِ تَعقيبُه بما يُوجِبُ تَفويضَ الأمْرِ للهِ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾، مُعلِّلًا تَفويضَ أمْرِه معهم إلى اللهِ بأنَّ اللهَ بصيرٌ بجَميعِ العِبادِ؛ فعُمومُ (العِبادِ) شَمِلَه وشَمِلَ خُصومَه[2].

- وختَمَ كَلامَه بجُملةٍ اسميَّةٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾؛ لِيَكونَ أبلَغَ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٦، ١٥٧).

تَوكيدِ الأخبارِ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾

- تَفريعُ ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّهم أضْمَروا مَكرًا بمُؤمنِ آلِ فِرعونَ، وتَسميتُه مَكْرًا مُؤذِنٌ بأنَّهم لم يُشعِروه به، وأنَّ اللهَ تَكفَّلَ بوقايتِه؛ لأنَّه فوَّضَ أمْرَه إليه[٢].

- قولُه: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ (ما) مَصدريَّةٌ، والمعنى: سَيِّئاتِ مَكْرِهم. وإضافةُ ﴿سَيِّـَٔاتِ﴾ إلى (مَكْر) إضافةٌ بَيانيَّةٌ، وهي هنا في قوَّةِ إضافةِ الصِّفةِ إلى المَوصوفِ؛ لأنَّ المكْرَ سيِّئٌ، وإنَّما جُمِعَ السَّيِّئاتُ باعتبارِ تَعدُّدِ أنواعِ مَكْرِهم الَّتي بَيَّتُوها[٣].

- قولُه: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ أي: بفِرعونَ وقَومِه، وعَدمُ التَّصريحِ به؛ للاستِغناءِ بذِكرِهم عن ذِكرِه؛ ضرورةَ أنَّه أَولَى منهم بذلك[٤].

- والعذابُ هنا: الغرَقُ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، ومُناسَبةُ فِعلِ (حاق) لذلك العذابِ أنَّه ممَّا يَحيقُ على الحقيقةِ[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ كيفيَّةِ سُوءِ العذابِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٧، ١٥٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٨).

- وقولُه: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ فيه تَعظيمٌ للنَّارِ، وتَهويلٌ مِن عذابِها[١].

- وقوله: ﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ قيل: هو كِنايةٌ عن الدَّوامِ؛ لأنَّ الزَّمانِ لا يَخْلو عن هذَينِ الوقتَينِ، وقيل: ذِكرُ الوقتَينِ يَحتمِلُ التَّخصيصَ[٢].

- وقولُه: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ ذِكرٌ لِعَذابِ الآخرةِ الخالدِ، وقيل: عُلِمَ مِن عَذابِ آلِ فِرعونَ أنَّ فِرعونَ داخلٌ في ذلك العذابِ بدَلالةِ الفَحْوى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠).

وذلك على أنَّ قولَه: ﴿ٱلنَّارُ﴾ مبتدأٌ، وجملةَ: ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ خبرُه، والجملةَ تفسيرٌ لقولِه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ ففي هذا الوجهِ تعظيمُ أمرِ النَّارِ، وتهويلُ عذابِها، ومنشأُ التعظيمِ: الإجمالُ، والتفسيرُ في كيفيةِ تعذيبِهم، وإفادةُ كلٍّ مِن الجملتينِ نوعًا مِن التَّهويلِ؛ الأُولى: الإحاطةُ بعذابٍ يستحِقُّ أنْ يسمَّى (سوءَ العذابِ). والثانيةُ: النَّارُ المعروضُ عليها غدوًّا وعشيًّا. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٩).

وفحْوَى الخطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولَى، كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظَمُ مِن التَّافيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كان دونَ القِنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأُولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

الآيات (٤٧-٥٠)

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَتَحَآجُّونَ﴾: أي: يَختَصِمونَ، والمُحاجَّةُ: أن يَطلُبَ كلُّ واحدٍ أن يَرُدَّ الآخَرَ عن حُجَّتِه ومَحَجَّتِه، والحُجَّةُ: البُرهانُ والسُّلطانُ، وأصلُ (حجج): يدُلُّ على قَصدِ جادَّةِ الطَّريقِ[(١)].

﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾: الخَزَنَةُ: جمْعُ الخازِنِ، وهم الملائكةُ الموكَّلونَ على النَّارِ، والخَزْنُ: حِفظُ الشَّيءِ في الخِزانةِ، ثمَّ يُعبَّرُ به عن كلِّ حِفْظٍ؛ كحِفْظِ السِّرِّ ونحوِه، وأصلُ (خزن): يدُلُّ على صيانةِ الشَّيءِ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن بعضِ ما يَدورُ بيْنَ أهلِ النَّارِ مِن جدالٍ، فيقولُ: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حينَ يَتجادَلُ الكُفَّارُ في النَّارِ، فيَقولُ الضُّعَفاءُ مِن الأتْباعِ لِكُبَرائِهم المتبوعينَ في الدُّنيا: إنَّا كُنَّا في الدُّنيا تابِعينَ مُطيعينَ لكم، فهل أنتم دافِعونَ عَنَّا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٦/ ٤٠).

شيئًا مِن عذابِ النَّارِ؟ قال كُبَراؤُهم: إنَّنا جميعًا في النَّارِ، إنَّ اللهَ قد حَكَم بيْنَ عِبادِه!

وقال أهلُ النَّارِ لخَزَنةِ جَهنَّمَ الموكَّلِينَ بها: ادعُوا رَبَّكم يُخَفِّفْ عنَّا يومًا واحِدًا مِن عذابِ النَّارِ. قال لهم خَزَنةُ جَهنَّمَ: أوَلَم تكُ تأتيكم رُسُلُكم في الدُّنيا بالحُجَجِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ؟ قالوا: بلى. قالوا لهم: فادعُوا اللهَ إذَنْ أن يُخَفِّفَ عنكم العَذابَ، وما دُعاءُ الكافِرينَ لله إلَّا في ضَياعٍ وخُسرانٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الكلامَ في تلك القِصَّةِ لَمَّا انجَرَّ إلى شَرحِ أحوالِ النَّارِ؛ لا جَرَمَ ذَكَر اللهُ عَقِبَها قِصَّةَ المناظَراتِ الَّتي تجري بيْنَ الرُّؤَساءِ والأتْباعِ مِن أهلِ النَّارِ(١).

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حينَ يَتجادَلُ الكُفَّارُ(٢) .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٢).

(٢) قيل: المرادُ بهم هنا: مُشرِكو أمَّةِ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٢).
وقيل: المرادُ: فِرعَونُ وقَومُه. وممَّن استظهَر هذا: أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٢).
وقيل: هم الَّذين تقدَّمَ ذِكرُهم في قَولِه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ ﴾ [غافر: ٣٥]. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٩، ١٦٠).
وقيل: المرادُ: جميعُ كُفَّارِ الأُمَمِ، وأنَّ هذا ابتِداءُ قَصَصٍ لا يختَصُّ بآلِ فِرعَونَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عطيَّة، وهو ظاهرُ اختيارِ القرطبي، واختاره الثعالبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير =

ويَتخاصَمونَ في النَّارِ[١].

﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾.

أي: فيَقولُ الضُّعَفاءُ -وهم الأتْباعُ- لِرُؤسائِهم المَتبوعينَ الَّذين تَكبَّروا وتَعاظَموا عن قَبولِ الحَقِّ واتِّباعِه: إنَّا كُنَّا في الدُّنيا نَتَّبِعُكم ونُطيعُكم فيما دَعَوْتُمونا إليه مِنَ الضَّلالِ[٢].

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

أي: فهل أنتم -أيُّها المُستَكبِرونَ- مُتحَمِّلونَ عنَّا قِسطًا وجُزءًا مِنَ النَّارِ[٣]؟!

= ابن عطية)) (٤/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٧).

قال ابن كثير: (يخبِرُ تعالى عن تَحاجِّ أهلِ النَّارِ في النَّارِ، وتخاصُمِهم، وفِرعَونُ وقَومُه مِن جُملتِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩).

وممَّن اختار العُمومَ أيضًا -وأنَّ المرادَ: أهلُ النَّارِ-: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والرسعني، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

(١) يُنظر: ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٤٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

قال ابنُ عاشور: (الضُّعَفاءُ: عامَّةُ النَّاسِ الَّذين لا تَصَرُّفَ لهم في أمورِ الأُمَّةِ. والَّذين استَكبَروا: سادةُ القَومِ، أي: الَّذين تكَبَّروا كِبْرًا شَديدًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٠، ١٦١).

وقال ابن عثيمين: (الضُّعفاءُ إمَّا في المالِ، وإمَّا في الشَّرفِ والسِّيادةِ، وإمَّا في غيرِ ذلك ممَّا يُعَدُّ ضَعفًا، والغالبُ أنَّ الضَّعيفَ يَتبعُ القَويَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾.

أي: قال المُستكبِرونَ: نحن وأنتم جميعًا مُعَذَّبونَ في النَّارِ[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ قد حَكَم بيْنَ عِبادِه بالعَدلِ، فلا يُؤاخِذُ أحَدًا بذَنْبِ غَيرِه، وقَسَم بيْنَنا العَذابَ بقَدرِ ما يَستَحِقُّه كُلُّ واحدٍ مِنَّا، ولن يُغنيَ أحَدٌ عن أحَدٍ شيئًا[٢]!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمًا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ظَهَر أنَّه لا يُغْني أحَدٌ عن أحَدٍ شَيئًا؛ أخبَرَ أنَّهم لَمَّا رأَوا بُعْدَهم مِنَ اللهِ، وأنَّهم لَيسُوا بأهلٍ لِدُعائِه سُبحانَه؛ عَلَّقوا آمالَهم بتوسُّطِ الملائِكةِ[٣].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمًا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٢).

قال ابن عاشور: (معنى قولِهم: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ نحنُ وأنتم مُستَوونَ في الكَونِ في النَّارِ، فكيفَ تَطمعونَ أن نَدفَعَ عنكم شيئًا مِن العذابِ؟ وعلى وجْهِ أن يكونَ قولُ الضُّعفاءِ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا ﴾ إلى آخِرِه توبيخًا ولَومًا لزعمائِهم يَكونُ قولُ الزُّعماءِ: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ اعترافًا بالغلَطِ، أي: دَعُوا لَوْمَنا وتَوبيخَنا؛ فقد كَفانا أنَّا معكم في النَّارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٢). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٣، ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٢، ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٤).

أي: وقال أهلُ النَّارِ مِن المُستَكبِرينَ والضُّعَفاءِ لخَزَنةِ جَهنَّمَ الموكَّلِينَ بها: ادعُوا رَبَّكم يُخَفِّفْ عنَّا يَومًا واحِدًا مِن عذابِ النَّارِ؛ فتَحصُلَ لنا بعضُ الرَّاحةِ[١]!

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٥٠﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: قال لهم خَزَنةُ جَهنَّمَ: أوَلَم تَكُ تأتيكم رُسُلُكم في الدُّنيا بالحُجَجِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ[٢]؟

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾.

أي: قال الَّذين في النَّارِ لخَزَنةِ جَهنَّمَ: بلى، قد جاءَنا الرُّسُلُ بالبَيِّناتِ، فكذَّبْناهم ولم نُؤمِنْ بالحَقِّ بعد أن قامَت علينا حُجَّةُ اللهِ البالِغةُ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٤).

قال ابنُ جرير: (معنى ذلك: قَدْرَ يَومٍ مِن أيَّامِ الدُّنيا؛ لأنَّ الآخِرةَ يومٌ لا لَيْلَ بعدَه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٥).

قال ابن عاشور: (الواوُ في قوله: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم﴾ لم يُعرِّجِ المفسِّرونَ على مَوقِعِها. وهي واوُ العطفِ، عطَف بها خَزَنةُ جهنَّمَ كلامَهم على كلامِ الَّذين في النَّارِ مِن قَبيلِ طريقةِ عطفِ المُتكلِّمِ كلامًا على كلامٍ صدَر مِن المخاطَبِ إيماءً إلى أنَّ حقَّه أن يكونَ مِن بقيَّةِ كلامِه وألَّا يُغفِلَه، وهو ما يُلَقَّبُ بـ «عطفِ التَّلقينِ»، كقولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

﴿قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟﴾.

أي: قال خَزَنَةُ جَهَنَّمَ: فادعُوا الله إذَنْ أن يُخَفِّفَ عنكم العَذابَ[(١)].

﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

أي: وما دُعاءُ الكافِرينَ لله وهم في نارِ جَهنَّمَ إلَّا في ضَياعٍ؛ فهو غيرُ مُوصِلٍ للمَقصودِ، ولا مُحَقِّقٍ للمَطلوبِ؛ فاللهُ لا يَستجيبُ دُعاءَهم، ولا يَتقَبَّلُه منهم[(٢)]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ فيه عِبرةٌ لِزُعماءِ الأُمَمِ وقادتِهم: أن يَحذَروا الارتِماءَ بأنفُسِهم في مَهاوي الخُسرانِ، فيُوقِعوا المُقتَدِينَ بهم في تلك المَهاوي؛ فإنْ كان إقدامُهم ومُغامَرتُهم بأنفُسِهم وأُمَمِهم على عِلمٍ بعواقِبِ ذلك كانوا أحْرِياءَ بالمَذَمَّةِ والخِزْيِ في الدُّنيا، ومُضاعَفةِ العذابِ في الآخِرةِ؛ إذ ما كان لهم أن يَغُرُّوا بأقوامٍ وكَّلوا أُمورَهم بقادتِهم عن حُسنِ ظَنٍّ فيهم: أن يَخونوا أمانَتَهم فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وإن كان قَحْمُهم أنفُسَهم في مَضائِقِ الزَّعامةِ عن جَهلٍ بعَواقِبِ قُصورِهم وتَقصيرِهم، فإنَّهم مَلُومونَ على عدَمِ التَّوَثُّقِ مِن كفاءتِهم لتَدبيرِ الأُمَّةِ، فيَخبِطوا بها خَبْطَ عَشواءَ حتَّى يَزِلُّوا بها، فيَهْوُوا بها مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٦٢).

شواهِقَ بَعيدةٍ، فيَصيروا رَميمًا، ويَلْقَوا في الآخِرةِ جَحيمًا[١]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْۚ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾، أي: ذَهابٍ في غيرِ طَريقٍ مُوصِلٍ، كما كانوا هُم في الدُّنيا كذلك؛ فإنَّ الدُّنيا مَزرَعةُ الآخِرةِ: مَن زرَع شَيئًا في الدُّنيا، حَصَده في الآخِرةِ، والآخرةَ ثَمرةُ الدُّنيا: لا تُثمِرُ إلَّا مِن جِنسِ ما غُرِسَ في الدُّنيا[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ بيانُ أنَّ مَن أطاع مَخلوقًا في مَعصيةِ اللهِ كان له نَصيبٌ مِن هذا الذَّمِّ والعِقابِ، والمُطيعُ للمَخلوقِ في مَعصيةِ اللهِ ورَسولِه: إمَّا أن يَتَّبِعَ الظَّنَّ، وإمَّا أن يَتَّبِعَ ما يَهواه، وكثيرٌ يَتَّبِعُهما، وهذه حالُ كُلِّ مَن عصَى رَسولَ اللهِ مِن المُشرِكينَ وأهلِ الكِتابِ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى، ومِن أهلِ البِدَعِ والفُجورِ مِن هذه الأُمَّةِ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ هذا إخبارٌ مِن الله وتحذيرٌ بأنَّ المَتبوعينَ والتَّابِعينَ اشْتَركوا في العذابِ، ولم يُغْنِ عنهم تقليدُهم شيئًا، وأصرَحُ مِن هذا قولُه تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٩٨).

ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧]، وهذا يدُلُّ على أنَّ كُفرَ مَنِ اتَّبَعهم إنَّما هو بمُجرَّدِ اتِّباعِهم وتقليدِهم(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ بَعْدَ قَولِه سبحانه: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ حُجَّةٌ في تعذيبِ فِرعَونَ مع سائرِ آلِ فِرعَونَ في البَرزخِ وفي يومِ القيامةِ، ومعلومٌ أنَّ فِرعَونَ هو رأسُ المستكبِرينَ؛ وهو الَّذي استخفَّ قَومَه فأطاعوه، ولم يَسْتكبِرْ أحدٌ استِكبارَ فِرعَونَ! فهو أحَقُّ بهذا النَّعتِ والحُكمِ مِن جميعِ قَومِه(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ المرادُ بالعبادةِ هنا: العبادةُ العامَّةُ -وهي العبادةُ الكَونيَّةُ-؛ لأنَّ العبادةَ نَوعانِ:

النَّوعُ الأوَّلُ: عبوديةٌ عامَّةٌ: وهي العُبوديَّةُ الكَونيَّةُ، وتشمَلُ المؤمِنَ والكافِرَ، والبرَّ والفاجِرَ؛ لقولِه تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣] . فكلُّ مَن في السَّمواتِ والأرضِ فهو خاضِعٌ لله سبحانَه كونًا.

والنَّوعُ الثاني: عُبوديَّةٌ خاصَّةٌ: وهي العبوديَّةُ الشَّرعيَّةُ، وهي التَّذلُّلُ له سبحانَه

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٢، ٤١٣).

وفصَّل ابنُ القيِّم في أمرِ المقلِّدِ؛ ففرَّق بيْنَ مُقلِّدٍ تمكَّن مِن العِلمِ ومعرفةِ الحقِّ فأعرَضَ عنه، ومُقلِّدٍ لم يَتمكَّنْ مِن ذلك بوجهٍ، والقِسمانِ واقِعانِ في الوُجودِ؛ فالمُتمكِّنُ المُعرِضُ مُفرِّطٌ تارِكٌ للواجبِ عليه، لا عُذرَ له عندَ الله، وأمَّا العاجزُ عن السُّؤالِ والعِلمِ، الَّذي لا يَتمكَّنُ مِن العلمِ بوجهٍ، فهم قِسمانِ أيضًا: أحدُهما: مُريدٌ للهدَى، مُؤْثِرٌ له، مُحِبٌّ له، غيرُ قادرٍ عليه ولا على طلبِه؛ لعدمِ مَن يُرشِدُه، فهذا حُكمُه حُكمُ أربابِ الفَتراتِ، ومَن لم تَبلُغْه الدَّعوةُ. الثَّاني: مُعرِضٌ لا إرادةَ له، ولا يُحدِّثُ نفْسَه بغيرِ ما هو عليه، وهذا لا يجِبُ أن يَلحقَ بالأولِ؛ لِما بيْنَهما مِن الفَرقِ، فهناك فَرقٌ بيْنَ عَجْزِ الطَّالبِ وعَجزِ المُعرِضِ. ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٨٢).

شرعًا، فهذه خاصَّةٌ بالمؤمنينَ بالله، القائِمينَ بأمرِه[١].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ...﴾ كُلُّ كَلامٍ ذُكِرَ في القُرآنِ مِن كَلامِهم كُلِّه فهو قَبْلَ أن يَقولَ: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[٢] [المؤمنون: ١٠٨].

٦- أنَّ أهلَ النارِ يُعَذَّبون عذابًا بدنيًّا وعذابًا قلبيًّا؛ فالعذابُ القلبيُّ هو التَّقريعُ والتَّوبيخُ لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾، فهذا يكونُ أشَدَّ عليهم مِن عذابِ البَدَنِ، ولهذا يقولونَ: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، قال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾[٣] [الملك: ١١].

٧- قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾، دَلَّتْ هذه الآيةُ وأمثالُها في القرآنِ العظيمِ على أنَّ اللهَ جَلَّ وعلا لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بعدَ الإنذارِ والإعذارِ على ألْسِنةِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال جلَّ وعلا: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾، ودلَّت هذه الآياتُ أيضًا على أنَّ جميعَ أهلِ النَّارِ أنْذَرَتْهم الرُّسلُ في دارِ الدُّنيا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٥٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٨٩). ويُنظر أيضًا: ((معارج القبول)) للحكمي (٢/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٦، ٦٧).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾، استدَلَّ به مَن قال: إنَّ دعاءَ الكافرينَ لا يُستجابُ، وأنَّهم لا يُمكَّنونَ مِن الخروجِ في الاستِسقاءِ[(١)]، وأمَّا ما يُوهِمُ استِجابةَ دُعاءِ الكافرينَ، نحو قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤]، وقولِه: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣]؛ فظاهرٌ أنَّ هذه لا تدُلُّ على استِجابةِ كَرامةٍ، ولكنَّها لِتَسجيلِ كُفْرِهم ونُكرانِهم، وقد يُتوهَّمُ في بَعضِ الأحوالِ أنْ يَدْعُوَ الكافرُ فيَقَعَ ما طَلَبَه، وإنَّما ذلك لِمُصادَفةِ دُعائِه وَقْتَ إجابةِ دُعاءِ غَيرِه مِن الصَّالحينَ، وكيف يُستجابُ دُعاءُ الكافرِ وقد جاء عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ استِبعادُ استِجابةِ دُعاءِ المؤمنِ الَّذي يأْكُلُ الحرامَ ويَلبَسُ الحرامَ في حديثِ مُسلمٍ عن أبي هُريرةَ أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ((ذكَر الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفرَ، أشْعَثَ أغبَرَ، يَمُدُّ يَدَيه إلى السَّماءِ: يا ربِّ، يا ربِّ، ومَطعَمُه حَرامٌ، ومَشْرَبُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرامِ؛ فأنَّى يُستجابُ لذلك؟!))[(٢)]؛ ولهذا لم يَقُلِ اللهُ: فلمَّا استجابَ دُعاءَهم، وإنَّما قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ﴾ [العنكبوت: ٦٥] [لقمان: ٣٢]، أي: لأنَّه قدَّرَ نَجاتَهم مِن قبْلِ أنْ يَدْعوا، أو لأنَّ دُعاءَهم صادَفَ دُعاءَ بَعضِ المؤمنينَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٦، ١٦٧).

لكن قال القرطبي: (ضَمِن اللهُ تعالى إجابةَ المُضطَرِّ إذا دعاه، وأخبَر بذلك عن نفْسِه، والسَّببُ في ذلك أنَّ الضَّرورةَ إليه باللَّجاءِ يَنشأُ عن الإخلاصِ، وقطْعِ القلبِ عمَّا سِواه، وللإخلاصِ عندَه سبحانَه موقعٌ وذِمَّةٌ، وُجِد مِن مؤمنٍ أو كافرٍ، طائعٍ أو فاجرٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٣). =

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ ... ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ (إذ) مَعمولًا لـ (اذْكُرْ) مَحذوفٍ؛ فيكونَ عطفًا على جُملةِ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ ﴾، والضَّميرُ عائدًا إلى ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ [غافر: ٣٥]، وما بيْنَ هذا وذاك اعتراضٌ واستِطرادٌ؛ لأنَّها قُصِدَ منها عِظَةُ المشركينَ بمَن سبَقَهم مِن الأُمَمِ المكذِّبينَ، فلمَّا استُوفِيَ ذلك عادَ الكلامُ إليهم، ويُفِيدُ ذلك صَريحَ الوعيدِ للمشركينَ بعْدَ أنْ ضُرِبَتْ لهمُ الأمثالُ[(١)].

- قولُه: ﴿ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ قُرِنَ ﴿ فَيَقُولُ ﴾ بالفاءِ؛ لإفادةِ كَونِ هذا القولِ ناشئًا عن تَحاجِّهم في النارِ[(٢)].

- و(الذين استَكْبروا)، أي: الَّذين تَكبَّروا كِبْرًا شَديدًا؛ فالسِّينُ والتَّاءُ فيه للمُبالَغةِ[(٣)].

- قولُه: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ قولُ الضُّعفاءِ للكُبراءِ هذا الكلامَ يَحتمِلُ أنَّه على حَقيقتِه؛ فهو ناشئٌ عمَّا اعْتادُوه مِن اللَّجَأِ إليهم في مُهِمِّهم حِينَ كانوا في الدُّنيا، فظَنُّوا أنَّهم يَتولَّون تَدبيرَ

= ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٩، ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٦١).

أُمورِهم في ذلك المكانِ؛ ولهذا أجاب الَّذين استَكْبَروا بما يُفِيدُ أنَّهم اليومَ سواءٌ في العَجْزِ، وعدمِ الحِيلةِ؛ فقالوا: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾، أي: لو أغْنَيْنا عنكم لَأغْنَيْنا عن أنفُسِنا. وتَقديمُ قولِهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ على طلَبِ التَّخفيفِ عنهم مِن النَّارِ مُقدِّمةٌ للطَّلبِ؛ لِقَصْدِ تَوجيهِه وتَعليلِه، وتَذكيرِهم بالوَلاءِ الَّذي بيْنَهم في الدُّنيا، يُلهِمُهم اللهُ هذا القولَ؛ لافتِضاحِ عَجْزِ المستكبِرينَ أنْ يَنفَعوا أتْباعَهم؛ تَحقيرًا لهم جَزاءً على تَعاظُمِهم الَّذي كانوا يَتعاظَمون به في الدُّنيا. ويحتملُ أنَّ قولَ الضُّعفاءِ ليس مُستعمَلًا في حَقيقةِ الحثِّ على التَّخفيفِ عنهم، ولكنَّه مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ، أي: كُنتم تَدْعُوننا إلى دِينِ الشِّركِ، فكانت عاقبةُ ذلك أنَّا صِرْنا في هذا العذابِ؛ فهلْ تَسْتطيعونَ الدَّفْعَ عنَّا؟! وتَأْكيدُ ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ بـ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بالخبرِ، وليس لِرَدِّ إنكارٍ[1].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ مُستعمَلٌ في الحثِّ واللَّومِ على خِذلانِهم، وتَرْكِ الاهتِمامِ بما همْ فيه مِن عَذابٍ. وجِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ، أي: هلْ مِن شأْنِكم أنَّكم مُغْنون عنَّا[2]؟

- وضُمِّنَ ﴿مُّغْنُونَ﴾ معنى: (دافِعون) و(رادُّون)؛ فلذلك عُدِّيَ إلى مفعولٍ، وهو ﴿نَصِيبًا﴾، أي: جُزْءًا مِن حَرِّ النَّارِ غيرَ مُحدَّدِ المِقدارِ مِن قُوَّتِها، و﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ بَيانٌ لـ﴿نَصِيبًا﴾، كقَولِه تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]؛ فهم قانِعونَ بكلِّ ما يُخفَّفُ عنهم مِن شِدَّةِ حَرِّ النَّارِ، وغيرُ طامِعينَ في الخُروجِ منها. ويجوزُ أنْ يكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿مُّغْنُونَ﴾ على معناهُ دونَ تَضمينٍ، ويكونَ ﴿نَصِيبًا﴾ مَنصوبًا على المفعولِ المطلَقِ لِـ ﴿مُّغْنُونَ﴾، والتَّقديرُ: غَناءً نَصيبًا، أي: غَناءً ما ولو قَليلًا، و﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿مُّغْنُونَ﴾، كقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧]. ويجوزُ أنْ يكونَ النَّصيبُ الجزْءَ مِن أزمِنةِ العذابِ؛ فيَكونَ على حَذْفِ مُضافٍ، تَقديرُه: مِن مُدَّةِ النَّارِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ لَمَّا كان جَوابُ الَّذين استَكْبَروا للَّذين استُضْعِفوا جاريًا في مَجرى المُحاوَرةِ، جُرِّدَ فِعلُ ﴿قَالَ﴾ مِن حرْفِ العطْفِ على طَريقةِ المُحاوَرةِ(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ فيه تأْكيدُ الكلامِ بـ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بتَحقيقِه، أو لِتَنزيلِ مَن طالَبوهم بالغَناءِ عنهم مِن عَذابِ النَّارِ، مع مُشاهَدتِهم أنَّهم في العذابِ مِثلُهم، مَنزِلةَ مَن يَحسَبُهم غيرَ واقِعينَ في النَّارِ(٣).

- وفي هذا التَّنزيلِ ضَرْبٌ مِن التَّوبيخِ؛ يَقولون: أَلَسْتُم تَرَوْنَنا في النَّارِ مِثلَكم، فكيف نُغْني عنكم(٤)؟!

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ تَتنزَّلُ مَنزِلةَ بَدَلِ الاشتِمالِ مِن جُملةِ ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾؛ فكِلْتَا الجُملتَينِ جَوابٌ لهم مُؤيِسٌ مِن حُصولِ التَّخفيفِ عنهم. وما في هذه الجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن عُمومِ تَعلُّقِ فِعلِ الحُكْمِ بيْنَ العِبادِ ما يَجعَلُ هذا البَدَلَ بمَنزلةِ التَّذييلِ، أي: إنَّ اللهَ حكَمَ بيْنَ العِبادِ كلِّهم بجَزاءِ أعْمالِهم، فكان قِسْطُنا مِن الحُكْمِ هذا العذابَ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ لَمَّا لم يَجِدوا مَساغًا للتَّخفيفِ مِن العذابِ في جانبِ كُبرائِهم، وتَنصَّلَ كُبراؤُهم مِن ذلك، أو اعْتَرَفوا بغَلَطِهم وتَوريطِهم قَومَهم وأنفُسَهم؛ تَمالَأَ الجميعُ على مُحاوَلةِ طلَبِ تَخفيفِ العذابِ بدَعوةٍ مِن خَزَنةِ جهنَّمَ؛ فلذلك أُسنِدَ القولُ إلى ﴿ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾، أي: جَميعِهم مِن الضُّعفاءِ والَّذين استَكْبَروا[٢].

- وإنَّما قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ ولمْ يَقُلْ: (الَّذين في النَّارِ لِخَزنَتِها)، مع أنَّه أخصَرُ؛ لأنَّ في ذِكرِ (جهنَّمَ) تَهويلًا وتَفظيعًا، والتَّهويلُ والتَّفخيمُ مِن وجهَينِ؛ أحدُهما: وضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ[٣]، والثَّاني: ذِكْرُه -وهو شَيءٌ واحدٌ- بظاهرٍ غيرِ الأوَّلِ أفظَعَ منه؛ لأنَّ جهنَّمَ أفظَعُ مِن النَّارِ؛ إذ النَّارُ مُطلَقةٌ، وجهنَّمُ أشَدُّها. وقيل: قال: ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾؛ لأنَّ جهنَّمَ أبعَدُ النَّارِ، فغَدَا خَزَنتُها أعْلى الملائكةِ الموكَّلينَ بالنَّارِ مَرتبةً، فطلَبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٣، ١٦٤).

(٣) قال ابن عاشور: (خَزنة جَهنَّمَ هم الملائكةُ الموكَّلونَ بما تَحويه مِن النَّارِ ووَقودِها والمُعذَّبينَ فيها، ومُوكَّلونَ بتسييرِ ما تَحتوي عليه دارُ العذابِ وأهلِها؛ ولذلك [لا] يُقالُ لهم: خَزنةُ النَّارِ؛ لأنَّ الخَزْنَ لا يَتعلَّقُ بالنَّارِ، بلْ بما يَحويها؛ فليس قوله هنا: ﴿جَهَنَّمَ﴾ إظهارًا في مقامِ الإضمارِ؛ إذ لا يَحسُنُ إضافةُ «خَزَنة» إلى «النَّارِ»، ولو تَقدَّمَ لفظُ «جَهَنَّم» لَقال: لخَزنتِها، كما في قولِه في سورةِ «الملكِ»: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ إلى قولِه: ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ [الملك: ٦- ٨]؛ فإنَّ الضَّميرَ لـ «جهنَّمَ» لا لـ «النَّارِ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٤).

أهلُ النَّارِ الدُّعاءَ منهم لذلك[١].

- قولُهم: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ في إضافةِ (رب) إلى ضَميرِ المخاطَبينَ ضَرْبٌ مِن الإغراءِ بالدُّعاءِ، أي: لأنَّكم أقرَبُ إلى استِجابتِه لكمْ، ولَمَّا ظنُّوهم أرْجى للاستِجابةِ سَأَلوا التَّخفيفَ يومًا مِن أزْمِنةِ العذابِ، وهو أنفَعُ لهم مِن تَخفيفِ قوَّةِ النَّارِ الَّذي سَأَلوه مِن مُستكبِريهم[٢].

- وجُزِمَ ﴿يُخَفِّفۡ﴾ في جَوابِ الطَّلبِ؛ لِتَحقيقِ التَّسبُّبِ؛ فيَكونُ فيه إيذانٌ بأنَّ الَّذين في النَّارِ واثِقون بأنَّ خَزَنةَ جهنَّمَ إذا دَعَوُا اللهَ استجابَ لهم[٣].

- و(اليوم) في قولِه: ﴿يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ كِنايةٌ عن القِلَّةِ، أي: يُخفِّفْ عنَّا ولو زمَنًا قليلًا، وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ بَيانٌ لـ﴿يَوۡمٗا﴾؛ لأنَّه أُرِيدَ به المِقدارُ، فاحتاجَ إلى البَيانِ[٤].

- واقتِصارُهم في الاستِدعاءِ على ما ذُكِرَ مِن تَخفيفِ قَدْرٍ يَسيرٍ مِن العذابِ في مِقدارٍ قَصيرٍ مِن الزَّمانِ، دونَ رَفْعِه رأْسًا، أو تَخفيفِ قَدْرٍ كَثيرٍ منه في زَمانٍ مَديدٍ؛ لأنَّ ذلك عِندَهم ممَّا ليس في حَيِّزِ الإمكانِ، ولا يَكادُ يَدخُلُ تحتَ أمانيِّهم[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧١، ١٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٩).

فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ جَوابُ خَزَنةِ جهنَّمَ لهم بطَريقِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ التَّقريريِّ، مُرادٌ به: إلْزامُ الحُجَّةِ، وإظْهارُ سُوءِ صَنيعِهم بأنفُسِهم؛ إذ لمْ يَتَّبِعوا الرُّسلَ حتَّى وَقَعوا في هذا العذابِ، وتَنديمُهم على ما أضاعُوه في حَياتِهم الدُّنيا مِن وَسائلِ النَّجاةِ مِن العِقابِ، وأنَّهم خَلَّفوا وَراءَهم أوقاتَ الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ، وعطَّلوا الأسبابَ الَّتي يَسْتجيبُ اللهُ لها الدَّعَواتِ، وهو كَلامٌ جامعٌ يَتضمَّنُ التَّوبيخَ، والتَّنديمَ، والتَّحسيرَ، وبَيانَ سَبَبِ تَجنُّبِ الدُّعاءِ لهم، وتَذكيرَهم بأنَّ الرُّسلَ كانت تُحذِّرُهم مِن الخُلودِ في العذابِ[1].

- وزِيادةُ فِعلِ الكَونِ في ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ مَجيءَ الرُّسلِ إلى الأُمَمِ أمْرٌ مُتقرِّرٌ مُحقَّقٌ؛ لِمَا يدُلُّ عليه فِعلُ الكَونِ مِن الوُجودِ بمَعنى التَّحقُّقِ، وأمَّا الدَّلالةُ على أنَّ فِعلَ الإتيانِ كان في الزَّمنِ الماضي فهو مُستفادٌ مِن (لم) النَّافيةِ في الماضي[2].

- قَولُه: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ لم يَقُلْ: «بالآياتِ البيِّناتِ»، بلْ أتَى بالوصفِ، وطَوَى ذِكْرَ المَوصوفِ؛ لأنَّ المهمَّ هو الوصفُ؛ لأنَّ الوصفَ هو الَّذي يُبيِّنُ الأشياءَ[3].

- وجُملةُ ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ مِن كَلامِ خَزَنةِ جهنَّمَ تَذْييلًا لِكلامِهم يُبيِّنُ أنَّ قولَهم: ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ على

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٦٤).

الخَطأِ، أي: دُعاؤكم لم يَنفَعْكم؛ لأنَّ دُعاءَ الكافرينَ في ضَلالٍ، ففيه إقناطٌ لهم عن الإجابةِ، والواوُ اعتِراضيَّةٌ.

ويجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مِن كَلامِ اللهِ تعالى تَذْييلًا واعتِراضًا، والكافِرون في النَّارِ لم يَسَعْهم إلَّا الاعتِرافُ بمَجيءِ الرُّسلِ إليهم بالبيِّناتِ، فقالوا: ﴿بَلَىٰ﴾، فرَدَّ عليهم خَزَنةُ جهنَّمَ بالتَّنصُّلِ مِن أنْ يَدْعُوا اللهَ بذلك، إلى إيكالِ أمْرِهم إلى أنفُسِهم بقولِهم: ﴿فَٱدۡعُواْ﴾ تَفريعًا على اعتِرافِهم بمَجيءِ الرُّسلِ إليهم بالبيِّناتِ، ومعنى تَفريعِه عليه هو أنَّه مُفرَّعٌ عليه باعتبارِ معناه الكِنائيِّ الَّذي هو التَّنصُّلُ مِن أنْ يَدْعُوا لهم، أي: كما تَولَّيتُم الإعراضَ عن الرُّسلِ استِبْدادًا بآرائِكم، فتَولَّوُا اليَومَ أمْرَ أنفُسِكم، فادْعُوا أنتم؛ فإنَّ (مَن تَولَّى قُرَّها يَتولَّى حَرَّها[1])، فالأمْرُ في قولِه: ﴿فَٱدۡعُواْ﴾ مُستعمَلٌ في الإباحةِ أو في التَّسويةِ، وفيه تَنبيهٌ على خَطأِ السَّائلينَ في سُؤالِهم[2].

- قولُه: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾، أي: وما دُعاؤُكم إلَّا في ضَلالٍ، ووُضِعَ الظَّاهرُ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ للإشعارِ بالعِلِّيَّةِ، وأنَّ المانعَ هو صِفةُ الكفْرِ[3]، فأتَى بالوصفِ؛ تعليقًا للحكمِ به[4].

- وجاءتْ هذه الأخبارُ مُعبَّرًا عنها بلَفظِ الماضي الواقعِ؛ لِتَيقُّنِ وُقوعِها[5].

---

(١) أي: يَتولَّى شَرَّها مَن تَولَّى خَيْرَها، أو يَتحَمَّلُ ثِقْلَك مَن يَنتفِعُ بك. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٥، ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤).

الآيات (٥١-٥٦)

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: أي: العقولِ الزَّكيَّةِ، مُفرَدُها لُبٌّ، وأصْلُ اللُّبِّ: الخُلُوصُ والجَوْدةُ، والشَّيءُ المُنتقَى[1].

﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾: أي: أوَّلِ النَّهارِ، أو مِن مَطلعِ الفَجرِ إلى وَقتِ الضُّحى، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدْئِه[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا سُنَّةً مِن سُنَنِه: إنَّا لَننصُرُ رُسُلَنا والمؤمِنينَ في الحياةِ الدُّنيا ويومَ القيامةِ؛ يومَ لا يَنفَعُ الظَّالِمينَ اعتِذارُهم عن ظُلمِهم، ولهم الطَّردُ مِن رَحمةِ الله تعالى، ولهم النَّارُ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى مثالًا لنَصرِه رُسلَه وعبادَه المؤمنينَ، فيقولُ: ولقد آتَيْنا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠).

موسى ما يُهْتدَى به، وأورَثْنا بني إسرائيلَ التَّوراةَ؛ بَيانًا للحَقِّ، وتذكيرًا مِنَّا لأهلِ العُقولِ منهم.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ، فيقولُ: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على أذى الكُفَّارِ؛ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، واستَغفِرِ اللهَ لِذَنْبك، ونَزِّه رَبَّك آخِرَ النَّهارِ وأوَّلَه عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، مع إثباتِ صِفاتِ الكمالِ له سبحانَه.

ثمَّ يُوبِّخُ اللهُ تعالى الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِه بغيرِ بُرهانٍ، مُبيِّنًا ما حمَلهم على ذلك، فيقولُ: إنَّ الَّذين يُخاصِمونَ بالباطِلِ في آياتِ اللهِ بغَيرِ دَليلٍ عِندَهم: ما في صُدورِهم إلَّا كِبْرٌ عن قَبولِ الحَقِّ واتِّباعِه، وما هم بِبالِغي مُقتضى ذلك الكِبْرِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ مُذِلُّهم، وناصرٌ دينَه.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه بما يَقيه مِن شُرورِهم، فيقولُ: فاعتَصِمْ واستَجِرْ باللهِ -يا مُحمَّدُ- مِن شَرِّ أعدائِك، إنَّ اللهَ هو السَّميعُ البَصيرُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى وِقايتَه موسى -عليه السَّلامُ- وذلك المؤمِنَ مِن مَكرِ فِرعَونَ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّه يَنصُرُ رُسُلَه والَّذين آمَنوا معه.

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ مِن قَبْلُ ما يقَعُ بيْنَ أهلِ النَّارِ مِن التَّخاصُمِ، وأنَّهم عندَ الفَزَعِ إلى خَزَنةِ جَهنَّمَ يقولونَ: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٥٠]؛ أتبعَ ذلك بذِكرِ الرُّسُلِ، وأنَّه يَنصُرُهم في الدُّنيا والآخِرةِ.

وأيضًا فإنَّ الكلامَ في أوَّلِ السُّورةِ إنَّما وَقَع مِن قَولِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ [غافر: ٤]، وامتَدَّ الكَلامُ في الرَّدِّ على أولئك المجادِلينَ، وعلى أنَّ المحِقِّينَ أبدًا كانوا مَشغولينَ بدَفعِ كَيدِ المُبطِلينَ، وكُلُّ ذلك إنَّما ذَكَره اللهُ تعالى تَسليةً للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَصبيرًا له على تحمُّلِ أذَى قَومِه، ولَمَّا بَلَغ الكلامُ في تقريرِ المطلوبِ إلى الغايةِ القُصوى؛ وَعَد تعالى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَنصُرَه على أعدائِه في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرةِ، فقال[1]:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾.

أي: إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنا والمؤمِنينَ على أعدائِهم في الحياةِ الدُّنيا[2]، وفي يومِ القيامةِ الَّذي يَقومُ فيه الأشهادُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٣).

(٢) قال الواحدي: (النَّصرُ قد يكونُ بالحُجَّةِ، ويكونُ بالغَلَبةِ والقَهرِ، ويكونُ بإهلاكِ العَدُوِّ، وكُلُّ هذا قد كان للأنبياءِ والمؤمِنينَ مِن قِبَلِ الله تعالى؛ فهم مَنصورون بالحُجَّةِ على مَن خالَفَهم، وقد نصَرَهم اللهُ بالقَهرِ على مَن ناوأهم، وقد نصَرَهم بإهلاكِ عَدُوِّهم، وأنجاهم مع مَنْ آمَنَ معهم، وقد يكونُ نَصرٌ بالانتِقامِ لهم...، فهم لا مَحالةَ منصورونَ في الدُّنيا بأحدِ هذه الوُجوهِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٧، ١٨). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤).

وقال ابن تيميَّة: (اللهُ تعالى قد يُديلُ الكافرينَ [يجعلُ لهم الغَلَبَةَ] على المؤمنينَ تارةً، كما يُديلُ المؤمنينَ على الكافرينَ، كما كان يكونُ لأصحابِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مع عدوِّهم، لكنَّ العاقِبةَ للمُتَّقينَ... وإذا كان في المسلمينَ ضَعفٌ، وكان عدوُّهم مُستظهرًا عليهم، كان ذلك بسببِ ذُنوبِهم وخطاياهم؛ إمَّا لتفريطِهم في أداءِ الواجباتِ باطنًا وظاهرًا، وإمَّا لعُدوانِهم بتَعدِّي الحدودِ باطنًا وظاهرًا). ((مجموع الفتاوى)) (١١/ ٦٤٥).

وقال السعدي: (النَّصرُ على قِسمَينِ: نصرُ المسلمينَ إذا طَمِعوا في عدوِّهم بأنْ يُتِمَّ اللهُ لهم ما طلَبوا وقصَدوا، ويَستولوا على عدوِّهم ويَظْهروا عليهم. والثَّاني: نصرُ المُستضعَفِ الَّذي طمِع فيه عدوُّه القادرُ، فنَصْرُ اللهِ إيَّاه أن يَرُدَّ عنه عدوَّه، ويُدافعَ عنه، ولَعلَّ هذا النَّصرَ أنفَعُ النَّصْرَينِ، ونصرُ الله رسولَه إذ أخرَجه الَّذينَ كفروا ثانيَ اثنَينِ مِن هذا النَّوعِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٥)، ((مجموع =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال جَلَّ ثناؤُه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا

= الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٩٤)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٢، ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٠، ١٥١)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٨).

قال ابنُ عطيَّة: (والأشهادُ: جمعُ شاهدٍ، كصاحبٍ وأصحابٍ. وقالت فِرقةٌ: أشهادٌ: جمعُ شهيدٍ، كشَريفٍ وأشرافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٤).

وقال الماوَرْدي: (في ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ ثلاثةُ أقاويلَ:

أحَدُها: أنَّهم الملائكةُ، شَهِدوا للأنبياءِ بالإبلاغِ، وعلى الأُمَمِ بالتَّكذيبِ. قاله مُجاهِدٌ والسُّدِّيُّ.

الثَّاني: أنَّهم الملائكةُ والأنبياءُ. قاله قَتادةُ.

الثَّالثُ: أنَّهم أربعةٌ: الملائِكةُ، والنَّبيُّونَ، والمؤمِنونَ، والأجسادُ. قاله زيدُ بنُ أسْلَمَ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٦٠، ١٦١).

وقيل: هم الملائكةُ والأنبياءُ والمؤمنونَ. ومِمَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: ابنُ جرير، والرازي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٨).

قال ابن عاشور: (والأشهادُ: الرُّسُلُ، والملائِكةُ الحَفَظةُ، والمؤمِنونَ مِن هذه الأمَّةِ... وشَهادةُ الرُّسُلِ على الَّذين كَفَروا بهم مِن جُملةِ نَصْرِهم عليهم، وكذلك شَهادةُ المؤمنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٨).

لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المقصودَ شَرحُ تَعظيمِ ثَوابِ أهلِ الثَّوابِ؛ وذلك لأنَّه تعالى بيَّنَ أنَّه يَنصُرُهم في يومٍ يَجتَمِعُ فيه الأوَّلونَ والآخِرونَ، فحالُهم في عُلُوِّ الدَّرَجاتِ في ذلك اليَومِ ما ذُكِرَ، وأمَّا حالُ أعدائِهم فهو أنَّه حَصَلت لهم أمورٌ ثلاثةٌ؛ أحَدُها: أنَّه لا يَنفَعُهم شَيءٌ مِن المعاذيرِ البتَّةَ. وثانيها: أنَّ لهم اللَّعنةَ. وثالِثُها: أنَّ لهم سوءَ الدَّارِ[(١)].

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

أي: وهو اليَومُ الَّذي لا يَنفَعُ الظَّالِمينَ فيه اعتِذارُهم عن ظُلمِهم، فقد أعذَرَ اللهُ إليهم في الدُّنيا؛ فلا عُذرَ مَقبولٌ مِنهم في الآخِرةِ[(٢)].

﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾.

أي: وللظَّالِمينَ البُعدُ والطَّردُ مِن رَحمةِ الله تعالى، فهم مُستَحِقُّونَ لذلك[(٣)].

﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١).

أي: ولهم معَ ذلك النَّارُ، فبِئسَ المَنزِلُ هيَ[١].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه يَنصُرُ الأنبياءَ والمؤمِنينَ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ ذكَرَ نَوعًا مِن أنواعِ تلك النُّصرةِ في الدُّنيا[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ ما حلَّ بآلِ فِرعونَ، واستَطْرَدَ مِن ذلك إلى ذِكرِ شَيءٍ مِن أحوالِ الكفَّارِ في الآخرةِ؛ عاد إلى ذِكرِ ما منَحَ رسولَه مُوسى عليه السَّلامُ، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾؛ تأْنيسًا لمحمَّدٍ عليه السَّلامُ، وتَذكيرًا لِما كانت العرَبُ تَعرِفُه مِن قصَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ[٣].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾.

أي: ولقد آتَيْنا موسَى ما يُهتَدَى به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

قال ابنُ عطيَّةَ: (﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ فيه حذْفُ مُضافٍ تقديرُه: سوءُ عاقبةِ الدَّارِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٤).

وقال ابنُ عثيمين: (يحتمِلُ أن تكونَ ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ مِن بابِ إضافة الصِّفةِ إلى المَوصوفِ، أي: الدَّارُ السُّوءُ، ويحتمِلُ أن تكونَ على بابِها... أي: السَّيِّئُ في الدَّارِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٧١).

وقال السعدي: (أي: الدَّارُ السَّيِّئةُ، الَّتي تَسوءُ نازليها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩). =

﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

أي: وأورَثْنا بني إسرائيلَ التَّوراةَ[1].

= قال الرازي: (يجوزُ أنْ يكونَ المرادُ مِن الهدَى ما آتاهُ اللهُ مِن العلومِ الكثيرةِ النَّافعةِ في الدُّنيا والآخرةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ تلك الدَّلائلَ القاهِرةَ الَّتي أوْرَدَها على فِرعونَ وأتْباعِه وكادَهم بها، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ هو النُّبُوَّةَ الَّتي هي أعظَمُ المناصِبِ الإنسانيَّةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ إنزالَ التَّوراةِ عليه). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالهدى هنا: التَّوراةُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ الجوزي، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٢).

قال القرطبي: (وسُمِّيَت التَّوراةُ هُدًى بما فيها مِن الهدَى والنُّورِ، وفي التَّنْزيلِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٣).

وقال الشنقيطي: (والمرادُ بالهُدَى ما تَضَمَّنَه التَّوراةُ مِن الهدَى في العقائدِ والأعمالِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٩٢).

وقال ابنُ عطيَّة: (الهُدى: النُّبُوَّةُ والحِكمةُ، والتَّوراةُ تعُمُّ جميعَ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٤). ويُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالهُدى: النُّبوَّةُ: السَّمْعانيُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: التَّوراةُ والنُّبوَّةُ: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٩).

قال ابن عاشور: (الهُدى الَّذي أُوتيَه موسى هو ما أُوحيَ إليه مِن الأمرِ بالدَّعوةِ إلى الدِّينِ الحقِّ، أي: الرِّسالةُ وما أُنزِل إليه مِن الشَّريعةِ... وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ الكِتابَ مِن جملةِ الهُدى الَّذي أُوتيَه موسى... فإنَّ موسى أُوتيَ مِن الهُدى ما لم يَرِثْه بنو إسرائيلَ، وهو الرِّسالةُ، وأُوتيَ مِن الهُدى ما أُورِثَه بنو إسرائيلَ، وهو الشَّريعةُ الَّتي في التَّوراةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩).

وقال الرسعني: (﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ وهو جميعُ ما أُوتيَه مِن الآياتِ والمُعجِزاتِ وشرائعِ الدِّينِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٢٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٢). =

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٤﴾.

أي: بيانًا للحَقِّ وتَذكيرًا مِنَّا به لأهلِ العُقولِ منهم[١].

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٥٥﴾.

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- على أذَى الكُفَّارِ وتعَنُّتِهم، وعلى دَعوتِهم؛ فإنَّ ما وَعَد اللهُ به مِن النَّصرِ في الدُّنيا والآخِرة: آتٍ لا مَحالةَ، كما نصَرَ اللهُ تعالى موسى وبني إسرائيلَ على فِرعَونَ وقَومِه[٢].

= قال ابن الجوزي: (﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بعدَ موسى، وهو التَّوراةُ أيضًا في قولِ الأكثَرينَ. وقال ابنُ السَّائبِ: التَّوراةُ والإنجيلُ والزَّبورُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٥).

قيل: المرادُ بوِراثةِ الكِتابِ: أنَّ الله تعالى جعَله باقيًا فيهم بعدَ موسى عليه السَّلامُ؛ فهم وَرِثوه عن موسى، أي: أخَذوه منه في حياتِه، وأبقاه اللهُ لهم بعدَ وفاتِه يَتوارَثونَه خَلَفًا عن سَلَفٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩).

قال ابنُ عطيَّة: (عَبَّرَ عن ذلك بالوِراثةِ؛ إذ كانت طائفةُ بني إسرائيلَ قَرنًا بعدَ قَرنٍ تَصيرُ فيهم التَّوراةُ إمامًا، فكان بعضُهم يَرِثُها عن بَعضٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩، ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن =

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾.

أي: واطلُبْ مِن رَبِّك -يا مُحمَّدُ- سَتْرَ ذَنْبِك، والتَّجاوُزَ عن المؤاخَذةِ به[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((واللهِ إنِّي لَأستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليَومِ أكثَرَ مِن سَبعينَ مَرَّةً))[٢].

وعن الأغَرِّ المُزَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّه لَيُغانُ[٣] على قَلبي، وإنِّي لَأستَغفِرُ اللهَ في اليَومِ مِئةَ مَرَّةٍ))[٤].

وعن أبي مُوسى الأشْعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه كان يدعو بهذا الدُّعاءِ: ((اللـهُمَّ اغفِرْ لي خَطيئتي وجَهْلي، وإسرافي في أمْري، وما أنت أعلَمُ به مِنِّي، اللـهُمَّ اغْفِرْ لي جِدِّي وهَزْلي، وخَطَئي وَعَمْدي، وكُلُّ ذلك عندي، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وما أخَّرتُ، وما أسرَرْتُ وما أعلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أنت المقَدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، وأنت على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ))[٥].

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾.

أي: ونَزِّه رَبَّك -يا مُحمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ تَنزيهًا مُقتَرِنًا بوَصفِه بصِفاتِ

= كثير)) (٧/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٩، ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٤٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٢٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٠).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٧).

(٣) أي: يُطبَقُ ويُستَرُ ويُغَطَّى. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦١٠).

(٤) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(٥) رواه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩)، واللفظ له.

الكَمالِ؛ محبَّةً وتَعظيمًا له سُبحانَه، وذلك في آخِرِ النَّهارِ وأوَّلِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٨٦، ٣٨٧).

قال ابن القيِّم: (الإبكارُ أوَّلُ النَّهارِ، والعَشيُّ آخِرُه، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، وهذا تفسيرُ ما جاء في الأحاديثِ: «مَن قال كذا وكذا حينَ يُصبِحُ وحينَ يُمسي»، أنَّ المرادَ به قبْلَ طلوعِ الشَّمسِ، وقبْلَ غروبِها، وأنَّ محلَّ هذه الأذكارِ بعدَ الصُّبحِ وبعدَ العصرِ). ((الوابل الصيب)) (ص: ٩٣).

وقال ابن كثير: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ﴾ أي: في أواخِرِ النَّهارِ وأوائلِ اللَّيلِ، ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ وهي أوائلُ النَّهارِ وأواخِرُ اللَّيلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

وقيل: المعنى: دُمْ على التَّسبيحِ والتَّحميدِ لربِّك. وممَّن اختاره: البيضاويُّ، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٠).

قال الألوسي: (أي: ودُمْ على التَّسبيحِ والتَّحميدِ لربِّك، على أنَّه عبَّر بالطَّرَفَينِ وأُريدَ جميعُ الأوقاتِ، وجُوِّز أن يُرادَ خُصوصُ الوقتَينِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٠).

وقيل: معنى (سَبِّحْ): صَلِّ، وفي المرادِ بصلاةِ العَشيِّ والإبكارِ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّها الصَّلَواتُ الخَمْسُ، قاله ابنُ عبَّاس. والثَّاني: صَلاةُ الغَداةِ وصلاةُ العصرِ، قاله قَتادةُ. والثَّالثُ: أنَّها صلاةٌ كانت قبْلَ أن تُفرَضَ الصَّلَواتُ: ركعتانِ غُدوةً، وركعتانِ عَشيَّةً، قاله الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢).

وقال الزمخشري: (ودُمْ على عبادةِ ربِّك والثَّناءِ عليه بالعَشيِّ والإبكارِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه جَرَى الكلامُ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا في مَيدانِ الرَّدِّ على مُجادَلةِ المشركينَ في آياتِ اللهِ، ودَحْضِ شُبَهِهم، وتَوعُّدِهم على كُفْرِهم، وضَرْبِ الأمثالِ لهم بأمثالِهم مِن أهلِ العِنادِ، ابتِداءً مِن قولِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، وقولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [غافر: ٢١]، كما ذُكِرَت أمثالُ أضْدادِهم مِن أهلِ الإيمانِ مَن حضَرَ منهم ومَن غَبَر، مِن قولِه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤]، ثمَّ قولِه: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [غافر: ٢٨]، وخُتِمَ ذلك بوَعدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ بالنَّصرِ، كما نُصِرَ النَّبيُّونَ مِن قبْلِه والَّذين آمَنوا بهم، وأُمِرَ بالصَّبرِ على عِنادِ قَومِه، والتَّوجُّهِ إلى عِبادةِ ربِّه؛ فكان ذِكرُ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ عقِبَ ذلك مِن بابِ المثَلِ المشهورِ: «الشَّيءُ بالشَّيءِ يُذكَرُ»، وبهذه المُناسَبةِ انتُقِلَ هنا إلى كَشْفِ ما تُكِنُّه صُدورُ المجادِلينَ مِن أسبابِ جِدالِهم بغَيرِ حقٍّ؛ لِيَعلَمَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دَخيلتَهم، فلا يَحسَبُ أنَّهم يُكذِّبونَه تَنقُّصًا له، ولا تَجويزًا للكذِبِ عليه، ولكنَّ الَّذي يَدفَعُهم إلى التَّكذيبِ هو التَّكبُّرُ عن أنْ يَكونوا تَبعًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووراءَ الَّذين سَبَقوهم بالإيمانِ ممَّن كانوا لا يَعْبَؤونَ بهم[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يُجادِلونَ ويُخاصِمونَ بالباطِلِ في آياتِ اللهِ وحُجَجِه الَّتي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٢).

جاءت بها الرُّسُلُ؛ بغيرِ دَليلٍ عِندَهم مِن اللهِ: في صُدورِهم كِبْرٌ وتَعاظُمٌ عن قَبولِ الحَقِّ واتِّباعِه، واحتِقارٌ لِمَن جاء به واتَّبَعه، ولن يَنالوا الاستِعلاءَ والرِّفعةَ والعَظَمةَ الَّتي أمَّلوها في الدُّنيا؛ فاللهُ ناصِرٌ دينَه، ومُعْلٍ كَلِمَتَه(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٨، ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٤، ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١، ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٢، ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٩١-٣٩٦، ٤٠٠-٤٠١).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ والسَّمَرْقَنْديُّ، والكرْمانيُّ: الكِبْرُ: العَظَمةُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٣٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بالكِبْرِ: التَّكبُّرُ والتَّعاظُمُ: الزمخشريُّ، والنسفي، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢٧).

قال الزمخشري عن الكِبْرِ: (وهو إرادةُ التَّقدُّمِ والرِّياسةِ، وألَّا يكونَ أحدٌ فوقَهم؛ ولذلك عادَوْكَ ودفَعوا آياتِك خِيفةَ أن تَتقَدَّمَهم ويَكونوا تحتَ يدِك وأمْرِك ونَهيِك؛ لأنَّ النُّبوَّةَ تحتَها كلُّ مُلكٍ ورياسةٍ. أو إرادةُ أن تكونَ لهم النُّبوَّةُ دُونَك حسَدًا وبَغْيًا، ويدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. أو إرادةُ دفْعِ الآياتِ بالجِدالِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٣).

وقال ابن جرير: (﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ يقولُ: ما في صُدورِهم إلَّا كِبْرٌ يَتكبَّرون مِن أجْلِه عن اتِّباعِك، وقَبولِ الحقِّ الَّذي أتَيْتَهم به؛ حسَدًا منهم على الفضلِ الَّذي آتاك اللهُ، والكرامةِ الَّتي أكرمَك بها مِن النُّبُوَّةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٩). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢).

وقال الزمخشري: (﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أي: ببالِغي موجبِ الكِبْرِ ومُقتضيه، وهو مُتعلَّقُ إرادتِهم مِن الرِّياسةِ أو النُّبُوَّةِ أو دفْعِ الآياتِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٣).

قيل: قولُه: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾: هو على حذفِ مُضافٍ تقديرُه: ببالِغي إرادتِهم فيه. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والسمعاني، وابنُ عطية. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٥). =

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾.

أي: فاعتَصِمْ واستَجِرْ باللهِ -يا مُحمَّدُ- مِن شَرِّ أعدائِك الَّذين يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ[1].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لِقَولِ المُجادِلينَ في آياتِ اللهِ، وغَيرِهم مِنَ الخَلقِ؛ البَصيرُ بما يَعمَلونَه وبكُلِّ شَيءٍ سِواه؛ فلا يَخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن أصواتِ الخَلقِ وذواتِهم وأعمالِهم[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- أنَّ النَّصرَ والتَّأييدَ الكاملَ إنَّما هو لأهلِ الإيمانِ الكامِلِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾، وقال سُبحانَه: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، فمَن نَقَصَ

= قال الزَّجَّاجُ: (إرادتُهم دفْعَ آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٧٧).

وقال السمعاني: (وكان مُرادُهم أن يَهلِكَ محمَّدٌ ويَهلِكَ أصحابُه، ويَندرِسَ أثَرُه، ويَصيروا حكايةً). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧).

وقال ابن جرير: (﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ يقولُ: الَّذي حسَدوك عليه أمرٌ ليسوا بمُدْرِكيه ولا نائلِيه؛ لأنَّ ذلك فضْلُ الله يؤتيه مَن يَشاءُ، وليس بالأمرِ الَّذي يُدرَكُ بالأمانيِّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٩).

وقال الكرماني: (ما هم ببالِغي تلك العَظَمةِ؛ فإنَّ اللهَ يَخذُلُهم). ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٣).

قال السعدي: (أي: استعِذْ بالله مِن الكِبْرِ الَّذي يوجِبُ التَّكبُّرَ على الحقِّ، واستعِذْ بالله مِن شَياطينِ الإنسِ والجنِّ، واستعِذْ بالله مِن جميعِ الشُّرورِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٥).

إيمانُه نَقَصَ نصيبُه مِن النَّصرِ والتَّأييدِ؛ ولهذا إذا أُصيبَ العبدُ بمُصيبةٍ في نَفْسِه أو مالِه، أو بإدالةِ عَدُوِّه عليه: فإنَّما هي بذُنوبِه: إمَّا بتركِ واجبٍ، أو فِعلِ مُحَرَّمٍ، وهو مِن نَقصِ إيمانِه، وبهذا يَزولُ الإشكالُ الَّذي يُورِدُه كثيرٌ مِن النَّاسِ على قَولِه تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، ويُجيبُ عنه كثيرٌ منهم بأنَّه لن يَجعَلَ لهم عليهم سَبيلًا في الآخِرةِ، ويُجيبُ آخَرونَ بأنَّه لن يَجعَلَ لهم عليهم سَبيلًا في الحُجَّةِ. والتَّحقيقُ: أنَّها مِثلُ هذه الآياتِ، وأنَّ انتفاءَ السَّبيلِ هو عن أهلِ الإيمانِ الكامِلِ، فإذا ضَعُفَ الإيمانُ صار لِعَدُوِّهم عليهم مِن السَّبيلِ بحَسَبِ ما نَقَصَ مِن إيمانِهم؛ فهم جَعَلوا لهم عليهمُ السَّبيلَ بما تَركوا مِن طاعةِ اللهِ تعالى؛ فالمؤمِنُ عزيزٌ غالِبٌ، مُؤَيَّدٌ منصورٌ، مَكْفِيٌّ مدفوعٌ عنه بالذَّاتِ أين كان، ولو اجتمَعَ عليه مَن بأقطارِها، إذا قام بحَقيقةِ الإيمانِ وواجباتِه ظاهِرًا وباطِنًا، وقد قال تعالى للمُؤمنينَ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]. فهذا الضَّمانُ إنَّما هو بإيمانِهم وأعمالِهم الَّتي هي جُندٌ مِن جُنودِ الله، يحفَظُهم بها، ولا يُفرِدُها عنهم ويَقتَطِعُها عنهم؛ فيُبطِلَها عليهم، كما يَترُ الكافِرينَ والمنافِقينَ أعمالَهم؛ إذ كانت لِغَيرِه، ولم تكُنْ مُوافِقةً لأمْرِه[1].

٢- كثيرٌ مِن النَّاسِ يَظُنُّ أنَّ أهلَ الدِّينِ الحَقِّ يَكونونَ في الدُّنيا أذِلَّاءَ مَقهورينَ مَغلوبينَ دائمًا، بخِلافِ مَن فارَقَهم إلى سَبيلٍ أُخرى وطاعةٍ أُخرى؛ فلا يَثِقُ بوَعدِ اللهِ بنَصرِ دِينِه وعِبادِه، بل إمَّا أن يجعَلَ ذلك خاصًّا بطائفةٍ دونَ طائفةٍ، أو بزَمانٍ دُونَ زَمانٍ، أو يَجعَلَه مُعَلَّقًا بالمَشيئةِ، وإنْ لم يُصَرِّحْ بها، وهذا مِن عَدَمِ الوُثوقِ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٢).

بوَعدِ الله تعالى، ومِن سُوءِ الفَهمِ في كِتابِه، واللهُ سُبحانَه قد بَيَّنَ في كتابِه أنَّه ناصِرٌ المؤمِنينَ في الدُّنيا والآخرةِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۞ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١]، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ، وقد بَيَّنَ سُبحانَه فيه أنَّ ما أصاب العَبدَ مِن مُصيبةٍ، أو إدالةِ عَدُوٍّ، أو كَسرٍ وغيرِ ذلك: فبِذُنوبِه[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ أمَرَه بالصَّبرِ الَّذي به يَحصُلُ المحبوبُ، وبالاستِغفارِ الَّذي فيه دَفْعُ المَحذورِ، وبالتَّسبيحِ بحَمدِ اللهِ تعالى، خُصوصًا ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ اللَّذينِ هما أفضَلُ الأوقاتِ، وفيهما مِنَ الأورادِ والوظائِفِ الواجِبةِ والمُستَحَبَّةِ ما فيهما؛ لأنَّ في ذلك عَونًا على جميعِ الأمورِ[2].

٤- العَبدُ مأمورٌ أنْ يَرجِعَ إلى القَدَرِ عندَ المصائِبِ، ويَستغفِرَ اللهَ عندَ الذُّنوبِ والمعايِبِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ دقيقةٌ مُعتبَرةٌ، وهي أنَّ السُّلطانَ العَظيمَ إذا خَصَّ بَعضَ خواصِّه بالإكرامِ العَظيمِ، والتَّشريفِ الكامِلِ عندَ حُضورِ الجَمعِ العَظيمِ مِن أهلِ المَشرِقِ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

(٣) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٩).

والمَغرِب؛ كان ذلك أَلَذَّ وأبهَجَ، فقولُه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ إلى قَولِه: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ المقصودُ منه هذه الدَّقيقةُ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا الكَلامُ يدُلُّ على أنَّهم يَذْكُرونَ الأعذارَ إلَّا أنَّ تلك الأعذارَ لا تَنفَعُهم، فكيف الجَمعُ بيْن هذا وبيْن قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: قَولُه: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لا يدُلُّ على أنَّهم ذَكَروا الأعذارَ، بل ليس فيه إلَّا أنَّه ليس عندَهم عُذرٌ مَقبولٌ نافِعٌ، وهذا القَدْرُ لا يدُلُّ على أنَّهم ذكَروه أم لا.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ يومَ القيامةِ يومٌ طَويلٌ، فيَعتَذِرونَ في وَقتٍ، ولا يَعتَذِرونَ في وَقتٍ آخَرَ(٢)، فليس بيْنَهما تعارُضٌ؛ لأنَّ اليومَ طويلٌ، مِقدارُ اليومِ خمسونَ ألْفَ سَنةٍ، فيُمكِنُ أنْ تتغيَّرَ فيه الأحوالُ؛ يكونُ في أوَّلِه للنَّاسِ حالٌ، وفي آخِرِه للنَّاسِ حالٌ، وما أشْبَهَ ذلك، فمَثلًا قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦] هذا يدُلُّ على أنَّهم في ذلك اليومِ سُكوتٌ لا يُؤذَنُ لهم بأيِّ كَلامٍ؛ فيَنتَهِزوا الفُرصةَ بالاعتِذارِ. لكنْ في موقفٍ آخَرَ يَعتَذِرونَ، ولكِنْ لا يَنفعُهم الاعتِذارُ(٣).

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لا يُنافي قَولَه تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٦] الَّذي هو في انتِفاءِ الاعتذارِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥٢٤، ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٧٣).

مِن أصلِه؛ لأنَّ ذلك الاعتِذارَ هو الاعتِذارُ المأذونُ فيه، أي: المقبولُ؛ لأنَّ الله لو أذِنَ لهم في الاعتِذارِ لَكان ذلك تَوطِئةً لِقَبولِه اعتِذارَهم، نَظيرُ قَولِه تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والمُثبَتُ هنا مَعذِرةٌ مِن تِلْقاءِ أنفُسِهم لم يُؤذَنْ لهم بها، فهي غيرُ نافِعةٍ لهم، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ * قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨]، وقَولِه: ﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾[1] [المؤمنون: ٦٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أنَّ الكافِرينَ مُستَحِقُّون لِلَعنةِ اللهِ، وفيه جَوازُ أنْ نَلعنَ الكافرينَ على سبيلِ العُمومِ؛ فلَنا أنْ نقولَ: (لعنةُ اللهِ على كلِّ كافرٍ)، وكان أبو هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه يَلعَنُ الكَفَرةَ في قُنوتِه[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ * هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ هذا مِن أوضَحِ مُثُلِ نَصرِ اللهِ رُسُلَه والَّذين آمَنوا بهم، وهو أشْبَهُ الأمثالِ بالنَّصرِ الَّذي قَدَّره اللهُ تعالى للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمِنينَ؛ فإنَّ نَصْرَ موسى على قَومِ فِرعَونَ كَوَّنَ اللهُ به أُمَّةً عَظيمةً لم تكُنْ يُؤبَهُ بها، وأُوتِيَت شَريعةً عَظيمةً، ومُلكًا عَظيمًا، وكذلك كان نَصرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمِنينَ، وكان أعظَمَ مِن ذلك وأكمَلَ وأشرَفَ، وأيُّ نَصرٍ أعظَمُ مِن الخَلاصِ مِن العُبوديَّةِ والقِلَّةِ والتَّبَعِ لأُمَّةٍ أُخرَى في أحكامٍ تُلائِمُ أحوالَ الأُمَّةِ التَّابِعةِ، إلى مَصيرِ الأُمَّةِ مالِكةِ أمْرِ نَفْسِها، ذاتِ شَريعةٍ مُلائِمةٍ لأحوالِها ومصالِحِها، وسيادةٍ على أُمَمٍ أخرى، وذلك مَثَلُ المُسلِمينَ مع النَّبيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٢، ١٣٣) و (٢٤/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٧٣).

والأثر المُشار إليه أخرجه البخاري (٧٩٧)، ومسلم (٦٧٦).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبَعْدَه، وهو إيماءٌ إلى الوَعدِ بأنَّ القُرآنَ الَّذي كذَّب به المُشرِكونَ باقٍ مَوروثٌ في الأمَّةِ الإسلاميَّةِ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ الثَّناءُ على العقلِ؛ لأنَّ أهْلَه هم أهلُ التَّذكُّرِ؛ الَّذين يَنتفِعونَ بما سمِعوا، والمرادُ بالعقلِ هنا هو عقلُ الرُّشْدِ، أمَّا عقلُ الإدراكِ فهو الَّذي يُناطُ به التَّكليفُ، ويُذكَرُ في كُتُبِ الفقهاءِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أنَّ كلَّ مَن لم يَتذكَّرْ بآياتِ اللهِ فإنَّه ليس ذا عقلٍ، فإنْ قال قائلٌ: يَرِدُ عليكم أنَّا نَجِدُ في أئمَّةِ الكفرِ مَن هو على جانبٍ كبيرٍ مِن الدَّهاءِ والذَّكاءِ!

فالجوابُ: أنَّ هناك فَرْقًا بيْنَ العقلِ والذَّكاءِ؛ لأنَّ العقلَ يَعْقِلُ صاحِبَه عمَّا يَضُرُّه؛ ولهذا سُمِّيَ عقلًا بمنزلةِ العِقَالِ للبعيرِ، لكنَّ الذَّكاءَ ليس كذلك؛ فالذَّكاءُ غريزةٌ أو كَسْبٌ يَجعَلُه اللهُ تعالى في الإنسانِ، ورُبَّما يكونُ بعضُ الحيواناتِ أذكَى مِن الإنسانِ[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ هذا نَصٌّ صَريحٌ وبِشارةٌ بأنَّ كُلَّ مَن جادَلَ الحَقَّ فهو مَغلوبٌ، وكُلَّ مَن تكبَّرَ عليه فهو في نهايتِه ذَليلٌ[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٠، ٣٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، وهو استِخلاصٌ للعِبرةِ مِن القَصصِ الماضيةِ، ولِبَيانِ أنَّ ما أصابَ الكفَرةَ مِن العذابِ المحكِيِّ مِن فُروعِ حُكْمٍ كُلِّيٍّ تَقْتضيهِ الحِكمةُ؛ وهو أنَّ شأْنَنا المُستمِرَّ أنَّا نَنصُرُ رُسلَنا وأتْباعَهم، وهذا الكلامُ مَسوقٌ لِتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَبْشيرِه ووَعْدِه بحُسنِ العاقِبةِ، وتَسليةِ المؤمنينَ ووَعْدِهم بالنَّصرِ وحُسنِ العاقِبةِ في الدُّنيا والآخرةِ؛ وذلك أنَّ الكلامَ مِن ابتِداءِ السُّورةِ كان بذِكرِ مُجادَلةِ المشركينَ في القرآنِ بقولِه تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، وأومَأَ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ شِيَعَهم يَؤولُ أمْرُهم إلى خَسارٍ بقولِه: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، وامتدَّ الكلامُ في الرَّدِّ على المجادِلين، وتَمثيلِ حالِهم بحالِ أمْثالِهم مِن الأُمَمِ الَّتي آلَ أمْرُها إلى خَيبةٍ واضمِحلالٍ في الدُّنيا، وإلى عَذابٍ دائمٍ في الآخِرةِ. ولَمَّا استوفى الغرَضُ مُقتضاهُ مِن إطنابِ البيانِ، بيَّن اللهُ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَقِبَه أنَّه يَنصُرُ رُسلَه والَّذين آمَنوا في الدُّنيا، كما دلَّ عليه قولُه في آخِرِ الكلامِ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[1] [غافر: ٧٧].

- وقيل: قولُه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ تَعليلٌ لِضَياعِ دُعاءِ الكافرينَ في قولِه: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠]؛ لأنَّه مَسلوبُ الحُجَّةِ، و(إنَّ) واسمُها واللَّامُ المُزَحْلَقةُ للتَّوكيدِ، ولا يَقدَحُ في هذا التَّأكيدِ ما يَبْدو أنَّ المؤمنينَ يُغلَبون في بعضِ الأحيانِ ابتلاءً وامتحانًا؛ فإنَّ العِبرةَ بالعواقبِ، والأمورَ بخَواتيمِها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٨).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد التربوية (ص: ٢٢٧).

- وعُبِّرَ بالمضارِعِ في قولِه: ﴿لَنَنصُرُ﴾؛ لِما فيه مِن استِحضارِ حالاتِ النَّصرِ العجيبةِ الَّتي وُصِفَ بعضُها في هذه السُّورةِ، ووُصِفَ بعضٌ آخَرُ في سُوَرٍ أُخرى تقدَّمَ نُزولُها؛ وإلَّا فإنَّ نَصْرَ الرُّسلِ الَّذين سَبَقوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد مَضى، ونصْرُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُترقَّبٌ غيرُ حاصلٍ حِينَ نُزولِ الآيةِ[١].

- وتأْكيدُ الخَبرِ بـ(إنَّ)، وبجَعْلِ المسنَدِ فِعليًّا في قولِه: ﴿لَنَنصُرُ﴾، مُراعًى فيه حالُ المعرَّضِ بهم بأنَّ اللهَ يَنصُرُ رُسلَه عليهم، وهمُ المشرِكون؛ لأنَّهم كانوا يُكذِّبون بذلك، وهذا وَعدٌ للمؤمنينَ بأنَّ اللهَ ناصِرُهم على مَن ظَلَمَهم في الحياةِ الدُّنيا بأنْ يُوقِعَ الظَّالِمَ في سُوءِ عاقبةٍ، أو بأنْ يُسلِّطَ عليه مَن يَنتقِمُ منه بنَحوٍ أو أشدَّ ممَّا ظلَمَ به مُؤمنًا[٢].

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ أي: يومَ القِيامةِ، عُبِّرَ عنه بذلك؛ للإشعارِ بكَيفيَّةِ النُّصرةِ، وأنَّها تكونُ عندَ جميعِ الأوَّلينَ والآخِرينَ بشَهادةِ الأشهادِ للرُّسلِ بالتَّبليغِ، وعلى الكَفَرةِ بالتَّكذيبِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ مِن بابِ نفْيِ الشَّيءِ بنَفْيِ لازِمِه؛ فأصلُ الكلامِ: ليس لهم مَعذرةٌ نافِعةٌ، فعُدِلَ إلى ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾؛ للمُبالَغةِ، وجُعِلَ انتِفاءُ النَّفعِ دليلًا على انتفاءِ العُذْرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٢٧).

- وتَقديمُ (لهم) في هاتَينِ الجُملتَين ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾؛ للاهتِمامِ بالانتقامِ منهم[(١)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ۞ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

- جُملةُ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ ...﴾ مُعترِضةٌ بيْن ﴿لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] وبيْن التَّفريعِ عليه في قولِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾[(٢)] [غافر: ٥٥].

- قولُه: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التَّوراةَ، وهو الَّذي أورَثَه اللهُ بني إسرائيلَ، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ الكتابَ مِن جُملةِ الهُدى الَّذي أُوتِيَه مُوسى، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة: ٤٤]؛ ففي الكلامِ إيجازُ حَذْفٍ[(٣)]، تَقديرُه: ولقدْ آتَيْنا مُوسى الهُدى والكتابَ، وأوْرَثْنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الإيجازُ: هو الاختصارُ والجمعُ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ مِن الكلامِ بأقلَّ مِن عباراتِ مُتعارَفِ الأوساطِ. ويكونُ الإيجازُ محمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصودِ. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغةِ كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسنُ الإيجازِ. والإيجازُ نوعان؛ الأوَّلُ: إيجازُ القِصَرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغةِ)، وهو ما ليس بحَذْفٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾[البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه مع أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا علِم أنَّه متَى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتالِ؛ فارتفع بالقتْلِ -الَّذي هو قِصاصٌ- كثيرٌ مِن قتْلِ النَّاسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم. الثَّاني: إيجازُ الحَذْفِ. والإيجازُ بالحذفِ: هو حذْفُ ما يُعلَمُ ويُفهَمُ مِن سِياقِ الكلامِ بشرطِ وُجودِ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه؛ فقد يكونُ الإيجازُ بالحذفِ وغيرِه. والفرقُ بينَ الحذفِ والإيجازِ أن يكونَ في الحذفِ مقدَّرٌ، بخِلافِ الإيجازِ؛ فإنَّه عِبارةٌ عن اللَّفظِ القليلِ الجامعِ للمعاني الجمَّةِ بنفْسِه. يُنظر: ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشِيق (١/ ٢٤٢)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما =

بني إسرائيلَ الكتابَ؛ فإنَّ مُوسى أُوتِيَ مِن الهُدى ما لم يَرِثْه بنو إسرائيلَ، وهو الرِّسالةُ، وأُوتِيَ مِن الهُدَى ما وَرِثه بنو إسرائيلَ، وهو الشَّريعةُ الَّتي في التَّوراةِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾

- قولُه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر: ٥١]، أي: فاعْلَمْ أنَّا ناصِروك والَّذين آمَنوا، واصبِرْ على ما تُلاقِيه مِن قَومِك ولا تَهِنْ(٢).

- وجُملةُ ﴿ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بالصَّبرِ؛ لأنَّ نُصرةَ الرُّسلِ في ضَمانِ اللهِ، وضَمانُ اللهِ لا يُخلَفُ. و(إنَّ) للاهتمامِ بالخبَرِ، وهي تُغْني غَناءَ فاءِ التَّعليلِ، فكأنَّه قِيل: فوَعْدُ اللهِ حقٌّ، ويُفادُ بـ (إنَّ) التَّأكيدُ الَّذي هو للاهتمامِ والتَّحقيقِ، والمعنى: لا تَستبطِئِ النَّصرَ؛ فإنَّه واقعٌ(٣).

- وعُطِفَ على الأمْرِ بالصَّبرِ الأمْرُ بالاستِغفارِ والتَّسبيحِ، فكانا داخلَينِ في سِياقِ التَّفريعِ على الوعْدِ بالنَّصرِ؛ رَمْزًا إلى تَحقيقِ الوعدِ؛ لأنَّه أمَرَ عَقِبَه بما هو مِن آثارِ الشُّكرِ؛ كِنايةً عن كَونِ نِعمةِ النَّصرِ حاصلةً لا مَحالةَ، وهذه كِنايةٌ رمْزيَّةٌ(٤).

= بعدها)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٧٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والأمْرُ بالاستغفارِ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ هذا مَقامُ التَّخليةِ عن الأكدارِ النَّفْسيَّةِ. وفيه تَعريضٌ بأنَّ أُمَّتَه صلَّى الله عليه وسلَّم مَطلوبون بذلك بالأحْرى. وأُمِرَ بتَسبيحِ اللهِ تعالى وتَنزيهِه بالعَشيِّ والإبكارِ ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، أي: الأوقاتِ كلِّها -وذلك على قولٍ-؛ فاقتُصِرَ على طَرَفَيْ أوقاتِ العملِ، وهذا مَقامُ التَّحلِّي بالكَمالاتِ النَّفْسيَّةِ، وبذلك يَتِمُّ الشُّكرُ ظاهرًا وباطنًا[1].

- وجُعِلَ الأمْرانِ بالاستِغفارِ والتَّسبيحِ مَعطوفَينِ على الأمْرِ بالصَّبرِ؛ لأنَّ الصَّبرَ هنا لانتِظارِ النَّصرِ الموعودِ؛ ولذلك لم يُؤمَرْ بالصَّبرِ لَمَّا حصَلَ النَّصرُ في قولِه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ * وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا * فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١ - ٣]؛ فإنَّ ذلك مَقامُ مَحضِ الشُّكرِ دونَ الصَّبرِ[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ...﴾ الآيةَ، استِئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو كالتَّكريرِ لِجُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٣٥] تَكريرَ تَعدادٍ للتَّوبيخِ عِندَ تَنْهيةِ غَرَضِ الاستِدلالِ، كما يُوقَفُ الموبَّخُ المرَّةَ بعْدَ المرَّةِ[3].

- وفائدةُ تَقييدِ مُجادَلةِ المشركينَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّها ﴿بِغَيۡرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧٢).

سُلۡطَٰنٍ﴾ تَشنيعُ مُجادَلتِهم؛ وإلَّا فإنَّ المُجادَلةَ في آياتِ اللهِ لا تَكونُ إلَّا بغَيرِ سُلطانٍ؛ لأنَّ آياتِ اللهِ لا تكونُ مُخالِفةً للواقعِ، وكذلك وَصْفُ ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾ بجُملةِ ﴿أَتَىٰهُمۡ﴾؛ لِزيادةِ تَفظيعِ مُجادَلتِهم بأنَّها عَرِيَّةٌ عن حُجَّةٍ لَديهم؛ فهم يُجادِلون بما ليس لهمْ به عِلمٌ[1]. وأيضًا تَقييدُ المجادَلةِ بذلكَ مع استِحالةِ إتيانِه؛ للإيذانِ بأنَّ التَّكلُّمَ في أمْرِ الدِّينِ لا بُدَّ مِن استِنادِه إلى سُلطانٍ مُبينٍ البتَّةَ، وهذا عامٌّ لكلِّ مُجادِلٍ مُبطِلٍ[2].

- ومعنَى قولِه: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾: ما يَحمِلُهم على المُجادَلةِ في آياتِ اللهِ إلَّا الكِبْرُ على الَّذي جاءهم بها، وليستْ مُجادَلتُهم لِدَليلٍ لاحَ لهم، وقد أُثبِتَ لهم الكِبرُ الباعثُ على المجادَلةِ بطَريقِ القصْرِ (إنْ - إلَّا)؛ ليُنْفَى أنْ يكونَ داعيَهم إلى المجادَلةِ شَيءٌ آخَرُ غيرُ الكِبرِ على وَجهٍ مُؤكَّدٍ؛ فإنَّ القصْرَ تأْكيدٌ على تأْكيدٍ؛ لِمَا يَتضَمَّنُه مِن إثباتِ الشَّيءِ بوَجْهٍ مَخصوصٍ مُؤكَّدٍ، ومِن نفْيِ ما عَداه، فتَضمَّنَ جُملتَين[3].

- وذِكرُ الصُّدورِ دونَ القُلوبِ؛ لِعِظَمِ الكِبْرِ جِدًّا، بأنَّه قد ملأَ القُلوبَ وفاض منها حتَّى شَغَل الصُّدورَ الَّتي هي مَساكِنُها[4]! وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه أطلَقَ الصُّدورَ على القُلوبِ؛ لأنَّها محلُّ القلوبِ[5].

- وجُملةُ ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مُعترِضةً. ويجوزُ أنْ تكونَ في مَوضعِ الصِّفةِ لـ﴿كِبۡرٞ﴾، وإذ قد كان الكِبرُ مُثبَتًا حُصولُه في نُفوسِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٣).

إثباتًا مُؤكَّدًا بقولِه: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾؛ تَعيَّنَ أنَّ نفْيَ بُلوغِهم الكِبْرَ مُنصرِفٌ إلى حالاتِ الكِبْرِ: فإمَّا أنْ يُرادَ نفْيُ أهْليَّتِهم للكِبرِ؛ إذ هم أقلُّ مِن أنْ يكونَ لهم الكِبرُ، فالمعنى هنا: كِبْرٌ زَيفٌ. وإمَّا أنْ يُرادَ نفْيُ نَوالِهم شيئًا مِن آثارِ كِبْرِهم، فالمعنى: ما همْ ببالِغينَ مُرادَهم الَّذي يأْمُلُونه منك في نُفوسِهم الدَّالَّةِ عليه أقوالُهم، مِثلُ قولِهم: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، ونَحوِ ذلك مِن أقوالِهم الكاشفةِ لِآمالِهم.

وتَنكيرُ ﴿كِبْرٌ﴾ للتَّعظيمِ، أي: كِبرٌ شَديدٌ بتَعدُّدِ أنواعِه، وتَمكُّنِه مِن نُفوسِهم[(١)].

- وقد نُفِيَ أنْ يَبلُغوا مُرادَهم بصَوغِه في قالبِ الجُملةِ الاسميَّةِ ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾؛ لِإفادتِها ثَباتَ مَدلولِها ودَوامَه؛ فالمعنى: أنَّهم مَحرومون مِن بُلوغِه حِرمانًا مُستمِرًّا، فاشتمَلَ تَشويهُ حالِهم إثباتًا ونفْيًا على خُصوصيَّاتٍ بلاغيَّةٍ كثيرةٍ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لَمَّا ضمِنَ اللهُ لِرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ الَّذين يُجادِلونه فيما جاءَهمْ به يَحْدُوهم إلى الجِدالِ كِبْرُهم المُنْطوي على كَيدِهم، وأنَّهم لا يَبلُغون ما أضْمَروه وما يُضْمِرونه؛ فَرَّعَ على ذلك أنْ أمَرَه بأنْ يَجعَلَ اللهَ مَعاذَه منهم، أي: لا يَعبَأْ بما يُبيِّتونَه، أي: فَدُمْ على طلَبِ العَوذِ باللهِ. وحُذِفَ مُتعلَّقُ (استَعِذْ)؛ لِقَصْدِ تَعميمِ الاستِعاذةِ مِن كلِّ ما يُخافُ منه[(٣)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بالدَّوامِ على الاستِعاذةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧٥).

أي: لأنَّه المطَّلِعُ على أقوالِهم وأعمالِهم، وأنت لا تُحِيطُ عِلمًا بتَصاريفِ مَكْرِهم وكَيدِهم[١]. فخَتَم الآيةَ بالسَّمعِ والبَصَرِ؛ لأنَّ ما يُؤذُونَ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إمَّا قَولٌ فيُدرَكُ بالسَّمْعِ، أو فِعلٌ فيُدرَكُ بالبَصَرِ، يعني: إنْ آذَوك بالقَولِ فنحن نَسمَعُ، أو بالفِعلِ فنحن نُبصِرُ، وهذا فيه تطمينٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

- والتَّوكيدُ بحَرْفِ (إنَّ)، والحصْرُ بضَميرِ الفصْلِ ﴿هُوَ﴾ مُراعًى فيه التَّعريضُ بالمُتحدَّثِ عنهم، وهمُ الَّذين يُجادِلون في آياتِ اللهِ بغَيرِ سُلطانٍ، والمعنى: أنَّه هو القادرُ على إبطالِ ما يَصنعونه لا أنتَ، فكيف يَتِمُّ لهم ما أضْمَروه لك[٣]؟!

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، فإنَّه لَمَّا كان السِّياقُ للعياذِ مِن شَياطينِ الإنسِ الَّذين لهم المكْرُ الظَّاهرُ والباطنُ، ختَمَ بقولِه: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ الصَّالحِ للبصَرِ والبصيرةِ، فيَعُمُّ المحسوسَ والمعلومَ، وختَمَ آيتَي (الأعراف) و(فُصِّلَت) بالسَّمعِ والعِلمِ، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] المسبوقَتَينِ بنَزْغِ الشَّيطانِ -الَّذي هو وَساوسُ وخَطراتٌ باطنةٌ- بالعليمِ[٤]. فتأمَّلْ حكمةَ القرآنِ الكريمِ كيف جاء في الاستعاذةِ مِن الشيطانِ -الَّذي نَعْلَمُ وُجودَه ولا نَراه- بلفظِ «السَّميعِ العليمِ» في (الأعرافِ) و(فُصِّلَت)؛ وجاءتِ الاستِعاذةُ مِن شرِّ الإنسِ -الَّذين يُؤْنَسون ويُرَون بالإبصارِ- بلفظِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٣).

«السَّميعِ البصيرِ» في سورةِ (غافر)؛ لأنَّ أفعالَ هؤلاء أفعالٌ مُعايَنةٌ تُرى بالبصرِ، وأمَّا نَزْغُ الشَّيطانِ فوساوسُ وخَطَراتٌ يُلقيها في القلبِ يَتعلَّقُ بها العلمُ، فأَمَر بالاستِعاذةِ بـ «السَّميعِ العليمِ» فيها، وأمَر بالاستِعاذةِ بـ «السَّميعِ البصيرِ» في بابِ ما يُرى بالبصرِ ويُدْرَكُ بالرُّؤيةِ[1].

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٨).

الآيات (٥٧-٥٩)

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا عظيمَ قُدرتِه، ومُنبِّهًا على إعادةِ الخلائِقِ يومَ القيامةِ: لَخَلْقُ اللهِ السَّمَواتِ والأرضَ أعظَمُ مِن خَلْقِه النَّاسَ، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ؛ فمِنهم مَن يُنكِرُ البَعثَ بعدَ الموتِ!

ثمَّ يقولُ سبحانَه: ولا يَستوي الأعمَى والمُبصِرُ، كذلك لا يَسْتوي الكافرُ والمؤمنُ، ولا يَستوي المؤمِنونَ الَّذين يَعمَلونَ الصَّالِحاتِ معَ المُسيئينَ، قليلًا ما تَتذَكَّرونَ.

ثمَّ يُؤكِّدُ على مَجيءِ السَّاعةِ، فيقولُ: إنَّ القيامةَ لَآتِيةٌ لا شَكَّ في وُقوعِها، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ بذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ مُجادَلتَهم في آياتِ اللهِ كانت مُشتَمِلةً على إنكارِ البَعثِ، وهو أصلُ المُجادَلةِ ومَدارُها، فحُجُّوا بخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ؛ لأنَّهم كانوا مُقِرِّينَ بأنَّ

اللهَ خالِقُها، وبأنَّها خَلقٌ عَظيمٌ لا يُقادَرُ قَدْرُه، وخَلقُ النَّاسِ بالقياسِ إليه شَيءٌ قَليلٌ مَهينٌ، فمَن قدَرَ على خَلْقِها معَ عِظَمِها، كان على خَلْقِ الإنسانِ معَ مَهانتِه أقْدَرَ(١).

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾.

أي: لَخَلْقُ اللهِ السَّمَواتِ والأرضَ أعظَمُ مِن خَلْقِه النَّاسَ، فكَيفَ يَعجزُ عن خَلقِهم خَلقًا جديدًا بعدَما أماتَهم؟! فمَنْ قَدَر على خَلقِ الأجرامِ العَظيمةِ وأتْقَنَها: قادِرٌ على إعادةِ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم بطَريقِ الأَولى(٢).

كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٦).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ: ابنُ القيِّم، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن اختاره أيضًا: ابنُ جُزَي، وابنُ تيميَّة، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٢٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٧ فما بعدها) و(٦/ ٣٩٢ فما بعدها) و(٧/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٣، ٤٠٤).

ورجَّح ابنُ جُزَي هذا المعنى، وهو أنَّ المرادَ بالآيةِ الاستِدلالُ على البعثِ؛ وذلك لوُرودِه في مواضِعَ مِن القرآنِ، ولأنَّه قال بعدَه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾؛ فقدَّم الدَّليلَ، ثمَّ ذكَر المدلولَ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٤).

وذكر ابنُ عثيمين أنَّ الآيةَ نزلَتْ في مُنكري البعثِ، وفي بيانِ قدرةِ الله عزَّ وجلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٣، ٤٠٤).

وقيل: هذا توبيخٌ لهؤلاء الكفَرةِ المتكبِّرينَ، كأنَّه قال: مَخلوقاتُ الله أكبَرُ وأجَلُّ قدرًا مِن خَلْقِ البشَرِ، فما لأحدٍ منهم أن يَتكبَّرَ على خالِقِه سبحانَه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٧).

بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ، فلا يَتدَبَّرونَ ولا يَتأمَّلونَ لِيَعلَموا أنَّ خَلْقَ كُلِّ شَيءٍ يَسيرٌ على الله؛ فلذا يُنكِرونَ البَعثَ بعدَ الموتِ[1]!

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الجِدالَ المَقْرونَ بالكِبْرِ والحَسَدِ والجَهلِ كيف يكونُ، وأنَّ الجِدالَ المقْرونَ بالحُجَّةِ والبُرهانِ كيف يكونُ؛ نبَّه تعالى على الفَرقِ بيْنَ البابَينِ بذِكرِ المِثالِ[2].

وأيضًا لَمَّا نزَّل المُشرِكينَ مَنزِلةَ مَن لا يَعلَمُ، ضرَبَ مثَلًا لهم وللمُؤمِنينَ؛ فمَثَلُ الَّذين يُجادِلونَ في أمْرِ البَعثِ مع وُضوحِ إمكانِه مَثَلُ الأعمَى، ومَثَلُ المؤمِنينَ الَّذين آمَنوا به مَثَلُ حالِ البَصيرِ[3].

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾.

أي: ولا يَستوي الأعمَى الَّذي لا يُبصِرُ، والمُبصِرُ الَّذي يرَى؛ فبَيْنَهما فَرقٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٧).

عَظيمٌ، كذلك لا يَسْتوي الكفَرةُ الفُجَّارُ، والمؤمِنونَ الأبرارُ[(١)].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٦).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ بالأعمى والبصيرِ: المؤمِنُ والكافِرُ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٧) و (٦/ ١٢٧).

قال ابن جرير: (﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الَّذي لا يُبصِرُ شيئًا، وهو مثَلُ الكافرِ الَّذي لا يَتأمَّلُ حُجَجَ اللهِ بعينَيْهِ، فيَتَدَبَّرَها ويَعتبِرَ بها، فيَعلَمَ وحدانيَّتَه وقدرَتَه على خَلقِ ما شاءَ مِن شَيءٍ، ويُؤمِنَ به ويُصَدِّقَ. والبصيرُ الَّذي يرَى بعينَيْهِ ما شَخَص لهما ويُبصِرُه، وذلك مَثَلٌ للمؤمنِ الَّذي يرَى بعينَيْهِ حُجَجَ اللهِ، فيُفَكِّرُ فيها، ويَتَّعِظُ بها، ويَعلَمُ ما دَلَّتْ عليه مِن توحيدِ صانِعِه، وعظيمِ سُلطانِه، وقُدرَتِه على خَلقِ ما يَشاءُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٠).

وقال ابن عاشور: (المقصودُ: أنَّ الكافِرَ وإن كان ذا عَقلٍ يُدرِكُ به الأمورَ، فإنَّ عَقْلَه تَمحَّضَ لإدراكِ أحوالِ الحياةِ الدُّنيا، وكان كالعَدَمِ في أحوالِ الآخرةِ... يُشبِهُ حالَ الأعمى في إدراكِه أشياءَ وعدَمِ إدراكِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢).

وقيل: المرادُ بالأعمَى والبصيرِ: الجاهلُ والعالِمُ. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّة، والخازنُ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢٨).

وقيل: المرادُ بالأعمَى والبصيرِ: الَّذي يُجادِلُ بالباطِلِ، والَّذي يُجادِلُ بالحقِّ. وممَّن اختاره: الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٠).

أي: ولا يَستوي المؤمِنونَ المُطيعونَ لله، معَ الَّذين يَعمَلونَ السَّيِّئاتِ[١].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: ما أقَلَّ ما تَتذَكَّرونَ[٢] حُجَجَ الله، فتَتَّعِظونَ وتَعتبِرون! فلو تذكَّرْتُم واعتبَرْتُم لَآثرْتُم الهدَى على الضَّلالِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٧، ١٧٨).

(٢) قيل: الخِطابُ للنَّاسِ. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢).

وقيل: الخِطابُ للكُفَّارِ، فقَلَّ نَظَرُهم فيما يَنبغي أن يَنظُروا فيه. ومِمَّن قال بهذا: الواحديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩).

وقيل: الخِطابُ للَّذين يُجادِلون في آياتِ الله. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٩). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٧).

ومِمَّن اختار أنَّ معنى ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذَكُّرُكم قليلٌ: ابنُ جرير، ومكِّي، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

وقيل: المعنى: لا تَتذكَّرون أصلًا؛ فإنَّه قد يُعبَّرُ بقِلَّةِ الشَّيءِ عن عدَمِه. يُنظر: ((روح البيان)) للخلوتي (٨/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قرَّر الدَّليلَ الدَّالَّ على إمكانِ وُجودِ يومِ القيامةِ؛ أردَفه بأنْ أخبَر عن وُقوعِها ودُخولِها في الوجودِ[١].

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾.

أي: إنَّ القيامةَ لَآتِيةٌ لا شَكَّ في وُقوعِها[٢].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ بمَجيءِ يومِ القيامةِ؛ فهم يُكذِّبونَ به[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾ أنَّه يَنبغي لمعَلِّمِ النَّاسِ أن يَربِطَ المَعقولاتِ بالمَحسوساتِ؛ لأنَّ ذلك أقرَبُ إلى الفَهمِ، وأدعَى إلى التَّصديقِ؛ إذْ إنَّ المحسوسَ لا يُنكَرُ، لكِنَّ المَعقولَ قد يُكابِرُ فيه مَن يُكابِرُ ويُنكِرُه[٤]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكُّرُكم قَليلٌ، وإلَّا فلو تذكَّرتُم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٨).

مراتِبَ الأُمورِ، ومَنازِلَ الخَيرِ والشَّرِّ، والفَرقَ بيْنَ الأبرارِ والفُجَّارِ، وكانت لكم همَّةٌ عَلِيَّةٌ؛ لآثَرتُم النَّافِعَ على الضَّارِّ، والهُدَى على الضَّلالِ، والسَّعادةَ الدَّائِمةَ على الدُّنيا الفانيةِ(١).

٣- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ وُجوبُ الإيمانِ بالبعثِ؛ لأنَّه خبَرٌ مِن الله مؤكَّدٌ، وكلُّ أخبارِ الله تعالى صِدقٌ، وكلُّ وعدِ الله حقٌّ(٢). والإيمانُ بالسَّاعةِ له أثرٌ عظيمٌ في تحقيقِ الإيمانِ؛ فإنَّ مَن لا يؤمنُ بالسَّاعةِ لا يَعمَلُ، فلأيِّ شَيءٍ يَعملُ وهو لا يؤمنُ بيومِ الحسابِ؟! ومَنْ آمَنَ بيومِ الحسابِ كان حريصًا على أن يَنجوَ مِن وَبالِ هذا اليومِ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ دَلالةٌ على المَعادِ؛ فإنَّه مِن المعلومِ ببَداهةِ العُقولِ أنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ أعظَمُ مِن خَلْقِ أمثالِ بني آدمَ، والقُدرةَ عليه أبلَغُ؛ وأنَّ هذا الأيسَرَ أَولى بالإمكانِ والقُدرةِ مِن ذلك(٤).

٢- نَفْيُ العِلمِ عن الأكثرِ وتَخصيصُه به في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ القليلَ يَعلَمُ(٥).

٣- في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾ نفْيُ المُساواةِ بيْنَ الأمورِ المُختلِفةِ، وهذا مِن قواعدِ الشَّريعةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٨، ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١١).

(٤) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (١/ ٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٨).

أنَّها لا تُساوي بيْن مُختلِفَين، ولا تَجمَعُ بيْن مُفترقَين[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ فيه ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالإلجاءِ؛ وهو أنْ يُبادِرَ المُتكلِّمُ خَصْمَه بما يُلْجِئُه إلى الاعترافِ بصِحَّتِه، وبهذا صَحَّ الْتِحامُه معَ ما قبْلَه مِن الكلامِ؛ فإنَّ مُجادَلتَهم في آياتِ اللهِ كانت مُشتمِلةً على أُمورٍ كَثيرةٍ مِن الجِدالِ والمُغالَطةِ، واللَّجاجِ والسَّفْسَطةِ، وفي مُقدِّمتِها إنكارُ البعثِ، وهو في الواقعِ أصْلُ المُجادَلةِ ومِحْورُها الَّذي عليه تَدورُ، فبادَرَ سُبحانه إلى مُبادَهتِهم بما يُسْقَطُ في أيْدِيهم، ويَقطَعُ عليهم طُرقَ المكابَرةِ والمعانَدةِ، وهو خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ، وقد كانوا مُقِرِّين بأنَّ اللهَ خالِقُها، وبأنَّها خلْقٌ عظيمٌ، فخلْقُ النَّاسِ بالقياسِ شَيءٌ هيِّنٌ، ومَن قدَرَ على خلْقِها مع عِظَمِها، كان -ولا شكَّ- على خلْقِ الإنسانِ الضَّعيفِ أقدَرَ، وبه أقمَنَ. هذا والأولويَّةُ في هذا الاستِشهادِ على دَرَجتينِ؛ إحْداهما: أنَّ القادرَ على العظيمِ هو على الحقيرِ أقدَرُ، وثانيهما: أنَّ مُجادَلتَهم كانت في البعثِ، وهو الإعادةُ، وما مِن رَيبٍ في أنَّ الابتِداءَ أعظَمُ وأبهَرُ مِن الإعادةِ[٢].

- والكلامُ مُؤذِنٌ بقَسَمٍ مُقدَّرٍ؛ لأنَّ اللَّامَ في ﴿ لَخَلْقُ ﴾ لامُ جَوابِ القسَمِ، والمقصودُ تأْكيدُ الخبرِ، ومعنى ﴿أَكْبَرُ﴾ أنَّه أعظَمُ وأهمُّ، وأكثرُ مُتعلَّقاتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٥، ١٧٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٢).

قُدرةٍ بالقادرِ عليه، لا يَعجِزُ عن خلْقِ ناسٍ يَبعَثُهم للحسابِ، وهذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في غيرِ معناهُ؛ لأنَّ كَوْنَ خَلْقِها أكبَرَ هو أمْرٌ مَعلومٌ، وإنَّما أُرِيدَ التَّذكيرُ والتَّنبيهُ عليه؛ لِعَدَمِ جَرْيِهم على مُوجَبِ عِلْمِهم به(١).

- ومَوقِعُ الاستِدراكِ بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ما اقتَضاهُ التَّوكيدُ بالقسَمِ المقدَّرِ مِن اتِّضاحِ أنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ أكبَرُ مِن خلْقِ النَّاسِ، فالمعنى: أنَّ حُجَّةَ إمكانِ البعثِ واضحةٌ، ولكنَّ الَّذين يُنكِرونها لا يَعلَمون الدَّليلَ؛ لأنَّهم مُتلاهُون عن النَّظرِ في الأدلَّةِ، مُقتنِعون بِبادِئِ الخواطرِ الَّتي تَبْدو لهم، فيَتَّخِذونها عقيدةً، فلمَّا جَرَوا على حالةِ انتفاءِ العِلمِ نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن لا عِلمَ لهم؛ فلذلك نُزِّل فِعلُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مَنزِلةَ اللَّازمِ، ولم يُذكَرْ له مَفعولٌ(٢).

- والمرادُ بـ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ قيل: همُ الَّذين يُجادِلون في آياتِ البعثِ، وهم المشرِكون، وإظهارُ لَفظِ النَّاسِ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، مع أنَّ مُقْتضى الظَّاهرِ الإضمارُ؛ لِتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بالدَّلالةِ، فتَصلُحَ لأنْ تَسيرَ مَسيرَ الأمثالِ، فالمعنى: أنَّهم أنْكَروا البعثَ لاستِبعادِهم خلْقَ الأجسامِ، مع أنَّ في خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ ما لا يَبْقى معه استبعادُ مِثلِ ذلك(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قد عُلِمَ حالُ المؤمنينَ مِن مَفهومِ صِفةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧٦، ١٧٧).

﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ الأكثرينَ مِن الَّذين لا يَعلَمون يُقابِلُهم أقَلُّون يَعلَمون[١].

- قولُه: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾ نَفْيُ الاستِواءِ بيْن الفَريقَينِ يَقْتضي تَفضيلَ أحدِهما على الآخَرِ، ومِن المتبادَرِ أنَّ الأفضلَ هو صاحبُ الحالِ الأفضلِ، وهو البصيرُ؛ إذ لا يَختلِفُ النَّاسُ في أنَّ البصرَ أشرَفُ مِن العمَى في شَخْصٍ واحدٍ. ونفْيُ الاستواءِ بدُونِ مُتعلَّقٍ يَقْتضي العُمومَ في مُتعلَّقاتِه، لكنَّه يُخَصُّ بالمُتعلَّقاتِ الَّتي يَدلُّ عليها سِياقُ الكلامِ، وهي آياتُ اللهِ ودلائلُ صِفاتِه، ويُسمَّى مِثلُ هذا العمومِ: العُمومَ العُرفيَّ[٢].

- وقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾ زيادةُ بَيانٍ لِفَضيلةِ أهْلِ الإيمانِ بذِكرِ فَضيلتِهم في أعمالِهم، بعْدَ ذِكرِ فَضْلِهم في إدراكِ أدلَّةِ إمكانِ البعثِ ونحْوِه مِن أدلَّةِ الإيمانِ، والمعنى: وما يَسْتوي الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ والمُسيئون، أي: في أعمالِهم؛ كما يُؤذِنُ بذلك قولُه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾، وفيه إيماءٌ إلى اختِلافِ جَزاءِ الفريقَينِ، وهذا الإيماءُ إدماجٌ[٣] للتَّنبيهِ على الثَّوابِ والعِقابِ[٤].

- وقدَّمَ ذِكرَ الأعمَى على ذِكرِ البصيرِ، معَ أنَّ البصَرَ أشرَفُ مِن العَمى بالنِّسبةِ لِذاتٍ واحدةٍ، والمُشبَّهَ بالبصيرِ أشرَفُ مِن المُشبَّهِ بالأعمَى؛ إذ المُشبَّهُ بالبصيرِ المؤمنونَ، فقُدِّمَ ذِكرُ تَشبيهِ الكافرينَ مُراعاةً لِكَونِ الأهمِّ في المقامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٧). ويُنظر أيضًا: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (ص: ٥٦٩، ٥٩٧).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٧، ١٧٨).

بَيانَ حالِ الَّذين يُجادِلون في الآياتِ؛ إذ همُ المقصودُ بالموعظةِ، وأمَّا قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾ فإنَّما رُتِّبَ فيه ذِكرُ الفَريقَينِ على عَكسِ تَرتيبِه في التَّشبيهِ بالأعمى والبصيرِ؛ اهتِمامًا بشَرَفِ المؤمنينَ[1].

وقيل: قدَّم الأعمَى في نفْيِ التَّساوي؛ لمجيئِه بعدَ صِفةِ الذَّمِّ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وقدَّم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لمُجاوَرتِه للبصيرِ[2].

- وأُعيدَت (لا) النَّافيةُ بعْدَ واوِ العطْفِ على النَّفيِ في قولِه: ﴿وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾، وكان العطْفُ مُغْنيًا عنها؛ فإعادتُها لإفادةِ تأْكيدِ نفْيِ مُساواتِه للمُحسِنِ فيما له مِن الفضْلِ والكرامةِ، ومَقامُ التَّوبيخِ يَقْتضي الإطنابَ، وكان الظَّاهرُ أنْ تقعَ (لا) قبْلَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فعُدِلَ عن ذلك؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المقصودَ عدَمُ مُساواةِ المُسِيءِ لِمَن عمِلَ الصَّالحاتِ، وأنَّ ذِكرَ الَّذين آمَنوا قبْلَ المُسِيءِ؛ للاهتِمامِ بالَّذين آمنوا، ولا مُقْتضي للعُدولِ عنه بعْدَ أنْ قُضِيَ حقُّ الاهتِمامِ بالَّذين سِيقَ الكلامُ لأجْلِ تَمثيلِهم، فحصَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٥٠٣).

قال درويش: (وفي قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ الآيَةَ: فنُّ حُسْنِ النَّسَقِ، وفي ترتيبِ النَّسَقِ ثلاثُ طُرُقٍ؛ إحداها: أن يُجاوِرَ المناسِبُ ما يُناسِبُه، كهذه الآيةِ؛ فالأعمى يُجاوِرُ البصيرَ... وثاني الطَّريقتَينِ: أن يَتأخَّرَ المُتقابِلانِ، كقَولِه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤]، وثالثتُهما: أن يُقدَّمَ مُقابِلُ الأوَّلِ ويُؤخَّرَ مُقابِلُ الآخَرِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٠]. وهذه الطُّرُقُ الثَّلاثُ يَتخيَّرُ المتكلِّمُ في إيرادِها حَسَبَ مُقتضى الحالِ، ووَفْقَ نواميسِ البلاغةِ وطَرائقِها). ((إعراب القرآن وبيانه)) (٨/ ٥٠٣)، ويُنظر: (٤/ ٣٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٢٥)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٣٨٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٦٢).

في الكلامِ اهتمامانِ[١].

- وفيه احتِباكٌ[٢]: فذُكِرَ عَمَلُ الصَّالحاتِ أوَّلًا؛ دَليلًا على ضِدِّها ثانيًا، والمُسيءُ ثانيًا؛ دليلًا على المُحسِنينَ أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذُكِرَ الصَّلاحُ تَرغيبًا، والإساءةُ تَرهيبًا[٣].

- قولُه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قيل: القِلَّةُ هنا كِنايةٌ عن العَدَمِ، وهو استِعمالٌ كثيرٌ، ويجوزُ أنْ تكونَ على صَريحِ مَعناها، ويكونَ المرادُ بالقِلَّةِ عَدَمَ التَّمامِ، أي: إذا تَذكَّروا تَذكُّرًا لا يُتمِّمونَه، فيَنقطِعون في أثنائِه عن التَّعمُّقِ إلى استِنباطِ الدَّلالةِ منه؛ فهو كالعَدَمِ في عَدَمِ تَرتُّبِ أثَرِه عليه[٤].

- قولُه: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ على الالتِفاتِ، والخِطابُ للَّذين يُجادِلون في آياتِ الله، وذلك على قولٍ. والعُدولُ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ في مَقامِ التَّوبيخِ يدُلُّ على العُنْفِ الشَّديدِ، والإنكارِ البليغِ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ لَمَّا أُعطِيَ إثباتُ البعثِ ما يَحِقُّ مِن الحِجاجِ والاستِدلالِ، تَهيَّأَ المقامُ لاستِخلاصِ تَحقيقِه كما تُستخلَصُ النَّتيجةُ مِن القياسِ، فأُعلِنَ بتَحقيقِ مَجيءِ السَّاعةِ، وهي ساعةُ البعثِ؛ إذ السَّاعةُ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٣).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٨، ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٩).

اصطلاحِ الإسلامِ عَلَمٌ بالغَلَبةِ على ساعةِ البعثِ؛ فالسَّاعةُ والبَعثُ مُترادِفانِ في المآلِ، فكأنَّه قِيل: إنَّ الَّذي جادَلَ فيه المجادِلون سيَقَعُ لا مَحالةَ؛ إذ انكشَفَتْ عنه شُبَهُ الضَّالِّينَ وتَمويهاتُهم، فصار بَيِّنًا لا رَيبَ فيه[1].

- وتأْكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ) ولامِ الابتِداءِ؛ لِزيادةِ التَّحقيقِ، وللإشارةِ إلى أنَّ الخبَرَ تَحقَّقَ بالأدِلَّةِ السَّابقةِ؛ وذلك أنَّ الكلامَ مُوجَّهٌ للَّذين أنْكَروا البعثَ[2]. وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ﴾ هنا وفي (الحِجرِ): [الآية: ٨٥]، فدخَلَت اللَّامُ على (آتِية) فيهما، وخَلَت منها في سُورةِ (طه)، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، وهذه اللَّامُ تُؤكِّدُ الكلامَ، والعرَبُ تُحرِّضُ على التَّوكيدِ في مَوضعِه، وتَرْكِه في غَيرِ مَوضعِه، وهذانِ الموضعان في (الحجر) و(غافر) مِن مَواضعِ التَّوكيدِ، وتَحقيقِ الخبَرِ أنَّ السَّاعةَ حقٌّ، وأنَّها آتيةٌ لا رَيبَ فيها، والخِطابُ لِقَومٍ كُفَّارٍ يُنكِرونها. والَّتي في سُورةِ (طه) خِطابٌ لِمُوسى عليه السَّلامُ، ولم يكُنْ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ممَّن يُنكِرُ ذلك؛ فيُؤكَّدَ الكلامُ عليه تَوكيدَه على مُنكِريه والجاحِدينَ له، على أنَّه تَحميلٌ له لِيُعلِمَ قَومَه، وهو ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦]، فبذلك وضَحَ الفرْقُ بيْن الموضِعَينِ[3].

- وجِيءَ باسمِ الفاعلِ في (آتِيَةٌ) الَّذي هو حَقيقةٌ في الحالِ؛ للإيماءِ إلى أنَّها لَمَّا تَحقَّقت فقد صارتْ كالشَّيءِ الحاضرِ المُشاهَدِ، والمرادُ تَحقيقُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧٩، ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٢٥-١١٢٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١١).

وُقوعِها، لا الإخبارُ عن وُقوعِها[١].

- وجُملةُ ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ مُؤكِّدةٌ لِجُملةِ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ﴾، ونُفِيَ الرَّيبُ عن نفْسِ السَّاعةِ، والمُرادُ نفْيُه عن إتيانِها؛ لِدَلالةِ قولِه: (آتِيَةٌ) على ذلك[٢].

- وهذا الاستِدراكُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ، ومَوقعُ الاستِدراكِ هو ما يُثيرُه نفْيُ الرَّيبِ عن وُقوعِها مِن أنْ يَتساءلَ مُتسائِلٌ: كيف يُنْفَى الرَّيبُ عنها، والرَّيبُ حاصلٌ لكثيرٍ مِن النَّاسِ؟ فكان الاستدراكُ بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جَوابًا لذلك السُّؤالِ، والمعنى: ولكنَّ أكثَرَ الناسِ يَمُرُّون بالأدلَّةِ والآياتِ وهم مُعرِضون عن دَلالتِها، فيَبْقَون غيرَ مؤمنينَ بمَدلولاتِها، ولو تأمَّلوا واستَنْبَطوا بعُقولِهم، لَظهَرَ لهم مِن الأدِلَّةِ ما يُؤمِنونَ بعْدَه؛ فلذلك نُفِيَ عنهم هنا وصْفُ الإيمانِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٩، ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٠-٦٥)

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿دَاخِرِينَ﴾: أي: صاغِرينَ أذِلَّاءَ، وأصلُ (دخر): يدُلُّ على الذُّلِّ[1].

﴿تُؤْفَكُونَ﴾: أي: تُصرَفونَ عن الحَقِّ، وتَعدِلونَ عنه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن جِهَتِه[2].

﴿قَرَارًا﴾: أي: مُستقَرًّا، وسَكَنًا، يُقال: قرَّ في مكانِه: إذا ثَبَت ثُبوتًا جامِدًا، وأصلُه يدُلُّ على تمَكُّنٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢).

﴿فَتَبَارَكَ﴾: أي: تعاظَم، وتعالَى، وتقَدَّس، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثباتُ الشَّيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وقال رَبُّكم: ادعُوني -أيُّها النَّاسُ- دعاءَ مَسألةٍ ودعاءَ عِبادةٍ؛ أُجِبْ دُعاءَكم، وأتقبَّلْ عبادتَكم، وأُثِبْكم عليها.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى سوءَ عاقبةِ المتكبِّرينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذين يَتكَبَّرونَ عن دُعاءِ اللهِ تعالى وعِبادتِه سيَدخُلونَ جَهنَّمَ أذِلَّاءَ صاغِرينَ.

ثمَّ يذكرُ اللهُ تعالى بعضَ نِعَمِه الَّتي أنعَم بها على عِبادِه، فيقولُ: اللهُ هو الَّذي خَلَق لكم اللَّيلَ؛ لِتَسكُنوا وتَستريحوا فيه مِن عَناءِ أشغالِكم في النَّهارِ، وجَعَل اللهُ لكم النَّهارَ مُضيئًا؛ لِتَقضُوا فيه حَوائِجَكم، إنَّ اللهَ لَذُو فَضلٍ على النَّاسِ، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ!

ذلِكم اللهُ رَبُّكم الَّذي خَلَق كُلَّ شَيءٍ، لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا هو سُبحانَه، فكيف تُصرَفونَ عن الإيمانِ به؟! مِثلَ ذلك الصَّرفِ يُصَرفُ أيضًا الَّذين يَجحَدونَ بآياتِ اللهِ كِبْرًا.

اللهُ الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مُهَيَّأةً للاستِقرارِ عليها، وجَعَل السَّماءَ بِناءً مَرفوعًا عن الأرضِ، وصَوَّركم فجعَلَكم في أشكالٍ حَسَنةٍ، ورزَقَكم اللهُ مِنَ الطَّيِّباتِ، ذلِكم اللهُ رَبُّكم، فتَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ، هو سُبحانَه الحَيُّ أزَلًا وأبَدًا، لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا هو وَحْدَه؛ فادعُوه مُخلِصينَ له الدِّينَ. الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٢)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّ القَولَ بالقيامةِ حَقٌّ وصِدقٌ، وكان مِن المعلومِ بالضَّرورةِ أنَّ الإنسانَ لا ينتفِعُ في يومِ القيامةِ إلَّا بطاعةِ اللهِ تعالى؛ لا جَرَمَ كان الاشتِغالُ بالطَّاعةِ مِن أهَمِّ المهِمَّاتِ، ولَمَّا كان أشرَفُ أنواعِ الطَّاعاتِ الدُّعاءَ والتَّضَرُّعَ؛ لا جَرَمَ أمَرَ اللهُ تعالى به في هذه الآيةِ[1].

وأيضًا لَمَّا كانت المُجادَلةُ في آياتِ اللهِ تَشملُ مُجادلتَهم في وَحدانيَّةِ الإلهيَّةِ، وتَشملُ المُجادَلةَ في وُقوعِ البعثِ؛ أعقَبَ ذِكرَ المجادَلةِ أوَّلًا بقولِه: ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، وذلك استِدلالٌ على إمكانِ البعثِ، ثمَّ عطَفَ عليه قولَه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ الآيةَ؛ تَحذيرًا مِن الإشراكِ به[2].

وأيضًا لَمَّا ذُكِرَ أمْرُ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بدُعاءِ اللهِ وحْدَه أمْرًا مُفرَّعًا على تَوبيخِ المشركينَ بقولِه: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ ﴾ [غافر: ١٢]، وعلى قولِه عَقِبَ ذلك: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣]، وانتقَلَ الكلامُ إثْرَ ذلك إلى الأهمِّ، وهو الأمرُ بإنذارِ المشركينَ بقولِه: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ ﴾ [غافر: ١٨] إلخ، وتَتابَعَت الأغراضُ حتَّى استوفَتْ مُقْتضاها؛ عاد الكلامُ الآنَ إلى ما يَشملُ عِبادةَ المؤمنينَ الخالِصةَ للهِ تعالى، وهو أيضًا مُتَّصِلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٠، ١٨١).

بقولِه: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [غافر: ٥٠]؛ فلمَّا تقدَّمَ ذِكرُ الدُّعاءِ بمَعْنيَيه: معنى العِبادةِ، ومعنى سُؤالِ المطلوبِ، أُردِفَ بهذا الأمْرِ الجامعِ لِكِلا المعنيَينِ(١).

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾.

أي: وقال ربُّكم -أيُّها النَّاسُ-: ادعُوني دعاءَ مَسألةٍ ودعاءَ عِبادةٍ؛ أُعْطِكم سُؤْلَكم، وأتَقبَّلْ مِنكم عبادتَكم، وأُثِبْكم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٣)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١٤).

ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ المرادُ به العِبادةُ: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي ونسَبَه لأكثرِ المفسِّرينَ، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٦).

ومعنى قولِه: ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ على ذلك القولِ: أي: أُجِبْكم، وأُثِبْكم، وأتقبَّلْ عِبادتَكم، وأغفِرْ لكم، وأعْفُ عنكم وأرحمْكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١، ٣٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٦).

ويجوزُ أن يكونَ الدُّعاءُ والاستِجابةُ هنا على ظاهِرِهما. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، فقال: (الدُّعاءُ هنا هو الطَّلبُ والرَّغبةُ، وهذا وعْدٌ مُقيَّدٌ بالمشيئةِ، وهي موافَقةُ القَدَرِ لِمَن أراد أن يَستجيبَ له). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٤).

وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٣).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ، فقال: المرادُ دعاءُ العِبادةِ ودعاءُ المسألةِ: السعديُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) =

عن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، قال: ((الدُّعاءُ هو العِبادةُ، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾))[1].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن مُسلِمٍ يدعو بدَعوةٍ ليس فيها إثْمٌ ولا قَطيعةُ رَحِمٍ إلَّا أعطاه اللهُ بها إحدى ثلاثٍ: إمَّا أن تُعجَّلَ له دَعوتُه، وإمَّا أن يَدَّخِرَها له في الآخِرةِ، وإمَّا أن يَصرِفَ

= (٢٤/ ١٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١٤).

وبِناءً على هذا القولِ تكونُ الاستِجابةُ أُريدَ بها قَبولُ الدعاءِ وإعطاؤُهم سُؤْلَهم، وأيضًا حصولُ أثرِ العِبادةِ وقَبولُها منهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨١، ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١٤).

وقال ابن القيِّم: (الدُّعاءُ يَتضمَّنُ النَّوعَينِ [أي: دعاءَ العبادةِ، ودعاءَ المسألةِ]، وهو في دعاءِ العِبادةِ أظهَرُ؛ ولهذا عقَّبَه بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، فُسِّر الدُّعاءُ في الآيةِ بهذا وهذا). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٣).

وقال ابن تيميَّة: (وكلُّ سائلٍ راغبٍ راهبٍ فهو عابدٌ للمَسؤولِ، وكلُّ عابدٍ له فهو أيضًا راغبٌ وراهبٌ، يَرجو رحمتَه، ويَخافُ عذابَه؛ فكلُّ عابدٍ سائلٌ، وكلُّ سائلٍ عابدٌ، فأحَدُ الاسمَينِ يَتناوَلُ الآخَرَ عندَ تَجرُّدِه عنه، ولكنْ إذا جُمِع بيْنَهما فإنَّه يُرادُ بالسَّائلِ الَّذي يَطلُبُ جَلْبَ المَنفَعةِ ودَفْعَ المَضَرَّةِ بصِيَغِ السُّؤالِ والطَّلَبِ، ويُرادُ بالعابدِ مَن يَطلُبُ ذلك بامتِثالِ الأمرِ وإن لم يكُنْ في ذلك صِيَغُ سؤالٍ). ((الفتاوى الكبرى)) (٥/ ٢٢٠).

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٦٤)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (١٨٣٥٢).

قال الترمذي: (حسَنٌ صَحيحٌ)، وصَحَّحه ابن حِبَّان في ((الصحيح)) (٨٩٠)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ١١٢)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٨٢٨)، وصَحَّح إسنادَه النَّوويُّ في ((الأذكار)) (٤٧٨)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٨٣٥٢)، وجَوَّده ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١/ ٦٤).

عنه مِنَ السُّوءِ مِثْلَها. قالوا: إذًا نُكثِرُ، قال: اللهُ أَكْثَرُ!))[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَتكَبَّرونَ ويَتعاظَمونَ عن عِبادتي ودُعائي سيَدخُلونَ جَهنَّمَ وهم أذِلَّاءُ صاغِرونَ[٢].

عن عبدِ الله بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((يُحشَرُ المُتكَبِّرونَ يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ[٣] في صُوَرِ الرِّجالِ، يَغْشاهم الذُّلُّ مِن كُلِّ مَكانٍ، فيُساقُونَ إلى سِجنٍ في جَهنَّمَ يُسمَّى بُولَسَ، تَعلوهم نارُ الأنْيارِ[٤]، يُسقَونَ مِن عُصارةِ أهلِ النَّارِ؛ طِينةِ الخَبالِ[٥]))[٦].

---

(١) أخرجه مِن طُرُقٍ: أحمدُ (١١١٣٣) واللَّفظُ له، والحاكم (١٨١٦)، والبيهقي في ((شُعَب الإيمان)) (١١٣٠).

صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحَسَّن الحديثَ ابنُ عساكر في ((معجم الشيوخ)) (١/ ١٧٤)، وذكَرَ ثبوتَه الشَّوكانيُّ في ((فتح القدير)) (١/ ٢٧٤)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢٦/ ١٢٢)، وقال الألباني في ((صحيح الترغيب)) (١٦٣٣): (حسَنٌ صحيحٌ)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ١٥١): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ غيرَ عليِّ بن عليٍّ الرِّفاعيِّ، وهو ثقةٌ). وجوَّد إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٧/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(٣) أمثالَ الذَّرِّ: أي: مِثلَ الذَّرَّةِ -وهي النَّملةُ الصَّغيرةُ- في الصِّغَرِ والحَقارةِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهري (٥/ ٢٥٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٢).

(٤) نارُ الأنْيارِ: أي: نارُ النِّيرانِ، وإضافةُ النَّارِ إليها للمُبالغة، كأنَّ هذه النَّارَ لِفَرطِ إحراقِها وشِدَّةِ حَرِّها تَفعَلُ بسائرِ النِّيرانِ ما تَفعَلُ النَّارُ بغَيرِها، أو لأنَّها أصلُ نِيرانِ العالَمِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٣).

(٥) طِينةِ الخَبالِ: تفسيرٌ لِما قَبْلَه، وهو اسمُ عُصارةِ أهلِ النَّارِ: وهو ما يَسيلُ منهم مِنَ الصَّديدِ والقَيحِ والدَّمِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٣).

(٦) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢) واللفظ له، وأحمد (٦٦٧٧). =

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

كأنَّ اللهَ تعالى قال: إنِّي أنعمْتُ عليك قبْلَ طَلَبِك لهذه النِّعَمِ الجَليلةِ العَظيمةِ، ومَن أنعَم قبْلَ السُّؤالِ بهذه النِّعَمِ العاليةِ، فكيف لا يُنعِمُ بالأشياءِ القَليلةِ بعدَ السُّؤالِ[1]؟!

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾.

أي: اللهُ المُستَحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه هو الَّذي خَلَق لكم اللَّيلَ -أيُّها النَّاسُ-؛ لأجْلِ أن تَستَريحوا فيه مِن حَركةِ وعَناءِ أشغالِكم في النَّهارِ[2].

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾.

أي: وجَعَلَ اللهُ لكم النَّهارَ مُضيئًا تُبصِرونَ فيه؛ لِتَطلُبوا فيه حوائِجَكم وتَقضُوها[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾

= قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وحَسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٩٢)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ١٥٧)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١١/ ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

قال البقاعي: (﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ راحةٌ ظاهِريَّةٌ بالنَّومِ الَّذي هو الموتُ الأصغَرُ، وراحةٌ حقيقيَّةٌ بالعبادةِ الَّتي هي الحياةُ الدَّائِمةُ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

أي: إنَّ اللهَ لَمُتفَضِّلٌ على النَّاسِ كافَّةً، وفضْلُه عليهم كثيرٌ جِدًّا، ومِن فَضلِه أنْ جَعَل اللَّيلَ سَكَنًا، والنَّهارَ مُبصِرًا[١].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ اللهَ على نِعَمِه؛ بالاعتِرافِ بها، أو طاعةِ المُنْعِمِ بها، وإخلاصِ العبادةِ له[٢].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٦٢﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

أي: ذَلِكم المتفرِّدُ بإجابةِ دُعائِكم، الَّذي جَعَل لكم اللَّيلَ سَكَنًا والنَّهارَ مُبصِرًا: هو وَحْدَه اللهُ المُرَبِّي لكم، والمُحسِنُ إليكم، الذي خَلَق كُلَّ شَيءٍ[٣].

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ، ولا تَنبغي العِبادةُ إلَّا له سُبحانَه دونَ ما سِواه[٤].

﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾.

أي: فكيف تُصرَفونَ عن الإيمانِ باللهِ وعِبادتِه وَحْدَه إلى عبادةِ غَيرِه، مع قيامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٢٢، ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

الأدِلَّةِ على تَوحيدِه[١]؟!

﴿ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٦٣ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الصَّرفِ العَجيبِ عن التَّوحيدِ والإخلاصِ يُصرَفُ أيضًا كُلُّ مَن استَمَرَّ على جُحودِ آياتِ اللهِ عِنادًا ومُكابَرةً، دونَ تأمُّلٍ وتدَبُّرٍ في معانيها ودلائِلِها[٢]!

كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٧].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما امتَنَّ به مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ؛ ذكَرَ أيضًا ما امتَنَّ به مِن جَعلِ الأرضِ مُستَقَرًّا، والسَّماءِ بِناءً[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٢٨، ٤٢٩).

قال ابنُ جرير: (يقولُ: كَذَهابِكم عنه أيُّها القَومُ، وانصِرافِكم عن الحقِّ إلى الباطلِ، والرشدِ إلى الضَّلالِ، ذهَب عنه الَّذين كانوا مِن قَبْلِكم مِن الأمَمِ. ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ يعني: بحُجَجِ الله وأدِلَّتِه يُكَذِّبون فلا يؤمِنونَ؛ يقول: فسَلَكْتُم أنتم -مَعْشَرَ قُرَيشٍ- مَسْلَكَهم، وركِبْتُم مَحَجَّتَهم في الضَّلالِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٩).

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾.

أي: اللهُ الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مَوضِعًا مُهَيَّأً للاستِقرارِ عليه دونَ اضطِرابٍ، فتَتَمَكَّنونَ مِن الإقامةِ والسُّكنى فيها، والمشْيِ عليها، وحَرْثِها وغَرْسِها والبناءِ عليها[1].

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾.

أي: وجَعَل اللهُ لكم السَّماءَ بِناءً مَرفوعًا وسَقفًا للأرضِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ [النبأ: ١٢].

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لا جَرَمَ أنَّ حِكمةَ اللهِ تعالى الَّتي تَعلَّقَت بإيجادِ ما يَحُفُّ بالإنسانِ مِن العوالَمِ على كيفيَّاتٍ مُلائمةٍ لِحياةِ الإنسانِ وراحَتِه قد تَعلَّقَت بإيجادِ الإنسانِ في ذاتِه على كَيفيَّةٍ مُلائمةٍ له مُدَّةَ بَقاءِ نَوعِه على الأرضِ، وتحْتَ أديمِ السَّماءِ؛ ولذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٤).

قال ابن عاشور: (ويحتملُ أنَّ المعنى: جعَل الأرضَ ذاتَ قرارٍ، أي: قرارٍ لكم، أي: جعَلها مُستقرًّا لكم، كقولِه تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، أي: خلَقها على كيفيَّةٍ تلائمُ الاستِقرارَ عليها بأنْ جعَلها يابسةً غيرَ سائلةٍ، ولو شاء لجعَل سطحَ الأرضِ سيَّالًا كالزِّئبَقِ، فلا يَزالُ الإنسانُ سائحًا فيها يَطفو تارةً ويَسيخُ أخرى، فلا يَكادُ يبقَى على تلك الحالةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٠) بتصرف.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٥).

أعقَبَ التَّذكيرَ بما مهَّدَ له مِن خلْقِ الأرضِ والسَّماءِ، بالتَّذكيرِ بأنَّه خلَقَه خلْقًا مُستوفيًا مَصلحتَه وراحتَه[١]، فقال تعالى:

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

أي: خَلَقَكم اللهُ فجعَلَكم في أشكالٍ حَسَنةٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الرِّزقُ شَهوةً في ظاهِرِه، وكان مُشتمِلًا على حِكمةِ إمدادِ الجسْمِ بوَسائلِ تَجديدِ قُواهُ الحيويَّةِ، وكان في قولِه: ﴿وَرَزَقَكُمْ﴾ إيماءٌ إلى نِعمةِ طُولِ الوُجودِ، فلمْ يكُنِ الإنسانُ مِن الموجوداتِ الَّتي تَظهَرُ على الأرضِ، ثمَّ تَضْمحِلُّ في زمَنٍ قريبٍ؛ جمَعَ له بيْنَ حُسنِ الإيجادِ وبيْنَ حُسنِ الإمدادِ، فجعَلَ ما به مَدَدُ الحياةَ -وهو الرِّزقُ- مِن أحسَنِ الطَّيِّباتِ، على خِلافِ رِزقِ بقيَّةِ أنواعِ الحيوانِ[٣].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

أي: ورزَقَكم اللهُ مِنَ الأرزاقِ الشَّهيَّةِ اللَّذيذةِ النَّافِعةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٥، ٤٣٦).

=

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

أي: ذَلِكم الَّذي فعَل هذه الأفعالَ وأنعَمَ عليكم بهذه النِّعَمِ هو اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه دونَ غَيرِه، وهو وَحْدَه رَبُّكم الخالِقُ الرَّازِقُ، المالِكُ المدَبِّرُ لجَميعِ شُؤونِكم[(١)].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: فتَعالَى وتَقَدَّس، وكَثُر خَيرُه وإحسانُه: اللهُ خالقُ ومالكُ ورازقُ ومُدَبِّرُ جميعِ الخَلقِ، الَّذي يُربِّيهم بنِعَمِه وإحسانِه[(٢)].

= قال السعدي: (هذا شامِلٌ لكُلِّ طَيِّبٍ؛ من مأكَلٍ ومَشرَبٍ ومَنكَحٍ، ومَلبَسٍ ومَنظَرٍ ومَسمَعٍ... وغيرِ ذلك من الطَّيِّباتِ الَّتي يسَّرَها اللهُ لعِبادِه، ويسَّرَ لهم أسبابَها، ومنَعَهم مِن الخبائِثِ الَّتي تُضادُّها، وتَضُرُّ أبدانَهم وقُلوبَهم وأديانَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٦).

قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال العلماءُ: العالَمُ كلُّ مَن سِوى الله). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥٢). =

﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾.

﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي له الحَياةُ الكامِلةُ المُستَلزِمةُ للصِّفاتِ الكامِلةِ؛ فلم يَسبِقْ حياتَه سُبحانَه عَدَمٌ، ولا يَلحَقُها زَوالٌ؛ فهو أزَلًا وأبَدًا حَيٌّ لا يموتُ، لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو وَحْدَه سُبحانَه، فلا مِثْلَ له، ولا نَظيرَ له[1].

﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

أي: فادعُوا اللهَ وَحْدَه مُخلِصينَ له بلا رِياءٍ، غيرَ مُشرِكينَ به شَيئًا مِن خَلْقِه[2].

كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: الحمدُ للهِ[3]، .....

= وقال ابن عاشور: (﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ خالِقُ أجناسِ العقلاءِ مِن النَّاسِ والملائكةِ والجِنِّ... وهم أشرفُ أجناسِ الموجوداتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٢).

وذكر الشنقيطي أنَّ قولَه تعالى: ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بيَّنه اللهُ سبحانَه في موضعٍ آخَرَ بقولِه: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤]. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٩-٤٥١).

(٣) الحَمدُ هو وصفُ المحمودِ بالكمالِ على وجهِ المحبةِ والتعظيمِ. واللامُ في قولِه: ﴿لِلَّهِ﴾ للاختِصاصِ -لأنَّ الحمدَ المطلقَ لا يصِحُّ إلَّا لله وحدَه- والاستحقاقِ؛ لأنَّ المستحِقَّ =

خالقِ جميعِ الخَلْقِ ومالكِهم ومُدَبِّرِهم[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ فيه دَليلٌ على طَلَبِ اللهِ مِن عِبادِه أن يَدعُوه في حاجاتِهم[٢]، وهذا مِن لُطفِه بعِبادِه، ونِعمتِه العَظيمةِ؛ حيثُ دعاهم إلى ما فيه صَلاحُ دِينِهم ودُنياهم، وأمَرَهم بدُعائِه دُعاءَ العِبادةِ، ودُعاءَ المسألةِ، ووعَدَهم أن يَستجيبَ لهم، وتوعَّدَ مَن استكبَرَ عنها[٣]. قال طاووسٌ لِعَطاءٍ: (إيَّاك أن تَطلُبَ حوائجَك إلى مَن غلَّق دونَك أبوابَه، وجعَل دُونَها حُجَّابَه، وعليك بمَن أمَرَك أن تَسألَه، ووعَدَك الإجابةَ)[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذا تَنبيهٌ مِن اللهِ

= للحَمدِ حقيقةً هو الله عزَّ وجلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٩-٤٥١).

قال ابن عاشور: (يجوزُ أن تكونَ إنشاءً للثَّناءِ على الله... أي: قائلينَ: الحَمدُ لله رَبِّ العالَمينَ، أو قولوا: الحَمدُ لله رَبِّ العالَمينَ... ويجوزُ أن تكونَ كلامًا مُستأنفًا أريدَ به إنشاءُ الثَّناءِ على اللهِ مِن نَفسِه؛ تَعليمًا للنَّاسِ كيف يَحمَدونَه... وعندي: أنَّه يجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ مَصدرًا جيءَ به بدلًا مِن فِعلِه على معنى الأمرِ، أي: احمَدوا اللهَ رَبَّ العالَمينَ، وعَدَل به عن النَّصبِ إلى الرَّفعِ؛ لِقَصدِ الدَّلالةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(٤) يُنظر: ((حلية الأولياء)) لأبي نُعَيم (٨/ ١٤١).

تعالى على آياتٍ وعِبَرٍ متى تأمَّلَها العاقِلُ أدَّتْه إلى توحيدِ اللهِ، وعبادتِه وحْدَه[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ۞ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۞ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تَدبَّرْ هذه الآياتِ الكريماتِ الدَّالَّةَ على سَعةِ رحمةِ اللهِ تعالى، وجَزيلِ فَضلِه، ووُجوبِ شُكرِه، وكَمالِ قُدرتِه، وعظيمِ سُلطانِه، وسَعةِ مُلكِه، وعُمومِ خَلْقِه لجَميعِ الأشياءِ، وكَمالِ حياتِه، واتِّصافِه بالحَمدِ على كُلِّ ما اتَّصَف به مِن الصِّفاتِ الكامِلةِ، وما فعَلَه مِن الأفعالِ الحَسَنةِ، وتمامِ رُبوبيَّتِه، وانفرادِه فيها، وأنَّ جميعَ التَّدبيرِ في العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ في ماضي الأوقاتِ وحاضِرِها ومُستَقبَلِها: بيَدِ اللهِ تعالى، ليس لأحَدٍ مِن الأمرِ شَيءٌ، ولا مِن القُدرةِ شَيءٌ؛ فيَنتُجَ من ذلك أنَّه تعالى المألوهُ المعبودُ وَحْدَه، الَّذي لا يَستَحِقُّ أحَدٌ سِواه مِن العُبوديَّةِ شَيئًا، كما لم يَستَحِقَّ مِن الرُّبوبيَّةِ شَيئًا، ويَنتُجَ مِن ذلك امتِلاءُ القُلوبِ بمعرفةِ اللهِ تعالى ومحبَّتِه، وخَوفِه ورَجائِه، وهذان الأمْرانِ -وهما مَعرفتُه وعِبادتُه- هما اللَّذانِ خَلَق اللهُ الخَلْقَ لأجْلِهما، وهما الغايةُ المقصودةُ منه تعالى لعبادِه، وهما المُوصِلانِ إلى كُلِّ خَيرٍ وفَلاحٍ وصَلاحٍ، وسَعادةٍ دُنيويَّةٍ وأُخرويَّةٍ، وهما أشرَفُ عطايا الكريمِ لعِبادِه، وهما أشرَفُ اللَّذَّاتِ على الإطلاقِ، وهما اللَّذانِ إنْ فاتا فات كُلُّ خَيرٍ، وحَضَر كُلُّ شَرٍّ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ التَّحذيرُ مِن قياسِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ بأعمالِ العِبادِ، بمعنى أنَّه إذا قيل لشَخصٍ: هذا حرامٌ، فلا يَنْبغي له أن يقولَ: إنَّ كلَّ النَّاسِ يَفعلُه! ولا أن يَجعَلَ المعيارَ أعمالَ النَّاسِ، فهذا خطأٌ؛ فأعمالُ النَّاسِ ليست بحُجَّةٍ؛ قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فالحُجَّةُ فيما قاله اللهُ ورسولُه ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، إذَنْ لا يجوزُ أنْ نَجعَلَ أعمالَ النَّاسِ مِعيارًا للأحكامِ الشَّرعيَّةِ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ فيه أنَّ كُلَّ مَن جَحَد بآياتِ اللهِ ولم يَتأمَّلْها، ولم يكُنْ فيه هِمَّةٌ لِطَلبِ الحَقِّ وخَوفِ العاقِبةِ؛ أُفِكَ كما أُفِكوا[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ أنَّ الذُّنوبَ تَحولُ بيْنَ الإنسانِ وبينَ رؤيةِ الحقِّ؛ لأنَّ هؤلاء لَمَّا جَحَدوا بآياتِ اللهِ صُرِفوا عنه[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: اقصِدوا بكُلِّ عِبادةٍ ودُعاءٍ وعَمَلٍ وَجْهَ اللهِ تعالى؛ فإنَّ الإخلاصَ هو المأمورُ به، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥][٤]، فدلَّ قولُه: ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ على وُجوبِ الإخلاصِ للهِ عزَّ وجلَّ في العبادةِ والدُّعاءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥٣).

٨- قولُه تعالى: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيه عُمومُ رُبوبيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويَتَفَرَّعُ على ذلك أنَّه يجبُ أنْ يَقوَى اعتِمادُ الإنسانِ على اللهِ في جَلْبِ المنافعِ، ودَفْعِ المَضارِّ؛ لأنَّه إذا كان اللهُ عزَّ وجلَّ هو ربَّ العالَمينَ فهو مُسيطرٌ على كلِّ العالَمينَ، وله السُّلطانُ على كلِّ العالَمينَ، ويَتَفَرَّعُ على ذلك أيضًا مسألةٌ أخرَى: وهي اللُّجوءُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ عندَ حصولِ المُضايقاتِ مِن بني آدَمَ أو غيرِ بني آدَمَ؛ لأنَّه سبحانَه ربُّ العالَمينَ؛ بيدِه الأمرُ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن بُشرَى الإنسانِ أنْ يُوفَّقَ للعبادةِ، فمَنْ وُفِّق للعبادةِ على ما يُرضي اللهَ تعالى فهي بُشرَى بالقبولِ، كما أنَّ مَن وُفِّقَ للدُّعاءِ فهو بُشرَى بالإجابةِ؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ ظاهِرٌ في تَرجيحِ الدُّعاءِ على التَّفويضِ والاستِسلامِ للقضاءِ، فالدُّعاءُ مِن أعظَمِ العبادةِ، وقد توارَدَت الآثارُ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّرغيبِ فيه، والحثِّ عليه[٣].

٣- الدُّعاءُ سببٌ مُقْتضٍ للإجابةِ معَ استِكمالِ شرائطِه، وانتِفاءِ مَوانِعِه، وقد تَتخلَّفُ إجابتُه؛ لانتِفاءِ بعضِ شروطِه، أو وُجودِ بعضِ موانعِه[٤]، أو لِمَصلحةِ الدَّاعي، فأمَّا إذا تمَّتِ الشُّروطُ وانتَفتِ الموانعُ ولم تَقتَضِ المَصلحةُ خِلافَ ما دعا به الدَّاعي؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَستجيبُ الدُّعاءَ قطعًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٠٢).

أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[(١)]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الدُّعاءَ عِبادةٌ يُثابُ عليه الدَّاعي؛ فقد سمَّاه عِبادةً[(٢)]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٥- مِن الشِّركِ أنْ يدعوَ العبدُ غيرَ اللهِ؛ وذلك لأنَّ الدُّعاءَ مِن العبادةِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، و﴿عِبَادَتِي﴾ أي: دعائي؛ فسمَّى اللهُ الدُّعاءَ عِبادةً، وقال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((الدُّعاءُ هو العِبادةُ))[(٣)]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أنَّ الكِبْرَ المُباينَ للإيمانِ لا يَدخُلُ صاحِبُه الجنَّةَ، ومِن هذا كِبرُ إبليسَ وكِبرُ فِرعَونَ وغيرِهما مِمَّن كان كِبرُه مُنافيًا للإيمانِ، وكذلك كِبرُ اليَهودِ، وأيضًا الَّذين أخبرَ اللهُ عنهم بقَولِه تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، والكِبرُ كلُّه مُباينٌ للإيمانِ الواجِبِ؛ فمَنْ في قلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ لا يَفعَلُ ما أوجَبَ اللهُ عليه، ولا يَترُكُ ما حَرَّمَ عليه، بل كِبرُه يُوجِبُ له جَحْدَ الحقِّ، واحتِقارَ الخَلقِ، وهذا هو الكِبرُ الَّذي فَسَّره النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيث قال: ((الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٩).

قال ابنُ تيميَّة: (الدُّعاءُ في اقتِضائِه الإجابةَ كسائرِ الأعمالِ الصَّالحةِ في اقتِضائِها الإثابةَ، وكسائرِ الأسبابِ في اقتِضائِها المُسبَّباتِ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (٣/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٦٠).

والحديث تقدَّم تخريجُه (ص: ٣١٠).

النَّاسِ))[١]، وبَطَرُ الحَقِّ: جَحْدُه ودَفْعُه. وغَمْطُ النَّاسِ: ازدِراؤُهم واحتِقارُهم، فمَنْ في قَلبِه مِثقالُ ذرَّةٍ مِن هذا يُوجِبُ له أنْ يَجحَدَ الحقَّ الَّذي يَجِبُ عليه أن يُقِرَّ به، وأن يَحتَقِرَ النَّاسَ فيَكونَ ظالِمًا لهم مُعتَديًا عليهم؛ فمَن كان مُضَيِّعًا للحَقِّ الواجبِ ظالِمًا للخَلقِ: لم يكُنْ مِن أهلِ الجنَّةِ ولا مُستَحِقًّا لها، بل يكونُ مِن أهلِ الوعيدِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، يعني: أنَّ العُقوبةَ تُقابِلُ الجُرمَ؛ لأنَّهم لَمَّا استكبَروا في الدُّنيا أُدخِلوا النَّارَ صاغِرينَ في الآخِرةِ[٣].

٨- تَعليلُ أحكامِ اللهِ القَدَريَّةِ -كما هو ثابتٌ في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ- يعني: أنَّ أحكامَ اللهِ الكَونيَّةَ لا يُمكِنُ أنْ تكونَ إلَّا لحِكمةٍ؛ تُؤخَذُ مِن: ﴿لِتَسْكُنُوا﴾، واللَّامُ للتَّعليلِ، إذَنْ جَعَلَ اللهُ ذلك لِنَسكُنَ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ وُجوبُ شُكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ والإشارةُ إلى أنْ يكونَ هذا الشُّكرُ مِن جنسِ الفضلِ، فشُكْرُ صاحبِ المالِ لربِّه هو أنْ يُنْفِقَه في سبيلِ اللهِ، وشُكْرُ العِلمِ بَذْلُه، وشُكْرُ مَن أعطاه اللهُ شجاعةً وقوَّةً بَدَنيَّةً -والجهادُ قائمٌ- أنْ يُجاهِدَ في سبيلِ اللهِ، إذًا الشكرُ مِن جنسِ النِّعَمِ[٥].

١٠- قَولُه: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بعدَ: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢٦).

فيه بناءُ توحيدِ الألوهيَّةِ على توحيدِ الرُّبوبيَّةِ؛ فقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو، أي: لا تَعبُدوا إلَّا إيَّاه[١].

١١- قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، فدَلَّ هذا على أنَّ كُلَّ مَن تكَبَّرَ عن حَقٍّ فأنكَرَه مع عِلْمِه به، عُوقِبَ بمَسخِ القَلبِ وعَكْسِ الفَهمِ؛ فصار له الصَّرفُ عن وُجوهِ الدَّلائِلِ إلى أقفائِها دَيْدَنًا، بحيث يموتُ كافِرًا إنْ لم يَتدارَكْه اللهُ برَحمةٍ منه[٢].

١٢- قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ هذا أصلٌ عَظيمٌ في الأخلاقِ العِلميَّةِ؛ فإنَّ العُقولَ الَّتي تَتخَلَّقُ بالإنكارِ والمُكابَرةِ قبْلَ التَّأمُّلِ في المعلوماتِ: تُصرَفُ عن انكِشافِ الحقائِقِ العِلميَّةِ، فتَختَلِطُ عليها المعلوماتُ، ولا تُميِّزُ بيْنَ الصَّحيحِ والفاسِدِ[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ تحريمُ التَّصويرِ؛ فإنَّ مَن صَوَّرَ فقد نازَعَ اللهَ تعالى فيما هو مِن اختِصاصِه وهو الخَلْقُ، ولهذا جاء في الحديثِ: ((إنَّ أصحابَ هذه الصُّوَرِ يُعذَّبونَ يومَ القيامةِ، ويُقالُ لهم: أَحيوا ما خَلَقْتُم))[٤]، وهذا هو الصَّحيحُ أنَّ التَّصويرَ حرامٌ؛ بل هو مِن كبائرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لَعَنَ فاعِلَه، فأمَّا الصُّورةُ التِّمثاليَّةُ فهذه لا شكَّ في تحريمِها، وكذلك التَّصويرُ باليدِ الصَّحيحُ أنَّه حرامٌ، أمَّا التَّصويرُ بالالتِقاطِ (التَّصوير الفوتوغرافي) فمُختلَفٌ فيه بيْنَ المتأخِّرينَ اختلافًا كبيرًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٨، ١٨٩).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٥٧)، ومسلم (٢١٠٧) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٠). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) =

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ إذا أردْتَ أن تَعرِفَ حُسنَ الآدَميِّ وكَمالَ حِكمةِ اللهِ تعالى فيه، فانظُرْ إليه عُضوًا عُضوًا: هل تجدُ عُضوًا مِن أعضائِه يَليقُ به ويَصلُحُ أن يكونَ في غيرِ مَحلِّه؟! وانظُرْ أيضًا إلى المَيلِ الَّذي في القُلوبِ بَعضِهم لِبَعضٍ: هل تجدُ ذلك في غيرِ الآدَميِّينَ؟! وانظُرْ إلى ما خَصَّه اللهُ به مِنَ العَقلِ والإيمانِ، والمحبَّةِ والمَعرِفةِ؛ الَّتي هي أحسَنُ الأخلاقِ المُناسِبةِ لأجمَلِ الصُّوَرِ[(١)].

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، فإن وُجِد بعضُ النَّاسِ قبيحَ المنظرِ، فلا يُخرِجُه ذلك عن حُسنِ الصُّورةِ الإنسانيَّةِ، وإنَّما هو قبيحٌ بالنَّظرِ إلى مَن هو أحسَنُ منه مِن النَّاسِ[(٢)].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ كلَّ المخلوقاتِ آيةٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فالعالَمونَ كلُّ مَن سِوى اللهِ تعالى، وهم سُمُّوا بذلك لأنَّهم عَلَمٌ على خالِقِهم جلَّ وعلا[(٣)].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أنَّ الإجابةَ مُشترَطةٌ بالإخلاصِ[(٤)].

= للشنقيطي (٣/ ٦، ٤٤٦-٤٤٧).

قال ابن عثيمين عن التصويرِ الفوتوغرافي: (والَّذي يَتبيَّنُ لي أنَّه لا يدخُلُ في التَّصويرِ؛ لأنَّ هذا لم يخلقْ بيدِه كما خلَق اللهُ عزَّ وجلَّ... فإن كان لغرَضٍ مُباحٍ فهو مُباحٌ، وإن كان لغرَضٍ مُحرَّمٍ فهو مُحرَّمٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤١، ٤٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٩٥).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ فضْلِ الدُّعاءِ[١].

- والاستِجابةُ تُطلَقُ على إعطاءِ المَسؤولِ لِمَن سألَه، وهو أشهَرُ إطلاقِها، وتُطلَقُ على أثَرِ قَبولِ العِبادةِ بمَغفرةِ الشِّركِ السَّابقِ، وبحُصولِ الثَّوابِ على أعمالِ الإيمانِ؛ فإفادةُ الآيةِ على معنى طَلَبِ الحاجةِ مِن اللهِ يُناسِبُ تَرتُّبَ الاستِجابةِ على ذلك الطَّلبِ مُعلَّقًا على مَشيئةِ اللهِ، أو على استيفاءِ شُروطِ قَبولِ الطَّلبِ، وإعطاءِ خَيرٍ منه في الدُّنيا، أو إعطاءِ عِوَضٍ منه في الآخرةِ. وإفادتُها على معنَى إفرادِ اللهِ بالعبادةِ، أي: بأنْ يَتوبوا عن الشِّركِ؛ فتَرتُّبُ الاستِجابةِ هو قَبولُ ذلك؛ فإنَّ قَبولَ التَّوبةِ مِن الشِّركِ مَقطوعٌ به. فلمَّا جَمَعَت هذه الآيةُ بيْن الفِعلَينِ على تَفاوُتٍ بيْن شُيوعِ الإطلاقِ في كِلَيهما، عَلِمْنا أنَّ في المعنى المرادِ ما يُشْبِهُ الاحتباكَ[٢]؛ بأنْ صُرِّحَ بالمعنى المشهورِ في كِلا الفِعلَينِ، ثمَّ أُعقِبَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾، فعَلِمْنا أنَّ المرادَ الدُّعاءُ والعِبادةُ، وأنَّ الاستِجابةَ أُرِيدَ بها قَبولُ الدُّعاءِ، وحُصولُ أثَرِ العبادةِ؛ ففِعلُ ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾ مُستعمَلٌ في مَعْنَيَيْه بطَريقةِ عُمومِ المشترَكِ[٣].

وعلى القولِ بأنَّ الدُّعاءَ المرادُ به: العبادةُ ففي قولِه: ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ مُشاكَلةٌ؛

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٤، ٥٠٥).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٢).

لأنَّ الإثابةَ مُترتِّبةٌ عليها[١].

- وتَعريفُ اللهِ بوَصْفِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ المخاطَبينَ ﴿رَبُّكُمُ﴾؛ لِما في هذا الوصْفِ وإضافتِه مِن الإيماءِ إلى وُجوبِ امتِثالِ أمْرِه؛ لأنَّ مِن حقِّ الرُّبوبيَّةِ امتثالَ ما يَأمُرُ به مَوصوفُها؛ لأنَّ المَربوبَ مَحقوقٌ بالطَّاعةِ لِربِّه؛ ولهذا لم يُعرَّجْ مع هذا الوصفِ على تَذكيرٍ بنِعمتِه، ولا إشارةٍ إلى كَمالاتِ ذاتِه[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ تَعليلٌ للأمرِ بالدُّعاءِ تَعليلًا يُفيدُ التَّحذيرَ مِن إبايةِ دُعاءِ اللهِ حِينَ الإقبالِ على دُعاءِ الأصنامِ، وكان المشْركونَ لا يَضَّرَّعون إلى اللهِ إلَّا إذا لم يَتوسَّموا استِجابةَ شُركائِهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡ﴾ [الإسراء: ٦٧]، ومعنى التَّعليلِ للأمْرِ بالدُّعاءِ بهذا التَّحذيرِ: أنَّ اللهَ لا يُحِبُّ لِعبادِه ما يُفْضي بهم إلى العَذابِ؛ ففي الآيةِ دَليلٌ على طَلَبِ اللهِ مِن عِبادِه أنْ يَدعُوه في حاجاتِهم، وفي الإتيانِ بالموصولِ إيماءٌ إلى التَّعليلِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ اسمُ الجلالةِ بدَلًا مِن ﴿رَبُّكُمۡ﴾ في ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ [غافر: ٦٠]؛ أُتبِعَ ﴿رَبُّكُمۡ﴾ بالاسمِ العَلَمِ لِيُقْضى بذلك حَقَّانِ: حقُّ استِحقاقِه أنْ يُطاعَ بمُقْتضى الرُّبوبيَّةِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٤، ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٢، ١٨٣).

والعُبوديَّةِ، وحقُّ استِحقاقِه الطَّاعةَ لِصِفاتِ كَمالِه الَّتي يَجمَعُها اسمُ الذَّاتِ؛ ولذلك لم يُؤْتَ معَ وَصْفِ الرَّبِّ المتقدِّم بشَيءٍ من ذِكرِ نِعَمِه ولا كَمالاتِه؛ اجتزاءً بمُقْتَضَى حقِّ الرُّبوبيَّةِ، وذُكِرَ مع الاسمِ العَلَمِ بعضُ إنعامِه وإفضالِه، ثمَّ وُصِفَ الاسمُ بالمَوصولِ وصِلَتِه؛ إشارةً إلى بَعضِ صِفاتِه، وإيماءً إلى وَجْهِ الأمْرِ بعِبادتِه، وتكونَ الجُملةُ استئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن تَقْويةِ الأمْرِ بدُعائِه.

ويجوزُ أنْ يكونَ اسمُ الجلالةِ مُبتدَأً، والموصولُ صِفةً له، ويكونَ الخبَرُ قولَه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ [غافر: ٦٤]، ويكونَ جُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ﴾ مُعترِضةً، أو أنْ يكونَ اسمُ الجلالةِ مُبتدَأً، والموصولُ خبَرًا، واعتبارُ الجُملةِ مُستأنَفةً، وهو أحسَنُ مِن اعتبارِ اسمِ الجلالةِ بَدَلًا؛ لأنَّه أنسَبُ بالتَّوقيفِ على سُوءِ شُكْرِهم، وبمَقامِ تَعدادِ الدَّلائلِ، وأسعَدُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، فتكونَ الجُملةُ واقِعةً مَوقعَ التَّعليلِ لِجُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: تَسبَّبوا لأنفُسِهم بذلك العِقابِ؛ لأنَّهم كَفَروا نِعمةَ اللهِ؛ إذ جَعَل لهم اللَّيلَ والنَّهارَ. وعلى هذه الاعتِباراتِ كلِّها فقد سجَّلَت هذه الآيةُ على النَّاسِ تَقسيمَهم إلى شاكرِ نِعمةٍ، وكَفُورِها، كما سجَّلَت عليهم الآيةُ السَّابِقةُ تَقسيمَهم إلى مُؤمنٍ بوَحدانيَّةِ اللهِ، وكافرٍ بها[1].

- وهذه الآيةُ للتَّذكيرِ بنِعمةِ اللهِ تعالى على الخلْقِ، كما اقتَضاهُ لامُ التَّعليلِ في قولِه: ﴿لَكُمُ﴾، واقتضاهُ التَّذييلُ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، وأُدمِجَ في التَّذكيرِ بالنِّعمةِ استِدلالٌ على انفِرادِه تعالى بالتَّصرُّفِ بالخلْقِ والتَّدبيرِ الَّذي هو مُلازِمٌ حَقيقةَ الإلهيَّةِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٣، ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٨٤).

- وفي قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ ابتُدِئَ الاستدلالُ بدَلائلِ الأكوانِ العُلْويَّةِ وآثارِها الواصِلةِ إلى الأكوانِ السُّفليَّةِ، وهي مَظهَرُ النِّعمةِ باللَّيلِ والنَّهارِ؛ فهما تَكوينانِ عَظيمانِ دالَّانِ على عَظيمِ قُدْرةِ مُكوِّنِهما ومُنظِّمِهما، وجاعِلِهما مُتعاقِبَينِ، فنِيطَتْ بهما أكثرُ مَصالحِ هذا العالَمِ ومَصالحِ أهْلِه[1].

- وفي قولِه: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ أُسنِدَ الإبصارُ إلى النَّهارِ؛ للتَّنويهِ بشَأْنِ إبصارِ النَّاسِ في الضِّياءِ، وكَثرةِ الفوائدِ الحاصِلةِ لهم مِن ذلك؛ لِقُوَّةِ الملابَسةِ بيْنَ الأفعالِ وزَمانِها، فأُسنِدَ إبصارُ النَّاسِ إلى نفْسِ النَّهارِ؛ لأنَّه سبَبُ بَعضِه، وسَببُ كَمالِ بعضٍ آخَرَ. فأمَّا نِعمةُ السُّكونِ في اللَّيلِ فهي نِعمةٌ واحدةٌ؛ هي رُجوعُ النَّشاطِ. وفي ذِكرِ اللَّيلِ والنَّهارِ تَذكيرٌ بآيةٍ عَظيمةٍ مِن المخلوقاتِ، وهي الشَّمسُ الَّتي يَنشَأُ اللَّيلُ مِن احتِجابِ أشِعَّتِها عن نِصفِ الكُرةِ الأرضيَّةِ، ويَنشَأُ النَّهارُ مِن انتِشارِ شُعاعِها على النِّصفِ المقابِلِ مِن الكُرةِ الأرضيَّةِ، ولكنْ لَمَّا كان المَقصدُ الأوَّلُ مِن هذه الآيةِ الامتنانَ، ذُكِرَ اللَّيلُ والنَّهارُ دونَ الشَّمسِ، وقد ذُكِرَت الشَّمسُ في آياتٍ أُخرى كان الغرَضُ الأهمُّ منها الدَّلالةَ على عَظيمِ القُدرةِ والوَحدانيَّةِ، كقولِه: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. ودلَّت مُقابَلةُ تَعليلِ إيجادِ اللَّيلِ بعِلَّةِ سُكونِ النَّاسِ فيه بإسنادِ الإبصارِ إلى ذاتِ النَّهارِ -وإنَّما المُبصِرونَ النَّاسُ في النَّهارِ- على احتباكٍ[2]؛ إذ يُفهَمُ مِن كِلَيهما أنَّ اللَّيلَ ساكنٌ أيضًا، وأنَّ النَّهارَ خُلِقَ لِيُبصِرَ النَّاسُ فيه؛ إذ المِنَّةُ بهما سواءٌ، فهذا مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٤).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٧١).

بَديعِ الإيجازِ، ولم يُعكَسْ فيُقَلْ: (جعَلَ لكمُ اللَّيلَ ساكنًا والنَّهارَ لِتُبْصِروا فيه)؛ لئلَّا تَفوتَ صَراحةُ المرادِ مِن السُّكونِ؛ كيْلَا يُتوهَّمَ أنَّ سُكونَ اللَّيلِ هو شِدَّةُ الظَّلامِ فيه كما يُقالُ: لَيلٌ ساجٍ؛ لِقِلَّةِ الأصواتِ فيه[١].

- وقيل: قدَّم ذِكْرَ اللَّيلِ على ذِكْرِ النَّهارِ معَ أنَّ النَّهارَ أشرَفُ مِن اللَّيلِ؛ لأنَّ الظُّلمةَ طبيعةٌ عَدَمِيَّةٌ، والنُّورَ طبيعةٌ وُجودِيَّةٌ، والعدَمُ في المُحْدَثاتِ مُقَدَّمٌ على الوُجودِ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ اعتِراضٌ، وهو كالتَّذييلِ لِجُملةِ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾؛ لأنَّ الفضْلَ يَشملُ جعْلَ اللَّيلِ والنَّهارِ وغيرِ ذلك مِن النِّعَمِ، ولأنَّ (النَّاسَ) يَعُمُّ المخاطَبينَ بقولِه: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ وغيرَهم مِن النَّاسِ[٣].

- وتَنكيرُ ﴿فَضۡلٍ﴾ للتَّعظيمِ؛ لأنَّ نِعَمَ اللهِ تعالى عظيمةٌ جَليلةٌ، وأنْ يُجعَلَ فضْلًا لا يُوازيه فضْلٌ؛ ولذلك قال: ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾، ولم يقُلْ: لَمُتفضِّلٌ، ولا: لَمُفضِلٌ، فعُدِلَ إلى إضافةِ (ذو) إلى (فضْل)؛ لِتأتِّي التَّنكيرِ المُشعِرِ بالتَّعظيمِ، وعُدِلَ عن نَحْوِ: له فضْلٌ، إلى ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾؛ لِما يَدلُّ عليه (ذو) مِن شَرَفِ ما يُضاف هو إليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٦).

- والاستِدراكُ بـ (لكنَّ) في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ ناشئٌ عن لازِمٍ ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ الشَّأنَ أنْ يَشكُرَ النَّاسُ ربَّهم على فضْلِه، فكان أكثَرُهم كافرًا بنِعَمِه، وأيُّ كُفرٍ للنِّعمةِ أعظَمُ مِن أنْ يَترُكوا عِبادةَ خالِقِهم المتفضِّلِ عليهم ويَعْبُدوا ما لا يَملِكُ لهم نفْعًا ولا ضَرًّا؟! وخرَجَ بقولِه: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ الأقلُّ، وهم المؤمِنون؛ فإنَّهم أقلُّ ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾[1] [المائدة: ١٠٠].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ وضْعُ الظاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ فقد كان السِّياقُ يَقْتضي أنْ يُقالَ: (ولكنَّ أكثَرَهم لا يَشكُرون)، فلا يَتكرَّرُ ذِكرُ النَّاسِ، ولكنْ في هذا التَّكريرِ تَخصيصٌ لِكُفرانِ النِّعمةِ بهم، وأنَّهم هم الَّذين يَكفُرونَ فضْلَ اللهِ ولا يَشكُرونَه، وأنَّهم هم المُتميِّزونَ بهذه الصِّفةِ المنبوَّةِ على الطِّباعِ؛ تَتوالى عليهم النِّعَمُ، وتَترادَفُ الآلاءُ، ويَتهيَّأُ لهم كلُّ ما يَصْبُون إليه مِن مَناعِمِ العَيشِ، وهم مُصِرُّون على الجُحودِ والنُّكرانِ! أَلَيْسَتْ هذه سِمَةَ النَّاسِ في مُختلِفِ الظُّروفِ والأحوالِ[2]؟!

- وفي قولِه تعالَى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۞ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٧، ٥٨]، وبعْدَه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٧).

دَاخِرِينَ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [غافر: ٥٩ - ٦١]، ثمَّ بعْدَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [غافر: ٦١]: مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ اختلَفَت المواضعُ الثَّلاثةُ الَّتي جاء فيها ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴾، ثمَّ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، ثمَّ ﴿لَا يَشْكُرُونَ ﴾؛ وذلك أنَّ مَن أقرَّ بخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، وأنكَرَ الإعادةَ والبعثَ نُبِّهَ على أنْ يَعلَمَ أنَّ مَن قدَرَ على الأكبَرِ قادرٌ على الأصغَر، وهذا مَوضعٌ يَفتقِرُ إلى العِلمِ الَّذي نَفاهُ عمَّن لمْ يُقِرَّ به، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]، فاختُصَّ هذا الموضعُ بنَفْيِ العِلمِ، والعِلمُ هو المحتاجُ إليه، والمبعوثُ عليه. وأمَّا قولُه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٩] فإنَّ مَن أنكَرَ البعثَ فهو مُحتاجٌ إلى الإيمانِ به بعْدَ عِلْمِه أنَّ القادرَ على خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ قادرٌ على أنْ يَخلُقَ مِثلَهم. وأمَّا قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [غافر: ٦١] فمَن كان للهِ فضْلٌ عليه، فهو مُحتاجٌ إلى أنْ يُؤدِّيَ حقَّه بالشُّكرِ، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾، أي: لا يُقابِلون نِعمةَ اللهِ عليهم بما يَسْتديمُها لهم مِن الشُّكرِ الَّذي يَربِطُها لَديهم، بهذا بان أنَّ كلَّ ما خُتِمَت به آيةٌ هو في مَكانِه اللَّائقِ به[1].

- ومِن المناسَبةِ أيضًا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾، وقال في سُورةِ (يُونسَ): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٣٢-١١٣٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٠)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٢، ٥٠٣).

فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٠]، فأظهَرَ (النَّاسَ) في مَوضعِ الإضمارِ في سُورةِ (غافرٍ)، وأضمَرَ في مَوضعِ الإظهارِ في سُورةِ (يُونسَ)؛ وذلك لِمُناسَبةٍ حَسَنةٍ: وهي أنَّ كلَّ مَوضعٍ يَحتمِلُ الإضمارَ لِقُرْبِ الذِّكرِ، ويَحتمِلُ الإظهارَ لِتَعظيمِ الأمْرِ، وذِكرُ أخصِّ الأسماءِ المقصودِ بالتَّقريعِ والتَّفنيدِ؛ فإنَّه يُحمَلُ على ما يلائِمُ الآياتِ المتقدِّمةَ له؛ فأمَّا في سورةِ (غافرٍ) فإنَّ هذا الموضعَ محمولٌ على الآياتِ الَّتي قبْلَه، وهي قولُه: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال بعدَه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٩]، ثمَّ جاء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾، فأظهَرَ ذِكرَ النَّاسِ كما أظهر في الآيتَينِ قبْلَها للمُشاكَلةِ والمُلاءَمةِ، وليس كذلك الأمرُ في سورةِ يونسَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ الكلامَ هناك بُنيَ على الإضمارِ في الآيِ المُتقدِّمةِ، فقد قال تعالى مُخبرًا عمَّن يَدخُلُ مِن الظَّالِمينَ النَّارَ: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٥٢]، فانقَضى هذا الكلامُ، واستُؤنِفَ خَبَرٌ عن القَومِ الَّذين بعَثَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم، فقال: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس: ٥٣]، فأضمَرَ ذِكرَه في قولِه: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾، ثمَّ قال بعدَه: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥٥]، فأضمَرَ ما أضاف إليه أكثَرَ، ثمَّ انْتَهى إلى قولِه تعالى بعْدَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٠]، فاقْتَضى ما بُنِيَ عليه الكلامُ في هذه الآياتِ أنْ يكونَ ما بعْدَ الشَّرطِ بلَفظِ الإضمارِ كما كان ما تَقدَّمه، فاختِلافُ

المَوضعَينِ في الإظهارِ والإضمارِ لِما ذُكِرَ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [غافر: ٦١]، وعُدِلَ عن الضَّميرِ إلى اسمِ الإشارةِ؛ لإفادةِ أنَّه تعالى مَعلومٌ مُتميِّزٌ بأفعالِه المنفرِدِ بها، بحيث إذا ذُكِرَت أفعالُه تميَّزَ عمَّا سِواهُ، فصار كالمشاهَدِ المشارِ إليه، فكيف تَلتبِسُ إلهيَّتُه بإلهيَّةٍ مَزعومةٍ للأصنامِ؟! فليستْ للَّذين أشْرَكوا به شُبهةٌ تُلبِّسُ عليهمْ ما لا يَفعَلُ مِثلَ فِعلِه، أي: ذلِكم ربُّكم لا غيرُه، وفي اسمِ الإشارةِ هذا تَعريضٌ بغَباوةِ المُخاطَبينَ الَّذين الْتبَسَت عليهم حَقيقةُ إلهيَّتِه[٢].

- وفي قولِه: ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أخبارٌ أربعةٌ عن اسمِ الإشارةِ مُترادِفةٌ تُخصِّصُ اللَّاحِقةُ منها السَّابقةَ وتُقرِّرُها، وابتُدِئَ فيها بالاسمِ الجامعِ لِصِفاتِ الإلهيَّةِ إجمالًا ﴿ٱللَّهُ﴾، وأُردِفَ بقولِه: ﴿رَبُّكُمْ﴾، أي: الَّذي دبَّرَ خلْقَ النَّاسِ، وهيَّأَ لهمْ ما به قِوامُ حَياتِهم. ولَمَّا كان في معنى الرُّبوبيَّةِ مِن معنى الخلْقِ ما هو خلْقٌ خاصٌّ بالبشَرِ أرْدَفَ بأنَّه خالقُ الأشياءِ كلِّها كما خلَقَهم فقال: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وأردَفَ بنَفْيِ الإلهيَّةِ عن غَيرِه، فجاءتْ مَضامينُ هذه الأخبارِ الأربعةِ مُترتِّبةً بطَريقةِ التَّرقِّي، وكان رابعُها نَتيجةً لها. ثمَّ فُرِّعَ عليها استِفهامٌ تَعجُّبيٌّ -﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾- مِن

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٢٩-١١٣١)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٧).

انصرافِهم عن عِبادتِه إلى جانبِ عِبادةِ غَيرِه، مع وُضوحِ فَسادِ إعراضِهم عن عِبادتِه[١]!

- وجِيءَ قولُه: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ بالبناءِ لِما لمْ يُسَمَّ فاعلُه؛ لإجمالٍ بسَببِ إعراضِهم؛ إذ سيُبيَّنُ بحاصلِ الجُملةِ بعْدَه[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ هذه الجُملةُ مُعترِضةٌ بمَنزلةِ التَّعليلِ لِمَضمونِ الجُملةِ الَّتي قبْلَها، وهو التَّعجُّبُ مِن انصرافِهم عن عِبادةِ ربِّهم؛ خالِقِهم وخالِقِ كلِّ شَيءٍ؛ فإنَّ في تَعليلِ ذلك ما يُبيِّنُ سَببَ التَّعجُّبِ، فجِيءَ في جانبِ المأْفوكِينَ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ لأنَّ الصِّلةَ تُومِئُ إلى وَجهِ بِناءِ الخبَرِ وعِلَّتِه، أي: أنَّ استِمرارَهم على الجحْدِ بآياتِ اللهِ دونَ تأمُّلٍ ولا تَدبُّرٍ في مَعانيها ودَلائلِها، يَطبَعُ نُفوسَهم على الانصرافِ عن العِلمِ بوُجوبِ الوَحدانيَّةِ له تعالى؛ فالإشارةُ بـ (ذلك) إلى الإفْكِ المأخوذِ مِن فِعلِ ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢]، أي: مِثلَ إفْكِكُم ذلك يُؤفَكُ الَّذين كانوا بآياتِ اللهِ يَجْحَدون[٣].

- ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ المخاطَبينَ بقولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ [غافر: ٦٢]، ويكونَ الموصولُ وصِلَتُه إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ، والمعنى: كذلك تُؤفَكونَ، أي: مِثلَ إفْكِكُم تُؤفَكونَ، ويكونَ التَّشبيهُ مُبالَغةً في أنَّ إفْكَهم بلَغَ في كُنْهِ الإفكِ النِّهايةَ، بحيثُ لو أرادَ المُقرِّبُ أنْ يُقرِّبَه للسَّامعينَ بشَبيهٍ له، لم يَجِدْ شَبيهًا له أوضَحَ منه وأجْلى في ماهيَّتِه، فلا يَسَعُه إلَّا أنْ يُشبِّهَه بنفْسِه على الطَّريقةِ المألوفةِ المبيَّنةِ في

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٨٨).

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وبذلك تكونُ صِلةُ المَوصولِ مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ إيماءً إلى عِلَّةِ إفْكِهم تَعليلًا صَريحًا.

ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ كلَّ مَن جحَدَ بآياتِ اللهِ مِن مُشْركي العرَبِ، ومِن غَيرِهم مِن المشركينَ والمكذِّبينَ، فيَصيرَ التَّعليلُ المُومأُ إليه بالصِّلةِ تَعليلًا تَعريضيًّا؛ لأنَّه إذا كان الإفكُ شأْنَ الَّذين يَجحَدون بآياتِ اللهِ كلِّهم، فقد شمِلَ ذلك هؤلاء بحُكْمِ المُماثَلةِ[(١)].

- قولُه: ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ صِيغةُ المضارِعِ لاستِحضارِ الحالةِ، وذِكرُ فِعلِ الكَونِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الجحْدَ بآياتِ اللهِ شأْنُهم وهِجِّيراهم[(٢)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ استِئنافٌ ثانٍ بِناءً على أنَّ اسمَ الجلالةِ مُبتدَأٌ، والموصولَ صِفةٌ له، ويكونُ الخبرُ قولَه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، أوْ يكونُ اسمُ الجلالةِ مُبتدَأً والموصولُ خَبَرًا، ولم تُعطَفْ هذه الجملةُ على الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تَعدادِ دَلائلِ انفرادِه تعالى بالتَّصرُّفِ وبالإنعامِ عليهم؛ حتَّى يَفتضِحَ حُمقُهم وفسادُ رأيِهم في الإشراكِ به وكُفرانِ نِعَمِه، فذكَّرَهم في الآيةِ السَّابقةِ بآثارِ قُدْرتِه في إيجادِ الأعراضِ القائمةِ بجَواهرِ هذا العالَمِ، وهما عَرَضا الظُّلمةِ والنُّورِ، وفي كِلَيهما نِعَمٌ عَظيمةٌ على النَّاسِ، وذكَّرَهم في هذه الآيةِ بآثارِ خلْقِ الجواهرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في هذا العالَم على كَيفيَّاتٍ هي نِعمةٌ لهم، وفي خلْقِ أنفُسِهم على صُوَرٍ صالحةٍ بهم. فأمَّا إنْ جُعِلَ اسمُ الجلالةِ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ بدَلًا مِن ﴿رَبُّكُمُ﴾ في ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فإنَّ جُملةَ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ تكونُ مُستأْنَفةً استئنافًا ابتدائيًّا، والموصولُ وصِلَتُه يَجوزُ أنْ يكونَ صِفةً لاسمِ الجَلالةِ، فيكونَ الخبَرُ قولَه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، وهو أَولى؛ لأنَّ المقصودَ إثباتُ إلهيَّتِه وحْدَه، بدَليلِ ما هو مُشاهَدٌ مِن إتقانِ صُنْعِه الممْزوجِ بنِعمتِه، ويجوزُ أنْ يكونَ الموصولُ خبَرًا، فيكونَ الخبَرُ مُستعمَلًا في الامتنانِ والاعتبارِ(١).

- وقيل: إنَّ قولَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ...﴾ استئنافٌ لِبَيانِ تَفضُّلِه تعالى المتعلِّقِ بالمكانِ، بعْدَ بَيانِ تَفضُّلِه المتعلِّقِ بالزَّمانِ(٢).

- ولَمَّا كان المقصودُ الأوَّلُ مِن هذه الآيةِ الامتنانَ -كما دلَّ عليه قولُه: ﴿لَكُمُ﴾- قُدِّمَت الأرضُ على السَّماءِ؛ لأنَّ الانتفاعَ بها مَحسوسٌ، وذُكِرَت السَّماءُ بعْدَها كما يُستحضَرُ الشَّيءُ بضِدِّه، مع قصْدِ إيداعِ دَلائلِ عِلمِ الهيئةِ لِمَن فيهم استِعدادٌ للنَّظرِ فيها، وتَتبُّعِ أحوالِها على تَفاوُتِ المَدارِكِ، وتعاقُبِ الأجيالِ، واتِّساعِ العلومِ(٣).

- ووَصْفُ السَّماءِ بالبناءِ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ...﴾ جارٍ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ؛ فقد جُعِلَت فوقَ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٩).

العالَمِ، فهي كالبِناءِ له، ونفْعُها كنَفْعِ البِناءِ[١].

- قولُه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ خلَقَ اللهُ تعالى الإنسانَ خلْقًا مُستوفيًا مَصلحتَه وراحتَه، وعبَّرَ عن هذا الخلْقِ بفِعلِ ﴿صُوَرَكُمْ﴾؛ لأنَّ التَّصويرَ خلْقٌ على صُورةٍ مُرادةٍ تُشعِرُ بالعِنايةِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]، فاقْتَضى حُسْنَ الصُّوَرِ؛ فلذلك عُدِلَ في جانبِ خلْقِ الإنسانِ عن فِعلِ الجَعلِ إلى فِعلِ التَّصويرِ بقولِه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾، ثمَّ صرَّحَ بما اقتَضاهُ فِعلُ التَّصويرِ مِن الإتقانِ والتَّحسينِ بقولِه: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ عاطفةٌ جُملةً على جُملةٍ، ودالَّةٌ على التَّعقيبِ، أي: أوجَدَ صُورةَ الإنسانِ فجاءت حَسَنةً. وعُطِف على هذه العِبرةِ والمِنَّةِ مِنَّةٌ أُخرى فيها عِبرةٌ، أي: خلَقَكم في أحسَنِ صُورةٍ، ثمَّ أمَدَّكُم بأحسَنِ رِزقٍ، فجمَعَ لكم بيْن الإيجادِ والإمدادِ[٢].

- ومَوقعُ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ كمَوقعِ نَظيرِه المتقدِّمِ آنِفًا -وهو قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [غافر: ٦٢]- وإعادةُ هذا تَكريرٌ للتَّوقيفِ على فسادِ رأْيِهم في عِبادةِ غَيرِه على طَريقةِ التَّعريضِ؛ بقَرينةِ ما تقدَّمَ في نَظيرِه مِن قولِه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢]، وقَرينةِ قولِه هنا: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٣] [غافر: ٦٥].

- وفُرِّع على ما ذُكِر مِن بَدائعِ صُنْعِه وجَزيلِ مَنِّه أنْ أُنشِئَ الثَّناءُ على اللهِ بما يُفيدُ اتِّصافَه بعَظيمِ صِفاتِ الكَمالِ، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾. وإظهارُ اسمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣١) و (٢٤/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩٠، ١٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩١).

الجلالةِ معَ فِعلِ (تبارك) دونَ الإتيانِ بضَميرٍ مع تَقدُّمِ اسْمِه؛ لِتَكونَ الجُملةُ كلمةَ ثَناءٍ مُستقلَّةً[١].

- قولُه: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هذا الوصْفُ مِن تَمامِ الإنشاءِ؛ لأنَّ في ذِكرِ رُبوبيَّتِه للعالَمينَ استِحضارًا لِما أفاضَهُ عليهم مِن خَيراتِ الإيجادِ والإمدادِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ﴾ استئنافٌ ثالثٌ؛ للارتِقاءِ في إثباتِ إلهيَّتِه الحقِّ بإثباتِ ما يُناسِبُها، وهو الحياةُ الكاملةُ؛ فهذه الجُملةُ مُقدِّمةٌ لِجُملةِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بإثباتِ الحياةِ الواجبةِ لِذَاتِه؛ فإنَّ الَّذي هو ربُّ العالَمينَ، وأوجَدَهم على أكمَلِ الأحوالِ، وأمَدَّهم بما به قِوامُهم على ممَرِّ الأزمانِ؛ لا جَرَمَ أنَّه مَوصوفٌ بالحياةِ الحقِّ؛ لأنَّ مُدَبِّرَ المخلوقاتِ على طُولِ العصورِ يجِبُ أنْ يكونَ مَوصوفًا بالحياةِ، وهي الحياةُ الحقيقيَّةُ؛ لأنَّها غيرُ مُعرَّضةٍ للنَّقصِ ولا للزَّوالِ، فلذلك كان الحيُّ حَقيقةً هو اللهَ تعالى، كما أنبَأَتْ عنه صِيغةُ الحصْرِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ﴾، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٣]؛ لِعَدمِ الاعتِدادِ بحياةِ ما سِواهُ مِن الأحياءِ؛ لأنَّها عارِضةٌ ومُعرَّضةٌ للفَناءِ والزَّوالِ؛ فمَوقِعُ قولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مَوقِعُ النَّتيجةِ مِن الدَّليلِ؛ لأنَّ كلَّ مَن سِواهُ لا حياةَ له واجبةٌ؛ فهو مُعرَّضٌ للزَّوالِ، فكيف يكونُ إلهًا مُدبِّرًا للعالَمِ[٤]؟!

- قولُه: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بعْدَ اتِّضاحِ الدَّلالةِ على انفِرادِه تعالى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩٢).

(٣) تقدَّم تعريفه (ص: ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٢، ١٩٣).

بالإلهيَّةِ، فُرِّعَ عليه الأمْرُ بعِبادتِه وحْدَه غيرَ مُشركين غيرَه في العِبادةِ؛ لِنُهوضِ انفرادِه باستِحقاقِ أنْ يُعبَدَ[١].

- وتَقديمُ ﴿لَهُ﴾ المتعلِّقِ بكَلمةِ ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ على مَفعولِ ﴿مُخۡلِصِينَ﴾؛ لأنَّه الأهمُّ في هذا المقامِ به؛ لأنَّه أشدُّ تَعلُّقًا بمُتعلَّقِه مِن تَعلُّقِ المفعولِ بعامِلِه[٢].

- وجُملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ إنشاءً للثَّناءِ على اللهِ؛ فيَجوزُ أنْ تكونَ مُتَّصِلةً بفِعلِ ﴿فَٱدۡعُوهُ﴾ على تَقديرِ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: قائلينَ: الحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ، وقرينةُ المحذوفِ هو أنَّ مِثلَ هذه الجُملةِ ممَّا يَجْري على ألْسِنةِ النَّاسِ كثيرًا، فصارتْ كالمَثَلِ في إنشاءِ الثَّناءِ على الله. ويجوزُ أنْ تكونَ كلامًا مُستأنَفًا أُرِيدَ به إنشاءُ الثَّناءِ على اللهِ مِن نفْسِه؛ تَعليمًا للنَّاسِ كيف يَحْمَدونه، أو جاريًا على لِسانِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

ويجوزُ أنْ يكونَ الحمْدُ مَصدرًا جِيءَ به بَدَلًا مِن فِعلِه على معنى الأمْرِ، أي: احْمَدوا اللهَ ربَّ العالَمينَ، وعُدِلَ به عن النَّصبِ إلى الرَّفعِ؛ لِقَصْدِ الدَّلالةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ[٣].

- وفي قولِه تعالَى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مدَحَ نفْسَه سُبحانَه، وختَمَ ثلاثَ آياتٍ على التَّوالي بقولِه: (رَبّ الْعَالَمِينَ) [٦٤، ٦٥، ٦٦]، وليس له في القُرآنِ نَظيرٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١١).

الآيات (٦٦-٦٨)

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُّطْفَةٍ﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[(١)].

﴿عَلَقَةٍ﴾: العَلَقةُ: الدَّمُ الجامِدُ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ[(٢)].

﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾: بُلوغُ الأشُدِّ، أي: بُلوغُ مُنْتهَى الشَّبابِ والقُوَّةِ، أو: اشتِدادُ الجِسْمِ وقوَّتُه، والبُلوغُ والبَلاغُ: الانتِهاءُ إلى أقصَى المَقصدِ والمُنتهَى، والأشُدُّ قيل: جمْعٌ لا واحدَ له، وقيل: مُفردُه شَدٌّ، وأصلُ (بلغ): الوُصولُ إلى الشَّيءِ، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥، ٢٥٤، ٢٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١) و (٣/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٤، ٤٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمرًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُصرِّحَ للمشركينَ بأنَّه مَنْهيٌّ عن عبادةِ غيرِ الله: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: إنِّي نُهيتُ أن أعبُدَ ما تَدْعُونَه مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَتْني الآياتُ الواضِحاتُ مِن رَبِّي، وأُمِرتُ أن أستَسلِمَ بالطَّاعةِ لِرَبِّ العالَمينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى بعضَ مَظاهرِ قُدرتِه، وأنَّه لا يَستحِقُّ العبادةَ أحدٌ سِواه، فيقولُ: اللهُ وَحْدَه الَّذي خلَقَ أباكم آدَمَ مِن تُرابٍ، ثمَّ خَلَقَكم مِن مَنِيٍّ، ثمَّ مِن قِطعةِ دَمٍ جامِدةٍ تَعلَقُ برَحِمِ المرأةِ، ثمَّ يُخرِجُكم اللهُ مِن بُطونِ أُمَّهاتِكم أطفالًا، ثمَّ لِتَبلُغوا تمامَ قُوَّتِكم، ثمَّ لِتَكونوا كِبارًا في السِّنِّ، ومِنكم مَن يموتُ قبْلَ ذلك، ولِتَبلُغوا أجَلًا مُحَدَّدًا تَموتونَ فيه، ولعَلَّكم تَعقِلونَ آياتِ اللهِ. وهو وَحْدَه الَّذي يُحيي ويُميتُ، فإذا قَضى سُبحانَه شَيئًا فإنَّما يقولُ له: كُنْ، فيَكونُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ صِفاتِ الجَلالِ والعَظَمةِ؛ قال: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فأورَدَ ذلك على المُشرِكينَ بألْيَنِ قَولٍ؛ لِيَصرِفَهم عن عبادةِ الأوثانِ، وبَيَّنَ أنَّ وَجْهَ النَّهيِ في ذلك ما جاءه مِنَ البَيِّناتِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الأمرَ بإخلاصِ العبادةِ لله وَحْدَه، وذكَرَ الأدِلَّةَ على ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٠).

والبَيِّناتِ؛ صرَّحَ بالنَّهيِ عن عِبادةِ ما سِواه[١].

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: إنِّي نُهيتُ أن أعبُدَ الآلِهةَ الَّتي تَدْعُونَها مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَتْني الآياتُ الواضِحاتُ مِن عندِ رَبِّي دالَّةً على تَوحيدِه وصِفاتِ كَمالِه[٢].

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: وأُمِرْتُ أن أنقادَ وأستَسلِمَ وأذِلَّ وأخضَعَ بالطَّاعةِ لخالِقِ كُلِّ شَيءٍ ومالِكِه ومُدَبِّرِه[٣].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ نبيَّه نُهِيَ عن عِبادةِ الأوثانِ، وأنَّه أُمِر بالاستِسلامِ لِلَّهِ تعالَى؛ بَيَّن أمْرَ الوحدانيَّةِ والألوهِيَّةِ الَّتي أصنامُهم عاريةٌ عن شَيءٍ منهما، بالاعتِبارِ في تدريجِ ابنِ آدَمَ بأنْ ذَكَر مَبدأَه الأوَّلَ، وهو مِن تُرابٍ، ثُمَّ أشارَ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥٥-٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٧).

التَّناسُلِ بخَلْقِه مِن نطفةٍ[١].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه الَّذي خَلَق أباكم آدَمَ -أيُّها النَّاسُ- مِن تُرابٍ، ثمَّ خَلَقكم مِن مَنِيٍّ، ثمَّ مِن قِطعةِ دَمٍ جامِدةٍ تَعلَقُ برَحِمِ المرأةِ[٢].

كما قالَ اللهَ تباركَ وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حَدَّثَنا رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وهو الصَّادِقُ المَصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أُمِّه أربَعينَ يومًا، ثمَّ يَكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَكونُ مُضْغةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا فيُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقيٌّ أو سَعيدٌ، ثمَّ يُنفَخُ فيه الرُّوحُ))[٣].

﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

قيل: المرادُ بذِكرِ ابتِداءِ الخَلقِ هنا الدَّلالةُ على توحيدِ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يَستَحِقُّ العِبادةَ سِواه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

وقيل: للدَّلالةِ على البَعثِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠).

(٣) رواه البخاري (٣٢٠٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٦٤٣).

أي: ثُمَّ يُخرِجُكم اللهُ مِن بُطونِ أُمَّهاتِكم أطفالًا صِغارًا[١].

﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾.

أي: ثمَّ لِتَبلُغوا بالتَّدريجِ تَمامَ قُوَّتِكم وعُقولِكم[٢].

﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗا﴾.

أي: ثمَّ لِتَكونوا كِبارًا في السِّنِّ ضُعَفاءَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٣).

قال الشَّوكاني: (﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ أي: أطفالًا، وأفرَدَه لِكَونِه اسمَ جِنسٍ، أو على معنى: يُخرِجُ كُلَّ واحِدٍ مِنكم طِفلًا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

قيل: اللَّامُ في قَولِه تعالى: ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ مُتعَلِّقةٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: يُبقيكم، أي: يُبقيكم لِتَبلُغوا أشُدَّكم. وممَّن ذهب إلى هذا: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٣).

قال البِقاعي: (ثمَّ يُدَرِّجُكم في مَدارجِ التَّربيةِ، صاعِدينَ بالقوَّةِ في أَوْجِ الكمالِ طَورًا بعد طَورٍ، وحالًا بعدَ حالٍ؛ لِتَبلُغوا أشُدَّكم). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٠).

واللَّامُ في قولِه: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗا﴾ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ تقديرُه: ثمَّ يُبقيكم، أي: يُبقيكم لِتَكونوا شيوخًا. ويجوزُ عَطْفُه على ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٣).

قال ابنُ سِيْدَه: (الشَّيخُ: الَّذي استبانت فيه السِّنُّ، وظهَر عليه الشَّيبُ). ((المحكم)) (٥/ ٢٤٣).

وذهب النَّحَّاسُ وتَبِعَه القُرطبيُّ إلى أنَّ الشَّيخَ مَن جاوز أربعينَ سَنةً. يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٠). =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾.

أي: ومِنكم مَن يموتُ قَبْلَ ذلك[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ [الحج: ٥].

= وذهب السَّمينُ الحلبيُّ وابنُ عاشور إلى أنَّ الشَّيخَ مَن بلَغ سِنَّ الخمسينَ إلى الثَّمانينَ. يُنظر: ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٢/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٨).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾: مِن قَبلِ بُلوغِ الشَّيخوخةِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والثعلبي، والسمعاني، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٩).

وقيل: مِن قَبلِ بُلوغِ الأشُدِّ. وممَّن قال بهذا: السمرقنديُّ، وابن الجوزي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

وقيل: مِن قبْلِ الشَّيخوخةِ بعدَ بُلوغِ الأشُدِّ أو قبْلَه أيضًا. وممَّن اختاره: أبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٨).

وقيل: مِن قَبلِ هذه الأحوالِ؛ فمِنَ النَّاسِ مَن يَموتُ قبْلَ أن يُخرَجَ طِفلًا، وآخَرونَ قبْلَ الأشُدِّ، وآخَرونَ قبْلَ الشَّيخوخةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عطية، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٨).

قال ابنُ عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ عبارةٌ تتردَّدُ في الأدراجِ المذكورةِ كلِّها؛ فمِنَ النَّاسِ مَن يموتُ قبْلَ أن يخرجَ طفلًا، وآخَرونَ قبلَ الأشدِّ، وآخَرونَ قبْلَ الشَّيخوخةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٨).

﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾.

أي: ولِتَبلُغوا زَمَنًا مُحَدَّدًا تَموتونَ فيه، لا تَتجاوَزونَه، ولا تَتقَدَّمونَ عليه[1].

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

أي: ولِتَعقِلوا حُجَجَ اللهِ وآياتِه، فتُوَحِّدوه وتَعلَموا كَمالَ قُدرتِه وحِكمتِه، وغيرَ ذلك مِن صِفاتِ كَمالِه[2].

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٦٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى انتِقالَ الإنسانِ مِن كَونِه تُرابًا إلى كَونِه نُطفةً، ثمَّ إلى كَونِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٨).

قال السَّعدي: (﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ بهذه الأطوارِ المقَدَّرةِ ﴿أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ تَنتهي عندَه أعمارُكم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

وقال ابن عاشور: (قَولُه: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ عَطفٌ على ﴿لِتَكُونُواْ شُيُوخٗا﴾، أي: للشَّيخوخةِ غايةٌ -وهي الأجَلُ المُسمَّى، أي: الموتُ- فلا طَورَ بعدَ الشَّيخوخةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٦٥).

قال البقاعي: (﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: فتَعلَموا بالمُفاوَتةِ بيْنَ النَّاسِ فيها ببَراهينِ المُشاهَدةِ بالتَّقليبِ في أطوارِ الخِلقةِ وأدوارِ الأسنانِ، وإرجاعِ أواخِرِ الأحكامِ على أوائِلِها: أنَّ فاعِلَ ذلك قادِرٌ مُختارٌ، حَكيمٌ قَهَّارٌ، لا يُشبِهُ شَيئًا، ولا يُشبِهُه شَيءٌ!). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١١٠، ١١١).

وقال السعدي: (﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أحوالَكم، فتَعلمونَ أنَّ المُطَوِّرَ لكم في هذه الأطوارِ كاملُ الاقتِدارِ، وأنَّه الَّذي لا تنبغي العبادةُ إلَّا له، وأنَّكم ناقِصونَ مِن كلِّ وجهٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

عَلَقةً، ثمَّ إلى كَونِه طِفلًا، ثمَّ إلى بُلوغِ الأَشُدِّ، ثمَّ إلى الشَّيخوخةِ، واستَدَلَّ بهذه التَّغَيُّراتِ على وُجودِ الإلهِ القادِرِ؛ قال بعدَه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ﴾، يعني: كما أنَّ الانتِقالَ مِن صِفةٍ إلى صِفةٍ أُخرى مِن الصِّفاتِ الَّتي تقَدَّمَ ذِكرُها يدُلُّ على الإلهِ القادِرِ، فكذلك الانتِقالُ مِن الحياةِ إلى المَوتِ وبالعَكسِ يدُلُّ على الإلهِ القادِرِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى رُتَبَ الإيجادِ، ذكَرَ أنَّه المتَّصِفُ بالإحياءِ والإماتةِ، وأنَّه متى تعَلَّقَت إرادتُه بإيجادِ شَيءٍ، أوْجَدَه مِن غيرِ تأخُّرٍ[٢].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

أي: اللهُ هو المُنفَرِدُ بالإحياءِ والإماتةِ؛ فلا يَقدِرُ على ذلك أحَدٌ سِواه[٣].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦].

﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

أي: فإذا أراد اللهُ شَيئًا فإنَّما يقولُ له مَرَّةً واحِدةً: كُنْ، فيَكونُ ما أرادَه[٤].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٠)، ((التوحيد)) لابن خزيمة (١/ ٣٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير القنوجي)) (١/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: بقَلبي ولِساني وجوارِحي، بحيثُ تكونُ مُنقادةً لِطاعتِه، مُستَسلِمةً لأمْرِه، وهذا أعظَمُ مَأمورٍ به على الإطلاقِ، كما أنَّ النَّهيَ عن عبادةِ ما سِواه أعظَمُ مَنهيٍّ عنه على الإطلاقِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه لا بُدَّ للقلبِ مِن حركةٍ؛ فإمَّا إلى باطلٍ، وإمَّا إلى حقٍّ؛ فقولُه: ﴿نُهِيتُ﴾ تفريغٌ، وهذا الفراغُ لا بُدَّ أنْ يكونَ له ما يَمْلَؤُه، فالباطلُ لا بُدَّ أن يَخْلُفَه حقٌّ؛ لذا قال تعالى بعدَها: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢].

٢- الإشارةُ إلى القاعدةِ المشهورةِ؛ وهي أنَّ التَّخليةَ قبْلَ التَّحليةِ، التَّحليةُ يعني: التَّزيينَ، فقولُه: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ هذه تخليةٌ، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ هذه تحليةٌ، وهكذا كلمةُ الإخلاصِ «لا إلهَ» نفْيٌ «إلَّا اللهُ» إثباتٌ، الأوَّلُ تخليةٌ، والثَّاني تحليةٌ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ فيما يَزعُمون أنَّ المقتولَ مَيِّتٌ بغيرِ أجَلِه، ومَقطوعٌ عليه حَياتُه[٤]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ بيانُ كمالِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولهذا قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ للَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٦١).

حاجَّه في ربِّه: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فلا يُمكِنُ أنْ يُحيِيَ أحدٌ مَيِّتًا، ولا أنْ يُميتَ حيًّا، فإنْ قيلَ: أليس عيسى ابنُ مريمَ عليه السَّلامُ كان يُحيي الموتَى؟! قُلْنا: بلى، ولكنْ بإذنِ اللهِ؛ بنَفْسِ الآيةِ: ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فإنْ قيلَ: أليسَ الرَّجُلُ يَقتُلُ الآخَرَ -وهو حيٌّ- فيَموتُ؟! قُلْنا: بلى، ولكنْ ما فَعَلَه هو سببُ الموتِ وليس هو الإماتةَ! وكثيرًا ما تُقْطَعُ أوداجُ الإنسانِ؛ ويُشَقُّ بطْنُه؛ ثمَّ يَبقَى حيًّا ويَحيا، فالحاصلُ أنَّ الإحياءَ والإماتةَ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

٥- قولُ البعضِ: «سُبحانَ مَن أَمْرُه بيْنَ الكافِ والنُّونِ» قولٌ غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّه سُبحانَه أَمْرُه بعدَ الكافِ والنُّونِ ﴿كُن﴾، فإنَّ الأمْرَ هنا بمعنى المأمورِ، أما إنْ كان الأمرُ الَّذي هو فِعْلُه -يعني: أَمْرَه- فهو قبْلَ الكافِ والنُّونِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أنَّ قولَ اللهِ بحروفٍ؛ لقولِه تعالى: ﴿كُن﴾؛ وهي كلمةٌ بحرفَينِ، ويكونُ قولُه بصوتٍ مَسموعٍ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أنَّه ليس بيْنَ أمْرِ اللهِ بالتَّكوينِ وتكَوُّنِه تَراخٍ؛ بل يكونُ على الفَوريَّةِ؛ وذلك لقولِه تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾[٤]، فالفاءُ للتَّعقيبِ تدُلُّ على أنَّه يكونُ عَقِبَ قولِه: (كُنْ) سواء لا يَتأخَّرُ عنه[٥].

٨- احتجَّ كثيرٌ مِن السَّلَفِ على أنَّ القُرآنَ غيرُ مَخلوقٍ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٢٢٦).

أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، فلو كان ﴿كُن﴾ مَخلوقةً لَزِمَ ألَّا يُوجَدَ شَيءٌ مِن المَخلوقاتِ؛ لأنَّ ﴿كُن﴾ تكونُ مَخلوقةً بـ ﴿كُن﴾ أُخرى، وهَلُمَّ جرًّا، فلا يُوجَدُ شَيءٌ[1]!

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- جُملةُ ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ أدلَّةِ الوَحدانيَّةِ بدَلالةِ الآياتِ الكَونيَّةِ والنَّفْسيَّةِ؛ لِيَجْرُوا على مُقْتَضاها في أنفُسِهم بأنْ يَعبُدوا اللهَ وحْدَه، فانتُقِلَ إلى تَقريرِ دَليلِ الوَحدانيَّةِ بخبَرِ الوحْيِ الإلهيِّ بإبطالِ عِبادةِ غَيرِ اللهِ على لِسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيَعمَلَ بذلك في نفْسِه، ويُبلِّغَ ذلك إليهم، فيَعلَموا أنَّه حُكْمُ اللهِ فيهم، وأنَّهم لا عُذْرَ لهمْ في الغَفْلةِ عنها، أو عَدَمِ إتقانِ النَّظرِ فيها، أو قُصورِ الاستِنتاجِ منها بعْدَ أنْ جاءَهُم رسولٌ مِن اللهِ يُبيِّنُ لهم أنواعًا بمُختلَفِ البَيانِ مِن أدلَّةٍ بُرهانيَّةٍ وتَقريبيَّةٍ إقناعيَّةٍ؛ فكان قولُه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ إبطالًا لِعِبادةِ غَيرِ اللهِ بالقولِ الدَّالِّ على التَّحذيرِ والتَّخويفِ بعْدَ أنْ أُبطِلَ ذلك بدَلالةِ الحُجَّةِ على المقصودِ، وهذه دَلالةٌ كِنائيَّةٌ؛ لأنَّ النَّهيَ يَستلزِمُ التَّحذيرَ[2].

- ومعنى الدُّعاءِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ على ظاهرِ الدُّعاءِ، وهو القولُ الَّذي تُسأَلُ به حاجةٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى تَعبُدون؛ فيَكونَ

(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٥).

العُدولُ عن أنْ يَقولَ: (أنْ أعبُدَ الَّذين تَعبُدون) تَفنُّنًا[١].

- قولُه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ ذِكرُ مَجيءِ البَيِّناتِ في أثناءِ هذا الخبَرِ إشارةٌ إلى طُرقٍ أُخرى مِن الأدِلَّةِ على تَفرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ تَكرَّرتْ قبْلَ نُزولِ هذه الآيةِ. وكان تَقديمُ المسنَدِ إليه -وهو ضَميرُ ﴿إِنِّي﴾- على الخبَرِ الفِعليِّ؛ لِتَقويةِ الحُكْمِ، نحوُ: هو يُعْطي الجزيلَ[٢].

- والمقصودُ مِن إسنادِ المنْهيَّةِ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: التَّعريضُ بنَهْيِ المشركينَ؛ فإنَّ الأمْرَ بأنْ يقولَ ذلك لا قصْدَ منه إلَّا التَّبليغُ لهم، وإلَّا فلا فائدةَ لهم في الإخبارِ بأنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَنْهيٌّ عن أنْ يَعبُدَ الَّذين يَدْعُون مِن دونِ اللهِ، يعني: فإذا كنتُ أنا مَنهيًّا عن ذلك، فتَأمَّلوا في شأْنِكم، واستَعْمِلوا أنْظارَكم فيه؛ لِيَسوقَهم إلى النَّظرِ في الأدِلَّةِ سَوقًا ليِّنًا خَفيًّا؛ لاتِّباعِه فيما نَهى عنه[٣].

- وبُنِيَ الفِعلُ ﴿نُهِيتُ﴾ للنَّائبِ؛ لِظُهورِ أنَّ النَّاهيَ هو اللهُ تعالى، بقَرينةِ مَقامِ التَّبليغِ والرِّسالةِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ جُعِلَ المجرورُ بحرْفِ (مِن) وَصْفَ (رب) مُضافًا إلى ضَميرِ المتكلِّمِ دونَ أنْ يُجعَلَ مَجرورُها ضَميرًا يَعودُ على اسمِ الجلالةِ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ؛ لِتَرْبيةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩٥، ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٦).

المهابةِ في نُفوسِ المُعرَّضِ بهم؛ لِيَعلَموا أنَّ هذا النَّهيَ ومَجِيءَ البَيِّناتِ هو مِن جانبِ سيِّدِه وسَيِّدِهم، فما يَسَعُهم إلَّا أنْ يُطِيعوه؛ ولذلك عزَّزَه بإضافةِ الرَّبِّ إلى الجميعِ في قولِه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: ربِّكم وربِّ غَيرِكم، فلا مُنصرَفَ لكمْ عن طاعتِه[1].

- وقال هنا: ﴿أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ولم يقُلْ: أنْ أُسلِمَ للهِ؛ لِيَكونَ ذلك دليلًا على وَجهِ الإسلامِ، كأنَّه قِيل: لماذا أسلمْتَ؟ فقال: لأنَّ اللهَ ربُّ العالَمينَ، وربُّ العالَمينَ أحَقُّ أن يُسلَمَ له، وأنْ يُتعبَّدَ له عزَّ وجلَّ؛ فهو كالدَّليلِ للحُكْمِ السَّابقِ الَّذي هو الإسلامُ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ...﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ كيفيَّةِ تَكوُّنِ البدَنِ، وهو استِئنافٌ رابعٌ بعْدَ استئنافِ جُملةِ ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ [غافر: ٦٥] وما تَفرَّعَ عليها، وكلُّها ناشئٌ بعضُه عنْ بَعضٍ، وهذا الامتِنانُ بنِعمةِ الإيجادِ، وهو نِعمةٌ؛ لأنَّ الموجودَ شَرَفٌ، والمعدومُ لا عِنايةَ به، وأُدمِجَ فيه الاستِدلالُ على الإبداعِ[3].

وقيل: قولُه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ مِن تَتمَّةِ قولِه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]؛ ولذلك اكتُفِيَ بالضَّميرِ دونَ الاسمِ الجامعِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥١٤).

ولم يُؤتَ باسم الإشارةِ أو بما يَقومُ مَقامَه مِن الضَّميرِ؛ لانْبناءِ التَّوحيدِ عليه، لكنْ فيه اعتناءٌ بدَليلِ الأنفُسِ؛ لِذِكْرِه أوَّلًا مُجمَلًا، ثمَّ مُفصَّلًا ثانيًا(١).

- واللَّاماتُ في قولِه: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ وما عُطِفَ عليه بـ (ثمَّ) مُتعلِّقاتٌ بمَحذوفٍ تَقديرُه: ثم يُبْقِيكم، أو ثمَّ يُنشِئُكم لِتَبْلُغوا أشُدَّكم، وهي لاماتُ التَّعليلِ مُستعمَلةٌ في مَعنى (إلى)؛ لأنَّ الغايةَ المقدَّرةَ مِن اللهِ تُشبِهُ العلَّةَ فيما يُفْضي إليها(٢).

- قولُه: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ عطْفٌ على ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾، أي: إنَّ مِن جُملةِ ما أرادهُ اللهُ مِن خلْقِ الإنسانِ على الحالةِ المبيَّنةِ أنْ تكونَ في تلك الخِلْقةِ دَلالةٌ لآحادِه على وُجودِ هذا الخالقِ البديعِ، وعلى انفرادِه بالإلهيَّةِ، وعلى أنَّ ما عداهُ لا يَستحِقُّ وصْفَ الإلهيَّةِ، فمَن عقَلَ ذلك مِن النَّاسِ فقدِ اهْتَدى إلى ما أُريدَ منه، ومَن لم يَعقِلْ ذلك فهو بمَنزلةِ عَديمِ العقْلِ، ولأجْلِ هذه النُّكتةِ لم يُؤتَ لِفِعلِ ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ بمَفعولٍ، ولا بمَجرورٍ؛ لأنَّه نُزِّلَ مَنزِلةَ اللَّازمِ، أي: رَجاءَ أنْ يكونَ لكم عُقولٌ؛ فهو مُرادٌ للهِ مِن ذلك الخلْقِ، فمِن حِكمتِه أنْ جعَلَ ذلك الخلْقَ العجيبَ عِلَّةً لأُمورٍ كثيرةٍ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ استِئنافٌ خامِسٌ، ومُناسَبةُ مَوقعِه مِن قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ إلى ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧]؛ فإنَّ مِن أوَّلِ ما يُرْجَى أنْ يَعقِلوه هو ذلك

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٧، ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩٨، ١٩٩).

التَّصرُّفُ البديعُ بخلْقِ الحياةِ في الإنسانِ عندَ تَكوينِه بعْدَ أنْ كان جُثَّةً لا حَياةَ فيها، وخلْقِ الموتِ فيه عِندَ انتِهاءِ أجَلِه بعْدَ أنْ كان حيًّا مُتصرِّفًا بقُوَّتِه وتَدبيرِه[١].

- قولُه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ المقصودُ منه الامتِنانُ بالحياةِ تَبَعًا لقولِه قبْلَ هذا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ﴾. وفُرِّعَ على هذا الخبرِ إخبارٌ بأنَّه إذا أراد أمْرًا مِن أُمورِ التَّكوينِ مِن إحياءٍ، أو إماتةٍ، أو غيرِهما؛ فإنَّه يَقدِرُ على فِعلِه دونَ تَردُّدٍ ولا مُعالَجةٍ، فالفاءُ مِن قولِه: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ ﴾ فاءُ تَفريعِ الإخبارِ بما بعْدَها على الإخبارِ بما قبْلَها[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٩).

الآيات (٦٩-٧٦)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾: جَمعُ غُلٍّ، وهو القَيدُ الَّذي يُوضَعُ في العُنُقِ، وأصلُه يدُلُّ على تَدرُّعِ الشَّيءِ وتَوسُّطِه[١].

﴿ٱلْحَمِيمِ﴾: أي: الماءِ الشَّديدِ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على الحَرارةِ[٢].

﴿يُسْجَرُونَ﴾: أي: يُطرَحونَ فيها فيَكونونَ وَقودًا لها، والسَّجْرُ: مَلءُ النَّارِ بالوَقودِ لِتَقويتِها وتَهييجِها، وأصلُ (سجر) هنا: يدُلُّ على إيقادٍ[٣].

﴿تَمْرَحُونَ﴾: المَرَحُ: شِدَّةُ الفَرَحِ، والتَّوسُّعُ فيه، وأصلُ (مرح): يدُلُّ على مَسَرَّةٍ لا يَكادُ يستقرُّ معها طَرَبًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤). =

﴿مَثْوَى﴾: أي: مَنزِلُ، ومقامُ، ومَسكنُ، ومأوَى، والثَّواءُ: الإقامةُ معَ الاستِقرارِ، وأصلُ (ثوي): يدُلُّ على الإقامةِ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾

قَولُه: ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ في رَفعِه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾، وأخبَرَ عن النَّوعَينِ بالجارِّ، فالجارُّ في نيَّةِ التَّأخيرِ، والتَّقديرُ: إذ الأغلالُ والسَّلاسِلُ في أعناقِهم. الثَّاني: أنَّه مُبتدأٌ وخَبَرُه مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ ﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ عليه. الثَّالثُ: أنَّه مُبتَدأٌ خبَرُه جُملةُ ﴿يُسْحَبُونَ﴾، والعائدُ على المُبتَدأِ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: والسَّلاسِلُ يُسحَبونَ بها. و﴿يُسْحَبُونَ﴾ مَرفوعُ المحلِّ على هذا الوَجهِ، وأمَّا في الوَجهَيْنِ المتقدِّمَينِ فيَجوزُ فيه النَّصبُ على الحالِ مِن الضَّميرِ المَنْويِّ في شِبْهِ الجُملةِ ﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾، ويجوزُ أنْ يكونَ مُستأنَفًا لا محَلَّ له مِنَ الإعرابِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُسَلِّيًا نبيَّه عمَّا أصابَه مِن المشركينَ، ومُبيِّنًا سوءَ عاقبتِهم: ألَمْ تَرَ -يا مُحمَّدُ- إلى مُشرِكي قَومِك الَّذين يُخاصِمونَ في آياتِ اللهِ: كيفَ يُصرَفونَ عن الحَقِّ إلى الباطِلِ؟! أولئكَ هم الَّذين كذَّبوا بالقُرآنِ، وبالَّذي أرسَلْنا به رُسُلَنا

= قال ابن عاشور: (الفرَحُ: المَسَرَّةُ ورِضا الإنسانِ على أحوالِه، فهو انفعالٌ نفْسانيٌّ. والمَرَحُ ما يَظهَرُ على الفارِحِ مِن الحَرَكاتِ في مَشْيِه ونَظَرِه، ومُعامَلتِه معَ النَّاسِ، وكَلامِه وتكَبُّرِه؛ فهو هَيئةٌ ظاهِريَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٩٥)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٤/ ٢٧٣).

مِنَ التَّوحيدِ، والبَعثِ، وغَيرِ ذلك؛ فسوفَ يَعلَمونَ حينَ تُجعَلُ الأغلالُ في أعناقِهم والسَّلاسِلُ، فيُسحَبونَ في ماءِ الحَميمِ الَّذي اشتَدَّ غَلَيانُه، ثمَّ في النَّارِ يُطرَحونَ فيَكونونَ وَقودًا لها، فتُحمَى بهم!

ثمَّ يُقالُ لهم: أينَ آلهتُكم الَّتي كُنتُم تَجعَلونَها شُرَكاءَ لله؟! قالوا: غابُوا عنَّا، بل لم نكُنْ نَعبُدُ في الدُّنيا أيَّ شَيءٍ مِن دُونِ اللهِ، كذلك الضَّلالِ يُضِلُّ اللهُ الكافِرينَ!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى الأسبابَ الَّتي أدَّتْ بهم إلى هذا العذابِ، وأنَّه يُقالُ لهم: ذَلِكم بسَبَبِ فَرَحِكم في الدُّنيا بالباطِلِ في أَشَرٍ وبَطَرٍ واختيالٍ؛ فادخُلوا أبوابَ جهنَّمَ ماكِثينَ فيها أبَدًا، فبِئْسَ مَنزِلُ المتكَبِّرينَ عن الحَقِّ: جَهنَّمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عُلِمَ مِن قَولِ الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨] أنَّه تعالى لا كُلفةَ عليه في شَيءٍ مِن الأشياءِ بهذه الأُمورِ المُشاهَدةِ في أنفُسِهم وفي الآفاقِ؛ أنتَجَ التَّعجُّبَ مِن حالِهم لِمَن له الفَهمُ الثَّاقِبُ والبَصيرةُ الوقَّادةُ[1].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

أي: ألَمْ تَرَ -يا محمَّدُ- إلى مُشرِكي قَومِك الَّذين يُجادِلونَ ويُخاصِمونَ في آياتِ اللهِ؛ فتَعْجَبَ كيف تُصرَفُ عُقولُهم عن الحَقِّ إلى الباطِلِ[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٠، ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٧٨-٤٨٠).

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾.

أي: وهم الَّذين كذَّبوا بالقُرآنِ، وكَذَّبوا بالَّذي أُرسِلَ به رُسُلُ اللهِ مِنَ الهدَى والبيانِ؛ كإخلاصِ العبادةِ لِلَّهِ، والإقرارِ بالبعثِ بعدَ المماتِ، والبَراءةِ مِمَّا يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ، إلى غيرِ ذلك(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠١).

قال الشوكاني: (والمرادُ ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ﴾: إمَّا القرآنُ، أوْ: جِنسُ الكتبِ المنزَّلةِ مِن عندِ اللهِ، وقولُه: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ﴾، ويُرادُ به ما يوحَى إلى الرُّسلِ مِن غيرِ كتابٍ إنْ كانَت اللَّامُ في الكتابِ للجنسِ، أو سائرُ الكُتُبِ إنْ كان المرادُ بالكتابِ: القرآنَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالكِتابِ هنا: القُرآنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والزمخشري، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى جُمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٨).

والمرادُ بالرُّسُلِ هنا: جِنسُ الرُّسُلِ. وقيل: المرادُ بالرُّسُلِ: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ أي: مِن سائرِ الكتبِ: الزمخشريُّ، والرازي، والنسفي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٤).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ أي: مِن الهدَى والبيانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧).

وقال ابن جرير: (﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ يقولُ: وكذَّبوا أيضًا -معَ تكذيبِهم بكتابِ اللهِ- بما أرسَلْنا به رُسلَنا مِن إخلاصِ العبادةِ لِلَّهِ، والبَراءةِ مِمَّا يُعبَدُ مِن دونِه مِن الآلهةِ والأندادِ، والإقرارِ بالبعثِ بعدَ المماتِ للثَّوابِ والعِقابِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢).

وقال أبو حيان: (والظَّاهرُ أنَّها في الكفَّارِ المجادِلينَ فِي رسالةِ الرَّسولِ عليه السَّلامُ، والكتابِ =

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: فسوفَ يَعلَمُون عاقِبةَ أمْرِهم[١].

كما قال الله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٩٦].

﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

أي: فسوفَ يَعلَمونَ ذلك حينَ تُجعَلُ الأغلالُ في أعناقِهم والسَّلاسِلُ، فيُجَرُّونَ إهانةً وتَعذيبًا لهم[٢]!

كما قال تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۞ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا

= الَّذي جاءَ به، بدليلِ قولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾، ثُمَّ هَدَّدهم بقولِه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وهذا قولُ الجمهورِ. وقال محمَّدُ بنُ سِيرينَ وغيرُه: هي إشارةٌ إلى أهلِ الأهواءِ مِن الأُمَّة). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧١).

وقال الشوكاني: (﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: بالقرآنِ، وهذا وصْفٌ لا يَصِحُّ أنْ يُطْلَقَ على فِرْقةٍ مِن فِرَقِ الإسلام). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤).

قال ابن جرير: (يقولُ جلَّ ثناؤُه: فسوفَ يَعلَمُ هؤلاءِ الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ، المكَذِّبونَ بالكِتابِ حقيقةَ ما تُخبِرُهم به يا محمَّدُ، وصِحَّةَ ما هم به اليَومَ مُكَذِّبونَ مِن هذا الكتابِ، حينَ تُجعَلُ الأغلالُ والسَّلاسلُ في أعناقِهم في جهنَّمَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢، ٣٦٣).

وقال ابن عاشور: (أي: سوفَ يَجِدونَ العذابَ الَّذي كانوا يُجادِلونَ فيه فيَعلَمونَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢، ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٨٣-٤٨٥).

فَٱسۡلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤].

﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢﴾.

﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾.

أي: يُسحَبونَ في الماءِ الحَميمِ الَّذي اشتَدَّ غَلَيانُه، وانتَهى حَرُّه[1].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ * ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٧، ٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾.

أي: ثُمَّ يُطرَحونَ في النَّارِ فيَكونونَ وَقودًا لها، فتُحمَى بهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: يُسحَبون في الحميمِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤، ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٣).

قال الشوكاني: (يُقالُ: سَجَرْتُ التَّنُّورَ: أي: أوقَدْتُه، وسَجرْتُه: ملأْتُه بالوَقودِ...، فالمعنَى: تُوقَدُ بهم النَّارُ، أو تُملأُ بهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤).

ممَّن اختار المعنى الأوَّلَ، أي: تُوقَدُ بهم النَّارُ: الثعلبيُّ، وابنُ أبي زمَنين، والرَّسْعَني، والخازن. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٠). =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾.

أي: ثمَّ يُقالُ لهم: أين آلهتُكم الَّتي كُنتُم تَجعلونَها شُرَكاءَ للهِ في عِبادتِه؛ لِتُنقِذَكم اليَومَ مِن العَذابِ[1]؟!

﴿...قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾.

﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾.

أي: قالوا: غابُوا عنَّا، فتَرَكونا في العَذابِ، ولم يَنفَعونا بشَيءٍ[2].

﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: بل لم نَكُنْ أصلًا نَعبُدُ في الدُّنيا أيَّ شَيءٍ مِن دونِ اللهِ[3]!

= وممَّن اختار المعنى الثَّانيَ وأنَّه مِن سَجَرَ التَّنُّورَ؛ إذا ملأه بالوقودِ، فمعناه: أنَّهم في النَّارِ وهم مَسجورونَ بالنَّارِ، مَملوءةٌ بها أجوافُهم: الزمخشريُّ، والنسفيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٦، ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٨٧، ٤٨٨).

ممَّن قال: إنَّ المرادَ إنكارُهم لِوُقوعِ الشِّركِ منهم أصلًا: ابنُ عطيَّة، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عثيمين، وذكره السعدي احتمالًا. يُنظر: المصادر السابقة.

وهو أيضًا اختيارُ جلالِ الدِّينِ المحلِّي، والشنقيطي، يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٢٨)، =

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ

= ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٨) و (٣/ ٥١٠).

وقد ذكر الشنقيطيُّ هذه الآيةَ: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾، وقولَه تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقولَه: ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النحل: ٢٨]، ثمَّ قال: (فهذه الآياتُ تدُلُّ على إنكارِهم لِما جاؤوا به مِن الكفرِ). (العذب النمير)) (٢/ ٢٧٦).

قال ابن عثيمين: (فهؤلاء أنكروا، كذَبوا على أنفُسِهم، ظَنُّوا أنَّ هذا سيَنفَعُهم، كما لو أنَّ الجانيَ في الدُّنيا أنكَر جنايتَه رُبَّما يَنفَعُه ذلك، لكنْ في الآخرةِ لا يَنفعُ، حتَّى إذا أنكَروا خُتِم على أفواهِهم، فتَتكلَّمُ الأيدي والأرجُلُ والجُلودُ والألسُنُ بما تَعملُ، وحينَئذٍ لا يَستطيعون حِيلةً ولا يَهتدونَ سبيلًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٨٨، ٤٨٩).

وقيل: المعنى: بل لم نكُنْ نَعبُدُ مِن قَبْلُ في الدُّنيا شَيئًا مُستَحِقًّا للعبادةِ؛ فيَنفَعَنا، بل كانت عبادتُنا لغَيرِ اللهِ باطِلةً ضائِعةً لا تَنفَعُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والسمعاني، والزمخشري، والرسعني، والعُلَيمي، والشوكاني، واستظهره السعدي، وذهب إليه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٣٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤، ٢٠٥).

قال ابنُ عاشور: (أضرَبوا عن قَولِهم: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾، وقالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: لم نكُنْ في الدُّنيا نَدعو شيئًا يُغْني عنَّا؛ فنَفْيُ دُعاءِ شَيءٍ هنا راجِعٌ إلى نَفيِ دُعاءِ شَيءٍ يُعتَدُّ به، كما تقولُ: حَسِبتُ أنَّ فُلانًا شَيءٌ فإذا هو ليس بشَيءٍ! إن كُنتَ خَبَرْتَه فلم تَرَ عِندَه خَيرًا. وفي الحديثِ: سُئِلَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن الكُهَّانِ، فقال: «لَيْسوا بشَيءٍ» [البخاري (٦٢١٣)، ومسلم (٢٢٢٨)]، أي: ليسوا بشَيءٍ مُعتَدٍّ به فيما يَقصِدُهم النَّاسُ لأجْلِه... إذ ليس المعنى على إنكارِ أن يَكونوا عَبَدوا شيئًا؛ لِمُنافاتِه لِقَولِهم: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ المُقتضِي الاعترافَ الضِّمنيَّ بعبادتِهم. وفَسَّر كثيرٌ مِن المفسِّرينَ قَولَهم: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أنَّه إنكارٌ لعبادةِ الأصنامِ بعدَ الاعترافِ بها؛ لاضطرابِهم مِنَ الرُّعبِ، فيكونُ مِن نَحوِ قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. ويجوزُ أن يكونَ لهم في ذلك الموقِفِ مَقالانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤، ٢٠٥).

أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٢ - ٢٤].

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

أي: كهذا الضَّلالِ يُضِلُّ اللهُ الكافِرينَ؛ بسَبَبِ كُفرِهم(١).

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ٧٥﴾.

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي: يُقالُ لهم: ذَلِكم(٢) بسَبَبِ أنَّكم كُنتُم في الدُّنيا تَفرَحونَ بالباطِلِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٤٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((حاشية الخفاجي)) (٧/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

قال الألوسي: (معنى هذا: مِثلَ ذلك الإضلالِ يُضِلُّ اللهُ تعالى في الدُّنيا الكافِرينَ، حتى إنَّهم يَدْعُونَ فيها ما يَتَبَيَّنُ لهم أنَّه ليس بشَيءٍ، أو: مِثلَ ضَلالِ آلهتِهم عنهم في الآخِرةِ نُضِلُّهم عن آلهتِهم فيها، حتَّى لو طلَبوا الآلِهةَ وطلَبَتْهم لم يَلْقَ بعضُهم بعضًا، أو: مِثلَ ذلك الضَّلالِ وعَدَمِ النَّفعِ يُضِلُّ اللهُ تعالى الكافِرينَ، حتَّى لا يَهتَدوا في الدُّنيا إلى ما يَنفَعُهم في الآخِرة. وفي «المجمَع»: كما أضلَّ اللهُ تعالى أعمالَ هؤلاءِ وأبطَلَ ما كانوا يُؤَمِّلونَه، كذلك يَفعَلُ بأعمالِ جميعِ مَن يَتدَيَّنُ بالكُفرِ، فلا يَنتَفِعونَ بشَيءٍ منها، فإضلالُ الكافِرينَ على معنى إضلالِ أعمالِهم، أي: إبطالِها. ونُقِلَ ذلك عن الحَسَنِ، وقيل في معناه غيرُ ذلك). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٩).

(٢) قيل: المرادُ: ذَلِكم العَذابُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبي، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٦).

وقيل: المرادُ: ذَلِكم الإضلالُ. وممَّن قال بهذا: الزمخشريُّ، والرازي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٦).

قال ابنُ جريرٍ، والقاسِميُّ في قولِه تعالى: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: بغيرِ ما أذِنَ لكم به مِن الباطِلِ =

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾.

أي: وبِسَبَبِ أنَّكم كُنتُم في الدُّنيا في أشَرٍ وبَطَرٍ واختيالٍ وزَهْوٍ بالباطِلِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: يُقالُ لهم يومَ القيامةِ: ادخُلوا أبوابَ جَهنَّمَ السَّبعةَ ماكِثينَ فيها أبدًا[2].

= والمعاصي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٠).

وقال الألوسي: (﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الشِّركُ والمعاصي، أو بغيرِ استحقاقٍ لذلك). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٩).

وقال الزمخشريُّ، والرازيُّ، والنسفيُّ: هو الشِّركُ وعِبادةُ الأوثانِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢١).

وقال البيضاوي والعُلَيمي وأبو السعود: هو الشِّركُ والطُّغيانُ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

قال السعدي: (﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كُلٌّ بطَبَقةٍ مِن طَبَقاتِها، على قَدْرِ عَمَلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر: ٤٣، ٤٤].

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

أي: فبِئْسَ مَنزِلُ الَّذين تَكبَّروا عن الحَقِّ: جَهنَّمُ يُقيمونَ فيها إقامةً دائِمةً[(١)]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ أنَّ الإنسانَ قد يُصْرَفُ عن الحقِّ مع بيانِه ووُضوحِه، وهذا يُؤدِّي إلى فائدةٍ أخرَى، وهي خَوفُ الإنسانِ مِن أنْ يُصْرَفَ عن الحقِّ، ويَنتِجُ عن ذلك فائدةٌ ثالثةٌ: وهو سؤالُ الإنسانِ ربَّه دائمًا أنْ يُثَبِّتَه، ولهذا كان مِن دعاءِ المؤمنينَ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨]، فيَنبغي للإنسانِ أنْ يكونَ دائمًا على خَوفٍ؛ وأنْ يَسألَ اللهَ الثَّباتَ دائمًا[(٢)].

٢- قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ قَولُه: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ يُشعِرُ أنَّ السُّرورَ لا يَنبغي إلَّا إذا كان مع كَمالِ هذه الحَقيقةِ، وهي الثَّباتُ دائِمًا للمَفروحِ به، وذلك لا يَكونُ إلَّا في الجنَّةِ[(٣)].

٣- قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ هذا هو الفَرَحُ المذمومُ الموجِبُ للعِقابِ، بخِلافِ الفَرَحِ المَمدوحِ الَّذي قال اللهُ فيه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ [يونس: ٥٨]، وهو الفَرَحُ بالعِلمِ النَّافِعِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٨).

والعَمَلِ الصَّالِحِ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن التَّكَبُّرِ، ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ أحدٌ في قلبِه مِثقالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِن كِبْرِياءَ))[٢]، فالكِبْرُ -والعياذُ باللهِ- سببٌ لدُخولِ النَّارِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قَولُه تعالى: ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ عَطَفَها على قَولِه: ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ بإعادةِ العاملِ؛ لإفادةِ استِقلالِ المعطوفِ عن المَعطوفِ عليه؛ لأنَّه ليس تابِعًا له مِن كلِّ وجهٍ، بدَليلِ إعادةِ العامِلِ؛ فقَولُه: ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ يدُلُّ على أنَّ ما أُرسِلَتْ به الرُّسُلُ كأنَّه مُستَقِلٌّ عنِ الكِتابِ؛ ولهذا كانتِ السُّنَّةُ بمَنزِلةِ الكِتابِ في الدَّلالةِ، ووُجوبِ العَمَلِ بها[٤]، وعلى القولِ بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿رُسُلَنَا﴾: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم فيُفيدُ أنَّ مِمَّا جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَواعِظَ وإرشادًا كَثيرًا ليس مِنَ القُرآنِ[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ فيه أنَّ هؤلاء المكذِّبين بالكتابِ وبما أرسلَ اللهُ به الرُّسُلَ يُعَذَّبُون عذابًا جسديًّا بالسَّلاسلِ والأغلالِ والسَّحْبِ في النَّارِ؛ ويُعَذَّبون عذابًا قلبيًّا بالتَّوبيخِ والتَّقريعِ والتَّنديمِ؛ فيُقالُ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٢) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٨٩).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يُضِلُّ الكافرَ لِكُفْرِه؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ على وصْفٍ كان ذلك الوصفُ عِلَّةً له، فالَّذي عُلِّقَ على الكفرِ هنا الإضلالُ، إذًا الكفرُ سببٌ للإضلالِ، ويؤيِّدُ هذا قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ويَتَفَرَّعُ على ذلك أنَّ الضَّالَّ إذا ضَلَّ فإنَّه هو السَّببُ في ضلالِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى لو عَلِمَ فيه خيرًا لَأسْمَعه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الرَّدُّ على القَدَريَّةِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ القَدَريَّةَ يَقولونَ: إنَّ أفعالَ العِبادِ ليست مَخلوقةً للهِ سُبحانَه وتعالى، ولا عَلاقةَ للهِ بها! لكِنَّ الآيةَ تدُلُّ على أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى هو الَّذي يُضِلُّهم[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أنَّ الشَّارِعَ يَذكُرُ العِلَلَ والأوصافَ المؤَثِّرةَ والمعانيَ المُعتبَرةَ في الأحكامِ القَدَريَّةِ والشَّرعيَّةِ والجزائيَّةِ؛ لِيَدُلَّ بذلك على تَعلُّقِ الحُكمِ بها أين وُجِدَتْ، واقتِضائِها لأحكامِها، وعَدَمِ تَخَلُّفِها عنها إلَّا لِمانعٍ يُعارِضُ اقتِضاءَها، ويُوجِبُ تَخَلُّفَ أثَرِها عنها[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أنَّ الفَرَحَ بغيرِ الحقِّ سببٌ للعذابِ والإضلالِ[٤]، وأنَّ الفَرَحَ بالحقِّ محمودٌ، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، فالفرحُ بالحقِّ محمودٌ، والفرحُ بغيرِ الحقِّ مذمومٌ، والفرحُ بما ليس حقًّا ولا باطلًا ليس محمودًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٩٥).

ولا مذمومًا؛ لأنَّه مِن اللَّغْوِ، ولكنَّ عبادَ الرَّحمنِ إذا مَرُّوا باللَّغوِ مَرُّوا كِرامًا[١].

٧- في قَولِ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أنَّ الأسبابَ تَتوارَدُ، بمعنى أنَّه قد يَرِدُ على الشَّيءِ سَببانِ؛ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾، والمَرَحُ أشدُّ الفَرَحِ، وهكذا الأسبابُ الشَّرعيَّةُ تتوارَدُ، بمعنى أنَّه قد يكونُ في الإنسانِ سَبَبانِ، كلُّ واحِدٍ منهما يُوجِبُ الحُكمَ، فإذا اجتَمَعا صار كُلُّ واحِدٍ يقَوِّي الآخَرَ[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ للتَّعجيبِ مِن حالِ انصِرافِهم عن الإيمانِ، بعدَ تلك الدَّلائلِ البَيِّنةِ[٣]، وتمهيدٌ لما يعقُبُه مِن بيانِ تكذيبِهم بكلِّ القُرآنِ وبسائرِ الكتبِ والشرائعِ، وترتيبُ الوعيدِ على ذلكَ[٤].

وسَجَّلَ على جَهالَتِهم وصَرْفِهم عن الطَّريقِ الحقِّ، مع قِيامِ تلك الحُجَجِ القاطِعةِ والبَراهينِ السَّاطِعةِ بقولِه: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾[٥].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ المُجادَلةِ وتَكرُّرِها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٩٧).

ثمَّ ذكَر أنَّه إذا اجتَمَع سببانِ، واختَلف موجَبُهما؛ أخَذْنا بموجَبِ كلٍّ منهما ما لم يكُنْ أحدُهما أقوَى، فيُؤخَذُ بالأقوَى، فالرَّجلُ إذا ماتَتْ زوجتُه، وكانتْ ابنةَ عمِّه اجتمَع في حقِّه النِّصفُ فرضًا، والباقي تعصيبًا، فيرِثُ بالفرضِ والتَّعصيبِ مع توفُّرِ الشُّروطِ. يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٣).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٤٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٤).

- وتكريرُ ذمِّ المُجادَلةِ لِتَعدُّدِ المجادِلِ -بأن يكونَ المجادِلُ هناك قومًا، وهنا قومًا آخرينَ-، أو المجادَلِ فيه -بأنْ يُحمَلَ في كلٍّ على معنًى مناسبٍ؛ ففيما مرَّ في البعثِ وهنا في التَّوحيدِ-، أو هو للتأكيدِ؛ اهتمامًا بشأنِ ذلك[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴾ مُستعمَلٌ في التَّقريرِ، وهو مَنْفيٌّ لَفظًا، والمرادُ به التَّقريرُ على الإثباتِ، و(أنَّى) بمعنى (كيف)، وهي مُستعمَلةٌ في التَّعجيبِ، أي: أرأيتَ عَجيبَ انصِرافِهم عن التَّصديقِ بالقُرآنِ بصارفٍ غيرِ بَيِّنٍ مَنْشَؤه؟! ولذلك بُنيَ فِعلُ (يُصرَفون) للنَّائبِ؛ لأنَّ سَببَ صَرْفِهم عن الآياتِ ليس غيرَ أنفُسِهم، ويجوزُ أنْ تكونَ (أنَّى) بمعنى (أين)، أي: ألَا تَعجَبُ مِن أين يَصرِفُهم صارفٌ عن الإيمانِ حتَّى جادَلوا في آياتِ اللهِ، مع أنَّ شُبَهَ انصِرافِهم عن الإيمانِ مُنتفيةٌ بما تَكرَّرَ مِن دَلائلِ الآفاقِ وأنفُسِهم، وبما شاهَدوا مِن عاقبةِ الَّذين جادَلوا في آياتِ اللهِ ممَّن سبَقَهم؟! وهذا كما يقولُ المُتعجِّبُ مِن فِعلِ أحدٍ: أين يُذهَبُ بك؟! وبِناءُ فِعلِ ﴿يُصۡرَفُونَ ﴾ للمَجهولِ على هذا الوجْهِ للتَّعجيبِ مِن الصَّارفِ الذي يَصرِفُهم، وهو غيرُ كائنٍ في مَكانٍ غيرِ نُفوسِهم[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾

- وُصِلَ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ ﴾ بالتَّكذيبِ دُونَ المُجادَلةِ؛ لأنَّ المُعتادَ وُقوعُ المُجادَلةِ في بَعضِ الموادِّ لا في الكُلِّ. وصِيغةُ الماضي ﴿كَذَّبُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٠، ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٤).

- وعَطْفُ قوله: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ على أصْلِ العطْفِ مُقتضيًا المُغايَرةَ؛ فيَكونَ المرادُ: كذَّبوا بما أرسَلْنا به رُسُلَنا مِن الكُتبِ قبْلَ نُزولِ القرآنِ، فيَكونَ تَكذيبُهم ما أُرسِلَت به الرُّسلُ مُرادًا به تَكذيبُهم جميعَ الأديانِ. ويَحتمِلُ أنَّه أُرِيدَ به التَّكذيبُ بالبَعثِ؛ فلعلَّهم لَمَّا جاءَهُم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإثباتِ البَعثِ سَأَلوا عنه أهلَ الكِتابِ، فأثْبَتوه، فأنكَرَ المشْرِكون جميعَ الشَّرائعِ لذلك. ويجوزُ أنْ يكونَ عطْفَ مُرادفٍ، فائدتُه التَّوكيدُ، والمرادُ بـ﴿رُسُلَنَا﴾ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

- وتَفرَّعَ على تَكذيبِهم وَعيدُهم بما سَيَلْقَونَه يومَ القِيامةِ، فقيل: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: سوفَ يَجِدونَ العذابَ الَّذي كانوا يُجادِلونَ فيه فيَعلَمونه، وعُبِّر عن وِجْدانِهم العذابَ بالعِلمِ به بمُناسَبةِ استِمرارِهم على جَهْلِهم بالبعثِ، وتَظاهُرِهم بعَدمِ فَهمِ ما يقولُه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فأُنْذِروا بأنَّ ما جَهِلوه سيَتحقَّقونَه يومَئذٍ[2].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾؛ لِدَلالةِ ﴿كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ عليه، أي: يَتحقَّقون ما كذَّبوا به[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ * فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ (إذ) ظَرْفٌ لـ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، وهو ظَرْفٌ لِما مَضَى؛ فلا يَعمَلُ فيه المستقبلُ، فلا يصِحُّ أنْ يُقالَ: سأقومُ أمْسِ. ولَمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٠١، ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٠٢).

كان وُقوعُ معنى الجُملةِ سيَقَعُ في الآخِرةِ على الاستِقبالِ؛ كان استخدامُ (إذ) الدَّالَّةِ على الماضِي للدَّلالةِ على تَيقُّنِ حُدوثِه؛ لأنَّه لَمَّا كانتِ الأمورُ المُستقبَلةُ في أخبارِ اللهِ تعالى مُتيَقَّنةً مَقطوعًا بها؛ عُبِّرَ عنها بلَفظِ ما كان ووُجِدَ، والمعنى على الاستِقبالِ[1].

- و(ثُمَّ) عاطفةٌ جملةَ ﴿فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ على جُملةِ ﴿يُسۡحَبُونَ * فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾، وشأْنُ (ثُمَّ) إذا عطَفَت الجُمَلَ أنْ تكونَ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ وذلك أنَّ احتِراقَهم بالنَّارِ أشدُّ في تَعذيبِهم مِن سَحْبِهم على النَّارِ؛ فهو ارتِقاءٌ في وَصْفِ التَّعذيبِ الَّذي أُجمِلَ بقولِه: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، والسَّجرُ بالنَّارِ حاصلٌ عقِبَ السَّحبِ، سواءٌ أكان بتَراخٍ أمْ بدونِه[2].

- قولُه: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ السَّجرُ: مَلْءُ التَّنُّورِ بالوقودِ؛ لِتَقويةِ النَّارِ فيه، وهذا يُفيدُ أنَّهم في النَّارِ، فهي مُحيطةٌ بهم، وهم مَسْجورون بالنَّارِ مَملوءةٌ بها أجوافُهم، والمرادُ أنَّهم يُعذَّبون بأنواعٍ مِن العذابِ، ويُنقَلون مِن بعضِها إلى بعضٍ. وإسنادُ فِعلِ ﴿يُسۡجَرُونَ﴾ إلى ضَميرِهم أُرِيدَ به المبالَغةُ في تَعلُّقِ السَّجْرِ بهم[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـًٔاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ (ثُمَّ) هذه للتَّراخي الرُّتبيِّ لا مَحالةَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٣).

لأنَّ هذا القولَ يُقالُ لهم قبْلَ دُخولِ النَّارِ؛ بدَليلِ أنَّ ممَّا وقَعَ في آخرِ القَولِ: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، ودُخولُ أبوابِ جهنَّمَ قبْلَ السَّحبِ في حَميمِها والسَّجرِ في نارِها. وهذا القيلُ ارتِقاءٌ في تَقريعِهم وتَوبيخِهم، وإعلانِ خَطَلِ[1] آرائِهم بيْنَ أهْلِ المحشَرِ، وهو أشدُّ على النَّفْسِ مِن ألَمِ الجسْمِ، ولأنَّ هذا القولَ مُقدِّمةٌ لِتَسليطِ العذابِ عليهم؛ لاشتِمالِه على بَيانِ سَببِ العذابِ؛ مِن عِبادةِ الأصنامِ، وازْدهائِهم في الأرضِ بكُفْرِهم ومَرَحِهم، وهو أيضًا ارتِقاءٌ في وَصفِ أحوالِهم الدَّالَّةِ على نكالِهم؛ إذ ارْتَقى مِن صِفةِ جَزائِهم على إشْراكِهم -وهو شَيءٌ غيرُ مُستغرَبٍ تَرتُّبُه على الشِّركِ- إلى وَصفِ تَحقيرِهم آلهتَهم الَّتي كانوا يَعبُدونها، وذلك غَريبٌ مِن أحوالِهم وأشدُّ دَلالةً على بُطلانِ إلهيَّةِ أصْنامِهم، وهو المَقصدُ المهمُّ مِن القَوارِعِ الَّتي سُلِّطَت عليهم في هذه السُّورةِ[2].

- وصِيغَ ﴿قِيلَ﴾ بصِيغةِ المُضِيِّ؛ لأنَّه مُحقَّقُ الوُقوعِ، فكأنَّه وقَعَ ومَضَى[3].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ على الغَلَطِ والفضيحةِ في الموقفِ؛ فإنَّهم كانوا يَزْعُمون أنَّهم يَعبُدون الأصنامَ لِيَكونوا شُفعاءَ لهم مِن غضَبِ اللهِ، فلمَّا حَقَّ عليهم العذابُ، فلمْ يَجِدوا شُفعاءَ؛ ذُكِّروا بما كانوا يَزْعُمونه، فقِيل لهم: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فابْتَدَروا بالجوابِ قبْلَ انتِهاءِ المقالةِ؛ طَمَعًا في أنْ يَنفَعَهم الاعتذارُ؛ فجُملةُ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ مُعترِضةٌ في أثناءِ القولِ الَّذي قِيل لهم. ومعنى

(١) أي: فَسادِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿ضَلُّواْ﴾: غابوا، أي: غُيِّبنا في التُّرابِ، ثمَّ عرَضَ لهم فعَلِموا أنَّ الأصنامَ لا تُفيدُهم، فأضْرَبوا عن قَولِهم: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾، وقالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾، أي: لم نكُنْ في الدُّنيا نَدْعو شيئًا يُغْني عنَّا، فنَفْيُ دُعاءِ شَيءٍ هنا راجعٌ إلى نَفْيِ دُعاءِ شَيءٍ يُعتَدُّ به[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وصِيغَ الفِعلانِ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ﴾ بصِيغةِ المُضِيِّ؛ لأنَّه مُحقَّقُ الوُقوعِ، فكأنَّه وقَعَ ومَضَى[2].

- وجُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تَذييلٌ مُعترِضٌ بيْنَ أجزاءِ القَولِ الَّذي يُقالُ لهم، ومعنى الإشارةِ تَعجيبٌ مِن ضَلالِهم، أي: مِثلَ ضَلالِهم ذلك يُضِلُّ اللهُ الكافرينَ. والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يُفيدُ تَشبيهَ إضلالِ جَميعِ الكافرينَ بإضلالِه هؤلاء الَّذين يُجادِلون في آياتِ اللهِ؛ فتكونُ جُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تَذييلًا، أي: مِثلَ إضلالِ الَّذين يُجادِلون في آياتِ اللهِ يُضِلُّ اللهُ جميعَ الكافرينَ؛ فيكونُ إضلالُ هؤلاء الَّذين يُجادِلون مُشبَّهًا به إضلالُ الكافرينَ كلِّهم، والتَّشبيهُ كِنايةٌ عن كَونِ إضلالِ الَّذين يُجادِلون في آياتِ اللهِ بلَغَ قُوَّةَ نَوعِه، بحيثُ يُنظَّرُ به كلُّ ما خَفِيَ مِن أصنافِ الضَّلالِ، وهو كِنايةٌ عن كَونِ مُجادَلةِ هؤلاء في آياتِ اللهِ أشَدَّ الكفْرِ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ فيه العُدولُ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ للمُبالَغةِ في التَّوبيخِ، أي: هذا بما كُنتُم تُظهِرون

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٥).

في الدُّنيا مِن السُّرورِ بالمعاصي، وكثْرةِ المالِ والأتْباعِ، والصِّحَّةِ[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾

- جُملةُ ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّهم لَمَّا سَمِعوا التَّقريعَ والتَّوبيخَ، وأيْقَنوا بانتِفاءِ الشَّفيعِ؛ تَرقَّبوا ماذا سيُؤمَرُ به في حقِّهم؟ فقِيل لهم: ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾. ويجوزُ أنْ تكونَ بدَلَ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾؛ فإنَّ مَدلولَ اسمِ الإشارةِ العذابُ المُشاهَدُ لهمْ، وهو يَشتمِلُ على إدْخالِهم أبوابَ جهنَّمَ والخُلودِ فيها، ودُخولُ الأبوابِ كِنايةٌ عن الكَونِ في جهنَّمَ؛ لأنَّ الأبوابَ إنَّما جُعِلَت لِيُسلَكَ منها إلى البَيتِ ونحْوِه[٢].

- والمخصوصُ بالذَّمِّ في قولِه: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ مَحذوفٌ؛ لأنَّه يدُلُّ عليه ذِكرُ جَهنَّمَ، أي: فبِئسَ مَثوى المتكبِّرينَ جهنَّمُ. وأُوثِرَ لَفظُ ﴿مَثۡوَى ﴾ دونَ (مَدخَل) المُناسِبِ ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ ﴾؛ لأنَّ المَثْوى أدَلُّ على الخُلودِ؛ فهو أَولى بمَساءتِهم[٣].

- والمرادُ بالمتكبِّرينَ في قولِه: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ المُخاطَبونَ ابتِداءً؛ لأنَّهم جادَلوا في آياتِ اللهِ عن كِبْرٍ في صُدورِهم، ولأنَّ تَكبُّرَهم مِن فَرَحِهم، وإنَّما عُدِلَ عن ضَميرِهم إلى الاسمِ الظَّاهرِ -﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾-؛

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥١٩).

للإشارةِ إلى أنَّ مِن أسبابِ وُقوعِهم في النَّارِ تَكبُّرَهم على الرُّسلِ، ولِيَكونَ لكلِّ مَوصوفٍ بالكِبْرِ حظٌّ مِنِ استِحقاقِ العِقابِ إذا لم يَتُبْ ولم تَغلِبْ حَسناتُه على سَيِّئاتِه إنْ كان مِن أهلِ الإيمانِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٧).

الآيات (٧٧-٨١)

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾: أي: الذين جادَلوا بالباطِلِ، والباطِلُ: نَقيضُ الحَقِّ، وهو ما لا ثَباتَ له عِندَ الفَحصِ عنه، وأصلُ (بطل): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ، وقِلَّةِ مُكثِه[1].

﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾: السُّفنِ، وواحِدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ الفلكِ: الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالَى مُوصيًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصَّبرِ: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- على أذى الكُفَّارِ؛ إنَّ وَعدَ اللهِ حَقٌّ، وهو مُنجِزٌ لك ما وعَدَك؛ فإنْ نُرِكَ بَعضَ العَذابِ الذي نَعِدُ به أولئك الكُفَّارَ في الدُّنيا، ونُعجِّلْ به في حَياتِك؛ أو نُمِتْكَ قبْلَ أنْ يَحُلَّ بهم ذلك: فإلينا يُرجَعونَ، فنُجازيهم.

ثمَّ يقولُ تعالَى مُسلِّيًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ولقدْ أرسَلْنا -يا مُحمَّدُ-

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص:١٢٩، ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

في الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلًا مِن قَبلِك، مِنهم مَن قصَصْناهم عليك، ومِنهم مَن لم نَقصُصْ عليك أخبارَهم، وليس لِرَسولٍ أنْ يَأتيَ النَّاسَ بآيةٍ إلَّا بأمْرِ اللهِ، فإذا جاء أمرُ اللهِ بالفَصلِ بيْنَ الرُّسُلِ وأقوامِهم قَضى اللهُ بيْنهم بالعَدلِ، وخَسِرَ عِندَ ذلك المُشرِكونَ المتَّبِعونَ للباطِلِ.

ثمَّ يقولُ تعالَى مُمتَنًّا على عِبادِه: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي خَلَق لكم الأنعامَ، فتَركَبونَ بَعضًا منها، وتَأكُلونَ بَعضًا، ولكمْ فيها مَنافِعُ أُخرى، ولِتُسافِروا عليها إلى أماكِنَ بَعيدةٍ تُريدونَها، وعلى تِلك الأنعامِ وعلى السُّفُنِ تَركَبونَ، ويُريكم اللهُ آياتِه الدَّالَّةَ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه؛ فأيَّ آياتِه سُبحانَه تُنكِرونَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا تكَلَّم مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هذا الموضِعِ في تَزييفِ طَريقةِ المجادِلينَ في آياتِ اللهِ؛ أمَرَ في هذه الآيةِ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَصبِرَ على إيذائِهم وإيحاشِهم بتلك المجادَلاتِ[1].

وأيضًا فقدْ كان فيما سَبَق مِن السُّورةِ ما فيه تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم على ما تلَقَّاه به المُشرِكونَ مِن الإساءةِ والتَّصميمِ على الإعراضِ، ابتِداءً مِن قَولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، ثمَّ قَولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [غافر: ٢١]، ثمَّ قَولِه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، ثُمَّ قَولِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٣).

وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥] الآيةَ؛ ففرَّع هنا على جَميعِ ما سَبَق وما تخَلَّله مِن تَصريحٍ وتَعريضٍ: أنْ أمَرَ اللهُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصَّبرِ على ما يُلاقيه منهم(١).

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- على أذى الكُفَّارِ؛ فإنَّ اللهَ مُنجِزٌ -لا مَحالةَ- ما وعَدَك به مِن عُقوبةِ الكافِرينَ، ونَصْرِ المؤمِنينَ في الدُّنيا والآخِرةِ(٢).

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾.

أي: فإنْ نُرِكَ بَعضَ العَذابِ الذي نَعِدُ به الكُفَّارَ في الدُّنيا، ونُعجِّلْ به في حياتِك؛ أو نُمِتْك قَبْلَ أنْ يَحُلَّ بهم ذلك: فإلينا مَصيرُهم وعَلَيْنا حِسابُهم، فيَنالونَ حِينَها نَصيبَهم مِن عذابِ الآخِرةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

قولُه تعالَى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ أصْلُه: فإنْ نُرِك، و(ما) مَزيدةٌ لتأكيدِ معْنى الشَّرطِ؛ ولذلك أُلحِقَت النُّونُ بالفِعلِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩).

وقولُه تعالى: ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ قيل: هو جَوابُ الشَّرطِ ﴿نُرِيَنَّكَ ﴾ والمعطوفِ عليه ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾، وهو ظاهِرُ اختيارِ مُقاتلِ بنِ سُليمانَ، وابنِ جَريرٍ، والسَّمرْقنديِّ، وابنِ أبي زَمَنِين، ومكِّيٍّ، والبغويِّ، والقرطبيِّ، والعُلَيميِّ، والشَّوكانيِّ، والقاسميِّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٠). =

كما قال تعالَى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبْلها:

لَمَّا انْقَضى تَفصيلُ الإبطالِ لِضَلالِهم بالأدلَّةِ البيِّنةِ، والتَّذكيرِ بالنِّعمةِ، والإنذارِ بالتَّرهيبِ والتَّرغيبِ، وضَرْبِ الأمْثالِ بأحوالِ الأُمَمِ المكذِّبةِ، ثمَّ بوَعْدِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ بالنَّصرِ، وتَحقيقِ الوعْدِ؛ أُعقِبَ ذلك بتَثبيتِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه ما كان شأْنُه إلَّا شأْنَ الرُّسلِ مِن قبْلِه؛ ألَّا يَأْتوا بالآياتِ مِن تِلْقاءِ أنفُسِهم ولا استِجابةً لِرَغائبِ مُعانِديهم[1].

= وقيل: جَوابُ الشَّرطِ لقولِه تعالَى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ مَحذوفٌ تَقديرُه: فذاك، أي: فذاك المرادُ، أو المطلوبُ، أو نحْوُ ذلك، وقيل: فذاكَ إلينا، وهو علينا هيِّنٌ، وممَّن قال بذلك في الجُملةِ: الزَّمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ جُزَيٍّ، وجَلال الدينِ المحلِّيُّ، والبقاعيُّ، وأبو السعودِ، والألوسيُّ، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٩).

وقال ابنُ جُزَيٍّ: (وجَوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ، تَقديرُه: إنْ أَرَيْناك بعضَ الذي نَعِدُهم مِن العذابِ قرَّت عيْنُك بذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٠).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾.

أي: ولقدْ أرسَلْنا -يا مُحمَّدُ- إلى الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلًا مِن قَبْلِك يَدْعونَهم إلى اللهِ تعالَى[(١)].

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

أي: مِن أُولئك الرُّسُلِ مَن أَنْبأناكَ بقَصَصِهم وأخْبارِهم، ومِنهم مَن لم نُنَبِّئْك بقَصَصِهم ولا أخْبارِهم[(٢)].

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وليس لأيِّ رَسولٍ مِن رُسُلِ اللهِ أنْ يَأتيَ النَّاسَ بآيةٍ تَدُلُّ على صِدقِه وصِحَّةِ ما جاء به مِن الحَقِّ إلَّا بأمرِ اللهِ تعالَى ومَشيئتِه[(٣)].

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي فإذا جاء الوَقتُ المحَدَّدُ للفَصلِ بيْنَ الرُّسُلِ وأقوامِهم، قَضى اللهُ بيْنهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٧- ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨، ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٢).

بالعَدلِ[(١)].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

أي: وهَلَك عندَ ذلك المُشرِكونَ المُتَّبِعونَ للباطِلِ؛ فما رَبِحَت تجارتُهم[(٢)].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بأمْرِ اللهِ: القِيامةُ: السمعاني، والزمخشري، والرازي، والرَّسْعني، والنَّسَفي، والثعالبي، والشِّنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٣)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٣٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٥).

وقال مكِّيٌّ، والواحديُّ، والبَغويُّ، وابنُ الجوزيِّ، والخازنُ، والسعديُّ: أمْرُ اللهِ: هو قضاؤُه بيْنَ الأنبياءِ وأُممِهم. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به: العذاب: السَّمرقنديُّ، والقرطبيُّ، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٨).

وذكَرَ البيضاويُّ والشَّوكانيُّ أنَّه العذابُ في الدُّنيا أو الآخِرة. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥).

وخصَّ مقاتلُ بنُ سليمان هذا العذابَ بالقتلِ ببدرٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٢).

قال البقاعي: (و«أمرُه» ما توعَّد به مِن العذابِ عندَ العنادِ بعدَ الإجابةِ إلى المقترحِ، ومِن القيامةِ وما فيها). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٢١).

وقال ابنُ عطيةَ: (قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا أراد الله إرسالَ رَسولٍ وبَعثةَ نبيٍّ، قضَى ذلك وأنفذَه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هو انتِقالٌ مِن الامتِنانِ على النَّاسِ بما سُخِّرَ لأجْلِهم مِن نِظامِ العوالمِ العُلْيا والسُّفلَى، وبما منَحَهم مِن الإيجادِ، وما في ذلك مِن الألْطافِ بهم، وما أُدمِجَ فيه مِن الاستِدلالِ على انفِرادِه تعالَى بالتَّصرُّفِ، فكيْف يَنصرِفُ عن عِبادتِه الذين أشْرَكوا به آلهةً أُخرى؟! إلى الامتِنانِ بما سُخِّرَ لهم مِن الأنعامِ لِمَنافِعِهم[1].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

أي: اللهُ المُستَحِقُّ وَحْدَه للعِبادةِ هو الذي خَلَق لكم[2] الأنعامَ؛ فمِنها تَركَبونَ، ومنها تَأكُلونَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤).

(٢) هذه الآية امتِنانٌ مِن اللهِ على العِبادِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤).

وجعَل ابنُ جريرٍ الخِطابَ هنا لِمُشركي قُرَيشٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٦).

قيل: (مِن) في قَولِه تعالى: ﴿مِنْهَا﴾ في كِلا الموضعينِ: للتبعيض، والمعنى: تَرْكبونَ بَعضًا منها، وتأكُلونَ بَعضًا. وممَّن قال بهذا: ابنُ جَريرٍ، ورجَّحه الشَّوكانيُّ، وذهَب إليه ابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٣٥).

قال الشَّوكانيُّ: (﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾ «مِنْ»: للتَّبعيضِ، وكذلك في قَولِه: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، ويجوزُ أن تكونَ لابتداءِ الغايةِ في الموضعَينِ، ومعناها: ابتداءُ الرُّكوب وابتداءُ الأكلِ، والأوَّلُ أَوْلى، والمعنى: لِتَركبوا بَعضَها وتأكُلوا بَعضَها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥).

وقيل: ﴿مِنْهَا﴾ الأُولى للتَّبعيضِ؛ لأنَّ المركوبَ ليس كُلَّ الأنعامِ، بل الإبِلُ خاصَّةً. وَ﴿مِنْهَا﴾ الثَّانيةُ لِبَيانِ الجِنسِ؛ لأنَّ الجميعَ منها يُؤكَل. وممَّن قال بهذا: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧١). =

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾.

أي: ولكمْ في الأنعامِ مَنافِعُ؛ فتَتَّخِذونَ منها لِباسًا وأثاثًا، وتَنتَفِعونَ بنَسْلِها والحِراثةِ بها... وغَيرِ ذلك مِنَ المنافِعِ[1].

= وذهَب أبو حيَّانَ إلى أنَّ الأُولى للتَّبعيضِ، وأنَّه يجوزُ أن تكونَ الثَّانيةُ للتَّبعيضِ ولابتداءِ الغايةِ، وأنَّه لا يَظهَرُ كَونُها لبيانِ الجنسِ، خِلافًا لابنِ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٥).

وقال البيضاويُّ: (مِن جِنسِها ما يُؤكَلُ كالغَنَمِ، ومنها ما يُؤكَلُ ويُركَبُ كالإبِلِ والبَقَرِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤).

وقيل: المرادُ بالأنعامِ هنا: الإبِلُ والبقَرُ والغَنَمُ. وممَّن ذهَب إلى هذا: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ كثير، إلَّا أنَّ مُقاتِلًا ذهَب إلى أنَّ التي تُركَبُ هي الإبِلُ والبَقَرُ، والتي تُؤكَلُ منها هي الغنَمُ، وذهَب ابنُ كثير إلى أنَّ التي تُركَبُ هي الإبِلُ، والتي تُؤكَلُ هي البَقَرُ والغَنَمُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩).

وقيل: المرادُ بالأنعامِ: الإبِلُ خاصَّةً. وممَّن ذهَب إلى هذا: الزجَّاج، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤).

قال السَّمعاني: (قال أهلُ التَّفسيرِ: الأنعامُ: هي الإبلُ والبَقَرُ والغَنَمُ في اللُّغةِ، إلَّا أنَّها الإبِلُ خاصَّةً في هذه الآيةِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣).

وقال ابنُ عاشور: (أُريد بالركوبِ هنا الركوبُ للراحةِ مِن تعَبِ الرِّجلينِ في الحاجةِ القريبةِ؛ بقرينةِ مقابلتِه بقولِه: ﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤، ٢١٥).

وقيل: المرادُ: الإبِلُ والبَقَرُ والغَنَمُ والخَيلُ، وغيرُ ذلك من البهائِمِ التي يَقتنيها أهلُ الإسلامِ لِمَركبٍ أو لِمَطعمٍ. وممَّن ذهَب إلى هذا العُمومِ: ابن جرير، واستظْهَره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٣٤).

قال ابنُ عثيمين: (الظَّاهِرُ ما هو أعَمُّ مِن ذلك، وهو ما أنعَمَ اللهُ به علينا من الحيوانِ الذي سَخَّرَه لنا؛ مِن إبِلٍ وبقَرٍ، وغنَمٍ وفِيَلةٍ، وغَيرِها، وكُلِّ شَيءٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالَى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٥ - ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٣].

﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾.

أي: ولِتُسافِروا عليها إلى أماكِنَ بَعيدةٍ مِمَّا في صُدورِكم حاجةٌ للوُصولِ إليها(١).

كما قال تعالَى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧].

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

أي: وعلَى الأنعامِ في البَرِّ، وعلى السُّفُنِ في البَحرِ تَركَبونَ، وتَحمِلونَ مَتاعَكم(٢).

كما قال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣].

= (٧/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٥، ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

أي: ويُريكم اللهُ آياتِه الدَّالَّةَ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه وغيرِ ذلك مِن صِفاتِه، فيُظهِرُها ويُجَلِّيها لكم[1].

﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾.

أي: فأيَّ آياتِ اللهِ تَقدِرونَ على إنكارِها وعَدَمِ الاعترافِ بها، حتى يحِقَّ لكم اتِّباعُ الباطِلِ أو المجادَلةُ في الحَقِّ مِن شأنِ التَّوحيدِ أو البَعثِ أو غيْرِهما؟! فقدْ تقرَّر عِندَكم أنَّ جَميعَ الآياتِ مِنَ اللهِ تعالى؛ فلمْ يَبْقَ مَجالٌ لإنكارِها أو الإعراضِ عنها إلَّا أنْ تُعانِدوا وتُكابِروا[2]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ فيه الامتِنانُ بما سَخَّرَ اللهُ تعالَى لهم مِنَ الأنعامِ؛ لِمَنافِعِهم الجَمَّةِ خاصَّةً وعامَّةً، وفائِدةُ هذا الامتِنانِ: تَقريبُ نُفوسِهم مِنَ التَّوحيدِ؛ لأنَّ شَأنَ أهلِ المروءةِ: الاستِحياءُ مِن المُنعِمِ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لا بأسَ أنْ نَفْرَحَ إذا أصابَ اللهُ عَدوَّنا بمُصيبةٍ؛ لأنَّ الظَّاهرَ أنَّ قولَه تعالَى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤).

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ لأجْلِ أنْ تَقَرَّ عيْنُه بذلك، فإذا أُصيبُ أعداؤُنا بخسْفٍ، أو صَواعقَ، أو فَيضاناتٍ، أو ما أشبهَ ذلك، وفَرِحْنا بهذا؛ فلا لَوْمَ علينا لأنَّهم أعداؤُنا، ويَفرَحونَ بما يُصيبُنا؛ فالجزاءُ مِن جِنسِ العَملِ[(١)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ استنبَط منه بعضُ أهلِ العِلمِ أنَّ كلَّ مَن قَصَّه اللهُ في القرآنِ فهو رَسولٌ، وإنْ كان لم يَرِدْ ذِكْرُه إلَّا بلفْظِ النُّبُوَّةِ، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ إلى أنْ قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣- ١٦٥]، وأوَّلُ الرُّسلِ نوحٌ عليه السَّلامُ، وآخِرُهم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأفاد قولُه تعالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أنَّه ليس كلُّ الرُّسُلِ قدْ عَلِمْناهم[(٢)].

٣- في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تَسليةُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّ الكُفَّارَ يَطلُبون منه آياتٍ، ولكنَّ اللهَ تعالَى يقولُ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، يُسَلِّي الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وأنَّ هذا الأمرَ ليْس إليك؛ بلْ هو إلى اللهِ، إذا شاء أنْ يُؤتيَك آيةً آتاكَ، وإلَّا فهو الحكيمُ[(٣)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إثباتُ الإذْنِ للهِ عزَّ وجَلَّ، والإذنُ نَوعانِ: إذْنٌ شَرعيٌّ، وإذْنٌ كَونيٌّ؛ فالإذْنُ الكَونيُّ: ما يَتَعَلَّقُ بالمَخلوقاتِ وإيجادِها وإعدامِها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٩)، ((مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين)) (١/ ٣١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٢٩).

وتَغييرِها وما أشْبَهَ هذا، والإذْنُ الشَّرعيُّ: ما يَتعَلَّقُ بالمَشروعاتِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] الإذنُ فيهُ شَرْعيٌّ، ولا يَصِحُّ أنْ يكونَ كَونيًّا؛ لأنَّنا نَعلَمُ أنَّه إذا فَعَلوه فقدْ أَذِنَ اللهُ فيه إذْنًا كَوْنيًّا، وقَولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] الإذنُ فيهُ شَرعيٌّ، أي: لم يَأْذَنْ به شَرعًا، ولا يجوزُ أنْ يكونَ إذْنًا كَونيًّا؛ لأنَّه وقَعَ، فقدْ أذِنَ اللهُ تعالَى فيما شَرَعَ هؤلاء إذْنًا كَونيًّا، وقال اللهُ تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] الشَّفاعةُ تُطلَبُ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ: أنْ يُخَفِّفَ العَذابَ عن شَخصٍ أو ما أشْبهَ ذلك، أو يَرفَعَ دَرَجاتِه، وهذا إذْنٌ كَوْنيٌّ لا شَكَّ[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فيه إثباتُ أفعالِ اللهِ الاختياريَّةِ، يعني: أنَّ اللهَ تعالى قدْ يُحدِثُ مِن أمْرِه ما شاء، و«إذا» هنا شَرطِيَّةٌ للمُستقبَلِ؛ إذَنِ الأمرُ لم يَأتِ بَعدُ، وهذا يدُلُّ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى مُتَّصِفٌ بالأفعالِ الاختياريَّةِ، خِلافًا للأشاعِرةِ ونَحوِهم؛ الذين قالوا: إنَّ اللهَ تعالَى لا يُوصَفُ بالأفعالِ الاختياريَّةِ[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ فيه أنَّ ما قَضَى اللهُ مِن عِقابٍ أو عَذابٍ فإنَّه حقٌّ؛ وعلى هذا فيَنْتفي بذلك أنْ يكونَ اللهُ تعالَى ظالِمًا لِمَن عاقَبَه، فإنْ قال قائلٌ: أليْستِ العقوبةُ تَنْزِلُ بالأُمَّةِ وفيهمُ الصَّالحون؟

فالجوابُ: بلَى، تَنْزِلُ العقوبةُ على الأُمَّةِ وفيهم الصَّالحون؛ لكنَّها تكونُ عُقوبةً على المسيءِ، ورِفْعَةَ درَجاتٍ وتَكفيرَ سيِّئاتٍ على الصَّالحِ؛ ولهذا لَمَّا قالتْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٥٣٠).

إحْدى أُمهاتِ المؤمنِينَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أَنَهْلِكُ وفينا الصَّالحونَ؟ قال: نعمْ؛ إذا كَثُرَ الخَبَثُ[١]))[٢]، فإذا غَلَبَ الخَبَثُ على الطَّيِّبِ حَلَّتِ العقوبةُ بالجميعِ[٣].

٧- في قولِه تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أنَّ الأصلَ جَوازُ كلِّ ما يُنتفَعُ به مِن وُجوهِ الانتِفاعِ في هذه الأنعام، وبِناءً على ذلك يَجوزُ أنْ يُركَبَ ما لا يُركَبُ عادةً إذا لم يَشُقَّ عليه؛ لأنَّ ذلك مِن المنافِعِ، فإنْ شَقَّ عليها كان مَمنوعًا؛ لأنَّ إيذاءَ الحيوانِ مُحَرَّمٌ[٤].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ نِعمةُ اللهِ سُبحانَه وتعالَى على عِبادِه بأنْ يُرِيَهم الآياتِ الدَّالَّةَ عليه، ولو شاء اللهُ تعالَى لَأخفَى عنَّا ذلك، ووَكَلَنا إلى ما في نُفوسِنا وفِطَرِنا، ولكِنْ مِن رَحمتِه أنَّه يُظهِرُ الآياتِ حتَّى يكونَ هذا عَونًا على ما في الفِطرةِ مِن مَعرفةِ آياتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ[٥].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ قدْ كان فيما سبَقَ مِن السُّورةِ ما فيه تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما تَلقَّاه به المشْرِكون مِن الإساءةِ

(١) الخَبَثُ أي: الفُسُوقُ والفُجورُ والمعاصي. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠) من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٣٦). ويُنظر أيضًا: ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٩/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٤٠).

والتَّصميم على الإعراضِ، ابتداءً مِن قولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، ثم قولِه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: ١٨]، ثم قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: ٢١]، ثم قولِه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، فلمَّا حصَلَ الوعدُ بالانتصافِ مِن مُكذِّبي النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الدُّنيا والآخِرةِ، أعقَبَ بقولِه: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾؛ فإنَّ مُناسَبةَ الأمْرِ بالصَّبرِ عقِبَ ذلك أنْ يكونَ تَعريضًا بالانتصارِ له؛ ولذلك فُرِّعَ على الأمْرِ بالصَّبرِ الشَّرطُ المردَّدُ بيْنَ أنْ يُريَه بعْضَ ما تَوعَّدَهم اللهُ به وبيْن ألَّا يَراهُ؛ فإنَّ جَوابَ الشَّرطِ حاصلٌ على كِلْتا الحالتَين، وهو مَضمونُ ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾، أي: أنَّهمْ غَيْرُ مُفْلِتينَ مِن العِقابِ[(١)].

- وجُملةُ ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ جَوابٌ للشَّرطِ الثَّاني، وهو ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وجَوابُ الشَّرطِ الأوَّلِ مَحذوفٌ -وذلك على قولٍ-، والتَّقديرُ: فإمَّا نُرينَّك بعضَ الذي نَعِدُهم مِن العذابِ -وهو القَتْلُ والأسْرُ يومَ بدْرٍ- فذاك، أو أنْ نَتوفَّينَّك قبْلَ يومِ بدْرٍ، فإلينا يُرْجَعون يومَ القِيامةِ، فنَنتقِمُ منهم أشدَّ الانتقامِ، وإنَّما حُذِفَ جَوابُ الأوَّلِ دونَ الثَّاني؛ لأنَّ الأوَّلَ إنْ وقَعَ فذاك غايةُ الأمَلِ في إنْكائِهم؛ فالثَّابتُ على تَقديرِ وُقوعِه مَعلومٌ، وهو حُصولُ المرادِ على التَّمامِ، وأمَّا إنْ لم يقَعْ ووَقَعَ الثَّاني -وهو تَوفِّيه قبْلَ حُلولِ المجازاةِ بهم- فهذا هو الذي يَحتاجُ إلى ذِكرِه للتَّسليةِ، وتَطمينِ النَّفْسِ، على أنَّه وإنْ تَأخَّرَ جَزاؤُهم عن الدُّنيا فهو حَتْمٌ في الآخِرةِ، ولا بُدَّ منه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - الحاشية)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير =

- وللتَّأكيدِ بـ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ مَوقعُه؛ وذلك أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ استَبْطؤوا النَّصرَ، كما قال تعالَى: ﴿وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فنُزِّلوا مَنزلةَ المتردِّدِ فيه، فأكَّدَ وعْدَه بحَرْفِ التَّوكيدِ[١].

- قولُه: ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ فيه تَقديمُ المجرورِ ﴿فَإِلَيۡنَا﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ، وللاهتمامِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ نَظيرُ هذَين الشَّرطينِ اللَّذينِ في قولِه: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ في سُورةِ (يُونسَ)، إلَّا أنَّ في سُورةِ (يُونسَ): ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ [يونس: ٤٦]، وهنا في سُورةِ (غافرٍ) ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]، والمخالفةُ بيْن الآيتَين تَفنُّنٌ، ولأنَّ ما في (يُونسَ) اقْتَضى تَهديدَهم بأنَّ اللهَ شَهيدٌ على ما يَفعَلون، أي: علَى ما يَفعَلُه الفريقانِ مِن قولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾ [يونس: ٤٢]، وقولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَ﴾ [يونس: ٤٣]؛ فكانتِ الفاصِلةُ حاصلةً بقولِه: ﴿عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]، وأمَّا هنا فالفاصلةُ مُعاقِبةٌ للشَّرطِ؛ فاقتَضَت صَوغَ الرُّجوعِ بصِيغةِ المضارعِ المختتَمِ بواوٍ ونونٍ، على أنَّ ﴿مَرۡجِعُهُمۡ﴾ [يونس: ٤٦] مُعرَّفٌ بالإضافةِ؛ فهو مُشعِرٌ بالمرجِعِ المعهودِ، وهو مَرجِعُهم في الآخِرةِ، بخِلافِ قولِه: ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ المشعِرِ برُجوعٍ مُتجدِّدٍ[٣].

= أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٠٩).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فيه تَثبيتُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه ما كان شأْنُه إلَّا شأْنَ الرُّسلِ مِن قبْلِه، وأنَّ الآياتِ عندَ اللهِ يُظهِرُ ما شاء منها بمُقْتضى إرادتِه الجاريةِ على وَفْقِ عِلْمِه وحِكمتِه؛ فالرُّسلُ لا يَأتون بها مِن تِلْقاءِ أنفُسِهم. وفي ذلك تَعريضٌ بالرَّدِّ على المجادِلين في آياتِ اللهِ، وتَنبيهٌ لهمْ على خَطأِ ظَنِّهم أنَّ الرُّسلَ تَنتصِبُ لِمُناقَشةِ المعانِدينَ؛ فالمقصودُ الأهمُّ مِن هذه الآيةِ هو قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ ...﴾ إلخ، فهو كمُقدِّمةٍ للمقصودِ؛ لِتأكيدِ العُمومِ مِن قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وهو معَ ذلك يُفيدُ بتَقديمِه معنًى مُستقِلًّا مِن رَدِّ مُجادَلتِهم؛ فإنَّهم كانوا يَقولونَ: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، فدُمِغَت مَزاعِمُهم بما هو مَعلومٌ بالتَّواتُرِ مِن تَكرُّرِ بَعثةِ الرُّسلِ في العُصورِ والأُمَمِ الكثيرةِ[(١)].

- وتَنكيرُ ﴿رُسُلًا﴾ مُفيدٌ للتَّعظيمِ والتَّكثيرِ، أي: أرْسَلْنا رُسلًا عدَدُهم كثيرٌ، وشأْنُهم عظيمٌ[(٢)].

- وعطْفُ ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ...﴾ بالواوِ دونَ الفاءِ يُفيدُ استقلالَ هذه الجُملةِ بنفْسِها؛ لِما فيها مِن معنًى عَظيمٍ حَقيقٍ بألَّا يكونَ تابعًا لِغَيرِه، ويُكْتفَى في الدَّلالةِ على ارتباطِ الجُملتَينِ بمَوقعِ إحداهما مِن الأُخرى[(٣)].

- والباءُ في ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ هي باءُ السَّببيَّةِ دخَلَتْ على مُسْتثنًى مِن أسبابٍ مَحذوفةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في الاستِثناءِ المفرَّغِ، أي: ما كان له أنْ يَأتِيَ بآيةٍ بسَببٍ مِن الأسبابِ إلَّا بسَببِ إذْنِ اللهِ تعالَى. وهذا إبطالٌ لِما يَتعنَّتون به مِن المُقترَحاتِ[١].

- قولُه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ في العُدولِ عن (إذْنِ اللهِ) إلى ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ تَعريضٌ بأنَّ ما سيُظْهِرُه اللهُ مِن الإذْنِ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هي آياتُ عِقابٍ لِمُعانِديه، كآيةِ الجُوعِ سَبْعَ سِنينَ حتى أكَلوا الميتةَ، وآيةِ السَّيفِ يَومَ بَدْرٍ إذ استأصَلَ صَناديدَ المكذِّبينَ مِن أهلِ مَكَّةَ. وفي إيثارِ ﴿قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالذِّكرِ دونَ غَيرِه، مِن نحْوِ: ظهَرَ الحقُّ، أو تبيَّنَ الصِّدقُ؛ تَرشيحٌ[٢] لِمَا في قولِه: ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ مِن التَّعريضِ بأنَّه أمرُ انتصافٍ مِن المكذِّبين؛ ولذلك عُطِفَ عليه ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، أي: خسِرَ الذين جادَلوا بالباطلِ؛ لِيُدْحِضوا به الحقَّ.[٣]

- قولُه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (هنالك) أصْلُه اسمُ إشارةٍ إلى المكانِ، وعُبِّرَ به هنا عن الإشارةِ إلى الزَّمانِ المعبَّرِ عنه بـ(إذا) في قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، وفي ذلك نُكتةٌ بَديعةٌ؛ وهي الإيماءُ إلى أنَّ المبطِلينَ مِن قُريشٍ ستَأْتيهم الآيةُ في مَكانٍ مِن الأرضِ، وهو مكانُ بَدْرٍ وغيرِه مِن مَواقعِ إعمالِ السَّيفِ فيهم؛ فكانتْ آياتُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حُجَّةً على مُعانِديه أقْوى مِن الآياتِ السَّماويةِ، نَحْوِ الصَّواعقِ أو الرِّيحِ، وعن الآياتِ الأرضيَّةِ، نَحْوِ الغرَقِ والخَسْفِ؛ لأنَّها كانتْ مع مُشاركتِهم ومُداخلتِهم حتَّى يَكونَ انْغلابُهم أقطَعَ لِحُجَّتِهم وأخْزى لهم، نَظيرَ آيةِ عَصا مُوسى مع عِصِيِّ السَّحرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٢).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٣، ٢١٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ختَمَ هذه الآيةَ هنا بقولَه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، وختَمَ السُّورةَ بقولِه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؛ ووَجْهُه أنَّ الأوَّلَ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾، ونَقيضُ الحقِّ الباطلُ، والثَّاني مُتَّصلٌ بإيمانٍ غيرِ نافعٍ، ونَقيضُ الإيمانِ الكُفْرُ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ امْتنَّ اللهُ تعالَى عليهم بما سخَّرَ لهم، وأُدمِجَ في الامتِنانِ استِدلالٌ على دَقيقِ الصُّنعِ وبَليغِ الحِكمةِ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: ٨١]، أي: في ذلك كلِّه[٢].

- اللَّامُ في ﴿لَكُمُ﴾ لامُ التَّعليلِ، أي: لأجْلِكم، وهو امتنانٌ مُجمَلٌ يَشمَلُ بالتَّأمُّلِ كلَّ ما في الإبلِ لهم مِن مَنافِعَ، وهم يَعلَمونها إذا تَذكَّروها وعَدُّوها، ثم فُصِّلَ ذلك الإجمالُ بعضَ التَّفصيلِ بذِكرِ المهمِّ مِن النِعَمِ التي في الإبلِ بقولِه: ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾ إلى ﴿تُحْمَلُونَ﴾[٣].

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ تَقديمُ ﴿لَكُمُ﴾ على ﴿ٱلْأَنْعَٰمَ﴾، مع أنَّ المفعولَ أشَدُّ اتِّصالًا بفِعلِه مِن المجرورِ؛ لِقَصْدِ الاهتِمامِ بالمنعَمِ عليهم[٤].

- وأيضًا تَغييرُ النَّظْمِ الكَريمِ بتَقديمِ المجرورِ في قولِه: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ؛ إذ لو جِيءَ على ظاهِرِه لاختلَّتْ، وكذلك جرَى في

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١١، ٤١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٧).

الفاصلةِ الآتيةِ، مع الاهتمامِ بما هو المقصودُ في السِّياقِ، والإشعارِ بأصالةِ الرُّكوبِ في الانتفاعِ بالأنعامِ. وقيل: لأنَّه في حيِّزِ الضَّرورةِ، وقيل: لأنَّه يُقصَدُ به التَّعيُّشُ، وهو مِن الضَّروريات، والتَّلذُّذُ والرُّكوبُ والمسافرةُ عليها قدْ تكونُ لأغراضٍ دِينيَّةٍ واجبةٍ أو مَندوبةٍ، أو للفرْقِ بيْن العَينِ والمنفَعةِ[١].

وقيل: إنَّما قال: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ ولم يقل: (لِتأكُلوا منها ولِتَصِلوا إلى المنافِعِ)؛ لأنَّهم في الحالِ آكِلونَ وآخِذونَ المنافِعَ، وأمَّا الرُّكوبُ وبُلوغُ الحاجةِ فأمرانِ مُنتَظرانِ؛ فجِيءَ بما يدُلُّ على الاستقبالِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾

- جُملةُ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، والمعنى على اعتِبارِ التَّعليلِ، كأنَّه قِيل: ولِتَجْتَنُوا مَنافعَها المجْعولةَ لكمْ، وإنَّما غُيِّرَ أُسلوبُ التَّعليلِ؛ تَفنُّنًا في الكلامِ، وتَنشيطًا للسَّامعِ؛ لئلَّا يَتكرَّرَ حرْفُ التَّعليلِ تَكْراراتٍ كثيرةً[٣].

- قولُه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ المنافِعُ شامِلةٌ للرُّكوبِ الذي في قولِه: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾؛ فذِكْرُ المنافعِ بعْدَ ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ، فذكَرَ هنا الشَّائعَ المطروقَ عِندَهم، ثمَّ ذكَرَ مَثِيلَه في الشُّيوعِ، وهو الأكْلُ منها، ثمَّ عاد إلى عُمومِ المنافِعِ، ثم خَصَّ مِن المنافعِ الأسفارَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٥).

فإنَّ اشتدادَ الحاجةِ إلى الأنعامِ فيها تَجعَلُ الانتفاعَ برُكوبِها للسَّفرِ في مَحلِّ الاهتِمامِ[١].

- ولَمَّا كانتِ المنافعُ ليْستْ مُنْحصِرةً في أجزاءِ الأنعامِ، جِيءَ في مُتعلَّقِها بحرْفِ (في) دونَ (مِن)، فتَشمَلُ كلَّ ما يُعَدُّ كالشَّيءِ المحْويِّ في الأنعامِ[٢].

- وتَقْديمُ المجرورَيْنِ في قولِه: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾؛ للاهتِمامِ بالمنعَمِ عليهم والمُنعِمِ بها؛ لأنَّه الغرَضُ الأوَّلُ مِن قولِه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ ﴾[٣].

- وأنبَأَ فِعلُ (لِتَبْلُغُوا) أنَّ الحاجةَ التي في الصُّدورِ حاجةٌ في مَكانٍ بعيدٍ يَطلُبُها صاحبُها[٤].

- وقولُه: ﴿فِى صُدُورِكُمْ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ حاجةً واحدةً ضاقتْ عنها قُلوبُ الجميعِ حتى فاضَتْ منها، فمَلأت مَساكِنَها[٥].

- ولَمَّا كان الرُّكوبُ منها هو أعْظمَ مَنفعةٍ؛ إذ فيه مَنفعةُ الأكْلِ والرُّكوبِ -وذَكَر أيضًا أنَّ في الجَميعِ منافعَ مِن شُربِ لَبَنٍ واتِّخاذِ دِثارٍ وغيرِ ذلك-؛ أكَّدَ مَنفعةَ الرُّكوبِ بقولِه: ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾[٦].

- ولَمَّا كان الرُّكوبُ وبُلوغُ الحَاجةِ المترتِّبةِ عليه قدْ يُتوصَّلُ به إلى الانتِقالِ لأمْرٍ واجِبٍ، أو مَندوبٍ، كالحَجِّ وطَلَبِ العِلمِ؛ دخَلَ حرْفُ التَّعليلِ (اللام)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٥).

على الرُّكوبِ وعلى المترتِّبِ عليه مِن بُلوغِ الحاجاتِ؛ فجعَلَ ذلك عِلَّةً لجَعْلِ الأنعامِ لنا. ولَمَّا كان الأكلُ وإصابةُ المنافِعِ مِن جِنسِ المُباحاتِ، لم يَجعَلْ ذلك عِلَّةً في الجَعْلِ، بلْ ذَكَر أنَّ منها نأكُلُ، ولنا فيها منافِعَ مِن شُرْبِ لَبَنٍ واتِّخاذِ دِثارٍ وغيرِ ذلك، كما أَدْخَل لامَ التَّعليلِ في ﴿لِتَرْكَبُواْ﴾، ولم يُدْخِلْها على الزِّينةِ في قولِه: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾[1] [النحل: ٨].

- وأُعقِبَ الامتِنانُ بالأنعامِ بالامتنانِ بالفُلْكِ؛ لِمُناسَبةِ قولِه: ﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾، فقال: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، وهو انتقالٌ مِن الامتنانِ بجَعْلِ الأنعامِ إلى الامتنانِ بنِعمةِ الرُّكوبِ في الفُلْكِ في البِحارِ والأنهارِ؛ فالمقصودُ هو قولُه: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾. وأمَّا قولُه: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ فهو تَمهيدٌ له، وهو اعتراضٌ بالواوِ الاعتراضيَّةِ؛ تَكريرًا للمِنَّةِ، على أنَّه قدْ يَشمَلُ حمْلَ الأثْقالِ على الإبلِ، كقولِه تعالَى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النحل: ٧]؛ فيكونُ إسنادُ الحمْلِ إلى ضَميرِ النَّاسِ تَغليبًا. وقيل: لعلَّ المرادَ به حمْلُ النِّساءِ والوِلدانِ عليها بالهوْدَجِ، وهو السِّرُّ في فصْلِه عن الرُّكوبِ[2].

وقيل: قَولُه: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ تَوطِئةٌ لِقَولِه سُبحانَه: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ لِيَجمَعَ بيْنَ سَفائِنِ البَرِّ وسَفائِنِ البَحرِ، فكأنَّه قيل: وعليها في البَرِّ وعلى الفُلكِ في البَحرِ تُحمَلونَ؛ فلا تَكرارَ[3].

- وإنَّما قال: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾، ولم يقُلْ: وفي الفُلْكِ، كما قال: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٥، ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٦).

(٣)) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٤٢).

فِي ٱلْفُلْكِ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]؛ للمُزاوَجةِ والمشاكَلةِ مع لَفظِ ﴿وَعَلَيْهَا ﴾، وإنَّما أُعِيدَ حرْفُ (على) في الفُلْكِ؛ لأنَّها هي المقصودةُ بالذِّكرِ، وكان ذِكرُ ﴿وَعَلَيْهَا ﴾ كالتَّوطئةِ لها، فجاءتْ على مِثالِها[1].

- وتَقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ، مع الاهتِمامِ بما هو المقصودُ في السِّياقِ[2].

- وأشارَ بالبِناءِ للمَفعولِ ﴿تُحْمَلُونَ ﴾ أنَّه سخَّرَ ذلك تَسخيرًا عظيمًا، لا يُحتاجُ معه إلى عِلاجٍ في نفْسِ الحمْلِ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ [غافر: ٧٩]، أي: اللهُ الذي يُرِيكم آياتِه، وهذا انتقالٌ مِن مُتعدِّدِ الامتِنانِ بما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ [غافر: ٦١]، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [غافر: ٦٧]؛ فإنَّ تلك ذُكِرَت في مَعرِضِ الامتنانِ تَذكيرًا بالشُّكرِ، فنُبِّهَ هنا على أنَّ في تلك المِنَنِ آياتٍ دالَّةً على ما يَجِبُ للهِ مِن الوَحدانيَّةِ والقُدْرةِ والحِكمةِ؛ ولذلك كان قولُه: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ مُفيدًا مُفادَ التَّذييلِ؛ لِما في قولِه: ﴿ءَايَٰتِهِۦ ﴾ مِن العُمومِ؛ لأنَّ الجمْعَ المُعرَّفَ بالإضافةِ مِن صِيَغِ العُمومِ، أي: يُرِيكم آياتِه في النِّعَمِ المذكوراتِ وغيرِها مِن كلِّ ما يَدلُّ على وُجوبِ تَوحيدِه، وتَصديقِ رُسلِه، ونَبْذِ المُكابَرةِ فيما يَأْتونهم به مِن آياتِ صِدقِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٧، ٢١٨).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ جِيءَ في جانبِ إراءةِ الآياتِ بالفعلِ المضارعِ؛ لِدَلالتِه على التَّجدُّدِ؛ لأنَّ الإنسانَ كلَّما انتفَعَ بشَيءٍ مِن النِّعَمِ عَلِمَ ما في ذلك مِن دَلالةٍ على وَحدانيَّةِ خالِقِها وقُدرتِه وحِكْمتِه. والإراءةُ هنا بَصَريَّةٌ، عبَّرَ بها عن العِلمِ بصِفاتِ اللهِ؛ إذ كان طَريقُ ذلك العِلمِ هو مُشاهدةَ تلك الأحوالِ المختلِفةِ، فمِن تلك المشاهَدةِ يَنتقِلُ العقْلُ إلى الاستِدلالِ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ دَلالةَ وُجودِ الخالِقِ ووَحدانيَّتِه وقُدرتِه بُرهانيَّةٌ تَنْتهي إلى اليَقينِ والضَّرورةِ[1].

- وإضافةُ الآياتِ إلى ضَميرِ الجلالةِ والاسمِ الجَليلِ في قولِه: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾؛ لِتَربيةِ المَهابةِ، وتَهويلِ إنْكارِها، ولزِيادةِ التَّنويهِ بها، والإرشادِ إلى إجادةِ النَّظرِ العقْليِّ في دَلائلِها. وأمَّا كونُها جائيةً مِن لَدُنِ اللهِ، وكونُ إضافتِها مِن الإضافةِ إلى ما هو في معنَى الفاعلِ، فذلك أمْرٌ مُستفادٌ مِن إسنادِ فِعلِ ﴿وَيُرِيكُمْ﴾ إلى ضَميرِه تعالَى[2].

- وفُرِّعَ على إراءةِ الآياتِ قولُه: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ وهو استِفهامٌ إنْكاريٌّ عليهم مِن أجْلِ إنْكارِهم ما دلَّت عليه تلك الآياتُ، وهو هنا مُستعمَلٌ في إنكارِ أنْ يكونَ شَيءٌ مِن آياتِ اللهِ يُمكِنُ أنْ يُنكَرَ دونَ غيْرِه مِن الآياتِ؛ فيُفِيدُ أنَّ جميعَ الآياتِ صالحٌ للدَّلالةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ وقُدْرتِه، لا مَساغَ لادِّعاءِ خَفائِه، وأنَّهم لا عُذْرَ لهمْ في عَدمِ الاستِفادةِ مِن إحْدَى الآياتِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٨).

الآيات (٨٢-٨٥)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَٰرًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَٰقِبَةُ﴾: عاقبةُ كلِّ شَيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تَختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطْلِقتْ، وقدْ تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تَأخيرُ شَيءٍ، وإتيانُه بعْدَ غيرِه[١].

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾: السُّنَّةُ: هي الطَّريقةُ المَسلوكةُ والمِنهاجُ المتَّبَعُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ، واطِّرادِه في سُهولةٍ[٢].

﴿خَلَتْ﴾: أي: مَضَتْ وذَهبَتْ، مِن خَلا الزَّمانُ: إذا مَضَى وذهَبَ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالَى عن الأُممِ السَّابقةِ المُكذِّبةِ بالرُّسلِ، وماذا حَلَّ بهم مِن العذابِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٧- ٤٩٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

مُوبِّخًا المشركينَ لعدَمِ اعتِبارِهم واتِّعاظِهم، فيَقولُ: أفلَمْ يَسِرْ أولئك المُشرِكونَ مِن قَومِك -يا مُحمَّدُ- في الأرضِ، فيَنظُروا كيْف كانتْ عاقِبةُ الكُفَّارِ مِن قَبْلِهم، فيَعتَبِروا؟! كان كُفَّارُ تلك الأُمَمِ السَّابِقةِ أكثَرَ عَددًا مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ، وأشَدَّ قُوَّةً منهم، وأعظَمَ آثارًا في الأرضِ، فما دَفَع عنهم العَذابَ كَثرةُ عَددِهم، ولا شِدَّةُ قُوَّتِهم ولا عِظَمُ آثارِهم!

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالَى جُرمَهم الكبيرَ، فيَقولُ: فلمَّا جاءت تلك الأُمَمَ الماضيةَ رُسُلُهم بآياتِ اللهِ الواضِحاتِ فَرِحوا بما عِندَهم مِنَ العِلمِ، ونَزَل بهم عَذابُ اللهِ الذي كانوا يُكذِّبونَ بوُقوعِه ويَسخَرونَ منه، فلمَّا رأَوا عَذابَ اللهِ نازِلًا بهم قالوا: آمَنَّا باللهِ وَحْدَه، وكفَرْنا بالآلِهةِ التي كُنَّا نَعبُدُها مع اللهِ!

ثمَّ يُبيِّنُ تعالَى أنَّ الإيمانَ لا يَنفَعُ إذا نزَل العذابُ، فيقولُ: فلمْ يَنفَعْهم إيمانُهم حينَ رأَوا عَذابَ اللهِ نازِلًا بهم؛ سَنَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في الكُفَّارِ سُنَّةً: أنَّه لا يَنفَعُهم الإيمانُ إذا رأَوُا العَذابَ، وأنَّ التَّوبةَ لا تُقبَلُ بعْدَ رُؤيةِ العذابِ، وخَسِرَ عندَ مَجيءِ عَذابِ اللهِ الكافِرونَ بربِّهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَـٰرًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

رَاعَى اللهُ تعالَى تَرْتيبًا لَطيفًا فِي آخِرِ هذِه السُّورَةِ؛ وذلك أنَّه ذَكَر فصْلًا في دَلائلِ الإلهيَّةِ وكَمالِ القُدرةِ والرَّحمةِ والحِكمةِ، ثمَّ أردَفه بفصْلٍ في التَّهديدِ

والوَعيدِ، وهذا الفصلُ الَّذي وَقَع عليه خَتْمُ هذه السُّورةِ هو الفصلُ المشتمِلُ على الوَعيدِ[١].

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

أي: أفَلَم يَسِرْ أولئك المُشرِكونَ مِن قَومِك -يا مُحمَّدُ- في الأرضِ، فيَنظُروا بأعيُنِهم، ويَتفَكَّروا بقُلوبِهم: كيف كانتْ خاتِمةُ أمرِ الكُفَّارِ الذين مِن قَبْلِهم، فيَعتَبِروا لِرُؤيتِهم آثارَ إهلاكِ اللهِ لهم؛ لِتكذيبِهم رُسُلَهم[٢]؟!

﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾.

أي: كان كُفَّارُ الأُمَمِ السَّابِقةِ الذين أهلَكَهم اللهُ أكثَرَ عَددًا مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ[٣].

﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: وكانوا أشَدَّ قُوَّةً مِنهم، وأعظَمَ آثارًا في الأرضِ[٤].

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

أي: فما دَفَع عنهم العَذابَ كَثرةُ عَدَدِهم، ولا شِدَّةُ قُوَّتِهم، ولا عِظَمُ آثارِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

قال ابنُ عُثيمين: (هذا الاستِفهامُ يحتَمِلُ أنْ يكونَ للحَثِّ... ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ للتَّوبيخِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩، ١٦٠)، ((تفسير =

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾.

أي: فلَمَّا جاءتْ أولئك الأُمَمَ الماضيةَ رُسُلُهم بآياتِ اللهِ الواضِحاتِ، والبراهينِ القاطِعاتِ، لم يُؤمِنوا بها، وفَرِح هؤلاء الكافِرونَ بما عِندَهم مِنَ العِلمِ، ورضُوا به[1].

= السعدي)) (ص: ٧٤٤).

قال القاسمي: (﴿ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: مِن الحصونِ والقصورِ والمباني والعُدَدِ والعَدَدِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢١).

وقال ابنُ الجوْزيِّ: (قولُه تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم ﴾، في ﴿مَّا ﴾ قولانِ: أحدُهما: أنَّها للنفيِ. والثاني: أنَّها للاستفهامِ، ذكَرهما ابنُ جريرٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١).

وممَّن قال بأنَّها للنفيِ: ابنُ عطيةَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦).

وقال الشَّوكانيُّ: (و«ما» الثَّانيةُ -يعني في قولِه: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾- يجوزُ أن تكونَ مَوصولةً، وأن تكونَ مَصدريَّةً). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩، ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

والضَّميرُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾: عائدٌ على الأُمَمِ المكَذِّبةِ. ونسَبَه ابن الجوْزيِّ إلى الجمهور، وقيل: الضميرُ عائدٌ على الرُّسلِ، وفيه حذفٌ تقديرُه: كذَّبوهم ففرِحوا أي: الرسلُ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤).

قال القُرطبي: (﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ في معناه ثلاثةُ أقوالٍ:

قال مجاهِدٌ: إنَّ الكُفَّارَ الذين فَرِحوا بما عِندَهم مِن العِلمِ قالوا: نحن أعلَمُ منهم؛ لن نُعَذَّبَ ولن نُبعَثَ.

وقيل: فَرِحَ الكُفَّارُ بما عِندَهم مِن عِلمِ الدُّنيا، نحوُ: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [الروم: ٧]. =

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أي: ونَزَل وأحاطَ بالكافِرينَ عَذابُ اللهِ الذي كانوا يَسخَرونَ منه ويُكَذِّبونَ بوُقوعِه[1].

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾.

أي: فلَمَّا رأَوا عَذابَ اللهِ نازِلًا بهم قالوا: آمَنَّا بوَحدانيَّةِ اللهِ، فلا مَعبودَ بحَقٍّ سِواه[2].

﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾.

= وقيل: الذين فَرِحوا: الرُّسُلُ؛ لَمَّا كَذَّبَهم قَومُهم أعلَمَهم اللهُ عزَّ وجَلَّ أنَّه مُهلِكُ الكافِرينَ ومُنَجِّيهم والمؤمِنينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧١).

وممَّن قال بالقولِ الأوَّلِ (قولِ مجاهدٍ): ابنُ جَرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٠).

وقال الرَّسْعني: (وعِلْمُهم الذي فرِحوا به: إنكارُهم الوَحدانيةَ والبعثَ، بالشُّبهِ التي كانوا يدْفعون بها البيِّناتِ. وتَسميةُ ذلك علمًا؛ تهكُّمٌ بهم). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٣٤).

وقال السمعاني: (قد كانَ فِي ظنِّهم أنَّهم عُلماء، فسمَّى ما عِندَهم عِلمًا على ظنِّهم، وكان الَّذي ظنُّوه أَن لَا بعثَ ولا جنَّةَ ولا نارَ ولا حياةَ بعدَ الموتِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤).

وقيل: هذا عامٌّ في جميعِ العُلومِ المناقِضةِ لدِينِ الرُّسُلِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملة: الشَّوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٦).

ويُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٤٨-٥٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

أي: وكفَرْنا بالآلِهةِ التي كُنَّا نَعبُدُها، وتبرَّأْنا منها[١].

كما قال تعالَى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۞ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤، ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۞ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۞ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۞ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٢ - ١٥].

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾.

أي: فلمْ يَنفَعْهم إيمانُهم بتَوحيدِ اللهِ حِينَ رأَوْا عذابَه نازِلًا بهم[٢]!

كما قال تعالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

قال ابنُ عثيمين: (و﴿بِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ أن تكونَ للسَّببيَّةِ، أي: بما كُنَّا بسَبَبِه مُشرِكينَ، وأن تكونَ مُتعَلِّقةً بـ﴿مُشْرِكِينَ﴾ تعَلُّقَ الجارِّ بعامِلِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾.

أي: سَنَّ اللهُ تعالى أنَّه لا يَقبَلُ تَوبةَ الكافِرينَ حينَ نُزولِ العَذابِ، ولا يَنفَعُهم إيمانُهم في تِلك الحالِ، وقدْ مَضَت هذه السُّنةُ والطريقةُ في عِبادِه[١].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

أي: وهلَكَ عِندَ مَجيءِ عَذابِ اللهِ الكافِرونَ بربِّهم، المُشرِكونَ في عِبادتِه، فما رَبِحَت تجارتُهم[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مَن تَرَكَ الانقيادَ للحَقِّ لأجْلِ طَلَبِ الرِّياسةِ، والتَّقَدُّمِ على الغيرِ في المالِ والجاهِ؛ فقدْ باعَ الآخِرةَ بالدُّنيا، فبَيَّنَ اللهُ تعالَى أنَّ هذه الطَّريقةَ فاسِدةٌ؛ لأنَّ الدُّنيا فانيةٌ ذاهِبةٌ، واحتَجَّ عليه بقَولِه تعالَى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

قال القُرطبي: (﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ؛ لأنَّ العربَ تقولُ: سَنَّ يَسُنُّ سَنًّا وسُنَّةً، أي: سَنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ في الكفَّارِ أنَّه لا يَنفعُهم الإيمانُ إذا رأوُا العذابَ... وقيلَ: أي: احْذَروا يا أهلَ مكَّةَ سُنَّةَ اللهِ في إهلاكِ الكفرةِ؛ فـ ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ منصوبٌ على التَّحذيرِ والإغراءِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٤-٥٣٥).

قَبْلِهِمْ ﴾ فيه الحَثُّ على النَّظرِ في أحوالِ الأُممِ السابقةِ؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ اللهَ وَبَّخَهُم على عدَمِ السَّيرِ، والسَّيرُ في الأرضِ لا بدَّ أنْ يَصحَبَه النَّظرُ والاعتبارُ؛ وإلَّا فإنَّه لا يَنفَعُ، ويَتفرَّعُ على هذا ما يَفعَلُه كَثيرٌ مِن النَّاسِ اليومَ مِن السَّيرِ إلى دِيارِ ثَمودَ للاطِّلاعِ على آثارِ القومِ الدَّالَّةِ على قُوَّتِهم! أو يَذهَبون للفُرجةِ والنُّزهةِ فقطْ دونَ أنْ يعتَبِروا، وهذا لا يَجوزُ، فالواجبُ على مَن سار إلى تلك الدِّيارِ أنْ يَدْخُلَها وهو باكٍ؛ لقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((فإنْ لم تَكونوا باكِينَ فلا تَدخُلوا عليهم))[(١)]، ولا يَنفَعُ التَّباكي؛ فإنَّه لم يَقُلْ: (فتَبَاكَوْا)! ومَن لم يُوَطِّنْ نفْسَه على هذا الوَصفِ فإنَّه لا يَجوزُ له أنْ يَدخُلَ[(٢)].

٣- قال اللهُ تعالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، هذه الآيةُ مُرشِدةٌ إلى أنَّه لا يَتعَلَّمُ إلَّا مَن ظَنَّ مِن نَفسِه القُصورَ؛ ولهذا كان أقبَلَ شَيءٍ على العِلمِ الصِّغارُ[(٣)].

٤- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أنَّ آياتِ الرُّسُلِ بَيِّنَةٌ لا تَحْتَمِلُ الشَّكَّ، ويَتَفرَّعُ على ذلك أنَّه يَنْبغي للعالِمِ الذي يَنْشُرُ شَريعةَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ إذا نَشَرَها بيْنَ الناسِ أنْ يكونَ نَشْرُه إيَّاها على وجْهٍ بَيِّنٍ لا اشتباهَ فيه؛ أوَّلًا: اقتداءً بالرُّسُلِ، وثانيًا: لِيزدادَ المخاطَبُ طُمأنينةً؛ لأنَّ الطُّمأنينةَ لها أثَرٌ في قَبولِ ما يُلْقَى وفي القيامِ به؛ فإنَّ الإنسانَ إذا لم يُبَيَّنْ له الحقُّ على وجْهٍ تَحْصُلُ به الطُّمأنينةُ قدْ يَحصُلُ له تردُّدٌ؛ لكنْ إذا زِيدَ طُمأنينةً انْتَفَع بذلك[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠) مِن حديثِ عَبدِ اللهِ بنِ عُمرَ رَضيَ اللهُ عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٥١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى أرْسَلَ الرُّسلَ بالآياتِ البيِّناتِ الدَّالَّةِ على صِدْقِهم، ويَتَفَرَّعُ على هذا فائدتانِ؛ وهما: رَحمةُ اللهِ بالعِبادِ، وحِكمةُ اللهِ تعالَى في فِعْلِه؛ أمَّا رَحمةُ اللهِ بالعِبادِ فلأنَّ اللهَ تعالَى لوْ أرسَلَ إليهم رُسلًا بدونِ آياتٍ، لكان في ذلك تَكليفٌ بما لا يُطاقُ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يُمكِنُ أنْ يُصَدِّقَ برَسولٍ بدونِ آياتٍ تدُلُّ على صِدْقِه، وإلَّا لأمْكَنَ كلَّ كاذبٍ أنْ يقولَ: إنَّه رسولٌ! وأمَّا الحِكمةُ فظاهرةٌ أنَّ اللهَ سُبحانه وتعالَى لمّا أَرْسَلَ الرُّسُلَ لم يَتْرُكْهم هَمَلًا! بلْ أعطاهم ما على مثلِه يُؤمِنُ البشرُ، كما أخبَرَ بذلك نَبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما مِن الأنبياءِ مِن نَبيٍّ إلَّا قدْ أُعطِيَ مِن الآياتِ ما مِثلُه آمَنَ عليه البشرُ))، والذي أُوْتِيَه الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هو الوحيُ؛ القرآنُ؛ ولهذا قال: ((فأرْجو أنْ أكونَ أكثَرَهم تابِعًا يومَ القيامةِ))[١]؛ لأنَّ القرآنَ آيةٌ باقيةٌ إلى يومِ القِيامةِ، أو إلى أنْ يَأْذَنَ اللهُ تعالى بفَسَادِ العالَمِ، أمَّا آياتُ الرُّسُلِ فغالِبُها تَنْقضي في زمانِها[٢].

٢- في قولِه تعالَى: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ أنَّ التَّوبةَ مَقْبولةٌ -ولو في شِدَّةِ مَرضِ الموتِ- حتَّى يَصِلَ الإنسانُ إلى المعايَنةِ؛ فلا تُقبَلُ توبتُه[٣]؛ فقدْ بيَّن تعالَى أنَّ التَّوبةَ بعْدَ رُؤيةِ البَأْسِ لا تَنْفَعُ، وأنَّ هذه سُنَّةُ اللهِ التي قدْ خَلَتْ في عِبادِه[٤]، وبيَّن أنَّ الإيمانَ النَّافِعَ الذي يُنَجِّي صاحِبَه هو الإيمانُ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٩١).

الاختياريُّ الذي يكونُ إيمانًا بالغَيبِ، وذلك قبْلَ وُجودِ قَرائنِ العَذابِ[١]، وفيه حَضٌّ على المبادَرةِ إلى الإيمانِ، وتَخويفٌ مِن التَّأنِّي[٢].

٣- في قولِه تعالَى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مع ما سَبَقَ: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨] بَيانُ أنَّ كلَّ كافرٍ فهو مُبْطِلٌ ليْس معه حقٌّ، وكلَّ مُبْطِلٍ -لا يَقولُ إلَّا الباطِلَ- فهو كافِرٌ، أي: أنَّ المُبْطِلَ في كلِّ أحْوالِه كافرٌ ليْس معه شَيءٌ مِن الحقِّ؛ فاختلافُ التَّعبيرِ لزِيادةِ المعنى[٣].

٤- في قولِه تعالَى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ظُهورُ الخُسرانِ لهؤلاء المُكَذِّبينَ قبْلَ أنْ يَموتوا؛ لقولِه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾، أي: حينَ جاءَهم البأسُ تَبَيَّنَ لهم الخُسرانُ[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كَلامٌ مُستأنفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في تَوبيخِهم، والهَمزةُ في ﴿أَفَلَمْ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ[٥].

- وتَفريعُ هذا الاستِفهامِ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٥٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٥٥٨).
(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٢٤).

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ عقِبَ قولِه: ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: ٨١]؛ يَقْتضي أنَّه مُساوِقٌ للتَّفريعِ الذي قبْلَه، وهو ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١]؛ فيَقْتضي أنَّ السَّيرَ المُستفهَمَ عنه بالإنكارِ على تَرْكِه هو سيْرٌ تَحصُلُ فيه آياتٌ ودَلائلُ على وُجودِ اللهِ ووَحْدانيَّتِه، وكِلَا التَّفريعينِ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ [غافر: ٨٠]، فذلك هو مُناسَبةُ الانتقالِ إلى التَّذكيرِ بعِبرةِ آثارِ الأُمَمِ التي استأْصَلَها اللهُ تعالَى لَمَّا كذَّبَت رُسلَه، وجَحَدتْ آياتِه ونِعَمَه. وحصَلَ بذلك تَكريرُ الإنكارِ الذي في قولِه قبْلَ هذا: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ ...﴾ [غافر: ٢١] الآيةَ؛ فكان ما تَقدَّمَ انتقالًا عقِبَ آياتِ الإنذارِ والتَّهديدِ، وكان هذا انتقالًا عَقِبَ آياتِ الامتنانِ والاستدلالِ، وفي كِلا الانتقالَينِ تَذكيرٌ وتَهديدٌ ووَعيدٌ، وهو يُشيرُ إلى أنَّهم إنْ لم يَكونوا ممَّن تَكُفُّهم النِّعَمُ عن كُفرانِ مُسْدِيها، كشأْنِ أهلِ النُّفوسِ الكريمةِ، فلْيَكونوا ممَّن يَردَعُهم الخوفُ مِن البطْشِ كشأْنِ أهلِ النُّفوسِ اللَّئيمةِ، فلْيَضَعوا أنفُسَهم حيثُ يَختارون مِن إحْدى الخُطَّتَينِ[(١)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾، وقال قبْلُ في نفْسِ السُّورةِ: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ [غافر: ٢١]؛ فخُولِفَ في عَطْفِ جُملةِ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾، فعُطِفَت بالفاءِ للتَّفريعِ؛ لِوُقوعِها بعْدَما يَصلُحُ لأنْ يُفرَّعَ عنه إنكارُ عَدَمِ النَّظرِ في عاقبةِ الذين مِن قبْلِهم، بخِلافِ نَظيرتِها التي قبْلَها؛ فقدْ وقَعَتْ بعْدَ إنذارِهم بيَومِ الآزفةِ[(٢)].

- وقولُه: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةً ...﴾ إلخ، استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٢٠).

مَبادِي أحوالِ الأُمَمِ السَّابقةِ وعَواقِبِها[١].

- وجُملةُ ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ مُعترِضةٌ، والفاءُ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾، وفائدةُ هذا الاعتراضِ التَّعجيلُ بإفادةِ أنَّ كَثرتَهم وقُوَّتَهم، وحُصونَهم وجنَّاتِهم؛ لم تُغْنِ عنهم مِن بأْسِ اللهِ شيئًا[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ...﴾ [غافر: ٨٢- ٨٥] جاءتِ الفاءُ، ثمَّ تَرادَفَت بعْدَها فاءاتٌ؛ فأمَّا قولُه تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ فهو نَتيجةُ قولِه: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فجارٍ مَجْرى البَيانِ والتَّفسيرِ لقولِه تعالَى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾، كقولِك: رُزِقَ زيْدٌ المالَ، فمنَعَ المعروفَ، فلمْ يُحسِنْ إلى الفُقراءِ، وقولُه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ تابعٌ لِقولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ﴾؛ كأنَّه قال: فكَفَروا، فلمَّا رَأَوا بأْسَنا آمَنوا، وكذلك ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ﴾ تابعٌ لإيمانِهم لَمَّا رَأَوا بأْسَ اللهِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

- جُملةُ ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ...﴾ الآيةَ، مُفرَّعةٌ على جُملةِ ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾، أي: كانوا كذلك إلى أنْ جاءتْهم رُسلُ اللهِ إليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٧).

بالبيِّناتِ، فلمْ يُصدِّقوهم فرَأَوا بأْسَنا[١].

- وأفادَتْ (لَمَّا) في قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ معنى أنَّ اللهَ لم يُغيِّرْ ما بهم مِن النِّعَمِ العُظْمى حتَّى كذَّبوا رُسلَه؛ لِما فيها مِن معنَى التَّوقيتِ[٢].

- والفرَحُ هنا مُكنًّى به عن آثارِه، وهي الازدهاءُ، كما في قولِه تعالَى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡ﴾ [القصص: ٧٦]، أي: بما أنْت فيه، مُكنًّى به هنا عن تَمسُّكِهم بما همْ عليه؛ فالمعنَى: أنَّهم جادَلوا الرُّسلَ، وكابَروا الأدلَّةَ[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّهكُّمِ، وهو الاستِهزاءُ والسُّخريةِ مِن المتكبِّرينَ لِمُخاطَبتِهم بلَفظِ الإجلالِ في مَوضعِ التَّحقيرِ، والبِشارةِ في مَوضعِ التَّحذيرِ، والوَعدِ في مَوضعِ الوَعيدِ، والعِلمِ في مَوضعِ الجَهلِ؛ تَهاوُنًا مِن القائلِ بالمقولِ له، واستِهزاءً به[٤].

- وقولُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاطَ، وهو هنا مُعبَّرٌ به عن الشِّدَّةِ الَّتي لا تَنْفيسَ بها؛ لأنَّ المُحيطَ بشَيءٍ لا يَدَعُ له مَفْرَجًا[٥].

- وفي ذِكرِ فِعلِ الكونِ في قولِه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ تَنبيهٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٢٦، ٥٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢١).

على أنَّ الاستهزاءَ بوَعيدِ الرُّسلِ كان شِنْشنةً -أي: عادةً مُستقِرَّةً- لهم. وفي الإتيانِ بالفِعلِ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مُضارِعًا إفادةٌ لِتَكرُّرِ استِهزائِهم(١).

- وهذِه الآيةُ مِن الاحتِباكِ: إثباتُ الفَرَحِ أولًا دَليلٌ على حذْفِ ضِدِّه ثانيًا، وإثباتُ الاستهزاءِ ثانيًا دليلٌ على حذْفِ مِثلِه أولًا(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

- مَوقعُ جُملةِ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ مِن قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٨٣] كمَوقعِ جُملةِ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ مِن قولِه: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ [غافر: ٨٢]، وهو التَّفريعُ عليها؛ لأنَّ إفادةَ (لَمَّا) معْنى التَّوقيتِ يُثيرُ معْنى تَوقيتِ انتِهاءِ ما قبْلَها، أي: دامَ دُعاءُ الرُّسلِ إيَّاهم، ودامَ تَكذيبُهم واستِهْزاؤهم إلى أنْ رَأَوا بأْسَنا، فلمَّا رَأَوا بأْسَنا قالوا: آمنَّا باللهِ وحْدَه(٣).

- والبأْسُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ هو العذابُ الخارقُ للعادةِ المنذِرُ بالفَناءِ؛ فإنَّهم لَمَّا رَأَوه عَلِموا أنَّه العذابُ الذي أُنذِروه، وفُرِّعَ عليه قولُه: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾، أي: حِين شاهَدوا العذابَ لم يَنفَعْهم الإيمانُ؛ لأنَّ اللهَ لا يَقبَلُ الإيمانَ عندَ نُزولِ عَذابِه، وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (فلمْ يَنفَعْهم)، إلى قولِه: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾؛ لِدَلالةِ فِعلِ الكونِ على أنَّ خبَرَه مُقرَّرُ الثُّبوتِ لاسْمِه، فلمَّا أُرِيدَ نفْيُ ثُبوتِ النَّفعِ إيَّاهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٩، ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢١، ٢٢٢).

بعْدَ فَواتِ وَقتِه، اجتُلِبَ لذلك نَفْيُ فِعلِ الكونِ الذي خبَرُه ﴿يَنفَعُهُمْ﴾، والمعنَى: أنَّ الإيمانَ بعْدَ رُؤيةِ بَوارِقِ العذابِ لا يُفيدُ صاحبَه، مِثلُ الإيمانِ عندَ الغَرْغرةِ، ومِثلُ الإيمانِ عندَ طُلوعِ الشَّمْسِ مِن مَغرِبِها(١).

- وجُملةُ ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾ مُستأنفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا جَوابًا لِسُؤالِ مَن يَسأَلُ: لماذا لم يَنفَعْهم الإيمانُ وقدْ آمَنوا؟ فالجوابُ: أنَّ ذلك تَقديرٌ قدَّرَه اللهُ للأُمَمِ السَّالفةِ، أعْلَمَهم به وشرَطَهُ عليهم؛ فهي قَديمةٌ في عِبادِه، لا يَنفَعُ الكافرَ الإيمانُ إلَّا قبْلَ ظُهورِ البأْسِ(٢).

- وجُملةُ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ كالفَذْلكةِ(٣) لقولِه: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾، وبذلك آذنَتْ بانتهاءِ الغرَضِ مِن السُّورةِ(٤).

- و﴿هُنَالِكَ﴾ اسمُ إشارةٍ إلى مَكانٍ، عُبِّرَ به عن الإشارةِ إلى الزَّمانِ، أي: خَسِروا وقْتَ رُؤيتِهم بأْسَنا؛ إذ انقضَتْ حياتُهم وسُلطانُهم، وصاروا إلى تَرقُّبِ عَذابٍ خالدٍ مُستقبَلٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٢٢).

(٣) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغَ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلمةٌ مَنحوتةٌ كـ(البَسملة) و(الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذلكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٣).

- والعُدولُ عن ضَميرِ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [غافر: ٢١] إلى الاسمِ الظَّاهرِ -وهو ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾- إيماءٌ إلى أنَّ سَببَ خُسرانِهم هو الكفْرُ باللهِ، وذلك إعذارٌ للمُشركينَ مِن قُريشٍ[١].

- وقد الْتَفَّ آخرُ هذه السُّورةِ -بما بُيِّن مِن كمالِ العِزَّةِ، وتمامِ القدرةِ، وشُمولِ العِلمِ ممَّا رتِّب مِن أسبابِ الهداية والإضلالِ، والإشقاءِ والإسعادِ، والنَّجاةِ والإهلاكِ- بأوَّلِها أيَّ التفافٍ، واكتَنَفت البدايةُ والنِّهايةُ بيانَ ذلك معَ ما اشْتَمل عليه الوسطُ أيضًا منه أعظمَ اكتنافٍ؛ فسبحانَ مَن هذا إنزالُه، وتبارَك اسمُه، وجل جلاله[٢].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ الحادي والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ فُصِّلَت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٣٣).

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ غافرٍ ١٣
أسماءُ السُّورةِ ١٣
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ١٣
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ١٤
مَوضوعاتُ السُّورةِ ١٤
الآيات (١-٣) ١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١٦
المعنى الإجماليُّ ١٦
تَفسيرُ الآياتِ ١٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢١
بَلاغةُ الآياتِ ٢٥
الآيات (٤-٦) ٣١
غَريبُ الكَلِماتِ ٣١
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٢
المعنى الإجماليُّ ٣٢
تَفسيرُ الآياتِ ٣٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٨

بَلاغةُ الآياتِ ٤١
الآيات (٧-٩) ٤٩
غريب الكلمات ٤٩
المعنى الإجماليُّ ٤٩
تَفسيرُ الآياتِ ٥٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٨
بَلاغةُ الآياتِ ٦٨
الآيات (١٠-١٤) ٧٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٧٨
المعنى الإجماليُّ ٧٨
تَفسيرُ الآياتِ ٧٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٨٨
بَلاغةُ الآياتِ ٩٠
الآيات (١٥-١٧) ١٠١
غَريبُ الكَلِماتِ ١٠١
المعنى الإجماليُّ ١٠١
تَفسيرُ الآياتِ ١٠٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١١٠
بَلاغةُ الآياتِ ١١١

الآيات (١٨-٢٠) ١١٨
غَريبُ الكَلِماتِ ١١٨
المعنى الإجماليُّ ١١٩
تَفسيرُ الآياتِ ١٢٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٢٧
بَلاغةُ الآياتِ ١٢٩
الآيتان (٢١-٢٢) ١٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١٣٦
المعنى الإجماليُّ ١٣٦
تَفسيرُ الآيتَينِ ١٣٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤٠
بَلاغةُ الآيتينِ ١٤٢
الآيات (٢٣-٢٧) ١٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١٤٦
المعنى الإجماليُّ ١٤٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٤٧
الفَوائِدُ التربويَّةُ ١٥٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥٧
بَلاغةُ الآياتِ ١٥٩
الآيتان (٢٨-٢٩) ١٦٧

غريبُ الكلماتِ ١٦٧
المعنَى الإجماليُّ ١٦٧
تَفسيرُ الآيتينِ ١٦٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٧٤
بَلاغةُ الآيتينِ ١٧٨
الآيات (٣٠-٣٥) ١٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ ١٨٤
مُشكِلُ الإعرابِ ١٨٥
المعنى الإجماليُّ ١٨٦
تَفسيرُ الآياتِ ١٨٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٩٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩٦
بَلاغةُ الآياتِ ٢٠٢
الآيات (٣٦-٤٠) ٢١٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٢١٠
المعنى الإجماليُّ ٢١١
تَفسيرُ الآياتِ ٢١١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢١٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢١٩
بَلاغةُ الآياتِ ٢٢١
الآيات (٤١-٤٦) ٢٢٨

غَريبُ الكَلِماتِ ٢٢٨
المعنى الإجماليُّ ٢٢٩
تَفسيرُ الآياتِ ٢٢٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٤٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٤١
بَلاغةُ الآياتِ ٢٤٥
الآيات (٤٧-٥٠) ٢٥٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٥٤
المعنى الإجماليُّ ٢٥٤
تَفسيرُ الآياتِ ٢٥٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٦٠
بَلاغةُ الآياتِ ٢٦٤
الآيات (٥١-٥٦) ٢٧١
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٧١
المعنى الإجماليُّ ٢٧١
تَفسيرُ الآياتِ ٢٧٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٨٥
بَلاغةُ الآياتِ ٢٨٨
الآيات (٥٧-٥٩) ٢٩٨
المعنى الإجماليُّ ٢٩٨

تَفسيرُ الآياتِ ٢٩٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٠٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٠٤
بَلاغةُ الآياتِ ٣٠٥
الآيات (٦٠-٦٥) ٣١٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٣١٢
المعنى الإجماليُّ ٣١٣
تَفسيرُ الآياتِ ٣١٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٢٨
بَلاغةُ الآياتِ ٣٣٣
الآيات (٦٦-٦٨) ٣٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٤٨
المعنى الإجماليُّ ٣٤٩
تَفسيرُ الآياتِ ٣٤٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٥٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٥٦
بَلاغةُ الآياتِ ٣٥٨
الآيات (٦٩-٧٦) ٣٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٦٣
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٦٤
المعنى الإجماليُّ ٣٦٤

تَفسيرُ الآياتِ ٣٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٧٤
بَلاغةُ الآياتِ ٣٧٦
الآيات (٧٧-٨١) ٣٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٨٤
المعنى الإجماليُّ ٣٨٤
تَفسيرُ الآياتِ ٣٨٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٩٣
بَلاغةُ الآياتِ ٣٩٦
الآيات (٨٢-٨٥) ٤٠٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٠٧
المعنى الإجماليُّ ٤٠٧
تَفسيرُ الآياتِ ٤٠٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤١٥
بَلاغةُ الآياتِ ٤١٦
الفهرس ٤٢٣

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة فصلت و سورة الشورى

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بغزة

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الحادي والثلاثون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة فصلت وسورة الشورى)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الحادي والثلاثون - سورة فصلت وسورة الشورى/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٦٥٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٧-٩٧-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- سورة فصلت- تفسير ٢- القرآن- سورة الشورى - تفسير

أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/٩٧١

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٩٧١

ردمك: ٧-٩٧-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة فصلت وسورة الشورى)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الحادي والثلاثون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ
سُورَةِ فُصِّلَت

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ فُصِّلَت

أسماءُ السُّورةِ:

مِمَّا سُمِّيَت به هذه السُّورةُ: سُورةُ (فُصِّلَت)[١]، و(حم السَّجْدةِ)[٢].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

هذه السُّورةُ اشتَمَلت على أحَدِ مَواضِعِ سُجودِ التِّلاوةِ[٣].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ فُصِّلَت مَكِّيَّةٌ، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٤].

---

(١) اشتَهَرت هذه السُّورةُ بهذا الاسمِ؛ لِوُقوعِ كَلِمةِ ﴿فُصِّلَتۡ﴾ في أوَّلِها؛ فعُرِفَت بها تمييزًا لها مِن بينِ السُّوَرِ المُفتَتَحةِ بحروفِ (حم). يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٣).

قال ابن عاشور: (تُسمَّى «حم السَّجدةِ» بإضافةِ «حم» إلى السَّجدةِ... وبذلك تُرجِمَتْ في «صحيحِ البُخاريِّ»، وفي «جامعِ التِّرمذيِّ»؛ لأنَّها تَمَيَّزَتْ عن السُّورِ المُفتَتَحةِ بحُروفِ «حم»؛ بأنَّ فيها سَجدةً مِن سُجودِ القرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٧). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٢٧)، ((سنن الترمذي)) (٥/ ٣٧٥).

(٣) وقد نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ. يُنظر: ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٥٥١).

وقد اختَلَفوا في مَوضِعِ هذه السَّجدةِ: هل هو قَولُه: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، أو قَولُه: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]، وسيأتي ذِكرُ الخِلافِ في مَوضِعِه مِن هذه السُّورةِ (ص: ٢١١).

(٤) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، وأبو حيان، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٣)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٤٢).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، وأنَّ هذا القُرآنَ مِن عِندِه سُبحانَه تعالى[1].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلتْ عليها السُّورةُ:

١- مدْحُ القُرآنِ، وبيانُ شَرَفِه.

٢- بيانُ مَوقِفُ الكُفَّارِ مِن القرآنِ.

٣- ذِكرُ بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ الله تعالى؛ كتَخليقِ الأرضِ، وما جُعِل فيها مِن جِبالٍ، وما قُدِّر فيها مِن أقواتٍ، وتَخليقِ السَّمواتِ السَّبعِ، وتَزيينِ السَّماءِ الدُّنيا منها بالنُّجومِ.

٤- إنذارُ المُشرِكينَ المُعرِضينَ عن سَماعِ القُرآنِ بما حَلَّ بالأُمَمِ المكَذِّبةِ، وذِكرُ ما حَلَّ بعادٍ وثمودَ مِن العُقوبةِ في الدُّنيا.

٥- ذِكرُ بَعضِ مَشاهِدِ يومِ القيامةِ، وبَيانُ بَعضِ أحوالِ الكُفَّارِ السَّيِّئةِ في هذا اليَومِ؛ كشَهادةِ جَوارِحِهم عليهم.

٥- بيانُ حالِ المؤمِنينَ وحُسنِ مَصيرِهم، وفَضلُ الدَّعوةِ إلى اللهِ والدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ، والأمرُ بالاستِعاذةِ باللهِ تعالى مِن نَزَغاتِ الشَّيطانِ.

٦- ذِكرُ عدَدٍ مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وقُدرتِه على كُلِّ

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ٣٢٣).

شَيءٍ، ومِن ذلك قُدرتُه على إحياءِ الموتى.

٧- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

٨- إقامةُ الأدِلَّةِ على أنَّ هذا القُرآنَ مِن عندِ اللهِ تعالى، وإبطالُ مَطاعِنِ المُشرِكينَ فيه.

٩- بيانُ سَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى، وأنَّ مَرَدَّ عِلمِ قيامِ السَّاعةِ إليه.

١٠- ذِكرُ طَبيعةِ الإنسانِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ.

١١- خُتِمَت السُّورةُ بأنَّ حِكمةَ اللهِ اقتَضَت إطْلاعَ النَّاسِ في كُلِّ وَقتٍ على بَعضٍ مِن آياتِه -سُبحانَه- في الآفاقِ وفي أنفُسِهم؛ حتَّى يَتبَيَّنَ لهم أنَّ القُرآنَ حَقٌّ.

الآيات (١-٨)

﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فُصِّلَتۡ﴾: أي: بُيِّنَت، والتَّفصيلُ ضدُّ الإجمالِ، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ وإبانتِه[1].

﴿بَشِيرٗا﴾: أي: مُبشِّرًا، وأصلُه: ظهورُ الشَّيءِ معَ حُسنٍ وجمالٍ، ومنه البِشارةُ، ولا تكونُ البِشارةُ عندَ إطلاقِ الكلامِ إلَّا بالخَيرِ، وقد تُقيَّدُ وتُحمَلُ على الشَّرِّ[2].

﴿وَنَذِيرٗا﴾: أي: مُنذِرًا، ومُحذِّرًا، ومُخوِّفًا، والإنذارُ: الإعلامُ بالشَّيءِ الَّذي حذَّر منه، وأصلُ الإنذارِ: الإعلامُ، وأصلُ (نذر): تخويفٌ أو تخوُّفٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٩)، ((أضواء البيان)) (٧/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٨٢٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

﴿أَكِنَّةٍ﴾: أي: أغطِيةٍ. وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[١].

﴿وَقْرٌ﴾: أي: ثِقْلٌ وصَمَمٌ، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقَلٍ في الشَّيءِ[٢].

﴿حِجَابٌ﴾: أي: سِترٌ، وكُلُّ ما يَستُرُ المطلوبَ ويَمنَعُ مِن الوُصولِ إليه فهو حِجابٌ، وأصلُ (حجب): يدُلُّ على المَنعِ مِن الوُصولِ[٣].

﴿مَمْنُونٍ﴾: أي: مَقطوعٍ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على قَطعٍ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾

قَولُه: ﴿قُرۡءَانًا﴾ في نَصبِه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه حالٌ مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾ النَّكرةِ؛ لِوَصفِه بـ﴿فُصِّلَتۡ﴾، أو مِنْ ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾، و﴿عَرَبِيًّا﴾ صِفةٌ لـ﴿قُرۡءَانًا﴾. الثَّاني: أنَّه حالٌ مُوَطِّئةٌ، والحالُ في الحقيقةِ ﴿عَرَبِيًّا﴾. الثَّالِثُ: أنَّه مَنصوبٌ على الاختِصاصِ والمَدحِ على إضمارِ (أمدَحُ) أو (أخُصُّ). وقيلَ غيرُ ذلك.

قَولُه: ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ ﴿فُصِّلَتۡ﴾، أي: فُصِّلَت لهؤلاء وبُيِّنَت لهم، أو بـ﴿تَنزِيلٌ﴾، أو مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ هو صفةٌ أُخرى لـ﴿قُرۡءَانًا﴾، أي: كائنًا لِقَومٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢، ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٠).

يَعلَمونَ[١].

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكَريمةَ بِقَولِه تعالى: ﴿حمٓ﴾، المشتمِلِ على حرفَينِ مِن الحُروفِ المُقَطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القُرآنِ؛ وذلك للإشارةِ إلى إعجازِه، ثمَّ ذَكَر اللهُ تعالى أنَّ هذا القُرآنَ مُنزَّلٌ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن عندِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم، وأنَّ هذا كِتابٌ فَصَّلَ اللهُ آياتِه وأوضَحَ معانيَه وأحكامَه باللُّغةِ العربيَّةِ، لِقَومٍ يَعلَمونَ اللِّسانَ العَربيَّ، فيَنتَفِعونَ ببَيانِه ويَتدبَّرونَه، بشيرًا بحُصولِ الخَيرِ والرَّحمةِ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالِحًا، ونذيرًا بالشَّرِّ لِمَن كَفَر وعَمِلَ السَّيِّئاتِ.

فما كان مِن كفَّارِ قريشٍ إلَّا أنْ أعرَضَ أكثَرُهم عن سَماعِ القُرآنِ، فهم لا يَسمَعونَه سَماعَ قَبولٍ وانتِفاعٍ، وقالوا: قُلوبُنا في أغطِيةٍ تَمنَعُ عنَّا فَهْمَ القُرآنِ، وفي آذانِنا ثِقلٌ قد أصَمَّها عن السَّماعِ، ومِن بَيْنِنا وبَيْنِك حاجِزٌ يَحجُبُنا عنك وعن مُوافَقتِك؛ فاعمَلْ -يا مُحمَّدُ- بدينِك الَّذي ارتَضَيتَ، إنَّنا عامِلونَ بدِينِنا!

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالرَّدِّ على هؤلاءِ المشركينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لأولئك المُشرِكينَ: إنَّما أنا بَشَرٌ مِثلُكم، يُوحَى إلَيَّ أنَّ إلهَكم إلهٌ واحِدٌ لا شَريكَ له؛ فاسلُكوا الطَّريقَ المُستقيمَ مُتوجِّهينَ إليه سُبحانَه، واستَغفِروه؛ وهَلاكٌ وعَذابٌ شَديدٌ للمُشرِكينَ الَّذين لا يُزَكُّونَ أنفُسَهم بالإيمانِ باللهِ وطاعتِه، والبُعدِ عن الإشراكِ به، وهم بالآخِرةِ جاحِدونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٩)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٠٥).

الصَّالحاتِ لهم أجرٌ دائِمٌ غيرُ مُنقَطِعٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ١﴾.

هذانِ الحرفانِ مِن الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ؛ لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضَتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[١].

﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢﴾.

أي: هذا القُرآنُ مُنزَّلٌ على مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- مِن عندِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الَّذي وَسِعَتْ رَحمتُه كُلَّ شَيءٍ؛ ومِن رَحمتِه بعِبادِه إنزالُ القُرآنِ المُشتَمِلِ على العِلمِ والهُدى، والنُّورِ والشِّفاءِ، والرَّحمةِ والخَيرِ والسَّعادةِ[٢].

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾.

أي: هذا كِتابٌ بيَّن اللهُ آياتِه بَيانًا تامًّا واضِحًا حالَ كونِه قرآنًا عربيًّا، لِقَومٍ يَعلَمونَ اللِّسانَ العَرَبيَّ، فيَتمَكَّنونَ مِن فَهمِه وتدَبُّرِه والانتِفاعِ ببَيانِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦-١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٩-٢٣١).

قال ابن عطية: (﴿فُصِّلَتۡ﴾ معناه: بُيِّنَت آياتُه، أي: فُسِّرَت معانيه، ففصل بيْنَ حلالِه وحرامِه، =

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

أي: يُبَشِّرُ القُرآنُ مَنْ آمَنَ وعَمِلَ الصَّالحاتِ بحُصولِ الخَيرِ والرَّحمةِ، ويُنذِرُ مَنْ كَفَر وعَمِلَ السَّيِّئاتِ بالشَّرِّ والنِّقمةِ[1].

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

= وزَجْرِه وأمْرِه، ووَعْدِه ووَعيدِه. وقيل: ﴿فُصِّلَتْ﴾ في التَّنزيلِ، أي: نُزِّل نجومًا، لم يُنَزَّلْ مَرَّةً واحِدةً. وقيل: ﴿فُصِّلَتْ﴾ بالمواقِفِ وأنواعِ أواخِرِ الآيِ، ولم يكُنْ يَرجِعُ إلى قافيةٍ ونَحوِها، كالشِّعرِ والسَّجعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ: أنَّ آياتِ القُرآنِ واضِحةُ الأغراضِ، لا تَلتبِسُ إلَّا على مُكابرٍ في دَلالةِ كُلِّ آيةٍ على المقصودِ منها، وفي مَواقِعِها وتمييزِ بَعضِها عن بَعضٍ في المعنى، باختلافِ فُنونِ المعاني الَّتي تَشتمِلُ عليها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣١).

وقال الماوَرْدي: (﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: يَعلَمونَ أنَّه إلهٌ واحِدٌ في التَّوراةِ والإنجيلِ. قاله مجاهدٌ. الثَّاني: أنَّ القُرآنَ مِن عندِ اللهِ نَزَل. قاله الضَّحَّاكُ. الثَّالثُ: يَعلَمونَ العَربيَّةَ فيَعجِزونَ عن مِثْلِه). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٦٨).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أي: اللُّغةَ العربيَّةَ: ابنُ جرير، والنحاس، والبغوي، والقرطبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٦)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٢٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٣).

وقال البقاعي: (﴿يَعْلَمُونَ﴾ أي: فيهم قابليَّةُ العِلمِ، وتجَدُّدُ الفَهمِ، بما فيهم مِن سَلامةِ الطَّبعِ، وسَلاسةِ الانقيادِ لِبَراهينِ العَقلِ والسَّمعِ، وحِدَّةِ الأذهانِ، وفَصاحةِ اللِّسانِ، وصِحَّةِ الأفكارِ، وبُعْدِ الأغوارِ، وفي هذا تَبكيتٌ لهم في كَونِهم لا ينظرونَ مَحاسِنَه فيَهتَدوا بها، كما يَعتَنونَ بالنَّظَرِ في القَصائِدِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧).

أي: فأعرَضَ[١] أكثَرُ كفَّارِ قريشٍ[٢] عن سَماعِ القُرآنِ وتدَبُّرِه واتِّباعِه، فهم لا يَسمَعونَه سَماعَ قَبولٍ وانتِفاعٍ[٣].

---

(١) قال ابنُ عثيمين: (الفاءُ عاطِفةٌ، و«أَعْرَضَ» مَعطوفةٌ على ﴿فُصِّلَتْ﴾، يعني: كتابٌ فُصِّلَت آياتُه، ومعَ ذلك أعرَضَ أكثَرُهم، ويحتمِلُ أن تكونَ الفاءُ للاستئنافِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧).

(٢) ممَّن اختار القولَ المذكورَ؛ أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى كُفَّارِ قُرَيشٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن كثير. يُنظر: ((مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١).

وقيل: يعودُ إلى القَوم المذكورينَ في قَولِه تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: كانوا مِن أهلِ العِلم، ولكِنْ لم ينظروا النَّظَرَ التَّامَّ، بل أعرَضوا، فهم لا يَسمَعونَ؛ لإعراضِهم عمَّا احتوَى عليه من الحُجَجِ والبراهينِ، أو لَمَّا لم يَنتفِعْ به ولم يَقبَلْه، جُعِلَ كأنَّه لم يَسمَعْه. وممَّن ذهَب إلى أنَّه يعودُ إلى القومِ المذكورينَ: ابنُ عطية، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٥).

وردَّ هذا القولَ ابنُ عاشور، فذكر أنَّ الضَّميرَ (ليس عائدًا إلى ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ لِأنَّ الذين يَعلَمونَ لا يُعرِضُ أحَدٌ منهم). يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٣).

وقيل: المرادُ: أكثَرُ الخَلقِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٢، ٢٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧، ٢٨).

قال السَّعدي: (أعرَضَ أكثَرُ الخَلقِ عنه إعراضَ المُستَكبِرينَ ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ له سَماعَ قَبولٍ وإجابةٍ، وإن كانوا قد سَمِعوه سماعًا تقومُ عليهم به الحُجَّةُ الشَّرعيَّةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤، ٧٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (أي: فهُم لا يُلقُونَ أسماعَهم للقُرآنِ، فَضلًا عن تدَبُّرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٣).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَفَ القُرآنَ بأنَّهم أعرَضوا عنه ولا يَسمَعونَه؛ بيَّنَ أنَّهم صَرَّحوا بهذه النَّفرةِ والمُباعَدةِ(١).

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾.

أي: وقال المُعرِضونَ عن القُرآنِ: قُلوبُنا الَّتي نَعقِلُ بها ونَفهمُ في أَغطِيةٍ مُحيطةٍ بها، تَمنَعُ عنَّا فَهْمَ ما تَدْعونا إليه، يا مُحمَّدُ(٢)!

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾.

أي: وفي آذانِنا ثِقْلٌ قد أصَمَّها عن السَّماعِ؛ فنَحن لا نَسمَعُ ما تَدْعونا إليه(٣)!

﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾.

أي: ومِن بَيْنِنا وبَينِك حاجِزٌ يَحجُبُنا عنك؛ فنحن لا نراك(٤)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥، ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦).

قال ابنُ جرير: (﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ وهو الثِّقْلُ، لا نَسمَعُ ما تَدْعونا إليه؛ استِثقالًا لِما يَدعو إليه، وكراهةً له). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٣)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾.

أي: فاعمَلْ -يا مُحمَّدُ- بدينِك، إنَّنا عامِلونَ بدِينِنا الَّذي رَضِيناه لأنفُسِنا، فلن نتَّبِعَك[1].

= السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٠، ٣١).

قال البقاعي: (فنحن لا نراكَ لِنَفهمَ عنك بالإشارةِ، فانسدَّت طُرُقُ الفَهمِ لِما تقولُ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٤٣).

وقال السعدي: (القَصدُ مِن ذلك: أنَّهم أظهَروا الإعراضَ عنه مِن كُلِّ وَجهٍ، وأظهَروا بُغْضَه، والرِّضا بما هم عليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

وقال الشنقيطي: (أنَّ مِن بَيْنِهم وبينِه حِجابًا مانِعًا لهم مِنَ الاتِّصالِ والاتِّفاقِ؛ لأنَّ ذلك الحِجابَ يَحجُبُ كُلًّا منهما عن الآخَرِ، ويَحولُ بيْنَهم وبيْنَ رؤيةِ ما يُبدِيه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الحَقِّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٦).

وقال أيضًا: (اللهُ جَعَل لهم قلوبًا يَفهَمونَ بها، وآذانًا يَسمَعونَ بها، خِلافًا لِما زَعَموا، ولكِنَّه سبَّب لهم الأكِنَّةَ والوَقْرَ والحِجابَ؛ بسَبَبِ مُبادرتِهم إلى الكُفرِ وتكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا المعنى أوضَحَه رَدُّه تعالى على اليهودِ في قَولِه عنهم: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٨).

وقيل: المرادُ بالحجابِ: فُرقةٌ في الدِّينِ، وحاجزٌ في النِّحلةِ. وممَّن اختاره: الفَرَّاءُ، والواحدي، وابن الجوزي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥).

وقال ابن عطية: (والحِجابُ الَّذي أشاروا إليه: هو مُخالَفتُه إيَّاهم، ودعوتُه إلى اللهِ دونَ أصنامِهم، أي: هذا أمرٌ يَحجُبُنا عنك، وهذه مقالةٌ تَحتمِلُ أن تكونَ معها قرينةُ الجِدِّ في المُحاوَرةِ وتتضَمَّنُ المباعَدةَ، ويحتمِلُ أن تكونَ معها قرينةُ الهَزلِ والاستِخفافِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) =

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَروا بإعراضِهم، وعَلَّلوا بعَدَمِ فَهْمِهم بما يَدعو إليه؛ أمَرَ الله سُبحانَه نبيَّه بجَوابٍ يُبَيِّنُ أنَّهم على مَحضِ العِنادِ(١).

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنَّما أنا مِثلُكم في الجِنسِ والهَيئةِ، والصُّورةِ والصِّفاتِ البَشَريَّةِ(٢).

= (ص: ٧٤٤).

قال ابن عطية: (يحتمِلُ أن يكونَ القَولُ تهديدًا، ويحتمِلُ أن يكونَ مُتارَكةً مَحضةً). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩).

قال السعدي: (﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: هذه صِفتي ووظيفتي، أنِّي بشرٌ مِثلُكم، ليس بيدي مِن الأمرِ شَيءٌ، ولا عندي ما تَستعجِلونَ به، وإنَّما فضَّلني الله عليكم وميَّزني وخصَّني بالوحيِ الَّذي أوحاه إلَيَّ، وأمَرني باتِّباعِه، ودعوَتِكم إليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

وقال ابنُ عاشور: (كأنَّه يقولُ: وماذا أستطيعُ أن أعمَلَ معكم، فإنِّي رَسولٌ مِن اللهِ، فحِسابُكم على اللهِ،... أي: أنا مقصورٌ على البَشَريَّةِ، دونَ التصَرُّفِ في قُلوبِ النَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٧).

وقال الشوكاني: (قيل: ومعنَى الآيةِ: أنِّي لا أقدِرُ على أنْ أحْمِلَكم على الإيمانِ قَسْرًا؛ فإنِّي بشرٌ مِثلُكم، ولا امتيازَ لي عنكم إلَّا أنِّي أُوحِي إلَيَّ التَّوحيدُ والأمرُ به، فعلَيَّ البلاغُ وحْدَه، فإنْ قَبِلْتُم رَشَدْتُم، وإنْ أبَيْتُم هلَكْتُم. =

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

أي: يُوحَى إلَيَّ أنَّ مَعبودَكم مَعبودٌ واحِدٌ لا تَصلُحُ العبادةُ إلَّا له وَحْدَه سُبحانَه لا شَريكَ له[١].

﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾.

أي: فاسلُكوا الصِّراطَ المُستقيمَ المُوصِلَ إلى الله، مُتوَجِّهينَ إليه بإخلاصِ العبادةِ له، وسَلُوه سَتْرَ ذُنوبِكم، والتَّجاوُزَ عن مُؤاخَذتِكم بها[٢].

﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

أي: وهَلاكٌ وعَذابٌ شديدٌ للَّذين يَجعَلونَ لله شَريكًا في عِبادتِه[٣].

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧﴾.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: الَّذين لا يُزَكُّونَ أنفُسَهم ولا يُطَهِّرونَها بالإيمانِ باللهِ، وطاعتِه وَحْدَه، والعملِ الصَّالحِ، والبُعدِ عن الإشراكِ بالله ومَعصيتِه[٤].

= وقيل: المعنَى: إنِّي لستُ بمَلَكٍ، وإنَّما أنا بشرٌ مِثلُكم، وقد أُوحِيَ إلَيَّ دونكم، فصِرْتُ بالوحيِ نبيًّا، ووَجَب عليكم اتِّباعي). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٥-٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٢٩)، ((مجموع =

= الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٣٣)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٧، ٣٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالزَّكاةِ هنا: التَّوحيدُ: ابن عطيَّةَ ونسَبَه للجمهورِ، وابنُ القيِّم -ونسَبَه لأكثرِ المفسِّرينَ-، والعُلَيمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٧، ٣٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٩).

قال ابن القيِّم: (قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال أكثرُ المفسِّرينَ مِن السَّلفِ ومَن بعدَهم: هي التَّوحيدُ: شَهادةُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، والإيمانُ الَّذي به يَزكو القلبُ). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٤٩).

وقال ابن عثيمين: (متى حقَّق الإنسانُ التَّوحيدَ فلا بدَّ أن يقومَ بشَرائعِ الإسلامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٤٥).

وقيل: المرادُ بالزَّكاةِ: زكاةُ المالِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والبيضاويُّ، وابن جُزَي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨٦).

وقال السمعاني: (وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: لا يَرَوْنَ الزَّكاةَ واجبةً عليهم كما يَراه المسلمون. ويُقالُ: معنى الإيتاءِ هو على ظاهِرِه، والكافرُ يُعاقَبُ في الآخرةِ بتركِ إيتاءِ الزَّكاةِ؛ لأنَّهم مُخاطَبون بالشَّرائعِ. ذكره جماعةٌ مِن أهلِ العِلمِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٧).

واختار مقاتلٌ أنَّ المرادَ: لا يُعطون الصَّدقةَ، ولا يُطعِمون الطَّعامَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٦).

وقال ابنُ جُزَي: (قيل: يعني بالزَّكاةِ: التَّوحيدَ. وهذا بعيدٌ، وإنَّما حمَلَه على ذلك؛ لأنَّ الآياتِ مَكِّيَّةٌ، ولم تُفرَضِ الزَّكاةُ إلَّا بالمدينةِ، والجوابُ: أنَّ المرادَ: النَّفَقةُ في طاعةِ الله مُطلقًا، وقد =

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: وهم مُنكِرونَ للآخرةِ، جاحِدونَ بها، فلا يُؤمِنونَ بالحياةِ الأُخرى بعدَ المَوتِ[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر عقوبةَ المشركينَ؛ بيَّن ثوابَ المؤمنينَ[2].

= كانت مأمورًا بها بمكَّةَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٧).

وقال ابنُ كثير: (هذا هو الظَّاهِرُ عندَ كثيرٍ مِن المفَسِّرينَ [أي أنَّ المرادَ منْعُ زكاةِ أموالِهم]، واختاره ابنُ جرير. وفيه نَظَرٌ؛ لأنَّ إيجابَ الزَّكاةِ إنَّما كان في السَّنةِ الثَّانيةِ مِن الهِجرةِ إلى المدينةِ، على ما ذكَرَه غيرُ واحدٍ، وهذه الآيةُ مَكِّيَّةٌ، اللَّهُمَّ إلَّا أن يُقالَ: لا يَبعُدُ أن يكونَ أصلُ الزَّكاةِ الصَّدَقةَ، وكان مأمورًا به في ابتداءِ البَعثةِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فأمَّا الزَّكاةُ ذاتُ النُّصُبِ والمقاديرِ فإنَّما بُيِّنَ أمْرُها بالمدينةِ، ويكونُ هذا جَمعًا بيْن القولَينِ، كما أنَّ أصلَ الصَّلاةِ كان واجبًا قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غُروبِها في ابتداءِ البَعثةِ، فلمَّا كان لَيلةُ الإسراءِ قبْلَ الهِجرةِ بسَنةٍ ونِصفٍ فَرَضَ اللهُ على رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم الصَّلَواتِ الخَمْسَ، وفَصَّل شُروطَها وأركانَها وما يَتعلَّقُ بها بعدَ ذلك شيئًا فشَيئًا. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٤).

وممَّن جَمَع بيْن المعنيَينِ: السعدي، فقال: (لم يُزَكُّوها بتوحيدِ رَبِّهم والإخلاصِ له، ولم يُصَلُّوا ولا زكَّوا؛ فلا إخلاصَ للخالِقِ بالتَّوحيدِ والصَّلاةِ، ولا نَفْعَ للخَلقِ بالزَّكاةِ وغَيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٥، ١٤٦).

واختار ابنُ تيميَّةَ ما هو أعَمُّ مِن ذلك، فقال: (التَّحقيقُ أنَّ الآيةَ تَتناوَلُ كُلَّ ما يَتزكَّى به الإنسانُ مِن التَّوحيدِ والأعمالِ الصَّالحةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٦٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٠). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٧).

=

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾.

أي: إنَّ الَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ لهم أجرٌ دائِمٌ، وثَوابٌ غيرُ مُنقَطِعٍ(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فيه تنبيهٌ على الإخلاصِ، وأنَّ العامِلَ يَنبغي له أن يجعَلَ مَقصودَه وغايتَه الَّتي يَعمَلُ لأجْلِها الوُصولَ إلى اللهِ تعالى، وإلى دارِ كَرامتِه؛ فبذلك يكونُ عَمَلُه خالِصًا صالِحًا نافِعًا، وبفَواتِه يَكونُ عَمَلُه باطِلًا(٢)، فالآيةُ دلَّت على وُجوبِ الإخلاصِ للهِ، والاستِقامةِ على دينِه؛ فـ«استقيموا» هذا العَمَلُ، و«إليه» هذا الإخلاصُ(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ لَمَّا كان العَبدُ -ولو حَرَص

= وفي ذلك تحقيقُ أنَّ القُرآنَ مَثَانٍ؛ تُثَنَّى فيه المعاني المُتقابِلةُ، فإذا ذُكِرَ ثوابُ المجرِمينَ ذُكِرَ ثوابُ المتَّقينَ، وإذا ذُكِرَتِ الجنَّةُ ذُكِرتِ النَّارُ، وهَلُمَّ جَرًّا؛ مِن أجْلِ أنْ يكونَ الإنسانُ سائِرًا إلى ربِّه بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ، وهكذا يَنبغي للإنسانِ في سَيرِه إلى ربِّه أن يَكونَ خائفًا راجيًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١، ١٢).

قال ابن عثيمين: (وقيل: ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾: غَيرُ مَمنونٍ به، أي: يُعطَونَه بلا مِنَّةٍ، وهذا محتمِلٌ، وإذا كان محتمِلًا لا يُنافي المعنى الأوَّلَ كان المرادُ بالآيةِ المعنيَينِ جميعًا؛ إذ لدينا قاعِدةٌ ... وهي: إذا كان النَّصُّ يحتمِلُ معنيَينِ لا يُنافي أحَدُهما الآخَرَ، فإنَّ النَّصَّ يُحمَلُ عليهما جميعًا ... لكِنْ إذا كان أحَدُهما أرجَحَ مِن الآخَرِ فإنَّه يُتبَعُ الأرجَحُ، إذَنْ قَولُه تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ أي: ثوابٌ غيرُ مَقطوعٍ، وثوابٌ غَيرُ مَمنونٍ به). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٤٧).

على الاستِقامةِ- لا بُدَّ أن يَحصُلَ منه خَلَلٌ بتَقصيرٍ بمأمورٍ، أو ارتِكابِ مَنهيٍّ؛ أمَرَه بدواءِ ذلك بالاستِغفارِ المتضَمِّنِ للتَّوبةِ[١]، فالآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّه لا بُدَّ مِن تقصيرٍ في الاستِقامةِ المأمورِ بها، فيُجبَرُ ذلك بالاستغفارِ المُقتَضي للتَّوبةِ، والرُّجوعِ إلى الاستِقامةِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أنَّ التَّوحيدَ تزكيةٌ للنَّفْسِ، ولا شكَّ أنَّ التَّوحيدَ تزكيةٌ للنَّفْسِ؛ لأنَّك تَقْطَعُ العَلائقَ مع غيرِ اللهِ إلَّا فيما يُحِبُّ اللهُ تعالى[٣]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ كلمةِ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إثباتُ العُلُوِّ للهِ تعالى؛ ووجْهُ ذلك: الإخبارُ بنزولِ الأشياءِ مِن عِندِه سبحانَه[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ...﴾ فيه إيماءٌ إلى استِحماقِ الَّذين أعرَضوا عن الاهتِداءِ بهذا الكِتابِ بأنَّهم أعرَضوا عن رَحمةٍ، وأنَّ الَّذين اهتَدَوا به هم أهلُ المَرحَمةِ[٥].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ فيه أنَّه يَجِبُ على المكَلَّفِ تَنزيلُ ألفاظِ القُرآنِ على المعاني الَّتي هي مَوضوعةٌ لها بحَسَبِ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ، فأمَّا حَمْلُها على مَعانٍ أُخَرَ لا بهذا الطَّريقِ فهذا باطِلٌ قَطعًا، وذلك مِثلُ الوُجوهِ الَّتي يَذكُرُها أهلُ الباطِنِ، مِثلُ أنَّهم تارةً يَحمِلونَ الحُروفَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحِكَم)) لابن رجب (١/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٤٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٠).

على حِسابِ الجُمَّلِ[١]، وتارةً يَحمِلونَ كُلَّ حَرفٍ على شَيءٍ آخَرَ، وللصُّوفيَّةِ طُرُقٌ كَثيرةٌ في البابِ، ويُسَمُّونَها عِلمَ المكاشَفةِ! والَّذي يدُلُّ على فَسادِ تلك الوُجوهِ بأسْرِها قَولُه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، وإنَّما سمَّاه عرَبيًّا؛ لِكَونِه دالًّا على هذه المعاني المَخصوصةِ بوَضعِ العَرَبِ وباصطِلاحاتِهم، وذلك يدُلُّ على أنَّ دَلالةَ هذه الألفاظِ لم تَحصُلْ إلَّا على تلك المعاني المَخصوصةِ، وأنَّ ما سِواه فهو باطِلٌ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أنَّ القُرآنَ نَزَلَ باللُّغةِ العَرَبيَّةِ؛ ففيه مَنقَبةٌ للعَرَبِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ نَزَلَ بلُغتِهم، وفيه إحياءٌ للُّغةِ العَرَبيَّةِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ سيبقَى إلى أنْ يأذَنَ اللهُ بخَرابِ العالَمِ، ومِن المعلومِ أنَّه إذا بَقِيَ باللِّسانِ العربيِّ فسوف تَحيا اللُّغةُ العَرَبيَّةُ وتبقَى، وهذا مِن آثارِ القُرآنِ الكريمِ[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، قولُه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ استُدِلَّ به على فسادِ ما ذهَب إليه قومٌ مِن أنَّه حصَل في القرآنِ مِن سائرِ اللُّغاتِ، كقولِه: ﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، و: ﴿سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]، فقالوا: إنَّهما فارسيَّانِ، وقولِه: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥]، قالوا: إنَّها مِن لغةِ الحبشةِ، وقولِه ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ [الإسراء: ٣٥]، قالوا: إنَّه مِن لغةِ الرُّومِ[٤].

---

(١) حسابُ الجُمَّلِ: ضربٌ مِن الحسابِ يُجعَلُ فيه لكلِّ حرفٍ مِن الحروفِ الأبجديةِ عددٌ مِن الواحِدِ إلى الألْفِ على ترتيبٍ خاصٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ١٣٦)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (١/ ٣٩٩). ويُنظر أيضًا: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ٧٤، ٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٨٢) و (١٧/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٩). ويُنظر أيضًا: ((الاعتصام)) للشاطبي (٢/ ٤٧-٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤). =

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ وَصَف اللهُ تعالى القُرآنَ بكَونِه ﴿عَرَبِيًّا﴾ في مَعرِضِ المَدحِ والتَّعظيمِ، وهذا المَطلوبُ لا يَتِمُّ إلَّا إذا ثَبَت أنَّ لُغةَ العَربِ أفضَلُ اللُّغاتِ[١].

٧- قولُه تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ فيه جوازُ نفيِ السَّمعِ لِمَن لا يَنتَفِعُ به، وكذلك يُقالُ في بقيَّةِ الحَوَاسِّ لِمَن لم يَنتفِعْ بها، نقولُ: إنَّ وُجودَها كالعدمِ! فمَنْ لم يَنتفِعْ بما رأَى نقولُ: هذا لا يُبصِرُ، ولو كان له عينانِ[٢]!

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ المَهدِيَّ مَن هداه اللهُ، وأنَّ الضَّالَّ مَن أضلَّه اللهُ، وتقريرُه: أنَّ الصِّفاتِ المذكورةَ للقُرآنِ في الآياتِ السَّابقةِ تُوجِبُ قُوَّةَ الاهتِمامِ بمَعرفتِه، والوُقوفَ على معانيه؛ فكَونُه نازِلًا مِن عندِ الإلهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ يدُلُّ على اشتِمالِه على أفضَلِ المنافِعِ، وأجَلِّ المَطالِبِ، وكَونُه قُرآنًا عَربيًّا مُفَصَّلًا يدُلُّ على أنَّه في غايةِ الكَشفِ والبَيانِ، وكَونُه بَشيرًا ونَذيرًا يدُلُّ على أنَّ الاحتياجَ إلى فَهمِ ما فيه مِن أهَمِّ المُهِمَّاتِ؛ لأنَّ سَعيَ الإنسانِ في مَعرفةِ ما يُوصِلُه إلى الثَّوابِ أو إلى العِقابِ مِن أهَمِّ المُهِمَّاتِ، وقد حَصَلتْ هذه المُوجِباتُ الثَّلاثةُ في تأكيدِ الرَّغبةِ في فَهمِ القُرآنِ، وفي شِدَّةِ المَيلِ إلى الإحاطةِ به، ثمَّ مع ذلك فقد أعرَضوا عنه، ولم يَلتَفِتوا إليه، ونَبَذوه وراءَ ظُهورِهم! وذلك يدُلُّ على أنَّه لا مَهدِيَّ إلَّا مَن هداه اللهُ، ولا ضالَّ إلَّا مَن أضَلَّه اللهُ[٣].

= ويُنظر الخلافُ في المسألةِ في: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ١٢٥)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٧٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٠).

٩- قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ الحِجابُ يَمنَعُ رُؤيةَ الحَقِّ، والأكِنَّةُ تَمنَعُ مِن فَهْمِه، والوَقرُ يَمنَعُ مِن سَماعِه(١).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ اللهَ تعالى ذكر ذلك عن الكُفَّارِ في مَعرِضِ الذَّمِّ، مع أنَّه تعالى صرَّح في آيات أُخرَى بأنَّه جعَل على قلوبِهم الأكِنَّةَ، وفي آذانِهم الوَقْرَ، وجعَل بيْنَهم وبيْن رسولِه حِجابًا عندَ قراءتِه القُرآنَ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ۝ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦]، وقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ [الكهف: ٥٧]، فذمَّهم على دعواهم الأكنةَ والوقرَ والحجابَ في هذه الآيةِ الكريمةِ مِن (فُصِّلت)، وبيَّن في الآياتِ الأُخرَى أنَّ ما ذمَّهم على ادِّعائِه واقعٌ بهم فعلًا، وأنَّه تعالى هو الذي جعَله فيهم، فكيفَ يُذَمُّونَ على قَولِ شَيءٍ هو حَقٌّ في نَفْسِ الأمرِ؟

والجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى إنَّما جَعَل على قُلوبِهم الأكِنَّةَ، وطَبَع عليها، وخَتَم عليها، وجَعَل الوَقْرَ في آذانِهم، ونحوَ ذلك مِن الموانِعِ مِن الهُدى؛ بسَبَبِ أنَّهم بادَروا إلى الكُفرِ وتكذيبِ الرُّسُلِ طائِعينَ مُختارينَ، فجزاهم اللهُ على ذلك الذَّنْبِ الأعظَمِ طَمْسَ البَصيرةِ، والعَمى عن الهُدى جزاءً وِفاقًا؛ فالأكِنَّةُ والوَقرُ والحِجابُ المذكورةُ إنَّما جعَلَها اللهُ عليهم مُجازاةً لكُفرِهم الأوَّلِ، ومِن جَزاءِ السَّيِّئةِ تَمادي

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٤).

صاحِبِها في الضَّلالِ، ولله الحِكمةُ البالغةُ في ذلك. والآياتُ المصَرِّحةُ بمعنى هذا كثيرةٌ في القُرآنِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، فقَولُ اليَهودِ في هذه الآيةِ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۚ﴾ كقَولِ كُفَّارِ مكَّةَ: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾، وقد رَدَّ اللهُ على اليَهودِ دَعواهم بـ(بل) الَّتي هي للإضرابِ الإبطاليِّ، في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، فالباءُ في قَولِه: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ سَبَبيَّةٌ، وهي دالَّةٌ على أنَّ سَبَبَ الطَّبعِ على قُلوبِهم هو كُفرُهم، والأكِنَّةُ والوَقرُ والطَّبعُ كُلُّها مِن بابٍ واحِدٍ؛ وكقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، والفاءُ في قَولِه: ﴿فَطُبِعَ﴾ سَبَبيَّةٌ، أي: ثمَّ كَفَروا، فطُبِعَ على قُلوبِهم بسَبَبِ ذلك الكُفرِ[١].

١١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فيه الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم خُلِق مِن نورٍ، وأنَّه لا يكونُ له ظِلٌّ إذا مشَى في الشَّمسِ! وجْهُ ذلك: تحقيقُ البشريَّةِ بالمُماثَلةِ؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، فأيُّ أحاديثَ تأتي بمثلِ هذه الأمورِ الَّتي تُوجِبُ إخراجَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن نطاقِ البشريَّةِ فإنَّها موضوعةٌ مكذوبةٌ؛ لأنَّه بَشَرٌ مِثلُنا[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَجتهِدُ؛ ورُبَّما يُخطِئُ في اجتِهادِه؛ لأنَّ هذا مقتضَى البشريَّةِ، وكما هو الواقعُ في مِثلِ قولِ اللهِ تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، وفي قَولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ *

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦، ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٤٠).

فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۞ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۞ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۞ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۞ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس: ١ - ١٠]، لكنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لا يمكِنُ أنْ يُقَرَّ على خطأٍ؛ ولا يمكنُ أنْ يُقَرَّ على نسيانِ ما يجبُ! بل لا بُدَّ أنْ يَتَنَبَّهَ أو يُنَبَّهَ[١].

١٣- في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ أهمِّيَّةُ التَّوحيدِ؛ حيثُ حَصَرَ الوَحيَ بالتَّوحيدِ، قال تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ ﴾، مع أنَّه يُوحَى إليه أشياءُ أُخرى؛ كالصَّلاةِ والزَّكاةِ وغيرِ ذلك، لكِنْ لَمَّا كان أهمَّ ما جاء به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم التَّوحيدُ، حَصَرَ الوحيَ به، فقال: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾[٢].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ﴾ فيه سُؤالٌ: المقصودُ مِن الاستِغفارِ والتَّوبةِ: إزالةُ ما لا ينبغي، وذلك مُقَدَّمٌ على فِعلِ ما يَنبغي، فلِمَ عَكَس هذا التَّرتيبَ هاهنا، وقدَّم ما ينبغي على إزالةِ ما لا ينبغي؟

الجوابُ: ليس المرادُ مِن هذا الاستِغفارِ الاستِغفارَ عن الكُفرِ، بل المرادُ منه أن يَعمَلَ ثمَّ يَستَغفِرَ بعدَه؛ لأجْلِ الخَوفِ مِن وُقوعِ التَّقصيرِ في العَمَلِ الَّذي أَتى به، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((وإنَّه لَيُغانُ[٣] على قَلبي، وإنِّي لأستَغفِرُ اللهَ في اليَومِ واللَّيلةِ مئةَ مرَّةٍ))[٤].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۞ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ استَدَلَّ بَعضُ عُلَماءِ الأُصولِ بهذه الآيةِ الكَريمةِ على أنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّريعةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٥).

(٣) أي: يُطبَقُ ويُستَرُ ويُغَطَّى. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٢).

والحديث رواه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغَرِّ المُزَنيِّ رضيَ اللهُ عنه.

لأنَّه تعالى صَرَّح في هذه الآيةِ الكريمةِ بأنَّهم مُشرِكونَ، وأنَّهم كافِرونَ بالآخِرةِ، وقد تَوعَّدَهم بالوَيلِ على شِرْكِهم وكُفْرِهم بالآخِرةِ، وعَدَمِ إيتائِهم الزَّكاةَ، سواءٌ قيل: إنَّ الزَّكاةَ في الآيةِ هي زَكاةُ المالِ المَعروفةُ، أو زكاةُ الأبدانِ بفِعلِ الطَّاعاتِ واجتِنابِ المعاصي[١]؛ فعلى كُلِّ حالٍ فالآيةُ تدُلُّ على خِطابِ الكُفَّارِ بفُروعِ الإسلامِ[٢].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فيه بَعثٌ للمُؤمِنينَ على أداءِ الزَّكاةِ[٣]، وزِيادةُ التَّحذيرِ والتَّخويفِ عن مَنعِها -على قولٍ في التَّفسيرِ-، حيثُ جُعِلَ مِن أوصافِ المُشرِكينَ بَعدَ قَولِه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾، وقُرِنَ بالكُفرِ بالآخِرةِ حيثُ قيلَ: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[٤]، فمانِعُ الزَّكاةِ مِن المُسلِمينَ له حَظٌّ مِنَ الوَيلِ الَّذي استحَقَّه المُشرِكونَ لِمَنعِهم الزَّكاةَ في ضِمنِ شِرْكِهم[٥].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أنَّ الإيمانَ وَحْدَه لا يكفي حتَّى يَقتَرِنَ بعَمَلٍ، لكنْ إذا أُطلِقَ الإيمانُ شَمِلَ العمَلَ، وإنْ ذُكِرَ معه العَمَلُ صار العَمَلُ علانيةً والإيمانُ سِرًّا، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هنا جَمَعَ بيْنَ الإيمانِ والعَمَلِ، فيكونُ الإيمانُ في القلبِ، والعَمَلُ في الجَوارحِ[٦].

---

(١) بخِلافِ القولِ بأنَّ المرادَ بالزَّكاةِ: الزَّكاةُ بالتَّوحيدِ والإيمانِ؛ فلا دليلَ فيها على ذلك.

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

- افتُتِحتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ بالحَرفَيْنِ المقطَّعَيْنِ مِن حُروفِ الهِجاءِ ﴿حمٓ﴾؛ لأنَّ أوَّلَ أغراضِها أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ؛ ففي حَرفَي الهِجاءِ رَمزٌ إلى عَجزِهم عن مُعارَضَتِه بعدَ أنْ تَحَدَّاهم، لذلك لم يَفعَلوا، وفي ذلك الافتِتاحِ تَشويقٌ إلى تَطَلُّعِ ما يأتي بَعدَه؛ لِلاهتِمامِ به[١].

- ولَعَلَّ افتِتاحَ هذه السُّوَرِ الحَواميمِ السَّبعِ بـ﴿حمٓ﴾، وتَسميَتَها به؛ لِكَونِها مُصَدَّرةً ببَيانِ الكِتابِ، مُتَشاكِلةً في النَّظمِ والمَعنى[٢].

- وأيضًا افتُتِحَ الكَلامُ باسمٍ نَكِرةٍ ﴿تَنزِيلٌ﴾؛ لِمَا في التَّنكيرِ مِنَ التَّعظيمِ[٣].

- قولُه: ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿تَنزِيلٌ﴾، مُؤكِّدٌ لِما أفادَه التَّنوينُ مِن الفَخامةِ الذَّاتيَّةِ بالفَخامةِ الإضافيَّةِ[٤].

- وإيثارُ الصِّفَتَيْنِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على غَيرِهما مِنَ الصِّفاتِ العَليَّةِ؛ لِلإيماءِ إلى أنَّ هذا التَّنزيلَ رَحمةٌ مِنَ اللهِ بعِبادِه؛ لِيُخرِجَهم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، كقولِه تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢).

لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[١] [العنكبوت: ٥١].

- والجَمعُ بيْنَ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيه معنًى حَسَنٌ، وهو أنَّ الرَّحمنَ دالٌّ على الصِّفةِ القائمةِ به سُبحانَه، والرَّحيمَ دالٌّ على تعَلُّقِها بالمرحوم؛ فكان الأوَّلُ للوَصفِ، والثَّاني للفِعلِ؛ فالأوَّلُ دالٌّ أنَّ الرَّحمةَ صِفتُه، والثَّاني دالٌّ على أنَّه يَرحَمُ خَلْقَه برَحمتِه. وقيل: فائِدةُ الجَمعِ بيْن الصِّفتَينِ «الرَّحمنِ والرَّحيمِ»: الإنباءُ عن رَحمةٍ عاجِلةٍ وآجِلةٍ، وخاصَّةٍ وعامَّةٍ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿كِتَٰبٌ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿تَنزِيلٌ﴾؛ فحُصِّلَ مِنَ المَعنى أنَّ التَّنزيلَ مِنَ اللهِ ﴿كِتَٰبٌ﴾، وأنَّ صِفتَه ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، مَوسومًا بكَونِه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾. ويجوزُ جعْلُ قولِه: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في مَوضعِ الصِّفةِ للمُبتدأ، وجعْلُ قولِه: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبَرَ المُبتدأ، وعلى كِلا التَّقديرينِ هو أُسلوبٌ فَخمٌ، والمُرادُ: أنَّه مُنزَّلٌ؛ فالمَصدرُ بمَعنى المَفعولِ، كقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣]، وهو مُبالَغةٌ في كَونِه فَعَل اللهُ تنزيلَه؛ تَحقيقًا لِكَونِه مُوحًى به، وليس مَنقولًا مِن صُحُفِ الأوَّلينَ. وتَنكيرُ لَفظِ ﴿كِتَٰبٌ﴾؛ لإفادةِ التَّعظيمِ[٣].

- قولُه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ومِن كَمالِ تَفصيلِه أنَّه كان بلُغةٍ كَثيرةِ المَعاني، واسِعةِ الأفنانِ، فَصيحةِ الألفاظِ؛ فكانت سالِمةً مِن الْتباسِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٩، ٢٣٠).

الدَّلالةِ، وانغلاقِ الألفاظِ، مع وَفرةِ المَعاني غيرِ المُتنافيةِ في قِلَّةِ التَّراكيبِ؛ فكان وَصْفُه بأنَّه عَربيٌّ مِن مُكَمِّلاتِ الإخبارِ عنه بالتَّفصيلِ، وقد تَكرَّرَ التَّنويهُ بالقُرآنِ مِن هذه الجِهةِ، كقَولِه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]؛ ولهذا فَرَّعَ عليه ذَمَّ الَّذين أعرَضوا عنه بقَولِه هنا: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٤]، وقَولِه هُنالِكَ: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[1] [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١].

- قَوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ القُرآنُ: الكَلامُ المَقروءُ المَتلُوُّ، وكَونُه قُرآنًا مِن صِفاتِ كَمالِه، وهو أنَّه سَهلُ الحِفظِ، سَهلُ التِّلاوةِ؛ ففيه امتِنانٌ بسُهولةِ قِراءَتِه وفَهمِه، كما قال تَعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، و﴿قُرْآنًا﴾ انتَصَبَ على الحالِ، أيْ: فُصِّلتْ آياتُه في حالِ كَونِه قُرآنًا عَربيًّا وقيل: انتَصَبَ ﴿قُرْآنًا﴾ على النَّعتِ المَقطوعِ لِلاختِصاصِ بالمَدحِ؛ فقَولُه: ﴿قُرْآنًا﴾ مَقصودٌ بالذِّكرِ؛ لِلإشارةِ إلى هذه الخُصوصيَّةِ الَّتي اختُصَّ بها مِن بَينِ سائِرِ الكُتُبِ الدِّينيَّةِ، ولولا ذلك لَقال: كِتابٌ فُصِّلت آياتُه عَربيٌّ، كما قال في سُورةِ (الشُّعراءِ): ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[2] [الآية: ١٩٥].

- قولُه: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ صِفةٌ لِقَولِه: ﴿قُرْآنًا﴾ ظَرفٌ مُستَقَرٌّ[3]، أيْ: كائنًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣١).

(٣) الظَّرْف المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّيَ ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِفَ الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ =

لِقَومٍ، باعتِبارِ ما أفادَه قَولُه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ مِن مَعنى وُضوحِ الدَّلالةِ، وسُطوعِ الحُجَّةِ، أو يَتعلَّقُ ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بِقَولِه: ﴿تَنزِيلٌ﴾، أو بقَولِه: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، على مَعنى أنَّ فَوائِدَ تَنزيلِه وتَفصيلِه لِقَومٍ يَعلَمونَ دُونَ غَيرِهم؛ فكَأنَّه لم يُنزَّلْ إلَّا لهم، أيْ: فلا بِدْعَ إذا أعرَضَ عن فَهمِه المُعانِدونَ؛ فإنَّهم قَومٌ لا يَعلَمونَ[1]. وقيل: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿فُصِّلَتْ﴾ أي: يَعلَمون الأشياءَ، ويَعقِلون الدَّلائلَ، فكأنَّه فُصِّلَ لهؤلاء؛ إذ همْ يَنتفِعون به، فخُصُّوا بالذِّكرِ تَشريفًا، ومَن لمْ يَنتفِعْ بالتَّفصيلِ، فكأنَّه لم يُفصَّلَ له[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

- انتَصَبَ ﴿بَشِيرًا﴾ على أنَّه حالٌ ثانيةٌ مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾، أو صِفةٌ لِلَفظِ ﴿قُرْءَانًا﴾، وصِفةُ الحالِ في مَعنى الحالِ؛ فالأَولَى كَونُه حالًا ثانيةً، وجيءَ بقَولِه: ﴿وَنَذِيرًا﴾ مَعطوفًا بالواوِ؛ لِلتَّنبيهِ على اختِلافِ مَوقِعِ كُلٍّ مِنَ الحالَيْنِ، فهو بَشيرٌ لِقَومٍ، وهمُ الَّذينَ اتَّبَعوه، ونَذيرٌ لِآخَرينَ، وهمُ المُعرِضونَ عنه، وليس هو جامِعًا بيْنَ البِشارةِ والنِّذارةِ لِطائِفةٍ واحِدةٍ[3].

- قولُه: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ تفريعٌ على ما ذُكِرَ مِن صِفاتِ القُرآنِ، وضَميرُ ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ عائِدٌ إلى مَعلومٍ مِنَ المَقامِ، وهمُ المُشرِكونَ، والمَعنى: فأعرَضَ

= للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٢).

أكثَرُ هؤلاء عمَّا في القُرآنِ مِنَ الهُدى؛ فلم يَهتَدوا، ومِنَ البشارةِ فلم يُعنَوْا بها، ومِنَ النِّذارةِ فلم يَحذَروها، فكانوا في أشَدِّ الحَماقةِ؛ إذْ لم يُعنَوْا بخَيرٍ، ولا حَذِروا الشَّرَّ، فلم يَأخُذوا بالحَيطةِ لِأنفُسِهم(١).

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لِلتَّفريعِ على الإعراضِ، أيْ: فهمْ لا يُلْقونَ أسماعَهم لِلقُرآنِ، فَضلًا عن تَدَبُّرِه، وهذا إجمالٌ لِإعراضِهم. وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ دُونَ أنْ يَقولَ: (فلا يَسمَعونَ)؛ لِإفادةِ تَقَوِّي الحُكمِ وتأكيدِه، والمَعنى: أنَّهم لا يَقبَلونَ ولا يُطيعونَ، مِن قَولِكَ: تَشَفَّعتُ إلى فُلانٍ فلم يَسمَعْ قَولي، ولقد سَمِعَه، ولكِنَّه لَمَّا لم يَقبَلْه، ولم يَعمَلْ بمُقتَضاه؛ فكَأنَّه لم يَسمَعْه(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿فَأَعْرَضَ﴾، أو حالٌ مِن ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾، أو عُطِفَ على ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ في الآيةِ السَّابقةِ، أو حالٌ مِن ضَميرِه، والمَعنى: أنَّهم أعرَضوا مُصَرِّحينَ بقِلَّةِ الاكتِراثِ، وبالانتِصابِ لِلجَفاءِ والعَداءِ. وهذا تَفصيلٌ لِلإعراضِ عمَّا وُصِفَ به القُرآنُ مِنَ الصِّفاتِ الَّتي شأنُها أنْ تُقَرِّبَهم إلى تَلَقِّيه، لا أنْ يَبعُدوا ويُعرِضوا، وقد جاءَ بالتَّفصيلِ بأقوالِهمُ الَّتي حَرَمَتْهم مِنَ الانتِفاعِ بالقُرآنِ واحِدًا واحِدًا(٣).

- قولُه: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ إنْ قِيلَ: هلَّا قِيلَ: (على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٣).

قُلوبِنا أكِنَّةٌ)، كما قِيل: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾؛ لِيَكونَ الكلامُ على نَمطٍ واحدٍ؟

فالجوابُ: أنَّه على نمَطٍ واحدٍ؛ لأنَّه لا فرْقَ في المعنى بيْن قَولِك: قُلوبُنا في أكِنَّةٍ، وعلى قُلوبِنا أكِنَّةٌ، والدَّليلُ عليه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ [الكهف: ٥٧]. ولو قِيل: إنَّا جَعَلْنا قُلوبَهم في أكِنَّةٍ، لم يَختلِفِ المعنى؛ فالمَظروفُ كما هو مُستقِرٌّ في الظَّرْفِ، فإنَّ الظَّرْفَ أيضًا مُشتمِلٌ عليه. وقيل: بلْ إنَّ (في) أبلَغُ في هذا الموضعِ مِن (على)؛ لأنَّهم قَصَدوا إفراطَ عَدمِ القَبولِ؛ لِحُصولِ قُلوبِهم في أكِنَّةٍ احتَوَت عليها احتواءَ الظَّرْفِ على المَظروفِ؛ فلا يُمكِنُ أنْ يَصِلَ إليها شَيءٌ، كما تقولُ: المالُ في الكِيسِ، بخلافِ قَولِك: على المالِ كِيسٌ؛ فإنَّه لا يدُلُّ على الحصْرِ وعَدَمِ الحُصولِ دَلالةَ الوِعاءِ. ولو قيل: (على قُلوبِنا أكِنَّةٌ) كما في تلك الآيةِ: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾، لم يَحصُلِ التَّطابُقُ في معنى الاستقرارِ وجَعْلِ أحدِهما ظَرْفًا والآخَرِ مَظروفًا. ولو قِيل: (على آذانِنا وَقْرٌ) لم يكُنْ بتلك المُبالَغةِ؛ لأنَّ المرادَ أنَّ الأصْمِخةَ[1] قد سُدَّت فلا يَدخُلُ فيها الهواءُ، فضْلًا عن الكلامِ. وأمَّا معنى (على) في آيةِ ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ [الكهف: ٥٧]، فلإرادةِ معنى الاستعلاءِ والقهْرِ مِن اللهِ تعالى[2].

- قَولُه: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ وقَع الاقتِصارُ على هذه الأعضاءِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّ القَلبَ مَحَلُّ المَعرِفةِ، والسَّمعَ والبَصَرَ مُعينانِ على تحصيلِ المعارِفِ؛ لذا ذَكَروا أنَّ هذه

---

(١) الأصْمِخة: جمْع الصِّماخِ، وهو: خَرْقُ الأُذُنِ. وقيل: هو الأُذُنُ نفْسُها. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٦٣، ٥٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٤).

الثَّلاثةَ مَحجوبةٌ عن أن يَصِلَ إليها مِمَّا يُلقيه الرَّسولُ شَيءٌ[١].

- وفي هذه الآيةِ مِن المُبالَغةِ والبلاغةِ ما لا يَليقُ أنْ يَنتظِمَ إلَّا في دُرَرِ الكِتابِ العزيزِ؛ فإنَّها اشتمَلَت على ذِكرِ حُجُبٍ ثلاثةٍ مُتواليةٍ، كلُّ واحدٍ منها كافٍ في فَنِّه: أوَّلُها: الحِجابُ الحائِلُ الخارِجُ؛ فقد شَبَّهوا قُلوبَهم بالشَّيءِ المُحوى المُحاطِ بالغِطاءِ المُحيطِ له، ووَجهُ الشَّبَهِ حَيلولةُ وُصولِ الدَّعوةِ إلى عُقولِهم، كما يَحولُ الغِطاءُ والغِلافُ دُونَ تَناوُلِ ما تَحتَه. ثانيها: حِجابُ الصَّمَمِ؛ فقد شَبَّهوا أسماعَهم بآذانٍ بها صَمَمٌ مِن حيثُ إنَّها تَمُجُّ الحَقَّ، ولا تَميلُ إلى استِماعِه. ثالِثُها: وأقصاها الحِجابُ الَّذي أكَنَّ القَلبَ -والعياذُ باللهِ- في قَولِه: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾؛ فقد شَبَّهوا حالَ أنفُسِهم مع الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بحالِ شَيئَيْنِ بَيْنَهما حِجابٌ عَظيمٌ يَمنَعُ مِن وُصولِ أحَدِهما إلى الآخَرِ، فلمْ تَدَعْ هذه الآيةُ حِجابًا مُرتَخيًا إلَّا سَدَلَتْه، ولم تُبقِ لِهؤلاء الأشقياءِ مَطمَعًا ولا صَريحًا إلَّا استَلَبَتْه، وقد جَمَعوا بيْنَ الحالاتِ الثَّلاثِ في التَّمثيلِ لِلمُبالَغةِ في أنَّهم لا يَقبَلونَ ما يَدعوهم إليه[٢].

- وفائِدةُ ذِكرِ (مِنْ) في قَولِه: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ مع حُصولِ المَعنى بحَذفِها -كما في قولِه تعالى: ﴿جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٥]-: الدَّلالةُ على أنَّ حِجابًا ابتدَأَ مِنَّا، وابتدَأَ مِنكَ؛ فالمسافةُ المتوسِّطةُ لِجِهتِنا وجِهَتِك مُستوعَبةٌ بالحِجابِ لا فراغَ فيها،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٣١، ٥٣٢).

وبتَقديرِ حَذفِها يَصيرُ المَعنى: إنَّ الحِجابَ حاصِلٌ في المَسافةِ بيْنَنا وبيْنَه[١].

وقيل: بلِ الصَّحيحُ أنَّها هاهنا مِثلُ ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٩]؛ لِلإشعارِ بأنَّ الجِهةَ المُتوسِّطةَ بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبيْنَهم مَبدَأُ الحِجابِ[٢]. وقيل: إنَّ اجتلابَ حَرْفِ (مِن) في قولِه: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾؛ لِتَقويةِ معنى الحِجابِ بيْن الطَّرَفينِ، وتَمكُّنِ لازِمِه الَّذي هو بُعدُ المسافةِ الَّتي بيْن الطَّرَفينِ؛ لأنَّ (مِن) هذه صِلةٌ لِتَأكيدِ مَضمونِ الجُملةِ[٣].

- وعَطفُ ﴿وَبَيْنِكَ﴾ تَأكيدٌ؛ لِأنَّ واوَ العَطفِ مُغْنيةٌ عنه[٤].

- القَولُ المَحكيُّ عنهم في القُرآنِ بـ(قَالُوا) في قولِه: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يَكونَ القُرآنُ حَكاهُ عنهم بالمَعنى؛ فجَمَع القُرآنُ بإيجازِه وبَلاغَتِه ما أطالوا به الجِدالَ وأطنَبوا في اللَّجاجِ. ويَحتمِلُ أنَّه حكاهُ بلَفظِهم؛ فيَكونُ مِمَّا قاله أحَدُ بُلَغائِهم في مَجامِعِهمُ الَّتي جَمَعتْ بَيْنَهم وبيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ويَحتمِلُ أنْ يَكونوا تَلَقَّفوه مِمَّا سَمِعوه في القُرآنِ مِن وَصْفِ قُلوبِهم وسَمعِهم وتَباعُدِهم، كقَولِه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]؛ فإنَّ سُورةَ (الإسراء) مَعدودةٌ في النُّزولِ قبْلَ سُورةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ١٨٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٤). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٥).

(فُصِّلتْ)، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] أيضًا، فجَمَعوا ذلك وجادَلوا به الرَّسولَ؛ فيَكونُ ما في هذه الآيةِ مِنَ البَلاغةِ قدِ اقتَبَسوه مِن آياتٍ أُخرى. وقيلَ: إنَّ قائِلَه أبو جَهلٍ في مَجمَعٍ مِن قُرَيشٍ؛ فلذلك أسنَدَ القَولَ إليهم جَميعًا؛ لِأنَّهم مُشايِعونَ له[1].

- وقد جاءَ في حِكايةِ أقوالِهم ما فيه تَفصيلُ ما يُقابِلُ ما ذُكِرَ قَبْلَه مِن صِفاتِ القُرآنِ، وهي ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢، ٣]؛ فإنَّ كَوْنَه تَنزيلًا مِنَ الرَّحمنِ الرَّحيمِ يَستَدعي تَفَهُّمَه والانتِفاعَ بما فيه، فقُوبِلَ بقَولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾، وكَوْنَه فُصِّلتْ آياتُه يَستَدعي تَلَقِّيَها والاستِماعَ إليها، فقُوبِلَ بقَولِهم: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾، أيْ: فلا نَسمَعُ تَفصيلَه، وكَوْنَه قُرآنًا عَرَبيًّا أشَدُّ إلزامًا لهم بفَهمِه، فقُوبِلَ ذلك بما يَقطَعُ هذه الحُجَّةَ وهو ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، أيْ: فلا يَصِلُ كَلامُه إليهم، ولا يَتطَرَّقُ جانِبَهم، فهذه تَفاصيلُ إعراضِهم عن صِفاتِ القُرآنِ[2].

- وقَولُهم: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ تَفريعٌ على تأْييسِهمُ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن قَبولِهم دَعوَتَه، وجُعِلَ قَولُهم هذا مُقابِلَ وَصفِ القُرآنِ بأنَّه بَشيرٌ ونَذيرٌ؛ لِظُهورِ أنَّه تَعَيَّنَ كَونُه نَذيرًا لهم بعَذابٍ عَظيمٍ؛ لِأنَّهم أعرَضوا، فحُكيَ ما فيه تَصريحُهم بأنَّهم لا يَعبَؤونَ بِنِذارَتِه، فإنْ كانَ له أذًى فلْيُؤذِهم به[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٣٦).

- وحُذِفَ مَفعولَا (اعمَلْ) و﴿عَٰمِلُونَ﴾؛ لِيَعُمَّ كُلَّ ما يُمكِنُ عَمَلُه، كُلٌّ معَ الآخَرِ ما يُناسِبُه[١].

- والأمْرُ في قَولِه: ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ مُستَعمَلٌ في التَّسويةِ، والخَبَرُ في قَولِهم: ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ مُستَعمَلٌ في التَّهديدِ[٢]. وذلك على قولٍ.

٥- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، هو تَلقينُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُجيبَ قَولَهم: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] المُفرَّعَ على قَولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٥] إلى آخِرِه، جَوابَ المُتَبَرِّئِ مِن أنْ يَكونَ له حَولٌ وقُوَّةٌ لِيَعمَلَ في إلْجائِهم إلى الإيمانِ لَمَّا أبَوْه؛ إذْ ما هو إلَّا بَشَرٌ مِثلُهم في البَشريَّةِ، لا حَولَ له على تَقليبِ القُلوبِ الضَّالَّةِ إلى الهُدَى، وما عليه إلَّا أنْ يُبَلِّغَهم ما أوْحى اللهُ إليه، وهذا الخَبَرُ يُفيدُ كِنايةً عن تَفويضِ الأمْرِ في العَمَلِ بجَزائِهم إلى اللهِ تَعالى، كأنَّه يَقولُ: وماذا أستَطيعُ أنْ أعمَلَ مَعَكم؛ فإنِّي رَسولٌ مِنَ اللهِ، فحِسابُكم على اللهِ تَعالى؛ فصِيغةُ القَصرِ في ﴿إِنَّمَآ﴾ تُفيدُ قَصرًا إضافيًّا[٣]، أيْ: أنا مَقصورٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) القصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلام، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما =

على البَشَريَّةِ دُونَ التَّصرُّفِ في قُلوبِ النَّاسِ. وقيلَ: المَعنى: لَستُ مَلَكًا ولا جِنِّيًّا لا يُمكِنُكُمُ التَّلقِّي منه، ولا أدْعوكم إلى ما تَنبو عنه العُقولُ والأسماعُ، وإنَّما أدعوكُم إلى التَّوحيدِ والاستِقامةِ في العَمَلِ، وقد تدُلُّ عليهما دَلائِلُ العَقلِ وشَواهِدُ النَّقلِ. وقيلَ: المَعْنى: إنِّي لَستُ بملَكٍ، وإنَّما أنا بَشَرٌ مِثلُكم، وقد أُوحيَ إلَيَّ دُونَكم، فصَحَّتْ بالوَحيِ إلَيَّ وأنا بَشَرٌ نُبُوَّتي، وإذا صَحَّتْ نُبُوَّتي وَجَبَ عليكمُ اتِّباعي[1].

- وقدْ بَيَّنَ ممَّا تَمَيَّزَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن المُشرِكينَ على وَجهِ الاحتِراسِ مِن أنْ يَتَلَقَّفوا قَولَه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ تَلَقُّفَ مَن حَصَل على اعتِرافِ خَصمِه بنُهوضِ حُجَّتِه بما يُثبِتُ الفارِقَ بيْنَه وبيْنَهم في البَشَريَّةِ، وهو مَضمونُ جُملةِ ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ وذلك لِلتَّسجيلِ عليهم إبطالَ زَعمِهمُ المَشهورِ المُكَرَّرِ: أنَّ كَونَه بَشَرًا مانِعٌ مِن إرسالِه عنِ اللهِ تَعالى؛ لِقَولِهم: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، ونحوِه ممَّا تَكرَّرَ في القُرآنِ. ومُماثَلتُه لهم: المُماثلةُ في البشريَّةِ؛ فتُفيدُ تأْكيدَ كَونِه بشَرًا[2].

= هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقَرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و (٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٦، ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٧، ٢٣٨).

- وحِرصًا على إبلاغِ الإرشادِ إليهم بَيَّنَ له ما يُوحى إليه بقَولِه: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾؛ إعادةً لِمَا أبلَغَهم إيَّاه غيْرَ مَرَّةٍ، شَأنَ القائِمِ بهَدي النَّاسِ ألَّا يُغادِرَ فُرصةً لِإبلاغِهمُ الحَقَّ إلَّا انتَهَزَها، و(أنَّما) مَفتوحةُ الهمزةِ أختُ (إنَّما) المكسورةِ؛ تُفيدُ القصْرَ؛ فقَولُه: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ إدماجٌ[1] لِلدَّعوةِ إلى الحَقِّ في خِلالِ الجَوابِ؛ حِرصًا على الهَدْيِ، وكذلك التَّفريعُ بالفاءِ في قَولِه: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾؛ فإنَّه إتمامٌ لذلك الإدماجِ بتَفريعِ فائِدَتِه عليه؛ لِأنَّ إثباتَ أنَّ اللهَ إلهٌ واحِدٌ إنَّما يُقصَدُ منه إفرادُه بالعِبادةِ، ونَبذُ الشِّركِ[2].

- قولُه: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ إنَّما عُدِّيَ بحرْفِ (إلى)؛ لأنَّها كثيرًا ما تُعاقِبُ اللَّامَ، يُقالُ: ذهَبْتُ له وذهَبْتُ إليه، والأحسَنُ أنَّ إيثارَ (إلى) هنا؛ لِتَضمينِ (استَقيموا) مَعنى: تَوَجَّهوا؛ لِأنَّ التَّوحيدَ تَوَجُّهٌ، أيْ: صَرفُ الوَجهِ إلى اللهِ دُونَ غَيرِه، كما حكَى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]،

---

(١) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المُتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحمدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٨).

أو ضُمِّنَ (استَقيموا) مَعنى: أنيبوا، أيْ: تُوبوا مِنَ الشِّركِ، كما دَلَّ عليه عَطفُ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ وَعيدٌ لِلمُشرِكينَ بسُوءِ الحالِ والشَّقاءِ في الآخِرةِ، وتَرهيبٌ وتَنفيرٌ لهم عنِ الشِّركِ إثْرَ تَرغيبِهم في التَّوحيدِ، وهذا التَّهديدُ مِن فَرْطِ جَهالَتِهم، واستِخفافِهم باللهِ[2].

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ قولُه: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ مِن جُملةِ القَولِ الَّذي أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَقولَه. ويَجوزُ أنْ يَكونَ كَلامًا مُعتَرِضًا مِن جانِبِ اللهِ تعالَى بيْنَ جُملةِ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [فصلت: ٦]، وجُملةِ ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ٩]، أيْ: أجِبْهم بقَولِكَ: أنا بَشَرٌ مِثلُكم يُوحَى إلَيَّ، ونحن أعْتَدْنا لهم الوَيلَ والشَّقاءَ إنْ لم يَقبَلوا ما تَدعوهم إليه؛ فيَكونَ هذا إخبارًا مِنَ اللهِ تَعالى[3].

- وذِكرُ (المُشرِكينَ) إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، ويُستَفادُ تَعليقُ الوَعيدِ على استِمرارِهم على الكُفرِ مِنَ الإخبارِ عنِ الوَيلِ بكَونِه ثابِتًا لِلمُشرِكينَ والمَوصوفينَ بالَّذين لا يُؤتونَ الزَّكاةَ، وبأنَّهم كافِرونَ بالبَعثِ؛ لِأنَّ تَعليقَ الحُكمِ بالمُشتَقِّ يُؤذِنُ بعِلِّيَّةِ ما مِنه الاشتِقاقُ، ولِأنَّ المَوصولَ يُؤذِنُ بالإيماءِ إلى وَجهِ بِناءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٩).

الخَبَرِ[١].

- قولُه: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ مَعنى ﴿لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أنَّهم لا يَفعَلونَ ما يَكونونَ به أزكياءَ، وهو الإيمانُ. وقيل: خُصَّ مِن بينِ أوصافِ المشركينَ منعُ الزكاةِ مقرونًا بالكفرِ بالآخرةِ؛ لِتَشويهِ كُفرِهم، وتَفظيعِ شِركِهم وكُفرانِهم بالبَعثِ، بأنَّهما يَدعُوانِهم إلى مَنعِ الزَّكاةِ، أيْ: إلى القَسوةِ على الفُقَراءِ الضُّعَفاءِ، وإلى الشُّحِّ بالمالِ، وكَفى بذلك تَشويهًا في حُكمِ الأخلاقِ وحُكمِ العُرفِ فيهم؛ لِأنَّهم يَتَعيَّرونَ باللُّؤمِ، ولكِنَّهم يَبذُلونَ المالَ في غَيرِ وَجهِه، ويَحرِمونَ منه مُستَحِقِّيه، وأيضًا لِأنَّ أحَبَّ شَيءٍ إلى الإنسانِ مالُه، وهو شَقيقُ رُوحِه، فإذا بَذَلَه في سَبيلِ اللهِ فذلكَ أقوى دَليلٍ على ثَباتِه واستِقامَتِه، وصِدقِ نِيَّتِه، ونُصوعِ طَويَّتِه، وهذا ما لم يَفعَلْه الكافِرونَ[٢].

- وقولُه: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ عَطفٌ على ﴿لَا يُؤۡتُونَ﴾، وهو داخِلٌ في حَيِّزِ الصِّلةِ، واختِلافُهما بالفِعليَّةِ والاسميَّةِ؛ لِمَا أنَّ عَدَمَ إيتائِها مُتَجدِّدٌ، فعُبِّرَ عنه بالفِعلِ ﴿لَا يُؤۡتُونَ﴾، بيْنَما الكُفرُ أمْرٌ مُستَمِرٌّ، فعُبِّرَ عنه بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾[٣].

- قولُه: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ امتِناعَهم عنِ الزَّكاةِ؛ لِاستِغراقِهم في طَلَبِ الدُّنيا، وإنكارِهم لِلآخِرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٦، ١٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧).

- و(هم) في ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ ضَميرُ فصْلٍ لا يُفيدُ هنا إلَّا تَوكيدَ الحُكمِ، ويُشبِهُ أنْ يكونَ هنا تَوكيدًا لَفظيًّا لا ضَميرَ فصْلٍ[١].

- وتَقديمُ ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ على مُتَعَلَّقِه وهو ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ لِإفادةِ الاهتِمامِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ نَشَأ عنِ الوَعيدِ الَّذي تُوُعِّدَ به المُشركونَ بَعدَ أنْ أُمِروا بالاستِقامةِ إلى اللهِ، واستِغفارِهم عمَّا فَرَطَ منهم؛ كأنَّ سائلًا يَقولُ: فإنِ اتَّعَظوا وارتَدَعوا فماذا يَكونُ جَزاؤُهم؟ فأُفيدَ ذلك، وهو أنَّهم حِينَئِذٍ يَكونونَ مِن زُمرةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، وفي هذا تَنويهٌ بشَأنِ المُؤمِنينَ. وتَقديمُ ﴿لَهُمْ﴾؛ لِلاهتِمامِ بهم[٣].

- قولُه: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ المَمنونُ: مَفعولٌ مِنَ المَنِّ، وهو ذِكرُ النِّعمةِ لِلمُنعَمِ عليه بها، والتَّقديرُ: غَيرُ مَمنونٍ به عليهم -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وذلك كِنايةٌ عن كَونِهم أُعْطوا أجرَهم شُكرًا لهمْ على ما أسلَفوه مِن عَمَلٍ صالِحٍ؛ فإنَّ اللهَ غَفورٌ شَكورٌ، يَعني: أنَّ الإنعامَ عليهم في الجَنَّةِ تُرافِقُه الكَرامةُ والثَّناءُ، فلا يُحِسُّونَ بخَجَلِ العَطاءِ؛ فأجْرُهم بمَنزِلةِ الشَّيءِ المَملوكِ لهمُ الَّذي لم يُعطِه إيَّاهم أحَدٌ، وذلكَ تَفَضُّلٌ مِنَ اللهِ تَعالى[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٤١).

الآيات (٩-١٢)

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَندَادًا﴾: أي: أمثالًا ونُظَراءَ وشُرَكاءَ، وحَقيقةُ النِّدِّ: المِثْلُ المُناوِئُ المُخالِفُ، وأصلُه مِن قَولِهم: نَدَّ: إذا نَفَر؛ ولهذا يُقالُ للضِّدِّ: نِدٌّ، ثمَّ استُعمِلَ في المِثْلِ وإن لم يكُنْ هناك مُخالَفةٌ[(١)].

﴿رَوَاسِيَ﴾: أي: جِبالًا ثوابِتَ، وأصلُ (رسو): يدُلُّ على ثَباتٍ[(٢)].

﴿أَقْوَاتَهَا﴾: أي: أرزاقَها، والقُوتُ: ما يُمسِكُ الرَّمَقَ؛ وإنَّما سُمِّيَ قُوتًا لأنَّه مِساكُ البَدَنِ وقُوَّتُه، وأصلُ (قوت): يدُلُّ على إمساكٍ وحِفظٍ، وقُدرةٍ على الشَّيءِ[(٣)].

﴿اسْتَوَىٰ﴾: أي: علا وارتَفَع. أو: ﴿اسْتَوَىٰ﴾ في هذا المَوضعِ بمعنى: عَمَدَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨).

وأقبَلَ وقَصَد، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ[١].

﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾: أي: أحْكَمَهُنَّ، وفرَغ مِن خَلْقِهنَّ، وأصل (قضي): يدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِه وإنفاذِه لجِهَتِه[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾

قَولُه تعالى: ﴿سَوَآءً﴾ في نصبِه أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّه مَصدَرٌ مُؤَكِّدٌ مَنصوبٌ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ هو صِفةٌ لـ﴿أَيَّامٍ﴾، أي: استَوَت سَواءً، أي: استِواءً. الثَّاني: أنَّه مَصدَرٌ في مَوضِعِ الحالِ مِنْ ﴿أَرْبَعَةِ﴾؛ لتخَصُّصِه بالإضافةِ إلَى ﴿أَيَّامٍ﴾ على معنى: أنَّها كامِلةٌ لا نَقْصَ فيها ولا زيادةَ. الثَّالثُ: أنَّه حالٌ مِن ﴿أَقْوَٰتَهَا﴾ على معنى: قَدَّر فيها أقواتَها سَواءً لِسائِليها على ما بهم إليه الحاجةُ وعلى ما يُصلِحُهم.

وقُرِئَ ﴿سَوَاءٍ﴾ بالخَفضِ صِفةً لـ﴿أَرْبَعَةِ﴾ أو لـ﴿أَيَّامٍ﴾ على معنى: في أربعةِ أيَّامٍ مُستَوِياتٍ تامَّاتٍ، فجَعَل المصدَرَ في مَوضِعِ الاسمِ. وقُرِئَ ﴿سَوَاءٌ﴾ بالرَّفعِ[٣] على أنَّه خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: هي سَواءٌ لا تَزيدُ ولا تَنقُصُ.

وقَولُه: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ﴿سَوَآءً﴾ بمعنى: مُسْتوياتٍ للسَّائِلينَ. أو مُتعَلِّقٌ بـ(قَدَّر)، أي: قَدَّر فيها أقواتَها لأجْلِ الطَّالِبينَ لها المحتاجِينَ المُقتاتِينَ. أو يَتعلَّقُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٣).

(٣) ويُنظر ما سيأتي في القراءاتِ ذاتِ الأثرِ في التَّفسير (ص: ٥١).

بمَحذوفٍ، كأنَّه قيل: هذا الحَصرُ لأجلِ مَنْ سأل: في كم خُلِقَتِ الأرضُ وما فيها[١]؟

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمرًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بتوبيخ المشركينَ وبيانِ مَظاهِرِ قُدرتِه سبحانَه: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: أَإنَّكم لَتَكفُرونَ باللهِ الَّذي خَلَق الأرضَ في يَومَينِ، وتَجعَلونَ له نُظَراءَ وأمثالًا تَعبُدونَهم معه؟! ذلك رَبُّ العالَمينَ! وجعَلَ سُبحانَه في الأرضِ جِبالًا مِن فَوقِها، وبارَكَ فيها، وقَدَّرَ اللهُ فيها أرزاقَها، وذلك في يومَينِ آخَرَينِ؛ فهما مع اليَومَينِ السَّابِقَينِ أربعةُ أيَّامٍ استَوت استواءً، فلا زيادةَ على ذلك ولا نقصانَ، بيَّنَّا ذلك لِمَن سألَ: في كَمْ خُلِقت الأرضُ بما فيها؟

ثمَّ ارتفَع اللهُ وعَلا قاصدًا إلى خَلْقِ السَّماءِ وهي دُخَانٌ، فقال سُبحانَه للسَّماءِ والأرضِ بعدَ أنْ خلَقَهما: ائتِيَا وانقادَا لِطاعتي اختيارًا أو جَبرًا. قالَتا: أتَيْنا طائِعينَ. فأتَمَّ اللهُ خَلْقَهنَّ سَبْعَ سَمواتٍ في يومَين، وأوحَى اللهُ تعالى في كُلِّ سَماءٍ ما أرادَه مِن الخَلقِ والتَّدبيرِ، وزَيَّن اللهُ السَّماءَ الدُّنيا بالنُّجومِ المُنيرةِ، وحَفِظَها حِفظًا بهذه النُّجومِ مِن الشَّياطينِ المُستَرِقةِ للسَّمْعِ، ذلك الشَّأنُ العَظيمُ تقديرُ العزيزِ القاهِرِ الغالِبِ، العليمِ بكُلِّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفَرَّاء (٣/ ١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٣٨١)، ((شرح التسهيل)) لابن مالك (٢/ ٣٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٥٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الآيةِ الأُولى أن يقولَ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]؛ أردَفَه بما يدُلُّ على أنَّه لا يجوزُ إثباتُ الشَّركةِ بيْنَه تعالى وبيْنَ هذه الأصنامِ في الإلهيَّةِ والمعبوديَّةِ، وذلك بأنْ بيَّنَ كَمالَ قُدرتِه وحِكمتِه في خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ في مُدَّةٍ قَليلةٍ، فمَنْ هذا صِفتُه كيفَ يجوزُ جَعْلُ الأصنامِ الخَسيسةِ شُرَكاءَ له في الإلهيَّةِ والمعبوديَّةِ[1]؟!

وأيضًا لَمَّا ذَكَر سُبحانَه سَفَهَ الكافِرينَ في كُفرِهم بالآخِرةِ؛ شَرَع في ذِكرِ الأدِلَّةِ على قُدرتِه عليها، وعلى كُلِّ ما يُريدُ بخَلقِ الأكوانِ وما فيها، الشَّاملِ لهم ولمعبوداتِهم مِن الجماداتِ وغَيرِها، الدَّالِّ على أنَّه واحِدٌ لا شريكَ له[2].

وأيضًا بعدَ أنْ أمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجيبَ المُشرِكينَ بأنَّه بَشَرٌ يُوحَى إليه، فما يَملِكُ إلجاءَهم إلى الإيمانِ؛ أمَرَه عَقِبَ ذلك بمُعاودةِ إرشادِهم إلى الحَقِّ[3].

﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: أإنَّكم لتكفُرونَ بالَّذي خَلَق الأرضَ على سَعَتِها وعظَمَتِها مِنَ العَدَمِ في يَومَينِ[4]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٥، ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٨، ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥).
قال الشوكاني: (قيل: اليومانِ هما يومُ الأحدِ ويومُ الاثنينِ. وقيل: المرادُ: مِقدارُ يومَينِ؛ لأنَّ =

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾.

أي: وتَجعَلونَ له نُظَراءَ وأمثالًا تتَّخِذونَهم آلهةً معه[١]؟!

﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ذلك العَظيمُ الَّذي فَعَل ذلك: هو الخالِقُ الرَّازِقُ، المالِكُ المدَبِّرُ لجَميعِ المخلوقاتِ[٢].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما هم به مُقِرُّونَ مِن إبداعِ هذه الأرضِ؛ أتْبَعَه بثلاثةِ أنواعٍ مِن الصُّنعِ العَجيبِ والفِعلِ البَديعِ بعدَ ذلك[٣].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾.

أي: وجَعَل في الأرضِ جِبالًا ثوابِتَ مِن فَوقِ ظَهْرِها[٤].

= اليومَ الحقيقيَّ إنَّما يتحقَّقُ بعدَ وجودِ الأرضِ والسَّماءِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٩، ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٠٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦، ٧].

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾.

أي: وبارَكَ اللهُ في الأرضِ بما خَلَق فيها مِن المنافِعِ والخَيراتِ الكثيرةِ الدَّائِمةِ لأهْلِها(١).

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: وخَلَق اللهُ فيها أرزاقَها للنَّاسِ والدَّوابِّ، وذلك في يومَينِ آخَرَينِ، فهما معَ اليَومَينِ السَّابِقَينِ أربَعةُ أيَّامٍ(٢).

= قال الماوَرْدي: (وفي تِسميتِها رواسِيَ وجهانِ؛ أحدُهما: لعُلُوِّ رُؤوسِها. الثَّاني: لأنَّ الأرضَ بها راسيةٌ، أو لأنَّها على الأرضِ ثابتةٌ راسيةٌ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٦)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٣٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢، ١٣).

قال الماوَرْدي: (﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ فيه أربعةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: قَدَّر أرزاقَ أهلِها، قاله الحسَنُ. الثَّاني: قدَّر فيها مصالِحَها؛ مِن جبالِها وبحارِها وأنهارِها، وشَجَرِها ودوابِّها، قاله قَتادةُ. الثَّالثُ: قَدَّر فيها أقواتَها مِن المطَرِ، قاله مجاهدٌ. الرَّابعُ: قدَّر في كلِّ بَلدةٍ منها ما لم يجعَلْه في الأُخرَى؛ ليعيشَ بَعضُهم مِن بَعضٍ بالتِّجارةِ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، قاله عِكْرِمةُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٧٠، ١٧١).

قال ابن جرير: (الصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أخبَرَ أنَّه قَدَّر في الأرضِ أقواتَ أهلِها، وذلك ما يَقوتُهم مِن الغِذاءِ، ويُصلِحُهم مِنَ المعاشِ، ولم يَخصُصْ جَلَّ =

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿سَوَاءٌ﴾ بالرَّفعِ، أي: هي سَواءٌ لا تَزيدُ ولا تَنقُصُ[(١)].

٢- قراءةُ ﴿سَوَاءٍ﴾ بالخَفْضِ، أي: في أربعةِ أيَّامٍ مُستَوِياتٍ[(٢)].

= ثناؤُه بقَولِه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أنَّه قَدَّر فيها قُوتًا دونَ قوتٍ، بل عَمَّ الخبرَ عن تقديرِه فيها جميعَ الأقواتِ، وممَّا يَقوتُ أهْلَها ما لا يُصلِحُهم غيرُه من الغذاءِ، وذلك لا يكونُ إلَّا بالمطَرِ والتَّصَرُّفِ في البلادِ؛ لِما خَصَّ به بعضًا دونَ بَعضٍ، وممَّا أخرج مِن الجبالِ مِن الجواهِرِ، ومِن البَحرِ مِن المآكِلِ والحُلِيِّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٨).

وقال ابن عاشور: (﴿وَقَدَّرَ﴾ جَعَل قَدْرًا، أي: مِقدارًا، قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلاق: ٣]. والمِقدارُ: النِّصابُ المحدودُ بالنَّوعِ أو بالكَمِّيَّةِ، فمعنَى «قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا»: أنَّه خَلَق في الأرضِ القُوَى الَّتي تَنْشَأُ منها الأقواتُ، وخَلَق أصولَ أجناسِ الأقواتِ وأنواعَها؛ مِن الحبِّ للحبوبِ، والكلأِ والكمْأَةِ، والنَّوى لِلثِّمارِ، والحرارةِ الَّتي يَتأثَّرُ بها تولُّدُ الحيوانِ مِن الدَّوابِّ والطَّيرِ، وما يتولَّدُ منه الحيتانُ ودوابُّ البحارِ والأنهارِ. ومِن التَّقديرِ: تقديرُ كلِّ نوعٍ بما يصلُحُ له مِن الأوقاتِ مِن حَرٍّ أو بردٍ أو اعتدالٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٤).

وقال البِقاعي: (أي: جعَلَها مع البَرَكةِ على مِقدارٍ لا تتعدَّاه؛ مِنهاجٌ بَديعٌ دَبَّره في الأزَلِ وارتضاه، وقدَّرَه فأمضاه، ومِن ذلك أنَّه خَصَّ بَعضَ البلادِ بشَيءٍ لا يُوجَدُ في غيرِها؛ لتنظيمِ عِمارةِ الأرضِ كُلِّها باحتياجِ بَعضِهم إلى بعضٍ، فكان جميعُ ما تقدَّمَ مِن إبداعِها، وإيداعُها ما ذُكِرَ مِن مَتاعِها دَفعةً واحِدةً لا يَنقُصُ عن حاجةِ المحتاجينَ أصلًا، وإنَّما يَنقُصُ توصُّلُهم أو توصُّلُ بَعضِهم إليه، فلا يجِدُ له حينَئِذٍ ما يكفيه، وفي الأرضِ أضعافُ كِفايتِه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٥٠، ١٥١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٨).

(١) قرأ بها أبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

(٢) قرأ بها يعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

٣- قراءةُ ﴿سَوَآءً﴾ بالنَّصبِ، أي: استَوَت سَواءً، أي: استِواءً[١]، وتقدَّم في مُشكِلِ الإعرابِ توجيهُ هذه القراءاتِ.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

أي: أربعةِ أيَّام استَوت استواءً، فلا زيادةَ على ذلك ولا نُقصانَ، بيَّنَّا ذلك لِمَن سألَ في كمْ خُلِقت الأرضُ بما فيها[٢].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

ممَّن اختار المعنَى المذكورَ في ﴿سَوَآءً﴾، وأنَّها مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعلٍ محذوفٍ هو صفةٌ للأيَّام، أي: اسْتَوَتْ سواءً بمعنَى استواءً: الواحديُّ، والزمخشري، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة فصلت)) (ص: ٦٩).

قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿سَوَآءً﴾ يعني: أنَّ هذا الخلْقَ استوعَب الأربعةَ كلَّها، فلم يكُنْ في يومينِ أو ثلاثةٍ، بل في الأيامِ الأربعةِ كلِّها... أي: استوت الأربعةُ استِواءً لا تَزيدُ ولا تَنقُصُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٩).

وقال الرازي: (ما المرادُ مِن كونِ تلك الأيَّامِ الأربعةِ سَواءً؟ فنقولُ: إنَّ الأيَّامَ قد تكونُ متساويةَ المقاديرِ... وقد تكونُ مختلِفةً...، فبَيَّن تعالَى أنَّ تلك الأيَّامَ الأربعةَ كانت متساويةً غيرَ مختلِفةٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٥).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: لِمَن سأل عن خلْقِ الأرضِ: ابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والواحدي، والخازن، وابن كثير، والعليمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٤٦)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٤٨٣، ٦٤٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥)، =

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح اللهُ تعالى كيفيَّةَ تَخليقِ الأرضِ وما فيها؛ أَتْبَعَه بكيفيَّةِ تَخليقِ السَّمَواتِ[1].

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٩).

وقولُه: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: هذا الحصرُ والبيانُ لأجلِ السَّائلينَ، أو: هذا جوابٌ للسَّائلينَ. أو: بيَّنَّا ذلك للسَّائلينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٩).

وقيل: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: للرِّزقِ، المحتاجينَ للأقواتِ. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والرَّسْعَني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٠).

قال الرسعني: (وإنَّما قيل: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾؛ لأنَّ كُلًّا يَطلُبُ القُوتَ ويَسألُه). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٠).

وقولُه: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلِّقٌ بـ(قدَّر) على هذا القولِ، أيْ: قَدَّر فيها أقواتَها لأجْلِ الطَّالبينَ المُحتاجينَ إليها. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١).

وقال الشوكاني: (قال الفرَّاءُ: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، والمعنَى: وقَدَّر فيها أقواتَها سواءً للمُحتاجينَ في أربعةِ أيَّام. واختارَ هذا ابنُ جريرٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٠).

وقال ابن كثير: (قال تعالَى: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أيْ: لِمَن أرادَ السُّؤالَ عن ذلك لِيَعلَمَه... قال ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ في قولِه تعالَى: ﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: لِمَنْ أرادَ السُّؤالَ عن ذلك. وقال ابنُ زَيدٍ: معناه ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أيْ: على وَفْقِ مُرادِ مَن له حاجةٌ إلى رِزْقٍ أو حاجةٍ، فإنَّ الله قَدَّر له ما هو مُحتاجٌ إليه. وهذا القولُ يُشْبِهُ ما ذَكَروه في قولِه تعالَى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٦).

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾.

أي: ثمَّ ارتفَع الله وعَلا قاصدًا إلى خَلْقِ السَّماءِ وهي دُخَانٌ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥).

ممَّن اختار أن ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ هنا بمعنى ارتفَع: الخليلُ بنُ أحمدَ -كما نسبَه إليه ابنُ عبدِ البَرِّ-، وابنُ جريرٍ، ونسَبه السَّمعاني والبَغوي إلى ابنِ عباسٍ وأكثرِ مفسِّري السَّلفِ في نظيرِ هذه الآيةِ من سورةِ البقرةِ الآيةِ (٢٩)، وهو قولُ أبي العاليةِ، كما في ((صحيح البخاري)) (٩/ ١٢٤).

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٦٣)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١٠١)، ((التمهيد)) لابن عبد البَرِّ (٧/ ١٣٢).

وممَّن اختار أنَّ ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ هنا بمعنى قصد: السمعانيُّ، وابن جُزَي، وابن كثير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٧٤).

قال ابن كثير: (﴿ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أَيْ: قَصَدَ إِلَى السَّمَاءِ، والاستواءُ هاهنا تضَمَّن معنَى القصدِ والإقبالِ؛ لأنَّه عُدِّيَ بـ «إلى»). ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٣). ويُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٥٢، ٥٣).

وقال ابنُ القيم: (تقولُ: استَوى إلى كذا، إذا قصَد إليه علوًّا وارتفاعًا، نحو: استوَى إلى السَّطحِ والجبلِ). ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) (١/ ١٩٥).

وقال السعدي: (﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ تَرِدُ في القرآنِ على ثلاثةِ مَعانٍ: فتارةً لا تُعدَّى بالحرفِ، فيَكونُ معناها: الكمالَ والتَّمامَ، كما في قولِه عن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤]. وتارةً تكونُ بمعنى: عَلا وارتفَعَ، وذلك إذا عُدِّيَتْ بـ «على»، كما في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣]. وتارةً تكونُ بمعنى: قصَدَ، كما إذا عُدِّيَتْ بـ «إلى»، كما في هذه الآيةِ، أي: لَمَّا خلَقَ تعالى الأرضَ، قصَد إلى خلْقِ السَّمواتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨). ويُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ١٩٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ عن الدُّخَانِ: (قيل: هو البُخارُ الَّذي تصاعَدَ مِن الماءِ الَّذي كان عليه العَرشُ؛ فإنَّ البُخارَ نَوعٌ مِن الدُّخَانِ). ((الصفدية)) (٢/ ٧٦). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٦٥). يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٦).

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾.

أي: فقال اللهُ للسَّماءِ والأرضِ بعدَ أنْ خَلَقَهما: استَجيبا لأَمْري، وانقادا لِطاعَتي اختيارًا أو جَبرًا[١].

﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

أي: قالت السَّماءُ والأرضُ: استَجَبْنا لأمْرِك، وانقَدْنا لطاعتِك، فلا نخالِفُ إرادتَك رَبَّنا[٢].

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾.

أي: ففرَغ الله مِن خَلْقِهنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ، وأكْمَلهنَّ وأتمَّهنَّ في يَومَينِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٣، ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: إنَّ اللهَ تعالى قال: أمَّا أنتِ يا سماءُ، فأطْلِعي شمسَكِ وقمرَكِ ونجومَكِ، وأمَّا أنتِ يا أرضُ، فشقِّقي أنهارَكِ، وأخرجي ثمارَكِ ونباتَكِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٧).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والثعلبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨٧).

وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ رَضيَ الله عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥).

قال القرطبي: (قال أكثَرُ أهلِ العِلمِ: خَلَق الله فيهما الكَلامَ، فتكَلَّمَتا كما أرادَ تعالى). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٤). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٥)، ((الفتاوى =

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (خَلَق الأرضَ في يومَين، ثمَّ خَلَق السَّماءَ، ثمَّ استوى إلى السَّماءِ فسَوَّاهنَّ في يومَين آخَرَين، ثمَّ دحا الأرضَ؛ ودَحْوُها: أنْ أخرَجَ منها الماءَ والمَرعَى، وخَلَق الجِبالَ والجِمالَ والآكامَ وما بَيْنَهما في يومَين آخَرَين، فذلك قَولُه: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، وقَولُه: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، فجُعِلت الأرضُ وما فيها مِن شَيءٍ في أربعةِ أيَّامٍ، وخُلِقَت السَّمواتُ في يَومَين)[١].

﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾.

أي: وأمَر اللهُ في كُلِّ سمَاءٍ مِن السَّمَواتِ السَّبْعِ بما أرادَه مِنَ الخَلقِ والتَّدبيرِ[٢].

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾.

أي: وزَيَّنَ اللهُ السَّماءَ الدُّنيا بالنُّجومِ المُنيرةِ، وحَفِظَها بهذه النُّجومِ مِن الشَّياطينِ المُستَرِقةِ للسَّمْعِ مِن المَلَأِ الأعلى[٣].

= الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧).

(١) رواه البخاري (٦/ ١٢٧، ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).
قال الشوكاني: (الإيحاءُ قد يكونُ بمعنَى الأمرِ، كما في قولِه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ﴾ [الزلزلة: ٥]، وقولِه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١]، أي: أمَرْتُهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠].

وقال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

أي: ذلك الشَّأنُ العَظيمُ البَديعُ الَّذي تقدَّمَ ذِكرُه مِن خَلْقِ السَّماءِ والأرضِ والنُّجومِ: هو تَقديرُ العَزيزِ ذي القَدْرِ العَظيمِ، القاهِرِ الغالِبِ لكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعِ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ العَليمِ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بتدبيرِ مَصالحِ خَلْقِه، وعِلمُه بجَميعِ حَرَكاتِهم وسَكَناتِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ إنَّ عِلْمَنا بأنَّ اللهَ سبحانه ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ يَستَوجِبُ -مِن النَّاحيةِ المسلكيَّةِ- بالنِّسبةِ للعبدِ: أنْ يَخافَ اللهَ عزَّ وجلَّ، وأنْ يَقومَ بطاعتِه، وأنْ يَدَعَ معصيتَه؛ لأنَّه يَعْلَمُ أنَّ اللهَ تعالى عالِمٌ به، بل إنَّ اللهَ يَعْلَمُ مِن نَفْسِك ما لا تَعْلَمُه أنت؛ فيَعْلَمُ مُستقبلَك ومآلَك وحالَك، وهذا يُوجِبُ للعبدِ أنْ يخافَ ربَّه في السِّرِّ والعَلَنِ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ دليلٌ على وُجوبِ إعلانِ المؤمنِ ما عليه الكفَّارُ مِن الكفرِ باللهِ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه لا تجوزُ مُداهَنةُ الكفَّارِ، والمُداهَنةُ: سكوتُ الإنسانِ عن معصيةِ العاصي، قال اللهُ تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]؛ فلا يجوزُ للمؤمنِ أنْ يُداهِنَ، والمُداهَنةُ في الحقيقةِ أشْبَهُ شَيءٍ لها في وقتِنا الحاضرِ ما يُسَمُّونه بالمجاملةِ أو بالعَلْمنةِ؛ فإنَّ العلمانيِّينَ يقولونَ: دَعْ كلَّ إنسانٍ وشأنَه! الدَّولةُ دولةٌ؛ والدِّينُ دِينٌ! فالدَّولةُ لا بُدَّ أنْ تَتَّحِدَ؛ وأمَّا الدِّينُ فلِكُلٍّ دينُه! فلا تُنْكِرْ على الكافرِ، ولا على الفاسقِ! دَعْ كلَّ إنسانٍ يَعْمَلُ ما شاء!! فهذه الآيةَ صريحةٌ في أنَّه يجبُ أنْ نُنكِرَ على الكافرين كُفْرَهم؛ وألَّا نُداهِنَهم[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ فيه سُؤالٌ: مَنِ استدَلَّ بشَيءٍ على إثباتِ شَيءٍ، فذلك الشَّيءُ المُستَدَلُّ به يَجِبُ أن يكونَ مُسَلَّمًا عندَ الخَصمِ، حتَّى يَصِحَّ الاستِدلالُ به، وكَوْنُه تعالى خالِقًا للأرضِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٨).

يومَينِ أمرٌ لا يُمكِنُ إثباتُه بالعَقلِ المَحْضِ، وإنَّما يُمكِنُ إثباتُه بالسَّمعِ ووَحيِ الأنبياءِ، والكُفَّارُ كانوا مُنازِعينَ في الوَحيِ والنُّبُوَّةِ، فلا يُعقَلُ تَقريرُ هذه المقَدِّمةِ عليهم، وإذا امتنعَ تقريرُ هذه المقَدِّمةِ عليهم امتنَعَ الاستِدلالُ بها على فَسادِ مَذاهِبِهم؟

الجوابُ: أنَّ إثباتَ كَونِ السَّمَواتِ والأرضِ مخلوقةً بطَريقِ العَقلِ مُمكِنٌ، فإذا ثبت ذلك أمكَنَ الاستِدلالُ به على وُجودِ الإلهِ القادِرِ القاهِرِ العظيمِ، وحينَئذٍ يُقالُ للكافِرينَ: فكيف يُعقَلُ التَّسويةُ بيْنَ الإلهِ الموصوفِ بهذه القُدرةِ القاهِرةِ، وبيْنَ الصَّنَمِ الَّذي هو جمادٌ لا يَضُرُّ ولا ينفَعُ في المعبوديَّةِ والإلهيَّةِ؟ والاستِدلالُ بكَونِه تعالى خالِقًا للأرضِ في يومَينِ أثَرٌ، والظَّاهِرُ أنَّ المشرِكينَ كانوا قد سَمِعوا مِن أهلِ الكِتابِ هذه المعانيَ[1]، واعتَقَدوا في كَونِها حَقَّةً، وإذا كان الأمرُ كذلك فحينَئذٍ يَحسُنُ أن يُقالَ لهم: إنَّ الإلهَ الموصوفَ بالقُدرةِ على خَلقِ هذه الأشياءِ العظيمةِ في هذه المدَّةِ الصَّغيرةِ، كيف يَليقُ بالعَقلِ جَعلُ الخَشَبِ المَنجُورِ والحَجَرِ المنحوتِ شَريكًا له في المعبوديَّةِ والإلهيَّةِ؟ فظهَر بذلك أنَّ هذا الاستِدلالَ قَويٌّ حسَنٌ[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر أنَّه خَلَق الأرضَ في يومَينِ، وذكَرَ أنَّه جَعَل فيها الرَواسِيَ والبَرَكةَ وتقديرَ الأقواتِ في أربعةِ أيَّامٍ أُخَرَ، وذكَرَ أنَّه خَلَق السَّمَواتِ في يومَينِ، فيكونُ المجموعُ ثمانيةَ أيَّامٍ، لكِنَّه ذَكَر في سائِرِ الآياتِ أنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّامٍ[3]؟

---

(١) وقيل: إنَّهم تلقَّوْا ذلك خلَفًا عن سلفٍ، فاستفاضَ بيْنَهم. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٤).

(٣) قال السمعاني: (وأجْمَعوا على أنَّ خلقَ الكلِّ كان في سِتَّةِ أيَّامٍ، لا في ثمانيةِ أيَّامٍ). ((تفسير =

والجوابُ: أنَّ يومَيْ خَلقِ الأرضِ مِن جُملةِ الأربعةِ بَعْدَهما، والمعنى: في تَتِمَّةِ أربَعةِ أيَّامٍ، فكأنَّه قيل: في يومَينِ آخَرينِ، فتلك أربَعةُ أيَّامٍ، وهي مع يَومَيْ خَلْقِ السَّمَواتِ سِتَّةُ أيَّامٍ، وهذا كقَولِ القائِلِ: سِرتُ مِن البَصرةِ إلى بغدادَ في عَشَرةِ أيَّامٍ، وسِرتُ إلى الكُوفةِ في خَمْسةَ عَشَرَ يومًا، يريدُ كِلْتا المسافتَينِ[(١)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا﴾ فيه سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿مِن فَوۡقِهَا﴾، ولِمَ لَمْ يقتَصِرْ على قَولِه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾، كقَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ [المرسلات: ٢٧]، ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ [الأنبياء: ٣١]؟

الجوابُ: أنَّ لذلك فوائِدَ:

منها: استِحضارُ الصُّورةِ الرَّائِعةِ لمناظِرِ الجِبالِ؛ فمنها الجَميلُ المَنظَرِ، المجَلَّلُ بالخُضرةِ، أو المكْسُوُّ بالثُّلوجِ، ومنها الرَّهيبُ المَرأَى؛ مِثلُ جِبالِ النَّارِ (البراكين)، والجِبالِ المَعدِنيَّةِ السُّودِ[(٢)].

ومنها: ظُهورُ هذه الرَّواسي وبيانُها للنَّاسِ؛ حتَّى يَعرِفوا بذلك حِكمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ورُبَّما لا تكونُ رواسيَ إلَّا إذا كانت مِن فَوقٍ، بِناءً على أنَّ الأرضَ تَدورُ حتَّى تَحفَظَ تَوازُنَها.

ومنها: أنَّ هذه الرَّواسيَ إذا كانت مِن فَوقٍ حَصَل فيها مِن المنافِعِ في دَرءِ العواصِفِ وفي الملاجِئِ شَيءٌ كثيرٌ، كما هو مَعروفٌ في المغاراتِ، وكما يُعرَفُ مِن سُفوحِ الجِبالِ، وخُدودِ الجِبالِ، ورُؤوسِ الجبالِ: مِن نوابِتَ لا تُوجَدُ

= السمعاني)) (١/ ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٤).

لولا هذه المُرتَفعاتُ.

ومنها: أنَّها تُوجِبُ أنْ تَندَفِعَ مياهُ الأمطارِ بشِدَّةٍ حتَّى تَصِلَ إلى أراضٍ صالحةٍ للنَّباتِ؛ لأنَّ بَعضَ الأرضِ سَبِخاتٌ ليس فيها خَيرٌ، وبَعضَها رِياضٌ تُنبِتُ، فإذا نَزَلَ الماءُ على هذه الجبالِ؛ على قِمَمِها وعلى خُدُودِها، نَزَلَ إلى الأرضِ بشِدَّةٍ عَظيمةٍ حتَّى يَصِلَ إلى ما أراد اللهُ إيصالَه.

ومنها: أنَّ في قِمَمِ الجِبالِ مِن المعادنِ الجَيِّدةِ أكثَرَ مِمَّا في الأرضِ السُّفلى[١].

ومنها: أنَّ اللهَ تعالى لو جَعَل فيها رواسيَ مِن تَحتِها لأوهَمَ ذلك أنَّ تلك الأساطينَ التَّحتانيَّةَ هي الَّتي أمسَكَت هذه الأرضَ الثَّقيلةَ عن النُّزولِ، ولكِنَّه تعالى قال: خلَقْتُ هذه الجِبالَ الثِّقالَ فَوقَ الأرضِ؛ لِيَرى الإنسانُ بعَينِه أنَّ الأرضَ والجِبالَ أثقالٌ على أثقالٍ، وكُلُّها مُفتَقِرةٌ إلى مُمسِكٍ وحافِظٍ، وما ذاك الحافِظُ المدَبِّرُ إلَّا اللهُ سُبحانَه وتعالى[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، لم يفعلْ ذلك في أقَلَّ مِن لمحِ البصرِ، معَ تمامِ القدرةِ عليه؛ لأنَّ هذا أدَلُّ على الاختيارِ، وأدخلُ في الابتلاءِ والاختبارِ؛ لِيُضِلَّ به كثيرًا، ويَهديَ به كثيرًا، فيكونَ أعظمَ لأُجورِهم؛ لأنَّه أدَلُّ على تسليمِهم[٣]، ولأنَّ الله تعالى رَبَطَ الأسبابَ والمُسبَّباتِ، وجَعَلها تتفاعلُ شيئًا فشيئًا حتَّى تنتهيَ، ولِيُعَلِّمَ عبادَه التَّأنِّيَ في الأمورِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أنَّ اللهَ تعالى قَدَّرَ في الأرضِ أقواتَها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥١، ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٠٦).

أي: جَعَلَها مُقَدَّرةً بقَدْرٍ مَعلومٍ، ومِن ذلك التَّقديرِ أنْ جَعَل في جِهاتٍ مِن الأرضِ مِن الأقواتِ ما ليس في جِهاتٍ أُخرى؛ حتَّى يَتَبادَلَ النَّاسُ هذه الأقواتَ، وتتحَرَّكَ التِّجارةُ، إلى غيرِ ذلك مِن الفوائدِ، ولعَلَّه يُشيرُ إلى هذا قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: المطَرَ ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾[1] [الفرقان: ٥٠].

٧- قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾، إلى أنْ قالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ...﴾ الآيةَ: يدُلُّ على أن خَلْقَ الأرضِ قبْلَ خلقِ السَّماءِ، وهذا كقولِه تعالى في سُورةِ (البقَرةِ): ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، ولكِنْ هذا يُعارِضُه ظاهِرُ قَولِه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٠] فهنا ذَكَر أنَّ الأرضَ دُحِيَتْ بعدَ خَلْقِ السَّماءِ.

فالجوابُ مِن وجهينِ:

الأوَّلُ: أنَّ اللهَ تعالَى خَلَقَ الأرضَ أوَّلًا قبْلَ السَّماءِ غيرَ مَدْحُوَّةٍ، ثُمَّ استوَى إلى السَّماءِ فسوَّاهُنَّ سبْعًا في يومَيْنِ، ثُمَّ دَحا الأرضَ بعدَ ذلك، وجَعَل فيها الرَّواسِيَ والأنهارَ وغيرَ ذلك، فأصلُ خَلْقِ الأرضِ قبْلَ خلقِ السَّماءِ، ودَحْوُها بجِبالِها وأشجارِها ونحوِ ذلك بعدَ خلقِ السَّماءِ، ويدُلُّ لهذا أنَّه قالَ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، ولم يَقُلْ: خَلَقها، ثُمَّ فَسَّر دَحْوَه إيَّاها بقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣١]. وهذا هو الجمعُ الَّذي جَمَع به ابنُ عَبَّاسٍ بينَ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١١). =

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، أي: مع ذلك، فلَفظةُ (بعدَ) بمعنى (معَ). ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]؛ وعليه فلا إشكالَ في الآيةِ. ويُستأنَسُ لهذا القَولِ بالقِراءةِ الشَّاذَّةِ، وبها قرأ مجاهِدٌ: (والأرضَ مع ذلك دحاها)[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

= وأثرُ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما الذي فيه الجمعُ بينَ الآيتينِ أخرجه البخاري (٦/ ١٢٧، ١٢٨).

وقال الشنقيطي: (هذا الجَمعُ الَّذي جمَعَ به ابنُ عبَّاسٍ بيْن هاتَينِ الآيتَينِ واضِحٌ لا إشكالَ فيه، مفهومٌ مِن ظاهِرِ القرآنِ العظيمِ، إلَّا أنَّه يَرِدُ عليه إشكالٌ مِن آيةِ «البقرة» هذه، وإيضاحُه أنَّ ابنَ عَبَّاسٍ جَمَع بأنَّ خَلْقَ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ، ودَحْوَها بما فيها بعدَ خَلقِ السَّماءِ. وفي هذه الآيةِ التَّصريحُ بأنَّ جميعَ ما في الأرضِ مخلوقٌ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ؛ لأنَّه قال فيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]. وقد مكَثْتُ زَمَنًا طويلًا أُفَكِّرُ في حَلِّ هذا الإشكالِ حتَّى هداني اللهُ إليه ذاتَ يومٍ ففَهِمتُه مِن القُرآنِ العظيمِ، وإيضاحُه أنَّ هذا الإشكالَ مرفوعٌ مِن وَجهَينِ، كُلٌّ منهما تدُلُّ عليه آيةٌ مِن القُرآنِ:

الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بخَلقِ ما في الأرضِ جَميعًا قبْلَ خَلقِ السَّماءِ: الخَلقُ اللُّغَويُّ الَّذي هو التَّقديرُ، لا الخَلقُ بالفِعلِ الَّذي هو الإبرازُ مِن العَدَمِ إلى الوُجودِ، والعَرَبُ تُسَمِّي التَّقديرَ خَلقًا ... والدَّليلُ على أنَّ المرادَ بهذا الخَلقِ التَّقديرُ: أنَّه تعالى نَصَّ على ذلك في سُورةِ «فُصِّلَت»؛ حيث قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾، ثمَّ قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ الآيةَ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه لَمَّا خَلَق الأرضَ غيرَ مَدحُوَّةٍ، وهي أصلٌ لكُلِّ ما فيها، كان كُلُّ ما فيها كأنَّه خُلِقَ بالفِعلِ؛ لوُجودِ أصلِه فعلًا، والدَّليلُ مِن القرآنِ على أنَّ وُجودَ الأصلِ يُمكِنُ به إطلاقُ الخَلقِ على الفَرعِ وإن لم يكُنْ مَوجودًا بالفِعلِ: قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الأعراف: ١١]. قَولُه: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ بخَلْقِنا وتصويرِنا لأبيكم آدمَ الَّذي هو أصلُكم). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ١٢، ١٣).

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩١، ٢٩٢).

قال الشنقيطي: (وجَمَع بعضُهم بأوجهٍ ضعيفةٍ؛ لأنَّها مَبنيَّةٌ على أنَّ خلْقَ السَّماءِ قبْلَ الأرضِ، وهو خلافُ التَّحقيقِ. منها: أنَّ «ثُمَّ» بمعنَى الواوِ. ومنها: أنَّها للتَّرتيبِ الذِّكْريِّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٥).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: لا يخفَى ما يَسبِقُ إلى الذِّهنِ مِن مُنافاةِ هذه الحالِ وصاحِبِها؛ لأنَّها جمعُ مُذكَّرٍ عاقِلٍ، وصاحِبُها ضميرُ تَثنيةٍ لِغَيرِ عاقِلٍ، ولو طابَقَت صاحِبَها في التَّثنيةِ حَسَبَ ما يَسبِقُ إلى الذِّهنِ لَقال: (أتينا طائِعَتَينِ)؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ جَمْعَه للسَّمَواتِ والأرضِ؛ لأنَّ السَّمَواتِ سَبْعٌ، والأرَضينَ كذلك، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فالتَّثنيةُ لَفظيَّةٌ تَحتَها أربعةَ عَشَرَ فَردًا، وأمَّا إتيانُ الجَمعِ على صيغةِ جَمعِ العُقَلاءِ فلِأنَّ العادةَ في اللُّغةِ العَرَبيَّةِ أنَّه إذا وُصِفَ غيرُ العاقِلِ بصِفةٍ تختَصُّ بالعاقِلِ أُجرِيَ عليه حُكمُه، ومنه قَولُه تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، لَمَّا كان السُّجودُ في الظَّاهِرِ مِن خَواصِّ العُقَلاءِ أجرَى حُكمَهم على الشَّمسِ والقَمَرِ والكواكِبِ؛ لِوَصفِها به. ووَجهُ تذكيرِ الجَمعِ: أنَّ السَّمواتِ والأرضَ تأنيثُها غيرُ حَقيقيٍّ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المعنى: قالَتا: أتَيْنا بمَن فينا طائِعينَ، فيكونُ فيه تغليبُ العاقِلِ على غَيرِه[(١)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أنَّ كُلَّ جَمادٍ أمامَ اللهِ مُدْرِكٌ وعاقِلٌ ومُرِيدٌ[(٢)].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ فيه إثباتُ الطَّوَاعِيَةِ والكَراهيةِ لِغَيرِ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٠٤، ٢٠٥). ويُنظر أيضًا: ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ٤٧-٤٩).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٤٢١).

العاقلِ؛ وهذا يعني أنَّ لغيرِ العاقلِ إرادةً؛ لأنَّ الطَّائعَ له إرادةٌ، ومَن يُتصَوَّرُ إكراهُه فلَه إرادةٌ أيضًا، وإرادةُ كلِّ شَيءٍ بحَسَبِه، وقد وَرَدَ أنَّ الصَّحابةَ كانوا يسْمَعون تسبيحَ الطَّعامِ وهو يُؤكَلُ[١]، ولا تَسبيحَ إلَّا بعدَ إرادةٍ، وثَبَتَ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال في أُحُدٍ: ((يُحِبُّنا ونُحِبُّه))[٢]، والمَحبَّةُ أخَصُّ مِن الإرادةِ، وعلى هذا فهذه الجَماداتُ لها إرادةٌ وتُسَبِّحُ اللهَ عزَّ وجَلَّ، ولكنْ لا نَفْقَهُ تَسبيحَها[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ الرَّدُّ على ما أنكَرَتِ الجَهميَّةُ مِن أنَّ اللهَ تعالى كَلَّمَ موسى عليه السَّلامُ؛ حيثُ زَعَموا أنَّ الكلامَ لا يكونُ إلَّا مِن جَوفٍ ولِسانٍ وشَفَتَينِ! ووَجْهُ الرَّدِّ أنَّ اللهَ تعالى قال للسَّمَواتِ والأرضِ: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، أتُراها أنَّها قالت بجَوفٍ وفَمٍ وشفَتَينِ ولِسانٍ؟! وقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، أتُراها أنَّها يُسَبِّحْنَ بجَوفٍ وفَمٍ ولِسانٍ وشفتَينِ؟! ولكِنَّ اللهَ أنطَقَها كيف شاء، وكذلك اللهُ تَكَلَّمَ كيفَ شاء مِن غيرِ أنْ نَقولَ: جَوفٌ ولا فَمٌ، ولا شَفتانِ ولا لِسانٌ[٤].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فيه سؤالٌ: اليومُ عبارةٌ عن النَّهارِ واللَّيلِ، وذلك إنَّما يحصُلُ بسببِ طلوعِ الشَّمسِ وغروبِها، وقبْلَ حدوثِ السَّمواتِ والشَّمسِ والقمرِ كيف يُعقلُ حصولُ اليومِ، فالشَّمسُ والقَمَرُ هما مِن السَّمَواتِ والأرضِ، وحَرَكتُهما بعدَ خَلْقِهما، والزَّمانُ المقدَّرُ بحَرَكتِهما

(١) أخرجه البخاري (٣٥٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٨٢) من حديث أبي حُمَيدٍ السَّاعِديِّ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٧٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ١٥٣).

-وهو اللَّيلُ والنَّهارُ التَّابِعانِ لحَركتِهما- إنَّما حَدَث بعدَ خَلْقِهما، وقد أخبَرَ اللهُ أنَّ خَلْقَ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما في سِتَّةِ أيَّامٍ؟

الجواب: معناه: إنَّه مضَى مِن المُدَّةِ ما لو حصَل هناك فَلَكٌ وشمسٌ، لَكان المِقدارُ مُقَدَّرًا بيَوم، أو أنَّ تلك الأيَّامَ مُدَّةٌ وزمانٌ مُقدَّرٌ بحركةٍ أخرى غيرِ حَركةِ الشَّمسِ والقَمَرِ[(١)].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ أنَّ مدَّةَ خَلْقِ السَّمواتِ أقَلُّ مِن مدَّةِ خَلْقِ الأرضِ؛ معَ أنَّ السَّمواتِ أعظَمُ، لكنْ لَمَّا كانتِ الأرضُ موضوعةً للأنامِ -كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠]- كان خَلْقُها أكثرَ مدَّةً؛ لبيانِ عنايةِ اللهِ تعالى بهذه الأرضِ الَّتي وَضَعها للأنامِ، ولِيَعْلَمَ الأنامُ الَّذين على الأرضِ أنَّ العِبرةَ بالإتقانِ لا بالسُّرعةِ[(٢)]. وأيضًا لأجْلِ التَّنبيهِ على ما في المُقَدَّرِ مِن المقدورِ وعجائِبِ الأُمورِ، ولِيُعلَمَ أيضًا بخَلقِ السَّماءِ -الَّتي هي أكبَرُ جِرمًا، وأتقَنُ جِسمًا، وأعظَمُ زينةً، وأكثَرُ مَنافعَ بما لا يُقايَسُ- في أقَلَّ مِن مُدَّةِ خَلقِ الأرضِ: أنَّ خَلْقَها في تلك المدَّةِ ليس للعَجزِ عن إيجادِها في أقَلَّ مِن اللَّمحِ، بل لحِكَمٍ تَعجزُ عن حَملِها العُقولُ[(٣)]. وقيل غيرُ ذلك[(٤)].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗا﴾ أنَّ اللهَ تعالى خَلَق هذه النُّجومَ لثَلاثِ فوائدَ؛ الفائدةُ الأُولى: زينةً للسَّماءِ. الفائدةُ الثَّانيةُ: لحِفْظِ السَّمَواتِ مِن الشَّياطينِ. والفائدةُ الثَّالثةُ: ذَكَرها اللهُ تعالى في سورةِ (النَّحلِ) في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]؛ ولهذا قال قَتادةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٨)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٩).

-وهو مِن أئمَّةِ التَّابعينَ-: (خَلَق اللهُ هذه النُّجومَ لثلاثٍ؛ زينةً للسَّماءِ، ورُجومًا للشَّياطينِ، وعَلاماتٍ يُهتَدَى بها)[١].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ أنَّ تقديرَ حَرَكاتِ الشَّمسِ والقَمَرِ والأجرامِ العُلْويَّةِ وما نَشَأ عنها كان مِن مُقتضى عِزَّتِه وعِلْمِه، وأنَّه قدَّرَه بهاتَينِ الصِّفتَينِ، وفي هذا تَكذيبٌ لأعداءِ اللهِ الملاحِدةِ الَّذين يَنفُونَ قُدرَتَه واختيارَه وعِلمَه تعالى بالمُغَيَّباتِ[٢]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أمَر اللهُ سبحانَه نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بمُعاوَدةِ الأمْرِ بإرشادِ الكافِرينَ إلى الحَقِّ على طَريقةِ الاستِفهامِ التَّوبيخيِّ؛ إنكارًا وتَشنيعًا لِكُفرِهم، مُدمِجًا في ذلك تَذكيرَهم بالأدِلَّةِ الدَّالَّةِ على أنَّ اللهَ واحِدٌ، بطَريقةِ التَّوبيخِ على إشراكِهم به، في حينِ وُضوحِ الدَّلائلِ على انفرادِه بالخَلقِ، واتِّصافِه بتَمامِ القُدرةِ والعِلمِ؛ فجُملةُ ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ﴾ إلى آخِرِها استِئنافٌ ابتدائيٌّ ثانٍ، هو جوابٌ ثانٍ عن مَضمونِ قَولِهم: ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾[٣] [فصلت: ٥].

- قولُه: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ﴾ (إنَّ) واللَّامُ؛ لِتَأكيدِ الإنكارِ، وتَقديمُ الهَمزةِ لِاقتضائِها الصَّدارةَ، لا لإنكارِ التَّأكيدِ، وإمَّا لِلإشعارِ بأنَّ كُفرَهم مِنَ البُعدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٦).
وأثرُ قَتادةَ علَّقه البخاريُّ في ((صحيحه)) (٤/ ١٣٠) مجزومًا به. والأثر وصله ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ١٢٣) وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (١٦٥٣٦). ويُنظر: ((تغليق التعليق)) لابن حجر (٣/ ٤٨٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤١).

بحيثُ يُنكِرُ العُقَلاءُ وُقوعَه؛ فيَحتاجُ إلى التَّأكيدِ[١].

- قولُه: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ هَمزةُ الاستفهامِ المُفتتَحُ بها الكلامُ مُستعمَلةٌ في التَّوبيخِ. والافتِتاحُ بالاستِفهامِ وحَرفَي التَّوكيدِ -(إنَّ) واللام- تَشويقٌ لِتَلَقِّي ما بَعدَ ذلك؛ لِدَلالةِ ذلك على أنَّ أمرًا مُهِمًّا سَيُلقَى إليهم، وأيضًا تَوكيدُ الخَبَرِ بـ (إنَّ) ولامِ الابتِداءِ بَعدَ الاستِفهامِ التَّوبيخيِّ أو التَّعْجيبيِّ؛ لِيَكونَ الإنكارُ لِأمرٍ مُحَقَّقٍ، وهو هنا مَبنيٌّ على أنَّهم يَحسَبونَ أنَّهم مُهتَدونَ، وعلى تَجاهُلِهم المُلازَمةَ بيْنَ الانفرادِ بالخَلقِ وبَينَ استِحقاقِ الإفرادِ بالعِبادةِ، فأُعلِموا بتَوكيدِ أنَّهم يَكفُرونَ، وبتَوبيخِهم على ذلك؛ فالتَّوبيخُ المُفادُ مِنَ الاستِفهامِ مُسَلَّطٌ على تَحقيقِ كُفرِهم باللهِ، وذلك مِنَ البَلاغةِ بالمَكانةِ العُليا[٢].

- ومَجيءُ فِعلِ (تَكفُرونَ) بصِيغةِ المُضارِعِ؛ لِإفادةِ أنَّ تَجَدُّدَ كُفرِهم يَومًا فيَومًا، مع سُطوعِ الأدِلَّةِ الَّتي تَقتَضي الإقلاعَ عنه؛ أمْرٌ أحَقُّ بالتَّوبيخِ. ومعنى الكُفرِ به الكُفرُ بانفرادِه بالإلهيَّةِ، فلمَّا أشْرَكوا معه آلِهةً كانوا واقِعينَ في إبطالِ إلَهيَّتِه؛ لأنَّ التَّعدُّدَ يُنافي حَقيقةَ الإلهيَّةِ، فكأنَّهم أنْكَروا وُجودَه؛ لأنَّهم لَمَّا أنْكَروا صِفاتِ ذاتِه، فقدْ تَصوَّرُوه على غيرِ كُنْهِه. وأُدمِجَ في هذا الاستِدلالِ بَيانُ ابتِداءِ خَلقِ هذه العَوالِمِ؛ فمَحَلُّ الاستِدلالِ هو صِلةُ المَوصولِ، وأمَّا ما تَعلَّقَ بها فهو إدماجٌ[٣].

- والتَّعبيرُ عنِ الجَلالةِ بالمَوصولِ ﴿بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ دُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤١، ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٤٢).

وتقدم تعريف الإدماج (ص: ٤١).

الاسمِ العَلَمِ؛ لِتَفخيمِ شَأنِه تعالَى، واستِعظامِ كُفرِهم به، ولِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن تَعليلِ التَّوبيخِ؛ لِأنَّ الَّذي خَلَق الأرضَ هو المُستَحِقُّ لِلعبادةِ[١].

- وإنَّما ابتُدِئَ بذِكرِ خَلقِ الأرضِ قبْلَ ذِكرِ خَلقِ السَّمَواتِ؛ لِأنَّ آثارَ خَلقِ الأرضِ أظهَرُ لِلْعِيانِ، وهي في مُتَناوَلِ الإنسانِ، فلا جَرَمَ أنْ كانتِ الحُجَّةُ عليهم بخَلقِ الأرضِ أسبَقَ نُهوضًا، ولِأنَّ النِّعمةَ بما تَحتَوي عليه الأرضُ أقْوى وأعَمُّ، فيَظهَرُ قُبحُ الكُفرانِ بخالِقِها أوضَحَ وأشنَعَ[٢].

- ولعلَّ تَخصيصَ البَيانِ بما يَتعلَّقُ بالأرْضِ وأهْلِها؛ لِمَا أنَّ بَيانَ اعتِنائِه تعالَى بأمْرِ المُخاطَبينَ، وتَرتيبِ مَبادِي مَعايِشِهم قبْلَ خَلقِهم مِمَّا يَحمِلُهم على الإيمانِ، ويَزجُرُهم عنِ الكُفرِ والطُّغيانِ[٣].

- وعَطْفُ ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ على ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ تَفسيرٌ لِكُفرِهم باللهِ، وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ أنَّه في التَّفسيرِ لا يُعطَفُ؛ فعُدِلَ إلى عَطفِه لِيَكونَ مَضمونُه مُستَقِلًّا بذاتِه[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ المعطوفُ على (تَكفرُونَ) داخِلٌ في حُكمِ الإنكارِ والتَّوبيخِ. وجَمعُ (الأنداد) باعتِبارِ ما هو الواقِعُ، لا بأنْ يَكونَ مَدارُ الإنكارِ هو التَّعدُّدَ، أيْ: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ والحالُ أنَّه لا يُمكِنُ أنْ يَكونَ له نِدٌّ واحِدٌ[٥].

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مُعترِضةٌ بيْن المَعطوفاتِ على الصِّلةِ. وقولُه:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤).

﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى المَوصولِ في قَولِه: ﴿بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، باعتِبارِ اتِّصافِه بما في حَيِّزِ الصِّلةِ، معَ ما في الإشارةِ مِنْ مَعنى البُعدِ معَ قُربِ العَهدِ بالمُشارِ إليه؛ لِلإيذانِ ببُعدِ مَنزِلَتِه في العَظَمةِ. وفي الإشارةِ نِداءٌ على بَلادةِ رَأيِهم؛ إذْ لم يَتَفَطَّنوا إلى أنَّ الَّذي خَلَق الأرضَ هو رَبُّ العالَمينَ؛ لِأنَّه خالِقُ الأرضِ وما فيها، ولا إلى أنَّ رُبوبيَّتَه سُبحانَه تَقتَضي انتِفاءَ النِّدِّ والشَّريكِ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا﴾ يجوزُ أنْ يُجعلَ ابتِداءَ كلامٍ بِناءً على أنَّه يُصدَّرُ بالواوِ؛ فهو كَلامٌ مُستَأنَفٌ، ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ اعتراضيَّةً. وقيلَ: هو عَطفٌ على مُقَدَّرٍ بعدَ ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أيْ: خَلَقها وجَعَل فيها رواسيَ، فكأنَّه ساقَ قولَه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ أولًا ردًّا عليهم في كُفرِهم، ثمَّ ذكَرَه ثانيًا تتميمًا للقِصَّةِ، وتأكيدًا للإنكارِ. وقيل غيرُ ذلك[2].

- والرَّواسي: الثَّوابِتُ، وهو صِفةٌ لِلجبالِ؛ لِأنَّ الجِبالَ حِجارةٌ لا تَنتَقِلُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٥٣).

وقد نصَّ أبو السُّعودِ وابنُ عاشورٍ وغيرُهما على أنَّ قولَه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ ...﴾ معطوفٌ علَى الفِعلِ (خلَقَ) في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، لا على مَعمولِه؛ فجُملةُ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ ...﴾ إلخ، صِلةٌ ثانيةٌ في المَعنَى؛ ولذلك جيءَ بفِعلٍ آخَرَ غَيرِ فِعلِ (خَلَقَ)؛ لِأنَّ هذا الجَعْلَ تكوينٌ آخَرُ حَصَلَ بَعْدَ خَلقِ الأرضِ، وهو خَلْقُ أجزاءٍ تَتَّصِلُ بها؛ إمَّا مِن جِنسِها كالجِبالِ، وإمَّا مِن غَيرِ جِنسِها كالأقواتِ؛ ولذلكَ أعقَبَ بقَولِه: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ بَعْدَ قَولِه: ﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ٩]. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٣)، وقد رَدَّ هذا القولَ الألوسيُّ، والله أعلمُ.

بخِلافِ الرِّمالِ والكُثبانِ، وحُذِفَ المَوصوفُ (جبالًا)؛ لِدَلالةِ الصِّفةِ عليه[١].

- قولُه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ جَمْعُ الأقواتِ مُضافًا إلى ضَميرِ الأرضِ يُفيدُ العُمومَ، أيْ: جَميعَ أقواتِها، وعُمومُه باعتِبارِ تَعدُّدِ المُقتاتينَ؛ فلِلدَّوابِّ أقواتٌ، ولِلطَّيرِ أقواتٌ، ولِلوحوشِ أقواتٌ، ولِلزَّواحِفِ أقواتٌ، ولِلحَشَراتِ أقواتٌ، وجَعَلَ لِلإنسانِ جَميعَ تلك الأقواتِ مِمَّا استَطابَ منها، كما أفادَه قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٢] [البقرة: ٢٩].

- وقد فَصَّل مِقدارَ ما خَلَق الأرضَ فيه، ومِقدارَ ما خَصَّ الأقواتَ والمنافِعَ؛ لإحاطةِ العِلمِ بأنَّه يخُصُّ كُلَّ أمرٍ مِن الأمْرَينِ يَومانِ، ونَصَّ على الأوَّلَينِ؛ لِيَكونَ ذلك أدَلَّ على القُدرةِ، فيَحسُنَ مَوقعُ النَّعيِ عليهم بما فَصَّل به الآيَتَينِ مِن اتِّخاذِ الأندادِ، وإنَّما كان أدَلَّ على القُدرةِ؛ لأنَّه إيجادُ ذواتٍ مَحسوسةٍ مِن العَدَمِ قائِمةٍ بأنفُسِها، بخِلافِ البَرَكةِ وتقديرِ الأقواتِ؛ فإنَّه أمرٌ لا يقومُ بنَفْسِه، فلم يُفرِدْ يومَيْه بالذِّكرِ، بل جعَلَهما تابعَينِ، كما أنَّ ما قَدَّرَ فيهما تابعٌ[٣].

- قولُه: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يَتنازَعُه كلٌّ مِن أفعالِ (جعَلَ) و(بارَكَ) و(قدَّرَ)؛ فيكونُ ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ جمْعَ سائلٍ، بمعنى الطَّالبِ للمَعرفةِ، ويجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بمَحذوفٍ، أي: بيَّنَّا ذلك للسَّائلينَ عن مُدَّةِ خلْقِ الأرضِ وما فيها. ويجوزُ أنْ يكونَ لـ ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ مُتعلِّقًا بفِعلِ (قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا)، فيكونَ المُرادُ بالسَّائلينَ الطَّالبينَ للقُوتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾

- حَرفُ ﴿ثُمَّ﴾ لِلتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لِتَفاوُتِ ما بيْنَ الخِلقَتَيْنِ، لا لِلتَّراخي في المُدَّةِ؛ لِقَولِه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، وهي تدُلُّ على أنَّ مَضمونَ الجُملةِ المَعطوفةِ أهَمُّ مَرتَبةً مِن مَضمونِ الجُملةِ المَعطوفِ عليها؛ فإنَّ خَلقَ السَّمَواتِ أعظَمُ مِن خَلقِ الأرضِ، وعَوالِمَها أكثَرُ وأعظَمُ؛ فجِيءَ بحَرفِ التَّرتيبِ الرُّتبيِّ بَعدَ أنْ قُضِيَ حَقُّ الاهتِمامِ بذِكرِ خَلقِ الأرضِ حتَّى يُوَفَّى المُقتَضَيانِ حَقَّهما، وتَرقِّيًا مِن الأدْنى إلى الأعلى؛ لأنَّ الكلامَ مع المُعانِدينَ المُتمرِّدينَ. وقِيل: (ثُمَّ) لِتَرتيبِ الخبَرِ على الخبَرِ؛ أخبَرَ أوَّلًا بخلْقِ الأرضِ، ثمَّ أخبَرَ بخلْقِ السَّماءِ[1].

- قيل: إنَّما خَصَّ الاستِواءَ بالسَّماءِ في قولِه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ -مع أنَّ الخِطابَ المُترَتِّبَ عليه مُتوَجِّهٌ إليها وإلى الأرض مَعًا، حَسبَما يَنطِقُ به قولُه تعالَى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ﴾-؛ اكتِفاءً بذِكرِ تَقديرِها وتَقديرِ ما فيها، كَأنَّه قيلَ: فقال لها ولِلأرضِ الَّتي قَدَّرَ وُجودَها ووُجودَ ما فيها: ﴿ٱئۡتِيَا﴾[2].

- قولُه: ﴿طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ كِنايةٌ عن عَدَمِ البُدِّ مِن قَبولِ الأمْرِ، وتَمَكُّنِ القُدرةِ مِن إيجادِهما على وَفقِ إرادةِ اللهِ تَعالى[3]، والمَقصودُ مِن هذه الآيةِ التَّعبيرُ عن عَظَمةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ ونُفُوذِها في المَقدوراتِ دَقَّتْ أو جَلَّتْ، ووُجوبِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٧٧، ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٧).

وُقوعِ مُرادِه تعالى[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾

- قولُه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ تَفسيرٌ وتَفصيلٌ لِتكوينِ السَّماءِ المُجمَلِ المُعبَّرِ عنه بالأمْرِ وجَوابِه، لا أنَّه فِعلٌ مُترَتِّبٌ على تَكوينِها، أيْ: خَلَقهنَّ خَلقًا إبداعِيًّا، وأتقَن أمْرَهنَّ حَسبَما تَقتَضيه الحِكمةُ[٢]. وهو أيضًا تَفريعٌ على قولِه: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا﴾[٣] [فصلت: ١١].

- وضَميرُ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ عائِدٌ إلى السَّمَواتِ على اعتِبارِ تَأنيثِ لَفظِها، وهذا تَفَنُّنٌ[٤].

- في قَولِه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ؛ فقد أسنَدَ التَّزيينَ إلى ذاتِه سُبحانَه؛ تَجديدًا لِنَشاطِ السَّامِعينَ؛ لِطُولِ استِعمالِ طَريقِ الغَيبةِ ابتِداءً مِن قَولِه: ﴿بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ٩]، مع إظهارِ العِنايةِ بتَخصيصِ هذا الصُّنعِ الَّذي يَنفَعُ النَّاسَ دِينًا ودُنيا، وهو خَلقُ النُّجومِ الدَّقيقةِ والشُّهُبِ بتَخْصيصِه بالذِّكرِ مِن بيْنِ عُمومِ ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾، فما السَّماءُ الدُّنيا إلَّا مِن جُملةِ السَّمَواتِ، وما النُّجومُ والشُّهُبُ إلَّا مِن جُملةِ أمْرِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٣٨).

- قولُه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ المُرادُ بالمَصابيحِ: النُّجومُ، وعُبِّرَ عنها بذلك؛ لِمَا يَبدو مِن نُورِها كالمَصابيحِ(١).

- وذِكرُ صِفتَي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾؛ لِمُناسَبةِ مَعناهما للتَّعلُّقِ بنِظامِ سَيرِ الكواكبِ؛ فالعِزَّةُ تُناسِبُ تَسخيرَ هذا الكوكبِ العظيمِ، والعِلْمُ يُناسِبُ النِّظامَ البديعَ الدَّقيقَ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢١) و (٢٤/ ٢٥٢).

الآيات (١٢-١٨)

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَاعِقَةً﴾: الصَّاعِقةُ: هي الصَّوتُ الشَّديدُ مِن الجوِّ، ثمَّ يكونُ منه نارٌ فقط، أو عذابٌ، أو موتٌ، وقيل: الصَّاعقةُ: كلُّ عَذابٍ مُهلِكٍ، أو: هي اسمٌ للعذابِ على أيِّ حالٍ كان، وأصلُ (صعق): يدُلُّ على شِدَّةِ الصَّوتِ(١).

﴿صَرْصَرًا﴾: أي: شَديدةَ البَردِ والصَّوتِ، والصَّرصَرُ: الرِّيحُ العاصِفةُ التي يكونُ لها صَرصَرةٌ، أي: دَوِيٌّ في هُبوبِها؛ مِن شِدَّةِ سُرعةِ تنقُّلِها، مأخوذٌ مِن الصِّرِّ: وهو البَردُ الذي يَصُرُّ، أي: يَجمَعُ ويَقبِضُ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٠٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤- ٤٨٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣٢).

قال ابن جرير: (وأصْلُ الصَّاعِقةِ: كُلُّ أمْرٍ هائِلٍ رآه أو عايَنَه أو أصابَه، حتى يَصيرَ مِن هَوْلِه وعَظيمِ شَأْنِه إلى هَلاكٍ وعَطَبٍ، وإلى ذَهابِ عَقلٍ وغُمورِ فَهْمٍ، أو فَقْدِ بَعضِ آلاتِ الجِسمِ، صَوتًا كان ذلك، أو نارًا، أو زَلزَلةً، أو رَجْفًا). ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، =

﴿نَّحِسَاتٍ﴾: أي: نَكِداتٍ مَشؤوماتٍ، وأصلُ (نحس): يدُلُّ على خِلافِ السَّعدِ[١].

﴿ٱلْخِزْيِ﴾: أي: الهَوانِ والذُّلِّ، وأصلُ الخِزْيِ: الإبعادُ[٢].

﴿ٱلْهُونِ﴾: أي: الهَوانِ والخِزْيِ والذُّلِّ، وأصْلُ (هون) هنا: يدُلُّ على الذُّلِّ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُهدِّدًا المشركينَ: فإنْ أعرَضَ مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- عن الحَقِّ الذي دَعَوتَهم إليه، فقُلْ لهم: أنذَرْتُكم عَذابًا شَديدًا يَستأصِلُكم، كالعَذابِ الذي أهلَكَ اللهُ به عادًا وثَمودَ حينَ جاءَتْهم رُسُلُ اللهِ مِن كلِّ جانبٍ، واجتَهدوا في تبلِيغهم مِن كلِّ جِهةٍ بألَّا تَعبُدوا إلَّا اللهَ وَحْدَه لا شَريكَ له. قالوا: لو شاء ربُّنا عِبادَتَه وَحْدَه لأرسَلَ إلينا مَلائِكةً مِن السَّماءِ يأمُرونَنا بذلك، فإنَّا كافِرونَ بتَوحيدِ الله الذي أرسَلَكم به!

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٥/ ٣٣٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٢).

ثمَّ يقولُ تعالى -مُفصِّلًا حالَ كلٍّ مِن عادٍ وثمودَ-: فأمَّا عادٌ فتكبَّروا في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ، وقالوا: لا أحَدَ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً!

ثمَّ يردُّ اللهُ تعالى عليهم، فيقولُ: أوَلَم يرَوا أنَّ اللهَ الذي خلَقَهم من العَدَمِ هو أشَدُّ منهم قُوَّةً؟! وكان أولئك الكُفَّارُ جاحِدينَ بآياتِ الله.

ويَذكُرُ سبحانَه ما نزَل بهم مِن العذابِ، فيقولُ: فأرسَلْنا عليهم رِيحًا عظيمةً شَديدةَ البَردِ والصَّوتِ في أيَّامٍ مَشؤُوماتٍ عليهم؛ لكي نُذيقَهم العذابَ الذي يُهينُهم ويُذِلُّهم في الحياةِ الدُّنيا، ولَعَذابُ الآخِرةِ أشَدُّ خِزيًا وإهانةً وإذلالًا لهم!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى حالَ ثمودَ وما نزَل بهم مِن العذابِ، فيقولُ: وأمَّا ثَمودُ فأرشَدْناهم إلى طَريقِ الحَقِّ فآثَروا الكُفرَ على الإيمانِ، والضَّلالَ على الهُدى؛ فأهلَكَهم اللهُ بصَيحةِ العَذابِ المُذِلِّ المُهينِ؛ بسَبَبِ ما كانوا يَكسِبونَه مِن الآثامِ، ونجَّينا مِن العَذابِ صالِحًا والمؤمِنينَ معه المتَّقينَ رَبَّهم بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نهى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الكلامَ إنَّما ابتُدِئَ مِن قَولِه تعالَى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [فصلت: ٦]، واحتَجَّ عليه بقَولِه تعالَى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، وحاصِلُه أنَّ الإلهَ الموصوفَ بهذه القُدرةِ القاهِرةِ كيف يجوزُ الكُفرُ به، وكيف يجوزُ جَعْلُ هذه الأجسامِ الخَسيسةِ شُرَكاءَ له في الإلهيَّةِ؟! ولَمَّا تَمَّم تلك الحُجَّةَ قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾،

وبيانُ ذلك أنَّ وظيفةَ الحُجَّةِ قد تمَّتْ على أكمَلِ الوُجوهِ، فإنْ بَقُوا مُصِرِّينَ على الجَهلِ، لم يَبقَ حينئذٍ عِلاجٌ في حَقِّهم إلَّا إنزالُ العذابِ عليهم(١).

وأيضًا بعدَ أنْ أنكرَ اللهُ عليهم عِبادةَ الأندادِ والأوثانِ، وطَلَب إليهم ألَّا يَعبُدوا إلَّا اللهَ الَّذي خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ، إلى غيرِ ذلك مِمَّا ذَكَر مِن دَلائِلِ ألوهيَّتِه ووَحدانيَّتِه، ثمَّ أعرَضوا عن كُلِّ ذلك؛ لم يَبقَ حينئذٍ طَريقٌ للعِلاجِ، ومِن ثَمَّ أمَرَ رَسولَه أن يُنذِرَهم بحُلولِ شَديدِ النِّقَمِ بهم إنْ هم أصَرُّوا على عِنادِهم(٢).

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: فإنْ أعرَضَ مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- عن الحَقِّ فلم يُؤمِنوا، وأصَرُّوا على باطِلِهم بعدَ هذا البَيانِ التَّامِّ في هذه الآياتِ التي دَلَّت على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ عِلمِه وقُدرتِه، وغَيرِها مِن صِفاتِ كَمالِه؛ فقُلْ لهم: حَذَّرْتُكم وخَوَّفْتُكم عَذابًا شَديدًا وَقعُه، فيُهلِكُكم ويَستأصِلُكم كالعَذابِ الذي أهلَكَ اللهُ به عادًا وثَمودَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٤/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٨-١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٨).

ممَّن اختارَ في الجُملةِ أنَّ الـمُرادَ بالصَّاعِقةِ هنا: العَذابُ الشَّديدُ والهَلاكُ: مقاتِل بن سُليمان، والسَّمرقندي، وابن أبي زَمنين، والواحدي، والسمعاني، والبَغوي، والزَّمخشري، وابن الجوزي، والرَّسْعني، والقُرطبي، والبقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي =

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

أي: وذلك حينَ جاءتْ عادًا وثمودَ رُسُلُ اللهِ مِن كلِّ جانبٍ، واجتَهدوا في دَعوتِهم مِن كلِّ جِهةٍ بأَلَّا تَعبُدوا إلَّا اللهَ وَحْدَه لا شَريكَ له[1].

= (١٧/ ١٥٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).

قال الشوكاني: (والمرادُ بالصَّاعقةِ العذابُ المُهْلِكُ مِنْ كلِّ شيءٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨).

وذكَر الزمخشري أنَّ الصَّاعِقةَ: العذابُ الشَّديدُ الوقْعِ الَّذي كأنَّه صاعِقةٌ. ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩١). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٩).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذكرُه: ...فقُلْ لهم: أنْذَرْتُكم أيُّها النَّاسُ صاعقةً تُهْلِكُكم مِثْلَ صاعقةِ عادٍ وثمودَ، ومعنَى الصَّاعِقَةِ: كلُّ ما أفسَد الشَّيءَ وغيَّرَه عن هَيْئَتِه. وقيل: في هذا الموضعِ عُنِي بها وقيعَةٌ مِن اللَّهِ وعذابٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٥) بتصرف.

وقال ابن عُثَيمين: (الـمِثْلِيَّةُ هنا لا تَقتَضي -واللهُ أعلَمُ- الـمُماثَلةَ مِن كُلِّ وَجْهٍ، بل مِثليَّةٌ في أصْلِ الهَلاكِ، أو في مَآلِ العَذابِ، ويَحتَمِلُ أنَّ اللهَ تعالى أنذَرَهم مِثلَ صاعِقةِ عادٍ وثَمودَ، وصاعِقةُ عادٍ وثَمودَ نوعان: الرَّجفةُ والرِّيحُ الشَّديدةُ. الذين أُهلِكوا بالرِّيحِ الشَّديدةِ هُم عادٌ، والذين أُهلِكوا بالرَّجفةِ والصَّيحةِ هُم ثَمودُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٩، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ في قوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: الزمخشريُّ، والرَّسْعني، والنَّسَفي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣)، ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الرُّسل الَّذين أُرسلوا إلى آبائِهم مِن قَبْلهم، وأنَّ قوله: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعني مِن بَعدِ الرُّسلِ الذين أُرسلوا إلى آبائِهم، وهُم الرُّسُل الذين =

= أُرسلوا إليهم (هود وصالح، عليهما السلام، وغيرهما): ابن جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن الجوزي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٤).

وعلى هذا القولِ فالضميرُ في قولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾، لعادٍ وثمودَ، وفي قولِه: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ للرسلِ.

قال ابن عطية: (أما الطبري فقال: الضميرُ في قَولِه: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ عائدٌ على الرسلِ، والضميرُ في قَولِه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ على الأمم، وتابَعه الثعلبيُّ، وهذا غيرُ قويٍّ؛ لأنَّه يُفرِّقُ الضمائرَ ويُشعِّبُ المعنى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨).

وقيل: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ يعني: مِن قَبْل عادٍ وثمودَ، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ يعني: مِن بَعدِ عادٍ وثمودَ. وممن اختاره مقاتل بن سليمان، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٢١).

قال البيضاوي في بيانِ هذا الوجهِ: (أو: مِن قبلِهم ومِن بعدِهم؛ إذ قد بلَغهم خبرُ المتقدِّمينَ، وأخبَرهم هودٌ وصالحٌ عن المتأخرينَ، داعينَ إلى الإيمانِ بهم أجمعينَ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٨).

وقال الرازي: (فإنْ قِيلَ: الرُّسلُ الَّذينَ جاؤوا مِن قَبْلِهم ومِنْ بعدِهم، كيفَ يمكنُ وصفُهم بأنَّهم جاؤوهم؟ قُلْنا: قدْ جاءَهم هودٌ وصالحٌ داعِيَيْنِ إلى الإيمانِ بهما وبجَميعِ الرُّسلِ، وبهذا التَّقديرِ فكأنَّ جميعَ الرُّسلِ قدْ جاؤوهم). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥١).

وقيل: المعنى: أنذَرُوهم عَذابَ الدُّنيا وعذابَ الآخِرَةِ، وممَّن اختاره: ابنُ أبي زَمنين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٤٨).

وقال ابنُ عطية: (قولُه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: قد تقدَّموا في الزَّمنِ، واتَّصلتْ نذارتُهم إلى أعمارِ عادٍ وثمودَ، وبهذا الاتصالِ قامت الحُجَّةُ. وقولُه: «مِنْ خَلْفِهِمْ»، أي: جاءهم رسولٌ بعدَ اكتِمالِ أعمارِهم، وبعدَ تقدُّم وجودِهم في الزمنِ؛ فلذلك قال: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، وجاء مِن مجموعِ العِبارةِ إقامةُ الحُجَّةِ عليهم في أنَّ الرِّسالةَ والنِّذارةَ عمَّتهم خبرًا ومُباشَرةً، ولا يتوجَّهُ أنْ يُجعَلَ ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ عِبارةً عمَّا أتَى بعدَهم في الزمنِ؛ لأنَّ ذلك لا يَلحقُهم منه تقصيرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨).

وقال الألوسي: (قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾، والضميرُ المضافُ إليه لعادٍ وثمودَ... وجُوِّز كونُ الضميرِ المضافِ إليه للرُّسلِ، والمرادُ: جاءتهم الرُّسُلُ =

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١].

﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾.

أي: قال كُفَّارُ عادٍ وثَمودَ لِرُسُلِهم حينَ دَعَوهم إلى تَوحيدِ اللهِ تعالى: لو شاء رَبُّنا أنْ يأمُرَنا بعِبادتِه وَحْدَه لأرسَلَ إلينا مَلائِكةً مِن السَّماءِ يأمُرونَنا بذلك، ولم يُرسِلْ إلينا بَشَرًا مِثْلَنا[1]!

كما قال تعالى عن قَومِ نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

= المتقدِّمونَ والمتأخِّرونَ، على تنزيلِ مجيءِ كلامِهم ودعوتِهم إلى الحقِّ منزلةَ مجيءِ أنفسِهم... وقال الطبريُّ: الضميرُ في قولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ لعادٍ وثمودَ، وفي قولِه تعالى: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ للرُّسلِ، وتعقُّبه في البحرِ. ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٣).

وقال البيضاوي: (﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أَتَوْهُم مِن جميعِ جوانبِهم، واجتَهدوا بهم مِن كلِّ جهةٍ، أو مِن جهةِ الزمنِ الماضي بالإنذارِ عمَّا جرَى فيه على الكُفَّارِ، ومِن جِهةِ المستقبلِ بالتحذيرِ عمَّا أُعِدَّ لهم في الآخِرةِ، وكلٌّ مِن اللفظينِ يَحتمِلُهما، ... ويَحتمِلُ أنْ يكونَ عِبارةً عن الكثرةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٥).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾ [التغابن: ٦].

﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: فإنَّا -إذَنْ- كافِرونَ بتَوحيدِ اللهِ الذي زعَمْتُم أنَّه أرسَلَكم به، ولا نَتَّبِعُكم وأنتم بشرٌ مِثلُنا[1]!

كما قال تعالَى عن عادٍ قَومِ هُودٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وقال سُبحانَه عن ثمودَ قَومِ صالحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعْدَ أنْ حَكَى عن عادٍ وثَمودَ ما اشتَرَكَ فيه الأُمَّتانِ مِن المُكابَرةِ والإصرارِ على الكُفْرِ؛ فصَّلَ هنا بعضَ ما اختَصَّتْ به كلُّ أُمَّةٍ منهما مِن صُورةِ الكُفْرِ، وذكَرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩).

مِن ذلك ما له مُناسَبةٌ لِمَا حَلَّ بكلِّ أُمَّةٍ منهما مِن العذابِ[١].

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: فأمَّا عادٌ فتكبَّروا وتجبَّروا وعَتَوْا في الأرضِ ظُلمًا دونَ أن يكونَ لهم الحَقُّ في ذلك[٢].

كما قال اللهُ سبحانَه حاكيًا ما قال لهم رسولُهم هودٌ عليه السلامُ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠].

﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر لهم هذا الذَّنبَ العَظيمَ -وهو الاستِكبارُ- وكان فِعلًا قَلبيًّا؛ ذكَرَ ما ظَهَر عليهم مِن الفِعلِ اللِّسانيِّ المعبِّرَ عَمَّا في القَلبِ، فقال[٣]:

﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

أي: وقالوا -ظَنًّا منهم أنَّهم يَمتَنِعونَ بقُوَّتِهم مِن عذابِ اللهِ، وأنَّه لا يَغلِبُهم أحَدٌ-: لا أحَدَ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً[٤]!

فقال الله تعالى، ردًّا عليهم[٥]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٨).

(٥) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

أي: أوَلَم يرَ كُفَّارُ عادٍ أنَّ اللهَ الَّذي خَلَقَهم مِنَ العَدَمِ -حيثُ لم يكونوا شَيئًا-، وأعطاهم ما أعطاهم مِنَ القُوَّةِ: هو أشَدُّ مِنهم قُوَّةً[1]؟!

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

أي: وكان كُفَّارُ عادٍ مُصِرِّينَ على الجُحودِ بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على صِدقِ رُسُلِه فيما دَعَوْهم إليه مِنَ الحَقِّ[2].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾.

أي: فأرسَلْنا عليهم رِيحًا عَظيمةً بارِدةً، شَديدةَ الصَّوتِ والهُبوبِ، في أيَّامٍ مَشؤوماتٍ عليهم، أصابَهم فيها سُوءٌ وعَذابٌ شَديدٌ؛ فأُهلِكوا فيها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٩).

قال السعدي: (فلو لا خَلْقُه إيَّاهم لم يُوجَدوا، فلو نَظَروا إلى هذه الحالِ نظَرًا صَحيحًا لم يغتَرُّوا بقُوَّتِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: إنكارُ عَدَمِ عِلمِهم بأنَّ اللهَ أشَدُّ منهم قُوَّةً، حيثُ أعرَضوا عن رِسالةِ رَسولِ رَبِّهم وعن إنذارِه إيَّاهم إعراضَ مَن لا يكتَرِثُ بعَظَمةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّهم لو حَسَبوا لذلك حِسابَه لتوقَّعَوا عذابَه، فلأقبَلوا على النَّظَرِ في دلائِلِ صِدقِ رَسولِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٧)، =

كما قال تبارَك وتعالَى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

وقال تعالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٩، ٢٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي: عَذَّبْناهم بذلك؛ لكي نُذيقَهم العذابَ الذي يُهينُهم ويُذِلُّهم ويَفضَحُهم في الحياةِ الدُّنيا(١).

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦، ١٧).
قال ابنُ عاشورٍ: (المرادُ: أنَّ تلك الأيَّامَ بخُصوصِها كانتْ نحسًا، وأنَّ نَحْسَها عليهم دونَ غَيرِهم من أهلِ الأرضِ؛ لأنَّ عادًا هم المقصودونَ بالعَذابِ، وليس المرادُ أنَّ تلك الأيَّامَ مِن كُلِّ عامٍ هي أيَّامُ نَحسٍ على البَشَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٩). ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨).
وقال ابنُ عاشور أيضًا: (وُصِفتْ تِلك الأيَّامُ بأنَّها نَحِساتٌ؛ لِأنَّها لم يَحدُثْ فيها إلَّا السُّوءُ لهم مِن إصابةِ آلامِ الهَشمِ المُحَقَّقِ إفضاؤُه إلى المَوتِ، ومُشاهَدةِ الأمواتِ مِن ذَويهم، ومَوتِ أنعامِهم، واقتِلاعِ نَخيلِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٠١).

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

أي: ولَعذابُ الآخِرةِ أشَدُّ خِزْيًا، وأعظَمُ إهانةً وإذلالًا لهم، ولا يَنصُرُهم مِنَ اللهِ ناصِرٌ؛ فيدفَعَ عنهم عذابَه، أو يُنقِذَهم منه[1]!

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾.

أي: وأمَّا ثَمودُ فأرشَدْناهم ودَلَلْناهم على طَريقِ الحَقِّ[2].

كما قال تعالَى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

أي: فاختاروا وآثَرُوا الكُفرَ على الإيمانِ، والضَّلالَ على الهُدَى، مع تَبَيُّنِ الحَقِّ لهم[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩).

قال ابنُ عاشور: (لَمَّا كان حالُ الأُمَّتَيْنِ واحِدًا في عدَمِ قَبولِ الإرشادِ مِن جانِبِ اللهِ تعالى، كما أشار إليه قَولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤]، كان الإخبارُ عن ثمودَ بأنَّ اللهَ هداهم مُقتَضيًا أنَّه هدَى عادًا مِثلَما هدَى ثمودَ، وأنَّ عادًا استحَبُّوا العَمى على الهُدى مِثلَما استحبَّت ثمودُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٩)، ((مفتاح دار =

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

أي: فأهلَكهم اللهُ بصَيحةِ عَذابٍ أذَلَّهم وأهانَهم بسَبَبِ ما كانوا يَكسِبونَه مِنَ الآثامِ؛ بكُفرِهم باللهِ، ومَعصيتِهم له، وتَكذيبِهم رَسولَه، وعَقْرِهم النَّاقةَ[١].

كما قال تعالَى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧، ٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللَّهُ سُبحانَه الوَعيدَ أرْدَفه بالوَعدِ[٢]، فقال تعالى:

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ونَجَّينا مِن العَذابِ صالِحًا والمؤمِنينَ به مِن قَومِه الَّذين كانوا يَعبُدونَ اللهَ وَحْدَه، ويَمتَثِلونَ أمْرَه، ويجتَنِبونَ الشِّركَ به ومَعصيتَه[٣].

= السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩، ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٤، ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١، ٢٣، ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ هنا: نجاةُ المؤمِنينَ مِن قومِ ثمودَ؛ صالِح عليه السَّلامُ ومَن اتَّبَعه مِن المؤمنينَ: القرطبيُّ، والخازن، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير =

كما قال تعالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ [هود: ٦٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قولِ اللهِ تعالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ إثباتُ أنَّ العَمَلَ كَسْبٌ للإنسانِ؛ لِقَولِه تعالَى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه إذا كان العَمَلُ كَسْبًا للإنسانِ فإنَّه يَجِبُ عليه بمُقتَضى العَقلِ -كما هو مُقتَضى الشَّرعِ- أنْ يَسعَى إلى الكَسبِ المفيدِ، لا إلى الكَسْبِ الضَّارِّ، كما كان يَفعَلُ في أُمورِ الدُّنيا؛ ولهذا ضَلَّ مَن ضَلَّ في عَقْلِه ودِينِه مَنِ احتجَّ بالقَدَرِ على معاصي اللهِ، ولم يَحتَجَّ بالقَدَرِ على أُمورِ الدُّنيا؛ ففي أمورِ الدُّنيا يَعمَلُ ويَكدَحُ ويَسعَى لِمَا فيه المَنفعةُ والمصلَحةُ، لكنْ في أُمورِ الآخِرةِ يَتكاسَلُ مُحتَجًّا بالقَدَرِ[(١)]؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَجوزُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُنذِرَ قَومَه مِثلَ صاعِقةِ عادٍ وثَمودَ، مع العِلمِ بأنَّ ذلك لا يَقَعُ في أُمَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقدْ صَرَّح اللهُ تعالَى بذلك في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال:٣٣]، وجاء في الأحاديثِ الصَّحيحةِ أنَّ اللهَ تعالَى رفَعَ عن هذه الأُمَّةِ هذه الأنواعَ مِن الآفاتِ[(٢)]؟

= السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤).

وقيل: المرادُ بالآيةِ: إنجاءُ المؤمِنينَ مِن عادٍ وثمودَ. وممَّن قال بهذا: البقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ما أخرجه مسلمٌ (٢٨٨٩) من حديث ثوبان، و(٢٨٩٠) من حديث سعدِ بن أبي وقَّاص.=

الجوابُ: أنَّ سورةَ الأنفالِ مَدنيَّةٌ، وهذه مَكِّيَّةٌ[١].

وقيل: إنَّهم لَمَّا عَرَفوا كَونَهم مُشارِكينَ لعادٍ وثَمودَ في الكُفرِ، عَرَفوا كَونَهم مُشارِكينَ لعادٍ وثَمودَ في استِحقاقِ مِثلِ تلك الصَّاعِقةِ، وأنَّ السَّبَبَ المُوجِبَ للعَذابِ واحِدٌ، ورُبَّما يكونُ العَذابُ النَّازِلُ مِن جِنسِ ذلك العَذابِ، وإنْ كان أقَلَّ دَرَجةً منهم، وهذا القَدرُ يَكفي في التَّخويفِ[٢].

ويُمكِنُ القولُ بأنَّ آيةَ الأنفالِ أخبرَتْ عن امتِناعِ العذابِ وهو بيْنَ أَظْهُرِهم، أو وهُمْ يَستغفرون، فإذا خرَج مِن بيْنَ أظْهُرِهم وانتفَى الاستِغفارُ منهم حَلَّ بهم العذابُ.

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ إثباتُ القِياسِ؛ لأنَّ إنذارَ المكذِّبين إذا لم يكُنِ المرادُ بذلك قِياسَ حالِ المكذِّبين للرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم على حالِ المكذِّبين لهودٍ وصالحٍ؛ لم يكُنْ لهذا الإنذارِ فائدةٌ! إذنْ ففيه جوازُ القِياسِ والاعتبارِ بالنظيرِ والمماثِلِ، ولقدْ قال اللهُ تعالَى في آيةٍ أُخرَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١]، وإثباتُ القِياسِ دليلًا هو مِن محاسِنِ الشَّريعةِ؛ لأنَّ ذلك مُقتضَى العقلِ السَّليمِ؛ إذْ إنَّ العقلَ لا يمكنُ أبدًا أنْ يُفرِّقَ بينَ متماثِلَينِ، وعلى هذا؛ فالَّذين أنكروا القياسَ؛ وقالوا: لا قِياسَ في الشريعةِ خالفوا الدَّليلَ السَّمعيَّ، والدَّليلَ العَقليَّ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أنَّ الرُّسُلَ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أتَوْا بتحقيقِ التوحيدِ، وهذا هو

= وما أخرجه أحمد (٢١٠٥٣) والنسائي (١٦٣٨) من حديث خبَّاب بن الأرَتِّ.

(١) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٣).

الأصلُ الأصيلُ الذي دَعَتْ إليه الرُّسُلُ جميعًا[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إنْ قِيل: الرُّسلُ الذين مِن قبْلِهم ومِن بَعدِهم -على قولٍ- كيفَ يُوصَفونَ بأنَّهم جاؤوهم، وكيف يُخاطِبونَهم بقولِهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، أيْ: نَكفُرُ بما جاءَ به كُلُّ الرُّسُلِ، مع أنَّ اللهَ أرسَلَ إليهم هُودًا وصالِحًا فَقَطْ؟

فالجوابُ: أنَّه قد جاءهم هُودٌ وصالِحٌ داعيَيْنِ إلى الإيمانِ بهما وبجَميعِ الرُّسُلِ مِمَّن جاؤوا مِن بَينِ أيديهم، أيْ: مِن قَبلِهم، ومِمَّن يَجيءُ مِن خَلفِهم، أيْ: مِن بَعدِهم، فكَأنَّ الرُّسُلَ جَميعًا قد جاؤوهم، وقَولُهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ خِطابٌ منهم لِهُودٍ وصالِحٍ ولسائِرِ الأنبياءِ الذين دَعَوْا إلى الإيمانِ بهم[٢].

٥- أنَّ الملائكةَ يُقِرُّ بها عامَّةُ الأممِ؛ كما ذَكَر اللهُ عن قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ -مع شِرْكِهم وتكذيبِهم بالرُّسُلِ- أنهم كانوا يَعرفون الملائكةَ، قال قومُ نوحٍ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾[٣].

٦- قال اللهُ تعالَى: ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ هذه الشُّبهةُ لم تَزَلْ مُتوارَثةً بينَ المكَذِّبينَ مِنَ الأُمَمِ، وهي مِن أَوهَى الشُّبَهِ؛ فإنَّه ليس مِن شَرطِ الإرسالِ أنْ يكونَ المُرسَلُ مَلَكًا، وإنَّما شَرطُ الرِّسالةِ أنْ يأتيَ الرَّسولُ بما يدُلُّ على صِدقِه؛ فلْيَقدَحوا إنْ استَطاعوا في صِدْقِهم بقادِحٍ عَقليٍّ أو شَرعيٍّ، ولنْ يَستطيعوا إلى ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣١٩).

سَبيلًا[١]! وهذه الشُّبهةُ ليستْ بحُجَّةٍ؛ بدليلِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]، وحِينئذٍ لو أنزَل اللهُ عزَّ وجلَّ مَلَكًا لَجَعَله رجُلًا ولعادَتِ الشُّبهةُ[٢]، فلو بعَثَ اللهُ إلى البشَرِ رسولًا مَلَكيًّا لكان على هيئةِ الرجُلِ؛ لتُمْكِنَهم مُخاطَبَتُه، والانتفاعُ بالأخذِ عنه؛ لأنَّهم لا يستطيعونَ النَّظرَ إلى الملائكةِ مِن شِدَّةِ النُّورِ، ولو كان كذلك لالْتبَس عليهم الأمرُ، كما هم يَلْبِسون على أنفُسِهم في قَبولِ رِسالةِ الرَّسولِ البشَريِّ. وهذه الآيةُ الكريمةُ مِن سورةِ (الأنعامِ) تدُلُّ على أنَّ الرسولَ يَنبغي أن يكونَ مِن نَوعِ المُرسَلِ إليهم، كما أشار تعالى إلى ذلك أيضًا بقولِه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[٣] [الإسراء: ٩٥].

٧- أنَّ المُقِرَّ بالرُّبوبيَّةِ لا يُعَدُّ مُؤمِنًا حتَّى يُقِرَّ بالأُلوهيَّةِ؛ لقولِهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، وهكذا الكُفَّارُ الَّذين بُعِثَ فيهم الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانوا مُقِرِّينَ بالرُّبوبيَّةِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ولكنَّ الإيمانَ بالرُّبوبيَّةِ لا يَكفي في كونِ الإنسانِ مُسلِمًا! لا بُدَّ مِن الإيمانِ بالأُلوهيَّةِ إضافةً إلى الإيمانِ بالرُّبوبيَّةِ[٤].

٨- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قولُه تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هذه ليسَتْ صِفةً مُقَيِّدَةً، ولكِنَّها صِفَةٌ كاشِفَةٌ؛ لأنَّ كُلَّ استكبارٍ في

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٧٢) و (٣/ ١٨٦) و (٦/ ٣٣٥-٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٥).

الأرضِ هو بغيرِ الحقِّ؛ فالاستكبارُ لا يَنقَسِمُ إلى قِسمَينِ، بل هو قِسْمٌ واحِدٌ، ويُسمَّى مِثْلُ هذا القَيدِ صِفةً كاشِفَةً، أي: تَكْشِفُ ما سَبَقَ، وتُبَيِّنُ حَقيقتَه[١].

٩- مَجامِعُ الخِصالِ الحَميدةِ: الإحسانُ إلى الخَلْقِ، والتَّعظيمُ لِلخالِقِ؛ فقَولُه: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ مُضادٌّ لِلإحسانِ إلى الخَلْقِ، وقَولُه: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ مُضادٌّ لِلتَّعظيمِ لِلخالِقِ، وإذا كان الأمْرُ كذلك، فهُم قدْ بَلَغوا في الصِّفاتِ المَذمومةِ المُوجِبةِ لِلهَلاكِ والإبطالِ إلى الغايةِ القُصْوى؛ فلهذا المعنَى سَلَّطَ اللهُ العَذابَ عليهم، فقال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ حِكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ بأخْذِهم بالعذابِ، حيثُ أُخِذوا بما هو ألطفُ الأشياءِ، وهو الرِّيحُ، الرِّيحُ اللَّطيفةُ الَّتي يكونُ بها إنعاشُ البَدَنِ وتقويتُه ونشاطُه؛ هي التي أَهْلَكَ بها عادًا؛ لأنَّهم قالوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[٣].

١١- قَولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وقَولُه تعالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ فيه الاستِدلالُ بالأثَرِ على المُؤَثِّرِ وأنَّه أكمَلُ، وهكذا كُلُّ ما في المَخلوقاتِ مِن قُوَّةٍ وشِدَّةٍ تَدُلُّ على أنَّ اللهَ أقوى وأشَدُّ، وما فيها مِن عِلمٍ يَدُلُّ على أنَّ اللهَ أعلَمُ، وما فيها مِن حَياةٍ يَدُلُّ على أنَّ اللهَ أَوْلَى بالحَياةِ[٤].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ فيه جَوازُ عَقْدِ المفاضَلةِ بينَ الخالِقِ والمخلوقِ في مَقامِ المُحاجَّةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ مع أنَّه سُبحانَه أَشَدُّ مِن كلِّ أحدٍ، لكِنَّ المقامَ مَقامُ مُحاجَّةٍ، ومقامُ المُحاجَّةِ لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٥٧).

بأس أنْ تُذكَرَ فيه المفاضَلةُ بين المُفَضَّلِ والمُفَضَّلِ عليه، ونظيرُ هذا -بل أبلغُ منه- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، وليس في أصنامِهم خيرٌ، لكنْ هذا مِن بابِ المُحَاجَّةِ، وأنَّ الإنسانَ يُحَاجُّ الخَصْمَ بما يُقِرُّ به(١).

١٣- في قَولِه تعالَى: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ إضافةُ النَّحْسِ إلى الأيامِ، وأنَّه لا بأسَ به، كما قال لوطٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ [هود: ٧٧]، وهذا إذا كان المرادُ به مُجَرَّدَ الخَبرِ، كما هنا، وأمَّا إذا كان المرادُ به العَيبَ والسَّبَّ فإنَّه لا يَجوزُ(٢).

١٤- قال اللهُ تعالَى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾، وقال أيضًا: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ [القمر: ١٩] ما يَذكُرُه بَعضُ أهلِ العِلمِ مِن أنَّ يَومَ النَّحسِ المُستَمِرِّ هو يومُ الأربعاءِ الأخيرِ مِن الشَّهرِ، أو يَومُ الأربعاءِ مُطلَقًا، حتَّى إنَّ بَعضَ المُنتَسِبينَ لطَلَبِ العِلمِ، وكثيرًا مِن العوامِّ صاروا يتشاءَمونَ بيَومِ الأربِعاءِ الأخيرِ مِن كلِّ شَهرٍ، حتَّى إنَّهم لا يُقدِمونَ على السَّفَرِ والتزَوُّجِ ونحوِ ذلك فيه، ظانِّينَ أنَّه يَومُ نَحسٍ وشُؤمٍ، وأنَّ نَحسَه مُستَمِرٌّ على جميعِ الخَلقِ في جميعِ الزَّمَنِ: لا أصلَ له ولا مُعَوَّلَ عليه، ولا يَلتَفِتُ إليه مَن عِندَه عِلمٌ؛ لأنَّ نَحْسَ ذلك اليَومِ مُستَمِرٌّ على عادٍ فقط، الذين أهلَكَهم اللهُ فيه؛ فاتَّصَل لهم عذابُ البَرزخِ والآخِرةِ بعَذابِ الدُّنيا، فصار ذلك الشُّؤمُ مُستَمِرًّا عليهم استِمرارًا لا انقِطاعَ له(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠١).

وينظر ما أخرجه البخاري (٦١٨١) (٦١٨٢) ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في النهي عن سب الدهر.

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨).

١٥- قال اللهُ تعالَى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ هذا هُدًى بعدَ البَيانِ والدَّلالةِ، وهو شَرْطٌ، لا مُوجِبٌ؛ فإنَّه إنْ لم يقترِنْ به هُدًى آخَرُ بَعدَه لم يَحصُلْ به كَمالُ الاهتِداءِ، وهو هُدى التَّوفيقِ والإلهامِ[1]؛ فهدايةُ البيانِ والدَّلالةِ -التي أقام اللهُ بها حُجَّتَه على عِبادِه- لا تَسْتَلْزِمُ الاهتداءَ التَّامَّ[2].

١٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ﴾ عِقابُهم كان عِقابًا مُناسِبًا للجُرْمِ؛ لأنَّهم استَحَبُّوا الضَّلالَ الذي هو مِثْلُ العَمَى، فمَن يَستَحِبَّه فشَأْنُه أن يُحِبَّ العَمَى، فكان جزاؤُهم بالصَّاعِقةِ؛ لأنَّها تُعمي أبصارَهم في حينِ تُهلِكُهم؛ قال تعالَى: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾[3] [البقرة:٢٠].

١٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ﴾ عبَّرَ عن الهلاكِ الذي أهلَكَ به ثَمودَ بعِباراتٍ مُختَلفةٍ؛ فذَكَرَه هنا باسمِ (الصَّاعِقةِ)، وكذا في قَولِه: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١٣]، وعَبَّرَ عنه أيضًا بالصَّاعقةِ في قولِه تعالَى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٣، ٤٤]، وعبَّرَ عنه بالصَّيحةِ في آياتٍ أُخرَى مِن كِتابِه، كقَولِه تعالى: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٧، ٦٨]، وعَبَّرَ عنه بالرَّجفةِ في قَولِه تعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨]، وعبَّرَ عنه بالتَّدميرِ في

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٢).

قولِه سُبحانَه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١]، وعبَّرَ عنه بالطَّاغيةِ في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]، وعبَّرَ عنه بالدَّمدَمةِ في قولِه تعالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وعبَّرَ عنه بالعَذابِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الشعراء: ١٥٧، ١٥٨]، ومعنى هذه العِباراتِ كُلِّها راجِعٌ إلى شَيءٍ واحِدٍ، وهو أنَّ الله أرسَلَ عليهم صَيحةً أهلَكَتْهم، والصَّيحةُ: الصَّوتُ المُزعِجُ المُهلِكُ. والصَّاعِقةُ تُطلَقُ أيضًا على الصَّوتِ المُزعِجِ المُهلِكِ، وعلى النَّارِ المُحرِقةِ، وعليهما معًا؛ ولشِدَّةِ عِظَمِ الصَّيحةِ وهَولِها مِن فَوقِهم رَجَفَت بهم الأرضُ مِن تحتِهم، أي: تحَرَّكَت حَرَكةً قَويَّةً؛ فاجتمع فيها أنَّها صَيحةٌ وصاعِقةٌ ورَجفةٌ، وكونُ ذلك تدميرًا واضِحٌ. وقيل لها: طاغِيةٌ؛ لأنَّها واقِعةٌ مُجاوِزةٌ للحَدِّ في القُوَّةِ وشِدَّةِ الإهلاكِ[(١)].

١٨- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ﴾ فيه الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ الذين قالوا: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِه؛ ؛ لأنَّ «استحَبُّوا» تدلُّ على اختيارِهم لهذا الشَّيءِ، وأنَّهم آثَرُوه على الهُدى[(٢)].

١٩- قولُه تعالَى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ؛ والباءُ هنا للسَّبَبيَّةِ. واعلمْ أنَّ اللهَ تعالَى لن يَحْكُمَ حُكْمًا شرعيًّا ولا حُكْمًا قَدَرِيًّا ولا حُكْمًا جزائيًّا إلَّا لسببٍ، وهذه قاعِدةٌ: لن يَحْكُمَ حُكْمًا شرعيًّا -كالإيجابِ والتحريمِ والإباحةِ-؛ ولا قَدَرِيًّا -كالخَلْقِ والتكوينِ-؛ ولا جزائيًّا إلَّا لسببٍ، نَعْلَمُ ذلك عِلْمَ اليقينِ، ونأخذُه مِن أنَّ اللهَ تعالى حَكيمٌ؛ والحَكيمُ هو الذي يَضَعُ الأشياءَ مواضعَها، لا يمكنُ أنْ يكونَ فِعْلُ اللهِ فَلْتَةً ولا صُدْفَةً، ولا لَغْوًا ولا لَعِبًا، بل لا بُدَّ له مِن سببٍ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١-٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١١).

اقتضاه، لكنْ ليس كلُّ سَبَبٍ اقتضَى حُكْمَ اللهِ يكونُ معلومًا للخَلْقِ! لأنَّ الخَلْقَ أَعْجَزُ مِن أنْ يُدْرِكوا حِكمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وكم مِن أحكامٍ شرعيةٍ وكونيةٍ وجزائيةٍ لا نَعْلَمُ حِكْمَتَها؛ لأنَّنا أَقْصَرُ مِن أنْ نُحِيطَ بحكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[١]!

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أنَّ الإيمانَ والتقوَى سببٌ للنَّجاةِ، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [الزمر: ٦١]، وفيه أيضًا أنَّ الإيمانَ وحدَه لا يكفي؛ بل لا بُدَّ مِن إيمانٍ وتقوَى[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ مُتَّصِلٌ بقَولِه تَعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ ...﴾ إلخ، أيْ: فإنْ أعرَضُوا عنِ التَّدَبُّرِ فيما ذُكِر مِن عَظائِمِ الأُمورِ الدَّاعيةِ إلى الإيمانِ، أو عنِ الإيمانِ بَعدَ هذا البَيانِ، فقُلْ لهم: أنْذَرْتُكم[٣].

- وبَعدَ أنْ قَرَعَتْهم الحُجَّةُ التي لا تَترُكُ لِلشَّكِّ مَسرَبًا إلى النُّفوسِ بَعدَها في أنَّ اللهَ مُنفَرِدٌ بالإلهيَّةِ؛ لأنَّه مُنفَرِدٌ بإيجادِ العَوالِمِ كُلِّها، وكانَ ثُبوتُ الوَحدانيَّةِ مِن شَأنِه أنْ يُزيلَ الرِّيبةَ في أنَّ القُرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عِندِ اللهِ؛ لِأنَّهم ما كَفَروا به إلَّا لِأجْلِ إعلانِه بنَفْيِ الشَّريكِ عنِ اللهِ تَعالى، فلَمَّا استَبانَ ذلك كان الشَّأنُ أنْ يَفِيئوا إلى تَصديقِ الرَّسولِ والإيمانِ بالقُرآنِ، وأنْ يُقلِعوا عن إعراضِهم المَحكيِّ عنهم بقَولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ...﴾ [فصلت: ٤] إلخ؛ فلذلك جُعِلَ استِمرارُهم على الإعراضِ بَعدَ تلك الحُجَجِ أمْرًا مَفروضًا كما يُفرَضُ المُحالُ؛ فجِيءَ في جانِبِه بحَرفِ (إنْ) الذي الأصْلُ فيه أنْ يَقَعَ في المَوقِعِ الذي لا جَزمَ فيه بحُصولِ الشَّرطِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧).

فمَعنى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾: إنِ استَمَرُّوا على إعراضِهم بَعدَما هَدَيتَهم بالدَّلائِلِ البَيِّنةِ وكابَروا فيها؛ فالفِعلُ مُستَعمَلٌ في مَعنى الاستِمرارِ[١].

- وفي قَولِه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ التِفاتٌ؛ فقد خاطَبَهم أوَّلًا بقَولِه: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ بَيْدَ أنَّهم لم يَأْبَهوا لخِطابِه، ولم يَستَوعِبُوا نُصحَه؛ فالتَفَتَ مِنَ الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ لأنَّهم فَعَلوا الإعراضَ، فليس له إلَّا أنْ يُعرِضَ عن خِطابِهم؛ لِيَصِحَّ التَّلاؤُمُ، ويُناسِبَ اللَّفظُ المَعنى، وهذا مِن أرفَعِ أنواعِ البَلاغةِ وأرقاها، وكم لِلالتِفاتِ مِن أسرارٍ[٢]!

- وعُدِلَ عنِ المُضارِعِ المُستَقبَلِ إلى الماضي في قَولِه: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ ما يُنذِرُهم به أمْرٌ مُتَحقِّقٌ لا مَندوحةَ عنه[٣].

- قَولِه: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ حَقيقةُ الصَّاعِقةِ: نارٌ تَخرُجُ مع البَرقِ تُحرِقُ ما تُصيبُه، وتُطلَقُ على الحادِثةِ المُبيرةِ - أي: المُهْلِكة- السَّريعةِ الإهلاكِ، ولَمَّا أُضيفَتْ ﴿صَٰعِقَةً﴾ هنا إلى عادٍ وثَمودَ، وعادٌ لم تُهلِكْهمُ الصَّاعِقةُ وإنَّما أهلَكَهمُ الرِّيحُ، وثَمودُ أُهلِكوا بالصَّاعِقةِ؛ فَقَدِ استعمَلَ الصَّاعِقةَ هنا بالمَعنيَينِ السابقَيْن؛ لقَصْدِ الإيجازِ، ولِيَقَعَ الإجمالُ ثم التَّفصيلُ بَعدُ بقَولِه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ [فصلت: ١٥] إلى قَولِه: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٤] [فصلت: ١٧].

- وفي قولِه: ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ خُصَّ بالذِّكرِ مِنَ الأُمَمِ المُهلَكةِ: عادٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٣).

وثَمودُ؛ لِعِلْمِ قُرَيشٍ بحالِهما، ولِوقوعِهم على بِلادِهم في (اليَمَنِ) وفي (الحِجْرِ)[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

- الضَميرُ في ﴿جَآءَتْهُمُ﴾ عائِدٌ إلى عادٍ وثَمودَ باعتِبارِ عَدَدِ كُلِّ قَبيلةٍ منهما. وجَمْعُ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ هنا مِن بابِ إطلاقِ صِيغةِ الجَمعِ على الاثنَيْنِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، والقَرينةُ واضحةٌ، وهو استِعمالٌ غيرُ عَزيزٍ، وإنَّما جاءهمْ رَسولانِ: هودٌ، وصالحٌ[٢].

- وقولُه: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ تَمثيلٌ لحِرْصِ رَسولِ كُلٍّ منهم على هُداهم، بحيثُ لا يَترُكُ وَسيلةً يَتَوسَّلُ بها إلى إبلاغِهم الدِّينَ إلَّا تَوَسَّلَ بها، فمُثِّلَ ذلك بالمَجيءِ إلى كُلٍّ منهم تارةً مِن أمامِه وتارةً مِن خَلفِه، لا يَترُكُ له جِهةً، كما يَفعَلُ الحَريصُ على تَحصيلِ أمْرٍ أنْ يَتَطلَّبَه ويُعيدَ تَطَلُّبَه، ويَستَوعِبَ مَظانَّ وُجودِه أو مَظانَّ سَماعِه. وقيل: أي: أنْذَروهم مِن وَقائعِ اللهِ فيمَن قبْلَهم مِن الأُمَمِ وعَذابِ الآخِرةِ؛ لأنَّ الرُّسُلَ إذا حَذَّروهم مِن وقائِعِ اللهِ فيمَن قَبلَهم مِنَ الأُمَمِ، وحَذَّروهم مِن عَذابِ الآخِرةِ، فقد جاؤوهم بالوَعظِ مِن جِهةِ الزَّمَنِ الماضي، وما جَرى فيه على الكُفَّارِ، ومِن جِهةِ المُستَقبَلِ وما سَيَجْري عليهم. وقِيل: ﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: تَقدَّموا في الزَّمنِ، واتَّصلَت نِذارتُهم إلى أعمارِ عادٍ وثَمودَ، وبهذا الاتِّصالِ قامَتِ الحُجَّةُ. و(مِنْ خَلْفِهِمْ)، أي: جاءهمْ رسولٌ بعْدَ تَقدُّمِ وُجودِهم في الزَّمنِ، وجاءَ مِن مَجموعِ العِبارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٣).

إقامةُ الحُجَّةِ عليهم في أنَّ الرِّسالةَ والنِّذارةَ عَمَّتْهم خَبرًا ومُباشَرةً[١].

- وهذا التَّمثيلُ نَظيرُ الَّذي في قولِه تعالى حِكايةً عن الشَّيطانِ: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٧]. وإنَّما اقتُصِرَ في هذه الآيةِ على جِهتَينِ، ولم تَستوعِبِ الجِهاتِ الأربعَ، كما مُثِّلَ حالُ الشَّيطانِ في وَسوستِه؛ لأنَّ المقصودَ هنا تَمثيلُ الحِرصِ فقطْ، وقد حصَلَ، والمَقصودُ في الحِكايةِ عن الشَّيطانِ تَمثيلُ الحِرصِ مع التَّلهُّفِ؛ تَحذيرًا منه، وإثارةً لِبُغْضِه في نُفوسِ النَّاسِ[٢].

- قولُه: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ حِكايةٌ لِجوابِ عادٍ وثَمودَ لِرَسولَيْهم، وقد كانَ جَوابًا مُتَماثِلًا؛ لأنَّه ناشِئٌ عن تَفكيرٍ مُتَماثِلٍ؛ فإنَّهم يَتصَوَّرونَ صِفاتِ اللهِ تعالَى وأفعالَه على غَيرِ كُنهِها، ويَقيسونَها على أحوالِ المَخلوقاتِ؛ ولذلك يَتَماثَلُ في هذا حالُ أهلِ الجَهالةِ؛ كما قال تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۞ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، أي: بلْ هم مُتماثِلون في الطُّغيانِ، أي: الكُفرِ الشَّديدِ، فتُمْلي عليهم أوهامُهم قَضايا مُتماثِلةً. ولكَونِ جَوابِهم جَرى في سياقِ المُحاوَرةِ أتَتْ حِكايةُ قَولِهم غَيرَ مَعطوفةٍ بأُسلوبِ المُقاوَلةِ؛ فإنَّ قَولَ الرُّسلِ لهم: (لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ) قد حُكِيَ بِفعلٍ فيه دَلالةٌ على القولِ، وهو فِعلُ ﴿جَاءَتۡهُمۡ﴾؛ فقَولُهم: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ يَتَضمَّنُ إبطالَ رِسالةِ البَشَرِ عنِ اللهِ تَعالى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٥٤، ٢٥٥).

- ومَفعولُ ﴿شَآءَ﴾ في قولِه: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ مَحذوفٌ؛ دلَّ عليه السِّياقُ، والتقديرُ: لو شاء ربُّنا أنْ يُرسِلَ إلينا لَأنزَلَ مَلائكةً مِن السَّماءِ مُرسَلينَ إلينا. أو: لو شاء ربُّنا إنزالَ ملائكةٍ بالرِّسالةِ منه إلى الإنسِ لأَنزلَهم بها إليهم، وهذا أبلغُ في الامتِناعِ من إرسالِ البَشرِ؛ إذ عَلَّقوا ذلك بأقوالِ المَلائكةِ، وهو لم يَشأْ ذلك؛ فكيف يشاءُ ذلك في البَشرِ؟! وقيل: التقديرُ: لوْ شاءَ رَبُّنا أنْ نُوحِّدَه، ولا نَعْبُدَ مِن دُونِه شَيئًا غَيرَه، لَأنزَلَ إلينا مَلائِكةً من السماءِ رُسلًا بما تَدْعونَنا أنتُم إليه، ولم يُرسِلْكم وأنتُم بشرٌ مِثلُنا، ولكنَّه رضِيَ عِبادتَنا ما نَعبُدُ؛ فلذلك لم يُرسِلْ إلينا بالنَّهيِ عن ذلك مَلائكةً، وهذا حذْفٌ خاصٌّ هو غيرُ حَذْفِ مَفعولِ فِعلِ المَشيئةِ الشَّائعِ في الكلامِ؛ لأنَّ ذلك فيما إذا كان المَحذوفُ مَدلولًا عليه بجوابِ (لو)، كقولِه تعالى: ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، ونُكتتُه: الإبهامُ ثمَّ البَيانُ. وأمَّا الحذْفُ في هذه الآيةِ فهو لِلاعتِمادِ على قَرينةِ السِّياقِ والإيجازِ، وهو حذْفٌ عَزيزٌ لِمَفعولِ فِعلِ المَشيئةِ(١).

- وقَولُهم: ﴿أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ ليس بإقرارٍ بالإرسالِ، وإنَّما هو على كَلامِ الرُّسُلِ، وفيه تَهَكُّمٌ، أي: بما أُرسِلْتُم على زَعْمِكم، كما قالَ فِرعَونُ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾(٢) [الشعراء: ٢٧].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٤، ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٥).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩١، ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨).

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تفريعٌ على جُملةِ ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤] المُقتضيةِ أنَّهم رَفَضوا دَعوةَ رَسُولَيهم ولم يَقبَلوا إرشادَهما واستِدلالَهما(١).

- وبدأ بقِصَّةِ عادٍ؛ لأنَّها أقدَمُ زمانًا(٢).

- قولُه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ الاستِكبارُ: المُبالَغةُ في الكِبرِ، أيْ: التَّعاظُمُ واحتِقارُ الناسِ؛ فالسِّينُ والتاءُ فيه لِلمُبالَغةِ، والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لِلعَهدِ، أيْ: أرضِهم المَعهودةِ، وإنَّما ذَكَر مِن مَساويهم الاستِكبارَ؛ لأنَّ تَكَبُّرَهم هو الذي صَرَفَهم عنِ اتِّباعِ رَسولِهم، وعن تَوَقُّعِ عِقابِ اللهِ(٣).

- وقولُه: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زِيادةُ تَشنيعٍ لِاستِكبارِهم؛ فإنَّ الاستِكبارَ لا يَكونُ بِحَقٍّ؛ إذْ لا مُبَرِّرَ لِلكِبْرِ بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ؛ لأنَّ جَميعَ الأُمورِ المُغْرِياتِ بالكِبْرِ، مِن العِلمِ، والمالِ، والسُّلطانِ، والقوَّةِ، وغيرِ ذلك؛ لا تُبلِغُ الإنسانَ مَبلَغَ الخُلوِّ عن النَّقصِ، وليس للضَّعيفِ الناقصِ حقٌّ في الكِبْرِ؛ ولذلك كان الكِبرُ مِن خَصائصِ اللهِ تعالى(٤).

- ولَمَّا كانَ اغتِرارُهم بقُوَّتِهم هو باعِثَهم على الكُفرِ، وكانَ قَولُهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ دَليلًا عليه، خُصَّ بالذِّكرِ، وإنَّما عُطِفَ بالواوِ مع أنَّه كالبَيانِ لِقَولِه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ إشارةً إلى استِقلالِه بكَونِه مُوجِبَ الإنكارِ عليهم؛ لأنَّ قَولَهم ذلك هو بمُفرَدِه مُنكَرٌ مِن القَولِ، فذُكِرَ بالعَطفِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على فِعلِ (استَكبَروا)؛ لأنَّ شَأنَ العَطفِ أنْ يَقتَضيَ المُغايَرةَ بيْن المَعطوفِ والمَعطوفِ عليه، ولِيُعلَمَ أنَّه باعِثُهم على الاستِكبارِ بالسِّياقِ[١].

- وجُملةُ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ، والواوُ اعتِراضيَّةٌ، والرُّؤيةُ عِلميَّةٌ. والاستِفهامُ إنكاريٌّ، والمَعنى: إنكارُ عَدَمِ عِلْمِهم بأنَّ اللهَ أشَدُّ منهم قُوَّةً؛ حيثُ أعْرَضوا عن رِسالةِ رَسولِ رَبِّهم، وعن إنذارِه إيَّاهم، إعراضَ مَن لا يَكتَرِثُ بعَظَمةِ اللهِ تَعالى؛ لِأنَّهم لو حَسَبوا لذلك حِسابَه، لَتَوقَّعوا عَذابَه؛ فلَأقبَلوا على النَّظَرِ في دَلائِلِ صِدقِ رَسولِهم[٢]. وقيل: الهَمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، والواوُ حرْفُ عَطفٍ، وجُملةُ (لمْ يَرَوْا) مَعطوفةٌ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ السِّياقُ، أي: أغفَلُوا وضَلُّوا ولمْ يَرَوْا[٣].

- وإجراءُ وَصْفِ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ﴾ على اسمِ الجَلالةِ؛ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإشارةِ إلى وَجهِ الإنكارِ عليهم؛ لِجَهلِهم بأنَّ اللهَ أقوى منهم؛ فإنَّ كَونَهم مَخلوقينَ مَعلومٌ لهم بالضَّرورةِ؛ فكانَ العِلْمُ به كافيًا في الدَّلالةِ على أنَّه أشَدُّ منهم قُوَّةً، وأنَّه حَقيقٌ بأنْ يَحسِبوا لِغَضَبِه حِسابَه؛ فيَنظُروا في أدِلَّةِ صِدقِ رَسولِه إليهم[٤]. فأتَى بالموصولِ وصِلَتِه كالتعليلِ والدَّلالةِ على ضعفِهم أمامَ اللهِ عزَّ وجلَّ[٥].

- والضَميرُ (هو) في قولِه: ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ﴾ ضَميرُ فَصلٍ، وهو يُفيدُ تقويةَ الحُكمِ، بمَعنى وُضوحِه، وإذا كانَ ذلك الحُكمُ مُحَقَّقًا كانَ عَدَمُ عِلْمِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٥٧).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير سورة العنكبوت)) لابن عثيمين (ص: ٩٧).

بمُقتَضاه أشنَعَ، وعُذرُهم في جَهلِه مُنتَفيًا[١].

- قولُه: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ دَلَّ فِعلُ (كانوا) على أنَّ التَّكذيبَ بالآياتِ مُتَأصِّلٌ فيهم، ودَلَّتْ صِيغةُ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ على أنَّ الجَحدَ مُتَكَرِّرٌ فيهم مُتَجَدِّدٌ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحًا صَرۡصَرًا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحًا صَرۡصَرًا﴾ أشارَتِ الفاءُ إلى أنَّ عِقابَهم كانَ مُسَبَّبًا على حالةِ كُفرِهم بصِفَتِها؛ فإنَّ باعِثَ كُفرِهم كانَ اغترارَهم بقُوَّتِهم، فأهلَكَهمُ اللهُ بما لا يَترَقَّبُ الناسُ الهَلاكَ به؛ فإنَّ الناسَ يَقولونَ لِلشَّيءِ الذي لا يُؤبَهُ به: هو رِيحٌ؛ لِيُرِيَهم أنَّ اللهَ شَديدُ القُوَّةِ، وأنَّه يَضَعُ القُوَّةَ في الشَّيءِ الهَيِّنِ مِثلَ الرِّيحِ؛ لِيَكونَ عَذابًا وخِزيًا، أيْ: تَحقيرًا، كما قال: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وأيُّ خِزيٍ أشَدُّ مِن أنْ تَتَراماهم الرِّيحُ في الجَوِّ كالرِّيشِ، وأنْ تُلقيَهم هَلْكى على التُّرابِ عن بَكْرةِ أبيهم، فيُشاهِدَهمُ المارُّونَ بدِيارِهم جُثَثًا صَرْعى قد تَقَلَّصتْ جُلودُهم وبَليَتْ أجسامُهم ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ خَاوِيَةٖ﴾[٣] [الحاقة: ٧]؟!

- قولُه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحًا صَرۡصَرًا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ الصَّرصَرُ: الرِّيحُ العاصِفةُ التي يَكونُ لها صَرصَرةٌ -أيْ: دَويٌّ في هُبوبِها- مِن شِدَّةِ سُرعةِ تَنَقُّلِها، وتَضعيفُ عَينِه (الراء)؛ لِلمُبالَغةِ في شِدَّتِها بيْن أفرادِ نَوعِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٥٩).

- قولُه: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ جمعُ (نَحِسةٍ) بكسرِ الحاءِ، صِفةٌ مشبَّهةٌ مِنْ (نَحِس) إذا أصابَه النَّحْسُ إصابَةَ سُوءٍ أوْ ضُرٍّ شَديدٍ، وقُرِئَ بالسُّكونِ ﴿نَحْسَاتٍ﴾[(١)]، فاحتَمل أنْ يكونَ مصدرًا وُصِف به مبالغةً، واحتَمل أنْ يكونَ صفةً مخفَّفًا مِن (فَعْلٍ)، كـ (صَعْبٍ)[(٢)].

- قولُه: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ اللَّامُ في ﴿لِّنُذِيقَهُمْ﴾ للتَّعليلِ، وهي مُتعَلِّقةٌ بـ (أرسَلْنا)[(٣)].

- والخِزْيُ: الذُّلُّ. وإضافةُ ﴿عَذَابَ﴾ إلى ﴿ٱلْخِزْيِ﴾ مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ؛ بدَليلِ مُقابَلتِه بقَولِه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾، أي: أشدُّ إخْزاءً مِن إخزاءِ عَذابِ الدُّنيا، وذلك باعتِبارِ أنَّ الخِزْيَ وصْفٌ للعَذابِ مِن بابِ الوَصْفِ بالمَصدرِ، أو اسمِ المَصدرِ؛ للمُبالَغةِ في كَونِ ذلك العذابِ مُخزِيًا للذي يُعذَّبُ به. ومعنى كَونِ العذابِ مُخزِيًا: أنَّه سبَبُ خِزْيٍ. ويُقدَّرُ قبْلَ الإضافةِ: لِنُذيقَهم عَذابًا خِزْيًا، أي: مُخزِيًا؛ فلمَّا أُرِيدَت إضافةُ المَوصوفِ إلى صِفَتِه، قِيل: ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ للمُبالَغةِ أيضًا؛ لأنَّ إضافةَ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ مُبالَغةٌ في الاتِّصافِ، حتَّى جُعِلَت الصِّفةُ بمَنزلةِ شَخصٍ آخَرَ يُضافُ إليه الموصوفُ، وهو قَريبٌ مِن مُحسِّنِ التَّجريدِ[(٤)]؛ فحصَلَت مُبالَغتانِ في

---

(١) قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو ويعقوبُ ﴿نَحْسَاتٍ﴾ ساكنةَ الحاءِ، وقرأ الباقون ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ بكسرِ الحاءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٠).

(٤) التجريد: هو اعتقادُ أنَّ في الشيءِ مِن نفْسِه معنًى آخَرَ كأنَّه مُباينٌ له، فيخرجُ ذلك إلى ألفاظِه بما اعتقَد ذلك؛ كقولِهم: لئن لقيتَ زيدًا لتلقيَنَّ معه الأسدَ؛ فظاهرُ هذا أنَّ فيه مِن نفْسِه أسدًا، وهو عينُه هو الأسدُ، لا أنَّ هناك شيئًا منفصلًا. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

قولِه: ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾: مُبالغةُ الوَصفِ بالمَصدرِ، ومُبالغةُ إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفةِ[١].

- وجُملةُ ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ احتِراسٌ؛ لِئَلَّا يَحسَبَ السَّامِعونَ أنَّ حَظَّ أولئك مِنَ العِقابِ هو عَذابُ الإهلاكِ بالرِّيحِ؛ فعَطَفَ عليه الإخبارَ بأنَّ عَذابَ الآخِرةِ أخْزى، أيْ: لهم ولِكُلِّ مَن عُذِّبَ عَذابًا في الدُّنيا؛ لِغَضَبِ اللهِ عليه[٢].

- وجُملةُ ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ تَذييلٌ، أيْ: لا يَنصُرُهم مَن يَدفَعُ العَذابَ عنهم، ولا مَن يَشفَعُ لهم، ولا مَن يُخرِجُهم منه بَعدَ مُهلةٍ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ مَعطوفٌ على قولِه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ﴾، وهما تَفصيلٌ لِمَا أُجمِلَ، ونَشرٌ لِمَا لُفَّ[٤] في قَولِه: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۞

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٣، ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شَيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يَشتملُ على متعدِّدٍ- ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به؛ فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مِثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجمالي. واللَّفُّ المُفصَّل يأتي النشرُ اللَّاحقُ له على وجهَيْن؛ الوجهُ الأوَّل: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّف، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنشر المرتَّب». الوجه الآخَر: =

إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤]؛ فإنَّ قولَه: ﴿فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ في مُقابِلِ ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ [فصلت: ١٤]، وقولَه: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ في مُقابِلِ ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ ...﴾ [فصلت: ١٤]، الآيةَ. والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ فَصيحةٌ تُفصِحُ عن مَحذوفٍ، أيْ: فهَدَيْناهُم فاستَكبَروا؛ بدَلالةِ قَرينَتِها[1].

- وإنَّما نَصَّ على ثمودَ وإنْ كان جميعُ الأُمَمِ المُهلَكةِ قد قامتْ عليهم الحُجَّةُ، وحَصَل لهم البيانُ؛ لأنَّ آيةَ ثَمودَ آيةٌ باهِرةٌ قد رآها صَغيرُهم وكَبيرُهم، وذَكَرُهم وأُنثاهم، وكانتْ آيةً مُبصِرةً؛ فلهذا خَصَّهم بزيادةِ البَيانِ والهُدى[2].

- قولُه: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ مَعناه: أحَبُّوا؛ فالسِّينُ والتَّاءُ لِلمُبالَغةِ، أيْ: كانَ العَمى مَحبوبًا لهم[3].

- وضُمِّنَ (استَحَبُّوا) مَعنى: فَضَّلُوا، وهَيَّأ لهذا التَّضمينِ اقترانُه بالسِّينِ والتَّاءِ؛ لِلمُبالَغةِ؛ لأنَّ المُبالَغةَ في المَحبَّةِ تَستَلزِمُ التَّفضيلَ على بَقيَّةِ المَحبوباتِ؛ فلذلك عُدِّيَ (استَحَبُّوا) بحَرفِ (على)، أيْ: رَجَّحوا باختيارِهم، وتَعليقُ ﴿عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ بفِعلِ (استَحَبُّوا)؛ لِتَضمينِه مَعنى: فَضَّلوا وآثَروا[4].

= أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّف والنَّشر المُشَوَّش»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٩١، ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قَولِه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ شَبَّهَ الكُفرَ بالعَمى؛ لأنَّ الكافِرَ ضالٌّ عنِ القَصدِ، مُتَعسِّفٌ الطَّريقَ كالأعمى، وشَبَّهَ الإيمانَ بالهُدى؛ لأنَّ المُؤمِنَ مُهتَدٍ إلى مَحَجَّةِ القَصدِ وسَواءِ السَّبيلِ، ثُمَّ حَذَفَ المُشَبَّهَ في كِلَيْهما، وأثبَتَ المُشَبَّهَ به[١].

- وقولُه: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ مُفَرَّعٌ على قَولِه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، فعُجِّلت العقوبةُ لهم؛ فالفاءُ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ، هذا وجهٌ، ووجهٌ آخرُ: أنَّ الفاءَ هنا للسَّبَبِيَّةِ؛ والمُسَبَّبُ يَعْقُبُ السَّبَبَ[٢].

- وإضافةُ ﴿صَٰعِقَةُ﴾ إلى ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ في قولِه: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّها صاعِقةٌ تُعَرَّفُ بطَريقِ الإضافةِ؛ إذْ لا يُعرَّفُ بها إلَّا ما تُضافُ إليهِ، أيْ: صاعِقةٌ خارِقةٌ لِمُعتادِ الصَّواعِقِ؛ فهي صاعِقةٌ مُسَخَّرةٌ مِنَ اللهِ لِعَذابِ ثَمودَ؛ فإنَّ أصْلَ معنى الإضافةِ أنَّها بتَقديرِ لامِ الاختِصاصِ؛ فتَعريفُ المُضافِ لا طَريقَ له إلَّا بَيانُ اختصاصِه بالمُضافِ إليه[٣].

- قولُه: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ الهُونُ: الهوانُ؛ وُصِفَ العَذابُ بـ ﴿ٱلْهُونِ﴾؛ للمُبالَغةِ، أو أُبْدِلَ منه، ووَجهُ كَونِ العذابِ هَوانًا: أنَّه إهلاكٌ فيه مَذَلَّةٌ؛ إذِ استُؤصِلوا عن بَكرةِ أبيهم، وتُرِكوا صَرْعى على وَجهِ الأرضِ، أيْ: أخَذَتْهمُ الصَّاعِقةُ بسَبَبِ كَسبِهم في اختِيارِهمُ البَقاءَ على الضَّلالِ بإعراضِهم عن دَعوةِ رَسولِهم، وعن دَلالةِ آياتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير أبي =

- ويُعلَمُ مِن قَولِه في شَأنِ عادٍ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦] أنَّ لِثَمودَ عَذابًا في الآخِرةِ؛ لأنَّ الأُمَّتَيْنِ تَماثَلَتا في الكُفرِ؛ فلم يُذكَرْ ذلك هنا؛ اكتِفاءً بذِكرِه فيما تَقَدَّمَ، وهذا مُحَسِّنُ الاكتِفاءِ[١]، وهو مُحَسِّنٌ يَرجِعُ إلى الإيجازِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ قيل: إنَّه عَطفٌ على التَّفصيلِ في قَولِه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فصلت: ١٥]، وما عُطِفَ عليه مِن قَولِه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]؛ لِأنَّ مَوقِعَ هاتِه الجُملةِ المُتَضمِّنةِ إنجاءَ المُؤمِنينَ مِنَ العَذابِ بَعدَ أنْ ذَكَرَ عَذابَ عادٍ وعَذابَ ثَمودَ؛ يُشيرُ إلى أنَّ المعنَى إنجاءُ الذين آمَنوا مِن قَومِ عادٍ وقَومِ ثَمودَ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ فمَضمونُ هذه الجُملةِ فيه مَعنى استِثناءٍ مِن عُمومِ أُمَّتَيْ عادٍ وثَمودَ، فيَكونُ لها حُكمُ الاستِثناءِ الوارِدِ بَعدَ جُمَلٍ مُتَعاقِبةٍ؛ أنَّه يَعودُ إلى جَميعِها[٣].

- وقَولُه: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، أيْ: كان سُنَّتُهم اتِّقاءَ اللهِ، والنَّظَرَ فيما يُنَجِّي مِن غَضَبِه وعِقابِه، وهو أبلَغُ في الوَصفِ مِن أنْ يُقالَ: والمُتَّقينَ[٤].

= السعود)) (٨/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٣).

(١) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضي المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّة؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذف، على سبيلِ الاكتفاءِ؛ إذِ التَّقْديرُ: تقيكُمُ الْحَرَّ والْبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٦٣، ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٦٤).

الآيات (١٩-٢٤)

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُحْشَرُ﴾: أي: يُجمعُ ويُساقُ، والحَشرُ: الجمعُ مع سَوْقٍ، وكلُّ جمعٍ حَشْرٌ، وقيل: هو الجمعُ بكثرةٍ، والحشرُ: إخراجُ الجَماعةِ عن مقرِّهم، وإزعاجُهم عنه إلى الحربِ ونحوِها[١].

﴿يُوزَعُونَ﴾: أي: يُدفَعونَ، ويُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم، وأصلُ الوَزْعِ: يدُلُّ على الكَفِّ والمَنعِ[٢].

﴿أَرْدَاكُمْ﴾: أي: أهلَكَكم، والرَّدَى: الموتُ والهَلاكُ، وأصلُ (ردي): يدُلُّ على رَميٍ وتَرامٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٦).

﴿مَثْوًى﴾: أي: مَنزِلٌ ومُقامٌ، وأصلُ الثَّواءِ: يدُلُّ على الإقامةِ مع الاستِقرارِ[١].

﴿يَسْتَعْتِبُوا۟﴾: أي: يَطلُبوا إزالةَ غَضَبِ رَبِّهم بالتَّوبةِ وصالحِ العَمَلِ؛ مِن الاستِعتابِ: وهو الرُّجُوعُ عَن الإساءَةِ، والتَّعَرُّضُ لِطَلَبِ الرِّضا، وأصلُ الكَلِمةِ مِن (العَتْبِ): وهو الغَضَبُ والمَلامةُ، يُقالُ: عتَبَ عليه يَعتِبُ: إذا غَضِبَ عليه ولامَه، وأعتَبَه: إذا زالَ عنه عَتْبُه، واستَعْتَبَه: إذا طلَبَ منه الإعتابَ، أي: الرِّضا[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى -مبيِّنًا جانبًا مِن أحوالِ الكافرينَ يومَ القِيامةِ-: واذكُرْ يومَ يَجمَعُ اللهُ أعداءَه الكافِرينَ به، فيُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم، فيُساقُونَ إلى النَّارِ سَوقًا عَنيفًا مُهينًا، حتى إذا جاء أولئك الكُفَّارُ النَّارَ شَهِدَ عليهم سَمعُهم وأبصارُهم وجُلودُهم بما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا مِن آثامٍ! وقالوا لجُلودِهم مُنكِرينَ عليهم: لم شَهِدْتُم علينا؟! فقالتْ جلودُهم: أنطَقَنا اللهُ الَّذي أنطَقَ كُلَّ شَيءٍ بقُدرتِه، وهو خَلَقَكم أوَّلَ مَرَّةٍ، وإليه تُرجَعونَ بعدَ مَوتِكم!

وما كُنتُم في الدُّنيا تَستَخْفونَ بتَرْكِ الكُفرِ والمعاصي مخافةَ أنْ يَشهَدَ عليكم سَمعُكم وأبصارُكم وجُلودُكم يومَ القِيامةِ، ولكِنْ ظَنَنتُم أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ كَثيرًا ممَّا تَعمَلونَ!

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سُوءَ عاقبةِ ظنِّهم، فيقولُ: وذلكم الظَّنُّ السَّيِّئُ الذي ظَنَنْتُموه

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢٣).

برَبِّكم أهلَكَكم فأصبَحتُم يومَ القِيامةِ مِنَ الخاسِرينَ الهالِكينَ.

فإنْ يَصبِرْ أولئك الكُفَّارُ على النَّارِ فالنَّارُ مُستَقَرٌّ لهم أبدًا، وإن يَطلُبوا مِنَ اللهِ الرِّضا عنهم وقَبولَ تَوبتِهم ومَعذِرتِهم، فلن يَرضَى عنهم، ولنْ يَقبَلَ تَوبتَهم ومَعذِرتَهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالَى كَيفيَّةَ عُقوبةِ أولئك الكُفَّارِ في الدُّنيا، أردَفَه بكَيفيَّةِ عُقوبةِ الكُفَّارِ أولئك وغَيرِهم في الآخِرةِ؛ ليحصُلَ منه تمامُ الاعتبارِ في الزَّجرِ والتَّحذيرِ[١].

وأيضًا لَمَّا فُرِغَ مِن مَوعِظةِ المُشرِكينَ بِحالِ الأُمَمِ المُكَذِّبةِ مِن قَبلِهم، وإنذارِهم بعَذابٍ يَحلُّ بهم في الدُّنيا كما حَلَّ بأولئك؛ لِيكونَ لهم ذلك عِبرةً؛ فإنَّ لاستِحضارِ النَّظائرِ أثَرًا في النَّفْسِ تَعتَبِرُ به ما لا تَعتَبِرُ بتَوصيفِ المَعاني العَقليَّةِ؛ انتُقِلَ إلى إنذارِهم بما سَيحِلُّ بهم في الآخِرةِ[٢].

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ يومَ يَجمَعُ اللهُ أعداءَه الكافِرينَ به، فيُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم حتَّى يجتَمِعوا ويُساقوا إلى النَّارِ سَوقًا عَنيفًا[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤، ٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١٦-١١٨). =

كما قال تعالَى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: حتَّى إذا جاء الكُفَّارُ النَّارَ شَهِدَ عليهم سَمعُهم وأبصارُهم وجُلودُهم بما كانوا يَعمَلونَ بها في الدُّنيا مِن آثامٍ(١).

= قال الشوكانيُّ: (ومعنَى حَشْرِهم إلى النَّارِ سَوْقُهم إليها، أوْ إلى موقفِ الحِسابِ؛ لأنَّه يَتَبَيَّنُ عندَه فريقُ الجنَّةِ، وفريقُ النَّارِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٦).

وقال ابنُ عطيةَ: (﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ هم الكفَّارُ المخالِفونَ لأمْرِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠).

وقال ابن عاشور: (و﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾: هم مُشْرِكو قُريشٍ؛ لأنَّهم أعداءُ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠).

وقال الشِّنقيطي: (أصلُ معنى ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: يُكَفُّ أوَّلُهم عن التقَدُّمِ، وآخِرُهم عن التأخُّرِ، حتى يجتَمِعوا جميعًا، وذلك يدُلُّ على أنَّهم يُساقُونَ سَوقًا عَنيفًا يُجمَعُ به أوَّلُهم مع آخِرِهم... ولعَلَّ الوَزْعَ المذكورَ في الآيةِ يكونُ في الزُّمرةِ الواحِدةِ مِن زُمَرِ أهلِ النَّارِ؛ لأنَّهم يُساقُونَ إلى النَّارِ زُمَرًا زُمَرًا). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٥).

وقال ابنُ عُثَيمين: (ولها معنًى آخَرُ أيضًا: يُساقون بالتوزيعِ، يعني: أنَّهم طوائفُ وأممٌ، كلَّما دخَلت أمَّةٌ لعَنتْ أختَها، فهُمْ يُوزَعونَ بالسِّياقِ، أي: يُساقونَ، ويُوزَعون أيضًا بالتفريقِ، كلُّ أمَّةٍ وحدَها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

قال ابنُ الجوزي: (وفي المرادِ بالجُلودِ ثلاثةُ أقوالٍ: أحَدُها: الأيدي والأرجُلُ. والثاني: الفُروجُ. رُوِيَا عن ابنِ عبَّاسٍ. والثَّالثُ: أنَّه الجُلودُ نَفسُها. حكاه الماورديُّ) ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٧٦).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ عُمومُ الجُلودِ مِن جَسَدِ الإنسانِ: ابنُ جرير، واستظهره الماورديُّ، =

كما قال الله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾.

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ عِتابًا لجُلودِهم، وإنكارًا عليهم حينَ شَهِدَت عليهم: لمَ شَهِدْتُم علينا بما كُنَّا نَعمَلُه مِنَ السَّيِّئاتِ في الدُّنيا[1]؟!

﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾.

أي: فأجابتِ الجُلودُ أصحابَها: أنطَقَنا اللهُ الذي أنطَقَ كُلَّ شَيءٍ بقُدرتِه ومَشيئتِه، فنطَقْنا بغَيرِ اختيارٍ مِنَّا[2]!

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالَى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ

= واختاره ابنُ عاشور، ونَسَبَه ابنُ عطية للجمهور، ونسَبه القرطبيُّ لأكثرِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٦)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالجُلودِ هنا: الفُروجُ: الفَرَّاءُ، وأبو السعود. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠، ١١).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عباسٍ في رِوايةٍ عنه، وعُبَيدُ اللهِ بنُ أبي جَعفَرٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٨).

يَعۡمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا عِندَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فضَحِكَ، فقال: هل تَدرُونَ مِمَّ أضحَكُ؟! قُلْنا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ! قال: مِن مُخاطَبَةِ العَبدِ رَبَّه؛ يقولُ: يا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْني مِنَ الظُّلمِ؟ قال: يقولُ: بلَى! قال: فيقولُ: فإنِّي لا أُجيزُ على نَفسي إلَّا شاهِدًا مِنِّي! قال: فيقولُ: كفَى بنَفسِك اليومَ عليك شَهيدًا، وبالكِرامِ الكاتِبينَ شُهودًا. قال: فيُختَمُ على فيه، فيُقالُ لأركانِه[١]: انطِقِي. قال: فتَنطِقُ بأعمالِه، ثم يُخلَّى بيْنَه وبيْنَ الكلامِ، قال: فيقولُ: بُعدًا لَكُنَّ وسُحقًا؛ فعَنْكنَّ كنتُ أُناضِلُ[٢]!))[٣].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في حديثِ الرُّؤيةِ الطَّويلِ، وفي آخِرِه أنَّ اللهَ يُحاسِبُ المنافِقَ: ((فيَقولُ: يا رَبِّ آمَنتُ بك وبِكتابِك وبرُسُلِك، وصَلَّيتُ وصُمتُ وتصَدَّقتُ، ويُثني بخَيرٍ ما استطاعَ! فيقولُ: ها هنا إذَنْ، ثمَّ يُقالُ له: الآنَ نَبعَثُ شاهِدَنا عليك! ويتفَكَّرُ في نَفسِه: مَن ذا الذي يَشهَدُ عَليَّ؟! فيُختَمُ على فيه، ويُقالُ لِفَخِذِه ولَحمِه وعِظامِه: انطِقِي، فتَنطِقُ فَخِذُه ولَحمُه وعِظامُه بعَمَلِه؛ وذلك لِيُعذِرَ[٤] مِن نَفسِه، وذلك المنافِقُ،

---

(١) لأركانِه: أي: لجوارِحِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٥).

(٢) أناضِلُ: أي: أُدافِعُ وأجادِلُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٥).

(٣) رواه مسلم (٢٩٦٩).

(٤) لِيُعذِرَ: مِنَ الإعذارِ، وهو إقامةُ الحُجَّةِ على أحَدٍ بحيثُ لا يَبقى له عُذرٌ، والمعنى: لِيُزيلَ اللهُ عُذرَه مِن قِبَلِ نَفسِه بكثرةِ ذُنوبِه وشَهادةِ أعضائِه عليه، بحيثُ لم يَبقَ له عُذرٌ يتمَسَّكُ به. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٢٩).

وذلك الَّذي يَسخَطُ اللهُ عليه))[١].

وعن مُعاويةَ بنِ حَيْدةَ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((أوَّلُ ما يُعرِبُ[٢] عن أحَدِكم فَخِذُه))[٣].

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: واللهُ خلَقَكم أوَّلَ مَرَّةٍ ولم تكونوا شيئًا؛ فالذي قَدَر على ذلك قادِرٌ على إنطاقِ الجُلودِ[٤].

---

(١) رواه مسلم (٢٩٦٨).

(٢) يُعرِبُ: أي: يَنطِقُ ويَتكَلَّمُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٠١).

(٣) أخرجه مُطَوَّلًا النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٣١)، وأحمد (٢٠٠١١) واللَّفظُ له.
حَسَّنه البَغَوي في ((شرح السنة)) (٧/ ٥٠٠)، وصَحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مشكل الآثار)) (٤١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٨).
قال الألوسي: (قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِن تمامِ كَلامِ الجُلودِ ومَقولِ القَولِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ مُستأنَفًا مِن كَلامِه عزَّ وجلَّ، والأوَّلُ أظهَرُ. والمرادُ على كُلِّ حالٍ: تقريرُ ما قَبلَه بأنَّ القادِرَ على الخَلقِ أوَّلَ مَرَّةٍ قادِرٌ على الإنطاقِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٨). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠).
وممَّن ذهَب إلى أنَّه من كلامِ الجُلودِ: ابنُ عطية، والقرطبيُّ، والبقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٠).
والقَولُ بأنَّه ابتداءُ كلامٍ لله تعالى هو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، وممَّن ذهَب إليه: النَّحَّاسُ، والواحديُّ، والبَغويُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٩)، ((معاني القرآن)) للنَّحَّاس (٦/ ٢٥٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٠).
وذكَر ابنُ عُثَيمين أنَّ جعْلَه مِن كَلامِ الجُلودِ حتَّى يتَّصِلَ الكلامُ بَعضُه ببعض: أقرَبُ مِن حيثُ اللَّفظُ، لكِنَّ القَولَ الثَّانيَ أقوَمُ للمعنَى، وذَكَر وَجْهَ هذا القَولِ الثاني: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ أنَّ هؤلاء يُحاسَبونَ يَومَ القِيامةِ، وتَشهَدُ عليهم جَوارِحُهم وجُلودُهم، بَيَّنَ أنَّه قادِرٌ على الإعادة؛ =

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ تُردُّونَ بعدَ مَوتِكم، فيُجازيكم على أعمالِكم[(١)].

كما قال تعالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

وكما قال سُبحانَه: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (اجتمَعَ عندَ البَيتِ ثَلاثةُ نَفَرٍ؛ قُرَشِيَّانِ

= فالقادِرُ على الخَلْقِ أوَّلَ مَرَّةٍ قادِرٌ على الإعادةِ، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ لأنَّ هؤلاء الذين كَذَّبوا يُنكِرونَ البَعثَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٢٢).

وقال السعديُّ: (﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما خلَقكم بذواتِكم، وأجسامِكم، خلَق أيضًا صفاتِكم، ومِن ذلك الإنطاقُ... ويحتَمِلُ أنَّ المرادَ بذلك: الاستِدلالُ على البَعثِ بالخَلقِ الأوَّلِ، كما هو طريقةُ القُرآنِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

وثَقَفيٌّ، أو ثَقَفيَّانِ وقُرَشيٌّ، قَليلٌ فِقهُ قُلوبِهم، كثيرٌ شَحمُ بُطونِهم، فقال أحَدُهم: أتُرَونَ اللهَ يَسمَعُ ما نقولُ؟ وقال الآخَرُ: يَسمَعُ إنْ جَهَرْنا، ولا يَسمَعْ إنْ أخفَيْنا! وقال الآخَرُ: إنْ كان يَسمَعُ إذا جهَرْنا فهو يَسمَعُ إذا أخفَيْنا! فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ...﴾ [فصلت: ٢٢] الآية)[١].

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾.

أي: وما كُنتُم في الدُّنيا تَستَخْفُونَ بتَرْكِ الكفرِ والمعاصي؛ لِئَلَّا يَشهَدَ عليكم سَمعُكم ولا أبصارُكم ولا جُلودُكم يومَ القِيامةِ[٢]!

---

(١) رواه البخاري (٤٨١٦) ومسلم (٢٧٧٥) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧١).

قال ابنُ عطية: (يحتَمِلُ أنْ يكونَ مِن كَلامِ الجُلودِ ومُحاورتِها، ويحتَمِلُ أنْ يكونَ مِن كَلامِ اللهِ عزَّ وجَلَّ لهم، أو مِن كَلامِ مَلَكٍ يأمُرُه تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١).

وقال البغويُّ: (﴿تَسْتَتِرُونَ﴾، أي: تستَخْفونَ، عِندَ أكثرِ أهلِ العِلمِ). ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٠).

قيل: المرادُ: وما كنتُم في الدُّنيا تَسْتخفونَ حذرًا مِن شَهادةِ سمْعِكم وأبصارِكم وجلودِكم يومَ القِيامةِ، وذلك بتركِ الكُفرِ والمعاصي. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنَى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ كَثير، والشوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

قال الشوكانيُّ: (لَمَّا كانَ الإنسانُ لا يقدِرُ على أنْ يستخفِيَ مِن جوارِحِه عندَ مباشرةِ المعصيةِ كانَ معنَى الاستخفاءِ هنا تركَ المعصيةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٧).

وقيل: معنى ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ﴾ أي: ما كُنتُم تَستَخْفونَ مِن أنْ تَشهَدَ عليكم جَوارِحُكم؛ لِأنَّكم ما كُنتُم تَظُنُّونَ ذلك، فلم تَكونوا تَخافون أنْ تَشهَدَ عليكم فتَستَتِروا منها، أو لِأنَّكم لا تَقدِرونَ على الاستِخفاءِ منها. ممَّن قال بهذا المعنَى في الجُملةِ: الواحديُّ، =

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ولكِنْ ظَنَنْتُم في الدُّنيا أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ كَثيرًا مِنَ السَّيِّئاتِ التي كُنتُم تَعمَلونَها[1].

﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾.

أي: وظَنُّكم السَّيِّئُ هذا قد أهلَكَكم، فأصبَحتُم يومَ القِيامةِ مِنَ الهالِكينَ[2].

= والسمعانيُّ، وابنُ الجوزي، والرَّسعنيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢١).

وقيل: المعنى: أنَّكم كُنتُم تَستَتِرونَ بالحِيطانِ والحُجُبِ عِندَ ارتِكابِ الفَواحِشِ، وما كان استِتارُكم ذلك خِيفةَ أنْ تَشهَدَ عليكم جَوارِحُكم. ومِمَّن ذَهَبَ إلى هذا: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، والنَّسَفيُّ، وأبو السعود، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥٢).

قال الرازي: (المعنَى إثباتُ أنَّهم كانوا يستترونَ عندَ الإقدامِ على الأعمالِ القَبيحةِ، إلَّا أنَّ استتارَهم ما كانَ لأجلِ خوفِهم مِن أنْ يشهدَ عليهم سَمْعُهم وأبصارُهم وجُلودُهم؛ وذلك لأنَّهم كانوا منكرينَ للبعثِ والقِيامةِ، ولكنَّ ذلك الاستتارَ لأجلِ أنَّهم كانوا يظنُّونَ أنَّ اللَّهَ لا يعلمُ الأعمالَ الَّتي يُقْدِمونَ عليها على سبيلِ الخفيةِ والاستتارِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

قال ابن الجوزي: (﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: كان الكفَّارُ يقولونَ: إنَّ الله لا يَعلمُ ما في أنفُسِنا، ولكنَّه يعلمُ ما يَظهرُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠).

وقال السمعاني: (هو قَولُ مَن قالَ: إنَّ الله يسمعُ إذا جهرْنا، ولا يسمعُ إذا أخْفَيْنا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧).

وقال ابن عاشور: (معنى الآيةِ...: أنَّ اللهَ عليمٌ بأعمالِكم ونِيَّاتِكم، لا يخفَى عليه شَيءٌ منها إنْ جهَرْتُم أو سَتَرْتُم، وليس اللهُ بحاجةٍ إلى شَهادةِ جوارِحِكم عليكم، وما أوقَعَكم في هذا الضُّرِّ إلَّا سُوءُ ظَنِّكم بجلالِ اللهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٢، ٤١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣).

﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾.

أي: فإنْ يَصبِرْ أولئك الكُفَّارُ على النَّارِ، فالنَّارُ مَسكَنٌ لهم ومُستَقَرٌّ، ولا مَخرَجَ لهم مِنها أبدًا[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣).

قال الألوسيُّ: (﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي: محلُّ ثواءٍ وإقامةٍ أَبديةٍ لهم بحيثُ لا براحَ لهم منها، وترتيبُ الجزاءِ على الشَّرطِ لأنَّ التقديرَ: إنْ يَصبِروا -والظنُّ أنَّ الصبرَ ينفعُهم؛ لأنَّه مفتاحُ الفرجِ- لا ينفَعْهم صبرُهم إذا لم يصادفْ محلَّه؛ فإنَّ النارَ محلُّهم لا محالةَ. وقيل: في الكلامِ حذْفٌ، والتقديرُ: أو لا يَصبروا كقولِه تعالى: ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الطور: ١٦]. وقيل: المرادُ فإنْ يَصبِروا على ترْكِ دِينِك واتِّباعِ هواهم فالنارُ مثوًى لهم، وليس بذاك). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧٠).

وممَّن ذهَب إلى المعنى الأوَّل: الزمخشريُّ، والنسفيُّ، والبقاعيُّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٢٧).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المعنى: فإنْ يَصبِروا أو لا يَصبِروا لا يَنفَعْهم صبرٌ ولا جزَعٌ: مكيٌّ، والسمعانيُّ، وابنُ عطيَّة، وابنُ كثير. يُنظر: ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٥١١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٣).

قال السعديُّ: (﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ فلا جَلَدَ عليها ولا صَبرَ، وكُلُّ حالةٍ قُدِّر إمكانُ الصَّبرِ عليها فالنَّارُ لا يمكِنُ الصَّبرُ عليها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

وممَّن ذهب إلى القول الثَّالِث -وهو أنَّ المعنى: فإنْ يصبِروا في الدُّنيا على أعمالِ أهلِ النَّارِ فالنَّارُ مثوى لهم-: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٣).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى...: أنَّ حاصِلَ أمْرِهم أنَّهم قد زُجَّ بهم في النَّارِ؛ فإنْ صَبَروا واستَسلَموا فهم باقُونَ في النَّارِ، وإنْ اعتَذَروا لم ينفَعْهم العُذرُ ولم يُقبَلْ منهم تنَصُّلٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣).

كما قال تعالَى -حاكيًا عن أهلِ النَّارِ قولَهم-: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾.

أي: وإنْ طَلَبوا مِنَ اللهِ الرِّضا عنهم، وقَبولَ تَوبتِهم واعتِذارِهم عن أعمالِهم السَّيِّئةِ؛ فلا يُؤاخِذُهم بها؛ فلنْ يَرضَى عنهم، ولن يَقبَلَ تَوبتَهم واعتِذارَهم، ولن يُخرِجَهم مِنَ النَّارِ[1].

كما قال الله تبارك تعالَى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ * قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ * قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ إثباتُ الرُّجوعِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فاستعِدَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣، ٢٧٤).

لهذا الرُّجوعِ، واعلمْ أنَّك مُلاقٍ ربَّك، ولكنْ أبْشِرْ إنْ كنتَ مؤمنًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، يعني: لا يَخافُ المؤمنُ مِن هذه الملاقاةِ؛ بلْ له البشارةُ في الدُّنيا قبْلَ الآخِرةِ، لكنَّ حَقيقةَ هذه البِشارةِ أنَّها للمُؤمنِ خاصَّةً[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۞ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّ مِن حَقِّ المؤمِنِ ألَّا يَذهَبَ عنه ولا يَزولَ عن ذِهنِه أنَّ عليه مِنَ اللهِ تعالى عَينًا كالِئةً، ورَقيبًا مُهيمِنًا؛ حتَّى يكونَ في أوقاتِه وخَلَواتِه مِن رَبِّه أهيَبَ وأحسَنَ احتِشامًا، وأوفَرَ تحفُّظًا وتصوُّنًا منه مع الملأِ، ولا يَنبَسِطَ في سِرِّه؛ خوفًا مِن التشَبُّهِ بهؤلاءِ الظَّانِّينَ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ قَالَ الحَسَنُ البَصريُّ: (إنَّ قومًا ألهَتْهم الأمانيُّ حتى خَرَجوا مِنَ الدُّنيا وما لهم حَسَنةٌ، ويقولُ أحَدُهم: إنِّي أُحسِنُ الظَّنَّ بربِّي، وكَذَبَ! ولو أحسَنَ الظَّنَّ لأحسَنَ العَمَلَ)[٣].

٤- قالَ اللَّه في حَقِّ مَنْ شَكَّ في تَعَلُّقِ سَمْعِه ببعضِ الجزئِيَّاتِ، وهو السِّرُّ مِنَ القولِ: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فهؤلاءِ لَمَّا ظنُّوا أنَّ اللَّهَ سُبحانَه لا يَعْلَمُ كثيرًا مِمَّا يَعْملونَ، كان هذا إساءَةً لظَنِّهم بِرَبِّهم، فأَرْداهم ذلك الظَّنُّ، وهذا شَأْنُ كُلِّ مَنْ جَحَد صِفاتِ كمالِه، ونُعوتَ جَلالِه، ووَصَفه بما لا يَليقُ به، فإذا ظَنَّ هذا أنَّه يُدْخِلُه الجَنَّةَ كانَ هذا غُرورًا وَخِداعًا مِنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٣).

نَفْسِه، وتَسْويلًا مِنَ الشَّيطانِ، لا إحسانَ ظَنٍّ برَبِّه.

فتَأَمَّلْ هذا الموضعَ، وتأمَّلْ شِدَّةَ الحاجةِ إليه، وكيفَ يَجْتَمِعُ في قلبِ العبدِ تَيَقُّنُه بأنَّه مُلاقٍ اللَّهَ، وأنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ ويَرَى مَكانَه، ويَعْلَمُ سِرَّه وعلانِيَتَه، ولا يخفَى عليه خافِيَةٌ مِنْ أمْرِه، وأنَّه مَوْقوفٌ بينَ يَدَيْه، ومَسْؤولٌ عن كُلِّ ما عَمِل، وهو مُقيمٌ على مَساخِطِه مُضَيِّعٌ لأوامِرِه، مُعَطِّلٌ لحُقوقِه، وهو معَ هذا يُحْسِنُ الظَّنَّ به، وهلْ هذا إلَّا مِنْ خِدَعِ النُّفوسِ، وغُرورِ الأمانِيِّ[(١)]؟!

٥- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ اعلَمْ أنَّ أسبابَ الضَّلالِ في العقائدِ كُلِّها إنَّما تأتي على النَّاسِ مِن فَسادِ التأمُّلِ، وسُرعةِ الإيقانِ، وعَدَمِ التَّمييزِ بينَ الدَّلائِلِ الصَّائِبةِ والدَّلائِلِ المُشابِهةِ؛ وكُلُّ ذلك يُفضِي إلى الوَهمِ المعَبَّرِ عنه بالظَّنِّ السَّيِّئِ أو الباطِلِ، وقد ذكَرَ اللهُ مِثْلَه في المُنافِقينَ، وأنَّ ظَنَّهم هو ظَنُّ أهلِ الجاهِلِيَّةِ، فقال: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ فلْيَحذَرِ المُؤمِنونَ مِن الوُقوعِ في مِثلِ هذه الأوهامِ، فيَبُوؤُوا ببَعضِ ما نُعِيَ على عَبَدةِ الأصنامِ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ شَهادةُ جَوارِحِهم وجُلودِهم عليهم: شَهادةُ تَكذيبٍ وافتِضاحٍ؛ لِأنَّ كَونَ ذلك شَهادةً يَقتَضي أنَّهم لَمَّا رَأَوُا النارَ اعتَذَروا بإنكارِ بَعضِ ذُنوبِهم؛ طَمَعًا في تَخفيفِ العَذابِ، وإلَّا فقدْ عَلِمَ اللهُ ما كانوا يَصنَعونَ، وشَهِدتْ به الحَفَظةُ، وقُرِئَ عليهم كِتابُهم، وما أُحضِروا لِلنَّارِ إلَّا وقدْ تَحقَّقتْ إدانَتُهم، فما كانتْ

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣).

شَهادةُ جَوارِحِهم إلَّا زِيادةَ خِزيٍ لهم، وتَحسيرًا وتَنديمًا على سُوءِ اعتِقادِهم في سَعةِ عِلْمِ اللهِ[١].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ جوازُ استِعمالِ الأدِلَّةِ العَقليَّةِ، ويُؤخَذُ ذلِك مِنَ استِدلالِ اللهِ تعالى بالمَبدأِ على المَعادِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فإنَّ هذا دَليلٌ عَقليٌّ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إشارةٌ إلى الحِكمةِ مِن خَلْقِ الخَلْقِ: أنَّهم يُبتَلَوْنَ فيُؤمَرونَ ويُنهَوْنَ، ومآلُهم إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ يُجازيهم بحَسَبِ أعمالِهم التي كَلَّفَهم بها[٣].

٤- أصولُ الإحساسِ ثلاثةٌ: السمعُ والبصرُ والمَسُّ؛ قال تعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾[٤].

٥- قَولُ الله تعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ هذا نَصٌّ صَريحٌ في أنَّ مَن ظَنَّ باللهِ تعالى أنَّه يَخرُجُ شَيءٌ مِن المعلوماتِ عن عِلمِه، فإنَّه يكونُ مِن الهالِكينَ الخاسِرينَ[٥].

٦- أنَّ اللهَ سُبحانَه جَعَلَ مُنكِرَ صِفاتِه مُسِيءَ الظَّنِّ به، وتَوَعَّدَه بما لم يَتَوَعَّدْ به غيرَه مِن أهلِ الشِّركِ والكُفرِ والكَبائرِ، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٤/ ٣٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٧).

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فأخبرَ سُبحانَه أنَّ إنكارَهم هذه الصِّفةَ مِن صِفاتِه هو مِن سُوءِ ظَنِّهم به، وأنَّه هو الذي أهلَكَهم[١]، فأعظمُ الذُّنوبِ عندَ اللَّهِ إساءَةُ الظَّنِّ بِه؛ فإنَّ المُسِيءَ به الظَّنَّ قدْ ظَنَّ به خِلافَ كمالِه المُقَدَّسِ، وظَنَّ به ما يُناقِضُ أسماءَه وصِفاتِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

- التَّعبيرُ عنهم بـ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ تَعالَى؛ لِذَمِّهم، والإيذانِ بعِلَّةِ ما يَحِيقُ بهم مِن ألوانِ العَذابِ[٣].

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾ مَفعولٌ لِفعلِ (واذْكُرْ) مَحذوفًا، وقيل: جُملةُ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ...﴾ الآياتِ، مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً ...﴾ [فصلت: ١٣] الآياتِ، والتَّقديرُ: وأنذِرْهم يومَ نَحشُرُ أعداءَ اللهِ إلى النارِ، ودَلَّ على هذا المُقَدَّرِ قَولُه: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً ...﴾ [فصلت: ١٣] إلخ، أيْ: وأنذِرْهم يومَ عِقابِ الآخِرةِ[٤].

- ويَتعَلَّقُ قَولُه: ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بـ﴿يُحْشَرُ﴾؛ لِتَضمينِ ﴿يُحْشَرُ﴾ مَعنى: يُرسَلُ، أيْ: يُرسَلُون إلى النَّارِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٦٥).

- قولُه: ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾، أيْ: إلى مَوقِفِ الحِسابِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ إذْ هناك تَتَحَقَّقُ الشَّهادةُ الآتيةُ، لا بِعَدَمِ تَمامِ السُّؤالِ والجَوابِ وسَوْقِهم إلى النَّارِ، والتَّعبيرُ عن مَوقفِ الحِسابِ بالنَّارِ؛ إمَّا للإيذانِ بأنَّها عاقِبةُ حَشرِهم، وأنَّهم على شَرَفِ دُخولِها، وإمَّا لِأنَّ حِسابَهُم يَكونُ على شَفيرِها[1].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ عَطفٌ وتَفريعٌ على ﴿يُحْشَرُ﴾؛ لأنَّ الحَشرَ يَقتَضي الوَزعَ؛ إذْ هو مِن لَوازِمِه عُرفًا؛ إذ الحَشرُ يَستلزِمُ كَثرةَ عدَدِ المَحشورِين، وكَثرةُ العَدَدِ تَستَلزِمُ الاختِلاطَ، وتَداخُلَ بَعضِهم في بَعضٍ؛ فلا غِنى لهم عنِ الوَزعِ؛ لِتَصفيفِهم، ورَدِّ بَعضِهم عن بَعضٍ. والوَزعُ: كَفُّ بَعضِهم عن بَعضٍ، ومَنعُهم مِنَ الفَوضى، وهو كِنايةٌ وعِبارةٌ عن كَثرةِ المَحشورينَ[2].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾ قالَه هنا بذِكرِ (ما)، وبحَذفِها في قَولِه في (النَّملِ): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ [النمل: ٨٤]، وفي (الزُّمَرِ): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ [الزمر: ٧١]، وفي (الزُّخرُفِ): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ [الزخرف: ٣٨]؛ لِأنَّ الكَلامَ هنا في أعداءِ اللهِ أبسَطُ وآكَدُ منه في البَقيَّةِ، فناسَبَ ذلك ذِكرَ (مَا)؛ لِلتَّأكيدِ على اتِّصالِ الشَّهادةِ بالحُضورِ، ومَعنى التَّأكيدِ فيها: أنَّ وَقتَ مَجيئِهم النارَ لا مَحالةَ أنْ يَكونَ وَقتَ الشَّهادةِ عليهم، ولا وَجهَ لِأنْ يَخلُوَ منها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص ٥٠٥، ٥٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٦، ٥٤٧).

- وجُملةُ ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ ...﴾ جوابُ (إذا)؛ قيل: في الكلامِ حذْفٌ، والتَّقديرُ: حتَّى إذا ما جاؤُوها -أي: النارَ- وسُئِلوا عَمَّا أجْرَموا فأنكَروا، شَهِد عليهم سَمْعُهم وأبْصارُهم وجُلودُهم بما اكتَسَبوا مِنَ الجَرائِمِ، وكانوا حَسِبوا أنْ لا شاهِدَ عليهم. وقيل: أحسَنُ مِن ذلك أنْ يكونَ جوابُ (إذا) مَحذوفًا؛ للتَّهويلِ، وحذْفُ مِثلِه كثيرٌ في القرآنِ، وتكونَ جُملةُ ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾ إلى آخِرِها مُستَأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا نَشَأ عن مُفادِ (حَتَّى) مِنَ الغايةِ؛ لأنَّ السائِلَ يَتطَلَّبُ: ماذا حَصَلَ بيْن حَشرِهم إلى النَّارِ، وبيْن حُضورِهم عِندَ النارِ؟ فأُجيبَ بأنَّه ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾، إلى قَولِه: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت: ٢١]، ويَتضَمَّنُ ذلك أنَّهم حُوسِبوا على أعمالِهم وأنكَروها، فشَهِدتْ عليهم جَوارِحُهم وأجسادُهم. أو أنْ يكونَ جوابُ (إذا) قولَه: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ...﴾ [فصلت: ٢٤]، وجُملةُ ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ وما عُطِفَ عليها مُعترضةً بيْن الشَّرْطِ وجَوابِه[1].

- وتَخصيصُ السَّمعِ والأبصارِ والجُلودِ بالشَّهادةِ على هؤلاء دُونَ بَقيَّةِ الجَوارِحِ؛ لِأنَّ لِلسَّمعِ اختِصاصًا بتَلَقِّي دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَلَقِّي آياتِ القُرآنِ؛ فسَمْعُهم يَشهَدُ عليهم بأنَّهم كانوا يَصرِفونَه عن سَماعِ ذلك، كما حكَى اللهُ عنهم بقولِه: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥]، ولِأنَّ لِلأبصارِ اختِصاصًا بمُشاهَدةِ دَلائِلِ المَصنوعاتِ الدَّالَّةِ على انفِرادِ اللهِ تعالَى بالخَلقِ والتَّدبيرِ، فذلك دَليلُ وَحدانيَّتِه في إلهيَّتِه، وشَهادةُ الجُلودِ؛ لِأنَّ الجِلدَ يَحوي جَميعَ الجَسَدِ؛ لِتَكونَ شَهادةُ الجُلودِ عليهم شَهادةً على أنْفُسِها، فيَظهَرَ استِحقاقُها لِلحَرقِ بالنَّارِ لِبَقيَّةِ الأجسادِ دُونَ اقتِصارٍ على حَرقِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٦).

مَوضِعِ السَّمعِ والبَصَرِ؛ ولذلك اقتَصَروا في تَوجيهِ المَلامةِ على جُلودِهم؛ لأنَّها حاويةٌ لِجَميعِ الحَواسِّ والجَوارِحِ، وبهذا يَظهَرُ وَجهُ الاقتِصارِ على شَهادةِ السَّمعِ والأبصارِ والجُلودِ هنا، بخِلافِ آيةِ سُورةِ (النُّورِ): ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]؛ لِأنَّ آيةَ (النُّورِ) تَصِفُ الذين يَرمونَ المُحصَناتِ، وهمُ الذين اختَلَقوا تُهمةَ الإفْكِ، ومَشَوْا في المَجامِعِ يُشيعونَها بيْن الناسِ، ويُشيرونَ بأيديهم إلى مَنِ اتَّهَموه إفْكًا[١].

وقيلَ: لَمَّا كانتِ الحَواسُّ خَمسًا: السَّمعَ، والبَصَرَ، والشَّمَّ، والذَّوقَ، واللَّمسَ، وكانَ الذَّوقُ مُندَرِجًا في اللَّمسِ؛ إذْ بمُماسَّةِ جِلدةِ اللِّسانِ والحَنَكِ لِلمَذوقِ يَحصُلُ إدراكُ المَذوقِ، وكانَ حِسُّ الشَّمِّ ليسَ فيه تَكليفٌ ولا أمْرٌ ولا نَهيٌ[٢]، وهو ضَعيفٌ؛ اقتُصِرَ مِنَ الحَواسِّ على السَّمعِ والبَصَرِ واللَّمسِ؛ إذْ هذه هي التي جاءَ فيها التَّكليفُ؛ فهذه -واللهُ أعلَمُ- حِكمةُ الاقتِصارِ على هذه الثَّلاثةِ[٣]. أو خَصَّ هذه الأعضاءَ الثَّلاثةَ؛ لأنَّ أكثَرَ الذُّنوبِ إنَّما تقَعُ بها، أو بسَببِها[٤].

- وأفرَدَ ﴿سَمْعُهُمْ﴾؛ لِتَقارُبِ النَّاسِ فيه، وجمَعَ (أَبْصَارُهُمْ)؛ لِعِظَمِ التَّفاوتِ فيها[٥].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ كِنايةٌ عن مَوصوفٍ -على القولِ بأنَّ المرادَ بالجُلودِ الفُروجُ خاصَّةً-؛ فقد كَنَّى عنِ الفُروجِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٧).

(٢) لكن ذكَر ابنُ القيِّم أنَّ حاسةَ الشمِّ تتعلَّقُ بها العبودياتُ الخمسُ؛ فقد يكونُ الشمُّ واجبًا أو مستحبًّا أو حرامًا أو مكروهًا أو مباحًا. يُنظر: ((مدارج السالكين)) (١/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٤٧).

وتقدَّم في الفوائدِ أنَّ هذه الثلاثةَ هي أصولُ الإحساسِ.

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٩).

بالجُلودِ. وجَعْلُ الكلامِ كِنايةً أنسَبُ بتَخصيصِ السُّؤالِ بها في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا﴾ [فصلت: ٢١]؛ فإنَّ ما تَشهَدُ به مِنَ الزِّنا أعظَمُ جِنايةً وقُبحًا وأجلَبُ لِلخِزْيِ والعُقوبةِ مِمَّا يَشهَدُ به السَّمعُ والأبصارُ مِنَ الجِناياتِ المُكتَسَبةِ بتَوسُّطِهما، وعلى القولِ بأنَّه أرادَ بالجُلودِ الجَوارِحَ عامَّةً، والعَطفُ مِن عَطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ فليس في الكَلامِ كِنايةٌ إذَنْ[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا﴾ مُستَعمَلٌ في المَلامةِ والتَّوبيخِ والتَّعَجُّبِ مِن هذا الأمْرِ، وهم يَحسَبونَ أنَّ جُلودَهم -لِكَونِها جُزءًا منهم- لا يَحِقُّ لها شَهادَتُها عليهم؛ لِأنَّها تَجُرُّ العَذابَ إليها[٢]. وإنَّما قالوا ذلك لِجُلودِهم دُونَ أنْ يَقولوهُ لِسَمْعِهم وأبصارِهم؛ لِأنَّ الجُلودَ مُواجِهةٌ لهم يَتَوَجَّهونَ إليها بالمَلامةِ[٣]، أو: لأنَّ عَذابَ الجِلدِ عامٌّ يَشمَلُ الجَسَدَ كلَّه، لكِنَّ عَذابَ السَّمْعِ والبَصَرِ خاصٌّ بالسَّمْعِ والبَصَرِ، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾[٤] [النساء: ٥٦].

وقيل: لا قصْدَ هنا للسُّؤالِ أصْلًا، وإنَّما القصْدُ إلى التَّعجُّبِ ابتداءً؛ لأنَّ التَّعجُّبَ يكونُ فيما لا يُعلَمُ سَببُه وعِلَّتُه؛ فالسُّؤالُ عن العِلَّةِ المُستلزِم لعدَمِ مَعرفتِها جُعِلَ كِنايةً عن التَّعجُّبِ، فقدْ قيل: إذا ظهَرَ السَّببُ بطَلَ العجَبُ، فكأنَّه قِيل: ليْس

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩، ١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٣١).

نُطقُنا بعَجَبٍ مِن قُدرةِ اللهِ تعالَى الذي أنْطَقَ كلَّ شَيءٍ[١].

- وإجراءُ ضَمائِرِ السَّمعِ والبَصَرِ والجُلودِ بصِيغَتَيْ ضَميرِ جَمعِ العُقَلاءِ؛ لِأنَّ التَّحاوُرَ معها صَيَّرَها بحالةِ العُقَلاءِ يَومَئِذٍ، ولِوُقوعِها في مَوقِعِ السُّؤالِ والجَوابِ المُختَصَّيْنِ بالعُقَلاءِ[٢].

- قَولُه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ قيل: المَعنى: الذي أنطَقَ كُلَّ شَيءٍ له نُطقٌ مِنَ الحَيَوانِ، واختِلافُ دَلالةِ أصواتِها على وِجدانِها؛ فعُمومُ ﴿كُلَّ شَىۡءٍ﴾ مَخصوصٌ بالعُرفِ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يَجوزُ أنْ تَكونَ هذه الجُملةُ والتي عُطِفتْ عليها مِن تَمامِ ما أنطَقَ اللهُ به جُلودَهم؛ تَشهيرًا بخَطَئِهم في إنكارِهمُ البَعثَ والمَصيرَ إلى الله؛ لِزِيادةِ التَّنديمِ والتَّحسيرِ، وهذا ظاهِرُ كَونِ الواوِ في أوَّلِ الجُملةِ واوَ العَطفِ؛ فَيَكونَ التَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ لاستِحضارِ حالَتِهم؛ فإنَّهم ساعَتَئِذٍ في قَبضةِ تَصَرُّفِ اللهِ مُباشَرةً، وأمَّا رُجوعُهم بمَعنى البَعثِ فإنَّه قدْ مَضى بالنِّسبةِ لِوَقتِ إحضارِهم عِندَ جَهَنَّمَ، أو يَكونُ المُرادُ بالرُّجوعِ الرُّجوعَ إلى ما يَنتَظِرُهم مِنَ العَذابِ الخالِدِ المُترَتِّبِ عِندَ التَّخاطُبِ، على تَغليبِ المُتَوقَّعِ على الواقِعِ، على أنَّ فيه مراعاةَ الفواصلِ. ويَجوزُ أنْ تَكونَ هذه الجُملةُ وما بَعدَها اعتِراضًا بيْنَ جُملةِ ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وجُملةِ ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ [فصلت: ٢٤]، وهو كَلامٌ مُوَجَّهٌ مِن جانِبِ اللهِ تعالَى إلى المُشرِكينَ

(١) يُنظَر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٨)

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٨).

الأحياءِ؛ لِتَذكيرِهم بالبَعثِ عَقِبَ ذِكرِ حالِهم في القِيامةِ؛ انتِهازًا لِفُرصةِ المَوعِظةِ السَّابِقةِ عِندَ تَأثُّرِهم بسَماعِها، وَيَكونَ فِعلُ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ مُستَعمَلًا في الاستِقبالِ على أصْلِه. والكَلامُ استِدلالٌ على إمكانِ البَعثِ(١).

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ التَّعبيرُ بصِيغةِ المضارِعِ إذا كان الخِطابُ يومَ القِيامةِ -مع أنَّ الرَّجْعَ فيه مُتحقِّقٌ لا مُستقبَلٌ-؛ لِمَا أنَّ المرادَ بالرجْعِ ليس مجرَّدَ الرَّدِّ إلى الحَياةِ بالبعثِ، بلْ ما يعمُّه وما يَترتَّبُ عليه مِن العذابِ الخالِدِ المرتقَبِ عِندَ التَّخاطُبِ على تَغليبِ المتوقَّعِ على الواقِعِ. وجُوِّزَ أنْ تكونَ لاستحضارِ الصُّورةِ(٢).

- وتَقديمُ مُتعلَّقِ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ عليه؛ لِلاهتِمامِ ورِعايةِ الفاصِلةِ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ حِكايةٌ لِمَا سَيُقالُ لَهم يومَئِذٍ مِن جِهَتِه تعالَى بطَريقِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ تَقريرًا لِجَوابِ الجُلودِ -على قولٍ-، أيْ: ما كُنتُم تَستَتِرونَ في الدُّنيا عِندَ مُباشَرَتِكم الفَواحِشَ؛ مَخافةَ أنْ تَشهَدَ عليكم جَوارِحُكم بذلك كما كُنتُم تَستَتِرون مِنَ النَّاسِ؛ مَخافةَ الافتِضاحِ عِندَهم، بلْ كُنتُم جاحِدينَ البَعثَ والجَزاءَ رَأْسًا(٤).

ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ ...﴾ بتَمامِها مَعطوفةً على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠).

جُملةِ ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...﴾ [فصلت: ٢١] إلخ؛ فتَكونَ مَشمولةً لِلاعتِراضِ، مُتَّصِلةً بالتي قَبلَها. ويَجوزُ أنْ تَكونَ مُستَقِلَّةً عنها: إمَّا مَعطوفةً على جُملةِ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ [فصلت: ١٩] الآياتِ، وإمَّا مُعتَرِضةً بيْن تلك الجُملةِ وجُملةِ ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [فصلت: ٢٤]، وتَكونَ الواوُ اعتِراضيَّةً، ومُناسَبةُ الاعتِراضِ ما جَرَى مِن ذِكرِ شَهادةِ سَمعِهم وأبصارِهم وجُلودِهم عليهم؛ فيَكونَ الخِطابُ لِجَميعِ المُشرِكينَ الأحياءِ في الدُّنيا، أو لِلمُشرِكينَ في يَومِ القِيامةِ[(١)]؟!

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، أيْ: تَستَتِرونَ بأعمالِكم عن سَمعِكم وأبصارِكم وجُلودِكم -على قولٍ في التفسيرِ-، وذلك تَوبيخٌ؛ كِنايةً عن أنَّهم ما كانوا يَرَوْنَ ما هم عليه قَبيحًا حتى يَستَتِروا منه[(٢)].

- قولُه: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ الإشارةُ إلى الظَّنِّ المَأخوذِ مِن جُملةِ ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ويُستَفادُ مِنَ الإشارةِ إليه تَمييزُه أكمَلَ تَمييزٍ، وتَشهيرُ شَناعَتِه؛ لِلنِّداءِ على ضَلالِهم[(٣)]. وما في الإشارةِ مِن مَعنى البُعدِ؛ لِلإيذانِ بغايةِ بُعدِ مَنزِلَتِه في الشَّرِّ والسُّوءِ[(٤)].

- وأتْبَعَ اسمَ الإشارةِ بالبَدَلِ بقَولِه: ﴿ظَنُّكُمُ﴾؛ لِزيادةِ بَيانِه؛ لِيَتَمَكَّنَ ما يَعقُبُه مِنَ الخَبَرِ، والخبَرُ هو فِعلُ ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ وما تَفَرَّعَ عليه ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١).

ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[١].

- والإتيانُ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ﴾؛ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإيماءِ إلى وَجهِ بِناءِ الخَبَرِ، وهو ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ وما تَفرَّعَ عليه، أي: الذي ظَنَنتُم بربِّكم ظَنًّا باطِلًا[٢].

- والعُدولُ عنِ اسمِ (الله) العَلَمِ إلى ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾؛ لِلتَّنبيهِ على ضَلالِ ظنِّهم؛ إذْ ظنُّوا خَفاءَ بَعضِ أعمالِهم عن عِلْمِه، مع أنَّه رَبُّهم وخالِقُهم؛ فكيف يَخلُقُهم وتَخفَى عنه أعمالُهم؟! وهو يُشيرُ إلى قَولِه: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؛ ففي وَصفِ ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾ إيماءٌ إلى هذا المَعنى[٣].

- وفي الإتيانِ بالمُسنَدِ ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ فِعلًا، إفادةُ قَصرٍ، أيْ: ما أرْداكم إلَّا ظنُّكم ذلك، وهو قَصرٌ إضافيٌّ، أيْ: لم تُرْدِكُم شَهادةُ جَوارِحِكم حتى تَلوموها، بلْ أرْداكم ظنُّكم أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ أعمالَكم، فلم تَحذَروا عِقابَه[٤].

- ونُعِيَ عليهم سُوءُ استِدلالِهم، وفَسادُ قِياسِهم في الأُمورِ الإلهيَّةِ، وقياسِهمُ الغائِبَ على الشَّاهِدِ؛ تلك الأُصولُ الَّتي استَدرَجَتْهم في الضَّلالةِ، فأحالوا رِسالةَ البَشَرِ عنِ اللهِ، ونَفَوُا البَعثَ، ثمَّ أثبَتوا شُركاءَ لله في الإلهيَّةِ، وتَفرَّعَ لهمْ مِن ذلك كُلِّه قَطعُ نَظَرِهم عمَّا وَراءَ الحياةِ الدُّنيا، وأمْنُهم مِنَ التَّبِعاتِ في الحياةِ الدُّنيا؛ فذلك جِماعُ قَولِه تَعالى: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ تَفريعٌ على جَوابِ ﴿إِذَا﴾ [فصلت: ٢٠]، أو تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا﴾ [فصلت: ٢١]، أو هو جَوابُ ﴿إِذَا﴾ [فصلت: ٢٠]، وما بيْنهما اعتِراضٌ، على حَسَبِ ما يُناسِبُ وُجوهَ التَّفسيرِ، والمَعنى على جَميعِ الوُجوهِ: أنَّ حاصِلَ أمْرِهم أنَّهم قد زُجَّ بهم في النارِ، فإنْ صَبَروا واستَسلَموا فهمْ باقونَ في النَّارِ، وإنِ اعتَذَروا لم يَنفَعْهمُ العُذرُ، ولم يُقبَلْ منهم تَنَصُّلٌ، وقَولُه: ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ دَليلُ جَوابِ الشَّرطِ؛ لِأنَّ كَونَ النارِ مَثوًى لهم ليسَ مُسَبَّبًا على حُصولِ صَبرِهم، وإنَّما هو مِن بابِ قَولِهم: إنْ قُبِلَ ذلك فذاكَ، أيْ: فهو على ذلك الحالِ، فالتَّقديرُ: فإنْ يَصبِروا فلا يَسَعُهم إلَّا الصَّبرُ؛ لأنَّ النَّارَ مَثوًى لهم[(١)].

- قولُه: ﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ...﴾ الآيةَ، فيه -على قولٍ في التَّفسيرِ- إضمارٌ، تَقديرُه: فإنْ يَصبِروا أو لا يَصبِروا، فالنارُ مَثوًى لهم. أو قَيَّدَ ذلك؛ لأنَّه جَوابٌ لِقَولِهم: ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾ [ص: ٦]؛ فلا مَفهومَ له[(٢)].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ الْتِفاتٌ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ؛ لِلإيذانِ باقتِضاءِ حالِهم أنْ يُعرِضَ عنهم، ويَحكي سُوءَ حالِهم لِغَيرِهم، أو لِلإشعارِ بإبعادِهم عن حَيِّزِ الخِطابِ، وإلقائِهم في غايةِ دَرَكاتِ النَّارِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧٠).

الآيات (٢٥-٢٩)

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَقَيَّضْنَا﴾: أي: هَيَّأْنا وسَبَّبْنا، يُقالُ: قَيَّض اللهُ فُلانًا لِفُلانٍ، أي: جاءَه به، وأتاحَه له[١].

﴿قُرَنَاءَ﴾: جَمعُ قَرينٍ، وهو الصَّاحِبُ المُلازِمُ، والقُرَناءُ هنا: هم المُلازِمونَ لهم في الضَّلالةِ، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٢].

﴿وَحَقَّ﴾: أي: وجَب ولَزِمَ، والحَقُّ في أصلِه: المُطابَقةُ والموافَقةُ، وأصلُ (حَقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[٣].

﴿خَلَتْ﴾: أي: مَضَتْ وذَهبَتْ، مِن خلا الزَّمانُ: إذا مضَى وذهَب[٤].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، =

﴿وَٱلۡغَوۡاْ﴾: أي: ائتُوا باللَّغْوِ عندَ قِراءتِه؛ لِيَتشَوَّشَ على القارئِ، والمرادُ باللَّغْوِ: ما لا أصْلَ له وما لا مَعنى له، وأصلُ (لغو): يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا الأسبابَ الَّتي أدَّت إلى سوءِ عاقبةِ الكافرينَ: وقَدَّرْنا وسَبَّبْنا للكُفَّارِ قُرَناءَ سُوءٍ، فحَسَّنوا لهم الحياةَ الدُّنيا وشَهَواتِها المُحَرَّمةَ، والتَّكذيبَ بالبَعثِ والجَزاءِ، ووَجَب عليهم عذابُ اللهِ في جُملةِ أُمَمٍ قد مضَت قَبْلَهم مِن كُفَّارِ الجِنِّ والإنسِ؛ إنَّهم كانوا خاسِرينَ.

ثمَّ يَحكي اللهُ تعالى ما تَواصَى به المشركونَ فيما بيْنَهم، فيقولُ: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ خَوفًا مِن تأثيرِ القُرآنِ: لا تُنصِتُوا لهذا القُرآنِ، وعارِضوه بما لا يُفهَمُ مِن التَّصفيقِ والصَّفيرِ وباطِلِ الكَلامِ؛ لعَلَّكم تَغلِبونَ بذلك محمَّدًا وأتْباعَه!

ثمَّ يَرُدُّ اللهُ تعالى عليهم مُهدِّدًا لهم، فيقولُ: فلَنُذيقَنَّ أولئك الَّذين كَفَروا عَذابًا شديدًا، ولَنَجزيَنَّهم أسوَأَ ما كانوا يَعمَلونَ مِنَ السَّيِّئاتِ، ذلك العَذابُ الَّذي نَجزي به الكُفَّارَ هو النَّارُ، لهم فيها دارُ الخُلودِ الدَّائِمِ؛ جزاءً بسَبَبِ كُفْرِهم وتَكذيبِهم بآياتِنا.

ثمَّ يَحكي اللهُ تعالى بعضَ أقوالِهم الَّتي يقولونَها وهم في النَّارِ، فيقولُ: وقال الَّذين كَفَروا: رَبَّنا أرِنَا اللَّذَينِ أضَلَّانا عن الحَقِّ مِن شَياطينِ الجِنِّ والإنسِ نجعَلْهما تحتَ أقدامِنا؛ لِيَكونَا دونَنا، وأشَدَّ مِنَّا في العذابِ!

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر الوَعيدَ الشَّديدَ في الدُّنيا والآخِرةِ على كُفرِ أولئك الكُفَّارِ؛ أردَفَه بذِكرِ السَّبَبِ الَّذي لأجْلِه وَقَعوا في ذلك الكُفرِ[(١)].

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾.

أي: وهيَّأْنا ويَسَّرْنا للكُفَّارِ قُرَناءَ سُوءٍ[(٢)]، قدَّرْنا عليهم مُلازَمتَهم لهم لِيُضِلُّوهم؛ بسَبَبِ جُحودِهم الحَقَّ، وإعراضِهم عن آياتِ اللهِ[(٣)].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٧).

(٢) قيل: المرادُ بهم: الشَّياطينُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٦). وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٥). وقيل: المرادُ: شَياطينُ الجِنِّ وغُواةُ الإنسِ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عطية، والقرطبي، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٣٤).

﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

أي: فحَسَّنوا لهم الحياةَ الدُّنيا وشَهَواتِها المُحَرَّمةَ، حتَّى افتَتَنوا بها وآثَروها على الآخِرةِ، وحَسَّنوا لهم التَّكذيبَ بالبَعثِ والجَزاءِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٦، ٢٧).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٦، ٢٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا المعنى مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٢٠).

قال ابنُ عاشور: (﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يُستعارُ للأُمورِ المُشاهَدةِ، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يُستعارُ للأُمورِ المُغَيَّبةِ. والمرادُ بـ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أمورُ الدُّنيا، أي: زَيَّنوا لهم ما يَعمَلونَه في الدُّنيا مِن الفَسادِ؛ مِثلُ عِبادةِ الأصنامِ، وقَتلِ النَّفْسِ بلا حَقٍّ، وأكْلِ الأموالِ، والعُدوانِ على النَّاسِ باليَدِ واللِّسانِ، والمَيسِرِ، وارتِكابِ الفواحِشِ، والوَأْدِ. فعَوَّدوهم باستِحسانِ ذلك كُلِّه لِما فيه مِن مُوافَقةِ الشَّهَواتِ والرَّغَباتِ العارِضةِ القَصيرةِ المدى، وصَرَفوهم عن النَّظَرِ فيما يُحيطُ بأفعالِهم تلك مِنَ المفاسِدِ الذَّاتيَّةِ الدَّائمةِ. والمرادُ بـ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الأُمورُ المُغَيَّبةُ عن الحِسِّ مِن صِفاتِ اللهِ، وأُمورِ الآخرةِ مِن البَعثِ والجَزاءِ؛ مِثلُ الشِّركِ باللهِ، ونِسبةِ الوَلَدِ إليه، وظَنِّهم أنَّه يَخفَى عليه مَستورُ أعمالِهم، وإحالتِهم بَعثةَ الرُّسُلِ، وإحالتِهم البَعثَ والجَزاءَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٥).

وقيل بعكسِ القولِ السَّابقِ، أي أنَّ المرادَ بـ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: أمرُ الآخِرةِ، أي: زيَّنوا لهم التَّكذيبَ بالبعثِ والجَنَّةِ والنَّارِ، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أمرُ الدُّنيا ولَذَّاتها، فحبَّبوها إليهم، وزيَّنوا لهم جمْعَ المالِ وإمساكَه عن الإنفاقِ في الخَيرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ * وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٩].

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

أي: ووَجَب عليهم عذابُ اللهِ الَّذي قدَّره على الكافِرينَ، في جُملةِ أُمَمٍ قد مَضَت قَبْلَهم مِن كُفَّارِ الجِنِّ والإنْسِ(١).

= وقيل: المرادُ بـ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: أعمالُهم الَّتي يَعمَلونَها ويُشاهِدونَها، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما يَعزِمونَ على عَمَلِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٤/ ٣٨٤).
وقيل: المعنى: حَسَّنوا لهم أعمالَهم في الماضي والمُستَقبَلِ، فلم يَرَوا أنفُسَهم إلَّا مُحسِنينَ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ كثير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦، ٤١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٥، ٢٧٦).
ممَّن اختار أنَّ معنى قولِه تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجَب عليهم العذابُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٥١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٩).
وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى قولِه تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: سبَق القضاءُ الحتمُ بعذابِهم: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣٥).
قال السعدي: (﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجَب عليهم، ونزَل القضاءُ والقَدَرُ بعذابِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).
وممَّن قال: إنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ هو قولُه تعالى لإبليسَ: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]: جلالُ الدِّينِ المحلِّي، وأبو السعود، =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

أي: إنَّ الأُمَمَ الكافِرةَ الَّتي وَجَب عليها عَذابُ اللهِ مِنَ الجِنِّ والإنسِ مِن السَّابِقينَ واللَّاحِقينَ: كانوا مَغبونينَ ببَيعِهم رِضا اللهِ ورَحمتَه بسَخَطِه وعَذابِه،

= والشوكاني، والألوسي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٧).

قال الشنقيطي: (المراد بالقولِ والكلمةِ... هو قولُه تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، كما دلَّت على ذلك آياتٌ مِن كتابِ الله تعالى؛ كقولِه تعالى في آخرِ سورةِ «هود»: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقولِه تعالى في «السجدة»: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقولِه تعالى في أُخرياتِ «ص»: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ * لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٧).

وخَسِروا أعمالَهم الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا، وخَسِروا أنفُسَهم وأهلِيهم في الآخِرةِ[١].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها حِكايةٌ لِحالٍ أُخرى مِن أحوالِ إعراضِهم عن دعوةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ بَعدَ أنْ وَصَفَ إعراضَهم في أنْفُسِهمُ انتَقَلَ إلى وَصْفِ تَلقينِهمُ النَّاسَ أساليبَ الإعراضِ[٢].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ خَوفًا مِن تأثيرِ القُرآنِ: لا تُنصِتوا لهذا القُرآنِ فتَنقادُوا له[٣].

﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾.

أي: ائْتُوا باللَّغوِ عندَ قراءتِه، وتكلَّموا بالباطِلِ مِنَ القَولِ إذا سَمِعتُم قارِئَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٤٤، ١٤٥).

قيل: القائِلونَ هم أئِمَّةُ الكُفرِ، يقولونَ ذلك لعامَّتِهم وأتْباعِهم. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٧).

وقيل: بَعضُهم يُوصي بعضًا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٤٤).

يَقرَؤُه؛ رجاءَ أن تَغلِبوا بذلك مُحمَّدًا وأتْباعَه[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٧، ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٧، ٢٧٨).

قال ابن عاشور: (معنَى ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ قُولوا أقوالًا لا معنَى لها، أو تَكَلَّموا كلامًا غيرَ مرادٍ منه إفادةٌ، أو المقصودُ إحداثُ أصواتٍ تَغْمُرُ صَوتَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم بالقرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٧).

ومِن اللَّغوِ فيه: الصِّياحُ والتَّصفيقُ المانِعُ مِن السَّماعِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤١).

قال القرطبي: (﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: قال أبو جهلٍ: إذا قرَأ محمَّدٌ فصيحوا في وجْهِه حتَّى لا يدري ما يقولُ. وقيل: إنَّهم فعَلوا ذلك لَمَّا أعجَزَهم القرآنُ. وقال مجاهدٌ: المعنى: ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ بالمُكاءِ والتَّصفيقِ والتَّخليطِ في المَنطِقِ حتَّى يَصيرَ لَغْوًا. وقال الضَّحَّاكُ: أكثِروا الكلامَ لِيَختَلِطَ عليه ما يقولُ. وقال أبو العاليةِ وابنُ عبَّاسٍ أيضًا: قِعوا فيه وعَيِّبوه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦).

قيل: المرادُ بـ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾: تَطمِسون أمْرَ محمَّدٍ عليه السَّلامُ، وتُميتون ذِكْرَه، وتَصرِفون القلوبَ عنه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن عطية، والثعالبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٨).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: لعلَّكم تَغلِبون محمَّدًا على قراءتِه: الثعلبي، والبغويُّ، والبيضاوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٧).

قال القرطبي: (﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ محمَّدًا على قراءتِه، فلا يَظهرُ ولا يستميلُ القلوبَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦).

وقال العُلَيمي: (﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ محمَّدًا على قراءتِه، فيَسكُت). ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥٤).

وقيل: المراد: لكيْ تغلبوهم فيَسكتوا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقندي، والواحدي، وابن الجوزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٩). =

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر إعراضَ الكُفَّارِ عن القُرآنِ وتواصِيَهم بذلك ظُلمًا منهم وعنادًا، لم يَبْقَ فيهم مَطمَعٌ للهِدايةِ، فلم يَبْقَ إلَّا عَذابُهم ونَكالُهم؛ لهذا قال الله تعالى[1]:

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

أي: فلَنُذيقَنَّ هؤلاءِ الَّذين كَفَروا بالحَقِّ عَذابًا شَديدًا[2].

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

= وقال البِقاعي: (﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ أي: لِيَكونَ حالُكم حالَ مَن يُرجَى له أن يَغلبَ ويَظفرَ بمُرادِه في ألَّا يميلَ إليه أحدٌ، أو يَسكُتَ أو ينسَى ما كان يقولُ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٧٨، ١٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالذين كفروا: مشركو قريش: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، وأبو حيان، والثعالبي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

قال الشوكاني: (هذا وَعيدٌ لجَميعِ الكُفَّارِ، ويَدخُلُ فيهم الَّذين السِّياقُ معهم دُخولًا أوَّلِيًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٩). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨).

والمرادُ بالعذابِ الشديدِ: قيل: عذابُ الآخِرةِ؛ النَّارُ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاج، والقرطبي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٤).

وقيل: العَذابُ الشَّديدُ: هو عذابُ الدُّنيا في بَدرٍ وغَيرِها. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عطية، وأبو حيان، والثعالبي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٣٣).

وقال البقاعي: (﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الدُّنيا بالحِرمانِ وما يَتْبَعُه مِن فُنونِ الهَوانِ، وفي الآخِرةِ بالنِّيرانِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٧٩).

أي: ولَنُثيبَنَّهم جزاءَ أسوَأِ ما كانوا يُواظِبونَ على عَمَلِه مِنَ السَّيِّئاتِ[١].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٢٨﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾.

أي: ذلك العَذابُ الَّذي نَجزي به الكُفَّارَ: هو النَّارُ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: بأسوأِ أعمالِهم، وهو الشِّركُ والكفرُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والبغوي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٣٤).

وقال القرطبي: (ولَنَجْزِيَنَّهم في الآخرةِ جزاءَ قُبْحِ أعمالِهم الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا، وأسْوَأُ الأعمالِ الشِّركُ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦).

وقال السعدي: (﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وهو الكفرُ والمعاصي؛ فإنَّها أسْوَأُ ما كانوا يَعمَلون؛ لِكَونِهم يَعمَلون المعاصيَ وغيرَها، فالجزاءُ بالعقوبةِ إنَّما هو على عمَلِ الشِّركِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

وقال الرازي: (قال: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، واختلَفوا فيه؛ فقال الأكثَرونَ: المرادُ: جزاءُ سوءِ أعمالِهم. وقال الحسَنُ: بل المرادُ أنَّه لا يُجازيهم على مَحاسِنِ أعمالِهم؛ لأنَّهم أحبَطوها بالكفرِ، فضاعتْ تلك الأعمالُ الحسَنةُ عنهم، ولم يَبْقَ معهم إلَّا الأعمالُ القبيحةُ الباطلةُ، فلا جَرَمَ لم يَتحصَّلوا إلَّا على جزاءِ السَّيِّئاتِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٩).

وقال الألوسي: (﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: جزاءَ سَيِّئاتِ أعمالِهم الَّتي هي في أنفُسِها أسْوَأُ، فأفْعَلُ للزِّيادةِ المُطْلَقةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧١). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

وقال ابنُ جرير، وجلالُ الدِّينِ المحلِّي، والعُلَيمي: بأقبَحِ جزاءِ أعمالِهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩). =

﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾.

أي: لهم في النَّارِ دارُ الخُلودِ والمُكْثِ الدَّائِمِ إلى غَيرِ نِهايةٍ(١).

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

أي: جازَيْناهم بذلك؛ بسَبَبِ أنَّهم كانوا في الدُّنيا يَكفُرونَ ويُكَذِّبونَ بآياتِنا(٢).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

أي: وقال الَّذين كَفَروا: يا رَبَّنا أرِنَا مَن أضَلَّنا عن الحَقِّ مِن شَياطينِ الجِنِّ والإنسِ(٣).

= قال ابن عاشور: (الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدَّمَ، وهو الجزاءُ والعذابُ الشَّديدُ على أسوأِ أعمالِهم. وأعداءُ اللهِ: هم المُشرِكونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

قال ابن عاشور: (والخُلدُ: طُولُ البَقاءِ، وأُطلِقَ في اصطِلاحِ القُرآنِ على البَقاءِ المُؤَبَّدِ الَّذي لا نِهايةَ له). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

قال ابنُ جرير: (الدَّارُ الَّتي أخبَرَ جَلَّ ثناؤُه أنَّها لهم في النَّارِ: هي النَّارُ، وحَسُنَ ذلك؛ لاختِلافِ اللَّفظَينِ، كما يُقالُ: لك مِن بلدتِك دارٌ صالِحةٌ، ومِنَ الكُوفةِ دارٌ كَريمةٌ، والدَّارُ: هي الكُوفةُ والبَلْدةُ، فيَحسُنُ ذلك لاختِلافِ الألفاظِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٠)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٠). =

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ [ق: ٢٧، ٢٨].

﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾.

أي: نَجعَلْ هَذَينِ اللَّذَينِ أضَلَّانا تحتَ أقدامِنا؛ لِيَكونَا دونَنا، وأسفلَ مِنَّا في النَّارِ، وأشَدَّ مِنَّا في العذابِ، فنَشتَفِيَ منهما[1].

= قيل: المرادُ باللَّذَينِ أضَلَّاهم مِنَ الجِنِّ والإنسِ: جِنسُ الجِنِّ والإنسِ، أي: الصِّنفَينِ اللَّذَينِ قاداهم إلى الضَّلالِ والعَذابِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، واستظهره ابنُ عطية، وذهب إليه البِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٢).

وقيل: المرادُ بهما: قابيلُ مِن الإنسِ، وإبليسُ مِن الجِنِّ. وممَّن ذهب إليه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، والواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٢)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، وإبراهيمُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨١، ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

قال الماوَرْدي: (يحتمِلُ قَولُه: ﴿ مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ وَجهَينِ؛ أحَدُهما: مِنَ الأذَلِّينَ. الثَّاني: مِنَ الأشَدِّينَ عَذابًا؛ لأنَّ مَن كان في أسفَلِ النَّارِ كان أشَدَّ عَذابًا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٧٩). =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ فيه أنَّه على العاقِلِ أن يَجتَهِدَ في اختيارِ أصحابِه وأخدانِه وأحبابِه؛ فإنَّ العاقِبةَ فيهم حَسَنةٌ جَسيمةٌ، أو قبيحةٌ وَخيمةٌ[(١)]، وإذا أراد اللهُ بعَبدٍ خَيرًا قيَّضَ له قُرَناءَ خَيرٍ يُعينونَه على الطَّاعاتِ، ويَحمِلونَه عليها، ويَدْعونَه إليها، وإذا كانوا إخوانَ سُوءٍ حَمَلوه على المُخالَفاتِ، ودَعَوْه إليها[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ أنَّه لا يجوزُ اللَّغَطُ والضَّوضاءُ حينَ قراءةِ القرآنِ، فإمَّا أنْ يَستمِعَ المرءُ إليه، وإمَّا أنْ

= ممَّن قال بأنَّ المرادَ بالأسفَلِينَ: الَّذين في الدَّركِ الأسفَلِ مِنَ النَّارِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاج، والثعلبي، والواحدي، وابن عطية، والقرطبي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٥).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ بالأسفَلينَ: الأذَلُّون المُهانُونَ: النيسابوري، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٠، ٢٨١).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٢٥).

يقومَ، أمَّا أنْ يَجلِسَ إلى قارئِ القرآنِ، ويُثِيرَ الأصواتَ واللَّغَطَ والضَّوضاءَ؛ فهذا أقَلُّ ما فيه أنَّه شبيهٌ بصنيعِ المشركين، ويَتفرَّعُ على ذلك: ما يَفعلُه بعضُ النَّاسِ في مَتاجرِهم ومَساكنِهم مِن تشغيلِ المُسَجِّلِ بقراءةِ القرآنِ، وتَجِدُهم يَصدُرُ منهم الضَّوضاءُ، ويَتكلَّمون بقبيحِ الكلامِ، فمِثلُ هذا يُعَدُّ إهانةً للقرآنِ، وإنْ لم يَقصِدْه الإنسانُ، فإنَّ صورتَه صورةُ الامتِهانِ، فإمَّا أنْ يَستمِعَ الشَّخصُ إلى كلامِ اللهِ؛ وإمَّا أنْ يُغلِقَ المسجِّلَ[(١)].

٣- أنَّ ما كان مُباحًا في غيرِ حالِ القِراءةِ، مِثلُ المُزاحِ الَّذي جاءتْ به الآثارُ -وهو أنْ يَمزَحَ ولا يَقولَ إلَّا صِدْقًا[(٢)]؛ لا يكونُ في مُزَاحِه كَذِبٌ ولا عُدوانٌ- فهذا لا يُفعَلُ في حالِ قراءةِ القرآنِ، بل يُنَزَّهُ عنه مَجلِسُ القُرآنِ؛ فليس كلُّ ما يُباحُ في حالٍ غيرِ القراءةِ يُباحُ فيها، كما أنَّه ليس كلُّ ما يُباحُ خارجَ الصَّلاةِ يُباحُ فيها، لا سيَّما ما يَشْغَلُ القارئَ والمُستَمِعَ عن التَّدَبُّرِ والفَهمِ، مِثلُ كَونِه يُخايِلُ ويَضحَكُ، فكيف واللَّغوُ والضَّحِكُ حالَ القِراءةِ: مِن أعمالِ المُشرِكينَ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾[(٣)]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ ذَمُّ المعرِضينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٤٧).

(٢) جاء في الحديث: أنَّ الصَّحابةَ قالوا: يا رسولَ الله، إنَّك تُداعِبُنا، قال: ((إنِّي لا أقولُ إلَّا حقًّا)).
أخرجه الترمذي (١٩٩٠)، وأحمد (٨٧٢٣) من حديث أبي هريرةَ رضيَ الله عنه.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وقال الذهبي في ((المهذب)) (٨/ ٤٢٧٠): (إسنادُه صالحٌ)، وجوَّد إسنادَه ابنُ الملقِّنِ في ((شرح البخاري)) (٢٤/ ٦٠٧)، وحسَّنَ إسنادَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٩/ ٢٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٤/ ٣٣٩)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٦٠٥).

عن سماعِ القرآنِ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ أنَّ الإنسانَ يجبُ عليه أنْ يَبتعِدَ عن قُرَناءِ السوءِ، وقد حَذَّر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن جليسِ السوءِ؛ فقال: ((المرءُ على دِينِ خَليلِه[٢]؛ فلْيَنْظُرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ))[٣]، وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((مَثَلُ الجليسِ السَّوءِ كنافِخِ الكِيرِ؛ إمَّا أنْ يُحرِقَ ثيابَك، وإمَّا أنْ تَجِدَ منه رائحةً خبيثةً))[٤]، فاحذَرْ قرينَ السُّوءِ لا تَجتَمِعْ به، لا تُصَادِقْه، لا تَسْتَأْمِنْه على أيِّ شَيءٍ[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ في إنكارِهم أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيدِ اللهِ تعالى، وزعمِهم أنَّ أفعالَ العبادِ لا صُنْعَ لله فيها؛ إذْ قد أَخْبَرَ -نصًّا- أنَّ مَن زَيَّنَ لهم مِن قرنائِهم سيِّئَ أعمالِهم هو المُقَيِّضُ لهم، ولا يَخْلو

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٥٨٨).

(٢) على دِينِ خَليلِه: أي: على عادةِ صاحِبِه وطريقتِه وسيرتِه. يُنظر: ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمُناوي (٢/ ٤٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٨٤١٧) واللفظُ له من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((رياض الصالحين)) (ص: ١٨٨)، وحسَّن الحديثَ ابنُ حجر في ((الأمالي المطلقة)) (ص: ١٥١)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٣٣)، وصحَّحه ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٣٠٦)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٨٣٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٥).

القولُ الَّذي حَقَّ عليهم مِن أنْ يكونَ سابقًا فيهم قبْلَ العملِ، أو عقوبةً للعملِ الَّذي زَيَّنَه لهم قرناؤُهم، وإذا كان هو مُقَيِّضَ قرنائِهم؛ فأيُّهما كان فالحُجَّةُ عليهم به ظاهرةٌ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أَبْيَنُ دَليلٍ على تَكليفِ الثَّقَلَينِ: الجِنِّ والإنْسِ، وتَعَلُّقِ الأمرِ والنَّهيِ بهم، وكذلك تَعَلُّقُ الثَّوابِ والعِقابِ بهم[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أنَّ حُجَّةَ اللهِ برُسُلِه قامتْ بالتَّمَكُّنِ مِن العِلمِ؛ فليس مِن شَرطِ حُجَّةِ اللهِ تعالى عِلمُ المَدْعُوِّينَ بها؛ ولهذا لم يَكُنْ إعراضُ الكُفَّارِ عن استِماعِ القُرآنِ وتَدَبُّرِه مانعًا مِن قيامِ حُجَّةِ اللهِ تعالى عليهم، وكذلك إعراضُهم عن استِماعِ المنقولِ عن الأنبياءِ، وقراءةِ الآثارِ المأثورةِ عنهم: لا يَمنَعُ الحُجَّةَ؛ إذِ المُكْنَةُ حاصِلةٌ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ هذه شَهادةٌ مِن الأعداءِ، وأوضَحُ الحَقِّ ما شَهِدَت به الأعداءُ؛ فإنَّهم لم يَحكُموا بغَلَبتِهم لِمَن جاء بالحَقِّ إلَّا في حالِ الإعراضِ عنه، والتَّواصي بذلك، ومَفهومُ كَلامِهم أنَّهم إنْ لم يَلْغَوا فيه، بل استَمَعوا إليه، وألْقَوا أذهانَهم: أنَّهم لا يَغلِبونَ؛ فإنَّ الحَقَّ غالِبٌ غيرُ مَغلوبٍ، يَعرِفُ هذا أصحابُ الحَقِّ وأعداؤُه[٤]، وهذا مُشعِرٌ بأنَّهم كانوا يَجِدونَ القُرآنَ غالِبَهم؛ إذْ كانَ الَّذين يَسمَعونَه يُداخِلُ قُلوبَهم

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

فيُؤمِنونَ، أيْ: فإنْ لم تَفعَلوا فهو غالِبُكم[١].

٥- يَقولُ أئِمَّةُ الكُفرِ لِعامَّتِهم -على قولٍ في التَّفسيرِ-: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾؛ فإنَّهم عَلِموا أنَّ القُرآنَ كَلامٌ هو أكمَلُ الكَلامِ، وأيْقَنوا أنَّ كُلَّ مَن يَسمَعُه وتُداخِلُ نَفْسَه جَزالةُ ألفاظِه وسُمُوُّ أغراضِه، قَضى له فَهْمُه أنَّه حَقٌّ اتِّباعُه، وقد أدْرَكوا ذلك بأنْفُسِهم، ولكِنَّهم غالَبَتْهم مَحَبَّةُ الدَّوامِ على سِيادةِ قَومِهم، فتَمالَؤوا ودَبَّروا تَدبيرًا لِمَنعِ النَّاسِ مِن استِماعِه، وذلك خَشيةً مِن أنْ تَرِقَّ قُلوبُهم عِندَ سَماعِ القُرآنِ، فصَرَفوهم عن سَماعِه، وهذا مِن شَأنِ دُعاةِ الضَّلالِ والباطِلِ أنْ يَكُمُّوا أفواهَ النَّاطِقينَ بالحَقِّ والحُجَّةِ، بما يَستَطيعونَ مِن تَخويفٍ وتَسويلٍ، وتَرهيبٍ وتَرغيبٍ، ولا يَدَعوا النَّاسَ يَتَجادَلونَ بالحُجَّةِ، ويَتَراجَعونَ بالأدِلَّةِ؛ لِأنَّهم يُوقِنونَ أنَّ حُجَّةَ خُصومِهم أنهَضُ، فهمْ يَستُرونَها ويُدافِعونَها، لا بمِثلِها، ولكِنْ بأساليبَ مِنَ البُهتانِ والتَّضليلِ، فإذا أعيَتْهمُ الحِيَلُ، ورَأَوْا بَوارِقَ الحَقِّ تَخفِقُ، وخَشُوا أنْ يَعُمَّ نُورُها النَّاسَ الَّذين فيهم بَقيَّةٌ مِن خَيرٍ ورَشَدٍ، عَدَلوا إلى لَغوِ الكَلامِ، ونَفَخوا في أبواقِ اللَّغوِ والجَعجَعةِ، لَعَلَّهم يَغلِبونَ بذلك على حُجَجِ الحَقِّ، ويَغمُرونَ القَولَ الصَّالِحَ باللَّغوِ، وكذلك شَأنُ هؤلاءِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عُبِّرَ بالعملِ عن جزائِهم إشارةً إلى أنَّ الجزاءَ بقَدْرِ العملِ، ولهذا قال العلماءُ: (الجزاءُ مِن جنسِ العملِ)، لكنَّه بالنِّسبةِ للسَّيِّئاتِ عَدْلٌ، وبالنِّسبةِ للحسناتِ فَضْلٌ؛ الحسَنةُ بعَشْرِ أمثالِها إلى سَبْعِ مئةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ؛ والسَّيِّئةُ بمِثلِها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٥١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ أنَّ التَّكذيبَ بآياتِ اللهِ رِدَّةٌ؛ لأنَّ اللهَ وَصَفَ المكذِّبينَ بأنَّهم أعداءٌ، وأنَّ جَزاءَهم دارُ الخُلدِ، وهذا أمرٌ مُتَّفَقٌ عليه: أنَّ مَن كَذَّبَ اللهَ ورَسولَه فإنَّه مُرتَدٌّ كافِرٌ، يُستتابُ، فإنْ تاب وأقَرَّ، وإلَّا قُتِلَ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ، لأنَّ الباءَ هنا للسَّببيَّةِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩]؛ وذلك أنَّه حُكيَ قولُهم المُقتَضي إعراضَهم عنِ التَّدَبُّرِ في دَعوةِ الإيمانِ، ثمَّ ذُكِر كُفرُهم بخالِقِ الأكوانِ بقَولِه: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ٩]، ثمَّ ذُكِر مَصيرُهم في الآخِرةِ بقَولِه: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [فصلت: ١٩]، ثمَّ عُقِّب ذلك بذِكرِ سَبَبِ ضَلالِهمُ الَّذي نَشَأتْ عنه أحوالُهم بقَولِه: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾، وتَخلَّلَ بيْن ما هُنالِكَ وما هنا أفانينُ مِنَ المَواعِظِ والدَّلائِلِ والمِنَنِ والتَّعاليمِ والقَوارِعِ والإيقاظِ[٣].

- قولُه: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم ...﴾ قَيَّضَ، أي: أتاحَ وهَيَّأَ شَيئًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٤).

لِلعَمَلِ في شَيءٍ، والقُرَناءُ: جَمعُ قَرينٍ، وهو الصَّاحِبُ المُلازِمُ، والقُرَناءُ هنا: همُ المُلازِمونَ لهم في الضَّلالةِ؛ إمَّا في الظَّاهِرِ، مِثلُ دُعاةِ الكُفرِ وأئمَّتِه، وإمَّا في باطِنِ النُّفوسِ، مِثلُ شَياطينِ الوَسواسِ، ومَعنى تَقييضِهم لهم: تَقديرُهم لهم، أيْ: خَلَق المُناسَباتِ الَّتي يَتسَبَّبُ عليها تَقارُنُ بَعضِهم مع بَعضٍ؛ لِتَناسُبِ أفكارِ الدُّعاةِ والقابِلينَ، فالتَّقييضُ بمَعنى التَّقديرِ، عِبارةٌ جامِعةٌ لِمُختَلِفِ المُؤَثِّراتِ والتَّجَمُّعاتِ الَّتي تُوجِبُ التَّآلُفَ والتَّحابَّ بيْنَ الجَماعاتِ، ولِمُختَلِفِ الطَّبائِعِ المُكَوَّنةِ في نُفوسِ بَعضِ النَّاسِ، فيَقتَضي بَعضُها جاذبيَّةَ الشَّياطينِ إليها، وحُدوثَ الخَواطِرِ السَّيِّئةِ فيها؛ ولِلإحاطةِ بهذا المَقصودِ أُوثِرَ التَّعبيرُ هنا بلَفظِ (قَيَّضْنَا) دُونَ غَيرِه مِن نَحوِ: بَعَثْنا، وأرسَلْنا[١].

- قولُه: ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أيْ: وهو وَعيدُ اللهِ إيَّاهم بالنَّارِ على الكُفرِ؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ لِلعَهدِ، وفي هذا العَهدِ إجمالٌ؛ لأنَّه وإنْ كانَ قد وَرَدَ في القُرآنِ ما يُعهَدُ منه هذا القَولُ، مِثلُ قَولِه: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [الزمر: ١٩]؛ فإنَّه يُمكِنُ ألَّا تَكونَ الآياتُ المَذكورةُ قد سَبَقتْ هذه الآيةَ[٢].

- وقولُه: ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾، أيْ: حَقَّ عليهم حالةَ كَونِهم في أُمَمٍ أمثالِهم قد سَبَقوهم، و﴿مِنۡ﴾ في قَولِه: ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ بَيانيَّةٌ؛ فيَجوزُ أنْ يَكونَ بَيانًا لـ ﴿أُمَمٖ﴾، أيْ: مِن أُمَمٍ مِنَ البَشَرِ ومِنَ الشَّياطينِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ بَيانًا لـ ﴿قُرَنَآءَ﴾، أيْ: مُلازِمينَ لهمْ مُلازَمةً خَفيَّةً، وهي مُلازَمةُ الشَّياطينِ لهم بالوَسوَسةِ، ومُلازَمةُ أئمَّةِ الكُفرِ لهم بالتَّشريعِ لهم ما لم يَأذَنْ به اللهُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٧٦).

- وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ قدَّم فيه الأقوى؛ لِتُفهِمَ القُدرةُ عليه القُدرةَ على ما دُونَه مِن بابِ الأَولى؛ فإنَّ الإنسَ كانوا يَعُدُّونَ أنفُسَهم دونَ الجِنِّ، فيَعوذونَ بهم[١].

- ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ بَيانًا لِلقَولِ، مِثلَ نَظيرَتِها ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ [الصافات: ٣١]. ويَجوزُ أنْ تَكونَ هذه الجُملةُ مُستَأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا ناشِئًا عن جُملةِ ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾؛ تَعليلًا لِاستِحقاقِهِمُ العَذابَ، والمَعنيانِ مُتَقارِبانِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ، مَسوقٌ لِتَقريرِ حالِهم ومُكابَرَتِهم عِندَ قِراءةِ القُرآنِ[٣]. أو عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]؛ عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، ومُناسَبةُ التَّخَلُّصِ إليه: أنَّ هذا القَولَ مِمَّا يَنشَأُ عن تَزيينِ قُرَنائِهم مِنَ الإنْسِ. أو هو عَطفٌ على جُملةِ ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُمْ﴾[٤] [فصلت: ٢٥].

- قَولُهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ تَحذيرٌ واستِهزاءٌ بالقُرآنِ؛ فاسمُ الإشارةِ (هذا) مُستَعمَلٌ في التَّحقيرِ. وتَسميَتُهم إيَّاه بالقُرآنِ حِكايةٌ لِمَا يَجري على أَلْسِنةِ المُسلِمينَ مِن تَسميَتِه بذلك. وتَعديةُ فِعلِ ﴿تَسْمَعُوا۟﴾ باللَّامِ؛ لِتَضمينِه مَعنى: تَطمَئِنُّوا أو تَرْكَنوا[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٧٧).

- قولُهم: ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ لَمَّا كان المقصودُ بتَخلُّلِ أصْواتِهم صوتَ القارئِ حتَّى لا يَفقَهَه السَّامِعونَ، عُدِّيَ اللَّغوُ بحَرفِ (في) الظَّرفيَّةِ؛ لِإفادةِ إيقاعِ لَغوِهم في خِلالِ صَوتِ القارِئِ وُقوعَ المَظروفِ في الظَّرفِ. وأُدخِلَ حَرْفُ الظَّرفيَّةِ على اسمِ القُرآنِ دُونَ اسمِ شَيءٍ مِن أحوالِه -مِثلَ صَوتٍ أو كَلامٍ-؛ لِيَشملَ كُلَّ ما يُخفي ألفاظَ القُرآنِ، أو يُشَكِّكُ في مَعانيها، أو نَحوَ ذلك، وهذا نَظمٌ له مَكانةٌ مِنَ البَلاغةِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ[2]، حيثُ لم يقُلْ: (فَلَنُذِيقَنَّهم)-؛ لِقَصْدِ ما في المَوصولِ (الَّذين) مِنَ الإشارةِ إلى عِلَّةِ إذاقةِ العَذابِ، أيْ: لِكُفرِهمُ المَحكيِّ بَعضُه فيما تَقدَّمَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٧، ٢٧٨).

(٢) وللإظهارِ في مَوضعِ الإضمارِ فوائدُ:

الأُولى: بَيانُ الصِّفةِ أو الوَصفِ الَّذي استَحَقَّ مِن أجْلِه أنْ يُعاقَبَ بهذه العُقوبةِ.

الثَّانية: تَنبيهُ المخاطَبِ؛ لأنَّ الكلامَ إذا كان على نَسَقٍ واحدٍ بضَمائرِه ومُظْهَراتِه؛ فإنَّ الإنسانَ لا يَنْتَبِهُ، لكنْ إذا جاء شَيءٌ يُخرِجُ الكلامَ عن سِياقِه، فإنَّه لا بُدَّ أنْ يَنتَبِهَ، وقد جَرَتِ العادةُ أنَّ الكلامَ إذا كان السِّياقُ يَقْتضي الإضمارَ فإنَّه يأْتي الإضمارُ، فإذا جاء الإظهارُ موضعَ الضَّميرِ صارَ هذا على خِلافِ العادةِ؛ فسوف يَتوقَّفُ الإنسانُ ويَتساءَلُ: لماذا جاء الظَّاهرُ مَوضعَ الضميرِ؟ فيكونُ في ذلك انتباهٌ له.

الثَّالثةُ: الحُكْمُ على مَرجعِ الضَّميرِ بمُقْتضى هذا الاسمِ الظَّاهرِ؛ ففي الآيةِ الَّتي معنا ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، إذنْ تكونُ الفائدةُ الحُكْمَ عليهم بالكُفْرِ.

الرَّابعةُ: العمومُ، لو قال: (فلَنُذيقَنَّهم) صار هذا الوعيدُ خاصًّا بالَّذين قالوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، فإذا قال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ صار عامًّا لهم ولغيرِهم.

الخامسةُ: مُراعاةُ فَواصلِ الآياتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٤٩، ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٨، ٢٧٩).

وقيل: يجوزُ أنْ يُذكَرَ الَّذين كَفَروا عامَّةً؛ فيَدخُلُ فيه هؤلاء اللَّاغون والآمرونَ لهم باللغوِ دُخولًا أوَّليًّا[١].

- قولُه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (أسوأ): اسمُ تَفضيلٍ مَسلوبُ المُفاضَلةِ هنا، وإنَّما أُريدَ به السَّيِّئُ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فصِيغَ بصِيغةِ التَّفضيلِ لِلمُبالَغةِ في سُوئِه. وإضافَتُه إلى ﴿الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مِن إضافةِ البَعضِ إلى الكُلِّ، وليس مِن إضافةِ اسمِ التَّفضيلِ إلى المُفَضَّلِ عليه[٢].

- ويُمكِنُ أنْ تَجرِيَ إضافةُ (أسوأ) إلى (الَّذي) على ظاهِرِها، ويكونَ عطْفُ قولِه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي﴾ الآيةَ، على قولِه: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ...﴾ الآيةَ، على نَحوِ عطْفِ ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ على ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾ [البقرة: ٩٨]، كأنَّه قِيل: فلَنُذيقَنَّ أولئك اللَّاغينَ بما فَعَلوا مِن الشِّركِ والإفسادِ والعِصيانِ عَذابًا شَديدًا، وخُصوصًا لَنَجْزِيَنَّهم أسْوَأَ جَزاءِ أعْمالِهم؛ مِن الاستهزاءِ بآياتِ اللهِ، وتَحقيرِ القرآنِ المَجيدِ، وقولِهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾. والنَّظْمُ يُساعِدُ هذا التَّأويلَ؛ لأنَّه لَمَّا رُتِّبَ على ما سبَقَ، وعُطِفَ عليه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾، بعْدَ إثباتِ الكُفرِ لهم والاستِخفافِ بكِتابِ اللهِ المَجيدِ؛ عُلِّلَ استِحقاقُ العذابِ الشَّديدِ بوَضعِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مَوضعَ الضَّميرِ تَقْريرًا، وعُلِّلَ استِحقاقُ الأسوَأِ بوَضعِ ﴿أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ مَوضعَ (هُمْ) تَلويحًا، وأُشِيرَ إلى الأسوَأِ -وهو قريبٌ- باسمِ الإشارةِ الدَّالِّ على البُعدِ؛ لِيُؤذِنَ بالفرْقِ بيْن الجَزاءينِ، والبَونِ بيْن الكَفرتَينِ، ثمَّ بُيِّنَ بأنَّ هذا الجزاءَ الخاصَّ مُوجِبُه ذلك الاستِخفافُ تَصْريحًا؛ بأنْ خُتِمَ الكلامُ بقولِه: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

وأعاد بذِكرِ الجَزاءِ، ووَضعَ الآياتِ مَوضعَ القُرآنِ، وأُوثِرَ صِيغةُ التَّعظيمِ؛ تَربيةً لتلك الفوائدِ، وتَرْشيحًا لها، وعُبِّرَ عن اللَّغْوِ بالجَحْدِ رَدًّا للعَجُزِ على الصَّدْرِ؛ فظهَرَ أنَّ الإضافةَ في الآيةِ ممَّا قُصِدَ بها الزِّيادةُ على ما أُضِيفَ إليه[١].

- والتَّعبيرُ بفِعلِ (الكَون) يدُلُّ على أنَّهم كانوا مَطبوعينَ على ما أوجَبَ لهم النَّارَ مِن الأوزارِ، فقال: ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي: يُجدِّدون عمَلَه مُستمِرِّينَ عليه[٢]؛ فعُبِّرَ بالمُضارعِ؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستِمرارِ.

٤- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ في هذا تَعريضٌ بمَن لا يَكونُ عِندَ كَلامِ اللهِ المَجيدِ خاضِعًا خاشِعًا مُتَفكِّرًا مُتَدبِّرًا، وتَهديدٌ ووَعيدٌ شَديدٌ لِمَن يَصدُرُ عنه عِندَ سَماعِه ما يُشَوِّشُ على القارِئِ ويَخلِطُ عليه القِراءةَ، وإرعادٌ وإبراقٌ لِمَن يُدرَكُ منه قِلَّةُ مُبالاةٍ به؛ فَضلًا عمَّن يَنبِذُه وَراءَه ظِهْريًّا، واشتغَلَ بما يُنافِيه مِن العُلومِ المَذمومةِ، فانْظُرْ إلى عَظَمةِ القُرآنِ المَجيدِ، وتأمَّلْ في هذا التَّغليظِ والتَّشديدِ، واشهَدْ لِمَن عظَّمَه، وأجَلَّ قَدْرَه، وألْقَى إليه السَّمعَ وهو شَهيدٌ؛ بالفَوزِ العظيمِ، والأجرِ الكبيرِ[٣].

- قولُه: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ دارُ الخُلدِ هنا: النَّارُ، وجاءَ بالظَّرفيَّةِ بتَنزيلِ النَّارِ مَنزِلةَ ظَرفٍ لِـ ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾، وما دارُ الخُلدِ إلَّا عَينُ النَّارِ، وهذا مِن أُسلوبِ التَّجريدِ[٤]؛ لِيُفيدَ مُبالَغةَ مَعنى الخُلدِ في النَّارِ، وهو مَعدودٌ مِنَ المُحَسِّناتِ البَديعيَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٠٠، ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٠١).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ١٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ أي: جَزاءً بما كانوا يُلْغُون فيها؛ فذَكَر الجُحودَ الَّذي هو سَبَبُ اللَّغوِ، وهذا نَوعٌ مِن أنواعِ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[(١)]؛ لِمَا بيْنَ قَولِهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] الآيةَ، وبيْن قَولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ مِنَ التَّوافُقِ المَعنويِّ؛ لِأنَّ مَن يَستَهزِئُ بالقُرآنِ لا بُدَّ أنْ يَكونَ جاحِدًا له[(٢)].

- وصِيغةُ المُضارِعِ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ دالَّةٌ على تَجَدُّدِ الجُحودِ حِينًا فَحِينًا وتَكَرُّرِه[(٣)].

- وعُدِّيَ فِعلُ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ بالباءِ؛ لِتَضمينِه مَعنى: يُكَذِّبونَ[(٤)].

- وتَقديمُ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على ﴿يَجۡحَدُونَ﴾؛ لِلاهتِمامِ، ولِلرِّعايةِ على الفاصِلةِ[(٥)].

= حيان)) (٩/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٥٢).

(١) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظينِ المُكرَّرينِ، أو المتجانسَينِ، أو المُلحقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصلةِ آخِرَ كَلمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ [فصلت: ٢٨]، أيْ: ويَقولونَ ذلك في جَهنَّمَ...؛ فعُدِلَ عن صِيغةِ الاستِقبالِ إلى صِيغةِ المُضيِّ؛ لِلدَّلالةِ على تَحقيقِ وُقوعِ هذا القَولِ، فالقائلونَ: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾ هم عامَّةُ المُشرِكينَ، كما يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾[(١)].

- ومَعنى ﴿أَرِنَا﴾: عَيِّنْ لنا، وهو كِنايةٌ عن إرادةِ انتِقامِهم منهم، وإنَّما طَلَبوا أنْ يَرَوْهما؛ لِأنَّ المُضِلِّينَ كانوا في دَرَكاتٍ مِنَ النارِ أسفَلَ مِن دَرَكاتِ أتْباعِهم؛ فلذلك لم يَعرِفوا أيْن هم[(٢)].

- والتَّعليلُ بقَولِهم: ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ تَوطِئةٌ لاستِجابةِ اللهِ تعالَى لهم أنْ يُرِيَهُموهما؛ لِأنَّهم عَلِموا مِن غَضَبِ اللهِ عليهم أنَّه أشَدُّ غَضَبًا على الفَريقَيْنِ المُضِلَّيْنِ، فتَوَسَّلوا بعَزْمِهم على الانتِقامِ منهم إلى تَيسيرِ تَمكينِهم مِنَ الانتِقامِ منهم[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨٠، ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨١).

الآيات (٢٠-٢٦)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَدَّعُونَ﴾: أي: تُريدونَ وتَطلُبونَ وتَتَمَنَّوْنَ، وأصلُ (دعو): هو أنْ تُميلَ الشَّيءَ إليك بصَوتٍ وكلامٍ يَكونُ منكَ[1].

﴿نُزُلًا﴾: أي: ثَوابًا ورِزقًا، والنُّزُلُ: ما يُعَدُّ للنَّازِلِ مِنَ الزَّادِ، ويُهَيَّأُ للضَّيفِ، وأصلُ (نزل): يدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه[2].

﴿وَلِيٌّ﴾: أي: صَديقٌ ناصِرٌ، وأصلُ هذه المادَّةِ يدُلُّ على القُرْبِ؛ سواءٌ مِن حيثُ المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتِقادُ، وكلُّ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٠٩).

مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[١].

﴿حَمِيمٌ﴾: أي: قَريبٌ مُشفِقٌ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على دُنُوٍّ[٢].

﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: أي: يَستَخِفَّنَّك منه خِفَّةٌ وغضَبٌ وعَجَلةٌ، أو يُحَرِّكنَّك بالشَّرِّ، وأصلُ (نزغ): يدُلُّ على إفسادٍ بيْنَ اثنَينِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ﴾

قَولُه: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾: يجوزُ في (أن) المُدغَمةِ في (لا) أن تكونَ مَصدريَّةً ناصِبةً، و(لا) نافيةٌ، والمضارِعُ ﴿تَخَافُواْ﴾ مَنصوبٌ بـ (أَنْ)، والمصدَرُ المؤَوَّلُ مجرورٌ بحَرفِ جَرٍّ مَحذوفٍ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿تَتَنَزَّلُ﴾، أي: تتنَزَّلُ بانتفاءِ خَوفِهم وحَزَنِهم. ويجوزُ أن تكونَ (أن) مُخفَّفةً مِن الثَّقيلةِ، واسمُها ضميرُ شأنٍ مَحذوفٌ، أو مُفَسِّرةً؛ لأنَّ التَّنَزُّلَ بمعنى القَولِ دُونِ حُروفِه، و (لا) ناهيةٌ على هذين الوَجهَينِ، والفِعل المضارِعُ ﴿تَخَافُواْ﴾ مَجزومٌ بِلا، والتَّقديرُ فيهما: بأنَّه لا تَخافوا، أو: أي لا تَخافوا[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٢٥)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٤/ ٣٠٧).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا حُسْنَ عاقبةِ المؤمنينَ: إنَّ الَّذين قالوا: ربُّنا اللهُ، ثمَّ استقاموا على أمْرِه سُبحانَه تتنَزَّلُ عليهم الملائكةُ بأنْ لا تخافُوا ممَّا يُستَقبَلُ، ولا تَحزَنوا على ما مضَى، وأبشِروا بالجنَّةِ الَّتي كُنتُم تُوعَدونَ بدُخولِها، نحن كنَّا أولياءَكم في الحياةِ الدُّنيا، وكذلك نكونُ في الآخِرةِ، ولكم في الآخِرةِ ما تَشتَهيه أنفُسُكم، وما تَطلُبونَه وتتَمَنَّونَه؛ ضيافةً وإكرامًا مِن الغَفورِ الرَّحيمِ سُبحانَه وبِحَمدِه.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه مَنزِلةَ الَّذين يقومونَ بالدَّعوةِ إلى الحقِّ، فيقولُ: ولا أحَدَ أحسَنُ قَولًا مِمَّن دعا النَّاسَ إلى توحيدِ اللهِ وطاعتِه، وعَمِلَ صالِحًا، وقال: إنَّني مِن المُسلِمينَ.

ثمَّ يُرشِدُ اللهُ تعالى إلى ما يُؤدِّي إلى إشاعةِ المحَبَّةِ، فيقولُ: ولا تَستوي الخَصلةُ الحَسَنةُ مع الخَصلةِ السَّيِّئةِ في الجَزاءِ؛ فادفَعْ -يا مُحمَّدُ- السَّيِّئةَ بالخَصلةِ الَّتي هي أحسَنُ؛ فأحسِنْ إلى مَن أساء إليك، وادْعُه بالحِكمةِ والرِّفقِ، واصفَحْ عنه، واصبِرْ على أذاه؛ فإنَّك إنْ فعَلْتَ ذلك صار مَن هو عدوٌّ لك كأنَّه صَديقٌ شَديدُ المحبَّةِ لك.

وما يُعطَى هذه الخَصلةَ الشَّريفةَ إلَّا الَّذين صَبَروا، وما يُعطاها إلَّا ذو نَصيبٍ وافرٍ مِنَ الخَيرِ. ثمَّ يُرشِدُ اللهُ عبادَه إلى ما يَعصِمُهم مِن الشَّيطانِ، فيقولُ: وإنْ يُوَسْوِسْ لك الشَّيطانُ -يا مُحمَّدُ- لِيُفسِدَ بيْنَك وبيْنَ غَيرِك، فالتَجِئْ إلى اللهِ؛ لِيَعصِمَك منه؛ إنَّ اللهَ هو السَّميعُ العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أطنَبَ في الوَعيدِ؛ أردَفَه بهذا الوَعدِ الشَّريفِ، وهذا ترتيبٌ لَطيفٌ مَدارُ كُلِّ القُرآنِ عليه[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾.

أي: إنَّ الَّذين قالوا نُطقًا بألسِنَتِهم، واعتِقادًا بقُلوبِهم: ربُّنا اللهُ وَحْدَه، ثمَّ استَقاموا على تَوحيدِ اللهِ، وامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه، وداوَموا على طاعتِه بإخلاصٍ له، ومُوافَقةٍ لِشَرعِه بلا إفراطٍ ولا تَفريطٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود: ١١٢].

وعن سُفْيانَ بنِ عبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحدًا بَعْدَك. قال: قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، فاستَقِمْ))[٣].

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

أي: أولئك المُؤمِنونَ المُستَقيمونَ تَتنَزَّلُ[٤] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٢ - ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٦، ١٦٧).
قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أنَّهم صَدَعوا بذلك، ولم يَخشَوا أحدًا بإعلانِهم التَّوحيدَ؛ فقَولُهم تصريحٌ بما في اعتِقادِهم؛ لأنَّ المرادَ أنَّهم قالوا ذلك عن اعتقادٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٢).

(٣) رواه مسلم (٣٨).

(٤) قال ابن عثيمين: (﴿تَتَنَزَّلُ﴾ مدلولُها ... أنَّ تَنزُّلَهم يكونُ شيئًا فشيئًا... لا تَتنزَّلُ دَفْعةً واحدةً، والثَّاني أنَّ التَّنزُّلَ أو النُّزولَ مُتكرِّرٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٧). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

عليهم الملائِكةُ[(١)].

عن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبدَ المؤمِنَ إذا كان في انقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا، وإقبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ، بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهم الشَّمسُ، معهم كَفَنٌ مِن أكفانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٥)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

قيل: تنَزُّلُ الملائكةِ على المؤمِنِ يكونُ عندَ الموتِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: يحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ، وزيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

وقيل: عندَ الموتِ وفي وقتِ البعثِ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٥).

وقيل: عندَ الموتِ، وفي القبرِ، وعند البَعثِ. وممَّن قال بهذا القَولِ: ابنُ القيِّم. يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٩٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: وكيعُ بنُ الجَرَّاحِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٤).

وقيل: تنَزُّلُ الملائكةِ على المؤمِنِ: في حياتِه؛ لتأييدِه بإلهامِ الطَّاعاتِ، ومُحاربةِ الشَّياطينِ ونَحوِ ذلك، وبذلك تتِمُّ مُقابَلةُ تنَزُّلِهم على المؤمِنينَ بذِكرِ تَقييضِ القُرَناءِ للكافِرينَ، المتقَدِّمِ ذِكرُها في الآياتِ السَّابِقةِ. وممَّن اختاره: أبو السعود، واستحسَنَه ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٦).

وقيل: المرادُ: العُمومُ؛ فالملائِكةُ تتنَزَّلُ في الحياةِ، وعندَ الموتِ، وفي كُلِّ حالٍ تَقتضي نزولَهم على المؤمِنِ المستقيمِ. وممَّن ذهب إلى هذا العُمومِ في الجُملةِ: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٧، ١٦٨).

الجَنَّةِ، وحَنُوطٌ[١] مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجلِسوا مِنه مَدَّ البَصَرِ[٢]، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ حتَّى يَجلِسَ عندَ رَأسِه، فيَقولُ: أَيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخرُجي إلى مَغفِرةٍ مِنَ اللهِ ورِضوانٍ، فتَخرُجُ تَسيلُ كما تَسيلُ القَطرةُ مِن فِي السِّقاءِ، فيَأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَأخُذوها فيَجعَلوها في ذَلِك الكَفَنِ وفي ذَلِك الحَنُوطِ، ويَخرُجُ مِنها كأَطْيَبِ نَفْحةٍ[٣] مِسْكٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ، فيَصعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنتَهوا بها إلى السَّماء الدُّنيا، فيَستَفتِحون له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها، حتَّى يُنتَهى به إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكتُبوا كِتابَ عَبدي في عِلِّيِّينَ، وأعيدُوه إلى الأرضِ؛ فإنِّي منها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخرِجُهم تارةً أُخرى...))[٤].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن أحَبَّ لِقاءَ اللهِ أحَبَّ اللهُ لِقاءَه، ومَن كَرِهَ لِقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقاءَه. قُلْنا: يا رَسولَ اللهِ،

---

(١) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتَى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٦).

(٢) مَدَّ البَصَرِ: أي: مَداه، وهي الغايةُ الَّتي يَنتهي إليها البَصَرُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٢١٣).

(٣) النَّفحةُ: المرَّةُ مِن نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحَتِه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).

(٤) أخرجه ابنُ أبي شيبة في ((المصنف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقاربةٍ.

صحَّحَ إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وصحَّحَ الحديثَ ابنُ القيِّم في ((الروح)) (ص: ٤٦)، والألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨)، وحسَّنه المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٢٨٠/ ٤).

كُلُّنا نَكرَهُ الموتَ. قال: ليس ذاك كراهيةَ المَوتِ، ولكِنَّ المؤمِنَ إذا حُضِرَ[١] جاءَه البشيرُ مِنَ اللهِ بما هو صائِرٌ إليه، فليس شَيءٌ أحَبَّ إليه مِن أن يكونَ قد لَقِيَ اللهَ، فأحَبَّ اللهُ لِقاءَه؛ وإنَّ الفاجِرَ أو الكافِرَ إذا حُضِرَ جاءَه بما هو صائِرٌ إليه مِنَ الشَّرِّ، أو ما يَلقاه مِنَ الشَّرِّ، فكَرِهَ لِقاءَ اللهِ، وكَرِهَ اللهُ لِقاءَه))[٢].

﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾.

أي: تَتنَزَّلُ عليهم الملائِكةُ بأنْ لا تخافُوا ممَّا يُستَقبَلُ، ولا تَحزَنوا على ما مَضى[٣].

---

(١) حُضِر: أي: دَنا موتُه. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٤٠٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٠٤٧) واللَّفظُ له، والبزار (٦٦٠٤)، وأبو يعلى (٣٨٧٧).

صحَّحه ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٧/ ١٦٧)، والألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٤٨٥)، وقال المُنْذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٥٤): (رواه أحمد، ورواتُه رواةُ الصَّحيحِ). وقال البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٢/ ٤٢٩): (رواه أبو يعلى بسندٍ صحيحٍ). وصحَّح إسنادَه على شرطِ الشَّيخَينِ شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٩/ ١٠٤). والحديثُ أصلُه في الصَّحيحَينِ عن أنسٍ عن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٨).

قيل: المرادُ: لا تخافوا مِنَ الموتِ، ولا تَحزنوا على ما خلَّفتُم وراءَكم في الدُّنيا مِن أهلٍ أو ولدٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

وممَّن ذهب إلى العُموم بنَفيِ الخَوفِ مِن المُستقبَلِ، والحُزنِ على الماضي: ابنُ عطية، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٨).

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

أي: وأبشِروا بالجَنَّةِ الَّتي كُنتُم تُوعَدونَ بدُخولِها في كُتُبِ اللهِ وعلى ألسِنةِ رُسُلِه؛ جَزاءَ إيمانِكم باللهِ، واستِقامتِكم على دِينِه(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ في هذه الآيةِ الكريمةِ عن الملائِكةِ أنَّهم قالوا للمُؤمِنينَ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١]، وهذا في مُقابَلةِ ما ذكَرَه في وَعيدِ الكُفَّارِ؛ حيث قال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾(٢) [فصلت: ٢٥].

وأيضًا لَمَّا أثبَتوا للمُؤمِنينَ الخَيرَ، ونَفَوا عنهم الضَّيرَ؛ عَلَّلوه بقَولِهم(٣):

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

قال ابن القيِّم: (وأوَّلُ بِشارةِ الآخِرةِ: عندَ الموتِ). ((الروح)) (ص: ٩٣).

وقال ابنُ كثيرٍ: (قال زيدُ بنُ أسْلَمَ: «يُبشِّرونَه عندَ مَوتِه، وفي قَبرِه، وحينَ يُبعَثُ». رواه ابنُ أبي حاتمٍ. وهذا القَولُ يَجمَعُ الأقوالَ كُلَّها، وهو حَسَنٌ جِدًّا، وهو الواقِعُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٤).

أي: نحن نَتَوَلَّاكم في الحياةِ الدُّنيا، ونتَولَّاكم في الآخِرةِ أيضًا[(١)].

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧٠).

ممَّن ذهب إلى أنَّ ذلك يُقالُ للمُؤمِنينَ عندَ الموتِ، والمعنى: كنَّا أولياءَكم في الدُّنيا، وكذلك نكونُ معكم في الآخِرةِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

قال ابنُ كثير: (أي: تقولُ الملائكةُ للمُؤمِنينَ عندَ الاحتِضارِ: نحن كُنَّا أولياءَكم، أي: قُرَناءَكم في الحياةِ الدُّنيا؛ نُسَدِّدُكم ونُوَفِّقُكم، ونَحفَظُكم بأمرِ الله، وكذلك نكونُ معكم في الآخِرةِ؛ نُؤنِسُ منكم الوَحشةَ في القُبورِ، وعندَ النَّفخةِ في الصُّورِ، ونُؤَمِّنُكم يومَ البَعثِ والنُّشورِ، ونُجاوِزُ بكم الصِّراطَ المستقيمَ، ونُوصِلُكم إلى جنَّاتِ النَّعيم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

وقال السعدي: (﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يَحُثُّونَهم في الدُّنيا على الخَيرِ ويُزَيِّنونَه لهم، ويُرَهِّبونَهم عن الشَّرِّ ويُقَبِّحونَه في قُلوبِهم، ويَدْعُونَ اللهَ لهم، ويُثَبِّتونَهم عندَ المصائِبِ والمَخاوِفِ، وخُصوصًا عندَ الموتِ وشِدَّتِه، والقَبرِ وظُلمتِه، وفي القيامةِ وأهوالِها، وعلى الصِّراطِ، وفي الجنَّةِ يُهنِّئونَهم بكرامةِ رَبِّهم، ويَدخُلونَ عليهم مِن كُلِّ بابٍ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨، ٧٤٩).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَتعاقَبونَ فيكم مَلائِكةٌ باللَّيلِ، وملائِكةٌ بالنَّهارِ، ويَجتَمِعونَ في صَلاةِ الفَجرِ وصَلاةِ العَصرِ، ثمَّ يَعرُجُ الَّذين باتُوا فيكم، فيَسألُهم رَبُّهم وهو أعلَمُ بهم: كيف ترَكتُم عِبادي؟ فيَقولونَ: ترَكْناهم وهم يُصَلُّونَ، وأتَيْناهم وهم يُصَلُّونَ))[١].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾.

أي: ولكم في الحياةِ الآخِرةِ ما تَشتَهيه أنفُسُكم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ: أعدَدْتُ لِعبادِيَ الصَّالِحينَ ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَر على قَلبِ بَشَرٍ))[٣].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾.

أي: ولكم فيها ما تَطلُبونَه وتتَمَنَّونَه[٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) واللفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٤، ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧٠).

(٣) رواه البخاري (٧٤٩٨) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٦).

قال ابنُ عثيمين: (كُلُّ ما اشتهاه الإنسانُ وإن لم يَطلُبْه فإنَّه يَحصُلُ بيْنَ يديه، وكذلك أيضًا كُلُّ ما طَلَبَه فإنَّه يَحضُرُ بيْن يديه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧٠).

وقال الماوَرْدي: (﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: ما تَمنَّوْنَ، قاله مُقاتِلٌ. الثَّاني: =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَومًا يُحَدِّثُ وعِندَه رجُلٌ مِن أهلِ الباديةِ: أنَّ رَجُلًا مِن أهلِ الجنَّةِ استأذَنَ رَبَّه في الزَّرعِ، فقال له: أَلَسْتَ فيما شِئتَ؟! قال: بلى، ولكِنِّي أُحِبُّ أن أزرَعَ! قال: فبَذَرَ فبادَرَ الطَّرْفَ[1] نباتُه واستِواؤُه واستِحصادُه، فكان أمثالَ الجِبالِ! فيَقولُ اللهُ: دُونَك[2] يا ابنَ آدَمَ؛ فإنَّه لا يُشبِعُك شَيءٌ! فقال الأعرابيُّ: واللهِ لا تَجِدُه إلَّا قُرَشيًّا أو أنصاريًّا؛ فإنَّهم أصحابُ زَرعٍ! وأمَّا نحن فلَسْنا بأصحابِ زَرعٍ. فضَحِكَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[3].

﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

أي: هذا الثَّوابُ العَظيمُ في الآخِرةِ تُعطَونَه ضِيافةً وإكرامًا مِنَ اللهِ الغَفورِ السَّاتِرِ لذُنوبِكم، المُتجاوِزِ عن عُقوبتِكم؛ الرَّحيمِ بكم، الَّذي مِن رَحمتِه أن وفَّقَكم لطاعتِه، وقَبِل حَسَناتِكم[4].

كما قال تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٩].

= ما تَدَّعي أنَّه لك فهو لك بحُكمِ ربِّك، قاله ابنُ عيسى). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٠). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٢).

(١) فبادَرَ الطَّرْفَ نباتُه: أي: فسابَقَه نباتُه وحَصَل في الحالِ. والطَّرْفُ: هو امتِدادُ لَحْظِ الإنسانِ حيث أدرَكَ. وقيل: طَرْفُ العَينِ: حَرَكتُها، أي: تحَرُّكُ أجفانِها. يُنظر: ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (١٥/ ٢٩٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٠٠).

(٢) دُونَك يا ابنَ آدَمَ: أي: خُذْ ما تمنَّيتَه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٠٠).

(٣) رواه البخاري (٢٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧١، ١٧٣).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الكَلامَ مِن أوَّلِ هذه السُّورةِ إنَّما ابتُدِئَ حيثُ قال المُشرِكونَ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]، ومُرادُهم: ألَّا نَقبَلَ قَولَك، ولا نَلتَفِتَ إلى دليلِك، ثمَّ ذَكَروا طريقةً أُخرى في السَّفاهةِ، فقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ وأنَّه سُبحانَه ذكَرَ الأجوِبةَ الشَّافيةَ والبَياناتِ الكافيةَ في دَفعِ هذه الشُّبُهاتِ، وإزالةِ هذه الضَّلالاتِ، ثمَّ إنَّه سُبحانَه وتعالى بيَّنَ أنَّ القومَ وإنْ أَتَوا بهذه الكَلِماتِ الفاسِدةِ إلَّا أنَّه يَجِبُ عليك أن تُتابِعَ المُواظَبةَ على التَّبليغِ والدَّعوةِ؛ فإنَّ الدَّعوةَ إلى الدِّينِ الحَقِّ أكمَلُ الطَّاعاتِ، ورأسُ العِباداتِ، وعبَّرَ عن هذا المعنى فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا تقدَّمَ قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾؛ ذكَرَ مَن دعا إلى ذلك[2]؛ فإنَّ مراتِبَ السَّعاداتِ اثنتانِ: التَّامُّ، وفوقَ التَّامِّ؛ أمَّا التَّامُّ: فهو أن يَكتَسِبَ مِن الصِّفاتِ الفاضِلةِ ما لأجْلِها يَصيرُ كامِلًا في ذاتِه، فإذا فَرَغَ مِن هذه الدَّرَجةِ اشتغَلَ بَعدَها بتَكميلِ النَّاقِصينَ، وهو فوقَ التَّامِّ؛ فقَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] إشارةٌ إلى المرتبةِ الأُولى، وهي اكتِسابُ الأحوالِ الَّتي تُفيدُ كَمالَ النَّفْسِ في جَوهرِها، فإذا حَصَلَ الفَراغُ مِن هذه المَرتبةِ وَجَبَ الانتِقالُ إلى المرتبةِ الثَّانيةِ، وهي الاشتِغالُ بتَكميلِ النَّاقِصينَ، وذلك إنَّما يكونُ بدَعوةِ الخَلقِ إلى الدِّينِ الحَقِّ، وهو المرادُ مِن قَولِه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٥).

تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[(١)].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

أي: ولا أحَدَ أحسَنُ قَولًا مِمَّن دعا النَّاسَ إلى توحيدِ اللهِ وطاعتِه، وعَمِلَ عَمَلًا صالِحًا بإخلاصٍ لله، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لعَليِّ ابنِ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه يومَ خَيْبَرَ: ((ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبِرْهم بما يجِبُ عليهم مِن حَقِّ اللهِ فيه؛ فواللهِ لَأَنْ يَهديَ اللهُ بك رجُلًا واحِدًا خَيرٌ لك مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥، ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧٧، ١٧٨).

قال ابنُ كثير: (هذه عامَّةٌ في كُلِّ مَن دعا إلى خيرٍ وهو في نَفْسِه مُهتَدٍ، ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَولى النَّاسِ بذلك... والصَّحيحُ أنَّ الآيةَ عامَّةٌ في المؤَذِّنينَ وفي غَيرِهم؛ فأمَّا حالَ نُزولِ هذه الآيةِ فإنَّه لم يكُنِ الأذانُ مَشروعًا بالكُلِّيَّةِ؛ لأنَّها مكِّيَّةٌ، والأذانُ إنَّما شُرِعَ بالمدينةِ بعدَ الهِجرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٩، ١٨٠).

وممَّن ذهب إلى العُمومِ: ابنُ عطية، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥، ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩١).

أنْ يكونَ لك حُمْرُ النَّعَمِ[١]))[٢].

﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

أي: وقال: إنَّني مِنَ المُستَسلِمينَ للهِ، المُقِرِّينَ بوَحدانيَّتِه، الخاضِعينَ له، المُنقادينَ إليه بطاعتِه[٣].

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه لا أحَدَ أحسَنُ مِمَّن دعا إلى اللهِ؛ ذكَرَ ما يَترتَّبُ على ذلك مِن حُسنِ الأخلاقِ، وأنَّ الدَّاعيَ إلى اللهِ قد يُجافيه المَدعُوُّ؛ فيَنبغي أن يَرفُقَ به، ويَتلطَّفَ في إيصالِ الخَيرِ إليه[٤].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ الدَّعوةَ إليه مِن أعظَمِ الدَّرَجاتِ، كأنَّ سائِلًا سألَ فقال: إنَّ الدَّعوةَ إلى اللهِ وإنْ كانت طاعةً عَظيمةً إلَّا أنَّ الصَّبرَ على سفاهةِ هؤلاء الكُفَّارِ شَديدٌ لا طاقةَ لنا به؛ فعِندَ هذا ذكَرَ اللهُ تعالى ما يَصلُحُ لِأنْ يكونَ دافِعًا لهذا الإشكالِ[٥].

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾.

---

(١) حُمْرُ النَّعَمِ: هي الإبِلُ الحُمْرُ، وهي أنفَسُ أموالِ العَرَبِ، يَضرِبونَ بها المَثَلَ في نَفاسةِ الشَّيءِ، وأنَّه ليس هناك أعظَمُ منه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٧٨).

(٢) رواه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٤).

أي: ولا تَستوي الخَصلةُ الحَسَنةُ معَ الخَصلةِ السَّيِّئةِ في الجزاءِ وحُسنِ العاقِبةِ[١].

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

أي: فادفَعْ -يا مُحمَّدُ- سَيِّئةَ النَّاسِ بالخَصلةِ الَّتي هي أحسَنُ الخِصالِ؛ فأحسِنْ إلى مَن أساء إليك، وادعُهم بالحِكمةِ والرِّفقِ، واللِّينِ وحُسنِ الخِطابِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٦).

قال السمعاني: (وأمَّا الحسَنةُ والسَّيِّئةُ ففيهما أقوالٌ؛ أحدُها: أنَّهما التَّوحيدُ والشِّركُ. والآخَرُ: أنَّهما العفوُ والانتِصارُ. والثَّالثُ: أنَّهما المُداراةُ والغلظةُ. والرَّابعُ: أنَّهما الصَّبرُ والجزَعُ. والخامسُ: أنَّهما الحِلمُ عندَ الغضَبِ والسَّفَهُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٢).

وقال الرازي: (المرادُ بالحسَنةِ دَعوةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى الدِّينِ الحقِّ، والصَّبرُ على جهالةِ الكفَّارِ، وتركُ الانتقامِ، وتركُ الالتِفاتِ إليهم، والمرادُ بالسَّيِّئةِ ما أظهروه مِن الجَلافةِ في قَولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٥]، وما ذكروه في قَولِهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، فكأنَّه قال: يا محمَّدُ فِعلُك حسَنةٌ وفِعلُهم سَيِّئةٌ، ولا تَستوي الحسنةُ ولا السَّيِّئةُ، بمعنى أنَّك إذا أتَيْتَ بهذه الحسَنةِ تكونُ مُستَوجِبًا للتَّعظيمِ في الدُّنيا والثَّوابِ في الآخرةِ، وهم بالضِّدِّ مِن ذلك، فلا يَنبغي أن يكونَ إقدامُهم على تلك السَّيِّئةِ مانعًا لك مِن الاشتغالِ بهذه الحسَنةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٤).

وقال ابن عاشور: (الحسَنةُ تَعُمُّ جميعَ أفرادِ جنسِها، وأُولاها تَبادُرًا إلى الأذهانِ حسَنةُ الدَّعوةِ إلى الإسلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٠).

و(لا) الثانية هنا صلةٌ (زائدة) لتقويةِ الكلامِ وتوكيدِه، والمعنى: ولا تستوي الحسنةُ والسَّيِّئة. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١١).

وقال جلالُ الدِّينِ المحليُّ: (﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ في جزئيَّاتِهما؛ لأنَّ بعضَهما فوقَ بعضٍ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٤)

قال ابنُ عثيمينَ: (وعلى هذا التَّفسيرِ تكونُ «لا» غيرَ زائدةٍ، تكونُ أصليَّةً، ويكونُ المرادُ بالآيةِ انتفاءَ تساوي الحسناتِ، وانتفاءَ تساوي السَّيِّئاتِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٥).

واحلُمْ عليهم، واصفَحْ عنهم، واصبِرْ على أذاهم[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ * وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ * وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٥ - ١٢٨].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، في وَصفِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في التَّوراةِ قال: ((لا يَدفَعُ بالسَّيِّئةِ السَّيِّئَةَ، ولكِنْ يَعفو ويَغفِرُ))[٢].

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: ((لم يكُنْ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فاحِشًا ولا مُتفَحِّشًا، ولا صَخَّابًا[٣] في الأسواقِ، ولا يَجْزي بالسَّيِّئةِ مِثلَها، ولكِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٤، ٥٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٢).

قال الرازي: (يعني: ادفَعْ سفاهتَهم وجهالتَهم بالطَّريقِ الَّذي هو أحسَنُ الطُّرقِ؛ فإنَّك إذا صبَرْتَ على سوءِ أخلاقِهم مرَّةً بعدَ أخرى، ولم تُقابِلْ سفاهتَهم بالغضبِ، ولا إضرارَهم بالإيذاءِ والإيحاشِ؛ استَحيَوا مِن تلك الأخلاقِ المذمومةِ، وترَكوا تلك الأفعالَ القبيحةَ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٥).

(٢) رواه البخاري (٢١٢٥).

(٣) صَخَّابًا: أي: صَيَّاحًا، والصَّخَبُ: الضَّجَّةُ، واضطرابُ الأصواتِ للخِصامِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ١٤)، ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٦/ ١٣٣).

يعفو ويَصفَحُ))[١].

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا كانتِ الآثارُ الصَّالحةُ تدُلُّ على صَلاحِ مَثارِها، وأمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالدَّفْعِ بالَّتي هي أحسَنُ؛ أرْدَفَه بذِكْرِ بَعضِ مَحاسنِه[٢]، فقال:

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

أي: فإنَّك إنْ فعَلْتَ ذلك صار مَن هو عدُوٌّ لك كأنَّه صَديقٌ شَديدُ الوَلاءِ لك، يُحِبُّك ويُشفِقُ عليك، ويُحسِنُ إليك ويُناصِرُك[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٦)، وأحمد (٢٥٤١٧) واللفظُ له.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٦٤٤٣)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٠١٦)، وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٢/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٨، ١٨٩).

وقيل: الوَليُّ: هو الصَّديقُ، والحَميمُ: هو القَريبُ. وممَّن قال بهذا: الماوَرْدي، والسمعاني، والبغوي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥٧).

قال الشنقيطي: (﴿وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: صديقٌ في غايةِ الصَّداقةِ). ((العذب النمير)) (٢/ ١٥١).

وقيل: معنى ﴿وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾: قريبٌ صديقٌ. وممَّن اختاره: الثعلبي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٢).

وقال ابن جرير: (يَصيرُ المُسيءُ إليك الَّذي بيْنَك وبيْنَه عداوةٌ، كأنَّه مِن مُلاطَفتِه إيَّاكَ وبِرِّه =

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أرشَدَ اللهُ تعالى إلى هذا الطَّريقِ النَّافِعِ في الدِّينِ والدُّنيا والآخِرةِ؛ عظَّمَه فقال[1]:

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾.

أي: وما يُعطَى هذه الخَصلةَ الشَّريفةَ -وهي مُقابَلَةُ الإساءةِ بالإحسانِ- ويُوفَّقُ للعَمَلِ بها إلَّا الَّذين صَبَروا على ذلك[2].

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾.

أي: وما يُعطاها إلَّا ذو نَصيبٍ وافرٍ مِنَ الخَيرِ[3].

= لك، وَلِيٌّ لك مِن بني أعمامِك، قريبُ النَّسبِ بك. والحميمُ: هو القريبُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٣).

وقال مقاتلٌ: (كأنَّه وَلِيٌّ لك في الدِّينِ، حَمِيمٌ لك في النَّسَبِ، الشَّفيقُ عليك). ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٧٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٩، ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٣)، ((قاعدة في الصبر)) لابن تيمية (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٠).

قيل: المرادُ بالحَظِّ العظيمِ: الجَنَّةُ. وممَّن قال به: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٦)، ((قاعدة في الصبر)) لابن تيمية (ص: ٩٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٤).=

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بدَفعِ السَّيِّئةِ بالأحسَنِ، كان قد يَعرِضُ للمُسلِمِ في بَعضِ الأوقاتِ مُقابَلةُ مَن أساء بالسَّيِّئةِ، فأمَرَه إنْ عَرَض له ذلك أن يَستعيذَ بالله؛ فإنَّ ذلك مِن نَزْغِ الشَّيطانِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما يُقابَلُ به العَدُوُّ مِن الإنسِ، وهو مُقابَلةُ إساءتِه بالإحسانِ، ذكَرَ ما يُدفَعُ به العَدُوُّ الجِنِّيُّ، وهو الاستِعاذةُ باللهِ، والاحتِماءُ مِن شَرِّه(٢).

= وقيل: ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: في الخَيرِ والثَّوابِ. وممَّن اختاره: البغوي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٢).

وقيل: ذو حظٍّ عظيمٍ مِن الفضائلِ النَّفْسانيَّةِ وكمالِ النَّفْسِ. وممَّن اختاره: الرازي، وأبو السعود، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥١٨).

وقال ابن عاشور: (أي: ما يحصُلُ دفْعُ السَّيِّئةِ بالحسنةِ إلَّا لصاحِبِ نصيبٍ عظيمٍ مِن الفضائلِ، أي: مِن الخُلُقِ الحسَنِ والاهتداءِ والتَّقوَى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٥).

وقال ابن عثيمين: (أي: وما يُلقَّاها إلا ذو نصيبٍ عظيمٍ، ليس مِن الثَّوابِ فحَسْبُ، بل مِن الثَّوابِ والأخلاقِ والرَّزانةِ وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٠). ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤١).

وقال الماوَرْدي: (﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: ذو جَدٍّ عظيمٍ، قاله السُّدِّيُّ. الثَّاني: ذو نصيبٍ وافرٍ مِن الخَيرِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّالثُ: أنَّ الحظَّ العظيمَ: الجنَّةُ. قال الحسَنُ: واللهِ ما عَظُمَ حظٌّ قَطُّ دونَ الجنَّةِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر هذا الطَّريقَ الكامِلَ في دَفعِ الغَضَبِ والانتِقامِ، وفي تَركِ الخُصومةِ، ذَكَر عَقِيبَه طريقًا آخَرَ عَظيمَ النَّفعِ أيضًا في هذا البابِ، فقال[1]:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ﴾.

أي: وإنْ وَجَدْتَ مِنَ الشَّيطانِ وَسوَسةً في نَفْسِك -يا مُحمَّدُ-؛ لِيُفسِدَ بيْنَك وبيْنَ غَيرِك، فيُغريَك بعَداوتِه، والإساءةِ إليه والانتِقامِ منه؛ فالتَجِئْ إلى الله، واطلُبْ منه أن يَعصِمَك منه، ويَحفَظَك مِن كَيدِه وشَرِّه[2].

كما قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وقال تعالى حكايةً عن يُوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿... وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وعن سُلَيمانَ بنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنتُ جالِسًا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ورجُلانِ يَسْتَبَّانِ، فأحدُهما احمَرَّ وَجْهُه، وانتَفَخَت أوداجُه[3]، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنِّي لَأعلَمُ كَلِمةً لو قالها ذَهَب عنه ما يَجِدُ؛ لو قال:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٦ - ٢٩٨).

(٣) الأَوداجُ: جَمعُ وَدَجٍ: وهو ما أحاطَ بالعُنُقِ مِن العُروقِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٠٤).

أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ، ذَهَب عنه ما يَجِدُ))[١].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ الَّذي تَستعيذُ به مِن نَزْغِ الشَّيطانِ: هو السَّميعُ لكُلِّ قَولٍ، ومِن ذلك استِعاذتُك به؛ العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما يُلقِيه الشَّيطانُ في نَفْسِك، فلا يَخفَى عليه كَيدُ عَدُوِّك، وهو يَتولَّى أمْرَه وجَزاءَه[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ جَمَع أصلَي الكَمالِ الإسلاميِّ؛ فقَولُه: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ مُشيرٌ إلى الكَمالِ النَّفْسانيِّ، وهو مَعرِفةُ الحَقِّ لِلاهتِداءِ به، ومَعرِفةُ الخَيرِ لأجْلِ العَمَلِ به؛ فالكَمالُ عِلْمٌ يَقينيٌّ وعَمَلٌ صالِحٌ، فمَعرِفةُ اللهِ بالإلهيَّةِ هي أساسُ العِلْمِ اليَقينيِّ. وأشار قَولُه: ﴿ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ إلى أساسِ الأعمالِ الصَّالحةِ، وهو الاستِقامةُ على الحَقِّ، أي: أن يكونَ وَسَطًا غيرَ مائِلٍ إلى طَرَفَيِ الإفراطِ والتَّفريطِ؛ قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[٣] [البقرة: ١٤٣].

٢- قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ دَليلٌ على أهمِّيَّةِ الاستِقامةِ على دينِ اللهِ؛ بأنْ يكونَ الإنسانُ ثابِتًا لا يَزيدُ ولا يَنْقُصُ، ولا يُبَدِّلُ ولا يُغَيِّرُ، فأمَّا مَن غلا في دينِ اللهِ أو

(١) رواه البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠)، واللفظُ للبخاري.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٣).

جَفا عنه أو بَدَّلَ، فإنَّه لا يكونُ مُستَقيمًا على شَريعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والاستقامةُ لا بُدَّ لها مِن الاعتدالِ في كلِّ شيءٍ حتَّى يكونَ الإنسانُ مُستقيمًا على شريعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ(١).

٣- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الإشارةُ إلى الإخلاصِ في الدَّعوةِ، نأخُذُها مِن قَولِه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الدَّاعيَ رُبَّما يَدعو النَّاسَ ويَعِظُهم يُريدُ بذلك المكانةَ المرموقةَ بيْنَهم، فهذا في حقيقةِ الأمرِ دعا إلى نفْسِه، فلا بُدَّ للداعي مِن الإخلاصِ(٢).

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فيه أنَّه ينبغي للمُسلم أنْ يكونَ عزيزًا بدينِه؛ وأنْ يُعْلِنَ به؛ وأنْ يقولَ: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ وألَّا يَستحيَ إذا قيلَ: إنَّه مسلمٌ(٣).

٥- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤]، واسمَع الآنَ ما الَّذي يُسَهِّلُ هذا على النَّفْسِ، ويُطَيِّبُه إليها، ويُنَعِّمُها به: اعلَمْ أنَّ لك ذُنوبًا بيْنَك وبيْنَ اللهِ تَخافُ عواقِبَها، وتَرجوه أن يعفوَ عنها، ويَغفِرَها لك، ويَهَبَها لك، ومع هذا لا يَقتَصِرُ على مُجرَّدِ العَفوِ والمُسامَحةِ حتَّى يُنعِمَ -سُبحانَه وتعالى- عليك ويُكرِمَك، ويَجلِبَ إليك مِنَ المنافِعِ والإحسانِ فَوقَ ما تؤمِّلُه! فإذا كنتَ ترجو هذا مِن ربِّك أن يُقابِلَ به إساءتَك، فما أَوْلاك وأجدَرَك أن تُعامِلَ به خَلْقَه، وتُقابِلَ به إساءتَهم!

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ليُعامِلَك اللهُ هذه المعامَلةَ؛ فإنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فكما تَعمَلُ معَ النَّاسِ في إساءتِهم في حَقِّك يَفعَلُ اللهُ معك في ذُنوبِك وإساءتِك جزاءً وِفاقًا؛ فانتَقِمْ بعدَ ذلك أو اعْفُ، وأحسِنْ أو اترُكْ؛ فكما تَدينُ تُدانُ، وكما تَفعَلُ معَ عبادِه يَفعَلُ معك. فمَن تصَوَّرَ هذا المعنى وشَغَل به فِكرَه هان عليه الإحسانُ إلى مَن أساء إليه، هذا معَ ما يَحصُلُ له بذلك مِن نَصرِ اللهِ ومَعِيَّتِه الخاصَّةِ، ومع ما يَتعَجَّلُه مِن ثَناءِ النَّاسِ عليه، ويَصيرونَ كُلُّهم معه على خَصمِه؛ فإنَّه كُلُّ مَن سَمِع أنَّه مُحسِنٌ إلى ذلك الغيرِ وهو مُسيءٌ إليه، وَجَد قَلْبَه ودعاءَه وهِمَّتَه مع المحسِنِ على المُسيءِ، وذلك أمرٌ فِطْريٌّ فَطَر اللهُ عِبادَه عليه، فهو بهذا الإحسانِ قد استَخدَمَ عسكرًا لا يَعرِفُهم ولا يَعرِفونَه، ولا يُريدونَ منه إقطاعًا ولا خبزًا، هذا مع أنَّه لا بُدَّ له مع عَدُوِّه وحاسِدِه من إحدى حالتَينِ: إمَّا أن يَملِكَه بإحسانِه فيَستعبِدَه ويَنقادَ له ويَذِلَّ له، ويَبقَى مِن أحَبِّ النَّاسِ إليه، وإمَّا أن يُفَتِّتَ كَبِدَه ويَقطَعَ دابِرَه إن أقام على إساءتِه إليه؛ فإنَّه يُذيقُه بإحسانِه أضعافَ ما يَنالُ منه بانتِقامِه، ومَن جَرَّب هذا عَرَفه حَقَّ المَعرِفةِ[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فيه الحَثُّ على أنْ تُقابَلَ السَّيِّئةُ بحسنةٍ، وعلى فِعْلِ الحسَناتِ في مقابِلِ السَّيِّئاتِ، وليس الفائدةُ أنْ يَعْلَمَ أنَّ الحسَنةَ لا تُساوي السَّيِّئةَ! لأنَّ هذا أمرٌ معلومٌ[2]. وسُبحانَ اللهِ! إنسانٌ بَيْنَك وبَيْنَه عَداوةٌ أساء إليك، فتُؤمَرُ بـ ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فإذا دفَعْتَ بالَّتي هي أحسَنُ يأتيك الثَّوابُ والجَزاءُ مِنَ اللهِ ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، وقولُه: ﴿وَلِيٌّ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٣).

حَمِيمٌ﴾ أي: قَريبٌ صَديقٌ في غايةِ ما يكونُ مِن الصَّداقةِ والقُربِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، والَّذي يَقولُ هو اللهُ عزَّ وجَلَّ مُقَلِّبُ القُلوبِ: ((إنَّ قلوبَ بَني آدَمَ كلَّها بيْنَ إصبَعَينِ مِن أصابعِ الرَّحمنِ كقلبٍ واحدٍ يُصَرِّفُه حيثُ يَشاءُ))[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ دليلٌ على أنَّه نُدِبَ إلى الإحسانِ إلى المُسيءِ؛ لِتأتلِفَ الأُمَّةُ، ولا تَفترِقَ، ولا تَتباغَضَ[٢].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ لِذِكرِ المُثُلِ والنَّتائِجِ عَقِبَ الإرشادِ شَأنٌ ظاهِرٌ في تقريرِ الحَقائِقِ، وخاصَّةً الَّتي قد لا تَقبَلُها النُّفوسُ لأنَّها شاقَّةٌ عليها، والعَداوةُ مَكروهةٌ، والصَّداقةُ والوَلايةُ مَرغوبةٌ؛ فلَمَّا كان الإحسانُ لِمَن أساء يُدنيه مِن الصَّداقةِ أو يَكسِبُه إيَّاها، كان ذلك مِن شَواهِدِ مَصلحةِ الأمرِ بالدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ[٣].

٩- الصَّبرُ ضابِطُ الأخلاقِ المأمورِ بها؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾[٤].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ فيه أنَّه إذا صبَّرَ الإنسانُ نَفْسَه، وامتَثَل أمْرَ رَبِّه، وعَرَف جَزيلَ الثَّوابِ، وعَلِم أنَّ مُقابَلَتَه للمُسيءِ بجِنسِ عَمَلِه لا تُفيدُه شَيئًا، ولا تَزيدُ العَداوةَ إلَّا شِدَّةً، وأنَّ إحسانَه إليه ليس بواضِعٍ قَدْرَه، بل مَن تواضَعَ لله رفَعَه: هان عليه الأمرُ، وفَعَل ذلك مُتلذِّذًا

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٢٧٨).
والحديث أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبدالله بن عَمرٍو رضي الله عنهما.
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٣).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٥).

مُستَحليًا له[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾، أي: استَجِرْ بالمَلِكِ الأعلَى، واطلُبْ منه الدُّخولَ في عِصمتِه، مُبادِرًا إلى ذلك حينَ يَنخُسُ بالنَّزْغةِ؛ فإنَّه لا يَقدِرُ على الإعاذةِ منه غيرُه، ولا تَذَرِ النَّزغةَ تَتكَرَّرُ، بل ارجِعْ إلى المحيطِ عِلمًا وقُدرةً في أوَّلِ الخَطْرةِ؛ فإنَّك إنْ لم تخالِفْ أوَّلَ الخَطْرةِ صارت فِكرةً، فيَحصُلُ العَزمُ، فتَقَعُ الزَّلَّةُ، فتصيرُ قَسوةً، فيَحصُلُ التَّمادي[٢]. ولا يتخَلَّصُ العبدُ مِن نَزَغاتِ الشَّيطانِ إلَّا بصِدقِ الاستِعانةِ وصِدقِ الاستغاثةِ، وبذلك يَنجو مِنَ الشَّيطانِ، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فكلَّما ازداد العَبدُ في تبَرِّيه مِن حَولِه وقُوَّتِه، وأخلَصَ بيْنَ يَدَيِ اللهِ بتضَرُّعِه واستِعانتِه واستِعاذتِه؛ زاد اللهُ في حِفظِه، ودَفَع الشَّيطانَ عنه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ فيه أنَّ المُصلِحَ يُيَسِّرُ اللهُ له أولياءَ الخَيرِ مِن الإنسِ والمَلائِكةِ، يُعينونَه ويُحَبِّبونَه في جَميعِ الخَيراتِ، ويُبعِدونَه ويُكَرِّهونَه في جميعِ المَضَرَّاتِ، واللهُ يَتولَّى الصَّالحينَ[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ فمَن كان له أصلُ الاستِقامةِ في التَّوحيدِ أمِنَ مِن الخُلودِ في النَّارِ، ومَن كان له كَمالُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٣٢).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٥).

الاستِقامةِ في الأُصولِ والفُروعِ أمِنَ الوَعيدَ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ يُفيدُ نَفيَ الخَوفِ والحُزنِ على الإطلاقِ، فيَدُلُّ على أنَّ المؤمِنَ عندَ الموتِ وفي القَبرِ وعندَ البَعثِ: لا يكونُ فازِعًا مِن الأهوالِ ومِن الفَزَعِ الشَّديدِ، بل يكونُ آمِنَ القَلبِ ساكِنَ الصَّدرِ[٢].

٤- نعيمُ القَبرِ وعَذابُه حَقٌّ ثابتٌ؛ لِقَولِه تعالى في آلِ فِرعَونَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقَولِه في المؤمِنينَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[٣]، فهذا التَّنزُّلُ يكونُ عندَ الموتِ ويكونُ في القبرِ، ويكونُ عندَ البعثِ[٤]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٥- قال الله تعالى حِكايةً عن قَولِ الملائِكةِ: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، قَولُه: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ إشارةٌ إلى مُقابَلةِ قَولِه في المُشرِكينَ: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾ [فصلت: ٢٥]، فكما قَيَّض للكافِرِ قُرَناءَ في الدُّنيا قَيَّض للمُؤمِنينَ ملائِكةً يَكونونَ قُرَناءَهم في الدُّنيا، وكما أنطَقَ أتْباعَهم باللَّائِمةِ عليهم أنطَقَ الملائِكةَ بالثَّناءِ على المؤمِنينَ[٥].

٦- قَولُ الملائكةِ: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تعريفٌ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٦).

بأنفُسِهم للمُؤمِنينَ؛ تأنيسًا لهم؛ فإنَّ العِلمَ بأنَّ المتلَقِّيَ صاحِبٌ قديمٌ يَزيدُ نفْسَ القادِمِ انشِراحًا وأُنسًا، ويُزيلُ عنه دَهشةَ القُدومِ، ويُخَفِّفُ عنه مِن حِشمةِ الضِّيافةِ، ويُزيلُ عنه وَحشةَ الاغترابِ، أي: نحنُ الَّذين كنَّا في صُحبتِكم في الدُّنيا؛ إذ كانوا يَكتُبونَ حَسَناتِهم، ويَشهَدونَ عندَ اللهِ بصَلاتِهم[١].

٧- في قولِه تعالى: ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾، ذكَر المغفرةَ والرَّحمةَ؛ لأنَّهم إنَّما وَصَلوا إلى ذلك بمغفرةِ اللهِ ورحمتِه، ولولا ذلك ما وَصَلوا إلى ما وَصَلوا إليه، ولهذا أخْبَرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه لن يَدْخُلَ الجنَّةَ أحدٌ بعَمَلِه، ((قالوا: ولا أنت يا رسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا؛ إلَّا أنْ يَتغمَّدنيَ اللهُ برحمتِه))[٢]، فالإنسانُ لا يَصِلُ إلى الجنَّةِ بالعملِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لو قُوبِلَ العملُ بالنِّعمةِ الَّتي أنْعَم اللهُ بها على الإنسانِ لم يكنْ شيئًا! إذْ إنَّ نِعَمَ اللهِ لا تُحصَى ولا تُعَدُّ[٣].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه فضيلةُ الدَّعوةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه مَنزَعٌ عَظيمٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧٣).

وهذا لا يعني عدمَ أهميَّةِ العملِ، فالأعمالُ الصالحةُ سببٌ لدخولِ الجنَّةِ وثمنٌ لها، لكن ليس على وجهِ المقابلةِ أو البدلِ، وتلك الأعمالُ الصالحةُ حصَلتْ للعبدِ برحمةِ الله ومِنَّتِه عليه، لا بحَولِه وقوَّتِه. وأيضًا فإنَّ مقتضَى اسمِ الله «الرحيم»: الرحمةُ، فعلى العبدِ أنْ يعملَ العملَ الصالحَ الذي يكونُ جالبًا لرحمةِ الله، ومقتضَى اسمِه «الغفور» المغفرةُ، فعلى العبدِ أنْ يعملَ ما يكونُ سببًا في مغفرةِ ذنوبِه. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٨٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٣).

لفَضيلةِ العُلَماءِ الَّذين بَيَّنوا السُّنَنَ، ووضَّحوا أحكامَ الشَّريعةِ، واجتَهَدوا في التَّوصُّلِ إلى مُرادِ الله تعالى مِن دينِه ومِن خَلْقِه[١].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ لَمَّا تَفاوَتَت الحَسَنةُ والسَّيِّئةُ أمَرَ أن يَدفَعَ السَّيِّئةَ بالأحسَنِ، وذلك مُبالَغةٌ، ولم يَقُلْ: ادفَعْ بالحَسَنةِ السَّيِّئةَ؛ لأنَّ مَن هان عليه الدَّفعُ بالأحسَنِ، هان عليه الدَّفعُ بالحَسَنِ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ انتِفاءُ تَساوي الحَسَناتِ بَعضِها ببَعضٍ، وانتِفاءُ تساوي السَّيِّئاتِ بَعضِها ببَعضٍ، فيَترتَّبُ على ذلك فائِدةٌ: أنَّ الحَسَناتِ تَتفاوَتُ، والسَّيِّئاتِ تَتفاوَتُ؛ فمِنَ الحَسَناتِ ما هو أصولٌ في الإسلامِ، كالأُصولِ الخَمسةِ، ومنها ما هو دونَ ذلك، ومنها ما هو فرائِضُ، ومنها ما هو نوافِلُ، وكذلك في المُحَرَّماتِ؛ فمنها ما هو شركٌ مُخرِجٌ عن المِلَّةِ، وما هو شِركٌ دونَ ذلك، وكذلك يُقالُ في الكُفرِ؛ فمنه ما هو فُسوقٌ، ومنه ما هو دونَ ذلك، هذا إذا قُلْنا: إنَّ المرادَ بالآيةِ «أنَّ الحَسَناتِ لا تَتساوى، والسَّيِّئاتِ لا تَتساوى»[٣].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إنَّما أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلك؛ لأنَّ مُنتهَى الكَمالِ البَشَريِّ خُلُقُه، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّما بُعِثْتُ لأُتمِّمَ صالحَ الأخلاقِ))[٤]، وتَخَلُّقُ الأُمَّةِ بهذا الخُلُقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٣).

(٤) رواه أحمد (٨٩٥٢)، والحاكم (٤٢٢١) واللفظ لهما، والبيهقيُّ (٢١٣٠١) بلفظ: ((مكارم)) بدلًا من ((صالح)) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه. =

مَرغوبٌ فيه؛ قال الله تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[1] [الشورى: ٤٠].

١٣- لَمَّا كان الشَّيطانُ على نَوعَينِ: نوعٍ يُرَى عِيانًا، وهو شَيطانُ الإنسِ، ونَوعٍ لا يُرَى، وهو شَيطانُ الجِنِّ؛ أمَرَ سُبحانَه وتعالى نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَكتفيَ مِن شَرِّ شَيطانِ الإنسِ بالإعراضِ عنه والعَفوِ، والدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ، ومِن شَيطانِ الجِنِّ بالاستعاذةِ باللهِ منه، وجَمَع بيْن النَّوعَينِ في سُورةِ (الأعرافِ)، وسُورةِ (المُؤمِنينَ)، وسُورةِ (فُصِّلَت). والاستِعاذةُ في القِراءةِ والذِّكرِ أبلَغُ في دَفعِ شَرِّ شَياطينِ الجِنِّ، والعَفوُ والإعراضُ والدَّفعُ بالإحسانِ أبلَغُ في دَفعِ شَرِّ شَياطينِ الإنسِ[2].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أنَّ المُدافَعةَ بالَّتي هي أحسَنُ شاقَّةٌ على النَّفْسِ[3].

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾، وفائدةُ هذه الاستِعاذةِ تَجديدُ داعيةِ العِصمةِ المَرْكوزةِ في نفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ الاستِعاذةَ باللهِ مِن الشَّيطانِ استِمدادٌ للعِصْمةِ، وصَقْلٌ لِزَكاءِ النَّفْسِ ممَّا قدْ يَقترِبُ منها مِن الكُدُراتِ. وهذا سِرٌّ مِن الاتِّصالِ بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وربِّه، وقد أشار إليه قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّه لَيُغانُ على قَلْبي، وإنِّي

= صحَّحه الحاكمُ وقال: (على شرطِ مسلمٍ)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((التمهيد)) (٢٤/ ٣٣٣)، والألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٤٥)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٤/ ٥١٣)، وجوَّد إسنادَه ابنُ باز في ((مجموع فتاويه)) (٢/ ٢١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٢/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٤).

لَأستَغْفِرُ اللهَ في اليَومِ مِئةَ مرَّةٍ))[١]، فبذلك تَسلَمُ نفْسُه مِن أنْ يَغْشاها شَيءٌ مِن الكُدُراتِ، ويَلحَقُ به في ذلك صالِحو المؤمنينَ، ثمَّ يَلتحِقُ بذلك بَقيَّةُ المؤمنينَ على تَفاوُتِهم[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ بَعدَ استيفاءِ الكَلامِ على ما أصابَ الأُمَمَ الماضيةَ المُشرِكينَ المُكَذِّبينَ مِن عَذابِ الدُّنيا، وما أُعِدَّ لهم مِن عَذابِ الآخِرةِ، ممَّا فيه عِبرةٌ لِلمُشرِكينَ الذين كَذَّبوا مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطَريقِ التَّعريضِ، ثم أُنذِروا بالتَّصريحِ بما سَيَحِلُّ بهم في الآخِرةِ، ووَصفِ بَعضِ أهوالِه؛ تَشَوَّفَ السامعُ إلى مَعرِفةِ حَظِّ المُؤمِنينَ، ووَصفِ حالِهم، فجاءَ قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ...﴾ إلخ، بَيانًا لِلمُتَرقِّبِ، وبُشْرى لِلمُتطَلِّبِ بأنْ يَعرِفَ جَزاءَ المُؤمِنينَ بَعدَ أنْ عَرَفَ جَزاءَ الكافِرينَ؛ فالجُملةُ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عمَّا تَقدَّمَ مِن قَولِه: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [فصلت: ١٩]، إلى قَولِه: ﴿مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾[٣] [فصلت: ٢٩].

- وافتِتاحُ الجُملةِ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) مَنظورٌ فيه إلى إنكارِ المُشرِكينَ ذلك؛ ففي تَوكيدِ الخَبَرِ زِيادةُ قَمْعٍ لهم[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ فيه تَعريفُ المُسنَدِ إليه

---

(١) تقدم تخريجه (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٢).

﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالمَوصوليَّةِ دُونَ أنْ يُقالَ: (إنَّ المُؤمِنينَ) ونَحوُه؛ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإيماءِ إلى أنَّها سَبَبُ ثُبوتِ المُسنَدِ لِلمُسنَدِ إليه؛ فيُفيدُ أنَّ تَنَزُّلَ المَلائِكةِ عليهم بتلك الكَرامةِ مُسَبَّبٌ على قَولِهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ واستِقامَتِهم؛ فإنَّ الاعتِقادَ الحَقَّ والإقبالَ على العَمَلِ الصَّالِحِ هما سَبَبُ الفَوزِ[١].

- وفيه حُسنُ تَرتيبٍ، حيثُ بَدَأَ أوَّلًا بالَّذي هو أمكَنُ في الإسلامِ، وهو العِلْمُ بِرُبوبيَّةِ اللهِ تعالى، ثمَّ أتْبَعَه بالعَمَلِ الصَّالِحِ، وهو الاستِقامةُ[٢].

- وقَولُه: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ يُفيدُ الحَصرَ بتَعريفِ المُسنَدِ إليه والمُسنَدِ، أيْ: لا رَبَّ لنا إلَّا اللهُ، وذلك جامِعٌ لِأصْلِ الاعتِقادِ الحَقِّ؛ لِأنَّ الإقرارَ بالتَّوحيدِ يُزيلُ المانِعَ مِن تَصديقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما جاءَ به؛ إذْ لم يَصُدَّ المُشرِكينَ عنِ الإيمانِ بما جاءَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا أنَّه أمَرَهم بنَبْذِ عِبادةِ غَيرِ اللهِ، ولأنَّ التَّكذيبَ بالبَعثِ تَلَقَّوْه مِن دُعاةِ الشِّركِ[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ الاستِقامةُ: عَدَمُ الاعوِجاجِ والمَيلِ، والسِّينُ والتَّاءُ فيها لِلمُبالَغةِ في التَّقَوُّمِ، فاستَقامَ: استَقَلَّ غَيرَ مائِلٍ ولا مُنحَنٍ، وتُطلَقُ الاستِقامةُ أيضًا على ما يَجمَعُ مَعنى حُسْنِ العَمَلِ والسِّيرةِ على الحَقِّ والصِّدقِ؛ فـ ﴿ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ هنا يَشمَلُ مَعنى الوَفاءِ بما كُلِّفوا به، وأوَّلُ ما يشمَلُ مِن ذلك أنْ يَثبُتوا على أصْلِ التَّوحيدِ، أيْ: لا يُغَيِّروا ولا يَرجِعوا عنه[٤].

- وحَرفُ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ لِلتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لِأنَّ الاستِقامةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨٢).

زائِدةٌ في المَرتَبةِ على الإقرارِ بالتَّوحيدِ؛ لِأنَّها تَشملُه، وتَشملُ الثَّباتَ عليه، والعَمَلَ بما يَستَدعيه، ولأنَّ الاستِقامةَ دَليلٌ على أنَّ قَولَهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ كان قَولًا مُنبَعِثًا عنِ اعتِقادِ الضَّميرِ والمَعرِفةِ الحَقيقيَّةِ(١).

- وكذلك في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ إيجازٌ بَليغٌ؛ لِأنَّ الاستِقامةَ كَلِمةٌ شَمِلتْ جَميعَ صِفاتِ التَّقْوى(٢).

- قولُه: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تَنزُّلُ الملائكةِ على المؤمنينَ يَحتمِلُ أنْ يكونَ في وقْتِ الحشْرِ، كما دلَّ عليه قولُهم: ﴿ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾، وكما يَقْتضيهِ كَلامُهم لهم؛ فذلك مُقابِلٌ لقَولِه: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩]؛ فأولئك تُلاقيهمُ المَلائِكةُ بالوَزعِ، والمُؤمِنونَ تَتنَزَّلُ عليهمُ المَلائكةُ بالأمْنِ، وذِكرُ التَّنَزُّلِ هنا؛ لِلتَّنويهِ بشَأنِ المُؤمِنينَ أنَّ المَلائِكةَ يَنزِلونَ مِن عُلويَّاتِهم لِأجْلِهم. ولِتَضَمُّنِ ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ مَعنى القَولِ وَرَدتْ بَعدَه (أنْ) التَّفسيريَّةُ، والتَّقديرُ: يَقولونَ: لا تَخافوا ولا تَحزَنوا. ويَجوزُ أنْ يَكونَ تَنَزُّلُ المَلائِكةِ عليهم في الدُّنيا، وهو تَنَزُّلٌ خَفيٌّ يُعرَفُ بحُصولِ آثارِه في نُفوسِ المُؤمِنينَ، ويَكونَ الخِطابُ بـ ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ بمَعنى إلْقائِهم في رُوعِهم عَكسَ وَسوَسةِ الشَّياطينِ القُرَناءِ بالتَّزيينِ، أيْ: يُلقونَ في أنْفُسِ المُؤمِنينَ ما يَصرِفُهم عنِ الخَوفِ والحَزَنِ، ويُذَكِّرُهم بالجَنَّةِ، فتَحِلُّ فيهمُ السَّكينةُ، فتَنشَرِحُ صُدورُهم بالثِّقةِ بحُلولِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٣).

وقال ابن عثيمين: (أتَى بـ «ثُمَّ» الدَّالَّةِ على التَّرتيبِ بمُهْلَةٍ، يعني أنَّ إيمانَهم لم يكنْ إيمانًا خاطفًا؛ آمَنَ ثمَّ زال! بل إيمانٌ مُستقِرٌّ؛ لأنَّهم استقاموا على دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٦٣).

فذلك مُقابِلُ قَولِه: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ الآيةَ [فصلت: ٢٥]؛ فإنَّه تَقْييضٌ في الدُّنيا، وهذا يَقتَضي أنَّ المُؤمنينَ الكامِلينَ لا يَخافونَ غيرَ اللهِ، ولا يَحزَنونَ على ما يُصيبُهم، ويُوقِنونَ أنَّ كُلَّ شَيءٍ بقَدَرٍ، وهم فَرِحونَ بما يَتَرَقَّبونَ مِن فَضلِ اللهِ، وعلى هذا المَعنى فالفِعل (كان) في قَولِه: ﴿ٱلَّتِي كُنتُمْ﴾ صِلَةٌ لِلتَّأكيدِ، ويكونُ المُضارِعُ في ﴿تُوعَدُونَ﴾ على أصْلِ استِعمالِه للحالِ والاستِقبالِ، ويَكونُ قَولُهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١]، تَأييدًا لهم في الدُّنيا، ووَعدًا بنَفعِهم في الآخِرةِ[١].

- وفي قَولِه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ قَدَّم الخَوفَ مِن المُستقبلِ؛ لأنَّه أهمُّ مِن الحُزْنِ على ما مَضَى؛ لأنَّ مُستقبَلَ الإنسانِ هو الَّذي يَجْعَلُه يَسيرُ أو يَتوقَّفُ؛ فلهذا بَدَأ به قبْلَ ذِكْرِ الحُزْنِ[٢]. فالخوفُ ممَّا يُتوقَّعُ مِن المكروهِ أعظَمُ مِن الحزنِ على الفائتِ[٣].

- قولُه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (لا) ناهيةٌ[٤]، والمَقصودُ مِنَ النَّهيِ عنِ الخَوفِ النَّهيُ عن سَبَبِه، وهو تَوَقُّعُ الضُّرِّ، أيْ: لا تَحسَبوا أنَّ اللهَ مُعاقِبُكم؛ فالنَّهيُ كِنايةٌ عنِ التَّأمينِ مِن جانِبِ اللهِ تَعالى؛ لِأنَّهم إذا تَحَقَّقوا الأمْنَ زالَ خَوفُهم، وهذا تَطمينٌ مِنَ المَلائِكةِ لِأنْفُسِ المُؤمِنينَ. وألحَقوا بتَأْمينِهم بِشارَتَهم ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ لِأنَّ وَقْعَ النَّعيمِ في النَّفْسِ مَوقِعَ المَسَرَّةِ إذا لم يُخالِطْه تَوَقُّعُ المَكروهِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٤).

(٤) على وجهٍ في الإعرابِ، ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٥).

- قولُه: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وَصفُ الجَنَّةِ بـ﴿ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ تَذكيرٌ لهمْ بأعمالِهم الَّتي وُعِدوا عليها بالجَنَّةِ، وتَعجيلٌ لهم بمَسَرَّةِ الفَوزِ برِضا اللهِ، وتَحقيقِ وَعدِه، أيْ: الَّتي كُنتُم تُوعَدونها في الدُّنيا. وفي ذِكرِ فِعلِ الكَونِ تَنبيهٌ على أنَّهم مُتَأصِّلونَ في الوَعدِ بالجَنَّةِ، وذلك مِن سابِقِ إيمانِهم وأعمالِهم[1].

- وفي التَّعبيرِ بالمُضارِعِ ﴿تُوعَدُونَ﴾ إفادةُ أنَّهم قد تَكَرَّرَ وَعدُهم بها، وذلك بتَكرُّرِ الأعمالِ المَوعودِ لِأجْلِها، وبتَكَرُّرِ الوَعدِ في مَواقِعِ التَّذكيرِ والتَّبشيرِ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾

- قولُه: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ جِيءَ بهذا القَولِ مُعتَرِضًا بيْن صِفاتِ الجَنَّةِ؛ لِيَتحَقَّقَ المُؤمِنونَ أنَّ بِشارَتَهم بالجَنَّةِ بِشارةُ مُحِبٍّ يَفرَحُ لِحَبيبِه بالخَيرِ، ويَسعى لِيَزيدَه[3].

- قولُه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾، أي: لكم في الجَنَّةِ ما تَشتَهونَه مِمَّا يَقَعُ تَحتَ الحِسِّ، وما تَتَمَنَّونَه في نُفوسِكم مِن كُلِّ ما يَخطُرُ بالبالِ مِمَّا يَجولُ في الخَيالِ، فما يَدَّعونَ غَيرُ ما تَشتَهيه أنْفُسُهم، ولهذه المُغايَرةِ أُعِيدَ لَفظُ (لَكُمْ)؛ لِيُؤْذِنَ باستِقلالِ هذا الوَعدِ عن سابِقِه، فلا يُتوهَّمَ أنَّ العَطفَ عَطفُ تَفسيرٍ أو عَطفُ عامٍّ على خاصٍّ، ولِلإشباعِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨٥، ٢٨٦).

البِشارةِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ انتصَبَ ﴿نُزُلًا﴾ على الحالِ مِن ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ و﴿مَا تَدَّعُونَ﴾؛ وهي مُفيدةٌ لكَونِ ما يَتمنَّونَه بالنِّسبةِ إلى ما يُعْطَون مِن عَظائمِ الأُجورِ مِمَّا لا يَخطُرُ ببالِهم، كالنُّزُلِ للضَّيفِ[٢].

- وأُوثِرتْ صِفَتا (الغَفورِ الرَّحيم) هنا؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ اللهَ غَفَر لهم -أو لِأكثَرِهمُ- اللَّمَمَ وما تابوا منه، وأنَّه رَحيمٌ بهم؛ لِأنَّهم كانوا يُحِبُّونَه ويَخافونَه ويُناصِرونَ دينَه[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ليس هذا مِن حِكايةِ خِطابِ الملائكةِ للمؤمنينَ في الآخِرةِ، وإنَّما هو مُوجَّهٌ مِن اللهِ؛ فالأظهَرُ أنَّه تَكمِلةٌ لِلثَّناءِ على الَّذين قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [فصلت: ٣٠]، وتَوجيهٌ لاستِحقاقِهم تلك المُعامَلةَ الشَّريفةَ، وقَمعٌ لِلمُشرِكينَ؛ إذْ تَقرَعُ أسماعَهم، أيْ: كيف لا يَكونونَ بتلك المَثابةِ وقد قالوا أحسَنَ القَولِ، وعَمِلوا أحسَنَ العَمَلِ[٤]؟!

- وذِكرُ هذا الثَّناءِ عليهم بحُسنِ قَولِهم عَقِبَ ذِكرِ مَذَمَّةِ المُشرِكينَ ووَعيدِهم على سُوءِ قَولِهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ مُشعِرٌ لا مَحالةَ بأنَّ بيْنَ الفَريقَيْنِ بَونًا بَعيدًا، طَرَفاه: الأحسَنُ المُصَرَّحُ به، والأسوَأُ المَفهومُ بالمُقابَلةِ، أيْ: فلا يَستَوي الَّذين قالوا أحسَنَ القَولِ وعَمِلوا أصلَحَ العَمَلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مع الَّذين قالوا أسْوَأَ القَولِ وعَمِلوا أسوَأَ العَمَلِ؛ ولهذا عُقِّبَ بقَولِه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾[1] [فصلت: ٣٤].

- والاستِفهامُ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ...﴾ مُستَعمَلٌ في النَّفيِ، أيْ: لا أحَدَ أحسَنُ قَولًا مِن هذا الفَريقِ[2].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تَفضيليَّةٌ لاسمِ ﴿أَحْسَنُ﴾، والكلامُ على حَذْفِ مُضافٍ تَقديرُه: مِن قَولِ مَن دَعا إلى اللهِ[3].

- وجُملةُ ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ثَناءٌ على المُسلِمينَ بأنَّهمُ افتَخَروا بالإسلامِ، واعتَزُّوا به بيْنَ المُشرِكينَ، ولم يَتَستَّروا بالإسلامِ. والاعتِزازُ بالدِّينِ عَمَلٌ صالِحٌ، ولكِنَّه خُصَّ بالذِّكرِ؛ لِأنَّه أُرِيدَ به غَيظُ الكافِرينَ، وإنَّما لم يُذكَرْ نَظيرُ هذا القَولِ في الصِّلةِ المُشيرةِ إلى سَبَبِ تَنَزُّلِ المَلائِكةِ على المُؤمِنينَ بالكَرامةِ، وهي ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]؛ لِأنَّ المَقصودَ مِن ذِكرِها هنا الثَّناءُ عليهم بتَفاخُرِهم على المُشرِكينَ بعِزَّةِ الإسلامِ، وذلك مِن آثارِ تلك الصِّلةِ؛ فلا حاجةَ إلى ذِكرِه هُنالك، بخِلافِ مَوقِعِه هنا[4].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ جامعٌ للمعاني السَّابقةِ، وليس مَحْصورًا في القَولِ المُجَرَّدِ؛ لِمَجيئِه على طَريقةِ التَّذييلِ، وعلى أُسلوبِ قَولِكَ: زَيدٌ مِنَ العُلَماءِ، أيْ: له إسْهامٌ مَعَهم في هذا الوَصفِ، والعِلْمُ له كاللَّقبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨٨، ٢٨٩).

المَشهورِ، كأنَّه قال: إنَّني لَمِنَ الَّذين لهمُ القِدْحُ المُعَلَّى[١] في التَّسليمِ والتَّفويضِ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

- جُملةُ ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ سِيقَتْ لِبَيانِ مَحاسِنِ الأعمالِ الجارِيةِ بيْن العِبادِ، إثْرَ بَيانِ مَحاسِنِ الأعمالِ الجاريةِ بيْن العَبدِ وبيْن الرَّبِّ عزَّ وجلَّ؛ تَرغيبًا لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الصَّبرِ على أذيَّةِ المُشرِكينَ، ومُقابَلةِ إساءَتِهم بالإحسانِ[٣].

- وقيل: هذه الجُملةُ ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ معطوفةٌ، وعَطفُها له مَوقِعٌ عَجيبٌ؛ فإنَّه يَجوزُ أنْ يَكونَ عَطفًا على جُملةِ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ...﴾ [فصلت: ٣٣] إلخ، تَكمِلةً لها؛ فإنَّ المَعطوفَ عليها تَضَمَّنتِ الثَّناءَ على المُؤمِنينَ إثْرَ وَعيدِ المُشرِكينَ وذَمِّهم، وهذه الجُملةُ فيها بَيانُ التَّفاوُتِ بيْن مَرتَبةِ المُؤمِنينَ وحالِ المُشرِكينَ؛ فإنَّ الحَسَنةَ اسمٌ مَنقولٌ مِن الصِّفةِ، فتَلمُّحُ الصِّفةِ مُقارِنٌ له، فالحَسَنةُ حالةُ المُؤمِنينَ، والسَّيِّئةُ حالةُ المُشرِكينَ؛ فيكون المعنى كمَعْنى آياتٍ كَثيرةٍ مِن هذا القَبيلِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

---

(١) القِدْحُ المُعَلَّى: أي: النَّصيبُ الأوفَرُ. والقِدْحُ: السَّهْمُ. والمُعَلَّى: السَّهمُ السَّابِعُ في المَيسِرِ، وهو أفضَلُها. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٩/ ٩٢)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لأحمد مختار عمر (٣/ ١٧٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٦١).

وَلَا ٱلْمُسِيٓـُٔ ﴾ [غافر: ٥٨]، فعطْفُ هذه الجُملةِ على الَّتي قبْلَها على هذا الاعتبارِ يكونُ مِن عطْفِ الجُمَلِ الَّتي يَجمَعُها غرَضٌ واحدٌ، وليس مِن عطْفِ غرَضٍ على غرَضٍ.

ويَجوزُ أنْ تَكونَ عَطفًا على جُملةِ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦] الواقِعةِ بَعدَ جُملةِ ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥]؛ فإنَّ ذلك مُثيرٌ في نَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الضَّجَرَ مِن إصرارِ الكافِرينَ على كُفرِهم، وعَدَمِ التَّأثُّرِ بدَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الحَقِّ، فهو بحالِ مَن تَضيقُ طاقةُ صَبْرِه على سَفاهةِ أولئك الكافِرينَ، فأردَفَ اللهُ ما تَقدَّمَ بما يَدفَعُ هذا الضَّيقَ عن نَفْسِه بقَولِه: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ الآيةَ، فالحَسَنةُ تَعُمُّ جَميعَ أفرادِ جِنسِها، وأُولاها تَبادُرًا إلى الأذهانِ حَسَنةُ الدَّعوةِ إلى الإسلامِ؛ لِمَا فيها مِن جَمِّ المَنافِعِ في الآخِرةِ والدُّنيا، وتَشملُ صِفةَ الصَّفحِ عنِ الجَفاءِ الَّذي يَلقَى به المُشرِكونَ دَعوةَ الإسلامِ؛ لِأنَّ الصَّفحَ مِنَ الإحسانِ، وفيه تَركُ ما يُثيرُ حَميَّتَهم لِدينِهم، ويُقرِّبُ لِينَ نُفوسِ ذَوي النُّفوسِ اللَّيِّنةِ؛ فالعَطفُ مِن عَطفِ غَرَضٍ على غَرَضٍ، وهي تَمهيدٌ وتَوطِئةٌ لِقَولِه عَقِبَها: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الآيةَ[1].

- قولُه: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ نفْيُ الاستواءِ مُرادٌ به تَفضيلُ الحَسَنةِ على السَّيِّئةِ؛ فكانَ مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: ولا تَستَوي الحَسَنةُ والسَّيِّئةُ، دُونَ إعادةِ (لا) النَّافيةِ بَعدَ الواوِ الثَّانيةِ، كما قالَ تَعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٨]؛ فإعادةُ (لا) النَّافيةِ تَأكيدٌ لِأُختِها السَّابِقةِ، وأحسَنُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٩، ٢٩٠).

مِنِ اعتِبارِ التَّأكيدِ أنْ يَكونَ في الكَلامِ إيجازُ حَذفٍ[١] مُؤْذِنٌ باحتِباكٍ[٢] في الكَلامِ، تَقديرُه: وما تَستَوي الحَسَنةُ والسَّيِّئةُ ولا السَّيِّئةُ والحَسَنةُ؛ فالمُرادُ بالأوَّلِ نَفيُ أنْ تَلتَحِقَ فَضائِلُ الحَسَنةِ بمَساوِئِ السَّيِّئةِ، والمُرادُ بالثَّاني نَفيُ أنْ تَلتَحِقَ السَّيِّئةُ بشَرَفِ الحَسَنةِ، وذلك هو الاستِواءُ في الخَصائِصِ، وفي ذلك تَأكيدٌ وتَقويةٌ لِنَفيِ المُساواةِ؛ لِيَدُلَّ على أنَّه نَفيٌ تامٌّ بيْنَ الجِنسَيْنِ: جِنسِ الحَسَنةِ وجِنسِ السَّيِّئةِ، لا مُبالَغةَ فيه ولا مَجازَ[٣].

(١) الإيجازُ: هو الاختصارُ والجمعُ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ مِن الكلامِ بأقلَّ مِن عباراتِ مُتعارَفِ الأوساطِ. ويكونُ الإيجازُ محمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصودِ. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغة كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسنُ الإيجازِ. والإيجازُ نوعان؛ الأوَّلُ: إيجازُ القِصَرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغةِ)، وهو ما ليس بحَذْفٍ؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه، مع أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا علِم أنَّه متَى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتالِ؛ فارتفع بالقتْلِ -الَّذي هو قِصاصٌ- كثيرٌ مِن قتْلِ النَّاسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم. الثَّاني: إيجازُ الحَذْفِ، وهو حذْفُ ما يُعلَمُ ويُفهَمُ مِن سِياقِ الكلامِ بشرطِ وُجودِ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه؛ فقد يكونُ الإيجازُ بالحذفِ وغيرِه. والفرقُ بيْنَ الحذفِ والإيجازِ: أنَّ الحذفَ يكونُ فيه مُقدَّرٌ، بخِلافِ الإيجازِ؛ فإنَّه عبارةٌ عن اللَّفظِ القليلِ الجامعِ للمعاني الجَمَّةِ بنفْسِه. يُنظر: ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشِيق (١/ ٢٤٢)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما بعدها)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٧٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(٢) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٠، ٢٩١).

- وفي التَّعبيرِ بالحَسَنةِ والسَّيِّئةِ في قولِه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ دُونَ (المُحسِنِ والمُسيءِ) إشارةٌ إلى أنَّ كُلَّ فَريقٍ مِن هذَيْنِ قد بَلَغ الغايةَ في جِنسِ وَصفِه مِن إحسانٍ وإساءةٍ، على طَريقةِ الوَصفِ بالمَصدَرِ، ولِيَتأتَّى الانتِقالُ إلى مَوعِظةِ تَهذيبِ الأخلاقِ في قَولِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ فيُشبِهُ أنْ يَكونَ إيثارُ نَفيِ المُساواةِ بيْن الحَسَنةِ والسَّيِّئةِ تَوطِئةً لِلانتِقالِ إلى قَولِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1].

- قولُه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لِحُسنِ عاقِبةِ الحَسَنةِ، وإخراجُه مُخرَجَ جَوابِ مَن قالَ: كيف أصنَعُ؟ فقيلَ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ لِلمُبالَغةِ؛ ولذلك وُضِعَ ﴿أَحْسَنُ﴾ مَوضِعَ الحَسَنةِ[2].

- وأيضًا قولُه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ تَخَلُّصٌ مِن غَرَضِ تَفضيلِ الحَسَنةِ على السَّيِّئةِ إلى الأمْرِ بخُلُقِ الدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ؛ لِمُناسَبةِ أنَّ ذلك الدَّفعَ مِن آثارِ تَفضيلِ الحَسَنةِ على السَّيِّئةِ؛ إرشادًا مِنَ اللهِ لِرَسولِه وأُمَّتِه بالتَّخَلُّقِ بخُلُقِ الدَّفعِ بالحُسْنى. أو واقعةٌ مَوقِعَ النَّتيجةِ مِنَ الدَّليلِ، والمَقصدِ مِنَ المُقَدِّمةِ؛ فمَضمونُها ناشِئٌ عن مَضمونِ الَّتي قَبْلَها. وكِلَا الاعتبارَينِ في الجُملةِ الأُولى مُقتضٍ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ مَفصولةً غيرَ مَعطوفةٍ[3].

- ومَفعولُ ﴿ٱدْفَعْ﴾ مَحذوفٌ، دَلَّ عليه انحِصارُ المَعنى بيْن السَّيِّئةِ والحَسَنةِ، فلَمَّا أُمِرَ بأنْ تَكونَ الحَسَنةُ مَدفوعًا بها، تَعيَّنَ أنَّ المَدفوعَ هو السَّيِّئةُ؛ فالتَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣، ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩١).

ادفَعِ السَّيِّئَةَ بالَّتي هي أحسَنُ[١].

- ومَعنى ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أيْ: بالحَسَنةِ، وإنَّما صِيغَتْ بصِيغةِ التَّفضيلِ؛ تَرغيبًا في دَفعِ السَّيِّئةِ بها؛ لِأنَّ ذلك يَشُقُّ على النَّفْسِ؛ فإنَّ الغَضَبَ مِن سُوءِ المُعامَلةِ مِن طِباعِ النَّفْسِ، وهو يَبعَثُ على حُبِّ الانتِقامِ مِنَ المُسيءِ؛ ولكِنَّ مَن دَفَعَ بالحُسْنى هانَ عليه الدَّفعُ بما هو دُونَها، فلَمَّا أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُجازيَ السَّيِّئةَ بالحَسَنةِ أُشيرَ إلى فَضلِ ذلك[٢].

- وفُرِّعَ على الأمْرِ بالدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ قَولُه: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾؛ لِبَيانِ ما في ذلك الأمْرِ مِنَ الصَّلاحِ؛ تَرويضًا على التَّخَلُّقِ بذلك الخُلُقِ الكَريمِ، وهو أنْ تَكونَ النَّفسُ مَصدَرًا لِلإحسانِ[٣].

- و(إذا) لِلمُفاجَأةِ، وهي كِنايةٌ عن سُرعةِ ظُهورِ أثَرِ الدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ في انقِلابِ العَدُوِّ صَديقًا[٤]، وبتأمُّلِ كَونِ الجوابِ بـ (إذا) الفُجائيَّةِ يَتبيَّنُ أنَّ انقلابَ عَداوتِه إلى ولايةٍ حَميمةٍ لا يَتأخَّرُ كثيرًا؛ لأنَّ (إذا) الفُجائيَّةَ تدُلُّ على الفَوريَّةِ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾، فلو كان المُخبِرُ بذلك غيرَ اللهِ عزَّ وجلَّ لَكان الإنسانُ يَتردَّدُ ويَتساءلُ: كيف يَنقلِبُ العَدُوُّ صَديقًا حَميمًا بهذه السُّرعةِ؟! فنقولُ: إنَّ الَّذي أخبَرَ بذلك هو اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾[٥] [النساء: ١٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٨).

- وعُدِلَ عن ذِكرِ العَدُوِّ مُعَرَّفًا بلامِ الجِنسِ إلى ذِكرِه بالاسمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾؛ لِيَتأتَّى تَنكيرُ ﴿عَدَٰوَةٌ﴾ لِلنَّوعيَّةِ، وهو أصلُ التَّنكيرِ؛ فيَصدُقَ بالعَداوةِ القَويَّةِ ودُونِها، كما أنَّ ظَرفَ ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ﴾ يَصدُقُ بالبَينِ القَريبِ والبَينِ البَعيدِ -يعني: مُلازَمةَ العَداوةِ أو طُروءَها- وهذا تَركيبٌ مِن أعلى طَرَفِ البَلاغةِ؛ لِأنَّه يَجمَعُ أحوالَ العَداواتِ؛ فيُعلَمُ أنَّ الإحسانَ ناجِعٌ في اقتِلاعِ عَداوةِ المُحسَنِ إليه لِلمُحسِنِ على تَفاوُتِ مَراتِبِ العَداوةِ قُوَّةً وضَعفًا، وتَمَكُّنًا وبُعدًا، ويُعلَمُ أنَّه يَنبَغي أنْ يَكونَ الإحسانُ لِلعَدُوِّ قَويًّا بقَدرِ تَمَكُّنِ عَداوَتِه؛ لِيَكونَ أنجَعَ في اقتِلاعِها. ومِن الأقوالِ المَشهورةِ: (النُّفوسُ مَجبولةٌ على حُبِّ مَن أحسَنَ إليها)[١].

- والتَّشبيهُ في قَولِه: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ تَشبيهٌ في زَوالِ العَداوةِ، ومُخالَطةِ شَوائِبِ المَحَبَّةِ؛ فوَجهُ الشَّبَهِ هو المُصافاةُ والمُقارَبةُ، وهو مَعنًى مُتَفاوِتُ الأحوالِ، أيْ: مَقولٌ على جِنْسِه بالتَّشكيكِ على اختِلافِ تَأثُّرِ النَّفْسِ بالإحسانِ، وتَفاوُتِ قُوَّةِ العَداوةِ قبْلَ الإحسانِ، ولا يَبلُغُ مَبلَغَ المُشَبَّهِ به؛ إذْ مِنَ النَّادِرِ أنْ يَصيرَ العَدُوُّ وَليًّا حَميمًا، فإنْ صارَه فهو لِعَوارِضَ غَيرِ داخِلةٍ تَحتَ مَعنى الإسراعِ الَّذي آذَنَتْ به (إذا) الفُجائيَّةُ[٢].

- الوليُّ هو: الحليفُ والنَّاصِرُ، والحَميمُ: القَريبُ والصَّديقُ، ووَجْهُ الجَمعِ بيْن ﴿وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أنَّه جَمَعَ خَصلَتَيْنِ كِلتاهما لا تَجتَمِعُ مع العَداوةِ، وهُما خَصلَتا الوَلايةِ والقَرابةِ[٣]، وذلك على قولٍ.

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٤).

عطْفٌ على جملةِ ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، أو حالٌ مِن (الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)، وضميرُ ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ عائدٌ إلى (الَّتي هي أحسنُ) باعتبارِ تعلُّقِها بفعلِ (ادْفَعْ)، وهذا تَحريضٌ على الارتياضِ بخَصلةِ الدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ؛ بإظهارِ احتياجِها إلى قُوَّةِ عَزمٍ، وشِدَّةِ مِراسٍ لِلصَّبرِ على تَرْكِ هَوى النَّفْسِ في حُبِّ الانتِقامِ، وفي ذلك تَنويهٌ بفَضلِها بأنَّها تُلازِمُها خَصلةُ الصَّبرِ، وهي في ذاتِها خَصلةٌ حَميدةٌ، وثَوابُها جَزيلٌ، كما عُلِمَ مِن عِدَّةِ آياتٍ في القُرآنِ[١].

- ومَعنى ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ يُجعَلُ لاقيًا لها، وهو مُعبَّرٌ به هنا عن السَّعيِ لِتَحصيلِها؛ لِأنَّ التَّحصيلَ على الشَّيءِ بَعدَ المُعالَجةِ والتَّخَلُّقِ يُشبِهُ السَّعيَ لِمُلاقاةِ أحَدٍ فيَلقاهُ[٢].

- وجِيءَ في ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ بالمُضارِعِ في المَوضِعَيْنِ، باعتِبارِ أنَّ المَأمورَ بالدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ مَأْمورٌ بتَحصيلِ هذا الخُلُقِ في المُستَقبَلِ[٣].

- وكرَّر ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ لِوُجوهٍ؛ الأوَّلُ: تأْكيدٌ لهذه الفعلةِ الجَميلةِ الجَليلةِ[٤]. الثَّاني: أنَّه كرَّر إظهارَ البناءِ للمَفعولِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه لا قُدْرةَ عليها أصلًا إلَّا بتَوفيقِ الخالقِ بأمْرٍ باطِنيٍّ، يَقْذِفُه اللهُ في القلْبِ قذْفًا وَحْيًا، تَظهَرُ ثَمرتُه على سائرِ البَدنِ[٥]. الثَّالثُ: أنَّ في إعادةِ فِعلِ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ دُونَ اكتِفاءٍ بحَرفِ العَطفِ؛ إظهارًا لِمَزيدِ الاهتِمامِ بهذا الخَبَرِ، بحيث لا يَستتِرُ مِن صَريحِه شَيءٌ تحت العاطفِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٤، ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٥).

- وجيءَ في الصِّلةِ -وهي ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾- بالماضي؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ الصَّبرَ خُلُقٌ سابقٌ فيهم، هو العَونُ على مُعامَلةِ المُسيءِ بالحُسْنى، ولهذه النُّكتةِ عُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (إلَّا الصَّابِرونَ)؛ لِنُكتةِ كَونِ الصَّبرِ سَجيَّةً فيهم مُتَأصِّلةً، ثمَّ زِيدَ في التَّنويهِ بها بأنَّها ما تَحصُلُ إلَّا لِذي حَظٍّ عَظيم. والحَظُّ: النَّصيبُ مِنَ الشَّيءِ مُطلَقًا، وقيلَ: خاصٌّ بالنَّصيبِ مِن خَيرٍ، والمُرادُ هنا: نَصيبُ الخَيرِ، بالقَرينةِ أو بدَلالةِ الوَضعِ، أيْ: ما يَحصُلُ دَفعُ السَّيِّئةِ بالحَسَنةِ إلَّا لِصاحِبِ نَصيبٍ عَظيمٍ مِنَ الفَضائِلِ، أيْ: مِنَ الخُلُقِ الحَسَنِ، والاهتِداءِ والتَّقوى، فتَحَصَّلَ مِن هذا أنَّ التَّخَلُّقَ بالصَّبرِ شَرْطٌ في الاضطِلاعِ بفَضيلةِ دَفعِ السَّيِّئةِ بالَّتي هي أحسَنُ، وأنَّه ليس وَحْدَه شَرطًا فيها، بلْ وَراءَه شُروطٌ أُخَرُ، يَجمَعُها قَولُه: ﴿حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، أيْ: مِنَ الأخلاقِ الفاضِلةِ -على قولٍ-، والصَّبرُ مِن جُملةِ الحَظِّ العَظيمِ؛ لِأنَّ الحَظَّ العَظيمَ أعَمُّ مِنَ الصَّبرِ، وإنَّما خُصَّ الصَّبرُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أصلُها، ورَأْسُ أمْرِها، وعَمودُها[1].

- وأيضًا أفادَ قَولُه: ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أنَّ الحَظَّ العَظيمَ مِنَ الخَيرِ سَجيَّتُه ومَلَكَتُه، كما اقتَضَتْه إضافةُ ﴿ذُو﴾[2].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [فصلت: ٣٥]؛ فبَعدَ أنْ أرشَدَ القُرآنُ إلى ما هو عَونٌ على تَحصيلِ الخُلُقِ المَأمورِ به، وهو دَفْعُ السَّيِّئةِ بالَّتي هي أحسَنُ، وبعْدَ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

شُرِحَتْ فائدةُ العمَلِ بها بقولِه: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]؛ صُرِفَ العِنانُ هنا إلى التَّحذيرِ مِن عوائِقِها الَّتي تَجتَمِعُ كَثرَتُها في حَقيقةِ نَزْغِ الشَّيطانِ، فأمَرَ بأنَّه إنْ وَجَدَ في نَفْسِه خَواطِرَ تَصرِفُه عن ذلكَ، وتَدْعوه إلى دَفْعِ السَّيِّئةِ بمِثلِها، فإنَّ ذلك نَزْغٌ مِنَ الشَّيطانِ، دَواؤُه أنْ تَستَعيذَ باللهِ منه؛ فقد ضَمِنَ اللهُ له أنْ يُعيذَه إذا استَعاذَه؛ لِأنَّه أمَرَه بذلك، والخِطابُ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- قولُه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ النَّزغُ: النَّخسُ، وهو مَسٌّ شَديدٌ لِلجِلدِ بطَرَفِ عُودٍ أو إصبَعٍ، فهو مَصدَرٌ، وهو هنا مُعبَّرٌ به هنا عن اتِّصالِ القُوَّةِ الشَّيطانيَّةِ بخَواطِرِ الإنسانِ تَأمُرُه بالشَّرِّ وتَصرِفُه عنِ الخَيرِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المُرادُ بالنَّزغِ هنا النَّازِغَ، وهو الشَّيطانُ، وُصِفَ بالمَصدَرِ لِلمُبالَغةِ، و(مِن) بَيانيَّةٌ، أيْ: يَنزَغَنَّكَ النَّازِغُ الَّذي هو الشَّيطانُ، والمُبالَغةُ حاصلةٌ على التَّقديرينِ، مع اختِلافِ جِهتِها[٢].

- وكذلك في جَعْلِ تَرْكِ الدَّفعِ بالأحسَنِ مِن آثارِ نَزَغاتِ الشَّيطانِ مَزيدُ تَحذيرٍ وتَنفيرٍ عنه[٣].

- قولُه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ...﴾ جيءَ في هذا الشَّرطِ بـ (إنْ) الَّتي الأصلُ فيها عَدَمُ الجَزْمِ بوُقوعِ الشَّرطِ؛ تَرفيعًا لِقَدْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّ نَزْغَ الشَّيطانِ له إنَّما يُفرَضُ كما يُفرَضُ المُحالُ؛ ألَا تَرى إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤).

هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]؛ فجاء في ذلك الشَّرطِ بحَرْفِ (إذا) الَّتي الأصْلُ فيها الجزْمُ بوُقوعِ الشَّرطِ أو بغَلَبةِ وُقوعِه(١).

- وضَميرُ الفَصلِ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ لِتَقويةِ الحُكمِ، وهو هنا حُكمٌ كِنائيٌّ؛ لِأنَّ المَقصودَ لازِمُ وَصفِ ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، وهو مُؤاخَذةُ مَن تَصدُرُ منهم أقوالٌ وأعمالٌ في أذَى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والكَيدِ له، مِمَّن أُمِرَ بأنْ يَدفَعَ سَيِّئاتِهم بالَّتي هي أحسَنُ، والمَعنى: فإنْ سَوَّلَ لكَ الشَّيطانُ ألَّا تُعامِلَ أعداءَكَ بالحَسَنةِ، وزَيَّنَ لكَ الانتِقامَ، وقالَ لكَ: كيف تُحسِنُ إلى أعداءِ الدِّينِ، وفي الانتِقامِ منهم قَطعُ كَيدِهم لِلدِّينِ؟! فلا تَأخُذْ بنَزْغِه، وخُذْ بما أمَرْناكَ، واستَعِذْ باللهِ مِن أنْ يُزِلَّكَ الشَّيطانُ؛ فإنَّ اللهَ لا يَخفَى عليه أمْرُ أعدائِكَ، وهو يَتولَّى جَزاءَهم(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فقالَه هنا بزِيادةِ ﴿هُوَ﴾ و(أل)، وفي سُورةِ (الأعرافِ) بدُونِهما، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ ما هنا في (فُصِّلت) مُتَّصِلٌ بمُؤَكِّدَيْنِ: بالتَّكرارِ، وبالحَصرِ في قولِه ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾؛ فناسَبَ التَّأكيدُ بما ذُكِرَ، وما في (الأعرافِ) ليس فيه ذلك؛ فجَرَى على القياسِ مِن كَونِ المُسنَدِ إليه مَعرِفةً، والمُسنَدِ نَكِرةً(٣). وقيل: الَّذي ذُكِرَ في (الأعراف) أخَفُّ على النَّفْسِ ممَّا ذُكِر في سُورةِ (فُصِّلت)؛ لأنَّ الإعراضَ عن الجاهلِ وترْكَه أخَفُّ على النَّفْسِ مِن الإحسانِ إلى المُسِيءِ، فتَتأفَّفُ النَّفْسُ مِن ذلك،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٥).

ولا تَنقادُ له إلَّا بمُعالَجةٍ، ويُساعِدُها الشَّيطانُ في هذه الحالِ، فتَنفعِلُ له وتَسْتعصي على صاحِبِها، فتَحتاجُ إلى مُجاهَدةٍ وقُوَّةِ إيمانٍ؛ فلهذا أُكِّدَ ذلك هاهنا بضَميرِ الفصْلِ والتَّعريفِ باللَّامِ فقال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(١).

وقيل: إنَّما قال هاهنا: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فأكَّدَ بـ (إنَّ) وبضَميرِ الفصْلِ، وأتَى باللَّامِ في ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وقال في (الأعرافِ): ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]؛ لأنَّ سِرَّ ذلك -واللهُ أعلَمُ- أنَّه حيثُ اقتصَرَ على مُجرَّدِ الاسمِ ولم يُؤكِّدْه أُريدَ إثباتُ مُجرَّدِ الوصْفِ الكافي في الاستِعاذةِ، والإخبارِ بأنَّه سُبحانه يَسمَعُ ويَعلَمُ، فيَسمَعُ استِعاذتَك فيُجيبُك، ويَعلَمُ ما تَستعيذُ منه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١).

قال ابن القيم: (تأمَّلْ سِرَّ القُرآنِ الكريم؛ يتَّضحُ كيف أَكَّدَ الوصْفَ بـ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بذِكْرِ صِيغةِ «هو» الدَّالِّ على تأْكيدِ النِّسبةِ واختِصاصِها، وعَرَّفَ الوصْفَ بالألِفِ واللَّامِ في سورة «حم» [فصلت]؛ لاقتِضاءِ المقامِ لهذا التَّأكيدِ، وتَرَكه في سُورةِ «الأعرافِ»؛ لاستِغناءِ المقامِ عنه؛ فإنَّ الأمْرَ بالاستعاذةِ في سورةِ «حم» [فصلت] وَقَعَ بعدَ الأمرِ بأشَقِّ الأشياءِ على النَّفْسِ؛ وهو مُقابَلةُ إساءةِ المُسيءِ بالإحسانِ إليه، وهذا أمْرٌ لا يَقْدِرُ عليه إلَّا الصَّابِرون، ولا يُلَقَّاهُ إلَّا ذو حظٍّ عَظيمٍ -كما قال اللهُ تعالى-، والشَّيطانُ لا يَدَعُ العبدَ يَفْعَلُ هذا؛ بلْ يُريه أنَّ هذا ذُلٌّ وعجْزٌ، ويُسَلِّطُ عليه عَدُوَّه فيَدْعُوه إلى الانتقامِ، ويُزَيِّنُه له، فإنْ عَجَز عنه دَعاهُ إلى الإعراضِ عنه؛ وألَّا يُسيءَ إليه ولا يُحْسِنَ، فلا يُؤْثِرُ الإحسانَ إلى المُسيءِ إلَّا مَن خالَفَه وآثَرَ اللهَ تعالى وما عِنْدَه على حَظِّه العاجلِ؛ فكان المقامُ مَقامَ تأْكيدٍ وتحريضٍ؛ فقال فيه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وأمَّا في سُورةِ «الأعرافِ»؛ فإنَّه أمَرَه أنْ يُعْرِضَ عن الجاهِلين، وليس فيها الأمْرُ بمُقابَلةِ إساءتِهم بالإحسانِ؛ بلْ بالإعراضِ، وهذا سَهْلٌ على النُّفوسِ؛ غيرُ مُستعْصٍ عليها، فليس حِرْصُ الشَّيطانِ وسَعْيُه في دَفْعِ هذا كحِرْصِه على دَفْعِ المُقابَلةِ بالإحسانِ؛ فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٦٧).

فيَدفَعُه عنك، فالسَّمْعُ لِكلامِ المُستعيذِ، والعِلْمُ بالفِعلِ المُستعاذِ منه، وبذلك يَحصُلُ مَقصودُ الاستعاذةِ، وهذا المعنى شاملٌ لِلموضعَينِ، وامتازَ المذْكورُ في سُورةِ (فُصِّلَتْ) بمَزيدِ التَّأكيدِ والتَّعريفِ والتَّخصيصِ؛ لأنَّ سِياقَ ذلك بعْدَ إنكارِه سُبحانه على الَّذين شَكُّوا في سمْعِه لِقَولِهم وعِلْمِه بهم؛ فجاء التَّوكيدُ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في سِياقِ هذا الإنكارِ، أي: هو وحْدَه الَّذي له كَمالُ قُوَّةِ السَّمْعِ وإحاطةِ العِلْمِ، لا كما يَظُنُّ به أعْداؤُه الجاهِلون أنَّه لا يَسمَعُ إنْ أخْفَوا، وأنَّه لا يَعلَمُ كثيرًا ممَّا يَعمَلون! وحسَّنَ ذلك أيضًا: أنَّ المأمورَ به في سُورةِ (فُصِّلت) دفْعُ إساءتِهم إليه بإحْسانِه إليهم، وذلك أشَقُّ على النُّفوسِ مِن مُجرَّدِ الإعراضِ عنهم، ولهذا عقَّبَه بقولِه: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، فحسُنَ التَّأكيدُ لِحاجةِ المُستعيذِ. وأيضًا فإنَّ السِّياقَ هاهنا لإثباتِ صِفاتِ كَمالِه، وأدِلَّةِ ثُبوتِها، وآياتِ رُبوبيَّتِه، وشَواهدِ تَوحيدِه، ولهذا عُقِّبَ ذلك بقولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وبقولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]، فأتَى بأداةِ التَّعريفِ الدَّالَّةِ على أنَّ مِن أسمائِه (السَّميعَ العليمَ)، كما جاءت الأسماءُ الحُسْنى كلُّها مُعرَّفةً، والَّذي في (الأعرافِ) في سِياقِ وَعيدِ المشركينَ وإخوانِهم مِن الشَّياطينِ، ووَعْدِ المُستعيذِ بأنَّ له ربًّا يَسمَعُ ويَعلَمُ، وآلهةُ المُشركين الَّتي عبَدَوها مِن دُونِه ليس لهم أعيُنٌ يُبصِرون بها، ولا آذانٌ يَسْمَعون بها؛ فإنَّه سَميعٌ عَليمٌ، وآلِهَتُهم لا تَسمَعُ ولا تُبصِرُ ولا تَعلَمُ، فكيف تُسَوُّونَها به في العِبادةِ؟! فعلِمْتَ أنَّه لا يَليقُ بهذا السِّياقِ غيرُ التَّنكيرِ، كما لا يَليقُ بذلك غيرُ التَّعريفِ، واللهُ أعلَمُ بأسرارِ كَلامِه[1].

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٦، ٩٧).

الآيات (٢٧-٢٩)

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَسْـَٔمُونَ﴾: أي: يَمَلُّونَ ويَفتُرونَ، والسَّآمةُ: المَلالةُ مِمَّا يَكثُرُ لُبثُه فِعلًا كان أو انفِعالًا[١].

﴿خَٰشِعَةً﴾: أي: هامِدةً يَابِسةً جَدْبةً لا نَباتَ فيها، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[٢].

﴿ٱهْتَزَّتْ﴾: أي: تحرَّكتْ بالنَّباتِ، والهزُّ: التَّحريكُ، وأصلُ (هزز): يدُلُّ على اضْطِرابٍ في شيءٍ وحَرَكةٍ[٣].

﴿وَرَبَتْ﴾: أي: عَلَت وانتَفَخَت؛ لأنَّ النَّبتَ إذا أراد أن يَخرُجَ ارتَفَعتْ له

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) (٦/ ٩)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٩٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٠).

الأرضُ، وأصلُ (ربو): يدُلُّ على الزِّيادةِ والنَّماءِ والعُلُوِّ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى بعضَ الأدلَّةِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه، فيقولُ: ومِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وُجودِه ووَحدانيَّتِه وقُدرتِه سُبحانَه: اللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقَمَرُ، لا تَسجُدوا -أيُّها النَّاسُ- للشَّمسِ ولا للقَمَرِ، واسجُدوا لله وَحْدَه الَّذي خلَقَهنَّ إنْ كُنتُم إيَّاه تَعبُدون.

فإنْ تكبَّرَ أولئك المُشرِكونَ عن إفرادِ اللهِ تعالى بالعُبوديَّةِ، فإنَّ له سُبحانَه عِبادًا آخَرينَ -يا مُحمَّدُ- هم الملائِكةُ الَّذين عِندَه، فهم يُنَزِّهونَه لَيلًا ونَهارًا، ولا يَمَلُّونَ مِن ذلك.

ومِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّتِه تعالى وقُدرتِه على إحياءِ الموتى: أنَّك ترَى الأرضَ يابِسةً مُجدِبةً لا نَباتَ فيها، فإذا أنزَلْنا عليها الماءَ تحَرَّكَت وارتَفَعت، إنَّ الَّذي أحيا تلك الأرضَ اليابِسةَ بالمطَرِ لَمُحْيي الأمواتِ يومَ القيامةِ، إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن تعالَى أنَّ أحسَنَ الأعمالِ والأقوالِ هو الدَّعوةُ إلى اللهِ؛ أردَفَه بذِكْرِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٨).

الدَّلائلِ العُلْويَّةِ والسُّفليَّةِ على قُدْرتِه الباهرةِ، وحِكْمتِه البالغةِ، وحُجَّتِه القاطعةِ[١]؛ تنبيهًا على أنَّ الدَّعوةَ إلى اللهِ تعالى عِبارةٌ عن تقريرِ الدَّلائلِ الدَّالَّةِ على ذاتِ اللهِ وصِفاتِه، فهذه تنبيهاتٌ شَريفةٌ مُستفادةٌ مِن تناسُقِ هذه الآياتِ؛ فكان العِلمُ بهذه اللَّطائفِ أحسَنَ عُلومِ القُرآنِ[٢].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾.

أي: ومِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وُجودِه ووَحدانيَّتِه، وقُدرتِه ورَحمتِه بعِبادِه، وغيرِ ذلك مِن صفاتِ كَمالِه: اللَّيلُ والنَّهارُ في تَعاقُبِهما، واختِلافِهما في الظَّلامِ والضِّياءِ، والزِّيادةِ والنُّقصانِ، والاستِواءِ وغيرِ ذلك؛ ومِن آياتِه الشَّمسُ والقَمَرُ في دَوَرانِهما المُستَمِرِّ بانتِظامٍ، وتَقديرِ مَنازِلِهما لِمَصالِحِ الأنامِ، وغيرِ ذلك مِن مَنافِعِهما وعَجائِبِهما[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [الإسراء: ١٢].

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ آيتانِ مِن آياتِ اللهِ، لا يَنكَسِفانِ لِمَوتِ أحَدٍ ولا لحَياتِه، ولكِنَّ اللهَ تعالى يُخَوِّفُ بها عِبادَه))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٥، ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٧، ١٩٨).

(٤) رواه البخاري (١٠٤٨).

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

أي: لا تَسجُدوا -أيُّها النَّاسُ- للشَّمسِ، ولا تَسجُدوا للقَمَرِ؛ فهما مُدَبَّرانِ مُسَخَّرانِ، واسجُدوا للهِ وَحْدَه الَّذي خلَقَهنَّ[1]، إنْ كنتُم تَعبُدونَ اللهَ وتَذِلُّونَ له بالطَّاعةِ حَقًّا[2].

كما قال تعالى حِكايةً عن هُدهُدِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۞ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۞ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٣ - ٢٦].

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ (٣٨)﴾.

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

---

(١) قال ابنُ عطيَّةَ: (الضَّميرُ في: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ قالت فِرقةٌ: هو عائدٌ على الآياتِ المتقدِّمِ ذِكرُها في قَولِه ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾. وقالت فِرقةٌ: الضَّميرُ عائدٌ على الشَّمسِ والقَمَرِ، والاثنانِ جَمْعٌ، وجَمعُ ما لا يَعقِلُ يُؤَنَّثُ؛ فلذلك قال: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾.

قال القاضي أبو محمدٍ [ابن عطية]: ومن حيثُ يُقالُ شُموسٌ وأقمارٌ لاختِلافِهما بالأيَّامِ، ساغ أن يَعودَ الضَّميرُ مَجموعًا. وقالت فِرقةٌ: هو عائدٌ على الأربعةِ المذكورةِ [يعني: اللَّيلَ والنَّهارَ، والشَّمسَ والقَمَرَ]، وشأنُ ضَميرِ ما لا يَعقِلُ إذا كان العَدَدُ أقَلَّ مِن العَشَرةِ أن يجيءَ هكذا، فإذا زاد أُفرِدَ مُؤَنَّثًا)). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٩، ٢٠٠).

أي: فإنْ تكبَّرَ المُشركونَ وتعاظَموا عن إفرادِ الله بالعِبادةِ والسُّجودِ له وَحْدَه، فله عِبادٌ آخَرُونَ هم الملائكةُ الَّذين عِندَ رَبِّك -يا مُحمَّدُ-، فهم يُنَزِّهونَه لَيلًا ونَهارًا[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾.

أي: وهم لا يَمَلُّونَ مِن ذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٤، ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٠٠-٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٠).

وهذه السُّورةُ فيها مَوضِعُ سجودٍ كما تقدَّم ذِكرُ ذلك في خصائصِ السُّورةِ (ص: ٧)، لكن اختُلِف في مَوضِعِه؛ فمذهبُ المالكيَّةِ أنَّ مَوضِعَ السُّجودِ هو قولُه: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾، ومذهبُ الجمهورِ -الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ- أنَّ مَوضِعَ السُّجودِ هو قولُه: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾. يُنظر: ((المهذب في فقة الإمام الشافعي)) للشيرازي (١/ ١٦٢)، ((الهداية)) للمَرْغِيناني (١/ ٧٨)، ((المغني)) لابن قُدامة (١/ ٤٤٣)، ((الشرح الكبير)) للدردير (١/ ٣٠٩).

وممَّن قال بالقولِ الأوَّلِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ، وأصحابُه، والحسَنُ. وممَّن قال بالقولِ الثَّاني: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ عُمرَ، وسعيدُ بنُ المُسَيِّبِ، ومَسروقٌ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير الرَّسْعَني)) (٧/ ٣٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر الآياتِ الأربَعَ الفَلَكيَّةَ، وهي اللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقَمَرُ، أتْبَعَها بذِكرِ آيةٍ أرضيَّةٍ(١).

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾.

أي: ومِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه تعالى على إحياءِ الموتى وغَيرِ ذلك: أنَّك(٢) ترَى الأرضَ يابِسةً مُجدِبةً لا نَباتَ فيها ولا زَرْعَ(٣).

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾.

أي: فإذا أنزَلْنا الماءَ على تلك الأرضِ اليابِسةِ تحَرَّكَت وارتَفَعت(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٧).

(٢) قيل: الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٧، ٤٣٨).

وقيل: الخِطابُ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ؛ لِيَصلُحَ لكُلِّ سامِعٍ، فهو خِطابٌ لكلِّ عاقلٍ، وقدَّره بعضُهم: يا إنسانُ. وممَّن قال بهذا في الجملةِ: مكِّي، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

قال ابنُ رجب: (وصَف اللهُ تعالى في كتابِه الأرضَ بالخشوعِ، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾، فاهتزازُها وربوُّها -وهو ارتفاعُها- مُزيلٌ لخُشوعِها؛ فدلَّ على أنَّ الخشوعَ الَّذي كانت عليه هو سكونُها وانخفاضُها). ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

قال الشوكاني: (معنَى ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾: تَحَرَّكَتْ بالنَّباتِ، يُقالُ: اهتزَّ الإنسانُ: إذا تَحَرَّك... ومعنَى =

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الحج: ٥، ٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾.

أي: إنَّ الَّذي أحيا تلك الأرضَ الخاشِعةَ، فأخرَج منها النَّباتَ والزَّرعَ بالمطَرِ: لَقادِرٌ على إحياءِ الأمواتِ يومَ القيامةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

= «رَبَتْ»: انْتَفَخَتْ وعَلَتْ قبْلَ أنْ تَنْبُتَ، قاله مجاهدٌ وغيرُه، وعلى هذا ففي الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، وتقديرُه: رَبَتْ وَاهْتَزَّتْ. وقيل: الاهتِزازُ والرَّبْوُ قد يَكونانِ قبْلَ خروجِ النَّباتِ، وقد يَكونانِ بعدَه، ومعنَى الرَّبوِ لغةً: الارتفاعُ، كما يقالُ للموضعِ المرتفعِ: رَبْوةٌ ورابِيَةٌ،... وقيل: اهتزَّت: استبْشَرتْ بالمطرِ، ورَبَت: انتفَخَتْ بالنَّباتِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٤).

وقال ابن عطية: (اهتزازُ الأرضِ: هو تخلخلُ أجزائِها بالماءِ، وتشقُّقُها للنَّباتِ. ورَبْوُها: هو انتِفاخُها بالماءِ، وعلوُّ سطحِها به). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨).

وقال البِقاعي: (﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: تحرَّكتْ حركةً عظيمةً كثيرةً سريعةً، فكانت كمَن يُعالِجُ ذلك بنفْسِه ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: تشقَّقَتْ فارتفَع ترابُها، وخرَج منها النَّباتُ وسما في الجوِّ مُغطيًا لوجهِها، وتشعَّبت عُروقُه، وغَلُظَتْ سُوقُه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٩٧).

وقال ابن عثيمين: (﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: اهتزَّ نباتُها مِن فوقِها... ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: علَتْ. وهل المرادُ... انتفاخُ الأرضِ عندَما تريدُ الحبَّةُ أن تخرُجَ، فإنَّ الحبَّةَ تنتفخُ في باطنِ الأرضِ، ثمَّ إذا أراد غصنُها أن يخرجَ رفعَ الأرضَ... أو المرادُ: علَتْ بالنَّباتِ؟ الجوابُ: يحتملُ هذا وهذا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ما بيْنَ النَّفخَتينِ أربعونَ. قالوا: يا أبا هُرَيرةَ، أربعونَ يَومًا؟ قال: أَبَيْتُ[١]. قالوا: أربَعونَ شَهرًا؟ قال: أَبَيتُ. قالوا: أربَعونَ سَنةً؟ قال: أَبَيتُ. ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ، وليس مِن الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبلى إلَّا عَظْمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ[٢]، ومِنه يُرَكَّبُ الخَلقُ يَومَ القيامةِ))[٣].

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو قدرةٍ على كلِّ شيءٍ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ كائِنًا ما كان[٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ فيه إشارةٌ إلى الحَثِّ على صِيانةِ الآدَميِّينَ عن أن يَقعَ منهم سُجودٌ لِغَيرِه تعالى؛ رَفعًا لِمَقامِهم عن أن يَكونوا ساجِدينَ لِمَخلوقٍ بعدَ أن كانوا مَسجودًا لهم؛ فإنَّه سُبحانَه أمَرَ الملائِكةَ الَّذين هم أشرَفُ خَلْقِه بَعْدَهم بالسُّجودِ لآدَمَ وهم في ظَهْرِه، فتكَبَّرَ اللَّعينُ إبليسُ، فأبَّدَ لَعْنَه، فشَتَّانَ ما بيْنَ المقامَينِ[٥].

---

(١) أَبَيتُ: أي: امتَنَعْتُ عن تعيينِ ذلك، وأن أقولَ في الخبَرِ ما لم أسمَعْه. والإباءُ: أشَدُّ الامتِناعِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٠)، ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٧/ ٣٢٣).

(٢) عَجْبُ الذَّنَبِ: هو العَظمُ بيْن الأَلْيَتينِ الَّذي في أسفَلِ الصُّلبِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٠٥).

(٣) رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ الشَّمسُ أعظَمُ ما يُرى في عالَمِ الشَّهادةِ، وأعَمُّه نَفعًا وتأثيرًا، فالنَّهيُ عن السُّجودِ لها نَهيٌ عَمَّا هو دُونَها بطَريقِ الأَولى، مِنَ الكواكِبِ والأشجارِ وغَيرِ ذلك[١].

٢- أنَّ مِن بلاغةِ القُرآنِ أنَّه إذا ذُكِرَ الحُكمُ ذُكِرَ الدَّليلُ العقليُّ عليه؛ لِقَولِه: ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، فقولُه: (اسْجُدُوا للهِ) أمرٌ شَرعيٌّ، وقولُه: ﴿الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ دَليلٌ كَونيٌّ قَدَرِيٌّ على أنَّ المُستَحِقَّ للسُّجودِ هو الَّذي خَلَق هذه الأشياءَ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، استُدِلَّ به على صلاةِ الكسوفِ؛ لأنَّه ليس هاهنا صلاةٌ تتعلَّقُ بالشَّمسِ والقمرِ إلَّا صلاةُ الكسوفِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ رَدٌّ على الجَهميَّةِ والمُعتَزِلةِ ومَن يَزعُمُ أنَّ اللهَ ليس بنَفْسِه في السَّماءِ وَحْدَها دونَ الأرضِ؛ فقد قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهمُ الملائكةُ، لا يَشُكُّ أحَدٌ أنَّهم في السَّماءِ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((المهذب في فقة الإمام الشافعي)) للشيرازي (١/ ١٥٧)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٧٩).

وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: قال هاهنا في صِفةِ الملائكةِ: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، فهذا يدُلُّ على أنَّهم مُواظِبونَ على التَّسبيحِ، لا ينفكُّونَ عنه لحظةً واحِدةً، واشتِغالُهم بهذا العَمَلِ على سَبيلِ الدَّوامِ يمنَعُهم مِنَ الاشتِغالِ بسائِرِ الأعمالِ، ككَونِهم يَنزِلونَ إلى الأرضِ، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١]، وقَولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ [التحريم: ٦]؟

الجَوابُ: أنَّ الَّذين ذكَرَهم اللهُ تعالى هاهنا بكَونِهم مُواظِبينَ على التَّسبيحِ أقوامٌ مُعَيَّنونَ مِن الملائِكةِ، وهم الأشرافُ الأكابِرُ منهم، وهذا لا يُنافي كَونَ طائفةٍ أُخرى مِن الملائِكةِ مُشتَغِلينَ بسائِرِ الأعمالِ[(١)].

٦- قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فقد دَلَّ سُبحانَه عِبادَه بما أراهم مِنَ الإحياءِ الَّذي تحَقَّقوه وشاهَدوه على الإحياءِ الَّذي استَبعَدوه، وذلك قياسُ إحياءٍ على إحياءٍ، واعتبارُ الشَّيءِ بنَظيرِه، والعِلَّةُ المُوجِبةُ هي عُمومُ قُدرتِه سُبحانَه، وكَمالُ حِكمتِه، وإحياءُ الأرضِ دَليلُ العِلَّةِ، ويُسمَّى هذا القياسُ بقياسِ الدَّلالةِ، وهو الجَمعُ بيْنَ الأصلِ والفَرعِ بدَليلِ العِلَّةِ ومَلزومِها[(٢)].

٧- الاستِدلالُ بالعمومِ على الخصوصِ، فاللهُ تعالى استدَلَّ على قدرتِه على إحياءِ الموتَى بدليلَينِ؛ أحدُهما خاصٌّ، والثَّاني عامٌّ؛ الخاصُّ: «يُحيي الأرضَ بعدَ موتِها»، والعامُّ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، ويَنبني على هذه الفائدةِ: أنَّ العامَّ يَتناوَلُ جميعَ أفرادِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٢٠).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] الآية، عطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ؛ فإنَّ المقصودَ مِن ذِكرِ خلْقِ العوالِمِ أنَّها دَلائلُ على انفرادِ اللهِ بالإلهيَّةِ؛ فلذلك أُخبِرَ هنا عن المَذْكوراتِ في هذه الجُملةِ بأنَّها مِن آياتِ اللهِ، انتِقالًا في أفانينِ الاستِدلالِ؛ فإنَّه انتِقالٌ مِنَ الاستِدلالِ بذَواتٍ مِن مَخلوقاتِه إلى الاستِدلالِ بأحوالٍ مِن أحوالِ تلك المَخلوقاتِ، فابتُدِئَ ببَعضِ الأحوالِ السَّماويَّةِ، وهي حالُ اللَّيلِ والنَّهارِ، وحالُ طُلوعِ الشَّمسِ وطُلوعِ القَمَرِ، ثمَّ ذَكَر بَعدَه بَعضَ الأحوالِ الأرضيَّةِ بقَولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]. ويدُلُّ لهذا الانتقالِ أنَّه انتَقَلَ مِن أُسلوبِ الغَيبةِ مِن قَولِه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ [فصلت: ١٣]، إلى قَولِه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: ٣٤]، إلى أُسلوبِ خِطابِهم؛ رُجوعًا إلى خِطابِهمُ الَّذي في قَولِه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ [فصلت: ٩]، والآياتُ: الدَّلائِلُ، وإضافَتُها إلى ضَميرِ اللهِ لِأنَّها دَليلٌ على وَحدانيَّتِه وعلى وُجودِه[(١)].

- قولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ...﴾ فبَدَأ بذِكرِ الفَلَكيَّاتِ باللَّيلِ والنَّهارِ، وقدَّمَ ذِكرَ اللَّيلِ؛ قيلَ: تَنبيهًا على أنَّ الظُّلمةَ عَدَمٌ، والنُّورَ وُجودٌ، ولأنَّ اللَّيلَ متقدِّمٌ على النَّهارِ، وناسَبَ ذِكرُ الشَّمسِ بَعدَ النَّهارِ؛ لأنَّها سَبَبٌ لِتَنويرِه، ويَظهَرُ العالَمُ فيه، ولأنَّها أبلَغُ في التَّنويرِ مِنَ القَمَرِ، ولأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٨).

القَمَرَ فيما يَقولونَ مُستَفادٌ نُورُه مِن نُورِ الشَّمسِ[١].

- ولم يُذكَرْ ما يدُلُّ على بَعضِ أحوالِ الشَّمسِ والقمَرِ -مِثلُ طُلوعٍ أو غُروبٍ، أو فَلَكٍ أو نَحوِ ذلك-؛ لِيَكونَ صالحًا للاستِدلالِ بأحْوالِهما -وهو المَقصودُ الأوَّلُ- وبخَلْقِهما تأكيدًا لِمَا استُفِيدَ مِن قولِه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾؛ تَوفيرًا للمعاني[٢].

- قولُه: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ إمَّا أنْ يكونَ النَّهيُ نَهْيَ إقلاعٍ بالنِّسبةِ لِلَّذين يَسجُدونَ لِلشَّمسِ والقَمَرِ، أو نَهْيَ تَحذيرٍ لِمَن لم يَسجُدْ لهما ألَّا يَتَّبِعوا مَن يَعبُدونَهما، ووُقوعُ قَولِه: ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ بَعدَ النَّهيِ عنِ السُّجودِ لِلشَّمسِ والقَمَرِ يُفيدُ مُفادَ الحَصرِ؛ لِأنَّ النَّهيَ بمَنزِلةِ النَّفيِ، ووُقوعُ الإثباتِ بَعدَه بمَنزِلةِ مُقابَلةِ النَّفيِ بالإيجابِ؛ فإنَّه بمَنزِلةِ النَّفيِ والاستِثناءِ في إفادةِ الحَصرِ، فكَأنَّه قيلَ: لا تَسجُدوا إلَّا للهِ، أيْ: دُونَ الشَّمسِ والقَمَرِ؛ فجُملةُ ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ مُعتَرِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ وبيْن جُملةِ ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾[٣] [فصلت: ٣٨].

- وأعاد النَّافيَ في قولِه: ﴿وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾؛ تأكيدًا للنَّفيِ، وإفادةً لأنَّ النَّهيَ عن كلٍّ منهما على حِدَتِه[٤].

- والضَّميرُ في ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ لِلأربَعةِ -على قولٍ-؛ ﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾؛ لأنَّ حُكْمَ جَماعةِ ما لا يَعقِلُ حُكْمُ الأُنثَى أو الإناثِ، أو عُبِّرَ عن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٢).

الأرْبعِ بضَميرِ الإناثِ، مع أنَّ فيها ثلاثةً مُذكَّرةً، والعادةُ تَغليبُ المُذكَّرِ على المُؤنَّثِ؛ لِأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ فنَظَمَ الأربعةَ في سِلكِ الآياتِ، صارَ كُلُّ واحِدٍ منها آيةً، فعَبَّرَ عنها بضَميرِ الإناثِ[١].

- وأيضًا تَعليقُ الفِعلِ ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ بالكُلِّ، مع كِفايةِ بَيانِ مَخلوقيَّةِ الشَّمسِ والقَمَرِ؛ لِلإيذانِ بكَمالِ سُقوطِهما عن رُتبةِ المَسجوديَّةِ بنَظمِهما في المَخلوقيَّةِ في سِلكِ الأعراضِ الَّتي لا قيامَ لها بذاتِها[٢].

- قَولُه: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تَتميمٌ لِلمَعنى، وتَقريعٌ لِلغافِلينَ[٣]، وقَدَّمَ المفعولَ به لإفادةِ الحَصْرِ؛ لأنَّ مِن القواعدِ المُقَرَّرَةِ في علمِ البلاغةِ وغيرِها أنَّ تقديمَ ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحَصْرَ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ هذا تَتميمٌ بَعدَ تَتميمٍ، وتَسليةٌ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو مُتَضمِّنٌ لِلذَّمِّ على تَركِ السُّجودِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وُضِعَ مَوضِعَ: فإنْ لم يَسجُدوا؛ إقامةً لِلسَّبَبِ مَوضِعَ المُسَبَّبِ؛ لِلعِلِّيَّةِ[٥].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ...﴾ لِلتَّفريعِ على نَهيِهم عنِ السُّجودِ لِلشَّمسِ والقَمَرِ، وأمْرِهم بالسُّجودِ للهِ وَحْدَه، أيْ: فإنِ استَكبَروا أنْ يَتَّبِعوكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١٠، ٦١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١١).

وصَمَّموا على السُّجودِ لِلشَّمسِ والقَمَرِ، أو فإنِ استَكبَروا عن الاعتِرافِ بدَلالةِ اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ والقَمَرِ على تَفَرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ، فيَعُمُّ ضَميرُ ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ جَميعَ المُشرِكينَ؛ فاللهُ غَنيٌّ عن عِبادَتِهم إيَّاه[١].

- والاستِكبارُ: قُوَّةُ التَّكَبُّرِ، فالسِّينُ والتَّاءُ لِلمُبالَغةِ، أيْ: عَدُّوا أنْفُسَهم ذَوي كِبرٍ شَديدٍ مِن فَرْطِ تَكَبُّرِهم[٢].

- وجُملةُ ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ دَليلُ جَوابِ الشَّرطِ المَحذوفِ، والتَّقديرُ: فإنْ تَكَبَّروا عنِ السُّجودِ للهِ فهو غَنيٌّ عن سُجودِهم؛ لِأنَّ له عَبيدًا أفضَلَ منهم لا يَفْتُرونَ عن التَّسبيحِ له بإقبالٍ دُونَ سَآمةٍ[٣].

- قولُه: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ذِكْرُ اللَّيلِ والنَّهارِ هنا؛ لِقَصدِ استِيعابِ الزَّمانِ، أيْ: يُسَبِّحونَ له الزَّمانَ كُلَّه[٤].

- وجُملةُ ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ، وهو أوقَعُ مِن مَحمَلِ العَطفِ؛ لِأنَّ كَونَ الإخبارِ عنهم مُقَيَّدًا بهذه الحالِ أشَدُّ مِن إظهارِ عَجيبِ حالِهم؛ إذْ شَأنُ العَمَلِ الدَّائِمِ أنْ يَسْأمَ منه عامِلُه[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ فيه احتباكٌ[٦]، حيثُ ذكَرَ الاستِكبارَ أوَّلًا دليلًا على حذْفِه ثانيًا، والتَّسبيحَ ثانيًا دليلًا على حذْفِه أوَّلًا؛ وسِرُّ ذلك: أنَّه ذكَرَ أقبَحَ ما لِأعدائِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٠، ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

وأحسَنَ ما لِأوليائِه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وهذا استِدلالٌ بهذا الصُّنعِ العَظيمِ على أنَّه تعالَى مُنفَرِدٌ بفِعلِه، فهو دَليلُ إلهيَّتِه دُونَ غَيرِه؛ لِأنَّ مَن يَفعَلُ ما لا يَفعَلُه غَيرُه هو الإلهُ الحَقُّ، وإذا كان كذلك لم يَجُزْ أنْ يَتعَدَّدَ؛ لِكَونِ مَن لا يَفعَلُ مِثلَ فِعلِه ناقصَ القُدرةِ، والنَّقصُ يُنافي الإلهيَّةَ، كما قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾[٢] [النحل: ١٧].

- ولَمَّا كان السِّياقُ لِلوَحْدانيَّةِ، عُبِّرَ بما هو أقرَبُ إلى حالِ العابدِ، بخِلافِ ما مَضى في (الحجِّ): ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحج: ٥]، فقال: ﴿خَٰشِعَةً﴾، أي: يابسةً لا نَباتَ فيها؛ فهي بصُورةِ الذَّليلِ الَّذي لا مَنَعةَ عِندَه؛ لأنَّه لا مانعَ مِن المَشْيِ فيها؛ لِكَونِها مُتطامِنةً بعْدَ السَّاترِ لِوَجْهِها، بخلافِ ما إذا كانتْ مُهتزَّةً رابيةً مُتزَخْرِفةً تَختالُ بالنَّباتِ[٣].

- وعُطِفَ ﴿وَرَبَتْ﴾ على ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾؛ لِأنَّ المَقصودَ مِنَ الاهتِزازِ هو ظُهورُ النَّباتِ عليها وتَحَرُّكُه، والمَقصودُ بالرَّبْوِ: انتِفاخُها بالماءِ واعتِلاؤُها[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ إدماجٌ[٥] لإثباتِ البَعثِ في أثناءِ الاستِدلالِ على تَفَرُّدِه تعالَى بالخَلقِ والتَّدبيرِ، ووُقوعُه على

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٢).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

عادةِ القُرآنِ في التَّفنُّنِ وانتهازِ فُرَصِ الهُدى إلى الحقِّ. والجُملةُ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، والمُناسَبةُ مُشابَهةُ الإحياءَيْنِ[١].

- وحَرفُ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾ لِمُراعاةِ إنكارِ المُخاطَبينَ إحياءَ المَوتى، وتَعريفُ المُسنَدِ إليه بالمَوصوليَّةِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا﴾؛ لِمَا في المَوصولِ مِن تَعليلِ الخَبَرِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾ شَبَّهَ إمدادَ الأرضِ بماءِ المَطَرِ الَّذي هو سَبَبُ انبثاقِ البُذورِ الَّتي في باطِنِها الَّتي تَصيرُ نَباتًا بإحياءِ المَيِّتِ، ثمَّ ارتُقِيَ مِن ذلك إلى جَعْلِ ذلك -الَّذي سُمِّيَ إحياءً؛ لِأنَّه شَبيهُ الإحياءِ- دَليلًا على إمكانِ إحياءِ المَوتَى بطَريقةِ قِياسِ الشَّبَهِ، وهو يُفيدُ تَقريبَ المَقيسِ بالمَقيسِ عليه، وليس الاستِدلالُ بالشَّبهِ والتَّمثيلِ بحُجَّةٍ قَطعيَّةٍ، بلْ هو إقناعيٌّ، ولكِنَّه هنا يَصيرُ حُجَّةً؛ لِأنَّ المَقيسَ عليه، وإنْ كانَ أضعَفَ مِنَ المَقيسِ؛ إذِ المُشَبَّهُ لا يَبلُغُ قُوَّةَ المُشَبَّهِ به؛ فالمُشَبَّهُ به حيث كان لا يَقدِرُ على فِعلِه إلَّا الخالِقُ الَّذي اتَّصَفَ بالقُدرةِ التَّامَّةِ لِذاتِه، فقد تَساوى فيه قَويُّه وضَعيفُه، وهمْ كانوا يُحيلونَ إحياءَ الأمواتِ استِنادًا لِلاستِبعادِ العاديِّ، فلَمَّا نُظِّرَ إحياءُ الأمواتِ بإحياءِ الأرضِ المُشَبَّهِ، تَمَّ الدَّليلُ الإقناعيُّ المُناسِبُ لِشُبهَتِهِمُ الإقناعيَّةِ، وقد أشارَ إلى هذا تَذييلُه بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤٠-٤٦)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُلۡحِدُونَ﴾: أي: يَجُورونَ فيها عن الحَقِّ ويَميلونَ، وأصلُ (لحد): يدُلُّ على مَيلٍ عن الاستِقامةِ[1].

﴿مُرِيبٖ﴾: أي: مُوقِعٍ للتُّهمةِ، والرِّيبةُ: التُّهمةُ، وهي ظنُّ السوءِ، فهي قِسمٌ مِن الشَّكِّ، والرِّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتفاءُ الطُّمأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٨).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مهدِّدًا ومتوعِّدًا الَّذين يُلحِدونَ في آياتِه: إنَّ الَّذين يَميلونَ في آياتِ اللهِ عن الحَقِّ لا يَخفَونَ عليه سُبحانَه وتعالى.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه الفَرقَ الكبيرَ بيْنَ عاقبةِ المؤمنينَ وعاقبةِ الكافرينَ، فيقولُ: أفمَن يُلْقَى في النَّارِ فيُعذَّبُ فيها خَيرٌ أمْ مَنْ يأتي آمِنًا يومَ القيامةِ مِن عَذابِ اللهِ؟! اعمَلوا -أيُّها المُشرِكونَ- ما شِئتُم؛ إنَّ اللهَ بما تَعمَلونَ بَصيرٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مهدِّدًا أيضًا: إنَّ الَّذين كَفَروا بالقُرآنِ لَمَّا جاءَهم لَخاسِرونَ، وإنَّ هذا القُرآنَ لكِتابٌ عزيزٌ مُمتَنِعٌ عن الخَلقِ أن يَقولوا مِثلَه، أو يَغلِبوا حُجَجَه، ليس للبُطلانِ إليه مِن سَبيلٍ، وهو تَنزيلٌ مِن حَكيمٍ يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، حَميدٍ مُنَزَّهٍ -سُبحانَه- عن النَّقائِصِ والعُيُوبِ، مَحمودٍ على ذلك.

ثمَّ يُسلِّي اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابَه مِن أعدائِه، فيقولُ: ما يُقالُ لك -يا مُحمَّدُ- إلَّا ما قد قِيلَ للرُّسُلِ مِن قَبْلِك. إنَّ ربَّك لَذُو مَغفِرةٍ للتَّائِبينَ، وذو عِقابٍ مُؤلِمٍ للمُصِرِّينَ على الكُفرِ والعِصيانِ.

ثمَّ يرُدُّ سُبحانَه على بعضِ الشُّبهاتِ الَّتي أثاروها حوْلَ القرآنِ الكريمِ، فيقولُ: ولو جعَلْنا هذا القُرآنَ بغَيرِ العَربيَّةِ لَقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: لولا بيَّنَ اللهُ لنا آياتِ كِتابِه بِلُغَتِنا؛ لِنَعقِلَ ما فيه! ولو أنزَلْنا هذا القُرآنَ بغَيرِ العَربيَّةِ لَقال كُفَّارُ قُرَيشٍ مُتعَجِّبينَ: أقُرآنٌ أعجَميٌّ ورَسولٌ عَرَبيٌّ؟!

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: هذا القُرآنُ للمُؤمِنينَ هُدًى وشِفاءٌ لهم مِن أمراضِ القُلوبِ والأبدانِ.

ثمَّ يُبيِّنُ موقفَ الكافرينَ مِن القرآنِ، فيقولُ: والَّذين لا يُؤمِنونَ في آذانِهم ثِقْلٌ؛ فلا يَنتَفِعونَ بسَماعِ الحَقِّ، والقُرآنُ عليهم عَمًى؛ فلا يُبصِرونَ الحَقَّ الَّذي فيه، ولَا يَهْتدونَ به، أولئك كأنَّهم لعَمَى قلوبِهم عن فَهمِ ما أُنْزِل في القرآنِ، وعدمِ انتِفاعِهم به- يُنادَونَ مِن مَوضعٍ بعيدٍ منهم، فهُم لا يَسمعونَ النِّداءَ، ولا يَفهمونَه.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى -تسليةً لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم- أنَّ النَّاسَ صنَعوا معه كما صنَعوا معَ موسى عيه السَّلامُ، فيقولُ: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ، فاختَلَف قَومُه فيها؛ فآمَنَ بها بَعضُهم، وآخَرونَ مِنهم لم يُؤمِنوا بها، ولولا كَلِمةٌ سبَقَت مِن رَبِّك -يا مُحمَّدُ- بتأخيرِ عذابِهم إلى أجَلٍ مُسَمًّى، لَأهلَكَهم اللهُ في الحالِ، وإنَّهم لَفي شَكٍّ منه مُوقِعٍ في القَلَقِ والاضطِرابِ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ سبحانَه سُنَّةً مِن سُنَنِه الَّتي لا تتخلَّفُ، مقرِّرًا كمالَ عدلِه، فيقولُ: مَن عَمِل صالِحًا فعَمَلُه لِنَفْسِه، ومَن عَمِل سُوءًا فعِقابُ إساءتِه على نَفْسِه، وما ربُّك -يا مُحمَّدُ- بظَلَّامٍ لعِبادِه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن أنَّ الدَّعوةَ إلى دينِه أعظَمُ المناصِبِ وأشرَفُ المراتِبِ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ الدَّعوةَ إنَّما تَحصُلُ بذِكرِ دلائِلِ التَّوحيدِ والعَدلِ، وصِحَّةِ البَعثِ والقيامةِ- عاد إلى تهديدِ مَن يُنازِعُ في تلك الآياتِ، ويُحاوِلُ إلقاءَ الشُّبُهاتِ

فيها؛ فقال[١]:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَميلُونَ في آياتِ اللهِ عن الحَقِّ -كأن يُكَذِّبوا بها، أو يَسخَروا منها، أو يُحَرِّفوا مَعانيَها عن الصَّوابِ- لا يَخفَونَ على اللهِ تعالى؛ فهو مُطَّلِعٌ عليهم، وسَوفَ يُجازيهم على إلحادِهم، فيُلقِيهم في النَّارِ يَومَ القيامةِ[٢].

﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾.

أي: أفمَن يُلقَى في النَّارِ فيُعَذَّبُ فيها خَيرٌ أمْ مَن يأتي يومَ القيامةِ آمِنًا مِن عَذابِ اللهِ؛ لِكَونِه آمَنَ بآياتِه ولم يُلحِدْ فيها؟ أيَسْتوي هذا وهذا؟ لا يَستَويانِ[٣].

﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَبيَّنَ الحَقُّ مِن الباطِلِ، والطَّريقُ المُنجِي مِن عَذابِ الله مِن الطَّريقِ المُهلِكِ، قال[٤]:

﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٠، ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٢١-٢٢٥).

قال ابن عاشور: (الآياتُ تَشملُ الدَّلائِلَ الكَونيَّةَ... وتَشملُ الآياتِ القَوليَّةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٢١، ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

أي: اعمَلوا -أيُّها المُشرِكونَ- ما شِئتُم بعدَ أن عَلِمْتُم عَدَمَ استِواءِ المعذَّبِ في النَّارِ والآمِنِ منها[١].

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بما تَعمَلونَ بَصيرٌ، لا يَخفَى عليه -سُبحانَه- شَيءٌ مِن أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه أعقَبَ تَهديدَهم على الإلحادِ في آياتِ اللهِ على وَجهِ العُمومِ، بالتَّعرُّضِ إلى إلحادِهم في آياتِ القُرآنِ[٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾.

أي: إنَّ الَّذين كَفَروا بالقُرآنِ حينَ جاءَهم: هم الخاسِرونَ الأذَلُّونَ الأسفَلونَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣).

قال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ وعيدٌ في صيغةِ الأمرِ بإجماعٍ مِن أهلِ العِلمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٣، ٤٥٢، ٤٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٢، ٢٤٣).

قال الماوَرْدي: (الذِّكْرُ هنا: القُرآنُ، في قَولِ الجَميعِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٥). =

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بالَغ في تهديدِ الَّذينَ يُلْحِدونَ في آياتِ القرآنِ؛ أتْبَعه ببيانِ تعظيمِ القرآنِ[١].

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾.

أي: وإنَّ هذا القُرآنَ لَكِتابٌ عزيزٌ أعزَّه اللهُ وحَفِظَه مِن الباطِلِ، ومِن كُلِّ تَبديلٍ وتَحريفٍ، ومُمتَنِعٌ عن الخَلقِ أن يَقولوا مِثْلَه، أو يَغلِبوا حُجَجَه[٢].

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن مَعاني العِزَّةِ أنَّه مُمتَنِعٌ بمَتانةِ رَصفِه، وجَزالةِ نَظْمِه، وجَلالةِ مَعانيه: مِن أن يَلحَقَه تَغييرٌ ما؛ بيَّن ذلك بقَولِه[٣]:

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾.

أي: ليس للبُطلانِ مِن سَبيلٍ إلى القُرآنِ[٤].

= ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

قال الماوَرْدي: (﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ:

أحَدُها: لا يأتيه الباطِلُ مِن كِتابٍ قَبْلَه، ولا يأتيه مِن كِتابٍ بعدَه. قاله قَتادةُ.

الثَّاني: لا يأتيه الباطِلُ مِن أوَّلِ التَّنزيلِ، ولا مِن آخِرِه.

الثَّالِثُ: لا يأتيه الباطِلُ في إخبارِه عمَّا تقَدَّمَ، ولا في إخبارِه عمَّا تأخَّر. قاله ابنُ جُرَيجٍ. =

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

أي: تَنزيلٌ مِن حَكيمٍ يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائقِ به، ومِن حَميدٍ بالِغِ الإحاطةِ بأوصافِ الكَمالِ، مُنَزَّهٍ عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، مَحمودٍ على

= ويحتمِلُ رابعًا: ما بيْنَ يديه: لَفظُه. وما خَلْفَه: تأويلُه. فلا يأتيه الباطِلُ في لَفظٍ ولا تأويلٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٥، ١٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٤).

وممَّن قال بالوَجهِ الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٦).

وممَّن قال بالوجهِ الثَّالثِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٥).

قال ابن عثيمين: (هذا القرآنُ الكريمُ ليس فيه شيءٌ مِن الكذبِ؛ لا في الإخبارِ عمَّا مضَى... ولا في الإخبارِ عمَّا يُستقبَلُ... وإن شئتَ اعكسْ فقُلْ: ما بيْنَ يديه هو المُستقبَلُ، وما خَلْفَه هو الماضي). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٥).

وقيل: معنى ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾: لا يستطيعُ ذو باطِلٍ بكَيدِه تَغييرَه وتَبديلَ شَيءٍ مِن معانيه، ومعنى ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾: لا يَستطيعُ المُبطِلُ إلحاقَ ما ليس منه فيه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٥).

وقيل: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ معناه: ليس فيما تقَدَّمَه مِن الكُتُبِ ما يُبطِلُ شَيئًا منه. وقوله: ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: ليس يأتي بعدَه مِن نظَرِ ناظرٍ وفكرةِ عاقلٍ ما يُبطِلُ أشياءَ منه، فالمرادُ باللَّفظِ على الجملةِ: لا يأتيه الباطلُ مِن جهةٍ مِن الجهاتِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطية، والثعالبي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤٣).

وقيل: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي مِن جهةِ الظَّاهرِ، مثل ما أخبَر به عمَّا كان قبْلَه، ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ مِن جهةِ العِلمِ الباطنِ، مثل عِلمِ ما لم يشتهِرْ مِن الكائنِ والآتي، سواءٌ كان حُكمًا أو خبرًا؛ لأنَّه في غايةِ الحَقِّيَّةِ والصِّدقِ، فالحاصلُ أنَّه لا يأتيه مِن جهةٍ مِن الجهاتِ؛ لأنَّ ما قُدَّامَ أوضحُ ما يكونُ، وما خَلْفَ أخفى ما يكونُ، فما بيْنَ ذلك مِن بابِ الأَولى. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠١).

ذلك[١].

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا هَدَّد المُلْحِدينَ في آياتِ اللهِ، ثمَّ بَيَّنَ شَرَف آياتِ اللهِ، وعُلُوَّ دَرَجةِ كِتابِ اللهِ؛ رَجَع إلى أمرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَصبرَ على أذى قَومِه، وألَّا يَضيقَ قَلبُه بسَبَبِ ما حكاه عنهم في أوَّلِ السُّورةِ مِن أنَّهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾[٢] [فصلت: ٥].

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾.

أي: ما يُقالُ لك -يا مُحمَّدُ- إلَّا ما قد قِيلَ للرُّسُلِ الَّذين بُعِثوا مِن قَبْلِك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

وذكَر ابنُ عثيمينَ أنَّ ﴿حَمِيدٍ﴾ بمعنى فاعلٍ وبمعنى مفعولٍ، فهو محمودٌ وهو أيضًا حامدٌ، فالله تعالى يُثني كثيرًا على المؤمنينَ وعلى الرُّسلِ وعلى مَن شاء مِن عبادِه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٨). ويُنظر تفصيلُ الكلامِ عن اسمِ (الحميد) (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

قال الماوَرْدي: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: ما يقولُ المُشرِكونَ لك إلَّا ما قالَه مَن قَبْلَهم لأنبيائِهم: إنَّه ساحِرٌ أو مجنونٌ. قاله قَتادةُ. الثَّاني: ما تُخبَرُ إلَّا بما يُخبَرُ الأنبياءُ قَبْلَكَ بـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾. حكاه ابنُ عيسى، وقاله الكَلْبيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والثعلبي، ومكِّي، والسمعاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٨)، =

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- لَذُو سَترٍ عَظيمٍ على ذُنوبِ عِبادِه التَّائِبينَ، وتَجاوُزٍ عن مُؤاخَذتِهم بها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: وهو ذو عِقابٍ مُؤلِمٍ لِمَن أصَرَّ على كُفرِه ومَعاصيه، ولم يَتُبْ مِن ذُنوبِه قبْلَ مَوتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

= ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ، والسُّدِّيُّ، وأبو صالحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٣٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الغَزْنَوي. يُنظر: ((باهر البرهان)) للغزنوي (٢/ ١٢٧٨).

وذكر ابنُ عاشور أن في الآيات تفسيرَينِ؛ الأوَّل: أنَّ ما يقولُه المشركونَ في القرآنِ والنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو دأبُ أمثالِهم المعانِدينَ مِن قبْلِهم، فالمعنى أنَّه قد تشابهتْ قلوبُ المكذِّبين فكانت مقالاتُهم مُتماثِلةً. والثَّاني: أنَّ المعنى: ما قُلْنا لك إلَّا ما قُلْناه للرُّسلِ مِن قبْلِك، فأنت لم تكنْ بِدْعًا مِن الرُّسلِ فيَكونَ لقَومِك بعضُ العُذرِ في التَّكذيبِ، ولكنَّهم كذَّبوا كما كذَّب الَّذين مِن قبْلِهم. وحمَل الآيةَ على كِلا المعنيَينِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَأَعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى المُلْحِدينَ في آياتِه وأنَّهم لا يَخفَونَ عليه، والكافِرينَ بالقُرآنِ وما دَلَّ على تَعنُّتِهم وما ظَهَر مِن تَكذيبِهم، وقَولِهم: هلَّا أُنزِلَ بلُغةِ العَجَم! فقال: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ أي: لم يَترُكُوا الاعتِراضَ، ولَقالوا: ﴿لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾[1].

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾.

أي: ولو جعَلْنا القرآنَ بلُغةٍ أُخرى غيرِ العَرَبيَّةِ لَقالَ كُفَّارُ قُرَيشٍ: هلَّا بيَّنَ اللهُ لنا آياتِ كِتابِه بلُغتِنا العَرَبيَّةِ؛ حتى نَعقِلَ ما فيه[2]؟

﴿ءَأَعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

٤- قِراءةُ ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ بهَمزةٍ واحِدةٍ على الخَبَرِ. قيل: المعنى: لولا فُصِّلَت آياتُه فكان بَعضُها أعجَميًّا تَفهَمُه العَجَمُ، وبَعضُها عَربيًّا يَفهَمُه العَرَبُ. وقيل: المعنى: أنَّهم يَقولونَ مُتعَجِّبينَ: عُجمةٌ وإعرابٌ! إنَّ هذا لَشاذٌّ. وقيل: القراءتانِ بمعنًى واحِدٍ؛ لأنَّ الاستِفهامَ مُقدَّرٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٤، ٣١٥).

(٣) قرأ بها قُنْبُلٌ عن ابن كثير، وهشامٌ عن ابن عامر، ورُوَيسٌ عن يعقوبَ، باختلافٍ عنهم. يُنظر: =

٥- قِراءةُ ﴿ءَاْعۡجَمِيّٞ﴾ بهَمزَتينِ على الاستِفهامِ. قيل: المعنى: يقولونَ مُتعَجِّبينَ: أقُرآنٌ أعْجَميٌّ ورَسولٌ عَرَبيٌّ؟! وقيل: معناه: أبَعضُه أَعجَميٌّ وبَعضُه عَرَبيٌّ[1]؟!

﴿ءَاْعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞ﴾.

أي: لو أُنزِلَ القُرآنُ بغَيرِ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ لَقال كُفَّارُ قُرَيشٍ مُتعَجِّبينَ ومُنكِرينَ: أقُرآنٌ أَعجَميٌّ ورَسولٌ عَرَبيٌّ؟! كيف يَنزِلُ كَلامٌ أَعجَميٌّ على مُخاطَبٍ عَرَبيٍّ لا يَفهَمُه[2]؟!

= ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٦٦).

ويُنظر لِمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٣٠، ٥٣١).

(١) قرأ بها الباقون، وهم على أصولِهم في البَدَلِ، وبَيْنَ بيْنَ، وإدخالِ الألِفِ بيْن الهمزتينِ وعَدَمِه. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٦٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٥٢، ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٣٠، ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٥٩).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤).

قال القرطبي: (العَجَميُّ: الَّذي ليس مِنَ العَرَبِ كان فصيحًا أو غيرَ فَصيحٍ، والأعْجَميُّ: الَّذي لا يُفصِحُ كان مِن العَرَبِ أو مِن العَجَمِ؛ فالأعْجَمُ ضِدُّ الفَصيحِ، وهو الَّذي لا يُبينُ كَلامَه. ويُقالُ للحَيوانِ غيرِ النَّاطِقِ: أعْجَمُ، ومنه: «صلاةُ النَّهارِ عَجْماءُ»، أي: لا يُجهَرُ فيها بالقِراءةِ؛ فكانت النِّسبةُ إلى الأعجَمِ آكَدَ؛ لأنَّ الرَّجُلَ العَجَميَّ الَّذي ليس مِن العَرَبِ قد يكونُ فَصيحًا بالعَرَبيَّةِ، والعَربيَّ قد يكونُ غَيرَ فَصيحٍ؛ فالنِّسبةُ إلى الأعجَميِّ آكَدُ في البيانِ. والمعنى: أقُرآنٌ أعْجَميٌّ، =

قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ * كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ١٩٨ - ٢٠١].

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: القُرآنُ للمُؤمِنينَ هُدًى يُرشِدُهم إلى الحَقِّ، ويُعَلِّمُهم ما يَنفَعُهم، وهو شِفاءٌ لهم مِنَ الجَهلِ والشَّكِّ والشُّبُهاتِ، وأمراضِ القُلوبِ والأبدانِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ ناسًا مِن أصحابِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كانوا في سَفَرٍ، فمرُّوا بحَيٍّ مِن أحياءِ العَرَبِ، فاستَضافوهم فلمْ يُضَيِّفوهم، فقالوا لهم: هل فيكم راقٍ؛ فإنَّ سَيِّدَ الحَيِّ لَديغٌ أو مُصابٌ؟ فقال

= ونَبيٌّ عَرَبيٌّ؟! وهو استِفهامُ إنكارٍ. ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٨، ٣٦٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٩)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨، ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

رَجُلٌ منهم: نَعَم، فأتاه فَرَقاه بفاتحةِ الكِتابِ، فبَرَأ الرَّجُلُ. فأُعطِيَ قَطيعًا مِن غَنَمٍ، فأبى أن يَقبَلَها، وقال: حتَّى أذكُرَ ذلك للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فأتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذكَرَ ذلك له؛ فقال: يا رَسولَ اللهِ، واللهِ ما رَقَيْتُ إلَّا بفاتحةِ الكِتابِ، فتَبَسَّمَ وقال: وما أدراك أنَّها رُقْيةٌ؟! ثمَّ قال: خُذُوا منهم، واضرِبوا لي بسَهمٍ معكم))[١].

وعن عائشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا اشتكى يَقرأُ على نَفْسِه بالمُعَوِّذاتِ، ويَنفُثُ، فلمَّا اشتَدَّ وَجَعُه كنتُ أقرأُ عليه، وأمسَحُ عنه بيَدِه؛ رجاءَ بَرَكتِها))[٢].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا مَرِضَ أحَدٌ مِن أهْلِه نَفَث عليه بالمُعَوِّذاتِ))[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾.

أي: والَّذين لا يُؤمِنونَ في آذانِهم ثِقَلٌ؛ فلا يَنتَفِعونَ بسَماعِ الحَقِّ[٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (٢٢٠١) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٤٤٣٩)، ومسلم (٢١٩٢) واللفظ له.

(٣) رواه مسلم (٢١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

قال الشوكاني: (الموصولُ في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾: مبتدَأٌ، وخَبَرُه: ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾، أو: الموصولُ الثَّاني عَطفٌ على المَوصولِ الأوَّلِ، و ﴿وَقۡرٞ﴾: عَطفٌ على ﴿هُدٗى﴾ عنَد مَن جَوَّز العَطفَ على عاملَينِ مختلِفَينِ، والتَّقديرُ: هو للأوَّلينَ هُدًى وشِفاءٌ، وللآخَرينَ وَقرٌ في آذانِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٦). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٣).

قيل: المعنى: أنَّ في آذانِهم ما يَمنَعُ عنهم سَماعَ القُرآنِ سَماعَ فَهمٍ وانتِفاعٍ، فجعَلهم بمَنزِلةِ الصُّمِّ حِينَ لم يَسمَعوا سَماعَ قَبولٍ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكِّي، والسمعاني. =

كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾.

أي: والقُرآنُ على قُلوبِهم عَمًى؛ فلا يُبصِرونَ حُجَجَه عليهم، ولا يَهْتَدونَ إلى ما فيه مِن البيانِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

= يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: أنَّ القُرآنَ نَفْسَه وَقرٌ في آذانِهم؛ لِقَولِه: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾: الرازيُّ، والبيضاويُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

قال الشوكاني: (﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ قال قَتادةُ: عَمُوا عن القرآنِ وصَمُّوا عنه. وقال السُّدِّيُّ: عَمِيَتْ قُلوبُهم عنه. والمعنَى: وهو عليهم ذو عَمًى، أوْ وُصِفَ بالمصدَرِ للمُبالَغةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٦).

قال الشنقيطي: (اللهُ جل وعلا يقولُ: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠]، وفي بعضِ التَّفسيراتِ: تَكادُ أنوارُ القرآنِ تُعمي بقيَّةَ بصائرِهم، واللهُ يقولُ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾؛ لأنَّ النُّورَ السَّاطعَ الشَّديدَ يَقضي على البصرِ الأعشَى الضَّعيفِ). ((العذب النمير)) (٢/ ٢٣٥).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾.

أي: أولئك البُعَداءُ البُغَضاءُ كأنَّهم لِعَمَى قلوبِهم عن فَهمِ ما أُنْزِل في القرآنِ مِن حُجَجِه ومَواعِظِه، وعدمِ انتِفاعِهم به- يُنادَونَ مِن مَوضِعٍ بعيدٍ منهم، فهم لا يَسمَعونَ النِّداءَ، ولا يَفهَمونَه[1].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾.

أي: ولقد آتَيْنا مُوسى التَّوراةَ فاختَلَف قَومُه فيها؛ فآمَنَ بها بَعضُهم واتَّبَعوها، وآخَرونَ مِنهم لم يُؤمِنوا بها وأعرَضوا عنها، كما آمَنَ بكِتابِك قَومٌ، وكذَّبَ به قومٌ -يا مُحمَّدُ-؛ فلا تَحزَنْ مِن تكذيبِ المُشرِكينَ بما آتَيْناك مِنَ القُرآنِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

ممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: الثعلبيُّ، ومكِّي، والواحدي، والزمخشري، والبيضاوي، وابن القيم، والقاسمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٦٤).

عن مجاهدٍ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ قال: (بعيدٍ مِن قلوبِهم). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥١).

وقيل: يُنادَونَ يومَ القيامةِ مِن مَكانٍ بعيدٍ منهم بأشنَعِ أسمائِهم. وممَّن حكى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ بنُ مُزاحِمٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦، ١٧].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: ولولا كَلِمةٌ سَبَقَت مِن رَبِّك -يا مُحمَّدُ- بتأخيرِ العَذابِ إلى أجَلٍ مُسَمًّى، لأهلَكَهم اللهُ في الحالِ، وميَّزَ بيْنَ أهلِ الحَقِّ بنَجاتِهم، وأهلِ الباطِلِ بهَلاكِهم[1].

= (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿فِيهِ﴾ يعودُ إلى الكتابِ: البغويُّ، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والخازن، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى موسى عليه السَّلامُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧).

قال أبو حيَّان في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ هود، الآية (١١٠): (والظَّاهرُ عَوْدُ الضَّميرِ فيه على الكِتابِ؛ لِقُرْبِه، ويجوزُ أنْ يَعودَ على موسَى عليه السَّلامُ. ويَلْزَمُ مِن الاختلافِ في أحَدِهما الاختلافُ في الآخَرِ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤، ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

والكلمةُ التي سبَقت هي تأخيرُ العذابِ إلى يومِ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٦) ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١).

وقال جلالُ الدينِ المحليُّ: (بتأخيرِ الحسابِ والجزاءِ للخَلائقِ إلى يومِ القيامةِ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٦).

والضَّميرُ في قولِه: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ قيل: يعودُ إلى قومِ موسى. وقيل: يعودُ إلى هذه الأُمَّةِ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٢٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

أي: وإنَّهم[(١)] .....

= قال ابن عاشور: (﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾... هذا مُتعلِّقٌ بالَّذين كذَّبوا بالقرآنِ مِن العربِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ يَقتضي أنَّ اللهَ أخَّر القضاءَ بيْنَهم وبيْنَ المؤمنينَ إلى أجَلٍ اقتَضَتْه حِكمتُه، فأمَّا قومُ موسى فقد قضَى بيْنَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٧، ٣١٨).

لكن قال ابن عثيمين: (المرادُ: القضاءُ التَّامُّ، فلا يُنافي هذا ما وقَع لآلِ فِرعونَ مِن الغرَقِ والهلاكِ لَمَّا كذَّبوا موسى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٢).

(١) قال البيضاوي: (﴿وَإِنَّهُمْ﴾: وإنَّ اليهودَ، أو: الَّذين لا يُؤمِنونَ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣).

ممن اختارَ أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: المكذِّبينَ بالكتابِ، المبطلينَ من الذين اختلفوا فيه: ابن جرير، ومكي، وجلال الدين المحلي، ومحمد رشيد رضا، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٤١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير المنار)) (١٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة فصلت)) (ص: ٢٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١).

قال محمد رشيد رضا في نظير هذه الآية مِن سورةِ (هود) الآية (١١٠): (الظَّاهرُ أنَّ هذا في قومِ موسَى وكتابِهم التَّوراةِ، أيْ: إنَّهم لمُرْتَكِسونَ في شَكٍّ مِن أمرِ كِتابِهم، موقِعٍ في الرَّيْبِ والاضْطِرابِ، وذَهَب بعضُ كِبارِ المُفسِّرينَ إلى أنَّه في مُشركي مَكَّةَ وأمثالِهم الَّذينَ شكُّوا في القرآنِ، وهو خطأٌ ظاهرٌ في اللَّفظِ والمعنَى والسِّياقِ، وما في معنَى الآيةِ مِنَ السُّوَرِ الْأُخْرَى، وَمِثْلُهَا فِي سورةِ «حم السَّجْدَةِ فُصِّلَتْ» بنَصِّها، وفي معناها مِن سورةِ الشُّورى مَا يُفَسِّرُ =

لَفي شَكٍّ شَديدٍ منه[(١)]،.....

= الإجمالَ في هاتينِ الآيتيْنِ ويُفَصِّلُه). ((تفسير المنار)) (١٢/ ١٣٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: كفَّار قريشٍ: القرطبيُّ، والنسفي، والخازن، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٧).

(١) قولُه: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ اختلَف فيه المفسِّرونَ؛ فممن اختار أن المرادَ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿مِّنْهُ﴾: الكتابُ، أي: التَّوراةُ: مقاتلِ بنِ سُلَيمانَ، وجلال الدين المحلي، وابنِ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٥).

قال الرَّسْعَنيُّ: (إن كان الضَّميرُ في قولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ عائدًا إلى قومِ موسى، فيكون الضَّميرُ في ﴿مِّنْهُ﴾ عائدًا إلى كتابِ موسى، ويكون ذلك حكايةَ حالٍ ماضيةٍ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٢٤٥).

وقال القرطبي: (﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ إنْ حُمِلتْ على قومِ موسى، أي: لفي شكٍّ مِن كتابِ موسَى، فهم في شكٍّ مِن القرآنِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٤).

وقال ابن عطية: (﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ يحتملُ أن يعودَ على موسى، أو على كتابِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١).

وقيل: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: ممَّا قالوا فيه ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: يَريبُهم قولُهم فيه ما قالوا؛ لأنَّهم قالوا بغيرِ ثَبَتٍ، وإنَّما قالوه ظَنًّا. قاله ابنُ جرير، وذكر ابنُ كثير أنَّه محتملٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٣، ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: القرآنُ: القرطبيُّ، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٨٢).

وقيل: ﴿مِّنْهُ﴾ أي: مِن صِدْقِك. وممَّن اختاره: البغوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٦٤).

وقيل: ﴿مِّنْهُ﴾ أي: مِن صِدقِك وكتابِك. وممَّن اختاره: الواحديُّ، وابن الجوزي، والرازي، والخازن. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير =

مُوقِعٍ في القَلَقِ، ومُوجِبٍ للاضطِرابِ[١].

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا تقرَّر بما مضَى أنَّ المطيعَ ناجٍ، وتحرَّر أنَّ العاصيَ هالكٌ، كانت النَّتيجةُ مِن غيرِ تردُّدٍ: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾، كائنًا مَن كان[٢].

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾.

أي: مَن عَمِل في الدُّنيا عَمَلًا صالِحًا بإخلاصٍ لله تعالى، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ فثَوابُ ذلك العَمَلِ الصَّالحِ لِنَفْسِه، ونَفعُه له[٣].

كما قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ۞ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [الروم: ٤٤، ٤٥].

﴿ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾.

= الرازي)) (٢٧/ ٥٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩١).

وقيل: ﴿مِّنْهُ﴾ أي: مِن العذابِ. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ -وقيده بقوله: (بعدَ البَعثِ)-، وابنُ أبي زَمَنين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٥٧).

وقال البِقاعي: (﴿مِّنْهُ﴾ أي: القضاءِ يومَ الفَصلِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٠٩).

وقال ابن عاشور: (وأمَّا ضميرُ ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ فهو خاصٌّ بالمشركينَ الشَّاكِّينَ في البَعثِ، والشَّاكِّينَ في أنَّ اللهَ يَنصُرُ رسولَه والمؤمنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٨، ٢٧٩).

أي: ومَن عَمِل سُوءًا فعِقابُ إساءتِه على نَفْسِه، لا على غَيرِه[١].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ [الروم: ٤٤].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

أي: وما ربُّك -يا مُحمَّدُ- بظلَّامٍ لعِبادِه؛ فلا يُعاقِبُ أحَدًا بغَيرِ ذَنْبِه، أو يَزيدُ في سيِّئاتِه أو عِقابِه، أو يَنقُصُ مِن حَسَناتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾ تَسليةُ المُصابِ بذِكْرِ المُشارِكِ له؛ لأنَّ الغَرَضَ مِن الإخبارِ بأنَّ اللهَ تعالى آتى موسى عليه السَّلامُ الكِتابَ فاختُلِفَ فيه: تَسليةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وعلى هذا فيَنبغي تسليةُ المُصابِ، ومِن ذلك تعزيةُ المصابِ بموتِ قريبٍ له أو صديقٍ -أي: تقويتُه على الصَّبرِ على المصيبةِ-، وتسليةُ المصابِ سُنَّةٌ؛ لِمَا في ذلك مِن رفْعِ أَلَمِ المصيبةِ عن أخيك المسلمِ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾ فيه حَثٌّ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ١١)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣١-٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٨١، ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٤).

فِعلِ الخَيرِ، وتَركِ الشَّرِّ، وانتِفاعُ العامِلينَ بأعمالِهم الحَسَنةِ، وضَرَرُهم بأعمالِهم السَّيِّئةِ[١]، فإذا علِم الإنسانُ أنَّ عمَلَه لِنَفْسِه فسوف يجتهدُ فيه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: (هو أن يُوضَعَ الكَلامُ على غَيرِ مواضِعِه)؛ ففيه الرَّدُّ على مَن تعاطى تَفسيرَ القُرآنِ بما لا يَدُلُّ عليه جَوهَرُ اللَّفظِ، كما يَفعَلُه الباطِنيَّةُ والاتِّحاديَّةُ، والملاحِدةُ وغُلاةُ المتصَوِّفةِ[٣].

٢- جوازُ المُفاضَلةِ بيْنَ شيئينِ بيْنَهما مِن التَّباينِ أكثرُ ممَّا بيْنَ السَّماءِ والأرضِ؛ إفحامًا للخَصْمِ، والدَّليلُ: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾، وهذه فائدةٌ يُنْتَبَهُ لها: أنَّ المُفاضَلةَ بيْنَ شيئينِ -التَّفاوُتُ بيْنَهما ظاهرٌ- لا يُرادُ به المُقارَنةُ! ولكنْ يُرادُ به إفحامُ الخَصمِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ فيه إثباتُ المشيئةِ للعبدِ؛ فيكونُ في ذلك رَدٌّ على الجَبْريَّةِ[٥].

٤- (افْعَلْ) صيغةُ أمرٍ، وقد تَرِدُ لغيرِ ذلك؛ كالتَّهديدِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٨). وعزا أثرَ ابنِ عبَّاسٍ لابنِ أبي حاتمٍ مِن طريقِ العَوْفي.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٢٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٩).

(٦) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٥٧٨)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٢٧).

٥- تخصيصُ الحُكمِ بما فيه النِّزاعُ، وإنْ كان الحُكمُ عامًّا فلَنا أنْ نُخَصِّصَ هذا الحُكمَ بمَحَلِّ النِّزاعِ؛ يُؤخَذُ هذا مِن تقديمِ المَعمولِ في ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، لا نقولُ: هذا الحَصرُ حقيقيٌّ؛ أنَّه لا يَعلَمُ عزَّ وجلَّ إلَّا بما عَمِلوا! بل يَعلَمُ كلَّ شيءٍ، لكنْ لَمَّا كان الكلامُ في عمَلِهم جاء الحُكمُ بصيغةِ الحَصرِ؛ مِن أجْلِ شِدَّةِ التَّحذيرِ، وأنَّهم لن يَفوتوا اللهَ عزَّ وجَلَّ. واللهُ أعلمُ[(١)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أنَّ مَن تَمَسَّك بالقرآنِ فله العِزَّةُ؛ وجْهُه: أنَّه إذا كان القرآنُ عزيزًا؛ فلا بُدَّ أنْ يَنالَ العِزَّةَ مَن تَمَسَّك به؛ وإلَّا لَكان القرآنُ غيرَ عزيزٍ! ويدُلُّ لهذا قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[(٢)] [المنافقون: ٨].

٧- قَولُه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فيه أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ؛ وجْهُ كَونِه كلامَ اللهِ: أنَّ القُرآنَ صِفةٌ، ليس عَينًا مُستَقِلَّةً مُنفَصِلةً، فإذا كان صِفةً وذَكَرَ اللهُ أنَّه نَزَل منه، لَزِم أنْ يكونَ كلامَه، أمَّا لو كان الشَّيءُ الَّذي ذَكَرَ اللهُ أنَّه أنزَلَه: شَيئًا مُعَيَّنًا مُنفَصِلًا عن الله؛ فهذا لا يدُلُّ على أنَّه مِن صفاتِ اللهِ تعالى، كقَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ [الأنعام: ٩٩] هذا الماءُ مَخلوقٌ، وقَولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ [الزمر: ٦] الأنعامُ مخلوقةٌ؛ لأنَّها شَيءٌ مُنفَصِلٌ عن الله، وقَولِه: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥] الحديدُ مَخلوقٌ[(٣)].

٨- قوله تعالى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ فيه أنَّ القرآنَ الكريمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٩). ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٥ - ١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١١٧، ١١٨).

حقٌّ مُنْتَفٍ عنه الباطلُ مِن كلِّ وجهٍ، وهذه الصِّفةُ للقرآنِ مِن صِفاتِ النَّفيِ؛ وتضمَّنتْ بالإثباتِ أنَّه إذا انتفَى الباطلُ منه مِن كلِّ وجْهٍ مِن بيْنِ يديه ومِن خَلْفِه لَزِم مِن ذلك أنْ يكونَ حقًّا مِن كلِّ وجهٍ[1].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فيه سُؤالٌ: أمَا طَعَن في القُرآنِ الطَّاعِنونَ، وتأوَّلَه المُبطِلونَ؟

الجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى حَماه عن تعلُّقِ الباطِلِ به بأن قيَّضَ قَومًا عارَضوهم بإبطالِ تأويلِهم، وإفسادِ أقاويلِهم، فلم يُخْلُوا طَعْنَ طاعِنٍ إلَّا مَمحوقًا، ولا قَولَ مُبطِلٍ إلَّا مُضمَحِلًّا، ونحوُ هذا قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2] [الحجر: ٩].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ دَلالةٌ على عُلُوِّه سُبحانَه على خَلقِه، وأنَّ كلامَه نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ مِن عندِه مِن أعلى مَكانٍ إلى رَسولِه[3].

١١- قولُه تعالى: ﴿حَكِيمٍ﴾ -بمعنى حاكمٍ- فيه أنَّه لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يُشَرِّعَ شرعًا مِن عندِه؛ لأنَّ مِن الحُكْمِ الحُكْمَ بيْنَ النَّاسِ، فالحُكْمُ إمَّا أنْ يكونَ حُكْمًا في النَّاسِ أو أنْ يكونَ حُكْمًا بيْنَ الناسِ، فلا يجوزُ لأحدٍ أنْ يَحْكُمَ بيْنَ الناسِ إلَّا بما أنزَلَ اللهُ؛ لأنَّ الحُكْمَ لله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وليس لنا أنْ نَتجاوَزَ حَدَّ اللهِ عزَّ وجلَّ في الحُكْمِ على أحدٍ بالفسقِ أو البدعةِ أو الكفرِ أو الإيمانِ وصحَّةِ العقيدةِ إلَّا بدليلٍ مِن الشَّرعِ، يعني: إلَّا إذا عَرَضنا ما عليه على الكتابِ والسُّنَّةِ؛ وإلَّا: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٨، ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٥).

فِيهِنَّ ﴾[(١)] [المؤمنون: ٧١].

١٢- أنَّ اللهَ تعالى محمودٌ -بِناءً على أنَّ ﴿حَمِيدٍ﴾ اسمُ مفعولٍ-، واللهُ عزَّ وجلَّ يُحْمَدُ على كلِّ حالٍ، فعَلَى السَّرَّاءِ واضحٌ أنه يُحمَدُ؛ لأنَّه أحْسَنَ إليك ورَأَف بك، وأمَّا على الضَّرَّاءِ فيُحمَدُ؛ لأنَّه -لا شكَّ- ما قَدَّرَ هذا إلَّا لحكمةٍ، ولأنَّ ما يَتَرَتَّبُ على هذه الضَّرَّاءِ مِن المصالحِ العظيمةِ يَقتضي أنْ يُحْمَدَ اللهُ عليها[(٢)].

١٣- أنَّ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ كاملُ العَدْلِ؛ بحيثُ يَحْمَدُ مَن يَستحقُّ الحمدَ، كما أنَّه يُحمَدُ؛ لأنَّه أهلٌ للحمدِ؛ وهذا بِناءً على أنَّ ﴿حَمِيدٍ﴾ بمعنى حامدٍ[(٣)].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أنَّ هذا القُرآنَ مَثانٍ؛ فإذا ذُكِرَ فيه جانبُ التَّرغيبِ ذُكِرَ معه جانبُ التَّرهيبِ؛ لئلَّا تَطمَعَ النَّفْسُ وتَغلوَ في الطَّمعِ فتأمَنَ مِن مَكْرِ اللهِ، ولِئلَّا يَخافَ فيَقنَطَ مِن رَحمةِ اللهِ، وعلى هذا فيَكونُ سَيرُه إلى اللهِ تعالى بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ؛ ولهذا قال الإمامُ أحمدُ رَحِمه اللهُ: «يَنبغي للسَّائرِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يكونَ خَوفُه ورجاؤُه واحِدًا، فأيُّهما غَلَبَ هَلَكَ صاحِبُه»[(٤)].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أنَّ الحُجَّةَ لا تقومُ حتَّى يَفْهَمَ الإنسانُ معنى هذه الحُجَّةِ؛ وأنَّ مُجرَّدَ البلاغِ لا يُعَدُّ حُجَّةً قائمةً حتَّى يَفْهَمَها مَن بَلَغَتْه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٥٦). ويُنظر أيضًا: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٣٥٩)، ((الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف)) للمرداوي (٦/ ١٠).

قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾[1] [إبراهيم: ٤].

١٦- قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ﴾ هناك أمرٌ يَنبغي التَّفَطُّنُ له، وهو أنَّ الأذكارَ والآياتِ والأدعيةَ الَّتي يُستشفَى بها ويُرقَى بها: هي في نَفْسِها نافِعةٌ شافِيةٌ، ولكِنْ تَستدعي قَبولَ المحَلِّ، وقُوَّةَ هِمَّةِ الفاعِلِ وتأثيرِه؛ فمتى تخَلَّف الشِّفاءُ كان لِضَعفِ تأثيرِ الفاعِلِ، أو لعَدَمِ قَبولِ المُنفَعِلِ، أو لِمانعٍ قَويٍّ فيه يَمنَعُ أن يَنجَعَ فيه الدَّواءُ، كما يكونُ ذلك في الأدويةِ والأدواءِ الحِسِّيَّةِ؛ فإنَّ عَدَمَ تأثيرِها قد يكونُ لِعَدَمِ قَبولِ الطَّبيعةِ لذلك الدَّواءِ، وقد يكونُ لمانعٍ قَويٍّ يمنَعُ مِن اقتِضائِه أثَرَه؛ فإنَّ الطَّبيعةَ إذا أخَذَت الدَّواءَ بقَبولٍ تامٍّ كان انتِفاعُ البَدَنِ به بحَسَبِ ذلك القَبولِ، فكذلك القَلبُ إذا أخَذَ الرُّقَى والتَّعاويذَ بقَبولٍ تامٍّ، وكان للرَّاقي نَفْسٌ فَعَّالةٌ وهِمَّةٌ مُؤَثِّرةٌ في إزالةِ الدَّاءِ[2].

١٧- تَأمَّلْ إخبارَه سُبحانَه وتعالى عن القُرآنِ بأنَّه نَفْسَه شِفاءٌ ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ﴾، وقال عن العَسَلِ ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ﴾، وما كان نَفْسُه شِفاءً أبلَغُ مِمَّا جُعِلَ فيه شِفاءٌ[3]!

١٨- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ﴾ فيه أنَّ الإنسانَ كلَّما كان أقوَى إيمانًا كان أهدَى وأشفَى، وهنا قاعدةٌ مفيدةٌ مهمَّةٌ: أنَّ كلَّ حُكْمٍ مُرتَّبٍ على وَصْفٍ فإنَّه يَقْوى بقوَّةِ ذلك الوصفِ، ويَضعُفُ بضَعفِ ذلك الوصفِ[4].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٦٧).

﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ أنَّ الهُدَى في القرآنِ؛ مَنِ التَمَسَه في غيرِه أو في غيرِ ما أَمَر به ضَلَّ(١).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ الرَّدُّ على المُعتزِلةِ والقَدَريَّةِ المُنكِرينَ أنَّ الهِدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ تعالى، وعلى زعمِهم أنَّ أفعالَ العِبادِ لا صُنْعَ لله فيها؛ لِذِكْرِ الوَقْرِ في آذانِ الكُفَّارِ، وتَحويلِ القرآنِ -الَّذي هو هُدًى للمُؤمِنينَ- عَمًى على الكافرينَ(٢).

٢١- قولُه تعالى: ﴿هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ فيه أنَّ القرآنَ شفاءٌ مِن أمراضِ القلوبِ، وأسقامِ الأبدانِ(٣).

٢٢- قولُه تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هذه رُبوبيَّةٌ خاصَّةٌ، وهي تُفيدُ عُلُوَّ مَنزِلةِ المَربوبِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهناك رُبوبيَّةٌ عامَّةٌ، وقد اجتمعَتِ الرُّبوبيَّتانِ -العامَّةُ والخاصَّةُ- في قولِ السَّحَرةِ مِن آلِ فرعونَ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]؛ الأُولى: «رَبِّ الْعَالَمِينَ» عامَّةٌ، والثَّانيةُ: خاصَّةٌ(٤).

٢٣- أنَّ اللهَ تعالى يُكَنِّي عن الشَّرِّ ببناءِ الفعلِ لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لقولِه: ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ ولم يَقُلْ: «لَقَضَى بينَهم»! وهذا هو المطَّرِدُ في القرآنِ والغالِبُ، وانظرْ إلى أَدَبِ الجِنِّ حيثُ قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠] أدَبٌ عالٍ؛ فقالوا في الشَّرِّ: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولم يُضيفوه

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) للقصاب (٤/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٥).

إلى اللهِ! وفي الرُّشْدِ قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ولم يقولوا: «أَمْ أُريدَ بهم رَشَدٌ»[١]!

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أنَّ الإيمانَ يجبُ ألَّا يُخالِطَه شَكٌّ، وأنَّه إذا وَرَد على القَلبِ شَكٌّ -ولو يَسيرًا- بشَرطِ ألَّا يُدافِعَه، بل يَركَنُ إليه؛ فإنَّ هذا مُحبِطٌ للإيمانِ، أمَّا لو وَرَدَ الشَّكُّ على القَلبِ وطَرَدَه وجاهدَ نَفْسَه على دَفْعِه، فهذا لا يَضُرُّه؛ ولهذا أخبرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ النَّاسَ يتَساءلونَ مَن خَلَقَ كذا؟ مَن خَلَقَ كذا؟ حتَّى يقولوا: مَن خَلَقَ اللهَ؟ وهذا شكٌّ، ولكِنَّ الرَّسولَ أخبَرَ وقال: ((فإذا بَلَغَه فلْيَستَعِذْ باللهِ ولْيَنتَهِ))[٢]، وأخبرَه الصَّحابةُ أنَّهم يَجِدونَ في نُفوسِهم ما يتعاظَمُ أحدُهم أنْ يَتكلَّمَ به، فقال صلَّى الله عليه وسلَّم[٣]: ((ذاك صَريحُ الإيمانِ))[٤].

٢٥- الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ في قَولِهم: إنَّ الظُّلمَ في حقِّ اللهِ مُحالٌ، فقَولُه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ﴾ يُفيدُ أنَّ الظُّلمَ في حَقِّه مُمكِنٌ، وأنَّه ليس مُحالًا لِذاتِه في حَقِّ اللهِ، بل هو مُحالٌ لكَمالِ عَدْلِ اللهِ، وبهذا يَتحَقَّقُ المدْحُ -مدحُ اللهِ تعالى- بانتفاءِ الظُّلمِ عنه، أمَّا لو كان شَيئًا مُحالًا، فالمُحالُ لا يُمدَحُ به[٥].

٢٦- قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيه إثباتُ العَدْلِ في أعلَى مقاماتِه؛ حيثُ قال: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لِعَبيدِه، فمعَ قدرتِه عليهم، وكونِهم ملكَه وتحتَ تصرُّفِه لا يظلمُهم، فالإنسانُ إذا قيل له: أنت لا تظلِمُ عبيدَك. كان أبلغَ في إثباتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٠).

عدلِه مِن أنْ يُقالَ له: أنتَ لا تظلمُ النَّاسَ، وذلك لأنَّه لا سيطرةَ له عليهم[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

- قَولُهُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ قُصِدَ به تَهديدُ الَّذين أهْمَلوا الاستِدلالَ بآياتِ اللهِ على تَوحيدِه[٢].

- وحَرْفُ ﴿فِيٓ﴾ مِن قَولِه: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ لِلظَّرفيَّةِ؛ لِإفادةِ تَمَكُّنِ إلْحادِهم حتَّى كَأنَّه مَظروفٌ في آياتِ اللهِ حيثما كانَتْ، أو كُلَّما سَمِعوها، ومَعنى نَفيِ خَفائِهم: نَفيُ خَفاءِ إلْحادِهم، لا خَفاءِ ذَواتِهم؛ إذْ لا غَرَضَ في العِلْمِ بذَواتِهم[٣].

- قَولُه: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ مُرادٌ به الكِنايةُ عنِ الوَعيدِ على التَّحريفِ؛ تَذكيرًا لهم بإحاطةِ عِلْمِ اللهِ بكُلِّ كائِنٍ[٤].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تَقريعٌ وتَقريرٌ، مُستَعمَلٌ في التَّنبيهِ على تَفاوُتِ المَرتَبتَيْنِ. وقيلَ: الاستِفهامُ لِلتَّقريرِ، كما يُقَرِّرُ المُناظِرُ خَصمَه على وَجهَيْنِ، أحَدُهما فاسِدٌ، يَرجو أنْ يَقَعَ في الفاسِدِ فيَتَّضِحَ جَهلُه[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تَفريعٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٦٩).

الوَعيدِ في قَولِه: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾؛ لِبَيانِ أنَّ الوَعيدَ بنارِ جَهنَّمَ تَعريضٌ بالمُشرِكينَ بأنَّهم صائِرونَ إلى النَّارِ، وبالمُؤمِنينَ بأنَّهم آمِنونَ مِن ذلك[١].

- ونُبِّهَ بقَولِه: ﴿يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ على مُستَقَرِّ الآمِنِ، وهو الجَنَّةُ، وبقَولِه: ﴿ءَامِنٗا﴾ على خَوفِ الكافِرِ، وطُولِ وَجَلِه[٢].

- وكُنِّيَ بقَولِه: ﴿يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ عن أنَّ ذلك الفَريقَ مَصيرُه الجَنَّةُ؛ إذْ لا غايةَ لِلآمِنِ إلَّا أنَّه في نَعيمٍ، وهذه كِنايةٌ تَعريضيَّةٌ بالَّذين يُلحِدونَ في آياتِ اللهِ[٣].

- قولُه: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ لَمَّا تَقدَّمَ ذِكرُ الإلحادِ، ناسَبَ أنْ يَتَّصِلَ به مِنَ التَّقريرِ مَنِ اتَّصَفَ به، ولم يَكُنِ التَّركيبُ: أمْ مَنْ يَأتي آمِنًا يَومَ القيامةِ كمَن يُلقَى في النَّارِ، كما قَدَّمَ ما يُشبِهُه في قَولِه: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]، وكما جاء في سُورةِ (القِتالِ): ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾[٤] [محمد: ١٤].

- وفي قولِه: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قابَلَ الإلقاءَ في النَّارِ بالإتيانِ آمِنًا؛ مُبالَغةً في إحمادِ حالِ المُؤمِنينَ[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ...﴾ الآيةَ، مِن الاحتِباكِ[٦]، حيثُ حُذِفَ مُقابِلُ: (مَن يُلقى في النَّارِ) وهو: مَن يَدخُلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٢).
(٦) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

الجَنَّةَ، وحُذِفَ مُقابِلُ: ﴿مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا﴾ وهو: مَن يأتي خائِفًا، وهم أهلُ النَّارِ؛ فذكَرَ الإلقاءَ في النَّارِ أوَّلًا دَليلًا على دُخولِ الجنَّةِ ثانيًا، والأمْنَ ثانيًا دليلًا على الخَوفِ أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّه ذكَرَ المقصودَ بالذَّاتِ -وهو ما وقَعَ الخوفُ لأجْلِه- أوَّلًا، والأمْنَ -الَّذي هو العَيشُ في الحقيقةِ- ثانيًا[1].

- وجُملةُ ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تَذييلٌ لِجُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ...﴾ إلخ، كما دَلَّ عليه قَولُه عَقِبَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ [فصلت: ٤١] الآيةَ، أيْ: لا يَخفى علينا إلْحادُهم ولا غَيرُه مِن سَيِّئِ أعمالِهم، وإنَّما خُصَّ الإلحادُ بالذِّكرِ ابتِداءً؛ لِأنَّه أشنَعُ أعمالِهم، ومَصدَرُ أسوائِها[2].

- والأمْرُ في قَولِه: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ مُستَعمَلٌ في التَّهديدِ والوَعيدِ، أو في الإغراءِ المُكَنَّى به عنِ التَّهديدِ، وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وَعيدٌ بالعِقابِ على أعمالِهم على وَجهِ الكِنايةِ أيضًا، وتَوكيدُه بحَرفِ (إنَّ)؛ لِتَحقيقِ مَعنَيَيْه الكِنائيِّ والصَّريحِ، وهو تَحقيقُ إحاطةِ عِلْمِ اللهِ بأعمالِهم؛ لِأنَّهم كانوا شَاكِّينَ في ذلك[3].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، قدَّم أعمالَهم؛ تنبيهًا على الاهتمامِ بشأنِها جدًّا[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ * لَّا يَأۡتِيهِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٦٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٠).

ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ هو مِن ذِكرِ الخاصِّ بَعدَ العامِّ -فإلحادُهم في آياتِ القُرآنِ داخلٌ في عمومِ الإلحادِ في آياتِ اللهِ-؛ وذلك لِلتَّنويهِ بخِصالِ القُرآنِ، وأنَّه ليس بعُرضةٍ لِأنْ يُكفَرَ به، بلْ هو جَديرٌ بأنْ يُتَقبَّلَ بالاقتِداءِ والاهتِداءِ بهَدْيِه؛ فلِهذه الجُملةِ اتِّصالٌ في المَعنى بجُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [فصلت: ٤٠]، واتِّصالٌ في المَوقِعِ بجُملةِ ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾[1] [فصلت: ٤٠].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ بَدَلٌ مِن قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ [فصلت: ٤٠]، وفي هذا الإبدالِ الإشعارُ بتَغليظِ مَن تَأوَّلَ القُرآنَ بالرَّأيِ الباطِلِ والهَوى الزَّائِغِ، وتَعظيمٌ لِشَأنِ القُرآنِ المَجيدِ، ونَعْيٌ على المُتَقاعِدينَ عنه، وتَسليةٌ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن مَطاعِنِ القَومِ فيه؛ وذلك أنَّه تعالَى لَمَّا افتَتَحَ السُّورةَ بذِكرِ القُرآنِ المَجيدِ، وأنَّه آيةٌ عَظيمةٌ قاهِرةٌ، وعَقَّبَه بما بَيَّنَ عَجزَهم عنِ المُعارَضةِ بتِلكَ الشُّبهةِ الرَّكيكةِ؛ وهي أنَّ الرِّسالةَ مُنحَصِرةٌ على المَلائِكةِ لا تَتعدَّى إلى البَشَرِ، وذَكَرَ طَعنَهم فيه وقَولَهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وذَيَّلَ المَعنى بوُجوهٍ مِنَ الاستِطراداتِ المُناسِبةِ؛ أتَى بنَوعٍ مِن مَطاعِنِهم، وهو الإلحادُ فيه؛ تَقريرًا لِلعَجزِ والانخِذالِ، وبَيانًا لِتَبكيتِهم عنِ الحُجَّةِ القاهِرةِ، وما يدُلُّ على أنَّ الإبدالَ لِلتَّعظيمِ وَضعُ قَولِه: ﴿بِٱلذِّكْرِ﴾ مَوضِعَ ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ وَضْعًا لِلمُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ مِن غَيرِ لَفظِه السَّابِقِ، وجَعلُه عِلَّةً لابتِناءِ أوصافِ الكَمالِ عليه ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ...﴾ إلى آخِرِه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١٣).

- وقيل: الأظهَرُ أنْ تَكونَ جُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ ...﴾ إلخ واقِعةً مَوقِعَ التَّعليلِ لِلتَّهديدِ بالوَعيدِ في قَولِه: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ [فصلت: ٤٠]، والمَعنى: لِأنَّهم جَديرونَ بالعُقوبةِ؛ إذْ كَفَروا بالآياتِ، وهيَ آيةُ القُرآنِ المُؤَيَّدِ بالحَقِّ، وبشَهادةِ ما أُوصيَ إلى الرُّسُلِ مِن قَولِه. ومَوقِعُ (إنَّ) مَوقِعُ فاءِ التَّعليلِ، وخَبَرُ (إنَّ) مَحذوفٌ، دَلَّ عليه سِياقُ الكَلامِ، والأحسَنُ أنْ يَكونَ تَقديرُه بما تدُلُّ عليه جُملةُ الحالِ مِن جَلالةِ الذِّكرِ ونَفاسَتِه؛ فيَكونَ التَّقديرُ: خَسِروا الدُّنيا والآخِرةَ، أو سَفِهوا أنْفُسَهم، أو نَحوَ ذلك مِمَّا تَذهَبُ إليه نَفْسُ السَّامِعِ البَليغِ؛ ففي هذا الحَذفِ تَوفيرٌ للمَعاني، وإيجازٌ في اللَّفظِ يَقومُ مَقامَ عِدَّةِ جُمَلٍ، وحَذفُ خَبَرِ (إنَّ) -إذا دَلَّ عليه دَليلٌ- وارِدٌ في الكَلامِ[1].

- وجملةُ ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ مُفيدةٌ لِغايةِ شَناعةِ الكُفرِ بهِ[2].

- قولُه: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ أيْ: لا يَتطَرَّقُ إليه الباطِلُ مِن جِهةٍ مِنَ الجِهاتِ، وهي صِفةٌ أُخرى لِـ (كِتابٌ)، وقولُه تعالَى: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ خَبرٌ لِمُبتَدأٍ مَحذوفٍ، أو صِفةٌ أُخرى لِـ (كِتابٌ) مُفيدةٌ لِفَخامَتِه الإضافيَّةِ، كما أنَّ الصِّفَتَيْنِ السَّابِقتَيْنِ مُفيدَتانِ لِفَخامَتِه الذَّاتيَّةِ، وقولُه تعالَى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ...﴾ إلخ، اعتِراضٌ عِندَ مَن لا يُجَوِّزُ تَقديمَ غَيرِ الصَّريحِ مِنَ الصِّفاتِ على الصَّريحِ، كُلُّ ذلك لِتَأكيدِ بُطلانِ الكُفرِ بالقُرآنِ[3].

- وقَولُه: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ تَعليلٌ لاتِّصافِ الكِتابِ بالوَصفَيْنِ؛ فكَونُه حَكيمًا مُوجِبٌ لِأنْ يَكونَ مُنَزِّلُه مُحكِمًا مُتقِنًا رَصينًا يَغلِبُ ولا يُغلَبُ؛ فيَكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥، ١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٦).

عَزيزًا، وكَونُه حَميدًا يَستَدعي أنْ يَكونَ كَلامُه حَقًّا لا باطِلًا عَبَثًا، يَهدي النَّاسَ إلى النِّعمةِ العُظمى[1].

- وكذلك في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ * لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ أُجريَ على القُرآنِ سِتَّةُ أوصافٍ، ما منها واحِدٌ إلَّا وهو كَمالٌ عَظيمٌ: الوَصفُ الأوَّلُ: أنَّه ذِكرٌ، أيْ: يُذَكِّرُ النَّاسَ كُلَّهم بما يَغفُلونَ عنه مِمَّا في الغَفلةِ عنه فَواتُ فَوزِهم. الوَصفُ الثَّاني مِن مَعنى الذِّكرِ: أنَّه ذِكرٌ لِلعَرَبِ، وسُمعةٌ حَسَنةٌ لهم بيْنَ الأُمَمِ، يُخَلِّدُ لهم مَفخَرةً عَظيمةً. الوَصفُ الثَّالثُ: أنَّه كِتابٌ عَزيزٌ، والعَزيزُ: النَّفيسُ، وأصلُه مِنَ العِزَّةِ، وهي المَنَعةُ؛ لِأنَّ الشَّيءَ النَّفيسَ يُدافَعُ عنه ويُحمى عنِ النَّبذِ؛ فإنَّه بَيِّنُ الإتْقانِ وعُلُوِّ المَعاني ووُضوحِ الحُجَّةِ، ومِثلُ ذلك يَكونُ عَزيزًا، والعَزيزُ أيضًا: الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، وكذلك حُجَجُ القُرآنِ. الوَصفُ الرَّابِعُ: أنَّه لا يَتطَرَّقُه الباطِلُ، ولا يُخالِطُه صَريحُه ولا ضِمْنيُّه، أيْ: لا يَشتَمِلُ على الباطِلِ بحالٍ، فمُثِّل ذلك بـ ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، والمَقصودُ استيعابُ الجِهاتِ تَمثيلًا لِحالِ انتِفاءِ الباطِلِ عنه في ظاهِرِه وفي تَأويلِه بحالِ طَردِ المُهاجِمِ لِيَضُرَّ بشَخصٍ يَأتيه مِن بَينِ يَدَيْه؛ فإنْ صَدَّه خدَعه فأتاهُ مِن خَلفِه، فمَعنى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ لا يُوجَدُ فيه، ولا يُداخِلُه، وليس المُرادُ أنَّه لا يُدعَى عليه الباطِلُ. الوَصفُ الخامِسُ: أنَّه مُشتَمِلٌ على الحِكمةِ، وهي المَعرِفةُ الحَقيقيَّةُ؛ لِأنَّه تَنزيلٌ مِن حَكيمٍ، ولا يَصدُرُ عنِ الحَكيمِ إلَّا الحِكمةُ؛ فإنَّ كَلامَ الحَكيمِ يأتي مُحكَمًا مُتقَنًا رَصينًا لا يَشوبُه الباطِلُ. الوَصفُ السَّادِسُ: أنَّه تَنزيلٌ مِن حَميدٍ، والحميدُ هو المَحمودُ حمْدًا كَثيرًا، أي: مُستحِقُّ الحمْدِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١٣، ٦١٤).

الكثيرِ، فالكَلامُ المُنَزَّلُ منه يَستَحِقُّ الحَمدَ، وإنَّما يُحمَدُ الكَلامُ إذْ يَكونُ دَليلًا لِلخَيراتِ، وسائِقًا إليها، لا مَطعَنَ في لَفظِه ولا في مَعناه، فيَحمَدُه سامِعُه كَثيرًا؛ لِأنَّه يَجِدُه مَجلَبةً لِلخَيرِ الكَثيرِ، ويَحمَدُ قائِلَه لا مَحالةَ، خِلافًا لِلمُشرِكينَ. وفي إجْراءِ هذه الأوصافِ إيماءٌ إلى حَماقةِ الَّذين كَفَروا بهذا القُرآنِ، وسَفاهةِ آرائِهم؛ إذْ فَرَّطوا فيه ففَرَّطوا في أسبابِ فَوزِهم في الدُّنيا وفي الآخِرةِ؛ ولذلك جِيءَ بجُملةِ الحالِ مِنَ الكِتابِ عَقِبَ ذِكرِ تَكذيبِهم إيَّاهُ، فقالَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ الآياتِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾

- قولُه: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابٌ لِسُؤالٍ يُثيرُه قَولُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقَولُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ [فصلت: ٤١]، وما تَخَلَّلَ ذلك مِنَ الأوصافِ، فيَقولُ سائِلٌ: فما بالُ هؤلاء طَعَنوا فيه؟ فأُجِيبَ بأنَّ هذه سُنَّةُ الأنبياءِ معَ أُمَمِهم؛ لا يُعدَمونَ مُعانِدينَ جاحِدينَ يَكفُرونَ بما جاؤوا به، وهذا تَسليةٌ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطَريقِ الكِنايةِ، وأمْرٌ له بالصَّبرِ على ذلك كما صَبَرَ مَن قَبْلَه مِنَ الرُّسُلِ بطَريقِ التَّعريضِ[2].

- قولُه: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ لِهذا الكَلامِ تَفسيرانِ؛ أحَدُهما: أنَّ ما يَقولُه المُشرِكونَ في القُرآنِ والنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٠).

دَأبُ أمثالِهمُ المُعانِدينَ مِن قَبلِهم، فمَاصَدَقَ[١] ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾ هو مَقالاتُ الَّذين كَذَّبوهم، أيْ: تَشابَهَتْ قُلوبُ المُكَذِّبينَ فكانَتْ مَقالاتُهم مُتَماثِلةً. التَّفسيرُ الثَّاني: ما قُلْنا لكَ إلَّا ما قُلْناه لِلرُّسُلِ مِن قَبلِكَ، فأنتَ لم تَكُنْ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ، فيَكونَ لِقَومِكَ بَعضُ العُذرِ في التَّكذيبِ، ولكِنَّهم كَذَّبوا كما كَذَّبَ الَّذين مِن قَبلِهم، فمَاصَدَقَ ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾ هو الدِّينُ والوَحيُ، وكِلا المَعنَيَيْنِ واردٌ في القُرآنِ؛ فيُحمَلُ الكَلامُ على كِلَيْهما، وفي التَّعبيرِ بـ (مَا) المَوصولةِ، وفي حَذفِ فاعِلِ القَولَيْنِ في قَولِه: ﴿مَّا يُقَالُ﴾ وقَولِه: ﴿مَا قَدْ قِيلَ﴾؛ نَظمٌ مَتينٌ حَمَّلَ الكَلامَ هذَيْنِ المَعنَيَيْنِ العَظيمَيْنِ[٢].

- واجتِلابُ المُضارِعِ ﴿يُقَالُ﴾؛ لِإفادةِ تَجَدُّدِ هذا القَولِ منهم، وعَدَمِ ارعِوائِهم عنه، مع ظُهورِ ما شَأنُه أنْ يَصُدَّهم عن ذلك، واقترانُ الفِعلِ بـ (قَدْ)؛ لِتَحقيقِ أنَّه قد قيلَ لِلرُّسُلِ مِثلُ ما قالَ المُشرِكونَ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فهو تَأكيدٌ لِلازِمِ الخَبَرِ، وهو لُزومُ الصَّبرِ على قَولِهم، وهو مَنظورٌ فيه إلى حالِ المَردودِ عليهم؛ إذْ حَسِبوا أنَّهم جابَهوا الرَّسولَ بما لم يَخطُرْ بِبالِ غَيرِهم[٣].

- وفي قَولِه: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ، والمَعنى: إلَّا مِثلُ ما قد قيلَ لِلرُّسُلِ[٤].

- وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ تَسليةٌ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) الماصَدَق -عند المناطقةِ-: الأفرادُ الَّتي يتحقَّقُ فيها معنى الكلِّيِّ، ويقابلُه: المفهومُ، وهو: مجموعُ الصِّفاتِ والخصائصِ الموضحةِ لمعنًى كلِّيٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحبنكة (ص: ٤٥، ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وسلَّمَ، ووَعدٌ بأنَّ اللهَ يَغفِرُ له، كما أنَّ فيه تَهديدًا بالعِقابِ لِلمُكَذِّبينَ، ووُقوعُ هذا الخَبَرِ عَقِبَ قَولِه: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ يُومِئُ إلى أنَّ هذا الوَعدَ جَزاءٌ على ما لَقيَه مِنَ الأذَى في ذاتِ اللهِ، وأنَّ الوَعيدَ لِلَّذينَ آذَوْه، وحَرفُ (إنَّ) فيه لِإفادةِ التَّعليلِ والتَّسَبُّبِ، لا لِلتَّأكيدِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فيه التَّرجِئةُ بالغُفرانِ، والزَّجْرُ بالعِقابِ، وهو وَعظٌ وتَهديدٌ[٢].

- وكَلِمةُ (ذو) مُؤذِنةٌ بأنَّ المَغفِرةَ والعِقابَ كِلَيْهما مِن شَأنِه تَعالى، وهو يَضَعُهما بحِكمَتِه في المَواضِعِ المُستَحَقَّةِ لِكُلٍّ منهما[٣].

- ووَصْفُ العِقابِ بأنَّه أليمٌ دُونَ وَصفٍ آخَرَ؛ لِلإشارةِ إلى أنَّه مُناسِبٌ لِمَا عُوقِبوا لِأجْلِه؛ فإنَّهم آلَموا نَفْسَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما عَصَوْا وآذَوْا[٤].

- في قَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مُحَسِّنُ الجَمْعِ ثم التَّقسيمِ؛ فقَولُه: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ يَجمَعُ قائِلًا ومَقولًا له، فكانَ الإيماءُ بوَصْفِ (ذو مَغفِرةٍ) إلى المَقولِ له، ووَصْفِ (ذو عِقابٍ أليمٍ) إلى القائِلينَ، وهو جارٍ على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المَعكوسِ[٥]، وقَرينةُ المَقامِ تَرُدُّ كُلًّا إلى مُناسِبِه[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ١٠٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١١).

عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴾

- اتِّصالُ نظْمِ الكلامِ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا وتناسُبِ تَنقُّلاتِه بالتَّفريعِ والبيانِ والاعتراضِ والاستطرادِ يَقتضي أنَّ قولَه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ ...﴾ إلى آخِرِه تَنَقُّلٌ في دَرَجِ إثباتِ أنَّ قَصدَ الكافِرينَ العِنادُ فيما يَتَعَلَّلونَ به؛ لِيُواجِهوا إعراضَهم عن القُرآنِ والانتِفاعِ بهَدْيِه بما يَختَلِقونَه عليه مِنَ الطَّعنِ فيه، والتَّكذيبِ به، وتَكَلُّفِ الأعذارِ الباطِلةِ؛ لِيَتَسَتَّروا بذلك مِنَ الظُّهورِ في مَظهَرِ المُنهَزِمِ المَحجوجِ، فأخَذَ يَنقُضُ دَعاويَهم عُرْوةً عُروةً، وإذْ قد كانتِ المُجادَلاتُ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا إبطالًا لِتَعلُّلاتِهم، وكان عِمادُه على أنَّ القُرآنَ عَرَبيٌّ مُفَصَّلُ الدَّلالةِ المَعروفةِ في لُغَتِهم حَسبَما ابتُدِئَ الكَلامُ بقَولِه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]، وانتَهى هنا بقَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]؛ فقد نَهَضتِ الحُجَّةُ عليهم، بدَلالَتِه على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن هذه الجِهةِ، فانتَقَلَ إلى حُجَّةٍ أُخرى عِمادُها الفَرضُ والتَّقديرُ أنْ يَكونَ قد جاءَهمُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقُرآنٍ مِن لُغةٍ أُخرى غَيرِ لُغةِ العَرَبِ؛ ولِذلك فجُملةُ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]. ومَعنى الآيةِ مُتفَرِّعٌ على ما يَتضَمَّنُه قَولُه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]، وقَولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، مِنَ التَّحدِّي بصِفةِ الأُمِّيَّةِ، أيْ: لو جِئْناهم بلَونٍ آخَرَ مِن مُعجِزةِ الأُمِّيَّةِ، فأنزَلْنا على الرَّسولِ قُرآنًا أعجَميًّا، وليس لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِلْمٌ بتلك اللُّغةِ مِن قَبلُ؛ لَقَلَبوا مَعاذيرَهم، فقالوا: لَولا بُيِّنَتْ

آياتُه بلُغةٍ نَفهَمُها، وكيف يُخاطِبُنا بكَلام أعجَميٍّ؟! فالكَلامُ جارٍ على طَريقةِ الفَرْضِ، كما هو مُقتَضى حَرفِ (لَوْ) الامتناعيَّةِ. وهذا إبانةٌ على أنَّ هؤلاءِ القَومَ لا تُجْدي معهمُ الحُجَّةُ، ولا يَنقَطِعونَ عنِ المَعاذيرِ؛ لأنَّ جِدالَهم لا يُريدونَ به تَطَلُّبَ الحَقِّ، وما هو إلَّا تَعَنُّتٌ لِتَرويجِ هواهم(١).

- وقيل: قولُه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لِلرَّدِّ على تَساؤُلِهم: هلَّا أُنزِلَ القُرآنُ بلُغةِ العَجَمِ(٢)؟

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ إنكاريٌّ مُقرِّرٌ للتَّخصيصِ(٣).

- وأُفرِد ﴿وَعَرَبِىٌّ﴾ على تَأويلِه بجِنسِ السَّامعِ، والمَعنى: أكِتابٌ أعجميٌّ لِسامِعينَ عَرَبٍ؟! فكانَ حَقُّ (عَرَبيٌّ) أنْ يُجمَعَ، ولكِنَّه أُفرِدَ؛ لِأنَّ مَبنى الإنكارِ على تَنافُرِ حالَتَيِ الكِتابِ والمُرسَلِ إليهم، فاعتُبِرَ فيه الجِنسُ دُونَ أنْ يُنظَرَ إلى إفرادٍ أو جَمْعٍ(٤). وأيضًا في قَولِه: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ طِباقٌ بَديعٌ(٥)،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١١، ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٢، ٣١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٢).

(٥) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ مع مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]؛ طابَقَ بيْنَ الضَّحِكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقون. =

يَحتَمِلُ مَعنَيَيْنِ؛ أوَّلُهما: أنَّ الإنكارَ واقِعٌ على كَونِ القُرآنِ أعجَميًّا والرَّسولِ عَربيًّا. وثانيهما: أنَّ القُرآنَ أعجَميٌّ والمُرسَلَ إليهم أو إليه عَرَبيٌّ[(١)].

- وياءُ (أعجَميٌّ) في قولِه: ﴿ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ لم تُبْنَ الكَلِمةُ عليها، تَقولُ العَرَبُ: رَجُلٌ أعجَمُ، ورَجُلٌ أعجَميٌّ؛ فالياءُ لِلنِّسبةِ الدَّالَّةِ على المُبالَغةِ في الصِّفةِ، نَحوَ: أحمَريٌّ دَوَّاريٌّ، مُبالَغةً في أحمَرَ ودَوَّارٍ[(٢)]. وحاصِلُ مَعنى الآيةِ أنَّها تُؤذِنُ بكَلامٍ مُقَدَّرٍ داخِلٍ في صِفاتِ الذِّكْرِ، وهو أنَّه بلِسانٍ عَرَبيٍّ بلُغَتِكم؛ إتمامًا لِهَديكم، فلمْ تُؤمِنوا به وكَفَرتُم وتَعَلَّلتُم بالتَّعلُّلاتِ الباطِلةِ، فلو جَعَلْناه أعجَميًّا لَقُلتُم: هَلَّا بُيِّنَتَ آياتُه لنا حتَّى نَفهَمَه[(٣)]؟!

- وقولُه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ جوابٌ تَضمَّنَه قولُه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، أي: ما يُقالُ مِن

= ومنه: طِباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةً، فتَبدو المطابقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٣٧٧ - ٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٥).

الطَّعْنِ في القرآنِ، فجوابُه: أنَّ ذلك الذِّكرَ أو الكِتابَ للَّذين آمَنوا هُدًى وشِفاءٌ، أي: أنَّ تلك الخِصالَ العظيمةَ للقُرآنِ حَرَمَهم كُفْرُهم الانتفاعَ بها، وانتفَعَ بها المؤمِنونَ، فكان لهم هَدْيًا وشِفاءً. وهذا ناظرٌ إلى ما حَكاهُ عنهم مِن قولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥]، فهو إلزامٌ لهم بحُكْمِهم على أنفُسِهم[١].

- وفي قَولِه: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ؛ جَعَل القُرآنَ نَفْسَ الهُدى ونَفْسَ الشِّفاءِ، يَهديهم إلى سُبُلِ الرَّشادِ، ويَشْفيهم مِن أوْصابِ الجُنونِ والالتياثِ[٢].

- وجُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ ...﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾؛ فهي مُستَأنَفةٌ استِئنافًا ابتِدائيًّا، أيْ: وأمَّا الَّذين لا يُؤمِنونَ فلا تَتَخلَّلُ آياتُه نُفوسَهم؛ لِأنَّهم كَمَن في آذانِهم وَقْرٌ دُونَ سَماعِه، وهو ما تَقدَّمَ في حِكايةِ قَولِهم: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥]، ولِهذا الاعتِبارِ كان مَعنى الجُملةِ مُتَعلِّقًا بأحوالِ القُرآنِ مع الفَريقِ غَيرِ المُؤمِنِ، مِن غَيرِ تَكَلُّفٍ لِتَقديرِ جَعْلِ الجُملةِ خَبَرًا عنِ القُرآنِ. ويَجوزُ أنْ تَكونَ الجُملةُ خَبَرًا ثانيًا عن ضَميرِ الذِّكرِ، أيْ: القُرآنِ؛ فتكونَ مِن مَقولِ القَولِ، وكذلك جُملةُ ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾[٣].

- والإخبارُ عن القُرآنِ بأنَّه ﴿وَقۡرٞ﴾ و﴿عَمًى﴾ تَشْبيهٌ بَليغٌ، ووَجْهُ الشَّبَهِ هو عَدَمُ الانتِفاعِ به مع سَماعِ ألفاظِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٥، ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣١٦).

- وفي قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ أخبرَ أنَّه ﴿عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ يَمنَعُهم مِن إبصارِ حِكمَتِه، والنَّظَرِ في مَعانيهِ، والتَّقريرِ لِآياتِه، وجاءَ بلَفظِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ الدَّالِّ على استِيلاءِ العَمَى عليهم، وجاءَ في حَقِّ المُؤمِنينَ باللَّامِ الدَّالَّةِ على الاختِصاصِ ﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ ضَميرُ (هُوَ) ضَميرَ شَأنٍ؛ تَنبيهًا على فَظاعةِ ضَلالِهم، وجُملةُ ﴿عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ خَبَرَ ضَميرِ الشَّأنِ، أيْ: وأعظَمُ مِنَ الوَقرِ أنَّ علَيهم عَمًى، أيْ: على أبصارِهم عَمًى[2].

- وأيضًا قولُه: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ مِن الاحتِباكِ[3]؛ حيثُ ذكَرَ الهُدى والشِّفاءَ أوَّلًا دَليلًا على الضَّلالِ والدَّاءِ ثانيًا، وذَكَر الوَقْرَ والعَمى ثانيًا دَليلًا على السَّمْعِ والبصائرِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك: أنَّه ذكَرَ أمدَحَ صِفاتِ المؤمنينَ، وأذَمَّ صِفاتِ الكافرينَ؛ لأنَّه لا أحقَرَ مِن أصَمَّ أعْمَى[4].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ إشارةٌ إلى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ...﴾؛ لِقَصدِ التَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم بَعدَ تلك الأوصافِ أحْرياءُ بما سَيُذكَرُ بَعدَها مِنَ الحُكمِ مِن أجْلِها، وما في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ مع قُربِ العَهدِ بالمُشارِ إليه؛ لِلإيذانِ ببُعدِ مَنزِلَتِه في الشَّرِّ، معَ ما فيه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٦).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٧).

مِن كَمالِ المُناسَبةِ لِلنِّداءِ مِن بَعيدٍ[١].

- وفي قَولِه: ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ تَمثيلٌ لِحالِ إعراضِ الكَافِرينَ عنِ الدَّعوةِ عِندَ سَماعِها، بحالِ مَن يُنادَى مِن مَكانٍ بَعيدٍ لا يَبلُغُ إليه في مِثلِه صَوتُ المُنادي، يَعني: أنَّهم لا يَقبَلونَ الهُدَى، ولا يُرْعُونَه أسماعَهم، فمَثَلُهم في ذلك مَثَلُ مَن يُصَيَّحُ به مِن مَسافةٍ شاطَّةٍ لا يُسمَعُ مِن مِثلِها الصَّوتُ، فلا يَسمَعُ النِّداءَ، وتَقولُ العَرَبُ لِمَن لا يَفهَمُ: أنتَ تُنادَى مِن مَكانٍ بَعيدٍ، أيْ: كأنَّه يُنادَى مِن مَوضِعٍ بَعيدٍ، فهو لا يَسمَعُ النِّداءَ ولا يَفهَمُه[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ؛ مَسوقٌ لِبَيانِ أنَّ الاختِلافَ في شَأنِ الكُتُبِ عادةٌ قَديمةٌ لِلأُمَمِ، غَيرُ مُختَصٍّ بقَومِكَ[٣]. وهو اعتراضٌ بتَسليةٍ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تَكذيبِ المُشرِكينَ وكُفرِهم بالقُرآنِ بأنَّه ليس بأوحَدَ في ذلك؛ فقد أُوتيَ مُوسى التَّوراةَ، فاختَلَف الَّذين دَعاهم في ذلك؛ فمِنهم مَن آمَنَ به، ومنهم مَن كَفَر[٤].

- قولُه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ الكَلِمةُ السَّابِقةُ هي العِدَةُ بالقِيامةِ، وأنَّ الخُصوماتِ تُفصَلُ في ذلك اليَومِ، وهذا إشارةٌ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٦، ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٣، ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٧).

أنَّ هذا القَولَ واردٌ على سَبيلِ التَّخَلُّصِ إلى ذِكرِ القِيامةِ، وهو قولُه تعالَى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧]، والتَّسليةِ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنِ اختِلافِ قَومِه في القُرآنِ، وطَعنِ الطَّاعِنينَ المُتَعنِّتينَ فيه؛ ولذلك أُتيَ بذِكرِ مُوسى عليه السَّلامُ واختِلافِ قَومِه في كِتابِه[١].

- التَّعبيرُ عنِ الجَلالةِ بلَفظِ ﴿رَّبِّكَ﴾ في قولِه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ لِمَا في مَعنى الرَّبِّ مِنَ الرَّأفةِ به، والانتِصارِ له، ولِمَا في الإضافةِ إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ التَّشريفِ، وكِلا الأمْرَيْنِ تَعزيزٌ لِلتَّسليةِ. ويجوزُ جَعْلُ كَلِمةِ (بَينَ) دالَّةً على أُخرى مُقَدَّرةٍ، على سَبيلِ إيجازِ الحَذفِ، والتَّقديرُ: بيْنَهم وبيْنَ المُؤمِنينَ، أيْ: بما يَظهَرُ به انتِصارُ المُؤمِنينَ؛ فإنَّه يَكثُرُ أنْ يُقالَ: بيْنَ كذا وبيْنَ كذا[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَه هنا هكذا، وقاله في سُورةِ (الشُّورى): ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى: ١٤] بزيادةِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ لِمُوافقَتِه هناك في (الشُّورَى) لسِياقِ الآيةِ، حيثُ قال في أوَّلِها: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾، أي: القرآنُ والآياتُ الَّتي أوقعتِ العِلمَ بصِحَّةِ ما جاءَ به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ و(مِن) لابتداءِ الغايةِ؛ فلمَّا ذَكَر مَبدَأَ كُفرِ الَّذين تَفَرَّقوا في الدِّينِ، وهو مَجِيءُ العِلْمِ بالتَّوحيدِ؛ حَسُنَ ذِكرُ النِّهايةِ الَّتي أُمْهِلوا

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٨).

إليها؛ ليكُونَ محدودًا مِنَ الطَّرَفَيْنِ، بخِلافِ ما هنا في سُورةِ (فُصِّلت)[١].

- و﴿مُرِيبٍ﴾ تأكيدٌ لمعنَى ﴿لَفِي شَكٍّ﴾، والمُريبُ: المُوقِعُ في الرَّيبِ، وهو مرادفُ الشَّكِّ، فوصفُ الشكِّ بالمُريبِ مِن تأكيدِ ماهيَّتِه، ولإفادةِ المبالغةِ، كقولِهم: شعرٌ شاعرٌ، وليلٌ أليلُ، أو ليلٌ داجٍ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ مِن مُكَمِّلاتِ التَّسليةِ، ومِن مُناسَباتِ ذِكرِ الأجَلِ المُسَمَّى، وفيه مَعنى التَّذييلِ؛ لِأنَّ ﴿مَّنْ﴾ في المَوضِعَيْنِ مُفيدةٌ لِلعُمومِ، سَواءٌ اعتُبِرتْ شَرطيَّةً أو مَوصولةً، والمَعنى: أنَّ الإمهالَ إعذارٌ لهم؛ لِيَتَدارَكوا أمْرَهم[٣].

- وحَرفُ (على) مُؤذِنٌ بمُؤاخَذةٍ، وتَحَمُّلِ أعباءٍ، كما أنَّ اللَّامَ في قَولِه: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ مُؤذِنٌ بالعَطاءِ[٤].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والتَّعبيرُ عنِ الجَلالةِ بلَفظِ ﴿رَبُّكَ﴾؛ لِمَا في مَعنى الرَّبِّ مِنَ الرَّأفةِ به، والانتِصارِ له، ولِمَا في الإضافةِ إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ التَّشريفِ، وكِلا الأمْرَيْنِ تَعزيزٌ لِلتَّسليةِ[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقَرِّرٌ لِمَضمونِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل)) للإسكافي (ص: ١١٥١)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٦، ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٨) و(٢٤/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣١٨، ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما قَبْلَه[١].

- وجاءت صِيغةُ المُبالَغةِ ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ -مع أنَّ نفْيَ المُبالَغةِ لا يَستلزِمُ نفْيَ الفِعلِ مِن أصلِه، والمرادُ بنَفْيِ المُبالَغةِ هو نفْيُ الظُّلْمِ مِن أصلِه-؛ لكَثرةِ العَبيدِ؛ فاللهُ جلَّ وعلَا نفَى ظُلْمَه للعبيدِ، والعبيدُ في غايةِ الكثرةِ، والظُّلمُ المنفيُّ عنهم تَستلزِمُ كَثْرتُهم كَثْرتَه؛ فناسَب ذلك الإتيانُ بصِيغةِ المُبالَغةِ؛ للدَّلالةِ على كَثرةِ المَنفيِّ التَّابعةِ لكَثرةِ العبيدِ المنفيِّ عنهم الظُّلمُ؛ إذ لو وقَع على كلِّ عبدٍ ظُلمٌ، ولو قليلًا، كان مجموعُ ذلك الظُّلْمِ في غايةِ الكَثرةِ؛ فالمرادُ بذلك نفْيُ أصْلِ الظُّلمِ عن كُلِّ عَبدٍ مِن أولئك العَبيدِ، الَّذين هم في غايةِ الكثرة، سُبحانَه وتعالى عن أنْ يَظلِمَ أحدًا شيئًا[٢].

وقيل: نفْيُ صِيغةِ المُبالَغةِ إذا دلَّتْ أدِلَّةٌ مُنفصِلةٌ على أنَّ المُرادَ به نفْيُ أصْلِ الفِعلِ؛ فلا إشكالَ؛ لقِيامِ الدَّليلِ على المرادِ، والآياتُ الدَّالَّةُ على نفْيِ الظُّلمِ مِن أصلِه عن اللهِ تعالى كثيرةٌ معروفةٌ؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ...﴾ [النساء: ٤٠]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، وغيرِ ذلك من الآياتِ. أو يكون المسَوِّغُ لصِيغةِ المُبالَغةِ أنَّ عذابَه تعالَى بالغٌ مِن العِظَمِ والشِّدَّةِ أنَّه لولا استِحقاقُ المعذَّبينَ لذلك العذابِ بكُفرِهم ومَعاصيهم لَكان مُعذِّبُهم به ظَلَّامًا بليغَ الظُّلمِ مُتفاقِمَه، سُبحانَه وتعالى عن ذلك عُلوًّا كَبيرًا. أو يكون المرادُ بالنَّفيِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ نفْيَ نِسبةِ الظُّلمِ إليه؛ لأنَّ صِيغةَ (فَعَّال) تُستعمَلُ مُرادًا بها النِّسبةُ؛ فتُغْني عن ياءِ النَّسبِ؛ فقولُه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي: وما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢١) و(٦/ ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣١-٣٣).

رَبُّكَ بذِي ظُلمٍ للعَبيدِ[١]. وقيل: صِيغةُ المُبالَغةِ (ظلَّام) تَقْتضي بظاهِرِها نَفْيَ الظُّلمِ الشَّديدِ، والمقصودُ: أنَّ الظُّلمَ مِن حَيثُ هو ظُلْمٌ أمْرٌ شَديدٌ؛ فصِيغَتْ له زِنَةُ المُبالَغةِ[٢]. وقيل غيرُ ذلك[٣].

- وعبَّر بـ(عبيد) دونَ (عباد)؛ لأنَّه موضعُ إشفاقٍ وإعلامٍ بضَعفٍ وعدَمِ قُدرةٍ على انتصارٍ، و(عباد) يدُلُّ على طاعةٍ وعدمِ حقارةٍ، بل إكرامٍ، هذا أغلبُ الاستعمالِ[٤].

وقيل: مدلولُ (عبيد) هو مدلولُ (عباد) سواءٌ، وحَسُنَ مجيءُ (عبيد) هنا لتَواخي الفواصلِ، ألَا ترى أنَّ قبْلَه ﴿بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وبعدَه: ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾[٥] [فصلت: ٤٧].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣١-٣٣)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ١١٧، ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٤٧٠، ٤٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٧٤، ٢٧٥).

الآيات (٤٧-٥١)

﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَكۡمَامِهَا﴾: أي: أوعِيَتِها، وأصلُ (كمم): يدُلُّ على غِشاءٍ وغِطاءٍ[1].

﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾: أي: أعلَمْناك، وأصلُ (أذن): يدُلُّ على عِلمٍ[2].

﴿مَّحِيصٖ﴾: أي: مَهرَبٍ، وأصلُ (حيص): يدُلُّ على المَيلِ في جَورٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧، ٨٨٢).

﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾: أي: لا يملُّ، والسَّآمةُ: الملَلُ والضَّجرُ[١].

﴿فَيَـُٔوسٌ﴾: أي: يائِسٌ مِنَ الرَّحمةِ، وأصلُ اليأسِ: انتِفاءُ الطَّمَعِ[٢].

﴿قَنُوطٌ﴾: القُنوطُ: اليأسُ مِن الخَيرِ، وقيل: أتمُّ اليأسِ، وقيل: أشَدُّ اليأْسِ، وقيل: القُنوطُ أنْ يَظْهَرَ آثارُ اليأسِ في الوجهِ والأحوالِ الظَّاهرةِ، وأصلُ (قنط): يدُلُّ على اليأسِ مِن الشَّيءِ[٣].

﴿ضَرَّآءَ﴾: أي: شِدَّةٍ وبَلاءٍ وضُرٍّ، والضَّرَّاءُ كذلك: سوءُ الحالِ، والفَقْرُ والقَحْطُ. والضُّرُّ: خِلافُ النَّفْعِ[٤].

﴿وَنَـَٔا﴾: أي: تَباعَدَ، وأصلُ النَّأيِ: يدُلُّ على البُعدِ[٥].

﴿بِجَانِبِهِۦ﴾: أي: بنَفْسِه وناحِيَتِه، وأصلُ (جنب): يدُلُّ على ناحيةٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٣، ٥٠٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢، ١٢٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، =

﴿عَرِيضٍ﴾: أي: كَثيرٍ، والعَرَبُ تَستَعمِلُ الطُّولَ والعَرْضَ في الكَثرةِ، يُقالُ: أطالَ فُلانٌ الكَلامَ والدُّعاءَ وأعرَضَ، أي: أكثَرَ، وأصلُ (عرض): يدُلُّ على خِلافِ الطُّولِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى انفرادَه بعِلمِ وقتِ قيامِ السَّاعةِ، ويُقرِّرُ سَعةَ عِلمِه وإحاطتَه، فيقولُ: إلى اللهِ وَحْدَه يُرجَعُ عِلمُ القيامةِ، فلا يَعلَمُ وَقتَها غَيرُه سُبحانَه، وما تَخرُجُ ثَمرةٌ مِن الثَّمَراتِ مِن أوعِيَتِها إلَّا هو يَعلَمُها سُبحانَه، وما تَحمِلُ أُنثى حَملًا ولا تَضَعُه إلَّا بعِلمِ اللهِ سُبحانَه.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه مشهدًا مِن مَشاهِدِ يومِ القيامةِ، فيه يَتبرَّأُ المشركونَ مِن آلهتِهم، فيقولُ: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ: أين شُرَكائيَ الَّذين كُنتُم تَزعُمونَهم؟! فأجاب المُشرِكونَ رَبَّهم: أعلَمْناك اليَومَ رَبَّنا أنْ ليس مِنَّا مَن يَشهَدُ أنَّ لك شَريكًا! وغاب عن المُشرِكينَ يَومَ القيامةِ آلِهتُهم الَّتي كانوا يَدْعُونَها في الدُّنيا، فلم يَنفَعوهم بشَيءٍ، وظَنُّوا أنَّهم لا فِرارَ ولا مَهْرَبَ لهم مِن عَذابِ اللهِ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى أحوالَ الإنسانِ في الشِّدَّةِ والرَّخاءِ: لا يَمَلُّ الإنسانُ مِن سُؤالِ رَبِّه خَيرًا مِن مالٍ وصِحَّةٍ وغَيرِ ذلك، وإنْ أصابَه شَرٌّ ما فهو يَؤُوسٌ قَنوطٌ مِن رَحمةِ رَبِّه، ولَئِنْ أنعَمْنا عليه بنِعمةٍ بعدَ الشِّدَّةِ والضُّرِّ الَّذي أصابه لَيَقولَنَّ بغُرورٍ: أنا أهلٌ لهذا الخَيرِ مُستَحِقٌّ له، وما أظُنُّ القيامةَ تَقومُ، وعلى فَرْضِ قيامِ

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٧).

القيامةِ ورُجوعي إلى اللهِ فسَيُدخِلُني الجنَّةَ! فلَنُخبِرَنَّ يومَ القيامةِ أولئك الكافِرينَ بما عَمِلوه في الدُّنيا، ولَنُذيقَنَّهم مِن عذابٍ شَديدٍ.

وإذا أنعَمْنا على الإنسانِ بنِعمةٍ ما أعرَض عن عبادةِ رَبِّه وشُكْرِه تعالى، وتكبَّرَ عن الانقيادِ إلى رَبِّه، وإذا أصابه شَرٌّ ما فهو ذو دُعاءٍ كثيرٍ وتضَرُّعٍ إلى اللهِ؛ لِيَكشِفَ عنه ضُرَّه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ٤٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

كان المُشرِكونَ إذا أُنذِروا بالبَعثِ وساعَتِه، استَهزَؤوا فسَألوا عن وَقتِها، وكان ذلك مِمَّا يَتكَرَّرُ منهم؛ فلمَّا جَرى ذِكرُ دَليلِ إحياءِ المَوتى، وذِكْرُ إلْحادِ المُشركينَ في دَلالتِه بسُؤالِهم عنها استِهزاءً؛ انتَقَل الكَلامُ إلى حِكايةِ سُؤالِهم؛ تَمهيدًا لِلجَوابِ عن ظاهِرِه[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ الآيةَ [فصلت: ٤٦]، كان في ذلك دَلالةٌ على الجَزاءِ يومَ القيامةِ، وكأنَّ سائِلًا قال: ومتى ذلك؟ فقيل: لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ تعالى، ومَن سُئِلَ عنها فليس عندَه عِلمٌ بتَعْيينِ وَقتِها، وإنَّما يُرَدُّ ذلك إلى اللهِ تعالى[2].

﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٤).

أي: إلى اللهِ وَحْدَه يُرجَعُ عِلمُ وَقتِ مَجيءِ القِيامةِ؛ فلا يَعلَمُ وَقتَها إلَّا اللهُ وَحْدَه[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه في حَديثِ جِبريلَ الطَّويلِ، قال: متى السَّاعةُ؟ قال: ((ما المَسؤولُ عنها بأعلَمَ مِنَ السَّائِلِ))[٢].

﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾.

أي: وما تَبرُزُ في وَقتٍ مِن الأوقاتِ أيُّ ثَمَرةٍ مِنَ الثَّمَراتِ مِن أوعِيَتِها وظُروفِها إلَّا يَعلَمُها اللهُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ [الرحمن: ١١].

﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾.

أي: وما تَحمِلُ أيُّ أُنثى مِن حَمْلٍ إلَّا بعِلمِ اللهِ تعالى، ولا تَضَعُ حَمْلَها إلَّا بعِلمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٣، ٢٩٤).

(٢) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٤، ٢٩٥).

اللهِ تعالى، لا يخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن ذلك[١].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾.

أي: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ، فيَقولُ لهم: أين شُرَكائيَ الَّذين كُنتُم في الدُّنيا تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لي في العبادةِ، وأنَّهم يَشفَعونَ لكم[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾.

أي: فأجاب المُشرِكونَ رَبَّهم قائِلينَ: أعلَمْناك -رَبَّنا- اليومَ بأنَّه ليس مِنَّا أحَدٌ يَشهَدُ أنَّ لك شَريكًا[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٣، ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٦).

قال ابنُ عطية: (الضَّميرُ في: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ ظاهِرُه والأسبَقُ فيه: أنَّه يُريدُ به الكُفَّارَ عَبَدَةَ الأوثانِ. ويحتمِلُ أن يريدَ به كُلَّ مَن عُبِدَ مِن دونِ اللهِ مِن إنسانٍ وغَيرِه، وفي هذا ضَعفٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأول: ابنُ جرير فقال: (ينادي الله هؤلاء المشركينَ به في الدُّنيا الأوثانَ والأصنامَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٥، ٤٥٦).

وممَّن ذكر أيضًا أنَّ الضَّميرَ يعودُ على المشركين، أي: يُنادي اللهُ المشركين: مكِّيٌّ، والواحديُّ، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، وابن كثير. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٥)، ((الوسيط)) =

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قرَّر جهْلَ المشركينَ؛ أتْبَعَه عَجْزَهم[1].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾.

= للواحدي (٤/ ٣٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧١، ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

ممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: آذَنَّاك الآنَ في يومِ القيامةِ: الثعلبيُّ، والواحدي، والزمخشري، والقرطبي، وابن جُزَي، وابن كثير، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

قال البقاعي: (﴿آذَنَّاكَ﴾ أي: أعلَمْناك سابِقًا بألسِنَةِ أحوالِنا، والآنَ بألسِنَةِ مَقالِنا، وفي كِلْتا الحالتَينِ أنت سامِعٌ لذلك؛ لأنَّك سامِعٌ لكُلِّ ما يُمكِنُ أن يُسمَعَ وإنْ لم يَسمَعْه غَيرُك). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢١٥).

وقال الرَّسْعَني: (﴿ءَاذَنَّكَ﴾ أعْلَمْناك بما عَلِمتَ مِن عقائدِنا الآنَ، أو يقولونَ ذلك وقد سبَق إعلامُهم به أوَّلَ ما سُئِلوا، ثمَّ أُعِيد عليهم السَّؤالُ توبيخًا وتقريعًا، فحكَى اللهُ تعالى ذلك عنهم، أو يكونُ ذلك إنشاءً للإيذانِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٣).

وقيل: يحتمِلُ أن يكونَ الشَّهيدُ بمعنى المُشاهِدِ، أي: المُبصِرِ، أي: ما أحَدٌ مِنَّا يَرى الَّذين كُنَّا ندعوهم شُرَكاءَك الآنَ، أي: لا نرى واحِدًا مِن الأصنامِ الَّتي كنَّا نَعبُدُها. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨).

وقيل: القائلونَ بذلك مَعبوداتُهم، فهم يَتبَرَّؤون منهم فيَقولون: ما مِنَّا مِن أحَدٍ يَشهَدُ بصِحَّةِ ما أضافوا إلينا مِنَ الشِّركةِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١).

قال القرطبي: (﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني: الأصنام. وقيل: المُشرِكونَ. ويحتمِلُ أن يُريدَهم جميعًا: العابِدَ والمَعبودَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٥).

أي: وغاب عن المُشرِكينَ يومَ القيامةِ آلِهتُهم الَّتي كانوا يَدْعُونَها مِن قبْلُ في الدُّنيا، فلم يَنفَعوهم، ولم يَنتَفِعوا بدُعائِهم لهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا * وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٢، ٥٣].

﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾.

أي: وظنُّوا أنَّهم ليس لهم فِرارٌ ولا مَهرَبٌ مِن عَذابِ اللهِ يَحيدُونَ إليه، أو أمرٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٠٠).

قال ابن جُزَي: (﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾، أي: ضلَّ عنهم شركاؤُهم، بمعنى أنَّهم لا يرونَهم حينَئذٍ، فـ «ما» على هذا موصولةٌ. أو: ضلَّ عنهم قولُهم الَّذي كانوا يقولونَ مِن الشركِ، فـ «ما» على هذا مَصدريَّةٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ﴾: آلهتُهم، فالمعنى أنَّها غابتْ عنهم فلم يُبصِروها ولم يَجِدوها: ابنُ جرير، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨).

قال البقاعي: (ولَمَّا كانت معبوداتُهم إمَّا ممَّن لا يَعقِلُ كالأصنامِ، وإمَّا في عِدادِ ذلك لكَونِهم لا فِعلَ لهم في الحقيقةِ؛ عبَّر عنهم بأداةِ ما لا يَعقِلُ، فقال: ﴿مَّا كَانُواْ﴾). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢١٥).

وقال ابن عاشور: (فالمرادُ به هنا: غَيْبةُ أصنامِهم عنهم، وعدمُ وُجودِها في تلك الحضرةِ، بقطعِ النَّظرِ عن كَونِها مُلْقاةً في جهنَّمَ، أو بقيتْ في العالَمِ الدُّنيويِّ حينَ فنائِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨).

وقيل: معنى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: نَسُوا ما كانوا يَقولونَ في الدُّنيا ويَدْعُونَ مِن الآلهةِ والأصنامِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١، ٧٥٢).

يُمَوِّهونَ به ويُراوِغونَ[١].

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى مِن حالِ هؤلاء الكُفَّارِ أنَّهم بعدَ أنْ كانوا مُصِرِّينَ على القَولِ بإثباتِ الشُّرَكاءِ والأضْدادِ لله في الدُّنيا، تبَرَّؤوا عن تلك الشُّرَكاءِ في الآخِرةِ؛ بيَّنَ أنَّ الإنسانَ في جميعِ الأوقاتِ مُتبَدِّلُ الأحوالِ، مُتغَيِّرُ المنهجِ؛ فإنْ أحَسَّ بخَيرٍ وقُدرةٍ انتَفَخ وتعَظَّم، وإن أحسَّ ببَلاءٍ ومِحنةٍ ذَبَلَ، إنْ رأى خيرًا تَدَلَّى، وإن رأى شرًّا تَوَلَّى، فقال[٢]:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾.

أي: لا يَمَلُّ الإنسانُ مِن سُؤالِ رَبِّه المالَ والصِّحَّةَ وغَيرَ ذلك مِن مَطالِبِ الدُّنيا، ولا يَزالُ يَطلُبُ الزِّيادةَ مِنها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨).

قال ابن عطية: (قوله: ﴿وَظَنُّوا۟﴾ يحتملُ أن يكونَ متَّصِلًا بما قبْلَه ويكونَ الوقفُ عليه، ويكونَ قولُه: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ استئنافَ نفيٍ أن يكونَ لهم منجى أو موضعُ روغانٍ... ويكون الظَّنُّ على هذا التَّأويلِ على بابِه، أي: ظنُّوا أن هذه المقالةَ: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ منجاةٌ لهم، أو أمرٌ يموِّهون به. ويحتملُ أن يكونَ الوقفُ في قَولِه: ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾، ويكونَ: ﴿وَظَنُّوا۟﴾ متَّصِلًا بقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: ظنُّوا ذلك، ويكون الظَّنُّ على هذا التَّأويلِ بمعنى اليقينِ، وبه فسَّر السُّدِّيُّ، وهذه عبارةٌ يُطلِقُها أهلُ اللِّسانِ على الظَّنِّ، ولستَ تجدُ ذلك إلَّا فيما عُلِم عِلمًا قويًّا، وتقرَّر في النَّفْسِ، ولم يَتلبَّسْ به بعدُ، وإلَّا فمتى تلبَّس بالشَّيءِ، وحصَل تحتَ إدراكِ الحواسِّ؛ فلَسْتَ تَجِدُهم يوقِعونَ عليه لفظةَ الظَّنِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٩، ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قَلْبُ الشَّيخِ شابٌّ على حُبِّ اثنتَينِ: طُولِ الحياةِ، وحُبِّ المالِ))(١).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لو كان لابنِ آدَمَ وادِيانِ مِن مالٍ لَابْتَغى ثالِثًا، ولا يَملأُ جَوفَ ابنِ آدمَ إلَّا التُّرابُ(٢)، ويَتوبُ اللهُ على مَن تاب))(٣).

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾.

أي: وإن نالَ الإنسانَ شِدَّةٌ وكَربٌ، مِن مَرَضٍ أو فَقرٍ أو غَيرِ ذلك؛ فهو ذو يأسٍ شَديدٍ مِن تفريجِ اللهِ عنه، قَنوطٌ مِن أن يَرحَمَه اللهُ(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً

= (٧/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩، ١٠).

(١) رواه البخاري (٦٤٢٠)، ومسلم (١٠٤٦) واللفظ له.

(٢) ولا يَملأُ جَوفَ ابنِ آدمَ إلَّا التُّرابُ: أي: لا يَزالُ حَريصًا على الدُّنيا حتَّى يموتَ، ويَمتلِئَ جَوفُه مِن ترابِ قَبرِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ١٣٩).

(٣) رواه البخاري (٦٤٣٦) واللفظ له، ومسلم (١٠٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠).

وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾.

أي: ولئن مَنَحْنا الإنسانَ نِعمةً وَخيرًا مِنَّا بعدَ الشِّدَّةِ والمحنةِ الَّتي أصابَتْه، لَيَقولَنَّ بغُرورٍ: أنا أهلٌ لهذا الخَيرِ ومُستَحِقٌّ له[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ [الزمر: ٤٩].

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

أي: وما أظُنُّ القيامةَ كائِنةً؛ فلَستُ على يقينٍ مِن وُقوعِ البَعثِ وحُصولِ الجَزاءِ[2].

---

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٤٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢).

قيل: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾: لأنَّ اللهَ راضٍ عنِّي برِضاه عن عَمَلي، وما أنا عليه مُقيمٌ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣).

وقيل: المعنى: هذا الخَيرُ حَقٌّ لي حَصَلتُ عليه بعِلْمي وسَعْيي وتَدبيري، ويَنسى فضْلَ اللهِ عليه، ولُطفَه به. وممَّن ذهب إلى هذا القول: ابنُ عطية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢).

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: وعلى فَرْضِ أنِّي رُدِدْتُ إلى ربِّي، وبُعِثْتُ بعدَ مَوتي، فستَكونُ لي الجنَّةُ[1]!

كما قال تعالى حِكايةً لِقَولِ صاحِبِ الجنَّتينِ: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾.

أي: فلَنُخبِرَنَّ يومَ القيامةِ هؤلاء الكافِرينَ بالَّذي عَمِلوه في الدُّنيا مِنَ السَّيِّئاتِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١٠).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالحُسنى الجنَّةُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والبغويُّ، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٦٦).

قيل: المعنى: كما أعطاني في الدُّنيا سيُعطيني في الآخرةِ. وقيل: إنَّه يقولُ ذلك استهزاءً. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٦٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالحُسنى الحالةُ الحسَنةُ: الرَّسْعَنيُّ، وأبو حيَّان، والبِقاعي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢).

وقال ابن جرير: (﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يقولُ: إنَّ لي عندَه غنًى ومالًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩).

وقال ابن كثير: (﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ولَئِنْ كان ثَمَّ مَعادٌ فلَيُحسِنَنَّ إلَيَّ ربِّي، كما أحسَنَ إلَيَّ في هذه الدَّارِ، يَتمَنَّى على الله عزَّ وجلَّ، معَ إساءَتِه العملَ، وعدمِ اليقينِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١١).

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

أي: ولَنُذِيقَنَّهم مِن عذابِ النَّارِ الشَّديدِ الإيلامِ[١].

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى أقوالَ الَّذي أنعَمَ عليه بعدَ وُقوعِه في الآفاتِ؛ حكَى أفعالَه أيضًا[٢].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى جَهْلَ الإنسانِ في حالاتٍ مَخصوصةٍ؛ باليأسِ عندَ مَسِّ الشَّرِّ، والأمْنِ عندَ ذَوقِ النِّعمةِ بعدَ الضُّرِّ؛ بيَّنَ حالَه عندَ النِّعمةِ مُطلقًا، ودُعاءَه عندَ الشَّرِّ وإن كان قانِطًا؛ تكريرًا لتقَلُّبِ أحوالِه، وتناقُضِ أقوالِه وأفعالِه، تَصريفًا لذلك على وُجوهٍ شَتَّى؛ لِيَكونَ داعيًا له إلى عَدَمِ الأَنَفةِ مِن الرُّجوعِ عن الكُفرِ إلى الإيمانِ[٣].

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾.

أي: وإذا أنعَمْنا على الإنسانِ بنِعمةٍ مِن رِزقٍ أو صِحَّةٍ، أعرَض عن عبادةِ اللهِ وشُكْرِه وَحْدَه، وترفَّعَ عن الانقيادِ إلى الحَقِّ وتكَبَّرَ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤، ١٥). =

كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾.

أي: وإذا نال الإنسانَ شَرٌّ مِن مَرَضٍ أو فَقرٍ، تضَرَّعَ إلى اللهِ واستغاثَ به؛ لِيَكشِفَ عنه ضُرَّه، وأطال الدُّعاءَ واستكثَرَ منه(١).

كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ [يونس: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٥٣، ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ [الزمر: ٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩، ٢٠].

= وقال ابن عثيمين في قوله تعالى: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: (أعرَض ببدنِه وبقلبِه مفتخرًا متعاظمًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤، ١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٢١، ٣٢٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ دَليلٌ أنَّ على المرءِ أنْ يَصبِرَ عندَ المصائبِ، ولا يَيأسَ مِن رَحمةِ ربِّه، ولا يُلهِيَه مَسُّ المُصيبةِ عن الذِّكْرِ والشُّكرِ؛ فإنَّ المصائبَ وإنْ كانت تَشُقُّ عليه فهي كَفَّاراتٌ، وعاقِبتُها كَراماتٌ، ومِن صفةِ المؤمِنِ أنْ يكونَ شَكورًا عندَ الشَّدائدِ والرَّخاءِ؛ فما مِن شِدَّةٍ إلَّا وفَوقَها شِدَّةٌ، فإذا بُلِيَ بأدوَنِها كان عليه الشُّكرُ في صَرفِ أرفَعِها والمعافاةِ منها، فمَن جَعَل موضِعَ الشُّكرِ القُنوطَ واليأسَ قَلَّ تَبَصُّرُه، وساء تَخَيُّرُه[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ وَصَف خُلُقَينِ ذَميمَينِ؛ أحَدُهما: خُلُقُ البَطَرِ بالنِّعمةِ، والغَفلةِ عن شُكرِ اللهِ عليها. وثانيهما: اليأسُ مِن رُجوعِ النِّعمةِ عندَ فَقْدِها[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ قَولُه: ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ يعني: أنَّه تيقَّنَ الضَّرَرَ ثمَّ جاءت الرَّحمةُ مِن عندِ اللهِ تعالى، وهذا أبلَغُ في النِّعمةِ: أنْ تأتيَ بعدَ الضَّرَرِ؛ لأنَّ النِّعمةَ الدَّائِمةَ لا يُحَسُّ بها، لكِنَّ النِّعمةَ الطَّارِئةَ بعدَ الضَّررِ هي الَّتي يُحَسُّ بها؛ ولهذا مَن لم يَذُقْ مَرارةَ المَرَضِ، فإنَّه لا يتذوَّقُ حَلاوةَ الصِّحَّةِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ فيه تَنبيهٌ أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يَشرَعَ في الدُّعاءِ عندَ التوقُّعِ، بل قَبْلَه؛ تعَرُّفًا إلى اللهِ تعالى في الرَّخاءِ،

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٠٨، ٣٠٩).

لِيَعرِفَه في الشِّدَّةِ، وهو خُلُقٌ شَريفٌ لا يَعرِفُه إلَّا أفرادٌ خَصَّهم اللهُ بلُطفِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أنَّ مَن ادَّعَى عِلمَ السَّاعةِ فهو كافرٌ؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ للهِ ورسولِه، وتكذيبُ اللهِ ورسولِه مِن أسبابِ الرِّدَّةِ، ومَن صَدَّقَه فهو كافرٌ أيضًا؛ لأنَّه صَدَّقَ ما هو تكذيبٌ للقرآنِ؛ ومَن صَدَّقَ ما هو تكذيبٌ للقرآنِ فإنَّه كافرٌ بلا شكٍّ[٢].

٢- قوله: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ وبعدَه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ لا منافاةَ بيْنَهما؛ لأنَّ معناه: يَئوسٌ قَنُوطٌ بالقلبِ، دَعَّاءٌ باللِّسانِ. وقيل: قَنُوطٌ مِن الصَّنمِ، دَعَّاءٌ لله. وقيل: الأوَّلُ في قَومٍ، والثَّاني في آخَرينَ. وقيل: الدُّعاءُ مذكورٌ في الآيتَينِ، وهو ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ في الأوَّلِ، و: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ في الثَّاني[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ سَمَّى النِّعمةَ رَحمةً؛ إذ هي مِن آثارِ رَحمةِ اللهِ تعالى[٤]، ورحمةُ اللهِ تبارك وتعالى نَوعانِ: رحمةٌ خاصَّةٌ، ورحمةٌ عامَّةٌ، فما به قِوامُ البَدَنِ هو مِن الرَّحمةِ العامَّةِ؛ لأنَّه يَشملُ المؤمنَ والكافرَ، والبَرَّ والفاجرَ، والإنسانَ والحيوانَ، وما به قِوامُ الدِّينِ فهو مِن الرَّحمةِ الخاصَّةِ، وهذا يَختصُّ بالمؤمنينَ[٥].

٤- قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١٢).

* وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ فأسنَدَ إلى نَفْسِه تعالى الخَيرَ في قَولِه: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ بعدَ أنْ ذكَرَ الشَّرَّ ولم يُسنِدْه إليه في قَولِه: ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ﴾؛ وأيضًا في قولِه: ﴿ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ تَعليمًا للأدَبِ[1] مع اللهِ، كما قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ...﴾ [الشعراء: ٧٨] إلخ، ثمَّ قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، فلم يَقُلْ: وإذا أمرَضَني[2].

٥- قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ اعْلَمْ أنَّ الإنسانَ مُتفاوتةٌ أفرادُه في هذا الخُلُقِ المَعزُوِّ إليه هنا، على تَفاوتِ أفرادِه في الغُرورِ، ولَمَّا كان أكثرُ النَّاسِ يَومَئذٍ المُشركينَ، كان هذا الخُلُقُ فاشيًا فيهمْ يَقْتضيهِ دِينُ الشِّركِ. ولا نظَرَ في الآيةِ لِمَن كان يومَئذٍ مِن المسلمينَ؛ لأنَّهمُ النَّادرُ، على أنَّ المُسلِمَ قد يُخامِرُه بعضُ هذا الخُلُقِ، وتَرتسِمُ فيه شِياتٌ منه، ولكنَّ إيمانَه يَصرِفُه عنه انصِرافًا بقَدْرِ قُوَّةِ إيمانِه، ومَعلومٌ أنَّه لا يَبلُغُ به إلى الحدِّ الَّذي يقولُ: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾، ولكنَّه قد تَجْري أعمالُ بعضِ المُسلمينَ على صُورةِ أعمالِ مَن لا يَظُنُّ أنَّ السَّاعةَ قائمةٌ، مِثلُ أولئك الَّذين يَأْتون السَّيِّئاتِ ثمَّ يَقولونَ: إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ، واللهُ غَنِيٌّ عن عَذابِنا، وإذا ذُكِرَ لهم يومُ الجزاءِ قالوا: ما ثَمَّ إلَّا الخيرُ، ونحوَ ذلك، فجَعَل اللهُ في هذه الآيةِ مَذَمَّةً لِلمُشركينَ، ومَوعِظةً لِلمُؤمِنينَ؛ كَمَدًا لِلأوَّلينَ، وانتِشالًا لِلآخرينَ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ أنَّ كلَّ شَيءٍ مُقَيَّدٌ محفوظٌ على الإنسانِ؛ يُؤخَذُ مِن قوله: ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾؛ فإنَّ «ما» اسمٌ موصولٌ تُفيدُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣).

العمومَ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أنَّ الإنسانَ يَعرِفُ مِن نَفْسِه الضَّعْفَ إذا أصابَه الضَّرَرُ، ويَلْجَأُ إلى اللهِ، حتَّى الكافرُ يَعرِفُ مِن نفْسِه الضَّعْفَ، ويَلْجأُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٨- قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ هذا وصْفٌ وتذكيرٌ بضَرْبٍ آخَرَ مِن طُغيانِ النَّفْسِ الإنسانيَّة، غيرِ خاصٍّ بأهلِ الشِّركِ، بل هو مُنبَثٌّ في جميعِ النَّاسِ على تفاوُتٍ، إلَّا مَن عصَم اللهُ، وهو توصيفٌ لِنَزَقِ النَّفْسِ الإنسانيِّ وقلَّةِ ثباتِه، فإذا أصابَتْه السَّرَّاءُ طغَى وتكبَّر، ونسِيَ شُكرَ ربِّه نسيانًا قليلًا أو كثيرًا، وشُغِل بلَذَّاتِه، وإذا أصابَتْه الضَّرَّاءُ لم يَصبِرْ، وجزِع، ولجأ إلى ربِّه، يُلِحُّ بسؤالِ كشفِ الضَّرَّاءِ عنه سريعًا، لم يَتذكَّرِ الإقبالَ على دعاءِ ربِّه إلَّا عندَما يَمَسُّه الشَّرُّ، وكان الشَّأنُ ألَّا يَغفلَ عن ذلك في حالِ النِّعمةِ، فيدعو بدوامِها، ويَشكُرُ ربَّه عليها، وقَبولِ شكرِه؛ لأنَّ تلك الحالةَ أولَى بالعنايةِ مِن حالةِ مسِّ الضُّرِّ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾

- قولُه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فيه تَقديمُ المَجرورِ في ﴿إِلَيْهِ﴾ على مُتَعلَّقِه؛ لِإفادةِ الحَصرِ، أيْ: إلى اللهِ يُفَوَّضُ عِلمُ السَّاعةِ، لا إلَيَّ؛ فهو قَصرُ قَلبٍ[٤]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤).

(٤) قصر القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامع، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ =

ورَدٌّ على المُستَهزِئينَ بالسَّاعةِ بطَريقِ الأُسلوبِ الحَكيمِ[١]، أيْ: الأجدَرُ أنْ تَعلَموا أنَّه لا يَعلَمُ أحَدٌ متى السَّاعةُ، وأنْ تُؤمِنوا بها، وتَستَعِدُّوا لها، والرَّدُّ: الإرجاعُ، وهو مُستَعمَلٌ لِتَفويضِ عِلْمِ ذلك إلى اللهِ، والتَّبَرُّؤِ مِن أنْ يَكونَ لِلمَسؤولِ عِلْمٌ به، فكَأنَّه جيءَ بالسُّؤالِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فرَدَّه إلى اللهِ[٢]. وهذا التَّقديمُ يَجوزُ أنْ يَكونَ إشارةً إلى جَوابِ مُنكِرٍ يَزعُمُ أنَّ عِلْمَ السَّاعةِ غَيرُ مُختَصٍّ باللهِ، فيُجابُ بالحَصرِ، أيْ: لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ، وأنْ يَكونَ جَوابًا عن مُتَرَدِّدٍ يَترَدَّدُ في ذلك، ويَشُكُّ فيه، فيُزالُ شَكُّه بقَولِه: اللهُ يَعلَمُ؛ لِإرادَتِه تَقَوِّي الحُكمِ المُستَلزِمِ لِلتَّخصيصِ؛ لِاختِصاصِ ذِكرِ الاسمِ الجامِعِ، وأنَّه تعالَى يَعلَمُه حَقًّا البَتَّةَ، فلا يَعلَمُ غَيرُه[٣].

- وعَطفُ جُملةِ ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ وما بَعدَها تَوجيهٌ لِصَرفِ العِلْمِ بوَقتِ السَّاعةِ إلى اللهِ، بذِكرِ نَظائِرَ لا يَعلَمُها النَّاسُ، وليس عِلْمُ السَّاعةِ بأقرَبَ منها؛ فإنَّها أُمورٌ مُشاهَدةٌ، ولا يَعلَمُ تَفصيلَ حالِها إلَّا اللهُ، أيْ: فليس في عَدَمِ العِلْمِ بوَقتِ السَّاعةِ حُجَّةٌ على تَكذيبِ مَن أنذَرَ بها؛ لِأنَّهم قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨]، أيْ: إنْ لم تُبَيِّنْ لنا وَقتَه فلَستَ

= أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ معيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).

(١) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأَولى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٠).

بصادِقٍ! فهذا وَجهُ ذِكرِ تلك النَّظائِرِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ عُدِلَ عن إعادةِ حَرفِ (ما) مَرَّةً أُخرى في قَولِه: ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾؛ لِلتَّفادي مِن ذِكرِ حَرفٍ واحِدٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ؛ لِأنَّ تَساويَ هذه المَنفيَّاتِ الثَّلاثةِ في عِلْمِ اللهِ تَعالى، وفي كَونِ أزمانِ حُصولِها سَواءٌ بالنِّسبةِ لِلحالِ ولِلاستِقبالِ[٢].

- وحَرفُ (مِنْ) بَعدَ مَدخُولَيْ (ما) في المَوضِعَيْنِ ﴿مِن ثَمَرَٰتٖ﴾ ﴿مِنۡ أُنثَىٰ﴾؛ لِإفادةِ عُمومِ النَّفيِ والاستِغراقِ[٣].

- قوله: ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾ لَمَّا كانَ ما يَخرُجُ مِن أكمامِ الشَّجَرةِ وما تَحمِلُ الإناثُ وتَضَعُه هو إيجادَ أشياءَ بَعدَ العَدَمِ، ناسَبَ أنْ يُذكَرَ مع عِلْمِ الساعةِ؛ إذْ في ذلك دَليلٌ على البَعثِ، إذْ هو إعادةٌ بَعدَ إعدامٍ، وناسَبَ ذِكرُ أحوالِ المُشرِكينَ في ذلك اليَومِ، وسُؤالُهم سُؤالَ التَّوبيخِ، فقالَ: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾، أيْ: الَّذين نَسَبْتُموهم إلَيَّ، وزَعَمْتُم أنَّهم شُرَكاءُ لي، وفي ذلك تَهَكُّمٌ بهم وتَقريعٌ[٤].

- قولُه: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾ عطْفٌ على الجُملةِ قبْلَها؛ فإنَّه لَمَّا تَضمَّن قولُه: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إبطالَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥، ٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٤).

شُبْهتِهم بأنَّ عدَمَ بَيانِ وقْتِها يدُلُّ على انتفاءِ حُصولِها، وأُتبِعَ ذلك بنَظائرَ لِوَقتِ السَّاعةِ ممَّا هو جارٍ في الدُّنيا دَومًا؛ عادَ الكَلامُ إلى شَأنِ السَّاعةِ على وَجهِ الإنذارِ، مُقتَضيًا إثباتَ وُقوعِ السَّاعةِ بذِكرِ بَعضِ ما يَلقَوْنَه في يَومِها[١].

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾ مَنصوبٌ بـ (اذكُرْ)، أو ظَرفٌ لِمُضمَرٍ مُؤَخَّرٍ قد حُذِف للتَّنبيهِ على كمالِ هَولِه، وفظاعةِ ما فيه، والإيذانِ بقُصورِ العبارةِ عن بيانِه، أي: يومَ يناديهم يكونُ مِن الأحوالِ والأهوالِ ما لا يَفي ببيانِه المقالُ[٢].

- وجُملةُ ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ يصِحُّ أنْ تكونَ مَقولَ قولٍ مَحذوفٍ، كما صُرِّحَ به في آيةٍ أُخرى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢، ٧٤]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وحذْفُ القولِ ليس بعَزيزٍ. ويصِحُّ أنْ تكونَ مُبيِّنةً لِمَا تَضمَّنَه ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ مِن معنى الكلامِ المُعلَنِ به[٣].

- وفي قولِه: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ تَهكُّمٌ بهم، وتَقريعٌ لهم[٤].

- قولُه: ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ جاءَتْ جُملةُ ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ غيرَ مَعطوفةٍ؛ لِأنَّها جاريةٌ على طَريقةِ حِكايةِ المُحاوَراتِ، وقَولُهم: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾؛ إمَّا لِأنَّ هذا التَّوبيخَ مَسبوقٌ بتَوبيخٍ آخَرَ مُجابٍ بهذا الجَوابِ، وهذا يَقتَضي أنَّه تعالَى قد سألَ عنهم بمِثلِ هذا السُّؤالِ قبْلَ ذلك، وأنَّهم أجابوه بمِثلِ هذا الجَوابِ ثمَّ أعادَه عليهم، أو لِأنَّ مَعناهُ أنَّكَ عَلِمتَ مِن قُلوبِنا وعَقائِدِنا الآنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨) و (٨/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٤، ٣١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨).

أنَّا لا نَشهَدُ تلكَ الشَّهادةَ الباطِلةَ؛ لِأنَّه إذا عَلِمَه مِن نُفوسِهم فكَأنَّهم أعلَمُوه، أو لِأنَّ مَعناهُ الإنشاءُ، لا الإخبارُ بإيذانٍ قد كان قبْلَ ذلكَ، كما تَقولُ: أعْلِم المَلِكَ إنَّه كان مِنَ الأمْرِ كَيْتَ وكَيْتَ. وقد سُئِلوا مَرَّةً أُخرى؛ لِأنَّه يَجوزُ أنْ يُعادَ عليهم ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾؛ إعادةً لِلتَّوبيخِ، وإعادَتُه في القُرآنِ على سَبيلِ الحِكايةِ: دَليلٌ على إعادةِ المَحكيِّ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

- قولُه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ لِلشُّروعِ في وَصفِ الإنسانِ في حالَتَيْ شِدَّتِه ورَخائِه[2].

- وقولُه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ اعتِراضٌ بيْن أجزاءِ الوَعيدِ، وقد كانوا إذا أصابَتْهم نَعماءُ كَذَّبوا بقيامِ الساعةِ؛ فجُملةُ ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ إلى قَولِه: ﴿قَنُوطٌ﴾ تَمهيدٌ لِجُملةِ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ إلخ، ومَوقِعُ هذه الآياتِ عَقِبَ قَولِه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ يَقتَضي مُناسَبةً في النَّظمِ داعيةً إلى هذا الاعتِراضِ؛ فتلك قاضيةٌ بأنَّ الإنسانَ المُخبَرَ عنه بأنَّه لا يَسأمُ مِن دُعاءِ الخَيرِ، وما عُطِفَ عليه هو مِن صِنفِ النَّاسِ الَّذين جَرى ذِكرُ قَصَصِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٥).

قبْلَ هذه الآيةِ، وهم المُشركونَ، فإمَّا أنْ يكونَ المُرادُ فَريقًا مِن نَوعِ الإنسانِ، فيَكونَ تَعريفُ الإنسانِ تَعريفَ الجِنسِ العامِّ، لكنَّ عُمومَه عُرْفيٌّ بالقَرينةِ. وإمَّا أنْ يكونَ المُرادُ إنْسانًا مُعيَّنًا مِن هذا الصِّنفِ؛ فيَكونَ التَّعريفُ تَعريفَ العهْدِ. كما أنَّ الإخبارَ عن الإنسانِ بأنَّه يقولُ: (مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً) صَريحٌ أنَّ المُخبَرَ عنه مِن المُشركين مُعيَّنًا كان أو عامًّا عُمومًا عُرْفيًّا، وأيًّا ما كان فالإخبارُ عن إنسانٍ كافرٍ. ومَحمَلُ الكَلامِ البَليغِ يُرشِدُ إلى أنَّ إناطةَ هذه الأخبارِ بصِنفٍ مِنَ المُشركينَ أو بمُشركٍ مُعَيَّنٍ بعُنوانِ إنسانٍ؛ يُومِئُ بأنَّ لِلجِبلَّةِ الإنسانيَّةِ أثَرًا قَويًّا في الخُلُقِ الَّذي منه هذه العَقيدةُ، إلَّا مَن عَصَمَه اللهُ بوازِعِ الإيمانِ[1].

- قَولُه: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ اليَأسُ مِن صِفةِ القَلبِ، وبدَأ بصِفةِ القَلبِ؛ لأنَّها هي المؤثِّرةُ فيما يَظهَرُ على الصُّورةِ مِن الانكسارِ[2].

- ولم يَذكُرْ هنا أنَّه ذو دعاءٍ لِلَّهِ، كما ذَكَر في قولِه الآتي: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]؛ قيل: لِأنَّ المَقصودَ أهلُ الشِّركِ، وهمْ إنَّما يَنصَرِفونَ إلى أصنامِهم[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾، ولمْ يُقيِّدْ مسَّ الشَّرِّ بلْ أطلَقَه؛ فلمْ يَذكُرْ (إذا) الَّتي تُفيدُ تَحقُّقَ الوُقوعِ، بل اقترَنَ شَرْطُ مَسِّ الشَّرِّ هنا بحَرفِ (إنْ) الَّتي مِن شَأنِها أنْ تَدخُلَ على النَّادِرِ وُقوعُه؛ فإنَّ إصابةَ الشَّرِّ الإنسانَ نادِرةٌ بالنِّسبةِ لِمَا هو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠).

مَغمورٌ به مِنَ النِّعَمِ. ولَمَّا قيَّدَه بالبحرِ الَّذي هو مُتحقِّقٌ فيه ذلك أتَى بأداةِ (إذا) ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]؛ لأنَّ مَسَّ الضُّرِّ لهم في البَحرِ مُحقَّقٌ(١).

- وقولُه: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ فيه وَصفٌ لِلجِنسِ بوَصفِ غالِبِ أفرادِه؛ لِمَا أنَّ اليَأْسَ مِن رَحمَتِه تعالَى لا يَتَأتَّى إلَّا مِنَ الكَافِرِ(٢).

- وأيضًا في نَظمِ هذه الآيةِ لَطائِفُ مِنَ البَلاغةِ؛ منها: التَّعبيرُ عن دَوامِ طَلَبِ النِّعمةِ بعَدَمِ السَّآمةِ. ومنها: التَّعبيرُ عن مَحبَّةِ الخَيرِ بدُعاءِ الخَيرِ. ومنها: التَّعبيرُ عن إضافةِ الضُّرِّ بالمَسِّ الَّذي هو أضعَفُ إحساسِ الإصابةِ؛ قالَ تَعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الزمر: ٦١]. ومنها: صِيغَتا المُبالَغةِ في ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾. ومنها: إتْباعُ (يَؤوسٌ) بـ (قَنوطٌ) الَّذي هو تَجاوُزُ إحساسِ اليَأْسِ إلى ظاهِرِ البَدَنِ بالانكِسارِ، وهو مِن شِدَّةِ يَأْسِه، فحَصَلَتْ مُبالَغَتانِ في التَّعبيرِ عن يَأْسِه بأنَّه اعتِقادٌ في ضَميرِه، وانفِعالٌ في سَحَناتِه؛ فالمُشرِكُ يَتأصَّلُ فيه هذا الخُلُقُ، ويَتَزايَدُ باستِمرارِ الزَّمانِ، والمُؤمِنُ لا تَزالُ تَربيةُ الإيمانِ تَكُفُّه عن هذا الخُلُقِ حتَّى يَزولَ منه أو يَكادَ(٣).

- وجاءَ قَولُ المُشرِكِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ على سَبيلِ الاستِهزاءِ مِن إمكانيَّةِ البَعثِ. وذِكرُ إنكارِ البَعثِ هنا إدماجٌ(٤) بذِكرِ أحوالِ

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (١/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

الإنسانِ المُشرِكِ في عُمومِ أحوالِ الإنسانِ[١].

- وأيضًا جِيءَ في حِكايةِ قولِه: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ﴾ بحَرْفِ (إن) الشَّرطيَّةِ الَّتي يَغلِبُ وُقوعُها في الشَّرطِ المشكوكِ وُقوعُه؛ لأنَّه جعَلَ رُجوعَه إلى اللهِ أمْرًا مَفروضًا ضَعيفَ الاحتمالِ[٢].

- وأمَّا دُخولُ اللَّامِ المُوَطِّئةِ لِلقَسَمِ في ﴿وَلَئِن﴾ فمَورِدُ التَّحقيقِ بالقَسَمِ هو حُصولُ الجَوابِ لو حَصَلَ الشَّرطُ، وكذلك التَّأكيدُ بحَرفِ (إنَّ) ولامِ الابتِداءِ، مَورِدُه هو جَوابُ الشَّرطِ، وكذلك تَقديمُ ﴿لِي﴾ و﴿عِندَهُۥ﴾ على اسمِ (إنَّ) هو لِتَقَوِّي تَرَتُّبِ الجَوابِ على الشَّرطِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ قيل: الحُسْنى: صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ، أيْ: الحالةُ الحُسْنى، أوِ المُعامَلةُ الحُسْنى. وقيل: الحُسْنى صارَتِ اسمًا لِلإحسانِ الكثيرِ؛ أخذًا مِن صِيغةِ التَّفضيلِ[٤].

- قولُه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ [فصلت: ٤٧] وما اتَّصَلَ بها، أي: فلَنُعْلِمَنَّهم بما عَمِلوا عِلمًا يَعلَمون به أنَّا لا يَخْفَى علينا شَيءٌ ممَّا عَمِلوه، وتَقريعًا لهم، وقَولُه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ هو المَقصودُ مِنَ التَّقريعِ[٥].

- وقولُه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ كِنايةٌ عَن جَزائِهم بأعْمالِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣).

السَّيِّئة[١].

- والتَّعبيرُ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ، وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (ولَنُنَبِّئَنَّهم بما عَمِلوا)؛ فعُدِلَ إلى المَوصولِ وصِلتِه؛ لِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن عِلَّةِ استِحقاقِهِمُ الإنباءَ بما عَمِلوا، وإذاقةَ العَذابِ[٢]، ولبَيانِ العُمومِ، يعني: أنَّ هذا الوعيدَ ليس لهذا الرَّجُلِ وحْدَه؛ بلْ لكلِّ كافرٍ[٣].

- في قولِه: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ كَنَّى بغَليظِ العَذابِ عن شِدَّتِه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ هذا وَصفٌ وتَذكيرٌ بضَرْبٍ آخَرَ مِن طُغيانِ النَّفْسِ الإنسانيَّةِ غَيرِ خاصٍّ بأهلِ الشِّركِ، وهو تَوصيفٌ لِنَزَقِ النَّفْسِ الإنسانيِّ وقِلَّةِ ثَباتِه، وأمَّا ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ إلى قولِه: ﴿لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥٠]، فهو وَصفٌ لِضَرْبٍ آخَرَ أشَدَّ، وهو خاصٌّ بأهْلِ الشِّركِ؛ لِمَا وقَعَ فيه مِن قولِه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ [الكهف: ٣٦]؛ فليس قَولُه: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ إلخ تَكريرًا مع قَولِه: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [فصلت: ٤٩] الآيةَ؛ فهذا التَّفَنُّنُ في وَصفِ أحوالِ الإنسانِ مع رَبِّه هو الَّذي دَعا إلى ما اشتَمَلَ عليه قَولُه: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا﴾ مِن بَعضِ التَّكريرِ لِما ذُكِرَ في الضَّربِ المُتَقدِّمِ؛ لِزيادةِ تَقريرِه، ولِلإشارةِ إلى اختِلافِ الحالَتَيْنِ؛ باعتِبارِ الشِّركِ وعَدَمِه مع اتِّحادِهما في مَثارِ الجِبِلَّةِ الإنسانيَّةِ، وباعتِبارِ ما قَدَّرَه اللهُ لِلإنسانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤).

- ومُتعلَّقُ فِعلِ ﴿أَعۡرَضَ﴾ مَحذوفٌ؛ لِدَلالةِ السِّياقِ عليه، والتَّقديرُ: أعرَضَ عن دُعائِنا[١].

- قولُه: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ المَعنى: أبْعَدَ جانِبَه، كِنايةً عن إبعادِ نَفْسِه عنِ الدُّعاءِ؛ تَكَبُّرًا وتَعاظُمًا، ووَلَّى مُعرِضًا غَيرَ مُلتَفِتٍ بوَجهِه إلى الشَّيءِ الَّذي ابتعَدَ هو عنه[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ كِنايةٌ؛ للتَّعظيمِ إذا أُرِيدَ بالجانبِ النَّفْسُ، أو مِن بابِ الرَّمْزِ إذا أُرِيدَ بالجانبِ العِطْفُ، ويكونُ عبارةً عن الانحرافِ، ومَرْجِعُه أيضًا إلى التَّكبُّرِ والخُيَلاءِ؛ لأنَّ المُتكبِّرَ لا يَخْلو مِن تلك الحَرَكاتِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾ [الإسراء: ٨٣] أتَى بـ (إذا) المُشعِرةِ بتَحقيقِ الوُقوعِ المُستلزِمِ لِليأْسِ؛ فإنَّ اليأْسَ إنَّما حصَلَ عندَ تَحقُّقِ مَسِّ الشَّرِّ له؛ فكان الإتيانُ بـ (إذا) هاهنا أدَلَّ على المعنى المقصودِ مِن (إنْ)، بخِلافِ قولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾؛ فإنَّه بقِلَّةِ صَبْرِه وضَعْفِ احتمالِه، متى تَوقَّعَ الشَّرَّ أعرَضَ، وأطال في الدُّعاءِ، فإذا تَحقَّقَ وُقوعَه كان يَؤوسًا[٤].

- وقيل: عَبَّرَ في جانِبِ الشَّرِّ بأداةِ التَّحقيقِ -على غيرِ عادةِ القُرآنِ في الأغلَبِ-؛ لِيَدُلَّ على أنَّه لزِيادةِ جَهلِه على الحَدِّ يَلزَمُ الكِبْرَ وإنْ كان يَتوقَّعُ الشَّرَّ، ولا يَزالُ حالُه حالَ الآمِنِ إلى أن يُخالِطَه، وحينَئذٍ تَنحَلُّ عُراه وتَضمَحِلُّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٤٧، ٤٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٢).

- قولُه: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ شُبِّهَ الدُّعاءُ المُتَكرِّرُ المُلَحُّ فيه بالثَّوبِ أو المَكانِ العَريضِ، وهو أبلَغُ مِن الطَّويلِ؛ إذ الطُّولُ أطولُ الامتدادَينِ، فإذا كان عَرضُه كذلك فما ظَنُّكَ بطُولِه[1]؟!

- وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (فَداعٍ) إلى ﴿فَذُو دُعَآءٍ﴾؛ لِمَا تُشعِرُ به كَلِمةُ (ذو) مِن مُلازَمةِ الدُّعاءِ له، وتَمَلُّكِه منه[2].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ مِن الاحتباكِ[3]، حيثُ ذُكِرَ الإنعامُ أوَّلًا دليلًا على الانتقامِ ثانيًا، وذُكِرَ الشَّرُّ ثانيًا دَليلًا على الخيرِ أوَّلًا، وسِرُّه: تَعليمُ الأدَبِ بنِسبةِ الإنعامِ دونَ الشَّرِّ إليه، وإنْ كان الكلُّ منه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٢).

الآيات (٥٢-٥٤)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شِقَاقٍ﴾: أي: عَداوةٍ ومُبايَنةٍ ومُخالَفةٍ، وأصلُ الشِّقاقِ: الانصِداعُ[1].

﴿ٱلْءَافَاقِ﴾: أي: النَّواحي والأطرافِ، وأصلُ (أفق): يدُلُّ على تَباعُدِ ما بيْنَ أطرافِ الشَّيءِ واتِّساعِه[2].

﴿مِرْيَةٍ﴾: أي: شَكٍّ، والمِرْيةُ كذلك: التَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهو أخَصُّ مِنَ الشَّكِّ[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾

قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ فيه وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ الباءَ في ﴿بِرَبِّكَ﴾ مَزيدةٌ في الفاعِلِ للتَّأكيدِ، و(ربك) فاعِلُ ﴿يَكْفِ﴾ مرفوعٌ مَحَلًّا مَجرورٌ لَفظًا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤، ٣٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

بالباءِ. والمفعولُ مَحذوفٌ، والمصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ مِنْ (ربك) فيكونُ مَرفوعَ المحلِّ، مَجرورَ اللَّفظِ مِثلَه، أو يكونُ المَصدَرُ المُؤَوَّلُ في مَحَلِّ جرٍّ بباءٍ محذوفةٍ، والتَّقديرُ عليهما: أولَمَ يَكفِك ربُّك شَهادتُه، أو بأنَّه على كلِّ شَيءٍ شَهيدٌ. الثَّاني: أنَّ الباءَ في ﴿بِرَبِّكَ﴾ مَزيدةٌ في المفعولِ، و (ربك) مَفعولٌ مُقَدَّمٌ لـ ﴿يَكۡفِ﴾ مَنصوبٌ مَحَلًّا مَجرورٌ لَفظًا بالباءِ، والمصدَرُ المؤَوَّلُ ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ فاعلٌ مُؤَخَّرٌ، أي: أوَلَم يكْفِ ربَّك شَهادتُه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يوبِّخَ هؤلاءِ الكافرينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: أخبِرُوني إن كان هذا القُرآنُ حَقًّا مِن عندِ اللهِ ثمَّ كَفَرْتُم به، فمَن أشَدُّ ضَلالًا وبُعدًا عن الحَقِّ منكم؟!

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ حِكمتَه قد اقتضَتْ أنْ يُطلِعَ النَّاسَ على دَلائلِ وحدانيَّتِه، وصدقِ رسولِه، وأنَّ القرآنَ حقٌّ، فيقولُ: سنُري أولئك الكافِرينَ آياتِنا في الآفاقِ والنَّواحي، وفي أنفُسِهم؛ حتَّى يَتبيَّنَ لهم أنَّ القُرآنَ حَقٌّ. أوَلَم يَكْفِ برَبِّك -يا مُحمَّدُ- أنَّه شاهِدٌ على كُلِّ شَيءٍ؟!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى حقيقةَ أمرِ هؤلاءِ الكافرينَ، فيقولُ: ألَا إنَّ أولئك الكافِرينَ في شَكٍّ مِن بَعثِهم بعدَ مَوتِهم، ولقاءِ رَبِّهم، ألَا إنَّ اللهَ سُبحانَه مُحيطٌ بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا وقُدرةً.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ

(١) ينظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٣٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٥/ ١٥)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٣٠).

بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر الوَعيدَ العَظيمَ على الشِّركِ، وبيَّنَ أنَّ المُشركينَ يَرجِعونَ عن القَولِ بالشِّركِ في يومِ القيامةِ، ويُظهِرونَ مِن أنفُسِهم الذِّلَّةَ والخُضوعَ بسَبَبِ استيلاءِ الخَوفِ عليهم، وبيَّنَ أنَّ الإنسانَ جُبِلَ على التَّبَدُّلِ؛ فإنْ وَجَد لِنَفْسِه قُوَّةً بالَغَ في التَّكَبُّرِ والتَّعَظُّمِ، وإنْ أحَسَّ بالفُتورِ والضَّعفِ بالَغَ في إظهارِ الذِّلَّةِ والمَسكَنةِ- ذكَرَ عَقِيبَه كَلامًا آخَرَ يُوجِبُ على هؤلاءِ الكُفَّارِ ألَّا يُبالِغوا في إظهارِ النفرةِ مِن قَبولِ التَّوحيدِ، وألَّا يُفرِطوا في إظهارِ العَداوةِ معَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1]:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: أخبِروني إن كان هذا القُرآنُ حَقًّا مِن عندِ اللهِ، ثُمَّ كَفَرتُم به، فلا أحَدَ أضَلُّ مِنكم لِفَرطِ شِقاقِكم وعِنادِكم وعداوَتِكم؛ لأنَّه تَبيَّنَ لكم الحقُّ والصَّوابُ، ثمَّ عَدلْتُم عنه، فأهْلَكتُم أنفُسَكم[2].

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٠، ٤٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦، ١٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أعقَبَ اللهُ أمْرَ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَقولَ لِلمُشرِكينَ ما فيه تَخويفُهم مِن عَواقِبِ الشِّقاقِ، على تَقديرِ أنْ يَكونَ القُرآنُ مِن عِندِ اللهِ وهُم قد كَفَروا به، بأنْ وَعَد رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -على سَبيلِ التَّسليةِ والبِشارةِ- بأنَّ اللهَ سَيَغمُرُ المُشرِكينَ بطائِفةٍ مِن آياتِه ما يَتبَيَّنونَ به أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ حَقًّا؛ فلا يَسَعُهم إلَّا الإيمانُ به[1].

وأيضًا لَمَّا أمَر حبيبَه صلواتُ الله عليه بمُتارَكةِ القَومِ في قَولِه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ إلى قولِه: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ دخَل في خَلَدِه اليأسُ مِن إيمانِ القَومِ، وكادَتْ نفْسُه تذهبُ عليهم حَسَراتٍ، فأعلَمه اللهُ تعالى بقولِه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ أنَّه ما عليك إلَّا البلاغُ ومِنَّا الهدايةُ، فأنت قد أدَّيتَ ما عليك مِن البلاغِ، وليس الهدايةَ، ونحن سنَهدي منهم مَن نريدُ هدايتَه بأنْ نَفتحَ قلوبًا غُلْفًا وآذانًا صُمًّا وعيونًا عُمْيًا، فيرَوْن آياتِنا في الآفاقِ وفي الأنفُسِ، ثمَّ قرَّر ذلك بقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ إنجازًا للموعد، مُسليًا له صلواتُ الله عليه ممَّا اعتراه مِن اليأسِ[2].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى وُجوهًا كثيرةً في تقريرِ التَّوحيدِ والنُّبُوَّةِ، وأجاب عن شُبُهاتِ المُشرِكينَ وتمويهاتِ الضَّالِّينَ، قال[3]:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾.

أي: سنُري أولئك الكافِرينَ بالقُرآنِ آياتِنا الدَّالَّةَ على أنَّ القُرآنَ حَقٌّ مِن عندِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٣).

اللهِ لا شَكَّ فيه ولا رَيبَ، وذلك بدَلائِلَ خارجيَّةٍ في الآفاقِ والنَّواحي، ودَلائِلَ في أنفُسِهم(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٤)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣١-٣٣٤).

قال السمعاني: (الآياتُ في الآفاقِ آياتُ السَّمواتِ والأرَضينَ؛ وذلك مِن رفْعِ السَّماءِ، وخَلقِ الكَواكِبِ، ودوَرانِ الفلَكِ، وإضاءةِ الشَّمسِ والقمرِ، وما أشْبَهَ ذلك، وكذلك بسْطُ الأرضِ، ونصبُ الجبالِ، وتفجيرُ الأنهارِ، وغرسُ الأشجارِ، إلى ما لا يُحصَى. وقولُه: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: مِن السَّمعِ والبصرِ، وخلْقِ سائرِ الجوارِحِ وجميعِ الحواسِّ. وفي بعضِ التَّفاسيرِ: أنَّ مِن الآياتِ في النَّفْسِ دُخولَ الطَّعامِ والشَّرابِ مِن مكانٍ واحِدٍ، وخروجَه مِن مكانَينِ. وقيل: دخولُ الأطعمةِ على ألوانٍ كثيرةٍ، وخروجُها على لونٍ واحِدٍ. وقال السُّدِّيُّ: الآياتُ في الآفاقِ هي فتحُ الأمصارِ، وفي الأنفُسِ فتحُ الرَّسُولِ مَكَّةَ. ويقالُ: الآياتُ في الآفاقِ هي الفتوحُ الَّتي كانت بعدَ الرَّسولِ، وفي أنفُسِهم هي الَّتي كانت في زمانِ الرَّسولِ. وقيل: الآياتُ في الآفاقِ ما أخبَرَ مِن الأُمَمِ المُتقدِّمةِ وما نزَل بهم، والآياتُ في الأنفُسِ هي ما أنْذَرَهم مِن الوعيدِ والعذابِ. وقال مجاهِدٌ: الآياتُ في الآفَاقِ هو إمساكُ المطرِ مِن السَّماءِ، والآياتُ في الأنفُسِ هي البلايا في الأجسادِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٠).

وقال السعدي: (سيُقيمُ اللهُ لكم ويُريكم مِن آياتِه ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ كالآياتِ الَّتي في السَّماءِ وفي الأرضِ، وما يُحدِثُه اللهُ تعالى من الحوادِثِ العَظيمةِ الدَّالَّةِ للمُستبصِرِ على الحَقِّ. ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ ممَّا اشتمَلَت عليه أبدانُهم، مِن بديعِ آياتِ اللهِ وعجائبِ صَنعتِه، وباهِرِ قُدرتِه، وفي حُلولِ العُقوباتِ والمَثُلاتِ في المكَذِّبين، ونَصرِ المؤمنينَ... وقد فَعَل تعالى؛ فإنَّه أرى عِبادَه من الآياتِ ما به تَبيَّنَ لهم أنَّه الحَقُّ، ولكِنَّ اللهَ هو الموفِّقُ للإيمانِ مَن شاء، والخاذِلُ لِمَن يَشاءُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢).

وجوَّز ابنُ عاشور أن يكونَ المرادُ: وفي أفُقِ أنفُسِهم، أي: مكَّةَ وما حَوْلَها، ثمَّ قال: (والأحسَنُ أن يكونَ في الآفاقِ على عُمومِه الشَّاملِ لأُفُقِهم، ويكونَ معنى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أنَّهم يرون آياتِ صِدقِه في أحوالٍ تُصيبُ أنفُسَهم، أي: ذواتِهم؛ مِثلُ الجُوعِ الَّذي دعا عليهم به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ... ومِثلُ ما شاهَدوه مِن مَصارِعِ كُبَرائِهم يومَ بَدرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠).

=

كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١].

وقال الله جَلَّ جَلالُه: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: سنُري المُشرِكينَ آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهم؛ حتَّى يَتبيَّنَ لهم أنَّ القُرآنَ حَقٌّ، فلا يَجِدوا إلى إنكارِ ذلك سَبيلًا[(١)].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أي: أوَلَم يَكْفِ بربِّك -يا مُحمَّدُ- أنَّه شاهِدٌ على كُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك شَهادتُه أنَّ القُرآنَ حَقٌّ نَزَل مِن عِندِه تعالى على رَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٢)]؟

= قال ابن القيم: (﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: أنَّ القرآنَ حقٌّ، فأخبَر أنَّه لا بدَّ مِن أن يُريَهم مِن آياتِه المشهودةِ ما يُبيِّنُ لهم أنَّ آياتِه المَتلوَّةَ حقٌّ). ((الفوائد)) (ص: ٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٤٠٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٦-٣٣٨).

قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ قيل: مُوَجَّهٌ للكُفَّارِ، أي: أو لم يَكْفِهم ويُغْنِهم. وممَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والزمخشريُّ، والرازي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير الرازي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: ألَا إنَّ الكافِرينَ بالقُرآنِ في شَكٍّ مِن وُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ؛ ولذلك لا يَرجُونَ في الآخِرةِ ثَوابًا، ولا يَخافونَ فيها عِقابًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥].

﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.

= (٢٧/ ٥٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢).

قيل: معناه: أنَّ هذا الموعودَ مِن إظهارِ آياتِ الله في الآفاقِ وفي أنفُسِهم سيَرَوْنَه ويُشاهِدونه، فيَتبيَّنون عندَ ذلك أنَّ القرآنَ تنزيلُ عالمِ الغَيبِ الَّذي هو على كلِّ شيءٍ شهيدٌ، أي: مُطَّلِعٌ مُهَيْمِنٌ، يَستوي عندَه غَيْبُه وشَهادتُه، فيَكفيهم ذلك دليلًا على أنَّه حقٌّ وأنَّه مِن عندِه، ولو لم يكنْ كذلك لَمَا قَوِيَ هذه القوَّةَ ولَمَا نُصِر حامِلوه هذه النُّصْرةَ. قاله الزمخشري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٧).

وقيل: المعنى: ألم تَكفِهم هذه الدَّلائلُ الكثيرةُ الَّتي أوضحها اللهُ تعالى وقرَّرها في هذه السُّورةِ وفي كلِّ سوَرِ القرآنِ الدَّالَّة على التَّوحيدِ وغيرِه. قاله الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٤).

وقيل: هو مُوَجَّهٌ إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. أي: أو لم يَكْفِك يا مُحمَّدُ. وممَّن قال بهذا: الماوَرْديُّ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٨).

أي: ألَا إنَّ اللهَ مُحيطٌ بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا وقُدرةً وغَيرَ ذلك[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فيَنبغي للإنسانِ أنْ يَتفكَّرَ في آياتِ اللهِ تعالى في الآفاقِ وفي نَفْسِه؛ لأنَّ ذلك طريقٌ إلى أنْ يَتَبَيَّنَ له الحقُّ، فأنت كلَّما ازدَدْتَ تأمُّلًا وتدبُّرًا لآياتِ اللهِ الآفاقيَّةِ والآياتِ الَّتي في نفْسِك؛ فإنَّك لا شكَّ تَزدادُ إيمانًا، ويَتَبَيَّنُ لك صِدْقُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ يُؤخَذُ منه الحذرُ مِن المخالَفةِ، فإذا عَلِم العبدُ أنَّ اللهَ شهيدٌ على كلِّ شَيءٍ -على نَفْسِه؛ أفعالِه؛ أقوالِه؛ كلِّ تصرُّفاتِه- وأنَّه شهيدٌ عليه في خَلَواتِه؛ في وَحدتِه؛ في جلوسِه مع أهلِه؛ في جلوسِه مع صَحْبِه؛ فإنَّه سوف يُراقِبُ اللهَ عزَّ وجلَّ، وهذا هو معنى قولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((أنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه؛ فإنْ لم تَكُنْ تَراه فإنَّه يَراك))[٣]، ومَن لم يَتَّعِظْ بمِثْلِ هذه الآيةِ فإنَّه لن يَتَّعِظَ[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فيه أعظَمُ بِشارةٍ بتَمامِ أمرِ الدِّينِ، وظُهورِه على المُعتَدينَ؛ وذلك لأنَّ كُلَّ أحَدٍ يَجِدُ في نَفْسِه أنَّه إذا أراد ثُبوتَ حَقٍّ يُنكِرُه مَن هو عليه، ولصاحِبِ الحَقِّ مِنَ الشُّهودِ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٩).

(٣) أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٥٠) واللفظ له، ومسلمٌ (٩) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٤١).

يَتحَقَّقُ قَولُهم فيه، ووُصولُه بهم إليه: أنَّه يَكونُ مُطمَئِنًّا لا يَنزعِجُ بالجَحدِ؛ عِلمًا منه بأنَّ حَقَّه لا بُدَّ أن يَظهَرَ، ويُخزَى مُعانِدُه ويُقهَرَ، وفي هذا تأديبٌ لكُلِّ مَن كان على حَقٍّ ولا يَجِدُ مَن يُساعِدُه على ظُهورِه؛ فإنَّ اللهَ شاهِدُه، فلا بدَّ أن يَظهَرَ أمْرُه؛ فتوكَّلْ على اللهِ إنَّك على الحَقِّ المُبينِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ تحقيقُ مراقبةِ اللهِ؛ لأنَّك إذا آمنتَ أنَّ اللهَ بكلِّ شيءٍ محيطٌ؛ فسوف تُرَاقِبُه مراقبةً تامَّةً، بحيثُ لا يَفْقِدُك حيثُ أمَرَك، ولا يَرَاك حيثُ نَهاك[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فيه أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ؛ وَجهُ ذلك: أنَّ القُرآنَ وَصفٌ لأنَّه كَلامٌ، والوَصفُ لا بُدَّ أنْ يقومَ بمَوصوفٍ، وإذا كان مِن عندِ اللهِ لَزِمَ أنْ يكونَ الموصوفُ به هو اللهَ عزَّ وجلَّ، ثمَّ زيادةً على ذلك فوَجهُ الدَّلالةِ: كونُه مِن عندِ اللهِ، وأنَّ الكَلامَ صِفةٌ وليس عَينًا قائِمةً بنَفْسِها حتَّى نَقولَ: إنَّه مَخلوقٌ كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾[٣] [الأعراف: ٢٠٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ أنَّه لا بُدَّ أنْ يُرِيَ اللهُ سُبحانَه أهلَ كلِّ قَرنٍ مِن الآياتِ ما يُبَيِّنُ لهم أنَّه اللهُ الَّذي لا إلهَ إلَّا هو، وأنَّ رُسُلَه صادِقونَ[٤].

٣- أنَّ القرآنَ قد نَبَّهَ على الطُّرُقِ الاعتباريَّةِ الَّتي بها يُستدَلُّ على مِثلِ ما في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٠٢).

القرآنِ؛ كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾، فأخْبَر أنَّه يُري عِبادَه مِن الآياتِ المشهودةِ العِيانيَّةِ في الآفاقِ وفي أنفُسِهم -الَّتي هي أدلَّةٌ عقليَّةٌ- ما يَتَبَيَّنُ به أنَّ آياتِه السَّمعيَّةَ القُرآنيَّةَ حَقٌّ وصِدقٌ؛ فآياتُ الرَّبِّ تعالى العِيانيَّةُ الأُفُقيَّةُ والنَّفْسيَّةُ مُستَلْزِمةٌ لإثباتِ الأدِلَّةِ السَّمعيَّةِ[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فيه طَرَفٌ مِن الإعجازِ بالإخبارِ عن الغَيبِ؛ إذ أخبَرَ بالوَعدِ بحُصولِ النَّصرِ له تعالى ولدِينِه، وذلك بما يسَّرَ اللهُ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولخُلَفائِه مِن بَعدِه في آفاقِ الدُّنيا والمَشرِقِ والمَغرِبِ عامَّةً، وفي باحةِ العَرَبِ خاصَّةً- مِن الفُتوحِ وثَباتِها وانطِباعِ الأُمَمِ بها ما لم تَتيسَّرْ أمثالُها لأحَدٍ مِن مُلوكِ الأرضِ والقياصِرةِ والأكاسِرةِ، على قِلَّةِ المُسلِمينَ إنْ نُسِبَ عَدَدُهم إلى عَدَدِ الأُمَمِ الَّتي فَتَحوا آفاقَها بنَشرِ دَعوةِ الإسلامِ في أقطارِ الأرضِ، والتَّاريخُ شاهِدٌ بأنَّ ما تَهَيَّأَ لِلمُسلِمينَ مِن عَجائِبِ الانتِشارِ والسُّلطانِ على الأُمَمِ أمْرٌ خارِقٌ لِلعادةِ، فيَتَبَيَّنُ أنَّ دِينَ الإسلامِ هو الحَقُّ، وأنَّ المُسلِمينَ كُلَّما تَمَسَّكوا بعُرَى الإسلامِ لَقُوا مِن نَصرِ اللهِ أمْرًا عَجيبًا، يَشهَدُ بذلك السَّابِقُ واللَّاحِقُ، وقد تَحَدَّاهمُ اللهُ بذلك في قَولِه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٤١]، ثمَّ قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[2] [الرعد: ٤٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أنَّ الإنسانَ ناقصُ العلمِ نقصًا عظيمًا؛

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ١٢)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٧٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨، ١٩).

وجْهُه: أنَّ اللهَ تعالى يُريه آياتِه في نفْسِه، فالإنسانُ غيرُ عالِمٍ بنَفْسِه إلَّا إذا عَلَّمه اللهُ، ولذلك النَّفْسُ الَّتي هي مادَّةُ الحياةِ لا نَعْرِفُها[1]، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [فصلت: ٤١]، إلى قَولِه: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت: ٤٥]؛ فهذا انتِقالٌ إلى المُجادَلة في شَأنِ القُرآنِ رَجَع به إلى الغَرَضِ الأصليِّ مِن هذه السُّورةِ، وهو بَيانُ حَقِّيَّةِ القُرآنِ وصِدقِه وصِدقِ مَن جاءَ به، وهذا استِدعاءٌ لِيُعمِلوا النَّظَرَ في دَلائِلِ صِدقِ القُرآنِ، مِثلَ إعجازِه وانتِساقِه، وتَأييدِ بَعضِه بَعضًا، وكَونِه مُؤَيِّدًا لِلكُتُبِ قَبْلَه، وكَونِ تلك الكُتُبِ مُؤَيِّدةً له، والمَعنى: ما أنتم عليه مِن إنكارِ صِدقِ القُرآنِ ليس صادِرًا عن نَظَرٍ وتَمحيصٍ يُحَصِّلُ اليَقينَ، وإنَّما جازَفتُم به قبْلَ النَّظَرِ، فلو تَأمَّلتُم لاحتَمَلَ أنْ يُنتِجَ لكمُ التَّأمُّلُ أنَّه مِن عِندِ اللهِ، وألَّا يَكونَ مِن عِندِه، فإذا فُرِضَ الاحتِمالُ الأوَّلُ فقد أقحَمتُم أنفُسَكم في شِقاقٍ قَويٍّ. وهذا مِنَ الكَلامِ المُنصِفِ، واقتُصِرَ فيه على ذِكرِ الحالةِ المُنطَبِقةِ على صِفاتِهم؛ تَعريضًا بأنَّ ذلك هو الطَّرَفُ الرَّاجِحُ في هذا الإجمالِ، كَأنَّه يَقولُ: كما أنَّكم قَضَيتُم بأنَّه ليس مِن عِندِ اللهِ، وليس ذلك مَعلومًا بالضَّرورةِ، فكَذلك كَونُه مِن عِندِ اللهِ، فتَعالَوْا فتَأمَّلوا في الدَّلائِلِ، فهُمْ لَمَّا أنكَروا أنْ يَكونَ مِن عِندِ اللهِ، وصَدُّوا أنْفُسَهم وعامَّتَهم عن الاستِماعِ إليه والتَّدَبُّرِ فيه؛ فقد أعمَلوا شَهواتِ أنْفُسِهم، وأهمَلوا الأخْذَ بالحَيطةِ لهم أنْ يَتدَبَّروه؛ حتَّى يَكونوا على بَيِّنةٍ مِن أمْرِهم في شأنِه، وهم إذا تَدَبَّروه لا يَلبَثونَ أنْ يَعلَموا صِدقَه، فاستَدعاهمُ اللهُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٩).

النَّظَرِ بطَريقِ تَجويزِ أنْ يَكونَ مِن عِندِ الله؛ فإنَّه إذا جازَ ذلك وكانوا قد كَفَروا به دُونَ تَأمُّلٍ، كانوا قد قَضَوْا على أنْفُسِهم بالضَّلالِ الشَّديدِ، وإذا كانوا كذلك فقد حَقَّتْ عليهم كَلِماتُ الوَعيدِ[١].

- قولُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ (إنْ) الشَّرطيَّةُ شَأنُها أنْ تَدخُلَ على الشَّرطِ المَشكوكِ فيه، وهي هنا لإبرازِ الأمْرِ في صُورةِ الاحتِمالِ، أيْ: قُلْ: أرَأيتُم إن كان القُرآنُ مِن عِندِ اللهِ؟ وهو مِن عِندِ اللهِ بلا شَكٍّ، فالإتيانُ بها تَنَزُّلٌ معهم في الخِطابِ، وإرخاءٌ لِلعِنانِ معهم؛ لاستِنزالِ طائِرِ إنكارِهم، حتَّى يُقبِلوا على التَّأمُّلِ في دَلائِلِ صِدقِ القُرآنِ[٢].

- ويُشبِهُ أنْ يَكونَ المَقصودُ بهذا الخِطابِ والتَّشكيكِ أوَّلًا دَهماءَ المُشرِكينَ الَّذين لم يَنظُروا في دَلالةِ القُرآنِ، أو لم يُطيلوا النَّظَرَ، ولم يَبلُغوا به حَدَّ الاستِدلالِ، وأمَّا قادَتُهم وكُبَراؤُهم وأهلُ العُقولِ منهم، فهمْ يَعلَمونَ أنَّه مِن عِندِ اللهِ، ولكِنَّهم غَلَبَ عليهم حُبُّ الرِّئاسةِ، على أنَّهم مُتَفاوِتونَ في هذا العِلْمِ إلى أنْ يَبلُغَ بَعضُهم إلى حَدٍّ قَريبٍ مِن حالةِ الدَّهماءِ، ولكِنَّ القُرآنَ ألقَى بيْنَهم هذا التَّشكيكَ؛ تَغليبًا ومُراعاةً لِاختِلافِ دَرَجاتِ المُعانِدينَ، ومُجاراةً لهم في ادِّعائِهم أنَّهم لم يَهتَدوا، نَظَرًا لِقَولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾[٣] [فصلت: ٥].

- و(ثمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لِأنَّ الكُفرَ بما هو مِن عِندِ اللهِ أمْرُه أخطَرُ مِن كَونِ القُرآنِ مِن عِندِ اللهِ[٤]. وقيل: دلَّتْ «ثُمَّ» -وهي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦، ١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧).

للتَّرتيبِ والتَّراخي- على أنَّ كُفْرَهم كان بعدَ أنْ تَبَيَّنَ الأمرُ، ممَّا يدُلُّ على أنَّ الكفرَ بعدَ التَّبَيُّنِ أشَدُّ قُبْحًا مِن الكفرِ مع الجهلِ[١].

- وفي قولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ...﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَه هنا بحَرفِ ﴿ثُمَّ﴾، وقالَه في سُورةِ (الأحقافِ): ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠] بالواوِ؛ لِأنَّ مَعناها هنا: كان عاقبةُ أمْرِكم بَعدَ الإمهالِ لِلنَّظَرِ والتَّدَبُّرِ الكُفرَ؛ فناسَبَ ذِكرُ ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالَّةِ على التَّرتيبِ، وفي (الأحقافِ) لم يُنظَرْ إلى تَرتيبِ كُفرِهم على ما ذُكِرَ، بل عُطِفَ على ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ [الأحقاف: ١٠] بالواوِ، فناسَبَ ذِكرُها؛ لِدَلالَتِها على مُطلَقِ الجَمعِ[٢].

- و(مَن) الأُولى في قولِه: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ لِلاستِفهامِ، وهو مُستَعمَلٌ في مَعنى النَّفيِ، أيْ: لا أضَلُّ مِمَّن هو في شِقاقٍ بَعيدٍ إذا تَحَقَّقَ الشَّرطُ. و(مَن) الثَّانيةُ مَوصولةٌ، وماصَدَقَها[٣] المُخاطَبونَ بقَولِه: ﴿كَفَرْتُم بِهِۦ﴾؛ فعَدَلَ عن الإضمارِ فلم يَقُلْ: (مَنْ أَضَلُّ مِنكم) إلى طَريقِ المَوصولِ ﴿مِمَّنْ﴾؛ بَيانًا وشَرحًا لِحالِهم وصِفَتِهم، ولِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن تَعليلٍ؛ لِمَزيدِ ضَلالِهم، وأنَّهم أضَلُّ الضَّالِّينَ بكَونِهم شَديدي الشِّقاقِ، وذلك كِنايةٌ عن كَونِهم أشَدَّ الخَلقِ عُقوبةً؛ لِمَا هو مَعلومٌ مِن أنَّ الضَّلالَ سَبَبٌ لِلخُسرانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٧).

(٣) تقدَّم تعريف الماصَدَق (ص: ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧).

- قولُه: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ فيه وُقوعُ الاستِفهامِ مَوقعَ النَّفي، وفائدتُه: أنَّه إذا كان بصِيغةِ الاستفهامِ كان مُشْرَبًا بالتَّحدِّي؛ فقولُه: ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ أبلَغُ مِن قولِه: (لا أَضَلُّ)؛ ففيه بَيانُ بلاغةِ القرآنِ التَّامَّةِ؛ حيثُ يَختارُ في كِلِّ تَركيبٍ ما يُناسِبُ الحالَ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ مِن الاحتباكِ[٢]، حيثُ ذُكِرَ الكُفرُ أوَّلًا دليلًا على الإيمانِ ثانيًا، وذُكِرَ الضَّلالُ ثانيًا دَليلًا على الهُدى أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّ ذِكرَ المَضارِّ أصْدَعُ للقلْبِ؛ فهو أنفَعُ في الوعْظِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وَعَدَ اللهُ تعالى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على سَبيلِ التَّسليةِ والبِشارةِ بأنَّ اللهَ سَيَغمُرُ المُشركينَ بطائِفةٍ مِن آياتِه ما يَتبَيَّنونَ به أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ حَقًّا؛ فلا يَسَعُهم إلَّا الإيمانُ به، وفي هذا الوَعدِ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَعريضٌ بهم؛ إذْ يَسمَعونَه، على طَريقةِ: فاسمَعي يا جارةُ؛ فمَوقعُ هذه الجُملةِ بصَريحِها وتَعريضِها مِنَ الجُملةِ الَّتي قَبْلَها مَوقِعُ التَّعليلِ لِأمْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَقولَ لهم ما أُمِرَ به، والتَّعليلُ راجِعٌ إلى إحالَتِهم على تَشكيكِهم في مَوقِفِهم لِلطَّعنِ في القُرآنِ[٤].

- وعَطفُ ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ قيل: يَجوزُ أنْ يَكونَ مِن عَطفِ الخاصِّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٠).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨).

العامِّ، أيْ: وفي أُفْقِ أنْفُسِهم، أيْ: مَكَّةَ وما حَوْلَها، على حَذفِ مُضافٍ[١].

- وقد سُكِتَ عمَّا يَترَتَّبُ على ظُهورِ الآياتِ في الآفاقِ وفي أنْفُسِهم، المُبَيِّنةِ أنَّ القُرآنَ حَقٌّ؛ لِأنَّ ما قَبْلَه مِن قَولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢] يُنبِئُ عن تَقديرِه، أيْ: لا يَسَعُهم إلَّا الإيمانُ بأنَّه حَقٌّ، فمَن كانَ منهم شاكًّا مِن قَبْلُ عن قِلَّةِ تَبَصُّرٍ، حَصَل له العِلْمُ بَعدَ ذلك، ومَن كانَ إنَّما يَكفُرُ عِنادًا واحتِفاظًا بالسِّيادةِ، افتَضَحَ بُهتانُه، وسَفَّهَه جيرانُه، وكِلاهما قد فَوَّتَ بتَأخيرِ الإيمانِ خَيرًا عَظيمًا مِن خَيرِ الآخِرةِ بما أضاعَه مِن تَزَوُّدِ ثَوابٍ في مُدَّةِ كُفرِه، ومِن خَيرِ الدُّنيا بما فاتَه مِن شَرَفِ السَّبقِ بالإيمانِ والهِجرةِ، كما قال تَعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٢] [الحديد: ١٠].

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ استِئنافٌ وارِدٌ لِتَوبيخِهم على تَرَدُّدِهم في شَأنِ القُرآنِ، وعِنادِهم المُحوِجِ إلى إراءةِ الآياتِ، وعَدَمِ اكتِفائِهم بإخبارِه تعالَى[٣].

- والهمزةُ في ﴿أَوَلَمْ﴾ للإنكارِ، والواوُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيه المقامُ، أي: ألَمْ يُغْنِ ولم يَكْفِ ربُّك. والباءُ في ﴿بِرَبِّكَ﴾ مَزيدةٌ للتَّأكيدِ[٤].

- وقيل: إنَّ قولَه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ عطْفٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إعلامِ الرَّسولِ بما سَيَظهَرُ مِن دَلائلِ صِدقِ القُرآنِ وصِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ زِيادةً لِتَثبيتِ الرَّسولِ، وشَرحِ صَدرِه بأنَّ اللهَ تَكَفَّلَ له بظُهورِ دِينِه، ووُضوحِ صِدقِه في سائِرِ أقطارِ الأرضِ، على طَريقةِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ التَّقريريِّ؛ تَحقيقًا لِتَيَقُّنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بكَفالةِ رَبِّه، بحيث كانت مِمَّا يُقَرَّرُ عليها كِنايةً عن اليَقينِ بها؛ فالاستِفهامُ تَقريريٌّ. وهنالك وَجهٌ آخَرُ: أنْ يَكونَ مَساقُها مَساقَ تَلقينِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَستَشهِدَ باللهِ على أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ؛ فيَكونَ مَوقِعُها مَوقِعَ القَسَمِ بإشهادِ اللهِ، وهو قَسَمٌ غَليظٌ فيه مَعنى نِسبةِ المُقسَمِ عليه إلى أنَّه مِمَّا يَشهَدُ اللهُ به؛ فيَكونَ الاستِفهامُ إنكاريًّا إنكارًا لِعَدَمِ الاكتِفاءِ بالقَسَمِ باللهِ، وهو كِنايةٌ عن القَسَمِ، وعن عَدَمِ تَصديقِهم بالقَسَمِ، وليس مَعنى الآيةِ إنكارًا على المُشرِكينَ أنَّهم لم يَكتَفوا بشَهادةِ اللهِ على صِدقِ القُرآنِ ولا على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِأنَّهم غَيرُ مُعتَرِفينَ بأنَّ اللهَ شَهِدَ بذلك، فلا يَظهَرُ تَوَجُّهُ الإنكارِ إليهم[1].

- قولُه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ دَلَّ هذا اللَّفظُ المُوجَزُ على مَعانٍ مَبسوطةٍ، وذلك مِن مُقتَضى المَقامِ، والعُدولِ مِنَ الظَّاهِرِ؛ فإنَّ أصْلَ المَعنى: سَنُريهم هذه الآياتِ إظهارًا لِلحَقِّ، وكَفى به دَليلًا على ذلك، وإنَّما أدخَلَ هَمزةَ التَّقريرِ على جُملةِ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ﴾ لِمَزيدِ تَقريرِ حُصولِ المَوعودِ، وأنَّ هذه الآياتِ كافيةٌ في المَطلوبِ، لا مَزيدَ عليها. ووُضِعَ المُظهَرُ في قَولِه: ﴿بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ مَوضِعَ ضَميرِ الآياتِ؛ لِلإشعارِ بالعِلِّيَّةِ، وأنَّ هذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠، ٢١).

الآياتِ إنَّما صَلَحَتْ لِلدَّليلِ على حَقِّيَّةِ المَطلوبِ؛ لِأنَّ مُنشِئَها مَن هو على كُلِّ شَيءٍ مُهَيمِنٌ مُطَّلِعٌ، وأُبدِلَ ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ مِن ﴿بِرَبِّكَ﴾؛ بَيانًا وتَفسيرًا وإيذانًا بأنَّ هذا الوَصفَ مُتَعَيَّنٌ له، وشاهِدٌ بأنَّ الرَّبَّ هو الَّذي يَكونُ على كُلِّ شَيءٍ شَهيدًا. وأمَّا اختِصاصُ الضَّميرِ في ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ بالقُرآنِ، فمِن حيثُ المَقامُ؛ لِأنَّ هذه السُّورةَ الكَريمةَ نازِلةٌ في بَيانِ عَظَمةِ القُرآنِ المَجيدِ، والرَّدِّ على مُنكِريه ومُعانِديه، فكُلُّ ما جُعِلَ ذِكرُه مَشروعًا لِمَعنًى أتَى بما يُناسِبُه مِنَ المَعاني، فكان قَولُه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ [فصلت: ٥٢] كَلامًا على سَبيلِ إرخاءِ العِنانِ كالخاتِمةِ لِهذه المَعاني؛ فجِيءَ بقَولِه: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ ...﴾ الآيةَ مُسَلِّيًا لِحَبيبِه صَلَواتُ اللهِ عليه، ووَعدًا لِإظهارِ كَلِمَتِه، وقَهرِ أعدائِه، وسُلِكَ فيه مَسلَكُ الدَّليلِ والبُرهانِ؛ لِيَظهَرَ لِلمُوافِقِ والمُخالِفِ حَقِّيَّتُه، وأُدمِجَ في الكَلامِ مَعنى الإخبارِ بالغَيبِ بذِكرِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾؛ لِيَكونَ كالشَّاهِدِ على أنَّها بنَفْسِها آيةٌ مُستَقِلَّةٌ مِن حيثُ إنَّها مُخبِرةٌ عنِ الغَيبِ(١).

- قولُه: ﴿سَنُرِيهِمۡ﴾ صُدِّرَتْ بالسِّينِ الدَّالَّةِ على التَّحَقُّقِ والقُرْبِ؛ فدلَّ على أنَّ هذه الإراءةَ قريبةٌ مُحَقَّقَةٌ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾

- قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ المِريةُ هي الشَّكُّ، وأُطلِقَ الشَّكُّ على جَزمِهم بعَدَمِ وُقوعِ البَعثِ؛ لِأنَّ جَزمَهم خَليٌّ عن الدَّليلِ الَّذي يَقتَضيه؛ فكان إطلاقُ الشَّكِّ عليه تَعريضًا بهم بأنَّ الأَوْلَى بهم أنْ يَكونوا في شَكٍّ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٩).

على الأقَلِّ[١].

- وحَرْفُ الظَّرفيَّةِ (في) مُعبَّرٌ به عن تَمكُّنِ الشَّكِّ بهم، حتَّى كأنَّهم مَظْرُوفون فيه، و(مِن) ابتدائيَّةٌ، وتعدَّى بها أفعالُ الشَّكِّ إلى الأمْرِ المَشكوكِ فيه بتَنزيلِ مُتعلَّقِ الفِعلِ مَنزلةَ مَثارِ الفِعلِ، بتَشبيهِ المفعولِ بالمُنشَأ، كأنَّ الشَّكَّ جاء مِن مكانٍ هو المَشكوكُ فيه. وفي تَعليقِه بذاتِ الشَّيءِ، مع أنَّ الشَّكَّ إنَّما يَتعلَّقُ بالأحكامِ؛ مُبالَغةً على طَريقةِ إسنادِ الأُمورِ إلى الأعيانِ، والمُرادُ أوصافُها؛ فتَقديرُ ﴿فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾: في مِرْيةٍ مِن وُقوعِ لِقاءِ ربِّهم وعَدَمِ وُقوعِه[٢].

- وقولُه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ تَذييلانِ لِلسُّورةِ وفَذلَكَتانِ[٣]، افتُتِحا بحَرفِ التَّنبيهِ (ألَا)؛ اهتِمامًا بما تَضَمَّناه، وتَنبيهًا لِلسَّامعِ على ما يُقالُ؛ فأمَّا التَّذييلُ الأوَّلُ فهو جِماعُ ما تَضَمَّنَتْه السُّورةُ مِن أحوالِ المُشرِكينَ المُعانِدينَ؛ إذْ كانتْ أحوالُهمُ المَذكورةُ فيها ناشِئةً عن إنكارِهمُ البَعثَ، فكانوا في مَأمَنٍ مِنَ التَّفكيرِ فيما بَعدَ هذه الحياةِ؛ فانحَصَرتْ مَساعيهم في تَدبيرِ الحياةِ الدُّنيا، وانكَبُّوا على ما يَعودُ عليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذلكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

بالنَّفعِ فيها. وأمَّا التَّذييلُ الثَّاني فهو جامِعٌ لِكُلِّ ما تَضَمَّنَتْه السُّورةُ مِن إبطالٍ لِأقوالِهم، وتَقويمٍ لِاعوِجاجِهم؛ لأنَّ ذلك كُلَّه مِن آثارِ عِلْمِ اللهِ تعالَى بالغَيبِ والشَّهادةِ. وتَأكيدُ الجُملَتَيْنِ بحَرفِ التَّأكيدِ مع أنَّ المُخاطَبَ بهما لا يَشُكُّ في ذلك؛ لِقَصدِ الاهتِمامِ بهما، واستِدعاءِ النَّظَرِ لاستِخراجِ ما تَحويانِه مِنَ المَعاني والجُزئيَّاتِ، وبهاتَيْنِ الفَذلَكَتَيْنِ آذَنَ بانتِهاءِ الكَلامِ؛ فكان مِن بَراعةِ الخِتامِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ
سُورَةِ الشُّورى

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورة الشُّورى

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ:

١- الشُّورى[(١)].

٢- ﴿حمٓ ۞ عٓسٓقٓ﴾[(٢)].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الشُّورى مَكِّيَّةٌ[(٣)]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[(٤)].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

١- بيانُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه[(٥)].

---

(١) لم يَرِدْ في ذلك نَصٌّ صَريحٌ، وإنَّما اشتَهَرَت بهذا الاسمِ؛ وسُمِّيَت بذلك لِقَولِه تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٨).

(٢) سُمِّيَت بذلك؛ لافتتاحِها بها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٨).

(٣) وقيل: إلَّا أربعَ آياتٍ منها نزَلَت بالمدينةِ؛ قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ﴾ [الشورى: ٢٣] إلى آخِرِ الآياتِ الأربعِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٨).

قال ابن عثيمين: (الأصلُ أنَّ السُّورةَ المكِّيَّةَ مَكِّيَّةٌ بجَميعِ آياتِها، وأنَّ السُّورةَ المَدَنيَّةَ مَدَنيَّةٌ بجَميعِ آياتِها... فالأصلُ أنَّ هذه السُّورةَ مَكِّيَّةٌ بجميعِ آياتِها حتَّى يقومَ دَليلٌ واضِحٌ على أنَّ هذه الآياتِ [أي: الأربَعَ المُستثناةَ]... مَدَنيَّةٌ. ثمَّ اعلَمْ أنَّ جميعَ السُّوَرِ المَبدوءةِ بالحُروفِ الهِجائيَّةِ مَكِّيَّةٌ إلَّا سورتينِ؛ هما: البَقَرةُ وآلُ عِمرانَ، والباقي كُلُّه مَكِّيٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٠).

(٤) ممَّن حكى الإجماعَ: الفيروزابادي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) (١/ ٤١٨).

وقال ابن عطيَّة: (هذه السُّورةُ مَكِّيَّةٌ بإجماعٍ مِن أكثَرِ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٩).

٢- إثباتُ كَونِ القُرآنِ وحيًا مِنَ اللهِ تعالى إلى نبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلت عليها السُّورةُ:

١- بيانُ أنَّ القُرآنَ وَحيٌ مِنَ اللهِ تعالى، وأنَّه أوحاه إلى نَبيِّه كما أوحَى إلى غَيرِه مِن الأنبياءِ.

٢- الحَديثُ عن بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى وسَعةِ مُلكِه، وأنَّه تعالى قادِرٌ على أن يَجعَلَ النَّاسَ أمَّةً واحِدةً.

٣- الإنكارُ على المُشرِكينَ، وسَوقُ بَعضِ الأدِلَّةِ على بُطلانِ شِرْكِهم.

٤- الأمرُ بالرُّجوعِ إلى حُكمِ اللهِ تعالى عندَ الاختِلافِ.

٥- تقريرُ وَحدةِ الرِّسالةِ، وأنَّ التَّفَرُّقَ الَّذي قد وقَعَ بيْنَ النَّاسِ يَرجِعُ إلى البَغيِ واتِّباعِ الأهواءِ.

٦- أمرُ اللهِ لِرَسولِه بالدَّعوةِ والاستِقامةِ، وإبطالُ حُجَجِ المعانِدينَ، وتوعُّدُهم بالوَعيدِ الشَّديدِ.

٧- ذِكرُ اقتِرابِ السَّاعةِ، ومَوقِفِ الكُفَّارِ والمؤمِنينَ منها في الدُّنيا، وحالِ كُلٍّ منهما يومَ القيامةِ.

٨- ذِكرُ شُبهةِ أنَّ الرَّسولَ افترَى على اللهِ الكَذِبَ، مع الرَّدِّ عليها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٠)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٩).

قال الفيروزابادي: (مُعظَمُ مَقصودِ السُّورةِ: بيانُ حُجَّةِ التَّوحيدِ، وتقريرُ نُبُوَّةِ الرَّسولِ، وتأكيدُ شَريعةِ الإسلامِ). ((بصائر ذوي التمييز)) (١/ ٤١٨).

٩- ذِكرُ بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ الله تعالى ونِعَمِه على الخَلقِ، وأنَّه يَقبَلُ تَوبةَ التَّائِبينَ، ويَعفو عن سيِّئاتِهم، وأنَّه يُنَزِّلُ الغَيثَ عليهم، وأنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ وما فيهما مِن دَوابَّ، وأنَّه قادِرٌ على جَمْعِهم، وأنَّ مِن آياتِه السُّفُنَ الجاريةَ في البَحرِ.

١٠- بيانُ بَعضِ صِفاتِ المُؤمِنينَ الصَّادِقينَ.

١١- بيانُ الأحوالِ السَّيِّئةِ الَّتي سيكونُ عليها الظَّالِمونَ يومَ القيامةِ.

١٢- الأمرُ بالاستِجابةِ لله، والاستِسلامِ لحُكمِه.

١٣- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ هو مُتولِّي جزاءِ المكَذِّبين، وما على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا البلاغُ.

١٤- الكَشفُ عن طبيعةِ الإنسانِ حالَ السَّعةِ والنِّعمةِ، وحالَ الضِّيقِ والشِّدَّةِ.

١٥- ذِكرُ مِلْكِ اللهِ للسَّمواتِ والأرضِ، وقُدرتِه وهِبَتِه الأولادَ لِمَن يَشاءُ.

١٦- بيانُ كيفيَّةِ نُزولِ الوَحيِ على الأنبياءِ.

١٧- خُتِمَت السُّورةُ بامتِنانِ اللهِ على رَسولِه بالوَحيِ، وتقريرِ أنَّ مَرجِعَ الأُمورِ إلى اللهِ تعالى وَحْدَه.

الآيات (١-٦)

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾: أي: يَتشَقَّقْنَ ويَتصدَّعْنَ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[1].

﴿حَفِيظٌ﴾: أي: حافظٌ، ورَقيبٌ، وشاهدٌ، وأصلُ (حفظ): يدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأَتْ هذه السُّورةُ الكَريمةُ ببَعضِ الحُروفِ المُقَطَّعةِ، وقد تقدَّم الكلامُ عنها في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ (فصلت)، ثمَّ يُخبِرُ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائِلًا له: مِثلَ ذلك الإيحاءِ يُوحِي إليك -يا مُحمَّدُ- وإلى الَّذين مِن قَبلِك مِنَ الأنبياءِ: اللهُ العَزيزُ الحَكيمُ، له سُبحانَه ملْكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، وهو العَليُّ العَظيمُ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى بعضَ مظاهرِ كمالِه وجلالِه وعظَمتِه، فيقولُ: تَكادُ السَّمَواتُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦، ٣٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢).

يَتشقَّقْنَ مِن فَوقِهنَّ، والملائِكةُ يُنزِّهونَ اللهَ تعالى عمَّا لا يليقُ بجَلالِه وكَمالِه، ويَسألونَ اللهَ المَغفِرةَ لذُنوبِ مَن في الأرضِ، ألَا إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الغَفورُ الرَّحيمُ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سوءَ عاقبةِ المشركينَ، فيقولُ: والَّذين اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ أَولياءَ يُطيعونَهم ويَعبُدونَهم فاللهُ شَهيدٌ ورَقيبٌ على أعمالِهم، وما أنت -يا مُحمَّدُ- بمُوكَّلٍ بحِفظِ أعمالِهم أو هِدايتِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحُروفِ المُقطَّعةِ في تَفسيرِ أوَّلِ سُورةِ (فصلت)[١].

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾.

أي: مِثلَ ذلك الإيحاءِ[٢] يُوحِي إليك -يا مُحمَّدُ- وإلى الَّذين مِن قَبلِك مِنَ

---

(١) قال ابنُ عثيمين: (هذه الحروفُ ذاتُها ليس لها معنًى... لكِنْ لها مغزًى يقترِنُ بالتَّحَدِّي، وهو أن يُقالَ: إنَّكم -أيُّها العَرَبُ- تُرَكِّبونَ كَلامَكم مِن هذه الحُروفِ، والقرآنُ لم يأتِ بحَرفٍ لم تتكَلَّموا به، بل كُلُّه مِن الحروفِ الَّتي تتكَلَّمون بها، وهذا مِثالُ «ح م ع س ق»، ومع هذا عجَزْتُم أن تأتوا بمِثلِه... ويدُلُّ لهذا المغزى ... أنَّك لا تجِدُ سُورةً مَبدوءةً بهذه الحُروفِ إلَّا وبعدَها ذِكرُ القُرآنِ الكريمِ، أو ذِكرُ ما لا يمكِنُ إلَّا بوَحيٍ... ليس هناك إلَّا سورتانِ أو ثلاثٌ، لكِنْ في حقيقةِ الأمرِ أنَّ الَّذي يلي هذه الحروفَ لا يَتأتَّى العِلمُ به إلَّا عن طريقِ الوَحيِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١).

(٢) ممَّن اختار المعنَى المذكورَ، وأنَّ الإشارةَ تعودُ إلى الإيحاءِ: جلالُ الدِّين المحلِّي، والشوكاني، وابن عاشور، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥).

وقال ابن عاشور: (المعنى: مِثلَ هذا الوحيِ يُوحي اللهُ إليك، فالمشارُ إليه: الإيحاءُ المأخوذُ مِن فِعلِ ﴿يُوحِيٓ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦).

وقيل: الإشارةُ بـ(ذلك) تعودُ على ما تَضَمَّنه القرآنُ أو السُّورةُ. =

الأنبياءِ: اللهُ العَزيزُ ذو القَدْرِ العَظيمِ، الغالبُ القاهرُ لِمَن سِواه، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[١].

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ سُبحانَه أنَّه صاحِبُ الوَحيِ بالشَّرائِعِ دائِمًا قَديمًا وحديثًا؛ عَلَّل ذلك بأنَّه صاحِبُ المُلْكِ العامِّ، فقال[٢]:

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: لله مُلكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ؛ فكُلُّ شَيءٍ تحتَ قَهرِه وتَدبيرِه[٣].

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

= ممَّن اختار أنَّ الإشارةَ تعودُ على القرآنِ: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

قال ابن كثير: (كما أنْزَل إليكَ هذا القرآنَ، كذلك أنْزَل الكُتُبَ والصُّحُفَ على الأنبياءِ قَبْلَك). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠).

وممَّن اختار أنَّ الإشارةَ تعودُ على السُّورةِ، وأنَّ معنى قولِه تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾: أي: مِثلَ ما في هذه السُّورةِ مِن المعاني: الزمخشريُّ، والرازي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧١).

قال أبو السُّعودِ: (على أنَّ مناطَ المُماثَلةِ ما أُشيرَ إليه مِن الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، والإرشادِ إلى الحَقِّ وما فيه صلاحُ العِبادِ، في المعاشِ والمَعادِ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١).

وقيل في معنى الآية غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤-٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١، ٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

أي: وهو العَلِيُّ على كُلِّ شَيءٍ بذاتِه وصِفاتِه وقَدْرِه وقَهْرِه؛ فلا شَيءَ أعلَى منه، ذو العَظَمةِ في ذاتِه وصِفاتِه؛ فلا شَيءَ أعظَمُ منه[١].

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان السِّياقُ مُفهِمًا عَظيمَ مُلكِه سُبحانَه وقُدرتِه، بكَثرةِ ما في الأكوانِ مِن الأجسامِ والمعاني الَّتي هي لِفَظاعتِها لا تُحتَمَلُ، قال مُبَيِّنًا لذلك[٢]:

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ ﴾.

أي: تُوشِكُ السَّمَواتُ أن يَتشَقَّقْنَ مِن فَوقِهنَّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦-٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩، ٤٠).

قيل: المرادُ: تكادُ السَّمَواتُ يَتفَطَّرْنَ؛ تَعظيمًا ومَخافةً لِمَن فَوقَهنَّ، وهو اللهُ تعالى. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٣).

وقال الثَّعلبيُّ: (﴿يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ أي: مِن عَظَمةِ الله وجَلالِه فَوْقَهُنَّ). ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٠٣). ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٦).

وقيل: المرادُ: يَتشَقَّقنَ مِن فَوقِ الأرَضينَ؛ مِن عَظَمةِ الرَّحمنِ وجَلالِه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ ونسَبه لجميعِ المفسِّرينَ، والسَّمْعانيُّ، وابنُ الجوزي، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٣). =

= ممَّن قال مِن السَّلفِ إنَّ المعنى: مِن عَظَمةِ الله: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ، وكعبُ الأحبارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٦، ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠).

وقال البِقاعي: (﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ الَّذي جَرَت العادةُ أن يكونَ أصلَبَ ممَّا تحتَه؛ فانفطارُ غَيرِه مِن بابِ الأَولى، وابتداءُ الانفطارِ مِن ثَمَّ؛ لأنَّ جهةَ الفَوقِ أجدَرُ بتجَلِّي ما يَشُقُّ حَملُه مِن عظيمِ العَظَمةِ والجَلالِ والكِبرياءِ والعِزَّةِ... أو يكونُ انفطارُهنَّ مِن عظيمِ شَناعةِ الكُفرِ بالَّذي خَلَق الأرضَ في يومَينِ، وجَعْلِهم له أندادًا... وهذا كنايةٌ عن التَّخويفِ بالعذابِ؛ لأنَّ مِن المعلومِ أنَّ العاليَ إذا انفطر تهيَّأَ للسُّقوطِ، فإذا سَقَط أهلَكَ مَن تحتَه، فكيف إذا كان مِن العُلُوِّ والعِظَمِ وثِقلِ الجِسمِ على صِفةٍ لا يحيطُ بها إلَّا بارئُها؟! فذِكرُ الفَوقِ تَصويرٌ لِما يترتَّبُ على هذا الانفطارِ مِن البلايا الكِبارِ، وعلى هذا يَحسُنُ أن يعودَ الضَّميرُ على الأراضي الَّتي كَفَروا بفاطِرِها). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٤٢، ٢٤٣).

وقال ابنُ عاشور: (يُوشِكُ إنْ هُنَّ تفَطَّرْنَ أن يَخِرْنَ على الأرضِ، أي: يَكادُ يَقَعُ ذلك؛ لِما فشا في الأرضِ مِن إشراكٍ وفَسادٍ، على معنى قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۞ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٠]، ويُرَجِّحُه قَولُه الآتي: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الشورى: ٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠).

وقيل: المعنى: كُلُّ واحدةٍ منها تتفَطَّرُ فوقَ الَّتي تليها؛ بسَبَبِ قَولِ المُشرِكينَ: اتَّخَذ اللهُ ولَدًا. وممَّن ذهب إليه: الواحديُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٠٣).

قال الشنقيطي: (اعلَمْ أنَّ سببَ مُقارَبةِ السَّمواتِ لِلتَّفطُّرِ في هذه الآيةِ الكريمةِ فيه للعلماءِ وجْهانِ، كِلاهما يدُلُّ له قرآنٌ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ المعنى: تَكادُ السَّمواتُ يَتفطَّرْنَ خَوفًا مِن الله، وهَيْبةً وإجلالًا، ويدُلُّ لهذا الوجهِ قولُه تعالى قبْلَه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]؛ لأنَّ عُلُوَّه وعَظَمتَه سبَّبَ للسَّمواتِ ذلك الخَوفَ والهَيبةَ والإجلالَ، حتَّى كادتْ تَتفطَّرُ. وعلى هذا الوجهِ فقولُه بعدَه: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مُناسَبتُه لِما قبْلَه واضحةٌ؛ لأنَّ المعنى: أنَّ السَّمواتِ في غايةِ الخَوفِ منه تعالى والهَيبةِ والإجلالِ له، وكذلك سُكَّانُها مِن الملائكةِ، فهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: يُنَزِّهونه عن كلِّ ما لا يَليقُ بكمالِه =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٢].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: والمَلائِكةُ يُنَزِّهونَ اللهَ تعالى عمَّا لا يَليقُ به مِنَ النَّقائِصِ، ويَصِفونَه بصِفاتِ الكَمالِ؛ مَحبَّةً له وتَعظيمًا[1].

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ويَسألونَ اللهَ المَغفِرةَ لذُنوبِ مَن في الأرضِ مِن المُؤمِنينَ[2].

= وجَلالِه، مع إثباتِهم له كلَّ كمالٍ وجلالٍ؛ خَوفًا منه وهَيبةً وإجلالًا، كما قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠]. فهُم لِشِدَّةِ خَوفِهم مِن الله وإجلالِهم له يُسَبِّحون بحمدِ ربِّهم، ويَخافون على أهلِ الأرضِ؛ ولذا يَستغفِرون لهم خَوفًا عليهم مِن سخطِ الله وعِقابِه...

الوجهُ الثَّاني: أنَّ المعنى: تَكادُ السَّمواتُ يَتفطَّرْنَ مِن شِدَّةِ عِظَمِ الفِريةِ الَّتي افتراها الكفَّارُ على خالقِ السَّمواتِ والأرضِ جلَّ وعلا، مِن كَونِه اتَّخذ ولَدًا سبحانه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا! وهذا الوجهُ جاء موضَّحًا في سورةِ «مريمَ» في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣]... وكِلا الوجهَينِ حقٌّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (٣٨-٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: ((الملائكةُ تُصَلِّي على أحَدِكُم ما دام في مُصلَّاه الذي صلَّى فيه، ما لم يُحدِثْ، تقولُ: اللَّهُمَّ اغفِرْ له، اللَّهُمَّ ارحَمْه)) (١).

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: ألَا إنَّ اللهَ وَحْدَه هو البالِغُ المَغفرةِ لِذُنوبِ عِبادِه، العَظيمُ الرَّحمةِ بهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: وأمَّا الَّذين اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ يَتولَّونَهم بالعِبادةِ والطَّاعةِ، فاللهُ شَهيدٌ ورَقيبٌ على أعمالِهم يُحْصيها عليهم؛ ليُجازيَهم بها يومَ القيامةِ(٣).

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾.

أي: وما أنت -يا مُحمَّدُ- بمُوكَّلٍ بحِفظِ أعمالِهم، أو بقَسْرِهم على الهِدايةِ،

---

(١) رواه البخاري (٤٤٥) واللفظ له، ومسلم (٦٤٩) (١/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١، ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٨، ٤٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢ - ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٤٩، ٥٠).

وإنَّما عليك إنذارُهم وتَبليغُهم، وعلى الله حِسابُهم[١].

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس: ١٠٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فإذا آمَن العبدُ أنَّ الله حكيمٌ في شرعِه، حكيمٌ في خَلقِه، فإنَّه لا يبقَى لديه شكٌّ في أنَّ ما شرَعه خيرٌ، وما قدَّره خيرٌ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أنَّنا إذا عَلِمْنا أنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ؛ فجديرٌ بنا أنْ نسألَه المغفرةَ والرَّحمةَ؛ لأنَّه أهلٌ لذلك، فيكونُ في هذا تربيةٌ للإنسانِ وسلوكِه في وُصولِه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بأنْ يَعلَمَ بأنَّه غفورٌ فيَستغفِرَ؛ وأنَّه رحيمٌ فيَسترحِمَ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تسليةُ الدُّعاةِ إلى اللهِ إذا لم يُطِعْهم النَّاسُ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾ لم تُوصَلِ الميمُ بالعَينِ كما وُصِلَتِ الميمُ بالرَّاءِ في طالعةِ سُورةِ (الرَّعْدِ) ﴿الٓمٓر﴾، وكما وُصِلَتِ الميمُ بالصَّادِ في مُفتتَحِ سُورةِ (الأعرافِ) ﴿الٓمٓصٓ﴾، وكما وُصِلَتِ العَينُ والصَّادُ بما قبْلَهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١).

في مُفتتَحِ سُورةِ (مريمَ) ﴿كٓهيعٓصٓ﴾؛ لأنَّ ما بعْدَ الميمِ في سورةِ (الرَّعدِ) وسورةِ (الأعرافِ) حرْفٌ واحدٌ، وما بعدَ الحرفِ الثَّالثِ في سورةِ (مريمَ) حَرفانِ، فاتِّصالُه بما قبْلَه أَولى، بخِلافِ ما في هذه السُّورةِ؛ فإنَّه ثلاثةُ حُروفٍ تُشبِهُ كلمةً، فكانتْ أَولى بالانفصالِ[1]. وقيل: لأنَّها سورةٌ أوائلُها «حم»، فجرَتْ مَجرى نظائرِها، فكان «حم» مُبتدَأً و«عسق» خبرَه، ولأنَّهما عُدَّا آيتَينِ، وأخَواتُها مِثلُ: «كهيعص» و«المص» و«المر» عُدَّتْ آيةً واحدةً. وقيل غيرُ ذلك[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيه بَيانُ فَضلِه تعالى بإنزالِ الكُتُبِ وإرسالِ الرُّسُلِ سابقًا ولاحِقًا، وأنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس ببِدْعٍ مِنَ الرُّسُلِ، وأنَّ طَريقتَه طَريقةُ مَن قَبْلَه، وأحوالَه تُناسِبُ أحوالَ مَن قبْلَه مِن المُرسَلينَ، وما جاء به يُشابِهُ ما جاؤوا به؛ لأنَّ الجَميعَ حَقٌّ وصِدقٌ[3].

٣- قال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ كمالُ عِزَّتِه وكمالُ حكمتِه؛ لأنَّ اللهَ قَرَن بيْنَ العزيزِ والحكيمِ؛ إشارةً إلى أنَّ عِزَّتَه وغَلَبَتَه مَبنيَّةٌ على الحكمةِ، فعِزَّةُ المخلوقِ قد تُوجِبُ أنْ يَتصرَّفَ تصرُّفًا سفيهًا، كما في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، فهنا صار له عِزَّةٌ لكنَّها لم تَنْفَعْه؛ لأنَّها ليست مَقرونةً بالحكمةِ، كذلك أيضًا حكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ مقرونةٌ بعِزَّتِه؛ لأنَّ الحكيمَ قد يكونُ خَوَّارًا ليس عندَه غلَبةٌ؛ فيَفوتُه شَيءٌ كثيرٌ، ويَفوتُه الحَزْمُ مِن أجْلِ أنَّه يقولُ: إنَّ ذلك هو الحكمةُ! لكنَّ حكمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ مقرونةٌ بعِزَّتِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢).

ولهذا نحن نستفيدُ الآنَ مِن قَرْنِ الأسماءِ بعضِها ببعضٍ معنًى زائدًا على ما نستفيدُه مِن مجرَّدِ الاسمِ[١].

٤- قال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أنَّ الشَّرائعَ الَّتي أُوحِيَت إلى الرُّسُلِ عِزَّةٌ وحِكمةٌ؛ قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، فمَن تَمسَّكَ بهذه الشَّرائعِ نال الأمْرَينِ جَميعًا وهما مجتَمِعانِ: العِزَّةُ والحِكمةُ، والحُكمُ أيضًا[٢].

٥- قال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ اسْتِقْراءُ القرآنِ قد دَلَّ على أنَّ اللهَ -جَلَّ وعَلا- إذا ذَكَر تَنْزيلَه لِكِتابِه أتْبَع ذلك بعضَ أسمائِه الحسنَى وصِفاتِه العُلْيا[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ أنَّ العُلُوَّ صِفةٌ لازِمةٌ ليست مِن صِفاتِ الأفعالِ الَّتي إنْ شاء فَعَلها وإنْ شاء لم يَفعَلْها. وَجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ العَلِيَّ صِفةٌ مُشبَّهةٌ[٤]، والصِّفةُ المُشبَّهةُ تُفيدُ الثُّبوتَ، وعدَمَ التَّحوُّلِ[٥].

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ فيه التَّصريحُ بالعُلُوِّ المُطلَقِ الدَّالِّ على جَميعِ مَراتِبِ العُلُوِّ؛ ذاتًا وقَدْرًا وشَرَفًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨).

(٤) الصِّفةُ المُشَبَّهةُ: ما اشتُقَّ مِن فِعلٍ لازِمٍ لِمَن قام به على معنى الثُّبوتِ. يُنظر: ((الكافية في علم النحو)) للإسنوي (ص: ٤١)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢).

(٦) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٣٠١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ بيانُ عَظَمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وأنَّ هذه السَّمواتِ -على شِدَّتِها وقُوَّتِها- تَكادُ تَتَفَطَّرُ مِن عظَمةِ اللهِ تعالى، وهذا كقولِه لَمَّا سأل موسَى أنْ يرَى ربَّه، قال: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، بل إنَّ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ -وهو كلامُه- لو نَزَل على جبلٍ ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ففي هذه الآيةِ: بيانُ عظَمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

٩- قولُه تعالى: ﴿مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ فيه بيانُ عُلُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ الذَّاتيِّ، ، فلم يقُلْ: (مِن أسفلُ)؛ لأنَّ اللهَ سبحانَه فوقُ، والسَّمواتُ تَكادُ تَنفطِرْنَ مِن فَوقِهنَّ مِن عظَمتِه[٢]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٠- قولُه تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ فيه فَضيلةُ الجَمعِ بيْنَ التَّسبيحِ والتَّحميدِ، وقد ثَبَتَ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قَولُه: ((كَلِمتانِ حَبيبتانِ إلى الرَّحمنِ، خَفيفتانِ على اللِّسانِ، ثَقيلتانِ في الميزانِ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه، سُبحانَ اللهِ العَظيمِ))[٣].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ التَّسبيحُ مُقَدَّمٌ على التَّحميدِ؛ لأنَّ التَّسبيحَ عِبارةٌ عن تنزيهِ اللهِ تعالى عمَّا لا يَنبغي، والتَّحميدَ عِبارةٌ عن وَصفِه بكَونِه مُفيضًا لكُلِّ الخَيراتِ. وكَونُه مُنزَّهًا في ذاتِه عمَّا لا يَنبغي مُقَدَّمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٦).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٧٥٦٣) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

بالرُّتبةِ على كَونِه فيَّاضًا للخَيراتِ والسَّعاداتِ؛ لأنَّ وُجودَ الشَّيءِ مُقَدَّمٌ على إيجادِ غَيرِه، وحُصولَه في نَفْسِه مُقَدَّمٌ على تأثيرِه في حُصولِ غَيرِه؛ فلهذا السَّبَبِ كان التَّسبيحُ مُقَدَّمًا على التَّحميدِ[1].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَصِحُّ أن يَستَغفِروا لِمَن في الأرضِ وفيهم الكُفَّارُ، وقد قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ١٦١]، فكيف يَكونونَ لاعِنينَ ومُستَغفِرينَ لهم؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ قَولَه ﴿لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يُفيدُ العُمومَ؛ لأنَّه يَصِحُّ أن يُقالَ: إنَّهم استَغفَروا لكُلِّ مَن في الأرضِ، وأن يُقالَ: إنَّهم استَغفَروا لِبَعضِ مَن في الأرضِ دونَ البَعضِ، ولو كان قَولُه: ﴿لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صريحًا في العُمومِ لَما صَحَّ ذلك التَّقسيمُ.

الوَجهُ الثَّاني: هَبْ أنَّ هذا النَّصَّ يُفيدُ العُمومَ، إلَّا أنَّه تعالى حكى عن الملائِكةِ في سورةِ (غافرٍ) فقال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

الوَجهُ الثَّالِثُ: يجوزُ أن يكونَ المرادُ مِنَ الاستِغفارِ ألَّا يُعاجِلَهم بالعِقابِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] إلى أن قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

الوَجهُ الرَّابعُ: يجوزُ أن يُقالَ: إنَّهم يَستَغفِرونَ لكُلِّ مَن في الأرضِ، أمَّا في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٨).

حَقِّ الكُفَّارِ فبِواسِطةِ طَلَبِ الإيمانِ لهم، وأمَّا في حَقِّ المؤمِنينَ فبالتَّجاوُزِ عن سَيِّئاتِهم[١].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يدُلُّ على أنَّهم لا يَستغفِرونَ لأنفُسِهم، وحيثُ لم يَذكُرِ اللهُ عنهم استِغفارَهم لأنفُسِهم، عَلِمْنا أنَّهم مُبَرَّؤونَ عن كلِّ الذُّنوبِ[٢].

١٤- في قولِه تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أنَّ الأسماءَ الحسنى تكونُ كامِلةً بانفِرادِها واجتِماعِها؛ لأنَّه لَمَّا جَمَعَ بيْنَ الغفورِ والرَّحيم تَوَلَّدَ منهما صِفةٌ ثالثةٌ غيرُ المغفرةِ والرَّحمةِ، وهي اجتماعُ هذَينِ الاسمَينِ الدَّالَّينِ على الوصفِ في حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ، فبِالمغفرةِ تُمْحَى الذُّنوبُ؛ وبالرَّحمةِ يَحصُلُ المطلوبُ[٣].

١٥- قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في وَصفِه تعالى بهذه الأوصافِ بعدَ أنْ ذَكَر أنَّه أوحى إلى الرُّسُلِ كُلِّهم عُمومًا، وإلى محمَّدٍ -صلَّى الله عليهم أجمعينَ- خُصوصًا: إشارةٌ إلى أنَّ هذا القُرآنَ الكريمَ فيه مِنَ الأدِلَّةِ والبَراهينِ والآياتِ الدَّالَّةِ على كمالِ الباري تعالى، ووَصفِه بهذه الأسماءِ العَظيمةِ المُوجِبةِ لامتِلاءِ القُلوبِ مِن مَعرفتِه ومَحبَّتِه، وتَعظيمِه وإجلالِه وإكرامِه، وصَرفِ جَميعِ أنواعِ العُبوديَّةِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ له تعالى، وأنَّ مِن أكبَرِ الظُّلمِ وأفحَشِ القَولِ اتِّخاذَ أندادٍ لله مِن دونِه، ليس بيَدِهم نَفعٌ ولا ضَرَرٌ، بل هم مخلوقون مُفتَقِرون إلى اللهِ في جميعِ أحوالِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٨، ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

١٦- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيه بيانُ عُمومِ عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ يَشملُ جميعَ ما يَقومون به مِن عمَلٍ، وهذا يدُلُّ على سَعةِ عِلْمِ اللهِ سُبحانَه واطِّلاعِه(١).

١٧- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بَشَرٌ ليس له مِن الأمرِ شَيءٌ؛ فهو لا يَعْلَمُ الغَيبَ، ولا يستطيعُ أنْ يُحصيَ أعمالَ العبادِ، ولا أنْ يَهديَ أحدًا، ولا يَلْزَمُه إلَّا أنْ يُبَلِّغَ، وهذه الآيةُ لها شواهدُ لفظيَّةٌ ومعنويَّةٌ، قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، يعني: لا تستطيعُ، وإذا كان سيِّدُ الدُّعاةِ وإمامُهم لا يَمْلِكُ أنْ يَهديَهم؛ فما بالُك بمَن سِواه(٢)؟!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿حمٓ ۞ عٓسٓقٓ ۞ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- ابتُدِئتْ هذه السُّورةُ بالحُروفِ المقطَّعةِ ﴿حمٓ ۞ عٓسٓقٓ﴾؛ لأنَّ ابتداءَها مُشيرٌ إلى التَّحدِّي بعَجْزِهم عن مُعارَضةِ القرآنِ، وأنَّ عجْزَهم عن مُعارَضتِه دَليلٌ على أنَّه كلامٌ مُنزَّلٌ مِن اللهِ تعالى. وخُصَّتْ بزِيادةِ كَلمةِ ﴿عٓسٓقٓ﴾ على أوائلِ السُّورِ مِن (آل حم)؛ ولعلَّ ذلك لحالٍ كانوا عليه مِن شِدَّةِ الطَّعنِ في القُرآنِ وَقتَ نُزولِ هذه السُّورةِ، فكان التَّحدِّي لهم بالمعارَضةِ أشَدَّ؛ فزِيدَ في تَحدِّيهم مِن حُروفِ التَّهجِّي(٣).

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ المشارُ إليه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١، ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦).

الإيحاءُ المأخوذُ مِن فِعلِ ﴿يُوحِيٓ﴾، أي: مِثلَ هذا الوحْيِ يُوحِي اللهُ إليك. وقولُه: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ إدْماجٌ[1]. والتَّشبيهُ بالنِّسبةِ إليه على أصلِه، أي: مِثلُ وَحْيِ اللهِ إليك وَحْيُه إلى الَّذين مِن قبْلِك، والغرَضُ مِن التَّشبيهِ إثباتُ التَّسويةِ، أي: ليس وحْيُ اللهِ إليك إلَّا على سُنَّةِ وَحْيِه إلى الرُّسلِ مِن قبْلِك؛ فليس وَحْيُه إلى الرُّسلِ مِن قبْلِك بأوضَحَ مِن وَحْيِه إليك، وهذا كقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، أي: ما جاء به مِن الوحْيِ إنْ هو إلَّا مِثلُ ما جاءتْ به الرُّسلُ السَّابِقونَ، فما إعراضُ قَومِك عنه إلَّا كإعراضِ الأُممِ السَّالِفةِ عمَّا جاءتْ به رُسُلُهم؛ فحصَلَ هذا المعنى الثَّاني بغايةِ الإيجازِ معَ حُسنِ مَوقعِ الاستِطرادِ[2].

- وقيل: قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ واردٌ لِتَحقيقِ أنَّ مَضمونَ السُّورةِ مُوافقٌ لِمَا في تَضاعيفِ سائرِ الكُتبِ المنزَّلةِ على الرُّسلِ المتقدِّمةِ في الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، والإرشادِ إلى الحقِّ، أو أنَّ إيحاءَها مِثلُ إيحائِها بعْدَ تَنويهِها بذِكرِ اسْمِها، والتَّنبيهِ على فَخامةِ شأْنِها[3].

- وما في اسمِ الإشارةِ (ذَلِكَ) مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتبةِ المُشارِ إليهِ، وبُعْدِ مَنزلتِه في الفضْلِ[4].

- وفي جَعْلِ مَضمونِ السُّورةِ أو إيحائِها مُشبَّهًا به مِن تَفخيمِها ما لا يَخْفى[5].

- وتَقديمُ المجرورِ مِن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾؛ للاهتِمامِ

(١) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦، ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بالمشارِ إليه، والتَّشويقِ بتَنبيهِ الأذهانِ إليه[١].

- والجارُّ والمجرورُ ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ صِفةٌ لِمَفعولٍ مُطلَقٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿يُوحِيٓ﴾؛ إذ لمْ يَتقدَّمْ في الكلامِ ما يَحتمِلُ أنْ يكونَ مُشارًا إليه بـ (كذلك)، فعُلِمَ أنَّ المشارَ إليه مُقدَّرٌ مَعلومٌ مِن الفعلِ الَّذي بعْدَ اسمِ الإشارةِ، وهو المصدرُ المأْخوذُ مِن الفِعلِ، أي: كذلك الإيحاءِ يُوحي إليك اللهُ[٢].

- قولُه: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ ﴾ قاله بلَفظِ المضارِعِ، مع أنَّ الوحيَ إلى مَن قبْلَ النَّبيِّ ماضٍ؛ للإيذانِ باستِمرارِ الوحْيِ، وأنَّ إيحاءَ مِثلِه عادتُه وسُنَّتُه، وهذا لا يُوجَدُ في لفظِ الماضي[٣].

- وأيضًا العُدولُ عن صِيغةِ الماضي إلى صِيغةِ المضارِعِ في قولِه: ﴿يُوحِيٓ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ إيحاءَه إليه مُتجدِّدٌ لا يَنقطِعُ في مدَّةِ حياتِه الشَّريفةِ؛ لِيَيْئَسَ المشرِكونَ مِن إقلاعِه، بخِلافِ قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا ﴾[الشورى: ٥٢]، وقولِه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾ [الشورى: ٧]؛ إذ لا غرَضَ في إفادةِ معنى التَّجدُّدِ هناك، وأمَّا مُراعاةُ التَّجدُّدِ هنا؛ فلأنَّ المقصودَ مِن الآيةِ هو ما أُوحِيَ به إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن القرآنِ، وأنَّ قولَه: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ إدماجٌ[٤]. ويجوزُ اعتبارُ صِيغةِ المضارِعِ مَنْظورًا فيها إلى مُتعلَّقَيِ الإيحاءِ، وهو ﴿إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ﴾، فيَكونُ المضارِعُ لاستِحضارِ الصُّورةِ مِن الإيحاءِ إلى الرُّسلِ؛ حيثُ استبْعَدَ المشرِكونَ وُقوعَه، فجُعِلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

كأنَّه مُشاهَدٌ[١].

- وقولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ على قِراءةِ ﴿يُوحَى﴾ بالبِناءِ للمفعولِ[٢]، على أنَّ ﴿إِلَيۡكَ﴾ نائبُ فاعلٍ؛ فيكونُ اسمُ الجَلالةِ مَرْفوعًا على الابتِداءِ بجُملةٍ مُستأنَفةٍ استِئْنافًا بَيانيًّا، كأنَّه لَمَّا قال: يُوحى إليك، قِيل: ومَن يُوحِيه؟ فقِيل: اللهُ العزيزُ الحَكيمُ، أي: يُوحِيه اللهُ[٣].

- وتأخيرُ الفاعلِ ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لِمُراعاةِ الفواصلِ، مع ما فيه من التَّشويقِ[٤].

- وإجراءُ وَصْفَي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ على اسمِ الجَلالةِ دونَ غيرِهما؛ لأنَّ لِهاتَينِ الصِّفتَينِ مَزيدَ اختِصاصٍ بالغرَضِ المقصودِ مِن أنَّ اللهَ يَصْطفي مَن يَشاءُ لرِسالتِه؛ فالعزيزُ: المُتصرِّفُ بما يُريدُ لا يَصُدُّه أحدٌ، والحكيمُ: يَحمِلُ كَلامُه مَعانيَ لا يَبلُغُ إلى مِثلِها غيرُه، وهذا مِن مُتمِّماتِ الغرَضِ الَّذي افتُتِحَتْ به السُّورةُ؛ وهو الإشارةُ إلى تَحدِّي المعانِدينَ بأنْ يأْتوا بسُورةٍ مِثلِ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ[٥].

- وأيضًا في وَصْفِه تعالى بوَصفَيِ العِزَّةِ والحِكمةِ مِن التَّفخيمِ ما لا يَخْفى، وهما صِفتانِ للَفظِ الجلالةِ مُقرِّرتانِ لِعُلوِّ شأْنِ الموحَى به[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧، ٢٨).

(٢) قرأها ابنُ كثيرٍ بفتحِ الحاءِ على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، وقرأها الباقون بكَسرِها. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٣٩)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١).

٢- قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾

- جملةُ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِوَصْفِ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣]؛ لأنَّ مَن كان ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِلكًا له، تَتحقَّقُ له العِزَّةُ؛ لقُوَّةِ ملَكوتِه، وتَتحقَّقُ له الحِكمةُ؛ لأنَّ الحِكمةَ تَقتضي خَلْقَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، وإتقانَ ذلك النِّظامِ الَّذي تَسيرُ به المخلوقاتُ. ولِكَونِ هذه الجُملةِ مُقرِّرةً معنَى الَّتي قبْلَها، كانتْ بمَنزلةِ التَّأكيدِ؛ فلم تُعطَفْ عليها[1].

- وجملةُ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، مُقرِّرةٌ لِما قرَّرَتْه الجُملةُ قبْلَها؛ فإنَّ مَنِ اتَّصَفَ بالعَلاءِ والعظَمةِ لو لم يكُنْ عَزيزًا، لَتَخلَّفَ عَلاؤُه وعظَمتُه، ولا يكونُ إلَّا حكيمًا؛ لأنَّ عَلاءَه يَقتضي سُمُوَّه عن سَفاسفِ الصِّفاتِ والأفعالِ، ولو لم يكُنْ عظيمًا لَتعلَّقتْ إرادتُه بسَفاسفِ الأمورِ، ولَتنازَلَ إلى عبَثِ الفِعالِ. وأفادتْ صِيغةُ الجُملةِ (بتعريفِ جُزْأَيْها) معنى القَصْرِ، أي: لا عَلِيَّ ولا عظيمَ غيرُه؛ لأنَّ مَن عَداهُ لا يَخْلو عن افتقارٍ إليه؛ فلا عُلوَّ له ولا عظَمةَ، وهذا قصْرُ قلْبٍ[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مقرِّرةٌ لمعنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩).

وقصرُ القلبِ تقدم تعريفه (ص: ٢٨٦).

جُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]؛ ولذلك لم تُعطَفْ عليها[١].

- قولُه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾ أي: يَتشقَّقْنَ مِن عَظَمةِ اللهِ؛ يَدُلُّ عليه أنَّ الآيةَ بجُمْلتِها مُبيِّنةٌ لِمَعنى العَظَمةِ والعُلوِّ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾، ولذلك تُرِكَ العاطفُ. وقيل: يَتفطَّرْنَ مِنِ ادِّعاءِ الولَدِ له؛ يُؤيِّدُه مَجيءُ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ بعْدَه؛ والآيةُ على الأوَّلِ زِيادةُ تَقريرٍ لِعَظَمتِه، وعلى الثَّاني بَيانٌ لِكَمالِ تَقدُّسِه عمَّا نُسِبَ إليه، وأنَّ تَرْكَ مُعاجَلَتِهم بالعِقابِ على تلك الكلمةِ الشَّنْعاءِ بسَببِ استِغفارِ الملائكةِ، وفَرْطِ غُفرانِه ورَحمتِه؛ ففيها رمْزٌ إلى أنَّه تعالى يَقبَلُ استِغفارَهم، ويَزيدُهم على ما طَلَبوه مِن المغفرةِ رَحمةً[٢].

- وقرَأَ الجُمهورُ بالياءِ: ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾، وأصلُه مُضارعُ التَّفطُّرِ، وهو مُطاوِعُ التَّفطيرِ الَّذي هو تَكريرُ الشَّقِّ، وقُرِئَ: ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾[٣]، وهو مُضارعُ (انفطَرَ)، وليس المقصودُ منه على القِراءتَينِ قَبولَ أثَرِ الفاعلِ؛ إذ لا فاعلَ هنا للشَّقِّ؛ وإنَّما المقصودُ الخبرُ بحُصولِ الفعلِ، وهذا كثيرٌ؛ كقولِهم: انشَقَّ ضَوءُ الفَجرِ؛ فلا الْتِفاتَ هنا لِما يُقصَدُ غالبًا في مادَّةِ التَّفعُّلِ مِن تَكريرِ الفعلِ؛ إذ لا فاعلَ للشَّقِّ هنا ولا لِتكرُّرِه، فاستَوَتِ القِراءتانِ في بابِ البلاغةِ[٤]. وقيل: الأوَّلُ أبلَغُ؛ لأنَّه مُطاوِعُ (فطَّر)، والثَّاني مُطاوِعُ (فطَرَ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢).

(٣) قرأها أبو عَمْرٍو ويعقوبُ وأبو بكرٍ بالنُّونِ وكسرِ الطَّاءِ، والباقون ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٠)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢).

- ويَجوزُ أنْ يكونَ ضميرُ ﴿فَوۡقِهِنَّ﴾ عائدًا على السَّمواتِ؛ فيكونَ المجرورُ مُتعلِّقًا بفِعلِ ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾؛ بمعنى: أنَّ انشِقاقَهنَّ يَحصُلُ ويُبْتدَأُ مِن أعلاهُنَّ، وذلك أبلَغُ الانشِقاقِ؛ لأنَّه إذا انشَقَّ أعلاهُنَّ كان انشِقاقُ ما دُونَه أَولى. ويَجوزُ أنْ يكونَ الضميرُ عائدًا إلى الأرضِ مِن قولِه: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٤]، على تأويلِ الأرضِ بأرَضينَ؛ باعتبارِ أجزاءِ الكُرةِ الأرضيَّةِ، أو بتأويلِ الأرضِ بسُكَّانِها، وتَكونَ (مِن) زائدةً زِيادتَها مع الظُّروفِ لِتَأكيدِ الفَوقيَّةِ؛ فيُفيدُ الظَّرفُ استِحضارَ حالةِ التَّفطُّرِ وحالةِ مَوقعِه[1].

- وقيل: إنَّما قال: ﴿مِن فَوۡقِهِنَّ﴾؛ لأنَّ أعظَمَ الآياتِ وأدَلَّها على الجَلالِ والعَظَمةِ فَوقَ السَّمواتِ، وهي: العرْشُ، والكُرسيُّ، وصُفوفُ الملائكةِ المرتجَّةُ بالتَّسبيحِ والتَّقديسِ حوْلَ العرْشِ، وما لا يَعلَمُ كُنْهَه إلَّا اللهُ تعالى مِن آثارِ مَلَكوتِه العُظْمى؛ فلذلك قال: ﴿يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾، أي: يَبتدِئُ الانفطارُ مِن جِهَتِهنَّ الفوقانيَّةِ. أو لأنَّ كَلمةَ الكُفرِ جاءتْ مِن الَّذين تحتَ السَّمواتِ؛ فكان القياسُ أنْ يُقالَ: يَتفطَّرْنَ مِن تَحتِهنَّ مِن الجِهةِ الَّتي جاءتْ منها الكلمةُ، ولكنَّه بُولِغَ في ذلك، فجُعِلَت مُؤثِّرةً في جِهةِ الفَوقِ، كأنَّه قيل: يَكَدْنَ يَتفطَّرْنَ مِن الجِهةِ الَّتي فَوقَهنَّ، دَعِ الجِهةَ الَّتي تَحتَهنَّ، ونَظيرُه في المُبالَغةِ قولُه عزَّ وعلا: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ * يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠]؛ فجُعِلَ الحميمُ مُؤثِّرًا في أجْزائهم الباطنةِ[2].

- وعُطِفتْ جُملةُ ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ...﴾ على جُملةِ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾؛ لإفادتِها تَقريرَ معنى عظَمةِ اللهِ تعالى وجلالِه، المدلولِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١١).

عليهما بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]. وهي أيضًا كالبيانِ لِما في جُملةِ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾ [الشورى: ٥]؛ لأنَّ مِن أسبابِ مُقارَبةِ تَفطُّرِهنَّ كَثرةَ ما فيهنَّ مِن الملائكةِ، ولولا أنَّها أُريدَ منها زِيادةُ تَقريرِ معنى جملةِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]، لَكانتْ جَديرةً بأنْ تُفصَلَ ولا تُعطَفَ، ولكنْ رُجِّحَ العطفُ مِن أجْلِ الاهتِمامِ بتَقريرِ العُلوِّ والعظَمةِ للهِ تعالى، وأمَّا التَّبيينُ فيَحصُلُ بمُجرَّدِ تعقيبِ جُملةِ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾؛ فقولُه: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الشورى: ٥] مبتدَأٌ، وجُملةُ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ [الشورى: ٥] خبرٌ، والمقصودُ الإعلامُ بجَلالِ اللهِ(١).

- ومَفعولُ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ مَحذوفٌ؛ دَلَّ عليه مُصاحبتُه ﴿بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: ٥]، تَقديرُه: يُسبِّحونَ ربَّهم، والباءُ للمُصاحَبةِ، أي: يُسبِّحونَ تَسبيحًا مُصاحِبًا لحمْدِهم ربَّهم، أي: الثَّناءِ عليه بصِفاتِه الكَماليَّةِ، ومِن الثَّناءِ ما هو شُكرٌ على نِعَمِه عليهم وعلى غيرِهم؛ فالمعنى: يُسبِّحونَ اللهَ ويَحمَدونَه. وهذا تَعريضٌ بالمشرِكينَ؛ إذ أعرَضوا عن تَسبيحِ ربِّهم وحمْدِه، وشُغِلوا بتَحميدِ الأصنامِ الَّتي لا نِعمةَ لها عليهم، ولا تَنفَعُهم ولا تَضُرُّهم(٢).

- وفي قولِه: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ﴾ عدَل عن التَّأنيثِ مراعاةً للَّفظِ إلى التَّذكيرِ، وضميرِ الجمعِ؛ إشارةً إلى قوَّةِ التَّسبيحِ، وكثرةِ المسبِّحينَ(٣).

- وفي تَقديمِ التَّسبيحِ على الحمْدِ إشارةٌ إلى أنَّ تَنزيهَ اللهِ عمَّا لا يَليقُ به أهمُّ مِن إثباتِ صِفاتِ الكمالِ له؛ لأنَّ التَّنزيهَ تَمهيدٌ لإدراكِ كَمالاتِه تعالى(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١، ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣).

- وجملةُ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تَذييلٌ لِجُملةِ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لإبطالِ وَهْمِ المشرِكينَ أنَّ شُركاءَهم يَشفَعونَ لهم؛ ولذلك جِيءَ في هذه الجُملةِ بصِيغةِ القَصْرِ بضَميرِ الفصْلِ، أي: إنَّ غيرَ اللهِ لا يَغفِرُ لأحدٍ. وصُدِّرَتْ بأداةِ التَّنبيهِ (ألَا)؛ للاهتِمامِ بمُفادِها[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٤]، بعْدَ أنْ أُفيدَ ما هو كالحُجَّةِ على أنَّ للهِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِن قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ [الشورى: ٤، ٥] الآيتَينِ؛ فالمعنى: قد نهَضَت حُجَّةُ انفرادِه تعالى بالعِزَّةِ والحِكمةِ والعُلوِّ والعظَمةِ، وعَلِم المؤمنونَ ذلك، فاستَغفَرتْ لهم الملائكةُ، وأمَّا الَّذين لم يُبصِروا تلك الحُجَّةَ، وعَمِيَتْ عليهم الأدِلَّةُ، فلا تَهتمَّ بشَأْنِهم؛ فإنَّ اللهَ حَسْبُهم، وما أنت عليهم بوكيلٍ؛ فهذا تَسكينٌ لحُزنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أجْلِ عدَمِ إيمانِهم بوَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وهذه مُقدِّمةٌ لِما سيُؤْمَرُ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الدَّعوةِ، ابتِداءً مِن قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، ثمَّ قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ الآياتِ [الشورى: ١٣]، ثمَّ قولِه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ﴾ [الشورى: ١٥]، وقولِه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ الآيةَ[2] [الشورى: ٢٣].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ كأنَّه صَلواتُ اللهِ عليه -على ما هو دأْبُه وعادتُه- يَحرِصُ على إيمانِ المشركينَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣١، ٣٢).

فجِيءَ بقولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ إنكارًا عليه، ثمَّ بَنى عليه النَّفيَ بقولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾؛ للتَّشديدِ فيه، يعني: أمثالُ هؤلاء المُصرِّينَ ليس في وُسعِك وقُدرتِك أنْ تَهديَهم، واللهُ وحْدَه هو القادرُ على ذلك، والَّذي عليك هو الإنذارُ فقط. وأيضًا سِيقَ قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ ...﴾؛ لِنَهْيِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن شِدَّةِ الحِرْصِ على إيمانِ قَومٍ اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ، ونُزِّلَ لذلك مَنزلةَ مُدَّعٍ أنَّه ولِيُّهم ونَصيرُهم، وهو الوكيلُ على غَرْسِ الإيمانِ في قُلوبِهم، حتَّى رُدَّ بقولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾[1].

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ الحَفيظُ: فَعيلٌ بمعنى فاعلٍ، أي: حافظٌ، وتَختلِفُ مَعانيه، ومَرْجِعُها إلى رِعايةِ الشَّيءِ والعِنايةِ به، ويَكثُرُ أنْ يُستعمَلَ كِنايةً عن مُراقَبةِ أحوالِ المَرقوبِ وأعمالِه، وباختلافِ مَعانيه تَختلِفُ تَعديتُه بنَفْسِه، أو بحَرْفِ جَرٍّ يُناسِبُ المعنى، وقد عُدِّيَ هنا بحَرْفِ (على) كما يُعدَّى الوكيلُ؛ لأنَّه بمَعناهُ. والوكيلُ: فَعيلٌ بمعنى مَفعولٍ، وهو المَوكولُ إليه عمَلٌ في شَيءٍ أو اقتِضاءُ حقٍّ؛ يُقالُ: وكَّلَه على كذا، ومنه الوكالةُ في التَّصرُّفاتِ الماليَّةِ والمُخاصَمةِ، ويَكثُرُ أنْ يُستعمَلَ كِنايةً عن مُراقَبةِ أحوالِ الموكَّلِ عليه وأعمالِه، وقد استُعْمِلَ (حَفيظٌ) و(وكيلٌ) هنا في استِعمالِهما الكِنائيِّ عن مُتقارِبِ المعنى، ومادَّةُ (حفِظ) تَقْتضي قِيامَ الحدَثِ بفاعلٍ وتَعديتَه إلى مَفعولٍ، ومادَّةُ (وكَل) تَقْتضي قِيامَ الحدَثِ بفاعلٍ وتَعديتَه إلى مَفعولٍ، وتُجاوزَه مِن ذلك المفعولِ إلى شَيءٍ آخَرَ هو مُتعلِّقٌ به، وبذلك كان فِعلُ (حَفِظَ) مُفيدًا بمُجرَّدِ ذِكرِ فاعلِه ومَفعولِه دونَ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١- ١٤).

احتياجٍ إلى مُتعلَّقٍ آخَرَ، بخِلافِ فِعلِ (وَكَلَ)؛ فإفادتُه مُتوقِّفةٌ على ذِكرِ -أو على تَقديرِ- ما يدُلُّ على شَيءٍ آخَرَ زائدٍ على المفعولِ ومِن علائقِه؛ فلذلك أُوثِرَ وَصْفُ (حَفيظٍ) هنا بالإسنادِ إلى اسمِ الجلالةِ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ عن أنْ يُكلِّفَه غيرُه حِفْظَ شَيءٍ، فهو فاعلُ الحِفظِ، وأُوثِرَ وَصْفُ (وكيلٍ) بالإسنادِ إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ المقصودَ أنَّ اللهَ لم يُكلِّفْه بأكثَرَ مِن التَّبليغِ. وإذ قد كان الحَفيظُ والوَكيلُ بمعنًى، كان إثباتُ كَونِ اللهِ حفيظًا عليهم، ونفْيُ كَونِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وكيلًا عليهم: مُفيدًا قَصْرَ الكَونِ حَفيظًا عليهم على اللهِ تعالى دونَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بطَريقٍ غيرِ أحَدِ طُرقِ القصْرِ المعروفةِ؛ فإنَّ هذا مِن صَريحِ القصْرِ ومَنطوقِه لا مِن مَفهومِه، وهو الأصلُ في القصْرِ وإنْ كان قليلًا. والقصرُ قصرُ قلبٍ[1]، كما هو صريحُ طرَفِه الثَّاني في قولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾؛ نُزِّلَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَنزلةَ مَن يَحسَبُ أنَّه وكيلٌ على إيمانِهم، وحصَلَ مِن هذا التَّنزيلِ تَعريضٌ بهم بأنَّهم لا يَضُرُّونَ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا لم يُصدِّقوه[2].

(١) تقدم تعريفه (ص: ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢ - ٣٥).

الآيات (٧-٩)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾: أي: مكَّةَ، وسُمِّيَت مَكَّةُ أُمَّ القُرى؛ لأنَّها أقدَمُ القُرى وأشهَرُها، وما تقرَّت القُرى في بلادِ العَرَبِ إلَّا بَعدَها، وأصلُ (أمم): يدُلُّ على الأصلِ والمَرجِعِ، وأصلُ (قري): يدُلُّ على جَمعٍ واجتِماعٍ[(١)].

﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾: أي: لا شكَّ فيه، والرَّيبُ: الشَّكُّ، أو هو الشَّكُّ معَ الخَوفِ، ومعَ تُهمةِ المشكوكِ فيه، وتوهُّمُ أمْرٍ ما بالشَّيءِ، وهو مصدرُ (رابَني الشَّيءُ): إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وحقيقةُ الرِّيبةِ: قلَقُ النَّفْسِ واضطِرابُها[(٢)].

﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: هو اسْمٌ مِن أسماءِ جهنَّمَ، والسَّعْرُ: التِهابُ النَّارِ، يُقالُ: سعَّرتُ النَّارَ، إذا ألهَبْتَها، وأصلُ (سعر): اشتِعالُ الشَّيءِ واتِّقادُه وارتِفاعُه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١) و (٥/ ٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

﴿وَلِيٍّ﴾: كلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبينًا الحكمةَ مِن إنزالِ هذا القرآنِ على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: ومِثْلَ ذلك الإيحاءِ أوحَيْنا إليك -يا مُحمَّدُ- قُرآنًا عَربيًّا لِيَعقِلَ النَّاسُ ما فيه؛ لِتُنذِرَ به أهلَ مَكَّةَ ومَن حَوْلَها في جَميعِ الأرضِ عذابًا شَديدًا إنْ لم يُؤمِنوا، وتُنذِرَ النَّاسَ يومَ القيامةِ الآتيَ لا مَحالةَ؛ فمِنهم فَريقٌ في الجنَّةِ، ومِنهم فَريقٌ في النَّارِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه كمالَ قدرتِه، فيقولُ: ولو شاء اللهُ تعالى لجَمَعَ النَّاسَ كُلَّهم على دينٍ واحِدٍ، ولكِنَّ اللهَ يُدخِلُ مَن يَشاءُ مِن عِبادِه في رَحمتِه، والظَّالِمونَ ليس لهم وَليٌّ يَتولَّاهم، ولا نَصيرٌ يَنصُرُهم.

ثمَّ يقولُ تعالى منكِرًا على كلِّ مَن تَولَّى غيرَه: أمِ اتَّخَذ أولئك الظَّالِمونَ أَولياءَ يَتولَّونَهم بطاعتِهم مِن دُونِ الله تعالى؟! فاللهُ هو الوَليُّ، يَتولَّى شؤونَ جميعِ عِبادِه، وهو يُحيي الموتَى بقُدرتِه سُبحانَه، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾.

أي: ومِثْلَ ذلك الإيحاءِ[٢] أوحَيْنا إليك -يا مُحمَّدُ- قُرآنًا بلِسانٍ عَربيٍّ؛ ليَفْهَموا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) =

ما فيه، فالَّذين أرسلْتُكَ إليهم قومٌ عَرَبٌ[(١)].

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

= (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ: جلالُ الدِّين المحلِّي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر المصادر السابقة.

قال ابن عاشور: (والقولُ في ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ﴾ كالقولِ في ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥).

وقيل: المعنى: ومِثلَ ذلك أوْحَيْنا إليكَ، و«ذلك» إشارةٌ إلى معنى الآيةِ قبْلَها: مِن أنَّ اللهَ تعالى هو الرَّقيبُ عليهم، وما أنت برقيبٍ عليهم، ولكنْ نذيرٌ لهم؛ لأنَّ هذا المعنى كرَّره اللهُ تعالى في كتابه في مواضعَ جمَّةٍ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والرازي، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٤).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّ كلمةَ «ذلك» للإشارةِ إلى شَيءٍ سبَق ذِكرُه، فقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ يَقتضي تشبيهَ وحْيِ اللهِ بالقرآنِ بشَيءٍ هاهنا قد سبَق ذِكرُه، وليس هاهنا شَيءٌ سبَق ذِكرُه يُمكِنُ تشبيهُ وحْيِ القرآنِ به إلَّا قولَه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦]). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أوحَيْنا إليك وإلى مَن قَبْلَك هذه المعانيَ فكذلك أوحَيْنا إليك قُرآنًا عربيًّا بَيَّنَّاه بلُغةِ العَرَبِ. وقيل: أي: أنزَلْنا عليك قرآنًا عربيًّا بلِسانِ قَومِك كما أرسَلْنا كُلَّ رسولٍ بلِسانِ قَومِه. والمعنى واحِدٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ ﴿قُرْءَانًا﴾ مَصدَرٌ يجوزُ أن يكونَ بمعنى اسمِ الفاعِلِ، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى اسمِ المفعولِ؛ فأمَّا الأوَّلُ فيكونُ بمعنى قارئٍ، أي: جامِعٍ لجميعِ الكَمالاتِ، وجامِعٍ لعُلومِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، ولكُلِّ عِلمٍ نافِعٍ وعَمَلٍ صالحٍ، وأمَّا الثَّاني فلأنَّه مَقروءٌ ومَتْلوٌّ، ولا مُنافاةَ بيْنَ المعنَيَينِ؛ فيُحمَلُ عليهما جميعًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٤- ٥٦).

أي: أوحَيْنا إليك قُرآنًا عَربيًّا؛ لِتُنذِرَ به أهلَ مَكَّةَ ومَن حَوْلَها مِن سائِرِ النَّاسِ في جَميعِ الأرضِ عذابًا شَديدًا إنْ لم يُؤمِنوا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ سائِرُ النَّاسِ مِن كُلِّ القُرى في جميعِ الأرضِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابنُ عطية، والقرطبي، والبِقاعي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: مَن حَوْلَها مِن العَرَبِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٧، ٥٨).

قال الشنقيطي: (قولُه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يقولُ بعضُ العلماءِ: المُعَلَّلُ محذوفٌ ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَنْزَلْنا إليكَ هذا الكتابَ. وبعضُ العلماءِ يقولُ: هو معطوفٌ على معنى ما قبْلَه. والمعنَى: كتابٌ أنزَلْناه إليكَ لأجْلِ البَرَكاتِ المشتملِ عليها؛ ولتصديقِ الَّذي بيْنَ يَدَيه؛ ولِتُنذِرَ أُمَّ القرَى. وأكثرُ العلماءِ على أن المُعَلَّلَ محذوفٌ، والمعنَى: ولِتُنذِرَ أُمَّ القرى أنزَلْناه إليكَ). ((العذب النمير)) (١/ ٥٠٦).

وقال الرَّسْعَني: (﴿لِّتُنذِرَ﴾ يُقالُ: أنذَرْتُه كذا، وأنذَرْتُه بكذا، وقد عَدَّى الأوَّلَ -أعني: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾- إلى المفعولِ الأوَّلِ، والثَّانيَ -وهو قَولُه تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾- إلى المفعولِ الثَّاني). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٥). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٠).

وقال ابن عثيمين: (فتَجِدُ الآيةَ الكريمةَ الجُملةُ الأُولى حُذِفَ منها مفعولٌ، والثَّانيةُ حُذِفَ منها مفعولٌ، لكِنِ الجُملةُ الأُولى حُذِفَ مَفعولُها الثَّاني، والجُملةُ الثَّانيةُ حُذِفَ مَفعولُها الأوَّلُ، وهذا مِن بلاغةِ القُرآنِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٨).

وقال الشوكاني: (لِتُنذِرَ أمَّ القُرى... والمفعولُ الثَّاني محذوفٌ، أي: لِتُنْذِرَهم العذابَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٣).

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: ولِتُنذِرَ النَّاسَ بالقُرآنِ -يا مُحمَّدُ- فتُخَوِّفَهم وتُحذِّرَهم مِن يومِ القيامةِ الآتي لا مَحالةَ[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥).

قال الرازي: (وفي تسميَتِه بيوم الجَمعِ وُجوهٌ:

الأوَّلُ: أنَّ الخلائقَ يُجْمَعونَ فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التَّغَابُن: ٩]، فيَجتمِعُ فيه أهلُ السَّمواتِ وأهلُ الأرضِ.

الثَّاني: أنَّه يجمعُ بيْنَ الأرواحِ والأجسادِ.

الثَّالثُ: يجمعُ بيْنَ كُلِّ عامِلٍ وعمَلِه.

الرَّابعُ: يجمعُ بيْنَ الظَّالمِ والمظلومِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠).

وقيل: لاجتِماعِ بني آدَمَ للعَرضِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧).

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩].

﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

أي: مِنهم جماعةٌ في الجنَّةِ، وهم المؤمِنونَ باللهِ المتَّبِعونَ لِرَسولِه، ومنهم جماعةٌ في النَّارِ المُلتَهِبةِ المُوقَدةِ، وهم الكافِرونَ باللهِ المُخالِفونَ لِرَسولِه[1].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المرادَ تَقريرُ قَولِه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦]، أي: ليس في قُدرتِك أن تَحمِلَهم على الإيمانِ، فلو شاء اللهُ ذلك لَفَعلَه؛ لأنَّه أقدَرُ منك، ولَكِنَّه جَعَلَ البَعضَ مُؤمِنًا والبَعضَ كافِرًا[2].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

أي: ولو شاء اللهُ أن يَجمَعَ كُلَّ النَّاسِ على دينٍ واحِدٍ لَفَعلَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٠)، ((المفردات)) للراغب الأصفهاني (ص: ٦٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٨).

قيل: المرادُ أمَّةٌ واحِدةٌ، سواءٌ اجتَمَعوا جميعًا على الهدايةِ، أو اجتَمَعوا على الضَّلالةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البيضاوي، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٦٦). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [النحل: ٩].

﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾.

أي: ولكِنَّ اللهَ شاء مَشيئةً أُخرى تَجري على وَفْقِ حِكمتِه، فيُدخِلُ بَعضَ عِبادِه في دينِه، ويَتولَّاهم ويَنصُرُهم، ويُدخِلُهم في الآخرةِ في جَنَّتِه[1].

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، فقال: على دينٍ واحدٍ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤٠).

وقيل: المرادُ: أمَّةٌ واحِدةٌ مُجتَمِعةٌ على الهُدى، أي: مِلَّةِ الإسلامِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٦٦، ٦٧).

قيل: المرادُ برَحمةِ الله تعالى هنا: دينُ الإسلامِ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمعاني، والبغوي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٤).

وقيل: المرادُ بها: الجنَّةُ. وهو اختيارُ ابنِ عاشور، وابنِ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) =

﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

أي: وأمَّا الظَّالِمونَ فليس لهم -بسَبَبِ ظُلمِهم- أيُّ وَليٍّ يَتولَّاهم، وليس لهم أيُّ نَصيرٍ يَنصُرُهم، فهم مَحرومونَ مِن الدُّخولِ في رَحمةِ الله تعالى[(١)].

كما قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى حكَى عن المُشرِكينَ أوَّلًا أنَّهم اتَّخَذوا مِن دُونِه أولياءَ، ثمَّ قال بَعدَه لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لَسْتَ عليهم رَقيبًا ولا حافِظًا، ولا يَجِبُ عليك أن تَحمِلَهم على الإيمانِ شاؤوا أم أبَوْا؛ فإنَّ هذا المعنى لو كان واجِبًا لَفعَلَه اللهُ؛ لأنَّه أقدَرُ منك، ثمَّ إنَّه تعالى أعاد بَعدَه ذلك الكلامَ على سَبيلِ الاستِنكارِ، فقال تعالى[(٢)]:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ﴾.

أي: أمِ اتَّخَذ الظَّالِمونَ أولياءَ يَتولَّونَهم بطاعتِهم مِن دونِ اللهِ[(٣)]؟!

= (٢٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٦٧).

قال السمرقندي: (﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ يعني: يُكرِمُ بدينه مَن يَشاءُ، مَن كان أهلًا لذلك، ويُدخِلُه في الآخرةِ في رحمتِه، أي: في جنَّتِه). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥٢، ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣). =

﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾.

أي: فاللهُ هو الوَليُّ الحَقُّ، يَتولَّى شؤونَ جميعِ عبادِه عامَّةً، ويَتولَّى عبادَه المؤمنينَ خاصَّةً بتربيتِهم، وإعانتِهم في جميعِ أمورِهم، ونصرِهم وتأييدِهم، فلْيَتَّخِذوه وَلِيًّا بعبادتِه وطاعتِه، لا ما لا يملِكُ لهم ضَرًّا ولا نفعًا[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أي: واللهُ يُحيي الموتى بقُدرتِه سُبحانَه[2].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ وحْدَه هو البالغُ القُدرةِ على فِعلِ كُلِّ شَيءٍ، كإحياءِ المَوتى وغَيرِه، لا يَقدِرُ على ذلك سِواه[3].

= قال ابنُ عطية: (قَولُه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ كلامٌ مُنقَطِعٌ مِمَّا قَبْلَه، وليست مُعادِلةً، ولكِنَّ الكلامَ: كأنَّه أضرَبَ عن حُجَّةٍ لهم أو مقالةٍ مُقَرَّرةٍ، فقال: «بَلِ اتَّخَذوا»، هذا مَشهورُ قَولِ النَّحْويِّينَ في مِثلِ هذا. وذَهَب بعضُهم إلى أنَّ (أَمْ) هذه هي بمنزلةِ ألِفِ الاستِفهامِ دونَ تقديرِ إضرابٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧).

وقيل: (أم) للإضرابِ الانتِقاليِّ، وتُقَدَّرُ بعد (أم) همزةُ استِفهامٍ إنكاريٍّ. فالمعنى: بل أَتَّخَذُوا مِن دُونِه أولياءَ؟! ومِمَّن قال بذلك: أبو حيَّان، والشوكاني، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٤، ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٠، ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه حَثُّ الإنسانِ على أنْ يَدعوَ اللهَ بكلِّ ما أراد -ما لم يَعْتَدِ في الدُّعاءِ-، وهذه فائدةٌ تربويَّةٌ: أنْ تَدْعوَ اللهَ بكلِّ شَيءٍ إلَّا ما حَرَّمَ اللهُ عليك الدُّعاءَ به؛ وهذا يَفتحُ للإنسانِ بابَ الرَّجاءِ وبابَ دعاءِ اللهِ واللُّجوءِ إليه، لو كان عندَك مريضٌ مُزْمِنٌ أَيِسْتَ منه؛ فادعُ اللهَ، ولو أنَّ إنسانًا تقطَّعتْ به الأسبابُ؛ طَلَبَ الرِّزقَ في البَيعِ والشِّراءِ فخَسِرَ؛ تقدَّم لوظيفةٍ فلم يَنْجَحْ؛ فلْيَدْعُ اللهَ؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ على كلِّ شيءٍ قديرٌ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ﴾ فيه إثباتُ حكمةِ اللهِ؛ لأنَّ اللَّامَ هنا للتَّعليلِ، وكلَّما وُجِدت لامُ التَّعليلِ في القرآنِ فإنَّ فيها إثباتَ حكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وحينَئذٍ نَعلَمُ أنَّ جميعَ ما يَفعَلُه اللهُ عزَّ وجلَّ أو ما يشرعُه فهو لحكمةٍ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فيه سُؤالٌ: ظاهِرُ اللَّفظِ يَقتَضي أنَّ اللهَ تعالى إنَّما أوحى إلى النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِيُنذِرَ أهلَ مَكَّةَ وأهلَ القُرى المحيطةِ بمكَّةَ، وهذا يَقتَضي أن يكونَ رَسولًا إليهم فقط، وألَّا يكونَ رسولًا إلى كُلِّ العالَمينَ!

الجَوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ شامِلٌ لجَميعِ الأرضِ، وهو مَرويٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٤).

(٣) يُنظر ما أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (٩/ ٤٠٣)، وابنُ أبي حاتم في في ((تفسيره)) =

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ التَّخصيصَ بالذِّكرِ لا يدُلُّ على نَفيِ الحُكمِ عمَّا سِواه؛ فهذه الآيةُ على فَرْضِ كَوْنِها تدُلُّ على كَونِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ رَسولًا إلى هؤلاء خاصَّةً، وأنَّ قولَه: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ لا يَتناوَلُ إلَّا القريبَ مِن مكَّةَ المكَرَّمةِ، كجَزيرةِ العَرَبِ مَثَلًا؛ فإنَّ الآياتِ الأُخَرَ نَصَّت على العُمومِ، كقَولِه تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، فهذا يدُلُّ على كَونِه رَسولًا إلى كُلِّ العالَمينَ. وذِكرُ بَعضِ أفرادِ العامِّ بحُكمِ العامِّ لا يُخَصِّصُه عندَ عامَّةِ العُلَماءِ(١).

الوَجهُ الثَّالثُ: لَمَّا ثَبَت كَونُه رَسولًا إلى أهلِ مكَّةَ وَجَب كَونُه صادِقًا، ثمَّ إنَّه نُقِلَ إلينا بالتَّواتُرِ أنَّه كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخبِرُ أنَّه رَسولٌ إلى كُلِّ العالَمينَ(٢)، والصَّادِقُ إذا أخبَرَ عن شَيءٍ وَجَب تصديقُه فيه؛ فثَبَت أنَّه رَسولٌ إلى كُلِّ العالَمينَ(٣).

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّ الاقتِصارَ على إنذارِ أمِّ القُرى ومَن حَولَها لا يَقتَضي تخصيصَ إنذارِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأهلِ مكَّةَ ومَن حوْلَها؛ لأنَّ تَعليلَ الفِعلِ بعِلَّةِ باعِثِه لا يَقتضي أنَّ الفِعلَ المُعلَّلَ مُخَصَّصٌ بتلك العِلَّةِ ولا بمُتعَلَّقاتِها؛ إذ قد يكونُ للفِعلِ الواحِدِ عِلَلٌ باعِثةٌ؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بُعِثَ للنَّاسِ كافَّةً، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا

= (٧٦١٤، ٧٦١٨)، والبيهقي في ((الأسماء والصفات)) (٥٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥).

(٢) وفي الحديثِ قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((... وكان النَّبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عامَّةً)). أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠).

وَنَـذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، والاقتِصارُ هنا على إنذارِ أهلِ مكَّةَ ومَن حَولَها؛ لأنَّهم المقصودُ بالرَّدِّ عليهم؛ لإنكارِهم رسالةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

٣- قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ إنْ قِيل: كيف يَكونونَ مَجموعينَ مُتفرِّقينَ في حالةٍ واحدةٍ؟

فالجواب: أنَّهم مَجموعونَ في ذلك اليومِ، مع افتراقِهم في دارَي البؤسِ والنَّعيمِ، كما يَجتمِعُ الناسُ يومَ الجُمعةِ مُتفرِّقينَ في مَسجدَينِ، وإنْ أُريدَ بالجمْعِ جمْعُهم في الموقفِ، فالتَّفرُّقُ على معنى مُشارَفتِهم للتَّفرُّقِ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ رَدٌّ على المُعتَزلةِ والقَدَريَّةِ المُنْكِرينَ أنَّ الهِدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ تعالى؛ إذْ في قَولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ دَليلٌ على أنَّه لم يَجعَلْهم، وخَصَّ بالرَّحمةِ مَن شاء منهم، والرَّحمةُ لا محالةَ سَبَبُ الهِدايةِ، ومَنعُ الرَّحمةِ سَبَبُ الضَّلالةِ، لولا ذلك ما كان في الكَلامِ فائدةٌ عندَ مَن تَدَبَّرَه(٣)!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾

- قولُه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ... ﴾ إلخ [الشورى: ٣]، باعتبارِ المُغايَرةِ بيْنَ المعطوفةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٨٨).

والمعطوفِ عليها؛ بما في المعطوفةِ مِن كَونِ الموحَى به قُرآنًا عربيًّا، وما في المعطوفِ عليها مِن كَونِه مِن نوعِ ما أُوحِيَ به إلى الَّذين مِن قبْلِه. وإنَّما أُعيدَ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ﴾؛ ليُبنى عليه قولُه: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾؛ لِما حجَزَ بيْنَهما مِن الفَصْلِ، وأصلُ النَّظمِ: كذلك يُوحِي إليك اللهُ العزيزُ الحكيمُ قُرآنًا عربيًّا، معَ ما حصَلَ بتلك الإعادةِ مِن التَّأكيدِ؛ لتقريرِ ذلك المعنى أفضلَ تقريرٍ[1].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الآيةَ، قيل: مُعترِضةٌ لِتَوكيدِ مَضمونِ الآيتَينِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الشورى: ٦]، و﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾[2] [الشورى: ٨].

- والعُدولُ عن ضَميرِ الغائبِ في ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الشورى: ٦] إلى ضَميرِ العظَمةِ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ الْتفاتٌ[3].

- قولُه: ﴿قُرۡءَانًا﴾ القُرآنُ مَصدرُ: قرَأَ، وأُطلِقَ هنا على المقروءِ؛ مُبالَغةً في الاتِّصافِ بالمَقروئيَّةِ؛ لكثرةِ ما يَقرَؤُه القارِئونَ، وذلك لِحُسنِه وفائدتِه؛ فقد تَضمَّنَ هذا الاسمُ معنى الكمالِ بيْن المَقروآتِ[4].

- وقولُه: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ تَعليلٌ لقولِه: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾؛ لأنَّ كَونَه عربيًّا يَليقُ بحالِ المُنذَرينَ به، وهم أهلُ مكَّةَ ومَن حوْلَها؛ فأولئك هم المخاطَبونَ بالدِّينِ ابتداءً؛ لِما اقتضَتْه الحِكمةُ الإلهيَّةُ مِن اختيارِ الأُمَّةِ العربيَّةِ لتكونَ أوَّلَ مَن يَتلقَّى الإسلامَ، ويَنشُرُه بيْنَ الأُمَمِ، ولو رُوعِيَ فيه جميعُ الأُممِ المخاطَبينَ بدعوةِ الإسلامِ، لَاقتَضى أنْ يَنزِلَ بلُغاتٍ لا تُحصَى؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٥).

فلا جَرَمَ اختارَ اللهُ له أفضَلَ اللُّغاتِ، واختارَ إنزالَه على أفضَلِ البَشَرِ[١].

- واقتصَر على أحدِ موضوعَي الرِّسالةِ وهو الإنذارُ، فقال: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، ولم يَذْكُرِ البشارةَ! معَ أنَّ اللهَ تعالى في مواضعَ كثيرةٍ يَذكُرُهما، كقولِه: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]؛ وذلك لأنَّ السياقَ معَ قريشٍ -وقريشٌ عُتاةٌ مُعْتَدونَ-؛ فناسَبَ ذِكْرُ الإنذارِ دونَ ذِكْرِ البِشارةِ[٢].

- وانتصَبَ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ على المفعولِ به لِفعلِ (تُنذِرَ)؛ بتَنزيلِ الفِعلِ منزلةَ المُعدَّى إلى مَفعولٍ واحدٍ؛ إذ لم يُذكَرْ معه المنذَرُ منه، وهو الَّذي يكونُ مَفعولًا ثانيًا لِفعلِ الإنذارِ؛ لأنَّ (أنذَرَ) يَتعدَّى إلى مفعولَينِ؛ فالمعنى: لِتُنذِرَ أُمَّ القُرَى ومَن حوْلَها ما يُنذَرونَه مِن العذابِ في الدُّنيا والآخِرةِ[٣].

- وقولُه: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ عامٌّ في الإنذارِ بأحوالِ الدُّنيا والآخِرةِ، ثمَّ خُصَّ بقولِه: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، وأُعيدَ فِعلُ (تُنذِر)؛ لِزيادةِ تَهويلِ أمْرِ يَومِ الجَمْعِ؛ لأنَّ تَخصيصَه بالذِّكرِ بعْدَ عُمومِ الإنذارِ يَقتضي تَهويلَه، ولأنَّ تَعديةَ فِعلِ ﴿وَتُنذِرَ﴾ إلى ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ تَعديةٌ مُخالِفةٌ لإنذارِ أُمِّ القُرى؛ لأنَّ ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ مَفعولٌ ثانٍ لِفعلِ ﴿وَتُنذِرَ﴾، أي: وتُنذِرَ النَّاسَ يومَ الجمْعِ، فمَفعولُ ﴿وَتُنذِرَ﴾ الثَّاني هو المُنذَرُ به، ومَفعولُ (لِتُنْذِرَ) الأوَّلُ هو المُنذَرُ، وانتصَبَ ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ على أنَّه مَفعولٌ ثانٍ لِفعلِ ﴿وَتُنذِرَ﴾، وحُذِفَ مَفعولُه الأوَّلُ؛ لِدَلالةِ ما تَقدَّمَ عليه، أي: وتُنذِرَهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٣)، ((تفسير =

- وقيل: في الآيةِ احتِباكٌ[١]؛ فذِكرُ المُنذَرينَ أوَّلًا دَلالةٌ على إرادتِها ثانيًا، وذِكرُ المُنذَرِ به -وهو يومُ الجَمعِ- ثانيًا دَلالةٌ على المُنذَرِ به مِن عَذابِ الأُمَمِ أوَّلًا؛ لِيَذهَبَ به الوَهمُ في المحذوفِ كلَّ مَذهَبٍ، فيَكونَ أهْوَلَ، وذِكرُ هذا المذكورِ أفخَمُ وأوجَلُ[٢].

- وجُملةُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ مُعترِضةٌ بيْن البيانِ والمبيَّنِ، مُقرِّرةٌ لِما قبْلَها، ومعنى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنَّ دلائلَه تَنفي الشَّكَّ في أنَّه سيقعُ، فنُزِّلَ رَيْبُ المُرتابينَ فيه مَنزِلةَ العَدَمِ؛ لأنَّ مُوجِباتِ اليقينِ بوقوعِه بَيِّنةٌ[٣].

- وظرفيَّةُ الرَّيبِ المنفيِّ في ضَميرِ اليومِ في قولِه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ مِن بابِ إيقاعِ الفِعلِ ونحوِه على اسمِ الذَّاتِ، والمرادُ إيقاعُه على بَعضِ أحوالِها الَّتي يدُلُّ عليها المَقامُ؛ مِثلُ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، أي: أكْلُها، أي: لا ريبَ في وُقوعِه[٤].

- وجُملةُ ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا، وعُطِفتْ عليها جُملةُ ﴿وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾؛ فكان الجُملتانِ جَوابًا لسؤالِ سائلٍ عن شأْنِ هذا الجَمْعِ إنْ كان بمَعنى المصدَرِ، فقيل: فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السَّعيرِ، أي: فَريقٌ مِن المجموعينَ بهذا الجمْعِ في الجنَّةِ، وفَريقٌ في السَّعيرِ. أو لِسُؤالِ سائلٍ عن حالِ هذا الجمْعِ إنْ كان الجمْعُ بمعنى المجموعينَ، والتَّقديرُ: فريقٌ

= أبي السعود)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧).

(١) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٨).

منهم في الجنَّةِ، وفريقٌ منهم في السَّعيرِ[١].

- وجُملةُ ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ ...﴾ إلخ مُعترِضةٌ، و﴿فَرِيقٌ﴾ خَبرُ مبتدأٍ مَحذوفٍ على طريقةِ الحذْفِ المُتابَعِ فيه الاستِعمالُ، أي: هم فريقٌ في الجنَّةِ... إلخ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، والغرضُ مِن هذا العطْفِ إفادةُ أنَّ كونَهم فَريقينِ أمْرٌ شاءَ اللهُ تَقديرَه، وهذا مَسوقٌ لِتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ على تَمنِّيهم أنْ يكونَ النَّاسُ كلُّهم مُهتدينَ، ويكونَ جميعُهم في الجنَّةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ نفْيُ النَّصيرِ كِنايةٌ عن كَونِهم في بُؤسٍ وضُرٍّ ومَغلوبيَّةٍ، بحيثُ يَحتاجونَ إلى نَصيرٍ لو كان لهم نَصيرٌ؛ فيَدخُلُ في (الظَّالِمُونَ) مُشرِكو أهلِ مكَّةَ دُخولًا أوَّليًّا؛ لأنَّهم سببُ وُرودِ هذا العمومِ، وأصلُ النَّظمِ: (ويُدخِلُ مَن يَشاءُ في غَضَبِه)؛ فعُدِلَ عنه إلى ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٨).

لكنْ قال أبو السعود: (وأنت خبيرٌ بأنَّ فَرْضَ جعلِ الكلِّ مؤمنينَ يأباهُ تصديرُ الاستدراكِ بإدخالِ بعضِهم في رحمتِه؛ إذِ الكُلُّ حينَئذٍ داخلونَ فيها، فكانَ المناسِبُ حينَئذٍ تصديرَه بإخراجِ بعضِهم مِنْ بَيْنِهم وإدخالِهم في عذابِه، فالَّذي يَقتضيه سياقُ النَّظمِ الكريمِ وسِباقُه أنْ يُرادَ الاتِّحادُ في الكُفرِ... فالمعنى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مُتَّفِقةً على الكُفرِ، بألَّا يُرسِلَ إليهم رسولًا لِيُنذِرَهُم ما ذُكِرَ مِن يومِ الجَمعِ وما فيه مِن ألوانِ الأهوالِ؛ فيَبقَوا على ما هم عليه مِن الكُفرِ، ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣).

في الآيةِ ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ سَببَ إدخالِهم في غَضَبِه هو ظُلمُهم، أي: شِركُهم؛ ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، مع إفادةِ أنَّهم لا يَجِدونَ وليًّا يَدفَعُ عنهم غضَبَه، ولا نَصيرًا يَثأرُ لهم. وقيل: لَعلَّ تَغييرَ المُقابَلةِ؛ للمُبالَغةِ في الوعيدِ؛ إذ الكلامُ في الإنذارِ(١).

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ مِن الاحتِباكِ(٢)؛ ذَكَر الرَّحمةَ أوَّلاً دَليلاً على اللَّعنةِ ثانيًا، والظُّلْمَ وما معه ثانيًا دَليلًا على أضْدادِه أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذَكَر السَّبَبَ الحقيقيَّ في أهلِ السَّعادةِ؛ لِيَحمِلَهم على مَزيدِ الشُّكرِ، والسَّبَبَ الظَّاهِريَّ في أهلِ الشَّقاوةِ؛ لِيَنْهاهم عن الكُفرِ(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

- قولُه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مُقرِّرةٌ لِما قبْلَها مِن انتفاءِ أنْ يكونَ للظَّالِمينَ وليٌّ أو نَصيرٌ(٤).

- و(أمْ) مُنقطِعةٌ، وما فيها مِن مَعنى (بل)؛ للانتقالِ مِن بَيانِ ما قبْلَها إلى بَيانِ ما بعْدَها، والهمْزةُ لإنكارِ الوُقوعِ ونفْيِه على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه، لا لإنكارِ الواقعِ واستِقباحِه كما قِيل؛ إذ المرادُ بَيانُ أنَّ ما فَعَلوا ليس مِن اتِّخاذِ الأولياءِ في شَيءٍ؛ لأنَّ ذلك فرْعُ كَونِ الأصنامِ أولياءَ، وهو أظهَرُ المُمتنِعاتِ، أي: بلْ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤).

أَتَّخَذوا مُتجاوِزينَ اللهَ أولياءَ مِن الأصنامِ وغيرِها؟ هَيهاتَ[١].

- وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ جَوابُ شَرْطٍ مقدَّرٍ[٢]؛ كأنَّه قِيل بعدَ إنكارِ كلِّ وليٍّ سِواهُ: إنْ أرادُوا وليًّا بحقٍّ، فاللهُ هو الوليُّ بالحقِّ، لا وليَّ سِواه؛ لأنَّ إنكارَ ذلك يَقتضي أنَّ أولياءَهم ليستْ جَديرةً بالوَلايةِ، وأنَّهم ضَلُّوا في وَلايتِهم إيَّاها[٣].

- وأفاد تَعريفُ المُسنَدِ في قولِه: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ قَصْرَ جِنسِ الوليِّ بهذا الوصْفِ على الله، وإذ قد عبَدوا غيرَ اللهِ تَعيَّنَ أنَّ المرادَ قصْرُ الولايةِ الحقِّ عليه تعالى، وأفاد ضَميرُ ﴿هُوَ﴾ تأْكيدَ القَصرِ وتَحقيقَه، وأنَّه لا مُبالَغةَ فيه؛ تَذْكيرًا بأنَّ الوَلايةَ الحقَّ في هذا الشَّأنِ مُختصَّةٌ باللهِ تعالى، وهذا كلُّه مَسوقٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ تَسليةً وتثبيتًا، وتَعريضًا بالمشرِكينَ؛ فإنَّهم لا يَخْلُونَ مِن أنْ يَسمَعوه[٤].

- وعطْفُ ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ على جُملةِ ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ إدماجٌ[٥] لإعادةِ إثباتِ البعثِ؛ تَرْسيخًا لعِلمِ المسلمينَ، وإبلاغًا لمَسامِعِ المُنكِرينَ؛ لأنَّهم أنكَروا ذلك في ضِمنِ اتِّخاذِهم أولياءَ مِن دُونِ اللهِ، فلمَّا أبْطَلَ مُعتقدَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٩).

(٢) لكن قال أبو حيَّان: (ولا حاجةَ إلى تقديرِ شرطٍ محذوفٍ، والكلامُ يَتِمُّ بدونِه). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٠).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

إلهيَّةَ غيرِ اللهِ، أردَفَ بإبطالِ ما هو مِن عَلائقِ شِركِهم، وهو نفْيُ البَعثِ، وليس ذلك استدلالًا عليهم لإبطالِ إلهيَّةِ آلهتِهم؛ لأنَّ وُقوعَ البعثِ مَجحودٌ عِندَهم(١).

- وعطْفُ جُملةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لإثباتِ هذه الصِّفةِ للهِ تعالى؛ تَذكيرًا بانفرادِه بتَمامِ القُدرةِ، ويُفيدُ الاستِدلالَ على إمكانِ البعثِ، ويُفيدُ الاستدلالَ على نفْيِ الإلهيَّةِ عن أصنامِهم؛ لأنَّ مَن لا يَقدِرُ على كلِّ شَيءٍ لا يَصلُحُ للإلهيَّةِ، والغرَضُ مِن هذا تَعريضٌ بإبلاغِه إلى مَسامِعِ المشرِكِين. ولَمَّا كان المقصودُ إثباتَ القُدرةِ للهِ تعالى عُطِفَتِ الجُملةُ على الَّتي قبْلَها؛ لأنَّها مِثلُها في إفادةِ الحُكمِ، وكانتْ إفادةُ التَّعليلِ بها حاصلةً مِن مَوقعِها عَقِبَها، ولو أُريدَ التَّعليلُ ابتداءً لَفُصِلَتِ الجُملةُ ولم تُعطَفْ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٤٠، ٤١).

الآيات (١٠-١٢)

﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أُنِيبُ﴾: أي: أَرجِعُ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إليه[١].

﴿فَاطِرُ﴾: أي: خالِقُ ومُبدِعُ ومُبتَدِئُ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[٢].

﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾: أي: يَخلُقُكم ويُكَثِّرُكم، والذَّرْءُ: بَثُّ الخَلقِ وتَكثيرُه، وأصلُ (ذرأ) هنا: يدُلُّ على بَذْرٍ وزَرعٍ[٣].

﴿مَقَالِيدُ﴾: أي: مَفاتيحُ، وقيل: خَزائِنُ، ومالكُ المفاتيحِ مالكُ الخزائنِ، قيل: هو فارسيٌّ معرَّبٌ، ومفردُ مقاليدَ إقليدٌ، وقيل: مُفردُها مِقْليدٌ ومِقْلادٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩، ٢٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٩٥)، ((المفردات)) =

﴿يَبْسُطُ﴾: أي: يُوَسِّعُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ[(١)].

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونهايتِه[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾

في هذه الآيةِ أوجُهٌ:

أحدُها -وهو المشهورُ عندَ المُعْرِبينَ-: أنَّ الكافَ زائدةٌ في خبرِ ﴿لَيْسَ﴾، و﴿شَىْءٌ﴾ اسمُها. والتَّقديرُ: ليس شَيءٌ مِثلَه. قالوا: ولولا ادِّعاءُ زيادتِها لَلَزِمَ أَنْ يكونَ له مِثْلٌ! وهو مُحالٌ؛ إذ يَصيرُ التَّقديرُ على أصالةِ الكافِ: ليس مِثلَ مِثلِه شَيءٌ، فنفى المُماثَلةَ عن مِثلِه، فثبَتَ أنَّ له مِثْلًا لا مِثْلَ لذلك المَثْلِ! وهذا مُحالٌ، تَعالى اللهُ عن ذلك.

والثَّاني: أنَّ مِثْلًا هي الزَّائدةُ، كزيادتِها في قَولِه تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٣٧]. وهذا ليس بجيِّدٍ؛ لأنَّ زيادةَ الأسماءِ ليسَتْ بجائزةٍ، وأيضًا يصيرُ التَّقديرُ: ليس كَهُوَ شَيءٌ، ودخولُ الكافِ على الضَّمائرِ لا يجوزُ إلَّا في شِعرٍ.

الثَّالثُ: أنَّ العربَ تقولُ: «مِثلُكَ لا يَفْعَلُ كذا»، يَعْنُون المُخاطَبَ نفْسَه؛ لأنَّهم

= للراغب (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

يُريدون المُبالَغةَ في نَفْيِ الوصفِ عن المُخاطَبِ، فيَنفونَها في اللَّفظِ عن مِثلِه، فيَثْبُتُ انتِفاؤُها عنه بدليلِها، فالعَرَبُ تُقيمُ المِثْلَ مُقامَ النَّفْسِ، فتقولُ: مِثلي لا يُقالُ له هذا، أي: أنا لا يُقالُ لي هذا.

الرَّابعُ: أَنْ يُرادَ بالمِثْلِ الصِّفةُ، وذلك أنَّ المِثْلَ بمعنى المَثَلِ، والمَثَلُ: الصِّفةُ، كقولِه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الرعد: ٣٥]، فيَكونَ المعنى: ليس مِثْلَ صِفَتِه تعالى شَيءٌ مِن الصِّفاتِ الَّتي لِغَيرِه[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى موجِّهًا إلى الاحتكامِ إلى شريعتِه عندَ الاختلافِ: وما تَنازَعتُم فيه -أيُّها النَّاسُ- فحُكمُه إلى اللهِ وَحْدَه، وذلكم اللهُ هو رَبِّي عليه وَحْدَه اعتَمَدتُ، وإليه وَحْدَه أرجِعُ في جَميعِ شُؤوني.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى كمالَ قدرتِه، فيقولُ: هو خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ، جعَل لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن جنسِكم إناثًا، وجعَل لكم مِنَ الأنعامِ ذُكورًا وإناثًا، يَخلُقُكم اللهُ ويُكثِّرُكم -أيُّها النَّاسُ- أنتم وأنعامُكم في هذا الجَعلِ المذكورِ.

ثمَّ يقولُ منزِّهًا نفْسَه عن النِّدِّ والنَّظيرِ، ومُثبِتًا ما له مِن صفاتِ الكمالِ: ليس مِثلَ اللهِ شَيءٌ مِن خَلْقِه، وهو السَّميعُ البَصيرُ سُبحانَه.

له وَحْدَه مَفاتيحُ خَزائِنِ السَّمَواتِ والأرضِ، يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه، ويُضَيِّقُه على مَن يشاءُ منهم، إنَّ اللهَ عَليمٌ بكُلِّ شَيءٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٥)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٥١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٤٣-٥٤٦)، ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام (ص: ٢٣٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠ ﴾.

﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

أي: وما تَنازَعتُم فيه -أيُّها النَّاسُ- مِن أيِّ شَيءٍ كان، فحُكمُه إلى اللهِ وَحْدَه؛ فهو مَن يَقضي بيْنَكم فيما فيه تَختلِفونَ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (ذلك أنَّ أهلَ مكَّةَ كفَر بعضُهم بالقرآنِ، وآمَن بعضُهم، فقال الله تعالى: إنَّ الَّذي اختلَفْتُم فيه فإنِّي أرُدُّ قضاءَه إلَيَّ، وأنا أحكُمُ فيه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٥).

والمرادُ بهذا القولِ -كما ذكر الواحديُّ- أن يحكمَ يومَ القيامةِ للمؤمنينَ بالقرآنِ بالجنَّةِ، وللمكذِّبينَ به بالنَّارِ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥).

وقيل: المعنى في الجملةِ: وما اختلَفْتُم فيه أيُّها النَّاسُ مِن تكذيبٍ وتصديقٍ وإيمانٍ وكفرٍ وغيرِ ذلك مِن أمورِ الدِّينِ، فالحُكمُ فيه إلى الله، وهو إثابةُ المُحِقِّينَ فيه مِن المؤمنينَ، ومُعاقَبةُ المُبطِلينَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ أبي زَمَنين، والزمخشري، وابن عطية، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤١).

وقال الواحدي: (﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ ﴾ مِن أمرِ الدِّينِ ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ لا إليكم، وقد حكم أنَّ الدِّينَ هو الإِسلامُ لا غيرُه). ((الوجيز)) (ص: ٩٦١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧).

وممَّن قصَر الاختِلافَ في الآيةِ على أمورِ الدِّينِ أيضًا: القرطبيُّ، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

وقيل: هذا عامٌّ في أمورِ الدِّينِ وغيرِها. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرَّسْعَني، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٨٥). =

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾.

أي: ذلِكم اللهُ العَظيمُ هو رَبِّي، عليه وَحْدَه اعتمَدْتُ، وإليه فوَّضْتُ جميعَ أُموري، وإليه وَحْدَه أرجِعُ في جميعِ شُؤوني، وأُقبِلُ عليه وأتوبُ إليه مِن ذُنوبي[1].

= قال ابن كثير: (﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: مهما اختلَفْتُم فيه مِن الأمورِ، وهذا عامٌّ في جميعِ الأشياءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٣).

وقال ابن عثيمين: (أيُّ شَيءٍ يقعُ بيْنَ الناسِ مِن الخلافِ فمَرَدُّه إلى الله عزَّ وجلَّ؛ سواءٌ كان في الأمورِ الدِّينيَّةِ أو في الأمورِ الدُّنيويَّةِ، وسواءٌ كان معَ المسلمينَ... أو كان معَ الكفَّارِ، أيُّ شَيءٍ فحُكمُه إلى الله عزَّ وجلَّ... مَردودٌ إلى الله في الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٨٦-٨٨).

قال البِقاعي: (﴿أُنِيبُ ﴾ أي: أرجِعُ بالتَّوبةِ إذا قصَّرتُ في شَيءٍ مِن فروعِ شرعِه، وأرجعُ إلى كتابِه إذا نابَني أمرٌ مِن الأمورِ، فأعرِفُ منه حُكمَه، فافعلوا أنتم كذلك؛ اجعلوه الحَكَمَ تُفلحوا، ولا تَعدِلوا عنه في شَيءٍ مِن الأشياءِ فتَهلِكوا). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٥٦).

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: هو خالِقُ السَّمَواتِ السَّبعِ والأرضِ وما بَيْنَهما[1].

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾.

أي: جعَل اللهُ لكم مِن جنسِكم[2] إناثًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٤).

(٢) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾: أي: مِن جِنسِكم: الرَّسْعَنيُّ، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٥).

قال ابنُ عاشور: (وكَونُ الأزواجِ مِن أنفُسِهم كَمالٌ في النِّعمةِ؛ لأنَّه لو جَعَل أحَدَ الزَّوجَينِ مِن نَوعٍ آخَرَ لَفاتَ نَعيمُ الأُنسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٤).

وقال الواحدي: (قال المفَسِّرون: يعني النِّساءَ، خَلَق حوَّاءَ مِن ضِلَعِ آدَمَ). ((البسيط)) (١٣/ ١٣٤).

وقال ابن جرير: (وإنَّما قال جَلَّ ثناؤُه: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ لأنَّه خَلَق حَوَّاءَ مِن ضِلَعِ آدَمَ، فَهُنَّ مِنَ الرِّجالِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٤).

وقال الرازي: (قال بعضُهم: المرادُ أنَّه تعالى خَلَق حَوَّاءَ مِن ضِلَعِ آدَمَ. وهذا ضَعيفٌ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ خِطابٌ مع الكُلِّ، فتَخصيصُه بآدَمَ وحَوَّاءَ خِلافُ الدَّليلِ، بل هذا الحُكمُ عامٌّ في جميعِ الذُّكورِ والإناثِ. والمعنى: أنَّه تعالى خَلَق النِّساءَ لِيَتزوَّجَ بهِنَّ الذُّكورُ). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٤). ويُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ١٤)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي =

كما قال سُبحانَه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾.

أي: وجعَل اللهُ لكم مِنَ الضَّأنِ والمَعْزِ والإبِلِ والبَقَرِ ذُكورًا وإناثًا(١).

كما قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤].

= (٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٥).

ممَّن اختار أنَّ المُرادَ بالأزواجِ: الإناثُ: ابنُ أبي زَمَنين، والسمعاني، وابنُ عطية، وابن الجوزي، وابن جُزَي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٥).

وقيلَ: المُرادُ: خلَقكم ذكورًا وإناثًا. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والماوَرْدي، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ: ابنُ جرير، وابن أبي زمنين، والسمعاني، والرسعني، والعليمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٧).

قال ابن جُزَي: (﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾ يحتملُ أن يريدَ الإناثَ، أو الأصنافَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٥).

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾.

أي: يَخلُقُكم اللهُ ويُكثِّرُكم -أيُّها النَّاسُ- أنتم وأنعامُكم في هذا الجَعْلِ المذكورِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

قال ابن جزي: (﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ معنى ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾: يَخلُقُكم نسلًا بعدَ نسلٍ، وقرنًا بعدَ قرنٍ. وقيل: يُكَثِّرُكم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٥).

ممَّن ذهَب إلى أنَّ معنى ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾: يخلقُكم: السمرقندي، والثعلبي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾: يُكَثِّرُكم: الرازيُّ، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، وأبو السعود، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ السَّابقَينِ: ابنُ القيِّم، والبِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٣٠).

قال ابن القيم: (ومعنى الذَّرءِ: الخَلقُ، وهو هنا الخلقُ الكثيرُ، فهو خلقٌ وتكثيرٌ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٢٨٠).

وقال الشنقيطي: (﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ أي: يَخلُقُكم ويَبُثُّكم ويَنْشُرُكم). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٨).

واختُلِف في قوله: ﴿فِيهِ﴾؛ فالأكثَرون على أنَّ (في) على أصلِها. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٠).

واختلَف القائلون بهذا القولِ فيما يَعودُ عليه الضَّميرُ في قولِه: ﴿فِيهِ﴾؛ فقيل: يعودُ على الجَعلِ، وقيل: يعودُ على التَّدبيرِ، وقيل: يعودُ على الرَّحم، وقيل يعود على التَّزاوُجِ.

ممَّن ذهب إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿فِيهِ﴾ عائدٌ على الجَعلِ الَّذي يتضمَّنُه قولُه: ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾: ابنُ عطية، وابن جُزَي، وابن القيِّم، والثعالبي، والشوكاني، وابن عاشور. ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠)، =

= ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

قال ابنُ جرير: (﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ يقولُ: يَخْلُقُكم فيما جَعَل لكم مِن أزواجِكم، ويُعِيشُكم فيما جَعَل لكم مِن الأنعام). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٤).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿فِيهِ﴾ يعودُ على التَّدبيرِ: الزمخشريُّ، والرازي، والنسفي، والنيسابوري، والعليمي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤).

قال النسفي: (﴿فِيهِ﴾: في هذا التَّدبيرِ، وهو أنْ جعَل النَّاسَ والأنعامَ أزواجًا حتَّى كان بيْنَ ذُكورِهم وإناثِهم التَّوالدُ والتَّناسُلُ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿فِيهِ﴾ يعودُ على الأرحامِ: القصَّابُ، والسمرقندي، والثعلبي، والرَّسْعَني، والقُرطبي، والخازن. يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٤٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٥).

وقال الشنقيطي: (﴿فِيهِ﴾ أي: فيما ذَكَر مِن الذُّكورِ والإناثِ، أي: في ضِمنِه عن طريقِ التَّناسُلِ، كما هو معروفٌ. ويُوَضِّحُ ذلك في قولِه تعالَى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]؛ فقولُه تعالَى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ يُوَضِّحُ معنَى قولِه: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾.

فإنْ قِيلَ: ما وجهُ إفرادِ الضَّميرِ المجرورِ في قولِه: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ معَ أنَّه على ما ذكرتُم عائدٌ إلى الذُّكورِ والإناثِ مِن الآدمِيِّينَ والأنعامِ؟

فالجوابُ: أنَّ مِن أساليبِ اللُّغةِ العربيَّةِ الَّتي نَزَل بها القرآنُ رُجوعَ الضَّميرِ أو الإشارةِ بصيغةِ الإفرادِ إلى مُثَنًّى أو مجموعٍ باعتبارِ ما ذُكِر مَثَلًا). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٨).

وقال البِقاعي: (﴿فِيهِ﴾ أي: في ذلك التَّزاوُجِ، بحيثُ يجعلُكم مُولَعينَ به). ((نظم الدرر)) (١/ ١٧).

وقيل: ﴿فِيهِ﴾ معناه: (بِهِ). وممَّن اختاره: الزَّجَّاج، والفرَّاء، والكرماني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٤٩).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

أي: ليس مِثلَ اللهِ سُبحانَه شَيءٌ مِن خَلْقِه؛ لا في ذاتِه ولا في أسمائِه، ولا في صِفاتِه ولا في أفعالِه؛ فهو الواحِدُ الأحَدُ الَّذي لا نَظيرَ له[1].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

أي: واللهُ هو السَّميعُ لكُلِّ صَوتٍ، البَصيرُ بكُلِّ ما في الوُجودِ؛ فلا يَغيبُ عن عِلْمِه شَيءٌ[2].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤).

أي: لله وَحْدَه مَفاتيحُ خزائِنِ السَّمَواتِ والأرضِ؛ فجَميعُ الأشياءِ مِلكُه وبِيَدِه وَحْدَه لا شَريكَ له[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٨، ٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٢٤، ١٢٥).

قال ابن الجوزي: (وللمفسِّرينَ في المقاليدِ قَولانِ؛ أحدُهما: المفاتيحُ، قاله ابنُ عبَّاسٍ. والثَّاني: الخزائنُ، قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمقاليدِ: المفاتيحُ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، وابن جُزَي، والشنقيطي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٦١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٩).

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرون: مفاتيحُ السَّمواتِ: المطرُ، ومفاتيحُ الأرضِ: النَّباتُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥).

وقال النَّحَّاسُ: (قال الحسَنُ ومجاهدٌ وقَتادةُ: المقاليدُ: المفاتيحُ. قال أبو جعفر [النحاس]: والَّذي يَملِكُ المفاتيحَ يَملكُ الخزائنَ). ((معاني القرآن)) (٦/ ٢٩٨). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩١).

وقال الزَّجَّاجُ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ «الزمر» الآية (٦٣): (أي: مفاتيحُ السَّمَواتِ، المعنى: ما كان مِن شَيءٍ مِن السَّمَواتِ والأرضِ فاللهُ خالِقُه وفاتحُ بابِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٦١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: مفاتيحُ خزائنِ السَّمواتِ والأرضِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والبغوي، والنيسابوري، وجلال الدين المحلي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٨٦).

قال جلال الدين المحلي: (مفاتيحُ خَزائنِهما، مِن المطرِ والنَّباتِ وغيرِهما). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٩).

وقال الزمخشري: (أي: هو مالكُ أمرِها وحافِظُها، وهو مِن بابِ الكنايةِ؛ لأنَّ حافظَ الخزائنِ ومُدَبِّرَ أمْرِها هو الَّذي يَملِكُ مَقاليدَها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٩٠). =

كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [المنافقون: ٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يدُ اللهِ مَلْأَى لا تَغِيضُها[١] نَفَقةٌ، سَحَّاءُ[٢] اللَّيلَ والنَّهارَ، أرَأَيْتُم ما أنفَقَ مُنذُ خَلَقَ السَّماءَ والأرضَ؟ فإنَّه لم يَغِضْ ما في يَدِه، وكان عَرشُه على الماءِ، وبيَدِه الميزانُ، يَخفِضُ ويَرفَعُ))[٣].

= وقال البيضاوي: (لأنَّ الخزائنَ لا يَدخُلُها ولا يَتصرَّفُ فيها إلَّا مَن بيَدِه مَفاتيحُها). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمقاليدِ: الخزائنُ: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٨).

وقال القاسمي: (مفاتيحُ الأرزاقِ، وخزائنُ المُلكِ والمَلَكوتِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥٨).

وقال البِقاعي: (أي: خزائنُهما، ومفاتيحُ خزائنِهما، مِن الأمطارِ والنَّباتِ وغيرِهما). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٦٢).

وقال ابن كثير في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ «الزمر» الآية (٦٣): (قال مجاهدٌ: المقاليدُ هي: المفاتيحُ بالفارسيَّةِ. وكذا قال قَتادةُ، وابنُ زَيدٍ، وسُفيانُ بنُ عُيَيْنةَ. وقال السُّدِّيُّ: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: خزائنُ السَّمواتِ والأرضِ.

والمعنَى على كِلا القولَينِ: أنَّ أزِمَّةَ الأمورِ بيَدِه، له المُلْكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شَيءٍ قديرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢).

وأحال في سورةِ «الشورى» على ما تقدَّم في سورةِ «الزُّمَرِ»، ثمَّ قال: (وحاصلُ ذلك أنَّه المتصرِّفُ الحاكِمُ فيهما). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤).

(١) لا تَغيضُها: أي: لا تَنقُصُها. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١٠/ ٣٨٦).

(٢) سَحَّاءُ: أي: دائِمةُ الصَّبِّ والهَطْلِ بالعَطاءِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١٠/ ٣٨٦).

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٤) واللَّفظُ له، ومسلم (٩٩٣).

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

أي: يُوسِّعُ اللهُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١].

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ مُحيطٌ عِلمًا بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك مصالِحُ عِبادِه؛ فيَعلَمُ ما يُصلِحُهم ويُفسِدُهم مِن الغِنى والفَقرِ، ويُعطي كُلًّا مِنهم ما يَليقُ بحِكمتِه وتَقتَضيه مَشيئتُه، بما يُناسِبُ أحوالَهم مِن توسيعٍ أو تضييقٍ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- أنَّ الواجبَ عندَ الاختلافِ الرُّجوعُ إلى حُكْمِ اللهِ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٣]، فالآيةُ نَصٌّ صَريحٌ في أنَّ حُكمَ جميعِ ما تنازَعْنا فيه مَردودٌ إلى اللهِ وَحْدَه، وهو الحاكِمُ فيه على لِسانِ رَسولِه، فلو قُدِّمَ حُكمُ العَقلِ على حُكمِه لم يكُن هو الحاكِمَ بوَحيِه وكتابِه[٤]. وتدُلُّ أيضًا على الرُّجوعِ إلى المُحكَمِ مِن كتابِ اللهِ، والظَّاهِرِ مِن سُنَّةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا اختَلَفوا في تأويلِ آيةٍ واشتَبَه عليهم، وعلى تفويضِ ما لم تَصِلْ إلى دَرَكِه العُقولُ إلى اللهِ تعالى، بأن يُقالَ: اللهُ أعلَمُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٢).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥٣).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ هذانِ الأصلانِ كثيرًا ما يَذكُرُهما اللهُ تعالى في كِتابِه؛ لأنَّهما يَحصُلُ بمَجموعِهما كَمالُ العَبدِ، ويَفوتُه الكَمالُ بفَوتِهما أو فَوتِ أحَدِهما، كقَولِه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقَولِه: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾[(١)] [هود: ١٢٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لَفْتُ نَظَرِ الإنسانِ إلى أنْ لا يَستعينَ إلَّا باللهِ تعالى؛ ولا يَسألَ إلَّا اللهَ تعالى؛ ولا يَتوكَّلَ إلَّا على اللهِ تعالى؛ وجْهُ ذلك: أنَّه هو الَّذي له مَقاليدُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ فإذًا لا تَلتفِتْ إلى غيرِه، كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: ((إذا سألْتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاسْتَعِنْ باللهِ))[(٢)].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾ أنَّه لا بُدَّ أنْ يكونَ اختلافٌ بيْنَ النَّاسِ، وهذا هو الواقعُ، يعني: لا يمكنُ أنْ تَرْفَعَ الاختِلافَ بيْنَ النَّاسِ! لا بُدَّ أنْ يَختلِفوا[(٣)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه أنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٥).
والحديث أخرجه الترمذيُّ (٢٥١٦)، وأحمدُ (٢٧٦٣) مطوَّلًا.
صحَّحه الترمذي، وعبدُالحقِّ الإشبيليُّ في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (٣/ ٣٣٣)، والقرطبي في ((التفسير)) (٨/ ٣٣٥)، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (١/ ١٦٠)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٥١٦)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٤٨٨)، وحسَّنه ابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابن حجر في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (١/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٢).

-تعالى- الحاكمُ بيْنَ عِبادِه بشرعِه في جميعِ أمورِهم[١]. وفيه أيضًا تحريمُ الرُّجوعِ إلى القوانينِ البشريَّةِ عندَ الاختلافِ؛ لقوله: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيرِه[٢]، فالحَلالُ هو ما أحلَّه اللهُ، والحرامُ هو ما حرَّمه اللهُ، والدِّينُ هو ما شَرَعه اللهُ؛ فكُلُّ تَشريعٍ مِن غَيرِه باطِلٌ، والعَمَلُ به بَدَلَ تَشريعِ اللهِ -عندَ مَن يَعتَقِدُ أنَّه مِثلُه أو خَيرٌ منه- كُفرٌ بَواحٌ لا نِزاعَ فيه[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مَفهومُه أنَّ اتِّفاقَ الأُمَّةِ حُجَّةٌ قاطِعةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يأمُرْنا أن نَرُدَّ إليه إلَّا ما اختلَفْنا فيه، فما اتَّفَقْنا عليه يكفي اتِّفاقُ الأُمَّةِ عليه؛ لأنَّها مَعصومةٌ عن الخَطَأِ، ولا بُدَّ أن يكونَ اتِّفاقُها مُوافِقًا لِما في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ فيه سؤالٌ: في ظاهرِ هذه الآيةِ إشكالٌ؛ فإنَّه يُقالُ: المقصودُ منها نَفيُ المِثْلِ عن اللهِ تعالى، وظاهِرُها يُوجِبُ إثباتَ المِثْلِ لله تعالى؛ فإنَّه يَقتَضي نَفْيَ المَثْلِ عن مِثْلِه لا عنه، وذلك يُوجِبُ إثباتَ المِثْلِ لله تعالى!

الجوابُ: أنَّ العَرَبَ تَقولُ: مِثلُك لا يَبخَلُ، أي: أنت لا تَبخَلُ، فنَفَوُا البُخلَ عن مِثْلِه، وهم يُريدونَ نَفْيَه عنه، ويقولُ الرَّجلُ: هذا الكَلامُ لا يُقالُ لِمِثْلي، أي: لا يُقالُ لي. والمرادُ منه المُبالَغةُ؛ فإنَّه إذا كان ذلك الحُكمُ مُنتَفِيًا عمَّن كان مُشابِهًا بسَبَبِ كَونِه مُشابِهًا له، فلَأَنْ يَكونَ مُنتَفِيًا عنه كان ذلك أَوْلى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٢).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٤، ٥٨٥). ويُنظر أيضًا: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ قَطْعُ الشَّبَهِ بيْنَه وبيْنَ الأشياءِ كلِّها، وإبطالٌ للقياسِ فيها[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فيه سُؤالٌ: قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يُفيدُ الحَصرَ، فما معنى هذا الحَصرِ مع أنَّ العِبادَ أيضًا مَوصوفونَ بكَونِهم سَميعينَ بَصيرينَ؟

الجوابُ: السَّميعُ والبَصيرُ لَفظانِ مُشعِرانِ بحُصولِ هاتَينِ الصِّفَتينِ على سَبيلِ الكَمالِ، والكَمالُ في كُلِّ الصِّفاتِ ليس إلَّا للهِ تعالى، فهذا هو المرادُ مِن هذا الحَصرِ[٢].

٧- تأمَّلْ قَولَه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعدَ قولِه سُبحانَه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: كيف ذَكَر سُبحانَه هذا النَّفيَ تَقريرًا للتَّوحيدِ، وإبطالًا لِمَا عليه أهلُ الشِّركِ مِن تَشبيهِ آلهتِهم وأوليائِهم به حتَّى عَبَدوهم معه، فحَرَّفَها المُحَرِّفونَ وجَعَلوها تُرْسًا لهم في نَفيِ صِفاتِ كَمالِه، وحَقائقِ أسمائِه وأفعالِه[٣]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ إثباتَ الصِّفاتِ لا يَستلزِمُ التَّمثيلَ، ولو كان يَستَلزِمُ التَّمثيلَ لَكان كلامُ اللهِ تعالى مُتناقِضًا[٤]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أنَّه لا يجوزُ إثباتُ اسمٍ أو صِفةٍ للهِ تعالى مع التَّمثيلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٥، ٥٨٦).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٣٠).

١٠- أنَّ تَمثيلَ اللهِ بخَلْقِه كُفرٌ؛ لِكَونِه تَكذيبًا لِقَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فيه دَليلٌ لِمَذهَبِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ مِن إثباتِ الصِّفاتِ، ونَفيِ مُماثَلةِ المَخلوقاتِ، وفيه رَدٌّ على المُشَبِّهةِ؛ في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وعلى المُعَطِّلةِ؛ في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فأوَّلُ الآيةِ تنزيهٌ مِن غيرِ تعطيلٍ، وآخِرُها إثباتٌ للصِّفاتِ مِن غيرِ تشبيهٍ ولا تمثيلٍ[٢]، فالمُمَثِّلُ يَعبُدُ صَنَمًا، والمُعَطِّلُ يَعبُدُ عَدَمًا[٣].

١٢- التَّعبيرُ بنفيِ التَّمثيلِ أحسَنُ مِن التَّعبيرِ بنفيِ التَّشبيهِ؛ لأنَّه هو الَّذي نفاه اللهُ في القرآنِ؛ فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٤].

١٣- شَمِلَ نفْيُ المُماثَلةِ في قولِه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ إبطالَ ما نسَبوا للهِ البناتِ، وهو مُناسَبةُ وُقوعِه عَقِبَ قولِه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٧١، ٧٢)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ١١١)، ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٠٣)، ((التدمرية)) لابن تيمية (ص: ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (١/ ٣١٧، ٣١٩)، ((الأسماء والصفات نقلًا وعقلًا)) للشنقيطي (ص: ٢٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥١٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤٠٦)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٦)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٥٢٦)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٨) و (١٠/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣١٨). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٦٦، ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٧).

١٤- بَيَّن الله تعالى في آياتٍ كثيرةٍ صِفاتِ مَن يَستحِقُّ أنْ يكونَ الحُكمُ له، فعلى كُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَتَأَمَّلَها، ويُقابِلَها معَ صفاتِ البشرِ المشرِّعينَ للقوانينِ الوضعيَّةِ، فيَنظُرَ هل تَنطَبِقُ عليهم صِفاتُ مَن له التَّشريعُ؟! سبحانَ اللهِ وتعالَى عن ذلك. فإنْ كانت تنطَبِقُ عليهم -ولن تكونَ- فَلْيَتَّبِعْ تشريعَهم! وإنْ ظَهَر يقينًا أنَّهم أحقرُ وأخسُّ وأذلُّ وأصغرُ مِن ذلك، فَلْيَقِفْ بهم عندَ حَدِّهم، ولا يُجاوِزْه بهم إلى مَقامِ الرُّبوبيَّةِ. سبحانَه وتعالَى أنْ يكونَ له شريكٌ في عبادتِه أو حُكْمِه أو مُلْكِه. ومِن هذه الآياتِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ثمَّ قال مُبَيِّنًا صِفاتِ مَن له الحُكمُ والتَّشريعُ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، فهل في الكَفَرةِ الفَجَرةِ المُشَرِّعينَ للنُّظُمِ الشَّيطانيَّةِ مَن يَستَحِقُّ أن يُوصَفَ بأنَّه الرَّبُّ الَّذي تُفَوَّضُ إليه الأمورُ، ويُتوَكَّلُ عليه، وأنَّه خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ ومُختَرِعُهما على غيرِ مِثالٍ سابِقٍ، وأنَّه هو الَّذي خَلَق للبَشَرِ أزواجًا، وخلَق لهم أزواجَ الأنعامِ الثَّمانيةَ، وأنَّه ليس كمِثْلِه شَيءٌ وهو السَّميعُ البصيرُ، وأنَّه له مَقاليدُ السَّمَواتِ والأرضِ، وأنَّه هو الَّذي يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ، وهو بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ؟! فعليكم -أيُّها المُسلِمونَ- أن تَتفَهَّموا صِفاتِ مَن يَستَحِقُّ أن يُشَرِّعَ ويُحَلِّلَ ويُحَرِّمَ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ هذا تَكملةً

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ٤٤٤، ٤٤٥).

للاعتِراضِ، فيَكونَ كلامًا مُوجَّهًا مِن اللهِ تعالى إلى النَّاسِ. ويجوزُ أن يكونَ ابتِداءَ كلامٍ مُتَّصِلًا بقولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾؛ فتَعيَّنَ أنْ يكونَ مَجموعُ هذا الكلامِ لِمُتكلِّمٍ واحدٍ؛ لأنَّ ضَمائرَ (رَبِّي، وتَوَكَّلْتُ، وأُنِيبُ) ضَمائرُه، وتلك الضَّمائرُ لا تَصلُحُ أنْ تعودَ إلى اللهِ تعالى، ولا حَظَّ في سِياقِ الوحيِ إلى أحدٍ سِوى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فتَعيَّنَ تَقديرُ فِعلِ أمْرٍ بقَولٍ يَقولُه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُمَلِ الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ الكلامَ مُوجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وإلى المسلِمينَ، والواوُ عاطفةٌ فِعلَ أمْرٍ بالقولِ، وحذْفُ القولِ شائعٌ في القُرآنِ بدَلالةِ القرائنِ؛ لأنَّ مادَّةَ الاختلافِ مُشعِرةٌ بأنَّه بيْنَ فَريقَينِ، وحالةَ الفَريقَينِ مُشعِرةٌ بأنَّه اختِلافٌ في أُمورِ الاعتقادِ الَّتي أنْكَرَها الكافرونَ مِن التَّوحيدِ والبَعثِ، والنَّفعِ والإضرارِ[1].

- ولَفظةُ ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ تَدُلُّ على العُمومِ، وهي بَيانٌ لإبهامِ (ما)، أيْ: أيُّ شَيءٍ اختَلفتُم فيه، والمرادُ -على قولٍ-: مِن أشياءِ الدِّينِ وشُؤونِ اللهِ تعالى[2].

- يَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ مَقولَ قَولٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ الآيةَ [الشورى: ٧]، فتكونَ كلامًا مُستأنَفًا؛ لأنَّ الإنذارَ يَقتضي كلامًا مُنذَرًا به. ويجوزُ أنْ تكونَ مُتَّصلةً بجُملةِ ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾ تَكملةً للكلامِ الموجَّهِ مِن اللهِ، ويكونَ في قولِه: ﴿رَبِّي﴾ الْتفاتٌ مِن الخِطابِ إلى التَّكلُّمِ، والتَّقديرُ: ذلكم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤١).

اللهُ ربُّكم، وتكونَ جُملتا ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ مُعترِضتَينِ[١].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ لِتَمييزِ المشارِ إليه، وهو المفهومُ مِن ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهذا التَّمييزُ لإبطالِ الْتباسِ ماهيَّةِ الإلهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ على المشرِكينَ؛ إذ سَمَّوُا الأصنامَ آلهةً وأربابًا. وأُوثِرَ اسمُ الإشارةِ الَّذي يُستعمَلُ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾؛ لِقَصْدِ التَّعظيمِ بالبُعدِ الاعتباريِّ، اللَّازِمِ للسُّمُوِّ وشَرَفِ القَدْرِ، أي: ذلكم اللهُ العظيمُ، ويُتوصَّلُ مِن ذلك إلى تَعظيمِ حُكمِه، فالمعنى: اللهُ العظيمُ في حُكمِه هو ربِّي الَّذي توكَّلتُ عليه، فهو كافِيني منكم[٢].

- والإنابةُ: الرُّجوعُ، والمرادُ بها هنا في قولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ الكِنايةُ عن تَرْكِ الاعتمادِ على الغيرِ؛ لأنَّ الرُّجوعَ إلى الشَّيءِ يَستلزِمُ عدَمَ وُجودِ المطلوبِ عِندَ غيرِه[٣].

- وجِيءَ في فِعلِ ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ بصِيغةِ الماضي، وفي فِعلِ ﴿أُنِيبُ﴾ بصِيغةِ المضارِعِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ توكُّلَه على اللهِ كان سابقًا مِن قَبلِ أنْ يَظهَرَ له تَنكُّرُ قَومِه له، فقد صادَفَ تَنكُّرُهم منه عبْدًا مُتوكِّلًا على ربِّه، وإذا كان تَوكُّلُه قد سبَقَ تَنكُّرَ قَومِه، فاستِمرارُه بعدَ أنْ كَشَّروا له عن أنيابِ العُدوانِ مُحقَّقٌ. وأمَّا فِعلُ ﴿أُنِيبُ﴾ فجِيءَ فيه بصِيغةِ المُضارِعِ؛ للإشارةِ إلى تَجدُّدِ الإنابةِ وطلَبِ المغفرةِ، ويُعلَمُ تَحقُّقُها في الماضي بمُقارنتِها لِجُملةِ ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾؛ لأنَّ المتوكِّلَ مُنيبٌ. ويَجوزُ أن يكونَ ذلك مِن الاحْتِباكِ[٤]، والتَّقديرُ: عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٤٣).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

تَوكَّلتُ وأتَوكَّلُ، وإليه أنَبْتُ وأُنيبُ[١].

- وتَقديمُ المُتعَلَّقَينِ في ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: لا أتَوكَّلُ إلَّا عليه، ولا أُنيبُ إلَّا إليه[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خَبرٌ ثانٍ عن الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الشورى: ٩]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ؛ أَعْقَبَ به أنَّه على كلِّ شَيءٍ قديرٌ؛ فإنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ مِن أبرَزِ آثارِ صِفةِ القُدرةِ المنفرِدِ بها[٣].

- قولُه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضميرِ ﴿فَاطِرُ﴾؛ لأنَّ مضمونَها حالٌ مِن أحوالِ فَطْرِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فإنَّ خلْقَ الإنسانِ والأنعامِ مِن أعجَبِ أحوالِ خلْقِ الأرضِ. ويَجوزُ كونُها خَبرًا ثالثًا عن ضَميرِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الشورى: ٩]، والمعنى: قدَّرَ في تَكوينِ نوعِ الإنسانِ أزواجًا لأفرادِه، ولَمَّا كان ذلك التَّقديرُ مُقارِنًا لأصلِ تَكوينِ النَّوعِ، جِيءَ فيه بالفعلِ الماضي[٤].

- قولُه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾ الخِطابُ في قولِه: ﴿لَكُم﴾ للنَّاسِ كلِّهم، والخِطابُ الْتفاتٌ مِن الغَيبةِ، واللَّامُ للتَّعليلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٤٣، ٤٤).

وتَقديمُ ﴿لَكُمْ﴾ على غيرِه مِن مَعمولاتِ ﴿جَعَلَ﴾؛ لِيُعرَفَ أنَّه مَعمولٌ لذلك الفِعلِ، فلا يُتوهَّم أنَّه صِفةٌ لـ ﴿أَزْوَٰجًا﴾، ولِيكونَ التَّعليلُ به مُلاحَظًا في المعطوفِ بقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾[1].

- وقولُه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ عطفٌ على ﴿أَزْوَٰجًا﴾ الأوَّلِ؛ فهو كمَفعولٍ لـ (جعَلَ)، والتَّقديرُ: وجعَلَ مِن الأنعامِ أزواجًا، أي: جعَلَ منها أزواجًا بعضَها لبعضٍ، وفائدةُ ذِكرِ أزواجِ الأنعامِ دونَ أزواجِ الوَحْشِ: أنَّ في أنواعِ الأنعامِ فائدةً لحياةِ الإنسانِ؛ لأنَّها تَعيشُ معه، ولا تَنفِرُ منه، ويَنتفِعُ بألبانِها وأصوافِها، ولُحومِها ونَسْلِها، وعمَلِها مِن حَمْلٍ وحَرْثٍ؛ فبِجَعْلِها أزواجًا حصَلَ مُعظمُ نفْعِها للإنسانِ[2].

- وضَميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ للمُخاطَبينَ بقولِه: ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾، ومُرادُ شُمولِه لجَعْلِ أزواجٍ مِن الأنعامِ المتقدِّمِ ذِكرُه؛ لأنَّ ذِكرَ أزواجِ الأنعامِ لم يكُنْ هَمَلًا؛ بلْ مُرادًا منه زِيادةُ المِنَّةِ؛ فإنَّ ذَرْءَ نَسْلِ الإنسانِ نِعمةٌ للنَّاسِ، وذَرْءَ نَسْلِ الأنعامِ نِعمةٌ أُخرى للنَّاسِ؛ ولذلك اكتَفَى بذِكرِ الأزواجِ في جانبِ الأنعامِ عن ذِكرِ الذَّرءِ؛ إذ لا مَنْفعةَ للنَّاسِ في تَزاوُجِ الأنعامِ سِوى ما يَحصُلُ مِن نَسْلِها، وإذ كان الضَّميرُ ضَميرَ جَماعةِ العقلاءِ، وكان ضَميرَ خِطابٍ، في حينِ أنَّ الأنعامَ ليستْ عُقلاءَ ولا مُخاطَبةً؛ فقد جاء في ذلك الضَّميرِ تَغليبُ العُقلاءِ؛ إذ لم يُذْكَرْ ضَميرٌ صالحٌ للعُقلاءِ وغيرِهم، كأنْ يُقالَ: يَذْراكِ بكسْرِ الكافِ، على تأْويلِ إرادةِ خِطابِ الجَماعةِ، وجاء فيه تَغليبُ الخِطابِ على الغَيبةِ؛ فقد جاء فيه تَغليبانِ، وهو تَغليبٌ دقيقٌ؛ إذ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اجتمَعَ في لفظٍ واحدٍ نَوعانِ مِن التَّغليبِ[١].

- وجِيءَ بالمضارعِ في ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ، والتَّجدُّدُ أنسَبُ بالامتِنانِ[٢].

- ولَفظةُ (ذَرَأَ) -والذَّرْءُ: بَثُّ الخَلقِ وتكثيرُه- تَزيدُ على لفظةِ (خَلَقَ) معنًى آخَرَ ليس في (خلَقَ)، وهو تَوالي الطَّبقاتِ على مَرِّ الزَّمانِ[٣].

- وحرْفُ (في) مُعبَّرٌ به عن معنى السَّببيَّةِ؛ تَشْبيهًا للسَّببِ بالظَّرفِ في احتوائِه على مُسبَّباتِه؛ كاحتواءِ المنبعِ على مائِه، والمَعدِنِ على تُرابِه، وفيه مُبالَغةٌ لِلْبَثِّ والتَّكثيرِ[٤].

- ومَوقعُ هذه الجُملةِ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ كالنَّتيجةِ للدَّليلِ؛ فإنَّه لَمَّا قدَّمَ ما هو نِعَمٌ عَظيمةٌ، تَبيَّنَ أنَّ اللهَ لا يُماثِلُه شَيءٌ مِن الأشياءِ في تَدبيرِه وإنعامِه، ومعنى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾: ليس مِثلَه شَيءٌ، فأُقْحِمَت كافُ التَّشبيهِ على (مِثلٍ) وهي بمعناهُ؛ لأنَّ معنى المِثْلِ هو الشَّبيهُ؛ فتَعيَّنَ أنَّ الكافَ مُفيدةٌ تأكيدًا لِمَعنى المِثلِ، وهو مِن التَّأكيدِ اللَّفظيِّ باللَّفظِ المرادِفِ مِن غَيرِ جِنْسِه، وحسَّنَه أنَّ المؤكَّدَ اسمٌ؛ فأشْبَهَ مَدخولَ كافِ التَّشبيهِ المخالِفِ لمعنى الكافِ، وإذ قد كان المثلُ واقعًا في حيِّزِ النَّفْيِ، فالكافُ تأْكيدٌ لِنَفْيِه، فكأنَّه نَفى المثلَ عنه تعالى بجُملتَينِ؛ تَعليمًا للمسلمينَ كيف يُبطِلون مُماثَلةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤، ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

الأصنامِ للهِ تعالى[١].

- قَدَّمَ سُبحانَه نَفْيَ المُماثَلةِ على الإثباتِ مِن أجْلِ أنْ يَرِدَ الإثباتُ على قَلبٍ خالٍ مِن تَوَهُّمِ المُماثَلةِ، ويكونَ الإثباتُ حينَئذٍ على الوَجهِ اللَّائقِ به تعالى، وأنَّه لا يُماثَلُ في صِفاتِه كما لا يُماثَلُ في ذاتِه تعالى[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

- مَوقعُ هذه الجُملةِ ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ كمَوقعِ الَّتي قبْلَها؛ تَتنزَّلُ مَنزِلةَ النَّتيجةِ لِما تَقدَّمَه؛ لأنَّه إذا ثبَتَ أنَّ اللهَ هو الوليُّ، وما تَضمَّنَتْه الجُمَلُ بعدَها إلى قولِه: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١] مِن انفرادِه بالخَلقِ؛ ثبَتَ أنَّه المنفردُ بالرِّزقِ[٣].

- وتقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: هي مِلكُه لا مِلكُ غيرِه[٤].

- وجُملةُ ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ مُبيِّنةٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وبَسْطُ الرِّزقِ: توسِعتُه، وقَدْرُه: كِنايةٌ عن قِلَّتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٨، ٥٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥ - ٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٩).

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ هو كالعِلَّةِ لقولِه: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: إنَّ مَشيئتَه جاريةٌ على حسَبِ عِلمِه بما يُناسِبُ أحوالَ المَرزوقينَ مِن بَسْطٍ أو قَدْرٍ. فهذه الجملةُ تعليلٌ لِما قبْلَها، وتَمهيدٌ لِما بعدَها مِن قولِه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ...﴾، وإيذانٌ بأنَّ ما شرع لهم صادرٌ عن كَمالِ العِلمِ والحِكمةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٩).

الآيات (١٢-١٥)

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شَرَعَ لَكُم﴾: أي: بيَّن وأوضَح لكم، والشَّرْعُ هو البيانُ والإظهارُ، وقيل: فتَح لكم وعرَّفكم الطَّريقَ، والشَّرْعُ: نهجُ الطَّريقِ الواضح، وأصلُ (شرع): شَيءٌ يُفتَحُ في امتِدادٍ يكونُ فيه[1].

﴿يَجْتَبِىٓ﴾: أي: يَختارُ ويَصطَفي، والاجتِباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطِفاءِ، وأصلُ (جبي): يدُلُّ على جَمعِ الشَّيءِ[2].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٩٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (٧/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

﴿يُنِيبُ﴾: أي: يَرجِعُ ويَتوبُ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[١].

﴿بَغۡيَۢا﴾: أي: فَسادًا وتَعدِّيًا، وأصلُ البَغيِ هنا: يدُلُّ على جِنسٍ مِنَ الفَسادِ[٢].

﴿أُورِثُواْ﴾: أي: استُخْلِفوا، وأُوتوا، وأصلُه: أنْ يكونَ الشَّيءُ لقومٍ ثُمَّ يَصيرَ إلى آخَرينَ بِنَسَبٍ أو سَبَبٍ[٣].

﴿مُرِيبٖ﴾: أي: مُوقِعٍ في الرِّيبةِ، والرِّيبةُ: التُّهمةُ، وهي ظنُّ السوءِ، فهي قِسمٌ مِن الشَّكِّ، والرِّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتِفاءُ الطُّمأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا نِعمتَه بما شرَع مِن شرائعِ الدِّينِ: سَنَّ اللهُ لكم -أيُّها المُسلِمونَ- وبيَّن ما وصَّى به نوحًا وما أوحاه إلى مُحمَّدٍ، وما وصَّى به إبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذلك هو إقامةُ دينِ الإسلامِ، وعَدَمُ التَّفَرُّقِ والاختِلافِ فيه.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى موقفَ المشركينَ مِن هذا الدِّينِ، فيقولُ: عَظُمَ وشَقَّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١، ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٨).

المُشرِكينَ ما تَدعوهم إليه -يا محمَّدُ- مِن تَوحيدِ اللهِ وَحْدَه.

اللهُ يَصطَفي إليه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويَهدي إليه مَن يُقبِلُ عليه.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سببَ اختِلافِ المختلِفينَ في أمرِ الدِّينِ، فيقولُ: وما تَفرَّقوا إلَّا مِن بَعدِ ما جاءهم العِلمُ مِن اللهِ؛ بسَبَبِ فَسادِهم وعُدوانِ بعضِهم على بعضٍ، ولولا كَلِمةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّك -يا محمَّدُ- بتأخيرِ العذابِ وإمهالِهم إلى وَقتٍ مَعلومٍ، لَعجَّل العُقوبةَ لهم، وإنَّ اليهودَ والنَّصارَى الَّذين أُوتُوا الكِتابَ مِن بَعدِ أولئك المختلِفينَ في الحَقِّ: لَفي شَكٍّ مُوقِعٍ في الارتيابِ والاضطِرابِ مِن كتابِهم.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالمُضِيِّ في دعوتِه، فيقولُ: فلِذلك الدِّينِ الحَقِّ فادْعُ النَّاسَ -يا مُحمَّدُ- واستَقِمْ على الدِّينِ الَّذي أمَرَك اللهُ به، ولا تتَّبِعْ أهواءَهم، وقُلْ: آمَنتُ بما أنزَلَ اللهُ مِن الكُتُبِ كُلِّها، وأمرني ربِّي بأن أعدِلَ بيْنَكم، اللهُ رَبُّنا ورَبُّكم، لنا جَزاءُ أعمالِنا، ولكم جَزاءُ أعمالِكم، وسيُجازي اللهُ كُلًّا بعَمَلِه، لا جِدالَ ولا مُنازَعةَ بيْنَنا وبيْنَكم، اللهُ يَجمَعُ بينَنا وبينَكم يومَ القيامةِ، فيَقضي بينَنا بالحَقِّ، وإليه وَحْدَه مَرجِعُنا جَميعًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عظَّم اللهُ تعالى وحْيَه إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ

يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣]؛ ذكر في هذه الآيةِ تفصيلَ ذلك، فقال(١):

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾.

أي: سَنَّ اللهُ لكم وبيَّن -أيُّها المُسلِمونَ- ما وصَّى به نوحًا أن يَعمَلَه، وما أوحاه إلى مُحمَّدٍ، وما وصَّى به إبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذلك هو إقامةُ دينِ الإسلامِ الَّذي شَرَعه اللهُ، بلا تَحريفٍ ولا غُلُوٍّ ولا تَقصيرٍ في العَمَلِ به، مع الاجتِماعِ على ذلك، ونَبْذِ التَّفَرُّقِ والاختِلافِ فيه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٩-٤٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٢-١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٦٣-٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٢٨-١٣٦).

قال الزمخشري: (المرادُ: إقامةُ دينِ الإسلامِ الَّذي هو توحيدُ اللهِ وطاعتُه، والإيمانُ برُسُلِه وكُتُبِه، وبيَومِ الجزاءِ، وسائِرِ ما يكونُ الرَّجُلُ بإقامتِه مُسلِمًا، ولم يُرِدِ الشَّرائعَ الَّتي هي مصالحُ الأُممِ على حَسَبِ أحوالِها؛ فإنَّها مختلِفةٌ مُتَفاوِتةٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٥).

وقال ابنُ العربي: (المعنى: ووصَّيْناك -يا محمَّدُ- ونوحًا دينًا واحِدًا، يعني في الأُصولِ الَّتي لا تختلِفُ فيها الشَّريعةُ، وهي: التَّوحيدُ، والصَّلاةُ، والزَّكاةُ، والصِّيامُ، والحَجُّ، والتَّقَرُّبُ إلى الله تعالى بصالحِ الأعمالِ، والتَّزَلُّفُ إليه بما يَرُدُّ القَلبَ والجارِحةَ إليه، والصِّدقُ، والوَفاءُ بالعَهدِ، وأداءُ الأمانةِ، وصِلةُ الرَّحِمِ، وتحريمُ الكُفرِ والقَتلِ والزِّنا، والإذايةِ للخَلقِ كيفما تصَرَّفَت، والاعتداءِ على الحيوانِ كيفما كان، واقتِحامِ الدَّناءاتِ، وما يعودُ بخَرمِ المروءاتِ؛ فهذا كُلُّه شُرِعَ دينًا واحِدًا ومِلَّةً مُتَّحِدةً لم يختلِفْ على ألسِنةِ الأنبياءِ... واختَلَفَت الشَّرائعُ وراءَ هذا في مَعانٍ حَسَبَما أراده اللهُ مِمَّا اقتضَتْه المصلحةُ، وأوجبت الحِكمةُ وَضْعَه في الأزمنةِ على الأُمَمِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٨٩، ٩٠). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٧، ١٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (الدِّينُ الَّذي اتَّفَقوا عليه: هو الأُصولُ، فتضَمَّن الكلامُ أشياءَ؛ أحَدُها: أنَّه شَرَعَ لنا الدِّينَ المشتَرَكَ، وهو الإسلامُ والإيمانُ العامُّ، والدِّينَ المختَصَّ بنا، وهو الإسلامُ والإيمانُ =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤، ١٠٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٢، ٥٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((... الأنبياءُ إخوةٌ مِن عَلَّاتٍ[(١)]، وأُمَّهاتُهم شَتَّى، ودينُهم واحِدٌ ...))[(٢)].

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

أي: عَظُمَ وشَقَّ على المُشرِكينَ ما تَدعُوهم إليه -يا مُحمَّدُ- مِن تَوحيدِ اللهِ وطاعتِه، وتَرْكِ عبادةِ ما سِواه[(٣)].

= الخاصُّ. الثَّاني: أنَّه أمَرَنا بإقامةِ هذا الدِّينِ كُلِّه؛ المُشترَكِ والمختَصِّ، ونهانا عن التَّفَرُّقِ فيه. الثَّالثُ: أنَّه أمَرَ المرسَلينَ بإقامةِ الدِّينِ المُشترَكِ، ونهاهم عن التَّفَرُّقِ فيه). ((مجموع الفتاوى)) (١/ ١٣، ١٤).

وقال ابن عاشور: (الإقامةُ مُجمَلةٌ، يُفَسِّرُها ما في كُلِّ دينٍ مِن الفُروعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٣).

(١) العَلَّاتُ: هم الإخوةُ لأبٍ مِن أمَّهاتٍ شَتَّى، والمرادُ أنَّ إيمانَهم واحِدٌ، وشرائِعَهم مُختَلِفةٌ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٢٩١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١١٩، ١٢٠).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨].

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: اللهُ يَصطفي ويَختارُ لِنَفْسِه وولايتِه مَن أحَبَّ مِن عبادِه[1].

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

= (٧/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٢).

قال ابن عاشور: (وقد كبُرَ عليهم ذلك مِن ثلاثِ جِهاتٍ: جهةِ الدَّاعي؛ لأنَّه بشَرٌ مِثلُهم ﴿قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، ولأنَّه لم يكُنْ قبْلَ الدَّعوةِ مِن عُظماءِ القَريتينِ ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. وجِهةِ ما به الدَّعوةُ؛ فإنَّهم حَسِبوا أنَّ اللهَ لا يُخاطِبُ الرُّسلَ إلَّا بكتابٍ يُنزِلُه إليه دَفْعةً مِن السَّماءِ، فقد قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٨]، والقائلونَ هم المشركونَ. ومِن جِهةِ ما تَضمَّنَتْه الدَّعوةُ ممَّا لم تُساعِدْ أهواؤُهم عليه؛ قالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٣٧).

أي: ويَهدي اللهُ إليه مَن يَتوبُ مِن ذُنوبِه، ويُقبِلُ على طاعتِه[١].

كما الله قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى باجتِماعِ المُسلِمينَ على دينِهم، ونهاهم عن التَّفَرُّقِ، أخبَرَهم أنَّكم لا تَغتَرُّوا بما أنزَل اللهُ عليكم مِنَ الكِتابِ؛ فإنَّ أهلَ الكِتابِ لم يَتفَرَّقوا حتَّى أنزَلَ اللهُ عليهم الكِتابَ الموجِبَ للاجتِماعِ، ففَعَلوا ضِدَّ ما يأمُرُ به كتابُهم! وذلك كُلُّه بَغْيًا وعُدوانًا منهم، فإنَّهم تباغَضوا وتحاسَدوا، وحصَلَت بيْنَهم المُشاحَنةُ والعَداوةُ، فوقَع الاختِلافُ؛ فاحذَروا -أيُّها المُسلِمونَ- أن تَكونوا مِثلَهم[٢].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن أنَّه أمَرَ كُلَّ الأنبياءِ والأُمَمِ بالأخذِ بالدِّينِ المُتَّفَقِ عليه، كان لِقائِلٍ أن يقولَ: فلماذا نَجِدُهم مُتفَرِّقينَ؟ فأجاب اللهُ تعالى عنهم بقَولِه[٣]:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

أي: وما تفرَّقَ أهلُ الأديانِ فصاروا أحزابًا، وحصلَتْ منهم المُخالَفةُ إلَّا

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٨).

مِن بَعدِ ما جاءَهم العِلمُ مِن اللهِ بإقامةِ دِينِه، وعدَمِ التَّفرُّقِ فيه، وإنَّما حَمَلهم على ذلك بَغْيُ بعضِهم على بعضٍ، وتحاسُدُهم، وطلبُهم للرِّئاسةِ، واشتِغالُهم بالدُّنيا، ولم يكُنْ تَفَرُّقُهم لقُصورٍ في البيانِ والحُجَجِ؛ فقد بلَغهم الحقُّ، وقامَتْ عليهم الحُجَّةُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص ١٤٣، ١٤٤).

ممن اختارَ في الجملةِ أنَّ معنى ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أنَّه قد بلَغهم الحقُّ، وأُقيمتْ عليهم الحجةُ: مكي، وابن كثير، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير سورة الشورى- ابن عثيمين)) (ص: ١٤٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٣)

وقيل المعنى: إلا عن علْمٍ بأنَّ الفرقةَ ضلالةٌ وفسادٌ، وممن اختاره: الزجاج، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والرازي، والرسعني، والنسفي، والخازن، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٧).

قال ابن عاشور: (ومجيءُ العلمِ إليهم يُؤذِنُ بأنَّ رسلَهم بيَّنوا لهم مضارَّ التفرُّقِ مِن عهدِ نوحٍ... ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بالعلمِ سببَ العلمِ، أي: إلَّا مِن بعدِ مجيءِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بصفاتِه الموافقةِ لما في كتابِهم، فتفرَّقوا في اختلاقِ المطاعنِ والمعاذيرِ الباطلةِ؛ لينفوا مطابقةَ الصِّفاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٦).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((تَفرَّقَتِ اليَهودُ على إحدى وسَبعِينَ أو اثنتَينِ وسَبعينَ فِرقةً، والنَّصارى مِثلَ ذلك، وتَفترِقُ أُمَّتي على ثلاثٍ وسَبعينَ فِرقةً))(١).

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: ولولا قَولٌ سَبَق مِن رَبِّك -يا محمَّدُ- بتأخيرِ العذابِ وإمهالِهم إلى وَقتٍ مُحَدَّدٍ، لَعجَّلَ العُقوبةَ لأولئك المتفرِّقينَ في دينِهم بَغيًا بغَيرِ حَقٍّ(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠) واللفظ له، وابن ماجه (٣٩٩١)، وأحمد (٨٣٩٦).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وقال الشوكاني في ((الفتح الرباني)) (١/ ٢٠٧): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٦/ ١٦٩)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٦٤٠): (حسنٌ صحيح).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٣، ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥).

قال ابنُ عطية: (قال المفسِّرون: هي حَتمُه تعالى القَضاءَ بأنَّ مُجازاتَهم إنَّما تقَعُ في الآخرةِ، فلولا ذلك لَفَصَل بيْنَهم في الدُّنيا، وغَلَب المحِقُّ على المُبطِلِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠).

وقال القرطبي: (﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: القيامةُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦]. وقيل: إلى الأجَلِ الَّذي قضَى فيه بعذابِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بالكَلِمةِ: ما أراده اللهُ مِن إمهالهم وتأخيرِ مُؤاخَذتِهم إلى أجَلٍ لهم اقتَضَتْه حِكمتُه في نظامِ هذا العالَمِ؛ فرُبَّما أخَّرَهم ثمَّ عذَّبَهم في الدُّنيا، ورُبَّما أخَّرَهم إلى عذابِ الآخرةِ، وكُلُّ ذلك يَدخُلُ في الأجَلِ المسَمَّى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٧).

قال الرازي: (واخْتَلَفوا في الَّذينَ أُريدوا بهذه الصِّفةِ مَن هُمْ؟ فقالَ الأكثرونَ: هم اليهودُ والنَّصارى، والدَّليلُ قولُه تعالَى في «آلِ عمرانَ» ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩] وقالَ في سورةِ «لَمْ يَكُنْ»: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] ولأنَّ قولَه: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ لائِقٌ بأهلِ الكتابِ، وقالَ آخرونَ: إنَّهم همُ العربُ، وهذا باطلٌ للوُجوهِ المَذْكورةِ، لأنَّ قولَه تعالَى =

كما قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ [الكهف: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾.

أي: وإنَّ اليهودَ والنَّصارَى الَّذين أُوتُوا الكتابَ؛ التَّوراةَ والإنجيلَ[1] مِن بَعدِ

= بعدَ هذه الآيةِ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ لا يليقُ بالعربِ، لأنَّ الَّذينَ أُورِثُوا الكتابَ مِنْ بعدِهم، هم أهلُ الكتابِ الَّذينَ كانوا في عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٨).

(١) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالَّذين أُورثوا الكتابَ: اليهودُ والنَّصارى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زَمَنين، ومكِّي، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٠/ ٦٥٧١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٨).

وهذا القولُ نسَبه الرَّازيُّ للأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٩).

وممَّن قصَر المرادَ بالَّذين أُورثوا الكتابَ على اليهودِ والنَّصارى الَّذين عاصَروا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وصرَّحَ بذلك: ابنُ عطية، والرازي، وابن جزي، وأبو حيان، والعُليمي، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٧).

والمرادُ بالكتابِ على ذلك: التَّوراةُ والإنجيلُ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي =

أسلافِهم المُختَلِفينَ في الحَقِّ[1] لَفي شَكٍّ مُوجِبٍ للارتيابِ والاضطِرابِ مِن

= (١٠/ ٦٥٧١).

وقيل: المرادُ بالكتابِ: القرآنُ، والمرادُ بالَّذين أُورِثوا الكتابَ: اليهودُ والنَّصارى الَّذين أدركوا هذا القرآنَ. واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤٥، ١٤٩).

قال ابن عطية: (وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إشارةٌ إلى مُعاصِري محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن اليهودِ والنَّصارى. وقيل: هي إشارةٌ إلى العربِ. والكتابُ: هو القرآنُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠).

وقيل: إنَّ المرادَ بهم: المشركون. وممَّن اختاره: النسفي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥٩).

والمرادُ بالكتابِ على ذلك: القرآنُ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٩).

قال محمد رشيد رضا: (هذه الآيةُ ... تفسيرٌ لآيتَيْ «هُودٍ» و«حم السَّجْدَةِ فُصِّلَتْ» فإنَّ الَّذينَ أُورِثوا الكتابَ مِن بعدِ مَن ذُكِر في الآياتِ هم اليهودُ والنَّصارَى الَّذينَ جَاؤوا بعدَ أنبيائِهم وقبلَ بعثةِ نَبِيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهؤلاءِ قَدْ عَرَض لهم مِن الشَّكِّ والرَّيبِ في كُتُبِهم ما لم يَكُنْ في عهدِ سَلَفِهم.

ومِن الغفلَةِ الشَّنيعَةِ والتَّكَلُّفِ البعيدِ أنْ يُفَسِّروا الكتابَ في آيةِ سورةِ «الشُّورَى» معَ هذا التَّفصيلِ فيها بالقرآنِ الَّذي وُصِف بأنَّه لا ريبَ فيه، ويَصِفوا الَّذينَ أُورِثوه بأنَّهم في شكٍّ مِنْه مُريبٍ، ولا يَصِحُّ أنْ يُقالَ فيمَنْ لم يُؤْمِنوا به: أُورِثوه، وكذلك الَّذينَ لم يُؤْمِنوا بموسَى وبعيسَى لا يُقالُ: إنَّهم أُورِثوا التَّوراةَ والإنجيلَ، وإنَّما يُقالُ: وَرِثَ الكتابَ مَن آمَن به، سواءٌ منهم مَن أحسَن العملَ ومَنْ أساءَ، كما قالَ تعالَى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، ولكنَّ الَّذينَ أخْطؤوا في فهمِ الآيتيْنِ المجملتيْنِ في السُّورتيْنِ حَمَلوا عليهما الآيةَ المُفصَّلَةَ وجَعَلوا تَفسيرَهنَّ واحدًا). ((تفسير المنار)) (١٢/ ١٣٥).

(١) وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بَعدِ المختلِفينَ في الحقِّ: ابنُ جرير، ومكِّي ابن أبي طالب، والقرطبي، والبِقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢)، ((نظم =

كتابِهم[(١)].

= الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٩).

قال ابن عاشور: (ضميرُ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ عائدٌ إلى ما عاد إليه ضميرُ ﴿نَفَرَّقُوٓاْ﴾، وهم الَّذين خُوطِبوا بقولِه: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]) . ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٩).

وقيل: معنى ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بَعدِ أنبيائِهم. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والبغويُّ، وابنُ الجوزي، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٦).

وقيل: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بَعدِ مَن قَبْلَهم مِن اليهودِ والنَّصارى، وبعبارةٍ أخرى: بَعْدَ مَن تقدَّمَهم أو بعدَ أوائلِهم. وممَّن اختاره: ابنُ أبي زمنين، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٨).

وقيل: معنى ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: هم المشركون أُورِثوا القرآنَ مِن بَعدِ ما أُورِث أهلُ الكتابِ التَّوارةَ والإنجيلَ. وممَّن اختاره: النسفي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

قيل: إنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿مِّنۡهُ﴾ يَرجِعُ إلى الكتابِ الَّذي عندَ اليهودِ والنَّصارى. وممَّن اختاره: مقاتلٌ، والزمخشري، والرازي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٤).

وقيل: إنَّ الضَّميرَ في ﴿مِّنۡهُ﴾ يرجعُ إلى القرآنِ. وممَّن اختاره: السمرقندي، وابنُ أبي زمنين، وأبو السعود، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤٥).

وقيل: الضَّميرُ في ﴿مِّنۡهُ﴾ يرجعُ إلى محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: الواحدي، وابن الجوزي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٩).

وقيل: المقصودُ: الدِّينُ الَّذي وصَّى اللهُ به نوحًا، وأوحاه إلى مُحمَّدٍ، وأمَرَهما بإقامتِه. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٧١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠] و [فصلت: ٤٥].

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ثَبَت بما تقدَّمَ زَيغُهم عن أوامِرِ الكِتابِ الآتي مِنَ اللهِ؛ سَبَّب عنه أمْرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإبلاغِ النَّاسِ ما يَنفَعُهم عن رِسالةِ رَبِّه الَّذي أنزَلَ تلك الكُتُبَ[1].

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾.

أي: فلِلدِّينِ الحَقِّ الَّذي شَرَعه اللهُ لكم، وأمَرَكم بإقامتِه وعَدَمِ التَّفَرُّقِ فيه- فادْعُ النَّاسَ، يا مُحمَّدُ[2].

﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾.

أي: واثبُتْ على الدِّينِ الَّذي أمَرَك اللهُ به، فاستَمِرَّ على العَمَلِ به بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ، ولا إفراطٍ ولا تفريطٍ، ولا تَزِغْ عن ذلك[3].

كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ [هود: ١١٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص ١٥١).

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

وعن سُفيانَ بنِ عبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحَدًا بَعْدَك. قال: قُلْ: آمَنتُ باللهِ، فاستَقِمْ))[١].

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾.

أي: ولا تَتَّبِعْ -يا مُحمَّدُ- أهواءَ أولئك المُنحَرِفينَ عن الحَقِّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانوا قد تفرَّقوا في الكتابِ وشَكُّوا، فآمَنوا ببَعضٍ وكَفَروا ببَعضٍ؛ أمَرَه بما يخالِفُ حالَهم، فقال[٣]:

﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: آمَنتُ بما أنزَلَ اللهُ مِنَ الكُتُبِ كُلِّها، فلا أُكذِّبُ بالتَّوراةِ

---

(١) رواه مسلم (٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٧٢).

ولا بالإنجيلِ ولا بالقُرآنِ، ولا بغَيرِ ذلك مِن كُتُبِ اللهِ الَّتي أنزَلَها على رُسُلِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾.

أي: وقُلْ: وأمَرَني ربِّي بأن أعدِلَ بيْنكم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥، ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٤٢)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٢).

قال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ قالت فِرقةٌ: اللَّامُ في ﴿لِأَعْدِلَ﴾ بمعنى: «أن»، والتَّقديرُ: بأن أعدِلَ بيْنَكم. وقالت فِرقةٌ: المعنى: وأُمِرْتُ بما أُمِرْتُ به مِن التَّبليغِ والشَّرعِ؛ لكيْ أعدِلَ بيْنَكم، فحُذِفَ مِن الكلامِ ما يدُلُّ الظَّاهرُ عليه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠).

وقال القرطبي: (قال ابنُ عبَّاسٍ وأبو العالِيةِ: لِأُسَوِّيَ بيْنَكم في الدِّينِ، فأُومِنَ بكلِّ كتابٍ وبكلِّ رسولٍ. وقال غيرُهما: لِأَعدِلَ في جميعِ الأحوالِ. وقيل: هذا العدلُ هو العدلُ في الأحكامِ. وقيل: في التَّبليغِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ العدلُ في الحُكمِ: الزمخشريُّ، والرازي، والنسفي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦).

وممَّن اختار أنَّه العدلُ في الحُكمِ والتَّبليغِ: البيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٨).

وقال الشوكاني: (وأُمِرْتُ لِأَعدِلَ بيْنَكم في أحكامِ اللهِ إذا تَرافَعْتُم إلَيَّ، ولا أَحِيفَ عليكم بزيادةٍ على ما شَرَعه اللهُ، أو بنُقصانٍ منه، وأُبَلِّغَ إليكم ما أمَرني اللهُ بتبليغِه كما هو). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٨). =

كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾.

أي: اللهُ رَبُّنا ورَبُّكم، خالِقُ الجَميعِ ومالِكُهم ومُدَبِّرُ أمورِهم؛ فوجَبَت طاعتُه، وإقامةُ دينِه، وتَركُ التَّفَرُّقِ والاختِلافِ فيه[1].

﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

= وقال ابن القيِّم: (أُمِر بالعدلِ بيْنَهم، وهذا يَعُمُّ العدلَ في الأقوالِ والأفعالِ والآراءِ والمحاكماتِ كلِّها، فنصَبه ربُّه ومُرسِلُه للعدلِ بيْنَ الأُمَم). ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٥٨).

وقال البِقاعي: (﴿بَيْنَكُمُ﴾ أيُّها المُفَرِّقونَ في الأديانِ مِن العربِ والعجمِ، مِن الجِنِّ والإنسِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٧٤).

واختار ابنُ تيميَّةَ أنَّ معنى ﴿بَيْنَكُمُ﴾ أي: بيْنَ النَّاسِ كُلِّهم. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٤٢).

وقال ابن عاشور: (وضميرُ ﴿بَيْنَكُمُ﴾ خِطابٌ لِلَّذينَ أُمِر بأنْ يُوَجِّهَ هذا القولَ إليهم، وهم اليهودُ، أي: أُمِرْتُ أنْ أُقيمَ بيْنَكم العدلَ بأنْ أدْعوَكم إلى الحقِّ، ولا أظْلِمَكم لأجْلِ عداواتِكم، ولكنِّي أُنَفِّذُ أمرَ اللهِ فيكم، ولا أنْتَمي إلى اليهودِ ولا إلى النَّصارَى. ومعنَى ﴿بَيْنَكُمُ﴾: أنَّني أُقيمُ العدلَ بيْنَكم فلا تَرَوْنَ بيْنَكم جَوْرًا مِنِّي، فـ «بَيْنَ» هنا ظرفٌ مُتَّحِدٌ غيرُ مُوَزَّعٍ، فهو بمعنَى وَسَطَ الجَمعِ وخِلالَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٢).

قال ابنُ القيِّم: (أمَرَه أن يُخبِرَهم بأنَّ الرَّبَّ المعبودَ واحِدٌ، فما الحامِلُ للتَّفَرُّقِ والاختِلافِ وهو ربُّنا ورَبُّكم، والدِّينُ واحِدٌ، ولِكُلِّ عامِلٍ عمَلُه لا يَعدوه إلى غَيرِه؟!). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٥٨).

أي: لنا جَزاءُ أعمالِنا، ولكم جَزاءُ أعمالِكم، وسيُجازي اللهُ كُلًّا بحَسَبِ أعمالِه، ولن يُؤاخَذَ أحَدٌ مِنَّا بذَنْبِ الآخَرِ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾.

أي: لا جِدالَ ولا مُنازَعةَ بَينَنا وبيْنَكم؛ فقد تَبيَّنَ الحَقُّ وظَهَرَ، وصِرتُم مَحجوجينَ به، ولم يَبقَ إلَّا الإقرارُ به أو العِنادُ؛ فلا وَجْهَ للجِدالِ والتَّنازُعِ والحالةُ هذه(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ١١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٣).

قال ابنُ عاشور: (جملةُ ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ دَعوةُ إنصافٍ، أي: أنَّ اللهَ يُجازي كُلًّا بعَمَلِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١)، ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٣١٦)، ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٣/ ٧١، ٧٢)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٤٥) و(٢/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا خُصومةَ، والحُجَّةُ هي ما يَحتَجُّ به الخَصمُ وإن كان باطِلًا؛ فليس مِن شَرطِ لَفظِ الحُجَّةِ أن تكونَ حَقًّا، بل إذا كانت حَقًّا سُمِّيَت بَيِّنةً وبُرهانًا ودَليلًا). ((الصفدية)) (٢/ ٣١٦).

قال السعدي: (﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: بعدَما تبيَّنَت الحقائِقُ، واتَّضَح الحَقُّ مِنَ الباطِلِ، والهدى مِنَ الضَّلالِ- لم يَبْقَ للجِدالِ والمُنازَعةِ مَحَلٌّ؛ لأنَّ المقصودَ مِن الجدالِ إنَّما هو بيانُ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ؛ لِيَهتديَ الرَّاشِدُ، ولِتَقومَ الحُجَّةُ على الغاوي، وليس المرادُ بهذا أنَّ أهلَ =

كما قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾.

أي: اللهُ يَجمَعُ بيْنَنا وبيْنَكم يومَ القيامةِ، فيَقضي بيْنَنا بالحَقِّ فيما نختَلِفُ فيه، ويَتبَيَّنُ حينَئذٍ المُحِقُّ مِنَ المُبطِلِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُنا بعدَ مَوتِنا، فيَحكُمُ بَيْنَنا إذا صِرْنا إليه، ويُجازي كُلًّا مِنَّا بعَمَلِه[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ فيه نَهيٌ عن التَّفرِقةِ في الدِّينِ؛ لأنَّ التَّفَرُّقَ سَبَبٌ للهَلاكِ، والاجتِماعَ والأُلْفةَ سَبَبٌ للنَّجاةِ[(٣)]. ومعنى الآيةِ:

= الكتابِ لا يُجادَلونَ! كيف واللهُ يقولُ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؟! وإنَّما المرادُ ما ذكَرْنا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

وقال الرَّسْعَني: (ذهب أكثَرُ المُفَسِّرينَ إلى نَسْخِ ما اشتمَلَت عليه هذه الآيةُ مِن مُنابَذةِ الكُفَّارِ ومُتارَكتِهم، وذهب جماعةٌ مِن المُفَسِّرينَ إلى أنَّها مُحْكَمةٌ، وأنَّ المعنى: لا حُجَّةَ بيْنَنا وبيْنَكم بعدَ ظُهورِ الحَقِّ ووُضوحِه؛ لأنَّ المُحاجَّةَ بعدَ ظُهورِ الحُجَّةِ لا حاجةَ إليها). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٨).

لِيَحصُلْ منكم الاتِّفاقُ على أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه، واحرِصوا على ألَّا تُفرِّقَكم المسائِلُ وتُحَزِّبَكم أحزابًا، وألَّا يُعادِيَ بَعضُكم بَعضًا، مع اتِّفاقِكم على أصلِ دينِكم[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ هذا السَّبَبُ الَّذي مِنَ العَبدِ يتوصَّلُ به إلى هدايةِ اللهِ تعالى، وهو إنابتُه لِرَبِّه، وانجِذابُ دَواعي قَلبِه إليه، وكَونُه قاصِدًا وَجْهَه؛ فحُسْنُ مَقصَدِ العَبدِ مع اجتِهادِه في طَلَبِ الهِدايةِ: مِن أسبابِ التَّيسيرِ لها[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ أمرٌ بالاستِقامةِ، أي الدَّوامِ عليها؛ للإشارةِ إلى أنَّ كَمالَ الدَّعوةِ إلى الحَقِّ لا يَحصُلُ إلَّا إذا كان الدَّاعي مُستَقيمًا في نَفْسِه[٣].

٤- إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ الإنصافَ، بل هو أفضَلُ حِليةٍ تَحَلَّى بها الرَّجُلُ، خُصوصًا مَن نَصَب نَفْسَه حَكَمًا بيْنَ الأقوالِ والمذاهِبِ، وقد قال اللهُ تعالى لرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾، فوَرَثَةُ الرَّسولِ منصبُهم العدلُ بيْنَ الطَّوائفِ، وألَّا يَميلَ أحدُهم معَ قريبِه وذَوي مذهبِه وطائفتِه ومَتبوعِه، بل يكونُ الحقُّ مَطلوبَه، يَسيرُ بسَيْرِه، ويَنزِلُ بنُزولِه، ويَدِينُ بدِينِ العدلِ والإنصافِ، ويُحكِّمُ الحُجَّةَ وما كان عليه رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابُه[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ يُوجِبُ أن يَشتَغِلَ كُلُّ واحِدٍ في الدُّنيا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٧٨).

بنَفْسِه؛ فإنَّ اللهَ يَجمَعُ بيْنَ الكُلِّ في يومِ القيامةِ، ويُجازيه على عَمَلِه، والمقصودُ منه المُتارَكةُ، واشتِغالُ كُلِّ أحَدٍ بمُهِمِّ نَفْسِه(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أنَّ المرجِعَ إلى اللهِ خاصَّةً في كلِّ شَيءٍ؛ في الحُكْمِ الشَّرعيِّ، أو الحُكْمِ القَدَرِيِّ، أو الحُكْمِ في الدُّنيا، أو الحُكْمِ في الآخرةِ، ويَتفرَّعُ على هذه القاعدةِ: أنَّ الإنسانَ لا يَرجو، ولا يَخافُ، ولا يَدْعُو إلَّا اللهَ وحْدَه لا شريكَ له، ولا يَستغيثُ إلَّا باللهِ، ولا يَستعينُ إلَّا به(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أنَّ الأصلَ في العِباداتِ المَنعُ إلَّا بدَليلٍ(٣).

٢- قولُه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ ما لم يُنسَخْ مِن شَرعِ مَن قَبْلَنا شَرعٌ لنا(٤)، فشَرْعُ مَن قَبْلَنا -فيما لم يَرِدْ في شَرعِنا له وِفاقٌ ولا خِلافٌ- هو شَرعٌ لنا؛ لِدَلالةِ شَرعِنا عليه، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾(٥) [الأنعام: ٩٠].

٣- دينُ الأنبياءِ واحِدٌ وإن تَنوَّعَت شَرائعُهم؛ قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩١).

وذَكَر أنَّ ما ورَدَت شَريعتُنا بخِلافِه فهذا لا نَعمَلُ به؛ لأنَّ شَريعتَنا ناسِخةٌ لجَميعِ الأديانِ، وما وَرَد شَرْعُنا بوِفاقِه فإنَّنا نَعمَلُ به؛ اتِّباعًا لِشَريعتِنا المُصَدِّقةِ لِما سَبَق مِن الشَّرائعِ.

ويُنظر: ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ١٩٢).

مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ أنَّ شَريعةَ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم حاويةٌ لفَضائلِ شرائعِ هؤلاء الرُّسُلِ المَخصوصينَ بالفَضلِ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ ﴾ يدُلُّ على أنَّ هذه الشَّرائِعَ قِسمانِ: منها ما يمتَنِعُ دُخولُ النَّسخِ والتَّغييرِ فيه، بل يكونُ واجِبَ البَقاءِ في جميعِ الشَّرائِعِ والأديانِ، كالأمرِ بالصِّدقِ والعَدلِ والإحسانِ، والنَّهْيِ عن الكَذِبِ والظُّلمِ والإيذاءِ؛ ومنها ما يختَلِفُ باختِلافِ الشَّرائِعِ والأديانِ. ودَلَّت هذه الآيةُ على أنَّ سَعيَ الشَّرعِ في تقريرِ النَّوعِ الأوَّلِ أقوَى مِن سَعْيِه في تقريرِ النَّوعِ الثَّاني؛ لأنَّ المواظَبَةَ على القِسمِ الأوَّلِ مُهِمَّةٌ في اكتِسابِ الأحوالِ المُفيدةِ لحُصولِ السَّعادةِ في الدَّارِ الآخِرةِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ أنَّ جَميعَ رُسُلِ اللهِ وأنبيائِه يُصَدِّقُ بَعضُهم بعضًا، لا يختَلِفونَ مع تَنَوُّعِ شَرائِعِهم[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ أنَّ التَّفَرُّقَ في دِينِ اللهِ مُنافٍ للَّذي أَوحى اللهُ إلى رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم ووَصَّى به نوحًا وإبراهيمَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٧، ٥٨٨).

(٤) يُنظر: ((الحسنة والسيئة)) لابن تيمية (ص: ٩٠).

وموسى وعيسى عليهم السَّلامُ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ فيه إثباتُ مشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ لفِعْلِ العبدِ؛ فيكونُ فيها رَدٌّ على القَدَرِيَّةِ؛ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُستقِلٌّ بعَمَلِه، ولا مشيئةَ للهِ تعالى في فِعْلِه! وفي قولِه: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ الرَّدُّ على الجَبْرِيَّةِ؛ فقد أضاف الفِعلَ إلى العَبدِ، والجَبريَّةُ لا يُضيفونَ الأفعالَ إلى العَبدِ؛ بل يقولونَ: إنَّ العبدَ يَفعَلُ بغيرِ إرادةٍ ولا اختيارٍ[٢]!

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ مع قَولِه: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] مع العِلمِ بأحوالِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم، وشِدَّةِ إنابتِهم: دَليلٌ على أنَّ قَولَهم حُجَّةٌ، خُصوصًا الخُلفاءَ الرَّاشدِينَ رَضِيَ اللهُ عنهم أجمعينَ[٣].

١٠- قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّ منهم مَن يُجيبُ إلى الدَّعوةِ، أي: اللهُ يَجتلِبُ إلى ما تَدْعُوهم إليه مَن يَشاءُ أنْ يَجْتبيَه إليه، وهو مَن صَرَفَ اختيارَه إلى ما دُعِيَ إليه، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، أي: يُقبِلُ إليه؛ حيثُ يُمِدُّه بالتَّوفيقِ والألطافِ[٤]. وفيه تسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٥].

١١- قولُه تعالى: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ فيه أنَّ مَن خالفَ الدِّينَ بعدَ مجيءِ العلمِ فإنَّه باغٍ مُعْتَدٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤١، ١٤٢). ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤٦).

١٢- البَغيُ إمَّا تضييعٌ للحقِّ، وإمَّا تَعَدٍّ للحدِّ؛ فهو إمَّا تَرْكُ واجبٍ، وإمَّا فِعلُ محرَّمٍ؛ فعُلِم أنَّ مُوجِبَ التَّفرُّقِ هو ذلك، والبغيُ الَّذي هو مجاوزةُ الحدِّ إمَّا تفريطًا وتضييعًا للحقِّ، وإمَّا عدوانًا وفعلًا للظلمِ. والبغيُ تارةً يكونُ مِن بعضِهم على بعضٍ، وتارةً يكونُ في حقوقِ الله، وهما مُتلازِمانِ؛ ولهذا قال: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾؛ فإنَّ كلَّ طائفةٍ بغَتْ على الأُخرَى، فلم تعرِفْ حقَّها الَّذي بأيديها، ولم تَكُفَّ عن العدوانِ عليها، فظهَر أنَّ سببَ الاجتِماعِ والأُلْفةِ: جمعُ الدِّينِ والعملُ به كلِّه، وهو عبادةُ الله وَحْدَه لا شريكَ له، كما أمَر به باطنًا وظاهرًا، وسببَ الفُرقةِ: ترْكُ حظٍّ مما أُمِر العبدُ به، والبغيُ بيْنَهم[1].

١٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ فيه إثباتُ كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا شكَّ أنَّ اللهَ تعالى مَوصوفٌ بالكلامِ؛ لأنَّه كمالٌ، وضِدُّ الكلامِ الخَرَسُ؛ والخَرَسُ نقصٌ، فلو نَفَيْنا الكلامَ؛ لَزِمَ مِن ذلك ثبوتُ الخَرَسِ! وهذا نقصٌ يُنَزَّهُ اللهُ تعالى عنه[2].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ في هذه الآيةِ -مع كَونِها نازِلةً في مكَّةَ في زَمَنِ ضَعفِ المُسلِمينَ- إعجازٌ بالغَيبِ، يدُلُّ على أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سيَكونُ له الحُكمُ على يَهودِ بلادِ العَربِ، مِثلُ أهلِ خَيْبَرَ، وتَيْماءَ، وقُرَيْظةَ، والنَّضيرِ، وبَني قَيْنُقاعٍ[3].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ أنَّه يجوزُ تَوجيهُ الأمرِ لِمَن

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٤، ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٢، ٦٣).

كان مُتَّصِفًا به مِن قَبْلُ؛ مِن أجْلِ الثَّباتِ عليه؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم استقام كما أُمِرَ مِن حينِ ما أُرسِلَ، بل مِن حينِ ما بُعِثَ، لكِنَّ المرادَ بذلك الثُّبوتُ على هذا الشَّيءِ[١].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ لم يَقُلْ: «ولا تتَّبِعْ دِينَهم»؛ لأنَّ حَقيقةَ دِينِهم الَّذي شَرَعه اللهُ لهم هو دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهم، ولكِنَّهم لم يَتَّبِعوه، بل اتَّبَعوا أهواءَهم، واتَّخَذوا دينَهم لَهْوًا ولَعِبًا[٢]!

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عَبْدٌ مأمورٌ؛ يُوَجَّهُ إليه الأمرُ؛ وليس له مِن الأمرِ شَيءٌ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وفيه ردٌّ على أولئك القَومِ الَّذين يَدَّعون أنَّ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم تَصَرُّفًا في الكَونِ؛ وتدبيرًا له! ومِن بابِ أَولَى أنْ يكونَ فيها رَدٌّ على القائلِينَ بأنَّ مَن دونَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ له تَصَرُّفٌ في الكَونِ؛ كقولِ الرَّافضةِ وبعضِ الصُّوفيَّةِ[٣].

١٨- قولُه تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ إشارةٌ إلى كَمالِ القوَّةِ النَّظَريَّةِ، وقولُه: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ إشارةٌ إلى كَمالِ القوَّةِ العمَليَّةِ[٤].

١٩- قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ اشتَمَلت هذه الآيةُ الكريمةُ على عَشْرِ كَلِماتٍ مُستَقِلَّاتٍ، كُلٌّ منها مُنفَصِلةٌ عن الَّتي قَبْلَها؛ لها حُكمٌ برأسِه، قالوا: ولا نظيرَ لها سِوى آيةِ الكُرسيِّ؛ فإنَّها أيضًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٩).

عَشَرةُ فُصولٍ كهذه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾

- هذا انتِقالٌ مِن الامتِنانِ بالنِّعَمِ الجُثمانيَّةِ إلى الامتنانِ بالنِّعمةِ الرُّوحيَّةِ، بطَريقِ الإقبالِ على خِطابِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ؛ للتَّنويهِ بدِينِ الإسلامِ، وللتَّعريضِ بالكفَّارِ الَّذين أعرَضوا عنه؛ فالجُملةُ ابتدائيَّةٌ[٢].

- قولُه: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ مُقدَّرٌ فيه مُضافٌ، أي: مِثلَ ما وصَّى به نوحًا، أو هو بتَقديرِ كافِ التَّشبيهِ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ؛ مُبالغةً في شِدَّةِ المُماثَلةِ حتَّى صارَ المِثلُ كأنَّه عَيْنُ مِثلِه[٣].

- وتَقديمُ تَوصيةِ نوحٍ عليه السَّلامُ؛ للمُسارَعةِ إلى بَيانِ كَونِ المشروعِ لهم دِينًا قديمًا[٤].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فيه تَعقيبُ ذِكرِ دِينِ نوحٍ بما أُوحيَ إلى محمَّدٍ عليهما السَّلامُ؛ للإشارةِ إلى أنَّ دِينَ الإسلامِ هو الخاتَمُ للأديانِ، فعُطِفَ على أوَّلِ الأديانِ؛ جمْعًا بيْنَ طرَفَيِ الأديانِ، ثمَّ ذكَرَ بعدَهما الأديانَ الثَّلاثةَ الأُخَرَ؛ لأنَّها مُتوسِّطةٌ بيْنَ الدِّينَينِ المذكورَينِ قبْلَها، وهذا نسْجٌ بديعٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥، ٢٦).

مِن نَظْمِ الكلامِ، ولولا هذا الاعتبارُ لَكان ذِكرُ الإسلامِ مُبتدأً به، كما في قولِه: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، وقولِه: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ ...﴾ الآيةَ [الأحزاب: ٧]. أو السِّرُّ في تَقديمِه على ما بَعدَه معَ تَقدُّمِه عليهِ زَمانًا؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بإيحائِه[١].

- وقولُه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ هو ما سبَقَ نُزولُه قبْلَ هذه الآيةِ مِن القُرآنِ بما فيه مِن أحكامٍ؛ فعَطْفُه على ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾؛ لِما بيْنَه وبيْنَ ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ مِن المُغايَرةِ بزِيادةِ التَّفصيلِ والتَّفريعِ[٢].

- وعُدِلَ مِن (أَوْصينا) إلى ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾، وأُتِيَ بكافِ الخِطابِ؛ لِيُؤْذِنَ بالفَرقِ بيْن تَوصيَتِهم وتَوصيَتِه، ولِمُراعاةِ ما وقَعَ في الآياتِ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ﴾ [الشورى: ٧]، وقولِه: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ [النحل: ١٢٣]، وقولِه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الكهف: ١١٠] [فصلت: ٦]، وغيرِ ذلك، ولِما في الإيحاءِ مِن التَّصريحِ برِسالتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ القامعِ لإنكارِ الكفَرةِ[٣].

- وأيضًا ذُكِرَ في جانبِ الشَّرائعِ الأربعِ السَّابقةِ فِعلُ ﴿وَصَّىٰ﴾، وفي جانبِ شَريعةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذُكِرَ فِعلُ الإيحاءِ؛ لأنَّ الشَّرائعَ الَّتي سبَقتْ شَريعةَ الإسلامِ كانتْ شرائعَ مُوَقَّتةً، مُقدَّرًا وُرودُ شَريعةٍ بعدَها؛ فكان العملُ بها كالعملِ الَّذي يَقومُ به مُؤتمَنٌ على شَيءٍ حتَّى يأتيَ صاحبُه، ولِيَقَعَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥١، ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥).

الاتِّصالُ بيْنَ فِعلِ ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وبيْنَ قولِه في صَدْرِ السُّورةِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1] [الشورى: ٣].

- وجِيءَ بالمَوصولِ (ما) في قولِه: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، وقولِه: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، أمَّا في قولِه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فجِيءَ بالموصولِ (الَّذي)، وهو تَفنُّنٌ بتَجنُّبِ تَكريرِ الكلمةِ ثلاثَ مَرَّاتٍ مُتواليات. وهناك فرْقٌ دَقيقٌ في الاستِعمالِ البليغِ لهذه الأسماءِ المَوصولةِ؛ وهو أنَّ (الَّذي) وأخَواتِه هي الأصلُ في المَوصولاتِ؛ فهي مَوضوعةٌ مِن أصلِ الوضعِ للدَّلالةِ على مَن يُعيَّنُ بحالةٍ مَعروفةٍ هي مَضمونُ الصِّلةِ، فاسمُ الموصولِ (الَّذي) يدُلُّ على مَعروفٍ عندَ المُخاطَبِ بصِلتِه، وأمَّا (مَا) المَوصولةُ فأصلُها اسمٌ عامٌّ نكِرةٌ مُبهَمةٌ مُحتاجةٌ إلى صِفةٍ؛ فيَكونُ إيثارُ (ما) في مَوضِعَيْها لِمُناسَبةِ أنَّها شَرائعُ بَعُدَ العهدُ بها، فلم تكُنْ مَعهودةً عندَ المخاطَبينَ إلَّا إجمالًا، فكانتْ نَكِراتٍ لا تَتميَّزُ إلَّا بصِفاتِها، وأمَّا إيثارُ الموحَى به إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ باسمِ (الَّذي)؛ فلِأنَّه شرْعٌ مُتداوَلٌ فيهم، مَعروفٌ عِندَهم؛ فناسَبَه الاسمُ الموصولُ المُعَرَّفُ، فالتَّقديرُ: شَرَعَ لكم شيئًا وصَّى به نُوحًا، وشيئًا وصَّى به إبراهيمَ ومُوسى وعِيسى، والشَّيءَ الموحَى به إليك. ولعلَّ هذا مِن نُكَتِ الإعجازِ المغفولِ عنها[2].

وقيل: التَّعبيرُ عن الإيحاء عِندَ نِسبتِه إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بـ (الَّذي)؛ لِزيادةِ تَفخيمِ شأْنِه مِن تلك الحيثيَّةِ[3].

- وفي العُدولِ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٢، ٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥).

بعدَ قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ الْتِفاتٌ؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتِناءِ بإيحائِه. وتَوجيهُ الخِطابِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بطَريقِ التَّلوينِ؛ للتَّشريفِ والتَّنبيهِ على أنَّه تعالى شرَعه لهم على لِسانِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

- والاقتِصارُ على ذِكرِ دِينِ نوحٍ وإبراهيمَ ومُوسى وعِيسى؛ لِما ذُكِرَ مِن عُلُوِّ شأْنِهم، ولأنَّ نوحًا أوَّلُ رسولٍ أرسَلَه اللهُ إلى النَّاسِ، فدِينُه هو أساسُ الدِّياناتِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، ولأنَّ دِينَ إبراهيمَ هو أصلُ الحَنيفيَّةِ، وانتشَرَ بيْنَ العرَبِ بدَعوةِ إسماعيلَ إليه؛ فهو أشهَرُ الأديانِ بيْنَ العربِ، وكانوا على أثارةٍ منه في الحجِّ والخِتانِ والقِرى والفُتوَّةِ، ودِينُ موسى هو أوسَعُ الأديانِ السَّابقةِ في تَشريعِ الأحكامِ، وأمَّا دِينُ عيسى؛ فلأنَّه الدِّينُ الَّذي سبَقَ دِينَ الإسلامِ، ولم يكُنْ بيْنَهما دِينٌ آخَرُ، ولِيَتضمَّنَ التَّهيئةَ إلى دَعوةِ اليهودِ والنَّصارى إلى دِينِ الإسلامِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ في سُورةِ (الأحزابِ) ذِكرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في التَّفصيلِ في قولِه: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [الأحزاب: ٧]؛ لبيانِ أفضليَّتِه؛ لأنَّ المَقامَ هنالك لسَردِ مَن أُخِذ عليهم الميثاقُ. وأمَّا هنا في آيةِ سُورةِ (الشُّورى)، فإنَّما أُورِدتْ في مَقامِ وصْفِ دِينِ الإسلامِ بالأصالةِ والاستِقامةِ، فكأنَّ اللهَ قال: شرَعَ لكم الدِّينَ الأصيلَ الَّذي بعَثَ به نوحًا في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥١).

العهدِ القديمِ، وبعَثَ به محمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- في العهدِ الحديثِ، وبعَثَ به مَن تَوسَّطَ بيْنَهما[١].

- و(أنْ) في قولِه: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مَصدريَّةً، والمصدرُ الحاصلُ منها في مَوضعِ بدَلِ الاشتِمالِ مِن (ما) المَوصولةِ الأُولى أو الأخيرةِ، وإذا كان بدلًا مِن إحداهما، كان في معنى البَدلِ مِن جميعِ أخواتِهما؛ لأنَّها سَواءٌ في المفعوليَّةِ لِفعلِ (شرَعَ) بواسطةِ العطفِ؛ فيكونُ الأمرُ بإقامةِ الدِّينِ والنَّهيُ عن التَّفرُّقِ فيه ممَّا اشتَمَلتْ عليه وِصايةُ الأديانِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ تَفسيريَّةً لمعنى ﴿وَصَّىٰ﴾؛ لأنَّه يَتضمَّنُ معنى القولِ دونَ حُروفِه؛ فالمعنى: أنَّ إقامةَ الدِّينِ، واجتِماعَ الكلمةِ عليه: أَوصَى اللهُ بها كلَّ رسولٍ مِن الرُّسلِ الَّذين سمَّاهم، وهذا الوجهُ يَقتضي أنَّ ما حُكِيَ شَرْعُه في الأديانِ السَّابقةِ هو هذا المعنى، وهو إقامةُ الدِّينِ المشروعِ كما هو، والإقامةُ مُجمَلةٌ يُفسِّرُها ما في كلِّ دِينٍ مِن الفروعِ[٢].

- وضَميرُ ﴿أَقِيمُواْ﴾ مُرادٌ به: أُمَمُ أولئك الرُّسلِ، ولم يَسبِقْ لهم ذِكرٌ في اللَّفظِ، لكنْ دلَّ على تَقديرِهم ما في فِعلِ (وصَّى) مِن معنى التَّبليغِ[٣].

- وقولُه: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ﴾ شُروعٌ في بَيانِ أحوالِ بعضِ مَنْ شرَعَ لهم ما شرَعَ مِن الدِّينِ القويمِ[٤]. أو اعتراضٌ بيْن جُملةِ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ وجُملةِ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ [الشورى: ١٤]. ويُمكِنُ أنْ يكونَ استئنافًا بَيانيًّا جَوابًا عن سُؤالِ مَن يَتعجَّبُ مِن إعراضِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦).

المشركينَ عن الإسلام، مع أنَّه دِينٌ مُؤيَّدٌ بما سبَقَ مِن الشَّرائعِ الإلهيَّةِ! فأُجيبَ إجمالًا بأنَّه كبُرَ على المشركينَ وتَجَهَّموهُ وصعُبَ عليهم[١].

- وفي قولِه: ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ عُبِّرَ عن دَعوةِ الإسلامِ بـ(ما) المَوصولةِ؛ اعتبارًا بنُكرانِ المشركينَ لهذه الدَّعوةِ، واستِغرابِهم إيَّاها، وعَدِّهم إيَّاها مِن المُحالِ الغريبِ[٢].

- وجِيءَ بالفِعلِ المُضارِعِ في ﴿تَدْعُوهُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ الدَّعوةِ واستِمرارِها[٣].

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابٌ عن سُؤالِ مَن يَسألُ: كيف كبُرتْ على المشركينَ دَعوةُ الإسلامِ؟ بأنَّ اللهَ يَجْتبي مَن يَشاءُ؛ فالمشركونَ الَّذين لم يَقتربوا مِن هُدى اللهِ غيرُ مُجتبَيْنَ إلى اللهِ؛ إذ لم يَشَأ اجتِباءَهم، أي: لم يُقدِّرْ لهم الاهتداءَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ردًّا على إحدى شُبَهِهم الباعثةِ على إنكارِهم رِسالتَه بأنَّ اللهَ يَجْتبي مَن يَشاءُ، ولا يَلزَمُه مُراعاةُ عَوائدِكم في الزَّعامةِ والاصطفاءِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ تَقديمُ المسنَدِ إليه -وهو اسمُ الجلالةِ- على الخبرِ الفِعليِّ؛ لإفادةِ القَصْرِ؛ ردًّا على المشركينَ الَّذين أحالُوا رِسالةَ بَشرٍ مِن عِندِ اللهِ، وحينَ أكبَروا أنْ يكونَ الضَّعَفةُ مِن المؤمنينَ خيْرًا منهم[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٥).

سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ شُروعٌ في بَيانِ أحوالِ أهلِ الكتابِ عَقِيبَ الإشارةِ الإجماليَّةِ إلى أحوالِ أهلِ الشِّركِ[1]. أو عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ، وفي الكلامِ حذْفٌ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾، تَقديرُه: فتَفرَّقوا، وضَميرُ ﴿تَفَرَّقُوٓاْ﴾ عائدٌ إلى ما عادَ إليه ضميرُ ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ﴾ [الشورى: ١٣]، وهم أُمَمُ الرُّسُلِ المذكورينَ، أي: أَوْصَيْناهم بواسِطةِ رُسلِهم بأنْ يُقيموا الدِّينَ، دَلَّ على تَقديرِه ما في فِعلِ ﴿وَصَّىٰ﴾ [الشورى: ١٣] مِن معنَى التَّبليغِ[2].

- قولُه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ مَجِيءُ العِلمِ إليهم يُؤذِنُ بأنَّ رُسلَهم بيَّنوا لهم مَضارَّ التَّفرُّقِ مِن عَهْدِ نُوحٍ عليه السَّلامُ. ويَجوزُ أن يكونَ المرادُ بالعِلمِ هنا سبَبَ العِلمِ، أي: إلَّا مِن بعْدِ مَجيءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بصِفاتِه الموافِقةِ لِما في كِتابِهم، فتَفرَّقوا في اختلاقِ المَطاعِنِ والمعاذيرِ الباطلةِ؛ لِيَنْفُوا مُطابَقةَ الصِّفاتِ. أو المعنى: وما تَفرَّقَت أُمَمُهم في أدْيانِهم إلَّا مِن بعْدِ ما جاءهم العِلمُ على لِسانِ رُسلِهم مِن النَّهيِ عن التَّفرُّقِ في الدِّينِ مع بَيانِهم لهم مَفاسدَ التَّفرُّقِ وأضرارِه. وذكَرَ سبَبَ تفرُّقِهم بقولِه: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾، أي: تَفرَّقوا مِن أجْلِ العداوةِ بيْنَهم، أي: بيْنَ المُتفرِّقِينَ، أي: لم يُحافِظوا على وَصايا الرُّسلِ، وهذا تَعريضٌ بالمشرِكينَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٦).

في إعراضِهم عن دَعوةِ الإسلامِ لِعَداوتِهم للمؤمنينَ[١].

- قولُه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ تَحذيرٌ للمؤمنينَ مِن مِثلِ ذلك الاختِلافِ، وتَنكيرُ لفظِ ﴿كَلِمَةٌ﴾ للتَّنويعِ؛ لأنَّ لِكلِّ فريقٍ مِن المتفرِّقينَ في الدِّينِ كلمةً مِن اللهِ في تأْجيلِهم، وتَنْكيرُ كلمةِ ﴿أَجَلٍ﴾ أيضًا للتَّنويعِ؛ لأنَّ لكلِّ أُمَّةٍ مِن المتفرِّقينَ أجَلًا مُسمًّى؛ فهي آجالٌ مُتفاوِتةٌ في الطُّولِ والقِصَرِ، ومُختلفةٌ بالأزمنةِ والأمكنةِ[٢]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ ...﴾ تأْكيدُ الخبرِ بحرْفِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ، ومُجرَّدِ تَحقيقِه للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ، وهذا الاهتِمامُ كِنايةٌ عن التَّحريضِ للحذَرِ مِن مَكرِهم، وعدَمِ الرُّكونِ إليهم؛ لِظُهورِ عَداوتِهم؛ لئلَّا يَركَنوا إليهم[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للجنسِ؛ لِيَشملَ كتابَ اليهودِ وكتابَ النَّصارى[٤].

- قولُه: ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ شُبِّهَ تمكُّنُ الشَّكِّ مِن نُفوسِهم بإحاطةِ الظَّرفِ بالمظروفِ[٥].

- و(مِن) في قولِه: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ ابتدائيَّةٌ، ووقَعَ حرفُ (مِن) مَوقعَ باءِ المصاحَبةِ أو السَّببيَّةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ حذَفَ الفاعلَ هنا، وبَنى الفِعلَ للمفعولِ لَمَّا كان في مَعرِضِ الذَّمِّ لهم ونفْيِ العِلمِ عنهم، ولَمَّا كان في سِياقِ ذِكرِ نِعَمِه وآلائِه ومِنَّتِه عليهم قال: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [غافر: ٥٣]، ونَظيرُ هذه الآيةِ: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فإنَّه لَمَّا كان الكلامُ في سِياقِ ذمِّهم على اتِّباعِهم شِهواتِهم، وإيثارِهم العَرَضَ الفانيَ على حَظِّهم مِن الآخرةِ، وتَماديهم في ذلك؛ لم يَنسُبِ التَّوريثَ إليه، بل نسَبَه إلى المَحِلِّ فقال: ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ولم يقُلْ: أوْرَثْناهُم الكتابَ[1].

- وأيضًا جاء نَظْمُ الآيةِ على أسلوبِ إيجازٍ يَتحمَّلُ معانيَ كثيرةً وما يَتفرَّعُ عنها؛ فجِيءَ بضَميرِ ﴿مِّنۡهُ﴾ بعدَ تقدُّمِ ألفاظٍ صالحةٍ لأنْ تكونَ مَعادَ ذلك الضَّميرِ، وهي: لفظُ ﴿ٱلدِّينِ﴾ في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الشورى: ١٣]، ولفظُ (الَّذِي) في قولِه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الشورى: ١٣]، و(ما) المَوصولةُ في قولِه: ﴿مَا نَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وهذه الثَّلاثةُ مَدلولُها الإسلامُ، وهنالك لفظُ (مَا وَصَّيْنَا) [الشورى: ١٣] المتعدِّي إلى موسى وعِيسى، ولفظُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وهذانِ مَدلولُهما كتابًا أهلِ الكتابِ. وهؤلاء الَّذين أُوتوا الكتابَ هم الموجودونَ في وقْتِ نُزولِ الآيةِ، والإخبارُ عنهم بأنَّهم في شَكٍّ ناشئٍ مِن تلك المَعاداتِ للضَّميرِ، معناه: أنَّ مَبْلَغَ كُفرِهم وعِنادِهم لا يَتجاوَزُ حالةَ الشَّكِّ في صِدقِ

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٥، ١٩٦).

الرِّسالةِ المحمَّديَّةِ، أي: لَيسوا مع ذلك بمُوقِنينَ بأنَّ الإسلامَ باطلٌ، ولكنَّهم تَرَدَّدوا ثمَّ أقدَموا على التَّكذيبِ به حَسدًا وعِنادًا؛ فمِنهم مَن بقِيَ حالُهم في الشَّكِّ، ومنهم مَن أيقَنَ بأنَّ الإسلامَ حقٌّ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]. ويَحتملُ أنَّ المعنى: لَفِي شَكٍّ بصِدقِ القرآنِ، أو في شكٍّ ممَّا في كِتابِهم مِن الأمورِ الَّتي تَفرَّقوا فيها، أو ما في كِتابِهم مِن الدَّلالةِ على مَجيءِ النَّبيِّ الموعودِ به وصِفاتِه. فهذه مَعانٍ كَثيرةٌ تَتحمَّلُها الآيةُ، وكلُّها مُنطبِقةٌ على أهلِ الكتابَينِ[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

- قولُه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾ الفاءُ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ إلى آخِرِه [الشورى: ١٣]، المفسَّرِ بقولِه: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]، المُخلَّلِ بعضُه بجُملٍ مُعترِضةٍ مِن قولِه: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ إلى ﴿مَن يُنِيبُ﴾[2] [الشورى: ١٣].

- واللَّامُ في ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ يجوزُ أن تكونَ للتَّعليلِ، وتكونَ الإشارةُ بذلك إلى المذكورِ، أي: جميعِ ما تَقدَّمَ مِن الأمرِ بإقامةِ الدِّينِ، والنَّهيِ عن التَّفرُّقِ فيه، وتلَقِّي المشركينَ للدَّعوةِ بالتَّجهُّمِ، وتَلقِّي المؤمنينَ لها بالقَبولِ والإنابةِ، وتلقِّي أهلِ الكتابِ لها بالشَّكِّ، أي: فمِن أجْلِ جميعِ ما ذُكِر فادعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٠).

واستقِمْ، أي: مِن أجْلِ جميعِ ما تقدَّمَ مِن حُصولِ الاهتداءِ لِمَن هداهُم اللهُ، ومِن تبرُّمِ المشرِكينَ، ومِن شكِّ أهلِ الكتابِ؛ فادعُ. وتَقديمُ (لذلك) على مُتعلَّقِه -وهو فِعلُ (ادعُ)-؛ للاهتِمامِ بما احتوَى عليه اسمُ الإشارةِ؛ إذ هو مَجموعُ أسبابٍ للأمْرِ بالدَّوامِ على الدَّعوةِ. ويجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ في قولِه: ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ لامَ التَّقْويةِ، وتكونَ مع مَجرورِها مَفعولَ (ادعُ)، والإشارةُ إلى الدِّينِ مِن قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الشورى: ١٣]، أي: فادعُ لذلك الدِّينِ، وتَقديمُ المجرورِ على مُتعلَّقِه؛ للاهتمامِ بالدِّينِ[١].

- وفِعلُ الأمْرِ في قولِه: ﴿فَٱدْعُ﴾ مُستعمَلٌ في الدَّوامِ على الدَّعوةِ؛ بقرينةِ قولِه: ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾، وفي هذا إبطالٌ لِشُبهتِهم في الجهةِ الثَّالثةِ المتقدِّمةِ عِندَ قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[٢] [الشورى: ١٣].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱدْعُ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مُؤكِّدةً لفاءِ التَّفريعِ الَّتي قبْلَها. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُضمَّنةً معنى الجزاءِ؛ لِما في تَقديمِ المجرورِ مِن مُشابَهةِ معنى الشَّرْطِ[٣].

- ولم يُذكَرْ مَفعولُ (ادعُ)؛ لِدَلالةِ ما تَقدَّمَ عليه، أي: ادعُ المشرِكينَ، والَّذين أُوتوا الكتابَ، والَّذين اهتَدَوْا وأنابُوا[٤].

- قولُه: ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ الاستِقامةُ: الاعتدالُ، والسِّينُ والتَّاءُ فيها للمُبالَغةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٠، ٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦١).

- والكافُ في ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ لِتَشبيهِ معنى المماثَلةِ، أي: دَعوةٍ واستِقامةٍ مِثل الَّذي أُمِرتَ به، أي: على وِفاقِه، أي: وافيةٍ بما أُمِرتَ به[١].

- قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ الاتِّباعُ يُطلَقُ على المُجاراةِ والموافَقةِ، وعلى المُحاكاةِ والمُماثَلةِ في العملِ، والمرادُ هنا كِلا الإطلاقَينِ؛ ليَرجِعَ النَّهيُ إلى النَّهيِ عن مُخالَفةِ الأمْرَينِ المأمورِ بهما في قولِه: ﴿فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ﴾[٢].

- وضَميرُ ﴿أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ للَّذين ذُكِروا مِن قبْلُ مِن المشركينَ والَّذين أُوتوا الكتابَ، والمقصودُ: نهْيُ المسلمينَ عن ذلك، مِن بابِ ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]؛ ألا تَرى إلى قولِه: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢]. ويَجوزُ أنْ يكونَ معنى ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾: لا تُجارِهم في مُعامَلتِهم، أي: لا يَحمِلْكَ طعْنُهم في دَعوتِك على عَدمِ ذِكرِ فَضائلِ رُسُلِهم، وهدْيِ كُتُبِهم -عدا ما بدَّلوه منها-، فأَعلِنْ بأنَّك مُؤمنٌ بكُتبِهم؛ ولذلك عُطِفَ على قولِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ قولُه: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ الآيةَ، فمَوقعُ واوِ العطْفِ فيه بمَنزلةِ مَوقعِ فاءِ التَّفريعِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَٱدۡعُۖ﴾ أمرٌ بمُخالَفةِ اليهودِ؛ إذ قالوا: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ﴾ [النساء: ١٥٠]؛ يَعْنونَ: التَّوراةَ، ﴿وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ [النساء: ١٥٠]؛ يَعْنونَ: الإنجيلَ والقُرآنَ، فأُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلمونَ بالإيمانِ بالكُتبِ الثَّلاثةِ الموحَى بها مِن اللهِ؛ فالمعنى: وقُلْ لِمَن يُهِمُّه هذا القولُ، وهم اليهودُ. وإنَّما أُمِرَ بأنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦١، ٦٢).

يقولَ ذلك؛ إعلانًا به وإبلاغًا لأسماعِ اليهودِ، وتَعريضًا بقولِهم: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، وجاء مُسْتطرَدًا، كما جاءتِ الآيةُ السَّابقةُ مُستطرَدةً فيهم، فلا يُقابِلُ إنكارَهم حَقِّيَّةَ كِتابِه بإنكارِه حَقِّيَّةَ كِتابِهم، وفي هذا إظْهارٌ لِما تَشتمِلُ عليه دَعْوتُه مِن الإنصافِ[١].

- وقولُه: ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ بَيانٌ لِما ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ فالتَّنكيرُ في ﴿كِتَٰبٍ﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: بأيِّ كِتابٍ أنزَلَه اللهُ، وليس يَومَئذٍ كِتابٌ مَعروفٌ غيرَ التَّوراةِ والإنجيلِ والقُرآنِ[٢].

- وجُملةُ ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ مِن المَأْمورِ بأَنْ يَقولَه؛ فهيَ مُستأنَفةٌ عن جُملةِ ﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾، مُقرِّرةٌ لِمَضمونِها؛ لأنَّ المقصودَ مِن جُملةِ ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ بحَذافيرِها هو قولُه: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾؛ فهي مُقرِّرةٌ لِمَضمونِ ﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾، وإنَّما ابتُدِئتْ بجُملتَي: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾؛ تَمْهيدًا للغرضِ المقصودِ، وهو ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾؛ فلذلك كانتِ الجُملُ كلُّها مَفصولةً عن جُملةِ ﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[٣].

- والمقصودُ مِن قولِه: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أنَّنا مُتَّفِقونَ على تَوحيدِ اللهِ تعالى، أي: فاللهُ الشَّهيدُ علينا وعليكم إذ كذَّبتُم كِتابًا أُنزِلَ مِن عِندِه؛ فالخبرُ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٣).

مُستعمَلٌ في التَّسجيلِ والإلزامِ[١].

- وجُملةُ ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ دَعوةُ إنصافٍ، أي: إنَّ اللهَ يُجازي كُلًّا بعمَلِه، وهذا خَبرٌ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ والتَّنبيهِ على الخطأِ[٢].

- وجُملةُ ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ هي الغرَضُ المقصودُ بعدَ قولِه: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾، أي: أَعدِلَ بيْنَكم، ولا أُخاصِمَكم على إنكارِكم صِدْقي[٣].

- والحُجَّةُ: الدَّليلُ الَّذي يدُلُّ المَسوقَ إليه على صِدقِ دَعوى القائمِ به؛ وإنَّما تكونُ الحُجَّةُ بيْن مُختلفَينِ في دَعوى، ونفْيُ الحُجَّةِ نفْيُ جِنسٍ يَجوزُ أنْ يكونَ كِنايةً عن نفْيِ المُجادَلةِ الَّتي مِن شأْنِها وُقوعُ الاحتجاجِ؛ كِنايةً عن عدَمِ التَّصدِّي لِخُصومتِهم؛ فيكونَ المعنى الإمساكَ عن مُجادَلتِهم؛ لأنَّ الحقَّ ظهَرَ وهم مُكابِرونَ فيه، وهذا تَعريضٌ بأنَّ الجدالَ معهم ليس بذي جَدْوى. ويَجوزُ أنْ يكونَ المنفيُّ جِنسَ الحُجَّةِ المفيدةِ، بمَعونةِ القرينةِ، والمعنى: أنَّ الاستِمرارَ على الاحتِجاجِ عليهم بعدَ ما أظهَرَ لهم مِن الأدِلَّةِ يكونُ مِن العبَثِ، وهذا تَعريضٌ بأنَّهم مُكابِرونَ[٤].

- والمرادُ بالجمْعِ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾ الحشرُ لِفَصْلِ القضاءِ، فيَوْمَئذٍ يَتبيَّنُ المُحِقُّ مِن المُبطِلِ، وهذا كلامٌ مُنصِفٌ، ولَمَّا كان مِثلُ هذا الكلامِ لا يَصدُرُ إلَّا مِن الواثقِ بحقِّه، كان خِطابُهم به مُستعمَلًا في المُتارَكةِ والمُحاجَزةِ، فهذا تَعريضٌ بأنَّ القضاءَ سيَكونُ له عليهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٣، ٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٤).

- وتَقديمُ المسنَدِ إليه على الخبرِ الفِعليِّ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾ للتَّقَوِّي، أي: تَحقيقِ وُقوعِ هذا الجمْعِ، وإلَّا فإنَّ المخاطَبينَ -وهم اليهودُ- يُثبِتونَ البعثَ[1].

- وجُملةُ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾، والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ للاستِغراقِ، أي: مُصيرُ النَّاسِ كلِّهم، فبذلك كانتِ الجُملةُ تذييلًا بما فيها مِن العُمومِ، أي: مَصيرُنا ومَصيرُكم ومَصيرُ الخلْقِ كلِّهم[2].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٦-١٨)

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُحَآجُّونَ﴾: أي: يُجادِلونَ ويختَصِمونَ، والمُحاجَّةُ: أن يَطلُبَ كلُّ واحدٍ أن يَرُدَّ الآخَرَ عن حُجَّتِه، وأصلُ (حجج): يدُلُّ على قَصدٍ[1].

﴿دَاحِضَةٌ﴾: أي: باطِلةٌ ذاهِبةٌ، يُقالُ: دَحَضَتْ حُجَّةُ فلانٍ، إذا لم تَثبُتْ، وأصلُ (دحض): يدُلُّ على زَوالٍ وزَلَقٍ[2].

﴿مُشۡفِقُونَ﴾: أي: خائِفون حَذِرونَ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[3].

﴿يُمَارُونَ﴾: أي: يَشُكُّون ويُجادِلونَ، والمِرْيةُ: التَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهي أخصُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

مِن الشَّكِّ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى مبيِّنًا سوءَ عاقِبةِ الَّذين يُجادِلونَ بالباطلِ: والَّذين يُجادِلونَ المؤمِنينَ في شأنِ اللهِ بشُبُهاتِهم مِن بَعدِ دُخولِ النَّاسِ في دِينِه سُبحانَه، فإنَّ جِدالَهم باطِلٌ عندَ رَبِّهم، وعليهم غَضَبٌ مِنَ اللهِ، ولهم عَذابٌ شَديدٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن فضلِه على عبادِه، وحالَ الكافرينَ والمؤمنينَ بالنِّسبةِ ليومِ القيامةِ، فيقولُ: اللهُ الَّذي أنزَلَ القُرآنَ على رَسولِه بالحَقِّ، وأنزل العَدْلَ؛ لِيُقضَى بيْنَ النَّاسِ بالإنصافِ، وما يُعلِمُك -يا مُحمَّدُ- لَعَلَّ وقتَ قيامِ القيامةِ قد دنا واقتَرَب، يَستعجِلُ مَجيئَها الَّذين لا يُؤمِنونَ بقيامِها؛ استِهزاءً وإنكارًا لِوُقوعِها. والَّذين آمَنوا بها خائِفونَ مِن قيامِها، ويَعلَمونَ أنَّها حَقٌّ لا شَكَّ فيه، ألَا إنَّ الَّذين يُجادِلونَ ويَشُكُّونَ في قيامِ السَّاعةِ لَفي ضَلالٍ بَعيدٍ عن الحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها تَقريرٌ لِقَولِه: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، فأخبَرَ هنا أنَّ الَّذين يُحاجُّونَ في اللهِ بالحُجَجِ الباطِلةِ والشُّبَهِ المُتناقِضةِ مِن بَعدِ ما استجابَ لله أولو الألبابِ والعُقولِ لَمَّا بَيَّنَ لهم مِن الآياتِ القاطِعةِ، والبَراهينِ السَّاطِعةِ؛ فهؤلاء

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

المجادِلونَ للحَقِّ مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ: حُجَّتُهُمْ باطِلةٌ مَدفوعةٌ[١].

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾.

أي: والَّذين يُجادِلونَ ويُنازِعونَ المُؤمِنينَ في شأنِ اللهِ بشُبُهاتِهم وحُجَجِهم -كالمُجادَلةِ في تَوحيدِه أو أسمائِه وصِفاتِه- مِن بَعدِ دُخولِ النَّاسِ في دينِه والإيمانِ به سُبحانَه؛ فإنَّ مُجادَلتَهم باطِلةٌ عندَ اللهِ، ولا ثباتَ لها ولا بَقاءَ[٢].

﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

أي: وعليهم مِنَ اللهِ غَضَبٌ، ولهم مع ذلك عَذابٌ شَديدٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٥، ٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٩، ١٦٠).

قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: يُخاصِمون في دينِه. قال قَتادةُ: هم اليهودُ؛ قالوا: كتابُنا قبْلَ كتابِكم، ونبيُّنا قبْلَ نبيِّكم، فنحن خيرٌ منكم. وعلى قولِ مجاهِدٍ: هم المشركون؛ طَمِعوا أن تعودَ الجاهليَّةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧-٤٨٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: اليهودُ: الرازي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: المشركون: القرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦١).

قال الشنقيطي: (بيَّن تعالى ... أنَّ مِن أنواعِ جِدالِ الكفَّارِ: جِدالَهم للمؤمنينَ الَّذين استجابوا لله وآمَنوا به وبرسولِه، لِيَرُدُّوهم إلى الكفرِ بعدَ الإيمانِ، وبيَّن بُطْلانَ حُجَّةِ هؤلاء، وتوعَّدَهم بغَضَبِه عليهم، وعذابِه الشَّديدِ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ * ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [الحج: ٨ - ١٠].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ مَن يُحاجُّ في دينِ الإسلامِ؛ صَرَّح بأنَّه تعالى هو الَّذي أنزَل الكِتابَ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّ حُجَجَه واضِحةٌ بَيِّنةٌ، بحيثُ استجابَ لها كُلُّ مَن فيه خيرٌ؛ ذَكَر أصلَها وقاعِدتَها، بل جميعُ الحُجَجِ الَّتي أوصَلَها إلى العبادِ تَرجِعُ إليه، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، فالكِتابُ هو هذا القُرآنُ العَظيمُ، نَزَل بالحَقِّ، واشتَمَل على الحَقِّ والصِّدقِ واليَقينِ، وكُلُّه آياتٌ بَيِّناتٌ، وأدِلَّةٌ واضِحاتٌ، على جميعِ المطالِبِ الإلهيَّةِ، والعقائِدِ الدِّينيَّةِ، فجاء بأحسَنِ المسائِلِ، وأوضَحِ الدَّلائِلِ[2].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَ﴾.

= قِيلَ: المُرادُ بالعذابِ هنا: عَذابُ الآخِرةِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦).

وقال ابنُ عاشور: (لعلَّ المرادَ به عذابُ السَّيفِ في الدُّنيا بالقَتلِ يومَ بَدرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٦).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ أي: قَوِيٌّ، قد يكونُ في الدُّنيا، وقد يكونُ في الآخرةِ، وقد يكونُ فيهما). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦١). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

أي: اللهُ الَّذي أنزَلَ القُرآنَ على رَسولِه مُشتَمِلًا على الحَقِّ، وأنزَلَ العَدلَ؛ ليُقضَى بيْنَ النَّاسِ بالإنصافِ، ويُحكَمَ فيهم بحُكمِ اللهِ تعالى[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

أي: وأيُّ شَيءٍ يُعلِمُك -يا مُحمَّدُ[(٢)]- لَعَلَّ وَقتَ مَجيءِ القيامةِ قد دنا واقتَرَبَ[(٣)]؟

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٤، ٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦٥، ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٧).
وقيل: الخِطابُ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ، أي: وما يُدْريكَ أيُّها المُخاطَبُ. وممَّن اختاره: أبو حيَّان، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).
قال السمين الحلبي: (قَولُه: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: إنَّما ذَكَّر ﴿قَرِيبٌ﴾ وإنْ كان خبَرًا لمؤنَّثٍ؛ لأنَّ السَّاعةَ في معنى الوَقتِ، أو البَعثِ، أو على مَعنى النَّسَبِ، أي: ذاتُ قُرْبٍ، أو على حَذفِ مُضافٍ، أي: مَجيءَ السَّاعةِ. وقيلَ: للفَرْقِ بيْنَها وبيْنَ قَرابةِ النَّسَبِ). ((الدر المصون)) (٩/ ٥٤٧).

ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾.

أي: يَطلُبُ التَّعجيلَ بمَجيءِ السَّاعةِ الَّذين لا يُؤمِنونَ بقِيامِها؛ استِهزاءً مِنهم، أو إنكارًا وتَكذيبًا لِوُقوعِها(١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [النمل: ٧١، ٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٩، ٣٠].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بيَومِ القيامةِ خائِفونَ مِن مَجيءِ السَّاعةِ خَوفًا عَظيمًا، ويُوقِنونَ أنَّ مَجيئَها حَقٌّ لا شَكَّ فيه(٢).

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٨).

أي: ألَا إنَّ الَّذين يُجادِلونَ ويَشُكُّونَ[١] في قيامِ السَّاعةِ لَفي ذَهابٍ بَعيدٍ عن طَريقِ الحَقِّ والصَّوابِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ أنَّ الَّذي يُجادِلُ -ولو فيما له فيه عِلْمٌ- إذا كان قصدُه إبطالَ الحقِّ وإثباتَ الباطلِ؛ فلا شكَّ أنَّه مذمومٌ[٣].

٢- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾: أي خائِفونَ منها[٤]، وقال تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وخوفُ القيامةِ وسيلةٌ إلى الاستعدادِ لها[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ

---

(١) قال الشَّوكاني: (أي: يُخاصِمونَ فيها مُخاصَمةَ شَكٍّ وريبةٍ، مِنَ المُماراةِ، وهي: المُخاصَمةُ والمُجادَلةُ، أو مِنَ المِرْيةِ: وهي الشَّكُّ والرِّيبةُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٩).
وقال البِقاعي: (يُظهِرونَ شَكَّهم في مَعرِضِ اللَّجاجةِ الشَّديدةِ؛ طَلبًا لظُهورِ شَكٍّ غَيرِهم؛ مِن مَرَيتُ النَّاقةَ: إذا مَسَحْتَ ضَرْعَها بشِدَّةٍ للحَلْبِ؛ لِتَستخرِجَ ما عساه يكونُ فيها مِنَ اللَّبَنِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي)) (٧/ ٦٨).

(٥) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٦٨).

عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ هذه عُقوبةُ كُلِّ مُجادِلٍ للحَقِّ بالباطِلِ[١].

٢- الحُجَّةُ في كتابِ اللهِ يُرادُ بها نوعانِ:

أحدُهما: الحُجَّةُ الحَقُّ الصَّحيحةُ، كقَولِه تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقَولِه تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

والنَّوعُ الثَّاني: حُجَّةٌ يُرادُ بها مُطلَقُ الاحتِجاجِ بحَقٍّ أو بباطِلٍ، كقَولِه هنا: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾، وقَولِه: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقَولِه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الجاثية: ٢٥]، وقَولِه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾[٢] [البقرة: ٢٥٨].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أنَّ الحقَّ إذا ظَهَر وعُرِفَ، وكان مَقصودُ الدَّاعي إلى البِدعةِ إضرارَ النَّاسِ؛ قُوبِلَ بالعُقوبةِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ يُشيرُ إلى الانتِصارِ على أهلِ الرِّدَّةِ، وضَربِهم بكُلِّ شِدَّةٍ؛ لِسُوءِ مَنزِلتِهم عِندَه، كما كَشَف عنه الحالُ، عندَ نَدْبِ الصِّدِّيقِ إليهم بالقِتالِ، رَضِي اللهُ عنه وأرضاه[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ فيه إثباتُ عُلُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ والمرادُ بالكتابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٠).

هنا كلامُه عزَّ وجلَّ الَّذي أوحاه إلى رُسلِه؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ النُّزولَ يكونُ مِن الأعلَى إلى الأسفلِ[(١)].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ فيه إثباتُ القياسِ؛ لأنَّ الميزانَ ما تُوزَنُ به الأشياءُ ويُقارَنُ بيْنَها، ففيه إثباتُ القياسِ في الشَّرائعِ السَّماويةِ[(٢)].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَعلَمُ متى تقومُ السَّاعةُ؛ لقولِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾، أي: ما يُعْلِمُك؟! وهذا حقٌّ ثابتٌ؛ فإنَّ جبريلَ عليه السَّلامُ سأل النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: متى السَّاعةُ، فقال: ((ما المَسؤولُ عنها بأعْلَمَ مِن السَّائلِ))[(٣)] يعني: كما أنَّك أنت تَجهَلُها؛ فأنا أجهلُها، ولهذا مَنِ ادَّعَى عِلْمَ السَّاعةِ فإنَّه كاذبٌ، مُكَذِّبٌ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[(٤)] [الأعراف: ١٨٧].

٨- كلُّ موضعٍ في القرآنِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد عُقِّب ببيانِه؛ نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ * نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ [القارعة: ١٠، ١١]، وكلُّ موضعٍ ذُكِر بلَفظِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ لم يُعقَّبْ ببيانِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٩٧).

وقال الفَرَّاءُ: (كلُّ ما كان في القرآنِ مِن قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وما كان مِن قولِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُدْرِه). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٨٠).

وأخرج ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ٢٠٧) بسندِه عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنةَ، قال: (ما في القرآنِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُخبِرْه، وما كان: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبَرَه). وأخرجه أيضًا ابنُ المُنذِرِ وابنُ أبي حاتم، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٦٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ [الشورى: ١٥]، وهو يَقتضي انتِقالَ الكلامِ؛ فلمَّا استَوفَى حظَّ أهلِ الكِتابِ في شأْنِ المُحاجَّةِ معهم، رجَعَ إلى المشرِكينَ في هذا الشَّأنِ بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾. وتَغييرُ الأُسلوبِ بالإتيانِ بالاسمِ الظاهرِ المَوصولِ، وكَونِ صِلتِه مادَّةَ الاحتِجاجِ، مُؤْذِنٌ بتَغييرِ الغَرَضِ في المُتحدَّثِ عنهم، مع مُناسَبةِ ما أُلحِقَ به مِن قولِه: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]، وقولِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١]؛ فالمقصودُ بـ (الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ) المشرِكونَ؛ لأنَّهم يُحاجُّونَ في شأْنِ اللهِ، وهو الوَحدانيَّةُ[1]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وقيل: إطلاقُ اسمِ الحُجَّةِ على شُبُهاتِهم مُجاراةٌ لهم بطَريقِ التَّهكُّمِ، والقرينةُ قولُه: ﴿دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾[2].

- ومَفعولُ ﴿يُحَآجُّونَ﴾ مَحذوفٌ، دلَّ عليه قولُه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾، والتَّقديرُ: يُحاجُّونَ المسْتَجيبينَ للهِ مِن بَعدِ ما اسْتَجابوا له، أي: اسْتَجابوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٦).

ويُنظر ما تقدَّم مِن القولِ بأنَّ الحُجَّةَ تُطلَقُ على مُطلَقِ الاحتِجاجِ (ص: ٤٣٦).

لِدَعْوتِه على لِسانِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- وأيضًا حُذِفَ فاعلُ ﴿ٱسۡتُجِيبَ﴾ إيجازًا؛ لأنَّ المقصودَ: مِن بَعدِ حُصولِ الاستِجابةِ المعروفةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ لم يُبيَّنْ وَجْهُ دَحضِ حُجَّتِهم؛ اكتِفاءً بما بُيِّنَ في تَضاعيفِ ما نزَلَ مِن القرآنِ مِن الأدِلَّةِ على فَسادِ تَعدُّدِ الآلهةِ، وعلى صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعلى إمكانِ البعْثِ، وبما ظهَرَ للعِيانِ مِن تَزايُدِ المسلمينَ يومًا فيومًا، وأمْنِهم مِن أنْ يُعْتدَى عليهم[٣].

- قولُه: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ الغضبُ: غضَبُ اللهِ، وإنَّما نُكِّرَ للدَّلالةِ على شِدَّتِه، ولم يُحتَجْ إلى إضافتِه إلى اسمِ الجَلالةِ أو ضَميرِه؛ لِظُهورِ المقصودِ مِن قولِه: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ فالتَّقديرُ: وعليهم غضَبٌ منه. وإنَّما قُدِّمَ المسنَدُ على المسنَدِ إليه بقولِه: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾؛ للاهتِمامِ بوُقوعِ الغضَبِ عليهم كما هو مُقتضَى حرْفِ الاستِعلاءِ، وكذلك القولُ في ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ كان مِن جُملةِ مُحاجَّةِ المشرِكينَ في اللهِ، ومِن أشَدِّها تَشْغيبًا في زَعمِهم: مُحاجَّتُهم بإنكارِ البعْثِ، وقد دحَضَ اللهُ حُجَّتَهم في مَواضِعَ مِن كِتابِه بنفْيِ استِحالتِه، وبدَليلِ إمْكانِه، وأَوْمَأَ هنا إلى مُقتضِي إيجابِه؛ فبيَّنَ أنَّ البعْثَ والجزاءَ حقٌّ وعدْلٌ، فكيف لا يُقدِّرُه مُدبِّرُ الكَونِ ومُنزِّلُ الكتابِ والميزانِ؟! وقد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أشارتْ إلى هذا المعنى آياتٌ كثيرةٌ؛ مِنها قولُه تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقولُه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدُّخان: ٣٨- ٤٠]، وأكثرُها جاءَ نَظْمُها على نحوِ التَّرتيبِ الَّذي في نظْمِ هذه الآيةِ؛ مِن الابتِداءِ بما يُذكِّرُ بحِكمةِ الإيجادِ، وأنَّ تَمامَ الحِكمةِ بالجزاءِ على الأعمالِ[1].

- وقولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ استِئنافٌ وبيانٌ لحُكمِه المأمورِ به في قولِه: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥]، وهي كالتَّخلُّصِ والتَّمهيدِ إلى ذِكرِ عِنادِهم، وهو استِعجالُهم بالسَّاعةِ بقولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾؛ لأنَّه يُؤذِنُ بمُقدَّرٍ يَقتضيه المعنى، تقديرُه: فجُعِل الجزاءُ للسَّائرينَ على الحقِّ، والناكِبينَ عنه في يومِ السَّاعةِ، فلا مَحيصَ للعِبادِ عن لِقاءِ الجزاءِ، وما يُدْرِيك لعلَّ السَّاعةَ قريبٌ[2].

- وقولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ هذه الجُمْلةُ مَوقعُها مِن جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٦] مَوقعُ الدَّليلِ، والدَّليلُ مِن ضُروبِ البَيانِ؛ ولذلك فُصِلَتِ الجُملةُ عن الَّتي قبْلَها -أي: لم تُعطَفْ عليها-؛ لشِدَّةِ اتِّصالِ معناها بمَعنى الأُخرَى[3].

- والإخبارُ عن اسمِ الجلالةِ باسمِ المَوصولِ الَّذي مَضمونُ صِلَتِه إنزالُه الكتابَ والميزانَ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾؛ مِن أجْلِ ما في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٧).

المَوصوليَّةِ مِن الإيماءِ إلى وَجْهِ بناءِ الخبرِ الآتي، وأنَّه مِن جِنسِ الحقِّ والعدْلِ[١].

- ولامُ التَّعريفِ في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ لِتَعريفِ الجنسِ، أي: إنزالُ الكتُبِ، وهو يَنظُرُ إلى قولِه آنِفًا: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾[٢] [الشورى: ١٥].

- والباءُ في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للمُلابَسةِ، أي: أنزَلَ الكتُبَ مُقترِنةً بالحقِّ، بَعيدةً عن الباطلِ[٣].

- والميزانُ هنا معبَّرٌ به عن العدْلِ والهُدى؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿أَنزَلَ﴾؛ فإنَّ الدِّينَ هو المُنزَّلُ، والدِّينُ يدْعو إلى العدْلِ والإنصافِ في المجادَلةِ في الدِّينِ، وفي إعطاءِ الحُقوقِ؛ فشُبِّهَ بالميزانِ في تَساوي رُجحانِ كِفَّتَيْه[٤].

- وجُملةُ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾، والمُناسَبةُ هي إيذانُ تلك الجُملةِ بمُقدَّرٍ، وهو: فجُعِل الجزاءُ للسَّائرينَ على الحقِّ والناكِبينَ عنه في يومِ الساعةِ؛ فلا مَحيصَ للعِبادِ عن لِقاءِ الجزاءِ[٥].

- وكلمةُ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ جاريةٌ مَجْرَى المَثَلِ، والكافُ منها خِطابٌ لِغَيرِ مُعيَّنٍ -على قولٍ-، و(ما) استفهاميَّةٌ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ والتَّهيئةِ، والمعنى: أيُّ شَيءٍ يُعلِمُك أيُّها السَّامعُ السَّاعةَ قريبًا[٦]؟

- وفيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، وفي (الأحزابِ):

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٨، ٦٩).

﴿تَكُونُ قَرِيبًا﴾، زِيدَ معه ﴿تَكُونُ﴾؛ مُراعاةً للفواصلِ[(١)].

٣- قولُه تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾

- جُملةُ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ حالًا مِن ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ [الشورى: ١٧]. ويَجوزُ أنْ تكونَ بَيانًا لِجُملةِ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]؛ لِما تَضمَّنتْه مِن التَّنبيهِ والتَّهيئةِ بالنِّسبةِ إلى فَريقَي المؤمنينَ بالسَّاعةِ، والَّذين لا يُؤمِنونَ بها، فذكَرَ فيها حالَ كِلا الفريقَينِ تُجاهَ ذلك التَّنبيهِ؛ فأمَّا المشركونَ فيَتلقَّوْنَه بالاستِهزاءِ والتَّصميمِ على الجحْدِ بها، وهو المرادُ بقولِه: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، والَّذين آمَنوا بها يَعمَلونَ لِما به الفوزُ عِندَها؛ ولذلك جِيءَ عَقِبَها بجُملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[(٢)].

- والاستِعجالُ: طلبُ التَّعجيلِ، أي: يَطلُبُ الَّذين لا يُؤمِنونَ بالسَّاعةِ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُعجِّلَ اللهُ بحُلولِ السَّاعةِ لِيَبينَ صِدقُه؛ تَهكُّمًا واستِهزاءً، وكِنايةً عن اتِّخاذِهم تأخُّرَها دليلًا على عَدمِ وُقوعِها، وهم آيِسُونَ منها، كما دلَّ عليه قولُه في مُقابِلِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾[(٣)].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾، أي: مُشفِقون مِن أهْوالِها، وجُعِلَ الإشفاقُ مِن ذاتِ السَّاعةِ؛ لإفادةِ تَعظيمِ أهوالِها حتَّى كأنَّ أهوالَها هي ذاتُها[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٠).

- والمرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾: المشركونَ، وعُبِّرَ عنهم بالمَوصولِ؛ لأنَّ الصِّلةَ تدُلُّ على عِلَّةِ استِعجالِهم بها، والمرادُ بـ(الَّذِينَ آمَنُوا): المسلِمونَ؛ فإنَّ هذا لَقبٌ لهم، ففي الكلامِ احتِباكٌ[١]، تَقديرُه: يَستعجِلُ بها الَّذين لا يُؤمِنونَ بها فلا يُشفِقونَ منها، والَّذين آمَنوا مُشفِقونَ منها فلا يَستعجِلونَ بها[٢].

- وعُطِفتْ على ﴿مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ جملةُ ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾؛ لإفادةِ أنَّ إشفاقَهم منها إشفاقٌ عن يَقينٍ وجَزْمٍ، لا إشفاقٌ عن تَردُّدٍ وخشْيةِ أنْ يَكشِفَ الواقعُ عن صِدقِ الإخبارِ بها، وأنَّه احتمالٌ مُساوٍ عِندَهم[٣].

- وتَعريفُ الحَقِّ في قولِه: ﴿أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وهو يُفيدُ قَصْرَ المسنَدِ على المسنَدِ إليه قصْرَ مُبالَغةٍ؛ لِكَمالِ الجنسِ في المسنَدِ إليه، أي: يُوقِنونَ بأنَّها الحقُّ كلَّ الحقِّ؛ وذلك لِظُهورِ دَلائلِ وُقوعِها حتَّى كأنَّه لا حَقَّ غيرُه[٤].

- وجُملةُ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ تَذييلٌ لِما قبْلَها بصَريحِها وكِنايتِها؛ لأنَّ صَريحَها إثباتُ الضَّلالِ للَّذِين يُكذِّبونَ بالسَّاعةِ، وكِنايتَها إثباتُ الهُدى للَّذين يُؤمِنونَ بالسَّاعةِ، وهذا التَّذييلُ فَذْلَكةٌ[٥] للجُملةِ الَّتي قبْلَها[٦].

- وافتتاحُ الجُملةِ بحرْفِ (ألَا) الَّذي هو للتَّنبيهِ؛ لِقَصْدِ العِنايةِ بالكلامِ[٧].

---

(١) تقدَّم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدم تعريفها (ص: ٣١٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٠).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٧١).

- وفي قولِه: ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ جُعِلَ الضَّلالُ كالظَّرفِ لهم؛ تَشبيهًا لِتَلبُّسِهم بالضَّلالِ بوُقوعِ المظروفِ في ظرْفِه[١].

- ووَصفُ الضَّلالِ بالبَعيدِ كِنايةٌ عن عُسرِ إرجاعِه إلى المقصودِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٩-٢٤)

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢١ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ٢٣ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿لَطِيفُۢ﴾: أي: رَفيقٌ أو عالمٌ بدقائقِ الأمورِ، وأصلُ (لطف): يدُلُّ على رِفْقٍ وعلى صِغَرٍ فِي الشَّيءِ[(١)].

﴿حَرۡثَ﴾: أي: عَمَلَ وثَوابَ وكَسْبَ، وأصلُ (حرث): يدُلُّ على جَمعٍ وكَسبٍ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦).
قال السعدي: (واللُّطفُ مِن أوصافِه تعالى معناه: الَّذي يُدرِكُ الضَّمائِرَ والسَّرائِرَ، والَّذي يُوصِلُ عِبادَه -وخُصوصًا المؤمِنينَ- إلى ما فيه الخَيرُ لهم مِن حيثُ لا يَعلَمونَ ولا يَحتَسِبونَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٤، ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨).

﴿مُشْفِقِينَ﴾: أي: خائفينَ، والإشفاقُ: عنايةٌ مُختلِطةٌ بخَوفٍ، فإذا عُدِّيَ بـ(مِن) فمعنى الخَوْفِ فيه أظهَرُ، وإذا عُدِّيَ بـ(على) فمعنى العنايةِ فيه أظهَرُ[١].

﴿رَوْضَاتِ﴾: جمعُ رَوْضةٍ، وهي المكانُ الَّذي يَكثُرُ نَبْتُه، وأصلُ (روض): اتِّساعٌ[٢].

﴿ٱلْمَوَدَّةَ﴾: أي: المَحَبَّةَ، والوُدُّ: محبَّةُ الشَّيءِ، أو هو خالصُ الحُبِّ وألطفُه وأرَقُّه، يُقالُ: وَدِدْتُ الرَّجُلَ وُدًّا: أحببْتُه، وأصلُ (ودد): يدُلُّ على محبَّةٍ[٣].

﴿يَقْتَرِفْ﴾: أي: يَكتَسِبْ ويَعمَلْ، والاقتِرافُ: الاكتِسابُ حُسنًا كان أو سُوءًا، وهو في الإساءةِ أكثرُ استِعمالًا، وأصلُ (قرف): يدُلُّ على مُخالَطةِ الشَّيءِ والالتِباسِ به[٤].

﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: أي: يَطْبَعْ على قلبِك، فتَنْسَ هذا القرآنَ، وأصلُ (ختم): يدُلُّ على بُلوغِ آخِرِ الشَّيءِ، والطَّبعُ على الشَّيءِ لا يَكونُ إلَّا بعْدَ بُلوغِ آخِرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٨، ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٣٥)، ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٤٦، ٤٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٥/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٨٧).

﴿وَيَمۡحُ﴾: أي: يُذْهِبُ ويَمحَقُ، والمَحْوُ: إزالةُ الأثَرِ، وأصلُ (محو): يدُلُّ على الذَّهابِ بالشَّيءِ[(١)].

﴿وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ﴾: أي: ويُثبِتُه ويُعلِيه، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾

قَولُه: ﴿وَيَمۡحُ﴾: كَلامٌ مُستأنَفٌ ليس مَعطوفًا على جزاءِ الشَّرطِ ﴿يَخۡتِمۡ﴾؛ إذ ليس المعنى على: إنْ يَشَأِ اللهُ يَمحُ الباطِلَ، بل هو تحقيقٌ لِمَحْوِه للباطِلِ؛ لأنَّه تعالى يمحو الباطِلَ مُطلقًا. فـ(يَمْحُ) مرفوعٌ بضمَّةٍ مُقَدَّرةٍ على الواوِ المحذوفةِ، لا مجزومٌ بالعَطفِ على ﴿يَخۡتِمۡ﴾، وحَقُّه ظهورُ الواوِ في آخِرِه، ولكِنْ حُذِفَت الواوُ مِنه لفظًا لالتِقاءِ السَّاكِنَينِ، وحُذِفَت خَطًّا حَملًا للخَطِّ على اللَّفظِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وقَولِه تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء: ١١]، وكان القياسُ إثباتَ الواوِ رَسمًا، لكِنْ رَسمُ المُصحَفِ لا يلزَمُ جَريُه على القياسِ، ويُؤَيِّدُ الاستِئنافَ دونَ العَطفِ على ﴿يَخۡتِمۡ﴾ إعادةُ الاسمِ الجَليلِ (اللهُ) في ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ﴾، ورَفعُ المعطوفِ (يُحِقُّ)[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٥/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٧).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُخبرًا عن لُطْفِه بخَلْقِه: اللهُ بالغُ اللُّطفِ بعِبادِه، يَرزُقُ مَن يَشاءُ منهم حَسَبَ ما تَقتَضيه حِكمتُه، وهو القَويُّ العَزيزُ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى سُنَّةً مِن سُننِه الَّتي لا تتخلَّفُ، فيقولُ: مَن كان يريدُ عمَلَ الآخِرةِ والإعدادَ لها نُقَوِّه على الازديادِ مِن الأعمالِ الصَّالِحةِ، ونُيَسِّرْ له ذلك، ونُضاعِفْ له ثوابَه، ومَن كان يريدُ الدُّنيا دونَ الآخِرةِ نُعْطِه مِن مَتاعِها ما قُسِمَ له، وليس له في الآخِرةِ نَصيبٌ مِن ثَوابِ اللهِ تعالى.

ثمَّ يقولُ تعالى مُوبِّخًا المشركينَ: أمْ لأولئك المُشرِكينَ شُرَكاءُ شَرَعوا لهم مِنَ الدِّينِ ما لم يأذَنْ به اللهُ ولم يأمُرْ به؟! ولولا قَضاءُ اللهِ السَّابِقُ بتأخيرِ العَذابِ عنهم لَعَجَّل لهم العُقوبةَ، وإنَّ الظَّالِمينَ لهم عذابٌ مُؤلِمٌ!

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى عاقِبةَ المشركينَ، مقابِلًا بيْنَها وبيْنَ عاقِبةِ المؤمنينَ، فيقولُ: ترَى الظَّالِمينَ يومَ القيامةِ -يا مُحمَّدُ- خائِفينَ مِن عذابِ اللهِ على ما عَمِلوه في الدُّنيا، وذلك العذابُ نازِلٌ بهم لا مَحالةَ. والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ في الدُّنيا هم في رَوْضاتِ الجنَّاتِ، لهم في الجَنَّةِ ما يَشاؤُونَه عندَ رَبِّهم، ذلك هو الفَضلُ الكبيرُ، ذلك النَّعيمُ العَظيمُ هو الَّذي يُبَشِّرُ اللهُ به عِبادَه الَّذين آمَنوا به وعَمِلوا الصَّالِحاتِ.

قل -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك مِن قُرَيشٍ: لا أسألُكم على تَبليغي رِسالةَ رَبِّي جَزاءً، لكِنِّي أطلُبُ منكم أنْ تَوَدُّوني في قَرابَتي مِنكم، فتَكُفُّوا عنِّي أذاكم، وتمنَعوا عنِّي أذَى غيرِكم.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه جانبًا مِن مَظاهِرِ فضلِه على عِبادِه، فيقولُ: ومَن يَعمَلْ مِنَ المؤمِنينَ عَمَلًا صالِحًا فإنَّ اللهَ تعالى يَزيدُ له ثوابَ عَمَلِه، إنَّ اللهَ غَفورٌ لِذُنوبِ

عبادِه، شَكورٌ أعمالَهم الصَّالِحةَ؛ فيَقبَلُها منهم، ويُضاعِفُها لهم.

ثمَّ يُوبِّخُ الله المشركينَ، فيقولُ: أمْ يَقولُ أولئك المُشرِكونَ: كَذَب مُحَمَّدٌ على رَبِّه في دعوى الوَحيِ والنُّبُوَّةِ؟! فإنْ يَشأِ اللهُ يَطبَعْ على قَلْبِك -يا مُحمَّدُ- فيُنسِك القُرآنَ. ويُذهِبُ اللهُ الباطِلَ، ويُثَبِّتُ الحَقَّ بكَلِماتِه الكَونيَّةِ والدِّينيَّةِ، إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُكِنُّه الضَّمائِرُ، لا يَخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه أنزَل عليهم الكِتابَ المُشتَمِلَ على تلك الدَّلائِلِ اللَّطيفةِ، فكان ذلك مِن لُطفِ الله بعبادِه، فحسُنَ ذِكرُ ذلك هاهنا.

وأيضًا المتفرِّقون استَوجَبوا العذابَ الشَّديدَ، ثمَّ إنَّه تعالى أخَّر عنهم ذلك العَذابَ، فكان ذلك أيضًا مِن لُطفِ الله تعالى، فلمَّا سَبَق ذِكرُ إيصالِ أعظَمِ المنافِعِ إليهم، ودَفْعِ أعظَمِ المَضارِّ عنهم؛ لا جَرَمَ حَسُنَ ذِكرُه هاهنا[1].

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾.

أي: اللهُ بالغُ اللُّطفِ بعِبادِه، فيُيَسِّرُ لهم الخَيرَ، ويَسوقُ لهم الأرزاقَ بطُرُقٍ خَفيَّةٍ مِن حَيثُ لا يَشعُرونَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٠، ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

قال ابن عثيمين: (اللهُ لَطيفٌ بالعِبادِ كُلِّهم؛ البَرِّ والفاجِرِ، لكِنَّ لُطفَه بالبَرِّ لُطفٌ خاصٌّ مُستَمِرٌّ في الدُّنيا وفي الآخِرةِ، ولُطفَه بالفاجِرِ لُطفٌ عامٌّ يكونُ ابتِلاءً وامتِحانًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩١). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٧، ٢٨).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: يَرزُقُ اللهُ مَن يَشاءُ مِن عبادِه بحَسَبِ ما تَقتَضيه حِكمتُه(١).

﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

أي: وهو المتَّصِفُ بكَمالِ القُوَّةِ؛ فلا يَلحَقُه سُبحانَه ضَعفٌ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ لأحَدٍ مِن المَخلوقينَ إلَّا به، وهو المتَّصِفُ بكَمالِ العِزَّةِ؛ فهو ذو القَدْرِ العَظيمِ، الغالِبُ القاهِرُ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ سُوءٍ ونَقصٍ(٢).

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن كَوْنَه لَطيفًا بعبادِه، كثيرَ الإحسانِ إليهم؛ بيَّن أنَّه لا بُدَّ لهم مِن أن يَسعَوا في طَلَبِ الخيراتِ، وفي الاحترازِ عن القبائِحِ(٣).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى الرِّزقَ؛ ذكَرَ حَديثَ الكَسبِ(٤).

وأيضًا لَمَّا بيَّن أنَّ الرِّزقَ ليس إلَّا في يَدِ الله تعالى؛ أتْبَعَه ما يُزَهِّدُ في طَلَبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩٢، ١٩٣).

قال ابن عاشور: (المعنى: أنَّه لِلُطفِه بجميعِ عبادِه لا يَترُكُ أحدًا منهم بلا رِزقٍ، وأنَّه فَضَّل بَعضَهم على بَعضٍ في الرِّزقِ؛ جَريًا على مَشيئتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩٣- ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣١).

رِزقِ البَدَنِ، ويُرَغِّبُ في رِزقِ الرُّوحِ، فقال[١]:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾.

أي: مَن كان يُريدُ عَمَلَ الآخِرةِ والسَّعيَ والإعدادَ لها، فإنَّ اللهَ يُقَوِّيه ويُعينُه، ويُيسِّرُ له ذلك، فيَزدادُ مِن الصَّالحاتِ، ويُضاعِفُ الله له الثَّوابَ، ويَجْزيه بالحسنةِ عَشْرَ أمثالِها إلى سَبعِمئةِ ضِعفٍ[٢].

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾.

أي: ومَن كان يُريدُ عَمَلَ الدُّنيا والسَّعيَ لها دونَ الآخِرةِ، فإنَّ اللهَ يُعطيه مِن مَتاعِها نَصيبَه الَّذي قَسَمَه له، ولا يَحرِمُه مِمَّا شاء له مِنَ رِزقٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٧، ٢٨٨).

قال ابنُ عاشور: (﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ يحتمِلُ مَعنيَينِ: أن تكونَ الزِّيادةُ في ثوابِ العَمَلِ... وأن تكونَ الزِّيادةُ في العَمَلِ، أي: نُقَدِّرْ له العَونَ على الازديادِ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ، ونُيَسِّرْ له ذلك، فيَزداد مِن الصَّالِحاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٥).

ومِمَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: ابنُ جرير، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، وابن جُزَي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٢).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ: ابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٧). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٥).

﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

أي: وليس له في الآخِرةِ نَصيبٌ مِن ثَوابِ اللهِ(١).

كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١، ٤٩٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

قال ابن القيِّم: (وهاهنا أمرٌ يَجِبُ التَّنبُّه له، وهو أنَّه لا يُمكِنُ إرادةُ الدُّنيا وعاجِلِها بأعمالِ البِرِّ دونَ الآخِرةِ مع الإيمانِ بالله ورَسولِه ولقائِه، أبدًا؛ فإنَّ الإيمانَ بالله والدَّارِ الآخِرةِ يَستلزِمُ إرادةَ العبدِ لرَحمةِ الله والدَّارِ الآخرةِ بأعمالِه؛ فحيث كان مُرادُه بها الدُّنيا فهذا لا يجامعُ الإيمانَ أبدًا، وإن جامَعَ الإقرارَ والعِلمَ، فالإيمانُ وراءَ ذلك، والإقرارُ والمعرفةُ حاصِلان لِمَن شَهِدَ اللهُ سُبحانَه له بالكُفرِ مع هذه المعرفةِ، كفِرعَونَ وثمودَ، واليهودِ الَّذين شاهَدوا رسولَ اللهِ وعَرَفوه كما عَرَفوا أبناءَهم وهم مِن أكفَرِ الخَلقِ؛ فإرادةُ الدُّنيا وعاجِلِها بالأعمالِ قد تُجامعُ هذه المعرفةَ والعِلمَ، ولكِنَّ الإيمانَ الَّذي هو وراءَ ذلك لا بدَّ أن يُريدَ صاحِبُه بأعمالِه اللهَ والدَّارَ الآخِرةَ. واللهُ المُستعانُ). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٦٧).

وقال ابن كثير: (﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أيْ: ومَنْ كان إنَّما سَعْيُه لِيَحصُلَ له شَيءٌ مِن الدُّنيا، وليس له إلى الآخرةِ همَّةٌ البتَّةَ بالكلِّيَّةِ؛ حَرَمه اللهُ الآخرةَ، والدُّنيا إنْ شاءَ أعطاه منها، وإنْ لم يَشَأْ لم يَحصُلْ له لا هذه ولا هذه، وفازَ هذا السَّاعي بهذه النِّيَّةِ بالصَّفقةِ الخاسِرةِ في الدُّنيا والآخرةِ.

والدَّليلُ على هذا أنَّ هذه الآيةَ هاهنا مُقَيَّدَةٌ بالآيةِ الَّتي في «سُبْحانَ» وهي قولُه تعالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨-٢١]). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨).

فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وعن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بَشِّرْ هذه الأُمَّةَ بالسَّناءِ[١] والرِّفْعةِ، والدِّينِ والنَّصرِ، والتَّمكينِ في الأرضِ، فمَن عَمِلَ مِنهم عَمَلَ الآخِرةِ للدُّنيا لم يكُنْ له في الآخِرةِ نَصيبٌ))[٢].

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه شَرَع للنَّاسِ ما وصَّى به نوحًا... الآيةَ؛ أخَذَ يُنكِرُ ما شَرَع غَيرُه تعالى[٣].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن القانونَ الأعظَمَ والقِسْطاسَ الأقوَمَ في أعمالِ الآخِرةِ والدُّنيا؛ أردَفَه بالتَّنبيهِ على ما هو الأصلُ في بابِ الضَّلالةِ والشَّقاوةِ، فقال[٤]:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

---

(١) بالسَّناءِ: أي: بارتِفاعِ المَنزلةِ والقَدْرِ عندَ اللهِ تعالى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٢٢٠) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٤٠٥)، والحاكمُ (٧٨٦٢).

صَحَّحه ابنُ حِبَّان، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٨٢٥)، وصَحَّح إسنادَه الحاكمُ، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٢٢٣): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). ووثَّق رواتَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٣٤٨)، وقوَّى إسنادَه شُعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٥/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٢).

أي: أم للمُشرِكينَ شُرَكاءُ وَضَعوا لهم مِنَ الدِّينِ أمورًا لم يأذَنِ اللهُ بوَضعِها، ولم يأمُرْ بها[1]؟

كما قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۞ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: ولولا قَضاءُ اللهِ السَّابِقُ بتأخيرِ العَذابِ عنهم لَعَجَّل لهم العُقوبةَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٢، ٤٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢، ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٠٢، ٢٠٣).

قال الطِّيبي: (﴿أَمْ﴾ في قولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ مُنقطِعةٌ، فيها معنى: «بل» والهمزةِ، ولا بدَّ مِن سَبْقِ كلامِ إخبارٍ أو إنشاءٍ يُضرَبُ عنه، حتَّى يُقرَّرَ ما بعدَه، وما سبَق هو قولُه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣]). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٢).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ أي: ألَهم. والميمُ صِلةٌ، والهمزةُ للتَّقريعِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٧).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى: ١٤].

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أي: وإنَّ الظَّالِمينَ لهم -بسَبَب ظُلمِهم- عَذابٌ مُؤلِمٌ[١].

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢﴾.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾.

أي: ترى الظَّالِمينَ يَومَ القيامةِ -يا مُحمَّدُ- خائِفينَ خَوفًا عَظيمًا مِن عذابِ اللهِ لهم على ما كَسَبوه في الدُّنيا[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨).

قِيلَ: المُرادُ بالعذابِ هنا: عذابُ الآخِرةِ. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨).

وقِيلَ: المُرادُ: عذابُ الدُّنيا بالقَتلِ أو الأسْرِ والقَهرِ، وعذابُ الآخِرةِ. ومِمَّن قال بهذا: القرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٢، ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

ممَّن اختار أنَّ الخِطابَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٨٢).

وقيل: الخِطابُ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ. وممَّن اختاره: الكرماني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) =

﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾.

أي: وذلك العَذابُ الَّذي يُشفِقونَ مِنه نازِلٌ بهم لا مَحالةَ[(١)].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا في الدُّنيا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه: في رَوْضاتِ الجنَّاتِ مَسرُورون مُنَعَّمونَ[(٢)].

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: للمُؤمِنينَ في الجنَّةِ عندَ رَبِّهم ما يَشاؤُونَه مِمَّا تَشتَهيه أنفُسُهم[(٣)].

= (١/ ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٨).

قال الكرماني: (ليس بخِطابٍ لواحدٍ مُعَيَّنٍ، بل هو جارٍ مَجرى قولِ القائلِ: أيُّها الرَّجُلُ، وكلُّكم ذلك الرَّجُلُ، ومِثلُه في القرآنِ كثيرٌ، منه قولُه: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ [الزمر: ٢١] و[الحديد: ٢٠]، ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾، وكذلك في سورةِ الملائكةِ -أي: قوله: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢]-). ((تفسير الكرماني)) (١/ ٦٠١).

وقال ابن عطية: (قوله: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ هي رؤيةُ بصَرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

قال ابن جرير: (يعني بالرَّوضاتِ: جمْعَ رَوْضةٍ، وهي المكانُ الَّذي يَكثُرُ نَبْتُه... وإنَّما عنى جلَّ ثناؤُه بذلك: الخبرَ عمَّا هم فيه مِن السُّرورِ والنَّعيم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣، ٤٩٤).

وقال الشوكاني: (رَوضةُ الجنَّةِ: أطيَبُ مَساكِنِها، كما أنَّها في الدُّنيا لأحسَنِ أمكِنَتِها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

أي: ذلك النَّعيمُ العَظيمُ الَّذي يُؤتيه اللهُ للمُؤمنينَ في الجنَّةِ: هو الفَضلُ الكبيرُ الَّذي لا تَبلُغُ العُقولُ عَظيمَ قَدْرِه، ولا حَقيقةَ صِفَتِه[١].

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: ذلك النَّعيمُ العَظيمُ هو الَّذي يُبَشِّرُ اللهُ به عِبادَه الَّذين آمَنوا به، وعَمِلوا بطاعتِه في الدُّنيا، فهم فائِزونَ به لا مَحالةَ[٢].

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت العادةُ جاريةً بأنَّ البشيرَ لا بدَّ له مِن حِبَاءٍ[٣] وإن لم يَسأَلْ؛ لأنَّ بِشارتَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٠).

قال ابن عاشور: (الفضلُ يجوزُ أن يكونَ مصدرًا بمعنى الشَّرفِ والتَّفوُّقِ على الغيرِ، فيَكونَ في معنى: فَضْلُهم، ويجوزُ أن يكونَ اسمًا لِما يتفضَّلُ به مِن عطاءٍ، فيكونَ في معنى: ذلك فَضْلُنا عليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٠).

وقال البِقاعي: (﴿ٱلْفَضْلُ﴾ أي: الَّذي هو أهلٌ لأن يكونَ فاضلًا عن كفايةِ صاحبِه ولو بالغ في الإنفاقِ ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الَّذي ملأ جميعَ جهاتِ الحاجةِ، وصغرَ عندَه كلُّ ما ناله غيرُهم مِن هذا الحُطامِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٤، ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٩).

(٣) الحِبَاءُ: ما يَحْبُو به الرَّجُلُ صاحِبَه ويُكرِمُه به. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٥/ ١٧٢).

قائمةٌ مَقامَ السُّؤالِ، كان كأنَّه قيل: ماذا تَطلُبُ على هذه البِشارةِ؟ فأُمِر بالجوابِ بقولِه[١]:

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك مِن قُرَيشٍ: لا أطلُبُ منكم جَزاءً وعِوَضًا تُعطونَني إيَّاه على تبليغي إيَّاكم القُرآنَ ورِسالةَ اللهِ، لَكِنِّي أطلُبُ منكم أنْ تَوَدُّوني في قَرابَتي مِنكم، وتَصِلوا الرَّحِمَ الَّتي بيْني وبيْنَكم، فتَكُفُّوا عنِّي أذاكم، وتَمْنَعوني مِن أذَى النَّاسِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٤، ٥٠١، ٥٠٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٢، ٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٩، ٧٠).

ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن القيم، وابن كثير، والقاسمي، وابن عاشور، والشنقيطي ونَسَبه إلى جُمهورِ المفَسِّرينَ، وأكثَرِ عُلَماءِ السَّلَفِ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وأبو مالكٍ، وعطاءُ بنُ دينارٍ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ، وغيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٩).

قيل: المُرادُ بذلك: طَلَبُ الإيمانِ به واتِّباعِه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١).

قال البِقاعي: (فإنَّكم إذا وصَلْتُم ما بيْني وبيْنَكم مِنَ الرَّحِمِ لم تُكَذِّبوني بالباطِلِ، ولم تَرُدُّوا ما جِئتُكم به مِن سَعادةِ الدَّارَينِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٩٦).

وقال الواحدي: (كأنَّه يقولُ: إذا لم تُؤمِنوا بي فاحفَظوا قَرابتي ولا تُؤْذُوني). ((الوجيز)) (ص: ٩٦٤).

وقال السعدي: (يحتمِلُ أنَّ المرادَ: لا أسألُكم عليه أجرًا إلَّا أجرًا واحِدًا هو لكم، وعائِدٌ نَفعُه إليكم، وهو أن تَوَدُّوني وتُحِبُّوني في القَرابةِ، أي: لأجْلِ القَرابةِ. ويكونُ على هذا المَوَدَّةَ الزَّائِدةَ على مودَّةِ الإيمانِ... ويحتمِلُ أنَّ المرادَ: إلَّا مَوَدَّةَ اللهِ تعالى الصَّادقةَ، وهي الَّتي يَصحَبُها =

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: (أنَّه سُئِلَ عن قَولِه: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، فقال سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ: قُرْبَى آلِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فقال ابنُ عبَّاسٍ: عَجِلْتَ؛ إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَكُنْ بَطنٌ مِن قُرَيشٍ إلَّا كان له فيهم قَرابةٌ، فقال: إلَّا أن تَصِلوا ما بيْني وبيْنَكم مِنَ القَرابةِ)(١).

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾.

أي: ومَن يَعمَلْ مِنَ المؤمِنينَ حسَنةً مِن الحسناتِ ويَكْتَسِبْها، فإنَّ اللهَ تعالى يَزيدُ له ثوابَ عمَلِه ويُضاعِفُه له(٢).

= التَّقَرُّبُ إلى الله، والتَّوسُّلُ بطاعتِه الدَّالَّةِ على صِحَّتِها وصِدْقِها؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: في التَّقَرُّبِ إلى الله. وعلى كِلا القَولَينِ فهذا الاستِثناءُ دَليلٌ على أنَّه لا يَسألُهم عليه أجرًا بالكُلِّيَّةِ إلَّا أن يكونَ شَيئًا يعودُ نَفعُه إليهم، فهذا ليس مِن الأجرِ في شَيءٍ، بل هو مِن الأجرِ منه لهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧، ٧٥٨).

(١) رواه البخاري (٤٨١٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (ابنُ عبَّاسٍ كان من كِبارِ أهلِ البَيتِ وأعلَمِهم بتفسيرِ القُرآنِ، وهذا تفسيرُه الثَّابتُ عنه... ويُبَيِّنُ ذلك أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَسألُ أجرًا أصلًا، إنَّما أجرُه على الله. وعلى المُسلمين مُوالاةُ أهلِ البيتِ، لكِنْ بأدِلَّةٍ أخرى غيرِ هذه الآيةِ، وليست مُوالاتُنا لأهلِ البَيتِ مِن أجرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في شَيءٍ. وأيضًا فإنَّ هذه الآيةَ مَكِّيَّةٌ، ولم يكُنْ عَلِيٌّ بعدُ قد تزوَّج بفاطِمةَ، ولا وُلِدَ له أولادٌ). ((منهاج السنة النبوية)) (٤/ ٢٦، ٢٧). ويُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٥٦٢، ٥٦٣).

وقال ابنُ كثير: (الحَقُّ تَفسيرُ الآيةِ بما فَسَّرَها به الإمامُ حَبْرُ الأمَّةِ وتَرجُمانُ القُرآنِ: عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ، كما رواه عنه البخاريُّ رحمه الله، ولا تُنكَرُ الوَصاةُ بأهلِ البَيتِ، والأمرُ بالإحسانِ إليهم، واحترامُهم وإكرامُهم؛ فإنَّهم مِن ذُرِّيَّةٍ طاهِرةٍ؛ مِن أشرَفِ بيتٍ وُجِدَ على وَجهِ الأرضِ؛ فَخرًا وحسَبًا ونَسَبًا، ولا سيَّما إذا كانوا مُتَّبِعينَ للسُّنَّةِ النَّبَويَّةِ الصَّحيحةِ الواضِحةِ الجَلِيَّةِ، كما كان عليه سَلَفُهم؛ كالعبَّاسِ وبَنِيه، وعليٍّ وأهلِ بَيتِه وذُرِّيَّتِه -رَضِيَ اللهُ عنهم أجمعينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٢). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بالِغُ المَغفِرةِ لِذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها وإنْ كَثُرتْ؛ شَكورٌ لحَسَناتِهم، فيَقبَلُها منهم، ويُضاعِفُها لهم وإن قَلَّتْ[1].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الكلامَ في أوَّلِ السُّورةِ إنَّما ابتُدِئَ في تقريرِ أنَّ هذا الكِتابَ إنَّما حَصَل بوَحي اللهِ سبحانه، وهو قَولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

= ومِمَّن ذهب إلى أنَّ معنى: ﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنٗاۚ﴾: نَزيدُه أجرًا وثوابًا لعمَلِه الصَّالحِ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال البِقاعي: (﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ﴾ أي: يَكسِبْ ويُخالِطْ، ويَعمَلْ بجِدٍّ واجتِهادٍ، وتعَمُّدٍ وعِلاجٍ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٩٨).

وقال السعدي: (﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنٗاۚ﴾ بأنْ يَشرَحَ اللهُ صَدْرَه، ويُيَسِّرَ أمْرَه، وتكونَ سَببًا للتَّوفيقِ لعمَلٍ آخَرَ، ويَزدادَ بها عَمَلُ المؤمِنِ، ويَرتَفِعَ عندَ الله وعندَ خَلْقِه، ويَحصُلَ له الثَّوابُ العاجِلُ والآجِلُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

[الشورى: ٣]، واتَّصل الكَلامُ في تقريرِ هذا المعنى، وتعَلَّق البَعضُ بالبَعضِ حتَّى وَصَل إلى هاهنا، ثمَّ حكى هاهنا شُبهةَ القَومِ، وهي قَولُهم: إنَّ هذا ليس وحيًا مِن الله تعالى، فقال[١].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

أي: أم يَقولُ المُشرِكونَ: اختَلَق مُحمَّدٌ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه دَعوى الوَحيِ والنُّبُوَّةِ؛ كَذِبًا منه على الله تعالى[٢]؟!

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

أي: إنِ افتَرَيتَ عليه كَذِبًا كما يَزعُمُ هؤلاء الجاهِلونَ -يا مُحمَّدُ- فإنَّ اللهَ قادِرٌ على أنْ يَطبَعَ على قَلْبِك، فيَسلُبَك ما آتاك مِنَ القُرآنِ؛ فإنَّ الله تعالى لا يُقِرُّه على افترائِه ولا يُمكِّنُه منه؛ فلولا أنَّ اللهَ أنزَلَه على قَلْبِه، ويَسَّرَه بلِسانِه، لَما أمكَنَه أنْ يأتيَهم بشَيءٍ منه[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٠).

قال ابن عطية: (أَمْ هذه ... مُنقطِعةٌ مُضمَّنةٌ إضرابًا عن كلامٍ مُتقدِّمٍ، وتقريرًا على هذه المقالةِ منهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٣)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ١٨٥ - ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٠-٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٠-٢١٢).

=

كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾.

أي: ويُذهِبُ اللهُ الباطِلَ ويُزيلُه[(١)].

= قال ابن عطية: (وقولُه تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ﴾ معناه في قولِ قَتادةَ وفِرقةٍ مِن المفسِّرينَ: يُنسيك القرآنَ، والمرادُ: الرَّدُّ على مَقالةِ الكفَّارِ وبيانُ إبطالِها، وذلك كأنَّه يقولُ: وكيف يَصِحُّ أن تكونَ مُفتريًا وأنت مِن الله بمَرْأًى ومَسمَعٍ، وهو قادرٌ لو شاء على أن يَختِمَ على قلبِك فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمر افتراؤُك؟! فمَقصدُ اللَّفظِ هذا المعنى، وحُذِف ما يدُلُّ عليه الظَّاهرُ اختصارًا واقتصارًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤).

وقال الشوكاني: (﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: لو افْتَرى على اللهِ الكذبَ لَشاءَ عدَمَ صُدورِه منه، وخَتَم على قلبِه بحيثُ لا يُخطِرُ بباله شيئًا مِمَّا كَذَب فيه كما تَزْعُمونَ. قالَ قَتادةُ: يَخْتِمْ على قلبِكَ فيُنْسِكَ القرآنَ، فأخْبَرهم أنَّه لو افْتَرى عليه لَفَعَل به ما أخْبَرهم به في هذه الآيةِ. وقال مُجاهِدٌ ومُقاتِلٌ: إنْ يَشأْ يَربِطْ على قلبِكَ بالصَّبرِ على أذاهم حتَّى لا يَدخُلَ قلبَكَ مَشَقَّةٌ مِن قولِهم. وقيلَ: الخِطابُ له، والمرادُ الكفَّارُ، أي: إنْ يَشَأْ يَخْتِمْ على قلوبِ الكفَّارِ، ويُعاجِلْهم بالعقوبةِ، ذَكَره القُشَيْرِيُّ. وقيل: المعنَى: لو حدَّثَتْكَ نفْسُكَ أنْ تَفتَريَ على اللهِ كَذِبًا لَطَبَع على قَلْبِك؛ فإنَّه لا يَجتَرِئُ على الكذبِ إلَّا مَن كانَ مطبوعًا على قلبِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٦، ٨٧).

قال الزمخشري: (ومِن عادةِ اللهِ أن يَمحوَ الباطِلَ ويُثَبِّتَ الحَقَّ بكَلِماتِه بوَحْيِه أو بقَضائِه، كقَولِه تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ [الأنبياء: ١٨]، يعني: لو كان مُفتَريًا كما تَزعُمونَ لَكَشَفَ اللهُ افتِراءَه ومَحَقَه، وقَذَف بالحَقِّ على باطِلِه فدَمَغَه! ويجوزُ أن يكونَ عِدَةً لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه يمحو الباطِلَ الَّذي هم عليه مِن البَهْتِ والتَّكذيبِ، ويُثَبِّتُ الحَقَّ الَّذي أنت عليه بالقُرآنِ وبقضائِه الَّذي لا مَرَدَّ له مِن نُصرتِك عليهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨).

كما قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾.

أي: ويُثبِّتُ اللهُ بكَلِماتِه الكَونيَّةِ والدِّينيَّةِ[١] الحقَّ على وَجهٍ لا يُمكِنُ معه زَوالُه[٢].

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ

---

(١) قِيلَ: المُرادُ بالكَلِماتِ: القُرآنُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٨).

وفسَّر السَّمعانيُّ الكلماتِ بالمعجزاتِ الَّتي يُظهِرُها، وفسَّرها ابنُ كثيرٍ بالحُجَجِ والبَراهينِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤).

وقيل: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ بوَحْيِه وقَضائِه. ومِمَّن اختاره: العُلَيمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦٧).

قال السعدي: (﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ الكونيَّة، الَّتي لا تُغَيَّرُ ولا تُبَدَّلُ، ووعْدِه الصَّادقِ، وكلماتِه الدِّينيَّةِ الَّتي تُحقِّقُ ما شرَعه مِن الحقِّ، وتُثبِّتُه في القلوبِ، وتُبصِّرُ أُولي الألبابِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

وقال ابن عاشور: (والباءُ في ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ للسَّبَبيَّةِ، والكَلِماتُ هي: كَلِماتُ القُرآنِ والوَحيِ، كقَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، أو المرادُ: كَلِماتُ التَّكوينِ المُتعَلِّقةُ بالإيجادِ على وَفْقِ عِلْمِه، كقَولِه تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٦، ٨٧).

نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُكِنُّه الضَّمائِرُ، وتَنطوي عليه السَّرائِرُ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، لا يَخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن ذلك(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ يُخبِرُ تعالى بلُطفِه بعِبادِه؛ لِيَعرِفوه ويُحِبُّوه، ويَتعَرَّضوا لِلُطفِه وكَرَمِه(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

قال ابن جرير: (يقولُ لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: لو حَدَّثْتَ نَفْسَك أنْ تَفتَرِيَ عليَّ كذبًا، لَطَبَعْتُ على قلبِكَ، وأذهَبْتُ الَّذي آتَيْتُكَ مِن وحْيِي؛ لِأنِّي أمحُو الباطلَ فأُذْهِبُه، وأُحِقُّ الحقَّ. وإنَّما هذا إخبارٌ مِن اللهِ الكافرينَ به، الزَّاعِمينَ أنَّ مُحمَّدًا افترَى هذا القرآنَ مِن قِبَلِ نفْسِه، فأخبَرَهم أنَّه لو فَعَل ذلك لَفَعَل به ما أُخْبِر في هذه الآيةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٥).

وقال البِقاعي: (ولَمَّا كانوا يَعلَمونَ أنَّه على حَقٍّ وهم على باطِلٍ، وكان مَن أحاط عِلمُه بشَيءٍ قَدَرَ على ما يُريدُه مِن ذلك الشَّيءِ؛ بيَّنَ ذلك بقَولِه مُعَلِّلًا على وَجهِ التَّأكيدِ؛ لِأنَّ عَمَلَهم عَمَلُ مَن يَظُنُّ أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ مَكْرَهم: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: ما هو فيها مِمَّا يَعلَمُه صاحِبُه ومِمَّا لا يَعلَمُه، فيُبطِلُ باطِلَه ويُثَبِّتُ حَقَّه وإنْ كَرِهَ الخلائِقُ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

عنهما قال: (مَن يُؤثِرُ دُنياه على آخِرتِه لم يُجعَلْ له نَصيبٌ في الآخرةِ إلَّا النَّارُ، ولم يَزْدَدْ بذلك مِنَ الدُّنيا شَيئًا إلَّا رِزقًا قد فُرِغَ منه، وقُسِمَ له)[١]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ حَثٌّ على أنْ يُريدَ الإنسانُ بعَمَلِه الآخرةَ[٢].

٤- الإشارةُ إلى أنَّ الأعمالَ بالنِّيَّاتِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ﴾، ففيه إشارةٌ إلى حُسنِ النِّيَّةِ، وأنَّ الإنسانَ يجبُ عليه إحسانُ النِّيَّةِ[٣].

٥- قَولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن إرادةِ الدُّنيا فقط[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: لِكُلِّ ذَنْبٍ تابَ منه صاحِبُه، أو كان يَقبَلُ الغُفرانَ وإنْ لم يَتُبْ منه، إنْ شاء؛ فلا يَصُدَّنَّ أحَدًا سَيِّئةٌ عَمِلَها عن الإقبالِ على الحَسَنةِ[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ بأنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بما في قَلبِه فإنَّه سوف يُمسِكُ عن كلِّ إرادةٍ سَيِّئةٍ، ويُقدِمُ على كلِّ إرادةٍ حَسَنةٍ[٦].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أنَّ الطَّبعَ على القَلبِ عُقوبةٌ، سواءٌ كان

---

(١) أخرجه ابن المنذر كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٧).

طَبعًا على العِلمِ، أو طَبعًا على القَصدِ والإرادةِ؛ فإنَّه عُقوبةٌ بلا شَكٍّ؛ ولهذا كان مِن دُعاءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا مُقَلِّبَ القلوبِ، ثبِّتْ قلبي على دينِك))[١]، ((اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلوبِ، صَرِّفْ قُلوبَنا على طاعتِك))[٢]؛ فالإنسانُ يَجِبُ ألَّا يَعتمِدَ على ما في قَلبِه مِن اليَقينِ؛ فإنَّ هذا رُبَّما يَزولُ، بل عليه أنْ يَسألَ اللهَ دائمًا التَّثبيتَ؛ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أنَّه يجبُ على العبدِ أنْ يُصَحِّحَ ما في قَلبِه؛ لأنَّ المدارَ عليه؛ قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾[٤] [العاديات: ٩، ١٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنْ قِيل: دلَّ قولُه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أنَّ بِرَّه تَوصَّلَ إلى جَميعِ العِبادِ، وقولُه: ﴿يَرۡزُقُ﴾ حُكمٌ تَرتَّبَ على ذلك الوصفِ؛ فيَنْبغي الشُّمولُ أيضًا، وقولُه: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ يُنافِيه. **والجوابُ**: إنَّما خَصَّ الرِّزقَ -والكلُّ مَرزوقونَ-؛ لأنَّه قد يَختَصُّ أحدٌ بنِعمةٍ، وغيرُه بأُخرى؛ فالعُمومُ لِجِنسِ البِرِّ، والخُصوصُ لِنَوعِه[٥].

---

(١) أخرجه مِن طُرُقٍ التِّرمذيُّ (٢١٤٠)، وأحمد (١٢١٠٧) واللَّفظُ لهما، وابن ماجه (٣٨٣٤) من حديثِ أنَسِ بن مالكٍ رَضِيَ الله عنه.
حَسَّنه الترمذي، وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢١٤٠)، وقوَّى إسنادَه على شَرطِ مُسلمٍ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٩/ ١٦٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٧).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٨، ٣٩).
قال القرطبي: (في تفضيلِ قَومٍ بالمالِ حِكمةٌ؛ لِيَحتاجُ البَعضُ إلى البَعضِ، كما قال تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا سُخۡرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فكان هذا لُطفًا بالعبادِ، وأيضًا لِيُمتَحَنَ =

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ أنَّ النِّيَّةَ يُعَبَّرُ عنها بلَفظِ الإرادةِ في القُرآنِ كثيرًا[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ ﴾ إثباتُ كَرَمِ اللهِ، وأنَّه عزَّ وجلَّ أكرَمُ مِن عَبدِه؛ يَعمَلُ العبدُ قليلًا ويُثابُ كثيرًا[(٢)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ أظهَرَ اللهُ تعالى الفَرقَ في هذه الآيةِ بيْنَ مَن أراد الآخِرةَ وبيْنَ مَن أراد الدُّنيا؛ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّه قَدَّم مُريدَ حَرثِ الآخرةِ في الذِّكرِ على مُريدِ حَرثِ الدُّنيا، وذلك يدُلُّ على التَّفضيلِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه قال في مُريدِ حَرثِ الآخِرةِ: ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ﴾، وقال في مُريدِ حَرثِ الدُّنيا: ﴿نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾، وكَلِمةُ (مِن) للتَّبعيضِ، فالمعنى: أنَّه يُعطيه بعضَ ما يَطلُبُه، ولا يُؤتيه كُلَّه، وقال في سورةِ (الإسراءِ): ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء: ١٨].

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّه تعالى قال في طالِبِ حَرثِ الآخِرةِ: ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ﴾، ولم يَذكُرْ أنَّه تعالى يُعطيه الدُّنيا أمْ لا، وأمَّا طالِبُ حَرثِ الدُّنيا فإنَّه تعالى بيَّن أنَّه لا يُعطيه شيئًا مِن نَصيبِ الآخِرةِ على التَّنصيصِ، وهذا يدُلُّ على التَّفاوُتِ العَظيمِ، كأنَّه يقولُ: الآخِرةُ أصلٌ والدُّنيا تَبَعٌ، فواجِدُ الأصلِ يكونُ واجِدًا للتَّبَعِ

= الغِنيُّ بالفقيرِ، والفَقيرُ بالغَنيِّ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَ ﴾ [الفرقان: ٢٠]). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧، ١٨).

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٠٠).

بقَدْرِ الحاجةِ، إلَّا أنَّه لم يَذكُرْ ذلك؛ تنبيهًا على أنَّ الدُّنيا أخَسُّ مِن أن يُقرَنَ ذِكرُها بذِكرِ الآخِرةِ.

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّه تعالى بَيَّنَ أنَّ طالِبَ الآخرةِ يُزادُ في مَطلوبِه، وبيَّن أنَّ طالِبَ الدُّنيا يُعطَى بعضَ مَطلوبِه مِنَ الدُّنيا، وأمَّا في الآخِرةِ فإنَّه لا يَحصُلُ له نَصيبٌ البتَّةَ؛ فبَيَّنَ بالكَلامِ الأوَّلِ أنَّ طالِبَ الآخِرةِ يكونُ حالُه أبدًا في التَّرَقِّي والتَّزايُدِ، وبيَّن بالكَلامِ الثَّاني أنَّ طالِبَ الدُّنيا يكونُ حالُه في المقامِ الأوَّلِ في النُّقصانِ، وفي المقامِ الثَّاني في البُطلانِ التَّامِّ.

الوَجهُ الخامِسُ: أنَّ الآخِرةَ نَسيئةٌ والدُّنيا نَقدٌ، والنَّسيئةُ مَرجوحةٌ بالنِّسبةِ إلى النَّقدِ؛ لأنَّ النَّاسَ يقولونَ: النَّقدُ خَيرٌ مِن النَّسيئةِ؛ فبَيَّن تعالى أنَّ هذه القضيَّةَ انعكَسَت بالنِّسبةِ إلى أحوالِ الآخِرةِ والدُّنيا؛ فالآخِرةُ وإن كانت نَسيئةً فإنَّها مُتوَجِّهةٌ للزِّيادةِ والدَّوامِ؛ فكانت أفضَلَ وأكمَلَ، والدُّنيا وإن كانت نقدًا فإنَّها مُتوَجِّهةٌ إلى النُّقصانِ، ثمَّ إلى البُطلانِ؛ فكانت أخَسَّ وأرذَلَ، فهذا يدُلُّ على أنَّ حالَ الآخرةِ لا يُناسِبُ حالَ الدُّنيا البتَّةَ، وأنَّه ليس في الدُّنيا مِن أحوالِ الآخِرةِ إلَّا مجرَّدُ الاسمِ.

الوَجهُ السَّادِسُ: الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ منافِعَ الآخِرةِ والدُّنيا ليست حاضِرةً، بل لا بُدَّ في البابَينِ مِنَ الحَرثِ، والحَرثُ لا يَتأتَّى إلَّا بتحَمُّلِ المَشاقِّ في البَذرِ، ثمَّ التَّسقيةِ والتَّنميةِ والحَصدِ، ثمَّ التَّنقيةِ، فلمَّا سَمَّى اللهُ كِلا القِسمَينِ حَرثًا عَلِمْنا أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما لا يَحصُلُ إلَّا بتحَمُّلِ المتاعِبِ والمَشاقِّ، ثمَّ بيَّن تعالى أنَّ مصيرَ الآخرةِ إلى الزِّيادةِ والكَمالِ، وأنَّ مصيرَ الدُّنيا إلى النُّقصانِ ثمَّ الفَناءِ؛ فكأنَّه قيل: إذا كان لا بُدَّ في القِسمَينِ جميعًا مِن تحمُّلِ مَتاعِبِ الحِراثةِ والتَّسقيةِ والتَّنميةِ، والحَصدِ والتَّنقيةِ، فلَأنْ تُصرَفَ هذه المتاعِبُ إلى ما يكونُ في التَّزايُدِ والبقاءِ

أَولى مِن صَرفِها إلى ما يكونُ في النُّقصان والانقِضاءِ والفَناءِ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا سَعَى للآخرةِ حَصَّل الدُّنيا والآخرةَ، وإذا سَعَى للدُّنيا فقط فاتَتْه الدُّنيا والآخِرةُ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ أنَّ النَّاويَ للفِعلِ، الجازِمَ، الآتيَ بما يُمكِنُ: فإنَّه بمَنزلةِ الفاعلِ التَّامِّ؛ يُوَضِّحُ هذا أنَّ اللهَ سُبحانَه في القرآنِ رَتَّبَ الثَّوابَ والعِقابَ على مُجرَّدِ الإرادةِ[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿يُرِيدُ﴾ فيه الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ؛ لأنَّ الجَبْريَّةَ يقولونَ: إنَّ الإنسانَ لا إرادةَ له[٤]!

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ لا يَتوهَّمَنَّ مُتوهِّمٌ أنَّ هذه الآيةَ ونحوَها تَحجُرُ تَناوُلَ المسلمِ حُظوظَ الدُّنيا إذا أدَّى حقَّ الإيمانِ والتَّكليفِ، ولا أنَّها تَصُدُّ عن خَلْطِ الحُظوظِ الدُّنيويَّةِ مع حُظوظِ الآخرةِ إذا وقَعَ الإيفاءُ بكِلَيْهما، ولا أنَّ الخلطَ بيْن الحظَّينِ يُنافي الإخلاصَ؛ كطلَبِ التَّبرُّدِ مع الوضوءِ، وطلَبِ الصِّحَّةِ مع التَّطوُّعِ بالصَّومِ، إذا كان المَقصَدُ الأصليُّ الإيفاءَ بالحقِّ الدِّينيِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩١، ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٥).

٩- قَولُه تعالى: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ فيه أنَّ مَن أراد حَرْثَ الدُّنيا فإنَّه لا يُعطى كلَّ ما أراد؛ ومَن أراد حَرْثَ الآخرةِ يُعطى كلَّ مُرادِه وزيادةً(١).

١٠- قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ مَن كانت الدُّنيا مُرادَه، ولها يَعمَلُ في غايةِ سَعْيِه، لم يكُنْ له في الآخِرةِ نَصيبٌ؛ ومَن كانت الآخِرةُ مُرادَه، ولها يعمَلُ، وهي غايةُ سَعْيِه، فهي له. بَقِيَ أنْ يُقالُ: فما حُكمُ مَن يريدُ الدُّنيا والآخِرةَ؛ فإنَّه داخِلٌ تحت حُكم الإرادتَين فبأيِّهما يَلحَقُ؟ قيل: مِن هاهنا نشَأ الإشكالُ، وظَنَّ مَن ظَنَّ مِن المفَسِّرينَ أنَّ الآيةَ في حَقِّ الكافِرِ؛ فإنَّه هو الَّذي يُريدُ الدُّنيا دونَ الآخِرةِ، وهذا غيرُ لازمٍ طَردًا ولا عَكسًا؛ فإنَّ بَعضَ الكُفَّارِ قد يريدُ الآخِرةَ، وبَعضَ المُسلِمينَ قد لا يكونُ مرادُه إلَّا الدُّنيا، واللهُ تعالى قد عَلَّق السَّعادةَ بإرادةِ الآخِرةِ، والشَّقاوةَ بإرادةِ الدُّنيا، فإذا تجَرَّدت الإرادتانِ تجَرَّد مُوجَبُهما ومُقتَضاهما، وإن اجتمَعَتا فحُكمُ اجتِماعِهما حُكمُ اجتِماعِ البِرِّ والفُجورِ، والطَّاعةِ والمعصيةِ، والإيمانِ والشِّركِ: في العَبدِ، وقد قال تعالى لخَيرِ الخَلقِ بعدَ الرُّسُلِ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وهذا خِطابٌ للَّذين شَهِدوا معه الوَقعةَ، ولم يكُنْ فيهم مُنافِقٌ، والَّذين أُريدوا في هذه الآيةِ هم الَّذين أخْلَوا مَركزَهم الَّذي أمَرَهم رَسولُ الله بحِفظِه، وهم مِن خيارِ المُسلِمينَ، ولكِنَّ هذه إرادةٌ عارِضةٌ حمَلَتْهم على تَرْكِ المركزِ، والإقبالِ على كَسْبِ الغنائِمِ، بخِلافِ مَن كان مُرادُه بعَمَلِه الدُّنيا وعاجِلَها؛ فهذه الإرادةُ لونٌ، وإرادةُ هؤلاء لونٌ(٢).

ويُنظر أيضًا: ((الفروق)) للقرافي (٣/ ٢٢، ٢٣)، ((الموافقات)) للشاطبي (٢/ ٣٦٢-٣٧٣)، ((مقاصد المكلفين فيما يتعبد به لرب العالمين)) لعمر بن سليمان الأشقر (ص: ٤٥٠-٤٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٦٦).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فيه أنَّ الأصلَ الحَجْرُ على كُلِّ أحَدٍ أن يَشرَعَ شَيئًا لم يأتِ عن اللهِ وعن رَسولِهِ[١].

١٢- بابُ العِباداتِ والدِّياناتِ والتَّقَرُّباتِ مُتَلقَّاةٌ عنِ اللهِ ورَسولِه؛ فليس لأحَدٍ أنْ يَجعَلَ شَيئًا عِبادةً أو قُربَةً إلَّا بدَليلٍ شَرعيٍّ؛ قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[٢]، فالعباداتُ مبناها على التَّوقيفِ والاتِّباعِ؛ لا على الهوَى والابتِداعِ[٣]، فمَن تَرَكَ شَرْعَ الأنبياءِ وابتدعَ شرعًا، فشَرْعُه باطِلٌ لا يَجوزُ اتِّباعُه؛ ولهذا كَفَرَتِ اليَهودُ والنَّصارى؛ لأنَّهم تَمَسَّكوا بشَرعٍ مَنسوخٍ، واللهُ أوجَب على جميعِ الخلْقِ أنْ يُؤمِنوا بجميعِ كتبِه ورسلِه، ومحمَّدٌ خاتمُ الرُّسلِ؛ فعلى جميعِ الخلْقِ اتِّباعُه، واتِّباعُ ما شرَعه مِن الدِّينِ هو ما أتَى به مِن الكتابِ والسُّنَّةِ[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أنَّ مَن أطاع الزُّعَماءَ والكِبارَ في تحريمِ شَيءٍ أحَلَّه اللهُ أو تَحليلِ شَيءٍ حَرَّمَه اللهُ أو إيجابِ شَيءٍ لم يُوجِبْه اللهُ؛ فإنَّه قد اتَّخَذَهم شُرَكاءَ، ويَترتَّبُ على هذه الفائدةِ: أنَّ مُتَّبِعي دُعاةِ البِدَعِ قد اتَّخَذوهم شُرَكاءَ[٥]، فالرَّسولُ وَجَبَت طاعتُه؛ لأنَّه مَن يُطِعِ الرَّسولَ فقد أطاع اللهَ، فالحَلالُ ما حَلَّلَه، والحَرامُ ما حَرَّمه، والدِّينُ ما شَرَعَه، ومَن سِوى الرَّسولِ مِنَ العُلماءِ والمشايخِ والأُمَراءِ والمُلوكِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣١/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية- المجموعة السابعة)) (ص: ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٠٤).

إنَّما تَجِبُ طاعتُهم إذا كانت طاعتُهم طاعةً لله[١].

١٤- قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فمَن نَدَبَ إلى شَيءٍ يُتقرَّبُ به إلى الله، أو أوجَبَه بقَولِه أو بفِعلِه مِن غيرِ أن يُشَرِّعَه اللهُ؛ فقد شَرَعَ مِنَ الدِّينِ ما لم يأذَنْ به اللهُ، ومَن اتَّبَعَه في ذلك فقد اتَّخَذه شريكًا لله شَرَعَ له مِنَ الدِّينِ ما لم يأذَنْ به اللهُ! نعم: قد يكونُ مُتأوِّلًا في هذا الشَّرعِ فيُغفَرُ له؛ مِن أجْلِ تأويلِه إذا كان مُجتَهِدًا الاجتِهادَ الَّذي يُعفَى فيه عن المُخطِئِ، ويُثابُ أيضًا على اجتهادِه، لكِنْ لا يجوزُ اتِّباعُه في ذلك، كما لا يجوزُ اتِّباعُ سائرِ مَن قال أو عَمِلَ قَولًا أو عمَلًا قد عُلِمَ الصَّوابُ في خِلافِه، وإن كان القائِلُ أو الفاعِلُ مأجورًا أو معذورًا، وقد قال سُبحانَه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. فمَنْ أطاع أحدًا في دينٍ لم يأذَنْ به اللهُ مِن تحليلٍ أو تحريمٍ، أو استِحبابٍ أو إيجابٍ؛ فقد لَحِقَه مِن هذا الذَّمِّ نَصيبٌ، كما يَلحَقُ الآمِرَ النَّاهِيَ أيضًا نَصيبٌ، ثمَّ قد يكونُ كلٌّ منهما معفُوًّا عنه لاجتِهادِه، ومُثابًا أيضًا على الاجتهادِ، فيَتخَلَّفُ عنه الذَّمُّ؛ لِفَواتِ شَرطِه أو لوُجودِ مانِعِه، وإن كان المُقتَضي له قائِمًا، ويَلحَقُ الذَّمُّ مَن تبيَّن له الحَقُّ فتَرَكه، أو مَن قَصَّر في طَلَبِه حتَّى لم يَتبيَّنْ له، أو أعرَضَ عن طلَبِ مَعرفتِه لِهوًى، أو لكَسَلٍ، أو نحوِ ذلك[٢].

١٥- قَولُه تعالى: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ فيه أنَّ ما سِوى الأُمورِ الدِّينيَّةِ فإنَّه خاضِعٌ للأحوالِ العاديَّةِ؛ وعلى هذا لو شَرَعوا قوانينَ ونُظُمًا لا عَلاقةَ لها بالدِّينِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٨٤، ٨٥).

فإنَّ ذلك جائزٌ، ولا تُعَدُّ مُوافَقةُ هذه النُّظُمِ شِركًا، فكيف إذا كانت هذه النُّظُمُ تُؤَيَّدُ بالقَواعدِ العامَّةِ، وهي: «جَلْبُ المصالحِ، ودَفْعُ المفاسِدِ»[١]؟!

١٦- أنَّ الأُمورَ المشروعةَ الَّتي يَفعلُها الإنسانُ تَدَيُّنًا لا بُدَّ أنْ يكونَ فيها إذنٌ مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى أنكَرَ على هؤلاء الَّذين اتَّخَذوا شُرَكاءَ ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾، وهذا بمعنى قولِنا: «الأصلُ في العباداتِ الحَظرُ والمَنعُ إلَّا إذا قام دَليلٌ على مَشروعيَّتِها»؛ وعليه فمَن تَعَبَّدَ بعبادةٍ غيرِ معروفةٍ يُنكَرُ عليه حتَّى يأتيَ بدَليلٍ؛ لأنَّ الدِّينَ مُتَلَقًّى مِن عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

١٧- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ فيه أنَّ ما قضاه اللهُ أزَلًا في الماضي لا يَتغيَّرُ[٣].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ؛ فالكَلِمةُ هي السَّبَبُ بتأخيرِ العَذابِ، وإثباتُ الأسبابِ أمرٌ لا يُنكِرُه إلَّا الجاحِدُ[٤].

١٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ كلَّ الأشياءِ حاضرةٌ عندَه مُهيَّأةٌ[٥].

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ جملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ في محَلِّ نَصبٍ حالٌ من ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: تَرَى الظَّالِمينَ فِي إشفاقٍ في حالِ أنَّ الَّذينَ آمَنوا يَطْمئِنُّونَ في رَوْضاتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٣).

الجنَّاتِ، وفي هذه الحالِ دَلالةٌ على أنَّ الَّذين آمَنوا قد استقَرُّوا في الرَّوضاتِ مِن قَبلِ عَرْضِ الظَّالِمينَ على الحِسابِ، وإشفاقِهم مِن تَبِعاتِه، وهذا مِن تَضادِّ شَأْنَيِ الفريقَينِ في الآخِرةِ، على عكْسِه بما كانوا عليه في الدُّنيا المتقدِّمِ في قولِه: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨]، أي: فاليومَ انقلَبَ إشفاقُ المؤمنينَ اطمِئنانًا، واطمئنانُ المشرِكينَ إشفاقًا، وشتَّانَ بيْنَ الاطمِئنانَينِ والإشفاقَينِ، وبهذه المُضادَّةِ في الحالتينِ وأسبابِهما صحَّ اعتبارُ كَينونةِ الَّذين آمَنوا في الجنَّةِ حالًا مِن الظالِمينَ[(١)].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ دَليلٌ على أنَّ في سَجايا البَشَرِ نُفورًا عن مَوعظةِ مَن أخَذَ الدِّينارَ والدِّرهمَ، وأنَّ التَّعَفُّفَ عنهما كان مَرموقًا في الجاهليَّةِ الجَهْلاءِ بعَينِ المَدحِ[(٢)].

٢٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فيه سُؤالٌ: الرُّسُلُ عليهم الصَّلواتُ والسَّلامُ لا يأخُذونَ أجرًا على التَّبليغِ، وهناك آياتٌ دالَّةٌ على ذلك، فما وجهُ الجَمعِ بيْنَ تلك الآياتِ وآيةِ سُورةِ (الشُّورى) هذه؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: على القَولِ بأنَّ معنى الآيةِ: إلَّا أن تَوَدُّوني في قَرابتي الَّتي بيْني وبيْنَكم، فتَكُفُّوا عنِّي أذاكم، وتمنَعوني مِن أذى النَّاسِ، كما تَمنَعونَ كُلَّ مَن بيْنَكم وبيْنَه مِثلُ قَرابتي منكم، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له في كُلِّ بَطنٍ مِن قُرَيشٍ رَحِمٌ؛ فهذا الَّذي سألهم ليس بأجرٍ على التَّبليغِ؛ لأنَّه مَبذولٌ لكُلِّ أحَدٍ؛ لأنَّ كُلَّ أحَدٍ يَوَدُّه أهلُ قَرابتِه، ويَنتَصِرونَ له مِن أذى النَّاسِ، وقد فَعَل له ذلك أبو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٩٨).

طالبٍ، ولم يكُنْ يَسألُ أجرًا على التَّبليغِ؛ لأنَّه لم يُؤمِنْ، وإذا كان لا يَسألُ أجرًا إلَّا هذا الَّذي ليس بأجرٍ؛ تحَقَّق أنَّه لا يَسألُ أجرًا.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ معنى الآيةِ ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: لا تُؤذُوا قَرابتي وعِتْرتي[1]، واحفَظوني فيهم، وعليه فلا إشكالَ؛ لأنَّ المَوَدَّةَ بيْنَ المُسلِمينَ واجِبةٌ فيما بيْنَهم، وأحرى قرابةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والأحاديثُ في مِثلِ هذا كثيرةٌ جِدًّا، وإذا كان نَفْسُ الدِّينِ يُوجِبُ هذا بيْنَ المسلِمينَ تَبيَّن أنَّه غيرُ عِوَضٍ عن التَّبليغ.

وقيل: الاستِثناءُ مُنقَطِعٌ على كِلا القَولَينِ[2]، وعليه فلا إشكالَ، فمعناه على القَولِ الأوَّلِ: لا أسألُكم عليه أجرًا لكِنْ أُذَكِّرُكم قَرابتي فيكم. وعلى الثَّاني: لكِنْ أُذَكِّرُكم اللهَ في قَرابتي؛ فاحفَظوني فيهم.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ معنى ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلَّا أن تَتَودَّدوا إلى اللهِ، وتَتقَرَّبوا إليه بالطَّاعةِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وعليه فلا إشكالَ؛ لأنَّ التَّقَرُّبَ إلى اللهِ ليس أجرًا على التَّبليغِ.

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّ معنى ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلَّا أن تَتَودَّدوا إلى قراباتِكم، وتَصِلوا أرحامَكم، وعليه أيضًا فلا إشكالَ؛ لأنَّ صِلةَ الإنسانِ رَحِمَه ليست أجرًا على التَّبليغِ[3].

---

(١) العِتْرَةُ: نَسْلُ الإنسانِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٩١).

(٢) قال ابن عاشور: (الاستثناءُ مُنقطِعٌ؛ لأنَّ المودَّةَ لأجْلِ القَرابةِ ليسَت مِن الجزاءِ على تبليغِ الدَّعوةِ بالقرآنِ، ولكِنَّها مِمَّا تَقتَضيه المروءةُ؛ فليسَ استِثناؤُها مِن عُمومِ الأجرِ المنفيِّ استِثناءً حقيقيًّا. والمعنى: لا أسألُكم على التَّبليغِ أجرًا، وأسألُكم المودَّةَ لأجْلِ القُربى، وإنَّما سألهم المودَّةَ؛ لأنَّ مُعامَلتَهم إيَّاه مُعامَلةَ المودَّةِ مُعينةٌ على نَشرِ دَعوةِ الإسلامِ؛ إذْ تَلينُ بتلك المعامَلةِ شَكيمتُهم، فيَترُكونَ مُقاوَمتَه، فيَتمكَّنُ مِن تَبليغِ دَعوةِ الإسلامِ على وَجهٍ أكمَلَ؛ فصارت هذه المودَّةُ غرَضًا دينيًّا لا نَفْعَ فيه لِنَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٩-٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٤).

٢٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ فيه وُجوبُ محبَّةِ قرابتِه صلَّى الله عليه وسلَّم -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ- فمَحَبَّتُه أَولى[١].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ أنَّ المُتنبِّئينَ الكَذَّابينَ لا يُطيلُ اللهُ تَمكينَهم، بل لا بُدَّ أن يُهلِكَهم؛ لأنَّ فَسادَهم عامٌّ في الدِّينِ والدُّنيا والآخِرةِ[٢].

٢٥- أنَّ اللهَ سُبحانَه لا يُخْلي الصَّادِقَ ممَّا يدُلُّ على صِدقِه، ولا يُخْلي الكاذِبَ ممَّا يدُلُّ على كَذِبِه؛ إذْ مِن نَعتِه ما أخبَرَ به في قَولِه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، ثمَّ قال خبرًا مُبتَدَأً: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾؛ فهو سُبحانَه لا بُدَّ أن يَمحَقَ الباطِلَ، ويُحِقَّ الحَقَّ بكَلِماتِه[٣].

٢٦- قَولُه تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم مَربوبٌ للهِ، يَفعَلُ به ما شاء[٤].

٢٧- قَولُه تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ فلا يُمَكِّنْك مِن الباطِلِ: فيه أنَّه لا يُمكِنُ أن يُمَكِّنَ اللهُ تبارك وتعالى لأحَدٍ كافرٍ تَمكينًا مُطلَقًا؛ وقَولُنا: «التَّمكينُ المُطلَقُ» خَرَجَ به تَمكينُ اللهِ تعالى للكافرِ على وَجهٍ لا يَستَقِرُّ، كما حَصَلَ في غَزوةِ أُحُدٍ؛ فإنَّ المُشرِكينَ هَزموا المُسلِمينَ، لكِنَّه ليس هَزْمًا مُستَقِرًّا، بل هو مِن حِكمةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ أنْ يُمَكِّنَ للكُفَّارِ حتَّى يَتشَجَّعوا على حَربِ المُسلِمينَ، ثمَّ يَقضيَ المُسلِمونَ عليهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٥).

٢٨- قَولُه تعالى: ﴿يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ فيه أنَّ القَلبَ مَحَلُّ الإدراكِ والعَقلِ والتَّصَرُّفِ؛ فدلَّ هذا على أنَّ مَدارَ التَّصَرُّفِ كُلِّه على القَلبِ(١).

٢٩- قولُه تعالى: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى لا يُقِرُّ على باطلٍ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ فائدةٌ عظيمةٌ؛ وهي: «ما فُعِل في عهدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ولم يُعْلَمْ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم اطَّلَعَ عليه؛ فإنَّنا نَحْكُمُ بجوازِه»؛ لأنَّ اللهَ اطَّلَع عليه وسَكَت عنه، لأنَّ اللهَ تعالى لا يُقِرُّ على باطلٍ؛ والوحيُ ما زال ينزِلُ، ولهذا يُخْطِئُ بعضُ العلماءِ رحمهم اللهُ إذا استُدِلَّ بما وَقَع في عهدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيَقولون: إنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يَعْلَمْ! فنقولُ: هَبْ أنَّه لم يَعْلَمْ؛ فإنَّ اللهَ قد عَلِم(٢).

٣٠- قَولُه تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ فيه إثباتُ الكَلِماتِ للهِ تعالى، واللهُ سُبحانَه وتعالى مُتَكَلِّمٌ بكَلامٍ حَقيقيٍّ؛ بحُروفٍ وأصواتٍ مَسموعةٍ، ومُحاوَرةٍ بيْنَه وبيْنَ مَن شاء مِن خَلْقِه، وهذا مَذهَبُ السَّلَفِ الصَّالحِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ هذه الجُملةُ تَوطئةٌ لِجُملةِ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠]؛ لأنَّ ما سيُذكَرُ في الجُملةِ الآتيةِ هو أثَرٌ مِن آثارِ لُطفِ اللهِ سبحانه بعِبادِه ورِفقِه بهم، وما يَسَّرَ مِن الرِّزقِ للمؤمنينَ منهم والكفَّارِ في الدُّنيا، ثمَّ ما خَصَّ به المؤمنينَ مِن رِزقِ الآخرةِ؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، مُقدِّمةٌ لاستِئنافِ الجُملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٦).

الموطَّأ لها، وهي جُملةُ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ ﴾[1] [الشورى: ٢٠].

- وعُطِفَ ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ على صِفةِ ﴿لَطِيفٌۢ﴾، أو على جُملةِ ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾، وهو تَمجيدٌ للهِ تعالى بهاتَينِ الصِّفتينِ، ويُفيدُ الاحتراسَ مِن تَوهُّمِ أنَّ لُطفَه عن عجْزٍ أو مُصانَعةٍ؛ فإنَّه قويٌّ عَزيزٌ لا يَعجِزُ ولا يُصانِعُ، أو عن تَوهُّمِ أنَّ رِزقَه لِمَن يَشاءُ عن شُحٍّ أو قلَّةٍ؛ فإنَّه القويُّ، والقويُّ تَنتفي عنه أسبابُ الشُّحِّ، والعزيزُ يَنْتفي عنه سَببُ الفقرِ، فرِزقُه لِمَن يَشاءُ بما يَشاءُ مَنوطٌ بحِكمةٍ عَلِمَها في أحوالِ خلْقِه عامَّةً وخاصَّةً؛ قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُ ﴾ الآيةَ[2] [الشورى: ٢٧].

- والإخبارُ عن اسمِ الجلالةِ بالمسنَدِ المعرَّفِ باللَّامِ ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ يُفيدُ معنى قصْرِ القوَّةِ والعِزَّةِ عليه تعالى، وهو قصْرُ الجِنسِ للمُبالَغةِ؛ لِكَمالِه فيه تعالى، حتَّى كأنَّ قوَّةَ غيرِه وعِزَّةَ غيرِه عَدَمٌ[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ الفَرْقِ بيْن عمَلَي العامِلَينِ؛ بأنَّ مَن عَمِل للآخرةِ وُفِّق في عَملِه، وضُوعِفتْ حَسناتُه، ومَن كان عَملُه للدُّنيا أُعطِيَ شيئًا منها، لا ما يُريدُه ويَطمَحُ إليه، ولم يكُنْ له نَصيبٌ في الآخرةِ[4].

- وهذه الآيةُ مُتَّصِلةٌ بقولِه: ﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧).

ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ الآيةَ [الشورى: ١٨]؛ لِما تَضمَّنتْه مِن وُجودِ فَريقين: فريقِ المؤمنينَ أكبرُ همِّهم حَياةُ الآخرةِ، وفَريقِ الَّذين لا يُؤمِنونَ هِممُهم قاصِرةٌ على حياةِ الدُّنيا؛ فجاء في هذه الآيةِ تَفصيلُ مُعامَلةِ اللهِ الفَريقَينِ مُعامَلةً مُتفاوِتةً، مع استوائِهم في كَونِهم عَبيدَه، وكَونِهم بمَحَلِّ لُطفٍ منه؛ فكانتْ جُملةُ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩] تَمْهيدًا لهذه الجُملةِ، وكانتْ هاتِه الجُملةُ تَفصيلًا لِحُظوظِ الفَريقينِ في شأْنِ الإيمانِ بالآخِرةِ وعَدمِ الإيمانِ بها، ومِن أجْلِ هذا الاتِّصالِ بيْنَها وبيْن جُملةِ ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] تُرِك عطْفُها عليها، وتُرِك عطْفُ تَوطئتِها كذلك، ومِن أجْلِ الاتِّصالِ بيْنَها وبيْن جُملةِ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩] اتِّصالَ المقصودِ بالتَّوطئةِ تُرِك عطْفُها على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾[(١)].

- والحرْثُ في هذه الآيةِ تمثيلٌ للإقبالِ على كسبِ ما يَعُدُّه الكاسبُ نفْعًا له يَرْجو منه فائدةً وافرةً -بإقبالِ الفلَّاحِ على شَقِّ الأرضِ وزَرْعِها؛ لِيَحصُلَ له سنابلُ كثيرةٌ، وثمارٌ مِن شَجَرِ الحرْثِ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ لم يُذكَرْ في معنى عامِلِ الآخِرةِ (وله في الدُّنيا نَصيبٌ)، على أنَّ رِزقَه المقسومَ له واصلٌ إليه لا مَحالةَ؛ للاستِهانةِ بذلك إلى جنْبِ ما هو بصَددِه مِن زَكاءِ عمَلِه وفَوزِه في المآبِ[(٣)].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٣، ٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٨).

وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ حرْفُ (أَمْ) للإضرابِ الانتقاليِّ، وهو انتقالٌ مِن الكلامِ على تَفرُّقِ أهلِ الشَّرائعِ السَّالفةِ في شَرائعِهم مَن انقرَضَ منهم، ومَن بَقِيَ؛ كأهلِ الكِتابَينِ، إلى الكلامِ على ما يُشابِهُ ذلك مِن الاختلافِ على أصلِ الدِّيانةِ، وتلك مُخالَفةُ المشركينَ للشَّرائعِ كلِّها، وتَلقِّيهم دِينَ الإشراكِ مِن أئمَّةِ الكُفرِ، وقادةِ الضَّلالِ[1].

- ومعنى الاستِفهامِ الذي تَقضيهِ (أَم) الَّتي للإضرابِ هو هنا للتَّقريعِ والتَّهكُّمِ؛ فالتَّقريعُ راجعٌ إلى أنَّهم شرَعوا مِن الدِّينِ ما لم يَأذَنْ به اللهُ، والتَّهكُّمُ راجعٌ إلى مَن شرَعوا لهم الشِّركَ، فسُئِلوا عمَّن شرَعَ لهم دِينَ الشِّركِ: أهُمْ شركاءُ آخَرونَ اعتَقَدوهم شُركاءَ للهِ في الإلهيَّةِ، وفي شَرْعِ الأديانِ كما شرَعَ اللهُ للنَّاسِ الأديانَ؟! وهذا تَهكُّمٌ بهم؛ لأنَّ هذا النَّوعَ مِن الشُّركاءِ لم يَدَّعِهِ أهلُ الشِّركِ مِن العرَبِ، وهذا المعنى هو الَّذي يُساعدُ تَنكيرَ ﴿ شُرَكَٰٓؤُا۟ ﴾ ووَصْفَه بجُملةِ ﴿ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ المسؤولُ عن الَّذي شرَعَ لهم هو الأصنامَ الَّتي يَعبُدونَها، والمقصودُ: فضْحُ فظاعةِ شِركِهم بعُرُوِّهِ عن الانتسابِ إلى اللهِ، أي: إنْ لم يكُنْ مَشروعًا مِن الإلهِ الحقِّ؛ فهو مَشروعٌ مِن الآلهةِ الباطلةِ، وهي الشُّركاءُ، وظاهرٌ أنَّ تلك الآلهةَ لا تَصلُحُ لِتَشريعِ دِينٍ؛ لأنَّها لا تَعقِلُ ولا تَتكلَّمُ، فتَعيَّنَ أنَّ دِينَ الشِّركِ دِينٌ لا مُستنَدَ له[2].

- وأُضيفَتِ الشُّركاءُ إليهم؛ لأنَّهم مُتَّخِذوها شُركاءَ للهِ، ولأنَّها سَببُ ضَلالتِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٦).

وافتِتانِهم، فتارةً تُضافُ إليهم لهذه المُلابَسةِ، وتارةً إلى اللهِ[١].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾، والمقصودُ تَحقيقُ إمْهالِهم إلى أجَلٍ مُسمًّى لا يُفلِتُهم مِن المؤاخَذةِ بما ظلَموا؛ فالعذابُ الأليمُ: عذابُ الآخرةِ لجَميعِهم، وعذابُ الدُّنيا بالسَّيفِ والذُّلِّ للَّذين أُخِّروا إلى إبَّانِ حُلولِه؛ مِثلَ: قتلِهم يومَ بَدْرٍ[٢]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وتَوكيدُ الخبَرِ بحَرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لأنَّ هذا الخبرَ مُوجَّهٌ إليهم؛ لأنَّهم يَسمَعونَ هذا الكلامَ، ويَعلَمونَ أنَّهم المقصودونَ به[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾

- قولُه: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]؛ بُيِّنَ حالُ هذا العَذابِ ببَيانِ حالِ أصحابِه حينَ تَوقُّعِ حُلولِه، وكَفَى بذلك مُنبئًا عن هَولِه[٤].

- والخِطابُ بـ(تَرَى) لِغَيرِ مُعيَّنٍ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فيَعُمُّ كلَّ مَن تُمكِنُ منه الرُّؤيةُ يومَئذٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقولُه: ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ أي: خائفينَ خَوفًا شَديدًا. فإنْ قِيل: إذا كان معنى الخَوفِ: غَمٌّ يَلحَقُ الإنسانَ لِتَوقُّعِ مَكروهٍ؛ فكيف الجمْعُ بيْنَه وبيْنَ قولِه: ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾؟

فالجوابُ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ﴾ استِحضارٌ لِصُورةِ حالِ الظَّالِمينَ في مُشاهَدةِ السَّامعِ؛ لِيَنظُرَ إلى تلك الحالةِ العجيبةِ الشَّأنِ، وهو أنَّهم خائفونَ مُشفِقونَ يُحاوِلونَ الحذَرَ حينَ لا يَنفَعُهم الحذَرُ؛ لأنَّ الخائفَ إذا استَشعَرَ بما يُتوقَّعُ منه المكروهُ، وأخَذَ في الدَّفْعِ؛ رُبَّما تَخلَّصَ منه، ومَن ترَكَ الحذَرَ حتَّى إذا ألَمَّ به المحذورُ زاوَلَ الدَّفْعَ؛ كان مَظِنَّةً للتَّعجُّبِ منه والتَّعجيبِ[1].

- وضَميرُ ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ﴾ عائدٌ على ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ باعتبارِ تَقديرِ مُضافٍ، أي: جَزاءَ ما كسَبوا، أي: في حالِ أنَّ الجزاءَ واقعٌ عليهم[2].

- قولُه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ خَبرٌ ثانٍ عن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، و(عِندَ) ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بالكَونِ الَّذي تَعلَّقَ به الجارُّ والمجرورُ في ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾. والعِنديَّةُ تَشريفٌ لمعنى الاختِصاصِ الَّذي أفادَتْه اللَّامُ في قولِه: ﴿لَهُم﴾، وعِنايةٌ بما يُعطَونَه مِن رَغْبةٍ، والمعنى: ما يَشاؤونَه حَقٌّ لهم مَحفوظٌ عِندَ ربِّهم. ولا يَنْبغي جَعْلُ (عِندَ) مُتعلِّقًا بفِعلِ (يَشاؤون)؛ لأنَّ (عِندَ) حينَئذٍ تَكونُ ظَرْفًا لِمَشيئتِهم، أي: مَشيئةٌ منهم مُتوجِّهةٌ إلى ربِّهم، فتَؤُولُ المشيئةُ إلى معنى الطَّلَبِ أنْ يُعطِيَهم ما يَطلُبون، فيَفُوتُ قصْدُ التَّشريفِ والعِنايةِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ خَبرًا ثالثًا عن (الَّذين آمَنوا)، أي: همْ عِندَ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٨، ٧٩).

ربِّهم، أي: في ضِيافتِه وقِراهُ[١]، ويكونَ تَرتيبُ الأخبارِ الثَّلاثةِ جاريًا على نمطِ الارتقاءِ مِن الحسَنِ إلى الأحسَنِ بأنْ: أخبَرَ عنهم بأنَّهم نزَلوا في أحسَنِ مَنزِلٍ، ثمَّ أُحضِرَ لهم ما يَشتهُونَ، ثمَّ ارتَقى إلى ما هو أعظَمُ، وهو كونُهم عِندَ ربِّهم. ومِن لَطائفِ هذا الوجهِ أنَّه جاءَ على التَّرتيبِ المعهودِ في الحُصولِ في الخارجِ؛ فإنَّ الضَّيفَ أو الوافدَ يَنزِلُ أوَّلَ قُدومِه في مَنزِلِ إكرامٍ، ثمَّ يُحضَرُ إليه القِرَى، ثمَّ يُخالِطُه ربُّ المَنزِلِ ويَقتربُ منه[٢].

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ تَذييلٌ[٣].

- والإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما ذُكِرَ مِن حالِ المؤمنينَ، وهو مَضمونُ قولِه: ﴿فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بتَأويلِ: ذلك المذكورُ. وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلةِ المُشارِ إليه في المكانةِ والشَّرفِ[٤].

- وضميرُ الفَصْلِ (هو) يُفيدُ قصْرًا ادِّعائيًّا[٥]؛ للمُبالَغةِ في أعظميَّةِ الفضْلِ، والفضلُ يَصلُحُ لأنْ يُعتبَرَ كالمضافِ إلى المفعولِ، أي: فضْلُ اللهِ عليهم،

---

(١) القِرَى: ضِيافةُ الضَّيفِ والإحسانُ إليه. والقِرَى أيضًا: ما يُقدَّمُ إلى الضَّيفِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٥٢)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ١٧٩)، ((المعجم الوسيط)) (٢/ ٧٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٩، ٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٠).

(٥) القصرُ الادِّعائي: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاء والمبالَغةِ، بتنزيلِ غَيرِ المذكورِ مَنزلةَ العدَمِ، وقصْرُ الشيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

وأنْ يُعتبَرَ كالمضافِ إلى الفاعلِ: فضْلُهم، أي: شرَفُهم وبرَكتُهم؛ فيَؤولُ معنى القَصرِ إلى أنَّ الفضلَ الَّذي حصَلَ للَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ أكبرُ فضْلٍ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُؤكِّدٌ لِنَظيرِه الَّذي قبْلَه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]، أي: ذلك المذكورُ الَّذي هو فضْلٌ يَحصُلُ لهم في الجنَّةِ هو أيضًا بُشرَى لهم مِن الحياةِ الدُّنيا[٢].

- والعائدُ مِن الصِّلةِ إلى الموصولِ مَحذوفٌ، تَقديرُه: الَّذي يُبشِّرُ اللهُ به عِبادَه. وحَذْفُه هنا لِتَنزيلِه مَنزلةَ الضَّميرِ المنصوبِ باعتبارِ حذْفِ الجارِّ، على طَريقةِ حَذْفِه في نَحْوِ قولِه: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، بتَقديرِ: مِن قَومِه، فلمَّا عُومِلَ مُعامَلةَ المنصوبِ حُذِفَ كما يُحذَفُ الضَّميرُ المنصوبُ[٣].

- وجمْعُ العِبادِ المُضافُ إلى اسمِ الجلالةِ أو ضَميرِه: غلَبَ إطلاقُه في القرآنِ في مَعرِضِ التَّقريبِ، وتَرفيعِ الشَّأنِ؛ ولذلك يكونُ مَوقعُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هنا مَوقعَ عطْفِ البَيانِ لـ ﴿عِبَادَهُ﴾[٤].

- وقولُه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ بمُناسَبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٨١).

ذِكرِ ما أُعِدَّ للمُشرِكينَ مِن عذابٍ، وما أُعِدَّ للمؤمنينَ مِن خيرٍ، وضَميرُ جَماعةِ المخاطَبينَ مُرادٌ به المشرِكونَ لا مَحالةَ. وليس في الكلامِ السَّابقِ ما يُتوهَّمُ منه أن يكونَ ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ جوابًا عنه؛ فتَعيَّنَ أنَّ جُملةَ ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وكان مَوقعُها هنا لِمُناسَبةِ ما سبَقَ مِن ذِكرِ حِجاجِ المشرِكينَ وعِنادِهم؛ فإنَّ مُناسَبتَها لِما معها مِن الآياتِ مَوجودةٌ؛ إذ هي مِن جُملةِ ما واجَهَ به القرآنُ مُحاجَّةَ المشرِكينَ، ونَفَى به أوهامَهم، واستَفتَح بَصائرَهم إلى النَّظرِ في عَلاماتِ صِدقِ الرَّسولِ؛ فهي جُملةٌ ابتدائيَّةٌ وقَعتْ مُعترِضةً بيْنَ جُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وجُملةِ ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ﴾[(١)].

- وابتُدِئتْ الآيةُ بـ﴿قُل﴾؛ إمَّا لأنَّها جَوابٌ عن كَلامٍ صدَرَ منهم، وإمَّا لأنَّها ممَّا يُهتَمُّ بإبلاغِه إليهم[(٢)].

- والموَدَّةُ: المَحبَّةُ والمعامَلةُ الحسَنةُ المُشبِهةُ مُعاملةَ المتحابِّينَ، والكلامُ على تَقديرِ مضافٍ، أي: مُعاملةَ الموَدَّةِ، أي: المجاملة؛ بقَرينةِ أنَّ المَحبَّةَ لا تُسألُ؛ لأنَّها انبعاثٌ وانفعالٌ نَفْسانيٌّ، ومعنى الآيةِ على ما يَقتضيه نَظْمُها: لا أَسألُكم على القرآنِ جزاءً إلَّا أنْ تَوَدُّوني، أي: أن تُعامِلوني معامَلةَ الوُدِّ، أي: غيرَ معاملةِ العداوةِ، مِن أجْلِ القَرابةِ الَّتي بيْنَنا في النَّسَبِ القُرَشيِّ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ تَذييلٌ لِجُملةِ ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والمعنى: وكلَّما عَمِل مُؤمنٌ حَسنةً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

زِدْناهُ حُسنًا مِن ذلك الفضْلِ الكبيرِ[١].

- والاقتِرافُ: افتِعالٌ مِن القَرْفِ، وهو الاكتِسابُ؛ فالاقترافُ مُبالَغةٌ في الكسْبِ نَظيرَ الاكتِسابِ، وليس خاصًّا باكتِسابِ السُّوءِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِي حَسۡنَةٖۚ﴾ لَمَّا كانتِ الحَسَنةُ مَأْخوذةً مِن الحُسنِ؛ جُعِلَتِ الزِّيادةُ فيها مِن الزِّيادةِ في الحُسنِ؛ مُراعاةً لأصلِ الاشتِقاقِ؛ فكان ذِكرُ الحُسنِ مِن الجِناسِ المُعبَّرِ عنه بجِناسِ الاشتِقاقِ[٣]، ويَتعيَّنُ أنَّ الزِّيادةَ فيها زِيادةٌ مِن غَيرِ عَملِه، ولا تَكونُ الزِّيادةُ بعَملٍ يَعمَلُه غيرُه؛ لأنَّها تَصيرُ عمَلًا يَستحِقُّ الزِّيادةَ أيضًا، فلا تَنتهي الزِّيادةُ؛ فتَعيَّنَ أنَّ المرادَ الزِّيادةُ في جَزاءِ أمثالِها عِندَ اللهِ، وهذا معنى قولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾[٤] [الأنعام: ١٦٠].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ تَذييلٌ وتعليلٌ للزِّيادةِ؛ لِقَصْدِ تَحقيقِها بأنَّ اللهَ كثيرةٌ مَغفرتُه لِمَن يَستحِقُّها، كَثيرٌ شُكْرُه للمُتقرِّبينَ إليه، والمقصودُ بالتَّعليلِ هو وَصْفُ (الشَّكورِ)، وأمَّا وَصْفُ (الغفورِ) فقد ذُكِر للإشارةِ إلى تَرْغيبِ المُقترِفينَ السَّيِّئاتِ في الاستِغفارِ والتَّوبةِ لِيُغفَرَ لهم؛ فلا يَقنَطوا مِن رَحمةِ اللهِ[٥].

٦- قولُه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) جِناسُ الاشتِقاقِ: هو أن يَجمَعَ بيْنَ اللَّفظَينِ اشتِقاقٌ، فإن توافَقَ اللَّفظانِ في الحروفِ وترتيبِها ولم يَجمَعْ بيْنَهما اشتِقاقٌ فهو الجناسُ المُطْلَقُ. يُنظر: ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٩).

ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

- قولُه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ إضْرابٌ انتقاليٌّ عطْفًا على قولِه: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]، وهو الكلامُ المُضرَبُ عنه والمُنتقَلُ منه، والمرادُ الانتقالُ إلى تَوبيخٍ آخَرَ؛ فالهمزةُ المُقدَّرةُ بعْدَ (أَمْ) للاستِفهامِ التَّوبيخيِّ وللإنكارِ؛ فإنَّهم قالوا ذلك، فاستحَقُّوا التَّوبيخَ عليه، والمعنى: أم قالوا: افتَرَى؟ ويقولونَه[1].

- وجِيءَ بفِعلِ ﴿يَقُولُونَ﴾ بصِيغةِ المضارعِ؛ لِيَتوجَّهَ التَّوبيخُ لاستِمرارِهم على هذا القولِ الشَّنيعِ مع ظُهورِ دَلائلِ بُطلانِه، فإذا كان قَولُهم هذا شَنِعًا مِن القولِ، فاستِمرارُهم عليه أشنَعُ[2].

- وقولُه: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ تَفريعٌ على تَوبيخِهم، وهو تَفريعٌ فيه خَفاءٌ ودِقَّةٌ؛ لأنَّ المُتبادرَ مِن التَّفريعِ أنَّ ما بعْدَ الفاءِ إبطالٌ لِمَا نَسَبوه إليه مِن الافتراءِ على اللهِ، وتَوكيدٌ للتَّوبيخِ، وإنَّما يُستفادُ هذا الإبطالُ مِن الشَّرطِ وجَوابِه المُفرَّعينِ على التَّوبيخِ؛ لأنَّ هذا الشَّرطَ وجَوابَه المُفرَّعينِ في ظاهرِ اللَّفظِ على التَّوبيخِ والإبطالِ هما دَليلٌ على المقصودِ بالتَّفريعِ المناسِبِ لِتَوبيخِهم، وإبطالِ قَولِهم، وتَقديرُ المُفرَّعِ هكذا: فكيف يكونُ الافتِراءُ منك على اللهِ واللهُ لا يُقِرُّ أحدًا أنْ يَكذِبَ عليه؟! فلو شاءَ لَخَتَمَ على قلبِك، أي: سلَبَك العقلَ الَّذي يُفكِّرُ في الكَذِبِ، فَتُفْحَمُ عن الكلامِ، فلا تَستطيعُ أنْ تَتقوَّلَ عليه، أي: وليس ثَمَّةَ حائلٌ يَحُولُ دونَ مَشيئةِ اللهِ ذلك لو افتَرَيتَ عليه؛ فيكونُ الشَّرطُ كِنايةً عن انتفاءِ الافتراءِ؛ لأنَّ اللهَ لا يُقِرُّ مَن يَكذِبُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٥).

كلامًا، فحصَلَ بهذا النَّظم إيجازٌ بَديعٌ. أو أنَّ ما بعْدَ الفاءِ هو المُفَرَّعُ على ما قبْلَها، ويكونُ الكَلامُ كِنايةً عن الإعراضِ عن قولِهم: افترَى على اللهِ كذبًا، أي: أنَّ اللهَ يُخاطِبُ رسولَه بهذا تَعريضًا بالمشركينَ، والمعنى: أنَّ افتِراءَه على اللهِ لا يُهِمُّكم حتَّى تُناصِبوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ العداءَ؛ فاللهُ أَولى منكم بأنْ يَغارَ على انتهاكِ حُرمةِ رِسالتِه، وبأنْ يَذُبَّ عن جَلالِه، فلا تَجْعَلوا هذه الدَّعوى همَّكم؛ فإنَّ اللهَ لو شاء لَختَمَ على قلْبِكَ فسَلَبَك القُدرةَ على أنْ تَنسُبَ إليه كلامًا. وهذانِ الوجهانِ هما المناسِبانِ لموقعِ الآيةِ، ولِفاءِ التَّفريعِ، ولِما في الشَّرْطِ مِن الاستِقبالِ، ولِوُقوعِ فِعلِ الشَّرْطِ مُضارِعًا، فالوقْفُ على قولِه: ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، وهو انتهاءُ كَلامٍ[1].

- وقيل: المعنى: يَختِمْ على قُلوبِ الكفَّارِ وعلى ألْسِنَتِهم، ويُعاجِلْهم بالعذابِ؛ فيَكونُ الْتِفاتًا مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، ومِن الجمْعِ إلى الإفرادِ، أي: يَختِمْ على قلبِك أيُّها القائلُ أنَّه افترَى على اللهِ كذبًا[2]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، مُرادٌ منه أنَّ اللهَ يَمْحو باطلَ المشركينَ وبُهتانَهم، ويُحقِّقُ ما جاءَ به رسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وليس عطْفًا على فِعلِ الجزاءِ؛ لأنَّ المُتبادرَ أنَّ هذا وعْدٌ مِن اللهِ بإظهارِ الإسلامِ، ووَعيدُ المشركينَ بأنَّ دِينَهم زائلٌ، والمرادُ بالمحْوِ على هذا: الإزالةُ، والمرادُ بالباطلِ: الباطلُ المعهودُ، وهو دِينُ الشِّركِ، وبالحقِّ:

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤، ٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٦، ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٦).

الحقُّ المعهودُ، وهو الإسلامُ. أو يكونُ المعنى: أنَّ مِن شأْنِ اللهِ تعالى أنْ يُزيلَ الباطلَ ويَفضَحَه بإيجادِ أسبابِ زَوالِه، وأنْ يُوضِّحَ الحقَّ بإيجادِ أسبابِ ظُهورِه؛ حتَّى يكونَ ظُهورُه فاضحًا لِبُطلانِ الباطلِ، فلو كان القُرآنُ مُفترًى على اللهِ لَفضَحَ اللهُ بُطلانَه، وأظهَرَ الحقَّ؛ فالمرادُ بالباطلِ: جنسُ الباطلِ، وبالحقِّ: جنسُ الحقِّ، وتكونُ الجُملةُ كالتَّذييلِ للتَّفريعِ. والمعنى الأوَّلُ أنسَبُ بالاستئنافِ، ولإفادتِه الوعيدَ بإزالةِ ما همْ عليه، ونصْرَ المسلمينَ عليهم. وعلى كِلا المعنيَينِ فقولُه: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ ليس مَعطوفًا على جَزاءِ الشَّرْطِ؛ إذ ليس المعنى على: إنْ يَشأِ اللهُ يَمْحُ الباطلَ؛ بلْ هو تَحقيقٌ لِمَحْوِه للباطلِ[(١)].

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ في قولِه: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ دونَ أنْ يقولَ: ويَمْحُ الباطلَ؛ لِتَقْويةِ تَمكُّنِ المُسنَدِ إليه مِن الذِّهنِ، ولإظهارِ عِنايةِ اللهِ بمَحْوِ الباطلِ[(٢)].

- وإنَّما عُدِلَ عن الجُملةِ الاسميَّةِ في صَوغِ ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾، فلم يقُلْ: (واللهُ يَمْحو الباطلَ)؛ لأنَّه أُريدَ أنَّ ما في إفادةِ المضارعِ مِن التَّجدُّدِ والتَّكريرِ إيماءٌ إلى أنَّ هذا شأْنُ اللهِ وعادتُه لا تَتخلَّفُ، ولم يَقصِدْ تَحقيقَ ذلك وتَثبيتَه؛ لأنَّ إفادةَ التَّكريرِ تَقتضي ذلك بطَريقِ الكِنايةِ، فحصَلَ الغرَضانِ[(٣)].

- وجاء الرَّدُّ عليهم بأُسلوبِ الخِطابِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٦، ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٨٧، ٨٨).

أقْوى في الاعتِناءِ بتَلقينِه جَوابَ تَكذيبِهم؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ تَفظيعٍ لِبُهتانِهم، وهذا وَجْهُ التَّخالُفِ بيْنَ أُسلوبِ هذه الآيةِ وأُسلوبِ قولِه تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ [يونس: ١٦]؛ لأنَّ ذلك لم يكُنْ مَسوقًا لإبطالِ كَلامٍ صدَرَ منهم(١).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تَعليلٌ لِمَجموعِ جُملتَيْ ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ إلى قولِه: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾، أي: لأنَّه لا يَخفَى عليه افتِراءُ مُفترٍ، ولا صِدقُ مُحِقٍّ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٥-٢٨)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَبَغَوۡاْ﴾: أي: لَطَغَوْا وأفسَدوا، وأصلُ (بغي) هنا: يدُلُّ على جِنسٍ مِن الفَسادِ[١].

﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾: أي: المطرَ النَّازِلَ مِن السَّماءِ، وسُمِّي غَيْثًا؛ لأنَّه يُغيثُ الخلْقَ[٢].

﴿قَنَطُواْ﴾: أي: يَئِسوا، والقُنوطُ: اليَأسُ مِنَ الخَيرِ، وقيل: هو أشدُّ اليأسِ، وأصلُ (قنط): يدُلُّ على اليأسِ مِن الشَّيءِ[٣].

﴿ٱلۡوَلِيُّ﴾: فَعيلٌ بمعنَى فاعِلٍ، أي: المُتَوَلِّي لأُمورِ العالَمِ والخَلائِقِ، القائِمُ بها، والوليُّ: الناصرُ، فهو يَنْصُرُ عِبادَه المؤمنينَ، ويَتولَّى أُمورَهم، وكلُّ مَن وَلِي أمْرَ آخَرَ فهو وليُّه، والوَلايَةُ: تَوَلِّي الأمرِ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨).
قال القرطبيُّ: (والغيثُ ما كان نافعًا في وقْتِه، والمطرُ قدْ يكونُ نافعًا وضارًّا، في وقتِه وغيرِ وقْتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(٤) يُنظر: ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فاس (٦/ ١٤١)، =

﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾: أي: المحمودُ على كلِّ حالٍ، وفي جميعِ أفعالِه وأقوالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والمحمودُ على ما له مِن الكَمالِ، وعلى نِعَمِه التي أنْعَمها على خلْقِه، المستحِقُّ لكلِّ حمْدٍ، والحمدُ إخبارٌ عن مَحاسنِ المحمودِ معَ حُبِّه وإجلالِه وتَعظيمِه، وأصلُ (حمد): يَدُلُّ على خِلافِ الذَّمِّ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾

قَولُه: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محَلِّ نَصبٍ

= ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٠)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٧٨)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨، ٧٥٨).

قال ابنُ القيِّم: (الحَميدُ فَعيلٌ مِن الحَمْدِ، وهو بمعنى مَحمودٍ، وأكثرُ ما يَأتي فَعيلًا في أسمائِه تعالَى، بمعنى فاعِل، كـ: سَميع، وبَصير، وعَليم، وقَدير، وعَليٍّ، وحَكيم، وحَليم، وهو كثيرٌ ... وأمَّا الحميدُ فلمْ يأتِ إلَّا بمعنى المحمودِ، وهو أبلغُ مِن المحمودِ؛ فإنَّ فَعيلًا إذا عُدِلَ به عن مَفعولٍ، دلَّ على أنَّ تِلك الصِّفةَ قد صارتْ مِثلَ السَّجيَّةِ والغَريزةِ والخُلُقِ اللَّازمِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٣١٥).

لكنْ قال ابنُ عُثَيمين: (كَلِمةُ «حميد» يَصِحُّ أن تكونَ اسمَ فاعلٍ، ويصِحُّ أنْ تكونَ بمعنى اسمِ المفعول؛ اسمُ الفاعِلِ: لأنَّه سُبحانَه وتعالَى حامِدٌ يَحمَدُ كُلَّ مَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه؛ ولهذا يُثني على رسُلِه وأنبيائِه وعِبادِه الصَّالحين، والثناءُ عليهم هو الحَمدُ. وهو أيضًا المحمودُ على أمْرينِ: على ما له مِن كَمالِ الصِّفاتِ، وعلى ما له من كَمالِ الإنعامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣). ويُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤).

مَفعولٌ به، والفاعِلُ مُضمَرٌ يَعودُ على اللهِ تعالَى، بمعنى: ويُجيبُ اللهُ الذين آمَنوا. وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمٌ مَوصولٌ مَبنيٌّ على الفَتحِ في مَحلِّ رَفعٍ فاعِلٌ، أي: يُجيبون ربَّهم إذا دعاهُمْ، واستجابَ كـ (أَجابَ) مَعنًى، ويجوزُ أنْ تكونَ السِّينُ في (يَسْتَجِيبُ) للطَّلبِ على بابِها، بمعْنى: ويَستَدعي الذين آمَنوا الإجابةَ مَن رَبِّهم بالأعمالِ الصَّالحةِ. وقيل: ثَمَّ لامٌ مُقَدَّرةٌ، أي: ويَستجيبُ اللهُ للَّذين آمَنوا[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مُمتنًّا على عِبادِه، ومُبيِّنًا كَمالَ كَرمِه، وسَعةَ جُودِه، وتَمامَ لُطفِه: اللهُ وَحْدَه هو الذي يَقبَلُ تَوبةَ عِبادِه إذا تابوا، ويَعفو عن سَيِّئاتِهم، ويَعلَمُ اللهُ ما تَفعَلونَ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، ويُجيبُ اللهُ الذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ إذا دَعَوْه، ويُعْطيهم إذا سأَلوه، ويَزيدُهم مِن فَضلِه، والكافِرونَ لهم عَذابٌ شَديدٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه جانبًا ممَّا اقتضَتْه حِكمتُه في تَدبيرِ أُمورِ عِبادِه، فيَقولُ: ولو وسَّع اللهُ الرِّزقَ لعِبادِه لَأفسَدوا في الأرضِ، واعتدَى بعضُهم على بعضٍ، ولكِنْ يُنَزِّلُ اللهُ ما يَشاءُ بمِقدارٍ مُعَيَّنٍ حَسَبَ حِكمتِه سُبحانَه، إنَّ اللهَ خَبيرٌ بأحوالِ عبادِه، بَصيرٌ بهم.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالَى جانبًا مِن نِعَمِه على عبادِه، فيقولُ: واللهُ هو الذي يُنزِّلُ الماءَ مِن السَّماءِ فيُغيثُ به عِبادَه مِن بعْدِ انقِطاعِ رَجائِهم مِن نُزولِه، ويَنشُرُ رَحمتَه، وهو الوَليُّ الذي يَتولَّى عِبادَه، المحمودُ على ما أوصَلَه إلى خَلْقِه مِن أصنافِ النِّعَمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٢٥﴾.

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٥٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشورى: ٢٤]، ثمَّ برَّأ رَسولَه مِمَّا أضافوه إليه مِن هذا، وكان مِن المعلومِ أنَّهم قدِ استحَقُّوا بهذه الفِريةِ عِقابًا عَظيمًا؛ لا جَرَمَ ندَبَهم اللهُ إلى التَّوبةِ، وعَرَّفهم أنَّه يَقبَلُها مِن كُلِّ مُسيءٍ، وإنْ عَظُمَت إساءتُه[1].

وأيضًا لَمَّا جَرَى وَعيدُ الذين يُحاجُّونَ في اللهِ لِتَأييدِ باطِلِهم مِن قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦]، ثمَّ أُتْبِعَ بوَصْفِ سُوءِ حالِهم يومَ الجزاءِ بقولِه: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ [الشورى: ٢٢]، وقُوبِلَ بوَصْفِ نَعيمِ الذين آمَنوا بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ [الشورى: ٢٢]، وكان ذلك مَظِنَّةَ أنْ يَكسِرَ نُفوسَ أهلِ العِنادِ والضَّلالةِ؛ أُعقِبَ بإعلامِهم أنَّ اللهَ مِن شَأنِه قَبولُ تَوبةِ مَن يَتوبُ مِن عِبادِه، وعفْوُه بذلك عمَّا سلَفَ مِن سيِّئاتِهم[2].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الذي يَقبَلُ تَوبةَ عِبادِه إذا تابوا ورَجَعوا إليه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٨-٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٣).

قيل: تضمَّن ﴿يَقْبَلُ﴾ معْنى (يعفو)، أي: يَقبَلُ التَّوبةَ فيَعفو عن عِبادِه. ومِمَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٣). =

عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بتَوبةِ عَبدِه حينَ يَتوبُ إليه مِن أَحَدِكم كان على راحِلتِه بأرضِ فَلاةٍ[١]، فانفلَتَتْ[٢] منه وعليها طَعامُه وشَرابُه، فأَيِسَ منها، فأَتَى شَجَرةً فاضْطَجَعَ في ظِلِّها قدْ أَيِسَ مِن راحلتِه، فبَيْنا هو كذلك إذا هو بها قائمةً عنده، فأَخَذَ بخِطامِها، ثمَّ قال مِن شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أنت عَبْدي وأنا رَبُّك! أخطأَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ!))[٣].

وعن أبي مُوسى رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَبسُطُ يَدَه باللَّيلِ لِيَتوبَ مُسيءُ النَّهارِ، ويَبسُطُ يَدَه بالنَّهارِ لِيَتوبَ مُسيءُ اللَّيلِ، حتى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها))[٤].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ

= قال الألوسي: (قيل: القَبولُ مُضمَّن هنا معنى التَّجاوُزِ، والكلامُ على تَقديرِ مُضافٍ: أي يَقبَلُ التَّوبةَ مُتجاوزًا عن ذُنوبِ عبادِه، وهو تَكلُّف). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٦).

وقيل: قبِلْتُه عنه، أي: عزَلْتُه عنه وأبنْتُه عنه. فمعنى ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾: أي يُزيلُ الرُّجوعَ عن المعاصي. ومِمَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: الزمخشريُّ، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٧).

ومِمَّن ذهَب إلى أنَّ ﴿عَنْ﴾ هنا بمعنى: «مِن»: ابنُ قُتَيبة، وابن جزي، وجلالُ الدِّين المحلِّي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤٢).

وقال ابنُ عَطيةَ: (قوله تعالى: ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ بمعنى: من عبادِه، وكأنَّه قال: التَّوبةُ الصادرةِ عن عبادِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥).

(١) بأرضٍ فَلاةٍ: أي: صَحْراءَ خاليةٍ مِن النَّباتِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦١٧).

(٢) فانفلَتَت: أي: نَفَرَت وفَرَّت. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦١٧).

(٣) رواه مسلمٌ (٢٧٤٧) بهذا اللَّفظِ، ورواه البخاريُّ (٦٣٠٩) مختَصرًا.

(٤) رواه مسلمٌ (٢٧٥٩).

يَقبَلُ تَوبةَ العَبدِ ما لم يُغَرغِرْ[(١)]))[(٢)].

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

أي: ويَعفو اللهُ عن سَيِّئاتِ أعمالِ عِبادِه، فيَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[(٣)].

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت التَّوبةُ مِن الأعمالِ العَظيمةِ التي قدْ تكونُ كامِلةً بسَبَبِ تَمامِ

---

(١) ما لم يُغَرْغِرْ: أي: ما لم تَبلُغْ رُوحُه حُلقومَه، فيكونُ بمنزلةِ الشَّيءِ الذي يَتغَرغَرُ به المريضُ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣٦٠).

(٢) رواه الترمذيُّ (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد (٦١٦٠).

قال الترمذيُّ: (حسنٌ غريبٌ). وقال ابنُ القَطَّان في ((بيان الوهم والإيهام)) (٥/ ٤١٢): (محتمِلٌ أن يُقالَ فيه: صحيحٌ). وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٩/ ١٨)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٣).

قال ابنُ جُزي: (العَفوُ دونَ التَّوبةِ على أربعةِ أقسامٍ: الأوَّلُ: العَفوُ عن الكُفرِ، وهو لا يكونُ أصلًا. والثَّاني: العَفوُ عن مَظالمِ العِبادِ، وهو كذلكَ. والثالثُ: العَفوُ عن الذُّنوبِ الصَّغائِرِ إذا اجتُنِبَت الكبائِرُ، وهو حاصِلٌ باتِّفاقٍ. والرَّابعُ: العَفوُ عن الكبائِرِ، فمَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ أنَّها في المَشيئةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (العَفوُ عن السَّيِّئاتِ يكونُ بسَبَبِ التَّوبةِ؛ بأنْ يَعفوَ عن السَّيِّئاتِ التي اقتَرَفها العاصي قبْلَ توبتِه، ويكونُ بدون ذلك؛ مِثلُ العَفوِ عن السَّيِّئاتِ عَقِبَ الحَجِّ المبرورِ، ومِثلُ العَفوِ عن السَّيِّئاتِ لأجْلِ الشَّهادةِ في سبيلِ اللهِ، ومِثلُ العَفوِ عن السَّيِّئاتِ لكَثرةِ الحَسَناتِ، بأنْ يُمحَى عن العاصي مِن سَيِّئاتِه ما يُقابِلُ مِقدارًا مِن حَسَناتِه على وَجهٍ يَعلَمُه اللهُ تعالَى، ومِثلُ العَفوِ عن الصَّغائِرِ باجتِنابِ الكبائِرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٠).

الإخلاصِ والصِّدقِ فيها، وقدْ تَكونُ ناقِصةً عندَ نَقصِهما، وقدْ تكونُ فاسِدةً إذا كان القَصدُ منها بُلوغَ غَرَضٍ مِن الأغراضِ الدُّنيويَّةِ، وكان محَلُّ ذلك القَلبَ الذي لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى؛ خَتَم هذه الآيةَ بقَولِه تعالى[١]:

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ ما تَفعَلونَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، لا يَخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن ذلك[٢].

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا رغَّب اللهُ تعالَى بالعفْوِ؛ زاد الإكرامَ فقال[٣]:

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: ويُجيبُ اللهُ الذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ للهِ تعالَى ومُوافَقةٍ لِشَرعِه؛ إذا دَعَوْه، ويُعْطيهم ما طلَبوه منه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٧- ٢٣٢).

قال ابن جُزَيٍّ: (﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه ثَلاثةُ أقوالٍ: =

= أحدُها: أنَّ معنى «يَستجيبُ»: يُجيبُ. و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: مفعولٌ، والفاعِلُ ضَميرٌ يعودُ على اللهِ تعالى، أي: يُجيبُهم فيما يَطلُبونَ منه. وقال الزَّمخشريُّ: أي: أصلُه: يَستجيبُ لِلَّذين آمنوا، فحَذَف اللَّامَ.

والثَّاني: أنَّ معناه: يُجيبُ. و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فاعِلٌ، أي: يَستجيبُ المؤمِنونَ لِرَبِّهم باتِّباعِ دِينِه.

والثَّالثُ: أنَّ معناه: يَطلُبُ المؤمِنونَ الإجابةَ مِن رَبِّهم، واستَفعَلَ هذا على بابِه مِنَ الطَّلَبِ، والأوَّلُ أرجَحُ؛ لِدَلالةِ قَولِه: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾، ولأنَّه قَولُ ابنِ عبَّاسٍ ومُعاذِ بنِ جَبَلٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٣).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجُملةِ: ابنُ جَريرٍ، والثَّعلبيُّ، والسَّمعاني، والبَغوي، والرَّسْعني، والقُرْطبي، وابن جُزَي، وابن تيْميةَ، وابن كثير، والعُلَيمي، والشَّوكاني، وابن عاشور، وابن عُثَيمين، وغيرهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٧).

قال ابنُ تيْميةَ: (قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي يَستجيبُ لهمْ، وهو مَعروفٌ في اللُّغةِ؛ يُقال: استَجابَه واستجابَ له). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٢٣٩).

وذكَر ابنُ عُثَيمينَ أنَّ ممَّا يدُلُّ على هذا التَّفسيرِ قولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقولُه تعالى بعْد ذلك: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾، والأصلُ أنْ تكونَ الضَّمائرُ واحدةً، وحرْفُ العطْفِ يَقْتضي تَساويَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه، وأيضًا لو أراد أنَّ الذين آمَنوا همُ الذين استَجابوا، لَقال: فيَزيدُهم: أي بسَببِ استجابَتِهم يَزيدُهم مِن فضْلِه. يُنظَر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٧- ٢٢٨).

قال الزَّمخشريُّ: (أي: يُثيبُهم على طاعتِهم ويَزيدُهم على الثَّوابِ تفضُّلًا، أو إذا دعَوه استجابَ دُعاءَهم وأعطاهُم ما طلَبوا وزادَهم على مَطلوبِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٣).

وقال ابنُ جَرير: (ويُجيبُ الَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، وعَمِلوا بما أمَرهم اللهُ به، وانتهَوْا عمَّا نَهاهم عنه لبَعضِهم دُعاءَ بعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٦).

وقال القُرطبيُّ: (أي: يَقبَلُ عِبادةَ مَن أخلَص له بقلْبِه وأطاع ببَدنِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦). =

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ...﴾ [آل عمران: ١٩٥].

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾.

أي: ويَزيدُ اللهُ المُؤمِنينَ مِن فَضْلِه في الدُّنيا، فيُعطيهم ما لم يَسألُوه، أو يَزيدُهم ثَوابًا على ما عَمِلوه(١).

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣].

= وقيل: المعنى: ويَستجيبُ المؤمِنونَ لِرَبِّهم، فيُؤمِنونَ به ويُطيعونَه. ومِمَّن ذهَب إلى هذا القَولِ: ابنُ أبي زَمنين، ومكِّيُّ بن أبي طالب، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير مكي)) (١٠/ ٦٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣).

قال الشَّوكانيُّ: (﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: يَزيدُهم على ما طَلَبوه منه، أو على ما يَستَحِقُّونَه مِن الثَّوابِ تفضُّلًا منه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣).

ومِمَّن ذهَب إلى المعنى الأوَّلِ -وهو إعطاؤُهم ما لم يَسْألوه-: ابنُ جرير، والرازي، وابن جُزَي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٧).

ومِمَّن ذهَب إلى المعنى الثَّاني -وهو زيادةُ ثَوابِ أعمالِهم-: الواحديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٢).

وممَّن جمَع بين القولينِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩١).

وقال السعديُّ: (فإذا استَجابوا له شَكَرَ اللهُ لهم، وهو الغَفورُ الشَّكورُ، وزادهم مِن فَضلِه تَوفيقًا ونَشاطًا على العَمَلِ، وزادَهم مُضاعَفةً في الأجرِ زِيادةً عمَّا تَستَحِقُّه أعمالُهم مِنَ الثَّوابِ والفَوزِ العَظيمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

وقال السَّمعانيُّ: (وقولُه: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: الثَّناءَ الحسَنَ فِي الدُّنيا، وقيل: الشَّفاعَةَ فِي الآخرةِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٧٦).

﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

أي: وأمَّا الكافِرونَ باللهِ فلهم عَذابٌ قَوِيٌّ؛ جَزاءَ كُفرِهم باللهِ[(١)].

﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا قال في الآيةِ الأُولى: إنَّه يُجيبُ دُعاءَ المُؤمِنينَ، ورَدَ عليه سُؤالٌ؛ وهو: أنَّ المؤمِنَ قدْ يكونُ في شِدَّةٍ وبَلِيَّةٍ وفَقرٍ، ثمَّ يَدْعو فلا يُشاهِدُ أثَرَ الإجابةِ؛ فكيْف الحالُ فيه مع ما تقَدَّمَ مِن قَولِه: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؟ فأجاب تعالَى عنه بقَولِه: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[(٢)].

وأيضًا لَمَّا كان المُتبادِرُ مِن الاستجابةِ إيجادَ كُلِّ ما سَألوه في هذه الدُّنيا على ما أرادوه، وكان الموجودُ غيرَ ذلك، بلْ كان أكثَرُ أهلِ اللهِ مُضَيَّقًا عليهم، وكانت الإجابةُ إلى كُلِّ ما يُسألُ بأنْ يكونَ في هذه الدَّارِ يُؤدِّي في الغالِبِ إلى البَطَرِ المؤَدِّي إلى الشَّقاءِ، فيُؤَدِّي ذلك إلى عَكسِ المرادِ -قال تعالَى[(٣)]:

﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٢).

ممَّن اختار أنَّ العذابَ المذكورَ هنا واقِعٌ يومَ القيامةِ: ابن جَرير، والنَّسفي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٦).

وقيل: العَذابُ واقِعٌ في الدُّنيا والآخِرةِ. ومِمَّن قال بهذا: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٧-٣٠٨).

أي: ولو وسَّع اللهُ الرِّزقَ لعِبادِه، وكثَّرَه لهم فَوقَ حاجتِهم، لَأفضَى ذلك إلى أنْ يُفسِدوا في الأرضِ، ويُقدِموا على المعاصي ويَبْطَروا النِّعمةَ، ويَعتديَ بعْضُهم على بَعضٍ؛ ظُلمًا واستِكبارًا واستِعلاءً بغَيرِ حَقٍّ(١).

كما قال تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

وعن عَمرِو بنِ عَوفٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((واللهِ ما الفَقرَ أخْشى عليكم، ولكِنِّي أخشَى عليكم أنْ تُبسَطَ الدُّنيا عليكم كما بُسِطَت على مَن كان قَبلَكم، فتَنافَسُوها كما تَنافَسوها، وتُهلِكَكم كما أهلَكَتْهم))(٢).

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾.

أي: ولكِنَّ اللهَ تعالَى يُنَزِّلُ ما يَشاءُ تَنزيلَه مِن أرزاقِ العِبادِ بمِقدارٍ مُعَيَّنٍ، بحَسَبِ ما تَقتَضيهِ حِكمتُه سُبحانَه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٤-٢٣٥).

(٢) رواه البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١)، واللفظ له.

قال البقاعي: (﴿لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لصاروا يُريدونَ كُلَّ ما يَشتَهونَه، فإنْ لم يُفعَلْ سَعَوا في إنفاذِه -كالمُلوكِ بما لهم مِن المُكْنةِ- بكُلِّ طَريقٍ يُوصِلُهم إليه؛ فيَكثُرُ القَتلُ والسَّلبُ، والنَّهبُ والضَّربُ، ونحوُ ذلك مِن أنواعِ الفَسادِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٠٨).

وقال السعديُّ: (أي: لغَفَلوا عن طاعةِ اللهِ، وأقبَلوا على التمَتُّعِ بشَهَواتِ الدُّنيا؛ فأوجَبَت لهم الإكبابَ على ما تَشتَهيه نفوسُهم، ولو كان مَعصيةً وظُلمًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٨-٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٣).

كما قال تعالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالَى خَبيرٌ بأحوالِ عِبادِه الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، وطِباعِهم وعَواقبِ أُمورِهم، وهو بَصيرٌ بهم؛ يَراهم ويَعلَمُ ما يُصلِحُهم مِن تَوسيعِ الرِّزقِ أو تَضييقِه بحَسَبِ حِكمتِه البالِغةِ[(١)].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن تعالَى أنَّه لا يُعطي عِبادَه ما زاد على قَدْرِ حاجتِهم؛ لأجْلِ أنَّه عَلِمَ أنَّ تلك الزِّيادةَ تضُرُّهم في دِينِهم؛ بيَّنَ أنَّهم إذا احتاجوا إلى الرِّزقِ فإنَّه لا يَمنَعُهم منه، فقال[(٢)]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾.

أي: واللهُ هو الَّذي يُنَزِّلُ الماءَ الذي تَحصُلُ به إعانةُ النَّاسِ، وإزالةُ الشِّدَّةِ عنهم، فيُغيثُهم به مِن بعدِ انقِطاعِ رَجائِهم مِن نُزولِه، ويَنشُرُ اللهُ تعالى رَحمتَه ويَبسُطُها؛ فتَحيا البِلادُ، ويَنتَفِعُ العِبادُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٥)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ۞ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٤٨ - ٥٠].

﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الوَليُّ الذي يَتولَّى عِبادَه بإحسانِه وفَضلِه، ويَتصَرَّفُ لهم بما يَنفَعُهم؛ الحَميدُ على هذه الوَلايةِ، والمُستَحِقُّ للثَّناءِ والشُّكرِ مِن جَميعِ خَلقِه على ما له مِنَ الكَمالِ، وعلى تَدبيرِه وما أوصَلَه إلى خَلقِه مِن أصنافِ النِّعَمِ، المحمودُ العاقِبةِ في جَميعِ ما يُقَدِّرُه ويَفعَلُه[1].

= كثير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٦، ٢٤٢).

قِيلَ: المُرادُ بالرَّحمةِ هنا: الغَيثُ. ومِمَّن ذهَب إلى هذا: ابنُ جرير، والسَّمرقندي، والثَّعلبي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٥).

وقِيلَ: المُرادُ بالرَّحمةِ: آثارُ الغَيثِ وبَرَكاتُه، كإخراجِ الأقواتِ للنَّاسِ ولِبَهائِمِهم. ومِمَّن قال بهذا المعنى: الزَّمخشريُّ، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٩).

وقال ابنُ عطيةَ: (وقالت فِرقةٌ: الرَّحمةُ في هذا الموضعِ الشَّمسُ، فذلك تَعديدُ نِعمةٍ غيرِ الأُولَى؛ وذلك أنَّ المطرَ إذا ألَمَّ بعْدَ القَنَطِ حسُنَ مَوقعُه، فإذا دام سُئِم، فتَجيءُ الشمسُ بعْدَه عَظيمةَ الموقعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٩-٢٤٠).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ هذا ليْس مُجرَّدَ خبَرٍ أنَّ اللهَ تعالَى يَقبَلُ التَّوبةَ، بلْ هو حَثٌّ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ نَتوبَ إليه[١].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ فيه إثباتُ عُمومِ عِلْمِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى لكُلِّ ما نَفعَلُ؛ ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ؛ فقولُه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ يعني: فاحذَروا أنْ تَفعَلوا شيْئًا يُغضِبُه؛ فإنَّه عالِمٌ بكم[٢]، وفي هذا لُطفٌ، وحَثٌّ على لُزومِ الحذَرِ منه تعالَى، والإخلاصِ له سُبحانه في إمْحاضِ التَّوبةِ[٣].

٣- مَن استجابَ لربِّه بامتثالِ أمْرِه ونَهيِه؛ حصَلَ مَقصودُه مِن الدُّعاءِ، وأُجيبَ دُعاؤه، كما قال تعالَى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾؛ فقدْ جعَل اللهُ تعالَى الإيمانَ والعمَلَ الصَّالحَ سَببًا لإجابةِ الدُّعاءِ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّ كُلَّ ما يَنالُ الإنسانَ مِن خيرٍ فبِفَضلِ اللهِ، وعلى هذا يَجِبُ على الإنسانِ أنْ يَقطَعَ عن نَفسِه الإعجابَ، ويجِبُ عليه أَلَّا يقولَ: هذا مِن عِندي، أو أنا جديرٌ به، أو ما أشبَهَ ذلك مِن الكَلِماتِ التي يَفخَرُ بها على اللهِ عزَّ وجَلَّ[٥]!

٥- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٣).

مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ فيه أنَّ الرِّزقَ لو جاء على اقتراحِ البَشَرِ، لكان سَبَبَ بَغْيِهم وإفسادِهم، ولكِنَّه تعالَى أعلَمُ بالمَصلحةِ؛ فرُبَّ إنسانٍ لا يَصلُحُ ولا يُكَفُّ شَرُّه إلَّا بالفَقرِ، وآخَرَ بالغِنى[1].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ أنَّ طَبيعةَ الإنسانِ أنَّه لا يَصْبِرُ؛ فيَسْتولي عليه اليأْسُ والقُنوطُ مِن رَحمةِ اللهِ! والذي يَجِبُ على المرْءِ ألَّا يَقْنَطَ مِن رَحمةِ اللهِ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالَى حِكايةً عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، إنَّما الواجبُ على المرءِ إذا مَسَّه السُّوءُ أنْ يَصْبِرَ ويَحتسِبَ، ودوامُ الحالِ مِن المُحالِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى يُعطي المؤمنينَ العامِلينَ الصَّالحاتِ أكثرَ مِمَّا عَمِلوا، وهذه الزِّيادةُ بَيَّنَها اللهُ تعالَى في مَواضِعَ أُخرى مِن كتابِه؛ فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وربَّما يُقالُ أيضًا بزِيادةٍ أُخرى غيرِ العدَدِ، وهي: أنَّه يَزيدُهم مِن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ لأنَّه كُلَّما عَمِلَ الإنسانُ عَمَلًا صالِحًا ازدادَ يَقينُه؛ ولهذا كان مِن قَولِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ أنَّ الأعمالَ داخِلةٌ في الإيمانِ[3].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى يُنذِرُ النَّاسَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٣).

عن المعاصي والكُفرِ بذِكرِ العِقابِ، أخَذَ العُلَماءُ مِن هذا أنَّه إذا ذَكَرَ اللهُ تعالَى عِقابًا في عَمَلٍ مِن الأعمالِ دلَّ ذلك على تحريمِه، وإذا ذَكَرَ ثَوابًا في عَمَلٍ مِن الأعمالِ دلَّ ذلك على مَشروعيَّتِه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ دَليلٌ على أنَّ كَثرةَ المالِ سَببٌ لفَسادِ الدِّينِ إلَّا مَن عَصَمَه اللهُ عزَّ وجلَّ، فلمْ يَجعَلْه فِتنةً عليه[٢]؛ فالغِنَى مَظِنَّةُ البَطَرِ والأَشَرِ إذا صادَفَ نفْسًا خَبيثةً، فأمَّا الفقرُ فقلَّما كان سَببًا للبغْيِ إلَّا بَغيًا مَشُوبًا بمَخافةٍ؛ كبَغْيِ الجائعِ بالافتكاكِ بالعُنفِ، فذلك لِنُدرتِه لا يُلتفَتُ إليه، على أنَّ السِّياقَ لِبَيانِ حِكمةِ كَونِ الرِّزقِ بقَدَرٍ، لا لِبَيانِ حِكمةٍ في الفقرِ؛ فالتَّلازُمُ بيْنَ الشَّرطِ وجَوابِه في قولِه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟﴾ حاصلٌ بهذه السَّببيَّةِ، بقطْعِ النَّظَرِ عن كَونِ هذا السَّببِ قد يَخلُفُه ضِدُّه أيضًا، على أنَّ بيْنَ بَسْطِ الرِّزقِ وبيْنَ الفقرِ مَراتبَ أُخرى مِن الكَفافِ، وضِيقِ الرِّزقِ، والخَصاصةِ، والفقرِ، وهي مُتفاوتةٌ؛ فلا إشكالَ في التَّعليلِ[٣].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ دَليلٌ على أنْ لا سَبيلَ إلى الازديادِ في الرِّزقِ بالحِيَلِ والمكاسِبِ؛ لأنَّ اللهَ وَعَدَ الأرزاقَ وضَمِنَها بقَولِه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]؛ فرِزقُ كلِّ عبْدٍ مَجموعٌ عندَه، يُنَزَّلُ عليه بمَقدارِ ما يَصلُحُ له[٤].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ بَيانٌ للواقِعِ وليْس تَقريرًا للقُنوطِ؛ لأنَّ القُنوطَ حُكمُه الشَّرعيُّ أنَّه لا يَجوزُ، بلْ هو مِن كَبائرِ الذُّنوبِ؛ فالإخبارُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١٢).

بالواقِعِ أو عن الواقِعِ لا يَعني إقرارَه[١].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾ أنَّ الرَّحمةَ صِفةٌ مِن صِفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وتُطلَقُ على نِعَمِه؛ لأنَّها مِن آثارِ رَحمتِه[٢].

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أنَّ وَلايةَ اللهِ تعالَى مَحمودةٌ على كلِّ حالٍ، ولو قارنْتَ بيْن هذا وبيْن قَولِه: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦] تَجِدُ التَّناسُبَ التَّامَّ؛ فالغَنيُّ الحَميدُ: الذي يُحمَدُ على غِناه التامِّ بحيثُ يُغني به ما شاء، والوَليُّ الحَميدُ: الذي يُحمَدُ على وَلايتِه بحيثُ يَختَصُّ بالوَلايةِ الخاصَّةِ مَن شاء ويَمنَعُها عمَّن شاء، وعلى كلِّ حالٍ فوَلايتُه حَميدةٌ، وغِناه حَميدٌ عزَّ وجلَّ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾

- هذا الإخبارُ تَعريضٌ بالتَّحريضِ على مُبادَرةِ التَّوبةِ؛ ولذلك جِيءَ فيه بالفِعلِ المضارعِ الصَّالحِ للاستِقبالِ، وهو أيضًا بِشارةٌ للمُؤمنينَ بأنَّه قَبِلَ تَوبتَهم ممَّا كانوا فيه مِن الشِّركِ والجاهليَّةِ؛ فإنَّ الذي مِن شَأنِه أنْ يَقبَلَ التَّوبةَ في المستقبلِ يكونُ قدْ قَبِل تَوبةَ التَّائبينَ مِن قبْلُ، بدَلالةِ لَحْنِ الخِطابِ أو فَحْواه[٤]، وأنَّ مِن شَأنِه الاستجابةَ للذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مِن عِبادِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٤٣).

(٤) ينقسِمُ المفهومُ مِن الكلامِ إلى مَفهومِ موافَقةٍ، ومفهومِ مُخالَفةٍ؛ فمَفهومُ الموافَقةِ هو ما يُوافِقُ حُكْمُه المنطوقَ؛ فإنْ كان أَوْلى سُمِّيَ فَحْوى الخِطابِ، كدَلالةِ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣] على تَحريمِ الضَّربِ؛ لأنَّه أشَدُّ، وإنْ كان مُساوِيًا سُمِّيَ لَحْنَ الخِطابِ، أي: معناه، كدَلالةِ =

وكلُّ ذلك جَرْيٌ على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ وعكْسِه، وهذا كلُّه يَتضمَّنُ وَعْدًا للمُؤمنينَ بقَبولِ إيمانِهم، وللعُصاةِ بقَبولِ تَوبتِهم[١].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١] وما اتَّصَلَ بها ممَّا تَقدَّمَ ذِكرُه، وخاصَّةً جُملةَ ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤]. وابتناءُ الإخبارِ بهذه الجُملةِ على أُسلوبِ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ لإفادتِها ثَباتَ حُكمِها، ودَوامَه[٢].

- ومَجيءُ المسنَدِ اسمَ مَوصولٍ ﴿ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ...﴾؛ لإفادةِ اتِّصافِ اللهِ تعالَى بمَضمونِ صِلتِه، وأنَّها شأنٌ مِن شُؤونِ اللهِ تعالَى عُرِف به، ثابتٌ له لا يَتخلَّفُ؛ لأنَّه المُناسِبُ لِحكمتِه، وعظَمةِ شَأنِه، وغِناهُ عن خلْقِه. وإيثارُ جُملةِ الصِّلةِ بصِيغةِ المضارعِ ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ﴾؛ لإفادةِ تَجدُّدِ مَضمونِه وتَكرُّرِه؛ ليَعلَموا أنَّ ذلك وعْدٌ لا يَتخلَّفُ ولا يَختلِفُ[٣].

- وفِعلُ (قَبِلَ) يَتعدَّى بحَرْفِ (مِن) الابتدائيَّةِ تارةً -كما في قولِه: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقولِه: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ

= ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] على تَحريمِ الإحراقِ؛ لأنَّه مُساوٍ للأكْلِ في الإتلافِ. وعُرِّف لَحْنُ الخِطابِ أيضًا بأنَّه دَلالةٌ للاقتِضاءِ، وهو دَلالةُ اللفظِ الْتزامًا على ما لا يَستقِلُّ الحكمُ إلَّا به، وإنْ كان اللفظُ لا يَقتضيه وضْعًا. يُنظر: ((شرح تنقيح الفصول)) للقرافي (ص: ٥٣)، ((الذخيرة)) للقرافي (١/ ٦٢)، ((البحر المحيط في أصول الفقه)) للزركشي (٥/ ١٢٤)، ((الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع)) للكوراني (١/ ٤٣٨ - ٤٤٠)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ [آل عمران: ٩١]- فيُفيدُ مَعْنى الأخْذِ للشَّيءِ المقبولِ صادرًا مِن المأخوذِ منه. ويُعدَّى بحَرْفِ (عَنْ)، فيُفيدُ معْنى مُجاوَزةِ الشَّيءِ المقبولِ أو انفِصالِه عن مُعطيهِ وباذِلِه، وهو أشدُّ مُبالغةً في معْنى الفعلِ مِن تَعْديتِه بحَرْفِ (مِن)؛ لأنَّ فيه كِنايةً عن احتِباسِ الشَّيءِ المبذولِ عِندَ المبذولِ إليه بحيثُ لا يُرَدُّ على باذِلِه، فحصَلَتْ في هذه الجُملةِ أربعُ مُبالَغاتٍ: بِناءُ الجُملةِ على الاسميَّةِ، وعلى الموصوليَّةِ، وعلى المُضارعيَّةِ، وعلى تَعديةِ فِعلِ الصِّلةِ بحَرْفِ (عَنْ) دونَ (مِنْ)[١].

- وفي ذِكرِ اسمِ (العِبادِ) دونَ نحْوِ (النَّاسِ)، أو (التَّائبينَ)، أو غيرِ ذلك: إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ رَفيقٌ بعِبادِه لمَقامِ العُبوديَّةِ؛ فإنَّ الخالقَ والصَّانعَ يُحِبُّ صَلاحَ مَصنوعِه[٢].

- والتَّعريفُ في (السَّيِّئاتِ) تَعريفُ الجِنسِ المرادُ به الاستِغراقُ، وهو عامٌّ مَخصوصٌ بغيرِ الشِّركِ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، ويجوزُ أنْ يكونَ عِوَضًا عن المُضافِ إليه، أي: عن سَيِّئاتِ عِبادِه؛ فيَعُمَّ جَميعَ العِبادِ عُمومًا مَخصوصًا بالأدلَّةِ لهذا الحُكمِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ مُعترِضةٌ بيْن المُتعاطِفاتِ، أو في مَوضعِ الحالِ، والمقصودُ: أنَّه لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِ عِبادِه خيْرِها وشَرِّها[٤].

- وعُبِّرَ بقولِه: ﴿تَفْعَلُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ على طَريقةِ الالْتفاتِ[٥]، والالتفاتُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٩، ٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن الغَيبةِ إلى المخاطَبِ فيه نوعٌ مِن تَنشيطِ ذِهنِ السَّامِعِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الخِطابَ لكمْ أنتُمْ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الاستجابةُ: مُبالَغةٌ في الإجابةِ، وخُصَّتِ الاستجابةُ في الاستِعمالِ بامْتثالِ الدَّعوةِ أو الأمرِ(٢).

- ولَمَّا كانتِ الاستجابةُ والزِّيادةُ كَرامةً للمؤمنينَ، أُظهِرَ اسمُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وجِيءَ به مَوصولًا؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإيمانَ هو وَجْهُ الاستجابةِ لهم، والزِّيادةِ لهم(٣).

- وجُملةُ ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ اعتِراضٌ عائدٌ إلى ما سبَقَ مِن قولِه: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾[الشورى: ٢٢]؛ تَوكيدًا للوعيدِ، وتَحذيرًا مِن الدَّوامِ على الكُفْرِ بعْدَ فتْحِ بابِ التَّوبةِ لهم(٤).

- وفي هذه الآيةِ احتِباكٌ(٥)؛ فقدْ ذَكَرَ الاستجابةَ أوَّلًا؛ دَليلًا على ضِدِّها ثانيًا، والعذابَ ثانيًا؛ دَليلًا على ضِدِّه أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذَكَرَ الحامِلَ على الطَّاعةِ والصَّادَّ عن المعصيةِ(٦).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا

---

(١) يُنظر: ((لمسات بيانية لسور القرآن الكريم)) لفاضل السامرائي (١/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٧).

يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ أنَّ بَسْطَ الرِّزقِ مَفسَدةٌ للخَلْقِ[1]. أو عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٦]، أو على المجموعِ مِن جُملةِ ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الشورى: ٢٦] ومِن جُملةِ ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾، ومَوقعُ معناها مَوقعُ الاستِدراكِ والاحتراسِ؛ فإنَّها تُشيرُ إلى جَوابٍ عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ في نفْسِ السَّامعِ إذا سَمِعَ أنَّ اللهَ يَستجيبُ للذين آمَنوا، وأنَّه يَزيدُهم مِن فضْلِه؛ أنْ يَتساءَلَ في نفْسِه: إنَّ ممَّا يَسألُ المؤمنونَ سَعةَ الرِّزقِ والبَسطةَ فيه؛ فقدْ كان المؤمنونَ أيَّامَ صَدْرِ الإسلامِ في حاجةٍ وضِيقِ رِزقٍ؛ إذ منَعَهم المشرِكونَ أرزاقَهم، وقاطَعوا مُعاملتَهم، فيُجابُ بأنَّ اللهَ لو بسَطَ الرِّزقَ للنَّاسِ كلِّهم، لكان بسْطُه مُفسِدًا لهم؛ لأنَّ الَّذي يَستغني يَتطرَّقُه نِسيانُ الالْتجاءِ إلى اللهِ، ويَحمِلُه على الاعتداءِ على النَّاسِ، فكان مِن خَيرِ المؤمنينَ الآجِلِ لهم ألَّا يُبسَطَ لهم في الرِّزقِ، وكان ذلك مَنوطًا بحِكمةٍ أرادَها اللهُ مِن تَدبيرِ هذا العالَمِ تَطَّرِدُ في النَّاسِ مُؤمنِهم وكافرِهم، وقدْ كان في ذلك للمُؤمنِ فائدةٌ أُخرى؛ وهي ألَّا يَشغَلَه غِناهُ عن العَملِ الذي به يَفوزُ في الآخِرةِ، فلا تَشغَلَه أمْوالُه عنه.

وقد ورَدتْ هذه الآيةُ مَوردًا كُلِّيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ يَعُمُّ جميعَ العبادِ، ومِن هذه الكُلِّيَّةِ تَحصُلُ فائدةُ المسؤولِ عليه الجُزئيِّ الخاصِّ بالمؤمنينَ، مع إفادةِ الحِكمةِ العامَّةِ مِن هذا النِّظامِ التَّكوينيِّ؛ فكانتْ هذه الجُملةُ بهذا الاعتبارِ بمَنزلةِ التَّذييلِ؛ لِما فيها مِن العُمومِ، أي: إنَّ اللهَ أسَّسَ نِظامَ هذا العالَمِ على قَوانينَ عامَّةٍ، وليْس مِن حِكمتِه أنْ يخُصَّ أولياءَه وحِزبَه بنِظامٍ تَكوينيٍّ دُنيويٍّ،

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٤).

ولكنَّه خَصَّهم بمَعاني القُربِ والرِّضا والفوْزِ في الحياةِ الأبديَّةِ، وربَّما خَصَّهم بما أرادَ تَخصيصَهم به ممَّا يَرجِعُ إلى إقامةِ الحقِّ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ واقعةٌ مَوقعَ التَّعليلِ للتي قبْلَها. وافتُتِحتْ بحَرْفِ (إنَّ) التي لم يُرَدْ منها تأْكيدُ الخبرِ، ولكنَّها لِمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخبرِ، والإيذانِ بالتَّعليلِ؛ لأنَّ (إنَّ) في مِثلِ هذا المَقامِ تَقومُ مَقامَ فاءِ التَّفريعِ، وتُفيدُ التَّعليلَ والرَّبطَ؛ فالجُملةُ في تَقديرِ المعطوفةِ بالفاءِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ أي: مُحيطٌ بخَفيَّاتِ أُمورِهم وجَلاياها، فيُقدِّرُ لكلِّ واحدٍ منْهم في كلِّ وقْتٍ مِن أوقاتِهم ما يَليقُ بشأْنِه؛ فيُفقِرُ ويُغْني، ويَمنَعُ ويُعْطي، ويَقبِضُ ويَبسُطُ حسْبما تَقتضيهِ الحِكمةُ الرَّبَّانيَّةُ[٣]. وقيل: جمَع بيْن وَصفَيْ ﴿خَبِيرُۢ﴾ و﴿بَصِيرٞ﴾؛ لأنَّ وَصْفَ (خَبير) دالٌّ على العِلمِ بمَصالحِ العبادِ وأحوالِهم قبْلَ تَقديرِها، وتَقديرِ أسبابِها، أي: العِلمِ بما سيَكونُ، ووَصْفَ (بَصير) دالٌّ على العِلمِ المتعلِّقِ بأحوالِهم التي حصَلتْ، وفرْقٌ بيْن التَّعلُّقينِ للعِلمِ الإلهيِّ[٤].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿إِنَّهُۥ﴾ بالضَّميرِ و﴿خَبِيرُۢ﴾، وقال في سُورةِ (فاطر): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [فاطر: ٣١] بلَفظِ الجَلالةِ الصَّريحِ ﴿ٱللَّهَ﴾، وبزِيادةِ اللَّامِ في ﴿لَخَبِيرُۢ﴾؛ لأنَّ الآيةَ المُتقدِّمةَ في هذه السُّورةِ لم يَكُنْ فيها ذِكرُ اللهِ، فصَرَّحَ باسمِه سُبحانَه. وبزِيادةِ اللَّامِ؛ مُوافَقةً لِقولِه بعْدُ: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٢، ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٤).

وقالَه هنا بالضَّميرِ؛ لِتقَدُّمِ لَفظِ (الله)، وبحَذفِ اللَّامِ؛ لِعَدَمِ ما يَقتَضي ذِكرَها؛ فهو مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ ﴾، فخُصَّ بالكِنايةِ -أي: الضَّميرِ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ [الشورى: ٢٧]؛ فإنَّ الغيثَ سَببُ رِزقٍ عَظيمٍ، وهو ما يُنزِّلُه اللهُ بقَدَرٍ هو أعلَمُ به، وفيه تَذكيرٌ بهذه النِّعمةِ العَظيمةِ على النَّاسِ، الَّتي منها مُعظَمُ رِزقِهم الحقيقيِّ لهم ولأنْعامِهم. وخَصَّها بالذِّكرِ دونَ غيرِها مِن النِّعمِ الدُّنيويَّةِ؛ لأنَّها نِعمةٌ لا يَختلِفُ النَّاسُ فيها؛ لأنَّها أصلُ دَوامِ الحياةِ بإيجادِ الغذاءِ الصَّالحِ للنَّاسِ والدَّوابِّ؛ وبهذا يَظهَرُ وَقْعُ قَولِه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [الشورى: ٢٩] عقِبَ قولِه هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾[٢].

- واختيارُ التَّعبيرِ بصِيغةِ المضارعِ في قولِه: ﴿يُنَزِّلُ﴾؛ لإفادةِ تَكرُّرِ التَّنزيلِ وتَجديدِه[٣].

- والتَّعبيرُ بالماضي في قولِه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾؛ للإشارةِ إلى حُصولِ القُنوطِ وتَقرُّرِه بمُضيِّ زمانٍ عليه[٤].

- وتَقييدُ تَنزيلِ الغيثِ بقولِه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾ مع تَحقُّقِه بدونِه أيضًا؛

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لِتَذكُّرِ كَمالِ النِّعمةِ[١].

- وصِيغةُ القَصْرِ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ -المستفادِ من تَعريفِ جُزأي الجُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾- تُفيدُ قَصْرَ القَلْبِ؛ لأنَّ في السَّامعينَ مُشرِكينَ يَظُنُّونَ نُزولَ الغَيثِ مِن تَصرُّفِ الكواكبِ، وفيهم المسلمونَ الغافِلونَ، نُزِّلوا مَنزلةَ مَن يَظُنُّ نُزولَ الغيثِ مَنوطًا بالأسبابِ المعتادةِ لِنُزولِ الغَيثِ؛ لأنَّهم كانوا في الجاهليَّةِ يَعتقِدونَ أنَّ المطرَ مِن تَصرُّفِ أَنْواءِ[٢] الكواكبِ؛ فهذا القَصْرُ بالنِّسبةِ للمُشرِكينَ قصْرُ قلْبٍ أصليٌّ[٣]، وهو بالنِّسبةِ للمُسلِمينَ قصْرُ قلْبٍ تَنزيليٌّ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ...﴾ الآيةَ: ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بِصِحَّةِ التَّفسيرِ؛ وهو أنْ يأتيَ المتكلِّمُ في أوَّلِ كلامِه بمعنًى لا يَستقِلُّ الفَهمُ بمَعرفةِ فَحْواهُ؛ إمَّا أنْ يكونَ مُجمَلًا يَحتاجُ إلى تَفصيلٍ، أو مُوجَّهًا يَفتقِرُ إلى تَوجيهٍ، أو مُحتمِلًا يَحتاجُ المرادُ منه إلى تَرجيحٍ لا يَحصُلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٢).

(٢) الأنواءُ: مَنازِلُ القَمَرِ، وكانت العَرَبُ تَزعُمُ أنَّ عندَ كُلِّ نَوءٍ مَطَرًا، ويَنسُبونَه إليه، فيقولون: مُطِرْنا بنَوءِ كذا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٨٩٥).

(٣) قصرُ القَلْبِ الأصليُّ: المقصودُ به قصرُ القَلْبِ الحقيقيُّ، وهو تخصيصُ أمرٍ بأمْرٍ مكانَ آخَر، ويُخاطَب به مَن يَعتقدُ العكسَ، كقولك: جاءني زيدٌ لا عمرٌو، مخاطبًا مَن يَعتقِد أنَّ عمرًا هو الذي جاءَك دون زيدٍ؛ فأنت تَعكِس وتَقلِب ما يَعتقِدُه؛ ولذا سُمي قصْرَ قلْبٍ، ومنه قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]؛ لأنَّ المنافقين يَعتقدون أنَّ المؤمنين هم السفهاءُ دونهم؛ فقَلَب اللهُ عزَّ وجلَّ اعتقادَهم وبيَّن أنَّ المنافقين هم السفهاءُ ولكنْ لا يَعلَمون. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٥)، ((بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح)) لعبد المتعال الصعيدي (٢/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٥، ٩٦).

إلَّا بتَفسيرِه وتَبْيينِه، ووُقوعُ التَّفسيرِ يَأتي في الكلامِ على أنحاءٍ؛ منها أنْ يأتيَ بعْدَ الجارِّ والمجرورِ، كما في هذه الآيةِ، وقد جاءتْ صِحَّةُ التَّفسيرِ فيها مُؤْذِنةً بمَجيءِ الرَّجاءِ بعْدَ اليأسِ، والفرَجِ بعْدَ الشِّدَّةِ، والمَسرَّةِ بعدَ الحُزنِ؛ لِيَكونَ ذلك أَحْلى مَوقعًا في القلوبِ[1].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ذكَرَ صِفتَيِ الوليِّ الحَميدِ دونَ غيرِهما؛ لمُناسَبتِهما للإغاثةِ؛ لأنَّ الوليَّ يُحسِنُ إلى مَوالِيهِ، والحَميدَ يُعطِي ما يُحمَدُ عليه، ووَصْفُ حَميدٍ: فَعيلٌ بمعْنى مَفعولٍ، أي: هو مَحمودٌ[2].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٦).

الآيات (٢٩-٣٥)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَثَّ﴾: فرَّق ونشَرَ، وأصلُ (بثث): يدُلُّ على تَفريقِ الشَّيءِ وإظهارِه[1].

﴿ٱلْجَوَارِ﴾: جمعُ جاريةٍ، وهي السُّفُنُ الجارِيةُ في البَحرِ، وأصلُ (جري): يدُلُّ على انسياحِ شَيءٍ[2].

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾: أي: كالجِبالِ، واحِدُها عَلَمٌ، وأصلُ (علم): يدُلُّ على أثَرٍ بالشَّيءِ يَتميَّزُ به عن غَيرِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣، ٤٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣، ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠).

﴿رَوَاكِدَ﴾: أي: سَواكِنَ وثَوابِتَ، وأصلُ (ركد): يدُلُّ على سُكونٍ[١].

﴿يُوبِقْهُنَّ﴾: أي: يُهلِكْهنَّ ويُغرِقْهنَّ، وأصلُ (وبق) هنا: يدُلُّ على هَلاكٍ[٢].

﴿مَّحِيصٍ﴾: أي: مَهرَبٍ، وأصلُ (حيص): يدُلُّ على المَيلِ في جَورٍ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ * وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾

- قَولُه تعالى: ﴿يُسْكِنِ﴾ جَوابُ الشَّرطِ مَجزومٌ، و﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ مَعطوفٌ على جَوابِ الشَّرطِ مَبنيٌّ في مَحلِّ جَزمٍ لاتِّصالِه بنُونِ النِّسوةِ، وكذلك ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ ﴿وَيَعْفُ﴾ مَجزومانِ عَطفًا على جوابِ الشَّرطِ أيضًا. وجُملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾ مُعتَرِضةٌ بيْنَ المتعاطِفَينِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧، ٨٨٢).

- وأمَّا قولُه: ﴿وَيَعْلَمَ﴾ -بالنَّصب- ففيه أوجُهٌ؛ الأوَّلُ: أنَّه مَنصوبٌ على إضمارِ (أنْ) بعْدَ (واوِ المَعيَّةِ)؛ لأنَّ قَبْلَه شَرطًا وجَزاءً، وكلُّ واحدٍ منهما غيرُ مُثبَتٍ؛ فصَحَّ النَّصبُ في جَوابِه؛ تقولُ: ما تَصنَعْ أصنَعْ مِثلَه وأُكْرِمَكَ. وهذه الواوُ عاطِفةٌ مَصدرًا مُقَدَّرًا على مَصدَرٍ مُتصَيِّدٍ مِنَ الكَلامِ السَّابِقِ. والثاني: أنَّ الفِعلَ مَنصوبٌ على الصَّرفِ[1]، والواوُ في ﴿وَيَعْلَمَ﴾ سَمَّاها الكوفيُّونَ (واوَ الصَّرفِ)، وهذه الواوُ ناصِبةٌ بنَفسِها عِندَهم، ومعناها: أنَّ الفِعلَ (يَعلَم) كان يَستَحِقُّ وَجهًا مِن الإعرابِ غيرَ النَّصبِ -وهو الجَزمُ عَطفًا على ما قَبْلَه- فصُرِفَ بدُخولِ هذه الواوِ عليه عن ذلك الإعرابِ إلى النَّصبِ. والثَّالِثُ: أنَّ الفعلَ (يَعلَمَ) منصوبٌ عَطفًا على تَعليلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: لِينتقِمَ منهم ويَعلَمَ الذين.

وعلَى قِراءةِ ﴿وَيَعْلَمُ﴾ بالرَّفعِ على الاستِئنافِ[2]، ولا يكونُ داخِلًا في جَوابِ الشَّرْطِ[3].

---

(١) الصَّرْفُ هنا: هو الإتيانُ بالواوِ مَعطوفًا على كَلامٍ في أوَّلِه حادثةٌ لا تَستقيمُ إعادتُها على ما عُطِفَ عليها، ويُنصَبُ على الصَّرفِ عندَ الكوفيِّين في الأفعالِ حين يَفسُدُ معْنى العطْفِ. ويكونُ في الأسماءِ عندما تُعْطَفُ الأسماءُ الظَّاهرةُ على ضَميرِ رفْعٍ مُتَّصلٍ دونَ تَوكيدِه أو فصْلِه، كقولِهم: (لو تُرِكْتَ والأسدَ لَأَكَلَك)؛ فمُقْتضى العطفِ أنْ يُرفَعَ (الأسد)، لكنِ انصَرَفَت العربُ عن الرَّفعِ إلى النَّصبِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٣٣- ٣٤)، و(١/ ١١٥)، ((الأصول في النحو)) لابن السراج (٢/ ١٨٩).

(٢) قرَأ ابنُ عامرٍ والمَدَنِيان -نافعٌ وأبو جعفرٍ- برفْعِ الميم، وقرَأ الباقون بنصْبِها. يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٥٧)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ٢٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجَّاج (٤/ ٣٩٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٢٢٥)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٧)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٤٠).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا كَمالَ قُدرتِه وعظَمتِه: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على عَظَمةِ اللهِ تعالَى وقُدرتِه: خَلقُ السَّمَواتِ والأرضِ، وما نَشَر اللهُ فيهما مِن مَخلوقاتٍ، واللهُ تعالَى قَديرٌ على جَمعِ مَخلوقاتِه إذا شاء أنْ يَجمَعَها.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالَى جانبًا مِن عدْلِه وفَضلِه، فيقولُ: وما أصابَكم -أيُّها النَّاسُ- مِن مُصيبةٍ فبِما عَمِلتُموه مِن سَيِّئاتٍ، ويَعفو اللهُ عن كَثيرٍ مِن ذُنوبِكم، فلا يُعاقِبُكم عليها.

ثمَّ يقولُ مُحذِّرًا مِن عُقوبتِه: وما أنتُم بمُعجِزينَ اللهَ في الأرضِ، وليْس لكم مِن دُونِه سُبحانَه وَليٌّ ولا نَصيرٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُبيِّنًا جانبًا آخَرَ مِن قُدرتِه: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على كَمالِ قُدرتِه سُبحانَه: السُّفُنُ الجاريةُ في البَحرِ كالجِبالِ، إنْ يَشَأِ اللهُ ألَّا تَجريَ تلك السُّفُنُ في البَحرِ يُسكِنِ الرِّيحَ التي تُسَيِّرُ تلك السُّفُنَ، فيَثْبُتْنَ في مَواضِعِهنَّ على سَطحِ الماءِ -إنَّ في ذلك لعَلاماتٍ يَستَدِلُّ بها كُلُّ صَبَّارٍ شَكورٍ- أو يُغرِقِ اللهُ تلك السُّفُنَ بذُنوبِ أهلِها، ويَتجاوَزْ عن كَثيرٍ مِن الذُّنوبِ، فلا يُعاقِبْ عليها.

ثمَّ يقولُ سُبحانَه: ويَعلَمَ الذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ تعالَى أنَّه لا مَهْرَبَ لهم مِن عِقابِ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان إنزالُ الغيثِ جامعًا بيْنَ كَونِه نِعمةً، وكونِه آيةً دالَّةً على بَديعِ صُنعِ اللهِ تعالَى، وعَظيمِ قُدرتِه المُقتضيةِ انفرادَه بالإلهيَّةِ؛ انتُقِلَ مِن ذِكرِه إلى ذِكرِ آياتٍ دالَّةٍ على انفِرادِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ، وهي آيةُ خلْقِ العوالِمِ العَظيمةِ، وما فيها ممَّا هو مُشاهَدٌ للنَّاسِ دونَ قصْدِ الامتنانِ[1].

وأيضًا أنَّه لَمَّا كان ما مضَى مِن بَسطِ الرِّزقِ وقَبْضِه، وإنزالِ الغَيثِ وحَبْسِه: مِن الآياتِ العَظميةِ؛ عَمَّم بذِكرِ ما ذلك بَعضٌ منه، وهو دالٌّ على جَميعِ ما خُتِمَ به الآيةُ السَّالِفةُ مِن الحَمدِ الذي هو الاتِّصافُ بجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ، فقال[2]:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الباهِرةِ الدَّالَّةِ على عَظَمةِ اللهِ تعالى، وعَظيمِ مُلكِه وقُدرتِه، وغيرِ ذلك مِن صِفاتِ كمالِه: أنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ، وفرَّقَ ونَشَرَ فيهما مَخلوقاتٍ مُتَنوِّعةً[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩).

قال ابنُ كَثير: (هذا يَشمَلُ الملائكةَ والجِنَّ والإنسَ وسائرَ الحيواناتِ، على اختِلافِ أشكالِهم وألوانِهم ولُغاتِهم، وطِباعِهم وأجناسِهم، وأنواعِهم، وقد فرَّقَهم في أرجاءِ أقطارِ الأرضِ والسَّمَواتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧).

قال البِقاعيُّ: (لَمَّا كانت الأرضُ بناءً، والسَّماءُ سقْفَه، فمَن كان في أحدِهما صحَّ نِسبتُه إلى أنَّه في كلٍّ منهما: الأسفل بالإقلالِ، والأعلى بالإظلالِ؛ قال تعالى: ﴿فِيهِمَا﴾ أي: السَّمَواتِ والأرضِ، ولا سيَّما وقد جعَل لكلٍّ منهما تَسبُّبًا في ذلك بما أودَعَهما مِن الجواهرِ، وأنشَأ عنهما مِن العناصرِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣١٢-٣١٣). =

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾.

أي: واللهُ على جَمعِ مَخلوقاتِه التي بَثَّها في السَّمَواتِ والأرضِ -إذا شاء أن يَجمَعَها- ذو قُدرةٍ بالغةٍ عَظيمةٍ؛ فلا يُعجِزُه إحياؤُهم بعدَ مَوتِهم، وجَمعُهم يومَ القِيامةِ[1].

كما قال تعالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ [التكوير: ٥].

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَّرَهم سُبحانَه بنِعَمِه، وكان السِّياقُ لِتَعدادِ ما ناسَبَ مَقصودَ هذه السُّورةِ منها؛ كان الفِكرُ جَديرًا بأنْ يَخطُرَ له ما في الدُّنيا مِن الأمراضِ والأنكادِ،

= وقال ابنُ عاشور: (قد يكونُ المرادُ مِن الظَّرفيَّةِ في قَولِه: ﴿فِيهِمَا﴾ ظَرفيَّةَ المَجموعِ لا الجَميعِ، أي: ما بَثَّ في مجموعِ الأرضِ والسَّماءِ مِن دابَّةٍ؛ فالدَّابَّةُ إنَّما هي على الأرضِ، ولَمَّا ذُكِرَت الأرضُ والسَّماءُ مُقترِنتَينِ، وجاء ذِكرُ الدَّوابِّ؛ جُعِلَت الدَّوابُّ مَظروفةً فيهما؛ لأنَّ الأرضَ مَحوطةٌ بالسَّمَواتِ ومُتَخَيَّلةٌ منها كالمظروفِ في ظَرفِه، والمظروفُ في ظَرفٍ مَظروفٌ في ظَرفِ مَظروفِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٧).

وقال ابنُ عُثَيمين: (ظاهِرُ الآيةِ الكَريمةِ أنَّ السَّمَواتِ فيها دوابُّ كالأرضِ، وإذا سألَنَا السَّائِلُ: ما هذه الدوابُّ؟ قُلْنا: إمَّا الملائِكةُ أو غَيرُها. اللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٤٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦٩-٣٧٠)، ((تفسير المنار)) محمد رشيد رضا (٧/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٦٠-٢٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٣-٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩).

والهُمومِ والغُمومِ بالإشقاءِ فيها والإسعادِ؛ قال شافيًا لِعِيِّ[١] سُؤالِه عن ذلك، ببَيانِ ما فيه مِن نِعمتِه على وَجهٍ دالٍّ على تَمامِ قُدرتِه، عاطِفًا على ما هو مَضمونُ ما مضَى بما تَقديرُه: فهو الذي خلَقَكم ورَزَقكم، وهو المتصَرِّفُ فيكم بعْدَ بَثِّكم بالعافيةِ والبلاءِ تَمامَ التَّصَرُّفِ؛ فلا نِعمةَ عندَكم ولا نِقمةَ إلَّا منه، ولا يَقدِرُ أصحابُها على رَدِّها ولا رَدِّ شَيءٍ منها؛ فهو وَليُّكم وَحْدَه[٢].

وأيضًا لَمَّا تَضمَّنَتِ المِنَّةُ بإنزالِ الغَيثِ بعْدَ القُنوطِ أنَّ القومَ أصابَهم جَهدٌ مِن القَحطِ بلَغَ بهم مَبلَغَ القُنوطِ مِن الغَيثِ؛ أُعقِبَ ذلك بتَنبيهِهم إلى أنَّ ما أصابَهم مِن ذلك البُؤسِ هو جَزاءٌ على ما اقتَرَفوه مِن الشِّركِ؛ تَنبيهًا يَبعَثُهم ويَبعَثُ الأُمَّةَ على أنْ يُلاحِظوا أحوالَهم نحْوَ امتِثالِ رِضا خالِقِهم، ومُحاسَبةِ أنفُسِهم؛ حتَّى لا يَحسَبوا أنَّ الجزاءَ الذي أُوعِدوا به مَقصورٌ على الجزاءِ في الآخِرةِ، بلْ يَعلَموا أنَّه قدْ يُصيبُهم اللهُ بما هو جَزاءٌ لهم في الدُّنيا[٣].

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾.

أي: وما أصابَكُم -أيُّها النَّاسُ- مِن مَصائِبَ ومِحَنٍ، فهو بسَبَبِ ما عَمِلتُموه مِن سَيِّئاتٍ[٤].

كما قال تعالَى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا

(١) العِيُّ: الجَهْلُ، وخِلافُ البيانِ. والعيُّ بالأمْرِ: عدمُ الاهتداءِ لوجهِه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٤٤٢)، ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (٣/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٤-٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٥٠-٢٥١).

نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر سُبحانَه عدْلَه؛ أتْبَعَه فضْلَه، فقال[١]:

﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾.

أي: ويَعفو اللهُ عن كثيرٍ مِن ذُنوبِكم؛ فلا يُعاقِبُكم عليها بالمَصائِبِ والشَّدائِدِ في الدُّنيا[٢].

كما قال تعالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر: ٤٥].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ، وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما يُصيبُ المُسلِمَ مِن نَصَبٍ ولا وَصَبٍ[٣]، ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ، ولا أذًى ولا غَمٍّ، حتَّى الشَّوكةُ يُشاكُها؛ إلَّا كفَّرَ اللهُ بها مِن خَطاياه))[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٣).

(٣) النَّصَبُ: التَّعَب. والوَصَبُ: المرَضُ الدَّائِمُ المُلازِمُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٨/ ٣٤٠).

(٤) رواه البخاري (٥٦٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٣).

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١﴾.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ولَستُم تُعجِزونَ اللهَ في الأرضِ؛ فلا يُمكِنُكم الفِرارُ فيها مِن المصائِبِ والعُقوباتِ إنْ أرادَ إنزالَها بكم[1].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أفادَ قولُه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ نَفْيَ أنْ يكونَ لهم مَنجًى مِن سُلطةِ اللهِ؛ أُتْبِعَ بنَفْيِ أنْ يكونَ لهم مَلجأٌ يَلجَؤونَ إليه لِيَنصُرَهم ويَقِيَهم مِن عَذابِ اللهِ[2].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

أي: وليْس لكم مِمَّا سِوى اللهِ أيُّ وَليٍّ يَتولَّاكم، ولا أيُّ نَصيرٍ يَنصُرُكم مِن دُونِ اللهِ؛ فاتَّقُوا مَعصيتَه، واحذَروا عِقابَه[3].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٣).

قال ابنُ عاشور: (أي: يَعفو عن قُدرةٍ؛ فإنَّكم لا تُعجِزونَه ولا تَغلِبونَه، ولكِنْ يَعفو تفضُّلًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَر تعالَى مِن دَلائِلِ وَحدانيَّتِه أنواعًا، ذكَرَ بَعْدَها العالَمَ الأكبَرَ، وهو السَّمَواتُ والأرضُ، ثمَّ العالَمَ الأصغَرَ، وهو الحيوانُ، ثمَّ أتْبَعَه بذِكرِ المَعادِ؛ أتبَعَه بذِكرِ السُّفُنِ الجاريةِ في البَحرِ؛ لِما فيها مِن عَظيمِ دَلائِلِ القُدرةِ[١].

وأيضًا لَمَّا دَلَّ سُبحانَه على تَمامِ قُدرتِه واختيارِه، وخَتَم بنَفيِ الشَّريكِ اللَّازِمِ للوَحدانيَّةِ التي اعتِقادُها أساسُ الأعمالِ الصَّالحةِ؛ دَلَّ عليها بأعظَمِ الآياتِ عِندَهم، وأوضَحِها في أنفُسِهم، وأقرَبِها إلى أفهامِهم؛ لِما لهم مِن الإخلاصِ عندَها، فقال تعالَى[٢]:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الباهِرةِ الدَّالَّةِ على عَظيمِ سُلطانِ اللهِ ومُلكِه، وكَمالِ قُدرتِه وغَيرِ ذلك مِن صِفاتِ كَمالِه: السُّفُنُ الجاريةُ في البَحرِ، التي هي كالجِبالِ[٣].

قال تعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤].

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٥، ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٧-٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٣).

قال الرازي: (اتَّفقوا على أنَّ المرادَ بالأعلامِ الجِبالُ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٦).

والرِّوايةُ الثانيةُ عن مجاهدٍ أنَّ الأعلامَ هنا بمعنى: القُصورِ. ذكَره الثَّعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢١).

﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ﴾.

أي: إنْ يَشَأِ اللهُ تعالَى ألَّا تَجريَ تلك السُّفُنُ في البَحرِ يَمنَعْ هُبوبَ الرِّيحِ التي تُسَيِّرُها، فَيثبُتْنَ في مَواضِعِهنَّ على سَطحِ الماءِ، فلا يَتقَدَّمْنَ ولا يَتأخَّرْنَ[1].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾.

أي: إنَّ في ذلك[2] لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ يَستَدِلُّ بها ويَعتَبِرُ كُلُّ مَن كان كَثيرَ الصَّبرِ، كثيرَ الشُّكرِ للهِ تعالَى[3].

كما قال سُبحانَه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [لقمان: ٣١].

﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ٣٤﴾.

﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾.

أي: أو إنْ يَشَأِ اللهُ يُغرِقْ تِلك السُّفُنَ بسَببِ ذُنوبِ أهلِها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٦).

(٢) قيل: المشارُ إليه بقَولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ جرْيُ هذه الجواري في البَحرِ بقُدرةِ اللهِ، حيثُ سَخَّر لها البحرَ، وأجرَى لها الهواءَ. ومِمَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملة: ابنُ جَرير، وابن كَثير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٧١).

وقِيلَ: المُرادُ: ما ذُكِرَ مِن حالِ السُّفُنِ في سَيرِها ورُكودِها. ومِمَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملة: مقاتلُ بنُ سليمان، والبقاعيُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾.

أي: ويَتجاوَزِ اللهُ عن كَثيرٍ مِن الذُّنوبِ، فلا يُعاقِبْ عليها[١].

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ٣٥﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالَى: ﴿وَيَعْلَمَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ الرَّفعِ: ﴿وَيَعْلَمُ﴾ على الاستئنافِ إمَّا بجُملةٍ فِعليَّةٍ، ويكونُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾

= (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٦).

قال ابنُ كَثير: (قال بعضُ عُلَماءِ التَّفسيرِ: معنى قَولِه: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي: لو شاء لَأرسَلَ الرِّيحَ قويَّةً عاتيةً، فأخَذَت السُّفُنَ وأحالَتْها عن سَيرِها المُستقيمِ، فصَرَفَتْها ذاتَ اليمينِ أو ذاتَ الشِّمالِ آبِقةً لا تَسيرُ على طَريقٍ ولا إلى جِهةِ مَقصِدٍ. وهذا القَولُ يتضَمَّنُ هَلاكَها، وهو مُناسِبٌ للأوَّلِ؛ وهو أنَّه تعالى لو شاء لسَكَّن الرِّيحَ فوقَفَت، أو لقَوَّاه فشَرَدَت وأَبَقَت وهَلَكَت). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩، ٢١٠).

ومِمَّن ذهَب إلى هذا المعنى: القُرطبي، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦٥، ٢٦٨).

قال أبو حيَّانَ: (لا يتعيَّنُ أنْ يكونَ التقديرُ: أو يَعصِفْها فيَغرَقْنَ؛ لأنَّ إهلاكَ السُّفنِ لا يَتعيَّنُ أنْ يكونَ بعصْفِ الرِّيحِ، بل قدْ يُهلِكُها تعالى بسَببٍ غيرِ الرِّيحِ، كنُزولِ سطْحِها بكَثرةِ الثِّقَلِ، أو انكسارِ اللَّوحِ يكونُ سَببًا لإهلاكِها، أو يَعرِضُ عدوٌّ يُهلِكُ أهْلَها). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤١). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩).

قال الزمخشريُّ: (أو إنْ يَشَأْ يُهلِكْ ناسًا، ويُنجِ ناسًا على طَريقِ العَفوِ عنهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٧).

وقال ابنُ عُثَيمين: (يعني: حتَّى مع إغراقِ السُّفُنِ يَعفو اللهُ تبارَك وتعالَى عن كثيرٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦٨).

فاعِلًا، قِيل: مَعناها: وسيَعلَمُ الذين يُجادِلون في آياتِنا...، وإمَّا بجُملةٍ اسميَّةٍ، أي: وهو يَعلَمُ الذين... ويكونُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مَفعولًا[1].

٢- قِراءةُ النَّصبِ: ﴿وَيَعۡلَمَ﴾ على العَطفِ على تَعليلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: لِيَنتقِمَ منْهم ويَعلَمَ الذين يُجادِلون... وقيل غيرُ ذلك[2].

﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٣٥﴾.

أي: ويَعلَمَ الذين يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ تعالَى لِدَفعِها وإبطالِها أنَّه لا مَفَرَّ لهم ولا مَهرَبَ يَحيدونَ إليه مِن عِقابِ اللهِ تعالَى[3].

---

(١) قرَأ بها ابنُ عامرٍ ونافعٌ وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٥٨).

(٢) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩).

قال ابنُ الجَوْزيُّ: (للمُفَسِّرين في معنى الآيةِ قولانِ: أحَدُهما: ويَعلَمَ الذين يُخاصِمونَ في آياتِ اللهِ حينَ يُؤخَذونَ بالغَرَقِ أنَّه لا مَلجأَ لهم. والثَّاني: أنَّهم يَعلَمونَ بعْد البَعثِ أنَّه لا مَهرَبَ لهم مِنَ العَذابِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٧).

ومِمَّن ذهَب إلى نحْوِ القَولِ الأوَّلِ: الرَّسْعني، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣).

وقال ابنُ تَيمية: (ومَعنى آيةِ الشُّورى: أنَّه سُبحانَه إنْ شاء أسكَنَ فيَظْلَلْنَ رواكِدَ على ظَهْرِه، وإنْ شاء أوبَقَهنَّ بما كَسَبوا، ويَعفو عن كَثيرٍ، ويَعلَمَ الذين يجادِلونَ في آياتِنا، وهذا كُلُّه في جَوابِ: ﴿إِن يَشَأۡ﴾ أي: وإن يشأْ يُهلِكْهنَّ بذُنوبِهم ويَعْفُ أيضًا عن كثيرٍ منها، ويجتَمِعَ مع ذلك عِلمُ المجادِلينَ في آياتِنا بأنَّهم ما لهم مِن محيصٍ؛ فهو إنْ شاء جَمَع بيْنَ أنْ يُهلِكَ بَعضًا، ويَعفوَ =

الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أنَّ هذه المخلوقاتِ هي مِن آياتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ العَظيمةِ، ولكِنْ لا يُتبيَّنُ أنَّها مِن آياتِ اللهِ إلَّا بالتَّأمُّلِ والتَّدَبُّرِ؛ لأنَّنا اعتَدْنا هذه المخلوقاتِ؛ اعتَدْنا طُلوعَ الشَّمسِ وغُروبَها، وطُلوعَ القَمَرِ وغُروبَه، فلم يَكُنْ ذلك مُحَرِّكًا لقُلوبِنا؛ لأنَّه شَيءٌ مُعتادٌ، ولكِنْ لو أنَّنا تَدبَّرْنا هذه المخلوقاتِ لَتبيَّنَ لنا أنَّها مِن آياتِ اللهِ العَظيمةِ[(١)]!

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ داعٍ لكُلِّ أحَدٍ إلى المبادَرةِ عندَ وُقوعِ المُصيبةِ إلى مُحاسَبةِ النَّفسِ؛ لِيَعرِفَ مِن أينَ جاء تَقصيرُه، فيُبادِرَ إلى التَّوبةِ عنه، والإقبالِ على اللهِ تعالَى؛ لِيُنقِذَ نَفْسَه مِنَ الهَلَكةِ[(٢)]. قيل لأبي سُلَيمانَ الدَّارانيِّ: (ما بالُ العُقلاءِ أزالوا اللَّومَ عمَّن أساءَ لهم؟! قال: إنَّهم عَلِموا أنَّ اللهَ إنَّما ابْتَلاهم بذُنوبِهم، وقرَأ هذه الآيةَ)[(٣)]، وفي هذا تَبشيرٌ وتَحذيرٌ؛ إذ أعلَمَنا أنَّ مَصائبَ الدُّنيا عُقوباتٌ لِذُنوبِنا، وهو أرحَمُ أنْ يُثَنِّيَ العُقوبةَ على عَبدِه بذَنْبٍ قدْ عاقَبَه به في الدُّنيا[(٤)]!

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أنَّه لا مَلجَأَ

= عن بعضٍ، وبيْنَ عِلمِ المجادِلينَ في آياتِه حينئذٍ أنَّه ما لهم مِن مَحيصٍ). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٤/ ٥٢٩).

ومِمَّن ذهَب إلى القَولِ الثاني: الواحديُّ، والبَغوي، والخازن. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٥-٣١٦).

(٣) يُنظر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٢/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٥٥).

للبَشَرِ في جَلبِ المنافعِ ودَفعِ المَضارِّ إلَّا إلى اللهِ تعالَى، وأنَّهم مهْما استغاثوا بغَيرِه فإنَّهم خائِبونَ(١).

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّ المؤمِنَ يَجِبُ ألَّا يَكونَ غافِلًا عن دَلائِلِ مَعرفةِ اللهِ البتَّةَ؛ لأنَّه لا بدَّ أن يكونَ إمَّا في البَلاءِ، وإمَّا في الآلاءِ؛ فإنْ كان في البَلاءِ كان مِن الصَّابِرينَ، وإنْ كان في النَّعماءِ كان مِن الشَّاكِرينَ، وعلى هذا التَّقديرِ فإنَّه لا يكونُ البتَّةَ مِن الغافِلينَ(٢).

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن المعاصي، وأنَّها سَببٌ للعُقوباتِ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَجوزُ إطلاقُ لَفظِ (الدَّابَّةِ) على الملائِكةِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّه قدْ يُضافُ الفِعلُ إلى جماعةٍ وإنْ كان فاعِلُه واحِدًا منهم؛ يقالُ: (بَنو فُلانٍ فعَلوا كذا)، وإنَّما فعَلَه واحِدٌ منهم، ومنه قَولُه تعالَى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] على قولٍ في تَفسيرِها.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ الدَّبيبَ هو الحَركةُ، والملائِكةُ لهم حَركةٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦٨).

الوَجهُ الثَّالِثُ: لا يَبعُدُ أن يُقالَ: إنَّه تعالَى خَلَق في السَّمَواتِ أنواعًا مِن الحيواناتِ يَمشُونَ مَشْيَ الأناسيِّ على الأرضِ[١].

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّ الدَّابَّةَ: ما يَدِبُّ على الأرضِ، أي: يَمْشي، فيَشمَلُ الطَّيرَ؛ لأنَّ الطَّيرَ يَمشي إذا نَزَل، وهو مِمَّا أُريدَ في قَولِه هنا: ﴿فِيهِمَا﴾ أي: في الأرضِ وفي السَّماءِ، أي: بَعضِ ما يُسَمَّى بالسَّماءِ، وهو الجَوُّ، وهو ما يَلوحُ للنَّاظِرِ مِثلَ قُبَّةٍ زَرقاءَ على الأرضِ في النَّهارِ؛ قال تعالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ [النحل: ٧٩]؛ فإطلاقُ الدَّابَّةِ على الطَّيرِ باعتِبارِ أنَّ الطَّيرَ يَدِبُّ على الأرضِ كَثيرًا؛ لالتِقاطِ الحَبِّ وغَيرِ ذلك. وأمَّا الموجوداتُ الَّتي في السَّمَوات العُلا مِن الملائِكةِ والأرواحِ فلا يُطلَقُ عليها اسمُ دابَّةٍ[٢].

الوَجهُ الخامسُ: أنْ يكونَ على حذْفِ مُضافٍ، أي: وما بَثَّ في أحَدِهما[٣].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أنَّ البهائمَ جميعَها يَحْشُرُها اللهُ سُبحانَه، فحَرْفُ (إذَا) إنَّما يكونُ لِمَا يَأتي لا مَحالةَ، وقالَ تعالَى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقالَ تعالَى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، والأحاديثُ في ذلك مَشهورةٌ؛ فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يومَ القِيامةِ يَحْشُرُ البهائمَ ويَقْتَصُّ لبعضِها مِن بعضٍ، ثُمَّ يقولُ لها: كُوني تُرابًا، فتَصيرُ تُرابًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٤٨).

ويُنظر ما أخرَجه ابنُ جَرير في ((التفسير)) (٢٤/ ١٨٠)، وابنُ أبي حاتم في ((التفسير)) (٧٢٦٢)، والحاكم (٣٢٣١) موقوفًا على أبي هُرَيرةَ رَضي اللهُ عنه. =

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ أنَّ أفعالَ اللهِ سُبحانَه وتعالَى اختياريةٌ؛ فالمعنى: إذا شاء جمْعَهم، فهو قَديرٌ عليه[١].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ وَجهُ ذلك: أنَّ الباءَ هنا للسَّبَبيَّةِ؛ ففيه إثباتُ الأسبابِ، وإثباتُ الأسبابِ ثابتٌ شَرعًا وعَقلًا وحِسًّا، وإنكارُه ضَلالٌ في الدِّينِ، وسَفَهٌ في العَقلِ[٢].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ أنَّ المعاصيَ سَببُ المصائبِ؛ فسَيِّئاتُ المصائبِ والجزاءُ هو مِن سَيِّئاتِ الأعمالِ[٣]، وكُلُّ نَكَدٍ لاحِقٍ إنَّما هو بسَبَبِ ذَنبٍ سابِقٍ، أقلُّه التَّقصيرُ[٤].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى إذا عاقبَ المؤمِنَ في الدُّنيا لم يُعاقِبْه في الآخِرةِ؛ فلنْ يَجمَعَ اللهُ له بين عُقوبتَينِ[٥]؛ فالمصائبُ كفَّاراتٌ للذُّنوبِ بالنِّسبةِ للمُؤمنِ، فإنَّه إذا كان ذلك بما كسَبتْ أيدِينا دلَّ هذا على أنَّها مُكَفِّرَةٌ لِمَا عَمِلْناه منها وما كَسَبْناه[٦].

= صَحَّحه الحاكِمُ على شرْط مُسلم، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧٧٢).

وأخرَجه من طريقٍ آخَرَ: ابنُ جرير في ((التفسير)) (٢٤/ ١٨٠)، والحاكم (٨٧١٦) موقوفًا على عبدِ الله بن عمرٍو رَضي اللهُ عنهما.

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٤).

(٦) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٦١٧).

٧- قولُه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ دلَّ على أنَّ مِن المصائبِ التي تُصيبُ النَّاسَ في الدُّنيا ما سلَّطَه اللهُ عليهم جَزاءً على سُوءِ أعمالِهم، وإذا كان ذلك ثابتًا بالنِّسبةِ لأُناسٍ مُعيَّنينَ، كان فيه نِذارةٌ وتَحذيرٌ لِغَيرِهم ممَّن يَفعَلُ مِن جِنسِ أفعالِهم أنْ تَحُلَّ بهم مَصائبُ في الدُّنيا جَزاءً على أعمالِهم زِيادةً في التَّنكيلِ بهم، إلَّا أنَّ هذا الجزاءَ لا يَطَّرِدُ؛ فقدْ يُجازي اللهُ قومًا على أعمالِهم جَزاءً في الدُّنيا مع جَزاءِ الآخرةِ، وقدْ يَترُكُ قومًا إلى جَزاءِ الآخرةِ، فجَزاءُ الآخرةِ في الخيرِ والشرِّ هو المطَّرِدُ الموعودُ به، والجزاءُ في الدُّنيا قدْ يَحصُلُ وقدْ لا يَحصُلُ، كما قال تعالَى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[(١)].

٨- قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾، أي: ليْس لكم وليٌّ يَتولَّاكُم فيَمنَعَكم مِن سُلطانِ اللهِ، ولا نَصيرَ يَنصُرُكم على اللهِ إنْ أرادَ إصابتَكم فتَغلِبوه؛ فجمَعَتِ الآيةُ نفْيَ ما هو مُعتادٌ بيْنَهم مِن وُجوهِ الوِقايةِ[(٢)].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ قُرِئَ ﴿الرِّيَاحَ﴾ بلَفظِ الجمْعِ، وقُرِئَ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بلَفْظِ المفْردِ[(٣)]، وفي القِراءةِ بلَفظِ المفرَدِ ما يدُلُّ على أنَّ الرِّيحَ قدْ تُطلَقُ بصِيغةِ الإفرادِ على رِيحِ الخيرِ، وما قيل: إنَّ (الرِّياحَ) للخيرِ و(الرِّيحَ) للعذابِ في القُرآنِ، هو غالبٌ لا مُطَّرِدٌ، وقدْ قُرِئَ في آياتٍ أُخرى (الرِّياحُ) و(الرِّيحُ) في سِياقِ الخيرِ دونَ العذابِ[(٤)].

١٠- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ أنَّ ذِكرَ النِّعَمِ يَدعو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٠٤).

(٣) قرَأها أبو جعفرٍ ونافعٌ: ﴿الرِّيَاحَ﴾ بالجمعِ، والباقونَ بالإفرادِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٥).

إلى الشُّكرِ، وذِكرَ النِّقَمِ يَقْتضي الصَّبرَ على فِعلِ المأمورِ وإنْ كَرِهَته النَّفْسُ، وعنِ المحظورِ وإنْ أَحَبَّته النَّفسُ؛ لئلَّا يُصيبَه ما أصاب غيْرَه مِن النِّقمةِ[١].

١١- الإيمانُ نِصفانِ: نِصفٌ صَبرٌ، ونِصفٌ شُكرٌ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٢]، وفيه فَضيلةُ الصَّبرِ والشُّكرِ، فالصَّبرُ على الضَّرَّاءِ، والشُّكرُ على الرَّخاءِ، والإنسانُ دائمًا مُصابٌ بهاتَينِ الآفتَينِ؛ إمَّا ضَرَّاءَ وإمَّا سَرَّاءَ[٣]، وإنَّما يَنْتَفِعُ بآياتِ اللهِ المشهودةِ العِيانيَّةِ أهلُ الصَّبرِ والشُّكرِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ انتقالٌ مِن ذِكرِ إنزالِ الغيثِ الجامعِ بيْنَ كَونِه نِعمةً، وكونِه آيةً، إلى ذِكرِ آياتٍ دالَّةٍ على انفرادِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ، وهذا الانتقالُ استِطرادٌ واعتراضٌ بيْن الأغراضِ التي سِياقُ الآياتِ فيها[٥].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ مُعترِضةٌ في جُملةِ الاعتراضِ؛ لإدماجِ إمكانِ البَعثِ في عُرْضِ الاستِدلالِ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وعلى تَفرُّدِه بالإلهيَّةِ، والمعنى: أنَّ القادرَ على خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما مِن عدَمٍ قادرٌ على إعادةِ خلْقِ بعضِ ما فيهما للبَعثِ والجزاءِ؛ لأنَّ ذلك كلَّه سَواءٌ في جَوازِ تَعلُّقِ القُدرةِ به، فكيْف تعُدُّونَه مُحالًا[٦]؟!

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٩٨).

- وقال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ ولم يَقُلْ: (على جَمعِها)؛ لأجْلِ أنَّ المَقصودَ مِن هذا الجَمعِ المحاسَبةُ، فكأنَّه تعالى قال: وهو على جَمعِ العُقَلاءِ إذا يَشاءُ قَديرٌ[(١)].

- و(إذا) ظَرْفٌ للمُستقبَلِ، وهو هنا مُجرَّدٌ عن تَضمُّنِ الشَّرْطيَّةِ؛ فالتَّقديرُ: حِينَ يَشاءُ في مُستقبَلِ الزَّمانِ، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿جَمْعِهِمْ﴾، وهذا الظَّرْفُ إدْماجٌ[(٢)] ثانٍ؛ لإبطالِ استِدلالِهم بتَأخُّرِ يوْمِ البعْثِ على أنَّه لا يَقَعُ، كما حُكِي عنهم في قولِه تعالَى: ﴿مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾[الإسراء: ٥١]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾[(٣)] [سبأ: ٢٩، ٣٠].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ لَمَّا كان ما أصابَ قُريشًا مِن القَحْطِ والجُوعِ استِجابةً لِدَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليهم، وكانتْ تلك الدَّعوةُ ناشئةً على ما لاقَوْه به مِن الأذَى؛ لا جَرَمَ كان ما أصابَهم مُسبَّبًا على ما كَسَبتْ أيدِيهم؛ فالجُمْلةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾[(٤)] [الشورى: ٢٨].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ للمُشرِكينَ ابتداءً؛ لأنَّهم المقصودُ مِن سِياقِ الآياتِ كلِّها، وهمْ أَوْلى بهذه الموْعظةِ؛ لأنَّهم كانوا غيْرَ مُؤمنينَ بوَعيدِ الآخرةِ، ويَشمَلُ المؤمنينَ بطَريقِ القِياسِ، وبما دَلَّ على شُمولِ هذا الحُكمِ لهم مِن الأخبارِ الصَّحيحةِ ومِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٠).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٩٨، ٩٩).

آياتٍ أُخرَى[١].

- والباءُ في ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: سَببُ ما أصابَكم مِن مُصيبةٍ هو أعمالُكم السيِّئةُ[٢].

- قولُه: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، وضَميرُ (يَعْفُو) عائدٌ إلى ما عادَ إليه ضَميرُ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٩]، وهذا يُشيرُ إلى ما يَتراءَى لنا مِن تَخلُّفِ إصابةِ المُصيبةِ عن بعضِ الَّذين كسَبتْ أيديهم جَرائمَ، ومِن ضِدِّ ذلك ممَّا تُصيبُ المصائبُ بعضَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، وهو إجمالٌ يُبيِّنُه على الجُملةِ: أنَّ ما يَعلَمُه اللهُ مِن أحوالِ عِبادِه، وما تَغلَّبَ مِن حَسناتِهم على سيِّئاتِهم، وما تَقتضيهِ حِكمةُ اللهِ مِن إمْهالِ بَعضِ عِبادِه، أو مِن ابتلاءِ بعضِ المُقرَّبينَ، وتلك مَراتبُ كثيرةٌ، وأحوالٌ مُختلفةٌ، تَتعارَضُ وتَتساقَطُ، والموفَّقُ يَبحَثُ عن الأسبابِ، فإنْ أَعجَزتْه فوَّضَ العِلمَ إلى اللهِ[٣].

- وقولُه: ﴿كَثِيرٖ﴾ صِفةٌ لِمَحذوفٍ، أي: عن خلْقٍ أو ناسٍ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]، وهو احتِراسٌ، أي: يَعْفو عن قُدرةٍ؛ فإنَّكم لا تُعجِزونَه ولا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَغلِبونَه، ولكنْ يَعْفو تَفضُّلًا[١].

- وتَقْييدُ النَّفْيِ بقولِه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لإرادةِ التَّعميمِ، أي: في أيِّ مَكانٍ مِن الأرضِ؛ لئلَّا يَحسَبوا أنَّهم في مَنَعةٍ بحُلولِهم في مكَّةَ التي أمَّنَها اللهُ تعالَى؛ وذلك أنَّ العرَبَ كانوا إذا خافوا سَطوةَ مِلكٍ أو عَظيمٍ سكَنوا الجِهاتِ الصَّعبةَ[٢].

- وجِيءَ بالخَبرِ جُملةً اسميَّةً؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ الخَبرِ ودوامِه، أي: نفْيُ إعجازِهم ثابتٌ لا يَتخلَّفُ، فهمْ في مُكْنةِ خالِقِهم[٣].

- و﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ظَرفٌ مُستقَرٌّ[٤]، هو خبرٌ ثانٍ عن (وَليٍّ ونَصيرٍ)، والخبرُ الأوَّلُ هو (لكم)، وتَقديمُ الخبرَينِ للاهتِمامِ بالخبرِ، ولِتَعجيلِ يأْسِهم مِن ذلك[٥].

- وفي قولِه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فقطْ ولم يَذكُرِ (في السَّماء)، وقال في سُورةِ (العنكبوتِ): ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [العنكبوت: ٢٢] بزِيادةِ ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ وذلك لأنَّه لَمَّا تقدَّمَ في سُورةِ (العنكبوتِ) قولُه تعالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]، وهذا مِن أشدِّ الوَعيدِ؛ إذ حاصِلُه أنَّه لا يَفوتُه سُبحانه أحدٌ، ولا مَهرَبَ منه تعالَى إلَّا إليه؛ ناسَبَ هذا قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، كما قال: ﴿أَيْنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٤).

مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وذلك تَناسُبٌ بيِّنٌ، ولَمَّا لم يَرِدْ هنا في سُورةِ الشُّورى مِن أوَّلِها إلى الآيةِ مِثْلُ هذا الوَعيدِ الشَّديدِ، ولا كان فيها ما يَسْتدعي هذا التَّعميمَ والاستيفاءَ الوَعيديَّ؛ ورَدَتِ الآيةُ مُناسِبةً لذلك، فقال تعالَى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يكُنِ التَّعميمُ هنا لِيُناسِبَ؛ فورَدَ كلٌّ على ما يجِبُ[1]. وقيل غيرُ ذلك[2].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ * إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ لَمَّا جَرَى تَذكيرُهم بأنَّ ما أصابَهم مِن مُصيبةٍ هو مُسبَّبٌ عن اقترافِ أعْمالِهم، وتَذكيرُهم بحُلولِ المصائبِ تارةً، وكشْفِها تارةً أُخرى بقولِه: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]، وأَعقَبَ بأنَّهم في الحالتَينِ غيْرُ خارجينَ عن قَبْضةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ؛ سِيقَ لهم ذِكرُ هذه الآيةِ جامعةً مِثالًا لإصابةِ المصائبِ، وظُهورِ مَخايِلِها المُخيفةِ المُذكِّرةِ بما يَغفُلونَ عنه مِن قُدرةِ اللهِ، والَّتي قدْ تَأْتي بما أُنذِروا به، وقدْ تَنكشِفُ عن غَيرِ ضُرٍّ، ودَليلًا على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالَى، وأنَّه لا مَحيصَ عن إصابةِ ما أرادَه، وإدماجًا للتَّذكيرِ بنِعمةِ السَّيرِ في البحرِ، وتَسخيرِ البحرِ للنَّاسِ؛ فإنَّ ذلك نِعمةٌ؛ قال تعالَى: ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فكانتْ هذه الجُملةُ اعتِراضًا مِثلَ جُملةِ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[3] [الشورى: ٢٩].

- قولُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ الجَواري: جمْعُ جاريةٍ، صِفةٌ لِمَحذوفٍ

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص ١٠٠٥-١٠٠٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص١٩٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦١-٣٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٥).

دلَّ عليه ذِكرُ البَحرِ، أي: السُّفنُ الجَواري في البَحرِ. وعُدِلَ عن (الفُلكِ) إلى ﴿ٱلْجَوَارِ﴾؛ إيماءً إلى مَحلِّ العِبرةِ؛ لأنَّ العِبرةَ في تَسخيرِ البحرِ لِجَرْيِها، وتَفكيرِ الإنسانِ في صُنعِها. والمرادُ بالجَواري: السُّفنُ العظيمةُ التي تسَعُ ناسًا كثيرينَ، والعِبرةُ بها أظهَرُ، والنِّعمةُ بها أكثَرُ[١].

- قولُه: ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾، أي: فتَسبَّبَ عن ذلك أنَّهنَّ يَظلَلْنَ -أي: يُقِمْنَ- ليلًا كان أو نهارًا، ولعلَّه عبَّرَ بـ (يَظْلَلْنَ) مع أنَّ أصلَه الإقامةُ نهارًا؛ لأنَّ النَّهارَ مَوضعُ الاقتدارِ على الأشياءِ، وهو المُنتظَرُ عِندَ كلِّ مُتعسِّرٍ للسَّعيِ في إزالةِ عُسرِه، وتَيسُّرِ أمْرِه[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ جُعِلتْ أحوالُ الفُلكِ في البحرِ آياتٍ لكلِّ صبَّارٍ شُكورٍ؛ لأنَّ في الحالتَينِ خَوفًا ونَجاةً، والخوفُ يَدْعو إلى الصَّبرِ، والنَّجاةُ تَدْعو إلى الشُّكرِ، والمرادُ: أنَّ في ذلك آياتٍ لكلِّ مُؤمنٍ مُتخلِّقٍ بخُلُقِ الصَّبرِ على الضَّرَّاءِ والشُّكرِ للسَّرَّاءِ؛ فهو يَعتبِرُ بأحوالِ الفُلكِ في البحرِ اعتبارًا يُقارِنُه الصَّبرُ أو الشُّكرُ. وإنَّما جُعِل ذلك آيةً للمؤمنينَ؛ لأنَّهم الَّذين يَنتفِعونَ بتِلك الآيةِ، فيَعلَمونَ أنَّ اللهَ مُنفرِدٌ بالإلهيَّةِ، بخِلافِ المشرِكينَ؛ فإنَّها تمُرُّ بأعيُنِهم فلا يَعتبِرونَ بها[٣]؛ فوَجهُ الجَمعِ بيْنَ الصَّبرِ والشُّكرِ: أنَّ هذه السُّفُنَ إنْ جَرَت على ما يَنْبغي فوَظيفةُ الإنسانِ الشُّكرُ، وإنْ جَرَت على ما لا يَنْبغي فوَظيفتُه الصَّبرُ[٤].

- وقولُه: ﴿صَبَّارٍ﴾، أي: على بَلاءِ اللهِ، ﴿شَكُورٍ﴾، أي: لِنَعمائِه، وهما صِفتا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦٥).

المؤمِنِ المُخلِصِ؛ فجعَلَهما كِنايةً عنه، وهو الذي وكَّلَ هِمَّتَه بالنَّظرِ في آياتِ اللهِ، فهو يَسْتملي منها العِبَرَ. وحسَّنَ مَوقعَ هذه الكِنايةِ في هذا المقامِ: أنَّ مَواجِبَ الصَّبرِ والشُّكرِ لم تَتبيَّنْ في سائرِ الحالاتِ ظُهورَها في حالَتَي الرُّكوبِ في البحرِ والخُروجِ منه(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾

- قولُه: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ فيه إيقاعُ الإيباقِ على السُّفنِ الجَواري مع أنَّه حالُ أهلِهنَّ؛ للمُبالَغةِ والتَّهويلِ(٢).

- قولُه: ﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ عطْفٌ على ﴿يُوبِقۡهُنَّ﴾؛ فهو في معْنى جَزاءٍ للشَّرطِ المقدَّرِ، أي: وإنْ يَشَأْ يَعْفُ عن كَثيرٍ فلا يُوبِقْهُم مع استِحقاقِهم أنْ يُوبَقُوا. وهذا العطْفُ اعتراضٌ(٣).

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَاۚ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ على قِراءةِ الرَّفعِ ﴿وَيَعۡلَمُ﴾(٤)؛ فهو استئنافٌ فيه تَهديدٌ للمشرِكينَ بأنَّهم لا مَحيصَ لهم مِن عَذابِ اللهِ تعالَى؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الشورى: ٣٢]، صار المعنَى: ومِن آياتِ انفرادِه بالإلهيَّةِ الجَواري في البحرِ، والمشرِكونَ يُجادِلونَ في دَلائلِ الوحدانيَّةِ بالإعراضِ والانصرافِ عن سَماعِها، فهدَّدَهم اللهُ بأنْ أَعلَمَهم أنَّهم لا مَحيصَ لهم، أي: مِن عَذابِه؛ وحُذِف مُتعلَّقُ المحيصِ إبهامًا له تَهويلًا للتَّهديدِ؛ لِتَذهَبَ النَّفْسُ كُلَّ مَذهبٍ مُمكنٍ، فيَكونُ قولُه: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ خَبرًا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٧).

(٤) تقدمت الإشارة إلى هذه القراءة في مشكل الإعراب (ص: ٥١٨).

مُرادًا به الإنشاءُ والطَّلبُ، فهو في قوَّةِ: ولْيَعلَمِ الَّذين يُجادِلونَ، أو اعلَموا يا مَن يُجادِلونَ، وليْس خبرًا عنهم؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بذلك حتى يَعلَموه. وأمَّا قِراءةُ النَّصبِ فهي على العَطْفِ على فِعلٍ مَدخولٍ لِلَامِ التَّعليلِ، وتُضمَّنُ (أنْ) بعْدَه، والتَّقديرُ: لِيَنتقِمَ منْهم ويَعلَمَ الذين يُجادِلون... إلخ. أو الواوُ واوُ المعيَّةِ التي يُنصَبُ الفِعلُ المضارِعُ بعْدَها بـ (أنْ) مُضمَرةً. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ الخبرُ مُستعمَلًا في مُقارَبةِ المُخبَرِ به؛ كقولِهم: قدْ قامَتِ الصَّلاةُ، فلمَّا كان عِلمُهم بذلك يُوشِكُ أنْ يَحصُلَ، نُزِّلَ مَنزلةَ الحاصلِ، فأَخبَرَ عنهم به، وعلى هذا الوجْهِ يَكونُ إنذارًا بعِقابٍ يَحصُلُ لهم قَريبٍ، وهو عَذابُ السَّيفِ والأَسْرِ يومَ بَدْرٍ، وذُكِر فِعلُ (يَعلَم)؛ للتَّنويهِ والاعتِناءِ بالخبرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٧، ١٠٨).

الآيات (٣٦-٤٢)

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَمَتَٰعُ﴾: أي: تمتُّعُ وانتِفاعُ، وأصْلُ (متع): يدُلُّ على المنفعةِ[(١)].

﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾: الإثمُ والأثامُ: اسمٌ للأفعالِ المُبَطِّئةِ عن الثَّوابِ، أو الذَّنْبُ الَّذي يَستحِقُّ العقوبةَ عليه، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتأخُّرِ، والإثمُ مُشتَقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخيرِ، متأخِّرٌ عنه[(٢)].

﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾: جمعُ فاحِشةٍ، والفُحْشُ والفَحْشاءُ والفاحِشَةُ: ما عظُم قُبحُه مِن الأفعالِ والأقوالِ، وأصلُ (فحش): يَدُلُّ على قُبحٍ وشَناعةٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٢٦).

﴿شُورَىٰ﴾: الشُّورَى: مَصدرٌ بمعنى التَّشاوُرِ، والتَّشاوُرُ والمُشاوَرةُ والمَشورَةُ: استخراجُ الرَّأيِ بمُراجعةِ البعضِ إلى البعضِ، مِن قولِهم: شِرْتُ العَسلَ: إذا اتَّخذتَه مِن مَوضعِه، واستَخْرجتَه منه، فكأنَّ المستشيرَ يَأخذُ الرَّأيَ مِن غيرِه، وأصلُ (شور) هنا: أخذُ شَيءٍ[١].

﴿ٱلْبَغْىُ﴾: أي: الظُّلمُ والعُدوانُ، وأصلُ البَغْيِ: مُجاوَزةُ الحدِّ؛ يُقالُ: بَغَى الجرحُ: تجاوَز الحدَّ في فَسادِه، وأصلُ (بغي) هنا: جِنْسٌ مِن الفسادِ[٢].

﴿عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: أي: حَقِّها وحَزْمِها وما أمَرَ اللهُ به مِنها، وأصلُ (عزم): يدُلُّ على عَقدِ القَلبِ على إمضاءِ الأمرِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مُبيِّنًا حَقيقةَ الدُّنيا ومَتاعِها بالنِّسبةِ للآخِرةِ: فما أُوتيتُم مِن شَيءٍ في الدُّنيا فإنَّما هو مَتاعٌ زائِلٌ تتمَتَّعونَ به في حَياتِكم الدُّنيا، وما عِندَ اللهِ في الآخِرةِ خَيرٌ مِن مَتاعِ الدُّنيا وأبقَى للَّذين آمَنوا وعلى رَبِّهم يَعتَمِدونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى صِفاتِ عِبادِه المؤمنينَ، فيقولُ: والَّذين يَجتَنِبونَ كَبائِرَ الإثمِ والفواحِشَ، وإذا غَضِبوا يَصفَحونَ، والَّذين استَجابوا لرَبِّهم وانْقادوا لطاعتِه، وأقاموا الصَّلاةَ، وأمرُهم شُورى بيْنهم، ومِمَّا رزَقَهم اللهُ يُنفِقونَ، والَّذين إذا اعتدَى عليهم أحَدٌ يَنتَصِرونَ منه.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٦، ٢٢٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٣٧)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

ثمَّ يقولُ تعالَى مُرغِّبًا في العَفوِ والصَّفحِ: وجَزاءُ سَيِّئةِ المُسيءِ عُقوبتُه بمِثلِ جِنايتِه، فمَن عفا عمَّن أساء إليه وأصلَحَ فأجرُه على اللهِ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الظَّالِمينَ، ومَن انتَصَر مِمَّن ظَلَمه فلا عُقوبةَ ولا إثمَ عليه، إنَّما العُقوبةُ والإثمُ على الَّذين يَعتدُونَ على النَّاسِ ظُلمًا، ويُفسِدونَ في الأرضِ بغَيرِ الحَقِّ، أولئك لهم عَذابٌ مُؤلِمٌ.

ومَن صَبَر على أذَى النَّاسِ وصَفَح عن إساءتِهم، فإنَّ ذلك مِن الأمورِ التي نَدَب اللهُ إليها عِبادَه، وعَزَم عليهم العَمَلَ بها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا ذكَرَ دَلائِلَ التَّوحيدِ؛ أردَفَها بالتَّنفيرِ عن الدُّنيا، وتَحقيرِ شَأنِها؛ لأنَّ الذي يَمنَعُ مِن قَبولِ الدَّليلِ إنَّما هو الرَّغبةُ في الدُّنيا؛ بسَبَبِ الرِّياسةِ، وطَلَبِ الجاهِ، فإذا صَغُرَت الدُّنيا في عيْنِ الرَّجُلِ لم يَلتَفِتْ إليها، فحينئذٍ ينتَفِعُ بذِكرِ الدَّلائِلِ[1].

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾.

أي: فالَّذي أُوتيتُموه[2] مِن نِعَمٍ دُنيويَّةٍ، فإنَّما هي أُمورٌ زائِلةٌ فانيةٌ تتمَتَّعونَ بها

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٣).

(٢) قيل: الخِطابُ للنَّاسِ مُطلقًا. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والبقاعي، واستَظْهَره الألوسيُّ، واختاره ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٢). =

في حياتِكم الدُّنيا[١].

كما قال تعالَى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد: ٢٦].

وعن المُستَورِدِ بنِ شَدَّادٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقولُ: ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثلُ ما يَجعَلُ أحَدُكم إصبَعَه هذه في اليَمِّ، فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟!))[٢].

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: وما عِندَ اللهِ مِن الثَّوابِ والجَزاءِ في الآخِرةِ للَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به: خَيرٌ مِن مَتاعِ الدُّنيا وأدوَمُ؛ فهو باقٍ لا يَنفَدُ[٣].

= وقيل: الخِطابُ للمُشرِكينَ. ومِمَّن ذهَب إلى هذا: ابنُ أبي زَمنين، والقرطبيُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٩).

قال ابن عاشور: (والخطابُ في قولِه: ﴿أُوتِيتُم﴾ للمشركينَ جرْيًا على نَسَقِ الخِطابِ السَّابِقِ... ويَنسَحِبُ الحُكمُ على المؤمِنينَ بلَحنِ الخِطابِ، ويجوزُ أن يكونَ الخِطابُ لجَميعِ الأمَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالَى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤].

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

أي: ويَعتَمِدونَ على رَبِّهم وَحْدَه، ويُفَوِّضونَ إليه جَميعَ أُمورِهم[١].

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان كُلٌّ مِن الإيمانِ والتَّوكُّلِ أمرًا باطِنًا، فكان لا بُدَّ مِن دَلائِلِه مِن ظواهِرِ الأعمالِ، وكانتْ تَخْلياتٍ مِن الرَّذائلِ، وتَحْلياتٍ بالفَضائلِ، وكانت التَّخْلياتُ -لكوْنِها دَرْءًا للمفاسدِ- مُقدَّمةً على التَّحْلياتِ التي هي جلْبٌ للمَصالحِ؛ قال[٢]:

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾.

أي: والذين يَجتَنِبونَ كَبائِرَ الذُّنوبِ، ويَجتَنِبونَ الفَواحِشَ كالقتْلِ والزِّنا[٣].

= (٧/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٣- ٢٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢٧-٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٤- ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢٨-٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٩، ٢٨١). =

كما قال الله تبارك وتعالَى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ... ﴾ [النجم: ٣١، ٣٢].

﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان كَثيرٌ مِن كَبائرِ الإثمِ والفواحشِ مُتسبِّبًا على القوَّةِ الغضَبيَّةِ؛ مِثلَ: القتلِ والجراحِ، والشَّتْمِ والضَّرْبِ؛ أَعقَبَ الثَّناءَ على الَّذين يَجتنِبونَها، فذكَرَ أنَّ مِن شِيمتِهم المَغفرةَ عِندَ الغضبِ، أي: إمساكَ أنفُسِهم عن الاندفاعِ مع داعيةِ الغضبِ[1].

﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾.

أي: وإذا غَضِبوا على مَن أساءَ إليهم يَصفَحونَ عنه، ويَتغاضَونَ عن إساءتِه، ويَستُرونَها عليه ولا يَنتَقِمونَ لأنفُسِهم[2].

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أتمَّ ما منه التَّخلِّي؛ أتْبَعه ما به التَّحلِّي[3].

= قال الشَّوكاني: (والمرادُ بكبائرِ الإثمِ: الكبائرُ مِن الذُّنوبِ... والفواحشُ هي مِن الكبائرِ، ولكنَّها معَ وصْفِ كونِها فاحشةً كأنَّها فوقَها، وذلك كالقتلِ، والزِّنا، ونحوِ ذلك. وقال مُقاتِلٌ: الفواحشُ مُوجِباتُ الحدودِ. وقال السُّدِّيُّ: هي الزِّنا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٠، ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٣- ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣١).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾.

أي: والذين أجابوا رَبَّهم إلى كُلِّ ما دَعاهم إليه، فلَبَّوا دَعوتَه، وانقادُوا لطاعتِه[١].

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وأدَّوُا الصَّلَواتِ على الوَجهِ التَّامِّ المُستقيمِ الذي أُمِروا به[٢].

﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾.

أي: وشَأنُهم العامُّ شُورى بيْنهم؛ فهمْ يَتداوَلونَ الرَّأيَ فيما نَزَل بهم، ولا يَستَبِدُّ أحَدٌ منهم برَأيِه دونَ الآخَرينَ في الأُمورِ المُشتَرَكةِ بيْنهم[٣].

كما قال تعالَى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾.

أي: ومِمَّا رزَقَهم ربُّهم يَتصَدَّقونَ ويَبذُلونَ في سَبيلِه[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾.

أي: والذين إذا بَغَى عليهم باغٍ، واعتدَى عليهم مُعْتدٍ؛ فإنَّهم يَنتَصِرونَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠).

قال ابنُ عُثَيمين: («مِنْ» هنا للتَّبعيضِ، ويَحتَمِلُ أن تكونَ للجِنسِ، وهي للجِنسِ أَوْلى؛ لِيَشمَلَ القَليلَ والكَثيرَ والكُلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٧) بتصرف.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالَى: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]؛ أردَفَه بما يدُلُّ على أنَّ ذلك الانتِصارَ يَجِبُ أنْ يكونَ مُقَيَّدًا بالمِثْلِ؛ فإنَّ النُّقصانَ حَيفٌ، والزِّيادةَ ظُلمٌ، والتَّساويَ هو العَدلُ، وبه قامت السَّمَواتُ والأرضُ؛ فلهذا السَّبَبِ قال[1]:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾.

أي: وجَزاءُ سَيِّئةِ المُسيءِ هو عُقوبتُه بمِثلِ جِنايتِه، بلا زِيادةٍ[2].

كما قال تعالَى: ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٤].

= عاشور)) (٢٥/ ١١٣-١١٤).

قال ابنُ الجَوْزي: (اختَلَفوا في هذا البَغْيِ على ثَلاثةِ أقوالٍ: أحدُها: أنَّه بَغْيُ الكُفَّارِ على المُسلِمينَ... والثَّاني: أنَّه بَغْيُ المُسلِمينَ على المُسلِمينَ خاصَّةً. والثَّالِثُ: أنَّه عامٌّ في جميعِ البُغاةِ، سواءٌ كانوا مُسلِمينَ أو كافِرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٧).

وقولُه: ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ أي: يَنتقِمونَ ويقْتَصُّونَ مِن ظالميهم مِن غيرِ تَعَدٍّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠٢).

وقيل: ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ أي: يَتناصَرون، فيَنصُرُ بَعضُهم بعضًا لرفْعِ البَغْيِ، وهو مِن بابِ الحِسبةِ، يَنتصِرونَ بالأمرِ بالمعروفِ. قاله السَّمعاني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٤، ٥٢٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٩٣).

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ يهوديًّا رضَّ[١] رأسَ جاريةٍ بيْنَ حَجَرينِ. قيل: مَن فَعَل هذا بكِ؟ أفُلانٌ؟ أفُلانٌ؟ حتى سُمِّي اليَهوديُّ، فأومَأَتْ برأسِها، فأُخِذَ اليَهوديُّ فاعترَف، فأَمَر به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فرُضَّ رأسُه بيْن حَجَرينِ))[٢].

﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: فمَن عَفا عمَّن أساءَ إليه وأصلَحَ، فثَوابُه على اللهِ لا مَحالةَ، ولنْ يُضِيعَ اللهُ ثَوابَه[٣].

---

(١) الرَّضُّ: الكَسرُ والدَّقُّ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٤/ ١٩٥).

(٢) رواه البخاري (٢٤١٣) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٢).

قال الماوَرْديُّ: (﴿وَأَصۡلَحَ﴾ فيه وَجهانِ: أحَدُهما: أصلَحَ العَمَلَ. قاله سعيدُ بنُ جُبير. الثاني: أصلَحَ بيْنَه وبيْنَ أخيه. قاله ابنُ زيادٍ. وهذا مَندوبٌ إليه في العَفوِ عن التَّائِبِ دونَ المُصِرِّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٠٧).

ومِمَّن قال بالقَولِ الأوَّلِ: مقاتلُ بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٣).

ومِمَّن قال بالقَولِ الثَّاني -أي: أصْلَح بيْنه وبيْن خَصْمِه الذي ظلَمه بالعفْوِ-: السَّمرقنديُّ، والواحدي، والسمعانيُّ، والبغوي، والرازيُّ، والبيضاوي، والنَّسَفي، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٠).

وظاهِرُ اختيارِ البقاعي الجَمعُ بين القَولَين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٦).

قال البقاعي: (﴿وَأَصۡلَحَ﴾ أي: أوقَع الإصلاحَ بينَ النَّاسِ بالعفوِ والإصلاحِ لنفْسِه؛ ليُصلِحَ اللهُ ما بيْنَه وبينَ الناسِ، فيكونَ بذلك منتصِرًا مِن نفْسِه لنفْسِه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٣٦). =

كما قال تعالَى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما نَقَصتْ صَدَقةٌ مِن مالٍ، وما زاد اللهُ عَبدًا بعَفوٍ إلَّا عِزًّا، وما تواضَعَ أحَدٌ للهِ إلَّا رَفَعه اللهُ))[1].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الَّذين يَعتَدونَ على النَّاسِ فيَظلِمونَهم ابتِداءً، أو يُجاوِزونَ الحَدَّ في الاقتِصاصِ مِمَّن ظَلَمَهم[2].

كما قال الله تعالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان قولُه سبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ سادًّا لبابِ الانتِصارِ؛ لِما يُشعِرُ

= وقال ابنُ عثيمين: (المرادُ: أصلحَ في عَفوِه، أي: صار عَفوُه مُشتَمِلًا على الإصلاحِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٠). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠).

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٠).

به مِن أنَّه ظُلمٌ على كُلٍّ، قال مُؤكِّدًا نَفيًا لهذا الإشعارِ[١]:

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

أي: ومَن انتصَرَ مِن ظالمٍ له بعْدَ تَحقُّقِ وُقوعِ ظُلمِه، فأولئك المُنتَصِرونَ لا عُقوبةَ عليهم، ولا لَومَ ولا حَرَجَ إذا أخَذوا حَقَّهم دونَ زيادةٍ[٢].

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾.

أي: إنَّما العُقوبةُ والإثمُ على الَّذين يَعتَدونَ على النَّاسِ في دِمائِهم أو أموالِهم، أو أعراضِهم أو غيرِ ذلك مِن حُقوقِهم، ويَتجاوَزونَ الحَدَّ بالفَسادِ في الأرضِ بالكُفرِ أو المعاصي، أو التَّكبُّرِ على النَّاسِ، وطَلَبِ الاستِعلاءِ عليهم بغيرِ حَقٍّ[٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾.

أي: الَّذين يَظلِمونَ النَّاسَ، ويَبغُونَ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ: أولئك لهم مِنَ اللهِ عَذابٌ مُوجِعٌ مُؤلِمٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٦، ٥٢٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٧-٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٤، ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٨-٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٧-٣٠٨).

قال ابنُ عاشور: (حُكمُ هذه الآيةِ يَشمَلُ ظُلمَ المُشرِكينَ للمُسلِمينَ، ويَشمَلُ ظُلمَ المُسلِمينَ بَعضِهم بعضًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: ومَن صبرَ على ما يَنالُه مِن أذى النَّاسِ، وستَرَ ذَنْبَهم، وتَغاضَى عن إساءتِهم وتسامَحَ، فلم يَنتَصِرْ لِنَفسِه مع قُدرتِه على ذلك: فإنَّ صَبْرَه وغُفرانَه هذا مِنَ الأُمورِ المَشكورةِ الحَميدةِ التي حَثَّ اللهُ عليها وأكَّدَها وعَزَم على عِبادِه العمَلَ بها، وجَعَل عليها ثوابًا جَزيلًا وثَناءً جميلًا[1].

كما قال تعالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فيها مِن خِصالِ الدِّينِ: التَّوكُّلُ، واجتِنابُ الكبائِرِ والفواحِشِ، والحِلمُ عندَ القُدرةِ، وإقامُ الصَّلاةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، والمشاوَرةُ، والانتِصارُ مِن الباغي[2]، وفيه فَضيلةُ الجمْعِ بيْنَ هذه الصِّفاتِ المذكورةِ؛ لأنَّ كلَّ صِفةٍ منها صِفةُ مَدْحٍ لا شكَّ؛ لكنَّ اجتماعَها

= (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص ٣١٠، ٣١١).

قال ابنُ عُثَيمين: (يعني: لَدليلٌ على أنَّ الرَّجُلَ مِن ذَوِي العَزمِ؛ لأنَّه تحمَّلَ وسَتَر؛ تحمَّلَ فصبَرَ، وعفا فغَفَر). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٠).

يكونُ أكملَ[١]، ولَمَّا حَمِدَهم على هذه الصِّفاتِ كان هذا دَليلًا على أنَّ ضِدَّ هذه الصِّفاتِ ليْس مَحمودًا، بل مَذمومٌ؛ فإنَّ هذه الصِّفاتِ مُستلزِمةٌ لِعَدَمِ ضِدِّها، ولأنَّ حَمْدَها والثَّناءَ عليها طَلَبٌ لها وأمرٌ بها، ولو أنَّه أمرُ استِحبابٍ، والأمرُ بالشَّيءِ نَهيٌ عن ضِدِّه قَصدًا أو لُزومًا[٢].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ التَّزهيدُ في الدُّنيا، والتَّرغيبُ في الآخِرةِ[٣].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أنَّ التَّوكُّلَ عِبادةٌ يَجِبُ إفرادُ اللهِ بها، وجْهُ الدَّلالةِ: تَقديمُ المعمولِ -الَّذي هو الجارُّ والمجرورُ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾-؛ هذا دَليلُ وُجوبِ إفرادِ اللهِ به، وأمَّا الدَّليلُ على أنَّه عِبادةٌ؛ فلأنَّ اللهَ تعالَى ذَكَره في مَقامِ الثَّناءِ؛ ولا ثَناءَ إلَّا في عِبادةٍ[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ فيه حَضٌّ على كَسرِ الغَضَبِ[٥].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ أنَّ العَفوَ عن المُسيءِ وغُفرانَ سيِّئاتِه مَمْدوحٌ عندَ اللهِ، مَرضِيٌّ لَدَيه[٦].

٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ فيه تَرْغيبٌ في العَفوِ والصَّبرِ على الأذى، وذلك بيْن الأمَّةِ الإسلاميَّةِ ظاهِرٌ، وأمَّا مع الكافِرينَ فتَعْتريه أحوالٌ تختَلِفُ بها أحكامُ الغُفرانِ، ومِلاكُها أنْ تَترجَّحَ المصلحةُ في العَفوِ أو في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٣).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١٨).

المؤاخَذةِ[١].

٧- إنَّ الغضبَ إذا ملَك ابنَ آدمَ كان الآمرَ والنَّاهيَ له، فإذا لم يمتثِلْ ما يأمرُه به غضبُه، وجاهَد نفسَه على ذلك، اندَفَع عنه شرُّ الغَضبِ، وربَّما سكَن غضبُه، وذهَب عاجِلًا، فكأنَّه حينئذٍ لم يغضَبْ، وإلى هذا المعنى وقعَت الإشارةُ في القرآنِ بقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، وبقولِه: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فعلى الإنسانِ ألَّا يعمَلَ بمقتضَى الغضبِ إذا حصَل له، وأنْ يجاهِدَ نفسَه على تركِ تنفيذِه، والعملِ بما يأمرُ به[٢].

٨- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ كَفَلت هذه الجُمَلُ بالدُّعاءِ إلى أمَّهاتِ الفَضائلِ الثَّلاثِ: العِلمُ، والعِفَّةُ، والشَّجاعةُ؛ فالمدحُ بالاستِجابةِ والصَّلاةِ دُعاءٌ إلى العِلمِ، وبالنَّفَقةِ إلى العِفَّةِ، وبالانتِصارِ إلى الشَّجاعةِ[٣].

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ التَّشاورَ طاعةٌ للهِ، واقترابٌ إليه؛ إذْ قدْ جَعَلَه جلَّ وتعالَى في جُملةِ ما مَدَحَ به القَومَ[٤]. وعن الحَسَنِ رَضِيَ الله عنه قال: (ما تشاوَرَ قَومٌ قَطُّ إلَّا هُدُوا لأرشَدِ أُمورِهم)[٥]، وقد كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُشاوِرُ أصحابَه في الأُمورِ المُتعَلِّقةِ بمَصالحِ الحُروبِ، وذلك في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١٨).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٢٦٢٧٥)، وابن جرير في ((تفسيره)) (٦/ ١٩٠)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (٢/ ٤٦٧)، وابن أبي حاتم، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٥٧).

الآثارِ كَثيرٌ، ولم يُشاوِرْهم في الأحكام؛ لأنَّها مُنَزَّلةٌ مِن عندِ اللهِ تعالَى، فأمَّا الصَّحابةُ بعْدَ استِئثارِ اللهِ به علينا -أي: بعدَ موتِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- فكانوا يَتشاوَرونَ في الأحكامِ، ويَستَنبِطونَه مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فيه أمرٌ بتَرْكِ الاختِلافِ، والتَّوفُّرِ على الائتِلافِ[٢]، فهذا لا يكونُ إلَّا فَرعًا عن اجتِماعِهم وتَوالُفِهم، وتَوادُدِهم وتَحابُبِهم، وكَمالِ عُقولِهم: أنَّهم إذا أرادوا أمرًا مِن الأمورِ التي تَحتاجُ إلى إعمالِ الفِكرِ والرَّأيِ فيها، اجتَمَعوا لها وتَشاوَروا وبَحَثوا فيها، حتى إذا تبيَّنَت لهم المَصلحةُ انتَهَزوها وبادَروها، وذلك كالرَّأيِ في الغَزْوِ والجِهادِ، وتَوليةِ المُوظَّفينَ لإمارةٍ أو قَضاءٍ، أو غيرِه، وكالبَحثِ في المسائِلِ الدِّينيَّةِ عُمومًا؛ فإنَّها مِن الأُمورِ المُشتَرَكةِ، والبَحثُ فيها لبَيانِ الصَّوابِ: مِمَّا يُحِبُّه اللهُ، وهو داخِلٌ في هذه الآيةِ[٣].

١١- قال تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فذَكَر أوصافًا أربعةً هي قَواعِدُ النَّصَفةِ، الفاعِلونَ لها كالجَسَدِ الواحِدِ لا تَأخُذُهم نازِلةٌ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ[٤].

١٢- قال تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾، ذَكَر سُبحانَه هؤلاء المنتَصِرينَ في مَعرِضِ المَدحِ، كما ذكَرَ المَغفِرةَ عندَ الغَضَبِ في مَعرِضِ المدحِ؛ لأنَّ التذَلُّلَ لِمَن بَغى ليْس مِن صِفاتِ مَن جَعَل اللهُ له العِزَّةَ، حيثُ قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ فالانتِصارُ عندَ البَغيِ فَضيلةٌ، كما أنَّ العَفوَ عندَ

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٩١-٩٢).

(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ١٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣١).

الغَضَبِ فَضيلةٌ[١]. فمِن صِفاتِ الَّذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون: أنَّهم لا يَرضَوْنَ بالذُّلِّ والانخناسِ عن الأخْذِ بحقِّهم، وليْس مِن لازمِ الانتصارِ أنْ يَقْتَصَّ؛ لأنَّ مَن عَفا عن قُدرةٍ وعِزَّةٍ فإنَّه لا شكَّ أنَّه مُنتصِرٌ، ومَن أخَذ بحقِّه فهو مُنتصِرٌ[٢].

١٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ فيه وُجوبُ العَدلِ في الجزاءِ، وعَدَمُ الاعتداءِ فيه[٣].

١٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ في جَعْلِ أجْرِ العافي على اللهِ ما يُهيِّجُ على العَفوِ، وأنْ يُعامِلَ العَبدُ الخَلقَ بما يُحِبُّ أنْ يُعامِلَه اللهُ به، فكما يُحِبُّ أنْ يَعفوَ اللهُ عنه فلْيَعفُ عنهم، وكما يُحِبُّ أنْ يُسامِحَه اللهُ فلْيُسامِحْهم؛ فإنَّ الجَزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ[٤]. وكان الحَسَنُ البَصريُّ يَدْعو ذاتَ ليلةٍ: (اللَّهُمَّ اعفُ عمَّن ظلَمَني! فأكثَرَ في ذلك، فقال له رجُلٌ: يا أبا سَعيدٍ، لقد سَمِعتُك اللَّيلةَ تَدْعو لِمَن ظلَمَك حتى تمنَّيتُ أنْ أكونَ فيمَن ظلَمَك! فما دعاكَ إلى ذلِك؟ قال: قولُه تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾)[٥].

١٥- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ شَمِلَ أُصولَ الإرشادِ إلى ما في الانتِصارِ مِن الظَّالِمِ، وما في العَفوِ عنه: مِن صَلاحِ الأمَّةِ؛ ففي تَخويلِ حَقِّ انتِصارِ المظلومِ مِن ظالِمِه رَدعٌ للظَّالِمينَ عن الإقدامِ على الظُّلمِ؛ خَوفًا مِن أنْ يَأخُذَ المظلومُ بحَقِّه؛ فالمُعتدي يَحسَبُ لذلك حِسابَه حينَ الهَمِّ بالعُدوانِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٦٠).

(٥) يُنظر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٦/ ٥٧٥).

وفي التَّرغيبِ في عَفوِ المظلومِ عن ظالِمِه حِفظُ آصِرةِ الأُخُوَّةِ الإسلاميَّةِ بيْنَ المظلومِ وظالِمِه؛ كيْلَا تَنثَلِمَ في آحادِ جُزئيَّاتِها، بل تَزدادُ بالعَفوِ مَتانةً، كما قال تعالَى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤]، على أنَّ اللهَ تعالَى لم يُهمِلْ جانِبَ رَدعِ الظَّالِمِ؛ فأنْبأَ بتحَقيقٍ أنَّه بمَحَلٍّ مِن غَضَبِ اللهِ عليه؛ إذ قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولا يَنحَصِرُ ما في طَيِّ هذا مِن هَولِ الوَعيدِ[١].

١٦- قولُه تعالَى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ فيه الحَثُّ على العَفوِ إذا كان إصلاحًا[٢].

١٧- قولُه تعالَى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ فيه الحَثُّ على الصَّبرِ[٣]، فهذا إخبارٌ مِن اللهِ تعالَى بأنَّ أهلَ الصَّبرِ هم أهلُ العزائمِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ أخبرَ سُبحانَه أنَّ ما عِندَه خيرٌ لِمَن آمَنَ به وتَوَكَّلَ عليه، وهذا هو التَّوحيدُ، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾؛ فهذا اجتنابُ داعي القُوَّةِ الشَّهوانيَّةِ، ثمَّ قال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾؛ فهذا مُخالفةُ القُوَّةِ الغَضَبيَّةِ؛ فجَمَع بيْنَ التَّوحيدِ والعِفَّةِ والعَدلِ: التي هي جِماعُ الخيرِ كُلِّه[٥].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ سَمَّاه مَتاعًا؛ تَنبيهًا على قِلَّتِه وحَقارتِه؛ ولأنَّ الحِسَّ شاهِدٌ بأنَّ كُلَّ ما يَتعلَّقُ بالدُّنيا فإنَّه يكونُ سَريعَ الانقِراضِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٦-١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١١).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨١).

والانقِضاءِ[١].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ ﴾ أنَّ في الآثامِ صَغيرًا وكبيرًا[٢].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ أنَّ اجتِنابَ كَبيرِ الإثمِ يُكَفِّرُ الصَّغيرَ، ويُؤيِّدُه قَولُه تعالى: ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾[النساء: ٣١][٣]، وليْس المرادُ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ فتْحَ البابِ لارتكابِ صَغائرِ الآثامِ والذُّنوبِ، بلِ المرادُ بَيانُ فضْلِ اللهِ تعالَى على عِبادِه، ورَحمتِه بهم[٤].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ أنَّ صَغائرَ الذُّنوبِ لا تَنْقُصُ مِن كَمالِ الإيمانِ؛ لأنَّها تَقَعُ مَغفورةً باجتِنابِ الكبائرِ، كما قال اللهُ تَبارَك وتعالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾[النجم: ٣٢]، يعني: إلَّا الصَّغائرَ؛ فإنَّها لا تَضُرُّ، وأخبَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ((أنَّ الصَّلواتِ الخَمسَ، والجُمُعةَ إلى الجُمُعةِ، ورمَضانَ إلى رَمَضانَ: مُكَفِّراتٌ لِما بيْنَهنَّ إذا اجتُنِبَتِ الكبائرُ))[٥].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ وقَولِه سُبحانَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴾ أنَّه سُبحانَه حَمِدَهم على أنَّهم يَنتَصِرونَ عندَ البَغيِ عليهم، كما أنَّهم يَعفُونَ عندَ الغَضَبِ؛ فليْسوا مِثْلَ الذي ليْس له قُوَّةُ الانتِصارِ وفِعْلُه؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط للقرآن الكريم)) لطنطاوي (١٣/ ٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٤).

والحديثُ أخرجه مسلمٌ (٢٣٣) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه.

لِعَجْزِهم أو كَسَلِهم، أو وَهْنِهم أو ذُلِّهم أو حُزْنِهم؛ فإنَّ أكثرَ مَن يَترُكُ الانتِصارَ بالحقِّ إنَّما يَترُكُه لهذه الأمورِ وأشباهِها، وأيضًا هم ليْسوا مِثلَ الذي إذا غَضِبَ لا يَغفِرُ ولا يَعفُو، بلْ يَتعدَّى أو يَنتَقِمُ حتى يُكَفَّ مِن خارجٍ، كما عليه أكثرُ النَّاسِ إذا غَضِبوا أو قَدَروا، فلا يَقِفُون عندَ العَدلِ، فَضلًا عن الإحسانِ! فحَمِدَهم على أنَّهم يَنتَصِرونَ وعلَى أنَّهم يَعفُونَ[1].

٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (بينهم) هذا الظَّرفُ صِفةٌ لـ ﴿شُورَىٰ﴾، والتَّشاوُرُ لا يكونُ إلَّا بيْن المُتشاوِرينَ؛ فالوَجهُ أنْ يكونَ هذا الظَّرفُ إيماءً إلى أنَّ الشُّورى لا يَنْبغي أنْ تَتجاوَزَ مَن يُهِمُّهم الأمرُ مِن أهلِ الرَّأيِ، فلا يَدخُلُ فيها مَن لا يُهِمُّه الأمرُ، وإلى أنَّها سِرٌّ بيْن المُتشاوِرينَ[2].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أنَّ هؤلاء لا يَنتَصِرونَ لأنفُسِهم إلَّا إذا تَحقَّقوا البَغيَ عليهم، وأمَّا مُجرَّدُ التُّهمةِ فلا يَعتَبِرونَها؛ يُؤخَذُ ذلك مِن قَولِه: ﴿إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ فلو اتَّهموا أحدًا أنَّه ظَلَمَهم فإنَّهم لا يَتحرَّكونَ، لكنْ إذا أصابَهم البَغيُ حينئذٍ يَنتَصِرونَ[3].

٩- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ مُشكِلةٌ؛ لِوَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّه لَمَّا ذَكَر قَبْلَه ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ فكيْف يَليقُ أنْ يُذكَرَ معه ما يَجْري مَجرَى الضِّدِّ له، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾؟

الثَّاني: أنَّ جميعَ الآياتِ دالَّةٌ على أنَّ العَفوَ أحسَنُ؛ قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا

(١) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٩٢).

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، فهذه الآياتُ قدْ يُتوهَّمُ أنَّها تُناقِضُ مَدلولَ هذه الآيةِ؟

والجوابُ أنَّ العَفوَ على قِسمَينِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ العَفوُ سَببًا لِتَسكينِ الفِتنةِ وجِنايةِ الجاني ورُجوعِه عن جِنايتِه.

والثَّاني: أنْ يَصيرَ العَفوُ سَبَبًا لِمَزيدِ جَراءةِ الجاني، ولقُوَّةِ غَيظِه وغَضَبِه، والآياتُ في العَفوِ مَحمولةٌ على القِسمِ الأوَّلِ. وهذه الآيةُ مَحمولةٌ على القِسمِ الثَّاني، وحينَئذٍ يَزولُ ما يُتوهَّمُ مِنَ التَّناقُضِ[(١)].

وقيل: إنَّ المقصودَ مِن قَولِه: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ مُعاملةُ المُسلِمينَ بَعضِهم مع بَعضٍ، فلا يُعارِضُه قَولُه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾؛ لأنَّ ذلك في مُعامَلتِهم معَ أعداءِ دِينِهم؛ إذ هو لِدَفْعِ البَغْيِ اللَّاحقِ بهم لأجْلِ أنَّهم مُؤمِنونَ، فالانتصارُ لأنفُسِهم رادعٌ للباغينَ عن التَّوغُّلِ في البَغْيِ على أمثالِهم، وذلك الرَّدْعُ عَونٌ على انتشارِ الإسلامِ؛ إذ يَقطَعُ ما شَأنُه أنْ يُخالِجَ نُفوسَ الرَّاغبينَ في الإسلامِ مِن هَواجسِ خَوفِهم مِن أنْ يُبغَى عليهم، وبهذا تَعلَمُ أنْ ليْس بيْن قولِه هنا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ وبيْن قولِه آنفًا: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] تعارُضٌ؛ لاختلافِ المَقامينِ؛ فهو مِن بابِ التَّكميلِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١١، ١١٣، ١١٤).

١٠- قولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ على القولِ بأنَّه ذكَرَ الانتصارَ بلَفظِ الإباحةِ، إنْ قِيل: كيْف ذُكِرَ الانتصارُ في صِفاتِ المدْحِ، والمباحُ لا مدْحَ فيه ولا ذَمَّ؟

فالجوابُ: مِن أوجُهٍ:

منها: أنَّ المباحَ قدْ يُمدَحُ؛ لأنَّه قِيامٌ بحقٍّ لا بباطلٍ.

ومنها: أنَّ مدْحَ الانتصارِ لكَونِه كان بعْدَ الظُّلمِ، تَحرُّزًا ممَّن بدَأ بالظُّلمِ، فكأنَّ المدْحَ إنَّما هو بترْكِ الابتداءِ بالظُّلمِ[(١)].

١١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ أصلٌ كَبيرٌ في عِلمِ الفِقهِ؛ فإنَّ مُقتَضاها أنْ تُقابَلَ كُلُّ جِنايةٍ بمِثلِها؛ وذلك لأنَّ الإهدارَ يُوجِبُ فَتْحَ بابِ الشَّرِّ والعُدوانِ؛ لأنَّ في طَبعِ كُلِّ أحَدٍ الظُّلمَ والبَغيَ والعُدوانَ، فإذا لم يُزجَرْ عنه أقدَمَ عليه ولم يَترُكْه، وأمَّا الزِّيادةُ على قَدرِ الذَّنْبِ فهو ظُلمٌ، والشَّرعُ مُنَزَّهٌ عنه؛ فلم يَبْقَ إلَّا أنْ يُقابَلَ بالمِثْلِ[(٢)]. فيَجِبُ أنْ تكونَ المُقاصَّةُ على وَجهِ العَدلِ؛ فيكونَ جَزاءُ السَّيِّئةِ سَيِّئةً مِثلَها، فلا يجوزُ أنْ يُعتَدى في القِصاصِ لا القَوليِّ ولا الفِعليِّ؛ فلو أنَّ رجُلًا سَبَّكَ بوَصفَينِ وسَبَبْتَه بثَلاثةِ أوصافٍ، فلا يَجوزُ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى قال: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾، ولو أنَّ رجُلًا قَطَعَ يَدَ إنسانٍ، وطُلِبَ القِصاصُ، فقال الجاني: أنا أريدُ تَخديرَ يَدي؛ حتَّى لا أُحِسَّ بالألمِ، وقال المجنيُّ عليه: لا؛ فالقَولُ قولُ المجنيِّ عليه؛ لأنَّ الجانيَ أتَى مَفسدتَينِ: الإيلامَ، وفَقْدَ العُضوِ؛ فلا تَتِمُّ المُقاصَّةُ إلَّا إذا حَصَل هذانِ الأمرانِ بالنِّسبةِ للجاني[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠١).

١٢- تَفَضُّلُ اللهِ تَبارَك وتعالَى على عِبادِه، حيثُ أوجَبَ على نَفسِه أجرَ العافي المُصلِحِ؛ يُؤخَذُ ذلك مِن قَولِه تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ فقدْ ضَمِنَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهذا العافي المصلِحِ الأجرَ[١].

١٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ شَرَط اللهُ في العَفوِ الإصلاحَ فيه -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لِيَدُلَّ ذلك على أنَّه إذا كان الجاني لا يَليقُ العَفوُ عنه، وكانت المَصلحةُ الشَّرعيَّةُ تَقتَضي عُقوبتَه؛ فإنَّه في هذه الحالِ لا يكونُ مأمورًا به[٢]؛ فلو أنَّ الجانيَ مَعروفٌ بالشَّرِّ والفَسادِ، فاعتدَى على شَخصٍ فإنَّه لا يُعفَى عنه؛ لأنَّنا لو عَفَونا عنه في هذه القضيَّةِ المعيَّنةِ؛ فَعَل مِثلَها أو أشدَّ بعْدَ ذلك؛ لاعتِمادِه على العفوِ في كلِّ فِعلٍ. وعلى ذلك فقَولُه تَبارك وتعالَى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] مُقَيَّدٌ بهذه الآيةِ، بل كلُّ نَصٍّ فيه الحثُّ على العَفوِ فإنَّه مُقَيَّدٌ بهذه الآيةِ؛ وهو أنَّه لا بُدَّ أنْ يكونَ العَفوُ إصلاحًا[٣].

١٤- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثُبوتُ صِفةِ المحبَّةِ للهِ عزَّ وجَلَّ؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّه لَمَّا نَفَى مَحبَّتَه للظَّالِمينَ دلَّ ذلك على أنَّه يُحِبُّ العادِلينَ ذَوِي القِسطِ، وهذا الاستِدلالُ يُشابِهُ استِدلالَ الإمامِ الشَّافعيِّ رَحِمه اللهُ على أنَّ المُؤمِنينَ يَرَونَ اللهَ؛ لِقَولِه تعالَى في الفُجَّارِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فقال: (لو كان مُحتَجِبًا عن الجَميعِ مَثَلًا، فلا فائِدةَ للنَّفيِ)[٤].

١٥- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ التَّحذيرُ مِن الظُّلمِ؛ وجْهُه: أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٥)، ويُنظر: ((شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة)) للالكائي (٣/ ٥١٩).

في الظُّلمِ انتفاءَ مَحبَّةِ اللهِ للعَبدِ[١].

١٦- قال تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] لَمَّا كان النَّاسُ عندَ مُقابَلةِ الأذى ثَلاثةَ أقسامٍ: ظالِمٌ يَأخُذُ فوقَ حَقِّه، ومُقتَصِدٌ يَأخُذُ بقَدْرِ حَقِّه، ومُحسِنٌ يَعفو ويَترُكُ حَقَّه؛ ذكَرَ الأقسامَ الثَّلاثةَ في هذه الآيةِ؛ فأوَّلُها للمُقتَصِدينَ، ووَسَطُها للسَّابِقينَ، وآخِرُها للظَّالِمينَ[٢]، فأمَرَ بالعَدلِ، ونَدَب إلى الفَضلِ، ونَهَى عن الظُّلمِ[٣].

١٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ يَقتَضي إباحةَ الانتِصارِ[٤]، وأنَّ العَفوَ ليْس بواجِبٍ[٥].

١٨- قَولُه تعالَى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ المظلومُ وإنْ كان مأذونًا له في دَفعِ الظُّلمِ عن نَفسِه، فذلك مَشروطٌ بشَرطينِ؛ أحدُهما: القُدرةُ على ذلك. والثَّاني: ألَّا يَعتدِيَ. فإذا كان عاجِزًا، أو كان الانتِصارُ يُفضي إلى عُدوانٍ زائدٍ: لم يَجُزْ[٦].

١٩- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ أنَّ انتِفاءَ السَّبيلِ عمَّن انتصرَ لِنَفسِه مَشروطٌ بتحَقُّقِ الظُّلمِ، أمَّا الأخذُ بالتُّهَمِ فإنَّه لا يجوزُ؛ فلا بُدَّ أنْ تَتحقَّقَ أنَّك مَظلومٌ حتَّى تَنتصرَ لنَفسِك[٧]؛ ففيه تَنبيهٌ على أنَّ هذا الانتصارَ يكونُ بعْدَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٥).
(٢) يُنظر: ((قاعدة في الصبر)) لابن تيمية (ص: ٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٩).
(٦) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٤٠).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٦).

أنْ تَحقَّقَ أنَّهم ظُلِموا، فأمَّا في غيرِ الحروبِ، فمَن يَتوقَّعُ أنَّ أحدًا سيَعتدي عليه ليْس له أنْ يُبادِرَ أحدًا بأذًى قبْلَ أنْ يَشرَعَ في الاعتداءِ عليه، ويقولَ: ظنَنتُ أنَّه يَعتدي عليَّ، فبادَرتُه بالأذى اتِّقاءً لاعتدائِه المتوقَّعِ؛ لأنَّ مِثلَ هذا يُثيرُ التَّهارُجَ والفسادَ، فنبَّهَ اللهُ المسلمينَ على تَجنُّبِه مع عَدوِّهم إنْ لم تكُنْ بيْنهم حرْبٌ[١].

٢٠- قال تعالَى: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾، وقبْلَه قال: ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠]، وبيانُ الجمْعِ بيْنهما: أنَّ آيةَ العَفوِ واردةٌ في شأْنِ المظلومِ، وإرشادٌ له إلى مَكارمِ الأخلاقِ، وإيثارُ طَريقِ المرسَلينَ، وهذه خِطابٌ للوُلاةِ والحُكَّامِ وتَعليمُ فِعلِ ما يَنْبغي فِعلُه؛ بدَليلِ قولِه: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٤٢]، حيثُ أعادَ (السَّبيلَ) المُنكَّرَ بالتَّعريفِ، وعلَّقَ به ﴿ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾، وفسَّرَه بقولِه: ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٢].

٢١- ذَكَر سُبحانَه الأصنافَ الثَّلاثةَ في بابِ الظُّلمِ الذي يكونُ بغيرِ اختيارِ المظلومِ، وهم: العادِلُ، والظَّالِمُ، والمُحسِنُ؛ فالعادِلُ مَن انتَصَر بعد ظُلْمِه، وهذا جَزاؤُه أنَّه ما عليه مِن سَبيلٍ، فلم يكُنْ بذلك مَمْدوحًا، ولكنْ لم يكُنْ بذلك مَذْمومًا، وذَكَر الظَّالِمَ بقَولِه: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الشورى: ٤٢] فهؤلاء عليهم السَّبيلُ للعُقوبةِ والاقتِصاصِ، وذَكَر المُحسِنينَ، فقال: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[٣] [الشورى: ٤٣].

٢٢- في قَولِه تعالَى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ أنَّ الأمورَ تَختلِفُ في العَزَماتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٨، ١١٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٣٠/ ٣٦٧-٣٦٨).

وما دونَها، ولا شَكَّ أنَّها تختَلِفُ؛ فبَعضُها يكونُ المُقدِمُ عليه ذا عَزيمةٍ صادقةٍ ومُروءةٍ تامَّةٍ، وبَعضُها دونَ هذا(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ﴾ [الشورى: ٢٧] إلى آخِرِها؛ فإنَّها اقتَضَتْ وُجودَ مُنعَمٍ عليه ومَحرومٍ، فذُكِّروا بأنَّ ما أُوتُوهُ مِن رِزقٍ هو عرَضٌ زائلٌ، وأنَّ الخيرَ في الثَّوابِ الذي ادَّخَرَه اللهُ للمؤمنينَ، مع المناسَبةِ لِما سبَقَه مِن قولِه: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٤] مِن سَلامةِ النَّاسِ مِن كَثيرٍ مِن أهوالِ الأسفارِ البَحْريَّةِ؛ فإنَّ تلك السَّلامةَ نِعمةٌ مِن نِعَمِ الدُّنيا، ففُرِّعتْ عليه الذِّكرى بأنَّ تلك النِّعمةَ الدُّنيويَّةَ نِعمةٌ قَصيرةُ الزَّمانِ، صائرةٌ إلى الزَّوالِ، فلا يَجعَلُها الموفَّقُ غايةَ سَعْيِه، ولْيَسْعَ لِعَملِ الآخِرةِ الَّذي يأْتي بالنَّعيمِ العَظيمِ الدَّائمِ، وهو النَّعيمُ الذي ادَّخَرَه اللهُ عِندَه لِعِبادِه المؤمنينَ الصَّالحينَ(٢).

- قولُه: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أُتْبِعتْ صِلةُ (الذين آمَنوا) بما يَدُلُّ على عَمَلِهم بإيمانِهم في اعتقادِهم، فعُطِف على الصِّلةِ أنَّهم يَتوكَّلونَ على ربِّهم دونَ غيرِه، وهذا التَّوكُّلُ إفرادٌ للهِ بالتَّوَجُّهِ إليه في كلِّ ما تَعجزُ عنه قُدرةُ العبْدِ؛ فإنَّ التَّوجُّهَ إلى غيرِه في ذلك يُنافي التَّوحيدَ؛ لأنَّ المشرِكينَ يَتوكَّلونَ على آلهتِهم أكثَرَ مِن تَوكُّلِهم على اللهِ، ولكونِ هذا مُتمِّمًا لمعنَى (الذين آمَنوا)؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٩).

عُطِف على الصِّلةِ، ولم يُؤتَ معه باسمٍ مَوصولٍ، بخِلافِ ما ورَدَ بعْدَه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ فيه إتْباعُ الموصولِ السَّابقِ (الذين آمنوا) بمَوصولاتٍ مَعطوفٍ بعضُها على بعضٍ كما تُعطَفُ الصِّفاتُ للمَوصوفِ الواحدِ، فكذلك عطْفُ هذه الصِّلاتِ ومَوصولاتِها، أصحابُها مُتَّحِدونَ، وهم الذين آمَنوا باللهِ وَحْدَه، والمقصودُ مِن ذلك: هو الاهتمامُ بالصِّلاتِ، فيُكرَّرُ الاسمُ الموصولُ؛ لِتَكونَ صِلتُه مُعتنًى بها، حتى كأنَّ صاحبَها المتَّحِدَ مُنزَّلٌ مَنزلةَ ذواتٍ مُتعدِّدةٍ، فالمقصودُ: ما عِندَ اللهِ خيرٌ وأبْقَى للمُؤمنينَ الَّذين هذه صِفاتُهم، أي: أتْبَعوا إيمانَهم بها، وهذه صِفاتٌ للمُؤمنينَ باختِلافِ الأحوالِ العارضةِ لهم؛ فهي صِفاتٌ مُتداخِلةٌ قدْ تَجتمِعُ في المؤمنِ الواحدِ إذا وُجِدتْ أسبابُها، وقدْ لا تَجتمِعُ إذا لم تُوجَدْ بعضُ أسبابِها[٢].

- وقولُه: ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾ بصِيغةِ الجمْعِ، وقُرِئ أيضًا: ﴿كَبِيرَ﴾ بالإفرادِ[٣]؛ فكَبائرُ الإثمِ: الفَعَلاتُ الكَبيرةُ مِن جِنسِ الإثمِ، وهي الآثامُ العَظيمةُ التي نَهى الشَّرعُ عنها نَهْيًا جازمًا، وتَوعَّدَ فاعِلَها بعِقابِ الآخِرةِ؛ مِثلُ: القذْفِ والاعتداءِ والبَغيِ. وعلى قِراءةِ ﴿كَبِيرَ الْإِثْمِ﴾ مُرادٌ به معنَى ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾؛ لأنَّ المفردَ لَمَّا أُضيفَ إلى مُعرَّفٍ بلامِ الجِنسِ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، كان له حُكمُ ما أُضيفَ هو إليه[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ جِيءَ بكَلمةِ (إذا) المُضمَّنةِ معنَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٩)

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١١٠).

(٣) قرَأها حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿كَبِيرَ﴾، وقرَأ الباقون ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾ بفتْحِ الباءِ وألِفٍ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٠).

الشَّرطِ، والدَّالَّةِ على تَحقُّقِ الشَّرْطِ؛ لأنَّ الغضَبَ طَبيعةٌ نفْسيَّةٌ لا تَكادُ تَخْلو عنه نفْسُ أحدٍ على تَفاوُتٍ؛ لإفادةِ التَّقَوِّي. وتَقييدُ المسنَدِ بحَرْفِ (إذا) المفيدةِ معْنى الشَّرطِ؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ الغُفرانِ كلَّما غَضِبوا(١).

- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ قدَّم الغَضَبَ؛ إشارةً إلى الاهتِمامِ بإطفاءِ جَمْرِه، وتَبْريدِ حَرِّه(٢).

- وقُدِّم المسنَدُ إليه على الخَبرِ الفِعليِّ في جُملةِ ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم الأخِصَّاءُ بالمغفرةِ حالَ الغضبِ(٣).

- وخَصَّ الغَضَبَ بلَفظِ الغُفرانِ؛ لأنَّ الغَضَبَ على طَبعِ النَّارِ، واستِيلاؤُه شَديدٌ، ومُقاومتُه صَعبةٌ؛ فلهذا السَّبَبِ خَصَّه بهذا اللَّفظِ(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذا مَوصولٌ آخَرُ وصِلَةٌ أُخرَى، ومَدلولُهما مِن أعمالِ الَّذين آمَنوا التي يدْعوهم إليها إيمانُهم، والمقصودُ منها ابتداءً هم الأنصارُ، ومعنى ذلك أنَّهم مِن المؤمنينَ الَّذين تَأصَّلَ فيهم خُلُقُ الشُّورى(٥).

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ السِّينُ والتَّاءُ في ﴿ٱسْتَجَابُوا۟﴾؛ للمُبالَغةِ في الإجابةِ، أي: هي إجابةٌ لا يُخالِطُها كَراهيةٌ ولا تَردُّدٌ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قولِه: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أثنَى اللهُ عليهم بإقامةِ الصَّلاةِ؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ ذلك تَنْويهًا بمَكانةِ الصَّلاةِ بأعْمالِ الإيمانِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ إقامةً خاصَّةً[١].

- وجُعِلتْ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ عطفًا على الصِّلةِ، وقدْ عُرِف الأنصارُ بذلك؛ إذ كان التَّشاوُرُ في الأمورِ عادتَهم، فإذا نزَلَ بهم مُهِمٌّ اجتمَعوا وتَشاوَروا، وكان مِن تشاوُرِهم الذي أَثْنى اللهُ عليهم به تَشاوُرُهم حينَ ورَدَ إليهم نُقباؤُهم، وأَخبَروهم بدَعوةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعْدَ أنْ آمَنوا هم به لَيلةَ العقَبةِ، فلمَّا أَبلَغوهم ذلك اجتمَعوا في دارِ أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ رَضيَ اللهُ عنه، فأَجمَعَ رأيُهم على الإيمانِ به والنَّصرِ له، وإذ قد كانتِ الشُّورى مُفضِيةً إلى الرُّشدِ والصَّوابِ، وكان مِن أفضَلِ آثارِها أنِ اهتَدى بسَببِها الأنصارُ إلى الإسلامِ؛ أَثْنى اللهُ بها على الإطلاقِ دونَ تَقييدٍ بالشُّورى الخاصَّةِ التي تَشاوَرَ بها الأنصارُ في الإيمانِ، وأيُّ أمرٍ أعظَمُ مِن أمْرِ الإيمانِ[٢]؟!

- قولُه: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ جُملةٌ اسميَّةٌ عُطِفتْ على الفِعليَّةِ، وعُطِفتْ عليها الفِعليَّةُ، فآذَنَ بأنَّ مَضمونَها مُستمِرٌّ منهم، وهو دَأْبُهم وعادتُهم قبْلَ استجابتِهم لربِّهم، وقبْلَ إقامةِ الصَّلاةِ والإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ؛ لاستِحداثِهم إيَّاها بعْدَ المشورةِ[٣].

- وأيضًا أفرَدَ هذه الجُملةَ بالذِّكرِ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾؛ لِمَزيدِ الاهتمامِ بالشُّورى، وتَنويهًا بها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣).

- و(الأمرُ): اسمٌ مِن أسماءِ الأجناسِ العامَّةِ، مِثلُ شَيءٍ وحادِثٍ، وإضافةُ اسمِ الجِنسِ قدْ تُفيدُ العُمومَ بمَعونةِ المَقامِ، أي: جَميعُ أُمورِهم مُتشاوَرٌ فيها بيْنهم. والإخبارُ عن الأمرِ بأنَّه شُورَى مِن قَبيلِ الإخبارِ بالمصدرِ للمُبالَغةِ[١].

- وقولُه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إدْماجٌ[٢] للامتنانِ في خلالِ المدحِ، وإلَّا فليس الإنفاقُ مِن غيرِ ما يُرزَقُه المُنفِقُ[٣].

- مِن الاستِجابةِ لله: إقامةُ الصَّلاةِ وإيتاءُ الزَّكاةِ، وعطفُهما عليها مِن بابِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ، الدَّالِّ على شَرفِه وفَضلِه[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ هذا مَوصولٌ رابعٌ، وصِلتُه خُلُقٌ أرادَه اللهُ للمُسلِمينَ، والبغْيُ: الاعتداءُ على الحقِّ؛ فمعنَى إصابتِه إيَّاهم أنَّه سُلِّط عليهم، أي: بَغَى غيرُهم عليهم[٥].

- والبَغيُ بغيرِ الحَقِّ هو نوعٌ مِن أنواعِ الظُّلمِ، خَصَّه بالذِّكرِ؛ تَنبيهًا على شِدَّتِه، وسُوءِ حالِ صاحِبِه[٦].

- وأُدخِلَ ضَميرُ الفَصلِ (هُم) بقولِه: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ الذي فصَلَ بيْنَ الموصولِ وبيْنَ خَبرِه؛ لإفادةِ تقَوِّي الخبرِ، أي: لا يَنْبَغي أنْ يَترَدَّدوا في الانتِصارِ لِأنفُسِهم[٧].

- ودلَّ هذا التَّركيبُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ على مَزيدِ اختِصاصِهم بالانتصارِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٢).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٤).

وذلك لِمَجيءِ الضَّميرِ وإيقاعِه مُبتدأً، وإسنادِ ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ إليه[١].

- وأُوثِرَ الخَبرُ الفِعليُّ ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ هنا دونَ أن يُقالَ: (مُنتصِرون)؛ لإفادةِ معنى تَجدُّدِ الانتصارِ كلَّما أصابَهم البَغْيُ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثَلاثُ جُملٍ مُعترِضةٌ الواحدةُ تِلْوَ الأُخرى بيْن جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ ...﴾ إلخ [الشورى: ٣٩] وجُملةِ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ [الشورى: ٤١]، وفائدةُ هذا الاعتراضِ تَحديدُ الانتصارِ والتَّرغيبُ في العفْوِ، ثمَّ ذمُّ الظُّلمِ والاعتداءِ[٣].

- و﴿سَيِّئَةٞ﴾ صِفةٌ لِمَحذوفٍ، أي: فِعلةٌ تَسُوءُ مَن عُومِلَ بها، ووَزْنُ (سيِّئة) فَيْعِلةٌ؛ مُبالَغةً في الوصفِ، أي: إنَّ المُجازيَ يُجازي مَن فعَلَ معه فِعلةً تَسُوؤُه بفِعلةٍ سيِّئةٍ مِثلِ فِعْلتِه في السُّوءِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ جِناسُ المُزاوَجةِ اللَّفظيُّ[٥]؛ فإنَّ السَّيِّئةَ الثَّانيةَ ليْستْ بسَيِّئةٍ؛ وإنَّما هي مُجازاةٌ عن السَّيِّئةِ، سُمِّيتْ باسمِها؛

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٧٥، ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١١٥).

(٥) جِناسُ المُزاوَجةِ -ويُسمَّى المشاكَلةَ-: هو ذِكرُ الشَّيءِ بلَفظِ غَيرِه؛ لوُقوعِه في صُحبتِه، تَحقيقًا أو تَقْديرًا؛ فالتَّحقيقُ مِثلُ قولِه تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فجعَل سُبحانَه الجزاءَ على السَّيِّئةِ سَيِّئةً، وهو ليْس كذلك، وإنَّما لمناسَبةِ السيِّئةِ الَّتي سبَقَتْه. والتقديرُ مِثلُ قولِه سُبحانه: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]، ومُقابِلُ الصِّبغةِ مُقدَّرٌ، تَقديرُه: صِبغةَ اللهِ لا صِبْغتكم. يُنظر: ((عروس الأفراح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٢٣٧ - ٢٣٩)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٠٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٩/ ٤٥).

لِقَصْدِ المزاوَجةِ[١]، وقيل: كِلتا الفِعلتَينِ -الأُولَى وجَزاؤُها- سيِّئةٌ؛ لأنَّها تَسوءُ مَن تَنزِلُ به[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَا ...﴾ الآيةَ: ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّهذيبِ؛ فإنَّها سَلِمَتْ مِن المحذورِ الذي يَقتضي تَهذيبَها، وتَفصيلُ ذلك: أنَّه عِندَما يُسنَدُ الفعلُ إلى اللهِ تعالَى يَنبغي العدولُ عن إسنادِ الإساءةِ إليه، كما في قولِه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم: ٣١]؛ فإنَّ صحَّةَ المقابَلةِ في هذا النَّظمِ أنْ يُقالَ: لِيَجزيَ الَّذين أساؤوا بالإساءةِ؛ حتَّى تَصِحَّ مُقابَلتُه بقولِه: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾، لكنْ منَعَ مِن ذلك الْتزامُ الأدبِ مع اللهِ سُبحانَه في إسنادِ فِعلِ الإساءةِ إليه. أمَّا الآيةُ التي نحن بصَددِها، فقدْ أُمِنَ فيها ذلك المحذورُ، فأتَى النَّظمُ على مُقتضَى البلاغةِ مِن مَجيءِ تَجنيسِ الازدواجِ فيه على وَجْهِه مِن غيرِ تَغييرٍ؛ إذ لا ضَرورةَ تدْعو إلى تَغييرِه[٣].

- وكذلك في قولِه: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ تَهذيبٌ؛ فإنَّ الانتصارَ لا يَكادُ يُؤمَنُ فيه تَجاوُزُ السَّيِّئةِ والاعتداءُ، خُصوصًا في حالةِ الفوَرانِ والغلَيانِ والْتهابِ الحَمِيَّةِ، وفي هذا جَوابٌ لمَن يَتساءلُ: ما معنى ذِكرِ الظُّلمِ عَقِبَ العفوِ معَ أنَّ الانتصارَ ليس بظُلمٍ[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥).

قال أبو حيَّانَ: (مَجيءُ الشَّيءِ على سبيلِ المقابلةِ، وإنْ لم يَكُنْ مِن جِنسِ ما قُوبِل به؛ شائعٌ في لِسانِ العربِ، ومنه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَا﴾). ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٤٥، ٤٦).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في مَوضعِ العِلَّةِ لِكلامٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ، فيُقدَّرُ: إنَّه يُحِبُّ العافِينَ، ونصْرُه على ظالمِه مَوكولٌ إلى اللهِ، وهو لا يُحِبُّ الظالمينَ، أي: فيُؤْجِرُ الذين عَفَوْا ويَنتصِرُ لهم على الباغينَ؛ لأنَّه لا يُحِبُّ الظالمينَ؛ فلا يُهمِلُ الظَّالمَ دونَ عِقابٍ، وقد استُفيدَ حُبُّ اللهِ العافينَ مِن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وعلى هذا؛ فمَاصَدَقَ[1] الظَّالمينَ: هم الَّذين أصابُوا المؤمنينَ بالبَغْيِ. ويَجوزُ أيضًا أنْ يكونَ التَّعليلُ مُنْصرِفًا لمفهومِ جُملةِ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، أي: دونَ تَجاوُزِ المماثَلةِ في الجزاءِ؛ فيكونُ مَاصَدَقَ الظَّالمينَ: الذين يَتجاوَزونَ الحَدَّ في العُقوبةِ مِن المؤمنينَ، على أنْ يكونَ تَحذيرًا مِن مُجاوَزةِ الحدِّ[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ عطفًا على جُملةِ ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ فيكونَ عُذرًا للَّذين لم يَعْفُوا. ويَجوزُ أنَّه عطْفٌ على جُملةِ ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]، وما بيْن ذلك اعتراضٌ، فالجُملةُ إمَّا مُرتبِطةٌ بغرَضِ انتصارِ المسلِمِ على ظالمِه مِن المسلِمينَ تَكملةً لِجُملةِ ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وإمَّا مُرتبِطةٌ بغرَضِ انتصارِ المؤمنينَ مِن بَغْيِ المشرِكينَ عليهم، وهو الانتصارُ بالدِّفاعِ، سَواءٌ كان دِفاعَ جَماعاتٍ، وهو الحربُ؛ فيَكونُ هذا تَمْهيدًا للإذنِ بالقِتالِ الذي شُرِعَ مِن بعْدُ، أم دِفاعَ الآحادِ إنْ تَمكَّنوا منه؛ فقدْ صار المسلمونَ بمكَّةَ يَومئذٍ ذَوي قوَّةٍ يَستطيعونَ بها الدَّفْعَ عن أنفُسِهم آحادًا، كما قِيل في عزِّ

(١) المَاصَدَق -عِندَ المناطِقة-: الأفرادُ التي يَتحقَّقُ فيها معنى الكُليِّ، ويُقابلُه: المفهومُ، وهو: مجموعُ الصِّفاتِ والخَصائصِ الموضِّحةِ لمعنًى كُلِّيٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحَبنَّكة (ص: ٤٥، ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٦).

الإسلامِ بإسلامِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ[١].

- وجِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في صَدْرِ جَوابِ الشَّرْطِ؛ لِتَمْييزِ الفريقِ المذكورِ أتَمَّ تَمْييزٍ، وللتَّنبيهِ على أنَّ سَببَ عَدمِ مُؤاخَذتِهم هو أنَّهم انتَصَروا بعْدَ أنْ ظُلِموا، ولم يَبدؤوا النَّاسَ بالبَغْيِ[٢].

- والمرادُ بالسَّبيلِ مُوجِبُ المؤاخَذةِ باللَّائمةِ بيْن القَبائلِ، واللَّمزِ بالعُدوانِ، والتَّبعةِ في الآخِرةِ على الفَسادِ في الأرضِ بقتْلِ المسالمينَ، سُمِّي ذلك سَبيلًا؛ لأنَّه أشبَهَ الطَّريقَ في إيصالِه إلى المطلوبِ، وكثُرَ إطلاقُ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ رفَعَ سُبحانه كلَّ حرَجٍ وضِيقٍ بتَنكيرِ ﴿سَبِيلٍ﴾؛ لِشُيوعِه، فضْلًا عن الظُّلمِ[٤].

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ فإنَّه لَمَّا جَرَى الكلامُ السَّابقُ كلُّه على الإذنِ للَّذين بُغِيَ عليهم أنْ يَنتصِروا ممَّن بَغَوْا عليهم، ثمَّ عُقِّبَ بأنَّ أولئك ما عليهم مِن سَبيلٍ؛ كان ذلك مَثارَ سُؤالِ سائلٍ عن الجانبِ الذي يَقَعُ عليه السَّبيلُ المنفيُّ عن هؤلاء[٥].

- والقَصرُ المُفادُ بحَرْفِ (إنَّما) تأْكيدٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٠).

سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]؛ لأنَّه كان يَكفِي لإفادةِ مَعنى القصْرِ أنْ يُقابَلَ نفْيُ السَّبيلِ عن الَّذين انتَصَروا بعْدَ ظُلْمِهم بإثْباتِ أنَّ السَّبيلَ على الظَّالمينَ؛ لأنَّ إثباتَ الشَّيءِ لِأحَدٍ ونَفْيَه عمَّن سِواه يُفيدُ معْنى القصْرِ، وهو الأصلُ في إفادةِ القصْرِ بطَريقِ المساواةِ أو الإطنابِ، وأمَّا طُرقُ القَصْرِ المعروفةُ في عِلمِ المعاني فهي مِن الإيجازِ[١]، فلمَّا أُورِدتْ أداةُ القَصرِ هنا حصَلَ نفْيُ السَّبيلِ عن غَيرِهم مرَّةً أُخرى بمُفادِ القصرِ، فتَأكَّدَ حُصولُه الأوَّلُ الذي حصَلَ بالنَّفيِ[٢].

- والمرادُ بـ﴿ٱلسَّبِيلُ﴾ عَينُ المرادِ به في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]؛ بقَرينةِ أنَّه أُعيدَ مُعرَّفًا باللَّام بعْدَ أنْ ذُكِر مُنكَّرًا؛ فإنَّ إعادةَ اللَّفظِ النَّكرةِ مُعرَّفًا بلامِ التَّعريفِ يُفيدُ أنَّ المرادَ به ما ذُكِر أوَّلًا، وهذا السَّبيلُ الجزاءُ والتَّبِعةُ في الدُّنيا والآخِرةِ[٣].

- وشَمِل عمومُ ﴿ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ﴾ وعُمومُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ كلَّ ظالمٍ، وبمَقدارِ ظُلمِه يكونُ جَزاؤُه، ويَدخُلُ ابتداءً فيه الظَّالمونَ المُتحدَّثُ عنهم، وهم مُشرِكو أهلِ مكَّةَ، والنَّاسُ المتحدَّثُ عنهم، وهم المسلِمونَ يَومئذٍ[٤].

- قولُه: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ مُتعلِّقٌ بـ (يَبْغُونَ)، وهو لِكَشْفِ حالةِ البَغْيِ؛ لإفادةِ

---

(١) الأصلُ في الكلامِ أنْ يكونَ تأديةً لِلْمَعاني بألْفاظٍ على مِقْدارِها، أي: بأن يكونَ لِكُلِّ معنًى قصَدَه المتكلِّمُ لفظٌ يدُلُّ عليه، ظاهرٌ أو مُقَدَّرٌ، وتُسمَّى دَلالةُ الكلامِ بهاتِه الكَيفيَّةِ: (مُساواةً)؛ لأنَّ الألفاظَ كانت مُساويةً للمَدْلولاتِ. فإذا نقَصَتِ الألفاظُ عن عددِ المعاني مع إيفائِها بجميعِ تلك المعاني، فذلك (الإيجازُ). وإذا زادَتِ الألفاظُ على عددِ المعاني مع عدَمِ زيارةِ المعاني، فذلك (الإطنابُ). يُنظر: ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٠٨، ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَذمَّته؛ إذ لا يكونُ البغيُ إلَّا بغيرِ الحقِّ؛ فإنَّ مُسمَّى البغْيِ هو الاعتداءُ على الحقِّ، وأمَّا الاعتداءُ على المُبطِلِ لأجْلِ باطلِه، فلا يُسمَّى بَغْيًا، ويُسمَّى اعتداءً؛ قال تعالَى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾[1] [البقرة: ١٩٤].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بيانُ جُملةِ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ﴾ إنْ أُريدَ بـ (السَّبيلِ) في قولِه: ﴿مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١] سَبيلُ العِقابِ في الآخِرةِ. أو بدَلُ اشتمالٍ منها إنْ أُريدَ بالسَّبيلِ هنالك ما يَشمَلُ المَلامَ في الدُّنيا، أي: السَّبيلُ الَّذي عليهم هو أنَّ لهم عَذابًا أليمًا جَزاءَ ظُلمِهم وبَغْيِهم، وحُكمُ هذه الآيةِ يَشمَلُ ظُلمَ المشرِكينَ للمُسلِمينَ، ويَشمَلُ ظُلمَ المسلِمينَ بعضِهم بعضًا؛ لِيَتناسَبَ مَضمونُها مع جَميعِ ما سبَقَ[2].

- وجِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أَحْرياءُ بما يُذكَرُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ؛ لأجْلِ ما ذُكِر قبلَه، مع تَمْييزِهم أكمَلَ تَمْييزٍ بهذا الوعيدِ[3].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]، ومَوقعُ هذه الجُملةِ مَوقعُ الاعتراضِ بيْن جُملةِ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [الشورى: ٤٢] وجُملةِ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [الشورى: ٤٤]، وهذه الجُملةُ تُفيدُ بَيانَ مَزيَّةِ المؤمنينَ الَّذين تَحمَّلوا الأذى مِن المشرِكينَ، وصبَروا عليه، ولم يُؤاخِذوا به مَن آمَنَ ممَّن آذَوْهم، ومَزيَّةِ المؤمنينَ الَّذين يَصبِرونَ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ظُلمِ إخوانِهم، ويَغفِرونَ لهم، فلا يَنتصِفونَ منهم، ولا يَسْتَعْدُونَ عليهم[١].

- قولُه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ اشتمَلَ هذا الخبَرُ على أربعةِ مُؤكِّداتٍ، هي: اللَّامُ، و(إنَّ)، ولامُ الابتِداءِ، والوَصْفُ بالمصدرِ في قولِه: ﴿عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾؛ تَنْويهًا بمَضمونِه، وزِيدَ تَنويهًا باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾؛ فصار فيه خَمسةُ اهتماماتٍ[٢].

- والعَزْمُ: عَقْدُ النِّيَّةِ على العمَلِ، والثَّباتُ على ذلك، والوَصفُ بالعَزْمِ مُشعِرٌ بمدْحِ الموصوفِ؛ لأنَّ شأنَ الفضائلِ أنْ يكونَ عمَلُها عَسيرًا على النُّفوسِ؛ لأنَّها تُعاكِسُ الشَّهواتِ، ومِن ثَمَّ وُصِفَ أفضَلُ الرُّسلِ بـ(أُولي العزمِ)[٣].

- وإضافةُ ﴿عَزۡمِ﴾ إلى ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: مِن الأُمورِ العزْمِ. ووَصْفُ الأمورِ بـ(العزمِ) مِن الوصفِ بالمصدرِ؛ للمُبالَغةِ في تَحقُّقِ المعنى فيها. والإشارةُ بـ(ذلك) إلى الصَّبرِ والغُفرانِ المأخوذَينِ مِن ﴿صَبَرَ وَغَفَرَ﴾، والمُتحمِّلينِ لِضَميرِ (مَن) الموصولةِ؛ فيَكونُ صَوغُ المصدرِ مُناسِبًا لِمَا معه مِن ضَميرٍ، والتَّقديرُ: إنَّ صبْرَه وغَفْرَه لَمِن عَزْمِ الأمورِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال قبلَه في سُورةِ (لُقمانَ): ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]؛ فأكَّدَ الخبرَ باللَّامِ في سُورةِ (الشُّورى) في قولِه: ﴿لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾، وترَكَه في سُورةِ (لُقمانَ)؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٢، ١٢٣).

ووجْهُ هذه المُناسَبةِ: أنَّ الصَّبرَ على مَكروهٍ حدَثَ بظُلمٍ -كقتْلِ ولَدٍ- أشَدُّ مِن الصَّبرِ على مَكروهٍ حدَثَ بلا ظُلمٍ، كمَوتِ ولَدٍ، كما أنَّ العزْمَ على الأوَّلِ أَوكَدُ منه على الثَّاني، وما هنا مِن القَبيلِ الأوَّلِ؛ فكان أنسَبَ بالتَّوكيدِ، وما في (لُقمانَ) مِن القَبيلِ الثَّاني؛ فكان أنسَبَ بعدَمِه. كما أنَّ ما رغَّبَ اللهُ تعالَى فيه عبْدَه مِن الصَّبرِ على ما آلَمَ قلْبَه مِن جِنايةِ جانٍ عليه حتَّى يَغفِرَ لمَن ظلَمَه، ويَهَبَ له مِن القِصاصِ حقَّه؛ تَرغيبٌ فيما يَشُقُّ على الإنسانِ فِعلُه، إلَّا أنَّ اللهَ حسَّنَه بما وعَدَ مَن عَفا عمَّا يَجِبُ له مِن الأجرِ الذي ضَمِنَه؛ ففيهِ مع جَزيلِ الثَّوابِ إصلاحُ ما بيْن عَشيرتِه وعَشيرةِ الجاني عليه بإطفاءِ الثَّائرةِ عنهما، وإذا كان ذا مِن أصعبِ ما يَتحمَّلُه الإنسانُ، وجَبَ مِن تَوكيدِ الكلامِ فيه ما لا يجِبُ في غيرِه، فأُدخِلَتِ اللَّامُ على ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، على معنى: أنَّه مِن الأمورِ التي يَحتاجُ إلى تَوطينِ النَّفْسِ عليها، وتخيُّرِ أرفَعِها وأَعْلاها، وليْس كذلك ما في سُورةِ (لُقمانَ)، فأمَّا الموضعُ الَّذي أُبيحَ فيه الانتصافُ؛ فالصَّبرُ فيه أشَقُّ، وكَظْمُ الغَيظِ معه أشَدُّ، والكلامُ فيه إلى التَّوكيدِ أحوَجُ[1].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٥٨-١١٦٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٣-٢٢٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٩-٤٢٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٩-٥١٠).

الآيات (٤٤-٤٦)

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَرَدٍّ﴾: أي: رجْعةٍ أو رجوعٍ أو مرجِعٍ، وأصلُ (ردد): رَجْعُ الشَّيءِ[(١)].

﴿خَٰشِعِينَ﴾: أي: خاضِعينَ مُتذَلِّلينَ، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[(٢)].

﴿طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾: أي: لا يَرفَعونَ أبصارَهم، بل يُسارِقونَ النَّظَرَ استِكانةً وذُلًّا. وطَرْفُ العَينِ: نَظَرُها. والعَرَبُ تَصِفُ الذَّليلَ بغَضِّ الطَّرْفِ، وأصلُ (طرف): يدُلُّ على حَدِّ الشَّيءِ وحَرْفِه، وأصلُ (خفي): يدُلُّ على سَترٍ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يُقرِّرُ اللهُ تعالى أنَّه المنفردُ بالهدايةِ والإضلالِ، فيقولُ: ومَن يُضلِلْه اللهُ فليس

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٣)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ١٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨٦)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٤٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٢) و(٣/ ٤٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٥)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٧١).

له وَليٌّ يَتولَّاه مِن بَعدِ إضلالِ اللهِ إيَّاه.

ثمَّ يخبرُ عن حالِ الظَّالِمينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: وترَى الظَّالِمينَ -يا مُحمَّدُ- حينَ رُؤيةِ العَذابِ يومَ القيامةِ يَقولونَ: هل لنا وَسيلةٌ للرُّجوعِ إلى الدُّنيا لِنُطيعَ اللهَ؟!

وترَى الظَّالِمينَ يومَ القيامةِ يُعرَضونَ على النَّارِ خاضِعينَ ذَليلينَ، يُسارِقونَ النَّظَرَ إلى النَّارِ مِن شِدَّةِ خَوفِهم وذُلِّهم!

وقال المُؤمِنونَ: إنَّ الخاسِرينَ هم الَّذين خَسِروا أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ، ألَا إنَّ الظَّالِمينَ في عذابٍ دائِمٍ، وما كان لهم يومَ القيامةِ أولياءُ يَمنَعونَهم مِن عذابِ اللهِ.

ومَن يُضلِلْه اللهُ فما له مِن طَريقٍ للوُصولِ إلى الحقِّ في الدُّنيا، ولا الجنَّةِ في الآخرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾.

أي: ومَن يُضلِلْه اللهُ عن طَريقِ الحَقِّ بسَبَبِ ظُلمِه، فليس له أيُّ وليٍّ يَتوَلَّاه فيَهدِيَه أو يَنصُرَه بعدَ إضلالِ اللهِ إيَّاه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٣). قال البِقاعي: (﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: مِن بَعدِ مُعامَلةِ اللهِ له مُعامَلةَ البَعيدِ، مِن وَكْلِه إلى نَفْسِه وغَيرِه مِن الخَلقِ في شَيءٍ مِن زَمانِ البُعدِ ولو قَلَّ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٤٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٤).

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾.

أي: وترى الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم -يا مُحمَّدُ- يقولونَ حينَ رُؤيةِ العَذابِ يومَ القيامةِ: هل لنا طريقٌ أو وسيلةٌ للرُّجوعِ إلى الدُّنيا؛ لِنَعمَلَ بطاعةِ اللهِ[1]؟

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ٤٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أثبَتَ رُؤيتَهم العذابَ؛ أثبَتَ دُنُوَّهم مِن مَحَلِّه، وبَيَّنَ حالَهم في ذلك الدُّنُوِّ[2].

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾.

أي: وترَى الظَّالِمينَ يومَ القيامةِ يُعرَضونَ على النَّارِ قبْلَ دُخولِهم فيها ساكِنينَ خاضِعينَ في غايةِ الضَّعَةِ؛ لِما اعتراهم مِنَ الذُّلِّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩، ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٤، ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٣، ٣١٤).

قال ابن عاشور: (الخِطابُ في «تَرَى» لغيرِ مُعَيَّنٍ، أي: تناهتْ حالُهم في الظُّهورُ، فلا يختصُّ به مُخاطَبٌ، أو الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تسليةً له على ما لاقاه منهم مِن التَّكذيبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩).

والمرادُ بالظَّالِمينَ: المشرِكونَ باللهِ. ذكَره ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٩)، ((تفسير الرازي)) =

﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.

أي: يُسارِقونَ النَّظَرَ إلى النَّارِ حينَ يُعرَضونَ عليها؛ مِن شِدَّةِ ذُلِّهم وخَوفِهم[١].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

أي: وقال المُؤمِنونَ[٢]: إنَّ الخاسِرينَ في الحقيقةِ هم الَّذين خَسِروا أنفُسَهم

= (٢٧/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٤).

قال السعدي: (أي: ترى أجسامَهم خاشِعةً؛ للذُّلِّ الَّذي في قُلوبِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٢، ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٥).

قال ابن الجوزي: (﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ وفيه أربعةُ أقوالٍ:

أحدُها: مِن طَرْفٍ ذليلٍ، رواه العَوْفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال مجاهِدٌ. وقال الأخفَشُ: يَنظُرونَ مِن عَينٍ ضعيفةٍ. وقال غيرُه: «مِنْ» بمعنى «الباءِ».

والثَّاني: يُسارِقونَ النَّظَرَ، قاله قَتادةُ، والسُّدِّيُّ.

والثَّالثُ: يَنظُرون ببعضِ العَيْنِ، قاله أبو عُبَيدةَ.

والرَّابعُ: أنَّهم يَنظُرونَ إلى النَّارِ بقلوبِهم؛ لأنَّهم قد حُشِروا عُمْيًا، فلم يَرَوها بأعيُنِهم، حكاه الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥١٢)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٠١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٢).

وقال ابنُ عطيَّةَ عن القولِ الرَّابعِ: (وفي هذا التَّأويلِ تكلُّفٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣١).

(٢) قال القرطبي: (أي: يقولُ المؤمِنونَ في الجنَّةِ لَمَّا عايَنوا ما حَلَّ بالكُفَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦).

وقال ابن كثير: (أي: يقولونَ يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥).

وقال ابن عاشور: (الظَّاهِرُ أنَّ المؤمِنينَ يَقولونَ هذا بمَسمَعٍ مِن الظَّالِمينَ، فيَزيدُ الظَّالِمينَ =

يومَ القيامةِ بحِرْمانِها مِن دُخولِ الجنَّةِ، واستِحقاقِها دُخولَ النَّارِ، وخَسِروا أهليهم بفِقْدانِهم في الآخِرةِ[(١)].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾.

أي: ألَا إنَّ الظَّالِمينَ في عَذابٍ مُستَمِرٍّ في النَّارِ، فلا يَنقَطِعُ ولا يُخفَّفُ عنهم أبَدًا[(٢)].

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ٤٦﴾.

= تَلهيبًا لِنَدامتِهم ومَهانتِهم وخِزْيِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١).

وخَسارةُ الأهلِ: قيل: معناها أنَّهم حُرِموا مِن أهليهم في الجنَّةِ، فصاروا لِغَيرِهم، فلو دَخَلوا الجنَّةَ أصابوا الأهلَ، فلمَّا دخلوا النَّارَ حُرِموا منهم. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيْمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤).

وقيل: خَسِروا أهليهم؛ لأنَّ الأهلَ إن كانوا في النَّارِ فلا انتِفاعَ بهم، وإن كانوا في الجنَّةِ فقد حِيلَ بيْنَه وبيْنَهم. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٤).

قال ابن عطية: (خُسرانُ الأهلِينَ: يحتمِلُ أن يُرادَ به أهلوهم الَّذين كانوا في الدُّنيا، ويحتمِلُ أن يُرادَ به أهلوهم الَّذين كانوا يَكونونَ لهم في الجنَّةِ لو دخَلوها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٩).

قيل: القائِلُ هو اللهُ تعالى. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٩).

وقيل: يحتمِلُ أن يكونَ مِن قَولِ المؤمِنينَ يومَئذٍ، فحكاه اللهُ عنهم. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: هم في عَذابٍ دائمٍ، لا يَجِدونَ منه نَصيرًا، وهو ردٌّ لِمَزاعِمِهم أنَّ آلهتَهم تَنفَعُهم عندَ الله[1].

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وما كان لهم يومَ القيامةِ أيُّ أولياءَ يَنصُرونَهم مِن عَذابِ اللهِ تعالى[2].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾.

أي: ومَن يُضْلِلْه اللهُ عن طَريقِ الحَقِّ فما له مِن طَريقٍ للوُصولِ إلى الحقِّ في الدُّنيا، ولا الجنَّةِ في الآخرةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦).

مِمَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: الثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤٥).

ومِمَّن قال بأنَّ المعنى: ما له مِن خلاصٍ ونجاةٍ: النسفي، وابن كثير، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٠).

وقيل: المعنى: ليس له طريقٌ تَحصُلُ به الهدايةُ للحَقِّ. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابن جرير، والسمرقندي، وابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٧٢)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٦١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، وقولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يُلِحَّ على اللهِ دائمًا أنْ يَهديَه مِن الضَّلالِ؛ فما دام الإضلالُ والهدايةُ بيدِ اللهِ فلْنَرجِعْ إليه، ولْنَلجَأْ إليه، ولْنسأَلْه الهدايةَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أنَّ العاصيَ قد خَسِرَ نفْسَه، وعلى حسَبِ مَعصيتِه تكونُ الخَسارةُ؛ لأنَّه لم يَستَفِدْ مِن وُجودِه في الدُّنيا شيئًا، ويَتفرَّعُ على هذا أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يُحاسِبَ نفْسَه، ويَنظُرَ ماذا صَنَع، فإنْ رأى أنَّه قد مَلأَ زمَنَه مِن الخَيرِ المقصودِ والوَسيلةِ فلْيَحمَدِ اللهَ، وإنْ رأى أنَّه أضاعَه فلْيَستَعتِبْ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ﴾ أنَّ مَن هداه اللهُ فقد تَوَلَّاه؛ لأنَّه لَمَّا نفَى الوَلايةَ عنِ الظَّالِمينَ دَلَّ على أنَّها تَثبُتُ للمُؤمِنينَ، وبذلك جاء التَّصريحُ في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٣] [البقرة: ٢٥٧].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ صَريحٌ في جوازِ الإضلالِ مِنَ الله تعالى، وفي أنَّ الهِدايةَ ليست في مَقدورِ أحَدٍ سِوى اللهِ تعالى[٤]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٠، ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٨).

وفيه حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ المُنْكِرينَ أنَّ الهِدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ تعالى؛ حيث أخبَرَ سُبحانَه بالإضلالِ عن نَفْسِه لهم، وأمَرهم على إثْرِ ذلك بالاستِجابةِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أنَّ المُستَكبِرينَ على الحَقِّ المُعانِدينَ يُجازَونَ بعِقابٍ يُناسِبُ مَعصيتَهم؛ وَجْهُ ذلك: أنَّهم يُعرَضونَ على النَّارِ خاشِعينَ ذَليلينَ، ومَعلومٌ أنَّ العُقوبةَ بالذُّلِّ مُناسِبةٌ للمَعصيةِ بالاستِكبارِ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ فيه سؤالٌ: أليس قد قال اللهُ تعالى في صِفةِ الكفَّارِ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾، فكيف قال هاهنا: إنَّهم يَنظُرونَ مِن طَرْفٍ خفِيٍّ؟

والجوابُ عن هذا مِن أوجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ هذا العمَى يكونُ في مبدأِ الأمرِ، ثُمَّ يَرُدُّ اللهُ تعالى إليهم أبصارَهم، فيَرَوْنَ النَّارَ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالعمَى أنَّهم لا يرَوْنَ شيئًا يَسُرُّهم، كما أنَّهم كانوا في الدُّنْيا لا يَسْتَبْصِرونَ، فنُزِّل ما يُبْصِرونَه مَنزِلةَ العَدَمِ؛ لعَدَمِ الانتِفاعِ به.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ هذه الآيةَ في قومٍ، وتلك في قومٍ آخَرينَ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ الكُفَّارَ يومَ القيامةِ يَنظُرونَ بعُيونٍ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٨)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٨).

خَفيَّةٍ ضَعيفةِ النَّظَرِ، وقد جاءت آيةٌ أُخرى يُتوهَّمُ منها خِلافُ ذلك، وهي قَولُه تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]!

الجوابُ مِن وجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ قَولَه: ﴿فَبَصَرُكَ﴾ أي: عِلمُك ومَعرفتُك بها قَويَّةٌ، مِن قَولِهم (بَصُرَ بكذا) أي: عَلِمَ، وليس المرادُ رؤيةَ العَينِ، ويدُلُّ على ذلك قَولُه تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾[1].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ قَولَه: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: تُدرِكُ به ما عَمِيتَ عنه في دارِ الدُّنيا، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا﴾ الآيةَ [السجدة: ١٢]، وقَولُه تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ الآيةَ [الكهف: ٥٣]، وقَولُه: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2] [مريم: ٣٨].

٦- أنَّ الظَّالِمينَ يَلحَقُهم الذُّلُّ ظاهِرًا وباطنًا؛ الباطِنُ في قَولِه تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾، والظَّاهِرُ في قَولِه تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ بعْدَ أنْ حَكى أصنافًا مِن كُفرِ المشركينَ، وعِنادِهم وتَكذيبِهم، ثمَّ ذكَّرَهم بالآياتِ الدَّالَّةِ على انفِرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ وما في مَطاويها مِن النِّعَمِ، وحذَّرَهم مِن الغُرورِ بمَتاعِ الدُّنيا الزائلِ؛ أعقَبَه بقولِه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وهو مَعطوفٌ على قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢١).

يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ [الشورى: ٤٢]، والمعنى: أنَّ فيما سمِعْتُم هِدايةً لِمَن أراد اللهُ له أنْ يَهتدِيَ، وأمَّا مَن قدَّرَ اللهُ عليه بالضَّلالِ فما له مِن وَلِيٍّ غيرُ اللهِ يَهْديه أو يُنقِذُه، كقولِه: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ [الكهف: ١٧]، فالمرادُ نفْيُ الوليِّ الَّذي يُصلِحُه ويُرشِدُه؛ فالمرادُ هنا ابتداءً مَعنًى خاصٌّ مِن الوَلايةِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ نفْيُ الوليِّ كِنايةٌ عن نَفيِ أسبابِ النَّجاةِ عن الضَّلالةِ وعَواقبِ العُقوبةِ عليها؛ لأنَّ الوليَّ مِن خَصائصِه نفْعُ مَوْلاهُ بالإرشادِ والانتشالِ، فنَفْيُ الوليِّ يدُلُّ بالالتزامِ على احتياجٍ إلى نَفْعِه مَوْلاه، وذلك يَستلزِمُ أنَّ مَوْلاه في عَناءٍ وعَذابٍ، فهذه كِنايةٌ تلويحيَّةٌ، وقد جاء صريحُ هذا المعنى في قولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ الآتي في هذه السُّورةِ[٢].

- وفيه تَحقيرٌ لأمْرِ الكفَرةِ[٣].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ صِلةٌ للتَّوكيدِ. و(بَعْد) هنا بمعنى (دونَ) أو (غير)، عُبِّر بلفظِ (بعد) لمعنى (دون)؛ لأنَّ (بعد) مَوضوعٌ لِمَن يَخلُفُ غائبًا في مكانِه أو في عَملِه؛ فشَبَّهَ ترْكَ اللهِ الضَّالَّ في ضلالِه بغَيبةِ الوليِّ الَّذي يَترُكُ مَوْلاه دونَ وصيٍّ ولا وكيلٍ لِمَوْلاه[٤].

- وقولُه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ﴾، وبعدَه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٢٣، ١٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٤).

سَبِيلٍ﴾[الشورى: ٤٦]، ليس بتَكرارٍ؛ لأنَّ المعنى: ليس له مِن هادٍ ولا مَلْجأٍ[١].

- وكذلك قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وهذا تَفصيلٌ وبَيانٌ لِما أُجمِلَ في الآيتَينِ المعطوفِ عليهما، وهما قولُه: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشورى: ٣٥]، وقولُه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، والمعنى: أنَّهم لا يَجِدونَ مَحيصًا ولا وَليًّا، فلا يَجِدونَ إلَّا النَّدامةَ على ما فات، فيقولوا: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾[٢].

- والخِطابُ في ﴿وَتَرَى﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ، أو الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمقصودُ: الإخبارُ بحالِهم أوَّلًا، والتَّعجيبُ منه ثانيًا، فلم يقُلْ: والظالِمونَ لَمَّا رأَوُا العذابَ يقولونَ، وإنَّما قيل: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للاعتبارِ بحالِهم[٣].

- ومَجيءُ فِعلِ ﴿رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ بصِيغةِ الماضي؛ للتَّنبيهِ على تَحقيقِ وُقوعِه[٤].

- والاستِفهامُ بحَرْفِ ﴿هَلْ﴾ إنكاريٌّ في معنى النَّفيِ[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٥).

- قولُه: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ فيه إعادةُ فِعلِ (تَرى)؛ للاهتمامِ بهذه الرُّؤيةِ وتَهويلِها[١].

- والعَرْضُ: أصلُه إظهارُ الشَّيءِ وإراءَتُه للغَيرِ، وعُبِّرَ بلفظِ (يُعرَضونَ) لمعنى: يُمَرُّ بهم مَرًّا عاقبتُه التَّمكُّنُ منهم، والحُكمُ فيهم، فكأنَّ جهنَّمَ إذا عُرِضوا عليها تَحكُمُ بما أعَدَّ اللهُ لهم مِن حريقِها[٢].

- وبُنِي فِعلُ ﴿يُعْرَضُونَ﴾ للمَجهولِ؛ لأنَّ المقصودَ حُصولُ الفعلِ، لا تَعيينُ فاعلِه[٣].

- قولُه: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ حرْفُ ﴿مِنَ﴾ للتَّعليلِ، أي: خاشعينَ خشوعًا ناشئًا عن الذُّلِّ، أي: ليس خشوعُهم لِتَعظيمِ اللهِ والاعترافِ له بالعُبوديَّةِ؛ لأنَّ ذلك الاعتقادَ لم يكنْ مِن شأنِهم في الدُّنيا[٤].

- وفي قولِه: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ تَجسيدٌ بارعٌ، وتَصويرٌ رائعٌ لحالتِهم الفظيعةِ، لِمَن يقِفُ أمامَ الموتِ الَّذي يَنتظِرُه والسَّيفُ مُصْلَتٌ على رأسِه، يُرَأْرِئُ -أي: يُحرِّكُ الحَدَقَةَ، أو يَقلِبُها ويُحدِّدُ النَّظَرَ- بأجْفانِه ويُحرِّكُها تحريكًا ضعيفًا خَفيًّا يُمكِّنُه مِن مُسارَقةِ النَّظرِ؛ فإنَّ مَن يَنظُرُ إلى أمْرٍ مَكروهٍ يَسْتهوِلُ أمْرَه، ويَزْوي ناظِرَه عنه، بَيْدَ أنَّه لا يَتمالَكُ دونَ أنْ يَرمُقَ ما يَكرَهُه وما يَتوقَّعُ حُدوثَه رَمْقًا سَريعًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٩).

- وحُذِف مَفعولُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ للتَّعميمِ، أي: يَنظُرونَ العذابَ، ويَنظُرونَ أهوالَ الحشرِ، ويَنظُرونَ نَعيمَ المؤمنينَ مِن طَرْفٍ خفيٍّ[١].

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ يَترجَّحُ أنَّ الواوَ للحالِ لا للعطْفِ، والجُملةُ حالٌ مِن ضَميرِ الغَيبةِ في (تَراهم)، أي: تَراهُم في حالِ الفظاعةِ الملتبِسينَ بها، وتراهُم في حالِ سَماعِ الكلامِ الذَّامِّ لهم الصَّادرِ مِن المؤمنينَ إليهم في ذلك المَشهَدِ، وحُذِفتْ (قد) مع الفعلِ الماضي؛ لِظُهورِ قَرينةِ الحالِ[٢].

- وصيغةُ الماضي ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقُّقِه[٣].

- وهذا الخبرُ مُستعمَلٌ في إظهارِ المَسَرَّةِ والبَهجةِ بالسَّلامةِ ممَّا لَحِقَ الظَّالِمينَ، أي: قالوه تَحدُّثًا بالنِّعمةِ، واغتباطًا بالسَّلامةِ، يقولُه كلُّ أحدٍ منهم، أو يقولُه بعضُهم لبعضٍ[٤].

-وإنَّما جيءَ بحرْفِ (إنَّ) معَ أنَّ القائلَ لا يَشُكُّ في ذلك، والسَّامعَ لا يشُكُّ فيه؛ للاهتِمامِ بهذا الكلامِ؛ إذ قد تَبيَّنتْ سَعادتُهم في الآخرةِ، وتَوفيقُهم في الدُّنيا، بمُشاهَدةِ ضِدِّ ذلك في مُعانِديهم[٥].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، أي: لا غيرُهم، والمعنى: أنَّهم الأكمَلونَ في الخُسرانِ، وتُسمَّى (أل) هذه دالَّةً على معنى الكَمالِ، وهو مُستفادٌ مِن تَعريفِ الجُزأينِ المُفيدِ للقَصرِ الادِّعائيِّ[٦]؛ حيثُ نُزِّلَ خُسرانُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) تقدم تعريفه (ص: ٤٨٩).

غيرِهم مَنزِلةَ عَدمِ الخُسرانِ؛ فالمعنى: لا خُسرانَ يُشبِهُ خُسرانَهم، فليس في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ كما تُوُهِّمَ[١].

- قولُه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿خَسِرُوٓاْ﴾، واختِصاصُ ذِكرِ القِيامةِ للتَّهويلِ، وأنَّ هذا الخَسارَ لا خَسارَ بعدَه[٢].

- وجُملةُ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ تَذييلٌ للجُمَلِ الَّتي قبْلَها مِن قولِه: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [الشورى: ٤٤] الآياتِ؛ لأنَّ حالةَ كَونِهم في عذابٍ مقيمٍ أعَمُّ مِن حالةِ تلهُّفِهم على أنْ يُرَدُّوا إلى الدُّنيا، وذُلِّهم وسماعِهم الذَّمَّ[٣].

- وإعادةُ لفظِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، اقتَضاهُ أنَّ شأنَ التَّذييلِ أن يكونَ مُستقِلَّ الدَّلالةِ على معناهُ؛ لأنَّه كالمَثَلِ[٤].

- وافتُتحَتِ الجُملةُ بحرفِ التنبيهِ ﴿أَلَآ﴾؛ لكثرةِ ذلك في التَّذييلاتِ لأهَمِّيَّتِها[٥].

- و(المقيم): الَّذي لا يَرتحِلُ، ووُصِف به العذابُ تشبيهًا للمُستمرِّ الدَّائمِ بالَّذي اتَّخَذ دارَ إقامةٍ لا يَبرَحُها[٦].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٨، ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٤٥]، أي: هم في عَذابٍ دائمٍ لا يَجِدونَ منه نصيرًا، وهو ردٌّ لِمَزاعِمِهم أنَّ آلهتَهم تَنفَعُهم عِندَ اللهِ(١).

- وجُملةُ ﴿يَنصُرُونَهُم ﴾ صِفةٌ لـ ﴿أَوْلِيَآءَ ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المرادَ هنا وَلايةٌ خاصَّةٌ، وهي وَلايةُ النَّصرِ(٢).

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِّنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ صِلةٌ في النَّفْيِ؛ لِتَأكيدِ نفْيِ الوليِّ لهم(٣).

- وقولُه: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ صِفةٌ ثانيةٌ لـ ﴿أَوْلِيَآءَ ﴾، وهي صِفةٌ كاشفةٌ. و﴿مِّن ﴾ أيضًا صِلةٌ لِتأكيدِ تعلُّقِ ظرفِ ﴿دُونِ ﴾ بالفعلِ(٤).

- وقولُه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ تَذييلٌ لِجُملةِ ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم ﴾(٥).

- و﴿سَبِيلٍ﴾ نَكرةٌ في سِياقِ النفيِ؛ فيَعُمُّ كلَّ سَبيلٍ مُخلِّصٍ مِن الضَّلالِ ومِن آثارِه، والمقصودُ هنا ابتِداءً هو سبيلُ الفِرارِ مِن العذابِ المُقيمِ كما يَقتضيهِ السِّياقُ، وبذلك لم يكُنْ ما هنا تَأكيدًا لِما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾(٦) [الشورى: ٤٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤٧-٥٠)

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾: أي: لا ردَّ له، فلا شَيءَ يَرُدُّ مجيئَه، ولا يَقدِرُ أحدٌ على دَفْعِه، والرَّدُّ: صرفُ الشَّيءِ بذاتِه، أو بحالةٍ مِن أحوالِه، وأصلُ (ردد): رَجْعُ الشَّيءِ[(١)].

﴿نَّكِيرٍ﴾: أي: مُنكِرٍ يُغَيِّرُ ما بكم، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرفةِ[(٢)].

﴿حَفِيظًا﴾: أي: رَقيبًا عليهم، تَحفَظُ عليهم أعمالَهم، وتُحصيها، وتُحاسِبُهم عليها، وأصلُ (حفظ): يدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيءِ[(٣)].

﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾: أي: يَقرِنُهم، فيَجعَلُ بعضَهم بَنينَ وبعضَهم بناتٍ، وأصلُ (زوج):

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٢)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٥).

يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[١].

﴿عَقِيمًا﴾: أي: لا يُولدُ له مِن رَجُلٍ أو امرأةٍ، والعُقْمُ أصلُه القطعُ، ومنه قيل: المُلكُ عقيمٌ؛ لأنَّه يُقطَعُ فيه الأرحامُ بالقتلِ والعقوقِ، وأصلُ (عقم): يدُلُّ على غموضٍ وضيقٍ وشدَّةٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى بالاستِجابةِ له قبْلَ مجيءِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: استَجيبوا -أيُّها النَّاسُ- لرَبِّكم فيما يَدْعوكم إليه رُسُلُه مِن قبلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الَّذي لا شَيءَ يَمنَعُ مَجيئَه بعدَ أن حكَم اللهُ به، وليس لكم يومَئذٍ مَكانٌ تَلجَؤون إليه، وليس لكم يومَئذٍ مُنكِرٌ يُنكِرُ ما نَزَل بكم، ويَدفَعُه عنكم، وما لكم مِن إنكارٍ لِما جُوزيتُم به.

ثمَّ يُسلِّي الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: فإنْ أعرَضَ المُشرِكونَ فما أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- رَقيبًا عليهم؛ فما عليك إلَّا البلاغُ.

ثمَّ يذكرُ سبحانَه حالَ الإنسانِ في النِّعمةِ والبلاءِ، فيقولُ: وإنَّا إذا أصَبْنا الإنسانَ بنِعمةٍ مِنَّا فَرِحَ بها واطمأنَّ، وإنْ تُصِبْهم شِدَّةٌ وبَلاءٌ بسَبَبِ ذُنوبِهم، فإنَّ الإنسانَ جَحودٌ لنِعَمِ اللهِ عليه.

ثمَّ يختمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ بذِكرِ مَظاهِرِ قُدرتِه، ونفاذِ مشيئتِه، وكمالِ حكمتِه، فيقولُ: لله وَحْدَه مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، يَخلُقُ اللهُ ما يَشاءُ، ويُعطي

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه إناثًا، ويُعطي لِمَن يَشاءُ ذُكورًا، أو يَقرِنُ لهم بيْنَ الذُّكورِ والإناثِ، ويَجعَلُ اللهُ مَن يَشاءُ منهم عَقيمًا لا يُولَدُ له؛ لأنَّ الله سُبحانَه عَليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، قَديرٌ على كُلِّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالَى ما يكونُ في يومِ القيامةِ مِن الأهوالِ والأمورِ العِظامِ الهائلةِ؛ حَذَّر مِنه، وأمَر بالاستِعدادِ له[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أطنَبَ في الوَعدِ والوَعيدِ؛ ذكَرَ بَعدَه ما هو المقصودُ، فقال[2]:

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: أَجيبوا -أيُّها النَّاسُ- ربَّكم، فآمِنوا به وأطيعوه واتَّبِعوا رَسولَه مِن قبْلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الَّذي لا شَيءَ يَرُدُّه ويَمنَعُ مَجيئَه بعدَ أن حكَم اللهُ به[3].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور: ٧، ٨].

﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣١).

أي: ليس لكم أيُّ مَكانٍ تلجؤونَ إليه هَرَبًا مِن عَذابِ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢].

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

أي: وما لكم مِن إنكارٍ لِما جُوزيتُم به، بل تَعترِفونَ بذُنوبِكم، ولا أحدَ يُنكِرُ ما نزَل بكم، ويَدفَعُه عنكم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٦).

قال الرَّسْعَني: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ يحتملُ وجهَين:

أحدهما: مِن مُنكِرٍ يُنكِرُ ويُغيِّرُ ما بكم. قاله ابنُ السَّائبِ.

الثَّاني: ما لكم مِن إنكارٍ، أي: لا تَقدِرونَ أن تُنكِروا شيئًا. قاله جماعةٌ، منهم الزَّجَّاجُ. ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٩١).

ممَّن اختار الوجهَ الأوَّلَ: البغويُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ الرَّازي، واختاره ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٦).

قال ابن جرير: (﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ يقولُ: ولا أنتم تَقْدِرونَ لِما يَحِلُّ بكم مِن عِقابِه يَومَئذٍ على تغييرِه، ولا على انتِصارٍ منه إذا عاقَبَكم بما عاقَبَكم به). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٥).

وممَّن اختار الوجهَ الثَّانيَ: الزَّجَّاجُ، والسمعاني، والزمخشري، والشوكاني، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٢).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ: البِقاعي، فقال: (﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: مِن إنكارٍ يمكنُكم به مِن النَّجاةِ؛ لأنَّ الحَفَظةَ يَشهَدون عليكم، فإن صدَّقْتُموهم وإلَّا شَهِدتْ عليكم أعضاؤُكم =

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أنهَى ما قدَّمَه في قَولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ نهايتَه، ودَلَّ عليه وعلى كُلِّ ما قادَتْه الحِكمةُ في حَيِّزِه، حتَّى لم يَبقَ لأحدٍ شُبهةٌ في شَيءٍ مِن الأشياءِ؛ كان ذلك سَبَبًا لِتَهديدِهم على الإعراضِ عنه، وتسليةِ رَسولِهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال مُعرِضًا عن خِطابِهم؛ إيذانًا بشَديدِ الغَضَبِ[1]:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾.

أي: فإنْ أعرَضَ المُشرِكونَ عن الاستِجابةِ لرَبِّهم فما أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- رَقيبًا عليهم تَحفَظُ أعمالَهم، وتُحاسِبُهم عليها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧].

= وجُلودُكم، ولا لكم مِن أحدٍ يُنكِرُ شيئًا ممَّا تُجازونَ به؛ لِيُخلِّصَكم منه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٤٧، ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٦).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: فإنْ أعرَضوا فلَسْتَ مُقصِّرًا في دَعوتِهم، ولا عليك تَبِعةُ صَدِّهم؛ إذ ما أرسَلْناك حفيظًا عليهم... قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ دلَّ على نَفيِ التَّبِعةِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن إعراضِهم، وأنَّ الإعراضَ هو الإعراضُ عن دَعوتِه، فاستُفيدَ أنَّه قد بلَّغ الدَّعوةَ، ولولا ذلك ما أثبَتَ لهم الإعراضَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٣).

﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾.

أي: ما عليك -يا مُحمَّدُ- إلَّا أن تُبلِّغَ النَّاسَ ما أمَرَك اللهُ بتَبليغِه مِن الرِّسالةِ، وليس عليك هدايتُهم ولا حِسابُهم(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَا﴾.

أي: وإنَّا إذا أعطَيْنا الإنسانَ نِعمةً مِنَّا -كالغِنَى والصِّحَّةِ وغيرِ ذلك- فَرِح بها واطمأَنَّ، وأعرَض عن اللهِ المُنعِمِ بها، فلم يَشكُرْه عليها(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣١).

قال ابن عاشور: (اختَلَفت مَحامِلُ المفَسِّرين للآيةِ؛ فمِنهم مَن حمَلَها على خُصوصِ الإنسانِ الكافِرِ باللهِ مِثلُ الزمخشريِّ والقرطبيِّ والطِّيبي. ومنهم مَن حمَلَها على ما يَعُمُّ أصنافَ النَّاسِ مِثلُ الطَّبَريِّ والبَغَويِّ والنَّسَفيِّ وابنِ كثير. ومنهم مَن حمَلَها على إرادةِ المعنَيَينِ؛ على أنَّ أوَّلَهما هو المقصودُ، والثَّانيَ مُندَرِجٌ بالتَّبَعِ، وهذه طريقةُ البَيضاويِّ وصاحبِ «الكشف». ومنهم مَن عَكَس، وهي طريقةُ الكَوَاشي في «تلخيصِه»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤).

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ [الروم: ٣٦].

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾.

أي: وإنْ تُصِبِ النَّاسَ شِدَّةٌ وبَلاءٌ بسَبَبِ ذُنوبِهم، فإنَّ الإنسانَ جَحودٌ لِما تقدَّمَ مِن نِعَمِ الله عليه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إذاقةَ الإنسانِ الرَّحمةَ، وإصابتَه بضِدِّها؛ أتْبَع ذلك بقَولِه: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، والمقصودُ منه ألَّا يَغتَرَّ الإنسانُ بما مَلَكَه مِن المالِ والجاهِ، بل إذا عَلِمَ أنَّ الكُلَّ مِلكُ اللهِ ومُلكُه، وأنَّه إنَّما حَصَل ذلك القَدْرُ تحتَ يَدِه لأنَّ اللهَ تعالى أنعَمَ عليه به؛ فحِينَئِذٍ يَصيرُ ذلك حامِلًا له

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٢).
قال ابن عاشور: (شمِل وَصْفُ ﴿كَفُورٌ﴾ ما يَشملُ كُفرانَ النِّعمةِ، وهما [أي: الكفرُ بالله وكفرُ النِّعمةِ] مُتلازِمانِ في الأكثرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٦).

على مَزيدِ الطَّاعةِ والخِدمةِ، وأمَّا إذا اعتَقَد أنَّ تلك النِّعَمَ إنَّما تَحصُلُ بسَبَبِ عَقْلِه وَجِدِّه واجتِهادِه، بَقِيَ مَغرورًا بنَفْسِه، مُعرِضًا عن طاعةِ اللهِ تعالى[1].

وأيضًا لَمَّا قدَّم اللهُ سُبحانَه في هذه السُّورةِ أنَّ له التَّصَرُّفَ التَّامَّ في عالَمِ الخَلقِ، بالأجسامِ المَرئيَّةِ، وفي عالَمِ الأمرِ، بالأرواحِ الحِسِّيَّةِ والمعنويَّةِ القائمةِ بالأبدانِ والمُدَبِّرةِ للأديانِ، وغيرِ ذلك مِن بَديعِ الشَّأنِ؛ فقال في افتِتاحِ السُّورةِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٣]، وأتْبَعَه أشكالَه، إلى أنْ قال: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] الآيةَ، ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾ [الشورى: ١١] الآيةَ، ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: ٦٣]، ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: ١٩]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الشورى: ٢٠]الآيةَ، ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢] الآيةَ، إلى أنْ ذَكَر أحوالَ الآخِرةِ في قَولِه: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ﴾ [الشورى: ٤٤] الآياتِ، وخَتَم بتصَرُّفِه المُطلَقِ في الإنسانِ مِن إنعامٍ وانتقامٍ، وما له مِنَ الطَّبعِ المُعْوَجِّ معَ ما وَهَبه له مِنَ العَقلِ المُقيمِ في أحسَنِ تقويمٍ، فدَلَّ ذلك على أنَّ له التَّصَرُّفَ التَّامَّ مِلكًا ومَلَكوتًا، خَلْقًا وأمرًا- أتْبَعَه الدَّليلَ على أنَّ تصَرُّفَه ذلك على سَبيلِ المِلكِ والقَهرِ إيجادًا وإعدامًا، إهانةً وإكرامًا، فقال[2]:

﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: لله وَحْدَه مُلْكُ السَّمَواتِ ومُلكُ الأرضِ، وله وَحْدَه التَّصَرُّفُ في سُلطانِه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥١، ٣٥٢).

الواسِعِ بما يَشاءُ[١].

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: يَخلُقُ اللهُ ما يَشاءُ خَلْقَه[٢].

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾.

أي: يُعطي اللهُ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه إناثًا فقط[٣].

﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾.

أي: ويُعطي اللهُ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه ذُكورًا فقط[٤].

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٩).

قال السعدي: (هذه الآيةُ فيها الإخبارُ عن سَعةِ مُلكِه تعالى، ونُفوذِ تصَرُّفِه في المُلكِ في الخَلقِ لِما يشاءُ، والتَّدبيرِ لجَميعِ الأُمورِ، حتَّى إنَّ تدبيرَه -تعالى- مِن عُمومِه أنَّه يَتناوَلُ المخلوقةَ عن الأسبابِ الَّتي يُباشِرُها العِبادُ؛ فإنَّ النِّكاحَ مِن الأسبابِ لِولادةِ الأولادِ، فاللهُ تعالى هو الَّذي يُعطيهم مِنَ الأولادِ ما يَشاءُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٩، ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٨)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

أي: أو يَقرِنُ اللهُ لِمَن يشاءُ مِن خَلقِه بيْنَ الذُّكورِ والإناثِ[١].

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾.

أي: ويَجعَلُ اللهُ مَن يَشاءُ مِن الأزواجِ عَقيمًا لا يُولَدُ له[٢].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بالِغُ العِلمِ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه تعالى بما يَخلُقُه، وعِلمُه بمَن يَستحِقُّ كُلَّ قِسمٍ مِن الأقسامِ المتقَدِّمِ ذِكرُها؛ بالِغُ القُدرةِ على كُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك قُدرتُه على خَلْقِ ما يَشاءُ[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ فيه ذَمُّ الأمَلِ، والأمرُ بانتِهازِ الفُرصةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨، ١٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٤٠، ٣٤١).

قال القرطبي: (قال مجاهِدٌ: هو أن تَلِدَ المرأةُ غُلامًا ثمَّ تَلِدَ جاريةً، ثمَّ تَلِدَ غُلامًا ثمَّ تَلِدَ جاريةً. وقال محمَّدُ ابنُ الحَنَفيَّةِ: هو أن تَلِدَ تَوْءَمًا؛ غلامًا وجاريةً). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٨).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ: البِقاعي، فقال: (﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ مُجتَمِعَينِ في بَطنٍ ومُنفَرِدَينِ). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٩).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ خَلْقَه ما يشاءُ ليس خَلقًا مُهمَلًا عَرِيًّا عن الحِكمةِ؛ لأنَّه واسِعُ العِلمِ، لا يَفوتُه شَيءٌ مِن المعلوماتِ؛ فخَلْقُه الأشياءَ يجري على وَفقِ عِلمِه وحِكمتِه، وهو قديرٌ نافِذُ القُدرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٩).

في كُلِّ عَمَلٍ يَعرِضُ للعَبدِ؛ فإنَّ للتَّأخيرِ آفاتٍ[١]، فالإنسانُ لا يَدْري متى يُفاجِئُه الموتُ، وإذا فاجَأه الموتُ انقطعَ كلُّ عملٍ، كما قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إذا مات الإنسانُ انقطعَ عمَلُه))[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ تسليةٌ للدُّعاةِ مِن بَعدِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فالدَّاعي عليه البلاغُ، وليس عليه أنْ يَهديَ النَّاسَ -ولا يُمكِنُه ذلك-، لكنَّ بعضَ الدُّعاةِ إذا لم يَجِدْ مُجيبًا لدعوتِه أُصيبَ باليأسِ، واستحسرَ، وتَرَكَ الدَّعوةَ! وهذا غلَطٌ، فعلى الدَّاعي أنْ يَدعوَ إلى الله وإن لم يَستجِبْ له أحدٌ، وألَّا يَيأسَ، وإذا كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أخبَرَنا بأنَّه رأى النَّبيَّ وليسه معه أحدٌ[٣]؛ فإذا كان الأنبياءُ قد لا يُستجابُ لهم؛ فكيفَ بنا نحن[٤]؟!

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ يُبَيِّنُ أنَّ الإنسانَ إذا فاز بهذا القَدرِ الحَقيرِ الَّذي حَصَل في الدُّنيا، فإنَّه يَفرَحُ بها، ويَعظُمُ غُرورُه بسَبَبِها، ويقَعُ في العُجبِ والكِبْرِ، ويَظُنُّ أنَّه فاز بكُلِّ المُنى، ووصَل إلى أقاصي السَّعاداتِ! وهذه طريقةُ مَن يَضعُفُ اعتِقادُه في سَعاداتِ الآخِرةِ، وهذه الطَّريقةُ مُخالِفةٌ لِطَريقةِ المؤمِنِ الَّذي لا يَعُدُّ نِعَمَ الدُّنيا إلَّا كالوُصْلةِ إلى نِعَمِ الآخِرةِ[٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فيه أنَّ الأولادَ هِبةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، والهِبةُ: هي العَطِيَّةُ بلا عِوَضٍ، وأنَّه لا اختيارَ للمرءِ بالنِّسبةِ للأولادِ؛ حيثُ جُعِل الأمرُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر ما أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٩).

راجعًا إلى مشيئتِه تبارَك وتعالَى[١]، فالأولادُ جميعًا مِن الذُّكورِ والإناثِ مواهِبُ اللهِ تعالى وهداياه، فيَجِبُ أن يَقبَلوها منه قَبولَ الهدايا والهِباتِ على الشُّكرِ له والمِنَّةِ[٢]، فما قَدَّره اللهُ بيْنَ الزَّوجينِ مِن الوَلَدِ فقد وهَبَهما إيَّاه، وكفَى بالعَبدِ تعَرُّضًا لِمَقتِه أن يَتسَخَّطَ ما وَهَبه[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ رأفةُ اللهِ تبارك وتعالى بعِبادِه؛ حيثُ يُنذِرُهم بعذابِه قبْلَ الوُقوعِ، ولا شَكَّ أنَّ هذا مِن رَحمتِه ورأفتِه بهم، وإلَّا لَتَرَكهم يَفعَلونَ ما يَشاؤُونَ حتَّى يَنزِلَ بهم العَذابُ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ليس حفيظًا على الأُمَّةِ؛ لا في حياتِه ولا بعدَ مماتِه، وعلى هذا فلا يُستَغاثُ به بعدَ مَوتِه، ولا يُطلَبُ منه الهِدايةُ، وإنَّما الهدايةُ مِن عندِ اللهِ عزَّ وجَلَّ[٥].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ عبَّرَ سُبحانَه فيهنَّ بلَفظِ (الهِبةِ)؛ لأنَّ الأوهامَ العاديَّةَ قد تكتَنِفُ العَقلَ، فتَحجُبُه عن تأمُّلِ محاسِنِ التَّدبيراتِ الإلهيَّةِ، وتَرمي به في مَهاوي الأسبابِ الدُّنيويَّةِ، فيَقَعُ المُسلِمُ مع إسلامِه في مُضاهاةِ الكُفَّارِ في كراهةِ البَناتِ، وفي وادي الوَأدِ بتَضييعِهنَّ أو التَّقصيرِ في حُقوقِهنَّ، وتنبيهًا على أنَّ الأُنثَى نِعمةٌ، وأنَّ نِعمَتَها لا تَنقُصُ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٥).

نِعمةِ الذَّكَرِ، ورُبَّما زادَتْ، وإيقاظًا مِن سِنَةِ الغَفلةِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال في إعطاءِ الإناثِ وَحْدَهنَّ، وفي إعطاءِ الذُّكورِ وَحْدَهم بلَفظِ (الهِبةِ)، فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، وقال في إعطاءِ الصِّنفَينِ معًا: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا﴾؟

الجَوابُ: أنَّ كُلَّ شَيئَينِ يُقرَنُ أحَدُهما بالآخَرِ فهما زَوجانِ، وكُلُّ واحِدٍ منهما يُقالُ له: (زَوجٌ)، والكِنايةُ في ﴿يُزَوِّجُهُمۡ﴾ عائِدةٌ على الإناثِ والذُّكورِ الَّتي في الآيةِ الأُولى، والمعنى: يَقرِنُ الإناثَ والذُّكورَ، فيَجعَلُهم أزواجًا[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا﴾ تمامُ قُدرةِ اللهِ تبارك وتعالى؛ حيثُ خَلَقَ مِن هذه النُّطفةِ وهي واحِدةٌ؛ خَلَقَ منها ذُكورًا خُلَّصًا، وإناثًا خُلَّصًا، وأصنافًا ذُكورًا وإناثًا، مع أنَّ الماءَ واحِدٌ، ولكِنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى على كلِّ شيءٍ قَديرٌ[٣]، وأيضًا لَمَّا استوى البشَرُ في الإنسانيَّةِ والنِّكاحِ الَّذي هو سببُ الولادةِ، واختلفتْ أصنافُ أولادِهم؛ كان ذلك أدَلَّ دليلٍ على أنَّه لا اختيارَ لأحَدٍ معه، وأنَّ الأسبابَ لا تؤثِّرُ أصلًا إلَّا به[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا﴾ قيل: عبَّرَ في الذَّكَرِ بما هو أبلَغُ في الكَثرةِ؛ تَرغيبًا في سُؤالِه، والخُضوعِ لديه رجاءَ نَوالِه[٥].

٧- قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٥٥).

عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ هذا المقامُ شَبيهٌ بقَولِه تعالى عن عيسى عليه السَّلامُ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] أي: دَلالةً لهم على قُدرتِه تعالى وتقَدَّس؛ حيث خَلَق الخَلْقَ على أربعةِ أقسام؛ فآدَمُ عليه السَّلامُ مخلوقٌ مِن تُرابٍ لا مِن ذَكَرٍ ولا أُنثَى، وحوَّاءُ عليها السَّلامُ مخلوقةٌ مِن ذَكَرٍ بلا أُنثى، وسائِرُ الخَلقِ سِوى عيسى عليه السَّلامُ مِن ذَكَرٍ وأنثى، وعيسى عليه السَّلامُ مِن أُنثَى بلا ذَكَرٍ؛ فتَمَّت الدَّلالةُ بخَلقِ عيسى بنِ مَريمَ عليهما السَّلامُ؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، فهذا المقامُ في الآباءِ، والمقامُ الأوَّلُ في الأبناءِ، وكُلٌّ منهما أربعةُ أقسام؛ فسُبحانَ العليمِ القَديرِ[1]. فهذه القِسمةُ الرُّباعيَّةُ في الأُصولِ كالقِسمةِ الرُّباعيَّةِ في الفُروعِ؛ فتَمَّت الدَّلالةُ على أنَّه ما شاء كان ولا رادَّ له، وما لم يَشأْ لم يكُنْ ولا مُكَوِّنَ له، ولا مانِعَ لِما أعطى، ولا مُعطِيَ لِما مَنَع سبحانَه[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ بعدَ أنْ قطَعَ خِطابَهم عَقِبَ قولِه: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٣٦] بما تَخلَّصَ به إلى الثَّناءِ على فِرَقِ المؤمنينَ، وما استتْبَعَ ذلك مِن التَّسجيلِ على المشرِكينَ بالضَّلالةِ والعذابِ، ووَصْفِ حالِهم الفظيعِ؛ عادَ الكلامُ إلى خِطابِهم بالدَّعوةِ الجامعةِ لِما تَقدَّمَ؛ طَلبًا لِتَدارُكِ أمْرِهم قبْلَ الفَواتِ، فاستُؤنِفَ الكلامُ استئنافًا فيه معنى النَّتيجةِ للمَواعظِ المتقدِّمةِ؛ لأنَّ ما تَقدَّمَ مِن الزَّواجِرِ يُهيِّئُ بعضَ النُّفوسِ لِقَبولِ دَعوةِ الإسلامِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٠، ١٣١).

- قولُه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الاستِجابةُ: إجابةُ الدَّاعي، والسِّينُ والتَّاءُ للتَّوكيدِ. واللَّامُ في ﴿لِرَبِّكُم﴾ لتأكيدِ تعديةِ الفِعلِ إلى المفعولِ؛ مِثلُ: حَمِدتُ له، وشكَرتُ له، وتُسمَّى لامَ التَّبليغِ، ولامَ التَّبيينِ[1].

- وفي قولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ * ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ [الشورى: ٤٦، ٤٧] مُناسَبةٌ حسَنةٌ، ففي سُورةِ (الرُّوم): ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]؛ فاختَلَفَ ما انقطَعَ إليه قولُه: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، فجاءَ في هذه السُّورةِ: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ﴾، وفي (الرُّوم): ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾؛ ووجْهُ هذه المناسَبةِ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ معناهُ: استقِمْ أنت ومَن معك مِن المؤمنينَ على الدِّينِ المستقيمِ مِن قبْلِ أنْ يَجِيءَ يومٌ لا يَنفَعُ فيه الإيمانُ؛ فكأنَّه خاطَبَ النَّاسَ بالاجتماعِ على الإيمانِ، والتَّآلُفِ على الإسلامِ قبْلَ يومِ القيامةِ الَّذي تَتفرَّقُ فيه الجُموعُ؛ ففريقٌ في الجنَّةِ، وفريقٌ في السَّعيرِ، فلمَّا كان قولُه: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ أمْرًا للنَّاسِ كلِّهم بالاجتماعِ على الحقِّ ورفضِ الباطلِ، حذَّرَهم التَّفرُّقَ في الآخِرةِ، ومَصيرُ المطيعِ إلى دارِ الثَّوابِ، والعاصي إلى دارِ العقابِ؛ فكان هذا مُلائمًا لِما قبْلَه.

أمَّا الآيةُ الَّتي هنا في سُورةِ (الشُّورى) فجاءتْ بعدَ قولِه: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ...﴾ إلى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ [الشورى: ٤٥ - ٤٧]، فلمَّا قال: إنَّ الظَّالِمينَ لا وليَّ لهم يَنصُرُهم مِن دونِ اللهِ، قال عِندَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣١).

ذِكرِ اليومِ الَّذي لا مَرَدَّ له مِن اللهِ: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾، فاقتَضى ما تَقدَّمَ مِن ذِكرِ أنَّه لا ناصرَ لهم يَدفَعُ عذابَ اللهِ تعالى عنهم؛ سَدَّ طُرُقِ النَّجاةِ دونَهم بأنَّه لا ملجَأَ لهم، ولا ذابَّ عنهم، ومَن دهَمَه الخَطْبُ العظيمُ الَّذي لا يُطيقُ احتمالَه، فلم يَجِدْ مَهرَبًا ولا ناصرًا، لم يَبقَ له إلَّا الاستِسلامُ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾

- قولُه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ فيه تَلْوينٌ للكلامِ، وصَرْفٌ له عن خِطابِ النَّاسِ بعْدَ أمرِهم بالاستِجابةِ، وتَوجيهٌ له إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: فإنْ لم يَسْتجيبوا وأعرَضوا عمَّا تَدْعوهم إليه، فما أرسَلْناك رقيبًا ومُحاسِبًا عليهم(٢).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا ...﴾ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم﴾ الآيةَ [الشورى: ٤٧]، وهو جامعٌ لِما تَقدَّمَ؛ إذ أمَرَ اللهُ نَبيَّه بدَعْوتِهم للإيمانِ مِن قولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، ثمَّ قولِه: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ﴾ [الشورى: ١٥]، وما تَخلَّلَ ذلك واعترَضَه مِن تَضاعيفِ الأمْرِ الصَّريحِ والضِّمْنيِّ إلى قولِه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم﴾ الآيةَ [الشورى: ٤٧]، ثمَّ فُرِّعَ على ذلك كلِّه إعلامُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمَقامِه وعمَلِه إنْ أعرَضَ مُعرِضونَ مِن الَّذين

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٦١-١١٦٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٥، ٤١٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٦، ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٦).

يَدْعوهم، وبمَعذِرتِه فيما قام به، وأنَّه غيرُ مُقصِّرٍ، وهو تَعريضٌ بتَسليتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما لاقاهُ مِن المشرِكينَ، والمعنى: فإنْ أعرَضوا بعدَ هذا كلِّه، فما أرسَلْناك حفيظًا عليهم، ومُتكفِّلًا بهم؛ إذ ما عليك إلَّا البلاغُ. وإذ قد كان ما سبَقَ مِن الأمْرِ بالتَّبليغِ والدَّعوةِ مُصَدَّرًا بقولِه أوائلَ السُّورةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ [الشورى: ٦]، لا جَرَمَ ناسَبَ أنْ يُفرِّعَ على تلك الأوامرِ بعدَ تَمامِها مِثلَ ما قدَّمَ لها، فقال: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾، وهذا الارتباطُ هو نُكتةُ الالْتفاتِ مِن الخِطابِ الَّذي في قولِه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ الآيةَ [الشورى: ٤٧]، إلى الغَيبةِ في قولِه هنا: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾، وإلَّا لِقيل: فإنْ أعرَضتُم[(١)].

- قولُه: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا﴾ ليس هو جَوابَ الشَّرْطِ في المعنى، ولكنَّه دَليلٌ عليه، وقائمٌ مَقامَه؛ إذِ المعنَى: فإنْ أعْرَضوا فلَسْتَ مُقصِّرًا في دَعوتِهم، ولا عليك تَبِعةُ صَدِّهم؛ إذ ما أرْسَلْناك حَفيظًا عليهم، بقَرينةِ قولِه: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا﴾؛ باعتبارِ أنَّها دالَّةٌ على جَوابِ الشَّرطِ المقدَّرِ[(٣)].

- وهذه الجُملةُ: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ تتَّصِلُ بقولِه: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾؛ لِما تَضمَّنَتْه هذه مِن التَّعريضِ بتَسليةِ الرَّسولِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٢، ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما لاقاهُ مِن قَومِه، ويُؤذِنُ بهذا الاتِّصالِ أنَّ هاتَينِ الجُملتَينِ جُعِلتَا آيةً واحدةً هي ثامنةٌ وأربعونَ في هذه السُّورةِ؛ فالمعنى: لا يَحزُنْك إعراضُهم عن دَعْوتِك؛ فقد أعرَضوا عن نِعمتي وعن إنذاري بزيادةِ الكُفْرِ؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[1].

- وابتداءُ الكلامِ بضَميرِ الجلالةِ المنفصِلِ ﴿وَإِنَّآ﴾ مُسنَدًا إليه فِعلُ ﴿أَذَقْنَا﴾، دونَ أنْ يُقالَ: (وإذا أذَقْنا الإنسانَ... إلخ)، مع أنَّ المقصودَ وَصْفُ هذا الإنسانِ بالبَطَرِ بالنِّعمةِ، وبالكُفرِ عِندَ الشِّدَّةِ؛ لأنَّ المقصودَ مِن مَوقعِ هذه الجُملةِ هنا تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن جَفاءِ قَومِه وإعراضِهم؛ فالمعنى: أنَّ مُعامَلتَهم ربَّهم هذه المعاملةَ تُسَلِّيكَ عن مُعاملتِهم إيَّاك؛ ولهذا لا تَجِدُ نَظائرَ هذه الجُملةِ في مَعْناها مُفتتَحًا بمِثلِ هذا الضَّميرِ؛ لأنَّ مَوقعَ تلك النَّظائرِ لا تُماثِلُ مَوقعَ هذه، وإنْ كان مَعناهما مُتماثِلًا، فهذه الخُصوصيَّةُ خاصَّةٌ بهذه الجُملةِ. ولكنْ نَظمُ هذه الآيةِ جاءَ صالحًا لإفادةِ هذا المعنى، ولإفادةِ معنًى آخَرَ مُقارِبٍ له؛ وهو أنْ يكونَ هذا حِكايةَ خُلُقٍ للنَّاسِ كلِّهم مُرتكِزٍ في الجِبِلَّةِ، لكنَّ مَظاهِرَه مُتفاوِتةٌ بتَفاوُتِ أفرادِه في التَّخلُّقِ بالآدابِ الدِّينيَّةِ، فيُحمَلُ (الإنسانُ) في الموضعَينِ على جِنسِ بَني آدمَ، ويُحمَلُ الفرَحُ على مُطلَقِه المَقولِ عليه بالتَّشكيكِ حتَّى يَبلُغَ مَبلَغَ البَطَرِ، وتُحمَلُ السَّيِّئةُ الَّتي قدَّمَتْها أيديهم على مَراتبِ السَّيِّئاتِ إلى أنْ تَبلُغَ مَبلَغَ الإشراكِ، ويُحمَلُ وَصْفُ ﴿كَفُورٌ﴾ على ما يَشمَلُ اشتِقاقُه مِن الكُفْرِ بتَوحيدِ اللهِ، والكُفرِ بنِعمةِ اللهِ. والمرادُ بـ (الإنسان) في الموضعِ الأوَّلِ والموضعِ الثَّاني معنًى واحدٌ، وهو تَعريفُ الجِنسِ المرادُ به الاستِغراقُ، أي: إذا أذَقْنا النَّاسَ، وأنَّ النَّاسَ كَفُورونَ، ويكونُ استغراقًا عُرْفيًّا أُرِيدَ به أكثَرُ جِنسِ الإنسانِ في ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٣).

الزَّمانِ والمكانِ؛ لأنَّ أكثَرَ نَوعِ الإنسانِ يومَئذٍ مُشرِكون، وهذا هو المناسِبُ لِقَولِه: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾، أي: شَديدُ الكُفرِ قَوِيُّه، ولقولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: مِن الكُفرِ. وإنَّما عُدِلَ عن التَّعبيرِ بـ (النَّاسِ) إلى التَّعبيرِ بـ (الإنسانِ)؛ للإيماءِ إلى أنَّ هذا الخُلُقَ المُخبَرَ به عنهم هو مِن أخلاقِ النَّوعِ، لا يُزيلُه إلَّا التَّخلُّقُ بأخلاقِ الإسلامِ، فالَّذين لم يُسلِموا باقُونَ عليه، وذلك أدْخَلُ في التَّسليةِ؛ لأنَّ اسمَ (الإنسانِ) اسمُ جِنسٍ يَتضمَّنُ أوصافَ الجِنسِ المُسمَّى به على تَفاوُتٍ في ذلك؛ وذلك لِغَلَبةِ الهوَى[1].

- قولُه: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ...﴾ فيه تأْكيدُ الخبرِ بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لِمُناسَبةِ التَّسليةِ بأنْ نُزِّلَ السَّامعُ الَّذي لا يَشُكُّ في وُقوعِ هذا الخبرِ مَنزِلةَ المتردِّدِ في ذلك؛ لاستِعظامِه إعراضَهم عن دَعوةِ الخَيرِ[2].

- وتَصديرُ الشَّرطيَّةِ الأُولى ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ بحرفِ (إذا)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إيصالَ النِّعمةِ مُحقَّقُ الوُجودِ، كثيرُ الوُقوعِ، كما أنَّ تَصديرَ الثَّانيةِ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ بـ (إنْ)؛ للإيذانِ بنُدرةِ وُقوعِها[3]، وأنَّ ما يَعْفُو اللهُ تعالى عنه أكثرُ[4]، وفي نسبةِ الرَّحمةِ إليه تعالى دونَ السَّيِّئةِ تعليمٌ للعبادِ ألَّا يُضافَ إليه سبحانَه الشَّرُّ[5].

- وأتَى في الرَّحمةِ بالفعلِ الماضي ﴿أَذَقْنَا﴾ الدَّالِّ على تحقيقِ الوُقوعِ؛ وأتَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٣ - ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٤٣).

بفعلِ الإذاقةِ الدَّالِّ على مباشرةِ الرَّحمةِ لهم؛ وأنَّها مَذُوقَةٌ لهم -والذَّوقُ هو أخَصُّ أنواعِ الملابَسةِ وأشَدُّها، وأمَّا في حصولِ السَّيِّئةِ فأتَى بالمستقبَلِ ﴿تُصِبْهُمْ﴾ الدَّالِّ على أنَّه غيرُ مُحَقَّقٍ ولا بُدَّ[١].

وقيل: عبَّرَ بالذَّوقِ؛ لأنَّ نِعَمَ اللهِ في الدُّنيا وإنْ كانت عَظيمةً فإنَّها بالنِّسبةِ إلى السَّعاداتِ المُعَدَّةِ في الآخِرةِ كالقَطرةِ بالنِّسبةِ إلى البَحرِ[٢]. وقيل: استَعمَلَ في الرَّحمةِ الإذاقةَ، وفي مُقابَلتِها الإصابةَ، فقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ الإنسانَ بأدنى ما يُعطى مِنَ النِّعمةِ يَأشَرُ ويَبطَرُ؛ إشارةً إلى قَولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[٣] [العلق: ٦، ٧].

- وأُفرِدَ الضَّميرُ في ﴿فَرِحَ﴾، وجُمِع في ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾، وعَمَّ في (إِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ)، لِمَفهومٍ واحدٍ على التَّرقِّي في معنى: ليس ببِدْعٍ مِن هذا الإنسانِ المعهودِ الإصرارُ؛ لأنَّ هذا الجنسَ مَوسومٌ بكُفرانِ النِّعمِ، فجعَلَ ذمَّ «الإنسانِ» الثَّاني المُطلَقِ دليلًا على ذمِّ هذا المقيَّدِ[٤].

- وقولُه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما قدَّموا مِن المعاصي، وعُبِّرَ بالأيدي؛ لأنَّ أكثَرَ الأفعالِ تُزاوَلُ بها؛ فالأيدي أكثَرُ عمَلًا مِن الأرجُلِ، كما أنَّ حَرَكةَ اليَدِ -وإن كانتْ مِن جِنسٍ واحدٍ هي وحَركةُ الرِّجْلِ- أكثَرُ أنواعًا فضْلًا عن أفرادِها؛ فالأعمالُ حَقيقةً إنَّما تُزاوَلُ باليَدِ؛ لأنَّها أكثَرُ مِن أيِّ عُضْوٍ في البدنِ مُزاولةً للأعمالِ. حتَّى لو قال قائلٌ: اللِّسانُ أكثَرُ حركةً مِن اليَدِ؛ مَن يُحصي كَلماتِ اللِّسانِ؟ فالجوابُ: أنَّها وإنْ كانتْ مِن جِنسٍ واحدٍ أيضًا،

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٣).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٣، ٨٤).

لكنَّ اليَدَ تَبطِشُ، تضْرِبُ، تَكتُبُ، تَمْحو، يعني لا تُحصى أنواعُها؛ فلذلك عُبِّرَ بالأيدي عن النَّفْسِ(١).

- وقولُه: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ مِن وضْعِ المُضمَرِ مَوضعَ المظْهَرِ، ولم يقُلْ: (فإنَّه كَفورٌ)؛ لِيُسجِّلَ على أنَّ هذا الجنسَ مَوسومٌ بكُفرانِ النِّعمِ، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، والمعنى أنَّه يَذكُرُ البلاءَ، ويَنسى النِّعمَ ويَغمِطُها، وهذا وإنِ اختَصَّ بالمجرمينَ، جازَ إسنادُه إلى الجنسِ؛ لِغَلَبَتِهم واندراجِهم فيه(٢). وأيضًا لم يَقُلْ (فإنَّه كفورٌ)؛ لِيُبيِّنَ أنَّ طَبيعةَ الإنسانِ تقتَضي هذه الحالةَ، إلَّا إذا أدَّبَها الرَّجُلُ بالآدابِ الَّتي أرشدَ اللهُ إليها(٣).

- والحُكمُ الَّذي تَضمَّنتْه جُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ هو المقصودُ مِن جُملةِ الشَّرطِ كلِّها؛ ولذلك أُعِيدَ حَرْفُ التَّأكيدِ فيها بعدَ أنْ صُدِّرتْ به الجُملةُ المُشتمِلةُ على الشَّرْطِ؛ لِيُحيطَ التَّأكيدُ بكِلْتا الجُملتَينِ، فغلَبَ على نَوعِ الإنسانِ الكُفرُ باللهِ على الإيمانِ به؛ ولذلك عقَّبَ هذا الحُكمَ على النَّوعِ بقولِه: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٤٩]، ولم يَخرُجْ عن هذا العمومِ إلَّا الصَّالحونَ مِن نوعِ الإنسانِ، على تَفاوُتٍ بيْنَهم في كَمالِ الخُلُقِ(٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٦).

إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۞ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾

- قولُه: ﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ما سبَقَه مِن عَجيبِ خُلُقِ الإنسانِ الَّذي لم يُهذِّبْه الهدْيُ الإلهيُّ، يُثيرُ في نفْسِ السَّامعِ سُؤالًا عن فَطْرِ الإنسانِ على هذَينِ الخُلُقينِ اللَّذَينِ يَتلقَّى بهما نِعمةَ ربِّه وبَلاءَه، وكيف لم يُفطَرْ على الخُلُقِ الأكملِ؛ لِيَتلقَّى النِّعمةَ بالشُّكرِ، والضُّرَّ بالصَّبرِ والضَّراعةِ؟ وسُؤالًا أيضًا عن سَببِ إذاقةِ الإنسانِ النِّعمةَ مَرَّةً والبؤسَ مرَّةً، فيَبْطَرُ ويَكفُرُ، وكيف لم يُجعَلْ حالُه كَفافًا لا لَذَّاتٍ له ولا بلايا كَحالِ العَجْماواتِ؟ فكان جَوابُه: أنَّ اللهَ المتصرِّفُ في السَّمواتِ والأرضِ يَخلُقُ فيهما ما يَشاءُ مِن الذَّواتِ وأحوالِها، وهو جَوابٌ إجماليٌّ إقناعيٌّ يُناسِبُ حضْرةَ التَّرفُّعِ عن الدُّخولِ في المجادَلةِ عن الشُّؤونِ الإلهيَّةِ[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ واردٌ على نَمَطِ الآياتِ السَّابقةِ، وهي: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى: ٢٥]، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ ﴾ [الشورى: ٢٨]، ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖ ﴾ [الشورى: ٢٩]، ولَمَّا ذكَرَ بَثَّ الحيوانِ، وأراد أنْ يُبيِّنَ كيفيَّةَ البَثِّ قدَّمَ استِبدادَه بالمُلكِ، واستِقلالَه بالملَكوتِ، ثمَّ ثنَّى بأنَّه خالقٌ لِما يشاءُ، فاعلٌ لِما يُريدُ، له التَّصرُّفُ في مُلكِه ما يشاءُ كيف يشاءُ، ثمَّ ثلَّثَ بقولِه: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ﴾؛ فترَقَّى مِن ذلك العامِّ إلى ذِكرِ الإناثِ، ثمَّ إلى إفرادِ الذُّكورِ، ثمَّ إلى جمْعِهما، فلا يَدخُلُ في الكلامِ إرادةُ الإنسانِ وكَراهتُه، وأمَّا قولُه: ﴿ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ فهو كالاستِدراكِ وتَتميمِ معنى الاستِبدادِ بالخلْقِ؛ ولذلك غيَّرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٦، ١٣٧).

العبارةَ إلى ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ﴾[١].

- وفي قولِه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إجمالٌ يَبعَثُ المتأمِّلَ المُنصِفَ على تَطلُّبِ الحِكمةِ في ذلك، فإنْ تَطلَّبَها انقادَتْ له، كما أَومَأَ إلى ذلك تَذييلُ هذه الجُملةِ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾، فكأنَّه يقولُ: عليكم بالنَّظَرِ في الحِكمةِ في مَراتبِ الكائناتِ وتَصرُّفِ مُبدِعِها؛ فكما خلَقَ الملائكةَ على أكمَلِ الأخلاقِ في جميعِ الأحوالِ، وفطَرَ الدَّوابَّ على حدٍّ لا يَقبَلُ كَمالَ الخُلُقِ، كذلك خلَقَ الإنسانَ على أساسِ الخَيرِ والشَّرِّ، وجعَلَه قابلًا للزِّيادةِ منهما، على اختلافِ مَراتبِ عُقولِ أفرادِه وما يُحيطُ بها مِن الاقتِداءِ والتَّقليدِ، وخلَقَه كاملَ التَّمييزِ بيْنَ النِّعمةِ وضِدِّها؛ لِيَرتفعَ دَرَجاتٍ ويَنحَطَّ دركاتٍ ممَّا يَختارُه لِنَفْسِه[٢].

- قولُه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ بَدَلٌ مِن جُملةِ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ بدَلَ اشتِمالٍ؛ لأنَّ خلْقَه ما يشاءُ يَشتمِلُ على هِبَتِه لِمَن يَشاءُ ما يشاءُ، وهذا الإبدالُ إدماجُ مَثَلٍ جامعٍ لِصُوَرِ إصابةِ المحبوبِ، وإصابةِ المكروهِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ هو مِن المكروهِ عِندَ غالبِ البشرِ، ويَتضمَّنُ ضَرْبًا مِن ضُروبِ الكُفرانِ، وهو اعتقادُ بعضِ النِّعمةِ سيِّئةً في عادةِ المشرِكينَ مِن تَطيُّرِهم بوِلادةِ البَناتِ لهم[٣].

- وتَنكيرُ ﴿إِنَٰثًا﴾؛ لأنَّ التَّنكيرَ هو الأصلُ في أسماءِ الأجناسِ، وتَعريفُ ﴿ٱلذُّكُورَ﴾ باللَّامِ؛ لأنَّهم الصِّنفُ المعهودُ للمُخاطَبينَ، فاللَّامُ لِتَعريفِ الجنسِ، وإنَّما يُصارُ إلى تَعريفِ الجنسِ لِمَقصَدٍ، أي: يَهَبُ ذلك الصِّنفَ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٥، ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣٨).

الَّذي تَعهَدونَه، وتَتحدَّثونَ به، وتَرغَبونَ فيه[١]. وقيل: نكَّرهنَّ وعرَّف الذُّكورَ؛ لانحِطاطِ رُتبَتِهنَّ، لئلَّا يُظنَّ أنَّ التَّقديمَ كان لأحقِّيَّتِهنَّ به[٢].

- وفي قولِه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ قدَّمَ الإناثَ مع أنَّ جِهتَهنَّ التَّأخيرُ؛ لأنَّ الآيةَ سِيقَتْ لبيانِ عظَمةِ مُلكِه سُبحانَه ومشيئتِه، وأنَّه فاعلٌ ما يشاءُ، لا ما يشاؤُه عبيدُه، ولَمَّا كان الأبَوانِ لا يُريدانِ إلَّا الذُّكورَ غالبًا قدَّمَهنَّ في الذِّكرِ؛ لبيانِ نفوذِ إرادتِه ومشيئتِه، وانفرادِه بالأمرِ. وقيل: تقديمُ الإناثِ لأنَّهنَّ أكثرُ لتكثيرِ النَّسلِ. وقيل: بُدِئ في هذه الآيةِ بذكرِ الإناثِ؛ تأنيسًا بهنَّ، وتشريفًا لهنَّ؛ لِيُهتمَّ بصَونِهنَّ، والإحسانِ إليهنَّ. وقيل: جبرًا لهنَّ؛ مِن أجْلِ استِثقالِ الوالدينِ لِمَكانِهنَّ.

وقيل: قدَّمَ الإناثَ في الذِّكرِ على الذُّكورِ في قولِه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، ثمَّ في الآيةِ الثَّانيةِ قدَّمَ الذُّكورَ على الإناثِ، فقال: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا﴾؛ وذلك لِوُجوهٍ؛ الأوَّلُ: أنَّ الكريمَ يَسعى في أن يقَعَ الخَتْمُ على الخَيرِ والرَّاحةِ والسُّرورِ والبَهجةِ، فإذا وهَبَ الولدَ الأُنثى أوَّلًا، ثمَّ أعطى الذَّكَرَ بعدَه، فكأنَّه نقَلَه مِن الغمِّ إلى الفرَحِ، وهذا غايةُ الكرمِ، أمَّا إذا أعطى الولدَ الذَّكَرَ أوَّلًا، ثمَّ أعطى الأُنثى ثانيًا، فكأنَّه نقَلَه مِن الفرَحِ إلى الغمِّ، فذكَرَ تعالى هِبةَ الولدِ الأُنثى أوَّلًا، وثانيًا هبةَ الولدِ الذَّكَرِ؛ حتَّى يكونَ قد نقَلَه مِن الغمِّ إلى الفرحِ، فيكونَ ذلك أليَقَ بالكرمِ. الثَّاني: أنَّه إذا أعطى الولدَ الأُنثى أوَّلًا، عَلِم أنَّه لا اعتراضَ له على اللهِ تعالى، فيَرْضى بذلك، فإذا أعطاهُ الولدَ الذَّكَرَ بعدَ ذلك، عَلِم أنَّ هذه الزِّيادةَ فضلٌ مِن اللهِ تعالى وإحسانٌ إليه، فيَزدادُ شُكرُه وطاعتُه، ويَعلَمُ أنَّ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن)) للأنصاري (ص: ٥١٠).

إنَّما حصَلَ بمَحْضِ الفضلِ والكرَمِ. الثَّالثُ: الأُنثى ضَعيفةٌ ناقصةٌ عاجزةٌ، فقدَّمَ ذِكرَها تَنبيهًا على أنَّه كلَّما كان العجزُ والحاجةُ أتَمَّ، كانتْ عِنايةُ اللهِ به أكثَرَ. الرَّابعُ: كأنَّه يُقالُ: أيَّتُها المرأةُ الضَّعيفةُ العاجزةُ، قدَّمتُكِ في الذِّكرِ؛ لِتَعْلَمي أنَّ المُحسِنَ المُكرِمَ هو اللهُ تعالى -فمِنَ الآباءِ والأُمَّهاتِ مَن يَكرَهُ وُجودَها- فإذا عَلِمَتِ المرأةُ ذلك، زادتْ في الطَّاعةِ والخِدمةِ والبُعدِ عن مُوجِباتِ الطَّعْنِ والذَّمِّ.

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه ذكَرَ البلاءَ في آخِرِ الآيةِ الأُولى، وكُفرانَ الإنسانِ بنِسيانِه الرَّحمةَ السَّابقةَ عِندَه، ثمَّ عقَّبَه بذِكرِ مُلكِه ومَشيئتِه، وذِكرِ قِسمةِ الأولادِ، فقدَّمَ الإناثَ؛ لأنَّ سِياقَ الكلامِ أنَّه فاعلٌ ما يَشاؤُه، لا ما يَشاؤُه الإنسانُ، فكان ذِكرُ الإناثِ اللَّاتي مِن جُملةِ ما لا يشاؤُه الإنسانُ أهَمَّ، والأهمُّ واجبُ التَّقديمِ، ولِيَلِيَ الجنسُ الَّذي كانتِ العربُ تَعُدُّه بلاءً ذِكرَ البلاءِ، وأخَّرَ الذُّكورَ، فلمَّا أخَّرَهم لذلك، تَدارَكَ تأْخيرَهم -وهم أَحِقَّاءُ بالتَّقديمِ- بتَعريفِهم؛ فجبَرَ نقْصَ الأُنوثَةِ بالتَّقديمِ، وجبَرَ نقصَ التَّأخيرِ بالتَّعريفِ؛ لأنَّ التَّعريفَ تَنويهٌ وتَشهيرٌ، كأنَّه قال: ويَهَبُ لِمَن يَشاءُ الفُرسانَ الأعلامَ المذكورينَ الَّذين لا يَخْفَوْنَ عليكم، ثمَّ أَعطَى بعدَ ذلك كِلا الجِنْسينِ حقَّه مِن التَّقديمِ والتَّأخيرِ، لِيُعلَمَ أنَّ تقديمَهنَّ لم يكنْ لِتَقدُّمِهنَّ، بل لمُقتضًى، فقال: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾، كما قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾[1] [القيامة: ٣٩].

- كما أنَّ تقديمَ الإناثِ فيه تعريضٌ بالمشرِكينَ الَّذين كانوا يَتطيَّرونَ بإنجابِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٨)، ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٠، ٥١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

البناتِ، على عكسِ العادةِ في تَقديمِ الذُّكورِ على الإناثِ حيثُما ذُكِرا في القرآنِ، فهذا مِن دَقائقِ هذه الآيةِ[١].

- وتغييرُ العاطفِ في الثَّالثِ، إذ عُطِف بـ﴿ أَوۡ ﴾ في قولِه: ﴿ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ﴾ دونَ غيرِه؛ لأنَّه قسيمُ المشترَكِ بيْنَ القِسمينِ، ولم يَحتَجْ إليه الرَّابعُ؛ لإفصاحِه بأنَّه قسيمُ المشترَكِ بيْنَ الأقسامِ المتقدِّمةِ، فلو عُطِف بالواوِ تُوهِّم أنَّه قِسمٌ لكلٍّ مِن القِسمينِ دونَ المشتركِ بيْنَهما[٢].

- وفي قولِه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بصحَّةِ التَّقسيمِ، وهو استيفاءُ المتكلِّمِ جميعَ أقسامِ المعنى الَّذي هو شارعٌ فيه بحيثُ لا يُغادِرُ منه شيئًا؛ فإنَّه سبحانَه إمَّا أنْ يُفرِدَ العبدَ بهبةِ الإناثِ، أو بهبةِ الذُّكورِ، أو بهما جميعًا، أو لا يَهَبَه شيئًا؛ فقد وقَعتْ صحَّةُ التَّقسيمِ في هذه الآيةِ على التَّرتيبِ الَّذي تَستدعيه البلاغةُ، وهو الانتقالُ في نَظمِ الكلامِ ورَصْفِه مِن الأدْنَى إلى الأعْلَى؛ فقدَّمَ هِبةَ الإناثِ، وانتقَلَ إلى هبةِ الذُّكورِ، ثمَّ إلى هِبةِ المجموعِ، وجاء في كلِّ قِسمٍ مِن أقسامِ العَطيَّةِ بلَفظِ الهبةِ، وأفرَدَ معنى الحِرمانِ بالتَّأخيرِ؛ لأنَّ إنعامَه على عِبادِه أهَمُّ عِندَه، وتَقديمُ الأهمِّ واجبٌ في كلِّ كلامٍ بليغٍ، والآيةُ إنَّما سِيقتْ للاعتِدادِ بالنِّعمِ، وإنَّما أتَى بذِكرِ الحِرمانِ لِيَتكمَّلَ التَّمدُّحُ بالقُدرةِ على المنعِ كما يُمدَحُ بالعطاءِ، فيُعلَمَ أنَّه لا مانعَ لِما أَعطَى، ولا مُعطيَ لِما منَعَ، وعُدِلَ مِن لفظِ الحِرمانِ والمنعِ إلى لفظٍ هو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٧)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٤٢٧).

رِدْفُه وتابِعُه، وهو لفظُ الجَعْلِ[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ تَذييلٌ وعِلَّةٌ لِما قبْلَه؛ لِيَكونَ ذريعةً إلى ذِكرِ فضْلٍ مِن فَضائلِ هذا النَّوعِ مِن المخلوقِ، ومُنتهَى كَمالِه، وغايةِ دَرجاتِه؛ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾؛ ليُؤذِنَ بأنَّ المقصودَ مِن الخلْقِ: البَثُّ والدَّعوةُ إلى اللهِ، والتَّوجُّهُ إليه، والعِبادةُ له[٢].

- وأيضًا جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ في مَوضعِ العِلَّةِ للمُبدَلِ منه، وهو ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾. ومَوقعُ (إنَّ) هنا مَوقعُ فاءِ التَّفريعِ، والمعنى: أنَّ خلْقَه ما يَشاءُ ليس خلْقًا مُهمَلًا عَرِيًّا عن الحِكمةِ؛ لأنَّه واسعُ العِلمِ لا يَفُوتُه شَيءٌ مِن المعلوماتِ، فخلْقُه الأشياءَ يَجري على وَفقِ عِلمِه وحِكمتِه، وهو قَديرٌ نافذُ القُدرةِ، فإذا عَلِمَ الحِكمةَ في خلْقِ شَيءٍ أرادَه، فجَرى على قدَرِه، ولَمَّا جمَعَ بيْنَ وصْفَيِ العِلمِ والقُدرةِ تَعيَّنَ أنَّ هنالك صِفةً مَطويَّةً، وهي الإرادةُ؛ لأنَّه إنَّما تَتعلَّقُ قُدرتُه بعدَ تعلُّقِ إرادتِه بالكائنِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٩).

الآيات (٥١-٥٢)

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حِجَابٍ﴾: أي: سِترٍ. وكُلُّ ما يَستُرُ المطلوبَ ويَمنَعُ مِنَ الوُصولِ إليه فهو حِجابٌ، وأصلُ (حجب): يدُلُّ على المَنعِ مِن الوُصولِ[(١)].

﴿رُوحًا﴾: أي: قُرآنًا، وتُطلَقُ الرُّوحُ كذلك على الوَحيِ، وعلى جِبريلَ عليه السَّلامُ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ وفُسحةٍ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾

- قَولُه: ﴿لِبَشَرٍ﴾: شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، خَبَرُ (كان) مُقَدَّمٌ، والمصدَرُ المُؤوَّلُ ﴿أَن يُكَلِّمَهُ﴾: اسمُ كان مُؤَخَّرٌ. ﴿إِلَّا﴾: للحَصرِ، والاستِثناءُ مُفرَّغٌ. ﴿وَحْيًا﴾: مَفعولٌ مُطلَقٌ لفِعلٍ مَحذوفٍ، أو مَصدَرٌ في موضِعِ الحالِ، والتَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩).

إلَّا أن يُوحِيَ إليه وَحيًا، أو إلَّا مُوحِيًا. ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ﴾: شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ مَعطوفٍ على (يُوحيَ) العامِلِ في ﴿وَحۡيًا﴾، أي: أوْ أن يُكَلِّمَه مِن وَراءِ حِجابٍ، أو مُتعَلِّقٌ بحالٍ مَحذوفةٍ مَعطوفةٍ على ﴿وَحۡيًا﴾، والتَّقديرُ: إلَّا مُوحِيًا أو مُكَلِّمًا مِن وراءِ حِجابٍ. ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ﴾: في نَصبِه أوجُهٌ؛ الأوَّلُ: أنَّ المُضارِعَ مَنصوبٌ بـ (أن) مُضمَرةٍ جَوازًا بعدَ (أو)، و(أن والفِعلُ) في تأويلِ مَصدَرٍ في محَلِّ نَصبٍ مَعطوفٌ على ﴿وَحۡيًا﴾، أي: إلَّا وَحْيًا أو إرسالًا. الثَّاني: أنَّ المصدرَ (أن يُرسِلَ) مَعطوفٌ على معنى ﴿وَحۡيًا﴾؛ فإنَّه مَصدرٌ مُقَدَّرٌ بـ (أنْ والفعلِ)، والتَّقديرُ: إلَّا بأن يُوحِيَ إليه أو بأن يُرسِلَ. الثَّالثُ: أنَّ ﴿يُرۡسِلَ﴾ مَعطوفٌ على الفِعلِ الَّذي تَعلَّقَ به ﴿مِن وَرَآيِٕ﴾؛ إذ تقديرُه: أو يُكَلِّمَه مِن وراءِ حِجابٍ أو يُرسِلَ. والمعنى: إلَّا بوَحيٍ، أو تكليمٍ مِن وَراءِ حِجابٍ، أو إرسالِ رَسولٍ.

ولا يجوزُ أن يُعطَفَ ﴿يُرۡسِلَ﴾ على ﴿يُكَلِّمَهُ﴾؛ لفَسادِ المعنى؛ إذ يصيرُ التَّقديرُ: وما كان لبَشَرٍ أن يُرسِلَ اللهُ رَسولًا؛ فيَفسُدَ لَفظًا ومَعنًى.

وقُرِئَ ﴿أَوْ يُرْسِلُ﴾ بالرَّفعِ على الاستِئنافِ[1]، أي: أو هو يُرسِلُ. أو بالرَّفعِ عَطفًا على ﴿وَحۡيًا﴾ على تأويلِه بالحالِ، كأنَّه قال: إلَّا مُوحيًا أو مُرسِلًا. أو عَطفًا على ما يتعلَّقُ به ﴿مِن وَرَآيِٕ﴾ على تقديرِه بالحالِ كذلك، والتَّقديرُ: إلَّا مُوحيًا أو مُكَلِّمًا مِن وراءِ حِجابٍ، أو مُرسِلًا[2].

---

(١) قرأها نافعٌ برفعِ اللاَّمِ، وقرأها الباقون بالنَّصبِ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٤)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((شرح كتاب سيبويه)) للسيرافي (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٦٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٥/ ٦٠)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٤٤).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالَى طُرُقَ تَكليمِه للمُختارينَ مِن عِبادِه، فيقولُ: ما كان لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَه اللهُ في الدُّنيا إلَّا وَحْيًا، أو يُكَلِّمَه اللهُ جَهرًا مِن وَراءِ حِجابٍ فيَسمَعَ كلامَه ولا يَراه، أو يُكَلِّمَه اللهُ تعالى بواسِطةِ مَلَكٍ يُرسِلُه اللهُ بما يَشاءُ وَحْيَه، إنَّ اللهَ عَلِيٌّ حَكيمٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ بعضَ مظاهرِ فَضلِه على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: ومِثلَ ذلك الإيحاءِ أوحَيْنا إليك القُرآنَ مِن أمْرِنا -يا مُحمَّدُ- ما كُنتَ تَعلمُ مِن قبْلِ ذلك ما القُرآنُ وما الإيمانُ، ولكِنْ جعَلْنا هذا القُرآنَ نُورًا للنَّاسِ نَهدي به مَن نَشاءُ هِدايتَه مِن عِبادِنا.

وإنَّك -يا مُحمَّدُ- لَتُرشِدُ النَّاسَ إلى طريقٍ مُستقيمٍ؛ طَريقِ اللهِ الَّذي له مُلكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، ألَا إلى اللهِ وَحْدَه تَرجِعُ جميعُ الأمورِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن كَمالَ قُدرتِه وعِلمِه وحِكمتِه؛ أتْبَعَه ببَيانِ أنَّه كيف يَخُصُّ أنبياءَه بوَحْيِه وكَلامِه[1].

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾.

أي: وما يَنبغي لبَشَرٍ أن يُكَلِّمَه اللهُ في الدُّنيا إلَّا وَحْيًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢). =

﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾.

أي: أو يُكَلِّمَه اللهُ جهرًا مِن وَراءِ حِجابٍ، بحيثُ يَسمَعُ كَلامَ اللهِ ولا يَراه، كما كلَّمَ اللهُ تعالى موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٣، ١٤٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ

= قال مقاتلُ بنُ سُلَيْمانَ: (يقولُ: ليس لنبيٍّ مِن الأنبياءِ أن يُكَلِّمَه اللهُ ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ فيَسمَعَ الصَّوتَ فيَفْقَه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٥).

وقال ابن جرير: (وما ينبغي لبشَرٍ مِن وَلَدِ آدمَ أن يُكَلِّمَه رَبُّه إلَّا وَحيًا يُوحي اللهُ إليه كيف شاء؛ إمَّا إلهامًا، وإمَّا غيرَه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٠).

وقال البِقاعي: (﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ أي: كَلامًا خَفيًّا يُوجِدُه فيه بغيرِ واسِطةٍ بوَجهٍ خَفيٍّ لا يَطَّلِعُ عليه أحَدٌ إلَّا بخارقِ العادةِ؛ إمَّا بإلهامٍ، أو برؤيا مَنامٍ، أو بغيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٥٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ يتناوَلُ وَحيَ الأنبياءِ وغَيرِهم، كالمُحَدَّثِينَ المُلْهَمِينَ). ((النبوات)) (٢/ ٦٩١).

ومِمَّن قال: المرادُ: الوَحيُ في المنامِ، أو الإلهامُ: الواحدي، والزمخشري، وابن عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٤٧).

مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠].

وعن أبي موسى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((حِجابُه النُّورُ، لو كشَفَه لأحرَقَت سُبُحاتُ[١] وَجهِه ما انتهى إليه بَصَرُه مِنْ خَلْقِه))[٢].

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: أو يُكَلِّمَه اللهُ تعالى بواسِطةِ مَلَكٍ يُرسِلُه اللهُ، فيُوحِيَ إلى المُرسَلِ إليه ما يَشاءُ اللهُ وَحْيَه، كجِبريلَ الَّذي كان يَنزِلُ بكَلامِ اللهِ تعالى على أنبيائِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣].

﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سُبحانَه عَليٌّ بذاتِه فوقَ خَلْقِه، وعَليٌّ بصِفاتِه عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، قد قهَر كلَّ شيءٍ، ودانَتْ له المخلوقاتُ، حَكيمٌ في شَرعِه وصُنعِه، وفي تَدبيرِ خَلْقِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[٤].

---

(١) سُبُحاتُ وَجهِه: نُورُه وجَلالُه وبَهاؤه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٤).

(٢) رواه مسلم (١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

قال ابن كثير: (كان جِبريلُ يأتي إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في صِفاتٍ مُتعدِّدةٍ؛ فتارةً يأتي في صورةِ دِحْيَةَ بنِ خليفةَ الكَلْبيِّ، وتارةً في صورةِ أعرابيٍّ، وتارةً في صورتِه الَّتي خُلِق عليها له سِتُّمِئةِ جَناحٍ ما بيْنَ كلِّ جَناحَينِ كما بيْنَ المَشرِقِ والمغرِبِ، كما رآه على هذه الصِّفةِ مرَّتَينِ؛ مرَّةً مُنْهَبِطًا مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، وتارةً عندَ سِدرةِ المُنتهَى عندَها جنَّةُ المأْوى). ((البداية والنهاية)) (١/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥١، ٣٥٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾.

أي: ومِثلَ ذلك الإيحاءِ[(١)] أوحَيْنا إليك القُرآنَ[(٢)] مِن أمْرِنا[(٣)] -يا مُحمَّدُ[(٤)].

---

(١) قال أبو حيَّان: (﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ﴾: أي: مِثلَ ذلك الإيحاءِ الفَصلِ أوحينا إليك؛ إذ كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ اجتَمَعت له الطُّرُقُ الثَّلاثُ: النَّفْثُ في الرُّوعِ، والمنامُ، وتكليمُ اللهِ له حقيقةً ليلةَ الإسراءِ، وإرسالُ رَسولٍ إليه، وهو جِبريلُ. وقيل: كما أوحَيْنا إلى الأنبياءِ قَبْلَك أوحَيْنا إليك رُوحًا مِن أمْرِنا). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥١).

ومِمَّن قال بالمعنى الأوَّلِ أيضًا: ابنُ عطية، والبِقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٧٦).

ومِمَّن قال بالمعنى الثَّاني: مكِّي، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٩٥).

قال ابن جرير: (وكما كنَّا نُوحي إلى سائرِ رُسُلِنا، كذلك أوحَيْنا إليك يا مُحمَّدُ هذا القرآنَ ﴿رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤١).

وقال الزَّجَّاجُ: (أي: فَعَلْنا في الوحيِ إليك كما فَعَلْنا بالرُّسلِ مِن قَبْلِك). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤٠٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦١).

(٢) قال مكِّي: (قَولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ يعني: القرآنَ، في قَولِ جَميعِ المفَسِّرينَ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٠/ ٦٤١٢).

(٣) قال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ أي: واحدٍ مِن أُمورِنا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤).

وقال ابن عثيمين: (قَولُه: ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ قال المفَسِّر [جلال الدِّين المحلِّي] رحمه الله: «الَّذي نوحيه إليك» يعني: ممَّا نأمُرُ به، ويحتمِلُ أن يكونَ الأمرُ هنا واحِدَ الأمورِ لا واحِدَ الأوامِرِ، أي: مِن شَأنِنا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٦١، ٣٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٤، ٣٥٥).

﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾.

أي: ما كُنتَ تَعلَمُ -يا مُحمَّدُ- مِن قبْلِ نُزولِ الوَحيِ عليك أيَّ شَيءٍ القُرآنُ، وأيَّ شَيءٍ الإيمانُ وشَرائِعُه على وَجهِ التَّفصيلِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٦٢، ٣٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٥).

قال ابنُ عثيمين: (﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بها ما الكِتابةُ، ويحتمِلُ أن يُرادَ بذلك... القُرآنُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٥).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ بالكِتابِ هنا القُرآنُ: ابنُ جرير، والسمعاني، والزمخشري، وابن الجوزي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٨).

قال السعدي: (أي: ليس عندَك عِلمٌ بأخبارِ الكُتُبِ السَّابِقةِ، ولا إيمانٌ وعَمَلٌ بالشَّرائعِ الإلهيَّةِ، بل كُنتَ أُمِّيًّا لا تَخُطُّ ولا تَقرَأُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

وقال ابن عاشور: (ومعنى عَدَمِ دِرايةِ الكِتابِ: عدَمُ تعَلُّقِ عِلمِه بقِراءةِ كِتابٍ أو فَهْمِه. ومعنى انتِفاءِ درايةِ الإيمانِ: عدَمُ تعَلُّقِ عِلْمِه بما تحتوي عليه حَقيقةُ الإيمانِ الشَّرعيِّ مِن صِفاتِ اللهِ وأُصولِ الدِّينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٢).

ولا يَقتضي معنى الآيةِ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَكُنْ مؤمِنًا بوجودِ اللهِ ووحدانيَّةِ إلهيَّتِه قبْلَ نُزولِ الوحيِ عليه! قال ابن عاشور: (إذ الأنبياءُ والرُّسلُ معصومونَ مِن الشِّركِ قبْلَ النُّبُوَّةِ، فهم موحِّدونَ للهِ، ونابِذونَ لعبادةِ الأصنامِ، ولكنَّهم لا يَعلَمونَ تفاصيلَ الإيمانِ، وكان نبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في عهدِ جاهليَّةِ قَومِه يَعلَمُ بُطْلانَ عبادةِ الأصنامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥١).

وقال سُبحانَه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

وقال جَلَّ جَلالُه: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧].

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾.

أي: ولكِنْ جعَلْنا هذا القُرآنَ نُورًا للنَّاسِ تَزولُ به ظُلُماتُ الكُفرِ والشِّركِ، والشَّكِّ والجَهلِ، والأهواءِ والمعاصي؛ فنَهدي به إلى الحَقِّ مَن نَشاءُ هِدايتَه مِن عِبادِنا[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٢، ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٩، ٨٠).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿جَعَلْنَٰهُ ﴾ عائِدٌ إلى الكتابِ، وهو القُرآنُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾، أي: ولكِنْ جعَلْنا الكِتابَ نُورًا. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والزجاج، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٣).

وقيل: عائِدٌ إلى الرُّوحِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾. ومِمَّن ذهب إلى هذا: ابنُ تيميَّة، وابن القيِّم، والشنقيطي. يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢٠٠)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٨٧، ٨٨)، ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٩).

وقيل: عائِدٌ إلى الإيمانِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٦).

وقال أبو حيَّان: (يحتمِلُ أن يعودَ إلى قَولِه: ﴿رُوحًا ﴾، وإلى ﴿ٱلْكِتَٰبُ ﴾، وإلى ﴿ٱلْإِيمَٰنُ ﴾، وهو أقرَبُ مذكورٍ. وقال ابنُ عطية: عائِدٌ على الكتابِ. انتهى. وقيل: يعودُ إلى الكتابِ والإيمانِ معًا؛ لأنَّ مَقصدَهما واحِدٌ، فهو نظيرُ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة: ٦٢]). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ * يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

أي: وإنَّك -يا مُحمَّدُ- لَتُرشِدُ النَّاسَ وتَدْعوهم إلى طَريقٍ مُستَقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه[(١)].

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾.

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: تَدْعوهم إلى طَريقٍ مُستَقيم؛ طَريقِ اللهِ الموصِلِ إليه وإلى جنَّتِه، الَّذي له مُلكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، المتصَرِّفِ فيهما وَحْدَه لا شَريكَ له[(٢)].

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

أي: ألا إلى اللهِ وَحْدَه تَرجِعُ جَميعُ الأُمورِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٣، ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٨، ٣٦٣).

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [آل عمران: ١٠٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا﴾ بيانُ أنَّ هذا القُرآنَ الكريمَ رُوحٌ تحيا به القُلوبُ، وعلى هذا فإذا وجدْتَ قلبَك مَيِّتًا، أو وجَدْتَه مَريضًا، أو وجَدْتَه قاسيًا؛ فعليك بالقُرآنِ، اقرأْه عن محبَّةٍ وتَدَبُّرٍ فسيتغيَّرُ القَلبُ مِن مَرَضٍ إلى صِحَّةٍ، ومِن مَوتٍ إلى حَياةٍ، ومِن قَسوةٍ إلى لِينٍ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى جَعَل الكتابَ نورًا يَهدي به مَن يشاءُ، ويَنبني على هذه الفائدةِ: أنَّك إذا أردْتَ أنْ يَستنيرَ قلبُك؛ فعليك بالقُرآنِ، وقراءتِه قراءةَ تَدَبُّرٍ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ إثباتُ تكليمِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ استَدَلَّ به مالِكٌ -رحمه الله- على أنَّ مَن حَلَف لا يُكَلِّمُ زَيدًا، فأرسَلَ إليه رَسولًا أو كِتابًا، يحنَثُ؛ لأنَّه تعالى استثناه مِنَ الكلامِ، فدَلَّ على أنَّه منه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣١). ويُنظر أيضًا: ((البيان والتحصيل)) لابن رشد =

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾ استدَلَّت به عائِشةُ -رَضِيَ اللهُ عنها- على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَرَ ربَّه[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾ دَلَّ على انتِفاءِ أن يكونَ إبلاغُ مُرادِ اللهِ تعالى لأُمَمِ الرُّسُلِ بغَيرِ أحَدِ هذه الأنواعِ الثَّلاثةِ -أعني: خُصوصَ نَوعِ إرسالِ رَسولٍ- بدَلالةِ فَحوى الخِطابِ[٢]؛ فإنَّه إذا كان الرُّسُلُ لا يخاطِبُهم اللهُ إلَّا بأحَدِ هذه الأنحاءِ الثَّلاثةِ، فالأُمَمُ أَولى بألَّا يُخاطَبوا بغيرِ ذلك مِن نحوِ ما سأله المُشرِكونَ مِن رُؤيةِ اللهِ يُخاطِبُهم، أو مَجيءِ الملائِكةِ إليهم، بل لا يتوجَّهُ إليهم خِطابُ اللهِ إلَّا بواسِطةِ رَسولٍ مِنهم يَتلقَّى كلامَ اللهِ بنَحوٍ مِن الأنحاءِ الثَّلاثةِ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا ...﴾ يُؤخَذُ مِن هذه الآيةِ أنَّ النَّبيَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد أُعطِيَ أنواعَ الوحيِ الثَّلاثةَ، وهو أيضًا مُقتضَى الغرَضِ مِن مَساقِ هذه الآياتِ[٤].

= الجد (٦/ ٩٦). وهو مذهبُ الحنابلةِ، خلافًا للحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٣/ ٧٩٢)، ((المجموع شرح المهذب)) للنووي (١٨/ ٨٩)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣١).

قال ابن القيِّم: (وهي مسألةُ خِلافٍ بيْنَ السَّلفِ والخلَفِ، وإن كان جمهورُ الصَّحابةِ بل كلُّهم مع عائشةَ كما حكاه عثمانُ بنُ سعيدٍ الدَّارِميُّ إجماعًا للصَّحابةِ). ((زاد المعاد)) (١/ ٧٩). ويُنظر: ((النقض على المريسي)) للدارمي (ص: ٢٨٧)، ((الرد على الجهمية)) للدارمي (ص: ١٢٤)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (١/ ٢٢).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٠، ١٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٥١). =

٦- في قَولِه تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾ إثباتُ الحِكمةِ في شَرعِه وخَلْقِه، وإثباتُ الحُكْمِ الكَونيِّ والشَّرعيِّ؛ لأنَّ كَلِمةَ «حكيم» تعني: الحُكْمَ والحِكمةَ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ سمَّى سُبحانَه الوَحيَ رُوحًا؛ لِمَا يَحصُلُ به مِن حياةِ القُلوبِ والأرواحِ[٢]، ولأنَّه تحيا به مَصالحُ الدُّنيا والدِّينِ؛ لِما فيه مِنَ الخَيرِ الكثيرِ والعِلمِ الغَزيرِ، وهو مَحضُ مِنَّةِ اللهِ سُبحانَه على رَسولِه وعبادِه المؤمِنينَ مِن غَيرِ سَبَبٍ منهم[٣]، وسمَّاه نورًا؛ لِما يَحصُلُ به مِن الهدَى واستِنارةِ القلوبِ والفرقانِ بيْنَ الحقِّ والباطلِ[٤]، ولِما يَحصُلُ به مِنَ الإشراقِ والإضاءةِ، وهما

= قال ابن القيِّم: (كمَّل اللهُ له [أي: للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ] مِن مراتبِ الوحيِ مراتبَ عديدةً: إحداها: الرُّؤْيا الصَّادقةُ، وكانت مَبدأَ وحْيِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وكان لا يَرى رؤيا إلَّا جاءتْ مِثلُ فَلَقِ الصُّبحِ.

الثَّانيةُ: ما كان يُلْقِيه المَلَكُ في رُوعِه وقلبِه مِن غيرِ أن يَراه.

الثَّالثةُ: أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم كان يَتمثَّلُ له المَلَكُ رجُلًا فيُخاطِبُه حتَّى يَعيَ عنه ما يقولُ له، وفي هذه المرتبةِ كان يَراه الصَّحابةُ أحيانًا.

الرَّابعةُ: أنَّه كان يأتيه في مِثلِ صَلْصَلةِ الجَرَسِ، وكان أشَدَّه عليه، فيَتلبَّسُ به المَلَكُ حتَّى إنَّ جَبينَه لَيَتفَصَّدُ عَرَقًا في اليومِ الشَّديدِ البَرْدِ، وحتَّى إنَّ راحلتَه لَتَبْرُكُ به إلى الأرضِ إذا كان راكِبَها.

الخامسةُ: أنَّه يَرى المَلَكَ في صورتِه الَّتي خُلِق عليها، فيُوحي إليه ما شاء اللهُ أن يُوحيَه، وهذا وقَع له مرَّتَينِ.

السَّادسةُ: ما أوحاه الله وهو فوقَ السَّمواتِ لَيلةَ المِعراجِ مِن فَرضِ الصَّلاةِ وغيرِها.

السَّابعةُ: كلامُ اللهِ له منه إليه بلا واسِطةِ مَلَكٍ، كما كلَّم اللهُ موسى بنَ عِمْرانَ، وهذه المرتبةُ هي ثابتةٌ لموسى قَطعًا بنصِّ القرآنِ، وثُبوتُها لنبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم هو في حديثِ الإسراءِ). ((زاد المعاد)) (١/ ٧٧-٧٩). ويُنظر: ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

(٤) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤١).

متلازِمان؛ فحيث وُجِدَت هذه الحياةُ بهذا الرُّوح وُجِدَت الإضاءةُ والاستِنارةُ، وحيث وُجِدَت الاستِنارةُ والإضاءةُ وُجِدَت الحياةُ، فمَن لم يَقبَلْ هذا الرُّوحَ فهو مَيِّتٌ مُظلِمٌ[(١)]؛ فيَجِبُ على كُلِّ مُسلمٍ أن يَستضيءَ بنُوره، فيَعتَقِدَ عقائِدَه، ويُحِلَّ حلالَه، ويُحَرِّمَ حرامَه، ويمتَثِلَ أوامِرَه، ويجتَنِبَ ما نهى عنه، ويعتَبِرَ بقَصَصِه وأمثالِه[(٢)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ أنَّ القُرآنَ غيرُ مَخلوقٍ؛ فقد جَعَله اللهُ تعالى مُوحًى إلى الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولو كان مخلوقًا ما صحَّ أن يكونَ مُوحًى. فإذا كان وَحْيًا لَزِمَ ألَّا يكونَ مخلوقًا؛ لأنَّ اللهَ هو الَّذي تَكَلَّمَ به[(٣)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أنَّ القُرآنَ رُوحٌ تحصُلُ به الحياةُ، ونورٌ تحصُلُ به الهِدايةُ؛ فأتْباعُه لهم الحياةُ والهِدايةُ، ومُخالِفوه لهم الموتُ والضَّلالُ[(٤)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أنَّ القُرآنَ هو مِن أمرِ اللهِ تعالى، ويَنبني عليه أنَّه ليس بمخلوقٍ؛ وجْهُ ذلك: قولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففَصَل الخَلْقَ عن الأمرِ، وجَعَلَه قَسيمًا له؛ فدلَّ ذلك على أنَّ الأمرَ ليس مِن الخَلقِ، وهذا هو المرادُ، فهذه الآيةُ ممَّا يُستَدَلُّ بها على طائِفَتَي المُعتَزِلةِ والأشعريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ القُرآنَ مَخلوقٌ[(٥)]!

---

(١) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٧٧).

(٥) يُنظر: ((معارج القبول بشرح سلم الوصول)) لحافظ حكمي (١/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن =

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ استُدِلَّ به على أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُنْ متعبِّدًا قبْلَ النُّبوَّةِ بشَرعٍ[(١)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان أُمِّيًّا لا يَقرأُ ولا يَكتبُ، فيَكونُ فيه إبطالٌ لدعوَى أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم كاذِبٌ؛ لأنَّه لا يَستطيعُ أنْ يأتيَ بهذا القُرآنِ مِن عِندِه[(٢)].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يدُلُّ على الصِّراطِ المُستقيمِ؛ فإنْ قال قائلٌ: ما الجَمعُ بيْنَ هذه الآيةِ وقَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦]؟

فالجَوابُ: الهدايةُ في الآيةِ الثَّانيةِ هدايةُ التَّوفيقِ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَملِكُ أنْ يَهديَ أحدًا، وأمَّا الهدايةُ في الآيةِ الَّتي هنا فهي هدايةُ الدَّلالةِ والإرشادِ، كما في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] هَدَيْناهم هِدايةَ دَلالةٍ، يعني: بَيَّنَّا لهم الحَقَّ ودَلَلْناهم عليه، ولكِنَّهم -والعياذُ باللهِ- استحَبُّوا العَمَى على الهُدَى، فلم يَهتَدوا[(٣)]، فالهدَى المنفيُّ عنه

= عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٣).

قال السمين الحلبي في الردِّ على مذهبِ مَن يرَى أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يكُنْ مُتعبدًا قبْلَ المبعَثِ: (وهو مذهَبٌ ساقِطُ الاعتبارِ؛ لأنَّ الأحاديثَ الصَّحيحةَ تَرُدُّه، وهي: أنَّه كان يَتحنَّثُ، كان يتعَبَّدُ، كان يصومُ، كان يطوفُ، كان يَقِفُ، ولم يَقُلْ بخلافِ ذلك إلَّا شذوذٌ مِن النَّاسِ، وفي الجُملةِ فالمسألةُ خِلافيَّةٌ، وإذا كان مُتعبِّدًا فبأيِّ شَرعٍ كان يتعَبَّدُ به؟ ...). ((الدر المصون)) (١١/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٦١).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو منحُ التوفيقِ، والهدَى المُثبَتُ له هو إبانةُ الطَّريقِ[١].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ حُجَّةٌ في قَبولِ السُّنَنِ، وزَوالِ الارتيابِ في أنَّ قَولَ الرَّسولِ كُلَّه حَقٌّ مِن عندِ اللهِ، وهادٍ إلى سَبيلِ اللهِ[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أنَّ هَدْيَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هَدْيٌ مُستقيمٌ لا اعوِجاجَ فيه؛ فليس فيه اعوِجاجٌ في الخَبَرِ -والاعوجاجُ في الخَبَرِ هو الكَذِبُ-، وليس فيه اعوِجاجٌ في الشَّرائعِ، بل كلُّها مَبنيَّةٌ على العَدلِ والفَضلِ. والحَمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ هنا أُضيفَ الصِّراطُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وقد أُضيفَ في سورةِ (الفاتحةِ) إلى غيرِ اللهِ، فقال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]، ولا تَعارُضَ بيْنَ الإضافتَينِ؛ فإنَّ إضافتَه إلى اللهِ تعالى هي باعتبارِ أنَّه هو الَّذي وَضَعَه لعِبادِه، وأنَّه مُوصِلٌ إليه، وإضافتَه إلى النَّاسِ في قَولِه تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ باعتبارِ أنَّهم أهلُه وسالِكوه، فالإضافةُ مختَلِفةٌ؛ فلهذا صَحَّ أنْ تُضافَ إلى هذا تارةً، وإلى هذا تارةً[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ بيانُ أنَّ الأمورَ كلَّها تصيرُ إلى اللهِ؛ أي: تَرجِعُ إليه خَلْقًا ومُلْكًا وتدبيرًا وحُكْمًا، كلُّ شيءٍ يَرجِعُ إلى اللهِ، إذا اختَلَفْنا في حُكْمٍ في مسألةٍ مِن مسائلِ العلمِ نَرجِعُ إلى اللهِ، إذا كان يومُ القيامةِ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٨).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٦١).
(٤) يُنظر: ((شرح مقدمة التفسير)) لابن عثيمين (ص: ٢٠).

يُبعَثُ الخلائقُ ويَرجِعون إلى اللهِ، فهو سُبحانَه منه المُبتدَأُ، وإليه المنتهَى، تبارك وتعالى[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ عطْفٌ على ما سبَقَ مِن حكايةِ تُرَّهاتِهم عطْفَ القِصَّةِ على القصَّةِ، وهو عَوْدٌ إلى إبطالِ شُبَهِ المشركينَ الَّتي أشارَ إليها قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣]، وقولُه تعالَى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ﴾ [الشورى:١٣]، ويَزيدُ الأمرَ وضوحًا قولُه عَقِبَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وهذه الآيةُ تُبطِلُ الشُّبهةَ الثَّانيةَ مِن شُبُهاتِهم في كَونِ القرآنِ وحيًا مِن اللهِ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ زعَموا أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لو كان مرسَلًا مِن اللهِ لَكانتْ معه ملائكةٌ تُصدِّقُ قولَه، أو لأُنزِلَ عليه كتابٌ جاهزٌ مِن السَّماءِ يُشاهِدونَ نُزولَه[٢]!

- وإذ قد كان أهمُّ غرَضِ هذه السُّورةِ إثباتَ كَونِ القرآنِ وحيًا مِن اللهِ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كما أُوحِيَ مِن قبْلِه للرُّسلِ، كان العَوْدُ إلى ذلك مِن قبيلِ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ[٣]، فبيَّنَ اللهُ للمكذِّبينَ أنَّ سُنَّةَ اللهِ في خِطابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٠).

(٣) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصدير-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظينِ المُكرَّرينِ، أو المتجانسَينِ، =

رُسلِه لا تَعْدو ثلاثةَ أنحاءٍ مِن الخِطابِ، منها ما جاء به القرآنُ؛ فلمْ يكُنْ ذلك بِدْعًا ممَّا جاءتْ به الرُّسلُ الأوَّلونَ، وما كان اللهُ لِيُخاطِبَ رُسلَه على الأنحاءِ الَّتي اقترَحَها المشركونَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فجيءَ بصيغةِ حَصْرٍ مُفتتَحةٍ بصيغةِ الجُحودِ المفيدةِ مُبالَغةَ النَّفيِ، وهي ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾، أي: لم يَتهيَّأْ لأحدٍ مِن الرُّسلِ أن يأتيَه خِطابٌ مِن اللهِ إلَّا بنَوعٍ مِن هذه الثَّلاثةِ(١).

- والاستِثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ استِثناءٌ مِن عمومِ أنواعِ التَّكلُّمِ الَّتي دلَّ عليها الفعلُ الواقعُ في سياقِ النَّفيِ، وهو ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾، فانتِصابُ ﴿وَحْيًا﴾ على الصِّفةِ لمصدرٍ محذوفٍ دلَّ عليه الاستثناءُ، والتَّقديرُ: إلَّا كلامًا وحيًا، أي: مُوحًى به، كما تقولُ: لا أُكلِّمُه إلَّا جهرًا، أو إلَّا إخفاتًا؛ لأنَّ الجهرَ والإخفاتَ صِفَتانِ للكلامِ(٢).

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ يُفيدُ التَّعليلَ لِما سبَقَ، أي: ما صحَّ لأحدٍ مِن البشرِ أنْ يُكلِّمَه اللهُ إلَّا على هذه الأَوجُهِ(٣).

= أو المُلحقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسام؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]. والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]. والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٠، ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

- ومِن لطائفِ نَسْجِ هذه الآيةِ تَرْتيبُ ما دلَّ على تكليمِ اللهِ الرُّسلَ بدَلالاتٍ؛ فجيءَ بالمصدرِ أوَّلًا في قولِه: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾، وجيءَ بما يُشبِهُ الجملةَ ثانيًا، وهو قولُه: ﴿مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾، وجيءَ بالجِملةِ الفعليَّةِ ثالثًا بقولِه: ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾[1].

- وكلُّ هذه الأقسامِ الثَّلاثةِ يَصْدُقُ عليها أنَّها وحْيٌ، وخُصَّ الأوَّلُ باسمِ الوحيِ هنا؛ لأنَّ ما يَقَعُ في القلبِ على سبيلِ الإلهامِ يقعُ دَفْعةً واحدةً، فكان تخصيصُ لفظِ الوحيِ به أَولى[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ...﴾ الآيةَ [الشورى: ٥١]، وهذا دليلٌ عليهم أنَّ القرآنَ أُنزِلَ مِن عِندِ اللهِ، أعقَبَ به إبطالَ شُبهتِهم الَّتي تَقدَّمَ لإبطالِها قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ الآيةَ، أي: كان وحْيُنا إليك مِثلَ كلامِنا الَّذي كلَّمْنا به مَن قبْلَك، والمقصودُ مِن هذا هو قولُه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[3].

- والإشارةُ إلى سابقٍ في الكلامِ، وهو المذكورُ آنِفًا في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٠).

﴿يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ الآيةَ [الشورى: ٥١]، أي: ومِثلُ الَّذي ذُكِر مِن تكليمِ اللهِ وحْيُنا إليك رُوحًا مِن أمْرِنا. ويَجوزُ أن تكونَ الإشارةُ إلى ما يأتي مِن بعدُ، وهو الإيحاءُ المأخوذُ مِن ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، أي: مِثلَ إيحائِنا إليك أَوحَيْنا إليك، أي: لو أُريدَ تشبيهُ إيحائِنا إليك في رِفعةِ القَدرِ والهُدى، ما وُجِد له شبيهٌ إلَّا نفْسُه، على طريقةِ قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: ١٤٣]، والمعنى: إنَّ ما أَوحَيْنا إليك هو أعَزُّ وأشرَفُ وحيٍ بحيثُ لا يُماثِلُه غيرُه[١].

- واختِتامُ السُّورةِ بهذه الآيةِ مع افتتاحِها بقولِه: (كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) الآيةَ؛ فيه مُحسِّنُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ[٢].

- وجُملةُ ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾، أي: أَوحَيْنا إليك في حالِ انتفاءِ عِلمِك بالكِتابِ والإيمانِ، أي: أفَضْنا عليك مَوهبةَ الوحْيِ في حالِ خُلُوِّك عن عِلمِ الكتابِ وعِلمِ الإيمانِ، وهذا تَحَدٍّ للمُعانِدينَ؛ لِيَتأمَّلوا في حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيَعلَموا أنَّ ما أُوتيَه مِن الشَّريعةِ والآدابِ الخُلُقيَّةِ هو مِن مَواهبِ اللهِ تعالى الَّتي لم تَسبِقْ له مُزاوَلتُها، ويَتضمَّنُ امتِنانًا عليه وعلى أُمَّتِه المسلِمينَ[٣].

- وإدخالُ (لا) النَّافيةِ في قولِه: ﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ تأْكيدٌ لِنَفْيِ دِرايتِه إيَّاه، أي: ما كنتَ تَدري الكتابَ ولا الإيمانَ؛ للتَّنصيصِ على أنَّ المنفيَّ دِرايةُ كلٍّ واحدٍ منهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٥٣).

- وقولُه: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾، وضَميرُ ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ عائدٌ إلى الكتابِ في قولِه: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾، والتَّقديرُ: وجعَلْنا الكتابَ نورًا، وأُقحِمَ في الجُملةِ المعطوفةِ حرفُ الاستِدراكِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مضمونَ هذه الجُملةِ عكْسُ مَضمونِ جُملةِ ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾، والاستِدراكُ بـ(لكنْ) ناشئٌ على ما تَضمَّنتْه جُملةُ ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ لأنَّ ظاهرَ نفْيِ درايةِ الكتابِ أنَّ انتفاءَها مُستمرٌّ، فاستُدْرِكَ بأنَّ اللهَ هَداهُ بالكتابِ، وهَدَى به أُمَّتَه؛ فالاستدراكُ واقعٌ في المَحَزِّ[1]، والتَّقديرُ: ما كنتَ تَدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ، ثمَّ هدَيْناك بالكِتابِ ابتِداءً، وعرَّفْناك به الإيمانَ، وهدَيتَ به النَّاسَ ثانيًا، فاهْتَدى به مَن شِئْنا هِدايتَه، أي: وبقِيَ على الضَّلالِ مَن لم نشَأْ له الاهتِداءَ[2].

- وفي قولِه: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾ شُبِّهَ الكِتابُ بالنُّورِ؛ لِمُناسَبةِ الهَدْيِ به؛ لأنَّ الإيمانَ والهُدى والعِلمَ تُشبَّهُ بالنُّورِ، والضَّلالَ والجَهلَ والكُفرَ تُشبَّهُ بالظُّلْمةِ، وإذا كان السَّائرُ في الطَّريقِ في ظُلمةٍ ضَلَّ عن الطَّريقِ، فإذا استنارَ له اهْتَدى إلى الطَّريقِ، فالنُّورُ وَسيلةُ الاهتِداءِ، ولكنْ إنَّما يَهتدي به مَن لا يكونُ له حائلٌ دونَ الاهتِداءِ، وإلَّا لم تَنفَعْه وَسيلةُ الاهتِداءِ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾[3].

- قولُه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تَقريرٌ لِهدايتِه تعالى، وبَيانٌ لكيفيَّتِها، فلمَّا أثبَتَ الهَدْيَ إلى اللهِ، وجعَلَ الكتابَ سببًا لِتَحصيلِ الهِدايةِ، عطَفَ عليه

(١) المَحَزُّ: مَوضِعُ الحَزِّ، أي: القَطعِ. وأصابَ المحَزَّ: عبارةٌ عن فِعلِ الأمرِ على ما يَنبَغي ويَليقُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٣، ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٥٤).

وساطةَ الرَّسولِ في إيصالِ ذلك الهَدي؛ تَنويهًا بشَأنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- وأيضًا جُملةُ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾، وفي الكلامِ تَعريضٌ بالمشركينَ؛ إذ لم يَهتَدوا به، وإذ كبُرَ عليهم ما يَدْعوهم إليه معَ أنَّه يَهديهِم إلى صِراطٍ مُستقيمٍ[٢].

- وحُذِف مَفعولُ ﴿لَتَهۡدِيٓ﴾ للعُمومِ، أي: لَتَهدي جميعَ النَّاسِ، أو هو مَحذوفٌ ثِقةً بغايةِ الظُّهورِ، أي: نَهدي به مَن نَشاءُ بدعْوتِك وواسطتِك[٣].

- وتأْكيدُ الخبرِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ به؛ لأنَّ الخبرَ مُستعمَلٌ في تَثْبيتِ قلْبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالشَّهادةِ له بهذا المَقامِ العظيمِ، فالخبَرُ مُستعمَلٌ في لازِمِ معناه، على أنَّه مُستعمَلٌ أيضًا للتَّعريضِ بالمُنكِرينَ لِهَدْيِه، فيَكونُ في التَّأكيدِ مُلاحَظةُ تَحقيقِه، وإبطالُ إنكارِهم[٤].

- وتَنكيرُ ﴿صِرَٰطٖ﴾ للتَّعظيمِ؛ لأنَّ التَّنكيرَ أنسَبُ بمَقامِ التَّعريضِ بالَّذين لم يَأبَهوا بهِدايَتِه[٥].

- وعُدِل عن إضافةِ ﴿صِرَٰطٖ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ ابتِداءً؛ لِقَصْدِ الإجمالِ الَّذي يَعقُبُه التَّفصيلُ؛ بأنْ يُبدَلَ منه بعدَ ذلك ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾؛ لِيَتمكَّنَ بهذا الأسلوبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٤، ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المعنى المقصودُ فضْلَ تمكُّنٍ[١].

- وإضافةُ ﴿صِرَٰطِ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ (الله) باسمِ المَوصولِ وصِلتِه، ووَصْفُه بقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لِتَفْخيمِ شأنِه، وتَقريرِ استقامتِه، وتأْكيدِ وُجوبِ سُلوكِه؛ فإنَّ كَونَ جميعِ ما فيهما مِن الموجوداتِ له تعالى خَلْقًا ومِلْكًا وتصرُّفًا ممَّا يُوجِبُ ذلك أتمَّ إيجابٍ. وللإيماءِ إلى أنَّ سَببَ استقامةِ الصِّراطِ الَّذي يَهْدي إليه النَّبيُّ أنَّه صِراطُ الَّذي يَملِكُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، فلا يَعزُبُ عنه شَيءٌ ممَّا يَليقُ بعِبادِه، فلمَّا أرسَلَ إليهم رسولًا بكِتابٍ لا يُرتابُ في أنَّ ما أَرسَلَ لهم فيه صلاحُهم[٢].

- وقولُه: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ تَذييلٌ وتَنْهيةٌ للسُّورةِ بخِتامِ ما احتوَتْ عليه مِن المجادَلةِ والاحتجاجِ بكلامٍ قاطعٍ جامعٍ، مُنذِرٍ بوَعيدٍ للمُعرِضينَ فاجِعٍ، ومُبشِّرٍ بالوعدِ لكلِّ خاشعٍ، ففيه مِن الوعدِ للمُهتدينَ إلى الصِّراطِ المستقيمِ والوعيدِ للضَّالِّينَ عنه ما لا يَخْفى[٣].

- وافتُتِحَتِ الجُملةُ بحَرْفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَآ﴾؛ لاستِرعاءِ أسماعِ النَّاسِ[٤].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: إلى اللهِ، لا إلى غيرِه[٥].

- وأخبَرَ بالمضارعِ ﴿تَصِيرُ﴾، والمرادُ به الدَّيمومةُ؛ كقولِه: زيدٌ يُعطي ويَمنَعُ، أي: مِن شأنِه ذلك، ولا يُرادُ به حقيقةُ المُستقبَلِ، أي: تُرَدُّ جميعُ أمورِ الخلْقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر ان السابقان)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٥٦).

إليه تعالى يومَ القيامةِ فيَقضي بيْنَهم بالعدلِ. وخُصَّ ذلك بيومِ القِيامةِ؛ لأنَّه لا يُمكِنُ لأحدٍ أنْ يَدَّعيَ فيه لِنَفْسِه شيئًا[١].

- وفي تَنْهيةِ هذِه السُّورةِ الجَليلةِ بهذه الآيةِ العَظيمةِ مُحسِّنُ حُسنِ الخِتامِ[٢].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الحادي والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ الثَّاني والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الزُّخْرُفِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٦).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ فُصِّلَت ١٣
أسماءُ السُّورةِ ١٣
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ١٣
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ١٤
مَوضوعاتُ السُّورةِ ١٤
الآيات (١-٨) ١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١٦
مُشكِلُ الإعرابِ ١٧
المعنى الإجماليُّ ١٨
تَفسيرُ الآياتِ ١٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩
بلاغةُ الآياتِ ٣٦
الآيات (٩-١٢) ٥١
غَريبُ الكَلِماتِ ٥١
مُشكِلُ الإعرابِ ٥٢
المعنى الإجماليُّ ٥٣
تَفسيرُ الآياتِ ٥٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٤

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٤
بلاغةُ الآياتِ ٧٣
الآيات (١٣-١٨) ٨١
غَريبُ الكَلِماتِ ٨١
المعنى الإجماليُّ ٨٢
تَفسيرُ الآياتِ ٨٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٩٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٩٤
بلاغةُ الآياتِ ١٠٢
الآيات (١٩-٢٤) ١١٥
غَريبُ الكَلِماتِ ١١٥
المعنى الإجماليُّ ١١٦
تَفسيرُ الآياتِ ١١٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٢٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٢٨
بلاغةُ الآياتِ ١٣٠
الآيات (٢٥-٢٩) ١٤٠
غَريبُ الكَلِماتِ ١٤٠
المعنى الإجماليُّ ١٤١
تَفسيرُ الآياتِ ١٤٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥٤

بلاغةُ الآياتِ ١٥٧
الآيات (٣٠-٣٦) ١٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ ١٦٥
مُشكِلُ الإعرابِ ١٦٦
المعنى الإجماليُّ ١٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٨٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٨٩
بلاغةُ الآياتِ ١٩٤
الآيات (٣٧-٣٩) ٢١٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢١٣
المعنى الإجماليُّ ٢١٤
تَفسيرُ الآياتِ ٢١٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٢١
بلاغةُ الآياتِ ٢٢٣
الآيات (٤٠-٤٦) ٢٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٢٩
المعنى الإجماليُّ ٢٣٠
تَفسيرُ الآياتِ ٢٣١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٤٩

بلاغةُ الآياتِ ٢٥٦
الآيات (٤٧-٥١) ٢٧٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٧٥
المعنى الإجماليُّ ٢٧٧
تَفسيرُ الآياتِ ٢٧٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٨٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩٠
بلاغةُ الآياتِ ٢٩٢
الآيات (٥٢-٥٤) ٣٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٠٣
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٠٣
المعنى الإجماليُّ ٣٠٤
تَفسيرُ الآياتِ ٣٠٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣١١
بلاغةُ الآياتِ ٣١٣
سورة الشُّورى ٣٢٥
أسماءُ السُّورةِ ٣٢٥
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٣٢٥
مَقاصِدُ السُّورةِ ٣٢٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٣٢٦
الآيات (١-٦) ٣٢٨

غَريبُ الكَلِماتِ ٣٢٨
المعنى الإجماليُّ ٣٢٨
تَفسيرُ الآياتِ ٣٢٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٣٥
بلاغةُ الآياتِ ٣٤١
الآيات (٧-٩) ٣٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٥٢
المعنى الإجماليُّ ٣٥٣
تَفسيرُ الآياتِ ٣٥٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٦١
بلاغةُ الآياتِ ٣٦٣
الآيات (١٠-١٢) ٣٧١
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٧١
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٧٢
المعنى الإجماليُّ ٣٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ٣٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٨٤
بلاغةُ الآياتِ ٣٨٨
الآيات (١٣-١٥) ٣٩٦

غَريبُ الكَلِماتِ ٣٩٦
المعنى الإجماليُّ ٣٩٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٩٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤١٥
بلاغةُ الآياتِ ٤٢٠
الآيات (١٦-١٨) ٤٣٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٣٥
المعنى الإجماليُّ ٤٣٦
تَفسيرُ الآياتِ ٤٣٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٤١
بلاغةُ الآياتِ ٤٤٤
الآيات (١٩-٢٤) ٤٥١
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٥١
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٥٣
المعنى الإجماليُّ ٤٥٤
تَفسيرُ الآياتِ ٤٥٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٧٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٧٢
بلاغةُ الآياتِ ٤٨٣
الآيات (٢٥-٢٨) ٤٩٧

غَريبُ الكَلِماتِ ٤٩٧
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٩٨
المعنى الإجماليُّ ٤٩٩
تَفسيرُ الآياتِ ٤٩٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥١١
بلاغةُ الآياتِ ٥١٣
الآيات (٢٩-٣٥) ٥٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٢٢
مُشكِلُ الإعرابِ ٥٢٣
المعنى الإجماليُّ ٥٢٥
تَفسيرُ الآياتِ ٥٢٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٣٦
بلاغةُ الآياتِ ٥٤٠
الآيات (٣٦-٤٣) ٥٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٤٨
المعنى الإجماليُّ ٥٤٩
تَفسيرُ الآياتِ ٥٥٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٦٤
بلاغةُ الآياتِ ٥٧٢

الآيات (٤٤-٤٦) ٥٨٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٨٥
المعنى الإجماليُّ ٥٨٥
تَفسيرُ الآياتِ ٥٨٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٩١
بلاغةُ الآياتِ ٥٩٣
الآيات (٤٧-٥٠) ٦٠٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٠٠
المعنى الإجماليُّ ٦٠١
تَفسيرُ الآياتِ ٦٠٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦١١
بلاغةُ الآياتِ ٦١٣
الآيات (٥١-٥٣) ٦٢٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٢٧
مُشكِلُ الإعرابِ ٦٢٧
المعنى الإجماليُّ ٦٢٩
تَفسيرُ الآياتِ ٦٢٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٣٦
بلاغةُ الآياتِ ٦٤٢

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الزخرف و سورة الدخان

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر، قطاع

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثاني والثلاثون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الزخرف وسورة الدخان)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثاني والثلاثون - سورة الزخرف وسورة الدخان/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٤٦٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٤-٩٨-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- سورة الزخرف- تفسير ٢- القرآن- سورة الدخان - تفسير

أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/١٣٤٦

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١٣٤٦

ردمك: ٤-٩٨-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الزخرف وسورة الدخان)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثاني والثلاثون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ
سُورَةِ الزُّخرُفِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الزُّخرُفِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الزُّخرُفِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الزُّخرُفِ مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الزُّخرُفِ:

١- إقامةُ البَراهينِ على وَحدانيَّةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ[٤].

٢- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا لَحِقَه مِن أذَى المُشرِكينَ[٥].

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ الزُّخرُفِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخْرُفًا﴾ [الزخرف: ٣٤، ٣٥]، فكَلِمةُ (زُخرُف) وقَعَت فيها، ولم تقَعْ في غيرِها مِن سُوَرِ القرآنِ، فعَرَّفوها بهذه الكَلِمةِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٧).

(٢) وقيل: إلَّا قَولَه تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥]؛ فإنَّه مدنيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٥).

(٣) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٥٧). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢١).

(٥) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٥٧). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي تَناوَلَتْها سُورةُ الزُّخرُفِ:

١- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ.

٢- تسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا لَحِقَه مِن قَومِه.

٣- بيانُ جانبٍ مِن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وبَعضِ نِعَمِه على خَلْقِه.

٤- عَرضُ بَعضِ افتراءاتِ المُشرِكينَ وأقوالِهم الفاسِدةِ، مع الرَّدِّ عليها وتَفنيدِها، وبيانِ سُوءِ عاقِبتِهم في الدُّنيا والآخرةِ.

٥- ذِكرُ جانبٍ مِن دَعوةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لِقَومِه، وجانِبٍ مِن قِصَّةِ موسى وعيسى عليهما السَّلامُ، ومَوقِفِ المُشرِكينَ مِن عيسى عليه السَّلامُ.

٦- بِشارةُ المؤمِنينَ بالجنَّةِ والنَّعيمِ المقيمِ، وبَيانُ عِقابِ المُجرِمينَ في جهنمَ وتَمنِّيهم الموتَ.

٧- تَوجيهاتٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، مع ذِكرِ بَعضِ أدِلَّةِ وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى.

(١/ ٤٢١).

الآيات (١-٨)

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ ۝٥ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي: أصلِ الكِتابِ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ، وأُمُّ كلِّ شَيءٍ أصلُه[1].

﴿أَفَنَضۡرِبُ﴾: أي: نُمسِكُ ونَترُكُ، يُقالُ: ضَرَبتُ عنه وأضرَبتُ عنه، أي: تَركتُه وأمسكتُ عنه، وأصلُ الضَّرْبِ: إيقاعُ شَيءٍ على شَيءٍ[2].

﴿صَفۡحًا﴾: أي: إعراضًا، يُقالُ: صَفَحتُ عن فُلانٍ: إذا أعرَضتَ عنه،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٤).

قال الهَرَوي: (والأصلُ في ذلك -ضَرَبتُ عنه الذِّكرَ-: أنَّ الرَّاكِبَ إذا رَكِبَ دابَّةً فأراد أن يَصرِفَه عن جِهتِه ضَرَبه بعصاه؛ لِيَعدِلَه عن جِهتِه إلى الجِهةِ الَّتي يريدُها؛ فوُضِعَ الضَّربُ مَوضِعَ الصَّرفِ والعَدلِ). ((الغريبين في القرآن والحديث)) (٤/ ١١١٩). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٢/ ١٥).

وقال البِقاعي: (الحاصِلُ أنَّ الضَّربَ إيقاعُ شَيءٍ على آخَرَ بقُوَّةٍ، فمُجَرَّدُه مُتعَدٍّ إلى واحدٍ، فإنْ عُدِّيَ إلى آخَرَ بـ«عن» ضُمِّنَ معنى الصَّرفِ، وإذا زِيدَت همزةُ النَّقلِ فقيل: أضرَبْتُ عنه، أفادَت الهَمزةُ قَصْرَ الفِعلِ، وأفهَمَت إزالةَ الضَّربِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٨٣).

والأصلُ في ذلك أنَّك مُوَلِّيه صَفْحةَ عُنُقِك، وأصلُ (صفح): يدُلُّ على عَرضِ الشَّيءِ وجانبِه[١].

﴿بَطْشًا﴾: أي: قُوَّةً، والبَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبةٍ[٢].

﴿مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: ذِكرُ حالِهم، ووصْفُ عِقابِهم، وكيفيَّةُ إهلاكِهم، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾

قَولُه: ﴿صَفْحًا﴾: في نَصبِه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّه مَفعولٌ مُطلَقٌ نائبٌ عن المَصدرِ، فهو مُلاقيه في المَعنى؛ فالضَّربُ هنا بمعنى الصَّفحِ، فكأنَّه قال: أنترُكُ تَذكيرَكم إعراضًا عنكم. كما يُقالُ: هو يَدَعُه تَركًا؛ لأنَّ معنى يَدَعُه: يَتركُه. الثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ مِن الفاعِلِ، أي: صافِحِينَ، كما تقولُ: جاء زيدٌ مَشْيًا، أي: ماشِيًا. الثَّالِثُ: أن يكونَ مَفعولًا مِن أجْلِه، أي: أفنَضرِبُ عنكم الذِّكرَ ونَرفَعُه صفحًا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٦/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٧٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥٤).
قال الشنقيطي: (وقولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: صِفتُهم الَّتي هي إهلاكُهم المُستأصلُ بسببِ تكذيبِهم الرُّسُلَ. وقولُ مَن قال: ﴿مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: عقوبتُهم وسُنَّتُهم- راجعٌ في المعنى إلى ذلك). ((أضواء البيان)) (٧/ ٨٣).

وإعراضًا عنكم. الرَّابعُ: أن يكونَ مَنصوبًا على الظَّرفِ، بمعنى: أفنُنَحِّيه عنكم جانِبًا. والصَّفحُ على ذلك بمعنى الجانِبِ، مِن قَولِهم: نَظَرَ إليه بصَفْحِ وَجهِه، أي: بجانِبِ وَجهِه.

والمصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ في مَحَلِّ نَصبٍ على نَزعِ الخافِضِ (اللَّام)، أو في محَلِّ جرٍّ بحَرفِ جَرٍّ مَحذوفٍ مُتعَلِّقٍ بـ (نَضرِبُ)، أي: أفنَضرِبُ... لِأَنْ كُنتُم[1].

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: ﴿حمٓ﴾، وهما مِن الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي تأتي لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ، ثمَّ أقسَمَ اللهُ تعالى بالكِتابِ المُبينِ لِكُلِّ شَيءٍ على أنَّه جَعَل هذا الكِتابَ قُرآنًا عَربيًّا؛ لعَلَّ العِبادَ يَفهَمونَ مَعانيَه ويَتدَبَّرونَه، وأنَّ هذا القُرآنَ في اللَّوحِ المحفوظِ عِندَه تعالى، ذو عُلُوٍّ وذُو حِكمةٍ وإحكامٍ، فلا لَبسَ فيه ولا زَيغَ.

ثمَّ قال تعالى مُنكِرًا على المُشرِكينَ: أفنَترُكُ إنزالَ القُرآنِ إعراضًا عنكم؛ لِأَنْ كنتُم -أيُّها المُشرِكونَ- قَومًا مُسرِفينَ على أنفُسِكم في الكُفرِ والعِصيانِ؟!

ثمَّ يقولُ الله تعالى مسلِّيًا لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم في تكذيبِ مَن كَذَّبه: وما أكثَرَ الأنبياءَ الَّذين أرسَلَهم اللهُ تعالى في الأُمَمِ السَّابِقةِ، فما أتاهم نبيٌّ إلَّا استَهزَؤوا به! فأهلَكْناهم وقد كانوا أشَدَّ قُوَّةً مِن كُفَّارِ قَومِك -يا محَمَّدُ-؛ فلن نَعجِزَ كذلك عن إهلاكِهم إنِ استَمَرُّوا على كُفرِهم واستِهزائِهم، وقد مضى مَثَلُ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٧٢)، ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (٢/ ٥٧٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٥/ ٦٤)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٤٦).

أولئك المكَذِّبينَ فهَلَكوا وصاروا عِبرةً ونَكالًا لِمَن بَعدَهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ١﴾.

هذانِ الحَرفانِ اللَّذانِ افتُتِحَت بهما هذه السُّورةُ وغيرُها مِن الحروف المقطَّعةِ الَّتي تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، معَ أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[1].

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾.

أي: أُقسِمُ بالكِتابِ المُوَضِّحِ لكُلِّ ما يَحتاجُ إليه العِبادُ[2].

﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣﴾.

أي: إنَّا جعَلْنا القُرآنَ بلِسانٍ عَربيٍّ؛ لعلَّكم تَفهَمونَ مَعانيَه وتَتدَبَّرونَه[3].

---

(١) يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سُورةِ البَقَرةِ (١/ ٦٤) مِن هذا ((التَّفسير المحرَّر)).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٣٢).

قال القرطبي: (﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: تَفهَمونَ أحكامَه ومعانيَه، فعلى هذا القَولِ يَكونُ خاصًّا للعَرَبِ دونَ العَجَمِ [أي: في توجيهِ الخِطابِ، وليس المرادُ عُمومَ البَعثةِ كما لا يخفى]. قاله ابنُ عيسى. وقال ابنُ زَيدٍ: المعنى: لعَلَّكم تتفكَّرونَ، فعلى هذا يكونُ خِطابًا عامًّا للعَرَبِ والعَجَمِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦١).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ أي: تكَلَّمْنا به عَرَبيًّا، وأنزَلْناه عربيًّا، وكذلك فسَّره السَّلَفُ، كإسحاقَ بنِ راهَوَيه، وذكره عن مُجاهِدٍ، قال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ قُلْناه عربيًّا، =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾.

أي: وإنَّ القُرآنَ في اللَّوحِ المَحفوظِ عِندَنا ذو عُلُوٍّ في محَلِّه وقَدْرِه وشَرَفِه، وذو حِكمةٍ وإحكامٍ؛ فلا يَعتَريه اختِلافٌ ولا اضطِرابٌ، وليس فيه نَقْصٌ، ولا لَبْسَ فيه ولا زَيْغَ[1].

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠].

وقال عز وجل: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ * فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ * مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ * بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ * كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١١ - ١٦].

﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أوضَحَ اللهُ تعالى عَظيمَ حالِ الكِتابِ، وجَليلَ نِعمتِه به؛ أردَفَ ذلك

= ذكره ابنُ أبي حاتم في تفسيرِه عن إسحاقَ بنِ راهَوَيه، قال: ذُكِرَ لنا عن مُجاهِدٍ وغيرِه مِن التَّابعينَ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: إنَّا قُلْناه ووصَفْناه. وذكرَه عن أحمدَ بنِ حنبلٍ عن الأشْجَعيِّ عن سُفْيانَ الثَّوْريِّ، في قَولِه ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: بَيَّنَّاه قُرآنًا عَربيًّا). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣٨٦، ٣٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٤٣، ٤٤).

بذِكرِ سَعةِ عَفوِه، وجميلِ إحسانِه إلى عبادِه، ورَحمتِهم بكتابِه، مع إسرافِهم وقَبيحِ مُرتَكَبِهم[١].

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ قِراءتانِ:

١- قراءةُ ﴿إِن﴾ بكسرِ الهمزةِ، وهي شرطيَّةٌ على معنى الاستِقبالِ، أي: إنْ تَكونوا مُسرِفينَ نَضرِبْ عنكم الذِّكرَ[٢].

٢- قراءةُ ﴿أَن﴾ بفتحِ الهمزةِ، والمعنى: بأنْ أسرَفْتُم. أو: لِأنْ أسرفْتُم[٣].

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ ﴾.

أي: أفنَترُكُ إنزالَ القُرآنِ إعراضًا عنكم، ونُهمِلُكم فلا نأمُرَكم ولا نَنهاكم؛ مِن أجْلِ أنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- قَومٌ مُعرِضونَ عن أمرِ اللهِ تعالى، مُجاوِزونَ له[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٢).

(٢) قرأ بها: نافعٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٨). ويُنظر لمعاني هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦١)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٢٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٧٤).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٨).
ويُنظر لمعاني هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦١)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٢٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٧٤).

(٤) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير =

﴿ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إسرافَهم في الإعراضِ عن الإصغاءِ لِدَعوةِ القُرآنِ؛ أعقَبَه بكَلامٍ مُوَجَّهٍ إلى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تَسليةً عَمَّا يُلاقيه منهم في خِلالِ الإعراضِ مِن الأذى والاستِهزاءِ، بتذكيرِه بأنَّ حالَه في ذلك حالُ الرُّسُلِ مِن قَبلِه، وسُنَّةُ اللهِ في الأُمَمِ- ووَعدًا للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالنَّصرِ على

= ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٤٨، ٤٩).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجُملةِ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بالذِّكْرِ قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه ذِكْرُ العَذابِ، فالمعنى: أفنُمْسِكُ عن عذابِكم ونَترُكُكم على كُفرِكم؟! وهذا معنى قَولِ ابنِ عَبَّاسٍ، ومُجاهِدٍ، والسُّدِّيِّ. والثَّاني: أنَّه القُرآنُ، فالمعنى: أفنُمْسِكُ عن إنزالِ القُرآنِ؛ مِن أجْلِ أنَّكم لا تُؤمِنونَ به؟! وهو معنى قَولِ قَتادةَ، وابنِ زَيدٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٣).

واختار ابنُ جريرٍ القَولَ الأوَّلَ، فقال: (وأَولى التَّأويلينِ في ذلك بالصَّوابِ تأويلُ من تأوَّلَه: أفنَضربُ عنكم العذابَ فنَترُكَكم ونُعرِضَ عنكم؛ لِأنْ كُنتُم قَومًا مُسرِفينَ لا تُؤمِنونَ برَبِّكم؟! وإنَّما قُلْنا ذلك أَولى التَّأويلَينِ بالآيةِ؛ لأنَّ اللهَ تبارك وتعالى أتْبَعَ ذلك خبَرَه عن الأُمَمِ السَّالِفةِ قبْلَ الأُمَّةِ الَّتي توَعَّدَها بهذه الآيةِ في تكذيبِها رُسُلَها، وما أحَلَّ بها مِن نِقمتِه؛ ففي ذلك دليلٌ على أنَّ قَولَه: ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا ﴾ وَعيدٌ منه للمُخاطَبينَ به مِن أهلِ الشِّركِ؛ إذ سَلَكوا في التَّكذيبِ بما جاءهم عن اللهِ رَسولُهم مَسلَكَ الماضِينَ قَبْلَهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٠). ويُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٢٤).

وقال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿ صَفۡحًا ﴾ ... يحتمِلُ أن يكونَ بمعنى العَفوِ والغَفْرِ للذَّنْبِ، فكأنَّه يقولُ: أفنَترُكُ تَذكيرَكم وتخويفَكم عَفوًا عنكم، وغَفْرًا لإجرامِكم؛ إذ كُنتُم أو مِن أجْلِ أن كُنتُم قومًا مُسرِفينَ؟! أي: هذا لا يَصلُحُ...؛ ويحتمِلُ قَولُه: ﴿ صَفۡحًا ﴾ أن يكونَ بمعنى: مَغفولًا عنه، أي: نَترُكُه يَمُرُّ، لا تُؤخَذونَ بقَبولِه ولا بتدَبُّرِه، ولا تُنَبَّهونَ عليه ...). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦١٨).

قَومِه، بتذكيرِه بسُنَّةِ اللهِ في الأُمَمِ المكَذِّبةِ رُسُلَهم[١].

﴿ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ٦ ﴾.

أي: وما أكثَرَ الأنبياءَ الَّذين أرسَلَهم اللهُ تعالى في الأُمَمِ الماضيةِ لِدَعوةِ أقوامِهم إلى الحَقِّ[٢].

﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٧ ﴾.

أي: وفما يأتي نَبيٌّ إلى قَومٍ إلَّا كانوا يَسخَرونَ منه[٣]!

﴿ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨ ﴾.

﴿ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا ﴾.

أي: فأهلَكْنا أولئك المُستَهزِئينَ بالرُّسُلِ، ولم يَقدِروا على الامتِناعِ مِن عَذابِ اللهِ، وقد كانوا أشَدَّ قُوَّةً مِن كُفَّارِ مَكَّةَ المُكَذِّبينَ بمُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فلن نَعجِزَ كذلك عن إهلاكِهم إنِ استَمَرُّوا على باطِلِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٦).

قال ابن جرير: (يَستَهزِئونَ سُخريةً منهم به كاستِهزاءِ قَومِك بك -يا مُحمَّدُ. يقولُ: فلا يَعْظُمَنَّ عليك ما يَفعَلُ بك قَومُك، ولا يَشُقَّنَّ عليك؛ فإنَّهم إنَّما سَلَكوا في استهزائِهم بك مَسلَكَ سُلَّافِهم، ومِنهاجَ أئمَّتِهم الماضينَ مِن أهلِ الكُفرِ باللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٢).

قال البقاعي: (﴿أَشَدَّ مِنۡهُم﴾ أي: مِن قُرَيشٍ الَّذين يَستَهزِئونَ بك ﴿بَطۡشٗا﴾ مِن جِهةِ العَدِّ =

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦].

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: ووقَعَ إهلاكُ اللهِ للأُمَمِ الماضيةِ؛ بسَبَبِ تَكذيبِهم رُسُلَهم، واستِهزائِهم بهم؛ فصاروا عِبرةً ونَكالًا لِمَن بَعدَهم، ومِثالًا يَرتَدِعُ به غَيرُهم؛ فلْيَحذَرْ كُفَّارُ هذه الأمَّةِ أن يَسيروا سِيرتَهم، ويَسلُكوا في الباطِلِ طَريقتَهم؛ فيُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ التَّأمُّلَ في القُرآنِ -وهو تَحديقُ ناظرِ القَلبِ إلى معانيه، وجَمعُ الفِكرِ على تَدَبُّرِه وتَعَقُّلِه- هو المقصودُ بإنزالِه، لا مُجرَّدَ تلاوتِه بلا فَهمٍ ولا تَدَبُّرٍ[(٢)].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الرُّسُلُ تُبَيِّنُ

= والعُدَدِ والقُوَّةِ والجَلَدِ، فما ظَنُّهم بأنفُسِهم وهم أضعَفُ منهم، إن تمادَوا في الاستِهزاءِ برَسولِ اللهِ الأعلى؟!). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٩).

للنَّاسِ ما أُنزِلَ إليهم مِن رَبِّهم، وعليهم أن يُبَلِّغوا النَّاسَ البلاغَ المُبينَ، والمطلوبُ مِن النَّاسِ أن يَعقِلوا ما بَلَّغه الرُّسُلُ، والعَقلُ يتضَمَّنُ العِلمَ والعَمَلَ؛ فمَن عَرَف الخيرَ والشَّرَّ فلم يتَّبِعِ الخيرَ ويَحذَرِ الشَّرَّ لم يكُنْ عاقِلًا؛ ولهذا لا يُعَدُّ عاقِلًا إلَّا مَن فَعَل ما يَنفَعُه، واجتَنَب ما يَضُرُّه، فالمجنونُ الَّذي لا يُفَرِّقُ بيْنَ هذا وهذا قد يُلقي نَفْسَه في المهالِكِ، وقد يَفِرُّ مِمَّا يَنفَعُه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أنَّ القرآنَ عليٌّ، وهذا يدُلُّ على أنَّ مَن تمسَّكَ بهذا القرآنِ فله العُلُوُّ، كقوله سُبحانَه وتعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، وشاهدُ هذا الواقعُ: فلَمَّا كانتِ الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ متمسِّكةً بالإسلامِ كان لها العُلُوُّ والظُّهورُ، وملَكتْ به مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إطلاقُ اسمِ الكِتابِ على القُرآنِ، باعتِبارِ أنَّ اللهَ أنزَلَه لِيُكتَبَ، وأنَّ الأُمَّةَ مأمورون بكتابتِه، وإن كان نُزولُه على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لفظًا غيرَ مَكتوبٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّه سيُكتَبُ في المصاحِفِ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أقسَمَ بالكِتابِ المُبينِ، وأطلَقَ ولم يَذكُرِ المُتعلَّقَ؛ لِيَدُلَّ على أنَّه مُبينٌ لكُلِّ ما يَحتاجُ إليه العِبادُ مِن أُمورِ الدُّنيا والدِّينِ والآخِرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢). =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ أنَّ كَوْنَ القُرآنِ باللُّغةِ العرَبيَّةِ مَنقَبةٌ كُبرى للعَرَبِ؛ حيثُ نَزَلَ بلُغَتِهم[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ العَقلُ هنا بمعنى الفَهمِ، ففيه أنَّ الحُجَّةَ لا تكونُ إلَّا بالفَهمِ، فمَن بَلَغَه القُرآنُ بغيرِ اللُّغةِ العربيَّةِ ولم يَفْهَمْ منه شَيئًا؛ فلا تَقومُ عليه الحُجَّةُ، ومَن بَلَغَه باللُّغةِ العربيَّةِ وهو لا يَفهَمُها؛ فإنَّها لا تَقومُ عليه الحُجَّةُ، ويدُلُّ لهذا قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]، فالحُجَّةُ لا تقومُ على العِبَادِ إلَّا بفَهمِها ومَعرِفةِ معناها[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فيه سُؤالٌ: إن قيل: الجَعلُ هو الخَلقُ، فلِمَ لَمْ يَقُلْ: (قُلْناه) أو (أنزَلْناه)؟

الجوابُ: الجَعلُ يأتي بمعنى القَولِ أيضًا، كقَولِه تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ ﴾ [النحل: ٥٧]، وقَولِه: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾[٣] [إبراهيم: ٣٠].

وأيضًا فإنَّ (جعَلَ) إذا كان بمعنى (خلَقَ) يَتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]، وقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠، ٣١]. وإذا تعدَّى إلى مَفعولَينِ لم يكُنْ بمعنى خلَقَ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ [البقرة:

= والقاعدةُ: أنَّ حذفَ المتعلَّقِ يفيدُ العُمومَ النِّسْبيَّ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٥٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩، ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١١، ٥١٢).

٢٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، ونظائرُه كثيرةٌ. فكذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[(١)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ دَلالةٌ على وُجوبِ فَهمِ القرآنِ على ما يقتَضيه ظاهِرُه باللِّسانِ العَربيِّ؛ إلَّا أنْ يَمنَعَ منه دَليلٌ شَرعيٌّ[(٢)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إنعامُ اللهِ على عبادِه؛ لأنَّ اللِّسانَ العَربيَّ أكمَلُ الألسِنةِ، وأحسَنُها بيانًا للمَعاني؛ فنُزولُ الكتابِ به أعظَمُ نعمةً على الخَلقِ مِن نُزولِه بغيرِه، وهو إنَّما خُوطِبَ به أوَّلًا العَرَبُ؛ لِيَفهَموه، ثمَّ مَن يَعلَمُ لُغَتَهم يَفهَمُه كما فَهِمُوه، ثمَّ مَن لم يَعلَمْ لُغتَهم تَرجَمَه له مَن عَرَفَ لُغتَهم، وكان إقامةُ الحُجَّةِ به على العَرَبِ أوَّلًا، والإنعامُ به عليهم أوَّلًا؛ لِمَعرفتِهم بمعانيه قبْلَ أن يَعرِفَه غَيرُهم[(٣)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾ عنايةُ اللهِ تبارك وتعالى بهذا القُرآنِ، وهذا يدُلُّ على شَرَفِه؛ حيثُ جَعَله عندَه في أُمِّ الكِتابِ[(٤)].

٩- سُئِلَ عَطاءُ بنُ أبي رَباحٍ عن القَدَرِ، فتلا قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ

(١) يُنظر: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٩٥). ويُنظر أيضًا: ((الموافقات)) للشاطبي (٢/ ١٠١-١٠٤) و(٤/ ٢٦٦)، ((الاعتصام)) للشاطبي (٢/ ٤٧ - ٥٢).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيميَّة (٢/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٤٥).

ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾، وقال: (هو الكِتابُ الَّذي كتَبَه قبْلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ، وفيه أنَّ فِرعَونَ مِن أهلِ النَّارِ، وفيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد: ١])[١].

١٠- قولُه: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ فيه إشعارٌ باقتِضاءِ الحِكمةِ تَوَجُّهَ الذِّكرِ إليهم ومُلازَمَتَه لهم كأنَّه يَتَهافَتُ عليهم[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أنَّ اللهَ تعالى أقام الحُجَّةَ على جميعِ الخَلقِ، ويُؤيِّدُ هذا قَولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[٣] [فاطر: ٢٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ بيانُ شدَّةِ صبرِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيثُ إنَّهم يُستهزَأُ بهم؛ وهم صابِرونَ حتَّى يأتيَ أمْرُ اللهِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

- في قَولِه: ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ في جَعْلِ المُقسَمِ به القُرآنَ بوَصْفِ كَونِه مُبينًا، وجَعْلِ جَوابِ القَسَمِ أنَّ اللهَ جَعَله مُبينًا؛ تَنويهٌ خاصٌّ بالقُرآنِ؛ إذ جَعَل سُبحانَه المُقسَمَ به هو المُقسَمَ

(١) يُنظر: ((سنن الترمذي)) (٢١٥٥)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٢) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٨).

عليه، وهذا ضَربٌ عَزيزٌ بَديعٌ؛ لأنَّه يُومِئُ إلى أنَّ المُقسَمَ على شَأنِه بَلَغ غايةَ الشَّرفِ؛ فإذا أراد المُقسِمُ أن يُقسِمَ على ثُبوتِ شَرَفٍ له، لم يَجِدْ ما هو أَولَى بالقَسَمِ به؛ للتَّناسُبِ بيْنَ القَسَمِ والمُقسَمِ عليه(١).

- وأقسَمَ سبُحانه بالكِتابِ المُبينِ -وهو القُرآنُ- على أنَّ القُرآنَ جَعَله اللهُ عربيًّا واضِحَ الدَّلالةِ؛ فهو حَقيقٌ بأنْ يُصَدِّقوا به لو كانوا غَيرَ مُكابِرينَ، ولَكِنَّهم بمُكابَرَتِهم كانوا كمَن لا يَعقِلون. وفي القَسَمِ بالقُرآنِ تَنويهٌ بشَأنِه، وهو تَوكيدٌ لِمَا تَضَمَّنه جَوابُ القَسَمِ؛ إذ ليس القَسَمُ هنا برافِعٍ لتَكذيبِ المُنكرِينَ؛ إذ لا يُصَدِّقون بأنَّ المُقسِمَ هو اللهُ تعالى؛ فإنَّ المُخاطَبَ بالقَسَمِ هم المُنكِرونَ؛ بدَليلِ قولِه: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وتَفريعِ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ [الزخرف: ٥] عليه(٢).

- وتَوكيدُ الجوابِ بـ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ زِيادةُ تَوكيدٍ للخبرِ أنَّ القُرآنَ مِن جَعْلِ اللهِ تعالَى(٣).

- والإخبارُ عن الكِتابِ بأنَّه قُرآنٌ مُبالَغةٌ في كَونِ هذا الكتابِ مَقروءًا، أي: مُيَسَّرًا لأَنْ يُقرَأَ؛ لقَولِه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]؛ فحَصَل بهذا الوَصفِ أنَّ الكتابَ المُنَزَّلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جامِعٌ لوَصفَينِ: كَونُه كتابًا، وكَونُه مَقروءًا على أَلْسِنةِ الأُمَّةِ، وهذا ممَّا اختُصَّ به

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦١، ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٩).

كِتابُ الإسلامِ[١].

- والمَقصودُ بوَصفِ الكِتابِ بأنَّه عربيٌّ غَرَضانِ؛ أَحَدُهُما: التَّنويهُ بالقُرآنِ، ومَدحُه بأنَّه مَنسوجٌ على مِنوالِ أَفصَحِ لُغَةٍ. وثانيهما: التَّورُّكُ على المعانِدينَ مِن العَرَبِ حينَ لم يَتأثَّروا بمَعانيه؛ بأنَّهم كمَنْ يَسمَعُ كلامًا بلُغَةٍ غيرِ لُغَتِه، وهذا تَأْكيدٌ لِمَا تَضمَّنَه الحَرفانِ المُقَطَّعانِ المُفتَتَحةُ بهما السُّورةُ مِن معنى التَّحَدِّي؛ بأنَّ هذا كِتابٌ بلُغَتِكُم، وقد عَجَزْتُم عن الإتيانِ بمِثلِه[٢].

- وفي ابتداءِ جُملةِ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ بحَرفِ (لَعلَّ) تَعريضٌ بأنَّهم أهمَلوا التَّدبُّرَ في هذا الكِتابِ، وأنَّ كَمالَه في البيانِ والإفصاحِ يَستَأْهِلُ العِنايةَ به لا الإعراضَ عنه؛ فقولُه: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مُشعِرٌ بأنَّهم لم يَعقِلوا، والمعنى: أنَّا يَسَّرْنا فَهْمَه عليكم لَعلَّكم تَعقِلون، فأعرَضْتُم ولم تَعقِلوا مَعانِيَه؛ لأنَّه قد نَزَل مِقدارٌ عَظيمٌ لو تَدَبَّروه لَعَقَلوا؛ فهذا الخَبَرُ مُستَعمَلٌ في التَّعريضِ على طَريقةِ الكِنايةِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ هذه الجُملةُ إمَّا عَطْفٌ على جُملَةِ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] داخِلةٌ في حُكمِها؛ ففي الإقسامِ بالقُرآنِ على عُلُوِّ قَدرِه عِندَهُ تعالَى بَراعةٌ بَديعةٌ، وإيذانٌ بأنَّه مِن عُلُوِّ الشَّأنِ بحيثُ لا يَحتاجُ في بَيانِه إلى الاستِشهادِ عليهِ بالإقسامِ بغَيرِهِ؛ بل هُو بذاتِه كافٍ في الشَّهادةِ على ذلك مِن حَيثُ الإقسامُ به، كَما أنَّه كافٍ فيها مِن حيثُ إعجازُه، ورَمْزٌ إلى أنَّه لا يَخطِرُ بالبالِ عندَ ذِكرِه شَيءٌ آخَرُ أَولى منه بالإقسامِ به. وإمَّا أنْ تكونَ مُستأنَفةً مُقرِّرةً لعُلُوِّ شأنِه الَّذي أَنبأَ عنه الإقسامُ به، على مِنهاجِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٦١، ١٦٢).

الاعتِراضِ في قَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[(١)] [الواقعة: ٧٦].

- وتَأْكيدُ الكَلامِ بـ (إنَّ) لِرَدِّ إنكارِ المُخاطَبينَ؛ إذ كَذَّبوا أنْ يكونَ القُرآنُ مُوحًى به مِن اللهِ سُبحانه[(٢)].

- وقولُه: ﴿لَدَيۡنَا﴾ ظرْفٌ مُستقَرٌّ[(٣)] هو حالٌ مِن ضَميرِ (إنَّه)، أو مِن ﴿أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، والمَقصودُ: زِيادةُ تَحقيقِ الخَبَرِ، وتَشريفُ المُخبَرِ عنه[(٤)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ﴾ لَمَّا استَهزَؤوا بكِتابِ الله، واستَخَفُّوا به لِيَدفَعُوه عن أنفُسِهم عِنادًا؛ فوَصَفَ الكتابَ أوَّلًا بقَولِه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، وثانيًا بقَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، عقَّب ذلك كلَّه مُنكِرًا عليهم بقَولِه: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ﴾ الآيةَ؛ يعني: أنَّه في عالَمِ الشَّهادةِ عَرَبيٌّ فَصيحٌ بَليغٌ، عَجَزَ عن الإتيانِ بمِثلِه الجِنُّ والإنسُ، مُحتَوٍ على أسرارٍ ومَعانٍ إذا تفكَّر فيها أُولُو الألبابِ حَصَلوا على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٢).

(٣) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّيَ ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لَغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولُك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِفَ الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زَيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٢، ١٦٣).

البَحرِ الخِضَمِّ وكُنوزِ الحِكَمِ، وأنَّه في عالَمِ الغَيبِ لَدى المَلِكِ ذي الجَبَروتِ عَلِيُّ المَرتَبةِ رَفيعُ الشَّأنِ؛ فإذا كان كذلك وجَبَ أنْ يُشَرَّفَ قَدرُه، ويُعَظَّمَ شَأنُه، ويَتغَلغَلَ صِيتُه في كلِّ مَدَرٍ ووَبَرٍ، أفبِسَبَبِكُم نَترُكُه مُهمَلًا ونَضرِبُ عنكم ذِكرَه صَفحًا؟! كلَّا[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿ أَفَنَضۡرِبُ ﴾ إنكارِيٌّ، أي: لا يَجوزُ أنْ نَضرِبَ عنكمُ الذِّكرَ صَفحًا مِن جرَّاءِ إسرافِكُم[٢].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿ أَفَنَضۡرِبُ ﴾ للعَطفِ على مَحذوفٍ، تَقديرُه: أَنُهمِلُكم فنَضرِبَ عنكم الذِّكرَ؛ إنكارًا لأَنْ يَكونَ الأمرُ على خِلافِ ما قَدَّم مِن إنزالِه الكِتابَ وجَعْلِه قُرآنًا عربيًّا؛ لِيَعقِلوه ويَعمَلوا بمُوجَبِه[٣].

وقيل: الفاءُ لتَفريعِ الاستِفهامِ الإنكارِيِّ على جُملةِ ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣]، أي: أَتَحسَبون أنَّ إعراضَكُم عمَّا نَزَل مِن هذا الكِتابِ يَبعَثُنا على أنْ نَقطَعَ عنكم تَجَدُّدَ التَّذكيرِ بإنزالِ شَيءٍ آخَرَ مِن القُرآنِ؟! فلمَّا أُريدَت إعادةُ تَذكيرِهم -وكانوا قد قُدِّمَ إليهم مِن التَّذكيرِ ما فيه هَدْيُهم لو تَأَمَّلوا وتَدَبَّروا، وكانت إعادةُ التَّذكيرِ لهم مَوسومةً في نَظَرِهم بقِلَّةِ الجَدوَى- بَيَّنَ لهم أنَّ استِمرارَ إعراضِهم لا يكونُ سببًا في قَطعِ الإرشادِ عنهم؛ لأنَّ اللهَ رحيمٌ بهم، مُريدٌ لصَلاحِهم، لا يَصُدُّه إسرافُهم في الإنكارِ عن زِيادةِ التَّقدُّمِ إليهم بالمَواعِظِ والهَدي[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٣).

- وقولُه: ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ مُظهَرٌ وُضِعَ مَقامَ المُضمَرِ مِن غَيرِ لَفظِه السَّابِقِ -فقولُه: ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ في معنَى الذِّكرِ-؛ إشعارًا بالعِلِّيَّةِ[١].

- قَولُه: ﴿أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ﴾ هو في الحَقيقةِ عِلَّةٌ مُقتَضِيةٌ لِتَركِ الإعراضِ عنهم؛ لأنَّهم كانوا مُنهَمِكينَ في الإسرافِ مُصِرِّينَ عليه، والمعنى: إنَّ حالَكُم وإنِ اقتَضَى تَخلِيَتَكُم وشَأنَكُم حتَّى تَموتُوا على الكُفرِ والضَّلالةِ، وتَبقَوا في العَذابِ الخالِدِ، لَكِنَّا -لِسَعةِ رَحمَتِنا- لا نَفعَلُ ذلك، ولا نَترُكُ تَذكيرَكُم بسَبَبِ كَونِكم مُسرِفينَ، بلْ لا نَزالُ نُعيدُ التَّذكيرَ رحمةً بكم، ونَهدِيكُم إلى الحقِّ بإرسالِ الرَّسولِ الأمينِ، وإنزالِ الكِتابِ المُبينِ[٢].

- وعلى قِراءةِ: ﴿إِن كُنتُمۡ﴾، إنْ قيل: كيفَ استَقام معنى (إنِ) الشَّرطِيَّةِ المُفيدَةِ للشَّكِّ، وقد كانوا في الحَقيقةِ مُسرِفينَ على البَتِّ. قيل: هو مِن الشَّرطِ الَّذي يَصدُرُ عن المُدِلِّ بصِحَّةِ الأَمرِ، المُتَحَقِّقِ لثُبوتِه، وفي هذا استِجهالٌ لهم في أنَّهم مع مَعرِفَتِهم أنَّ القُرآنَ عربيٌّ مُبينٌ، وقد أبان طُرُقَ الهُدَى مِن طُرُقِ الضَّلالةِ، وأبانَ ما تَحتاجُ إليه الأُمَّةُ في أبوابِ الدِّيانةِ؛ فرَّطوا فيه مِثلَ تَفريطِ مَن لم يَعرِفْ ذلك وشكَّ فيه[٣].

وقيل: الإتيانُ بـ (إن) في قولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ﴾ لقصدِ تنزيلِ المخاطبينَ المعلومِ إسرافُهم منزلةَ مَن يشكُّ في إسرافِه؛ لأنَّ توفُّرَ الأدلَّةِ على

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٤).

صدقِ القرآنِ مِن شأنِه أنْ يُزيلَ إسرافَهم، وفي هذا ثقةٌ بحقيةِ القرآنِ، وضربٌ مِن التوبيخِ على إمعانِهم في الإعراضِ عنه[١].

- وأيضًا على قِراءةِ ﴿إِن كُنتُمْ﴾ فالجزاءُ -أي: جوابُ الشَّرْطِ- محذوفٌ؛ ثِقةً بدَلالةِ ما قبْلَه عليه[٢].

- وإقحامُ ﴿قَوْمًا﴾ قبْلَ ﴿مُّسْرِفِينَ﴾؛ للدَّلالَةِ على أنَّ هذا الإسرافَ صارَ طَبعًا لهم، وبه قِوامُ قَوميَّتِهم[٣].

- والمرادُ بالمُسرِفينَ: المُستهزِئون بآياتِ اللهِ وكِتابِه؛ لقَولِه بعدَه: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ فإنَّه تَهديدٌ مُرَتَّبٌ عليه[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ كلامٌ مُوَجَّهٌ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَسلِيةً عمَّا يُلاقِيه مِن الأذَى والاستِهزاءِ، ووَعدٌ له بالنَّصرِ على قَومِه، وجَعَل للتَّسليةِ المَقامَ الأوَّلَ مِن هذا الكَلامِ بقَرينةِ العَدلِ عن ضَميرِ الخِطابِ إلى ضَميرِ الغَيبةِ في قَولِه: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم﴾، ويَتضَمَّنُ ذلك تَعريضًا بزَجرِهم عن إسرافِهم في الإعراضِ عن النَّظَرِ في القُرآنِ[٥]. وأيضًا فقولُه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم ...﴾ إلى آخِرِ الآياتِ، تقريرٌ لِمَا قَبْلَه ببَيانِ أنَّ إسرافَ الأُمَمِ السَّالِفةِ لم يَمْنَعْهُ تعالى مِن إرسالِ الأنبياءِ إليهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠).

- قولُه: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ (كم) اسمٌ دالٌّ على عَددٍ كَثيرٍ مُبهَمٍ، والدَّاعي إلى اجتِلابِ اسمِ العَدَدِ الكَثيرِ (كم): أنَّ كَثرةَ وُقوعِ هذا الحُكمِ أَدخَلُ في زَجرِهم عن مِثلِه، وأَدخَلُ في تَسلِيةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَحصيلِ صَبرِه؛ لأنَّ كَثرةَ وُقوعِه تُؤذِنُ بأنَّه سُنَّةٌ لا تَتخلَّفُ، وذلك أزجَرُ وأَسلَى[(١)].

- وجُملةُ ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ تَفريعٌ وتَسَبُّبٌ عن جُملةِ ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وضَميرُ ﴿أَشَدَّ مِنۡهُم﴾ عائِدٌ إلى ﴿قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾ الَّذين تقدَّم خِطابُهم؛ فعَدَل عن استِرسالِ خِطابِهم إلى تَوجيهِه إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ الغَرَضَ الأهَمَّ مِن هذا الكلامِ هو تَسلِيةُ الرَّسولِ ووَعْدُه بالنَّصرِ، ويَستَتبِعُ ذلك التَّعريضَ بالَّذين كذَّبوه؛ فإنَّهُم يَبلُغُهم هذا الكَلامُ، وكان سُبحانه مُقبلًا عليهم بالخِطابِ في قَولِه: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ﴾، فأَعرَضَ عنهُم إلى إخبارِ الغائِبِ في قَولِه: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾، وتَغييرُ أُسلوبِ الإضمارِ تَبعًا لتَغييرِ المُواجَهةِ بالكَلامِ لا يُنافي اعتِبارَ الالْتِفاتِ في الضَّميرِ[(٢)]، ولا تَفوتُ النُّكتةُ الَّتي تَحصُلُ مِن الالْتِفاتِ، وهي تَجديدُ نَشاطِ السَّامِعِ، بل تَزدادُ قوَّةً بازدِيادِ مُقتَضَياتِها[(٣)].

- وفي قَولِه: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ وصَفَهم بأَشَدِّيَّةِ البَطشِ؛ لإثباتِ حُكمِهم لِهَؤلاءِ بطَريقِ الأولَوِيَّةِ، وانتَصَب ﴿بَطۡشٗا﴾ على التَّمييزِ لنِسبةِ الأَشَدِّيَّةِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٥).

(٢) وذلك لأنَّ مَناطَ الالْتِفاتِ هو اتِّحادُ مَرجِعِ الضَّميرَينِ مع تَأَتِّي الاقتِصارِ على طَريقةِ الإضمارِ الأُولى، وهل تَغييرُ تَوجيهِ الكَلامِ إلَّا تَقويةٌ لمُقتَضى نَقلِ الإضمارِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٦).

- والَّذين (هم أَشَدُّ بَطْشًا مِن كفَّارِ مكَّةَ): هم الَّذين عُبِّرَ عنهم بالأوَّلِينَ، ووُصِفوا بأنَّهم يَستَهزِئونَ بمَن يَأتيهِم مِن نبيٍّ، وهذا تَرتيبٌ بَديعٌ في الإيجازِ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ يَقتَضي كَلامًا مَطويًّا، تَقديرُه: فلا نَعجِزُ عن إهلاكِ هؤلاءِ المُسرِفينَ، وهم أقَلُّ بطشًا[١].

- قولُه: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سَلَفَ في القُرآنِ في غَيرِ مَوضِعٍ منه ذِكرُ قِصَّتِهم وحالِهم العَجيبةِ الَّتي حقُّها أنْ تَسيرَ مَسيرَ المَثَلِ، وهذا وَعدٌ لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووَعيدٌ لهم بمِثلِ ما جَرَى على الأوَّلينَ[٢].

- وقيل: ﴿مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: حالُهُم العَجيبةُ، ومعنى (مَضى): انقَرَض، أي: ذَهَبوا على بَكرةِ أبيهِم، فمُضِيُّ المَثَلِ كِنايةٌ عن استِئصالِهم؛ لأنَّ مُضِيَّ الأحوالِ يكونُ بمُضِيِّ أصحابِها؛ فهو في معنى قَولِه تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[٣] [الأنعام: ٤٥].

- وذِكرُ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِتَقَدُّمِ قَولِه: ﴿فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦]، ووَجْهُ إظهارِه: أن يَكونَ الإخبارُ عنهم صَريحًا وجارِيًا مَجرَى المَثَلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٩ - ١٤)

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَهْدًا﴾: أي: مَكانًا مُمَهَّدًا مُوَطَّأً، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على التَّوطئةِ للشَّيءِ وتَسهيلِه[١].

﴿سُبُلًا﴾: أي: طُرُقًا، والسَّبيلُ: الطَّريقُ الَّذي فيه سُهولةٌ، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ[٢].

﴿بِقَدَرٍ﴾: أي: بمِقْدارٍ مَعْلومٍ، بِقَدْرِ حاجَتِكم إليه، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايَتِه[٣].

﴿فَأَنشَرْنَا﴾: أي: أحْيَيْنا، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، =

﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾: أي: السُّفُنِ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ الفلكِ: الاستِدارةُ في الشَّيءِ، ولَعلَّ السُّفُنَ سُمِّيتْ فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[١].

﴿لِتَسۡتَوُۥاْ﴾: أي: لِتَسْتَعلوا وتَستَقِرُّوا مُتَمَكِّنينَ، والاستِواءُ: الارتفاعُ والعُلُوُّ على الشَّيءِ، والاستِقرارُ في العلوِّ[٢].

﴿سُبۡحَٰنَ﴾: اسْمٌ وُضِع مَوضِعَ المصدرِ، ومعناه: التَّنزيهُ والتَّقديسُ، والتَّبرئةُ للرَّبِّ -جلَّ ثناؤُه- مِن السُّوءِ والنَّقائصِ، وكلِّ ما لا يَليقُ بجلالِه، وأصلُ (سبح) هنا: جِنسٌ مِن العِبادةِ[٣].

﴿مُقۡرِنِينَ﴾: أي: مُطيقِينَ وضابِطينَ، يُقالُ: فُلانٌ مُقرِنٌ لفُلانٍ، أي: ضابِطٌ له. وأقرَنتُ كذا، أي: أطَقْتُه. وأقرَنَ له، أي: أطاقَه وقَوِيَ عليه، كأنَّه صار له قِرْنًا.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) لابن عبد البر (٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨، ٧٦٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٣١).

قال الرَّاغب: (السَّبْحُ: المَرُّ السَّريعُ في الماءِ، وفي الهواءِ... والتَّسبيحُ: تنزيهُ الله تعالى. وأصلُه: المَرُّ السَّريعُ في عبادةِ اللهِ تعالى، وجُعِل ذلك في فِعلِ الخَيرِ كما جُعِل الإبعادُ في الشَّرِّ، فقيل: أبعدَه الله، وجُعِل التَّسبيحُ عامًّا في العباداتِ؛ قولًا كان أو فِعلًا أو نِيَّةً). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٣٩٢).

وقال الشنقيطي: (أحسَنُ أوجُهِ الإعرابِ في «سُبْحانَ» أنَّه مفعولٌ مُطلَقٌ، منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ، أي: أسبِّحُ اللهَ سُبحانًا، أي: تسبيحًا). ((أضواء البيان)) (٣/ ٧).

وقيل: مُماثِلينَ في القُوَّةِ، مِن قَولِهم: هو قِرنُ فُلانٍ: إذا كان مِثلَه في القُوَّةِ، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾: أي: راجِعونَ وصائِرونَ، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا تناقُضَ المشركينَ، ومُعدِّدًا نِعَمَه سبحانَه: ولَئِنْ قُلتَ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: خَلَقهنَّ اللهُ العَزيزُ العَليمُ. وهو سُبحانَه الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مُمهَّدةً، وجَعَل لكم فيها طُرُقًا؛ لَعَلَّكم تَهتَدونَ بها، والَّذي نزَّل مِنَ السَّماءِ مَطَرًا بمِقدارٍ مُعَيَّنٍ، فأحيَيْنا به بَلدةً مُجدِبةً، كذلك يُحييكم اللهُ بعدَ مَوتِكم، والَّذي خَلَق الأصنافَ جميعَها، وجَعَل لكم ما تَركَبونَه مِن سُفُنٍ وأنعامٍ؛ لِتَستَقِرُّوا على ظُهورِ الفُلكِ والأنعامِ، ثمَّ تَذْكُروا نِعمةَ رَبِّكم إذا استَويتُم عليها، وتقولوا: تَنزَّهَ اللهُ الَّذي ذَلَّل لنا هذا، وما كنَّا بمُطيقينَ تَذليلَها ورُكوبَها، وإنَّا إلى ربِّنا لَراجِعونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذَكَر أنَّ المُشرِكينَ مُنهَمِكونَ في كُفرِهم وإعراضِهم عمَّا جاء به القُرآنُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠).

مِن توحيدِ اللهِ، والبَعثِ؛ أبان هنا أنَّ أفعالَهم تُخالِفُ أقوالَهم؛ فلَئِنْ سَألْتَهم عن الخالقِ لهذا الكَونِ مِن سمائِه وأرضِه لَيَقولُنَّ: اللهُ، وهم مع اعترافِهم به يَعبُدونَ الأوثانَ والأصنامَ[١]!

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

أي: ولَئِنْ قُلتَ للمُشرِكينَ -يا محَمَّدُ: مَنِ الَّذي خَلَق السَّمَواتِ السَّبْعَ وخَلَق الأرَضِينَ؟ لَيَقولُنَّ مِن فَورِهم: خلَقَهنَّ اللهُ وَحْدَه، العزيزُ ذو القَدْرِ العَظيمِ، القاهِرُ الغالِبُ لِكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، العليمُ الَّذي لا يخفى عليه شَيءٌ[٢].

ثمَّ دلَّ على نفْسِه بذكرِ مَصنوعاتِه، فقال[٣]:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾.

أي: الَّذي جَعَل لكم الأرضَ ثابِتةً مُمهَّدةً، تتمَكَّنونَ فيها ممَّا تُريدونَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٨، ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٠-٦٢).

قال الواحدي: (هذا إخبارٌ عن غايةِ جَهلِهم؛ إذ أقرُّوا بأنَّ اللهَ خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ، ثمَّ عَبَدوا معه غيرَه، وأنكَروا قُدرتَه على البَعثِ!). ((الوسيط)) (٤/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٤).

قال الزمخشري: (فإنْ قُلتَ: قَولُه: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وما سُرِدَ مِن الأوصافِ =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦].

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أي: وجعَلَ لكم في الأرضِ طُرُقًا يسَّرَ لكم المَشيَ فيها[1]؛ لعَلَّكم تهتَدونَ

= عَقِيبَه إن كان مِن قَولِهم، فما تصنَعُ بقَولِه: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾؟ وإن كان مِن قَولِ الله، فما وَجهُه؟

قُلتُ: هو مِن قَولِ اللهِ لا مِن قَولِهم، ومعنى قَولِه: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الَّذي مِن صِفتِه كَيْتَ وكَيْتَ، لَيَنسُبُنَّ خَلْقَها إلى الَّذي هذه أوصافُه، ولَيُسنِدُنَّه إليه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٨).

وقال ابن تيميَّة: (هذه الصِّفاتُ مِن كَلامِ الله تعالى، ليست مِن تَمامِ جَوابِهم). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٧٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(١) ممَّن قال بأنَّ المرادَ بالسُّبُلِ هنا: الطُّرُقُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والسمعاني، وابن عطية، وابن كثير، والبِقاعي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٧٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٣، ٥٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٤، ٦٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٤).

وقيل: المرادُ: المعايشُ. وممَّن قال بهذا: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٤).

وممّن جوَّز الجمْعَ بينَ المعنيينِ: ابنُ عاشورٍ، فقال: (السُّبُلُ: جَمعُ سَبيلٍ، وهو الطَّريقُ، ويُطلَقُ السَّبيلُ على وسيلةِ الشَّيءِ... ويَصِحُّ إرادةُ المعنيَينِ هنا؛ لأنَّ في الأرضِ طُرُقًا يُمكِنُ سُلوكُها، وهي السُّهولُ وسُفوحُ الجِبالِ وشِعابُها، أي: لم يَجعَلِ الأرضَ كُلَّها جِبالًا فيَعسُرَ على الماشينَ سُلوكُها، بل جعَلَ فيها سُبُلًا سَهلةً، وجَعَلَ جِبالًا لحِكمةٍ أُخرى، ولأنَّ الأرضَ صالحةٌ لاتِّخاذِ =

بها[(١)].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾.

= طُرُقٍ مَطروقةٍ سابِلةٍ. ومعنى جَعْلِ اللهِ تلك الطُّرُقَ بهذا المعنى: أنَّه جَعَل للنَّاسِ مَعرفةَ السَّيرِ في الأرضِ واتِّباعَ بَعضِهم آثارَ بَعضٍ؛ حتَّى تَتعَبَّدَ الطُّرُقُ لهم وتَتسَهَّلَ، ويَعلَمَ السَّائِرُ أيُّ تِلك السُّبُلِ يُوصِلُه إلى مَقصدِه. وفي تيسيرِ وسائلِ السَّيرِ في الأرضِ لُطفٌ عَظيمٌ؛ لأنَّ به تيسيرَ التَّجَمُّعِ والتَّعارُفِ، واجتِلابَ المنافِعِ، والاستِعانةَ على دَفعِ الغوائِلِ والأضرارِ. والسَّيرُ في الأرضِ قَريبًا أو بعيدًا مِن أكبرِ مَظاهِرِ المَدَنيَّةِ الإنسانيَّةِ، ولأنَّ اللهَ جَعَل في الأرضِ مَعايِشَ النَّاسِ مِن النَّباتِ والثَّمَرِ...، وهي وسائِلُ العَيشِ؛ فهي سُبُلٌ مَجازيَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٩، ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٣، ٥٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٤، ٦٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالهدايةِ هنا هدايةُ الطُّرقِ، والاهتِداءُ في السَّيرِ مِن مَوضِعٍ لآخَرَ: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكي، والسمعاني، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٤).

وقيل: معنى: ﴿تَهْتَدُونَ﴾: تَستَدِلُّونَ بمَقدوراتِه على قُدرتِه. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٤).

قال ابن عطية: (﴿تَهْتَدُونَ﴾ معناه: في المَقاصِدِ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، ومِن قُطرٍ إلى قُطرٍ. ويحتَمِلُ أن يريدَ: تهتَدونَ بالنَّظَرِ والاعتِبارِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧).

وممَّن ذهب إلى الجَمعِ بيْنَ المعنيَينِ: السعدي، فقال: (﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ في السَّيرِ في الطُّرقِ ولا تَضيعون، ولَعلَّكم تَهتدونَ أيضًا في الاعتبارِ بذلك والادِّكارِ فيه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه تعالى انتَقَل مِنَ الاستِدلالِ والامتِنانِ بخَلقِ الأرضِ، إلى الاستِدلالِ والامتِنانِ بخَلقِ وَسائِلِ العَيشِ فيها، وهو ماءُ المطَرِ الَّذي به تُنبِتُ الأرضُ ما يَصلُحُ لاقتِياتِ النَّاسِ[(١)].

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾.

أي: والَّذي نزَّل مِن السَّماءِ مَطَرًا بمِقدارِ حاجةِ النَّاسِ والنَّباتِ والأنعامِ؛ لِيَحصُلَ الانتِفاعُ به دونَ زيادةٍ مُهلِكةٍ، أو نُقصانٍ مُضِرٍّ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢١، ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٤، ٥٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣).

وممَّن ذَهَب إلى هذا المعنى المذكورِ لِقَولِه تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾: ابنُ جرير، والسمعاني، وابن كثير، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: بقَدَرٍ سابِقٍ وقَضاءٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٥).

وممَّن حمَل الآيةَ على كِلا المعنيَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٧).

أي: فأحيَيْنا بالماءِ بَلدةً مُجدِبةً مُقفِرةً[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩].

﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾.

أي: كما أحيَيْنا بالماءِ الأرضَ المَيْتةَ، وأخرَجْنا منها نَباتَها، كذلك يُحييكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ- بعدَ مَوتِكم، فيُخرِجُكم يومَ القيامةِ مِن قُبورِكم[٢].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما بيْنَ النَّفخَتينِ أربعون. قالوا يا أبا هريرةَ، أربعون يومًا؟ قال: أبَيْتُ[٣]! قالوا: أربعونَ شَهرًا؟ قال: أبَيْتُ! قالوا: أربعون سَنةً؟ قال: أبَيتُ. ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيَنْبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ. قال: وليس مِن الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبْلَى، إلَّا عَظمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ[٤]، ومنه يُركَّبُ الخَلقُ يومَ القيامةِ))[٥].

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٨).

(٣) معناه: أبَيْتُ أن أجزِمَ أنَّ المرادَ أربعون يومًا أو شهرًا أو سَنةً، بل الَّذي أجزِمُ به أنَّها أربعون مُجمَلةً؛ لأنَّه إنَّما سَمِعَ (أربعين) ولم يُعَيَّنْ له. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٤٥٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩١، ٩٢).

(٤) هو العَظْمُ اللَّطيفُ الَّذي في أسفلِ فَقارِ الظَّهرِ، وأعلَى ما بيْنَ الأَليتَينِ، وهو رأسُ العُصعُصِ. يُنظر: ((التعليق على الموطأ)) للوقشي (١/ ٢٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩٢)، ((طرح التثريب)) للعراقي (٣/ ٣٠٧).

(٥) رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) واللفظ له.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا انتِقالٌ مِن الاستِدلالِ والامتِنانِ بخَلقِ وَسائِلِ الحياةِ، إلى الاستِدلالِ بخَلقِ وَسائِلِ الاكتِسابِ لصَلاحِ المعاشِ، وذَكَر منها وسائِلَ الإنتاجِ، وأتْبَعَها بوسائِلِ الاكتِسابِ بالأسفارِ للتِّجارةِ[1].

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو الَّذي خَلَق الأصنافَ جميعَها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالأزواجِ الأصنافُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والثعلبي، والسمعاني، والزمخشري، والبيضاوي، والبِقاعي، وأبو السعود، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٥).

قال البقاعي: (﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي: الأصنافَ المُتشاكِلةَ الَّتي لا يَكمُلُ شَيءٌ منها غايةَ الكمالِ إلَّا بالآخَرِ؛ على ما دَبَّره سُبحانَه في نَظمِ هذا الوُجودِ ﴿كُلَّهَا ﴾ مِنَ النَّباتِ والحيوانِ، وغيرِ ذلك مِن سائِرِ الأكوانِ). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٣).

وقال السمعاني: (قوله تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي: الأصنافَ كُلَّها، ويُقالُ لكُلِّ شَيئَينِ قَرينَينِ: زَوجانِ، وكلُّ واحدٍ منهما زَوجُ صاحِبِه، وذلك: السَّماءُ والأرضُ، واللَّيلُ والنَّهارُ، والشَّمسُ والقَمَرُ، والجنَّةُ والنَّارُ، وما أشبَهَ ذلك، وكذلك ما يَعودُ إلى أحوالِ الإنسانِ؛ مِن المَرَضِ والصِّحَّةِ، والفَقرِ والغِنى، والخَيرِ والشَّرِّ، والنَّومِ واليَقَظةِ، وما أشبَهَ ذلك). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢).

وقال السعدي: (﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي: الأصنافَ جميعَها مِمَّا تُنبِتُ الأرضُ ومِن =

كما قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾.

أي: وجَعَل لكم سُفُنًا تَركَبونَها في البَحرِ، وأنعامًا[1] تَركَبونَها في البَرِّ؛ تَنقُلُكم

= أنفُسِهم ومِمَّا لا يَعلَمونَ؛ مِن لَيلٍ ونَهارٍ، وحَرٍّ وبَردٍ، وذَكَرٍ وأُنثى، وغيرِ ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣).

وقال الماوَرْدي: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها: الأصنافُ كُلُّها. قاله سعيدُ بنُ جُبَيرٍ. الثَّاني: أزواجُ الحيَوانِ مِن ذكَرٍ وأُنثى. قاله ابنُ عيسى. الثَّالثُ: أنَّ الأزواجَ الشِّتاءُ والصَّيفُ، واللَّيلُ والنَّهارُ، والسَّمواتُ والأرضُ، والشَّمسُ والقَمَرُ، والجنَّةُ والنَّارُ. قاله الحَسَنُ. ويحتَمِلُ رابعًا: أنَّ الأزواجَ ما يتقَلَّبُ فيه النَّاسُ مِن خيرٍ وشَرٍّ، وإيمانٍ وكُفرٍ، وغِنًى وفَقرٍ، وصِحَّةٍ وسُقمٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢١٧).

وقال القرطبي عن الاحتمالِ الأخيرِ: (وهذا القولُ يَعُمُّ الأقوالَ كلَّها، ويَجمَعُها بعُمومِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: خَلَق كُلَّ شَيءٍ فزَوَّجَه، أي: خَلَق للذُّكورِ مِن الإناثِ أزواجًا، وللإناثِ مِن الذُّكورِ أزواجًا: ابنُ جرير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٨٠).

وقال ابن عاشور: (الأزواجُ: جَمعُ زَوجٍ، وهو كُلُّ ما يصيرُ به الواحِدُ ثانيًا، فيُطلَقُ على كُلٍّ منهما أنَّه زَوجٌ للآخَرِ، مِثلُ الشَّفعِ. وغُلِّبَ الزَّوجُ على الذَّكَرِ وأنثاه مِنَ الحيوانِ... وتُوسِّعَ فيه فأُطلِقَ الزَّوجُ على الصِّنْفِ... وكِلا الإطلاقَينِ يَصِحُّ أن يُرادَ هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٢).

واختار ابنُ عثيمين أنَّ المرادَ الأصنافُ، وأنَّه يحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ الشَّيئَينِ المُزدَوِجَينِ اللَّذينِ يَتولَّدُ بيْنَهما ثالثٌ؛ كالذَّكَرِ والأُنثى، والسَّالِبِ والمُوجَبُ، وما أشْبَهَ ذلك، وبما أنَّ الآيةَ تحتمِلُ المَعنَيينِ ولا يَتنافَيانِ فتُحمَلُ عليهما جميعًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٠، ٧١).

(١) قيل: كالإبلِ والخَيلِ، والبِغالِ والحَميرِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٦)، ((تفسير السمرقندي)) =

إلى حيثُ أردتُم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩، ٨٠].

﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى النِّعمةَ النَّاشِئةَ عن مُطلَقِ الإيجادِ؛ ذكَّرَ بنِعمةِ الرَّاحةِ

= (٣/ ٢٥٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧١).

وقيل: يعني بالأنعامِ: الإبلَ والبقرَ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢١٧).

وقيل: هي الإبِلُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: السمعاني، والقرطبي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٢).

قال ابن عطية: (و﴿مِّنَ﴾ في قَولِه: ﴿مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ للتَّبعيضِ؛ وذلك أنَّه لا يُركَبُ مِن الأنعامِ غيرُ الإبِلِ، وتدخُلُ الخَيلُ والبِغالُ والحَميرُ فيما يُركَبُ، بالمعنى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧).

والإبلُ وإن كان ركوبُها والحملُ عليها هو الأغلَبَ، لكنَّ البقرَ في بعضِ البلاد تُركَبُ أيضًا ويَحمِلون عليها الأحمالَ الثَّقيلةَ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣).

فيها[١].

﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾.

أي: لِتَستقِرُّوا مُتمَكِّنينَ مُرتَفِعينَ على ظُهورِ الفُلْكِ والأنعامِ[٢].

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ اللهُ تعالى النِّعمةَ بخَلقِ كُلِّ ما تدعو إليه الحاجةُ، وجَعَله على وَجهٍ دالٍّ على ما له مِن الصِّفاتِ؛ ذكَرَ ما ينبغي أن يكونَ مِن غايتِها مِن شُكرِ المُنعِمِ، فقال دالًّا على عَظيمِ قَدْرِ النِّعمةِ، وعُلُوِّ غايتِها، وعُلُوِّ أمرِ الذِّكرِ- بحَرفِ التَّراخي[٣]:

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾.

أي: ثمَّ تَذكُروا بقُلوبِكم -أيُّها النَّاسُ- نِعمةَ رَبِّكم بتيسيرِه لكم ما تَركبونَه في البَرِّ والبَحرِ، إذا استَقرَرْتُم عليه[٤].

﴿ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾.

أي: وتَقولوا بألسِنَتِكم: تَنزَّهَ اللهُ عن كُلِّ ما لا يَليقُ بكَمالِه؛ الَّذي ذَلَّل لنا هذا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٢، ٧٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٣).

الَّذي نَركَبُه مِن الفُلْكِ والأنعامِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ * وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَـارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾.

أي: وما كُنَّا لتلك المراكِبِ بمُطيقينَ ولا قادِرينَ على تَذليلِها ورُكوبِها وقِيادِها لولا أنَّ الله سُبحانَه سَخَّرها لنا[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٤، ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٦، ٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٣).

قال ابن عاشور: (التَّسخيرُ: التَّذليلُ والتَّطويعُ، وتسخيرُ اللهِ الدَّوابَّ هو خَلْقُه إيَّاها قابلةً للتَّرويضِ، فاهمةً لِمُرادِ الرَّاكبِ؛ وتسخيرُ الفُلكِ حاصِلٌ بمُجموعِ خَلقِ البَحرِ صالِحًا لسَبحِ السُّفُنِ على مائِه، وخَلقِ الرِّياحِ تهُبُّ فتَدفعُ السُّفُنَ على الماءِ، وخَلْقِ حيلةِ الإنسانِ لصُنعِ الفُلكِ، ورَصدِ مَهابِّ الرِّياحِ، ووَضعِ القُلوعِ والمجاذيفِ، ولولا ذلك لَكانت قوَّةُ الإنسانِ دونَ أن تَبلُغَ استِخدامَ هذه الأشياءِ القويَّةِ! ولهذا عقَّب بقَولِه: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، أي: مُطيقِينَ، أي: بمُجَرَّدِ القُوَّةِ الجَسَديَّةِ، أي: لولا التَّسخيرُ المَذكورُ؛ فجُملَةُ ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿لَنَا﴾، أي: سخَّرَها لنا في حالِ ضَعفِنا بأنْ كان تَسخيرُه قائمًا مَقامَ القُوَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٥).

* وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٧١، ٧٢].

﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان راكِبُ السَّفينةِ أو الدَّابَّةِ مُتَعَرِّضًا للهلاكِ بما يُخافُ مِن غَرَقِ السَّفينةِ، أو سُقوطِه عن الدَّابَّةِ؛ أُمِرَ بذِكرِ الحَشرِ؛ لِيَكونَ مُستعِدًّا للمَوتِ الَّذي قد يَعرِضُ له[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ السَّيرَ الدُّنْيَويَّ؛ نَبَّهَ على السَّيرِ الأُخرويِّ[٢]، فقال:

﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

أي: وإنَّا إلى رَبِّنا لَراجِعونَ بعدَ مَوتِنا للحِسابِ والجَزاءِ[٣].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا استوى على بَعيرِه خارجًا إلى سَفَرٍ، كبَّرَ ثلاثًا، ثمَّ قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾، اللَّهُمَّ إنَّا نسألُك في سَفَرِنا هذا البِرَّ والتَّقْوى، ومِنَ العَمَلِ ما تَرضى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ علينا سَفَرَنا هذا، واطْوِ عنَّا بُعْدَه، اللَّهُمَّ أنت الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، والخليفةُ في الأهلِ، اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن وَعْثاءِ السَّفَرِ[٤]، وكآبةِ المَنظَرِ، وسُوءِ المُنقَلَبِ في المالِ والأهلِ. وإذا رجَعَ قالَهُنَّ، وزاد فيهنَّ: آيِبونَ تائِبونَ عابِدونَ، لِرَبِّنا حامِدونَ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٥).

(٤) وَعْثاءِ السَّفَرِ: أي: مَشَقَّتِه وشِدَّتِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦٨٠).

(٥) رواه مسلم (١٣٤٢).

وعن عليِّ بنِ رَبيعةَ، قال: ((شَهِدتُ عَليًّا [أي: ابنَ أبي طالبٍ] رَضِيَ اللهُ عنه وأُتِيَ بدابَّةٍ لِيَركَبَها، فلمَّا وَضَع رِجْلَه في الرِّكابِ قال: باسمِ اللهِ، فلمَّا استوى على ظَهرِها قال: الحَمدُ للهِ، ثمَّ قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، ثمَّ قال: الحَمدُ للهِ -ثلاثَ مرَّاتٍ-، ثمَّ قال: اللهُ أكبَرُ -ثلاثَ مرَّاتٍ-، ثمَّ قال: سُبحانَك إنِّي ظَلَمتُ نَفْسي فاغفِرْ لي؛ فإنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنت. ثمَّ ضَحِكَ! فقيل: يا أميرَ المؤمِنينَ، مِن أيِّ شَيءٍ ضَحِكتَ؟! قال: رأيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَعَل كما فعَلْتُ ثمَّ ضَحِكَ! فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، مِن أيِّ شَيءٍ ضَحِكتَ؟! قال: إنَّ رَبَّك يَعجَبُ مِن عَبدِه إذا قال: اغفِرْ لي ذُنوبي، يَعلَمُ أنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ غيري!))[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الإشارةُ إلى أنَّه إذا كان المقصودُ الحِسِّيُّ يَحتاجُ إلى طُرُقٍ فكذلك المقصودُ المعنويُّ -وهو الوُصولُ إلى دارِ كرامةِ اللهِ عزَّ وجلَّ- فإنَّه يَحتاجُ إلى طُرُقٍ، فلا بُدَّ أنْ نَسلُكَ هذه الطُّرُقَ حتَّى نَصِلَ إلى المقصودِ، فإنْ لم نَسْلُكْها فلن نَصِلَ إلى المقصودِ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٠٢) واللَّفظُ له، والترمذي (٣٤٤٦)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٨٠٠)، وأحمد (٧٥٣).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّح الحديثَ ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٢٦٩٨)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٦٠٢)، وصَحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (٢٨٠)، وابنُ القيِّم في ((صيغ الحمد)) (ص: ٤٣)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٢/ ١١٠)، وحسَّن الحديثَ شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٢٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٨).

ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ كم مِن راكِبِ دابَّةٍ عَثَرتْ به أو شَمَسَت[١] أو تقَحَّمت[٢] أو طاحَ مِن ظَهرِها فهَلَك! وكم مِن راكِبينَ في سفينةٍ انكَسَرت بهم فغَرِقوا، فلمَّا كان الرُّكوبُ مُباشَرةَ أمرٍ مُخطِرٍ، واتِّصالًا بسَبَبٍ مِن أسبابِ التَّلَفِ؛ كان مِن حَقِّ الرَّاكِبِ وقد اتَّصَل بسَبَبٍ مِن أسبابِ التَّلَفِ ألَّا يَنسى هلاكَه عندَ اتِّصالِه به يومَه، وأنَّه هالِكٌ لا مَحالةَ فمُنقَلِبٌ إلى اللهِ غيرُ مُنفَلِتٍ مِن قَضائِه؛ وألَّا يَدَعَ ذِكرَ ذلك بقَلْبِه ولِسانِه حتَّى يكونَ مُستَعِدًّا لِلِقاءِ اللهِ بإصلاحِه مِن نَفْسِه، والحَذَرِ مِن أن يكونَ رُكوبُه ذلك مِن أسبابِ مَوتِه في عِلمِ اللهِ، وهو غافِلٌ عنه[٣]، فينبغي للمُتلَبِّسِ بهذه الحالةِ استِذكارُ الآخرةِ، والاستِعدادُ لها، فلْيَجتلِبْ ما يُنجيه؛ مِن طاعةِ الله، ويجتنبْ ما يُرديه مِن معصيتِه[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ * لِتَسۡتَوُاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أي: لَصائِرونَ إليه بعدَ مَماتِنا، وإليه سَيرُنا الأكبَرُ. وهذا مِن بابِ التَّنبيهِ بسَيرِ الدُّنيا على سَيرِ الآخِرةِ[٥]، فتأمَّلْ كيف نبَّهَهم بالسَّفَرِ الحِسِّيِّ على السَّفَرِ إليه، وجمَعَ لهم بيْنَ السَّفَرينِ كما جَمَع لهم الزَّادَينِ في قَولِه تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]،

---

(١) شَمَسَت: أي: شَرَدت وجَمَحت، ومَنَعت ظَهْرَها عن الرُّكوبِ؛ لشِدَّةِ شَغْبِها وحِدَّتِها. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٦/ ١٧٤).

(٢) تقَحَّمت: رَمَت بنَفْسِها فَجأةً بلا رَويَّةٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٣/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠).

فجَمَع لهم بيْنَ زادِ سَفَرِهم وزادِ مَعادِهم، وكما جمَعَ بيْنَ اللِّباسَينِ في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فذكَرَ سُبحانَه زينةَ ظَواهِرِهم وبواطِنِهم، ونبَّهَهم بالحِسِّيِّ على المَعنويِّ. وفَهْمُ هذا القَدرِ زائِدٌ على فَهمِ مُجَرَّدِ اللَّفظِ ووَضعِه في أصلِ اللِّسانِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ لا يكونُ بإقرارِه ببَعضِ الحَقِّ مُؤمِنًا حتَّى يُقِرَّ بجَميعِه، وأنَّ الكُفرَ ببَعضِ الحَقِّ كُفرٌ بجَميعِه؛ فالقَومُ قالوا حقًّا، ولم يَنفعْهم الإقرارُ به وقد رَدُّوا غيرَه[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ أنَّ مُشرِكي العَرَبِ كانوا مُتَّفِقينَ على أنَّ أربابَهم لم تُشارِكِ اللهَ في خلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ، بل كانوا مُقِرِّينَ بأنَّ اللهَ وحْدَه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما[٣].

٣- قال تعالى: ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا ﴾، ووَجْهُ الامتِنانِ: أنَّه جعَلَ ظاهِرَ الأرضِ مُنبَسِطًا، وذلك الانبِساطُ لنَفْعِ البَشَرِ السَّاكِنينَ عليها، وهذا لا يُنافِي أنَّ جِسمَ الأرضِ كُرَوِيٌّ، كما هو ظاهِرٌ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ فيه إثباتُ حِكمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٧٣، ١٧٤).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٣).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٩).

فيما يَخلُقُ، وحِكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ فيما يَخلُقُ وفيما يُشَرِّعُ: ثابِتةٌ، لكِنْ مِن الحِكَمِ ما نَعلَمُ، ومِن الحِكَمِ ما لا نَعلَمُ؛ لقُصورِ أفهامِنا، ومِن الحِكَمِ ما يَعلَمُه كثيرٌ مِن النَّاسِ، وتخفَى على كثيرينَ آخَرينَ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وأمثالِه في القُرآنِ: دليلٌ على ثُبوتِ الأسبابِ، وأنَّها غيرُ مُؤثِّرةٍ في توكُّلِ المتوكِّلينَ، ولا في قُدرةِ الخالِقِ؛ فاللهُ جلَّ جلالُه -لا محالةَ- قادِرٌ على إنشارِ الأرضِ بغيرِ مَطَرٍ، فأنشَرَها بالمطَرِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ إثباتُ القياسِ، وأنَّه دَليلٌ، وهو دَليلٌ عَقليٌّ ثابتٌ بالدَّليلِ السَّمعيِّ؛ وذلك أنَّ العَقلَ يَنتَقِلُ مِن المَقيسِ عليه إلى المَقيسِ، فهو دَليلٌ عقليٌّ باعتبارِ كيفيَّةِ الاستِدلالِ به، وهو دَليلٌ سَمعيٌّ؛ لِثُبوتِه شَرعًا[٣]. ففي قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ قاسَ الغائبَ -وهو إحياءُ الموتى- على الحاضرِ الَّذي تُشاهِدونَه، وهذا مِن طُرُقِ التَّعليلِ والتَّفهيمِ[٤].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾، فيه سؤالٌ: يُقالُ: (ركِبوا الأنعامَ)، و(ركِبوا في الفلكِ)، وقد ذكَر الجنسينِ، فكيف قال: ﴿تَرْكَبُونَ﴾؟

الجوابُ: غُلِّب المتعدِّي بغيرِ واسِطةٍ؛ لقوَّتِه على المتعدِّي بواسِطةٍ[٥].

٨- قَولُه: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ إنْ قيل: كيف لم يقُلْ: (على ظُهورِها)، وقد تقدَّم لفظُ الجَمعِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢١).

والجوابُ مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ قولَه: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ يَنصَرِفُ إلى كلمةِ ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾، ومَعْناه: لتَسْتووا على ظُهورِ ما تَركبونَه[1].

الثَّاني: أنَّه أضافَ الظَّهرَ إلى واحدٍ فيه معنى الجمْعِ بمَنزلةِ الجِنسِ؛ فلذلك ذكَّرَه، وجمَعَ الظُّهورَ باعتبارِ مَعناها.

الثَّالثُ: أنَّ التَّأنيثَ فيها ليس حقيقيًّا؛ فجاز أنْ يَختلِفَ اللَّفظُ فيه، كما يُقالُ: عِندي مِن النِّساءِ مَن يُوافِقُك[2].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ فيه استِحبابُ هذا الذِّكرِ عندَ رُكوبِ الدَّابَّةِ والسَّفينةِ[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ كان الَّذي يَتبادَرُ أنْ يقولَ الإنسانُ: «الحَمدُ للهِ الَّذي سَخَّرَ لنا هذا»، ولكنَّه أمَرَ أنْ يَقولَ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾؛ لأنَّ «سُبحانَ» تدُلُّ على التَّنزيهِ -يعني: تنزيهَ اللهِ عزَّ وجلَّ عن الحاجةِ وعن النَّقصِ-، فكأنَّ الإنسانَ يَشعُرُ إذا رَكِبَ على هذه الفُلْكِ والأنعامِ أنَّه مُحتاجٌ إليه، يَستعينُ به على حاجاتِه؛ فيُسَبِّحُ اللهَ عزَّ وجلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٣)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٢٣٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٢). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٤). قال ابن عثيمين: (وهذا الذِّكرُ عامٌّ، كُلَّما رَكِبْتَ السَّيَّارةَ أو البَعيرَ أو الطَّائرةَ تَذْكُرُ هذا: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٥).

الَّذي هو مُستَغنٍ عن كلِّ خَلْقِه؛ فكان التَّسبيحُ في هذا المقامِ أنسَبَ[١]. وأيضًا فإنَّ التَّسبيحَ يَقتضي تنزيهَ الله تعالى عن كلِّ عَيبٍ وسوءٍ، وإثباتَ صِفاتِ الكمالِ له؛ فإنَّ التَّسبيحَ يَقتضي التَّنزيهَ والتَّعظيمَ، والتَّعظيمَ يَستلزِمُ إثباتَ المحامِدِ الَّتي يُحمَدُ عليها[٢].

١١- قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا﴾ في قولِه: ﴿سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ راجِعةٌ إلى لَفظِ ﴿مَا﴾ مِن قَولِه: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، وجَمَع الظُّهورَ نَظَرًا إلَى مَعْنَى ﴿مَا﴾؛ لأنَّ مَعْناها عامٌّ شامِلٌ لكُلِّ ما تَشْملُه صِلَتُها، ولَفْظُها مُفْرَدٌ، فالجمعُ في الآيةِ باعتبارِ مَعْناها، والإفرادُ باعتبارِ لَفْظِها[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لَمَّا كان قَولُه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦] مُوَجَّهًا إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للتَّسليَةِ والوَعدِ بالنَّصرِ؛ عَطَف عليه خِطابَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صريحًا بقَولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الآيةَ؛ لِقَصدِ التَّعجيبِ مِن حالِ الَّذين كذَّبوه؛ فإنَّهم إنَّما كذَّبوه لأنَّه دَعاهُم إلى عِبادةِ إلهٍ واحِدٍ، ونَبْذِ عِبادةِ الأصنامِ، ورَأَوْا ذلك عَجَبًا مع أنَّهم يُقِرُّون للهِ تعالى بأنَّه خالِقُ العَوالِمِ وما فيها، وهلْ يَستحِقُّ العِبادةَ غيرُ خالِقِ العابِدِينَ؟! ولأنَّ الأصنامَ مِن جُملةِ ما خلَقَ اللهُ في الأرضِ مِن حِجارةٍ، فلو سأَلَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مُحاجَّتِه إيَّاهم عن خالِقِ الخلْقِ لَما استَطاعوا غيرَ الإقرارِ بأنَّه اللهُ تعالى؛ فجُملَةُ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٦).

ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [الزخرف: ٦] عَطْفَ الغَرَضِ، وهو انتِقالٌ إلى الاحتِجاجِ على بُطلانِ الإشراكِ بإقرارِهم الضِّمنِيِّ: أنَّ أصنامَهم خالِيَةٌ عن صِفةِ استِحقاقِ أن تُعبَدَ[١].

- وتاءُ الخِطابِ في ﴿سَأَلۡتَهُم﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو ظاهِرُ سِياقِ التَّسلِيةِ، أو يكونُ الخِطابُ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ؛ لِيَعُمَّ كلَّ مُخاطَبٍ يُتصَوَّرُ منه أنْ يَسألَهم[٢].

- قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم ...﴾ ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ فيه تَأْكيدُ الكَلامِ باللَّامِ المُوَطِّئةِ للقَسَمِ، ولامِ الجَوابِ، ونُونِ التَّوكيدِ؛ لتَحقيقِ أنَّهم يُجيبون بذلك، تَنزيلًا لغَيرِ المُتَرَدِّدِ في الخَبَرِ مَنزِلَةَ المُتردِّدِ، وهذا التَّنزيلُ كِنايةٌ عن جَدارةِ حالَتِهم بالتَّعجيبِ مِنِ اختِلالِ تَفكيرِهم، وتَناقُضِ عَقائِدِهم[٣].

- وكرَّرَ الفِعلَ في الجَوابِ في قولِه: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ مُبالَغةً في التَّوكيدِ[٤].

- قيل: حَذَف سُبحانَه المَوصوفَ، وهو اللهُ تعالَى، وأقامَ صِفاتِه مُقامَه؛ لأنَّ الكَلامَ مُجزَّأٌ؛ فبَعضُه مِن قَولِهم، وبَعضُه مِن قَولِ اللهِ تعالَى؛ فالَّذي هو مِن قَولِهم: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾، وما بَعدَه هو مِن قَولِ اللهِ تعالى، وأصلُ الكلامِ: أنَّهم قالوا: خَلَقَهُنَّ اللهُ؛ بدَلالةِ قَولِه في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] و[الزمر: ٣٨]، ثمَّ لَمَّا قالوا: خلَقهُنَّ اللهُ؛ وَصَف اللهُ تعالى ذاتَه بهذه الصِّفاتِ، وأُقيمَت مُقامَ المَوصوفِ كأنَّه كَلامٌ واحِدٌ، ونَظيرُ هذا أنْ تَقولَ للرَّجُلِ: مَنْ أكرَمَك مِنَ القَومِ؟ فيَقولُ:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦١).

أكرَمَني زَيدٌ، فتَقولُ أنت واصِفًا له: الكَريمُ الجَوَادُ المِفضالُ الَّذي مِن صِفَتِه كذا وكذا[١]. وأيضًا عُدِل عن الاسمِ العَليِّ إلى الصِّفتينِ؛ زِيادةً في إفحامِهم بأنَّ الَّذي انصَرَفوا عن تَوحيدِه بالعِبادةِ عَزيزٌ عليمٌ؛ فهو الَّذي يجِبُ أنْ يَرجُوَه النَّاسُ للشَّدائدِ؛ لعِزَّتِه، وأنْ يُخلِصوا له باطِنَهم؛ لأنَّه لا يَخفَى عليه سِرُّهم، بخِلافِ شُركائِهم؛ فإنَّها أذِلَّةٌ لا تَعلَمُ، وأنَّهم لا يُنازِعون في وَصفِه بالعَزيزِ العليمِ. وتَخصيصُ هاتَينِ الصِّفَتَينِ بالذِّكرِ مِن بَينِ بَقيَّةِ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ؛ لأنَّها مُضادَّةٌ لِصِفاتِ الأصنامِ؛ فإنَّ الأصنامَ عاجِزةٌ عن دَفعِ الأيدِي[٢].

- وقيل: الظَّاهرُ أنَّ: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ نفْسُ المَحْكِيِّ مِن كَلامِهم، ولا يدُلُّ كَونُهم ذَكَروا في مكانٍ: خلَقَهنَّ اللهُ، ألَّا يَقولوا في سُؤالٍ آخَرَ: خلَقَهنَّ العزيزُ العليمُ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ كلامٌ مُوَجَّهٌ مِن اللهِ تعالى، وهو تَخَلُّصٌ مِنَ الاستِدلالِ على تَفَرُّدِه بالإلهيَّةِ بأنَّه المُنفَرِدُ بخَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، إلى الاستِدلالِ بأنَّه المُنفَرِدُ بإسْداءِ النِّعَمِ الَّتي بها قِوامُ أَوَدِ حَياةِ النَّاسِ؛ فالجُملةُ استِئنافٌ حُذِفَ منها المُبتَدَأُ، والتَّقديرُ: هو الَّذي جَعَل لكمُ الأرضَ مَهْدًا؛ وهذا الاستِئنافُ مُعتَرَضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الزخرف: ٩] الآيةَ، وجُملةِ ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥] الآيةَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٨، ١٦٩).

- واسمُ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ خَبرٌ لمُبتدَأٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: هو الَّذي جَعَل لكم، وهو مِن حَذفِ المُسنَدِ إليه الوارِدِ على مُتابَعةِ الاستِعمالِ[١]، حيث تَقدَّمَ الحديثُ عن اللهِ تعالى فيما قبْلَ هذه الجُملةِ، واجتِلابُ المَوصولِ؛ للاشتِهارِ بمَضمونِ الصِّلَةِ، فساوَى الاسمَ العَلَمَ في الدَّلالةِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ذُكِرت صِلَتانِ فيهما دَلالةٌ على الانفرادِ بالقُدرةِ العَظيمةِ وعلى النِّعمةِ عليهم: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ ولذلك جيءَ بلَفظِ ﴿لَكُمْ﴾ في المَوضِعَينِ، ولم يُقَلْ: (الَّذي جَعَل الأرضَ مَهْدًا وجعَلَ فيها سُبُلًا)، كما في قَولِه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦، ٧]؛ لأنَّ ذلك المَقامَ مَقامُ الاستِدلالِ على مُنكِري البَعثِ، فسِيقَ لهم الاستِدلالُ بإنشاءِ المَخلوقاتِ العَظيمةِ الَّتي لا تُعَدُّ إعادةُ خَلقِ الإنسانِ بالنِّسبَةِ إليها شَيئًا عَجيبًا[٣].

- وأيضًا لم يُكَرِّرِ اسمَ المَوصولِ في قَولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ لأنَّ الصِّلَتَينِ تَجتَمِعانِ في الجامِعِ الخَياليِّ؛ إذ كِلْتاهُما مِن أحوالِ الأرضِ، فجَعْلُهما كجَعْلٍ واحِدٍ[٤].

- وأعاد فِعلَ (جَعَل)؛ تنبيهًا على تمكُّنِه تعالى مِن إقامةِ الأسبابِ لتيسيرِ الأمورِ الصِّعابِ؛ إعلامًا بأنَّه لا يُعجِزُه شَيءٌ[٥].

---

(١) وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٠).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾

- أُعِيدَ اسمُ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِى﴾؛ للاهتِمامِ بهذه الصِّلَةِ اهتِمامًا يَجعَلُها مُستَقِلَّةً؛ فلا يَخطِرُ حُضورُها بالبالِ عندَ حضورِ الصِّلَتينِ اللَّتَينِ قبْلَها؛ فلا جامِعَ بيْنَها وبيْنَهما في الجامِعِ الخَياليِّ، فأُعيدَ اسمُ المَوصولِ؛ لأنَّ مِصداقَه هو فاعِلُ جَميعِها[١].

- قولُه: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ في التَّعبيرِ عن إخراجِ النَّباتِ بالإنشارِ الَّذي هو إحياءُ المَوتَى، وعن إحيائِها بالإخراجِ؛ تَفخيمٌ لشَأنِ الإنباتِ، وتَهوينٌ لأمرِ البَعثِ؛ لتَقويمِ سَنَنِ الاستِدلالِ، وتَوضيحِ مِنهاجِ القِياسِ[٢].

- وضَميرُ ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيْبَةِ إلى التَّكَلُّمِ بنُونِ العَظَمةِ؛ لإظهارِ كَمالِ العِنايةِ بأمرِ الإحياءِ، والإشعارِ بعِظَمِ خَطَرِه. وأيضًا لَمَّا وَقَعَ الانتِقالُ مِن كَلامِهم إلى كَلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ، جاء أوَّلُه على لَفظِ الغَيبةِ، وآخِرُه على الانتِقالِ منها إلى التَّكَلُّمِ في قَولِه: ﴿فَأَنشَرْنَا﴾؛ افتِنانًا في أَفانينِ البَلاغةِ، ولتَسجيلِ المِنَّةِ على عِبادِه، وقَرْعِ أسماعِهم بها[٣].

- ولعلَّه أنَّثَ البلدَ وذكَّرَ الميتَ في قولِه: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّ بُلوغَها في الضَّعفِ والموتِ بلَغَ الغايةَ؛ بضَعْفِ أرْضِه في نفْسِها، وضعْفِ أهْلِه عن إحيائِه، وقَحْطِ الزَّمانِ، واضمِحلالِ ما كان به مِن النَّباتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٢).

- وجُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ مُعتَرِضةٌ بيْنَ المُتعاطِفَينِ، وهو استِطرادٌ بالاستِدلالِ على ما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن إثباتِ البَعثِ، بُمناسَبةِ الاستِدلالِ على تفرُّدِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ بدَلائلَ في بعضِها دَلالةٌ على إمكانِ البَعثِ، وإبطالِ إحالَتِهم إيَّاه[1].

- والإشارةُ بـ (ذَلِكَ) إلى الانتِشارِ المَأخوذِ مِن ﴿فَأَنشَرۡنَا﴾، أي: مِثلَ ذلك الانتِشارِ الَّذي هو في الحقيقةِ إخراجُ النَّباتِ مِنَ الأرضِ، تُخرَجون مِن الأرضِ بعْدَ فَنائِكم، ووَجْهُ الشَّبَهِ هو إحداثُ الحيِّ بعْدَ مَوتِه، والمَقصودُ مِن التَّشبيهِ إظهارُ إمكانِ المُشَبَّهِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾

- أُعِيدَ اسمُ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِي﴾؛ للاهتِمامِ بهذه الصِّلَةِ اهتِمامًا يَجعَلُها مُستَقِلَّةً؛ فلا يَخطِرُ حُضورُها بالبالِ عندَ حُضورِ الصِّلاتِ الَّتي قبْلَها؛ فلا جامعَ بيْنَها وبيْنَها في الجامِعِ الخَياليِّ، فأُعيدَ اسمُ المَوصولِ؛ لأنَّ مِصداقَه هو فاعِلُ جَميعِها[3].

- ولَمَّا كان المُتبادرُ مِن الأزواجِ بادِئَ النَّظرِ أزواجَ الأنعامِ، وكان مِن أهَمِّها عِندَهم الرَّواحِلُ؛ عَطَف عليها ما هو منها وَسائِلُ للتَّنَقُّلِ بَرًّا، وأدمَجَ معها وَسائِلَ السَّفَرِ بَحرًا؛ فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾؛ فالمرادُ بـ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾ بالنِّسبةِ إلى الأنعامِ هو الإبِلُ -على قولٍ-؛ لأنَّها وَسيلةُ الأسفارِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٠- ١٧٢).

وقد قالوا: الإبلُ سَفائِنُ البَرِّ[١].

- وجِيءَ بفِعلِ (جَعَل)؛ مُراعاةً لأنَّ الفُلكَ مَصنوعةٌ، وليستْ مَخلوقةً، والأنعامُ قد عُرِف أنَّها مَخلوقةٌ[٢].

- وقدَّمَ سُبحانه الفُلكَ على الأنعامِ؛ لأنَّها لم يَشملْها لَفظُ الأزواجِ؛ فذِكْرُها ذِكرُ نِعمةٍ أُخرى، ولو ذَكَر الأنعامَ لَكان ذِكرُه عَقِبَ الأزواجِ بمَنزِلةِ الإعادةِ؛ فلمَّا ذَكَر الفُلكَ بعُنوانِ كَونِها مَركوبًا، عَطَف عليها الأنعامَ؛ فصار ذِكرُ الأنعامِ مُتَرَقَّبًا للنَّفْسِ لمُناسَبةٍ جَديدةٍ[٣].

- وقَولُه: ﴿مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ بَيانٌ لإبهامِ (ما) المَوصولَةِ في قَولِه: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، وحُذِف عائدُ الصِّلَةِ، وإذ قد كان مَفعولُ ﴿تَرْكَبُونَ﴾ هنا مُبَيَّنًا بالفُلكِ والأنعامِ، كان حقُّ الفِعلِ أنْ يُعَدَّى إلى أحَدِهما بنَفْسِه وإلى الآخَرِ بـ (في)؛ فغُلِّبَت التَّعديةُ المُباشِرةُ على التَّعديةِ بواسِطةِ الحَرفِ؛ لظُهورِ المُرادِ، وحُذِفَ العائدُ بناءً على ذلك التَّغليبِ[٤]. فقَولُه: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: ما تَركبونَه؛ تَغليبًا للأنعامِ على الفُلكِ؛ فإنَّ الرُّكوبَ مُتَعَدٍّ بنَفْسِه، واستِعمالُه في الفُلكِ ونَحوِها بكَلِمةِ (في) للرَّمزِ إلى مَكانِتها، وكَونِ حَرَكَتِها غيرَ إرادِيَّةٍ[٥]. والرُّكوبُ حَقيقَتُه: اعتِلاءُ الدَّابَّةِ للسَّيرِ، وأُطلِقَ هنا على الحُصولِ في الفُلكِ؛ لتَشبيهِهِم الفُلكَ بالدَّابَّةِ بجامِعِ السَّيرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾

- قَولُه: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ تَوطِئَةٌ وتَمهيدٌ للإشارةِ إلى ذِكْرِ نِعمةِ اللهِ في قَولِه: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: حِينَئِذٍ؛ فإنَّ ذِكْرَ النِّعمةِ في حالِ التَّلَبُّسِ بمَنافِعها أوقَعُ في النَّفْسِ، وأَدْعَى للشُّكرِ عليها، وأجدَرُ بعَدَمِ الذُّهولِ عنها[1].

- والاستِواءُ: الاعتِلاءُ. والظُّهورُ: جَمعُ ظَهرٍ، والظَّهرُ مِن علائِقِ الأنعامِ لا مِن عَلائِقِ الفُلكِ؛ فهذا أيضًا مِن التَّغليبِ، والمعنى: على ظُهورِه وفي بُطونِه؛ فضَميرُ ﴿ظُهُورِهِۦ﴾ عائِدٌ إلى (ما) المَوصولَةِ الصَّادِقِ بالفُلكِ والأنعامِ، كما هو قَضِيَّةُ البَيانِ، على أنَّ السَّفائِنَ العَظيمةَ تكونُ لها ظُهورٌ، وهي أعالِيها المَجعولَةُ كالسُّطوحِ؛ لِتَقِيَ الرَّاكِبينَ المَطَرَ وشِدَّةَ الحَرِّ والقَرِّ؛ ولذلك فجَمْعُ الظُّهورِ مِن جَمْعِ المُشتَرَكِ، والتَّعدِيةُ بحَرفِ (على) بُنِيَت على أنَّ للسَّفينةِ ظَهرًا[2].

- قولُه: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: يَحمَدوا عليها بأَلْسِنَتِهم، وفي العُدولِ عن (تَحمَدوا) إلى ﴿تَذْكُرُوا۟﴾ تَصويرُ حالةِ كَونِ المَركوبِ مُذَلَّلًا مُنقادًا، وأنَّه لولا تَمكينُ اللهِ لم يُتَمَكَّنْ منه[3].

- والذِّكرُ هنا هو التَّذَكُّرُ بالفِكرِ لا الذِّكرُ باللِّسانِ؛ وهذا تَعريضٌ بالمُشرِكينَ؛ إذ تقلَّبوا في نِعَمِ اللهِ وشَكَروا غَيرَه؛ إذ اتَّخَذوا له شُرَكاءَ في الإلهيَّةِ، وهمْ لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٣، ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٦).

يُشارِكوه في الإنعامِ[١].

- وذُكْرُ النِّعمةِ كِنايةٌ عن شُكرِها؛ لأنَّ شُكرَ المُنعِمِ لازِمٌ للإنعامِ عُرفًا؛ فلا يَصرِفُ عنه إلَّا نِسيانُه، فإذا ذَكَره شَكَر النِّعمةَ[٢].

- وقَولُه: ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ مَعطوفٌ على قَولِه: ﴿تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ﴾، أي: لِتَشكُروا اللهَ في نُفوسِكم، وتُعلِنُوا بالشُّكرِ بألسِنَتِكم، فلقَّنَهم صِيغَةَ شُكرٍ عِنايةً به[٣].

- قَولُه: ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ كلمةُ تَعجُّبٍ، وفي لَفظِ ﴿هَٰذَا﴾ مَزيدُ تَقريرٍ لمعنى التَّعَجُّبِ[٤].

- وافتُتِح هذا الشُّكرُ اللِّسانيُّ بالتَّسبيحِ؛ لأنَّه جامِعٌ للثَّناءِ؛ إذ التَّسبيحُ تَنزيهُ اللهِ عمَّا لا يَليقُ؛ فهو يدُلُّ على التَّنزيهِ عن النَّقائصِ بالصَّريحِ، ويدُلُّ ضِمنًا على إثباتِ الكَمالاتِ للهِ في المقامِ الخطابيِّ[٥].

- واستِحضارُ الجَلالَةِ بطَريقِ المَوصوليَّةِ: ﴿ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾؛ لِمَا يُؤذِنُ به المَوصولُ مِن عِلَّةِ التَّسبيحِ حتَّى يَصيرَ الحمدُ الَّذي أفادَه التَّسبيحُ شُكرًا لتَعليلِه بأنَّه في مُقابَلةِ التَّسخيرِ لنا[٦].

- قَولُه: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ هذا مِن تَمامِ ذِكْرِ نِعمَتِه تعالى؛ إذ بدونِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اعتِرافِ المُنعَمِ عليه بالعَجزِ عن تَحصيلِ النِّعمةِ لا يَعرِفُ قدْرَها، ولا حقَّ المُنعِمِ بها[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ خُتِم الشُّكرُ والثَّناءُ بالاعتِرافِ بأنَّ المَرجِعَ إلى اللهِ، أي: بعْدَ المَوتِ بالبَعثِ للحِسابِ والجَزاءِ، وهذا إدماجٌ[٢] لتَلقينِهم الإقرارَ بالبَعثِ[٣].

- وفيه تَعريضٌ بسُؤالِ إرجاعِ المُسافِرِ إلى أهلِه؛ فإنَّ الَّذي يَقدِرُ على إرجاعِ الأمواتِ إلى الحياةِ بعْدَ الموتِ يُرجَى لإرجاعِ المُسافِرِ سالِمًا إلى أَهلِه[٤].

- والانقِلابُ: الرُّجوعُ إلى المكانِ الَّذي يُفارِقُه، والجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ التَّنزيهِ عَطْفَ الخَبَرِ على الإنشاءِ، وفي هذا تَعريضٌ بتَوبيخِ المُشرِكين على كُفرانِ نِعمةِ الله بالإشراكِ، وبنِسبةِ العَجْزِ عن الإحياءِ بعْدَ المَوتِ؛ لأنَّ المعنى: وجَعَل لكم مِن الفُلكِ والأنعامِ ما تَركبونَ؛ لِتَشكُروا بالقَلبِ واللِّسانِ فلمْ تَفعَلُوا، ولِمُلاحَظةِ هذا المعنى أُكِّد الخبَرُ بـ (إنَّ)، واللَّامِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١).

(٢) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غَرَضًا في غرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرَّحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٥).

والجُملةِ الاسميَّةِ[١].

- وفيه تَعريضٌ بالمُؤمنينَ بأنْ يَقولُوا هذه المَقالةَ كما شَكَروا لِلهِ ما سخَّر لهم مِن الفُلكِ والأنعامِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، وقال في سُورةِ (الشُّعراءِ): ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، فأكَّدَ قَولَه هنا: ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾، ولم يُؤكِّدْ في سُورةِ (الشُّعراءِ)، فلمْ تَدخُلِ اللَّامُ على خَبَرِ (إنَّا) دُخولَها في الأوَّلِ؛ وذلك لأنَّ معنى قَولِه: ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ إلى آخِرِ الآيةِ: لِتَذكُروا إنعامَ الله عليكُم وتَشكُروه، وتُخالِفوا الكُفَّارَ بأنْ تُقِرُّوا بما أنكَروه، فتُؤمِنوا بالبَعثِ والحَياةِ بعْدَ المَوتِ، وهذا خِطابٌ لكُلِّ مَن كان في ذلك العَصرِ، ومَن يكونُ بَعدَهم إلى انقِضاءِ الدَّهرِ؛ فالتَّوكيدُ لِمِثلِه لازِمٌ، وفي الكلامِ الَّذي يَأتي للتَّأبيدِ واجِبٌ. والَّذي في سُورةِ (الشُّعَراءِ) إنَّما هو خَبرٌ عن السَّحَرةِ لَمَّا آمَنوا، ووَصَفوا حالَهم واستِهانَتَهم بما خُوِّفوا أنْ يَنالَهم مِن عُقوبةِ فِرعونَ؛ إذ كان مُنقَلَبُهم إلى رَبِّهم، وكانوا مُجازَينَ على إيمانِهم وصِدقِهم وصَبرِهم؛ فلم يَحتَجْ مِن التَّوكيدِ إلى ما احتاجَ إليه ما هو على التَّأبيدِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٧١، ١١٧٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٣).

الآيات (١٥-١٨)

﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَصْفَىٰكُم﴾: أي: أخلَصَكم وخَصَّكم، وأصلُ الصَّفاءِ: يدُلُّ على خُلوصِ الشَّيءِ[١].

﴿ كَظِيمٌ ﴾: أي: مُمتلِئٌ حُزنًا وغَمًّا يُمسِكُ على حزنِه لا يُظهِرُه ولا يَشكوه، وأصلُ (كظم): يدُلُّ على إمساكِ الشَّيءِ وجَمعِه[٢].

﴿ يُنَشَّؤُا۟ ﴾: أي: يُرَبَّى، والنُّشوءُ: التَّربيةُ، يُقالُ: نَشأتُ في بني فُلانٍ نَشْأً ونُشوءًا: إذا شَبَبتَ فيهم، وأصلُ (نشأ): يدُلُّ على ارتِفاعٍ في شَيءٍ[٣].

﴿ٱلْحِلْيَةِ﴾: الزِّينةِ والحُلِيِّ، وأصلُ (حلو) هنا: تَحْسينُ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤، ٣٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾

قَولُه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ﴾: يجوزُ في «مَن» وَجهانِ؛ أحدُهما: أن يكونَ في محَلِّ نَصبٍ مَفعولًا به بفِعلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: أوَيجعَلونَ له مَن يُنَشَّأُ في الحِليةِ؟! والثَّاني: أن يكونَ مُبتدَأً وخبَرُه محذوفٌ، تقديرُه: أومَن يُنَشَّأُ في الحِليةِ جُزءٌ أو ولَدٌ له سُبحانَه[1]؟!

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا افتراءاتِ المشركينَ: وجَعَل المُشرِكونَ لله سُبحانَه وتعالى بَعضًا مِن خَلْقِه، فقالوا: الملائِكةُ بَناتُ اللهِ! إنَّ الإنسانَ لَكَفورٌ لِنِعَمِ اللهِ تعالى، ظاهِرُ الكُفرانِ لها.

ثمَّ يرُدُّ اللهُ تعالى مُنكِرًا عليهم، فيقولُ: أَتَّخَذَ اللهُ تعالى لِنَفْسِه بَناتٍ مِن خَلقِه كما زَعمتُم -أيُّها المُشرِكونَ- واختَصَّكم بالبَنينَ؟!

وإذا بُشِّرَ أحَدُ أولئك المُشرِكينَ بما نَسَبوه لله تعالى مِن البَناتِ، ظلَّ وَجهُه مُسْودًّا وهو مُمتَلِئٌ غَيظًا لا يُظهِرُه!

أوَيجعَلونَ له مَن يُرَبَّى مِن أوَّلِ عَهْدِه في الحُلِيِّ والزِّينةِ -يعني: البَناتِ- وهو في المُخاصَمةِ والمُنازَعةِ ليس عِندَه بيانٌ، ولا يأتي ببُرهانٍ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ١٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٧)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٧٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]؛ بيَّنَ أنَّهم معَ إقرارِهم بذلك جَعَلوا له مِن عِبادِه جُزءًا[١].

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾.

أي: وجَعَل المُشرِكونَ لله بَعضًا مِن خَلْقِه، فقالوا: الملائِكةُ بَناتُ اللهِ[٢]!

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ لَشَديدُ الجُحودِ لِنِعَمِ اللهِ تعالى، ظاهِرُ الكُفرانِ لها[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦].

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٠، ٥٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٧١)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٧).

قال القرطبي: (فجَعَلوهم جُزءًا له وبَعضًا، كما يكونُ الوَلَدُ بَضْعةً مِن والِدِه وجُزءًا له). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٩).

وقال البِقاعي: (﴿جُزْءًا﴾ أي: وَلَدًا هو -لحَصرِهم إيَّاه في الأنثى- أحَدُ قِسمَيِ الأولادِ، وكُلُّ ولَدٍ فهو جزءٌ مِن والِدِه، ومَن كان له جُزءٌ كان مُحتاجًا؛ فلم يكُن إلهًا). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٨).

قال البيضاوي: (ومِن ذلك نِسبةُ الوَلَدِ إلى اللهِ؛ لأنَّها مِن فَرطِ الجَهلِ به، والتَّحقيرِ لِشَأنِه). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨).

أي: أم اتَّخَذَ اللهُ تعالى لِنَفْسِه بناتٍ مِن خَلقِه كما زَعمتُم -أيُّها المُشرِكونَ- وأنتم لا تَرضَونَهنَّ لأنفُسِكم، واختَصَّكم أنتم بالبَنينَ فجعَلَهم لكم[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل: ٦٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٩].

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: وإذا أُخبِرَ أحَدُ أولئك -الَّذين قالوا: الملائِكةُ بَناتُ اللهِ- بوِلادةِ امرأتِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩٠).

قال الواحدي: (﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ هذا استِفهامُ تَوبيخٍ، يقولُ: أَتَّخذَ رَبُّكم لِنَفْسِه البَناتِ ﴿وَأَصْفَىٰكُم﴾ واختَصَّكم وأخلَصَكم ﴿بِٱلْبَنِينَ﴾... وهذه الآيةُ كقَولِه: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ [الإسراء: ٤٠]، قال أهلُ المعاني: والحُجَّةُ عليهم في هذه الآيةِ أنَّه ليس يَحكُمُ مَن اختارَ لِنَفْسِه أدْوَنَ المُبدَلَينِ ولِغَيرِه أعلاها، ولو كان على ما يقولُه المُشرِكونَ مِن اتِّخاذِ الوَلَدِ لم يتَّخِذْ لِنَفْسِه البَناتِ، ويُصْفِهم بالبَنينَ! فغَلِطوا في الأصلِ، وهو: جوازُ اتِّخاذِ الوَلَدِ، وفي البِناءِ على الأصلِ، وهو اتِّخاذُ البَناتِ؛ فنَعوذُ باللهِ مِن الخَطأِ في الدِّينِ). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٠).

وقال ابنُ القيِّمِ في تفسيرِ ﴿ أَمِ ﴾ المُنقطِعةِ: (الحقُّ أن يُقالَ: إنَّها على بابِها وأصلِها الأوَّلِ مِن المُعادَلةِ والاستِفهامِ حيث وقعتْ وإن لم يكُنْ قبْلَها أداةُ استِفهامٍ في اللَّفظِ، وتقديرُها بـ «بَلْ» والهمزةِ خارجٌ عن أُصولِ اللُّغةِ العربيَّةِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٠٦، ٢٠٧). ويُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

لِما نَسَبوه لله تعالى مِن البَناتِ، ظَلَّ وَجهُه أسوَدَ اللَّونِ، وهو مُمتَلِئٌ غَيظًا؛ فهم يأنَفونَ مِن البَناتِ ويَكرهونَهنَّ، ومع ذلك يَنسُبونَهنَّ لله تعالى(١)!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩].

وقال الله سُبحانَه: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾.

أي: أوَجَعَلوا ولدًا لله مَن شأنُه أنْ يُرَبَّى في الزِّينةِ، وإذا خُوصِم لا يَقدِرُ على إقامةِ حُجَّتِه، ودفْعِ ما يُجادِلُه به خَصْمُه لِنُقصانِ عقلِه، وضَعفِ رَأْيِه(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٢، ٥٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٨٣، ٨٤).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٠٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٩).
قال ابنُ عطية: (والمرادُ بـ: «مَنْ»: النِّساءُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩).
وقال ابنُ زَيدٍ: (هذه تماثيلُهم الَّتي يَضرِبونَها مِن فِضَّةٍ وذَهَبٍ يَعبُدونَها، هم الَّذين أنشَؤوها، ضرَبوها مِن تلك الحِلْيةِ ثمَّ عبَدوها! ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨] قال: لا يَتكَلَّمُ، وقرأ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤]). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٥).
وقال ابن عاشور: (والخِصامُ ظاهِرُه المُجادَلةُ والمُنازَعةُ بالكلامِ والمُحاجَّةُ... ويجوزُ عندي: أن يُحمَلَ الخِصامُ على التَّقاتُلِ والدِّفاعِ باليَدِ؛ فإنَّ الخَصمَ يُطلَقُ على المحارِبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨١). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٠٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ عبَّرَ بقَولِه: ﴿ بِمَا ضَرَبَ ﴾ دونَ أن يَقولَ: (بما جَعَلَ)؛ تعليمًا للأدَبِ في حَقِّه سُبحانَه في هذه السُّورةِ الَّتي مَقصودُها العِلمُ المُوجِبُ للأدَبِ، وزيادةً في تقبيحِ كُفرِهم لا سيَّما إن أرادوا الحقيقةَ، بالإشارةِ إلى أنَّ الوَلَدَ لا يكونُ إلَّا مِثلَ الوالِدِ، لا يُتصَوَّرُ أصلًا أن يكونَ خارِجًا عن شَبَهِه في خاصٍّ أوصافِه[١].

٢- التَّسَخُّطُ بالإناثِ مِن أخلاقِ أهلِ الجاهليَّةِ، الذين ذَمَّهم اللهُ في قولِه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، وقولِه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩][٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الرَّجُلَ لا يُناسِبُ له التَّزيُّنُ كالمرأةِ، ويَنبغي أن يكونَ مُخشَوْشِنًا[٣]، فقد جَعَل النَّشْءَ في الزِّينةِ والنُّعومةِ مِن المَعايِبِ والمَذامِّ، وأنَّه مِن صِفَةِ رَبَّاتِ الحِجالِ؛ فعلى الرَّجُلِ أن يَجتَنِبَ ذلك، ويَأنَفَ منه، ويَربَأَ بنَفْسِه عنه، وإنْ أراد أنْ يُزيِّنَ نفْسَه زيَّنَها مِن باطِنٍ بلِباسِ التَّقوى[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ أنَّ الولدَ جزءٌ مِن الوالِدِ؛

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١٤).

وجْهُه: قولُهم: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ؛ فدلَّ على أنَّ الولدَ جزءٌ مِن الوالِدِ، وعلى هذا الأصلِ امتَنَعتْ شهادتُه له، وقَطْعُه بالسَّرِقةِ مِن مالِه، وحَدُّه أباه على قَذفِه[١]، ولذلك كان الولدُ في التَّعصيبِ - في بابِ الميراثِ - مُقَدَّمًا على الوالدِ، بمعنى: أنَّه لو مات ميتٌ عن أبيه وابنِه؛ فلأبيه السُّدُسُ فرضًا، والباقي للابنِ تعصيبًا، فسَهْمُ الابنِ الآنَ خمسةٌ مِن ستَّةٍ، وسهمُ الأبِ واحدٌ مِن ستَّةٍ؛ لأنَّ الابنَ جزءٌ مِن أبيه فقُدِّمَ، ولذلك يجوزُ للأبِ أنْ يَتمَلَّكَ مِن مالِ ولدِه -لأنَّ ولَدَه جزؤُه- ما شاء؛ بشرطِ ألَّا يكونَ الولدُ محتاجًا إليه؛ أو تَتعلَّقَ به نَفْسُه[٢].

٢- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: أنَّ كَونَهم مِن عِبادِ اللهِ يَمنَعُ غايةَ المنْعِ أنْ يَكونوا جُزْءًا مِن اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ المعبودَ غيرُ العابدِ، فلا يُمكِنُ أنْ يكونَ العابدُ جُزءًا مِن المعبودِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ إلى قولِه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ قد جَمَعوا في كُفرِهم أنواعًا مِن الكُفرِ؛ وذلك أنَّهم نَسَبوا إلى اللهِ تعالى الولَدَ، ونَسَبوا إليه ما يَعتبِرونَه أخَسَّ النَّوعَينِ، وجعَلوه مِن الملائِكةِ المُكْرَمينَ، فاستَخَفُّوا بهم[٤]!

٤- قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ في قَولِه: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ تَنبيهٌ على استِحالَةِ الوَلَدِ، ذَكَرًا كان أو أُنثَى، وإنْ فُرِض اتِّخاذُ الوَلَدِ؛ فكيف يَختارُ له الأدنَى، ويَخُصُّكم بالأعلَى[٥]؟! ومَحلُّ الاستِدلالِ هنا

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٣).

أنَّ الإناثَ مَكروهةٌ عِندَهُم، فكيف يَجعَلون لِلهِ أبناءً إناثًا، وهَلَّا جَعَلوها ذُكورًا! ولَيسَت لهم مَعذِرةٌ عن الفَسادِ المُنجَرِّ إلى مُعتَقَدِهم بالطَّريقَينِ؛ لأنَّ الإبطالَ الأوَّلَ نَظريٌّ يَقينيٌّ، والإبطالَ الثَّانيَ جَدَليٌّ بَديهيٌّ؛ قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]، فهذه حُجَّةٌ ناهِضةٌ عليهم؛ لاشتِهارِها بيْنَهم[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أنَّ طَريقةَ القرآنِ فيما يُثبِتُه للرَّبِّ -تعالى- ويَنفيه عنه: مَبنيَّةٌ على بُرهانِ الأَولى، لا على البُرهانِ الَّذي تَستوي أفرادُه، أو يُماثِلُ فَرعُه أصْلَه[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى نقصِ المرأةِ وضَعفِها الخَلْقيَّينِ الطَّبيعيَّينِ؛ لأنَّ نشأتَها في الحِليةِ دليلٌ على نقصِها المُرادِ جَبرُه والتَّغطيةُ عليه بالحلي، ولأنَّ عدَمَ إبانتِها في الخِصامِ إذا ظُلِمتْ دليلٌ على الضَّعفِ الخلْقيِّ، وفيه أيضًا دليلٌ على أنَّ الذُّكورةَ قوَّةٌ وكمالٌ، والأنوثةَ ضَعفٌ خلْقيٌّ جِبلِّيٌّ، ونقصٌ خلقيٌّ جبَلَ اللهُ هذا النَّوعَ مِن الإنسانِ عليه[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أنَّ الآباءَ مَندوبونَ إلى تحليةِ بناتِهم؛ لأنهنَّ لا يَقْدِرنَ على النُّشوءِ فيه صِغارًا إلَّا وقد حُلِّيْنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٢١).
ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٨٨).

بما يُنشَّأْنَ عليه[١].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ يدُلُّ على أنَّ التَّحَلِّيَ مُباحٌ للنِّساءِ، والإجماعُ مُنعَقِدٌ عليه، والأخبارُ في ذلك لا تُحصى[٢]، فالمرأةُ مُحتاجةٌ إلى التَّزَيُّنِ والتَّجَمُّلِ؛ ومِن ذلك ما تَضَعُه في أُذُنِها مِن الخُرُوصِ[٣] ونحوِها، وعلى هذا فلا حَرَجَ أنْ تَثْقُبَ شَحْمةَ أُذُنِها لِتُعَلِّقَ بها الحليَّ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٍ﴾ أنَّ الرِّجالَ لا يجوزُ لهم التَّحَلِّي بحُلِيِّ النِّساءِ -تشبُّهًا بهنَّ- لأنَّ ذلك أمَارةُ نقصِ المرأةِ[٥].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٍ﴾ أنَّ المرأةَ إذا كان لها حقٌّ تُطالِبُ به وَكَّلَتْ رجُلًا يُطالِبُ لها؛ إذْ هي غيرُ مُبينةٍ في خصومتِها[٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًا﴾ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الزخرف: ٩]، أي: ولئنْ سأَلْتَهم عن خالِقِ الأشياءِ، لَيَعْترِفُنَّ به، وقد جَعَلوا له مع ذلك الاعترافِ جُزءًا؛ فالواوُ للعطْفِ على

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٤).

(٣) الخروصُ: جمعُ الخُرصِ، وهو الحَلْقَةُ مِن الذَّهَبِ والفِضَّةِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لأبي عبد الله الرازي (ص: ٨٩).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١١/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

جُملةِ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾. ويَجوزُ كَونُها للحالِ، على معنى: وقد جَعَلوا له مِن عِبادِه جُزءًا، ومعنى الحالِ تُفيدُ تَعجُّبًا مِن المُشرِكين في تَناقُضِ آرائِهم وأَقوالِهم وقَلبِهمُ الحَقائِقَ، وهي غَبارَةٌ في الرَّأيِ تَعرِضُ للمُقَلِّدينَ في العَقائِدِ الضَّالَّةِ؛ لأنَّهم يُلَفِّقون عَقائِدَهم مِن مُختَلِفِ آراءِ الدُّعاةِ؛ فيَجتَمِعُ للمُقَلِّدِ مِن آراءِ المُختَلِفينَ في النَّظرِ ما لو اطَّلَع كلُّ واحِدٍ مِن المُقتَدِينَ بهم على رأيِ غَيرِه منهم لَأَبطَلَه، أو رَجَع عن الرَّأيِ المُضادِّ له؛ فالمُشرِكون مُقِرُّون بأنَّ اللهَ خالِقُ الأشياءِ كلِّها، ومع ذلك جَعَلوا له شُركاءَ في الإلهيَّةِ، وكيف يَستقيمُ أنْ يكونَ المخلوقُ إلهًا؟! وجَعَلوا للهِ بَناتٍ، والبُنوَّةُ تَقْتضي المُماثَلةَ في الماهيَّةِ، وكيف يَستقيمُ أنْ يكونَ لِخالِقِ الأشياءِ كلِّها بَناتٌ؟! فهُنَّ لا مَحالةَ مخلوقاتٌ له، فإنْ لم يكُنَّ مَخلوقاتٍ لَزِمَ أنْ يكُنَّ مَوجوداتٍ بوُجودِه، فكيف تَكُنَّ بَناتِه؟! وإلى هذا التَّناقُضِ الإشارةُ بقولِه: ﴿ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾، أي: مِن مَخلوقاتِه، أو ليستِ العُبوديَّةُ الحقَّةُ إلَّا عُبوديَّةَ المخلوقِ[(١)].

- قولُه: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ أي: ولَدًا، فقالوا: الملائكةُ بَناتُ اللهِ، ولَعلَّه سمَّاه جُزءًا كما سُمِّيَ بَعضًا؛ لأنَّه بَضعَةٌ مِن الوالِدِ؛ دَلالةً على استِحالَتِه على الواحِدِ الحَقِّ في ذاتِه[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ تَذْييلٌ يدُلُّ على استِنكارِ ما زَعَموهُ بأنَّه كُفرٌ شَديدٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٧).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾

- (أم) للإضرابِ، وهو هنا انتِقاليٌّ؛ لانتِقالِ الكلامِ مِن إبْطالِ مُعتَقَدِهُم بُنُوَّةَ المَلائِكةِ للهِ تعالى بما لَزِمَه مِنِ انتِقاصِ حَقيقةِ الإلهيَّةِ، إلى إبطالِه بما يَقتَضِيه مِنِ انتِقاصٍ يُنافي الكَمالَ الَّذي تَقتَضِيه الإلهيَّةُ[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ تَجهيلًا لهم، وتَعجُّبًا مِن شَأنِهم، حيثُ لم يَرضَوا بأنْ جَعَلوا للهِ مِن عِبادِه جُزءًا، حتَّى جَعَلوا ذلك الجُزءَ الإناثَ دونَ الذُّكورِ، على أنَّهُم أَنفَرُ خَلقِ اللهِ عن الإناثِ، وأمقَتُهم لَهُنَّ، كما اقتَضاهُ قَولُه: ﴿وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾[٢].

- و(أمْ) حَيثما وقَعَت تَقتَضِي تَقديرَ استِفهامٍ بَعدَها، وهو هنا استِفهامٌ في معنى الإنكارِ، وتَسَلُّطَ الإنكارُ على اتِّخاذِ البَناتِ مع عَدَمِ تَقدُّمِ ذِكْرِ البَناتِ؛ لِكَونِ المَعلومِ مِن جَعْلِ المُشرِكين للهِ جُزءًا أنَّ المَجعولَ جُزءًا له هو المُلائكةُ، وأنَّهم يَجعَلون الملائكةَ إناثًا، فذلك مَعلومٌ مِن كَلامِهم[٣].

- وأُوثِرَ فِعلُ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ هنا دونَ غَيرِه؛ لأنَّه يَشمَلُ الاتِّخاذَ بالوِلادةِ، ويَشمَلُ ما هو دونَ ذلك، وهو التَّبَنِّي؛ فعَلى كِلَا الفَرضَينِ يتَوَجَّهُ إنكارُ أنْ يكونَ ما هو للهِ أدوَنَ ممَّا هو لهم، وقد أشارَ إلى هذا قَولُه: ﴿وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾؛ فهذا ارتِقاءٌ في إبطالِ مُعتَقَدِهم بإبطالِ فَرْضِ أنْ يَكونَ اللهُ تَبَنَّى الملائكةَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٧، ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٨).

سَدًّا على المُشرِكين بابَ التَّأوُّلِ والتَّنصُّلِ مِن فَسادِ نِسبَتِهم البَناتِ إلى اللهِ تعالى[١].

- وجُملةُ ﴿وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ، والنَّفيُ الحاصِلُ مِن الاستِفهامِ الإنكاريِّ مُنصَبٌّ إلى قَيدِ الحالِ، فحَصَل إبطالُ اتِّخاذِ اللهِ البَناتِ بدَليلَينِ؛ لأنَّ إعطاءَهُم البَنينَ واقِعٌ؛ فنَفيُ اقترانِه باتِّخاذِه لنَفْسِه البَناتِ يَقتَضِي انتِفاءَ اتِّخاذِه البَناتِ؛ فالمَقصودُ اقترانُ الإنكارِ بهذا القَيدِ[٢].

- وتَنكيرُ ﴿بَنَاتٍ﴾؛ لأنَّ التَّنكيرَ هو الأصلُ في أسماءِ الأجناسِ، وأمَّا تَعريفُ ﴿بِٱلۡبَنِينَ﴾ باللَّامِ فهو تَعريفُ الجِنسِ، والمَقصودُ منه هنا الإشارةُ إلى المَعروفِ عِندَهم، المُتنافَسِ في وُجودِه لَدَيهم[٣].

- وتَقديمُ البَناتِ في الذِّكرِ على البَنينَ؛ لأنَّ ذِكْرَهنَّ أهمُّ هنا؛ إذ هو الغَرضُ المَسُوقُ له الكَلامُ، ولِمَا في التَّقديمِ مِن الرَّدِّ على المُشرِكين في تَحقيرِهِم البَناتِ وتَطَيُّرِهم مِنهُنَّ، فجاء ذِكرُ البَنينَ مُستطَردًا؛ لِمَزيدِ الإنكارِ والتَّتميمِ[٤]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٨، ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٩).

(٤) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو: هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو: هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

فيه[١].

- وأيضًا التَّقديمُ والتَّنكيرُ والتَّعريفُ في لَفظَتَيْ ﴿بَنَاتٍ﴾ و﴿بِٱلْبَنِينَ﴾ فيه مُراعاةٌ للفواصِلِ[٢].

- والخِطابُ في ﴿وَأَصْفَىٰكُم﴾ مُوَجَّهٌ إلى الَّذين جَعَلوا له مِن عِبادِه جُزءًا، وفيه الْتِفاتٌ مِن الغَيْبَةِ إلى الخِطابِ؛ لِيَكونَ الإنكارُ والتَّوبيخُ أوقَعَ عليهم لِمُواجَهَتِهم به، ولتَأكيدِ الإلزامِ، على مَعنَى: هَبُوا أنَّكُم اجترَأتُم على إضافةِ اتِّخاذِ جِنسِ الوَلَدِ إليه سُبحانَه، مع ظُهورِ استِحالَتِه وامتِناعِه، أمَا كانَ لكم شَيءٌ مِن العَقلِ ونُبَذٌ مِن الحَياءِ حتَّى اجترَأتُم على التَّفَوُّهِ بالعَظيمةِ الخارِقةِ للعُقولِ، مِن ادِّعاءِ أنَّه تعالى آثَرَكُم على نَفْسِه بخَيرِ الصِّنفَينِ وأعلاهُما[٣]؟!

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ استِئنافٌ مُقَرِّرٌ لِمَا قبْلَه، وقيل: حالٌ على مَعنَى: أنَّهم نَسَبوا إليه ما ذَكَروا ومِن حالِهم أنَّ أحدَهُم إذَا بُشِّرَ بِهِ اغتَمَّ، وعَدَل عن ضَميرِ الخِطابِ إلى ضَميرِ الغَيبةِ على طَريقِ الالْتِفاتِ؛ للإيذانِ باقتِضاءِ ذِكْرِ قَبائِحِهم أنْ يُعرَضَ عنهم وتُحكَى لغَيرِهم؛ تَعجُّبًا مِن فَسادِ مَقالَتِهم، وتَشنيعًا بها؛ إذ نَسَبوا للهِ بناتٍ دونَ الذُّكورِ، وهو نَقصٌ، وكانوا مِمَّن يَكرَهُ البَناتِ ويُحَقِّرُهُنَّ؛ فنِسبَتُها إلى اللهِ مُفضٍ إلى الاستِخفافِ بجانِبِ الإلهيَّةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٢).

- قولُه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم ... ﴾ استِعمالُ البِشارةِ هنا تَهَكُّمٌ بهم؛ كقَولِه: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانشقاق: ٢٤]؛ لأنَّ البِشارةَ إعلامٌ بحُصولِ أَمرٍ مُفرِحٍ[١]، وذلك بناءً على أنَّ البشارةَ لا تكونُ إلَّا فيما يسرُّ.

٤- قولُه تعالَى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ عَطْفُ إنكارٍ على إنكارٍ، والواوُ عاطفةُ الجُملةِ على الجملةِ، وهي مُؤخَّرةٌ عن همزةِ الاستِفهامِ؛ لأنَّ للاستِفهامِ الصَّدرَ في الكلامِ، وأصلُ التَّرتيبِ: (وَأَمَن يُنشَّأُ)، وجملةُ الاستِفهامِ مَعطوفةٌ على الإنكارِ المُقَدَّرِ بعْدَ (أم) في قَولِه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ [الزخرف: ١٦]؛ تَكريرًا للإنكارِ، وتَثنِيَةً للتَّوبيخِ على نِسبةِ البَناتِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ. ويجوزُ أنْ يَكونَ ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ ﴾ بدَلًا مِن قَولِه: ﴿ بَنَاتٍ ﴾ بدَلًا مُطابِقًا، وأُبرِزَ العامِلُ في البَدَلِ؛ لتَأكيدِ معنَى الإنكارِ، ولا سِيَّما وهو قد حُذِفَ مِن المُبدَلِ منه؛ وإذ كان الإنكارُ إنَّما يتَسلَّطُ على حُكمِ الخَبَرِ، كان مُوجبُ الإنكارِ الثَّاني مُغايِرًا لمُوجبِ الإنكارِ الأوَّلِ، وإنْ كان المَوصوفُ بالوصفَينِ اللَّذَينِ تَعَلَّق بهما الإنكارُ مَوصوفًا واحِدًا، وهو الأُنثَى[٢].

- قولُه: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ ... ﴾ النَّشءُ في الحِليةِ كِنايةٌ عن الضَّعفِ عن مُزاوَلَةِ الصِّعابِ بحَسَبِ المُلازَمةِ العُرفيَّةِ فيه، والمَعنَى: أنْ لا فائِدةَ في اتِّخاذِ اللهِ بَناتٍ لا غَناءَ لهنَّ؛ فلا يَحصُلُ له باتِّخاذِها زِيادةُ عِزَّةٍ؛ بناءً على مُتعارَفِهم؛ فهذا احتِجاجٌ إقناعيٌّ خطابيٌّ، والمَقصودُ مِن هذا: فَضحُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٠، ١٨١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٣).

مُعتَقَدِهم الباطِلِ، وأنَّهم لا يُحسِنون إعمالَ الفِكرِ في مُعتَقَداتِهم، وإلَّا لَكانوا حينَ جَعَلوا للهِ بُنُوَّةً ألَّا يَجعَلوا له بُنُوَّةَ الإناثِ، وهم يَعُدُّون الإناثَ مَكروهاتٍ مُستَضعَفاتٍ[١].

- الحاصلُ أنَّ في ظاهرِ قولِه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ إنكارَ نِسبةِ البَناتِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وفي العُدولِ إلى هذه الألفاظِ مِن التَّصريحِ بذِكْرِ «البَناتِ»: إدماجٌ[٢] لمَعنَى ذمِّ التَّشَبُّهِ بالنِّساءِ، وفي مَفهومِ المُدمَجِ رَمزٌ إلى التَّرغيبِ في التَّزَيُّنِ بلِباسِ التَّقوَى، والاهتِمامِ بعِمارةِ الباطِنِ، ورَفضِ الالْتِفاتِ إلى الظَّاهِرِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨١، ١٨٢).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١٤).

الآيات (١٩-٢٥)

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَخْرُصُونَ﴾: أي: يَكذِبونَ، وأصلُ الخَرْصِ: التَّظَنِّي (إعمالُ الظَّنِّ) فيما لا تَستَيقِنُه، ومنه قيل: خَرَصْتُ النَّخْلَ خَرْصًا: إذا حَزَرْتَه؛ لأنَّ الحَزْرَ فيه ظَنٌّ لا إحاطةٌ، ثمَّ قيلَ للكَذِبِ: خَرْصٌ؛ لِما يَدخُلُه مِن الظُّنونِ الكاذِبةِ(١).

﴿أُمَّةٍ﴾: أي: دِينٍ ومِلَّةٍ، والأصلُ أنَّه يُقالُ للقَومِ يجتمعونَ على دِينٍ واحدٍ: أُمَّةٌ، فتُقامُ الأُمَّةُ مقامَ الدِّينِ، وتُطلَقُ الأُمَّةُ أيضًا على البُرْهةِ مِن الزَّمنِ، والرَّجُلِ المُقتدَى به، والأصلِ، والمرجِعِ، ويُقالُ لِكلِّ ما كان أصلًا لوُجودِ شَيءٍ أو تربيتِه أو إصلاحِه أو مبدئِه: أُمٌّ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨، ١٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨، ٢٣١، ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١، ١٤٤)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة =

﴿ءَاثَٰرِهِم﴾: أي: خُطاهم، وما استُنَّ به بَعدَهم مِن سُنَنِهم، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي[١].

﴿مُتۡرَفُوهَآ﴾: أي: أغنياؤُها ورُؤساؤُها المُنَعَّمونَ فيها، الَّذين قد أبطَرَتْهم النِّعمةُ وسَعَةُ العَيشِ، وأصلُ (ترف): يدُلُّ على التَّوسُّعِ في النِّعمةِ[٢].

﴿عَٰقِبَةُ﴾: عاقبةُ كلِّ شيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقِبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العُقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شَيءٍ وإتيانُه بعدَ غيرِه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى متوعِّدًا الَّذين افترَوا عليه الكذبَ: وجعَل كُفَّارُ العَرَبِ الملائِكةَ الَّذين هم عِبادٌ لله إناثًا! فهل شَهِدوا خَلْقَ اللهِ للمَلائِكةِ، فعَرَفوا أنَّهم إناثٌ؟! ستُكتَبُ شَهادتُهم، ويُسألونَ عنها يومَ القيامةِ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى شُبهةً مِن شُبَهِهم، ويَرُدُّ عليهم بما يَقطَعُ شُبهتَهم، فيقولُ: وقال أولئك المُشرِكونَ: لو شاء الرَّحمنُ ما عبَدْناهم! ما للمُشرِكينَ عِلمٌ بما قالوه وادَّعَوْه، فما هم إلَّا كاذِبونَ. فهل أعطَيْنا أولئك الكاذِبينَ كِتابًا مِن قَبلِ هذا

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٣٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

القُرآنِ يُثبتُ صِحَّةَ دَعواهم، فهم بذلك الكِتابِ مُتمَسِّكونَ؟! ليس الأمرُ كذلك، بل قالوا: إنَّا وجَدْنا آباءَنا على ذلك الدِّينِ والمُعتَقَدِ، ونحن بهم مُقتَدونَ!

ثمَّ يُسلِّي اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مبيِّنًا أنَّ هؤلاءِ المشركينَ قد سبَقهم مَن قال مِثلَ مقالتِهم، فيقولُ: وكما فَعَل مُشركو قُرَيشٍ فَعَل كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ، وقالوا مِثلَ قَولِهم؛ فما أرسَلْنا قَبْلَك -يا مُحمَّدُ- رَسولًا إلى أهلِ قَريةٍ لِيُنذِرَهم عَذابَ اللهِ تعالى إلَّا قالَ رؤُساؤُها المُتنَعِّمونَ فيها -على سَبيلِ البَطَرِ والمُفاخَرةِ-: إنَّا وَجَدْنا آباءَنا على طَريقةٍ مَعهودةٍ مُعَيَّنةٍ لا نَترُكُها.

فقال الرَّسولُ لهم: أتُقَلِّدونَ آباءَكم وتتَّبِعونَهم على الضَّلالِ ولو جِئتُكم بِدينٍ هو أهدى وأنفَعُ لكم في أُولاكم وأُخراكم ممَّا وَجدتُم عليه آباءَكم؟! قال المُشرِكونَ: إنَّا بالَّذي أُرسِلتُم به كافِرونَ، فلمَّا أصَرُّوا على ضَلالِهم وعِنادِهم أخَذْناهم مُهانِينَ صاغِرينَ فعاقَبْناهم؛ فانظُرْ -يا مُحمَّدُ- كيف كان مآلُ أمرِ أولئك المُصِرِّينَ على التَّكذيبِ؛ فسَيؤُولُ أمرُ هؤلاء أيضًا إلى أمثالِه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿عِندَ﴾ أي: وجَعَلوا ملائِكةَ اللهِ الَّذين هم عِندَه يُسَبِّحونَه ويُقَدِّسونَه إناثًا[1].

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ كثير، وابنُ عامر، وأبو جعفرٍ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٨). =

٢- قِراءةُ ﴿عِبَٰدُ﴾ جَمعُ عَبدٍ، أي: وجَعَلوا ملائِكةَ اللهِ الَّذين هم عِبادٌ له إناثًا(١).

﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا﴾.

أي: واعتقد كُفَّارُ العَرَبِ الملائِكةَ -الَّذين هم عِبادٌ لله- إناثًا(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ۞ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ [النجم: ٢٧، ٢٨].

﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٦)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٠).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٧)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٠).

قال ابن جرير: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي أنَّهما قِراءتانِ مَعروفتانِ في قَرَأةِ الأمصارِ، صحيحتَا المعنى، فبأيَّتِهما قرأ القارئُ فمُصيبٌ؛ وذلك أنَّ الملائكةَ عِبادُ اللهِ وعِندَه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٣)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٠).

و(جَعَلَ) تَأْتي في القرآنِ لِمَعانٍ، والمرادُ بها هنا اعتقَد. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٦).

قال أبو إسحاقَ الزَّجَّاجُ: (الجَعلُ هاهنا في معنى القَولِ والحُكمِ على الشَّيءِ، تقولُ: قد جعَلْتُ زيدًا أعلَمَ النَّاسِ، أي: قد وصَفْتُه بذلك وحَكَمتُ به). يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤٠٧).

أي: فهل حَضَر أولئك المُشرِكونَ خَلْقَ اللهِ للمَلائِكةِ وشاهَدوه فعرَفوا أنَّهم إناثٌ[(١)]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠].

﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾.

أي: ستُكتَبُ شَهادةُ أولئك الزَّاعِمينَ أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ في الدُّنيا، ويُسألونَ في الآخِرةِ عن شَهادتِهم تلك الَّتي ليس لهم عليها بُرهانٌ، ويُعاقَبونَ على افترائِهم هذا[(٢)].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى حكَى نوعًا آخَرَ مِن كُفرِ المُشرِكينَ وشُبُهاتِهم[(٣)].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾.

أي: وقال المُشرِكونَ: لو شاء الرَّحمنُ ما عبَدْناهم[(٤)]، ولَصَرَفَنا عن ذلك، فتَرْكُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٦).

(٤) قال ابن الجوزي: (في المَكنيِّ عنهم قولان؛ أحدُهما: أنَّهم الملائكةُ. قاله قَتادةُ، ومُقاتِلٌ في آخَرينَ. والثَّاني: الأوثانُ. قاله مجاهِدٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٥).

وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ يعودُ إلى الأوثانِ والأصنامِ: ابنُ جرير، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠). =

إيَّانا دَليلٌ على رِضاه مِنَّا بعِبادتِهم، وأنَّه حقٌّ لا اعتِراضَ عليه[١].

كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾.

أي: ليس للمُشرِكينَ عِلمٌ بصِحَّةِ ما قالوه واحتَجُّوا به[٢].

﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾.

= وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الملائكةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والزمخشري، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤).

قال ابن عاشور: (ضميرُ الغَيبةِ في ﴿مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ عائِدٌ إلى معلومٍ مِن المقامِ ومِن ذِكرِ فِعلِ العبادةِ؛ لأنَّهم كانوا يَعبُدونَ الأصنامَ، وهم الغالِبُ، وأقوامٌ منهم يَعبُدونَ الجِنَّ؛ قال تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾ [سبأ: ٤١]... فضميرُ جمعِ المذَكَّرِ تَغليبٌ، وليس عائدًا إلى الملائكةِ؛ لأنَّهم كانوا يَزعُمونَ الملائكةَ إناثًا، فلو أرادوا الملائكةَ لَقالوا: ما عَبَدْناها، أو ما عبَدْناهُنَّ. وهذا هو الوَجهُ في معنى الآيةِ. ومِن المفَسِّرينَ مَن جَعَل مُعادَ الضَّميرِ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الزخرف: ١٩]، ولعَلَّهم حمَلَهم على ذلك وُقوعُ هذا الكلامِ عَقِبَ حِكايةِ قَولِهم في الملائِكةِ: إنَّهم إناثٌ، وليس اقترانُ كلامٍ بكلامٍ بمُوجِبِ اتِّحادَ مَحمَلَيهما. ... وهو بعيدٌ مِن اللَّفظِ؛ لتذكيرِ الضَّميرِ كما عَلِمْتَ، ومِن الواقِعِ؛ لأنَّ العرَبَ لم يَعبُدْ منهم الملائكةَ إلَّا طوائِفُ قليلةٌ عَبَدوا الجِنَّ والملائِكةَ مع الأصنامِ، وليست هي الدِّيانةَ العامَّةَ للعَرَبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٤، ١٨٥).

وقال ابنُ كثير: (أي: لو أراد اللهُ لَحالَ بيْنَنا وبيْنَ عبادةِ هذه الأصنامِ الَّتي هي على صُوَرِ الملائكةِ الَّتي هي بناتُ اللهِ؛ فإنَّه عالِمٌ بذلك، وهو يُقَرِّرُنا عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٤، ١٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٣).

أي: إنَّما يَقولونَ ذلك كَذِبًا وظَنًّا منهم بلا دَليلٍ ولا بُرهانٍ[١].

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان الإيمانُ بالملائكةِ -الَّذين هم جُندُ المَلِكِ- مِن دَعائِمِ أُصولِ الدِّينِ، وأخبَرَ سُبحانَه أنَّهم وَصَفوهم بغيرِ ما هم عليه، ففرَّطوا بوَصفِهم بالبَناتِ حتَّى أنزَلوهم إلى الحَضيضِ، وأفرَطوا بالعبادةِ حتَّى أعلَوهم عن قَدْرِهم، فانسَلَخوا في كِلا الأمْرَينِ مِن صَريحِ العَقلِ بما أشار إليه ما مضَى- أتْبَعَ ذلك أنَّهم عَرِيُّونَ أيضًا مِن صَحيحِ النَّقلِ؛ فقال مُعادِلًا لِقَولِه: ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ إنكارًا عليهم بعد إنكارٍ: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا ﴾ الآيةَ[٢].

وأيضًا لَمَّا نفَى عنهم عِلْمَ تَرْكِ عِقابِهم على عبادةِ غَيرِ اللهِ، أي: ليس يدُلُّ على ذلك عَقلٌ؛ نفَى أيضًا أن يَدُلَّ على ذلك سَمعٌ، فقال[٣]:

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: فهل أعطَيْنا أولئك المُتخرِّصينَ كِتابًا يُثبِتُ صِحَّةَ دَعواهم مِن قَبلِ نُزولِ هذا القُرآنِ، فهم بذلك الكِتابِ مُتمَسِّكونَ، وعلى العَمَلِ به ثابِتونَ[٤]؟!

كما قال تعالى: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩٥، ٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٦).

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ [فاطر: ٤٠].

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى أنَّه لا دليلَ على صِحَّةِ قَولِهم البتَّةَ لا مِنَ العَقلِ ولا مِنَ النَّقلِ؛ بَيَّنَ أنَّه لا حامِلَ لهم يَحمِلُهم عليه إلَّا التَّقليدُ؛ بِقَولِه تعالى[1]:

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: ليس الأمرُ كذلك، فليس لهم مُستَنَدٌ على صِحَّةِ دَعواهم، وإنَّما حُجَّتُهم الباطِلةُ هي تقليدُ آبائِهم، فيقولونَ: إنَّا وجَدْنا آباءَنا على ذلك الدِّينِ والمُعتقَدِ، ونحن لهم مُتَّبِعونَ[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾.

أي: وكما فَعَل مُشرِكو قُرَيشٍ فَعَل كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ، وقالوا مِثلَ قَولِهم؛ فما أرسَلْنا قَبْلَك -يا مُحمَّدُ- رَسولًا إلى أهلِ قَريةٍ لِيُنذِرَهم عذابَ اللهِ على كُفرِهم وشِرْكِهم إلَّا قال رُؤساؤُهم وكُبَراؤُهم المُنعَّمونَ الَّذين أطْغَتْهم الدُّنيا: إنَّا وَجَدْنا آباءَنا على دينٍ غيرِ الَّذي تَدْعونا إليه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٩، ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٢، ٥٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٤)، ((نظم =

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾.

أي: وإنَّا مُتَّبِعونَ لِطَريقتِهم، ولازِمونَ لها، فلا ننحَرِفُ عنها[١].

﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾.

﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿قَٰلَ﴾ على الخبَرِ، قيل: المرادُ: قال كُلُّ نَذيرٍ لِقَومِه. وقيل: المرادُ: قال محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِقَومِه[٢].

٢- قِراءةُ ﴿قُلْ﴾ على الأمرِ، قيل: المرادُ: قُلْنا للنَّذيرِ: قُلْ لِقَومِك. وقيل: المرادُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك[٣].

﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾.

أي: قال الرَّسولُ لِقَومِه المُشرِكينَ المُتَمَسِّكينَ بتقليدِ آبائِهم: أتَتَّبِعونَ آباءَكم

= الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٠، ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤).

(٢) قرأ بها ابنُ عامر، وحفصٌ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٠).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٠).

على الضَّلالِ ولو جِئتُكم بدِينٍ أهدى إلى الحَقِّ مِن الدِّينِ الَّذي وجَدْتُم عليه آباءَكم[(١)]؟!

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: قال المُشرِكونَ: إنَّا بالَّذي أُرسِلتُم به جاحِدونَ مُنكِرونَ، وعلى دِينِ آبائِنا ثابِتونَ، وله وَحْدَه مُتَّبِعونَ[(٢)].

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٢٥﴾.

أي: فعاقَبْناهم، فانظُرْ -يا مُحمَّدُ- كيف صار آخِرُ أمرِهم إلى هَلاكٍ وبَوارٍ[(٣)]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۞قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١٠، ١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٣، ٥٧٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١١٠).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾ تقريعٌ للشُّهودِ ألَّا يَشهَدوا على شَيءٍ يُسألُونَ عنه إلَّا بعدَ تَيَقُّنِه والتَّثَبُّتِ فيه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ بيَّنَ تعالى أنَّ الدَّاعيَ إلى القَولِ بالتَّقليدِ والحامِلَ عليه إنَّما هو حُبُّ التَّنَعُّمِ في طيِّباتِ الدُّنيا، وحُبُّ الكَسَلِ والبَطالةِ، وبُغْضُ تحَمُّلِ مَشاقِّ النَّظَرِ والاستِدلالِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾، والمُترَفونَ هم الَّذين أترَفَتْهم النِّعمةُ، أي: أبطَرَتْهم، فلا يُحِبُّونَ إلَّا الشَّهَواتِ والملاهيَ، ويُبغِضونَ تحَمُّلَ المَشاقِّ في طَلَبِ الحَقِّ؛ فرأسُ جميعِ الآفاتِ: حُبُّ الدُّنيا واللَّذَّاتِ الجُسْمانيَّةِ. ورأسُ جميعِ الخَيراتِ: حُبُّ اللهِ والدَّارِ الآخِرةِ[٢].

٣- مَن بُيِّنَ له أنَّ القَولَ الآخَرَ هو أهدَى مِنَ القَولِ الَّذي نشأَ عليه، فعليه أن يَتَّبِعَه؛ قال تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ وُجوبُ النَّظرِ والاعتبارِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ رَدٌّ على

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١١١).

الجَهميَّةِ في بابِ «الجَعْلِ» الَّذي لا يَعُدُّونه إلَّا خَلْقًا؛ لِيَتطَرَّقوا إلى خَلْقِ القُرآنِ، وهم لا يَستطيعونَ أنْ يَجعَلوا «الجَعْلَ» هاهنا خَلْقًا؛ إذ مُحالٌ أنْ يكونَ الكُفَّارُ خَلَقوا الملائِكةَ إناثًا! إنَّما افتَرَوا على اللهِ، وادَّعَوا عليه دَعوى باطلٍ وكُفرٍ[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾ احتَجَّ به مَن قال بتَفضيلِ الملائكةِ على البَشَرِ؛ فعلى قراءةِ ﴿عِنْدَ﴾ بالنُّونِ، فهذه العِنديَّةُ لا شَكَّ أنَّها عِنديَّةُ الفَضلِ والقُرْبِ مِن اللهِ تعالى بسَبَبِ الطَّاعةِ، ولَفظةُ ﴿ هُمْ ﴾ تُوجِبُ الحَصرَ، والمعنى: أنَّهم هم المَوصوفونَ بهذه العِنديَّةِ لا غيرُهم؛ فوَجَب كَونُهم أفضَلَ مِن غَيرِهم رعايةً لِلَّفظِ الدَّالِّ على الحَصرِ. وأمَّا مَن قرأَ ﴿عِبَدُ﴾ جمعُ العَبدِ، فإنَّ لَفظَ العبادِ مَخصوصٌ في القُرآنِ بالمؤمِنينَ؛ فقَولُه ﴿ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ يفيدُ حَصرَ العُبوديَّةِ فيهم؛ فإذا كان اللَّفظُ الدَّالُّ على العُبوديَّةِ دالًّا على الفَضلِ والشَّرَفِ كان اللَّفظُ الدَّالُّ على حَصرِ العُبوديَّةِ دالًّا على حَصرِ الفَضلِ والمَنقَبةِ والشَّرَفِ فيهم، وذلك يُوجِبُ كَونَهم أفضَلَ مِن غَيرِهم. واللهُ أعلَمُ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٥).

والمنقولُ عن السَّلَفِ أنَّ صالحي البَشَرِ أفضَلُ مِن الملائكةِ، ونَقَل ابنُ القَيِّمِ عن ابنِ تيميَّةَ أنَّ صالحي البَشَرِ أفضَلُ باعتبارِ كَمالِ النِّهايةِ، والملائكةَ أفضَلُ باعتبارِ البدايةِ؛ فإنَّ الملائكةَ الآنَ في الرَّفيقِ الأعلى مُنَزَّهونَ عمَّا يُلابِسُه بنو آدَمَ، مُستَغرِقونَ في عبادةِ الرَّبِّ تعالى، ولا ريبَ أنَّ هذه الأحوالَ الآنَ أكمَلُ مِن أحوالِ البَشَرِ، وأمَّا يومَ القيامةِ بعدَ دُخولِ الجنَّةِ فيصيرُ حالُ صالحي البَشَرِ أكمَلَ مِن حالِ الملائكةِ. قال ابنُ القَيِّمِ: (وبهذا التَّفصيلِ يَتبيَّنُ سِرُّ التَّفضيلِ، وتتَّفِقُ أدِلَّةُ الفَريقَينِ، ويُصالَحُ كُلٌّ منهم على حَقِّه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ١٦٣). ويُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٤/ ٣٥٢). وهذه المسألةُ مِن فُضولِ المسائلِ، ولا يترتَّبُ عليها عملٌ.

خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ ﴾ أنَّ أقوالَ الإنسانِ تُكْتَبُ عليه كأفعالِه؛ لأنَّ الشَّهادةَ هنا بالقولِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ ﴾ أنَّ مَن أخبرَ غيرَه بشَيءٍ فقد شَهِدَ به، سواءٌ كان بلَفظِ الشَّهادةِ أو لم يَكُنْ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ أنَّ الحُكْمَ على الغَيبِ مَحظورٌ على كلِّ أحدٍ، بغيرِ عِيانٍ ولا خَبَرِ صادقٍ(٣).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ يدُلُّ على أنَّ القَولَ بغَيرِ دَليلٍ مُنكَرٌ(٤).

٧- أنكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى على مَن جَعَل مَشيئَتَه وقَضاءَه مُستَلزِمَينِ لمَحَبَّتِه ورِضاه. فكيف بمَن جَعَل ذلك شيئًا واحِدًا؟! قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النحل: ٣٥]؛ فهم استدَلُّوا على محَبَّتِه لِشِرْكِهم ورِضاه عنه بمَشيئتِه لذلك، وعارَضوا بهذا الدَّليلِ أمْرَه ونَهْيَه، وفيه أبيَنُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٥).

الرَّدِّ لِقَولِ مَن جَعَل مَشيئَتَه عَيْنَ مَحبَّتِه ورِضاه؛ فالإشكالُ إنَّما نَشَأ مِن جَعْلِهم المشيئةَ نَفْسَ المحبَّةِ، ثمَّ زادوه بجَعْلِهم الفِعلَ نَفْسَ المفعولِ، والقَضاءَ عَينَ المقضِيِّ؛ فنشأ مِن ذلك إلزامُهم بكَونِه تعالى راضيًا مُحِبًّا لذلك، والتِزامُ رِضاهم به! والَّذي يَكشِفُ هذه الغُمَّةَ، ويُبَصِّرُ مِن هذه العَمايةِ، ويُنَجِّي مِن هذه الوَرطةِ: إنَّما هو التَّفريقُ بيْن ما فَرَّق اللهُ بيْنَه، وهو المشيئةُ والمحَبَّةُ؛ فإنَّهما ليسا واحِدًا، ولا هما مُتلازِمَين، بل قد يَشاءُ ما لا يُحِبُّه، ويُحِبُّ ما لا يشاءُ كَوْنَه؛ فالأوَّلُ: كمَشيئتِه لِوُجودِ إبليسَ وجُنودِه، ومَشيئتِه العامَّةِ لجَميعِ ما في الكونِ مع بُغْضِه لِبَعضِه. والثَّاني: كمَحبَّتِه إيمانَ الكُفَّارِ، وطاعاتِ الفُجَّارِ، وعَدْلَ الظَّالِمينَ، وتَوبةَ الفاسِقينَ، ولو شاء ذلك لوُجِدَ كُلُّه وكان جميعُه؛ فإنَّه ما شاء كان، وما لم يَشَأْ لم يكُنْ[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أنَّه لم يَنزِلْ على العَرَبِ كِتابٌ سِوى القُرآنِ[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ تحريمُ التَّقليدِ بالباطلِ، وأمَّا التَّقليدُ بالحقِّ فلا بأسَ به؛ فإذا كان رجُلٌ لا يَعرِفُ حُكْمَ مسألةٍ في دينِ اللهِ، وليس عندَه قُدرةٌ على الاجتهادِ، فإنَّ فَرْضَه التَّقليدُ؛ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ [النحل: ٤٣]، ولقولِ الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولقولِه سبحانَه وتعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[3] [التغابن: ١٦].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩٣-٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٥).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ أنَّ هؤلاءِ القومَ المكذِّبينَ للرُّسُلِ ليس عندَهم حُجَّةٌ إلَّا مُجرَّدُ ما كان عليه الآباءُ، وهذا ليس بحُجَّةٍ، وعلى هذا فلا يجوزُ الاحتِجاجُ بعَمَلِ النَّاسِ -كما يَفعَلُه بعضُ القومِ-، فإذا نهَيْتَه عن شَيءٍ قال: كلُّ النَّاسِ يَفعَلُه! فهذا ليس بحُجَّةٍ[١].

١١- قال تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾، قولُه: ﴿بِأَهْدَىٰ ﴾ اسمُ تفضيلٍ، ومع ذلك فإنَّا نقولُ: ما وجَدوا عليه آباءَهم ليس فيه هدًى، لكِنَّ التَّنَزُّلَ مع الخَصمِ لا بأسَ به، وإنْ لم يَكُنْ في الطَّرَفِ الآخَرِ شَيءٌ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ عَطْفٌ على ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾[الزخرف: ١٥]، أُعِيدَ ذلك مع تَقَدُّمِ ما يُغْني عنه مِن قَولِه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ [الزخرف: ١٦]؛ ليُبنَى عليه الإنكارُ عليهم بقَولِه: ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾؛ استِقراءً لإبطالِ مَقالِهم؛ إذ أُبطِلَ ابتِداءً بمُخالَفَتِه لدَليلِ العَقلِ، وبمُخالَفَتِه لِمَا يجِبُ لِلَّهِ مِن الكَمالِ، فكَمَّلَ هنا إبطالَه بأنَّه غَيرُ مُستَنِدٍ لدَليلِ الحِسِّ[٣].

- وقَولُه: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ بَيانٌ لتَضمينِ كُفرِهم المَذكورِ لكُفرٍ آخَرَ، وهو تَقريعٌ لهم بذلكَ؛ وهو جَعْلُهم أكمَلَ العِبادِ وأكرَمَهم على اللهِ عزَّ وجلَّ أنقَصَهُم رأْيًا، وأخَسَّهُم صِنفًا[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٣).

- والإضافةُ إلى اسمِ الرَّحمنِ في قولِه: ﴿عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تُفيدُ تَشريفَهم[١].

- قَولُه: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾ الهَمزةُ لاستِفهامِ الإنكارِ، دَخَلت على فِعلِ (شَهِد)، أي: ما حَضَروا خَلْقَ الملائِكةِ، وعلى قِراءةِ ﴿أَأُشۡهِدُوا﴾ -بهَمزَتَين: أُولاهُما مَفتوحةٌ، والأُخرَى مَضمومةٌ، وسُكونِ الشِّين مَبنيًّا للنَّائِب[٢]-؛ فالهَمزةُ للاستِفهامِ، وهو للإنكارِ والتَّوبيخِ. وجِيءَ بصِيغَةِ النَّائِبِ عن الفاعِلِ دونَ صِيغةِ الفاعِلِ؛ لأنَّ الفاعِلَ مَعلومٌ أنَّه اللهُ تعالى؛ لأنَّ العالَمَ العُلوِيَّ الَّذي كان فيه خَلقُ المَلائِكةِ لا يَحضُرُه إلَّا مَن أمَرَ اللهُ بحُضورِه[٣].

- قَولُه: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾ هذا تَهكُّمٌ بهم، وتَجهيلٌ لهم، بمَعنَى أنَّهُم يَقولون ذلك مِن غَيرِ أنْ يَستَنِدَ قَولُهم إلى عِلمٍ؛ فإنَّ اللهَ لم يَضطَرَّهُم إلى عِلمِ ذلك، ولا تَطرَّقوا إليه باستِدلالٍ، ولا أحاطوا به عن خَبَرٍ يُوجِبُ العِلمَ؛ فلم يَبْقَ إلَّا أنْ يُشاهِدُوا خَلْقَهُم فأَخبَروا عن هذه المُشاهَدةِ، أي: هل حَضَروا خَلْقَ اللهِ إيَّاهُم فشَاهَدوهُم إناثًا[٤]؟!

- وجُملَةُ ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ من جُملةِ ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾؛ لأنَّ ذلك الإنكارَ يَشتَمِلُ على الوَعيدِ، وهذا خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في التَّوَعُّدِ، وكِتابةُ الشَّهادةِ كِنايةٌ عن تَحَقُّقِ العِقابِ على كَذِبِهم. والسِّينُ في ﴿سَتُكۡتَبُ﴾ لتَأكيدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٢، ١٨٣).

(٢) قرأ بها نافعٌ وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٣).

الوَعيدِ[١]. وقيل: أُوثِرَ التَّعبيرُ بالاستِقبالِ في ﴿سَتُكْتَبُ﴾ فأَتَى بالسِّينِ الدَّالَّةِ عليه؛ ليَتَضَمَّنَ الكَلامُ معنَى انفِساحِ الوَقتِ للتَّوبةِ، وبِناءِ الرَّجاءِ على الاستِعطافِ لقَبولِها قبْلَ كِتابةِ ما قالوا[٢].

-والمُرادُ بِشَهادتِهم: ادِّعاؤُهم أنَّ المَلائكةَ إناثٌ، قيل: أطلَقَ عليها شَهادةً؛ تَهَكُّمًا بهم[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسُوقٌ لبَيانِ نَوعٍ آخَرَ وفَنٍّ آخَرَ مِن أنواعِ كُفرِهم[٤]. أو عَطْفٌ على جُملَةِ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]؛ فإنَّها استِدلالٌ على وَحدانِيَّةِ الله تعالى، وعلى أنَّ مَعبوداتِهم غَيرُ أهلٍ لِأَنْ تُعبَدَ، فحُكِيَ هنا ما استَظْهَروه مِن مَعاذيرِهم عِندَ نُهوضِ الحُجَّةِ عليهم يَرُومون بها إفحامَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلمينَ، فيقولونَ: لو شاءَ اللهُ ما عبَدْناهم، أي: لو أنَّ اللهَ لا يحِبُّ أنْ نَعبُدَها، لَكان اللهُ صَرَفَنا عن أنْ نَعبُدَها، وتوهَّموا أنَّ هذا قاطعٌ لِجِدالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهم؛ لأنَّهم سَمِعوا مِن دِينِه أنَّ اللهَ هو المتصرِّفُ في الحوادثِ، فتَأوَّلُوه على غيرِ المرادِ منه[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٣، ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٣، ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٤).

بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾، وقال في سُورةِ (الجاثِيةِ): ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فقال هنا: ﴿يَخۡرُصُونَ﴾، وقال في سُورةِ (الجاثِيَةِ): ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ ووجهُه: أنَّ قَبْلَ الآيَةِ مِن سُورةِ (الزُّخرُفِ): ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ * وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الزخرف: ١٩، ٢٠]، فأخبَرَ عنهم أنَّهم قالوا: المَلائِكةُ بَناتُ اللهِ، وأنَّ اللهَ أرادَ أنْ يَعبُدوهم! وليس ذلك مِن عِلمٍ، بل هم كاذِبون فيما يَدَّعونَه ويُخبِرون به؛ فأبطَلَ خَبَرَهم بالتَّكذيبِ لهم، وهو الَّذي يَليقُ بالمَوضِعِ. وأمَّا الَّذي في سُورةِ (الجاثِيةِ) فخَبَرٌ عن الكُفَّارِ الَّذين دَعاهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الإسلامِ بأنَّهم قالوا: لا بَعْثَ لنا، وإنَّما هو أنْ تَمُوتَ الأَسلافُ، وتَحْيَا الأَخلافُ، فكُلَّما هَدَمَ الدَّهرُ قَومًا فأَفناهُم، أنشَأَ فيه آخَرينَ وأحياهُم، وهؤلاء لم يَقولُوا ما قالوا بمَعرِفةٍ، بلْ قالوه على سَبيلِ الظَّنِّ؛ فكان ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ لائِقًا بهذا المَكانِ. أو أنَّ ما في سُورةِ (الجاثِيةِ) مُتَّصِلٌ بخَلطِهِمُ الصِّدقَ بالكَذِبِ؛ فإنَّ قَولَهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ صِدقٌ، وكَذَبوا في إنكارِهِمُ البَعثَ، وقَولِهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾؛ فنَاسَبَه ﴿يَظُنُّونَ﴾، أي: يَشُكُّون فيما يَقولُون[1]. وقيل غيرُ ذلك[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾ إضرابٌ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٧٣، ١١٧٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٣٩، ٤٤٠).

انتِقاليٌّ، عُطِف على جُملةِ ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾ [الزخرف: ٢٠]؛ فبَعْدَ أنْ نَفَى أنْ يكونَ قولُهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۡ﴾ [الزخرف: ٢٠] مُستَنِدًا إلى حُجَّةِ العَقلِ؛ انتَقَل إلى نَفيِ أن يكونَ مُستَنِدًا إلى حُجَّةِ النَّقلِ عن إخبارِ العالِمِ بحَقائقِ الأشياءِ الَّتي هي مِن شُؤونِه[١].

- واجتُلِبَ للإضرابِ حرْفُ (أَمْ) دونَ (بلْ)؛ لِما تُؤذِنُ به (أَمْ) مِن استفهامٍ بعْدَها، وهو إنكاريٌّ، والمعنَى: وما آتَيْناهُم كِتابًا مِن قَبلِه[٢].

- و(مِن) صِلةٌ لتَوكيدِ مَعنَى (قَبل)، والضَّميرُ المُضافُ إليه (قبْل) في قوله: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ عائِدٌ إلى القُرآنِ المَذكورِ في أوَّلِ السُّورةِ، وفي قَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، ولم يتقدَّمْ له معادٌ في اللَّفظِ، ولَكِنَّه ظاهِرٌ مِن دَلالةِ قَولِه: ﴿كِتَٰبًا﴾. وفي هذا ثَناءٌ ثالِثٌ على القُرآنِ ضِمنِيٌّ؛ لاقتِضائِه أنَّ القُرآنَ لا يأتي إلَّا بالحَقِّ الَّذي يُستَمسَكُ به، وهذا تَمهيدٌ للتَّخَلُّصِ إلى قَولِه تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾[٣] [الزخرف: ٢٢].

- وكَلِمَةُ ﴿مُّسۡتَمۡسِكُونَ﴾ مُبالَغةٌ في (مُمسِكون)؛ يُقالُ: أمسَكَ بالشَّيءِ، إذا شدَّ عليه يَدَه، وهو مُستَعمَلٌ هنا في مَعنَى الثَّباتِ على الشَّيءِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾

- قَولُه: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ إضرابُ إبطالٍ عن الكَلامِ السَّابِقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٦، ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٨٧).

مِن قَولِه تعالى: ﴿فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١]؛ فهو إبطالٌ للمَنفيِّ لا للنَّفيِ، أي: ليس لهم عِلمٌ فيما قَالُوه ولا نَقلٌ؛ فكان هذا الكَلامُ مَسُوقًا مَساقَ الذَّمِّ لهم؛ إذ لم يُقارِنوا بيْنَ ما جاءَهم به الرَّسولُ وبيْن ما تَلَقَّوْه مِن آبائِهِم؛ فإنَّ شأنَ العاقِلِ أنْ يُمَيِّزَ ما يُلقَى إليه مِن الاختِلافِ، ويَعرِضَه على مِعيارِ الحَقِّ[١].

- وقَولُه: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ يَجوزُ أن يكونَ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ مُتَعَلِّقًا بـ ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ بتَضمينِ ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ معنى سائِرُون، أي: إنَّهُم لا حُجَّةَ لهم في عِبادَتِهم الأصنامَ إلَّا تَقليدُ آبائِهِم، وذلك ما يَقولُونه عِندَ المُحاجَّةِ؛ إذ لا حُجَّةَ لهم غَيرُ ذلك. وجَعَلوا اتِّباعَهُم إيَّاهُم اهتِداءً؛ لشِدَّةِ غُرورِهِم بأحوالِ آبائِهِم؛ بحَيثُ لا يَتَأَمَّلون في مُصادَفةِ أَحوالِهم للحَقِّ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنَةٌ، حيثُ قال بَعْدَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾؛ فقَالَ: ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ في فاصِلَةِ الآيةِ الأُولَى، و﴿مُّقۡتَدُونَ﴾ في فاصِلةِ الآيةِ الثَّانيةِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه خصَّ الآيةَ الأُولَى بالاهتداءِ؛ لأنَّه كلامُ العربِ في محاجَّتِهم رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وادِّعائِهم أنَّ آباءَهم كانوا مُهتدينَ، فنحنُ مهتدونَ. ولهذا قال عَقيبَه: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ﴾. وأما الآيةُ الثانيةُ فهي حكايةٌ عمَّنْ كان قَبْلَهم مِن الكفَّارِ، وادَّعَوا الاقتداءَ بالآباءِ دونَ الاهتداءِ، فاقتَضتْ كلُّ آيةٍ ما خُتِمتْ به[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٢، ٤٢٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري =

وقيل: جاء في حِكايةِ قَولِ المُشرِكينَ الحاضِرينَ وَصْفُهم أنفُسَهم بأنَّهم مُهتَدونَ بآثارِ آبائِهم، وجاء في حِكايةِ أقوالِ السَّابِقينَ وَصْفُهم أنفُسَهم بأنَّهم بآبائِهم مُقتَدُون؛ لأنَّ أقوالَ السَّابِقينَ كثيرةٌ مُختَلِفةٌ يَجمَعُ مُختَلِفَها أنَّها اقتِداءٌ بآبائِهم، فحِكايةُ أقوالِهم مِن قَبيلِ حِكايةِ القَولِ بالمَعنَى، وحكايةُ القَولِ بالمَعنَى طَريقةٌ في حِكايةِ الأقوالِ كَثُرَ وُرودُها في القُرآنِ وكلامِ العَرَبِ[(١)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ اعتِراضٌ لِتَسلِيةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تَمَسُّكِ المُشرِكينَ بدِينِ آبائِهم، والمَقصودُ: أنَّ هذه شِنْشِنَةُ أهلِ الضَّلالِ مِن السَّابِقين واللَّاحِقينَ -أي: عادتُهم المستمِرَّةُ- قد استَوَوْا فيه كما استَوَوْا في مَثارِه؛ وهو النَّظَرُ القاصِرُ المُخطِئُ، ويَتضمَّنُ هذا تَسليةً للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما لَقِيَه مِن قَومِه؛ بأنَّ الرُّسُلَ مِن قَبْلِه لَقُوا مِثلَ ما لَقِيَ[(٢)].

- وكافُ التَّشبيهِ في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بقَولِه: ﴿قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾، وقُدِّم على مُتَعَلَّقِه؛ للاهتِمامِ بهذه المُشابَهةِ، والتَّشويقِ لِمَا يَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ[(٣)].

- قولُه: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ ...﴾ فيه تَخصيصُ المُترَفينَ بتلكَ المَقالَةِ؛ للإيذانِ بأنَّ التَّنَعُّمَ وَحُبَّ البَطالَةِ هو الَّذي صَرَفَهم عن النَّظَرِ

= (ص: ٥١٢، ٥١٣). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٧٥ - ١١٧٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٥)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٨).

إلى التَّقليدِ[١]، والمَعنَى: أنَّهُم مِثلُ قُرَيشٍ في الازدِهاءِ بالنِّعمةِ الَّتي هم فيها، أي: في بَطَرِ نِعمَةِ اللهِ عليهم؛ فالتَّشبيهُ يَقتَضي أنَّهم مِثلُ الأُمَمِ السَّالِفَةِ في سَبَبِ الازدِهاءِ، وهو ما هُمْ فيه مِن نِعمةٍ حتَّى نَسُوا احتِياجَهم إلى اللهِ تعالى[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قدَّمَ ذِكرَ القَبْلِيَّةِ في قولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾؛ اهتِمامًا بالتَّسلِيَةِ، وتَخليصًا لها مِن أنْ يَتَوَهَّمَ أنَّه يَكونُ معه في زَمانِه أو بَعدَه نَذيرٌ، وإفهامًا لأنَّ المُجَدِّدَ لشَريعَتِه إنَّما يَكونُ مُغيثًا لأُمَّتِه، وبَشيرًا لا نَذيرًا لثَباتِهم على الدِّينِ بتَصديقِهم جَميعَ النَّبيِّينَ، وأسقَطَ هذه القَبليَّةَ في سُورَةِ (سبأٍ) في قولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤]؛ لأنَّ المُرادَ فيها التَّعميمُ؛ لأنَّه لم يَتَقَدَّمْ لقُرَيشٍ ذِكرٌ حتَّى يُخَصَّ مَن قَبْلَهُم[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ قَرَأَ الجُمهورُ ﴿قُلۡ﴾، وقَرَأَ ابنُ عامِرٍ وحَفصٌ: ﴿قَٰلَ﴾ بصِيغةِ فِعلِ المُضِيِّ المُسنَدِ إلى المُفرَدِ الغائِبِ؛ فيَكونُ الضَّميرُ عائِدًا إلى نَذيرِ الَّذين قالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]؛ فحَصَل مِن القِراءتَينِ أنَّ جَميعَ الرُّسُلِ أجابُوا أقوامَهم بهذا الجَوابِ، وقَرَأَ الجُمهورُ ﴿جِئۡتُكُم﴾ بضَميرِ تاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١١).

المُتكلِّم، وقرَأ أبو جَعفرٍ: ﴿جِئْنَاكُمْ﴾[١]، وأبو جَعفرٍ مِن الَّذين قَرَؤوا ﴿قُلْ﴾ بصِيغةِ الأمرِ؛ فيَكونُ ضَميرُ ﴿جِئْناكُم﴾ عائدًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُخاطَبِ بفعلِ ﴿قُلْ﴾؛ لتَعظيمِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن جانِبِ ربِّه تعالى الَّذي خاطَبَه بقَولِه: ﴿قُلْ﴾[٢].

وقيل: قُرِئ ﴿قُلْ﴾ على أنَّه حِكايةُ أمرٍ ماضٍ أُوحِيَ حِينَئِذٍ إلى كلِّ نَذيرٍ؛ لا على أنَّه خِطابٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كما قيل؛ لقَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ فإنَّه حِكايةٌ عن الأُمَمِ قَطعًا؛ أي: قال كلُّ أُمَّةٍ لنَذيرِها: إنَّا بما أُرسِلْتَ به... إلخ؛ وقد أُجمِلَ عِندَ الحِكايةِ للإيجازِ[٣].

- قَولُه: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم﴾ الهَمزةُ للاستِفهامِ التَّقريرِيِّ المَشُوبِ بالإنكارِ، و(لو) وَصليَّةٌ، تَقتَضي المُبالَغةَ بنِهايةِ مَدلولِ شَرطِها، والمَقصودُ مِن الاستِفهامِ تَقريرُهم على ذلك؛ لاستِدعائِهم إلى النَّظَرِ فيما اتَّبَعوا فيه آباءَهُم؛ لَعَلَّ ما دَعاهُم إليه الرَّسولُ أهْدَى منهم[٤].

- وقَولُه: ﴿بِأَهۡدَىٰ﴾ أي: بدِينٍ أَهدَى ﴿مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ مِن الضَّلالةِ الَّتي لَيسَت مِن الهِدايةِ في شَيءٍ، وإنَّما عبَّر عنها بذلك مُجاراةً معهم على مَسلَكِ الإنصافِ[٥]، وفيه تَجهيلٌ لهم، حيث يُقَلِّدون ولا يَنظُرون في الدَّلائِلِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٧).

- وصَوغُ اسمِ التَّفضيلِ ﴿بِأَهۡدَىٰ﴾ مِن الهدَى إرخاءٌ للعِنانِ لهم ليَتَدَبَّروا؛ نَزَّل ما كان عليه آباؤُهم مَنزِلةَ ما فيه شَيءٌ مِن الهُدَى، استِنزالًا لطائِرِ المُخاطَبينَ؛ ليَتَصَدَّوا للنَّظَرِ[1]، وفيه ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالإلجاءِ؛ وهو أنْ يُبادِرَ المُتَكَلِّمُ الخَصمَ بما يُلجِئُه إلى الاعترافِ بحَقيقةِ نَفْسِه ودَخِيلَةِ قَلبِه؛ فالتَّعبيرُ في الآيةِ بالتَّفضيلِ المُقتَضِي أنَّ ما عليه آباؤُهم فيه هِدايةٌ، لم يَكُن إلَّا لإلْجائِهِم إلى الاعترافِ بحقيقةِ نِيَّاتِهم الَّتي يُضمِرونَها؛ كأنَّه يَتَنَزَّلُ معهم إلى أبعَدِ الحُدودِ، ويُرخِي لهم العِنانَ إلى أقْصى الآمادِ؛ لِيَعتَرِفوا -مِن ثَمَّ- بمُكابَرَتِهم الَّتي لا تُجدِي معها المُناصَحةُ في القَولِ، ولا يَنفَعُ في تَذليلِها الإتيانُ بالحُجَّةِ[2].

- قَولُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، أي: قالوا: إنَّا ثابِتون على دِينِ آبائِنا، لا نَنفَكُّ عنه، وإنْ جِئْتَنا بما هو أهدَى وأهدَى، ودلَّ على هذه المُبالَغةِ الجُملةُ الاسميَّةُ وتَضَمُّنُها معنى الكِنايةِ، انظُرْ كمْ بيْنَ دَعوةِ الأنبياءِ وبيْن مُقابَلةِ الكَفَرةِ مِن التَّبايُنِ؟! فالأنبياءُ تَفادَوْا عن لَفظِ الأمرِ، وعَدَلوا إلى الاستِفهامِ، ومع ذلك ما استَوفَوا تَمامَ الحقِّ، حيث أَتَوا بحَرفِ التَّقريرِ، وضَمُّوا إليه (أفعَلَ) التَّفضيلِ، وكان الجوابُ المُطابِقُ: نَتَّبِعُ دِينَ آبائِنا ولا نَتَّبِعُ دِينَكم؛ فعَدَلوا إلى ما دلَّ على نَفيِ دِينِ الحقِّ، وإثباتِ الباطِلِ بالطَّريقِ البُرهانِيِّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٥).
والطَّريقُ البُرهانيُّ: قياسٌ استثنائيٌّ، يُستدَلُّ فيه بنَفْيِ اللَّازمِ البَيِّنِ انتفاؤُه على نَفْيِ الملزومِ، كما يُقالُ: هل زَيدٌ في البلدِ؟ فتقولُ: لا؛ إذ لو كان فيها لَحَضَرَ مَجلِسَنا، فيُستدَلُّ بعدَمِ الحُضورِ على =

- وقَولُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ بَدَلٌ مِن جُملَةِ ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]؛ لأنَّ ذلك يَشتَمِلُ على معنى: لا نَتَّبِعُكم ونَترُكُ ما وجَدْنا عليه آباءَنا، وضَميرُ ﴿قَالُوٓاْ﴾ راجِعٌ إلى ﴿مُّتۡرَفُوهَآ﴾ [الزخرف: ٢٣]؛ لأنَّ مَوقِعَ جُملةِ ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٢٥] يُعَيِّنُ أنَّ هؤلاءِ القائِلينَ وَقَعَ الانتِقامُ منهم؛ فلا يَكونُ منهم المُشرِكون الَّذين وَقَع تَهديدُهم بأولئك[١].

- وقَولُهم: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ هو حِكايةٌ لقَولِهِم؛ فإطلاقُهم اسمَ الإرسالِ على دَعوَةِ رُسُلِهم تَهَكُّمٌ. ويَجوزُ أن يَكونَ حِكايةً بالمَعنَى، وإنَّما قالُوا: إنَّا بما زَعَمتُم أنَّكُم مُرسَلُون به[٢].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ تَفريعٌ على جُملَةِ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤]، أي: انتَقَمْنا منهم عَقِبَ تَصريحِهم بتَكذيبِ الرُّسُلِ، وهذا تَهديدٌ بالانتِقامِ مِن الَّذين شابَهوهُم في مَقالِهم، وهم كُفَّارُ قُرَيشٍ[٣].

- والانتِقامُ: افتِعالٌ مِن النَّقْمِ، وصِيغةُ الافتِعالِ للمُبالَغةِ[٤].

= عدَمِ كَونِه في البَلدِ. أو: هو ما يَلزَمُ مِن نفْيِ مِثلِ مِثلِه نفْيُ مِثلِه. يُنظر: ((حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع)) (١/ ٤٥٢)، ((التقرير والتحبير)) لابن أمير الحاج (٢/ ٢٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٤٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٩٠، ١٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٩١).

الآيات (٢٦-٣٢)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَرَآءٌ﴾: أي: بريءٌ، وأصلُ البُرْءِ والبَراءِ والتَبَرِّي: التَّفصِّي مما يُكرهُ مُجاوَرتُه، وأصلُ (برأ) هنا: التَّباعُدُ مِن الشَّيءِ ومُزايَلَتُه[١].

﴿فَطَرَنِى﴾: أي: خَلَقَني، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[٢].

﴿عَقِبِهِۦ﴾: العَقِبُ: الذُّرِّيَّةُ ووَلَدُ الوَلَدِ ما امتَدَّ فَرعُهم، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعدَ غيرِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٢١)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٩٠).
والبَراءُ لا يُثنَّى ولا يُجمعُ ولا يؤنَّثُ؛ لأنَّه مَصدَرٌ وُضِع مَوضِعَ النَّعتِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢).

﴿مَتَّعْتُ﴾: أي: أبقيتُ وعَمَّرْتُ. والمَتاعُ والمُتعةُ: ما يُنتفَعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، ثمَّ يَنقضي عن قَريبٍ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على مَنفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ[(١)].

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾: أي: لِيَخدُمَ بعضُهم بعضًا، ويعمَلَ بعضُهم لبعضٍ، مِن التَّسخيرِ، وهو: التَّهيئةُ. وقيل: هو سياقةُ الشَّيءِ إلى الغرضِ المختصِّ به قهرًا، والسُّخْريُّ: هو الَّذى يُقهَرُ فيَتسَخَّرُ بإرادتِه، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- إذ قال إبراهيمُ لأبيه وقَومِه: إنَّني بَريءٌ مِمَّا تَعبُدونَه مِن دُونِ اللهِ تعالى، فلا أعبُدُ إلَّا اللهَ الَّذي خلَقَني فهو يُرشِدُني إلى الحَقِّ. وجَعَل إبراهيمُ تلك الكَلِمةَ -كَلِمةَ التَّوحيدِ- كَلِمةً باقيةً مُستَمِرَّةً في ذرِّيَّتِه؛ لعَلَّهم يَرجِعونَ إلى الحَقِّ.

لكِنَّ هؤلاء الكُفَّارَ مِن قَومِك -يا مُحمَّدُ- ليسوا ممَّن بَقِيَت الكَلِمةُ فيهم، بل مَتَّعتُهم وآباءَهم بالمَدِّ في العُمُرِ والنِّعمةِ والمُهلةِ، فاغترُّوا وشُغِلوا عن كَلِمةِ التَّوحيدِ، حتَّى جاءهم القُرآنُ ورسولٌ مُظهِرٌ للحَقِّ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٧٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٢).

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا موقفَ المشركينَ مِن القرآنِ: ولَمَّا جاءهم القُرآنُ قالوا: هذا سِحرٌ ولن نُؤمِنَ به، وقالوا اعتِراضًا على إنزالِ القُرآنِ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إن كان هذا القُرآنُ حَقًّا فهلَّا نُزِّلَ على رجُلٍ ذي ثَروةٍ وجاهٍ مِن وُجَهاءِ مكَّةَ أو الطَّائِفِ!

ثمَّ يقولُ الله تعالَى رادًّا عليهم: أهؤلاء المُشرِكونَ مَن يَضَعونَ النُّبُوَّةَ حيث شاؤُوا أم اللهُ وَحْدَه هو الَّذي يختصُّ بذلك؟! نحن قَسَمْنا الأرزاقَ بيْنَهم في الحياةِ الدُّنيا، ورَفَعْنا بعضَهم فَوقَ بَعضٍ دَرَجاتٍ -فمِنهم الغنيُّ، ومنهم الفَقيرُ إلى غيرِ ذلك-؛ لِيَستخدِمَ النَّاسُ بَعضُهم بَعضًا في الأعمالِ لحاجتِهم لذلك، ويَرزُقَ اللهُ بعضَهم مِن بَعضٍ؛ فإذا كان أمرُ الدُّنيا لم يُفَوَّضْ إليهم، فكيف بأمرِ النُّبُوَّةِ؟! ورحمةُ رَبِّك -يا محمَّدُ- خيرٌ مِمَّا يَجمَعُه أولئك المُشرِكونَ في الدُّنيا مِن مَتاعِها الزَّائِلِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى في الآيةِ المتقَدِّمةِ أنَّه ليس لأولئك الكُفَّارِ داعٍ يَدعوهم إلى تلك الأقاويلِ الباطِلةِ إلَّا تقليدُ الآباءِ والأسلافِ، ثمَّ بَيَّن أنَّه طَريقٌ باطِلٌ ومَنهَجٌ فاسِدٌ، وأنَّ الرُّجوعَ إلى الدَّليلِ أَولَى مِن الاعتِمادِ على التَّقليدِ؛ أردَفَه بهذه الآيةِ، والمقصودُ منها ذِكرُ وَجهٍ آخَرَ يدُلُّ على فَسادِ القَولِ بالتَّقليدِ، وتَقريرُه مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّه تعالى حكَى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه تبَرَّأَ عن دينِ آبائِه بناءً على الدَّليلِ، فنَقولُ: إمَّا أن يكونَ تَقليدُ الآباءِ في الأديانِ مُحَرَّمًا أو جائِزًا، فإن كان

مُحَرَّمًا فقد بطَلَ القَولُ بالتَّقليدِ، وإن كان جائِزًا فمَعلومٌ أنَّ أشرَفَ آباءِ العَرَبِ هو إبراهيمُ عليه السَّلامُ؛ وذلك لأنَّهم ليس لهم فَخرٌ ولا شَرَفٌ إلَّا بأنَّهم مِن أولادِه، وإذا كان كذلك فتقليدُ هذا الأبِ الَّذي هو أشرَفُ الآباءِ أَولى مِن تقليدِ سائِرِ الآباءِ، وإذا ثَبَت أنَّ تقليدَه أَولى مِن تقليدِ غَيرِه فنَقولُ: إنَّه تَرَك دينَ الآباءِ وحَكَم بأنَّ اتِّباعَ الدَّليلِ أَولى مِن مُتابَعةِ الآباءِ، وإذا كان كذلك وَجَب تقليدُه في تَركِ تقليدِ الآباءِ، ووَجَب تقليدُه في ترجيحِ الدَّليلِ على التَّقليدِ.

الوَجهُ الثَّاني: في بيانِ أنَّ تَرْكَ التَّقليدِ والرُّجوعَ إلى مُتابَعةِ الدَّليلِ أَولى في الدُّنيا وفي الدِّينِ: أنَّه تعالى بَيَّنَ أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لَمَّا عَدَل عن طريقةِ أبيه إلى مُتابَعةِ الدَّليلِ لا جَرَمَ جَعَل اللهُ دينَه ومَذهَبَه باقيًا في عَقِبِه إلى يومِ القيامةِ، وأمَّا أديانُ آبائِه فقد اندَرَست وبَطَلَت؛ فثَبَت أنَّ الرُّجوعَ إلى مُتابَعةِ الدَّليلِ يَبقى محمودَ الأثَرِ إلى قيامِ السَّاعةِ، وأنَّ التَّقليدَ والإصرارَ يَنقَطِعُ أثَرُه، ولا يبقَى منه في الدُّنيا خبرٌ ولا أثَرٌ؛ فثَبَت مِن هذينِ الوَجهَينِ أنَّ مُتابعةَ الدَّليلِ وتَرْكَ التَّقليدِ أَولى، فهذا بيانُ المقصودِ الأصليِّ مِن هذه الآيةِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَّرَهم اللهُ بالأُمَمِ الماضِيةِ، وشَبَّه حالَهم بحالِهم؛ ساقَ لهم أمثالًا في ذلك مِن مَواقِفِ الرُّسُلِ مع أُمَمِهم؛ منها قِصَّةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع قَومِه[٢].

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حينَ قال إبراهيمُ لأبيه وقَومِه المُشرِكينَ: إنَّني بَريءٌ مِنَ الآلِهةِ الَّتي تَعبُدونَها مِن دُونِ اللهِ، فأُبغِضُها ولا أعبُدُها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧﴾.

أي: أنا بَريءٌ مِنَ الَّذين تَعبُدونَهم إلَّا الَّذي خلَقَني، فهو المُستَحِقُّ وَحْدَه للعِبادةِ، فأنا أعبُدُه ولا أتبَرَّأُ منه؛ فإنَّه سيُرشِدُني ويُوَفِّقُني للحَقِّ(١).

= (ص: ٧٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠١).

قال السمعاني: (قَولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّه على حقيقةِ الاستِثناءِ -يعني: أنَّه استِثناءٌ مُتَّصِلٌ- لأنَّهم كانوا يَعبُدونَ اللهَ وما دُونَه، فيَستقيمُ الاستِثناءُ على هذا.

والثَّاني: أنَّه استِثناءٌ مُنقَطِعٌ، ومعناه: لَكِن الَّذي فَطَرني). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٨). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٨٢، ٥٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١١٦).

وممَّن قال بأنَّ الاستثناءَ مُتَّصِلٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الاستِثناءَ مُنقَطِعٌ: الماوَرْديُّ، وجَوَّزه الزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٦).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٧٨].

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: وجَعَل إبراهيمُ كَلِمةَ التَّوحيدِ[1].....

---

(١) قال ابنُ عطية: (قالت فِرقةٌ: ذلك عائِدٌ على كَلِمته بالتَّوحيدِ في قَولِه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾، وقال مجاهِدٌ وقَتادةُ والسُّدِّيُّ: ذلك مُرادٌ به: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وعاد الضَّميرُ عليها وإن كانت لم يَجْرِ لها ذِكرٌ؛ لأنَّ اللَّفظَ يَتضَمَّنُها. وقال ابنُ زَيدٍ: المرادُ بذلك: الإسلامُ ولَفْظتُه، وذلك قولُه عليه السَّلامُ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقَولُه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢).

وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا﴾: يَعودُ إلى كَلِمةِ التَّوحيدِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ: ابن جرير، والزجاج، والسمرقندي، وابن أبي زَمَنين، والواحدي، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢١٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومُجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٧٣).

قال الرازي: (وجعَلَ إبراهيمُ كَلِمةَ التَّوحيدِ الَّتي تَكَلَّمَ بها وهي قَولُه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ جاريًا مَجْرَى لا إلهَ، وقولَه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ جاريًا مَجْرَى قَولِه: إلَّا اللهُ؛ فكان مجموعُ قَولِه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ جاريًا مَجْرَى قَولِه: لا إلهَ إلَّا اللهُ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٩).

وقال الشنقيطي: (الضَّميرُ المنصوبُ في «جَعَلَهَا» على التَّحقيقِ راجِعٌ إلى كَلِمةِ الإيمانِ المُشتَمِلةِ على معنى لا إلهَ إلَّا اللهُ، المذكورةِ في قَولِه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ لأنَّ لا إلهَ إلَّا اللهُ نفْيٌ وإثباتٌ، فمعنى النَّفيِ منها هو البَراءةُ مِن جميعِ المعبوداتِ غيرِ اللهِ في جميعِ =

كَلِمةً باقيةً في ذُرِّيَّتِه[(١)]؛ .....

= أنواعِ العباداتِ، وهذا المعنى جاء مُوضَّحًا في قَولِه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾. ومعنى الإثباتِ منها هو إفرادُ اللهِ وَحْدَه بجميعِ أنواعِ العباداتِ على الوَجهِ الَّذي شَرَعه على أَلْسِنةِ رُسُلِه، وهذا المعنى جاء مُوضَّحًا في قَولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾. ((أضواء البيان)) (٧/ ١٠٢). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١١٤).

وممَّن اختار أنَّ ضميرَ الفاعِلِ في (جَعَلَها) يعودُ على إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ابنُ جرير، والرَّازي، والرَّسْعَني، والخازن، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١١٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٢).

وقيلَ: الفاعلُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ، أي: وجَعَل اللهُ عزَّ وجلَّ كلمةَ التَّوحيدِ باقيةً في عَقِبِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ. وممَّن اختاره: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٧).

(١) وجَعْلُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ كَلِمةَ التَّوحيدِ باقيةً في عَقِبه، قيل: المرادُ أنَّه وصَّاهم بها، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾... الآيةَ [البقرة: ١٣٢]. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: أبو السعود، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٤).

وقيل: المرادُ أنَّه دعا اللهَ تعالى -وهو مُجابُ الدَّعوةِ- كما في قَولِه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وفي قَولِه: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٦).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَيْنِ: الشنقيطي، فقال: (وإنَّما جعَلَها إبراهيمُ باقيةً فيهم؛ لأنَّه تسَبَّب لذلك بأمْرَينِ:

أحدُهما: وصيَّتُه لأولادِه بذلك، وصاروا يَتوارَثون الوَصيَّةَ بذلك عنه، فيُوصي به السَّلَفُ منهم الخَلَفَ، كما أشار تعالى إلى ذلك بقَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]. =

رجاءَ أن يَرجِعوا إلى الحَقِّ[(١)].

= والأمرُ الثاني: هو سؤالُه ربَّه تعالى لِذُرِّيَّته الإيمانَ والصَّلاحَ، كقَولِه تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [البقرة: ١٢٤]... وقَولِه تعالى عنه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقولِه عنه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقَولِه عنه هو وإسماعيلَ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] إلى قَولِه: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٠٢، ١٠٣).

وقال ابن كثير: (جعَلَها دائمةً في ذُرِّيَّته يَقتدي به فيها مَن هداه اللهُ مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥).

وقال ابنُ عاشور: (فالمعنى: جَعَل إبراهيمُ قَولَه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] شِعارًا لعَقِبِه، أي: جعَلَها هي وما يُرادِفُها قَولًا باقيًا في عَقِبِه على مَرِّ الزَّمانِ، فلا يخلو عَقِبُ إبراهيمَ مِن مُوَحِّدينَ لله، نابِذينَ للأصنام...، فإنْ أُريدَ بالعَقِبِ مَجموعُ أعقابِه فإنَّ كَلِمةَ التَّوحيدِ لم تَنقَطِعْ مِن اليهودِ، وانقطَعَت مِنَ العَرَبِ بعدَ أن تقَلَّدوا عبادةَ الأصنامِ إلَّا مَن تهَوَّدَ منهم أو تنَصَّرَ. وإن أُريدَ مِن كُلِّ عَقِبٍ فإنَّ العَرَبَ لم يَخلوا مِن قائمٍ بكَلِمةِ التَّوحيدِ؛ مِثلُ المتنَصِّرينَ منهم، كالقبائلِ المتنَصِّرةِ، ووَرَقةَ بنِ نَوفَلٍ، ومِثلُ المتحَنِّفينَ، كزَيدِ بنِ عَمرِو بنِ نُفَيلٍ، وأُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٦، ٥٧٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٦، ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٢- ١٠٤).

قال الألوسي: (﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ تعليلٌ للجَعْلِ، أي: جَعَلَها باقيةً في عَقِبِه؛ كي يَرجِعَ مَن أشرَكَ منهم بدُعاءِ مَن وَحَّد، أو بسَبَبِ بقائِها فيهم). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٧٧).

وقال الشنقيطي: (وقولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: جَعَل الكَلِمةَ باقيةً فيهم؛ لعَلَّ الزَّائغينَ الضَّالِّينَ منهم يَرجِعونَ إلى الحَقِّ بإرشادِ المُؤمِنينَ المُهتَدينَ منهم؛ لأنَّ الحَقَّ ما دام قائمًا في جُملتِهم فرُجوعُ الزَّائغينَ عنه إليه مَرجُوٌّ مأمولٌ، كما دَلَّ عليه قَولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، والرَّجاءُ المذكورُ: بالنِّسبةِ إلى بني آدَمَ؛ لأنَّهم لا يَعرِفونَ مَن يَصيرُ إلى الهُدى، ومَن يصيرُ إلى الضَّلالِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٠٤). =

كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢].

وقال سُبحانَه حكايةً لِقَولِ يُوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المُشرِكينَ لَمَّا عَوَّلوا على تقليدِ الآباءِ، ولم يَتفكَّروا في الحُجَّةِ؛ اغتَرُّوا بطُولِ الإمهالِ، وإمتاعِ اللهِ إيَّاهم بنَعيمِ الدُّنيا؛ فأعرَضوا عن الحَقِّ(١).

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: لم يَحصُلْ ما رجاه إبراهيمُ مِن رُجوعِ جَميعِ عَقِبِه إلى كَلِمةِ التَّوحيدِ الَّتي

= وقال الشوكاني: (وقيل: الضَّميرُ في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ راجِعٌ إلى أهلِ مكَّةَ، أي: لعَلَّ أهلَ مكَّةَ يَرجِعونَ إلى دينِك الَّذي هو دينُ إبراهيمَ. وقيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، والتَّقديرُ: فإنَّه سيَهدينِ لعَلَّهم يَرجِعونَ، وجعَلَها ... إلخ. قال السُّدِّيُّ: لعلَّهم يَتوبونَ فيَرجِعونَ عمَّا هم عليه إلى عبادةِ اللهِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٤).

وقال الشنقيطي: (الضَّميرُ [أي: في قولِه: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾] راجِعٌ إلى مَن ضَلَّ مِن عَقِبِه؛ لأنَّ الضَّالِّينَ منهم داخِلونَ في لفظِ العَقِبِ، فرُجوعُ ضميرِهم إلى العقِبِ لا إشكالَ فيه، وهذا القولُ هو ظاهِرُ السِّياقِ، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٠٥).

وتنوَّعت عباراتُ المفسِّرينَ فيما يُرجى رُجوعُهم إليه؛ فمِنهم مَن قال: يَرجِعون إليها، أي: إلى الكلمةِ، ومنهم مَن قال: إلى التَّوحيدِ، ومنهم مَن قال: إلى الإيمانِ، ومنهم مَن قال: إلى الهُدى بعدَ الضَّلالةِ، ومنهم مَن قال: إلى الحقِّ، ومنهم مَن قال: إلى دينِ إبراهيمَ. وهي مُتقارِبةٌ.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٩).

جعَلَها فيهم -ومنهم كُفَّارُ قُريشٍ وآباؤُهم مِن قَبلِهم-؛ فقد مَتَّع اللهُ هؤلاء القَومَ، فأسبَغَ عليهم مِنَ النِّعَمِ، وعافاهم مِن العُقوباتِ والنِّقَمِ؛ فأبطَرَهم ذلك وزهَّدَهم في اتِّباعِ الحَقِّ، وتمادَوا في باطِلِهم حتَّى جاءَهم القُرآنُ المُشتَمِلُ على الحَقِّ، وجاءهم مِنَ الله تعالى رَسولٌ ظاهرٌ أمرُه، ومُبَيِّنٌ لرسالتِه وأحكامِ دينِه، مُظهِرٌ للحَقِّ وحُجَجِه، وهو محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(١).

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٧، ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٣).

قال ابن عطية: (﴿مُّبِينٞ﴾ في هذه الآيةِ يحتملُ التَّعدِّيَ وتَرْكَ التَّعدِّي). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ ﴿مُّبِينٞ﴾ لازِمٌ غيرُ مُتَعَدٍّ، بمعنَى: بَيِّنٍ، أي: واضحٍ وظاهرٍ أمْرُه ورسالتُه ونِذارتُه بما معه مِن الآياتِ البَيِّنةِ والدَّلائلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والزمخشري، والنسفي، وابن كثير، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّه مُتَعَدٍّ، بمعنى أنَّه يُبيِّنُ الحقَّ مِن الباطِلِ، ويُبيِّنُ الدِّينَ والأحكامَ: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والرَّسْعَني، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٢)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٢٣).

وقال البِقاعي: (﴿وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ أي: أمرُه ظاهِرٌ في نَفْسِه...، وهو مع ظُهورِه في نَفْسِه مُظهِرٌ لِكُلِّ مَعنًى يُحتاجُ إليه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤١٨).

أي: ولَمَّا جاء القُرآنُ إلى المُشرِكينَ قالوا: هذا سِحرٌ يَسحَرُ محمَّدٌ به النَّاسَ، ولن نُؤمِنَ به[١]!

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَر عن طعنِ المشركين في القرآنِ؛ أتْبَعه الإخبارَ عن طعنِهم فيمَنْ جاء به؛ تغطيةً لأمرِه عمَلًا بإخبارِهم في ختامِ ما قبْلَها عن أنفُسِهم بالكفرِ، زيادةً وإمعانًا فيما كانت النِّعَمُ أدَّتْهُم إليه مِن البَطَرِ[٢].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

أي: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ أيضًا اعتِراضًا منهم على إنزالِ القُرآنِ على مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنْ كان هذا القُرآنُ حَقًّا فلِمَ لمْ يُنزَّلْ على رَجُلٍ مِن وُجَهاءِ وأغنياءِ مَكَّةَ أو الطَّائِفِ[٣]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((اختيار الأَولى)) لابن رجب (ص: ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٠، ١١١).

قال ابنُ عاشور: (كان الرَّجُلانِ اللَّذانِ عَنَوْهما ذَوَيْ مالٍ؛ لأنَّ سَعةَ المالِ كانت مِن مُقَوِّماتِ وَصفِ السُّؤدُدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٠).

وقال الرَّسْعَني: (وعظيمُ مَكَّةَ: الوَليدُ بنُ المُغيرةِ. في قَولِ ابنِ عبَّاسٍ، وقَتادةَ، والأكثَرينَ؛ وعُتبةُ ابنُ رَبيعةَ. في قَولِ مُجاهِدٍ.

وأمَّا عَظيمُ الطَّائِفِ ففيه أربعةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه حبيبُ بنُ عَمرِو بنِ عُمَيرٍ الثَّقَفيُّ. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: أبو مسعودٍ عُروةُ بنُ مَسعودٍ الثَّقَفيُّ. قاله قَتادةُ... =

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾.

أي: هل هؤلاء المُشرِكونَ المُقترِحونَ إنزالَ القُرآنِ على رَجُلٍ عَظيمٍ مِن القَريتَينِ هم مَن يَضَعونَ النُّبُوَّةَ وإنزالَ الوَحيِ حيث شاؤُوا، أمِ اللهُ وَحْدَه هو الَّذي يختَصُّ بذلك[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٦].

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾.

أي: نحن تولَّيْنا قِسمةَ الأرزاقِ بيْنَهم في الحياةِ الدُّنيا؛ فيَبسُطُ اللهُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَن يشاءُ بحَسَبِ حِكمتِه سُبحانَه وتعالى[2].

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾.

أي: ورفَعْنا في الدُّنيا بَعضَهم فَوقَ بَعضٍ دَرَجاتٍ؛ فمنهم الغَنيُّ والفَقيرُ،

= الثَّالِثُ: أنَّه كِنانةُ بنُ عبدِ عَمرٍو الطَّائفيُّ. قاله السُّدِّيُّ.

الرَّابعُ: أنَّه ابنُ عبدِ ياليلَ. قاله مجاهِدٌ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١١).

قال الواحدي: (﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ لم يختَلِفوا أنَّها بمعنى النُّبُوَّةِ). ((البسيط)) (٢٠/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٢).

وغَيرُ ذلك[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ ﴾[النحل: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾[الإسراء: ٢١].

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾.

أي: لِيَستخدِمَ النَّاسُ بَعضُهم بَعضًا في الأعمالِ لحاجتِهم لذلك، ويَرزُقَ اللهُ بَعضَهم مِن بعضٍ، فكما تولَّيْنا قَسْمَ مَعايشِهم، وفضَّلْنا بَعضَهم على بَعضٍ، ولم يكُنْ أمرُ الدُّنيا إليهم؛ فكذلك لم يُفَوِّضِ اللهُ تعالى إليهم أمرَ النُّبُوَّةِ؛ فهو وَحْدَه مَن يَصطفي مَن يَشاءُ لِرسالتِه ونُزولِ الوَحيِ عليه؛ فلا وَجهَ لاعتراضِهم[٢].

﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾.

أي: ورَحمةُ رَبِّك -يا مُحمَّدُ- خَيرٌ مِمَّا يَجمَعُه المُشرِكونَ في الدُّنيا مِن أموالِها الفانيةِ ومَتاعِها الزَّائلِ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٢).

قال البِقاعي: (لَمَّا كان المرادُ هنا الاستِخدامَ دونَ الهُزءِ؛ لأنَّه لا يَليقُ التَّعليلُ به، أجمَع القُرَّاءُ على ضَمِّ هذا الحَرفِ هنا ﴿سُخۡرِيّٗا﴾، أي: أن يَستَعمِلَه فيما يَنوبُه أو يَتعَسَّرُ أو يتعذَّرُ عليه مُباشرتُه، ويأخُذَ للآخَرِ منه مِن المالِ ما هو مُفتَقِرٌ إليه؛ فهذا بماله، وهذا بأعمالِه، وقد يكون الفقيرُ أكمَلَ مِن الغَنيِّ؛ لِيَكمُلَ بذلك نظامُ العالَمِ؛ لأنَّه لو تساوت المقاديرُ لتعَطَّلَت المعايشُ؛ فلم يَقدِرْ أحَدٌ أن ينفَكَّ عما جعَلْناه إليه مِن هذا الأمرِ الدَّنيءِ، فكيف يَطمَعونَ في الاعتراضِ في أمرِ النُّبُوَّةِ، أيَتصوَّرُ عاقِلٌ أن نَتوَلَّى قَسْمَ النَّاقِصِ، ونَكِلَ العاليَ إلى غيرِنا؟!). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ تَقريعٌ شَديدٌ، وغِلظةٌ للحاسدِ ألَّا يَحسُدَ مَن فَضَّلَه اللهُ في المعيشةِ

= (١٦/ ٨٤)، ((اختيار الأولى)) لابن رجب (ص: ١٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٤).

قيل: المرادُ بالرَّحمةِ هنا: النُّبُوَّةُ. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحدي، والسمعاني، وابن جُزَي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٦، ٧٧).

قال ابن رجب: (رَحمتُه بالنُّبُوَّةِ والعِلمِ والإيمانِ خَيرٌ ممَّا يَجمَعونَه مِن الأموالِ الَّتي تفنى، فهو يَخُصُّ بهذه الرَّحمةِ الدِّينيَّةِ مَن يشاءُ، ويَرفَعُه على أهلِ النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ). ((اختيار الأَولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) (ص: ١٠٣).

وقيل: المرادُ بالرَّحمةِ: الجنَّةُ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٥٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٧).

ونقل ابنُ عطيَّةَ عن قَتادةَ والسُّدِّيِّ أنَّ المرادَ: الجنَّةُ. ثمَّ قال: (لا شَكَّ أنَّ الجنَّةَ هي الغايةُ، ورحمةَ اللهِ في الدُّنيا بالهدايةِ والإيمانِ خَيرٌ مِن كُلِّ مالٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣).

وممَّن جمَع بيْنَ هذه المعاني: الشنقيطي، فقال: (يعني: أنَّ النُّبُوَّةَ والاهتِداءَ بهُدى الأنبياءِ، وما يَنالُه المُهتَدونَ يومَ القيامةِ: خيرٌ مِمَّا يَجمَعُه النَّاسُ في الدُّنيا مِن حُطامِها). ((أضواء البيان)) (٧/ ١١٤).

عليه؛ لأنَّ في حَسَدِه تَسَخُّطَ قضاءِ ربِّه، والازْدِراءَ بنِعمةِ اللهِ عليه[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ عن قَتادةَ قال: (تَلْقَى الرَّجُلَ ضَعيفَ الحِيلةِ، عَيِيَّ اللِّسانِ، وهو مَبسوطٌ له في الرِّزقِ، وتَلْقاه شَديدَ الحِيلةِ، سَليطَ اللِّسانِ، وهو مَقتورٌ عليه! قال الله جلَّ ثناؤُه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كما قَسَم بيْنَهم صُوَرَهم وأخلاقَهم، تبارك رَبُّنا وتعالى)[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تَزهيدٌ في الإكبابِ على طَلبِ الدُّنيا، وعونٌ على التَّوكُّلِ على اللهِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فيه تحقيرٌ للدُّنيا وما جُمِعَ فيها مِن مَتاعِها[٤]، وإشارةٌ إلى خطورةِ جمعِ الأموالِ؛ وأنَّ ذلك قد يُنسي الآخرةَ -إلَّا مَن رَحِم ربِّي-، ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((فوالله؛ لا الفقرَ أخشَى عليكم؛ ولكنْ أخشَى عليكم أنْ تُبسَطَ عليكم الدُّنيا، كما بُسِطَتْ على مَن كان قبْلَكم، فتَنافَسوها كما تَنافَسوها، وتُهْلِكَكم كما أهلكَتْهم))[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ نِعمةَ اللهِ الدِّينيَّةَ خَيرٌ مِن النِّعمةِ الدُّنيويَّةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٤، ٥٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٣٧).
والحديث أخرجه البخاري (٣١٥٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٩٦١) من حديث عَمرِو بنِ عَوفٍ المُزَنيِّ رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ذكَّرَ العَرَبَ بحالِ جَدِّهم الأعلَى، ونَهْيِه عن عبادةِ غيرِ اللهِ، وإفرادِه بالتَّوحيدِ والعبادةِ؛ هزًّا لهم؛ لِيَكونَ لهم رُجوعٌ إلى دينِ جَدِّهم؛ إذ كان أشرَفَ آبائِهم، والمُجمَعَ على محبَّتِه، وأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يُقَلِّدْ أباه في عبادةِ الأصنامِ؛ فينبغي أن تَقتَدوا به في تَركِ تَقليدِ آبائِكم الأقرَبينَ، وتَرجِعوا إلى النَّظَرِ واتِّباعِ الحَقِّ[(١)]!

٢- في قَولِ إبراهيمَ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾، ولم يَقُلْ (إلَّا اللهَ): فائدتانِ:

الأولى: الإشارةُ إلى عِلَّةِ إفرادِ اللهِ تعالى بالعبادةِ؛ لأنَّه كما أنَّه مُنفَرِدٌ بالخَلقِ فيَجِبُ أن يُفرَدَ بالعِبادةِ.

الثَّانيةُ: الإشارةُ إلى بُطلانِ عِبادةِ الأصنامِ؛ لأنَّها لم تَفطُرْكم حتَّى تَعبُدوها؛ ففيها تعليلٌ للتَّوحيدِ الجامِعِ بيْنَ النَّفيِ والإثباتِ، وهذه مِن البلاغةِ التَّامَّةِ في تعبيرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[(٢)]. وأيضًا ففي قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَقْرِنَ الحُكمَ بالدَّليلِ؛ لأنَّه أبْلَغُ[(٣)].

٣- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ حكى الله سبحانه عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ في آيةٍ أُخرى أنَّه قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وحكى عنه هاهنا أنَّه قال: ﴿سَيَهْدِينِ﴾، فاجمَعْ بيْنَهما وقَدِّرْ، كأنَّه قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٢٠).

فهو يَهدينِ وسيَهدينِ؛ فيَدُلَّانِ على استِمرارِ الهدايةِ في الحالِ والاستِقبالِ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أخَذ منه بعضُهم أنَّ فيه إشعارًا بأنَّ وَحدانِيَّةَ اللهِ كانتْ غيرَ مَجهولةٍ للمُشرِكين؛ فيَتَّجِهُ أنَّ الدَّعوةَ إلى العِلْمِ بوُجودِ اللهِ ووَحدانِيَّتِه كانتْ بالِغةً لِأكثَرِ الأُمَمِ بما تَناقَلوه مِن أقوالِ الرُّسُلِ السَّابِقينَ، ومِن تِلكَ الأُمَمِ العَرَبُ؛ فيَتَّجِهُ مُؤاخَذةُ المُشرِكين على الإشراكِ قبْلَ بَعثةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّهُم أَهمَلوا النَّظَرَ فيما هو شائِعٌ بيْنَهم، أو تَغافَلوا عنه، أو أعرَضوا؛ فيَكونُ أهلُ الفَترةِ مُؤاخَذينَ على نَبذِ التَّوحيدِ في الدُّنيا، ومُعاقَبينَ عليه في الآخرةِ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ الرَّسولُ المُبينُ: مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووَصْفُه بـ﴿مُّبِينٞ﴾؛ لأنَّه أوضَحَ الهُدَى، ونَصَبَ الأدِلَّةَ، وجاء بأفصَحِ كَلامٍ؛ فالإبانةُ راجِعةٌ إلى معانِي دِينِه وألفاظِ كِتابِه، والحِكمةُ في ذلك: أنَّ اللهَ أراد أنْ يُشَرِّفَ هذا الفَريقَ مِن عَقِبِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ بالانتِشالِ مِن أوحالِ الشِّركِ والضَّلالِ إلى مَناهِجِ الإيمانِ والإسلامِ، واتِّباعِ أفضَلِ الرُّسُلِ وأفضَلِ الشَّرائِعِ، فيَجبُرُ لأُمَّةٍ مِن عَقِبِ إبراهيمَ ما فَرَّطوا فيه مِن الاقتداءِ بأبيهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٥، ١٩٦).

ووقع الخلافُ في أهلِ الفترةِ: هل يَدخُلونَ النَّارَ بكُفرِهم، أو يُعْذَرونَ بالفترةِ، أو يُمتحَنون يومَ القيامةِ؟

قال ابنُ تيميَّةَ: (ومَن لم تَقُمْ عليه الحُجَّةُ في الدُّنيا بالرِّسالةِ، كالأطفالِ، والمجانينِ، وأهلِ الفَتَراتِ؛ فهؤلاء فيهم أقوالٌ، أظهَرُها ما جاءت به الآثارُ أنَّهم يُمتَحَنونَ يومَ القيامةِ، فيُبعَثُ إليهم مَن يأمُرُهم بطاعتِه؛ فإنْ أطاعوه استحَقُّوا الثَّوابَ، وإنْ عَصَوْه استحَقُّوا العذابَ). ((الجواب الصحيح)) (١/ ٣١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٣- ٥٨)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٣٧).

حتَّى يَكمُلَ لدَعوَته شَرَفُ الاستِجابةِ، والمَقصودُ مِن هذا: زِيادةُ الإمهالِ لهم لَعلَّهم يَتذَكَّرون[١].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ إنَّما جَعَلوه بزَعْمِهم سِحرًا؛ مِن حيثُ كان عِندَهم يُفَرِّقُ بيْنَ المرءِ ووَلَدِه وزَوجِه، فجَعَلوه لذلك كالسِّحرِ، ولم يَنظُروا إلى الفَرقِ في أنَّ المُفارِقَ بالقُرآنِ يُفارِقُ عن بَصيرةٍ في الدِّينِ، والمُفارِقَ بالسِّحرِ يُفارِقُ عن خَلَلٍ في ذِهنِه[٢]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ دَليلٌ على أنَّ تَعظيمَ الأغنياءِ والمُتَرَيِّسينَ بالثَّراءِ قديمٌ في أطباعِ مَن لم يَعْصِمْه اللهُ بالإيمانِ ويُبَصِّرْه رُشدَه، ألَا ترَى المساكينَ كيف ظَنُّوا أنَّ مَن كان عِندَهم عظيمًا رئيسًا أحقُّ بالنُّبُوَّةِ مِن محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم؟! فأخبَرَهم اللهُ أنَّ النُّبُوَّةَ رَحمةٌ منه على مَن يُنبيه، ليست هي بأيديهم؛ فيَقسِموها لِمَن أحبُّوا[٣]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾ أنَّ القريةَ تُطلَقُ على المدنِ الكبيرةِ -بل على أُمِّ المُدُنِ-، ولقولِه تعالى في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ [محمد: ١٣]، فقريتُه الَّتي أخرجَتْه هي مكَّةُ، في عُرْفِنا الآنَ تُطلَقُ القريةُ على المدينةِ الصَّغيرةِ، ولكنَّ القرآنَ دلَّ على أنَّ القريةَ تُطلَقُ حتَّى على المدينةِ الكبيرةِ؛ لأنَّها مأخوذةٌ مِن القَرْيِ، وهو الاجتِماعُ[٤].

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ هذا مِن كُفْرِيَّاتِ المُشرِكينَ الَّتي حكاها اللهُ تعالى عنهم في هذه السُّورةِ، وهؤلاء

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٣٤).

المساكينُ قالوا: مَنصِبُ رسالةِ اللهِ مَنصِبٌ شَريفٌ فلا يليقُ إلَّا برجُلٍ شَريفٍ، وقد صَدَقوا في ذلك إلَّا أنَّهم ضَمُّوا إليه مُقَدِّمةً فاسِدةً: وهي أنَّ الرَّجُلَ الشَّريفَ هو الَّذي يكونُ كثيرَ المالِ والجاهِ، ومحمَّدٌ ليس كذلك، فلا تليقُ رِسالةُ اللهِ به! وإنَّما يَليقُ هذا المَنصِبُ برَجُلٍ عَظيمِ الجاهِ كثيرِ المالِ في إحدى القريتَينِ، وهي مكَّةُ والطَّائِفُ. ثمَّ أبطَلَ اللهُ تعالى هذه الشُّبهةَ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: قَولُه: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وتقريرُ هذا الجَوابِ مِن وُجوهٍ:

أحدُها: أنَّا أوقَعْنا التَّفاوُتَ في مَناصِبِ الدُّنيا، ولم يَقدِرْ أحَدٌ مِن الخَلْقِ على تغييرِه؛ فالتَّفاوُتُ الَّذي أوقَعْناه في مناصِبِ الدِّينِ والنُّبُوَّةِ بألَّا يَقدِروا على التَّصريفِ فيه كان أَولى.

وثانيها: أن يكونَ المرادُ أنَّ اختِصاصَ ذلك الغَنيِّ بذلك المالِ الكثيرِ إنَّما كان مِن أجْلِ حُكْمِنا وفَضْلِنا وإحسانِنا إليه، فكيف يَليقُ بالعَقلِ أن نجعَلَ إحسانَنا إليه بكَثرةِ المالِ حُجَّةً علينا في أن نُحسِنَ إليه أيضًا بالنُّبُوَّةِ؟

وثالِثُها: أنَّا لَمَّا أوقَعْنا التَّفاوُتَ في الإحسانِ بمناصِبِ الدُّنيا لا لسَبَبٍ سابقٍ، فلِمَ لا يجوزُ أيضًا أن نُوقِعَ التَّفاوُتَ في الإحسانِ بمناصِبِ الدِّينِ والنُّبُوَّةِ لا لسَبَبٍ سابقٍ؟ فهذا تقريرُ الجوابِ.

والوَجهُ الثَّاني في الجوابِ: ما المرادُ مِن قَولِه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾؟ وتقريرُه: أنَّ اللهَ تعالى إذا خَصَّ بَعضَ عَبيدِه بنَوعِ فَضْلِه ورَحمتِه في الدِّينِ فهذه الرَّحمةُ خَيرٌ مِن الأموالِ الَّتي يَجمَعُها؛ لأنَّ الدُّنيا على شَرَفِ الانقضاءِ والانقراضِ، وفَضْلَ الله ورَحمَتَه تبقَى أبدَ الآبادِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٠).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ يدُلُّ على أنَّ تَفاوُتَ النَّاسِ في الأرزاقِ والحُظوظِ سُنَّةٌ مِن سُنَنِ اللهِ السَّماويَّةِ الكَونيَّةِ القَدَريَّةِ، لا يستطيعُ أحَدٌ مِن أهلِ الأرضِ البتَّةَ تَبديلَها ولا تحويلَها بوَجهٍ مِن الوُجوهِ؛ فلن تَجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تَبديلًا، ولن تجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تَحويلًا. وبذلك تَحقَّقَ أنَّ ما يَتذَرَّعُ به الملاحِدةُ المُنكِرونَ لوُجودِ اللهِ ولجَميعِ النُّبُوَّاتِ والرَّسائِلِ السَّماويَّةِ، إلى ابتزازِ ثَرَواتِ النَّاسِ، ونَزْعِ مُلْكِهم الخاصِّ عن أملاكِهم؛ بدعوَى المُساواةِ بيْنَ النَّاسِ في مَعايِشِهم: أمرٌ باطِلٌ لا يُمكِنُ بحالٍ مِن الأحوالِ، مع أنَّهم لا يَقصِدونَ ذلك الَّذي يَزعُمونَ، وإنَّما يَقصِدونَ استِئثارَهم بأملاكِ جَميعِ النَّاسِ؛ لِيَتمتَّعوا بها، ويَتصَرَّفوا فيها كيف شاؤوا تحتَ ستارِ كثيرٍ مِن أنواعِ الكَذِبِ والغُرورِ والخِداعِ، كما يَتحَقَّقُه كُلُّ عاقِلٍ مُطَّلِعٍ على سِيرتِهم وأحوالِهم مع المجتَمَعِ في بلادِهم! فالطُّغمةُ القَليلةُ الحاكِمةُ ومَن يَنضَمُّ إليها هم المتمَتِّعونَ بجَميعِ خَيراتِ البلادِ، وغَيرُهم مِن عامَّةِ الشَّعبِ مَحرومونَ مِن كُلِّ خَيرٍ، مَظلومونَ في كُلِّ شَيءٍ حتَّى ما كَسَبوه بأيديهم، يُعلَفونَ ببِطاقةٍ كما تُعلَفُ البِغالُ والحَميرُ! وقد عَلِمَ اللهُ جلَّ وعلا في سابِقِ عِلمِه أنَّه يأتي ناسٌ يَغتَصِبونَ أموالَ النَّاسِ بدعوى أنَّ هذا فقيرٌ، وهذا غنيٌّ، وقد نهَى جلَّ وعلا عن اتِّباعِ الهَوى بتلك الدَّعوى، وأوعَدَ مَن لم يَنْتَهِ عن ذلك بقَولِه تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وقَولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيه وَعيدٌ شَديدٌ لِمَن فَعَل ذلك[(١)].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يَقتَضي أن تكونَ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٤، ١١٥).

كُلُّ أقسامِ مَعايِشِهم إنَّما تَحصُلُ بحُكمِ اللهِ وتَقديرِه، وهذا يَقتَضي أن يكونَ الرِّزقُ الحرامُ والحَلالُ كُلُّه مِنَ الله تعالى(١).

١٢- قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إنَّ اللهَ عزَّ وعلَا هو الَّذي قَسَم بيْنَهم مَعيشَتَهم وقَدَّرَها، ودبَّر أحوالَهُم تَدبيرَ العالِمِ بها، فلم يُسَوِّ بيْنَهم، ولَكِنْ فاوَتَ بيْنَهم في أسبابِ العَيشِ؛ حتَّى يَتعايَشوا ويَترافَدوا ويَصِلوا إلى مَنافِعِهم، ويَحصُلوا على مَرافِقِهم، ولو وَكَلَهم إلى أنفُسِهم ووَلَّاهُم تَدبيرَ أمرِهِم، لَضاعُوا وهَلَكوا، وإذا كانوا في تَدبيرِ المَعيشةِ الدَّنِيَّةِ في الحَياةِ الدُّنيا على هذه الصِّفَةِ؛ فما ظَنُّكَ بهم في تَدبيرِ أُمورِ الدِّينِ الَّذي هو رَحمةُ اللهِ الكُبرَى، ورَأفَتُه العُظمَى، وهو الطَّريقُ إلى حِيازةِ حُظوظِ الآخِرةِ، والسُّلَّمُ إلى حُلولِ دارِ السَّلامِ(٢)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٠).

قال القرطبي: (خِلافًا للمُعتَزِلةِ في قَولِهم: إنَّ الحرامَ ليس برِزقٍ؛ لأنَّه لا يَصِحُّ تمَلُّكُه، وإنَّ اللهَ لا يَرزُقُ الحرامَ، وإنَّما يَرزُقُ الحلالَ، والرِّزقُ لا يكونُ إلَّا بمعنى المِلْكِ). ((تفسير القرطبي)) (١/ ١٧٧).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (والرِّزقُ يُرادُ به شَيئانِ: أحدُهما ما ينتفِعُ به العبدُ.

والثَّاني: ما يَملِكُه العبدُ. فهذا الثَّاني هو المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وقولِه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [المنافقون: ١٠]، وهذا هو الحلالُ الَّذي مَلَّكه اللهُ إيَّاه. وأمَّا الأوَّلُ: فهو المذكورُ في قَولِه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وقَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «إنَّ نَفسًا لن تموتَ حتى تَستكمِلَ رِزقَها»، ونحوِ ذلك. والعبدُ قد يأكُلُ الحلالَ والحرامُ فهو رِزقٌ بهذا الاعتبارِ، لا بالاعتِبارِ الثَّاني، وما اكتَسَبه ولم يَنتفِعْ به هو رِزقٌ بالاعتبارِ الثَّاني دونَ الأوَّلِ؛ فإنَّ هذا في الحقيقةِ مالُ وارِثِه لا مالُه. واللهُ أعلَمُ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٦).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ فيه إباحةُ استِخدامِ الحُرِّ برِضاه واستِئجارِه[١]، واستخدامِ العمالِ[٢].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ في هذه الآيةِ تَنبيهٌ على حِكمةِ الله تعالى في تَفضيلِ اللهِ بَعضَ العِبادِ على بَعضٍ في الدُّنيا: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، أي: لِيُسَخِّرَ بَعضُهم بعضًا في الأعمالِ والحِرَفِ والصَّنائِعِ، فلو تساوى النَّاسُ في الغِنى، ولم يَحتَجْ بَعضُهم إلى بعضٍ؛ لَتعَطَّلَت كَثيرٌ مِن مَصالِحِهم ومَنافِعِهم[٣]؛ فإنَّ كُلَّ صِناعةٍ دُنيويَّةٍ يُحسِنُها قَومٌ دونَ آخَرينَ، فجُعِل البَعضُ مُحتاجًا إلى البَعضِ؛ لِتَحصُلَ المواساةُ بيْنَهم في مَتاعِ الدُّنيا، ويحتاجَ هذا إلى هذا، ويَصنَعَ هذا لهذا، ويُعطيَ هذا هذا؛ فتَتِمَّ بذلك مَصالِحُهم، ويَنتَظِمَ مَعاشُهم، ويَصِلَ كُلُّ واحدٍ منهم إلى مَطلوبِه[٤].

١٥- قولُه تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ فيه إثباتُ التَّعليلِ والحكمةِ لأفعالِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ اللَّامَ هنا للتَّعليلِ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ابتَدَأَ بذِكرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وقَومِه إبطالًا لقَولِ المُشرِكين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]؛ بأنَّ أَولى آبائِهم بأنْ يَقتَدوا به هو

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٤). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٣٥).

أبوهُم الَّذي يَفتَخِرون بنِسبَتِه؛ إبراهيمُ عليه السلامُ[١].

- قولُه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ ... ﴾ (إذ) ظَرفٌ مُتَعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، تَقديرُه: واذكُرْ إذ قال إبراهيمُ، والمعنى: واذكُرْ زَمانَ قَولِ إبراهيمَ لأبيهِ وقَومِه قَولًا صَريحًا في التَّبَرُّؤِ مِن عِبادةِ الأصنامِ[٢].

- وخُصَّ أبو إبراهيمَ بالذِّكرِ قبْلَ ذِكْرِ قَومِه -وما هو إلَّا واحِدٌ منهم- اهتِمامًا بذِكْرِه؛ لأنَّ بَراءةَ إبراهيمَ مِمَّا يَعبُدُ أبوه أدَلُّ على تَجَنُّبِ عِبادةِ الأصنامِ؛ بحيثُ لا يَتسامَحُ فيها، ولو كان الَّذي يَعبُدُها أقرَبَ النَّاسِ إلى مُوَحِّدِ اللهِ بالعِبادةِ مِثلَ الأبِ، ولِتَكُونَ حكايةُ كَلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قُدوَةً لإبطالِ قَولِ المُشرِكينَ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[٣] [الزخرف: ٢٢].

- وقولُه: ﴿بَرَآءٌ﴾ مَصدرٌ نُعِتَ به مُبالَغةً[٤]. أو صِفةٌ مُشبَّهةٌ، و(بَريءٌ) اسمُ فاعلٍ، والصِّفةُ المُشبَّهةُ أعظَمُ؛ لأنَّها تدُلُّ على الدَّوامِ والثَّباتِ والاستمرارِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾

- الاستِثناءُ في قَولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ استِثناءٌ مِن (ما تَعبُدون)، و(ما) مَوصولةٌ، أي: مِن الَّذين تَعبدونَهُم؛ فإنَّ قومَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ كانوا مُشرِكين مِثلَ مُشرِكي العَرَبِ. وفرَّع على هذا قَولَه: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾؛ لأنَّ قَولَه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ يَتضَمَّن معنى: إنَّني اهتَدَيتُ إلى بُطلانِ عِبادَتِكم

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١١٥).

الأصنامَ بهَديٍ مِن اللهِ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾، وقال في سُورَةِ (الشُّعراءِ): ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]؛ فأفاد بالآيةِ المُقترِنةِ بالسِّينِ: هِدايَتَه في الاستِقبالِ، بعْدَ أنْ أفاد بقَولِه المَحكِيِّ في (الشُّعراءِ) الهِدايةَ في الحالِ[٢].

- وتَوكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) مَنظورٌ فيه إلى حالِ أبيهِ وقَومِه؛ لأنَّهم يُنكِرون أنَّه الآنَ على هُدًى، فهُم يُنكِرون أنَّه سيَكونُ على هُدًى في المستقبَلِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ أشْعَرَ حَرفُ الظَّرفيَّةِ (في) بأنَّ هاتِه الكَلِمةَ -وهي كَلِمةُ التَّوحيدِ- لم تَنقَطِعْ بيْن عَقِبِ إبراهيمَ دُونَ أنْ تَعُمَّ العَقِبَ[٤].

- وقولُه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ تَعليلٌ لجَعْلِ الكَلِمةِ باقِيةً في عَقِبِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ ليَدعُوَ المُوَحِّدُ المُشرِكَ نَسلًا بعْدَ نَسلٍ إلى المِلَّةِ الحَنيفيَّةِ؛ رَجاءَ أنْ يَرجِعَ إليها مَنْ أشرَكَ منهم بدُعاءِ المُوَحِّدِ[٥].

- وحَرفُ (لَعَلَّ) لإنشاءِ الرَّجاءِ، والرَّجاءُ هنا رَجاءُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لا مَحالةَ؛ فتَعَيَّنَ أنْ يُقَدَّرَ مَعنَى قَولٍ صادِرٍ مِن إبراهيمَ بإنشاءِ رَجائِه، بأنْ يُقَدَّرَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٦).

ويُنظر ما تقدم في الفوائد العلمية واللطائف (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٥).

قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أو: قائلًا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ إضرابٌ عن قَولِه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]، وهو إضْرابُ إبطالٍ، أي: لم يَحصُلْ ما رَجاهُ إبراهيمُ مِن رُجوعِ بَعضِ عَقِبِه إلى الكَلِمةِ الَّتي أوصاهُم برَعيِها؛ فإنَّ أقدَمَ أُمَّةٍ مِن عَقِبِه لم يَرجِعوا إلى كَلِمَتِه، وهؤلاء همُ العَرَبُ الَّذين أشْرَكوا وعَبَدوا الأصنامَ. وبَعْدَ (بَلْ) كلامٌ مَحذوفٌ دلَّ عليه الإبطالُ وما بعْدَ الإبطالِ، وتَقديرُ المَحذوفِ: بلْ لمْ يَرجِعْ هؤلاء وآباؤُهُم الأوَّلون إلى التَّوحيدِ، ولم يَتَبَرَّؤُوا مِن عِبادةِ الأصنامِ، ولا أخَذوا بوِصايةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[٢].

- وجُملةُ ﴿مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا لسائِلٍ يَسأَلُ عمَّا عامَلَهم اللهُ به جَزاءً على تَفريطِهم في وِصايةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وهلَّا استَأصَلَهم؟ فأُجيبَ: بأنَّ اللهَ مَتَّعَهم بالبَقاءِ إلى أنْ يَجيئَهم رَسولٌ بالحَقِّ، وذلك لحِكمةٍ عَلِمها اللهُ يَرتَبِطُ بها وُجودُ العَرَبِ زَمنًا طويلًا بدُونِ رَسولٍ، وتأخُّرُ مَجيءِ الرَّسولِ إلى الإبَّانِ الَّذي ظَهَر فيه، وبهذا الاستِئنافُ حَصَل التَّخَلُّصُ إلى ما بَدَا مِن المُشرِكين بعْدَ مَجيءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن فَظيعِ تَوَغُّلِهم في الإعراضِ عن التَّوحيدِ الَّذي كان عليه أبوهُم[٣].

- وفي مَجيءِ الإضرابِ بقَولِه: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ ...﴾ الآيةَ، وجَعْلِ الغايةِ للتَّمَتُّعِ مَجيءَ الحَقِّ: نُكتَةٌ بَديعةٌ؛ لأنَّه ليس المَقصودُ مِن الإضرابِ ردَّ الكَلامِ السَّابِقِ، ولكنَّ المَقصودَ هو التَّأكيدُ والاستِمرارُ؛ لِيُبيِّنَ أنَّهم شُغِلوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٦، ١٩٧).

عمَّا جاءَهم مِن الحقِّ؛ إذ لا مُناسَبةَ بيْنَ مَجيءِ الحَقِّ والتَّمتيعِ، والمَعنَى: أنَّهم شُغِلوا عن شُكرِ المُنعِمِ؛ فإنَّهم بَدلًا مِن أنْ يَنصاعُوا إلى الحقِّ، ويأخُذوا بأسبابِه، ويَعكُفوا عليه؛ جَاؤُوا بما هو شَرٌّ مِن غَفلَتِهم الَّتي كانوا عليها[١].

- قَولُه: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ المُرادُ بآبائِهم: آباؤُهُم الَّذين سَنُّوا عِبادةَ الأصنامِ، مِثلُ عَمرِو بنِ لُحَيٍّ والَّذين عَبَدوها مِن بَعدِه، وتَمتيعُ آبائِهم تَمهيدٌ لتَمتيعِ هؤلاءِ؛ ولذلك كانت غايةُ التَّمتيعِ مَجيءَ الرَّسولِ؛ فإنَّ مَجيئَه لهؤلاءِ، والتَّمتيعُ هنا التَّمتيعُ بالإمهالِ وعَدَمِ الاستِئصالِ، كما تدُلُّ عليه الغايةُ في قَولِه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، والمُرادُ بالحَقِّ هنا القُرآنُ، وهذه الآيةُ ثَناءٌ راجِعٌ على القُرآنِ مُتَّصِلٌ بالثَّناءِ عليه الَّذي افتُتِحَت به السُّورَةُ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تَعجُّبٌ مِن حالِ تَغافُلِهم، أي: قد كان لهم بَعضُ العُذرِ قبْلَ مَجيءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والقُرآنِ؛ لأنَّ لِلغَفَلاتِ المُتَقادِمةِ غِشاوَةً تُصَيِّرُ الغَفلةَ جَهالةً؛ فكان الشَّأنُ أنْ يَستَيقِظوا لَمَّا جاءَهُم الحَقُّ ورَسولٌ مُبينٌ، فيَتَذَكَّروا كَلِمةَ أبيهِم إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ولَكِنَّهم لَمَّا جاءَهُم الحَقُّ قالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾، أي: قالوا للرَّسولِ: هذا ساحِرٌ، فازْدادوا رَيْنًا على رَيْنٍ؛ فالخَبرُ مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ، لا في إفادةِ صُدورِ هذا القولِ منهم؛ لأنَّ ذلك مَعلومٌ لهم وللمُسلِمينَ[٣].

- وجَعَل مَجيءَ الحَقِّ والرَّسولِ غايةَ التَّمتيعِ، ثمَّ أردَفَه بقَولِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ﴾، والمَرادُ التَّنبيهُ على غَفلَتِهم، فقال: بلِ اشتَغَلوا عن

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨١، ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٩٨).

التَّوحيدِ حتَّى جاءَهُم الحَقُّ ورَسولٌ مُبينٌ؛ فخَيَّلَ بهذه الغايةِ أنَّهم تَنَبَّهوا عندَها عن غَفلَتِهم؛ لاقتِضائِها التَّنَبُّهَ، ثمَّ ابتَدَأَ قِصَّتَهم عندَ مَجيءِ الحقِّ فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ جاؤُوا بما هو شَرٌّ مِن غَفلَتِهم الَّتي كانوا عليها: وهو أنْ ضَمُّوا إلى شِركِهم مُعانَدَةَ الحَقِّ، ومُكابَرَةَ الرَّسولِ، ومُعاداتَه، والاستِخفافَ بكتابِ اللهِ وشَرائِعِه، والإصرارَ على أفعالِ الكَفَرةِ، والاحتِكامَ على حِكمةِ اللهِ في تَخَيُّرِ مُحمَّدٍ مِن أهلِ زَمانِه، ثمَّ قالوا على سَبيلِ التَّنَزُّلِ: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾، وهي الغايَةُ في تَشويهِ صُورَةِ أمرِهم[(١)].

- وفي تَعقيبِ الغايةِ بهذا الكَلامِ إيذانٌ بأنَّ تَمتيعَهم أصبَحَ على وَشْكِ الانتِهاءِ؛ فجُملَةُ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ مَعطوفَةٌ على جُملَةِ ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الزخرف: ٢٩]؛ فإنَّ (لَمَّا) تَوقيتِيَّةٌ؛ فهي في قُوَّةِ (حتَّى) الغائيَّةِ؛ كأنَّه قيلَ: مَتَّعتُ هؤلاءِ وآباءَهم، فلمَّا جاءَهُم الحقُّ عَقِبَ ذلك التَّمتيعِ، لم يَستَفيقُوا مِن غَفلَتِهم، وقالوا: هذا سِحرٌ، أي: كانوا قبلَ مَجيءِ الحقِّ مُشرِكين عن غَفلَةٍ وتَساهُلٍ، فلمَّا جاءَهُم الحقُّ صاروا مُشرِكين عن عِنادٍ ومُكابَرةٍ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ مَقُولٌ ثانٍ، أي: قالوا: هذا سِحرٌ فلا نَلتَفِتُ إليه، وقالوا: إنَّا به -أي: بالقُرآنِ- كافِرون، أي: سواءٌ كان سِحرًا أم غَيرَه، أي: فَرَضوا أنَّه سِحرٌ، ثمَّ ارتَقَوا فقالوا: إنَّا به كافِرون، أي: كافِرون بأنَّه مِن عندِ اللهِ، سواءٌ كان سِحرًا، أم شِعرًا، أمْ أساطيرَ الأوَّلينَ، ولهذا المَعنَى أكَّدوا الخَبَرَ بحَرفِ التَّأكيدِ؛ ليُؤْيِسوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن إيمانِهم به[(٣)].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ عَطفٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على جُملةِ ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ [الزخرف: ٣٠]؛ فهو في حيِّزِ جَوابِ (لَمَّا) [الزخرف: ٣٠] التَّوقيتيَّةِ، واقعٌ مَوقعَ التَّعجيبِ أيضًا، أي: بعْدَ أنْ أخَذوا يَتَعَلَّلون بالعِلَلِ لإنكارِ الحقِّ؛ إذ قالوا للقُرآنِ: هذا سِحرٌ، وإذ كان قَولُهم ذلك يَقْتضي أنَّ الَّذي جاء بالقُرآنِ ساحِرٌ؛ انتَقَل إلى ذِكْرِ طَعنٍ آخَرَ منهم في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه لم يَكُنْ مِن عُظَماءِ أهلِ القَريَتَينِ[١].

- و(لولا) أصْلُه حَرفُ تَحضيضٍ، استُعْمِلَ هنا في معنى إبطالِ كَونِه رسولًا؛ لأنَّ التَّحضيضَ على تَحصيلِ ما هو مَقطوعٌ بانتفاءِ حُصولِه يَستلزِمُ الجزْمَ بانتفائِه[٢].

- ويَحتمِلُ أنَّهم قالوا هذا اللَّفظَ المَحكِيَّ عنهم في القُرآنِ، ولم يُسَمُّوا شَخصَينِ مُعَيَّنَينِ، ويَحتمِلُ أنَّهم سَمَّوا شَخصَينِ ووَصَفوهُما بهَذَينِ الوَصفَينِ، واقتَصَر القُرآنُ على ذِكْرِ هَذَينِ الوَصفَينِ أنَّه رَجلٌ وعَظيمٌ؛ إيجازًا، مع التَّنبيهِ على ما كانوا يُؤَهِّلون به الاختِيارَ للرِّسالةِ؛ تَحميقًا لرَأيِهم[٣].

- وقَولُهم: ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ ذِكرٌ له على وَجهِ الاستِهانةِ به؛ لأنَّهم لم يقولوا هذه المقالةَ تسليمًا، بل إنكارًا[٤].

- وتعريفُ ﴿ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾ في قولِهم: ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ للعَهدِ، جَعَلوا عِمادَ التَّأهُّلِ لسِيادَةِ الأقوامِ أمْرَينِ: عَظَمةَ المُسَوَّدِ، وعَظَمةَ قَريَتِه؛ فهمْ لا يَدينون إلَّا مَن هو مِن أشهَرِ القَبائِلِ في أشهَرِ القُرَى؛ لأنَّ القُرى هي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٧٨).

مَأوَى شُؤونِ القَبائِلِ وتَموينِهم وتِجارَتِهم[١].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ إنكارٌ عليهم قولَهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف: ٣١]؛ فإنهم لَمَّا نَصَبوا أنفُسَهم مَنصِبَ مَن يَتَخَيَّرُ أصنافَ النَّاسِ للرِّسالةِ عن اللهِ؛ فقد جَعَلوا لأنفُسِهم ذلك لا لِلَّه؛ فكان مِن مُقتَضَى قَولِهم أنَّ الاصطِفاءَ للرِّسالةِ بيَدِهم؛ فلذلك قُدِّم ضَميرُ (هُم) المجعولُ مُسنَدًا إليه، على مُسنَدٍ فِعلِيٍّ؛ ليُفِيدَ معنَى الاختِصاصِ؛ فسَلَّط الإنكارَ على هذا الحَصرِ إبطالًا لقَولِهم، وتَخطِئَةً لهم في تَحَكُّمِهم، ولَمَّا كان الاصطِفاءُ للرِّسالةِ رَحمةً لِمَن يُصطَفَى لها، ورَحمةً للنَّاسِ المُرسَلِ إليهم؛ جَعَل تَحَكُّمَهم في ذلك قِسمَةً منهم لِرَحمةِ اللهِ باختِيارِهِم مَن يُختارُ لها، وتَعيينِ المُتأَهِّلِ لإبلاغِها إلى المَرحُومينَ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ وُجِّهَ الخِطابُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأُضِيفَ لَفظُ (الرَّبِّ) إلى ضَميرِه؛ إيماءً إلى أنَّ اللهَ مُؤَيِّدُه تَأنيسًا له؛ لأنَّ قَولَهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] قَصَدوا منه الاستِخفافَ به؛ فرَفَع اللهُ شَأنَه بإبلاغِ الإنكارِ عليهم؛ بالإقبالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨١).

عليه بالخِطابِ، وبإظهارِ أنَّ اللهَ رَبُّه، أي: مُتَوَلِّي أمرِهِ وتَدبيرِه[١].

- قَولُه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...﴾ تَعليلٌ للإنكارِ والنَّفيِ المُستفادِ منه، واستِدلالٌ عليه، أي: لَمَّا قَسَمْنا بيْنَ النَّاسِ مَعيشتَهم، فكانوا مُسَيَّرينَ في أمُورِهم على نَحوِ ما هَيَّأْنا لهم مِن نِظامِ الحَياةِ، وكان تَدبيرُ ذلك للهِ تعالى ببالِغِ حِكمَتِه، فسَخَّر بَعضَهم لبَعضٍ في أشغالِهم على حِسابِ دَواعِي حاجةِ الحَياةِ؛ فإذا كانوا بهذه المَثابةِ في تَدبيرِ المَعيشةِ الدُّنيا؛ فكذلك الحالُ في إقامةِ بَعضِهم دُونَ بَعضٍ للتَّبليغِ؛ فإنَّ ذلك أعظَمُ شُؤونِ البَشَرِ؛ فهذا وَجهُ الاستِدلالِ[٢].

- وجُملَةُ ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تَذييلٌ للرَّدِّ عليهم، وفي هذا التَّذييلِ ردٌّ ثانٍ عليهم بأنَّ المالَ الَّذي جَعَلوه عِمادَ الاصِطفاءِ للرِّسالةِ، هو أقَلُّ مِن رَحمةِ الله؛ فهي خَيرٌ ممَّا يَجمَعون مِن المالِ الَّذي جَعَلوه سَببَ التَّفضيلِ حينَ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ فإنَّ المالَ شَيءٌ جَمَعه صاحبُه لِنَفْسِه، فلا يكونُ مِثلَ اصطفاءِ اللهِ العبْدَ لِيُرْسِلَه إلى النَّاسِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٣-٣٥)

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَمَعَارِجَ﴾: أي: مَراقيَ وسَلالِمَ، وأصلُ (عرج): يدُلُّ على سُمُوٍّ وارتقاءٍ[1].

﴿يَظْهَرُونَ﴾: أي: يَعْلُونَ ويَصعَدونَ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[2].

﴿وَزُخْرُفًا﴾: أي: ذَهَبًا، أو: الزُّخرفُ: الزِّينةُ، قيل: أصلُ معنى الزُّخرفِ: الذَّهبُ، ولَمَّا كان حَسنًا في الأعيُنِ قيل لكلِّ زينةٍ: زخرفةٌ، ثم جعلوا كلَّ مُزيَّنٍ: مزخْرفًا، وقيل: أصلُ الزُّخرفِ: الزِّينةُ المُزَوَّقةُ، ومنه قيل للذَّهبِ: زُخرفٌ؛ لِكَونِ كمالِ الزِّينةِ بالذَّهبِ[3].

﴿مَتَٰعُ﴾: المتاعُ: المنفعةُ، وكلُّ ما حَصَل التَّمتُّعُ والانتِفاعُ به على وجهٍ ما، والمتاعُ والمتعةُ: ما يُنتفَعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، بل يَنقضي عن قَريبٍ، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (٤/ ٢٥١) و (١٣/ ٨٠).

(متع): يدُلُّ على مَنفعةٍ، وامتدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾

قَولُه: ﴿ وَزُخۡرُفٗا ﴾ في نَصبِه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّه مَفعولٌ به لِفعلٍ مَحذوفٍ، أي: وجعَلْنا لهم زُخرُفًا، ويكونُ مِن قَبيلِ عَطفِ الجُمَلِ. الثَّاني: أن يكونَ مَنصوبًا عَطفًا على ﴿سُقُفٗا ﴾ مِن قَبيلِ عَطفِ المُفرداتِ. الثَّالِثُ: أن يكونَ مَنصوبًا عَطفًا على محلِّ ﴿مِّن فِضَّةٖ ﴾، كأنَّه قيل: سُقُفًا مِن فِضَّةٍ وزُخرُفٍ، يعني: بَعضُها مِن فِضَّةٍ وبَعضُها مِن ذَهَبٍ، فنصب عَطفًا على المحَلِّ. وقيلَ: هو منصوبٌ على نَزعِ الخافِضِ عَطفًا على ﴿مِّن فِضَّةٖ ﴾، أي: مِن فِضَّةٍ ومِن زُخرُفٍ -أي: ذَهَبٍ.

قَولُه: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ ﴿وَإِن ﴾ الواوُ: حرفُ استِئنافٍ. إنْ: نافيةٌ. ﴿كُلُّ ﴾ مُبتدأٌ مَرفوعٌ. ﴿ذَٰلِكَ ﴾ مُضافٌ إليه في محَلِّ جَرٍّ. ﴿لَمَّا ﴾ حرفُ حَصرٍ بمعنى «إلَّا». ﴿مَتَٰعُ ﴾ خَبَرُ المبتدأِ ﴿كُلُّ ﴾. والجُملةُ الاسميَّةُ كلُّها مُستأنَفةٌ لا محَلَّ لها[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى محقِّرًا الدُّنيا، مبيِّنًا هوانَها عليه: ولولا أن يَصيرَ النَّاسُ كُلُّهم كُفَّارًا إذا رأَوا ما أُوتِيَه الكُفَّارُ مِن سَعةٍ في الأرزاقِ، لَجَعَل اللهُ لأولئك الكُفَّارِ لِبُيوتِهم سُقُفًا مِن فِضَّةٍ، ومَصاعِدَ يَصعَدونَ ويَرتَفِعونَ بها، ولجَعَل لِبُيوتِهم أبوابًا، وأسِرَّةً

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٨٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٥/ ٨٤).

يتَّكِئُونَ عليها، وجعَلْنا معَ ذلك لهم ذَهَبًا، وما كُلُّ ذلك إلَّا مَتاعٌ وعَرَضٌ زائِلٌ، ونَعيمُ الآخِرةِ عندَ رَبِّك -يا محمَّدُ- للمُتَّقينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَقَرَّر أنَّ مِن خُلُقِهم تَعظيمَ المالِ وأهلِ الثَّراءِ، وحِسبانَهم ذلك أصلَ الفَضائِلِ، ولم يَهتَمُّوا بزَكاءِ النُّفوسِ، وكان اللهُ قد أبطَلَ جَعْلَهم المالَ سَبَبَ الفَضلِ بإبطالَينِ؛ بقَولِه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقَولِه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ أعقَبَ ذلك بتَعريفِهم أنَّ المالَ والغِنى لا حَظَّ لهما عِندَ اللهِ تعالى؛ فإنَّ اللهَ أعطى كلَّ شَيءٍ خَلْقَه، وجعَلَ للأشياءِ حَقائقَها ومَقاديرَها، فكثيرًا ما يكونُ المالُ للكافرينَ ومَن لا خَلاقَ لهم مِن الخَيرِ؛ فتعيَّنَ أنَّ المالَ قِسمةٌ مِن اللهِ على النَّاسِ، جعَلَ له أسبابًا نظَمَها في سِلكِ النُّظُمِ الاجتماعيَّةِ، وجعَلَ لها آثارًا مُناسِبةً لها، وشتَّانَ بَيْنَها وبَينَ مَواهبِ النُّفوسِ الزَّكيَّةِ، والسَّرائرِ الطَّيِّبةِ، ويَحصُلُ مِن هذا التَّحقيرِ للدُّنيا وللمالِ إبطالٌ ثالِثٌ لِمَا أَسَّسوا عليه قَولَهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1] [الزخرف: ٣١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن اللهُ حَقارةَ الدُّنيا، وعَظَّم شأنَ الآخرةِ، في قَولِه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ أتْبَعَ ذلك ببَيانِ شِدَّةِ حَقارتِها، وأنَّه جعَلَها مُشتَرِكةً بيْنَ المُؤمِنينَ والكافِرينَ، وجَعَل ما في الآخِرةِ مِن النَّعيمِ خاصًّا بالمؤمِنينَ دونَ الكافِرينَ، وبَيَّن حِكمَتَه في اشتِراكِ المؤمِنِ مع الكافِرِ في نَعيمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣١).

الدُّنيا، بقَولِه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، أي: لولا كراهَتُنا لِكَونِ جميعِ النَّاسِ أمَّةً واحِدةً مُتَّفِقةً على الكُفرِ لَأَعطَيْنا زَخارِفَ الدُّنيا كُلَّها للكُفَّارِ[١].

﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ﴾.

أي: ولولا كراهَتُنا أن يَرغَبَ النَّاسُ في الكُفرِ إذا رأَوْا ما أُوتِيَه الكُفَّارُ مِن سَعةٍ وقُدرةٍ، فيَصيروا كُلُّهم كُفَّارًا؛ لَجَعَلَ اللهُ لِلَّذين يَكفُرونَ به بُيُوتًا ذاتَ سُقُفٍ مِن فِضَّةٍ[٢].

﴿وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾.

أي: ومَصاعِدَ ومَراقيَ يَرتَفِعونَ بها[٣].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٧، ٥٨٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣، ٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٦، ١١٨).

قال ابن جرير: (السُّقوف جمْعُ سَقْفٍ، ثمَّ تُجمعُ السُّقوفُ سُقُفًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٩).

وقال ابن عطية: (معنى الآيةِ: أنَّ اللهَ تعالى أبقَى على عَبيدِه، وأنعَمَ بمُراعاةِ بَقاءِ الخَيرِ والإيمانِ، وشاء حِفْظَه على طائِفةٍ منهم بقيَّةَ الدَّهرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٨).

قال الرازي: (هي المصاعِدُ إلى المساكِنِ العاليةِ، كالدَّرَجِ والسَّلالِمِ، عليها يَظهَرونَ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣١).

قيل: هذه المعارِجُ مِن فِضَّةٍ أيضًا كما أنَّ السُّقُفَ مِن فِضَّةٍ. وممَّن قال بهذا: السمعاني، والزمخشري، وابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥). =

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾.

أي: ولَجَعَل لِبُيوتِهم أبوابًا[١].

﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾.

أي: ولَجَعَل لهم أسِرَّةً يتَّكِئُونَ عليها[٢].

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٠).
قال الشنقيطي: (قَولُه: ﴿يَظْهَرُونَ﴾ أي: يَصعَدونَ ويَرتَفِعونَ حتَّى يَصيروا على ظُهورِ البُيوتِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٠).
قيل: الأبوابُ مِن فِضَّةٍ أيضًا. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحدي، والسمعاني، والزمخشري، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢).
وقال ابن عثيمين: (هذا ليس بُمتعيِّنٍ، بل نقولُ: أبوابًا فَخمةً ليست كالمعتادِ، سواءٌ مِن فِضَّةٍ، أو مِن حديدٍ، أو مِن خَشَبٍ...). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٥، ٤٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤١).
قيل: السُّرُرُ مِن فِضَّةٍ أيضًا. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والزجاج، وابن أبي زمنين، والواحدي، والسمعاني، والزمخشري، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢).
قال أبو حيَّان: (هذه الأسماءُ مَعاطيفُ على قَولِه: ﴿سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾، فلا يتعَيَّنُ أن تُوصَفَ =

﴿ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَزُخْرُفًا ﴾.

أي: وذَهَبًا[1]؛ فلولا يَعتَقِدُ النَّاسُ أنَّهم يَنالُونَ ذلك بالكُفرِ، فيَكفُرونَ جَميعًا؛

= المعاطيفُ بكَونِها مِن فِضَّةٍ. وقال الزمخشري: سقوفًا ومَصاعِدَ وأبوابًا وسُرُرًا كُلُّها مِن فِضَّةٍ. انتهى، كأنَّه يرى اشتراكَ المعاطيفَ في وَصفِ ما عُطِفَت عليه). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩).

وقال البِقاعي: (ودلَّ على هدوءِ بالِهم، وصفاءِ أوقاتِهم وأحوالِهم بقولِه: ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٢٥، ٤٢٦).

وقال ابن عاشور: (وفائدةُ وصْفِها بجُملةِ ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ الإشارةُ إلى أنَّهم يُعطَونَ هذه البَهرجةَ مع استِعمالِها في دَعَةِ العَيشِ، والخُلُوِّ عن التَّعبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٤).

قال الماوردي: (﴿وَزُخْرُفًا﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: أنَّه الذَّهَبُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ... الثَّاني: الفُرُشُ ومتاعُ البَيتِ. قاله ابنُ زَيدٍ. الثَّالثُ: أنَّه النُّقوشُ. قاله الحَسَنُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٤).

وقال الزَّجَّاجُ: (جاء في التَّفسيرِ أنَّه هاهنا الذَّهَبُ، إلَّا زيدَ بنَ أسلَمَ فإنَّه قال: هو مَتاعُ البَيتِ. والزُّخرُفُ في اللُّغةِ: الزِّينةُ وكَمالُ الشَّيءِ فيها، ودليلُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ [يونس: ٢٤]، أي: كَمالَها وتَمامَها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤١١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالزُّخرُفِ: الذَّهَبُ: ابنُ جرير، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، وأبو حيان، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٢).

قال الواحدي: (﴿وَزُخْرُفًا﴾ كلُّهم قالوا: إنَّه الذَّهبُ. والمعنى: ونجعلُ لهم معَ ذلك ذهبًا وغِنًى). ((الوسيط)) (٤/ ٧١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالزُّخرفِ: الزِّينةُ: الزمخشري، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧٢). =

رغبةً منهم في الدُّنيا، لَجعَلَه اللهُ تعالى للكافِرينَ به[١].

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

= وقال القاسمي: (زخرفًا: أي: زينةً مِن ذهَبٍ وجواهرَ فوقَ الفضَّةِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٨٨).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابِقَين، فقال: المرادُ بـقولِه: ﴿وَزُخْرُفًا﴾: أي: ذهبًا وزينةً عامَّةً كاملةً: البِقاعي، والشربيني، وجوَّز ابنُ عاشور استعمالَه في هذَين المعنيَينِ استعمالَ المشترَكِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٦).

وقال ابن جرير: (في نَصبِ الزُّخرُفِ وَجهانِ:

أحَدُهما: أن يكونَ معناه: لَجَعَلْنا لِمَن يَكفُرُ بالرَّحمنِ لِبُيوتِهم سُقُفًا مِن فِضَّةٍ ومِن زُخرُفٍ، فلمَّا لم يُكرِّرْ عليه «مِنْ» نُصِبَ على إعمالِ الفِعلِ فيه ذلك، والمعنى فيه فكأنَّه قيل: وزُخرُفًا يُجعَلُ ذلك لهم منه.

والوجهُ الثاني: أن يكونَ مَعطوفًا على السُّرُرِ، فيَكونَ معناه: لَجَعَلْنا لهم هذه الأشياءَ مِن فِضَّةٍ، وجعَلْنا لهم مع ذلك ذَهَبًا يكونُ لهم غِنًى يَستغنُونَ بها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٣، ٥٩٤).

ممَّن ذهب إلى الوجهِ الأوَّل، وأنَّ المعنى: لجعَلْنا هذا كلَّه مِن فضَّةٍ وذهبٍ: السمرقندي، وهو ظاهرُ اختيارِ السمعاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠١).

وممَّن ذهب إلى الوجهِ الثَّاني: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٧).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٤، ٢٠٥).

قال الواحدي: (معنى الآيةِ: لولا أن تميلَ الدُّنيا بالنَّاسِ فيَصيرَ الخَلقُ كُفَّارًا، لَأعطى اللهُ الكافِرَ في الدُّنيا غايةَ ما يَتمنَّى فيها؛ لِقِلَّتِها عندَه، ولكِنَّه عزَّ وجَلَّ لم يفعَلْ ذلك؛ لِعلْمِه بأنَّ الغالِبَ على الخَلقِ حُبُّ العاجِلةِ). ((الوسيط)) (٤/ ٧١، ٧٢).

أي: وما كُلُّ تلك الأشياءِ المذكورةِ إلَّا عَرَضٌ دُنيويٌّ زائِلٌ لا يَبقَى[١].

كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص: ٦٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((الدُّنيا سِجنُ المؤمِنِ، وجَنَّةُ الكافِرِ))[٢].

﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

أي: وأمَّا نَعيمُ الآخِرةِ عندَ رَبِّك -يا محمَّدُ- فهو خاصٌّ بالَّذين امتَثَلوا ما أمرَ اللهُ به مِن التَّوحيدِ والطَّاعاتِ، واجتَنَبوا ما نهَى عنه مِنَ الشِّركِ والسَّيِّئاتِ[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فيه أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٩).
قال ابنُ عثيمين: (لأنَّ الدُّنيا مهما طالتْ بالإنسانِ فلا بُدَّ مِن الزَّوالِ؛ إمَّا أن تَزولَ الدُّنيا عنه، وإمَّا أن يَزولَ هو عن الدُّنيا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٤).

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٦، ١١٧).

الدُّنيا لا تُساوي عِندَ الله تعالى شَيئًا، وأنَّه لولا لُطفُه ورحمتُه بعِبادِه الَّتي لا يُقَدِّمُ عليها شيئًا، لَوَسَّع الدُّنيا على الَّذين كَفَروا توسيعًا عَظيمًا[١]، فالآيةُ تضَمَّنَت تَهوينَ أمرِ الدُّنيا[٢]، ويَتَفَرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنْ لا يَتعلَّقَ الإنسانُ بها؛ وأن لا يَهتمَّ بها؛ فليس له مِن الدُّنيا إلَّا ما أكَل فأفْنَى، أو لَبِسَ فأبْلَى، أو تصدَّق فأمضَى[٣]. ودلَّت الآيةُ على أنَّ كُلَّ هذه المذكوراتِ مَتاعُ الحياةِ الدُّنيا، مُنغَّصةٌ مُكَدَّرةٌ فانيةٌ، وأنَّ الآخِرةَ عندَ اللهِ تعالى خَيرٌ للمُتَّقينَ لِرَبِّهم بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه؛ لأنَّ نَعيمَها تامٌّ كامِلٌ مِن كُلِّ وَجهٍ، وفي الجنَّةِ ما تَشتَهيه الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعيُنُ، وهم فيها خالِدونَ؛ فما أشَدَّ الفَرقَ بيْنَ الدَّارَينِ[٤]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه تحريضٌ على التَّقْوى[٥]؛ وذلك لأنَّ ذِكْرَ الجزاءِ والثَّوابِ يَستثيرُ النَّفْسَ حتَّى يَصِلَ الإنسانُ إلى الوصفِ الَّذي يَحصُلُ به على الثَّوابِ[٦].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ...﴾، فيه سؤالٌ: لَمَّا بيَّن تعالى أنَّه لو فتَح على الكافرِ أبوابَ النِّعَمِ، لَصار ذلك سببًا لاجتِماعِ النَّاسِ على الكفرِ، فلِمَ لَمْ يَفعلْ ذلك بالمسلمينَ؛ حتَّى يصيرَ ذلك سببًا لاجتِماعِ النَّاسِ على الإسلامِ؟

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥).

(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٦).

الجوابُ: لأنَّ النَّاسَ -على هذا التَّقديرِ- كانوا يَجتمِعون على الإسلامِ لِطَلبِ الدُّنيا، وهذا الإيمانُ إيمانُ المنافقينَ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّه تعالى يمنَعُ العِبادَ بَعضَ أُمورِ الدُّنيا مَنعًا عامًّا أو خاصًّا؛ لِمَصالحِهم[٢]، ففي إغناءِ البَعضِ وإحواجِ البَعضِ مَصلحةُ العالَمِ، وإلَّا لَبَسَط على الكافِرِ الرِّزقَ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى منَعَ أسبابَ تَعميمِ الكُفرِ في الأرضِ؛ لُطفًا منه بالإيمانِ وأهلِه، وإن كان لم يمنَعْ وُقوعَ كُفرٍ جُزئيٍّ قَليلٍ أو كثيرٍ؛ حِفظًا منه تعالى لِناموسِ تَرتيبِ المُسَبَّباتِ على أسبابِها[٤].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ سَمَّاه مَتاعًا؛ لأنَّ الإنسانَ يَستَمتِعُ به قليلًا، ثمَّ يَنقَضي في الحالِ، وأمَّا الآخِرةُ فهي باقيةٌ دائِمةٌ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ استِئنافٌ مُبَيِّنٌ لحَقارةِ مَتاعِ الدُّنيا، ودَناءَةِ قَدْرِه عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ[٦]. وقيل: هذه الجُملةُ عَطفٌ على جُملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥).

(٣) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٦).

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[١] [الزخرف: ٣٢].

- قوله: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ اللَّامُ في قَولِه: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ مِثلُ اللَّامِ في قَولِه: ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ﴾، أي: لَجَعَلْنا لبُيوتِ مَن يَكفُرُ بالرَّحمنِ؛ فيَكونُ قَولُه: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدَلَ اشتِمالٍ مِمَّن يَكفُرُ بالرَّحمنِ، وإنَّما صَرَّح بتَكريرِ العامِلِ للتَّوكيدِ، ونُكتةُ هذا الإبدالِ تَعليقُ المَجرورِ ابتِداءً بفِعلِ الجَعلِ، ثمَّ الاهتِمامُ بذِكْرِ مَن يَكفُرُ بالرَّحمَنِ في هذا المَقامِ المَقصودِ منه قَرْنُه مع مَظاهِرِ الغِنَى في قَرَنِ التَّحقيرِ، ثمَّ يَذكُرُ ما يَعِزُّ وُجودُ أمثالِه مِن الفِضَّةِ والذَّهَبِ. وإذ قد كان الخَبرُ كُلُّه مُستَغرَبًا، كان حَقيقًا بأنْ يُنظَمَ في أُسلوبِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المُرادُ أنَّ المَعارِجَ والأبوابَ والسُّرُرَ مِن فِضَّةٍ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، فحُذِفَ الوَصْفُ مِن المَعطوفاتِ؛ لِدَلالةِ ما وُصِفَ المَعطوفُ عليه[٣].

- وتكَرَّرَ لَفظُ البُيوتِ في قولِه: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾؛ لزِيادةِ التَّقريرِ[٤].

- قولُه: ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ هو كنايةٌ عن كَثرةِ الإرفاهِ[٥].

- قولُه: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ الزُّخرُفُ: الزِّينةُ، فيَكونُ هنا عَطفًا على ﴿سُقُفًا﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤١).

جَمعًا لعَديدِ المَحاسِنِ، ويُطلَقُ على الذَّهَبِ؛ لأنَّ الذَّهَبَ يُتَزَيَّنُ به؛ فيَكونُ ﴿وَزُخْرُفًا﴾ عَطفًا على ﴿سُقُفًا﴾ بتأويلِ: لَجَعَلْنا لهم ذَهَبًا، أي: لَكانَت سُقُفُهم ومَعارِجُهم وأبوابُهم مِن فِضَّةٍ وذَهَبٍ مُنَوَّعةً؛ لأنَّ ذلك أَبْهَجُ في تَلوينِها، وابتُدِئَ بالفِضَّةِ؛ لأنَّها أكثَرُ في التَّحلياتِ، وأجمَلُ في اللَّونِ، وأُخِّرَ الذَّهَبُ؛ لأنَّه أندَرُ في الحُليِّ، ولأنَّ لَفظَه أسعَدُ بالوَقفِ؛ لِكَونِ آخِرِه تَنوينًا يَنقَلِبُ في الوَقفِ أَلِفًا، فيُناسِبُ امتِدادَ الصَّوتِ، وهو أفصَحُ في الوَقفِ. ويجوزُ أنْ يكونَ لَفظُ (زُخْرُفًا) مُستعمَلًا في مَعْنَيَيه -الزِّينةِ والذَّهبِ- استِعمالَ المشترَكِ، فلا يَرِدُ سُؤالٌ عن تَخصيصِ السُّقُفِ والمَعارِجِ بالفِضَّةِ[1].

- قَولُه: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تَذييلٌ، أي: كلُّ ما ذُكِرَ مِن السُّقُفِ والمَعارِجِ، والأبوابِ والسُّرُرِ مِن الفِضَّةِ والذَّهَبِ؛ مَتاعُ الدُّنيا لا يَعودُ على مَن أُعطِيَه بالسَّعادةِ الأبَدِيَّةِ، وأمَّا السَّعادةُ الأبَديَّةُ فقد ادَّخَرها اللهُ للمُتَّقينَ، وليستْ كمِثلِ البهارِجِ والزِّينةِ الزَّائدةِ الَّتي تُصادِفُ مُختلِفَ النُّفوسِ، وتَكثُرُ لأهلِ النُّفوسِ الضَّئيلةِ الخسيسةِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٠٧).

الآيات (٢٦-٢٩)

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَعْشُ﴾: أي: يَعْمَ ويُعْرِضْ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظَلامٍ وقِلَّةِ وُضوحِ الشَّيءِ[١].

﴿نُقَيِّضْ﴾: أي: نُهَيِّئْ ونُسَبِّبْ، يُقالُ: قَيَّض اللهُ فُلانًا لِفُلانٍ، أي: جاءَه به، وأتاحَه له[٢].

﴿قَرِينٌ﴾: أي: صاحِبٌ مُلازِمٌ، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٣].

﴿فَبِئْسَ﴾: بئسَ: كلمةٌ موضوعةٌ لإنشاءِ الذَّمِّ، مُستوفيةٌ لجميعِه[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

﴿يَنفَعَكُمُ﴾: فِعلٌ مُضارِعٌ مَنصوبٌ، والكافُ: في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ به مُقَدَّمٌ، والمصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ فاعِلُ (ينفع) مُؤَخَّرٌ، والتَّقديرُ: لن يَنفعَكم اليومَ اشتِراكُكم في العذابِ. أو الفاعِلُ ضَميرٌ مُستَتِرٌ يعودُ على التَّمَنِّي المدلولِ عليه بقَولِه: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ [الزخرف: ٣٨]، أي: لن يَنفَعَكم تَمنِّيكم البُعدَ، وعلى هذا الوَجهِ يكونُ المصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَنَّكُمْ ...﴾ في محَلِّ نَصبٍ أو جَرٍّ على نَزعِ الخافِضِ (لامِ العِلَّة)، أي: لن يَنفَعَكم تَمنِّيكم البُعدَ؛ لاشتِراكِكم في العَذابِ، والجارُّ والمجرورُ مُتعَلِّقانِ بـ﴿يَنفَعَكُمُ﴾، ويُقَوِّي إضمارَ الفاعِلِ قِراءةُ مَن قرأ: (إنَّكُمْ) بالكَسرِ[1]؛ فهي استِئنافٌ مُفيدٌ للتَّعليلِ.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظَرفُ زمانٍ مَنصوبٌ مُتعَلِّقٌ بـ(يَنفَع).

﴿إِذ﴾: ظرفٌ مَبنيٌّ على السُّكونِ في محلِّ نَصبٍ على البَدلِ مِن ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، أي: إذْ تبيَّنَ أنَّكم ظلَمْتُم في الدُّنيا، وفُسِّر ذلك بالتَّبيُّنِ لئَلَّا يُشكِلَ جَعلُ ﴿إِذ﴾ -وهو ظَرفٌ ماضٍ- بدَلًا مِن ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ وهو ظَرفٌ مُستقبَلٌ؛ لأنَّ تبَيُّنَ كَونِهم ظالِمينَ عندَ أنفُسِهم إنَّما يكونُ يومَ القيامةِ، فاليومُ وزَمانُ التَّبيُّنِ مُتَّحِدانِ، وإذا كان تَبَيُّنُ الحالِ في الاستِقبالِ اندفَعَ الإشكالُ. ويجوزُ أن يكونَ ﴿إِذ﴾ بدَلًا مِن ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ بالنَّظَرِ إلى أنَّ الدُّنيا والآخِرةَ مُتَّصِلَتانِ، وهما في حُكمِ اللهِ تعالى وعِلمِه سواءٌ. وقيل: ﴿إِذ﴾ هنا ليست ظَرفًا، بل هي حَرفٌ للتَّعليلِ كاللَّامِ[2].

---

(١) قرأ بها ابنُ عامرٍ في روايةِ التَّغْلِبيِّ عن ابنِ ذَكْوانَ، وقرأ الباقون وابنُ عامرٍ في روايةِ الأخفَشِ، وأحمدَ بنِ أنسٍ، وابنِ المُعَلَّى، وابنِ موسى الصُّوري عن ابنِ ذَكْوانَ بفَتحِها. يُنظر: ((جامع البيان في القراءات السبع)) لأبي عمرو الداني (٤/ ١٥٧٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٢)، ((الخصائص)) لابن جني (٢/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٨٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا حالَ الَّذينَ يُعرِضونَ عن ذِكرِه وعقوبتَهم: ومَن يُعرِضْ عن القُرآنِ الَّذي أنزَلَه الرَّحمنُ يُسلِّطِ اللهُ تعالى عليه شَيطانًا يَصِيرُ قَرينًا له لا يُفارِقُه، وإنَّ أولئك الشَّياطينَ لَيَمنعونَهم مِن الطَّريقِ الموصِلِ إلى اللهِ، ويَحسَبُ قُرَناءُ الشَّيطانِ أنَّهم مُهتَدونَ وعلى الحَقِّ! حتَّى إذا جاءنا هذا المُعرِضُ عن ذِكرِ رَبِّه قال لِقَرينِه مِن الشَّياطينِ: يا لَيْتَ بيْني وبيْنَك بُعدَ ما بينَ المَشرِقِ والمَغرِبِ، فبِئسَ الصَّاحِبُ لي أنت! فيُقالُ لهم: ولن يُخَفِّفَ عنكم العَذابَ في هذا اليَومِ اشتِراكُكم فيه؛ مِن أجْلِ ظُلمِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذه الآيةُ تتَّصِلُ بقَولِه تعالى أوَّلَ السُّورةِ: ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا ﴾ [الزخرف: ٥]، أي: نُواصِلُ لكم الذِّكرَ، فمَن يَعْشُ عن ذلك الذِّكرِ بالإعراضِ عنه إلى أقاويلِ المُضِلِّينَ وأباطيلِهم، ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾، أي: نُسَبِّبْ له شَيطانًا؛ جزاءً له على كُفْرِه[1].

﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا ﴾.

أي: ومَن يُعرِضْ عن القُرآنِ الَّذي أنزَلَه الرَّحمنُ يُسلِّطِ اللهُ تعالى عليه شَيطانًا؛ جزاءَ إعراضِه عنه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٩).=

= وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ بذِكرِ الرَّحمنِ هنا: القُرآنُ: الواحدي، وابن القيِّم، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٢)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: محمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦١).

قال ابن تيميَّة: (و﴿يَعْشُ﴾ رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ: «يَعمَى»، وكذلك قال عَطاءٌ وابنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ، وكذلك أبو عُبَيدةَ، قال: «تُظلِمْ عينُه»، واختاره ابنُ قُتَيْبَةَ ورجَّحه على قولِ مَن قال: «يُعْرِض». والعَشا: ضَعفٌ في البَصَرِ؛ ولهذا قيل فيه: يَعْشُ. وقالت طائفةٌ: يُعْرِضْ، وهو روايةُ الضَّحَّاكِ عن ابنِ عبَّاسٍ، وقاله قَتادةُ، واختاره الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ، وهذا صَحيحٌ مِن جهةِ المعنى؛ فإنَّ قوله: ﴿يَعْشُ﴾ ضُمِّنَ معنى «يُعْرِض»؛ ولهذا عُدِّيَ بحرف الجرِّ «عن»، كما يقالُ: أنت أعمى عن محاسِنِ فلانٍ: إذا أعرَضْتَ فلم تَنظُرْ إليها. فقَولُه: ﴿يَعْشُ﴾ أي: يكُنْ أعشى عنها، وهو دونَ العمى، فلم ينظُرْ إليها إلَّا نظَرًا ضَعيفًا، وهذا حالُ أهلِ الضَّلالِ الَّذين لم يَنتَفِعوا بالقرآنِ؛ فإنَّهم لا يَنظُرونَ فيه كما يَنظُرونَ في كلامِ سَلَفِهم؛ لأنَّهم يَحسَبونَ أنَّه لا يُحصِّلُ المقصودَ، وهم الَّذين عَشَوا عنه فقُيِّضَت لهم الشَّياطينُ تَقتَرِنُ بهم وتصُدُّهم عن السَّبيلِ، وهم يَحسَبونَ أنَّهم مُهتَدون؛ ولهذا لا تجِدُ في كلامِ مَن لم يتَّبِعِ الكتابَ والسُّنَّةَ بيانَ الحَقِّ عِلمًا وعَمَلًا أبدًا؛ لِكَثرةِ ما في كلامِه مِن وَساوِسِ الشَّياطينِ). ((منهاج السنة النبوية)) (٥/ ٤٣٢، ٤٣٣). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٠٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧، ٣٩٨)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١١).

وقال ابنُ عاشور: (معنى ﴿وَمَن يَعْشُ﴾: مَن يَنظُرْ نظَرًا غيرَ مُتمَكِّنٍ في القُرآنِ، أي: مَن لا حَظَّ له إلَّا سَماعُ كَلِماتِ القُرآنِ، دونَ تدَبُّرٍ وقَصدٍ للانتِفاعِ بمعانيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٩).

وقال القاسمي: (﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ جنيًّا؛ فيغويه بالتَّسويلِ والتَّزيينِ لما انهَمَك فيه مِن اللَّذاتِ، وحرَص عليه مِن الزَّخارفِ. أو: بالشُّبهِ والأباطيلِ المغويةِ لما اعتَكف عليه بهواه مِن دينه. أو إنسيًّا يغويه ويشاركُه في أمرِه ويجانِسُه في طريقِه ويُبعِدُه عن الحقِّ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٩٠).

وقال ابن عثيمين: (الإنسانُ إذا أعرَض عن ذكرِ الله قيَّض الله له الشَّيطانَ مِن الإنسِ أو مِن الجنِّ فهو له قرينٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٥٤).

قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥].

﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾.

أي: فيَصيرُ الشَّيطانُ قَرينًا له لا يُفارِقُه(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

أي: وإنَّ الشَّياطينَ لَيَمنَعونَهم مِن طَريقِ الحَقِّ الموصِلِ إلى اللهِ تعالى وإلى جنَّتِه، ويَصرِفونَهم عنه(٢).

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٠)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٤).

قال ابن المُنَيِّرِ: (الضَّميرُ في قَولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ عائدٌ إلى الشَّيطانِ قَولًا واحِدًا). ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٤/ ٢٥٠).

وقال الألوسي: (وفي كَونِ ضَميرِ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ عائِدًا على الشَّيطانِ قَولًا واحِدًا نَظَرٌ؛ فقد قال أبو حيَّان: الظَّاهِرُ أنَّ ضَميرَ النَّصبِ في ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ عائِدٌ على «مَنْ» على المعنى، وهو أَولى مِن عودِ ضَميرِ «إنَّهم» على الشَّيطانِ كما ذهب إليه ابنُ عطيَّةَ؛ لِتَناسُقِ الضَّمائِرِ في ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وما بَعدَه). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٨٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٣).

=

أي: ومع ذلك يَحسَبُ قُرَناءُ الشَّيطانِ هؤلاء أنَّهم على الحَقِّ والصَّوابِ[(١)]!

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ ﴾.

أي: حتَّى إذا جاءَنا يومَ القيامةِ هذا المُعرِضُ عن ذِكرِ الرَّحمنِ، قال لِقَرينِه الشَّيطانِ: وَدِدتُ أنَّ بيْني وبيْنَك بُعدَ ما بيْنَ المَشرِقِ والمَغرِبِ[(٢)].

كما قال الله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

قال الشوكاني: (﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي: يَحْسَبُ الكفَّارُ أنَّ الشَّياطينَ مُهْتَدونَ فيُطِيعونَهم، أوْ يَحْسَبُ الكفَّارُ بسببِ تلك الوَسْوسةِ أنَّهم في أنْفُسِهم مُهْتَدونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٧، ٥٩٨)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٥١- ١٥٣).

قال الألوسي: (﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ أي: في الدُّنيا، وقيل: في الآخرةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٨٢). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٤).

قال الماوَرْدي: (وفي المَشرِقَينِ قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه المَشرِقُ والمَغرِبُ، فغُلِّبَ أحَدُهما على الآخَرِ، كما قيل: سُنَّةُ العُمَرَينِ [أي: أبي بكرٍ وعُمَرَ رضيَ الله عنهما]... الثَّاني: أنَّه مَشرِقُ الشِّتاءِ ومَشرِقُ الصَّيفِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٢٦).

وممَّن قال بالقَولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٣).

وممَّن قال بالقَولِ الثَّاني: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٠).

ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾.

أي: فبِئسَ الصَّاحِبُ لي أنت -أيُّها الشَّيطانُ[١]!

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٩﴾.

أي: يُقالُ لهم: ولن يُخَفِّفَ عنكم العذابَ في هذا اليَومِ -بسببِ ظُلمِكم[٢]- اشتِراكُكُم في هذا العذابِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩١)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٢٣٤).

(٢) مِن المفسِّرينَ مَن فسَّر الظُّلْمَ بالشِّركِ؛ ﴿إِذ ظَّلَمۡتُمۡ﴾ أي: إذ أشرَكْتُم. ومنهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابن أبي زَمَنين، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ١٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩١)، ((تفسير الجلالين)) (٩/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٩)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٤، ٢١٥).

المَقولُ لهم هم الكُفَّارُ الَّذين عَشَوا عن ذِكرِ الرَّحمنِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩١).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الخِطابُ موَجَّهٌ لِلَّذين عشَوا عن ذِكرِ الرَّحمنِ ولِشياطينِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٤). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ التَّحذيرُ مِن الغَفلةِ عن ذِكْرِ اللهِ تعالى؛ لأنَّك إذا غَفَلْتَ عن ذِكْرِ اللهِ تعالى حَلَّ مَحَلَّ ذِكْرِ اللهِ وَساوِسُ الشَّيطانِ[١]. فترتيبُه قولَه: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ على قولِه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ترتيبَ الجزاءِ على الشَّرطِ يدُلُّ على أنَّ سببَ تقييضِه له هو غفلتُه عن ذِكْرِ الرَّحمنِ[٢]، ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أي: مَشدودٌ به كما يُشَدُّ الأسيرُ، مُلازِمٌ له، فلا يُمكِنُه التَّخلُّصُ منه ما دام مُتعامِيًا عن ذِكرِ اللهِ؛ فذِكرُ اللهِ حِصنٌ حَصينٌ مِن الشَّيطانِ، متى خرَجَ العبدُ منه أسَرَه العدُوُّ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أنَّ كلَّ مَن أعرَضَ عن عُبوديَّةِ اللهِ تعالى وطاعتِه ومحبَّتِه، بُلِيَ بعُبوديَّةِ المخلوقِ ومَحبَّتِه وخِدمَتِه[٤].

= وقال الشوكاني: (قال المفَسِّرون: لا يُخفَّفُ عنهم -بسَبَبِ الاشتراكِ- شَيءٌ مِن العذابِ؛ لأنَّ لكُلِّ أحدٍ مِن الكُفَّارِ والشَّياطينِ الحَظَّ الأوفَرَ منه. وقيل: إنَّها للتَّعليلِ لِنَفيِ النَّفعِ، أي: لأنَّ حَقَّكم أن تَشتركوا أنتم وقُرَناؤكم في العذابِ، كما كُنتُم مُشترِكينَ في سَبَبِه في الدُّنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٧).

وقال السعدي: (ولا يَنفَعُكم يومَ القيامةِ اشتِراكُكم في العذابِ أنتم وقُرَناؤُكم وأخِلَّاؤُكم؛ وذلك لأنَّكم اشتركتُم في الظُّلمِ، فاشترَكتُم في عِقابِه وعَذابِه، ولن يَنفَعَكم أيضًا رُوحُ التَّسَلِّي في المُصيبةِ؛ فإنَّ المصيبةَ إذا وقَعَت في الدُّنيا، واشتَرَك فيها المُعاقَبونَ؛ هان عليهم بعضَ الهَونِ، وتسَلَّى بعضُهم ببَعضٍ، وأمَّا مُصيبةُ الآخِرةِ فإنَّها جَمَعَت كلَّ عِقابٍ، ما فيه أدنى راحةٍ، حتَّى ولا هذه الرَّاحةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨٤).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴾، المقصودُ مِن حِكايةِ هذا: تَفظيعُ عواقِبِ هذه المُقارَنةِ الَّتي كانت شغَفَ المُتقارِنَيْن، وكذلك شأنُ كُلِّ مُقارَنةٍ على عَمَلٍ سَيِّئِ العاقبةِ. وهذا مِن قَبيلِ قَولِه تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، والمقصودُ تحذيرُ النَّاسِ مِن قَرينِ السُّوءِ، وذَمُّ الشَّياطينِ؛ لِيَعافَهم النَّاسُ[(١)]. فالشياطينُ ليس اسمًا خاصًّا لشياطينِ الجِنِّ! بل حتَّى الإنسُ لهم شياطينُ، فالَّذي يُلازِمُك ويَبقَى قَرينًا معك هو أشدُّ تأثيرًا مِن العابِرِ، فيَنبغي الحذَرُ مِن قُرَناءِ السوءِ، والبُعدُ عنهم[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴾ نُكتةٌ بَديعةٌ، وهي أنَّ النَّكِرةَ الواقِعةَ في سِياقِ الشَّرطِ تُفيدُ العُمومَ؛ ولذلك أعادَ عليه الضَّميرَ مَجموعًا في قَولِه: ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ ﴾[(٣)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُعاقِبُ العبدَ بما يَقتضيه الذَّنْبُ، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]؛ فلَمَّا أَخْلَى قلبَه مِن ذِكْرِ اللهِ عُوقِبَ بأنْ يَحُلَّ مَحَلَّه الشَّيطانُ[(٤)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٢٥٠)، ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٥٣).

رَدٌّ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ المُنكِرينَ أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ تعالى؛ حيث قَيَّضَ اللهُ -سُبحانَه- الشَّيطانَ للعاشِي عن ذِكْرِ الرَّحمنِ، وصَيَّرَه قَرينَه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أنَّ مَن ابتلاه اللهُ بقَرينه مِن الشَّياطينِ وضَلالِه به فإنَّما كان بسَبَبِ إعراضِه وعَشْوِه عن ذِكرِه الَّذي أنزَلَه على رَسولِه؛ فكان عُقوبةُ هذا الإعراضِ أنْ قَيَّضَ له شَيطانًا يُقارِنُه فيَصُدُّه عن سَبيلِ ربِّه وطريقِ فلاحِه، وهو يَحسَبُ أنَّه مُهتَدٍ! حتَّى إذا وافى ربَّه يومَ القيامةِ مع قرينِه، وعايَنَ هلاكَه وإفلاسَه ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، وكلُّ مَن أعرَضَ عنِ الاهتداءِ بالوحيِ الَّذي هو ذِكْرُ اللهِ فلا بُدَّ أنْ يقولَ هذا يومَ القيامةِ. فإنْ قيلَ: فهل لهذا عُذرٌ في ضَلالِه إذا كان يَحسَبُ أنَّه على هُدًى، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾؟ قيل: لا عُذرَ لهذا وأمثالِه مِن الضُّلَّالِ الَّذين مَنشَأُ ضَلالِهم الإعراضُ عن الوَحيِ الَّذي جاء به الرَّسولُ، ولو ظَنَّ أنَّه مُهتَدٍ؛ فإنَّه مُفَرِّطٌ بإعراضِه عن اتِّباعِ داعي الهُدى، فإذا ضَلَّ فإنَّما أُتِيَ مِن تَفريطِه وإعراضِه، وهذا بخِلافِ مَن كان ضلالُه لعَدَمِ بُلوغِ الرِّسالةِ، وعَجزِه عن الوُصولِ إليها، فذاك له حُكمٌ آخَرُ، والوَعيدُ في القرآنِ إنَّما يَتناولُ الأوَّلَ، وأمَّا الثَّاني فإنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بعدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٢] [الإسراء: ١٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيه رَدٌّ على مَن يَقولُ: إنَّه ليس أحَدٌ يُفارِقُ الحَقَّ إلَّا وهو يَعلَمُ أنَّه ضالٌّ، وإن كَفَر

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٤).

فعلى وَجهِ العِنادِ[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فيه رَدٌّ على مَن يَزعُمُ أنَّ المعارِفَ اضطِراريَّةٌ[٢].

٧- قال الله تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ لَمَّا كان المُصابُ إذا شارَكَه غَيرُه في مُصيبةٍ حَصَل له بالتَّأسِّي نَوعُ تَخفيفٍ وتَسليةٍ، أخبَرَ الله سُبحانَه أنَّ هذا غيرُ مَوجودٍ وغيرُ حاصِلٍ في حَقِّ المُشتَرِكينَ في العَذابِ، وأنَّ القَرينَ لا يَجِدُ راحةً ولا أدنى فَرَحٍ بعَذابِ قَرينِه معه، وإن كانت المصائِبُ في الدُّنيا إذا عَمَّت صارت مَسلاةً، كما قالت الخَنساءُ في أخيها صَخرٍ:

ولولا كَثرةُ الباكينَ حَوْلي ... على إخوانِهم لَقَتَلْتُ نفْسي
وما يَبكُونَ مِثلَ أخي ولكِنْ ... أُعَزِّي النَّفسَ عنه بالتأسِّي[٣]

فمنَع اللهُ سُبحانَه هذا القَدْرَ مِن الرَّاحةِ على أهلِ النَّارِ، فقال: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[٤].

٨- إذا قُرِنَ أحَدُهم بمن أضَلَّه في العذابِ كان أشَدَّ لعَذابِه؛ فإنَّ المكانَ المُتَّسِعَ يَضيقُ على المُتباغِضَينِ، فكيف باقترانِهما في المكانِ الضَّيِّقِ[٥]؟!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((ديوان الخنساء)) (ص: ٦٨)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (١/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٥).

(٥) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٢٣٤).

- ابتُدِئَت هذه السُّورةُ بالتَّنويهِ بالقُرآنِ، ووَصفِه بأنَّه ذِكرٌ وبيَانٌ للنَّاسِ، ووَصْفِ عِنادِ المُشرِكين في الصَّدِّ عنه والإعراضِ، وأُعلِمُوا بأنَّ اللهَ لا يَترُكُ تَذكيرَهم ومُحاجَّتَهم؛ لأنَّ اللهَ يَدعو بالحَقِّ ويَعِدُ به، وأُطنِبَ في وَصفِ تَناقُضِ عَقائِدِهم؛ لَعَلَّهُم يَستَيقِظون مِن غِشاوَتِهم، وفي تَنبيهِهم إلى دَلائِلِ حَقِّيَّةِ ما يَدعُوهم إليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذا القُرآنِ، وفُضِحَتْ شُبُهاتُهم بأنَّهم لا تَعويلَ لهم إلَّا على ما كان عليه آباؤُهُم الأوَّلون الضَّالُّون، وأُنذِرُوا باقتِرابِ انتِهاءِ تَمتيعِهم وإمهالِهم، وتَقَضَّى ذلك بمَزيدِ البَيانِ، وأفضَى الكَلامُ إلى ما قالُوه في القُرآنِ ومَن جاء به بقَولِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ إلى قولِه: ﴿عَظِيمٖ﴾ [الزخرف: ٣٠، ٣١]، وما أُلحِقَ به مِن التَّكَمُّلاتِ -عاد الكَلامُ هنا إلى عَواقِبِ صَرفِهم عُقولَهم عن التَّدبُّرِ في الدَّعوةِ القُرآنيَّةِ؛ فكان انصِرافُهم سببًا لِأَنْ يُسَخِّرَ اللهُ شَياطينَ لهم تُلازِمُهم؛ فلا تَزالُ تَصرِفُهم عن النَّظرِ في الحقِّ وأدِلَّةِ الرُّشدِ؛ فجُملةُ ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ [الزخرف: ٣٠] الآيةَ[١]. وقيل: هي كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسُوقٌ لسَردِ مآلِ المُعرِضين عن ذِكْرِ اللهِ[٢].

- وجُملَةُ ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تَمثيلٌ لحالِهم في إظهارِهم عَدَمَ فَهمِ القُرآنِ بحالِ مَن يَعشُو ويَعمَى عن الشَّيءِ الظَّاهِرِ للبَصَرِ؛ فمعنى: ﴿وَمَن يَعۡشُ﴾، أي: مَن لا حَظَّ له إلَّا سَماعُ كَلِماتِ القُرآنِ دُونَ تَدَبُّرٍ وقَصدٍ للانتِفاعِ بمَعانيهِ؛ فشَبَّهَ سَماعَ القُرآنِ مع عَدَمِ الانتِفاعِ به بنَظَرِ النَّاظِرِ دُونَ تَأَمُّلٍ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٨، ٢٠٩).

- وعُدِّيَ ﴿يَعْشُ﴾ بحَرفِ (عن) المُفيدِ للمُجاوَزةِ؛ لأنَّه ضُمِّنَ مَعنَى الإعراضِ عن ذِكْرِ الرَّحمنِ[١].

- قَولُه: ﴿ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إضافةُ الذِّكْرِ إلى اسمِ الرَّحمنِ إضافةُ تَشريفٍ؛ وهذا ثَناءٌ على القُرآنِ[٢]. وفي إضافَتِه إلى اسمِ الرَّحمنِ أيضًا إيذانٌ بنُزولِه رَحمةً للعالَمينَ[٣].

- وأتَى الضَّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ مُفرَدًا؛ لأنَّ لِكُلِّ واحِدٍ مِمَّن تَحَقَّقَ فيهم الشَّرطُ شَيطانًا، وليس لجَميعِهم شَيطانٌ واحِدٌ؛ ولذلك سَيجيءُ في قَولِه: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ [الزخرف: ٣٨] بالإفرادِ، أي: قال كلُّ مَن له قَرينٌ لقَرينِه[٤].

- ولم يُذكَرْ مُتَعَلَّقُ فِعلِ ﴿نُقَيِّضْ﴾ اكتِفاءً بدَلالةِ مَفعولِه، وهو ﴿شَيْطَٰنًا﴾؛ فعُلِمَ منه أنَّه مُقَيَّضٌ لإضلالِه، أي: هم أعرَضوا عن القُرآنِ لِوَسْوَسةِ الشَّيطانِ لهم[٥].

- وفُرِّعَ عن ﴿نُقَيِّضْ﴾ قَولُه: ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾؛ لأنَّ التَّقْييضَ كان مِن أجْلِ مُقارَنَتِه. وجِيءَ بالجُملةِ المُفرَّعةِ ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ جُملةً اسميَّةً؛ للدَّلالةِ على الدَّوامِ، أي: فكان قَرينًا مُقارَنةً ثابِتةً دائمةً؛ ولذلك لم يَقُل: نُقَيِّضْ له شَيطانًا قَرينًا له[٦].

- وقُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ (له) على مُتَعَلَّقِه (قرين) في قَولِه: ﴿لَهُۥ قَرِينٌ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢١٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للاهتِمامِ بضَميرِ (مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ)، أي: قَرينٌ له مُقارَنةً تامَّةً[١].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالتَّنكيتِ؛ وهو أنْ يَقصِدَ المُتَكَلِّمُ إلى شَيءٍ بالذِّكرِ دُونَ غَيرِه مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّه؛ مِن أجْلِ نُكتَةٍ في المَذكورِ تُرَجِّحُ مَجيئَه على سِواهُ؛ فإنَّ لقائِلٍ أن يَقولَ: لأيِّ نُكتةٍ عُدِلَ عن لَفظِ (يُعرِض) إلى (يَعْشُ)؛ فلم يَقُلْ: ومَن يُعرِضْ عن ذِكْرِ الرَّحمنِ؛ فيُقالُ: النُّكتةُ في ذلك: أنَّ لَفظَ (يَعْشُ) مُوَفٍّ بالمَعنَى المُرادِ بخِلافِ لفظِ (يُعرِض)؛ فإنَّ الإعراضَ إعراضانِ: إعراضٌ يُرجَى بَعْدَه الإقبالُ؛ لأنَّ المُعرِضَ مُتَمَكِّنٌ مِن الإقبالِ؛ وذلك إعراضُ المُؤمِنِ المُعتقِدِ أحسَنَ مُعتَقَدٍ؛ فيَعرِضُ له مِن المَلاذِّ الَّتي تَستَغرِقُ فِكرَه، وتَشغَلُ قَلبَه وعَقلَه شَغْلًا بتلك اللَّذَّةِ أو ضِدِّها، أو غَيرِها مِن أُمورِ الدُّنيا؛ فيُعرِضُ عن الذِّكرِ في تلك الحالةِ؛ فمُصاحَبةُ الشَّيطانِ لذلك غَيرُ دائِمةٍ؛ لأنَّه يُمكِنُ أنْ يَؤُوبَ إلى اللهِ سُبحانَه ويَتُوبَ عن ذلك؛ فيُقبِلَ على ما كان أعرَضَ عنه مِن الذِّكرِ الَّذي عَرَف قديمًا طَريقَه، واهتَدَى إلى سَبيلِه، ورُبِّيَ عليه، أو مِن أجْلِ عِنايةٍ إلهيَّةٍ اقتَضَتْها سابِقةٌ أزَليَّةٌ تَجذِبُه إليه. وإعراضُ ضَلالٍ عن طَريقِ الرُّشدِ وسَبيلِ الخَيرِ، والمُرادُ بالإعراضِ في الآيةِ إعراضُ الضَّلالِ لا إعراضُ الغَفلةِ؛ فلا جَرَمَ أنَّه حَسُنَ التَّعبيرُ بالعَشا فيها، وهذا المُعرِضُ هو الَّذي يُقَيَّضُ له مُقارَنةُ الشَّيطانِ أين كان وحيثُ كان؛ وبذلك يَتَبَيَّنُ مَوضِعُ النُّكتةِ الَّتي رَجَّحَت العُدولَ عن لَفظِ (الإعراض) إلى لَفظِ (العَشا)[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٠، ٢١١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٧).

- قولُه: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فيه جَمْعُ الضَّميرِ العائِدِ على (مَنْ) وضَميرِ (الشَّيطانِ) في قَولِه: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾؛ لأنَّ (مَنْ) مُبهَمٌ في جِنسِ العاشِي، وقد قُيِّضَ له شَيطانٌ مُبهَمٌ في جِنسِه؛ فلمَّا جازَ أنْ يَتناوَلَا -لإبهامِهما- غَيرَ واحِدَين، جاز أنْ يَرجِعَ الضَّميرُ إليهما مَجموعًا[١].

- والتَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارِعِ في الأفعالِ الأربَعةِ: ﴿يَعْشُ﴾ و﴿نُقَيِّضْ﴾ و(يَصُدُّونَهُمْ) و﴿وَيَحْسَبُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستِمرارِ والتَّجديدِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾

- إفرادُ الضَّميرِ في (جاءَ) وما بعدَه؛ لِمَا أنَّ المُرادَ حِكايةُ مَقالةِ كُلِّ واحِدٍ واحِدٍ مِن العاشِينَ لِقَرينِه؛ لِتَهويلِ الأمْرِ، وتَفظيعِ الحالِ، والمَعنَى: يَستَمِرُّ العاشُون على ما ذُكِرَ مِن مُقارَنةِ الشَّياطينِ والصَّدِّ والحِسبانِ الباطلِ، حتَّى إذا جاءَنا كلُّ واحِدٍ منهُم مع قَرينِه يومَ القيامةِ ﴿قَالَ﴾ مُخاطبًا له: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾[٣].

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾ حَرفُ (يا) أصلُه للنِّداءِ، وهو هنا للدَّلالةِ على التَّلَهُّفِ والتَّنَدُّمِ[٤].

- والمَشرِقانِ: المَشرِقُ والمَغرِبُ، غُلِّبَ اسمُ المَشرِقِ؛ لأنَّه أكثَرُ خُطورًا بالأذهانِ؛ لتَشَوُّفِ النُّفوسِ إلى إشراقِ الشَّمسِ بعْدَ الإظلامِ، والمُرادُ بالمشْرِقِ والمغرِبِ: إمَّا مكانُ شُروقِ الشَّمسِ وغُروبِها في الأُفقِ، وإمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٣).

الجِهةُ مِن الأرضِ الَّتي تَبْدو الشَّمسُ منها عِندَ شُروقِها، وتَغيبُ منها عِندَ غُروبِها فيما يَلوحُ لِطائفةٍ مِن سُكَّانِ الأرضِ. وعلى الاحتِمالَينِ فهو مَثَلٌ لشِدَّةِ البُعدِ. وأُضِيفَ ﴿بُعْدَ﴾ إلى ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ بالتَّثنيةِ، بتَقديرِ بُعدٍ لهما، أي: مُختصٍّ بهما، بتَأويلِ البُعدِ بالتَّباعُدِ؛ وهو إيجازٌ بَديعٌ حَصَل مِن صِيغةِ التَّغليبِ ومِن الإضافةِ، ومُساواتُه أنْ يُقالَ: بُعْدَ المَشرِقِ مِن المَغرِبِ، والمَغرِبِ مِن المَشرِقِ؛ فنابَتْ كَلِمةُ ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ عن سِتِّ كَلِماتٍ[١].

- قَولُه: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ بعدَ أنْ تَمَنَّى الكافِرُ مُفارَقةَ شَيطانِه فَرَّع عليه ذمًّا؛ فالكافِرُ يَذُمُّ شَيطانَه الَّذي كان قَرينًا، ويُعَرِّضُ بذلك للتَّفَصِّي -أي: للإفلاتِ- مِن المُؤاخَذةِ، وإلقاءِ التَّبِعةِ على الشَّيطانِ الَّذي أضَلَّه[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ مُبالَغةٌ منه في ذمِّ قَرينِه؛ إذ كان سَببَ إيرادِه النَّارَ. والمَخصوصُ بالذَّمِّ مَحذوفٌ، أي: فبِئسَ القَرينُ أنتَ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسُوقٌ لِبَسطِ وحِكايةِ ما سيُقالُ لهم حِينَئذٍ في الآخِرةِ مِن جِهةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ تَوبيخًا وتَقريعًا، وهي مَقالةٌ مُوحِشةٌ حَرَمَتْهم رَوحَ التَّأَسِّي؛ لأنَّه وَقَفَهم بها على أنَّه لا يَنفَعُهم التَّأَسِّي؛ لِعِظَمِ المُصيبةِ، وطُولِ العَذابِ، واستِمرارِ مُدَّتِه؛ إذ التَّأَسِّي راحةُ كلِّ مُصابٍ في الدُّنيا في الأغلَبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٧، ٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٥).

- وقيل: هذه الجُملةَ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ [الزخرف: ٣٨]، وهناك قولٌ محذوفٌ دلَّ عليه فِعلُ ﴿جَآءَنَا﴾ [الزخرف: ٣٨] الدَّالُّ على أنَّ الفَريقَينِ حَضَرَا للحِسابِ، وتلك الحَضرةُ تُؤْذِنُ بالمُقاوَلةِ؛ فإنَّ الفَريقَينِ لَمَّا حَضَرَا وتَبَرَّأَ أحَدُهما مِن الآخَرِ قَصْدًا للتَّفَصِّي- أي: للإفْلَاتِ- مِن المُؤاخَذةِ؛ فيَقولُ اللهُ: ولن يَنفَعَكُم اليَومَ أنَّكُم في العَذابِ مُشتَرِكون، والخِطابُ مُوَجَّهٌ للَّذين عَشَوْا عن ذِكْرِ الرَّحمنِ ولشَياطِينِهم -على قولٍ-، وفي هذا الكَلامِ إشارةٌ إلى كَلامٍ مَطوِيٍّ، والتَّقديرُ: لا تُلْقُوا التَّبِعةَ على القُرَناءِ؛ فأنتُم مُؤاخَذون بطاعَتِهم، وهم مُؤاخَذون بإضلالِكم، وأنتم مُشتَرِكون في العَذابِ، ولن يَنفَعَكُم أنَّكُم في العَذابِ مُشتَرِكُون؛ لأنَّ عَذابَ فَريقٍ لا يُخَفِّفُ عن فَريقٍ، كما قال تعالى: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾[1] [الأعراف: ٣٨].

- ووُقوعُ فِعلِ ﴿يَنفَعَكُمُ﴾ في سِياقِ النَّفيِ يدُلُّ على نَفيِ أنْ يَكونَ الاشتِراكُ في العَذابِ نافِعًا بحالٍ؛ لأنَّه لا يُخَفِّفُ عن الشَّريكِ مِن عَذابِه[2].

- وقيل: قَولُه: ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ تَعليلٌ لنَفيِ النَّفعِ، أي: لنْ يَنفَعَكُم تَمَنِّيكُم؛ لأنَّ حَقَّكُم أنْ تَشتَرِكوا أنتم وقُرَناؤُكُم في العَذابِ كما كُنتُم مُشتَرِكين في سَبَبِه، وهو الكُفرُ، وتُقَوِّيه قِراءَةُ: (إنَّكُمْ) بالكَسرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٤، ٢١٥). ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ١٤٣).

- قَولُه: ﴿أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، قدَّم ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾؛ اهتمامًا بالزَّجرِ به، والتَّخويفِ منه[(١)].

- واجتَمَع في هذه الآيةِ ثَلاثُ كَلِماتٍ، تدُلُّ على ثَلاثةِ أزمِنَةٍ؛ وهي: (لن) لنَفيِ المُستَقبَلِ، و(اليَومَ) اسمٌ لزَمنِ الحالِ، و(إذ) اسمٌ لزَمَنِ المُضِيِّ، وثَلاثَتُها مَنوطةٌ بفِعلِ ﴿يَنفَعَكُمُ﴾، ومُقتضياتُها يُنافي بَعضُها بعضًا؛ فالنَّفيُ في المُستقبَلِ يُنافي التَّقييدَ بـ (اليَوم) الَّذي هو للحالِ، و(إذ) يُنافي نَفْيَ النَّفعِ في المُستقبَلِ، ويُنافي التَّقييدَ بـ(اليَوم)، ويُدفَعُ التَّنافيَ بيْنَ مُقتَضَى (إذ) ومُقتَضَى (اليَوم) بتَأويلِ مَعنى (إذ) بالتَّعليلِ؛ شُبِّهَت عِلَّةُ الشَّيءِ وسَببُه بالظَّرفِ في اللُّزومِ له. ويجوزُ أنْ تكونَ (إذ) بَدلًا مِن (اليوم)، وتأْويلُ الكلامِ على جَعلِ فِعلِ ﴿ظَّلَمْتُمْ﴾، بمعنى: تَبيَّنَ أنَّكم ظَلَمْتُم. ولِدَفعِ التَّنافي بيْنَ مُقتَضَى (اليَومِ) الدَّالِّ على زَمَنِ الحالِ وبيْنَ مُقتَضَى (لن) وهو حُصولُ النَّفيِ في الاستِقبالِ: أنْ يَكونَ اليَومُ ظَرفًا للحُكمِ والإخبارِ، أي: تَقَرَّر اليَومَ انتِفاءُ انتِفاعِكُم بالاشتِراكِ في العَذابِ انتِفاءً مُؤَبَّدًا مِنَ الآنَ، وقد حَصَل مِن اجتِماعِ هذه الكَلماتِ الثَّلاثِ الدَّالَّةِ على الأزمنةِ في الآيَةِ طِباقٌ[(٢)] عَزيزٌ بيْنَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٣١).

(٢) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ مع مُراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]؛ طابَقَ بيْن الضَّحِكِ والبُكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقون. ومنه: طِباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةً، فتَبدو المطابقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو =

ثَلاثةِ مَعانٍ مُتَضادَّةٍ في الجُملةِ[١].

= اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٣٧٧-٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٥، ٢١٦).

الآيات (٤٠-٤٥)

﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يوجِّهُ الله تعالى الخِطابَ لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم مُسلِّيًا له ومثبِّتًا؛ فيقولُ تعالى: أفأنت -يا مُحمَّدُ- تَستطيعُ أن تُسمِعَ الكُفَّارَ سَماعًا يَنتَفِعونَ به منك، أو تَستَطيعُ أن تُرشِدَ إلى طَريقِ الحَقِّ مَن عَمِيَ عنه، وضَلَّ ضَلالًا مُبينًا؟! إنَّما ذلك إلينا، فعليك البَلاغُ، وعلينا الِحسابُ. فإنْ نُخرِجْك -يا مُحمَّدُ- مِن بَينِ أظهُرِ أولئك المُشرِكينَ -بمَوتٍ أو غَيرِه- دونَ أن ترى عَذابَهم، فنحن مُنتَقِمونَ منهم، وإنْ أرَيْناك ما وعَدْناهم مِنَ العذابِ فإنَّا قادِرونَ عليهم؛ فتمَسَّكْ -يا مُحمَّدُ- بالقُرآنِ الَّذي أوحَيْناه إليك؛ إنَّك على طريقٍ مُستقيمٍ.

وإنَّ هذا القُرآنَ لَشَرفٌ لك -يا مُحمَّدُ- ولِقَومِك، وعِظَةٌ وتَذكيرٌ لكم، وسوف يَسألُكم اللهُ عن هذا القُرآنِ والعَمَلِ بما فيه.

ثمَّ يقولُ تعالى: واسأَلْ -يا مُحمَّدُ- الرُّسُلَ الَّذين أرسَلْناهم إلى أقوامِهم مِن قَبْلِك، أجَعَلْنا آلهةً مِن دُونِ الرَّحمنِ سُبحانَه يُعبَدونَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف المُشرِكينَ في الآيةِ المتقَدِّمةِ بالعَشَا، وصَفَهم في هذه الآيةِ بالصَّمَمِ والعَمى[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى حالَ الكُفَّارِ وما يُقالُ لهم، وكانت قُرَيشٌ تَسمَعُ ذلك فلا تَزدادُ إلَّا عُتُوًّا واعتِراضًا، وكان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَجتَهِدُ في تحصيلِ الإيمانِ لهم- خاطَبَه تعالى تَسليةً له باستِفهامِ تَعجيبٍ، أي: إنَّ هؤلاء صُمٌّ فلا يُمكِنُك إسماعُهم، عُمْيٌ حَيارَى فلا يُمكِنُك أن تَهدِيَهم، وإنَّما ذلك راجِعٌ إليه تعالى[(٢)].

﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ﴾.

أي: لا تَستطيعُ -يا مُحمَّدُ- أن تجعَلَ الكُفَّارَ يَنتَفِعونَ بالسَّماعِ منك؛ فليس ذلك إليك[(٣)].

كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ * وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢١ - ٢٣].

﴿ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

أي: ولا تَستطيعُ -يا مُحمَّدُ- أن تُرشِدَ إلى طَريقِ الحَقِّ مَن أعمَى اللهُ قَلْبَه عن رُؤيةِ هذا الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ [النمل: ٨١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: ولا تَستطيعُ أن تَهديَ مَن هو في ضَلالٍ ظاهرٍ عن طَريقِ الهُدى(٢).

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ دعوةَ نبيِّه لا تؤثِّرُ في قلوبِهم؛ قال(٣):

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

أي: فإنْ نُخرِجْك -يا مُحمَّدُ- مِن بَينِ أظهُرِ مُشرِكي قَومِك -بمَوتٍ أو غَيرِه- دونَ أن ترَى عذابَهم، فنحن مُنتَقِمونَ منهم بعدَ فِراقِك لا مَحالةَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

قيل: المرادُ بالإذهابِ هنا: تَوَفِّيه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ =

﴿ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ٤٢ ﴾.

أي: وإنْ أرَيْناك ما وعَدْناهم مِنَ العَذابِ فإنَّا قادِرونَ عليهم، فلن يُعجِزونا، أو يُفلِتوا مِنَّا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧].

﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٣ ﴾.

= سُلَيمانَ، والواحديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٧).

وممَّن قال بهذا المعنى مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وأنسُ بنُ مالكٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٧٩).

وقيل: المرادُ به: إخراجُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن بيْنِ أظهُرِ مُشرِكي قَومِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠١).

وقال البِقاعي: (﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ﴾ أي: مِن بيْنِ أظهُرِهم، بمَوتٍ أو غَيرِه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٨، ٢١٩).

قال القرطبي: (﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾ وهو الانتقامُ منهم في حياتِك، ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: قد أراه الله ذلك يومَ بدرٍ، وهو قولُ أكثرِ المفسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٢).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّا مُنتَقِمونَ منهم في الدُّنيا، سواءٌ كنتَ حَيًّا أو بعدَ مَوتِك، أي: فالانتِقامُ منهم مِن شأنِنا وليس مِن شأنِك؛ لأنَّه مِن أجْلِ إعراضِهم عن أمْرِنا ودينِنا، ولعَلَّه لِدَفعِ استِبطاءِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أو المُسلِمينَ تأخيرَ الانتقامِ مِن المشركينَ، ولأنَّ المُشرِكينَ كانوا يَتربَّصون بالنَّبيِّ الموتَ فيَستريحوا مِن دَعوتِه؛ فأعلَمَه اللهُ أنَّه لا يُفلِتُهم مِن الانتِقامِ على تقديرِ مَوتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا رَدَّد اللهُ تعالى بيْنَ حياتِه ومَوتِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ أمَرَه بأن يَستَمسِكَ بما أَوحاه إليه[١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ما يُوجِبُ التَّسليةَ؛ أمَرَه أن يَتمَسَّكَ بما أمَرَه به[٢].

وأيضًا لَمَّا هَوَّن اللهُ على رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم ما يُلاقيه مِن شِدَّةِ الحِرصِ على إيمانِهم، ووَعَدَه النَّصرَ عليهم؛ فَرَّع على ذلك أنْ أمَرَه بالثَّباتِ على دينِه وكِتابِه، وألَّا يَخورَ عَزمُه في الدَّعوةِ؛ ضَجَرًا مِن تصَلُّبِهم في كُفرِهم، ونُفورِهم من الحَقِّ[٣].

وأيضًا قولُه: ﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَ ﴾ مُرتَبِطٌ بقَولِه: ﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ﴾ [الزخرف: ٤٠]، وبَيْنَهما مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ وذلك لأنَّه تعالى لَمَّا نَبَّهَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ جِدَّه واجتِهادَه في دُعاءِ قَومِه غَيرُ نافِعٍ، وأنَّهم صُمٌّ عُمْيٌ في ضَلالٍ مُبينٍ، لا يَرجِعُون ولا يَرعَوونَ، وبيَّن أنَّه لا بُدَّ مِن الهَلاكِ وقَطْعِ دابِرِهم؛ فقَسَمَ الأمرَ بيْنَ أنْ يَنصُرَه عليهم في الدُّنيا ويَشفِيَ صُدورَ المُؤمِنينَ، وبيْنَ أنْ يَنتقِمَ مِنهم في الآخِرةِ أشَدَّ الانتِقامِ؛ أرشَدَه إلى المُتارَكةِ والمُواعَدةِ، والاشتِغالِ بما يُهِمُّه مِن التَّمسُّكِ بالعُروةِ الوُثقَى، وهو هذا القُرآنُ الكَريمُ الَّذي لا يَأتيه الباطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيه ولا مِن خَلْفِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٢٦٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٤٨، ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩).

﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَ ﴾.

أي: فتَمَسَّكْ -يا مُحمَّدُ- بقُوَّةٍ بالقُرآنِ الَّذي أوحَيْناه إليك، واثبُتْ على العَمَلِ به[١].

﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المَقامُ -لِكَثرةِ المُخالِفِ- مُحتاجًا إلى تأكيدٍ يُطَيِّبُ خواطِرَ الأتْباعِ، ويَحمِلُهم على حُسنِ الاتِّباعِ؛ عَلَّل ذلك بقَولِه: ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ ﴾ أي: طَريقٍ واسِعٍ واضِحٍ جِدًّا ﴿مُّسۡتَقِيمٖ﴾ مُوصِلٍ إلى المقصودِ، لا يَصِحُّ أصلًا أن يَلحَقَه شَيءٌ مِن عِوَجٍ؛ فإذا فَعَلْتَ ذلك لم يَضُرَّك شَيءٌ مِن نِقمَتِهم[٢].

﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.

أي: إنَّك على طريقٍ مُستقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه، مُوصلٍ إلى اللهِ تعالى ورِضوانِه وجَنَّتِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [يس: ٣، ٤].

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى تأثيرَ التَّمَسُّكِ بهذا الدِّينِ في مَنافِعِ الآخرةِ؛ بَيَّن أيضًا تأثيرَه في مَنافِعِ الدُّنيا، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ ﴾، أي: إنَّه يُوجِبُ الشَّرَفَ العظيمَ لك ولِقَومِك[1]، على قولٍ في التَّفسيرِ.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ ﴾.

أي: وإنَّ القُرآنَ لَشَرفٌ لك -يا مُحمَّدُ- ولِقَومِك مِن قُرَيشٍ وسائِرِ العَرَبِ، وهو مَوعِظةٌ وتَذكيرٌ لكم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٤٤٢ - ٤٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٦).

قال ابن عطية: (يَحتمِلُ أن يُريدَ: وإنَّه لَشَرفٌ وحَمدٌ في الدُّنيا، والقَومُ على هذا: قُرَيشٌ ثمَّ العَرَبُ... ويحتمِلُ أن يريدَ: وإنَّه لَتذكِرةٌ ومَوعِظةٌ، فالقَومُ على هذا: أُمَّتُه بأجْمَعِها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٧).

وممَّن ذهَب إلى المعنى الأوَّلِ، وهو أنَّ المرادَ بالذِّكرِ هنا: الشَّرفُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والقرطبي، وابن جُزَي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٩).

قال البِقاعي: (﴿لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ قُريشٍ خُصوصًا، والعَرَبِ عُمومًا، وسائِرِ مَنِ اتَّبَعك ولو كان مِن غَيرِهم؛ مِن جِهةِ نُزولِه على واحِدٍ منهم وبلِسانِهم؛ فكان سائِرُ النَّاسِ تَبَعًا لهم، ومِن جِهةِ =

كما قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾.

أي: وسوفَ يَسألُكم اللهُ عن هذا القُرآنِ[1].

= إيراثِه الطَّريقةَ الحُسنى، والعُلومَ الزَّاكيةَ الواسِعةَ، وتأثيرِه الظُّهورَ على جميعِ الطوائِفِ، والإمامةَ لقُريشٍ بالخُصوصِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٣٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: ابنُ تيميَّة. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) (١/ ٤٤٢-٤٤٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وقَومُه قُرَيشٌ، ولا يَمنَعُ أنَّه ذِكْرٌ لسائِرِ العَرَبِ، بل لسائِرِ النَّاسِ...، وهذا على أصَحِّ القولَينِ، وأنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أنَّه ذِكرٌ لهم يَذكُرونَه فيَهتَدونَ به. وقيل: إنَّ المرادَ أنَّه شَرَفٌ لهم. وليس بشَيءٍ؛ فإنَّ القُرآنَ هو شَرَفٌ لِمَنْ آمَنَ به مِن قَومِه وغَيرِهم، وليس شَرَفًا لجَميعِ قَومِه، بل مَن كَذَّب به منهم كان أحَقَّ بالذَّمِّ، كما قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، بخِلافِ كَونِه تَذكِرةً وذِكرى؛ فإنَّه تَذكِرةٌ لهم ولِغَيرِهم). ((الجواب الصحيح)) (١/ ٤٤٢).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ -معنَى الشَّرَفِ، ومعنَى التَّذكيرِ والبيانِ والمَوعِظةِ- في الجُملةِ: البِقاعي، والشربيني، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٣٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

وذكَرَ ابنُ عُثيمينَ أنَّه لا مانِعَ مِن أن يكونَ بمعنى الشَّرَفِ، لكِنَّ الصَّوابَ أنَّ المرادَ بالذِّكرِ هنا التَّذكيرُ، ثمَّ قال: (فإنْ قال قائِلٌ: يَرِدُ على هذا أنَّه تذكيرٌ لكُلِّ النَّاسِ. فالجَوابُ: أنَّ هذا كقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، مع أنَّه بُعِثَ لجَميعِ النَّاسِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٦).

وصرَّح بالجمعِ بيْنَ المعنَيَينِ في فوائِدِ الآيةِ، فقال: (الفائِدةُ الخامِسةُ: أنَّ هذا القُرآنَ الكريمَ فيه ذِكرٌ للعَرَبِ، أي: شَرَفٌ لهم، وفيه تذكيرٌ لهم؛ لِقَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦). =

عن أبي مالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((القُرآنُ حُجَّةٌ لك أو عليك))[١].

= قيل: المعنى: تُسألون عن العَمَلِ بما فيه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٦، ١٦٧).

وقيل: المعنى: تُسأَلونَ عن شُكرِ الله على نِعمةِ القرآنِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الفَرَّاءُ، والزجاج، والسمرقندي، ومكِّي، والسمعاني. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠٥).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ السَّابِقَينِ: ابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٠).

قال القرطبي: (﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عن الشُّكرِ عليه، قاله مقاتلٌ والفَرَّاءُ. وقال ابنُ جُرَيجٍ: أي: تُسألون أنت ومَن معك على ما أتاك. وقيل: تُسألون عمَّا عَمِلْتُم فيه. والمعنى مُتقارِبٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٤).

وقال ابنُ عطيَّة: (وقوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه: معناه: عن أوامرِ القُرآنِ ونَواهيه. وقال الحسَنُ بنُ أبي الحسَنِ: معناه: عن شُكرِ النِّعمةِ فيه. واللَّفظُ يحتمِلُ هذا كلَّه ويَعُمُّه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٧).

وقال النَّسَفي: (﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عنه يومَ القيامةِ، وعن قيامِكم بحَقِّه، وعن تعظيمِكم له، وعن شُكرِكم هذه النِّعمةَ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧٤). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٢).

وذهب البِقاعيُّ إلى أعَمَّ مِمَّا سَبَق، فقال: (تَصيرونَ في سائرِ أنواعِ العِلمِ مَحَطَّ رِحالِ السَّائِلينَ دِينًا ودُنيا، بحيثُ يَسألُكم جميعُ أهلِ الأرضِ مِن أهلِ الكِتابِ ومِن غَيرِهم عمَّا يُهِمُّهم مِن أمرِ دينِهم ودُنياهم؛ لِما يَعتَقِدونَ مِن أنَّه لا يُوازيكم أحدٌ في العِلمِ، بعدَ أنْ كُنتُم عندَهم أحقَرَ الأُمَمِ ضَعفًا وجَهلًا! كما وقَعَ لبني إسرائيلَ حيثُ رَفَعهم اللهُ، وكان ذلك أبعَدَ الأشياءِ عندَ فِرعَونَ وآلِه؛ ولذلك كانوا يَتضاحَكونَ استِهزاءً بتلك الآياتِ، ويَنسُبونَ الآتيَ بها إلى ما لا يَليقُ بمَنصِبِه العالي مِنَ المُحالاتِ؛ وتُسأَلونَ عن حَقِّه وأداءِ شُكرِه، وكيف كُنتُم في العَمَلِ به والاستِجابةِ له). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٣٧).

(١) رواه مسلم (٢٢٣).

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾.

أي: واسألْ -يا مُحمَّدُ- الرُّسُلَ الَّذين أرسَلْناهم إلى أقوامِهم مِن قَبْلِك[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠٥).

قال الماوَرْدي عن قولِه تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾: (فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: يعني: الأنبياءَ الَّذين جُمِعوا له لَيلةَ الإسراءِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زَيدٍ. وكانوا سبعينَ نبيًّا؛ منهم: إبراهيمُ، وموسى، وعيسى عليهم السَّلامُ، فلم يَسأَلْهم؛ لأنَّه كان أعلَمَ باللهِ منهم. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: أهلُ الكِتابَينِ؛ التَّوراةِ والإنجيلِ. قاله قَتادةُ والضَّحَّاكُ، ويكونُ تقديرُه: سَلْ أُمَمَ مَن أرسَلْنا مِن قَبلِك مِن رُسُلِنا. الثَّالثُ: جِبريلُ، ويكونُ تقديرُه: واسأَلْ عمَّا أرسَلْنا مِن قَبلِك مِن رُسُلِنا. حكاه النَّقَّاشُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٢٧، ٢٢٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الأنبياءُ الَّذين لَقِيَهم لَيلةَ الإسراءِ: القُشَيْري، والقُرْطُبي، والعُلَيْمي. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٢٣).

قال العُلَيمي: (ومعنى السُّؤالِ: التَّقريرُ لِمُشركي مكَّةَ أنَّه لم يأتِ رسولٌ ولا كتابٌ بعبادةِ غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فلمْ يَشُكَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ولم يَسأَلْهم، وكان أثْبَتَ يقينًا مِن ذلك). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٢٣).

وممَّن قال بأنَّ المراد: سَلْ مُؤمِني أهلِ الكتابِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٥).

قال الشوكاني: (ومعنى الآيةِ على القولَينِ: سؤالُهم هل أَذِنَ اللهُ بعِبادةِ الأوثانِ في مِلَّةٍ مِن المِلَلِ، وهل سَوَّغ ذلك لأحدٍ منهم؟! والمقصودُ تقريعُ مُشرِكي قُرَيشٍ بأنَّ ما هم عليه لم يأتِ في شريعةٍ مِن الشَّرائعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٨).

وقال ابن عاشور: (المعنى: استَقْرِ شرائعَ الرُّسُلِ وكُتُبَهم وأخبارَهم، هل تجِدُ فيها عبادةَ آلهةٍ؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٢). ويُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧٤).

وذَكَرَ الرَّازيُّ أقوالًا في الآيةِ، ومنها: (أنَّ ذِكرَ السُّؤالِ في مَوضِعٍ لا يمكِنُ السُّؤالُ فيه يكونُ المرادُ منه النَّظَرَ والاستدلالَ؛ كقَولِ مَن قال: سَلِ الأرضَ مَن شَقَّ أنهارَكِ، وغَرَس أشجارَكِ، وجنَى ثِمارَكِ؟ فإنَّها إنْ لم تُجِبْك جوابًا، أجابَتْك اعتِبارًا. فهاهنا سؤالُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه =

كما قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾.

أي: اسأَلْهم هل شرَعْنا وأمَرْنا بعبادةِ آلِهةٍ مِن دُونِ الرَّحمنِ[(١)]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: مُوصِلٍ إلى اللهِ وإلى دارِ كرامتِه، وهذا مِمَّا يُوجِبُ عليك زيادةَ التَّمَسُّكِ به والاهتِداءِ، إذا عَلِمتَ أنَّه حقٌّ وعَدلٌ وصِدقٌ تكونُ بانيًا على أصلٍ أصيلٍ إذا بنى غَيرُك على الشُّكوكِ والأوهامِ، والظُّلمِ والجَورِ[(٢)]. ففي الآيةِ حَثُّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم على التَّمَسُّكِ بما أُوحيَ إليه، وإذا كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُحَثُّ على ذلك فنحن مِن بابِ أَولى[(٣)]!

= وسلَّم الأنبياءَ الَّذين كانوا قبْلَه مُمتَنِعٌ؛ فكان المرادُ منه: انظُرْ في هذه المسألةِ بعَقلِك، وتدبَّرْ فيها بفَهمِك). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٥).

وقال ابن عثيمين: (المعنى: إنَّك إن تسألْ -على الفَرضِ والتَّخييرِ- فلن تجابَ بـ «نعم»، بل سيكونُ الجوابُ: «لا»؛ فهو مِن بابِ التحَدِّي للمُشرِكين الَّذين يَدَّعونَ أنَّهم على حَقٍّ... يعني: أنَّ السُّؤالَ أُريدَ به إلزامُ قُرَيشٍ بأنَّه لم يأتِ أحَدٌ مِن الرُّسُلِ بإباحةِ عبادةِ غيرِ اللهِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الخرف)) (ص: ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٧٠).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ يدُلُّ على أنَّ الإنسانَ يرغَبُ في الثَّناءِ الحسَنِ الجميلِ -وذلك على قولٍ في تفسيرِ الذِّكرِ-، ولو لم يَكُنْ ذلك مرغوبًا فيه ما امتَنَّ به تعالَى على رسولِه فقالَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾، وقال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، والذِّكرُ الجَميلُ قائِمٌ مَقامَ الحياةِ، بل هو أفضَلُ مِن الحياةِ؛ لأنَّ أثَرَ الحياةِ لا يحصُلُ إلَّا في الحَيِّ، وأثَرَ الذِّكرِ الجَميلِ يَحصُلُ في كُلِّ مَكانٍ، وفي كُلِّ زَمانٍ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ وصْفُ اللهِ تبارك وتعالى بالانتقامِ كما وُصِفَ به في آياتٍ أخرى، ولكِنْ لا يُوصَفُ به على الإطلاقِ فيقالَ مَثلًا: «المنتَقِمُ»؛ لأنَّ كَلِمةَ «المُنتَقِم» ليست مدحًا في ذاتِها حتَّى تُقابَلَ بما يكونُ سببًا للانتقامِ، ومِن الغَلَطِ عَدُّها ضِمنَ أسماءِ اللهِ الحسنى؛ فإنَّ ذلك ليس مِن أسماءِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ لم يَذكُرْ ذلك مِن أسمائِه، وإنَّما ذَكَره مُقَيَّدًا بحالٍ مِن الأحوالِ، وهنا ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ مُقَيَّدٌ بحالٍ مِن الأحوالِ، وهي تكذيبُ هؤلاء، وهو كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[٢] [السجدة: ٢٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾ أنَّ الوَعدَ يأتي في الشَّرِّ والعُقوبةِ، خلافًا لِمَن قال: الوَعدُ في الخيرِ، والإيعادُ في الشَّرِّ، وأنشَدوا على ذلك قولَ الشاعرِ:

وإنِّـــي وإنْ أوعَدْتُـــه أو وَعَدْتُـــه ... لَمُخْلِـفُ إيعادي ومُنْجِـزُ مَوعِدي[٣]

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٣).

(٣) البيتُ لعامرِ بنِ الطُّفَيلِ. يُنظر: ((ديوان عامر بن الطفيل)) (ص: ٥٨)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤/ ٢٢٣).

فالصَّوابُ أنَّ لفظةَ الوعدِ تُطلَقُ على الخَيرِ والشَّرِّ، فهنا قال: ﴿ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾، وعلى قياسِ قولِ البيتِ يكونُ التَّعبيرُ: «الَّذي أوعَدْناهم»، ولكِنَّ الصَّحيحَ أنَّها جائزةٌ لهذا وهذا[١]، فالوَعدُ هنا بمَعنَى الوَعيدِ؛ بقَرينةِ قَولِه قَبْلَه: ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، وأمَّا الوَعيدُ فهو للشَّرِّ دائمًا[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ عبَّرَ عن الشَّرَفِ بالذِّكرِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ قيل: للتَّنبيهِ على أنَّ سَبَبَه الإقبالُ على الذِّكرِ وعلى ما بَيَّنه وشَرَعَه، والاستِمساكُ به، والاعتِناءُ بشَأنه[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ حُجَّةٌ في قَبولِ خبرِ الواحدِ الصَّادقِ؛ فإنَّ أماراتِ النُّبُوَّةِ دليلٌ على صِدْقِهم، والحُجَّةُ واجبةٌ بإخبارِهم؛ لا بأماراتِهم[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ -على القولِ بأنَّ المرادَ أمرُه بسؤالِ أهلِ التَّوراةِ والإنجيلِ- استُدِلَّ به على أنَّ خبرَ المَعيوبِ عليه في دِينِه -إذا عُرِفَ بالصِّدْقِ- مقبولٌ وإنْ أُنكِرَ حالُه؛ إذِ المرادُ مِن المُخبِرِ صِدْقُه لا غيرُه، وليس إلْمامُ المُذْنِبينَ -المعروفِين بالصِّدْقِ- بالذُّنوبِ، والمُتأوِّلينَ أمورًا بأكثرَ مِن كُفْرِ الكافِرين[٥]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أنَّ أصلَ دينِ النَّصارى ليس فيه شِركٌ؛ فإنَّ الله إنَّما بَعَث رُسُلَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٣٤).

بالتَّوحيدِ، والنَّهيِ عن الشِّركِ، فالمسيحُ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه ومَن قبْلَه مِنَ الرُّسلِ إنَّما دَعَوْا إلى عبادةِ اللهِ وحْدَه لا شريكَ له[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

- قَولُه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ...﴾ استِئنافٌ، مَسُوقٌ لتَسلِيَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: إنَّ هؤلاء صُمٌّ فلا يُمكِنُك إسماعُهم، وعُميٌ فلا يُمكِنُك هِدايَتُهم[٢].

- قَولُه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ [الزخرف: ٣٦]؛ لأنَّ ذلك أفاد تَوَغُّلَهم في الضَّلالةِ، وعُسْرَ انفِكاكِهم عنها؛ لأنَّ مُقارَنةَ الشَّياطينِ لهم تَقتَضِي ذلك؛ فانتَقَل منه إلى التَّهوينِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما يُلاقِيه مِن الكَدِّ والتَّحَرُّقِ عليهم في تَصميمِهم على الكُفرِ والغَيِّ، وفيه إيماءٌ إلى تَأييسٍ مِن اهتِداءِ أكثَرِهم[٣].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لإنكارِ أنْ يَكونَ حِرصُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على هُداهم ناجعًا فيهم إذا كان اللهُ قدَّرَ ضَلالَهم فأوجَدَ أسبابَه؛ قال تعالَى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]. ولَمَّا كان حالُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مُعاوَدةِ دَعوتِهم كحالِ مَن يَظُنُّ أنَّه قادرٌ على إيصالِ

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٦).

التَّذكيرِ إلى قُلوبِهم، نُزِّلَ مَنزِلةَ مَن يَظُنُّ ذلك؛ فخُوطِبَ باستِفهامِ الإنكارِ، وسُلِّطَ الاستِفهامُ على كَلامٍ فيه طَريقُ قَصرٍ بتَقديمِ المُسنَدِ إليه على الخَبَرِ الفِعلِيِّ، مع إيلاءِ الضَّميرِ حَرْفَ الإنكارِ، وهو قَصْرٌ مُؤَكَّدٌ وقَصْرُ قَلبٍ[(١)]، أي: أنت لا تُسمِعُهم ولا تَهدِيهم؛ بل اللهُ يُسمِعُهم ويَهدِيهم إنْ شاءَ[(٢)].

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩-٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٩).

- ومِن بَديعِ مَعنَى قَولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ...﴾ الآيَة: أنَّ اللهَ وَصَف حالَ إعراضِهِم عن الذِّكرِ بالعَشَا، وهو النَّظَرُ الَّذي لا يَتَبَيَّنُ شَبَحَ الشَّيءِ المَنظورِ إليه، ثمَّ وَصَفهم هنا بالصُّمِّ العُمْيِ؛ إشارَةً إلى أنَّ التَّمَحُّلَ[1] للضَّلالِ ومُحاوَلَةَ تأييدِه، يَنقَلِبُ بصاحِبِه إلى أشدِّ الضَّلالِ؛ لِـ (أنَّ التَّخَلُّقَ يأتي دُونَه الخُلُقُ)[2]، والأحوالُ تَنقَلِبُ مَلَكَاتٍ. وإذ قد كان إعراضُهم انصِرافًا عن استِماعِ القُرآنِ، وعن النَّظَرِ في الآياتِ؛ كان حالُهُم يُشبِهُ حالَ الصُّمِّ العُمْيِ، كما مُهِّد لذلك بقَولِه: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الزخرف: ٣٦]؛ فظَهَرت المُناسَبةُ بيْنَ وَصْفِهم بالعَشَا وبيْن ما في هذا الانتِقالِ لِوَصْفِهم بالصُّمِّ العُمْيِ[3].

- وقَولُه: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ عَطفٌ على ﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾ باعتِبارِ تَغايُرِ الوَصفَينِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ المُوجِبَ لذلك تَمَكُّنُهم في ضَلالٍ لا يَخفَى[4].

- وأيضًا عَطْفُ ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ فيه مَعنى التَّذييلِ؛ لأنَّه أعَمُّ مِن كلٍّ مِن الصُّمِّ والعُمْيِ باعتِبارِ انفِرادِهما، وباعتِبارِ أنَّ الصَّمَمَ والعَمَى قد يكونُ تَعَلُّقُهما بالمَسموعِ والمُبصَرِ جُزئيًّا في حالةٍ خاصَّةٍ؛ فكان الوَصفُ بالكَونِ في الضَّلالِ المُبينِ تَنبيهًا على عُمومِ الأحوالِ[5].

---

(١) التَّمَحُّلُ: أي: الاحتيالُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٨١٧).

(٢) عَجُزُ بيتٍ يُنسَبُ لغيرِ واحدٍ؛ منهم: العَرْجيُّ. يُنظر: ((الحيوان)) للجاحظ (٣/ ٦٦)، ((الشعر والشعراء)) لابن قُتَيْبَةَ (٢/ ٥٦١). ومنهم: سالمُ بنُ وابِصةَ. ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ١٩٧)، ((شرح ديوان الحماسة)) للمرزوقي (ص: ٧١٠). ومنهم: ذو الإصبَعِ العَدْوانيُّ. يُنظر: ((التذكرة الحمدونية)) (٧/ ٩٠)، ((الدر الفريد)) للمستعصمي (٣/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٦، ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٧).

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ لَمَّا كَانَت حَواسُّهم لنْ يَنتَفِعوا بها الانتِفاعَ الَّذي يُجرِي خَلاصَهم مِن عَذابِ اللهِ، جُعِلوا صُمًّا عُمْيًا حَيارَى، ويُريدُ بهم قُرَيشًا؛ فهُم جامِعُو الأَوصافِ الثَّلاثةِ؛ ولذلك عادَ الضَّميرُ عليهم في قَولِه: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، ولم يَجْرِ لهم ذِكْرٌ إلَّا في قَولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ [الزخرف: ٤٠] الآيةَ[(١)].

- وقولُه: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ...﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ...﴾ [الزخرف: ٤٠] إلى آخِرِها، المُتضَمِّنةِ إيماءً إلى التَّأييسِ مِنِ اهتِدائِهم، والصَّريحةِ في تَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن شِدَّةِ الحِرصِ في دَعوَتِهم؛ فجاء هنا تَحقيقُ وَعدٍ بالانتِقامِ منهم، ومعناه: الوَعدُ بإظهارِ الدِّينِ إنْ كان في حَياةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أو بعْدَ وَفاتِه، ووَعِيدُهم بالعِقابِ في الدُّنيا قبْلَ عِقابِ الآخِرةِ. ومِن أجْلِ الوَفاءِ بهَذَينِ الغَرَضَينِ ذُكِر في هذه الجُملةِ أمْرانِ: الانتِقامُ منهم لا مَحالةَ، وكَوْنُ ذلك واقِعًا في حَياةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أو بعْدَ وَفاتِه، والمُفَرَّعُ هو: ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ وما ذُكِرَ معه؛ فمُرادٌ منه تَحَقُّقُ ذلك على كلِّ تَقديرٍ[(٢)].

- والذَّهابُ به في قولِه: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ ...﴾ مُستَعمَلٌ للتَّوَفِّي -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ بقَرينةِ قَولِه: ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾؛ لأنَّ المَوتَ مُفارَقةٌ للأحياءِ؛ فالإماتةُ كالانتِقالِ به، أي: تَغْيِيبُه؛ ولذلك يُعَبَّرُ عن المَوتِ بالانتِقالِ، والمعنى: فإمَّا نَتَوَفَّيَنَّكَ فإنَّا مِنهم مُنتَقِمون بعْدَ وَفاتِكَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٧).

- وفي قولِه: ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ جاءَ جَوابُ الشَّرطِ مُقترِنًا بالفاءِ -وهو جُملةٌ اسميَّةٌ-؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ الانتِقامِ ودَوامِه، وأمَّا جُملةُ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ فهي دَليلُ جَوابِ جُملةِ ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ المَعطُوفةِ على جُملةِ الشَّرطِ؛ لأنَّ اقتِدارَ الله عليهم لا يُناسِبُ أنْ يَكونَ مُعَلَّقًا على إراءَتِه الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الانتِقامَ منهم؛ فالجَوابُ مَحذوفٌ لا مَحالةَ؛ لقَصدِ التَّهويلِ، وتَقديرُه: أوْ إمَّا نُرِيَنَّكَ الَّذي وعَدْناهُم -وهو الانتِقامُ- تَرَ انتِقامًا لا يُفلِتون منه؛ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾، أي: مُقتَدِرون الآنَ؛ فاسمُ الفاعِلِ مُستَعمَلٌ في زَمانِ الحالِ وهو حَقيقتُه[1].

- وتَقديمُ المَجرُورَينِ ﴿مِنْهُم﴾ و﴿عَلَيْهِم﴾ على مُتَعَلَّقَيْهما؛ للاهتِمامِ بهم في التَّمَكُّنِ بالانتِقامِ والاقتِدارِ عليهم[2].

- قولُه: ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ الاقتدارُ: شِدَّةُ القُدرةِ، و(اقتَدَرَ) أبلَغُ مِن (قدَرَ)[3].

- وقد اشتَمَل هَذانِ الشَّرطانِ وجَواباهُما ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ على خَمسَةِ مُؤَكِّداتٍ؛ وهي: (ما) الزَّائِدةُ في قولِه ﴿فَإِمَّا﴾، ونُونُ التَّوكيدِ، وحَرفُ (إنَّ) للتَّوكيدِ، والجُملةُ الاسميَّةُ، وتَقديمُ المَعمولِ على ﴿مُّنتَقِمُونَ﴾[4].

- وفائدةُ التَّرديدِ في هذا الشَّرطِ -قَولُه: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ وقولُه: ﴿أَوْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٨).

نُرِيَنَّكَ﴾-: تَعميمُ الحالَينِ: حالِ حَياةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وحالِ وَفاتِه -على قولٍ في التَّفسيرِ بأنَّ المرادَ بالإذهابِ: تَوَفِّيه عليه السَّلامُ-، والمَقصودُ: وَقتُ ذَينِكَ الحَالَينِ؛ لأنَّ المَقصودَ تَوقيتُ الانتِقامِ منهم، ففي هذا الوَعيدِ إلْقاءُ الرُّعبِ في قُلوبِهم لِمَا يَسمَعونَه[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

- قولُه: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ﴾ الاستِمساكُ: شِدَّةُ المَسكِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ فيه للتَّأكيدِ، والأمرُ به مُستَعمَلٌ في طَلَبِ الدَّوامِ؛ لأنَّ الأمرَ بفِعلٍ لِمَن هو مُتَلبِّسٌ به لا يَكونُ لطَلَبِ الفِعلِ، بلْ لمَعنًى آخَرَ، وهو هنا: طَلَبُ الثَّباتِ على التَّمَسُّكِ بما أُوحِيَ إليه؛ كما دلَّ عليه قَولُه: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وهذا كما يُدْعَى للعَزيزِ المُكرَمِ، فيُقالُ: أعَزَّكَ اللهُ وأكرَمَكَ، أي: أدامَ ذلك، وقَولُه: أَحياكَ اللهُ، أي: أطالَ حَياتَكَ[2].

- قَولُه: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تأييدٌ لطَلَبِ الاستِمساكِ بالَّذي أُوحِيَ إليه، وتَعليلٌ له، أو تَعليلٌ للأمْرِ به[3].

- والصِّراطُ المُستَقيمُ: هو العَمَلُ بالَّذي أُوحِيَ إليه؛ فكَأنَّه قِيل: إنَّه صِراطٌ مُستَقيمٌ، ولَكِنْ عُدِلَ عن ذلك إلى ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ ليُفيدَ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ راسِخٌ في الاهتِداءِ إلى مُرادِ اللهِ تعالى، كما يَتمَكَّنُ السَّائِرُ مِن طَريقٍ مُستَقيمٍ لا يَشُوبُه في سَيرِه تَرَدُّدٌ في سُلوكِه، ولا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٠).

خَشيةُ الضَّلالِ في بُنَيَّاتِه، وحَرفُ (عَلَى) المُرادُ به التَّمَكُّنُ، وهذا تَثبيتٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وثَناءٌ عليه بأنَّه ما زَاغَ قِيدَ أُنمُلَةٍ عمَّا بَعَثَه اللهُ به، ويَتْبَعُه تَثْبيتُ المُؤمِنينَ على إيمانِهم، وهذا أيضًا ثَناءٌ على القُرآنِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ ذُكِرَ حظُّ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الثَّناءِ والتَّأييدِ في قَولِه: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الزخرف: ٤٣] المَجعُولِ عِلَّةً للأمرِ بالثَّباتِ عليه، ثمَّ عُطِفَ عليه تَعليلٌ آخَرُ اشتَمَل على ذِكْرِ حَظِّ القُرآنِ مِن المَدحِ والنَّفعِ بقَولِه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ﴾، وتَشريفِه به بقَولِه: ﴿لَّكَ﴾، وأُتْبِعَ بحَظِّ التَّابِعينَ له ولكِتابِه مِنَ الاهتِداءِ والانتِفاعِ بقَولِه: ﴿وَلِقَوۡمِكَ﴾. وهذا أيضًا ثناءٌ على القُرآنِ(٢).

- وعرَّضَ اللهُ سُبحانَه بالمُعرِضينَ عن القُرآنِ وعن الرَّسولِ والمُجافِينَ لهما بقَولِه: ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾، مع التَّوجيهِ في معنَى كلمةِ (ذِكْرٌ) مِن إرادةِ أنَّ هذا الدِّينَ يَكسِبُه ويَكسِبُ قَومَه حُسْنَ السُّمعةِ في الأُمَمِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فمَنِ اتَّبَعه نالَ حَظَّه مِن ذلك، ومَن أَعرَضَ عنه عُدَّ في عِدادِ الحَمقَى، مع الإشارةِ إلى انتِفاعِ المُتَّبِعينَ به في الآخِرةِ، واستِضرارِ المُعرِضينَ عنه فيها، وتَحقيقُ ذلك بحَرفِ الاستِقبالِ (سوف)(٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ قيل: المُرادُ بالسُّؤالِ تَمثيلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٢٠، ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٢٠).

لِشُهرةِ الخَبَرِ وتَحَقُّقِه؛ إذ لَمْ يكُنِ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في شَكٍّ حتَّى يَسأَلَ، وإلَّا فإنَّ سُؤالَه الرُّسلَ الَّذين مِن قبْلِه مُتعذِّرٌ على الحقيقةِ. والمعنى: استَقْرِ شَرائعَ الرُّسلِ وكُتبَهم وأخْبارَهم؛ هلْ تجِدُ فيها عِبادةَ آلهةٍ؟! فالمُرادُ الاستِشهادُ بإجماعِ الأنبياءِ على التَّوحيدِ، والتَّنبيهُ على أنَّه ليسَ بِبِدْعٍ ابتَدَعه حتَّى يُكَذَّبَ ويُعادَى له؛ فإنَّه كان أَقوَى ما حَمَلَهم على التَّكذيبِ والمُخالَفةِ[1]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قَولُه: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ الهَمزةُ في ﴿أَجَعَلْنَا﴾ للاستِفهامِ، وهو إنكاريٌّ، وهو المَقصودُ مِن الخَبَرِ، وهو رَدٌّ على المُشرِكين في قَولِهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي: ليس آباؤُكم بأَهدَى مِنَ الرُّسُلِ الأَوَّلينَ إنْ كُنتُم تَزعُمون تَكذيبَ رَسولِنا؛ لأنَّه أمَرَكُم بإفرادِ اللهِ بالعِبادةِ. ويَجوزُ أنْ يُجعَلَ السُّؤالُ عن شُهرةِ الخبَرِ، ومعنى الكلامِ: وإنَّا ما أمَرْنا بعِبادةِ آلهةٍ دُونَنا على لِسانِ أحَدٍ مِن رُسلِنا. وهذا رَدٌّ لِقَولِ المشركينَ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾[2] [الزخرف: ٢٠].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ لتأكيدِ اتِّصالِ الظَّرفِ بعامِلِه، و(مِن) في قولِه: ﴿مِن رُّسُلِنَآ﴾ بيانٌ لـ ﴿قَبْلِكَ﴾؛ فمعنى ﴿أَجَعَلْنَا﴾: ما جَعَلْنا ذلك، أي: جعْلَ التَّشريعِ والأمْرِ، أي: ما أمَرْنا بأنْ تُعبَدَ آلهةٌ دُونَنا؛ فوصْفُ ﴿ءَالِهَةً﴾ بـ﴿يُعْبَدُونَ﴾ لِنَفْيِ أنْ يكونَ اللهُ يَرْضَى بعِبادةِ غَيرِه، فضْلًا عن أنْ يكونَ غيرُه إلهًا مِثلَه؛ وذلك أنَّ المشركينَ كانوا يَعبُدون الأصنامَ، وكانوا في عَقائدِهم

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٢).

أشتاتًا؛ فمِنْهم مَن يَجعَلُ الأصنامَ آلهةً شُركاءَ للهِ، ومِنْهم مَن يَزعُمُ أنَّه يَعبُدُهم لِيُقَرِّبُوه مِن اللهِ زُلْفى، ومنْهم مَن يَزعُمُهم شُفعاءَ لهم عندَ اللهِ. فلمَّا نفَى بهذه الآيةِ أنْ يكونَ جعَلَ آلهةً يُعبَدون، أبطَلَ جميعَ هذه التَّمحُّلاتِ[١].

- وأُجْرِيَ ﴿ءَالِهَةً﴾ مُجْرى العُقلاءِ؛ فوُصِفوا بصِيغةِ جمْعِ العُقلاءِ بقولِه: ﴿يُعْبَدُونَ﴾ -ومِثلُه كَثيرٌ في القُرآنِ- جَرْيًا على ما غلَبَ في لِسانِ العرَبِ؛ إذ اعتَقَدُوهم عُقلاءَ عالِمينَ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤٦-٥٠)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّٰحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَمَلَإِي۟هِۦ﴾: الملأُ: أشرافُ النَّاسِ ووُجوهُهم ورُؤَساؤُهم، والجماعةُ يَجتمِعونَ على رأيٍ، فيَملوؤنَ العُيونَ منظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجلالًا، ويُقالُ: فلانٌ مِلْءُ العُيونِ، أي: مُعَظَّمٌ عندَ مَن رآه، وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنَّهم يَتمالَؤونَ، أي: يَتظاهرونَ عليه، وأصلُ (ملأ): يدُلُّ على الكَمالِ[1].

﴿يَنكُثُونَ﴾: يَنقُضونَ عَهدَهم، وأصلُ (نكث): يدُلُّ على نَقضِ شَيءٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ موسَى عليه السَّلامُ معَ فِرعونَ؛ مُثَبِّتًا لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمنينَ، فيقولُ: ولقد أرسَلْنا موسى بمُعجِزاتِنا الدَّالَّةِ على صِدْقِه إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه، فقال لهم موسى: إنِّي رَسولٌ إليكم مِن رَبِّ العالَمينَ، فلمَّا جاءهم موسى بمُعجِزاتِنا إذا فِرعَونُ وقَومُه يَضحَكونَ منها

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧١).

مُستَهزِئينَ! وما نُري فِرعَونَ وقَومَه مُعجِزةً إلَّا هي أكبَرُ مِن الَّتي قبْلَها، ومع ذلك كذَّبوا فأخَذْناهم بعَذابٍ شَديدٍ مِن قَحطٍ ونَقصٍ في الثَّمَراتِ وغيرِ ذلك؛ لعَلَّهم يَتوبونَ إلى اللهِ فيَرجِعونَ عن كُفرِهم.

وقال فِرعَونُ ومَلَؤُه لِموسى حينَ نَزَل بهم العَذابُ: يا أيُّها السَّاحِرُ ادْعُ لنا رَبَّك بما عَهِدَ عندَك؛ لِيَكشِفَ عنَّا العذابَ، إنَّنا لَمُهتَدونَ ومُتَّبِعوك إنْ كشَفَه عنَّا. فلمَّا رفَعْنا عنهم العذابَ نَقَضوا عَهدَهم، وأصَرُّوا على كُفرِهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقدَّم طَعنُ قُرَيشٍ على الرَّسولِ، واختيارُهم أن يُنَزَّلَ القُرآنُ على رجُلٍ مِن القَريتَينِ عَظيمٍ، أي: في الجاهِ والمالِ؛ ذكَرَ أنَّ مِثلَ ذلك سَبَقَهم إليه فِرعَونُ في قَولِه: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] إلى آخِرِ الآيةِ، افتَخَرَ بالمُلْكِ والمالِ والجاهِ؛ ففِرْعَونُ قُدوتُهم في ذلك، ومع ذلك فصار فِرعَونُ مَقهورًا مع موسى مُنتَقَمًا منه، فكذلك قُرَيشٌ[1].

وأيضًا لَمَّا قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]؛ بيَّن تعالى حالَ موسى ودعوتِه، الَّتي هي أشهرُ ما يكونُ مِن دعواتِ الرُّسُلِ، ولأنَّ اللهَ تعالى أكثرَ مِن ذِكرِها في كتابِه[2].

وأيضًا لَمَّا قال الله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا ﴾ [الزخرف: ٤٥] الآيةَ؛ ذكَرَ قصَّةَ موسى وعيسى، وهما أكبَرُ أتْباعًا مِمَّن سَبَقَهم من الأنبياءِ، وكُلٌّ جاء بالدُّعاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٨). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

إلى اللهِ، وإفرادِه بالعِبادةِ، فلم يكُنْ فيما جاءَا به إباحةُ اتِّخاذِ آلهةٍ مِن دونِ اللهِ، كما اتَّخَذَت قُرَيشٌ؛ فناسَبَ ذِكرُ قِصَّتِهما؛ للآيةِ الَّتي قَبْلَها[١].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا موسى بمُعجِزاتِنا الدَّالَّةِ على صِدقِه إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أي: فقال لهم موسى: إنِّي رَسولٌ إليكم مِنَ الخالِقِ المالِكِ، الرَّازِقِ المدَبِّرِ لجَميعِ العالَمينَ[٣].

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

أي: فلمَّا جاءهم موسى بمُعجِزاتِنا إذا فِرعَونُ وقَومُه يَضحَكونَ منها؛ سُخْريةً واستِهزاءً[٤]!

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾.

أي: وما نُري فِرعَونَ وقَومَه مُعجِزةً إلَّا هي أعظَمُ مِن الَّتي قَبْلَها، ومع ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٧، ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

كذَّبوا بجَميعِ الآياتِ واستَخَفُّوا بها؛ استِكبارًا وعِنادًا[١]!

﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: وابتَلَيْناهم بنِقَمٍ ومِحَنٍ -كالقَحطِ ونَقصِ الثَّمَراتِ-؛ لعَلَّهم يَتوبونَ إلى الله، فيَرجِعونَ مِن كُفرِهم باللهِ ومَعصيتِه، إلى تَوحيدِه وطاعتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾.

أي: وقال فِرعَونُ ومَلَؤُه لموسى حينَ نَزَل بهم العَذابُ: يا أيُّها السَّاحِرُ[٣] ادعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٥).

قال ابن جرير: (يقولُ: إلَّا الَّتي نُرِيه مِن ذلك أعظَمُ في الحُجَّةِ عليهم، وأوكَدُ مِن الَّتي مَضَت قَبْلَها مِن الآياتِ، وأدَلُّ على صِحَّةِ ما يأمُرُه به موسى). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٨).

وقال ابن عطيَّة: (وَصَف تعالى صورةَ عَرضِ الآياتِ عليهم، وإنَّما كانت شَيئًا بعدَ شَيءٍ. وقَولُه: ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ عبارةٌ عن شِدَّةِ مَوقِعِها في نفوسِهم بجِدَّةِ أمْرِها وحُدوثِه؛ وذلك أنَّ أوَّلَ آيةٍ عَرَضَ موسى، هي: العصا واليَدُ، وكانت أكبَرَ آياتِه، ثمَّ كُلُّ آيةٍ بعدَ ذلك كانت تقعُ فتَعظُمُ عندَهم لحِينِها وتَكبُرُ؛ لأنَّهم قد كانوا أُنِسُوا الَّتي قَبْلَها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٨).

وقال القرطبي: (أي: كانت آياتُ موسى مِن كِبارِ الآياتِ، وكانت كلُّ واحدةٍ أعظَمَ مِمَّا قَبْلَها. وقيل: ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾؛ لأنَّ الأُولى تَقتَضي عِلمًا، والثَّانيةَ تَقتضي عِلمًا، فتُضَمُّ الثَّانيةُ إلى الأُولى فيَزدادُ الوُضوحُ. ومعنى الأُخُوَّةِ: المُشاكَلةُ والمُناسَبةُ، كما يُقالُ: هذه صاحِبةُ هذه، أي: هما قريبتانِ في المعنى). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٦).

(٣) قيل: أرادوا بقَولِهم: يا أيُّها السَّاحِرُ: يا أيُّها العالِمُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، =

لنا رَبَّك بما عَهِدَ عندَك[(١)]؛ .....

= والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٧٣)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١٤٨) و(٤/ ١٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠).

قال الثعلبي: (وقالوا لَمَّا عايَنوا العَذابَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ يا أيُّها العالِمُ الكامِلُ الحاذِقُ، وإنَّما قالوا هذا؛ توقيرًا وتعظيمًا منهم؛ لأنَّ السِّحرَ كان عِندَهم عِلمًا عَظيمًا، وصِفةً مَمدوحةً). ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٨).

وقيل: قالوا ذلك على جِهةِ الاستِهزاءِ والتَّهَكُّمِ. وممَّن جَوَّز هذا المعنى: ابنُ عطية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

وقيل: خاطَبوه بما تقدَّمَ عندَهم مِن تسميتِه بالسَّاحِرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٧).

(١) في معنى قَولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أقوالٌ؛ قال الزمخشري: (﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعَهدِه عِندَك: مِن أنَّ دَعوتَك مُستجابةٌ، أو بعَهدِه عِندَك، وهو النُّبُوَّةُ، أو بما عَهِدَ عندَك فوَفَّيتَ به، وهو الإيمانُ والطَّاعةُ، أو بما عَهِدَ عِندَك مِن كَشفِ العذابِ عمَّنِ اهتدى). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: بعَهدِه الَّذي عَهِدَ إليك أنَّا إنْ آمَنَّا بك واتَّبَعْناك كشَفَ عنَّا العذابَ: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والنَّحَّاس، والواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٤)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٣٦٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٩).

قال النَّحَّاسُ: (ويدُلُّ على صِحَّةِ هذا الجوابِ قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾، أي: يَنقُضونَ العَهدَ). ((معاني القرآن)) (٦/ ٣٦٨).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: بعَهدِه عِندَك: مِن أنَّ دَعوتَك مُستجابةٌ: النَّيْسابوريُّ، والعُلَيمي، واقتصر عليه أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨١). =

لِيَكشِفَ عنَّا العَذابَ[١].

﴿إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ﴾.

أي: إنَّنا لَمُتَّبِعوك -يا موسى- إنْ كَشَفَ رَبُّك عنَّا العذابَ، فنُؤمِنُ به ونُوَحِّدُه[٢]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ * فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٢ - ١٣٤].

﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ٥٠﴾.

أي: فلمَّا رفَعْنا العذابَ عن فِرعَونَ وقَومِه؛ لِيَهتَدوا إلى الحَقِّ كما وَعَدوا موسى، نَكَثوا فنَقَضوا عَهْدَهم، وأصَرُّوا على كُفرِهم وضَلالِهم[٣]!

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥].

= وقيل: المعنى: ادعُ رَبَّك بما خَصَّك اللهُ به وفَضَّلك به مِنَ الفَضائِلِ والمَناقِبِ: أن يَكشِفَ عنَّا العذابَ. قاله السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

وقيل: أرادوا: بما خَصَّك بعِلمِه دونَ غَيرِك مِمَّا استطَعْتَ به أن تأتيَ بخوارِقِ العادةِ. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لَمَّا كان الإحسانُ سببًا للإذعانِ قال: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: مالِكِهم ومُرَبِّيهم ومُدَبِّرِهم[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ فيه سؤالٌ: كيف سَمَّوه بالسَّاحِرِ -الصَّريحِ في نسبتِه إلى الباطلِ-، وهو مُنافٍ لِما بَعْدَه مِن طلبِ الدُّعاءِ منه، وقَولِهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾، وفيه إعلامٌ بأنَّه هادٍ مُهتَدٍ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّهم كانوا يقولونَ للعالِمِ الماهِرِ: (ساحِرٌ)؛ لأنَّهم كانوا يَستَعظِمونَ السِّحرَ، وكما يُقالُ في العامِلِ العَجيبِ الكامِلِ: إنَّه أتى بالسِّحرِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ المعنى: يا أيُّها السَّاحِرُ في زَعمِ النَّاسِ ومُتعارَفِ قَومِ فِرعَونَ، كقَولِه: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، أي: نُزِّلَ عليه الذِّكرُ في اعتِقادِه وزَعْمِه!

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ قَولَهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ وقد كانوا عازِمينَ على خِلافِه؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾، فتَسميتُهم إيَّاه بالسِّحرِ لا يُنافي قَولَهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾، ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّه لَمَّا كَشَفَ عنهم العذابَ نكَثوا ذلك العَهدَ[٢].

الوجه الرَّابعُ: أن ذلك جارٍ على مُقتضى ما جُبِلوا عليه مِن الشِّدَّةِ والحِدَّةِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٧).

وعلى نَهجِ ما أَلِفوه مِن تحقيرِه؛ ولذا سَبَقَ لسانُهم له[١].

الوَجهُ الخامِسُ: أنَّهم نادَوه بذلك في تلك الحالةِ؛ لشِدَّةِ شَكيمتِهم، وفَرطِ حَماقتِهم[٢].

الوَجهُ السَّادسُ: أنَّ هذا مِن بابِ التَّهَكُّمِ به[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- ذكَرَ اللهُ في أوَّلِ السُّورةِ قولَه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦ - ٨]، وساق بعْدَ ذلك تَذكرةً بإبراهيمَ عليه السَّلامُ مع قَومِه، وما تَفرَّعَ على ذلك مِن أحوالِ أهْلِ الشِّركِ، فلمَّا تَقضَّى، أُتْبِعَ بتَنظيرِ حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع طُغاةِ قَومِه واستِهزائِهم، بحالِ مُوسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ ومَلئِه؛ فإنَّ للمُثُلِ والنَّظائرِ شَأنًا في إبرازِ الحَقائقِ وتَصويرِ الحالَينِ تَصويرًا يُفضِي إلى تَرَقُّبِ ما كان لإحدَى الحالَتَينِ مِن عَواقِبَ أن تَلحَقَ أهلَ الحَالةِ الأُخرَى؛ فإنَّ فِرعَونَ ومَلَأَهُ تَلَقَّوا موسى عليه السَّلامُ بالإسرافِ في الكُفرِ، وبالاستِهزاءِ به، وباستِضعافِه؛ إذ لم يَكُن ذا بَذَخَةٍ[٤] ولا مُحَلًّى بحِلْيةِ الثَّراءِ، وكانتْ مُناسَبةُ قَولِه: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥] الآيةَ، هيَّأت المَقامَ لضَربِ المَثَلِ بحالِ بَعضِ

(١) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٨٦-١٨٧).

(٤) بَذَخَةٍ أي: عُلُوٍّ وعَظَمةٍ. يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨).

الرُّسُلِ الَّذِين جاؤُوا بشَريعةٍ عُظمَى قبْلَ الإسلامِ[١].

- والمُرادُ باقتِصاصِ قِصَّةِ موسَى عليه السَّلامُ تَسلِيةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُناقَضةُ قَولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، والاستِشهادُ بدَعوةِ مُوسى عليه السَّلامُ إلى التَّوحيدِ إثرَ ما أُشيرَ إلى إجماعِ جَميعِ الرُّسُلِ -عليهم السَّلامُ- عليه؛ لِيَتأمَّلوا فيها[٢].

- قَولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ لَمَّا كان السِّياقُ لسُؤالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الرُّسُلَ عن أمْرِ التَّوحيدِ؛ كانتِ الآياتُ كافِيَةً؛ فلمْ يَذكُرِ السُّلطانَ؛ لأنَّه للقَهرِ والغَلَبةِ[٣].

- وخصَّ الملأَ بالذِّكرِ -وهم الأشرافُ-؛ لأنَّ غَيرَهم مِن النَّاسِ تَبَعٌ لَهُم[٤].

- وما أجابُوه به عِندَ قَولِه: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مَحذوفٌ، دلَّ عليه قَولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ وهو مُطالَبَتُهم إيَّاهُ بإحضارِ البَيِّنَةِ على دَعواهُ، وإبرازِ الآيةِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ (إذا) حَرفُ مُفاجَأَةٍ، أي: يدُلُّ على أنَّ ما بَعْدَه حَصَل عن غَيرِ تَرَقُّبٍ؛ فتُفتَتَحُ به الجُملةُ الَّتي يُفادُ منها حُصولُ حادِثٍ على وَجهِ المُفاجَأَةِ[٦].

- والضَّحِكُ: قيل: هو كِنايةٌ عن الاستِخفافِ بالآياتِ والتَّكذيبِ؛ فلا يَتَعَيَّنُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٥).

أنْ يَكونَ كلُّ الحاضِرينَ صَدَرَ منهم ضَحِكٌ، ولا أنَّ ذلك وَقَع عندَ رُؤيةِ آيةٍ؛ إذ لعَلَّ بَعضَها لا يَقتَضي الضَّحِكَ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ صَوغُ ﴿نُرِيهِم﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ لاستِحضارِ الحالَةِ[٢].

- والمُرادُ بقولِه: ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أنَّها بالِغةٌ أقصَى دَرَجاتِ الإعجازِ؛ بحيثُ يَحسَبُ النَّاظِرُ فيها أنَّها أكبَرُ مِمَّا يُقاسُ إليها مِن الآياتِ. ووَصْفُ الآياتِ بأنَّ كلَّ واحِدةٍ أكبَرُ من أُختِها كَلامٌ جامِعٌ مانِعٌ؛ يَعني: أنَّهنَّ مَوصوفاتٌ بالكِبَرِ، لا يَكَدْنَ يَتَفاوَتْنَ فيه، وكذلك العادةُ في الأشياءِ الَّتي تَتَلاقَى في الفَضلِ، وتَتَفاوَتُ مَنازِلُها فيه التُّفاوُتَ اليَسيرَ: أن تَختَلِفَ آراءُ النَّاسِ في تَفضيلِها؛ فيُفَضِّلُ بَعضُهم هذا، وبَعضُهم ذاك، فعلى ذلك بَنَى النَّاسُ كَلامَهم، فقالوا: رأيْتُ رِجالًا بَعضُهُم أفضَلُ مِن بَعضٍ، ورُبَّما اختَلَفت آراءُ الرَّجُلِ الواحِدِ فيها؛ فتارَةً يُفَضِّلُ هذا، وتارةً يُفضِّلُ ذاك. ويَحتمِلُ أنْ يُرادَ به: أنَّ كلَّ آيةٍ تأتي تكونُ أعظَمَ مِن الَّتي قَبْلَها؛ فيَكونَ هُنالِكَ صِفةٌ مَحذوفةٌ؛ لِدَلالةِ المَقامِ، أي: مِن أُختِها السَّابِقةِ، وهذا يَستَلزِمُ أن تكونَ الآياتُ مُتَرَتِّبةً في العِظَمِ بحَسَبِ تأخُّرِ أوقاتِ ظُهورِها؛ لأنَّ الإتيانَ بآيةٍ بعْدَ أُخرَى ناشِئٌ عن عَدَمِ الارتِداعِ مِن الآيةِ السَّابِقةِ[٣]. وقيل: هذا عِبارةٌ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) =

شِدَّةِ مَوقِعِها في نُفوسِهم بجِدَّةِ أمْرِها وحُدوثِه؛ وذلك أنَّ أوَّلَ آيةٍ عَرَضَها موسى هي العصا واليَدُ، وكانت أكبَرَ آياتِه، ثمَّ كُلُّ آيةٍ بعدَ ذلك كانت تقَعُ فيَعظُمُ عِندَهم مجيئُها وتَكبُرُ؛ لأنَّهم كانوا أَنِسُوا الَّتي قَبْلَها، فهذا كما قال الشَّاعِرُ[١]:

علـــى أنَّها تَعفـــو الكُلـــومُ وإنَّما نُوَكَّلُ بالأدنَـى وإنْ جَلَّ ما يَمضي[٢]

وقيل غيرُ ذلك[٣].

- وعَطَف ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ على جُملةِ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾؛ لأنَّ العَذابَ كان مِن الآياتِ. والأخْذُ بمعنى: الإصابةِ. والباءُ في ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ للاستِعانةِ، كما تقولُ: خُذِ الكِتابَ بقُوَّةٍ، أي: ابتَدَأْناهُم بالعَذابِ قبْلَ الاستِئصالِ؛ لَعَلَّ ذلك يُفِيقُهم مِن غَفلَتِهم، وفي هذا تَعريضٌ بأهلِ مَكَّةَ؛ إذ أُصيبُوا بسِنِي القَحطِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾

- مُخاطَبتُهم مُوسى عليه السَّلامُ بوَصْفِ السَّاحرِ ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ قيل: هي مُخاطَبةُ تَعظيمٍ؛ تَزَلُّفًا إليه. وقيل: بلْ خِطابُ استِهزاءٍ وانتِقاصٍ[٥].

= (٨/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٦).

(١) هو أبو خِراشٍ الهُذَليُّ. وقولُه فيه: (تَعفو الكُلُومُ) أي: تَبرأُ وتَستوي. وقولُه: (نُوَكَّلُ بالأدنى) أي: إنَّما نحنُ نَحزَنُ على الأقرَبِ فالأقرَبِ، ومَن مضى نَنْساهُ وإنْ عَظُم. يُنظر: ((ديوان الهذليين)) (٢/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٩، ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٧).

- قولُهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ العهدُ: هو الائتِمانُ على أمْرٍ مُهِمٍّ، قيل: وليس مُرادُهم به النُّبوَّةَ؛ لأنَّهم لم يُؤمِنوا به، وإذ لم يَعرِفوا كُنْهَ العَهدِ عَبَّروا عنه بالمَوصولِ وصِلَتِه، والباءُ في قَولِه: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ مُتَعَلِّقةٌ بـ ﴿ٱدۡعُ﴾، وهي للاستِعانةِ، ولَمَّا رَأَوُا الآياتِ عَلِموا أنَّ رَبَّ موسى قادِرٌ، وأنَّ بيْنَه وبيْن مُوسَى عَهدًا يَقتَضِي استِجابةَ سُؤلِه[1].

- قَولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ لا يُنافي ما في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]؛ لأنَّ الخِطابَ خِطابُ إلحاحٍ، فهو يتَكَرَّرُ ويُعادُ بطُرُقٍ مُختلِفةٍ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ﴾ جَوابٌ لِكلامٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، أي: فإنْ دَعَوْتَ لنا وكشفْتَ عنَّا العذابَ لَنُؤمِنَنَّ لك، كما في آيةِ (الأعرافِ) [١٣٤]: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾ الآيةَ. فـ(مُهْتَدون) اسمُ فاعلٍ مُستعمَلٌ في معنى الوعْدِ، وهو مُنصرِفٌ للمُستقبَلِ بالقرينةِ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿يَنكُثُونَ﴾[3] [الزخرف: ٥٠].

- وسَمَّوا تَصديقَهم إيَّاهُ اهتِداءً؛ لأنَّ مُوسى سمَّى ما دَعاهم إليه هدْيًا، كما في آيةِ (النَّازعاتِ): ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾[4] [النازعات: ١٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥١-٥٦)

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَهِينٌ﴾: أي: ضَعيفٌ ذَليلٌ، وأصلُ (هون) هنا: يدُلُّ على احتقارٍ[١].

﴿أَسْوِرَةٌ﴾: جَمعُ سِوارٍ، والسِّوارُ: حَلْقةٌ عريضةٌ مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ تُحيطُ بالرُّسغِ، وأصلُ (سور): يدُلُّ على عُلُوٍّ وارتِفاعٍ[٢].

﴿مُقْتَرِنِينَ﴾: أي: مُتَتابِعينَ، يُقارِنُ بَعضُهم بَعضًا، يَشهَدونَ له بصِدقِه، ويُعينونَه على أمْرِه، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٣].

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾: أي: أزعَجَهم، وحَمَلهم على الخِفَّةِ والجَهلِ بكَيدِه وغُرورِه، يقالُ: استخَفَّه عن رأيِه: إذا حمَلَه على الجَهلِ، وأزاله عن الصَّوابِ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٤).

وأصلُ (خفف): يدُلُّ على خِلافِ الثِّقَلِ والرَّزانةِ[١].

﴿ءَاسَفُونَا﴾: أي أغضَبونا، والأَسَفُ يكونُ على وَجهَينِ: الغَضَبِ، والحُزنِ، وأصلُ (أسف): يدُلُّ على الفَوتِ والتَّلَهُّفِ وما أشْبَهَ ذلك[٢].

﴿سَلَفًا﴾: أي: مُتَقَدِّمينَ لِيَتَّعِظَ بهم الآخِرونَ، جَمعُ سالفٍ، مِثْلُ: حارِسٍ وحَرَسٍ، يُقالُ: سَلَفَ يَسلُفُ: إذا تقَدَّم ومَضى، وأصلُ (سلف): يدُلُّ على تقَدُّمٍ وسَبْقٍ[٣].

﴿وَمَثَلًا﴾: أي: عِبرةً وعِظةً تجري مَجرى المَثَلِ لِمَن بَقِيَ بَعْدَهم، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ * أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]

في ﴿أَمۡ﴾ هنا أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّها «أم» المُنقَطِعةُ المقدَّرةُ بـ «بل» للإضرابِ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢١٨).

الانتِقاليِّ، والهَمزةِ الَّتي للإنكارِ أو للتَّقريرِ، أي: بل أأنا خَيرٌ. الثَّاني: أنَّها بمعنى «بل» فقط، أي: بلْ أنا خيرٌ، فيكونُ قد انتَقَل مِن ذلك الكَلامِ إلى إخبارِه بأنَّه خَيرٌ. الثَّالثُ: أنَّها مُتَّصِلةٌ، والمُعادِلُ محذوفٌ تقديرُه: «أم تُبصِرونَ»؛ لأنَّ المعنى: أفلا تُبصِرونَ أم تُبصِرونَ، إلَّا أنَّه وَضَع قَولَه: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ﴾ مَوضِعَ «أم تُبصِرونَ»؛ لأنَّهم إذا قالوا له: أنت خيرٌ، فهم عندَه بُصَراءُ، وهذا مِن إنزالِ السَّبَبِ مَنزِلةَ المُسَبَّبِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن طُغيانِ فِرعونَ وغُرورِه وعِنادِه، واستِخفافِه بعقولِ قَومِه، فيقولُ: ونادى فِرعَونُ في قَومِه فقال: يا قَومِ أليس لي مُلكُ مِصرَ، وهذه الأنهارُ تجري بيْنَ يَدَيَّ في بَساتيني وقُصوري، أفلا تُبصِرونَ؟! بل أنا خيرٌ مِن هذا الَّذي هو ضَعيفٌ ذليلٌ، ولا يَكادُ يُفهَمُ كلامُه؛ لقِلَّةِ فَصاحتِه! فهلَّا أُلقِيَت عليه أساوِرُ مِن ذَهَبٍ، أو جاء معه الملائِكةُ مُؤيِّدينَ له!

فحَمَل فِرعَونُ قَومَه على الخِفَّةِ والجَهلِ، فصَدَّقوه وأطاعوه؛ لأنَّهم كانوا قومًا كافِرينَ باللهِ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُبيِّنًا سوءَ عاقِبَتِهم: فلمَّا أغضَبونا انتَقَمْنا منهم، فأغرَقْناهم جميعًا في البَحرِ، فجعَلْناهم متقدِّمينَ في الهلاكِ قُدوةً لِمَن عَمِل بعمَلِهم مِن الكفَّارِ في استِحقاقِ العذابِ، وعِبرةً وعِظةً لِمَن يأتي بعدَهم، فمَن عَمِل بمثلِ عمَلِهم جُوزِيَ بجزائِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٩٧)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٦٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٨٩).

تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كُشِفَ عنهم العَذابُ بدَعوةِ موسى، وأضمَرَ فِرعَونُ ومَلَؤُه نَكْثَ الوَعدِ الَّذي وَعَدوه مُوسى بأنَّهم يَهتَدون؛ خَشِيَ فِرعَونُ أنْ يَتَّبِعَ قَومُه دَعوةَ مُوسَى ويُؤمِنوا برِسالَتِه، فأعلَن في قَومِه تَذكيرَهم بعَظَمةِ نَفْسِه؛ لِيُثَبِّتَهم على طاعتِه، ولِئَلَّا يُنقَلَ إليهم ما سأَله مِن مُوسى، وما حَصَل مِن دَعوتِه بكَشفِ العَذابِ، ولِيَحسَبوا أنَّ ارتِفاعَ العَذابِ أمْرٌ اتِّفاقيٌّ؛ إذ قَومُه لم يَطَّلِعوا على ما دار بيْنَه وبيْنَ مُوسَى مِن سُؤالِ كَشْفِ العَذابِ[1].

﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾.

أي: ونادى فِرعَونُ في قَومِه القِبطِ مُفتَخِرًا مُتبَجِّحًا، فقال: يا قَومِ أليس لي وَحْدي مُلكُ مِصرَ كُلِّها، لا يُنازِعُني أحَدٌ في التَّصَرُّفِ فيها[2]؟!

﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾.

أي: وهذه الأنهارُ المتفَرِّعةُ مِن نَهرِ النِّيلِ تَجري بيْنَ يَدَيَّ في البَساتينِ والقُصورِ وغَيرِها[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).
قال ابنُ عطية: (نِداءُ فِرعَونَ يحتمِلُ أن يكونَ بلِسانِه في ناديه، ويحتمِلُ أن يكونَ بأنْ أمَرَ مَن يُنادي في النَّاسِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٩).
وقال البقاعي: (﴿قَالَ﴾ أي: خَوفًا مِن إيمانِ القِبطِ لَمَّا رأى مِن أنَّ ما شاهَدوا مِن باهِرِ الآياتِ مِثلُه يُزلزِلُ ويأخُذُ بالقُلوبِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

أي: أفلا تُبصِرونَ -يا قَومِ- ما أنا فيه مِنَ المُلْكِ والعَظَمةِ، والقُوَّةِ والنَّعيمِ[(١)]؟!

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان المقصودُ تَصغيرَ شَأنِ موسَى في نُفوسِهم بأشياءَ هي عَوارِضُ ليست مُؤثِّرةً؛ انتَقَل فِرعَونُ مِن تَعظيمِ شأنِ نَفْسِه إلى إظهارِ البَونِ بيْنَه وبيْنَ موسى الَّذي جاء يحَقِّرُ دينَه وعِبادةَ قَومِه إيَّاه، فقال[(٢)]:

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾.

أي: بل أنا خَيرٌ مِن هذا الَّذي هو ضَعيفٌ ذَليلٌ[(٣)].

= (٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(قال الخازن: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ يعني أنهارَ النِّيلِ الكبارَ، وكانت تَجْري تحتَ قصرِه، وقيل: معناه: تَجْري بينَ يديْ جِناني وبَساتيني، وقيل: تجري بأمري). ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١١ - ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠، ٢٣١).

ممَّن اختار أنَّ (أمْ) هنا بمعنى (بلْ): ابنُ أبي زَمَنين، والواحدي، والبغوي -ونسَبَه لأكثَرِ المفسِّرينَ-، والرَّسْعَنيُّ، والخازن، وأبو حيَّان، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٠). =

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾.

أي: ولا يَكادُ يُعرِبُ عمَّا يُريدُ بوُضوحٍ؛ لِعِيِّ مَنطِقِه، وقِلَّةِ فَصاحتِه[1]!

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا تضَمَّن وصْفُ فِرعَونَ لِموسى بـ﴿مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أنَّه مُكَذِّبٌ له

= قال ابن عاشور: (﴿أَمْ﴾ مُنقطِعةٌ بمعنَى «بل» لِلإضرابِ الانتِقاليِّ، والتَّقديرُ: بل أأنا خَيرٌ، والاستِفهامُ اللَّازِمُ تقديرُه بعدَها تقريريٌّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠).

وقال الرَّسْعَني: (كأنَّه لَمَّا عَدَّد عليهم أسبابَ فَضلِه قال: قد تقَرَّر عِندَكم أنِّي أنا خيرٌ مِن هذا الَّذي هو مَهينٌ... وقيل: هي متَّصِلةٌ؛ لأنَّ المعنى: أفلا تُبصِرونَ أم تُبصِرونَ، إلَّا أنَّه وَضَع قَولَه تعالى: ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ مَوضِعَ «تُبصِرونَ»؛ لأنَّهم إذا قالوا له: أنت خيرٌ، فهُم عِندَه بُصَراءُ. وهذا الوَجهُ حكاه الزَّجَّاجُ عن الخَليلِ وسِيبَوَيْه. وقال الفَرَّاءُ وجماعةٌ مِن أهلِ المعاني: الوَقفُ على قَولِه: ﴿أَمْ﴾، وفيه إضمارٌ مَجازُه: أفلا تُبصِرونَ أمْ تُبصِرونَ؟! ثمَّ ابتدأ فقال: «أنا خَيرٌ مِن هذا الَّذي هو مَهينٌ»). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٣٢).

قيل: عنى بقَولِه: ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ مِن هذا الَّذي هو ضَعيفٌ؛ لِقِلَّةِ مالِه، وأنَّه ليس له مِنَ المُلكِ والسُّلطانِ مِثلُ ما له. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٣).

وقيل: أراد أنَّه غَريبٌ ليس مِن أهلِ بُيوتِ الشَّرَفِ في مِصرَ، وليس له أهلٌ يَعتَزُّ بهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١١، ٦١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

قال ابنُ الجوزي: (قَولُه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أشار إلى عُقدةِ لِسانِه الَّتي كانت به ثمَّ أذهَبَها اللهُ عنه، فكأنَّه عيَّرَه بشَيءٍ قد كان وزال، ويدُلُّ على زوالِه قَولُه تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، وكان في سؤالِه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ [طه: ٢٧]). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٠).

وقال ابنُ جُزَي: (وقَولُه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يَقتَضي أنَّه كان يُبِينُ؛ لأنَّ كاد إذا نُفِيَت تَقتضي الإثباتَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦١).

دَعواه الرِّسالةَ عن الله؛ فرَّعَ عليه قولَه: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾؛ ترَقِّيًا في إحالةِ كَونِه رَسولًا مِن اللهِ، يُخَيِّلُ لِقَومِه -جَهلًا أو تَجاهُلًا- أنَّ للرِّسالةِ شِعارًا كشِعارِ المُلوكِ[1]!

﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾.

أي: فهَلَّا أُلقِيَت على موسى -إن كان رَسولًا مِن رَبِّ العالَمينَ كما يَزعُمُ- أساوِرُ مِن ذَهَبٍ يَتحَلَّى بلُبسِها في يَدَيه[2]!

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾.

أي: أو هلَّا جاء الملائِكةُ مُتتابِعينَ قد اقتَرن بعضُهم ببعضٍ، يَشهَدون لموسَى بصِدقِه، ويُعِينونَه على أمرِه[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢).

قال البقاعي: (لِيَكونَ ذلك أمارةً على صِدقِ صِحَّةِ دَعواه، كما نَفعلُ نحن عندَ إنعامِنا على أحدٍ مِن عَبيدِنا بالإرسالِ إلى ناحيةٍ مِن النَّواحي لِمُهِمٍّ مِن المهِمَّاتِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٤٩).

وقال الثعلبي: (قال مجاهدٌ: كانوا إذا سَوَّدوا رَجُلًا سَوَّروه بسِوارٍ، وطَوَّقوه بطَوقٍ مِن ذَهَبٍ؛ يكونُ ذلك دَلالةً لسيادتِه، وعلامةً لرئاستِه). ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٩).

وقال ابن عاشور: (السِّوارُ: حَلْقةٌ عَريضةٌ مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ تُحيطُ بالرُّسْغِ، هو عندَ مُعظَمِ الأُمَمِ مِن حِليةِ النِّساءِ الحرائرِ... وكان السِّوارُ مِن شِعارِ الملوكِ بفارِسَ ومِصرَ، يَلبَسُ المَلِكُ سِوارَينِ، وقد كان مِن شِعارِ الفراعنةِ لُبسُ سِوارَينِ أو أَسورةٍ مِن ذَهَبٍ، ورُبَّما جَعَلوا سِوارَينِ على الرُّسغَينِ، وآخَرَينِ على العَضُدَينِ، فلمَّا تخيَّل فِرعَونُ أنَّ رُتبةَ الرِّسالةِ مِثلُ المُلْكِ، حَسِبَ افتقادَها -وهو مِن شِعارِ الملوكِ عِندَهم- أمارةً على انتِفاءِ الرِّسالةِ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧). =

﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤ ﴾.

﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾.

= قال الماوَرْدي: (﴿مُقۡتَرِنِينَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: مُتتابِعينَ، قاله قَتادةُ. الثَّاني: يُقارِنُ بعضُهم بعضًا في المَعونةِ، قاله السُّدِّيُّ. الثَّالثُ: ﴿مُقۡتَرِنِينَ﴾ أي: يَمشُون معًا، قاله مجاهِدٌ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٣١)

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى ﴿مُقۡتَرِنِينَ﴾ أي: مُتتابِعينَ يَتْلو بعضُهم بعضًا: الهَرَوي، والسَّمْعاني. يُنظر: ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٥٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: مُتتابِعينَ، يُقارِنُ بعضُهم بعضًا، يُعينوه على أمرِه الَّذي بُعِث له، ويَشْهَدون له بصِدْقِه: ابنُ جرير، والبغوي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤١).

وقال الزَّجَّاج: (﴿مُقۡتَرِنِينَ﴾ أي: يَمشون معه فيَدُلُّونَ على صِحَّةِ نُبُوَّتِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤١٥).

قال الواحدي معقِّبًا على قولِ الزَّجاجِ: (وقد جمَع بيْن هذه الأقوالِ كلِّها؛ لأنَّه فسَّر الاقترانَ ومُوجبَه). ((البسيط)) (٢٠/ ٦٠).

وقال البقاعي: (﴿مُقۡتَرِنِينَ﴾ أي: يُقارِنُ بَعضُهم بَعضًا بحيثُ يَملؤونَ الفَضاءَ، ويكونونَ في غايةِ القُربِ منه، بحيث يكونُ مُقارِنًا لهم؛ لِيُجابَ إلى هذا الأمرِ الَّذي جاء يَطلُبُه، كما نفعلُ نحن إذا أرسَلْنا رَسولًا إلى أمرٍ يَحتاجُ إلى دِفاعٍ وخِصامٍ ونِزاعٍ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٤٩، ٤٥٠).

وقال ابن جُزَي: (﴿مُقۡتَرِنِينَ﴾ أي: مُقتَرِنينَ به لا يُفارِقونَه، أو مُتقارِنينَ بعضُهم مع بعضٍ؛ لِيَشهَدوا له، ويُقيموا الحُجَّةَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦١).

وقال القرطبي: (المعنى: هلَّا ضَمَّ إليه الملائِكةَ الَّتي يزعُمُ أنَّها عندَ رَبِّه؛ حتَّى يَتكثَّرَ بهم، ويُصَرِّفَهم على أمرِه ونَهْيِه، فيَكونَ ذلك أهْيَبَ في القُلوبِ!). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٠).

وقال ابن عاشور: (﴿مُقۡتَرِنِينَ﴾ حالٌ مِن الملائكةِ، أي: مُقترِنينَ معه؛ فهذه الحالُ مُؤكِّدةٌ لِمَعنى ﴿مَعَهُۥ﴾؛ لئلَّا يُحمَلَ معنى المعيَّةِ على إرادةِ أنَّ الملائكةَ تُؤيِّدُه بالقولِ، مِن قولِهم: قرَنْتُه به فاقتَرَنَ، أي: مُقترِنينَ بمُوسى، وهو اقترانُ النَّصيرِ لِنَصيرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٣).

أي: فاستَخَفَّ فِرعَونُ عُقولَ قَومِه، فصدَّقوا باطِلَه وشُبَهَه، واستَجابوا له[١]!

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

أي: لأنَّهم كانوا قَومًا كافِرينَ باللهِ تعالى، خارِجينَ عن طاعتِه، خَذَلهم اللهُ فأطاعوا فِرعَونَ حيثُ زَيَّن لهم الشَّرَّ[٢].

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه عقَّب ما مضَى مِن القِصَّةِ بالمقصودِ، وهو هذه الأمورُ الثَّلاثةُ المترتِّبةُ المتفَرِّعُ بَعضُها على بَعضٍ؛ وهي: الانتِقامُ، فالإغراقُ، فالاعتِبارُ بهم في الأُمَمِ بَعْدَهم[٣].

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

قال ابن عطيَّة: (أخبر تعالى عن فِرعَونَ أنَّه استخفَّ قَومَه بهذه المَقالةِ، أي: طلَب خِفَّتَهم وإجابتَهم إلى غرَضِه، فأجابوه إلى ذلك وأطاعوه في الكفرِ؛ لِفِسْقِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٠).

وقال السعدي: (﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: استَخَفَّ عُقولَهم بما أبدى لهم مِن هذه الشُّبَهِ الَّتي لا تُسمِنُ ولا تُغْني مِن جوعٍ، ولا حقيقةَ تحتَها، وليست دليلًا على حَقٍّ ولا على باطِلٍ، ولا تَرُوجُ إلَّا على ضُعَفاءِ العُقولِ! فأيُّ دَليلٍ يدُلُّ على أنَّ فِرعَونَ مُحِقٌّ لِكَونِ مُلكِ مِصرَ له، وأنهارِه تجري مِن تحتِه؟! وأيُّ دليلٍ يدُلُّ على بُطلانِ ما جاء به موسى لِقِلَّةِ أتْباعِه، وثِقلِ لِسانِه، وعدَمِ تَحليةِ الله له؟! ولكِنَّه لَقِيَ مَلأً لا عُقُولَ عندَهم، فمهما قال اتَّبَعوه؛ مِن حَقٍّ وباطِلٍ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٠، ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٤).

أي: فلمَّا أغضَبَنا فِرعَونُ وقومُه أوقَعْنا بهم عُقوبَتَنا العاجِلةَ في الدُّنيا[١].

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: فأغرَقْناهم جميعًا في البَحرِ، فلم نُنْجِ منهم أحَدًا[٢].

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۝٥٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان إهلاكُهم بسَبَبِ إغضابِهم لله تعالى، وبالكِبْرِ على رُسُلِه؛ كانوا سَبَبًا لِأنْ يَتَّعِظَ بحالِهم مَن يأتي بَعْدَهم[٣].

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۝٥٦﴾.

أي: فجعَلْناهم متقدِّمينَ في الهلاكِ، قُدوةً لِمَن عَمِل بعمَلِهم مِن الكفَّارِ في استِحقاقِ العذابِ، وعِبرةً وعِظَةً لِمَن يأتي بعدَهم، فمَن عَمِل بمِثلِ عمَلِهم جُوزِيَ بجزائِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٧، ٦١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٢).

قال ابن عطية: (﴿ءَاسَفُونَا﴾ معناه: أغضَبونا، بلا خِلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٧، ٦١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٢).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٢، ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٥).

قال النَّحَّاسُ: (وقولُه جلَّ وعزَّ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ قال لاحِقُ بنُ حُمَيْدٍ: أي: جعَلْناهم سَلَفًا لِمَن عَمِل بعمَلِهم، ومَثَلًا لِمَن لم يَعمَلْ بعمَلِهم. وقال مجاهِدٌ: هم قومُ فِرعونَ، =

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥، ٢٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تعزَّز فِرعَونُ بمُلكِ مِصرَ، وجَرْيِ النِّيلِ بأمْرِه -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وكان في ذلك هَلاكُه؛ لِيُعلَمَ أنَّه قد يَتعزَّزُ المرءُ بشَيءٍ مِن دُونِ اللهِ فيَكونُ حَتْفُه وهلاكُه في ذلك الشَّيءِ[1]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ استصغَرَ فِرعَونُ موسى

= سلَفٌ لِكُفَّارِ أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: عِبْرةً. وقال قَتادةُ: ﴿سَلَفًا﴾ إلى النَّارِ ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: عِظَةً... قال أبو جعفرٍ [النَّحَّاسُ]: هذه الأقوالُ مُتقارِبةٌ). ((معاني القرآن)) (٦/ ٣٧٣، ٣٧٤).

وقال الرَّسْعَني: (﴿وَمَثَلًا﴾ عِبرةً لهم. وقيل: «مَثَلًا»: حديثًا عجيبَ الشأنِ، يَجري فيهم مَجرَى المثَلِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٣٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ؛ أنَّ (مَثَلًا) أي: عِبرةً وعِظةً: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، والواحدي، والبغوي، والرازي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٥).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ؛ أي: حديثًا عجيبَ الشَّأنِ، يَجري فيهم مجرَى المثَلِ: الزمخشريُّ، والنسفي، وأبو حيَّان، وهو ظاهرُ اختيارِ البِقاعي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٧٠).

وحديثَه، وعابه بالفَقرِ والعِيِّ؛ فسَلَّطَه الله عليه، وكان هَلاكُه بيَدَيه، فلا يَستصغِرْ أحدٌ أحدًا فيُسَلِّطَه اللهُ عليه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ فيه سُؤالٌ: أليس أنَّ موسى عليه السَّلامُ سأل اللهَ تعالى أن يُزيلَ الرُّتَّةَ[٢] عن لِسانِه، بقَولِه: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه: ٢٧، ٢٨]، فأعطاه اللهُ تعالى ذلك، بقَولِه: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، فكيف عابَه فِرعَونُ بتلك الرُّتَّةِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ فِرعَونُ أراد بقَولِه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾: حُجَّتَه الَّتي تدُلُّ على صِدقِه فيما يَدَّعي، ولم يُرِدْ أنَّه لا قُدرةَ له على الكلامِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه عابَه بما كان عليه أوَّلًا؛ وذلك أنَّ موسى كان عندَ فِرعَونَ زَمانًا طَويلًا، وفي لِسانِه حُبْسةٌ، فنَسَبَه فِرعَونُ إلى ما عَهِدَه عليه مِنَ الرُّتَّةِ؛ لأنَّه لم يَعلَمْ أنَّ اللهَ تعالى أزال ذلك العَيبَ عنه[٣].

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّ فِرعَونَ قد كَذَب في جميعِ قَولِه؛ فقد كان موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أبلَغَ أهلِ زَمانِه قَولًا وفِعلًا، ولكِنَّ الخَبيثَ أسنَدَ هذا إلى ما بَقِيَ في لسانِه مِن الحُبْسةِ؛ تَخييلًا لأتْباعِه؛ لأنَّ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما دعا بإزالةِ حُبْستِه، بل بعُقدةٍ منها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٦٨).

(٢) الرُّتَّةُ: حُبْسةٌ وعُقدةٌ في اللِّسانِ، مع عَجَلةٍ في الكلامِ وقِلَّةِ أناةٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٤/ ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤٨).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ حُجَّةٌ على الجَهميَّةِ فيما يَنفُونَ عن اللهِ تعالى مِن كُلِّ صِفةٍ يُشارِكُه فيها خَلْقُه؛ إذ قد أخبَرَ تعالى عن نَفْسِه أنَّهم قد أغضَبوه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ دَلالةٌ على بُطلانِ تأويلِ الغَضَبِ بالانتِقامِ؛ فإنَّ معنى ﴿ءَاسَفُونَا ﴾: أغضَبونا، فجَعَلَ الانتِقامَ غيرَ الغَضَبِ، فقال: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا ﴾، جعَلَ الانتِقامَ أثَرًا مُترَتِّبًا على الغَضَبِ؛ فدلَّ هذا على بُطلانِ تفسيرِ الغَضَبِ بالانتِقامِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ إثباتُ الأسبابِ[٣].

٥- المَقصودُ مِن قِصَّةِ مُوسَى عليه السَّلامُ هو قَولُه فيها: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۞فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾[الزخرف: ٥٥، ٥٦]؛ فإنَّ المُرادَ بـ(الآخِرين): المُكَذِّبون صَناديدُ قُرَيشٍ، و(مِن) المَقصودُ منها بالخُصوصِ هنا قَولُه: ﴿وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ [الزخرف: ٤٦]، أي: عُظماءِ قَومِه؛ فإنَّ ذلك شَبيهٌ بحَالِ أبي جَهلٍ وأَضرابِه، وقَولُه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٧]؛ لأنَّ حالَهُم في ذلك مُشابِهٌ لحالِ قُرَيشٍ، وقَولُه بعْدَ ذلك: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ [الزخرف: ٥٢]؛ لأنَّهُم أشبَهُوا بذلك حالَ أبي جَهلٍ ونَحوِه في قَولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ إلَّا أنَّ كَلِمةَ سادَةِ قُرَيشٍ كانتْ أقرَبَ إلى الأدَبِ مِن كَلِمةِ فِرعَونَ؛ لأنَّ هَؤلاءِ كان رَسولُهم مِن قَومِهم، فلم يَترُكوا جانِبَ الحَياءِ بالمَرَّةِ، وفِرعَونُ كان رَسولُه غَريبًا عنهم، وقَولُه: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).

ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٣]؛ لأنَّه مُشابِهٌ لِمَا تَضَمَّنَه قولُ صَناديدِ قُرَيشٍ: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ فإنَّ عَظَمةَ ذَيْنِكَ الرَّجُلَينِ كانتْ بوَفرةِ المالِ؛ ولذلك لم يُذكَرْ مِثلُه في غَيرِ هذه القِصَّةِ مِن قَصَصِ بَعثةِ مُوسَى عليه السَّلامُ، وقولُهم: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف: ٤٩]، وهو مُضاهٍ لقَولِه في قُرَيشٍ: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠]، وقولُه: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥] الدَّالُّ على أنَّ اللهَ أهلَكَهم كُلَّهُم، وذلك إنذارٌ بما حَصَل مِنِ استِئصالِ صَناديدِ قُرَيشٍ يومَ بَدرٍ؛ فحَصَل مِن العِبرةِ في هذه القِصَّةِ أمْرانِ؛ أحَدُهما: أنَّ الكُفَّارَ والجَهَلةَ يَتمسَّكُون بمِثلِ هذه الشُّبهةِ في ردِّ فَضلِ الفُضَلاءِ؛ فيَتمسَّكون بخُيوطِ العَنكَبوتِ مِن الأُمورِ العَرَضيَّةِ الَّتي لا أثَرَ لها في قِيمةِ النُّفوسِ الزَّكيَّةِ. وثانيهما: أنَّ فِرعَونَ صاحِبَ العَظَمةِ الدُّنيَويَّةِ المَحضَةِ صار مَقهورًا مَغلوبًا، انتَصَر عليه الَّذي استَضْعَفَه[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ جَعَلهم مَحِلًّا لِندائِه ومَوقِعًا له، والمَعنَى: أنَّه أمَرَ بالنِّداءِ في مَجامِعِهم وأماكِنِهم مَن نَادَى فيها بذلك؛ فأُسنِدَ النِّداءُ إليه؛ كقَولِكَ: قَطَع الأَميرُ اللِّصَّ؛ إذا أمَر بقَطعِه. ويَجوزُ أنْ يَكونَ عِندَه عُظَماءُ القِبطِ، فيَرفَعُ صَوتَه بذلك فيما بيْنَهم، ثمَّ يُنشَرُ عنه في جُموعِ القِبطِ، فكَأنَّه نُودِيَ به بيْنَهم، فقال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٤، ٩٦).

- قولُه: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الإشارةُ إلى جَداولِ النِّيلِ وفُروعِه المشهورةِ بيْنَ أهلِ المدينةِ؛ كأنَّها مُشاهَدةٌ لِعُيونِهم(١).

- ومعنى قَولِه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ يَحتَمِلُ أنَّ الأنهارَ كانت تَجري تَحتَ قَصرِه. ويحتمِلُ أنْ يَكونَ ادَّعَى أنَّ النِّيلَ يَجري بأمْرِه؛ فيَكونَ ﴿مِن تَحۡتِيٓ﴾ كِنايةً عن التَّسخيرِ. ويحتمِلُ أنَّه أراد أنَّ النِّيلَ يَجري في مَملَكَتِه مِن بِلادِ أُسوانَ إلى البَحرِ؛ فيَكونَ المرادُ التَّمَكُّنَ مِن تَصاريفِ النِّيلِ، وكان مِثلُ هذا الكَلامِ يَروجُ على الدَّهماءِ؛ لِسَذاجةِ عُقولِهِم. ويَجوزُ أن يَكونَ المُرادُ بالأنهارِ مَصَبَّ المِياهِ الَّتي كانت تَسقِي المَدينةَ والبَساتينَ الَّتي حَوْلَها، وأنَّ تَوزيعَ المِياهِ كان بأمْرِه في سِدَادٍ وخَزَّاناتٍ؛ فهو يُهَوِّلُ عليهم بأنَّه إذا شاء قَطَع عنهم الماءَ، فيَكونَ معنى ﴿مِن تَحۡتِيٓ﴾: مِن تَحتِ أَمرِي، أي: لا تَجرِي إلَّا بأَمرِي(٢).

- والاستِفهامُ في ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ تَقريرِيٌّ؛ جاء التَّقريرُ على النَّفيِ؛ تَحقيقًا لإقرارِهِم حتَّى أنَّ المُقَرِّرَ يَفرِضُ لهم الإنكارَ؛ فلا يُنكِرون، وهو يُرِيدُ بذلك استِعظامَ مُلكِه(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ﴾ قال فِرعونُ ذلك تَعريضًا بمُوسى عليه السَّلامُ، ومُبالَغةً في التَّعييرِ بأنَّه ليس معه مِن العُدَدِ وآلاتِ المُلكِ والسِّياسةِ ما يَعتَضِدُ به(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير أبي =

- والإشارَةُ بقَولِه: ﴿هَٰذَا﴾ للتَّحقيرِ[١].

- وجاء بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾؛ لادِّعاءِ أنَّ مَضمونَ الصِّلةِ شَيءٌ عُرِفَ به مُوسَى[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾

- لَمَّا وَصَف نَفْسَه بالعِزَّةِ والمُلكِ، ووازَنَ بيْنَه وبيْنَ موسى عليه السَّلامُ؛ فوَصَفَه بالضَّعفِ وقِلَّةِ الأَعضادِ مِن المَلائكةِ؛ اعتَرَض فقال: هَلَّا إنْ كان صادِقًا مَلَّكَه رَبُّه وسَوَّدَه وسَوَّرَه، وجَعَلَ المَلائكةَ أَعضادَهُ وأنصارَه[٣]!

- و(لَولَا) حَرفُ تَحضيضٍ مُستَعمَلٌ في التَّعجيزِ[٤].

- قَولُه: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ﴾ الإلقاءُ: الرَّميُ، وهو مُستَعمَلٌ هنا في الإنزالِ، أي: هلَّا أُلقِيَ عليه مِن السَّماءِ أَساوِرةٌ مِن ذَهَبٍ، أي: سَوَّرَه الرَّبُّ بها؛ لِيَجعَلَه مَلِكًا على الأُمَّةِ[٥].

- قولُه: ﴿أَوْ جَآءَ﴾ حَرفُ (أو) للتَّرديدِ، أي: إنْ لم تُلْقَ عليه أَساوِرةٌ مِن ذَهَبٍ، فلْتَجِئْ معه طَوائِفُ مِن المَلائكةِ شاهِدِينَ له بالرِّسالةِ، ولَعَلَّ فِرعَونَ ذَكَرَ المَلائكةَ مُجاراةً لمُوسى عليه السَّلامُ؛ إذ لَعَلَّه سَمِعَ منه أنَّ لِلَّهِ مَلائكةً أو نحوَ ذلك في مَقامِ الدَّعوةِ؛ فأراد إفحامَه بأنْ يأتيَ معه بالملائكةِ الَّذين

= حيان)) (٩/ ٣٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠، ٢٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَظهَرون له[١]. ولا مانعَ أن يكونَ ذلك معلومًا عندَهم، كما قال مَن قبْلَهم مِن نساءِ القِبطِ في يوسفَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: فتَفَرَّعَ عن نِداءِ فِرعَونَ قَومَه أنْ أَثَّرَ بتَمويهِه في نُفوسِ مَلَئِه؛ فعَجَّلوا بطاعَتِه بعْدَ أنْ كانوا مُتَهَيِّئِينَ لاتِّباعِ مُوسَى لَمَّا رَأَوُا الآياتِ؛ فالخِفَّةُ مُعَبَّرٌ بها هنا عن الانتِقالِ مِن حالةِ التَّأمُّلِ في خَلْعِ طاعةِ فِرعَونَ، والتَّثاقُلِ في اتِّباعِه، إلى التَّعجيلِ بالامتِثالِ له، كما يَخِفُّ الشَّيءُ بعدَ التَّثاقُلِ، والمعنَى يَرجِعُ إلى أنَّه استَخَفَّ عُقولَهم، فأسرَعوا إلى التَّصديقِ بما قالَه بعْدَ أنْ صدَّقُوا موسى في نُفوسِهم لَمَّا رَأَوْا آياتِه نُزولًا ورَفْعًا[٢].

- والسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ﴾ للمُبالَغةِ في (أخَفَّ)، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[٣] [آل عمران: ١٥٥].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ في مَوضِعِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾؛ فإنَّ كَونَهم قد كانوا فاسِقينَ أمْرٌ بَيِّنٌ؛ ضَرورةَ أنَّ موسى عليه السَّلامُ جاءَهم فدَعاهُم إلى تَركِ ما كانوا عليه مِن عِبادةِ الأصنامِ، فلا يَقتَضي في المَقامِ تأكيدُ كَونِهم فاسِقينَ، أي: كافِرين. والمعنَى: أنَّهم إنَّما خَفُّوا لِطاعةِ رَأسِ الكُفرِ؛ لِقُربِ عَهدِهم بالكُفرِ؛ لأنَّهم كانوا يُؤَلِّهُون فِرعَونَ، فلمَّا حَصَل لهم تَرَدُّدٌ في شأنِه ببَعثةِ موسى عليه السَّلامُ، لم يَلبَثُوا أنْ رَجَعوا إلى طاعةِ فِرعَونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بأدنَى سَبَبٍ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۞فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾

- في قَولِه: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ إيجازٌ؛ لأنَّ كَونَهُم مُؤسِفينَ لم يَتقَدَّمْ له ذِكرٌ حتَّى يُبنَى أنَّه كان سببًا للانتِقامِ منهم؛ فدلَّ إناطةُ أداةِ التَّوقيتِ به على أنَّه قد حَصَل، والتَّقديرُ: فآسَفُونا، فلمَّا آسَفُونا انتَقَمْنا منهم[٢].

- وإنَّما عُطِفَ ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ بالفاءِ على ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾، مع أنَّ إغراقَهم هو عَينُ الانتِقامِ منهم؛ إمَّا لأنَّ فِعلَ (انتَقَمْنا) مُؤَوَّلٌ بـ: قدَّرْنا الانتِقامَ منهم؛ فيَكون عَطفُ ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ بالفاءِ كالعَطفِ في قَولِه: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]. وإمَّا أن تُجعلَ الفاءُ زائِدةً؛ لتَأكيدِ تَسَبُّبِ ﴿ءَاسَفُونَا ﴾ في الإغراقِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ المَثَلُ: النَّظيرُ والمُشابِهُ، وأُطلِقَ المَثَلُ على لازِمِه على سَبيلِ الكِنايةِ، أي: جَعَلْناهُم عِبرةً للآخِرينَ؛ يَعلَمون أنَّهُم إنْ عَمِلوا مِثلَ عَمَلِهم أصابَهم مِثلُ ما أصابَهُم. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَثَلُ هنا بمَعنَى الحَديثِ العَجيبِ الشَّأنِ الَّذي يَسيرُ بيْنَ النَّاسِ مَسِيرَ الأَمثالِ، أي: جَعَلْناهُم للآخِرينَ حَديثًا يَتَحَدَّثون به، ويَعِظُهُم به مُحَدِّثُهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٥). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٥٤-٦٧).

الآيات (٥٧-٦٥)

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ٥٨ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ٦٠ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٢ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَصِدُّونَ﴾: أي: يَضِجُّونَ، وقيل: يَضْحَكون، يُقالُ: صَدَّ يَصِدُّ، وذلك إذا ضَجَّ[(١)].

﴿خَصِمُونَ﴾: أي: شَدِيدو الخُصومةِ، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على المُنازَعةِ[(٢)].

﴿يَخْلُفُونَ﴾: أي: يَخلُفُ بَعضُهم بعضًا، ويَعمُرونَ الأرضَ بدَلًا منكم، وأصلُ (خلف): يدُلُّ على مَجيءِ شَيءٍ بعدَ شَيءٍ يقومُ مَقامَه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((البسيط)) =

﴿لَعِلْمٌ﴾: أي: لَعَلامةٌ ودَليلٌ، وأصلُ (علم): يدُلُّ على أثَرٍ بالشَّيءِ يتمَيَّزُ به عن غَيرِه[١].

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾: أي: لا تُكَذِّبوا بها، ولا تَشُكُّوا فيها، مِن المِرْيةِ: وهي التَّردُّدُ في الأمرِ، وهو أخَصُّ مِنَ الشَّكِّ، وأصلُه مِن: مَرَيْتُ النَّاقةَ: إذا مَسَحْتَ ضَرعَها للحَلبِ[٢].

﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾: أي: الطَّوائِفُ والفِرَقُ، والحِزبُ: الجماعةُ مِن النَّاسِ، أو: جماعةٌ فيها غِلَظٌ، والطَّائفةُ مِن كلِّ شيءٍ حزبٌ، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُخبِرًا عن تَعَنُّتِ المشركينَ، وتَعَمُّدِهم العِنادَ والجدلَ: ولَمَّا ضَرَبَ المُشرِكونَ عيسى ابنَ مريمَ مَثَلًا لآلهتِهم الَّتي يَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ تعالى، وجادَلوا بعبادةِ النَّصارى إيَّاه؛ إذا قَومُك -يا مُحمَّدُ- تَرتَفِعُ لهم جَلَبَةٌ وضَجيجٌ؛ فَرَحًا وضَحِكًا؛ لِظَنِّهم بأنَّهم قد ألزَموك بحُجَّتِهم الواهيةِ! وقالوا: لقد أخبَرْتَنا بأنَّ عيسى بنَ مَريمَ رَسولٌ مِن رُسُلِ اللهِ، وأنَّه خَيرٌ مِن آلهتِنا، فإنْ كان في النَّارِ يومَ القيامةِ؛ لِما تَتْلوه علينا مِن قَولِ رَبِّك: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن

= للواحدي (٢٠/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٠، ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٠).

دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]؛ فقد رَضِينا أن نكونَ نحن وآلهتُنا في النَّارِ معه!

فلا تهتَمَّ -يا مُحمَّدُ- بما قالوه؛ فما ضَرَبوا لك هذا المَثَلَ بعيسى إلَّا مِن أجْلِ مُجادَلَتِك بالباطِلِ، بل هم قَومٌ شَدِيدو الخُصومةِ والجِدالِ بالباطِلِ، لا يُريدونَ الحَقَّ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حقيقةَ عيسى عليه السَّلامُ، فيقولُ: ما عيسى إلَّا عَبدٌ مِن عِبادِنا أنعَمْنا عليه بنِعمةِ النُّبُوَّةِ، وجعَلْناه آيةً عَجيبةً لبني إسرائيلَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا كمالَ قدرتِه: ولو نشاءُ لَجعَلْنا منكم مَلائِكةً يَخلُفونَ فيها، وإنَّ نُزولَ عيسى ابنِ مَريمَ في آخِرِ الزَّمانِ لَعَلامةٌ على قُربِ مَجيءِ السَّاعةِ؛ فلا تَشُكُّوا -أيُّها النَّاسُ- في مجيءِ القيامةِ، وأطيعوني؛ فهذا الَّذي أدعوكم إليه طَريقٌ مُستقيمٌ مُوصِلٌ إلى الحَقِّ، ولا يَصرِفَنَّكم الشَّيطانُ عن هذا الصِّراطِ المُستَقيمِ؛ إنَّ الشَّيطانَ لكم عَدُوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ.

ثمَّ يَحكي الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ عيسى عليه السَّلامُ معَ قَومِه، فيقولُ: ولَمَّا جاء عيسى بالدَّلائِلِ على صِدقِه قال: قد جِئتُكم بالحِكمةِ، ولِأُبَيِّنَ لكم بعضَ الَّذي تَختَلِفونَ فيه، فاتَّقوا اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نَواهيه، إنَّ اللهَ رَبِّي ورَبُّكم فاعبُدوه وَحْدَه، هذا طَريقٌ مُستَقيمٌ لا اعوِجاجَ فيه.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى موقفَ أهلِ الكتابِ مِن دعوةِ عيسَى عليه السَّلامُ، فيقولُ: فاختَلَفَت فِرَقُ اليَهودِ والنَّصارى في عيسى؛ فكَفَر به اليَهودُ، وغلا فيه النَّصارى، فوَيلٌ لأولئك الكُفَّارِ المُختَلِفينَ في شأنِ عيسى مِن عَذابِ يَومِ القيامةِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ أنواعًا كثيرةً مِن كُفْريَّاتِ المُشرِكينَ في هذه السُّورةِ، وأجاب عنها بالوُجوهِ الكَثيرةِ؛ فأوَّلُها: قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]، وثانيها: قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، وثالثُها: قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، ورابِعُها: قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وخامِسُها: هذه الآيةُ هنا[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى طَرَفًا مِن قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ، ذَكَرَ طَرَفًا مِن قِصَّةِ عيسى عليه السَّلامُ[٢].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لِقُرَيشٍ: يا مَعشَرَ قُرَيشٍ، إنَّه ليس أحَدٌ يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ فيه خَيرٌ -وقد عَلِمَتْ قُرَيشٌ أنَّ النَّصارى تَعبُدُ عيسى بنَ مَريمَ، وما تَقولُ في مُحمَّدٍ[٣]-، فقالوا: يا محمَّدُ، ألَسْتَ تَزعُمُ أنَّ عيسى كان نبيًّا وعَبدًا مِن عِبادِ اللهِ صالِحًا؟! فلَئِنْ كُنتَ صادِقًا فإنَّ آلهتَهم لَكَما تقولونَ! قال: فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٤).

(٣) أي: وما تقولُ النَّصارى في محمَّدٍ مِن عدَمِ تصديقِهم بنُبوَّتِه. يُنظر: ((الفتح الرباني)) للساعاتي (١٨/ ٢٦٦).

(٤) أخرجه أحمد (٢٩١٨) واللَّفظُ له، والطحاوي في ((شرح مُشْكِل الآثار)) (٩٨٧)، والطبراني (١٢/ ١٥٤) (١٢٧٤٠). =

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاء عبدُ اللهِ بنُ الزِّبَعْرَى إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: يا مُحمَّدُ، تَزعُمُ أنَّ اللهَ أنزل عليك هذه الآيةَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فقد عُبِدَت الشَّمسُ والقَمَرُ، والملائكةُ وعُزَيرٌ وعيسى صلواتُ اللهِ عليهم، أوَكُلُّ هؤلاء في النَّارِ مع آلهتِنا؟! فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ونَزَلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾))[1].

= صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٣٢٩)، وحَسَّن إسنادَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٢٠٨)، وشُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ٨٦).

(١) أخرجه الطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٩٨٨) واللَّفظ له، والطبراني (١٢/ ١٥٣) (١٢٧٣٩)، والحاكم (٣٤٤٩).

صَحَّح إسنادَه الحاكمُ، وابنُ القَيِّم في ((شفاء العليل)) (١/ ١٢٣)، وحَسَّن الحديثَ ابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (٢/ ١٧٣)، وقوَّى إسنادَه شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((شرح مشكل الآثار)) (٩٨٨).

قال ابنُ عاشور: (لا يُناكِدُ هذا الوَجهَ إلَّا ما جرى عليه عَدُّ السُّوَرِ في ترتيبِ النُّزولِ مِن عَدِّ سورةِ الأنبياءِ -الَّتي كانت آيتُها سَبَبَ المُجادَلةِ- مُتأخِّرةً في النُّزولِ عن سُورةِ الزُّخرُفِ، ولعَلَّ تصحيحَ هذا الوَجهِ عِندَهم يَكُرُّ بالإبطالِ على مَن جَعَل سورةَ الأنبياءِ مُتأخِّرةً في النُّزولِ عن سُورةِ الزُّخرُفِ، بل يَجِبُ أن تكونَ سابقةً؛ حتَّى تكونَ هذه الآيةُ مُذَكِّرةً بالقِصَّةِ الَّتي كانت سَبَبَ نُزولِ سورةِ الأنبياءِ، وليس ترتيبُ النُّزولِ بُمتَّفَقٍ عليه، ولا بمُحَقَّقِ السَّنَدِ، فهو يُقبَلُ منه ما لا مُعارِضَ له، على أنَّه قد تَنزِلُ الآيةُ ثمَّ تُلحَقُ بسُورةٍ نَزَلت قبْلَها، فإذا رُجِّحَ أن تكونَ سورةُ الأنبياءِ نزَلَت قبْلَ سُورةِ الزُّخرفِ كان الجَوابُ القاطِعُ لابنِ الزِّبَعْرَى في قَولِه تعالى فيها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]؛ لأنَّه يعني أنَّ عَدَمَ شُمولِ قَولِه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] لعيسى معلومٌ لِكُلِّ مَن له نظَرٌ وإنصافٌ؛ لأنَّ الحُكمَ فيها إنَّما أُسنِدَ إلى مَعبوداتِ المُشرِكينَ لا إلى معبودِ النَّصارى... ويكونُ الجوابُ المذكورُ هنا في سُورةِ الزُّخرُفِ بقَولِه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ جوابًا =

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكَسرِ الصَّادِ، قيل معناها: يَضِجُّونَ ويَصيحونَ فَرَحًا. وقيل: يَضحَكونَ[(١)].

٢- قِراءةُ ﴿يَصُدُّونَ﴾ بضَمِّ الصَّادِ، قيل معناها: يُعرِضونَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ، وهو: يَضِجُّونَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنى يَضحَكونَ[(٢)].

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧﴾.

أي: ولَمَّا ضَرَبَ المُشرِكونَ عيسى بنَ مَريمَ مَثَلًا للآلهةِ الَّتي تُعبَدُ مِن دُونِ

= إجماليًّا، أي: ما أرادوا به إلَّا التَّمويهَ؛ لأنَّهم لا يخفى عليهم أنَّ آيَةَ سُورةِ الأنبياءِ تُفيدُ أنَّ عيسى ليس حَصَبَ جَهنَّمَ، والمقامُ هنا مقامُ إجمالٍ؛ لأنَّ هذه الآيَةَ إشارةٌ وتذكيرٌ إلى ما سَبَق مِنَ الحادثةِ حينَ نُزولِ آيةِ سُورةِ الأنبياءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٧، ٢٣٨).

(١) قرأ بها ابنُ كثير، وأبو عَمرٍو، وعاصمٌ، وحمزةُ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٢).

قال ابن قتيبة: (﴿إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ يَضِجُّون، يُقالُ: صَدَدتُ أصِدُّ صَدًّا: إذا ضَجَجْتَ. و«التَّصدِيةُ» منه، وهو: التَّصفيقُ). ((غريب القرآن)) (ص: ٤٠٠).

وقال ابن كثير: (قال غيرُ واحدٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، ومُجاهِد، وعِكْرِمة، والضَّحَّاك، والسُّدِّي: يَضحَكونَ، أي: أُعجِبوا بذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (٤/ ٤١٦)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٣).

اللهِ تعالى -حيثُ عَبَده النَّصارى-؛ لِيُحاجُّوا به محمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- الَّذي أخبَرَهم بأنَّ كُلَّ ما عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ فمآلُه النَّارُ: إذا قَومُك -يا محمَّدُ- قد أحدَثوا جَلَبَةً وضَجيجًا وضَحِكًا؛ فَرَحًا وسُرورًا؛ لِظَنِّهم بأنَّهم قد أفحَموك بتلك الشُّبهةِ الباطِلةِ، وأنَّهم ألزَموك بحُجَّتِهم الواهيةِ[1]!

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ٥٨ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ ﴾.

أي: وقال أولئك المُشرِكونَ: أآلهتُنا خيرٌ أمْ عيسَى، فإن كان عيسَى يَدخُلُ النَّارَ فقد رَضِينا أن نكونَ نحن وآلهتُنا معه؛ لأنَّه خيرٌ مِن آلهتِنا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٦-٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٣، ١٢٤).

قال الواحدي: (أكثَرُ المفسِّرينَ على أنَّ هذه الآيةَ نزلَتْ في مُجادَلةِ ابنِ الزِّبَعْرَى مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَمَّا نزَل قولُه تعالى: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] الآيةَ). ((الوسيط)) (٤/ ٧٨).

وقال الشنقيطي: (قال جمهورُ المفسِّرينَ: هو عبدُ اللهِ بنُ الزِّبَعْرَى السَّهْميُّ قبْلَ إسلامِه. أي: ولَمَّا ضَرَب ابنُ الزِّبَعْرَى المذكورُ عيسى بنَ مريمَ، فاجأَك قومُك بالضَّجيجِ والصِّياحِ والضَّحِكِ؛ فَرَحًا منهم، وزعمًا منهم أنَّ ابنَ الزِّبَعْرَى خَصَمَك، أو فاجأَك صُدودُهم عن الإيمانِ؛ بسَبَبِ ذلك المَثَلِ. والظَّاهرُ أنَّ لَفظةَ ﴿مِن﴾ هنا سَبَبِيَّةٌ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٢٣).

قال السمعاني: (وفي الآيةِ قَولٌ آخَرُ: وهو أنَّ النَّبيَّ لَمَّا ذكَرَ حديثَ عيسى لقُرَيشٍ، وأنَّه خلَقَه اللهُ تعالى من غيرِ أبٍ، كما خلَقَ آدمَ مِن غيرِ أبٍ، وذكَرَ ما أظهَرَ اللهُ على يَدِه مِن الآياتِ- جَعَلَت قُرَيشٌ يَضحَكونَ، وقالوا: ما يُريدُ محمَّدٌ مِن ذِكرِ عيسى إلَّا أن نَعبُدَه كما عبَدَت النَّصارى عيسى! وهذا قَولُ مجاهِدٍ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٣). =

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾.

أي: ما ذَكَر لك كُفَّارُ قُرَيشٍ -يا مُحمَّدُ- هذا المَثَلَ بعِيسى وتَشبيهَه بآلهتِهم إلَّا مِن بابِ المُغالَطةِ بالباطِلِ؛ لِقَصدِ مُغالَبتِك[1].

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

أي: هم لا يُريدونَ بجِدالِهم مَعرِفةَ الحَقِّ واتِّباعَه، وإنَّما هم قَومٌ شَديدو الخُصومةِ والجِدالِ بالباطِلِ، فيَرُدُّونَ الحَقَّ مع ظُهورِه لهم، ومَعرِفتِهم بأنَّ ما

= قال الشنقيطي: (زَعَم ابنُ الزِّبَعْرَى أنَّ كَلامَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا اقتضى مُساواةَ الأصنامِ مع عيسى في دُخولِ النَّارِ، مع أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعترِفُ بأنَّ عيسى رسولُ الله، وأنَّه ليس في النَّارِ؛ دَلَّ ذلك على بُطلانِ كَلامِه عندَه). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٢٣، ١٢٤).

وقال أيضًا: (التَّحقيقُ أنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿هُوَ﴾ راجِعٌ إلى عيسى لا إلى محمَّدٍ -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ. قال بعضُ العلماء: ومُرادُهم بالاستفهامِ تَفضيلُ مَعبوداتِهم على عيسى. قيل: لأنَّهم يتَّخِذونَ الملائِكةَ آلهةً، والملائِكةُ أفضَلُ عِندَهم مِن عيسى، وعلى هذا فمُرادُهم أنَّ عيسى عُبِدَ مِن دونِ الله، ولم يكُنْ ذلك سببًا لِكَونِه في النَّارِ، ومَعبوداتُنا خَيرٌ مِن عيسى، فكيف تَزعُمُ أنَّهم في النَّارِ؟! وقال بعضُ العلماء: أرادوا تفضيلَ عيسى على آلهتِهم. والمعنى على هذا: أنَّهم يقولون: عيسى خيرٌ مِن آلهتِنا -أي: في زَعمِك- وأنت تَزعُمُ أنَّه في النَّارِ بمقتضى عُمومِ ما تَتْلوه مِن قَولِه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وعيسى عَبَدَه النَّصارى مِن دونِ اللهِ؛ فدَلالةُ قَولِك على أنَّ عيسى في النَّارِ مع اعتِرافِك بخِلافِ ذلك يدُلُّ على أنَّ ما تقولُه مِن أنَّا وآلهَتَنا في النَّارِ: ليس بحَقٍّ أيضًا!). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٢٦، ١٢٧).

وقيل -بِناءً على القولِ الثَّاني في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ النَّبيَّ لَمَّا ذكر حديثَ عيسى قالوا: ما يُريدُ مُحمَّدٌ مِن ذِكرِ عيسى إلَّا أن نَعبُدَه كما عبَدَتِ النَّصارَى عيسى- قيل: إنَّ معنى ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي: مُحمَّدٌ، فإذا كان مُحمَّدٌ يَطلُبُ أن نَعبُدَه فنحنُ نَعبُدُ آلِهَتنا. فهو سؤالُ تقريرٍ أنَّ آلهتَهم خَيرٌ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٤).

يُظهِرونَه مِن حُجَجٍ مُجَرَّدُ شُبَهٍ باطِلةٍ[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أبغَضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الألَدُّ الخَصِمُ[٢]))[٣].

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩﴾.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾.

أي: ما عيسى إلَّا عَبدٌ مِن عِبادِنا أنعَمْنا عليه بالإيمانِ، والنُّبُوَّةِ والرِّسالةِ، وتأييدِه بالمُعجِزاتِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٧).

(٢) الألَدُّ الخَصِمُ: أي: الشَّديدُ الخُصومةِ، المُولَعُ بها. الألَدُّ: مأخوذٌ مِن لَدِيدَيِ الوادي، وهما جانباه؛ لأنَّه كلَّما احتُجَّ عليه بحُجَّةٍ أخَذ في جانبٍ آخَرَ. والخَصِمُ: هو الحاذقُ بالخُصومةِ، والمذمومُ هو الخُصومةُ بالباطِلِ، في رفْعِ حقٍّ، أو إثباتِ باطِلٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٢١٩)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٤٤٢).

(٣) رواه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٧، ١٢٨).

سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

أي: وجعَلْنا عيسى آيةً ودَلالةً وحُجَّةً لِبَني إسرائيلَ، يَستَدِلُّونَ بخَلْقِه مِن غَيرِ أبٍ على قُدرةِ اللهِ تعالى على خَلْقِ ما يَشاءُ، وليس هو ابنًا للهِ كما تَزعُمُ النَّصارى[1]!

كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أشارت الآيةُ السَّابِقةُ إلى إبطالِ ضَلالةِ الَّذين زَعَموا عيسى -عليه السَّلامُ- ابنًا لله تعالى، مِن قَصْرِه على كَونِه عَبدًا لله أنعَمَ اللهُ عليه بالرِّسالةِ، وأنَّه عِبرةٌ لِبَني إسرائيلَ؛ عُقِّب ذلك بإبطالِ ما يُماثِلُ تلك الضَّلالةَ، وهي ضَلالةُ بَعضِ المُشرِكينَ في ادِّعاءِ بُنُوَّةِ الملائِكةِ لله تعالى، المتقَدِّمُ حِكايتُها في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ [الزخرف: ١٥] الآياتِ، فأُشيرَ إلى أنَّ الملائِكةَ عِبادٌ لله تعالى، جَعَل مكانَهم العَوالِمَ العُليا، وأنَّه لو شاء لَجعَلَهم مِن سُكَّانِ الأرضِ بَدَلًا عن النَّاسِ[2].

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: ولو نَشاءُ لجَعَلْنا بدَلًا مِنكم ملائِكةً يَسكُنونَ في الأرضِ، فيَخلُفونَ فيها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦). =

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾.

أي: وإنَّ نُزولَ عيسى بنِ مَريمَ في آخِرِ الزَّمانِ لَعَلامةٌ على قُربِ مَجيءِ السَّاعةِ، فلا تَشُكُّوا -أيُّها النَّاسُ- في مجيءِ القيامةِ؛ فإنَّها آتيةٌ لا مَحالةَ[1].

= قال ابن جُزَي: (في معناها قولان؛ أحَدُهما: لو نَشاءُ لجعَلْنا بدَلًا منكم ملائِكةً يَسكُنونَ الأرضَ ويَخلُفونَ فيها بني آدَمَ، فقَولُه: ﴿مِنكُم﴾ يتعَلَّقُ بـ«بَدَل» المحذوفِ، أو بـ﴿يَخۡلُفُونَ﴾. والآخَرُ: لو نشاءُ لجعَلْنا منكم، أي: لوَلَّدْنا منكم أولادًا مَلائِكةً يَخلُفونَكم في الأرضِ، كما يَخلُفُكم أولادُكم؛ فإنَّا قادِرونَ على أن نَخلُقَ مِن أولادِ النَّاسِ مَلائِكةً، فلا تُنكِروا أنْ خَلَقْنا عيسى مِن غيرِ والدٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: لجعَلْنا بدَلًا منكم ملائِكةً: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ ونسَبَه لعامَّةِ المفَسِّرينَ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: لَجعَلْنا -أيُّها الإنسُ- ملائكةً يتولَّدون منكم: الزمخشري، واستحسنه أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٦).

قال ابنُ كثير: (﴿مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾ قال السُّدِّيُّ: يَخلُفونَك فيها. وقال ابنُ عبَّاسٍ وقَتادةُ: يَخلُفُ بعضُهم بعضًا، كما يَخلُفُ بعضُكم بعضًا. وهذا القَولُ يَستلزِمُ الأوَّلَ. وقال مجاهدٌ: يَعمُرونَ الأرضَ بَدَلَكم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٨، ١٢٩، ١٣٨).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: نُزولُ عيسى عليه السَّلامُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والزمخشري، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن ذهب إلى هذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو هُرَيرةَ، وابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهِدٌ، والحسَنُ، وأبو مالكٍ، والضَّحَّاكُ، وعِكْرِمةُ، وأبو العاليةِ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦). =

= قال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ والمفَسِّرون: يعني: نُزولَ عيسى مِن السَّماءِ مِن أشراطِ السَّاعةِ وأهوالِها، ويكونُ التَّقديرُ على هذا: ظُهورَه أو نُزولَه). ((البسيط)) (٢٠/ ٧٠).

وقال الماوَرْدي: (قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحدُها: أنَّ القُرآنَ عِلْمُ السَّاعةِ؛ لِما فيه مِن البَعثِ والجزاءِ. قاله الحَسَنُ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ. الثَّاني: أنَّ إحياءَ عيسى الموتى دليلٌ على السَّاعةِ وبَعثِ الموتى. قاله ابنُ إسحاقَ. الثَّالثُ: أنَّ خُروجَ عيسى عِلْمُ السَّاعةِ؛ لأنَّه مِن علامةِ القيامةِ وشُروطِ السَّاعةِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٣٥).

وقال ابن جرير: (وقال آخَرون: الهاءُ الَّتي في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ مِن ذِكرِ القرآنِ، وقالوا: معنَى الكلامِ: وإنَّ هذا القرآنَ لَعلَمٌ للسَّاعةِ؛ يُعلِمُكم بقيامِها، ويُخبِرُكم عنها وعن أهوالِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٣).

وقيل: الإشارةُ لمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن ذكر هذا القولَ: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦١).

قال ابنُ جُزَي: (فأمَّا على القَولِ بأنَّه لعيسى أو لمحمَّدٍ فالمعنى أنَّه شَرَطٌ مِن أشراطِ السَّاعةِ يُوجِبُ العِلمَ بها؛ فسُمِّيَ الشَّرَطُ عِلْمًا لحُصولِ العِلمِ به؛ ولذلك قرأ ابنُ عبَّاسٍ: لَعَلَمٌ -بفَتحِ العَينِ واللَّامِ، أي: عَلامةٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٣).

وذكر السعدي احتمالًا قدَّمه في تفسيرِ الآيةِ، وهو أنَّ عيسى عليه السَّلامُ دليلٌ على السَّاعةِ؛ لأنَّ القادرَ على إيجادِه مِن أُمٍّ بلا أبٍ قادِرٌ على بعثِ الموتى مِن قبورِهم. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

قال الماوَرْدي: (﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: لا تَشُكُّوا فيها، يعني: السَّاعةَ. قاله يحيى بنُ سلَّام. الثَّاني: فلا تُكَذِّبوا بها؛ قاله السُّدِّيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٣٦).

ونقَل الواحديُّ عن ابنِ عبَّاسٍ المعنى الثَّانيَ، ثمَّ قال: (وقَولُ ابنِ عبَّاسٍ جَيِّدٌ؛ لأنَّ الامترِاءَ يُوصَلُ بـ «في»، يُقالُ: امترَى فيه، كقَولِه: ﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤]، وهاهنا وُصِلَ بالباءِ؛ لأنَّه بمعنى التَّكذيبِ، ومَن شَكَّ في شَيءٍ فقد كَذَّب به). ((البسيط)) (٢٠/ ٧٠).

وممَّن قال بأنَّ معنى: ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾: فلا تَشُكُّوا في مجيئِها، فجعَل المِرْيةَ بمعنى الشَّكِّ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣٨). =

كما قال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا * وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ١٥٨، ١٥٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((والَّذي نفْسي بيَدِه، لَيُوشِكَنَّ أن يَنزِلَ فيكم ابنُ مَريمَ حَكَمًا مُقسِطًا، فيَكسِرَ الصَّليبَ، ويَقتُلَ الخِنزيرَ، ويَضَعَ الجِزْيَةَ، ويَفيضَ المالُ حتَّى لا يَقْبَلَه أحَدٌ))[(١)].

﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾.

أي: وأطيعُوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه؛ فهذا الَّذي أدعوكم إليه طَريقٌ مُستقيمٌ لا اعوِجاجَ فيه، مُوصِلٌ إلى الحَقِّ في الدُّنيا، والجنَّةِ في الآخِرةِ[(٢)].

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٧).

وقال البِقاعي: (﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ﴾ أي: تَشُكُّوا أدنى شكٍّ، وتَضطَرِبوا أدنى اضطرابٍ، وتَجحَدوا أدنى جحدٍ، وتُجادِلوا أدنى جدَلٍ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٦١).

(١) رواه البخاري (٢٢٢٢) واللفظ له، ومسلم (١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٣).

قال الزمخشري: (﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ واتَّبِعوا هُداي وشَرعي أو رَسولي. وقيل: هذا أمرٌ لرسولِ الله أن يَقولَه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ هذا أمرٌ مِن الله باتِّباعِه، بامتثالِ أمرِه واجتنابِ نهيِه: ابنُ جرير -كما هو ظاهرُ كلامِه- والزمخشريُّ، وأبو حيَّان، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّه أمرٌ مِن الله لرسولِه بأن يأمُرَ النَّاسَ باتِّباعِه: الواحديُّ، والقرطبيُّ كما هو ظاهرُ كلامِهما. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٧).

قال الزمخشري: (﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ أي: هذا الَّذي أدعوكم إليه. أو: هذا القرآنُ إن جُعِل الضَّميرُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للقرآنِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١).

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أُبلِغَت أسماعُهم أفانينَ المَواعِظِ والأوامِرِ والنَّواهِي، وجَرَى في خِلالِ ذلك تَحذيرُهم مِن الإصرارِ على الإعراضِ عن القُرآنِ، وإعلامُهم بأنَّ ذلك يُفضي بهم إلى مُقارَنةِ الشَّيطانِ، وأخَذَ ذلك حَظَّه مِن البَيانِ؛ انتَقَلَ الكَلامُ إلى نَهيِهم عن أن يَحصُلَ صَدُّ الشَّيطانِ إيَّاهم عن هذا الدِّينِ والقُرآنِ الَّذي دُعُوا إلى اتِّباعِه بقَولِه: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [الزخرف: ٦١]؛ تَنبيهًا على أنَّ الصُّدودَ عن هذا الدِّينِ مِن وَسْوَسةِ الشَّيطانِ، وتَذكيرًا بعَداوةِ الشَّيطانِ للإنسانِ عَداوةً قَويَّةً، لا يُفارِقُها الدَّفعُ بالنَّاسِ إلى مَساوِي الأعمالِ؛ ليُوقِعَهم في العَذابِ تَشَفِّيًا لعَداوَتِه[1].

وأيضًا لَمَّا حَثَّ اللهُ تعالى على السُّلوكِ لصِراطِ الوَليِّ الحَميدِ؛ حذَّرَهم مِنَ العَدُوِّ البَعيدِ المُحتَرِقِ الطَّريدِ، فقال[2]:

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾.

أي: ولا يَصرِفَنَّكم الشَّيطانُ بوَساوِسِه عن هذا الصِّراطِ المُستَقيمِ؛ فتَضِلُّوا عن الحَقِّ[3].

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ لكم عَدُوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ، حَريصٌ على إضلالِكم، وباذِلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٣).

جُهدَه في إهلاكِكم[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ * وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ * وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾.

أي: ولَمَّا جاء عيسى بالدَّلائِلِ الواضِحاتِ على صِدقِه، قال: قد جِئتُكم بالحِكمةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٧، ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

قال الماوَرْدي: (﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: بالنُّبُوَّةِ. قاله السُّدِّيُّ. الثَّاني: بعِلمِ ما يُؤدِّي إلى الجَميلِ، ويَكُفُّ عن القَبيحِ. قاله ابنُ عيسى. ويحتمِلُ ثالثًا: أنَّ الحِكمةَ الإنجيلُ الَّذي أُنزِلَ عليه). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٣٦).

ممَّن اختار أنَّ الحِكمةَ هي النُّبُوَّةُ: السمرقنديُّ، والثعلبي، والبغوي، والخازن، وابنُ كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٦). =

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾.

أي: وجِئتُكم لِأُبَيِّنَ لكم بَعضَ الَّذي تَختَلِفونَ فيه مِن أُمورِكم، فأُوَضِّحَ لكم الصَّوابَ، وأُجَلِّيَ لكم ما خَفِيَ[1].

= قال البِقاعي: (﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: الأمرِ المُحكَمِ، الَّذي لا يُستطاعُ نَقضُه، ولا يُدفَعُ إلَّا بالمُعانَدةِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٦٢).

وقيل: الحِكمةُ: هي العِلمُ والعَمَلُ، فلا يُسمَّى الرَّجُلُ حَكيمًا حتَّى يَجمَعَهما. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ قُتيبةَ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢). ويُنظر أيضًا: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (٩/ ٢٢، ٢٣)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٢٤)، ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٣٢٥).

وقال السعدي: (﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ النُّبُوَّةِ والعِلمِ، بما يَنبغي، على الوَجهِ الَّذي يَنبغي). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالحِكمةِ: الإنجيلُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجاجُ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٣١).

واختار الزمخشري وتَبِعَه النَّسَفيُّ أنَّ المرادَ ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾: الإنجيلُ والشَّرائعُ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧٩).

واختار جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ أنَّ المرادَ: النُّبُوَّةُ وشرائعُ الإنجيلِ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٦، ٦٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦، ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٧).

قال ابنُ عطية: (المعنى الَّذي ذهبَ إليه الجُمهورُ: أنَّ الاختِلافَ بيْنَ النَّاسِ هو في أمورٍ كَثيرةٍ لا تُحصى عددًا؛ منها أمورٌ أُخرَويَّةٌ ودينيَّةٌ، ومنها ما لا مَدخَلَ له في الدِّينِ؛ فكُلُّ نَبيٍّ فإنَّما يُبعَثُ لِيُبيِّنَ أمرَ الأديانِ والآخِرةِ، فذلك بعضُ ما يُختَلَفُ فيه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٢).

وقال الشوكاني: (﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ مِن أحكامِ التَّوراةِ. وقال قَتادةُ: يعني: اختِلافَ الفِرَقِ الَّذين تحزَّبوا في أمرِ عيسى. قال الزَّجَّاجُ: الَّذي جاء به عيسى في الإنجيلِ إنَّما هو بَعضُ الَّذي اختَلَفوا فيه؛ فبُيِّنَ لهم في غيرِ الإنجيلِ ما احتاجوا إليه. وقيل: إنَّ بني إسرائيلَ =

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

أي: فاتَّقوا اللهَ بامتِثالِ ما يأمُرُكم به، واجتِنابِ ما يَنهاكم عنه[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾.

أي: قال عيسى: إنَّ اللهَ الَّذي ينبغي إفرادُه بالعِبادةِ والطَّاعةِ هو رَبِّي ورَبُّكم؛ فاعبُدوه وَحْدَه، ولا تَعبُدوا غَيرَه، وأنا وأنتم مُشتَرِكونَ في وُجوبِ ذلك علينا[٢].

﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾.

أي: عِبادةُ اللهِ وَحْدَه وطاعتُه طَريقٌ مُستقيمٌ لا اعوِجاجَ فيه، مُوصِلٌ إلى اللهِ، وإلى رِضوانِه وجَنَّتِه[٣].

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾.

= اختَلَفوا بعدَ موتِ موسى في أشياءَ مِن أمرِ دينِهم. وقال أبو عُبَيدةَ: إنَّ البَعضَ هنا بمعنى الكُلِّ، كما في قَولِه: ﴿يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ [غافر: ٢٨]، وقال مُقاتِلٌ: هو كقَولِه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [آل عمران: ٥٠]، يعني: ما أُحِلَّ في الإنجيلِ مِمَّا كان مُحَرَّمًا في التَّوراةِ؛ كلَحمِ الإبِلِ، والشَّحمِ مِن كُلِّ حيوانٍ، وصَيدِ السَّمَكِ يومَ السَّبتِ. واللَّامُ في: ﴿وَلِأُبَيِّنَ﴾ مَعطوفةٌ على مُقَدَّرٍ، كأنَّه قال: قد جِئتُكم بالحِكمةِ لِأُعَلِّمَكم إيَّاها ولِأُبَيِّنَ لكم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٠)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٠٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٧، ٤١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ ﴾.

أي: فاختَلَفَت فِرَقُ اليَهودِ والنَّصارى في عيسى؛ فكَفَر به اليَهودُ، وغلا فيه النَّصارى، فزَعَم بَعضُهم أنَّه ابنُ اللهِ تعالى، وزَعَم بَعضُهم أنَّه اللهُ تعالى، وزَعَم آخَرونَ منهم أنَّه ثالِثُ ثلاثةٍ -تعالى اللهُ عمَّا يَقولونَ عُلُوًّا كَبيرًا[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال الله سُبحانَه: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

وعن مُعاويةَ بنِ أبي سُفيانَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((ألَا إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قام فينا فقال: ألَا إنَّ مَن قَبْلَكم مِن أهلِ الكِتابِ افتَرَقوا على ثِنْتَينِ وسَبعينَ مِلَّةً، وإنَّ هذه المِلَّةَ ستَفتَرِقُ على ثلاثٍ وسَبعينَ: ثِنتانِ وسَبعونَ في النَّارِ، وواحِدةٌ في الجنَّةِ، وهي الجَماعةُ))[2].

﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٠).
قال ابن تيميَّة: (اختَلَف اليهودُ والنَّصارى فيه، ثمَّ اختَلَفَت النَّصارى فيه وصاروا أحزابًا كثيرةً جِدًّا... فإنَّه ليس في الأُمَمِ أكثَرُ اختِلافًا في رَبِّ العالَمينَ منهم!). ((الجواب الصحيح)) (٢/ ١٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧) واللَّفظُ له، وأحمد (١٦٩٣٧).
حَسَّن إسنادَه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (١٩/ ٣٧)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٥٩٧)، وحسَّنه لغيره الوادعيُّ في ((صحيح دلائل النبوة)) (٥٧٧).
وحديثُ الافتِراقِ رُوِيَ بألفاظٍ مُختلِفةٍ: ذكر الحاكمُ بعضَ طُرُقِه ثمَّ قال: (هذه أسانيدُ تُقامُ بها الحجَّةُ في تصحيحِ هذا الحديثِ). ((المستدرك)) (١/ ٢١٨). وقال العِراقي: (حديث افتِراقِ الأمَّةِ... أسانيدُها جِيادٌ). ((تخريج الإحياء)) (٣/ ٢٣٠).

أي: فوَيلٌ لأولئك الكُفَّارِ المُختَلِفينَ في شأنِ عيسى مِن عَذابِ يومِ القيامةِ[١]!

كما قال تعالى: ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم: ٣٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا ﴾ فيه ذَمُّ الجَدَلِ والمِراءِ[٢]، والجدَلُ المذمومُ هو الجدلُ الَّذي يُوجِبُ تقريرَ الباطلِ[٣]، أو ردَّ الحقِّ ودفْعَه، أو لِمُجرَّدِ الجدَلِ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا ﴾ عَبَّرَ بصيغةِ الجَمعِ في قَولِه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا ﴾، مع أنَّ ضارِبَ المَثَلِ واحِدٌ، وهو ابنُ الزِّبَعْرَى؛ لِوُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ مِن أساليبِ اللُّغةِ العربيَّةِ إسنادَ فِعلِ الرَّجُلِ الواحِدِ مِن القبيلةِ إلى جميعِ القَبيلةِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ جميعَ كُفَّارِ قُرَيشٍ صَوَّبوا ضَرْبَ ابنِ الزِّبَعْرَى عيسى مَثَلًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣٨).
قال ابن جرير: (يقولُ: مِن عذابِ يومٍ أليمٍ عذابُه، ووَصَفَ اليَومَ بالإيلامِ؛ إذ كان العَذابُ الَّذي يُؤلِمُهم فيه، وذلك يومُ القيامةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٨).
وقال البِقاعي: (وإذا كان اليومُ مُؤلِمًا، فما الظَّنُّ بعَذابِه؟!). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٠). ويُنظر أيضًا: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٦٩-١٧٤).

وفَرِحوا بذلك، ووافَقوه عليه؛ فصاروا كالمُتمالِئينَ عليه.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ الفاعِلَ المحذوفَ في قَولِه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾ هو عامَّةُ قُرَيشٍ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ عيسى لم يُبعَثْ إلَّا إلى بَني إسرائيلَ، وأنَّه لم يَدْعُ غَيرَ بني إسرائيلَ إلى اتِّباعِ دِينِه، ومَنِ اتَّبعُوه مِن غَيرِ بَني إسرائيلَ في عُصورِ الكُفرِ والشِّركِ فإنَّما تَقَلَّدوا دَعوَتَه؛ لأنَّهَا تُنقِذُهم مِن ظُلُماتِ الشِّركِ والوَثَنيَّةِ والتَّعطيلِ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ فيه نزولُ عيسَى عليه السَّلامُ قُرْبَ السَّاعةِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يُبَيِّنْ لهم كُلَّ الَّذي يَختَلِفونَ فيه؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: لأنَّ النَّاسَ قد يَختَلِفونَ في أشياءَ لا حاجةَ بهم إلى مَعرفتِها؛ فلا يَجِبُ على الرَّسولِ بَيانُها[٤].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ هذا البَعضَ الظاهرُ -بما يُرشِدُ إليه خِتامُ الآيةِ- أنَّه المُتشابِهُ الَّذي كَفَروا بسَبَبِه، بيَّنَه بيانًا يَرُدُّه إلى المُحكَمِ، ويَحتمِلُ أن يكونَ بَعضَ المُتشابِهِ،

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٤، ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤١).

وهو ما يكونُ بَيانُه كافيًا في رَدِّ بقيَّةِ المُتشابِهِ إلى المحكَمِ بالقياسِ عليه؛ فإنَّ الشَّأنَ في كُلِّ كِتابٍ أنْ يَجمَعَ المُحكَمَ والمُتشابِهَ، فالمُحكَمُ ما لا لَبْسَ فيه، والمُتشابِهُ ما يكونُ مُلْبِسًا، وفيه ما يَرُدُّه إلى المحكَمِ لكِنْ على طريقِ الرَّمزِ والإشارةِ الَّتي لا يَذوقُها إلَّا أهلُ البَصائرِ؛ لِيَتبيَّنَ بذلك الصَّادِقُ مِن الكاذِبِ، فالصَّادِقُ الَّذي رَسَخ عِلمًا وإيمانًا يَرُدُّ المُتشابِهَ منه إلى المُحكَمِ، أو يَعجِزُ فيَقولُ: اللهُ أعلَمُ[١].

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ اللهَ تعالى أعلَمَه بأنَّ المَصلَحةَ لم تتَعَلَّقْ ببَيانِ كلِّ ما اختَلَفوا فيه، بل يُقتَصَرُ على البَعضِ، ثمَّ يُكمَّلُ بَيانُ الباقي على لِسانِ رَسولٍ يأتي مِن بَعدِه يُبَيِّنُ جَميعَ ما يَحتاجُ إلى البَيانِ.

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّ ما أُوحِيَ إليه مِن البَيانِ غَيرُ شامِلٍ لجَميعِ ما هم مُختَلِفونَ في حُكمِه، وهو يَنتَظِرُ بَيانَه مِن بعدُ؛ تَدريجًا في التَّشريعِ، كما وَقَع في تَدريجِ تَحريمِ الخَمرِ في الإسلامِ.

الوَجهُ الخامِسُ: أنَّ المرادَ بـ ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾: ما كان الاختلافُ فيه راجعًا إلى أحكامِ الدِّينِ، دونَ ما كان مِن الاختلافِ في أُمورِ الدُّنيا[٢].

الوَجهُ السَّادِسُ: أنَّ المرادَ بالبَعضِ: الكُلُّ[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ﴾، يدُلُّ على جوازِ تأخيرِ البيانِ فيما له ظاهرٌ، وفي ما يرجعُ إلى البيانِ بالنَّسخِ[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ فيه

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٨).

الإقرارُ بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ؛ بأنَّ اللهَ هو المُربِّي جَميعَ خَلْقِه بأنواعِ النِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، والإقرارُ بتوحيدِ العُبوديَّةِ بالأمرِ بعِبادةِ اللهِ وَحْدَه لا شَريكَ له، وإخبارِ عيسى عليه السَّلامُ أنَّه عَبدٌ مِن عِبادِ اللهِ، ليس كما قال فيه النَّصارى: (إنَّه ابنُ اللهِ أو ثالِثُ ثلاثةٍ!)، والإخبارُ بأنَّ هذا المذكورَ: صِراطٌ مُستقيمٌ مُوصِلٌ إلى اللهِ تعالى وإلى جَنَّتِه[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أنَّ الصِّراطَ المُستقيمَ عبادةُ اللهِ، ولا شَكَّ أنَّ أهدى السُّبُلِ وأقْوَمَها عِبادةُ اللهِ، وعِبادةُ اللهِ هي اتِّباعُ شَرْعِه المُرسَلِ منه سُبحانَه وتعالى[2].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ في قِصَّةِ عيسى مع قَومِه تَنبيهٌ على أنَّ الإشراكَ مِن عَوارِضِ أهلِ الضَّلالةِ لا يَلبَثُ أن يُخامِرَ نُفوسَهم، وإن لم يكُنْ عالِقًا بها مِن قَبْلُ؛ فإنَّ عيسى بُعِثَ إلى قَومٍ لم يَكونوا يَدينونَ بالشِّركِ؛ إذ هو قد بُعِثَ لبني إسرائيلَ وكُلُّهم مُوَحِّدونَ، فلمَّا اختَلَف أتْباعُه بيْنَهم، وكَذَّبَت به فِرَقٌ، وصَدَّقه فَريقٌ، ثمَّ لم يتَّبِعوا ما أمَرَهم به- لم يَلبَثوا أنْ حَدَثَت فيهم نِحلةُ الإشراكِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ كَلامٌ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٦).

مُستَأنَفٌ مَسُوقٌ لبَيانِ نَوعٍ آخَرَ مِن لَجاجِهم وإِمعانِهم في المُكابَرةِ[١]. أو عَطفُ قِصَّةٍ مِن أقاصيصِ كُفرِهم وعِنادِهم على ما مَضَى مِن حِكايةِ أقاويلِهم، جَرَت في مُجادَلةٍ منهم مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو تَصديرٌ وتَمهيدٌ بيْنَ يَدَيْ قَولِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ...﴾ [الزخرف: ٦٣] الآياتِ، الَّذي هو المَقصودُ مِن عَطفِ هذا الكَلامِ على ذِكْرِ رِسالةِ مُوسَى عليه السَّلامُ[٢].

- واقتِرانُ الكَلامِ بـ(لَمَّا) المُفيدةِ وُجودَ جَوابِها عِندَ وُجودِ شَرطِها أو تَوقيتِه، يَقتَضِي أنَّ مَضمونَ شَرطِ (لَمَّا) مَعلومُ الحُصولِ، ومَعلومُ الزَّمانِ؛ فهو إشارةٌ إلى حَديثٍ جَرَى بسَبَبِ مَثَلٍ ضَرَبه ضارِبٌ لِحالٍ مِن أحوالِ عيسى عليه السَّلامُ، على أنَّ قَولَهم: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يَحتمِلُ أنْ يَكُونَ جَرَى في أثناءِ المُجادَلةِ في شَأنِ عيسى، ويَحتمِلُ أنْ يَكُونَ مُجَرَّدَ حِكايةِ شُبهةٍ أُخرَى مِن شُبَهِ عَقائِدِهم؛ ففي هذه الآيةِ إجمالٌ يُبَيِّنُه ما يَعرِفُه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُؤمِنونَ مِن جَدَلٍ جَرَى مع المُشرِكين، ويَزيدُه بَيانًا قَولُه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٣] [الزخرف: ٥٩].

- قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ الحامِلُ على ضَربِ المَثَلِ: الرَّدُّ على كُفرِيَّاتِهم الثَّلاثِ في قَولِه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ...﴾ [الزخرف: ١٥] الآياتِ، وهو قَولُه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ [الزخرف: ١٦]، وقَولُه: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقَولُه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزخرف: ٢٠]، والآياتُ المُتَخَلِّلةُ في البَيْنِ مُتَّصِلاتٌ بَعضُها مع بَعضٍ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بالأَفانينِ المُتَنَوِّعةِ[١].

- والتَّعبيرُ عن قُرَيشٍ بعُنوانِ ﴿قَوْمُكَ﴾؛ للتَّعجُّبِ منهم كيفَ فَرِحوا مِن تَغَلُّبِ ابنِ الزِّبَعْرَى على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بزَعمِهِم في أمْرِ عيسى عليه السَّلامُ، أي: مع أنَّهم قَومُك، ولَيسُوا قَومَ عيسى ولا أتْباعَ دِينِه؛ فكان فَرَحُهم ظُلمًا من ذَوِي القُربَى[٢].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ مُتعَلِّقَةٌ بـ ﴿يَصِدُّونَ﴾ -على قولٍ- تَعَلُّقًا على مَعنَى الابتِداءِ، أي: يَصِدُّون صَدًّا ناشِئًا منه، أي: مِن المَثَلِ، أي: ضُرِبَ لهم مَثَلٌ، فجَعَلوا ذلك المَثَلَ سَبَبًا للصَّدِّ[٣].

- وعلى قِراءةِ ﴿يَصُدُّونَ﴾ -بضمِّ الصَّادِ- مِن الصُّدودِ؛ فهي إمَّا بمَعنَى الإعراضِ، والمُعرَضُ عنه مَحذوفٌ؛ لظُهورِه مِن المَقامِ، أي: يُعرِضُون عن القُرآنِ؛ لأنَّهم أَوهَمُوا بجَدَلِهم أنَّ في القُرآنِ تَناقُضًا، وإمَّا على أنَّ الضَّمَّ لُغَةٌ في مُضارِعِ (صَدَّ) بمَعنَى ضَجَّ، مِثلُ لُغَةِ كَسرِ الصَّادِ، وعلى قِراءةِ ﴿يَصِدُّونَ﴾ -بكَسرِ الصَّادِ- وهو الصَّدُّ، بمَعنَى الضَّجيجِ والصَّخَبِ، فالمَعنَى: إذا قُرَيشٌ قَومُك يَصخَبون ويَضِجُّون مِن احتِجاجِ ابنِ الزِّبَعْرَى بالمَثَلِ بعِيسى في قَولِه، مُعجَبِين بفَلْجِه[٤] وظُهورِ حُجَّتِه؛ لِضَعفِ إدراكِهم لمَراتِبِ الاحتِجاجِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٣٩).

(٤) الفَلْجُ: الظَّفَرُ والفَوزُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٨).

- قَولُه: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ ﴾ حِكايةٌ لطَرَفٍ مِن المَثَلِ المَضرُوبِ؛ قَالُوه تَمهيدًا لِمَا بَنَوا عليه مِن الباطِلِ المُمَوَّهِ بما يَغتَرُّ به السُّفهاءُ؛ فقد قالوا جَميعًا: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ﴾، وتَلَقَّفوها مِن فَمِ ابنِ الزِّبَعْرَى حينَ قَالَها للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأعادُوها؛ فهذا حِكايَةٌ لقَولِ ابنِ الزِّبَعرَى: إنَّك تَزعُمُ أنَّ عِيسَى نَبيٌّ وقد عَبَدَتْه النَّصارَى، فإنْ كان عِيسَى في النَّارِ قد رَضِينَا أنْ نَكُونَ وآلِهَتنا في النَّارِ[1].

- قَولُه: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ ﴾ حَكَوا أنَّ آلِهَتَهم خَيرٌ، ثمَّ عَنَّ لهم أنْ يَستَفهِمُوا على سَبيلِ التَّنَزُّلِ مِن الخَبَرِ إلى الاستِفهامِ المَقصودِ به الإفْحامُ، وهذا الاستِفهامُ تَقريرِيٌّ للعِلمِ بأنَّ النَّبيَّ يُفَضِّلُ عِيسَى على آلِهَتِهم، أي: فقد لَزِمَكَ أنَّكَ جَعَلْتَ أَهلًا للنَّارِ مَن كُنتَ تُفَضِّلُه؛ فأمْرُ آلِهَتِنا هَيِّنٌ[2]!

- وقولُه: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ إضرابٌ انتِقالِيٌّ إلى وَصْفِهم بحُبِّ الخِصامِ، وإظهارِهِم مِن الحُجَجِ ما لا يَعتَقِدونَه؛ تَمويهًا على عامَّتِهم[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ استِئنافٌ مَسُوقٌ لتَنزيهِه عليه السَّلامُ عن أنْ يُنسَبَ إليه ما نُسِبَ إلى الأصنامِ بطَرِيقِ الرَّمزِ، كما نَطَق به صَريحًا قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] الآيةَ، وفيه تَنبيهٌ على بُطلانِ رَأْيِ مَن رَفَعَه عن رُتبَةِ العُبودِيةِ، وتَعريضٌ بفَسادِ رَأْيِ مَنْ يَرَى رَأيَهم في شَأنِ المَلائِكَةِ، وهذا على القَولِ بأنَّ معنَى قولِه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا ﴾ أي: ضرَبَه ابنُ الزِّبَعْرى حين جادَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٠).

رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[١] [الأنبياء: ٩٨].

- ولَمَّا ذَكَر ما يُشِيرُ إلى قِصَّةِ جِدالِ ابنِ الزِّبَعرَى في قَولِه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وكان سَبَبُ جِدالِه هو أنَّ عِيسَى قد عُبِدَ مِن دُونِ الله؛ لم يُتْرَكِ الكَلامُ يَنقَضي دُونَ أنْ يُردَفَ بتَقريرِ عُبُودِيَّةِ عيسى لهذِه المُناسَبةِ؛ إظهارًا لخَطَلِ رَأْيِ الذين ادَّعَوا إلَهِيَّتَه وعَبَدوه -وهم النَّصارَى-؛ حِرصًا على الاستِدلالِ للحَقِّ[٢].

- وفي قولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قُصِرَ عِيسَى على العُبودِيَّةِ على طَريقَةِ قَصْرِ القَلبِ[٣]؛ للرَّدِّ على الَّذين زَعَموه إلهًا، أي: ما هو إلَّا عَبدٌ لا إلهٌ؛ لأنَّ الإلهِيَّةَ تُنافي العُبودِيَّةَ، ثمَّ كان قَولُه: ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ إشارةً إلى أنَّه قد فُضِّلَ بنِعمَةِ الرِّسالةِ، أي: فلَيسَتْ له خُصوصِيَّةُ مَزِيَّةٍ على بَقِيَّةِ الرُّسُلِ، وليس تَكوينُه بدُونِ أبٍ إلَّا إرهاصًا[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾

- في قَولِه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ جُعِلَ شَرْطُ (لو) فِعلًا مُستَقبَلًا؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذه المَشيئَةَ لم تَزَلْ مُمكِنَةً بأنْ يُعَوِّضَ للمَلائِكَةِ سُكنَى الأرضِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٠).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٠).

والإرهاصُ: ما ظهَر مِن الخَوارِقِ عن النَّبيِّ قبْلَ ظُهورِه. يُنظر: ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمُناوي (ص: ٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٨)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٣٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٢).

- ومعنى (مِن) في قولِه: ﴿مِنكُم﴾ البَدليَّةُ والعِوَضُ، والمجرورُ في قولِه: ﴿مِنكُم﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ (جَعَلْنَا)، وقُدِّمَ على مَفعولِ الفِعلِ؛ للاهتِمامِ بمَعنَى هذه البَدَلِيَّةِ لتتَعَمَّقَ أفهامُ السَّامِعين في تَدَبُّرِها[1].

- وجُملَةُ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ بَيانٌ لمَضمُونِ شِبهِ الجُملَةِ في قَولِه: ﴿مِنكُم﴾، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَخْلُفُونَ﴾؛ لدَلالَةِ ﴿مِنكُم﴾ عليه، وتَقديمُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ للاهتِمامِ بِمَا هو أدَلُّ على كَونِ الجُملَةِ بَيانًا لمَضمُونِ ﴿مِنكُم﴾[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ عَطفٌ على جُملَةِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ويَكونُ ما بيْنَهما مُستَطرَداتٍ، واعتِراضًا اقتَضَتْه المُناسَبةُ؛ لَمَّا أُشبِعَ مَقامُ إبطالِ إلَهيَّةِ غَيرِ اللهِ بدَلائِلِ الوَحدانيَّةِ، ثُنِيَ العِنانُ إلى إثباتِ أنَّ القُرآنَ حقٌّ، عَودًا على بَدءٍ، وهذا كَلامٌ مُوَجَّهٌ مِن جانِبِ اللهِ تعالى إلى المُنكِرين يومَ البَعثِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ مِن كَلامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[3].

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، أي: إنَّ عيسى عليه السلامُ لَعِلمٌ للسَّاعَةِ، أي: شَرطٌ مِن أشراطِها تُعلَمُ به؛ فسُمِّي الشَّرطُ عِلمًا لحُصولِ العِلمِ به[4].

أو ضَميرُ المَذَكَّرِ الغائِبِ في قَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ مُرادٌ به القُرآنُ؛ فيَكونُ هذا ثَناءً على القُرآنِ، والثَّناءُ على القُرآنِ استَمَرَّ مُتَّصِلًا مِن أوَّلِ السُّورَةِ آخِذًا بَعضُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٩).

بحُجَزِ بَعضٍ، مُتَخَلِّلًا بالمُعتَرِضاتِ والمُستطرَداتِ، ومُتَخَلِّصًا إلى هذا الثَّناءِ الأخيرِ بأنَّ القُرآنَ أعلَمَ النَّاسَ بوُقوعِ السَّاعَةِ. وإسنادُ ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ إلى ضَميرِ القُرآنِ؛ لأنَّ القُرآنَ سَبَبُ العِلمِ بوُقوعِ السَّاعَةِ؛ إذ فيه الدَّلائِلُ المُتَنَوِّعَةُ على إمكانِ البَعثِ ووُقوعِه. ويَجوزُ أنْ يكونَ إطلاقُ العِلمِ بمعنى المُعْلِمِ، مِن استعمالِ المصدَرِ بمعنى اسمِ الفاعلِ؛ مُبالَغَةً في كَونِه مُحَصِّلًا للعِلْمِ بالسَّاعَةِ؛ إذ لم يُقارِبْه في ذلك كِتابٌ مِن كُتُبِ الأَنبياءِ، وقد ناسَبَ هذه المُبالَغَةَ التَّفريعُ في قَولِه: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾؛ لأنَّ القُرآنَ لم يُبقِ لأَحَدٍ مِريَةً في أنَّ البَعثَ واقِعٌ، ويَجوزُ أن يَكونَ ضَميرُ (إِنَّهُ) ضَميرَ شَأنٍ، أي: أنَّ الأَمرَ المُهِمَّ لَعِلْمُ النَّاسِ بوُقوعِ السَّاعةِ[١].

- وعُدِّي فِعلُ ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ بالباءِ؛ لِتَضْمينِه مَعنَى: لا تُكَذِّبُنَّ بها، أو الباءُ بمَعنَى (في) الظَّرفِيَّةِ[٢].

- وحُذِفَت ياءُ المتكلِّمِ في ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ تَخفيفًا، مع بَقاءِ نُونِ الوِقايةِ دَليلًا عليها[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

- وفي قولِه: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ صِيغَ النَّهيُ عن اتِّباعِ الشَّيطانِ في صَدِّه إيَّاهُم بصِيغَةِ نَهيِ الشَّيطانِ عن أنْ يَصُدَّهم؛ للإشارَةِ إلى أنَّ في مُكنَتِهم الاحتِفاظَ مِن الوُقوعِ في شِباكِ الشَّيطانِ، فكُنِّي بنَهيِ الشَّيطانِ عن صَدِّهم عن نَهيِهم عن الطَّاعَةِ له بأبلَغِ مِن تَوجيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليهم، على طَريقَةِ قَولِ العَرَبِ: لا أَعرِفَنَّكَ تَفعَلُ كذا، ولا أُلْفِيَنَّكَ في مَوضِعِ كذا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٤٥).

- وجُملَةُ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن أنْ يَصُدَّهُم الشَّيطانُ؛ فإنَّ شأنَ العاقِلِ أنْ يَحذَرَ مِن مَكائِدِ عَدُوِّه، وحَرفُ (إنَّ) هنا مَوقِعُه مَوقِعُ فاءِ التَّسَبُّبِ في إفادَةِ التَّعليلِ[(١)].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ هذا هو المَقصودُ مِن ذِكْرِ عيسى عليه السَّلامُ؛ فهو عَطفٌ على قِصَّةِ إرسالِ مُوسَى[(٢)]. وقيل: هو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ تَعَنُّتِ بني إسرائيلَ[(٣)].

- ولم يُذكَرْ جَوابَ (لَمَّا)؛ فهو مَحذوفٌ لدَلالَةِ بَقِيَّةِ الكَلامِ عَلَيه، ومَوقِعُ حَرفِ (لَمَّا) هنا: أنَّ مَجيءَ عِيسى بالبَيِّناتِ صار مَعلومًا للسَّامِعِ مِمَّا تقَدَّم في قَولِه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩] الآيَةَ، أي: لَمَّا جاءَهُم عِيسَى اختَلَف الأحزابُ فيما جاء به؛ فحُذِف جَوابُ (لَمَّا)؛ لأنَّ المَقصودَ هو قَولُه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥]؛ لأنَّه يُفيدُ أنَّ سَنَنَ الأُمَمِ المَبعوثِ إليهم الرُّسُلُ لم يَختَلِفْ؛ فإنَّه لم يَخْلُ رَسولٌ عن قَومٍ آمَنوا به وقَومٍ كَذَّبوه، ثمَّ كانوا سَواءً في نِسبَةِ الشُّرَكاءِ في الإلَهيَّةِ بمَزاعِمِ النَّصارَى أنَّ عِيسَى ابنٌ لِلَّهِ تعالى؛ فتمَّ التَّشابُه بيْن الرُّسُلِ السَّابِقين وبيْن مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليهم أجمَعينَ؛ فحَصَل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠١).

في الكَلامِ إيجازٌ تدُلُّ عليه فاءُ التَّفريعِ[١].

- وجُملَةُ ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ مُبيِّنَةٌ لجُملَةِ ﴿جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، ولَيسَتْ جَوابًا لشَرطِ (لَمَّا) الَّذي جُعِلَ التَّفريعُ في قَولِه: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم: ٣٧] دَليلًا عليه. وفي إيقاعِ جُملَةِ ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بَيانًا لجُملَةِ ﴿جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه بادَأَهُم بهذا القَولِ؛ لأنَّ شَأنَ أهلِ الضَّلالَةِ أنْ يُسرِعوا إلى غَاياتِها ولو كانتْ مَبادِئُ الدَّعوَةِ تُنافِي عَقائِدَهُم، أي: لم يَدْعُهم عِيسى إلى أكثَرَ مِن اتِّباعِ الحِكمَةِ وبَيانِ المُختَلَفِ فيه، ولم يَدْعُهم إلى ما يُنافي أُصولَ شَريعَةِ التَّوراةِ؛ ومع ذلك لم يَخْلُ حالُه مِن صُدودٍ مُريعٍ عنه وتَكذيبٍ[٢].

- وابتِداؤُه بإعلامِهِم أنَّه جاءَهم بالحِكمَةِ والبَيانِ -وهو إجمالُ حالِ رِسالَتِه- تَرغيبٌ لهم في وَعْيِ ما سيُلْقِيه إليهم مِن تَفاصيلِ الدَّعوَةِ المُفَرَّعِ بَعضُها على هذه المُقَدِّمَةِ بقَولِه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾[٣].

- وفي قَولِه: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ تَهيئَةٌ لهم لِقَبولِ ما سَيُبَيِّنُ لهم حِينَئِذٍ أو مِن بَعدُ[٤].

- ولم يُذكَرْ في هذه الآيةِ قَولُه المَحكيُّ في قولِه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عِمرانَ: ٥٠]؛ لأنَّ ذلك قد قَالَه في مَقامٍ آخَرَ، والمَقصودُ حِكايَةُ ما قَالَه لهم مِمَّا ليس شَأنُه أنْ يُثيرَ عليه قَومَه بالتَّكذيبِ؛ فهمْ كذَّبوه في وَقتٍ لم يَذكُرْ لهم فيه أنَّه جاء بنَسْخِ بَعضِ الأحكامِ مِن التَّوراةِ، أي: كذَّبوه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٥، ٢٤٦)

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٤٧).

في حالِ ظُهورِ آياتِ صِدقِه بالمُعجِزاتِ، وفي حالِ انتِفاءِ ما مِن شَأنِه أنْ يُثيرَ عليه شَكًّا[١].

- وفرَّع على إجمالِ فاتِحَةِ كَلامِه قَولَه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وهذا كَلامٌ جامعٌ لتَفاصيلِ الحِكمَةِ، وبيَانِ ما يَختَلِفون فيه؛ فإنَّ التَّقوَى مَخافَةُ اللهِ[٢].

- ويُمكِنُ أنَ تَكونَ الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ عاطِفَةً؛ فيَكونَ الكَلامُ مَعطوفًا على ما سَبَقه على أنَّه تَتِمَّةُ كَلامِ عِيسَى، ويُمكِنُ أن تَكونَ استِئنافِيَّةً؛ فيكونُ الكَلامُ مُستَأنَفًا من اللهِ؛ للدَّلالَةِ على طَريقِ الطَّاعَةِ ومَحَجَّتِها الواضِحَةِ[٣].

٨- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ بَيانٌ لِما أمرَهم بالطَّاعةِ فيه؛ وهو اعتِقادُ التَّوحيدِ والتَّعبُّدُ بالشَّرائِعِ[٤]. أو تَعليلٌ لجُملَةِ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: ٦٣]؛ لأنَّه إذا ثَبَت تَفَرُّدُه بالرُّبوبيَّةِ تَوَجَّهَ الأمرُ بعِبادَتِه؛ إذ لا يَخافُ اللهَ إلَّا مَن اعتَرَفَ برُبوبيَّتِه وانفرادِه بها[٥].

- وضميرُ الفَصلِ (هو) أفاد القَصْرَ، أي: الله ربِّي لا غَيرُه، وهذا إعلانٌ بالوَحدانيَّةِ، وإنْ كان القَومُ الَّذين أُرسِلَ إليهم عيسى مُوَحِّدين، لكنْ قد ظَهَرت بِدعَةٌ وشِركٌ في بَعضِ فِرَقِهِم الَّذين قَالُوا: عُزَيْرٌ ابنُ الله[٦].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ فيه تَأكيدُ الجُملَةِ بحَرفِ (إنَّ)؛ لمَزيدِ الاهتِمامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بالخَبَرِ؛ فإنَّ المُخاطَبين غَيرُ مُنكِرين ذلك[١].

- وتَقديمُ نَفسِه على قَومِه في قَولِه: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾؛ لقَصدِ سدِّ ذَرائِعِ الغُلُوِّ في تَقديسِ عِيسى، وذلك مِن مُعجِزاتِه؛ لأنَّ اللهَ عَلِمَ أنَّه ستَغلُو فيه فِرَقٌ مِن أتباعِهِ، فيَزعُمون بُنُوَّتَه مِن اللهِ على الحَقيقَةِ[٢].

- وفُرِّعَ على إثباتِ التَّوحيدِ لِلَّهِ الأمْرُ بعِبادَتِه بقَولِه: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾؛ فإنَّ المُنفَرِدَ بالإلَهيَّةِ حَقيقٌ بأنْ يُعبَدَ[٣].

- وقولُه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ مِن تَتِمَّةِ كَلامِ عيسى عليه السَّلامُ. أو استِئنافٌ مِن الله تعالى يَدُلُّ على ما هو المُقتَضِي للطَّاعَةِ في ذلك، وهو مُقَرِّرٌ لمقَالةِ عِيسَى عليه السَّلامُ[٤].

٩- قولُه تعالَى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هذا التَّفريعُ هو المَقصودُ مِن سَوْقِ القِصَّةِ مَساقَ التَّنظيرِ بيْن أحوالِ الرُّسُلِ، أي: عَقِبَ دَعوَتَه اختِلافُ الأحزابِ مِن بَينِ الأُمَّةِ الَّذين بُعِثَ إليهم، والَّذين تَقَلَّدوا مِلَّتَه طَلَبًا للاهتِداءِ، وهذا التَّفريعُ دَليلٌ على جَوابِ (لمَّا) المَحذوفِ[٥].

- قَولُه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ فُرِّع على ذِكْرِ الاختِلافِ تَهديدٌ بوَعيدٍ للَّذين ظَلَموا بالعَذابِ يَومِ القِيامَةِ تَفريعَ التَّذييلِ على المُذَيَّلِ؛ فـ (الَّذين ظَلَموا) يَشمَلُ جَميعَ الَّذين أَشرَكوا مع اللهِ غَيرَه في الإلَهيَّةِ؛ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا إطلاقُ الظُّلمِ غالِبًا في القُرآنِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٩).

فعُلِمَ أنَّ الاختِلافَ بيْنَ الأحزابِ أفضَى بِهِم أنْ صارَ أكثَرُهم مُشرِكينَ؛ بقَرينَةِ ما هو مَعروفٌ في الاستِعمالِ مِن لُزومِ مُناسَبةِ التَّذييلِ للمُذَيَّلِ، بأنْ يَكونَ التَّذييلُ يَعُمُّ المُذَيَّلَ وغَيرَه؛ فيَشمَلُ عُمومُ هذا التَّذييلِ مُشرِكي العَرَبِ المَقصُودينَ مِن هذه الأمثالِ والعِبَرِ. وفي سورة (مريم) قال: ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم: ٣٧]، فجُعِلتِ الصلةُ فِعلَ (كفروا)؛ لأنَّ المقصودَ من آيةِ سُورةِ (مريم) الذين كفروا مِن النَّصارى؛ ولذلك أردفَ بقولِه: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ [مريم: ٣٨]؛ لَمَّا أُريدَ التَّخلُّصُ إلى إنذارِ المشركين بعدَ إنذارِ النَّصارَى[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٠).

الآيات (٦٦-٧٢)

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فَجأةً، والبَغْتُ: مُفاجأةُ الشَّيءِ مِن حيثُ لا يُحتَسَبُ[(١)].

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾: جمعُ خَليلٍ، وهو الصَّديقُ، مِنَ الخُلَّةِ، وهي: الصَّداقةُ والمَودَّةُ؛ لأنَّها تَتخَلَّلُ النَّفْسَ، أي: تَتوسَّطُها، وأصلُ (خلل): يدُلُّ على فُرجةٍ بينَ شَيئَينِ[(٢)].

﴿تُحْبَرُونَ﴾: أي: تُكرَمونَ وتُنَعَّمون وتُسَرُّونَ، والحَبْرةُ: السُّرورُ، وأصلُ (حبر): يدُلُّ على الأثَرِ في حُسنٍ وبَهاءٍ[(٣)].

﴿بِصِحَافٍ﴾: جَمعُ صَحْفةٍ، وهي القَصْعةُ العَريضةُ، وأصلُ (صحف): يدُلُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩، ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٧٣).

على انبِساطٍ في شَيءٍ وسَعةٍ[١].

﴿وَأَكْوَابٍ﴾: جَمعُ كُوبٍ، وهو الإناءُ المستديرُ الرَّأسِ، لا عُرْوةَ له (وهي ما يُمسَكُ منها) ولا خُرطومَ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ، وسوءَ عاقبةِ المكذبينَ: هل يَنتَظِرُ هؤلاء إلَّا القيامةَ تأتيهم فَجأةً وهم غافِلونَ؟! الأصدِقاءُ المُتخالُّونَ على معاصي اللهِ في الدُّنيا بَعضُهم أعداءٌ لِبَعضٍ يومَ القيامةِ إلَّا الذين اتَّقَوا رَبَّهم، فيقولُ اللهُ لهم: يا عبادِي لا خَوفٌ عليكم اليَومَ، ولا أنتم تَحزَنونَ على ما مضى، وهؤلاءِ العِبادُ هم الذين آمَنوا بآياتِ اللهِ وعَمِلوا بها، وكانوا مُنقادينَ للهِ تعالى.

يُقالُ لهم: ادخُلوا الجنَّةَ أنتم وأزواجُكم، فتُكرَمونَ فيها وتَسعَدونَ. ويُطافُ عليهم في الجنَّةِ بِقِصاعٍ مِن ذَهَبٍ وأكوابٍ، فيها ما يَشتَهونَه مِن ألوانِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وفي الجنَّةِ ما تَشتَهيه أنفُسُهم وتَلْتَذُّ برُؤيتِه أعيُنُهم، وهم في الجنَّةِ خالِدونَ أبدًا.

ويُقال لهم: تلك هي الجنَّةُ التي أورَثَكم اللهُ إيَّاها؛ بما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن الصَّالحاتِ، لكم فيها فواكِهُ كَثيرةٌ تأكُلونَ منها ما تَشتَهونَه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٧، ١٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ١٨٣) و(٣/ ٤٣٦).

قال ابن عطية: (الأكوابُ: ضربٌ مِن الأواني كالأباريقِ، إلَّا أنَّها لا آذانَ لها ولا مقابضَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٣).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٦٦ ﴾.

أي: ما يَنتَظِرونَ إلَّا يومَ القيامةِ الذي يأتيهم فَجأةً وهم غافِلونَ[١].

كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗ﴾[الأعراف: ١٨٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد نشَرَ الرَّجُلانِ ثَوبَهما بينَهما فلا يَتبايَعانِه ولا يَطويانِه! ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد انصرَفَ الرَّجُلُ بلَبَنِ لِقحَتِه[٢] فلا يَطعَمُه! ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وهو يَليطُ حَوضَه[٣] فلا يَسقي فيه! ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد رَفَع أحَدُكم أُكلَتَه إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣٩).

قيل: المرادُ بهم: الأحزابُ المُختَلِفونَ في شأنِ عيسى عليه السَّلامُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن جرير، ومكي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٤).

وقيل: المرادُ بهم: كُفَّارُ قريش. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتل بن سليمان، وابن الجوزي، وابن عطية، والعليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٩٨).

وممَّن ذهب إلى العُموم: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٥).

قال البقاعي: (لَمَّا عَمَّ الظَّالِمينَ بالوَعيدِ بذلك اليوم، فدَخَل فيه قُرَيشٌ وغَيرُهم؛ أتبَعَه ما هو كالتَّعليلِ مُبْرِزًا له في سياقِ الاستِفهامِ؛ لأنَّه أهوَلُ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٧٥).

(٢) اللِّقْحَةُ: النَّاقةُ الحَلوبُ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٣/ ٩٢).

(٣) يَليطُ حَوضَه: أي: يُطَيِّنُه ويُصلِحُه. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٣/ ٩٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٠٧).

فيه فلا يَطعَمُها!))[١].

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾[الزخرف: ٦٦]؛ ذَكَر عَقيبَه بَعضَ ما يَتعلَّقُ بأحوالِ القيامةِ[٢].

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

أي: الأصدِقاءُ المتصاحِبونَ على الكُفرِ والمعاصي في الدُّنيا يكونُ بَعضُهم أعداءً لِبَعضٍ يومَ القيامةِ، ويَتبَرَّأُ بَعضُهم مِن بَعضٍ إلَّا الذين اتَّقَوا اللهَ، فتآخَوا في الدُّنيا، وتَصاحَبوا على تَوحيدِ الله وطاعتِه ومَحبَّتِه[٣].

كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾[البقرة: ١٦٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[العنكبوت: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾[الزخرف: ٣٨].

وعن مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٩٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

وسلَّم يقولُ: ((قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: المتحابُّونَ في جَلالي لهم مَنابِرُ مِن نُورٍ، يَغبِطُهم[١] النَّبيُّونَ والشُّهَداءُ))[٢].

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨﴾.

أي: يَقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ لأولئك المتَّقينَ: يا عِبادي لا خَوفٌ عليكم في هذا اليَومِ مِن أمرٍ مُستَقبَلٍ؛ فإنِّي أُؤَمِّنُكم مِن الأهوالِ والعَذابِ، ولا أنتم تَحزَنونَ على ما مضى؛ فأنتم مُقدِمونَ على ما يَسُرُّكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۞ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ۞ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ [الإنسان: ١١].

---

(١) يَغبِطُهم: مِنَ الغِبْطةِ، وهي تَمنِّي نِعمةٍ على ألَّا تتحَوَّلَ عن صاحِبِها، بخِلافِ الحَسَدِ؛ فإنَّه تَمنِّي زوالِها عن صاحِبِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٠)، وأحمد (٢٢٠٨٠).

قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ. وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٣٩٠)، وصحَّح إسنادَه شُعَيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٦/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤٠).

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾.

أي: الذين آمَنوا بآياتِ اللهِ، وعَمِلوا بما جاءَتْهم به رسلُهم[١].

﴿وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾.

أي: وكانوا دَومًا خاضِعينَ لله، مُنقادينَ لِشَرعِه[٢].

﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما للمُؤمِنينَ؛ بِشارةً لهم، وترغيبًا لِغَيرِهم في اللَّحاقِ بهم على وَجهٍ فيه إجمالٌ؛ شَرَح ذلك بقَولِه[٣]:

﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

قال الواحدي: (قال مُقاتِلٌ: إذا وَقَع الخَوفُ يومَ القيامةِ نادى مُنادٍ: يا عبادي ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ﴾ يعني: مِنَ العذابِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ فإذا سُمِعَ النِّداءُ رَفَع الخلائِقُ رُؤوسَهم، فيُقالُ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾، فيُنَكِّسُ أهلُ الأديانِ رُؤوسَهم غيرَ المُسلِمينَ. قال أبو إسحاق [الزَّجَّاج] ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في مَوضِعِ نَصبٍ على النَّعتِ لـ «عِبَادِي» ... وقيل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ابتِداءٌ وخَبَرُه مُضمَرٌ على تقديرِ: يُقالُ لهم: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ ﴾، أو يكونُ الخَبَرُ ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم ﴾، ويجوزُ أن يكونَ التَّقديرُ: هم الَّذين آمَنوا بآياتِنا). ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٧٣). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٧).

أي: ادخُلوا الجنَّةَ أنتم وأزواجُكم[(١)]، فتُكرَمونَ فيها، وتُسَرُّونَ سُرورًا بالِغًا[(٢)].

كما قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ [الرعد: ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۞ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ

---

(١) قال الماوَرْدي: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: هم وأزواجُهم المؤمِناتُ في الدُّنيا. الثَّاني: وَمن يُزَوَّجُونَ مِن الحُورِ في الآخِرةِ. الثَّالثُ: هم وقُرَناؤُهم في الدُّنيا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٣٨).

وممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ: القرطبيُّ، والبيضاوي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٨).

قال الشنقيطي: (قولُه تعالى في هذه الآيةِ: ﴿وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ فيه لعُلماءِ التَّفسيرِ وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ المرادَ بأزواجِهم: نُظراؤُهم وأشباهُهم في الطَّاعةِ وتقوى الله. واقتصر على هذا القولِ ابنُ كثير.

والثَّاني: أنَّ المرادَ بأزواجِهم: نساؤُهم في الجنَّةِ؛ لأنَّ هذا الأخيرَ أبلَغُ في التَّنعُّمِ والتَّلذُّذِ مِن الأوَّلِ؛ ولذا يَكثُرُ في القرآنِ ذِكرُ إكرامِ أهلِ الجنَّةِ بكَونِهم مع نسائِهم، دونَ الامتِنانِ عليهم بكَونِهم مع نُظرائِهم وأشباهِهم في الطَّاعةِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٤٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨).

وممَّن ذهب إلى العُمومِ: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

قال السعدي: (أي: مَن كان على مِثْلِ عَمَلِكم مِن كُلِّ مُقارِنٍ لكم؛ مِن زَوجةٍ، ووَلَدٍ، وصاحِبٍ، وغَيرِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤٢، ١٤٣).

قال الشنقيطي: (قَولُه: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ أقوالُ العُلَماءِ فيه راجِعةٌ إلى شَيءٍ واحِدٍ، وهو أنَّهم يُكرَمونَ بأعظَمِ أنواعِ الإكرامِ وأتَمِّها). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٤٣).

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ * لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [يس: ٥٥ - ٥٧].

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾.

أي: يُطافُ عليهم في الجنَّةِ بقِصاعٍ مِن ذَهَبٍ فيها أنواعٌ مِن الطَّعامِ، وبأوعيةٍ للشُّربِ فيها أنواعٌ مِنَ الشَّرابِ[1].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة: ١٧ - ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦].

وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا تَلبَسوا الحَريرَ ولا الدِّيباجَ[2]، ولا تَشرَبوا في آنيةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، ولا تأكُلوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٣ - ٦٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

ذهب بَعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الأكوابَ مِن فِضَّةٍ؛ قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بن سليمان، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

وذهب بَعضُهم إلى أنَّ الأكوابَ مِن ذَهَبٍ، كالصِّحافِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨).

(٢) الدِّيباجُ: هو نَوعٌ مِن الحريرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٧٤٩).

في صِحافِها؛ فإنَّها لهم في الدُّنيا، ولنا في الآخِرةِ))[١].

وعن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، قال: سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ يأكُلونُ فيها ويَشرَبونَ، ولا يَتفِلونَ ولا يَبولونَ، ولا يَتغوَّطونَ ولا يَمتَخِطونَ. قالوا: فما بالُ الطَّعامِ؟ قال: جُشَاءٌ ورَشْحٌ كرَشْحِ المِسكِ، يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ كما تُلهَمونَ النَّفَسَ[٢]))[٣].

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾.

أي: وفي الجنَّةِ ما تَشتَهيه أنفُسُهم مِن المأكولاتِ والمَشروباتِ والمَلبوساتِ، والمَسموعاتِ والمَرئيَّاتِ، والمساكِنِ والمناكِحِ، وغيرِ ذلك مِن أنواعِ المَلَذَّاتِ والمَسرَّاتِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((قال اللهُ: أعدَدْتُ لِعبادِيَ الصَّالِحينَ ما لا عَينٌ رأَت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَر على قَلبِ بَشَرٍ، فاقرَؤوا إن شِئتُم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]))[٥].

---

(١) رواه البخاري (٥٤٢٦) واللفظ له، ومسلم (٢٠٦٧).

(٢) النَّفَسُ: أي: التَّنَفُّسُ، والمعنى: لا يَتعَبونَ مِن التَّسبيحِ والتَّهليلِ كما لا تَتعَبون أنتم مِن النَّفَسِ؛ بحيث يصيرُ الذِّكرُ صِفةً لازِمةً لا ينفكُّونَ عنها كالنَّفَسِ اللَّازِمِ للحيوانِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٥٨٢).

(٣) رواه مسلم (٢٨٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٥)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٥) رواه البخاري (٣٢٤٤) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٤).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَومًا يُحَدِّثُ وعِندَه رجُلٌ مِن أهلِ الباديةِ: أنَّ رَجُلًا مِن أهلِ الجنَّةِ استأذَنَ رَبَّه في الزَّرعِ، فقال له: ألَسْتَ فيما شِئتَ؟! قال: بلى، ولكِنِّي أُحِبُّ أن أزرَعَ! قال: فبَذَرَ فبادَرَ الطَّرْفَ نباتُه[1] واستِواؤُه واستِحصادُه، فكان أمثالَ الجِبالِ! فيَقولُ اللهُ: دُونَك[2] يا ابنَ آدَمَ؛ فإنَّه لا يُشبِعُك شَيءٌ! فقال الأعرابيُّ: واللهِ لا تَجِدُه إلَّا قُرَشيًّا أو أنصاريًّا؛ فإنَّهم أصحابُ زَرعٍ! وأمَّا نحن فلَسْنا بأصحابِ زَرعٍ. فضَحِكَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[3].

وعن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ الرَّجُلَ مِن أهلِ الجنَّةِ يُعطى قُوَّةَ مِئةِ رجُلٍ في الأكلِ والشُّربِ والشَّهوةِ والجِماعِ! فقال رجُلٌ مِن اليَهودِ: فإنَّ الذي يأكُلُ ويَشرَبُ تكونُ له الحاجةُ. فقال له رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: حاجةُ أحَدِهم عَرَقٌ يَفيضُ مِن جِلدِه، فإذا بَطنُه قد ضَمُرَ[4]))[5].

﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾.

أي: وفي الجنَّةِ ما تَلْتَذُّ برُؤيتِه أعينُهم؛ لحُسنِه وجمالِه[6].

---

(١) فبادَرَ الطَّرفَ نباتُه: أي: فسابَقَه نباتُه وحَصَل في الحالِ. والطَّرْفُ: هو امتِدادُ لَحْظِ الإنسانِ حيث أدرَكَ. وقيل: طَرْفُ العَينِ: حَرَكتُها، أي: تحَرُّكُ أجفانِها. يُنظر: ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (١٥/ ٢٩٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٠٠).

(٢) دُونَك يا ابنَ آدَمَ: أي: خُذْ ما تمنَّيتَه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٠٠).

(٣) رواه البخاري (٢٣٤٨).

(٤) ضَمُرَ: أي: ذَهَب رَهَلُه، واشتَدَّ لَحْمُه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٩٩).

(٥) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٧٨)، وأحمد (١٩٣١٤) واللفظ له.
صَحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٦٢٧)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (٣٥٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٢/ ٦٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((أضواء البيان)) =

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: وأنتم في الجنَّةِ ماكِثونَ، لا يَنقَطِعُ نَعيمُها عنكم، ولا أنتم منها تُخرَجونَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: يُقالُ لهم: وتلك هي الجنَّةُ العاليةُ المقامِ التي أعطاكم اللهُ إيَّاها؛ بسَبَبِ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ[(٢)].

= للشنقيطي (٧/ ١٤٣).

قال البقاعي: (﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ مِنَ الأشياءِ المُبصَرةِ التي أعلاها النَّظَرُ إلى وَجهِه الكريمِ تعالى!). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٧٩). ويُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٩٤)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٩، ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧١، ٤٧٢) و (٧/ ١٤٦).

قال الرازي: (﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ فيه قولانِ: القَولُ الأوَّلُ، وهو قولُ أهلِ المعاني: أنَّ معناه: صارت إليكم كما يصيرُ الميراثُ إلى أهلِه، والإرثُ قد يُستعمَلُ في اللُّغةِ ولا يرادُ به زوالُ المُلكِ عن الميِّتِ إلى الحَيِّ، كما يُقالُ: هذا العَمَلُ يُورِثُك الشَّرَفَ، ويُورِثُك العارَ، أي: يُصيِّرُكُ إليه، ومنهم من يقولُ: إنَّهم أُعطُوا تلك المنازِلَ مِن غيرِ تَعَبٍ في الحالِ؛ فصار شبيهًا بالميراثِ. والقولُ الثاني: أنَّ أهلَ الجنَّةِ يُورَثونَ مَنازِلَ أهلِ النَّارِ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٤).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ في الجملةِ: الزمخشريُّ، والشوكاني، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧١، ٤٧٢).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((الهداية =

كما قال تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومَنزِلٌ في النَّارِ، فإذا مات فدَخَل النَّارَ وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذلك قَولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]))[(١)].

﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الطَّعامَ والشَّرابَ فيما تَقَدَّم، ذكَرَ هاهنا حالَ الفاكِهةِ[(٢)].

﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣﴾.

= إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٠١).

قال الشنقيطي: (معنى إيراثِهم الجنَّةَ: الإنعامُ عليهم بالخُلودِ فيها في أكمَلِ نَعيمٍ وسُرورٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٧١، ٤٧٢).

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣٤١)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٣٧٧) واللفظ لهما، والبزار (٩١٥٢) مختَصَرًا.

صَحَّح إسنادَه القرطبيُّ المفَسِّر في ((التذكرة)) (٤٣٥)، والبوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٢٦٦) وقال: (على شرط الشيخينِ)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٤٥١)، وذكر الشوكاني في ((تفسيره)) (٣/ ٦٧٣) أنَّ له شاهِدًا في مسلم. وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٢).

أي: لكم فيها فَواكِهُ كَثيرةٌ مُتنوِّعةٌ تَأكُلونَ منها ما اشتَهيتُم واختَرتُم[١].

كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [يس: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الدخان: ٥٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فيه أنَّ الخُلَّةَ إذا كانت على المَعصيةِ والكُفرِ صارت عَداوةً يومَ القيامةِ، أمَّا المتَّقونَ المُوحِّدونَ الَّذين يُخالِلُ بَعضُهم بعضًا على الإيمانِ والتَّقوى، فإنَّ خُلَّتَهم لا تَصيرُ عَداوةً[٢]، فكُلُّ صَداقةٍ وصَحابةٍ لغيرِ اللهِ فإنَّها تَنقَلِبُ يومَ القيامةِ عَداوةً إلَّا ما كان لله عزَّ وجَلَّ؛ فإنَّه دائِمٌ بدَوامِه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أنَّ المُتَحابِّينَ في الدُّنيا إذا كانوا مِن أهلِ الجنَّةِ ومِن المتَّقينَ، فإنَّهم يَتلاقَونَ في الآخِرةِ، ولا تَزولُ المَوَدَّةُ بيْنَهم[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ فيه أنواعٌ كَثيرةٌ مِمَّا يُوجِبُ الفَرَحَ:

أوَّلُها: أنَّ الحَقَّ سُبحانَه وتعالى خاطَبَهم بنَفْسِه مِن غيرِ واسِطةٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٦٩٩).

وثانيها: أنَّه تعالى وصَفَهم بالعُبوديَّةِ، وهذا تَشريفٌ عَظيمٌ، بدَليلِ أنَّه لَمَّا أراد أن يُشَرِّفَ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم ليلةَ المعراجِ قال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

وثالثُها: قَولُه: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ فأزال عنهم الخَوفَ في يومِ القيامةِ بالكُلِّيَّةِ، وهذا مِن أعظَمِ النِّعَمِ.

ورابِعُها: قَولُه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، فنفى عنهم الحُزنَ بسَبَبِ فَوتِ الدُّنيا الماضيةِ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ ظاهِرُه المُغايَرةُ بينَ الإيمانِ والإسلامِ، وقد دَلَّت بعضُ الآياتِ على اتِّحادِهما، كقَولِه تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، ولا مُنافاةَ في ذلك؛ فإنَّ الإيمانَ يُطلَقُ تارةً على جميعِ ما يُطلَقُ عليه الإسلامُ مِن الاعتِقادِ والعَمَلِ، كما ثَبَت في الصَّحيحِ في حديثِ وَفدِ عبدِ القَيسِ[٢]، والأحاديثُ بمِثلِ ذلك كثيرةٌ جِدًّا. ومِن أصرَحِها في ذلك قَولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((الإيمانُ بِضعٌ وسَبعونَ))[٣]، وفي بعض الرِّواياتِ الثَّابتةِ في الصَّحيحِ: ((بِضعٌ وسِتُّونَ شُعبةً، فأفضلها قول: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطَّريقِ))[٤]؛ فقد سَمَّى صلَّى الله عليه وسلَّم إماطةَ الأذى عن الطَّريقِ إيمانًا، فالإيمانُ الشَّرعيُّ التَّامُّ والإسلامُ الشَّرعيُّ التَّامُّ: مَعناهما واحِدٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٢).

(٢) الحديث أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧) من حديث ابن عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٩) مختصرًا، ومسلم (٣٥) واللَّفظُ له من حديث أبي هُريرةَ رضيَ الله عنه.

وقد يُطلَقُ الإيمانُ إطلاقًا آخَرَ على خُصوصِ رُكنِه الأكبَرِ الذي هو الإيمانُ بالقَلبِ، كما في حديثِ جِبريلَ الثَّابتِ في الصَّحيحِ: ((ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلَحَت صَلَح الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فسَدت فسَد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القَلبُ))[١] فغَيرُه تابعٌ له، وعلى هذا تَحصُلُ المغايَرةُ في الجُملةِ بين الإيمانِ والإسلامِ. فالإيمانُ على هذا الإطلاقِ اعتِقادٌ، والإسلامُ شامِلٌ للعَمَلِ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ قد عمَّ كلَّ ما تتَعَلَّقُ الشَّهواتُ النَّفسيَّةُ بنَوالِه وتَحصيلِه، واللهُ يَخلُقُ في أهلِ الجَنَّةِ الشَّهَواتِ اللَّائِقَةَ بعالَمِ الخُلودِ والسُّمُوِّ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ بِشارَةٌ لهم بعَدَمِ انقِطاعِ الحَبرَةِ، وسَعَةِ الرِّزقِ، ونَيلِ الشَّهواتِ، وإتمامٌ للنِّعمَةِ، وإكمالٌ للسُّرورِ؛ فإنَّ كُلَّ نَعيمٍ له زَوالٌ بالآخِرَةِ مُقارِنٌ لخَوفِه لا مَحالَةَ، مُوجِبٌ لِكُلْفَةِ الحِفظِ، وخَوفِ الزَّوالِ، ومُستَعقِبٌ للتَّحَسُّرِ في ثاني الحالِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الأعمالَ سبَبٌ لدُخولِ الجنَّةِ[٥].

٧- قال تعالى: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأثبَتَ اللهُ تعالى دُخولَ الجنَّةِ بالأعمالِ في قَولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بيْنَما نفى رَسولُ اللهِ صلَّى الله

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النُّعمانِ بنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤٠، ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٣٦).

عليه وسلَّم دُخولَها بالأعمالِ، بقَولِه: ((لا يدخلُ أحدٌ منكم الجنَّةَ بعملِه))[١]، ولا تنافيَ بينهما؛ وذلك لوجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ الباءَ الَّتي نَفَت الدُّخولَ هي باء المُعاوَضةِ الَّتي يكونُ فيها أحَدُ العِوَضَينِ مُقابِلًا للآخَرِ، والباءَ التي أثبَتَت الدُّخولَ هي باءُ السَّبَبيَّةِ التي تَقتَضي سَبَبيَّةَ ما دخَلَت عليه لِغَيرِه، وإنْ لم يكُنْ مُستَقِلًّا بحُصولِه[٢].

الثَّاني: ما ذكَرَه سُفيانُ وغَيرُه، قال: كانوا يقولونَ: (النَّجاةُ مِن النَّارِ بعَفوِ اللهِ، ودُخولُ الجنَّةِ برَحمتِه، واقتِسامُ المنازِلِ والدَّرَجاتِ بالأعمالِ).

الثَّالِثُ: أنَّ دُخولَ الجنَّةِ بسَبَبِ الأعمالِ، ثمَّ التَّوفيقُ للأعمالِ والهدايةُ للإخلاصِ فيها وقَبولُها: برَحمةِ اللهِ تعالى وفَضلِه؛ فيَصِحُّ أنَّه لم يدخُلْ بمُجَرَّدِ العَمَلِ، وهو مرادُ الأحاديثِ، ويَصِحُّ أنَّه دخَلَ بالأعمالِ، أي: بسَبَبِها، وهي مِنَ الرَّحمةِ[٣].

الرَّابعُ: يُحمَلُ الحَديثُ على أنَّ العَمَلَ مِن حيثُ هو عَمَلٌ لا يَستفيدُ به العامِلُ دُخولَ الجنَّةِ ما لم يكُنْ مَقبولًا، وإذا كان كذلك فأمْرُ القَبولِ إلى اللهِ تعالى، وإنَّما يَحصُلُ برَحمةِ اللهِ لِمن يُقبَلُ منه، وعلى هذا فمَعنى قَولِه: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، أي: تَعمَلونَه مِن العَمَلِ المَقبولِ، ولا يَضُرُّ بعد هذا أن تكونَ الباءُ للمُصاحَبةِ، أو للإلصاقِ، أو المقابَلةِ، ولا يَلزَمُ مِن ذلك أن تكونَ سَببيَّةً[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦)، وأحمد (٧٤٧٣) واللَّفظُ له من حديث أبي هُريرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٨٧).

(٣) يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٢٩٦، ٢٩٧).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ بتَنزيلِ سامِعِ قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥] مَنزِلَةَ مَن يَطلُبُ البَيانَ، فيَسأَلُ: مَتَى يَحُلُّ هذا اليَومُ الأَليمُ؟ وما هو هذا الوَيلُ؟ فوَرَدَت جُملةُ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ جَوابًا عن الشِّقِّ الأوَّلِ مِن السُّؤالِ، وسَيجيءُ الجَوابُ عن الشِّقِّ الثَّاني في قَولِه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وفي قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤] الآياتِ[(١)].

- وقد جرَى الجَوابُ في قَولِه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ...﴾ على طَريقةِ الأُسلوبِ الحَكيمِ[(٢)]، والمعنى: أنَّ هذا العَذابَ واقِعٌ لا مَحالةَ، سَواءٌ قَرُبَ زَمانُ وُقوعِه أمْ بَعُدَ؛ فلا يَرِيبُكُم عَدَمُ تَعجيلِه، وقد أشعَرَ بهذا المَعنَى تَقييدُ إتيانِ السَّاعَةِ بقَيدِ ﴿بَغْتَةً﴾؛ فإنَّ الشَّيءَ الَّذي لا تَسبِقُه أمارَةٌ لا يُدرَى وَقتُ حُلولِه[(٣)].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ إنكارِيٌّ، أي: لا يَنتَظِرون بعْدَ أنْ أَشرَكوا لحُصولِ العَذابِ إلَّا حُلولَ السَّاعةِ، وعبَّر عن اليَومِ بالسَّاعَةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥١).

(٢) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأَولى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥١).

تَلميحًا لِسُرعَةِ ما يَحصُلُ فيه[١].

- وفائِدةُ ذِكْرِ جُملةِ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بعْدَ قَولِه: ﴿بَغْتَةً﴾ -أي: فَجأَةً-: أنَّ السَّاعَةَ تَأتِيهم وهم غافِلُون، مَشغُولُون بأُمورِ دُنياهُم؛ فلَولا قَولُه: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لَجازَ أنْ تَأتِيَهُم بَغتَةً وهم يَقِظُون حَذِرُون مُستَعِدُّون لها، ولَمَّا كان مَدلولُ ﴿بَغْتَةً﴾ يَقتَضِي عَدَمَ الشُّعورِ بوُقُوعِ السَّاعَةِ حين تَقَعُ عليهم؛ كانت جُملَةُ الحالِ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مُؤَكِّدَةً للجُملَةِ التي قَبلَها[٢].

- ويَجوزُ أن يُرادَ بـ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ الإثباتُ؛ لأنَّ الكلامَ وارِدٌ على الإنكارِ، كأنَّه قيل: هل تَزعُمون أنَّها تَأتيهم بَغتَةً وهم لا يَشعُرون؟ أي: لا يَكونُ ذلك، بلْ تَأتيهِم وهم فَطِنون[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾

- قَولُه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إلى قَولِه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ استِئنافٌ يُفيدُ أمْرَينِ؛ أحدُهُما: بَيانُ بَعضِ الأهوالِ الَّتِي أشارَ إليها إجمالُ التَّهديدِ في قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥]. وثانيهُما: مَوعِظَةُ المُشرِكين بما يَحصُلُ يَومَ القِيامَةِ مِن الأهوالِ لأمثالِهِم، والحَبْرَةِ للمُؤمِنين[٤].

- وقدْ أُوثِرَ بالذِّكرِ هنا مِن الأَهوالِ ما له مَزيدُ تَناسُبٍ لحالِ المُشرِكين في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٧١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٢).

تَأَلُّبِهم على مُناوأَةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ودِينِ الإسلامِ؛ فإنَّهم ما ألَّبَهم إلَّا تَناصُرُهم وتَوادُّهم في الكُفرِ والتَّباهِي بذلك بيْنَهم في نَوادِيهم وأسمارِهم؛ قال تعالى حِكايةً عن إبراهيمَ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وتلك شنْشَنةُ أهلِ الشِّركِ مِن قبْلُ، أي: عادتُهم المستمِرَّةُ(١).

- والمُضافُ إليه (إذ) مِن قَولِه: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ هو المُعَوَّضُ عنه التَّنوينُ؛ دلَّ عليه المَذكورُ قَبلَه في قَولِه: ﴿مِنۡ عَذَابٖ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾(٢) [الزخرف: ٦٥].

- وتَعريفُ (الأخِلَّاءِ) تَعريفُ الجنسِ، وهو مُفيدٌ استِغراقًا عُرفِيًّا، أي: الأخِلَّاءُ مِن فَريقَيِ المُشرِكين والمُؤمِنين، أو الأخِلَّاءُ مِن قُرَيشٍ المُتَحَدَّثِ عنهم(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ مَقولَةٌ لقَولٍ مَحذوفٍ دلَّت عليه صِيغَةُ الخِطابِ، أي: نَقولُ لهم، أو: يَقولُ اللهُ لَهُم؛ تَشريفًا لهم، وتَطييبًا لقُلوبِهم(٤).

- ومُفاتَحةُ خِطابِهم بنَفيِ الخَوفِ عنهم تَأْنيسٌ لهم، ومِنَّةٌ بإنْجائِهم مِن مِثلِه، وتَذكيرٌ لهم بسَبَبِ مُخالَفَةِ حالِهم لحالِ أهلِ الضَّلالَةِ؛ فإنَّهم يُشاهِدون ما يُعامَلُ به أهلُ الضَّلالَةِ والفَسادِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٣).

- وقولُه: ﴿لَا خَوۡفٌ﴾ مَرفوعٌ مُنَوَّنٌ في جَميعِ القِراءاتِ المَشهورَةِ، وإنَّما لم يُفتَحْ؛ لأنَّ الفَتْحَ على تَضمينِ (مِن) الزَّائِدَةِ المُؤَكِّدَةِ للعُموم، وإذ قد كان التَّأكيدُ مُفيدًا التَّنصيصَ على عَدَمِ إرادَةِ نَفْيِ الواحِدِ، وكان المَقامُ غَيرَ مَقامِ التَّرَدُّدِ في نَفْيِ جِنسِ الخَوفِ عنهم؛ لأنَّه لم يَكُنْ واقِعًا بهم حِينَئِذٍ مع وُقوعِه على غَيرِهم، فأمارَةُ نَجاتِهم منه واضِحَةٌ -لم يُحْتَجْ إلى نَصبِ اسمِ (لا)[1].

- وجِيءَ في قَولِه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ بالمُسنَدِ إليه مُخبَرًا عنه بالمُسنَدِ الفِعلِيِّ؛ لإفادَةِ التَّقَوِّي في نَفيِ الحُزنِ عنهم؛ فالتَّقَوِّي أفاد تَقَوِّيَ النَّفيِ لا نَفْيَ قُوَّةِ الحُزنِ الصَّادِقِ بحُزنٍ غَيرِ قَوِيٍّ، هذا هو طَريقُ الاستِعمالِ في نَفسِ صِيَغِ المُبالَغَةِ؛ تَطمينًا لأنفُسِهم بانتِفاءِ الحُزنِ عنهم في أزمِنَةِ المُستَقبَلِ؛ إذ قد يَهجِسُ بخَواطِرِهم: هل يَدومُ لهم الأمنُ الَّذي هم فيه؟[2]

- وفي قَولِه: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ * ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إيجازٌ؛ وذلك في نِداءِ اللهِ تعالى لعِبادِه؛ فقد اشتَمَل هذا النِّداءُ على أُمورٍ أربَعَةٍ: نَفَى عنهم الخَوفَ، ونَفَى عنهم الحُزنَ، وأمَرَهم بدُخولِ الجَنَّةِ، وبَشَّرَهم باستِحواذِ السُّرورِ على أنفُسِهم[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾

- جُملةُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ...﴾ نعتٌ لِلمُنادى مِن قولِه: ﴿يَٰعِبَادِ﴾، جِيءَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠٥).

فيها بالموصولِ؛ لِدَلالةِ الصِّلةِ على عِلَّةِ انتفاءِ الخَوفِ والحُزْنِ عنهم[١].

- وقَولُه: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ حالٌ مِن الواوِ في قولِه: ﴿ءَامَنُوا۟﴾، أي: الَّذين آمَنُوا مُخلِصِين، غَيرَ أنَّ هذه العِبارَةَ آكَدُ وأبلَغُ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ عَطْفُ أزواجِهم عليهم في الإذنِ بدُخولِ الجَنَّةِ مِن تَمامِ نِعمَةِ التَّمَتُّعِ بالخُلَّةِ التي كَانَت بيْنَهم وبيْنَ أزواجِهم في الدُّنيَا[٣]. على قولٍ في التَّفسيرِ.

٦- قولُه تعالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ حُذِفَ وَصْفُ الأكوابِ؛ لدَلالَةِ وَصفِ صِحافٍ عليه، أي: وأكوابٍ مِن ذَهَبٍ[٤]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- ولَذَّةُ الأَعيُنِ في رُؤيَةِ الأشكالِ الحَسَنَةِ والألوانِ التي تَنشَرِحُ لها النَّفسُ؛ فلَذَّةُ الأَعيُنِ وَسيلَةٌ لِلَذَّةِ النُّفوسِ؛ فعَطْفُ ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ على ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ عَطْفُ ما بيْنه وبيْن المَعطوفِ عليه عُمومٌ وخُصوصٌ، وذلك تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصِ ما يُعَدُّ مِن الزَّوائِدِ في التَّنَعُّمِ والتَّلَذُّذِ؛ فقد تَشتَهي الأنفُسُ ما لا تَراهُ الأَعيُنُ؛ كالمُحادَثَةِ مع الأصحابِ، وسَماعِ الأصواتِ الحَسَنَةِ، وقد تُبصِرُ الأعيُنُ ما لم تَسبِقْ للنَّفسِ شَهوَةُ رُؤيَتِه، أو ما اشتَهَت النَّفسُ طَعْمَه أو سَمْعَه، فيُؤتَى به في صُوَرٍ جَميلَةٍ إكمالًا للنِّعمَةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٥).

- و﴿ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ فاعِلُ (تَلَذُّ)، وحُذِفَ المَفعولُ لظُهورِهِ مِن المَقامِ[١].

- وفي قَولِه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ إيجازٌ؛ فقَد حَصَر أنواعَ النِّعَمِ؛ لأنَّها لا تَعدُو أمْرَين اثنَين: إمَّا مُشتَهاةٌ في القُلوبِ، وإمَّا مُستَلَذَّةٌ في العُيونِ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الْتفاتٌ مِن الغائِبِ للمُتَكَلِّمِ، وهو الْتِفاتٌ للتَّشريفِ[٣].

- وجِيءَ بالجُملةِ الاسمِيَّةِ الدَّالَّةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ؛ تَأكيدًا لحَقيقَةِ الخُلودِ؛ لِدَفعِ تَوَهُّمِ أنْ يُرادَ به طُولُ المُدَّةِ فحَسْبُ[٤].

- وتَقديمُ المَجرورِ ﴿فِيهَا﴾؛ للاهتِمامِ[٥].

- وفي الخِطابِ والالْتِفاتِ، وتَقديمِ الظَّرفِ في قَولِه: ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ما لا يَكتَنِهُه الوَصفُ[٦].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ عُطِفَ على بَعضِ ما يُقالُ لهم مَقولٌ آخَرُ قُصِدَ منه التَّنويهُ بالجَنَّةِ وبالمُؤمِنين؛ إذْ أُعطُوها بسَبَبِ أعمالِهِمُ الصَّالِحَةِ، فأُشيرَ إلى الجَنَّةِ باسمِ إشارَةِ البَعيدِ؛ تَعظيمًا لشَأنِها، وإلَّا فإنَّها حاضِرَةٌ نُصبَ أعيُنِهِم؛ وهو تَذييلٌ للقَولِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٧٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

- ودلَّ قَولُه: ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على أنَّ عَمَلَهُم أمْرٌ كائِنٌ مُتَقَرِّرٌ، وأنَّ عَمَلَهم ذلك مُتَكَرِّرٌ مُتَجَدِّدٌ، أي: غَيرُ مُنقَطِعٍ إلى وَفاتِهِم[١].

٨- قولُه تعالَى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

- قَولُه: ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (مِن) للتَّبعيضِ، أي: لا تَأكلُون إلَّا بَعضَها؛ لكَثرَتِها ودَوامِ نَوعِها، وأَعقابُها باقِيَةٌ في شَجَرِها؛ فهي مُزَيَّنَةٌ بالثِّمارِ أبدًا مُورِقَةٌ بها، لا تَرَى شَجَرَةً عُريانَةً مِن ثَمَرِها كما في الدُّنيا[٢].

- ووَجْهُ تَكريرِ الامتنانِ بنَعيمِ المأْكلِ والمشْرَبِ في الجنَّةِ: أنَّ ذلك مِن النَّعيمِ الذي لا تَختَلِفُ الطِّباعُ البَشَرِيَّةُ في استِلذاذِهِ؛ ولذلك قال: منها تأكلون[٣]، وقيل غير ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦).

الآيات (٧٤-٨٠)

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَا يُفَتَّرُ﴾: أي: لا يُخَفَّفُ، والفُتورُ: سكونٌ بعْدَ حدَّةٍ، ولِينٌ بعْدَ شدَّةٍ، وضعْفٌ بعْدَ قوَّةٍ، وأصلُ (فتر): يدُلُّ على ضَعفٍ[(١)].

﴿مُبْلِسُونَ﴾: أي: آيِسونَ قانِطونَ، وأصْلُ (بلس): يدُلُّ على يَأسٍ[(٢)].

﴿مَّٰكِثُونَ﴾: أي: لابِثون ثابِتون مُنتظِرون في النَّارِ، مِن المُكثِ: وهو ثَباتٌ مع انتظارٍ[(٣)].

﴿أَبْرَمُوٓا۟﴾: أي: أحْكَموا، وأصلُ (برم) هنا: يدُلُّ على إحكامِ شَيءٍ، مِن إبرامِ الحَبْلِ، وهو تَرديدُ فتْلِه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٧٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٠).

﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾: أي: ما يَتَسارُّونَ به بيْنَهم، وأصلُ (نجو): يدُلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مبيِّنًا حالَ الأشقياءِ يومَ القِيامةِ: إنَّ المُجرِمينَ في عَذابِ جَهنَّمَ ماكِثونَ أبدًا، لا يُخفَّفُ عنهم العَذابُ، وهم فيه آيِسونَ مِن كلِّ خَيرٍ، وما ظلَمْناهم ولكِنْ همْ ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ باللهِ والعِصيانِ.

ونادَوا مالِكًا خازِنَ النَّارِ، فقالوا: يا مالِكُ، لِيَقضِ علينا رَبُّك؛ لِنَستريحَ مِمَّا نحنُ فيه مِن العذابِ! فقال لهم مالِكٌ: إنَّكم باقونَ في العَذابِ أبدًا؛ لقدْ أُرسِلَ إليكم الرُّسُلُ بالحَقِّ مِن رَبِّكم، ولكِنَّ أكثَرَكم كانوا كارِهينَ للحَقِّ فلم يُؤمِنوا!

ثمَّ يقولُ اللهُ تعالَى مُوبِّخًا للمشركينَ: أمْ أَحْكَمَ أولئك المُشرِكونَ أمْرًا؛ لِيَكيدوا به الحَقَّ وأهلَه؟! فإنَّ اللهَ تعالَى مُحكِمٌ أمرًا لكَيدِهم به!

أمْ يَحسَبونَ أنَّ اللهَ لا يَسمَعُ ما يُسِرُّونَه في أنفُسِهم، وما يَتناجَونَ به فيما بيْنَهم مِنَ الكلامِ الخَفيِّ، فلا يُؤاخِذُهم به؟! بلَى! لم يَغِبْ عنَّا شَيءٌ مِن شأنِهم، وسنُجازيهم عليه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا ذَكَر الوَعدَ أردَفَه بالوَعيدِ؛ على التَّرتيبِ المُستَمِرِّ في القُرآنِ[٢]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٢ - ٧٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٣).

فلمَّا ذَكَر تعالَى حالَ أهلِ الجنَّةِ، وما يُقالُ لهم مِن لَذائِذِ البِشارةِ؛ أَعقَبَ ذلك بذِكرِ حالِ الكَفَرةِ وما يُجاوَبونَ به عند سُؤالِهم[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر ما للقِسمِ الثَّاني مِن الأخِلَّاءِ -وهم المتَّقونَ- تَرغيبًا لهم في التَّقوى؛ أتْبَعَه ما لأضدادِهم -أهلِ القِسمِ الأوَّلِ-؛ تَحذيرًا مِن مِثلِ أعمالِهم[٢].

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

أي: إنَّ الذين أجْرَموا في الدُّنيا بالكُفرِ باللهِ، وتَكذيبِ رُسُلِه، وعِصيانِ أمرِه: في عَذابِ جَهنَّمَ ماكِثونَ أبدًا[٣].

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾.

أي: لا يُخفَّفُ عنهم العَذابُ ولو ساعةً واحِدةً[٤].

﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

أي: وهم في عَذابِ جَهنَّمَ آيِسونَ مِن النَّجاةِ، غيرُ راجِينَ للفَرَجِ[٥].

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٨١-٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها جُملةٌ مُعتَرِضةٌ في حِكايةِ أحوالِ المُجرِمينَ، قُصِدَ منها نَفيُ استِعظامِ ما جُوزُوا به مِن الخُلودِ في العَذابِ، ونَفيُ الرِّقَّةِ لحالِهم المحكيَّةِ بِقَولِه تعالَى: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[1].

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦﴾.

أي: وما ظَلَمْناهم ولكِنْ هم ظَلَموا أنفُسَهم في الدُّنيا بالشِّركِ باللهِ، وجُحودِهم آياتِه، وتَكذيبِهم رُسُلَه، وعِصيانِهم لأمْرِه[2].

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾.

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

أي: ونادَى المُجرِمونَ -وهُمْ في النَّارِ- مالِكًا خازِنَ النَّارِ، فقالوا: يا مالِكُ، لِيُمِتْنا رَبُّك فيَقبِضْ أرواحَنا؛ لِنَستريحَ مِمَّا نحن فيه مِنَ العَذابِ[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

قال ابنُ الجَوزي: (قال المفسِّرون: يَدْعُون مالكًا خازنَ النَّارِ، فيقولون: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: لِيُمِتْنا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٤).

وقال ابنُ تَيميَّةَ: (قال ابنُ زيْدٍ: القَضاءُ هاهنا: الموتُ، وكذلك قال سائِرُ المفَسِّرينَ). ((الرد على من قال بفناء الجنة والنار)) (ص: ٧٣).

وقال ابنُ عاشورٍ: (خاطَبوه لِيَرفَعَ دَعوتَهم إلى اللهِ تعالى شَفاعةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٩).

وقال الشنقيطيُّ: (الظَّاهِرُ أنَّ المعنى: أنَّ مُرادَهم بذلك سؤالُ مالِكٍ خازِنِ النَّارِ أنْ يدْعوَ اللهَ =

كما قال الله تبارك وتعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾ [فاطر: ٣٦].

وقال سُبحانَه وتعالَى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١ - ١٣].

وعن سَمُرةَ بنِ جُندُبٍ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((رأيتُ اللَّيلةَ رَجُلينِ أتَياني قالَا: الَّذي يُوقِدُ النَّارَ مالِكٌ خازِنُ النَّارِ، وأنا جِبريلُ، وهذا مِيكائيلُ))(١).

﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾.

أي: أجابَهم مالِكٌ خازنُ النَّارِ بقَولِه: إنَّكم باقُونَ في عَذابِ جَهنَّمَ، ولا خُروجَ لكم منها أبدًا(٢).

كما قال تعالَى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ

= لهم بالموتِ، والدَّليلُ على ذلك أمرانِ: الأوَّلُ: أنَّهم لو أرادوا دُعاءَ اللهِ بأنفُسِهم أنْ يُميتَهم لَمَا نادَوا ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾، ولَمَا خاطَبوه في قولِهم: ﴿رَبُّكَ﴾. والثاني: أنَّ اللهَ تعالى بَيَّنَ في سُورة «المؤمن» أنَّ أهلَ النَّارِ يَطلُبونَ مِن خَزَنةِ النَّارِ أنْ يَدعوا اللهَ لهم؛ لِيُخَفِّفَ عنهم العذابَ، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]) ((أضواء البيان)) (٧/ ١٤٦).

(١) رواه البخاري (٣٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٧].

وقال الله تَبارك وتعالَى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: لقدْ أرسَلْنا إليكم رَسولَنا بالحقِّ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

قال ابنُ عطيةَ: (قولُه: ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم ﴾ الآيةَ، يَحتَمِلُ أن يكونَ مِن قَولِ مالكٍ لأهلِ النَّارِ، ويكونَ قَولُه: ﴿جِئْنَٰكُم﴾ على حَدِّ ما يُدخِلُ أحَدٌ -حمَّله الرَّئيسُ كِتابَه- نَفْسَه في فِعلِ الرَّئيسِ، فيَقولُ: غلَبْناكم وفعَلْنا بكم.. ونحوَ هذا، ثُمَّ يَنقَطِعُ كلامُ مالكٍ في قَولِه: ﴿ كَٰرِهُونَ ﴾. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قَولُه: ﴿جِئْنَٰكُم﴾ مِن قَولِ اللهِ تعالى لِقُرَيشٍ بعَقِبِ حِكايةِ أمرِ الكُفَّارِ مع مالكٍ، وفي هذا توعُّدٌ وتَخويفٌ فَصيحٌ، بمعنى: انظُروا كيف تكونُ حالُكم؟! ثمَّ تتَّصِلُ الآيةُ على هذا بما بعْدَها مِن أمرِ قُرَيشٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٥).

وممَّن قال بأنَّ هذا القَولَ مِن كَلامِ اللهِ تعالى، وأنَّه خِطابٌ لأهلِ النَّارِ: الزمخشريُّ، وأبو السعود، واستظْهَره الشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٧).

قال الزمخشريُّ: (لَمَّا سألوا مالِكًا أنْ يَسألَ اللهَ تعالى القَضاءَ عليهم، أجابَهم اللهُ بذلك). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥).

وقال أبو السُّعود: (﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ في الدُّنيا؛ بإرسالِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ، وهو خِطابُ تَوبيخٍ وتَقريعٍ مِن جِهةِ اللهِ تعالى، مُقَرِّرٌ لجوابِ مالكٍ، ومُبَيِّنٌ لِسَبَبِ مُكثِهم). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥).

وممَّن ذهبَ إلى أنَّه مِن كلامِ مالكٍ خازنِ النَّارِ: مقاتلُ بنُ سُليمان، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٠).

قال ابنُ عاشورٍ: (وضَميرُ ﴿جِئْنَٰكُم﴾ للملائِكةِ، والحَقُّ: الوَحيُ الَّذي نزَل به جِبريلُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٠). =

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَكم -أيُّها المُشرِكونَ- كارِهونَ لِما جاءَكم به رسولُنا مِن الحقِّ، فلم تَقْبلوه، ولم تَخضَعوا له وتَنقادوا إليه[1]!

كما قال تعالَى: ﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٨، ٩].

﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ٧٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالَى كَيفيَّةَ عَذابِهم في الآخِرةِ؛ ذكَرَ بعْدَه كَيفيَّةَ مَكرِهم، وفَسادَ

= وقال ابنُ القيِّم: (الحَقُّ هاهنا: هو ما بُعِث به المُرسَلونَ. باتِّفاقِ المفَسِّرينَ). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٥١).

وقال الشَّوكانيُّ: (المرادُ بالحقِّ: كلُّ ما أمَر اللهُ به على ألسُنِ رُسلِهِ وأنزَلَه في كُتبِه. وقيل: هو خاصٌّ بالقُرآنِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٧).

وممَّن خصَّص معنى الحقِّ هنا بالقُرآن: السَّمعانيُّ، والبقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥١).

قال ابنُ جريرٍ: (يقولُ: لقدْ أرسَلْنا إليكم -يا مَعشَرَ قُريشٍ- رَسولَنا محمَّدًا بالحقِّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥١).

وقال البقاعيُّ: (﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم﴾، أي: في هذه السُّورةِ خُصوصًا، وجميعِ القُرآنِ عمومًا). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨).

قال الشَّوكانيُّ: (قيل: ومعْنى ﴿أَكۡثَرَكُمۡ﴾: كلَّكم. وقيل: أرادَ الرُّؤساءَ والقادةَ، ومَن عدَاهم أتْباعٌ لهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٧). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٨).

باطِنِهم في الدُّنيا، فقال[١]:

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ٧٩﴾.

أي: أمْ أحْكَمَ أولئك المُشرِكونَ أمْرًا يَكيدونَ به الحَقَّ وأهْلَه، ولم يَقتَصِروا على كَراهتِه؟! فإنَّ اللهَ تعالَى مُحكِمٌ أمرًا لِكَيدِهم به[٢]!

كما قال الله تبارك وتعالَى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ٨٠﴾.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾.

أي: أمْ يظُنُّ أولئك المُشرِكونَ باللهِ أنَّا لا نَسمَعُ ما يُسِرُّونَه في أنفُسِهم، وما يَتناجَونَ به فيما بيْنَهم من الكَلامِ الخَفيِّ، فلا نُؤاخِذُهم بذلك[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦-٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

قال الألوسيُّ: (إنْ كان ذاك خِطابًا لأهلِ النارِ، فإبرامُ الأمرِ في مُجازاتِهم هو تَخليدُهم في النارِ مُعذَّبين، وإنْ كان خطابًا لقُريشٍ، فهو خِذْلانُهم ونصْرُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عليهم، فكأنَّه قيل: فإنَّا مُبْرِمون أمْرًا في مُجازاتِهم وإظهارِ أمْرِك). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٠٣).

وقال الماورديُّ: (قولُه تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ فيه ثَلاثةُ أوجهٍ: أحدُها: أمْ أجْمَعوا على التَّكذيبِ فإنَّا مُجمِعون على الجزاءِ بالبعثِ. قاله قتادةُ. الثاني: أمْ أحْكَموا كيْدًا، فإنَّا مُحكِمون لها كيْدًا. قاله ابنُ زيْدٍ. الثالثُ: قضَوا أمرًا فإنَّا قاضُون عليهم بالعذابِ. قاله الكلْبيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

أي: بلَى! نحن نَسمَعُ ما يُسِرُّونَ، وما به يَتناجَونَ، ومَلائِكتُنا الحَفَظةُ عِندَهم يَكتُبونَ جَميعَ أحاديثِهم، وسيُجازَونَ عليها[1]!

كما قال تعالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى يَسمَعُ كلامَك وإنْ خَفَتَ؛ فإيَّاك أنْ تُسمِعَ اللهَ عزَّ وجلَّ كَلامًا لا يَرضاه منك، واحرِصْ على أنْ تُسمِعَ اللهَ ما يَرْضاه منك[2].

= (١٦/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٢).

قال الزَّمخشريُّ: (فإنْ قُلتَ: ما المرادُ بالسِّرِّ والنَّجوى؟ قُلتُ: السِّرُّ ما حَدَّث به الرَّجُلُ نَفسَه أو غيرَه في مكانٍ خالٍ. والنَّجوى: ما تكَلَّموا به فيما بيْنَهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥).

وقال أبو هلالٍ العسْكريُّ: (الفرْقُ بيْن النَّجوى والسِّرِّ: أنَّ النَّجوى اسمٌ للكلامِ الخفيِّ الذي تُناجي به صاحبَك، كأنَّك تَرفَعُه عن غيْرِه؛ وذلك أنَّ أصلَ الكلمةِ الرِّفعةُ، ومنه النَّجْوةُ من الأرضِ...، والسِّرُّ: إخفاءُ الشَّيءِ في النفْسِ، ولو اختَفى بسِترٍ أو وراءَ جدارٍ لم يكُنْ سِرًّا). ((الفروق اللغوية)) (ص: ٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٥٥٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قال: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ﴾، بعْدَما وصَفَهم بالإبلاسِ في قولِه: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ والمبْلسُ: اليائِسُ السَّاكِتُ سُكوتَ يائِسٍ مِنْ فَرَجٍ[(١)]؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: تلك أزمِنةٌ مُتطاوِلةٌ وأحقابٌ مُمتدَّةٌ، فتَختَلِفُ بهم الأحوالُ؛ فيَسكُتونَ أوقاتًا لغَلَبةِ اليأسِ عليهم، ويَستَغيثون أوقاتًا لشِدَّةِ ما بهم[(٢)].

الوَجهُ الثَّاني: نِداؤُهم لا يُنافي إبلاسَهم؛ لأنَّه السُّكوتُ عن يأْسٍ، فسُكوتُهم المقَيَّدُ باليأسِ دائِمٌ؛ فلذلك سَألوا الموتَ، والحاصِلُ: أنَّهم لا يَتكَلَّمونَ بما يدُلُّ على رَجاءِ الفَرَجِ، بلْ هم ساكِتونَ أبدًا عن ذلك[(٣)].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّهم لا يُجابونَ إلى الموتِ، بلْ يَمكُثونَ في النَّارِ مُعَذَّبينَ إلى غيرِ نِهايةٍ[(٤)].

٣- القَضاءُ في قولِه تعالَى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ بمعْنى: الإماتَةِ، وسَأَلوا اللهَ أنْ يُزيلَ عنهم الحَياةَ ليَستَريحُوا مِن إحساسِ العَذابِ، وهم إنَّما سَأَلوا اللهَ أنْ يُميتَهُم، فأُجِيبُوا بأنَّهُم ماكِثُون جَوابًا جامِعًا لنَفيِ الإماتَةِ

---

(١) قال ابن عاشورٍ: (والإبلاسُ: اليأْسُ والذُّلُّ... وزاد الزَّمخشريُّ في معْنى الإبلاسِ قَيْدَ السُّكوتِ ولم يَذكُرْه غيرُه، والحقُّ أنَّ السُّكوتَ مِن لوازِمِ معنى الإبلاسِ وليسَ قيدًا في المعْنى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤٦-١٤٧).

ونَفيِ الخُروجِ؛ فهو جَوابٌ قاطِعٌ لِمَا قدْ يَسأَلُونَه مِن بَعدُ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ في هذه الآيةِ الكَريمةِ سُؤالٌ مَعروفٌ؛ وهو أنْ يُقالَ: يُفهَمُ مِن مَفهومِ مُخالَفةِ الآيةِ: أنَّ قَليلًا مِن الكُفَّارِ ليْسوا كارِهِين للحقِّ.

والجوابُ عن هذا السُّؤالِ: هو ما أجابَ به بعضُ أهلِ العِلمِ بأنَّ قَليلًا مِن الكُفَّارِ كانوا لا يَكرَهون الحَقَّ، وسَببُ امتناعِهِم عن الإيمانِ باللهِ ورسولِه ليْس هو كَراهيتَهم للحقِّ، ولكنَّ سَببَه الأَنفةُ والاستنكافُ مِن تَوبيخِ قَومِهم، وأنْ يَقولوا: صَبَؤوا وفارَقوا دِينَ آبائِهِم، ومِن أمثلةِ مَن وقَعَ له هذا أبو طالبٍ؛ فإنَّه لا يَكرَهُ الحقَّ الذي جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقدْ كان يشُدُّ عَضُدَه في تَبليغِه رِسالتَه، ولكنَّ السَّببَ المانعَ له مِن اعتناقِ الإسلامِ هو الأَنَفةُ والخوْفُ مِن مَلامةِ قوْمِه أو سَبِّهم له[٢].

وأيضًا فإنَّما نُسِبَتْ كَراهَةُ الحَقِّ إلى أكثَرِهم دُونَ جَميعِهم؛ لأنَّ المُشرِكين فَريقانِ: أحَدُهُما: سادَةٌ كُبَراءُ لِمِلَّةِ الكُفرِ، وهم الَّذين يَصُدُّون النَّاسَ عن الإيمانِ بالإرهابِ والتَّرغيبِ، وثَانِيهُما: دَهماءُ وعامَّةٌ، وهمْ تَبَعٌ لأَئِمَّةِ الكُفرِ[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ عَطفُ ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾؛ لِيَعلَموا أنَّ عِلمَ اللهِ بما يُسِرُّونَ عِلمٌ يَترتَّبُ عليه أثَرٌ فيهم، وهو مُؤاخَذتُهم بما يُسِرُّونَ؛ لأنَّ كِتابةَ الأعمالِ تُؤذِنُ بأنَّها ستُحسَبُ لهم يوْمَ الجَزاءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٣).

٦- إنَّ طَريقةَ القُرآنِ: يذكُرُ العِلمَ والقُدرةَ تَهديدًا وتَخويفًا؛ ليُرتِّبَ الجزاءَ عليهما، كما قال تعالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وهذا كثيرٌ جِدًّا في القرآنِ، وليس المرادُ به مُجرَّدَ الإخبارِ بالقُدرةِ والعِلمِ، لكِنِ الإخبارُ مع ذلك بما يَترتَّبُ عليهما مِنَ الجَزاءِ وبالعَدلِ؛ فإنَّه إذا كان قادِرًا أمكَنَ مُجازاتُه، وإذا كان عالِمًا أمكَنَ ذلك بالقِسطِ والعَدلِ، ومَن لم يكُنْ قادِرًا لم يُمكِنْ مُجازاتُه، وإذا كان قادِرًا لكِنَّه غيرُ عالمٍ بتَفاصيلِ الأعمالِ ومَقاديرِ جَزائِها، لم يُجازِ بالعَدلِ، والرَّبُّ تعالَى مَوصوفٌ بكَمالِ القُدرةِ وكَمالِ العِلمِ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ لِهَذه الجُملَةِ مَوقِعَانِ: أحَدُهُما: إتمامُ التَّفصيلِ لِمَا أجْمَلَه الوَعيدُ الَّذي في قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥] عَقِبَ تَفصيلِ بَعضِه بقَولِه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ [الزخرف: ٦٦] إلخ، وبقَولِه: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، حيث قُطِعَ إتمامُ تَفصيلِه بالاعتِناءِ بذِكْرِ وَعدِ المُؤمِنين المُتَّقين؛ فهي في هذا المَوقِعِ بَيانٌ لجُملَةِ الوَعيدِ، وتَفصيلٌ لإجمالِها. المَوقِعُ الثَّاني: أنَّها كالاستِئنافِ البَيانِيِّ يُثيرُه ما يُسمَعُ مِن وَصْفِ أحوالِ المُؤمِنين المُتَّقين مِن

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٠).

التَّساؤُلِ: كيف يَكونُ حالُ أَضدادِهم المُشرِكين الظَّالِمين[١]؟

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ فيه افتِتاحُ الخَبَرِ بحَرفِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ به، أو لتَنزيلِ السَّائِلِ المُتَلَهِّفِ للخَبَرِ مَنزِلَةَ المُتَرَدِّدِ في مَضمونِه؛ لشِدَّةِ شَوقِه إليه، أو نَظَرًا إلى ما في الخَبَرِ مِن التَّعريضِ بإسماعِهِ المُشرِكين وهم يُنكِرون مَضمونَه؛ فكَأنَّه قيل: إنَّكُم أيُّها المُجرِمون في عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُون[٢].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الرَّاسِخين في الإجرامِ، وهُم الكُفَّارُ المُشرِكون المُكَذِّبون للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ السِّياقَ لهم حَسْبَما يُنْبِئُ عنه إيرادُهم في مُقابَلَةِ المُؤمنين بالآياتِ، ولأنَّ الجُملَةَ بَيانٌ لإجمالِ وَعيدِهِم في قولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥]، ولأنَّ جَوابَ الملائكةِ نِداءَهم -على قولٍ في التَّفسيرِ- بقَولِهم: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨] لا يَنطبِقُ على غيرِ المكذِّبين، أي: كارِهونَ للإسلامِ والقرآنِ؛ فذِكْرُ المُجرِمينَ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ للتَّنبيهِ على أنَّ شِركَهم إجرامٌ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جُملَةٌ مُعترِضَةٌ في حِكايَةِ أحوالِ المُجرِمين، قُصِدَ منها نَفْيُ استِعظامِ ما جُوزُوا به مِن الخُلودِ في العَذابِ، ونَفيُ الرِّقَّةِ لحالِهِم المَحكِيَّةِ بقَولِه: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[٤] [الزخرف: ٧٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨).

- وضَميرُ الفَصلِ (هم) في قولِه: ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مُجتَلَبٌ لإفادَةِ قَصرِ صِفَةِ الظُّلمِ على اسمِ (كان)، وإذ قدْ كان حَرفُ الاستِدراكِ بعْدَ النَّفيِ كافِيًا في إفادَةِ القَصرِ، كان اجتِلابُ ضَميرِ الفَصلِ تَأكيدًا للقَصرِ بإعادَةِ صِيغَةٍ أُخرَى مِن صِيغَ القَصرِ[(١)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾

- جُملةُ ﴿وَنَادَوْاْ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، أو عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾؛ حُكِيَ نِداؤُهم بصِيغَةِ الماضي مع أنَّه مِمَّا سيَقَعُ يومَ القِيامَة؛ إمَّا لأنَّ إبلاسَهم في عَذابِ جَهَنَّم -وهو اليَأسُ- يَكونُ بعْدَ أنْ نَادَوْا: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾، وأجابَهم بما أجابَ به، وذلك إذا جُعِلَت جُملَةُ ﴿وَنَادَوْاْ﴾ حالِيَّةً، وإمَّا لتَنزيلِ الفِعلِ المُستَقبَلِ مَنزِلَةَ الماضي في تَحقيقِ وُقوعِه؛ تَخريجًا للكَلامِ على خِلافِ مُقتَضَى الظَّاهِرِ، وهذا إنْ كانَت جُملَةُ ﴿وَنَادَوْاْ ...﴾ إلخ مَعطوفَةً[(٢)].

- واللَّامُ في ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ لامُ الأَمرِ بمَعنَى الدُّعاءِ. وتَوجيهُ الأمرِ إلى الغائِبِ لا يَكونُ إلَّا على مَعنَى التَّبليغِ كما هنا، أو تَنزيلِ الحاضِرِ مَنزِلَةَ الغائِبِ لاعتِبارٍ ما؛ مثلِ التَّعظيمِ[(٣)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ تَتِمَّةُ الجوابِ إنْ كان في (قالَ) ضَميرُ اللهِ، وإلَّا فجَوابٌ منه؛ فكَأنَّه تعالَى تَوَلَّى جَوابَهم بعْدَ جَوابِ مالِكٍ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ فهو خِطابُ تَوبيخٍ وتَقريعٍ مِن جِهَةِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٠).

تعالَى مُقَرِّرٌ لجَوابِ مالِكٍ، ومُبَيِّنٌ لسَبَبِ مُكثِهِم[١].

- وجُملَةُ ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ في مَوضِعِ العِلَّةِ لجُملَةِ ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾؛ باعتِبارِ تَمامِ الجُملَةِ، وهو الاستِدراكُ بقَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[٢].

- وضَميرُ ﴿جِئْنَٰكُم﴾ للمَلائِكَةِ -على قولٍ-، و(الحقُّ): الوَحيُ الَّذي نَزَل به جِبريلُ -على قولٍ أيضًا-؛ فنَسَب مالِكٌ المَجيءَ بالحَقِّ إلى جَمعِ المَلائِكَةِ على طَريقَةِ اعتِزازِ الفَريقِ والقَبيلَةِ بمَزايَا بَعضِها[٣].

- وتَقديمُ ﴿لِلْحَقِّ﴾ على ﴿كَٰرِهُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالحَقِّ تَنويهًا به، وفيه مُراعاةٌ للفاصِلَةِ أيضًا[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ للإنْحاءِ باللَّائِمَةِ على المُشرِكين لِمَا بَدَرَ منهم، و(أمْ) مُنقَطِعَةٌ بمعنى (بل) للإضرابِ والانتِقالِ مِن تَوبيخِ أهلِ النَّارِ وحِكايَةِ حالِهِم إلى حِكايَةِ جِنايَةِ هَؤلاءِ المُشرِكين[٥].

- والهَمزةُ في قولِه: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ﴾ استِفهامٌ للإنكارِ والتَّقريرِ والتَّهديدِ، فإنْ أُريدَ بالإبرامِ الإحكامُ حَقيقةً، فهيَ لإنكارِ الوُقوعِ واستبعادِه، وإنْ أُريدَ الإحكامُ صُورةً، فهي لإنكارِ الواقِعِ واستِقباحِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١١١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦١).

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ للتَّفريعِ على ما اقتَضاهُ الاستِفهامُ مِن تَقديرِ حُصولِ المُستَفهَمِ عنه؛ فيَؤُولُ الكَلامُ إلى مَعنَى الشَّرطِ، أي: إنْ أَبرَموا أمرًا مِن الكَيدِ فإنَّ اللهَ مُبرِمٌ لهم أمرًا مِن نَقضِ الكَيدِ، وإلحاقِ الأذى بِهِم، ونَظيرُه وفي مَعناهُ قَولُه: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾[1] [الطور: ٤٢].

- قَولُه: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ فيه العُدولُ عن الخِطابِ إلى الغَيبَةِ؛ للإشعارِ بأنَّ ذلك أسوَأُ مِن كَراهَتِهم للحقِّ[2].

- وجاء قولُه: ﴿أَبْرَمُوا﴾ فِعلًا و﴿مُبْرِمُونَ﴾ اسمَ فاعلٍ، فخُولِفَ بيْنهما في الصِّيغةِ؛ لأنَّ إبرامَهم واقِعٌ، وأمَّا إبرامُ اللهِ جَزاءٌ لهم؛ فهو تَوَعُّدٌ بأنَّ اللهَ قَدَّرَ نَقْضَ ما أبرَموه؛ فإنَّ اسمَ الفاعِلِ حَقيقَةٌ في زَمَنِ الحالِ، أي: نحْن نُقَدِّرُ لهم الآنَ أمرًا عَظيمًا، قيل: ذلك إيجادُ أسبابِ وَقعَةِ بدَرٍ التي استُؤصِلُوا فيها[3].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿مُبْرِمُونَ﴾؛ لدَلالَةِ ما قَبلَه عليه[4].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾

- قَولُه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ (أمْ) والاستِفهامُ المُقَدَّرُ بَعدَها استِفهامٌ للإنكارِ والتَّقريرِ والتَّهديدِ. وحَرفُ (بلى) جَوابٌ للنَّفيِ مِن قَولِه: ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ﴾، أي: بَلى نَحنُ نَسمَعُ سِرَّهُم ونَجواهُم[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨١-٨٩)

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ يَخُوضُوا۟ ﴾: الخوضُ: الدُّخولُ في الحَديثِ، ويُطلَقُ على الجِدالِ واللَّجاجِ غيرِ المحمودِ، والرَّديءِ مِن الكلامِ، وأكثرُ ما ورَدَ في القرآنِ ورَد فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، يُقالُ: فلانٌ يَخوضُ، أي: يَتكلَّمُ بما لا يَنْبغي، وأصلُه: الدُّخولُ في الماءِ والشُّروعُ فيه والمرورُ، وأصلُ (خوض): يدُلُّ على تَوسُّطِ شَيءٍ ودُخولٍ[1].

﴿ وَتَبَارَكَ ﴾: أي: تعاظَمَ، وتعالَى، وتقَدَّس، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثَباتُ الشَّيءِ[2].

﴿ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾: الشَّفاعَةُ: الانْضِمامُ إلى آخَرَ نُصْرةً له، وسُؤالًا عنه، وشَفَعَ لِفُلانٍ إذا جاءَ مُلْتَمِسًا مَطْلَبَه، ومُعينًا له؛ فأصلُ الشَّفْعِ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه. ومِنه:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

الشَّفاعةُ في القِيامةِ[١].

﴿يُؤْفَكُونَ﴾: أي: يُصرَفونَ عن الحَقِّ ويَحيدونَ، وأصلُ (أفك): يَدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[٢].

﴿وَقِيلِهِۦ﴾: أي: وقَولِه، والقَولُ والقيلُ والقالُ بمعنًى واحدٍ، مِن النُّطقِ[٣].

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾: أي: فأَعرِضْ عنهم، واترُكْ عُقوبتَهم على اللهِ تعالَى، يُقالُ: صَفحْتُ عنه: إذا أعرضْتَ عنه، وأصلُ (صفح): يدُلُّ على الإعراضِ؛ لأنَّ مَن أعرَضَ عن صاحِبِه ولَّاه صَفحةَ عُنُقِه، وصَرَف عنه وجْهَه[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾

قَولُه: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ مَجرورٌ على وَجهَينِ؛ أحَدُهما: أنَّه مَعطوفٌ على «السَّاعةِ» في قولِه: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥]، أي: وعِندَه عِلمُ السَّاعةِ، وعِلمُ قِيلِه: يَا رَبِّ.... الثاني: أنَّ الواوَ حَرفُ قَسَمٍ. و(قِيلِه): مُقسَمٌ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٢/ ١٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٨)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/ ٥٣٩).

به مَجرورٌ بواوِ القَسَمِ، وجَوابُ القَسَمِ مَحذوفٌ، تَقديره: لَتُنصَرنَّ، أو لأفْعلَنَّ بهم ما أُريدُ، أو جَوابُ القَسَمِ قَولُه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾. ومَقولُ القَولِ قَولُه: ﴿يَٰرَبِّ﴾.

وقُرِئَ بالنَّصبِ، وفيه أوجهٌ: أحدُها: أنَّه مَنصوبٌ عَطفًا على مَحَلِّ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: وعندَه أنْ يَعلَمَ السَّاعةَ وقِيلَه؛ لأنَّ ﴿عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ مَصدَرٌ مُضافٌ إلى مَفعولِه؛ فلَفظُ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ مَجرورٌ لَفظًا بالإضافةِ، مَنصوبٌ محَلًّا على المفعوليَّةِ، وما كان كذلك جاز في تابِعِه النَّصبُ إتْباعًا للمَحَلِّ، والخَفضُ إتْباعًا للَّفظِ. الثاني: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿سِرَّهُمۡ﴾ في قَولِه: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم﴾ [الزخرف: ٨٠]، وما بيْنَهما مُعترِضٌ، أي: أمْ يَحسَبونَ أنَّا لا نَسمَعُ سِرَّهم ونَجواهم، وقِيلَه: يا رَبِّ. الثَّالِثُ: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ، أي: وقال قِيلَه. الرَّابعُ: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بإضمارِ فِعلٍ، أي: ويَعلَمُ قِيلَه. وقيل غيرُ ذلك(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُلقِّنُ اللهُ تعالَى نَبيَّه الحُجَّةَ الَّتي يرُدُّ بها على المشركينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: لو فُرِضَ أنَّ للرَّحمنِ تعالَى وَلَدًا ببُرهانٍ صَحيحٍ، فأنا أوَّلُ العابِدينَ لذلك الوَلدِ؛ فلو فُرِضَ كان منِّي هذا، ولكِنْ هذا مُمتَنِعٌ في حَقِّه سُبحانَه تعالَى، تنَزَّه اللهُ ربُّ السَّمَواتِ والأرضِ ورَبُّ العَرشِ عمَّا يَصِفُه المُشرِكونَ مِن صِفاتِ النَّقصِ التي لا تَليقُ بكَمالِه وجَلالِه تعالَى!

ثمَّ يُسلِّي اللهُ تعالَى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُهدِّدُ أولئكَ الكافرينَ،

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفَرَّاء (٣/ ٣٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٤٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٨).

فيقولُ: فاترُكْهم -يا مُحمَّدُ- يَخوضوا في باطِلِهم وجَهلِهم، ويَلعَبوا حتَّى يُلاقُوا اليومَ الذي يَحِلُّ فيه عَذابُهُم!

ثمَّ يقولُ تعالَى مؤكِّدًا على أنَّه الإلهُ الحقُّ: واللهُ وَحْدَه هو المعبودُ في السَّماءِ، وهو المعبودُ وَحْدَه في الأرضِ، وهو الحَكيمُ الذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، العَليمُ الَّذي لا يَخفى عليه شَيءٌ، وتَبارك اللهُ الَّذي له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، وعِندَه عِلمُ مَجيءِ السَّاعةِ، وإليه وَحْدَه تُرجَعونَ يومَ القيامةِ.

ولا يَملِكُ الَّذين يَعبُدُهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ الشَّفاعةَ لأحدٍ إلَّا مَن أقرَّ منهم بالتَّوحيدِ للهِ -كعِيسى والملائِكةِ-، وهم يَشهَدونَ بذلك على عِلمٍ وبَصيرةٍ، فيَأذَنُ لهم اللهُ تعالَى بالشَّفاعةِ للمُؤمِنينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه ما كان عليه المشركونَ مِن تناقُضٍ، فيقولُ: ولَئِنْ سألْتَ هؤلاء المُشرِكينَ -يا مُحمَّدُ-: مَن الذي خلَقَكم؟ لَيَقولُنَّ: خَلَقَنا اللهُ وَحْدَه. فكيْف يُصرَفونَ عن عِبادةِ اللهِ تعالَى الذي خَلَقَهم مع اعترافِهم بذلك؟!

واللهُ تعالَى عِندَه عِلمُ قَولِ رسولِه: يا رَبِّ، إنَّ هؤلاء المُشرِكينَ قَومٌ لا يُؤمِنونَ؛ فاصفَحْ -يا محمَّدُ- عنهم، وقُلْ لهم: سَلامٌ عليكم؛ فسَوفَ يَعلَمونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جَرَى ذِكْرُ الَّذين ظَلَموا بادِّعاءِ بُنُوَّةِ المَلائِكَةِ في قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥] عَقِبَ قَولِه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ

مَثَلًا ﴾[الزخرف: ٥٧]، وعَقِبَ قَولِه قبْلَه: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾[الزخرف: ١٩]، وأُعقِبَ بما يَنتَظِرُهم مِن أَهوالِ القِيامَةِ، وما أُعِدَّ لِلَّذين انخَلَعوا عن الإشراكِ بالإيمانِ -أَمَرَ اللهُ رَسولَه أنْ يَنتَقِلَ مِن مَقامِ التَّحذيرِ والتَّهديدِ إلى مَقامِ الاحتِجاجِ على انتِفاءِ أنْ يَكونَ لِلَّهِ وَلَدٌ؛ جَمعًا بيْنَ الرَّدِّ على بَعضِ المُشرِكينَ الَّذين عَبَدوا المَلائِكةَ، والَّذين زَعَموا أنَّ بعضَ أصنامِهِم بَناتُ اللهِ، مِثلُ اللَّاتِ والعُزَّى، فأمَره بقَولِه[1]:

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك جَدَلًا: إنْ ثَبَت أنَّ للرَّحمنِ وَلَدًا ببُرهانٍ صحيحٍ، فأنا أوَّلُ العابِدينَ لذلك الولدِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٣، ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥، ٢٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٣، ٢٦٤).

قال ابنُ جُزَيٍّ: (﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ في تأويلِ الآيةِ أربعةُ أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّها احتِجاجٌ ورَدٌّ على الكُفَّارِ على تَقديرِ قَولِهم، ومعناها: لو كان للرَّحمنِ وَلَدٌ كما يقولُ الكُفَّارُ لكُنتُ أنا أوَّلَ مَن يَعبُدُ ذلك الولَدَ. كما يُعَظِّمُ خَدَمُ المَلِكِ وَلَدَ المَلِكِ؛ لِتَعظيمِ والِدِه، ولكِنْ ليس للرَّحمنِ وَلَدٌ؛ فلَستُ بعابِدٍ إلَّا اللهَ وَحْدَه. وهذا نوعٌ مِن الأدِلَّةِ يُسَمَّى دَليلَ التَّلازُمِ؛ لأنَّه عَلَّقَ عِبادةَ الوَلَدِ بوُجودِه، ووجودُه مُحالٌ؛ فعِبادتُه مُحالٌ.

القَولُ الثَّاني: إنْ كان للرَّحمنِ وَلَدٌ [أي: في قولِكم] فأنا أوَّلُ مَن عَبَدَ اللهَ وَحْدَه، وكَذَّبَكم في قَولِكم: إنَّ له ولَدًا، و﴿ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ على هذينِ القَولَينِ بمعنى العِبادةِ.

القَولُ الثَّالِثُ: أنَّ العابِدينَ بمعنى المُنكِرينَ؛ يقال: عَبِدَ الرَّجُلُ: إذا أنِفَ وتكَبَّرَ وأنكَرَ الشَّيءَ، والمعنى: إنْ زَعمتُم أنَّ للرَّحمنِ ولَدًا فأنا أوَّلُ المُنكِرينَ لذلك، و﴿ إِن ﴾ على هذه الأقوالِ الثَّلاثةِ شَرطيَّةٌ.

القَولُ الرَّابعُ: قال قتادةُ وابنُ زيدٍ: «إنْ» هنا نافيةٌ، بمعنى: ما كان للرَّحمنِ وَلَدٌ، وتمَّ الكلامُ، ثمَّ ابتدأَ قَولُه: ﴿ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٤). =

= وممَّن اختار القولَ الأولَ: الزمخشريُّ، والرازي، وابن جُزَيٍّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

قال الشوكانيُّ: (وفيه نَفيٌ للوَلَدِ على أبلَغ وَجهٍ، وأتمِّ عِبارةٍ، وأحسَنِ أُسلوبٍ، وهذا هو الظَّاهِرُ مِنَ النَّظمِ القُرآنيِّ، ومِن هذا القَبيلِ قَولُه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]، ومِثلُ هذا قَولُ الرَّجُلِ لِمن يُناظِرُه: إنْ ثَبَت ما تَقولُه بالدَّليلِ فأنا أوَّلُ مَن يَعتَقِدُ ويَقولُ به). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٨).

وقال ابنُ جرير: (معْنى الكلامِ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك الزَّاعِمينَ أنَّ الملائِكةَ بناتُ اللهِ: إنْ كان للرَّحمنِ ولَدٌ فأنا أوَّلُ عابِدِيه بذلك مِنكم، ولكِنَّه لا وَلَدَ له، فأنا أعبُدُه بأنَّه لا وَلَدَ له، ولا يَنبغي أن يكونَ له. وإذا وُجِّهَ الكلامُ إلى ما قُلْنا مِن هذا الوَجهِ لم يكُنْ على وَجهِ الشَّكِّ، ولكِنْ على وَجهِ الإلطافِ مِن الكلامِ وحُسنِ الخِطابِ، كما قال جَلَّ ثَناؤُه ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]، وقد عَلِمَ أنَّ الحَقَّ معه، وأنَّ مُخالِفيه في الضَّلالِ المُبينِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٨). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١).

قال ابنُ عطيةَ: (قال قتادةُ والسُّدِّيُّ والطَّبَريُّ: المعنى: قُلْ لهم: إنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ كما تقولونَ فأنا أوَّلُ مَن يَعبُدُه على ذلك، ولكِنْ ليس به شَيءٌ مِن ذلك، تعالى وجَلَّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٥).

وممَّن اختار القولَ الثانيَ: ابنُ قُتَيبةَ، والأزهريُّ، والزجَّاج، والثَّعلبي، والواحدي -ونسَبه لأكثر أهلِ العِلم-، والسَّمعانيُّ والبَغويُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٧)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٢/ ١٣٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٣٨).

وممَّن اختار القولَ الثالثَ: أبو عُبيدةَ، ونُسب هذا القولُ إلى الكلْبيِّ، والكسائيِّ، وسفيانَ الثوريِّ، والمُبَرد. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٢).

قال ابن كثيرٍ: (هذا القولُ فيه نظرٌ؛ لأنَّه كيف يَلتئمُ مع الشَّرطِ فيكون تَقديرُه: إنْ كان هذا فأنا =

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٨٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قال تعالَى: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ ... ﴾ الآيةَ؛ نزَّه نَفسَه تَنزيهًا تامًّا عمَّا يَصِفونَه به مِن نِسبةِ الوَلَدِ إليه، مُبيِّنًا أنَّ رَبَّ السَّمَواتِ والأرضِ ورَبَّ العَرشِ جَديرٌ بالتَّنزيهِ عن الوَلَدِ، وعن كُلِّ ما لا يَليقُ بكَمالِه وجَلالِه[1].

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٨٢ ﴾.

أي: تَنزَّهَ اللهُ ربُّ السَّمَواتِ والأرضِ ورَبُّ العَرشِ عمَّا يَصِفُه المُشرِكونَ مِن صِفاتِ النَّقصِ التي لا تَليقُ بكَمالِه تعالَى، ومِن ذلك دَعْواهم أنَّ له وَلَدًا سُبحانَه[2].

كما قال تعالَى: ﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [الزمر: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

= مُمتنِعٌ منه؟ هذا فيه نظرٌ، فلْيُتأمَّل. اللهمَّ إلَّا أنْ يقالَ: «إنْ» ليْست شرطًا، وإنَّما هي نافيةٌ)). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٢).

وممَّن اختار القولَ الرابعَ: مقاتلُ بن سُليمان، والأخفشُ، وابنُ أبي زمنين، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٥)، ((معاني القرآن)) للأخفش (١/ ١١٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٦).

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

الناسخُ والمنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ مَنسوخةٌ[١].

وقيل: لا نسْخَ فيها[٢].

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: فاترُكْ -يا مُحمَّدُ- هؤلاء المُشرِكينَ المُفتَرينَ على اللهِ الكَذِبَ يَخوضُوا في باطِلِهم وجَهْلِهم، ويَلعَبوا في دُنياهم إلى أنْ يُلاقوا اليومَ الَّذي يَحِلُّ فيه عَذابُهُم وهَلاكُهُم[٣]!

---

(١) ممَّن اختار أنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ بآيةِ السَّيف -وهي قولُه تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ...﴾ الآيةَ [التوبة: ٢٩]-: محمدُ بن حزم، وابنُ عطية، وابنُ الفرس، والقُرطبي، والعُلَيمي، والشوكاني، ومرْعي. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لمحمد بن حزم (ص: ١٨، ٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٦)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٣)، ((قلائد المرجان)) لمرعي (ص: ١٨٥).

ونسَب ابنُ الجَوزي والرَّسعنيُّ هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٥٤).

(٢) ممَّن ذهَب إلى هذا القول: ابنُ الجوزي، والرَّسعني، وعلَمُ الدين السخاوي. يُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (ص: ١٩٢)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٥٤)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (٢/ ٨٢٥).

وعلَّل ذلك ابنُ الجوْزيِّ والرَّسعنيُّ بأنَّها واردةٌ للوعيدِ، وخارجةٌ مَخرجَ التهديدِ؛ فلا نسْخَ إذنْ.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩١) و(٩/ ٣٩٦-٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقوله: ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾: يومُ القِيامةِ: ابنُ جرير، وابنُ كَثيرٍ، والشوكانيُّ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة. =

كما قال تعالَى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾.

أي: واللهُ تعالَى هو المَعبودُ الحَقُّ في السَّماءِ، وهو المعبودُ الحَقُّ في الأرضِ[(١)].

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٣].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو البالِغُ الحِكمةِ، فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به، البالِغُ العِلمِ، فيَعلَمُ كُلَّ شَيءٍ، ولا يَخفَى عليه شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ[(٢)].

﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ

= قال ابن عطيةَ: (قال الجمهورُ: اليومُ الذي توعَّدهم به يومُ القِيامةِ. وقال عِكرمةُ وغيرُه: هو يومُ بَدْرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٦).

وقال القرطبيُّ: (إمَّا العذابُ في الدُّنيا، أو في الآخِرةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢١).

وقال ابنُ عاشورٍ: (اليومُ هنا مُحتَمِلٌ لِيَومِ بَدرٍ، ولِيَومِ القيامةِ، وكِلاهما قدْ وُعِدُوه، والوَعدُ هنا بمعنى الوَعيدِ، كما دَلَّ عليه السِّياقُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩١-٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

قال ابنُ القيِّم: (المعنى الصَّحيحُ المُجتَمَعُ عليه... أنَّه في السَّماءِ إلهٌ مَعبودٌ مِن أهلِ السَّماءِ، وفي الأرضِ إلهٌ مَعبودٌ مِن أهلِ الأرضِ، وكذا قال أهلُ العلمِ بالتَّفسيرِ... وأمَّا قَولُه ...: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ فالإجماعُ والاتِّفاقُ قد بَيَّن أنَّ المرادَ أنَّه مَعبودٌ مِن أهلِ الأرضِ). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٢-٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا نَزَّه اللهُ تعالَى ذاتَه المُقدَّسةَ، وأثبَتَ لِنَفسِه استِحقاقَ الإلهيَّةِ بالإجماعِ مِن خَلْقِه بما ركَزَه في فِطَرِهم، وهَداهم إليه بعُقولِهم؛ أتْبَعَ ذلك أدِلَّةً أُخرى بإثباتِ كُلِّ كَمالٍ بما تَسَعُه العُقولُ، وبما لا تَسَعُه؛ مُصَرِّحًا بالمُلْكِ، فقال[1]:

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

أي: تعالَى وتَقَدَّس وكَثُر خيرُه وإحسانُه؛ اللهُ الَّذي له مُلكُ جميعِ السَّمَواتِ والأرضِ، وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ، وهو وَحْدَه المتصَرِّفُ فيها[2].

﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

أي: وهو وَحْدَه مَن يَعلَمُ وَقتَ مَجيءِ السَّاعةِ[3].

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تَصيرونَ -أيُّها النَّاسُ- يومَ القِيامةِ، فيَبعَثُكم للحِسابِ، ويُجازي كُلًّا منكم بعَمَلِه[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢١)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

قال السعديُّ: (مِن تمامِ مُلكِه وسَعَتِه أنَّه مالِكُ الدُّنيا والآخِرةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

﴿ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أطنَبَ اللهُ تعالَى في نَفيِ الوَلَدِ؛ أردَفَه ببَيانِ نَفيِ الشُّرَكاءِ[١].

وأيضًا لَمَّا أنبَأهم أنَّ لِلَّهِ مُلْكَ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، وأنَّ عِندَه عِلمَ السَّاعَةِ؛ أَعلَمَهم أنَّ ما يَعبدونَه مِن دونِ اللهِ لا يَقدِرُ على أنْ يَشفَعَ لهم في الدُّنيا؛ إبطالًا لزَعمِهِم أنَّهُم شُفَعاؤُهم عندَ اللهِ، ولَمَّا كان مِن جُمَلةِ مَن عُبِدوا دُونَ اللهِ المَلائِكةُ، استَثناهُم بقَولِه: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: فَهُم يَشفَعونَ[٢].

﴿ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾.

أي: ولا يَملِكُ الذين يَعبُدُهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ الشَّفاعةَ لأحَدٍ عندَ اللهِ[٣].

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: إلَّا[٤] مَن أقرَّ منهم بالتَّوحيدِ للهِ -كعِيسى والملائِكةِ-، وهم يَشهَدونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٢-٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

قال السعدي: (ومِن تَمامِ مُلكِه أنَّه لا يَملِكُ أحَدٌ مِن خَلْقِه مِن الأمرِ شَيئًا، ولا يُقدِمُ على الشَّفاعةِ عنده أحَدٌ إلَّا بإذنِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٤) قيل: الاستِثناءُ هنا متَّصِلٌ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ورجَّحه ابنُ عطيةَ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

وقيل: الاستِثناءُ هنا مُنقَطِعٌ، بمعنى: لَكِنْ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ =

بذلك عن عِلم ويَقينٍ وبَصيرةٍ، فاللهُ يَأذَنُ لهم بالشَّفاعةِ للمُؤمِنينَ المُوحِّدينَ، فتَنفَعُ حِينها شَفاعتُهم(١).

كما قال تعالَى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ * لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ * يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٨].

= تَيميةَ، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٨)، ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ٣٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٢-٤٠٥، ٤٠٩-٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣).

قال ابن تيميةَ: (التَّحقيقُ في تفسيرِ الآيةِ: أنَّ الاستِثناءَ مُنقَطِعٌ، ولا يَملِكُ أحَدٌ مِن دونِ اللهِ الشَّفاعةَ مُطلقًا. لا يُستَثنى مِن ذلك أحَدٌ عندَ اللهِ... فلمَّا نفى مُلْكَهم الشَّفاعةَ بَقِيَت الشَّفاعةُ بلا مالِكٍ لها، كأنَّه قد قيل: فإذا لم يَملِكوها هلْ يَشفَعونَ في أحَدٍ؟ فقال: نعمْ ﴿مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾. وهذا يَتناوَلُ الشَّافعَ والمَشفوعَ له). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٤٠٢، ٤٠٩-٤١١).

وقال ابن جُزَيٍّ: (اختُلِفَ هل يَعني بـ ﴿مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ الشَّافِعَ أو المشفوعَ فيه؛ فإنْ أراد المشفوعَ فيه فالاستِثناءُ مُنقَطِعٌ، والمعنى: لا يَملِكُ المَعبودونَ شَفاعةً، لكِنْ مَن شَهِدَ بالحَقِّ وهو عالِمٌ به فهو الذي يُشفَعُ فيه، ويحتَمِلُ على هذا أن يكونَ ﴿مَن شَهِدَ ﴾ مَفعولًا بالشَّفاعةِ على إسقاطِ حَرفِ الجَرِّ، تَقديرُه: الشَّفاعة فيمن شَهِدَ بالحَقِّ، وإنْ أراد بـ ﴿مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ الشَّافعَ فيَحتَمِلُ أن يكونَ الاستِثناءُ مُنقَطِعًا، وأن يكونَ مُتَّصِلًا، إلَّا فيمن عَبَد عيسى والملائِكةَ، والمعنى على هذا: لا يَملِكُ المعبودونَ شَفاعةً إلَّا مَن شَهِدَ بالحَقِّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٢، ٦٦٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٣-٨٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٠-٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٥-٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى المذكورِ لِقَولِه تعالى: ﴿ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن كثير، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٣)، ((الوسيط)) (٤/ ٨٣-٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٦).

وقال ابنُ عاشور: (أي: وهم يَعلَمونَ حالَ مَن يَستَحِقُّ الشَّفاعةَ؛ فقدْ عُلِمَ أنَّهم لا يَشفَعونَ للَّذين خالَف حالُهم حالَ مَن يَشهَدُ لله بالحَقِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعْدَ أنْ أمعَنَ في إبطالِ أنْ يكونَ إلهٌ غيرُ اللهِ بما سِيقَ مِن التَّفصيلاتِ، جاء هنا بكَلِمةٍ جامِعةٍ لإبطالِ زَعمِهم إلهيَّةَ غيرِ اللهِ، بِقَولِه تعالَى[١]:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾.

أي: ولَئِنْ قُلْتَ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن الذي خَلَقَكم؟ لَيَقولُنَّ: خَلَقَنا اللهُ وَحْدَه[٢].

﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

أي: فكيفَ ومِن أيِّ جِهةٍ يُصرَفُ المُشرِكونَ -مع اعترافِهم هذا- عن عِبادةِ اللهِ الَّذي خلَقَهم، إلى عِبادةِ غَيرِه[٣]؟!

﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿ وَقِيلِهِۦ ﴾ بكَسرِ اللَّامِ والهاءِ، قيل: هي مَعطوفةٌ على ﴿ ٱلسَّاعَةِ ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ والمعنى: وعِندَه عِلمُ السَّاعةِ وعِلمُ قِيلِه. وقيل غيرُ ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٤) قرَأ بها عاصمٌ وحمزةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٠). =

٢- قِراءةُ ﴿وَقِيلَهُۥ﴾ بفتْحِ اللَّام وضَمِّ الهاء، على العَطفِ على ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف: ٨٠]، أي: أمْ يَحسَبونَ أنَّا لا نَسمَعُ سِرَّهم ونَجْواهم ولا نَسمَعُ قِيلَه: يا رَبِّ. وقيل: مَعطوفٌ على مَوضِعِ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥]، أي: وعِندَه أنْ يَعلَمَ السَّاعةَ وقِيلَه. وقيل غيرُ ذلك[١].

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: وعِندَ اللهِ تعالَى عِلمُ قولِ رَسولِه -شاكيًا إليه تَكذيبَ قَومِه-: يا رَبِّ، إنَّ هؤلاء المُشرِكينَ قَومٌ لا يُؤمِنونَ بالحَقِّ الذي جِئتُهم به[٢]!

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

الناسخُ والمنسوخُ:

قيل: الآيةُ منسوخةٌ[٣].

= ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٥٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦١١).

(١) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٥٥-٦٥٦). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٩).

(٣) ممَّن اختار أنَّ الآيةَ مَنسوخةٌ بآيةِ السَّيف: مقاتلُ بن سُليمان، والثَّعلبي، والمَقَّري، ومحمد بن حزم، وابنُ الفرس، والعُلَيمي، ومرْعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٤٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) للمَقَّري (ص: ١٥٨)، ((الناسخ والمنسوخ)) لمحمد بن حزم (ص: ٥٥)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٤١)، ((قلائد المرجان)) لمرعي (ص: ١٨٥). =

وقيل: لا نسْخَ فيها[١].

﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾.

أي: فاصفَحْ -يا محمَّدُ- عن أولئك المُشرِكينَ، وأعرِضْ عن مُؤاخَذتِهم وعِتابِهم[٢].

كما قال تعالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾.

أي: وقُلْ لهم: سَلِمْتُم منَّا، فلا نُجيبُكم بسُوءٍ[٣].

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ بالتَّاءِ على الخِطابِ، بمعنى: أنَّ اللهَ تعالَى أمَرَ نَبيَّه

= قال الألوسي: (إنْ أُريدَ مِن الآيةِ الكَفُّ عن القتالِ فهي مَنسوخةٌ، وإنْ أُريدَ الكَفُّ عن مُقابَلتِهم بالكلامِ فليست بمنسوخةٍ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٠٨).

(١) ممَّن اختار أنَّه لا نَسْخَ: الرازيُّ، وعلَمُ الدِّين السخاويُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٠)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (ص: ٤٦٣).

ورجَّح ابنُ باز -تبعًا لابن تيميَّةَ- أنَّه لا نَسْخَ، وأنَّ ذلك يختَلِفُ باختلافِ أحوالِ المسلمينَ قُوَّةً وضَعفًا.

قال ابنُ باز: (وهذا القَولُ أظهَرُ وأَبيَنُ في الدَّليلِ؛ لأنَّ القاعِدةَ الأُصوليَّةَ: أنَّه لا يُصارُ إلى النَّسخِ إلَّا عند تعذُّرِ الجمعِ بين الأدِلَّةِ، والجَمعُ هنا غيرُ مُتعَذِّرٍ). ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣/ ١٩٤). ويُنظر أيضًا: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٠).

قال البقاعي: (﴿سَلَٰمٞۚ﴾ أي: شأني الآنَ مُتاركتُكم بسَلامتِكم منِّي وسلامَتي منكم). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٥٠١).

عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يقولَ ذلك للمُشرِكينَ؛ تَهديدًا لهم، مع قَولِه لهم: سَلامٌ[١].

٢- قِراءةُ: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بالياءِ على الغَيبةِ والخَبَرِ، على أنَّه وَعيدٌ مِن اللهِ تعالَى للمُشرِكينَ بما سيَلقَونَه مِنَ العذابِ على كُفرِهم[٢].

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: فسَوفَ يَعلَمُ المُشرِكونَ حَقيقةَ ما سيَلقَونَه؛ جَزاءَ كُفرِهم بالحَقِّ، وشِرْكِهم باللهِ تعالَى[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الشَّرطُ لا يدُلُّ على وُقوعِ المشروطِ؛ بلْ ولا على إمكانِه، كما في قَولِه تعالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ونَظائرِه[٤].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فيه وَصفُه برُبوبيَّةِ أقْوَى المَوجوداتِ وأَعَمِّها وأعظَمِها؛ لأنَّه يُفيدُ انتِفاءَ أنْ يَكونَ له وَلَدٌ؛ لانتِفاءِ فائِدَةِ الوِلادَةِ؛ فقدْ تَمَّ خَلْقُ العَوالِمِ ونِظامُ نَمائِها ودَوامِها، وعُلِمَ مِن كَونِه خالِقِها أنَّه غَيرُ مَسبوقٍ بعَدَمٍ؛ وإلَّا لَاحتاجَ إلى خالِقٍ يَخلُقُه، واقتَضَى عَدَمُ السَّبقِ

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، وأبو جَعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٠).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٠).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٠).

(٤) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٩٩).

بعَدَمِ أنَّه لا يَلحَقُه فَناءٌ؛ فوُجودُ الوَلَدِ له يَكونُ عَبَثًا[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ليْس في ذلك ما يدُلُّ على الحُلولِ بهما، وإنَّما أراد أنَّه إلهُ السَّماءِ ومَن فيها، وإلهُ الأرضِ ومَن فيها، ومِثلُ هذا مِن الكَلامِ قَولُك: هو بخُراسانَ أميرٌ وبمِصرَ أميرٌ؛ فالإمارةُ تَجتَمِعُ له فيهما، وهو حالٌّ بأحَدِهما أو بغَيرِهما. هذا واضِحٌ لا يَخفَى[٢].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يدُلُّ على مَعنَيَينِ:

أحَدُهما: أنَّ الشَّفاعةَ بالحَقِّ غَيرُ نافِعةٍ إلَّا مع العِلمِ، وأنَّ التَّقليدَ لا يُغني مع عدَمِ العِلمِ بصِحَّةِ المقالةِ.

والثَّاني: أنَّ شَرْطَ سائِرِ الشَّهاداتِ في الحُقوقِ وغَيرِها: أنْ يكونَ الشَّاهِدُ عالِمًا بها[٣]؛ فالشَّهادةُ لا تكونُ إلَّا عن عِلمٍ سابِقٍ[٤].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الشَّاهِدَ المَقبولَ عندَ اللهِ هو الذي يَشهَدُ بعِلمٍ وصِدقٍ، فيُخبِرُ بالحَقِّ مُستَنِدًا إلى عِلمِه به[٥].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أنَّ شِركَ العَرَبِ كان شِركًا في الألوهيَّةِ لا في الرُّبوبيَّةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٦٣).

(٥) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٩٥).

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أنَّ المُقِرَّ بالرُّبوبيَّةِ لا يُعَدُّ مُؤمِنًا حتى يُقِرَّ بالأُلوهيَّةِ[١]؛ فالآيةُ فيها أنَّ الكُفَّارَ كانوا مُعترِفينَ بالصَّانعِ[٢].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ لا يكونُ بإقرارِه ببعضِ الحقِّ مُؤمِنًا حتى يُقِرَّ بجَميعِه، وأنَّ الكُفرَ ببَعضِ الحقِّ كُفرٌ بجَميعِه؛ فالقَومُ قالوا حقًّا ولم يَنفَعْهم الإقرارُ به؛ حيثُ رَدُّوا غَيرَه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾

- قَولُه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ...﴾ وصحَّ ذلك، وثبَتَ ببُرهانٍ صَحيحٍ تُورِدونَه، وحُجَّةٍ واضحةٍ تُدْلُون بها؛ فأنا أَوَّلُ مَن يُعظِّمُ ذلك الوَلدَ، وأسْبقُكم إلى طاعتِه والانقيادِ له، كما يُعظِّمُ الرَّجلُ ولَدَ المَلِكِ لتَعظيمِ أبيه. وهذا كَلامٌ واردٌ على سَبيلِ الفَرضِ والتَّمثيلِ لغَرَضٍ، وهو المُبالَغةُ في نَفيِ الوَلَدِ والإطنابُ فيه، وألَّا يَترُكَ النَّاطِقُ به شُبهَةً إلَّا مُضمَحِلَّةً، مع التَّرجَمَةِ عن نَفسِه بثَباتِ القَدَمِ في بابِ التَّوحيدِ؛ وذلك أنَّه عَلَّقَ العِبادَةَ بكَينونَةِ الوَلَدِ، وهي مُحالٌ في نَفسِها؛ فكان المُعَلَّقُ بها مُحالًا مِثلَها؛ فهو في صُورةِ إثباتِ الكَينونَةِ والعِبادَةِ، وفي مَعنَى نَفيِهما على أبلَغِ الوُجوهِ وأقْواها[٤].

- قَولُه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ وهذا الاستِدلالُ الذي في الآيةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥، ٢٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٤، ٢٦٥).

على وِزانِ الاستدلالِ في قولِه تعالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، إلَّا أنَّ تلك جُعِلَ شَرْطُها بأداةٍ صَريحةٍ في الامتناعِ (لو)، وهذه جُعِلَ شَرْطُها بأداةٍ غيرِ صَريحةٍ في الامتناعِ (إنْ). والنُّكتَةُ في العُدولِ عن الأداةِ الصَّريحةِ في الامتِناعِ هنا: إيهامُهُم في بادِئِ الأمْرِ أنَّ فَرْضَ الوَلَدِ لِلَّهِ مَحَلُّ نَظَرٍ، ولِيَتَأتَّى أنْ يَكونَ نَظمُ الكَلامِ مُوَجَّهًا؛ حتَّى إذا تَأمَّلوه وَجَدوه يَنفِي أنْ يَكونَ لِلَّهِ وَلَدٌ بطَريقِ المَذهَبِ الكَلامِيِّ[1]؛ ففي نَظمِ الآيَةِ إيجازٌ بَديعٌ، وإطماعٌ للخُصومِ بما إنْ تَأمَّلوه استَبانَ وَجهُ الحَقِّ، فإنْ أعرَضُوا بعْدَ ذلك عُدَّ إعراضُهُم نُكوصًا[2].

- وأُسلوبُ الآيَةِ قَريبٌ مِن المُشاكَلَةِ، وإطْباقِ الجَوابِ على السُّؤالِ؛ فإنَّهُم لَمَّا قالوا: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [الأنبياء: ٢٦]، حَسُنَ منه صَلَواتُ اللهِ عليه أنْ يَقولَ: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يَجوزُ أن يكونَ تَكمِلَةً لِمَا أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَقولَه، أي: قلْ: إنْ كان للرَّحمَنِ وَلَدٌ على الفَرضِ والتَّقديرِ؛ مع تَنْزيهِهِ عن تَحَقُّقِ ذلك في نَفْسِ الأمرِ. وليْسَ في ضَميرِ ﴿يَصِفُونَ﴾ الْتفاتٌ؛ لأنَّ تَقديرَ الكلامِ: قُلْ لهم: إنْ كان للرَّحمنِ وَلَدٌ. ويَجوزُ أن يَكونَ كَلامًا مُستَأنَفًا مِن جانِبِ اللهِ تعالَى؛ لإنشاءِ تَنْزيهِه

---

(١) قال أبو حيَّان: (هذا النَّوعُ عند عُلماءِ البيانِ يُسمَّى: الاحتجاجَ النَّظريَّ، وهو: أن يَذكُرَ المُتكلِّمُ معنًى يَستدُلُّ عليه بضُروبٍ من المعقولِ، نحو: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]... وبعضُهم يُسمِّيه: المذهبَ الكلاميَّ). ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٥- ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٨٠).

عمَّا يَقولُون؛ فتكونَ مُعترِضَةً بيْن جُملَةِ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ وجُملَةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ولهذه الجُملَةِ مَعنَى التَّذييلِ؛ لأنَّها نَزَّهَت اللهَ عن جَميعِ ما يَصِفونَه به مِن نِسبَةِ الوَلَدِ وغَيرِ ذلك(١).

- قَولُه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لَمَّا كان المَقامُ للتَّنزيهِ، وجِهَةُ العُلويَّةِ أجدَرَ -لأنَّه أبعَدُ عن النَّقصِ والنَّقيضِ- ولم يَقتَضِ الحالُ إعادَةَ لَفظِ الرَّبِّ، بخِلافِ ما يأتي آخِرَ (الجاثِيَة) ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٦]؛ فإنَّه لإثباتِ الكَمالِ، ونَظَرِه إلى جَميعِ الأشياءِ على حَدٍّ سَواءٍ، فقال: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ -أي: ولم يقُلْ: (ورَبِّ الأرضِ)(٢).

- وفي تَكريرِ اسمِ الرَّبِّ في قَولِه: ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ تَفخيمٌ لِشَأنِ العَرشِ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ اعتِراضٌ بتَفريعٍ عن تَنْزيهِ اللهِ عمَّا يَنسُبونَه إليه مِن الوَلَدِ والشُّركاءِ، وهذا تَأْييسٌ مِن إجداءِ الحُجَّةِ فيهم، وأنَّ الأَوْلَى به مُتارَكَتُهم في ضَلالِهم إلى أنْ يَحينَ يَومُ يَلقَون فيه العَذابَ المَوعودَ(٤).

- والأَمرُ في قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ مُستَعمَلٌ في التَّهديدِ، مِن قَبيلِ ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾(٥) [فصلت: ٤٠].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٧).

- قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ عَطفٌ على جُملَةِ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]، والجُملَتانِ اللَّتانِ بيْنَهما اعتِراضانِ؛ قُصِد مِن العَطفِ إفادَةُ نَفيِ الشَّريكِ في الإلَهيَّةِ مُطلقًا بعْدَ نَفيِ الشَّريكِ فيها بالبُنُوَّةِ، وقُصِد بذِكْرِ السَّماءِ والأرضِ الإحاطَةُ بعَوالِمِ التَّدبيرِ والخَلْقِ؛ لأنَّ المُشرِكين جَعَلوا لِلَّهِ شُرَكاءَ في الأرضِ، وهم أصنامُهم المَنصُوبةُ، وجَعَلوا له شُرَكاءَ في السَّماءِ، وهم المَلائِكةُ؛ إذ جَعَلوهم بَناتٍ لِلَّهِ تعالَى؛ فكان قَولُه: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ إبطالًا للفَريقَينِ ممَّا زُعِمت إلَهيَّتُهم[(١)].

- وكان مُقتَضَى الظَّاهِرِ بهَذِه الجُملَةِ أنْ يَكونَ أوَّلُها ﴿ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾، على أنَّه وَصْفٌ للرَّحمنِ مِن قَولِه: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]؛ فعُدِلَ عن مُقتَضَى الظَّاهِرِ بإيرادِ الجُملَةِ مَعطوفَةً، وبإيرادِ مُبتَدَأٍ فيها؛ لإفادَةِ قَصرِ صِفَةِ الإلَهيَّةِ في السَّماءِ وفي الأَرضِ على اللهِ تعالَى، لا يُشارِكُه في ذلك غَيرُه؛ لأنَّ إيرادَ المُسنَدِ إليه مَعرِفَةً والمُسنَدِ مَعرِفَةً طَريقٌ مِن طُرُقِ القَصرِ؛ فالمَعنَى: وهو -لا غَيرُه- الَّذي في السَّماءِ إلَهٌ وفي الأَرضِ إلَهٌ[(٢)].

- وصِلَةُ ﴿ٱلَّذِى﴾ جُملَةٌ اسمِيَّةٌ حُذِفَ صَدرُها، وصَدرُها ضَميرٌ يَعودُ إلى مُعادِ ضَميرِ ﴿وَهُوَ﴾، وحَذفُ صَدرِ الصِّلَةِ استِعمالٌ حَسَنٌ إذا طالَت الصِّلَةُ كما هنا، والتَّقديرُ: الَّذي هو في السَّماءِ إلَهٌ[(٣)].

- قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ فيه دَلالةٌ على اختِصاصِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩١).

تعالَى باستِحقاقِ الأُلوهيَّةِ؛ فإنَّ التَّقديمَ يدُلُّ على الاختِصاصِ[١].

- وكَرَّرَ لَفْظَ ﴿إِلَٰهٌ﴾ مُنَكَّرًا؛ لأنَّ الإلَهَ هنا بمَعنَى المَعبودِ، وهو تعالَى مَعبودٌ فيهما، والمُغايَرَةُ إنَّما هي بيْن مَعبودِيَّته في السَّماءِ ومَعبودِيَّته في الأرضِ؛ لأنَّ المَعبودَ به مِن الأُمورِ الإضافِيَّةِ؛ فيَكفِي التَّغايُرُ فيها مِن أَحَدِ الطَّرَفَينِ؛ فإذا كان العابِدُ في السَّماءِ غيرَ العابِدِ في الأرضِ، صَدَق أنَّ مَعبودِيَّتَه في السَّماءِ غَيرُ مَعبودِيَّته في الأرضِ، مع أنَّ المَعبودَ واحِدٌ[٢].

- قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بعْدَ أنْ وُصِفَ اللهُ بالتَّفَرُّدِ بالإلَهيَّةِ، أُتْبِعَ بوَصفِه بالحَكيمِ العَليمِ؛ تَدقيقًا للدَّليلِ الَّذي في قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾، حيثُ دلَّ على نَفيِ إلَهيَّةِ غَيرِه في السَّماءِ والأرضِ، واختِصاصِه بالإلَهيَّةِ فِيهِما؛ لِمَا في صِيغَةِ القَصرِ مِن إثباتِ الوَصفِ له، ونَفْيِه عمَّن سِواهُ؛ فكان قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تَتميمًا للدَّليلِ، واستِدلالًا عليه[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ عطْفٌ على ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزخرف: ٨٢]، قُصِدَ منه إتْباعُ إنشاءِ التَّنزيهِ بإنشاءِ الثَّناءِ والتَّمجيدِ. و(تَبارَكَ) خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في إنشاءِ المَدحِ؛ لأنَّ مَعنَى (تَبارَكَ): كان مُتَّصِفًا بالبَرَكَةِ اتِّصافًا قَوِيًّا؛ لِمَا يَدُلُّ عليه صِيغَةُ (تَفاعَلَ) مِن قُوَّةِ حُصولِ

(١) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧)، ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٨).

المُشتَقِّ منه؛ لأنَّ أصْلَها أنْ تَدُلَّ على صُدورِ فِعلٍ مِن فاعِلِين، مِثلُ: تَقاتَل وتَمارَى، فاستُعْمِلَت في مُجرَّدِ تَكرُّرِ الفِعلِ، وذلك مِثلُ: تَسامَى وتَعالَى[1].

- وقدْ ذُكِرَ مع التَّنْزيهِ أنَّه رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ؛ لاقتِضاءِ الرُّبوبيَّةِ التَّنْزيهَ عن الوَلَدِ المَسوقِ الكَلامُ لنَفيه، وعن الشَّريكِ المَشمولِ بقولِه: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢]، وذُكِرَ مع التَّبريكِ والتَّعظيم أنَّ له مُلْكَ السَّمواتِ والأرضِ؛ لمُناسَبةِ المُلْكِ للعَظَمَةِ وفَيضِ الخَيرِ؛ فلا يَرِيبُكَ أنَّ ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُغنٍ عن ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ غَرَضَ القُرآنِ التَّذكيرُ، وأغراضُ التَّذكيرِ تُخالِفُ أغراضَ الاستِدلالِ والجَدَلِ؛ فإنَّ التَّذكيرَ يُلائِمُ التَّنبيهَ على مُختَلَفِ الصِّفاتِ، باختِلافِ الاعتِباراتِ، والتَّعرُّضِ للاستِمدادِ مِن الفَضلِ. ثمَّ إنَّ صِيغَةَ (تَبارَكَ) تدُلُّ على أنَّ البَرَكَةَ ذاتيَّةٌ لِلَّهِ تعالَى؛ فيَقتَضِي استِغناءَه عن الزِّيادَةِ باتِّخاذِ الوَلَدِ واتِّخاذِ الشَّريكِ؛ فبهذا الاعتِبارِ كانتْ هذه الجُملَةُ استِدلالًا آخَرَ تابِعًا لدَليلِ قَولِه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2] [الزخرف: ٨٢].

- وقدْ تَأَكَّدَ انفِرادُه برُبوبيَّةِ أعظَمِ المَوجوداتِ ثَلاثَ مرَّاتٍ بقَولِه: ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزخرف: ٨٢]، وقَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقَولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[3].

- ولَمَّا كان قَولُه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُفيدًا التَّصرُّفَ في هذه العَوالِمِ مُدَّةَ وُجودِها ووُجودِ ما بيْنها؛ أردَفَه بقَولِه: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٩).

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ للدَّلالَةِ على أنَّ لِلَّهِ مع مُلكِ العَوالِمِ الفانِيَةِ مُلْكَ العَوالِمِ الباقِيَةِ، وأنَّه المُتَصَرِّفُ في تِلكَ العَوالِمِ بما فيها بالتَّنعيم والتَّعذيب؛ فكان قَولُه: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ تَوطِئَةً لقَولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، وإدماجًا[1] لإثباتِ البَعثِ[2].

- قَولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبَةِ إلى الخِطابِ؛ للمُباشَرَةِ بالتَّهديدِ[3].

- وتَقديمُ المَجرورِ في ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ لقَصدِ التَّقَوِّي؛ إذ لَيس المُخاطَبون بمُثبِتينَ رُجعَى إلى غَيرِه؛ فإنَّهُم لا يُؤمِنون بالبَعثِ أصلًا. وأمَّا قَولُهُم للأصنامِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فمُرادُهم أنَّهُم شُفعاءُ لهم في الدُّنيا، أو هو على سَبيلِ الجَدَلِ؛ ولذَلِكَ أُتبِعَ بقَولِه: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾[4] [الزخرف: ٨٦].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ جُمِعَ الضَّميرُ في ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ باعتِبارِ مَعنَى ﴿مَن﴾، كما أنَّ الإفرادَ أوَّلًا في ﴿شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ باعتِبارِ لَفظِها[5].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾

---

(١) تقدَّم تعريفه (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧).

- وفرَّع على هذا التَّقرير والإقرارِ الإنكارَ والتَّعجيبَ من انصرافِهم من عِبادَةِ اللهِ إلى عِبادَةِ آلِهَةٍ أُخرَى بقَولِه: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1].

- وبُنِي ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ للمَجهولِ؛ إذ لم يَصرِفْهم صارِفٌ، ولَكِنْ صَرَفوا أنفُسَهم عن عِبادَةِ خالِقِهم، كقَولِ العَرَبِ: أين يُذْهَبُ بك، أي: أيْن تَذهَبُ بنَفسِكَ؛ إذ لا يُرِيدون أنَّ ذاهِبًا ذَهَب به يَسأَلونه عنه، ولَكِنَّ المُرادَ أنَّه لم يَذهَبْ به أَحَدٌ، وإنَّما ذَهَب بنَفسِه[2].

- والخِطابُ في قَولِه: ﴿سَأَلْتَهُم﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ لغَيرِ مُعَيَّنٍ، أي: إنْ سَأَلَهم مَن يتَأَتَّى منه أنْ يَسأَلَ، وهذا أعَمُّ[3].

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾

- ضَميرُ الغائِبِ في ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ الْتِفاتٌ عن الخِطابِ في قَولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]؛ فإنَّه بعْدَ ما مَضَى مِن المُحاجَّةِ ومِن حِكايَةِ إقرارِهِم بأنَّ اللهَ الَّذي خَلَقهم، ثمَّ إنَّهُم لم يَتَزَحزَحوا عن الكُفرِ قِيدَ أُنْمُلَةٍ؛ حَصَل اليَأسُ للرَّسولِ مِن إيمانِهِم؛ فقال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ الْتِجاءً إلى اللهِ فيهم، وتَفويضًا إليه؛ ليُجرِيَ حُكمَه عليهم، وهذا مِن استِعمالِ الخَبَرِ في التَّحَسُّرِ أو الشِّكايَةِ، وهو خَبَرٌ بمَعنَى الإنشاءِ، ويُؤَيِّدُ هذا تَفريعُ: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٨٩]؛ ففي ضَميرِ الغَيبَةِ الْتِفاتٌ؛ فمُقتَضى الظَّاهِرِ: وقَولُك: يا رَبِّ... إلخ، ويُحَسِّنُ هذا الالْتِفاتَ أنَّه حِكايَةٌ لشَيءٍ في نَفْسِ الرَّسولِ؛ فجَعَل الرَّسولَ بمَنزِلَةِ الغائِبِ؛ لإظهارِ أنَّ اللهَ لا يُهمِلُ نِداءَهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وشَكواهُ[١].

- وإضافَةُ القِيلِ إلى ضَميرِ الرَّسولِ مُشعِرَةٌ بأنَّه تكرَّر منه، وعُرِفَ به عِندَ رَبِّه، أي: عُرِفَ بِهَذا وبما في مَعناهُ[٢].

- ويَجوزُ في جَرِّ قولِه: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ وَجهانِ: أحدُهما: أنْ يَكونَ مَجرورًا عَطفًا على السَّاعَةِ في قَولِه: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥]، أي: وعِلمُ قِيلِ الرَّسولِ: يا رَبِّ، وهو على هذا وَعدٌ للرَّسولِ بالنَّصرِ وتَهديدٌ لهم بالانتِقام. وثانيهما: أنْ تكونَ الواوُ للقسَمِ، ويكونَ جَوابُ القسَمِ جُملةَ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، على أنَّ اللهَ أقسَمَ بقَولِ الرَّسولِ: يا ربِّ، تَعظيمًا للرَّسولِ ولِقِيلِه الذي هو تَفويضٌ للرَّبِّ وثِقةٌ به. ومَقولُ (قِيلِه) هو ﴿يَٰرَبِّ﴾ فقطْ، أي: أُقْسِمُ بنِداءِ الرَّسولِ ربَّه نِداءَ مُضطَرٍّ. وقدْ حُذِفَ بعْدَ النِّداءِ ما نُودِي لأَجلِه ممَّا دلَّ عليه مَقامُ مَن أَعيَتْه الحِيلَةُ فيهم؛ ففوَّضَ أَمْرَه إلى رَبِّه، فأَقسَمَ اللهُ بتِلكَ الكَلِمَةِ على أنَّهُم لا يُؤمِنون، ولَكِنَّ اللهَ سيَنتَقِمُ مِنهُم؛ فلذلك قال: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾[٣] [الزخرف: ٨٩].

- والإشارَةُ بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى المُشرِكين مِن أهلِ مَكَّة، كما هي عادَةُ القُرآنِ غالِبًا. ووَصْفُهم بأنَّهم ﴿قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ أدَلُّ على تَمَكُّنِ عَدَمِ الإيمانِ مِنهُم مِن أنْ يَقولَ: (هَؤُلاءِ لا يُؤمِنون)[٤].

٩- قولُه تعالَى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٣).

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ فَصيحَةٌ؛ لأنَّها أفصَحَت عن مُقَدَّرٍ، أي: إذْ قُلتَ ذلك القِيلَ، وفَوَّضْتَ الأمْرَ إلينا؛ فسَأتَوَلَّى الانتِصافَ مِنهُم، فاصْفَحْ عنهم، أي: أَعرِضْ عنهم، ولا تَحزَنْ لهم[١].

- وأصلُ ﴿سَلَٰمٞ﴾ مَصدرٌ جاء بَدَلًا مِن فِعلِه؛ فأَصلُه النَّصبُ، وعُدِلَ إلى رَفعِه؛ لقَصدِ الدَّلالَةِ على الثَّباتِ[٢].

- قَولُه: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: فسَوفَ يَعلَمون حالَهم البتَّةَ وإنْ تأخَّرَ ذلكَ، وهو وَعيدٌ وتَهديدٌ لهم مِن اللهِ، وتَسلِيَةٌ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣]. وعلى قراءةِ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾[٤] ففيه الْتِفاتٌ مِنَ الغَيْبَةِ إلى الخِطابِ؛ لِتَهديدِهم وتَقريعِهم وتَوبيخِهم[٥]، ويكونُ مِمَّا أُمِرَ الرَّسولُ بأنْ يَقولَه لهم، أيْ: وقُلْ: سوفَ تَعْلَمونَ[٦].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ للتَّهويلِ؛ لتَذهَبَ نُفوسُهم كلَّ مَذهَبٍ مُمكِنٍ[٧].

- وما في هذه الآيَةِ مِن الأمْرِ بالإعراضِ والتَّسليمِ في الجِدالِ والوَعيدِ، ما يُؤذِنُ بانتِهاءِ الكَلامِ في هذه السُّورَةِ، وهو مِن بَراعَةِ المَقطَعِ[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر ما تقدَّم في القراءاتِ ذاتِ الأثرِ في التفسيرِ (ص: ٢٩٩ - ٣٠٠).

(٥) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ٩٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ
سُورَةِ الدُّخَانِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الدُّخَانِ

أسماءُ السُّورةِ:

تُسَمَّى هذه السُّورةُ بسُورةِ الدُّخَانِ[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الدُّخَانِ مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الدُّخَانِ:

١- إثباتُ الوَحدانيَّةِ للهِ سُبحانَه وتعالَى، وتقريرُ البَعثِ والنُّشورِ[٤].

٢- إثباتُ إنزالِ القُرآنِ مِن اللهِ تعالَى[٥].

---

(١) سُمِّيَت سورةُ الدُّخَانِ بذلك؛ لِقَولِه تعالى فيها: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الدخان: ١٠]؛ اهتِمامًا بشَأنِه. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٥).

وتُسمَّى أيضًا (حم الدُّخَانِ) قال ابنُ عاشور: (واللَّفظانِ بمَنزلةِ اسمٍ واحِدٍ؛ لأنَّ كَلِمةَ «حم» غيرُ خاصَّةٍ بهذه السُّورةِ، فلا تُعَدُّ عَلَمًا لها؛ ولذلك لم يَعُدَّها صاحِبُ «الإتقان» في عدادِ السُّوَرِ ذواتِ أكثَرَ مِن اسمٍ، وسُمِّيَت في المصاحِفِ وفي كُتُبِ السُّنَّةِ سُورةَ الدُّخَانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٥).

(٢) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًا﴾ [الدخان: ١٥]؛ فإنَّه مدنيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥١).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابنُ الجوزيِّ، والقرطبيُّ، والفيروزابادي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٠).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي تناولَتْها سُورةُ الدُّخَانِ:

١- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ، وبيانُ بَدءِ نُزولِه.

٢- تَهديدُ المُشرِكينَ بالعَذابِ؛ جَزاءً على تَماديهم في الإعراضِ والشَّكِّ.

٣- سَوقُ جانِبٍ مِن قِصَّةِ فِرعَونَ مع مُوسى عليه السَّلامُ.

٤- ذِكرُ أقوالِ المُشرِكينَ الباطِلةِ في شأنِ البَعثِ، مع الرَّدِّ عليهم بما يَدحَضُ حُجَّتَهم.

٥- وَصفُ أهوالِ يومِ القِيامةِ، وبَيانُ سُوءِ عاقِبةِ الكافِرينَ، وحُسنِ عاقِبةِ المُؤمِنينَ.

٦- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِن أذًى، مع وَعْدِه بالنَّصرِ على أعدائِه.

الآيات (١-٨)

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾: أي: كَثيرةِ الخيْراتِ والبرَكاتِ، والبرَكةُ: كثْرةُ الخيرِ ودَوامُه، ومَن ألْقَى اللهَ عليه برَكتَه فهو المبارَكُ، فالبرَكةُ: ثُبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ، وأصلُ (برك): اللُّزومُ والثُّبوتُ[(١)].

﴿يُفۡرَقُ﴾: أي: يُفصَلُ ويُقضَى، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تَمييزٍ بيْنَ شيئَينِ[(٢)].

﴿مُّوقِنِينَ﴾: جمْع مُوقِنٍ، واليقينُ من صِفاتِ العِلمِ، يُقال: عِلم يَقِينٍ، وهو سُكونُ الفَهمِ، وثبوتُ الحُكمِ، واليَقينُ: زَوالُ الشَّكِّ، أو الاعتقادُ الجازمُ الثَّابِتُ المطابِق للواقِع[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧، ٣٤٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٨٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٩).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تباركَ وتعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ * أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ * رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٣ - ٦].

- في نَصبِ ﴿أَمۡرٗا﴾ عِدَّةُ أوجُهٍ تَرجِعُ إلى أربعةِ أشياءَ: الحاليَّةِ، والمفعولِ له، والمصْدريَّةِ، والمفعولِ به، وبَيانُها على النَّحوِ التَّالي: أحَدُها: أنَّه حالٌ مِن فاعلِ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أو مِن مَفعولِه، أي: آمِرينَ به، أو مَأمورًا به. الثَّاني: أنَّه حالٌ مِن ﴿كُلُّ﴾، أو مِن ﴿أَمۡرٍ﴾؛ لأنَّه وُصِفَ. الثَّالثُ: أنَّه مَفعولٌ لأجْلِه مَنصوبٌ، وناصِبُه إمَّا ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، وإمَّا ﴿مُنذِرِينَ﴾، وإمَّا ﴿يُفۡرَقُ﴾. الرَّابعُ: أنَّه مَصدرٌ مَنصوبٌ مِن مَعنى ﴿يُفۡرَقُ﴾، أي: يُفرَقُ فَرْقًا؛ لأنَّ ﴿أَمۡرٗا﴾ بمعْنى (فَرْقًا)، فوُضِع ﴿أَمۡرٗا﴾ مَوضِعَ (فرْقًا). الخامسُ: أنَّه مَصدَرٌ لـفِعلٍ مَحذوفٍ، أي: أمَرْنا أمرًا. السَّادِسُ: أنَّه مَنصوبٌ على إضمارِ فِعلٍ، أي: أعني أمرًا مِن عندِنا. وقيل غيرُ ذلك.

- وفي نَصبِ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّها مَفعولٌ لأجلِه مَنصوبٌ، والعامِلُ فيه ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، أو ﴿أَمۡرٗا﴾، أو ﴿يُفۡرَقُ﴾، أو ﴿مُنذِرِينَ﴾. الثَّاني: أنَّها مَصدرٌ مَنصوبٌ بفِعلٍ مُقدَّرٍ مِن لَفظِه، أي: رَحِمْنا رَحْمةً. الثَّالِثُ: أنَّها مَفعولٌ به لاسمِ الفاعِلِ ﴿مُرۡسِلِينَ﴾. الرَّابِعُ: أنَّها حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿مُرۡسِلِينَ﴾، أي: راحِمينَ أو ذَوِي رَحمةٍ[1].

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٣)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٨٣)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦١٦-٦١٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١١٣).

المعنى الإجماليُّ:

ابتَدأَ اللهُ تعالَى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: ﴿حمٓ﴾، وهما مِن الحروفِ المقطَّعةِ التي تَأتي لبَيانِ إعجازِ هذا القرآنِ، ثمَّ أقسَمَ اللهُ تعالَى بالكِتابِ الواضِحِ المُبِينِ لكُلِّ شَيءٍ يُحتاجُ إليه -على أنَّه أنْزَلَ القُرآنَ الكريمَ في ليْلةٍ مُبارَكةٍ هي ليْلةُ القَدْرِ مِن شَهرِ رَمَضانَ، مُخَوِّفًا ومُحَذِّرًا النَّاسَ بهذا القُرآنِ مِن وُقوعِ العَذابِ بهم إنْ لم يُقلِعوا عن الشِّركِ والعِصيانِ.

ثمَّ أخبَرَ سُبحانَه عن هذه اللَّيلةِ المبارَكةِ -ليْلةِ القَدْرِ- بأنَّه يُفرَقُ فيها كُلُّ أمرٍ مُحكَمٍ مُشتَمِلٍ على الحِكمةِ، حالَ كَونِ ذلك الأمرِ أمرًا مِن عندِه تعالَى، إنَّه كان مُرسِلًا رَسولًا يَتْلو آياتِه؛ رَحمةً منه تعالَى بعِبادِه، إنَّه هو السَّميعُ العَليمُ.

ثمَّ وصَفَ اللهُ تعالَى نفْسَه بما يدُلُّ على عظَمتِه وكَمالِ قُدرتِه، فقال: خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنهما، إنْ كُنتُم موقِنينَ. لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا هو سُبحانَه، يُحيي ويُميتُ، هو خالِقُكم وخالِقُ آبائِكم الأوَّلينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ١﴾.

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بهَذينِ الحرْفينِ مِن الحُروفِ المقطَّعةِ التي تُستفتَحُ بها كَثيرٌ مِن سُوَرِ القرآنِ؛ لبَيانِ إعجازِه، حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثونَ بها[١].

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾.

أي: أُقسمُ بالقُرآنِ الواضِحِ الموضِّحِ لكُلِّ ما يُحتاجُ إلى بَيانِه[٢].

---

(١) يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ أوَّل سورةِ الزُّخرفِ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير الخازن)) =

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾.

أي: إنَّا أنزَلْنا القُرآنَ في ليْلةٍ كَثيرةِ البرَكاتِ والخيْراتِ، وهي ليْلةُ القَدْرِ مِن شَهرِ رَمَضانَ[1].

= (٤/ ١١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

قال ابنُ عطية: (﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِن الفِعلِ المتعَدِّي، أي: يُبينُ الهُدى والشَّرعَ ونَحوَه، ويحتَمِلُ أن يكونَ مِن غيرِ المتعَدِّي، أي: هو مُبينٌ في نَفسِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٨). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٥٥) و(٣/ ٤٥٣).

وقال أبو السعود: (أي: البيِّنِ لِمن أُنزِلَ عليهم؛ لِكَونِه بلُغَتِهم وعَلى أساليبِهم، أو ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ لطريقِ الهُدى مِن طَريقِ الضَّلالةِ، المُوَضِّحِ لكُلِّ ما يُحتاجُ إليهِ في أبوابِ الدِّيانةِ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٩).

ممَّن اختار أنَّه بمعنى البَيِّنِ: مقاتلُ بن سليمان، ومكي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٥٥).

قال الشنقيطي: (ومن إتيانِ «أبان» لازمةً: يَكْثُرُ في القرآنِ اسمُ فاعلِها ﴿كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ و﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ هو مِنْ «أَبانَ» اللازمةِ). ((العذب النمير)) (١/ ٣٥٥).

وممَّن اختار أنَّه بمعنى المُبينِ لِغَيرِه: الخازن، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٠٤) و(٦/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

وممَّن اختار الجمْعَ بين المعنيَين: البقاعي، وذهَب إليه ابنُ عُثيمين في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الزُّخرفِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢)، ((تفسير العثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٣٠).

قال ابنُ عثيمين: (فقَولُنا: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ مِن أبان الشَّيءَ: إذا أظهَرَه، يعني: أنَّ القُرآنَ أظهَرَ كُلَّ شَيءٍ يَحتاجُ النَّاسُ إليه في دينِهم ودُنياهم. وقيل: المرادُ بـ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ البَيِّنُ. والأعَمُّ أنَّه مُظهِرٌ للحَقِّ؛ لأنَّه لا يُظهِرُ الحَقَّ إلَّا إذا كان هو ظاهِرًا، وعلى هذا ففَسِّرِ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ بأنَّه الْمُظهِرُ، وإنْ فَسَّرْتَه بهما فلا بأسَ، فقُلتَ: إنَّه بَيِّنٌ مُبينٌ؛ لأنَّ الكَلِمةَ إذا احتَمَلت مَعنَيينِ -وهذه قاعدة- لا يُنافي أحدُهما الآخَرَ، وليس أرجَحَ منه؛ فإنَّها تُحمَلُ عليهما). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥، ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

أي: إنَّا كُنَّا مُخوِّفينَ ومُحَذِّرينَ النَّاسَ بالقُرآنِ مِن أنْ تحُلَّ بهم عُقوبتُنا إنْ لم يَتوبوا مِن شِرْكِهم وكُفرِهم وعِصيانِهم(١).

= (ص: ٧٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٢).

قال الرَّسْعني: (اللَّيلةُ المُبارَكةُ: ليلةُ القَدْرِ، في قَولِ ابنِ عبَّاسٍ، وعامَّةِ المُفَسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٥٩). ونَسَبَه ابنُ الجوزي للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٧).

وقال ابنُ القيِّم: (قال تعالى: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، وهذه هي ليْلةُ القدْرِ قطعًا؛ لقولِه تعالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. ومَن زعَم أنَّها ليْلةُ النِّصفِ مِن شَعبانَ فقدْ غَلِط). ((شفاء العليل)) (ص: ٢٢). ويُنظر: ((المجموع شرح المهذب)) للنووي (٦/ ٤٤٧، ٤٤٨).

قال السَّمعاني: (وفي معنى هذا الإنزالِ قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّه أُنزِلَ جَميعُ القُرآنِ في ليْلةِ القَدْرِ إلى السَّماءِ الدُّنيا...

والقَولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالإنزالِ هاهنا ابتداءُ الإنزالِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢١).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ، وأنَّ المرادَ نُزولُ القُرآنِ إلى السَّماءِ الدُّنيا ليْلةَ القَدْرِ جُملةً واحِدةً، ثمَّ نُزولُه بعْدَ ذلك مُفَرَّقًا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جُزي، والزَّركشي ونسَبَه إلى الأكثرينَ، وابنُ حجر. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٦)، ((البرهان)) للزركشي (١/ ٢٢٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٤).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ، وأنَّ ابتداءَ نُزولِ القُرآنِ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان في ليلةِ القَدرِ: الزمخشريُّ، وابنُ عطية -ونَسَبَه إلى الجُمهورِ-، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٧).

قال الشنقيطي: (لا شَكَّ أنَّ ليلةً هي خيرٌ مِن ألفِ شَهرٍ، إلى آخِرِ الصِّفاتِ التي وُصِفَت بها في سُورةِ «القَدْرِ»: كثيرةُ البَرَكاتِ والخَيراتِ جدًّا). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٧). =

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: يُقضَى ويُبيَّنُ ويُكتَبُ في ليْلةِ القَدرِ المباركةِ كُلُّ أمْرٍ مُحكَمٍ مُشتَمِلٍ على الحِكمةِ البالِغةِ(١).

= وقَولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ جملةٌ استئنافيَّةٌ فُسِّرَ بها جَوابُ القَسَم -الَّذي هو قَولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾- كأنَّه قيل: أنزَلْناه؛ لأنَّ مِن شَأنِنا الإنذارَ والتَّحذيرَ مِن العِقابِ. ذكَره الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٩-٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٢-١٧٣).

قال الماوردي: (في ﴿يُفْرَقُ﴾ أربعةُ أوجهٍ: أحدُها: يُقضى. قاله الضَّحَّاك. الثاني: يُكتَبُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثالث: يُنزَلُ. قاله ابنُ زيْدٍ. الرابع: يُخرَجُ. قاله ابنُ سنانٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٥).

وقال البقاعي: (﴿يُفْرَقُ﴾ أي: يُنشَرُ ويُبيَّنُ ويُفَصَّلُ ويُوضَّحُ مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقولُه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: في ليْلةِ القدْرِ يُفصَلُ مِن اللَّوحِ المحفوظِ إلى الكَتَبةِ أمرُ السَّنةِ، وما يكونُ فيها مِن الآجالِ والأرزاقِ، وما يكونُ فيها إلى آخِرِها. وهكذا رُوِي عن ابنِ عُمرَ، وأبي مالكٍ، ومُجاهدٍ، والضَّحَّاكِ، وغيرِ واحدٍ مِن السَّلفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)

وقال الشنقيطي: (معْنى الآيةِ: أنَّ اللهَ تبارَك وتعالَى في كلِّ ليْلةِ قدْرٍ مِن السَّنةِ يُبيِّنُ للملائكةِ ويَكتُبُ لهم بالتَّفصيلِ والإيضاحِ جميعَ ما يقَعُ في تِلك السَّنةِ إلى ليْلةِ القدْرِ مِن السَّنةِ الجديدةِ، فتُبيَّنُ في ذلك الآجالُ والأرزاقُ، والفقرُ والغِنى، والخِصبُ والجدْبُ، والصِّحَّةُ والمرضُ، والحروبُ والزَّلازلُ، وجميعُ ما يقَعُ في تلك السَّنةِ كائنًا ما كان). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٧٢-١٧٣).

وقال الواحدي: (والأمرُ الحَكيمُ: المُحكَمُ، يعني: أمرَ السَّنةِ إلى مِثلِها مِن العامِ المُقبِلِ، يَقضي اللهُ في تلك اللَّيلةِ ما هو كائِنٌ في السَّنةِ مِن الخَيرِ، والشِّدَّةِ والرَّخاءِ، والأرزاقِ والآجالِ، ومَحوٍ وتَثبيتٍ ما يَشاءُ. وهذا قَولُ عامَّةِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (٢٠/ ٩٥).

وقال الشنقيطي: (﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، أي: ذي حِكمةٍ بالِغةٍ؛ لأنَّ كُلَّ ما يَفعَلُه اللهُ مُشتَمِلٌ على أنواعِ الحِكَمِ الباهِرةِ. =

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾.

أي: حالَ كَونِ ذلك الأمْرِ أمْرًا مِن عِندِنا[1].

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

أي: إنَّا كنَّا مُرسِلينَ رَسولًا يَتْلو آياتِ اللهِ، ويُبَلِّغُ رِسالتَه[2].

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

= وقال بَعضُهم: حَكيمٌ، أي: مُحكَمٌ، لا تَغييرَ فيه ولا تَبْديلَ. وكِلا الأمرَينِ حَقٌّ؛ لأنَّ ما سَبَق في عِلمِ اللهِ لا يَتغَيَّرُ ولا يَتبَدَّلُ، ولأنَّ جميعَ أفعالِه في غايةِ الحِكمةِ. ((أضواء البيان)) (٧/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢).

مِن المفَسِّرين مَن عمَّم بحيثُ يَشمَلُ ذلك جميعَ المُرسَلينَ. ومنهم: السَّمرقنديُّ، وابن أبي زَمنين، والبَغَوي، وابن الجوْزي، والرازي، وأبو حيان، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

ومنهم مَن خَصَّص ذلك بالنبيِّ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، منهم: ابنُ جريرٍ، والثعلبي، والعُلَيمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠٨).

قال الماوَرديُّ: (﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ فيه ثَلاثةُ أوجُهٍ: أحَدُها: مُرسِلينَ الرُّسُلَ للإنذارِ. الثَّاني: مُنزِلينَ ما قَضَيناه على العِبادِ. الثَّالِثُ: مُرسِلينَ رَحمةً مِن رَبِّك). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٦).

أي: رَحمةً مِن رَبِّك -يا محمَّدُ- بعِبادِه[١].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لأقوالِ عِبادِه، العَليمُ بأعمالِهم وأحوالِهم[٢].

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧﴾.

أي: خالِقِ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ، والمالِكِ والمُدبِّرِ لجميعِ ذلك، إنْ كُنتُم مُتحَقِّقينَ بذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٣).

قيل: معنى ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إنْ كُنتُم تَطلُبونَ اليَقينَ وتُريدونَه، فاعرِفوا أنَّ الأمْرَ كما قُلْنا، كقَولِهم: (فلانٌ مُنْجِدٌ مُتْهِمٌ) أي: يُريدُ نَجْدا وتِهامةَ.

وقيل: معنى الشَّرطِ: أنَّ إرسالَ الرُّسُلِ وإنزالَ الكُتُبِ: رَحمةٌ مِن الرَّبِّ. ثمَّ قيلَ لهم: إنَّ هذا الرَّبَّ هو السَّميعُ العَليمُ الذي أنتم مُقِرُّونَ بأنَّه رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، أي: إنْ كان إقرارُكم عن إيقانٍ باللهِ تعالَى وإتقانٍ لِمَعرفتِه.

وقيل: هو تقريرٌ وتَثبيتٌ، أي: إنْ كُنتَ مُوقِنًا بهذا يكونُ يَقينُك، كما تقولُ لإنسانٍ تُريدُ إقامةَ نفْسِه -أي: إثارتَها-: العِلمُ غَرَضُك إنْ كُنتَ رَجُلًا. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٦٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠٨).

وقال القرطبي: (يحتَمِلُ أن يكونَ هذا الخِطابُ مع المُعتَرِفِ بأنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، أي: إنْ كُنتُم مُوقِنينَ به، فاعلَموا أنَّ له أن يُرسِلَ الرُّسُلَ، ويُنَزِّلَ الكُتُبَ. ويجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ مع مَن لا يَعتَرِفُ بأنَّه الخالِقُ، أي: يَنْبغي أنْ يَعرِفوا أنَّه الخالِقُ، وأنَّه الذي يُحيي ويُميتُ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٩).

كما حَكى تعالَى قَولَ مُوسى لفِرعَونَ ومَلَئِه: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨﴾.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا اللهُ المُستَحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه دُونَ ما سِواه[١].

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

أي: هو المتصَرِّفُ وَحْدَه بالإحياءِ والإماتةِ؛ فيُحيي ما يَشاءُ، ويُميتُ ما يَشاءُ مِن الأحياءِ[٢].

كما قال تعالَى: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦].

﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

أي: هو خالِقُكم ومالِكُكم ورازِقُكم أنتُم وآبائِكم الذين مِن قَبْلِكم[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ خَصَّ اللهُ تعالَى بعضَ الأوقاتِ بمَزيدِ تَشريفٍ؛ حتى يَصيرَ ذلك داعيًا للمُكَلَّفِ إلى الإقدامِ على الطَّاعاتِ في ذلك الوَقتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٣).

٢- قال تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وَصْفُها بـ ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ تَنْويهٌ بها وتَشويقٌ لمَعرِفَتِها؛ فهذه اللَّيلةُ هي اللَّيلةُ الَّتي ابتُدِئَ فيها نُزولُ القُرآنِ على مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ في الغارِ مِن جَبَلِ حِراءٍ في رَمَضانَ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فبَرَكةُ اللَّيلةِ الَّتي أُنزِلَ فيها القُرآنُ بَرَكةٌ قدَّرَها اللهُ لها قَبْلَ نُزولِ القُرآنِ؛ ليَكونَ القُرآنُ بابتِداءِ نُزولِه فيها مُلابِسًا لوَقتٍ مُبارَكٍ، فيَزدادَ بذلك فَضلًا وشَرَفًا[1].

وقيل: إنَّ وَصْفَها بـ ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ لِمَا أنَّ نُزولَ القُرآنِ مُستَتبِعٌ للمَنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيَويَّةِ بأَجمَعِها، أو لِمَا فيها مِن تَنَزُّلِ المَلائِكةِ والرَّحمةِ، وإجابةِ الدَّعوةِ، وقَسْمِ النِّعمَةِ، وفَصْلِ الأقضِيَةِ، وفَضيلةِ العِبادَةِ، وإعطاءِ تَمامِ الشَّفاعةِ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۞ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ فيه دَليلٌ على التَّقديرِ السَّنويِّ (الحوْليِّ) في ليْلةِ القدْرِ؛ فالتَّقديراتُ أنواعٌ؛ منها: التَّقديرُ الشَّاملُ لجَميعِ المخلوقاتِ وكِتابةُ ذلك قبْلَ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ بخمْسينَ ألْفَ سَنةٍ. ومنها: التَّقديرُ العُمريُّ عندَ تَخليقِ النُّطْفةِ في الرَّحمِ، ومنها: التَّقديرُ اليَوميُّ، وهو تَنفيذُ كلِّ ذلك إلى مَواضعِه[3].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۞ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۞ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۞ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۞ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٧، ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((أعلام السنة المنشورة)) لحافظ الحَكمي (ص: ٨١، ٨٤)، ((مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية)) للسلمان (ص: ١٢٢). ويُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦- ٢٤).

هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ المقصودُ منه تَعظيمُ القُرآنِ بثَلاثةِ أنواعٍ مِن التَّعظيم:

النَّوعُ الأوَّلُ: تَعظيمُه بحَسَبِ ذاتِه: فأقسَمَ تعالَى به، وذلك يدُلُّ على شَرَفِه، ثمَّ إنَّه تعالَى أقسَمَ به على كَونِه نازِلًا في ليْلةٍ مُبارَكةٍ، والقَسَمُ بالشَّيءِ على حالةٍ مِن أحوالِ نَفسِه يدُلُّ على كَونِه في غايةِ الشَّرَفِ، ثمَّ إنَّه تعالَى وصَفَه بكَونِه مُبينًا، وذلك يدُلُّ أيضًا على شَرَفِه في ذاتِه.

أمَّا النَّوعُ الثَّاني: فهو بَيانُ شَرَفِه لأجْلِ شَرَفِ الوَقتِ الذي أُنزِلَ فيه، وهو قَولُه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾، وهذا تَنبيهٌ على أنَّ نُزولَه في ليْلةٍ مُبارَكةٍ يَقتَضي شَرَفَه وجَلالتَه.

وأمَّا النَّوعُ الثَّالِثُ: فهو بَيانُ شَرَفِ القُرآنِ لشَرَفِ مُنَزِّلِه، وذلك هو قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾؛ فبَيَّنَ أنَّ ذلك الإنذارَ والإرسالَ إنَّما حَصَل مِنَ اللهِ تعالَى، ثمَّ بيَّنَ أنَّ ذلك الإرسالَ إنَّما كان لأجْلِ تَكميلِ الرَّحمةِ، وهو قَولُه تعالَى: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[1].

٥- قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وَصَفَهم بالأوَّلِين؛ لأنَّهم جَعَلوا أقدَمَ الآباءِ حُجَّةً أعظَمَ مِن الآباءِ الأقرَبينَ، كما قال تعالَى حِكايَةً عنهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[2] [المؤمنون: ٢٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾

- في جَعْلِ المُقسَمِ به القُرآنَ بوَصْفِ كَونِه كِتابًا مُبينًا، وجَعْلِ جَوابِ القَسَمِ أنَّ اللهَ جَعَله مُبينًا: تَنويهٌ خاصٌّ بالقُرآنِ؛ إذ جَعَل المُقسَمَ به هو المُقسَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٤).

عليه، وهذا ضَربٌ عَزيزٌ بَديعٌ؛ لأنَّه يُومِئُ إلى أنَّ المُقسَمَ على شَأنِه بَلَغ غايَةَ الشَّرَفَ، فإذا أَرادَ المُقسِمُ أنْ يُقسِمَ على ثُبوتِ شَرَفٍ له، لم يَجِدْ ما هو أوْلَى بالقَسَمِ به؛ للتَّناسُبِ بيْن القَسَمِ والمُقسَمِ عليه[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ تَنويهٌ بشَأنِ القُرآنِ بطريقَةِ الكِنايَةِ عنه بذِكرِ فَضلِ الوقتِ الَّذي ابتُدِئَ إنزالُه فيه[2].

- وتَنكيرُ ﴿لَيْلَةٍ﴾ للتَّعظيمِ[3].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ مُعتَرِضةٌ، وحَرفُ (إنَّ) يَجوزُ أنْ يَكُونَ للتَّأكيدِ؛ ردًّا لإنكَارِهِم أنْ يَكونَ اللهُ أرسَلَ رُسُلًا للنَّاسِ؛ لأنَّ المُشرِكين أنْكَروا رِسالَةَ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بزَعمِهم أنَّ اللهَ لا يُرسِلُ رَسولًا مِن البَشَرِ؛ فكان ردُّ إنكارِهم ذلك رَدًّا لإنكارِهم رِسالةَ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ؛ فتكونُ جُملَةُ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ مُستَأنَفةً. ويَجوزُ أنْ تَكونَ (إنَّ) لِمُجَرَّدِ الاهتِمامِ بالخَبَرِ؛ فتَكونُ مُغنِيَةً غَناءَ فاءِ التَّسَبُّبِ، فتُفيدُ تَعليلًا؛ فتَكونُ جُملَةُ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ تَعليلًا لجُملَةِ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ كأنَّه قِيلَ: إنَّا أنزَلْناهُ لأنَّ مِن شَأنِنا الإنذارَ والتَّحذيرَ مِن العِقابِ؛ فمَضمونُ الجُملَةِ عِلَّةُ العِلَّةِ، وهو إيجازٌ[4].

- وإنَّما اقتَصَر على وَصْفِ ﴿مُنذِرِينَ﴾ -مع أنَّ القُرآنَ مُنذِرٌ ومُبَشِّرٌ- اهتِمامًا بالإنذارِ؛ لأنَّه مُقتَضَى حالِ جُمهورِ النَّاسِ يَومَئِذٍ، والإنذارُ يَقتَضِي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦١، ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٩).

التَّبشيرَ لِمَن انتَذَرَ[١].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿مُنذِرِينَ﴾؛ لدَلالَةِ قَولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ عليه، أي: مُنذِرينَ المُخاطَبينَ بالقُرآنِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ مُستَأنَفٌ استِئنافًا بَيانِيًّا ناشِئًا عن تَنكيرِ ﴿لَيۡلَةٖ﴾، ووَصْفِها بأنَّها مُبارَكَةٌ آنِفًا، فدَلَّ على عِظَمِ شَأنِ هاتِهِ اللَّيلَةِ عِندَ اللهِ تعالَى؛ فإنَّها ظَهَر فيها إنزالُ القُرآنِ، وفيها يُفرَقُ عِندَ اللهِ كلُّ أمرٍ حَكيمٍ[٣].

- قولُه: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ هذا مُستَمِرٌّ في كلِّ لَيلَةٍ تُوافِقُ عدَّ تِلكَ اللَّيلَةِ مِن كلِّ عامٍ؛ كما يُؤذِنُ به المُضارِعُ في قَولِه: ﴿يُفۡرَقُ﴾، ويَحتَمِلُ أنْ يَكونَ استِعمالُ المُضارِعِ في ﴿يُفۡرَقُ﴾؛ لاستِحضَارِ تِلكَ الحالَةِ العَظيمَةِ[٤].

- قولُه: ﴿حمٓ * وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ في هذه الجُمَلِ الأربعِ مُحَسِّنُ اللَّفِّ والنَّشرِ[٥]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٨٠).

(٥) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا، بأن يُؤتَى بلفظٍ يشتملُ على متعدِّدٍ، ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجماليٌّ. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهين؛ الوجه الأوَّل: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِ، ويُسَمَّى (اللَّفَّ والنَّشرَ المرتَّبَ). الوجه الثاني: =

ففي قَولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ لَفٌّ بيْن مَعنَيَينِ؛ أَوَّلُهما: تَعْيينُ إنزالِ القُرآنِ، وثانيهُما: اختِصاصُ تَنزيلِه في لَيلَةٍ مُبارَكَةٍ، ثمَّ علَّل المَعنَى الأَوَّلَ بجُملةِ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، وعلَّل المَعنَى الثَّانيَ بجُملَةِ ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ * رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

- إعادةُ كَلمةِ ﴿أَمۡرٗا﴾ لِتَفْخيمِ شأْنِه؛ وإلَّا فإنَّ المقصودَ الأصليَّ هو قولُه: ﴿مِّنۡ عِندِنَآ﴾؛ فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يقعَ ﴿مِّنۡ عِندِنَآ﴾ صِفةً لـ ﴿أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾، فخُولِفَ ذلك لهذه النُّكتةِ، أي: أمْرًا عظيمًا فَخْمًا؛ إذ وُصِفَ بـ(حكيم)، ثمَّ بكَونِه مِن عندِ اللهِ؛ تَشْريفًا له بهذه العِنْديَّةِ، ويَنصَرِفُ هذا التَّشريفُ والتَّعظيمُ والتَّفخيمُ ابتِداءً وبالتَّعيينِ إلى القُرآنِ؛ إذ كان بنُزولِه في تلك اللَّيلَةِ تَشريفُها وجَعْلُها وَقتًا لقَضاءِ الأُمورِ الشَّريفَةِ الحَكيمَةِ[2].

- وقولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ * رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ يَجوزُ أن يَكونَ بَدَلًا مِن قَولِه:

= أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى (اللَّفَّ والنشرَ غيرَ المُرتَّبِ)، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ(اللَّف والنَّشر المُشَوَّش)، أو (المعكوس). يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ٢٣١، ٢٣٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٠).

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، و﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مَفعولًا له، على مَعنَى: إنَّا أَنزَلْنا القُرآنَ؛ لأنَّ مِن شَأنِنا إرسالَ الرُّسلِ بالكُتُبِ إلى عِبادِنا لأَجلِ الرَّحمَةِ عليهم، وأنْ يَكُونَ تَعليلًا لـ﴿يُفْرَقُ﴾، أو لقَولِه: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾، وتَكونَ ﴿رَحْمَةً﴾ مَفعولًا به؛ لأنَّ الجُمَلَ كُلَّها حِينَئِذٍ وارِدَةٌ على التَّعليلِ المُتداخِلِ؛ فكَأنَّه لَمَّا قِيلَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، فقِيلَ: لِمَ؟ فأُجيبَ: لأنَّه مِن شَأنِنا التَّحذيرُ والعِقابُ، فقِيلَ: لِمَ خَصَّص الإنزالَ في هذه اللَّيلَةِ؟ فقيل: لأنَّهُ مِن الأُمورِ المُحكَمَةِ، ومِن شَأنِ هذه اللَّيلَةِ أنْ يُفرَقَ فيها كلُّ أمرٍ حَكيم، فقِيلَ: لِمَ كان مِن الأُمورِ المُحكَمةِ؟ فأُجيبَ: لأنَّ ذا الجَلالِ والإكرامِ أرادَ إرسالَ رَحمةٍ للعالَمين، ومِن حقِّ المُنزَلِ عليه أنْ يَكونَ حَكيمًا؛ لكَونِه للعالَمين نَذيرًا، وداعِيًا إلى اللهِ بإذنِه وسِراجًا مُنِيرًا؛ فقِيلَ: لِمَاذا رَحِمَهم الرَّبُّ عزَّ وجَلَّ بذلك؟ فأُجيبَ: لأنَّه سُبحانَه وتعالَى هو وَحْدَه سَميعٌ عَليمٌ؛ يَعلَمُ جُزئِيَّاتِ أَحوالِ عِبادِه وكُلِّيَّاتِها، ويَعلَمُ ما يَحتاجُون إليه دُنيا وآخِرةً، وهو وَحْدَه ربُّ السَّمواتِ والأَرضِ، يُرَبِّيهم ويَرزُقُهم ويَمنَحُهُم مَرافِقَهم، وهو وَحْدَه يُحْيِيهم ويُميتُهم، ويُثيبُهم ويُعاقِبُهم، وإليه الإشارَةُ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وما بَعْدَه، تَحقيقٌ لرُبوبيَّتِه، وأنَّها لا تَحِقُّ إلَّا لِمَن هذه أَوصافُه[1].

- ومَفعولُ ﴿مُرْسِلِينَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه مادَّةُ اسمِ الفاعِلِ، أي: مُرْسِلينَ الرُّسُلَ[2].

- قولُه: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أصلُ الكلامِ: (إنَّا كُنَّا مُرسِلين رَحمَةً مِنَّا)، ولكنْ قال: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾؛ فوُضِعَ الرَّبُّ مَوْضِعَ الضَّميرِ؛ إيذانًا بأنَّ الرُّبوبيَّةَ تَقتَضِي

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

الرَّحمَةَ على المَربوبينَ؛ فإنَّه أعظَمُ أنواعِ التَّربيَةِ، ولِيَكونَ تَمهيدًا يَنْبَني عليه التَّعليلُ المُتَضَمِّنُ للتَّعريضِ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[1].

- وإضافَةُ (رَب) إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ صَرفٌ للكَلامِ عن مُواجَهَةِ المُشرِكين إلى مُواجَهَةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بالخِطابِ؛ لأنَّه الَّذي جَرَى خِطابُهم هذا بواسِطَتِه؛ فهُوَ كحاضِرٍ مَعَهم عِندَ تَوجيهِ الخِطابِ إليهم؛ وهذا لِقَصدِ التَّنويهِ بشَأنِه بعْدَ التَّنويهِ بشَأنِ الكِتابِ الَّذي جاءَ به. وأيضًا إضافَةُ الرَّبِّ إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ؛ لِيَتَوَصَّلَ إلى حظٍّ له في خِلالِ هذه التَّشريعاتِ بأنَّ ذلك كُلَّه مِن رَبِّه، أي: بواسِطَتِه؛ فإنَّه إذا كان الإرسالُ رَحمَةً كان الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ رَحمَةً، ويُعلَمُ مِن كَونِه ربَّ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ أنَّه ربُّ النَّاسِ كُلِّهم؛ إذ لا يَكونُ الرَّبُّ رَبَّ بَعضِ النَّاسِ دُونَ بَعضٍ؛ فأَغنَى عن أنْ يَقولَ: رَحمَةً مِن ربِّك ورَبِّهم؛ لأنَّ غَرَضَ إضافَةِ (رَب) إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ يَأبَى ذلك، ثمَّ سيُصَرِّحُ بأنَّهُ رَبُّهم في قَولِه: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[2] [الدخان: ٨].

- وجُملَةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تَعليلٌ لجُملَةِ ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ * رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: كُنَّا مُرسِلينَ رَحمَةً بالنَّاسِ؛ لأنَّه عَلِمَ عِبادَةَ المُشرِكين للأَصنامِ، وعَلِمَ إغواءَ أئمَّةِ الكُفرِ للأُمَمِ، وعَلِمَ ما سِوى ذلك مِن أَقوالِهم؛ فأرسَلَ الرُّسُلَ لتَقويمِهم وإصلاحِهم، وعَلِمَ أيضًا نَوايا النَّاسِ وأفعالَهم وإفسادَهم في

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١، ٢٨٢)

الأَرضِ؛ فأَرسَل الرُّسُلَ بالشَّرائِعِ لِكَفِّ النَّاسِ عن الفَسادِ وإصلاحِ عَقائِدِهم وأعمالِهم، فأُشيرَ إلى عِلمِ النَّوعِ الأوَّل بوَصْفِ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾؛ لأنَّ السَّميعَ هو الَّذي يَسمَعُ الأَقوالَ ويَعلَمُها، فلا يَخفَى عليه منها شَيءٌ، وأُشيرَ إلى عِلمِ النَّوعِ الثَّانِي بوَصفِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الشَّامِلِ لجَميعِ المَعلُوماتِ. وقدَّمَ السَّميعَ؛ للاهتِمامِ بالمسْمَوعاتِ؛ لأنَّ أصْلَ الكُفرِ هو دُعاءُ المشركينَ أصْنامَهم. و(السَّميعُ والعَليمُ) تَعليلانِ لجُملَةِ ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بطَريقِ الكِنايَةِ الرَّمزِيَّةِ؛ لأنَّ عِلَّةَ الإرسالِ في الحَقيقَةِ هي إرادَةُ الصَّلاحِ ورَحمَةِ الخَلْقِ، وأمَّا العِلمُ فهو الصِّفَةُ الَّتي تَجرِي الإرادَةُ على وَفْقِه؛ فالتَّعليلُ بصِفَةِ العِلمِ بِناءً على مُقَدِّمَةٍ أُخرَى؛ وهي: أنَّ اللهَ تعالَى حَكيمٌ لا يُحِبُّ الفَسادَ، فإذا كان لا يُحِبُّ ذلك، وكان عَليمًا بتَصَرُّفاتِ الخَلقِ؛ كان عِلمُه وحِكمَتُه مُقتَضِيَيْنِ أنْ يُرسِلَ للنَّاسِ رُسُلًا رَحمَةً بِهِم[1].

- وأفاد ضَميرُ الفَصلِ ﴿هُوَ﴾ الحَصْرَ، أي: هو السَّميعُ العَليمُ لا أصنامُكُم الَّتي تَدْعونَها، وفي هذا إيماءٌ إلى الحاجَةِ إلى إرسالِ الرَّسولِ إليهم بإبطالِ عِبادَةِ الأصنامِ[2].

- وفي تَخصيصِ ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إدماجٌ[3] لِمَعنَى التَّهديدِ والوَعيدِ للكُفَّارِ، والوَعدِ للمُؤمِنين الَّذِين تَلَقَّوْا هذه النِّعمَةَ بأَنواعِ الشُّكرِ[4].

- ومُفتَتَحُ هذه السُّورةِ يَجوزُ أنْ يَكونَ كَلامًا مُوَجَّهًا إلى المُشرِكين ابتِداءً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٢).

(٣) تقدَّم تعريفه (ص: ٥٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٢).

لِفَتحِ بَصائِرِهم إلى شَرَفِ القُرآنِ وما فيه مِن النَّفْعِ للنَّاسِ؛ لِيَكُفُّوا عن الصَّدِّ عنه؛ ولهذا وَرَدَت الحُروفُ المُقَطَّعَةُ في أوَّلِها المَقصودُ منها التَّحَدِّي بالإعجازِ، واشتَمَلَت الجُمَلُ الثَّلاثُ في أوَّلِها على حَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)، ويَكونُ إعلامُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بهذه المَزايَا حاصِلًا تَبَعًا؛ إنْ كان لم يَسبِقْ إعلامُه بذلك بما سَبَق مِن آيِ القُرآنِ أو بوَحْيٍ غيرِ القُرآنِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ مُوَجَّهًا إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ أصالَةً، ويَكونَ عِلمُ المُشرِكين بما يَحتَوي عليه حاصِلًا تَبَعًا بطَريقِ التَّعريضِ، ويَكونَ التَّوكيدُ مَنظورًا فيه إلى الغرَضِ التَّعريضيِّ[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ هذا عَودٌ إلى مُواجَهةِ المشركينَ بالتَّذكيرِ على نحْوِ ما ابتدَأَتْ به السُّورةُ. وهو تَخلُّصٌ للاستِدلالِ على تَفرُّدِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ؛ إلْزامًا لهم بما يُقِرُّون به مِن أنَّه ربُّ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنهما، ويُقِرُّون بأنَّ الأصنامَ لا تَخلُقُ شيئًا، غيْرَ أنَّهم مُعرِضونَ عن نَتيجةِ الدَّليلِ ببُطلانِ إلهيَّةِ الأصنامِ؛ فقدْ كرَّرَ القُرآنَ تَذكيرَهم بأمثالِ هذا، كما في قولِه تعالَى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ * أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]، ولأجْلِ ذلك ذَكَر الرُّبوبيَّةَ إجمالًا في قولِه: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان: ٦]، ثمَّ تَفصيلًا بذِكرِ صِفةِ عُمومِ العِلمِ التي هي صِفةُ المعبودِ بحقٍّ بصِيغةِ قصْرِ القلْبِ[2] المشيرِ إلى أنَّ الأصنامَ لا تَسمَعُ ولا تَعلَمُ، وبذِكْرِ صِفةِ التَّكوينِ المختصَّةِ به تعالَى بإقرارِهم؛ ارتقاءً في الاستِدلالِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

(٢) تقدَّم تعريفه (ص: ١٧٥).

فلمَّا لم يكُنْ مَجالٌ للرَّيبِ في أنَّه تعالَى هو الإلهُ الحقُّ، أُعقِبَ هذا الاستدلالُ بجُملةِ ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بطَريقةِ إثارةِ التَّيقُّظِ لِعُقولِهم؛ إذ نزَّلَهم مَنزلةَ المشكوكِ إيقانُهم؛ لِعَدَمِ جَرْيِهم على مُوجَبِ الإيقانِ للهِ بالخالقيَّةِ حين عَبَدوا غيْرَه؛ بأنْ أُتِيَ في جانبِ فرْضِ إيقانِهم بطَريقةِ الشَّرطِ، وأُتِيَ بحرْفِ الشَّرطِ (إنْ) الذي أصْلُه عَدَمُ الجزْمِ بوقُوعِ الشَّرطِ على نحوِ قولِه تعالَى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾[1] [الزخرف: ٥].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿مُّوقِنِينَ﴾ للعِلمِ به مِن قولِه: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾. وجَوابُ الشَّرْطِ مَحذوفٌ دلَّ عليه المقامُ. والتَّقديرُ: إنْ كُنتُم مُوقنينَ فلا تَعْبُدوا غيْرَه؛ ولذلك أعقَبَه بجُملةِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[2] [الدخان: ٨].

٦- قولُه تعالَى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفَةٌ مُقرِّرَةٌ لِمَا قَبْلَها[3].

- وجُملَةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نَتيجَةٌ للدَّليلِ المُتَقَدِّمِ؛ لأنَّ انفرادَه برُبوبيَّةِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنهما دَليلٌ على انفِرادِه بالإلَهيَّةِ، أي: على بُطلانِ إلَهيَّةِ أصنامِهم؛ فكانَتْ هذه الجُملَةُ نَتيجَةً لذلك؛ فلذلك فُصِلَتْ -أي: لم تُعطَفْ على التي قبْلَها- لِشِدَّةِ اقتِضاءِ الجُملَةِ الَّتي قَبْلَها إيَّاها[4].

- قولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ إلْزامٌ مِن اللهِ للمُشرِكينَ بكَلِمَةِ التَّقوَى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٤).

ثمَّ خَصَّ التَّربيَةَ بهم وبأسلافِهم جاريًا على سَنَنِ الخِطابِ، فقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ومُقَرِّرًا لِمَزيدِ تَوخِّي شُكرِ تلك الرَّحمَةِ السَّنِيَّةِ، وهذه النِّعمَةِ الجَليلَةِ(١).

- وجُملَةُ ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ مُستَأنَفَةٌ للاستِدلالِ على أنَّه لا إلهَ إلَّا هو بتَفَرُّدِه بالإحياءِ والإماتَةِ، والمُشرِكون لا يُنازِعون في أنَّ اللهَ هو المُحْيِي والمُميتُ؛ فكما استَدَلَّ عليهم بتَفَرُّدِه بإيجادِ العَوالِمِ وما فيها، استَدَلَّ عليهم بخَلْقِ أعظَمِ أحوالِ المَوجوداتِ، وهي حالَةُ الحَياةِ الَّتي شَرَّفَ بها الإنسانَ عن مَوجوداتِ العالَمِ الأرضِيِّ، وكَرَّم أيضًا بإعطائِها للحَيوانِ لتَسخيرِه لانتِفاعِ الإنسانِ به بسَبَبِها، وبتَفَرُّدِه بالإماتةِ، وهي سَلبُ الحَياةِ عن الحيِّ؛ للدَّلالَةِ على أنَّ الحَياةَ لَيسَتْ ذاتِيَّةً للحَيِّ(٢).

- ولَمَّا كان تَفَرُّدُه بالإحياءِ والإماتَةِ دَليلًا واضِحًا في أحوالِ المُخاطَبينَ وفِيمَا حَولَهُم، مِن ظُهورِ الأَحياءِ بالوِلادَةِ والأمواتِ بالوَفاةِ يَومًا فيَومًا؛ مِن شَأنِه ألَّا يَجهَلُوا دَلالَتَه فَضلًا عن جُحودِهِم إيَّاهَا؛ ومع ذلك قدْ عَبَدوا الأصنامَ الَّتي لا تُحيِي ولا تُميتُ -أعقَبَ بإثباتِ رُبوبِيَّتِه للمُخاطَبين تَسجيلًا عليهم بِجَحْدِ الأدِلَّةِ وبكُفرانِ النِّعمَةِ، وعَطَفَ ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ ليُسَجِّلَ عليهم الإلْزامَ بقَولِهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾(٣) [الزخرف: ٢٢].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٩-١٦)

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ فَارْتَقِبْ ﴾: أي: فانتَظِرْ، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ[١].

﴿ يَغْشَى ﴾: أي: يُغَطِّي ويَستُرُ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تَغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[٢].

﴿ أَنَّىٰ ﴾: كَلِمةٌ يُسألُ بها عن الحالِ والمكانِ، بمعْنى: كيفَ ومِن أينَ[٣].

﴿ نَبْطِشُ ﴾: البَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، وأصلُ (بطش): أخذُ الشَّيءِ بقَهرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبةٍ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مُخبِرًا عن حالِ المشركينَ: ليْس المُشرِكونَ مُوقِنينَ بحَقيقةِ ما أخبَرْناهم به مِنَ الحَقِّ، بلْ هم في شَكٍّ منه، ومُشتَغِلونَ باللَّعِبِ.

ثمَّ يقولُ تعالَى مُتوعِّدًا لهم: فانتَظِرْ -يا محمَّدُ- يومًا تَأتي فيه السَّماءُ بدُخَانٍ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٦).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

ظاهِرٍ يُغَطِّي النَّاسَ ويَعُمُّهم، فيقولونَ: هذا عَذابٌ مُوجِعٌ مُؤلِمٌ، رَبَّنا ارفَعْ عنَّا هذا العَذابَ؛ فإنَّا مُؤمِنونَ بك إنْ كشَفْتَه عنَّا! مِن أين لأولئك الكُفَّارِ التَّذَكُّرُ والاتِّعاظُ وقدْ جاءهم رَسولٌ ظاهِرٌ، مُبينٌ لهم الحَقَّ، ثمَّ أعرَضوا عنه وقالوا: هو مُعَلَّمٌ، علَّمَه غَيرُه القُرآنَ، وهو مَجنونٌ؟!

إنَّا كاشِفو ذلك العذابِ عنهم زَمَنًا قليلًا، لكِنَّهم عائِدونَ إلى ما كانوا عليه مِنَ الضَّلالِ.

ثمَّ هَدَّدهم اللهُ تعالَى، فقال: يوْمَ نَأْخُذُ المُشرِكينَ أخْذًا شَديدًا عَنيفًا؛ إنَّا مُنتَقِمونَ منهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَرَّر اللهُ تعالَى رُبوبيَّتَه وأُلوهيَّتَه بما يُوجِبُ العِلمَ التَّامَّ، ويَدفَعُ الشَّكَّ؛ أخبَرَ أنَّ الكافِرينَ معَ هذا البَيانِ مُنغَمِرونَ في الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ، غافِلونَ عَمَّا خُلِقوا له، قدِ اشتَغَلوا باللَّعِبِ الباطِلِ الذي لا يُجْدي عليهم إلَّا الضَّرَرَ[1].

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ ﴾.

أي: ليْس المُشرِكونَ مُوقِنينَ بحَقيقةِ ما أخبَرْناهم به مِنَ الحَقِّ، وإنَّما هم مُنغمِرونَ في شَكِّهم، ومُشتَغِلونَ باللَّعِبِ بالباطِلِ عن اتِّباعِ الحَقِّ[2].

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١-١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢).

أي: فانتَظِرِ -يا محمَّدُ- اليَومَ الَّذي تأتي فيه السَّماءُ بدُخَانٍ ظاهِرٍ[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣، ٢٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥-٢٨٧).

قال ابن جُزَي: (﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾ في هذا قولانِ:

أحدُهما: قَولُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، وابنِ عبَّاسٍ: أنَّ الدُّخَانَ يكونُ قبْلَ يومِ القِيامةِ... وهو مِن أشراطِ السَّاعةِ...

والثَّاني: قَولُ ابنِ مَسعودٍ: أنَّ الدُّخَانَ عِبارةٌ عمَّا أصاب قُرَيشًا حينَ دعا عليهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالجَدْبِ، فكان الرَّجُلُ يَرى دُخَانًا بيْنَه وبيْنَ السَّماءِ؛ مِن شِدَّةِ الجُوعِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٦).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: الرازيُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٨٨)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٦٦).

قال ابنُ عُثَيمين: (والأقرَبُ للصَّواب: أنَّه دُخَانٌ يُرسِلُه اللهُ عزَّ وجَلَّ عندَ قِيامِ السَّاعةِ، فيَغشَى النَّاسَ كُلَّهم، واللهُ أعلَمُ بكَيفيَّةِ هذا الدُّخَانِ، فنحن إنَّما نَعرِفُ أنَّه دُخَانٌ، لكِنْ لا نَعرِفُ كيْف يأتي النَّاسَ ولا مِن أيْن يأتي، فهذا أمْرُه إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ). ((شرح العقيدة السفارينية)) (١/ ٤٦٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: عليُّ بنُ أبي طالب، وأبو سَعيدٍ الخُدْري، وابنُ عمرَ، وابن عبَّاسٍ، والحسن البصريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٨٧)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٨).

وممَّن اختار القولَ الثاني: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جَريرٍ، والزجَّاجُ، والسمرقنديُّ، ومكِّيٌّ، وجلالُ الدِّين المَحلِّي، وأبو السعود، والشَّوكانيُّ، والألوسيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٦/ ٤١٠٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٠)، ((تفسير الشوكاني (٤/ ٦٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١١٧))، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٧).=

= ونسَب الواحديُّ هذا القولَ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٩٨).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مَسعود، وأبو العاليةِ، والنَّخعي، ومجاهدٌ، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦-١٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٩٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٩).
وفي الصَّحيحَينِ عن ابنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه: ((أنَّ قُريشًا لَمَّا أبْطؤوا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإسلامِ، قال: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهم بسَبعٍ كسَبْعِ يُوسفَ. فأصابَتْهم سَنةٌ حصَتْ كُلَّ شَيءٍ حتَّى أكَلوا العِظامَ، حتى جعَلَ الرجُلُ يَنظُرُ إلى السَّماءِ فيَرى بيْنه وبيْنها مِثلَ الدُّخَانِ، قال اللهُ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الدخان: ١٠]، قال اللهُ: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]؛ أفيُكشَفُ عنهم العذابُ يوْمَ القِيامةِ وقدْ مَضى الدُّخَانُ، ومَضَت البَطْشةُ؟!)) [البخاري (٤٦٩٣) واللفظ له، ومسلم (٢٧٩٨)].
قال ابنُ كثيرٍ: (وقدْ نقَل البُخاريُّ عن ابنِ مَسعودٍ، أنَّه فسَّر ذلك بما كان يَحصُلُ لقُريشٍ مِن شِدَّةِ الجُوعِ، بسَببِ القحْطِ الَّذي دَعا عليهم به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فكان أحدُهم يَرى فيما بيْنه وبيْن السَّماءِ دُخَانًا مِن شِدَّةِ الجُوعِ، وهذا التَّفسيرُ غَريبٌ جدًّا، ولم يُنقَلْ مِثلُه عن أحدٍ مِن الصَّحابةِ غيْرِه). ((البداية والنهاية)) (١٩/ ٢٦٥).
وقال أيضًا بعْدَ أنْ ذكَرَ أثرًا عن ابنِ عبَّاسٍ فيه تَأييدُ القولِ الأوَّلِ؛ قال: (وهكذا قوْلُ مَن وافَقَه [أي: ابنَ عبَّاسٍ] مِن الصَّحابةِ والتابعينَ أجْمَعين، مع الأحاديثِ المرفوعةِ مِن الصِّحاحِ والحِسانِ وغيْرِهما... ممَّا فيه مَقنَعٌ ودَلالةٌ ظاهرةٌ على أنَّ الدُّخَانَ مِن الآياتِ المنتظَرةِ، مع أنَّه ظاهرُ القرآنِ؛ قال اللهُ تعالَى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ أي: بيِّنٍ واضحٍ يَراه كلُّ أحدٍ. وعلى ما فسَّر به ابنُ مَسعودٍ رَضِي اللهُ عنه: إنَّما هو خَيالٌ رأَوه في أعيُنِهم مِن شِدَّةِ الجُوعِ والجهْدِ. وهكذا قولُه: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يَتغشَّاهم ويعُمُّهم، ولو كان أمرًا خياليًّا يخُصُّ أهْلَ مكَّةَ المشركين لَما قِيل فيه: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٩).
وقال البيضاويُّ: (الدُّخَانُ يحتَمِلُ المَعنَيين). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٠). وكذا قال ابنُ عطيةَ، والنوويُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٩)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٢٧).
وقال النوويُّ: (ويَحتمِلُ أنَّهما دُخَانانِ؛ للجمْعِ بيْنَ هذه الآثارِ). ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٢٧). =

عن حُذَيفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفاريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((اطَّلعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علينا ونحن نَتذاكَرُ، فقال: ما تَذاكرونَ؟ قالوا: نَذكُرُ السَّاعةَ. قال: إنَّها لنْ تقومَ حتَّى تَرَونَ[1] قبْلَها عَشْرَ آياتٍ، فذكَرَ الدُّخَانَ، والدَّجَّالَ، والدَّابَّةَ، وطُلوعَ الشَّمسِ مِن مَغرِبِها، ونُزولَ عِيسى بنِ مَريمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويَأجوجَ ومَأجوجَ، وثَلاثةَ خُسوفٍ: خَسفٌ بالمَشرِقِ، وخَسفٌ بالمَغرِبِ، وخَسفٌ بجَزيرةِ العَرَبِ، وآخِرُ ذلك نارٌ تَخرُجُ مِنَ اليَمَنِ تَطرُدُ النَّاسَ إلى مَحشَرِهم))[2].

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١﴾.

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾.

= وقال الشوكانيُّ: (لا مُنافاةَ بيْن كَونِ هذه الآيةِ نازِلةً في الدُّخَانِ الذي كان يَتراءى لقُرَيشٍ مِن الجُوعِ، وبيْن كَونِ الدُّخَانِ مِن آياتِ السَّاعةِ وعلاماتِها وأشراطِها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٦).

قال السعديُّ: (وفي الآيةِ احتمالُ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أنَّ هذا كلَّه يكونُ يوْمَ القِيامةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢).

ممَّن اختارَ أنَّ قَولَه: ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: بيِّنٍ ظاهرٍ: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والنَّسفيُّ، وأبو حيَّان، وابنُ كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٦).

قال البقاعي: (﴿بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: واضِحٍ لا لَبْسَ فيه عندَ رائيهِ، ومُبِينٍ لِما سِواه مِن الآياتِ للفَطِنِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٣).

(١) قال العُكبري: (في هذا الحديثِ: «حتَّى تَرَونَ» بالنونِ، ولا وجهَ له؛ لأنَّ «حتى» بمعنى: إلى أنْ). ((إعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث)) (ص: ٧٤).

(٢) رواه مسلم (٢٩٠١).

أي: يُغَطِّي ذلك الدُّخَانُ النَّاسَ ويَعُمُّهم[(١)].

﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: فيَقولون: هذا عَذابٌ مُوجِعٌ شَديدُ الإيلامِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣١-١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٩-٢٥٠).

قال القرطبيُّ: (﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ في مَوضعِ الصِّفةِ للدُّخَانِ، فإنْ كان قدْ مَضى -على ما قال ابنُ مَسعودٍ- فهو خاصٌّ بالمشركين مِن أهلِ مكَّةَ، وإنْ كان مِن أشراطِ السَّاعةِ فهو عامٌّ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٠).

ممَّن اختار أنَّ هذا مِن كلامِ النَّاسِ، كأنَّ تقديرَ الكلامِ: يَقولون: هذا عَذابٌ أليمٌ: ابنُ جريرٍ، والزَّجاج، ومكيٌّ، والزمخشريُّ، وابنُ عطية، والنَّسفيُّ، وابنُ جزي، وأبو السُّعود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٠).

قال ابن جُزَي: (وهذا أظهرُ؛ لأنَّ ما بعْدَه مِن كَلامِهم باتِّفاقٍ، فيكونُ الكلامُ مُتناسقًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٧).

وقيل: قائلُ هذه العِبارةِ: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو اللهُ تعالَى. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٢).

وقال ابنُ كَثير: (يُقال لهم ذلك تَقريعًا وتَوبيخًا، كقَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٤]، أو يقولُ بَعضُهم لبعضٍ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٠).

وقال القرطبيُّ: (﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ... مَن قال: إنَّ الدُّخَانَ قدْ مَضى، فقولُه: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ حِكايةُ حالٍ ماضيةٍ، ومَن جعَله مُستقبَلًا فهو حِكايةُ حالٍ آتيةٍ. وقيل: ﴿هَٰذَا﴾ بمعنى: ذلك. وقيل: أي يقولُ الناسُ لذلك الدُّخَانِ: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وقيل: هو إخبارٌ عن دُنوِّ الأمرِ، كما تقولُ: هذا الشِّتاءُ فأعِدَّ له). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٢).

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥ - ١٠٧].

﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

أي: يقولُ الكافِرونَ حينَ يُصيبُهم ذلك: يا رَبَّنا، ارفَعْ عنَّا عَذابَك؛ فإنَّا مُؤمِنونَ بك إنْ كشَفْتَ عنَّا هذا العَذابَ[(١)]!

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

أي: كيْفَ يَتسَنَّى للكُفَّارِ التَّذكُّرُ والاتِّعاظُ عندَ حُلولِ ذلك العَذابِ بهم، والحالُ أنَّه قدْ جاءهم رَسولٌ ظاهِرٌ غايةَ الظُّهورِ أنَّه رَسولٌ مِن اللهِ، مُظهِرٌ لهم الحَقَّ مِن عِندِه تعالَى[(٢)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤-١٥).

قال ابنُ عاشور: (جميعُ المفَسِّرين على أنَّها حِكايةُ قَولِ الذين يَغْشاهم العذابُ، بتَقديرِ: يقولونَ: ربَّنا اكشِفْ عنَّا العذابَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥-١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٤).

قال ابنُ عاشور: (﴿أَنَّىٰ﴾ اسمُ استِفهامٍ أصلُه استِفهامٌ عن أمكِنةِ حُصولِ الشَّيءِ، ويَتوسَّعونَ فيها فيَجعَلونَها استِفهامًا عن الأحوالِ بمعنى «كيف»، بتَنزيلِ الأحوالِ مَنزِلةَ ظُروفٍ في مكانٍ، كما هنا، بقَرينةِ قَولِه: ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾. والمعنى: مِن أيْن تَحصُلُ لهم الذِّكرى؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١).

وقَولُه تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ اسمُ فاعِلٍ؛ إمَّا مِن (أَبانَ) المُتَعَدِّي، أي: مُبِينٌ لَهُم ما به يتَذَكَّرون، أو مِن (أَبانَ) القاصِرِ الَّذي هو بمَعنَى (بان)، أي: بيِّنٌ ظاهِرٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى: بيِّنُ الرِّسالةِ، وظاهِرُ الصِّدقِ: البَغويُّ، وابنُ =

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾.

أي: ثمَّ أعرَضَ الكُفَّارُ عن الرَّسولِ، وقالوا: هو مُعلَّمٌ علَّمه أحدٌ هذا القُرآنَ، ثمَّ هو مجنونٌ وليْس رَسولًا كما يَدَّعي[1]!

كما قال الله تبارك وتعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٤، ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وقال تعالَى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

= الجوزي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٠).

وممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى: أنَّه يُبيِّنُ لهم الحَقَّ وكُلَّ شيءٍ يَحتاجونَ إليه مِن أمرِ الدِّينِ والدُّنيا: القرطبيُّ، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٤).

وممَّن جمَع بيْن المعنيينِ السَّابِقَينِ: البقاعي؛ فقال: (﴿رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهِرٌ غايةَ الظُّهورِ أنَّه رَسولُنا، ومُوضِحٌ غايةَ الإيضاحِ لِما جاء به عنَّا بما أظهَرَ مِن الآياتِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٦)، ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٣).

﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: إنَّا كاشِفو العذابِ عنكم وَقتًا قليلًا، ولكِنَّ عَودتَكم -أيُّها المُشرِكونَ- إلى ما كنتُم عليه مِن الضَّلالِ بعْدَ كَشْفِ العَذابِ عنكم: أمرٌ ثابِتٌ مُؤَكَّدٌ(١)!

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: يومَ نَأخُذُ المُشرِكينَ بقُوَّةٍ وأخذٍ عَنيفٍ شَديدٍ؛ إنَّا مُنتَقِمونَ منهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٥).

قال ابنُ الجوْزي: (وفي العذابِ قَولانِ: أحَدُهما: الضُّرُّ الذي نَزَل بهم، كُشِفَ بالخِصْبِ. هذا على قَولِ ابنِ مَسعودٍ. قال مُقاتِلٌ: كَشَفَه إلى يومِ بَدرٍ. والثَّاني: أنَّه الدُّخَانُ. قاله قتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٩).

قال الشوكانيُّ: (﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ أي: إنَّا نَكشِفُه عنهم كَشْفًا قليلًا، أو زَمانًا قليلًا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٤).

قال الماورديُّ: (البَطشةُ الكُبرى هي العُقوبةُ الكُبرى، وفيها قولانِ:

أحدُهما: القَتلُ بالسَّيفِ يومَ بَدرٍ. قاله ابنُ مَسعودٍ، وأُبَيُّ بن كعبٍ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاك.

الثاني: عذابُ جَهنَّمَ يومَ القِيامةِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ.

ويحتَمِلُ ثالثًا: أنَّها قِيامُ السَّاعةِ؛ لأنَّها خاتِمةُ بَطَشاتِه في الدُّنيا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٨).

ممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ: يومُ بدرٍ: مُقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والخازن، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٣).

ونسَبه الثَّعلبيُّ والبغويُّ إلى أكثرِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٦).

ممَّن ذهَب إلى أنَّ ذلك اليومَ هو يومُ القِيامةِ: السمعانيُّ، والرازيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١). =

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ من الحِكمةِ في نُزولِه ليْلًا: أنَّ اللَّيلَ زمانُ المناجاةِ، ومَهْبطُ النَّفحاتِ، ومَشهَدُ التَّنزُّلاتِ، ومظهرُ التَّجليَّاتِ، ومَوردُ الكراماتِ. وفي اللَّيلِ فَراغُ القُلوبِ بذِكرِ حَضرةِ المحبوبِ، فهو أطيَبُ مِن النَّهارِ عندَ المقرَّبين والأبرارِ[١].

٢- قَولُ الله تعالَى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ * يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ * رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ * أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ فيه الإشارةُ إلى أنَّ الدُّخانَ مِن أشراطِ السَّاعةِ الكُبْرى[٢]، على أحدِ القولينِ في التفسيرِ.

٣- قوله: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ هذه هي طَبيعةُ البشَرِ؛ إذا همْ وقَعوا في شِدَّةٍ -أيًّا كانتْ- أنْ يَعِدوا بالتَّوبةِ والإقلاعِ عمَّا هم فيه، ولكنَّ النُّفوسَ الشِّرِّيرةَ لا تتَّجِهُ إلى فِعلِ الخيرِ، ولا تَفعَلُ ما تَتقرَّبُ به إلى ربِّها، انتظارًا لِمَثوبتِه، ورَجاءً في غُفرانِه ورَحمتِه[٣].

٤- قوله: ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّهم لا يُوفُون بعَهْدِهم، وأنَّهم في حالِ العجْزِ يَتضرَّعون إلى اللهِ تعالَى، فإذا زال الخَوفُ عادوا إلى الكُفْرِ والتَّقليدِ لمذاهبِ الأسلافِ[٤].

= قال ابنُ كثير: (فسَّرَ ذلك ابنُ مسعودٍ بيومِ بَدرٍ، وهذا قولُ جماعةٍ ممَّن وافَق ابنَ مَسعودٍ على تفسيرِه... وهو محتَمِلٌ، والظَّاهِرُ أنَّ ذلك يومُ القِيامةِ، وإنْ كان يومُ بدرٍ يومَ بطشةٍ أيضًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((روح البيان)) للخلوتي (٨/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ حَرفُ ﴿بَلْ﴾ للإضرابِ الإبطاليِّ، وهو ردٌّ لكَونِهِم مُوقِنينَ ومُقِرِّينَ بأنَّه رَبُّ السَّمواتِ والأَرضِ وما بيْنهُما؛ فإنَّ إقرارَهم غَيرُ صادِرٍ عن عِلمٍ ويَقينٍ ثابِتٍ، بلْ هو كالعَدَمِ؛ لأنَّهم خَلَطوه بالشَّكِّ واللَّعِبِ، فارتَفَعتْ عنه خاصِّيَّةُ اليَقينِ والإقرارِ الَّتي هي الجَرْيُ على مُوجَبِ العِلمِ؛ فإنَّ العِلمَ إذا لم يَجُرَّ صاحِبَه على العَمَلِ به، وتَجديدِ مُلاحَظَتِه؛ تَطَرَّقَ إليه الذُّهولُ ثُمَّ النِّسيانُ، فضَعُفَ حتَّى صار شَكًّا؛ لانْحِجابِ الأدِلَّةِ الَّتي يَرسُخُ بها في النَّفسِ، أي: هم شَاكُّون في وَحدانيَّةِ اللهِ تَعالَى. وقِيلَ: إضرابٌ عن مَحذوفٍ؛ كأنَّه قال: فلَيسُوا بمُوقِنين، بلْ هم في شَكٍّ بِحَسَبِ ضَمائِرِهم[(١)].

- قولُه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ لِفَرْطِ عِنادِهم وعَدمِ إيقانِهم، الْتَفَت مِن الخِطابِ في قولِه تعالَى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إلى الغَيبةِ، فبَعَّدَهم وطَرَدهم؛ إيذانًا بأنَّهم مع إيقانِهم ذلك مُنَزَّلُون مَنزِلَةَ الشَّاكِّين، حيثُ لم يَعمَلُوا بمُوجَبِه، وخَلَطوا مع اليَقينِ الهُزْءَ واللَّعِبَ[(٢)].

- قولُه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ فيه الإتيانُ بحَرفِ الظَّرفِيَّةِ (في)؛ للدَّلالَةِ على شِدَّةِ تَمَكُّنِ الشَّكِّ مِن نُفوسِهِم حتَّى كأنَّه ظَرفٌ مُحيطٌ بهِم لا يَجِدون عنه مَخرَجًا، أي: لا يُفارِقُهم الشَّكُّ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥).

- وجُملَةُ ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ ﴿هُمْ﴾، أي: اشتَغَلوا عن النَّظَرِ في الأَدِلَّةِ الَّتي تُزيلُ الشَّكَّ عنهم، وتَجعَلُهم مُهتَدِينَ، بالهُزْءِ واللَّعِبِ في تَلَقِّي دَعوَةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ؛ فكان انغماسُهم في الشَّكِّ مُقارِنًا لحالِهم مِن اللَّعِبِ. ولهذِه الجُملَةِ الحالِيَّةِ مَوقِعٌ عَظيمٌ؛ إذ بها أُفيدَ أنَّ الشَّكَّ حامِلٌ لهم على الهُزْءِ واللَّعِبِ، وأنَّ الشُّغُلَ باللَّعِبِ يَزيدُ الشَّكَّ فيهم رُسوخًا، بخِلافِ ما لو قِيلَ: بلْ هم في شَكٍّ ولَعِبٍ؛ فتَفَطَّنْ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ تَفريعٌ على جُملَةِ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩]، قُصِدَ مِنهُ وَعْدُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بانتِقامِ اللهِ مِن مُكَذِّبيه، ووَعيدُ المُشرِكينَ على جُحودِهم بدَلائلِ الوَحدانِيَّةِ وصِدْقِ الرَّسولِ، وعُكوفِهم على اللَّعِبِ، أي: الاستِهزاءِ بالقُرآنِ والرَّسولِ، وذَكَر له مُخَوِّفاتٍ للمُشرِكين لإعدادِهم للإيمانِ، وبَطْشَةَ انتِقامٍ مِن أَئِمَّتِهم تَستَأصِلُهم؛ فالفَاءُ في قَولِه تَعالَى: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ لتَرتيبِ الارتِقابِ أو الأمْرِ به على ما قَبْلَها؛ فإنَّ كوْنَهم في شَكٍّ مِمَّا يُوجِبُ ذلكَ حَتْمًا، أي: فانتَظِرْ لَهُم ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي: يوْمَ شِدَّةٍ ومَجاعةٍ؛ فإنَّ الجائعَ يَرَى بيْنَه وبيْنَ السَّماءِ كهَيئَةِ الدُّخَانِ؛ إمَّا لضَعفِ بَصَرِه، أو لأنَّ في عامِ القَحطِ يُظلِمُ الهَواءُ لقِلَّةِ الأَمطارِ وكَثرَةِ الغُبارِ، أو لأنَّ العَرَبَ تُسَمِّي الشَّرَّ الغالِبَ دُخَانًا[2]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ الخِطابُ في ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ للنَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، والأَمرُ مُستَعمَلٌ في التَّثبيتِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥).

- وقدِ الْتَفَتَ إلى حَبيبه صَلَواتُ اللهِ عليه مُسَلِّيًا له، وإقناطًا مِن إيمانِهم بقَولِه: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾؛ فقابَلَ إنزالَ الكِتابِ بإنزالِ العِقابِ مِن السَّماءِ؛ يعني: إنزالُ الكِتابِ رَحمَةٌ لهم، وحِين أَعرَضُوا عنه انتَظِرْ إنزالَ العَذابِ[١].

- والارتِقابُ: افتِعالٌ مِن رَقَبَه؛ إذا انتَظَره، وإنَّما يَكونُ الانتِظارُ عندَ قُربِ حُصولِ الشَّيءِ المُنتَظَرِ، وفِعلُ (ارتَقِبْ) يَقتَضِي بصَريحِه أنَّ إتيانَ السَّماءِ بدُخانٍ لم يَكُن حاصِلًا في نُزولِ هذه الآيَةِ، ويَقتَضي كِنايَةً عن اقتِرابِ وُقوعِه كما يُرتَقَب الجَائي مِن مَكانٍ قَريبٍ[٢].

- والفعلُ (ارتَقِبْ) مُتعَدٍّ، ولكنَّه قُصِرَ هنا تَهويلًا؛ لذَهابِ الوَهمِ في مَفعولِه كلَّ مَذهَبٍ[٣]. وهذا بناءً على أنَّ ﴿يَوۡمَ﴾ ظرفٌ، وليس مفعولًا به.

- وفي قولِه: ﴿تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ أَسنَدَ (العَذابَ) إلى (السَّماءِ)، وإنْ كان هو الفاعِلَ حَقيقَةً؛ ليَكُونَ على وِزَانِ قَولِه: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾[الفاتحة: ٧]، وقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((والشَّرُّ ليْس إليكَ))[٤]. وقِيلَ: لأنَّ السَّماءَ مَكانُه حينَ يَتَصاعَدُ في جَوِّ السَّماءِ أو حِينَ يَلوحُ للأَنظارِ منها[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٠٠).
والحديث أخرجه مسلم (٧٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٦).

- قولُه: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يَجوزُ أنْ يَكُونَ إخبارًا مِن جانِبِ اللهِ تعالَى تَعجيبًا منه، كما في قَولِه تعالَى في قِصَّةِ الذَّبيحِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦]. ويَحتَمِلُ أنْ يَكونَ ذلك مِن قَولِ النَّاسِ الَّذين يَغشاهُمُ العَذابُ بتَقديرِ: يَقولُون: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

- والإشارَةُ في قَولِه: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى الدُّخَانِ المَذكُورِ آنِفًا، عُدِلَ عن استِحْضارِه بالإضمارِ وأنْ يُقالَ: هو عَذابٌ أَليمٌ، إلى استِحْضارِهِ بالإشارةِ؛ لتَنْزيلِه مَنزِلَةَ الحاضِرِ المُشاهَدِ؛ تَهويلًا لأمْرِه، كما تَقولُ: هذا الشِّتاءُ قادِمٌ، فأَعِدَّ له[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ هذه جُملَةٌ مُعترِضَةٌ بيْن جُملَةِ ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١١] وجُملَةِ ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الدخان: ١٣]؛ فهي مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، وهي مَحمولةٌ على أنَّها حِكايةُ قَولِ الَّذين يَغشَاهُم العَذابُ بتَقديرِ: يَقولُون: ربَّنا اكشِفْ عنَّا العَذابَ، أي: هو وَعدٌ صادِرٌ مِن النَّاسِ الَّذين يَغشاهُمُ العَذابُ بأنَّهُم يُؤمِنونَ إنْ كُشِفَ عَنهُم العَذابُ[٣].

- وأُسلوبُ الكَلامِ جارٍ على أنَّ جُملَةَ ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ تَعليلٌ لطَلَبِ كَشْفِ العَذابِ عنهم؛ لِمَا يَقتَضِيه ظاهِرُ استِعمالِ حَرفِ (إنَّ) مِن مَعنَى الإخبارِ دُونَ الوَعدِ، ومِن التَّعليلِ دُونَ التَّأكيدِ، ولِمَا يَقتَضيه اسمُ الفاعِلِ في زَمَنِ الحالِ دُونَ الاستِقبَالِ، ولأنَّ سِياقَه خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَرَقُّبِ إعانَةِ اللهِ إيَّاهُ على المُشرِكين؛ كما كان يَدعُو: ((أَعِنِّي عَلَيهِم بِسَبْعٍ كَسَبعِ يُوسُفَ))[٤]؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٤٧٧٤) واللفظ له، ومسلمٌ (٢٧٩٨)، من حديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه.

فمُقتَضَى المَقامِ تَأْمينُه مِن أنْ يُصيبَ العَذابُ المُسلِمينَ وفيهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ تكذيبٌ لوَعدِهم، ورَدٌّ لكَلامِهم واستِدعائِهمُ الكَشفَ، وتَكذيبٌ لَهُم في الوَعدِ بالإيمانِ المُنبِئِ عن التَّذَكُّرِ والاتِّعاظِ بما اعتراهُم مِن الدَّاهِيَةِ[٢].

ويَجوزُ أن تَكونَ جُملَةً مُستَأنَفَةً ناشِئَةً عن قَولِه: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩]، وهي كالنَّتيجَةِ لها؛ لأنَّهُم إذا كانوا في شكٍّ يَلعَبون، فقدْ صَارُوا بُعَداءَ عن الذِّكرَى. والاستِفهامُ مُستَعمَلٌ في الإنكارِ والإحالَةِ، أي: كيْفَ يَتَذَكَّرون وهم في شكٍّ يَلعَبون ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ فتَوَلَّوْا عنه وطَعَنوا فيه؟![٣]

- و﴿مُّبِينٌ﴾ اسمُ فاعِلٍ؛ إمَّا مِن (أَبانَ) المُتَعَدِّي، وحُذِف مَفعولُه لدَلالَةِ الذِّكرَى عليه، أي: مُبينٌ لَهُم ما به يتَذَكَّرون. ويَجوزُ أن يَكونَ مِن (أَبانَ) القاصِرِ الَّذي هو بمَعنَى (بان)، أي: رَسولٌ ظاهِرٌ، أي: ظاهِرَةٌ رِسالَتُه عن اللهِ بما تَوَفَّرَ معها مِن دَلائلِ صِدْقِه. وإيثارُ (مُبينٍ) بتَخفيفِ الياءِ على (مُبَيِّنٍ) بالتَّشديدِ مِن نُكَتِ الإعجازِ؛ ليُفِيدَ المَعنَيَينِ[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾

- حرفُ (ثمَّ) للتَّراخِي الرُّتَبِيِّ، وهو تَرَقٍّ مِن مُفادِ قَولِه: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩] الَّذي اتَّصَلَت به جُملَةٌ كَانَتْ جُملَةُ ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ مِن مُتَعَلَّقَاتِها؛ فالمَعنَى: وقدْ جَاءَهُم رَسولٌ فشَكُّوا في رِسالَتِه، ثُمَّ تَوَلَّوا عنه وطَعَنوا فيه؛ فالتَّوَلِّي والطَّعنُ حَصَلَا عِندَ حُصولِ الشَّكِّ واللَّعِبِ؛ ولذلك كانتْ (ثُمَّ) للتَّراخِي الرُّتَبِيِّ لا لِتَراخِي الزَّمانِ، ومَعنَى التَّراخِي الرُّتَبِيِّ هنا: أنَّ التَّوَلِّيَ والبُهتانَ أفظَعُ مِن الشَّكِّ واللَّعِبِ(١).

- ولَمَّا كانتِ الفِطَرُ الأُولى داعيةً إلى الإقبالِ على الحقِّ، نازعةً إلى الانقطاعِ إلى اللهِ، والعُكوفِ ببابِه، واللَّجاءِ إلى جَنابِه، إلَّا بجهْدٍ مِن النَّفْسِ في النُّفورِ، وعِلاجِ دَواعي الثُّبورِ -أشار إلى ذلك بالتَّعبيرِ بصِيغةِ التَّفعُّلِ، فقال: ﴿تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾(٢).

- قولُه: ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ وَصَفوه مرَّةً بأنَّه يُعَلِّمُه غَيرُه، ووَصَفوه مرَّةً بالجُنونِ، تَنقُّلًا في البُهتانِ، أو وَصَفَه فَريقٌ بِهَذا وفَريقٌ بذلك؛ فالقَولُ مُوَزَّعٌ بيْن أَصحابِ ضَميرِ (قَالُوا) أو بيْنَ أَوقاتِ القائِلِين، ولا يَصِحُّ أن يَكُونَ قَولًا واحِدًا في وَقتٍ واحِدٍ؛ لأنَّ المَجنونَ لا يَكونُ مُعَلَّمًا ولا يَتأَثَّرُ بالتَّعليمِ(٣).

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ جَوابٌ مِن جِهَتِه تعالَى عن قولِهم: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ بطَريقِ الالتِفاتِ إلى الخِطابِ؛ لِمَزيدِ التَّوبيخِ والتَّهديدِ، وما بيْنَهما اعتِراضٌ، أي: إنَّا نَكشِفُ العذابَ المَعهودَ عنكم كَشْفًا قَليلًا أو زَمانًا قليلًا؛ إنَّكُم تَعودُون إثْرَ ذلك إلى ما كُنتُم عليه مِن العُتُوِّ والإصرارِ على الكُفرِ، وتَنسَون هذه الحالَةَ. أو هو إعلامٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بأنْ يُكشَفَ العذابُ المتَوَعَّدُ به المُشرِكون مُدَّةً؛ فيَعودُون إلى ما كانوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٢).

فيه[١]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وفائدةُ التَّقييدِ بقولِه: ﴿قَلِيلًا﴾ الدَّلالةُ على زِيادةِ خُبثِهم؛ لأنَّهم إذا عادوا قبْلَ تَمامِ الانكشافِ، كانوا بَعْدَه أسْرعَ إلى العوْدِ[٢]. وهذا على قَولٍ في التَّفسيرِ.

- وجُملَةُ ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ مُستَأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ تَطَلَّعوا إلى ما سَيَكونُ بعْدَ كَشفِه، وتَطَلَّعَ المُؤمِنون إلى ما تَصيرُ إليه حالُ المُشرِكينَ بعْدَ كَشفِ العَذابِ: هل يُقلِعُون عن الطَّعنِ؟ فكان قَولُه: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ مُبَيِّنًا لِمَا يَتَسَاءَلونَ عنه[٣]. وهذا على قَولٍ في التَّفسيرِ.

- ولَمَّا كانوا قدْ أكَّدوا الإخبارَ بإيمانِهم -وهو باطِلٌ- أكَّدَ سُبحانَه الإخبارَ بكَذِبِهم، ومَن أصدَقُ منه سُبحانه قِيلًا، فقال تَحقيقًا لقولِه تعالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾[٤].

- وصِيغةُ الفاعلِ في ﴿كَاشِفُوا۟﴾، و﴿عَآئِدُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقُّقِهما لا مَحالَةَ في المُستَقبَلِ، ولقدْ وَقَعَ كِلاهُما، حيثُ كَشَفَ اللهُ تعالَى العذابَ بدُعاءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّمَ؛ فمَا لَبِثُوا أنْ عادُوا إلى ما كانُوا عليه مِن العُتُوِّ والعِنادِ، فعَاودَهَم القَحطُ كَمالَ سَبعِ سِنينَ[٥]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

٨- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ الجُملةُ مُستأنَفةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٣).

استِئنافًا بَيانِيًّا ناشِئًا عن قَولِه: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]؛ فإنَّ السَّامِعَ يُثارُ في نَفسِه سُؤالٌ عن جَزائِهم حيثُ يَعودُون إلى التَّوَلِّي والطَّعنِ؛ فأُجيبَ بأنَّ الانتِقامَ منهم هو البَطشَةُ الكُبرَى، وهي الانتِقامُ التَّامُّ، ولأجْلِ هذا التَّطَلُّعِ والتَّساؤُلِ أُكِّدَ الخبَرُ بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ) دَفعًا للتَّرَدُّدِ[١].

- وأصلُ تَركيبِ الجُملَةِ: (إنَّا مُنتَقِمون يوْمَ نَبطِشُ البَطشَةَ الكُبرَى)؛ فـ﴿يَوْمَ﴾ مَنصوبٌ على المَفعولِ فيه لاسمِ الفاعِلِ، وهو ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، وتَقَدُّمُه على عامِلِه للاهتِمامِ به؛ لتَهويلِه[٢].

- ودلَّتِ الجُملةُ الاسميَّةُ ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ على أنَّ الانتقامَ صِفَةٌ ثابِتَةٌ لم نَزَلْ نَفعَلُها بأعدائِنا؛ لِنَسُرَّ أضدادَهم مِن أوليائِنا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨).

الآيات (١٧-٢٤)

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي
وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾
فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتَنَّا﴾: أي: ابتَلَيْنا واختبَرْنا، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ[١].

﴿أَدُّوا إِلَيَّ﴾: أي: سَلِّموا إلَيَّ، وأَرسِلوا معي، وأصلُ (أدي): يدُلُّ على إيصالِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ، أو وُصولِه إليه مِن تِلْقاءِ نفْسِه[٢].

﴿بِسُلْطَانٍ﴾: أي: حُجَّةٍ وبُرهانٍ، وأصلُ (سلط): يدُلُّ على القُوَّةِ والقَهرِ[٣].

﴿عُذْتُ﴾: أي: التجأتُ واعتصَمتُ، وأصلُ العَوذِ: الالتِجاءُ إلى الغَيرِ والتَّعَلُّقُ به[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١، ١٥٢، ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ٩٦، ١٣٩ - ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

﴿تَرۡجُمُونِ﴾: أي: تَقتُلوني رميًا بالحِجارةِ، والرَّجمُ أيضًا: السَّبُّ والشَّتمُ؛ لأنَّه رَميٌ بالقَولِ القَبيحِ، وأصلُ (رجم): يدُلُّ على رَميٍ بالحِجارةِ[١].

﴿فَٱعۡتَزِلُونِ﴾: أي: اترُكوني وفارِقوني، وأصلُ (عزل): يدُلُّ على تَنحيةٍ[٢].

﴿فَأَسۡرِ﴾: أي: سِرْ بهم لَيلًا، مِنَ السُّرَى: وهو سَيرُ اللَّيلِ[٣].

﴿رَهۡوًا﴾: أي: ساكِنًا مُنفَرِجًا، وأصلُ (رهو): يدُلُّ على سُكونٍ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبينًا جانبًا مِن قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ معَ فِرعونَ: ولقد اختبَرْنا قبْلَ كُفَّارِ قَومِك -يا محمَّدُ- قومَ فِرعَونَ، وجاءهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنْ أطلِقوا بني إسرائيلَ مِن العذابِ، واترُكوهم لي، إنِّي رَسولٌ مِنَ الله إليكم، أمينٌ في رسالتي، وألَّا تَستكبِروا على اللهِ تعالى بالكُفرانِ والعِصيانِ، إنِّي آتيكم بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ، وإنِّي اعتصَمتُ برَبِّي ورَبِّكم مِن أنْ تَصِلوا إلَيَّ بسُوءٍ مِن قولٍ أو فِعلٍ، وإنْ لم تُؤمِنوا لي فاترُكوني وشأني.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

فلمَّا لم يَستَجيبوا له فيما أمَرَهم، وأصَرُّوا على أذاهُ وعدَمِ مُتارَكتِه؛ دعا رَبَّه بأنَّ هؤلاء قَومٌ مُجرِمونَ، فأجاب اللهُ دعاءَه، فقال له: أسْرِ بعِبادي مِن بني إسرائيلَ لَيلًا؛ إنَّ فِرعونَ وجُندَه سيَتَّبِعونَكم، واترُكِ البَحرِ على هيئتِه ساكِنًا بعدَ أنْ ضرَبْتَه بعصاك، إنَّ فِرعَونَ وقَومَه مُغرَقونَ فيه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى تكذيبَ مَن كَذَّب الرَّسولَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ذكَرَ أنَّ لهم سَلَفًا مِنَ المُكَذِّبينَ، فذَكَرَ قِصَّتَهم مع موسى عليه السَّلامُ وما أحَلَّ اللهُ بهم؛ لِيَرتدِعَ هؤلاءِ المكَذِّبونَ عمَّا هم عليه[1].

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾.

أي: ولقد اختبَرْنا وابتَلَيْنا قبْلَ كُفَّارِ قَومِك -يا محمَّدُ- قَومَ فِرعَونَ مِن القِبطِ[2].

﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: وجاء قومَ فِرعَونَ رسولٌ كريمٌ أرسلَنْاه إليهم، وهو موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥).

قال الماوَرْدي: (﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ وهو موسى بنُ عِمْرانَ عليه السَّلامُ. وفيه ثلاثةُ أوجُهٍ: أحدُها: كريمٌ على رَبِّه... الثَّاني: كريمٌ في قَومِه. الثَّالثُ: كريمُ الأخلاقِ بالتَّجاوُزِ والصَّفحِ). =

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٨﴾.

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾.

أي: فقال موسى لِفِرعَونَ ومَلَئِه: أطلِقوا بني إسرائيلَ مِن العذابِ، وادفَعوهم إلَيَّ[1].

= ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٠).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٥٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٨).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٤).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ السَّابقَينِ: الشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٧).

وممَّن قال بالمعنى الثَّالثِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والماتُريدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٠)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٠٢).

وظاهِرُ اختيارِ البِقاعي الجمعُ بيْنَ هذه المعاني، حيث قال: (أي: يَعلَمونَ شَرَفَه نَسَبًا وأخلاقًا وأفعالًا، ثمَّ زاد بيانُ كَرَمِه بما ظَهَر لله به مِن العِنايةِ بما أيَّده به مِن المُعجِزاتِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٠).

وقال ابنُ عاشور: (الكريمُ: النَّفيسُ الفائِقُ في صِنْفِه...، أي: رَسولٌ مِن خِيرةِ الرُّسُلِ، أو مِن خِيرةِ النَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٦).

قال الرَّسْعَني: (﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ مفعولٌ به، أو مُنادَى. فالأوَّلُ على معنى: أرسِلوا معي بني إسرائيلَ، وسَلِّمْهم إلَيَّ. والثَّاني على معنى: أدُّوا إلَيَّ [يا] عِبادَ الله ما هو واجبٌ عليكم مِن التَّمسُّكِ بما جِئتُ مِن التَّوحيدِ، والتَّنسُّكِ بما أُمِرْتُم به على لساني مِن الحكمِ والأحكامِ. والمعنى الأوَّلُ قولُ ابنِ عبَّاسٍ ومُجاهِدٍ وأكثرِ المفسِّرينَ. والثَّاني ذكره الزَّجَّاجُ وغيرُه. قال الماوَرْديُّ: وهو قولٌ مُحتملٌ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٦٧). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج =

كما قال تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه: ٤٧].

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

أي: إنِّي مُرسَلٌ مِنَ اللهِ تعالى إليكم، بالِغُ الأمانةِ على الرِّسالةِ الَّتي أمَرَني اللهُ أن أبَلِّغَكم إيَّاها بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ ولا كِتمانٍ(١).

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا تَستَكبِروا عن الإيمانِ بآياتِ اللهِ واتِّباعِها، فتَكفُروا به، وتُخالِفوا أمْرَه(٢).

﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: إنِّي آتيكم بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ تُثبِتُ صِحَّةَ ما أدعوكم إليه وتُظهِرُه(٣).

= (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٩).

قال ابن عطيَّة: (الظَّاهِرُ مِن شَرعِ موسى عليه السَّلامُ أنَّه بُعِثَ إلى دُعاءِ فِرعَونَ إلى الإيمانِ وأن يُرسِلَ بني إسرائيلَ، فلمَّا أبى أن يُؤمِنَ ثبَتَت المكافَحةُ في أن يُرسِلَ بني إسرائيلَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠، ٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

قال الألوسي: (آتِيكم بحُجَّةٍ واضِحةٍ لا سَبيلَ إلى إنكارِها، أو مُوضِحةٍ صِدقَ دَعوايَ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٢٠). =

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وإنِّي اعتصَمْتُ برَبِّي ورَبِّكم مِن أنْ تَصِلوا إلَيَّ بسُوءٍ مِن قولٍ أو فِعلٍ(١).

= ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ ﴿مُّبِينٍ﴾ بمعني: بَيِّنٍ واضِحٍ ظاهِرٍ: السَّمعانيُّ، والبغوي، والرازي، والقرطبي، وابنُ كثير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

وقال البِقاعي: (﴿مُّبِينٍ﴾ واضِحٍ في نَفْسِه سَلْطَنَتُه، ومُظهِرٍ لِغَيرِه ذلك). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٩).

وقال السعدي: (هو ما أتى به مِن المُعجِزاتِ الباهِراتِ، والأدِلَّةِ القاهِراتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

وقال ابنُ عاشور: (وهذه المُعجِزةُ هي انقِلابُ عصاه ثُعبانًا مُبِينًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢، ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢).

ممن اختار القولَ المذكورَ -أنَّ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ استعاذ بالله مِن كُلِّ معاني رَجْمِهم الَّذي يَصِلُ منه إليه أذًى ومَكروهٌ؛ سواءٌ كان بالقَولِ أو بالفِعلِ، شتمًا باللِّسانِ أو رَجمًا بالحِجارةِ-: ابنُ جرير، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((المصدران السابقان)).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالرَّجْمِ هنا: القَتلُ: الفَرَّاءُ، والواحدي، وابن عطية، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢، ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٥٠).

قال القاسمي: (قُصِدَ بهذه الجُملةِ: إظهارُ مَزيدِ شَجاعتِه وثَباتِه في مَوقِفٍ تَضطرِبُ فيه الأفئِدةُ، وتَزِلُّ الأقدامُ خَوفًا ورُعبًا، وما ذاك إلَّا لإيوائِه إلى عِصمةِ اللهِ وتأييدِه). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٦).

وقال ابن عاشور: (الرَّجمُ: الرَّميُ بالحِجارةِ تِباعًا حتَّى يموتَ المَرْميُّ أو تُثخِنَه الجِراحُ، والقَصدُ منه تحقيرُ المقتولِ؛ لأنَّهم كانوا يَرمُونَ بالحِجارةِ مَن يَطرُدونَه... وإنَّما استعاذ موسى منه؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّ عادتَهم عِقابُ مَن يخالفُ دينَهم بالقَتلِ رَميًا بالحِجارةِ... ومعنى ذلك: إنْ لم تؤمِنوا =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وإنْ لم تُؤمِنوا بما أمَرْتُكم وجِئْتُكم به مِن عندِ اللهِ فلا تَرْجموني، واترُكوني وشَأْني، ولا تَتعرَّضوا لي[(١)].

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: فدعا موسى رَبَّه[(٢)] بأنَّ هؤلاء الأراذِلَ قَومٌ مُتَّصِفونَ بالإجرامِ وعَريقونَ فيه[(٣)].

= بما جئتُ به فلا تَقتُلوني، كما دلَّ عليه تعقيبُه بقَولِه: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى﴾ [الدخان: ٢١]، والمعنى: إنْ لم تُؤمِنوا بالمُعجِزةِ الَّتي آتيكم بها فلا تَرجُموني؛ فإنِّي أعوذُ باللهِ مِن أن تَرجُموني، ولكِنِ اعتَزِلوني). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٨).

قال البقاعي: (ولَمَّا كان التَّقديرُ: فإنْ آمَنْتُم بذلك وسَلَّمْتم لي أفلَحْتُم؛ عَطَف عليه قَولَه: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى﴾... ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي: وإنْ لم تَعتزِلوني هلَكْتُم، ولا تَقدِرونَ على قَتلي بوَجهٍ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٣).

(٢) قال ابنُ كثير: (فلمَّا طال مُقامُه بيْنَ أظهُرِهم، وأقام حُجَجَ اللهِ عليهم، كُلُّ ذلك وما زادهم ذلك إلَّا كُفرًا وعِنادًا؛ دعا رَبَّه عليهم دعوةً نَفَذَت فيهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

قال ابن عطيَّة: (حَكَم عليهم بالإجرامِ المُتضَمِّنِ للكُفرِ حينَ يَئِسَ منهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٢).

وقال القرطبي: (﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي: مُشرِكونَ، قد امتَنَعوا مِن إطلاقِ بني إسرائيلَ، ومِن الإيمانِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٦). =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾.

أي: فأجاب اللهُ دُعاءَ موسى، فقال له: سِرْ بعبادي مِن بني إسرائيلَ لَيلًا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧].

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ وجُندَه سيَتَّبِعونَكم ويَطلُبونَكم[2].

كما قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس: ٩٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ

= وقال القاسمي: (﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي: مُشركونَ مُفسِدونَ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٦).
وقال السعدي: (أي: قد أجرَموا جُرمًا يُوجِبُ تَعجيلَ العُقوبةِ، فأخبَرَ عليه السَّلامُ بحالِهم، وهذا دعاءٌ بالحالِ الَّتي هي أبلَغُ مِن المقالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۞ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۞ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۞ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢ - ٥٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠].

﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤﴾.

﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًا﴾.

أي: قال اللهُ لِموسى: واترُكِ البَحرِ باقيًا على هيئتِه الَّتي هو عليها ساكِنًا مُنفرِجًا مَفتوحًا ذا فَجوةٍ واسعةٍ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤، ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

قال الشوكاني: (المعنى: اترُكِ البَحرَ ساكِنًا على صِفتِه بعدَ أن ضرَبْتَه بعصاك، ولا تأمُرْه أن يَرجِعَ كما كان؛ لِيَدخُلَه آلُ فِرعَونَ بَعدَك وبعدَ بني إسرائيلَ، فيَنطبِقَ عليهم فيَغرَقوا. وقال أبو عُبَيدَةَ: رَهَا بيْنَ رِجْلَيه يَرهو رَهْوًا: أي: فَتَحَ. قال: ومنه قَولُه: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًا﴾، والمعنى: اترُكْه مُنفرِجًا كما كان، بعدَ دُخولِكم فيه. وكذا قال أبو عُبيدٍ، وبه قال مجاهِدٌ وغيرُه. قال ابنُ عَرَفةَ: وهما يَرجِعانِ إلى معنًى واحدٍ وإنِ اختلَف لَفْظاهما؛ لأنَّ البَحرَ إذا سكَنَ جَرْيُه انفَرَج)). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (واختلف المفَسِّرونَ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًا﴾ متى قالها لِموسى؟ فقالت فِرقةٌ: هو كلامٌ مُتَّصِلٌ ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۞ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ﴾ إذا انفَرَقَ لك ﴿رَهۡوًا﴾. وقال قَتادةُ وغَيرُه: خُوطِبَ به بعدَما اجتاز البَحرَ وخَشِيَ أن يَدخُلَ فِرعَونُ وقَومُه وراءَه، وأن يَخرُجوا مِن المسالِكِ الَّتي خرَجَ منها بنو إسرائيلَ، فَهَمَّ موسى أن يَضرِبَ البَحرَ؛ عسى أن يَلتَئِمَ ويَرجِعَ إلى حالِه، فقيل له عندَ ذلك: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًا﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٢).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ، وأنَّ هذا الكلامَ لِموسى قبْلَ أن يَقطَعَ هو وقَومُه البَحرَ: ابنُ جرير، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ، وهو أنَّ اللهَ أمَرَه بذلك بعدَ خُروجِه مِن البَحرِ: السمرقنديُّ، والزمخشري،

﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ وقَومَه غارِقونَ في البَحرِ لا مَحالةَ[١].

كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣ - ٦٦].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾، فيه سؤالٌ: الكُفرُ أعظَمُ حالًا مِنَ الجُرمِ، فما السَّبَبُ في أنْ جَعَل صِفةَ الكُفَّارِ كَونَهم مُجرِمينَ حالَ ما أراد المُبالَغةَ في ذَمِّهم؟

والجوابُ: لأنَّ الكافِرَ قد يكونُ عَدلًا في دينِه، وقد يكونُ مُجرِمًا في دينِه، وقد يكونُ فاسِقًا في دينِه، فيكونُ أخَسَّ النَّاسِ[٢]!

والنسفي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) = = (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

وممَّن قال بذلك مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤).

قال ابنُ عاشور: (ويجوزُ أن تكونَ الجُملةُ الثَّانيةُ [أي: قَولُه: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾] صدَرَت وَقتَ دُخولِ موسى ومَن معه في طرائِقِ البَحرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٠).

وقال ابن عاشور أيضًا: (﴿ٱلْبَحْرَ﴾ هو بحرُ القُلْزُم، المسمَّى اليومَ البَحرَ الأحمرَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٩).

٢- قال الله تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أُمِرَ موسى عليه السَّلامُ بالخُروجِ ليلًا، وسَيرُ اللَّيلِ في الغالِبِ إنَّما يكونُ عن خَوفٍ، والخَوفُ يكونُ بوَجهَينِ: إمَّا مِن العَدُوِّ، فيُتَّخَذُ اللَّيلُ سِترًا مُسدَلًا، فهو مِن أستارِ اللهِ تعالى، وإمَّا مِن خَوفِ المَشقَّةِ على الدَّوابِّ والأبدانِ بحَرٍّ أو جَدْبٍ، فيُتَّخَذُ السُّرَى مَصلحةً مِن ذلك، وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَسري ويَدَّلِجُ[(١)]، ويَترفَّقُ ويَستعجِلُ؛ بحَسَبِ الحاجةِ، وما تقتضيه المصلحةُ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في ضَربِ الأمثِلَةِ لهم بمَن تقدَّمَهم مِن الأقوامِ[(٣)].

- وقد جَعَل اللهُ سُبحانَه قِصَّةَ قَومِ فِرعَونَ مع مُوسَى عليه السَّلامُ وبَني إسرائِيلَ مَثَلًا لحالِ المُشرِكين مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ والمُؤمِنينَ به، وجَعَل ما حلَّ بهم إنذارًا بما سيَحُلُّ بالمُشرِكين مِن القَحطِ والبَطْشةِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، مع تَقريبِ حُصولِ ذلك وإمكانِه ويُسرِه، وإنْ كانوا في حالةِ قوَّةٍ؛ فإنَّ اللهَ قادِرٌ عليهم، كما قال تعالى: ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ [الزخرف: ٨]؛ فذِكرُها هنا تأييدٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووَعدٌ له بالنَّصرِ وحُسنِ العاقِبةِ، وتَهديدٌ للمُشرِكين، وهذا المَثَلُ وإنْ كان تَشبيهًا لِمَجموعِ

---

(١) يَسري: أي: يسيرُ ليلًا، ويدَّلج -بتشديد الدال- أي يسير مِن آخِرِ اللَّيلِ، فإن كان السَّيرُ مِن أوَّلِ اللَّيلِ قيل: أدْلَجَ القَومُ، بالتخفيفِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣١٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ١٢٩)، ((مختار الصحاح)) لأبي عبد الله الرازي (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٢٤).

الحالَةِ بالحالَةِ، فهو قابلٌ للتَّوزيع؛ بأن يُشَبَّهَ أبو جَهل بفِرعَونَ، ويُشَبَّهَ أتْباعُه بمَلأِ فِرعَونَ وقَومِه، ويُشَبَّهَ مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بمُوسَى عليه السَّلامُ، ويُشَبَّهَ المُسلِمون ببَني إسرائيلَ، وقَبولُ المَثَلِ لتَوزيعِ التَّشبيهِ مِن مَحاسِنِه[1].

- وأشعَرَ قَولُه: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ أنَّ أهلَ مَكَّةَ سيُفتَنُون كما فُتِنَ قَومُ فِرعَون؛ فكان هذا الظَّرفُ مُؤْذِنًا بجُملةٍ مَحذوفةٍ على طَريقةِ الإيجازِ، والتَّقديرُ: إنَّا مُنتَقِمون ففَاتِنُوهم؛ فقد فَتَنَّا قَبْلَهُم قومَ فِرعَونَ، ومُؤْذِنًا بأنَّ المَذكورَ كالدَّليلِ على تَوَقُّعِ ذلك وإمكانِه، وهو إيجازٌ آخَرُ[2].

- والمَقصودُ: تَشبيهُ الحالَةِ بالحالَةِ، ولكِنْ عُدِلَ عن صَوغِ الكَلامِ بصِيغةِ التَّشبيهِ والتَّمثيلِ إلى صَوغِه بصِيغةِ الإخبارِ؛ اهتِمامًا بالقِصَّةِ، وإظهارًا بأنَّها في ذاتِها ممَّا يُهِمُّ العِلمُ به، وأنَّها تَذكيرٌ مُستَقِلٌّ، وأنَّها غَيرُ تابعةٍ غَيرَها، ولأنَّ جُملةَ ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ عُطِفَت على جُملَةِ ﴿فَتَنَّا﴾ -أي: ولقدْ جاءَهُم رَسولٌ كَريمٌ- عَطْفَ مُفَصَّلٍ على مُجمَلٍ، وإنَّما جاء مَعطوفًا؛ إذ المَذكورُ فيه أكثَرُ مِن مَعنَى الفِتنةِ؛ فلا تَكونُ جُملةُ ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ بَيانًا لجُملَةِ ﴿فَتَنَّا﴾؛ بلْ هي تَفصيلٌ لِقِصَّةِ بَعثةِ مُوسَى عليه السَّلامُ[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾

- قولُه: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ تَفسيرٌ لِمَا تَضَمَّنه وَصْفُ ﴿رَسُولٌ﴾ وفِعلُ (جَاءَهُمْ) مِن معنَى الرِّسالةِ والتَّبليغِ؛ ففيهما معنَى القَولِ، ومعنَى ﴿أَدُّوٓاْ إِلَيَّ﴾:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٩٥).

أرْجِعوا إلَيَّ وأَعطُوا؛ جَعَل بَني إسرائيلَ كالأمانةِ عِندَ فِرعَونَ[١].

- وخِطابُ الجَمعِ ﴿أَدُّوٓاْ﴾ لقَومِ فِرعَونَ، والمُرادُ: فِرعَونُ ومَن حَضَر مِن مَلَئِه؛ لَعَلَّهم يُشِيرُون على فِرعَونَ بالحَقِّ، ولَعَلَّه إنَّما خاطَبَ مَجموعَ المَلَأِ لَمَّا رَأَى مِن فِرعَونَ صَلَفًا وتَكَبُّرًا مِن الامتِثالِ؛ فخاطَبَ أهلَ مَشورَتِه لعلَّ فيهم مَن يَتَبَصَّرُ الحَقَّ[٢].

- و﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ مفعولُ ﴿أَدُّوٓاْ﴾، أُريدَ به بَنُو إسْرائيلَ، أُجرِيَ وَصْفُهم ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾؛ تَذكيرًا لفِرعَونَ بمُوجِبِ رَفعِ الاستِعبادِ عنهم، وجاء في سُورَةِ (الشُّعراءِ) [الآية: ١٧]: ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ فحَصَل أنَّه وَصَفَهم بالوَصفَينِ؛ فوَصْفُ عِبادِ اللهِ مُبطِلٌ لِحِسبانِ القِبطِ إيَّاهُم عَبيدًا، كما قال: ﴿وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وإنَّما هُم عِبادُ الله، أي: أحرارٌ؛ فـ ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ كِنايةٌ عن الحُرِّيَّةِ. وقيل: يَجوزُ أن يَكُونَ مَفعولُ فِعلِ ﴿أَدُّوٓاْ﴾ مَحذوفًا يدُلُّ عليه المَقامُ، أي: أدُّوا إلَيَّ الطَّاعةَ، ويَكونَ ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ مُنادًى بحَذْفِ حَرْفِ النِّداءِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بتَسليمِ بني إسرائيلَ إليه، أو لِوُجوبِ المَأمورِ به في قَولِه: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥، ٢٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود))

- وتَقديمُ ﴿لَكُمْ﴾ على ﴿رَسُولٌ﴾؛ للاهتِمام بتَعَلُّقِ الإرسالِ بأنَّه لهم ابتِداءً بأنْ يُعطُوه بني إسرائيلَ؛ لأنَّ ذلك وَسيلةٌ للمَقصودِ مِن إرسالِه لِتَحريرِ أُمَّةِ إسْرائيلَ، والتَّشريعِ لها، وليس قَولُه: ﴿لَكُمْ﴾ خِطابًا لبَني إسرائيلَ؛ فإنَّ مُوسَى عليه السَّلامُ قد أَبلَغ إلى بَني إسرائيلَ رِسالتَه مع التَّبليغِ إلى فِرعَونَ؛ قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡ﴾ [يونس: ٨٣]، ولِيَكُونَ امتِناعُ فِرعَونَ مِن تَسْريحِ بَني إسرائيلَ مُبَرِّرًا لانسِلاخِ بَني إسرائيلَ عن طاعةِ فِرعَونَ، وفِرارِهِم مِن بِلادِه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾

- قولُه: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ نَهيٌ عن الاستِكبارِ عن إجابةِ أمْرِ اللهِ تعالى، وهو مَعطوفٌ على طلَبِ تَسليمِ بني إسرائيلَ، ومعناه: لا تَعلُوا على أمْرِه أو على رَسولِه، ولَمَّا كان الاعتِلاءُ على أمْرِ الله وأمْرِ رَسولِه تَرفيعًا لأَنفُسِهم على واجِبِ امتِثالِ رَبِّهم، جُعِلوا في ذلك كأنَّهُم يَتَعالَوْن على اللهِ[٢].

- وأُعِيدَ حَرْفُ (أنْ) التَّفسيريَّةِ؛ لزِيادةِ تأكيدِ التَّفسيرِ لِمَدلولِ الرِّسالةِ[٣].

- وقولُه: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ عِلَّةٌ للنَّهيِ، وهذا تَوبيخٌ لَهُم، أي: آتِيكُم بحُجَّةٍ واضِحةٍ لا سَبيلَ إلى إنكارِها[٤]. وهذه الجملةُ عِلَّةٌ جَديرةٌ بالعَودِ إلى الجُمَلِ الثَّلاثِ المُتَقَدِّمةِ، وهي: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ

(٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢).

* ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ المُعجِزةَ تدُلُّ على تَحقُّقِ مَضامِينِ تِلكَ الجُمَلِ؛ مَعلُولِها وعِلَّتِها[١].

- و﴿ءَاتِيكُمۡ﴾ مُضارِعٌ أو اسمُ فاعِلِ (أتَى)، وعلى الاحتِمالَينِ فهو مُقتَضٍ للإتيانِ بالحُجَّةِ في الحالِ[٢].

- وقولُه: ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ السُّلطانُ مِن أسماءِ الحُجَّةِ؛ إذ الحُجَّةُ تُلجِئُ المحجوجَ على الإقرارِ لِمَن يُحاجُّهُ، فهي كالمُتسلِّطِ على نفْسِه. والمُعجِزةُ: حُجَّةٌ عَظيمةٌ؛ ولذلك وُصِف السُّلطانُ بـ﴿مُّبِينٖ﴾، أي: واضِحِ الدَّلالَةِ لا رَيبَ فيه[٣].

- وفي إيرادِ الأداءِ مع الأمينِ -في قولِه: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾-، والسُّلطانِ مع العَلاءِ -في قولِه: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾-: مِن الجَزالةِ ما لا يَخْفى[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ مَضمونَ هذه الجُملةِ ممَّا شَمِلَه كَلامُه حينَ تَبليغِ رِسالَتِه فكان داخِلًا في مُجمَلِ معنَى ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: ١٧] المُفَسَّرِ بما بعدَ (أنْ) التَّفسيريَّةِ، ومَعناهُ: تَحذيرُهُم مِن أنْ يَرجُموه؛ لأنَّ مَعنَى ﴿عُذۡتُ بِرَبِّي﴾: جَعَلتُ رَبِّي عَوْذًا، أي: مَلجَأً، ومِثلُ هذا التَّركيبِ ممَّا جَرَى مَجرَى المَثَلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٦، ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

- والتَّعبيرُ عن اللهِ تعالى بوَصفِ ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾؛ لأنَّه أدخَلُ في ارعِوائِهم مِن رَجْمِه حينَ يَتذَكَّرون أنَّه استَعصَمَ باللهِ الَّذي يَشتَرِكون في مَربوبِيَّتِه، وأنَّهم لا يَخرُجون عن قُدرَتِه[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ جِيءَ بحَرفِ (إنْ) الَّتي شَأنُها أنْ تُستعمَلَ في الشَّرطِ غيرِ المُتَيَقَّنِ؛ لأنَّ عدَمَ الإيمانِ به بعْدَ دَلالةِ المُعجِزَةِ على صِدقِه مِن شأنِه أنْ يَكونَ غيرَ واقِعٍ؛ فيُفرَضَ عَدَمُه كما يُفرَضُ المُحالُ[٢].

- وعُدِّيَ ﴿تُؤْمِنُوا﴾ باللَّامِ؛ لأنَّه يُقالُ: آمَنَ به وآمَنَ له، وأصلُ هذه اللَّامِ لامُ العِلَّةِ؛ على تَضمينِ فِعلِ الإيمانِ مَعنَى الرُّكونِ[٣].

- وجاء تَرتيبُ فَواصِلِ هذا الخِطابِ على مُراعاةِ ما يَبدُو من فِرعَونَ وقَومِه عِندَ إلْقاءِ مُوسَى دَعوَتَه عليهم؛ إذ ابتَدَأَ بإبلاغِ ما أُرسِلَ به إليهم؛ فآنَسَ منهم التَّعَجُّبَ والتَّرَدُّدَ، فقال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ فرَأَى مِنهُم الصَّلَفَ والأَنَفَةَ، فقال: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾؛ فلم يَرعَوُوا فقال: ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، فَلاحَت عليهم عَلاماتُ إضْمارِ السُّوءِ له، فقال: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾؛ فكان هذا التَّرتيبُ بيْن الجُمَلِ مُغْنِيًا عن ذِكْرِ ما أجابوا به على أبْدَعِ إيجازٍ[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ التَّعقيبُ المُفادُ بالفاءِ تَعقيبٌ على مَحذوفٍ يَقتَضِي هذا الدُّعاءَ؛ إذ ليس في المَذكورِ قبْلَ الفاءِ ما يُناسِبُه التَّعقيبُ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بهذا الدُّعاءِ؛ إذ المَذكورُ قَبْلَه كَلامٌ مِن مُوسَى إليهم؛ فالتَّقديرُ: فلمْ يَستَجِيبوا له فيما أمَرَهم، أو فأَصَرُّوا على أَذاهُ وعَدَمِ مُتارَكَتِه، فدَعَا ربَّه... وهذا التَّقريرُ الثَّاني أَلْيَقُ بقَولِه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾[1].

- وفي قَولِه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ تَعريضٌ بأنَّهم استَوجَبوا تَسْليطَ العِقابِ الَّذي يَدعُو به الدَّاعي؛ فالإخبارُ عن كَونِهم قَومًا مُجرِمينَ مُستعمَلٌ في طلَبِ المُجازاةِ على الإجرامِ، أو في الشِّكايةِ مِنِ اعتِدائِهم، أو في التَّخَوُّفِ مِن شَرِّهِم إذا استَمَرُّوا على عدَمِ تَسْريحِ بني إسرائيلَ، وكلُّ ذلك يَقتَضي الدُّعاءَ لِكَفِّ شَرِّهِم؛ فلذلك أُطلِقَ على هذا الخَبَرِ فِعلُ (دَعَا)[2].

- ويَجوزُ أن يَكُونَ دُعاؤُه هذا المَذكورَ، وهو قَولُه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ على تَقديرِ الباءِ، أي: دعا ربَّه بأنْ يا ربِّ هؤلاءِ المُشخَّصُون المُشاهَدُون تَناهَى أمرُهُم في الكُفرِ غايَتَه؛ فافعَلْ بهم ما همْ أهْلُه؛ لأنَّ الكافِرَ إذا وُصِفَ بالإجرامِ كان مُتناهِيًا في الكُفرِ. أو يَكونَ الدُّعاءُ مَحذوفًا، والمَذكورُ تَعليلًا له، أي: عجِّلْ لهم ما يَستَحِقُّونه؛ لأنَّهم قَومٌ مُجرِمون، وإنَّما ذَكَر اللهُ تعالى هنا السَّبَبَ الَّذي استَوجَبُوا به الهَلاكَ، واكتَفَى بالسَّبَبِ عن المُسَبَّبِ؛ لِظُهورِه[3].

- وقولُه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ لَفظُ تَحقيرٍ لهم[4].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠١).

٧- قولُه تعالَى: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ [الدخان: ٢٢]، والمُفَرَّعُ قَولٌ مَحذوفٌ دلَّت عليه صِيغةُ الكَلامِ، وإضمارُ القَولِ إمَّا بعدَ الفاءِ، أي: فقال ربُّه: أَسرِ بعِبادي، وإمَّا قبْلَها على أنَّه جوابُ شرطٍ محذوفٍ، كأنَّه قيلَ: إنْ كان الأمرُ كما تقولُ فأَسرِ بعِبادي، أي: ببَني إسرائِيلَ؛ فقد دبَّر اللهُ تعالى أنْ تتقَدَّمُوا ويَتَّبِعَكم فِرعونُ وجُنودُه، فيُنجِّيَ المُتقدِّمينَ، ويُغرِقَ التَّابِعينَ(١).

- قولُه: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾ قيَّدَ الإسراءَ بزَمانِ اللَّيلِ، والمَقصودُ منه تأْكيدُ مَعنَى الإسراءِ. وفائدةُ تأْكيدِ معنَى الإسراءِ أن يكونَ له مِن سَعةِ الوَقتِ ما يَبلُغون به إلى شاطِئِ البَحرِ قبْلَ أنْ يُدرِكَهُم فِرعَونُ بجُنودِه(٢).

- وجُملَةُ ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ تُفيدُ تَعليلًا للأمْرِ بالإسراءِ لَيلًا؛ لأنَّه ممَّا يُستَغرَبُ، أي: إنَّكُم مُتَّبَعون، فأَرَدْنا أنْ تَقطَعوا مَسافةً يَتعَذَّرُ على فِرعَونَ لَحاقُكُم. وتأْكيدُ الخَبَرِ بـ (إنَّ)؛ لتَنزيلِ غَيرِ السَّائِلِ مَنزِلةَ السَّائلِ إذا قُدِّم إليه ما يُلوِّحُ له بالخَبَرِ، فيَستَشرِفُ له استِشرافَ المُتَرَدِّدِ السَّائِلِ(٣).

- وأُسنِدَ الاتِّباعُ إلى غَيرِ مَذكورٍ؛ لأنَّه مِن المَعلومِ أنَّ الَّذي سيَتَّبِعُهم هو فِرعَونُ وجُنودُه(٤).

٨- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ فَأَسْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٩٩، ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٠٠).

بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾ [الدخان: ٢٣]؛ فيَجوزُ أن تَكونَ الجُمْلَتانِ صَدَرَتا مُتَّصِلَتَينِ؛ بأنْ أعلَمَ اللهُ مُوسَى حينَ أَمَره بالإسراءِ بأنَّه يَضرِبُ البَحرَ بعَصاهُ، فيَنفَلِقُ عن قَعرِه اليابِسِ حتَّى يَمُرَّ منه بنو إسرائيلَ، كما وَرَد في آياتٍ أُخرَى، مِثلُ آيةِ سُورةِ (الشُّعَراء): ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ [الشعراء: ٦٣]. ولَمَّا أمَرَه بذلك طَمَّنه بألَّا يَخشَى بَقاءَه مُنفَلِقًا فيَتوقَّعَ أنْ يَلحَقَ به فِرعَونُ، بلْ يَجتازُ البَحرَ ويَترُكُه؛ فإنَّه سيَطغَى على فِرعَونَ وجُندِه فيَغرَقُون؛ ففي الكَلامِ إيجازٌ تَقديرُه: فإذا سَرَيْتَ بعِبادِي فسَنَفتَحُ لكم البَحْرَ فتَسلُكُونه، فإذا سَلَكْتَه فلا تَخْشَ أنْ يَلحَقَكُم فِرعَونُ وجُندُه، واترُكْه؛ فإنَّهُم مُغرَقُون فيه. ويَجوزُ أن تَكونَ الجُملةُ الثَّانيةُ ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ صَدَرتْ وَقْتَ دُخولِ مُوسى ومَن معه في طَرائِقِ البَحرِ؛ فيُقَدَّرَ قَولٌ مَحذوفٌ، أي: وقُلْنا له: اترُكِ البَحْرَ رَهْوًا، أي: سيَدخُلُه فِرعَونُ وجُندُه ولا يَخرُجون منه؛ لأنَّ في بَقائِه مَفروقًا حِكمةً أُخرى؛ وهي دُخولُ فِرعَونَ وجُندِه في طَرائِقِه؛ طَمَعًا منهم أنْ يَلحَقوا مُوسى وقَومَه، حتى إذا تَوَسَّطُوه انضَمَّ عليهم؛ فتَحصُلُ فائدةُ إنْجاءِ بَني إسرائيلَ، وفائدةُ إهلاكِ عَدُوِّهم؛ فتَكونُ الواوُ عاطِفةً قَولًا مَحذوفًا على القَولِ المَحذوفِ قَبْلَه[١].

- والتَّركُ في قولِه: ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ مُستَعمَلٌ في عدَمِ المُبالاةِ بالشَّيءِ، كما يُقالُ: دَعْه يَفعَلْ كذا، وذَرْه[٢].

- قولُه: ﴿رَهْوًا﴾ الرَّهْوُ: الفَجْوةُ الواسعةُ. وأصْلُه مَصدرُ (رَها)؛ إذا فتَحَ بيْن رِجْلَيه؛ فسُمِّيَت الفَجوةُ رَهْوًا تَسميةً بالمَصدرِ، وانتَصَب ﴿رَهْوًا﴾ على الحالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن البَحرِ على التَّشبيهِ البَليغِ، أي: مِثلُ رَهوٍ[١].

- وجَملةُ ﴿إِنَّهُم جُندٌ مُّغۡرَقُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابًا عن سُؤالٍ ناشِئٍ عن الأمْرِ بتَركِ البَحرِ مَفتوحًا، وضميرُ ﴿إِنَّهُمۡ﴾ عائدٌ إلى اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٌ مُّجۡرِمُونَ﴾[٢] [الدخان: ٢٢].

- وإقحامُ لَفظِ ﴿جُندٌ﴾ دونَ الاقتِصارِ على ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾؛ لإفادةِ أنَّ إغراقَهم قد لَزِمَهم حتَّى صارَ كأنَّه مِن مُقَوِّماتِ جُنْديَّتِهم[٣].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٠١).

الآيات (٢٥-٢٢)

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾: أي: مُتعةٍ ونَعيمٍ وعَيشٍ لَيِّنٍ، والنَّعْمةُ -بفَتحِ النُّونِ: طِيبُ العَيشِ وسَعَتُه ولَذاذةُ الحياةِ، والنِّعْمةُ -بكَسرِ النُّونِ- أعَمُّ مِن هذا؛ لأنَّها بمعنى المِنَّةِ والعَطاءِ، فالنَّعْمةُ -بالفَتحِ- هي مِن جُملةِ النِّعْمةِ -بالكَسرِ-، وأصلُ (نعم): يدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيشٍ وصلاحٍ[1].

﴿ فَٰكِهِينَ ﴾: أي: ناعِمينَ مُستَمتِعينَ، وأصلُ (فكه): يدُلُّ على طِيبٍ واستِطابةٍ[2].

﴿ ٱلْءَايَٰتِ ﴾: أي: العِبَرِ والعِظاتِ، أو: المعجزاتِ، وتُطلَقُ الآيةُ على العلامةِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٦)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٨). قال الماوَرْدي: (قد يُقالُ: نَعمة ونِعمة بفتحِ النُّونِ وكَسرِها، وفي الفَرقِ بيْنَهما وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّها بكسرِ النُّونِ في المُلكِ، وبفَتحِها في البَدَنِ والدِّينِ، قاله النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ. الثَّاني: أنَّها بالكَسرِ مِن المِنَّةِ، وهو الإفضالُ والعَطيَّةُ، وبالفتحِ مِن التَّنعُّمِ، وهو سَعةُ العَيشِ والرَّاحةُ، قاله ابنُ زيادٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٩).

والدَّليلِ والحُجَّةِ وغيرِ ذلك، وأصلُ (أيي): النَّظرُ[١].

﴿بَلَٰٓؤٗاْ﴾: أي: اختبارٌ، وأصلُ البلاءِ هنا: الاختبارُ، ثمَّ صار يُطلَقُ على المكروهِ والشِّدَّةِ، وقيل: البلاءُ هنا النِّعمةُ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾: في محلِّها وجْهانِ مِن الإعرابِ؛ أحَدُهما: أنَّها في محَلِّ نَصبٍ نعتٌ لمَصدَرٍ مَحذوفٍ مَفهومٍ مِن التَّرْكِ في قَولِه تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ﴾ [الدخان: ٢٥]، أي: أخرَجْناهم إخراجًا مِثلَ ذلك الإخراجِ الَّذي وصَفْناه، أو تَرَكوها تَرْكًا كذلك، وقيل: التَّقديرُ: أهلَكْناهم إهلاكًا كذلك، أو كذلك أفعَلُ بمَن عَصاني. الثَّاني: الرَّفعُ على أنَّه خبَرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: الأمرُ كذلك.

﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾: جُملةٌ مَعطوفةٌ على جُملةِ الفِعلِ المقدَّرِ العامِلِ في المصدَرِ المحذوفِ الَّذي وَقَعَت ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نَعتًا له، على معنى: مِثلَ ذلك الإخراجِ أخرَجْناهم منها، وأورَثْناها قَومًا آخَرينَ. أو هي مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿تَرَكُواْ﴾، أو على جُملةِ (الأمرُ كذلك)[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٤٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩-٢٥٠، ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٨٥)، (الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٢٢)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٧٠).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبينًا سوءَ مآلِ فِرعونَ وقَومِه: كم تَرَكَ فِرعَونُ وقَومُه بعدَ هَلاكِهم بالغَرَقِ؛ مِن بَساتينَ، وعُيونِ ماءٍ، وزُروعٍ، وأماكِنَ حَسَنةٍ، ورَغَدِ عَيشٍ ورفاهيةٍ كانوا فيها مُتنَعِّمينَ! كذلك وأورَثْنا تلك النِّعَمَ بني إسرائيلَ، فما بَكَت السَّماءُ والأرضُ على فِرعَونَ وقَومِه بعدَ هَلاكِهم، وما كانوا مُؤَخَّرينَ عن العَذابِ إذ جاءهم!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن نِعَمِه على بني إسرائيلَ، فيقولُ: ولقد نجَّيْنا بني إسرائيلَ مِن عذابِ فِرعَونَ المُذِلِّ لهم؛ إنَّه كان مُستَعليًا مُتكَبِّرًا مُتجاوِزًا للحَدِّ، ولقد اختَرْنا بني إسرائيلَ على عالَمِي زمانِهم حالَ كَونِنا عالِمينَ بهم وبأحوالِهم وما يقتَضي اختيارَهم، وآتَيْنا بني إسرائيلَ مِن الآياتِ ما فيه اختِبارٌ لهم ظاهِرٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبرَ اللهُ تعالى عن غَرَقِ آلِ فِرعَونَ؛ أخبرَ عمَّا خَلَّفوه وراءَهم[1]، فقال:

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: ما أكثَرَ ما ترَكَه فِرعَونُ وقَومُه مِن بَساتينَ وعُيونِ ماءٍ، مِن بَعدِ إغراقِهم[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٨٥)، ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢).

قال ابن عطيَّة: (أمَّا العُيونُ فيَحتَمِلُ أنَّه أراد الخُلجانَ الخارِجةَ مِن النِّيلِ فشَبَّهها بالعُيونِ، ويحتمِلُ أنَّه كانت ثَمَّ عُيونٌ ونَضَبَت كما يَعتري في كثيرٍ مِن بِقاعِ الأرضِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٢).

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: وما أكثَرَ ما ترَكَوه من زُروعٍ قائمةٍ، ومَواضِعَ أنيقةٍ وأماكِنَ حَسَنةٍ شَريفةٍ[1]!

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿فَكِهِينَ﴾ قيل: بمعنى: فَرِحينَ أشِرينَ بَطِرينَ. وقيل: مُستَخِفِّينَ مُستَهزِئينَ[2].

٢- قِراءةُ: ﴿فَاكِهِينَ﴾ قيل: بمعنى: ناعِمينَ طَيِّبي الأنفُسِ، أو أصحابِ فاكِهةٍ. وقيل: بمعنى: لاهينَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحِدٍ، مِثلُ كَلِمتَيْ: حاذِرينَ وحَذِرينَ[3].

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير المظهري)) (٨/ ٣٧٢).

قال ابنُ عاشور: (الكريمُ مِن كُلِّ نَوعٍ: أنفَسُه وخَيرُه، والمرادُ به: المساكِنُ والدِّيارُ والأسواقُ ونحوُها ممَّا كان لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٢).

(٢) قرأ بها أبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٢٣).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٤، ٣٥٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٢٣).

وقال السمين الحلبي: (وقيل: الفاكِهُ: ذو الفاكهةِ، نحو: لابِنٍ، وتامرٍ. والفَكِهُ: مَن بالَغَ في ذلك). ((عمدة الحفاظ)) (٣/ ٢٤٨).

أي: ورَغَدِ حياةٍ وهَناءِ عَيشٍ ورَفاهيةٍ كانوا يَتنعَّمونَ فيها، ويَتلذَّذونَ بها[١]!

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨ ﴾.

أي: كذلك[٢] وأورَثْنا بني إسرائيلَ تلك الجنَّاتِ والعُيونَ، والزُّروعَ، والمَقامَ الكريمَ الَّذي كان لِفِرعَونَ وقَومِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨).

(٢) قال القرطبي: (قال الزَّجَّاجُ: أي: الأمرُ كذلك. فيُوقَفُ على ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾. وقيل: إنَّ الكافَ في مَوضِعِ نَصبٍ، على تقديرِ: نفعَلُ فِعلًا كذلك بمَن نُريدُ إهلاكَه. وقال الكَلْبيُّ: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أفعَلُ بمَن عصاني. وقيل: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كان أمرُهم فأُهلِكوا). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣).

قال ابنُ عطية: (وسَمَّاها وِراثةً؛ مِن حيثُ كانت أشياءَ أُناسٍ وَصَلَت إلى قَومٍ آخَرينَ مِن بعدِ مَوتِ الأوَّلينَ، وهذه حقيقةُ الميراثِ في اللُّغةِ، ورَبَطَها الشَّرعُ بالنَّسَبِ وغَيرِه مِن أسبابِ الميراثِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣).

وقال الشربيني: (﴿ءَاخَرِينَ﴾... هم بنو إسرائيلَ. وقيل: غَيرُهم؛ لأنَّهم لم يَعودوا إلى مِصرَ، بل سَكَنوا الأرضَ المقَدَّسةَ). ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٨٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالقَومِ الآخَرينَ: هم بنو إسرائيلَ: مقاتلٌ، والواحديُّ، والماوَرْدي، والزمخشري، وابنُ الجوزي، والقرطبي، وابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٦).

وممنَّ قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤١١).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

وقيل: القَومُ الآخَرونَ ليسوا بني إسرائيلَ، بل غيرُهم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عطية، =

كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩].

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

أي: فما بَكَت السَّماءُ والأرضُ على فِرعَونَ وقَومِه الَّذين أغرَقَهم اللهُ تعالى في البَحرِ[1]!

= وهو ظاهِرُ اختيارِ القاسمي، واختاره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٠، ١٤٢)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣).

قال الرَّسْعَني: (اختلف العُلَماءُ في هذه الآيةِ على ثلاثةِ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّه على حقيقتِه وظاهِرِه...، وإلى هذا القَولِ ذهب عامَّةُ المفَسِّرينَ المتقَدِّمينَ.

الثَّاني: أنَّه على حَذفِ المُضافِ، تقديرُه: فما بكى عليهم أهلُ السَّماءِ وأهلُ الأرضِ. قاله الحَسَنُ.

الثَّالِثُ: أنَّه على مَذهَبِ العَرَبِ؛ فإنَّهم يقولونَ إذا مات رجُلٌ خَطيرٌ: بَكَت عليه السَّماءُ والأرضُ، وأظلَمَت له الشَّمسُ، وبَكَتْه الرِّيحُ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٧٠).

وممَّن ذهب إلى القَولِ الأوَّلِ، وأنَّ ذلك على ظاهِرِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، والقُرطبي، والنَّسَفي، وابنُ كثير، وهو ظاهِرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٤٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٠، ١٤٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣). =

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾.

أي: وما كانوا مُؤَخَّرينَ بالعُقوبةِ حينَ جاء وَقتُ هلاكِهم[١].

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ كَيفيَّةَ إهلاكِ فِرعَونَ وقَومِه؛ بيَّنَ كيفيَّةَ إحسانِه إلى موسى وقَومِه؛ فبدأ تعالى ببَيانِ دَفعِ الضَّرَرِ عنهم، فقال تعالى[٢]:

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: ولقد نجَّيْنا بني إسرائيلَ مِن عذابِ فِرعَونَ وقَومِه المُذِلِّ لهم؛ كذَبحِ أبنائِهم، واستِحياءِ نِسائِهم، واستِعبادِهم وتَكليفِهم الأعمالَ الشَّاقَّةَ[٣].

= قال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: لم تكُنْ لهم أعمالٌ صالحةٌ تَصعَدُ في أبوابِ السَّماءِ، فتَبكيَ على فَقْدِهم، ولا لهم في الأرضِ بِقاعٌ عَبَدوا اللهَ فيها فقَدَتْهم؛ فلهذا استحَقُّوا ألَّا يُنظَروا ولا يُؤَخَّروا؛ لكُفرِهم وإجرامِهم، وعُتُوِّهم وعِنادِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣).

وممَّن اختار في الجملةِ القولَ الثَّالثَ، وأنَّ ذلك على سَبيلِ التَّمثيلِ، وأنَّ المعنَى أنَّهم هَلَكوا فلم تَعظُمْ مُصيبَتُهم ولم يُوجَدْ لهم فَقْدٌ، وأنَّه عبارةٌ عن تَحقيرِهم: الزمخشريُّ، وابن عطية، والقرطبي، وابنُ جُزَي، وأبو حيان، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠].

﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾.

أي: نَجَّيناهم مِن فِرعَونَ[1].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ كان مُتَّصِفًا بالاستِعلاءِ والاستِكبارِ والإسرافِ وتجاوُزِ الحَدِّ[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

وقال سبحانه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦ - ٤٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تَعالَى إهلاكَ فِرعَونَ وقَومِه؛ ذَكَر إحسانَه لبَني إسرائِيلَ[(١)].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى كيف دَفَع الضَّرَرَ عن بني إسرائيلَ؛ بيَّنَ كيف أوصَلَ إليهم الخَيراتِ، فقال[(٢)]:

﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٢ ﴾.

أي: ولقد اختَرْنا بني إسرائيلَ -على عِلمٍ مِنَّا بهم وبأهليَّتِهم لهذا الاختيارِ- على عالَمِي زمانِهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

قال ابن القيم: (قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ لا خِلافَ بيْنَ النَّاسِ أنَّ المعنى: على عِلمٍ مِنَّا بأنَّهم أهلُ الاختيارِ؛ فالجُملةُ في موضِعِ نَصبٍ على الحالِ، أي: اختَرْناهم عالِمينَ بهم وبأحوالِهم وما يَقتضي اختيارَهم، مِن قَبلِ خَلْقِهم. ذَكَر سُبحانَه اختيارَهم، وحِكمتَه في اختيارِه إيَّاهم، وذكَرَ عِلمَه الدَّالَّ على مَواضِعِ حِكمتِه واختيارِه). ((شفاء العليل)) (ص: ٣٢).

قال الماوَرْدي: (وفي قَولِه: ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ قَولانِ؛ أحدُهما: على عالَمِي زمانِهم؛ لأنَّ لكُلِّ زمانٍ عالَمًا. قاله قَتادةُ. الثَّاني: على كُلِّ العالَمينَ؛ بما جَعَل فيهم مِن الأنبياءِ. وهذا خاصَّةٌ لهم، وليس لِغَيرِهم. حكاه ابنُ عيسى). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٥٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالعالَمينَ: عالَمُو زمانِهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزجاج، وابن أبي زَمَنين، ومكِّي، والبغوي، والقرطبي، والنَّسَفي، وابنُ تيميَّة، والخازن، وابن كثير، والشوكاني، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٠٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن =

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْأَيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤُا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: وآتَيْنا بني إسرائيلَ مِن الآياتِ ما فيه اختِبارٌ لهم ظاهِرٌ[1].

= تيمية (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

قال الواحدي: (﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على عالَمِي زَمانِهم. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والكَلْبيُّ، ومقاتلٌ، وقَتادةُ، والجميعُ. قال مجاهِدٌ: فَضَّلْناهم على مَن هم بيْنَ ظَهَرانَيْهم. قال أهلُ المعاني: ويدُلُّ على هذا التَّخصيصِ قَولُه تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١١٠]، هذا مُقتَضى أنَّه ما اختارهم على مَن هو خيرٌ منهم، وإنَّما اختارهم على مَن في وَقتِهم مِن العالَمينَ). ((البسيط)) (٢٠/ ١١٢).

وقال السعدي: (أي: عالَمِي زمانِهم ومَن قَبْلَهم وبَعدَهم، حتَّى أتى اللهُ بأمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ففَضَلوا العالَمينَ كُلَّهم، وجَعَلهم اللهُ خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاسِ، وامتَنَّ عليهم بما لم يمتَنَّ به على غَيرِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٤).

قال الشوكاني: (الآياتُ، أي: مُعجزاتُ مُوسى ... وقال قَتادةُ: الآياتُ: إنجاؤُهم مِنَ الغَرَقِ، وفَلْقُ البَحرِ لهم، وتَظليلُ الغَمامِ عليهم، وإنزالُ المَنِّ والسَّلْوى لهم. وقال ابنُ زَيدٍ: الآياتُ هي الشَّرُّ الَّذي كَفَّهم عنه، والخَيرُ الَّذي أمَرَهم به. وقال الحَسَنُ وقَتادةُ: البلاءُ المُبينُ: النِّعْمةُ الظَّاهِرةُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٩).

وقال ابن جرير: (أَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه أخبَرَ أنَّه آتَى بني إسرائيلَ مِن الآياتِ ما فيه ابتلاؤُهم واختِبارُهم، وقد يكونُ الابتِلاءُ والاختِبارُ بالرَّخاءِ، ويكونُ بالشِّدَّةِ، ولم يَضَعْ لنا دليلًا مِن خَبَرٍ ولا عَقلٍ أنَّه عَنى بعضَ ذلك دونَ بَعضٍ، وقد كان اللهُ اختبَرَهم بالمعنيَينِ كِلَيْهما جميعًا، وجائزٌ أن يكونَ عنى اختبارَه إيَّاهم بهما. فإذْ كان الأمرُ على ما وصَفْنا، فالصَّوابُ مِن القَولِ فيه أن نقولَ كما قال جلَّ ثناؤُه: إنَّه اختبَرَهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (الآياتُ لَفظٌ جامعٌ لِمُعجزاتِ موسى، وللعِبَرِ الَّتي ظهَرَت في قَومِ فِرعَونَ؛ مِن الجَرادِ والقُمَّلِ والضَّفادِعِ، وغيرِ ذلك، ولِما أنعَمَ به على بني إسرائيلَ مِن تظليلِ الغَمامِ، والمَنِّ والسَّلْوى، وغيرِ ذلك؛ فإنَّ لَفظَ الآياتِ يَعُمُّ جميعَ هذا. والبلاءُ في هذا الموضِعِ: الامتِحانُ =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ لَمَّا كان الله تعالى يَبلو بالمِحنةِ فقد يَبلو أيضًا بالنِّعمةِ؛ اختبارًا ظاهِرًا؛ لِيَتمَيَّزَ الصِّدِّيقُ عن الزِّنديقِ[1]. وذلك على أنَّ معنى ﴿بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ أي: نعمةٌ ظاهرةٌ.

= والاختِبارُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالبلاءِ هنا: الاختِبارُ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن عطية، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٩).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالبلاءِ: النِّعْمةُ: ابنُ أبي زَمَنين، والسمعاني، والرَّسْعَني، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٨).

قال الواحدي: (أكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّ البلاءَ المُبينَ مَعناه: النِّعْمةُ البَيِّنةُ الظَّاهِرةُ). ((البسيط)) (٢٠/ ١١٣).

وقال السعدي: (﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ أي: إحسانٌ كَثيرٌ ظاهِرٌ مِنَّا عليهم، وحُجَّةٌ عليهم على صِحَّةِ ما جاءهم به نَبيُّهم موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهِرٌ واضِحٌ: ابنُ أبي زَمَنين، والنَّسَفي، وابنُ كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤).

قال ابنُ جرير: (أعطَيْناهم مِن العِبَرِ والعِظاتِ ما فيه اختبارٌ يَبينُ لِمَن تأمَّله أنَّه اختِبارٌ اخْتَبَرهم اللهُ تعالى به). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّنٌ في نَفْسِه، مُوضِحٌ لِغَيرِه: البِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ دَليلٌ على أنَّ في النَّاسِ مَن تبكي السَّماءُ والأرضُ عليه؛ إذ لا يُخَصُّ أولئك بذلك ويُجعَلُ عُقوبةً لهم إلَّا وغَيرُهم مُكرَمٌ به[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: (لم تَبْكِ عليهم السَّماءُ؛ لأنَّهم لم يَكونوا يُرفَعُ لهم فيها عَمَلٌ صالِحٌ، ولم تَبكِ عليهم الأرضُ؛ لأنَّهم لم يَكونوا يَعمَلونَ فيها بعَمَلٍ صالحٍ)[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ * وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ * وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ مَسوقٌ للعِبرةِ بعَواقِبِ الظَّالِمينَ المَغرورينَ بما هُم فيه مِن النِّعمةِ والقُوَّةِ، غُرورًا أنساهُم مُراقَبَةَ اللهِ فيما يُرضِيه؛ فمَوقِعُ هذا الاستِئنافِ مَوقِعُ النَّتيجةِ مِن الدَّليلِ، أو البَيانِ مِن الإجمالِ؛ لِمَا في قَولِه: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [الدخان: ١٧] مِن التَّنظيرِ الإجماليِّ[٣].

- والفِعلُ ﴿تَرَكُواْ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّهم أُغرِقُوا وأُعدِمُوا، وذلك مُقتَضَى أنَّ ما أمَرَ اللهُ به مُوسَى مِن الإسراءِ ببَني إسرائيلَ وما معَه مِن اتِّباعِ فِرعَونَ إيَّاهُم، وانفِلاقِ البَحرِ، وإزْلافِ بَني إسرائيلَ، واقتِحامِ فِرعونَ بِجُنودِه البَحرَ، وانضِمامِ البَحرِ عليهم قد تمَّ؛ ففي الكَلامِ إيجازُ حَذفِ جُمَلٍ كثيرةٍ يدُلُّ عليها قَولُه تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ﴾. وقيل: الكلامُ مُرتَبِطٌ بمقدَّرٍ لا بُدَّ منه لِيَلتَئِمَ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣٧).

(٢) أخرجه عبدُ بنُ حُمَيدٍ في ((تفسيره)) كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠١).

نِظامُ الكَلامِ، والتَّقديرُ: فاطمَأَنَّ موسى بذلك، فتَمَّ إغراقُهم، كمْ تَرَكوا...[١].

- قولُه: ﴿وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ مِن عَطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لأنَّ النِّعمةَ تَشملُ جميعَ ما تقَدَّمَ وغَيرَه ممَّا لم يُذكَرْ[٢].

- والنِّعمةُ بفَتحِ النُّونِ: اسمٌ للتَّنَعُّمِ مَصوغٌ على زِنَةِ المَرَّةِ، وليس المُرادُ به المَرَّةَ، بل مُطلَقَ المَصدرِ؛ باعِتبارِ أنَّ مَجموعَ أحوالِ النَّعيمِ صارَ كالشَّيءِ الواحِدِ، وهو أبلَغُ وأجمَعُ في تَصويرِ مَعنَى المَصدَرِ، وهذا هو المُناسِبُ لفِعلِ ﴿تَرَكُواْ﴾؛ لأنَّ المَتروكَ هو أشخاصُ الأُمورِ الَّتي يُنَعَّمُ بها[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ راجِعٌ لِفعلِ ﴿تَرَكُواْ﴾، والتَّقديرُ: تَركًا مِثلَ ذلك التَّركِ، والكافُ للتَّشبيهِ، والمُشَبَّهُ به شَيءٌ تضَمَّنَه الكلامُ السَّابِقُ بلَفظِه أو مَعناهُ، والكافُ ومَجرُورُها يَجوزُ أن يَكونُ شِبهَ جُملَةٍ وَقَع صِفةً لمَصدَرٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: تَشبيهًا مُماثِلًا لِمَا سَمِعتَ. واسمُ الإشارةِ يُشيرُ إلى المَحذوفِ؛ لأنَّه كالمَذكورِ؛ لِتَقرُّرِ العِلمِ به، والمَعنَى: مَن أراد تَشبِيهَه لم يُشَبِّهْه بأكثَرَ مِن أنْ يُشَبِّهَه بذاتِه؛ فالإشارةُ إلى مُقَدَّرٍ دلَّ عليه الكَلامُ. ويَجوزُ أن يَكونَ المَجرورُ جُزءَ جُملةٍ أيضًا جُلِبَت للانتِقالِ مِن كَلامٍ إلى كَلامٍ؛ فيَكونَ فَصْلَ خِطابٍ، كما يُقالُ: هذا الأمرُ كذا[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ تَفريعٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٩) و (٢٥/ ٣٠٢).

قَولِه: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ﴾ إلى قولِه: ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٨]؛ فإنَّ ذلك كُلَّه يَتضَمَّنُ أنَّهم هَلَكوا وانقَرَضوا، أي: فما كان مهلَكُهم إلَّا كمهلَكِ غَيرِهم، ولم يَكُن حَدَثًا عَظيمًا كما كانوا يَحسَبون ويَحسَبُ قَومُهم. والكَلامُ مَسوقٌ مَساقَ التَّحقيرِ لهم، والتَّهَكُّمِ بهِم وبحالِهم المُنافِيَةِ لحالِ مَن يَعظُمُ فَقْدُه[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لتَسلِيَةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ عمَّا كان يُكابِدُه مِن قُرَيشٍ، وإثْلاجِ صَدرِه بأنَّ اللهَ قادِرٌ على إنْقاذِه وإنقاذِ أتْباعِه مِن أذاهُم، كما نَجَّى بَني إسرائيلَ مِن القِبطِ، وهو أمْرٌ كان بحَسَبِ الظَّاهِرِ أمْرًا بَعيدَ الوُقوعِ[2].

أو مَعطوفٌ على الكَلامِ المَحذوفِ الَّذي دلَّ عليه قَولُه: ﴿إِنَّهُم جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] الَّذي تَقديرُه: فأَغرَقْناهُم ونَجَّيْنا بَني إسرائيلَ، والمَعنَى: ونَجَّيْنا بَني إسرائيلَ مِن عَذابِ فِرعَونَ وقَساوَتِه، أي: فكانتْ آيةُ البَحرِ هلاكًا لقَومٍ وإنجاءً لآخَرينَ. والمَقصودُ مِن ذِكْرِ هذا: الإشارةُ إلى أنَّ اللهَ تعالى يُنجِّي الَّذين آمَنوا بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ مِن عَذابِ أهلِ الشِّركِ بمَكَّةَ، كما نَجَّى الَّذين اتَّبَعوا مُوسَى عليه السَّلامُ مِن عَذابِ فِرعَونَ. وجُعِل طُغيانُ فِرعَونَ وإسرافُه في الشَّرِّ مَثَلًا لِطُغيانِ أبي جَهلٍ ومَلَئِه؛ ومِن أجْلِ هذه الإشارةِ أُكِّدَ الخبَرُ باللَّامِ. وقد يُفيدُ تَحقيقَ إنْجاءِ المُؤمِنينَ مِن العَذابِ المُقَدَّرِ للمُشرِكين إجابةً لِدَعوةِ ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[3] [الدخان: ١٢]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٣، ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٤).

- وجُملةُ ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ إمَّا بَدَلٌ مُطابقٌ ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾؛ كأنَّ فِرعَونَ في نَفْسِه كان عذابًا مُهينًا؛ لإفراطِه في تَعذيبِهم وإهانَتِهم، فتكونُ ﴿مِن﴾ مُؤكِّدةً لـ ﴿مِنَ﴾ الأولى المعدِّيةِ لـ ﴿نَجَّيْنَا﴾؛ لأنَّ الحرْفَ الدَّاخِلَ على المُبدَلِ منه يَجوزُ أنْ يَدخُلَ على البدَلِ للتَّأكيدِ، ويَحسُنُ ذلك في نُكَتٍ يَقْتَضيها المقامُ، وحسَّنَه هنا -فأُظْهِرَتْ كَلِمةُ ﴿مِن﴾-؛ لخَفاءِ كَونِ اسمِ فِرعَونَ بدَلًا مِن العَذابِ؛ تَنبيهًا على قَصدِ التَّهويلِ لأمْرِ فِرعونَ في جَعْلِ اسمِه نَفْسَ العَذابِ المُهِين. وإمَّا على حذْفِ المُضافِ، أي: عَذابِ فِرعونَ. أو حالٌ مِن ﴿ٱلْمُهِينِ﴾، أي: كائنًا مِن فِرعونَ[1].

- وجُملَةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِبَيانِ التَّهويلِ الَّذي أفادَه جَعلُ اسمِ فِرعَونَ بَدَلًا مِن العَذابِ المُهينِ[2].

- وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أشَدُّ مُبالَغةً في اتِّصافِه بالإسرافِ مِن أن يُقالَ: (مُسرِفًا)، أي: كان رفيعَ الطَّبقةِ مِن بيْنِ المسرِفينَ، فائقًا لهم، بَليغًا في الإسرافِ[3].

- وفي إيهامِ أمْرِه أوَّلًا، وتَبْيينِه بقولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ثانيًا؛ مِن الإفصاحِ عن كُنْهِ أمْرِه في الشَّرِّ والفَسادِ ما لا مَزيدَ عليهِ[4].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بَدَأَ بدَفعِ الضَّرَرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣).

عنهم، وهو نَجاتُهم ممَّا كانوا فيه مِن العَذابِ، ثمَّ ذَكَر بعْدَ ذلك إيصالَ النَّفعِ لهم؛ مِنِ اختِيارِهم على العالَمينَ، وإيتائِهم الآياتِ[١]؛ لأنَّ دفْعَ الضَّررِ مُقدَّمٌ على إيصالِ النَّفعِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الله تعالى قد اختارَ الَّذين آمَنوا بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على أُمَمِ عَصرِهم، كما اختارَ الَّذين آمَنوا بمُوسَى عليه السَّلامُ على أُمَمِ عَصرِهم، وأنَّه عالِمٌ بأنَّ أمْثالَهم أهلٌ لأنْ يَختارَهُم اللهُ، والمَقصودُ: التَّنويهُ بالمُؤمِنينَ بالرُّسُلِ، وأنَّ ذلك يَقتَضي أنْ يَنصُرَهم اللهُ على أعدائِهم، ومِن أجْلِ هذه الإشارةِ أُكِّدَ الخبَرُ باللَّامِ و(قد)، كما أُكِّد في قولِه آنِفًا: ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[٣] [الدخان: ٣٠].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَه هنا بذِكْرِ ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾، أي: مِنَّا، وقال في سورةِ (الجاثِيَةِ): ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] بحَذفِه؛ جَريًا هنا على الأصلِ في ذِكْرِ ما لا يُغْني عنه غَيرُه، واكتِفاءً هناك بقَولِه بَعدُ: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾[٤] [الجاثية: ٢٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ المُرادُ بالآياتِ: المُعجِزاتُ الَّتي ظَهَرتْ على يَدِ مُوسَى عليه السَّلامُ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ أيَّد اللهُ بها بَني إسرائيلَ في مَواقِعِ حُروبِهم بنَصرِ الفِئَةِ القَليلةِ منهم على الجُيوشِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٥، ٢٢٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (١/ ٤٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٦).

الكَثيرةِ مِن عَدُوِّهم، وهذا تَعريضٌ بالإنذارِ للمُشرِكِين بأنَّ المُسلِمينَ سيَغلِبُون جَمْعَهم مع قِلَّتِهم في بَدرٍ وغَيرِها[١].

- وقِصَّةُ فِرعَونَ وقَومِه مَسوقةٌ للدَّلالةِ على أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ مِثلُهم في الإصرارِ على الضَّلالةِ، والتَّحذيرِ والإنذارِ عن حُلولِ مِثلِ ما حلَّ بهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣).

الآيات (٢٤-٢٩)

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِمُنشَرِينَ﴾: أي: بمَبعوثِينَ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا موقفَ المشركينَ مِن البعثِ والنُّشورِ: إنَّ هؤلاء المُشرِكينَ مِن قُرَيشٍ لَيَقولونَ مُنكِرينَ للبَعثِ: ما هي إلَّا مَوتتُنا الَّتي نَموتُها في الدُّنيا ولا حياةَ بعدَها، فإذا مِتْنا فما نحن بمَبعوثينَ، فإنْ كنتُم صادِقينَ في أنَّنا نُبعَثُ بعدَ مَوتِنا فأْتُوا بآبائِنا الَّذين ماتوا مِن قَبْلُ!

ثمَّ يقولُ تعالى مهدِّدًا لهم: أهؤلاء المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ خَيرٌ أمْ قَومُ تُبَّعٍ مَلِكِ اليَمَنِ، والَّذين مِن قَبْلِهم مِنَ الكُفَّارِ؟ أهلَكْناهم؛ لأنَّهم كانوا مُجرِمينَ!

ثمَّ يقولُ تعالى مُدلِّلًا على صِحَّةِ البعثِ: وما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما لَعِبًا، ما خلَقْناهما إلَّا بالحَقِّ والحِكمةِ، ولكِنَّ أكثَرَ المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى تعالى عن المُشرِكين إعْراضَهم عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وطَعْنَهم فيه، بقَولِه: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [الدخان: ١٣، ١٤]، وهدَّدَهم بقَولِه: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان: ١٦]، وضَرَب لهم مَثَلَ قَومِ فِرعَونَ، ومَجيءِ رَسولٍ كَريمٍ إليهم، وقَصْدِهم إيَّاه، وتَدميرِ اللهِ وقَطْعِ دابِرِهم؛ اعتِبارًا واتِّعاظًا- أتى بما هو أَطَمُّ مِن الأوَّلِ، وهو تَكذيبُ اللهِ بأنْ لا بَعْثَ ولا حَشْرَ، وأنَّ اللهَ تعالَى ما خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ بالحَقِّ، بلْ خَلَقَهما باطلًا! لأنَّه سَبَق مِرارًا وأطوارًا أنَّه تعالى ما خَلَق السَّمواتِ والأرضَ إلَّا لِيُوَحَّدَ ويُعبَدَ، ثمَّ لا بُدَّ أن يَجزِيَ المُطيعَ والعاصِيَ، وليست هذه دارَ الجَزاءِ[(١)].

وأيضًا فإنَّها رُجوعٌ إلى ذِكرِ كُفَّارِ مَكَّةَ؛ وذلك لأنَّ الكلامَ فيهم، حيثُ قال: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ [الدخان: ٩]، أي: بَلْ هم في شَكٍّ مِن البَعثِ والقيامةِ، ثمَّ بَيَّنَ كيفيَّةَ إصرارِهم على كُفْرِهم، ثمَّ بَيَّنَ أنَّ قَومَ فِرعَونَ كانوا في الإصرارِ على الكُفرِ مثلَهم، ثمَّ بَيَّنَ أنَّه كيف أهلَكَهم، وكيف أنعَمَ على بني إسرائيلَ، ثمَّ رَجَع إلى الحديثِ الأوَّلِ، وهو كَونُ كُفَّارِ مَكَّةَ مُنكِرينَ للبَعثِ؛ فقال[(٢)]:

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

أي: إنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ لَيَقولونَ مُنكِرينَ للبَعثِ[(٣)]:

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦١، ٦٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤). =

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

أي: ما هي إلَّا مَوتَتُنا الَّتي نَموتُها في الدُّنيا، ولا حياةَ بعدَها[1].

= قال ابنُ عاشور: (كَلِمةُ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ حيثُما ذُكِرَ في القُرآنِ غيرَ مَسبوقٍ بما يَصلُحُ أن يُشارَ إليه: مُرادٌ به المُشرِكونَ مِن أهلِ مكَّةَ، كما استَنْبَطْناه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعاني، والبغوي، وابنُ الجوزي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠).

قال البيضاوي: (﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ما العاقِبةُ ونِهايةُ الأمرِ إلَّا المَوتةُ الأُولى المُزيلةُ للحَياةِ الدُّنيويَّةِ، ولا قَصْدَ فيه إلى إثباتِ ثانيةٍ، كما في قَولِك: حَجَّ زَيدٌ الحَجَّةَ الأُولى، ومات). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٢٤).

وقال الواحدي: (﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ما المَوتةُ إلَّا مَوتةٌ نَموتُها في الدُّنيا، ثمَّ لا بَعْثَ بَعْدَها). ((الوسيط)) (٤/ ٩٠).

وقال ابنُ عاشور: (وضَميرُ ﴿هِيَ﴾ ضَميرُ الشَّأنِ، ويُقالُ له: ضَميرُ القِصَّةِ؛ لأنَّه يُستعمَلُ بصِيغةِ المؤنَّثِ بتأويلِ القِصَّةِ، أي: لا قِصَّةَ في هذا الغَرَضِ إلَّا المَوتةُ المعروفةُ؛ فهي مَوتةٌ دائمةٌ لا نُشورَ لنا بَعْدَها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٧).

وقيل: المعنى: أنَّه قيل لهم: إنَّكم تَموتونَ مَوتةً تَعقُبُها حياةٌ، كما تَقدَّمَتْكم مَوتةٌ قد تعَقَّبَتْها حَياةٌ، وذلك قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، فقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾، يُريدونَ: ما المَوتةُ الَّتي مِن شَأْنِها أن يَتعَقَّبَها حياةٌ إلَّا المَوتةُ الأُولى دونَ المَوتةِ الثَّانيةِ، وما هذه الصِّفةُ الَّتي تَصِفونَ بها الموتةَ مِن تعَقُّبِ الحياةِ لها إلَّا لِلْمَوتةِ الأُولى خاصَّةً، فلا فَرْقَ إذَنْ بَيْنَ هذا وبيْنَ قَولِهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ في المعنى. وهذا =

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾.

أي: وما نحن بمَبعوثينَ[(١)].

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: فأْتُوا بآبائِنا الَّذين ماتوا مِن قَبْلُ، فلْيَرجِعوا إلى الدُّنيا أحياءً بعدَ مَوتِهم إنْ كُنتُم حَقًّا صادِقينَ في أنَّ اللهَ يَبعَثُنا بعدَ مَوتِنا[(٢)]!

= القَولُ هو قَولُ الزَّمخشري، وذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: النَّيْسابوري، والبِقاعي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٨).

قال النيسابوري: (ذلك أنَّ النِّزاعَ إنَّما وَقَع في مَوتةٍ تَعقُبُها حياةٌ، فأنكَروا أن تكونَ مَوتةٌ بهذا الوَصفِ إلَّا الموتةَ الأُولى، وهو حالَ كَونِهم نُطَفًا). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٠٥).

وقال البِقاعي: (قالوا: ما ﴿هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا﴾ على حَذْفِ مُضافٍ، أي: ما الحَياةُ إلَّا حياةُ مَوتَتِنا ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: الَّتي كانت قبْلَ نَفخِ الرُّوحِ ... وعَبَّروا عنها بالمَوتةِ؛ إشارةً إلى أنَّ الحياةَ في جَنْبِ الموتِ المؤبَّدِ -على زَعْمِهم- أمرٌ مُتلاشٍ لا نِسبةَ لها منه). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٥).

وقال ابنُ المُنَيِّر: (الموتُ السَّابِقُ على الحياةِ الدُّنيا لا يُعَبَّرُ عنه بالمَوتةِ؛ فإنَّ المَوتةَ فَعْلةٌ فيها إشعارٌ بالتَّجَدُّدِ والطَّرَيانِ. والموتُ السَّابِقُ على الحياةِ الدُّنيا أمرٌ مُستصحَبٌ لم تتقَدَّمْه حياةٌ طَرَأَ عليها هذا). ((حاشية ابن المنيِّر على تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٩).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨).

قيل: الخِطابُ هنا للنَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وخُوطِبَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو وَحْدَه خِطابَ الجَمعِ على غِرارِ قَولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] و ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]. وممَّن قال بذلك: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والسمرقندي، والثعالبي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٢٠٠).

وقيل: هو خِطابٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولأتْباعِه مِن المؤمِنينَ. وممَّن قال بهذا المعنى: مكِّي، =

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٥، ٢٦].

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعْدَ أنْ ضَرَب لهمُ المَثَلَ بمَهلِكِ قَومِ فِرعَونَ؛ زادهم مَثَلًا آخَرَ هو أقرَبُ إلى اعتِبارِهم به، وهو مَهلِكُ قَومٍ أقرَبَ إلى بِلادِهم مِن قَومِ فِرعَونَ، وأُولَئِكَ قَومُ تُبَّعٍ؛ فإنَّ العَرَب يَتَسامَعونَ بعَظَمةِ مُلْكِ تُبَّعٍ وقَومِه أهلِ اليَمَنِ، وكَثيرٌ مِن العَرَبِ شَاهَدوا آثارَ قُوَّتِهم وعَظَمَتِهم في مَراحِلِ أسفارِهم[1].

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: أمُشرِكو قُرَيشٍ خَيرٌ[2].....

= والزمخشري، والنَّسَفي، وابن جُزَي، وأبو حيَّان، وأبو السعود، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨).

وقال ابنُ عطية: (وقَولُ قُرَيشٍ: ﴿فَأْتُواْ﴾ مُخاطَبةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إلَّا أنَّه مِن حيثُ كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُسنِدًا في أقوالِه وأفعالِه إلى اللهِ تعالى وبواسِطةِ مَلَكٍ، خاطَبوه كما تخُاطَبُ الجَماعةُ، وهم يُريدونَه ورَبَّه ومَلائكتَه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٥).

وقال ابن عاشور: (جَعَلوا قَولَهم: ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ حُجَّةً على نَفيِ البَعثِ بأنَّ الأمواتَ السَّابِقينَ لم يَرجِعْ أحدٌ منهم إلى الحَياةِ، وهو سَفْسَطةٌ؛ لأنَّ البَعثَ المَوعودَ به لا يَحصُلُ في الحَياةِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨).

(٢) قال القرطبي: (قيل: المعنى: أهُمْ أظهَرُ نِعمةً وأكثَرُ أموالًا أمْ قَومُ تُبَّعٍ؟! وقيل: أهُمْ أعَزُّ =

أمْ قَومُ تُبَّعٍ مَلِكِ اليَمَنِ[١] والَّذين مِن قَبْلِهم مِن الْأُمَمِ الكافِرةِ كعادٍ وثَمودَ[٢]؟!

كما قال الله تعالى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٤٣].

وعن عائشةَ رَضيَ الله عنها أنَّها قالت: (كان تُبَّعٌ رجُلًا صالحًا، ألَا ترَى أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذمَّ قَومَه، ولم يَذُمَّه؟)[٣].

= وأشَدُّ وأمنَعُ أم قَومُ تُبَّعٍ؟!). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤).

(١) ذهب عددٌ مِن المفَسِّرين إلى أنَّ تُبَّعًا لَقَبٌ لملوكِ اليَمَنِ، وقيل لِمَن مَلَك منهم سبأً وحِمْيَرَ وحَضْرَمَوتَ، كما أنَّ كِسْرى لَقَبٌ لِمَن مَلَك فارِسَ، وقَيْصَرَ لَقَبٌ لِمَن مَلَك الرُّومَ، وذهبوا إلى أنَّ المرادَ به هنا مَلِكٌ واحِدٌ بعَيْنِه كان قد آمَنَ باللهِ تعالى؛ فذَمَّ اللهُ تعالى قَومَه ولم يَذُمَّه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٩، ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦-٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٩).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّه كان مُؤمِنًا صالحًا: عائشةُ، وكعبُ الأحبارِ، وابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤١٥).

قال أبو عُبَيدةَ: (مُلوكُ اليمَنِ كان كُلُّ واحدٍ مِنهم يُسَمَّى تُبَّعًا؛ لأنَّه يَتْبَعُ صاحِبَه، وكذلك الظِّلُّ؛ لأنَّه يَتْبَعُ الشَّمسَ، ومَوضِعُ تُبَّعٍ في الجاهليَّةِ مَوضِعُ الخليفةِ في الإسلامِ، وهم مُلوكُ العَرَبِ الأعاظِمُ). ((مجاز القرآن)) (٢/ ٢٠٩).

وخصَّ بعضُ المفَسِّرينَ قَومَ تُبَّعٍ هنا بقَومِ سَبَأٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩، ٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١١٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦-٢٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٩).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في ((تفسيره)) (٢٨١٩)، ومن طريقه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٤٨٨) واللَّفظُ له.

قال الحاكم: (صحيحٌ على شرطِ الشَّيخَينِ)، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٥/ ٥٤٩): (وهو كما قالا)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((المسند)) (٣٧/ ٥٢٠): (رجالُه ثقاتٌ رجالُ الشَّيخَينِ).

﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾.

أي: مع أنَّهم خَيرٌ منهم أهلَكْناهم؛ لأنَّهم كانوا مُتَّصِفينَ بالإجرامِ، فلا يمتَنِعُ أن نُهلِكَ كُفَّارَ قُرَيشٍ وهم دُونَهم، كما أُهلِكَ مَنْ قَبْلَهم[1]!

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أنكَرَ اللهُ تعالى على كُفَّارِ مكَّةَ قَولَهم، ووصَفَهم بأنَّهم أضعَفُ مِمَّن كان قَبْلَهم؛ ذكَرَ الدَّليلَ القاطِعَ على صِحَّةِ القَولِ بالبَعثِ والقيامةِ، فقال تعالى[2]:

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨﴾.

أي: وما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ لَعِبًا بلا مَعنًى ولا فائِدةٍ[3]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨، ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠).

قال الرازي: (لو لم يَحصُلِ البَعثُ لَكان هذا الخَلقُ لَعِبًا وعَبَثًا). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٢).

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا نفى اللهُ تعالى أن يكونَ خَلَق ذلك لِلَّعِبِ الَّذي هو باطِلٌ، أثبَتَ ما خلَقَه له[1]، فقال تعالى:

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: ما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما إلَّا بالعَدلِ والحِكمةِ، ومِن أجْلِ إقامةِ الحَقِّ بعِبادتِه وَحْدَه لا شَريكَ له؛ فيُمتَحَنُ العبادُ بذلك أمرًا ونَهيًا، ثم يُجازَونَ عليه بعد بَعْثِهم ثَوابًا أو عِقابًا[2].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ المُشرِكينَ باللهِ لا يَعلَمونَ أنَّ اللهَ خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ بالحَقِّ، وأنَّه لا بُدَّ مِن بَعثِ العِبادِ ومُجازاتِهم على أعمالِهم يومَ القيامةِ؛ فهم لا يَخافونَ عُقوبةً على ما يأتونَه مِن سَخَطِ اللهِ، ولا يَرجُونَ ثَوابًا على خَيرٍ فَعَلوه؛

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠، ٣١١).

قال ابن القيِّم: (اتَّفَق المفَسِّرون على أنَّ الحَقَّ الَّذي خُلِقت به السَّمَواتُ والأرضُ هو الأمرُ والنَّهيُ، وما يَترتَّبُ عليهما مِنَ الثَّوابِ والعِقابِ). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٢٠١).

لِتكذيبِهم بالمعادِ إلى اللهِ تعالى[١].

كما قال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى حِكايةً عن المُشرِكينَ: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾، ورُبَّما توهَّمَ جاهِلٌ أنَّهم لم يُجابوا عمَّا سَألوا! وليس كذلك؛ فإنَّ الَّذي سألوا لا يَصلُحُ أن يكونَ دَليلًا على البَعثِ؛ لأنَّهم لو أُجيبوا إلى ما سألوا لم يكُنْ ذلك حُجَّةً على مَن تقَدَّمَ، ولا على مَن تأخَّرَ، ولم يَزِدْ على أن يكونَ لِمَن تقَدَّمَ وَعدًا، ولِمَن تأخَّرَ خَبَرًا، اللَّهُمَّ إلَّا أن يجيءَ لكُلِّ واحِدٍ أبوه، فتَصيرَ هذه الدَّارُ دارَ البَعثِ! ثمَّ لو جاز وُقوعُ مِثلِ هذه كان إحياءُ مَلِكٍ يُضرَبُ به الأمثالُ أَوْلى، كـ(تُبَّعٍ)، لا أنتم يا أهلَ مَكَّةَ؛ فإنَّكم لا تُعرَفونَ في بِقاعِ الأرضِ[٢]!

٢- قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ تَعليقُ الإهلاكِ بقَومِ تُبَّعٍ دُونَه يَقتَضي أنَّ تُبَّعًا نجا مِن هذا الإهلاكِ، وأنَّ الإهلاكَ سُلِّطَ على قَومِه[٣].

٣- أفعالُ اللهِ تعالى مُحكَمةٌ واقِعةٌ لغَرَضٍ ومَصلحةٍ؛ وإلَّا لَكان -سُبحانَه وتعالى- عابثًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[٤]!

٤- قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦١).

(٢) هذه فائدةٌ مِن الوزيرِ ابنِ هُبَيْرَةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيميَّة (٢/ ٩٨).

إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ لو لم يَكُن بَعثٌ وجَزاءٌ لَكَان خَلقُ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما عَبَثًا، ونَحنُ خَلَقْنا ذلك كُلَّه بالحَقِّ، أي: بالحِكمةِ؛ كما دلَّ عليه إتقانُ نِظامِ المَوجُوداتِ؛ فلا جَرَمَ اقتَضَى خَلْقُ ذلك أنْ يُجازَى كلُّ فاعِلٍ على فِعلِه، وألَّا يُضاعَ ذلك، ولَمَّا كان المُشاهَدُ أنَّ كَثيرًا مِن النَّاسِ يَقضِي حَياتَه ولا يَرَى لِنَفْسِه جَزاءً على أعمالِه، تَعيَّنَ أنَّ اللهَ أخَّرَ جَزاءَهُم إلى حَياةٍ أُخرى، وإلَّا لَكان خَلْقُهم في بَعضِ أَحوالِه مِن قَبيلِ اللَّعِبِ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ۝ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ للحَديثِ عن قُرَيشٍ بعْدَ استِطرادِ حَديثِ بَني إسرائيلَ[2]. وقيل: إنَّ الكَلامَ اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦] وجُملةِ ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ [الدخان: ٣٧]؛ فإنَّه لَمَّا هَدَّدَهم بعَذابِ الدُّخَانِ ثمَّ بالبَطْشةِ الكُبرَى، وضَرَبَ لهم المَثَلَ بقَومِ فِرعونَ؛ أَعقَبَ ذلك بالإشارةِ إلى أنَّ إنكارَ البَعثِ هو الَّذي صَرَفهم عن تَوَقُّعِ جَزاءِ السُّوءِ على إعراضِهِم.

وافتِتاحُ الكَلامِ بحَرفِ (إنَّ) الَّذي ليس هو للتَّأكيدِ؛ لأنَّ نِسبةَ هذا القَولِ إلى المُشرِكين لا تَرَدُّدَ فيه حتَّى يَحتاجَ إلى التَّأكيدِ، فتَعَيَّنَ كَونُ حَرفِ (إنَّ) لِمُجرَّدِ الاهتِمامِ بالخَبَرِ، وهو إذا وَقَعَ مِثلَ هذا المَوقِعِ أفادَ التَّسَبُّبَ، وأغنَى عن الفاءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٦، ٣٠٧).

- و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كُفَّارَ قُرَيشٍ، وفي اسمِ الإشارةِ تَحقيرٌ لهم، وازدِراءٌ بهم؛ ولِهَذا قال: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾[1] [الدخان: ٣٧].

- قولُه: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ هذا كلامٌ مِن كَلِماتِهم في إنكارِ البَعثِ، وفيه قَصرٌ، وهذا القَصرُ قَصرٌ حَقيقيٌّ[2] في اعتِقادِهم؛ لأنَّهُم لا يُؤمِنون باعتِراءِ أحوالٍ لهم بعْدَ المَوتِ؛ فأَنكَروا أنْ يَكونَ لَهُم مَوتةٌ ثانيةٌ، والمَعنَى: ما آخِرُ أمْرِنا ومُنتَهَى وُجودِنا إلَّا عِندَ مَوتَتِنا[3].

- وأعْقَبوا قصْرَ ما يَنتابُهم بعْدَ الحياةِ على المَوتةِ التي يَموتونَها بقولِهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾ تَصريحًا بمَفهومِ القَصرِ، وجيءَ به مَعطوفًا للاهتِمامِ به؛ لأنَّه غَرَضٌ مَقصودٌ مع إفادَتِه تَأكيدَ القَصرِ[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ استِئنافٌ ناشِئٌ عن قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [الدخان: ١٧]؛ فضَميرُ (هم) راجِعٌ إلى اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾[5] [الدخان: ٣٤، ٣٥].

- والهَمزةُ في قولِه: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ للاستِفهامِ الإنكارِيِّ[6]. وهو أيضًا استِفهامٌ تَقريريٌّ؛ إذ لا يَسَعُهم إلَّا أنْ يَعتَرِفوا بأنَّ قَومَ تُبَّعٍ والَّذين مِن قَبلِهِم خَيرٌ منهم؛ لأنَّهم كانوا يَضرِبون بهم الأمثالَ في القُوَّةِ والمَنَعةِ. وافتُتِحَ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٥).
(٢) تقدَّم تعريفه (ص: ١٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٧، ٣٠٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨).
(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣١).

الكَلامُ بالاستِفهامِ التَّقريريِّ؛ لاستِرعاءِ الأسماعِ لِمَضمونِه؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يَعلَمُ أنَّ تُبَّعًا ومَن قَبْلَه مِن المُلوكِ خَيرٌ مِن هَؤُلاءِ المُشرِكين(١).

- وجُملةُ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا لِمَا أَثارَه الاستِفهامُ التَّقريريُّ مِن السُّؤالِ عن إبهامِه: ماذا أُرِيدَ به(٢)؟

- وقولُه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ بَيانٌ للجامِعِ المُقتَضِي للإهلاكِ، وتَعليلٌ لِإهلاكِهِم. وفي ذلك وَعيدٌ لِقُريشٍ، وتَهديدٌ أنْ يُفعَلَ بهمْ ما فُعِلَ بقَومِ تُبَّعٍ ومَن قَبْلَهم مِن مُكذِّبي الرُّسلِ لإجْرامِهم(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّدليلِ على صِحَّةِ الحَشرِ ووُقوعِه وتَقريرِه؛ لأنَّا ما خَلَقْنا السَّمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما للعَبَثِ -جلَّ جنابُ الجَلالِ عن ذلك- بلْ بالحَقِّ، وهو أنِ اعبُدُوا ووَحِّدوا، ولا بُدَّ لِمَن عَبَدَ ووَحَّدَ ولِمَن أعرَضَ وأشرَكَ مِن الثَّوابِ والعِقابِ؛ فكَيفَ يقال: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾(٤)؟!

أو عَطفٌ على جُملَةِ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٤، ٣٥]؛ ردًّا عليهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠).

- وقولُه: ﴿لَٰعِبِينَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿خَلَقْنَا﴾، والنَّفيُ مُتَوَجِّهٌ إلى هذا الحالِ؛ فاقتَضَى نَفْيَ أنْ يَكُونَ شَيءٌ مِن خَلقِ ذلك في حالَةِ عَبَثٍ؛ فمِن ذلك حالةُ إهمالِ الجَزاءِ[١].

- وذِكرُ اللَّعبِ تَوبيخٌ لِلَّذين أحالُوا البَعْثَ والجَزاءَ؛ بأنَّهُم اعتَقَدوا ما يُفضِي بهم إلى جَعْلِ أفعالِ الحَكيمِ لَعِبًا[٢].

- والباءُ في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للمُلابَسةِ، أي: خَلَقْنا ذلك مُلابِسًا ومُقارِنًا للحَقِّ، أو الباءُ للسَّبَبيَّةِ، أي: بسَبَبِ الحَقِّ، أي: لإيجادِ الحَقِّ مِن خَلْقِهما[٣].

- وجُملةُ الاستِدراكِ في قَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَذييلٌ وتَجهيلٌ عَظيمٌ لمُنكِري الحَشرِ وتَوكيدٌ؛ لأنَّ إنكارَهُم يُؤَدِّي إلى إبطالِ الكائِناتِ بأَسْرِها، والاستِدراكُ ناشئٌ عمَّا أفادَهُ نَفْيُ أنْ يَكونَ خَلقُ المَخلوقاتِ لَعِبًا، وإثباتُ أنَّه للحقِّ لا غَيرُ؛ مِن كَونِ شَأنِ ذلك ألَّا يَخفَى، ولَكِنَّ جَهْلَ المُشرِكين هو الَّذي سَوَّلَ لهم أنْ يَقولوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾[٤] [الدخان: ٣٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١١).

الآيات (٤٠-٥٠)

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾: أي: يومَ القيامةِ، وسُمِّيَ يومَ الفَصلِ؛ لأنَّه يومٌ يُفصَلُ فيه بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، والظَّالمِ والمظلومِ؛ بأن يَحكُمَ اللهُ بيْنَ عِبادِه، فيَفصِلَ بيْنَهم بالعدلِ مِن قَضائِه، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه[1].

﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾: أي: وَقْتٌ يَجتمِعون فيه، والمِيقاتُ: الوقتُ المضروبُ للشَّيءِ، والوعدُ الَّذي جُعِل له وَقْتٌ، وأصلُ (وقت): يدُلُّ على حدِّ شَيءٍ وكُنْهِه، في زمانٍ وغيرِه[2].

﴿مَوْلًى﴾: المَوْلى: الوَلِيُّ القَريبُ، والحَليفُ والنَّاصِرُ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على القُرْبِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٨) و(٢١/ ٥١، ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، =

﴿ٱلزَّقُّومِ﴾: هو ثَمَرُ شَجَرةٍ خَبيثةٍ مُرَّةٍ، كَريهةِ الطَّعمِ، يُكرَهُ أهلُ النَّارِ على تَناوُلِه، فهم يتزَقَّمونَه على أشَدِّ كراهيةٍ، ومنه قَولُهم: تَزقَّمَ الطَّعامَ: إذا تَناوَلَه على كُرهٍ ومَشقَّةٍ شَديدةٍ(١).

﴿ٱلْأَثِيمِ﴾: أي: الآثِمِ الفاجِرِ، المُتمادي في الكُفرِ، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، والإثمُ مُشتَقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ الآثِمَ بَطيءٌ عن الخَيرِ، مُتأخِّرٌ عنه(٢).

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: المُهلُ: نَوعٌ مِن القَطِرانِ شَبيهٌ بعَكَرِ الزَّيتِ قد انتهى حَرُّه، أو: ما أُذيبَ مِن الذَّهَبِ والفِضَّةِ والنُّحاسِ والرَّصاصِ، وأصلُ (مهل) هنا: يدُلُّ على جِنسٍ مِن الذَّائباتِ(٣).

﴿ٱلْحَمِيمِ﴾: أي: الماءِ الشَّديدِ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم): يدُلُّ على الحَرارةِ(٤).

﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾: أي: ادفَعوه، وسُوقوه بشِدَّةٍ، يُقالُ: عَتَله يَعتِلُه عَتْلًا: إذا ساقه بالعُنفِ والدَّفعِ والجَذْبِ، والعَتْلُ: الدَّفعُ، والإرهاقُ بالسَّوقِ العَنيفِ، وأصلُ (عتل): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ(٥).

= ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٩/ ٦٠))، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٣)، =

﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: وَسَطِ جَهنَّمَ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ، واعتِدالٍ بيْنَ شَيئَينِ[(١)].

﴿تَمْتَرُونَ﴾: أي: تَشُكُّون وتُجادِلونَ، والمِرْيةُ: التَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهي أخَصُّ مِن الشَّكِّ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ اللهُ تعالى عن يومِ القيامةِ، فيقولُ: إنَّ يومَ القيامةِ هو الوَقتُ المُحَدَّدُ للفَصلِ بيْنَ الخَلائِقِ أجمَعينَ، يومَ لا يُغْني مَولًى بقَرابةٍ أو غَيرِها عن مَولًى شَيئًا، ولا هم يُمنَعونَ مِن عَذابِ اللهِ إلَّا مَن رَحِمَه اللهُ تعالى مِن المومنينَ؛ إنَّه هو العزيزُ الرَّحيمُ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه طعامَ أهلِ النَّارِ وحالَهم يومَ القيامةِ، فيقولُ: إنَّ شَجَرةَ الزَّقُّومِ في النَّارِ هي طَعامُ الكافِرِ الفاجِرِ، كالسَّائلِ المُنتِنِ الغَليظِ الأسوَدِ شديدِ الحرارةِ، يَغلي في بطونهم كغَلْيِ الماءِ البالِغِ نهايةَ الحَرارةِ. ويُقالُ يومَ القيامةِ لملائِكةِ العذابِ: خُذوا هذا الكافِرَ فجُرُّوه بغِلظةٍ وسُوقُوه بشِدَّةٍ إلى وَسَطِ النَّارِ، ثمَّ صُبُّوا على رأسِه مِن الماءِ الشَّديدِ الحرارةِ، ثمَّ يُقالُ له تهكُّمًا به: ذُقْ هذا العَذابَ؛ إنَّك كنتَ في الدُّنيا تَزعُمُ أنَّك أنت العَزيزُ الكريمُ، فإنَّك اليَومَ لَدَيْنا ذليلٌ مَهينٌ!

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٣٦)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٩/ ٤٢٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

إنَّ هذا العذابَ الَّذي نَزَل بكم -أيُّها الكافِرونَ- هو ما كنتُم بشَأنِه تُجادِلونَ وتُخاصِمونَ في الدُّنيا، وتَشُكُّونَ فيه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المقصودَ مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨] إثباتُ القَولِ بالبَعثِ والقيامةِ؛ فلا جَرَمَ ذَكَرَ عَقِيبَه قَولَه[1]:

﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٠﴾.

أي: إنَّ يومَ القيامةِ هو الوَقتُ المحدَّدُ للخَلقِ أجمعينَ أوَّلِهم وآخِرِهم، فيُفصَلُ فيه بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، ويُفصَلُ فيه بيْنَ الخَلائِقِ؛ فيُعاقَبُ المُسيئونَ، ويُثابُ المحسِنونَ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ [النبأ: ١٧].

﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى هذا اليومَ الَّذي دلَّ على عَظَمتِه بتلكَ العِبارةِ؛ ذكَرَ مِن وَصْفِه ما يَحمِلُ على الخَوفِ والرَّجاءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠، ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١).

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾.

أي: يومَ لا يَنفَعُ قريبٌ قريبَه، ولا صاحِبٌ صاحبَه، ولا يَدفَعُ عنه شيئًا مِن عقوبةِ اللهِ الَّتي حَلَّتْ به[1].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [سبأ: ٤٢].

وقال جلَّ ثناؤُه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٩].

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

أي: ولا هم يُمنَعونَ مِن عذابِ اللهِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾.

أي: إلَّا مَن رَحِمَه اللهُ مِن عِبادِه المُؤمِنينَ؛ فإنَّه يَشفَعُ بَعضُهم لبَعضٍ بإذنِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

قال ابن عطيَّة: (المَولَى في هذه الآيةِ يَعُمُّ جميعَ الموالي: مِنَ القَراباتِ، وموالي العِتقِ، وموالي الصَّداقةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

تعالى[(١)].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو المتَّصِفُ بالعِزَّةِ البالِغةِ، ومِن ذلك قَهرُه وانتِقامُه مِن الكافِرينَ؛

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٣).

اختُلِف في الاستثناءِ في هذه الآيةِ؛ فقيل: الاستِثناءُ مُتَّصِلٌ. وممَّن اختاره: أبو البقاءِ العُكْبَريُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ جلالِ الدِّينِ المحلِّي، واختاره ابنُ عاشور. يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٤٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٣). ويُنظر أيضًا: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢٢)، ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ١٠٩).

قال ابن عاشور: (الاستِثناءُ بقَولِه: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ وقَعَ عَقِبَ جُملتَيْ ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾؛ فحُقَّ بأن يَرجِعَ إلى ما يَصلُحُ للاستِثناءِ منه في تَيْنِك الجُملتَينِ؛ لنا في الجملتَينِ ثلاثةُ ألفاظٍ تَصلُحُ لأنْ يُستثنى منها، وهي: ﴿مَوۡلًى﴾ الأوَّلُ المرفوعُ بفِعلِ ﴿يُغۡنِي﴾، و﴿مَوۡلًى﴾ الثَّاني المجرورُ بحَرفِ ﴿عَن﴾، وضَميرُ ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾، فالاستِثناءُ بالنِّسبةِ إلى الثَّلاثةِ استِثناءٌ مُتَّصِلٌ، أي: إلَّا مَن رَحِمَه اللهُ مِن الموالي، أي: فإنَّه يَأذَنُ أن يُشفَعَ فيه، ويأذَنُ للشَّافِعِ بأن يَشفَعَ... والشَّفاعةُ: إغناءٌ عن المشفوعِ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٣).

وقيل: الاستِثناءُ مُنقطِعٌ، بمعنى: لكنْ. وممَّن اختاره: الكِسائيُّ -كما نسبَه إليه النَّحاسُ-، والفَرَّاءُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٨٨). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٢٧).

قال السَّمينُ الحلبيُّ: (قولُه: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ يجوزُ فيه أربعةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها -وهو قولُ الكِسائيِّ-: أنَّه مُنقطِعٌ. الثَّاني: أنَّه مُتَّصِلٌ، تقديرُه: لا يُغْني قريبٌ عن قريبٍ إلَّا المؤمنينَ؛ فإنَّهم يُؤْذَنُ لهم في الشَّفاعةِ، فيشفَعون في بعضِهم. الثَّالثُ: أن يكونَ مرفوعًا على البَدَليَّةِ مِن ﴿مَوۡلًى﴾ الأوَّلِ، ويكونَ ﴿يُغۡنِي﴾ بمعنى يَنفَعُ، قاله الحَوْفيُّ. الرَّابعُ: أنَّه مرفوعُ المحلِّ أيضًا على البدَلِ مِن واوِ ﴿يُنصَرُونَ﴾، أي: لا يمنعُ مِن العذابِ إلَّا مَن رَحِمَه اللهُ). ((الدر المصون)) (٩/ ٦٢٧).

المتَّصِفُ بالرَّحمةِ البالِغةِ، ومِن ذلك رَحمتُه بالمُؤمِنينَ[١].

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أقام الدَّلالةَ على أنَّ القَولَ بالقيامةِ حَقٌّ، ثمَّ أردَفَه بوَصفِ ذلك اليَومِ؛ ذَكَر عَقِيبَه وَعيدَ الكُفَّارِ، ثمَّ بَعْدَه وَعْدَ الأبرارِ[٢].

وأيضًا لَمَّا كان السِّياقُ للانتِقامِ؛ أخبَرَ عن حالِ الفُجَّارِ على سَبيلِ الاستِئنافِ، فقال مُؤَكِّدًا لِمَا يُكَذِّبونَ به[٣]:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: إنَّ شَجَرةَ الزَّقُّومِ هي طَعامُ المُبالِغِ في اكتِسابِ الآثامِ مِن الكُفَّارِ والفُجَّارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٩).

قال ابن عاشور: (أي: أنَّ اللهَ عزيزٌ لا يُكرِهُه أحَدٌ على العُدولِ عن مُرادِه، فهو يَرحَمُ مَن يَرحَمُه بمَحضِ مَشيئتِه، وهو رَحيمٌ، أي: واسِعُ الرَّحمةِ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، على وَفْقِ ما جرى به عِلمُه وحِكمتُه ووَعدُه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢، ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٤).

قال السمعاني: (﴿ٱلْأَثِيمِ﴾... هو أبو جَهلٍ في قولِ أكثرِ المفسِّرينَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٠).

وقال ابن كثير: (و﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ أي: في قولِه وفعلِه، وهو الكافرُ. وذَكَر غيرُ واحدٍ أنَّه أبو جهلٍ، ولا شكَّ في دخولِه في هذه الآيةِ، ولكن ليست خاصَّةً به). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٠).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٤ - ٦٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٦].

﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: ذلك الطَّعامُ يكونُ كالسَّائلِ المُنتِنِ الغَليظِ الأسوَدِ الَّذي بلغ الغايةَ في الحَرارةِ، يَغلي في بُطونِ آكِليه(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤، ٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٣١).

قال ابن عطيَّة: (قال ابنُ عبَّاسٍ وابنُ عُمَرَ رضيَ الله عنهما: «المُهلُ»: دُرْدِيُّ الزَّيتِ وعَكَرُه. وقال ابنُ مسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ أيضًا: «المُهلُ» ما ذاب مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ أو حديدٍ أو رَصاصٍ ونَحوِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٦).

وقيل في معنى المُهْلِ أيضًا: إنَّه قَيحٌ ودمٌ أسْوَدُ كعَكَرِ الزَّيتِ. وقيل: إنَّه الَّذي قد انتهى حَرُّه. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨١).

ممَّن اختار أنَّ المُهْلَ هو دُرْدِيُّ الزَّيتِ (أي عَكَرُه في قعرِه): مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمْعانيُّ، والبغوي، والزمخشري، والنسفي، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: ما يُمهلُ في النَّارِ حتَّى يَذوبَ مِن الرَّصاصِ أو الفضَّةِ أو الصُّفْرِ (النُّحاسِ الأصفرِ): السمرقندي، ومكِّي، والبيضاوي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣).

قال ابن جرير: (وهذه الأقوالُ وإن اختَلَفَتْ بها ألفاظُ قائليها، فمُتَقارِباتُ المعنَى؛ وذلك أنَّ =

﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: كغَلَيانِ الماءِ الَّذي تناهَت حَرارتُه[١]!

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: يُقالُ يومَ القيامةِ لملائِكةِ العَذابِ: خُذوا هذا الكافِرَ فسُوقوه واسحَبوه بعُنفٍ وغِلظةٍ ومَهانةٍ إلى وَسَطِ النَّارِ الَّتي في غايةِ الاضطِرامِ والتَّوقُّدِ[٢]!

﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: ثمَّ صُبُّوا على رأسِه مِن الماءِ البالِغِ الغايةَ في شِدَّةِ حَرارتِه، فيَعُمُّ العَذابُ جَميعَ بَدَنِه[٣]!

كما قال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

= كُلَّ ما أُذيبَ مِن رَصاصٍ أو ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ فقد انتهَى حَرُّه، وأنَّ ما أُوقِدَتْ عليه مِن ذلك النَّارُ حتَّى صارَ كدُرْدِيِّ الزَّيتِ، فقد انتهَى أيضًا حَرُّه). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٠).

وقال ابن كثير: (وهذه الأقوالُ ليس شَيءٌ منها يَنْفي الآخَرَ؛ فإنَّ المُهْلَ يجمعُ هذه الأوصافَ الرَّذيلةَ كُلَّها، فهو أسْوَدُ مُنْتِنٌ غليظٌ حارٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤).

وقال ابن عطيَّة: (والمعنى أنَّ هذه الشَّجرةَ إذا طَعِمَها الكافِرُ في جهنَّمَ صارت في جَوفِه تفعَلُ كما يَفعَلُ المُهْلُ السُّخْنُ، مِن الإحراقِ والإفسادِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٢٣).

أي يُقالُ له تهكُّمًا به: ذُقْ هذا العَذابَ؛ إنَّك كُنتَ في الدُّنيا العزيزَ في قَومِك، الكريمَ عليهم في زَعمِك، فإنَّك اليَومَ لَدَيْنا ذَليلٌ مَهينٌ(١)!

قال تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾.

أي: إنَّ هذا هو العَذابُ الَّذي كنتُم في الدُّنيا تَشُكُّونَ فيه، وتُجادِلونَ في وُقوعِه؛ فذُوقوه فقد عَلِمتُم الآنَ حقيقتَه يَقينًا(٢)!

كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٤، ١٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ يُتوهَّمُ مِن ظاهِرِها ثُبوتُ العِزَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠، ٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (لفظُ الذَّوقِ يُستعمَلُ في كُلِّ ما يُحِسُّ به [الإنسانُ]، ويجِدُ ألَمَه أو لَذَّتَه، فدعوَى المدَّعي اختِصاصَ لَفظِ الذَّوقِ بما يكونُ بالفَمِ تحَكُّمٌ منه، لكِنَّ ذاك مُقَيَّدٌ، فيُقالُ: ذُقتُ الطَّعامَ، وذُقتُ هذا الشَّرابَ؛ فيَكونُ معه مِن القيودِ ما يدُلُّ على أنَّه ذوقٌ بالفَمِ، وإذا كان الذَّوقُ مُستعمَلًا فيما يُحِسُّه الإنسانُ بباطِنِه أو بظاهِرِه حتَّى الماءُ الحَميمُ يُقالُ: ذاقه؛ فالشَّرابُ إذا كان باردًا أو حارًّا يقالُ: ذُقتُ حَرَّه وبَرْدَه). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١١٠). ويُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيميَّة (٥/ ٢٨٦)، ((الدر المصون)) للسمين (٤/ ٦٧٢).

وقال ابن عاشور: (جملةُ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ مَقولُ قَولٍ آخَرَ محذوفٍ، تقديرُه: قولوا له، أو يُقالُ له). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦).

والكَرَم لأهلِ النَّارِ، مع أنَّ الآياتِ القُرآنيَّةَ مُصَرِّحةٌ بخِلافِ ذلك؛ كقَولِه: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: صاغِرينَ أذِلَّاءَ. وكقَولِه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وكقَولِه تعالى هنا: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧]؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ قولَه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي: في زَعْمِكَ الكاذبِ، بل أنتَ المُهانُ الخسيسُ الحقيرُ، فهذا التَّقريعُ نوعٌ مِن أنواعِ العذابِ[(١)].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه يُخاطَبُ بذلك على سَبيلِ الاستِهزاءِ، والمرادُ: إنَّك أنت بالضِّدِّ منه.

الوجهُ الثَّالِثُ: أنَّ المعنى: أنَّك كنتَ تعتَزُّ لا باللهِ، فانظُرْ ما وقَعْتَ فيه[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ حُجَّةٌ في تَسميةِ المَخلوقِ باسمِ الخالِقِ، ورَفعِ الحَرَجِ فيه[(٣)]، وذلك فيما يَكونُ له معنًى كُلِّيٌّ تَتفاوَتُ فيه أفرادُه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ؛ كالمَلِكِ، والعزيزِ، إلى غيرِ ذلك[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٤).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣٨).

(٤) جاء في ((فتاوى اللَّجنةِ الدَّائمةِ)): (ما كان مِن أسماءِ الله تعالى عَلَم شَخص، كلَفظِ «الله»: امتنع تسميةُ غيرِ الله به؛ لأنَّ مُسمَّاه مُعيَّنٌ لا يَقبَلُ الشَّركةَ، وكذا ما كان مِن أسمائِه في معناه في عدَمِ قَبولِ الشَّركةِ، كالخالقِ والبارئِ؛ فإنَّ الخالِقَ: مَن يُوجِدُ الشَّيءَ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، والبارئَ: مَن يوجِدُ الشَّيءَ بريئًا مِن العَيبِ، وذلك لا يكونُ إلَّا مِن الله وحْدَه؛ فلا يُسمَّى به إلَّا اللهُ تعالى. أمَّا ما كان له معنًى كُلِّيٌّ تَتفاوَتُ فيه أفرادُه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، كالمَلِكِ، والعزيزِ، والجبَّارِ، والمُتكبِّرِ؛ فيَجوزُ تسميةُ غيرِه بها؛ فقد سمَّى اللهُ نفْسَه بهذه الأسماءِ، وسمَّى بعضَ عِبادِه بها). ((فتاوى اللجنة الدائمة- المجموعة الثانية)) (٢/ ٣٦٨). ويُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٩، ٥٥٠).

٣- السِّياقُ يُرشِدُ إلى بَيانِ المُجمَلِ، وتعيينِ المُحتَمِلِ، والقَطعِ بعَدَمِ احتِمالِ غيرِ المرادِ، وتخصيصِ العامِّ، وتقييدِ المُطلَقِ، وتنَوُّعِ الدَّلالةِ؛ وهو مِن أعظَمِ القرائِنِ الدَّالَّةِ على مُرادِ المتكَلِّم، فمَنْ أهمَلَه غَلِطَ في نَظَرِه، وغالَطَ في مُناظَرتِه؛ فانظُرْ إلى قَولِه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ كيف تجِدُ سِياقَه يدُلُّ على أنَّه الذَّليلُ الحَقيرُ[1]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ دَليلٌ على أنَّ تقريعَ المُعَذَّبِ بما أدَّاه إلى عَذابِه جائِزٌ؛ لأنَّه زيادةٌ في غَمِّه[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يَتنَزَّلُ ممَّا قَبْلَه مَنزِلةَ النَّتيجةِ مِن الاستِدلالِ؛ ولذلك لم يُعطَفْ، والمَعنَى: فيَومُ الفَصلِ مِيقاتُهُم، إعلامًا لهم بأنَّ يومَ القَضاءِ هو أجَلُ الجَزاءِ؛ فهَذا وعيدٌ لهم. وتأكيدُ الخَبَرِ؛ لرَدِّ إنكارِهِم[3].

- وحُذِفَ مُتَعَلَّقُ المِيقاتِ؛ لظُهورِه مِن المَقامِ، أي: مِيقاتُ جَزائِهم. وأُضيفَ المِيقاتُ إلى ضَميرِ المُخبَرِ عَنهُم ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾؛ لأنَّهم المَقصودُ مِن هذا الوَعيدِ، وإلَّا فإنَّ يومَ الفَصلِ مِيقاتُ جَميعِ الخَلقِ؛ مُؤمِنيهم وكُفَّارِهم[4].

- والتَّأكيدُ بقَولِه: ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ للتَّنصيصِ على الإحاطةِ والشُّمولِ، أي: مِيقاتٌ لجَزائِهم كُلِّهِم، لا يَفلِتُ منه أحَدٌ منهم؛ تَقويةً في الوَعيدِ، وتَأييسًا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن الاستِثناءِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ فيه تَنكيرُ ﴿مَوْلًى﴾ في سِياقِ النَّفيِ؛ لإفادَةِ العُمومِ، أي: لا يُغْني أحدٌ مِن المَوالي كائِنًا مَن كان -مِن قَرابةٍ أو غَيرِها- عن أحَدٍ مِن مَواليه كائِنًا مَن كان[٢].

- وتَنكيرُ ﴿شَيْـًٔا﴾؛ للتَّقليلِ، وهو الغالِبُ في تَنكيرِ لَفظِ شَيءٍ، ووُقوعُه في سِياقِ النَّفيِ للعُمومِ، يعني: أيَّ إغناءٍ كان في القِلَّةِ، فضْلًا عن الإغناءِ الكَثيرِ، والمَعنَى: يومَ لا تُغْني عنهُم مَوالِيهم؛ فعَدَل عن ذلك إلى التَّعميمِ لأنَّه أوسَعُ فائدةً؛ إذ هو بمَنزِلةِ التَّذييلِ[٣].

- وفي الكَلامِ تَتميمٌ[٤] ومُبالَغةٌ، أي: ﴿لَا يُغْنِي مَوْلًى﴾ أيَّ مَولًى كان، إغناءً أيَّ إغناءٍ كان[٥].

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ جاء جمْعًا؛ لأنَّه راجِعٌ إلى المَوالي؛ لأنَّ ﴿مَوْلًى﴾ في سِياقِ النَّفيِ فيَعُمُّ؛ فعاد على المَعنَى، لا على اللَّفظِ، ولأنَّهم في المَعنَى كَثيرٌ؛ لِتَناوُلِ اللَّفظِ على الإبهامِ والشِّياعِ كلَّ مَولًى[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١١، ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

(٤) تقدَّم تعريفه (ص: ٧١).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢١).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير أبي =

- والنَّصرُ: الإعانةُ على العَدُوِّ وعلى الغالِبِ، وهو أشَدُّ الإغناءِ؛ فعَطَف ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ على ﴿لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى﴾ زيادةً في نَفيِ الإغناءِ، فمُحَصَّلُ المَعنَى: أنَّه لا يُغْني مُوَالٍ عن مُواليه بشَيءٍ مِن الإغناءِ حَسَبَ مُستَطاعِه، ولا يَنصُرُهم ناصِرٌ شَديدُ الاستِطاعةِ هو أقوَى مِنهم يَدفَعُ عنهم غَلَبَ القَوِيِّ عليهم؛ فاللهُ هو الغالِبُ لا يَدفَعُه غالِبٌ. وبُنيَ فِعلُ ﴿يُنصَرُونَ﴾ إلى المَجهولِ؛ لِيَعُمَّ نَفْيَ كُلِّ ناصِرٍ، مع إيجازِ العِبارةِ[1].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ هو جَوابٌ مُجمَلٌ عن سُؤالِ سائِلٍ عن تَعيينِ مَن رَحِمَه اللهُ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۞ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۞ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ۞ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى فَريقًا مَرحُومينَ على وَجهِ الإجمالِ، قابَلَه هنا بفَريقٍ مُعَذَّبينَ، وهم المُشرِكون، ووَصَف بَعضَ أصنافِ عَذابِهم، وهو مَأكَلُهم وإهانَتُهم وتَحريقُهم؛ فكان مُقتَضَى الظَّاهِرِ أنْ يُبتدَأَ الكَلامُ بالإخبارِ عنهم بأنَّهم يَأكلُون شَجَرةَ الزَّقُّومِ، كما قال في سُورَةِ (الواقِعَة) [٥١، ٥٢]: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ۞ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ...﴾ الآياتِ؛ فعُدِلَ عن ذلك إلى الإخبارِ عن شَجَرَةِ الزَّقُّومِ بأنَّها ﴿طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾؛ اهتِمامًا بالإعلامِ بحالِ هذه الشَّجَرةِ، وقد جُعِلَت شَجَرةُ الزَّقُّومِ شَيئًا مَعلومًا للسَّامِعينَ؛ فأُخبِرَ عنها بطَريقِ تَعريفِ الإضافةِ؛ لأنَّها سَبَق ذِكرُها في سُورةِ (الواقِعة) الَّتي نَزَلَتْ قبْلَ سُورةِ (الدُّخَانِ)[3].

= حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣١٤).

- و﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ صِفةُ مُبالَغةٍ، وهو الكَثيرُ الآثامِ، والمُرادُ به: المُشرِكُون المَذكُورون في قَولِه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٤، ٣٥]؛ فهذا مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِقَصْدِ الإيماءِ إلى أنَّ إثمَهم بالشِّركِ هو سَبَب مُعامَلَتِهم هذه[١].

- قولُه: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ * كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ المُهلُ -بضَمِّ الميمِ-: دُرْدِيُّ الزَّيتِ -على قولٍ-، والتَّشبيهُ به في سَوادِ لَونِه، وقِيلَ: في ذَوَبانِه. والحَميمُ: الماءُ الشَّديدُ الحَرارةِ الَّذي انتَهَى غَلَيانُه، ووَجهُ الشَّبَهِ هو هَيئةُ غَلَيانِه[٢]؛ فالمُشبَّهُ واحِدٌ، والمُشبَّهُ به مُتَعَدِّدٌ؛ شُبِّهَت عُصارةُ الشَّجرةِ تارةً بالمُهلِ في غِلَظِها وكُدورَتِها ونَتَنِها، وأُخرى بالماءِ في انفِعالِها بالغَلَيانِ. وقيل: هذا مِن تَداخُلِ التَّشبيهَينِ، أي: كالمُهلِ المُشَبَّهِ غَلَيانُه بغَلْيِ الحَميمِ في البُطونِ؛ شُبِّهَ طَعامُ الشَّجرةِ بدُرْدِيٍّ -وهو ما يَرْكُدُ في أسفَلِ كُلِّ مائعٍ- خارِجٍ عن المُتَعارَفِ؛ في أنَّه إذا قُدِّرَ أن يُصَبَّ في البُطونِ يَغلِي -بغَيرِ نارٍ- غَلَيانَ الماءِ الحارِّ في المَراجِلِ بالنَّارِ، ولا يَبعُدُ هذا التَّأويلُ؛ فإنَّ هذه الشَّجَرةَ على خِلافِ الأشجارِ المُتَعارَفةِ؛ لأنَّها تَنبُتُ في أصلِ الجَحيمِ، طَلْعُها كأنَّه رُؤوسُ الشَّياطِينِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ مَقولٌ لقَولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ، أي: يُقالُ للزَّبانِيةِ مَلائِكةِ العَذابِ: خُذُوه، والضَّميرُ المُفرَدُ عائِدٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢٤، ٢٢٥).

إلى الأثيمِ باعتِبارِ آحادِ جِنسِه[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾

- حرْفُ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخِي الرُّتَبيِّ؛ لأنَّ صَبَّ الحَميمِ على رأسِهِ أشَدُّ عليه مِن أَخْذِه وعَتْلِه[٢].

- وقال: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ كان الأصلُ أنْ يُقالَ: يُصَبُّ مِن فَوقِ رُؤوسِهم الحَميمُ، ولكِنْ قيلَ: يُصَبُّ مِن فَوقِ رُؤوسِهم عَذابٌ هو الحَميمُ؛ للمُبالَغةِ، ثمَّ أُضِيفَ العَذابُ إلى الحَميمِ؛ للتَّخفيفِ، وزِيدَ ﴿مِنْ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المَصبُوبَ بَعضُ هذا النَّوعِ[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ مَقولُ قَولٍ آخَرَ مَحذوفٍ، تَقدِيرُه: قُولُوا له، أو يُقالُ له[٤].

- وصِيغَةُ الأمْرِ ﴿ذُقْ﴾ مُستَعمَلةٌ في الإهانةِ[٥].

- وقولُه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ خَبرٌ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ بعَلاقةِ الضِّدِّيَّةِ، والمَقصودُ عَكسُ مَدلُولِه، أي: أنت الذَّليلُ المُهانُ، والتَّأكيدُ للمَعنَى التَّهَكُّميِّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٥).

(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦)، ((إعراب =

٧- قولُه: تَعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ بَقيَّةُ القَولِ المَحذوفِ، أي: ويُقالُ للآثِمِينَ جَميعًا: إنَّ هذا ما كُنتُم به تَمترونَ في الدُّنيا، والخَبَرُ مُستَعمَلٌ في التَّنديمِ والتَّوبيخِ[1].

= القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦).

الآيات (٥١-٥٩)

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُندُسٍ﴾: أي: رَقيقِ الحَريرِ[(١)].

﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾: أي: غليظِ الحريرِ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾

قَولُه: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ في هذا الاستِثناءِ وَجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّ ﴿ٱلْمَوْتَةَ﴾ مَنصوبةٌ على الاستِثناءِ المُنقَطِعِ، أي: لكِنِ المَوتةُ الأولى قد ذاقوها في الدُّنيا، أو سِوى المَوتةِ الأُولى الَّتي قد ذاقوها في الدُّنيا. الثَّاني: أنَّ ﴿ٱلْمَوْتَةَ﴾ مَنصوبةٌ على الاستِثناءِ المتَّصِلِ، وتأوَّلوه: بأنَّ المُؤمِنَ عندَ مَوتِه في الدُّنيا بمَنزِلَتِه في الجنَّةِ؛ لِمُعايَنةِ ما يُعطاه منها، أو لِما يَتيَقَّنُه مِن نَعيمِها. وقيل غيرُ ذلك[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٨)، =

المعنى الإجماليُّ:

بعدَ أن ذكَر تعالى الكافرينَ وسوءَ مصيرِهم، يَذكُرُ المتَّقينَ وحُسنَ عاقِبَتِهم، فيقولُ تعالى: إنَّ المتَّقينَ في مَكانٍ يأمَنُ فيه ساكِنُه مِن كُلِّ مَكروهٍ وسُوءٍ؛ في جنَّاتٍ وعُيونِ ماءٍ، يَلبَسونَ مِن حريرٍ رَقيقٍ ناعِمٍ وآخَرَ غَليظٍ، مُتواجِهينَ في الجنَّةِ، يُقابِلُ بَعضُهم بَعضًا بالوُجوهِ، كذلك وزَوَّجْناهم بنِساءٍ نَقيَّاتِ البَياضِ، شديداتِ بياضِ العَينِ معَ قوَّةِ سَوادِها، واسِعاتِ الأعيُنِ حِسانِها. ويَطلُبونَ في الجنَّةِ كُلَّ الفواكِهِ آمِنينَ مِن نَفادِها، أو أن يَنالَهم مِن أكلِها أذًى.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ بقاءَهم في تلك الجنَّاتِ بقاءٌ دائمٌ، فيقولُ: لا يَذوقونَ في الجنَّةِ الموتَ إلَّا المَوتةَ الأُولى الَّتي ماتوها مِن قَبْلُ، ووقاهم رَبُّهم عذابَ النَّارِ؛ تفَضُّلًا منه سُبحانَه وإحسانًا، وذلك هو الفَوزُ العَظيمُ!

ثمَّ يقولُ تعالى: فإنَّما يسَّرْنا هذا القُرآنَ على النَّاسِ -يا محمَّدُ- بلِسانِك العَربيِّ الَّذي هو أفصَحُ الألسِنةِ؛ لَعَلَّهم يَفهَمونَ مَعانيَه فيَتَّعِظونَ ويَعمَلونَ. ثمَّ يُسلِّي اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ويَعِدُه بالنَّصرِ، ويَتوعَّدُ مَن كذَّبه، فيقولُ: فترَقَّبْ -يا محمَّدُ- ما يَحُلُّ بهم مِن العذابِ؛ إنَّهم مُترَقِّبونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَرَ الوَعيدَ في الآياتِ المُتقَدِّمةِ؛ ذكَرَ الوَعدَ في هذه الآياتِ[1].

= ((مشكل إعراب القرآن)) لمكِّي (٢/ ٦٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٣١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٥).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿مُقَامٍ﴾ بضَمِّ الميمِ. قيل: بمعنى الإقامةِ، فيَكونُ المعنى أنَّ المتَّقينَ في مُقامٍ أمينٍ مِنَ الانتِقالِ والارتحالِ عنه، فهم في إقامةٍ دائمةٍ في الجنَّةِ، أو يكونُ قَولُه تعالى: ﴿أَمِينٍ﴾ وَصفًا لِمُقَدَّرٍ مَحذوفٍ، أي: في مَوضِعِ إقامةٍ أمينٍ. وقيل: يحتَمِلُ أن يريدَ به المكانَ مِن «أقامَ»، فيَكونَ بمعنى القراءةِ الثَّانيةِ[1].

٢- قِراءةُ: ﴿مَقَامٍ﴾ بفَتحِ الميمِ، أي: في مَوضِعٍ آمِنٍ مِنَ الخُروجِ منه، ومِن الأوصابِ والعِلَلِ والأنصابِ والأحزانِ، وغيرِ ذلك مِن المَخاوِفِ والآفاتِ[2].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، بامتِثالِ ما أمَرَ به، واجتِنابِ ما نهَى عنه: مُستَقَرُّهم في الجنَّةِ في مَوضِعٍ يأمَنُ فيه ساكِنُه مِنَ الموتِ والخُروجِ، ومِن كُلِّ هَمٍّ وحَزَنٍ ونَكَدٍ، ومِن سائِرِ الآفاتِ والمصائِبِ[3].

كما قال الله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ١٦٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٥٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ١٦٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).

وقال سُبحانَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا * خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٢﴾.

أي: مَقامُهم في بَساتينَ وعُيونِ ماءٍ[١].

﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٥٣﴾.

﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾.

أي: يَلبَسونَ فيها الحَريرَ الرَّقيقَ النَّاعِمَ، والغَليظَ اللَّامِعَ البَرَّاقَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الكهف: ٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحج: ٢٣].

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

أي: مُتواجِهينَ يُقابِلُ بَعضُهم بعضًا بالوُجوهِ، فلا يَجلِسُ أحَدٌ منهم وظَهرُه إلى غيرِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤).
قيل: يَلبَسونَ الحَريرَ النَّاعِمَ على أجسادِهم، ويَلبَسونَ الإستَبْرَقَ فوقَ اللِّباسِ الأوَّلِ، فيُفيدُ السُّندُسُ الْتِذاذَ الجِسمِ به؛ لِرِقَّتِه ونُعومتِه، ويفيدُ الإستَبرَقُ الْتِذاذَ العَينِ به؛ لبَريقِه ولَمَعانِه. يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٨). =

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ٥٤﴾.

أي: كذلك[(١)]، وزَوَّجْناهم[(٢)] بنِساءٍ نَقِيَّاتِ البَياضِ، شديداتِ بياضِ العَينِ مع

= قال السعدي: (﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في قلوبهم ووُجوهِهم، في كمالِ الرَّاحةِ والطُّمَأنينةِ، والمَحبَّةِ والعِشْرةِ الحَسَنةِ والآدابِ المُستحسَنةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤).

(١) قيل: المرادُ: كما فعَلْنا بهم ما ذكَرْنا -مِن إكرامِهم بالجنَّاتِ والعُيونِ واللِّباسِ- كذلك نُزَوِّجُهم بالحُورِ العِينِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والسمعاني، والبغوي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٢).

وقيل: المعنى: الأمرُ كما ذكَرْنا ووَصَفْنا لكم. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحديُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والبقاعي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٩).

قال الشوكاني: (والكافُ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إمَّا نعتُ مَصدرٍ محذوفٍ، أي: نَفعَلُ بالمُتَّقينَ فِعْلًا كذلك. أو: مَرفوعٌ على أنَّه خبَرٌ لمبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: الأمرُ كذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٣).

(٢) ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ أي: قَرَنَّاهم بهِنَّ: ابنُ أبي زَمَنين، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، والعُلَيمي، وأبو السعود، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٧).

قال الألوسي: (والمرادُ على ما قال غيرُ واحِدٍ: وقَرَنَّاهم بِحُورٍ عِينٍ، وفُسِّرَ بذلك؛ قيل: لأنَّ الجنَّةَ ليس فيها تكليفٌ، فلا عَقْدَ ولا تزويجَ بالمعنى المشهورِ. وقيل: لِمَكانِ الباءِ، وزَوَّجَه المرأةَ بمعنى أنكَحَه إيَّاها: مُتعَدٍّ بنَفْسِه. وفيه بحثٌ؛ فإنَّ الأخفَشَ جَوَّزَ الباءَ فيه، فيُقالُ: زوَّجْتُه بامرأةٍ فتزَوَّجَ بها، وأزْدُ شَنُوءةَ يُعَدُّونَه بالباءِ أيضًا، وفي القاموسِ: زوَّجْتُه امرأةً وتزوَّجْتُ امرأةً وبِها، أو هي قليلةٌ [أي: التَّعديةُ بالباءِ]...، ويجوزُ أن يُقالَ: إنَّ ذلك التَّفسيرَ؛ لأنَّ الحُورَ العِينَ في الجنَّةِ مِلكُ يَمينٍ كالسَّراريِّ في الدُّنيا، فلا يَحتاجُ الأمرُ إلى العَقْدِ عَليهنَّ، على أنَّه يُمكِنُ =

قوَّةِ سَوادِها[(١)]، .....

= أن يكونَ في الجنَّةِ عَقدٌ، وإنْ لم يكُنْ فيها تَكليفٌ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٣٣). ويُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ١٩٢).

وقال أبو عُبيدة: (﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾: جعَلْناهم أزواجًا، كما تُزَوَّجُ النَّعْلُ بالنَّعْلِ، جعَلْناهم اثنَينِ اثنَينِ جَميعًا بجَميعٍ). ((مجاز القرآن)) (٢/ ٢٠٩).

قال الواحدي: (وقَولُ أبي عُبَيدةَ حَسَنٌ؛ لأنَّه جَعَل قَولَه: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ مِنَ التَّزويجِ الَّذي هو بمعنى: جَعْلِ الشَّيءِ زَوجًا، لا بمعنى عَقْدِ النِّكاحِ، ومِن هذا يجوزُ أن يُقالَ: كان فَرْدًا وزَوَّجْتُه بآخَرَ، كما يُقالُ: شَفَعْتُه بآخَرَ، فإنَّما يَمتَنِعُ الباءُ عندَ مَن [يمنَعُها] إذا كان بمعنى التَّزويجِ، ونحوَ هذا قال الأخفَشُ في هذه الآيةِ: جعَلْناهم أزواجًا بالحُورِ). ((البسيط)) (٢٠/ ١٢٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥١٦).

وقال ابن عاشور: (المُرادُ أنَّهُم مَأنُوسُون بصُحبةِ حَبائِبَ مِن النِّساءِ، كما أَنِسوا بصُحبةِ الأصحابِ والأحِبَّةِ مِن الرِّجالِ؛ استِكمالًا لمُتعارَفِ الأُنسِ بيْنَ النَّاسِ، وفي كِلَا الأُنسَينِ نَعيمٌ نَفْسانيٌّ مُنجَرٌّ للنَّفْسِ مِن النَّعيمِ الجُثمانيِّ، وهذا مَعنًى سامٍ مِن مَعاني الانبِساطِ الرُّوحيِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٨).

وقال ابنُ القَيِّمِ بعدَ أنْ ذَكَر قَولَ مَن قال: إنَّ المعنى: قَرَنَّاهم، قال: (وعلى هذا فزَوَّجْناهم عندَ هؤلاءِ: مِنَ الاقترانِ والشَّفْعِ، أي: شفَعْناهم وقَرَنَّاهم بهِنَّ. وقالت طائِفةٌ -منهم مُجاهِدٌ-: زَوَّجْناهم بهِنَّ، أي: أنكَحْناهم إياهُنَّ. قُلتُ: وعلى هذا فتَلويحُ فِعلِ التَّزويجِ قد دَلَّ على النِّكاحِ، وتَعديتُه بالباءِ المُتضَمِّنةِ معنَى الاقترانِ والضَّمِّ؛ فالقَولانِ واحِدٌ. واللهُ أعلَمُ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٧٤).

وقال أيضًا: (ولا يَمتَنِعُ أن يُرادَ الأمْرانِ معًا؛ فلَفظُ التَّزويجِ يدُلُّ على النِّكاحِ، كما قال مجاهِدٌ: أنكَحْناهم الحُورَ، ولَفظُ الباءِ تدُلُّ على الاقترانِ والضَّمِّ، وهذا أبلَغُ مِن حَذْفِها. واللهُ أعلَمُ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٠).

(١) الحورُ جمعُ حوراءَ. قيل: هي المرأةُ البَيضاءُ النَّقِيَّةُ البَياضِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجُملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٨٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٣).

وقال القرطبي: (والحُورُ: البِيضُ. في قَولِ قَتادةَ والعامَّةِ، جمْعُ حَوراءَ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢). =

واسِعاتِ الأعيُنِ حِسانِها[1].

وقيل: الحَوراءُ: هي الشَّديدةُ سَوادِ العَينِ والشَّديدةُ بَياضِها. وممَّن اختاره: أبو عُبيدةَ، ومكِّي، والنَّسَفي، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٢٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢).

قال ابنُ القيِّم: (الصَّحيحُ أنَّ الحُورَ مأخوذٌ مِنَ الحَوَرِ في العَينِ: وهو شِدَّةُ بَياضِها مع قُوَّةِ سَوادِها، فهو يتضَمَّنُ الأمْرَينِ... ولا تُسَمَّى المرأةُ حَوراءَ حتَّى يكونَ مع حَوَرِ عَيْنِها بياضُ لَونِ الجَسَدِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٩). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٢٥).

وقيل: سُمِّينَ حُورًا؛ لِأنَّ الطَّرْفَ يَحارُ فيهِنَّ؛ مِن حُسْنِهِنَّ وجَمالِهِنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

وممَّن قال به مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ. وقد ردَّ هذا القولَ ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٥).

والعِينُ: جمعُ العَيناءِ. وممَّن اختار أنَّ المرادَ بها: المرأةُ الواسِعةُ العَينِ عَظيمَتُها: ابنُ جرير، ومكِّي، والرازي، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٨) و(٢١/ ٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٥٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالعِيْنِ: حِسانُ الأعيُنِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: سَعةُ العَينِ وعِظَمُها معَ حُسْنِها: ابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والعُليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥١).

قال ابنُ القيِّم: (والعِينُ: جَمعُ عَيناءَ، وهي العَظيمةُ العَينِ مِن النِّساءِ... والصَّحيحُ: أنَّ العِينَ: اللَّاتي جَمَعَت أعيُنُهُنَّ صِفاتِ الحُسنِ والمَلاحةِ، قال مُقاتلٌ: العِينُ: حِسانُ الأعيُنِ. ومِن محاسِنِ المرأةِ اتِّساعُ عَيْنِها في طُولٍ، وضِيقُ العَينِ في المرأةِ مِن العُيوبِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٥، ٦٦) و(٢١/ ٥٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢، ١٥٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٨ - ٢٢٠)، =

كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ [الطور: ٢٠].

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ٥٥﴾.

أي: يَطلُبُ المتَّقونَ في الجنَّةِ كُلَّ ما يَشتَهونَه مِن أنواعِ الفَواكِهِ، فتَأتيهم في كُلِّ حينٍ، آمِنينَ مِن نَفادِها أو انقِطاعِها، وآمِنينَ مِن أن يَنالَهم مِن أكْلِها ضَرَرٌ، أو يَلحَقَهم أذًى[١].

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٥٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا وَصَفَ اللهُ تعالى أنواعَ ما هم فيه مِنَ الخَيراتِ والرَّاحاتِ؛ بَيَّنَ أنَّ حياتَهم دائِمةٌ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ الأمانَ، وكان أخْوَفَ ما يَخافُ أهلُ الدُّنيا الموتُ؛ قال[٣]:

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾.

أي: لا يَذوقُ المتَّقونَ في الجنَّةِ الموتَ أبدًا إلَّا المَوتةَ الأُولى الَّتي ماتوها مِن قَبْلُ في الدُّنيا[٤].

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٨، ٣١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٤)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٤)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣)، =

= ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٨).

قيل: المرادُ بـ ﴿إِلَّا﴾ هنا: (بَعْدَ). والمعنى: لا يَذوقونَ فيها الموتَ بعدَ الموتةِ الأُولى الَّتي ماتوها في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي، وذكَرَا أنَّها قريبةُ المعنى مِن (بَعْدَ)، لكِنْ ضَعَّفَ هذا القَولَ الجُمهورُ -كما ذكَرَ السَّمينُ الحَلَبي-؛ لعدَمِ ثُبوتِ كَونِ (إلَّا) بمعنى (بَعْدَ). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٧، ٦٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٣١).

وقال الشربيني: (واختاره الطَّبَريُّ: لكِنْ نُوزِعَ بأنَّ إلَّا بمعنى «بَعْدَ» لم يَثبُتْ، وقد يُجابُ بأنَّ مَن حَفِظَ حُجَّةٌ على مَن لم يحفَظْ). ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦٧).

وقال أبو الحسَنِ المُجاشِعيُّ: (وإنَّما جاز أن تقعَ «إلَّا» مَوقِعَ «بَعْدَ»؛ لأنَّ «إلَّا» لإخراجِ بَعضٍ مِن كُلٍّ، و «بَعْدَ» لإخراجِ الثَّاني عن الوَقتِ الأوَّلِ). ((النكت في القرآن الكريم)) (ص: ٤٤٤).

وقال ابنُ القيِّم: (هذا مِن الاستثناءِ السَّابقِ زَمانُه زمانَ المُستثنى منه، ولَمَّا كانت المَوتةُ الأُولى مِن جِنسِ الموتِ المنفيِّ زَعَم بَعضُهم أنَّه مُتَّصِلٌ. وقال بَعضُهم: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى «بَعْدَ»، والمعنى: لا يَذوقونَ بَعْدَ الموتةِ الأُولى مَوتًا في الجنَّةِ، وهذا معنًى حَسَنٌ جِدًّا يَفتَقِرُ إلى مُساعدةِ اللَّفظِ عليه، ويُوضِّحُه: أنَّه ليس المرادُ إخراجَ الموتةِ الأُولى مِن الموتِ المنفيِّ، ولا ثَمَّ شَيءٌ مُتوَهَّمٌ يُحتاجُ لأجْلِه إلى الاستثناءِ، وإنَّما المرادُ الإخبارُ بأنَّهم بعدَ مَوتَتِهم الأُولى الَّتي كتَبَها اللهُ عليهم لا يَذوقونَ غَيرَها، وعلى هذا فيُقالُ: لَمَّا كان ما بَعْدَ ﴿إِلَّا﴾ حُكمُه مخالِفٌ لحُكمِ ما قَبْلَها، والحياةُ الدَّائمةُ في الجنَّةِ إنَّما تكونُ بعدَ المَوتةِ الأُولى؛ كانت أداةُ ﴿إِلَّا﴾ مُفهِمةً هذه البَعْديَّةَ، وقد أُمِنَ اللَّبسُ؛ لعَدَمِ دُخولِها في الموتِ المنفيِّ في الجنَّةِ، فتجَرَّدت لهذا المعنى، فهذا مِن أحسَنِ ما يُقالُ في الآيةِ؛ فتأمَّلْه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٧٠).

وقيل: ﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنى «سِوى»، أي: لا يَذوقونَ في الجنَّةِ مَوتًا سِوى المَوتةِ الَّتي ماتوها مِن قَبْلُ في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٤)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٤٢٨).

قال الرَّسْعَني: (وأكثَرُ المفَسِّرينَ يقولُ: سِوى الموتةِ الأُولى الَّتي ذاقوها في الدُّنيا). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٨٣).

وقال ابن عطيَّة: (قولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قدَّر قَومٌ ﴿إِلَّا﴾ بـ «سِوى»، وضَعَّف =

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا صار أهلُ الجنَّةِ إلى الجنَّةِ، وصار أهلُ النَّارِ إلى النَّارِ؛ أُتِيَ بالموتِ حتَّى يُجعَلَ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، ثمَّ يُذبَحُ، ثمَّ يُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ لا مَوتَ، ويا أهلَ النَّارِ لا مَوتَ، فيَزدادُ أهلُ الجنَّةِ فَرَحًا إلى فَرَحِهم، ويَزدادُ أهلُ النَّارِ حُزنًا إلى حُزنِهم))[(١)].

وعن أبي سَعيدٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُجاءُ بالموتِ يومَ القيامةِ كأنَّه كَبشٌ أمْلَحُ[(٢)]، فيُوقَفُ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيُقالُ: يا أهلَ الجنَّةِ هل تَعرِفونَ هذا؟ فيَشْرَئِبُّونَ[(٣)] ويَنظُرونَ ويَقولونَ: نعَمْ، هذا

= ذلك الطَّبريُّ، وقَدَّرَها بـ «بَعْدَ»، وليس تضعيفُه بصَحيحٍ، بل يَصِحُّ المعنى بـ «سِوَى» ويَتَّسِقُ)). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٨).

وقيل: هذا مِن بابِ التَّعليقِ بالمحالِ، أُريدَ أن يُقالَ: لا يَذوقونَ فيها الموتَ البتَّةَ، فوَضَعَ قَولَه: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ مَوضِعَ ذلك؛ لأنَّ الموتةَ الماضيةَ مُحالٌ ذَوقُها في المُستقبَلِ، كأنَّه قيل: إنْ كانت الموتةُ الأُولى يَستقيمُ ذَوقُها في المُستَقبَلِ فإنَّهم يَذوقونَها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشري، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٩).

وقيل: الاستِثناء مُنقَطِعٌ، أي: لا يَذوقونَ فيها الموتَ البتَّةَ؛ لأنَّهم خالِدونَ فيها، لَكِنِ الموتةُ الأُولى قد ذاقوها في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا القول: القرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١).

قال ابن القيِّم: (هذا الاستِثناءُ هو لتَحقيقِ دَوامِ الحياةِ، وعدَمِ ذَوقِ الموتِ، وهو يجعَلُ النَّفيَ الأوَّلَ العامَّ بمَنزلةِ النَّصِّ الَّذي لا يَتطَرَّقُ إليه استِثناءُ البتَّةَ؛ إذْ لو تطَرَّق إليه استِثناءُ فَردٍ مِن أفرادِه لَكان أَولى بذِكْرِه مِن العُدولِ عنه إلى الاستِثناءِ المنقَطِعِ؛ فجرى هذا الاستِثناءُ مَجرى التَّأكيدِ والتَّنصيصِ على حِفظِ العُمومِ، وهذا جارٍ في كُلِّ مُنقَطِعٍ؛ فتأمَّلْه فإنَّه مِن أسرارِ العَرَبيَّةِ). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣٢٦).

(١) رواه البخاريُّ (٦٥٤٨)، ومسلمٌ (٢٨٥٠) واللَّفظُ له.

(٢) أملَحُ: أي: في صوفِه بَياضٌ وسَوادٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٨٩).

(٣) فيَشْرَئِبُّونَ: أي: يَرفَعونَ رُؤوسَهم إلى المنادي. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٨٥).

الموتُ! ويُقالُ: يا أهلَ النَّارِ هل تَعرِفونَ هذا؟ فيَشرَئِبُّونَ ويَنظُرونَ ويَقولونَ: نعَمْ، هذا الموتُ! فيُؤمَرُ به فيُذبَحُ، ثمَّ يُقالُ: يا أهلَ الجنَّةِ خُلودٌ فلا مَوتَ، ويا أهلَ النَّارِ خُلودٌ فلا مَوتَ))[١].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((يُنادي مُنادٍ: إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَحْيَوْا فلا تَموتوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تَبْأَسُوا أبدًا))[٢].

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

أي: ونجَّى اللهُ المُتَّقينَ مِن عَذابِ النَّارِ، فصَرَفَه عنهم[٣].

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾.

أي: وقاهم اللهُ تعالى عذابَ الجَحيمِ تَفَضُّلًا مِن رَبِّك -يا محمَّدُ- عليهم، وإحسانًا منه إليهم[٤].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((قارِبوا وسَدِّدوا، واعلَموا أنَّه لن يَنجوَ أحَدٌ مِنكم بعَمَلِه! قالوا: يا رَسولَ اللهِ،

---

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) واللَّفظُ له.

(٢) رواه مسلم (٢٨٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

ولا أنتَ؟! قال: ولا أنا إلَّا أن يَتغَمَّدَني اللهُ برَحمةٍ منه وفَضلٍ!))[١].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: النَّجاةُ مِن النَّارِ ودُخولُ الجنَّةِ: هو الرِّبحُ والظَّفَرُ العَظيمُ الَّذي لا فَوزَ غَيرُه[٢].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى الدَّلائِلَ، وشَرَح الوَعدَ والوَعيدَ؛ قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، والمعنى: أنَّه تعالى وَصَف القُرآنَ في أوَّلِ هذه السُّورةِ بكَونِه كِتابًا مُبينًا، أي: كَثيرَ البَيانِ والفائِدةِ، وذَكَر في خاتمتِها ما يُؤَكِّدُ ذلك، فقال: إنَّ ذلك الكِتابَ المُبينَ الكَثيرَ الفائِدةِ: أنزَلْناه عَربيًّا بِلُغَتِك؛ لَعَلَّهم يَتَذكَّرونَ[٣].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: فإنَّما سَهَّلْنا على النَّاسِ -يا محمَّدُ- هذا القُرآنَ ويَسَّرْنا لهم بيانَه بِلُغَتِك العَربيَّةِ الَّتي هي أفصَحُ اللُّغاتِ؛ لعَلَّهم يَفهَمونَ مَعانيَه، ويَتَّعِظونَ بعِظاتِه، ويَعمَلونَ به[٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: فترَقَّبْ -يا محمَّدُ- ما يحُلُّ بهم مِنَ العذابِ والهلاكِ وانتَظِرْه؛ إنَّهم مُنتَظِرونَ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٨ - ٣٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾، تأمَّلْ كيفَ ذكَرَ سُبحانَه الأمْنَ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، وفي قَولِه تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾؛ فجَمَع لهم بيْنَ أمْنِ المكانِ، وأمْنِ الطَّعامِ -فلا يَخافونَ انقِطاعَ الفاكِهةِ، ولا سُوءَ عاقِبَتِها ومَضَرَّتَها-، وأمْنِ الخُروجِ منها فلا يَخافونَ

= (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

ذلك، وأمْنِ الموتِ فلا يَخافونَ فيها مَوتًا[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ الأمنُ أكبَرُ شُروطِ حُسنِ المكانِ؛ لأنَّ السَّاكِنَ أوَّلُ ما يتطَلَّبُه الأمنُ، وهو السَّلامةُ مِن المَكارِهِ والمَخاوِفِ، فإذا كان آمِنًا في مَنزِلِه كان مُطمَئِنَّ البالِ، شاعِرًا بالنَّعيمِ الَّذي يَنالُه[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ * كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ فجَمَع لهم بيْنَ حُسنِ المَنزِلِ، وحُصولِ الأمْنِ فيه مِن كُلِّ مَكروهٍ، واشتِمالِه على الثِّمارِ والأنهارِ، وحُسنِ اللِّباسِ، وكَمالِ العِشْرةِ؛ لِمُقابَلةِ بَعضِهم بعضًا، وتمامِ اللَّذَّةِ بالحُورِ العِينِ، ودُعائِهم بجَميعِ أنواعِ الفاكِهةِ، معَ أمْنِهم مِن انقِطاعِها ومَضَرَّتِها وغائِلتِها، وفي خِتامِ ذلك أعلَمَهم بأنَّهم لا يَذوقونَ فيها هناك مَوتًا[٣].

٤- قَولُه تعالى عن المتَّقينَ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ إنْ قيلَ: أليس أهلُ النَّارِ لا يموتونَ، فلِمَ بَشَّرَ أهلَ الجنَّةِ بهذا مع مُشارَكةِ غَيرِهم في هذا المعنى؟

والجواب: أنَّ أهلَ الجنَّةِ في حياةٍ هَنيئةٍ، بِشارتُهم بالخُلودِ تَزيدُهم سُرورًا وقُرَّةَ عَينٍ، وأهلَ النَّارِ يموتونَ مَوتاتٍ كَثيرةً بما يُقاسُونَ مِن الشِّدَّةِ، وانتفاءُ الموتِ عنهم يَزيدُهم حَسرةً وشِدَّةَ وَجْدٍ[٤]. فالآيةُ فيها بِشارةٌ بخُلودِ النِّعمةِ؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).
(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٨).
(٤) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٢٦).

الموتَ يَقطَعُ ما كان في الحياةِ مِن النَّعيمِ لأصحابِ النَّعيمِ، كما كان الإعلامُ بأنَّ أهلَ الشِّركِ لا يَموتون نِذارةً بدَوامِ العَذابِ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، فيه سؤالٌ: كيف وعَدَ الله تَعالَى أهلَ الجَنَّةِ بلُبسِ الإستبرَقِ، وهو غَليظُ الدِّيباجِ، مع أنَّ غَليظَه عندَ السُّعداءِ مِن أهلِ الدُّنيا عَيبٌ ونَقصٌ؟

الجواب: أنَّ غَليظَ دِيباجِ الجَنَّةِ لا يُشابِهُ غَليظَ دِيباجِ الدُّنيا حتَّى يُعابَ، كما أنَّ سُندُسَ الجَنَّةِ -وهو رَقيقُ الدِّيباجِ- لا يُشابِهُ سُندُسَ الدُّنيا. وقيل: غيرُ ذلك[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ جُلُوسُهم على صفةِ التَّقابُلِ، والغَرَضُ منه استِئناسُ بعضِهم ببعضٍ في المَجالِسِ[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ مَعلومٌ أنَّ الجنَّةَ لا موتَ فيها -لا أُولى ولا ثانيةَ-، لكنْ لَمَّا كان نعيمُ القَلبِ مُمتَدًّا مِن الدُّنيا إلى دُخولِ الجنَّةِ صار كأنَّ الدُّنيا والآخِرةَ كِلْتَيهما جَنَّةٌ، وليس فيها إلَّا مَوتةٌ واحِدةٌ[٤]!

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فيه أنَّ حُصولَ النَّعيمِ واندِفاعَ العَذابِ عنهم: مِن فَضلِ اللهِ عليهم وكَرَمِه؛ فإنَّه تعالى هو الَّذي وفَّقَهم للأعمالِ الصَّالحةِ الَّتي بها نالوا خَيرَ الآخِرةِ، وأعطاهم أيضًا ما لم تَبلُغْه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٨)، ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ١١٠، ١١١).

ويُنظر ما تقدَّم في حاشية التَّفسير (ص: ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٧).

أعمالُهم[١].

٩- قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ خَتَم السُّورةَ بالحَثِّ على اتِّباعِ القُرآنِ وإنْ لم يكُنْ مَذكورًا، كما قال في مُفتَتَحِ السُّورةِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[٢] [الدخان: ٣].

١٠- قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وهذا كثيرٌ في القُرآنِ؛ يُخبِرُ أنَّ كِتابَه ورَسولَه مُذَكِّرٌ لهم بما هو مَركوزٌ في فِطَرِهم؛ مِن مَعرِفَتِه تعالى ومَحبَّتِه، وتَعظيمِه وإجلالِه، والخُضوعِ له والإخلاصِ له، ومحبَّةِ شَرعِه الَّذي هو العَدلُ المَحْضُ، وإيثارِه على ما سِواه؛ فالفِطَرُ مَركوزٌ فيها مَعرِفتُه ومَحبَّتُه، والإخلاصُ له والإقرارُ بشَرعِه، وإيثارُه على غَيرِه؛ فهي تَعرِفُ ذلك وتَشعُرُ به مُجمَلًا ومُفَصَّلًا بَعضَ التَّفصيلِ؛ فجاءت الرُّسُلُ تُذَكِّرُها بذلك، وتُنَبِّهُها عليه، وتُفَصِّلُه لها وتُبَيِّنُه، وتُعَرِّفُها الأسبابَ المُعارِضةَ لِمُوجبِ الفِطرةِ، المانِعةَ مِن اقتِفائِها أثَرَها[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ انتَقَل به الكَلامُ مِن وَصفِ عَذابِ الأثيمِ إلى وَصفِ نَعيمِ المُتَّقينَ؛ لِمُناسَبةِ التَّضادِّ، على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ الوَعيدِ بالوَعدِ، والعَكسِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٠١، ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦).

- وقولُه: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدَلٌ مِن ﴿مَقَامٍ﴾؛ جِيءَ به دَلالةً على نَزاهَتِه، واشتِمالِه على طَيِّباتِ المَآكِلِ والمَشارِبِ[١].

- وأُعِيدَ حرْفُ ﴿فِي﴾ مع البدَلِ؛ للتَّأكيدِ[٢].

- قولُه: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ فيه وصْفُ نَعيمِ أجسادِهم بذِكرِ لِباسِهم، وهو لِباسُ التَّرَفِ والنَّعيمِ، وفيه كِنايةٌ عن تَوَفُّرِ أسبابِ نَعيمِ الأجسادِ؛ لأنَّه لا يَلبَسُ هذا اللِّباسَ إلَّا مَنِ استَكمَلَ ما قَبْلَه مِن مُلائِماتِ الجَسَدِ باطِنِه وظاهِرِه[٣].

- قولُه: ﴿مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ حَرفُ (مِنْ) لبَيانِ الجِنسِ، والمُبَيَّنُ مَحذوفٌ دلَّ عليه ﴿يَلْبَسُونَ﴾، والتَّقديرُ: ثِيابًا مِن سُندُسٍ وإستَبْرَقٍ[٤].

- وقدْ وصَفَ نَعيمَ نُفوسِهم بعضِهم مع بَعضٍ في مَجالِسِهم ومُحادثاتِهم بقولِه: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ لأنَّ الحَديثَ مع الأصحابِ والأحِبَّةِ نَعيمٌ للنَّفْسِ؛ فأغْنَى قَولُه: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ عن ذِكْرِ اجتِماعِهم وتَحابِّهم وحَديثِ بَعضِهم مع بَعضٍ، وأنَّ ذلك شَأنُهم أجمَعِينَ؛ بأنْ ذَكَر ما يَستَلزِمُ ذلك، وهو صِيغةُ ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ومادَّتُه؛ على وَجهِ الإيجازِ البَديعِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣١٨).

الجُملةُ اعتِراضيَّةٌ بيْنَ المَعطوفِ والمَعطوفِ عليه؛ جِيءَ بها للتَّقريرِ[١].

- قولُه: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ الزَّوجُ هنا كِنايةٌ عن القَرينِ، أي: قَرَنَّا بكُلِّ واحِدٍ نِساءً حُورًا عِينًا[٢]، وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾، أي: همْ يَأمُرون بأنْ تُحضَرَ لهم الفاكِهةُ، أي: فيُجابُونَ؛ ففي الكلامِ حذْفٌ. والدُّعاءُ نَوعٌ مِن الأمرِ، أي: يَأذَنون بكلِّ فاكِهةٍ، أي: بإحضارِ كلِّ فاكِهةٍ، و(كل) هنا إمَّا مُستَعمَلةٌ في الكَثرةِ الشَّديدةِ لكُلِّ واحِدٍ منهم، أو تَكونُ بمَعنَى الإحاطةِ، أي: بكلِّ صِنفٍ مِن أصنافِ الفاكِهةِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾

- قال في صِفةِ أهلِ الجنَّةِ: إنَّهم ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، مع أنَّهُم لم يَذوقُوا المَوتَ فيها، وهو مِن تَأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه؛ لِزيادةِ تَحقيقِ انتِفاءِ ذَوقِ المَوتِ عن أَجَلِ الجَنَّةِ، كأنَّه قيل: لا يَذوقُون فيها المَوتَ الْبَتَّةَ؛ للمُبالَغةِ في تَعميمِ النَّفيِ؛ فوُضِعَ قَولُه: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ مَوضِعَ ذلك؛ لأنَّ المَوتةَ الماضِيةَ مُحالٌ ذَوقُها في المُستقبَلِ؛ فهو مِن بابِ التَّعليقِ بالمُحالِ، كأنَّه قيل: إنْ كَانَت المَوتةُ الأُولَى يَستَقيمُ ذَوقُها في المُستقبَلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٦، ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣١٩).

فإنَّهم يَذوقونَها، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ. وقيل غيرُ ذلك[١].

- وضَميرُ ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾ عائِدٌ إلى ضَميرِ المُتكَلِّمِ في ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ على طَريقةِ الالْتِفاتِ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَ﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ. وذِكرُ الرَّبِّ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، ومُقتَضَى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: فَضلًا مِنه أو مِنَّا، ونُكتَةُ هذا الإظهارِ: تَشريفُ مَقامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، والإيماءُ إلى أنَّ ذلك إكرامٌ له؛ لإيمانِهم به[٣].

- وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ تَذييلٌ. والإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لِتَعظيمِ الفَضلِ ببُعدِ المَرتَبةِ. وأُتِيَ بضَميرِ الفَصلِ ﴿هُوَ﴾؛ لِتَخصيصِ الفَوزِ بالفَضلِ المُشارِ إليه، وهو قَصرٌ لإفادَةِ مَعنَى الكَمالِ؛ كأنَّه لا فَوْزَ غَيْرُه[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ * فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ للتَّفريعِ؛ إشارةً إلى أنَّ ما بَعْدَها مُتَفَرِّعٌ عمَّا قَبْلَها؛ حيث كان المَذكورُ بعْدَ الفاءِ فَذْلَكةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٨). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٢٩-٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للسُّورَةِ[١]، أي: إجمالًا لأغراضِها بعْدَ تَفصيلِها فيما مَضَى؛ إحضارًا لتِلكَ الأغراضِ، وضَبطًا لتَرَتُّبِ عِلَّتِها، أي: إنَّما أنزَلْنا الكِتابَ المُبينَ بِلُغَتِكَ كَيْ يَفْهَمَه قَومُك، ويَتذَكَّروا ويَعمَلُوا بمُوجَبِه، وإذا لم يَفعلُوا ذلكَ ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ ﴾ ما يَحُلُّ بهم ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴾ ما يَحُلُّ بكَ[٢].

- وضَميرُ ﴿يَسَّرۡنَٰهُ ﴾ عائدٌ إلى الكتابِ المَفهومِ مِن المَقامِ، والمَذكورِ في قَولِه: ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ... ﴾ إلخ [الدخان: ٢، ٣]، والَّذي كان جُلُّ غَرَضِ السُّورَةِ في إثباتِ إنزالِه مِن اللهِ تعالى، كما أشار إليه افتِتاحُها بالحُروفِ المُقَطَّعةِ وقَولِه: ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾؛ فهذا التَّفريعُ مُرتَبِطٌ بذلك الافتِتاحِ، وهو مِن رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٣]؛ فهذا

(١) الفَذْلَكَةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكَةُ) كلمةٌ مَنحوتةٌ كـ(البَسملةِ) و(الحَوْقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كُنَّاشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٧).

(٣) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظينِ المُكرَّرينِ، أو المتجانسَينِ، أو المُلحقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦]. والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ =

التَّفريعُ تَفريعٌ لِمَعنَى الحَصرِ الَّذي في قَولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾؛ لبَيانِ الحِكمةِ في إنزالِ القُرآنِ باللِّسانِ العَرَبيِّ؛ فيَكون تَفريعًا على ما تقدَّم في السُّورةِ، وما تَخَلَّله وتَبِعَه مِن المَواعِظِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المُفَرَّعُ قَولَه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وقُدِّم عليه ما هو تَوطِئةٌ له؛ اهتِمامًا بالمُقَدَّمِ، وتَقديرُ النَّظمِ: فلَعَلَّهُم يتَذَكَّرون بهذا؛ لِمَا يَسَّرْناه لهم بلِسانِهم[1].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن (إِنَّمَا) قَصرُ قَلبٍ[2]، وهو رَدٌّ على المُشرِكين؛ إذ قد سَهَّل لهم طَريقَ فَهمِه بفَصاحَتِه وبَلاغَتِه؛ فقَابَلوه بالشَّكِّ والهُزْءِ، كما قَصَّه اللهُ في أوَّلِ السُّورَةِ بقَولِه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩]، أي: ما جَعَلْنا فَهْمَه يَسيرًا بسَبَبِ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ الفُصحَى -وهي لُغَتُهم- إلَّا لِيَتذَكَّروا فلم يَتذكَّروا، فمَفعولُ ﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾ مُضافٌ مُقَدَّرٌ دلَّ عليه السِّياقُ، تَقديرُه: فَهْمَه[3].

- والباءُ في ﴿بِلِسَانِكَ﴾ للسَّبَبيَّةِ، أي: بسَبَبِ لُغَتِك، أي: العربيَّةِ، وفي إضافةِ اللِّسانِ إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم عِنايةٌ بجانبِه، وتَعظيمٌ له، وإلَّا

= أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]. والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلِماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٠، ٣٢١).

(٢) تقدَّم تعريفه (ص:١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢١).

فاللِّسانُ لِسانُ العَرَبِ[١].

- و(لعَلَّ) مُستَعمَلةٌ في التَّعليلِ، أي: مِن أجْلِ أن يتَذَكَّروا به[٢].

- وفي هذا الكَلامِ المُوجَزِ إخبارٌ بتَيسيرِ القُرآنِ للفَهمِ؛ لأنَّ الغَرَضَ منه التَّذَكُّرُ، وبأنَّ سَبَبَ ذلك التَّيسيرِ كَونُه بأَفصَحِ اللُّغاتِ، وكَونُه على لِسانِ أفضَلِ الرُّسُلِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فلذلك كان تَسَبُّبُه في حُصولِ تَذَكُّرِهم تَسَبُّبًا قَريبًا لو لم يَكُونُوا في شكٍّ يَلعبَون، وباعتبارِ هذه المَعاني المُتَوافِرةِ حَسُنَ أنْ يُفَرَّعَ على هذه الجُملةِ تَأْييدُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَهديدُ مُعانِديه بقَولِه: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴾، أي: فارتَقِبِ النَّصْرَ الَّذي سَأَلْتَه بأنْ تُعانَ عليهم بسِنينَ كَسِنِي يوسفَ -وذلك على قولٍ في تفسيرِ الدُّخَانِ-؛ فإنَّهُم مُرتَقِبون ذلك وأَشَدَّ منه، وهو البَطْشةُ الكُبرَى[٣].

- والفاءُ في قولِه: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴾ فصيحةٌ؛ تُفصِحُ عن محذوفٍ، أي: إنْ لم يَتَّعِظوا ولم يُؤمِنوا به فارْتقِبْ[٤].

- ومَفعولُ (ارْتَقِبْ) مَحذوفٌ، تَقديرُه: هَلاكَهم[٥].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بالانتِظارِ في قَولِه: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ ﴾، أي: ارتَقِبِ النَّصْرَ بأَنَّهُم لَاقُو العذابِ بالقَحطِ -وذلك على قولٍ في تفسيرِ الدُّخَانِ-، وقد أَغنَت (إنَّ) عن التَّسَبُّبِ والتَّعليلِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٧).

- وفي هذه الخاتِمةِ ردُّ العَجُزِ على الصَّدرِ؛ إذ كان صَدرُ السُّورةِ فيه ذِكرُ إنزالِ الكِتابِ المُبينِ، وأنَّه رَحمةٌ مِن اللهِ بواسِطةِ رِسالةِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكان في صَدرِها الإنذارُ بارْتِقابِ يَوم تأْتي السَّماءُ بدُخَانٍ مُبينٍ، وذِكرُ البَطْشةِ الكُبرَى؛ فكانت خاتِمةُ هذه السُّورةِ خاتِمةً عَزيزةَ المَنالِ؛ اشتَمَلت على حُسْنِ بَراعةِ المَقطَعِ، وبَديعِ الإيجازِ[1].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّاني والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ الثَّالثُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الجاثيةِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٢).

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ الزُّخرُفِ

أسماءُ السُّورةِ ١٣
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ١٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ ١٤
الآيات (١-٨) ١٥
غَريبُ الكَلِماتِ ١٥
مُشكِلُ الإعرابِ ١٦
المعنى الإجماليُّ ١٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٤
بلاغةُ الآياتِ ٢٧
الآيات (٩ - ١٤) ٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٦
المعنى الإجماليُّ ٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ٣٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٢
بلاغةُ الآياتِ ٥٥

الآيات (١٥-١٨) ٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٦
مُشكِلُ الإعرابِ ٦٧
المعنى الإجماليُّ ٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧١
بلاغةُ الآياتِ ٧٤
الآيات (١٩-٢٥) ٨١
غَريبُ الكَلِماتِ ٨١
المعنى الإجماليُّ ٨٢
تَفسيرُ الآياتِ ٨٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٩١
بلاغةُ الآياتِ ٩٥
الآيات (٢٦-٣٢) ١٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١٠٦
المعنى الإجماليُّ ١٠٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٠٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١١٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٢١
بلاغةُ الآياتِ ١٢٧

الآيات (٣٣-٣٥) ١٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١٣٦
مُشكِلُ الإعرابِ ١٣٧
المعنى الإجماليُّ ١٣٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٣٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٤٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤٤
بلاغةُ الآياتِ ١٤٥
الآيات (٣٦-٣٩) ١٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ ١٤٨
مُشكِلُ الإعرابِ ١٤٨
المعنى الإجماليُّ ١٥٠
تَفسيرُ الآياتِ ١٥٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٥٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥٦
بلاغةُ الآياتِ ١٥٨
الآيات (٤٠-٤٥) ١٦٧
المعنى الإجماليُّ ١٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٧٨
بلاغةُ الآياتِ ١٨٠

الآيات (٤٦-٥٠) ١٨٩
غَريبُ الكَلِماتِ ١٨٩
المعنى الإجماليُّ ١٨٩
تَفسيرُ الآياتِ ١٩٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩٥
بلاغةُ الآياتِ ١٩٦
الآيات (٥١-٥٦) ٢٠١
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٠١
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٠٢
المعنى الإجماليُّ ٢٠٣
تَفسيرُ الآياتِ ٢٠٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢١٢
بلاغةُ الآياتِ ٢١٤
الآيات (٥٧-٦٥) ٢١٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٢١٩
المعنى الإجماليُّ ٢٢٠
تَفسيرُ الآياتِ ٢٢١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٣٧
بلاغةُ الآياتِ ٢٤٠
الآيات (٦٦-٧٣) ٢٥٢

غَريبُ الكَلِماتِ ٢٥٢
المعنى الإجماليُّ ٢٥٣
تَفسيرُ الآياتِ ٢٥٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٦٤
بلاغةُ الآياتِ ٢٦٨
الآيات (٧٤-٨٠) ٢٧٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٧٥
المعنى الإجماليُّ ٢٧٦
تَفسيرُ الآياتِ ٢٧٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٨٤
بلاغةُ الآياتِ ٢٨٦
الآيات (٨١-٨٩) ٢٩١
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٩١
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٩٢
المعنى الإجماليُّ ٢٩٣
تَفسيرُ الآياتِ ٢٩٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٠٦
بلاغةُ الآياتِ ٣٠٨

سُورةُ الدُّخَانِ

أسماءُ السُّورةِ ٣٢١

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٣٢١
مَقاصِدُ السُّورةِ ٣٢١
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٣٢٢
الآيات (١-٨) ٣٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٢٣
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٢٤
المعنى الإجماليُّ ٣٢٥
تَفسيرُ الآياتِ ٣٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٣١
بَلاغةُ الآياتِ ٣٣٣
الآيات (٩-١٦) ٣٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٤٣
المعنى الإجماليُّ ٣٤٣
تَفسيرُ الآياتِ ٣٤٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٥٢
بلاغةُ الآياتِ ٣٥٣
الآيات (١٧-٢٤) ٣٦١
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٦١
المعنى الإجماليُّ ٣٦٢
تَفسيرُ الآياتِ ٣٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٧٠
بلاغةُ الآياتِ ٣٧١

الآيات (٢٥-٣٣) ٣٨١
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٨١
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٨٢
المعنى الإجماليُّ ٣٨٣
تَفسيرُ الآياتِ ٣٨٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٩٢
بلاغةُ الآياتِ ٣٩٢
الآيات (٣٤-٣٩) ٣٩٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٩٨
المعنى الإجماليُّ ٣٩٨
تَفسيرُ الآياتِ ٣٩٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٠٦
بلاغةُ الآياتِ ٤٠٧
الآيات (٤٠-٥٠) ٤١١
غَريبُ الكَلِماتِ ٤١١
المعنى الإجماليُّ ٤١٣
تَفسيرُ الآياتِ ٤١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٢٠
بلاغةُ الآياتِ ٤٢٢
الآيات (٥١-٥٩) ٤٢٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٢٨

مُشكِلُ الإعرابِ ٤٢٨
المعنى الإجماليُّ ٤٢٩
تَفسيرُ الآياتِ ٤٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٤٠
بلاغةُ الآياتِ ٤٤٣
الفهرس ٤٥١

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الجاثية وسورة الأحقاف وسورة محمد

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثالث والثلاثون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الجاثية وسورة الأحقاف وسورة محمد)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثالث والثلاثون - سورة الجاثية وسورة الأحقاف وسورة محمد/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٦٠٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ١-٩٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- سورة الجاثية - تفسير ٢- القرآن- سورة الأحقاف - تفسير ٣- سورة محمد - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/٢٧٦٣

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٢٧٦٣

ردمك: ١-٩٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الجاثية وسورة الأحقاف و سورة محمد)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثالث والثلاثون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ الجاثيةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الجاثيةِ

أسماءُ السُّورةِ:

تُسَمَّى هذه السُّورةُ بسُورةِ (الجاثيةِ)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ (الجاثيةِ) مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الجاثيةِ:

١- إثباتُ انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ[٤].

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ في كثيرٍ مِن المصاحِفِ وكُتُبِ التَّفسيرِ بسُورةِ الجاثيةِ؛ وذلك لِوُقوعِ لَفظِ «جاثية» فيها؛ في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨]، ولم يَقَعْ في مَوضِعٍ آخَرَ مِن القُرآنِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٣).

قال ابنُ عاشور: (وتُسَمَّى «حم الجاثية»... وتُسمَّى سورةَ «الشَّريعة»؛ لِوُقوعِ لَفظِ «شريعة» فيها؛ في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]، ولم يَقَعْ في مَوضِعٍ آخَرَ مِن القُرآنِ. وتُسمَّى سورةَ «الدَّهرِ»؛ لِوُقوعِ ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] فيها، ولم يَقَعْ لَفظُ «الدَّهرِ» في ذواتِ «حم» الأُخَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٣) بتصرف يسير. ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٦٦)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٨٣).

(٢) وقيلَ: مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]؛ فنَزَل بالمدينةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٢)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٤).

(٣) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٤). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٦).

٢- تقريرُ البَعثِ، ووصْفُ بَعضِ أحوالِه، وحِكايةُ بعضِ أقوالِ المُشرِكينَ المتعَلِّقةِ به، والرَّدُّ عليها[1].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلتْ عليها هذه السُّورةُ الكريمةُ:

٣- افتُتِحَت هذه السُّورةُ بالثَّناءِ على القُرآنِ الكريمِ، والإشارةِ إلى آياتِ اللهِ المَبثوثةِ في الكَونِ.

٤- تَوعُّدُ الأفَّاكينَ بأشَدِّ أنواعِ العذابِ؛ لإصرارِهم على كُفرِهم، واتِّخاذِهم آياتِ اللهِ هُزُوًا.

٥- بيانُ جانبٍ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى على خَلْقِه.

٦- بيانُ مَوقِفِ بني إسرائيلَ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى، واختِلافِهم وبَغْيِهم.

٧- توجيهُ الأمرِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّمَسُّكِ بدِينِ اللهِ، واتِّباعِ شَريعتِه، ونَهْيُه عن اتِّباعِ أهواءِ الجاهِلينَ.

٨- حكايةُ بَعضِ أقوالِ الكافِرينَ الباطِلةِ، مع الرَّدِّ عليها بما يُبطِلُها، ويُثبِتُ كَذِبَها.

٩- بيانُ بَعضِ أهوالِ يومِ القيامةِ ومَشاهِدِها، وعاقِبةِ الأخيارِ، وعاقِبةِ الأشرارِ.

١٠- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بثَناءِ اللهِ سُبحانَه على ذاتِه بما هو أهلُه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ١٤٠).

الآيات (١-٦)

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَأٓيَٰتٖ﴾: أي: لَحُجَجًا ودَلالاتٍ، وتُطلقُ الآيةُ أيضًا على: الموعظةِ، والعلامةِ، والعجيبةِ، وغيرِ ذلك، وأصلُ (أيي): النَّظرُ[١].

﴿يَبُثُّ﴾: أي: يُفَرِّقُ ويَنشُرُ، وأصلُ (بثث): يدُلُّ على تفريقِ الشَّيءِ[٢].

﴿دَآبَّةٍ﴾: الدَّابَّةُ هي كلُّ شَيءٍ دبَّ على وجهِ الأرضِ، ويُستعمَلُ في كلِّ حَيوانٍ، وفي الحشراتِ أكثَر، وأصلُ (دبب): حركةٌ على الأرض أخَفُّ مِن المَشْيِ[٣].

﴿يُوقِنُونَ﴾: أي: يَعلمونَ عِلمًا مُتمَكِّنًا في نُفوسِهم، لا يُمكِنُ أن يَدخُلَه شكٌّ، وأصلُ اليقينِ: زوالُ الشَّكِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨، ٩٠).

﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾: أي: تَحويلِها وتَقليبِها تارةً بالرَّحمةِ، وتارةً بالعَذابِ، وتارةً حارَّةً، وتارةً بارِدةً، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: ﴿حمٓ﴾، وهما مِن الحروف المقطَّعةِ الَّتي تأتي لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ، ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ هذا الكِتابَ العَظيمَ -وهو القُرآنُ- تنزيلٌ مِن عندِه سُبحانَه وتعالى، وهو سُبحانَه المتَّصِفُ بالأُلوهيَّةِ والعِزَّةِ والحِكمةِ.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ في خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ عَلاماتٍ للمُؤمِنينَ على كَمالِ قُدرتِه تعالى، وبَديعِ صُنعِه، وفي خَلقِ اللهِ للنَّاسِ وما يَنشُرُه مِن الدَّوابِّ عَلاماتٌ واضِحةٌ لِقَومٍ يُوقِنونَ بالحَقِّ فيُقِرُّونَ به، وفي اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ وتَعاقُبِهما دَومًا، وفيما أنزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِن ماءٍ، فأنبَتَ به الأرضَ بعدَ جَدْبِها، وفي تنويعِ الرِّياحِ في الجهاتِ والصِّفاتِ: عَلاماتٌ واضِحةٌ كذلك لِقَومٍ يَعقِلونَ.

ثمَّ خاطب اللهُ تعالى نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قائلًا له: تلك آياتُ اللهِ نَقرَؤُها عليك -يا محمَّدُ- بواسِطةِ جِبريلَ، وهي مُشتَمِلةٌ على الحَقِّ الَّذي لا باطِلَ فيه، فإنْ لم يُؤمِنِ المُشرِكونَ بهذا القُرآنِ فبأيِّ حَديثٍ بعدَ كِتابِ اللهِ وبعدَ حُجَجِه وآياتِه يُؤمِنونَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ١﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بهذَينِ الحَرفَينِ مِن الحروفِ المقطَّعةِ الَّتي تُستفتَحُ بها كثيرٌ مِن سوَرِ القرآنِ لبيانِ إعجازِه؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضَتِه بمِثلِه، مع أنَّه مرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[١].

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾.

أي: تَنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ المتَّصِفِ بكَمالِ العِزَّةِ؛ فهو الغالِبُ القاهِرُ، العَظيمُ القَدْرِ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ نَقصٍ وعَيبٍ؛ والمُتَّصِفِ أيضًا بالحِكمةِ التَّامَّةِ في شَرْعِه وخَلْقِه وقَدَرِه؛ فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به[٢].

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ تعالى أنَّ هذا الكِتابَ الكريمَ أنزَلَه العَزيزُ الحَكيمُ؛ أعقَبَ ذلك بنتائِجِ العِزَّةِ والحِكمةِ[٣]، فقال تعالى:

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾.

أي: إنَّ في خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ لَعَلاماتٍ باهِرةً، ودلائِلَ واضِحةً على الحَقِّ للمُؤمِنينَ دُونَ غَيرِهم[٤].

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن

---

(١) يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سُورةِ البَقَرةِ (١/ ٦٤) من هذا ((التَّفسير المحرَّر)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٩).

فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٦ - ٨].

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَّرَ اللهُ سُبحانَه بالنَّظَرِ في آياتِ الآفاقِ، ونبَّه بخلقِ السَّمَواتِ والأرضِ؛ أتْبَعَ ذلك بذِكرِ آياتِ الأنفُسِ، وما بثَّ في الأرضِ[(١)].

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: وفي خَلقِ اللهِ إيَّاكم -أيُّها النَّاسُ-، وخَلْقِه ما يَنشُرُه ويُفَرِّقُه مِن الدَّوابِّ بأنواعِها: دَلالاتٌ واضِحةٌ، وعَلاماتٌ باهِرةٌ لِقَومٍ يُوقِنونَ بالحَقِّ، فيُقِرُّونَ به، ويَعلَمونَ صِحَّتَه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [الشورى: ٢٩].

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٢، ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٩).

أي: وفي تَعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ دائِبَينِ لا يَفتُرانِ، واختِلافِهما في الطُّولِ والقِصَرِ، والنُّورِ والظُّلْمةِ، إلى غيرِ ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

أي: وفيما أنزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِن ماءٍ، فأنبَتَ به الأرضَ بعدَ جَدْبِها، فأخرَجَ منها أرزاقَ العِبادِ وأقواتَهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٩).
قال السعدي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سُورةِ البَقَرةِ (١٦٤): (﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهو تَعاقُبُهما على الدَّوامِ؛ إذا ذهَبَ أحَدُهما خَلَفَه الآخَرُ، وفي اختِلافِهما في الحَرِّ والبَردِ والتَّوسُّطِ، وفي الطُّولِ والقِصَرِ والتَّوسُّطِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧).
وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالرِّزقِ هنا: المطرُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧).
قال الشنقيطي: (أوضَحَ بقَولِه: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أنَّ مُرادَه بالرِّزقِ المطَرُ؛ لأنَّ المطَرَ هو الَّذي يُحيي اللهُ به الأرضَ بعدَ مَوتِها، وقد أوضَحَ جَلَّ وعلا أنَّه إنَّما سُمِّيَ المطَرُ رزقًا؛ لأنَّ المطَرَ سَبَبُ الرِّزقِ في آياتٍ كَثيرةٍ مِن كِتابِه، كقَولِه تعالى في سورةِ البَقَرةِ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٢]، والباءُ في قَولِه ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ سَبَبِيَّةٌ كما ترى). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٧٧) و(٧/ ١٨٣).
وقيل: المرادُ بالرِّزقِ: المطَرُ وغَيرُه مِن الأسبابِ المُهَيِّئةِ لإخراجِ الرِّزقِ. وممَّن قال بهذا القولِ: البِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٩٣).

كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾.

أي: وفي تنويعِ الرياحِ بإرسالِها مِن جهاتٍ مُختَلِفةٍ -فتارةً تَهُبُّ مِن جهةٍ، وتارَةً مِن أُخرَى- وبصِفاتٍ مُختلِفةٍ؛ فتارَةً تكونُ حارَّةً، وتارةً باردةً، وتارةً تكونُ نافعةً، وتارةً ضارَّةً، وتارةً تكونُ رحمةً، وتارةً عذابًا... إلى غيرِ ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم: ٤٦].

﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

أي: في اختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وإنزالِ المطرِ، وإحياءِ الأرضِ به، وتصريفِ الرِّياحِ- دَلالاتٌ واضِحاتٌ وعلاماتٌ باهِراتٌ على الحَقِّ لِقَومٍ يَعقِلونَ عن اللهِ تعالى حُجَجَه، ويَفهَمونَ ما وعَظَهم به مِنَ الآياتِ والعِبَرِ[2].

كما قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٩).

وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: تلك آياتُ اللهِ نُخبِرُك بها -يا مُحمَّدُ- ونَقرَؤُها عليك بواسِطةِ جِبريلَ، مُشتَمِلةً على الحَقِّ والصِّدقِ الخالِصِ، الَّذي لا باطِلَ معه ولا كَذِبَ(١).

كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: فإنْ لم يُؤمِنِ المُشرِكونَ بهذا القُرآنِ فبأيِّ حَديثٍ بَعدَه يُؤمِنونَ ويَنتَفِعونَ ويَعتَبِرونَ؟! إذ لا أحسَنَ مِن القُرآنِ حَديثًا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٨)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٧١) وَ (٢/ ٧٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٥ - ١٨٧).
قال البقاعي: (﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: الأمرِ الثَّابِتِ الَّذي لا يُستطاعُ تَحويلُه؛ فليس بسِحرٍ ولا كَذِبٍ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٨).
قال الشوكاني: (﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بعدَ حَديثِ اللهِ وبعدَ الآياتِ، فيَكونُ مِن بابِ: أعجَبَني زَيدٌ وكَرَمُه. وقيل: المرادُ: بعدَ حديثِ اللهِ، وهو القُرآنُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وهو المرادُ بالآياتِ، والعَطفُ لِمُجرَّدِ التَّغايُرِ العُنوانيِّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦).
وقال ابنُ عاشور: (وعَطَف ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾ على ﴿حَدِيثٍۭ﴾؛ لأنَّ المرادَ بها الآياتُ غيرُ القُرآنِ؛ مِن =

كما قال تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المرسلات: ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال تعالى: ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ إذا أنعَمَ العَبدُ نَظَرَه في استِواءِ قَدِّه وقامتِه، واستِكمالِ عَقلِه وتمامِ تَمييزِه، وما هو مَخصوصٌ به في جوارِحِه وحوائِجِه، ثمَّ فَكَّر فيما عَداه مِن الدَّوابِّ؛ في أجزائِها وأعضائِها، ثمَّ وَقَف على اختِصاصِ وامتيازِ بني آدَمَ مِن بيْنِ البَرِيَّةِ مِن الحيواناتِ في الفَهمِ والعَقلِ والتَّمييزِ والعِلمِ، ثمَّ في الإيمانِ- عَرَف تَخَصُّصَهم بمناقِبِهم، وانفِرادَهم بفَضائِلِهم؛ فاستَيقَنَ أنَّ اللهَ كَرَّمهم، وعلى كثيرٍ مِن المخلوقاتِ قَدَّمهم[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ابتداءُ تَنزيلِ القُرآنِ مِنَ اللهِ تعالى، لا مِن جِبريلَ ولا غَيرِه؛ قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، فجِبريلُ نزَل به مِن عندِ اللهِ تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾[٢] [النحل: ١٠٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إثباتُ العُلُوِّ للهِ تعالى، ووجْهُ ذلك: الإخبارُ بنُزولِ الأشياءِ منه[٣]، والنُّزولُ إنَّما يكونُ مِن الأعلَى[٤].

= دلائِلِ السَّمَواتِ والأرضِ مِمَّا تَقدَّمَ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٤).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ تلك الآياتِ لا أثَرَ لها في نُفوسِ مَن هم بخِلافِ المؤمِنينَ والَّذين يُوقِنونَ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ رَتَّبَها على ثلاثةِ مَقاطِعَ، والغَرَضُ: التَّنبيهُ على أنَّه لا بُدَّ مِن إفرادِ كُلِّ واحدٍ منها بنَظَرٍ تامٍّ شافٍ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ جُعِلَ خَلقُ النَّاسِ والدَّوابِّ آيةً للمَوصوفينَ بالإيقانِ؛ لأنَّ دَلالةَ الخَلقِ كائِنةٌ في نَفْسِ الإنسانِ وما يُحيطُ به مِن الدَّوابِّ[٣]. وقيل: لَمَّا كانت آياتُ الأنفُسِ أدَقَّ وأدَلَّ على القُدرةِ والاختيارِ بما لها مِنَ التَّجَدُّدِ والاختِلافِ، قال: ﴿لِّقَوْمٍ﴾، أي: فيهم أهليَّةُ القيامِ بما يُحاوِلونَه ﴿يُوقِنُونَ﴾ أي: يَتجَدَّدُ لهم العُروجُ في دَرَجاتِ الإيمانِ إلى أن يَصِلوا إلى شَرَفِ الإيقانِ فلا يُخالِطَهم شَكٌّ في وَحدانيَّتِه[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لَمَّا كانت مَنافِعُ السَّماءِ غيرَ مُنحَصِرةٍ في الماءِ قال: ﴿مِن رِّزْقٍ﴾، أي: مَطَرٍ وغَيرِه مِن الأسبابِ المُهَيِّئةِ لإخراجِ الرِّزقِ[٥]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٦٦).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ لَمَّا كان الماءُ بما يَحدُثُ عنه مِن الإنباتِ أوضَحَ دَلالةً مِن بقيَّةِ الآياتِ على البَعثِ، ومِن أجْلِ شِدَّةِ ظُهورِها ناط الأمرَ فيها بالعَقلِ فقال: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[1].

٨- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۞ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ فيه سِتَّةُ براهينَ مِن براهينِ التَّوحيدِ الدَّالَّةِ على عَظَمتِه تعالى وجَلالِه، وكَمالِ قُدرتِه، وأنَّه المُستَحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه.

الأوَّلُ منها: خَلْقُه السَّمَواتِ والأرضَ. الثَّاني: خَلْقُه النَّاسَ. الثَّالِثُ: خَلْقُه الدَّوابَّ. الرَّابعُ: اختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ. الخامِسُ: إنزالُ الماءِ مِن السَّماءِ، وإحياءُ الأرضِ به. السَّادِسُ: تَصريفُ الرِّياحِ.

وهذه البَراهينُ العَظيمةُ ثَلاثةٌ منها مِن براهينِ البَعثِ الَّتي يَكثُرُ في القُرآنِ العَظيمِ الاستِدلالُ بها على البَعثِ كَثرةً مُستَفيضةً.

والأوَّلُ مِن البراهينِ المذكورةِ: هو خَلقُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنَّ خَلْقَه جَلَّ وعلا للسَّمَواتِ والأرضِ: مِن أعظَمِ البَراهينِ على بَعثِ النَّاسِ بعدَ الموتِ؛ لأنَّ مَن خَلَق الأعظَمَ الأكبَرَ لا شَكَّ في قُدرتِه على خَلْقِ الأضعَفِ الأصغَرِ.

وأمَّا الثَّاني مِنَ البَراهينِ المذكورةِ: فهو خَلْقُه تعالى للنَّاسِ المرَّةَ الأُولى؛ لأنَّ مَنِ ابتَدَع خَلْقَهم على غَيرِ مِثالٍ سابِقٍ: لا شَكَّ في قُدرتِه على إعادةِ خَلْقِهم مرَّةً أُخرى، كما لا يَخفَى.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٧).

وأمَّا البُرهانُ الثَّالِثُ منها -وهو إحياءُ الأرضِ بعدَ مَوتِها-: فإنَّه يَكثُرُ الاستِدلالُ به أيضًا على البَعثِ في القُرآنِ العَظيمِ؛ لأنَّ مَن أحيا الأرضَ بعدَ مَوتِها قادِرٌ على إحياءِ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم؛ لأنَّ الجَميعَ إحياءٌ بعدَ مَوتٍ(١).

٩- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ هذا الكلامُ وإنْ كان مُوجَّهًا إلى قَومٍ لا يُنكِرون وُجودَ الإلهِ، وإنَّما يَزعُمون له شُركاءَ، وكان مَقصودًا منه ابتداءً إثباتُ الوَحدانيَّةِ؛ فهو أيضًا صالِحٌ لِإقامةِ الحُجَّةِ على المُعطِّلينَ الَّذين يَنفُون وُجودَ الصَّانعِ المُختارِ، وفي العرَبِ فَريقٌ منهم؛ فإنَّ أحوالَ السَّمواتِ كلَّها مُتغيِّرةٌ، والتَّغيُّرُ دَليلُ الحُدوثِ، وهو الحاجةُ إلى الفاعِلِ المُختارِ الَّذي يُوجِدُها بعْدَ العدَمِ ثمَّ يُعدِمُها(٢).

١٠- سُمِّيَت آياتُ القُرآنِ آياتٍ، وقيل: إنَّها آياتُ اللهِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٥٢]؛ لأنَّها عَلاماتٌ ودَلالاتٌ على اللهِ، وعلى ما أراد؛ فهي تدُلُّ على ما أخبَر به، وعلى ما أمَر به ونهَى عنه، وتدُلُّ أيضًا على أنَّ الرَّسولَ صادِقٌ؛ إذ كانت مِمَّا لا يَستطيعُ الإنسُ والجِنُّ أن يأتوا بمِثْلِها، وقد تحَدَّاهم بذلك(٣).

١١- مِن أحسَنِ اللَّازِمِ وأبْيَنِه أنْ تُبيِّنَ للسَّامِعِ الحَقَّ، ثمَّ تقولَ له: أَيْشٍ تقولُ خِلافَ هذا؟ وأين تَذهَبُ خِلافَ هذا؟ قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]؛ فالأمرُ مُنحَصِرٌ في الحَقِّ والباطِلِ، والهُدى والضَّلالِ؛ فإذا عدَلْتم عن الهُدى والحَقِّ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٧١).

فأينَ العُدولُ وأين المَذهَبُ[١]؟!

١٢- مَن لم يَهتَدِ بما جاءت به الأنبياءُ فهو أبعدُ النَّاسِ عن الهُدى؛ قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ * وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨ - ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢] [آل عمران: ١٠١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ﴾ افتُتِحتِ السُّورةُ بالحَرفَيْنِ المُقَطَّعَيْنِ مِن حُروفِ الهِجاءِ؛ لأنَّ أوَّلَ أغراضِها أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ؛ ففي حَرفَي الهِجاءِ رَمزٌ إلى عَجزِهم عن مُعارَضَتِه بعْدَ أنْ تَحَدَّاهم؛ لذلك لم يَفعَلوا، وفي ذلك الافتِتاحِ تَشويقٌ إلى تَطَلُّعِ ما يأتي بعْدَه؛ لِلاهتِمامِ به[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾

- قولُه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو جُملةٌ مُركَّبةٌ مِن مُبتدأٍ وخبَرٍ، والكتابُ هو المَعهودُ، وهو ما نَزَل مِن القُرآنِ إلى تلك السَّاعةِ، والمقصودُ: إثباتُ أنَّ القرآنَ مُوحًى به مِن اللهِ تعالى إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُجعَلَ القُرآنُ مُسنَدًا إليه،

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٩٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٤) و(٢٥/ ٣٢٤).

ويُخبَرَ عنه فيُقالَ: القُرآنُ مُنزَّلٌ مِن اللهِ العزيزِ الحَكيمِ؛ لأنَّ كَونَه مُنزَّلًا مِن اللهِ هو مَحَلُّ الجِدالِ، فيَقْتضي أنْ يكونَ هو الخبَرَ، ولو أذْعَنوا لِكَونِه تَنزيلًا لَمَا كان منهم نِزاعٌ في أنَّ تَنزيلَه مِن اللهِ، ولكنْ خُولِفَ مُقْتضى الظَّاهرِ لِغَرضَينِ:

أحدُهما: التَّشويقُ إلى تَلقِّي الخبَرِ؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا الابتداءَ بتَنزيلِ الكِتابِ، اسْتَشْرفوا إلى ما سيُخبَرُ عنه؛ فأمَّا الكافِرونَ فيَترقَّبون أنَّه سيُلْقَى إليهم وَصْفٌ جَديدٌ لِأحْوالِ تَنزيلِ الكتابِ، فيَتهيَّؤون لِخَوضٍ جَديدٍ مِن جِدالِهم وعِنادِهم، والمُؤمِنون يَترقَّبون لِما يَزيدُهم يَقينًا بهذا التَّنزيلِ.

والغرَضُ الثَّاني: أنْ يُدَّعى أنَّ كَونَ القُرآنِ تَنزيلًا أمْرٌ لا يُختلَفُ فيه؛ فالَّذين خالَفوا فيه كأنَّهم خالَفوا في كَونِه مُنزَّلًا مِن عِندِ اللهِ، وهل يَكونُ التَّنزيلُ إلَّا مِن عِندِ اللهِ؟ فيَؤولُ إلى تأْكيدِ الإخبارِ بأنَّه مُنزَّلٌ مِن عِندِ اللهِ؛ إذ لا فرْقَ بيْن مَدلولِ كَونِه تَنْزيلًا وكَونِه مِن عِندِ اللهِ إلَّا باختلافِ مَفهومِ المَعنيَينِ دُونَ ماصَدَقَيْهما[1].

- وقيل: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو خَبرٌ بعدَ خبرٍ على أنَّه مصدرٌ أُطلِقَ على المفعولِ مُبالَغةً[2]. وهذا على الوجهِ بأنَّ ﴿حمٓ﴾ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ.

- قولُه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ في إضافةِ التَّنزيلِ إليه في هذا الموضِعِ وَجهانِ:

أحَدُهما: الافتِتاحُ بأنَّه كِتابٌ منه، كما يَفتَتِحُ الكاتِبُ كِتابَه به.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٥).

و(الماصَدَق): اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو الموصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٧).

الثَّاني: أنَّه أضافَه إليه تَعظيمًا لِقَدْرِه، وتَضخيمًا لِشَأنِه عليه في الابتداءِ بإضافتِه إليه[١].

- وإيثارُ وَصْفَي ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ بالذِّكرِ هنا دونَ غَيرِهما مِن الأسماءِ الحُسْنى؛ لإشعارِ وَصْفِ العَزيزِ بأنَّ ما نزَلَ منه مُناسِبٌ لِعِزَّتِه؛ فهو كِتابٌ عَزيزٌ، أي: هو غالِبٌ لِمُعانِديه؛ وذلك لأنَّه أعجَزَهم عن مُعارَضتِه، ولإشعارِ وَصْفِ الحَكيمِ بأنَّ ما نزَلَ مِن عِندِه مُناسِبٌ لِحِكمَتِه؛ فهو مُشتمِلٌ على دَلائلِ اليَقينِ والحقيقةِ، ففي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ إعْجازَه مِن جانِبِ بَلاغتِه؛ إذ غلَبَتْ بَلاغةَ بُلغائِهم، ومِن جانِبِ مَعانيه؛ إذ أعْجَزَت حِكمتُه حِكمةَ الحُكماءِ[٢].

- وهذا الابتِداءُ بالتَّحدِّي بإعجازِ القُرآنِ، وأنَّه جاء بالحقِّ: تَوطئةٌ لِمَا سَيُذكَرُ بأنَّه حقٌّ، كما اقتضاهُ قولُه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾[٣] [الجاثية: ٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّنبيهِ على الآياتِ التَّكوينيَّةِ الآفاقيَّةِ والأنْفُسيَّةِ[٤].

- وقولُه: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ واقعٌ مَوقِعَ تَفصيلِ المُجمَلِ لِمَا جَمَعَتْه جُملةُ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ٢]؛ باعتبارِ أنَّ آياتِ السَّمواتِ والأرْضِ وما عُطِفَ عليها إنَّما كانتْ آياتٍ للمُؤمِنينَ المُوقِنينَ، ولِلَّذِين حصَلَ لهم العِلمُ بسَببِ ما ذكَّرَهم به القُرآنُ، وممَّا يُؤيِّدُ ذلك قولُه تعالَى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٧).

ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾[١] [الجاثية: ٦].

- وأُكِّدَ الكلامُ بحَرْفِ (إنَّ) وإنْ كان المُخاطَبون غيرَ مُنكِريه؛ لِتَنزيلِهم مَنزِلةَ المُنكِرِ لذلك بسَببِ عَدَمِ انتِفاعِهم بما في هذه الكائِناتِ مِن دَلالةٍ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالَى؛ وإلَّا فقدْ قال اللهُ تعالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[٢] [الزُّخرف: ٩].

- قولُه: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ لمْ يَأْتِ بالآياتِ مُفصَّلةً، بلْ أتَى بها مُجمَلةً؛ إحالةً على غَوامضَ يُثيرُها الفِكْرُ، ويُخبِرُ بكَثيرٍ منها الشَّرْعُ[٣].

- والمُرادُ بكَونِ الآياتِ في السَّمواتِ والأرْضِ أنَّ ذاتَ السَّمواتِ والأرضِ وعِدادَ صِفاتِها دَلائلُ على الوَحدانيَّةِ؛ فجُعِلَت السَّمواتُ والأرضُ بمَنزلةِ الظَّرْفِ لِمَا أُودِعَتْه مِن الآياتِ؛ لأنَّها مُلازِمةٌ لها بأدْنى نَظَرٍ. وجُعِلَت الآياتُ للمُؤمِنينَ؛ لأنَّهم الَّذين انْتَفَعوا بدَلالتِها، وعَلِموا منها أنَّ مُوجِدَها ومُقدِّرَ نِظامِها واحدٌ لا شَريكَ له[٤]، ولأنَّ في ضِمْنِ الإيمانِ العَقْلَ والتَّصديقَ[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣] عطْفَ خاصٍّ على عامٍّ؛ لِمَا في هذا الخاصِّ مِن التَّذكيرِ بنِعمةِ إيجادِ النَّوعِ؛ استِدْعاءً للشُّكرِ عليه[٦].

- قولُه: ﴿ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ... ﴾ البَثُّ: التَّوزيعُ والإكثارُ، وهو يَقْتضي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٦، ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧).

الخلْقَ والإيجادَ؛ فكأنَّه قيلَ: وفي خَلْقِ اللهِ ما يَبُثُّ مِن دابَّةٍ. وعُبِّرَ بالمُضارِعِ في ﴿يَبُثُّ﴾؛ لِيُفِيدَ تَجدُّدَ البَثِّ وتَكرُّرَه باعتِبارِ اختلافِ أجناسِ الدَّوابِّ وأنْواعِها وأصْنافِها(١).

- والخِطابُ مُوجَّهٌ إلى المُشرِكينَ؛ ولذلك قال: ﴿لَّآيَٰتٍ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وقال: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾، دُونَ أنْ يُقالَ: لَآياتٍ لكمْ أو آياتٍ لكمْ، أي: هي آياتٌ لِمَن يَعلمونَ دَلالتَها مِن المُؤمِنينَ ومِن الَّذين يُوقِنون؛ إشارةً إلى أنَّ تلك الآياتِ لا أثَرَ لها في نُفوسِ مَن همْ بخِلافِ ذلك(٢).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ ﴿مِن رِّزۡقٖ﴾، أي: مِن مَطَرٍ، وهو سبَبٌ للرِّزْقِ؛ عُبِّرَ عنهُ بذلكَ تَنبيهًا على كَونِه آيةً مِن جِهتَيِ القُدرةِ والرَّحْمةِ(٣).

- وأُخِّرَ قولُه: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ عن إنْزالِ المطَرِ مع تَقدُّمِه عليهِ في الوُجودِ؛ إمَّا لِلْإيذانِ بأنَّه آيَةٌ مُستقِلَّةٌ، حيثُ لو رُوعيَ التَّرتيبُ الوُجوديُّ لَرُبَّما تُوهِّمَ أنَّ مَجموعَ تَصْريفِ الرِّياحِ وإنْزالِ المطَرِ آيةٌ واحِدةٌ. وإمَّا لأنَّ كَونَ التَّصريفِ آيةً ليس لِمُجَرَّدِ كَونِه مَبدأً لإنشاءِ المَطرِ، بلْ له ولِسائرِ المَنافِعِ الَّتي مِن جُمْلتِها سَوْقُ السُّفنِ في البِحارِ(٤).

- وتَنكيرُ (آيَاتٍ) في المواقعِ الثَّلاثةِ [الجاثية: ٣، ٤، ٥]؛ للتَّفخيمِ كمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وكَيفًا[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث ذُكِرَ في آيةِ (البَقَرةِ) ثَمانيةُ دَلائلَ تَدْعو للإيمانِ، في قولِه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وذُكِرَ هاهنا سِتَّةُ أنواعٍ فقط، ولم يُذكَرِ الفُلْكُ والسَّحابُ: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٥]؛ والسَّببُ في ذلك: أنَّ مَدارَ الحَرَكةِ للفُلْكِ والسَّحابِ على الرِّياحِ المُختلِفةِ، فذِكْرُ الرِّياحِ -الَّذي هو كالسَّببِ- يُغْني عن ذِكْرِهما[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ اختلَفتِ الفواصلُ الثَّلاثُ لِاخْتلافِ الآياتِ في الدِّقَّةِ والظُّهورِ والجَلاءِ؛ فختَمَ الآيةَ الأُولى بقولِه: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، والثَّانيةَ بقولِه: ﴿يُوقِنُونَ﴾، والثَّالثةَ بقولِه: ﴿يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّه تعالى لَمَّا ذكَرَ العالَمَ ضِمْنًا -ولا بُدَّ له مِن صانعٍ مَوصوفٍ بصِفاتِ الكَمالِ، ومِن الإيمانِ بالصَّانعِ-؛ ناسَبَ خَتْمُ الأُولى بالمُؤمِنينَ، فكأنَّه قِيل لهمْ: إنْ كُنْتُم مِن المُؤمِنينَ فافْهَموا هذه الدَّلائلَ. ولَمَّا كان الإنسانُ أقرَبَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٤).

إلى الفَهْمِ مِن غَيرِه، وكان فِكْرُه في خَلْقِه وخلْقِ الدَّوابِّ ممَّا يَزيدُه يَقينًا في إيمانِه؛ ناسَبَ خَتْمُ الثَّانيةِ بقَولِه: ﴿يُوقِنُونَ﴾، أي: وإنْ كُنتم لَسْتُم مِن المُؤمِنينَ، بلْ أنتُم مِن طُلَّابِ الجَزْمِ واليَقينِ، فافْهَموا تلك الدَّلائلَ. ولَمَّا كان جُزئياتُ العالَمِ -مِنِ اخْتِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ وما ذكَرَه مَعَهما- ممَّا لا يُدرَكُ إلَّا بالعقلِ؛ ناسَبَ ختْمُ الثَّالثةِ بقَولِه: ﴿يَعْقِلُونَ﴾، كأنَّه قال: وإنْ كُنتُم لَسْتُم مِن هؤلاءِ ولا مِن هؤلاءِ، فلا أقلَّ مِن أنْ تَكونوا مِن زُمْرةِ العاقلينَ؛ فاجْتَهِدوا في مَعرفةِ الدَّلائلِ، وهذا مِن بابِ التَّنزُّلِ[1].

وقيل: المعنى: أنَّ المُنصِفينَ لَمَّا نَظَروا في السَّمَواتِ والأرضِ؛ وأنَّه لا بُدَّ لهما مِن صانِعٍ؛ آمَنوا، فإذا نَظَروا في خَلقِ أنفُسِهم ونَحوِها ازدادوا إيمانًا فأيْقَنوا، فإذا نَظَروا في سائِرِ الحَوادِثِ عَقَلوا واستحكَمَ عِلمُهم[2]، فهو تَرَقٍّ مِن حالٍ شَريفٍ إلى ما هو أشرَفُ منه وأعلى[3].

- وقيل: المُرادُ بـ(المُؤمِنينَ)، وبـ(قَوْمٍ يُوقِنُونَ)، وبـ(قَوْمٍ يَعْقِلُونَ) واحدٌ، وهمُ المُؤمِنونَ بتَوحيدِ اللهِ؛ فحَصَلَ لهم اليقينُ وكانوا يَعقِلون، أي: يَعلَمون دَلالةَ الآياتِ، والمَعنى: أنَّ المؤمنينَ والَّذين يُوقِنون -أي يَعلَمون ولا يُكابِرون- والَّذين يَعقِلون دَلالةَ الآثارِ على المُؤثِّرِ، ونَظَروا النَّظَرَ الصَّحيحَ في شَواهدِ السَّمواتِ والأرضِ، فعَلِموا أنْ لا بُدَّ لها مِن صانعٍ، وأنَّه واحِدٌ، فأيْقَنَ بذلك العاقِلُ منهم الَّذي كان مُتَرَدِّدًا، وازدادَ إيمانًا مَن كان مُؤمِنًا فصارَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٩، ٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤).

مُوقِنًا؛ فالمعنى: أنَّ الَّذين انتَفَعوا بالآياتِ همُ المُؤمِنونَ العاقِلونَ، فوُزِّعَتْ هذه الأوصافُ على فَواصلِ هذه الآيِ؛ لأنَّ ذلك أوقَعُ في نَفْسِ السَّامعِ مِن إتْلاءِ بَعضِها لِبَعضٍ، وقُدِّمَ المُتَّصِفونَ بالإيمانِ؛ لِشَرَفِه، وجُعِلَ خلْقُ النَّاسِ والدَّوابِّ آيةً للمَوصوفينَ بالإيقانِ؛ لأنَّ دَلالةَ الخلْقِ كائنةٌ في نفْسِ الإنسانِ وما يُحِيطُ به مِن الدَّوابِّ، وجُعِلَ اخْتِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ، واختِلافُ حَوادثِ الجوِّ آيةً لِلَّذِين اتَّصَفوا بالعقْلِ؛ لأنَّ دَلالتَها على الوَحدانيَّةِ بِواسِطةِ لَوازِمَ مُترَتِّبةٍ بإدراكِ العَقلِ، وقدْ أومَأَ ذِكرُ هذه الصِّفاتِ إلى أنَّ الَّذين لم يَهْتَدُوا بهذه الآياتِ لَيسوا مِن أصحابِ هذه الصِّفاتِ؛ ولذلك أعْقَبَه بقولِه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦] اسْتِفهامًا إنْكاريًّا بمَعنى النَّفيِ[(١)]. وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

٦- قولُه تعالَى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ وبَيانُها بآياتِ اللهِ إشارةً إلى الآياتِ المذكورةِ في قولِه: ﴿لَّءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، وقولِه: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤]، وقولِه: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]. وإضافتُها إلى اسمِ الجَلالةِ؛ لأنَّ خَلْقَها على تلك الصِّفاتِ الَّتي كانتْ لها آياتٌ للمُستبصِرينَ. ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى حاضرٍ في الذِّهنِ غيرِ مَذكورٍ؛ لِما دلَّ عليه قولُه: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الجاثية: ٢]، أي: تلك آياتُ اللهِ المُنزَّلةُ في القُرآنِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧، ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٧٨-١١٨٢)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٣٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٩، ٣٣٠).

- وفي الإبهامِ في اسْمِ الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾ -وتَفسيرِه بـ ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾-، وقُرْبِ المُشارِ إليه وهو (أي اسمُ الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾) مَوضوعٌ للبَعيدِ، وتَخصيصِ اسمِ (الله) الجامِعِ، وتَكريرِه، وإيثارِ صِيغةِ الجمْعِ ﴿نَتْلُوهَا﴾ للتَّعظيمِ: خطْبٌ خَطيرٌ، وشأْنٌ جَليلٌ في الاستِبعادِ[1].

- قولُه: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أسنَدَ جلَّ وعلا تِلاوتَها إلى نفْسِه؛ لأنَّها كلامُه الَّذي أنْزَلَه على رسولِه بواسِطةِ المَلَكِ، وأمَرَ المَلَكَ أنْ يَتلوَه عليه مُبلِّغًا عنه جلَّ وعلَا[2].

- قولُه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بعْدَ آياتِ اللهِ. وتَقديمُ الاسمِ الجَليلِ (الله)؛ للمُبالَغةِ والتَّعظيمِ، كما في قَولِك: أعْجَبني زيدٌ وكرَمُه[3]، أو أنَّ إضافةَ (بعْدَ) إلى اسمِ الجَلالةِ على تَقديرِ مُضافٍ دلَّ عليه ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾، والتَّقديرُ: بعْدَ حَديثِ اللهِ، وهو كِتابُه وقُرآنُه، أي: بعْدَ سَماعِه[4]، يعني: أنَّ القُرآنَ مِن بيْنِ الكُتُبِ المُنزَّلةِ آيةٌ مُبصِرةٌ، ومُعجِزةٌ باهرةٌ؛ فحِينَ لمْ يُؤمِنوا به فبأيِّ كِتابٍ بعْدَه يُؤمِنون؟! ويَعضُدُ هذا التَّأويلَ عطْفُ ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾ على ﴿ٱللَّهِ﴾، أي: بعْدَ كِتابِ اللهِ وآياتِه الباهرةِ وبَراهينِه السَّاطِعةِ، وهو مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ، وكذا تَرتُّبُ الفاءِ في ﴿فَبِأَيِّ﴾ على ما قبْلَه؛ فعلَى هذا: المُناسِبُ في الوجْهِ الأوَّلِ -وهو أنْ يُرادَ بقَولِه: ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ﴾: بعْدَ آياتِ اللهِ- أنْ يكونَ المُشارُ إليه بقولِه: ﴿تِلْكَ﴾: الآياتِ المُتقدِّمةَ، وفي الوجْهِ الثَّاني: الآياتِ التَّاليةَ، على نحْوِ: هذا أخوكَ. وهذا

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٠).

أجمَعُ؛ لأنَّه يَضُمُّ الدَّلائلَ المَنْصوبةَ مِن الآفاقيَّةِ والأنْفُسيَّةِ مع النُّصوصِ القاهرةِ، وحصَلَ منه التَّرقِّي مِن الأدْنَى إلى الأعْلَى في البَيانِ والكشْفِ، وتَبيَّنَ أنَّ بَياناتِ النُّصوصِ هي الَّتي تُزِيلُ مِن ألْبابِ أربابِ العُقولِ الشُّكوكَ، وتُجْلِي الرِّيَبَ[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّأْييسِ والتَّعجيبِ[٢]. وفيه تَقريعٌ وتَوبيخٌ وتَهديدٌ[٣].

- وعلى قراءةِ ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ -بالتَّاءِ الفوقيَّةِ[٤]- فهو الْتِفاتٌ[٥].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٥).

(٤) قال ابن الجزري: (قرَأ المَدَنيَّانِ وابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو ورَوحٌ وحفصٌ بالغَيبِ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وقرأ الباقون بالخِطاب: [﴿تُؤْمِنُونَ﴾]). ((النشر في القراءات العشر)) (٢/ ٣٧١). ويُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

الآيات (٧-١١)

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَيْلٌ﴾: الوَيلُ: كلمةُ دُعاءٍ بالهلاكِ والعذابِ، وتُستعمَلُ أيضًا في التَّحسُّرِ، وقيل: هي وادٍ في جهنَّمَ، أو ما يَسيلُ مِن صديدٍ في أصلِ جهنَّمَ، وأصْلُ الوَيلِ: الشَّرُّ وحُلولُه[1].

﴿أَفَّاكٍ﴾: أي: كذَّابٍ فاجِرٍ، والأفَّاكُ: كثيرُ الإفْكِ، وهو أسوأُ الكذبِ، وقيل: الإفكُ: صَرْفُ الشَّيءِ عمَّا يحِقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهَتِه[2].

﴿أَثِيمٍ﴾: أي: كثيرِ الإثمِ، مُتجاوِزٍ في الظُّلمِ، وقيل: هو مرتكبُ الإثمِ بقلبِه وجوارحِه، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، ومنه اشتُقَّ الإثمُ؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه[3].

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (١/ ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، =

﴿هُزُوًا﴾: الهزوُ: الاستِخْفافُ، والسُّخريةُ. يُقالُ: هَزِئ به واستَهْزَأ، أي: استخفَّ به، وسَخِر منه[١].

﴿أَوْلِيَآءَ﴾: الأولياءُ: المعبوداتُ الَّتي يُوالونَها بالعبادةِ مِن دونِ الله، وأصْل (ولي): يدُلُّ على قُرْبٍ؛ سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[٢].

﴿رِّجْزٍ﴾: الرِّجزُ: سوءُ العذابِ وأليمُه، وأصلُ (رجز): يدُلُّ على الاضطِرابِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى أحوالَ المشركينَ معَ القرآنِ، ويُبيِّنُ مصيرَهم في الآخرةِ ويَتوعَّدُهم، فيقولُ: وَيْلٌ لكُلِّ كافرٍ كذَّابٍ مُفترٍ أثيمٍ، يَسمَعُ آياتِ اللهِ تُقرَأُ عليه، ثمَّ يُصِرُّ على كُفرِه مُستَكبِرًا كأنَّه لم يَسمَعْها! فبَشِّرْه -يا محمَّدُ- بعَذابٍ شَديدِ الإيلامِ.

وإذا عَرَف هذا الكذَّابُ الأثيمُ شَيئًا مِن آياتِ القُرآنِ استَهزأَ بها وسَخِرَ منها! فلِأُولَئكَ عَذابٌ يُهينُهم، مِن ورائِهم نارُ جَهنَّمَ هي مَصيرُهم في الآخِرةِ، ولا يَدفَعُ عنهم ما كَسَبوه في الدُّنيا شيئًا مِن عذابِ اللهِ تعالى، ولا تَدفَعُ عنهم آلهتُهم

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠، ٣٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٤/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٦).

الَّتي عَبَدوها مِن دونِ اللهِ شيئًا مِن عذابِ اللهِ تعالى، ولهم عَذابٌ عَظيمٌ.

ثمَّ يخبرُ الله تعالى أنَّ هذا القُرآنَ هُدًى للنَّاسِ، وأنَّ الَّذين كَفَروا بآياتِ القُرآنِ لهم عَذابٌ مِن رِجْزٍ شَديدُ الإيلامِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ الآياتِ للكُفَّارِ، وبَيَّنَ أنَّهم بأيِّ حَديثٍ يُؤمِنونَ إذا لم يُؤمِنوا بها مع ظُهورِها؛ أتْبَعَه بوَعيدٍ عَظيمٍ لهم، فقال[1]:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ لكُلِّ كافرٍ كذَّابٍ مُفتَرٍ، مُبالِغٍ في اقتِرافِ الآثامِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

قيل: ﴿وَيْلٌ﴾ وادٍ في جهنَّمَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦).

قال الراغب: (ومَن قال: وَيْلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ وَيْلًا في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد: مَن قال اللهُ تعالى ذلك فيه فقد استحَقَّ مَقَرًّا من النَّارِ، وثَبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (الوَيلُ في كلامِ العَرَبِ: المصائِبُ والحُزنُ والشِّدَّةُ مِن هذه المعاني، وهي لفظةٌ تُستعمَلُ في الدُّعاءِ على الإنسانِ...، ومقتضى اللُّغةِ أنَّه الدُّعاءُ على أهلِ الإفكِ والإثمِ بالمعاني المتقَدِّمةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

وقال الشنقيطي: (الأظهرُ أنَّ لفظةَ ﴿وَيْلٌ﴾ كلمةُ عَذابٍ وهلاكٍ، وأنَّها مَصدرٌ لا فِعلَ له مِن =

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾.

أي: يَسمَعُ آياتِ القُرآنِ تُقرَأُ عليه، ثمَّ يُصِرُّ على كُفرِه وإثمِه مُستَكبِرًا عن الإيمانِ بها وقَبولِها واتِّباعِها، كأنَّه لم يَسمَعْها أصلًا[١]!

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: فبَشِّرْ -يا محمَّدُ- هذا الأفَّاكَ الأثيمَ المُعرِضَ عن آياتِ اللهِ، المُصِرَّ على كُفرِه وباطِلِه: بعَذابٍ مُوجِعٍ شَديدِ الإيلامِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى كُفرَ المُشرِكِ بما يَسمَعُ مِن الآياتِ؛ أتْبَعَه ما هو أعَمُّ منه، فقال[٣]:

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾.

= لَفظِه، وأنَّ المسَوِّغَ للابتِداءِ بها -مع أنَّها نَكِرةٌ- كَونُها في مَعرِضِ الدُّعاءِ عليهم بالهَلاكِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧١).

أي: وإذا عَرَف شَيئًا -ولو قليلًا- مِن آياتِ القُرآنِ، استَهزأَ بها، وسَخِرَ منها[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

أي: أولئك لهم عَذابٌ يُخزيهم ويُذِلُّهم ويُهينُهم[٢].

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠﴾.

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾.

أي: لهم نارُ جَهنَّمَ يَصيرونَ إليها في الآخِرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩١، ١٩٢).

قيل: معنى ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ﴾: مِن أمامِهم. وممَّن ذهب لهذا: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والبغوي، والخازن، وأبو حيان، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢١٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩١، ١٩٢).

قال أبو السعود: (﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ أي: مِن قُدَّامِهم؛ لأنَّهم مُتوجِّهونَ إلى ما أُعِدَّ لهم، أو مِن خَلفِهم؛ لأنَّهم مُعرِضونَ عن ذلكَ مُقبِلونَ على الدُّنيا؛ فإنَّ الوراءَ اسمٌ للجِهةِ الَّتي يُواريها الشَّخصُ من خَلْفٍ وقُدَّامٍ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩).

قال ابن عطيَّة: (قَولُه: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ قال فيه بعضُ المفَسِّرينَ: معناه: مِن أمامِهم، ... ولَحَظَ قائِلُ هذه المقالةِ الأمرَ مِن حيثُ تأوَّلَ أنَّ الإنسانَ كأنَّه مِن عُمُرِه يَسيرُ إلى جنَّةٍ أو نارٍ، فهما أمامَه، وليس لَفظُ الوَراءِ في اللُّغةِ كذلك، وإنَّما هو ما يأتي خَلْفَ الإنسانِ، وإذا اعتُبِرَ =

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا﴾.

أي: ولا يَدفَعُ عن الكُفَّارِ عذابَ جَهنَّمَ أيُّ شَيءٍ -ولو قليلًا- ممَّا كَسَبوه في الدُّنيا مِن الأموالِ أو الأولادِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ

= الأمرُ بالتَّقَدُّمِ أو التَّأخُّرِ في الوُجودِ على أنَّ الزَّمانَ كالطَّريقِ للأشياءِ، استقام الأمرُ؛ فما يأتي بعدَ الشَّيءِ في الزَّمانِ فهو وراءَه، فكأنَّ ... جَهنَّمَ وإحراقَها للكَفَرةِ يأتي بعدَ كُفرِهم وأفعالِهم، وهذا كما تقولُ: افعَلْ كذا وأنا مِن ورائِك عَضُدًا، وكما تقولُ ذلك على التَّهديدِ: أنا مِن وراءِ التقَصِّي عليك، ونحوَ هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨١).

وقال ابنُ القَيِّمِ: (وهذا المذهَبُ ضَعيفٌ، ووَراءٌ: لا يكونُ أمامًا، كما لا يكونُ أمامٌ وراءً إلَّا بالنِّسبةِ إلى شَيئَينِ، فيكونُ أمامُ الشَّيءِ وراءً لِغَيرِه، ووراءُ الشَّيءِ أمامًا لِغَيرِه؛ فهذا الَّذي يُعقَلُ فيها، وأمَّا أن يكونَ وراءُ زَيدٍ بمعنى أمامَه فكَلَّا. وأمَّا ما استدَلُّوا به فلا حُجَّةَ فيه؛ فأمَّا قَولُه تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦] فالمعنى أنَّه مُلاقٍ جَهنَّمَ بعدَ مَوتِه، فهي مِن بَعْدِه، أي: بَعدَ مُفارَقتِه الدُّنيا، فهي لَمَّا كانت بعدَ حياتِه كانت وراءَه؛ لأنَّ وراء كبَعْد، فكما لا يكونُ بعدُ قَبْلًا فلا يكونُ وراءٌ أمامًا، وأنت لو قُلتَ: جَهنَّمُ بعدَ مَوتِ الكافِرِ لم يكُنْ فيها معنى قَبْلَ بوَجهٍ؛ فوراءٌ هاهنا زمانٌ لا مكانٌ؛ فتَأمَّلْه رَحِمَك اللهُ تعالى؛ فهي خَلفَ زَمانِ حَياتِه وبَعْدَه، وهي أمامَه ومُستَقبِلَتُه؛ فكَونُها خَلْفًا وأمامًا باعتبارَينِ، وإنَّما وقع الاشتِباهُ؛ لأنَّ بَعديَّةَ الزَّمانِ إنَّما تكونُ فيما يُستقبَلُ أمامَك، كقَولِك: بعدَ غَدٍ، ووراءيَّةَ المكانِ فيما تُخَلِّفُ وراءَ ظَهرِك، فـ ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦] ورائيَّةُ زَمانٍ لا مكانٍ، وهي إنَّما تكونُ في المُستقبَلِ الَّذي هو أمامَك، فلمَّا كان معنى الأمامِ لازِمًا لها ظَنَّ مَن ظَنَّ أنَّها مُشتَرِكةٌ، ولا اشتِراكَ فيها، وكذلك قَولُه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، وكذلك: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦]). ((بدائع الفوائد)) (٤/ ١٩٥، ١٩٦).

وقال ابن عاشور: (مَنْ فَسَّر وَراءَ بقُدَّامٍ، فما رَعى حَقَّ الكلامِ). يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٢، ١٩٣).

شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: ١٠].

﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾.

أي: ولا يَدفَعُ عنهم آلهتُهم الَّتي عَبَدوها في الدُّنيا مِن دونِ اللهِ، أو رُؤساؤُهم الَّذين أطاعوهم في الكُفرِ باللهِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [هود: ١٠١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۞ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: ولهم عَذابٌ كبيرٌ شَديدٌ[2].

﴿هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى آياتِه القُرآنيَّةَ والعِيانيَّةَ، وأنَّ النَّاسَ فيها على قِسمَينِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٢، ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٩).

أخبَرَ عن القُرآنِ المُشتَمِلِ على هذه المطالِبِ العاليةِ أنَّه هُدًى[١].

﴿هَٰذَا هُدًى﴾.

أي: هذا القُرآنُ هُدًى يُبَيِّنُ الحَقَّ مِن الباطِلِ، ويَدُلُّ مَنِ اتَّبَعه إلى الصِّراطِ المُستَقيمِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿أَلِيمٌ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرَّفعِ وصْفًا للعذابِ، أي: عذابٌ أليمٌ مِن رِجزٍ[٣].

٢- قِراءةُ ﴿أَلِيمٍ﴾ بالجَرِّ وصفًا للرِّجْزِ، أي: عذابٌ مِن رِجزٍ أليمٍ[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٤، ١٩٦).

(٣) قرأ بها ابنُ كثير، ويعقوبُ، وحفصٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٩٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٨).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٩٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٨).

أي: والَّذين كَفَروا بآياتِ القُرآنِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ، فلم يُؤمِنوا ويَعمَلوا بها: لهم عَذابٌ مِن جنسِ العذابِ المُوجِعِ شَديدِ الإيلامِ(١)!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فتَوعَّدَ الله تعالى مَن تَرَكَ الاستِدلالَ بآياتِه(٢)، وذَمَّ الَّذين يُعرِضونَ عن سَماعِ القُرآنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٩، ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥).

قيل: الرِّجزُ هو أشَدُّ العذابِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشري، وابنُ عطية، والرازي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٥).

قال الشنقيطي: (وقَولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أصحُّ القَولَينِ فيه أنَّ المرادَ بالرِّجزِ: العَذابُ، ولا تَكرارَ في الآيةِ؛ لأنَّ العذابَ أنواعٌ مُتفاوِتةٌ، والمعنى: لهم عَذابٌ مِن جِنسِ العَذابِ الأليمِ، والأليمُ معناه المُؤلِمُ. أي: الموصوفُ بشِدَّةِ الألمِ وفَظاعتِه). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٩٦).

وقيل: المرادُ بالرِّجزِ: الرِّجسُ الَّذي هو النَّجاسةُ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٠).

وفسَّر البِقاعي الرِّجزَ بأنَّه عِقابٌ قَذِرٌ شَديدٌ جدًّا، عظيمُ القَلقَلةِ والاضطرابِ، مُتتابِعُ الحَرَكاتِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٨/ ٧٤).

قال الرازي: (وقُرِئَ ﴿أَلِيمٌ﴾ بالجَرِّ والرَّفعِ؛ أمَّا الجَرُّ فتَقديرُه: لهم عَذابٌ مِن عذابٍ أليمٍ، وإذا كان عَذابُهم مِن عذابٍ أليمٍ كان عذابُهم أليمًا، ومَن رَفَع كان المعنى: له عَذابٌ أليمٌ، ويكونُ المرادُ مِن الرِّجزِ الرِّجْسَ الَّذي هو النَّجاسةُ، ومعنى النَّجاسةِ فيه قَولُه: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦]، وكأنَّ المعنى: لهم عَذابٌ مِن تَجَرُّعِ رِجسٍ أو شُرْبِ رِجسٍ، فتَكونُ ﴿مِن﴾ تَبيينًا للعَذابِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٨).

وتَدَبُّره إلى سَماعِ غَيرِه، كما قال اللهُ تعالى أيضًا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ * وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] [لقمان:٦، ٧].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ * يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ عُلِمَ بهذا الوَصفِ أنَّ كُلَّ مَن لم تَرُدَّه آياتُ اللهِ تعالى كان مُبالِغًا في الإثمِ والإفكِ؛ فكان له الوَيلُ[2]!

٢- لم يَجِئْ إعدادُ العذابِ المُهينِ في القُرآنِ إلَّا في حَقِّ الكُفَّارِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [الجاثية: ٩]، وقَولِه عزَّ جلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ٣٧]، وقَولِه: ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ١٠٢]، وقولِه: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقولِه: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[3] [الحج: ٥٧].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية- المجموعة الثامنة)) (١/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٢).

قَولُه تعالى في هذه الآيةِ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: لأنَّ عَذابَ الكُفَّارِ الَّذين كانوا يَستَهزِئونَ بآياتِ اللهِ لا يُرادُ به إلَّا إهانتُهم وخِزيُهم وشِدَّةُ إيلامِهم بأنواعِ العَذابِ، وليس فيه تَطهيرٌ ولا تمحيصٌ لهم، بخِلافِ عُصاةِ المُسلِمينَ؛ فإنَّهم وإن عُذِّبوا فسيَصيرون إلى الجنَّةِ بَعدَ ذلك العَذابِ؛ فليس المقصودُ بعَذابِهم مُجرَّدَ الإهانةِ، بل لِيَؤُولوا بَعدَه إلى الرَّحمةِ ودارِ الكرامةِ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أعقَبَ ذِكرَ المُؤمِنينَ المُوقِنينَ العاقِلينَ المُنتفِعينَ بدَلالةِ آياتِ اللهِ، وما يُفيدُه مَفهومُ تلك الصِّفاتِ الَّتي أُجْرِيَتْ عليهم مِن تَعريضٍ بالَّذين لَمْ يَنتَفِعوا بها؛ بصَريحِ ذِكرِ أولئك الَّذين لَمْ يُؤمِنوا ولم يَعقِلوها، كما وصَفَ لذلك قولَه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[2] [الجاثية: ٦].

- وافتُتِحَ الكَلامُ بالوَيلِ له؛ تَعجيلًا لإنْذارِه وتَهديدِه قبْلَ ذِكرِ حالِه، و(وَيلٌ له) كَلمةُ دُعاءٍ بالشَّرِّ، وأصْلُ الوَيلِ: الشَّرُّ وحُلولُه[3].

- والأثيمُ: صِفةُ مُبالَغةٍ، أو صِفةٌ مُشبَّهةٌ، وهو يدُلُّ على المُبالِغِ في اقتِرافِ الآثامِ، أي: الخَطايا[4].

- وجُعِلَت حالُ الأفَّاكِ الأثيمِ أنَّه ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾؛

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٤).

لأنَّ تلك الحالةَ -وهي حالةُ تَكرُّرِ سَماعِه آياتِ اللهِ، وتَكرُّرِ إصْرارِه مُستكبِرًا عنها- تَحمِلُه على تَكريرِ تَكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَكريرِ الإثْمِ؛ فلا جَرَمَ أنْ يكونَ أفَّاكًا أثيمًا، بَلْهَ ما تَلبَّسَ به مِن الشِّركِ الَّذي كلُّه كذِبٌ وإثْمٌ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ حرْفُ (ثُمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ ذلك الإصرارَ بعْدَ سَماعِ مِثلِ تلك الآياتِ أعظَمُ وأعجَبُ؛ فهو يُصِرُّ عِندَ سَماعِ آياتِ اللهِ، وليس إصْرارُه مُتأخِّرًا عن سَماعِ الآياتِ[٢].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿يُصِرُّ﴾؛ لِدَلالةِ المَقامِ عليه، أي: يُصِرُّون على كُفْرِهم، كما دلَّ على ذلك قولُه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[٣] [الجاثية: ٦].

- وفي قولِه: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ شَبَّه حالَهم في عَدَمِ انتِفاعِهم بالآياتِ بحالِهم في انتِفاءِ سَماعِ الآياتِ، أي: يَصِيرُ مِثلَ غَيرِ السَّامعِ، وهذا التَّشبيهُ كِنايةٌ عن وُضوحِ دَلالةِ آياتِ القُرآنِ بحيثُ إنَّ مَن يَسمَعُها يُقِرُّ ويؤْمِنُ بما دلَّتْ عليه، فلَولا إصْرارُهم واستِكبارُهم لَانْتَفَعوا بها[٤].

- قولُه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أُطلِقَ على الإنذارِ اسمُ البِشارةِ -الَّتي هي الإخبارُ بما يَسُرُّ- على طَريقةِ التَّهكُّمِ[٥]، وذلك بناءً على أنَّ البشارةَ لا تكونُ إلا فيما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢).

يَسرُّ.

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وقال في سُورةِ (لُقمانَ): ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]؛ فقال: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، واسْتَغْنى الكلامُ عنه في سُورةِ (الجاثيةِ)، مع أنَّ القِصَّتينِ مُشْتَبِهتانِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ هذا الكافرَ لَمَّا أخبرَ اللهُ تعالى عنه في سُورةِ (لُقمانَ) أنَّه يُعرِضُ عن القُرآنِ إذا سمِعَه، غيرَ مُنتفِعٍ به حتَّى كأنَّه لم يَسمَعْه، وتَستمِرُّ به هذه الحالُ كما تَستمِرُّ لِمَن به صَمَمٌ، وقولُه في (الجاثيةِ): ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يدُلُّ على ما دلَّ عليه: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾؛ لأنَّ الإصرارَ عزْمٌ لا يُهَمُّ معه بإقلاعٍ، فإذا أصَرَّ على التَّصامِّ، فهو كمَن في أُذُنَيه وَقْرٌ، فصارَ أحدُ اللَّفظَينِ يُغْني عن الآخَرِ، ويقومُ مَقامَه، ويُؤدِّي مِن المعنى أداءَهُ؛ فلذلك لم يُجمَعْ بيْنَهما، وكان الموضعُ الَّذي ذُكِرَ فيه: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أحقَّ بقولِه: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، والموضعُ الَّذي ذُكِر فيه الإصرارُ على تَرْكِ الاستماعِ، أغْنى عن ذِكرِ ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾[1].

وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه لَمَّا كان الإصْرارُ معناهُ الدَّوامُ المُتحكِّمُ، لم يَذكُرِ الوَقْرَ الَّذي هو مِن الأمراضِ الثَّابتةِ في سُورةِ (الجاثيةِ)، كما ذكَرَه في سُورةِ (لُقمانَ)[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾، أي: اتَّخَذَ الآياتِ هُزوًا، ولم

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٨٤، ١١٨٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٠).

يَقُلْ: (اتَّخَذه)؛ للإشعارِ بأنَّه إذا أحسَّ بشَيءٍ مِن الكلامِ أنَّه مِن جُملةِ الآياتِ الَّتي أنْزَلَها اللهُ تعالَى على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، خاضَ في الاستِهزاءِ بجَميعِ الآياتِ، ولم يَقتصِرْ على الاستِهزاءِ بما بلَغَه. ويَحتمِلُ: وإذا عَلِمَ مِن آياتِنا شَيئًا يُمكِنُ أنْ يَتشبَّثَ به المُعانِدُ، ويَجِدَ له مَحْملًا يَتسلَّقُ به على الطَّعنِ والغَميزةِ؛ افْتَرَصَه واتَّخَذَ آياتِ اللهِ هُزوًا[1].

- وجِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم أحْرِياءُ بما ذُكِرَ؛ مِن أجْلِ ما قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن الأوصافِ، مِن قولِه تعالَى: ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ إلى قولِه: ﴿هُزُوًا﴾[2].

- وفي قولِه: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وصَفَ العذابَ بالإهانةِ؛ تَوفيةً لِحَقِّ استِكبارِهم واسْتِهزائِهم بآياتِ اللهِ سُبحانه وتعالَى[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وفي قولِه: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ تَحقيقٌ لِحُصولِ العذابِ، وكَونِه قَريبًا منْهم، وأنَّهم غافِلون عن اقْتِرابِه[4].

- وعطَفَ جُملةَ ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ على جُملةِ ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٣).

لأنَّ ذلك مِن جُملةِ العَذابِ المُهِينِ؛ فإنَّ فِقدانَ الفِداءِ، وفِقدانَ الولِيِّ ممَّا يَزِيدُ العذابَ شِدَّةً، ويَكسِبُ المُعاقَبَ إهانةً[١].

- وعُدِّيَ الإغناءُ بحَرْفِ (عن)؛ لِتَضْمينِه معنى (يَدفَعُ)، فكأنَّه عبَّرَ بفِعلَينِ: لا يُغْنِيهم، ولا يَدفَعُ عنْهم[٢].

- وتَنْكيرُ ﴿شَيْـًٔا﴾ للتَّقليلِ، أي: لا يَدفَع عنهم ولو قَليلًا مِن جهنَّمَ، أي: عَذابِها[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ﴾ عطْفٌ على ﴿مَّا كَسَبُواْ﴾، وأُعِيدَ حرْفُ النَّفيِ (لا) للتَّأكيدِ[٤].

- وأُردِفَ ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ بعطْفِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ لإفادةِ أنَّ لهم عذابًا غيرَ ذلك، وهو عَذابُ الدُّنيا بالقتْلِ والأسْرِ[٥]، أو: لأنَّ كَونَ العذابِ مُهينًا يدُلُّ على حُصولِ الإهانةِ مع العذابِ، وكَونَه عَظيمًا يدُلُّ على كَونِه بالِغًا إلى أقصى الغاياتِ في كَونِه ضَررًا[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ استِئنافٌ ابْتدائيٌّ، انتُقِلَ به مِن وَصْفِ القُرآنِ في ذاتِه بأنَّه مُنزَّلٌ مِن اللهِ، وأنَّه مِن آياتِ اللهِ؛ إلى وَصْفِه بأفْضلِ صِفاتِه بأنَّه هُدًى[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٣٣، ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٥).

- ولَمَّا عَدَّ تعالَى أنواعَ اسْتِخفافِهم وتَكذيبِهم بالقُرآنِ، ووَصَفهم بالكذِبِ، والإفْكِ، والإثْمِ، والاستِكبارِ، ورتَّبَ عليه البِشارةَ بالعَذابِ، وحَكَى عن اسْتِهزائِهم وانْتِهازِ فُرْصَتِهم لِيَستَخِفُّوا به، ورتَّبَ عليه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ عيَّنه تَعْيينًا، ومَيَّزَه تَمْييزًا، وجعَلَه كالعَلَمِ المُشارِ إليه بالحُسنِ. ونكَّرَ المَصْدرَ الواقعَ خبرًا تَنكيرَ تَهويلٍ ومُبالَغةٍ، فقال: ﴿هَٰذَاۖ هُدٗىۖ﴾، أي: هذا المُتميِّزُ المُشخَّصُ كامِلٌ في الهِدايةِ، ليس بخافٍ على كُلِّ ذي بَصيرةٍ أنَّه ليس بمَكانٍ للتَّكذيبِ والاستِهزاءِ، والَّذين كذَّبوا به، واسْتَكْبروا عن قَبولِه، وأعْرَضوا عنه بالاسْتِهزاءِ؛ لهم عَذابٌ بعْدَ عَذابٍ[1].

- وجُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿هَٰذَاۖ هُدٗىۖ﴾، قيل: والمُناسَبةُ: أنَّ القرآنَ مِن جُملةِ آياتِ اللهِ، وأنَّه مُذكِّرٌ بها؛ فالَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ كَفَروا بالقُرآنِ في عُمومِ الآياتِ، وهذا واقعٌ مَوقِعَ التَّذييلِ لِمَا تَقدَّمَه ابْتِداءً مِن قَولِه: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾[2] [الجاثية: ٧].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾، أي: بالقُرآنِ، وإنَّما وُضِعَ مَوضعَ ضَميرِه -حيث لم يُقَلْ: (كفروا به)-؛ لِزيادةِ تَشْنيعِ كُفْرِهم به، وتَفْظيعِ حالِهم[3].

- وجِيءَ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾؛ لِما تُشعِرُ به الصِّلةُ مِن أنَّهم حَقيقونَ بالعِقابِ ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٥).

- واستُحْضِروا في هذا المَقامِ بعُنوانِ الكُفرِ دُونَ عُنْوانَي الإصرارِ والاستِكبارِ اللَّذَينِ استُحْضِروا بهما في قولِه: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ [الجاثية: ٨]؛ لأنَّ الغرَضَ هنا النَّعيُ عليهم إهمالَهم الانْتِفاعَ بالقُرآنِ، وهو النِّعمةُ العُظْمى الَّتي جاءتْهم مِن اللهِ، فقابَلوها بالكُفرانِ عِوَضًا عن الشُّكرِ(١).

- وتَنوينُ ﴿عَذَابٌ﴾ للتَّفخيمِ(٢).

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ في اقْتِرانِ ذِكرِ (الرَّبِّ) مع الآياتِ، وذِكرِ (اللهِ) في قولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٦]: إشعارٌ بأنَّ تلك التِّلاوةَ وذلك الإرشادَ لَمْ يكُنْ إلَّا لِمَحْضِ الإنعامِ، والكافِرون عَكَسوا القضيَّةَ، فكَفَروا بَدَلَ الشُّكرِ؛ ولذلك جِيءَ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [الجاثية: ١٢]، وبقولِه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الجاثية: ١٣]، وختَمَ الأولى بقولِه: (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، والثَّانيةَ بقولِه: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لِيُنبِّهَ بالشُّكرِ على الإنعامِ، وبالتَّفكُّرِ على أنَّ ذلك الإنعامَ أيضًا دَليلٌ مِن الدَّلائلِ السَّابقةِ، وأُخِّرَت مِن أخَواتِها تَطْرِئةً للتَّنبيهِ. وعُلِمَ مِن ذلك أنَّ التَّفكُّرَ مِلاكُ التَّعقُّلِ والإيقانِ والإيمانِ(٣).

- وأيضًا هذه الآيةُ ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ مِن الاحتِباكِ(٤)، حيثُ ذَكَر الهُدَى أوَّلًا دَليلًا على الضَّلالِ ثانيًا، والكُفرَ والعذابَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٤) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا =

ثانيًا دَليلًا على ضِدِّهما أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّه ذَكَر السَّببَ المُسعِدَ ترغيبًا فيه، والمُشقيَ ترهيبًا منه[١].

= اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٤).

الآيات (١٢-١٥)

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْفُلْكُ﴾: أي: السُّفُنُ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (فلك): يدُلُّ على استِدارةٍ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيتْ فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[1].

﴿وَسَخَّرَ﴾: أي: ذلَّلَ، والتَّسخيرُ: سياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قهرًا، وأصلُ (سخر) هنا: يدُلُّ على استِذْلالٍ[2].

﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾: أي: وقائِعَ اللهِ بأعدائِه، مِن قَولِهم لوقائِعِ العَرَبِ: أيَّامُ العَرَبِ. أو ثَوابَ اللهِ وعِقابَه[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾

﴿يَغْفِرُوا۟﴾: فِعلٌ مُضارِعٌ مَجزومٌ، وفي سَبَبِ جَزْمِه أوجُهٍ؛

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢)

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨). ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٣).

أحَدُها: أنَّه واقِعٌ في جَوابِ الأمرِ ﴿قُل﴾.

الثَّاني: أنَّه واقِعٌ في جوابِ شَرطٍ مُقَدَّرٍ بعدَ ﴿قُل﴾، أي: إنْ تَقُلْ لهم اغْفِروا يَغْفِروا.

الثَّالِثُ: أنَّه مجزومٌ بلامِ أمرٍ مَحذوفةٍ، تقديرُه: لِيَغفِروا، فحُذِفَتْ وبَقِيَ عَمَلُها[1].

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن النِّعمِ الَّتي أنعَم بها على خَلقِه، فيقول: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي ذَلَّل لكم -أيُّها النَّاسُ- البَحرَ؛ لِتَسيرَ فيه السُّفُنُ بأمْرِه سُبحانَه، ولِتَطلُبوا مَعايشَكم وأرزاقَكم مِن خِلالِه، ولَعَلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على نِعَمِه، وذلَّل اللهُ لكم ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ؛ لِمَنافِعِكم، وكُلُّ ذلك مِنه وَحْدَه سُبحانَه، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ واضِحاتٍ لِقَومٍ يَتفَكَّرونَ.

ثمَّ يأمُرُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَحُضَّ المؤمنينَ على التَّجاوُزِ والصَّفحِ عن المشركينَ الَّذين يُؤذونَهم حتَّى يأتيَ اللهُ بأمرِه، فيقولُ تعالى: قُلْ -يا محمَّدُ- لِلَّذِين آمَنوا يَتجاوَزوا عن أذى الكُفَّارِ الَّذين لا يَرجُونَ ثوابَ الله، ولا يَخافونَ وقائِعَه في العاصِينَ، ويَصبِروا على أذاهم؛ لِيَجزيَ اللهُ أعداءَهم بما كَسَبوه مِن آثامٍ، فيُعَذِّبَهم.

ثمَّ يُؤكِّدُ اللهُ تعالى على عدالةِ الجزاءِ، فيقولُ: مَن عَمِلَ في الدُّنيا بطاعةِ اللهِ، فنَفْعُ ذلك له، ومَن عَمِلَ بالكُفرِ والمعاصي فضَرَرُ ذلك على نَفْسِه لا على غَيرِه، ثمَّ إلى رَبِّكم تُرجَعونَ -أيُّها النَّاسُ- فيُجازيكم على أعمالِكم؛ خَيرِها وشَرِّها.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٥)، ((معاني القرآن)) للأخفش (١/ ٨٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٩٥)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٠٤-١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه وتعالى صِفةَ الرُّبوبيَّةِ؛ ذكَرَ بَعضَ آثارِها وما فيها مِن آياتِه[١].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي ذَلَّل لكم البَحرَ -أيُّها النَّاسُ-؛ لِتَسيرَ فيه السُّفُنُ بأمْرِه وإذْنِه وتَيسيرِه[٢].

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: ولِتَطلُبوا مَعايشَكم وأرزاقَكم الَّتي هي مِن فَضلِ الله تعالى عليكم؛ كنَقلِ البَضائِعِ، وصَيدِ الأسماكِ، وغيرِ ذلك[٣].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: ولعَلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على نِعَمِه العَظيمةِ الَّتي تَحصُلُ بتَسخيرِه لكم البَحرَ، فتُوَحِّدونَه، وتُطيعونَه فيما أمرَكَم به ونهاكم عنه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٤، ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

قال ابنُ عطية: (الابتِغاءُ مِن فَضلِ الله: هو بالتِّجارةِ في الأغلَبِ، وكذلك مقاصِدُ البَرِّ مِن حَجٍّ أو جهادٍ هي أيضًا ابتغاءُ فَضلٍ، والتَّصَيُّدُ فيه هو ابتغاءُ فَضلٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥).

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى آيةَ البَحرِ لِعَظَمتِها؛ عمَّ بمنافِعِ الخافِقَينِ؛ دَلالةً على أنَّه ما خَلَق ذلك كلَّه على عِظَمِه إلَّا لنا؛ تنبيهًا على أنَّ الأمرَ عَظيمٌ[1].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾.

أي: وذلَّل اللهُ لكم -أيُّها النَّاسُ- ما في السَّمَواتِ مِن شَمسٍ وقَمَرٍ، ونُجومٍ وسَحابٍ، ومَطَرٍ وهواءٍ، وغيرِ ذلك، وما في الأرضِ مِن شَجَرٍ وجِبالٍ، ومِياهٍ ودوابَّ ومَعادِنَ... وغَيرِ ذلك؛ لِمَنافِعِكم، وجميعُ ذلك مِنَ اللهِ وَحْدَه[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: إنَّ في ذلك الأمرِ العَظيمِ، وهو تَسخيرُه كُلَّ شَيءٍ في الكَونِ لعِبادِه: لَدَلالاتٍ واضِحاتٍ، وعلاماتٍ باهِراتٍ على الحَقِّ لِقَومٍ يَتفَكَّرونَ فيها[3].

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا علَّمَ عِبادَه دَلائِلَ التَّوحيدِ والقُدرةِ والحِكمةِ؛ أتْبَعَ ذلك بتَعليمِ الأخلاقِ الفاضِلةِ، والأفعالِ الحَميدةِ[١].

وأيضًا فمُناسَبةُ وُقوعِ هذه الآيةِ هنا أنَّ قولَه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧] إلى قولِه: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ١١]، يُثيرُ غضَبَ المُسلِمينَ على المُسْتهزِئينَ بالقُرآنِ، وقد أخَذَ المُسلِمونَ يَعتزُّون بكَثرتِهم؛ فكان ما ذُكِرَ مِن استِهزاءِ المُشرِكينَ بالقُرآنِ، واستِكبارِهم عن سَماعِه، يُتوقَّعُ منْه أنْ يَبطِشَ بَعضُ المُسلِمينَ ببَعضِ المشركينَ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ بدَرَ مِن بَعضِ المسلمينَ غضَبٌ أو تَوعُّدٌ، وأنَّ اللهَ عَلِمَ ذلك مِن بَعضِهم، فأُمِروا بالعفوِ، وأنْ يَكِلوا أمرَ نَصْرِهم إلى الله تعالى[٢].

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- آمِرًا الَّذين آمَنوا باللهِ واتَّبَعوك أن يَعفُوا ويَتجاوَزوا عن أذى الكُفَّارِ الَّذين لا يَرجُونَ ثوابَ الله، ولا يَخافونَ وقائِعَه في العاصِينَ[٣]، وأنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٨، ٣٣٩).

(٣) قال ابنُ عطية: (وقَولُه: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ قالت فِرقةٌ: مَعناه: أيَّامُ إنعامِه ونَصْرِه وتَنعيمِه في الجنَّةِ، وغَيرُ ذلك؛ فـ﴿يَرْجُونَ﴾ على هذا هو مِن بابِه. وقال مجاهِدٌ: أيَّامُ اللهِ تعالى هي أيَّامُ نِقَمِه وعَذابِه، فـ﴿يَرْجُونَ﴾ على هذا هي الَّتي تتنَزَّلُ مَنزِلةَ يَخافونَ، وإنَّما تنَزَّلَت مَنزِلَتَها مِن حيثُ الرَّجاءُ والخَوفُ مُتلازِمانِ، لا تَجِدُ أحَدَهما إلَّا والآخَرُ معه مُقتَرِنٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٣).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾: لا يَخشَونَ عُقوباتِ اللهِ ووقائِعَه ونِقَمَه، مِثلَ عَذابِ الأُمَمِ الخالِيةِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ الجوزي، وأبو حيَّان، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) =

يَصبِروا على أذاهم، ولا يُعاقِبوهم[(١)].

= (٩/ ٤١٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٢٨).

قال ابن القيِّم: (الخوفُ مُستلزِمٌ للرَّجاءِ، والرَّجاءُ مُستلزِمٌ للخَوفِ؛ فكلُّ راجٍ خائفٌ، وكلُّ خائفٍ راجٍ؛ ولأجْلِ هذا حَسُنَ وُقوعُ الرَّجاءِ في مَوضِعٍ يَحسُنُ فيه وُقوعُ الخَوفِ... فكلُّ راجٍ خائفٌ مِن فَواتِ مَرْجُوِّه، والخَوفُ بلا رجاءٍ يأسٌ وقُنوطٌ). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٥١).

وقال الزمخشري: (﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾: لا يَتوَقَّعونَ وقائعَ اللهِ بأعدائِه، مِن قَولِهم لوقائعِ العَرَبِ: أيَّامُ العَرَبِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧).

وقيل: المرادُ: لا يَطمَعونَ في نَصرِ اللهِ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٦٢).

وقال ابنُ عاشور: (لِلَّذينَ لا تَترَقَّبُ نُفوسُهم أيَّامَ نَصرِ اللهِ، أي: نَصرِ اللهِ لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٠).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ المعنى: لا يَرجُونَ البَعثَ، أي: لا يُؤمِنونَ به. ذكره النَّحَّاسُ احتِمالًا. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٦/ ٤٢٤).

وقيل: المعنى: لا يَرجُونَ ثوابَه. ومِمَّن ذهب إلى هذا: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦١).

وقيل: المعنى: لا يَسألونَ اللهَ نِعَمَه، أي: أنَّهم لا يَعتَرِفونَ بأنَّ النِّعَمَ مِن عندِ الله. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: السَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٨).

وذهب السعدي إلى أنَّ المعنى: لا يَرجونَ ثوابَه، ولا يَخافونَ وقائِعَه في العاصِينَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦١، ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٠، ٣٤١).

وقد نقل ابنُ جريرٍ إجماعَ المفَسِّرينَ على أنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ بأمرِ اللهِ بقِتالِ المُشرِكينَ (على مذهبِه بعدمِ الاعتدادِ بخلافِ الواحدِ والاثنينِ)، ونَسَب ابنُ عطيَّةَ ذلك إلى الجُمهورِ، ونَسَب أيضًا إلى قَومٍ القَولَ بأنَّها مُحكَمةٌ، ولم يُسَمِّهم، وذكَرَه ابنُ الجوزي احتمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢، ٨٣)، ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٥٧٤ - ٥٧٧).

=

كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥].

وعن أُسامةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابُه يَعفُونَ عن المُشرِكينَ وأهلِ الكِتابِ كما أَمَرَهم اللهُ، ويَصبِرونَ على الأذى))(١).

﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

= قال الواحدي: (وأجمَعوا أنَّ هذه الآيةَ نَزَلَت قبل أن يُؤمَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقِتالِ أهلِ مَكَّةَ، وأنَّها مَنسوخةٌ بآيةِ القِتالِ، إلَّا على ما رواه عَطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ؛ فإنَّ على روايتِه نَزَلت الآيةُ بعدَ الأمرِ بالقِتالِ؛ لأنَّه ذَكَر أنَّ الآيةَ نَزَلَت بعد غَزوةِ بني المُصْطَلِقِ، والصَّحيحُ أنَّها نَزَلت قبْلَ الأمرِ بالقِتالِ. واللهُ أعلَمُ. قال قَتادةُ: نَسَخَتْها ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقال أبو صالحٍ: نَسَخَتْها ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩] الآيةَ). ((البسيط)) (٢٠/ ١٣٩).

وقال ابنُ عطية: (والآيةُ تتضَمَّنُ الغُفرانَ عُمومًا؛ فيَنبغي أن يقالَ: إنَّ الأمورَ العِظامَ -كالقَتلِ والكُفرِ مُجاهَرةً، ونحوِ ذلك- قد نَسَخ غُفرانَه آيةُ السَّيفِ، والجِزْيةُ وما أحكَمَه الشَّرعُ لا مَحالةَ، وإنَّ الأُمورَ المُحقَّرةَ -كالجَفاءِ في القَولِ ونَحوِ ذلك- يحتَمِلُ أن تبقَى مُحكَمةً، وأن يكونَ العَفوُ عنها أقرَبَ إلى التَّقْوى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢، ٨٣).

وقال ابنُ تيميَّة: (مَن كان مِن المؤمِنينَ بأرضٍ هو فيها مُستضعَفٌ، أو في وَقتٍ هو فيه مُستضعَفٌ: فلْيَعمَلْ بآيةِ الصَّبرِ والصَّفحِ عَمَّن يُؤذي اللهَ ورَسولَه مِن الَّذين أُوتوا الكِتابَ والمُشرِكينَ، وأمَّا أهلُ القُوَّةِ فإنَّما يَعمَلونَ بآيةِ قِتالِ أئمَّةِ الكُفرِ الَّذين يَطعنونَ في الدِّينِ، وبآيةِ قِتالِ الَّذين أُوتوا الكتابَ حتَّى يُعطُوا الجِزيةَ عن يَدٍ وهم صاغِرونَ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٢٢١).

وقال البِقاعي: (قال ابنُ بَرَّجَان: وهذه الآيةُ وشِبهُها مِنَ النَّسْيِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وليس بنَسخٍ، بل هو حُكمٌ يَجيءُ ويَذهَبُ بحَسَبِ القُدرةِ على الانتِصارِ، وكان يَنزِلُ مِثلُ هذا بمكَّةَ والمسلِمونَ في ضَعفٍ، ونَزَل بعدَ الهِجرةِ آيةُ الجِهادِ والأمرِ بالمعروفِ، وتُرِكَت هذه وأمثالُها مَسطورةً في القرآنِ؛ لِما عسى أن يَدورَ مِن دوائِرِ أيَّامِ اللهِ ومِن أيَّامِه؛ إدالةً لأهلِ الكُفرِ عليهم، وتَنبيهًا للمُسلِمينَ لِيُراجِعوا أمْرَهم، ويُصلِحوا ما بَيْنَهم وبيْنَ رَبِّهم). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٧٩).

(١) رواه البخاري (٦٢٠٧).

أي: إنَّما أُمِرَ المُؤمِنونَ بالمَغفِرةِ لِلَّذِين يُؤذونَهم؛ لِيَجزيَ اللهُ أعداءَهم هؤلاء بما كَسَبوه مِن آثامٍ، فيُعَذِّبَهم[1].

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا رَغَّب اللهُ سُبحانَه ورهَّب، وتقرَّر أنَّه لا بُدَّ مِن الجزاءِ؛ زاد في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ بأنَّ النَّفعَ والضُّرَّ لا يَعدوهم، فقال شارِحًا للجَزاءِ[2]:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾.

أي: مَن عَمِلَ في الدُّنيا بطاعةِ اللهِ، فامتَثَل أوامِرَه، واجتَنَب نواهيَه؛ فنَفْعُ ذلك له[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٦، ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٦).

ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والواحدي، وابن كثير. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الواحدي: (كأنَّه قال: لا تُكافِئوهم أنتم؛ لِنُكافِئَهم نحن). ((الوسيط)) (٤/ ٩٧).

وقيل: المرادُ بالقَومِ هنا: المؤمِنونَ، أُمِروا بالمَغفرةِ لِيَجزيَهم اللهُ يومَ القيامةِ بما كَسَبوه في الدُّنيا؛ كالصَّبرِ على أذيَّةِ الكُفَّارِ، والإغضاءِ عنهم بكَظمِ الغَيظِ، واحتِمالِ المكروهِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٠، ٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨).

وقيل: سيَجزي كُلَّ قَومٍ بما كانوا يَكسِبونَ؛ فأنتم -يا مَعشَرَ المؤمنينَ- يَجزيكم على إيمانِكم وصَفحِكم وصَبرِكم، ويَجزي أولئك المُشرِكينَ إنِ استمَرُّوا على تكذيبِهم وبَغيِهم. وهذا ظاهِرُ اختيارِ البِقاعي، وذهب إليه السعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٠، ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٤٤، ٤٥].

﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾.

أي: ومَن عَمِلَ بالكُفرِ والمعاصي فضَرَرُ ذلك ووَبالُه على نَفْسِه، لا على غَيرِه[١].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ [الروم: ٤٤].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: ثمَّ إلى رَبِّكم تَصيرونَ -أيُّها النَّاسُ- بعدَ مَوتِكم أحياءً يومَ القيامةِ، فيُجازيكم على أعمالِكم؛ خَيرِها وشَرِّها[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ هذه آيةُ عِبرةٍ في جَرَيانِ السَّفينةِ في البَحرِ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى سَخَّر هذا المخلوقَ العَظيمَ لهذا المخلوقِ الضَّعيفِ[٣]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ فيه تعليمُ الأخلاقِ الفاضِلةِ، والأفعالِ الحَميدةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٣، ٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ فيه أعظَمُ تَرغيبٍ في الحَثِّ على الغُفرانِ للمُوافِقِ في الدِّينِ[١] مِن بابِ أولَى.

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾ فيه أنَّ العَمَلَ الصَّالحَ يَعودُ بالنَّفعِ العَظيمِ على فاعِلِه، والعَمَلَ الرَّديءَ يَعودُ بالضَّرَرِ على فاعِلِه، وأنَّه تعالى أمَرَ بهذا، ونهَى عن ذلك؛ لحَظِّ العَبدِ، لا لِنَفعٍ يَرجِعُ إليه سُبحانَه، وهذا تَرغيبٌ منه في العَمَلِ الصَّالحِ، وزَجرٌ عن العَمَلِ الباطِلِ[٢]، فمتى عَلِمْتَ أنَّ عمَلَك لِنَفْسِك فسوف تجتهدُ في هذا[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ أنَّ كُلَّ عَمَلٍ لا إخلاصَ فيه فهو ضَرَرٌ على صاحبِه وليس له؛ لأنَّ العَمَلَ الصَّالحَ هو ما جَمَعَ بيْنَ شَرطَينِ: الإخلاصِ، والمُتابَعةِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ ذَكَر سُبحانَه وتعالى الاستِدلالَ بكَيفيَّةِ جَريانِ الفُلكِ على وَجهِ البَحرِ، وذلك لا يَحصُلُ إلَّا بسَبَبِ تَسخيرِ ثلاثةِ أشياءَ:

أحَدُها: الرِّياحُ الَّتي تَجري على وَفقِ المرادِ.

وثانيها: خَلقُ وَجهِ الماءِ على الملاسةِ الَّتي تجري عليها الفُلكُ.

وثالثُها: خَلقُ الخَشَبةِ على وَجهٍ تبقى طافيةً على وجهِ الماءِ، ولا تغوصُ فيه.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذه الأحوالُ الثَّلاثةُ لا يَقدِرُ عليها واحِدٌ مِن البَشَرِ؛ فلا بُدَّ مِن مُوجِدٍ قادِرٍ عليها، وهو اللهُ سُبحانَه وتعالى(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أنَّ الأصلَ في جميعِ الأعيانِ الموجودةِ -على اختِلافِ أصنافِها وتَبايُنِ أوصافِها- أن تكونَ حَلالًا مُطلقًا للآدميِّينَ، وأن تكونَ طاهِرةً لا يَحرُمُ عليهم مُلابَستُها ومُباشَرتُها ومُماسَّتُها. وَجهُ ذلك: أنَّه إذا كان ما في الأرضِ مُسَخَّرًا لنا، جاز استِمتاعُنا به(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أنَّ مَن عمِلَ عمَلًا بِدْعِيًّا فعَمَلُه عليه لا له؛ لأنَّه لا يَدخُلُ في العملِ الصَّالحِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ مَسوقٌ للاعتِبارِ بتسخيرِ البَحرِ على عَظَمتِه والسُّفنِ الجاريةِ فيه لمخلوقٍ هو أضألُ شيءٍ بالنِّسبةِ لهما؛ للانتِقالِ مِن التَّذكيرِ بما خلَقَ اللهُ مِن العوالِمِ وتَصاريفِ أحْوالِها مِن حيثُ إنَّها دَلالاتٌ على الوَحدانيَّةِ، إلى التَّذكيرِ بما سخَّرَ اللهُ للنَّاسِ مِن المَخْلوقاتِ وتَصاريفِها مِن حيثُ كانتْ مَنافعَ للنَّاسِ تَقْتضي أنْ يَشْكُروا مُقدِّرَها، فجَحَدوا بها؛ إذ تَوجَّهوا بالعِبادةِ إلى غَيرِ المُنعِمِ عليهم؛ ولذلك عُلِّقَ بفِعْلَيْ (سخَّر) في المَوضعَينِ مَجرورٌ بلامِ العِلَّةِ بقولِه: ﴿لَكُمُ﴾، على أنَّ هذه التَّصاريفَ آياتٌ أيضًا مِثلُ اخْتِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وما أنْزَلَ اللهُ مِن السَّماءِ مِن ماءٍ، وتَصْريفِ الرِّياحِ، ولكنْ لُوحِظَ هنا ما فيها مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٨٢).

النِّعَمِ كما لُوحِظَ هنالك ما فيها مِن الدَّلالةِ، والفَطِنُ يَستخلِصُ مِن المَقامينِ كِلا الأمْرينِ على ما يُشْبِهُ الاحْتِباكَ[١]، ومُناسَبةُ هذا الانتِقالِ واضحةٌ[٢].

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ اسمُ الجَلالةِ مُسنَدٌ إليه، والمَوصولُ مُسنَدٌ، وتَعريفُ الجُزأينِ مُفيدٌ للحصْرِ، وهو قَصْرُ قلْبٍ[٣] بتَنزيلِ المُشركينَ مَنزلةَ مَن يَحسَبُ أنَّ تَسخيرَ البحْرِ وتَسخيرَ ما في السَّمواتِ والأرضِ إنْعامٌ مِن

---

(١) تقدَّم تعريفه (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٧).

(٣) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

شُركائِهم؛ فكان هذا القصْرُ إبْطالًا لهذا الزَّعْمِ الَّذي اقْتضاهُ هذا التَّنزيلُ[١].

- وقولُه: ﴿لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ﴾ بدَلُ اشْتِمالٍ مِن ﴿لَكُمُ﴾؛ لأنَّ في قَولِه: ﴿لَكُمُ﴾ إجمالًا أُرِيدَ تَفْصيلُه؛ فتَعريفُ الفُلْكِ تَعريفُ الجِنسِ، وليس جَرْيُ الفُلكِ في البَحرِ بنِعمةٍ على النَّاسِ إلَّا باعْتِبارِ أنَّهم يُجْرونَها للسَّفرِ في البَحرِ. وعُطِفَ عليه ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ باعتبارِ ما فيه مِن عُمومِ الاشتِمالِ؛ فحصَلَ مِن مَجموعِ ذلك أنَّ تَسْخيرَ البحْرِ لِجَرْيِ الفُلكِ فيه للسَّفرِ؛ لِقَضاءِ مُختلِفِ الحاجاتِ، حتَّى التَّنزُّهِ وزِيارةِ الأهْلِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ اقْتَضاهُ الاهتِمامُ أوَّلًا، ثمَّ التَّعميمُ ثانيًا، و﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عامٌّ مَخصوصٌ بما تَحصُلُ للنَّاسِ فائدةٌ مِن وُجودِه؛ كالشَّمسِ للضِّياءِ، والمطَرِ للشَّرابِ، أو مِن بَعضِ أحوالِه؛ كالكواكبِ للاهتِداءِ بها في ظُلُماتِ البَرِّ والبحْرِ، والشَّجرِ لِلاستِظلالِ، والأنعامِ للرَّكوبِ والحرْثِ ونحْوِ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ تَنْوينُ (جميعًا) تَنوينُ عِوَضٍ عَن المُضافِ إليه، أي: جَميعَ ذلك. و(مِن) ابتدائيَّةٌ، أي: جميعَ ذلك مِن عندِ اللهِ، ليس لِغَيرِه فيه أدْنَى شَرِكةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إنَّ في ذلك المذكورِ مِن تَسْخيرِ البَحرِ، وتَسخيرِ ما في السَّمواتِ والأرضِ؛ دَلائلَ على تَفرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ؛ فهي وإنْ كانتْ مِنَنًا يَحِقُّ أنْ يَشْكُرَها النَّاسُ، فإنَّها أيضًا دَلائلُ إذا تَفكَّرَ فيها المُنعَمُ عَليهم اهْتَدَوا بها، فحصَلَت لهمْ منها مُلائماتٌ جُسمانيَّةٌ ومَعارِفُ نَفْسانيَّةٌ، وبهذا الاعْتِبارِ كانتْ في عِدادِ الآياتِ المذكورةِ قبْلَها مِن قولِه: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، وإنَّما أُخِّرَت عنها؛ لأنَّها ذُكِرَت في مَعرِضِ الامتِنانِ بأنَّها نِعَمٌ، ثمَّ عُقِّبَت بالتَّنبيهِ على أنَّها أيضًا دَلائلُ على تَفرُّدِ اللهِ بالخلْقِ. وأُوثِرَ التَّفكُّرُ بالذِّكرِ في آخِرِ صِفاتِ المُستَدِلِّينَ بالآياتِ؛ لأنَّ الفِكرَ هو مَنبَعُ الإيمانِ والإيقانِ والعِلمِ المُتقدِّمةِ في قولِه: ﴿لَّآيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤]، ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[(١)] [الجاثية: ٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَغۡفِرُواْ﴾ -على أحدِ الأقوالِ- مَجزومٌ في جَوابِ (قُل)[(٢)]، وحُذِفَ المَقولُ؛ لأنَّ الجوابَ دالٌّ عليه، والمعنى: قُلْ لهم: اغْفِروا يَغْفِروا، أي: يَعْفوا ويَصْفَحوا، وهذا ثِقةٌ بالمُؤمِنينَ أنَّهم إذا قال لهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ امْتَثَلوا[(٣)].

- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ الرَّجاءُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٧، ٣٣٨).

(٢) ويُنظر ما تقدم في مُشكِل الإعرابِ (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٩).

هنا إمَّا على معناه الحقيقيِّ أو بمعنى الخَوفِ[١]، وعُبِّر في مَوضعِ الخَوفِ بالرَّجاءِ؛ لِما فيه مِن الاستِجلابِ والتَّرغيبِ والتَّأليفِ والاستِعطافِ[٢].

- قولُه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ على الوَجهِ بأنَّ المعنى: لِلَّذِين لا تَترقَّبُ نُفوسُهم أيَّامَ نصْرِ اللهِ، أي: نصْرِ اللهِ لهم، فتَكونُ أُجْرِيَت عليهمْ هنا هذه الصِّلةُ؛ إمَّا لأنَّهم لا يَتوكَّلون على اللهِ ولا يَسْتنصِرونه، بلْ تَوَجُّهُهم إلى الأصنامِ، وإمَّا لأنَّهم لا يَخطُرُ ببالِهم إلَّا أنَّهم مَنْصورونَ بحَوْلِهم وقُوَّتِهم، فلا يَخطُرُ ببالِهم سُؤالُ نَصْرِ اللهِ أو رَجاؤُه، وهم مَعْروفون بهذه الصِّلةِ بيْنَ المُسلِمينَ. وأُوثِرَ تَعريفُهم بهذه الصِّلةِ ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾؛ لِيَكونَ في ذلك تَعريضٌ بأنَّ اللهَ يَنصُرُ الَّذين يَرْجُون أيَّامَ نَصْرِه، وهمُ المُؤمِنون، والغرَضُ مِن هذا التَّعريضِ الإيماءُ بالمَوصولِ إلى وَجْهِ أمْرِ المُؤمِنينَ أنْ يَغْفِروا للمُشرِكينَ ويَصْفَحوا عن أذَى المُشرِكين، ولا يَتكلَّفوا الانْتِصارَ لِأنفُسِهم؛ لأنَّ اللهَ ضَمِنَ لهم النَّصرَ. وعلى وجْهِ أنَّه: قد يُطلَقُ أيَّامُ اللهِ في القُرآنِ على الأيَّامِ الَّتي حصَلَ فيها فضْلُه ونِعمتُه على قَومٍ، فمعنى ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ على هذا التَّأويلِ: أنَّهم في شُغلٍ عن تَرقُّبِ نِعَمِ اللهِ بما همْ فيه مِن إسنادِ فِعلِ الخَيرِ إلى أصْنامِهم بانْكِبابِهم على عِبادةِ الأصنامِ دُونَ عِبادةِ اللهِ، ويأْتي في هذا الوجْهِ مِن التَّعريضِ والتَّحريضِ مِثلُ ما ذُكِرَ في الوجْهِ الأوَّلِ؛ لأنَّ المُؤمِنينَ همُ الَّذين يَرْجُون نِعمةَ اللهِ[٣].

- قولُه: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ تَعْليلٌ للأمْرِ بالمَغْفرةِ، أي: لِيَغْفِروا ويَصْفحوا عن أذَى المُشرِكين، فلا يَنتصِروا لِأنفُسِهم؛ لِيَجْزِيَهم اللهُ على

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٠، ٣٤١).

إيمانِهم، وعلى ما أُوذوا في سَبيلِه؛ فإنَّ الانتصارَ للنَّفْسِ تَوفيةٌ للحقِّ، وماذا عَساهم يَبْلُغونَ مِن شِفاءِ أنفُسِهم بالتَّصدِّي للانتقامِ مِن المُشرِكين على قِلَّتِهم، وكَثرةِ أولئك؟! فإذا تَوكَّلوا على نَصْرِ ربِّهم، كان نَصْرُه لهم أتَمَّ، وأقْطَعَ لِشَوكةِ المُشرِكين[(١)].

- قولُه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ على قراءة ﴿لِنَجْزِيَ﴾ -بِنُونِ العَظَمةِ[(٢)]- فيَكونُ على الالتِفاتِ[(٣)].

- وكان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (لِيَجْزِيَهم بما كانوا يَكسِبون)؛ فعُدِلَ إلى الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِيَكونَ لَفظُ ﴿قَوْمًا﴾ مُشعِرًا بأنَّهم لَيسوا بمَضْيَعةٍ عِندَ اللهِ؛ فإنَّ لَفظَ (قَوم) مُشعِرٌ بفَريقٍ له قِوامُه وعِزَّتُه. وتَنكيرُ ﴿قَوْمًا﴾ للتَّعْظيمِ، وهذا مدحٌ وثَناءٌ عليهم. وقيل: القومُ هم الكافِرون؛ فيكونُ التَّنكيرُ للتحقيرِ. وقيل: الأظهرُ أنَّ ﴿قَوْمًا﴾ مُرادٌ به الإبهامُ، وتَنوينُه للتَّنكيرِ فقط، والمعنى: لِيَجزيَ اللهُ كلَّ قومٍ بما كانوا يَكسِبونَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ بما يُناسِبُ كسْبَهم؛ فيَكونُ وعيدًا للمُشركينَ المُعْتَدِينَ على المُؤمِنينَ، ووعْدًا للمؤمنينَ المأمورينَ بالصَّفحِ والتَّجاوُزِ عن أذَى المشركينَ، وهذا وجْهُ عدَمِ تَعليقِ الجزاءِ بضَميرِ الموقنينَ؛ لأنَّه أُريدَ العمومُ؛ فليس ثَمَّةَ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ على هذا الوَجهِ، ويُؤيِّدُ هذا قولُه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [الجاثية: ١٥]، وهذا كالتَّفصيلِ للإجمالِ الَّذي في قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٩).

(٢) قرأَها بالنُّونِ: ابنُ عامرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ. وقرأَها الباقونَ بالياءِ. وقرأَها أبو جعفرٍ بضمِّ الياءِ، وفتْحِ الزَّاي. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦٠)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٢).

﴿لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ ولذلك فُصِلتِ الجُملةُ ولم تُعطَفْ على سابقتِها[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لِبَيانِ كَيفيَّةِ الجزاءِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤١، ٣٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٨).

الآيات (١٦-٢٠)

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿بَغْيًۢا﴾: أي: فَسادًا وطُغيانًا وتَعدِّيًا، وأصلُ البَغيِ: يدُلُّ على الفَسادِ، وتجاوُزِ الحَدِّ؛ يُقالُ: بَغَتِ السَّماءُ: إذا كثُرَ مَطَرُها حتَّى تجاوَزَ الحَدَّ. ويُقالُ أيضًا: بَغَى الجُرحُ: إذا تورَّمَ واشتَدَّ وترامَى بالفَسادِ[(١)].

﴿شَرِيعَةٍ﴾: أي: مِلَّةٍ ومَذهَبٍ وطَريقةٍ، والشَّرْعُ والشِّرْعةُ والشَّريعةُ: الطَّريقةُ الظَّاهِرةُ، ونَهجُ الطَّريقِ الواضِحِ، وتُسَمَّى مَعالِمُ الدِّينِ شَريعةً؛ لِوُضوحِها، وأصلُها مِنَ الشَّرعِ: وهو البَيانُ والإظهارُ[(٢)].

﴿أَهْوَآءَ﴾: الأهواءُ: المذاهِبُ الَّتي تدعو إليها الشَّهوةُ دونَ الحُجَّةِ، وأصلُه: يدُلُّ على الخُلُوِّ والسُّقُوطِ، وسُمِّيَ الهوى هَوًى؛ لأنَّه يَهوِي بصاحِبِه في النَّارِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٢٨) و (٥/ ٢٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ١٥٠) و (٣/ ٥٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١، ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (٧/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، =

﴿أَوْلِيَآءُ﴾: أي: أصدقاءُ ونُصراءُ، والوِلايةُ النُّصرةُ، وأصْل (ولي): يدُلُّ على قُرْبٍ؛ سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[1].

﴿بَصَآئِرُ﴾: أي: حُجَجٌ بَيِّنةٌ، ودَلالاتٌ ظاهِرةٌ، واحِدتُها بَصيرةٌ: وهي الدَّلالةُ الَّتي تُوجِبُ إبصارَ النُّفوسِ للشَّيءِ، ومنه يُقالُ للدَّمِ الَّذي يُستَدَلُّ به على القَتيلِ: بَصيرةٌ، أو: هي البُرهانُ القاطِعُ الَّذي لا يَترُكُ في الحقِّ لَبْسًا، وأصلُها يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبَيانِه[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه قد آتَى بني إسرائيلَ الكِتابَ والحُكْمَ، وجعَلَ فيهم كثيرًا مِن الأنبياءِ، ورَزَقهم مِن الرِّزقِ الحَلالِ الطَّيِّبِ، وفضَّلهم على عالَمِي زمانِهم، فآتاهم ما لم يُؤتِ غيرَهم، وآتاهم آياتٍ واضِحاتٍ، فما تفرَّقوا واختَلَفوا إلَّا مِن بَعدِ ما جاءهم العِلمُ مِن اللهِ؛ ظُلمًا وحسَدًا فيما بيْنَهم!

ثمَّ يُخاطِبُ تعالى نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قائِلًا له: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- يَحكُمُ بالعَدلِ بيْنَ أولئك المُختَلِفينَ مِن بني إسرائيلَ فيما كانوا يختَلِفونَ فيه.

ثمَّ يأمُرُه الله أنْ يَتمسَّكَ بالدِّينِ الَّذي أوحاه إليه، فيقولُ: ثمَّ جعَلْناك -يا

= ((البسيط)) للواحدي (٧/ ٤٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٣٣٦) و (٩/ ٥٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠١).

محمَّدُ- على طَريقةٍ مُستقيمةٍ مِن الدِّينِ؛ فاتَّبِعْها، ولا تتَّبِعْ أهواءَ هؤلاء الجاهِلينَ؛ إنَّهم لن يَنفَعوك عندَ اللهِ بشَيءٍ، أو يَدفَعوا عنك شَيئًا مِن عذابِ اللهِ إنِ اتَّبعْتَ أهواءَهم، وإنَّ الظَّالِمينَ بَعضُهم أولياءُ بَعضٍ، واللهُ ناصِرُ المُتَّقينَ ومُعينُهم.

ثمَّ يُثْني سبحانَه على القرآنِ الكريمِ، فيقولُ: هذا القُرآنُ دلائِلُ واضِحةٌ للنَّاسِ يُبَصِّرُهم الحَقَّ مِن الباطِلِ، وبه يَرشُدونَ، وهو هُدًى ورَحمةٌ للمُوقِنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ أنَّه أنعَمَ بنِعَمٍ كَثيرةٍ على بني إسرائيلَ مع أنَّه حَصَل بَيْنَهم الاختِلافُ على سبَيلِ البَغيِ والحَسَدِ، والمقصودُ أن يُبَيِّنَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ طَريقةَ قَومِه كطَريقةِ مَن تقَدَّمَ، ولَمَّا كانت النِّعَمُ على قِسمَينِ: نِعمُ الدِّينِ، ونِعَمُ الدُّنيا؛ ونِعَمُ الدِّينِ أفضَلُ مِن نِعَمِ الدُّنيا؛ فلهذا بدأ اللهُ تعالى بذِكرِ نِعَمِ الدِّينِ، فقال[1]:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾.

أي: ولقد أعْطَيْنا بني إسرائيلَ الكِتابَ[2]، .....

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٤).

(٢) قيل: المرادُ به: التَّوراةُ. وممَّن قال بهذا القول: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، والبيضاوي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥).

وقيل: المرادُ به: التَّوراةُ والإنجيلُ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦). =

والحُكْمَ[(١)]، وجعَلْنا فيهم كثيرًا مِن الأنبياءِ[(٢)].

= وقال السمرقندي: (﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التَّوراةَ، والزَّبورَ، والإنجيلَ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨).

وقال القِنَّوْجي: (ولعلَّ الأولى أن يُحملَ الكتابُ على الجِنسِ؛ حتَّى يَشملَ الإنجيلَ والزَّبورَ أيضًا). ((تفسير القنوجي)) (١٢/ ٤٢٣).

وقيل: الكِتابُ يَعُمُّ التَّوارةَ والإنجيلَ والزَّبورَ وغيرَها مِمَّا أُنزِلَ على أنبيائِهم. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: البِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٩٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨).

(١) قيل: المرادُ بالحُكم هنا: الفَهمُ في الكِتابِ، والعِلمُ. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي. وأراد ابنُ جَريرٍ بالعِلمِ: العِلمَ بالسُّنَنِ الَّتي لم تَنزِلْ في الكِتابِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٢).

وقيل: المرادُ به: القَضاءُ وفَصلُ الخُصوماتِ بيْنَ النَّاسِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: أبو حيَّان، والسعدي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

قال الشوكاني: (المرادُ بالكِتابِ: التَّوراةُ. وبالحُكمِ: الفَهمُ والفِقهُ الَّذي يكونُ بهما الحُكمُ بيْنَ النَّاسِ، وفَصلُ خُصوماتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩).

وقال ابن عاشور: (ويَصِحُّ أن يكونَ بمعنى السِّيادةِ، أي: أنَّهم يَحكُمونَ أنفُسَهم بأنفُسِهم، ولا تَحكُمُهم أمَّةٌ أخرى، كقَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥).

وقال الرازي: (أمَّا الحُكمُ ففيه وُجوهٌ؛ يجوزُ أن يكونَ المرادُ: العِلمَ والحِكمةَ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ: العِلمَ بفَصلِ الحُكوماتِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ: مَعرِفةَ أحكامِ الله تعالى، وهو عِلمُ الفِقهِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٤، ٦٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

قال ابن عاشور: (معنى إيتائِهم هذه الأمورَ الثَّلاثةَ: إيجادُها في الأمَّةِ، وإيجادُ القائِمينَ بها؛ لأنَّ نَفْعَ ذلك عائِدٌ على الأمَّةِ جَمعاءَ، فكان كُلُّ فَردٍ مِن الأمَّةِ كمَنْ أُوتيَ تلك الأُمورَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥).

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

أي: ورَزَقْنا بني إسرائيلَ مِن الرِّزقِ الحَلالِ الطَّيِّبِ(١).

قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وفضَّلْنا بني إسرائيلَ على عالَمِي زمانِهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٢، ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٧، ١٩٨).

ممَّن اختار أنَّه أراد بقولِه: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عالَمي زَمانِهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥).

ونسَبه الرَّازيُّ للمفسِّرينَ، فقال: (قال المفسِّرونَ: المرادُ: وفضَّلْناهم على عالَمِي زمانِهم). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٦).

وقال السعدي: (﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على الخَلقِ بهذه النِّعَم، ويَخرُجُ مِن هذا العُمومِ اللَّفظيِّ هذه الأُمَّةُ؛ فإنَّهم خيرُ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٨، ١٩٩).

وقال البقاعي: (﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهم الَّذين تحقَّق إيجادُنا لهم في زَمانِهم وما قَبْلَه؛ فإنَّا =

كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٧﴾.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾.

أي: وآتَيْنا بَني إسرائيلَ آياتٍ واضِحاتِ الحُجَجِ(١).

= آتَيْناهم مِن الآياتِ المَرئيَّةِ والمسموعةِ، وأكثَرْنا فيهم مِن الأنبياءِ ما لم نَفعَلْه لِغَيرِهم ممَّن سَبَق، وكُلُّ ذلك فضيلةٌ ظاهِرةٌ. ((نظم الدرر)) (١٨/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥، ٣٤٦).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾: الوَحيُ، وتنزيلُ التَّوراةِ الَّتي فيها تَفصيلُ الأمورِ، وبَيانُ الحلالِ والحرامِ. وممَّن اختار هذا القَولَ في الجملةِ: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، وابن عطية، والخازن، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٦٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٨).

قال ابنُ عاشور: (علَّمْناهم بواسِطةِ كُتُبِهم وبواسِطةِ عُلَمائِهم حُجَجَ الحَقِّ والهُدى، الَّتي مِن شأنِها ألَّا تَترُكَ للشَّكِّ والخَطَأِ إلى نُفوسِهم سُبُلًا إلَّا سَدَّتْها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥).

وقيل: المرادُ: الحلالُ والحرامُ، وبيانُ ما كان قَبْلَهم، وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨).

وقيل: المرادُ: دَلالاتٌ على العِلمِ بمبعثِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: البغوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٦٨).

وقال البِقاعي: (﴿بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ المُوحى به إلى أنبيائِهم؛ مِنَ الأدِلَّةِ القَطعيَّةِ، والأحكامِ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

أي: فما تفرَّقَ بنو إسرائيلَ واختَلَفوا فيما بيْنَهم إلَّا مِن بَعدِ ما جاءهم العِلمُ الَّذي يُبَيِّنُ لهم ما يَتَّقُونَ، ويوجبُ عدَمَ الاختِلافِ، وإنَّما حمَلهم على ذلك الظُّلْمُ واعتداءُ بعضِهم على بعضٍ، والحسدُ وطلبُ الرِّياسةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [يونس: ٩٣].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- يَحكُمُ بالعَدلِ بيْنَ أولئك المُختَلِفينَ مِن بني إسرائيلَ

= والمواعِظِ المُؤَيَّدةِ بالمُعجِزاتِ، ومِن صِفاتِ الأنبياءِ الآتِينَ بَعْدَهم، وغيرِ ذلك ممَّا هو في غايةِ الوُضوحِ لِمَن قَضَيْنا بسَعادتِه، وذلك أمرٌ يَقتضي الأُلْفةَ والاجتِماعَ. ((نظم الدرر)) (١٨/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٤، ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٦).
قال الرازي: (هاهنا احتِمالاتٌ: يريدُ أنَّهم عَلِموا ثمَّ عانَدوا، ويجوزُ أن يُريدَ بالعِلمِ الدَّلالةَ الَّتي تُوصِلُ إلى العِلمِ، والمعنى: أنَّه تعالى وَضَع الدَّلائِلَ والبَيِّناتِ الَّتي لو تأمَّلوا فيها لَعَرَفوا الحَقَّ، لكِنَّهم على وَجهِ الحَسَدِ والعِنادِ اختَلَفوا وأظهَروا النِّزاعَ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥).

يومَ القيامةِ فيما كانوا في الدُّنيا يختَلِفونَ فيه، فيُمَيِّزُ المحِقَّ مِن المُبطِلِ، ويُجازي كُلًّا منهم بما يَستحِقُّ[١].

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ أعرَضوا عن الحَقِّ؛ مِن أجْلِ البَغيِ والحَسَدِ؛ أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَعدِلَ عن تلك الطَّريقةِ، وأن يَتمَسَّكَ بالحَقِّ، وألَّا يكونَ له غَرَضٌ سِوى إظهارِ الحَقِّ، وتَقريرِ الصِّدْقِ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إنْعامَه على بني إسْرائيلَ واختِلافَهم بعْدَ ذلك؛ ذكَرَ حالَ نَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وما مَنَّ به عليه مِن اصطِفائِه[٣]، فقال:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾.

أي: ثمَّ جعَلْناك -يا محمَّدُ- مِن بَعدِ أن آتَيْنا بني إسرائيلَ الكِتابَ والحُكمَ والنُّبُوَّةَ: على طَريقةٍ مُستقيمةٍ ومِنهاجٍ واضِحٍ مِن الدِّينِ؛ فاتَّبِعْ شَريعةَ اللهِ الَّتي أوحاها إليك[٤].

كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٦، ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٧، ٣٤٨).

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولا تتَّبِعْ -يا محمَّدُ- ما يَدعوك إليه المُشرِكونَ الجاهِلونَ باللهِ ودِينِه مِن مُخالَفةٍ لِشَرعِ اللهِ، فلا تَعمَلْ بدِينِهم وآرائِهم، ولا تُوافِقْهم في باطِلِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّ الجاهِلينَ الَّذين يَدْعونَك -يا محمَّدُ- لاتِّباعِ أهوائِهم: لن يَنفَعوك عندَ اللهِ بشَيءٍ، ولن يَدفَعوا عنك شَيئًا مِن عذابِ اللهِ إنِ اتَّبَعْتَ أهواءَهم، وخالَفْتَ ما شرَعَ اللهُ لك[2].

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

أي: وإنَّ الظَّالِمينَ يَتولَّى بَعضُهم بعضًا؛ فهم أنصارٌ وأحبابٌ فيما بيْنَهم، وأعوانٌ على المؤمِنينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٥)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣].

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

أي: واللهُ ناصِرٌ ومُعِينٌ لِلمُتَّقينَ الَّذين يَتَّقونَ سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتِنابِ ما نهَى[1].

كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

= (١٦/ ١٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٠).

قال الشنقيطي: (الظُّلمُ في لُغةِ العَرَبِ أصلُه وَضْعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِه. و... أعظَمُ أنواعِه الشِّركُ باللهِ؛ لأنَّ وَضْعَ العبادةِ في غَيرِ مَن خَلَق ورَزَق هو أشنَعُ أنواعِ وَضْعِ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِه؛ ولذا كَثُرَ في القُرآنِ العَظيمِ إطلاقُ الظُّلمِ بمعنى الشِّركِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٠٠).

وقال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: يُريدُ المُنافِقينَ أولياءَ اليَهودِ. وقال الكَلْبيُّ ومُقاتِلٌ: يعني: مُشرِكي مَكَّةَ بَعضُهم أولياءُ بَعضٍ، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الشِّركَ، وهم أمَّةُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقال عطاءٌ: يُريدُ المُهاجِرينَ والأنصارَ). ((البسيط)) (٢٠/ ١٤٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٨).

وقال الشوكاني: (والمرادُ بالمتَّقينَ: الَّذين اتَّقَوُا الشِّركَ والمعاصيَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠).

وقال ابنُ كثير: (أي: وماذا تُغْني عنهم وَلايتُهم لبَعضِهم بعضًا؛ فإنَّهم لا يَزيدونَهم إلَّا خَسارًا ودَمارًا وهلاكًا؟!). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧).

وقال ابن عاشور: (أي: إنَّهم ظالِمونَ، وأنت لَسْتَ مِن الظَّالِمينَ في شَيءٍ؛ فلا يَجوزُ أن تتَّبِعَهم في شَيءٍ، وإنَّما يَتَّبِعُهم مَن هم أولياؤُهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠١).

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾.

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾.

أي: هذا القُرآنُ دلائِلُ ساطِعةٌ يُبصِرُ بها النَّاسُ الحَقَّ مِن الباطِلِ، ويَعرِفونَ بها الصَّوابَ في جميعِ أُمورِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

﴿وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾.

أي: وهذا القُرآنُ يَهدي إلى الحَقِّ في الدُّنيا، وإلى الجنَّةِ في الآخِرةِ، ورَحمةٌ في الدُّنيا والآخِرةِ للمُوقِنينَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠١).

قال ابن عاشور: (وإنَّما كان... بَصائرَ؛ لأنَّه يُبيِّنُ للنَّاسِ الخَيرَ والشَّرَّ، ويُحرِّضُهم على الخَيرِ، ويُحذِّرهم مِن الشَّرِّ، ويَعِدُهم على فِعلِ الخَيرِ، ويُوعِدُهم على فِعلِ الشُّرورِ؛ فعمَلُه عَملُ البَصيرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

قال ابن عاشور: (وإنَّما كان هُدًى؛ لأنَّه طَريقُ نَفْعٍ لِمَنِ اتَّبَعَ إرْشادَه، فاتِّباعُه كالاهتِداءِ للطَّريقِ المُوصِلةِ إلى المَقصودِ، وإنَّما كان رَحمةً؛ لأنَّ في اتِّباعِ هَدْيِه نَجاحَ النَّاسِ أفْرادًا وجَماعاتٍ في الدُّنيا؛ لأنَّه نِظامُ مُجتمعِهم ومَناطُ أمْنِهم، وفي الآخرةِ؛ لأنَّه سَببُ نَوالِهم دَرجاتِ النَّعيمِ الأبَديِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٠).

وقال ابن جرير: (﴿... لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ بحَقيقةِ صِحَّةِ هذا القُرآنِ، وأنَّه تَنزيلٌ مِن اللهِ العزيزِ =

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ المرادُ أنَّه لا يَنبغي أن يَغترَّ المُبطِلُ بنِعَمِ الدُّنيا؛ فإنَّها وإن ساوَتْ نِعَمَ المُحِقِّ أو زادَتْ عليها فإنَّه سيَرَى في الآخِرةِ ما يَسوؤُه[(١)]!

٢- قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ هذا فيه تحذيرٌ لهذه الأمَّةِ أن تَسلُكَ مَسلَكَهم، وأن تَقصِدَ مَنهَجَهم[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ذكَر جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّه فضَّل بني إسرائيلَ على العالمينَ، لَكِنَّ اللهَ جَلَّ وعلا بَيَّنَ أنَّ أمَّةَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خَيرٌ مِن بني إسرائيلَ، وأكرَمُ على اللهِ، كما صَرَّحَ بذلك في قَولِه تعالى:

= الحكيم). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧).

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١١٠]؛ فـ (خَيْر) صيغةُ تَفضيلٍ، والآيةُ نَصٌّ صَريحٌ في أنَّهم خَيرٌ مِن جميعِ الأُمَمِ؛ بني إسرائيلَ وغَيرِهم، والتَّفضيلُ الواردُ في بني إسرائيلَ ذُكِرَ فيهم حالَ عَدَمِ وُجودِ أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمعدومُ في حالِ عَدَمِه ليس بشَيءٍ حتَّى يُفَضَّلَ أو يُفَضَّلَ عليه[١]. وأيضًا فإنَّ الفضائلَ الَّتي فاق بها بنو إسرائيلَ مِن الكِتابِ والحُكْمِ والنُّبُوَّةِ وغَيرِها مِن النُّعوتِ: قد حَصَلت كُلُّها لهذه الأُمَّةِ، وزادتْ عليهم هذه الأُمَّةُ فضائِلَ كَثيرةً، فهذه الشَّريعةُ شَريعةُ بني إسرائيلَ جُزءٌ منها؛ فإنَّ هذا الكِتابَ مُهيمِنٌ على سائِرِ الكُتُبِ السَّابقةِ، ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُصَدِّقٌ لجَميعِ المُرسَلينَ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أنَّ أهلَ الكتابِ تَفرَّقوا واختَلَفوا قبْلَ إرسالِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم إليهم[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ المُتعبِّدَ للهِ إنْ لم يكُنْ مُتابِعًا للرَّسولِ فإنَّه لا تُقبَلُ عبادتُه[٤].

٤- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أمَرَه في هذه الآيةِ باتِّباعِ الشَّريعةِ الَّتي جعَلَه عليها، ونهاه عن اتِّباعِ ما يخالِفُها، وهي أهواءُ الَّذين لا يَعلَمونَ؛ ولهذا كان كُلُّ مَن خرَج عن

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٨٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٤/ ٢٢٠).

الشَّريعةِ والسُّنَّةِ: مِن أهلِ الأهواءِ، كما سَمَّاهم السَّلَفُ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تحريمُ الإفتاءِ في دينِ اللهِ بالرَّأيِ المتضَمِّنِ لِمُخالَفةِ النُّصوصِ، والرَّأيِ الَّذي لم تَشهَدْ له النُّصوصُ بالقَبولِ؛ فقَسَم سُبحانَه الأمرَ بيْنَ الشَّريعةِ الَّتي جَعَله هو سُبحانَه عليها، وأَوحَى إليه العَمَلَ بها، وأَمَر الأُمَّةَ بها؛ وبَيْنَ اتِّباعِ أهواءِ الَّذين لا يَعلَمونَ؛ فأمَر بالأوَّلِ، ونهَى عن الثَّاني[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ جَعَل البَصائِرَ للنَّاسِ؛ لأنَّه بَيانٌ للنَّاسِ عامَّةً، وجَعَل الهُدى والرَّحمةَ لِقَومٍ يُوقِنونَ؛ لأنَّه لا يَهتَدي ببَيانِه إلَّا الموقِنُ بحقيقتِه، ولا يُرحَمُ به إلَّا مَنِ اتَّبَعه؛ المؤمِنُ بحَقِّيَّتِه[٣].

٧- قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ سُؤالٌ عربيٌّ معروفٌ، وهو أنَّ المبتدأَ الَّذي هو قَولُه: ﴿هَٰذَا﴾ اسمُ إشارةٍ إلى مُذكَّرٍ مُفرَدٍ، والخبَرُ الَّذي هو ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾ جمعٌ مُكَسَّرٌ مُؤنَّثٌ، فيُقالُ: كيف يُسنَدُ الجَمعُ المُؤنَّثُ المُكَسَّرُ إلى المُفرَدِ المُذكَّرِ؟

والجوابُ: أنَّ مَجموعَ القُرآنِ كِتابٌ واحِدٌ، تَصِحُّ الإشارةُ إليه بـ ﴿هَٰذَا﴾، وهذا الكِتابُ الواحِدُ يَشتَمِلُ على بَراهينَ كَثيرةٍ، فصَحَّ إسنادُ البَصائِرِ إليه؛ لاشتِمالِه عليها كما لا يخفَى[٤]، ولاشتِمالِه على آياتٍ وسُوَرٍ جُعِلَ كُلٌّ منها بَصيرةً[٥].

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٤٧).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ فيه أنَّ القُرآنَ الكَريمَ يَحصُلُ به التَّبصِرةُ في جَميعِ الأُمورِ للنَّاسِ، فيَحصُلُ به الانتِفاعُ للمُؤمِنينَ، والهدَى والرَّحمةُ؛ فيَهتَدونَ به إلى الصِّراطِ المُستَقيمِ في أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه، ويَحصُلُ به الخَيرُ والسُّرورُ والسَّعادةُ في الدُّنيا والآخرةِ، وهي الرَّحمةُ؛ فتَزكو به نُفوسُهم، وتَزدادُ به عُقولُهم، ويَزيدُ به إيمانُهم ويَقينُهم، وتقومُ به الحُجَّةُ على مَن أصَرَّ وعانَدَ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لإعلامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ السَّبيلَ الَّتي يَسيرُ عليها قَومُه هي السَّبيلُ الَّتي سار عليها مَن تَقدَّمَهم مِن الأُمَمِ[2].

- وسَوقُ خَبَرِ بني إسْرائيلَ هنا في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ...﴾ إلى قولِه: ﴿... فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ تَوطئةٌ وتَمهيدٌ لِقَولِه بعْدَه: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا﴾ [الجاثية: ١٨]؛ أثارَ ذلك ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ * يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾ [الجاثية: ٧-٩]، ثمَّ قولِه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٠).

١٤]؛ فكان المَقصدُ قولَه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ [الجاثية: ١٨]؛ ولذلك عُطِفَت الجُملةُ بحَرْفِ (ثمَّ) الدَّالِّ على التَّراخي الرُّتبيِّ، أي: على أهمِّيَّةِ ما عُطِفَ بها. وكان مُقْتضى ظاهرِ النَّظْم أنْ يقَعَ قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ...﴾ الآيتَين، بعْدَ قولِه: ﴿جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ [الجاثية: ١٨]، فيَكونَ دَليلًا وحُجَّةً له، فأُخْرِجَ النَّظْمُ على خِلافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ، فجُعِلَت الحُجَّةُ تَمْهيدًا؛ قَصْدًا للتَّشويقِ لِمَا بعْدَه، ولِيَقَعَ ما بعْدَه مَعطوفًا بـ (ثُمَّ) الدَّالَّةِ على أهمِّيَّةِ ما بعْدَها[1].

- وأُدمِجَ في خِلالِ الآياتِ ما اختَلَفَ فيه بَنو إسْرائيلَ على ما دعَتْهم إليه شَريعتُهم؛ لِمَا فيه مِن تَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على مُخالَفةِ قَومِه دَعوتَه؛ تَنْظيرًا في أصْلِ الاخْتِلافِ دونَ أسْبابِه وعَوارِضِه. ولَمَّا كان في الكلامِ ما القصْدُ منه التَّسليةُ والاعتبارُ بأحْوالِ الأُمَمِ، حَسُنَ تأْكيدُ الخَبرِ بلامِ القسَمِ وحَرْفِ التَّحقيقِ (قدْ)؛ تأْكيدًا للمؤمنينَ بأنَّ اللهَ يَقْضي بيْنَهم وبيْنَ المُشركين، كشَأْنِه فيما حدَثَ بيْن بَني إسْرائيلَ[2].

- وقد بُسِطَ في ذِكرِ النَّظيرِ في بَني إسْرائيلَ مِن وَصْفِ حالِهم حِينَما حدَثَ الاخْتِلافُ بيْنَهم، ومِن التَّصريحِ بالدَّاعي لِلاختِلافِ بيْنَهم؛ ما طُوِيَ مِن مِثلِ بَعْضِه مِن حالِ المُشركينَ حِينَ جاءَهُم الإسلامُ، فاخْتَلَفوا مع أهْلِه؛ إيجازًا في الكلامِ؛ لِلاعتِمادِ على ما يَفْهَمُه السَّامِعونَ بطَريقِ المُقايَسةِ، على أنَّ أكْثَرَه قد وقَعَ تَفصيلُه في الآياتِ السَّابقةِ، مِثلُ قولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٦]، وقولِه: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ [الجاثية: ١١]؛ فإنَّ ذلك يُقابِلُ قولَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٤٤).

هنا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾، ومِثلُ قولِه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٣]؛ فإنَّه يُقابِلُ قولَه هنا: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، ومِثلُ قولِه: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ إلى قولِه: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: ٨، ٩]؛ فإنَّه يُقابِلُ قولَه هنا: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا﴾، ومِثلُ قولِه: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤]؛ فإنَّه مُقابِلٌ قولَه هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[(١)].

- قولُه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلْأَمْرِ﴾ للتَّعظيمِ، أي: مِن شُؤونٍ عَظيمةٍ، أي: شأْنُ الأُمَّةِ وما به قِوامُ نِظامِها؛ إذ لَمْ يَترُكْ مُوسى والأنبياءُ مِن بَعْدِه شَيئًا مُهِمًّا مِن مَصالحِهم إلَّا وقدْ وضَّحوه وبيَّنوه، وحذَّروا مِن الالْتِباسِ فيه[(٢)].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ تَفريعَ إدْماجٍ[(٣)]؛ لِمُناسَبتِه للحالةِ الَّتي أُرِيدَ تَنْظيرُها، وتَقديرُ الكلامِ: فاخْتَلفوا، وما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٣) الإدماجُ: هو أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

اخْتَلفوا إلَّا مِن بَعْدِ ما جاءَهم العِلمُ؛ فحُذِفَ المُفرَّعُ لِدَلالةِ ما بعْدَه عليه على طَريقةِ الإيجازِ؛ إذ المَقصودُ هو التَّعجُّبُ مِن حالِهم كيفَ اختَلَفوا حِينَ لا مَظِنَّةَ لِلاختِلافِ؛ إذ كان الاختِلافُ بيْنَهم بعْدَ ما جاءَهم العِلمُ المَعهودُ بالذِّكرِ آنِفًا مِن الكتابِ والحُكْمِ والنُّبوَّةِ والبيِّناتِ مِن الأمْرِ، ولو اخْتَلَفوا قبْلَ ذلك لَكان لهم عُذْرٌ في الاختِلافِ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية: ٢٣]. وهذا الكَلامُ كِنايةٌ عن عَدَمِ التَّعجُّبِ مِن اخْتِلافِ المُشرِكين معَ المُؤمِنينَ؛ حيثُ إنَّ المُشرِكينَ لَيسوا على عِلمٍ ولا هُدًى؛ لِيَعلَمَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه مَلطوفٌ به في رِسالتِه[1].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ خَبَرَهم العَجيبَ يُثيرُ سُؤالًا في نفْسِ سامِعِه عن جَزاءِ اللهِ إيَّاهم على فِعلِهم، وهذا جَوابٌ فيه إجْمالٌ؛ لِتَهويلِ ما سيُقْضَى به بيْنَهم في الخَيرِ والشَّرِّ؛ لأنَّ الخِلافَ يَقْتضي مُحِقًّا ومُبطِلًا[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا﴾ حَرْفُ (ثُم) للتَّراخي الرُّتبيِّ كما هو شأْنُها في عطْفِ الجُمَلِ، ولولا إرادةُ التَّراخي الرُّتبيِّ لَكانتِ الجُملةُ مَعطوفةً بالواوِ، وهذا التَّراخي يُفيدُ أنَّ مَضمونَ الجُملةِ المعطوفةِ بحَرْفِ (ثُمَّ) أهمُّ مِن مَضمونِ الجُملةِ المعطوفِ عليها أهمِّيَّةَ الغرَضِ على المُقدِّمةِ، والنَّتيجةِ على الدَّليلِ. وفي هذا التَّراخي تَنويهٌ بهذا الجَعلِ، وإشارةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٤٧).

إلى أنَّه أفضَلُ مِن إيتاءِ بَني إسرائيلَ الكِتابَ والحُكمَ والنُّبوَّةَ والبيِّناتِ مِن الأمْرِ؛ فنُبُوَّةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وكِتابُه، وحُكْمُه، وبَيِّناتُه؛ أفضَلُ وأهْدى ممَّا أُوتِيَه بَنو إسرائيلَ مِن مِثلِ ذلك[١].

- وحَرْفُ ﴿عَلَىٰ﴾ للاستِعلاءِ الدَّالِّ على التَّمكُّنِ والثَّباتِ[٢].

- وتَنوينُ ﴿شَرِيعَةٍ﴾ للتَّعظيمِ؛ بقَرينةِ حَرْفِ التَّراخي الرُّتبيِّ[٣].

- وقدْ بلَغَتْ هذه الجُملةُ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِن الإيجازِ مَبلَغًا عَظيمًا؛ إذ أفادتْ أنَّ شَريعةَ الإسلامِ أفضَلُ مِن شَريعةِ مُوسى، وأنَّها شَريعةٌ عَظيمةٌ، وأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُتمكِّنٌ منها، لا يُزَعْزِعُه شَيءٌ عن الدَّأَبِ في بَيانِها والدَّعوةِ إليها؛ ولذلك فُرِّعَ عليه أمْرُه باتِّباعِها بقولِه: ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾، أي: دُمْ على اتِّباعِها؛ فالأمْرُ لِطَلَبِ الدَّوامِ[٤].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمَقصودُ منه: إسْماعُ المشركينَ؛ لِئلَّا يَطمَعوا بمُصانَعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيَّاهم حِينَ يَرَون منه الإغضاءَ عن هَفَواتِهم وأذاهم، وحِينَ يَسْمَعون في القرآنِ بالصَّفْحِ عنهم، كما في الآيةِ السَّالفةِ؛ ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]. وفيه أيضًا تَعريضٌ للمُسلِمينَ بأنْ يَحذَروا مِن أهواءِ الَّذين لا يَعلَمونَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٤٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن اتِّباعِ أهواءِ الَّذين لا يَعلَمون، ويَتضمَّنُ تَعليلَ الأمْرِ باتِّباعِ شَريعةِ اللهِ؛ فإنَّ كَونَهم لا يُغْنونَ عنه مِن اللهِ شَيئًا، يَستلزِمُ أنَّ في مُخالَفةِ ما أمَرَ اللهُ مِن اتِّباعِ شَريعتِه ما يُوقِعُ في غضَبِ اللهِ وعِقابِه؛ فلا يُغْني عنه اتِّباعُ أهْوائِهم مِن عِقابِه[١].

- والكلامُ في قولِه: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ على حذْفِ مُضافٍ، أي: لنْ يُغْنوا عنك بَدَلًا مِن عَذابِ اللهِ، أي: قَليلًا مِن الإغناءِ البديلِ مِن عِقابِ اللهِ[٢].

- وعُطِفَ على هذا التَّعليلِ ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ تَعليلٌ آخَرُ؛ وهو ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، أي: إنَّهم ظالِمون، وأنت لَسْتَ مِن الظَّالِمينَ في شَيءٍ؛ فلا يَجوزُ أنْ تَتَّبِعَهم في شَيءٍ، وإنَّما يَتَّبِعُهم مَن همْ أَولياؤُهم[٣].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تَذْييلٌ، وهو يُفيدُ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اللهُ وَليُّه؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أوَّلُ المُتَّقينَ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ إنْ كانتِ الإشارةُ إلى الكلامِ المُتقدِّمِ وما فيه مِن ضَرْبِ المَثلِ بمُوسى وقَومِه، ومِن تَفضيلِ شَريعةِ محمَّدٍ على شَريعةِ مُوسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، والأمْرِ بمُلازَمةِ اتِّباعِها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والتَّحذيرِ مِن اتِّباعِ رَغائبِ الَّذين لا يَعلَمون؛ فهذه الجُملةُ بمَنزِلةِ التَّذييلِ لِمَا قبْلَه والتَّهيئةِ لأغْراضِه؛ تَنْبيهًا لِما في طَيِّها مِن عواصِمَ عن الشَّكِّ والباطلِ. وإنْ كانت الإشارةُ إلى القُرآنِ -إذ هو حاضرٌ في الأذهانِ- كانت الجُملةُ استئنافًا أُعيدَ بها التَّنويهُ بشَأْنِ القُرآنِ ومُتَّبِعيه، والتَّعريضُ بتَحْميقِ الَّذين أعْرَضوا عنه، وتكونُ مُفيدةً تأْكيدَ قولِه آنفًا: ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ١١]، وتكونُ الجُملةُ المُتقدِّمةُ صَريحةً في وَعيدِ الَّذين كَفَروا بآياتِه، وهذه تَعريضًا بأنَّهم لم يَحْظَوا بهذه البصائرِ، وكِلا الاحْتِمالَينِ رَشيقٌ، وكلٌّ بأنْ يكونَ مَقصودًا حَقيقٌ[١].

- قولُه: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ فيه جمْعُ البَصائرِ -إنْ كانتِ الإشارةُ إلى القُرآنِ باعتبارِ المُتبصِّرينَ بسَببِه، كما اقْتَضاهُ قولُه: ﴿لِلنَّاسِ﴾-؛ لأنَّ لكلِّ أحدٍ بَصيرتَه الخاصَّةَ؛ فهي أمْرٌ جُزئيٌّ بالتَّبَعِ؛ لِكَونِ صاحبِ كلِّ بَصيرةٍ جُزئيًّا مُشخَّصًا، فناسَبَ أنْ تُورَدَ جمْعًا، وهذا بخِلافِ إفرادِ (هُدًى) و(رَحْمَةٌ)؛ لأنَّ الهُدى والرَّحمةَ مَعنَيانِ كُلِّيَّانِ يَصلُحانِ للعدَدِ الكثيرِ[٢].

- وذُكِرَ لَفظُ (قَوم)؛ للإيماءِ إلى أنَّ الإيقانَ مُتمكِّنٌ مِن نُفوسِهم، كأنَّه مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم الَّتي تُميِّزُهم عن أقوامٍ آخَرينَ[٣].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ الإيقانِ؛ لأنَّه مَعلومٌ بما جاءتْ بهِ آياتُ اللهِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢١-٢٢)

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱجْتَرَحُوا۟﴾: أي: اكتَسَبوا وعَمِلوا، ومِنه الجارِحةُ للأعضاءِ الَّتي يُكتَسَبُ بها كالأيدي، وأصلُ (جرح): يدُلُّ على كَسْبٍ[١].

﴿وَخَتَمَ﴾: أي: طبَعَ وربَطَ، وأصلُ (ختم): يدُلُّ على التَّغطيةِ على الشَّيءِ، والاستيثاقِ منه، بألَّا يَدخُلَه شَيءٌ، ولا يَخرُجَ منه شَيءٌ[٢].

﴿غِشَٰوَةً﴾: أي: غِطاءً وساترًا، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على التَّغطيةِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٥، ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٩).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾

﴿ أَمۡ ﴾ مُنقَطِعةٌ بمعنى: «بلْ» وهمزةِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ، أي: بل أَحَسِبَ...، أو تُقَدَّرُ بـ «بل» وَحْدَها، أي: بل حَسِبَ...، أو تُقَدَّرُ بالهَمزةِ وَحْدَها، أي: أَحَسِبَ الَّذين...[1].

قَولُه: ﴿ نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الجَعلُ هنا بمعنى التَّصييرِ، و(هم) مَفعولُه الأوَّلُ. ﴿ كَٱلَّذِينَ ﴾: جارٌّ ومَجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ في محَلِّ نَصبٍ مَفعولٌ به ثانٍ لـ (نَجعَل)، أي: أَحَسِبوا أَنْ نجعلَهم كائِنينَ كالَّذين آمَنوا. والمصدَرُ المؤوَّلُ ﴿أَن نَّجۡعَلَهُمۡ ... ﴾ سَدَّ مَسَدَّ مَفعولَي ﴿حَسِبَ ﴾.

قولُه: ﴿سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡ ﴾: قُرِئَ ﴿سَوَآءً ﴾ بالنَّصبِ والرَّفعِ[2]؛ فأمَّا النَّصبُ ففيه أوجُهٌ:

الأوَّلُ: أنَّه حالٌ مِن الضَّميرِ المُستَتِرِ في مُتعَلَّقِ الجارِّ والمجرورِ ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، أو مِن الضَّميرِ المنصوبِ في ﴿نَّجۡعَلَهُمۡ ﴾، والتَّقديرُ: أَحَسِبوا أن نجعَلَهم مِثلَهم في حالِ استِواءِ محياهم ومماتِهم؟ ليس الأمرُ كذلك. ويكونُ المفعولُ الثَّاني للجَعْلِ ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ كما تقَدَّمَ.

الثَّاني: أن يكونَ ﴿سَوَآءً ﴾ هو المفعولَ الثَّانيَ للجَعْلِ، و﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ في محَلِّ نَصبٍ على الحالِ، أي: أن نجعَلَهم حالَ كَونِهم مِثلَهم سواءً.

الثَّالثُ: أن يكونَ ﴿سَوَآءً ﴾ مَفعولًا بعدَ مَفعولِ الجَعْلِ، فيَكونَ ﴿كَٱلَّذِينَ﴾،

---

(١) قال ابنُ القيِّم في تفسيرِ ﴿أَمۡ ﴾ المُنقطِعةِ: (الحقُّ أن يُقالَ: إنَّها على بابِها وأصلِها الأوَّلِ مِن المُعادَلةِ والاستِفهامِ حيث وقعتْ، وإن لم يكُنْ قبْلَها أداةُ استِفهامٍ في اللَّفظِ، وتقديرُها بـ «بَلْ» والهمزةِ خارجٌ عن أُصولِ اللُّغةِ العربيَّةِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٠٦، ٢٠٧). ويُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

(٢) يُنظر ما سيأتي في القراءات ذاتِ الأثر في التَّفسير (ص: ٩٠).

و﴿سَوَآءً﴾ كِلاهما في حَيِّزِ المَفعولِ الثَّاني للجَعْلِ وفي دَرَجةٍ واحدةٍ باعتِبارِ المفعوليَّةِ الثَّانيةِ، كما تقولُ: جعَلْتُ زيدًا عالِمًا كريمًا، فـ(عالِمًا كريمًا) وشِبهُه ولو تعَدَّدَت آلافًا: مَفعولٌ ثانٍ؛ لأنَّ الجَميعَ في معنًى واحِدٍ باعتِبارِ تعَلُّقِ الجَعلِ به، وهي كأخبارِ المبتدَأِ إذا تعَدَّدَت، فيَكونَ التَّقديرُ: أَحَسِبَ المُجترِحونَ أن نجعَلَهم مُماثِلينَ مُستَوِينَ في الحياةِ والمَماتِ؟! أي: هذا ليس بكائِنٍ.

الرَّابِعُ: أن يكونَ ﴿سَوَآءً﴾ بدَلًا مِن الكافِ في ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، بِناءً على أنَّها اسمٌ بمعنى (مِثْل).

﴿مَّحۡيَاهُمۡ﴾: فاعِلٌ بـ﴿سَوَآءً﴾؛ لأنَّه مَصدَرٌ وُصِفَ به، فهو في قُوَّةِ اسمِ الفاعِلِ المُشتَقِّ (مُسْتَوٍ)، ﴿وَمَمَاتُهُمۡ﴾: معطوفٌ على ﴿مَّحۡيَاهُمۡ﴾ مَرفوعٌ مِثلُه.

وأمَّا الرَّفعُ فعلى أنَّ ﴿سَوَاءٌ﴾ خبَرٌ مُقَدَّمٌ. و﴿مَّحۡيَاهُمۡ﴾ مُبتدَأٌ مُؤخَّرٌ، وفي محَلِّ هذه الجُملةِ الاسميَّةِ أوجُهٌ من الإعرابِ؛ أحدُها: أنَّها استِئنافيَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ. الثَّاني: أنَّها في محَلِّ نَصبٍ حالٌ، والتَّقديرُ: أمْ حَسِبَ الكُفَّارُ أَنْ نُصَيِّرَهم مِثلَ المؤمِنينَ في حالِ استواءِ محياهم ومماتِهم؟! لَيْسوا كذلك، بل هم مُفْتَرِقونَ. الثَّالثُ: أنَّها بدَلٌ مِن الكافِ في ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ عندَ مَن جَوَّز إبدالَ الجُملةِ مِن المُفرَدِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مفرِّقًا بيْنَ حالِ الَّذين يَكتَسِبونَ السَّيِّئاتِ، وحالِ المؤمنينَ الَّذين يَعمَلونَ الصَّالحاتِ: أمْ ظَنَّ الَّذين اكتَسَبوا السَّيِّئاتِ أن نجعَلَ حياتَهم

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٥)، ((أمالي ابن الحاجب)) (١/ ١٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٤٧).

ومَوتَهم كحياةِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ ومَوتِهم؟! كلَّا، لا يَستوي الفَريقانِ حياةً ولا مَوتًا، بِئسَ حُكمًا هذا الحُكمُ!

ثمَّ يؤكِّدُ سبحانَه على عدَمِ المُساواةِ بيْنَ الفريقَينِ، فيقولُ: وخَلَق اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ بالعَدلِ والحِكمةِ، ولِيُجزَى كُلُّ عامِلٍ بعَمَلِه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وهم لا يُظلَمونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مسلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: أفرَأَيْتَ -يا محمَّدُ- مَنِ اتَّخَذ ما يَهواه مَعبودًا له مِن دونِ اللهِ تعالى، وأضلَّه اللهُ على عِلمٍ منه سُبحانَه بأنَّه مِن أهلِ الضَّلالِ، وطَبَع على سَمْعِه وقَلبِه؛ فليس له طريقٌ إلى الهُدى بحالٍ، وجَعَل اللهُ على بَصَرِه غِطاءً يَمنَعُه مِن رُؤيةِ الحَقِّ، فمَن يَهدي هذا الضَّالَّ إلى طريقِ الحَقِّ واتِّباعِه بعدَ أنْ أضَلَّه اللهُ؟! أفلا تَتذَكَّرونَ -أيُّها النَّاسُ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى الفَرْقَ بيْنَ الظَّالِمينَ وبيْنَ المتَّقينَ مِن الوَجهِ الَّذي تقدَّمَ في قَولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩]؛ بيَّنَ الفَرقَ بيْنَهما مِن وَجهٍ آخَرَ[١].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿سَوَآءً﴾ قِراءتانِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥، ٦٧٦).

١- قِراءةُ: ﴿سَوَآءً﴾ بالنَّصبِ، على معنى: أمْ حَسِبَ الَّذين اجترَحوا السَّيِّئاتِ أن نجعَلَ حياتَهم وموتَهم كحياةِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ ومَوتِهم؟! كلَّا، لا يَستوي الفَريقانِ حياةً ولا مَوتًا(١).

٢- قِراءةُ: ﴿سَوَآءٌ﴾ بالرَّفعِ. قيل: هي جُملةٌ استِئنافيَّةٌ معناها: أنَّ مَحْيا المؤمِنِ ومَماتَه سواءٌ؛ فيَحيا مؤمِنًا، ويموتُ كذلك على الإيمانِ، ويُبعَثُ عليه، ومَحْيا الكافِرِ ومَماتَه سواءٌ؛ فيَحيا كافِرًا، ويموتُ كذلك على الكُفرِ، ويُبعَثُ عليه. وقيل: هي داخِلةٌ في حيِّزِ الجُملةِ الاستِفهاميَّةِ السَّابِقةِ، ومعناها يَرجِعُ للقِراءةِ الأُولى(٢).

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾.

أي: أمْ ظَنَّ الَّذين عَمِلوا السَّيِّئاتِ في الدُّنيا واكتَسَبوها أن نُساوِيَهم في حياتِهم ومَوتِهم بالَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ؟! كلَّا؛ فليس المُؤمِنونَ سَواءً مع الكفَّارِ، لا في المحْيا ولا في المماتِ(٣).

---

(١) قرأ بها حفصٌ عن عاصمٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٢). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦١)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٦٤٨).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٢). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٧٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٨)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٦٤٩، ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٣، ٣٥٥).
قال الشوكاني: (﴿أَمْ﴾ هي المُنقَطِعةُ المُقَدَّرةُ بـ«بلْ والهمزةِ»، وما فيها مِن معنى «بل» للانتِقالِ مِن البَيانِ الأوَّلِ إلى الثَّاني، والهَمزةُ لإنكارِ الحِسْبانِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠). =

كما قال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ

= وقال الرازي: (﴿أَمْ﴾ كَلِمةٌ وُضِعَت للاستِفهامِ عن شَيءٍ حالَ كَونِه مَعطوفًا على شَيءٍ آخَرَ، سواءٌ كان ذلك المعطوفُ مذكورًا أو مُضمَرًا، والتَّقديرُ هاهنا: أفيَعلَمُ المُشرِكونَ هذا، أم يَحسَبونَ أنَّا نَتولَّاهم كما نَتولَّى المُتَّقينَ؟). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٦).

وقال ابنُ القَيِّم: (﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ أي: أَحَسِبوا هذا فهُم مُغتَرُّونَ، أم لم يَحسَبوه فما لهم مقيمون على السَّيِّئاتِ؟ وعلى هذا سائِرُ ما يَرِدُ عليك مِن هذا البابِ، وتأمَّلْ كيف يَذكُرُ سُبحانَه القِسْمَ الَّذي يَظُنُّونَه ويَزعُمونَه فيُنكِرُه عليهم، وأنَّه مِمَّا لا يَنبغي أن يكونَ، وَيترُكُ ذِكرَ القِسمِ الآخَرِ الَّذي لا يَذهَبونَ إليه، فتَرَدَّدَ الكَلامُ بيْنَ قِسمَينِ، فيُصَرِّحُ بإنكارِ أحَدِهما، وهو الَّذي سِيقَ الكلامُ لإنكارِه، ويكتفي منه بذِكرِ الآخَرِ، وهذه طريقةٌ بَديعةٌ عَجيبةٌ في القُرآنِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٠٨).

وقال ابن جُزَي: (المرادُ بالَّذين اجتَرَحوا السَّيِّئاتِ: الكُفَّارُ؛ لِمُقابَلتِه بالَّذين آمَنوا، ولأنَّ الآيةَ مَكِّيَّةٌ، وقد يَتناوَلُ لَفظُها المُذنِبينَ مِن المؤمِنينَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧١).

وقال ابن عاشور: (واعْلَمْ أنَّ هذه الآيةَ وإنْ كان مَورِدُها في تَخالُفِ حالَي المُشرِكينَ والمُؤمِنينَ، فإنَّ نَوْطَ الحُكمِ فيها بصِلةِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يَجعَلُ منها إيماءً إلى تَفاوُتِ حالَيِ المُسيئينَ والمُحسِنينَ مِن أهلِ الإيمانِ وإنْ لم يَحسَبْ أحدٌ مِن المُؤمِنينَ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٥).

وقال ابنُ جُزَي في تفسيرِ الآيةِ: (ومعناها: إنكارُ ما حَسِبَه الكُفَّارُ مِن أن يَكونوا هم والمؤمِنونَ سَواءً في المحيا والمماتِ، وفي تأويلِها مع ذلك قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّ المرادَ: ليس المؤمنونَ سَواءً مع الكُفَّارِ، لا في المحيا ولا في المماتِ؛ فإنَّ المؤمِنينَ عاشوا على التَّقوى والطَّاعةِ، والكُفَّارَ عاشوا على الكُفرِ والمعصيةِ، وكذلك مماتُهم ليس سَواءً.

والقَولُ الآخَرُ: أنَّهم استَوَوا في المحيا في أمورِ الدُّنيا مِن الصِّحَّةِ والرِّزقِ، فلا يَستَوونَ في المماتِ، بل يَسعَدُ المُؤمِنونَ ويَشقى الكافِرونَ، فالمرادُ بها إثباتُ الجَزاءِ في الآخرةِ، وتَفضيلُ المؤمِنينَ على الكافِرينَ في الآخرةِ، وهذا المعنى هو الأظهَرُ والأرجَحُ، فيكونُ معنى الآيةِ كقَولِه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، وكقَولِه: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧١).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ: الإعلامُ بنَفيِ المُساواةِ بيْنَهما في المحيا والمماتِ، والدُّنيا والآخرةِ: البَغَويُّ، والرَّسْعَنيُّ، وابنُ كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير =

نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وعن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((يُبعَثُ كُلُّ عَبدٍ على ما مات عليه))(١).

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾.

أي: بِئسَ هذا الحُكمُ الَّذي حَسِبَه المُشرِكونَ؛ أنَّ اللهَ يُساوِي بيْنَ الَّذين عَمِلوا السَّيِّئاتِ والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ في مَحياهم ومماتِهم(٢)!

= البغوي)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

قال الزمخشري: (المعنى: إنكارُ أن يَستويَ المُسيئُونَ والمُحسِنونَ مَحْيًا، وأن يَستوُوا مَماتًا؛ لافتِراقِ أحوالِهم أحياءً؛ حيثُ عاش هؤلاء على القيامِ بالطَّاعاتِ، وأولئك على رُكوبِ المعاصي، ومماتًا؛ حيث مات هؤلاءِ على البُشرى بالرَّحمةِ، والوُصولِ إلى ثوابِ اللهِ ورِضوانِه، وأولئك على اليأسِ مِن رَحمةِ اللهِ، والوُصولِ إلى هَولِ ما أُعِدَّ لهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٠).

وقال القاسمي: (عاش هؤلاءِ على الهدى، والعِلمِ باللهِ، وسَنَنِ الرَّشادِ، وطُمأنينةِ القَلبِ، وأولئك على الضَّلالِ والجَهلِ، والعَبَثِ والفَسادِ، واضطِرابِ القَلبِ، وضِيقِ الصَّدرِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٠).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: أمْ ظَنَّ الَّذين اجترَحوا السَّيِّئاتِ مِن الأعمالِ في الدُّنيا، وكَذَّبوا رُسُلَ اللهِ، وخالَفوا أمْرَ رَبِّهم، وعَبَدوا غَيْرَه: أنْ نَجعَلَهم في الآخرةِ كالَّذينَ آمَنوا باللهِ وصَدَّقوا رُسُلَه وعَمِلوا الصَّالحاتِ، فأطاعوا اللهَ، وأخلَصوا له العبادةَ دونَ ما سِواه مِن الأندادِ والآلهةِ؟! كَلَّا. ما كان اللهُ لِيَفعَلَ ذلك، لقد مَيَّزَ بيْنَ الفَريقَينِ، فجَعَل حِزبَ الإيمانِ في الجنَّةِ، وحِزبَ الكُفرِ في السَّعيرِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٧، ٨٨).

(١) رواه مسلم (٢٨٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧). =

= قال السعدي: (فإنَّه حُكمٌ يُخالِفُ حِكمةَ أحكَمِ الحاكِمينَ، وخَيرِ العادِلينَ، ويُناقِضُ العُقولَ

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنكَرَ اللهُ تعالى التَّسويةَ بيْنَ المؤمِنِ والكافِرِ، وذَمَّهم على الحُكمِ بها؛ أتْبَعَ ذلك الدَّليلَ القَطعيَّ على أنَّ الفَريقَينِ لا يَستويانِ، وإلَّا لَمَا كان الخالِقُ لهذا الوُجودِ عَزيزًا ولا حَكيمًا[1].

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: وخَلَق اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ بالعَدلِ والحِكمةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

﴿وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾.

أي: ولِيُثيبَ اللهُ كُلَّ عامِلٍ بما عَمِلَه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وبما يَستَحِقُّه مِن ثوابٍ أو عِقابٍ[3].

السَّليمةَ، والفِطَرَ المُستقيمةَ، ويُضادُّ ما نَزَلت به الكُتُبُ، وأخبَرَت به الرُّسُلُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٨٦)، = = ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٧].

﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

أي: ولا يَظلِمُ اللهُ النَّاسَ شَيئًا مِن جزاءِ أعمالِهم؛ بنَقصِ ثَوابِهم، أو زيادةِ عِقابِهم(١).

﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى عاد إلى شَرحِ أحوالِ الكُفَّارِ وقبائِحِ طَوائِفِهم(٢).

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى غايةَ البَيانِ أنَّه الإلهُ وَحْدَه، بما له مِنَ الإحاطةِ بجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ، وأنَّه لا بُدَّ مِن جَمْعِه الخلائِقَ لِيَومِ الفَصلِ؛ للحُكمِ بيْنَهم بما له مِنَ الحِكمةِ والقُدرةِ؛ وحَقَّرَ الهوى ونهَى عن اتِّباعِه، وكان المُشرِكونَ قد عَظَّموه بحيثُ جَعَلوه مَعبودًا، فلَزِمَ مِن ذلك تحقيرُهم الإلهَ، ولم يَرجِعوا عن ضَلالِهم- تَسَبَّبَ عن ذلك التَّعجيبُ مِمَّن يَظُنُّ أنَّه يَقدِرُ على رَدِّ أحَدٍ مِنهم عن غَيِّه بشَيءٍ مِن الأشياءِ(٣).

﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

قال البِقاعي: (لَمَّا كان التَّقديرُ: لِيَكونَ كُلُّ مُسَبَّبٍ مُطابِقًا لأسبابِه، عَطَفَ عليه قَولَه: ﴿وَلِتُجۡزَىٰ﴾). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٣، ٩٤).

أي: أفرأَيتَ -يا محمَّدُ- الَّذي جَعَل مَعبودَه ما يَهواه، فيَعبُدُ ويُطيعُ ما هَوِيَه دونَ اللهِ المُستَحِقِّ للعِبادةِ وَحْدَه[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

أي: وأضلَّ اللهُ ذلك المُتَّبِعَ هواه عن طَريقِ الحَقِّ، على عِلمٍ مِن الله سبَق أنَّه يَضِلُّ ولا يَهتَدي[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٧، ٣٥٨).

قال ابنُ عاشور: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمقصودُ مَنْ مَعه مِنَ المُسلِمينَ، أو الخِطابُ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ، أي: تناهَت حالُهم في الظُّهورِ، فلا يختَصُّ بها مُخاطَبٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٧).

وقال ابن عطيَّة: (هذه الآيةُ وإن كانت نزَلَت في هوى الكُفرِ، فهي مُتناوِلةٌ جميعَ هوى النَّفْسِ الأمَّارةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

ممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والسمعاني، وابنُ القيِّم -ونَسَبه إلى جُمهورِ المُفَسِّرينَ-، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٣٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤٢٦).

قال ابنُ القيِّم: (فالمعنى: أضلَّه اللهُ عالِمًا به وبأقوالِه، وما يُناسِبُه ويَليقُ به ولا يَصلُحُ له غَيرُه قبْلَ خَلْقِه وبَعْدَه، وأنَّه أهلٌ للضَّلالِ، وليس أهلًا أن يُهدى، وأنَّه لو هُدِيَ لَكان قد وَضَع الهُدى =

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾.

أي: وطَبَع اللهُ على سَمْعِه، فلا يَنتَفِعُ بسَماعِ الحَقِّ، وطَبَع على قَلبِه فلا يَعقِلُ به الحَقَّ؛ فليس له طريقٌ إلى الهُدى بسَمعِه ولا قَلبِه(١).

كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ

= في غيرِ مَحَلِّه وعندَ مَن لا يَستَحِقُّه، والرَّبُّ تعالى حكيمٌ إنَّما يَضَعُ الأشياءَ في مَحالِّها اللَّائِقةِ بها؛ فانتَظَمَت الآيةُ على هذا القَولِ في إثباتِ القَدَرِ والحِكمةِ الَّتي لأجْلِها قُدِّرَ عليه الضَّلالُ، وذُكِرَ العِلمُ؛ إذ هو الكاشِفُ المُبِينُ لحقائقِ الأمورِ، ووَضْعِ الشَّيءِ في مَواضِعِه، وإعطاءِ الخَيرِ مَن يَستَحِقُّه، ومَنْعِه مَن لا يَستَحِقُّه؛ فإنَّ هذا لا يَحصُلُ بدونِ العِلمِ؛ فهو سبحانَه أضَلَّه على عِلْمِه بأحوالِه الَّتي تُناسِبُ ضَلالَه وتَقتَضيه وتَستَدعيه. ((شفاء العليل)) (ص: ٣٠).

وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على عِلمٍ قد عَلِمَه منه. وقيل: أضلَّه عن الثَّوابِ على عِلمٍ منه بأنَّه لا يَستَحِقُّه. وقال ابنُ عبَّاسٍ: أي: على عِلمٍ قد سَبَق عِندَه أنَّه سيَضِلُّ. مِقاتلٌ: على عِلمٍ منه أنَّه ضالٌّ. والمعنى مُتقارِبٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٩).

وقال ابنُ عطية: (وقالت فِرقةٌ: أي: على عِلمٍ مِن هذا الضَّلالِ؛ فإنَّ الحَقَّ هو الَّذي يُترَكُ ويُعرَضُ عنه، فتكونُ الآيةُ على هذا مِن آياتِ العِنادِ، نَحو قَولِه تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٦).

وقال ابن عاشور: (ومعنى ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أنَّهم أحاطت بهم أسبابُ الضَّلالةِ مع أنَّهم أهلُ عِلمٍ، أي: عُقولٍ سَليمةٍ، أو مع أنَّهم بَلَغَهم العِلمُ بما يَهديهم، وذلك بالقُرآنِ ودَعوةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الإسلامِ... والمعنى: أنَّه ضالٌّ مع ما له مِن صِفةِ العِلمِ، فالعِلمُ هنا مِنْ وَصفِ مَن اتَّخَذ إلهَه هواه، وهو مُتمَكِّنٌ مِن العِلمِ لو خَلَع عن نَفْسِه المُكابَرةَ، والمَيلَ إلى الهَوى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٨).

وقال ابنُ كثير: (وقولُه: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يَحتَمِلُ قَولَين؛ أحَدُها: وأضَلَّه اللهُ؛ لِعِلْمِه أنَّه يَستَحِقُّ ذلك. والآخَرُ: وأضَلَّه اللهُ بعدَ بُلوغِ العِلمِ إليه، وقيامِ الحُجَّةِ عليه. والثَّاني يَستلزِمُ الأوَّلَ، ولا يَنعَكِسُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٧].

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾.

أي: وجَعَل اللهُ على بَصَرِه غِطاءً يَمنَعُه مِن رُؤيةِ الحَقِّ، فهو لا يَنتَفِعُ ببَصَرِه لِمَعرفةِ الحَقِّ واتِّباعِه(١).

﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: لا أحَدَ يَهديه إلى طريقِ الحَقِّ واتِّباعِه بعدَ أن أضَلَّه اللهُ(٢)!

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

أي: أفلا تَتذَكَّرونَ -أيُّها النَّاسُ- فتَعلَموا أنَّ مَن كان هذا حالَه فلنْ يَهتديَ أبدًا، ولا سبيلَ لأحدٍ إلى هِدايتِه(٣)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٧، ٩٨).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: المصدران السابقان.

وقال السَّمرقندي: (﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أنَّ مَن لا يُقبِلُ إلى دينِ اللهِ، ولا يَرغَبُ في طاعتِه: لا يُكرِمُه بالهُدى والتَّوحيدِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٨٠).

وقال الشوكاني: (﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ تذَكُّرَ اعتِبارٍ، حتَّى تَعلَموا حَقيقةَ الحالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿أَفَلَا ﴾ يعني: أفهلَّا ﴿تَذَكَّرُونَ ﴾ فتَعتَبِروا في صُنعِ الله، فتُوحِّدوه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٤٠).

وقيل: المعنى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فتَعرِفوا قُدْرتَه على ما يَشاءُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والقرطبي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يُستنبَطُ مِن هذه الآيةِ تَبايُنُ حالِ المؤمِنِ العاصي مِن حالِ الطَّائِعِ، وإن كانت في الكُفَّارِ[١].

٢- قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ عن مَسروقٍ قال: (قال لي رَجُلٌ مِن أهلِ مَكَّةَ: هذا مَقامُ أخيك تميمٍ الدَّاريِّ، لقد رأيتُه ذاتَ لَيلةٍ حتَّى أصبَحَ، أو كَرَبَ[٢] أن يُصبِحَ يَقرَأُ آيةً مِن كِتابِ اللهِ، يَركَعُ ويَسجُدُ ويَبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ...﴾ الآيةَ)[٣].

وقال بَشيرٌ: (بِتُّ عندَ الرَّبيعِ بنِ خُثَيمٍ ذاتَ لَيلةٍ، فقام يُصَلِّي، فمَرَّ بهذه الآيةِ فمَكَث ليلَه حتَّى أصبَحَ لم يَعْدُها، ببكاءٍ شَديدٍ)!

وقال إبراهيمُ بنُ الأشعَثِ: (كثيرًا ما رأيتُ الفُضَيلَ بنَ عِياضٍ يُرَدِّدُ مِن أوَّلِ اللَّيلِ إلى آخِرِه هذه الآيةَ ونَظيرَها، ثمَّ يقولُ: لَيْتَ شِعْري مِن أيِّ الفريقَينِ أنتَ؟!)، وكانت هذه الآيةُ تُسَمَّى مَبكاةَ العابِدينَ[٤]!

= وقيل: المعنى: أفلا تَذَكَّرونَ ما يَنفَعُكم فتَسلُكوه، وما يَضُرُّكم فتَجتَنِبوه. قاله السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢١).

(٢) كَرَب: أي: كادَ وأوشَكَ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لأبي عبد الله الرازي (ص: ٢٦٧).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٨٣٣).

قال العَيْني في ((نخب الافكار)) (٥/ ٤٥٧): (رجالُه ثقاتٌ)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سير أعلام النبلاء)) (٢/ ٤٤٥): (رجالُه ثقاتٌ).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٦).

٣- قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إذا تأمَّلْتَ حالَ عُشَّاقِ الصُّوَرِ المُتيَّمينَ فيها، وجَدْتَ هذه الآيةَ مُنطَبِقةً عليهم، مُخبِرةً عن حالِهم[(١)].

٤- مُخالَفةُ ما تهوى الأنفُسُ شاقٌّ عليها، وصَعبٌ خُروجُها عنه؛ ولذلك بلَغَ أهلُ الهوى في مُساعدتِه مَبالغَ لا يَبلُغُها غَيرُهم، وكفى شاهِدًا على ذلك حالُ المحِبِّينَ، وحالُ مَن بُعِثَ إليهم رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن المُشرِكينَ وأهلِ الكِتابِ وغَيرِهم، ممَّن صَمَّم على ما هو عليه، حتَّى رَضُوا بإهلاكِ النُّفوسِ والأموالِ، ولم يَرضَوا بمُخالَفةِ الهوى! حتَّى قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، وقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤][(٢)]؛ فأصلُ الشَّرِّ مُتابَعةُ الهَوى، والخَيرُ كُلُّه في مُخالَفتِه؛ فنِعْمَ ما قال الشاعِرُ:

إذا طالَبَتْكَ النَّفْسُ يومًا بشَهوةٍ ... وكان إليها للخِلافِ طَريقُ
فدَعْها وخالِفْ ما هَوِيتَ فإنَّما ... هواكَ عَدُوٌّ والخِلافُ صَديقُ[(٣)]

٥- قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الآيةُ دليلٌ واضِحٌ على أنَّ العِلمَ مع الخِذلانِ غيرُ نافِعٍ، وبَعثٌ على الاستِهداءِ مِن عندِ اللهِ، وطَرحِ الكَيفِ

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٢/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٠٣).

والبيتان منسوبانِ لأبي الفتحِ البُسْتي. يُنظر: ((مجاني الأدب في حدائق العرب)) لرزق الله بن يوسف (٢/ ٥٢)، والقسم الرابع من مجلة المورد العراقية (٣٤/ ١٠٢). ونسبهما القرطبيُّ لابنِ دُرَيدٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٦٣)، ((ذم الهوى)) لابن الجوزي (ص: ٥٢، ٥٣).

بيْنَ يَدَيه، والتَّبَرُّؤ مِن الحَولِ والقُوَّةِ إليه[١]، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في التَّحذيرِ مِن أن يكونَ الهوى هو الباعِثَ للمُؤمِنينَ على أعمالِهم، ويَترُكوا اتِّباعَ أدِلَّةِ الحَقِّ، فإذا كان الحَقُّ مَحبوبًا لأحدٍ فذلك مِن التَّخَلُّقِ بمَحبَّةِ الحَقِّ تَبَعًا للدَّليلِ، مِثلُ ما يهوى المؤمِنُ الصَّلاةَ والجَماعةَ، وقيامَ رَمَضانَ وتِلاوةَ القُرآنِ؛ وأمَّا اتِّباعُ الأمرِ المحبوبِ لإرضاءِ النَّفْسِ دونَ نَظَرٍ في صَلاحِه أو فَسادِه فذلك سَبَبُ الضَّلالِ وسُوءِ السِّيرةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- المذنبُ إنْ عُفِي عنه بغيرِ سببٍ مِن الأسبابِ المكفِّرةِ ونحوِها، فإنَّه لابدَّ أن تلحقَه عقوباتٌ كثيرةٌ، منها ما فاتَه مِن ثوابِ المحسنين؛ فإنَّ اللهَ تعالى وإنْ عَفَا عنِ المُذنِبِ فلا يَجعلُه كالَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٣].

٢- اللهُ تعالى قائِمٌ بالقِسطِ، ولا يَظلِمُ النَّاسَ شيئًا؛ فلا يَضَعُ شَيئًا في غيرِ مَوضِعِه، ولا يُسَوِّي بيْنَ مُختَلِفَينِ، ولا يُفَرِّقُ بيْنَ مُتماثِلَينِ، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٤].

٣- مَن أحَبَّ شَيئًا وأطاعه، وأحَبَّ عليه وأبغَضَ عليه: فهو إلهُه؛ فمَن كان لا يُحِبُّ ولا يُبغِضُ إلَّا لله، ولا يُوالي ولا يُعادي إلَّا له: فاللهُ إلهُه حَقًّا، ومَن أحَبَّ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٩، ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٧٩٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٩٢).

لِهَواه وأبغَضَ له، ووالى عليه وعادى عليه: فإلهُه هَواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[١].

٤- إذا أمَرَ اللهُ على ألسِنةِ رُسُلِه بشَيءٍ، فعدَلَ عنه العبدُ إلى ما يُحِبُّه هو؛ كان عابدًا لِهَواه لا عابدًا لله؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[٢]!

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ليس يَبقى للقَدَريَّةِ مع هذه الآيةِ عُذرٌ ولا حِيلةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَرَّح بمَنعِه إيَّاهم عن الهدَى حينَ أخبَرَ أنَّه خَتَم على قَلبِ هذا الكافِرِ وسَمعِه[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ عن الحَسَنِ قال: (هو المنافِقُ لا يَهوى شَيئًا إلَّا رَكِبَه)[٤]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ إطلاقُ الإلهِ على الهوى المتَّبَعِ[٥].

٨- تحقيقُ التَّوحيدِ يستلزِمُ اجتِنابَ المعاصي؛ لأنَّ المعاصيَ صادِرةٌ عن الهوَى، وهذا نوعٌ مِن الشِّركِ، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، فالمعاصي مِن

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ٧).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٤٩).

(٤) أخرجه أبو بكرٍ الفِرْيابي في ((صفة النفاق وذم المنافقين)) (٤٣)، ومن طريقه ابن الجوزي في ((ذم الهوى)) (ص: ١٧). وقد ورد معناه عن غير واحد من السلف. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٧).

(٥) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٥٦).

حيثُ المعنى العامُّ، أو الجِنسُ العامُّ يُمكِنُ أنْ نَعتبِرَها مِن الشِّركِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

- الآيةُ انتِقالٌ مِن وَصْفِ تَكذيبِهم بالآياتِ واسْتِهزائِهم بها، ثمَّ مِن أمْرِ المُؤمِنينَ بالصَّفْحِ عنهم، وإيكالِ جَزاءِ صَنائعِهم إلى اللهِ، ثمَّ مِن التَّثبيتِ على مُلازَمةِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ إلى وَصْفِ صِنفٍ آخَرَ مِن ضَلالِهم واسْتِهزائِهم بالوعْدِ والوعيدِ، وإحالَتِهم الحياةَ بعْدَ الموتِ، والجَزاءَ على الأعمالِ، وتَخْييلِهم للنَّاسِ أنَّهم يَصيرُون في الآخرةِ على الحالِ الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا؛ عَظيمُهم في الدُّنيا عَظيمُهم في الآخرةِ، وضَعيفُهم في الدُّنيا ضَعيفُهم في الآخرةِ، وهذا الانتِقالُ رُجوعٌ إلى بَيانِ قولِه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[٢] [الجاثية: ١٥].

-قولُه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ...﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ تَغايُرِ حالَيِ المُسيئينَ والمُحسِنينَ، إثْرَ بَيانِ تَبايُنِ حالَيِ الظَّالِمينَ والمُتَّقينَ[٣].

- وحَرْفُ (أَمْ) في قولِه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ للإضرابِ الانتِقاليِّ، والاستِفهامُ لإنكارِ حِسبانِ أنْ يَسْتويَ المُسيئون والمُحسِنون مَحيًا، وأنْ يَسْتوُوا مَماتًا؛ لافتراقِ أحْوالِهم أحياءً، ومَماتًا. فعلَى هذا يكون قولُه: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مِن الحِسبانِ

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٤٨، ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٢).

المنكورِ. وقيلَ: ﴿سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ على معنَى: أنَّ محيَا المسيئين ومماتَهم سواءٌ، وكذلك محيا المحسنين ومماتُهم: كلٌّ يموتُ على حسَبِ ما عاشَ عليه. أو ذلك أنَّه حِينَ أنْكَر حِسبانَ أنْ يَستوِيَ الكافرُ والمُؤمِنُ، قِيل: فإذَنْ كيف الحالُ؟ فأُجِيبَ: أنَّ المُؤمِنَ يَعيشُ حَميدًا ويَموتُ سَعيدًا؛ يَعيشُ في طاعةِ الرَّحمنِ، ثمَّ المَرجِعُ إلى الرِّضوانِ، والكافرُ يَعيشُ في طاعةِ الشَّيطانِ، والمآبُ إلى النِّيرانِ، فأنَّى يَستويانِ[(١)]؟!

- ونِسبةُ حِسبانِ التَّساوي إلى الَّذين اجْتَرَحوا السَّيِّئاتِ في خِضَمِّ الإنكارِ التَّوبيخيِّ، مع أنَّهم بمَعْزِلٍ منه جازِمونَ بفَضْلِهم على المُؤمِنينَ؛ للمُبالَغةِ في الإنكارِ، والتَّشديدِ في التَّوبيخِ؛ فإنَّ إنْكارَ حِسْبانِ التَّساوي والتَّوبيخَ عليه إنْكارٌ لِحِسبانِ الجزْمِ بالفضْلِ وتَوبيخٌ عليهِ على أبلَغِ وَجْهٍ وآكَدِه[(٢)].

- والاجترِاحُ: الاكْتِسابُ، وصِيغةُ الافتِعالِ للمُبالَغةِ، وهو مُشتَقٌّ مِن الجُرْحِ[(٣)].

- و﴿ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ همُ المُشرِكون، وإنَّما عُبِّرَ عنهم بهذا العُنوانِ؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن تَعليلِ إنكارِ المُشابَهةِ والمُساواةِ بيْنَهم وبيْنَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ عِندَ اللهِ في عالَمِ الخُلْدِ، ولأنَّ اكتِسابَ السَّيِّئاتِ مِن شِعارِ أهْلِ الشِّركِ؛ إذ لَيس لهم دِينٌ وازِعٌ يَزَعُهم عن السَّيِّئاتِ، ولا همْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥١- ٣٥٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٢).
قال ابن عاشور: (ومِن خِلافِ ظاهِرِ التَّركيبِ ما قيلَ: إنَّ مَدلولَ ﴿سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡ﴾ ليس مِن حِسبانِ المُشرِكينَ المنكورِ، ولكنَّه كلامٌ مُستأنَفٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٢).

مُؤمِنونَ بالبَعثِ والجزاءِ فيَكونَ إيمانُهم به مُرغِّبًا في الجَزاءِ[١].

- ومَوقِعُ التَّشبيهِ في قولِه: ﴿أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡ﴾ الإيماءُ إلى أنَّ اللهَ قدَّرَ للمُؤمِنينَ حُسنَ الحالِ بعْدَ المماتِ، حتَّى صار ذلك المُقدَّرُ مَضرِبَ الأمثالِ ومَناطَ التَّشبيهِ، وإلى أنَّ حِسبانَ المُشرِكين أنفُسَهم في الآخِرةِ على حالةٍ حَسنةٍ باطلٌ، فعُبِّرَ عن حِسبانِهم الباطِلِ بأنَّهم أثْبَتوا لِأنفُسِهم في الآخِرةِ الحالَ الَّتي هي حالُ المُؤمِنينَ، أي: حسِبَ المُشرِكون بزَعْمِهم أنْ يَكونوا بعْدَ الموتِ في حالةٍ إذا أراد الواصفُ أنْ يَصِفَها وَصَفَها بمُشابَهةِ حالِ المُؤمِنينَ عندَ اللهِ وفي نفْسِ الأمْرِ. فقُصِد هنا التَّنويهُ بالمُؤمِنينَ، والعِنايةُ بزُلْفاهم عِندَ اللهِ، فكأنَّه قيل: أحَسِبوا أنْ نَجعَلَهم في حالةٍ حَسَنةٍ؟ ولكنَّ هذا المأمولَ في حِسبانِهم هو في نَفْسِ الأمْرِ حالُ المُؤمِنينَ لا حالُهم، فأُوجِزَ الكلامُ، وفَهْمُ السَّامعِ يَبسُطُه. والمُواجَهُ بهذا الكلامِ همُ النَّبيُّ والمُؤمِنونَ؛ تَكمِلةً للغرَضِ المُبتدَأِ به في قولِه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[٢] [الجاثية: ١٤].

- وقولُه: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مُعترِضًا بيْنَ مَفعولَيْ (نَجعَلُ)، وهُما ضَميرَا الغائبينَ، وجُملةُ ﴿سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ﴾، أو ولَفْظُ ﴿سَوَآءٗ﴾ -في قِراءةِ نَصْبِه[٣]- فلا يكونَ مُرادًا إدْخالُه في حِسبانِ المُشرِكينَ؛ فيكونَ قولُه: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تَهكُّمًا على المُشرِكينَ في حِسبانِهم؛ تأْكيدًا للإنكارِ عليهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥١، ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٥٣، ٣٥٤).

(٣) يُنظر ما تقدَّم في القراءات ذاتِ الأثرِ في التَّفسير (ص: ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٤).

- وجُملةُ ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ تَذييلٌ لِمَا قبْلَها مِن إنكارِ حِسبانِهم وما اتَّصَلَ بذلك الإنكارِ مِن المعاني[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ يُمكِنُ أنْ يكونَ الكلامُ مَعطوفًا على ما تَقدَّمَ؛ لِيَكونَ كالدَّليلِ على نفْيِ الاستِواءِ بيْنَ الفريقَينِ. ويُمكِنُ أنْ يكونَ استِئنافًا مُقرِّرًا لِمَا سبَقَ مِن الحُكْمِ؛ فإنَّ خلْقَ اللهِ تعالى لَهُما ولِما فيهما بالحقِّ المُقتضِي للعَدْلِ، يَسْتدعِي -لا مَحالةَ- تَفضيلَ المُحْسنِ على المُسيءِ في المَحْيا والمَماتِ، وانْتِصارَ المظلومِ مِن الظَّالمِ، وإذا لم يَطَّرِدْ ذلك في المَحيا فهُو بعْدَ المماتِ حَتْمًا[٢].

أو الجُملة مُعترِضةٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، وهو اعتِراضٌ بيْنَ الكلامِ المُتقدِّمِ وبيْنَ ما فُرِّعَ عليه مِن قولِه: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، هو كالدَّليلِ على انتِفاءِ أنْ يكونَ الَّذين اجْتَرَحوا السَّيِّئاتِ الَّذين همْ في بُحْبوحةِ عَيشٍ مُدَّةَ حَياتِهم؛ أنْ يَكونوا في نَعيمٍ بعْدَ مَماتِهم كالَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مُدَّةَ حَياتِهم؛ فكان جَزاؤُهم النَّعيمَ بعْدَ مَماتِهم -أي: بعْدَ حَياتِهم الثَّانيةِ- بأنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ بالعدْلِ يَسْتدعي التَّفاوُتَ بيْنَ المُسيءِ والمُحسِنِ، والانتِصافَ للمُعْتدَى عليه مِن المُعْتدِي[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٥، ٣٥٦).

قال ابن عاشور: (ووَجهُ الاسْتِدلالِ في الآيةِ: أنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ تَبيَّنَ كَونُه في تَمامِ =

- والحقُّ: اسمٌ جامعٌ لِما شأْنُه أنْ يُحَقَّ ويُثْبَتَ، ومِن شأْنِ الحِكمةِ والحكيمِ أنْ يُقِيمَه، ولذلك أُشِيرَ بقَولِه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّ اسمَ الجَلالةِ جامعٌ لِصِفاتِ الكَمالِ، وتَصرُّفاتِ الحِكمةِ[1].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ على ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنَّ المعطوفَ عليه المَجرورَ بالباءِ فيه مَعنى التَّعليلِ، وهذا تَفصيلٌ بعْدَ إجمالٍ؛ فإنَّ الجَزاءَ على الفِعلِ بما يُناسِبُه هو مِن الحقِّ، ولأنَّ تَعليلَ الخلْقِ بعِلَّةِ الجزاءِ مِن تَفصيلِ معنى الحقِّ، وآثارِ كَونِ الحقِّ سَببًا لِخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، أو مُلابِسًا لِأحوالِ خلْقِهما؛ فظَهَرَت المُناسَبةُ بيْنَ الباءِ في المعطوفِ عليه واللَّامِ في المعطوفِ. أو هو مَعطوفٌ على مُعلَّلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: لِيَدُلَّ بها على قُدْرتِه، ولِتُجْزَى كلُّ نفْسٍ[2].

- والباءُ في ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ للتَّعويضِ، وما كسَبَتْه النَّفْسُ لا تُجْزى به، بلْ تُجازى بمِثْلِه وما يُناسِبُه؛ فالكلامُ على حَذْفِ مُضافٍ، أي: بمِثلِ ما كسَبَتْه، وهذه المُماثَلةُ مُماثَلةٌ في النَّوعِ، وأمَّا تَقديرُ تلك المُماثَلةِ فذلك مَوكولٌ إلى اللهِ تَعالى، ومُراعًى فيه عَظَمةُ عالَمِ الجزاءِ في الخَيرِ والشَّرِّ، ومِقدارُ تَمرُّدِ

= الإتقانِ والنِّظام، بحيث إنَّ دَلائلَ إرادةِ العدْلِ في تَصاريفِها قائمةٌ، وما أودَعه الخالِقُ في المَخلوقاتِ مِن القُوى مُناسِبٌ لِتَحصيلِ ذلك النِّظامِ الَّذي فيه صَلاحُهم، فإذا استَعْمَلوها في الإفسادِ والإساءةِ، كان مِن إتْمامِ إقامةِ النِّظامِ أنْ يُعاقَبوا على تلك الإساءةِ، والمُشاهَدُ أنَّ المُسِيءَ كثيرًا ما عكَفَ على إساءتِه حتَّى المَماتِ، فلو لم يكُنِ الجَزاءُ بعْدَ الموتِ، حصَلَ اخْتِلالٌ في نِظامِ خلْقِ المَخلوقاتِ، وخلْقِ القُوى الصَّادرِ عنها الإحسانُ والإساءةُ، وهذا المعنى تَكرَّرَ في آياتٍ كَثيرةٍ، وكُلَّما ذُكِرَ شَيءٌ منه أُتْبِعَ بذِكْرِ الجَزاءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢١، ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٢، ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٦).

المُسيءِ وامْتثالِ المُحسِنِ، بخِلافِ الحُدودِ والزَّواجِرِ؛ فإنَّها مُقدَّرةٌ بما يُناسِبُ عالَمَ الدُّنيا مِن الضَّعفِ؛ ولهذا أعقَبَه بقولِه: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ فضَميرُ ﴿وَهُمْ﴾ عائدٌ إلى كلِّ نفْسٍ؛ فإنَّ ذلك الجَزاءَ ممَّا اقْتَضاهُ العدْلُ الَّذي جُعِلَ سَببًا أو مُلابِسًا لِخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما، فهو عدْلٌ، فليس مِن الظُّلمِ في شَيءٍ؛ فالمُجازى غيرُ مَظلومٍ، وبالجزاءِ أيضًا يَنْتفي أثَرُ ظُلْمِ الظَّالمِ عن المَظلومِ؛ إذْ لو تُرِكَ الجَزاءُ لَاستمَرَّ المَظلومُ مَظلومًا[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

- قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ لَمَّا كان الَّذين حَسِبوا أنْ يَكونوا في الآخِرةِ في نِعمةٍ وعِزَّةٍ كما كانوا في الدُّنيا، قالوا ذلك عن غَيرِ دَليلٍ ولا نَظَرٍ، ولكنْ عن اتِّباعِ ما يَشْتَهونَ لِأنفُسِهم مِن دَوامِ الحالِ الحَسَنِ؛ تَفرَّعَ على حِسبانِهم التَّعْجيبُ مِن حالِهم؛ فعُطِفَ بالفاءِ الاستِفهامُ المُستعمَلُ في التَّعجيبِ، وجُعِلَ استِفهامًا عن رُؤيةِ حالِهم؛ للإشارةِ إلى بُلوغِ حالِهم مِن الظُّهورِ إلى حدِّ أنْ تَكونَ مَرْئيَّةً[2].

وقيل: الهمزةُ للاستِفهامِ المَقصودِ به الأمْرُ، أي: أخْبِرْني، وهو للتَّعجيبِ مِن حالِ مَنْ تَرَكَ مُتابَعةَ الهُدى إلى مُطاوَعةِ الهوَى، فكأنَّه عَبَدَه، والمعنى -على قَولٍ في التَّفسيرِ-: أضلَّه اللهُ وهو عالِمٌ بالحقِّ؛ لأنَّ المُبالَغةَ فيه أشدُّ، والتَّشنيعَ والتَّنديدَ به أكثَرُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٦، ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٤).

- وقولُه: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ أُطلِقَ على ما يُلازِمُ طاعتَه حتَّى كأنَّه مَعبودٌ؛ فيَكونَ هذا الإطلاقُ بطَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أي: اتَّخَذَ هواهُ كإلهٍ له لا يُخالِفُ له أمْرًا. ويَجوزُ أنْ يَبْقى ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ على الحَقيقةِ، ويَكونَ ﴿هَوَىٰهُ﴾ بمَعنى مَهْوِيِّه، أي: عبَدَ إلَهًا؛ لأنَّه يُحِبُّ أنْ يَعبُدَه، يعني الَّذين اتَّخَذوا الأصنامَ آلهةً لا يُقلِعون عن عِبادتِها؛ لأنَّهم أحَبُّوها(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هنا: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾، وقال في سُورةِ (البَقرةِ): ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]؛ فهنا قدَّمَ ذِكرَ السَّمْعِ على القَلْبِ، وفي سُورةِ (البقرةِ) قَدَّمَ القلْبَ على السَّمعِ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ المُخبَرَ عنهم هنا لَمَّا أخبَرَ عنهم بأنَّهم اتَّخَذوا إلَهَهم هَواهم، فقدْ تَقرَّرَ أنَّهم عَقَدوا قُلوبَهم على الهَوى؛ فكان ذلك العَقدُ صارِفًا السَّمْعَ عن تَلقِّي الآياتِ؛ فقُدِّمَ لإفادةِ أنَّهم كالمَخْتومِ على سَمْعِهم، ثمَّ عُطِفَ عليه ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾ تَكميلًا وتَذْكيرًا بذلك العَقْدِ الصَّارفِ للسَّمْعِ، ثمَّ ذَكَرَ ما على بَصَرِه مِن شِبْهِ الغِشاوةِ؛ لأنَّ ما عَقَدَ عليه قَلْبَه صَرَفه عن النَّظرِ في أدلَّةِ الكائناتِ. وأمَّا آيةُ سُورةِ (البقرةِ)؛ فإنَّ المُتحدَّثَ عنْهم همْ هؤلاء أنفُسُهم، ولكنَّ الحديثَ عنهم ابتُدِئَ بتَساوي الإنذارِ وعَدَمِه في جانِبِهم بقَولِه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]؛ فلمَّا أُرِيدَ تَفصيلُه قُدِّمَ الخَتْمُ على قُلوبِهم؛ لأنَّه الأصْلُ، كما كان اتِّخاذُ الهَوى كالإلهِ أصْلًا في وَصْفِ حالِهم في آيةِ سُورةِ (الجاثيةِ)، فحالةُ القُلوبِ هي الأصْلُ في الانْصِرافِ عن التَّلقِّي والنَّظرِ في الآيتَينِ، ولكنَّ نَظْمَ هذه الآيةِ كان على حسَبِ ما يَقْتضيهِ الذِّكرُ مِن التَّرتيبِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٨).

ونَظْمَ آيةِ (البقرةِ) كان على حَسَبِ ما يَقْتضيهِ الطَّبْعُ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ أنْ يكونَ غيرُ اللهِ يَسْتطيعُ أنْ يَهْديَهم، والمُرادُ به تَسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِشِدَّةِ أسَفِه لِإعْراضِهم وبَقائِهم في الضَّلالةِ[٣].

- وقولُه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ مُفرَّعٌ على الاستِفهامِ الَّذي قبْلَه، وهو هنا استِفهامٌ عن عَدَمِ تَذكُّرِ المُخاطَبينَ لهذه الحقيقةِ، أي: كيف نَسُوها حتَّى ألَحُّوا في الطَّمَعِ بهِدايةِ أولئك الضَّالِّينَ، وأَسِفوا لِعَدمِ جَدْوى الحُجَّةِ لَدَيهم؟! وهو اسْتِفهامٌ إنكاريٌّ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٤-٢٦)

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٥ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلدَّهۡرُ﴾: أي: مَرُّ الزَّمانِ، وطُولُ العُمُرِ، واختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ، وأصلُ (دهر): يدُلُّ على الغَلَبةِ والقَهرِ، وسُمِّيَ الدَّهرُ دَهرًا؛ لأنَّه يأتي على كُلِّ شَيءٍ ويَغلِبُه[1].

﴿رَيۡبَ﴾: الرَّيبُ: الشَّكُّ، أو هو الشَّكُّ معَ الخَوفِ، ومعَ تُهمَةِ المشكوكِ فيه، وتوهُّم أمْرٍ ما بالشَّيءِ، والرَّيبُ مصدرُ: رابَني الشَّيءُ: إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وهي قلَقُ النَّفْسِ واضْطِرابُها[2].

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله سبحانَه جانبًا مِن أقوالِ المشركينَ الباطِلةِ، فيقولُ: وقال الكُفَّارُ تَكذيبًا للبَعثِ بعدَ المَوتِ: ما لَنا إلَّا حياتُنا هذه الَّتي نَحياها الآنَ، يَموتُ مِنَّا أُناسٌ، ويُولَدُ آخَرونَ، ولا حياةَ بعدَ المماتِ، وما يُفنِينا إلَّا مَرُّ الزَّمانِ، وطُولُ الأعمارِ، واختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ! وما لهؤلاء الكُفَّارِ مِن عِلمٍ بما يَقولونَ مِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

إنكارِهم البَعثَ، ما هم إلَّا يَظُنُّونَ!

وإذا تُتْلى عليهم آياتُ القُرآنِ واضحاتٍ في وُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ، ما كان لهم مِن حُجَّةٍ إلَّا قَولُهم: أحيُوا آباءَنا إنْ كُنتُم صادِقينَ في أنَّ بعدَ الموتِ بَعثًا! قُلْ لهم -يا محمَّدُ: اللهُ يُحييكم ثُمَّ يُميتُكم ثمَّ يَجمَعُكم إلى يومِ القيامةِ لا شَكَّ في وُقوعِ ذلك، ولكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذَكَر سُبحانَه أنَّ المُشرِكينَ قد اتَّخَذوا إلهَهم هواهم، وأنَّ اللهَ قد أضَلَّهم على عِلمٍ بحالِهم، وأنَّه خَتَم على سَمْعِهم وقَلْبِهم، وجَعَل على بَصَرِهم غِشاوةً- ذكَرَ هنا جِنايةً أُخرى مِن جِناياتِهم، وحماقةً مِن حماقاتِهم: تلك أنَّهم أنكَروا البَعثَ[1].

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ تَكذيبًا للبَعثِ بعدَ المَوتِ: ما ثَمَّ حياةٌ غَيرُ حياتِنا هذه الَّتي نَحياها الآنَ[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦١).

أي: يموتُ أناسٌ، ويَحيا آخَرونَ في هذه الحياةِ، وليس ثَمَّةَ حياةٌ أُخرَى[١].

﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾.

أي: وما يُفنِينا إلَّا الزَّمانُ، فنَبلُغُ فيه بمُرورِ أيَّامِه ولياليه سِنَّ الهَرَمِ والشَّيخوخةِ، فنَموتُ، أو تُصيبُنا فيه أسبابٌ تُفضي بنا إلى الهَلاكِ والموتِ[٢]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦١، ٣٦٢).

قال ابن جُزَي: (﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ فيه أربَعةُ تأويلاتٍ:

أحَدُها: أنَّهم أرادوا: يموتُ قَومٌ، ويحيا قومٌ.

والآخَرُ: نموتُ نحن، ويحيا أولادُنا.

الثَّالِثُ: نموتُ حين كُنَّا عَدَمًا أو نُطَفًا، ونحيا في الدُّنيا.

والرَّابعُ: نموتُ الموتَ المعروفَ، ونحيا قَبْلَه في الدُّنيا؛ فوقَعَ في اللَّفظِ تَقديمٌ وتأخيرٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٢).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: يحيى بنُ سلام، وابنُ أبي زَمَنين، وأبو حيَّان، وابنُ كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦١).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٨٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٥).

قال ابن جرير: (وقَولُه: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ نموتُ نحن وتحيا أبناؤُنا بَعْدَنا، فجَعَلوا حياةَ أبنائِهم بَعْدَهم حياةً لهم؛ لأنَّهم مِنهم وبَعضُهم، فكأنَّهم بحياتِهم أحياءٌ، وذلك نظيرُ قَولِ النَّاسِ: ما مات مَن خَلَّفَ ابنًا مِثلَ فلانٍ؛ لأنَّه بحياةِ ذِكْرِه به كأنَّه حَيٌّ غيرُ مَيِّتٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٢). =

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾.

أي: وما للمُشرِكينَ أيُّ قَدْرٍ مِنَ العِلمِ بصِحَّةِ ما يقولونَ مِن إنكارِ البَعثِ، ولا بُرهانَ لديهم يُثبِتُ أنَّ الدَّهرَ هو الَّذي يُهلِكُهم كما يَزعُمونَ[1]!

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

أي: ما يَقولونَ ذلك إلَّا بمُجَرَّدِ الظَّنِّ، وليسوا على يَقينٍ مِمَّا يَدَّعُونَ[2].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: وإذا تُتْلى عليهم آياتُ القُرآنِ الواضِحاتُ الدَّلالةِ على وُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ، لم يكُنْ لهم ما يَحتَجُّونَ به على المؤمنينَ سِوى قَولِهم: أحيُوا آباءَنا الموتى إنْ كُنتُم صادِقينَ في دَعواكم أنَّ اللهَ يَبعَثُنا بعدَ مَوتِنا؛ حتَّى نُصَدِّقَ بحَقيقةِ

= قال ابنُ كثير: (وهذا يَقولُه مُشرِكو العَرَبِ المُنكِرونَ للمَعادِ، ويَقولُه الفلاسِفةُ الإلهيُّونَ منهم، وهم يُنكِرونَ البُداءَةَ والرَّجعةَ، ويقولُه الفلاسِفةُ الدَّهْرِيَّةُ الدوريةُ المُنكِرونَ للصَّانِعِ، المُعتَقِدونَ أنَّ في كُلِّ سِتَّةٍ وثلاثينَ ألْفَ سَنةٍ يعودُ كُلُّ شَيءٍ إلى ما كان عليه، وزَعَموا أنَّ هذا قد تكَرَّر مرَّاتٍ لا تَتناهى، فكابَروا المعقولَ، وكَذَّبوا المنقولَ!). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٣).

قال القرطبي: (كان المُشرِكونَ أصنافًا؛ منهم هؤلاء، ومنهم مَن كان يُثبِتُ الصَّانِعَ ويُنكِرُ البَعثَ، ومنهم مَن كان يَشُكُّ في البَعثِ ولا يَقطَعُ بإنكارِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٢).

وقال ابن القيِّم: (الظَّنُّ الَّذي أثبَتَه سُبحانَه للمُعارِضينَ نُصوصَ الوَحيِ بعُقولِهم: ليس هو الاعتِقادَ الرَّاجِحَ، بل هو أكذَبُ الحَديثِ). ((الصواعق المرسلة)) (٣/ ٨٧٨).

وقال ابنُ عثيمين: (الظنُّ هنا بمعنى الوهمِ؛ فليس ظَنُّهم مبنيًّا على دليلٍ يجعلُ الشَّيءَ مظنونًا، بل هو مُجرَّدُ وهمٍ لا حقيقةَ له؛ فلا حجَّةَ لهم إطلاقًا). ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (٢/ ٢٤٢).

ما تَزعُمونَ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ * فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الدخان: ٣٤ - ٣٦].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا اعْتَرفوا بأنَّهم ما يُهْلِكُهم إلَّا الدَّهرُ، وأنَّهم اسْتَدلُّوا على إنكارِ البَعثِ بما لا دَليلَ لهم فيه مِن سُؤالِ إحياءِ آبائِهم؛ رَدَّ اللهُ تعالى عليهم بأنَّه تعالى هو المُحْيي، وهو المُميتُ لا الدَّهرُ، وضَمَّ إلى ذلك آيةً جامعةً لِلْحسابِ يومَ البَعثِ، وهذا واجبٌ الاعترافُ بهِ إنْ أنْصَفوا، ومَن قدَرَ على هذا قدَرَ على الإتيانِ بآبائِهم[(٢)].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُكَذِّبينَ بالبَعثِ: اللهُ هو الَّذي يُحييكم في الدُّنيا ما شاءَ، ثُمَّ يُميتُكم متى شاء عندَ انقِضاءِ آجالِكم[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٠، ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٣، ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٩)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٧٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٣).

قال القاسمي: (أي: قُلْ لهم في جوابِ قَولِهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾: قُلِ: اللهُ يُحييكم ثمَّ يُميتُكم لا الدَّهرُ؛ لِما عُرِفَ مِن وُجوبِ رُجوعِ العالَمِ إلى واجِبِ الوُجودِ، هو سَبَبُ الأسبابِ، ومَصدَرُ الكائناتِ، أو قُلْ لهم في جوابِ إنكارِهم البَعثَ: إنَّ مَن قَدَر على الإبداءِ قادِرٌ على الإعادةِ، والحِكمةُ اقتَضَت الجَمعَ للمُجازاةِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٣).

ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[البقرة: ٢٨].

﴿ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾.

أي: ثمَّ يَجمَعُكم اللهُ جميعًا ليومِ القيامةِ أحياءً، لا شَكَّ في وُقوعِ ذلك، وإحيائِكم بعدَ موتِكم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾[النساء: ٨٧].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ الحقَّ، فمِنْ جَهلِهم يُنكِرونَ المَعادَ، وبَعْثَ العِبادِ[(٢)]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- كان أهلُ الجاهِليَّةِ يُضيفونَ المصائبَ والنَّوائِبَ إلى الدَّهرِ، وهُم في ذلك فِرقتانِ: فِرقةٌ لا تُؤمِنُ باللهِ، لا تَعرِفُ إلَّا الدَّهرَ، فتَنْسُبُ المكارِهَ إليه على أنَّها مِن فِعْلِه، ولا ترَى أنَّ له مُدَبِّرًا ومُصَرِّفًا، وهؤلاء الدَّهْرِيَّةُ الَّذين حكى اللهُ عنهم في كتابِه: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾، وفِرقةٌ تَعرِفُ الخالِقَ فتُنَزِّهُه أنْ تَنسُبَ إليه المكارِهَ، فتُضيفُها إلى الدَّهرِ والزَّمانِ، وعلى هذين الوَجهَينِ كانوا يَسُبُّونَ الدَّهرَ ويَذُمُّونَه، فيَقولُ القائِلُ منهم: يا خَيبةَ الدَّهْرِ، ويا بُؤسَ الدَّهرِ، إلى ما أشْبَهَ هذا مِن قَولِهم[(٣)]، فإذا أضافوا إلى الدَّهرِ ما نالهم مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٩، ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((غريب الحديث)) للخَطَّابي (١/ ٤٨٩).

الشَّدائِدِ وسَبُّوا فاعِلَها، كان مَرجِعَ سَبِّهم إلى اللهِ تعالى؛ إذ هو الفاعِلُ في الحقيقةِ للأُمورِ الَّتي يُضيفونَها إلى الدَّهرِ لا الدَّهرُ؛ فنُهُوا عن سَبِّ الدَّهرِ؛ فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: يُؤذيني ابنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ[1]، وأنا الدَّهرُ[2]، .....

(١) قال ابنُ القَيِّم: (في هذا ثلاثُ مَفاسِدَ عَظيمةٌ:
إحداها: سَبُّه مَن ليس بأهلٍ أن يُسَبَّ؛ فإنَّ الدَّهرَ خَلقٌ مُسَخَّرٌ مِن خَلقِ اللهِ، مُنقادٌ لأمْرِه، مُذَلَّلٌ لِتَسخيرِه؛ فسَابُّه أَولى بالذَّمِّ والسَّبِّ منه.
الثَّانيةُ: أنَّ سَبَّه مُتضَمِّنٌ للشِّركِ؛ فإنَّه إنَّما سَبَّه لِظَنِّه أنَّه يَضُرُّ ويَنفَعُ، وأنَّه مع ذلك ظالمٌ قد ضَرَّ مَن لا يَستَحِقُّ الضَّرَرَ، وأعطى مَن لا يَستَحِقُّ العَطاءَ، ورفَعَ مَن لا يَستَحِقُّ الرِّفعةَ، وحَرَم مَن لا يَستَحِقُّ الحِرمانَ، وهو عندَ شاتِميه مِن أظلَمِ الظَّلَمةِ! وأشعارُ هؤلاء الظَّلَمةِ الخَوَنةِ في سَبِّه كثيرةٌ جِدًّا، وكثيرٌ مِن الجُهَّالِ يُصَرِّحُ بلَعْنِه وتَقبيحِه!
الثَّالثةُ: أنَّ السَّبَّ منهم إنَّما يقَعُ على مَن فَعَل هذه الأفعالَ الَّتي لو اتَّبَع الحَقُّ فيها أهواءَهم لَفَسَدَت السَّمَواتُ والأرضُ! وإذا وقَعَت أهواؤُهم حَمِدوا الدَّهرَ وأثْنَوا عليه. وفي حقيقةِ الأمرِ فرَبُّ الدَّهرِ تعالى هو المُعطي المانِعُ، الخافِضُ الرَّافعُ، المُعِزُّ المُذِلُّ، والدَّهرُ ليس له مِنَ الأمرِ شَيءٌ، فمَسَبَّتُهم للدَّهرِ مَسَبَّةٌ لله عزَّ وجَلَّ؛ ولهذا كانت مُؤذِيةً للرَّبِّ تعالى، كما في الصَّحيحَينِ مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «قال الله تعالى: يُؤذيني ابنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهرَ، وأنا الدَّهرُ». فسابُّ الدَّهرِ دائرٌ بيْنَ أمْرَينِ لا بُدَّ له مِن أحَدِهما: إمَّا سَبُّه لله، أو الشِّركُ به؛ فإنَّه إذا اعتَقَد أنَّ الدَّهرَ فاعِلٌ مع اللهِ، فهو مُشرِكٌ، وإنِ اعتَقَد أنَّ اللهَ وَحْدَه هو الَّذي فَعَل ذلك، وهو يَسُبُّ مَن فَعَلَه؛ فقد سَبَّ اللهَ!). ((زاد المعاد)) (٢/ ٣٢٣).

(٢) قال ابنُ عثيمين: (الدَّهرُ: ليس مِن أسماءِ الله تعالى؛ لأنَّه اسمٌ جامِدٌ لا يَتضَمَّنُ مَعنًى يُلحِقُه بالأسماءِ الحُسنى، ولأنَّه اسمٌ للوَقتِ والزَّمَنِ... فأمَّا قَولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: «قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: يُؤذِيني ابنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهرَ، وأنا الدَّهرُ، بيدي الأمرُ، أقلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ» فلا يدُلُّ على أنَّ الدَّهرَ مِن أسماءِ اللهِ تعالى؛ وذلك أنَّ الَّذين يَسُبُّونَ الدَّهرَ إنمَّا يُريدونَ الزَّمانَ الَّذي هو مَحَلُّ الحوادِثِ، لا يُريدونَ اللهَ تعالى، فيَكونُ معنى قَولِه: «وأنا الدَّهرُ» ما فَسَّره بقَولِه: «بيدَي الأمرُ، أقَلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ»، فهو سُبحانَه خالِقُ الدَّهرِ وما فيه، وقد بَيَّنَ أنَّه يُقَلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ، وهما الدَّهرُ، ولا يُمكِنُ أن يكونَ المُقلِّبُ -بكَسرِ اللَّامِ- هو المُقَلَّبَ -بفَتحِها- وبهذا تَبَيَّنَ أنَّه يَمتَنِعُ أن يكونَ الدَّهرُ في هذا الحديثِ مُرادًا به اللهُ تعالى). ((القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه =

بيدي الأمرُ، أقلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ))[١]، وفي روايةٍ: ((يُؤذيني ابنُ آدَمَ؛ يقولُ: يا خَيبةَ الدَّهرِ، فلا يَقولَنَّ أحَدُكم: يا خَيبةَ الدَّهرِ؛ فإنِّي أنا الدَّهرُ، أقلِّبُ لَيلَه ونَهارَه، فإذا شِئتُ قَبَضْتُهما))[٢]، وفي روايةٍ: ((يَسُبُّ ابنُ آدَمَ الدَّهرَ، وأنا الدَّهرُ، بيَدِي اللَّيلُ والنَّهارُ))[٣]، وفي روايةٍ[٤]: ((لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ))[٥]، وقد بَقِيَ هذا شائِعًا في ألسِنةِ النَّاسِ مِن المُسلِمينَ، وفي أشعارِهم، وهي سُنَّةٌ جاهِليَّةٌ[٦]، فكثيرٌ مِن الفُسَّاقِ والمُجَّانِ والحَمقَى إذا جَرَت تصاريفُ الدَّهرِ على خِلافِ مُرادِهم جَعَلوا يَسُبُّونَ الدَّهرَ والوَقتَ، ورُبَّما لَعَنوه! وهذا ناشِئٌ مِن ضَعفِ الدِّينِ، ومِن الحُمقِ والجَهلِ العَظيمِ؛ فإنَّ الدَّهرَ ليس عِندَه مِن الأمرِ شَيءٌ؛ فإنَّه مُدَبَّرٌ مُصَرَّفٌ، والتَّصاريفُ الواقِعةُ فيه تدبيرُ العزيزِ الحَكيمِ، ففي الحقيقةِ يَقَعُ العَيبُ والسَّبُّ على مُدَبِّرِه! وكما أنَّه نَقصٌ في الدِّينِ فهو نَقصٌ في العَقلِ؛ فبه تَزدادُ المصائِبُ ويَعظُمُ وَقعُها، ويُغلَقُ بابُ الصَّبرِ الواجِبِ، وهذا مُنافٍ للتَّوحيدِ. أمَّا المؤمِنُ فإنَّه يَعلَمُ أنَّ التَّصاريفَ واقِعةٌ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه وحِكمتِه، فلا يَتعَرَّضُ لِعَيبِ ما لم يَعِبْه اللهُ ولا رَسولُه، بل يَرضى بتدبيرِ اللهِ، ويُسَلِّمُ لأمْرِه، وبذلك يَتِمُّ تَوحيدُه وطُمأنينتُه[٧].

= الحسنى)) (ص: ٩).

قال ابن كثير: (وقد غَلِطَ ابنُ حزمٍ ومَن نحا نحوَه مِن الظَّاهِريَّةِ في عَدِّهِم الدَّهرَ مِن الأسماءِ الحسنَى، أخْذًا مِن هذا الحديثِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠).

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٦) (٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٤٦) (١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٤٦) (٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٥). ويُنظر: أيضًا: ((مناقب الشافعي)) للبيهقي (١/ ٣٣٦).

(٦) يُنظر: ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصَّنْعاني (١١/ ١٠٤).

(٧) يُنظر: ((القول السديد شرح كتاب التوحيد)) للسعدي (ص: ١٤٨).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ هذه الآيةُ مِن أقوى الدَّلائِلِ على أنَّ القَولَ بغيرِ حُجَّةٍ وبَيِّنةٍ قَولٌ باطِلٌ فاسِدٌ، وأنَّ مُتابَعةَ الظَّنِّ والحُسبانِ مُنكَرٌ عندَ اللهِ تعالى[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ فيه سُؤالٌ: الحياةُ مُقَدَّمةٌ على الموتِ في الدُّنيا، فمُنكِرو القيامةِ كان يجِبُ أن يَقولوا: (نحيا ونَموتُ)، فما السَّبَبُ في تقديمِ ذِكرِ الموتِ على الحياةِ[٢]؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المعنى: يحيا البَعضُ، ويموتُ البَعضُ[٣]، فهو حُكمٌ على النَّوعِ بجُملتِه مِن غيرِ اعتبارِ تَقديمٍ وتأخيرٍ[٤].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه كلامُ مَن يقولُ بالتَّناسُخِ[٥].

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّ اللهَ تعالى قدَّمَ ذِكرَ الحياةِ فقال؛ حكايةً عنهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، ثمَّ قال بَعْدَه: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، يعني: أنَّ تلك الحياةَ مِنها ما يَطرَأُ عليها الموتُ، وذلك في حَقِّ الَّذين ماتوا، ومِنها ما لم يَطرَأِ الموتُ عليها، وذلك في حَقِّ الأحياءِ الَّذين لم يموتوا بَعْدُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٧٨).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٣).

(٥) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٦).

قال الشِّربيني في بيانِ مَعنى التَّناسُخِ: (هو أنَّ رُوحَ الشَّخصِ إذا خرَجَت تَنتَقِلُ إلى شَخصٍ آخَرَ، فيَحيا بعدَ أنْ لم يكُنْ؛ فإنَّه عقيدةُ أكثَرِ عَبَدةِ الأصنامِ). ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٨).

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّ المعنى نحيا ونموتُ، على وَجهِ تقديمِ الحياةِ قبْلَ المماتِ[(١)]؛ فالعَطفُ بالواوِ لا يَقتَضي ترتيبًا بيْنَ المتعاطِفَينِ في الحُصولِ[(٢)].

٢- قَولُهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ هذا يَرُدُّه المنقولُ والمَعقولُ:

أمَّا المنقولُ: فالكِتابُ والسُّنَّةُ يدُلَّانِ على ثُبوتِ الآخِرةِ، ووُجوبِ الإيمانِ باليَومِ الآخِرِ، وأنَّ للعِبادِ حياةً أُخرى سِوى هذه الحياةِ الدُّنيا، والكُتُبُ السَّماويَّةُ الأُخرى تُقَرِّرُ ذلك وتُؤَكِّدُه.

وأمَّا المعقولُ: فإنَّ اللهَ فَرَض على النَّاسِ الإسلامَ والدَّعوةَ إليه، والجِهادَ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، مع ما في ذلك مِن استِباحةِ الدِّماءِ والأموالِ والنِّساءِ والذُّرِّيَّةِ، فمِن غيرِ المَعقولِ أن يكونَ النَّاسُ بعدَ ذلك تُرابًا؛ لا بَعْثَ ولا حياةَ، ولا ثَوابَ ولا عِقابَ، وحِكمةُ اللهِ تأبى هذا.

وأمَّا قَولُهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، أي: إلَّا مُرورُ الزَّمَنِ، فهذا يَرُدُّه المنقولُ والمحسوسُ:

فأمَّا المنقولُ: فالكِتابُ والسُّنَّةُ يَدُلَّانِ على أنَّ الإحياءَ والإماتةَ بيَدِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦]، وقال عن عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وأمَّا المحسوسُ: فإنَّنا نَعلَمُ مَن يَبقى سِنينَ طَويلةً على قَيدِ الحياةِ، كنُوحٍ عليه السَّلامُ وغَيرِه، ولم يُهلِكْه الدَّهرُ، ونُشاهِدُ أطفالًا يموتونَ في الشَّهرِ الأوَّلِ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٢).

ومِن الأجوبةِ أيضًا: أنَّ المرادَ: نموتُ نحن، ويحيا أولادُنا. أو: نموتُ حينَ كُنَّا عَدَمًا أو نُطَفًا، ونحيا في الدُّنيا. وقد تقدَّم ذكرُ هذه الأقوالِ (ص: ١١٢).

وِلادتِهم، وشَبابًا يموتونَ في قُوَّةِ شَبابِهم؛ فليس الدَّهرُ هو الَّذي يُميتُهم[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الظَّنَّ يُستعملُ بمعنى الوَهم، كما يُستعمَلُ أيضًا بمعنى العِلمِ واليقينِ؛ كقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾[٢] [البقرة: ٤٦].

٤- إنْ قيل: كيفَ وقَع قَولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ﴾ جَوابًا لِقَولِهم: ﴿ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؟

والجوابُ: أنَّهم لَمَّا أنكَروا البَعثَ، وكَذَّبوا الرُّسُلَ، وحَسِبوا أنَّ ما قالوه قَولٌ مُبَكِّتٌ؛ أُلزِموا ما هم مُقِرُّونَ به مِن أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ هو الَّذي يُحييهم ثمَّ يُميتُهم، وضُمَّ إلى إلزامِ ذلك إلزامُ ما هو واجِبُ الإقرارِ به إن أنصَفوا وأصغَوا إلى داعي الحَقِّ، وهو جَمْعُهم إلى يومِ القيامةِ، ومَن كان قادِرًا على ذلك كان قادِرًا على الإتيانِ بآبائِهم، وكان أهْوَنَ شَيءٍ عليه[٣].

ويُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّهم لَمَّا قالوا: ﴿ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ عِنادًا وتَمرُّدًا، قِيل لهم: دَعُوا آباءَكُم؛ فإنَّ القاهرَ القادرَ العالِمَ بكلِّ شَيءٍ، يَفعَلُ كَيْتَ وكَيْتَ، فضْلًا عمَّا اقْتَرَحْتُموه، ولكنْ أنتُمْ جُهلاءُ لا تَعلَمون ذلك، كما قال: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾[٤] [الجاثية: ٢٤].

٥- في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ تَسجيلٌ عليهم بالتَّلجْلُجِ عن الحُجَّةِ البيِّنةِ، والمَصيرِ إلى سِلاحِ العاجزِ؛ مِن المُكابَرةِ والخُروجِ عن دائرةِ

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٠).

البَحثِ[١].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو إشارةٌ إلى ما تَقدَّمَ ذِكرُه في الآيةِ المتقَدِّمةِ، وهو أنَّ كَونَه تعالى عادِلًا خالِقًا بالحَقِّ، مُنَزَّهًا عن الجَورِ والظُّلمِ: يَقتَضي صِحَّةَ البَعثِ والقيامةِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ...﴾ الواوُ استِئنافيَّةٌ، والكلامُ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِتَفْنيدِ مَزاعمِ المُشرِكينَ؛ إذ كانوا يَزْعُمون أنَّ هَلاكَ الأنفُسِ مَنوطٌ بِمُرورِ الأيَّامِ واللَّيالي[٣].

- أو عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١]، أي: بعْدَ أنْ جادَلوا المُسلِمينَ بأنَّه إنْ كان بَعثٌ بعْدَ الموتِ، فسَتكونُ عُقْباهم خَيرًا مِن عُقْبى المُسلِمينَ، وهمْ لا يُوقِنون بالبَعثِ والجزاءِ، بلْ ضَرَبوه جَدلًا، وإنَّما يَقينُهم قولُهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾[٤].

- وضَميرُ (هِيَ) ضَميرُ القِصَّةِ والشَّأنِ، أي: قِصَّةُ الخَوضِ في البَعثِ تَنحصِرُ في أنْ لا حَياةَ بعْدَ المَماتِ، أي: القِصَّةُ هي انْتِفاءُ البَعثِ، كما أفادَه حَصْرُ الأمْرِ في الحياةِ الدُّنيا، أي: الحاضرةِ القَريبةِ مِنَّا، أي: فلا تُطيلوا الجِدالَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٠).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦١).

معنا في إثباتِ البَعثِ. ويجوزُ أنْ يكونَ (هي) ضَميرَ الحياةِ باعتبارِ دَلالةِ الاستثناءِ، على تَقديرِ لَفظِ الحياةِ؛ فيَكونَ حَصْرًا لجنسِ الحياةِ في الحَياةِ الدُّنيا[١].

- وجُملةُ ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ مُبيِّنةٌ لِجُملةِ ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: ليس بعْدَ هذا العالَمِ عالَمٌ آخَرُ؛ فالحَياةُ هي حَياةُ هذا العالَمِ لا غَيرُ، فإذا مات مَن كان حيًّا خلَفَه مَن يُوجَدُ بعْدَه، فمعنى ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾: يَموتُ بعضُنا ويَحْيا بَعضٌ، أي: يَبْقى حيًّا إلى أمَدٍ، أو يُولَدُ بعْدَ مَن ماتوا، وللدَّلالةِ على هذا التَّطوُّرِ عُبِّرَ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾، أي: تَتجدَّدُ فِينا الحياةُ والموتُ؛ فالمَعنى: نَموتُ ونَحْيا في هذه الحياةِ الدُّنيا، وليس ثَمَّةَ حَياةٌ أُخرى. ثمَّ إنْ كانت هذه الجُملةُ مَحْكيَّةً بلَفظِ كَلامِهم، فلَعلَّها ممَّا جَرَى مَجْرى المَثلِ بيْنَهم، وإنْ كانتْ حِكايةً لِمَعنى كَلامِهم، فهي مِن إيجازِ القُرآنِ؛ وهمْ إنَّما قالوا: يَموتُ بعضُنا، ويَحْيا بعضُنا ثمَّ يَموتُ؛ فصار كالمَثلِ[٢].

- قولُه: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ لا يَخطُرُ بالْبالِ أنَّ حِكايةَ قَولِهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ تَقْتضي إرادةَ نَحْيا بعْدَ أنْ نَموتَ؛ لأنَّ قولَهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ يَصرِفُ عن خُطورِ هذا بالبالِ. والعطْفُ بالواوِ لا يَقْتضي تَرْتيبًا بيْن المُتعاطِفَينِ في الحُصولِ. وإنَّما قُدِّمَ ﴿نَمُوتُ﴾ في الذِّكرِ على ﴿وَنَحۡيَا﴾ في البَيانِ، مع أنَّ المُبيَّنَ قولُهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾؛ فكان الظَّاهرُ أنْ يَبدَأَ في البَيانِ بذِكرِ اللَّفظِ المُبيَّنِ، فيُقالَ: نَحْيا ونموتُ؛ فقِيل: قُدِّمَ ﴿نَمُوتُ﴾ لتَتأتَّى الفاصلةُ بلَفظِ (نَحيا) مع لَفظِ الدُّنيا. والأوجَهُ أنْ يكونَ تَقديمُ فِعلِ ﴿نَمُوتُ﴾ على ﴿وَنَحۡيَا﴾؛ للاهتِمامِ بالموتِ في هذا المَقامِ؛ لأنَّهم بصَدَدِ تَقريرِ أنَّ المَوتَ لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حَياةَ بعْدَه، ويَتبَعُ ذلك الاهتِمامَ تَأَتِّي طِباقَينِ بيْنَ ﴿حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿نَمُوتُ﴾، ثمَّ بيْن ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾، وحصَلَت الفاصِلةُ تَبَعًا، وذلك أدْخَلُ في بَلاغةِ الإعجازِ؛ ولذلك أعْقَبَه بقولِه: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾، فالإشارةُ بذلك إلى قَولِهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾، أي: لا عِلمَ لهمْ بأنَّ الدَّهرَ هو المُميتُ؛ إذ لا دَليلَ. وأمَّا زِيادةُ ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ فقَصَدوا تأْكيدَ مَعنى انْحِصارِ الحَياةِ والموتِ في هذا العالَمِ المُعبَّرِ عنه عِندَهم بالدَّهرِ؛ فالحياةُ بتَكوينِ الخِلْقةِ، والمماتُ بفِعلِ الدَّهرِ، فكيف يُرْجَى لِمَن أهْلَكَه الدَّهرُ أنْ يعودَ حَيًّا؟! فالدَّهْرُ هو الزَّمانُ المُستمِرُّ المُتعاقِبُ لَيلُه ونَهارُه[1].

- وهذه الكلماتُ ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ كَلماتٌ كانتْ تَجْري على ألْسِنَتِهم؛ لِقِلَّةِ التَّدبُّرِ في الأُمورِ، وإنْ كانوا يَعلَمون أنَّ اللهَ هو الخالِقُ لِلعوالِمِ، وأمَّا ما يَجْري في العالَمِ مِن التَّصرُّفاتِ، فلمْ يكُنْ لهمْ فيه رأْيٌ، وكيف وحالَتُهم الأُمِّيَّةُ لا تُساعِدُ على ذلك؟! وكانوا يُخطِئونَ في التَّفاصيلِ حتَّى يأْتُوا بما يُناقِضُ ما يَعتقِدونَه؛ ولذلك أعقَبَه بقولِه تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾؛ فإشارةُ ﴿بِذَٰلِكَ﴾ إلى قولِهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾، أي: لا عِلمَ لهمْ بأنَّ الدَّهْرَ هو المُميتُ؛ إذ لا دَليلَ على ذلك؛ فإنَّ الدَّليلَ النَّظريَّ بيِّنٌ أنَّ الدَّهرَ -وهو الزَّمانُ- ليس بمُميتٍ مُباشَرةً، وهو ظاهرٌ، ولا بواسِطةٍ في الإماتةِ؛ إذ الزَّمانُ أمْرٌ اعْتِباريٌّ لا يَفعَلُ ولا يُؤثِّرُ، وإنَّما هو مَقاديرُ يُقدِّرُ بها النَّاسُ الأبعادَ بيْنَ الحوادثِ، مَرجِعُه إلى تَقديرِ حِصَّةِ النَّهارِ واللَّيلِ، وحِصَصِ الفُصولِ الأربعةِ، وإنَّما تَوهَّمَ عامَّةُ النَّاسِ أنَّ الزَّمانَ مُتصرِّفٌ، وهي تَوهُّماتٌ شاعَتْ حتَّى استَقرَّتْ في الأذهانِ السَّاذَجةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٦٢، ٣٦٣).

- وجُملةُ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ مُبيِّنةٌ لِجُملةِ ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، أو اسْتِئنافٌ بَيانيٌّ؛ كأنَّ سائلًا حينَ سَمِعَ قولَه: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، سأَلَ عن مُستنَدِهم في قولِهم ذلك، فأُجِيبَ بأنَّه الظَّنُّ المَبْنيُّ على التَّخيُّلِ[١].

- وجِيءَ بالمُضارِعِ في ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ لأنَّهم يُجَدِّدون هذا الظَّنَّ، ويَتلقَّاهُ صَغيرُهم عن كَبيرِهم في أجْيالِهم، وما هُمْ بمُقْلِعينَ عنه[٢].

- ولَمَّا ذكَرَ تعالَى خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ وقيَّدَه بالحقِّ، قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، يعني: ألَا تَتعجَّبونَ مِن هذا الَّذي اتَّبَعَ هَواهُ، وأضَلَّه اللهُ، وختَمَ على سَمْعِه وقَلْبِه؛ كيف ضَلَّ عن سَبيلِ المَعرفةِ، ورفَضَ العمَلَ، وطعَنَ في تلك الحِكمةِ البالِغةِ، وادَّعى الحِكمةَ لِنَفْسِه، وقال: لا عَمَلَ ولا جَزاءَ، و﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾؟! بخِلافِ المُؤمنِ الَّذي جعَلَ هَواهُ تَبَعًا لِدينِه؛ فدَلَّ بعطْفِ قَولِه: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ على ﴿ٱتَّخَذَ﴾؛ على أنَّهم إنَّما اتَّبَعوا أهْواءَهم الباطِلةَ، ولمْ يُجِيلُوا فِكْرَهم في تلك الآياتِ الباهرةِ الدَّالَّةِ على تلك الحِكمةِ البالِغةِ؛ لِسَبْقِ عِلْمِه الأزَليِّ والقَضاءِ المُقدَّرِ، وذلك الَّذي جَسَّرَهم أنْ يُبطِلوا حِكمةَ اللهِ بقَولِهم: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾. ثمَّ نَفى العِلمَ عنْهم على الاسْتِغراقِ بقَولِه: (مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ)، وذيَّلَ الآياتِ بقَولِه: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ورتَّبَ فيه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَقْريرًا وتأْكيدًا؛ فعُلِمَ قطْعًا أنَّ مَن اقْتَنى شَيئًا مِن الهَذَيانِ، وسمَّاهُ حِكمةً، واتَّبَعَ الهَوى، ورفَضَ العمَلَ، وأنْكَرَ الهُدى الَّذي هو القولُ بالحَشرِ؛ هو ممَّنْ أضَلَّه اللهُ على عِلْمٍ وختَمَ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

سَمْعِه وقَلْبِه، وجعَلَ على بَصرِه غِشاوةً، وما لَه بما يقولُ مِن عِلمٍ، وهو أجهَلُ خلْقِ اللهِ وإنْ جمَعَ أسفارًا مِن الهَذَياناتِ، نَعوذُ باللهِ مِن سَخَطِ اللهِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ عطْفٌ على ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، أي: عَقَدوا على عَقيدةِ أنْ لا حَياةَ بعْدَ المَماتِ؛ اسْتِنادًا لِلْأوهامِ والأقيسةِ الخياليَّةِ، وإذا تُلِيَت عليهم آياتُ القُرآنِ الواضحةِ الدَّلالةِ على إمْكانِ البَعثِ وعلى لُزومِه، لم يُعارِضوها بما يُبْطِلُها، بلْ يُهْرَعون إلى المُباهَتةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ استِثناءٌ من ﴿حُجَّتَهُمْ﴾، وهو يَقتضي تَسميةَ كلامِهم هذا حُجَّةً، وهو ليس بحُجَّةٍ؛ إذ هو بالبُهتانِ أشْبَهُ؛ فسَمَّى قولَهم حُجَّةً وليس بحُجَّةٍ؛ لأنَّهم أدْلَوا به كما يُدْلي المُحتَجُّ بحُجَّتِه، وساقُوه مَساقَها، فيكونُ إطلاقُ اسمِ الحُجَّةِ عليه على سَبيلِ التَّهكُّمِ بهم. أو لأنَّه في حِسبانِهم وتَقديرِهم حُجَّةٌ، فيكونُ إطلاقُ اسمِ الحُجَّةِ على كلامِهم جرَى على اعتِقادِهم وتَقديرِهم دون قَصْدِ تَهكُّمٍ بهم، أي: أْتُوا بما تَوهَّمْتُموه حُجَّةً. أو كأنَّه قيل: ما كان حُجَّتُهم إلَّا ما ليس بحُجَّةٍ، والمُرادُ: نَفْيُ أنْ تكونَ لهم حُجَّةٌ ألْبَتَّةَ، وأنَّ هذه ليستْ بحُجَّةٍ، بل هي عِنادٌ؛ فيَحصُلُ أنْ لا حُجَّةَ لهم بطَريقِ التَّمليحِ والكِنايةِ[٣]. أو أنَّ الحُجَّةَ اسمٌ لِمَا يُحتَجُّ به مِن حَقٍّ وباطلٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩١، ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٤٥). =

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ تَلقينٌ لإبطالِ قَولِهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] يَتضمَّنُ إبطالَ قَولِهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، والمَقصودُ منه قَولُه: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾؛ وإنَّما قُدِّمَ عليه ﴿يُحۡيِيكُمۡ﴾ تَوطئةً له، أي: كما هو أوجَدَكم هو يُميتُكم لا الدَّهرُ؛ فتَقديمُ اسمِ ﴿ٱللَّهُ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ -وهو ﴿يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾- يُفيدُ تَخصيصَ الإحياءِ والإماتةِ به؛ لإبْطالِ قَولِهم: إنَّ الدَّهرَ هو الَّذي يُميتُهم[1].

- وقولُه: ﴿ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إبطالٌ لِقَولِهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، وليس هو إبطالًا بطَريقِ الاسْتِدلالِ؛ لأنَّ أدلَّةَ هذا تَكرَّرتْ فيما نزَلَ مِن القُرآنِ؛ فاسْتُغنِيَ عن تَفصيلِها، ولكنَّه إبطالٌ بطَريقِ الإجمالِ والمُعارَضةِ[2].

= قال ابنُ تيميَّةَ: (الحُجَّةُ هي ما يَحتَجُّ به الخَصمُ وإن كان باطِلًا؛ فليس مِن شَرطِ لَفظِ الحُجَّةِ أن تكونَ حَقًّا، بل إذا كانت حَقًّا سُمِّيَت بَيِّنةً وبُرهانًا ودَليلًا). ((الصفدية)) (٢/ ٣١٦).

وقال ابن القيِّم: (الحُجَّةُ في كتابِ اللهِ يُرادُ بها نَوعانِ:

أحدُهما: الحُجَّةُ الحَقُّ الصَّحيحةُ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

ويُرادُ بها: مُطلَقُ الاحتِجاجِ بحَقٍّ أو بباطِلٍ؛ كقَولِه: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقَولِه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، وقَولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: ١٦]). ((بدائع الفوائد)) (٤/ ١٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ اسْتِدراكٌ مِن قولِه تعالَى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾، وهو إمَّا مِن تَمامِ الكَلامِ المأْمورِ به، أو كَلامٌ مَسوقٌ مِن جِهَتِه تعالى؛ تَحقيقًا للحقِّ، وتَنبيهًا على أنَّ ارتيابَهم لِجَهْلِهم وقُصورِهم في النَّظرِ والتَّفكُّرِ، لا لأنَّ فيه شائبةَ رَيْبٍ ما[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤).

الآيات (٢٧-٣٠)

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: أي: يومُ القِيامةِ، والسَّاعةُ هي الوقتُ القَليلُ والجُزءُ مِن أجزاءِ الزَّمانِ، ويُعبَّرُ بها عن القِيامةِ؛ تَشبيهًا بذلك لسُرعةِ الحسابِ فيها، وأصْلُ (سوع): يدُلُّ على استِمرارِ الشَّيءِ ومُضِيِّه[١].

﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: أي: المكَذِّبون الكافِرونَ أصحابُ الأباطيلِ، وأصلُ (بطل): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ، وقِلَّةِ مُكثِه[٢].

﴿جَاثِيَةً﴾: أي: باركةً على الرُّكَبِ، وهي جِلسةُ المخاصَمِ بيْنَ يَدَي الحاكِمِ يَنتَظِرُ القضاءَ[٣].

﴿نَسْتَنسِخُ﴾: أي: نَكتُبُ ونُثبِتُ، والنَّسخُ: إزالةُ شَيءٍ بشَيءٍ يتَعَقَّبُه، وتارةً يُفهَمُ منه الإزالةُ، وتارةً يُفهَمُ منه الإثباتُ، وتارةً يُفهَمُ منه الأمرانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٨/ ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩- ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٧)، =

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالَى مُذكِّرًا بأهوالِ يومِ القِيامةِ: ولله وَحْدَه مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، ويَومَ تقومُ القِيامةُ يَخسَرُ الكافِرونَ أصحابُ الأباطيلِ، فيَصيرونَ إلى النَّار! وتَرى -يا محمَّدُ- كُلَّ أهلِ مِلَّةٍ في ذلك اليَومِ جالِسينَ على رُكَبِهم، مُنتَظِرينَ فَصْلَ اللهِ تعالَى بيْنَهم، كلُّ مِلَّةٍ تُدعَى إلى كتابِ أعمالِها، ويُقالُ لهم: اليومَ تَنالُونَ جَزاءَ أعمالِكم، هذا كِتابُنا يَشهَدُ عليكم بما عَمِلتُموه دونَ زيادةٍ أو نُقصانٍ، إنَّا كُنَّا نَأمُرُ الملائِكةَ أنْ تَكتُبَ أعمالَكم، فأمَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ فيُدخِلُهم رَبُّهم في جَنَّتِه، وذلك هو الفَوزُ الظَّاهِرُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا احتَجَّ بكَونِه قادِرًا على الإحياءِ في المرَّةِ الأُولَى، وعلى كَونِه قادِرًا على الإحياءِ في المرَّةِ الثَّانيةِ في الآياتِ المتقَدِّمةِ؛ عَمَّمَ الدَّليلَ فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: للهِ القُدرةُ على جَميعِ المُمكِناتِ، سَواءٌ كانتْ مِنَ السَّمواتِ أو مِنَ الأرضِ، وإذا ثَبَت كَونُه تعالَى قادِرًا على كُلِّ المُمكِناتِ، وثَبَت أنَّ حُصولَ الحياةِ في هذه الذَّاتِ مُمكِنٌ؛ إذ لو لم يكُنْ مُمكِنًا لَمَا حَصَل في المرَّةِ الأُولى، فيَلزَمُ مِن هاتَينِ المقَدِّمَتينِ كَونُه تعالَى قادِرًا على الإحياءِ في المرَّةِ الثَّانيةِ[1].

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٠).

وأيضًا لَمَّا دَلَّ اللهُ تعالَى على قُدرتِه على الإعادةِ بهذا الدَّليلِ الخاصِّ الذي تَقديرُه: فاللهُ الَّذي ابتَدأَ خَلْقَكم مِنَ الأرضِ على هذا الوَجهِ قادِرٌ على إعادتِكم؛ عَطَف عليه دَليلًا آخَرَ جامِعًا، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ومَن تَصَرَّفَ في مُلكِه بشَيءٍ مِن الأشياءِ كان قادِرًا على مِثْلِه ما دامَ مَلِكًا[١].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولِلهِ وَحْدَه مُلكُ جَميعِ السَّمَواتِ والأرضِ؛ فهو خالِقُهما والمتصَرِّفُ فيهما دونَ الدَّهرِ وغيرِه مِمَّا يَزعُمُ المُشرِكونَ أنَّ له تصَرُّفًا في الكَونِ[٢]!

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالَى إمكانَ القَولِ بالحَشرِ والنَّشرِ؛ ذكَرَ تفاصيلَ أحوالِ القِيامةِ؛ فأوَّلُها: قَولُه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[٣]، ولَمَّا جَرَى ذِكرُ يَومِ القِيامةِ أُعقِبَ بإنذارِ الذين أنكَروه مِن سُوءِ عاقِبتِهم فيه[٤]، فقال:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

أي: ويَومَ تَجيءُ القِيامةُ يَخسَرُ الكافِرونَ أصحابُ الأباطيلِ، فيَصيرونَ إلى النَّارِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير =

كما قال تعالَى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾.

أي: وتَرى في ذلك اليَوم -يا محمَّدُ- أهلَ كُلِّ مِلَّةٍ جالِسينَ على رُكَبِهم، مُنتَظِرينَ قَضاءَ اللهِ تعالَى وحُكمَه عليهم[1].

= ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٥).

ممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المُبطِلينَ هم: الآتونَ بالباطِلِ في مُعتقداتِهم وأقوالِهم وأعمالِهم: ابنُ جرير، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٦).

قال الواحديُّ: (قوله تعالى: ﴿يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ قال مقاتلٌ والكلْبيُّ: يعني: المكذِّبينَ الكافرينَ، والمبْطِلونَ أصحابُ الأباطيلِ). ((البسيط)) (٢٠/ ١٥١). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٤١).

وقال البقاعي: (﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: الداخلونَ في الباطلِ، العريقونَ في الاتِّصافِ به). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٠٤).

وقال السعديُّ: (يحصُلُ الخَسارُ على المُبطِلين الذين أتَوا بالباطِلِ لِيُدحِضوا به الحَقَّ، وكانت أعمالُهم باطلةً؛ لأنَّها مُتعَلِّقةٌ بالباطِلِ، فبَطَلت في يومِ القيامةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧).

قال الشَّوكاني: (﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ الخِطابُ لِكُلِّ مَن يَصْلُحُ له، أو للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢).

وقال أيضًا: (ومعنى ﴿جَاثِيَةً﴾: مُستَوفِزةً، والمُستَوفِزُ: الذي لا يُصيبُ الأرضَ منه إلَّا رُكبَتاه وأطرافُ أنامِلِه، وذلك عند الحِسابِ. وقيل: معْنى ﴿جَاثِيَةً﴾: مُجتَمِعةً، قال الفَرَّاءُ: المعنى: =

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

أي: كلُّ أهلِ مِلَّةٍ تُدعَى يومَ القِيامةِ إلى صَحائِفِ أعمالِها التي كتبَتْها الملائِكةُ[1].

كما قال تعالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا

= وتَرى أهلَ كُلِّ ذِي دِينٍ مُجتَمِعينَ. وقال عِكرمةُ: مُتمَيِّزةٌ عن غَيرِها. وقال مُؤرِّجٌ: معناه بلُغةِ قُرَيشٍ: خاضِعةٌ. وقال الحَسَنُ: بارِكةٌ على الرُّكَبِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (الجاثي: هو البارِكُ المُستَوفِزُ، وهو هَيئةُ الخُضوعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧).

وقال الشَّوكاني: (وظاهِرُ الآيةِ أنَّ هذه الصِّفةَ تكونُ لكُلِّ أمَّةٍ مِن الأُمَمِ مِن غَيرِ فَرقٍ بيْنَ أهلِ الأديانِ المتَّبِعينَ للرُّسُلِ، وغَيرِهم مِن أهلِ الشِّركِ. وقال يَحيى بنُ سلامٍ: هو خاصٌّ بالكُفَّارِ. والأوَّلُ أَولى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ معنى ﴿كِتَٰبِهَا﴾: كتابُ أعمالِها: ابنُ جرير، والواحديُّ، والزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، والعُليميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٧٤).

وقيل: المعنى: إلى الكتابِ المنزَّلِ عليها، كالقُرآنِ والتَّوراةِ والإنجيلِ. وممَّن رجَّح هذا المعنى: الشَّوكاني، واستظْهَره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

قال ابن عاشور: (فمعنى ﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾: تُدعَى لِتُعرَضَ أعمالُها على ما أُمِرَتْ به في كِتابِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧).

وممَّن جمَع بيْن القولينِ: البقاعيُّ، فقال: (﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي: الذي أُنزِلَ إليها وتعَبَّدَها اللهُ به، والذي نسَخَتْه الحفَظةُ مِن أعمالِها؛ لِيُطابَقَ أحدُهما بالآخَرِ، فمَن وافَق كِتابُه ما أُمِرَ به من كتابِ رَبِّه نجا، ومَن خالَفَه هَلَك). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٠٥)، ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (٧٧٨).

يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١].

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: يُقالُ للأُمَمِ يومَ القِيامةِ: اليومَ تَنالُونَ جَزاءَ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[1].

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: يُقالُ للأُمَمِ يومَ القِيامةِ: هذا كِتابُنا يَشهَدُ عليكم بجَميعِ أعمالِكم التي كتَبَتْها الملائِكةُ، فيُبَيِّنُها بما هو مُوافِقٌ للحَقيقةِ والواقِعِ دونَ زِيادةٍ أو نُقصانٍ[2].

كما قال تعالَى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢].

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١).

قال ابنُ القيِّم: (قولُه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ والمرادُ: جميعُ الكُتُبِ التي أُحصِيَت فيها أعمالُهم). ((بدائع الفوائد)) (٤/ ٢).

أي: إنَّا كُنَّا نَأمُرُ الملائِكةَ أنْ تَكتُبَ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٦).

قال السَّمعاني: (وقَولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه أقوالٌ:

أحَدُها: نَستَكتِبُ ما كُنتُم تَعمَلونَ، أي: نأمُرُ الكَتَبَةَ أن يَكتُبوا ويَحفَظوا أعمالَكم.

والقَولُ الثَّاني: ﴿نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نأخُذُ نُسخةً مِمَّا كَتَبَت الملائِكةُ عليكم.

والقَولُ الثَّالِثُ: وهو المعروفُ، وهو مرويٌّ عن ابنِ عَبَّاسٍ، قال: يأمُرُ اللهُ تعالَى الملائكةَ بأنْ يأخُذوا نُسخةً مِن اللَّوحِ المحفوظِ على ما يَعمَلُه العَبدُ في يومِه ولَيلتِه، ثمَّ يَكتُبونَ ما عَمِلَه العَبدُ، ثمَّ يُقابِلونَ ما كَتَبوا على العَبدِ بما نَسَخوا مِنَ اللَّوحِ المحفوظِ، فيكونانِ سَواءً لا زِيادةَ ولا نُقصانَ فيه، قال ابنُ عباسٍ: انظُروا هل يكونُ الاستِنساخُ إلَّا مِن أصلٍ؟!). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤٥).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المعنى: إنَّا كنَّا نَستكتِبُ الحفظةَ أعمالَكم، ونَأمرُ الملائكةَ بنسْخِها، أي: بكَتْبِها، وإثْباتِها عليكم: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ الجوْزي، والرازيُّ، وابنُ جُزَي، والخازنُ، وابنُ كثير، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣).

قال ابنُ القيِّم: (أكثَرُ المُفَسِّرين على أنَّ هذا الاستِنساخَ من اللَّوحِ المحفوظِ، فتَستنسِخُ الملائكةُ ما يكونُ مِن أعمالِ بَني آدمَ قبْل أن يَعمَلوها، فيَجِدونَ ذلك مُوافِقًا لِما يَعمَلونَه، فيُثبِتُ اللهُ تعالى منه ما فيه ثَوابٌ أو عقابٌ، ويَطرَحُ منه اللَّغوَ). ((شفاء العليل)) (ص: ٢٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤٥).

وقال ابنُ القيِّم أيضًا: (قال عطاءٌ عن ابنِ عَبَّاسٍ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال: كَتَبَ اللهُ أعمالَ بني آدمَ وما هم عامِلون إلى يومِ القيامةِ. قال: والملائِكةُ تَستنسِخُ ما يَعمَلُ بنو آدَمَ يومًا بيومٍ، فذلك قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وفي الآيةِ قولٌ آخَرُ: أنَّ استِنساخَ الملائكةِ هو كِتابتُهم لِما يَعمَلُ بنو آدمَ بعْدَ أنْ يَعمَلوه، وقد يُقالُ -وهو الأظهَرُ-: إنَّ الآيةَ تَعُمُّ الأمرينِ؛ فيَأمُرُ اللهُ ملائكتَه فتَستنسِخُ مِن أُمِّ الكتابِ أعمالَ بني آدمَ، ثمَّ يَكتُبونَها =

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ٣٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنْ ذَكَر الله تعالى أهوالَ العَرضِ والحِسابِ، وأنَّ أعمالَ كُلِّ أُمَّةٍ تُعرَضُ عليها؛ فصَّلَ سُبحانَه حالَيِ السُّعَداءِ والأشقياءِ، وبدَأ بالسُّعَداءِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ، وأنَّه يُدخِلُهم جنَّاتِ النَّعيمِ[1]، فقال:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ﴾.

أي: فأمَّا الَّذين آمَنوا باللهِ تعالى وبكلِّ بما يجبُ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ الخالِصةَ الموافِقةَ لِشَرعِه: فيُدخِلُهم رَبُّهم في جَنَّتِه[2].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((تحاجَّتِ الجنَّةُ والنَّارُ؛ فقالت النَّارُ: أُوثِرتُ بالمتكبِّرينَ والمتجبِّرينَ! وقالت الجنَّةُ: ما لي لا يَدخُلُني إلَّا ضُعَفاءُ النَّاسِ وسَقَطُهم[3]؟! قال اللهُ تَبارك وتعالَى للجنَّةِ: أنتِ

= عليهم إذا عَمِلوها، فلا تَزيدُ على ما نَسَخوه مِن أمِّ الكتابِ ذَرَّةً ولا تُنقَصُها)). ((طريق الهجرتين)) (ص: ٦٦).

وقال ابن عاشور: (يجوزُ أن يكونَ السِّين والتَّاء في ﴿نَسۡتَنسِخُ﴾ للمُبالغةِ في الفِعلِ، مثلُ استجابَ. ويجوزُ أن يكونَ السِّين والتَّاء للطَّلبِ والتَّكليفِ، أي: نُكَلِّفُ الملائكةَ نَسْخَ أعمالِكم، وعلى هذا المحمَلِ حَمَل المُفَسِّرون السينَ والتاءَ هنا، أي: للطَّلَبِ، ثمَّ يجوزُ أن يكونَ النَّسخُ على معنى نَقلِ كِتابةٍ عن كتابةٍ سابقةٍ... ويجوزُ أن يكونَ النَّسخُ بمعنى كتابةِ ما تعمَلُه النَّاسُ دونَ نَقلٍ عن أصلٍ، والمعنى: إنَّا كنَّا نَكتُبُ أعمالَكم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٦٤، ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٣) وسَقَطُهم: أي: أردَؤُهم وأكثَرُهم خُمولًا، وأقلُّهم اعتِبارًا، المُحقَّرونَ فيما بيْنهم، السَّاقِطونَ =

رَحْمتي أرحَمُ بكِ مَن أشاءُ مِن عِبادي. وقال للنَّارِ: إنَّما أنتِ عَذابي أعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ مِن عِبادي، ولكُلِّ واحِدةٍ منهما مِلؤُها؛ فأمَّا النَّارُ فلا تَمتلِئُ حتى يَضَعَ رِجْلَه، فتقولُ: قَطْ قَطْ[١]، فهنالك تَمتَلِئُ ويُزوَى[٢] بعضُها إلى بعضٍ، ولا يَظلِمُ اللهُ عزَّ وجَلَّ مِن خَلْقِه أحدًا، وأمَّا الجنَّةُ فإنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يُنشِئُ لها خَلْقًا))[٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لنْ يُدخلَ أحدًا منكم عَمَلُه الجَنَّةَ. قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟! قال: ولا أنا إلَّا أنْ يَتغَمَّدَني اللهُ منه بفَضلٍ ورَحمةٍ))[٤].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أي: دُخولُ المُؤمِنينَ الجنَّةَ يومَ القِيامةِ هو الفَوزُ البَيِّنُ الظَّاهِرُ[٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ قال ابنُ أبي حاتم: (قَدِمَ سُفيانُ الثَّوريُّ المدينةَ، فسَمِعَ المَعافِريَّ يَتكَلَّمُ ببَعضِ ما يُضحِكُ به النَّاسَ! فقال له: يا شَيخُ، أمَا عَلِمتَ أنَّ للهِ يومًا يَخسَرُ فيه المُبطِلونَ؟! قال: فما زالت تُعرَفُ في المعافِريِّ حتى لحِقَ باللهِ عزَّ وجَلَّ)[٦]!

= عن أعيُنِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٢٨).

(١) قَطْ: حَسْبي، أي: يَكْفيني هذا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٨٢).

(٢) ويُزْوَى: أي: يُضمُّ بعضُها إلى بعضٍ فتجتمِعُ وتَلْتقي على مَن فيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٨٢).

(٣) رواه البخاري (٤٨٥٠) واللفظ له، ومسلم (٢٨٤٦).

(٤) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠).

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وَصَف تعالَى شِدَّةَ يومِ القِيامةِ وهَوْلَه؛ لِيَحذَرَه العِبادُ، ويَستَعِدُّوا له[١]، حيث يَصيرُ النَّاسُ على الرُّكَبِ جُثاةً، في هيْئةِ المذنْبِ الخائفِ المُعَظِّمِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تكونُ وَحْدَها يوْمَ القِيامةِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: الجُثُوُّ على الرُّكبةِ إنَّما يَليقُ بالخائِفِ، والمُؤمِنونَ لا خَوفٌ عليهم يومَ القِيامةِ؟

الجَوابُ: أنَّ المُحِقَّ الآمِنَ قد يُشارِكُ المُبطِلَ في مِثلِ هذه الحالةِ إلى أنْ يَظهَرَ كَونُه مُحِقًّا[٤].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَرِيَّةِ -المُنكِرينَ للكِتابةِ السَّابقةِ لأعمالِ العِبادِ-؛ إذِ النَّسخُ لا يكونُ إلَّا ممَّا قدْ فُرِغ منه مَرَّةً، ولو كانتْ كِتابةَ ابتداءٍ: كان -واللهُ أعلمُ- (إنَّا كُنَّا نَكتُبُ ما كنتُم تعملونَ)[٥]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٤- قَولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخِرِ القِصَّةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٠).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٢).

فيه حُجَّةٌ على المُعتزلةِ والقَدَريَّةِ في بابِ الوَعيدِ، حيثُ زعَموا أنَّ اللهَ -في القُرآنِ كلِّه- لم يُوجِبِ الرَّحمةَ والفوزَ والجنَّةَ إلَّا لِمَن لم يَعْصِه طَرْفةَ عَينٍ، أو عصاهُ فمات تائبًا. ووَجْهُ ذلك: أنَّه قال في أوَّلِ القِصَّةِ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، ثمَّ أخبَرَ بمَثْوَى كلِّ فريقٍ ومُجازاتِه، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يَقُلْ: «ولم يُذنِبوا». والمؤمنُ إذا صلَّى وصامَ وتَوضَّأَ واغتَسلَ مِن الجَنابةِ؛ فقدْ عَمِلَ الصَّالحاتِ، ولا تَرى مُؤمِنًا -وإنْ أذنَبَ- إلَّا وقدْ فَعَلَ كُلَّ هذا وزِيادةً، وقال في الفِرقةِ الأُخرى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [الجاثية: ٣١]، فحَقَّ الوَعيدُ عليهم بتَعريتِهم مِن الإيمانِ، فمَن أوجَبَ اللهُ له الفَوزَ، ووعَدَه الإدخالَ في رَحمتِه؛ فقدْ أمِنَ مَثوَى الآخَرينَ وجَزاءَهم(١).

- قال تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فذكَر الله تعالى حالَ الطَّائفتينِ مِن المؤمنينَ والكافِرينَ، وقرَن بينَهم في الذِّكرِ؛ ليَبينَ الأمرُ في نفسِ السَّامعِ؛ فإنَّ الأشياءَ تتبيَّنُ بذكرِ أضدادِها(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِتَعميمِ القُدْرةِ بعْدَ تَخصيصِها بالإحياءِ والإماتةِ والجمْعِ؛ لأنَّ معنى المالِكِ: أنْ يَتصرَّفَ بما يَملِكُ كما يَشاءُ(٣). أو هو اعْتِراضُ تَذييلٍ لِقَولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الجاثية:

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٨).

٢٦]، أي: للهِ لا لِغَيرِه مُلْكُ السَّمواتِ والأرْضِ، أي: فهو المُتصرِّفُ في أحوالِ ما حَوَتْه السَّمواتُ والأرضُ؛ مِن إحياءٍ وإماتةٍ، وغيرِ ذلك بما أوجَدَ مِن أُصولِها وما قدَّرَ مِن أسْبابِها ووَسائلِها؛ فليْس للدَّهرِ تَصرُّفٌ، ولا لِمَا سِوى اللهِ تعالَى[١].

- وتَقديمُ المَجرورِ ﴿وَلِلَّهِ﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لإفادةِ التَّخصيصِ؛ لِرَدِّ مُعتقَدِ الكافرينَ مِن خُروجِ تَصرُّفِ غَيرِه في بَعضِ ما في السَّمواتِ والأرضِ، كقولِهم في الدَّهرِ[٢].

- وقولُه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ظَرفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿يَخْسَرُ﴾، وقُدِّمَ عليه للاهتِمامِ به، واسْتِرعاءِ الأسماعِ لِمَا يَرِدُ مِن وَصْفِ أحوالِه[٣].

- وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تَوكيدٌ لـ(يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ)، وتَنوينُه عِوَضٌ عن المُضافِ إليه المَحذوفِ؛ لِدَلالةِ ما أُضِيفَ إليه (يَوم) عليه، أي: يَومَ إذ تَقومُ السَّاعةُ يَخسَرُ المُبطِلون؛ فالتَّأكيدُ لِتَحقيقِ مَضمونِ الخبَرِ، ولِتَهويلِ ذلك اليومِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ اسْتِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ جُثُوَّ الأُمَّةِ يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عمَّا بعْدَ ذلك الجُثُوِّ[٥].

- قولُه: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، أي: إلى قِراءةِ كِتابِ أعْمالِها، وأضافَ الكِتابَ إلى الأُمَّةِ، ثمَّ أضافَه إليه تعالَى في قولِه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ [الجاثية: ٢٩]؛ لأنَّ الإضافةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٦٨).

تَحصُلُ بأدَقِّ مُلابَسةٍ، فأضافَه إلى الأُمَّةِ لِكَونِ أعمالِهم مُثبَتةً فيه، وأضافَه إليه تعالَى لِكَونِه مالِكَه، وآمِرَ مَلائكتِه بكِتابتِه، وللإشارةِ إلى أنَّ كُلَّ ما ثبَتَ فيه صِدْقٌ وحَقٌّ وعدْلٌ، وأنَّه تعالَى يُجازِيها على القَليلِ والكَثيرِ؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾، وذُيِّلَ بالجمْعِ، ثمَّ قُسِّمَ بقولِه: ﴿فَأَمَّا﴾ ﴿وَأَمَّا﴾[1].

- وعلى القَولِ بأنَّ المرادَ بـ ﴿كِتَٰبِهَا﴾ كِتابُ تَسجيلِ الأعمالِ لكلِّ واحدٍ، أو المرادُ به الجِنسُ، فتكونُ إضافتُه إلى ضَميرِ الأُمَّةِ على إرادةِ التَّوزيعِ على الأفرادِ؛ لأنَّ لكلِّ واحدٍ مِن كُلِّ أُمَّةٍ صَحيفةَ عمَلِه خاصَّةً به، كما قال تعالَى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤]، وقال: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]، أي: كلُّ مُجرمٍ يُشفِقُ ممَّا في كِتابِه، إلَّا أنَّ هذه الآيةَ الأخيرةَ وقَعَ فيها (الكتاب) مُعرَّفًا باللَّامِ فقَبِلَ العمومَ. وأمَّا آيةُ (الجاثيةِ) فعُمومُها بَدَليٌّ بالقَرينةِ؛ فالمرادُ: خُصوصُ الأُممِ التي أُرسِلتْ إليها الرُّسُلُ، ولها كتُبٌ وشَرائعُ؛ لقولِه تعالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[2] [الإسراء: ١٥].

- وفي قَولِه: ﴿كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أُعيدَت كَلمةُ ﴿كُلُّ أُمَّةٖ﴾ -دونَ اكْتِفاءٍ بقولِه: ﴿تُدۡعَىٰٓ﴾ أو (يُدْعون)-؛ للتَّهويلِ، ولو قِيل: وتَرَى كلَّ أُمَّةٍ جاثيةً تُدْعَى إلى كِتابِها، لَأوهَمَ أنَّ الجُثُوَّ والدُّعاءَ إلى الكِتابِ يَحْصُلانِ مَعًا، معَ ما في إعادةِ الخَبَرِ مَرَّةً ثانيةً مِن التَّهويلِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٨).

- وجُملةُ ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ بتَقديرِ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: يُقالُ لهم: اليومَ تُجْزَون، أي: يكونُ جَزاؤُكم على وَفْقِ أعْمالِكم، وجَرْيُها على وَفْقِ ما يُوافِقُ كِتابَ دِينِكم مِن أفْعالِكم في الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، وهذا البدَلُ وقَعَ اعتِراضًا بيْن جُملةِ ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ﴾ وجُملةِ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٣٠] الآياتِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ مِن مَقولِ القولِ المُقدَّرِ، وهي مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا لتَوقُّعِ سُؤالِ مَن يقولُ منهم: ما هو طَريقُ ثُبوتِ أعْمالِها[٢]؟

- وأُضِيفَ الكِتابُ إلى نُونِ العَظَمةِ ﴿كِتَٰبُنَا﴾؛ تَفخيمًا لِشَأْنِه وتَهْويلًا لِأمْرِه[٣].

- ولِتَضمُّنِ فِعلِ ﴿يَنطِقُ﴾ معنى (يَشهَدُ) عُدِّيَ بحَرْفِ (على). ولَمَّا كان المَقامُ للتَّهديدِ، اقتُصِرَ فيه على تَعديةِ ﴿يَنطِقُ﴾ بحَرْفِ (على) دُونَ زِيادةِ: (ولكمْ)؛ إيثارًا لِجانبِ التَّهديدِ[٤].

- وقولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ اسْتِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ خطَرَ ببالِهم السُّؤالُ: كيف شَهِدَ عليهمُ الكِتابُ اليومَ وهمْ قدْ عَمِلوا الأعمالَ في الدُّنيا؟ فأُجيبُوا بأنَّ اللهَ كان يَأمُرُ بنَسْخِ ما يَعمَلونَه في الصُّحفِ في وَقْتِ عَمَلِه. وإنْ حُمِلَ (الكِتابُ) على كُتبِ الشَّريعةِ كانتْ جُملةُ ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تَعليلًا للجُملةِ قبْلَها، باعْتِبارِ تَقْييدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٩).

النُّطقِ بأنَّه بالحقِّ، أي: لأنَّ أعْمالَكم كانتْ مُحصاةً، مُبيَّنٌ ما هو مِنْها مُخالِفٌ لِمَا أمَرَ به كِتابُهم[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ الفاءُ في ﴿فَأَمَّا﴾ لِعَطْفِ المُفصَّلِ على المُجمَلِ، وهو تَفصيلٌ لِمَا أُجمِلَ في قولِه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ﴾ [الجاثية: ٢٨]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ؛ فالكلامُ هنا هو مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ﴾، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾[٢] [الجاثية: ٣١].

- وابتُدِئَ في التَّفصيلِ بوَصْفِ حالِ المُؤمِنينَ، معَ أنَّ المَقامَ للحَديثِ عن المُبطِلينَ في قولِه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٧]؛ تَنْويهًا بالمُؤمِنينَ، وتَعجيلًا لِمَسرَّتِهم، وتَعجيلًا لِمَساءةِ المُبطِلينَ؛ لأنَّ وَصْفَ حالِ المُؤمِنينَ يُؤذِنُ بمُخالَفةِ حالِ الآخَرينَ لِحالِهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧١).

الآيات (٣١-٣٥)

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴾: أي: بمُتحَقِّقينَ. مِنَ اليَقينِ: وهو عِلمٌ حاصِلٌ بالاستِدلالِ، وهو فَوقَ المَعرفةِ والدِّرايةِ، وأصلُ (يقن): يدُلُّ على زَوالِ الشَّكِّ[١].

﴿ وَبَدَا ﴾: أي: ظهَرَ ظُهورًا بيِّنًا، وأصلُ (بدو): ظُهورُ الشَّيءِ[٢].

﴿ وَحَاقَ ﴾: أي: أحاطَ ونَزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[٣].

﴿ وَمَأۡوَىٰكُمُ ﴾: أي: مَصيرُكم ومقامُكم ومَثواكم، أو: مَرجعُكم الذي تَعودونَ إليه، والمأوَى: مكانُ كلِّ شَيءٍ ومَرجعُه الَّذي يَعودُ إليه ليْلًا أو نَهارًا؛ يُقالُ: أوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه، وأصلُه: التَّجمُّعُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨، ٩٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((المفردات)) (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢).

﴿هُزُوًا﴾: أي: استهزاءً وسُخريةً ولَعِبًا، وهو مِن الهُزءِ الذي هو المزْحُ في خُفيةٍ[١].

﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾: أي: خَدَعَتْكم، يُقالُ: غَررْتُ فلانًا: أصبْتُ غِرَّتَه، ونِلْتُ منه ما أُريدُه، والغِرَّةُ: غَفْلةٌ في اليقظةِ، وأصلُ ذلك مِن الغَرِّ، وهو الأثرُ الظَّاهرُ مِن الشَّيءِ[٢].

﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي: يُطلَبُ منهم أنْ يُزيلُوا غَضَبَ رَبِّهم، ويَرجِعوا إلى ما يُرضِيه؛ مِن الاستِعتابِ: وهو الرُّجوعُ عَن الإساءَةِ، والتَّعَرُّضُ لطَلَبِ الرِّضا، وأصلُ الكَلِمةِ مِن (العَتْبِ): وهو الغَضَب والمَلامةُ، يُقالُ: عتَبَ عليه يَعتِبُ: إذا غَضِبَ عليه ولامَه، وأعتَبَه: إذا أزالَ عنه عَتْبَه، واستَعْتَبه: إذا طلَبَ منه الإعتابَ، أي: الرِّضا[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾

قولُه: ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فيه أوجُهٌ:

أحَدُها: أنَّ (السَّاعة) مُبتدأٌ مَرفوعٌ، وجُملةُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ في مَحلِّ رَفعٍ خَبَرٌ، وجُملةُ ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٢/ ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٢)، ((المفردات)) (ص: ٨٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣- ٦٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٨).

الثَّاني: أنَّ (السَّاعة) مَعطوفٌ على محلِّ اسمِ (إنَّ)؛ لأنَّه قبْلَ دُخولِها كان مُبتدأً.

الثَّالِثُ: أنَّ (السَّاعة) مَعطوفٌ على محَلِّ (إنَّ واسمِها) معًا؛ فمَوضِعُهما الرَّفعُ على الابتداءِ. وقُرِئَ ﴿وَالسَّاعَةَ﴾ بالنَّصبِ[1] عَطفًا على ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾.

قولُه: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ فيه إشكالٌ مِن جِهةِ استِثناءِ الظَّنِّ مِن نَفسِه؛ فليْس مَصدَرُ ﴿نَّظُنُّ﴾ محتَمِلًا مع الظَّنِّ غَيرَه حتى يُخرَجَ الظَّنُّ منه؛ فإنَّ الاستِثناءَ المُفرَّغَ -النَّاقِصَ المنفيَّ- لا يَصِحُّ أنْ يكونَ مُفرَّغًا للمَفعولِ المُطلَقِ المؤكِّدِ؛ لانتِفاءِ فائدةِ التَّفريغِ، فلا يجوزُ (ما ضرَبْتُ إلَّا ضَرْبًا). وقد اختُلِفَ في تَأويلِه على أوجهٍ:

أحدُها: أنَّ المُستثنى هو الظَّنُّ الموصوفُ بما دَلَّ عليه تَنكيرُه مِن التَّحقيرِ المُشعِرِ به التَّنوينُ، فتُقَدَّرُ له صِفةٌ مَحذوفةٌ؛ لِفَهمِ المعنَى، والتَّقديرُ: إلَّا ظَنًّا ضَعيفًا؛ فيكونُ مَصدرًا مُختَصًّا لا مُؤَكِّدًا.

الثَّاني: أنَّه على القَلبِ والتَّقديمِ والتَّأخيرِ، والتَّقديرُ: (إنْ نحْن إلَّا نظُنُّ ظنًّا).

الثَّالثُ: أنْ يُضَمَّنَ ﴿نَّظُنُّ﴾ معنى (نَعْتقِد)، فيَنتصِبَ ﴿ظَنًّا﴾ مَفعولًا به لا مَصدرًا، والتَّقديرُ: ما نَعتَقِدُ إلَّا ظَنًّا.

الرَّابعُ: أنَّ الظَّنَّ يكونُ بمعنى العِلْمِ والشَّكِّ، فاستَثْنى الشَّكَّ، كأنَّه قيل: ما لنا اعتِقادٌ إلَّا الشَّكُّ[2].

---

(١) قرَأها بالنَّصبِ حمزةُ، وقرأها الباقونَ بالرَّفعِ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦٢)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٣٥)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٥٦)، ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام (ص: ٣٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٣).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى ما يُقالُ للكافرينَ يومَ القِيامةِ تَقريعًا لهم وتَوبيخًا، فيقولُ: وأمَّا الذين كَفَروا باللهِ فيَقولُ اللهُ تعالَى لهم يومَ القِيامةِ تَوبيخًا: ألَمْ تكُنْ آياتُ القرآنِ تُتلَى عليكم في الدُّنيا، فاستكبَرْتُم عن الإيمانِ بها، وكنتُم قَومًا مُجرِمين؟!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى حالَهم في الدُّنيا، وإنكارَهم للبعثِ، فيَقولُ: وإذا قيلَ لكمْ: إنَّ وَعْدَ اللهِ -مِن البَعثِ أو غيرِه- حَقٌّ، وإنَّ القِيامةَ آتيةٌ لا شَكَّ فيها؛ قُلتُم مُكَذِّبينَ: لا نَعرِفُ ما القيامةُ، إنْ نَظُنُّ إلَّا ظَنًّا، وما نحن بمُتَحقِّقينَ مِن قِيامِها!

ثمَّ يقولُ تعالَى: وظَهَر لأولئك المُجرِمينَ سَيِّئاتُ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والعِصيانِ، ونَزَل بهم عَذابُ اللهِ الذي كانوا يَسخَرونَ منه! ويُقالُ لهم: اليومَ نَترُكُكم في العَذابِ كما تَركْتُم في الدُّنيا الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالِحَ، ومَقَرُّكم النَّارُ، وما لكم ناصِرٌ يَنصُرُكم، ويَدفَعُ عنكم عَذابَ اللهِ!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى الأسبابَ التي أدَّت بهم إلى هذا المصيرِ السَّيِّئِ، فيقولُ: ذلك العذابُ حاصِلٌ بسَبَبِ أنَّكم اتَّخذْتُم آياتِ اللهِ سُخريةً، وغرَّتْكم الحياةُ الدُّنيا؛ فاليومَ لا يُخرَجُ أولئك الكافِرونَ المجرِمونَ مِنَ النَّارِ، ولا يُطلَبُ منهم فِعلُ ما يُرضِي اللهَ تعالَى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

أي: وأمَّا الذين كَفَروا باللهِ فيَقولُ اللهُ تعالَى لهم تَقْريعًا وتَوبيخًا: ألَمْ تكُنْ آياتُ القرآنِ تُتلَى عليكم في الدُّنيا، فاستكبَرْتُم عن الإيمانِ بها واتِّباعِها، وأعرَضتُم عن سَماعِها وقَبولِها، وكنتُم قَومًا مُتَّصِفينَ بالإجرامِ في أفعالِكم، فتَكتَسِبونَ الآثامَ،

مَعَ ما اشتَمَلت عليه قلوبُكم مِن التَّكذيبِ[١]؟!

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾.

أي: وإذا قيلَ لكم: إنَّ ما وَعَد اللهُ به عِبادَه مِن البَعثِ أو غيرِه أمرٌ كائِنٌ لا مَحالةَ، وإنَّ القِيامةَ التي يَجمَعُ اللهُ فيها النَّاسَ للحِسابِ والجَزاءِ لا شكَّ في مجيئِها؛ قُلتُم تَكذيبًا وإنكارًا: لا نَعرِفُ ما القِيامةُ[٢]!

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾.

أي: وقُلتُم: ما نَعلَمُ وُقوعَ السَّاعةِ إلَّا على وَجهِ الظَّنِّ والتَّوَهُّمِ[٣]!

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٦-١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢).

قال الشَّوكانيُّ: (﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: نَحدِسُ حَدْسًا، نَتوهَّمُ توَهُّمًا... وقيل: ﴿إِن نَّظُنُّ﴾ مضمَّنٌ معنى نَعتقدُ، أي: ما نَعتقدُ إلَّا ظنًّا لا عِلمًا... وقيل: إنَّ الظنَّ يكونُ بمعنى العِلمِ والشكِّ، فكأنَّهم قالوا: ما لنا اعتقادٌ إلَّا الشَّكُّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤).

وقال البقاعي: (ولَمَّا كان أمْرُها مَركوزًا في الفِطَرِ لا يَحتاجُ إلى كَبيرِ نَظَرٍ، بما يَعلَمُ كُلُّ أحدٍ مِن تمامِ قُدرةِ الله تعالى، فمتى نُبِّهَ عليها نوعَ تَنبيهٍ سَبَق إلى القَلبِ عِلمُها -سَمَّوا ذلك ظنًّا؛ عِنادًا واستِكبارًا، فقالوا مُستأنِفينَ في جوابِ مَن كأنَّه يقولُ: أفلمْ تُفِدْكم تِلاوةُ هذه الآياتِ البيِّناتِ عِلمًا بها؟ ﴿إِن﴾ أي: ما ﴿نَّظُنُّ﴾ أي: نَعتَقِدُ ما تُخبِرونَنا به عنها ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ وأمَّا وُصولُه إلى دَرَجةِ العِلمِ فلا). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١١٠).

أي: وما نحن بمُتَحقِّقينَ أنَّ القِيامةَ كائِنةٌ[١]!

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾.

أي: وظهَر للمُشرِكينَ في الآخِرةِ ظهورًا بيِّنًا سَيِّئاتُ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي[٢].

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أي: ونَزَل وأحاطَ بهم عَذابُ اللهِ الَّذي كانوا في الدُّنيا يَسخَرونَ منه، ويَستَهزِئونَ به[٣].

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

قال القاسمي: (﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: قبائِحُ أعمالِهم، أو عُقُوباتُ أعمالِهم السَّيِّئاتِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جَريرٍ، وابنُ أبي زَمنين، والرازي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٢).

وممَّن اختار القولَ الثاني: مكِّيٌّ، والبَغوي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٨٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٣).

قال البقاعي: (فتَمثَّلَتْ لهم وعَرَفوا مِقدارَ جَزائِها، واطَّلَعوا على جميعِ ما يَلزَمُ على ذلك). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أُودِعَ الكافِرونَ جَهنَّمَ، وأحاطَتْ بهم؛ نُودُوا ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ﴾ إلى آخِرِه؛ تَأييسًا لهم مِنَ العَفوِ عنهم[١].

﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾.

أي: ويُقالُ لهم: اليومَ نَتْرُكُكم في العَذابِ كما تَرَكتُم في الدُّنيا الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالِحَ لِلِقاءِ هذا اليَومِ[٢].

كما قال تعالَى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يَلقَى اللهُ العَبدَ فيقولُ: أيْ فُلُ[٣]، ألَمْ أُكرِمْك وأُسَوِّدْك[٤] وأُزَوِّجْك، وأُسخِّرْ لك الخيلَ والإبِلَ، وأذَرْك ترأَسُ وتَربَعُ[٥]؟ فيقولُ: بلى. فيقولُ: أفظَنَنْتَ أنَّك مُلاقِيَّ؟ فيقولُ: لا. فيقولُ: فإنِّي أنْساك كما نَسيتَني. ثمَّ يَلْقَى الثَّانيَ فيَقولُ: أيْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٢-١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٣) أي فُلُ: أي: يا فُلانُ، و(فُلُ) هو تَرخيمُ فُلانٍ. وقيل: لغةٌ في فُلانٍ، وصِيغةٌ ارتُجِلَت في بابِ النِّداءِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٩٢٣)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٣).

(٤) أُسَوِّدْك: أي: أجعَلْك سَيِّدًا في قومِك. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٢٨).

(٥) ترأَسُ: أي: تكونُ رئيسًا على قَومِك. وتَربَعُ: أي: تأخُذُ المِرباعَ، وهو رُبُعُ الغَنيمةِ، وقيل: معناه: تَرَكْتُك مُستريحًا لا تحتاجُ إلى مَشقَّةٍ وتَعَبٍ؛ من قَولِهم: ارْبَعْ على نَفْسِك، أي: ارْفُقْ بها. والمعنى: ألَمْ أجعَلْك رئيسًا مُطاعًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٨٦)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٤).

فُلُ، ألمْ أُكرِمْك وأُسَوِّدْك وأُزَوِّجْك، وأُسخِّرْ لك الخيلَ والإبِلَ، وأذَرْك تَرأَسُ وتَربَعُ؟ فيقولُ: بلى أيْ رَبِّ. فيقولُ: أفظَنَنْتَ أنَّك مُلاقِيَّ؟ فيقولُ: لا. فيقولُ: فإنِّي أنساك كما نَسيتَني))[١].

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: ومَقَرُّكم ومَسكَنُكم النَّارُ، تَستَقِرُّونَ فيها أبدًا[٢].

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

أي: وما لكم -أيُّها المُشرِكونَ- أيُّ أحدٍ يَنصُرُكم فيُنقِذُكم مِن عَذابِ اللهِ تعالَى[٣].

كما قال تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦].

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالَى جَزاءَ الكافِرينَ؛ عَلَّله بما لَزِمَ على أعمالِهم، فقال[٤]:

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٣).

أي: ذلك يَحُلُّ بكم؛ بسَبَبِ أنَّكم اتَّخذْتُم آياتِ اللهِ سُخريةً، تَسخَرونَ منها، وتَستَهزِئونَ بها[١].

﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وبسَبَبِ انخداعِكم بالحياةِ الدُّنيا، فعَمِلتُم لها وآثَرْتُموها، وأعرَضتُم عن العَمَلِ للآخِرةِ وأنكَرْتُموها[٢]!

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾.

أي: فاليومَ لا يُخرَجُ أولئك الكافِرونَ مِنَ النَّارِ[٣].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

أي: ولا يُطلَبُ منهم يومَ القِيامةِ فِعلُ ما يُرضِي اللهَ، بالتَّوبةِ إليه وطاعتِه؛ حتى تُزالَ عنهم المُعاتَبةُ والمُؤاخَذةُ بذُنوبِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٥-٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٦).
قيل: المرادُ: أنَّهم لا يُرَدُّونَ إلى الدُّنيا لِيَعمَلوا صالحًا.
وممَّن نَصَّ على أنَّ المرادَ العودةُ إلى الدُّنيا: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٨٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٨٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨). =

كما قال تعالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

الفوائدُ التربويةُ:

في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ وقَف الله تعالى الكفَّارَ على الاستكبارِ؛ لأنَّه مِن شرِّ الخِلالِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ [الجاثية: ٣٠]، وقولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ...﴾ ذكَرَ اللهُ المؤمِنينَ والكافِرينَ، ولم يَذكُرْ قِسمًا ثالثًا، وهذا يدُلُّ على أنَّ مَذهَبَ المُعتَزِلةِ في إثباتِ المَنزِلتَينِ: باطِلٌ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ عَلَّل استِحقاقَ العُقوبةِ بأنَّ آياتِه تُلِيَتْ عليهم فاستَكبَروا عن قَبولِها، وهذا يدُلُّ على أنَّ استِحقاقَ العُقوبةِ لا يَحصُلُ إلَّا بعْدَ مَجيءِ الشَّرعِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ الواجِباتِ لا تَجِبُ إلَّا بالشَّرعِ، خِلافًا لِما يقولُه المُعتَزِلةُ مِن أنَّ بَعضَ الواجباتِ قدْ يَجِبُ بالعَقلِ[٣].

= وقيل: المرادُ: لا يُطلَبُ منهم أنْ يُعتِبوا ربَّهم، أي: يُرضوه بالرُّجوعِ إلى طاعتِه والإيمانِ به؛ لأنَّه يومٌ لا تُقبَلُ فيه توبةٌ ولا تَنفَعُ فيه مَعذِرةٌ.

وممَّن قال بذلك في الجُملةِ: الزمخشريُّ، وابنُ الجوْزي، والخازنُ، وابنُ كثير، والشوكانيُّ.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَحسُنُ وَصفُ الكافِرِ بكَونِه مُجرِمًا في مَعرِضِ الطَّعنِ فيه والذَّمِّ له، معَ أنَّ الكفرَ أعظمُ حالًا مِن الجُرْمِ؟

الجوابُ: قيل: إنَّ معناه أنَّهم مع كَونِهم كُفَّارًا ما كانوا عُدولًا في أديانِ أنفُسِهم، بلْ كانوا فُسَّاقًا في ذلك الدِّينِ[(١)].

٤- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾، لَمَّا كانت هذه الآياتُ تُوجِبُ الإيمانَ، لِما لها مِن العظَمةِ بمُجرَّدِ تلاوتِها، بُني قولُه: ﴿تُتۡلَىٰ﴾ للمَفعولِ[(٢)].

٥- إنْ قِيلَ: قولُهم: ﴿إِن نَّظُنُّ﴾ دَليلٌ على أنَّ الكُفَّارَ قدْ أخبَروا بأنَّهم ظَنُّوا البَعثَ واقِعًا، ودلَّ قَولُهم قبلُ: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [الجاثية: ٢٤] على أنَّهم مُنكِرونَ البَعثَ.

فالجوابُ: أنَّ قَولَ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ لا يُنافي قَولَهم: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾؛ وذلك لِوُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ القَومَ كانوا في هذه المسألةِ على قَولَينِ: مِنهم مَن كان قاطِعًا بنَفيِ البَعثِ والقيامةِ، وهم الَّذين ذكَرَهم اللهُ في الآيةِ المتقَدِّمةِ بقَولِه: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، ومِنهم مَن كان شاكًّا مُتحَيِّرًا فيه؛ لأنَّهم لِكَثرةِ ما سَمِعوه مِنَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولِكَثرةِ ما سَمِعوه مِن دَلائِلِ القَولِ بصِحَّتِه -صاروا شاكِّينَ فيه، وهم الَّذين أرادهم اللهُ بهذه الآيةِ، والذي يدُلُّ عليه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٨).

أنَّه تعالَى حَكى مَذهَبَ أولئك القاطِعينَ ثمَّ أتبَعَه بحِكايةِ قَولِ هؤلاء؛ فوَجَب كَونُ هؤلاء مُغايِرينَ للفَريقِ الأوَّلِ(١).

الوَجهُ الثَّاني: كأنَّهم كانوا تارةً يَقوَى عِندَهم ما في جِبلَّاتِهم وفِطَرِهم الأُولى مِن أَمْرِها، فيَظُنُّونَها، وتارةً تَقْوَى عليهم الحُظوظُ معَ ما يَقترِنُ بها مِنَ الشُّبهةِ المَبنيَّةِ على الجَهلِ، فيَظُنُّونَ عَدَمَها، فيَقطَعونَ به؛ لِما للنَّفسِ إليه مِنَ المَيلِ(٢)، فهم اضْطرَبوا؛ فتارةً أنكَروا، وتارةً ظَنُّوا(٣).

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنْ يكونَ هذا حِكايةً لاستِهزائِهم بخَبَرِ البَعثِ، فإذا قيل لهم: السَّاعةُ لا رَيبَ فيها قالوا استِهزاءً: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾، ويدُلُّ عليه قَولُه عَقِبَه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(٤) [الجاثية: ٣٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ فيه أنَّ الكافِرينَ استَحَقُّوا العذابَ الشَّديدَ؛ لأجْلِ الإصرارِ على إنكارِ الدِّينِ الحَقِّ، والاستِهزاءِ به والسُّخريةِ منه -وهذان الوَجهانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٢).

قال ابنُ عاشور: (وأقولُ: هذا لا يَستقيمُ؛ لأنَّه لو سُلِّمَ أنَّ فَريقًا مِن المُشرِكينَ كانوا يَشُكُّونَ في وُقوعِ السَّاعةِ ولا يَجزِمونَ بانتِفائِه، فإنَّ جَمهرةَ المُشرِكينَ نافُونَ لِوُقوعِها؛ فلا يُناسِبُ مَقامَ التَّوبيخِ تَخصيصُه بالَّذين كانوا مُتَرَدِّدينَ في ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٦- ٤٢٧).

قال الألوسيُّ: (ويَحتمِلُ اتِّحاد قائلِ ذاك وقائلِ هذا، إلَّا أنَّ كلَّ قولٍ في وقتٍ وحالٍ، فهو مُضطرِبٌ مختلِفُ الحالاتِ؛ تارةً يَجزِمُ بالنَّفيِ فيقولُ: إنْ هي إلَّا حَياتُنا الدُّنيا، وأُخرى يَظُنُّ فيقولُ: إنْ نظُنُّ إلا ظَنًّا. وقيل: الجزمُ هناك بنَفْيِ وُقوعِها، والظنُّ مِن غيرِ إيقانٍ هنا بمُجرَّدِ إمكانِها؛ فهم مُتردِّدون بإمكانِها الذاتيِّ، جازِمون بعدَمِ وُقوعِها بالفعلِ، فتأمَّلْ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٢).

داخِلانِ تحْتَ قَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾-، والاستِغراقِ في حُبِّ الدُّنيا، والإعراضِ بالكُلِّيَّةِ عن الآخِرةِ، وهو المرادُ مِن قَولِه تعالَى: ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾[1].

٧- يَذكُرُ الشَّارِعُ العِلَلَ والأوصافَ المُؤثِّرةَ والمعانيَ المُعتَبَرةَ في الأحكامِ القَدَريَّةِ والشَّرْعيَّةِ والجَزائيَّةِ؛ لِيَدُلَّ بذلك على تعَلُّقِ الحُكمِ بها أينَ وُجِدَتْ، واقتِضائِها لأحكامِها، وعَدَمِ تَخَلُّفِها عنها إلَّا لمانعٍ يُعارِضُ اقتِضاءَها، ويُوجِبُ تخَلُّفَ أثَرِها عنها؛ كقَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾، وقَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [الأنفال: ١٣]، وقَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾ [غافر: ١٢]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ استِفهامُ تَوبيخٍ وتَقريعٍ للكافرينَ[3].

- وقولُه: ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحْذوفٍ، أي: يُقالُ لهُم: ألَمْ يكُنْ تأْتِيكم رُسلي، أفلَمْ تكُن آياتِي تُتلى عليكم؟! فحُذِفَ المَعطوفُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٢).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧١).

اكْتِفاءً بالمقصودِ، وثِقةً بدَلالةِ القَرينةِ عليه[١].

- قولُه: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾، قال: ﴿قَوۡمٗا﴾ دونَ الاقْتِصارِ على (وكُنتُم مُجرِمينَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإجرامَ صارَ خُلُقًا لهم، وخالَطَ نُفوسَهم حتَّى صار مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[٢].

- قولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ مِن الاحتِباكِ[٣]، حيثُ ذَكَر الإدخالَ في الرَّحمةِ أوَّلًا في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ دَليلًا على الإدخالِ في اللَّعنةِ ثانيًا، وذَكَر التَّبكيتَ ثانيًا دَليلًا على التَّشريفِ أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّ ما ذَكَره أدَلُّ على شَرفِ الوليِّ، وحَقارةِ العَدوِّ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾

- جُملةُ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ...﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾، والتَّقديرُ: وقُلْتُم: ما نَدْري ما السَّاعةُ، إذا قِيل لكمْ: إنَّ السَّاعةَ لا رَيبَ فِيها، وهذانِ القولانِ ممَّا تَكرَّرَ في القُرآنِ بلَفْظِه وبمَعناهُ؛ فهو تَخصيصٌ لِبَعضِ آياتِ القُرآنِ بالذِّكرِ بعْدَ التَّعميمِ في قولِه: ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾[٥] [الجاثية: ٣١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧١).

(٣) تقدَّم تعريفه (ص: ٤٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧١).

- ومَعنى ﴿مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ ما نَعلَمُ حَقيقةَ السَّاعةِ، ونَفْيُ العِلمِ بحَقيقتِها كِنايةٌ عن جَحْدِ وُقوعِ السَّاعةِ، أي: عَلِمْنا أنَّها لا وُقوعَ لها؛ اسْتِنادًا للتَّخيُّلاتِ التي ظَنُّوها أدلَّةً[١].

- قولُه: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا﴾ التَّنكيرُ في ﴿ظَنّٗا﴾ للتَّحقيرِ، ومَفعولَا ﴿نَّظُنُّ﴾ مَحذوفانِ؛ لِدَليلِ الكَلامِ عليهما، والتَّقديرُ: إنْ نظُنُّ السَّاعةَ واقعةً[٢].

- وقولُهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ يُفيدُ تأْكيدَ قَولِهم: ﴿مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا﴾، وعطْفُه عطْفُ مُرادِفٍ، أي: للتَّشريكِ في اللَّفظِ. والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾؛ للمُبالَغةِ في حُصولِ الفِعلِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الجاثية: ٣١]، باعتبارِ تَقديرِ: فيُقالُ لهم ذلك: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾، أي: جُمِعَ لهم بيْنَ التَّوبيخِ والإزعاجِ؛ فوُبِّخوا بقولِه: ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ إلى آخِرِه، وأُزعِجوا بظُهورِ سيِّئاتِ أعْمالِهم، أي: ظُهورِ جَزاءِ سيِّئاتِهم -على قولٍ في التَّفسيرِ- حِينَ رَأَوا دارَ العذابِ وآلاتِه رُؤيةَ مَن يُوقِنُ بأنَّها مُعَدَّةٌ له، وذلك بعِلمٍ يَحصُلُ لهمْ عِندَ رُؤيةِ الأهوالِ[٤].

- وعُبِّر بالسَّيِّئاتِ عن جَزائِها -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ إشارةً إلى تَمامِ المُعادَلةِ بيْن العَمَلِ وجَزائِه، حتى جُعِلَ الجَزاءُ نَفْسَ العَمَلِ، على حَدِّ قَولِه تعالَى: ﴿فَذُوقُواْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[(١)] [التوبة: ٣٥].

- قولُه: ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ يَعُمُّ كلَّ ما كان طَريقَ اسْتِهزاءٍ بالإسلامِ مِن أقْوالِهم الصَّادرةِ عن اسْتِهزاءٍ، مِثلَ قولِهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٢]، ومِن الأشياءِ التي جعَلوها هُزؤًا، مِثلَ عَذابِ جَهنَّمَ وشَجرةِ الزَّقُّومِ، وهو ما عُبِّرَ عنه آنِفًا بـ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ ﴾. وإنَّما عُدِلَ عن الإضمارِ إلى المَوصوليَّةِ؛ لأنَّ في الصِّلةِ تَغليطًا لهمْ، وتَنْديمًا على ما فَرَّطوا مِن أخْذِ العُدَّةِ لِيَومِ الجزاءِ[(٢)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿وَقِيلَ ﴾ للنَّائبِ؛ حَطًّا لهمْ عن رُتبةِ أنْ يُصرَّحَ باسْمِ اللهِ في حِكايةِ الكلامِ الذي واجَهَهم به، بِناءً على أنَّ ضَميرَ ﴿نَنسَىٰكُمْ ﴾ ضَميرُ الجَلالةِ، وليْس مِن قَولِ الملائكةِ، فإنْ كان مِن قَولِ خَزَنةِ جهنَّمَ، فبِناءُ فِعلِ ﴿وَقِيلَ ﴾ للنَّائبِ؛ للعِلْمِ بالفاعلِ. والكافُ في ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ ﴾ للتَّعليلِ، أي: جَزاءَ نِسيانِكم هذا اليومَ، أي: إعْراضِكم عن الإيمانِ به[(٣)].

- وعُبِّرَ في فِعلِه تعالَى بالمضارِعِ ﴿نَنسَىٰكُمْ ﴾؛ ليَدُلَّ على الاستِمرارِ. وفي فِعلِهم بالماضي ﴿نَسِيتُمْ ﴾؛ ليَدُلَّ على أنَّ مَن وقَعَ منه ذلك وقْتًا ما وإنْ قلَّ، كان على خَطرٍ عَظيمٍ بتَعريضِ نفْسِه لاستمرارِ الإعراضِ عنه[(٤)].

- وإضافةُ (يوم) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ في ﴿يَوْمِكُمْ ﴾ باعتِبارِ أنَّ ذلك اليومَ ظَرْفٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٧٤، ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٣).

لِأحوالٍ تَتعلَّقُ بهم؛ فإنَّ الإضافةَ تكونُ لِأَدْنَى مُلابَسةٍ. ووُصِف اليومُ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ لِتَمْييزِه أكمَلَ تَمْييزٍ؛ تَكْميلًا لِتَعريفِه بالإضافةِ؛ لِئلَّا يَلتبِسَ عليهم بيَومٍ آخَرَ[١].

- وعُطِفَ ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ على ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾؛ لِيَعْلَموا أنَّ تَرْكَهم في النَّارِ تَرْكٌ مُؤبَّدٌ؛ فإنَّ المَأْوى هو مَسكنُ الشَّخصِ الذي يَأْوي إليه بعْدَ أعْمالِه؛ فالمعنى: أنَّكم قدْ أَويْتُم إلى النَّارِ، فأنتمْ باقونَ فيها[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أُسنِدَ التَّغريرُ إلى الحَياةِ؛ لأنَّ ذلك أجمَعُ لِأسبابِ الغُرورِ[٣].

- وفُرِّعَ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ بالفاءِ، وهذا مِن تَمامِ الكَلامِ الذي قِيلَ لهم؛ لأنَّ وُقوعَ كَلمةِ (اليوم) في أثْنائِه يُعيِّنُ أنَّه مِن القِيلِ الذي يُقالُ لهم يَومئذٍ[٤].

- قولُه: ﴿يُخْرَجُونَ﴾ كان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (لا تُخرَجون)، بأُسلوبِ الخِطابِ مِثلِ سابِقِه، ولكنْ عُدِلَ عن طَريقةِ الخِطابِ إلى الغَيبةِ على وَجهِ الالْتفاتِ، ويُحسِّنُه هنا أنَّه تَخييلٌ لِلإعراضِ عنْهم بعْدَ تَوبيخِهم وتأْييسِهم، وصَرْفُ بَقيَّةِ الإخبارِ عنْهم إلى مُخاطَبٍ آخَرَ يُنبَّأُ ببَقيَّةِ أمْرِهم؛ تَحقيرًا لهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦٣).

- والسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ للمُبالَغةِ، كما يُقال: أجاب واسْتَجابَ[١].

- وتَقديمُ ﴿هُمْ﴾ على ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وهو مُسنَدٌ فِعليٌّ بعْدَ حَرْفِ النَّفيِ هنا: تَعريضٌ بأنَّ اللهَ يُعتِبُ غَيرَهم، أي: يُرْضي المُؤمِنينَ، أي: يَغفِرُ لهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٧٧).

الآيتان (٢٦-٢٧)

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾: أي العَظَمةُ والسُّلطانُ والمُلْكُ، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَختِمُ اللهُ تعالَى هذه السُّورةَ بالثَّناءِ على نفْسِه، فيقولُ: فلِلَّهِ وَحْدَه الثَّناءُ الكامِلُ، خالِقِ السَّمَواتِ والأرضِ ومالِكِهما؛ رَبِّ جميعِ الخلائِقِ ومالِكِهم، وله وَحْدَه العَظَمةُ والسُّلطانُ في السَّمَواتِ والأرضِ، وهو سُبحانَه القاهِرُ الغالِبُ، الحَكيمُ الذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنْ ذَكَر ما حَوَتْه السُّورةُ مِن آلائِه تعالَى وإحسانِه، وما اشتَمَلَت عليه مِنَ الدَّلائِلِ التي في الآفاقِ والأنفُسِ، وما انطَوَت عليه مِنَ البَراهينِ السَّاطِعةِ على المَبدَأِ والمَعادِ -أثنَى تعالَى على نَفسِه بما هو له أهلٌ، فقال[2]:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٦٧).

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: فلِلَّهِ وَحْدَه الثَّناءُ الكامِلُ على ما يتَّصِفُ به مِن صِفاتِ الكَمالِ؛ مَحبَّةً له وتعظيمًا؛ خالِقِ السَّمَواتِ والأرضِ، ومالِكِهما، ومُدَبِّرِ أَمْرِهما[١].

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: خالِقِ جميعِ الخلائِقِ، ومالِكِهم ورازِقِهم، ومُدَبِّرِ شُؤونِهم[٢].

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أفاد ما سَبَق غِناه تعالَى الغِنَى المُطلَقَ وسِيادتَه، وأنَّه لا كُفُؤَ له؛ عَطَف عليه بَعضَ اللَّوازِمِ لذلك؛ تَنبيهًا على مَزيدِ الاعتناءِ به، لِدَفعِ ما يَتوهَّمونَه مِن ادِّعاءِ الشَّرِكةِ التي لا يَرضَونَها لأنفُسِهم، فقال[٣]:

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولِلهِ وَحْدَه العَظَمةُ والجَلالُ والسُّلطانُ في السَّمَواتِ والأرضِ، الذي يَجِبُ على جميعِ خَلْقِه تَكبيرُه وتَعظيمُه، والخُضوعُ والذُّلُّ له[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩، ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

قال السعدي: (أي: له الحَمدُ على رُبوبيَّتِه لسائِرِ الخلائِقِ، حيثُ خَلَقَهم ورَبَّاهم، وأنعَمَ عليهم بالنِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٥).

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((العِزُّ إزارُه، والكِبرياءُ رِداؤُه، فمَن يُنازِعُني عَذَّبتُه))[١].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو القاهِرُ الغالِبُ الَّذي لا يَغلِبُه ولا يَقهَرُه شَيءٌ سُبحانَه، وهو الحَكيمُ فيما خَلَق وشَرَع وقَدَّر؛ فلا يَضَعُ شَيئًا إلَّا في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ التَّكبيرَ لا بدَّ أنْ يكونَ بعْدَ التَّحميدِ، وأنَّ الحامِدينَ إذا حَمِدوه وَجَب أنْ يَعرِفوا أنَّه -جَلَّ وعلا- أعلَى وأكبَرُ مِن أنْ يكونَ الحَمدُ الَّذي ذكَروه لائِقًا بإنعامِه، بلْ هو أكبَرُ مِن حَمدِ الحامِدينَ، وأيادِيه أعلَى وأجَلُّ مِن شُكرِ الشَّاكِرينَ[٣]!

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فالحَمدُ: فيه الثَّناءُ على اللهِ بصِفاتِ الكَمالِ، ومَحبَّتُه تعالَى وإكرامُه، والكِبرياءُ: فيها عَظَمتُه وجَلالُه، والعِبادةُ مَبنيَّةٌ على رُكنَينِ: مَحبَّةِ اللهِ، والذُّلِّ له، وهما ناشِئانِ عن العِلمِ بمَحامِدِ اللهِ وجَلالِه وكِبريائِه[٤].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨-٧٧٩).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ أعاد ذِكْرَ الرَّبِّ؛ تأكيدًا وإعلامًا أنَّ له في كلِّ واحِدٍ مِنَ الخافِقَينِ أسرارًا غيرَ ما له في الآخَرِ؛ فالتَّربيةُ مُتفاوِتةٌ بحَسَبِ ذلك[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أعاد ذِكرَ الرَّبِّ؛ تَنْبيهًا على أنَّ حِفظَه للخَلقِ وتَربيتَه لهم ذُو ألوانٍ بحَسَبِ شُؤونِ الخَلقِ؛ فحِفظُه لهذا الجُزءِ على وَجهٍ يُغايِرُ حِفظَه لجُزءٍ آخَرَ، وحِفظُه للكُلِّ -مِن حيث هو كُلٌّ- على وَجهٍ يُغايِرُ حِفظَه لكُلِّ جُزءٍ على حِدَتِه، مع أنَّ الكُلَّ بالنِّسبةِ إلى تَمامِ القُدرةِ على حَدٍّ سَواءٍ[٢]!

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أتْبَعَ اللهُ -جَلَّ وعلا- في هذه الآيةِ الكَريمةِ حَمْدَه بوَصفِه بأنَّه رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ ورَبُّ العالَمينَ، وفي ذلك دَلالةٌ على أنَّ رَبَّ السَّمَواتِ والأرضِ ورَبَّ العالَمينَ: مُستَحِقٌّ لكُلِّ حَمدٍ، ولكُلِّ ثَناءٍ جَميلٍ[٣].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ الفاءُ لِتَفريعِ التَّحميدِ والثَّناءِ على اللهِ تَفريعًا على ما احْتَوَت عليه السُّورةُ مِن ألْطافِ اللهِ فيما خلَقَ وأرْشَدَ، وسخَّرَ وأقامَ مِن نُظُمِ العَدالةِ، والإنعامِ على المُسلمينَ في الدُّنيا والآخِرةِ، ومِن وَعيدٍ للمُعرِضينَ واحتجاجٍ عليهم، فلمَّا كان ذلك كلُّه مِن اللهِ، كان دالًّا على اتِّصافِه بصِفاتِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٤-٢٠٥).

العَظَمةِ والجَلالِ، وعلى إفْضالِه على النَّاسِ بدِينِ الإسلامِ؛ كان حَقيقًا بإنْشاءِ قَصْرِ الحمْدِ عليه؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ هذا الكلامُ مُرادًا منه ظاهرُ الإخبارِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ معَ ذلك مُستعمَلًا في مَعناهُ الكِنائيِّ؛ وهو أمْرُ النَّاسِ بأنْ يَقصُروا الحمْدَ عليه. ويجوزُ أنْ يكونَ إنشاءَ حمْدٍ للهِ تعالى، وثَناءٍ عليه[١].

- وتَقديمُ (للهِ) لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: الحمْدُ مُختَصٌّ به اللهُ تَعالى، يعني: الحمْدُ الحقُّ الكاملُ مُختَصٌّ به تعالَى[٢].

- ويُسْتَفادُ مِن تَرتُّبِ قولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ على قَولِه: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وتَكريرِ الوَصْفِ، وتَعانُقِه بكلٍّ مِن المَذْكوراتِ: عُمومُ الحمْدِ، وعُمومُ الوَصْفِ، وعُمومُ الحامِدِ[٣].

- وإجراءُ وَصْفِ ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على اسْمِه تعالَى: إيماءٌ إلى عِلَّةِ قَصْرِ الحَمْدِ على اللهِ، إخبارًا وإنشاءً؛ تَأْكيدًا لِما اقْتَضَتْه الفاءُ في قولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾[٤].

- وعُطِفَ ﴿وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ بتَكريرِ لَفظِ (ربِّ)؛ لِلتَّنويهِ بشَأْنِ الرُّبوبيَّةِ؛ لأنَّ ربَّ السَّمواتِ والأرضِ يَحِقُّ حَمدُه على أهلِ السَّماءِ والأرضِ؛ فأمَّا أهلُ السَّماءِ فقدْ حَمِدوه كما أخبَرَ اللهُ عنهم بقولِه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥]، وأمَّا أهْلُ الأرضِ فمَن حَمِدَه منْهم فقدْ أدَّى حَقَّ الرُّبوبيَّةِ، ومَن حَمِدَ غَيرَه وأعْرَضَ عنه، فقدْ سجَّلَ على نفْسِه سِمةَ الإباقِ، وكان بمَأْوى النَّارِ مَحلَّ استِحقاقٍ، ثمَّ أُتْبِعَ بوَصفِ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهمْ سُكَّانُ السَّمواتِ والأرضِ؛ تَأْكيدًا لِكَونِهم مَحقوقينَ بأنْ يَحمَدوهُ؛ لأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧).

خالِقُ العوالِمِ التي هم مُنْتَفِعونَ بها، وخالِقُ ذَواتِهم فيها كذلك[١].

وقيل: تَكريرُ الرَّبِّ للتَّأْكيدِ، والإيذانِ بأنَّ رُبوبيَّتَه تعالَى لكلٍّ منها بطَريقِ الأصالةِ[٢].

وقيل: أثبَتَ العاطِفَ؛ إعلامًا بأنَّ كَمالَ قُدرتِه في رُبوبيَّتِه للأعلى والأسفَلِ على حَدٍّ سَواءٍ، دَفعًا لتَوَهُّمِ أنَّ حُكمَه في الأعلى أمكَنُ؛ لِتَوَهُّمِ الاحتياجِ إلى مَسافةٍ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ جاء عقِبَ الآيةِ التي قبْلَه؛ للإشارةِ إلى أنَّ اسْتِدعاءَه خلْقَه لِحَمْدِه إنَّما هو لِنَفْعِهم، وتَزكيةِ نُفوسِهم؛ فإنَّه غَنِيٌّ عنهم[٤].

- وتَقديمُ المَجرورِ في ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾؛ لِتَخْصيصِه سُبحانَه بالكِبْرياءِ، أي: الكِبْرياءُ الكاملُ مُختصٌّ به تعالَى[٥].

- وإظهارُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وَ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في مَوقعِ الإضمارِ -حيثُ لم يُقَلْ: (فيهما)-؛ لِتَفْخيمِ شأْنِ الكِبْرياءِ[٦].

- وإذا ضُمَّ معَ مَعنى الزُّبدةِ والخُلاصةِ مِن قولِه: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ -وهو تَصويرُ عَظَمةِ اللهِ- مَعنى قولِه: ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٦).

وَٱلْأَرْضِ﴾، وأُخِذَتْ فائدةُ تَقديمِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه فيهما؛ لُمِحَتْ مَسحةٌ مِن مَعنى الحديثِ: ((العِزُّ إزارُه، والكِبرياءُ رِداؤُه، فمَن يُنازِعُني عَذَّبتُه))[١]. وإذا تُؤمِّلَ مَعنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾، وتَرتُّبُه على مَعاني السُّورةِ المَحتويةِ على آلاءِ اللهِ وأفْضالِه، المُشتملةِ على الدَّلائلِ الآفاقيَّةِ والأنفُسيَّةِ، المُنطويةِ على البَراهينِ السَّاطعةِ، والنُّصوصِ القاهرةِ في المَبدَأِ والمَعادِ -عُثِرَ على أُمورٍ غَريبةٍ وأسرارٍ عَجيبةٍ[٢].

- وأتْبَعَ ما سبَقَ بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ العِزَّةَ تَشمَلُ مَعانيَ القُدْرةِ والاختيارِ، والحِكمةَ تَجمَعُ مَعانيَ تَمامِ العِلْمِ وعُمومِه. وبهذه الخاتمةِ آذَنَ الكلامُ بانتهاءِ السُّورةِ؛ فهو مِن بَراعةِ خَواتمِ السُّوَرِ[٣].

---

(١) تقدم تخريجه (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٨).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ الأحقافِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الأحقافِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الأحقافِ)[١]، يدُلُّ على ذلك:

ما ورد عنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أقرَأَني رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم سُورةَ الأحقافِ ...))[٢]. وفي روايةٍ قال: ((أقرَأَني رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم سورةً مِن الثَّلاثينَ مِن آلِ حم، قال: يعني الأحقافَ. قال: وكانت السُّورةُ إذا كانت أكثَرَ مِن ثلاثينَ آيةً سُمِّيَت الثَّلاثينَ))[٣].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ (الأحقافِ) مَكِّيَّةٌ[٤]، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن

---

(١) سُمِّيَت سُورةَ الأحقافِ؛ لِقَولِه تعالى فيها: ﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]، ووُرودِ لَفظِ (الأحقافِ) فيها، ولم يَرِدْ في غَيرِها مِن سُوَرِ القُرآنِ الكريمِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥).

(٢) أخرجه مِن طُرُقٍ: أحمدُ (٤٣٢٢) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ في ((المعجم الأوسط)) (٣٤١٨)، والحاكمُ (٢٨٨٥) كلاهما بلفظ: ﴿حمٓ﴾ بدلًا من ((الأحقاف)).

صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ١٥٥)، وصحَّح الحديثَ شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٧/ ٣٤٥).

والحديث أخرجه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٧٤٧) بلفظ: ((سورة الرَّحمن)) بدلًا من ((سورة الأحقاف))، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٣/ ٢٣).

(٣) أخرجه أحمدُ (٣٩٨١) مطوَّلًا.

ذكر الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٠٨) أنَّه رُويَ بإسنادَينِ رِجالُ أحَدِهما ثِقاتٌ، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ٣٥)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٧/ ٨٨).

(٤) وقيلَ: هي مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقَولَه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ فمَدَنيَّانِ. =

المُفَسِّرينَ[١].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مَقاصِدِ سُورةِ (الأحقافِ):

١- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ قُدرتِه[٢].

٢- تقريرُ أنَّ هذا القُرآنَ مِن عندِ اللهِ تعالى، وأنَّ يومَ القيامةِ حَقٌّ[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلت عليها هذه السُّورةُ الكريمةُ:

١- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ.

٢- بَيانُ جانِبٍ مِن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى.

٣- الرَّدُّ على المُشرِكينَ، وإبطالُ استِحقاقِ مَعبوداتِهم لأيِّ لَونٍ مِن ألوانِ العِبادةِ.

٤- الحديثُ عن حُسنِ عاقِبةِ الَّذين قالوا رَبُّنا اللهُ ثمَّ استقاموا.

٥- الحديثُ عن الوصايا الحكيمةِ الَّتي أوصى اللهُ بها الأبناءَ نحوَ آبائِهم، وعن حُسنِ عاقِبةِ الَّذين يَعمَلونَ بتلك الوَصايا.

٦- بَيانُ سُوءِ عاقِبةِ الكافِرينَ الَّذين أعرَضوا عن دَعوةِ الحَقِّ.

= يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٠).

(١) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْدي، والقرطبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٨)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبِقاعي (٢/ ٤٨٠)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ١٧٤).

٧- تحذيرُ المُشرِكينَ مِن الإصرارِ على شِرْكِهم، وتذكيرُهم بما حَلَّ بالمُشرِكينَ مِن قَبْلِهم؛ كقَومِ عادٍ وثَمودَ.

٨- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بتذكيرِه بحُضورِ نَفَرٍ مِن الجِنِّ إليه للاستِماعِ إلى القُرآنِ الكريمِ، وإنصاتِهم له، ودَعوتِهم قَومَهم إلى الإيمانِ بالحَقِّ الَّذي استَمَعوا إليه، وبالنَّبيِّ الَّذي جاء به.

٩- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بأمرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على أذَى قَومِه، وعَدَمِ الاستِعجالِ لهم بالعَذابِ.

الآيات (١-٢)

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾: أي: وقتٍ مُعَيَّنٍ محدَّدٍ، وأصلُ الأجَلِ: غايةُ الوَقتِ، والمُدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ، والمُسَمَّى: المُثبَتُ المُعَيَّنُ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى بعدَ أنِ افتتَح السُّورةَ بحرفَيْ ﴿حمٓ﴾: تَنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ القاهِرِ الغالِبِ، الحَكيمِ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

ثمَّ يقولُ تعالى منزِّهًا نفْسَه عن العبثِ: ما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما إلَّا بالعَدلِ والحِكمةِ، وإلى مُدَّةٍ مُعَيَّنةٍ تَنتَهي إليه، وتَفنَى فيه، وهو يومُ القيامةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ حالَ المشركينَ، فيقولُ: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ لم يَتَّعِظوا بما خُوِّفوا به في القُرآنِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ۝١﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الجاثيةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩، ٨٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٢).

(٢) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١١).

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾.

أي: تَنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ القاهِرِ الغالِبِ، المُمتَنِعِ عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، الحَكيمِ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ * لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى إنزالَ كِتابِه المتضَمِّنِ للأمرِ والنَّهيِ؛ ذكَرَ خَلْقَه السَّمَواتِ والأرضَ؛ فجَمَع بيْنَ الخَلقِ والأمرِ[2].

﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾.

أي: ما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ إلَّا بالعَدلِ والحِكمةِ، وبمُدَّةٍ مُعَيَّنةٍ مَضروبةٍ بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ، فتَنتَهي إليه وتَفنَى فيه، وهو يومُ القيامةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٩، ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٧).

قال ابن جرير: (﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ يَعني: إلَّا لإقامةِ الحَقِّ والعَدلِ في الخَلقِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١١).

=

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقال جلَّ ثناؤُه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ مُعرِضونَ عَمَّا خُوِّفوا به في القُرآنِ وحُذِّروا[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١-٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ هذا ثَناءٌ منه تعالى على كِتابِه العزيزِ، وتَعظيمٌ له، وفي ضِمنِ ذلك إرشادُ العِبادِ إلى الاهتِداءِ بنُورِه، والإقبالِ على تدبُّرِ آياتِه، واستِخراجِ كُنوزِه[2].

= وقال البِقاعي: (﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لِبَعثِ النَّاسِ إلى دارِ القَرارِ؛ لِفَصلِ أهلِ الجنَّةِ مِن أهلِ النَّارِ، وفَناءِ الخافِقَينِ [أي: أُفُقَي المَشرِقِ والمغرِبِ] وما نشأ عنهما مِن اللَّيلِ والنَّهارِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- القُرآنُ والسُّنَنُ المُستَفيضةُ المُتواتِرةُ وغيرُ المتواتِرةِ، وكَلامُ السَّابِقينَ والتَّابِعينَ وسائِرِ القُرونِ الثَّلاثةِ: مملوءٌ بما فيه إثباتُ العُلُوِّ لله تعالى على عَرْشِه بأنواعٍ مِنَ الدَّلالاتِ، ووُجوهٍ مِنَ الصِّفاتِ، وأصنافٍ مِن العباراتِ، ومِن ذلك إخبارُ اللهِ تعالى بنُزولِ الأشياءِ منه أو مِن عِنْدِه، كما في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فيه مِن الدَّلالةِ على وُجودِ الصَّانعِ تعالَى، وصِفاتِ كَمالِه، وابْتِناءِ أفْعالِه على حِكَمٍ بالِغةٍ، وانتِهائِها إلى غاياتٍ جَليلةٍ؛ ما لا يَخْفَى[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾

- افتُتِحتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ بالحَرفَينِ المُقَطَّعَينِ ﴿حمٓ﴾ مِن حُروفِ الهِجاءِ؛ لأنَّ أوَّلَ أغراضِها أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ؛ ففي حَرفَي الهِجاءِ رَمْزٌ إلى عَجْزِهم عن مُعارَضَتِه بَعدَ أنْ تَحَدَّاهم؛ لذلك لم يَفعَلوا، وفي ذلك الافتِتاحِ تَشويقٌ إلى تَطَلُّعِ ما يأتي بَعدَه؛ لِلاهتِمامِ به[3].

- قولُه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ اسْتِئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو جُملةٌ مُركَّبةٌ مِن مُبتدأٍ وخبَرٍ، والمَقصودُ: إثْباتُ أنَّ القُرآنَ مُوحًى به مِن اللهِ تعالى إلى رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فكان مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُجعَلَ القُرآنُ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٤، ٢٥/ ٣٢٤).

مُسنَدًا إليه، ويُخبَرَ عنه فيُقالَ: (القُرآنُ مُنزَّلٌ مِن اللهِ العزيزِ الحَكيم)؛ لأنَّ كَونَه مُنزَّلًا مِن اللهِ هو مَحَلُّ الجِدالِ، فيَقْتضي أنْ يكونَ هو الخبَرَ، ولو أذْعَنوا لِكَونِه تَنزيلًا، لَمَا كان مِنْهم نِزاعٌ في أنَّ تَنزيلَه مِن اللهِ، ولكنْ خُولِفَ مُقْتضى الظَّاهرِ لِغَرضَينِ؛ أحدُهما: التَّشويقُ إلى تَلقِّي الخبَرِ؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا الابتِداءَ بتَنزيلِ الكِتابِ، اسْتَشْرَفوا إلى ما سيُخبَرُ عنه؛ فأمَّا الكافِرونَ فيَترَقَّبون أنَّه سيُلْقَى إليهم وَصْفٌ جَديدٌ لِأحْوالِ تَنزيلِ الكتابِ، فيَتهيَّؤون لِخَوضٍ جَديدٍ مِن جِدالِهم وعِنادِهم، والمُؤمِنون يَترَقَّبون لِما يَزيدُهم يَقينًا بهذا التَّنزيلِ. والغرَضُ الثَّاني: أنْ يُدَّعى أنَّ كَونَ القُرآنِ تَنزيلًا أمْرٌ لا يُختلَفُ فيه؛ فالَّذين خالَفوا فيه كأنَّهم خالَفوا في كَونِه مُنزَّلًا مِن عِندِ اللهِ، وهلْ يَكونُ التَّنزيلُ إلَّا مِن عِندِ اللهِ؟! فيَؤولُ إلى تأْكيدِ الإخبارِ بأنَّه مُنزَّلٌ مِن عِندِ اللهِ؛ إذ لا فرْقَ بيْنَ مَدلولِ كَونِه تَنْزيلًا، وكَونِه مِن عِندِ اللهِ إلَّا باختلافِ مَفهومِ المَعنيَينِ دُونَ ماصَدَقَيْهما[1].

- وإيثارُ وَصْفَي ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ بالذِّكرِ دُونَ غَيرِهما مِن الأسماءِ الحُسْنى؛ لِإشعارِ وَصْفِ العَزيزِ بأنَّ ما نزَلَ منه مُناسِبٌ لِعِزَّتِه؛ فهو كِتابٌ عَزيزٌ، أي: هو غالِبٌ لِمُعانِديهِ؛ وذلك لأنَّه أعْجَزَهم عن مُعارَضتِه، ولِإشعارِ وَصْفِ الحكيمِ بأنَّ ما نزَلَ مِن عِندِه مُناسِبٌ لِحِكمَتِه؛ فهو مُشتمِلٌ على دَلائلِ اليَقينِ والحقيقةِ، ففي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ إعْجازَه مِن جانِبِ بَلاغتِه؛ إذ غلَبَت بَلاغةَ بُلغائِهم، ومِن جانِبِ مَعانِيه؛ إذ أعْجَزَت حِكمتُه حِكمةَ الحُكماءِ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٥).
وتقدم تعريف (الماصَدَق) (ص: ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٥، ٣٢٦).

كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾ لَمَّا كان مِن أهَمِّ ما جاء به القُرآنُ إثباتُ وَحْدانيَّةِ اللهِ تعالَى، وإثْباتُ البَعثِ والجَزاءِ؛ لِتوقُّفِ حُصولِ فائدةِ الإنْذارِ على إثْباتِهما؛ جُعِلَ قولُه: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [الأحقاف: ٢] تَمْهيدًا لِلاسْتِدلالِ على إثْباتِ الوَحْدانيَّةِ والبَعثِ والجَزاءِ، فجُعِلَ خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ مَحلَّ اتِّفاقٍ، ورُتِّبَ عليه أنَّه ما كان ذلك الخلْقُ إلَّا مُلابِسًا للحقِّ، وتَقْتضي مُلابسَتُه للحقِّ أنَّه لا يكونُ خلْقًا عَبَثًا، بلْ هو دالٌّ على أنَّه يَعقُبُه جَزاءٌ على ما يَفعَلُه المَخلوقونَ[١].

- وعطْفُ ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ﴾ على ﴿بِٱلۡحَقِّ ﴾ مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لِلاهتمامِ بهِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن الضَّميرِ المُقدَّرِ في مُتعلَّقِ الجارِّ والمَجْرورِ مِن قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ ﴾؛ فيَكونُ المَقصودُ مِن الحالِ التَّعجُّبَ منهم، وليس ذلك عطْفًا؛ لأنَّ الإخبارَ عن الَّذين كَفَروا بالإعراضِ مُسْتغنًى عنه؛ إذ هو مَعلومٌ. والتَّقديرُ: إلَّا خلْقًا كائنًا بمُلابَسةِ الحقِّ في حالِ إعراضِ الَّذين كَفَروا عمَّا أُنْذِروا به ممَّا دلَّ عليه الخلْقُ بالحقِّ[٣].

- وتَقديمُ ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ ﴾ على مُتعلَّقِه -وهو ﴿مُعۡرِضُونَ ﴾-؛ لِلاهتِمامِ بما أُنْذِروا، ويَتْبَعُ ذلك رِعايةُ الفاصلةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧، ٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨).

الآيات (٤-٦)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شِرْكٌ﴾: أي: نَصيبٌ وشَرِكةٌ، وأصلُ (شرك): يدُلُّ على مُقارَنةٍ[١].

﴿أَثَرَةٍ﴾: أي: بقيَّةٍ أو عَلامةٍ أو شَيءٍ مأثورٍ مِن كُتُبِ الأوَّلينَ، واشتِقاقُه مِن: أثَرْتُ الشَّيءَ أُثِيرُه إثارةً، كأنَّها بَقيَّةٌ تُستخرَجُ فتُثارُ، أو مِن الأثَرِ الَّذي هو الرِّوايةُ أو العَلامةُ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُوبِّخَ المشركينَ، ويُقيمَ عليهم الحُجَّةَ، ويُبيِّنَ بُطلانَ ما هم عليه، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك المُشركينَ مِن قَومِك: أرَأَيْتُم الَّذين تَدْعونَهم مِن دونِ اللهِ، أَرُوني ماذا خَلَقوا مِن الأرضِ لِتَعبدوهم مِن دونِ اللهِ تعالى؟! أمْ لهم نَصيبٌ مع اللهِ تعالى في السَّمَواتِ خَلقًا أو مِلكًا أو تدبيرًا؟! أَحْضِروا لي كتابًا مِن قَبلِ هذا القُرآنِ أو دَليلًا وبقيَّةً مِن عِلمٍ مأثورٍ يدُلُّ على صِحَّةِ دعواكم إنْ كنتُم صادِقينَ!

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣، ٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٢).

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى شِدَّةَ ضلالِ المشركينَ وجهلِهم، فيقولُ: ومَن أشَدُّ ضَلالًا ممَّن يدعو مِنْ دونِ اللهِ آلِهةً لا تُجيبُ دُعاءَه إلى يومِ القيامةِ، وهم في غَفلةٍ عن دُعائِهم؟! وإذا جَمَع اللهُ النَّاسَ يومَ القيامةِ للحِسابِ كانت هذه الآلهةُ الَّتي يَدْعوها المُشرِكونَ أعداءً لهم، وكانت جاحِدةً مُنكِرةً لِعِبادتِهم لها في الدُّنيا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قَرَّر الأصلَ الدَّالَّ على إثباتِ الإلهِ، وعلى إثباتِ كَونِه عادِلًا رَحيمًا، وعلى إثباتِ البَعثِ والقيامةِ؛ بنى عليه تفاريعَ؛ فالفَرعُ الأوَّلُ: الرَّدُّ على عَبَدةِ الأصنامِ، فقال[1]:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: أرأيتُمُ الَّذين تَدْعونَهم مِن دونِ اللهِ مِن مَعبوداتِكم، أَروني ماذا خَلَقوا مِن الأرضِ فاستَحَقُّوا بذلك عِبادتَكم لهم[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٣).

قال الشنقيطي: (على أنَّ «ما» استِفهاميَّةٌ، و«ذا» مَوصولةٌ، فالمعنى: أروني ما الَّذي خَلَقوه مِنَ الأرضِ. وعلى أنَّ «ما» و«ذا» بمَنزلةِ كَلِمةٍ واحِدةٍ يُرادُ بها الاستِفهامُ، فالمعنى: أروني أيَّ شَيءٍ خَلَقوه مِنَ الأرضِ؟). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢١٣).

قيل: ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ للتَّبعيضِ؛ لأنَّ كلَّ ما على وجهِ الأرضِ مِن حيوانٍ =

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠].

وقال الله سُبحانَه: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١].

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

أي: أمْ لتلك الآلهةِ المَزعومةِ نَصيبٌ مع اللهِ تعالى في السَّمَواتِ؛ خَلقًا أو مِلكًا أو تدبيرًا؛ فيَكونَ لكم بذلك حُجَّةٌ على عبادتِكم لها[1]؟!

كما قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾.

أي: أَحْضِروا لي كتابًا ممَّا أنزَلَه اللهُ على الأنبياءِ مِن قَبلِ هذا القُرآنِ، يُخبِرُ بأنَّ

= ونحوِه فهو مِن الأرضِ. وممَّن اختاره: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩١).

وقال الواحدي: (وقال مقاتلٌ: ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ كما خلَقَ اللهُ آدَمَ، إن كانوا آلهةً. قال الفَرَّاءُ: أي أنَّهم لم يَخلُقوا شيئًا. فعلى هذا «مِن» بمعنى «في»). ((البسيط)) (١٨/ ٤٣٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٣٧٠). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٥٣٣).

وقال ابن عاشور في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ فاطرٍ، الآية (٤٠): (و﴿مِنَ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: شيئًا ناشِئًا مِن الأرضِ، أو تبعيضِيَّةٌ على أنَّ المرادَ بالأرضِ ما عليها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٣).

آلهتَكم مُستحِقَّةٌ للعبادةِ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ [فاطر: ٤٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١].

﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

أي: أو هاتوا دَليلًا مِن بقيَّةِ عِلمٍ مأثورٍ عن السَّابِقينَ[(٢)] يدُلُّ على صِحَّةِ عِبادتِكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠، ١١).

قال الرَّازي: (عُلِم بالتَّواتُرِ الضَّروريِّ إطباقُ جميعِ الكتبِ الإلهيَّةِ على المنعِ مِن عبادةِ الأصنامِ، وهذا هو المرادُ مِن قولِه تعالَى: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧).

وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: بكتابٍ جاء مِن عندِ الله مِن قبْلِ هذا القرآنِ الَّذي أُنزِل علَيَّ، بأنَّ ما تَعبُدونَ مِن الآلهةِ والأوثانِ خلَقوا مِن الأرضِ شيئًا، أو أنَّ لهم معَ الله شِرْكًا في السَّمواتِ، فيَكونَ ذلك حُجَّةً لكم على عبادتِكم إيَّاها). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٢).

(٢) قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ ... اختَلَف أهلُ التَّأويلِ في تأويلِها؛ فقال بعضُهم: معناه: أو ائْتوني بِعِلْمٍ بأنَّ آلِهَتَكم خَلَقَتْ مِن الأرضِ شيئًا، وأنَّ لها شِرْكًا في السَّمواتِ مِن قِبَلِ الخَطِّ الَّذي تَخُطُّونَه في الأرضِ؛ فإنَّكم مَعْشَرَ العرَبِ أهلُ عِيافةٍ وزَجرٍ وكهانةٍ... وقال آخَرونَ: بل معنَى ذلك: أو خَاصَّةً مِن عِلْمٍ... وقال آخرونَ: بل معنَى ذلك: أو عِلْمٍ تُثيرُونَه فتَسْتَخْرِجونَه... وقال آخرونَ: بل معنَى ذلك: أو تَأْثُرونَ ذلك عِلْمًا عن أحدٍ مِمَّنْ قَبْلَكم... وقال آخرونَ: بل معنَى ذلك: أو بِبَيِّنَةٍ مِن الأمْرِ... وقال آخرونَ: بلْ معنَى ذلك: بِبَقِيَّةٍ مِن عِلْمٍ... وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ قولُ مَن قالَ: الأثارَةُ: البَقِيَّةُ مِن عِلْمٍ؛ لأنَّ ذلك هو المعروفُ مِن كلامِ العربِ... وإذا وُجِّه ذلك إلى ما قُلْنا فيه مِن أنَّه بَقِيَّةٌ مِن عِلْمٍ، جازَ أنْ تكونَ تلك البَقيَّةُ مِن عِلمِ الخطِّ، ومِن عِلْمٍ اسْتُثِير مِن كُتُبِ الأوَّلينَ، ومِن خاصَّةِ عِلْمٍ كانوا أُوثِروا به). ((تفسير ابن جرير)) =

آلهتَكم، إنْ كنتُم صادِقينَ في دعواكم أنَّ لله تعالى شَريكًا[١]!

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بَيَّنَ فيما سَبَق أنَّ القَولَ بعِبادةِ الأصنامِ قَولٌ باطِلٌ؛ مِن حيثُ إنَّها لا قُدرةَ لها البتَّةَ على الخَلقِ والفِعلِ، والإيجادِ والإعدامِ، والنَّفعِ والضُّرِّ؛ فأردَفَه بدَليلٍ آخَرَ يدُلُّ على بُطلانِ ذلك المذهَبِ، وهي أنَّها جماداتٌ؛ فلا تَسمَعُ دُعاءَ الدَّاعِينَ، ولا تَعْلمُ حاجاتِ المحتاجِينَ[٢].

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

أي: لا أحَدَ أشَدُّ ضَلالًا مِن عَبدٍ يدعو مِنْ دونِ اللهِ آلِهةً لا تُجيبُ دُعاءَه أبدًا

= (٢١/ ١١٣-١١٦).

وقال ابن كثير: (﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: دليلٍ بَيِّنٍ على هذا المسلكِ الَّذي سَلَكْتُموه)، ثمَّ ذكَر ما قيل في الآيةِ، وقال: (وكلُّ هذه الأقوالِ مُتقارِبةٌ، وهي راجعةٌ إلى ما قُلْناه، وهو اختيارُ ابنِ جَريرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤).

وقال الرازي: (العلم الضَّروري حاصلٌ بأنَّ أحدًا مِن الأنبياءِ ما دعا إلى عبادةِ الأصنامِ، وهذا هو المرادُ مِن قولِه: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧).

وممَّن خصَّ قولَه: ﴿أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ بما يُروَى مِن عِلمٍ مأثورٍ عن الأنبياءِ عليهم السَّلامُ: الواحدي، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤، ٢٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧).

إلى يومِ القيامةِ[١].

﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾.

أي: وآلهتُهم في غَفلةٍ عن دُعائِهم، فلا يَعلَمونَ مَن يَدْعونَهم، ولا يَسمَعونَهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿... وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن أبانَ اللهُ تعالى أنَّ آلِهَتَهم المزعومةَ لا يَنفَعونَهم في الدُّنيا، ولا يَستَجيبونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١).

قال الرَّسْعَني: (يجوزُ أن يُرادَ على قراءةِ العامَّةِ: كُلُّ مَن عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ مِنَ الجِنِّ والإنسِ والأصنامِ، فغُلِّبَ ما يَعقِلُ. وقيل: ويجوزُ أن يُرادَ الأصنامُ وَحْدَها، فأُجرِيَت مجرى مَن يَعقِلُ؛ لِوَصفِهم إيَّاها بذلك. والجائِزُ الثَّاني أظهَرُ وأشهَرُ في التَّفسيرِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٦، ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩).

قال البِقاعي: (فهو يدعو ما لا قُدرةَ له ولا عِلمَ، وما انتَفَت قُدرتُه وعِلمُه لم تَصِحَّ عِبادتُه ببَديهةِ العَقلِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٢٦).

وقال الشنقيطي: (إنَّما كانوا غافِلينَ عنها؛ لأنَّهم جَمادٌ لا يَعقِلونَ، وإطلاقُ اللَّفظِ المُختَصِّ بالعُقَلاءِ عليهم؛ نَظرًا إلى أنَّ المُشرِكينَ نزَّلوهم مَنزِلةَ العُقَلاءِ... فقد دَلَّ قَولُه تعالى: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ على أنَّهم لا يَعقِلونَ، ومعَ ذلك قال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]، وكقَولِه تعالى في العَنكبوتِ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، فصَرَّح بأنَّهم أوثانٌ، ثمَّ ذَكَر أنَّهم هم وعَبَدَتُهم يَلعَنُ بَعضُهم بعضًا، وكقَولِه تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]... إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٤).

لهم دُعاءً- أبانَ حالَهم في الآخِرةِ[١]، فقال:

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾.

أي: وإذا جَمَع اللهُ النَّاسَ يومَ القيامةِ للحِسابِ، كانت هذه الآلِهةُ الَّتي يَدْعوها المُشرِكونَ أعداءً لهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾.

أي: وكانت آلِهتُهم في الآخِرةِ جاحِدةً مُنكِرةً لِعبادةِ المُشرِكينَ لها في الدُّنيا[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧).

قال القرطبي: (فالملائِكةُ أعداءُ الكُفَّارِ، والجِنُّ والشَّياطينُ يَتبرَّؤون غدًا مِن عَبَدتِهم، ويَلعَنُ بعضُهم بعضًا. ويجوزُ أن تكونَ الأصنامُ للكُفَّارِ الَّذين عَبَدوها أعداءً، على تقديرِ خَلْقِ الحياةِ لها؛ دليلُه قولُه تعالى حكايةً عنهم: ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]. وقيل: عادَوا مَعبوداتِهم؛ لأنَّهم كانوا سَبَبَ هلاكِهم، وجَحَد المَعبودونَ عبادَتَهم). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ أي: الأصنامُ تكونُ أعداءً للذين عبَدوها: السَّمْعاني، وابنُ جُزَي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره العُلَيمي، والشوكاني، وهو ظاهرُ اختيارِ الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨). =

كما قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٣، ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨ - ٣٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ قَطعُ جميعِ تَعلُّقاتِه إلَّا باللهِ؛ عِبادةً وخَوفًا ورَجاءً، واستِعانةً ومحبَّةً وتعظيمًا؛ حتَّى يكونَ عبدًا للهِ حقيقةً، فيَكونَ هواه وإرادتُه، وحُبُّه وبُغْضُه،

= قال ابن جرير: (﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: وكانت آلهتُهم الَّتي يَعبُدونَها في الدُّنيا بعِبادتِهم جاحِدينَ؛ لأنَّهم يقولونَ يومَ القيامةِ: ما أمَرْناهم بعِبادتِنا، ولا شعَرْنا بعِبادتِهم إيَّانا، تبرَّأْنا إليك منهم يا رَبَّنا). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٧).

وقال أبو السعود: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: مُكذِّبِينَ بلِسانِ الحالِ أو المقالِ على ما يُروَى أنَّه تعالى يُحيي الأصنامَ فتَتبرَّأُ عن عبادتِهم، وقد جُوِّز أن يُرادَ بهم كلُّ ما يُعبَدُ مِن دُونِ الله مِن الملائكةِ والجنِّ والإنسِ وغيرِهم، ويُبنَى إرجاعُ الضَّمائرِ وإسنادُ العداوةِ والكفرِ إليهم على التَّغليبِ، ويُرادُ بذلك تبرُّؤُهم عنهم وعن عبادتِهم. وقيلَ: ضميرُ «كانُوا» للعَبَدةِ، وذلك قولُهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨).

ووَلاؤُه ومُعاداتُه: للهِ وفي اللهِ؛ لأنَّه مَخلوقٌ للعِبادةِ فقط[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيه بيانُ مَسالِكِ الأدِلَّةِ بأسْرِها؛ فأوَّلُها المعقولُ، وهو قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهو احتِجاجٌ بدَليلِ العَقلِ أنَّ الجمادَ لا يجوزُ أن يُدْعَى مِن دونِ اللهِ، وأنَّه لا يضُرُّ ولا ينفَعُ، ثمَّ قال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾؛ ففيه بيانُ أدِلَّةِ السَّمعِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ إلى آخرِ الآيةِ: بيانُ أنَّ المُشرِكينَ ليس معهم على الشِّركِ لا دليلٌ عَقليٌّ ولا سَمْعيٌّ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إيرادٌ، وهو: أنَّ اللهَ تعالى أَثبَتَ أنَّ هناك خالِقينَ في قَولِه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وفي قَولِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((يُقالُ لهم -أي: المصوِّرينَ-: أَحْيُوا ما خَلَقْتُم))[٤].

فالجوابُ: أنَّ الخَلْقَ الَّذي نَنسُبُه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ هو الإيجادُ مِن عَدَمٍ، وتبديلُ

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيميَّة (١/ ١٧٨).

(٤) الحديثُ أخرجه البخاري (٥٩٥١)، ومسلمٌ (٢١٠٨) من حديثِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما.

الأعيانِ مِن عَينٍ لِأُخرى؛ فلا أحَدَ يُوجِدُ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، ولا أحَدَ يُبَدِّلُ عَينًا إلى عَينٍ إلَّا اللهُ عزَّ وجَلَّ، أمَّا الخَلقُ الَّذي يُنسَبُ للمَخلوقِ فهو عِبارةٌ عن تحويلِ شَيءٍ مِن صِفةٍ إلى صِفةٍ، ومِن صُورةٍ إلى صُورةٍ؛ فالمُصوِّرُ مثلًا الَّذي أخَذَ الطِّينَ وجَعَلَه على صُورةِ إنسانٍ أو غيرِ ذلك: ما خَلَقَ هذا الشَّيءَ، لكِنْ حوَّلَه مِن كَونِه كُتلةً مِن الطِّينِ إلى كَونِه صُورةً، والنَّجَّارُ إذا أتَى على الخَشَبِ ونَجَرَه على صُورةٍ مُعَيَّنةٍ، لا نَقولُ: إنَّه خَلَقَه؛ لأنَّه لم يُوجِدْه، لكِنْ حوَّلَه مِن صورةٍ إلى أُخرى، فهذا التَّحويلُ يُسَمَّى خَلقًا، لكِنَّه ليس الخَلقَ الَّذي يختَصُّ به الخالِقُ، وهو الإيجادُ مِن العَدَمِ، أو تبديلُ العَينِ مِن عَينٍ إلى أُخرى[(١)].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ جاء هذا الاستِدلالُ بأُسلوبِ المُناظَرةِ؛ فجُعِل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُواجِهًا لهم بالاحتِجاجِ؛ لِيَكونَ إلجاءً لهم إلى الاعتِرافِ بالعَجزِ عن مُعارَضةِ حُجَّتِه، وكذلك جَرى الاحتِجاجُ بعْدَه ثلاثَ مرَّاتٍ بطَريقةِ أمْرِ التَّعجيزِ بقولِه: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ﴾ الآيةَ[(٢)].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ كالتَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ، وهذا مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّها كُلَّها شاهِدةٌ بالوحدانيَّةِ، لو أتى بها آتٍ لَشَهِدَت عليه[(٣)].

٦- إنَّما يَفصِلُ بيْنَ النَّاسِ فيما تَنازَعوا فيه الكِتابُ المُنزَّلُ مِن السَّماءِ، والرَّسولُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٨٤)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٥).

المؤَيَّدُ بالأنباءِ، كما قال الله تعالى: ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾[١].

٧- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ هذا مِن رُؤوسِ مَسائلِ المُناظَرةِ، وهو مُطالَبةُ المُدَّعي بالدَّليلِ على إثْباتِ دَعواهُ[٢].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ فيه سؤالٌ: ما المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾؟ وكيف يُعقَلُ وَصْفُ الأصنامِ -وهي جماداتٌ- بالغَفلةِ؟ وأيضًا كيف جاز وَصفُ الأصنامِ بما لا يَليقُ إلَّا بالعُقَلاءِ، وهي لفظةُ (مَن)، وقَولُه ﴿وَهُمۡ﴾ و﴿غَٰفِلُونَ﴾؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّهم لَمَّا عَبَدوها ونَزَّلوها مَنزِلةَ مَن يَضُرُّ ويَنفَعُ، صَحَّ أن يُقالَ فيها: إنَّها بمَنزلةِ الغافِلِ الَّذي لا يَسمَعُ ولا يُجيبُ، وهذا هو الجوابُ أيضًا عن قَولِه: إنَّ لَفظةَ (مَن) ولفظةَ (هم) كيف يَليقُ بها.

الوَجهُ الثَّاني: يجوزُ أنْ يُريدَ كُلَّ مَعبودٍ مِن دونِ اللهِ مِن الملائكةِ وعِيسى وعُزَيرٍ والأصنامِ، إلَّا أنَّه غَلَّب غيرَ الأوثانِ على الأوثانِ[٣].

الوَجهُ الثَّالِثُ: عبَّرَ بالغَفلةِ -الَّتي هي مِن أوصافِ العُقلاءِ- للجَمادِ؛ تهكُّمًا، كأنَّه قيل: هم عُلَماءُ، فإنَّكم أجَلُّ مَقامًا مِن أن تَعبُدوا ما لا يَعقِلُ، وإنَّما عدَمُ استجابتِهم لكم دائمًا غَفلةٌ دائِمةٌ، كما تقولُ لِمَن كتب كتابًا كُلُّه فاسِدٌ: (أنت

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨).

عالمٌ لَكِنَّك كنتَ ناعِسًا)، ونحوَ هذا[١].

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّه عبَّرَ عن الأصنامِ باسمِ الموصولِ المُختَصِّ بالعُقلاءِ؛ مُعامَلةً للجَمادِ مُعاملةَ العُقلاءِ؛ لأنَّه شاع في كلامِ العَرَبِ إجراؤُها مجرى العُقلاءِ، فكَثُرت في القُرآنِ مُجاراةُ استِعمالِهم في ذلك، ومِثلُ هذا جَعلُ ضمائِرِ جَمعِ العُقلاءِ في قَولِه: ﴿وَهُمْ﴾، وقَولِه: ﴿غَٰفِلُونَ﴾[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أنَّ تلك الدَّعوةَ سَبَبٌ لبُغضِ المَدعوِّ للدَّاعي، وعَداوتِه له[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ فيه تَسميةُ تلك الدَّعوةِ عِبادةً للمَدعوِّ؛ تُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[٤].

١١- قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾، قولُه: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ فيه كُفرُ المَدعوِّ بتلك العبادةِ، ومعنى كُفرِ المَدعوِّ: ردُّه وإنكارُه، فإذا كان يومُ القيامةِ تَبَرَّأَ منه وأنكرَه[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ انتقالٌ إلى الاسْتِدلالِ على بُطلانِ نَفْيِ صِفَةِ الإلهيَّةِ عن أصْنامِ المُشرِكينَ؛ فجُملةُ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ ﴾ أمْرٌ بإلْقاءِ الدَّليلِ على إبْطالِ الإشراكِ، وهو أصْلُ ضَلالِهم[١].

- والاسْتِفهامُ في ﴿أَرَءَيْتُم﴾ للتَّقريرِ؛ فهو كِنايةٌ عن مَعنى: أخْبِروني[٢]، أو للتَّوبيخِ[٣].

- وقولُه: ﴿أَرُونِي﴾ تَصْريحٌ بما كنَّى عنه طَريقُ التَّقريرِ لِقَولِه: ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ﴾[٤].

- والأمْرُ في ﴿أَرُونِي﴾ مُسْتعمَلٌ في التَّسخيرِ والتَّعجيزِ؛ كِنايةً عن النَّفيِ إنْ لم يَخْلُقوا مِن الأرضِ شَيئًا، فلا تَسْتَطيعوا أنْ تُرُوني شَيئًا خَلَقوه في الأرضِ[٥].

- وقولُه: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ استِفهامُ تَوبيخٍ وإنْكارٍ[٦].

- وقولُه: ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بَيانٌ للإبهامِ في ﴿مَاذَا خَلَقُواْ﴾، والظَّاهرُ أنَّه يُريدُ مِن أجْزاءِ الأرضِ، أي: خلْقُ ذلك إنَّما هو للهِ، أو يكونُ على حَذْفِ مُضافٍ، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦٧).

مِن العالي على الأرضِ، أي: على وَجْهِها؛ مِن حَيوانٍ أو غَيرِه[١].

- الاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أمْ) المُنقطِعةِ في قولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ استِفهامٌ إنْكاريٌّ، أي: ليس لهمْ شِركٌ مع اللهِ في السَّمواتِ[٢].

- وتَخصيصُ الشِّركِ بالسَّمواتِ في ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ احْترازٌ عمَّا يُتوهَّمُ أنَّ لِلْوسائطِ شَرِكةً في إيجادِ الحَوادثِ السُّفليَّةِ[٣].

- وإنَّما أُوثِرَ انْتِفاءُ الشَّرِكةِ بالنِّسبةِ لِلشَّرِكةِ في السَّمواتِ دُونَ انتِفاءِ الخَلْقِ، كما أُوثِرَ انتِفاءُ الخلْقِ بالنِّسبةِ إلى الأرضِ؛ لأنَّ مَخلوقاتِ الأرضِ مُشاهَدةٌ للنَّاسِ، ظاهرٌ تَطوُّرُها وحُدوثُها، وأنْ ليس لِمَا يَدْعُونَهم دُونَ اللهِ أدْنَى عمَلٍ في إيجادِها، وأمَّا المَوجوداتُ السَّماويَّةُ، فهي مَحجوبةٌ عن العُيونِ، لا عَهْدَ للنَّاسِ بظُهورِ وُجودِها ولا تَطوُّرِها؛ فلا يَحسُنُ الاستِدلالُ بعَدَمِ تأْثيرِ الأصنامِ في إيجادِ شَيءٍ منها، ولكنْ لَمَّا لم يَدَّعِ المُشرِكون تَصرُّفًا لِلأصنامِ إلَّا في أحوالِ النَّاسِ في الأرْضِ؛ مِن جلْبِ نفْعٍ أو دَفْعِ ضُرٍّ؛ اقتُصِرَ في نَفْيِ تَصرُّفِهم في السَّمواتِ على الاسْتِدلالِ بنَفْيِ أنْ يكونَ لِلْأصنامِ شَرِكةٌ في أُمورِ السَّمواتِ؛ لأنَّ انتِفاءَ ذلك لا يُنازِعون فيه[٤].

- قولُه: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ انتِقالٌ مِن الاستِدلالِ بالمُشاهَدةِ وبالإقرارِ إلى الاسْتِدلالِ بالأخبارِ الصَّادِقةِ، وهو اسْتِدلالٌ على إبْطالِ دَعوى المُدَّعي بانْعِدامِ الحُجَّةِ على دَعْواهُ، ويُسَمَّى الإفحامَ[٥]. وفيه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠).

تَبكيتٌ للمُشركين بتَعجيزِهم عن الإتيانِ بسَندٍ نَقْليٍّ، بعْدَ تَبْكيتِهم بالتَّعجيزِ عن الإتيانِ بسَندٍ عَقْليٍّ[(١)].

- والإشارةُ في قَولِه: ﴿مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ إلى القُرآنِ؛ لأنَّه حاضرٌ في أذْهانِ أصحابِ المُحاجَّةِ؛ فإنَّه يُقرَأُ عليهم مُعاوَدةً[(٢)]. ووَجْهُ تَخصيصِ الكِتابِ بوَصْفِ أنْ يكونَ مِن قبْلِ القُرآنِ؛ لِيُسَدَّ عليهم بابُ المُعارَضةِ بأنْ يأْتوا بكِتابٍ يُصنَعُ لهم، كما قالوا: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآۚ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[(٣)] [الأنفال: ٣١].

- ومعنى قولِه: ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾: أو بَقيَّةٍ بَقِيَت عِندَكم تَرْوُونها عن أهْلِ العِلمِ السَّابِقينَ غيرِ مَسطورةٍ في الكُتبِ، وهذا تَوسيعٌ عليهم في أنواعِ الحُجَّةِ؛ لِيَكونَ عَجْزُهم عن الإتيانِ بشَيءٍ مِن ذلك أقطَعَ لِدَعْواهُم[(٤)]. وقيل: المُرادُ بالأثارةِ: الخَطُّ في التُّرابِ، وذلك شَيءٌ كانت العرَبُ تَفعَلُه وتَتكهَّنُ به وتَزْجُرُ؛ فيَكونُ مِن بابِ التَّهكُّمِ بهمْ وبأقْوالِهم ودَلائلِهم[(٥)].

- وفي قولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ إلْهابٌ وإفحامٌ لهم بأنَّهم غيرُ آتِينَ بحُجَّةٍ؛ لا مِن جانِبِ العقْلِ، ولا مِن جانِبِ النَّقْلِ المَسْطورِ أو المأْثورِ، وقدْ قال تعالَى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾[(٦)] [القصص: ٥٠].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١).

وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ اعتِراضٌ في أثْناءِ تَلْقينِ الاحْتِجاجِ؛ فلمَّا أمَرَ اللهُ تعالَى رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ يُحاجَّهم بالدَّليلِ، وَجَّهَ الخِطابَ إليه؛ تَعجيبًا مِن حالِهم وضَلالِهم؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ إلخ [الأحقاف: ٦]، لا يُناسِبُ إلَّا أنْ يكونَ مِن جانِبِ اللهِ تعالى[١].

- والاستِفهامُ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ ...﴾ إنكارٌ وتَعجُّبٌ ونفْيٌ لأنْ يَكونَ أحدٌ يُساوي المُشركينَ في الضَّلالِ، وإنْ كانَ سَبْكُ التَّركيبِ لِنَفْيِ الأضلِّ منْهم مِن غَيرِ تَعرُّضٍ لِنَفْيِ المُساوِي، والمعنى: لا أحَدَ أشدُّ ضَلالًا وأعجَبُ حالًا ممَّن يَدْعونَ مِن دُونِ اللهِ مَن لا يَسْتجيبُ له دُعاءَه؛ فهو أقْصَى حَدٍّ مِن الضَّلالةِ. ووَجْهُ ذلك: أنَّهم ضَلُّوا عن دَلائلِ الوَحدانيَّةِ، وادَّعَوا للهِ شُركاءَ بلا دَليلٍ، واخْتاروا الشُّركاءَ مِن حِجارةٍ -وهي أبعَدُ المَوجوداتِ عن قَبولِ صِفاتِ الخلْقِ والتَّكوينِ والتَّصرُّفِ- ثمَّ يَدْعُونها في نَوائبِهم، وهم يُشاهِدون أنَّها لا تَسمَعُ ولا تُبصِرُ ولا تُجيبُ، ثمَّ سَمِعوا آياتِ القُرآنِ تُوضِّحُ لهم الذِّكرى بنَقائصِ آلِهَتِهم، فلمْ يَعتَبِروا بها، وزَعَموا أنَّها سِحرٌ ظاهرٌ؛ فكان ضَلالُهم أقْصَى حدٍّ في الضَّلالِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ وَصْفُ الأصنامِ بتَرْكِ الاستِجابةِ والغفْلةِ مع ظُهورِ حالِها؛ لِلتَّهكُّمِ بها وبعَبَدَتِها[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨).

ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ نُكتةٌ بَلاغيَّةٌ رائعةٌ؛ وذلك أنَّه جُعِلَ يومُ القِيامةِ غايةً لِعَدَمِ الاستِجابةِ، ومِن شأْنِ الغايةِ انتِهاءُ المُغَيَّا عِندَها، لكنَّ عَدَمَ الاستجابةِ مُستمِرٌّ بعْدَ هذه الغايةِ؛ لأنَّهم في القِيامةِ أيضًا لا يَسْتجيبونَ لهم؛ فالوَجْهُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّها مِن الغاياتِ المُشعِرةِ بأنَّ ما بعْدَها وإنْ وافَقَ ما قبْلَها، إلَّا أنَّه أزْيَدُ منه زِيادةً بَيِّنةً تُلحِقُه بالثَّاني، حتَّى كأنَّ الحالتَينِ -وإنْ كانَتَا نوعًا واحدًا؛ لِتَفاوُتِ ما بيْنَهما- كالشَّيءِ وضِدِّه؛ وذلك أنَّ الحالةَ الأُولى الَّتي جُعِلَتْ غايَتُها القِيامةَ لا تَزِيدُ على عَدَمِ الاستِجابةِ، والحالةَ الثَّانيةَ الَّتي في القِيامةِ زادَتْ على عَدَمِ الاستِجابةِ بالعَداوةِ وبالكُفْرِ بعِبادتِهم إيَّاهم[1].

- وكذلك: جَعْلُ يَومِ القِيامةِ غايةً لِانتِفاءِ الاستجابةِ كِنايةٌ عن اسْتِغراقِ مُدَّةِ بَقاءِ الدُّنيا[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ عطْفٌ على ما قبْلَها؛ لِمُناسَبةِ ذِكرِ يَومِ القِيامةِ[3].

- ضَميرا (كانُوا) في الموضعَينِ يجوزُ أنْ يَعودا إلى ﴿مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ المشركينَ يُعادُونَ أصنامَهم يومَ القيامةِ إذْ يَجِدونَها مِن أسبابِ شقائِهم. ويجوزُ أنْ يَعودا إلى ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾؛ فإنَّ الأصنامَ يجوزُ أنْ تُعطَى حياةً يَومَئذٍ فتَنطِقَ بالتَّبرِّي عن عُبَّادِها ومِن عبادتِهم إيَّاها. ويجوزُ أنْ يكونَ قَولُه: ﴿كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ جاريًا على التَّشبيهِ البليغِ؛ لِمُشابَهتِها لِلْأعداءِ والمُنكِرينَ لِلعِبادةِ في دَلالتِها على ما يُفْضي إلى شَقائِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٢٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢).

وكَذِبهم[١].

- ويَجوزُ أنْ يُرادَ بقولِه: ﴿كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ كلُّ ما يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ؛ مِن الملائكةِ، والجنِّ والإنسِ، وغَيرِهم، ويُبْنى إرجاعُ الضَّمائرِ وإسْنادُ العَداوةِ والكُفرِ إليهم على التَّغليبِ[٢].

- ومِن بَديعِ تَفنُّنِ القُرآنِ: تَوزيعُ مَعادِ الضَّمائرِ في هذه الآيةِ ﴿كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ مع تَماثُلِها في اللَّفظِ، وهذا يَندرِجُ فيما يُعرَفُ بمُحسِّنِ الجَمْعِ مع التَّفريقِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) ٨/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣).

والجمعُ والتَّفريقُ: هو أنْ يجمعَ المتكلِّمُ بيْنَ شيئَينِ في حُكمٍ واحدٍ، ثمَّ يُفرِّقَ بيْنَ جِهتَيْ إدخالِهما، كأنْ يُشبِّهَ شَيئينِ بشيءٍ واحدٍ، ثمَّ يُفرِّقَ بيْنَهما في وجهِ الشَّبهِ، وبيْنَ جِهتَي الإدخالِ، كقولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ [هود: ١٠٥]؛ فالجمعُ قولُه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ﴾؛ لأنَّها متعدِّدةٌ معنًى؛ لأنَّ النَّكِرةَ في سِياقِ النَّفيِ تَعُمُّ، والتَّفريقُ قولُه: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (ص: ٣٣٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣١٢)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٣).

الآيتان (٧-٨)

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: أي: اختَلَقَه وافتَعَلَه، وجاء به مِن عندِ نَفْسِه. والافتِراءُ: اختِلاقُ الكَذِبِ، وأصلُه: مِنْ فَرْيِ الأديمِ، وهو: قَطْعُه، فقيل للكَذِبِ: افتِراءٌ؛ لأنَّ الكاذِبَ يَقطَعُ به على التَّقديرِ مِن غيرِ تحقيقٍ[1].

﴿تُفِيضُونَ﴾: أي: تَقولونَ وتَخوضونَ، والإفاضةُ في الحَديثِ: الخَوضُ فيه والإكثارُ منه، وهي منقولةٌ مِن: فاضَ الماءُ: إذا سالَ، ومنه: حديثٌ مُستَفيضٌ: مُشتَهِرٌ شائِعٌ، وأصلُ (فيض): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بسُهولةٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى موقفَ المشركينَ إذا قُرِئ عليهم القرآنُ، فيقولُ: وإذا تُتلَى على أولئك المُشرِكينَ آياتُ القُرآنِ الواضِحاتُ قالوا للحَقِّ حينَ جاءَهم مِن عندِ اللهِ تعالى: هذا القُرآنُ سِحرٌ ظاهِرٌ!

ثمَّ يُخبِرُ الله تعالى عن جانبٍ مِن أباطيلِهم، فيقولُ: أمْ يَقولُ المُشرِكونَ:

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠، ٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥).

اختَلَق مُحمَّدٌ القُرآنَ، وقالَه مِن تِلْقاءِ نَفْسِه؟!

ثمَّ يُلقِّنُ الله تعالى نبيَّه الرَّدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: إنِ اختلَقْتُ هذا القُرآنَ -كما تَزعُمونَ- فلا تَدفَعون عنِّي مِن عذابِ اللهِ شيئًا! هو سُبحانَه أعلَمُ بما تَخوضونَ فيه مِن طَعنٍ أو تَكذيبٍ بالقُرآنِ، كفى به سُبحانَه شَهيدًا بيْني وبيْنَكم، وهو الغَفورُ الرَّحيمُ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا تكَلَّم في تقريرِ التَّوحيدِ ونَفْيِ الأضْدادِ والأندادِ؛ تكَلَّم في النُّبُوَّةِ، وبَيَّنَ أنَّ مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم كلَّما عَرَض عليهم نَوعًا مِن أنواعِ المُعجِزاتِ زَعَموا أنَّه سِحرٌ[(١)]!

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ في غايةِ السَّفَهِ في عبادةِ ما لا دليلَ بوَجهٍ على عبادتِه؛ أتْبَعَه بَيانَ أنَّهم في غايةِ الغَباوةِ بإنكارِ ما لا شَيءَ أبيَنُ منه! فقال عاطِفًا على: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣][(٢)]:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾.

أي: وإذا تُتلَى على المُشرِكينَ آياتُ القُرآنِ الواضِحاتُ، قال هؤلاء الَّذين كَفَروا بوَحدانيَّةِ الله للحَقِّ حينَ جاءَهم مِن عندِ اللهِ تعالى: هذا القُرآنُ سِحرٌ واضِحٌ[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٥)، ((نظم الدرر)) =

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سبأ: ٤٣].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ يُسَمُّونَ المُعجِزةَ بالسِّحرِ؛ بَيَّنَ أنَّهم متى سَمِعوا القُرآنَ قالوا: إنَّ مُحمَّدًا افتراه واختَلَقَه مِن عندِ نَفْسِه[1]! فانتَقَلوا مِن قَولِهم: هذا سِحرٌ، إلى هذه المقالةِ الأُخرى[2].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾.

أي: أم يَقولُ المُشرِكونَ: اختَلَق مُحمَّدٌ القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ونَسَبه إلى اللهِ كَذِبًا[3]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود: ١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨].

= للبقاعي (١٨/ ١٢٩، ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٤).

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: إنِ اختلَقْتُ القُرآنَ -كما تَزعُمونَ- فلا تَستطيعونَ أن تَدفَعوا عنِّي شيئًا مِن عذابِ اللهِ إن عاقَبَني؛ جزاءَ كَذِبي عليه[1]!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٣ - ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۞ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

أي: اللهُ أعلَمُ مِن كُلِّ أحَدٍ سِواه بما تَقولونَه في القُرآنِ؛ مِن طَعنٍ فيه، أو تَكذيبٍ به، أو وَصفِه بما لا يَليقُ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤).
قال ابن عاشور: (قولُه: ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ دليلٌ على الجوابِ المقدَّرِ في الكلامِ بطريقِ الالْتِزامِ؛ لأنَّ معنى ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى﴾ لا تَقْدِرونَ على دفْعِ ضُرِّ اللهِ عنِّي، فاقتضَى أنَّ المعنَى: إن افترَيْتُه عاقَبَني اللهُ، ولا تَستطيعونَ دفْعَ عِقابِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥).
قال الواحدي: (أي: بما تقولونَ في القُرآنِ وتَخوضون فيه مِن التَّكذيبِ به، والقَولِ فيه أنَّه سِحرٌ وكَهانةٌ. قاله المفَسِّرون). ((البسيط)) (٢٠/ ١٦٤).

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾.

أي: كفى باللهِ العالِمِ بحالي وحالِكم شاهِدًا يَحكُمُ بشَهادتِه بيْني وبيْنَكم، ويُجازي كُلًّا بما يَستحِقُّه[1].

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو الَّذي مِن شأنِه أن يَستُرَ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزَ عن مُؤاخَذتِهم بها، ويَرحَمَهم[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تَرجيةٌ واستِدعاءٌ إلى التَّوبةِ؛ لأنَّه في خلالِ تهديدِه إيَّاهم باللهِ تعالى جاءت هاتان الصِّفتانِ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ أنَّ ما جاء

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

قال ابن كثير: (أي: ومع هذا كُلِّه إن رَجعتُم وتُبتُم تاب عليكم وعفا عنكم، وغفَرَ لكم ورَحِمَكم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦).

وقال السعدي: (دعاهم إلى التَّوبةِ مع ما صدَرَ منهم مِن مُعانَدةِ الحَقِّ ومُخاصَمتِه، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: فتُوبوا إليه، وأقلِعوا عمَّا أنتم فيه؛ يَغفِرْ لكم ذُنوبَكم، ويَرحَمْكم، فيُوفِّقْكم للخَيرِ، ويُثِبْكم جزيلَ الأجرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٣).

به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الآياتِ هو مِن أفصَحِ الكلامِ وأبلَغِه وأبْيَنِه؛ فهُم لم يَصِفوه بالسِّحرِ إلَّا لأنَّه يأخُذُ بالقُلوبِ، ويَجُرُّ النَّاسَ إليه جَرًّا، كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ مِن البيانِ لَسِحْرًا))(١).

٢- قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ إنَّما جَعَلوه بزَعْمِهم سِحرًا؛ مِن حَيثُ كان عِندَهم يُفَرِّقُ بيْنَ المرءِ ووَلَدِه وزَوجِه، فجَعَلوه لذلك كالسِّحرِ، ولم يَنظُروا إلى الفَرقِ في أنَّ المُفارِقَ بالقُرآنِ يُفارِقُ عن بَصيرةٍ في الدِّينِ، والمفارِقَ بالسِّحرِ يُفارِقُ عن خَلَلٍ في ذِهْنِه(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّهم لم يَتأمَّلوا ما يُتْلى عليهم، بل بادَروا أوَّلَ سَماعِه إلى نِسبتِه إلى السِّحرِ؛ عِنادًا وظُلمًا(٣).

٤- قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ وَجْهُ المُلازَمةِ بيْنَ الشَّرْطِ وجَوابِه أنَّ اللهَ لا يُقِرُّ أحَدًا على أنْ يُبلِّغَ إلى النَّاسِ شيئًا عن اللهِ لم يَأْمُرْه بتَبْليغِه، وقد دلَّ القُرآنُ على هذا في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ * لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]. ولعلَّ حِكمةَ ذلك: أنَّ التَّقوُّلَ على اللهِ يُفْضِي إلى فَسادٍ عَظيمٍ يَختَلُّ به نِظامُ الخلْقِ، واللهُ يَغارُ على مَخلوقاتِه، وليس ذلك كغَيرِه مِن المَعاصي الَّتي تَجْلِبُها المَظالِمُ والعبَثُ في الأرضِ؛ لأنَّ ذلك إقدامٌ على ما هو مَعلومُ الفَسادِ لا يَخْفى على النَّاسِ؛ فهمْ يَدْفَعونه بما يَسْتطيعونَ مِن حَولٍ وقُوَّةٍ، أو حِيلةٍ ومُصانَعةٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٩).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٧٦٧) من حديثِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٣).

وأمَّا التَّقوُّلُ على اللهِ فيُوقِعُ النَّاسَ في حَيرةٍ: بماذا يَتلقَّوْنَه؟ فلذلك لا يُقِرُّه اللهُ ويُزِيلُه(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ذَكَر سُبحانَه أنَّه شَهيدٌ بيْنَه وبيْنَهم، ولم يَقُلْ: «شاهدٌ علينا»، ولا «شاهدٌ لي»؛ لأنَّه ضَمَّنَ الشَّهادةَ الحُكْمَ، فهو شَهيدٌ يَحكُمُ بشَهادتِه بيني وبيْنَكم، والحُكمُ قَدْرٌ زائِدٌ على مُجرَّدِ الشَّهادةِ؛ فإنَّ الشَّاهِدَ قد يؤدِّي الشَّهادةَ، وأمَّا الحاكِمُ فإنَّه يَحكُمُ بالحَقِّ للمُحِقِّ على المُبطِلِ، ويأخُذُ حَقَّه منه، ويُعامِلُ المُحِقَّ بما يَستحِقُّه، والمُبطِلَ بما يَستحِقُّه(٢).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ مَسوقٌ مَساقَ العَدِّ لِوُجوهِ فَرْطِ ضَلالِهم؛ فإنَّ آياتِ القُرآنِ تُتْلَى عليهم صَباحَ مَساءَ، تُبيِّنُ لهم دَلائلَ خُلوِّ الأصنامِ عن مُقوِّماتِ الإلهيَّةِ، فلا يَتدبَّرونَها، وتَحْدُو بهمْ إلى الحقِّ، فيُغالِطون أنفُسَهم؛ بأنَّ ما فَهِموه منها تأثُّرٌ سِحْريٌّ، وأنَّها سِحرٌ، ولم يَكْتَفُوا بذلك، بلْ زادُوا بُهتانًا فزَعَموا أنَّه مُبينٌ، أي: واضِحٌ كَونُه سِحْرًا. وهذا انتِقالٌ إلى إبْطالِ ضَلالٍ آخَرَ مِن ضَلالِهم، وهو ضَلالُ التَّكذيبِ بالقُرآنِ؛ فهو مَرتبطٌ بقولِه: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾(٣) [الأحقاف: ١، ٢].

- قولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للتَّسجيلِ عليهم بالكُفْرِ، وبأنَّه سَببُ قَولِهم ذلك. و(الحقُّ) هنا: هو الآياتُ؛ فعُدِلَ عن ضَميرِ الآياتِ إلى إظْهارِ لَفظِ (الحقِّ)؛ لِلتَّنبيهِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣).

أنَّها حقٌّ، ووُجوبِ الإيمانِ بها، وأنَّ رَمْيَها بالسِّحرِ بُهتانٌ عَظيمٌ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إضْرابُ انتِقالٍ إلى نَوعٍ آخَرَ مِن ضَلالِ أقْوالِهم، وسُلِكَ في الانتِقالِ مَسلَكُ الإضرابِ دُونَ أنْ يكونَ بالعطْفِ بالواوِ؛ لأنَّ الإضرابَ يُفيدُ أنَّ الغرَضَ الَّذي سيُنتقَلُ إليه له مَزيدُ اتِّصالٍ بما قبْلَه، وأنَّ المَعنى: دَعْ قَولَهم: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٧]، واسْتَمِعْ لِمَا هو أعجَبُ؛ وهو قَولُهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، أي: افْتَرى نِسبتَه إلى اللهِ، ولم يُرِدْ به السِّحرَ[٢].

- وما في (أمْ) مِن الهمزةِ لِلْإنكارِ التَّوبيخيِّ المُتضمِّنِ لِلتَّعجُّبِ، أي: بلْ أيَقُولونَ: افْتَرى القُرآنَ؟! والنَّفيُ الَّذي يَقْتضيهِ الاستِفهامُ الإنْكاريُّ يَتسلَّطُ على سَببِ الإنكارِ، أي: كَونِ القُرآنِ مُفْتَرًى، وليس مُتسلِّطًا على نِسبةِ القولِ إليهم؛ لأنَّه صادرٌ منهم، وإنَّما المَنْفيُّ الافتِراءُ المَزْعومُ[٣].

- قولُه: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بجَوابِ مَقالَتِهم بما يَقلَعُها مِن جِذْرِها؛ فكان قَولُه تعالى: ﴿قُلْ﴾ جُملةً جاريةً مَجْرى جَوابِ المُقاوَلةِ؛ لِوُقوعِها في مُقابَلةِ حِكايةِ قَولِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣، ١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤).

- وجُعِلَ الافتراءُ مَفْروضًا بحَرْفِ (إنْ) الَّذي شأْنُه أنْ يكونَ شَرْطُه نادِرَ الوُقوعِ؛ إشارةً إلى أنَّه مَفروضٌ في مَقامٍ مُشتمِلٍ على دَلائلَ تَقلَعُ الشَّرْطَ مِن أصْلِه[١].

- وإسنادُ ﴿تَمْلِكُونَ﴾ إليهم تَنبيهٌ بالشَّيءِ على مُقابِلِه بالمفهومِ، أي: إنْ كُنتُ مُفترِيًا وأنتم المُحِقُّونَ فالعُقوبةُ واقعةٌ لا بُدَّ منها، ولا تَقدِرون على دَفْعِها عنِّي، وإنْ كُنتُ مُحِقًّا وأنتم المُفتَرونَ فالعُقوبةُ تَقَعُ بكم، ولا أقْدِرُ على دَفْعِها عنكم[٢].

- وجُملةُ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ لأنَّ جُملةَ ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي﴾ تَشتمِلُ على معنَى: أنَّ اللهَ لا يَرضَى أنْ يَفترِيَ عليه أحدٌ، وذلك يَقْتضي أنَّه أعلَمُ منهم بحالِ مَن يُخبِرُ عن اللهِ بأنَّه أرسَلَه وما يُبلِّغُه عن اللهِ، وذلك هو ما يَخوضونَ فيه؛ مِن الطَّعْنِ، والقَدْحِ، والوصْفِ بالسِّحرِ، أو بالافتراءِ، أو بالجُنونِ[٣].

- وجُملةُ ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ لأنَّ الإخبارَ بكَونِه أعلَمَ منهم بكُنْهِ ما يُفيضون فيه يَشتمِلُ على مَعنى تَفويضِ الحُكْمِ بيْنَه وبيْنَهم إلى اللهِ تعالى. وهذا تَهديدٌ لهم وتَحذيرٌ مِن الخَوضِ الباطلِ ووَعيدٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٢٩٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦).

- وإجْراءُ وَصْفَي ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عليه تعالَى اقْتَضاهُ ما تَضمَّنَه قَولُه: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ مِن التَّهديدِ والوعيدِ، وهو تَعريضٌ بطَلَبِ الإقلاعِ عمَّا هُمْ فيه مِن الخَوضِ بالباطِلِ، ومَوعِدةٌ بالغُفْرانِ والرَّحمةِ إنْ رَجَعوا عن الكُفْرِ وتابوا وآمَنوا، وإشعارٌ بحِلْمِ اللهِ عنهم مع عِظَمِ ما ارْتَكَبوا[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦).

الآيتان (٩-١٠)

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾: أي: أوَّلَ رُسُلِ اللهِ، والبِدْعُ مِن كُلِّ شَيءٍ: الأوَّلُ والمُبتَدأُ، والبِدعةُ: ما اختُرِعَ ممَّا لم تَجْرِ به سُنَّةٌ، وأصلُ (بدع): يدُلُّ على ابتداءِ الشَّيءِ، وصُنعِه لا عن مِثالٍ[1].

﴿نَذِيرٌ﴾: أي: مُنْذِرٌ ومُحذِّرٌ ومُخوِّفٌ، والإنذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تخويفٍ. وقيل: أصلُ الإنذارِ: الإعلامُ؛ يُقالُ: أنذَرْتُه: إذا أعلَمْتَه. وقيل: ولا يكونُ إلَّا معَ الحَذَرِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُبيِّنَ لِقَومِه أنَّ ما جاءهم به قد سبَقَتْه به الرُّسُلُ إلى أقوامِهم، وأنَّه وافَقتْ دعوتُه دعوتَهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: ما كُنتُ أوَّلَ رَسُولٍ إلى البَشَرِ؛ فقد أرسَلَ اللهُ مِنْ قَبْلي

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٢٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

كثيرًا مِنَ الرُّسُلِ، ولا أعلَمُ ما يَفعَلُه اللهُ بي ولا بكم. ما أتَّبِعُ إلَّا ما يُوحيه اللهُ إلَيَّ، وما أنا إلَّا نَذيرٌ لكم ظاهِرُ النِّذارةِ، وأُظهِرُ لكم الإنذارَ مِن عذابِ اللهِ.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ للمشركينَ أيضًا: أرأيتُم إن كان هذا القُرآنُ نازِلًا إلَيَّ مِن عندِ اللهِ، وكفَرْتُم به، وقد شَهِد شاهِدٌ مِنْ بني إسرائيلَ على مِثلِ القُرآنِ أنَّه مِن عندِ الله، فآمَنَ به واستَكبرتُم أنتم -أيُّها المُشرِكونَ- عن الإيمانِ به؛ فمَنْ أضَلُّ مِنكم؟! إنَّ اللهَ لا يَهدي القَومَ الظَّالِمينَ!

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن أعظَمِ الضَّلالِ أنْ يُنسَبَ الإنسانُ إلى الكَذِبِ مِن غيرِ دَليلٍ في شَيءٍ لم يَبتَدِعْه، بل تقَدَّمَه بمِثْلِه ناسٌ قد ثَبَت صِدْقُهم في مِثلِ ذلك، ومَضَت عليه الأزمانُ، وتقرَّرَ غايةَ التَّقَرُّرِ في القُلوبِ والأذهانِ- قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن المُشرِكينَ طَعْنَهم في كَونِ القُرآنِ مُعْجِزًا بأنْ قالوا: إنَّه يختَلِقُه مِن عندِ نَفْسِه، ثمَّ يَنسُبُه إلى أنَّه كَلامُ اللهِ على سَبيلِ الفِرْيةِ؛ حكى عنهم نوعًا آخَرَ مِنَ الشُّبُهاتِ، وهو أنَّهم كانوا يَقتَرِحونَ عليه مُعجِزاتٍ عَجيبةً قاهِرةً، ويُطالِبونَه بأنْ يُخبِرَهم عن المُغَيَّباتِ؛ فأجاب اللهُ تعالى عنه بأنْ قال[2]:

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩).

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: ما كنتُ أوَّلَ رُسُلِ اللهِ إلى البَشَرِ؛ فقد أرسَلَ اللهُ مِنْ قَبْلي كثيرًا مِنَ الرُّسُلِ إلى أُمَمِهم، وبمِثْلِ ما أرسَلَني به، فلِمَ تَستَنكِرونَ رِسالتي[1]؟!

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾.

أي: لَسْتُ إلَّا بشَرًا، وليس بيَدي مِنَ الأمرِ شَيءٌ؛ فلا أعلَمُ ما يَفعَلُه اللهُ بي، ولا ما يَفعَلُه بكم[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٧).

قال الرَّسْعَني: (اختَلَفوا هل المرادُ نَفْيُ عِلْمِه بما يُفعَلُ به في الآخِرةِ أم في الدُّنيا؟ على قَولَين:

أحَدُهما: في الآخِرةِ، قال: ثمَّ نزَل بَعْدَها: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وقال: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [الفتح: ٥]؛ فأعلَمَه ما يُفعَلُ به وبالمُؤمنينَ.

الثَّاني: في الدُّنيا،... قال الحَسَنُ: ما أدري أُخرَجُ كما أُخرِجَ الأنبياءُ قَبْلي؟ أو أُقتَلُ كما قُتِلوا؟ وما أدري ما يُفعَلُ بكم: أتُعَذَّبونَ أم تُؤَخَّرونَ؟ أتُصَدِّقون أم تُكَذِّبون؟ وقال عطيَّة: ما أدري =

= هل يَترُكني بمكَّةَ أو يُخرِجُني منها؟ وقيل: المعنى: وما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بكم فيما يُستَقبَلُ مِنَ الزَّمانِ، ويُقدَّرُ لي ولكم في قَضاياه. وقيل: هو نَفيٌ للدِّرايةِ المُفَصَّلةِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٠٦، ٢٠٧).

ممَّن يُروى عنه القَولُ الأوَّلُ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وأنسٌ، وعِكْرِمةُ، والحسَنُ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢١)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: في الدُّنيا: ابنُ جرير، والنَّحَّاسُ، وابنُ الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٢)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٦٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨، ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧).

وممَّن قال بمعنى هذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ، وعطيَّةُ العَوْفيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤٣٥).

قال ابن كثير: (وهذا القولُ هو الَّذي عوَّل عليه ابنُ جرير، وأنَّه لا يجوزُ غيرُه، ولا شكَّ أنَّ هذا هو اللَّائقُ به صلَواتُ اللهِ وسلامُه عليه؛ فإنَّه بالنِّسبةِ إلى الآخرةِ جازِمٌ أنَّه يَصيرُ إلى الجنَّةِ هو ومَنِ اتَّبَعه، وأمَّا في الدُّنيا فلم يَدْرِ ما كان يَؤولُ إليه أمرُه وأمرُ مُشرِكي قُرَيشٍ؛ إلى ماذا: أيُؤْمِنون، أمْ يَكفُرون فيُعَذَّبون...). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦).

وقال الشنقيطي: (التَّحقيقُ إن شاء اللهُ: أنَّ معنى الآيةِ الكريمةِ: ما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بكم في دارِ الدُّنيا؛ فما أدري أأُخرَجُ مِن مَسقَطِ رأسي، أو أُقتَلُ كما فُعِلَ ببَعضِ الأنبياءِ، وما أدري ما يَنالُني مِن الحوادِثِ والأُمورِ في تحمُّلِ أعباءِ الرِّسالةِ، وما أدري ما يُفعَلُ بكم: أيُخسَفُ بكم، أو تَنزِلُ عليكم حِجارةٌ مِن السَّماءِ، ونحوَ ذلك.

وهذا هو اختِيارُ ابنِ جَريرٍ وغيرِ واحِدٍ مِن المحَقِّقينَ، وهذا المعنى في هذه الآيةِ دَلَّت عليه آياتٌ مِن كِتابِ اللهِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ الآيةَ [الأعراف: ١٨٨]، وقَولِه تعالى آمِرًا له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ الآيةَ [الأنعام: ٥٠].

وبهذا تَعلَمُ أنَّ ما يُروَى عن ابنِ عبَّاسٍ وأنَسٍ وغَيرِهما مِن أنَّ المرادَ: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا =

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وعن أمِّ العَلاءِ رضيَ الله عنها، قالت: ((دخَلَ علينا رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم حينَ تُوُفِّيَ عُثمانُ بنُ مَظْعُونٍ، فقُلتُ: رَحمةُ اللهِ عليك أبا السَّائِبِ، فشَهادتي عليك لقد أكرَمَك اللهُ! فقال لي النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: وما يُدريكِ أنَّ اللهَ أكرَمَه؟! فقُلتُ: لا أدري، بأبي أنتَ وأمِّي يا رَسولَ اللهِ! فقال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أمَّا عُثمانُ فقد جاءه -واللهِ- اليَقينُ، وإنِّي لأرجو له الخَيرَ، واللهِ ما أدري وأنا رَسولُ اللهِ ما يُفعَلُ به[1]! قالت: فواللهِ لا أُزكِّي أحدًا بعدَه أبدًا، وأحزَنَني ذلك. قالت: فنِمتُ، فأُرِيتُ لِعُثمانَ عَينًا تَجري، فجِئتُ إلى رَسولِ الله

= بِكُمۡ﴾ أي: في الآخِرةِ- فهو خِلافُ التَّحقيقِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢١٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧).

وممَّن جمَع بيْن القولَينِ: البيضاويُّ، فقال: (﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ﴾ في الدَّارَينِ على التَّفصيلِ؛ إذ لا عِلمَ لي بالغَيبِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢). ويُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٧).

وقال الألوسي: (والَّذي أختاره أنَّ المعنى على نفْيِ الدِّرايةِ مِن غيرِ جهةِ الوحيِ، سواءٌ كانت الدِّرايةُ تَفصيليَّةً أو إجماليَّةً، وسواءٌ كان ذلك في الأمورِ الدُّنيويَّةِ أو الأُخرويَّةِ. وأعتقِدُ أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لم يَنتقِلْ مِن الدُّنيا حتَّى أُوتيَ مِن العِلمِ بالله تعالى وصِفاتِه وشُؤونِه، والعِلمِ بأشياءَ يُعَدُّ العِلمُ بها كمالًا- ما لم يُؤْتَهُ أحدٌ غيرُه مِن العالَمينَ، ولا أعتقِدُ فواتَ كمالٍ بعدَمِ العِلمِ بحوادثَ دُنيويَّةٍ جُزئيَّةٍ؛ كعدَمِ العِلمِ بما يَصنَعُ زَيدٌ مثَلًا في بيتِه، وما يَجري عليه في يَومِه أو غَدِه). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٦٨).

(١) قال ابن كثير: (وفي هذا وأمثالِه دَلالةٌ على أنَّه لا يُقْطَعُ لِمُعَيَّنٍ بالجنَّةِ إلَّا الَّذي نصَّ الشَّارِعُ على تَعْيينِهم؛ كالعَشَرةِ، وابنِ سلَامٍ، والغُمَيْصاءِ، وبِلالٍ، وسُراقَةَ، وعبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ حَرامٍ والدِ جابرٍ، والقُرَّاءِ السَّبعينَ الَّذينَ قُتِلوا ببِئْرِ مَعُونةَ، وزَيدِ بنِ حارثةَ، وجَعْفَرٍ، وابنِ رَواحةَ، وما أشْبهَ هؤُلاءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧).

صلَّى الله عليه وسلَّم، فأخبَرْتُه، فقال: ذاك عَمَلُه))[١].

وفي روايةٍ: ((واللهِ ما أدري -وأنا رَسولُ اللهِ- ما يُفْعَلُ بي ولا بكم))[٢].

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

أي: ما أتَّبِعُ إلَّا ما يُنزِلُه اللهُ عليَّ مِنَ الوَحيِ[٣].

﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: وما أنا لكم إلَّا نَذيرٌ أُبِينُ وأُظهِرُ لكم الإنذارَ مِن عذابِ اللهِ، وأمري بائنٌ ظاهِرٌ لكُلِّ ذي عَقلٍ[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠١٨).

قال ابن حجر: (إنَّما قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ ذلك موافَقةً لِقَولِه تعالى في سورةِ الأحقافِ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾، وكان ذلك قبْلَ نُزولِ قَولِه تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]؛ لأنَّ الأحقافَ مكِّيَّةٌ، وسورةَ الفتحِ مدنيَّةٌ بلا خِلافٍ فيهما، وقد ثبت أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: «أنا أوَّلُ مَن يَدخُلُ الجنَّةَ»، وغير ذلك مِن الأخبارِ الصَّريحةِ في معناه، فيحتملُ أن يُحمَلَ الإثباتُ في ذلك على العِلمِ المُجمَلِ، والنَّفيُ على الإحاطةِ مِن حيثُ التَّفصيلُ). ((فتح الباري)) (٣/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧).

قال البِقاعي: (لا يطَّلِعُ عليه حقَّ اطِّلاعِه غيري، ومنه ما أُخبِرُ فيه عن المُغَيَّباتِ فيَكونُ كما قُلتُ، فلا يُرتابُ في أنِّي لا أقدِرُ على ذلك بنفْسي؛ فعُلِمَ أنَّه مِن اللهِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٦، ١٣٧).

قال ابنُ جرير: (﴿مُّبِينٌ﴾: يقولُ: قد أبان لكم إنذارَه، وأظهَرَ لكم دُعاءَه إلى ما فيه نَصيحتُكم). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٤).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّنُ النِّذارةِ، وأمري ظاهِرٌ لكُلِّ ذي لُبٍّ وعَقلٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧). =

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أثبَتَ أنَّه مِن عندِ اللهِ بشَهادةِ اللهِ نَفْسِه بعَجْزِهم عن المُعارَضةِ؛ قبَّحَ عليهم إصرارَهم على التَّكذيبِ، على تقديرِ شَهادةِ أحَدٍ مِمَّن يَثِقونَ بهم، يَسألونَهم عنه مِن أهلِ الكِتابِ[1].

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: أرأيتُم إن كان هذا القُرآنُ نازِلًا إلَيَّ مِن عندِ اللهِ، ومع ذلك كفَرْتُم به، ألَا تَكونونَ بذلك ظالِمينَ وضالِّينَ عن الحَقِّ[2]؟

= وقد جمَع البِقاعي بيْنَ مَعنَيَيْ ﴿مُّبِينٌ﴾، فقال: (﴿نَذِيرٌ﴾ أي: لكم ولكُلِّ مَن بَلَغه القُرآنُ ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهِرٌ أنِّي كذلك في نَفْسِه، مُظهِرٌ له -أي: كَوني نذيرًا- ولجَميعِ الجُزئيَّاتِ الَّتي أنذَرَ منها بالأدِلَّةِ القَطعيَّةِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٣٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٨).

قال الواحدي: (جوابُ قوله: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ محذوفٌ على تقديرِ: أليس قد ظلَمْتُم؟ ويدُلُّ على هذا المحذوفِ قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقال الحسَنُ [أي: البصريُّ]: جوابُه: فمَنْ أضَلُّ منكم؟ كما قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢]. وقال أبو عليٍّ الفارِسيُّ: تقديرُه: أتأمَنون عُقوبةَ اللهِ؟). ((الوسيط)) (٤/ ١٠٤، ١٠٥).

وقال ابن كثير: (أي: ما ظنُّكم أنَّ اللهَ صانعٌ بكم إن كان هذا الكِتابُ الَّذي جِئتُكم به قد أنزله علَيَّ لِأُبَلِّغَكموه، وقد كفرتُم به وكذَّبْتُموه؟!). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧، ٢٧٨). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢].

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾.

أي: وقد شَهِد مَنْ شَهِدَ مِنْ بني إسرائيلَ على مِثلِ القُرآنِ أنَّه مِن عندِ الله؛ فآمَنَ هو بالقُرآنِ، واستَكبرتُم أنتم -أيُّها المُشرِكونَ- عن الإيمانِ به[1]!

= الماوردي)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٣٦١، ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٧، ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

قال ابنُ جُزَي: (هذه الجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُملةِ الَّتي قبْلَها، فالمعنى: أرأيتُم إنِ اجتمَعَ كَونُ القُرآنِ مِن عندِ الله، مع شَهادةِ شاهِدٍ مِن بني إسرائيلَ على مِثلِه، ثمَّ آمَنَ به هذا الشَّاهِدُ وكَفرتُم أنتم، ألَسْتُم أضَلَّ النَّاسِ وأظلَمَ النَّاسِ؟!). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٥).

اختَلف المفسرونَ في المرادِ بقولِه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ على أقوالٍ؛ منها:

أنَّ المرادَ بالشَّاهِدِ عبدُ الله بنُ سلَامٍ، ونسَبه ابنُ جريرٍ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ، ونسَبه الرَّسْعَنيُّ إلى عامَّتِهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣١، ١٣٢)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٠٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ١٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٦)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٧٣).

قال ابنُ جرير بعدَ أنْ ذكَر أنَّ الأخبارَ قد ورَدت عن جماعةٍ مِن الصحابةِ بأنَّ ذلك عُني به عبدُ الله ابنُ سلامٍ، قال: (وهم كانوا أعلمَ بمعاني القرآنِ، والسببِ الذي فيه نزَل). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣١).

وقال ابن جُزَي: (قيل على هذا: إنَّ الآيةَ مدنيَّةٌ؛ لأنَّه إنَّما أسلَمَ بالمدينةِ. وقيل: إنَّها مكِّيَّةٌ، وأخبَر بشَهادتِه قبْلَ وُقوعِها، ثمَّ وقَعَتْ على حسَبِ ما أخبَر). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٥). ويُنظر ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٩). =

= وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن تكونَ الآيةُ نزلتْ بالمدينةِ، وأُمِرَ بوَضعِها في سورةِ «الأحقافِ»، وعلى هذا يكونُ الخِطابُ لأهلِ الكِتابِ بالمدينةِ وما حَوْلَها. وعندي أنَّه يجوزُ أن يكونَ هذا إخبارًا مِن الله لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما سيَقَعُ مِن إيمانِ عبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ، فيَكونُ هو المرادَ بـ ﴿شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وإن كانت الآيةُ مَكِّيَّةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١).

ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ١٣٠).

وقال ابن حجر: (ولا مانعَ أن تكونَ جميعُها مكِّيَّةً، وتقَعَ الإشارةُ فيها إلى ما سيَقَعُ بعدَ الهِجرةِ مِن شَهادةِ عبدِ الله بنِ سَلَامٍ). ((فتح الباري)) (٧/ ١٣٠).

وقيل: المرادُ به: موسَى بنُ عِمْرانَ عليه السَّلامُ. وممَّن اختاره: مكِّي، وذكَر ابنُ جريرٍ أنَّه أشبهُ بظاهرِ التَّنزيلِ، ونسَبه ابنُ عطيَّةَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٤).

وممَّن قال به مِن السَّلفِ: الشَّعبيُّ، ومسروقٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٥).

وقيل: ليس المقصودُ شاهِدًا واحِدًا بعَينِه، ولكِنَّ المقصودَ جِنسُ الشَّاهِدِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الرَّازيُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ١٧٧، ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨).

قال ابنُ كثير: (هذا الشَّاهِدُ: اسمُ جِنسٍ يَعُمُّ عبدَ اللهِ بنَ سَلَامٍ وغَيرَه؛ فإنَّ هذه الآيةَ مَكِّيَّةٌ نزلت قبْلَ إسلامِ عبدِ الله بنِ سَلامٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨).

وقال ابن تيميَّة: (وقَولُه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ ليس المقصودُ شاهِدًا واحِدًا مُعَيَّنًا، بل ولا يَحتَمِلُ كَونُه واحِدًا. وقَولُ من قال: [إنَّه] عبدُ اللهِ بنُ سَلامٍ- ليس بشَيءٍ؛ فإنَّ هذه نزَلَت بمكَّةَ قبْلَ أن يُعرَفَ ابنُ سَلامٍ، ولكِنَّ المقصودَ جِنسُ الشَّاهِدِ، كما تقولُ: قام الدَّليلُ. وهو الشَّاهِدُ الَّذي يجِبُ تَصديقُه؛ سواءٌ كان واحِدًا قد يَقتَرِنُ بخَبَرِه ما يدُلُّ على صِدقِه، أو كان عَدَدًا يَحصُلُ بخَبَرِهم العِلمُ [بما] تقولُ؛ فإنَّ خَبَرَك بهذا صادِقٌ). ((النبوات)) (١/ ١٧٧).

وقيل: إنَّ قولَه ﴿مِثۡلِهِۦ﴾ صِلةٌ، وإنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ أي: عليه، والمعنى: على أنَّه مِن عندِ اللهِ. وممَّن اختاره: أبو عليٍّ الجُرْجانيُّ -كما في ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٦٩)- والواحدي، والبغوي، والشنقيطي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٩).

قال الشنقيطي: (التَّحقيقُ -إن شاء اللهُ- أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ جاريةٌ على أُسلوبٍ عَربيٍّ =

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٦، ١٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [هود: ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

= معروفٍ، وهو إطلاقُ المِثْلِ على الذَّاتِ نَفْسِها، كقَولِهم: مِثلُك لا يَفعَلُ هذا، يَعْنُونَ: لا يَنبغي لك أنت أن تفعَلَه. وعلى هذا فالمعنى: وشَهِدَ شاهِدٌ مِن بني إسرائيلَ على أنَّ هذا القرآنَ وَحْيٌ مُنَزَّلٌ حَقًّا مِن عندِ اللهِ، لا أنَّه شَهِدَ على شَيءٍ آخَرَ مُماثِلٍ له؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَءَامَنتُمْ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢١٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: مِثلِ القرآنِ: ابنُ أبي زَمَنين، وابنُ تيميَّة، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٢٣)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ١٧٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠).

قال الشوكاني: (﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: القُرآنِ، مِن المعاني الموجودةِ في التَّوراةِ المُطابِقةِ له؛ مِن إثباتِ التَّوحيدِ والبَعثِ والنُّشورِ، وغَيرِ ذلك، وهذه المِثْليَّةُ هي باعتِبارِ تَطابُقِ المعاني، وإن اختَلَفَت الألفاظُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠).

وقال ابن تيميَّة: (قال: ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ وأراد شَهادةَ أهلِ الكِتابِ على مِثْلِ القُرآنِ، وهو شَهادتُهم بما تواتَرَ عنهم مِن أنَّ الرُّسُلَ كانوا رِجالًا، وأنَّهم دَعَوا إلى التَّوحيدِ، وأخبَروا بالمَعادِ). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٨/ ٣٦١).

وقال أيضًا: (إنَّ الشَّاهِدَ مِن بني إسرائيلَ على مِثْلِ القُرآنِ، وهو أنَّ اللهَ بَعَث بَشَرًا، وأنزل عليه كِتابًا أمَرَ فيه بعبادةِ اللهِ وَحْدَه لا شَريكَ له، ونهى فيه عن عِبادةِ ما سِواه، وأخبَرَ فيه أنَّه خَلَق هذا العالَمَ وَحْدَه، وأمثالُ ذلك). ((النبوات)) (١/ ١٧٧).

وقيل: شَهادَتُه أنَّ محمَّدًا مكتوبٌ في التَّوراةِ أنَّه نَبيٌّ، تَجِدُه اليهودُ مكتوبًا عندَهم في التَّوراةِ، كما هو مكتوبٌ في القرآنِ أنَّه نَبيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣١، ١٣٢).

وقيل: المرادُ: على مِثلِ شَهادةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢).

يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۞ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُوَفِّقُ لإصابةِ الحَقِّ القومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ باللهِ، والتَّكبُّرِ عن قَبولِ الحَقِّ مع وُضوحِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

لَمَّا كان المَقامُ مَقامَ تَخويفٍ وإنذارٍ قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأنَّه يُخاطِبُ المُكذِّبينَ، وهذا أسلوبٌ مَعروفٌ في عِلمِ البَلاغةِ: أن يَستَعمِلَ الإنسانُ ما يُوافِقُ مُقتَضَى الحالِ، لكِنْ عندَ وَصفِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الوَصفَ المُطلَقَ يقولُ سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]؛ فبَدَأ بالبِشارةِ قبْلَ الإنْذارِ، وهذا مِن حيثُ حالُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم المُطلَقةُ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

قال ابنُ عاشور: (جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعليلٌ للكلامِ المحذوفِ الدَّالِّ عليه ما قَبْلَه، أي: ضلَلْتُم ضلالًا لا يُرجَى له زَوالٌ؛ لأنَّكم ظالِمونَ، واللهُ لا يَهدي القومَ الظَّالِمينَ. وهذا تسجيلٌ عليهم بظُلمِهم أنفُسَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ هذه الآيةُ صالِحةٌ للرَّدِّ على نصارَى زَمانِنا الَّذين طَعَنوا في نُبُوَّةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بمَطاعِنَ لا مَنشأَ لها إلَّا تَضليلٌ وتَمويهٌ على عامَّتِهم؛ لأنَّ الطَّاعِنينَ ليسوا مِن الغباوةِ بالَّذين يخفَى عليهم بُهتانُهم، كقَولِهم: إنَّه تزَوَّج النِّساءَ، أو أنَّه قاتَلَ الَّذين كَفَروا، أو أنَّه أحَبَّ زَينبَ بنتَ جَحشٍ[1]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَعلَمُ مَصيرَ أمْرِه -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وقد جاءت آيةٌ أخرى تدُلُّ على أنَّه عالِمٌ بأنَّ مَصيرَه إلى الخَيرِ، وهي قَولُه تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ تَنصيصٌ على حُسنِ العاقِبةِ والخاتِمةِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ الله تعالى علَّمَه ذلك بعدَ أن كان لا يَعلَمُه، ويُستأنَسُ له بقَولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ الآيةَ [النساء: ١١٣]، وقَولِه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ الآيةَ [الشورى: ٥٢]، وقَولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، وقَولِه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ الآيةَ [القصص: ٨٦]، وهذا الجوابُ هو معنى قَولِ ابنِ عبَّاسٍ، وهو مرادُ عِكْرِمةَ والحَسَنِ وقَتادةَ بأنَّها مَنسوخةٌ (أي: مُبَيَّنةٌ) بقَولِه تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ﴾ الآيةَ [الفتح: ٢]. ويدُلُّ له أنَّ سورةَ (الأحقافِ) مَكِّيَّةٌ، وسورةَ (الفَتحِ) نزلَتْ عامَ سِتَّةٍ في رُجوعِه صلَّى الله عليه وسلَّم مِنَ الحُدَيبيَةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧).

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ: ما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بكم في الدُّنيا مِنَ الحوادِثِ والوقائِعِ؛ وعليه فلا إشكالَ[(١)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فيه كمالُ عُبوديَّةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم للهِ عزَّ وجلَّ[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أنَّ الشَّرائعَ توقيفيَّةٌ؛ فلا يجوزُ لأحدٍ أنْ يَبتدِعَ منها شَيئًا؛ ولهذا قَرَّرَ أهلُ العلمِ أنَّ الأصلَ في العباداتِ المنعُ والحَظرُ، وأنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أنْ يَتعبَّدَ للهِ تعالى بشَيءٍ إلَّا ما أَذِنَ اللهُ فيه شَرعًا، وهذا حَقٌّ مُستنِدٌ إلى آياتٍ مُتعَدِّدةٍ، وإلى قَولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن أحدَثَ في أمْرِنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ))[(٣)].

٥- ما كان مِن العِلمِ المَوروثِ عن نَبيِّنا مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم فلَنا أنْ نَستَشهِدَ عليه بما عندَ أهلِ الكتابِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد ٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[(٤)] [يونس ٩٤، ٩٥].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢١٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٣).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٢٦٩٧)، ومسلمٌ (١٧١٨) واللَّفظُ له مِن حديثِ عائشةَ رضيَ الله عنها.

(٤) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٤٢٢).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ فيه ردٌّ على مَن قال: لا يَنبغي للشَّاهِدِ أن يقولَ: أشهَدُ على إقرارِ زَيدٍ، بل يقولُ: أشهَدُ به، فالصَّوابُ قَبولُ الشَّهادةِ بهذه الصِّيغةِ[١].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾

- في قولِه: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أُعِيدَ الأمْرُ بأنْ يَقولَ ما هو حُجَّةٌ عليهم، وهذا جَوابٌ عمَّا تَضمَّنَه قَولُهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ [الأحقاف: ٨]؛ مِن إحالَتِهم صِدْقَه فيما جاء به مِن الرِّسالةِ عن اللهِ إحالةً دَعَتْهم إلى نِسبةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الافتراءِ على اللهِ. وإنَّما لم يُعطَفْ على جُملةِ ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾ [الأحقاف: ٨]؛ لأنَّ المَقصودَ الارتِقاءُ في الرَّدِّ عليهم مِن رَدٍّ إلى أقْوى منه؛ فكان هذا كالتَّعدُّدِ والتَّكريرِ[٢].

- ودلَّ قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣] بالإدماجِ[٣] وإشارةِ النَّصِّ على أنَّه تعالَى ضَمَّن فيه ما به أعْرَضوا عن التَّوحيدِ والبَعثِ، والطَّعنَ في الرَّسولِ المُنذِرِ، فقِيل: قُلْ لهم: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآيةَ؛ فدلَّ على أنَّ ذلك الطَّعنَ هو أنَّهم اقْتَرَحُوا عليه الآياتِ، وكانوا يَسْألونَه عمَّا لم يُوحَ إليه مِن الغُيوبِ، ويُؤيِّدُ هذا أنْ فُصِلَتْ الآيةُ بقَولِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ

---

(١) ردَّ بهذه الآيةِ تقيُّ الدِّينِ السُّبْكيُّ على ابنِ أبي الدَّم. يُنظر: ((قضاء الأرب في أسئلة حلب)) للسبكي (ص: ٤٧٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٨١).

مُّبِينٌ﴾؛ لأنَّه مُطابِقٌ لِقَولِه: ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾[١].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ تَتْميمٌ لقَولِه: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، وهو بمَنزِلةِ الاعْتِراضِ؛ فإنَّ المُشرِكين كانوا يَسْألونَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن مُغيَّباتٍ؛ اسْتِهزاءً؛ فأمَرَ اللهُ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُعلِمَهم بأنَّه لا يَدْري ما يُفعَلُ به ولا بهم، أي: في الدُّنيا -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ ولذلك كان قولُه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ اسْتِئنافًا بَيانيًّا، وإتْمامًا لِمَا في قَولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾؛ بأنَّ قُصارَى ما يَدْرِيه هو اتِّباعُ ما يُعلِمُه اللهُ به؛ فهو تَخصيصٌ لِعُمومِه، ومِثْلُ عِلْمِه بأنَّه رَسولٌ مِن اللهِ، وأنَّ المُشرِكين في النَّارِ، وأنَّ وَراءَ الموتِ بَعْثًا[٢].

- ووَجْهُ عَطْفِ ﴿وَلَا بِكُمۡۖ﴾ على ﴿بِي﴾ بإقحامِ (لا) النَّافيةِ، معَ أنَّهما مُتعلِّقانِ بفِعلِ صِلةِ (ما) المَوصولةِ، وليس في الصِّلةِ نَفْيٌ، فلماذا لَمْ يُقَلْ: ما يُفعَلُ بي وبِكُم؛ لأنَّ المَوصولَ وصِلَتَه لَمَّا وقَعَا مَفعولًا لِلْمنفيِّ في قَولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرِي﴾، تَناوَلَ النَّفيُ ما هو في حَيِّزِ ذلك الفِعلِ المَنْفيِّ، فصار النَّفيُ شاملًا لِلْجميعِ؛ فحسُنَ إدْخالُ حَرْفِ النَّفيِ على المَعطوفِ، كما حسُنَ دُخولُ الباءِ الَّتي شأْنُها أنْ تُزادَ فيُجَرَّ بها الاسمُ المَنْفيُّ المعطوفُ على اسمِ (إنَّ)، وهو مُثبَتٌ في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ [الأحقاف: ٣٣]؛ لِوُقوعِ (أنَّ) العامِلةِ فيه في خَبرِ النَّفيِ، وهو ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾[٣]. وقيل: لأنَّ التَّقديرَ: ما أدري ما يُفعَلُ بي،

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٧، ١٨).

وما أدري ما يُفعَلُ بكم[١].

- قولُه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أيْ: ما أفْعَلُ إلَّا اتِّباعَ ما يُوحَى إلَيَّ، على مَعْنى قَصْرِ أفْعالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على اتِّباعِ الوَحْيِ، لا قَصْرِ اتِّباعِه على الوحْيِ، كما هو المُتسارِعُ إلى الأفْهامِ[٢].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ على جُملةِ ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾؛ لأنَّه الغرَضُ المَسوقُ له الكلامُ، بخِلافِ قَولِه: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾، والمعنى: وما أنا إلَّا نِذيرٌ مُبِينٌ لا مُفتَرٍ؛ فالقصْرُ قَصرٌ إضافيٌّ، وهو قصْرُ قَلْبٍ[٣]؛ لِرَدِّ قَولِهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ...﴾ أُعِيدَ الأمْرُ بأنْ يَقولَ لهم حُجَّةً أُخرى؛ لعلَّها تَرُدُّهم إلى الحقِّ بعْدَ ما تَقدَّمَ مِن قَولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٤] الآيةَ، وقولِه: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الأحقاف: ٨] وقولِه: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] الآيةَ. وهذا اسْتِدراجٌ لهم لِلْوصولِ إلى الحقِّ في دَرَجاتِ النَّظرِ؛ فقدْ بادَأَهُم بأنَّ ما أحالُوه مِن أنْ يكونَ رَسولًا مِن عِندِ اللهِ ليس بمُحالٍ؛ إذ لمْ يكُنْ أوَّلَ النَّاسِ جاء برِسالةٍ مِن اللهِ، ثمَّ أعْقَبَه بأنَّ القُرآنَ إذا فَرَضْنا أنَّه مِن عِندِ اللهِ، وقدْ كَفَرْتُم بذلك؛ كيف يكونُ حالُكم عِندَ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٠).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨).

تعالَى؟ وأُقحِمَ في هذا أنَّه لو شَهِدَ شاهدٌ مِن أهْلِ الكِتابِ بوُقوعِ الرِّسالاتِ، ونُزولِ الكُتبِ على الرُّسلِ، وآمَنَ برِسالتي -وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ-؛ كيف يكونُ انْحِطاطُكم عن دَرَجتِه وقدْ جاءَكم كِتابٌ فأعرَضْتُم عنه؟ فهذا كقولِه: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، وهذا تَحْريكٌ لِلهِمَمِ[١].

- والاسْتِفهامُ في ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ تَقريريٌّ للتَّوبيخِ، ومَفعولَا ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ مَحذوفانِ، والتَّقديرُ: أرأَيْتُم أنفُسَكم ظالِمينَ[٢].

- وجِيءَ في الشَّرطِ ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ بحَرْفِ (إنْ) الَّذي شأْنُه أنْ يكونَ في الشَّرطِ غَيرِ المَجزومِ بوُقوعِه؛ مُجاراةً لِحالِ المُخاطَبينَ؛ اسْتِنزالًا لِطائرِ جِماحِهم؛ لِيَنزِلوا لِلتَّأمُّلِ والمُحاوَرةِ[٣]. وفيه مَعنى الاسْتِدراجِ والكلامِ المُنصِفِ؛ لأنَّ كَونَ القُرآنِ مِن عِندِ اللهِ مُتيقَّنٌ مُحقَّقٌ[٤].

- وأيضًا جَوابُ هذا الشَّرْطِ ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مَحذوفٌ؛ دلَّ عليه سِياقُ الجَدَلِ، تَقديرُه: أفتَرَونَ أنفُسَكم في ضَلالٍ؟ أو مَنْ أضَلُّ منكم؟ أو أَلَسْتُم ظالِمينَ؟ ويدُلُّ على هذا المَحذوفِ قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢]، وقَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فإنَّ عَدَمَ الهِدايةِ ممَّا يُنبِئُ عن الضَّلالِ قَطْعًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨، ١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي =

- وقولُه: ﴿وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ حالٌ بإضْمارِ (قَدْ) مِن الضَّميرِ في الخبرِ، وُسِّطتْ بيْنَ أجْزاءِ الشَّرْطِ؛ مُسارَعةً إلى التَّسجيلِ عليهم بالكُفْرِ. أو عطْفٌ على (كانَ)، كما في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ [فصلت: ٥٢]، لكنْ لا على أنَّ نَظْمَه في سلْكِ الشَّرْطِ المُتردِّدِ بيْنَ الوُقوعِ وعَدَمِه عِندَهُم باعْتِبارِ حالِه في نفْسِه، بلْ باعتِبارِ حالِ المَعطوفِ عليه عندَهم؛ فإنَّ كُفْرَهم به أمْرٌ مُحقَّقٌ عِندَهم أيضًا، وإنَّما تَردُّدُهم في أنَّ ذلكَ كُفْرٌ بَما مِن عِندِ اللهِ تعالى أمْ لا، وكذا الحالُ في قولِه تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وما بعدَه مِن الفِعْلَينِ؛ فإنَّ الكُلَّ أُمورٌ مُحقَّقةٌ عندَهُم، وإنَّما تَردُّدُهم في أنَّها شَهادةٌ وإيمانٌ بما مِن عِندِ اللهِ تعالى واسْتِكبارٌ عنه أوْ لا، والمعنى: أخْبِروني إنْ كان ذلك في الحقيقةِ مِن عِندِ اللهِ وكَفَرْتُم به، وشَهِدَ شاهِدٌ عَظيمُ الشَّأنِ مِنْ بني إسْرائيلَ الواقِفينَ على شُؤونِ اللهِ تعالى، وأسْرارِ الوحْيِ بما أُوتُوا مِن التَّوراةِ[1].

- قولُه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ يَجوزُ أنْ يُحمَلَ المِثْلُ على أنَّه كِنايةٌ عمَّا أُضِيفَ إليه لَفظُ (مِثل)؛ فيَكونَ لَفظُ (مِثْل) بمَنزِلةِ المُقحَمِ على طَريقةِ قَولِ العرَبِ: (مِثلُك لا يَبخَلُ)؛ فالمعنَى: وشَهِدَ شاهِدٌ على صِدْقِ القُرآنِ فيما حواهُ[2].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَـَٔامَنَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه سارَعَ إلى الإيمانِ بالقُرآنِ لَمَّا

= السعود)) (٨/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠).

عَلِمَ أنَّه مِن جِنْسِ الوحْيِ النَّاطقِ بالحقِّ[١].

- وجُعِل الإيمانُ في قَولِه: ﴿فَـَٔامَنَ﴾ مُسبَّبًا عن الشَّهادةِ على مِثْلِه؛ لأنَّه لَمَّا عَلِمَ أنَّ مِثلَه أُنزِلَ على مُوسَى صَلواتُ اللهِ عليه، وأنَّه مِن جِنسِ الوحْيِ، وليس مِن كَلامِ البشَرِ، وأنصَفَ مِن نفْسِه، فشَهِدَ عليه واعْترَفَ؛ كان الإيمانُ نتيجةَ ذلك[٢].

- وقد حَسُنَ عطْفُ قَولِه: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ على (آمَنَ)، وتَرْتيبُهما بالفاءِ معًا على المَذكورِ؛ لِيَكونَ إيمانُه واسْتِكبارُهم صادِرَينِ عن أمْرٍ واحدٍ؛ وهو عِرْفانُهم أنَّ القُرآنَ حقٌّ وصِدْقٌ وصَوابٌ، وأنَّه مُعجزةٌ مِن اللهِ، وأنَّ عبْدَ اللهِ بنَ سلَامٍ أنصَفَ فآمَنَ -وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ-، وأنَّ المُشرِكين عانَدوا فكَفَروا[٣].

- والآيةُ مِن الاحتِباكِ[٤]: ذَكَر الإيمانَ أوَّلًا؛ دَليلًا على ضِدِّه ثانيًا، والاستِكبارَ والظُّلْمَ وعَدَمَ الهِدايةِ ثانيًا؛ دَليلًا على أضْدادِها أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذَكَرَ سَبَبَيِ السَّعادةِ؛ تَرغيبًا وتَرهيبًا[٥].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَذْييلٌ لِجُملةِ جَوابِ الشَّرْطِ المُقدَّرةِ، وهي تَعليلٌ أيضًا، والمعنى: أتظُنُّونَ إنْ تَبيَّنَ أنَّ القُرآنَ وَحْيٌ مِن اللهِ، وقد كَفَرْتُم بذلك، فشَهِدَ شاهِدٌ على حقِّيَّةِ ذلك؛ تُوقِنوا أنَّ اللهَ لم يَهْدِكم؛ لأنَّكم ظالِمون، وإنَّ اللهَ لا يَهْدي الظَّالِمينَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧٨).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٤٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩).

- وقدْ وقَعَ قَولُه: ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في مَحَزِّه -أي: مَوضِعِه المُناسِبِ-؛ لأنَّه مِن وضْعِ العامِّ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ لِلإيذانِ بأنَّهم وَضَعوا الاسْتِكبارَ مَوضِعَ الإذعانِ للحقِّ بعْدَ وُضوحِ البيِّناتِ[1].

- وفي قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ...﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في سُورةِ (فُصِّلت): ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فُصِّلت: ٥٢]؛ فزادَ هنا فيها قَولَه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ فإنَّ المُشرِكينَ كانتْ لهم مُخالَطةٌ مع بَعضِ اليَهودِ في مكَّةَ، ولهمْ صِلةٌ بكَثيرٍ منهم في التِّجارةِ بالمدينةِ وخَيبَرَ، فلمَّا ظَهَرتْ دَعوةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم كانوا يَسْألون مَن لَقُوه مِن اليهودِ عن أمْرِ الأدْيانِ والرُّسلِ، فكان اليهودُ لا مَحالةَ يُخبِرون المُشرِكين ببَعضِ الأخبارِ عن رِسالةِ مُوسى وكِتابِه، وكيف أظْهَرَه اللهُ على فِرعونَ؛ فاليَهودُ وإنْ كانوا لا يُقِرُّون برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فهمْ يَتحدَّثون عن رِسالةِ مُوسى عليه السَّلامُ بما هو مُماثِلٌ لِحالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مع قَومِه، وفيه ما يَكْفي لِدَفْعِ إنْكارِهم رِسالتَه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩).

الآيتان (١١-١٢)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿إِفۡكٞ﴾: أي: كَذِبٌ وبُهتانٌ، وقيل: الإفْكُ أسوأُ الكذبِ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[1].

﴿إِمَامٗا﴾: أي: يأتَمُّون به ويَقتَدون ويَهتَدُون، والإمامُ: كلُّ ما ائْتَمَمْتَ به؛ إنسانًا أو كتابًا أو غيرَ ذلك، مُحِقًّا كان أو مُبطِلًا، وجمْعُه: أئِمَّةٌ، وأصلُ (أمم): الأصلُ، والمرجِعُ، والجماعةُ، والدِّينُ[2].

﴿وَبُشۡرَىٰ﴾: البُشرَى والبِشارةُ: الإخبارُ بما يَسُرُّ، وأصلُ (بشر): ظهورُ الشَّيءِ معَ حُسنٍ وجمالٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣، ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٨، ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩١، ٩٣).

وقيل: البِشارةُ: اسمٌ لِخَبَرٍ يُغيِّرُ بَشَرةِ الوجهِ مُطْلَقًا، سارًّا كان أو مُحزِنًا، إلَّا أنَّه غلَب استِعمالُها في الأوَّلِ. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣٩).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾

(هَذَا): اسمُ إشارةٍ، في محَلِّ رَفعٍ مُبتدَأٌ. والمشارُ إليه: القرآنُ. ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبَرُ المبتدأِ مَرفوعٌ. ﴿مُّصَدِّقٌ﴾: نَعتٌ مَرفوعٌ، ومُتعَلَّقُه محذوفٌ، يعني: مُصَدِّقٌ للتَّوراةِ ولِما قبْلَه مِن الكُتُبِ.

﴿لِّسَانًا﴾: في نَصبِه أوجُهٌ:

أحَدُها: أنَّه حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أي: مَلفوظًا به على لسانِ العربِ؛ لِكَونِ القَومِ عربًا.

الثَّاني: أنَّه حالٌ مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾؛ لِتخَصُّصِه بالوَصفِ. و﴿عَرَبِيًّا﴾: صِفةٌ لـ﴿لِّسَانًا﴾، وهو المُسوِّغُ لوُقوعِ الجامِدِ ﴿لِّسَانًا﴾ حالًا.

الثَّالثُ: أنَّ ﴿عَرَبِيًّا﴾ هو الحالُ، و ﴿لِّسَانًا﴾ تَوطِئةٌ للحالِ ذُكِرَت توكيدًا. والمعنى: مُصَدِّقٌ لِما بيْنَ يَدَيه عَرَبيًّا.

الرَّابعُ: أنَّ ﴿لِّسَانًا﴾ مَفعولٌ به لاسمِ الفاعِلِ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، والمرادُ به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، على نيَّةِ حَذفِ مُضافٍ، أي: مُصَدِّقٌ ذا لسانٍ عَربيٍّ، أي: وهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

قَوْله: ﴿وَبُشْرَىٰ﴾: مَعطوفٌ على ﴿كِتَٰبٌ﴾ أو ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ مَرفوعٌ. بمعنى: وهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ وبُشرى للمُحسِنينَ، أو خبَرٌ لِمُبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه (هو). ويجوزُ أن يكونَ مَنصوبًا عَطفًا على محَلِّ ﴿لِّيُنذِرَ﴾؛ لأنَّه مَفعولٌ لأجْلِه، تقديرُه: للإنذارِ وللبُشرَى. أو هو مَنصوبٌ على المَصدَرِ، على معنى: لِيُنذِرَ الَّذين ظَلَموا

ويُبَشِّرَ المُحسِنينَ بُشرَى[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى بعضَ شبهاتِ المشركينَ وأعذارِهم الواهيةِ في عدَمِ الإيمانِ، فيقولُ: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ عن المُؤمِنينَ: لو كان هذا القُرآنُ خَيرًا ما سَبَقَنا إلى الإيمانِ به واتِّباعِه هؤلاء الفُقَراءُ المُستَضعَفونَ، ولَسَبَقْناهم إليه؛ فنحن أشرَفُ منهم! وإذ لم يَهتدِ المُشرِكونَ بالقُرآنِ فسيَقولونَ: هذا القُرآنُ كَذِبٌ مِن أخبارِ الأقدَمينَ!

ثمَّ يُثْني الله تعالى على القرآنِ، ويُبيِّنُ تصديقَه للتَّوراةِ، فيقولُ: ومِن قَبْلِ هذا القُرآنِ التَّوراةُ الَّتي أُنزِلَت على موسى إمامًا لبني إسرائيلَ يأتَمُّونَ بما فيها، ورحمةً لهم، وهذا القُرآنُ كِتابٌ مُصَدِّقٌ للتَّوراةِ باللُّغةِ العَربيَّةِ على نحوٍ واضِحٍ فَصيحٍ؛ لِيُخوِّفَ القُرآنُ الَّذين ظَلَموا بشِركِهم أو عِصيانِهم، وهو بُشْرى بالخَيرِ في الدُّنيا والآخِرةِ للمُحسِنينَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذه شُبهةٌ أُخرى لِلقَومِ في إنكارِ نُبوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢]،

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٥١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤١)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٦٥)، ((روح البيان)) لإسماعيل حقي (٨/ ٤٧١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢).

وحِكايةُ خَطأٍ آخَرَ مِن أخْطاءِ حُجَجِ المُشرِكين الباطِلةِ، وهو خَطأٌ مَنْشَؤهُ الإعجابُ بأنفُسِهم، وغُرورُهم بدينِهم؛ فاستدَلُّوا على أنْ لا خَيرَ في الإسلامِ بأنَّ الَّذينَ ابتَدَروا الأخذَ به ضُعفاءُ القَومِ، وهم يَعُدُّونَهم مُنحَطِّينَ عنهم، فهمُ الَّذين قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]! ومُناسَبتُه لِمَا قبْلَه: أنَّه مِن آثارِ اسْتِكبارِهم؛ فناسَبَ قَولَه: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾[١] [الأحقاف: ١٠].

وأيضًا لَمَّا دَلَّ على أنَّ تَرْكَهم للإيمانِ إنَّما هو تَعمُّدٌ للظُّلمِ؛ استِكبارًا، عَطَفَ على قَولِهم: إنَّه سِحْرٌ. ما دَلَّ على الاستِكبارِ، فقال تعالى[٢]:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ عن المُؤمِنينَ بالقُرآنِ: لو كان هذا القُرآنُ خَيرًا ما سبَقَنا إلى الإيمانِ به واتِّباعِه هؤلاء المُستَضعَفونَ الفُقَراءُ الأذِلَّاءُ، ولَبَادَرْنا إليه قَبْلَهم؛ فنحن أشرَفُ منهم وأعَزُّ، وأكثَرُ أموالًا وأولادًا[٣]!

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣].

﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾.

أي: وحينَ لا يَهتدي المُشرِكونَ بالقُرآنِ فإنَّهم سيَقولونَ: هذا القُرآنُ الَّذي جاء به محمَّدٌ كَذِبٌ مِن أخبارِ الأقدَمينَ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٩، ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١، ٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٠)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان: ٥].

﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ القَومَ طَعَنوا في صِحَّةِ القُرآنِ، وقالوا: لو كان خَيرًا ما سبَقَنا إليه هؤلاء! وكأنَّه تعالى قال: الَّذي يدُلُّ على صِحَّةِ القُرآنِ أنَّكم لا تُنازِعونَ في أنَّ اللهَ تعالى أنزَلَ التَّوراةَ على موسى عليه السَّلامُ، وجَعَل هذا الكِتابَ إمامًا يُقتدَى به، ثمَّ إنَّ التَّوراةَ مُشتَمِلةٌ على البِشارةِ بمَقْدَمِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فإذا سَلَّمتُم كَونَ التَّوراةِ إمامًا يُقتدَى به، فاقبَلوا حُكْمَه في كَونِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم حَقًّا مِنَ اللهِ تعالى(١).

﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗ ﴾.

أي: ومِن قَبْلِ هذا القُرآنِ التَّوراةُ الَّتي أُنزِلَت على موسى إمامًا لبني إسرائيلَ يأتَمُّونَ بما فيها، ورحمةً لهم في الدُّنيا والآخِرةِ إنِ اتَّبَعوها(٢).

كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ

= كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

قال القرطبي: (في الكلامِ حَذفٌ، أي: فلم تَهتَدوا به؛ وذلك أنَّه كان في التَّوراةِ نَعتُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والإيمانُ به، فتركوا ذلك). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩١).

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ١٧، ١٨].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾.

أي: وهذا القُرآنُ مُصَدِّقٌ للتَّوراةِ ولِكُتبِ اللهِ السَّابقةِ، حالَ كَونِه لسانًا عربيًّا فَصيحًا واضحًا[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أي: للكُتُبِ الَّتي قَبْلَه: البغويُّ، والقرطبي، وابنُ جُزَي، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

قال السعدي: (﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ للكُتُبِ السَّابِقةِ؛ شَهِدَ بصِدقِها، وصَدَّقَها بمُوافَقتِه لها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أي: لكِتابِ موسى؛ التَّوراةِ، واقتصر عليها: ابنُ جرير، والسمعاني، وابن عطية، والرازي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٤، ١٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣).

قال ابن عطية: (﴿مُّصَدِّقٌ﴾ معناه: للتَّوراةِ الَّتي تضَمَّنَت خبَرَه وأمْرَ مُحمَّدٍ، فجاء هو مُصَدِّقًا لذلك الإخبارِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٥).

وقال ابنُ جرير: (على قَولِ مَن جَعَل اللِّسانَ نَصبًا على الحالِ، وجعَلَه مِن صِفةِ الكِتابِ: يَنبغي أن يكونَ تأويلُ الكلامِ: وهذا كِتابٌ بلِسانٍ عَربيٍّ مُصَدِّقٌ التَّوراةَ كِتابَ موسى بأنَّ مُحمَّدًا لله رَسولٌ، وأنَّ ما جاء به مِن عندِ اللهِ حَقٌّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٤).

وقال ابنُ جُزَي: (وقيل: ﴿لِّسَانًا﴾ مَفعولٌ بـ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أي: صَدَّق ذا لِسانٍ عَربيٍّ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. واختار هذا ابنُ عطيَّةَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٦). =

كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

أي: لِيُخوِّفَ القُرآنُ الظالِمينَ، ويُحذِّرَهم مِن عذابِ اللهِ إنِ استمَرُّوا على ظُلمِهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢].

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: وهذا القُرآنُ بُشرَى بالخَيرِ في الدُّنيا والآخِرةِ للَّذين أحسَنوا في إيمانِهم

= قال ابن عطية: (فكان القُرآنُ بإعجازِه وأحوالِه البارِعةِ يُصَدِّقُ الَّذي جاء به. وهذا قَولٌ صَحيحُ المعنى جيِّدٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥، ٢٦).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالَّذين ظَلَموا: المُشرِكونَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والبغويُّ، وابنُ كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٨٦).
قال ابنُ عاشور: (و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هم المُشرِكونَ؛ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ويَلحَقُ بهم الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم مِنَ المؤمِنينَ؛ ولذلك قُوبِلَ بالمُحسِنينَ، وهم المُؤمِنونَ الأتقياءُ؛ لأنَّ المرادَ ظُلْمُ النَّفْسِ، ويُقابِلُه الإحسانُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦).
وقال السعدي: (﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفُسَهم بالكُفرِ والفُسُوقِ والعِصيانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

وطاعتِهم لله[١].

كما قال الله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] أي: قالوا عن المؤمِنينَ بالقُرآنِ: لو كان القُرآنُ خَيرًا ما سَبَقَنا هؤلاء إليه -يَعْنُونَ: بِلالًا وعَمَّارًا، وصُهَيبًا وخَبَّابًا، وأشباهَهم وأقرانَهم مِنَ المُستَضعَفينَ والعَبيدِ والإماءِ-[٢]؛ فمِن عاداتِ أهلِ الجاهليَّةِ: الاستِدلالُ على بُطلانِ الشَّيءِ بسَبْقِ الضُّعَفاءِ إليه! كما قال اللهُ عن المُشرِكينَ: إنَّهم يقولونَ: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، وهذا مِن أبطَلِ الباطِلِ؛ لأنَّ الحَقَّ ليس اتِّباعُه مَوقوفًا على طَبَقةٍ مِن النَّاسِ، بل اتِّباعُ الحَقِّ مِنَّةٌ يَمُنُّ اللهُ بها على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه ويُوَفِّقُه لها، فالاستِدلالُ على الشَّيءِ بأنَّه حَقٌّ باتِّباعِ الأغنياءِ له أو ذَوِي الجاهِ، والاستِدلالُ على أنَّه باطِلٌ باتِّباعِ الضُّعَفاءِ: هذا مِعيارُ أهلِ الجاهِليَّةِ، لا يجوزُ أن يُتَّخَذَ مِيزانًا يُوزَنُ به مَعرِفةُ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ؛ ولهذا يقولُ العُلَماءُ: الحَقُّ لا يُعرَفُ بالرِّجالِ، وإنَّما يُعرَفُ الرِّجالُ بالحَقِّ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾، فيَنبغي للإنسانِ الدَّاعي إلى اللهِ تعالى أن يُعامِلَ النَّاسَ بما تُعامِلُ به الرُّسُلُ أقوامَها؛ فتارةً يُبَشِّرُ، وتارةً يُنذِرُ؛ لأنَّه إنْ سَلَكَ سبيلَ البِشارةِ دائِمًا أدخَلَ النَّاسَ في الإرجاءِ، وإنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((شرح مسائل الجاهلية)) لصالح الفوزان (ص: ١١١).

سَلَك سبيلَ الإنذارِ دائِمًا أدخَلَ النَّاسَ في القُنوطِ واليَأسِ[١].

٣- قِيل: ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ دُونَ (الَّذين أحْسَنوا)، بعْدَ قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، أي: لِيُنذِرَ الَّذين وُجِدَ منهم الظُّلمُ، ويُبشِّرَ الَّذين ثَبَتوا واسْتَقاموا على الإحسانِ والإخلاصِ، إعلامًا بأنَّ الإنسانَ مُفتقِرٌ إلى ما يُهذِّبُ به نفْسَه ويُقوِّمُ أوَدَه -أي: عِوَجَه- كلَّ الافتقارِ؛ لأنَّ الاستقامةَ على الصِّراطِ السَّويِّ لا تُوجَدُ إلَّا في الأفرادِ؛ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ومِن ثَمَّ عَلَّلَ بِشارةَ المُحسنينَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾[٢] [الأحقاف: ١٣، ١٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قد نَبَّهَ اللهُ سُبحانَه على أنَّ مَزاعِمَ المشركينَ كلَّها ناشِئةٌ عن كُفْرِهم واسْتِكبارِهم بقَولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقَولِه: ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقَولِه: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقَولِه: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾ الآيةَ. وإذ قد كانتْ مَقالاتُهم راميةً إلى غَرَضٍ واحدٍ -وهو تَكذيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- كان تَوزيعُ أسْبابِها على مُختلِفِ المَقالاتِ مُشْعِرًا بأنَّ جَميعَها أسبابٌ لِجَميعِها[٣].

٢- قال تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، وأمَّا أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ فيَقولونَ في كُلِّ فِعلٍ وقَولٍ لم يَثبُت عن الصَّحابةِ: هو بِدعةٌ؛ لأنَّه لو كان خيرًا لَسَبَقونا إليه؛ لأنَّهم لم يَترُكوا خَصلةً مِن خِصالِ الخَيرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢).

إلَّا وقد بادَروا إليها[١].

٣- في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ تَنْبيهٌ منه سُبحانَه لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تَماديهم في العِنادِ، وإقناطٌ له عن إيمانِهم، وتَسْليةٌ عن طَعْنِهم، وأنَّهم حِينَ لم يَهْتَدوا بهذا الكلامِ المُنصِفِ ظَهَرَ عِنادُهم، فأعْلَمَ أنَّهم لا يَهْتَدون بعْدَ ذلك أبدًا، ويَستمِرُّ منْهم حِينًا بعْدَ حِينٍ الطَّعنُ في القُرآنِ؛ فتارةً يقولونَ: أساطيرُ الأوَّلينَ، وأُخرى: إنَّه سِحرٌ مُبينٌ، وإفكٌ قَديمٌ، وأمْثالُ ذلك[٢].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ إبْطالٌ لِإحالتِهم أنْ يُوحِيَ اللهُ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بأنَّ الوحْيَ سُنَّةٌ إلهيَّةٌ سابقةٌ مَعلومةٌ، أشْهَرُه كِتابُ مُوسى، أي: التَّوراةُ، وهمْ قد بَلَغَتْهم نُبوَّتُه مِن اليَهودِ[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ هذا ثَناءٌ عَظيمٌ على القُرآنِ بأنَّه احتوَى على كُلِّ ما في الكُتُبِ السَّماويَّةِ، وجاء مُغْنيًا عنها، ومُبَيِّنًا لِما فيها، والتَّصديقُ يُشعِرُ بأنَّه حاكِمٌ على ما اختُلِفَ فيه منها[٤].

٦- قال تعالى: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ فزادَ اللهُ القُرآنَ ثَناءً بكَونِه لِسانًا عَرَبيًّا، أي: لُغةً عَربيَّةً؛ فإنَّها أفصَحُ اللُّغاتِ، وأنفَذُها في نُفوسِ السَّامِعينَ، وأحَبُّ اللُّغاتِ لِلنَّاسِ؛ فإنَّها أشرَفُ وأبلَغُ وأفصَحُ مِن اللُّغةِ الَّتي جاء بها كِتابُ مُوسى عليه السَّلامُ، ومِن اللُّغةِ الَّتي تَكلَّمَ بها عِيسى عليه السَّلامُ ودَوَّنَها أتْباعُه أصحابُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٥).

الأناجيلِ[١].

٧- قال الله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فلَمَّا عبَّرَ عن الكُفَّارِ بالَّذين ظَلَموا عبَّرَ عن المؤمِنينَ بالمُحسِنينَ؛ لِيُقابِلَ بلَفظِ الإحسانِ لَفظَ الظُّلمِ[٢].

٨- قال الله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فالرِّسالاتُ منحصِرةٌ في شيئينِ، لا ثالثَ لهما؛ وهما: البِشارةُ والإنذارُ؛ لأنَّ النَّاسَ يَنقسِمون بالنِّسبةِ للرِّسالاتِ إلى قِسمَينِ: مطيعٍ فله البِشارةُ، وعاصٍ فله الإنذارُ[٣].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠]، على مَعْنى: أخْبِروني إنِ اجْتَمَعَ كَونُ القُرآنِ مِن عِندِ اللهِ مع كُفْرِكُم به، واجتَمَعَ شَهادةُ أعلَمِ بني إسرائيلَ على نُزولِ مِثلِه، وإيمانُه به مع اسْتِكْبارِكم عنه وعن الإيمانِ به؛ أَلَسْتُم ظالِمينَ[٤]؟

- واللَّامُ في قَولِه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لامُ التَّعليلِ مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ، هو حالٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، تَقديرُه: مُخصِّصينَ أو مُريدِين[٥].

- قولُه: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾ العامِلُ في (إذ) مَحْذوفٌ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١).

لِدَلالةِ الكلامِ عليه، وتَقديرُه: وإذْ لم يَهْتَدوا به ظهَرَ عِنادُهم، فسَيَقولون: هذا إفكٌ قَديمٌ، وقولُه: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مُسبَّبٌ عن الجوابِ المَحذوفِ[١].

- ولَمَّا كانتْ (إذ) ظَرْفًا للزَّمنِ الماضي، وأُضِيفَت هنا إلى جُملةٍ واقِعةٍ في الزَّمنِ الماضي -كما يَقْتضيهِ النَّفْيُ بحَرْفِ (لمْ)- تَعيَّنَ أنَّ الإخبارَ عنه بأنَّهم سَيَقولون: هذا إفْكٌ، أنَّهم يَقولونَه في المُستقبَلِ، وهو مُؤْذِنٌ بأنَّهم كانوا يَقولون ذلك فيما مضَى أيضًا؛ لأنَّ قَولَهم ذلك مِن تَصاريفِ أقْوالِهم الضَّالَّةِ المَحْكيَّةِ عنهم في سُوَرٍ أُخرى نَزَلَتْ قبْلَ هذه السُّورةِ، فعُبِّرَ عن وُقوعِها ثُمَّ دَوامِها بصِيغةِ الاستِقبالِ ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾[٢].

- وحيثُ قُدِّم الظَّرفُ في الكلامِ على عامِلِه أُشرِبَ معنى الشَّرطِ، وهو إشرابٌ واردٌ في الكلامِ، وكثيرٌ في (إذ)؛ ولذلك دخَلَتِ الفاءُ في جَوابِه هنا في قَولِه: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ (إذ) للتَّعليلِ، وتَتعلَّقُ (إذ) بـ (يَقولون)، وإنَّما انتظَمَتِ الجُملةُ هكذا؛ لإفادةِ هذه الخُصوصيَّاتِ البَلاغيَّةِ؛ فالواوُ للعطْفِ، والمعطوفُ في مَعنى شَرْطٍ، والفاءُ لِجَوابِ الشَّرطِ، وأصْلُ الكَلامِ: وسَيَقولون: هذا إفكٌ قَديمٌ؛ إذْ لمْ يَهْتدُوا به[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أُتْبِعَ إبطالُ تُرَّهاتِهم الطَّاعنةِ في القُرآنِ بهذا الكلامِ المُفيدِ زيادةَ الإبطالِ لِمَزاعِمِهم بالتَّذكيرِ بنَظيرِ القُرآنِ ومَثيلٍ له مِن كُتُبِ اللهِ تعالَى هو مَشْهورٌ عِندَهم، وهو التَّوراةُ، مع التَّنويهِ بالقُرآنِ ومَزِيَّتِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣).

والنَّعْيِ عليهم؛ إذ حَرَموا أنفُسَهم الانتفاعَ بها؛ فعُطِفَت هذه الآيةُ على الَّتي قبْلَها لِارْتباطِها بها في إبْطالِ مَزاعِمِهم، وفي أنَّها ناظِرةٌ إلى قَولِه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾[1] [الأحقاف: ١٠].

- وتَقديمُ ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ﴾ لِلاهتِمامِ بهذا الخبَرِ؛ لأنَّه مَحلُّ القصْدِ مِن الجُملةِ[2].

- وعُبِّرَ عن التَّوراةِ بأنَّها ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ بطَريقِ الإضافةِ دُونَ الاسمِ العَلَمِ -وهو التَّوراةُ-؛ لِمَا تُؤذِنُ به الإضافةُ إلى اسمِ مُوسى مِن التَّذكيرِ بأنَّه كِتابٌ أُنزِلَ على بَشَرٍ، كما أُنزِلَ القُرآنُ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تَلْميحًا إلى مَثارِ نَتيجةِ قِياسِ القُرآنِ على كِتابِ مُوسى بالمُشابَهةِ في جَميعِ الأحوالِ[3].

- قولُه: ﴿إِمَامٗا وَرَحۡمَةً﴾ الإمامُ: هو الشَّيءُ الَّذي يجعلُه العاملُ مِقياسًا لعَملِ شَيءٍ آخَرَ، ويُطلَقُ إطلاقًا شائعًا على القُدوةِ، وعُبِّرَ بالإمامِ عن كِتابِ مُوسى؛ لأنَّه يُرشِدُ إلى ما يجِبُ عَمَلُه؛ فهو كمَن يُرشِدُ ويَعِظُ، ومُوسى إمامٌ أيضًا بمَعنى القُدْوةِ[4].

- والرَّحمةُ: اسْمُ مَصدرٍ لِصِفةِ الرَّاحِمِ، ووَصْفُ الكِتابِ بالرَّحمةِ؛ لِكَونِه سَببًا في نفْعِ المُتَّبِعينَ؛ لِمَا تَضمَّنَه مِن أسبابِ الخَيرِ في الدُّنيا والآخرةِ. ووَصْفُ الكِتابِ بالمَصدرِ (رَحْمة) مُبالَغةٌ في التَّعبيرِ، ومُوسى أيضًا رَحمةٌ لرسالتِه، كما وُصِفَ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّه رَحمةٌ لِلعالَمينَ[5].

- وقولُه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ ...﴾ إلخ هو المَقيسُ على كِتابِ مُوسَى،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٤، ٢٥).

والإشارةُ إلى القُرآنِ؛ لأنَّه حاضِرٌ بالذِّكرِ، فهو كالحاضِرِ بالذَّاتِ[١].

- وأُطلِقَ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، ولم يَقُلْ: (مُصدِّقٌ له)، أي: لِكِتابِ مُوسَى، وحُذِفَ مَفعولُه؛ تَعْميمًا؛ لِيَشملَ جَميعَ الكُتبِ السَّماويَّةِ، وإيذانًا بأنَّه مُصدِّقٌ لها كلِّها، ولا سيَّما نفْسِه؛ لِكَونِه مُعجِزًا نازِلًا بلِسانٍ عَربيٍّ مُبينٍ، تُحُدِّيَ به العرَبُ العَرْباءُ، فأُفْحِموا، ومع ذلك أنَّه نَذيرٌ لِلَّذِين ظَلَموا، بَشيرٌ لِلمُحسِنينَ[٢].

- قولُه: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أُدمِجَ لَفظُ ﴿لِّسَانًا﴾؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ المُرادَ بعَربيَّتِه عَربيَّةُ ألْفاظِه لا عَربيَّةُ أخْلاقِه وتَعاليمِه؛ لأنَّ أخْلاقَ العرَبِ يومَئذٍ مُختلِطةٌ مِن مَحاسِنَ ومَساوِئَ، فلمَّا جاء الإسلامُ نَفى عنها المَساوِئَ[٣].

- وقولُه: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بـ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾؛ لأنَّ ما سَبَقه مُشتمِلٌ على الإنذارِ والبِشارةِ، والأحسَنُ أنْ يَتعلَّقَ بما في كِتابٍ مِن مَعنى الإرشادِ المُشتمِلِ على الإنذارِ والبِشارةِ؛ لِيَكونَ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ عِلَّةً لِلْكتابِ باعتبارِ صِفتِه وحالِه[٤].

- وعلى قِراءةِ ﴿لِتُنذِرَ﴾ بالمُثنَّاةِ الفوقيَّةِ[٥]، على أنَّه خطابٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيَحصُلُ وَصْفُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّه مُنذِرٌ، ووَصْفُ كِتابِه بأنَّه بُشْرَى، وفيه احْتِباكٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٥، ٢٦).

(٥) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦).
وقد تقدَّم تعريفُ الاحتباكِ (ص: ٤٦).

- وفي قولِه: ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ قيل: ﴿لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ولمْ يُقَلْ: (لِلْعادلينَ) بعْدَ قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لِيَكونَ ذَرِيعةً إلى البِشارةِ بقولِه: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] لِمَن قال: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾[(١)].

- قولُه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ هذا النَّظمُ يَجعَلُ الجُملةَ بمَنزِلةِ الاحْتِراسِ[(٢)] والتَّتْميمِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٤).

(٢) الاحتراسُ: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ، والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفَعُ ذلك الاحتمالَ. أو: الإتيانُ في كلامٍ يُوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه بعضُهم التَّكميلَ. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢٠٨)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ١٩٥)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦).

والتَّتميمُ: هو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِح مِن الكلامِ نقَص معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) للعصام (٢/ ٩٤)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ١٩٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٤٤)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٨).

الآيتان (١٢-١٤)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما أعدَّه لِمَنِ استقام مِنَ المؤمنينَ: إنَّ الَّذين قالوا: ربُّنا اللهُ، ثمَّ استقاموا بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه؛ فلا خَوفٌ عليهم ممَّا يَستَقبِلونَ، ولا هم يَحزَنونَ على ما مضى. أولئك هم أهلُ الجنَّةِ خالِدينَ فيها أبدًا؛ ثَوابًا مِنَ اللهِ لهم بما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا مِن الصَّالِحاتِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا قرَّر دلائِلَ التَّوحيدِ والنُّبُوَّةِ، وذكَرَ شُبُهاتِ المُنكِرينَ وأجاب عنها؛ ذكَرَ بعدَ ذلك طَريقةَ المُحِقِّينَ والمُحَقِّقينَ[1].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى حالةَ المُحسِنينَ؛ شرَحَ أمْرَهم، فقال مُستأنِفًا في جوابِ مَن سأل عنهم، وعن بُشراهم[2]:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾.

أي: إنَّ الَّذين قالوا: ربُّنا اللهُ وَحْدَه، ثمَّ استقاموا على توحيدِ اللهِ، وامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه، وداوَموا على طاعتِه مُدَّةَ حَياتِهم بما شَرَع بلا مَيلٍ ولا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٣).

اعوِجاجٍ، ولا إفراطٍ منهم ولا تَفريطٍ[١].

عن سُفْيانَ بنِ عبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحدًا بَعْدَك. قال: قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، فاستَقِمْ))[٢].

﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: أولئك لا خَوفٌ عليهم مِن أيِّ شَرٍّ ومَكروهٍ في مُستَقبَلِ زَمانِهم[٣].

﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

أي: ولا هم يَحزَنونَ على ما مضَى[٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: أولئك هم أهلُ الجنَّةِ الملازِمونَ لها، المُختَصُّونَ بها، يَمكُثونَ فيها أبدًا[٥].

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ثوابًا مِنَ اللهِ لهم؛ بسَبَبِ ما كانوا يَعمَلونَه في الدُّنيا مِن الصَّالِحاتِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠، ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٢-٢٨٤).

(٢) رواه مسلم (٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ دالٌّ على أنَّ مَنْ آمَنَ باللهِ وعَمِل صالِحًا، فإنَّهم بعدَ الحَشرِ لا يَنالُهم خَوفٌ ولا حُزنٌ[١].

٢- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ تأمَّلْ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ أتى بـ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالَّةِ على التَّرتيبِ بمُهلةٍ، يعني: أنَّ إيمانَهم لم يكنْ إيمانًا خاطِفًا؛ آمَنَ ثمَّ زال، بل إيمانٌ مُستَقِرٌّ؛ لأنَّهم استقاموا على دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ أنَّ مُجرَّدَ العقيدةِ لا يُغْني شَيئًا حتَّى يكونَ معه عَمَلٌ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الأحسَنُ أنْ يُعَبِّرَ النَّاسُ عن الرَّجُلِ المستقيمِ على الدِّينِ بـ«مُستَقيم»، لا بـ«مُلتَزِم»؛ لأنَّ هذا هو الَّذي جاء في القُرآنِ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾، لم يَقُلْ: «ثمَّ التَزَموا»؛ فالتَّعبيرُ عن التَّدَيُّنِ بـ«مُستقيم» هو المطابِقُ للقرآنِ، وهو أحسَنُ مِن كلمةِ «المُلتَزِم»، على أنَّ المُلتَزِمَ عندَ الفُقهاءِ

= (ص: ٧٨١).

قال البيضاوي: (و﴿جَزَآءَۢ﴾ مصدرٌ لفعلٍ دلَّ عليه الكلامُ، أي: جُوزوا جزاءً). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧١).

له معنًى آخَرُ[١] غيرُ الاستِقامةِ على الدِّينِ، كما هو معروفٌ في أحكامِ أهلِ الذِّمَّةِ وغيرِ ذلك[٢].

٢- قَولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لا يَدخُلُ أحدٌ منكم الجنَّةَ بعمَلِه))[٣] لا يُناقِضُ قَولَه تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ فإنَّ المَنفيَّ نُفِيَ بباءِ المُقابَلةِ والمُعاوَضةِ، كما يُقالُ: بِعتُ هذا بهذا؛ وما أُثبِتَ أُثبِتَ بباءِ السَّبَبِ؛ فالعَمَلُ لا يُقابِلُ الجزاءَ، وإن كان سَبَبًا للجَزاءِ؛ ولهذا مَن ظَنَّ أنَّه قام بما يجِبُ عليه، وأنَّه لا يحتاجُ إلى مَغفِرةِ الرَّبِّ تعالى وعَفْوِه، فهو ضالٌّ، كما ثَبَت في الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: ((لن يُدخِلَ أحَدًا منكم عَمَلُه الجنَّةَ. قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟! قال: ولا أنا إلَّا أن يَتغَمَّدَنيَ اللهُ منه بفَضلٍ ورَحمةٍ))[٤]، وفي روايةٍ: ((بمغفرةٍ ورحمةٍ))[٥]. ومِن هذا أيضًا الحَديثُ الَّذي في السُّنَنِ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: ((لو أنَّ اللهَ عذَّب أهلَ سَمَواتِه وأهلَ أرضِه لَعَذَّبهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، ولو رَحِمَهم كانت رحمتُه خيرًا لهم مِن أعمالِهم)) الحديثَ[٦].

---

(١) قال الحَطَّابُ في بيانِ معنى الالتزامِ في عُرفِ الفُقهاءِ: (هو إلزامُ الشَّخصِ نفْسَه شيئًا مِن المعروفِ مُطلقًا أو مُعلَّقًا على شيءٍ بمعنى العطيَّةِ، وقد يُطلَقُ في العُرفِ على ما هو أخصُّ مِن ذلك). ((تحرير الكلام في مسائل الالتزام)) (ص: ٦٨).

وفي ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٦/ ١٥٢): (الملتزمُ هو مَن التزَم بأمرٍ مِن الأمورِ؛ كتسليمِ شَيءٍ، أو أداءِ دَينٍ، أو القيامِ بعمَلٍ، والالتزاماتُ متنوِّعةٌ على ما هو معروفٌ).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨١٦)، وأحمدُ (٧٤٧٩) واللَّفظُ له، مِن حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨١٦) (٧٥) من حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم (٢٨١٦) (٧٣).

(٦) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (٧٧)، وأحمدُ (٢١٥٨٩) مِن حديثِ زَيدِ بنِ ثابتٍ رضيَ الله عنه.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٧٢٧)، وابنُ القيِّم في ((شفاء العليل)) (١/ ٣٤٣)، =

ومَن قال: بل للمَخلوقِ على اللهِ حَقٌّ، فهو صَحيحٌ إذا أراد به الحَقَّ الَّذي أخبَرَ اللهُ بوُقوعِه؛ فإنَّ اللهَ صادِقٌ لا يُخلِفُ الميعادَ، وهو الَّذي أوجَبَه على نَفْسِه، بحِكمتِه وفَضْلِه ورَحمتِه[١]!

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ اسْتِئنافٌ بَيانيٌّ أُوثِرَ بصَريحِه جانبُ المُؤمِنينَ مِن المُستمِعينَ لِلقُرآنِ؛ لأنَّهم لَمَّا سَمِعوا البُشْرى تَطلَّعوا إلى صِفةِ البُشْرى، وتَعْيينِ المُحسنينَ؛ لِيَضَعوا أنفُسَهم في حاقِّ مَواضِعِها، فأُجِيبوا بأنَّ البُشْرى هي نفْيُ الخَوفِ والحُزْنِ عنهم، وأنَّهم أصحابُ الجنَّةِ، وأنَّ المُحسنينَ همُ الَّذين قالوا: رَبُّنا اللهُ، ثمَّ اسْتَقاموا في أعمالِهم. وأُشِيرَ بمَفْهومِه إلى التَّعريضِ بالَّذين ظَلَموا؛ فإنَّ فيه مَفهومَ القَصْرِ مِن قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾[٢] [الأحقاف: ١٤].

- وتَعريفُ المُؤمِنينَ بطَريقِ المَوصوليَّةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾؛ لِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن تَعليلِ كَرامتِهم عِندَ اللهِ؛ لأنَّهم جَمَعوا حُسْنَ مُعامَلتِهم لِرَبِّهم بتَوحيدِه وخَوفِه وعِبادتِه -وهو ما دلَّ عليه ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾- إلى حُسْنِ مُعامَلتِهم أنفُسَهم، وهو معنَى ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾[٣].

- وجِيءَ في صِلةِ المَوصولِ بفِعلِ ﴿قَالُواْ﴾؛ لإيجازِ المَقولِ وغُنْيتِه عن أنْ يُقالَ: اعْتَرَفوا باللهِ وَحْدَه وأطاعوه، والمُرادُ: أنَّهم قالوا ذلك واعْتَقَدوا مَعناهُ -إذ

= والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٦٩٩)، وصحَّح إسنادَه الذَّهبيُّ في ((المهذب)) (٨/ ٤٢١٢)، وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٦٩٩).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢١٧، ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الشَّأنُ في الكَلامِ الصِّدقُ- وعَمِلوا به؛ لأنَّ الشَّأْنَ مُطابَقةُ العمَلِ للاعْتِقادِ[١].

- قولُه: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: جَمَعوا بيْنَ التَّوحيدِ -الَّذي هو خُلاصةُ العِلمِ-، والاسْتِقامةِ في الأُمورِ الَّتي هي مُنْتهى العمَلِ، وحَرْفُ (ثُمَّ)؛ للدَّلالةِ على تَراخي رُتبةِ العَملِ، وتَوقُّفِ الاعتِدادِ به على التَّوحيدِ؛ فـ(ثُمَّ) هنا للتَّراخي الرُّتبيِّ، وهو الارتقاءُ والتَّدرُّجُ[٢].

- ودُخولُ الفاءِ على خَبرِ المَوصولِ -وهو ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾- لِمُعامَلةِ المَوصولِ مُعامَلةَ الشَّرْطِ، كأنَّه قِيل: إنْ قالوا ربُّنا اللهُ ثمَّ اسْتَقاموا فلا خَوفٌ عليهم، فأفادَ تَسبُّبَ ذلك في أمْنِهم مِن الخَوفِ والحُزْنِ[٣].

- والمُرادُ بقَولِه: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ بَيانُ دَوامِ نَفْيِ الحُزْنِ، لا بَيانُ نَفْيِ دَوامِ الحُزْنِ كما يُوهِمُه كَونُ الخَبرِ مُضارِعًا[٤].

- وقولُه: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ فيه تَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَلَا هُمۡ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَحۡزَنُونَ﴾؛ لِتَخصيصِ المُسنَدِ إليه بالخَبرِ، أي: إنَّ الحُزْنَ مُنْتفٍ عنهم لا عن غَيرِهم، والمُرادُ بالغَيرِ: مَن لم يَتَّصِفْ بالإيمانِ والاسْتِقامةِ في مَراتِبِ الكُفْرِ والعِصيانِ؛ فجِنْسُ الخَوفِ ثابتٌ لِمَن عَدَاهُم على مَراتبِ تَوقُّعِ العِقابِ، حتَّى في حالةِ الوَجَلِ مِن عَدَمِ قَبولِ الشَّفاعةِ فيهم، ومِن تَوقُّعِ حِرْمانِهم مِن نَفَحاتِ اللهِ تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

- اسْتِحضارُ المُؤمِنينَ بطَريقِ اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أحْرِياءُ بما يَرِدُ مِن الإخبارِ عنْهم بما بعْدَ الإشارةِ؛ مِن أجْلِ الأوصافِ المذْكورةِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[١].

- وقولُه: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أدَلُّ على الاختِصاصِ بالجنَّةِ مِن أنْ يُقالَ: أولئك في الجنَّةِ، أو أولئك لهمُ الجنَّةُ؛ لِمَا في (أصْحاب) مِن مَعنى الاختِصاصِ، وما في الإضافةِ أيضًا[٢].

- وقولُه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ تَصريحٌ بما اسْتُفِيدَ مِن تَعليلِ الصِّلةِ في الخبَرِ، ومِن اقْتِضاءِ اسمِ الإشارةِ جَدارةَ المُؤمِنينَ بما بعْدَه، وما أفادَهُ وَصفُ (أصْحاب) وما أفادَتْه الإضافةُ، وهذا مِن تَمامِ العِنايةِ بالتَّنويهِ بهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (١٥-١٦)

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كُرْهًا﴾: أي: مَشَقَّةً وتَعَبًا، وأصلُ (كره): يدُلُّ على خِلافِ الرِّضا والمحَبَّةِ[١].

﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾: أي: فِطامُه، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه؛ لانفِصالِ المولودِ عن الاغتِذاءِ بثَدْيِ أمِّه إلى غيرِه مِن الأقواتِ، ومنه سُمِّيَ الفَصِيلُ -ولَدُ النَّاقةِ- فَصِيلًا؛ لأنَّه مَفصُولٌ عن أمِّه[٢].

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: أي: بلَغَ غايةَ شَبابِه وشِدَّتِه وقُوَّتِه، والأَشُدُّ قيل: هو جمعُ شَدٍّ، وقيل: جمعُ شِدَّةٍ، وقيل: هو جمْعٌ لا واحدَ له، وأصلُ (بلغ): يدُلُّ على الوُصولِ إلى شَيءٍ، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قُوَّةٍ في شَيءٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٧٦)، (المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥، ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١) و(٣/ ١٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٣).

﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾: أي: ألهِمْني، يُقالُ: أوزَعْتُه بكذا، أي: أغرَيْتُه به، وهو مُوزَعٌ بكذا، ومُولَعٌ بكذا، وأصلُ (أوزع): الدَّلالةُ على إزالةِ الوَزْعِ، أي: الانكِفافِ عن عَمَلٍ ما؛ فالهمزةُ فيه للإزالةِ[(١)].

﴿ذُرِّيَّتِيٓ﴾: الذُرِّيَّةُ: الأولادُ وأولادُ الأولادِ، فهي اسمٌ يَجمعُ نَسلَ الإنسانِ مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، قيل: أصلُها مِن (ذرَأ)، أي: خلَق، وحُذِفت الهمزةُ منها، وقيل: أصلُها مِن (الذَّرِّ)، بمعنَى التَّفريقِ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾

في نَصبِ ﴿إِحۡسَٰنًا﴾ وُجوهٌ مِن الإعرابِ:

أحَدُها: أنَّه مَصدَرٌ مَنصوبٌ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ، أي: وصَّيْناه أن يُحسِنَ إليهما إحسانًا.

الثَّاني: أنَّه مَفعولٌ به ثانٍ، على تضمينِ (وَصَّيْنا) معنى (ألزَمْنا).

الثَّالِثُ: أنَّه مَنصوبٌ على أنَّه مَفعولٌ لأجْلِه، أي: وصَّيْناه بهما إحسانًا مِنَّا إليهما.

الرَّابعُ: أنَّه مَنصوبٌ على المصدريَّةِ؛ لأنَّ معنى (وَصَّيْنَا): (أَحْسَنَّا)، وعلى الوَجهَينِ الثَّالثِ والرَّابعِ فالمفعولُ الثَّاني هو ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣، ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

الخامِسُ: أنَّه حالٌ، على تقديرِ حَذفِ مُضافٍ، أي: ووصَّيْنا الإنسانَ بوالِدَيه ذا إحسانٍ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾

قَولُه تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ مَصدَرٌ مُؤكِّدٌ لِمَضمونِ الجُملةِ السَّابقةِ، فهو مَفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ محذوفٍ، تقديرُه: (وَعَدَ)؛ لأنَّ قَولَه: ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾ وَعدٌ مِن اللهِ لهم بالتَّقَبُّلِ والتَّجاوُزِ، فوعْدُ الصِّدْقِ توكيدٌ لذلك، كأنَّه قال: وَعَدَهم اللهُ بذلك وَعدًا صِدقًا، وهو مِنْ إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه، أي: الوَعدَ الصِّدقَ(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى بالإحسانِ إلى الوالدين، ويُبيِّنُ ما يَترتَّبُ عليه مِن ثوابٍ، فيقولُ: ووصَّيْنا الإنسانَ أن يُحسِنَ إلى والِدَيه إحسانًا؛ حمَلَتْه أُمُّه كارِهةً، ووضعَتْه كارِهةً؛ لِما تُعانيه في أثناءِ حَمْلِها ووَضْعِها مِن المَشاقِّ والآلامِ والمتاعبِ، ومُدَّةُ حَملِ الجَنينِ مع مُدَّةِ فِطامِه مِن الرَّضاعِ ثلاثونَ شَهرًا. حتَّى إذا بلغَ الوَلَدُ شِدَّةَ قُوَّتِه وكَمالَ عَقلِه، وبلَغ أربعينَ سَنةً؛ قال: رَبِّ ألهِمْني ووفِّقْني لِأن أشكُرَ نِعمَتَك الَّتي أنعَمْتَ بها علَيَّ وعلى والِدَيَّ، وأنْ أعمَلَ عَملًا صالِحًا تَقْبَلُه مِنِّي، وأصلِحْ لي ذُرِّيَّتي، واهْدِهم للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، إنِّي تُبتُ إليك وإنِّي مِن المُسلِمينَ.

أولئك يَتقَبَّلُ اللهُ عنهم أحسَنَ ما عَمِلوه في الدُّنيا، ويَصفَحُ عن سَيِّئاتِ أعمالِهم،

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٦٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٥٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٧٠).

وهم في أهلِ الجنَّةِ، وَعَدهم اللهُ بذلك وَعْدًا صِدْقًا لا يَتخلَّفُ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الله تعالى في الآيةِ السابقةِ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ قالَ: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾؛ إذْ كانَ بِرُّ الوالدَيْنِ ثانيًا أفْضلَ الأعمالِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى في الآيةِ الأُولى التَّوحيدَ له، وإخلاصَ العِبادةِ، والاستِقامةَ إليه؛ عَطَف بالوَصيَّةِ بالوالِدَينِ، كما هو مَقرونٌ في غيرِ ما آيةٍ مِن القُرآنِ[٢].

وأيضًا بَيَّنَ هنا اختِلافَ حالِ الإنسانِ مع أبَوَيه؛ فقد يُطيعُهما وقد يُخالِفُهما، أي: فلا يَبعُدُ مِثلُ هذا في حَقِّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وقَومِه، حتَّى يستجيبَ له البَعضُ ويَكفُرَ البَعضُ؛ فهذا وجهُ اتِّصالِ الكلامِ بَعْضِه ببَعضٍ[٣].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾.

أي: وأَمَرْنا الإنسانَ وعَهِدْنا إليه عَهدًا أن يُحسِنَ إلى والِدَيه ويَبَرَّهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١). =

كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾.

أي: حمَلَتْه أُمُّه في بَطنِها فقاسَت في ذلك مَشَقَّةً شَديدةً جعَلَتْها كارِهةً لأحوالِ ذلك الحَملِ؛ مِنَ الثِّقلِ، والغَثَيانِ، والضَّعفِ، وغَيرِ ذلك[١].

كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾.

أي: وتَضَعُ مَولودَها بآلامٍ شَديدةٍ ومَشَقَّةٍ عَظيمةٍ تَجعَلُها كارِهةً لِوَضعِه[٢].

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾.

أي: ومُدَّةُ حَملِ الجَنينِ في بَطنِ أمِّه مع مُدَّةِ فِطامِه مِن الرَّضاعِ تَبلُغُ ثلاثينَ شَهرًا[٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

= قال ابنُ عطيَّة: (أي: هكذا مَضَت شرائعي وكُتُبي لأنبيائي؛ فهي وَصيَّةٌ مِن اللهِ في عبادِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٢، ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠).

قال السمعاني: (معناه: أنَّ أقَلَّ مُدَّةِ الحَملِ سِتَّةُ أشهُرٍ، ومُدَّةَ الفِصالِ سَنتانِ؛ فذلك ثلاثون شَهرًا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٣، ٢٢٤).

أي: حتَّى إذا بلغَ الوَلَدُ شِدَّةَ قُوَّتِه وكَمالَ عَقلِه، وذلك في سِنِّ الشَّبابِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١).

وفي معنى بُلوغِ الأشُدِّ أقوالٌ:

قيل: المرادُ: الاحتلامُ. وممَّن اختاره: ابنُ أبي زَمَنين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٢٦).

وقيل: المرادُ: بلوغُ ثمانيَ عَشْرةَ سنةً. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٧٦).

وقيل: المرادُ: بلوغُ سِنِّ الثَّالثةِ والثَّلاثينَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والواحدي، ونَسَبه الرَّازيُّ إلى جمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٩).

وقيل: المرادُ: بلوغُ سِتٍّ وثلاثينَ. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ عطيَّة، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٢١٦).

وقال الزمخشري: (بُلوغُ الأشُدِّ: أن يَكتَهِلَ ويَستوفيَ السِّنَّ الَّتي تَستحكِمُ فيها قُوَّتُه وعَقلُه وتَمييزُه، وذلك إذا أنافَ على الثَّلاثينَ وناطح الأربَعينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

وقيل: هو ما بيْنَ ثماني عَشْرةَ سنةً إلى أربعين سنةً. وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والبغويُّ، والخازنُ. ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٠).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٧٦، ٢٧٧).

وقال ابن القيِّم: (وقد أحكَمَ الأزهريُّ [تفسيرَ] اللَّفظةِ، فقال: بُلوغُ الأَشُدِّ يكونُ مِن وَقتِ بُلوغِ الإنسانِ مَبلَغَ الرِّجالِ الى أربعينَ سَنةً، قال: فبُلوغُ الأشُدِّ مَحصورُ الأوَّلِ، مَحصورُ النِّهايةِ، غيرُ مَحصورِ ما بيْنَ ذلك، فبُلوغُ الأشُدِّ مَرتَبةٌ بيْنَ البُلوغِ وبينَ الأربَعينَ). ((تحفة المودود)) (ص: ٣٠٠). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١١/ ١٨٢- ١٨٣).

وقال الجَصَّاصُ: (جائزٌ أن يكونَ المرادُ ببُلوغِ الأشُدِّ قبْلَ أربعينَ سَنةً وقبْلَ الاستِواءِ، وإذا =

﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾.

أي: وبلَغ أربعينَ سَنةً، فكَمَل حِينَها عَقلُه وقُوَّتُه، وتكامَلَت حُجَّةُ اللهِ عليه[1].

﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾.

أي: قال: رَبِّ ألهِمْني ووفِّقْني لِأن أشكُرَ ما أنعَمْتَ به علَيَّ، وعلى أبي وأُمِّي[2].

﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾.

أي: وألهِمْني ووَفِّقْني لِأنْ أعمَلَ عَملًا صالِحًا يُرضيك عنِّي، وتَقْبَلُه مِنِّي[3].

﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾.

أي: وأصلِحْ لي نَسْلي وعَقِبي بأنْ تَهديَهم للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وتُصلِحَ

= كان كذلك فالأشُدُّ ليس له مِقدارٌ مَعلومٌ في العادةِ لا يزيدُ عليه ولا يَنقُصُ منه، وقد يختَلِفُ أحوالُ النَّاسِ فيه؛ فيبلغُ بَعضُهم الأشُدَّ في مدَّةٍ لا يَبلُغُه غيرُه في مِثلِها؛ لأنَّه إن كان بُلوغُ الأشُدِّ هو اجتِماعَ الرَّأيِ واللُّبِّ بعدَ الحُلُمِ، فذلك مختَلِفٌ في العادةِ، وإن كان بُلوغُه اجتماعَ القُوى وكمالَ الجِسمِ فهو مختلِفٌ أيضًا، وكلُّ ما كان حُكمُه مَبنيًّا على العاداتِ فغيرُ مُمكِنٍ القَطعُ به على وَقتٍ لا يَتجاوَزُه ولا يَقصُرُ عنه، إلَّا بتوقيفٍ أو إجماعٍ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٢٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠).

قال البِقاعي: (﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ فاجتَمَع أشُدُّه، وتمَّ حَزمُه وجِدُّه، وزالت عنه شِرَّةُ الشَّبابِ وطَيْشُ الصِّبا ورُعونةُ الجَهلِ؛ ولذلك كان هذا السِّنُّ وقتَ بَعثةِ الأنبياءِ، وهو يُشعِرُ بأنَّ أوقاتَ الصِّبا أخَفُّ في المؤاخَذةِ مِمَّا بَعْدَها، وكذا ما بيْنَ أوَّلِ الأشُدِّ والأربَعينَ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١).

أحوالَهم[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ثلاثُ دَعَواتٍ مُستَجاباتٌ لا شَكَّ فيهنَّ: دعوةُ الوالِدِ، ودَعوةُ المُسافِرِ، ودَعوةُ المظلومِ))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إذا مات الإنسانُ انقَطَع عنه عَمَلُه إلَّا مِن ثلاثةٍ: إلَّا مِن صَدَقةٍ جاريةٍ، أو عِلمٍ يُنتَفَعُ به، أو ولَدٍ صالحٍ يَدعو له))[٣].

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

أي: إنِّي تُبتُ إليك مِن ذُنوبي السَّابِقةِ، ورَجعتُ إلى طاعتِك[٤].

﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

أي: وإنِّي مِن المُستَسلِمينَ لك بالتَّوحيدِ، المُنقادينَ لحُكمِك، الخاضِعينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣، ٣٤).
قال ابن جرير: (قوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ يقولُ: وأصلِحْ لي أموري في ذُرِّيَّتي الَّذين وُهِبْتُهم، بأنْ تَجعَلَهم هُداةً للإيمانِ بك، واتِّباعِ مَرْضاتِك، والعملِ بطاعتِك. فوصَفَه جلَّ ثناؤُه بالبِرِّ بالآباءِ والأمَّهاتِ، والبَنِينَ والبناتِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١٥٣٦) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (٣٤٤٨)، وابنُ ماجه (٣٨٦٢)، وأحمد (٧٥١٠).
حسَّنه الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٥٣٦)، وصَحَّحه ابن حِبَّان في ((الصحيح)) (٢٦٩٩)، والقرطبيُّ في ((التفسير)) (١٦/ ١٩٤)، والنوويُّ في ((الإيضاح)) (٦٢)، وقوَّى إسنادَه الذهبيُّ في ((الكبائر)) (١٨٤)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٣/ ٢٥٢)، وحَسَّن الحديثَ لغيرِه شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريجِ ((سنن أبي داود)) (١٥٣٦).

(٣) رواه مسلم (١٦٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١).

لك بالطَّاعةِ في أمْرِك ونَهْيِك[١].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾.

أي: أولئك يَتقَبَّلُ اللهُ عنهم أحسَنَ الَّذي عَمِلوه في الدُّنيا؛ فيُثيبُهم عليه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢).

قال السمعاني: (اختَلَف المُفَسِّرون فيمَنْ نزَلَت هذه الآيةُ؟ فقال الكَلْبيُّ، ومُقاتِلٌ، والضَّحَّاكُ: إنَّها نزلتْ في أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عنه. وقال الحَسَنُ البَصريُّ: إنَّها عامَّةٌ في جميعِ المؤمِنينَ. ومعنَى الآيةِ: هو الإرشادُ إلى شُكرِ اللهِ ودُعاءِ الوالِدَينِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٤).

وقال الرَّسْعَني: (قال جُمهورُ المُفَسِّرينَ: لَمَّا بلغ أبو بكرٍ أربعينَ سَنةً دعا اللهَ تعالى بما ذكَرَه في هذه الآيةِ، فأجابه اللهُ تعالى؛ فأسلَمَ وأسلَمَ والِداه وأولادُه: ذكورُهم وإناثُهم، ولم يَتَّفِقْ ذلك لأحَدٍ غَيرِه مِنَ الصَّحابةِ، وقال الضَّحَّاكُ والسُّدِّيُّ: نزلتْ في سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢١٧).

وممَّن اختار أنَّ الآيةَ نزلت في أبي بكرٍ وأنَّه المرادُ بها: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والرازي، والرسعني، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨، ١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٦٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٨٩).

وممَّن اختار أنَّ الآيةَ عامَّةٌ: الزمخشريُّ، وابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، والشوكانيِّ، والقاسمي، وابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥). =

﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾.

أي: ويَصفَحُ الله عن سَيِّئاتِ أعمالِهم؛ فلا يُعاقِبُهم عليها[١].

﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ﴾.

أي: وهم في عِدادِ أهلِ الجنَّةِ، الَّذين يُفعَلُ بهم مِثلُ ذلك[٢].

﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

أي: وَعَد اللهُ أهلَ الإيمانِ أن يَتقَبَّلَ مِن مُحسِنِهم ويَتجاوَزَ عن مُسيئِهم وَعْدَ الصِّدْقِ والحقِّ الَّذي لا يُخلَفُ، فهو موفٍ لهم به ولا شكَّ[٣].

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾: الأعمالُ الصَّالحةُ الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا، وأنَّ الأحسَنَ هنا بمعنى الحَسَنِ: الواحديُّ، والبغوي، وابنُ الجوزي، والرَّسْعَني، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الطَّاعاتُ وأعمالُهم الحَسَنةُ الصَّالحةُ؛ لأنَّها أحسَنُ ما عَمِلوا؛ لأنَّهم يَعمَلونَ المُباحاتِ وغيرَها، فاسمُ التَّفضيلِ على معناه: البيضاويُّ، وأبو السعود، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قال ابنُ عاشور: (أي: الإحسانُ بالوالِدَينِ والدُّعاءُ لهما وللذُّرِّيَّةِ: مِن أفضَلِ الأعمالِ؛ فهو مِن أحسَنِ ما عَمِلوا، وقد تَقبَّلَ منهم كلَّ ما هو أحسَنُ ما عَمِلوا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ هذا مِن لُطفِه تعالى بعبادِه وشُكرِه للوالِدَينِ: أنْ وصَّى الأولادَ وعَهِدَ إليهم أن يُحسِنوا إلى والِدَيهم بالقَولِ اللَّطيفِ، والكَلامِ اللَّيِّنِ، وبَذْلِ المالِ والنَّفَقةِ، وغيرِ ذلك مِن وُجوهِ الإحسانِ[(١)].

وبِرُّ الوالدينِ واجبٌ بهذه الآيةِ وغيرِها، وعقوقُهما كبيرةٌ[(٢)].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾، قولُه جلَّ وعلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ يدُلُّ على أنَّ الإنسانَ كالمُحتاجِ إلى مُراعاةِ الوالِدَينِ له إلى قَريبٍ مِن هذه المُدَّةِ؛ وذلك لأنَّ العَقلَ كالنَّاقِصِ، فلا بُدَّ له مِن رعايةِ الأبوَينِ على رعايةِ المصالحِ، ودَفعِ الآفاتِ[(٣)].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ نِعَمَ الوالِدَينِ على الوَلَدِ بعدَ دُخولِه في الوُجودِ تمتَدُّ إلى هذه المُدَّةِ الطَّويلةِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ نِعَمَ الوالِدَينِ

= قال القرطبي: (﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ وهو مِن بابِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نَفْسِه؛ لأنَّ الصِّدقَ هو ذلك الوَعدُ الَّذي وَعَدَه اللهُ، وهو كقَولِه تعالى: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وهذا عندَ الكوفيِّينَ، فأمَّا عندَ البَصريِّينَ فتَقديرُه: وَعْدَ الكَلامِ الصِّدقِ، أو الكِتابِ الصِّدقِ، فحُذِفَ المَوصوفُ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨).

كأنَّه يَخرُجُ عن وُسعِ الإنسانِ مُكافأتُهما إلَّا بالدُّعاءِ والذِّكرِ الجَميلِ[١]!

٤- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ أمَرَ الله بالإحسانِ إلى الوالِدَيْن في المُشاهَدةِ والغَيبةِ، وبجَميعِ وَسائلِ الإحسانِ الَّذي غايَتُه حُصولُ النَّفْعِ لهما، وأنَّ اللهَ لَمَّا أمَرَ بالدُّعاءِ للأَبوَينِ وَعَدَ بإجابتِه على لِسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِقَولِه: ((إذا مات الإنسانُ انقَطَع عنه عَمَلُه إلَّا مِن ثلاثةٍ: إلَّا مِن صَدَقةٍ جاريةٍ، أو عِلمٍ يُنتَفَعُ به، أو ولَدٍ صالحٍ يَدعو له))[٢]، وما شَكَرَ الولَدُ ربَّه على النِّعمةِ الَّتي أنْعَمَها اللهُ على والِدَيْه إلَّا مِن بابِ نِيابَتِه عنْهما في هذا الشُّكرِ، وهو مِن جُملةِ العمَلِ الَّذي يُؤدِّيه الولَدُ عن والِدَيْه[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هذا فيه إرشادٌ لِمَن بلَغَ الأربعينَ أن يُجَدِّدَ التَّوبةَ والإنابةَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ويَعزِمَ عليها[٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّه ينبغي لِمَن بلغَ عُمُرُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨).

(٢) رواه مسلم (١٦٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨١).

أربعينَ سَنةً أن يَستكثِرَ مِن هذه الدَّعَواتِ[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ استِطرادٌ في أثناءِ الوِصايةِ بالدُّعاءِ للوالِدَينِ بألَّا يَغفُلَ الإنسانُ عن التَّفَكُّرِ في مُستَقبَلِه، بأن يَصرِفَ عِنايتَه إلى ذُرِّيَّتِه كما صرَفَها إلى أبَوَيه؛ لِيَكونَ له مِن إحسانِ ذُرِّيَّتِه إليه مِثلُ ما كان منه لأبَوَيه، وإصلاحُ الذُّرِّيَّةِ يَشمَلُ إلهامَهم الدُّعاءَ إلى الوالِدِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗا﴾ يدُلُّ على أنَّ حَقَّ الأُمِّ أعظَمُ؛ لأنَّه قال أوَّلًا: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾، فذَكَرهما معًا، ثمَّ خَصَّ الأُمَّ بالذِّكرِ، فقال: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗا﴾، وذلك يدُلُّ على أنَّ حَقَّها أعظَمُ، وأنَّ وُصولَ المشاقِّ إليها بسبَبِ الوَلَدِ أكثَرُ[٣]، وأنَّ حَقَّها آكَدُ مِن حَقِّ الأبِ؛ لأنَّها حمَلَتْه بمَشقَّةٍ، ووضَعَتْه بمَشقَّةٍ، وأرضَعَتْه هذه المُدَّةَ بتَعَبٍ ونَصَبٍ، ولم يُشارِكْها الأبُ في شَيءٍ مِن ذلك[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ فيه لطيفةٌ: ذكَرَ تعالى الأُمَّ في ثلاثِ مَراتِبَ؛ في قَولِه: ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ ﴿وَحَمۡلُهُۥ﴾، وفي إرضاعِه المُعَبَّرِ عنه بالفِصالِ، وذكَرَ الوالِدَ في واحدةٍ؛ في قَولِه: ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾؛ فناسَبَ ما قال الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن جَعلِ ثلاثةِ أرباعِ البِرِّ للأُمِّ، والرُّبُعِ للأَبِ، عندَما جاء رجُلٌ إليه، فقال: ((يا رسولَ الله، مَنْ أَبَرُّ؟ قال: أُمَّكَ، قال: ثُمَّ مَن؟ قال: أُمَّكَ، قال: ثُمَّ مَن؟ قال: أُمَّكَ،

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢).

قال: ثُمَّ مَن؟ قال: أباكَ))[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ يدُلُّ على أنَّ أقَلَّ مُدَّةِ الحَملِ سِتَّةُ أشهُرٍ؛ لأنَّه لَمَّا كان مجموعُ مُدَّةِ الحَملِ والرَّضاعِ ثلاثينَ شَهرًا، وكان أكثَرُ الرَّضاعِ أربعةً وعِشرينَ شهرًا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فإذا أسقَطْتَ الحَولَينِ الكامِلَينِ -وهي أربعةٌ وعِشرونَ شَهرًا- مِنَ الثَّلاثينَ؛ بَقِيَ أقَلُّ مُدَّةِ الحَملِ: سِتَّةُ أشهُرٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٧).

والحديث أخرجه أبو داودَ (٥١٣٩)، والترمذيُّ (١٨٩٧)، وأحمد (٢٠٠٢٨) مِن حديثِ مُعاويةَ ابنِ حَيْدةَ رضيَ الله عنه. ولفظُ أبي داودَ: ((قلت: يا رسولَ الله، مَنْ أبَرُّ؟ قال: أمَّك ثمَّ أمَّك ثمَّ أمَّك، ثمَّ أباك، ثمَّ الأقربَ فالأقربَ)).

حسَّنه الترمذي، وابنُ عساكر في ((معجم الشيوخ)) (٢/ ١٢١٧)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥١٣٩): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥١٣٩).

وأخرجه البخاري (٥٩٧١)، ومسلمٌ (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرةَ رضيَ الله عنه، ولفظُ البخاريِّ: ((جاء رجُلٌ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقال: يا رسولَ الله، مَنْ أحَقُّ بحُسْنِ صَحابتي؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: ثمَّ أبوك)).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥).

قال ابن كثير: (وقد استَدَلَّ عليٌّ رَضِيَ الله عنه بهذه الآيةِ مع الَّتي في لُقمانَ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقَولِه: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]: على أنَّ أقَلَّ مُدَّةِ الحَملِ سِتَّةُ أشهُرٍ، وهو استِنباطٌ قَويٌّ صَحيحٌ، ووافَقَه عليه عثمانُ وجماعةٌ مِن الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠).

وهذا النَّوعُ مِن الاستِدلالِ يرجِعُ عندَ الأُصوليِّينَ إلى دَلالةِ الإشارةِ -وهي مِن أنواعِ دَلالةِ المنطوقِ-، وهي دَلالةُ اللَّفظِ على معنًى ليس مقصودًا باللَّفظِ في الأصلِ، ولكنَّه لازِمٌ =

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ رُبَّما أشعَرَ بأنَّ أقَلَّ مُدَّةِ الرَّضاعِ سَنةٌ وتِسعةُ أشهُرٍ؛ لأنَّ أغلَبَ الحَملِ تِسعةُ أشهُرٍ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ مِن بَديعِ معنى الآيةِ: جَمعُ مُدَّةِ الحَملِ إلى الفِصالِ في ثلاثينَ شَهرًا؛ لِتُطابِقَ مُختَلِفَ مُدَدِ الحَملِ؛ إذ قد يكونُ الحَملُ سِتَّةَ أشهُرٍ، وسَبعةَ أشهُرٍ، وثمانيةَ أشهُرٍ، وتِسعةً وهو الغالِبُ، قِيل: كانوا إذا كان حمْلُ المرأةِ تِسعةَ أشْهُرٍ -وهو الغالِبُ- أرْضَعَتِ المولودَ أحَدًا وعشْرينَ شَهْرًا، وإذا كان الحمْلُ ثَمانيةَ أشهُرٍ أرْضَعَت اثْنَينِ وعِشرينَ شَهْرًا، وإذا كان الحمْلُ سَبعةَ أشْهُرٍ أرْضَعَتْ ثلاثةً وعِشرينَ شَهْرًا، وإذا كان الحمْلُ سِتَّةَ أشْهُرٍ أرْضَعَت أربعةً وعِشرينَ شَهْرًا، وذلك أقْصى أمَدِ الإرضاعِ، فعوَّضُوا عن نَقْصِ كلِّ شَهرٍ مِن مُدَّةِ الحمْلِ شَهْرًا زائدًا في الإرضاعِ؛ لأنَّ نُقصانَ مُدَّةِ الحمْلِ يُؤثِّرُ في الطِّفلِ هُزالًا[٢].

٦- مِن بَديعِ الطَّيِّ في هذِه الآيةِ ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾: أنَّها صالحةٌ للدَّلالةِ على أنَّ مُدَّةَ الحمْلِ قد تكونُ دُونَ تِسعةِ أشْهُرٍ، ولولا أنَّها تكونُ دُونَ تِسعةِ أشهُرٍ لَحدَّدَتْه بتِسعةِ أشْهُرٍ؛ لأنَّ الغرَضَ إظهارُ حَقِّ الأُمِّ في البِرِّ بما تَحمَّلَتْه مِن مَشقَّةِ الحمْلِ؛ فإنَّ مَشقَّةَ مُدَّةِ الحمْلِ أشَدُّ مِن مَشقَّةِ الإرضاعِ؛ فلولا قصْدُ الإيماءِ إلى هذه الدَّلالةِ لَكان التَّحديدُ بتِسعةِ أشْهُرٍ أجدَرَ بالمَقامِ[٣].

= للمَقصودِ، فكأنَّه مقصودٌ بالتَّبَعِ لا بالأصلِ. يُنظر: ((المستصفى)) للغزالي (ص: ٢٦٣، ٢٦٤)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٤) و(٧/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- جميعُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ وأئمَّةِ الدِّينِ لا يَعتَقِدونَ عِصمةَ أحَدٍ مِن الصَّحابةِ ولا القَرابةِ ولا السَّابقينَ ولا غَيرِهم، بل يجوزُ عِندَهم وُقوعُ الذُّنوبِ منهم، واللهُ تعالى يَغفِرُ لهم بالتَّوبةِ، ويَرفَعُ بها دَرَجاتِهم، ويَغفِرُ لهم بحَسَناتٍ ماحيةٍ، أو بغيرِ ذلك مِنَ الأسبابِ؛ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[الزمر: ٣٣ - ٣٥]، ولكِنَّ الأنبياءَ -رِضوانُ اللهِ تعالى عليهم أجمعينَ- هم الَّذين قال العُلَماءُ: إنَّهم مَعصومونَ مِن الإصرارِ على الذُّنوبِ، فأمَّا الصِّدِّيقونَ والشُّهَداءُ والصَّالحونَ فلَيسُوا بمعصومينَ. وهذا في الذُّنوبِ المُحَقَّقةِ، وأمَّا ما اجتَهَدوا فيه فتارةً يُصيبونَ وتارةً يُخطِئون؛ فإذا اجتَهَدوا فأصابوا فلَهم أجْرانِ، وإذا اجتَهَدوا وأخطَؤوا فلهم أجرٌ على اجتِهادِهم، وخَطؤُهم مغفورٌ لهم. وأهلُ الضَّلالِ يَجعَلونَ الخطَأَ والإثمَ مُتلازِمَين: فتارةً يَغلُونَ فيهم ويقولون: إنَّهم مَعصومونَ، وتارةً يَجفُونَ عنهم ويقولونَ: إنَّهم باغونَ بالخَطأِ! وأهلُ العِلمِ والإيمانِ لا يُعَصِّمونَ، ولا يُؤَثِّمونَ(١).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ اعلَمْ أنَّه تعالى حكى عن هذا الدَّاعي أنَّه طَلَب مِنَ اللهِ تعالى

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٦٩).

ثلاثةَ أشياءَ؛ أحَدُها: أن يُوَفِّقَه اللهُ للشُّكرِ على نِعَمِه. الثَّاني: أن يُوَفِّقَه للإتيانِ بالطَّاعةِ المَرْضيَّةِ عندَ اللهِ. الثَّالِثُ: أن يُصلِحَ له في ذُرِّيَّتِه. وفي ترتيبِ هذه الأشياءِ الثَّلاثةِ على الوَجهِ المذكورِ وَجهانِ:

الأوَّلُ: أنَّ مَراتِبَ السَّعاداتِ ثلاثٌ: أكمَلُها النَّفْسانيَّةُ، وأوسَطُها البَدَنيَّةُ، وأدوَنُها الخارجيَّةُ. والسَّعاداتُ النَّفْسانيَّةُ هي اشتِغالُ القَلبِ بشُكرِ آلاءِ اللهِ ونَعمائِه، والسَّعاداتُ البَدَنيَّةُ هي اشتِغالُ البَدَنِ بالطَّاعةِ والخِدْمةِ، والسَّعاداتُ الخارجيَّةُ هي سَعادةُ الأهلِ والوَلَدِ؛ فلمَّا كانت المراتِبُ مَحصورةً في هذه الثَّلاثةِ لا جَرَمَ رَتَّبَها اللهُ تعالى على هذا الوَجهِ.

والسَّبَبُ الثَّاني لِرعايةِ هذا التَّرتيبِ: أنَّه تعالى قَدَّم الشُّكرَ على العَمَلِ؛ لأنَّ الشُّكرَ مِن أعمالِ القُلوبِ، والعَمَلَ مِن أعمالِ الجوارِحِ، وعَمَلَ القَلبِ أشرَفُ مِن عَمَلِ الجارِحةِ، وأيضًا أنَّه قَدَّم طَلَبَ التَّوفيقِ على الشُّكرِ، وطَلَبَ التَّوفيقِ على الطَّاعةِ على طَلَبِ أن يُصلِحَ له ذُرِّيَّتَه؛ وذلك لأنَّ المَطلوبَينِ الأوَّلَينِ اشتِغالٌ بالتَّعظيمِ لأمرِ اللهِ، والمطلوبَ الثَّالِثَ اشتِغالٌ بالشَّفَقةِ على خَلْقِ اللهِ، ومَعلومٌ أنَّ التَّعظيمَ لأمرِ اللهِ يَجِبُ تَقديمُه على الشَّفَقةِ على خَلْقِ اللهِ[1].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ فيه سُؤالٌ: هَبْ أنَّه يَشكُرُ اللهَ على ما أنعَمَ به عليه، فكيف يَشكُرُه على النِّعَمِ الَّتي أنعَمَ بها على والِدَيه، وإنَّما يجِبُ على الرَّجُلِ أن يَشكُرَ رَبَّه على ما يَصِلُ إليه مِنَ النِّعَمِ؟

الجوابُ: أنَّ كُلَّ نِعمةٍ وصَلَتْ مِنَ اللهِ تعالى إلى والِدَيه فقد وَصَل منها أثَرٌ إليه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩).

فالنِّعمةُ عليهما نعمةٌ عليه؛ فلذلك وصَّاه اللهُ تعالى أن يَشكُرَ رَبَّه على الأمْرَينِ[١].

ثمَّ إنَّ هذا مِن تمامِ برِّ الوالِدَينِ؛ كأنَّ هذا الولَدَ خاف أن يكونَ والِداه قَصَّرا في شُكرِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، فسألَ اللهَ أن يُلهِمَه الشُّكرَ على ما أنعَمَ به عليه وعليهما؛ لِيَقومَ بما وَجَب عليهما مِن الشُّكرِ إن كانا قَصَّرا[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ ردٌّ على القَدَريَّةِ والمُعتَزِلةِ فيما أخبَرَ عنه مِن إيزاعِ الشُّكرِ والتَّوفيقِ للعَمَلِ الصَّالحِ، ولو كان مُستطيعًا بنَفْسِه لَكان دعاؤُه مُحَالًا، ثم أثْنى عليه ربُّه، وأضاف العملَ -الَّذي هو أعانَه عليه- إليه، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾، فالعَمَلُ حَسَنُه وسَيِّئُه مُضافٌ إلى عامِلِه وإنْ كان مُعانًا على الحَسَنِ، مَقْضِيًّا عليه بالسَّيِّئِ، ولو كانتِ الاستطاعةُ مُستغنيةً بنَفْسِها ما عَمِلَ أحَدٌ عَمَلًا سَيِّئًا أبدًا[٣]!

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ التَّقَبُّلُ: ترتُّبُ آثارِ العَمَلِ، مِن ثوابٍ على العَمَلِ، واستِجابةٍ للدُّعاءِ، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ هذا الدُّعاءَ مَرجوُّ الإجابةِ؛ لأنَّ اللهَ تولَّى تَلقينَه[٤].

١٢- إنْ قيلَ: لِمَ قال تعالى: ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾، واللهُ يَتقَبَّلُ الأحسَنَ وما دونَه؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠).

ويُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٣١٦-٣٢٣).

(٢) الفائدةُ للوزيرِ ابنِ هُبَيْرَةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس))، كما في ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥).

فالجوابُ مِن وُجوهٍ؛ منها:

الأوَّلُ: المرادُ بالأحسَنِ: الحَسَنُ، كقولِهم: النَّاقِصُ والأشَجُّ أعْدَلا بني مَرْوانَ، أي: عادِلَا بني مَرْوانَ.

الثَّاني: أنَّ الحَسَنَ مِنَ الأعمالِ هو المباحُ الَّذي لا يَتعَلَّقُ به ثوابٌ ولا عِقابٌ، والأحسَنَ ما يُغايِرُ ذلك، وهو كُلُّ ما كان مَندوبًا أو واجِبًا[1].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

- الفِصالُ: الفِطامُ، وذُكِرَ الفِصالُ؛ لأنَّه انتهاءُ مُدَّةِ الرَّضاعِ؛ فذُكِرَ مَبدأُ مُدَّةِ الحمْلِ بقَولِه: ﴿وَحَمْلُهُۥ﴾، وانتِهاءُ الرَّضاعِ بقَولِه: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾. ولو قِيل: (وحمْلُه وفِطامُه ثلاثونَ شَهرًا) لم يكُنْ نَصًّا في الرَّضاعِ التَّامِّ المُنْتهي بالفِصالِ، والمعنى: وحمْلُه وفِصالُه بيْنَهما ثَلاثونَ شَهْرًا[2].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ (حتَّى) ابتدائيَّةٌ، ومعناها معنَى فاءِ التَّفريعِ على الكلامِ المُتقدِّمِ، وإذ كانت (حتَّى) لا يُفارِقُها معنَى الغايةِ، كانت مُؤْذِنةً هنا بأنَّ الإنسانَ تَدرَّجَ في أطْوارِه مِن وَقتِ فِصالِه إلى أنْ بلَغَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠).

أشُدَّه، أي: هو مُوصًى بِوالِدَيْه حُسْنًا في الأطوارِ المُوالِيةِ لِفِصالِه، أي: يُوصيه وَلِيُّه في أطْوارِ طُفولتِه، ثمَّ عليه مُراعاةُ وَصيَّةِ اللهِ في وَقتِ تَكليفِه. ووُقوعُ (إذا) بعْدَ (حتَّى)؛ لِيُرتَّبَ عليها تَوقيتُ ما بعْدَ الغايةِ مِن الخبَرِ، أي: كانت الغايةُ وَقتَ بُلوغِه الأشُدَّ[١].

- وفي الكلامِ حَذْفٌ تَكونُ (حتَّى) غايةً له، تَقديرُه: فعاشَ بعْدَ ذلك، أو استَمرَّت حَياتُه[٢].

- ولَمَّا كان (إذا) ظَرْفًا لِزَمنٍ مُستقبَلٍ كان الفِعلُ الماضي بعْدَها مُنقلبًا إلى الاستِقبالِ، وإنَّما صِيغَ بصِيغةِ الماضي؛ تَشْبيهًا لِلْمؤكَّدِ تَحصيلُه بالواقِعِ، والمعنى: حتَّى يَبلُغَ أشُدَّه، أي: يَستمِرُّ على الإحسانِ إلى والِدَيْه إلى أنْ يَبلُغَ أشُدَّه، فإذا بَلَغَه ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾، أي: طلَبَ العَونَ مِن اللهِ تعالى على زِيادةِ الإحسانِ إليهما؛ بأنْ يُلهِمَه الشُّكرَ على نِعَمِه عليه وعلى والِدَيْه، ومِن جُملةِ النِّعمِ عليه أنْ أَلْهَمَه الإحسانَ لِوالِدَيْه، ومِن جُملةِ نِعَمِه على والِدَيْه أنْ سخَّرَ لهما هذا الولَدَ لِيُحسِنَ إليهما؛ فهاتانِ النِّعمتانِ أوَّلُ ما يَتبادَرُ عن عُمومِ نِعمةِ اللهِ عليه وعلى والِدَيْه؛ لأنَّ المَقامَ لِلحديثِ عنهما، وهذا إشارةٌ إلى أنَّ الفِعلَ المُؤقَّتَ بِبُلوغِ الأشُدِّ -وهو فِعلُ ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾- مِن جُملةِ ما وُصِّيَ به الإنسانُ، أي: أنْ يُحسِنَ إلى والِدَيْه في وَقتِ بُلوغِه الأشُدَّ؛ فالمعنَى: ووَصَّيْنا الإنسانَ حُسنًا بوالدَيهِ حتَّى في زَمنِ بُلوغِه الأشُدَّ، أي: ألَّا يَفتُرَ عن الإحسانِ إليهما بكُلِّ وجهٍ حتَّى بالدُّعاءِ لهما[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١، ٣٢).

وإنَّما خُصَّ زَمانُ بُلوغِ الإنسانِ الأشُدَّ؛ لأنَّه زَمَنٌ يَكثُرُ فيه الكَلَفُ بالسَّعْيِ للرِّزقِ؛ إذ يكونُ له فيه زَوجةٌ وأبناءٌ، وتَكثُرُ تَكاليفُ المرأةِ، فيَكونُ لها فيه زَوجٌ وبَيتٌ وأبناءٌ، فيَكونانِ مَظِنَّةَ أنْ تَشغَلَهما التَّكاليفُ عن تَعهُّدِ والِدَيْهما والإحسانِ إليهما؛ فنُبِّها بألَّا يَفتُرَا عن الإحسانِ إلى الوالدينِ(١).

- الأشُدُّ: قيل: وَقْتُه ما بعْدَ الثَّلاثينَ سَنةً، وتَمامُه عِندَ الأربعينَ سَنةً؛ ولذلك عُطِفَ على ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قولُه: ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾، أي: بلَغَ الأشُدَّ ووَصَلَ إلى أكْمَلِه، وليس قولُه: ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ تأْكيدًا لِقَولِه: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ لأنَّ إعادةَ فِعلِ (بلغ) تُبعِدُ احتِمالَ التَّأْكيدِ، وحرْفُ العطْفِ أيضًا يُبعِدُ ذلك الاحتِمالَ(٢).

- ومعنى ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ أنَّه دَعا ربَّه بذلك، ومعناهُ: أنَّه مأْمورٌ بالدُّعاءِ إليهما؛ بأنَّه لا يَشغَلُه الدُّعاءُ لِنَفْسِه عن الدُّعاءِ لهما، وبأنَّه يُحسِنُ إليهما بظَهْرِ الغَيبِ منهما حِينَ مُناجاتِه ربَّه؛ فلا جَرَمَ أنَّ إحْسانَه إليهما في المُواجَهةِ حاصِلٌ بفَحْوى الخِطابِ(٣).

- قولُه: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ التَّنكيرُ في قَولِه: ﴿صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾؛ لِلتَّفخيمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٢).

وفَحْوى الخِطابِ -ويُسَمَّى تنبيهَ الخِطابِ، ومفهومَ الموافَقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطَريقِ الأَولى، وهو نَوعانِ:

الأوَّلُ: تَنبيهٌ بالأقَلِّ على الأكثَرِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نَبَّه بالنَّهيِ عن قَولِ أُفٍّ على النَّهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك.

الثَّاني: تنبيهٌ بالأكثَرِ على الأقَلِّ، كقَولِه تعالى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

والتَّكثيرِ، أو لأنَّه أرادَ نوعًا مِن الجِنسِ يَستجلِبُ رِضا اللهِ عزَّ وجلَّ[١]. وقيل: في تنكيرِ ﴿صَٰلِحًا﴾ إشارةٌ إلى العَجزِ عن بُلوغِ الغايةِ؛ فإنَّه لن يَقدُرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِه أحَدٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ في إدْماجِ[٣] تَلقينِ الدُّعاءِ بإصْلاحِ ذُرِّيَّتِه، مع أنَّ سِياقَ الكلامِ في الإحسانِ إلى الوالدَينِ: إيماءٌ إلى أنَّ المرْءَ يَلْقى مِن إحسانِ أبْنائِه إليه مِثلَ ما لَقِيَ أبواهُ مِن إحْسانِه إليهما، ولأنَّ دَعْوةَ الأبِ لِابْنِه مَرْجوَّةُ الإجابةِ[٤].

- واللَّامُ في ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي﴾ لَامُ العِلَّةِ، أي: أصْلِحْ في ذُرِّيَّتي لِأجْلي ومَنْفعَتي، ونُكتةُ زِيادةِ هذا في الدُّعاءِ: أنَّه بعْدَ أنْ أشارَ إلى نِعَمِ اللهِ عليه وعلى والِدَيْه، تَعرَّضَ إلى نَفَحاتِ اللهِ، فسَأَلَه إصلاحَ ذُرِّيَّتِه، وعَرَّضَ بأنَّ إصْلاحَهم لِفائدتِه، وهذا تَمهيدٌ لِبِساطِ الإجابةِ؛ كأنَّه يقولُ: كما ابْتدَأْتَني بنِعمتِك، وابْتَدَأْتَ والِديَّ بنِعمتِك، ومَتَّعْتَهما بتَوفيقي إلى بِرِّهما؛ كَمِّل إنْعامَك بإصلاحِ ذُرِّيَّتي؛ فإنَّ إصْلاحَهم لي. وهذه تَرْقيَّاتٌ بَديعةٌ في دَرَجاتِ القُرْبِ[٥].

- وكان الظَّاهرُ أنْ يُقالَ: (أصلِحْ لي ذُرِّيَّتي)؛ لأنَّ الإصلاحَ مُتعَدٍّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ولكنْ قال هنا: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ فعُدِّيَ بـ(في)؛ لِتَضمُّنِه مَعنى اللُّطفِ، أي: الْطُفْ بي في ذُرِّيَّتي،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٩).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٤).

أو نُزِّلَ مَنزِلةَ اللَّازمِ ثُمَّ عُدِّيَ بـ (في)؛ لِيُفِيدَ سَرَيانَ الصَّلاحِ فيهم، وكَوْنَهم كالظَّرْفِ له؛ لِتَمكُّنِه فيهم[١].

- وجُملةُ ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ كالتَّعليلِ لِلْمَطلوبِ بالدُّعاءِ تَعليلَ تَوسُّلٍ بصِلَةِ الإيمانِ، والإقرارِ بالنِّعمةِ والعُبوديَّةِ، وحَرْفُ (إنَّ) لِلْاهتمامِ بالخبَرِ، وقدْ أغْنى غَناءَ الفاءِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ ...﴾ جُملةٌ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ ما قبْلَها مِن الوصْفِ والحثِّ يُحدِثُ تَرقُّبَ السَّامعِ لِمَعرفةِ فائدةِ ذلك؛ فكان قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾ إلى آخِرِه جَوابًا لِتَرقُّبِه[٣].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الإنسانِ، والجمْعُ؛ لأنَّ المُرادَ به الجنسُ المُتَّصِفُ بالوَصْفِ المَحكِيِّ عنْه[٤].

- وأيضًا في اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: تَنبيهٌ على أنَّهم أحْرِياءُ بما يَرِدُ مِن الإخبارِ عنهم بما بعْدَ الإشارةِ؛ مِن أجْلِ الأوصافِ المذْكورةِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٥].

وكذلك ما في اسمِ الإشارةِ مِن مَعنى البُعدِ؛ للإشعارِ بعُلُوِّ رُتْبتِه وبُعْدِ مَنزلتِه،

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤، ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧، ٣٥).

أي: أولئكَ المَنْعوتونَ بما ذُكِرَ مِن النُّعوتِ الجليلةِ ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ مِن الطَّاعاتِ[١].

- وعُمومُ ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ يُكسِبُ الجُملةَ فائدةَ التَّذييلِ[٢].

- وعُدِّيَ فِعلُ ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ بحَرْفِ (عن)، وحقُّه أنْ يُعدَّى بحَرْفِ (مِن)؛ تَغْليبًا لِجانِبِ المَدْعوِّ لهم، وهمُ الوالِدانِ والذُّرِّيَّةُ؛ لأنَّ دُعاءَ الولَدِ والوالِدِ لِأولئك بمَنزِلةِ النِّيابةِ عنْهم في عِبادةِ الدُّعاءِ، وإذا كان العمَلُ بالنِّيابةِ مُتقبَّلًا، عُلِمَ أنَّ عَمَلَ المرْءِ لِنَفْسِه مُتقبَّلٌ أيضًا؛ ففي الكلامِ اختِصارٌ، كأنَّه قِيل: أولئك يُتقبَّلُ منْهم، ويُتقبَّلُ عن والِدَيهم وذُرِّيَّتِهم أحسَنُ ما عَمِلوا[٣].

- وقولُه: ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن اسمِ الإشارةِ، أي: كائنينَ في أصحابِ الجنَّةِ حِينَ يُتقبَّلُ أحسَنُ ما عَمِلوا ويُتجاوَزُ عن سَيِّئاتِهم؛ لأنَّ أصْحابَ الجنَّةِ مُتقبَّلٌ أحسَنُ أعْمالِهم، ويُتجاوَزُ عن سَيِّئاتِهم، وذُكِرَ هذا للتَّنويهِ بهم بأنَّهم مِن الفريقِ المُشرَّفينَ[٤].

- وإضافةُ ﴿وَعۡدَ﴾ إلى ﴿ٱلصِّدۡقِ﴾ في قولِه: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ إضافةٌ على مَعْنى (مِن)، أي: وَعْدٌ مِن الصِّدقِ؛ إذ لا يَتخلَّفُ، والَّذي كانوا يُوعَدون صِفةُ وَعْدِ الصِّدْقِ، أي: ذلك هو الَّذي كانوا يُوعَدونَه في الدُّنيا بالقُرآنِ في الآياتِ الحاثَّةِ على بِرِّ الوالدَينِ، وعلى الشُّكرِ، وعلى إصلاحِ الذُّرِّيَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٦).

الآيات (١٧-٢٠)

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿أُفٍّ﴾: الأُفُّ: الرَّديءُ مِن الكَلامِ، وكُلُّ ما غَلُظَ مِنه وقَبُحَ، وهو اسمُ فِعلٍ يُنبئُ عن التَّضَجُّرِ والاستِثقالِ، أو صَوتٌ يُنبئُ عن ذلك، وأصلُ (أفف): يدُلُّ على تَكَرُّهِ الشَّيءِ[(١)].

﴿خَلَتِ﴾: أي: مَضَتْ وذَهبَتْ، مِن خلا الزَّمانُ: إذا مَضَى وذهَبَ[(٢)].

﴿ٱلْقُرُونُ﴾: جمعُ قَرْنٍ، وهو: الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ، أو القَومُ المُقترِنونَ في زَمنٍ واحدٍ، غَيْر مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّةُ القرنِ مِئةُ سَنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، والاقترانُ هو اجتِماعُ شيئَينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٠).

قال الألوسي: (﴿أُفٍّ﴾ صوتٌ يَصدُرُ عن المرءِ عندَ تضَجُّرِه، وفيه قِراءاتٌ ولُغاتٌ نحوَ الأربعينَ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿وَيۡلَكَ﴾: الويلُ: كلمةُ دُعاءٍ بالهلاكِ والعذابِ، وتُستعمَلُ أيضًا في التَّحسُّرِ، وقيل: هي وادٍ في جهنَّمَ، وأصْلُ الوَيلِ: الشَّرُّ وحُلولُه[٢].

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: أي: أباطيلُهم وتُرَّهاتُهم، جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ[٣].

﴿ٱلۡهُونِ﴾: أي: الهَوانِ والذُّلِّ والخِزْيِ، وأصلُ (هون): يدُلُّ على ذُلٍّ[٤].

﴿تَفۡسُقُونَ﴾: أي: تَخرُجونَ عن الطَّاعةِ، وذلك مِن قولِهم: فسَقَ الرُّطَبُ، إذا خرجَ عَن قِشرِه، والفُسوقُ: خروجٌ مِن الطَّاعةِ إلى المعصيةِ، وخروجٌ مِن الإيمانِ إلى الكُفرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦ / ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦، ٨١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن حالِ الأشْقياءِ العاقِّينَ للوالدينِ، فيقولُ: والَّذي قال لِوالِدَيه إذْ دَعَواه إلى الإيمانِ باللهِ واليَومِ الآخِرِ: أُفٍّ لَكما، أتَعِدانِني أن أُبعَثَ بعدَ مَوتي وقد مَضَت أُمَمٌ كَثيرةٌ مِن قَبْلي، ولم يَرجِعْ منهم أحَدٌ؟!

ثمَّ يذكرُ اللهُ تعالى ما ردَّ به الأبَوانِ، فيقولُ: ووالِداه يَطلُبانِ مِن اللهِ الغَوثَ بأن يَهديَ ابنَهما إلى الحَقِّ، يَقولانِ له: وَيْلَك آمِنْ بالبَعثِ بعدَ الموتِ، إنَّ ما وَعَد اللهُ به عِبادَه مِن البَعثِ بعدَ الموتِ حقٌّ لا شَكَّ فيه، فيَقولُ هذا المُكَذِّبُ العاقُّ لوالِدَيه: ما هذا الَّذي تَدْعُوانِني إلى الإيمانِ به إلَّا أحاديثُ الأقدَمينَ ممَّا لا حقيقةَ له!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى عقوبةَ هؤلاءِ الأشقياءِ، فيقولُ: أولئك العاقُّونَ المُكَذِّبونَ بالبَعثِ هم الَّذين وَجَب عليهم عذابُ اللهِ في قضائِه السَّابقِ مُندَرِجينَ في جُملةِ مَن يُعَذِّبُهم اللهُ مِنَ الأُمَمِ الكافِرةِ الَّتي مَضَت قَبْلَهم مِنَ الجِنِّ والإنسِ، إنَّهم كانوا خاسِرينَ؛ لأنَّهم استحَبُّوا الكُفرَ على الإيمانِ.

ويُبيِّنُ سبحانَه أحدَ مظاهرِ عدلِه في حُكمِه بيْنَ عِبادِه، فيقولُ: ولِكُلٍّ مِن هؤلاءِ الفريقَينِ: فَريقِ المؤمِنِ البارِّ بوالِدَيه، وفَريقِ الكافِرِ العاقِّ لِوالِدَيه- مَنازِلُ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ بحَسَبِ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، ولِيُعطيَهم اللهُ جزاءَ أعمالِهم كامِلةً وافيةً، وهم لا يُظلَمونَ.

ثمَّ يذكرُ تعالى ما يُوبَّخُ به الكفَّارُ عندَ عرضِهم على النَّارِ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُعرَضُ الَّذين كَفَروا على النَّارِ، فيُقالُ لهم تَوبيخًا: ضيَّعتُم وأتلَفْتُم الطَّيِّباتِ الَّتي أنعَمَ اللهُ بها عليكم في حياتِكم الدُّنيا؛ حيثُ استَمتَعْتُم بِها واستَوفيتُموها في دُنياكم؛ فأنتم تُحرَمونَ منها في أُخراكم التي لم تَعمَلوا لأجْلِها

شَيئًا؛ فيَومَ القيامةِ تُجزَونَ عذابَ الهُونِ والخِزْيِ والذُّلِّ؛ بسبَبِ استِكبارِكم في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ، وبسَبَبِ خُروجِكم عن طاعةِ اللهِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه المحسِنَ بادِئًا به؛ لِكَونِ المقامِ للإحسانِ؛ أتْبَعَه المُسيءَ المناسِبَ لمقصودِ السُّورةِ، المذكورَ صَريحًا في مَطلَعِها[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالَى حالَ الدَّاعينَ للوالِدَينِ، البارِّينَ بهما، وما لَهم عندَه مِن الفَوزِ والنَّجاةِ؛ عَطَف بحالِ الأشقياءِ العاقِّينَ للوالدَينِ، فقال[٢]:

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾.

أي: والَّذي قال لِوالِدَيه إذْ دَعَواه إلى الإيمانِ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، مُتَضَجِّرًا منهما: أُفٍّ لَكما[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦، ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٤، ٢٢٥).

قال ابنُ الجوزي: (ورُوِيَ عن ابنِ عَبَّاسٍ أنَّها نزَلَتْ في عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبي بكرٍ قبْلَ إسلامِه، كان أبَواه يَدْعُوانِه إلى الإسلامِ، وهو يأبَى، وعلى هذا جُمهورُ المُفَسِّرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٨).

وقال السمعاني: (وأنكَر كثيرٌ مِن أهلِ التَّفسيرِ هذا القولَ، ورُوِيَ عن عائشَةَ أنَّها كانت تُنكِرُ أنَّ المرادَ بالآيةِ أخوها). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٥). =

= وممَّن رَدَّ هذا القَولَ مِن المُفَسِّرينَ: الزَّجَّاجُ، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابنُ عطية، والرازي، وابن جُزَي، وابن كثير، والبِقاعي، وأبو السعود، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٤).

قال ابن جُزَي: (﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ هي على الإطلاقِ فيمَن كان على هذه الصِّفةِ مِن الكُفرِ والعُقوقِ لِوالِدَيه، ويدُلُّ على أنَّها عامَّةٌ قَولُه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ بصيغةِ الجَمعِ، ولو أراد واحِدًا بعَينِه لَقال: ذلك الَّذي حَقَّ عليه القَولُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٧).

وقال الشِّنقيطي: (والإخبارُ عن لَفظةِ «الَّذي» بقَولِه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ بصِيغةِ الجَمعِ: صريحٌ في أنَّ المرادَ بـ«الَّذي» العُمومُ لا الإفرادُ، وخيرُ ما يُفَسَّرُ به القُرآنُ القُرآنُ. وبهذا الدَّليلِ القُرآنيِّ تَعلَمُ أنَّ قَولَ مَن قال في هذه الآيةِ الكريمةِ إنَّها نازِلةٌ في عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبي بَكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عنهما: ليس بصَحيحٍ، كما جَزَمَت عائِشةُ رَضِيَ الله عنها ببُطلانِه [يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٨٢٧)].

وفي نَفْسِ آيةِ «الأحقاف» هذه دَليلٌ آخَرُ واضِحٌ على بُطلانِه، وهو أنَّ اللهَ تعالى صَرَّح بأنَّ الَّذين قالوا تلك المقالةَ حَقَّ عليهم القَولُ، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣]، ومَعلومٌ أنَّ عبدَ الرَّحمنِ بنَ أبي بكرٍ رَضِيَ الله عنهما أسلَمَ وحَسُنَ إسلامُه، وهو مِن خيارِ المُسلِمينَ وأفاضِلِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٢٤). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٧٧).

وقال الزمخشري في معنى ﴿أُفٍّ ﴾: (هو صوتٌ إذا صوَّت به الإنسانُ عُلِم أنَّه مُتضَجِّرٌ... واللَّامُ للبَيانِ، معناه: هذا التَّأفيفُ لَكما خاصَّةً، ولِأجْلِكما دونَ غَيرِكما). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٤).

وقال ابن جرير: (﴿أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ يقولُ: قَذَرًا لَكُما ونَتْنًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٤).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ يعني: قُبحًا لكما الرَّديءُ مِنَ الكلامِ). ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٢١).

﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾.

أي: يَقولُ هذا العاقُّ لِوالِدَيه المؤمِنَينِ: أتَعِدانِني أن أُبعَثَ بعدَ مَوتي، فأُخرَجَ مِن قَبري حيًّا، والحالُ أنَّه قد مَضَت الأُمَمُ الأُولَى قبْلي، ولم يَرجِعْ منهم أحَدٌ بعدَ مَوتِه[1]؟!

﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾.

أي: ووالِداه يَطلُبانِ مِن اللهِ أنْ يُغيثَهما بأن يَهديَ ابنَهما إلى الحَقِّ[2].

﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾.

أي: يقولانِ لِوَلدِهما الكافِرِ: وَيْلَك آمِنْ بما وَعَد اللهُ به عِبادَه مِن البَعثِ بعدَ الموتِ[3].

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾.

أي: إنَّ ما وَعَد اللهُ به عِبادَه مِن البَعثِ بعدَ الموتِ للحِسابِ والجزاءِ صِدْقٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦).
قال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّه أحال أن يَخرُجَ هو مِنَ الأرضِ بعدَ الموتِ، وقد مَضَت أمَمٌ كَثيرةٌ وطال عليها الزَّمَنُ، فلم يخرُجْ منهم أحدٌ، وهذا مِن سوءِ فَهمِه في مَعنى البَعثِ، أو مِن المغالَطةِ في الاحتِجاجِ؛ لأنَّ وعْدَ البَعثِ لم يُوقَّتْ بزمَنٍ مُعَيَّنٍ، ولا أنَّه يقعُ في هذا العالَمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٨، ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦).
قال البِقاعي: (إشارةٌ إلى أنَّه لم يَبقَ له إنْ أعرضَ إلَّا الويلُ، وهو الهلاكُ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٥٤).

لا شَكَّ فيه، ووَعدٌ لا خُلْفَ فيه[١].

﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: فيَقولُ هذا المُكَذِّبُ بالبَعثِ لوالِدَيه: ما هذا الَّذي تَدْعُوانِني إلى الإيمانِ به إلَّا أحاديثُ الأقدَمينَ وقِصَصُهم الَّتي سطَّروها في كُتُبِهم، وهي خُرافاتٌ باطِلةٌ لا حقيقةَ لها[٢]!

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾.

أي: أولئك العاقُّونَ المُكَذِّبونَ بالبَعثِ القائِلونَ تلك المقالاتِ: هم الَّذين وَجَب عليهم عذابُ اللهِ، وسبَق عليهم القضاءُ بذلك، كائِنينَ في جُملةِ مَن يُعَذَّبُهم مِنَ الأُمَمِ الكافِرةِ الَّتي مَضَت قَبْلَهم مِنَ الجِنِّ والإنسِ، فسيَدخُلُ أولئك في عِدادِهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٩، ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٦، ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦، ٢٢٧).

أي: إنَّهم كانوا خاسِرينَ ببَيعِهم الهُدى بالضَّلالِ، والجنَّةَ بالنَّارِ، وخَسِروا أنفُسَهم وأهلِيهم يومَ القيامةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قَسَّم اللهُ تعالى النَّاسَ في الأعمالِ؛ جمَعَهم في العَدلِ والإفضالِ[٢].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾.

أي: ولِكُلٍّ مِن هؤلاءِ الفريقَينِ: فَريقِ المؤمِنِ البارِّ بوالِدَيه، وفَريقِ الكافِرِ العاقِّ لِوالِدَيه- مَنازِلُ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ بحَسَبِ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ[٣].

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٠، ٤١).

قال الألوسي: (و«مِنْ» بيانيَّةٌ أو ابتدائيَّةٌ، و «ما» مَوصولةٌ، أي: مِنَ الَّذي عَمِلوه مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ، أو مَصدريَّةٌ، أي: مِن عَمَلِهم الخَيرَ والشَّرَّ، ويجوزُ أن تكونَ «مِن» تعليليَّةً بدونِ تقديرِ مُضافٍ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٧٩).

وقال ابن عاشور: (و«مِنْ» في قولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ تبعيضِيَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤١).

أي: وليُعطيَهم اللهُ جزاءَ أعمالِهم الَّتي عَمِلوها كامِلًا وافيًا[١].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: وهم لا يُظلَمونَ شَيئًا مِن جزاءِ أعمالِهم؛ فلا يُنقَصُ مِن ثَوابِ المحسنينَ، ولا يُزادُ في عِقابِ المسيئينَ، ولا يُحمَّلونَ ذُنوبَ غَيرِهم، ولا يُعاقَبونَ على ما لم يَعمَلوه[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّه يُوصِلُ حَقَّ كُلِّ أحَدٍ إليه؛ بيَّنَ أحوالَ أهلِ العِقابِ أوَّلًا[٣].

وأيضًا لَمَّا كان الظَّاهِرُ في هذه السُّورةِ الإنذارَ، كما يَشهَدُ به مَطلَعُها؛ ذَكَر بَعضَ ما يُبَكَّتُ به المجرِمونَ يومَ البَعثِ الَّذي كانوا به يُكَذِّبونَ، ويكونُ فيه توفيةُ جزاءِ الأعمالِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤١).

قال الزمخشري: (تَعليلٌ مُعَلَّلُه مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه، كأنَّه قيل: وليُوَفِّيَهم أعمالَهم ولا يَظلِمَهم حُقوقَهم قَدَّر جزاءَهم على مقاديرِ أعمالِهم، فجَعَل الثَّوابَ دَرَجاتٍ، والعِقابَ دَرَكاتٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٤، ٣٠٥). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٩).

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُعرَضُ الَّذين كَفَروا باللهِ على النَّارِ[(١)].

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

أي: يُقالُ لهم تَوبيخًا: استَمتَعْتُم بالملَذَّاتِ والشَّهَواتِ، فاستَوْفَيْتُموها في دُنياكم؛ فأنتم تُحرَمونَ منها في أُخراكم الَّتي لم تَعمَلوا مِن أجْلِها شَيئًا[(٢)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٤٩)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٢٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٧، ٢٢٨).

قيل: معنى العَرضِ على النَّارِ: مُباشَرةُ عَذابِها. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ أبي زَمَنين، والزمخشري، وابن عطية، والثعالبي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٢٢٠).

قال الشنقيطي: (وقد ذكَرَ تعالى مِثلَ ما ذكر هنا في قولِه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣٤]، وهذا يدُلُّ على أنَّ المرادَ بالعَرضِ مُباشَرةُ العذابِ؛ لقولِه: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤]، وقولِه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ * ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦]؛ لأنَّه عَرضُ عذابٍ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٢٧).

وقيل: معنى ذلك: كَشفُ الغِطاءِ عن النَّارِ، وتقريبُهم منها، ورؤيتُهم لها. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقندي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٩).

وذلك كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣]. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٧-٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٩، ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

قال ابن العربي: (لا خِلافَ أنَّ هذه الآيةَ في الكُفَّارِ بنَصِّ القُرآنِ؛ لِقَولِه تعالى في أوَّلِها: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، أي: فيُقالُ لهم: أذْهَبتُم طَيِّباتِكم في حياتِكم الدُّنيا، يريدُ: أفْنَيْتُموها في الكُفرِ باللهِ ومَعصيتِه. وإنَّ اللهَ أحَلَّ الطيِّباتِ مِن الحلالِ واللَّذَّاتِ، وأمَرَ باستِعمالِها في الطَّاعاتِ، فصَرَفها الكُفَّارُ إلى الكُفرِ؛ فأوعَدَهم اللهُ بما أخبر به عنهم، وقد يَستعمِلُها المؤمِنُ في المعاصي، =

﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾.

أي: فاليَومَ تُجزَونَ العَذابَ الَّذي يُهينُكم ويُخزيكم ويُذِلُّكم[(١)].

﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي: تُجزَونَ عذابَ الهُونِ؛ بسبَبِ استِكبارِكم في الأرضِ ظُلمًا بغيرِ استِحقاقٍ لذلك[(٢)].

= فيَدخُلُ في وعيدٍ آخَرَ، وتَنالُه آيةٌ أخرى برجاءِ المَغفِرةِ، ويَرجِعُ أمرُه إلى المشيئةِ، فيُنفِذُ اللهُ فيه ما عَلِمَه منه، وكتَبَه له). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٢٧).

وقال الشنقيطي: (التَّحقيقُ إن شاء اللهُ في معنى هذه الآيةِ هو أنَّها في الكفَّارِ، وليست في المؤمنينَ الَّذين يتَمتَّعون باللَّذَّاتِ الَّتي أباحها الله لهم؛ لأنَّه تعالى ما أباحها لهم ليُذهِبَ بها حَسَناتِهم. أمَّا كَوْنُ الآيةِ في الكفَّارِ فقد صرَّح اللهُ تعالى به في قولِه: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾ الآيةَ. والقرآنُ والسُّنَّةُ الصَّحيحةُ قد دَلَّا على أنَّ الكافرَ إنْ عَمِلَ عمَلًا صالحًا مُطابِقًا للشَّرعِ، مُخلِصًا فيه لله؛ كالكافرِ الَّذي يَبَرُّ والِدَيه، ويَصِلُ الرَّحِمَ، ويَقْري الضَّيفَ، ويُنَفِّسُ عن المكروبِ، ويُعينُ المظلومَ يَبتغي بذلك وجْهَ اللهِ: يُثابُ بعمَلِه في دارِ الدُّنيا خاصَّةً بالرِّزقِ والعافيةِ ونحوِ ذلك، ولا نصيبَ له في الآخرةِ. وأمَّا المؤمنُ الَّذي يُجزى بحسَناتِه في الدُّنيا والآخرةِ معًا فلم يُذهِبْ طَيِّباتِه في الدُّنيا؛ لأنَّ حسَناتِه مُدَّخَرةٌ له في الآخرةِ، مع أنَّ اللهَ تعالى يُثيبُه بها في الدُّنيا). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٢٩) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٢، ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣١).

قال الماوَرْدي: (﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ يحتملُ ثلاثةَ أوجُهٍ:

أحدُها: تَستَعْلُون على أهلِها بغيرِ استِحقاقٍ.

الثَّاني: تَتغلَّبون على أهلِها بغيرِ دِينٍ.

الثَّالثُ: تَعصُون اللهَ فيها بغيرِ طاعةٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٨١).

ممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ: استِكبارُهم عن توحيدِ اللهِ وعن الإيمانِ به وطاعتِه: مقاتلُ =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ * ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٥، ٧٦].

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

أي: وتُجزَونَ عَذابَ الهُونِ؛ بسَبَبِ خُروجِكم عن طاعةِ اللهِ، ووُقوعِكم في مَعصيتِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ هذه الآيةُ وإنْ كانت في الكُفَّارِ فهي وازعةٌ لِأُولي النُّهَى مِن المؤمنينَ عن الشَّهَواتِ، واستِكمالِ الطَّيِّباتِ[(٢)]، وقد تورَّع أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ الله عنه عن كثيرٍ مِن طَيِّباتِ المآكِلِ والمَشارِبِ، وتَنزَّهَ عنها، وقال: (إنِّي

= ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، والواحدي، وابنُ الجوزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: طلبُ العُلوِّ والرِّفعةِ على أهلِ الأرضِ بغيرِ استِحقاقٍ: السمعاني، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣١).

قال الشوكاني: (جَعَل السَّبَبَ في عذابهم أمْرَين: التَّكَبُّرَ عن اتِّباعِ الحقِّ، والعمَلَ بمعاصي اللهِ سُبحانَه وتعالَى، وهذا شأنُ الكَفَرةِ؛ فإنَّهم قد جمَعوا بيْنَهما). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦).

وقال ابن عاشور: (وقد يأخُذُ المسلِمُ بحَظٍّ مِن هذَينِ الجُرمَينِ فيَكونُ له حَظٌّ مِن جزائِهما الَّذي لَقِيَه الكافِرون، وذلك مُبَيَّنٌ في أحكامِ الدِّينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٠، ١٠١).

أخافُ أن أكونَ كالَّذين قال اللهُ تعالى لهم وقرَّعهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[1]. وقال ابنُ عُمَرَ رضيَ الله عنهما: (لا يُصيبُ عبدٌ مِن الدُّنيا شيئًا إلَّا نقَصَ مِن درَجاتِه عندَ اللهِ، وإن كان عليه كريمًا)[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ إنَّ الصَّالِحينَ يُؤثِرونَ التَّقَشُّفَ والزُّهدَ في الدُّنيا؛ رَجاءَ أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤).

ويُنظر ما أخرجه مالكٌ في ((الموطَّأ)) (٢/ ٩٣٦)، وابنُ أبي شَيْبَةَ (٢٤٥٢٤)، وابنُ أبي الدُّنيا في ((الجوع)) (٣٦)، وأبو نُعَيمٍ في ((حلية الأولياء)) (١/ ٤٩).

(٢) أخرجه ابنُ أبي الدُّنيا في ((الزهد)) (٢٩٧)، وجوَّد إسنادَه ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحِكَم)) (٢/ ١٨٨).

قال الحَليمي: (هذا الوعيدُ مِن الله [أي: المذكورُ في الآيةِ] وإن كان للكفَّارِ والَّذينَ يُقدِمون على الطَّيِّباتِ المحظورةِ، ولذلك قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، فقد يُخشى مِثلُه على المُنهَمِكينَ في الطَّيِّباتِ المباحةِ؛ لأنَّ مَن تعوَّدها مالتْ نفْسُه إلى الدُّنيا، فلم يُؤمَنْ أن يرتبكَ في الشَّهواتِ والمَلاذِّ، كلَّما أجاب إلى واحدةٍ منها دَعَتْه إلى غيرِها، فيَصيرَ إلى ألَّا يُمكِنَه عِصيانُ نفْسِه في هَوًى قطُّ، ويَنسَدَّ بابُ العبادةِ دُونَه، وإذا آلَ به الأمرُ إلى هذا لم يَبعُدْ أن يُقالَ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾. فلا يَنبغي أن تُعوَّدَ النَّفْسُ بما يَميلُ بها إلى الشَّرَهِ، ثمَّ يَصعُبَ تَدارُكُها، ولْتَرْضَ مِن أوَّلِ الأمرِ على السَّدادِ؛ فإنَّ ذلك أهْوَنُ مِن أن يُدرَّبَ على الفسادِ، ثمَّ يَجتهِدَ في إعادتِها إلى الصَّلاحِ، واللهُ أعلَمُ). ((المِنهاج في شُعَب الإيمان)) (٣/ ٦١، ٦٢).

وقال ابن حجر: (الحقُّ أنَّ مُلازَمةَ استِعمالِ الطَّيِّباتِ تُفضي إلى التَّرَفُّهِ والبَطَرِ، ولا يأمنُ مِن الوُقوعِ في الشُّبُهاتِ؛ لأنَّ مَنِ اعتاد ذلك قد لا يَجِدُه أحيانًا، فلا يستطيعُ الانتِقالُ عنه فيَقَعَ في المحظورِ، كما أنَّ مَنْعَ تَناوُلِ ذلك أحيانًا يُفضي الى التَّنطُّعِ المنهيِّ عنه، ويَرِدُ عليه صريحُ قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، كما أنَّ الأخذَ بالتَّشديدِ في العبادةِ يُفضي إلى المَلَلِ القاطعِ لأصْلِها، ومُلازَمةَ الاقتِصارِ على الفرائضِ مثلًا وتَرْكِ التَّنفُّلِ يُفضي إلى إيثارِ البِطالةِ وعدَمِ النَّشاطِ إلى العبادةِ، وخيرُ الأمورِ الوسَطُ). ((فتح الباري)) (٩/ ١٠٦).

يكونَ ثَوابُهم في الآخِرةِ أكمَلَ، إلَّا أنَّ هذه الآيةَ لا تدُلُّ على المَنعِ مِن التَّنَعُّمِ[١]؛ لأنَّ هذه الآيةَ ورَدَتْ في حَقِّ الكافِرِ، وإنَّما وبَّخ اللهُ الكافِرَ؛ لأنَّه يَتمَتَّعُ بالدُّنيا، ولم يُؤَدِّ شُكرَ المُنعِمِ بطاعتِه والإيمانِ به، وأمَّا المؤمِنُ فإنَّه يُؤدِّي بإيمانِه شُكرَ المُنعِمِ، فلا يُوَبَّخُ بتمَتُّعِه، والدَّليلُ عليه قَولُه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، والاحترازُ عن التَّنَعُّمِ أَوْلى؛ لأنَّ النَّفْسَ إذا اعتادت التَّنَعُّمَ صَعُب عليها الاحترازُ والانقِباضُ، وحينَئذٍ فرُبَّما حمَلَه المَيلُ إلى تلك الطَّيِّباتِ على فِعلِ ما لا ينبغي، وذلك ممَّا يَجُرُّ بَعضُه إلى بعضٍ، ويقَعُ في البُعدِ عن اللهِ تعالى بسَبَبِه[٢].

٣- مَن صام اليومَ عن شَهَواتِه أفطَرَ عليها بعدَ مماتِه، ومَن تعَجَّل ما حُرِّم عليه قبْلَ وَفاتِه عُوقِبَ بحِرمانِه في الآخرةِ وفَواتِه، وشاهِدُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ الآيةَ، وقَولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن شَرِبَ الخَمرَ في الدُّنيا لم يَشرَبْها في الآخِرةِ إلَّا أنْ يَتُوبَ))[٣]، و: ((مَن لَبِسَ الحَريرَ في الدُّنيا لم يَلْبَسْهُ في الآخِرةِ))[٤]، فمَن تَرَكَ اللَّذَّةَ المحرَّمةَ للهِ استَوْفاها يومَ القيامةِ أكمَلَ ما تكونُ، ومَنِ استَوفاها هنا حُرِمَها هناك أو نُقِصَ كمالَها؛ فلا يَجعَلُ اللهُ لَذَّةَ مَن أسرَعَ في معاصيه ومَحارِمِه كلَذَّةِ مَن ترَكَ شَهوتَه

---

(١) قال ابنُ عاشور: (ليس في الآيةِ ما يَقتضي مَنْعَ المُسلِمِ مِن تَناوُلِ الطَّيِّباتِ في الدُّنيا إذا تَوخَّى حَلالَها، وعَمِلَ بواجِبِه الدِّينيِّ فيما عدا ذلك، وإنْ كان الزُّهدُ في الاعتِناءِ بذلك أرفَعَ دَرَجةً، وهي دَرَجةُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وخاصَّةٍ مِن أصحابِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٠٣) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ١٤٧).

والحديث الأخير أخرجه البخاريُّ (٥٨٣٢)، ومسلمٌ (٢٠٧٣) واللَّفظُ له مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

للهِ أبدًا[١]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ذكَر الله تعالى فريقَ الكافرينَ، ووصَفهم بعقوقِ الوالدَينِ، وبإنكارِهم البعثَ، وفيه أنَّه لا شيءَ أفحشُ مِن عقوقِ الوالدَينِ، وإنكارِ الحشرِ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ يَقتَضي أنَّ الجِنَّ يموتونَ كما يموتُ البَشَرُ قَرنًا بعدَ قَرنٍ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ أنَّ الجِنَّ مأمورون مَنهيُّونَ مُكَلَّفونَ بالشَّريعةِ الإسلاميَّةِ؛ فقد أخبَرَ اللهُ أنَّ منهم مَن حَقَّ عليه القَولُ -أي: وَجَبَ عليه العَذابُ-، وأنَّه خاسرٌ، ولا يكونُ ذلك إلَّا في أهلِ التَّكليفِ المُستوجِبينَ العِقابَ بأعمالِهم، ثمَّ قال بعدَ ذلك: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ أي: في الخَيرِ والشَّرِّ يُوَفَّونَها ولا يُظلَمونَ شَيئًا مِن أعمالِهم، وهذا ظاهِرٌ جِدًّا في ثَوابِهم وعِقابِهم، وأنَّ مُسيئَهم كما يَستحِقُّ العذابَ بإساءتِه فمُحسِنُهم يَستحِقُّ الدَّرَجاتِ بإحسانِه ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾؛ فدلَّ ذلك لا مَحالةَ أنَّهم كانوا مأمورينَ بالشَّرائعِ، مُتَعَبَّدينَ بها في الدُّنيا؛ ولذلك استحَقُّوا الدَّرَجاتِ بأعمالِهم في الآخِرةِ في الخَيرِ والشَّرِّ[٤]،

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٨).

ثمَّ قال: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: جزاءَها مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وجَنَّةٍ ونارٍ، وهذا ظاهِرٌ أو نَصٌّ في أنَّ الجِنَّ يُثابُونَ بالإحسانِ، كما يُعاقَبونَ بالعِصيانِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أنَّ تَفاوُتَ أهلِ النَّارِ في العذابِ هو بحَسَبِ تفاوُتِ أعمالِهم الَّتي دخَلوا بها النَّارَ(٢).

٥- أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ الدُّنيا والغِنى والمالَ إنَّما جَعَلَها اللهُ مُتعةً لِمَن لا نصيبَ له في الآخرةِ؛ وأنَّ الآخِرةَ جَعَلَها للمُتَّقِينَ، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، وإلى هذا المعنى أشار النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقولِه لِعُمَرَ رضيَ الله عنه: ((أمَا تَرضَى أنْ تكونَ لهم الدُّنيا ولنا الآخِرةُ؟))(٣).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ احتُجَّ به على أنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّرائعِ؛ لأنَّه عَلَّل عَذابَهم بأمْرَينِ؛ أوَّلُهما: الكُفرُ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وثانيهما: الفِسقُ. وهذا الفِسقُ لا بدَّ أن يكونَ مُغايرًا لذلك الكُفرِ؛ لأنَّ العَطفَ يُوجِبُ المغايَرةَ؛ فثَبَت أنَّ فِسقَ الكُفَّارِ يُوجِبُ العِقابَ في حَقِّهم، ولا معنى للفِسقِ إلَّا تَركُ المأموراتِ وفِعلُ المَنهيَّاتِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٨١).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٢).
والحديث أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٤٩١٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٤٧٩) مِن حديثِ عمرَ بنِ الخطَّاب رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أنَّ عُقوبةَ التَّكَبُّرِ الهَوانُ والذُّلُّ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ ...﴾ هذا الفريقُ المَقصودُ مِن هذه الآياتِ المَبْدوءةِ بقَولِه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾[الأحقاف: ١٥]. وهذا الفريقُ الَّذي كَفَرَ بربِّه وأساء إلى والِدَيْه؛ فجُملةُ ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ الأحسَنُ أنْ تكونَ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾[الأحقاف: ٧] إلخ؛ وهي انتِقالٌ إلى مَقالةٍ أُخْرى مِن أُصولِ شِرْكِهم؛ وهي مَقالةُ إنْكارِ البَعثِ[٢].

- والمُرادُ بـ (الَّذي قَالَ): الجِنسُ القائلُ ذلك القولَ؛ ولذلك وَقَعَ الخبَرُ مَجموعًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾[٣] [الأحقاف: ١٨].

- و﴿أُفّٖ﴾: اسْمُ فِعلٍ بمَعنى: أتضَجَّرُ، وهو هنا مُستعمَلٌ كِنايةً عن أقلِّ الأذى؛ فيَكونُ الَّذين يُؤذُون والِدَيْهم بأكثَرَ مِن هذا أوغَلَ في العُقوقِ الشَّنيعِ، وأحْرى بالحُكْمِ؛ بدَلالةِ فَحْوى الخِطابِ[٤].

- والاستِفهامُ في ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ إنكارٌ وتَعجُّبٌ، وجُعِلَت جُملةُ الحالِ

---

(١) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦، ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٨).

وفحوى الخطاب تقدَّم تعريفه (ص: ٢٧٠).

-وهي ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾- قَيدًا لِمُنتهَى الإنكارِ، أي: كيف يكونُ ذلك في حالِ مُضِيِّ القُرونِ[١]؟!

- وقولُهما: ﴿وَيْلَكَ﴾ دُعاءٌ عليه بالثُّبورِ، والمُرادُ به الحثُّ والتَّحريضُ على الإيمانِ، لا حَقيقةُ الهَلاكِ، حيثُ إنَّ فيه إشْعارًا بأنَّ الفِعلَ المُرتَكبَ حَقيقٌ بأنْ يُهلَكَ مُرتكِبُه، وأنْ يُطلَبَ له الهَلاكُ، فإذا سمِعَ ذلك كان باعثًا على تَرْكِه[٢]، فكلمةُ (وَيْلَك) كَلمةُ تَهديدٍ وتَخويفٍ[٣].

- وليستْ جُملةُ ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ بَيانًا لمعنَى اسْتِغاثَتِهما، ولكنَّها مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه مَعنى الجُملةِ[٤].

- وقولُهما: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ تَعليلٌ لِلْأمْرِ بالإيمانِ، وتَعريضٌ له بالتَّهديدِ مِن أنْ يَحِقَّ عليه وَعْدُ اللهِ[٥].

- وقولُهما: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: البعثَ، أضافَا الوعدَ إليه تعالَى؛ تَحقيقًا للحقِّ، وتَنبيهًا على خَطَئِه في إسنادِ الوعْدِ إليهما[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ...﴾ اسْتِحضارُ هذا الفريقِ بطَريقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤).

اسمِ الإشارةِ؛ لِزيادةِ تَمْييزِ حالِهم العَجيبةِ[١].

- وتَعريفُ ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ تعريفُ العهْدِ، وهو قَولٌ مَعهودٌ عِندَ المُسلمينَ؛ لِمَا تَكرَّرَ في القُرآنِ مِن التَّعبيرِ عنه بالقَولِ في نحوِ آيةِ: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]، ونحوِ قولِه: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧] الآيةَ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ تَعليلٌ للحُكمِ بطَريقِ الاستِئنافِ التَّحقيقيِّ[٣].

- وتأْكيدُ الكَلامِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ لأنَّهم يَظُنُّون أنَّ ما حصَلَ لهم في الدُّنيا مِن التَّمتُّعِ بالطَّيِّباتِ فَوزًا ليس بعْدَه نَكَدٌ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنون بالبَعثِ والجَزاءِ[٤].

- وإيرادُ فِعلِ الكَونِ ﴿كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (إنهم خاسِرون)؛ لِلْإشارةِ إلى أنَّ خُسْرانَهم مُحقَّقٌ؛ فكُنِّيَ عن ذلك بجَعْلِهم كائنينَ فيه، فـ(كان) تدُلُّ على أنَّ الخَسارةَ مُتمكِّنةٌ منهم[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ تَنوينُ (كُلٍّ) تَنْوينُ عِوَضٍ عمَّا تُضافُ إليه (كُل)، وهو مُقدَّرٌ يُعلَمُ مِن السِّياقِ، أي: ولكلِّ الفَريقَينِ -المؤمِنُ البارُّ بوالِدَيْه، والكافرُ الجامِعُ بيْن الكُفْرِ والعُقوقِ- دَرَجاتٌ، أي: مَراتِبُ مِن التَّفاوُتِ في الخَيرِ بالنِّسبةِ لِأهْلِ جَزاءِ الخيرِ، وهمُ المُؤمِنون، ودَرَكاتٌ في الشَّرِّ لِأهْلِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩، ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الكُفْرِ[١].

- قولُه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ التَّعبيرُ عن مَراتبِ المُؤمِنينَ والكافرينَ بالدَّرَجاتِ تَغليبٌ؛ لأنَّ الدَّرَجةَ مَرْتبةٌ في العُلوِّ، وهو عُلُوٌّ اعتباريٌّ إنَّما يُناسِبُ مَراتبَ الخَيرِ، وأمَّا المَرتبةُ السُّفْلى فهي الدَّرَكةُ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]؛ ووَجْهُ التَّغليبِ التَّنويهُ بشَأْنِ أهْلِ الخَيرِ[٢].

أو عُبِّر بالدَّرَجاتِ؛ لأنَّه تعالَى لَمَّا ذَكَر الفريقَ الأوَّلَ، ووَصَفَهم بثَباتٍ في القَولِ، واستِقامةٍ في الفِعلِ، ورتَّبَ عليه جَزاءَهم، وأوقَعَ قَولَه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥] اسْتِطْرادًا في البَيْنِ، وعقَّبَ ذلك بذِكْرِ فَريقِ الكافرينَ، ووصَفَهم بعُقوقِ الوالدَينِ، وبإنْكارِهم البَعثَ، وجعَلَ العُقوقَ أصْلًا في الاعتبارِ، وكرَّرَ في القِسمِ الأوَّلِ الجَزاءَ -وهو ذِكْرُ الجنَّةِ- مِرارًا ثلاثًا، وأفرَدَ جَزاءَ الكافِرِ -وهو ذِكرُ النَّارِ- وأخَّرَه بعْدَ ذِكرِ ما يَجمَعُهما مِن قَولِه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾؛ غلَّبَ الدَّرَجاتِ على الدَّرَكاتِ لذلك[٣].

وقيل: الدَّرَجاتُ هي: الطَّبقاتُ مِن المراتِبِ مُطلَقًا. أو فيه إضمارٌ، تَقديرُه: ولكلِّ فَريقٍ دَرَجاتٌ أو دَرَكاتٌ، لكنْ حُذِفَ الثَّاني اختِصارًا؛ لِدَلالةِ المَذْكورِ عليه[٤].

وقيل: المرادُ بالدَّرَجاتِ المراتِبُ المُتزايدةُ، إلَّا أنَّ زياداتِ أهلِ الجنَّةِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٠، ٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢١).

الخَيراتِ والطَّاعاتِ، وزياداتِ أهلِ النَّارِ في المعاصي والسَّيِّئاتِ[١].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ تَبْعيضيَّةٌ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، والمُرادُ بـ﴿مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ جَزاءُ ما عَمِلوا، فيُقدَّرُ مُضافٌ[٢].

- وقولُه: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ هو عِلَّةٌ لِمَحذوفٍ دلَّ عليه الكَلامُ، وتَقديرُه: قدَّرْنا جَزاءَهم على مَقاديرِ دَرجاتِهم؛ لِنُوَفِّيَهم جَزاءَ أعْمالِهم، أي: نُجازِيَهم تامًّا وافيًا لا غَبْنَ فيه[٣].

- وجُملةُ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ احتِراسٌ مَنظورٌ فيه إلى تَوفيةِ أحَدِ الفريقَينِ، وهو الفريقُ المُستحِقُّ للعُقوبةِ؛ لِئلَّا يُحسَبَ أنَّ التَّوفيةَ بالنِّسبةِ إليهم أنْ يكونَ الجَزاءُ أشدَّ ممَّا تَقْتضيهِ أعمالُهم[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ انْتِقالٌ إلى وَعيدِ الكافرينَ على الكُفْرِ بحَذافِرِه، وذلك زائدٌ على الوَعيدِ المُتقدِّمِ المُتعلِّقِ بإنْكارِهم البَعثَ مع عُقوقِهم الوالدَينِ المُسلِمينِ؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ [الأحقاف: ١٧] الآياتِ[٥].

- والكلامُ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: ويُقالُ لِلَّذينَ كفَروا يومَ يُعرَضونَ على النَّارِ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ ...﴾ ومُناسَبةُ ذِكْرِه هنا: أنَّه تَقريرٌ لِمَعنى ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩]، أي: لا يُظلَمون في جَزاءِ الآخرةِ، مع أنَّنا أنْعَمْنا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عليهم في الدُّنيا، ولو شِئْنا لَعَجَّلْنا لهم الجَزاءَ على كُفْرِهم في الحياةِ الدُّنيا، فهو إعذارٌ لهم وتَقريرٌ لِكَونِهم لا يُظلَمونَ، فرُتِّبَ عليه قولُه: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ فالفاءُ فَصيحةٌ، والتَّقديرُ: إنْ كان كذلك فاليَومَ لم يَبْقَ لكمْ إلَّا جَزاءُ سَيِّئِ أعْمالِكم، وليستِ الفاءُ للتَّفريعِ ولا للتَّسبُّبِ[١].

- قولُه: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ بهَمزةٍ واحدةٍ، على أنَّه خَبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ، وقُرِئَ: ﴿أَأَذْهَبْتُمْ﴾ بهَمْزتينِ[٢]، وهذا الاستِفهامُ هو على مَعنى التَّوبيخِ والتَّقريرِ؛ فتَؤولُ القِراءتانِ إلى مَعنًى واحدٍ[٣].

- وفي هذِه الآيةِ كِنايةٌ عن عَدَمِ الإيمانِ، والمعنى: أنَّه كانتْ تَكونُ لكمْ طَيِّباتُ الآخِرةِ لو آمنْتُم، لكنَّكم لم تُؤمِنوا، فاسْتَعْجَلْتم طَيِّباتِكم في الحياةِ الدُّنيا، ثمَّ بيَّنَ تلك الكِنايةَ بقَولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تَترفَّعون عن الإيمانِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي: بمَعاصي الجوارحِ. وقدَّمَ ذَنْبَ القلْبِ -وهو الاستِكبارُ- على ذَنْبِ الجوارِحِ؛ إذ أعمالُ الجوارِحِ ناشئةٌ عن مُرادِ القلْبِ[٤]، ولأنَّ أحوالَ القُلوبِ أعظَمُ وَقعًا مِن أعمالِ الجوارحِ[٥].

- قولُه: ﴿تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قَولُه: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادةٌ لِتَشنيعِ الاستِكبارِ بذِكْرِ ما هو صِفةٌ لازِمةٌ له، وهو مُغايَرةُ الحَقِّ، أي: بالباطِلِ، وهي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٢، ٤٣).

(٢) وهي قراءةُ ابنِ كَثيرٍ، وابنِ عامرٍ، وأبي جَعفرٍ، ويَعْقوبَ، وقرأَها الباقونَ بهمزةٍ واحدةٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣).

حالٌ لازِمةٌ للاستِكبارِ، كاشِفةٌ لِوَصفِه؛ إذِ الاستِكبارُ لا يكونُ بحَقٍّ في جانِبِ الخَلْقِ[١].

وقيل: قَولُه: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ صِلةٌ للاستِكبارِ، وقَيدٌ له؛ فإنَّه يُتَصَوَّرُ أن يَتكَلَّفَ الإنسانُ إعلاءَ نَفْسِه على غَيرِه أو إكثارَه مِنَ الاستِعلاءِ عليه بحَقٍّ، كالتَّرفُّعِ عن المُبطِلينَ، وإهانةِ الجبَّارينَ، واحتِقارِ المحارِبينَ، وإن كان الأصلُ الغالِبُ في الاستِكبارِ أن يكونَ بغيرِ الحَقِّ.

أو المعنى: أنَّهم يَستَكبِرونَ حالةَ كَونِهم مُتلَبِّسينَ بغَيرِ الحَقِّ، أي: مُنغَمِسينَ في الباطِلِ؛ فأمثالُ هؤلاءِ لا قيمةَ للحَقِّ في نَفْسِه عِندَهم، فهم لا يَطلُبونَه، ولا يَبحَثونَ عنه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٥). والكلام المذكور على قوله تعالى: ﴿يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٧٠). والكلام المذكور على قوله: ﴿يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

الآيات (٢١-٢٥)

﴿ ۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾: الأحقافُ: جَمعُ حِقْفٍ، وهو ما استطالَ وانحنَى مِنَ الرَّملِ كهَيئةِ الجَبَلِ، ولم يَبلُغْ أن يكونَ جَبَلًا، وأصلُ (حقف): يدُلُّ على مَيلِ الشَّيءِ وعِوَجِه[1].

﴿خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾: أي مضَتِ الرُّسُلُ، يُقالُ: خلا الزَّمانُ، أي: مضى وذهَبَ، والنُّذُرُ جمْعُ نذيرٍ، بمعنى مُنذِرٍ، أي: محَذِّرٍ، والإنذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يكادُ يكونُ إلَّا في التَّخويفِ، وأصلُ (نذر): تخويفٌ[2].

﴿لِتَأۡفِكَنَا﴾: أي: لِتَصرِفَنا، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١، ٢٣٢).

جِهتِه[١].

﴿عَارِضًا﴾: أي: سَحابًا يَعرِضُ -أي: يبدو- في ناحيةٍ مِن السَّماءِ؛ سُمِّي بذلك لأنَّه يبدو في عَرضِ السَّماءِ، وأصلُ (عرض): يدُلُّ على خِلافِ الطُّولِ[٢].

﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: الجُرمُ بالضَّمِّ: لا يُطلَقُ إلَّا على الذَّنْبِ الغليظِ، وأصلُه مِن الجَرْمِ وهو القطْعُ، وسُمِّي الذَّنْبُ بالجُرْمِ والجريمةِ؛ لأنَّه كسبٌ، والكسبُ اقْتِطاعٌ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يُسلِّي الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم في تكذيبِ مَن كذَّبه مِن قَومِه، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- هُودًا أخا عادٍ في النَّسَبِ حينَ خوَّف قَومَه -الَّذين كانت مَنازِلُهم في مَنطِقةِ الأحقافِ- عذابَ اللهِ على كُفْرِهم، وقد مَضَت الرُّسُلُ مِن قَبلِ هُودٍ ومِن بَعدِه بإنذارِ قَومِهم عذابَ اللهِ إنْ عَبَدوا غيرَه، فأنذَرَهم قائلًا لهم: إنِّي أُحَذِّرُكم عِبادةَ أحَدٍ سِوى اللهِ؛ لأنِّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ هائِلٍ عَظيمٍ.

قال قومُ هودٍ له مُستَنكِرينَ: أجِئْتَنا لِتَصرِفَنا وتَصُدَّنا عن عبادةِ آلهتِنا؟! فإنْ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

كان الأمرُ كما تقولُ فأْتِنا بما تَعِدُنا به مِن العَذابِ العَظيمِ إنْ كُنتَ مِن الصَّادقينَ فيما أخبَرْتَنا به!

قال هودٌ لِقَومِه: إنَّما عِلمُ وَقتِ نُزولِ العَذابِ بكم عندَ اللهِ لا عِندي، وإنَّما أنا رَسولٌ مِنَ اللهِ إليكم، أُبَلِّغُكم ما أُرسِلْتُ به إليكم، فرِسالتي محصورةٌ في التَّبليغِ والإنذارِ، ولكِنِّي أراكم قَومًا تَجهَلونَ الحَقَّ، وتُصِرُّونَ على الباطِلِ.

فأتَى العذابُ الَّذي استعجَلَه قَومُ هودٍ إليهم، فلمَّا رأَوْه بأعيُنِهم مُتمَثِّلًا في سَحابٍ يَظهَرُ في أُفُقِ السَّماءِ مُتَّجِهًا نحوَ أوديَتِهم ومَساكِنِهم، ظَنُّوه مَطَرًا سيَنزِلُ عليهم، ففَرِحوا به، وقالوا: هذا سَحابٌ سيُمطِرُنا! قيلَ لهم: ما رأيتُموه ليس سَحابًا مُمطِرًا كما ظَنَنْتُم، وإنَّما هو العذابُ الَّذي استَعجَلْتُم نُزولَه! هو رِيحٌ فيها عَذابٌ مُوجِعٌ، تُهلِكُ كُلَّ شَيءٍ لَدَى قَومِ هودٍ بإذنِ اللهِ، فأصبحَ قَومُ هُودٍ هالكِينَ كُلُّهم؛ فلا يُرى مِن بلادِهم شَيءٌ إلَّا مَنازِلُهم الَّتي كانوا يَسكُنونَها؛ عِبرةً لِغَيرِهم، مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذي جازَيْنا به عادًا قَومَ هودٍ نَجزي القَومَ الَّذين مِن دَأْبِهم الإجرامُ والطُّغيانُ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أهلُ مكَّةَ مُستغرِقينَ في لَذَّاتِ الدُّنيا، مُعرِضينَ عن الإيمانِ وما جاء به الرَّسولُ؛ ذكَّرَهم بما جرَى لِلعرَبِ الأُولى، وهم قَومُ عادٍ، وكانوا أكثَرَ أموالًا، وأشَدَّ قُوَّةً، وأعظَمَ جاهًا فيهم، فسُلِّطَ عليهم العَذابُ بسَببِ كُفْرِهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٤).

وأيضًا لَمَّا هَدَّد اللهُ سُبحانَه المُشركينَ بالأُمورِ الأُخرويَّةِ، وختَمَ بالعَذابِ على الاستِكبارِ المذمومِ والفِسقِ؛ عَطَف عليه تَهديدَهم بالأُمورِ المحسوسةِ(١).

﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- هُودًا أخا عادٍ في النَّسَبِ حينَ خوَّف وحذَّرَ قَومَه عذابَ اللهِ على كُفْرِهم بمَنطِقةِ الأحقافِ الَّتي كانت فيها مَنازِلُهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

أي: وقد مَضَت الرُّسُلُ بإنذارِ قَومِهم عذابَ اللهِ إنْ عَبَدوا غيرَه، مِن قَبْلِ هُودٍ ومِن بَعدِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٠، ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

قال ابنُ جُزَي: (واختُلِفَ أينَ كانت [أي: الأحقافُ]؟ فقيل: بالشَّامِ. وقيل: بيْنَ عُمَانَ ومَهَرَةَ. وقيل: بيْنَ عُمَان وحَضْرَمَوْتَ. والصَّحيحُ أنَّ بلادَ عادٍ كانت باليَمَنِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٧).

وقال الشنقيطي: (الأحقافُ جمعُ الحِقْفِ، والحِقْفُ: هو الجَبَلُ الممتدُّ العالي مِن الرَّملِ، فهم في رمالٍ هناك، كانت مَنازِلُهم في رمالٍ تتخلَّلُها أوديةٌ في نواحِي اليمنِ أو حَضْرَمَوْتَ). ((العذب النمير)) (٣/ ٤٧٦).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٤).

قال الزَّجَّاج: (أي: قد أُنذِروا بالعذابِ إن عَبدوا غيرَ اللهِ فيما تقَدَّم قبْلَ إنذارِ هودٍ، وعلى لسانِ هودٍ عليه السَّلامُ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤٤٥). ويُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٩٧).

=

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤].

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: قال هودٌ لِقَومِه: إنِّي أخافُ أن يُصيبَكم عذابُ يومٍ هائلٍ(١).

= وقال الزمخشري: (المعنى: أنَّ هُودًا عليه السَّلامُ قد أنذَرَهم، فقال لهم: لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ إنِّي أخافُ عليكم العذابَ، وأعلَمَهم أنَّ الرُّسُلَ الَّذين بُعِثوا قَبْلَه والَّذين سيُبعَثون بعدَه كُلُّهم مُنذِرونَ نحوَ إنذارِه... ولك أن تجعَلَ قَولَه تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ اعتِراضًا بيْنَ ﴿أَنذَرَ قَوْمَهُ﴾ وبيْنَ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾، ويكونَ المعنى: واذكُرْ إنذارَ هُودٍ قَومَه عاقِبةَ الشِّركِ والعذابَ العَظيمَ، وقد أنذَرَ مَن تَقدَّمَه مِنَ الرُّسُلِ ومَن تأخَّرَ عنه مِثلَ ذلك؛ فاذْكُرْهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٦).

وممَّن قال بأنَّ المراد بقَولِه تعالى: ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ﴾: مِن قَبْلِ هودٍ، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾: مِن بَعدِ هُودٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٤).

وقال ابنُ كثير: (قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني: وقد أرسلَ اللهُ إلى مَن حوْلَ بلادِهم مِن القُرى مُرسَلينَ ومُنذِرينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٥).

وقال ابن عاشور (﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ بمعنى: قريبًا مِن زمانِه، وبعيدًا عنه، فـ ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ معناه القُربُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، أي: قبْلَ العذابِ قَريبًا منه... وأمَّا الَّذي مِن خَلْفِه فنوحٌ؛ فقد قال هودٌ لِقَومِه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وهذا مُراعاةٌ للحالةِ المقصودِ تَمثيلُها، فهو ناظِرٌ إلى قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي: قد خَلَت مِن قَبلِه رُسُلٌ مِثلَ ما خَلَت بتلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

قال ابن عاشور: (وعذابُ اليومِ العظيمِ يحتمِلُ الوعيدَ بعذابِ يومِ القيامةِ، وبعذابِ يومِ الاستِئْصالِ في الدُّنيا، وهو الَّذي عُجِّل لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦). =

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾.

أي: قال كُفَّارُ عادٍ لِنَبيِّهم هودٍ: أجِئْتَنا لِتَصرِفَنا وتَصُدَّنا عن عبادةِ آلهتِنا، فنترُكَها إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

أي: فعَجِّلْ لنا -يا هودُ- هذا العذابَ الَّذي تَعِدُنا به إنْ كُنتَ مِن الصَّادقينَ فيما تدَّعِيه[2]!

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قال هودٌ لِقَومِه: إنَّما العِلمُ بوَقتِ مَجيءِ العذابِ عندَ اللهِ لا عندي؛ فهو

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ: وُقوعُ هذا العذابِ في الدُّنيا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٢٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به: عذابُ يومِ القيامةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦).

قال البِقاعي: (﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ لا يَدَعُ جِهةً إلَّا ملأها عذابُه إنْ أصرَرْتُم على ما أنتم فيه مِنَ الشِّركِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٧).

مَنْ يُنزِلُ عليكم عذابَه متى شاء[١].

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾.

أي: وإنَّما أنا رَسولٌ مِنَ اللهِ إليكم، وما عَلَيَّ إلَّا أن أُبَلِّغَكم عن رَبِّكم ما أمَرَني بدَعوتِكم إليه مِنَ التَّوحيدِ وغَيرِه[٢].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢].

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾.

أي: ولكِنِّي أراكم قَومًا تَجهَلونَ الحَقَّ؛ فصَدَر منكم ما صَدَر مِن جُرأةٍ على الكُفرِ والتَّكذيبِ[٣].

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾.

أي: فلمَّا جاء كُفَّارَ عادٍ عَذابُ اللهِ، فرأوه سَحابًا أسْوَدَ مُعترِضًا في الأُفُقِ يَسيرُ نحوَ أودِيَتِهم؛ ظَنُّوه مَطَرًا سيَنزِلُ عليهم، ففَرِحوا به، وقالوا: هذا سَحابٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٦، ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦).

سيُمطِرُنا[١]!

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا عصَفَت الرِّيحُ قال: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك خَيْرَها وخيرَ ما فيها، وخيرَ ما أُرسِلَتْ به، وأعوذُ بك مِن شَرِّها وشَرِّ ما فيها، وشَرِّ ما أُرسِلَت به. قالت: وإذا تخَيَّلَت[٢] السَّماءُ تغَيَّرَ لَونُه، وخرَجَ ودخَلَ، وأقبَلَ وأدبَرَ، فإذا مَطَرَت سُرِّيَ[٣] عنه، فعَرَفْتُ ذلك في وَجهِه، قالت عائِشةُ: فسألْتُه، فقال: لَعَلَّه يا عائِشةُ كما قال قَومُ عادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾))[٤].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((نُصِرْتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٧، ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٩، ٥٠).

قال ابنُ الجوزي: (قال المفَسِّرون: كان المَطَرُ قد حُبِسَ عن عادٍ، فساقَ اللهُ إليهم سَحابةً سوداءَ، فلمَّا رأَوها فَرِحوا وقالُوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٠).

وقال ابنُ جرير: (العربُ تُسَمِّي السَّحابَ الَّذي يُرى في بَعضِ أقطارِ السَّماءِ عَشِيًّا ثمَّ يُصبِحُ مِن الغَدِ قد استوى وحَبَا بَعضُه إلى بَعضٍ: عارِضًا؛ وذلك لِعَرضِه في بعضِ أرجاءِ السَّماءِ حينَ نشَأَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٦).

وقال الماوردي: (وفي تسميتِه عارِضًا ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: لأنَّه أخَذَ في عَرضِ السَّماءِ. قاله ابنُ عيسى. الثَّاني: لأنَّه يملأُ آفاقَ السَّماءِ. قاله النَّقَّاشُ. الثَّالِثُ: لأنَّه مارٌّ مِن السَّماءِ، والعارِضُ هو المارُّ الَّذي لا يَلبَثُ. وهذا أشبَهُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٨٣).

وقال ابنُ عاشور: (ويُطلَقُ الوادي على مَحلَّةِ القَومِ ونُزُلِهم إطلاقًا أغلبيًّا؛ لأنَّ غالِبَ مَنازِلِهم في السُّهولِ ومَقارِّ المياهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٩).

(٢) تخَيَّلَتْ: أي: تغَيَّمَت وظَهَر فيها أثَرُ المَطَرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١١٥).

(٣) سُرِّيَ عنه: أي: كُشِفَ الخَوفُ، وأُزيلَ عنه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١١٥).

(٤) رواه البخاريُّ (٤٨٢٩)، ومسلمٌ (٨٩٩) واللَّفظُ له.

بالصَّبا[١]، وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ[٢]))[٣].

﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾.

أي: قيلَ لهم: ما رأيْتُموه ليس سَحابًا مُمطِرًا في الواقِعِ كما ظَنَنْتُم، وإنَّما هو العذابُ الَّذي استَعجَلْتُموه[٤].

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: هو رِيحٌ فيها عَذابٌ مُوجِعٌ شَديدُ الإيلامِ[٥]!

---

(١) الصَّبَا: رِيحٌ شَرقيَّةٌ تهُبُّ مِن مَطلَعِ الشَّمسِ، وهي حارَّةٌ يابِسةٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١١٤).

(٢) الدَّبُورُ: رِيحٌ غَربيَّةٌ باردةٌ رَطْبةٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١١٤).

(٣) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦).

قيل: قائِلُ هذا هو هودٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، قاله لِقَومِه حينَ جاءهم العذابُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والواحديُّ، والزمخشري، وابن عطية، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٨٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، وعَمرُو بنُ مَيمونٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٦).

وظاهِرُ كلامِ ابنِ كثيرٍ والسَّعديِّ أنَّه مِن قَولِ الله لهم. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عَمرُو بنُ مَيمونٍ في روايةٍ عنه، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير سفيان الثوري)) (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٦).

وقال القرطبي: (أي: قال اللهُ: قُلْ: بل هو ما استعجَلْتُم به). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٦).

وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يكونَ مِن قَولِ هودٍ إن كان هودٌ بيْنَ ظَهرانَيْهم... أو هو مِن قَولِ بَعضِ رِجالِهم رأى مخائِلَ الشَّرِّ في ذلك السَّحابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٧)، ((البسيط)) =

كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨].

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.

أي: تُهلِكُ الرِّيحُ كُلَّ شَيءٍ مَرَّت به مِمَّا أُرْسِلَتْ بهلاكِه بإذْنِ اللهِ لها في ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾.

أي: فأصبحَ قَومُ هُودٍ هالِكِينَ كُلُّهم؛ فلا يُرَى مِن بلادِهم شَيءٌ إلَّا مَنازِلُهم الَّتي كانوا يَسكُنونَها(٢).

= للواحدي (٢٠/ ١٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٠).

قال ابن جُزَي: (﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ عُمومٌ يُرادُ به الخُصوصُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٨).

قال ابنُ القَيِّم: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: كُلَّ شَيءٍ يَقبَلُ التَّدميرَ، ومِن شَأنِ الرِّيحِ أن تُدَمِّرَه). ((زاد المعاد)) (٤/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذي جازَيْنا به عادًا قَومَ هودٍ في الدُّنيا نَجزي القَومَ الكافِرينَ الَّذين طَغَوا وعَتَوا؛ فلْيَحذَرِ المُشرِكونَ المُخالِفونَ أمرَ اللهِ أن نُهلِكَهم كما أهلَكْنا مَن قَبْلَهم(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٣، ١٤].

= (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥١).

قال الماتُريدي: (وقولُه عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ الآيةَ، يحتمِلُ: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ وَجهَينِ:

أحَدُهما: أي: لم تَترُكِ الرِّيحُ مِن عادٍ ومِمَّا لهم إلَّا مساكِنَهم الَّتي ذَكَرَ.

والثَّاني: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ إلَّا آثارُ مَساكِنِهم.

فعلى أحَدِ التَّأويلَينِ تَرَكت لهم المساكِنَ لم تُهلِكْها، وعلى التَّأويلِ الآخَرِ: تَرَكت آثارَ مَساكِنِهم، فأمَّا نَفْسُ مَساكِنِهم فقد أهلَكَتْها... لكِنْ سَمَّاها مساكِنَ باسْمِ ما قد كان، وأنَّه أمرٌ مُستَعمَلٌ في عُرفِ لِسانِ اللُّغةِ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٥٣).

القَولُ الأوَّلُ: أنَّ اللهَ أبقَى مساكِنَ عادٍ على حالِها، ولم تُدَمِّرْها الرِّيحُ: هو اختيارُ ابنِ جرير، والواحدي، والبغوي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٦).

وممَّن ذهب إلى القولِ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالآيةِ: بقاءُ آثارِ مَساكِنِهم وأنقاضِها: الخازنُ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُه تعالى حكايةً عن هودٍ عليه السَّلامُ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيه بَيانُ أنَّه يَنبغي للدَّاعيةِ أن يَقرِنَ الدَّعوةَ بالتَّخويفِ، وأن يكونَ غيرَ مُصَرِّحٍ بذلك؛ لِقَولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، ولم يقُلْ: إنَّكم ستُصابونَ بيَومٍ عَظيمٍ؛ لأنَّ المقامَ يَقتَضي ذلك، ولكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ عبَّرَ بالأُخُوَّةِ؛ تَسليةً لنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ قَطيعةَ القَومِ لِمَن هو منهم، ويَعلَمونَ مَناقِبَه ومَفاخِرَه: أوجَعُ[2].

٢- قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ أرسلَ اللهُ إليهم أخاهم في النَّسَبِ هُودًا؛ لِيتَمَكَّنوا مِن الأخذِ عنه[3]؛ لأنَّهم عنه أفهَمُ، وبحالِه في الثِّقةِ والأمانةِ أعرَفُ[4].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ فيه سُؤالٌ: وصَفَ تعالى هُودًا بأنَّه أخوهم، ومعلومٌ أنَّ تلك الأخوَّةَ ما كانت في الدِّينِ، وإنَّما كانت في النَّسَبِ، وقد قال تعالى في ابنِ نوحٍ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، فبَيَّن أنَّ قَرابةَ النَّسَبِ لا تُفيدُ إذا لم تحصُلْ قَرابةُ الدِّينِ، وهاهنا أثبتَ هذه الأُخُوَّةَ مع الاختلافِ في الدِّينِ، فما الفرقُ بيْنَهما؟

الجوابُ: أنَّ المرادَ مِن هذا الكلامِ استِمالةُ قَومِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ قَومَه كانوا يَستبعِدونَ في محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم -مع أنَّه واحِدٌ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٣٣).

قَبيلتِهم- أن يكونَ رَسولًا إليهم مِن عندِ الله، فذكرَ الله تعالى أنَّ هودًا عليه السَّلامُ كان واحِدًا مِن عادٍ؛ لإزالةِ هذا الاستِبعادِ[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍۘ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ﴾ في الآيةِ دَليلٌ على جوازِ تَسميةِ القَريبِ الكافِرِ أخًا[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ الوَعدَ قد يُوضَعُ مَوضِعَ الوَعيدِ[٣]. وقيل: سَمَّوا الوعيدَ وَعدًا؛ استِهزاءً به[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ إنَّما صَلَح هذا الكَلامُ جَوابًا لِقَولِهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾؛ لأنَّ قَولَهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ استِعجالٌ منهم لذلك العَذابِ، فقال لهم هودٌ عليه السَّلامُ: لا عِلمَ عندي بالوَقتِ الَّذي يَحصُلُ فيه ذلك العَذابُ، إنَّما عِلمُ ذلك عندَ اللهِ تعالى ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ هو التَّحذيرُ عن العذابِ، وأمَّا العِلمُ بوَقتِه فما أوحاه اللهُ إلَيَّ[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ التَّخصيصُ بالحِسِّ؛ فإنَّ الحِسَّ دَلَّ على أنَّها لم تُدَمِّرِ السَّماءَ والأرضَ، ومِنَ العُلَماءِ مَن يرى أنَّ ما خُصَّ بالحِسِّ والعَقلِ ليس مِنَ العامِّ المخصوصِ، وإنَّما هو مِنَ العامِّ الَّذي أُريدَ به الخُصوصُ؛ إذ المَخصوصُ لم يكُنْ مُرادًا عندَ المتكَلِّمِ ولا المُخاطَبِ مِن أوَّلِ الأمرِ، وهذه حقيقةُ العامِّ الَّذي أُريدَ به الخُصوصُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٤).

(٦) يُنظر: ((الأصول من علم الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٤١). =

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فكيفَ يَبقَى التَّخويفُ حاصِلًا؟

الجوابُ: قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ إنَّما أُنزِلَ في آخِرِ الأمرِ؛ فكان التَّخويفُ حاصِلًا قبْلَ نُزولِه(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾

- سِيقَت قِصَّةُ هُودٍ وقَومِه مَساقَ المَوعظةِ لِلمُشرِكينَ الَّذين كذَّبوا بالقُرآنِ، كما أخبَرَ اللهُ عنهم مِن أوَّلِ هذه السُّورةِ في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣]، مع ما أُعقِبَت به مِن الحُجَجِ المُتقدِّمةِ مِن قَولِه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٤]، الَّذي يُقابِلُه قَولُ هُودٍ ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ثمَّ قَولِه: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:

= وقد قرَّر الشَّاطبيُّ أنَّ لِلعُمومِ صِيَغًا وضعيَّةً، ثمَّ ذكَر أنَّ للعُمومِ الَّذي تدُلُّ عليه الصِّيَغُ بحسَبِ الوضعِ نظَرَينِ؛ أحدُهما: باعتِبارِ ما تدُلُّ عليه الصِّيغةُ في أصلِ وضْعِها على الإطلاقِ. والثَّاني: بحسَبِ المقاصِدِ الاستِعماليَّةِ الَّتي تَقضي العوائدُ بالقصدِ إليها، وإن كان أصلُ الوضعِ على خِلافِ ذلك، إلى أن قال: (فالحاصلُ أنَّ العُمومَ إنَّما يُعتبَرُ بالاستِعمالِ، ووُجوهُ الاستِعمالِ كثيرةٌ، ولكنَّ ضابِطَها مُقتَضَياتُ الأحوالِ الَّتي هي مِلاكُ البيانِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ لم يُقصَدْ به أنَّها تُدمِّرُ السَّمواتِ والأرضَ والجبالَ، ولا المياهَ ولا غيرَها ممَّا هو في معناها، وإنَّما المقصودُ: تُدمِّرُ كلَّ شَيءٍ مرَّتْ عليه ممَّا شأنُها أن تؤثِّرَ فيه على الجُملةِ؛ ولذلك قال: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾. وقال في الآيةِ الأخرى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]). ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ١٨-٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥).

٩]، الَّذي يُقابِلُه قَولُه: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾؛ ذلك كُلُّه بالمَوعظةِ بحالِ هُودٍ عليه السَّلامُ معَ قَومِه. وسِيقَتْ أيضًا مَساقَ الحُجَّةِ على رِسالةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وعلى عِنادِ قَومِه، بذِكرِ مِثالٍ لِحالِهم مع رَسولِهم بحالِ عادٍ معَ رَسولِهم. ولها أيضًا مَوقِعُ التَّسليةِ لِلرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم على ما تَلقَّاهُ به قَومُه مِن العِنادِ والبُهتانِ؛ لِتَكونَ مَوعِظةً وتَسليةً معًا، يأْخُذُ كلٌّ منها ما يَلِيقُ به. ولا تَجِدُ كَلِمةً أجمَعَ لِلْمعنيَينِ مِن كَلمةِ (اذْكُرْ)؛ لأنَّها تَصلُحُ لِمَعنى الذِّكرِ اللِّسانيِّ؛ بأنْ يُرادَ أنْ يَذكُرَ ذلك لِقَومِه، ولمعنَى الذُّكْرِ بالضَّمِّ؛ بأنْ يَتذكَّرَ تلك الحالةَ في نفْسِه، وإنْ كانت تَقدَّمَت له وأمْثالُها؛ لأنَّ في التَّذكُّرِ مَسلاةً وأُسوةً، كقَولِه تعالَى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]. وكِلَا المَعنيَينِ ناظِرٌ إلى قَولِه آنِفًا: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]؛ فإنَّه إذا قال لهمْ ذلك، تَذكَّروا ما يَعرِفون مِن قَصَصِ الرُّسلِ ممَّا قصَّه عليهم القُرآنُ مِن قبْلُ، وتَذكَّرَ هو -لا مَحالةَ- أحْوالَ رُسلٍ كَثيرينَ، ثمَّ جاءتْ قِصَّةُ هُودٍ مِثالًا لذلك. ومُشرِكو مكَّةَ إذا تَذكَّروا في حالِهم وحالِ عادٍ، وَجَدوا الحالَينِ مُتماثِلَينِ؛ فيَجدُرُ بهم أنْ يَخافوا مِن أنْ يُصِيبَهم مِثلُ ما أصابَهَم[(١)].

- قولُه: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ...﴾ فيه الاقتِصارُ على ذِكرِ عادٍ؛ لأنَّهم أوَّلُ الأُمَمِ العربيَّةِ الَّذين جاءَهُم رَسولٌ بعْدَ رِسالةِ نُوحٍ العامَّةِ، وقد كانتْ رِسالةُ هُودٍ ورِسالةُ صالِحٍ قبْلَ رِسالةِ إبراهيمَ عليهم السَّلامُ، وتأْتي بعْدَ ذِكرِ قصَّتِهم إشارةٌ إجماليَّةٌ إلى أُمَمٍ أُخْرى مِن العرَبِ كذَّبوا الرُّسلَ، في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [الأحقاف: ٢٧] الآيةَ[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٤، ٤٥).

- وأخو عادٍ هو هُودٌ، وعُبِّرَ عنْه هنا بوَصْفِه دُونَ اسْمِه العَلَم؛ لأنَّ المُرادَ بالذِّكْرِ هنا ذِكرُ التَّمثيلِ والمَوعظةِ لِقُريشٍ بأنَّهم أمثالُ عادٍ في الإعراضِ عن دَعوةِ رَسولٍ مِن أُمَّتِهم[١].

- وذُكِرَ الإنذارُ هنا دُونَ الدَّعوةِ أو الإرسالِ؛ لِمُناسَبةِ تَمْثيلِ حالِ قَومِ هُودٍ بحالِ قَومِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فهو ناظِرٌ إلى قَولِه تعالى في أوَّلَ السُّورةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾[٢] [الأحقاف: ٣].

- وجُملةُ ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ اعْتِراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، مُؤكِّدٌ لِوُجوبِ العَملِ بمُوجبِ الإنْذارِ، وُسِّط بيْنَ ﴿أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ﴾ وبيْنَ قَولِه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ مُسارَعةً إلى ما ذُكِرَ مِن التَّقريرِ والتَّأْكيدِ، وإيذانًا باشْتِراكِهم في العِبارةِ المَحكيَّةِ[٣]، على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وأيضًا قولُه: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ أي: مِن بَعْدِه، وجاء لَفْظُ ﴿خَلَتِ﴾ بالماضي -والمُرادُ: الَّذين سيُبْعَثون- على سَنَنِ الإخبارِ عن المُستقبَلِ بالماضي؛ تَحْقيقًا له[٤]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وجُملةُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ تَعليلٌ لِلنَّهيِ في قَولِه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أي: إنِّي أخافُ عليكم عَذابَ يَومٍ عَظيمٍ بسَببِ شِرْكِكم، ووُصِفَ اليومُ بالعِظَمِ باعْتِبارِ ما يَحدُثُ فيه مِن الأحداثِ العَظيمةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٩٩).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦).

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ جوابٌ عن قَولِه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١]؛ ولذلك جاء فِعلُ ﴿قَالُوٓاْ﴾ مَفْصولًا على طَريقِ المُحاوَرةِ[١].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ استِفهامُ تَقريرٍ، وتَوبيخٍ، وإنكارٍ، وتَعجيزٍ لِنَبيِّهم فيما أنْذَرَه إيَّاهم مِن العَذابِ العظيمِ على تَرْكِ إفرادِ اللهِ بالعِبادةِ[٢].

- وهذا الإنكارُ تَعريضٌ بالتَّكذيبِ؛ فلذلك فُرِّعَ عليه ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فصَرَّحوا بتَكذيبِه بطَريقِ المَفهومِ، والمعنى: ائْتِنا بالعَذابِ الَّذي تَعِدُنا به، أي: عَذابِ اليومِ العَظيمِ، وإنَّما صَرَفوا مُرادَ هُودٍ بالعَذابِ إلى خُصوصِ عَذابِ الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يُؤمِنون بالبَعثِ، وبهذا يُؤذِنُ قَولُه بعْدَه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، وقولُه: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦ﴾[٣] [الأحقاف: ٢٤].

- وقولُهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ اسْتِعجالٌ منهم بحُلولِ ما وَعَدَهم به مِن العذابِ؛ ألَا تَرى إلى قَولِه: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٤]؟ وطلَبُ الاستِعجالِ لِيَدلَّ على صِدْقِه؛ إذ الشَّأنُ ألَّا يَتأخَّرَ عن إظْهارِ صِدْقِه لهم[٤].

- وجَعَلوا العَذابَ في مُكْنَتِه يأْتي به متى أرادَ؛ تَهكُّمًا به، إذ قال لهم: إنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦، ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٥).

مُرسَلٌ مِن اللهِ، فجَعَلوا ذلك مُقْتضيًا أنَّ بيْنَه وبيْنَ اللهِ تَعاوُنًا وتَطاوُعًا، أي: فلا تَتأخَّرْ عن الإتيانِ به، وقدْ دلَّ على هذا الاقْتِضاءِ قَولُه لهم حِينَ نُزولِ العَذابِ: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٤]؛ فلذلك كان جَوابُه أنْ قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٣]، أي: عِلْمُ وَقتِ إتيانِ العَذابِ مَحْفوظٌ عِندَ اللهِ، لا يطَّلِعُ عليه أحدٌ[١].

وقيل: أسنَدوا الفِعلَ إلى ضَميرِه؛ تَعريضًا بأنَّ ما تَوَعَّدَهم به هو شَيءٌ مِن مُختَلَقاتِه، وليس مِن قِبَلِ اللهِ تعالى[٢]!

- وقولُهم: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أبلَغُ في الوصْفِ بالصِّدْقِ مِن أنْ يُقالَ: (إنْ كُنتَ صادِقًا)، أي: إنْ كُنتَ في قَولِك هذا مِن الَّذين صَدَقوا، أي: فإنْ لم تأْتِ به فما أنْتَ بصادِقٍ فيه[٣].

- وعَقَّبوا كلامَهم بالشَّرطِ فقالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ استِقصاءً لِمَقدِرتِه؛ قَصدًا منهم لإظهارِ عَجزِه عن الإتيانِ بالعَذابِ، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دَلَّ عليه ما قَبْلَه، تقديرُه: أتَيْتَ به وإلَّا فلَسْتَ بصادقٍ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ لَمَّا جَعَلوا قَولَهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢] فَصْلًا بيْنَهم وبيْنَه فيما أنْذَرَهم، مِن كَونِ عِبادةِ غَيرِ اللهِ تُوجِبُ عَذابَ يَومٍ عَظيمٍ؛ كان الأمْرُ في قَولِهم: ﴿فَأْتِنَا﴾ مُقتضِيًا الفَورَ -أي: طلَبَ تَعجيلِه-؛ لِيَدُلَّ على صِدْقِه؛ إذ الشَّأنُ ألَّا يَتأخَّرَ عن إظْهارِ صِدْقِه؛ فجاء قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٠٩).

جَوابًا لِقَولِهم[١].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلۡعِلۡمُ﴾ لِلاستِغراقِ العُرْفيِّ، أي: عِلْمُ المُغيَّباتِ، أو التَّعريفُ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: وَقتُ العذابِ. وهذا الجَوابُ يَجْري على جَميعِ الاحْتِمالاتِ في مَعنى قَولِهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾؛ لأنَّ جَميعَها يَقْتضي أنَّه عالِمٌ بوَقْتِه[٢].

- والحصْرُ هنا في قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ حَقيقيٌّ، والمَقصودُ مِن هذا الحصْرِ شُمولُه نَفْيَ العِلمِ بوَقتِ العذابِ عن المُتكلِّمِ؛ ردًّا على قَولِهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾[٣].

- ومَوقِعُ الاسْتِدراكِ بقَولِه: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ أنَّه عن قَولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: ولكنَّكم تَجهَلون صِفاتِ الله، وحِكمةَ إرْسالِه الرُّسلَ، فتَحسَبونَ أنَّ الرُّسلَ وَسائطُ لإنْهاءِ اقْتِراحِ الخلْقِ على اللهِ أنْ يُرِيَهم العَجائبَ، ويُساجِلَهم في الرَّغائبِ؛ فمَناطُ الاسْتِدراكِ هو مَعمولُ خَبَرِ (لكنَّ)، وهو ﴿قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾، والتَّقديرُ: ولكنَّكم قَومٌ تَجهَلون؛ فإدْخالُ حَرْفِ الاسْتِدراكِ على ضَميرِ المُتكلِّمِ عُدولٌ عن الظَّاهِرِ؛ لِئلَّا يُبادِرَهم بالتَّجهيلِ؛ اسْتِنزالًا لِطائِرِهم، فجعَلَ جَهْلَهم مَظنونًا له؛ لِيَنظُروا في صِحَّةِ ما ظَنَّه مِن عَدَمِها[٤].

- وإنَّما زِيدَ ﴿قَوۡمٗا﴾ ولم يُقتصَرْ على ﴿تَجۡهَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ الجَهالةِ منهم، حتَّى صارَتْ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم، وللدَّلالةِ على أنَّها عَمَّت

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٧، ٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٨).

جَميعَ القَبيلةِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ لِتَفْريعِ بَقيَّةِ القِصَّةِ على ما ذُكِرَ منها، أي: فلمَّا أرادَ اللهُ إصابَتَهم بالعَذابِ، ورَأَوه عارِضًا ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ﴾ إلى آخِرِه؛ ففي الكلامِ تَقْديرٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، ويُسمَّى التَّفريعُ فيه فَصيحةً، وقدْ طُوِيَ ذِكْرُ ما حَدَثَ بيْنَ تَكْذيبِهم هُودًا وبيْنَ نُزولِ العَذابِ بهم[٢].

- وضَميرُ ﴿رَأَوْهُ﴾ عائدٌ إلى (مَا تَعِدُنَا) [الأحقاف: ٢٢]، وهو العَذابُ. وأُطلِقَ على المَرْئيِّ ضَميرُ العَذابِ؛ لأنَّ المَرْئيَّ سَببُ العذابِ، وهو ما حَمَلَتْه الرِّيحُ[٣].

- قولُه: ﴿أَوْدِيَتِهِمْ﴾ جَمَع الأوديةَ؛ باعتِبارِ كَثرةِ مَنازِلِهم وانتِشارِها[٤].

- وقولُه: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ مَقولٌ لِقَولٍ مَحذوفٍ، يَجوزُ أنْ يكونَ مِن قَولِ هُودٍ -إنْ كان هُودٌ بيْنَ ظَهْرانَيْهم، ولم يكُنْ خرَجَ قبْلَ ذلك-، أو هو مِن قَولِ بَعضِ رِجالِهم رَأى مَخائلَ الشَّرِّ في ذلك السَّحابِ، وإنَّما حُذِفَ فِعلُ القولِ؛ لِتَمثيلِ قائلِ القولِ كالحاضِرِ وقْتَ نُزولِ هذه الآيةِ، وقد سَمِعَ كَلامَهم، وعَلِمَ غُرورَهم، فنطَقَ بهذا الكلامِ تَرْويعًا لهم، وهذا مِن اسْتِحضارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الحالةِ العَجيبةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جُعِلَ العَذابُ مَظْروفًا في الرِّيحِ مُبالَغةً في التَّسبُّبِ؛ لأنَّ الظَّرفيَّةَ أشدُّ مُلابَسةً بيْنَ الظَّرْفِ والمَظروفِ مِن مُلابَسةِ السَّببِ والمُسبَّبِ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

- ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مُستعمَلٌ في كَثرةِ الأشياءِ، والمعنَى: تُدمِّرُ ما مِن شأْنِه أنْ تُدمِّرَه الرِّيحُ مِن الإنسانِ والحَيوانِ والدِّيارِ[٣].

- وفي إضافةِ الرَّبِّ إلى الرِّيحِ في قَولِه: ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ دَلالةٌ على عِظَمِ شأْنِها، وأنَّها مِن جُنودِ اللهِ، وممَّا يَسْتقيمُ أنْ يُنسَبَ إلى الرَّبِّ سُبحانه وتَعالَى، ثمَّ دلَّ ذلك على عَظَمةِ بارِئِها، وأنَّ مِثلَ هذا الشَّيءِ العَظيمِ مَمْلوكٌ له، مُنْقادٌ لِتَصرُّفِه، ثمَّ أكَّدَ هذا المعنَى باقْترانِ الأمْرِ معه؛ تَتْميمًا لِتَعظيمِ مَن أُضِيفَ إليها؛ لأنَّ المُرادَ بالأمْرِ واحدُ الأوامِرِ التَّكوينيَّةِ[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿تُدَمِّرُ﴾، وفائدةُ هذه الحالِ تَقريبُ كَيفيَّةِ تَدْميرِها كلَّ شَيءٍ، أي: تَدْميرًا عَجيبًا بسَببِ أمْرِ ربِّها، أي: تَسخيرِه الأشياءَ لها؛ فالباءُ للسَّببيَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٠).

- والتَّعقيبُ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ إشارةٌ إلى سُرْعةِ اسْتِئصالِهم، وحُصولِ دَمارِهم مِن غَيرِ رَيبٍ[١].

- وعلَى قِراءةِ ﴿لَا تَرَىٰٓ﴾ بتاءٍ مَفتوحةٍ لِلْخِطابِ[٢]، والخِطابُ فيه لِمَن تَتأتَّى منه الرُّؤيةُ حِينَئذٍ؛ فيكونُ إتْمامًا لاستِحضارِ حالةِ دَمارِهم العَجيبةِ، حتَّى كأنَّ الآيةَ نازِلةٌ في وَقتِ حُدوثِ هذه الحادثةِ، وتَنْبيهًا على أنَّ حالَهُم بحيثُ لو حَضَرَ كلُّ أحدٍ بِلادَهم لا يَرَى فيها إلَّا مَساكنَهم[٣].

- وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: مِثلَ ذلكَ الجزاءِ الفظيعِ نَجْزي القومَ المُجرمينَ، وهو تَهديدٌ لِمُشْرِكي قُرَيشٍ، وإنْذارٌ لهم، وتَوطئةٌ لِقَولِه: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾[٤] [الأحقاف: ٢٦].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٠١).

(٢) قال ابن الجزري: (قَرَأ يعقوبُ وحمزةُ وعاصِمٌ وَخَلَفٌ، ﴿يُرَىٰٓ﴾ بياءٍ مضمومةٍ على الغيبِ ﴿مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ بالرَّفعِ، وقرَأ الباقونَ بالتَّاءِ وفتحِها على الخطابِ، وَنَصْبِ ﴿مَسَٰكِنَهُمۡ﴾). ((النشر في القراءات العشر)) (٢/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥١).

الآيات (٢٦-٢٨)

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَكَّنَّٰهُمْ﴾: أي: ثبَّتْناهم، وملَّكْناهم، وأقدَرْناهم على ما يُريدونَ برَفعِ الموانِعِ، والتَّمكينُ مِن الشَّيءِ: إعطاءُ ما يَصِحُّ به الفِعلُ مِن الآلاتِ والعُدَدِ والقُوى، وأصلُه مُشتَقٌّ مِن المكانِ، يقالُ: مَكَّن له في الأرضِ: جَعَل له مكانًا فيها[1].

﴿وَأَفْـِٔدَةً﴾: جمعُ فُؤادٍ وهو: القلبُ؛ سُمِّي بذلك لحرارتِه أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشدَّةِ حرارةٍ[2].

﴿يَجْحَدُونَ﴾: أي: يَكْفرونَ، أو يُنكِرونَ بألسنتِهم وهم مُستيقِنونَ، والجُحودُ: نفْيُ ما في القلبِ إثباتُه، وإثباتُ ما في القلبِ نَفْيُه، وأصلُ (جحد): يدُلُّ على قلَّةِ الخَيرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٨/ ١٩) و(١٢/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((تفسير المنار)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧، ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٨).

﴿وَحَاقَ﴾: أي: أحاطَ ونَزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزُولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[١].

﴿وَصَرَّفْنَا﴾: أي: نَوَّعْنا وبَيَّنَّا، والصَّرفُ: ردُّ الشَّيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، وأصلُه: يدُلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ[٢].

﴿قُرْبَانًا﴾: القُربانُ: اسمٌ لِما يُتقَرَّبُ به إلى اللهِ مِن ذَبحٍ أو غَيرِه، وأصلُه مَصدَرٌ كالرُّجْحانِ والعُدوانِ والكُفرانِ، ثمَّ سُمِّيَ به نَفْسُ المُتقَرَّبِ به، وأصلُ (قرب): يدُلُّ على خِلافِ البُعْدِ[٣].

﴿إِفْكُهُمْ﴾: أي: كَذِبُهم، وقيل: الإفكُ: أشدُّ الكذبِ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه، فالكذبُ: صرفٌ للكلامِ عمَّا يَنبغي أن يكونَ عليه[٤].

﴿يَفْتَرُونَ﴾: أي: يَختَلِقونَ ويَكْذِبونَ، والافتِراءُ: الاختِلاقُ، وهو ما عَظُمَ مِن الكَذِبِ، ومنه قيل: افْترَى فُلانٌ على فُلانٍ، إذا قذَفه بما ليسَ فيه، وأصلُ (فري): قَطْعُ الشَّيءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ٨٠)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٦/ ٢٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣، ٩٩٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ [الأحقاف: ٢٨]

(لولا): حرفُ توبيخٍ وتنديمٍ بمنزلةِ (هلَّا). ﴿نَصَرَهُمُ﴾: فعلٌ ماضٍ، و (هم): في محَلِّ نَصبٍ، مَفعولٌ به مقدَّمٌ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمٌ مَوصولٌ في محلِّ رَفعٍ، فاعِلٌ مؤخَّرٌ. ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: فعلٌ ماضٍ. والواوُ: ضميرٌ في محلِّ رَفعٍ فاعِلٌ. والمفعولُ الأوَّلُ لـ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ محذوفٌ على كُلِّ تَقديرٍ، وهو عائدُ الموصولِ، أي: اتَّخَذوهم.

﴿قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ في نَصبِهما عِدَّةُ أوجُهٍ:

أحَدُها: أنَّ ﴿ءَالِهَةَۢ﴾: هو المفعولُ الثَّاني للفِعلِ (اتَّخَذ). و﴿قُرۡبَانًا﴾: حالٌ مِن (آلِهَةً)، فهو نعتٌ مُقدَّمٌ على النَّكرةِ؛ فانتصَبَ حالًا. والتَّقديرُ: فهلَّا نصَرَهم الَّذين اتَّخَذوهم آلهةً مِن دونِ اللهِ حالَ كَونِها مُتقرِّبًا بها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ!

الثاني: أنَّ ﴿ءَالِهَةَۢ﴾ مَفعولٌ به ثانٍ. و﴿قُرۡبَانًا﴾: مَفعولٌ مِن أجْلِه.

الثَّالِثُ: قيل: إنَّ ﴿قُرۡبَانًا﴾: مَفعولٌ به ثانٍ. و ﴿ءَالِهَةَۢ﴾: بَدَلٌ منه منصوبٌ مِثلُه. وأفسَده الزَّمخشريُّ مِن جِهةِ المعنى[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُذكِّرُ اللهُ تعالى كُفَّارَ قُرَيشٍ بما يحمِلُهم على العِظَةِ والعِبرةِ، محذِّرًا لهم، فيقولُ: ولقد مكَّنَّا عادًا قومَ هُودٍ فيما لم نُمكِّنْ لكم فيه؛ مِن كَثرةِ الأموالِ، وقوَّةِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٧٧)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٦٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦).

الأبدانِ، وغيرِ ذلك، وأعطَيْناهم مِن فَضْلِنا أسماعًا وأبصارًا وأفئدةً، ولكِنَّهم لَمَّا لم يَشكُرونا على نِعَمِنا، ولم يَستَعمِلوها في طاعتِنا؛ أخَذْناهم أخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ دونَ أن تنفَعَهم أسماعُهم ولا أبصارُهم ولا أفئِدتُهم شيئًا حينَ نزَل بهم عذابُنا؛ لأنَّهم كانوا يُكذِّبونَ بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّتِه، وكَمالِ قُدرتِه، ونَزَل وأحاطَ بهم عذابُ اللهِ، الَّذي كانوا يَسخَرونَ منه، ويُكذِّبونَ بوُقوعِه؛ فاحذَروا -أيُّها المُشرِكونَ- أن يُصيبَكم مِثلُ ما أصابَهم!

ثمَّ يُضيفُ سبحانَه إلى التَّذكيرِ السَّابقِ تذكيرًا آخَرَ، فيقولُ: ولقد أهلَكْنا ما حوْلَكم -يا أهلَ مكَّةَ- مِن القُرى الظَّالِمةِ، كبلادِ عادٍ، وسَبَأٍ، وثَمودَ، ومَدْيَنَ، وغَيرِها، وكرَّرْنا الآياتِ ونوَّعْناها بأساليبَ مُختَلِفةٍ؛ لِيَرجِعوا عن كُفرِهم باللهِ، وتَكذيبِهم بالحَقِّ، فلم يَفعَلوا؛ فأهلَكْناهم!

فهَلَّا نصَرَهم ومنَعَهم مِن عذابِ اللهِ هؤلاء الآلهةُ الَّذين اتَّخَذوهم مِن دونِ اللهِ قُربانًا يَتقَرَّبونَ بهم إليه سُبحانَه! بل غابوا عنهم وتَرَكوهم وَحْدَهم، ولم يَحضُروا إليهم أو يَنصُروهم، واتِّخاذُهم الآلهةَ مِن دونِ اللهِ هو كَذِبُهم وافتِراؤُهم حينَ ادَّعَوا أنَّها آلِهةٌ تَنصُرُهم وتَنفَعُهم، فخذَلَتْهم ولم يَنتَفِعوا بها!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى بهَلاكِ قَومِ عادٍ؛ خاطَبَ قُرَيشًا على سَبيلِ المَوعِظةِ[1]،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٧).

وخَوَّفهم؛ فذَكَر فَضْلَ عادٍ بالقُوَّةِ والجِسمِ عليهم، فقال[١]:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾.

أي: قال اللهُ لكُفَّارِ قُرَيشٍ: ولقد مكَّنَّا عادًا في الَّذي لم نُمكِّنْ لكم فيه؛ مِن كَثرةِ الأموالِ، وقوَّةِ الأبدانِ، وغيرِ ذلك، فأهلَكْناهم بسَبَبِ كُفرِهم، معَ أنَّهم أعظَمُ منكم تمكينًا؛ فلا تَظنُّوا أنَّ ما مُكِّنتُم فيه سيَدفَعُ عنكم شيئًا مِن عذابِ اللهِ إن استَمرَرتُم على كُفرِكم وتَكذيبِكم[٢]!

كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾.

أي: وجعَلْنا لكُفَّارِ عادٍ سَمعًا لِيَسمَعوا به الحَقَّ، وأبصارًا لِيُبصِروه بها، وقُلوبًا لِيَعقِلوه بها، فلم يَنقُصْهم شَيءٌ مِن شأنِه أن يُخِلَّ بإدراكِهم للحَقِّ[٣].

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٣)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧١، ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٣).

أي: فما نفَعَهم ما أُوتُوه مِنَ السَّمعِ والأبصارِ والعُقولِ شَيئًا؛ إذْ لم يَستَعمِلوها في مَعرِفةِ الصَّوابِ، ولم يُعمِلوها لِدَفعِ العذابِ[١].

﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

أي: لم يَنتَفِعْ كُفَّارُ عادٍ بسَمعِهم وأبصارِهم وقُلوبِهم؛ لأنَّهم كانوا يُكذِّبونَ بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ لهم على الحَقِّ[٢].

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

أي: ونَزَل وأحاطَ بهم عذابُ اللهِ، الَّذي كانوا يَسخَرونَ منه، ويُكذِّبونَ بوُقوعِه؛ فاحذَروا -أيُّها المُشرِكونَ- أن يُصيبَكم مِثلُ ما أصابَهم[٣].

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا تَمَّ المرادُ مِن الإخبارِ بهَلاكِ عادٍ على ما لهم مِنَ المَكِنَةِ العَظيمةِ؛ لِيَتَّعِظَ بهم مَن سَمِعَ أمْرَهم- أتْبَعَهم مَن كان مُشارِكًا لهم في التَّكذيبِ، فشارَكَهم في الهَلاكِ؛ كأهلِ الحِجْرِ (ثمودَ) وسَبأٍ، ومَدْيَنَ والأَيْكةِ، وقَومِ لُوطٍ وفِرعونَ، وأصحابِ الرَّسِّ، وغَيرِهم ممَّن فيهم مُعتَبَرٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٤).

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ ﴾.

أي: ولقد أهلَكْنا ما حوْلَكم -يا أهلَ مكَّةَ- مِن القُرى؛ كبلادِ عادٍ، وسَبَأٍ، وثمودَ، ومَدْيَنَ، وغَيرِها[1].

﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: ونوَّعْنا أصنافَ الآياتِ وبَيَّنَّاها؛ لِيَرجِعوا عن كُفرِهم باللهِ، وتَكذيبِهم بالحَقِّ، فلم يَفعَلوا؛ فأهلَكْناهم[2].

﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان المُشرِكونَ قد جَعَلوا مَحَطَّ حالِهم في الشُّرَكاءِ أنَّهم سَبَبُ التَّواصُلِ بيْنَهم والتَّفاوُتِ، وادَّعَوا أنَّهم يَشفَعونَ فيهم، فيُقَرِّبونَهم إلى اللهِ زُلْفى، ويَمنَعونَهم مِنَ العذابِ في الآخِرةِ، وكان أدنى الأُمورِ التَّسويةَ بيْنَه وبيْنَ عذابِ الدُّنيا- سَبَّب

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

قال القرطبي: (﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ يعني: الحُجَجَ والدَّلالاتِ، وأنواعَ البَيِّناتِ والعِظاتِ، أي: بَيَّنَّاها لأهلِ تلك القُرى... وقيل: أي: صَرَّفْنا آياتِ القُرآنِ في الوَعدِ والوعيدِ، والقَصَصِ والإعجازِ؛ لعَلَّ هؤلاء المُشرِكينَ يَرجِعونَ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩).

وقال الرازي: (﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾: بَيَّنَّاها لهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: لعلَّ أهلَ القرَى ﴿يَرْجِعُونَ﴾، فالمرادُ بالتَّصريفِ الأحوالُ الهائِلةُ الَّتي وُجِدَتْ قبْلَ الإهلاكِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦).

عن إخبارِه عن إهلاكِ الأُمَمِ الماضيةِ قَولَه[١]:

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾.

أي: فهَلَّا نصَرَهم مِن عذابِ اللهِ مَنِ اتَّخَذوهم آلهةً مِن دونِ اللهِ يتقرَّبونَ بعبادتِهم إلى اللهِ؛ لِيَشفَعوا لهم عِندَه[٢]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما ظنَّ المُشرِكونَ، فلمْ تَنصُرْهم مَعبوداتُهم مِن دونِ اللهِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٥، ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦١، ١٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

قال ابن جرير: (وهذا احتِجاجٌ مِنَ اللهِ لِنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم على مُشرِكي قَومِه، يقولُ لهم: لو كانت آلهتُكم الَّتي تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ تُغْني عنكم شيئًا، أو تَنفَعُكم عندَ الله كما تَزعُمونَ أنَّكم إنَّما تَعبُدونَها لِتُقرِّبَكم إلى اللهِ زُلْفى؛ لَأغْنَتْ عمَّن كان قَبْلَكم مِن الأُمَمِ الَّتي أهلَكْتُها بعبادتِهم إيَّاها، فدَفَعَتْ عنها العذابَ إذا نزَل، أو لَشَفَعَت لهم عندَ ربِّهم؛ فقد كانوا مِن عبادتِها على مِثلِ الَّذي عليه أنتم، ولكِنَّها ضَرَّتْهم ولم تَنفَعْهم!). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٢).

وقال السعدي: (أي: يَتقرَّبونَ إليهم ويتألَّهونَهم؛ لِرَجاءِ نَفعِهم!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

وغابَتْ عنهم عندَ نُزولِ العذابِ بهم، فلم تَنفَعْهم[١]!

﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

أي: اتِّخاذُهم الآلهةَ مِن دونِ اللهِ هو كَذِبُهم وافتِراؤُهم حينَ ادَّعَوا أنَّها آلِهةٌ تَنصُرُهم وتَنفَعُهم، فخذَلَتْهم ولم ينتَفِعوا بها[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾، أي: لا قُصورَ في أسماعِهم ولا أبصارِهم ولا أذهانِهم حتَّى يُقالَ إنَّهم تَرَكوا الحَقَّ جَهلًا منهم، وعدَمَ تَمكُّنٍ مِن العِلمِ به، ولا خَلَلَ في عُقولِهم، ولكِنَّ التَّوفيقَ بيَدِ اللهِ[٣].

٢- يُعَدِّدُ اللهُ سُبحانَه على عِبادِه مِن نِعَمِه عليهم أنْ أعطاهم آلاتِ العِلمِ، فيَذكُرُ الفُؤادَ والسَّمعَ والأبصارَ؛ فهي أشرَفُ الأعضاءِ ومُلوكُها، والمُتصَرِّفةُ فيها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦، ٥٧).

قال البقاعي: (﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: الضَّلالُ البعيدُ مِن السَّدادِ الَّذي تَحصَّلَ مِن هذه القِصَّةِ مِن إخلافِ ما كانوا يقولونَ: إنَّ أوثانَهم آلِهةٌ، وإنَّها تَضُرُّ وتَنفَعُ وتُقَرِّبُهم إلى اللهِ وتَشفَعُ لهم عندَه ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي: صَرْفُهم الأمورَ عن وَجهِها إلى أقفائِها، ويجوزُ أن تكونَ الإشارةُ إلى العذابِ، أي: وهذا العذابُ جزاؤُهم في مُقابَلةِ إفْكِهم). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٧٦، ١٧٧).

وقال الرَّسْعَني: (﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي: وذلك الاتِّخاذُ إفْكُهم؛ كَذِبُهم وافتِراؤُهم. وقيل: الإشارةُ بقَولِه: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إلى امتِناعِ نُصرةِ آلِهتِهم لهم، وضَلالِهم عنهم، أي: وذلك أثَرُ إفْكِهم وافتِرائِهم الكَذِبَ على اللهِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

والحاكِمةُ عليها، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾؛ فسَعادةُ الإنسانِ بصِحَّةِ هذه الأعضاءِ الثَّلاثةِ، وشَقاوتُه بفَسادِها[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أنَّ الحُجَجَ السَّمعيَّةَ مُطابِقةٌ للمَعقولِ، والسَّمعَ الصَّحيحَ لا يَنفَكُّ عن العَقلِ الصَّريحِ، بل هما أخَوانِ نَصيرانِ وصَلَ اللهُ بيْنَهما، وقَرَنَ أحدَهما بصاحِبِه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، فذكَرَ ما يُنالُ به العُلومُ، وهي السَّمعُ والبَصَرُ، والفُؤادُ الَّذي هو مَحَلُّ العَقلِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ السَّمعَ والأبصارَ والأفئِدةَ لا تَنفَعُ صاحِبَها مع جَحْدِه بآياتِ اللهِ؛ فتَبيَّنَ أنَّ العَقلَ الَّذي هو مَناطُ التَّكليفِ لا يَحصُلُ بمُجَرَّدِه الإيمانُ النَّافعُ، والمَعرِفةُ المُنْجيةُ مِن عذابِ اللهِ، وهذا العَقلُ شَرطٌ في العِلمِ والتَّكليفِ، لا مُوجِبٌ له[٣].

٣- أنَّ الشَّيءَ قد يَنتَفي لِنَفيِ ثَمرتِه والمرادِ منه؛ ولهذا نفَى سُبحانَه عن الكُفَّارِ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ١٩).

الأسماعَ والأبصارَ والعُقولَ لَمَّا لم يَنتَفِعوا بها؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[1] [الأعراف: ١٧٩].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أنَّ الاستِهزاءَ باللهِ تعالى وآياتِه سَبَبٌ للعَذابِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هذا اسْتِخلاصٌ لِمَوعظةِ المُشرِكينَ بمِثلِ عادٍ؛ لِيَعْلَموا أنَّ الَّذي قدَرَ على إهْلاكِ عادٍ قادرٌ على إهْلاكِ مَن همْ دُونَهم في القُوَّةِ والعَدَدِ، ولِيَعْلَموا أنَّ القومَ كانوا مِثْلَهم مُسْتجمِعينَ قُوى العقْلِ والحِسِّ، وأنَّهم أهْمَلوا الانتفاعَ بقُواهُم، فجَحَدوا بآياتِ اللهِ، واسْتَهزؤوا بها وبوَعيدِه، فحاقَ بهمْ ما كانوا يَسْتَهزِئون به، وقُريشٌ يَعلَمونَ أنَّ حالَهم مِثلُ الحالِ المَحْكيَّةِ عن أولئكَ، فلْيَتهيَّؤوا لِمَا سيَحُلُّ بهم. ولإفادةِ هذا الاستخلاصِ غُيِّرَ أُسلوبُ الكَلامِ إلى خِطابِ المُشرِكين مِن أهْلِ مكَّةَ؛ فالجُملةُ في مَوضِعِ الحالِ مِن واوِ الجَماعةِ في ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢]، والخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن عَدَمِ انْتِفاعِهم بمَواهِبِ عُقولِهم[3].

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن =

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ فيه تأْكيدُ هذا الخبَرِ بلامِ القَسَمِ -مع أنَّ مُفادَه لا شكَّ فيه-، وهو مَصروفٌ إلى المُبالَغةِ في التَّعجيبِ[١].

- ومِن بَديعِ النَّظْمِ أنْ جاءَ النَّفْيُ هنا في قولِه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ بحَرْفِ (إنْ) النَّافيةِ، مع أنَّ النَّفيَ بها أقلُّ اسْتِعمالًا مِن النَّفيِ بـ (ما) النَّافيةِ؛ قَصْدًا هنا لِدَفْعِ الكراهةِ مِن تَوالي مِثْلينِ في النُّطقِ؛ وهُما (ما) الموصولةُ، و(ما) النَّافيةُ، وإنْ كان مَعْناهُما مُختلِفًا[٢].

- وفائدةُ قَولِه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ أنَّهم لم يَنْقُصْهم شَيءٌ مِن شأْنِه أنْ يُخِلَّ بإدْراكِهم الحقَّ لَولا العِنادُ، وهذا تَعْريضٌ بمُشْركي قُريشٍ، أي: أنَّكم حَرَمْتُم أنفُسَكم الانتفاعَ بسَمْعِكم وأبْصارِكم وعُقولِكم كما حُرِمُوه، والحالةُ مُتَّحِدةٌ، والسَّببُ مُتَّحِدٌ، فيُوشِكُ أنْ يكونَ الجَزاءُ كذلك[٣].

- والسَّمْعُ مَصدرٌ دالٌّ على الجِنسِ؛ فكان في قُوَّةِ الجمْعِ، ولا حاجةَ إلى جمْعِه. والأبصارُ جمْعُ بَصَرٍ، وهو في اللُّغةِ العَينُ، وقيل: يُطلَقُ البصرُ على حاسَّةِ الإبصارِ؛ ولذلك جُمِعَ. ولعلَّ إفرادَ السَّمْعِ وجمْعَ الأبصارِ جَرَى على ما يَقْتضيه تَمامُ الفَصاحةِ مِن خِفَّةِ أحَدِ اللَّفظينِ مُفْردًا والآخَرِ مَجْموعًا عِندَ اقْترانِهما؛ فإنَّ في انتِظامِ الحُروفِ والحَرَكاتِ والسَّكناتِ في تَنقُّلِ اللِّسانِ سِرًّا عَجيبًا مِن فَصاحةِ كَلامِ القُرآنِ المُعبَّرِ عنها بالنَّظْمِ[٤].

= عاشور)) (٢٦/ ٥١، ٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٣٤) و (٢٦/ ٥٣).

- وبدأ بالسَّمعِ؛ لأنَّ المقامَ للإنذارِ المُنبِّهِ بحاسَّةِ السَّمعِ على ما في الآياتِ المَرئيَّاتِ مِن المواعِظِ، فهو أنفَعُ؛ لأنَّه أوضَحُ. وخَتَم بالأفئِدةِ؛ لأنَّها الغايةُ الَّتي ليس بعدَ الإدراكِ بها مُنتهًى، ولا وراءَها مَرمًى[١].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾؛ لِلتَّنصيصِ على انْتِفاءِ الجِنسِ؛ فلذلك يكونُ ﴿شَيۡءٍ﴾ المَجرورُ بـ(مِن) الزَّائدةِ نائبًا عن المَفعولِ المُطلَقِ؛ لأنَّ المُرادَ: بشَيءٍ مِن الإغناءِ، وحَقُّ (شَيءٍ) النَّصبُ، وإنَّما جُرَّ بدُخولِ حَرْفِ الجرِّ الزَّائدِ[٢].

- قولُه: ﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (إذ) ظَرْفٌ، أي: مُدَّةَ جُحودِهم، وهو مُستعمَلٌ في التَّعليلِ؛ لاستِواءِ مُؤدَّى الظَّرْفِ ومُؤدَّى التَّعليلِ؛ لأنَّه لَمَّا جُعِلَ الشَّيءُ مِن الإغناءِ مُعلَّقًا نَفْيُه بزَمانِ جَحْدِهم بآياتِ اللهِ -كما يُستفادُ مِن إضافةِ (إذ) إلى الجُملةِ بعْدَها- عُلِمَ أنَّ لِذلك الزَّمانِ تأْثيرًا في نفْيِ الإغناءِ[٣].

- قولُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، أي: أحاطَ بهمُ العذابُ، وعُدِلَ عن اسْمِه الصَّريحِ (العذاب) إلى المَوصولِ ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على ضَلالِهم، وسُوءِ نَظَرِهم[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لخِطابِ أهْلِ مكَّةَ على جِهَةِ التَّمثيلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٢، ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٩٠).

- وأُتبِعَ ضَرْبُ المَثَلِ بحالِ عادٍ مع رَسولِهم بأنَّ ذلك المَثَلَ ليس وَحيدًا في بابِه؛ فقدْ أهْلَكَ اللهُ أقوامًا آخَرينَ مِن مُجاوريهم، تُماثِلُ أحْوالُهم أحْوالَ المُشرِكينَ، وذكَّرَهم بأنَّ قُراهُم قَريبةٌ منْهم يَعرِفُها مَن يَعْرِفونَها، ويسْمَعُ عنها الَّذين لمْ يَرَوها، والجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ ...﴾ [الأحقاف: ٢١] إلخ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ كُنِّيَ عن إهلاكِ الأقوامِ بإهلاكِ قُراهم؛ مُبالَغةً في اسْتِئصالِهم؛ لأنَّه إذا أُهلِكَت القَريةُ لمْ يَبْقَ أحدٌ مِن أهْلِها[٢].

- قولُه: ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ تَصريفُ الآياتِ: تَنويعُها باعتِبارِ ما تدُلُّ عليه مِن الغرَضِ المَقصودِ منها، وهو الإقلاعُ عن الشِّرْكِ وتَكذيبِ الرُّسلِ، وأصْلُ مَعنى التَّصريفِ: التَّغييرُ والتَّبديلُ؛ لأنَّه مُشتَقٌّ مِن الصَّرْفِ، وهو الإبعادُ. وكُنِّيَ به هنا عن التَّبْيينِ والتَّوضيحِ؛ لأنَّ تَعدُّدَ أنواعِ الأدِلَّةِ يَزيدُ المَقصودَ وُضوحًا[٣].

- وجُملةُ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ مُستأنَفةٌ لِإنشاءِ التَّرجِّي، ومَوقِعُها مَوقِعُ المَفعولِ لأجْلِه، أي: رَجاءَ رُجوعِهم[٤].

- قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ تَعريضٌ بمُشْركي أهْلِ مكَّةَ؛ فهمْ سَواءٌ في تَكوينِ ضُروبِ تَصْريفِ الآياتِ زِيادةً على ما صُرِّفَ لهمْ مِن آياتِ إعْجازِ القُرآنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٤، ٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ تَفْريعٌ على ما تَقدَّمَ مِن المَوعظةِ بعَذابِ عادٍ المُفصَّلِ، وبعَذابِ أهْلِ القُرى المُجمَلِ؛ فُرِّعَ عليه تَوبيخٌ مُوجَّهٌ إلى آلِهتِهم؛ إذ قَعَدوا عن نَصْرِهم وتَخليصِهم مِنْ قُدْرةِ اللهِ عليهم، والمَقصودُ تَوجيهُ التَّوبيخِ إلى الأُمَمِ المُهلَكةِ على طَريقةِ تَوجيهِ النَّهيِ ونَحْوِه لِغَيرِ المَنْهيِّ؛ لِيَجتَنِبَ المَنْهيُّ أسبابَ المَنْهيِّ عنه، كَقولِهم: لا أعْرِفَنَّك تَفعَلُ كذا، ولا أَرَينَّك هنا[1].

- والمَقصودُ بهذا التَّوبيخِ تَخطئةُ الأُمَمِ الَّذين اتَّخَذوا الأصنامَ للنَّصْرِ والدَّفْعِ، وذلك مُستعمَلٌ تَعريضًا بالسَّامِعينَ المُماثِلينَ لهم في عِبادةِ آلِهةٍ مِن دُونِ اللهِ؛ استِتْمامًا للمَوعظةِ والتَّوبيخِ بطَريقِ التَّنظيرِ وقِياسِ التَّمثيلِ[2]؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾؛ لأنَّ التَّوبيخَ آلَ إلى مَعنى نَفْيِ النَّصرِ[3].

- وحَرْفُ (لَولا) إذا دخَلَ على جُملةٍ فِعليَّةٍ كما هنا في قولِه: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾، كان أصْلُه الدَّلالةَ على التَّحضيضِ، أي: تَحضيضِ فاعِلِ الفِعلِ الَّذي بعْدَ (لولا) على تَحصيلِ ذلك الفِعلِ، فإذا كان الفاعلُ غَيرَ المُخاطَبِ بالكلامِ، كانتْ (لَولا) دالَّةً على التَّوبيخِ ونَحْوِه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٥).

(٢) قياس التَّمثيلِ: هو: حمْلُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المشتركَ الكُلِّيَّ، أو: إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما، مِثْلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ هو القياسُ الأصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٥).

إذ لا طائلَ في تَحضيضِ المُخاطَبِ على فِعلِ غَيرِه[١].

- والإتيانُ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن التَّنبيهِ على الخَطأِ والغَلَطِ في عِبادتِهم الأصنامَ، فلمْ تُغْنِ عنهم شَيئًا. وعُومِلَت الأصْنامُ مُعامَلةَ العُقلاءِ بإطْلاقِ جَمْعِ العُقلاءِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ عليهم؛ جَرْيًا على الغالِبِ في اسْتِعمالِ العرَبِ[٢].

- وقولُه: ﴿قُرۡبَانًا﴾ مصدرٌ بوزنِ (غُفران)، منصوبٌ على المفعولِ لأجْلِه؛ حِكايةً لِزَعْمِهم المَعروفِ المَحْكيِّ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وهذا المَصدرُ مُعترِضٌ بيْنَ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ ومَفعولِه، و(مِن دُونِ اللهِ) يتعلَّقُ بـ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، و(دون) بمعنَى المُباعَدةِ، أي: مُتجاوِزينَ اللهَ في اتِّخاذِ الأصنامِ آلِهةً، وهو حِكايةٌ لحالِهم؛ لِزيادةِ تَشْويهِها وتَشنيعِها[٣]. وفيه تَهكُّمٌ بهم[٤].

- قولُه: ﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡ﴾ (بلْ) بمعنى (لكن) إضْرابًا واسْتِدراكًا بعْدَ التَّوبيخِ؛ لأنَّه في معنَى النَّفيِ، أي: ما نَصَرَهم الَّذين اتَّخَذوهم آلِهةً ولا قَرَّبُوهم إلى اللهِ لِيُدفَعَ عنهم العذابُ، بلْ ضَلُّوا عنهم، أي: بلْ غابُوا عنهم وَقتَ حُلولِ العذابِ بهم[٥]؛ فـ (بل) حَرْفُ إضرابٍ وعطْفٍ؛ للانتقالِ عن نَفْيِ النُّصرةِ لِمَا هو أخصُّ منه؛ إذ نَفْيُها يَصدُقُ بحُضورِها عِندَهم بدُونِ النُّصرةِ، فأفاد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٥، ٥٦).

ويُنظر الكلام عن (لولا) في: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٤٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٩٩-٢٠٠، ٢٤٩-٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦).

بالإضرابِ أنَّهم لم يَحضُروا بالكُلِّيَّةِ، فضْلًا عن أنْ يَنْصُرُوهم[١].

- وقولُه: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فَذْلَكَةٌ[٢] لِجُملةِ ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ إلخ[٣].

- والافتِراءُ: نَوعٌ مِن الكذِبِ، وهو ابْتِكارُ الأخبارِ الكاذبةِ، ويُرادِفُ الاختِلاقَ؛ فعَطْفُ (مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) على ﴿إِفْكُهُمْ﴾ عطْفُ الأخصِّ على الأعمِّ؛ فإنَّ زَعْمَهم الأصنامَ شُرَكاءَ للهِ كَذِبٌ مَرْوِيٌّ مِن قبْلُ؛ فهو إفْكٌ، وأمَّا زَعْمُهم أنَّها تُقرِّبُهم إلى اللهِ فذلك افْتِراءٌ اخْتَرَعوهُ[٤].

- وقولُه: ﴿كَانُوا۟﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ افْتِراءَهم راسخٌ فيهم[٥].

- ومَجِيءُ ﴿يَفْتَرُونَ﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ افْتِراءَهم مُتكرِّرٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٩١).

(٢) الفَذْلَكَةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغَ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكَةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ(البَسملة) و(الحولقة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذا وكذا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكَةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكَةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٦، ٥٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٩-٣٢)

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَرَفْنَآ﴾: أي: وَجَّهْنا وبَعَثْنا، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ[١].

﴿نَفَرًا﴾: النَّفَرُ: ما بيْنَ الثَّلاثةِ إلى العَشَرةِ، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ، ومنه النَّفَرُ؛ لأنَّهم يَنْفِرونَ للنُّصرةِ[٢].

﴿أَنصِتُوا۟﴾: أي: اسْكُتوا سُكوتَ المسْتَمِعينَ، والإنصاتُ: هو الاستِماعُ معَ تركِ الكلامِ، وأصلُ (نصت): يدُلُّ على السُّكوتِ[٣].

﴿وَيُجِرْكُم﴾: أي: يُنقِذْكم ويَمنَعْكم، يُقالُ: أجَرْتُ فُلانًا: إذا استغاثَ بك فحَمَيْتَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٨٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٣).

﴿بِمُعۡجِزٖ﴾: أي: فائِتٍ وسابقٍ، وأصلُ (عجز): يدُلُّ على تأخُّرٍ عن الشَّيءِ[١].

﴿أَوۡلِيَآءُ﴾: أي: أنصارٌ، والوِلايةُ النُّصرةُ، وأصْل (ولي): يدُلُّ على قُرْبٍ؛ سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا ممَّا أكرم به نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن سماعِ نفَرٍ مِن الجنِّ للقرآنِ، وإيمانِهم به، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ أرسَلْنا إليك طائِفةً مِن الجِنِّ يَستَمِعونَ منك القُرآنَ، فلمَّا حَضَروه قال بَعضُهم لِبَعضٍ: أنصِتوا لِنَستَمِعَ إليه، فلمَّا أنهَى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم قراءتَه انصَرَف أولئك النَّفَرُ إلى قَومِهم مِنَ الجِنِّ مُحَذِّرينَ إيَّاهم مِن عذابِ اللهِ إنْ لم يُؤمِنوا به؛ قالوا لِقَومِهم: يا قَوْمَنا إنَّا سَمِعْنا كِتابًا -وهو القُرآنُ- أُنزِلَ مِن بَعدِ التَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت على موسى مُوافِقًا لِما قَبْلَه مِن كُتُبِ اللهِ، يُرشِدُ إلى الحَقِّ وإلى طَريقٍ مُستَقيمٍ.

يا قَومَنا أجيبوا مُحمَّدًا الدَّاعيَ إلى اللهِ وَحْدَه، وآمِنوا باللهِ يَغفِرْ لكم مِن ذُنوبِكم، ويُنقِذْكم مِن عَذابٍ مُوجِعٍ مُؤلِمٍ، ومَن لا يُجِبْ مُحمَّدًا إلى ما يدعو إليه فلن يُعجِزَ اللهَ بالهَرَبِ منه إذا أراد عُقوبتَه، وليس له مِن دُونِ اللهِ أنصارٌ يَمنَعونَه مِن عذابِ اللهِ، أولئك في ضَلالٍ واضِحٍ عن الحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

﴿قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّ الإنسَ مُؤمِنٌ وكافرٌ؛ ذكَر أنَّ الجِنَّ فيهم مُؤمِنٌ وكافرٌ، وكان ذلك بإثْرِ قِصَّةِ هُودٍ وقَومِه؛ لِمَا كان عليه قَومُه مِن الشِّدَّةِ والقُوَّةِ، والجِنُّ تُوصَفُ أيضًا بذلك، وأنَّ ما أُهلِكَ به قَومُ هُودٍ هو الرِّيحُ، وهو مِن العالَمِ الَّذي لا يُشاهَدُ، وإنَّما يُحَسُّ بِهُبوبِه، والجِنُّ أيضًا مِن العالَمِ الَّذي لا يُشاهَدُ، وأنَّ هُودًا عليه السَّلامُ كان مِن العرَبِ، ورسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن العرَبِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان ما ذُكِرَ مِن البُعدِ مِن الإيمانِ مع تَصريفِ العِظاتِ والعِبَرِ والآياتِ يَكادُ أن يُؤْيِسَ السَّامِعَ مِن إيمانِ هؤلاء المَدْعُوِّينَ؛ قَرَّبَه دَلالةً على عِزَّتِه وحِكمتِه بالتَّذكيرِ بإيمانِ مَن هم أعلَى منهم عُتُوًّا، وأشَدُّ نفرةً، وأبْعَدُ إجابةً، وأخفَى شَخصًا[2].

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ بعَثْنا إليك طائِفةً مِن الجِنِّ يَستَمِعونَ منك القُرآنَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٧، ٥٨).

قال ابنُ عطية: (التَّحريرُ في هذا أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم جاءه جِنٌّ دونَ أن يَعرِفَ بهم، وهم المتفرِّقونَ مِن أجْلِ الرَّجْم، وهذا هو قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الجن: ١]، ثمَّ بعدَ ذلك وَفَد عليه وَفدٌ، وهو المذكورُ صَرْفُه في هذه الآيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٤).

وقال ابنُ كثير -بعد أن ذكر عددًا مِن الأحاديثِ وطُرقِها-: (هذه الطُّرُقُ كُلُّها تدُلُّ على أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ذهَبَ إلى الجِنِّ قَصدًا، فتلا عليهم القُرآنَ، ودعاهم إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، =

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾.

أي: فلمَّا حَضَروه قال بَعضُهم لِبَعضٍ: اسكُتوا لِنَستَمِعَ إليه[1].

= وشَرَع اللهُ لهم على لِسانِه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوَقتِ، وقد يحتَمِلُ أنَّ أوَّلَ مَرَّةٍ سَمِعوه يقرأُ القُرآنَ ولم يَشعُرْ بهم، كما قاله ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما، ثمَّ بعد ذلك وَفَدوا إليه كما رواه ابنُ مَسعودٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٩٦).

وقال ابن حجر: (أنكر ابنُ عبَّاسٍ أنَّهم اجتمَعوا بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ... قال: ما قرَأ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ على الجنِّ ولا رآهم. الحديثَ ... فيُجمَعُ بيْنَ ما نفاه وما أثبَتَه غيرُه بتعدُّدِ وُفودِ الجنِّ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فأمَّا ما وقَع في مكَّةَ فكان لاستِماعِ القرآنِ والرُّجوعِ إلى قَومِهم مُنذِرينَ كما وقع في القرآنِ، وأمَّا في المدينةِ فلِلسُّؤالِ عن الأحكام ... ويحتملُ أن يكونَ القُدومُ الثَّاني كان أيضًا بمكَّةَ ... ويحتملُ تعدُّدُ القُدومِ بمكَّةَ مرَّتينِ وبالمدينةِ). ((فتح الباري)) (٧/ ١٧١).

وقال البيهقيُّ: (وهذا الَّذي حكاه عبدُ الله بنُ عبَّاسٍ إنَّما هو في أوَّلِ ما سَمِعَتِ الجنُّ قِراءةَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّمَ، وعَلِمَتْ بحالِه، وفي ذلك الوقتِ لم يَقرَأْ عليهم ولم يَرَهُم، كما حكاه، ثمَّ أتاه داعي الجنِّ مرَّةً أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القُرآنَ -كما حكاه عبدُ الله بنُ مسعودٍ- ورأى آثارَهم، وآثارَ نيرانِهم، واللهُ أعلَمُ. وعبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ حَفِظَ القِصَّتَينِ جميعًا فرواهما). ((دلائل النبوة)) (٢/ ٢٢٧).

قال السُّبْكيُّ: (فالأَولى أن يُجعَلَ كلامُ ابنِ عبَّاسٍ غيرَ مُعارِضٍ لكلامِ ابنِ مسعودٍ، وأن يَكونا مرَّتَينِ:

إحداهما: الَّتي ذكرها ابنُ عبَّاسٍ، وهي الَّتي أشار إليها القرآنُ في سورةِ الأحقافِ وفي سورةِ الجنِّ؛ لم يكُنِ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قصَدَهم، ولا شعَرَ بهم، ولا رآهم، ولا قرَأ عليهم قصْدًا، بل سمِعوا قراءتَه وآمَنوا به كما نطَق به الكتابُ العزيزُ. وثُبوتُها مِن حيثُ الجُملةُ قطعيٌّ). ((فتاوى السبكي)) (٢/ ٥٩٩).

وقال الشنقيطي: (وقد دلَّ القرآنُ العظيمُ أنَّ استماعَ هؤلاء النَّفَرِ مِن الجنِّ، وقولَهم ما قالوا عن القرآنِ كلِّه: وقَع ولم يَعلَمْ به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم حتَّى أوحى اللهُ ذلك إليه، كما قال تعالى في القصَّةِ بعَيْنِها، مع بَيانِها وبَسطِها، بتفصيلِ الأقوالِ الَّتي قالَتْها الجنُّ بعدَ استِماعِهم القرآنَ العظيمَ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢] إلى آخرِ الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٥، ١٧٠)، =

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

أي: فلمَّا فَرَغ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن قراءةِ القُرآنِ انصَرَف أولئك النَّفَرُ إلى قَومِهم مِن الجِنِّ مُخَوِّفينَ لهم، ومُحَذِّرينَ مِن عَذابِ اللهِ إنْ لم يُؤمِنوا به[1].

﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

أي: قالوا لِقَومِهم: يا قَومَنا إنَّا سَمِعْنا كِتابًا -وهو القُرآنُ- أُنزِلَ مِن بَعدِ التَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت على موسى، مُوافِقًا لِما قَبْلَه مِن كُتُبِ اللهِ[2].

﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: يُرشِدُ هذا القُرآنُ إلى الحَقِّ، وإلى طَريقٍ لا اعوِجاجَ فيه، مُوصِلٍ إلى اللهِ

= ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٥).

والضَّميرُ في ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ قيل: يعودُ إلى القُرآنِ. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحديُّ، والزمخشري، والرَّسْعَني، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٠).

وقيل: يعودُ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٠، ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٥).

قال ابن عاشور: (فأبلَغوهم ما سَمِعوا مِن القُرآنِ مِمَّا فيه التَّخويفُ مِن بأسِ الله تعالى لِمَن لا يؤمِنُ بالقُرآنِ، والتَّبشيرُ لِمَن عَمِل بما جاء به القُرآنُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١).

تعالى وإلى جَنَّتِه[١].

﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا مَدَحوا القُرآنَ، وبَيَّنوا مَحلَّه ومَرتَبَتَه؛ دَعَوا قَومَهم إلى الإيمانِ به[٢].

﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾.

أي: يا قَومَنا أجيبُوا مُحمَّدًا رَسولَ اللهِ الَّذي يَدعو إلى اللهِ وَحْدَه وطاعتِه، وآمِنوا باللهِ[٣].

﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ بالإيمانِ به؛ ذكَرَ فائِدةَ ذلك الإيمانِ، وهي قَولُه تعالى[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٥).

وقال ابنُ كثير: (قَولُهم: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ أي: في الاعتِقادِ والإخبارِ، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ في الأعمالِ؛ فإنَّ القُرآنَ يَشتَمِلُ على شَيئَينِ: خَبَرٍ وطَلَبٍ؛ فخَبَرُه صِدقٌ، وطَلَبُه عَدلٌ، كما قال: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهُدى هو: العِلمُ النَّافِعُ، ودينُ الحَقِّ: هو العَمَلُ الصَّالحُ. وهكذا قالت الجِنُّ: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ في الاعتِقاداتِ، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: في العَمَليَّاتِ)). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٠، ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٩).

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾.

أي: فإنْ أجَبْتُم داعيَ اللهِ وآمَنْتُم باللهِ فإنَّ اللهَ يَغفِرُ لكم مِن ذُنوبِكم، فيَستُرُها عليكم ولا يُؤاخِذُكم بها[1].

﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: ويُؤمِّنْكم مِن عَذابٍ مُوجِعٍ شَديدِ الإيلامِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٠٦).

قيل: ﴿مِّن﴾ في قَولِه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ صِلةٌ في الكلامِ، يعني: يَغفِرْ لكم ذُنوبَكم. وممَّن ذهب إلى هذا: السمرقندي، والبغوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٠٣).

وقيل: هي للتَّبعيضِ، أي: يَغفِرْ لكم بعضَ ذُنوبِكم. وممَّن ذهب إلى أنَّها للتَّبعيضِ: البيضاوي، وابنُ جُزي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦١).

قال ابنُ جُزَي: (﴿مِّن﴾ هنا للتَّبعيضِ على الأصَحِّ، أي: يَغفِرْ لكم الذُّنوبَ الَّتي فعَلْتُم قبْلَ الإسلامِ، وأمَّا الَّتي بعدَ الإسلامِ فهي في مَشيئةِ اللهِ. وقيل: معنى التَّبعيضِ: أنَّ المَظالِمَ لا تُغفَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: أنَّ الَّذي يُغفَرُ هو ما كان في خالِصِ حَقِّ اللهِ، دونَ مَظالِمِ العِبادِ: البيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩).

قال ابنُ عاشور: (﴿مِّن﴾ في قَولِه: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ الأظهَرُ أنَّها للتَّعليلِ، فتتعَلَّقُ بفِعلِ ﴿أَجِيبُواْ﴾ باعتبارِ أنَّه مجابٌ بفِعلِ ﴿يَغْفِرْ﴾. ويجوزُ أن تكونَ تبعيضيَّةً، أي: يَغفِرْ لكم بعضَ ذُنوبِكم، فيكونَ ذلك احترازًا في الوَعدِ؛ لأنَّهم لم يَتحَقَّقوا تفصيلَ ما يُغفَرُ مِن الذُّنوبِ وما لا يُغفَرُ؛ إذ كانوا قد سَمِعوا بعضَ القُرآنِ ولم يُحيطوا بما فيه. ويجوزُ أن تكونَ زائدةً للتَّوكيدِ، على رأيِ جماعةٍ مِمَّن يَرَونَ زيادةَ «مِنْ» في الإثباتِ كما تُزادُ في النَّفيِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٢، ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١).

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّهم حذَّروا قومَهم وتوَعَّدوهم، وأوجَبوا إجابتَهم داعيَ اللهِ بطريقِ التَّرهيبِ، إثْرَ إيجابِها بطريقِ التَّرغيبِ، فقالوا[1]:

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ومَن لا يُجِبْ مُحمَّدًا رَسولَ اللهِ إلى ما يدعو إليه مِنَ الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، فلن يُعجِزَ اللهَ بالهَرَبِ منه إذا أراد عُقوبتَه؛ فهو في قَبضتِه وسُلْطانِه[2].

كما قال الله تعالى حِكايةً عن قَولِ الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢].

﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾.

أي: وليس له مِن دُونِ اللهِ أنصارٌ يَمنَعونَه ويَحمُونَه مِن عذابِ اللهِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

قال ابن جُزَي: (﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ الآيةَ: يحتملُ أنْ يكونَ مِن كلامِ الجنِّ، أو مِن كلامِ الله تعالى). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ هذا القَولَ مِن كَلامِ الجِنِّ المُنذِرينَ: ابنُ جرير، والرازي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾.

أي: أولئك في انصرافٍ وذَهابٍ واضِحٍ عن الحَقِّ[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾، أي: اسْكُتوا لِلاستِماعِ، ففيه تأدُّبٌ مع العِلمِ، وتعليمُ كيف يُتعَلَّمُ[٢]، وأيضًا فيه تأدُّبٌ مع مُعلِّمِ العلمِ[٣]. وذلك على القولِ بأنَّ الضَّميرَ عائدٌ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ أنَّ مَن دعا إلى اللهِ على بصيرةٍ وَجَبَ اتِّباعُه[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ المَقصودُ مِن نُزولِ القُرآنِ بخَبَرِ الجِنِّ تَوبيخُ المُشرِكين بأنَّ الجِنَّ -وهم مِن عالَمٍ آخَرَ- عَلِموا القُرآنَ وأيْقَنوا بأنَّه مِن عِندِ اللهِ، والمُشرِكون -وهم مِن عَالَمِ الإنسِ، ومِن جِنسِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم المَبْعوثِ بالقُرآنِ، وممَّن يَتكلَّمُ بِلُغةِ القُرآنِ- لم يَزالُوا في رَيبٍ منه، وتَكذيبٍ وإصرارٍ؛ فهذا مَوعظةٌ لِلمُشرِكين بطَريقِ المُضادَّةِ لِأحوالِهم، بعْدَ أنْ جَرَت مَوعظتُهم بحالِ مُماثِليهم في الكُفْرِ مِن جِنْسِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٧، ٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٩).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ هذا للمُشرِكينَ، وإن كانوا لا يُصَدِّقونَه؛ لِتَسجيلِ بُلوغِ ذلك إليهم؛ لِيَنتَفِعَ به مَن يَهتَدي، ولِتُكتَبَ تَبِعَتُه على الَّذين لا يَهتَدونَ[1].

٣- قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ احتُجَّ بقوله: ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ على أنَّ في الجِنِّ الرُّسُلَ والأنبياءَ، فقد قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥].

والجوابُ عن ذلك: أن الإنذارَ أعَمُّ مِن الرِّسالةِ، والأعَمُّ لا يَستلزِمُ الأخَصَّ، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فهؤلاء نُذُرٌ وليسوا برُسُلٍ. قال غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ: (الرُّسُلُ مِن الإنسِ، وأمَّا الجِنُّ ففيهم النُّذُرُ). فالقولُ بأنَّ في الجِنِّ الرُّسُلَ والأنبياءَ قَولٌ شاذٌّ لا يُلتَفتُ إليه، ولا يُعرَفُ به سَلَفٌ مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ وأئمَّةِ الإسلامِ، فلا شَكَّ أنَّ الجِنَّ لم يَبعَثِ اللهُ منهم رَسولًا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيمَ الخَليلِ عليه السَّلامُ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكُلُّ نَبيٍّ بَعَثه اللهُ بعدَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ فمِن ذُرِّيَّته وسُلالتِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٢).
قال السيوطي: (جمهورُ العلماءِ سلَفًا وخلَفًا على أنَّه لم يكُنْ مِن الجِنِّ قَطُّ رسولٌ ولا نبيٌّ. كذا رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ، ومجاهِدٍ، والكَلْبيِّ، وأبي عُبَيدٍ). ((لقط المرجان)) (ص: ٤١).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قالوا: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: قال الحَسَنُ: إنَّهم كانوا على اليَهوديَّةِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّهم قالوا: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾؛ تنبيهًا لِقَومِهم على اتِّباعِ الرَّسولِ؛ إذ كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد بشَّرَ به موسى، فقالوا ذلك مِن حيثُ إنَّ هذا الأمرَ مَذكورٌ في التَّوراةِ(١).

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ كِتابَ موسى أصلٌ للإنجيلِ، وعُمدةٌ لِبَني إسرائيلَ في أحكامِ الشَّرعِ، وإنَّما الإنجيلُ مُتَمِّمٌ ومُكَمِّلٌ ومُغَيِّرٌ لِبَعضِ الأحكامِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

قال ابن كثير: (كثيرًا ما يَقرِنُ اللهُ بيْنَ التَّوراةِ والقرآنِ، كما في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١] إلى أن قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال في آخرِ السُّورةِ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]، إلى أن قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. وقالت الجِنُّ: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾. وقال وَرَقةُ بنُ نَوْفَلٍ: «هذا النَّاموسُ الَّذي أنزَلَ اللهُ على موسى» [البخاري (٣٣٩٢) ومسلم (١٦٠)]. وقد عُلِم بالضَّرورةِ لِذَوي الألبابِ أنَّ اللهَ لم يُنزِلْ كتابًا مِن السَّماءِ فيما أنزَلَ مِن الكُتبِ المُتعَدِّدةِ على أنبيائِه أكمَلَ ولا أشمَلَ ولا أفصَحَ ولا أعظَمَ ولا أشرَفَ مِن الكتابِ الَّذي أنزَلَ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو القرآنُ، وبَعْدَه في الشَّرفِ والعَظَمةِ الكِتابُ الَّذي أنزَله على موسى بنِ عِمْرانَ عليه السَّلامُ، وهو التَّوراةُ الَّتي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: ٤٤]. والإنجيلُ إنَّما نزَل مُتمِّمًا لِلتَّوراةِ، ومُحِلًّا لبعضِ ما حُرِّم على بني إسرائيلَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٢، ٢٤٣).

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّه يحتمِلُ أنَّهم لم يَكونوا سمِعوا بذِكرِ عيسَى عليه السَّلامُ[(١)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أنَّ الجِنَّ فيهم الصُّلَحاءُ والعُبَّادُ، والزُّهَّادُ والعلماءُ؛ لأنَّ المُنذِرَ لا بُدَّ أنْ يكونَ عالِمًا بما يُنذِرُ، عابِدًا مُطيعًا للهِ سُبحانَه في الإنذارِ[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تَعبيرُهم عنه هاهنا بالطَّريقِ فيه نُكتةٌ بَديعةٌ، وهي أنَّهم قَدَّموا قَبْلَه ذِكرَ موسى، وأنَّ الكِتابَ الَّذي سَمِعوه مُصَدِّقٌ لِمَا بيْنَ يديه مِن كتابِ موسى وغيرِه؛ فكان فيه كالنَّبأ عن رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في قَولِه لِقَومِه: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي: لم أكُنْ أوَّلَ رَسولٍ بُعِثَ إلى أهلِ الأرضِ، بل قد تقَدَّمتْ رُسُلٌ مِن اللهِ إلى الأُمَمِ، وإنَّما بُعِثتُ مُصَدِّقًا لهم بمِثلِ ما بُعِثوا به مِن التَّوحيدِ والإيمانِ؛ فقال مُؤمِنو الجنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: إلى سَبيلٍ مَطروقٍ قد مَرَّتْ عليه الرُّسُلُ قبْلَه، وأنَّه ليس بِدْعًا كما قال في أوَّلِ السُّورةِ نَفْسِها؛ فاقتَضَتِ البلاغةُ والإعجازُ لفظَ الطَّريقِ؛ لأنَّه «فعيلٌ» بمعنى «مفعول»، أي: مَطروقٌ مَشَتْ عليه الرُّسُلُ والأنبياءُ قَبْلُ؛ فحَقيقٌ على مَن صَدَّقَ رُسُلَ اللهِ وآمَنَ بهم أنْ يُؤمِنَ به ويُصَدِّقَه؛ فذِكْرُ الطَّريقِ هاهنا إذَنْ أَولى؛ لأنَّه أدخَلُ في بابِ الدَّعوةِ، والتَّنبيهِ على تَعَيُّنِ اتِّباعِه. واللهُ أعلَمُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٦).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أنَّ مُجرَّدَ تلاوةِ القرآنِ على شَخصٍ يكونُ مُلزِمًا له بالاتِّباعِ، فإذا تُلِيَ القرآنُ على إنسانٍ فقد قامتْ عليه الحُجَّةُ؛ ولهذا فالجِنُّ وَلَّوْا إلى قَومِهم مُنذِرينَ بمُجَرَّدِ سَماعِهم القُرآنَ؛ فقِراءةُ القُرآنِ مُلزِمةٌ، لكنْ إذا كان لا يَفهمُ لُغةَ القرآنِ فلا تكونُ مُلزِمةً؛ لِقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤]، ولا يَحصُلُ البيانُ وهو لا يَعرِفُ لُغةَ القُرآنِ(١).

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ظاهِرُه أنَّ الجِنَّ كانوا يَتعبَّدونَ بشَريعةِ موسى(٢).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الجِنَّ كانوا مُؤمِنينَ بالرُّسُلِ السَّابِقينَ، وأنَّهم يَعلَمونَ كُتُبَهم(٣).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ إلى قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ دَلالةٌ على تكليفِ الجِنِّ مِن وُجوهٍ مُتعَدِّدةٍ:

أحدُها: أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى صَرَفَهم إلى رَسولِه يَستَمِعونَ القُرآنَ؛ لِيُؤمِنوا به، ويأتَمِروا بأوامِرِه، ويَنتَهوا عن نَواهيه.

الثَّاني: أنَّهم وَلَّوا إلى قَومِهم مُنذِرينَ، والإنذارُ هو الإعلامُ بالمَخوفِ بعدَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٧/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠١).

انعقادِ أسبابِه؛ فعُلِمَ أنَّهم مُنذِرونَ لهم بالنَّارِ إنْ عَصَوُا الرَّسولَ.

الثَّالثُ: أنَّهم أخبَروا أنَّهم سَمِعوا القُرآنَ وعَقَلوه وفَهِموه، وأنَّه يَهدي إلى الحَقِّ، وهذا القَولُ منهم يدُلُّ على أنَّهم عالِمونَ بموسى وبالكِتابِ المنَزَّلِ عليه، وأنَّ القُرآنَ مُصَدِّقٌ له، وأنَّه هادٍ إلى صراطٍ مُستقيمٍ، وهذا يدُلُّ على تمكينِهم مِن العِلمِ الَّذي تقومُ به الحُجَّةُ، وهم قادِرونَ على امتثالِ ما فيه، والتَّكليفُ إنَّما يَستلزِمُ العَقلَ والقُدرةَ.

الرَّابعُ: أنَّهم قالوا لِقَومِهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾، وهذا صَريحٌ في أنَّهم مُكَلَّفون مأمورونَ بإجابةِ الرَّسولِ، وهي تَصديقُه فيما أخبَرَ، وطاعتُه فيما أمَرَ.

الخامسُ: أنَّهم قالوا: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾، والمَغفِرةُ لا تكونُ إلَّا عن ذَنبٍ، وهو مُخالَفةُ الأمرِ.

السَّادسُ: أنَّهم قالوا: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾، والذَّنْبُ مُخالَفةُ الأمرِ.

السَّابعُ: أنَّهم قالوا: ﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ وهذا يدُلُّ على أنَّ مَن لم يَستجِبْ منهم لِداعي اللهِ لم يُجِرْه مِن العذابِ الأليمِ، وهذا صَريحٌ في تَعَلُّقِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ بهم.

الثَّامنُ: أنَّهم قالوا: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُ﴾ وهذا تهديدٌ لِمَن تَخَلَّفَ عن إجابةِ داعي اللهِ منهم[(١)].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ يدُلُّ على أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان مَبعوثًا إلى الجِنِّ كما كان مَبعوثًا إلى الإنسِ[(٢)]، فأمْرُ بعضِهم

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير الرازي)) =

بعضًا بإجابتِه دليلٌ على أنَّه داعٍ لهم، وهو معنَى بَعثِه إليهم(١).

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ يُفهَمُ مِن ظاهِرِها أنَّ جَزاءَ المُطيعِ مِن الجِنِّ غُفرانُ ذُنوبِه، وإجارتُه مِن عذابٍ أليمٍ، لا دُخولُه الجنَّةَ. وقد تمسَّكَ جماعةٌ مِن العُلَماءِ بظاهِرِ هذه الآيةِ، فقالوا: إنَّ المُؤمِنينَ المُطيعينَ مِن الجِنِّ لا يَدخُلونَ الجنَّةَ، مع أنَّه جاء في آيةٍ أُخرى ما يدُلُّ على أنَّ مُؤمِنيهم في الجنَّةِ، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]؛ لأنَّه تعالى بَيَّن شُمولَه للجِنِّ والإنسِ بقَولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٧]، ويُستَأنَسُ لهذا بقَولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٥٦]؛ لأنَّه يُشيرُ إلى أنَّ في الجنَّةِ جِنًّا يَطمِثونَ النِّساءَ كالإنسِ؟

الجوابُ: أنَّ آيةَ (الأحقافِ) نُصَّ فيها على الغُفرانِ والإجارةِ مِن العَذابِ، ولم يُتعَرَّضْ فيها لدُخولِ الجنَّةِ بنَفيٍ ولا إثباتٍ، وآيةَ (الرَّحمن) نُصَّ فيها على

= (٢٨/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٧).

(١) يُنظر: ((فتاوى السبكي)) (٢/ ٥٩٥).

واستدلَّ السُّبْكيُّ أيضًا على ذلك بمواضعَ أخرى مِن هذه الآياتِ:

ومنها قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، قال: (والمُنذِرون هم المُخَوِّفون ممَّا يَلحَقُ بمُخالَفتِه لَوْمٌ، فلو لم يكُنْ مَبعوثًا إليهم لَما كان القرآنُ الَّذي أتى به لازمًا لهم، ولا خُوِّفوا به).

ومنها قولُهم: ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم﴾، قال: (وذلك يَقتَضي ترتيبَ المغفرةِ على الإيمانِ به، وأنَّ الإيمانَ به شرطٌ فيها، وإنَّما يكونُ كذلك إذا تعلَّقَ حُكمُ رسالتِه بهم، وهو معنَى كَونِه مبعوثًا إليهم).

ومنها قولُهم: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، قال: (فعدَمُ إعجازِهم وأوليائِهم وكَوْنُهم في ضلالٍ مُرَتَّبٌ على عدَمِ إجابتِه، وذلك أدَلُّ دليلٍ على بَعثتِه إليهم).

دُخولِهم الجنَّةَ؛ لأنَّه تعالى قال فيها: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقد تقرَّر في الأصولِ أنَّ المَوصولاتِ مِن صِيَغِ العُموم؛ فقَولُه: (لِمَنْ خَافَ) يَعُمُّ كُلَّ خائفٍ مَقامَ رَبِّه، ثمَّ صَرَّح بشُمولِ ذلك للجِنِّ والإنسِ معًا بقَولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٧]، فبيَّن أنَّ الوَعدَ بالجنَّتَينِ لِمَن خاف مَقامَ رَبِّه: مِن آلائِه، أي: نِعَمِه على الإنسِ والجِنِّ؛ فلا تَعارُضَ بيْنَ الآيتَينِ؛ لأنَّ إحداهما بيَّنَت ما لم تَتعَرَّضْ له الأُخرى[(١)]، فمُحسِنُ الجِنِّ في الجنَّةِ، كما أنَّ مُسيئَهم في النَّارِ؛ فقد أخبَرَنا سُبحانَه عن نَذيرِهم إخبارَ مُقِرٍّ له أنَّ مَن أجاب داعيَه غُفِرَ له، وأجارَه مِن العَذابِ، ولو كانتِ المغفرةُ لهم إنَّما يَنالونَ بها مُجرَّدَ النَّجاةِ مِن العذابِ كان ذلك حاصِلًا بقَولِه: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، بل تمامُ المَغفرةِ دُخولُ الجنَّةِ، والنَّجاةُ مِن النَّارِ، فكلُّ مَن غَفَرَ اللهُ له فلا بُدَّ مِن دُخولِه الجنَّةَ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾

- مُناسَبةُ ذِكرِ إيمانِ الجنِّ ما تَقدَّمَ مِن قَولِه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨]؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] عطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، ويَتعلَّقُ قَولُه هنا: (إذْ صَرَفْنَا) بفِعلٍ يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾، والتَّقديرُ: واذْكُرْ إذ صَرَفْنا إليك نَفَرًا مِن الجِنِّ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٥١٠-٥١٤).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٧، ٥٨).

- وقولُه: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ قيل: حَضَروا الرَّسولَ، وعليه فهو الْتِفاتٌ مِن ﴿إِلَيْكَ﴾ إلى ضَميرِ الغَيبةِ[١].

- و﴿أَنصِتُواْ﴾ أمْرٌ بتَوجيهِ الأسماعِ إلى الكَلامِ اهتِمامًا به؛ لِئلَّا يَفوتَ منه شَيءٌ، أي: قالُوا كلُّهم: أنْصِتوا، كلُّ واحدٍ يَقولُها لِلْبقيَّةِ؛ حِرْصًا على الوعْيِ، فنَطَقَ بها جَميعُهم[٢].

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ لِلقُرآنِ بتَقديرِ مُضافٍ، أي: قُضِيَت قِراءتُه، أي: انْتَهى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن القِراءةِ حِينَ حَضَروا[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

- جُملةُ ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ ...﴾ إلى آخِرِها مُبيِّنةٌ لِقَولِه: ﴿مُّنذِرِينَ﴾[٤].

- وابتَدَأَ الجِنُّ إفادةَ قَومِهم بأنَّهم سَمِعوا كِتابًا؛ تَمْهيدًا لِلغرَضِ مِن المَوعِظةِ بذِكرِ الكِتابِ ووَصْفِه؛ لِيَستشرِفَ المُخاطَبون لِمَا بعْدَ ذلك[٥].

- وقَولُ الجِنِّ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ تَنبيهٌ لِقَومِهم على اتِّباعِ الرَّسولِ؛ إذ كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد بشَّرَ به مُوسى، فقالوا ذلك مِن حيثُ إنَّ هذا الأمْرَ مَذْكورٌ في التَّوراةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٨، ٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٠).

- ووَصْفُ الكِتابِ بأنَّه ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ دُونَ (أُنزِلَ على محمَّدٍ) صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ التَّوراةَ آخِرُ كِتابٍ مِن كُتبِ الشَّرائعِ نَزَلَ قبْلَ القُرآنِ، وأمَّا ما جاء بعْدَه فكُتُبٌ مُكمِّلةٌ لِلتَّوراةِ، ومُبيِّنةٌ لها، مِثْلُ زَبورِ داودَ، وإنجيلِ عيسى، فكأنَّه لم يَنزِلْ شَيءٌ جَديدٌ بعْدَ التَّوراةِ، فلمَّا نَزَلَ القُرآنُ جاء بهَدْيٍ مُستقِلٍّ غَيرِ مَقصودٍ منه بَيانُ التَّوراةِ، ولكنَّه مُصدِّقٌ لِلتَّوراةِ، وهادٍ إلى أزْيَدَ ممَّا هَدَتْ إليه التَّوراةُ[1].

- ووَصَفوه بأنَّه ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾، أي: إلى ما هو حقٌّ في نفْسِه صِدْقٌ، يُعلَمُ ذلك بصَريحِ العقْلِ. ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ غايَروا بيْنَ اللَّفظينِ والمعنَى مُتقارِبٌ، ورُبَّما اسْتُعمِلَ أحدُهما في مَوضعٍ لا يُستعمَلُ الآخَرُ فيه؛ فجُمِعَ هنا بيْنَهما، وحَسُنَ التَّكرارُ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾

- في قولِهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ﴾ إعادةُ الجِنِّ نِداءَ قَومِهم؛ لِلاهتِمامِ بما بعْدَ النِّداءِ، وهو ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخِرِه؛ لأنَّه المَقصودُ مِن تَوجيهِ الخِطابِ إلى قَومِهم، وليس المَقصودُ إعلامَ قَومِهم بما لَقُوا مِن عَجيبِ الحوادِثِ، وإنَّما كان ذلك تَوطئةً لهذا، ولأنَّ اختِلافَ الأغراضِ وتَجدُّدَ الغَرَضِ ممَّا يَقْتضي إعادةَ مِثلِ هذا النِّداءِ، كما يُعِيدُ الخَطيبُ قَولَه: أيُّها النَّاسُ[3].

- و﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ القُرآنَ؛ لأنَّه سَبَقَ في قَولِهم: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٠).

﴿كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾، وأُطلِقَ على القُرآنِ داعِي اللهِ؛ لأنَّه يَشتمِلُ على طَلَبِ الاهتداءِ بهَدْيِ اللهِ، فشُبِّهَ ذلك بدُعاءٍ إلى اللهِ، واشْتُقَّ منه وَصفٌ لِلقُرآنِ بأنَّه داعي اللهِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ داعي اللهِ مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه يَدْعو إلى اللهِ بالقُرآنِ(١).

- وقولُه: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ أمْرٌ بإجابتِه في كُلِّ ما أَمَر به، فيَدخُلُ فيه الأمرُ بالإيمانِ، إلَّا أنَّه أعاد ذِكْرَ الإيمانِ على التَّعيينِ؛ مِن أجْلِ أنَّه أهَمُّ الأقسامِ وأشرَفُها(٢). فعَطْفُ ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ على ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ عطْفُ خاصٍّ على عامٍّ(٣).

- وفي قولِه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّنكيتِ(٤)؛ فقدْ عُبِّرَ بـ(مِن) التَّبعيضيَّةِ إشارةً إلى أنَّ الغُفْرانَ يقَعُ على الذُّنوبِ الخاصَّةِ بيْنَ العبْدِ وربِّه، أمَّا حُقوقُ العِبادِ فلا يُمكِنُ غُفْرانُها إلَّا بعْدَ أنْ يَرْضَى أصحابُها. وكذا فمِن الذُّنوبِ ما يُجازَى به صاحبُه في الدُّنيا بالعقوباتِ والنَّكباتِ والهمومِ ونحوِها، أو يَكونُ ذلك احترازًا في الوعْدِ؛ لأنَّهم لم يَتحقَّقوا تَفصيلَ ما يُغفَرُ مِن الذُّنوبِ وما لا يُغفَرُ؛ إذ كانوا قدْ سَمِعوا بَعضَ القُرآنِ، ولم يُحيطوا بما فيه. وقيل: الأظْهَرُ أنَّها للتَّعليلِ، فتَتعلَّقُ بفِعلِ ﴿أَجِيبُواْ﴾ باعتبارِ أنَّه مُجابٌ بفِعلِ ﴿يَغۡفِرۡ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ صِلَةً للتَّوكيدِ؛ لأنَّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قبْلَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٠، ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦١).

(٤) التَّنكيتُ: هو أن يَقصِدَ المتكلِّمُ إلى شيءٍ بالذِّكر دونَ غيرِه ممَّا يَسُدُّ مسَدَّه مِن أجْلِ نُكتةٍ في المذكورِ تُرجِّحُ مجيئَه على سِواه. وإذا وقَع في التَّشبيهِ فقد بلَغ الغايةَ. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٢/ ٥٥).

فلا يَبْقى معه تَبِعةٌ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إيجابٌ لِلإجابةِ بطَريقِ التَّرهيبِ، إثْرَ إيجابِها بطَريقِ التَّرغيبِ، وتَحقيقٌ لِكَونِهم مُنْذَرينَ[٢].

- وإظهارُ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ مِن غيرِ اكْتِفاءٍ بأحَدِ الضَّميرَينِ؛ لِلمُبالَغةِ في الإيجابِ بزِيادةِ التَّقريرِ، وتَربيةِ المَهابةِ، وإدْخالِ الرَّوعةِ[٣].

- ومعنَى ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أنَّه لا يَنْجو مِن عِقابِ اللهِ على عَدَمِ إجابتِه داعِيَه؛ فمَفعولُ ﴿بِمُعْجِزٍ﴾ مُقدَّرٌ دلَّ عليه المُضافُ إليه في قَولِه: ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، أي: فليس بمُعجزٍ اللهَ، والكَلامُ كِنايةٌ عن المُؤاخَذةِ بالعِقابِ[٤].

- وتَقْييدُ الإعجازِ بكَونِه في الأرضِ؛ لِتَوسيعِ الدَّائرةِ، أي: فليسَ بمُعجِزٍ له تعالَى بالهَرَبِ، وإنْ هَرَب كلَّ مَهْرَبٍ مِن أقْطارِها، أو دخَلَ في أعْماقِها[٥]، فالمَقصودُ مِن قَولِه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تَعميمُ الجِهاتِ؛ فجَرى على أُسلوبِ اسْتِعمالِ الكلامِ العربيِّ؛ وإلَّا فإنَّ مَكانَ الجنِّ غَيرُ مُعيَّنٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

- قولُه: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾، أي: لا نَصيرَ يَنصُرُه على اللهِ، ويَحْمِيه منه؛ فهو نفْيٌ لِأنْ يكونَ له سَبيلٌ إلى النَّجاةِ بالاسْتِعصامِ بمَكانٍ لا تَبلُغُ إليه قُدْرةُ اللهِ، ولا بالاحتِماءِ بمَن يَستطيعُ حِمايتَه مِن عِقابِ اللهِ. وذِكرُ هذا تَعريضٌ لِلمُشرِكين[١].

- وجمْعُ الأولياءِ باعتِبارِ مَعْنى (مَنْ)؛ فيَكونُ مِن بابِ مُقابَلةِ الجَمْعِ بالجمْعِ؛ لِانقِسامِ الآحادِ إلى الآحادِ[٢].

- واسمُ الإشارةِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾؛ لِلتَّنبيهِ على أنَّ مَن هذه حالُهم جَديرونَ بما يَرِدُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن الحُكْمِ؛ لِتَسبُّبِ ما قبْلَ اسمِ الإشارةِ فيه[٣].

- والظَّرفيَّةُ المُستفادةُ مِن قولِه: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾؛ لِإفادةِ قُوَّةِ تَلبُّسِهم بالضَّلالِ حتَّى كأنَّهم في وِعاءٍ هو الضَّلالُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٣-٣٥)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَعْىَ﴾: أي: يَعجزْ، والعِيُّ: عَدَمُ الاهتِداءِ إلى جهةٍ، ومنه العِيُّ في الكلامِ؛ مِنْ عَيِيَ بالأمرِ: إذا لم يَهتَدِ لِوَجهِ عمَلِه. يُقالُ: عَيِيتَ بالأمرِ: إذا لم تَعرِفْ وَجْهَه. وأصلُ (عيي): يدُلُّ على العَجزِ[1].

﴿ٱلْعَزْمِ﴾: أي: الحَزمِ والصَّبرِ، وأصلُ (عزم): يدُلُّ على القَطعِ[2].

﴿بَلَٰغٌ﴾: أي: تبليغٌ وعِظةٌ، وأصلُ (بلغ): وُصولٌ إلى الشَّيءِ[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٨) و (١٧/ ٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٥).

قَولُه: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ﴾: يَعْيَ: مُضارِعُ (عَيِيَ) بالكَسرِ (يَعْيَا) بالفَتحِ، فلمَّا دَخَلَ الجازمُ (لَمْ) حُذِفَت الألِفُ فصار ﴿يَعۡيَ﴾؛ فهو فِعلٌ مُضارعٌ مَجزومٌ، وعلامةُ جَزمِه حَذفُ حَرفِ العلَّةِ، وهو الألِفُ.

قَولُه: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾: خبَرُ ﴿أَنَّ﴾ مَرفوعٌ محَلًّا، مجرورٌ لَفظًا، والباءُ: زائِدةٌ مُؤكِّدةٌ، وحَسَّن زيادتَها هنا كَوْنُ ما قَبْلَها -أنَّ مع ما في حَيِّزِها- في حيِّزِ النَّفيِ (لَمْ)، فكأنَّه قيل: أوَلَيسَ اللهُ بقادِرٍ على أن يُحييَ المَوتى؟ ولذلك أُجيبَ عنه بقَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، ولولاه ما زِيدَت الباءُ في الخبَرِ؛ لو قُلتَ: ظَننتُ أنَّ زيدًا بقائمٍ، لم يَجُزْ. ولو قُلتَ: ما ظَننتُ أنَّ زيدًا بقائمٍ، جاز؛ لدُخولِ (ما) النَّافيةِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى موبِّخًا المشركينَ، ومُستَدِلًّا على الإعادةِ بعدَ الموتِ: أوَلَمْ يَرَ المُنكِرونَ للبَعثِ يومَ القيامةِ أنَّ اللهَ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ ولم يَعجِزْ عن خَلْقِهنَّ بقادرٍ على إحياءِ الموتى؟! بلى قادِرٌ سُبحانَه على ذلك؛ إنَّه على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ يخبِرُ تعالى عن حالِ المشركينَ عندَ عَرْضِهم على النَّارِ، متوعِّدًا لهم، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُعرَضُ الَّذين كَفَروا باللهِ على النَّارِ، ويُقالُ لهم تَوبيخًا: أليس هذا العذابُ حقًّا واقِعًا؟! قالوا: بلى هو حَقٌّ ورَبِّنا! قال اللهُ لهم: فذُوقُوا العذابَ؛ بسَبَبِ كُفرِكم بالحَقِّ في الدُّنيا.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يَصبِرَ على أذَى المكذِّبينَ،

(١) يُنظر: ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (١/ ١٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٠).

فيقولُ: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يُصيبُك كما صبَرَ على ذلك أصحابُ العَزمِ والجِدِّ مِن الرُّسُلِ السَّابِقينَ، ولا تَستعجِلْ وُقوعَ العذابِ على المُشركينَ؛ فهم مُعَذَّبونَ لا مَحالةَ! كأنَّهم يومَ يَرَونَ عذابَ اللهِ لم يَلبَثوا في الدُّنيا إلَّا ساعةً واحِدةً مِن ساعاتِ النَّهارِ!

هذا القُرآنُ بَلاغٌ مِن اللهِ لِعِبادِه، وما يُهلَكُ بعدَ هذا البَلاغِ إلَّا القَومُ الفاسِقونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا تَمَّ الكَلامُ في التَّوحيدِ وفي النُّبُوَّةِ؛ ذكَرَ عَقِيبَهما تقريرَ مَسألةِ المَعادِ[1].

وأيضًا لَمَّا أتَمَّ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما اقتَضاه مَقصودُ هذه السُّورةِ مِن أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه، والتَّحذيرِ مِن سَطَواتِه بذِكرِ بَعضِ مَثُلاتِه، وخَتَم بضَلالِ مَن لم يُجِبِ الدَّاعيَ- نبَّه على أنَّ أوضَحَ الأدِلَّةِ على إحاطتِه بالجَلالِ والجَمالِ، وقُدرتِه على الأجَلِ المُسَمَّى الَّذي خَلَق الخَلْقَ مِن أجْلِه: ما جَلَّى به مَطلَعَ السُّورةِ مِن إبداعِ الخافِقَينِ، وما فيهما مِن الآياتِ الظَّاهِرةِ للأُذُنِ والعَينِ[2].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أي: أوَلَمْ يَرَ المُنكِرونَ للبَعثِ، المُستَبعِدونَ لقِيامِ الأجسادِ يومَ القيامةِ: أنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٥).

الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، ولم يَعجزْ عن خَلْقِهنَّ -على عَظَمتِهنَّ وسَعَتِهنَّ وإتقانِ خَلْقِهنَّ- أنَّه لا يُعجِزُه إعادةُ النَّاسِ أحياءً بعدَ مَوتِهم، وأنَّه قادِرٌ على ذلك قُدرةً عَظيمةً تامَّةً[1]؟!

كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: قد رأى المُنكِرونَ للبَعثِ وعَلِموا أنَّه قادِرٌ على ذلك؛ إنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ، لا يُعجِزُه سُبحانَه شَيءٌ[2].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أقامَ اللهُ تعالى الدَّلالةَ على صِحَّةِ القَولِ بالحَشرِ والنَّشرِ؛ ذكَرَ بَعضَ أحوالِ الكُفَّارِ[3]، وذكَّرَ ببَعضِ ما يَحصُلُ في يومِ القيامةِ مِن الأهوالِ؛ تحذيرًا منه[4]، فقال:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣، ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٥-١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٧).

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُعرَضُ الَّذين كَفَروا باللهِ وكَذَّبوا بالبَعثِ على النَّارِ، ويُقالُ لهم تَوبيخًا: أليس هذا العذابُ -الَّذي تَحضُرونَه وتُشاهِدونَه الآنَ، وقد كُنتُم تُكَذِّبونَ به في الدُّنيا- أمرًا ثابتًا واقِعًا[1]؟!

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾.

أي: قال الكُفَّارُ المُكَذِّبونَ بالبَعثِ: بلى، هذا العَذابُ حَقٌّ ثابتٌ وواقعٌ، ونُقسِمُ على ذلك برَبِّنا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

أي: قال اللهُ لهم: فذُوقُوا هذا العذابَ؛ بسَبَبِ كُفرِكم بالحَقِّ في الدُّنيا[3].

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قَرَّرَ المطالِبَ الثَّلاثةَ، وهي: التَّوحيدُ، والنُّبُوَّةُ، والمَعادُ، وأجاب عن الشُّبُهاتِ؛ أردَفَه بما يَجري مَجرَى الوَعظِ والنَّصيحةِ للرَّسولِ صلَّى الله عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢).

وسلَّم؛ وذلك لأنَّ الكُفَّارِ كانوا يُؤذُونَه[١].

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يُصيبُك في اللهِ مِن الأذى والشَّدائِدِ كما صبَرَ على ذلك أصحابُ العَزمِ والجِدِّ والهِمَّةِ العاليةِ مِن الرُّسُلِ السَّابِقينَ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٦، ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤).

قال ابنُ عاشور: (﴿أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾: أصحابُ العَزمِ، أي: المتَّصِفونَ به، والعَزمُ: نيَّةٌ مُحقَّقةٌ على عَمَلٍ أو قَولٍ دونَ تردُّدٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٧).

وقال شِهابُ الدِّين الخفاجي: (وأولُو العَزمِ: إمَّا الرُّسُلُ مُطلَقًا، فـ «مِن» بيانيَّةٌ، وهذا أحَدُ الأقوالِ فيه، أو طائِفةٌ مَخصوصةٌ منهم، فـ «مِن» تَبعيضيَّةٌ، وفي تَعيينِهم أقوالٌ). ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٣٧).

وقال ابنُ كثير: (وأشهَرُها [أي: هذه الأقوالِ] أنَّهم: نوحٌ، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى، وخاتمُ الأنبياءِ كُلِّهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، قد نصَّ اللهُ على أسمائِهم مِن بيْنِ الأنبياءِ في آيَتَينِ مِن سُورتَيِ الأحزابِ والشُّورى). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٠، ٣١).

وقال ابن تيميَّة: (أُولو العزمِ الَّذين خصَّهم اللهُ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]، وهم يومَ القيامةِ الَّذين تَطلُبُ منهم الأُمَمُ الشَّفاعةَ، وبهم أُمِر خاتمُ الرُّسلِ أن يَقتديَ في الصَّبرِ، فقيل له: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٢).

وقال الشنقيطي: (فالرُّسُلُ الَّذين أُمِرَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَصبِرَ كما صَبَروا: أربَعةٌ، فصار هو صلَّى الله عليه وسلَّم خامِسَهم. واعلَمْ أنَّ القَولَ بأنَّ المرادَ بأُولي العَزمِ جَميعُ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ لَفظةَ «مِن» في قَولِه: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ بَيانيَّةٌ: يَظهَرُ أنَّه خِلافُ التَّحقيقِ، كما دَلَّ على ذلك بَعضُ الآياتِ القُرآنيَّةِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَه بالصَّبرِ الَّذي هو مِن أعلى الفَضائِلِ؛ نهاه عن العَجَلةِ الَّتي هي مِن أُمَّاتِ الرَّذائِلِ؛ لِيَصِحَّ التَّحَلِّي بفَضيلةِ الصَّبرِ، الضَّامِنةِ للفَوزِ والنَّصرِ[1]، فقال:

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾.

= [القلم: ٤٨]، فأمَرَ اللهُ جَلَّ وعلا نَبيَّه في آيةِ «القلم» هذه بالصَّبرِ، ونهاه عن أن يكونَ مِثلَ يُونُسَ؛ لأنَّه هو صاحِبُ الحُوتِ، وكقَولِه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]؛ فآيةُ «القلم» وآيةُ «طه» المذكورتانِ: كِلْتاهما تدُلُّ على أنَّ أُولي العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ الَّذين أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يَصبِرَ كصَبْرِهم لَيسوا جميعَ الرُّسُلِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٤١).

ونَسَب السَّمْعانيُّ هذا القَولَ -أي أنَّهم أربعةٌ- إلى أكثَرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٩٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعَطاءٌ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٧)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٠٤).

وممَّن اختارَ أنَّ «مِنْ» بيانيَّةٌ: ابنُ الأنباري -كما نسَبَه ابنُ الجوزي إليه- والبيضاويُّ، وجلال الدين المحلي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٩١).

أي: ولا تَطلُبْ -يا محمَّدُ- تَعجيلَ وُقوعِ العذابِ على المُشرِكينَ؛ فهم مُعَذَّبونَ لا مَحالةَ في الوَقتِ الَّذي قدَّره اللهُ لهلاكِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١٠، ١١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾.

أي: كأنَّهم يومَ يَرَونَ عذابَ اللهِ لم يَلبَثوا في الدُّنيا إلَّا ساعةً واحِدةً مِن ساعاتِ النَّهارِ، ويَنسَونَ طُولَ لُبثِهم في الدُّنيا(٢)!

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٧، ١٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤١، ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣).

قال البقاعي: (﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ أي: في الدُّنيا عندَ الموتِ مَثلًا، أو في الآخرةِ وقتَ العَرضِ والحِسابِ والهَولِ الأعظَمِ الأكبَرِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٩١).

وقال الرازي: (أُخْبِر [النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم] أنَّ ذلك العذابَ منهم قريبٌ، وأنَّه نازِلٌ بهم لا مَحالةَ وإنْ تأخَّر، وعندَ نزولِ ذلك العذابِ بهم يَسْتَقْصِرونَ مُدَّةَ لُبْثِهم في الدُّنيا، حتَّى يَحْسِبونَها ساعةً مِن نهارٍ، والمعنَى أنَّهم إذا عايَنوا العذابَ صار طولُ لُبْثِهم في الدُّنيا والبَرزخِ كأنَّه ساعةٌ مِن النَّهارِ، أو كأنْ لم يَكُنْ؛ لِهَوْلِ ما عايَنوا، أو لأنَّ الشَّيءَ إذا مضَى صارَ كأنَّه لم يَكُنْ، وإنْ كانَ طويلًا). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣١).

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ۞ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ۞ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

﴿بَلَٰغٞ﴾.

أي: هذا القُرآنُ بَلاغٌ مِن اللهِ لِعِبادِه(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٢).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ أنَّ القُرآنَ بلاغٌ: الثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والقرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٢).

قال ابن الجوزي: (وفي معنى وَصفِ القرآنِ بالبَلاغِ قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّ البلاغَ بمعنى التَّبليغِ.

والثَّاني: أنَّ معناه الكِفايةُ، فيكونُ المعنى: ما أخبَرْناهم به لهم فيه كفايةٌ وغِنًى). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٤).

وذكر ابنُ جريرٍ وَجهًا آخَرَ، وهو أنَّ المعنى: لم يَلبَثوا إلَّا ساعةً مِن نهارٍ، ذلك لُبْثُ بَلاغٍ، أي: ذلك بلاغٌ لهم في الدُّنيا إلى آجالِهم، ثمَّ حُذِفَت «ذلك لُبْثُ»؛ اكتِفاءً بدَلالةِ ما ذُكِرَ في الكلامِ عليها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٨).

وقال السعدي: (أي: هذه الدُّنيا مَتاعُها وشَهوتُها ولَذَّاتُها بُلغةٌ مُنغَّصةٌ، ودَفعُ وَقتٍ حاضرٍ قَليلٍ. أو: هذا القرآنُ العَظيمُ الَّذي بيَّنَّا لكم فيه البيانَ التَّامَّ بلاغٌ لكم، وزادٌ إلى الدَّارِ الآخرةِ، ونِعْمَ الزَّادُ والبُلغةُ زادٌ يُوصِلُ إلى دارِ النَّعيمِ، ويَعصِمُ مِن العذابِ الأليمِ؛ فهو أفضَلُ زادٍ يتزَوَّدُه الخلائقُ، =

كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾.

أي: فهل يُهلَكُ بالعذابِ بعدَ هذا البَلاغِ إلَّا القَومُ الَّذين خَرَجوا عن طاعةِ اللهِ تعالى، وكَفَروا به، وخالَفوا أوامِرَه؛ فاستحَقُّوا عَذابَه[1]؟

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في القُرآنِ مِن قصصِ المُرسَلينَ الَّتي فيها تَسليةٌ وتَثبيتٌ؛ لِيُتأسَّى بهم في الصَّبرِ على ما كُذِّبوا وأُوذُوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ ﴾[2].

٢- مَن قَوِيَت عَزيمتُه، وكَمَلَ عِلمُه، وقَوِيَ إيمانُه؛ لم يَطمَعْ فيه عَدُوُّه، وكان أفضَلَ، ومَن ضَعُفَ عِلمُه وضَعُفَت عَزيمتُه، طَمِعَ فيه عَدُوُّه؛ قال اللهُ تعالى في حَقِّ آدَمَ: ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴾ [طه: ١١٥]، وقال في حَقِّ غَيرِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ

= وأجَلُّ نِعمةٍ أنعَمَ اللهُ بها عليهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٧، ١٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥).

قال ابن عاشور: (والمرادُ بالفِسْقِ هنا: الفِسقُ عن الإيمانِ، وهو فِسقُ الإشراكِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٧٩).

أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[(١)].

٣- قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ فأمَرَ بالصَّبرِ، ونَهى عَمَّا يُضادُّه، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [القلم: ٤٨]، وبالجُملةِ فكُلُّ ما نهَى عنه فإنَّه يُضادُّ الصَّبرَ المأمورَ به[(٢)].

٤- على قَدْرِ رَغبةِ العَبدِ في الدُّنيا ورِضاه بها يكونُ تَثاقُلُه عن طاعةِ اللهِ، وطَلَبِ الآخِرةِ، ويَكفي في الزُّهدِ في الدُّنيا قَولُه تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۢ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾، وقَولُه تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧]، وقَولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥]، وقَولُه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ * إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٦]، وقَولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم: ٥٥]، وقَولُه تعالى: ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤]، وقَولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾[(٣)] [طه: ١٠٢ - ١٠٤].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا استِدلالٌ منه تعالى على الإعادةِ بعدَ الموتِ بما هو أبلَغُ منها، وهو: أنَّه الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ على عِظَمِهما وسَعتِهما، وإتقانِ خَلْقِهما، مِن دونِ أن يكتَرِثَ بذلك، ولم يَعْيَ بخَلقِهنَّ، فكيف تُعجِزُه إعادتُكم بعدَ مَوتِكم وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ[١]؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ تَنبيهٌ على ثُبوتِ الأُمورِ الَّتي تُوجِبُ وَصْفَ خالِقِ السَّمواتِ والأرضِ بصِفاتِ الكَمالِ، وبإحداثِ الأفعالِ، وذلك هو الَّذي يَستلزِمُ قُدرتَه عزَّ وجلَّ على إحياءِ الموتى[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اختِيرَ فِعلُ ﴿يَرَوْا﴾ مِن بيْنِ أفعالِ العِلمِ هنا؛ لأنَّ هذا العِلمَ عليه حُجَّةٌ بَيِّنةٌ مُشاهَدةٌ، وهي دَلالةُ خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ مِن عَدَمٍ، وذلك مِن شأنِه أن يَفرِضَ بالعَقلِ إلى أنَّ اللهَ كامِلُ القُدرةِ على ما هو دونَ ذلك مِن إحياءِ الأمواتِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أنَّ (الذَّوقَ) لا يَختَصُّ بحاسَّةِ الفَمِ في لغةِ القُرآنِ، بل ولا في لُغةِ العرَبِ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ إثباتُ الأسبابِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٥).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ يَقتَضي أنَّ مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم مِن أُولي العَزم؛ لأنَّ تَشبيهَ الصَّبرِ الَّذي أُمِرَ به بصَبرِ أُولي العَزمِ مِن الرُّسُلِ يَقتَضي أنَّه مِثلُهم؛ لأنَّه مُمتَثِلٌ أمْرَ رَبِّه، فصَبرُه مَثيلٌ لصَبرِهم، ومَن صبَرَ صَبْرَهم كان منهم لا مَحالةَ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارِۭ﴾ أنَّ الزَّمَنَ قصيرٌ؛ مهما طالَ بالإنسانِ العُمُرُ فهو قَليلٌ[٢]!

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ قيل: ما في الرَّجاءِ لرَحمةِ اللهِ شَيءٌ أقوى مِن هذه الآيةِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ عَودٌ إلى الاسْتِدلالِ على إمكانِ البَعثِ؛ فهو مُتَّصلٌ بقَولِه: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ إلى قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧، ١٨]، وهو انتِقالٌ مِن المَوعظةِ بمَصيرِ أمْثالِهم مِن الأُمَمِ إلى الاستِدلالِ على إبطالِ ضَلالِهم في شِرْكِهم؛ وهو الضَّلالُ الَّذي جَرَّأهم على إحالةِ البَعثِ، بعْدَ أنْ أُطِيلَ في إبطالِ تَعدُّدِ الآلهةِ، وفي إبطالِ تَكذيبِهم بالقُرآنِ، وتَكذيبِهم النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهذا عَودٌ على بَدْءٍ؛ فقدِ ابْتُدِئَت السُّورةُ بالاحتِجاجِ على البَعثِ بقَولِه تعالَى: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣]، ويتَّصِلُ بقَولِه: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٨).

أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ ﴾ إلى قَولِه: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[١] [الأحقاف: ١٧].

- والهمزةُ في قَولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، والرُّؤيةُ هنا عِلْميَّةٌ[٢].

- وقولُه: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ ﴾ العِيُّ هو العجْزُ عن العمَلِ أو عن الكلامِ، ومنه العِيِّ في الكلامِ، أي: عُسرُ الإبانةِ. وتَعديةُ الفِعلِ ﴿يَعۡيَ ﴾ بالباءِ بلاغةٌ؛ لِيُفِيدَ انتِفاءَ عَجْزِه عن صُنْعِها، وانتفاءَ عجْزِه في تَدْبيرِ مَقاديرِها ومُناسباتِها؛ فكانت باءُ المُلابَسةِ صالحةً لِتَعليقِ الخلْقِ بالعِيِّ بمَعْنَيَيْه[٣].

- وأيضًا العِيُّ يُطلَقُ على التَّعَبِ وعلى عجْزِ الرَّأيِ وعَجْزِ الحِيلةِ. وقيل: العِيُّ خاصٌّ بالعجْزِ في الحِيلةِ والرَّأيِ، وأمَّا الإعياءُ فهو التَّعَبُ مِن المشْيِ ونَحْوِه، وفِعلُه: أعْيا، وقيل: إنَّ (أعْيا) لا يكونُ إلَّا مُتعدِّيًا، أي: هَمْزتُه هَمْزةُ تَعديةٍ، وزُعِمَ أنَّ مِثلَه مَقصورٌ على السَّماعِ، وهو راجعٌ إلى تَنازُعِ العاملينِ، وعلى هذا الرَّأيِ يكونُ قَولُه تعالى هنا: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ ﴾ دَالًّا على سَعةِ عِلْمِه تعالى بدَقائقِ ما يَقْتضيهِ نِظامُ السَّمواتِ والأرضِ؛ لِيُوجِدَهما وافيَينِ به، وتكونُ دَلالتُه على أنَّه قَديرٌ على إيجادِهما بدَلالةِ الفَحْوى[٤]، أو يكونُ إيكالُ أمْرِ قُدْرتِه على خَلْقِهما إلى عِلْمِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّهم لم يُنكِروا ذلك، وقُصِدَ تَنْبيهُهم إلى ما في نِظامِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ مِن الدَّقائقِ والحِكَمِ، ومِن جُمْلتِها لُزومُ الجزاءِ على عَمَلِ الصَّالحاتِ والسَّيِّئاتِ[٥].

- قولُه: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ الباءُ صِلةٌ لِتَأكيدِ النَّفيِ؛ فإنَّه مُشتمِلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٤).

(٤) تقدَّم تعريفها (ص: ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٤، ٦٥).

على (أَنَّ) وما في حَيِّزِها؛ ولذلك أجابَ عنه بقَولِه: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ تَقْريرًا لِلقُدْرةِ على وَجْهٍ عامٍّ يَكونُ كالبُرهانِ على المَقصودِ، كأنَّه لَمَّا صَدَّرَ السُّورةَ بتَحقيقِ المَبْدأِ، أرادَ ختْمَها بإثباتِ المَعادِ[١].

- قولُه: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ مَوقعُ الجوابِ بحَرْفِ (بلى) هو جَوابٌ لِمَحذوفٍ دلَّ عليه التَّعجيبُ مِن ظَنِّهم أنَّ اللهَ غيرُ قادرٍ على أنْ يُحيِيَ الموتَى؛ فإنَّ ذلك يَتضمَّنُ حِكايةً عنهم أنَّ اللهَ لا يُحْيي المَوتَى، فأُجِيبَ بقَولِه: ﴿بَلَىٰٓ﴾؛ تَعليمًا لِلمسلمينَ، وتَلقينًا لِمَا يُجيبونَهم به، وحَرْفُ (بلى) لَمَّا كان جَوابًا، كان قائمًا مَقامَ جُملةٍ، تَقديرُها: هو قادرٌ على أنْ يُحيِيَ المَوتى[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تَذْييلٌ لِجُملةِ ﴿بَلَىٰٓ﴾؛ لأنَّ هذه تُفيدُ القُدْرةَ على خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، وإحياءِ المَوتَى، وغيرِ ذلك مِن المَوجوداتِ الخارجةِ عن السَّمواتِ والأرضِ[٣].

- وتَأْكيدُ الكَلامِ بحرْفِ (إنَّ)؛ لِرَدِّ إنْكارِهم أنْ يُمكِنَ إحياءُ اللهِ المَوتى؛ لأنَّهم لَمَّا أحالُوا ذلك فقد أنْكَروا عُمومَ قُدْرتِه تعالَى على كلِّ شَيءٍ، ولهذه النُّكتةِ جِيءَ في القُدْرةِ على إحياءِ المَوتَى بوَصفِ (بِقَادِرٍ)، وفي القُدْرةِ على كلِّ شَيءٍ بوَصفِ (قَدِيرٍ) الَّذي هو أكثَرُ دَلالةً على القُدْرةِ مِن وَصْفِ (قادِرٍ)[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ مَوقِعُ هذا الكلامِ: أنَّ عَرْضَ المُشرِكين على النَّارِ مِن آثارِ الجَزاءِ الواقِعِ بعْدَ البَعثِ؛ فلمَّا ذُكِرَ في الآيةِ الَّتي قبْلَها الاسْتِدلالُ على إمكانِ البَعثِ، أُعقِبَ بما يَحصُلُ لهم يَومَ البَعثِ، جمْعًا بيْنَ الاسْتِدلالِ والإنذارِ، وذُكِرَ مِن ذلك ما يُقالُ لهم ممَّا لا مَنْدوحةَ لهم عن الاعترافِ بخَطئِهم، جمْعًا بيْن ما رُدَّ به في الدُّنيا مِن قَولِه: ﴿بَلَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وما يردُّون في عِلْمِ أنفُسِهم يَومَ الجَزاءِ بقَولِهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾. والجُملةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ [الأحقاف: ٣٣] إلخ. وأوَّلُ الجُملةِ المَعطوفةِ قَولُه: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنَّه مَقولُ فِعلِ قَولٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: ويُقال لِلَّذين كَفَروا يومَ يُعرَضون على النَّارِ[1].

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ فيه تَقديمُ الظَّرْفِ ﴿وَيَوْمَ﴾ على عامِلِه ﴿يُعْرَضُ﴾؛ لِلاهتمامِ بذِكرِ ذلك اليومِ؛ لِزيادةِ تَقريرِه في الأذهانِ[2].

- وذِكرُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للإيماءِ بالمَوصولِ إلى عِلَّةِ بِناءِ الخبَرِ، أي: يُقالُ لهم ذلك؛ لأنَّهم كَفَروا[3].

- والاسْتِفهامُ ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ تَقْريريٌّ، وتَنْديمٌ على ما كانوا يَزْعُمون أنَّ الجزاءَ باطلٌ وكذِبٌ. وفيه تهكُّمٌ بهم، وتوبيخٌ لهم على اسْتِهزائِهم بوَعْدِ اللهِ ووَعيدِه، حيثُ قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[4] [الصافات: ٥٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٥، ٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٩/ ١٩٤).

- والإشارةُ في قولِه: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ إلى ما يُشاهِدونَه حينَ العَرضِ مِن حيثُ هو، مِن غَيرِ أنْ يَخطُرَ بالبالِ لَفظٌ يدُلُّ عليه، فضْلًا عن تَذكيرِه وتأْنيثِه؛ إذ هُو اللَّائقُ بتَهْويلِهِ وتَفْخيمِه. وقيل: الإشارةُ إلى العذابِ، بقرينةِ التَّصريحِ به بعدُ[(١)].

- قولُه: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إنَّما أقْسَموا على كَلامِهم بقَسمِ ﴿وَرَبِّنَا﴾ قَسَمًا مُستعمَلًا في النَّدامةِ، والتَّغليطِ لِأنفُسِهم، وجَعَلوا المُقسَمَ به بعُنوانِ الرَّبِّ؛ تَحنُّنًا وتَخضُّعًا[(٢)].

- وأُكِّدَ جَوابُهم بالقسَمِ كأنَّهم يَطْمَعونَ في الخَلاصِ بالاعتِرافِ بحقيَّةِ ذلك، كما في الدُّنيا، وأنَّى لهُم ذلكَ[(٣)]؟!

- والأمْرُ في قَولِه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فيه مَعنى الإهانةِ بهم، والتَّوبيخِ لهم[(٤)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ تَفريعٌ على ما سبَقَ في هذه السُّورةِ مِن تَكذيبِ المُشرِكين رِسالةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم بجَعْلِهم القُرآنَ مُفْترًى، واسْتِهزائِهم به وبما جاء به مِن البَعثِ، ابتِداءً مِن قَولِه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٦).

[الأحقاف: ٧]، وما اتَّصَلَ به مِن ضَرْبِ المَثَلِ لهم بعادٍ؛ فأُمِرَ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على ما لَقِيَه منْهم مِن أذًى، وضُرِب له المَثَلُ بالرُّسلِ أُولي العزْمِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ فَصيحةً، والتَّقديرُ: فإذا عَلِمْتَ ما كان مِن الأُمَمِ السَّابقةِ، وعَلِمْتَ كيف انْتَقَمْنا منهم، وانتَصَرْنا لِرُسُلِنا؛ فاصْبِرْ كما صَبَروا[١].

- قولُه: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أُعقِبَ أمْرُه بالصَّبرِ بنَهْيِه عن الاسْتِعجالِ لِلمُشرِكين، أي: الاسْتِعجالِ لهم بالعَذابِ، أي: لا تَطلُبْ منَّا تَعجيلَه لهم؛ وذلك لأنَّ الاستِعجالَ يُنافي العزْمَ، ولأنَّ في تأْخيرِ العَذابِ تَطْويلًا لِمُدَّةِ صَبْرِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بكَسْبِ عَزْمِه قُوَّةً[٢].

- ومَفعولُ ﴿تَسْتَعْجِل﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه المَقامُ، تَقديرُه: العذاب أو الهلاك. واللَّامُ في ﴿لَّهُمْ﴾ لامُ تَعديةِ فِعلِ الاسْتِعجالِ إلى المَفعولِ لِأجْلِه، أي: لا تَستعجِلْ لِأجْلِهم، والكلامُ على حَذْفِ مُضافٍ؛ إذِ التَّقديرُ: لا تَستعجِلْ لِهلاكِهم[٣].

- وجُملةُ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ تَعليلٌ لِلنَّهيِ عن الاستِعجالِ لهم بالعَذابِ؛ بأنَّ العَذابَ واقِعٌ بهم، فلا يُؤثِّرُ في وُقوعِه تَطويلُ أجَلِه ولا تَعجيلُه، وهمْ عِندَ حُلولِه مُنذُ طُولِ المُدَّةِ يُشْبِهُ حالُهم حالَ عَدَمِ المُهلةِ إلَّا ساعةً قَليلةً[٤].

- قولُه: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ وَصْفُ السَّاعةِ وتَخصيصُها بهذا الوَصْفِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٦، ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٦٧، ٦٨).

﴿مِّن نَّهَارٍ﴾؛ لأنَّ ساعةَ النَّهارِ تَبْدو للنَّاسِ قَصيرةً؛ لِما للنَّاسِ في النَّهارِ مِن الشَّواغِلِ، بخِلافِ ساعةِ اللَّيلِ تَطولُ؛ إذ لا يَجِدُ السَّاهرُ شَيئًا يَشغَلُه؛ فالتَّنكيرُ للتَّقليلِ[١].

- وقولُه: ﴿بَلَٰغٌ﴾ فَذْلَكةٌ[٢] لِمَا تَقدَّمَ بأنَّه بَلاغٌ للنَّاسِ؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهم؛ لِيَعلَمَ كلٌّ حَظَّه مِن ذلك؛ فقولُه: ﴿بَلَٰغٌ﴾ خَبرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: هذا بلاغٌ، على طَريقةِ العُنوانِ والطَّالِعِ. والجُملةُ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا ابتِدائيًّا على طَريقةِ الفَذْلكةِ والتَّحصيلِ[٣].

وقيل: ﴿بَلَٰغٌ﴾ مُبتدأٌ، والخبَرُ: ﴿لَّهُمْ﴾، وما بيْنَهما اعتِراضٌ، أي: لهم وقْتٌ يَبلُغون إليه، كأنَّهم إذا بَلَغوه ورَأَوا ما فيه، اسْتَقْصَروا مُدَّةَ عُمرِه[٤].

- وفُرِّعَ على جُملةِ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ إلى ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾، قولُه: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، أي: فلا يُصِيبُ العذابُ إلَّا المُشرِكين أمْثالَهم. والاسْتِفهامُ مُستعمَلٌ في النَّفْيِ، ومَعنى التَّفريعِ أنَّه قدِ اتَّضَحَ ممَّا سمِعْتَ أنَّه لا يُهلَكُ إلَّا القومُ الفاسِقون[٥].

- وتَعريفُ ﴿ٱلْقَوْمُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وهو مُفِيدٌ العُمومَ، أي: كلُّ القَومِ الفاسِقينَ؛ فيَعُمُّ مُشْرِكي مكَّةَ الَّذين عَناهم القُرآنُ، فكان لهذا التَّفريعِ مَعنى التَّذييلِ. والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ في قَولِه: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ على هذا الوجْهِ؛ لِتَغليبِ إهْلاكِ المُشرِكين الَّذي لَمَّا يقَعْ على إهلاكِ الأُمَمِ الَّذين قبْلَهم. ويجوزُ جعْلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٨).

(٢) تقدم تعريفها (ص: ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٩).

التَّعريفِ تَعريفَ العهْدِ، أي: القومُ المُتحدَّثُ عنهم في قَولِه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ الآيةَ؛ فيَكونُ إظْهارًا في مَقامِ الإضمارِ؛ لِلْإيماءِ إلى سَببِ إهْلاكِهم أنَّه الإشراكُ[1].

- وهذه الآيةُ كالخاتمةِ للسُّورةِ، والفَذْلَكةِ لِمَا اشْتَمَلَت عليه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣١٨).

تَفْسيرُ

سُورَةِ مُحمَّدٍ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ مُحمَّدٍ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (مُحمَّدٍ)[١].

بيانُ المكِّيِّ والمدنيِّ:

سُورةُ محمَّدٍ مَدَنيَّةٌ[٢]، وحُكِي الإجماعُ على ذلك[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورَةِ:

١- التَّرغيبُ في الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، وقِتالِ المُشرِكين، وكَسرِ شَوكَتِهم، وبيانِ سُوءِ عاقِبَتِهم[٤].

٢- الكشْفُ عن أحوالِ المُنافِقين وأوصافِهم، والتَّحذيرُ مِنهم[٥].

---

(١) سُمِّيت بذلك؛ لِذِكرِ اسمِ الرَّسولِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم فيها في قَولِه: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، فعُرِفَت به قبْلَ سُورةِ (آل عمران) التي فيها: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧١).

قال ابنُ عاشور: (سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ في كُتُبِ السُّنَّةِ سُورةَ مُحَمَّدٍ... وكذلك في التَّفاسيرِ قالوا: وتُسَمَّى سُورَةَ القِتالِ... وأمَّا تَسميَتُها سُورةَ القتالِ فلأنَّها ذُكِرَتْ فيها مَشروعِيَّةُ القِتالِ، ولأنَّها ذُكِر فيها لفظُه في قولِه تعالَى: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧١).

(٢) وقيل: السُّورُة مَدنيةٌ إلا آيةَ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ فهي مكِّيةٌ، وقيل: السُّورةُ مكِّيةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٥).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٠).

(٤) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٨٦) و(٢٦/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٢)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٢١٥).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

٣- بَيانُ سُوءِ عاقِبَةِ الكافِرين، وحُسنِ عاقِبَةِ المُؤمِنين.

٤- حضُّ المُؤمنينَ على الإغلاظِ في قِتالِ الكافِرين، وفي أخْذِهم أُسارَى.

٥- وَعدُ المُؤمنين بالنَّصرِ متَى نَصَروا اللهَ تعالَى ورسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَبشيرُهم بالجنَّةِ وما فيها من نَعيمٍ، وتَوَعُّدُ الكافِرين بالتَّعاسَةِ والخَيبَةِ، وتَوبيخُهم على عَدَمِ اعتِبارِهم واتِّعاظِهم.

٦- ذِكرُ جانِبٍ مِن مَواقِفِ المُنافقينَ مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ومِن دَعوتِه، وذِكرُ بعضِ أوْصافِهمُ الذَّميمَةِ، كخِداعِهم وسُوءِ أدَبِهم، وجُبنِهم إذا دُعوا إلى القِتالِ.

٧- بَيانُ أنَّ نِفاقَ المُنافقينَ كان بسَبَبِ استِحواذِ الشَّيطانِ عليهم، وتَوعُّدُهم بسُوءِ المصيرِ في حَياتِهم وبعْدَ مَماتِهم.

٨- تَوَعُّدُ الكافِرين بحُبوطِ أعمالِهم.

٩- أمْرُ المُؤمِنين بطاعَةِ اللهِ ورَسولِه، ونَهيهُم عنِ اليأسِ والقُنوطِ، وتَبشيرُهم بالنَّصرِ والظَّفَرِ، وتَحذيرُهم مِن البُخلِ، ودَعوَتُهم إلى الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ تعالَى.

الآيات (١-٢)

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: أي: أبْطَلَ أعمالَهم وأحبَطَها وأتْلَفَها، فلا يَنتفِعون بها في الآخِرةِ، وأصلُ الضَّلالِ: الغَيْبوبةُ؛ يُقالُ: ضَلَّ الماءُ في اللَّبَنِ؛ إذا غاب وغُلِب عليه فلم يُتبيَّنْ. ويُسمَّى الهالِكُ التَّالِفُ: ضالًّا[1].

﴿كَفَّرَ﴾: أي: سَتَرَ ومَحا، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على سَترٍ وتَغطيةٍ[2].

﴿بَالَهُمۡ﴾: أي: شأْنَهم وحالَهم، وقيل: أمْرَ مَعاشِهم في الدُّنيا، والبالُ: الحالُ التي يُكتَرَثُ بها، يُقالُ: ما باليتُ بكذا بالةً، أي: ما اكْتَرَثْتُ به[3].

﴿يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾: أي: يُمثِّلُ اللهُ للنَّاسِ الأمثالَ، ويُشبِّهُ لهم الأشباهَ، فيُلحِقُ بكُلِّ قومٍ مِن الأمثالِ أشكالًا؛ لِيَعتبِروا بهم. أو: يُبيِّن لهم مآلَ أعمالِهم،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١/ ١٦٨) و(١١/ ٦٨٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

وما يَصِيرون إليه في مَعادِهم، وضَرْبُ الأمْثالِ: اعْتِبارُ الشَّيْءِ بغَيْرِه. أو: إيرادُه لِيُتَمَثَّلَ به ويُتَصوَّرَ ما أراد المُتَكَلِّمُ بَيانَه لِلمُخاطَبِ. يُقالُ: ضَرَبَ الشَّيءَ مَثَلًا، وضَرَبَ به، وتَمثَّلَه، وتَمثَّلَ به[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يَفتتِحُ اللهُ تعالَى هذه السُّورةَ بذَمِّ الكافرينَ، وذِكرِ عُقوبتِهم، فيقولُ: الذين كَفَروا بالحَقِّ وصَدُّوا أنفُسَهم والنَّاسَ عن سَبيلِ اللهِ تعالَى، أحبَطَ اللهُ أعمالَهم.

ثمَّ يُثني اللهُ تعالَى على المؤمنينَ، مُبيِّنًا جَزاءَهم، فيقولُ: والذين آمَنوا بالحَقِّ وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ بإخلاصٍ للهِ تعالَى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه، وآمَنوا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ على نَبيِّه محمَّدٍ -وهذا القُرآنُ هو الحَقُّ مِن رَبِّهم-، تجاوَزَ اللهُ عن سَيِّئاتِهم، وأصلَحَ حالَهم وشأْنَهم.

ثُمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى سَببَ جَزاءِ الفَريقينِ بما جازاهم به، فيقولُ: ذلك الإحباطُ لأعمالِ الكافِرينَ بسَبَبِ اتِّباعِهم الباطِلَ، وذلك التَّكفيرُ لسَيِّئاتِ المؤمِنينَ وإصلاحُ بالِهم بسَبَبِ اتِّباعِهم الحَقَّ مِن رَبِّهم؛ مِثْلَ ذلك البَيانِ لِمآلِ الكافِرينَ والمؤمِنينَ يُمثِّلُ اللهُ للنَّاسِ أصنافَهم وأحوالَهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١﴾.

أي: الَّذين كَفَروا بالحَقِّ وصَدُّوا أنفُسَهم وغيْرَهم عن طَريقِه واتِّباعِه، جَعَل اللهُ أعمالَهم سُدًى لا نَفْعَ فيها[2].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٥، ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) =

= للبقاعي (١٨/ ١٩٥-١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٣-٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٤-٢٤٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالَّذينَ كفَروا: أهلُ مكَّةَ، وهم مُشرِكو قُرَيشٍ: مُقاتلُ بن سُليمانَ، والواحديُّ، وابن عطيةَ، وابنُ الجوْزي، وأبو حيَّان، وجلال الدِّين المحلِّي، والشَّوكانيُّ، ونسَبه الماتُريديُّ إلى عامَّةِ أهلِ التَّأويلِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٦٢).

قال الشوكانيُّ: (قَولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هم كُفَّارُ قُريشٍ؛ كَفَروا باللهِ وصَدُّوا أنفُسَهم وغيرَهم عن سَبيلِ الله، وهو دِينُ الإسلامِ، بنَهيِهم عن الدُّخولِ فيه، كذا قال مُجاهدٌ والسُّدِّيُّ. وقال الضَّحَّاكُ: معنى ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: عن بَيتِ اللهِ بمَنعِ قاصِديه. وقيل: هم أهلُ الكتابِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥).

وقال الزمَخْشريُّ: (قال ابنُ عباسٍ رَضِي اللهُ عنه: هم المطْعِمون يوْمَ بدْرٍ. وعن مُقاتلٍ: كانوا اثْنَي عشَرَ رجُلًا مِن أهلِ الشِّركِ يصُدُّون الناسَ عن الإسلامِ ويَأمُرونهم بالكفْرِ. وقيل: همْ أهلُ الكتابِ الَّذين كفَروا وصدُّوا مَن أراد منهم ومِن غيْرِهم أنْ يَدخُلَ في الإسلامِ. وقيل: هو عامٌّ في كلِّ مَن كفَرَ وصدَّ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣).

وممَّن ذهَبَ إلى العُمومِ: الرَّسعنيُّ، وابنُ جُزَي، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٤).

قال ابن جُزَي: (﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني كُفَّارَ قُريشٍ، وعمومُ اللفظِ يعُمُّ كلَّ كافرٍ). يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٠).

وقال الزمخشريُّ: (﴿وَصَدُّواْ﴾: وأعْرَضوا وامتَنَعوا عن الدُّخولِ في الإسلامِ، أو صدُّوا غيْرَهم عنه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٤).

قال الطِّيبيُّ: (والتَّفسيرُ الثاني أشدُّ الْتئامًا للقرينةِ السابقةِ باللَّاحقةِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إذا فُسِّر بـ «صدُّوا غيْرَهم» يكونُ مِن بابِ العطْفِ للخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ إضلالَ الغيْرِ أشدُّ توغُّلًا في الضَّلالِ مِن ضَلالِ الشَّخصِ... فالمعنى: فالَّذين كفَروا وما آمَنوا بما نُزِّلَ على محمَّدٍ، وصدُّوا غيْرَهم عن الإيمانِ به، واغتَرُّوا بما كانوا عليه مِن مَكارمِ الأخلاقِ: أبطَلَ اللهُ =

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لمَّا بيَّن حالَ الكُفَّارِ؛ بيَّن حالَ المؤمنينَ[1]، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ بإخلاصٍ للهِ تعالَى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه، وآمَنوا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ على نَبيِّه محمَّدٍ -وهذا القُرآنُ هو الحَقُّ

= أعمالَهم). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢٠، ٣٢١).

وممَّن اختار التَّفسيرَ الثَّانيَ: مقاتلُ بن سُليمان، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٤٤)

قال الشنقيطيُّ: (قولُه تعالَى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، قال بعضُهم: هو مِن الصُّدودِ؛ لأنَّ «صَدَّ» في الآيةِ لازمةٌ. وقال بعضُهم: هو مِن الصَّدِّ؛ لأنَّ «صَدَّ» في الآيةِ مُتعدِّيةٌ. وعليه فالمفعولُ مَحذوفٌ، أي: صدُّوا غيْرَهم عن سَبيلِ اللهِ، أي عن الدُّخولِ في الإسلامِ. وهذا القولُ الأخيرُ هو الصَّوابُ؛ لأنَّه على القولِ بأنَّ «صَدَّ» لازمةٌ، فإنَّ ذلك يكونُ تَكرارًا مع قولِه: ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ الكُفرَ هو أعظَمُ أنواعِ الصُّدودِ عن سَبيلِ اللهِ.

وأمَّا على القولِ بأنَّ «صَدَّ» مُتعدِّيةٌ فلا تَكرارَ؛ لأنَّ المعنى أنَّهم ضالُّون في أنفُسِهم، مُضِلُّون لغيْرِهم بصَدِّهم إيَّاهم عن سَبيلِ اللهِ، و... اللَّفظ إذا دار بيْن التَّأكيدِ والتَّأسيسِ وجَب حمْلُه على التَّأسيسِ، إلَّا بدَليلٍ يَجِبُ الرُّجوعُ إليه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٤٤).

وقال الرازيُّ: (في الصَّدِّ وَجهانِ:

أحدُهما: صَدُّوا أنفُسَهم، معناه أنَّهم صَدُّوا أنفُسَهم عن السَّبيلِ، ومَنَعوا عُقولَهم مِن اتِّباعِ الدَّليلِ.

وثانيهما: صَدُّوا غيْرَهم ومَنَعوهم). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٢).

وممَّن اختار أنَّ المعنى صدُّوا أنفُسَهم وصدُّوا غيْرَهم: العُليميُّ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٣).

الكامِلُ، والصِّدقُ الثَّابِتُ مِن عندِ رَبِّهم-، تَجاوَزَ اللهُ عن مُؤاخَذتِهم بسَيِّئاتِ أعمالِهم، فلا يُعاقِبُهم عليها؛ لأجْلِ إيمانِهم، وعَمَلِهم الصَّالحاتِ(١).

كما قال الله تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ [النساء: ١٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾.

أي: وأصْلحَ اللهُ شأْنَهم وحالَهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٩٧-١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٤-٧٥).
قال ابنُ القيِّم: (الذُّنوبُ: المرادُ بها الكبائرُ، والمرادُ بالسَّيِّئاتِ: الصَّغائرُ، والدَّليلُ على أنَّ السَّيِّئاتِ هي الصَّغائرُ، والتَّكفيرَ لها: قَولُه تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: ٣١]، وفي «صحيح مُسلم» [٢٣٣] مِن حَديثِ أبي هُريرةَ: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان يقولُ: «الصَّلَواتُ الخَمسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورَمَضانُ إلى رَمَضانَ: مُكَفِّراتٌ لِما بيْنَهنَّ إذا اجتُنِبَت الكبائرُ». وعندَ الإفرادِ يَدخُلُ كُلٌّ منهما في الآخَرِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ [محمد: ٢] يَتناولُ صَغائرَها وكبائرَها، وإذا فُهِمَ هذا فُهِمَ السِّرُّ في الوَعدِ على المصائبِ والهُمومِ والغُمومِ، والنَّصَبِ والوَصَبِ بالتَّكفيرِ دونَ المَغفرةِ، كقَولِه في الحَديثِ الصَّحيحِ: «ما يُصيبُ المؤمِنَ مِن هَمٍّ ولا غَمٍّ ولا أذًى، حتى الشَّوكةُ يُشاكُها إلَّا كفَّرَ اللهُ بها مِن خَطاياه»؛ فإنَّ المصائبَ لا تَستَقِلُّ بمَغفرةِ الذُّنوبِ، ولا تُغفَرُ الذُّنوبُ جميعُها إلَّا بالتَّوبةِ، أو بحَسَناتٍ تَتضاءَلُ وتَتلاشَى فيها الذُّنوبُ). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣١٨-٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤). =

كما قال تعالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان الجَزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ علَّل ما تَقدَّم مِن فِعْلِه بالفريقَينِ[(١)].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ﴾.

= قال القرطبي: (﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: شأنَهم، عن مجاهدٍ وغيرِه. وقال قتادةُ: حالَهم. ابن عبَّاس: أمورَهم. والثلاثةُ متقاربةٌ، وهي متأوَّلةٌ على إصلاحِ ما تعلَّق بدُنياهم. وحكَى النَّقاشُ أنَّ المعنَى أصلَح نيَّاتِهم ... وهو على هذا التأوُّلِ محمولٌ على صلاحِ دينِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٤).

وقال ابنُ عطيةَ في قولِه تعالَى: ﴿بَالَهُمْ﴾: (تَحريرُ التَّفسيرِ في اللَّفظةِ أنَّها بمَعنى الفِكرِ والموضِعِ الذي فيه نَظَرُ الإنسانِ، وهو القَلبُ، فإذا صَلَح ذلك صَلَحتْ حالُه، فكأنَّ اللَّفظةَ مُشيرةٌ إلى صَلاحِ عَقيدتِهم، وغيرُ ذلك من الحالِ تابعٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٩).

وقال البقاعيُّ: (﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: مَوضِعَ سِرِّهم وفِكرِهم؛ بالأمْنِ والتَّوفيقِ والسَّدادِ، وقُوَّةِ الفَهمِ والرَّشادِ لِما يُوفِّقُهم له مِن مَحاسِنِ الأعمالِ، ويُطيبُ به اسمَهم في الدَّارَينِ. قال ابنُ بَرَّجانَ: وإذا أصلحَ ذلك من العبدِ صلَحَ ما يَدخُلُ إليه، وما يَخرُجُ عنه، وما يَثبُت فيه، وإذا فَسَد فبالضِّدِّ من ذلك). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٩٩).

وقال ابنُ عاشور: (إصلاحُ البالِ يَجمَعُ إصلاحَ الأُمورِ كُلِّها؛ لأنَّ تصَرُّفاتِ الإنسانِ تأتي على حَسَبِ رأيِه؛ فالتَّوحيدُ أصلُ صلاحِ بالِ المؤمِنِ، ومنه تَنبعِثُ القُوى المقاوِمةُ للأخطاءِ والأوهامِ الَّتي تَلبَّس بها أهلُ الشِّركِ، وحَكاها عنهم القُرآنُ في مَواضِعَ كثيرةٍ، والمعنى: أقام أنظارَهم وعُقولَهم، فلا يُفَكِّرونَ إلا صالحًا، ولا يَتدبَّرون إلَّا ناجِحًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٥-٧٦).

وقال ابن جرير: (﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ يقولُ: وأصلَح شأنَهم وحالَهم في الدنيا عندَ أوليائِه، وفي الآخرةِ بأنْ أورَثهم نعيمَ الأبدِ والخلودَ الدَّائمَ في جِنانِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٩٩).

أي: ذلك الإضلالُ لأعمالِ الكافِرينَ بسَبَبِ اتِّباعِهم الباطِلَ، وإيثارِهم له على الحَقِّ[١].

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾.

أي: وذلك التَّكفيرُ لسَيِّئاتِ المؤمِنينَ وإصلاحُ بالِهم بسَبَبِ اتِّباعِهم الحَقَّ الَّذي جاءهم مِن رَبِّهم[٢].

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾.

أي: مِثْلَ ذلك البَيانِ لحالِ أو مآلِ الكافِرينَ والمؤمِنينَ يُمثِّلُ اللهُ للنَّاسِ أصنافَهم وأحوالَهم، بحيثُ لا تخفَى ولا تَلتَبِسُ عليهم؛ فيَتبَيَّنُ لهم الخَبيثُ مِن الطَّيِّبِ، والحَقُّ مِن الباطِلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٠-٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٧).

قال الشنقيطيُّ: (أصلُ ضَرْبِ الأمثالِ يُرادُ منه بَيانُ الشَّيءِ بذِكرِ نَظيرِه الذي هو مِثلٌ له). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٤٧).

وقال الزمخشريُّ: (فإنْ قُلتَ: أيْن ضَرْبُ الأمثالِ؟ قُلتُ: في أنْ جَعَل اتِّباعَ الباطِلِ مَثَلًا لعَمَلِ الكُفَّارِ، واتِّباعَ الحَقِّ مَثَلًا لعَمَلِ المؤمِنينَ، أو في أنْ جَعَل الإضلالَ مَثَلًا لخَيبةِ الكُفَّارِ، وتَكفيرَ السَّيِّئاتِ مَثلًا لفَوزِ المؤمِنينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٦). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٩).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أنَّ السَّيِّئَةَ الثَّانيةَ قدْ تكونُ مِن عُقوبةِ الأُولى، فتكونُ مِن سيِّئاتِ الجزاءِ، معَ أنَّها مِن سيِّئاتِ العمَلِ[1].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا كان في مَقامِ الإخبارِ عنه، فلنا أنْ نُخبِرَ عنه باسمِه، كما أخبَرَ اللهُ سُبحانَه لَمَّا أخبَرَ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأمَّا إذا خاطَبْناه فعليْنا أنْ نَتأدَّبَ بآدابِ اللهِ تعالَى، حيثُ قال: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾ [النور: ٦٣]، فلا نقولُ: يا محمَّدُ، يا أحمدُ، كما يَدْعو بَعضُنا بَعضًا، بل نقولُ: يا رَسولَ اللهِ، يا نبيَّ اللهِ[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ عُلِمَ مِن هذا المثَلِ أنَّ مَنِ اتَّبَع الباطِلَ أضَلَّ اللهُ عمَلَه، ووفَّرَ سَيِّئاتِه، وأفسَدَ بالَه، ومَنِ اتَّبَع الحَقَّ عُمِلَ به ضِدُّ ذلك كائنًا مَن كان؛ فهو غايةُ الحَثِّ على طَلَبِ العِلمِ في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والعَمَلِ بهما[3].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ المعنى: كهذا التَّبيينِ يُبيِّنُ اللهُ للنَّاسِ أحوالَهم، فلا يَبْقُوا في غَفلةٍ عن شُؤونِ أنفُسِهم، مَحجوبينَ عن تحقُّقِ كُنْهِهم بحِجابِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٣٩، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠١).

التَّعوُّدِ؛ لئلَّا يختلطَ الخبيثُ بالطَّيِّبِ، ولكي يكونوا على بَصيرةٍ في شُؤونِهم، وفي هذا إيماءٌ إلى وُجوبِ التَّوَسُّمِ لِتَمييزِ المنافِقينَ عن المُسلِمينَ حَقًّا؛ فإنَّ مِن مَقاصِدِ السُّورةِ التَّحذيرَ مِن المنافِقينَ[١].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أنَّ سَبَبَ إضلالِ أعمالِ هؤلاء الَّذين كفَروا حتَّى لم تَنفَعْهم، وأنَّ أعمالَ هؤلاء الَّذين آمَنوا نفَعَتْهم، فكُفِّرَتْ سَيِّئاتُهم، وأصلحَ اللهُ بالَهم: أنَّ هؤلاء اتَّبَعوا الباطِلَ قَولًا وعَمَلًا، اعتِقادًا واقتِصادًا، خبَرًا وأمرًا؛ وهؤلاء اتَّبَعوا الحقَّ مِن ربِّهم، ولم يَتَّبِعوا ما هو مِن غيرِ ربِّهم، وإنْ كان حقًّا مِن وجْهٍ؛ فإنَّ الخبَرَ والعمَلَ تابعٌ للمُخبَرِ عنه وللمَقصودِ بالعَمَلِ، فإذا كان ذلك باطِلًا لا حَقيقَةَ له كان التَّابعُ كذلك، وإنْ كان مَوجودًا[٢]. فمَنِ اتَّبعَ الباطِلَ فعَمَلُه باطِلٌ، ومَنِ اتَّبعَ الحَقَّ فأعمالُهُ حقٌّ؛ فهي ثابِتةٌ باقِيةٌ، لا زائلةٌ مُضمَحِلَّةٌ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أعلَمَ اللهُ المؤمِنينَ بأنَّه لا يُسَدِّدُ المُشرِكينَ في أعمالِهم، وأنَّه مُصلِحُ المؤمِنينَ؛ فكان ذلك كَفالةً للمُؤمِنينَ بالنَّصرِ على أعدائِهم[٤].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أنَّ الكُفرَ إذا قارنَه عمَلٌ لم يُقبَلْ ذلك العَمَلُ، والعملُ يُحبَطُ بالكُفرِ؛ قال اللهُ سُبحانه: ﴿وَمَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٢).

يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٩]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٨]؛ فلا يُحبِطُ الأعمالَ غيرُ الكُفرِ؛ لأنَّ مَن مات على الإيمانِ فإنَّه لا بُدَّ مِن أنْ يَدخُلَ الجنَّةَ، ويَخرُجَ مِن النَّارِ إنْ دخَلَها، ولو حَبِطَ عَمَلُه كُلُّه لم يَدخُلِ الجنَّةَ قطُّ، ولأنَّ الأعمالَ إنَّما يُحبِطُها ما يُنافيها، ولا يُنافي الأعمالَ مُطلقًا إلَّا الكُفرُ، وهذا مَعروفٌ مِن أُصولِ أهلِ السُّنَّةِ، نَعمْ قدْ يَبطُلُ بَعضُ الأعمالِ بوُجودِ ما يُفسِدُه، كما قال تعالَى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]؛ ولهذا لم يُحبِطِ اللهُ الأعمالَ في كِتابِه إلَّا بالكُفرِ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ فيه بَحثٌ: أنَّ إضلالَ الأعمالِ مُرَتَّبٌ على الكُفرِ والصَّدِّ، والكفَّارُ المُستَضعَفونَ لم يَصُدُّوا، فلا يُضِلُّ أعمالَهم.

والجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: التَّخصيصُ بالذِّكرِ لا يدُلُّ على نَفيِ ما عَداه، ولا سيَّما إذا كان المذكورُ أَولى بالذِّكرِ مِن غَيرِه، وهاهنا الكافِرُ الصادُّ أدخَلُ في الفَسادِ؛ فصار هو أَوْلى بالذِّكرِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ كُلَّ مَن كَفَر صار صادًّا لِغَيرِه؛ أمَّا المُستكبِرُ فظاهِرٌ، وأمَّا المُستضعَفُ فلأنَّه بمُتابَعتِه أثبَتَ للمُستكبِرِ ما يَمنَعُه مِن اتِّباعِ الرَّسولِ؛ فإنَّه بعْدَما يكونُ مَتبوعًا يشُقُّ عليه أنْ يَصيرَ تابِعًا، ولأنَّ كُلَّ مَن كفَرَ صار صادًّا لِمَن بعْدَه؛

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٤، ٥٥).

لأنَّ عادةَ الكُفَّارِ اتِّباعُ المتقدِّم، كما قال عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي: مُقتدَونَ؛ فإنْ قيل: إنَّ كُلَّ كافرٍ صادٌّ؛ فما الفائدةُ في ذِكرِ الصَّدِّ بعْدَ الكُفرِ؟ فالجوابُ: أنَّ هذا مِن بابِ ذِكرِ السَّبَبِ، وعَطفِ المُسَبَّبِ عليه؛ تقولُ: (أكلتُ كَثيرًا وشَبِعتُ)، والكُفرُ على هذا سبَبُ الصَّدِّ[١].

٤- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ فقولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، وقولُه تعالَى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أفادَ نفْسَ المعنى؛ فما الحِكمةُ فيه، وكيف وَجهُه؟

الجوابُ: أمَّا وَجهُ ذلك فبَيانُه مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّه عَطفُ خاصٍّ على عامٍّ[٢]، وتَخصيصُه مِن بيْنِ ما يَجِبُ الإيمانُ به إعلامٌ بأنَّه لا يَصِحُّ الإيمانُ ولا يَتِمُّ إلَّا به[٣]، أو لأنَّه لَمَّا كان هذا الوَصفُ ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لا يخُصُّ أتْباعَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، خَصَّهم بقَولِه تعالَى: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، أي: مع ذلك[٤].

الوَجهُ الثَّاني: قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: باللهِ ورَسولِه واليَومِ الآخِرِ، وقَولُه: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ﴾ أي: بجَميعِ الأشياءِ الواردةِ في كَلامِ اللهِ ورَسولِه؛ تَعميمٌ بعدَ أُمورٍ خاصَّةٍ، وهو حَسَنٌ؛ تقولُ: خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ وكُلَّ شَيءٍ؛ إمَّا على معنى: وكُلَّ شَيءٍ غيرَ ما ذَكَرْنا، وإمَّا على العُمومِ بعْدَ ذِكرِ الخُصوصِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٩٧).

الوَجهُ الثَّالثُ: أنْ يكونَ المعنى: آمَنوا وآمَنوا مِن قَبلُ بما نُزِّلَ على محمَّدٍ، وهو الحَقُّ المُعجِزُ الفارِقُ بيْن الكاذِبِ والصَّادِقِ. يعني: آمَنوا أوَّلًا بالمُعجِزِ، وأيْقَنوا بأنَّ القُرآنَ لا يَأتي به غيرُ اللهِ، فآمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، والواوُ للجَمعِ المُطلَقِ، ويجوزُ أنْ يكونَ المتأخِّرُ ذِكرًا مُتقَدِّمًا وُقوعًا، وهذا كقَولِ القائِلِ: آمَنَ به، وكان الإيمانُ به واجِبًا، أو يكونَ بيانًا لإيمانِهم، كأنَّ ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، أي: آمَنوا وآمَنوا بالحَقِّ، كما يقولُ القائِلُ: خرَجْتُ وخرَجْتُ مُصيبًا، أي: وكان خُروجي جيِّدًا، حيثُ نَجَوتُ مِن كذا، ورَبِحتُ كذا؛ فكذلك لَمَّا قال: ﴿ءَامَنُواْ﴾ بيَّنَ أنَّ إيمانَهم كان بما أَمَر اللهُ وأنزَلَ اللهُ، لا بما كان باطِلًا مِن عندِ غيرِ اللهِ[1].

٥- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ عطْفُ قولِه: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ على قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ، وهو دَليلٌ على أنَّ الإيمانَ بالقُرآنِ -الَّذي نُزِّلَ على نبيِّنا مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- شَرطٌ في صِحَّةِ الإيمانِ بعْدَ بَعثتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ فيه إشْعارٌ بأنَّ أعمالَ الكُفَّارِ -وإنْ كانتْ حَسَناتٍ- يُضِلُّها اللهُ تعالَى في غَمَراتِ كُفْرِهم، وحِرْمانِ مُتابَعةِ الحقِّ المُنزَّلِ مِن عِندِ اللهِ، وأنَّ سَيِّئاتِ المُؤمِنين يَستُرُها اللهُ في كَنَفِ إيمانِهم ومُتابَعتِهم الحقَّ، وإليه وَقَعَت الإشارةُ بقَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ صَدَر التَّحريضُ على القِتالِ بتَوطئةٍ؛ لِبَيانِ غَضَبِ اللهِ على الكافِرينَ؛ لِكُفْرِهم وصَدِّهم النَّاسَ عن دِينِ اللهِ، وتَحقيرِ أمْرِهم عِندَ اللهِ؛ لِيَكونَ ذلك مُثيرًا في نُفوسِ المُسلِمينَ حَنَقًا عليهم، وكَراهيةً، فتَثورُ فيهمْ هِمَّةُ الإقدامِ على قِتالِ الكافِرين، وعَدَمِ الاكتِراثِ بما همْ فيه مِن قُوَّةٍ، حِين يَعلَمون اللهَ يَخذُلُ المُشركين ويَنصُرُ المُؤمِنين؛ فهذا تَمهيدٌ لِقَولِه تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1] [محمد: ٤].

- وفي الابتِداءِ بالمَوصولِ والصِّلةِ المُتضمِّنةِ كُفْرَ الَّذين كَفَروا، ومُناوأَتَهم لِدِينِ اللهِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾: تَشويقٌ لِمَا يَرِدُ بعْدَه مِن الحُكْمِ المُناسِبِ للصِّلةِ، وإيماءٌ بالمَوصولِ وصِلَتِه إلى عِلَّةِ الحُكْمِ عليه بالخَبَرِ، أي: لِأجْلِ كُفْرِهم وصَدِّهم. وفيه أيضًا بَراعةُ استِهلالٍ للغرَضِ المَقصودِ[2].

- قولُه: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: صَدُّوا غَيرَهم؛ فيكونُ مِن بابِ العطْفِ لِلخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ إضلالَ الغَيرِ أشدُّ تَوغُّلًا في الضَّلالِ مِن ضَلالِ الشَّخصِ[3]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وأُضِيفَ السَّبيلُ إلى اللهِ؛ لأنَّه الدِّينُ الذي ارْتَضاهُ اللهُ لِعِبادِه، وعُبِّرَ بالسَّبيلِ عن الدِّينِ؛ لأنَّ الدِّينَ يُوصِلُ إلى رِضَا اللهِ، كما يُوصِلُ السَّبيلُ السَّائرَ فيه إلى بُغْيَتِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢٠، ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٣).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ مُقابلُ فَريقِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1]، وقدْ جاء في مُقابَلةِ الأوصافِ الثَّلاثةِ التي أُثبِتَتْ لِلَّذين كَفَروا بثَلاثةِ أوصافٍ ضِدِّها للمُسلمين؛ وهي: الإيمانُ مُقابِلُ الكُفْرِ، والإيمانُ بما نُزِّلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُقابِلُ الصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ، وعَمَلُ الصَّالحاتِ مُقابِلُ بَعضِ ما تَضمَّنَه ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ١]، و﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ مُقابِلُ بَعضٍ آخَرَ ممَّا تَضمَّنَه ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ مُقابِلُ بَقيَّةِ ما تَضمَّنَه ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، وزِيدَ في جانِبِ المُؤمِنين التَّنويهُ بشَأْنِ القُرآنِ بالجُملةِ المُعترِضةِ ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، وهو نَظيرٌ لِوَصْفِه بسَبيلِ اللهِ في قَولِه: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[2] [محمد: ١].

- وإيرادُ المَوصولِ وصِلَتِه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾؛ لِلْإيماءِ إلى وَجْهِ بناءِ الخَبَرِ وعِلَّتِه، أي: لِأجْلِ إيمانِهم... إلخ[3].

- قولُه: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ فيه اخْتِصاصُ الإيمانِ بالمُنزَّلِ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن بيْنِ ما يَجِبُ به الإيمانُ؛ تَعظيمًا لِشَأْنِ المنزَّلِ عليه، وإشعارًا بأنَّ الإيمانَ لا يَتِمُّ دونَه، وأكَّدَ ذلك بالجُملةِ الاعتراضيَّةِ التي هي قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧٤، ٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩١).

- وفي قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ واعتِراضِه بيْن الكلامِ: إيذانٌ بأنَّ أعمالَ أولئك السَّادةِ المؤمنينَ ثابتةٌ غيرُ زائلةٍ؛ لأنَّ الحقَّ في مُقابَلةِ الباطلِ(١).

- وعُبِّرَ عن الجَلالةِ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ بوَصْفِ الرَّبِّ؛ زِيادةً في التَّنويهِ بشَأْنِ المُسلِمين، على نَحْوِ قَولِه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١١]؛ فلذلك لم يَقُلْ: وصدُّوا عن سَبيلِ ربِّهم(٢).

٣- قَولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ لِتَمْييزِ المُشارِ إليه أكمَلَ تَمْييزٍ؛ تَنْويهًا به. و﴿ذَٰلِكَ﴾ مُبتَدأٌ، وقولُه: ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ إلخ خَبَرُه، والباءُ للسَّببيَّةِ، أيْ: ذلكَ كائنٌ بسَببِ أنَّ الأوَّلينَ اتَّبَعوا الشَّيطانَ ففَعَلوا ما فَعَلوا مِن الكُفْرِ والصَّدِّ؛ فبَيانُ سَببيَّةِ اتِّباعِه لِلْإضلالِ المَذكورِ مُتضمِّنٌ لِبَيانِ سَببيَّتِهما له؛ لِكَونِه أصلًا مُسْتتبِعًا لهما قطْعًا، وبسَببِ أنَّ الآخَرينَ اتَّبَعُوا الحقَّ الذي لا مَحيدَ عنه كائنًا مِن ربِّهم، ففَعَلوا ما فَعَلوا مِن الإيمانِ به وبكِتابِه ومِن الأعمالِ الصَّالحةِ؛ فبَيانُ سَببيَّةِ اتِّباعِه لِمَا ذُكرَ مِن التَّكفيرِ والإصلاحِ بعْدَ الإشعارِ بسَببيَّةِ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ له؛ مُتضمِّنٌ لِبَيانِ سَببيَّتِهما له؛ لِكَونِه مَبدأً ومَنشَأً لهما حتْمًا، فلا تَدافُعَ بيْن الإشعارِ والتَّصريحِ في شَيءٍ مِن المَوضعَينِ. ويَجوزُ أنْ يُحمَلَ الباطلُ على ما يُقابِلُ الحقَّ -وهو الزَّائلُ الذَّاهبُ الذي لا أصْلَ له أصلًا-؛ فالتَّصريحُ بسَببيَّةِ اتِّباعِه لإضلالِ أعْمالِهم وإبطالِها؛ لِبَيانِ أنَّ إبطالَها لِبُطلانِ مَبْناها

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٥).

وزَوالِه. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالباطلِ نفْسُ الكُفْرِ والصَّدِّ، وبالحقِّ نفْسُ الإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ؛ فيكون التَّنصيصُ على سَببيَّتِهما لِمَا ذُكَرَ مِن الإضلالِ ومِن التَّكفيرِ والإصْلاحِ تَصْريحًا بالسَّببيَّةِ المُشعرِ بَها في المَوقعينِ. وفي هذا مُحسِّنُ الجمْعِ بعْدَ التَّفريقِ(١) ويُسمُّونَه -كَعَكْسِه- التَّفسيرَ؛ لأنَّ في الجمْعِ تَفسيرًا لِلْمعنى الذي تَشترِكُ فيه الأشياءُ المُتفرِّقةُ، تقدَّمَ أو تَأخَّرَ(٢).

- ووَصْفُ الحقِّ بأنَّه ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ تَنْويهٌ به، وتَشريفٌ لهم(٣).

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ تَذْييلٌ لِمَا قبْلَه، أي: مِثلَ ذلك التَّبْيينِ لِلحالينِ يُبيِّنُ اللهُ الأحوالَ للنَّاسِ بَيانًا واضِحًا(٤).

---

(١) الجمْعُ: أنْ يَجمَعَ مُتعدِّدًا في حُكمٍ واحدٍ. والتَّفريقُ: إيقاعُ تَبايُنٍ بيْنَ أمْرَينِ مِن نوعٍ واحدٍ. والجمعُ مع التَّفريقِ: أنْ تُدخِلَ شَيئين في معنًى واحدٍ، ثمَّ تُفرِّقَ بيْنَ جِهتَيِ الإدخالِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]؛ فقدْ جمَع النَّفْسَينِ في حُكمِ التَّوفِّي، ثمَّ فرَّق بيْنَ جِهتَيِ التَّوفِّي بالحُكمِ بالإمساكِ والإرسالِ، أي: اللهُ يَتوفَّى الأنفُسَ: النَّفْسَ الَّتي تُقبَضُ، والنَّفْسَ الَّتي لم تُقبَضْ، فيُمسِكُ الأُولى، ويُرسِلُ الأُخرى. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٣٢-٢٣٨)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٤-٣١٥)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٤١٧-٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤-٦)

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٤﴾ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴿٥﴾ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴿٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾: أي: اقتْلوهم؛ يُقالُ: ضَرَبَ الأميرُ رَقَبةَ فُلانٍ: إذا قتَلَه؛ وذلك أنَّ قتْلَ الإنسانِ أكثَرُ ما يكونُ بضَرْبِ رَقَبتِه، والضَّربُ: إيقاعُ شَيءٍ على شَيءٍ، كَضَرْبِ الشَّيءِ باليدِ، والعَصا، والسَّيفِ ونحْوِها[(١)].

﴿أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾: أي: أكثَرتُم القَتلَ فيهم، والإثخانُ: بُلوغُ الغايةِ فِي النِّكايةِ، والاستِكثارُ مِن القتْلِ، والإثخانُ: الغَلَبةُ؛ لأنَّها تَترُكُ المغلوبَ كالشَّيءِ المُثخَنِ -وهو الثَّقيلُ الصُّلبُ- الَّذي لا يخِفُّ للحَرَكةِ، وأصلُ (ثخن): يَدُلُّ على رَزانَةِ الشَّيءِ في ثِقَلٍ؛ وذلك أنَّ القَتيلَ قدْ أُثْقِل حتَّى لا حَراكَ به[(٢)].

﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾: عِبارةٌ عن الأسْرِ، والشَّدُّ: العَقدُ القويُّ، يُقالُ: شَدَدْتُ الشَّيءَ: قوَّيْتُ عقْدَه، والوَثاقُ -بفَتحِ الواوِ وكَسرِها-: اسمانِ لِما يُوثَقُ به الشَّيءُ؛ كالقَيدِ والحَبلِ ونَحوِهما، وقيل: الوَثاقُ اسمٌ مِن الإيثاقِ، وقدْ يُوضَعُ مَوضِعَ المصدرِ، وأصلُ (شدد): يَدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ، وأصلُ (وثق): يدُلُّ على عَقدٍ وإحكامٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٨، ٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٩) و(٦/ ٨٥)، ((البسيط)) للواحدي =

﴿مَنًّا﴾: أي: تفَضُّلًا وإنعامًا بإطلاقِهم بلا عِوَضٍ، والمِنَّةُ: النِّعمةُ الثَّقيلةُ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على اصْطِناعِ خيرٍ، وقيل: أصلُ المنِّ القطعُ، وسُمِّيت النِّعمةُ مِنَّةً؛ لأنَّها مَقطوعةٌ عن المِحَنِ والشَّدائدِ، أو: لأنَّه إنَّما يُسْديها الإنسانُ إلى غيرِه؛ ليَقطَعَ بها حاجتَه لا غيرُ، مِن غيْرِ أنْ يَعمِدَ لطَلَبِ مَثوبةٍ(١).

﴿فِدَآءً﴾: أي: عِوَضًا مُقابِلَ إطلاقِهم، والفِداءُ: حِفظُ الإنسانِ نفْسَه عن النَّائِبةِ بما يَبذُلُه، وأصلُ (فدي): أنْ يُجعَلَ شَيءٌ مَكانَ شَيءٍ حِمًى له(٢).

﴿أَوْزَارَهَا﴾: أي: آلاتِها وأثقالَها التي لا تَقومُ إلَّا بها مِن سِلاحٍ ونَحوِه، وقيل: آثامَها، وأصلُ الوِزرِ: الثِّقلُ، وما يَحتَمِلُه الإنسانُ؛ فسُمِّيَت الأسلحةُ أوزارًا لأنَّها تُحمَلُ، ولثِقَلِ حِمْلِها(٣).

﴿لِّيَبْلُوَاْ﴾: أي: لِيَختَبِرَ ويَمتَحِنَ، وأصلُ البَلاءِ: التَّكليفُ بالأمْرِ الشَّاقِّ، ويكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ معًا(٤).

= (٢٠/ ٢١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٧، ٨٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٠)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧- ٧٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (٢/ ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧، ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: أي: ولنْ يُحبِطَها ويُبْطِلَها، وأصل (ضلل): يدُلُّ على ضَياعِ الشَّيءِ وذَهابِه في غيرِ حَقِّه[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾

قَولُه تعالَى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ مَنصوبٌ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ بفِعلٍ مَحذوفٍ وُجوبًا على أنَّه بدَلٌ مِن اللَّفظِ بفِعلِه، ثمَّ أُضيفَ إلى مَفعولِه، والتَّقديرُ: فاضرِبوا الرِّقابَ ضَرْبًا، فحُذِفَ الفِعلُ اختِصارًا، ثمَّ قُدِّمَ المفعولُ المُطلَقُ، فأُنيبَ مَنابَ الفِعلِ في العَملِ في ذلك المَفعولِ، وأُضِيفَ إلى المفعولِ ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ إضافةَ الأسماءِ إلى الأسماءِ؛ لأنَّ المصْدرَ راجِحٌ في الاسميَّةِ، مع إعطاءِ مَعنى التَّوكيدِ. وقيل: هو مَنصوبٌ على الإغراءِ. وجُملةُ ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ لا مَحلَّ لها مِنَ الإعرابِ، جَوابُ (إذا).

﴿مَنًّۢا﴾ و﴿فِدَآءً﴾ مَنصوبانِ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ مِن لَفْظِهما واجِبِ الحَذفِ[٢]، والتَّقديرُ: فإمَّا تَمُنُّونَ مَنًّا، وإمَّا تُفْدُونَ فِداءً، وجُملةُ (فَإِمَّا تَمنُّونَ مَنًّا) مَعطوفةٌ على جَوابِ الشَّرطِ ﴿فَشُدُّواْ﴾، فلا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ، وجُملةُ (تُفدونُ فِداءً) مَعطوفةٌ على جُملةِ (تَمنُّون مَنًّا)، فلا محَلَّ لها أيضًا مِنَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤).

(٢) وذلك لأنَّ المَصدَرَ متى سِيقَ تَفصيلًا لعاقِبةِ جُملةٍ، وَجَب نَصبُه بإضمارِ فِعلٍ لا يَجوزُ إظهارُه، والكلامُ هنا تَفصيلٌ لعاقِبةِ مَضمونِ ما قَبْلَه مِن شَدِّ الوَثاقِ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٨٥).

الإعرابِ[(١)].

﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ في مَوضِعِ رَفعٍ، خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلك الذي ذكَرْتُ وبَيَّنْتُ. وقيل: هو مَنصوبٌ على مَعنى: افعَلوا ذلك.

ويَجوزُ أنْ يكونَ مُبتدأً خبرُه محذوفٌ، والمعنى: ذلك حُكمُ الكُفَّارِ، وهي كَلِمةٌ يَستعمِلُها الفَصيحُ عندَ الخُروجِ مِن كَلامٍ إلى كَلامٍ، وهو كما قال تعالَى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٥٥]، أي: هذا حَقٌّ، وأنا أُعَرِّفُكم أنَّ للظَّالِمينَ كذا[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى ما يَجِبُ على المؤمنينَ فِعلُه عندَ لِقائِهم أعداءَهم، وبعْدَ انتصارِهم عليهم، فيقولُ: إذا لَقِيتُم -أيُّها المُؤمِنونَ- المحارِبينَ مِن الكُفَّارِ فاضْرِبوا رِقابَهم، حتَّى إذا قَهَرْتُموهم وأكثَرتُم القَتلَ فيهم، فأحْكِموا قيْدَ مَن أسَرْتُموه منهم، فإمَّا تمُنُّونَ عليهم بعْدَ الأَسْرِ مَنًّا بأنْ تُطلِقوا سَراحَهم مجَّانًا، وإمَّا أنْ تُفدُوا فِداءً بأنْ تَأخُذوا منهم فِديةً في مُقابِلِ إطلاقِ سَراحِهم.

افعَلوا بهم ما أمَرْناكم بفِعلِه، واستَمِرُّوا على ذلك حتَّى تَنتهيَ الحَربُ التي بيْنَكم وبيْنَ أعدائِكم.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٦)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١١٨)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٧١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٨٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٦-٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٨٦).

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى الحِكمةَ مِن مَشروعيةِ قِتالِ الأعداءِ، فيقولُ: أمَرَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- بما سَبَق ذِكرُه، ولو يَشاءُ اللهُ الانتِصارَ مِن هؤلاءِ الكافِرينَ والانتِقامَ منهم لفَعَلَ، ولكِنَّه سُبحانَه أمَرَكم بمُحاربتِهم؛ لِيَختبِرَ بعضَكم ببَعضٍ، فيَتمَيَّزَ قَويُّ الإيمانِ مِن ضَعيفِه.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه ما أعدَّه للمُجاهدينَ مِن ثَوابٍ عَظيمٍ، فيقولُ: والَّذين استُشهِدوا وهم يُقاتِلونَ مِن أجْلِ إعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، فلنْ يُضِيعَ أعمالَهم ولنْ يُبطِلَها. سيَهْديهم اللهُ ويُصلِحُ شَأنَهم وحالَهم، ويُدخِلُهم الجنَّةَ يومَ القِيامةِ، ويَهْديهم إلى بُيوتِهم ومَساكِنِهم فيها بحيثُ لا يُخطِئونَها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن سبحانَه حالَ الفريقيْنِ -مَن يَتَّبعُ الباطِلَ، وهو حِزبُ الشَّيطانِ، ومَن يَتَّبعُ الحَقَّ، وهو حِزبُ الرَّحمنِ-؛ أمَر بجهادِ الكفَّارِ[1]، فقال:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾.

أي: فإذا واجَهتُم -أيُّها المُؤمِنونَ- المحارِبينَ المُقاتِلينَ مِن الكُفَّارِ فاقْتُلوهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠١-٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٧). =

كما قال الله تبارك وتعالَى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٢، ١٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾.

أي: حتَّى إذا أكثَرتُم القَتلَ فغَلبتُم الكُفَّارَ وقَهرْتُموهم، فقيِّدوا مَن أسَرْتُموهم منهم تَقييدًا شَديدًا، وارْبِطوهم رَبطًا قَويًّا[1].

﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

الناسخُ والمنسوخُ:

الآيةُ مُحكَمةٌ ولا نسْخَ فيها[2].

= قال العُليميُّ: (﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ مَصدرٌ بمَعنى الفِعلِ؛ أي: فاضرِبوا الرِّقابَ ضَرْبًا، المعنى: إذا لَقيتُموهم، فاقتُلوهم، وعَيَّنَ مِن أنواعِ القَتلِ أشهَرَه وأعرَفَه، فذَكَره). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٢-٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٩-٨٠).

قال ابنُ عاشور: (الإثْخانُ: الغَلَبةُ... فإذا فُسِّر بالغَلَبةِ كان المعنى: حتَّى إذا غَلَبتم منهم مَن وَقَعوا في قَبضتِكم أسْرى، فشُدُّوا وَثاقَهم؛ وعليه فجَوازُ المَنِّ والفِداءِ غيرُ مُقيَّدٍ. وإذا فُسِّر الإثخانُ بكَثرةِ القَتلِ فيهم، كان المعنى: حتَّى إذا لم يَبْقَ مِن الجيشِ إلَّا القليلُ، فأْسِروا حينئذٍ، أي: أَبقُوا الأسرى، وكِلا الاحتِمالَين لا يَخْلو مِن تَأويلٍ في نَظمِ الآيَةِ إلَّا أنَّ الاحتِمالَ الأوَّلَ أظهَرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٩).

(٢) ممَّن صرَّح بأنَّ الآيةَ مُحكَمةٌ أو ليْستْ بمَنسوخةٍ: ابنُ جرير، والقُرطبيُّ، وابنُ تيميَّة، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧).

ونَسَب هذا القولَ إلى أكثَرِ أهلِ العِلمِ: الخازنُ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٨). =

وقيل: الآيةُ مَنسوخةٌ[(١)].

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

أي: فإمَّا أنْ تَمنُّوا على أسرَى الكُفَّارِ بإطلاقِهم مِنَ الأسْرِ مجَّانًا بلا عِوَضٍ، وإمَّا أنْ تَأخُذوا منهم عِوَضًا؛ كدَفْعِهم مالًا، أو إخلائِهم أُسارَى مُسلِمينَ لَدَيهم؛

= قال علَمُ الدِّين السَّخاويُّ: (قال عامَّةُ العُلماءِ بأنْ لا نسْخَ، والنبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُخيَّرٌ بيْن الفِداءِ والمنِّ والقتْلِ والاسترقاقِ. وقد رُوِي مِثلُ هذا عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِي اللهُ عنهما). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٨٣٦).

وقال الشوكانيُّ: (وقال كثيرٌ من العُلماء: إنَّ الآيةَ مُحكَمةٌ، والإمامُ مخيَّرٌ بيْن القتلِ والأسْرِ، وبعْدَ الأسْرِ مخيَّرٌ بيْن المَنِّ والفداءِ. وبه قال مالكٌ، والشافعيُّ، والثَّوريُّ، والأوزاعيُّ، وأبو عُبيدٍ، وغيرهُم. وهذا هو الرَّاجحُ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم والخلفاءَ الرَّاشدين مِن بعدِه فَعَلوا ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧).

(١) ممَّن اختار أنها مَنسوخةٌ: ابنُ أبي زَمنين، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٢).

قال الشوكاني: (قيل: إنَّها مَنسوخَةٌ في أهلِ الأوثانِ، وأنَّه لا يجوزُ أن يُفادَوا ولا يُمَنَّ عليهم، وَالنَّاسخُ لها قولُه: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، وقولُه: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾، وبهذا قال قَتادةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ، وابن جُرَيجٍ، وكثيرٌ من الكوفيِّين: قالوا: والمائدةُ آخِرُ ما نزَل، فوجَب أنْ يُقتَلَ كلُّ مُشركٍ إلَّا مَن قامَت الدَّلالةُ على تَركِه مِن النِّساءِ والصِّبيانِ ومَن تُؤخَذ منه الجِزيةُ، وهذا هو المشهورُ مِن مَذهبِ أبي حَنيفةَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧).

وقال عَلَم الدِّين السخاويُّ: (قال ابنُ جُريجٍ والسُّدِّيُّ وغيرُهما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ...﴾ إلى قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: نُسِخَ جَميعُ ذلك بآيةِ السَّيفِ، فلا يجوزُ المنُّ على المشرِكِ ولا الفداءُ، إلَّا على مَن لا يَجوزُ قتْلُه كالصَّبيِّ والمرأةِ.

وقال الضَّحَّاك وعَطاءٌ: هذه الآيةُ ناسخةٌ لقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، فلا يُقتَلُ مُشرِكٌ صَبْرًا، لكنْ يُمَنُّ عليه، ويُفادى به إذا أيْسَرَ. وهذا يدُلُّك على أنَّهم تَكلَّموا في النَّسخِ بالظَّنِّ والاجتهادِ. فمِن ثَمَّ قال قوْمٌ: هو مَنسوخٌ، وقال قوْمٌ: بلْ هو ناسخٌ). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٨٣٦).

فأنتُم مُخَيَّرونَ -أيُّها المُسلِمونَ- فيهمْ بعدَ انقِضاءِ الحَربِ[١].

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾.

أي: استَمِرُّوا على فِعلِ هذا الذي أُمِرْتُم به مِن قَتلِ الكُفَّارِ المُحارِبينَ وأسْرِهم إلى أنْ تَنْتهيَ الحربُ، ويضَعَ المحاربونَ السِّلاحَ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٨-٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٧-٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥١).

قال الرازيُّ: (وفي الأوزارِ وَجهانِ: أحدُهما: السِّلاحُ، والثَّاني: الآثامُ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٩).

ممَّن اختارَ في الجُملةِ أنَّ المرادَ ما لا تَقومُ الحربُ إلَّا به كالسِّلاحِ وغيرِه: ابنُ قُتيبةَ، والواحديُّ، والبغَويُّ، والزمخشريُّ، وابنُ الجوْزي، والرَّسعنيُّ، والبيضاويُّ، والعُليميُّ، والشوكانيُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥١).

قال الشِّنقيطيُّ: (وأظهَرُ الأقوالِ في معنى وَضعِ الحَربِ أوزارَها: أنَّه وضْعُ السِّلاحِ، والعَرَبُ تُسمِّي السِّلاحَ وَزَرًا، وتُطلِقُ العَربُ الأوزارَ على آلاتِ الحَربِ وما يُساعِدُ فيها كالخَيلِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٥١).

وممَّن اختار أن المعنى: حتَّى يُؤمنوا بالله وبرسولِه، ويُسْلِموا، ويَتوبوا إلى الله مِن شركِهم: ابنُ جرير، والزجَّاجُ، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٨٥).

قال ابنُ جُزَي: (واختُلِف في الغايَةِ المُرادَةِ هنا؛ فقيل: حتَّى يُسلِموا جميعًا، فحينئذٍ تضَعُ =

عن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا تَزالُ طائِفةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلونَ على الحَقِّ ظاهِرينَ على مَن ناوَأَهُم[1]، حتى يُقاتِلَ آخِرُهم المسيحَ الدَّجَّالَ))[2].

وعن سَلَمةَ بنِ نُفَيلٍ الكِنديِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كُنتُ جالِسًا عند رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أذالَ النَّاسُ الخيلَ[3] ووَضَعوا

= الحربُ أوزارَها. وقيل: حتَّى تَقتُلوهم وتَغلِبوهم. وقيل: حتَّى يَنزِلَ عِيسى ابنُ مَريمَ. قال ابنُ عَطيةَ: ظاهِرُ اللَّفظِ أنَّها استِعارةٌ يُرادُ بها الْتِزامُ الأمرِ أبدًا، كما تقولُ: أنا فاعِلٌ ذلك إلى يَومِ القِيامةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨١).

وقال السَّمعانيُّ: (وفي الجُملةِ لا تضَعُ الحربُ أوزارَها ما بَقِيَ في العالَمِ كافِرٌ حَربيٌّ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٩).

وقال البيضاويُّ: (أي: تَنقضي الحربُ ولم يَبْقَ إلَّا مُسلمٌ أو مُسالِمٌ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠).

وقال البقاعيُّ: (﴿تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ وهي أثقالُها، أي: الآلاتُ التي تُثقِلُ القائِمينَ بها؛ من النَّفَقاتِ والسِّلاحِ والكُراعِ ونحوِه، وذلك لا يكونُ وفي الأرضِ كافِرٌ، وذلك على زمَنِ عِيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ تُخرِجُ الأرضُ برَكاتِها، وتكونُ المِلَّةُ واحِدةً، وهي الإسلامُ للهِ رَبِّ العالَمينَ، فيتَّخِذُ النَّاسُ حَديدَ السِّلاحِ سِكَكًا ومَناجِلَ وفُؤوسًا ينتَفِعونَ بها في مَعاشِهم). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٠٤-٢٠٥).

وقال السعديُّ: (﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾، أي: حتَّى لا يَبقى حَربٌ، وتَبقَون في المُسالَمةِ والمُهادَنةِ؛ فإنَّ لكلِّ مَقامٍ مَقالًا، ولكلِّ حالٍ حُكمًا؛ فالحالُ المُتقدِّمةُ إنَّما هي إذا كان قِتالٌ وحرْبٌ؛ فإذا كان في بعضِ الأوقاتِ لا حَرْبَ فيه لسَببٍ مِن الأسبابِ؛ فلا قَتْلَ ولا أسْرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(١) ناوَأَهم: أي: عاداهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٨٤)، وأحمد (١٩٩٢٠).

صحَّح إسنادَه الطبريُّ في ((مسند عمر)) (٢/ ٨٢٤)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٢٤٨٤)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٤٨٤).

(٣) أذالَ النَّاسُ الخَيلَ: أي: أهانوها واستخَفُّوا بها بقِلَّةِ الرَّغبةِ فيها. وقيل: أراد أنَّهم وَضَعوا =

السِّلاحَ، وقالوا: لا جِهادَ؛ قدْ وضَعَت الحَربُ أوزارَها[١]! فأقبَلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بوَجهِه، وقال: كَذَبوا! الآنَ الآنَ جاء القِتالُ، ولا يَزالُ مِن أُمَّتي أُمَّةٌ يُقاتِلونَ على الحَقِّ، ويُزِيغُ اللهُ لهم قُلوبَ أقوامٍ ويَرزُقُهم منهم حتَّى تَقومَ السَّاعةُ، وحتَّى يَأتيَ وَعدُ اللهِ، والخَيلُ مَعقودٌ في نَواصِيها الخَيرُ[٢] إلى يومِ القِيامةِ، وهو يُوحَى إليَّ أنِّي مَقبوضٌ غيرُ مُلَبَّثٍ[٣]، وأنتم تَتَّبِعوني أفْنادًا[٤] يَضرِبُ بَعضُكم رِقابَ بَعضٍ، وعُقرُ[٥] دارِ المؤمِنينَ الشَّامُ))[٦].

﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾.

أي: أمَرَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- بما سَبَق ذِكرُه مِن جِهادِ الكُفَّارِ المحارِبينَ، والحالُ أنَّه لو شاء اللهُ سُبحانَه لانتقم من الكُفَّارِ بعقوبةٍ مِنه لهم عاجلةٍ، دونَ أنْ يُكَلِّفَكم بقِتالِهم[٧].

= أداةَ الحَربِ عنها وأرسَلوها. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢١٤).

(١) وضَعَت الحَربُ أوزارَها: أي: انقضَى أمرُها، وخَفَّت أثقالُها فلمْ يَبْقَ قِتالٌ. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢١٤).

(٢) مَعقودٌ في نَواصيها الخيرُ: أي: مُلازِمٌ لها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٥٨).

(٣) مُلَبَّثٍ: اسمُ مَفعولٍ مِن ألْبَثَه غَيرُه أو لَبَّثَه بالتَّشديدِ، أي: غيرُ مُؤخَّرٍ في الدُّنيا، بل أنتَقِلُ للدَّارِ الآخِرةِ. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢١٥).

(٤) أفنادًا: أي: جَماعاتٍ مُتفَرِّقينَ. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢١٥).

(٥) عُقرُ دارِ المُؤمِنينَ: أي: أصلُها ومَوضِعُها. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢١٥).

(٦) أخرجه النَّسائيُّ (٣٥٦١) واللفظ له، وأحمد (١٦٩٦٥).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٥٦١)، وحسَّنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٤٥١)، وحسَّن إسنادَه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦٩٦٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٣).

قال ابنُ جَرير: (قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾، يقولُ تعالَى ذِكرُه: هذا الذي أمرْتُكم =

﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾.

أي: ولكِنْ شَرَعَ اللهُ الجِهادَ لِيَختبِرَكم -أيُّها المُؤمِنونَ- بالكافِرينَ؛ فيَتبيَّنَ المجاهِدونَ مِنكم والصابِرونَ، ويُثيبَهم، ويَختارَ منكم الشُّهَداءَ، ويَختَبِرَ الكافِرينَ بكم؛ فيُعاقِبَ بأيدِيكم مَن يَشاءُ مِنهم، ويُخْزيهم، ويُوفِّقَ للتَّوبةِ منهم مَن يَشاءُ، ويَتبيَّنَ أهلُ الصِّدقِ والنِّفاقِ[1].

كما قال تعالَى: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۞ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠ - ١٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ۞ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

مُناسبتُها لِما قبْلَها:

لَمَّا أمَرَهم بقِتالِ المُشرِكين؛ أعقَبَ الأمْرَ بوَعْدِ الجَزاءِ على فِعْلِه[2].

= به -أيُّها المؤمِنونَ- مِن قَتلِ المُشرِكينَ إذا لَقِيتُموهم في حَربٍ، وشَدِّهم وَثاقًا بعْدَ قَهرِهم، وأسْرِهم، والمَنِّ والفِداءِ ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ -هو الحَقُّ الَّذي ألزَمَكم ربُّكم، ولو يَشاءُ رَبُّكم ويُريدُ لانتصَرَ مِن هؤلاء المُشرِكينَ الَّذين بَيَّنَ هذا الحُكمَ فيهم بعُقوبةٍ منه لهم عاجِلةٍ، وكَفاكم ذلك كُلَّه). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٣).

وأيضًا لَمَّا كانَ مِن شأْنِ القِتالِ أنْ يُقتَلَ كثيرٌ مِن المؤمنينَ، قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾[1].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿قُتِلُواْ﴾ على مَعنى: والَّذين جاهَدوا الكُفَّارَ فاستُشْهِدوا في سَبيلِ اللهِ؛ لنْ يُحبِطَ اللهُ أعمالَهم[2].

٢- قِراءةُ ﴿قَاتَلُوا﴾ على مَعنى: والَّذين جاهَدوا الكُفَّارَ سواءٌ قُتِلوا أوْ لم يُقتَلوا؛ لن يُحبِطَ اللهُ أعمالَهم[3].

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

أي: والَّذين جاهَدوا الكُفَّارَ فقُتِلوا واستُشْهِدوا في سَبيلِ اللهِ؛ لنْ يُحبِطَ اللهُ أعمالَهم، بلْ يتقَبَّلُها منهم، ويُثيبُهم عليها[4].

﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥﴾.

أي: سيَهديهم اللهُ ويُصلِحُ شَأنَهم وحالَهم[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٩).

(٢) قرَأ بها أبو عَمرٍو، ويعقوبُ، وحَفصٌ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦٦).

(٣) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦٦-٦٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩١)، ((تفسير ابن =

= عطية)) (٥/ ١١١)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٨٤-٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٩-٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: سيَهْدِيهم إلى جَنَّتِه: مكِّيٌّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٩).

وقال ابن عَطية: (﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ أي: إلى طَريقِ الجنَّة). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤١)

وقال السعدي: (﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ إلى سُلوكِ الطَّريقِ الموصلةِ إلى الجنَّة). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

وقال القُرْطبي: (قال أبو المَعَالي: وقَدْ تَرِدُ الهِدايةُ والمُرادُ بها إرْشادُ المُؤمِنينَ إلى مَسالِكِ الجِنَانِ والطُّرقِ المُفْضِيةِ إليها، ومِن ذلك قوْلُه تعالَى في صِفةِ المُجاهِدينَ: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ ﴾، ومنْه قوْلُه تعالَى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٣]، مَعناه: فاسْلُكوا بهمْ إليها). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٠).

وقيل: المعنى: أنَّه تعالَى يَهديهم إلى التَّوحيدِ في قُبورِهم، يَعني عِند سُؤالِ مُنكَرٍ ونَكيرٍ. وممَّن ذهَب إليه: مقاتلُ بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٠).

وقال السَّمرقندي: (يُجنِّبُهم مِن أهوالِ الآخِرةِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: سيَهْديهم أيَّامَ حَياتِهم في الدُّنيا إلى أرشَدِ الأمورِ، وفي الآخِرةِ إلى الدَّرجاتِ: البَغويُّ، والخازنُ، وابنُ عادل، والعُليميُّ، والشِّربينيُّ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٤٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨).

وقال جَلالُ الدِّين المحلِّيُّ: (﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ في الدُّنيا والآخِرةِ إلى ما يَنفَعُهم، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ حالَهم فيهما، وما في الدُّنيا لمَن لم يُقتَلْ، وأُدرِجوا في ﴿قُتِلُوا۟ ﴾ تَغليبًا). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٣).

وقال مكِّيٌّ: (يجوزُ أنْ يكون المعنى: سيَهْدي مَن بَقِي منهم حيًّا). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١١/ ٦٨٨٧).

وذهَب ابنُ القيِّم إلى احتِمالِ أنْ يكونَ قَولُه تعالى: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ إخبارًا مِن اللهِ تعالَى عمَّا يَفعَلُه بالمجاهِدينَ قبْل أن يُقتَلوا، وأتَى به بصِيغةِ المُستقبَلِ إعلامًا منه بأنَّه يُجدِّدُ لهم كلَّ وَقتٍ نَوعًا مِن أنواعِ الهدايةِ وإصلاحِ البالِ شَيئًا بعْد شَيءٍ، فجعَلَ لهم جَزاءً في الدُّنيا بالهدايةِ =

كما قال تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

وقال سُبحانَه وتعالَى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال تعالَى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ

= على الجِهادِ، وجَزاءً في الآخِرةِ بدُخولِ الجنَّةِ، فيَرُدُّ السَّامِعُ كُلَّ جُملةٍ إلى وَقتِها؛ لظُهورِ المعنى، وعدَمِ الْتباسِه. يُنظر: ((شفاء العليل)) (ص: ١٦١).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ معنى ﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ أي: حالَهم، وأمْرَهم، وشأْنَهم: ابنُ أبي زَمنين، والسَّمعانيُّ، وابنُ كثير، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨).

وقيل: معناه: يُصلِحُ حالَهم في الآخِرةِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ أي: يُرْضي خُصماءَهم، ويَقبَلُ أعمالَهم: الثَّعلبيُّ، والبغَويُّ، والنَّسفيُّ، وابنُ عادل، والعُليميُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٤٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٢).

وقيل: المعنى: يُصلِحُ شأْنَهم في الجنَّةِ بالنَّعيمِ المقيم، وغُفرانِ الذُّنوبِ، ويُدخِلُهم إيَّاها. قاله مكِّيٌّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٨٧).

وقال ابنُ جريرٍ بناءً على قِراءةِ ﴿قَاتَلُوا﴾: (يقولُ تعالى ذِكرُه: سيُوفِّقُ اللهُ تعالَى ذِكرُه للعمَلِ بما يَرْضى ويُحِبُّ، هؤلاء الذين قاتَلوا في سَبيلِه، ﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ ويُصلِحُ أمْرَهم وحالَهم في الدُّنيا والآخِرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩١). ويُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٨٧).

وقال الزجَّاج بِناءً على قِراءةِ ﴿قَاتَلُوا﴾ أيضًا: (وقولُه: ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ يُصلِحُ لهم أمْرَ مَعاشِهم في الدُّنيا مع ما يُجازيهم به في الآخِرةِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٧).

يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ثَوابُ مَن قُتِلَ في سَبيلِ اللهِ ثَوابًا عَظيمًا، ونَوالًا جَسيمًا؛ أَتْبَعَه ثَوابًا أعظَمَ منه، فقال تعالَى[(١)]:

﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾.

أي: ويُدخِلُهم اللهُ الجنَّةَ، ويُبَيِّنُ يومَ القِيامةِ لكُلِّ واحدٍ مِن أهلِها طَريقَه إلى مَوضِعِه منها، فيَهتدي إليه بِلا استِدلالٍ، ويَعرِفُ مَنزلَه بلا إشكالٍ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيِّم (ص: ١٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٠).

وممَّن ذهَب إلى المعنَى المذكورِ في الجُملةِ: مقاتلُ بن سُليمان، وابنُ جَرير، والواحديُّ، والزمخشريُّ، والقرطبيُّ، ونسَبه هو وابنُ القَيِّم إلى جُمهورِ المفَسِّرين. يُنظر: المصادر السابقة.

ممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس في رِوايةٍ عنه، وقتادةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧).

قال الواحديُّ: (قال مجاهدٌ: يَهتدي أهلُها إلى بُيوتِهم ومَساكِنِهم لا يُخطِئون، كأنَّهم ساكِنوها منذ خُلِقوا لا يَستدِلُّون عليها أحدًا. هذا قولُ عامَّةِ المُفسِّرين وأهلِ المعاني). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٢٣).

وقيل: معنى: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ طيَّبَها لهم. نسَبَه ابنُ قُتيبةَ إلى أصحابِ اللُّغةِ، وممَّن اختاره منهم: الراغبُ الأصفهانيُّ، وابنُ الجوْزي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥).

وممَّن قال بهذا القول مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧).

وقيل: المعنى: بيَّنها لهم في كَثيرٍ مِن آياتِه تَعريفًا يُشوِّقُ كُلَّ مُؤمِنٍ أنْ يَسعى لها. =

كما قال تعالَى: ﴿... فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، عن رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إذا خَلَص المؤمِنونَ مِن النَّارِ حُبِسوا بقَنطرةٍ[١] بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيَتقاصُّونَ[٢] مَظالمَ كانتْ بيْنَهم في الدُّنيا، حتَّى إذا نُقُّوا وهُذِّبوا أُذِنَ لهم بدُخولِ الجنَّةِ، فوالَّذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لأَحَدُهم بمَسكَنِه في الجنَّةِ أدَلُّ بمَنزِله كان في الدُّنيا!))[٣].

= وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ في الجُملة: القاسميُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٤).

وقيل: المرادُ: طَيَّبَها بأنواعِ الملاذِّ. أو: شرَّفها لهم ورَفَعها وأعْلاها. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١١-١١٢).

وممَّن ذهَب إلى العُمومِ: البقاعي، فقال: (﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: بتَعريفِ الأعمالِ المُوصلةِ إليها، والتَّوفيقِ لهم إليها في الدُّنيا، وأيضًا بالتَّبصيرِ بالمنازِلِ في الآخرةِ، حتى إنَّ أحَدَهم يَصيرُ أعرَفَ بمَنزِلِه فيها منه بمَنزِلِه في الدُّنيا؛ وطِيبِ رائحتِها، وجَعْلِ مَوضِعِها عاليًا، وجُدرانِها عاليةً، وهي ذاتُ أعرافٍ وشُرُفٍ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٠٧-٢٠٨).

وقال السعدي: (﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: عرَّفَها أوَّلًا بأنْ شَوَّقَهم إليها، ونعَتَها لهم، وذكَرَ لهم الأعمالَ المُوصلةَ إليها، التي من جُملتِها القَتلُ في سَبيلِه، ووفَّقَهم للقيامِ بما أمَرَهم به ورغَّبَهم فيه، ثمَّ إذا دخَلوا الجنَّةَ عَرَّفهم منازِلَهم وما احتَوت عليه مِن النَّعيمِ المقيمِ، والعَيشِ السَّليمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(١) القَنطرةُ: الجسرُ، وهي عبارةٌ عن الصِّراطِ الممدودِ بيْنَ الجنَّةِ والنارِ. قيل: إنَّها طرَفُ الصِّراطِ ممَّا يَلي الجنَّةَ، ويَحتمِلُ أن تكونَ مِن غيرِه بينَ الصِّراطِ والجنَّةِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٥٢٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٩٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٦٢).

(٢) فيَتقاصُّون: بتَشديدِ الصَّادِ المُهْمَلةِ: يَتفاعَلون؛ مِن القِصاصِ، والمرادُ به تتبُّعُ ما بيْنَهم مِن المظالمِ، وإسقاطُ بعضِها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٩٦).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٤٤٠).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- النَّفْسُ كالعَدوِّ، إنْ عرَفَتْ صَولةَ الجِدِّ منكَ اسْتَأسَرَتْ لك، وإنْ أنِسَت عنك المهانةَ أَسَرَتْك، امنَعْها مَلذوذَ مُباحاتِها؛ ليَقَعَ الصُّلْحُ على تَرْكِ الحَرامِ، فإذا ضَجَّت لطَلَبِ المُباح ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[١].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ لِيَقومَ سُوقُ الجِهادِ، ويَتبيَّنَ بذلك أحوالُ العِبادِ؛ الصَّادِقِ مِنَ الكاذِبِ، ولِيُؤمِنَ مَن آمَن إيمانًا صَحيحًا عن بَصيرةٍ، لا إيمانًا مَبْنيًّا على مُتابَعةِ أهلِ الغَلَبةِ؛ فإنَّه إيمانٌ ضَعيفٌ جِدًّا لا يَكادُ يَستَمِرُّ لصاحبِه عندَ المِحَنِ والبَلايا[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ على قِراءةِ ﴿قَاتَلُوا﴾ فيه بُشرى عَظيمةٌ لِمَن جاهَدَ ساعةً ما، بأنَّ اللهَ يُميتُه على الإسلامِ المُستلزِمِ لئَلَّا يَضيعَ له عَمَلٌ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أنَّ مِن صِيَغِ الأمْرِ المصدرَ النَّائِبَ عن فِعلِ الأمْرِ[٤].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ أنَّ رَبْطَ الأسيرِ إنْ كان مِن الكُفَّارِ هو مِن مصالحِ الدِّينِ، وقدْ أمَرَ اللهُ تعالَى به[٥].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) (٣/ ١٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٨٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١١/ ٢٤).

(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٥٣٨).

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ دَليلٌ على أنَّ المُفاداةَ والمَنَّ لا يجوزُ قبْلَ النِّكايةِ والإثخانِ[(١)].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ فيه بيانُ كَيفيَّةِ الجِهادِ: فعندَ اللِّقاءِ بضَربِ الرِّقابِ، وعِندَ الإثخانِ وإزالةِ الامتِناعِ بشَدِّ الوَثاقِ بالأَسْرِ، ثمَّ يَتخَيَّرُ فيهم الإمامُ مَنًّا، أو فِداءً بمالٍ أو أَسرى مِنَ المُسلِمينَ[(٢)].

٥- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ فيه سُؤالٌ: (إمَّا) (وإمَّا) للحَصرِ، وحالُهم بعْدَ الأَسْرِ غيرُ مُنحَصِرٍ في الأمْرَينِ، بلْ يجوزُ القَتلُ والاسترِقاقُ، والمَنُّ والفِداءُ؟

الجوابُ: هذا إرشادٌ؛ فذَكَرَ الأمرَ العامَّ الجائِزَ في سائِرِ الأجناسِ[(٣)]، ولَمَّا كان الإمامُ مُخيَّرًا في أَسْراهم بيْن أربعةِ أشياءَ: القَتلِ، والإطلاقِ مجَّانًا، والإطلاقِ بالفِديةِ -وهي شَيءٌ يأخُذُه عِوَضًا عن رِقابِهم-، والاسترِقاقِ؛ عبَّرَ عن ذلك بقَولِه مُفَصِّلًا: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا﴾، أي: أنْ يُنعِموا عليهم إنعامًا ﴿بَعۡدُ﴾، أي: في جميعِ أزمانِ ما بعْدَ الأَسْرِ باستِبقائِهم، ثمَّ بعْدَ الإنعامِ باستِبقائِهم إمَّا أنْ يكونَ ذلك مع الاسترِقاقِ أو مع الإطلاقِ، ثمَّ الإطلاقُ إمَّا مجَّانًا ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ بمالٍ أو بأَسرى مِنَ المُسلِمين ونحوِ ذلك؛ فأفْهَمَ التَّعبيرُ بالمَنِّ -الذي مَعناه الإنعامُ- أنَّ الإبقاءَ غيرُ واجبٍ، بل جائِزٌ، ودخَلَ في الإبقاءِ ثَلاثُ صُوَرٍ: الاسترقاقُ، والإطلاقُ مجَّانًا، وبالفِداءِ، فصَرَّح سُبحانَه وتعالَى بالفِداءِ -الَّذي معناه الأخْذُ- على وجْهِ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٨-٣٩).

أنَّه قَسيمٌ للمَنِّ؛ فعُلِمَ أنَّ المرادَ به الإبقاءُ مع عدَمِ الأخْذِ، فدخَلَ فيه الإطلاقُ مجَّانًا، وهو واضِحٌ، والاسترِقاقُ؛ لأنَّه إنعامٌ بالنِّسبةِ إلى القَتلِ، وأفْهَمَ التَّعبيرُ بالمَنِّ -الذي معناه الإنعامُ مِن المنَّانِ الذي هو اسمُه تعالَى، ومعناه المُعطي ابتداءً- جَوازَ القَتلِ؛ لأنَّ الإنعامَ مُخَيَّرٌ فيه لا واجِبٌ؛ لأنَّه لو كان واجبًا كان حقًّا لا نِعمةً؛ فقدْ دخَلَت الصُّوَرُ الأربَعُ في التَّعبيرِ بهاتينِ الكَلِمَتَينِ. وكُلُّ هذا على ما يَراه الإمامُ أو نائِبُه مَصلحةً[(١)].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ دَليلٌ على جَوازِ المُفاداةِ ورَدِّ مَن قدْ أُخرِجَ إلى دارِ الإسلامِ مِن الكُفَّارِ إلى دارِ الكُفرِ، والمَنِّ عليه قبْلَ الإسلامِ؛ لأنَّه إذا أسلَمَ استغنَى عن المَنِّ عليه، وحَرُمَت المفاداةُ به[(٢)].

٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾، فيه سُؤالٌ: لا يُبتَلَى الشَّيءُ النَّفيسُ بما يُخافُ منه هَلاكُه؛ فإنَّ السَّيفَ المُهنَّدَ القاطِعَ الكبيرَ القِيمَةِ، لا يُجرَّبُ بالشَّيءِ الصُّلبِ الَّذي يُخافُ عليه منه الانكِسارُ، ولكِنَّ الآدَمِيَّ مُكرَّمٌ، كرَّمَه اللهُ وشرَّفَه وعظَّمَه، فلماذا ابتَلاهُ بالقِتالِ، وهو يُفضِي إلى القَتلِ والهَلاكِ إفضاءً غيرَ نادِرٍ، فكيف يَحسُنُ هذا الابتِلاءُ؟

الجَوابُ: القتلُ ليْس بإهلاكٍ بالنِّسبةِ إلى المُؤمِنِ؛ فإنَّه يُورِّثُ الحياةَ الأبدِيَّةَ، فإذا ابتَلاهُ بالقِتالِ فهو على تَقديرِ أنْ يُقتَلَ مُكرَّمٌ، وعلى تَقديرِ ألَّا يُقتَلَ مُكرَّمٌ؛ هذا إنْ قاتَلَ، وإنْ لم يُقاتِلْ فالموتُ لا بدَّ منه، وقدْ فوَّتَ على نفْسِهِ الأجرَ الكبيرَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٣-٢٠٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤١).

بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ * سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ * وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ لِتَفْريعِ هذا الكَلامِ على ما قبْلَه؛ مِن إثارةِ نُفوسِ المُسلِمين بتَشنيعِ حالِ المُشرِكين وظُهورِ خَيبةِ أعْمالِهم، وتَنويهِ حالِ المُسلِمين وتَوفيقِ آرائِهم، والمَقصودُ: تَهوينُ شأْنِهم في قُلوبِ المُسلِمين، وإغْراؤُهم بقَطْعِ دابِرِهم؛ لِيَكونَ الدِّينُ كلُّه للهِ؛ لأنَّ ذلك أعظَمُ مِن مَنافِعِ فِداءِ أسْراهم بالمالِ؛ لِيَعبُدَ المُسلِمون ربَّهم آمنِينَ. وذلك ناظِرٌ إلى آيةِ سُورةِ (الأنفالِ) وإلى ما يُفِيدُه التَّعليلُ مِن قَولِه: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾[1].

- وضَرْبُ الرِّقابِ كِنايةٌ عن القتْلِ؛ لا أنَّ الواجِبَ أنْ تُضرَبَ الرِّقابَ خاصَّةً دُونَ غَيرِها مِن الأعضاءِ؛ وذلك أنَّهم كانوا يقولونَ: ضَرَبَ الأميرُ رَقَبةَ فُلانٍ، وضرَبَ عُنقَه، وضرَب ما فيه عَيْناه: إذا قتَلَه؛ وذلك أنَّ قتْلَ الإنسانِ أكثَرُ ما يكونُ بضَرْبِ رَقَبتِه، فوقَعَ (ضَرْبَ الرِّقابِ) كِنايةً عن القتْلِ، وإنْ ضُرِبَ بغَيرِ رَقَبتِه. على أنَّ في هذه العِبارةِ مِن الغِلْظةِ والشِّدَّةِ ما ليْس في لَفْظِ القتْلِ؛ لِمَا فيه مِن تَصويرِ القتْلِ بأشنَعِ صُورةٍ، وهو حَزُّ العُنُقِ، وإطارةُ العُضْوِ الَّذي هو رأْسُ البَدَنِ، وعُلْوُه، وأوجَهُ أعْضائِه، ولقدْ زاد في هذه الغِلْظةِ في قَولِه تعالَى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾[2] [الأنفال: ١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٨، ٧٩).

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ الوَثاقُ: الشَّيءُ الذي يُوثَقُ به. وهو هنا كِنايةٌ عن الأسْرِ؛ لأنَّ الأسْرَ يَستلزِمُ الوضْعَ في القَيدِ يُشَدُّ به الأسيرُ، والمعنى: فاقْتُلوهم، فإنْ أثْخَنْتُم منهم فأْسِروا منهم[(١)].

- وتَعريفُ الرِّقابِ والوَثاقِ يَجوزُ أنْ يكونَ لِلعهْدِ الذِّهنيِّ، ويَجوزُ أنْ يكونَ عِوَضًا عن المُضافِ إليه، أي: فضَرْبَ رِقابِهم، وشُدُّوا وَثاقَهم[(٢)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هاهنا: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ فعُبِّرَ بالمصدرِ، وقال في (الأنفالِ): ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢] فعُبِّر بالفعلِ، وفائدةُ ذلك: أنَّ المقصودَ أوَّلًا في بعضِ السُّورِ قدْ يكونُ صُدورَ الفِعلِ مِن فاعلٍ ويَتبَعُه المصدَرُ (الحدثُ) ضِمنًا؛ إذ لا يُمكِنُ أنْ يَفعَلَ فاعلٌ إلَّا ويقَعُ منه المصدرُ (الحدَثُ) في الوجودِ، وقدْ يكونُ المقصودُ أوَّلًا المصدرَ (الحدَثَ)، ولكنَّه لا يُوجَدُ إلَّا مِن فاعلٍ، فيُطلَبُ منه أنْ يَفعَلَ، إذا عُرِف هذا، فما في (الأنفالِ) حِكايةٌ عن الحربِ الكائنةِ، وهمْ كانوا فيها، والملائكةُ أُنزِلوا لنُصرةِ مَن حضَر في صَفِّ القتالِ؛ فصُدورُ الفعلِ منه مَطلوبٌ، وهاهنا الأمرُ واردٌ في غيْرِ وقْتِ القتالِ؛ بدَليلِ قولِه تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾، والمقصودُ بيانُ كونِ المصدرِ (الحدثِ) مَطلوبًا؛ لتَقدُّمِ المأمورِ على الفعلِ، قال: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾. وفيما ذُكِر تَبيِّنُ فائدةٌ أُخرى؛ وهي أنَّ اللهَ تعالَى قال هناك: ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]؛ وذلك لأنَّ الوقتَ وقْتُ القتالِ، فأرشَدَهم إلى المقْتلِ، وغيرِه إنْ لم يُصِيبوا المقْتَلَ، وهاهنا ليْس وقْتَ القتالِ، فبيَّن أنَّ المقصودَ القتلُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وغرَضُ المسلِمِ ذلك[١].

- وقُدِّمَ المَنُّ على الفِداءِ تَرْجيحًا له؛ لأنَّه أعوَنُ على امتِلاكِ ضَميرِ المَمْنونِ عليه[٢]. أو: لأنَّه مِن مكارِمِ الأخلاقِ؛ ولهذا كانت العربُ تَفْتَخِرُ به[٣]. وقيل: إنَّ في ذلك إشارةً إلى تَرجيحِ حُرمةِ النَّفسِ على طَلَبِ المالِ[٤].

- والغايةُ المُستفادَةُ مِن (حتَّى) في قَولِه: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ قيل: لِلتَّعليلِ لا لِلتَّقييدِ، أي: لِأجْلِ أنْ تَضَعَ الحرْبُ أوزارَها، أي: لِيَكُفَّ المُشرِكون عنها، فتَأمَنوا مِن الحرْبِ عليكم، وليستْ غايةً لِحُكْمِ القِتالِ، والمعنى: يَستمِرُّ هذا الحُكمُ بهذا لِيَهِنَ العَدُوُّ، فيَتْرُكوا حَرْبَكم؛ فلا مَفهومَ لِهذه الغايةِ؛ فالتَّعليلُ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾، وما بيْنَهما اعْتِراضٌ، والتَّقديرُ: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾، أي: لا تَتْرُكوا القتْلَ لِأجْلِ أنْ تَضَعَ الحرْبُ أوزارَها؛ فيَكونُ وارِدًا مَورِدَ التَّعليمِ والمَوعظةِ، أي: فلا تَشتَغِلوا عِندَ اللِّقاءِ إلَّا بقَتْلِ الذين كَفَروا؛ لِتَضَعَ الحرْبُ أوزارَها، فإذا غَلَبْتُموهم فاشْتَغِلوا بالإبقاءِ على مَن تَغلِبونَه بالأسْرِ؛ لِيَكونَ المَنُّ بعْدَ ذلك أو الفِداءُ[٥]. وذلك بناءً على تَفسيرِ الإثخانِ بالغَلَبةِ.

- والأوزارُ: الأثقالُ، ووَضْعُ الأوزارِ تَمثيلٌ لِانتهاءِ العَمَلِ؛ فشُبِّهَت حالةُ انتهاءِ القِتالِ بحالةِ وَضْعِ الحَمَّالِ أو المُسافِرِ أثْقالَه، وهذا مِن مُبتَكراتِ القُرآنِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٢).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ لِتَمْييزِ المُشارِ إليه أكمَلَ تَمْييزٍ؛ تَنْويهًا به. ويُفِيدُ اسمُ الإشارةِ تَقريرَ الحُكْمِ، ورُسوخَه في النُّفوسِ[(١)].

- وتَعديةُ (انتَصَرَ) بحَرْفِ (مِن) -مع أنَّ حقَّه أنْ يُعدَّى بحَرْفِ (على)-؛ لِتَضْمينِه معنى: (انتقَمَ)[(٢)].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ هذا مِن مَظاهِرِ بَلْوى بَعضِهم ببَعضٍ، وهو مُقابِلُ ما في قَولِه: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾؛ فإنَّ ذلك مِن مَظاهِرِ إهانةِ الَّذين كَفَروا؛ فذَكَرَ هنا ما هو مِن رِفعةِ الذين قاتَلوا في سَبيلِ اللهِ مِن المُؤمِنين بعِنايةِ اللهِ بهم[(٣)].

- وجُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ إلخ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ الآيةَ؛ فإنَّه لَمَّا أمَرَهم بقِتالِ المشركينَ، أعْقَبَ الأمْرَ بوَعدِ الجَزاءِ على فِعلِه[(٤)].

- وذِكرُ (الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) إظْهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ إذ كان مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: فلنْ يُضِلَّ اللهُ أعْمالَكم، وهكذا بأُسلوبِ الخِطابِ؛ فعُدِلَ عن مُقْتَضى الظَّاهِرِ مِن الإضمارِ إلى الإظهارِ؛ لِيَكونَ في تَقديمِ المُسنَدِ إليه على الخَبَرِ الفِعليِّ إفادةُ تَقوِّي الخَبرِ، ولِيَكونَ ذَريعةً إلى الإتيانِ بالمَوصولِ؛ للتَّنويهِ بصِلَتِه، ولِلْإيماءِ إلى وَجْهِ بِناءِ الخَبرِ على الصِّلةِ بأنَّ تلك الصِّلةَ هي عِلَّةُ ما وَرَدَ بعْدَها مِن الخبَرِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٦، ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجُملةُ ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ خبرٌ عن المَوصولِ، وقُرِنَتْ بالفاءِ لإفادةِ السَّببيَّةِ في تَرتُّبِ ما بعْدَ الفاءِ على صِلةِ المَوصولِ؛ لأنَّ المَوصولَ كثيرًا ما يُشْرَبُ مَعنى الشَّرْطِ، فيُقرَنُ خَبَرُه بالفاءِ، وبذلك تكونُ صِيغةُ الماضي في فِعلِ ﴿قُتِلُواْ﴾ مُنْصرِفةً إلى الاستِقبالِ؛ لأنَّ ذلك مُقْتضَى الشَّرْطِ(١).

- وقال في حَقِّ الكافِرِ: ﴿أَضَلَّ﴾ [محمد: ١]، بصِيغةِ الماضي، ولم يَقُلْ: (يُضِلُّ)؛ إشارَةً إلى أنَّ عَمَلَه حيث وُجِدَ عَدَمٌ، وكأنَّه لم يُوجَدْ مِن أصلِه، وقال في حقِّ المؤمِنِ: ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾، ولم يَقُلْ: (ما أضلَّ)؛ إشارَةً إلى أنَّ عَمَلَه كلَّما ثبَتَ عليه أُثبِتَ له، وبيْنَهما غايةُ الخِلافِ، كما أنَّ بيْنَ الدَّاعي والصَّادِّ غايةَ التَّبايُنِ والتَّضادِّ(٢).

- وجُملةُ ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ وما عُطِفَ عليها بَيانٌ لِجُملةِ ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾(٣).

- في قولِه تعالَى: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ مُناسبةٌ حسنةٌ؛ فقد قال تعالَى هنا (يُصْلِحُ)، وفي أوَّلِ السُّورةِ قال: (أَصْلَحَ بَالَهُمْ) [محمد: ٢]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ الماضيَ والمستقبلَ راجِعٌ إلى أنَّ هناكَ وَعَدَهم ما وَعَدَهم بسَببِ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، وذلك كان واقعًا منهم، فأخْبَر عن الجزاءِ بصِيغةٍ تدُلُّ على الوقوعِ، وهاهنا وَعَدَهم بسَببِ القتالِ والقتلِ، فكان في اللَّفظِ ما يَدُلُّ على الاستقبالِ؛ لأنَّ قولَه تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ [محمد: ٤] يدُلُّ على الاستقبالِ، فقال: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤١).

الآيات (٧-١١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتَعۡسٗا﴾: أي: عِثارًا وسُقوطًا وهَلاكًا، يُقالُ للعاثِرِ: تَعْسًا: إذا لم يُريدوا قيامَه، وأصلُ (تعس): يدُلُّ على الكَبِّ[١].

﴿فَأَحۡبَطَ﴾: أي: فأبطَلَ وأذهَبَ الأجرَ، وأصلُ (حبط): يدُلُّ على بُطْلانٍ[٢].

﴿عَٰقِبَةُ﴾: أي: خاتمةُ. وعاقبةُ كلِّ شَيءٍ: آخرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقِبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شَيءٍ، وإتيانُه بعدَ غَيرِه[٣].

﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾: أي: أهلَكَهم. وأصلُ التَّدميرِ: إدخالُ الهلاكِ على المُهلَكِ، وأصلُ (دمر): يدُلُّ على الدُّخولِ في البَيتِ وغيرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥) و(٢١/ ٢٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧) و(٢٠/ ٣٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، =

﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي: وَلِيُّهم وناصِرُهم، والمَوْلَى: الوَلِيُّ القَريبُ، والحَليفُ، والنَّاصِرُ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على القُرْبِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبشِّرُ الله تعالى المؤمنينَ بنَصرِه إذا نصَروا دينَه، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إن تَنصُروا دينَ الله ورسولَه يَنصُرْكم اللهُ، ويُثبِّتْ أقدامَكم عندَ قِتالِ أعدائِكم.

ثمَّ يَتوعَّدُ اللهُ تعالَى الكافِرينَ بالخَيبةِ والخُسْرانِ، فيقولُ: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ فخِزْيًا لهم وهلاكًا، وسُقوطًا لا قيامَ بَعْدَه، وجَعَل اللهُ أعمالَهم باطِلةً.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه الأسبابَ الَّتي أدَّتْ بهم إلى الخُسرانِ، فيقولُ: ذلك الإتْعاسُ للكافِرينَ بسَبَبِ أنَّهم كَرِهوا القُرآنَ الَّذي أنزَلَه اللهُ، فأبطَلَ اللهُ أعمالَهم.

ثمَّ يُوبِّخُ الكافِرينَ على عدمِ الاعتبارِ بمصيرِ الَّذين مِن قَبْلِهم، فيقولُ: أفلَمْ يَسِرِ المُشرِكونَ في الأرضِ فيَنظُروا كيف كانت نهايةُ الكُفَّارِ الَّذين مِن قبْلِهم، أهلَكَهم اللهُ واستأصَلَهم، ولِغَيرِهم مِنَ الكُفَّارِ أمثالُ تلك العاقِبةِ مِن الهلاكِ والدَّمارِ إن لم يُؤمِنوا.

ذلك النَّصرُ للمُؤمِنينَ والهَلاكُ للكافِرينَ بسَبَبِ أنَّ اللهَ يَتولَّى المؤمنينَ ويَنصُرُهم، وأنَّ الكافِرينَ لا وَلِيَّ لهم يَتولَّاهم ويَنصُرُهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾.

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٢، ٢٣).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكرَ اللهُ تعالى القِتالَ، تشَوَّفَ السَّامعُ إلى حالِ المُقاتِلِ مِنَ النَّصرِ والخِذلانِ؛ فأجابَ بما يُعرِّفُ بشَرطِ النَّصرِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ أنَّه لو شاءَ اللهُ لَانتصَرَ منهم، عُلِمَ منْه أنَّ ما أمَرَ به المُسلِمينَ مِن قِتالِ الكُفَّارِ إنَّما أرادَ منه نَصْرَ الدِّينِ بقَطْعِ شَوكةِ أعْدائِه الَّذين يَصُدُّونَ النَّاسَ عنه؛ أتْبَعَهُ بالتَّرغيبِ في نَصْرِ اللهِ، والوعْدِ بتَكفُّلِ اللهِ لهم بالنَّصرِ إنْ نَصَروه، وبأنَّه خاذِلُ الَّذين كَفَروا بسَبَبِ كَراهيتِهم ما شَرَعَه مِن الدِّينِ(٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إن تَنصُروا دينَ الله ورسولَه يَنصُرْكم اللهُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٥).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: إن تَنصُروا دينَ اللهِ ورسولَه يَنصُرْكم على عدوِّكم: البغويُّ، والزمخشري، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنسفي، والخازن. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٤١).

وقال بعضُ المفسِّرينَ: المعنى: إن تَنصُروا دينَ اللهِ يَنصُرْكم على أعدائِكم. وممَّن قال ذلك واقتصَر عليه: السَّمَرْقَنْديُّ، والقرطبي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨).

قال الواحدي: (قال أهل المعاني: إن تَنصُروا دينَ اللهِ ورسولَه بالجهادِ، إلَّا أنَّه أُضيفَ النَّصرُ إلى اللهِ تفخيمًا لِشأنِه وتعظيمًا، وتلَطُّفًا في الاستِدعاءِ إليه، كالتَّلطُّفِ في ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥]). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٢٦). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾.

أي: ويُثبِّتْ أقدامَكم عندَ قِتالِ الكُفَّارِ؛ فلا تخافونَ منهم، ولا تَفِرُّونَ مهما كَثُرَ عَدَدُهم وقَوِيَتْ عُدَّتُهم(١).

= وقال ابن عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ فيه حذْفُ مُضافٍ، أي: دينَ اللهِ ورسولَه، والمعنى: تَنصُروه بجِدِّكم واتِّباعِكم وإيمانِكم ﴿يَنصُرۡكُمۡ﴾ بخلْقِ القوَّةِ لكم، والجرأةِ، وغيرِ ذلك مِن المعارِفِ). وفسَّر السعديُّ نصْرَ اللهِ بالقيامِ بدينِه، والدَّعوةِ إليه، وجهادِ أعدائِه، والقَصدِ بذلك وجْهَ الله تعالى. وفسَّر نصْرَ اللهِ لهم وتثبيتَ أقدامِهم بالرَّبطِ على قُلوبِهم بالصَّبرِ والطُّمأنينةِ والثَّباتِ، وأن يُصبِّرَ أجسامَهم على ذلك، ويُعينَهم على أعدائِهم. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

وقال البِقاعي: (﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: يَتجدَّدْ لكم نيَّةٌ مُستمِرَّةٌ وفِعلٌ دائمٌ على نُصرةِ دِينِ الملِكِ الأعظَمِ، بإيضاحِ أدلَّتِه وتَبيينِها، وتَوهيةِ شُبَهِ أهلِ الباطلِ وقتالِهم، ويكونُ ذلك خالصًا له). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٠٩).

قال السمعاني: (والنَّصرُ مِن الله: هو الحِفظُ والهِدايةُ. وعن قَتادةَ قال: مَن يَنصُرِ اللهَ يَنصُرْه، ومَن يَسألْه يُعطِه. ويُقالُ: يَنصُرْكم بتَغليبِكم على عدوِّكم، وإعلائِكم عليهم). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥١).

قال الواحدي: (قال الكَلْبيُّ ومُقاتِلٌ: يعني: عندَ القِتالِ. وقيل: علي الإسلامِ. ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ: على الصِّراطِ). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٢٦).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: أنَّ التَّثبيتَ عندَ القتالِ (أي: بالنَّصرِ والمَعونةِ والعِصمةِ مِن الفِرارِ): السمرقنديُّ، والسمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥١).

وقال البقاعي: (﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ أي: تثبيتًا عظيمًا، بأن يَمْلأَ قُلوبَكم سكينةً واطمئنانًا، =

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، جاز أنْ يُتوهَّمَ أنَّ الكافِرَ أيضًا يَصبِرُ ويَثبُتُ للقِتالِ؛ فيَدومُ القِتالُ والحِرابُ والطِّعانُ والضِّرابُ، وفيه المَشقَّةُ العَظيمةُ، فقال تعالى: لكمُ الثَّباتُ، ولهمُ الزَّوالُ والتَّغيُّرُ والهَلاكُ؛ فلا يكونُ الثَّباتُ؛ ففي الآيةِ زِيادةٌ في تَقويةِ قُلوبِ المُؤمِنين[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكرَ أهلَ الإيمانِ؛ بيَّن ما لأهلِ الكُفرانِ[٢]، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ فخِزيًا لهم وشَقاءً وهَلاكًا، وعِثارًا وسُقوطًا لا قيامَ بَعدَه[٣].

﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

أي: وجَعَل اللهُ أعمالَهم باطِلةً لا نَفْعَ فيها[٤].

= وأبدانَكم قوَّةً وشجاعةً في حالِ القتلِ، ووقْتَ البحثِ والجدالِ، وعندَ مُباشرةِ جميعِ الأعمالِ، فتَكونوا عالينَ قاهِرينَ في غايةِ ما يكونُ مِن طِيبِ النُّفوسِ، وانشِراحِ الصُّدورِ؛ ثقةً باللهِ، واعتِزازًا به وإن تَمالَأَ عليكم أهلُ الأرضِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٢، ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٥، ٨٦).

قال البِقاعي: (﴿فَتَعۡسٗا﴾ أي: فقد عَثَروا، فيُقالُ لهم ما يُقالُ للعاثِرِ الَّذي يُرادُ أنَّه لا يقومُ: تَعْسًا لا قيامَ معه، كما يُقالُ لِمن عَثَر وأُريدَ قيامُه: لَعًا [أي: ارتفاعًا] لك). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن =

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى ما صنَعَ بالمُشرِكينَ؛ لِيَجترئَ به حِزبُه عليهم- بيَّنَ سَبَبه؛ لِيُجتَنَبَ[1].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩﴾.

أي: ذلك الإتْعاسُ للكافِرينَ وإضلالُ أعمالِهم بسَبَبِ أنَّهم كَرِهوا القُرآنَ الَّذي أنزَلَه اللهُ، فأبغَضُوه ولم يَقبَلوه ولم يَتَّبِعوه؛ فأبطَلَ اللهُ أعمالَهم، فلا يَنتَفِعونَ منها في الدُّنيا، ولا في الآخِرةِ[2]!

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان لا يَستَهينُ بهذه القَضايا، ويَجترِئُ مِثلَ هذه البَلايا إلَّا مَن أمِنَ العُقوبةَ، ولا يأمَنُ العُقوبةَ إلَّا مَن أعرَضَ عنِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وكان يَكْفي في الصَّدِّ عنِ الأمْرَيْنِ وقائِعُه تعالى بالأُمَمِ الخالِيَةِ مِن أجْلِ تَكْذيبِ رُسُلِه، ومُناصَبةِ أولِيائِه، والاعتِداءِ على حُدودِه؛ قال تعالى[3]:

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

= كثير)) (٧/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٦، ٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١١).

أي: أفلم يُسافِرِ المُشرِكونَ في الأرضِ فيَنظُروا كيف كانت نهايةُ الكُفَّارِ الَّذين مِن قَبْلِهم بسَبَبِ كُفرِهم[١]؟

﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: أهلَكَ اللهُ مَنازِلَهم وأموالَهم، وأبادَهم واستأصَلَهم[٢].

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾.

أي: ولِغَيرِهم مِنَ الكُفَّارِ أمثالُ تلك العاقِبةِ مِن الهلاكِ والدَّمارِ إن لم يُؤمِنوا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٧، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٢، ٢١٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: كفَّارُ مكَّةَ: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والقرطبي، وابنُ جُزَي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

ومِن المفسِّرين مَن قال: المرادُ: كفَّارُ هذه الأمَّةِ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والرَّسْعَني، والنسفي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٤).

وقال ابن أبي زَمَنين: (﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ يعني: عاقِبةَ الَّذين تقومُ عليهم السَّاعةُ؛ كفَّارِ آخِرِ هذه الأمَّةِ: يهْلكُونَ بالنَّفخةِ الأولى). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٣٨).

ويحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ: لهم أمثالُها في الآخرةِ، كأنَّه يقولُ: دَمَّر اللَّهُ عليهم في الدُّنيا، ولهم في الآخرةِ أمثالُها. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٣). =

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٨].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾.

= وقال السعديُّ: (وللكافِرين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ أمثالُ هذه العواقِبِ الوَخيمةِ، والعُقوباتِ الذَّميمةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

وفي قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ قال أبو حيَّان: (أي: أمثالُ تلك العاقِبةِ والتَّدميرةِ الَّتي يدُلُّ عليها ﴿دَمَّرَ﴾، أو: الهَلَكةِ؛ لأنَّ التَّدميرَ يدُلُّ عليها، أو السُّنَّة، لقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ [الأحزاب: ٣٨، ٦٢]. والوجهُ الأوَّلُ هو الرَّاجحُ؛ لأنَّ العاقبةَ مَنطوقٌ بها، فعاد الضَّميرُ على المَلْفوظِ به، وما بَعْدَه مَقولُ القَولِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: أمثالُ تلك العاقِبةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

قال الشوكاني: (وإنَّما جُمِعَ [أي: لفظُ ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾]؛ لأنَّ العواقِبَ مُتَعدِّدةٌ بِحَسَبِ تَعَدُّدِ الأُمَمِ المُعذَّبةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩).

وقال القرطبي: (﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ أي: أمثالُ هذه الفَعلةِ، يعني: التَّدميرَ). يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤).

وقال النسفي: (﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ أمثالُ تلك الهَلكةِ؛ لأنَّ التَّدميرَ يدُلُّ عليها). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٤).

وقال مُقاتِلٌ والسَّمَرْقَنْديُّ: ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ أي: مِن العذابِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩).

وقال الشنقيطي: (قاسَ الموجودينَ في زمَنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم على الأُممِ الماضيةِ، وقال لهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، ثم بيَّن إلحاقَ النَّظيرِ بالنَّظيرِ فقال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾، فكأنَّ المَوجودينَ في زمنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فرعٌ، والكفَّارُ المتقدِّمون أصلٌ، والحُكمُ الَّذي عمَّهم المُهدَّدُ به: العذابُ والهلاكُ، والعِلَّةُ الجامعةُ: تكذيبُ الرُّسلِ، والتَّمرُّدُ على ربِّ العالَمينَ. وأمثالُ هذا في القرآنِ كثيرةٌ). ((العذب النمير)) (٣/ ١٤٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه يُعْلي أولياءَه، ويُذِلُّ أعداءَه؛ بيَّنَ عِلَّتَه، فقال[(١)]:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: ذلك النَّصرُ للمُؤمِنينَ والإهلاكُ للكافِرينَ بسَبَبِ أنَّ اللهَ يَتولَّى الَّذين آمَنوا فيَنصُرُهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ...﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ * سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠، ١٥١].

﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٣).

ممَّن اختار أنَّ اسمَ الإشارةِ يعودُ إلى الفِعلِ الَّذي فعَله اللهُ تعالى مِن نصْرِ المؤمنينَ وإهلاكِ الكافرين: ابنُ جرير، والواحديُّ، والرَّسْعَني، والبِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٣).

وقيل: اسمُ الإشارةِ يعودُ إلى ما ذُكِر مِن أنَّ للكافرين أمثالَها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: أبو السعود، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

قال ابن عاشور: (اسمُ الإشارةِ مُنصَرِفٌ إلى مَضمونِ قَولِه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، بتأويلِ: ذلك المذكورُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

أي: وبسَبَبِ أنَّ الكافِرينَ لا وَلِيَّ لهم يَتولَّاهم فيَنصُرهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٦].

وعن البراءِ رَضِيَ اللهُ عنه في حديثِ غَزوةِ أُحُدٍ: ((... قال أبو سُفْيانَ: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: أجيبُوه. قالوا: ما نقولُ؟ قال: قولوا: اللهُ مَوْلانا ولا مَوْلَى لكم))[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ هذا أمرٌ منه تعالى للمُؤمِنينَ أن يَنصُروا اللهَ بالقيامِ بدينِه، والدَّعوةِ إليه، وجِهادِ أعدائِه -على قولٍ في التَّفسيرِ-، والقَصدِ بذلك وَجْهَ اللهِ؛ فإنَّهم إذا فعَلوا ذلك نصَرَهم اللهُ وثبَّت أقدامَهم، فهذا وعدٌ مِن كريمٍ صادقِ الوَعدِ أنَّ الَّذي يَنصُرُه بالأقوالِ والأفعالِ سيَنصُرُه مَولاه، ويُيَسِّرُ له أسبابَ النَّصرِ مِن الثَّباتِ وغَيرِه[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ دليلٌ على أنَّ مَنِ استَشعَرَ التَّقوى في مَقاصِدِه، وأخلَصَ النِّيَّةَ لله في أعمالِه؛ لم يُسْلِمْه اللهُ إلى عَدُوِّه، ولم يُعْلِه عليه، وكان الظَّفَرُ له على مَن ناوَأَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٩).

(٢) رواه البخاري (٤٠٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٥٠).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ فيه وَعيدٌ للأُمَّةِ بأنَّها إن تخلَّت عن نَصرِ اللهِ، والجهادِ في سَبيلِه، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ؛ وكَلَها سُبحانَه إلى نَفْسِها، وتخلَّى عن نَصرِها، وسلَّط عليها عَدُوَّها، ولقد وُجِدَ بعضُ ذلك مِن تسَلُّطِ الفَسَقةِ لَمَّا وُجِدَ التَّهاوُنُ في بعضِ ذلك، والتَّواكُلُ فيه[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ فيه أنَّ الَّذين يَرتَكِبونَ جميعَ المعاصي ممَّن يتَسَمَّونَ باسمِ المُسلِمينَ، ثمَّ يقولونَ: إنَّ اللهَ سيَنصُرُنا- مَغرورونَ؛ لأنَّهم لَيسُوا مِن حِزبِ اللهِ المَوعودينَ بنَصرِه[٢]!

٥- قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ فيه الحَثُّ على السَّيرِ في الأرضِ، والنَّظرِ في أحوالِ الأممِ السَّابقةِ والاعتبارِ؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ اللهَ وَبَّخَهم على عدَمِ السَّيرِ والنَّظرِ والاعتبارِ[٣].

٦- قيلَ في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: يَصِحُّ أن يُقالَ: إنَّ هذه أرْجى آيةٍ في القُرآنِ الكريمِ؛ ذلك بأنَّه سُبحانَه يقولُ: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولم يَقُلْ: مَوْلى الزُّهَّادِ والعُبَّادِ وأصْحابِ الأوْرادِ والاجتِهادِ؛ فالمُؤمِنُ -وإنْ كان عاصِيًا- مِن جُملةِ الَّذين آمَنوا[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ أنَّ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٤٥، ٥٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٠٦).

العَهدَ الموَثَّقَ بيْنَ اللهِ وبيْنَ عِبادِه بالنَّصرِ هو أنْ يكونَ النَّصرُ مُتبادَلًا(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ(٢).

٣- تَركُ امتِثالِ الطَّاعةِ إنْ كان سَبَبُه كراهةَ ما جاء به الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فهذا كفرٌ مُخرِجٌ عن المِلَّةِ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، وإنْ كان تكاسُلًا وكراهةً لهذا العَمَلِ نَفْسِه، لا لأنَّ الرَّسولَ جاء به؛ فهذا لا يُخرِجُ مِن الملَّةِ، وهذه مَسألةٌ يجِبُ التَّفَطُّنُ لها(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ ثبوتُ الأسبابِ(٤).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ أنَّ سُنَّةَ اللهِ في الخَلقِ واحِدةٌ؛ فالَّذي أهلكَ الأممَ السَّابقةَ بذُنوبِهم يُهلِكُ بعضَ هذه الأُمَّةِ أيضًا بذُنوبِهم(٥).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ إنذارُ المكذِّبينَ لِرَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ اللهَ ذَكَر كيف كان عاقِبةُ الَّذين مِن قَبْلِهم، وكان عاقِبتَهم الدَّمارُ والهلاكُ. والمعنى: لا تَظُنُّوا أنَّ الدَّمارَ الَّذي لَحِقَ المكذِّبينَ السَّابِقينَ أنَّه خاصٌّ بهم، بل إذا كَذَّبتُم أصابَكم ما أصابَهم(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب الحنبلي (١/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦٠٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٦).

٧- أخبَر اللهُ تعالى في كتابِه أنَّه وليُّ المُؤمِنينَ، وأنَّه يَتولَّى الصَّالِحينَ، وذلك يَتضَمَّنُ أنَّه يَتولَّى مَصالِحَهم في الدُّنيا والآخِرةِ، ولا يَكِلُهم إلى غَيرِه، ومِن ذلك قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، وقولُه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1] [البقرة: ٢٥٧].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ فيه سُؤالٌ: كيفَ الجَمعُ بيْنَ قَولِه تعالى: ﴿لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، وبينَ قَولِه: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ [يونس: ٣٠]؟

الجوابُ: أنَّ (المولى) ورد بمعنى: السَّيِّدِ والرَّبِّ والنَّاصِرِ؛ فحيث قال: ﴿لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ أراد: لا ناصِرَ لهم، وحيثُ قال: ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: ربِّهم ومالِكِهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، وقال: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦][2]. فالمرادُ بالمَولَى في هذا الموضعِ مِن سورةِ (محمَّدٍ): الوليُّ والنَّاصرُ، والمعنى: أنَّ اللهَ يَنصُرُ الَّذين يَنصُرون دِينَه، وهمُ الَّذين آمَنوا، ولا يَنصُرُ الَّذين كَفَروا به فأشْرَكوا معه في إلهيَّتِه، وإذا كان لا يَنصُرُهم فلا يَجِدونَ نَصيرًا؛ لأنَّه لا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يَنصُرَهم على اللهِ؛ فنفْيُ جِنسِ المَولى لهم بهذا المعنَى مِن مَعاني المَولى؛ فقولُه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ أفادَ شَيئينِ: أنَّ اللهَ لا يَنصُرُهم، وأنَّه إذا لم يَنصُرْهم فلا ناصِرَ لهم. وأمَّا إثْباتُ المَولى لِلمُشرِكين في قَولِه تَعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ مَكَانَكُمۡ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠]، فذلك المَولى بمَعنًى آخَرَ، وهو معنَى: المالِكِ والرَّبِّ؛ فلا تَعارُضَ بيْنَهما[3].

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٩).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾

- افتُتِحَ التَّرغيبُ بنِدائِهم بصِلةِ الإيمانِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ اهتِمامًا بالكلامِ، وإيماءً إلى أنَّ الإيمان يَقْتضي منْهم ذلك، والمَقصودُ تَحْريضُهم على الجِهادِ في المُستقبَلِ بعْدَ أنِ اجْتَنَوا فائدتَه مُشاهَدةً يومَ بَدْرٍ[١].

- وفي قَولِه: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ جِيءَ في الشَّرْطِ بحَرْفِ (إنْ) الَّذي الأصلُ فيه عَدَمُ الجَزْمِ بوُقوعِ الشَّرطِ؛ للإشارةِ إلى مَشقَّةِ الشَّرْطِ وشِدَّتِه؛ لِيُجعَلَ المَطلوبُ به كالَّذي يُشَكُّ في وَفائِه به[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ هذا مُقابِلُ قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٤]؛ فإنَّ المُقاتِلينَ في سَبيلِ اللهِ همُ المُؤمِنون، فهذا عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: ٤] الآيةَ[٣].

- والتَّعْسُ: الشَّقاءُ، ومِن بَدائعِ القُرآنِ وُقوعُ ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ في جانِبِ الكُفَّارِ في مُقابَلةِ قَولِه للمُؤمنينَ: ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧][٤]. وانتصَبَ ﴿فَتَعۡسٗا﴾ على المَفعولِ المُطلَقِ بَدَلًا مِن فِعلِه، والتَّقديرُ: فتَعِسوا تَعْسَهم، وهو مِن إضافةِ المَصدرِ إلى فاعِلِه، وقُصِدَ مِن الإضافةِ اختِصاصُ التَّعْسِ بهم. ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿فَتَعۡسٗا﴾ لهم مُستعمَلًا في الدُّعاءِ عليهم؛ لِقَصْدِ التَّحقيرِ والتَّفظيعِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وذلك مِن استِعمالاتِ هذا المُركَّبِ، وحينَئذٍ يَتعيَّنُ في الآيةِ فِعلُ قَولٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: فقال اللهُ: تَعْسًا لهم، أو فيُقالُ: تَعْسًا لهم[(١)].

- قولُه: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ المُرادُ بأعمالِهم: الأعمالُ الَّتي يَرْجُون منها النَّفْعَ في الدُّنيا؛ لأنَّهم لمْ يَكونوا يَرْجُون نَفْعَها في الآخِرةِ؛ إذْ هم لا يُؤمِنون بالبَعثِ، وإنَّما كانوا يَرْجُون مِن الأعمالِ الصَّالحةِ رِضا اللهِ ورِضا الأصنامِ؛ لِيَعيشوا في سَعةِ رِزْقٍ، وسَلامةٍ، وعافيةٍ، وتَسلَمَ أولادُهم وأنْعامُهم؛ فالأعْمالُ المُحبَطةُ بَعضُ الأعمالِ المُضلَّلةِ، وإحْباطُها هو عَدَمُ تَحقُّقِ ما رَجَوه منْها؛ فهو أخَصُّ مِن إضْلالِ أعْمالِهم في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١] أوَّلَ السُّورةِ. والمَقصودُ مِن ذِكرِ هذا الخاصِّ بعْدَ العامِّ التَّنبيهُ على أنَّهم لم يَنتَفِعوا بها؛ لِئلَّا يَظُنَّ المُؤمِنون أنَّها قدْ تُخفِّفُ عنْهم مِن العَذابِ؛ فقدْ كانوا يَتساءَلون عن ذلك، والمَعنى: أنَّهم لو آمَنوا بما أنزَلَ اللهُ، لَانتَفَعوا بأعْمالِهم الصَّالحةِ في الآخِرةِ -وهي المَقصودُ الأهَمُّ- وفي الدُّنيا على الجُملةِ. وقد حصَلَ مِن ذِكرِ هذا الخاصِّ بعْدَ العامِّ تأْكيدُ الخبرِ المَذكورِ[(٢)].

- والإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ لِتَمْييزِ المُشارِ إليه أكمَلَ تَمْييزٍ؛ تَنْويهًا به[(٣)].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: كَرِهوا القُرآنَ؛ لِمَا فيه مِن التَّوحيدِ والتَّكاليفِ المُخالِفةِ لِما ألِفُوه واشْتَهَتْه أنفُسُهم، وهو تَخصيصٌ وتَصريحٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧٦، ٨٦).

بسَببيَّةِ الكُفْرِ بالقُرآنِ لِلتَّعْسِ والإضلالِ[١].

- وذكَرَ الإحباطَ معَ ذِكرِ الإضلالِ المرادِ هو منه، فقال: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ إشْعارًا بأنَّه يَلزَمُ الكُفرَ بالقُرآنِ، ولا يَنفَكُّ عنه بحالٍ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٨] الآيةَ[٣].

- والاسْتِفهامُ في قَولِه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تَقريريٌّ، والمعنى: أليس تَعْسُ الَّذين كَفَروا مَشهودًا عليه بآثارِه مِن سُوءِ عاقِبةِ أمْثالِهم الَّذين كانوا قبْلَهم يَدِينونَ بمِثلِ دِينِهم[٤]؟

- وجُملةُ ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ، وهذا تَعريضٌ بالتَّهديدِ[٥].

- وفِعلُ ﴿دَمَّرَ﴾ مُتعَدٍّ إلى المُدمَّرِ بنَفْسِه، يُقالُ: دمَّرَهم اللهُ، وإنَّما عُدِّيَ في الآيةِ بحَرْفِ الاستِعلاءِ؛ لِلْمبالَغةِ في قُوَّةِ التَّدميرِ، فحُذِفَ مَفعولُ ﴿دَمَّرَ﴾ لِقَصْدِ العُمومِ، ثمَّ جُعِلَ التَّدميرُ واقعًا عليهم، فأفادَ مَعنى: دمَّرَ كلَّ ما يَختَصُّ بهم، وهو المَفعولُ المَحذوفُ، وأنَّ التَّدميرَ واقعٌ عليهم؛ فهُمْ مِن مَشمولِه[٦].

- وجُملةُ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [محمد: ١١]، والمُرادُ بالكافرينَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٨).

كُفَّارُ مكَّةَ، والمعنى: ولِكُفَّارِكم أمثالُ عاقِبةِ الَّذين مِن قبْلِهم مِن الدَّمارِ، وهذا تَصريحٌ بما وقَعَ به التَّعريضُ في قَولِه: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لِلتَّأْكيدِ بالتَّعميمِ ثمَّ الخُصوصِ[١].

- وعلى أنَّ المُرادَ بالكافرينَ المُتقدِّمونَ؛ فيكونُ قولُه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ بطَريقِ وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوضِعَ المُضمَرِ، كأنَّه قِيلَ: دمَّرَ اللهُ عليهم في الدُّنيا، ولهُمْ في الآخِرةِ أمْثالُها، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ[٢]. أو يَكونُ عَدَلَ عن أنْ يقولَ: (ولهؤلاء)، إلى قَولِه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ تَعميمًا، وتَعليقًا للحُكمِ بالوَصفِ، وهو: العَراقةُ في الكُفرِ؛ فكان فيه بِشارةٌ بأنَّ بَعضَهم سيُنْجيهِ اللهُ تعالى مِن أسْبابِ الهَلاكِ؛ لكَونِه ليس عَريقًا في الكُفرِ؛ لأنَّه لم يُطبَعْ عليه[٣].

- وقولُه: ﴿أَمۡثَٰلُهَا﴾ أي: أمْثالُ عَواقبِهم أو عُقوباتِهم، لكنْ لا على أنَّ لهؤلاءِ أمْثالَ ما لأولئك وأضْعافَه، بلْ مِثْلَه، وإنَّما جُمِعَ باعْتِبارِ مُماثَلتِه لِعَواقِبَ مُتعدِّدةٍ حَسَبَ تَعدُّدِ الأُمَمِ المُعذَّبةِ[٤]. فاللهُ تعالى اسْتأصَلَ الكافرينَ مَرَّاتٍ حتَّى استَقرَّ الإسلامُ؛ فاسْتأْصَلَ صَناديدَهم يَومَ بَدْرٍ بالسَّيفِ، ويومَ حُنَينٍ بالسَّيفِ أيضًا، وسلَّطَ عليهم الرِّيحَ يومَ الخَنْدقِ فهَزَمَهم، وسلَّطَ عليهم الرُّعبَ والمَذلَّةَ يومَ فتْحِ مكَّةَ، وكُلُّ ذلك مُماثِلٌ لِما سَلَّطه على الأُمَمِ في الغايةِ منه، وهو نَصرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ودينِه، وقد جعَلَ اللهُ ما نصَرَ به رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أعلى قيمةً؛ بكَونِه بيَدِه وأيْدي المؤمِنينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٢، ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٤).

مُباشَرةً بسُيوفِهم، وذلك أنْكى للعَدُوِّ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لِتَمْييزِ المُشارِ إليه أكمَلَ تَمْييزٍ؛ تَنْويهًا به[٢]. واسمُ الإشارةِ هذا مُنصَرِفٌ إلى مَضمونِ قَولِه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، بتَأْويلِ: ذلك المذكورُ -على قولٍ-؛ لأنَّه يَتضمَّنُ وَعيدًا لِلمُشرِكين بالتَّدميرِ، وفي تَدْميرِهم انتِصارٌ لِلمُؤمِنينَ على ما لَقُوا منهم مِن الأضرارِ؛ فأُفِيدَ أنَّ ما تَوعَّدَهم اللهُ به مُسبَّبٌ على أنَّ اللهَ نَصيرُ الَّذين آمَنوا، وهو المَقصودُ مِن التَّعليلِ، وما بعْدَه تَتْميمٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧٦، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٨).

والتَّتميمُ: هو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِح مِن الكلامِ نقَص معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) للعصام (٢/ ٩٤)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ١٩٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٤٤)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٨).

الآيات (١٢-١٥)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَثۡوٗى﴾: أي: مَنزِلٌ ومقامٌ ومَأوًى، وأصلُ (ثوي): يدُلُّ على الإقامةِ مع الاستِقرارِ[(١)].

﴿بَيِّنَةٖ﴾: أي: بُرهانٍ وحُجَّةٍ وبَيانٍ، والبَيِّنةُ: الدَّلالةُ الواضحةُ، عقليَّةً كانت أو محسوسةً، وأصلُ (بين): انكِشافُ الشَّيءِ، يُقالُ: بانَ الشَّيءُ وأبانَ، إذا اتَّضَح وانكشَف[(٢)].

﴿أَهۡوَآءَهُمۡ﴾: الأهواءُ: المذاهِبُ الَّتي تدعو إليها الشَّهوةُ دونَ الحُجَّةِ، وأصلُه: يدُلُّ على الخُلُوِّ والسُّقُوطِ، وسُمِّيَ الهوى هَوًى؛ لأنَّه يَهوِي بصاحِبِه في النَّارِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٥/ ٣٤٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٧/ ٤٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: صِفَتُها أو شَبَهُها، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ(١).

﴿ءَاسِنٍ﴾: أي: مُنتِنٍ، مُتغيِّرِ اللَّونِ والرِّيحِ والطَّعمِ، وأصلُ (أسن): يدُلُّ على تغيُّرِ الشَّيءِ(٢).

﴿حَمِيمًا﴾: أي: شَديدَ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم) هنا: الحَرارةُ(٣).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾

﴿مَّثَلُ﴾ مبتدأٌ. والخبَرُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: فيما يُتلى عليكم مَثَلُ الجنَّةِ، أو: مَثَلُ الجنَّةِ ما تسمَعونَ، وجملةُ ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ مُفَسِّرةٌ لذلك المَثَلِ، فلا محلَّ لها مِن الإعرابِ، أو مُستأنَفةٌ شارِحةٌ لِمعنى المَثَلِ. وقيلَ: الخبَرُ مَذكورٌ، وهو جُملةُ ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾، فهي خبَرٌ عن ﴿مَّثَلُ﴾، وتقديرُه: أَمَثَلُ الجنَّةِ كمَثَلِ جَزاءِ مَن هو خالِدٌ في النَّارِ؟! فحذَفَ المُضافَينِ: (الجزاءَ)؛ بقَرينةِ مُقابَلةِ الجنَّةِ، و(مَثَل)

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٥). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٦٤-٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٤)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

بقرينةِ تقَدُّمِه. أو التَّقديرُ: أَمَثَلُ أهلِ الجنَّةِ كمَن هو خالِدٌ في النَّارِ؟! فحذَفَ هَمزةَ الإنكارِ، وقدَّر مُضافًا محذوفًا، وهو «أهْل»، فصار تقديرُ الكلامِ كأنَّه قال: أَمَثَلُ أهلِ الجنَّةِ، وهي بهذه الأوصافِ ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾؛ وعليه فجُملةُ ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ حالٌ مِنَ الجنَّةِ.

قَولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ﴾

(لَهُمْ): شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، خَبَرٌ مُقَدَّمٌ. والمبتدَأُ المُؤخَّرُ مَحذوفٌ تَقديرُه: «زَوجانِ»، أو «أنواعٌ»، أو «صِنفٌ». و﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، نَعتٌ لهذا المبتدأِ المحذوفِ، والتَّقديرُ: لهم فيها زَوجانِ، أو: أنواعٌ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ. وقيل: ﴿مِن﴾ زائِدةٌ على مَذهَبِ الأخفَشِ، و﴿كُلِّ﴾ مُبتدَأٌ مَجرورٌ لَفظًا، مَرفوعٌ مَحلًّا بضمَّةٍ مُقَدَّرةٍ مَنَع مِن ظُهورِها اشتِغالُ المحَلِّ بحَركةِ حَرفِ الجرِّ الزَّائِدِ، والتَّقديرُ: ولهم فيها كُلُّ الثَّمَراتِ. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: الواوُ: حَرفُ عَطفٍ. (مَغْفِرَةٌ) مَعطوفٌ على المُبتدَأِ المحذوفِ في الجُملةِ السَّابِقةِ، أي: لهم فيها زَوجانِ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ ومَغفِرةٌ. أو (مَغْفِرَةٌ) مُبتدَأٌ خبَرُه محذوفٌ، تقديرُه: ولهم مَغفِرةٌ. والجُملةُ عَطفٌ على الجُملةِ السَّابِقةِ، أو استِئنافيَّةٌ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ.

قَولُه تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ تقدَّم في إعرابِ «مَثَلُ الْجَنَّةِ» أنَّه يجوزُ أن يكونَ خبَرُه ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ بالتَّأويلَينِ المذكورَينِ. ويجوزُ أيضًا أن يكونَ ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ كلامًا مُستأنَفًا، و﴿كَمَنْ﴾ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، خبَرٌ لمُبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: أحالُ هؤلاء المتَّقينَ كحالِ مَن هو خالِدٌ في النَّارِ؟! أو: أَمَنْ هو خالِدٌ في هذه الجنَّةِ -حسَبَما جرَى به الوَعدُ- كَمَن هو خالِدٌ في النَّارِ؟! أو هو كَلامٌ مُستأنَفٌ مُقَدَّرٌ فيه استِفهامٌ إنكاريٌّ، والتَّقديرُ: أكَمَنْ هو خالِدٌ في النَّارِ؟!

قَولُه تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا﴾ الواوُ: حرفُ عَطفٍ. سُقُوا: فِعلٌ ماضٍ مَبنيٌّ للمَفعولِ. وواوُ الجماعةِ: ضميرٌ مَبنيٌّ في محَلِّ رَفعٍ نائبٌ عن الفاعِلِ. ماءً: مَفعولٌ به ثانٍ مَنصوبٌ. ﴿حَمِيمًا﴾: نعتٌ لـ «مَاءً» مَنصوبٌ. والجملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ الصِّلةِ ﴿هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾، مِن قَبيلِ عَطفِ الفِعليَّةِ على الاسميَّةِ. وراعَى لَفظَ «مَنْ» في الأوَّلِ ﴿هُوَ خَٰلِدٌ﴾ فأفرَدَه، وراعَى مَعنى «مَنْ» في الثَّاني ﴿وَسُقُواْ﴾ فجَمَعَه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله سبحانَه ما أعدَّه للمؤمنينَ مِن نعيمٍ، وما أعدَّه للكافِرينَ مِن عذابٍ أليمٍ، فيقولُ: إنَّ اللهَ يُدخِلُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ جَنَّاتٍ تَجري مِن تحتِ أشجارِها الأنهارُ. والَّذين كَفَروا يَتمتَّعونَ بشَهَواتِ الدُّنيا ولَذَّاتِها، ويأكُلونَ فيها كما تأكُلُ الأنعامُ، والنَّارُ مَأوًى لهم، يَصيرونَ إليها.

ثمَّ يُسلِّي اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابَه مِن أذًى، فيقولُ: وكثيرٌ مِن القُرَى كان أهلُها -يا مُحمَّدُ- أشَدَّ قُوَّةً مِن أهلِ مكَّةَ الَّذين أخرَجوك منها: أهلَكَهم اللهُ وأبادَهم، فلا ناصِرَ لهم يَنصُرُهم مِن عذابِ اللهِ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى الفرْقَ بيْنَ حالِ المؤمنينَ وحالِ الكافِرينَ، فيقولُ: أفمَن كان على بَصيرةٍ بالحَقِّ مِن رَبِّه كمَن حسَّنَ له الشَّيطانُ قَبيحَ عمَلِه، فاتَّبَعَ ما دعَتْه إليه نَفْسُه مِن الضَّلالاتِ بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ؟!

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن مصيرِ كلٍّ مِن المؤمنينَ والكافرينَ، فيقولُ: صِفةُ الجنَّةِ الَّتي وَعَد اللهُ بها المتَّقينَ أنَّ فيها أنهارًا مِن ماءٍ عَذبٍ غيرِ مُتغَيِّرِ الرِّيحِ أو الطَّعمِ

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦٠)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٤).

أو اللَّونِ، وأنهارًا مِن لَبَنٍ لم يَتغَيَّرْ طَعمُه، وأنهارًا مِن خَمرٍ طَيِّبةٍ لَذَّةٍ للشَّارِبينَ، وأنهارًا مِن عَسَلٍ مُصفًّى خالٍ مِن كلِّ الشَّوائِبِ، وللمُتَّقينَ في الجنَّةِ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ، ومَغفِرةٌ مِن اللهِ لِذُنوبِهم. أفمَنْ كان في الجنَّةِ الَّتي ذلك وَصفُها كمَن هو ماكِثٌ في النَّارِ أبدًا، وسُقِيَ فيها ماءً شَديدَ الحَرارةِ فقَطَّعَ أمعاءَه؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المُؤمِنينَ والكافِرينَ في الدُّنيا؛ بيَّنَ حالَهم في الآخِرةِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكرَ اللهُ تعالى أنَّه وَليُّ المُؤمِنينَ؛ ذَكرَ ما يَفعَلُ بهم في الآخِرةِ. ولَمَّا ذَكرَ أنَّ الكافِرينَ لا مَوْلَى لهم؛ ذَكرَ أنَّهم وُكِلوا إلى أنفُسِهم؛ فلم يَتَّصِفوا بصِفاتِ المُروءةِ، ولا الصِّفاتِ الإنسانيَّةِ، بل نَزَلوا عنها دَرَكاتٍ، وصاروا كالأنْعامِ الَّتي لا عَقْلَ لها ولا فَضْلَ، بل جُلُّ هَمِّهم ومَقصدِهمُ التَّمتُّعُ بلَذَّاتِ الدُّنيا وشَهواتِها[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُدخِلُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ جَنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تحتِ أشجارِها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦). =

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ يَتمتَّعونَ في الدُّنيا بشَهَواتِها وملَذَّاتِها، ويأكُلونَ فيها كما تأكُلُ الأنعامُ الَّتي لا هَمَّ لها سِوى ذلك[1].

= قال الرازي: (﴿مِن﴾ في قَولِه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ صِلةً معناه: تجري تحتَها الأنهارُ، ويحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ: أنَّ ماءَها منها، لا يجري إليها مِن مَوضِعٍ آخَرَ فيُقالُ: هذا النَّهرُ مَنبَعُه مِن أينَ؟ يُقالُ: مِن عَينِ كذا، مِن تحتِ جبَلِ كذا). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٤).

وقال الشوكاني: (إنْ أُريدَ بها [أي: بالجنَّاتِ] الأشجارُ المتكاثِفةُ السَّاترةُ لِما تحتَها، فجَرَيانُ الأنهارِ مِن تحتِها ظاهِرٌ، وإنْ أُريدَ بها الأرضُ فلا بدَّ مِن تقديرِ مُضافٍ، أي: مِن تحتِ أشجارِها). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

وعباراتُ المفسِّرينَ في معنى تَشبيهِهم بالأنعامِ هنا مُتقارِبةٌ؛ فقيل: معنى تَشبيهِهم بالأنعامِ هنا: أنَّه ليس لهم هِمَّةٌ سِوى الأكلِ. وممَّن ذهبَ إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١).

وقيل: المعنى: ليس لهم همَّةٌ إلَّا بُطونهم وفُروجهم، وهم لاهُون ساهُون عمَّا في غَدِهم. وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩).

قال ابن الجوزي: (إنَّ الأنعامَ تأكُلُ وتَشرَبُ، ولا تَدري ما في غَدٍ، فكذلك الكفَّارُ لا يَلتَفِتونَ إلى الآخرةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧).

وقيل: المعنى: أنَّهم لا يَخافونَ عِقابًا، ولا يَرجُونَ ثوابًا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٢).

وقيل: المعنى: غافِلينَ عن العاقِبةِ، غيرَ مُفكِّرينَ فيها. وممَّن اختاره: الزمخشري، والبيضاوي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٠٢).

قال الزَّمخشري: (﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ يَنتَفِعونَ بمَتاعِ الحياةِ الدُّنيا أيامًا قلائِلَ ﴿وَيَأۡكُلُونَ﴾ غافِلينَ غيرَ مُفكِّرينَ في العاقِبةِ ﴿كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ في مَسارِحِها ومَعالِفِها غافِلةً عمَّا هي بصَدَدِه مِنَ =

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((المؤمِنُ يأكُلُ في مِعًى واحدٍ، والكافِرُ يأكُلُ في سَبعةِ أمعاءٍ))[١].

﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾.

أي: وستَكونُ النَّارُ مَسكنًا لهم يَصيرونَ إليه، ويَستَقِرُّونَ فيه؛ فتُنسِيهم كُلَّ نعيمٍ كانوا فيه[٢]!

كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ضَربَ اللهُ تعالى مَثَلًا للكافِرينَ بقَولِه: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [محمد: ١٠]، ولم يَنفَعْهم مع ما تَقدَّمَ مِنَ الدَّلائلِ؛ ضَرَب للنَّبيِّ عليه السَّلامُ مَثلًا تَسليةً له، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾، وكانوا أشَدَّ مِن أهلِ مكَّةَ، كذلك نَفعَلُ بهم؛ فاصبِرْ كما صبَرَ رُسُلُهم[٣].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾.

= النَّحرِ والذَّبحِ!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٠).

وقال البِقاعي: (﴿كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ أكْلَ الْتِذاذٍ ومَرَحٍ، مِن أيِّ مَوضعٍ كان، وكيف كان الأكلُ؛ في سبعةِ أمعاءٍ، أي: في جميعِ بُطونِهم مِن غيرِ تمييزٍ للحَرامِ مِن غَيرِه). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢١٥).

(١) رواه البخاري (٥٣٩٣) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٠٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٥).

أي: وما أكثَرَ القُرى الَّتي كان أهلُها -يا مُحمَّدُ- أكثَرَ قُوَّةً وعَدَدًا ومالًا مِن أهلِ مكَّةَ الَّذين أخرَجوكَ منها؛ فأهلَكَهم اللهُ بالعَذابِ، وأبادَهم حينَ كذَّبوا رُسُلَهم(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال الله تبارَكَ وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَدِيِّ ابنِ حَمْراءَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((رأيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم واقِفًا على الحَزْوَرةِ(٢)، فقال: واللهِ إنَّكِ لَخَيْرُ أرضِ اللهِ، وأحَبُّ أرضِ اللهِ إلى اللهِ، ولولا أنِّي أُخرِجْتُ مِنكِ ما خرَجْتُ))(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١، ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).
قال ابنُ عطيَّة: (يقالُ: إنَّ هذه الآيةَ نَزَلت إثرَ خُروجِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن مكَّةَ في طَريقِ المدينةِ. وقيل: نزلَت بالمدينةِ. وقيل: نزلَت بمكَّةَ عامَ دخلَها رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَ الحُدَيْبيَةِ. وقيل: نزَلَت عامَ الفتحِ وهو مُقبِلٌ إليها. وهذا كُلُّه حُكمُه حُكمُ المَدَنيِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٣).

(٢) الحَزْوَرة: موضعٌ بمكةَ. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطيبي (٦/ ٢٠٤٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ١٨٦٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٩٢٥) واللَّفظُ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣١٠٨)، وأحمد (١٨٧١٥).
قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ صحيحٌ). وصحَّحه ابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (٢/ ٤٥١)، وابنُ حزم في ((المحلى)) (٧/ ٢٨٩)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٣/ ٨١)، وابن باز في ((الفوائد العلمية من الدروس البازية)) (٥/ ١٢٣)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٩٢٥).

﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

أي: فلم يكُنْ لهم ناصِرٌ يَنصُرُهم، فيَمنَعَ عنهم عذابَ اللهِ حينَ أهلَكَهم اللهُ[١].

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ دليلًا شُهودِيًّا بعدَ الأدِلَّةِ العَقليَّةِ على ما تقدَّمَ الوعدُ به - أنَّه ينصُرُ مَن ينصُرُه، ويخذُلُ مَن يعاندُه-؛ سبَّبَ عنه الإنكارَ عليهم، فقال[٢]:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

أي: أفمَن كان على بصيرةٍ مِن رَبِّه وعِلمٍ ومَعرفةٍ بالحَقِّ، فهو يُؤمِنُ به ويَتَّبِعُه، ويَعرِفُ سُوءَ عَمَلِه وهواه ويجتَنِبُه؛ كالَّذي حُسِّن له قبيحُ أعمالِه مِن شِركٍ أو معصيةٍ، فاتَّبعَ ما دعَتْه إليه نَفْسُه مِن الضَّلالاتِ بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ؟ لا يَستويانِ[٣]!

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٦، ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٦، ٢١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).
قال الزَّمخشري: («مَن زُيِّنَ له» هم أهلُ مكَّةَ الَّذين زيَّن لهم الشَّيطانُ شِرْكَهم وعداوتَهم لله ورَسولِه، و«مَن كان على بيِّنةٍ مِن رَبِّه» -أي: على حُجَّةٍ مِن عندِه وبُرهانٍ، وهو القُرآنُ المُعجِزُ، وسائِرُ المُعجِزاتِ- هو رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٠).
وقال القُرطبي: (هذا التَّزيينُ مِن جهةِ اللهِ خَلْقًا، ويجوزُ أن يكونَ مِن الشَّيطانِ دُعاءً ووَسْوَسةً، ويجوزُ أن يكونَ مِن الكافِرِ، أي: زَيَّن لِنَفْسِه سُوءَ عَمَلِه، وأصَرَّ على الكُفرِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٦).

مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ [الرعد: ١٩].

﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى الفرقَ بيْنَ الفَريقَينِ في الاهتِداءِ والضَّلالِ؛ بيَّن الفرقَ بيْنَهما في مَرجِعِهما ومآلِهما، وكما قدَّمَ مَن على البَيِّنةِ في الذِّكرِ على مَنِ اتَّبعَ هواه؛ قدَّمَ حالَه في مآلِه على حالِ مَن هو بخِلافِ حالِه[1].

وأيضًا لَمَّا تكرَّر ذِكرُ الجنَّةِ والنَّارِ في هذه السُّورةِ، إلى أنْ خَتَمَ بهذه الآيةِ الَّتي قسَّمَ النَّاسَ فيها إلى أولياءَ مُهتَدينَ، وأعداءَ ضالِّينَ مُعتَدينَ، فهَدَى سِياقُها إلى أنَّ التَّقديرَ: أفمَن كان على بيِّنةٍ مِن ربِّه أحْياه الحياةَ الطَّيِّبةَ في الدَّارَينِ، ومَن تَبِعَ هَواه أرْداه فيهما؛ أتْبَعَه وَصْفَ الجنَّةِ الَّتي هي دارُ أولِيائِه، قادَهم إليها الهُدى، والنَّارِ الَّتي هي دارُ أعدائِه، ساقَهم إليها الضَّلالُ المُحتَّمُ للرَّدى[2].

﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾.

أي: صِفةُ الجنَّةِ الَّتي وَعَدَ اللهُ بها المتَّقينَ أنَّ فيها أنهارًا مِن ماءٍ عَذبٍ صافٍ، غيرِ مُتغَيِّرِ الرِّيحِ أو الطَّعمِ أو اللَّونِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا عُرِجَ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى السَّماءِ قال: أَتَيْتُ على نَهرٍ حافَتاهُ قِبابُ اللُّؤلُؤِ مُجَوَّفًا، فقلتُ: ما هذا يا جِبريلُ؟ قال: هذا الكَوثَرُ!))[(١)].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَنْ آمَنَ باللهِ ورَسولِه، وأقام الصَّلاةَ، وصام رَمَضانَ؛ كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ؛ هاجَرَ في سَبيلِ اللهِ، أو جَلَس في أرضِه الَّتي وُلِدَ فيها. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، أفلا نُنَبِّئُ النَّاسَ بذلك؟ قال: إنَّ في الجنَّةِ مِئةَ دَرَجةٍ أعدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سَبيلِه، كُلُّ دَرَجتَينِ ما بيْنَهما كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سألْتُمُ اللهَ فسَلُوه الفِرْدَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفوقَه عَرشُ الرَّحمنِ، ومِنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ!))[(٢)].

وعن مُعاويةَ بنِ حَيْدةَ القُشَيْريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ بَحرَ الماءِ، وبَحرَ العَسَلِ، وبَحرَ اللَّبَنِ، وبَحرَ الخَمرِ، ثمَّ تَشَقَّقُ الأنهارُ بَعْدُ))[(٣)].

= كثير)) (٧/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٨-٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

(١) رواه البخاري (٤٩٦٤).

(٢) رواه البخاري (٧٤٢٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٧١) واللَّفظُ له، وأحمد (٢٠٠٥٢).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٧٤٠٩)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٥٧١)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٣/ ٢٤٦).

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾.

أي: وفي الجنَّةِ أنهارٌ مِن لَبَنٍ لم يَتغَيَّرْ طَعمُه بحُموضةٍ أو غَيرِها[١].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

أي: وفيها أنهارٌ مِن خَمرٍ طَيِّبةٍ يَلْتَذُّ بها الشَّارِبونَ، بلا صُداعٍ أو غيرِه مِن الآفاتِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

أي: وفيها أنهارٌ مِن عَسَلٍ خَلَقَه اللهُ في غايةِ الصَّفاءِ، خاليًا مِن سائِرِ الشَّوائِبِ والأوساخِ[٣].

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

أي: وللمُتَّقينَ في الجنَّةِ ثَمَراتٌ مِن جَميعِ الأنواعِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧).

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

أي: ولأهلِ الجنَّةِ معَ ذلك النَّعيمِ العَظيمِ مَغفِرةٌ مِن اللهِ لِذُنوبِهم؛ فيَتجاوَزُ عنها، ولا يُعاقِبُهم عليها، ويَستُرُها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُدْني المُؤمِنَ فيَضَعُ عليه كَنَفَه[٢] ويَستُرُه، فيقولُ: أتَعرِفُ ذَنْبَ كذا؟ أتعرِفُ ذنْبَ كذا؟ فيَقولُ: نعَمْ، أيْ رَبِّ. حتَّى إذا قرَّرَه بذُنوبِه، ورأى في نَفْسِه أنَّه هَلَك، قال: سترْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليَومَ! فيُعطَى كِتابَ حَسَناتِه))[٣].

﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.

أي: فهل يَكونُ مَنْ في الجنَّةِ -الَّتي تلك صِفَتُها- كمَن هو ماكِثٌ في النَّارِ أبدًا، وسُقِيَ فيها ماءً قد بَلَغ الغايةَ في شِدَّةِ حَرارتِه، فقَطَّع ما في بَطنِه مِن أمعاءٍ[٤]؟!

كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧).

(٢) كَنَفَه: أي: حِفْظَه وسِتْرَه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٤/ ٢٥٤).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٤٤١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠١)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٦٨٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

قال القرطبيُّ: (الأمعاءُ: جمعُ مِعًى... وهو جميعُ ما في البَطنِ مِن الحوايا). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٧).

ٱلْحَمِيمُ ۞ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والعملُ الصَّالحُ مبنيٌّ على الإيمانِ، فعمَلٌ بلا إيمانٍ لا فائدةَ منه، فالمنافقون يَعمَلونَ، ويَذكُرونَ الله، ويُصَلُّون، ويَتصدَّقونَ، ولكن ليس عندَهم إيمانٌ؛ فلا يَنفعُهم؛ ولهذا يُقدِّمُ اللهُ عزَّ وجلَّ الإيمانَ على العملِ الصَّالحِ[١].

٢- العملُ لا ينفعُ صاحبَه إلَّا إذا كان صالحًا؛ قال تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والعملُ الصَّالحُ هو: الخالصُ الصوابُ؛ أي: ما ابتُغِيَ به وجهُ الله، وكان على شريعةِ الله[٢].

٣- الإيمانُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن عملٍ، والعملُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن إيمانٍ، فلا يستحقُّ الجنَّةَ إلَّا مَن جمَع بيْنَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾، وإذا ذُكِر ثوابُ الجنَّةِ مقيَّدًا أو مُعلَّقًا بالإيمانِ وحْدَه فالمرادُ بذلك الإيمانُ المتضمِّنُ للعملِ الصَّالحِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ كَثرةَ الأكلِ مِن صِفةِ الكُفَّارِ[٤]، وقد ذمَّهم اللهُ تعالى بكثرةِ الأكلِ؛ فإذا كان المؤمنُ يتشبَّهُ بهم، ويتنَعَّمُ بتَنعُّمِهم في كلِّ أحوالِه وأزمانِه؛ فأين حَقيقةُ الإيمانِ، والقِيامُ بوَظائفِ الإسلامِ؟! ومَن كَثُرَ أكلُه وشُربُه كَثُرَ نَهَمُه وحِرصُه، وزاد باللَّيلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٥٣٩).

كَسَلُه ونَومُه، فكان نَهارَه هائمًا، ولَيْلَه نائمًا[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، كثيرًا ما يَقتصِرُ اللهُ على ذِكرِ الأنهارِ في وصفِ الجنَّةِ؛ لأنَّ الأنهارَ يَتبَعُها الأشجارُ، والأشجارُ تَتبَعُها الثِّمارُ، ولأنَّه سببُ حياةِ العالَمِ، والنَّارُ سببُ الإعدامِ، وللمؤمنِ الماءُ؛ يَنظُرُ إليه، ويَنتفِعُ به. وللكافِرِ النَّارُ؛ يتقلَّبُ فيها، ويتضرَّرُ بها[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾، فيه سُؤالٌ: خصَّهم بالذِّكرِ، مع أنَّ المُؤمِنَ أيضًا له التَّمتُّعُ بالدُّنيا وطيِّباتِها؟

الجَوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: مَن يكونُ له مُلكٌ عَظيمٌ، ويَملِكُ شيئًا يَسيرًا أيضًا، لا يُذكَرُ إلَّا بالمُلكِ العَظيمِ، يُقالُ في حقِّ المَلِكِ العَظيمِ: صاحِبُ الضَّيعةِ الفُلانيَّةِ. ومَن لا يَملِكُ إلَّا شيئًا يسيرًا، فلا يُذكَرُ إلَّا به؛ فالمُؤمِنُ له مُلْكُ الجنَّةِ؛ فمَتاعُ الدُّنيا لا يُلتَفَتُ إليه في حقِّه. والكافِرُ ليس له إلَّا الدُّنيا.

الوَجهُ الثَّاني: الدُّنيا للمُؤمِنِ سِجنٌ كيف كان، ومَن يأكُلُ في السِّجنِ لا يُقالُ: إنَّه يَتمتَّعُ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ قال تعالى في حَقِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المؤمِنِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ﴾ بصيغةِ الوَعدِ، وقال في حَقِّ الكافِرِ: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ بصيغةٍ تُنبِئُ عن الاستِحقاقِ؛ وذلك لأنَّ الإحسانَ لا يَستَدعي أن يكونَ عن استِحقاقٍ؛ فالمُحسِنُ إلى مَن لم يُوجَدْ منه ما يُوجِبُ الإحسانَ: كَريمٌ، والمُعَذِّبُ مِن غيرِ استِحقاقٍ ظالِمٌ[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قَولُه: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾، مع أنَّ الإهلاكَ ماضٍ، وقَولُه: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ للحالِ والاستِقبالِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ مَجراه مَجرى الحالِ المَحكِيَّةِ، كأنَّه قال: أهلَكْناهم فهم لا يُنصَرونَ[2].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المعنى: أهلَكْناهم في الدُّنيا، فلا ناصِرَ لهم يَنصُرُهم، ويُخَلِّصُهم مِن العذابِ الَّذي هم فيه.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ قَولَه: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ عائِدٌ إلى أهلِ قَريةِ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، كأنَّه قال: أهلَكْنا مَن تقَدَّم أهلَ قَريتِك، ولا ناصِرَ لأهلِ قَريتِك يَنصُرُهم، ويُخَلِّصُهم ممَّا جرَى على الأوَّلينَ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ﴾ أنَّ القريةَ لُغةً تُطلَقُ حتَّى على المدينةِ الكبيرةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٧).

٦- قَولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ فيه إشارةٌ إلى الفَرقِ بيْنَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ والكفَّارِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ إهلاكَ الكفَّارِ ونُصرةَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ في الدُّنيا مُحقَّقٌ، وأنَّ الحالَ يُناسِبُ تعذيبَ الكافِرِ، وإثابةَ المُؤمِنِ[١].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وكَونُ البيِّنةِ مِن عِندِ اللهِ تَزكيةٌ لها، وكشْفٌ لِلتَّردُّدِ فيها، وإتمامٌ لِدَلالتِها[٢].

٨- قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فتارةً يُحذفُ فاعلُ التَّزيينِ، كما قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، وتارةً يُضافُ التَّزيينُ إلى الله سبحانَه، كما في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وتارةً يُنسبُ التَّزيينُ إلى سببِه ومَن أجراه الله على يدِه، كما في قوله ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]. والتَّزيينُ مِن الله سبحانَه خَلقًا ومشيئةً، وهو منه حَسَنٌ؛ إذ هو ابتِلاءٌ واختبارٌ؛ لِيَتميَّزَ المطيعُ منهم مِن العاصي، والمؤمِنُ مِن الكافِرِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الكهف: ٧]، وهو مِن الشَّيطانِ قَبيحٌ، وأيضًا فتزيينُه سُبحانَه للعَبدِ عَمَلَه السَّيِّئَ: عُقوبةٌ منه له على إعراضِه عن توحيدِه وعبوديَّتِه، وإيثارِ سَيِّئِ العمَلِ على حَسَنِه؛ فإنَّه لا بدَّ أن يُعَرِّفَه سُبحانَه السَّيِّئَ مِن الحَسَنِ، فإذا آثرَ القبيحَ واختاره وأحَبَّه ورَضِيَه لنَفْسِه، زيَّنه سُبحانَه له وأعماه عن رؤيةِ قُبحِه بعدَ أن رآه قبيحًا.

فتزيينُ الرَّبِّ تعالى عَدلٌ، وعُقوبتُه حِكمةٌ، وتزيينُ الشَّيطانِ إغواءٌ وظُلمٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٣).

وهو السَّبَبُ الخارجُ عن العبدِ، والسَّبَبُ الداخِلُ فيه حُبُّه وبُغضُه وإعراضُه، والرَّبُّ سُبحانَه خالِقُ الجميعِ، والجميعُ واقِعٌ بمشيئتِه وقُدرتِه، ولو شاء لَهدى خَلْقَه أجمعينَ، والمعصومُ مَن عَصَمَه اللهُ، والمَخذولُ مَن خذَلَه اللهُ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] [الأعراف: ٥٤].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ قال في الخَمرِ: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، ولم يقُلْ في اللَّبَنِ: (لم يتغيَّرْ طَعمُه للطَّاعِمينَ)، ولا قال في العسَلِ: (مُصفًّى للنَّاظِرينَ)؛ وذلك لأنَّ اللَّذَّةَ تختَلِفُ باختلافِ الأشخاصِ؛ فرُبَّ طَعامٍ يلْتَذُّ به شَخصٌ، ويَعافُه الآخَرُ، فقال: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ بأسْرِهم، ولأنَّ الخَمرَ كَريهةُ الطَّعمِ، فقال: ﴿لَّذَّةٍ﴾، أي: لا يكونُ في خَمرِ الآخِرةِ كَراهةُ الطَّعمِ، وأمَّا الطَّعمُ واللَّونُ فلا يَختَلِفانِ باختِلافِ النَّاسِ؛ فإنَّ الحُلوَ والحامِضَ وغَيرَهما يُدرِكُه كُلُّ أحدٍ كذلك، لكِنَّه قد يَعافُه بَعضُ النَّاسِ، ويَلْتَذُّ به البَعضُ، مع اتِّفاقِهم على أنَّ له طَعمًا واحِدًا، وكذلك اللَّونُ؛ فلم يكُنْ إلى التَّصريحِ بالتَّعميمِ حاجةٌ[2].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على تعَدُّدِ الأنهارِ مع تعَدُّدِ أنواعِها، وقد جاءت آيةٌ أُخرى يُوهِمُ ظاهِرُها أنَّه نَهرٌ واحِدٌ، وهي قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤]؟

الجَوابُ: أنَّ قَولَه: ﴿وَنَهَرٍ﴾ يعني: وأنهارٍ[3]. فمِن أساليبِ اللُّغةِ العربيَّةِ الَّتي

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢١٧).

نزَل بها القرآنُ أنَّ المفردَ إذا كان اسمَ جِنسٍ، يَكثُرُ إطلاقُه مُرادًا به الجَمعُ معَ تنكيرِه، مثل هذه الآيةِ، ومثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] أي: أطفالًا، وقولِه تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] أي: أئمَّةً، وقولِه تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤] أي: أنفُسًا، وقولِه تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] أي: رُفَقاءَ، وقولِه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] أي: مُظاهِرونَ[(١)].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أشار بعدَ ذِكرِ المَشروبِ إلى المأكولِ، ولَمَّا كان في الجنَّةِ الأكلُ لِلَّذَّةِ لا للحاجةِ؛ ذكَرَ الثِّمارَ؛ فإنَّها تُؤكَلُ لِلَّذَّةِ، بخِلافِ الخُبزِ واللَّحمِ، وهذا كقَولِه تعالى في سورةِ الرَّعدِ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]؛ حيث أشار إلى المأكولِ والمَشروبِ[(٢)].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فيه سُؤالٌ: المُتَّقي لا يَدخُلُ الجنَّةَ إلَّا بعدَ المَغفِرةِ، فكيف يكونُ لهم فيها مَغفِرةٌ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: ليس بلازمٍ أن يكونَ المعنى: لهم مَغفِرةٌ مِن رَبِّهم فيها، بل يكونُ عَطفًا على قَولِه (لهم)، كأنَّه تعالى قال: لهم الثَّمَراتُ فيها، ولهم المَغفِرةُ قبْلَ دُخولِها.

الوَجهُ الثَّاني: هو أن يكونَ المعنى: لهم فيها مَغفِرةٌ، أي: رفْعُ التَّكليفِ عنهم،

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٧).

فيأكُلونَ مِن غيرِ حِسابٍ -فمَغفِرةٌ أي: تَجاوُزٌ عنهم، أي: إطلاقٌ في أعمالِهم-، بخِلافِ الدُّنيا؛ فإنَّ الثِّمارَ فيها على حِسابٍ أو عِقابٍ.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ الآكِلَ في الدُّنيا لا يخلو عن استِنتاجِ قَبيحٍ أو مَكروهٍ، كمَرَضٍ أو حاجةٍ إلى تبَرُّزٍ، فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ﴾، لا قَبيحٌ على الآكِلِ، بل مَستورُ القبائِحِ مَغفورٌ[1].

الوَجهُ الرَّابعُ: أن تكونَ المَغفِرةُ كنايةً عن الرِّضوانِ عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2] [التوبة: ٧٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابُ سُؤالٍ عن حالِ المُؤمِنين في الآخِرةِ، وعن رِزْقِ الكافِرين في الدُّنيا؛ فبيَّنَ اللهُ أنَّ مِن وِلايتِه المُؤمِنينَ أنْ يُعطِيَهم النَّعيمَ الخالِدَ بعْدَ النَّصرِ في الدُّنيا، وأنَّ ما أعطاهُ الكافِرينَ في الدُّنيا لا عِبرةَ به؛ لأنَّهم مَسْلوبونَ مِن فَهْمِ الإيمانِ؛ فحَظُّهم مِن الدُّنيا أكْلٌ وتَمتُّعٌ كحَظِّ الأنعامِ، وعاقِبتُهم في عالَمِ الخُلودِ العَذابُ؛ وهذا الاستِئنافُ وقَعَ اعتراضًا بيْنَ جُملةِ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [محمد: ١٠] وجُملةِ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ [محمد: ١٣] الآيةَ[3].

- وفي الآيةِ تَقابُلٌ بيْنَ قَولِه: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ﴾ وقَولِه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وفيه إيماءٌ إلى قَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((الدُّنيا سِجنُ المؤمنِ، وجنَّةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٧، ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٩).

الكافِرِ))[١].

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ أُسنِدَ إدخالُ الجنَّةِ إلى اللهِ، وأُهمِلَ إسنادُ النَّارِ، وخُولِفَ بيْنَ الجُملتينِ فِعليَّةً واسميَّةً؛ لِلْإيذانِ بسَبْقِ الرَّحمةِ، والإعلامِ بتَصْييرِ المُؤمِنينَ، والوعْدِ بأنَّ عاقِبتَهم أنَّ اللهَ يُدخِلُهم جنَّاتٍ، وأنَّ الكافِرين مَثْواهم النَّارُ، وهمُ الآنَ حاضِرون فيها، ولا يَدْرون، وكالبَهائمِ يَأْكُلون[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ عُدِلَ عن الإضافةِ لِتُنَوَّنَ، فقيل: ﴿مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ بالتَّعليقِ باللَّامِ؛ لِيُفادَ بالتَّنوينِ مَعنى التَّمكُّنِ مِن القَرارِ في النَّارِ ﴿مَثۡوٗى﴾، أي: مَثْوًى قَويًّا لهم؛ لأنَّ الإخبارَ عن النَّارِ في هذه الآيةِ حَصَلَ قبْلَ مُشاهَدتِها؛ فلذلك أُضِيفَت في قَولِه: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٢٨]؛ لأنَّه إخبارٌ عنها وهمْ يُشاهِدونَها في المَحشرِ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [محمد: ١٠]، وما بيْنَهما استِطْرادٌ اتَّصَلَ بَعضُه ببَعضٍ[٤].

- والمُرادُ بالقَريةِ: أهْلُها؛ بقَرينةِ قَولِه: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾، وإنَّما أُجرِيَ الإخبارُ على القريةِ وضَميرِها؛ لِإفادةِ الإحاطةِ بجَميعِ أهْلِها، وجَميعِ أحوالِهم،

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٣٤).

والحديث أخرجه مسلم (٢٩٥٦) من حديث أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ولِيَكونَ لِإسنادِ إخراجِ الرَّسولِ إلى القرْيةِ كلِّها وَقْعٌ مِن التَّبعةِ على جَميعِ أهْلِها، سَواءٌ منهم مَن تَولَّى أسبابَ الخروجِ، ومَن كان يَنظُرُ ولا يَنْهى(١).

- وهذا إطنابٌ في الوَعيدِ؛ لأنَّ مَقامَ التَّهديدِ والتَّوبيخِ يَقْتضي الإطنابَ؛ فمُفادُ هذه الآيةِ مُؤكِّدٌ لِمُفادِ قَولِه: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، فحصَلَ تَوكيدُ ذلك بما هو مُقارِبٌ له مِن إهلاكِ الأُمَمِ ذَواتِ القُرى والمُدنِ، بعْدَ أنْ شمِلَ قَولُه: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مَن كان مِن أهْلِ القُرى، وزاد هنا التَّصريحُ بأنَّ الَّذين مِن قبْلِهم كانوا أشدَّ قُوَّةً منهم؛ لِيَفْهَموا أنَّ إهلاكَ هؤلاء هيِّنٌ على اللهِ؛ فإنَّه لَمَّا كان التَّهديدُ السَّابقُ تَهديدًا بعَذابِ السَّيفِ مِن قَولِه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤] الآياتِ، قد يُلْقي في نُفوسِهم غُرورًا بِتَعذُّرِ استِئصالِهم بالسَّيفِ، وهمْ ما همْ مِن المَنَعةِ، وأنَّهم تَمنَعُهم قَريتُهم مكَّةُ، وحُرْمتُها بيْنَ العرَبِ، فلا يَقعُدون عن نُصْرتِهم، فرُبَّما اسْتخَفُّوا بهذا الوعيدِ، ولم يَسْتكينوا لهذا التَّهديدِ؛ فأعْلَمَهم اللهُ أنَّ قُرًى كَثيرةً كانتْ أشدَّ قُوَّةً مِن قَريتِهم، أهْلَكَهم اللهُ فلمْ يَجِدوا نَصيرًا، وبهذا يَظْهَرُ الموقعُ البَديعُ لِلتَّفريعِ في قَولِه: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾(٢).

- وفي قَولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ وَصْفُ القرْيةِ الأُولى بشِدَّةِ القُوَّةِ؛ لِلْإيذانِ بأوْلَويَّةِ الثَّانيةِ منها بالإهلاكِ؛ لِضَعْفِ قُوَّتِها، كما أنَّ وَصْفَ القَريةِ الثَّانيةِ في قَولِه: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ بإخْراجِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِلْإيذانِ بأوْلَويَّتِها به؛ لِقُوَّةِ جِنايتِها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٩٠، ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥).

- زادتْ إضافةُ القرْيةِ إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قَولِه: ﴿قَرْيَتِكَ﴾ ووَصْفُها بـ ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ مِن تَعْييرِ أهْلِها بمَذمَّةِ القَطيعةِ، ولِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن تَعليلِ إهْلاكِهم بسَببِ إخْراجِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن قَرْيتِه[١].

- وقولُه: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ بَيانٌ لِعَدَمِ خَلاصِهم مِن العَذابِ بِواسِطةِ الأعوانِ والأنصارِ، إثْرَ بَيانِ عَدَمِ خَلاصِهم منه بأنفُسِهم[٢].

- وفُرِّعَ على الإخبارِ بإهلاكِ اللهِ إيَّاهم الإخبارُ بانْتِفاءِ جنسِ النَّاصِرِ لهم، أي: المُنقِذِ لهم مِن الإهلاكِ، والمَقصودُ: التَّذكيرُ بأنَّ أمثالَ هؤلاء المُشرِكين لم يَجِدوا دافعًا يَدفَعُ عنْهم الإهلاكَ، وذلك تَعْريضٌ بتَأْييسِ المُشرِكينَ مِن إلْفاءِ ناصرٍ يَنصُرُهم في حَرْبِهم لِلمُسلِمينَ؛ قطْعًا لِما قدْ يُخالِجُ نُفوسَ المُشرِكينَ أنَّهم لا يُغلَبونَ لِتَظاهُرِ قَبائلِ العرَبِ معَهم؛ ولذلك حزَّبوا الأحزابَ في وَقْعةِ الخَنْدقِ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في بَيانِ حالِ الفريقَينِ المُؤمِنينَ والكافِرينَ. وتَقريرٌ لِتَبايُنِ حَالَيْ فَريقَي المُؤمِنينَ والكافِرين، وكَونِ المؤمنينَ في أعْلَى عِلِّيِّينَ، والكافِرينَ في أسفَلِ سافِلينَ، وبَيانٌ لِعِلَّةِ ما لِكلٍّ منهما مِن الحالِ[٤].

- أو هو تَفريعٌ على جُملةِ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١٣]؛ لِتَحقيقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٠٧).

أنَّهم لا ناصِرَ لهم تَحقيقًا يَرجِعُ إلى ما في الكلامِ مِن المَعنى التَّعريضيِّ؛ فهو شَبيهٌ بالاستِئنافِ البَيانيِّ جاء بأُسلوبِ التَّفريعِ. ويَجوزُ مع ذلك أنْ يَكونَ مُفرَّعًا على ما سَبَقَ مِن قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [محمد: ١٢] الآيةَ، فيَكونَ له حُكْمُ الاعتِراضِ؛ لأنَّه تَفريعٌ على اعتِراضٍ، وهذا تَفنُّنٌ في تَلْوينِ الكلامِ؛ لِتَجْديدِ نَشاطِ السَّامِعينَ، وهو مِن الأساليبِ الَّتي ابتَكَرَها القُرآنُ في كَلامِ العرَبِ(١).

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ مُستعمَلٌ في إنكارِ المُماثَلةِ الَّتي يَقْتضيها حَرْفُ التَّشبيهِ، والمَقصودُ مِن إنكارِ المُشابَهةِ بيْنَ هؤلاءِ وهؤلاءِ هو تَفضيلُ الفَريقِ الأوَّلِ، وإنكارُ زَعْمِ المُشرِكينَ أنَّهم خَيرٌ مِن المُؤمِنينَ(٢).

أو هو استِفهامُ تَوقيفٍ وتَقريرٍ؛ لأنَّ الجوابَ مَعلومٌ، كما أنَّك إذا قلْتَ: مَن يَفعَلِ السَّيِّئاتِ يَشْقَ، ومَن يَفعَلِ الحَسَناتِ يَسعَدْ، ثمَّ قلْتَ: الشَّقاءُ أحَبُّ إليك أم السَّعادةُ؟ فقد عُلِمَ أنَّ الجوابَ: السَّعادةُ؛ فهذا مَجرى هَمْزةِ التَّوقيفِ والتَّقريرِ(٣).

- والمُرادُ بانتِفاءِ المُماثَلةِ الكِنايةُ عن التَّفاضُلِ، والمَقصودُ بالفضْلِ ظاهرٌ، وهو الفريقُ الَّذي وقَعَ الثَّناءُ عليه(٤).

- وفي التَّعبيرِ بوَصْفِ الرَّبِّ وإضافتِه إلى ضَميرِ الفريقِ في قَولِه: ﴿أَفَمَن كَانَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٤).

عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تَنبيهٌ على زُلْفَى الفريقِ الَّذي تَمسَّكَ بحُجَّةِ اللهِ[١].

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿زُيِّنَ﴾ لِلمَجهولِ؛ لِيَشملَ المُزيِّنينَ لهمْ مِن أئمَّةِ كُفْرِهم، وما سوَّلَتْه لهم أيضًا عُقولُهم الآفِنةُ مِن أفْعالِهم السَّيِّئةِ اغْتِرارًا بالإلْفِ، أو اتِّباعًا لِلَّذَّاتِ العاجلةِ، أو لِجَلْبِ الرِّئاسةِ، أي: زَيَّنَ له مُزَيِّنٌ سُوءَ عَمَلِه، وفي هذا البِناءِ إلى المَجهولِ تَنبيهٌ لهم أيضًا لِيَرْجِعوا إلى أنفُسِهم، فيَتأمَّلوا فيمَن زيَّنَ لهم سُوءَ أعْمالِهم[٢].

- ولَمَّا كان تَزْيينُ أعمالِهم لهم يَبعَثُهم على الدَّأْبِ عليها، وكان يَتولَّدُ مِن ذلك إلْفُهم بها ووَلَعُهم بها، فتَصيرُ لهم أهواءً لا يَسْتطيعون مُفارَقَتَها؛ أُعقِبَ بقَولِه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾

- قولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ...﴾ الآيةَ، استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ما جَرَى مِن ذِكرِ الجنَّةِ في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [محمد: ١٢]، ممَّا يَستشرِفُ السَّامعُ إلى تَفصيلِ بَعضِ صِفاتِها، وإذ قد ذُكِرَ أنَّها تَجْري مِن تَحتِها الأنهارُ مُوهِمٌ السَّامعَ أنَّها أنْهارُ المِياهِ؛ لأنَّ جَرْيَ الأنهارِ أكمَلُ مَحاسِنِ الجنَّاتِ المَرْغوبِ فيها، فلمَّا فُرِغَ مِن تَوصِيفِ حالِ فَريقَيِ الإيمانِ والكُفْرِ، وممَّا أُعِدَّ لِكِلَيْهِما، ومِن إعلانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٩٣، ٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٩٤).

تَبايُنِ حالَيْهِما؛ ثُنِيَ العِنانُ إلى بَيانِ ما في الجنَّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقون، وخُصَّ مِن ذلك بَيانُ أنواعِ الأنهارِ. ولَمَّا كان ذلك مَوقِعَ الجُملةِ، كان قَولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مُبتدأً مَحذوفَ الخبَرِ، والتَّقديرُ: ما سَيُوصَفُ، أو ما سَيُتْلى عليكم، أو ممَّا يُتْلى عليكم. وقَولُه: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مُقدَّرٌ فيه استِفهامٌ إنكاريٌّ، دلَّ عليه ما سبَقَ مِن قَولِه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [محمد: ١٤]، والتَّقديرُ: أكمَنْ هو خالدٌ في النَّارِ؟! والإنكارُ مُتسلِّطٌ على التَّشبيهِ الَّذي هو بمَعنى التَّسويةِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ بدَلًا مِن جُملةِ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [محمد: ١٤]؛ فهي داخِلةٌ في حيِّزِ الاسْتِفهامِ الإنكاريِّ، والخبَرُ قَولُه: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾، أي: كحالِ مَن هو خالدٌ في النَّارِ؟! وذلك يَستلزِمُ اختِلافَ حالِ النَّارِ عن حالِ الجنَّةِ، فحصَلَ نحْوُ الاحتِباكِ[1]؛ إذ دلَّ (مَثَلُ الجنَّةِ) على (مَثَلِ أصْحابِها)، ودلَّ (مَثَلُ مَن هو خالدٌ في النَّارِ) على (مَثَلِ النَّارِ). والمَقصودُ: بَيانُ البَونِ بيْنَ حالَيِ المُسلِمينَ والمُشرِكينَ بذِكْرِ التَّفاوُتِ بيْنَ حالَيْ مَصيرِهما المُقرَّرِ في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ إلى آخِرِه؛ ولذلك لَمْ يُترَكْ ذِكْرُ أصحابِ الجنَّةِ وأصحابِ النَّارِ في خِلالِ ذِكْرِ الجنَّةِ والنَّارِ، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وقال بعْدَه: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾، ولِقَصْدِ زِيادةِ تَصويرِ مُكابَرةِ مَن يُسوِّي بيْنَ المُتمسِّكِ ببَيِّنةِ ربِّه وبيْن التَّابِعِ لِهَواهُ، أي: هو أيضًا كالَّذي يُسوِّي بيْنَ الجنَّةِ ذاتِ تلك الصِّفاتِ وبيْنَ النَّارِ ذاتِ صِفاتٍ ضِدِّها[2].

---

(١) تقدَّم تعريفه (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٤، ٩٥).

- قولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الآيةَ، افْتُتِحَت السُّورةُ الكَريمةُ ووُسِمَت بَراعةُ اسْتِهلالِها بصِيغةِ التَّقابُلِ في الَّذين كَفَروا، وثُنِّيَ في أنَّ اللهَ يُدخِلُ الَّذين آمَنوا سُلوكَ تلك الطَّريقةِ، وثُلِّثَ في قَولِه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ ذلك، وجُعِلَتْ هذه الآيةُ مُتفرِّعةً على هذه القَرينةِ بدَلالةِ أداةِ التَّشبيهِ، وجُعِلَ المُشبَّهُ والمُشبَّهُ به بتَمامِه مُمثَّلًا به، وإنَّما فُصِلَ بيْنَ الكَلامَينِ؛ لِيَقَعَ قَولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ اسْتِئنافًا؛ وذلك أنَّ الكافِرَ لَمَّا أُلقِيَ إليه نَفْيُ المُساواةِ بيْنَ مَن هو على بُرْهانٍ مِن ربِّه -وهو القُرآنُ المُعجِزُ-، وبيْنَ مَن رَكِبَ مَتْنَ الهَوى واتَّبَعَ الشَّهواتِ، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾، وقُدِّرَ أنَّه -لِعَدَمِ الْتِفاتِه إلى هذا الإنكارِ- بمَنزِلةِ مَن يُصِرُّ على إنْكارِه، ويَقولُ بالتَّسويةِ، فأوقَعَ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ إلى ساقتِه جَوابًا إلى هذا الإنكارِ المُتجدِّدِ، يَعني: إنْكارُكم هذا يَستلزِمُ التَّسويةَ بيْنَ حالتَيْ أهْلِ الجنَّةِ والنَّارِ، والنُّكتةُ في إيرادِ هذا الاسْتِئنافِ: هي أنَّ هذا مِن الأُمورِ المُقرَّرةِ الَّتي تَثبُتُ به الدَّعاوى؛ لِظُهورِ أدِلَّتِه، وأُدمِجَ فيه مَعنى التَّعريضِ أنَّهم في هذا الإصرارِ ممَّن هو خالِدٌ في النَّارِ، وبأنَّ الَّذي هو على بَيِّنةٍ مِن ربِّه في جنَّاتٍ تَجْري مِن تَحتِها الأنهارُ[1].

- وعُبِّرَ عن المَوعودينَ الجنَّةَ بالمُتَّقينَ؛ إيذانًا بأنَّ الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالحَ مِن بابِ التَّقْوى الَّذي هُو عبارةٌ عن فِعلِ الواجباتِ بأسْرِها، وتَرْكِ السَّيِّئاتِ عن آخِرِها[2].

- وجُملةُ ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ وما عُطِفَ عليها تَفصيلٌ للإجْمالِ الَّذي في جُملةِ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٥).

- قولُه: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ إطلاقُ الأنهارِ على ما هو مِن لَبَنٍ وخمْرٍ وعسَلٍ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أي: مُماثِلةً لِلْأنهارِ؛ فيَجوزُ أنْ تَكونَ المُماثَلةُ تامَّةً في أنَّها كالأنْهارِ مُستبحرةً في أخاديدَ مِن أرْضِ الجنَّةِ؛ فإنَّ أحوالَ الآخِرةِ خارقةٌ لِلْعادةِ المَعروفةِ في الدُّنيا، فإنَّ مَرأَى أنهارٍ مِن هذه الأصنافِ مَرأًى مُبهِجٌ. ويجوزُ أنْ تكونَ مُماثَلةُ هذه الأصنافِ لِلْأنهارِ في بَعضِ صِفاتِ الأنهارِ، وهي الاستِبْحارُ[(١)].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿أَنۡهَٰرٞ﴾ تَمثيلٌ لِمَا يَقومُ مَقامَ الأشربةِ في الجنَّةِ بأنواعِ ما يُستَلَذُّ منها في الدُّنيا بالتَّجريدِ عمَّا يَنقُصُها ويُنَغِّصُها، والتَّوصيفِ بما يُوجِبُ غَزارتَها واسْتِمرارَها[(٢)].

- قولُه: ﴿ءَاسِنٖ﴾ قُرِئَ ﴿أَسِنٖ﴾[(٣)] لِلمُبالَغةِ[(٤)].

- وفي قَولِه: ﴿لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ تَعريضٌ بخُمورِ الدُّنيا، كقَولِه تعالَى: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، أي: هي لذيذةٌ لهم، ليس فيها كراهةُ طَعمٍ وريحٍ، ولا غائلةُ سُكرٍ وخُمارٍ كخُمورِ الدُّنيا؛ فإنَّها لا لَذَّةَ في نفْسِ شُربِها، وفيها من المكارِهِ والغوائِلِ ما فيها[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٤١).

(٣) وهي قراءةُ ابنِ كثيرٍ، وقرأ الباقون بالمدِّ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٦).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧).

- وفي قَولِه: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وُصِفَتْ الخَمرُ بالمصدرِ (لذَّة)؛ للمُبالغةِ بجَعْلِها نفْسَ اللَّذَّةِ[١].

- وبُدِئَ مِن هذه الأنهارِ بالماءِ، وهو الَّذي لا يُستغنَى عنه في المَشروباتِ، ثمَّ باللَّبَنِ؛ إذ كان يَجري مَجرى الطُّعومِ في كثيرٍ مِن أقواتِ العَرَبِ وغَيرِهم، ثمَّ بالخَمرِ؛ لأنَّه إذا حصَلَ الرِّيُّ والمطعومُ تشَوَّقَت النَّفْسُ إلى ما تَلْتَذُّ به، ثمَّ بالعَسَلِ؛ لأنَّ فيه الشِّفاءَ في الدُّنيا مِمَّا يَعرِضُ مِن المشروبِ والمطعومِ؛ فهو مُتأخِّرٌ في الهيئةِ[٢].

وفيه وَجهٌ آخَرُ: لَمَّا كان أكثَرُ شَرابِهم بعدَ الماءِ اللَّبَنَ ثَنَّى به، ولَمَّا كان أكثَرُ ما بعد اللَّبَنِ الخَمرَ قال: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾، ولَمَّا كان العَسَلُ أعَزَّها وأقَلَّها أخَّرَه وإن كان أجَلَّها[٣]. وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه لَمَّا كان السِّياقُ للتَّعَجُّبِ في ضَربِ المَثَلِ -لأنَّه قَولٌ لا يَنْفَكُّ عن غَرابةٍ- بدأ بأنهارِ الماءِ؛ لِغَرابتِها في بلادِهم، وشِدَّةِ حاجتِهم إليها، ولَمَّا كان خُلُوُّها عن تغيُّرٍ أغرَبَ نفاه، ولَمَّا كان اللَّبَنُ أقَلَّ، فكان جَرْيُه أنهارًا أغرَبَ، ثَنَّى به، ولَمَّا كان الخَمرُ أعَزَّ ثلَّثَ به، ولَمَّا كان العَسَلُ أشرَفَها وأقَلَّها خَتَم به[٤].

- وقولُه: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ جِيءَ به لِمُقابَلةِ ما وُصِفَ مِن حالِ أهْلِ الجنَّةِ الَّذي في قَولِه: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، أي: أنَّ أهْلَ النَّارِ مَحرُومون مِن جَميعِ ما ذُكِرَ مِن المَشروباتِ، ولَيسوا بِذائقينَ إلَّا الماءَ الحميمَ الَّذي يُقطِّعُ أمْعاءَهُم بفَورِ سَقْيِه؛ ولذلك لم يُعرَّجْ هنا على

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢٠، ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٢٢، ٢٢٣).

طَعامِ أهْلِ النَّارِ الَّذي ذُكِرَ في قَولِه تعالَى: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٢- ٥٤]، وقَولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢] إلى قَولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾[1] [الصافات: ٦٦، ٦٧].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧، ٩٨).

الآيات (١٦-١٩)

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةًۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ءَانِفًا﴾: أي: مُنْذُ قَريبٍ، أو السَّاعةَ في أوَّلِ وقتٍ يَقرُبُ منها؛ مِن قَولِك: استأنَفْتُ الشَّيءَ: إذا ابتدَأْتَه، ورَجعْتَ إلى أوَّلِه، وأصلُ (أنف) هنا: يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ مِن أوَّلِه[(١)].

﴿طَبَعَ﴾: أي: خَتَمَ وربَطَ، يُقالُ: طَبَعَ اللهُ على قَلبِ الكافِرِ، أي: ختَمَ عليه فلا يَعي وَعظًا ولا يُوَفَّقُ لِخَيرٍ، وأصلُه يدُلُّ على التَّغطيةِ على الشَّيءِ، والاستيثاقِ منه، بألَّا يَدخُلَه شَيءٌ، ولا يَخرُجَ منه شَيءٌ[(٢)].

﴿يَنظُرُونَ﴾: أي: يَنْتظِرونَ؛ فالنَّظَرُ هنا بمعنى الانتظارِ، وأصْلُ (نظر): تأمُّلُ الشَّيءِ ومُعايَنَتُه، ومنه: نَظَرْتُه، أي: انتَظَرْتُه، كأنَّه يَنْظُرُ إلى الوَقْتِ الذي يأتي فيه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ١١٢) و(٧/ ١٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٨).

﴿بَغۡتَةً﴾: أي: فَجأةً، وأصلُ (بغت): يدُلُّ على مُفاجأةِ الشَّيءِ[١].

﴿أَشۡرَاطُهَا﴾: أي: عَلاماتُها، واحدُها: شَرَطٌ، ومنه الاشتِراطُ الَّذي يَشتَرِطُ النَّاسُ بَعضُهم على بعضٍ، إنَّما هي علاماتٌ يَجعَلونَها بيْنَهم، وأصلُ (شرط): يدُلُّ على عَلَمٍ وعَلامةٍ[٢].

﴿مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾: أي: مُتصَرَّفَكم وانتِشارَكم في أعمالِكم، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[٣].

﴿وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾: أي: مَقامَكم ومُستَقَرَّكم، وأصلُ (ثوي): يدُلُّ على إقامةٍ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

- قَولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾

قَولُه: ﴿ءَانِفًا﴾: فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ، أي: مُؤتَنِفًا أو مُبتَدِئًا. والثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ على الظَّرفِ، أي: ماذا قال السَّاعةَ[٥]؟

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٩٥).

- قَولُه تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾

المصدَرُ المؤوَّلُ ﴿أَن تَأْتِيَهُم ﴾ في محَلِّ نَصبٍ بَدَلُ اشتِمالٍ مِن ﴿ٱلسَّاعَةَ ﴾، أي: يَنظُرونَ إتيانَ السَّاعةِ. (أنَّى) اسمُ استِفهامٍ مَبنيٌّ في محَلِّ رَفعٍ، خَبَرٌ مُقدَّمٌ، على معنى: كيف لهم التَّذَكُّرُ؟! أو هو في محِلِّ نَصبٍ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، خَبَرٌ مُقَدَّمٌ على معنى: مِن أينَ لهم التَّذكُّرُ؟! ﴿ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ مُبتدَأٌ مُؤخَّرٌ. وفاعِلُ ﴿جَآءَتْهُمْ ﴾ ضَميرٌ مُستَتِرٌ جوازًا يعودُ على السَّاعةِ، وجملةُ الشَّرطِ ﴿إِذَا جَآءَتْهُمْ ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ المبتدأِ والخَبَرِ، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قَبْلَه، أي: إذا جاءَتْهم السَّاعةُ فمِن أين لهم التَّذكُّرُ، أو فكيفَ لهم التَّذَكُّرُ؟!

ويجوزُ أن يكونَ ﴿ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ فاعِلًا لـ﴿جَآءَتْهُمْ ﴾، والمُبتدأُ المؤخَّرُ مَحذوفًا، أي: فأنَّى لهم الخَلاصُ إذا جاءَتْهم ذِكْراهم[1]؟!

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا موقفَ المنافِقينَ مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ومِن هؤلاء الَّذين يَتمَتَّعونَ ويَأكُلونَ كما تأكُلُ الأنعامُ، وزُيِّنَ لهم سُوءُ عَمَلِهم: قَومٌ يَستَمِعونَ إليك -وهم المُنافِقونَ- فإذا خرَجوا مِن عِندِك -يا محمَّدُ- قالوا لِمَن حَضَر مَجلِسَك مِن أهلِ العِلمِ مِن الصَّحابةِ: ماذا قال مُحمَّدٌ مُنذُ وَقتٍ قَريبٍ؟!

أولئك هم الَّذين خَتَم اللهُ على قُلوبِهم فلم يُؤمِنوا، واتَّبَعوا أهواءَهم في الكُفرِ والتَّكذيبِ.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦١)، ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٢٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٧٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٩٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٦/ ٢٢٣).

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حالَ المؤمنينَ الصَّادقينَ، فيقولُ: والَّذين آمَنوا بالحَقِّ واتَّبَعوه زادَهم ما سَمِعوا مِنَ القُرآنِ وكلامِ النَّبيِّ إيمانًا وثَباتًا، وأعطاهم اللهُ التَّقْوى.

ثمَّ يوبِّخُ المنافقينَ، فيقولُ: فهل يَنتَظِرُ أولئك المنافِقونَ إلَّا القيامةَ تأتيهم فَجأةً، فقد جاءَتهم أماراتُها وعَلاماتُها، فمِن أينَ لهم الانتِفاعُ بالتَّذَكُّرِ إذا جاءَتْهم القيامةُ؟!

ثمَّ يقولُ تعالى: فاعلَمْ -يا محمَّدُ- أنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، واستَغفِرْ لِذَنْبِك، ولِذُنوبِ المؤمِنينَ والمؤمِناتِ، واللهُ يَعلَمُ تصَرُّفَكم وانتِشارَكم، ويَعلَمُ مَوضِعَ سُكونِكم وقَرارِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى حالَ الكافِرِ؛ ذكَرَ حالَ المنافِقِ بأنَّه مِن الكُفَّارِ[1].

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾.

أي: ومِن الكُفَّارِ قَومٌ يَستَمِعونَ إلى تِلاوتِك القُرآنَ -يا محمَّدُ-، أو إلى حديثِك في خُطَبِ الجُمُعةِ أو غيرِها، وهم المنافِقونَ[2].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾.

أي: فإذا خرَجَ أولئك المنافِقونَ مِن عِندِك -يا محمَّدُ- قالوا لِمَن حَضَر

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٨).

مَجلِسَك مِن أهلِ العِلمِ مِن الصَّحابةِ: ماذا قال مُحمَّدٌ مُنذُ وَقتٍ قَريبٍ[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال وهو على المِنبَرِ: ((وَيْلٌ لِأَقْماعِ القَولِ[٢]، ويْلٌ لِلمُصِرِّينَ الَّذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢).

قال ابن الجوزي: (وفي استفهامِهم قَولانِ؛ أحدُهما: لأنَّهم لم يَعْقِلوا ما يقولُ، ويدُلُّ عليه باقي الآيةِ. والثَّاني: أنَّهم قالوه استِهزاءً). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٨).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥).

قال الواحدي: (لم يَعقِلوا ما قاله النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِمَنعِ اللهِ تعالى إيَّاهم عن ذلك). ((الوسيط)) (٤/ ١٢٤).

وقال أيضًا: (وعلى هذا دلَّ كلامُ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عِكْرِمةَ، قال: «كان المنافِقونَ إذا جلَسوا عندَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَخرُجونَ فيَقولونَ: ماذا قال آنِفًا. ليس معهم قلوبٌ»، وعلى هذا دلَّ سياقُ الآيةِ، وهو قولُه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٤٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: السمعانيُّ، والبغوي، ابنُ عطية، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٩).

(٢) أقماع القولِ: الأقماعُ: جَمعُ قِمَعٍ، وهو الإناءُ الَّذي يُترَكُ في رُؤوسِ الظُّروفِ لِتُملَأ بالمائعاتِ مِن الأشربةِ والأدهانِ، والمرادُ: الَّذين آذانُهم كالقِمَعِ يَدخُلُ فيه سماعُ الحقِّ مِن جانبٍ، ويَخرُجُ مِن جانبٍ آخَرَ، لا يَستقِرُّ فيه. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (٤/ ١٠٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٩٧).

يُصِرُّونَ على ما فَعَلوا وهم يَعلَمونَ))[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾.

أي: أولئك هم الَّذين خَتَم اللهُ على قُلوبِهم، فهم لا يَعقِلونَ الحَقَّ، ولا يَفهَمونَه فَهْمًا يَنتَفِعونَ به[٢].

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾.

أي: تَرَكوا الحَقَّ، واتَّبَعوا ما دعَتْهم إليه أنفُسُهم مِنَ الباطِلِ والضَّلالاتِ[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّ المنافِقَ يَستَمِعُ ولا ينتَفِعُ، ويَستعيدُ ولا يَستفيدُ؛ بَيَّن أنَّ حالَ المؤمِنِ المُهتدي بخِلافِه؛ فإنَّه يَستَمِعُ فيَفهَمُ، ويَعمَلُ بما يَعلَمُ، والمنافِقُ يَستعيدُ، والمُهتدي يُفَسِّرُ ويُعيدُ[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾.

---

(١) أخرجه مُطوَّلًا أحمدُ (٦٥٤١)، والبخاريُّ في ((الأدب المفرد)) (٣٨٠)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١١٠٥٢)، وأخرجه الطبراني (١٣/ ٦٥١) (١٤٥٧٩) باختلافٍ يسيرٍ.
جوَّد إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٣/ ٢١١)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١/ ١٣٧)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١١/ ٩٩)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ١٢)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٨٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٠).

أي: والَّذين آمَنوا بالحَقِّ واتَّبَعوه زادهم ما سَمِعوا مِنَ القُرآنِ وكلامِ النَّبيِّ إيمانًا وعِلمًا، وعَمَلًا بالحَقِّ وثَباتًا عليه[١].

كما قال الله سبحانه وتعالى عن أصحابِ الكَهفِ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾.

أي: وأعطى اللهُ المُهتَدينَ في الدُّنيا تَقواهم إيَّاه، بتوفيقِهم للعَمَلِ بما أُمِروا به، والانتِهاءِ عمَّا نُهوا عنه[٢].

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾.

أي: فهل يَنتَظِرُ المنافِقونَ إلَّا مَجيءَ القيامةِ فَجأةً مِن غيرِ شُعورٍ بها، ولا استِعدادٍ لها[٣]؟!

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧).

﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾.

أي: فقد جاءَتهم مُقَدِّماتُ القيامةِ، وعَلاماتُ قُربِها[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ مِن أشراطِ السَّاعةِ: أن يُرفَعَ العِلمُ، ويَثبُتَ الجَهلُ، ويُشرَبَ الخَمرُ، ويَظهَرَ الزِّنا))[٢].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا بارِزًا للنَّاسِ، فأتاه رجُلٌ، فقال: ... يا رسولَ اللهِ، متى السَّاعةُ؟ قال: ما المَسؤولُ عنها بأعْلَمَ مِنَ السَّائلِ، ولكنْ سأُحَدِّثُكَ عن أشْراطِها: إذا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّها[٣]، فذاك مِن أشْراطِها، وإذا كانتِ العُراةُ الحُفاةُ رُؤوسَ النَّاسِ، فذاك مِن أشْراطِها، وإذا تَطاوَلَ رِعاءُ البَهْمِ[٤] في البُنْيانِ، فذاك من أشْراطِها))[٥].

وعن عَمرِو بن تَغلِبَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥).

(٢) رواه البخاري (٨٠)، ومسلم (٢٦٧١).

(٣) رَبَّها: أي: سيِّدَها، والمرادُ أن تَكثُرَ فُتوحُ بلادِ الكفرِ، فيَكثُرَ السَّراريُّ، فتَلِدُ الإماءُ الأولادَ مِن سادَتِهنَّ، وولدُ السَّيِّدِ بمَنزِلةِ السَّيِّدِ، فتَصيرَ الأمَةُ ولدَتْ ربَّها بهذا الاعتبارِ. وقيل: المرادُ: أن يَكثُرَ العُقوقُ مِن الأولادِ حتَّى يعامِلَ الولدُ أُمَّه مُعامَلةَ أَمَتِه بالسَّبِّ والإهانةِ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٢١٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٢٢).

(٤) البَهْم: بفتحِ الباءِ وإسكانِ الهاءِ، هي الصِّغارُ مِن أولادِ الغنمِ؛ الضَّأْنِ والمَعْزِ جميعًا، وقيل: أولادُ الضَّأنِ خاصَّةً، والمعنى: أنَّ أهلَ الفقرِ والحاجةِ تصيرُ لهم الدُّنيا حتَّى يَتباهَوا في البُنيانِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١/ ١٦٣)، ((عمدة القاري)) للعيني (١/ ٢٨٦).

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٩) واللفظ له.

((إنَّ مِن أشْراطِ السَّاعةِ: أن يَفيضَ المالُ، ويَكثُرَ الجَهلُ، وتَظهَرَ الفِتنُ، وتَفشُوَ التِّجارةُ))[(١)].

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾.

أي: فمِن أين لهم الانتِفاعُ بالتَّذَكُّرِ والنَّدَمِ والتَّوبةِ إذا جاءَتْهم القيامةُ، وقد فات وَقتُ الإيمانِ، وأُغلِقَ بابُ التَّوبةِ والعَمَلِ بالقُرآنِ[(٢)]؟!

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لبَيانِ المُناسَبةِ وُجوهٌ:

الأوَّلُ: هو أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨] قال: فاعلَمْ أنَّه لا إلهَ إلا اللهُ يأتي بالسَّاعةِ، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه النَّسائي (٤٤٥٦)، وأحمد (٢٤٠٠٩/ ٧٨) بنحوه، والحاكِمُ (٢١٤٧) واللَّفظُ له.
صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٩/ ٥٢٠)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٤٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥٥).
قال القرطبي: (التَّقديرُ: فمِن أين لهمُ التَّذكُّرُ إذا جاءَتْهمُ السَّاعةُ؟! قال معناه قَتادةُ وغيرُه. وقيل: فكيف لهم بالنَّجاةِ إذا جاءتْهم الذِّكرى عندَ مَجيءِ السَّاعةِ؟ قاله ابنُ زَيدٍ. وفي الذِّكرى وجْهان؛ أحدُهما: تذكيرُهم بما عَمِلوه مِن خَيرٍ أو شرٍّ. الثَّاني: هو دعاؤُهم بأسمائِهم تبشيرًا وتخويفًا). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٦).

كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨].

الثَّاني: أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾، وهي آتِيَةٌ، فكأنَّ قائلًا قال: متى هذا؟ فقال: فاعلَمْ أنَّه لا إلهَ إلا اللهُ، واشتَغِلْ بما عليك مِن الاستِغفارِ، وكُنْ في أيِّ وقتٍ مَستعِدًّا لِلِقائِها، ويُناسِبُه قولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

الثَّالِثُ: فاعلَمْ أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ يَنفَعكَ[1].

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

أي: فاعلَمْ -يا محمَّدُ- أنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ الَّذي لا تجوزُ العِبادةُ إلَّا له وَحْدَه دونَ ما سِواه[2].

عن عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن مات وهو يَعلَمُ أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ دخَلَ الجنَّةَ))[3].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

أي: واطلُبْ -يا محمَّدُ- مِن رَبِّكَ مَغفِرةَ ذُنوبِكَ، وذُنوبِ المؤمِنينَ مِن أُمَّتِكَ ذُكورًا وإناثًا؛ فيَستُرُها عليكم، ولا يُؤاخِذُكم بها[4].

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ نَبيِّه نُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٤٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٣١٧).

دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [نوح: ٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ حاكيًا دُعاءَ نبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقال سُبحانَه آمرًا نَبيَّه مُحمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه كان يدعو بهذا الدُّعاءِ: ((اللَّهُمَّ اغفِرْ لي خَطيئتي وجَهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلَمُ به مِنِّي، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي جِدِّي وهَزْلي، وخَطَئي وعَمْدي، وكُلُّ ذلك عندي، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسرَرتُ وما أعلَنتُ، وما أنت أعلَمُ به منِّي، أنت المقدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، وأنت على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ))[(١)].

وعن عاصم بن سُلَيمانَ الأحوَلِ، عن عبدِ اللهِ بنِ سَرْجِسَ رَضِيَ الله عنه قال: ((رأيتُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأكلتُ معه خُبزًا ولَحمًا -أو قال: ثَريدًا- قال: فقُلتُ له: أستَغفَرَ لك النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم؟ قال: نعَمْ، ولك، ثمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾))[(٢)].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((لَمَّا رأيتُ مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم طِيبَ نَفْسٍ قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ لي، فقال: اللَّهُمَّ اغفِرْ لعائِشةَ ما تقَدَّمَ مِن

(١) رواه البخاري (٦٣٩٩)، ومسلم (٢٧١٩) واللَّفظُ له.

(٢) رواه مسلم (٢٣٤٦).

ذَنْبِها وما تأخَّرَ، ما أسَرَّتْ وما أعلَنَتْ. فضَحِكَت عائِشةُ حتَّى سَقَط رأسُها في حِجْرِها مِنَ الضَّحِكِ! قال لها رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أيَسُرُّكِ دُعائي؟ فقالت: وما لي لا يَسُرُّني دُعاؤُك؟! فقال صلَّى الله عليه وسلَّم: واللهِ إنَّها لَدُعائي لِأُمَّتي في كُلِّ صَلاةٍ))[1].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا صلَّى على جِنازةٍ يقولُ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لِحَيِّنا ومَيِّتِنا، وشاهِدِنا وغائِبِنا، وصَغيرِنا وكَبيرِنا، وذَكَرِنا وأُنثانا، اللَّهُمَّ مَن أحيَيْتَه مِنَّا فأحْيِه على الإسلامِ، ومَن تَوَفَّيْتَه مِنَّا فتَوَفَّه على الإيمانِ، اللَّهُمَّ لا تَحرِمْنا أجْرَه، ولا تُضِلَّنا بَعْدَه))[2].

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾.

أي: واللهُ يَعلَمُ تصَرُّفَكم وحَرَكاتِكم، ويَعلَمُ مَوضِعَ سُكونِكم وقَرارِكم للرَّاحةِ[3].

---

(١) أخرجه البزَّارُ كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (٩/ ٢٤٦)، وابن حِبَّان (٧١١١) واللَّفظُ له. صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وقال الهيثمي: (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ غيرَ أحمدَ بنِ منصورٍ الرَّماديِّ، وهو ثقةٌ). وحَسَّن إسنادَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٥/ ٣٢٤)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٧١١١).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٣٢٠١)، والترمذيُّ بعد حديث (١٠٢٤)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠٩١٩)، وابنُ ماجه (١٤٩٨) واللفظ له، وأحمدُ (٨٨٠٩).
صَحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (٩٧)، وابن الملَقِّن في ((البدر المنير)) (٥/ ٢٧١)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٤٩٨)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٣٢٠١)، وقال ابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٣٥٦): (له شاهِدانِ وسَنَدُهما جيِّدٌ).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٦).
قيل: المرادُ بـ ﴿مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾: تصَرُّفُكم وحَركتُكم وانتِشارُكم في النَّهارِ، والمرادُ بـ (مَثْوَاكُمْ): مأواكم باللَّيلِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ كثير. =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مَن عَمِلَ بما عَلِمَ أورَثَه اللهُ عِلمَ ما لم يَعلَمْ، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا

= يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧).

وقيل: المرادُ بـ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾: مُتصَرَّفُكم في أعمالِكم وأشغالِكم. والمرادُ بـ(مَثْوَاكُمْ): مَرجِعُكم في الدُّنيا والآخرةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣).

وذهب القُرطبيُّ إلى العُمومِ، فقال: (﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ فيه خَمسةُ أقوالٍ:

أحدُها: يَعلَمُ أعمالَكم في تصَرُّفِكم وإقامتِكم.

الثَّاني: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في أعمالِكم نهارًا. ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في لَيلِكم نِيامًا.

وقيل: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدُّنيا. ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في الدُّنيا والآخِرةِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ.

وقال عِكْرِمةُ: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في أصلابِ الآباءِ إلى أرحامِ الأُمَّهاتِ. ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ مُقامَكم في الأرضِ.

وقال ابنُ كَيْسانَ: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ مِن ظَهرٍ إلى بَطنٍ إلى الدُّنيا. ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في القُبورِ.

قُلتُ: والعُمومُ يأتي على هذا كُلِّه، فلا يخفى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن حَرَكاتِ بني آدَمَ وسَكَناتِهم، وكذا جميعُ خَلْقِه. فهو عالِمٌ بجَميعِ ذلك قبْلَ كَونِه جُملةً وتَفصيلًا، أُولى وأُخرى، سُبحانَه! لا إلهَ إلَّا هو). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٢، ٢٤٣). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[1] [النساء: ٦٦- ٦٨].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ فيه الحَثُّ على الاستِعدادِ قبْلَ مُفاجأةِ الموتِ؛ فإنَّ مَوتَ الإنسانِ قيامُ ساعتِه[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ العِلمُ لا بُدَّ فيه مِن إقرارِ القَلبِ ومَعرفتِه بمعنى ما طُلِبَ منه عِلمُه، وتمامُه أن يَعمَلَ بمُقتَضاه. وهذا العِلمُ الَّذي أمَرَ اللهُ به -وهو العِلمُ بتوحيدِ اللهِ- فَرضُ عَينٍ على كُلِّ إنسانٍ، لا يَسقُطُ عن أحدٍ كائِنًا مَن كان، بل كُلٌّ مُضطَرٌّ إلى ذلك، والطَّريقُ إلى العِلمِ بأنَّه لا إلهَ إلَّا هو- أمورٌ:

أحدُها بل أعظَمُها: تدبُّرُ أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه الدَّالَّةِ على كَمالِه وعَظَمتِه وجلالتِه؛ فإنَّها توجِبُ بَذْلَ الجُهدِ في التَّألُّهِ له، والتَّعَبُّدَ للرَّبِّ الكامِلِ الَّذي له كُلُّ حَمدٍ ومَجدٍ وجَلالٍ وجَمالٍ.

الثَّاني: العِلمُ بأنَّه تعالى المنفَرِدُ بالخَلقِ والتَّدبيرِ، فيُعلَمُ بذلك أنَّه المنفَرِدُ بالأُلوهيَّةِ.

الثَّالثُ: العِلمُ بأنَّه المُنفَرِدُ بالنِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ؛ فإنَّ ذلك يُوجِبُ تَعَلُّقَ القَلبِ به ومحبَّتَه، والتَّألُّهَ له وَحْدَه لا شريكَ له.

الرَّابعُ: ما نَراه ونَسمَعُه مِن الثَّوابِ لأوليائِه القائِمينَ بتَوحيدِه مِن النَّصرِ والنِّعَمِ العاجِلةِ، ومِن عُقوبتِه لأعدائِه المُشرِكينَ به؛ فإنَّ هذا داعٍ إلى العِلمِ بأنَّه تعالى وَحْدَه المُستَحِقُّ للعبادةِ كُلِّها.

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧).

الخامِسُ: مَعرِفةُ أوصافِ الأوثانِ والأندادِ الَّتي عُبِدَتْ مع الله، واتُّخِذَتْ آلهةً، وأنَّها ناقِصةٌ مِن جميعِ الوُجوهِ، فقيرةٌ بالذَّاتِ، لا تَملِكُ لِنَفْسِها ولا لِعابِدِيها نفعًا ولا ضرًّا، ولا مَوتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، ولا يَنصُرونَ مَن عَبَدَهم، ولا يَنفعونَهم بمِثقالِ ذَرَّةٍ؛ مِن جَلْبِ خَيرٍ، أو دَفعِ شَرٍّ؛ فإنَّ العِلمَ بذلك يُوجِبُ العِلمَ بأنَّه لا إلهَ إلَّا هو، وبُطلانَ إلهيَّةِ ما سِواه.

السَّادِسُ: اتِّفاقُ كُتُبِ الله على ذلك، وتواطُؤُها عليه.

السَّابعُ: أنَّ خواصَّ الخَلقِ الَّذين هم أكمَلُ الخليقةِ أخلاقًا وعُقولًا، ورأيًا وصوابًا وعِلمًا -وهم الرُّسُلُ والأنبياءُ والعُلَماءُ الرَّبَّانيُّونَ-: قد شَهِدوا لله بذلك.

الثَّامنُ: ما أقامه اللهُ مِن الأدِلَّةِ الأُفُقيَّةِ والنَّفْسيَّةِ الَّتي تدُلُّ على التَّوحيدِ أعظَمَ دَلالةٍ، وتُنادي عليه بلِسانِ حالِها بما أودَعَها مِن لطائِفِ صَنعتِه، وبَديعِ حِكمتِه، وغرائِبِ خَلْقِه.

فهذه الطُّرُقُ الَّتي أكثَرَ اللهُ مِن دَعوةِ الخَلقِ بها إلى أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأبداها في كتابِه وأعادَها: عندَ تأمُّلِ العَبدِ في بَعضِها لا بُدَّ أن يكونَ عِندَه يقينٌ وعِلمٌ بذلك، فكيف إذا اجتَمَعت وتواطَأت واتَّفَقَت، وقامَتْ أدِلَّةُ التَّوحيدِ مِن كُلِّ جانبٍ؟ فهناك يَرسَخُ الإيمانُ والعِلمُ بذلك في قَلبِ العبدِ، بحيث يكونُ كالجِبالِ الرَّواسي، لا تُزَلزِلُه الشُّبَهُ والخَيالاتُ، ولا يَزدادُ -على تكَرُّرِ الباطِلِ والشُّبَهِ- إلَّا نُمُوًّا وكَمالًا.

هذا، وإنْ نظَرْتَ إلى الدَّليلِ العَظيمِ، والأمرِ الكبيرِ -وهو تدَبُّرُ هذا القُرآنِ العظيمِ، والتَّأمُّلُ في آياتِه- فإنَّه البابُ الأعظَمُ إلى العِلمِ بالتَّوحيدِ، ويَحصُلُ به مِن تفاصيلِه وجُمَلِه ما لا يَحصُلُ في غَيرِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ مِن اللَّطائِفِ القُرآنيَّةِ أنْ أمَرَ هنا بالعِلمِ قبْلَ الأمرِ بالعَمَلِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾، قال ابنُ عُيَيْنَةَ لَمَّا سُئِلَ عن فَضلِ العِلمِ: (ألم تَسمَعْ قَولَه حينَ بدَأَ به: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثمَّ أمَره بالعمَلِ، فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾)[1]. وترجَمَ البُخاريُّ في كتابِ العِلمِ مِن «صَحيحِه»[2]: بابُ العِلمِ قبْلَ القَولِ والعَمَلِ؛ لِقَولِ الله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فبدأَ بالعِلمِ[3].

٥- الاستِغفارُ والتَّوحيدُ بهما يَكمُلُ الدِّينُ، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ * وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾[4] [هود: ١-٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ فيه إعلامٌ بأنَّه يَجِبُ على الإنسانِ بعدَ تَكميلِ نَفْسِه السَّعيُ في تَكميلِ غَيرِه؛ لِيَحصُلَ التَّعاوُنُ على ما خُلِقَ العِبادُ له[5].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾، أي: هو عالِمٌ بجَميعِ أحوالِكم، لا يَخفى عليه شَيءٌ منها؛ فاحْذَروه[6]، والمَقصودُ: الحَثُّ على الخَوفِ وطَلَبِ المَغفرةِ مِن اللهِ الَّذي لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أحوالِ الخَلقِ[7].

---

(١) أخرجه أبو نُعَيم في ((حلية الأولياء)) (٧/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((صحيح البخاري)) (١/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل لابن تيمية)) (٢/ ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٦٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- السَّمعُ بلا عَقلٍ لا يَنفَعُ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾[١]، وذلك بناءً على أنَّهم لم يَعْقِلوا ما يقولُ.

٢- قَولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ مِن الأدِلَّةِ الدَّالَّةِ على وُجوبِ اتِّباعِ الصَّحابةِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى شَهِدَ لهم بأنَّهم أُوتوا العِلمَ، وإذا كانوا أُوتوا هذا العِلمَ كان اتِّباعُهم واجِبًا[٢].

٣- يُطبَعُ على قَلبِ العَبدِ باتِّباعِ الهَوى؛ قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ؛ حيثُ أخبَرَ سُبحانَه بالطَّابَعِ عنه، وباتِّباعِ الهوى عنهم[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ؛ حيثُ أخبَرَ سُبحانَه عن إعطائِهم التَّقْوى[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ حُجَّةٌ على المُرجِئةِ -المُنكِرينَ زيادةَ الإيمانِ ونُقصانَه- في زيادةِ الهُدى[٦]. وكذلك قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ الآيةَ، وقَولُه: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ الآيةَ؛ ففي هذه الآياتِ وغَيرِها التَّصريحُ بزيادةِ الإيمانِ، وتدُلُّ هذه الآياتُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٥١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بدَلالةِ الالتِزامِ على أنَّه يَنقُصُ أيضًا؛ لأنَّ كلَّ ما يَزيدُ يَنقُصُ، وجاء مُصرَّحًا به في أحاديثِ الشَّفاعةِ الصَّحيحةِ[١]، وهذا مِن أعظَمِ أُصولِ أهلِ السُّنَّةِ الَّذي فارَقوا به الجَهميَّةَ والمُرجِئةَ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ أنَّ المعاصيَ سَبَبٌ لِنسيانِ العِلمِ؛ وَجْهُه: أنَّه إذا كانتِ الهدايةُ سَببًا لزيادةِ العِلمِ، فالمَعصيةُ سَبَبٌ لِنُقصانِها[٣]، فمَن أراد سَعةَ العِلمِ وثُبوتَ العِلمِ فعليه بطاعةِ اللهِ؛ لأنَّه كُلَّما اهْتَدى الإنسانُ بهدايةِ اللهِ ازداد هُدًى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[٤].

٨- اللهُ سُبحانَه وتعالى هو الهادي وهو المُضِلُّ لِمَن يشاءُ، لكِنَّ سبَبَ الهدايةِ وسبَبَ الإضلالِ يكونُ مِن العبدِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾، فإذا علِمَ اللهُ مِن العَبدِ أنَّ نِيَّتَه الهُدى وطلَبَه الهُدى هَداه، وإذا زاغَ القَلبُ أزاغَه اللهُ، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٥] [الصف: ٥].

٩- إنَّ كُلَّ مَنِ استقرأَ أحوالَ العالَمِ وَجَدَ المسلمينَ أحَدَّ وأسَدَّ عَقلًا، وأنَّهم يَنالونَ في المدَّةِ اليسيرةِ مِن حقائقِ العُلومِ والأعمالِ أضعافَ ما يَنالُه غَيرُهم في قُرونٍ وأجيالٍ، وكذلك أهلُ السُّنَّةِ والحَديثِ، تَجِدُهم كذلك مُتمَتِّعينَ؛ وذلك لأنَّ اعتِقادَ الحقِّ الثَّابتِ يُقَوِّي الإدراكَ ويُصَحِّحُه؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) (٣/ ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٥).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٣٥٢).

هُدًى ﴾[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ثَوابَ الحَسَنةِ الحَسَنةُ بَعدَها[٢].

١١- قال الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ في هذه الآيةِ لَطيفةٌ، وهي: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم له أحوالٌ ثلاثةٌ: حالٌ مع اللهِ، وحالٌ مع نَفْسِه، وحالٌ مع غيرِه؛ فأمَّا مع اللهِ فوَحِّدْه، وأمَّا مع نَفْسِك فاستَغفِرْ لِذَنْبِك، واطلُبِ العِصمةَ مِن اللهِ، وأمَّا معَ المُؤمِنينَ فاستَغفِرْ لهم، واطلُبِ الغُفرانَ لهم مِنَ اللهِ تعالى[٣].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فيه سؤالٌ: النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان عالِمًا بذلك، فما معنى الأمرِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المعنى: فاثبُتْ على ما أنت عليه مِنَ العِلمِ، كقَولِ القائِلِ لجالِسٍ يُريدُ القِيامَ: اجلِسْ، أي: لا تَقُمْ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ الخِطابَ مع النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والمرادُ قَومُه[٤].

١٣- ينبغي للإنسانِ إذا أراد أنْ يُؤدِّيَ عِبادةً أن يَفهَمَ أحكامَها أوَّلًا قبْلَ أن يَتلبَّسَ بها؛ لئَلَّا يَقعَ في محظورٍ منها، أو في تَركِ واجِبٍ؛ لأنَّ هذا هو الَّذي أمَرَ اللهُ به، فقال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ فبَدَأ بالعِلمِ قبْلَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

العمَلِ: (اعلَمْ) و(استَغفِرْ)[١].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ استدَلَّ به مَن أجاز الصَّغائِرَ على الأنبياءِ[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أنَّ المَدعُوَّ له يَنتَفِعُ بدُعاءِ الغَيرِ[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ قيلَ: أرْجى آيةٍ للمُؤمِنينَ هذه الآيةُ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ أمَرَ رسولَه عليه السَّلامُ أن يَستغفِرَ لهم، فلا يُحتمَلُ ألَّا يَستغفِرَ وقد أمَرَه مَوْلاه بالاستِغفارِ، ثمَّ لا يُحتمَلُ أيضًا أنَّه إذا استغفَرَ لهم على ما أمَرَه به فلا يُجيبَ له[٤]، ولا نَشُكُّ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فعَلَ ما أمَرَه اللهُ به مِن الاستِغفارِ للمُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ؛ فهذا دُعاءٌ لا نَشُكُّ -إنْ شاء اللهُ- أنَّ اللهَ قد أجابَه لِنُوحٍ وإبراهيمَ ومُحمَّدٍ والملائكةِ؛ فمَن مات على الإيمانِ فهو داخِلٌ تحتَ الدَّعَواتِ المَذكوراتِ -إنْ شاء اللهُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢١/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٨).

قال ابن تيميَّة: (تنازَعوا: هل يقَعُ مِن الأنبياءِ بعضُ الصَّغائرِ مع التَّوبةِ منها، أو لا يقعُ بحالٍ؟ فقال بعضُ مُتكلِّمي الحديثِ وكثيرٌ مِن المتكلِّمينَ مِن الشِّيعةِ والمُعتزِلةِ: لا تقعُ منهمُ الصَّغيرةُ بحالٍ، وزاد الشِّيعةُ حتَّى قالوا: لا يقعُ منهم لا خطأٌ ولا غيرُ خطأٍ. وأمَّا السَّلفُ وجمهورُ أهلِ الفقهِ والحديثِ والتَّفسيرِ وجمهورُ متكلِّمي أهلِ الحديثِ مِن الأشعريَّةِ وغيرِهم فلم يَمنعوا وُقوعَ الصَّغيرةِ إذا كان مع التَّوبةِ؛ كما دلَّت عليه النُّصوصُ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ؛ فإنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابينَ. وإذا ابتُلِيَ بعضُ الأكابرِ بما يَتوبُ منه فذاك لِكَمالِ النِّهايةِ، لا لِنَقصِ البِدايةِ). ((المُستدرَك على مجموع الفتاوى)) (١/ ٢٠٨). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٧/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٧٥)، ((روح البيان)) للخَلْوتي (٨/ ٥١١).

(٥) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٥١).

١٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ ذِكرُ المؤمِناتِ بعدَ المُؤمِنينَ اهتِمامٌ بهِنَّ في هذا المَقامِ، وإلَّا فإنَّ الغالِبَ اكتِفاءُ القُرآنِ بذِكرِ المؤمِنينَ، وشُمولُه للمُؤمِناتِ على طريقةِ التَّغليبِ؛ للعِلمِ بعُمومِ تكاليفِ الشَّريعةِ للرِّجالِ والنِّساءِ، إلَّا ما استُثنيَ مِن التَّكاليفِ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ جانِبٍ آخَرَ مِن اسْتِهزائِهم وتَعنُّتِهم -على قولٍ-؛ فقدْ كانوا يَحضُرون مَجلِسَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيَسْمَعون كَلامَه ولا يَعُونَه، ولا يُلْقُون إليه بالًا، فإذا خَرَجوا مِن المَجلِسِ سأَلوا أهْلَ العِلمِ مِن الصَّحابةِ: ماذا قال السَّاعةَ؟ على جِهةِ الاسْتِهزاءِ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وما كان يَقولُه، أو اسْتِعلامًا -على قولٍ آخَرَ-؛ إذ لم يُلْقوا له آذانَهم تَهاوُنًا به[2]، فما كانوا يُبالونَ بما يَتلو عليهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الآياتِ والهدَى، وأيضًا لِبَلادَتِهم وقِلَّةِ فَهمِهم، فلا يَعقِلون ما يُقالُ[3].

- والاستِماعُ: أشدُّ السَّمْعِ وأقواهُ، أي: يَستمِعون باهتِمامٍ يُظهِرون أنَّهم حَرِيصونَ على وَعْيِ ما يَقولُه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّهم يُلقُون إليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٩).

بالَهُم، وهذا مِن استِعمالِ الفِعلِ في مَعنى إظْهارِه، لا في مَعنى حُصولِه[١].

- قولُه: ﴿وَمِنْهُم يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، أي: يَستمِعون إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن القُرآنِ وما يَقولُه مِن الإرشادِ، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَسْتَمِعُ﴾؛ لِيَشملَ ذلك[٢].

- قولُه: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ﴾ سِياقُ الكَلامِ يدُلُّ على ذَمِّ هذا السُّؤالِ؛ لِقَولِه عَقِبَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ فهو سُؤالٌ يُنبِئُ عن مَذمَّةِ سائِلِيه، فإنْ كان سُؤالُهم حَقيقةً، أنْبَأَ عن قِلَّةِ وَعْيِهم لِمَا يَسْمَعونَه مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فهمْ يَسْتعيدونَه مِن الَّذين عَلِمُوه؛ فلَعلَّ اسْتِعادتَهم إيَّاهُ لِقَصْدِ أنْ يَتدارَسُوه إذا خَلَوا معَ إخْوانِهم؛ لِيَختَلِقوا مَغامِزَ يُهيِّئونَها بيْنَهم، أو أنْ يُجيبوا مَن يَسألُهم مِن إخْوانِهم عمَّا سَمِعوه في المجلِسِ الَّذي كانوا فيه. ويَجوزُ أنْ يكونَ السُّؤالُ على غَيرِ حَقيقتِه ناوينَ به الاسْتِهزاءَ، يُظهِرون لِلْمؤمنينَ اهْتمامَهم باسْتِعادةِ ما سَمِعوه ويَقولونَ لإخوانِهم: إنَّما نحنُ مُستهزِئون، أو أنْ يكونَ سُؤالُهم تَعريضًا بأنَّهم سَمِعوا كَلامًا لا يَستبِينُ المُرادُ منه؛ لإدْخالِ الشَّكِّ في نُفوسِ مَن يُحِسُّون منْهم الرَّغبةَ في حُضورِ مَجالِسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَعريضًا بقِلَّةِ جَدْوى حُضورِها. ويَجوزُ أنْ تكونَ الآيةُ أشارَتْ إلى حادثةٍ خاصَّةٍ ذكَرَ فيها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُنافِقينَ وأحوالَهم، وعَلِمَ الَّذين كانوا حاضِرين منهم أنَّهم المَعنيُّون بذلك، فأرادوا أنْ يَسألُوا سُؤالَ اسْتِطلاعٍ: هل شَعَرَ أهْلُ العِلمِ بأنَّ أولئك همُ المَعنيُّون؟ فيَكونَ مَفعولُ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ مَحْذوفًا؛ لِلعِلمِ به عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٠٠، ١٠١).

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ قولَهم: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ سُؤالٌ غَريبٌ مِن شَأْنِه إثارةُ سُؤالِ مَن يَسأَلُ عن سَببِ حُصولِه[١].

- وفي قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ جِيءَ باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بعْدَ ذِكرِ صِفاتِهم؛ تَشْهيرًا بهم[٢]. وكذلك جِيءَ بالمَوصولِ وصِلَتَيْه خَبرًا عن اسمِ الإشارةِ؛ لإفادةِ أنَّ هؤلاء المُتميِّزينَ بهذه الصِّفاتِ همْ أشخاصُ الفَريقِ المُتقرِّرِ بيْن النَّاسِ أنَّهم فَريقٌ مَطبوعٌ على قُلوبِهم؛ لأنَّه قدْ تَقرَّرَ عِندَ المُسلِمينَ أنَّ الَّذين صَمَّموا على الكُفْرِ همْ قد طبَعَ اللهُ على قُلوبِهم، وأنَّهم مُتَّبِعون لأهوائِهم؛ فأفادَتْ أنَّ هؤلاء المُستمِعين زُمرةٌ مِن ذلك الفَريقِ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ وما فُرِّعَ عنْها مِن قَولِه: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾، والواوُ اعتِراضيَّةٌ، والمَقصودُ مِن هذا الاعتِراضِ مُقابَلةُ فَريقِ الضَّلالةِ بفَريقِ الهِدايةِ على الأُسلوبِ الَّذي أُقِيمَتْ عليه هذه السُّورةُ، كما تَقدَّمَ في أوَّلِها؛ فهذا أُسلوبٌ مُستمِرٌّ وإنِ اختَلَفَت مَواقِعُ جُمَلِه[٤].

- وإضافةُ التَّقْوى إلى ضَميرِ (الَّذِينَ اهْتَدَوْا) إيماءٌ إلى أنَّهم عُرِفوا بها، واختُصَّتْ بهم[٥].

- وفي إسنادِ ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ إلى اللهِ تعالى، وإسنادِ مُتابَعةِ الهَوى إليهم؛ إيماءٌ إلى مَعنى قَولِ إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وتَلويحٌ إلى أنَّ مُتابَعةَ الهَوى مَرَضٌ رُوحانيٌّ، ومُلازَمةَ التَّقوى دَواءٌ إلَهيٌّ؛ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾[1] [الإسراء: ٨٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ تفريعٌ على ما مَضَى مِن وَصْفِ أحوالِ الكافِرينَ -من قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾- الشَّامِلةِ لِأحوالِ الفَريقين، ففُرِّعَ عليها أنَّ كِلا الفَريقَينِ يَنتظِرون حُلولَ السَّاعةِ؛ لِيَنالوا جَزاءَهُم على سُوءِ كُفْرِهم؛ فضميرُ ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ مرادٌ به الكافِرونَ، فالكلامُ تَهديدٌ ووَعيدٌ، ولأنَّ المُؤمِنينَ يَنتظِرون أُمورًا أُخَرَ؛ مِثلَ النَّصرِ والشَّهادةِ، قال تَعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ الآيةَ[2] [التوبة: ٥٢].

- قولُه: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ الاستِفهامُ إنكارٌ مَشوبٌ بتَهكُّمٍ، وهو إنْكارٌ وتَهكُّمٌ على غائبينَ، مُوجَّهٌ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: لا تَحسَبْ تَأخيرَ مُؤاخَذتِهم إفلاتًا مِن العِقابِ؛ فإنَّهم مُرْجَوْنَ إلى السَّاعةِ[3].

- والقَصْرُ الذي أفادَهُ الاستِثناءُ ﴿ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ في قَولِه: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ قَصْرٌ ادِّعائيٌّ[4]؛ نُزِّلَ انتِظارُهم ما يَأْملونَه مِن المَرْغوباتِ في الدُّنيا مَنزِلةَ العَدَمِ؛ لِضآلَةِ أمْرِه، بعْدَ أنْ نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَنتظِرون -فيما يَنتظِرون- السَّاعةَ؛ لأنَّهم -لِتَحقُّقِ حُلولِه عليهم- جَديرون بأنْ يَكونوا مِن

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٤٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٠٢، ١٠٣).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٥٩).

مُنتظِريها[١].

- وقولُه: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ تَعليلٌ لِمُفاجأةِ السَّاعةِ، لا لإتيانِها مُطلقًا، على مَعنى أنَّه لمْ يَبْقَ مِن الأُمورِ المُوجِبةِ لِلتَّذكُّرِ أمْرٌ مُترقَّبٌ يَنتظِرونَه سِوى إتيانِ نفْسِ السَّاعةِ؛ إذْ قد جاءَ أشْراطُها، فلمْ يَرفَعُوا لها رأسًا، ولم يَعُدُّوها مِن مَبادئِ إتْيانِها؛ فيكونُ إتيانُها بطَريقِ المُفاجأةِ لا مَحالةَ[٢].

- قولُه: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ (أنَّى) استِفهامٌ إنكاريٌّ، أي: كيف يَحصُلُ لهم الذِّكرى إذا جاءَتْهم السَّاعةُ؟! والمَقصودُ: إنكارُ الانتِفاعِ بالذِّكرى حِينَئذٍ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ حُكْمٌ بخَطئِهم وفَسادِ رأْيِهم في تَأْخيرِ التَّذكُّرِ إلى إتيانِها ببَيانِ اسْتِحالةِ نفْعِ التَّذكُّرِ حِينَئذٍ، أي: وكيفَ لهم ذِكْراهُم إذا جاءتْهُم؟! على أنَّ (أنَّى) خَبَرٌ مُقدَّمٌ، و﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾ مُبتدَأٌ، و﴿إِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ اعتِراضٌ وُسِّطَ بيْنَهما رمْزًا إلى غايةِ سُرْعةِ مَجيئِها، وإطلاقُ المَجيءِ عن قَيدِ البَغتةِ؛ لِمَا أنَّ مَدارَ اسْتِحالةِ نفْعِ التَّذكُّرِ كَونُه عِندَ مَجيئِه مُطلقًا، لا مُقيَّدًا بقَيدِ البَغتةِ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ تَفريعٌ على جَميعِ ما ذُكِرَ مِن حالِ المُؤمِنينَ وحالِ الكافِرين؛ لَمَّا ذكَرَ حالَ المُؤمِنينَ وحالَ الكافِرين، وفُصِلَ بيْن وصْفَيْهما مِن السَّعادةِ والشَّقاوةِ، مِن مُفتتَحِ السُّورةِ مرَّةً بعْدَ أُخرى؛ قال: إذا عَلِمْتَ أنَّ الأمْرَ كما ذُكِرَ مِن سَعادةِ هؤلاءِ وشَقاوةِ هؤلاءِ، فاثْبُتْ على ما أنتَ عليه مِن العِلْمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٧).

بوَحدانيَّةِ اللهِ، وعلى التَّواضُعِ وهضْمِ النَّفْسِ باستِغْفارِ ذَنْبِك وذُنوبِ مَن على دِينِك، والتَّفريعُ هذا مَزيدُ مُناسَبةٍ لِقَولِه آنِفًا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[1] [محمد: ١١].

- والأمْرُ في قَولِه: ﴿فَٱعْلَمْ﴾ كِنايةٌ عن طَلَبِ العِلْمِ، وهو العمَلُ بالمَعلومِ، وذلك مُستعمَلٌ في طَلَبِ الدَّوامِ عليه؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد عَلِمَ ذلك وعَلِمَه المُؤمِنون، وإذا حصَلَ العِلمُ بذلك مرَّةً واحدةً تَقرَّرَ في النَّفْسِ؛ لأنَّ العِلمَ لا يَحتمِلُ النَّقيضَ، فليس الأمْرُ به بعْدَ حُصولِه لِطَلَبِ تَحصيلِه، بلْ لِطَلَبِ الثَّباتِ[2].

- والأمْرُ في قَولِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ لِطَلَبِ تَجديدِ ذلك إنْ كان قد عَلِمَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن قبْلُ وعَمِلَه، أو هو لِطَلَبِ تَحصيلِه إنْ لم يكُنْ فَعَله مِن قبْلُ[3].

- قولُه: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، أي: لِذُنوبِهم، وفي إعادةِ الجارِّ تَنْبيهٌ على اختِلافِ مُتَعلَّقَيه جِنْسًا، وفي حَذْفِ المُضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه مُقامَهُ إشْعارٌ بعَراقتِهم في الذَّنْبِ -فكأنَّ ذَواتَهم عَينُ الذُّنوبِ- وفَرْطِ افتِقارِهم إلى الاستغفارِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٤، ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢١١).

- واللَّامُ في قَولِه: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لامُ العِلَّةِ، أو بمَعْنى (عن)، والمَفعولُ مَحذوفٌ، أي: اسْتغْفِرِ الذُّنوبَ مِن أجْلِ المُؤمِنينَ، وفي الكَلامِ حَذْفٌ، تَقديرُه: ولِلْمؤمِنينَ لِذُنوبِهم[1].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ تَذْييلٌ جامِعٌ لِأحوالِ ما تَقدَّمَ؛ فالمُتقلَّبُ: مَصدرٌ بمَعنى التَّقلُّبِ؛ أُوثِرَ جَلْبُه هنا لِمُزاوَجةِ قَولِه: ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٠-٢٤)

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾: أي: لا نَسْخَ فيها، أو مُحكَمةٌ بالبَيانِ والفرائِضِ، والمُحْكَمُ: ما لا يَعرِضُ فيه شُبهةٌ مِن حيثُ اللَّفظُ، ولا مِن حيثُ المعنى، وأصلُ (حكم): يدُلُّ على المَنعِ[1].

﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾: قيل: هو أفعَلُ، مِنَ الوَلْيِ: وهو القُربُ، ومَعناه التَّوَعُّدُ والتَّهَدُّدُ، أي: وَلِيَهم المكروهُ، وقارَبهم ما يُهلِكُهم. وقيل: وَعيدٌ بمعنى: فوَيلٌ لهم، وأصلُ أَوْلى: أَوْيَلُ، مأخوذٌ مِنَ الوَيلِ، أي: أشَدُّ وَيلًا، فوقَعَ فيه قَلبٌ، وقيل غيرُ ذلك[2].

﴿عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: أي: جَدَّ الأمرُ وفُرِض القِتالُ، والعزمُ والعزيمةُ: عقْدُ القلبِ على إمضاءِ الأمرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٥٠)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (١٠/ ٤٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٤١١)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٤٠/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٨)، ((الهداية =

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾: أي: لَعلَّكم، يُقالُ: عسَى زَيدٌ أنْ يخرُجَ، أي: لَعَلَّه يَخرُجُ، وعسَى كلمةُ تَرَجٍّ، تقولُ: عسَى يكونُ كذا. وهي تدُلُّ على قُربٍ وإمكانٍ، فهي لِمُقارَبةِ الأمرِ على سبيلِ الرَّجاءِ والطَّمعِ، أي: لِتَوقُّعِ حُصولِ ما لم يَحصُلْ، سواءٌ يُرْجَى حُصولُه عن قريبٍ أو بعدَ مُدَّةٍ مديدةٍ(١).

﴿أَرْحَامَكُمْ ﴾: أي: ذَوِي قراباتِكم، والرَّحِمُ هو النَّسَبُ والاتِّصالُ الَّذي يَجمَعُه رحِمُ والِدَةٍ فسُمِّيَ باسمِه، وأصلُ (رحم): يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطفِ والرَّأفةِ؛ سُمِّيَ به رَحِمُ المرأةِ؛ لأنَّ منه يكونُ ما يُرحَمُ ويُرَقُّ له مِن وَلَدٍ(٢).

﴿لَعَنَهُمْ ﴾: أي: أخْزاهم وأبْعَدَهم وطَرَدَهم مِن رَحمتِه، وأصلُ اللَّعْنِ: يدُلُّ

= إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٧١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٣٥).

قال ابنُ المُظَفَّرِ الرَّازيُّ: (لقائلٍ أن يقولَ: كيف دخلَتْ «هلْ» وهي مِن حروفِ الاستِفهامِ على «عسى» وهي مِن أفعالِ التَّرجِّي، وهو مُفَسَّرٌ بـ«لَعَلَّ»؟ وهل يُقالُ: هل لَعلَّك تَزورُني؟! ثمَّ كيف قال: إنْ أعرَضْتُم أن تُفسِدوا؟ وهل يقالُ: إن زُرْتَني أن أُكرِمَك؟

والجواب: أنَّ «هلْ» مِن حروفِ الاستِفهامِ، ولكنَّه هاهنا استِفهامُ التَّقريرِ؛ لأنَّه مِن الله تعالى. و«عسى» و«لَعلَّ» مِن اللهِ تعالى واجِبانِ، وأمَّا «إن أعرَضْتُم أن تُفسِدوا» فعلى الإضمارِ، يعني: إن أعرَضْتُم يكونُ حالُكم أن تُفسِدوا، وإن وليتُم أمرَ النَّاسِ يكونُ حالُكم أن تَقطَعوا أرحامَكم.

ويجوزُ أن يكونَ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، تقديرُه: فهل عسَيْتُم أن تُفسِدوا في الأرضِ إن تَوَلَّيْتُم.

ويجوزُ أن يُقالَ: عسى أن تَسُرَّني إن زُرْتَني.

وإذا كانت «هلْ» استِفهامَ تقريرٍ هاهنا، و«عسى» مِن الله واجبًا؛ يكونُ المعنى -واللهُ أعلَمُ: إنَّكم إن تَولَّيْتُم عن القرآنِ والعمَلِ به تُفسِدوا في الأرضِ، أو إنَّكم إن وليتُم أمْرَ النَّاسِ تُفسِدوا في الأرضِ وتُقَطِّعوا أرحامَكم). ((مباحث التفسير)) (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٨)، ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (١/ ٢٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

على الطَّردِ والإبعادِ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾

(**أَولَى**): فيه عِدَّةُ أوجُهٍ:

أَحَدُها: أنَّه مُبتدَأٌ مَرفوعٌ. و﴿لَهُمْ﴾: جارٌّ ومجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ خبَرٌ، وهي كَلِمةُ تهديدٍ ووعيدٍ، أي: فوَيلٌ لهم، أو الهلاكُ لهم، وسَوَّغ الابتِداءَ بالنَّكرةِ كَوْنُه دُعاءً.

الثَّاني: أنَّ (أَولَى) خبرٌ لِمُبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: فالعِقابُ أو الهلاكُ أَولى لهم، أي: أقرَبُ وأَدنى.

الثَّالِثُ: أنَّ (أَولَى): مُبتدأٌ. و﴿لَهُمْ﴾ مُتعَلِّقٌ به، واللَّامُ بمعنى الباءِ. و﴿طَاعَةٌ﴾ في الآيةِ التَّاليةِ خبَرٌ عنه، والتَّقديرُ: أَولَى بهم طاعةٌ دونَ غَيرِها.

الرَّابعُ: أنَّ (أَولَى): فِعلٌ ماضٍ، وفاعِلُه مُضمَرٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: قارَبَهم ووَلِيَهم ما يُهلِكُهم، واللَّامُ في ﴿لَهُمْ﴾ زائِدةٌ في المفعولِ.

الخامِسُ: أنَّه فِعلٌ ماضٍ، وفاعِلُه ضَميرُ اللهِ عزَّ وجلَّ، واللَّامُ مَزيدةٌ في المفعولِ الأوَّلِ، والمفعولُ الثَّاني محذوفٌ، والتَّقديرُ: أَوْلاهم اللهُ تعالى ما يَكرَهونَ. أو اللَّامُ غيرُ مَزيدةٍ، والمفعولُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: أدنَى اللهُ عزَّ وجلَّ الهلاكَ لهم، وجملةُ ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ استِئنافيَّةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤١).

في رَفعِ ﴿طَاعَةٌ﴾ عِدَّةُ أوجُهٍ:

أحَدُها: أنَّها خَبَرُ المُبتَدَأِ (أَولَى) على ما تَقدَّمَ، وعلى هذا الوَجهِ فهي مِن تمامِ ما قَبْلَها؛ فلا يُوقَفُ على ﴿لَهُمْ﴾.

الثَّاني: أنَّها مُبتَدَأٌ. ﴿وَقَوْلٌ﴾: مَعطوفٌ مَرفوعٌ مِثلُه، والخبَرُ مَحذوفٌ، أي: طاعةٌ وقَولٌ مَعروفٌ أمثَلُ لكم مِن غَيرِهما.

الثَّالِثُ: أنَّها خبَرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، أي: أمْرُنا طاعةٌ. وعلى هذينِ الوَجهَينِ فهو كلامٌ مُستَقِلٌّ مُستأنَفٌ محذوفٌ منه أحَدُ الجُزأَينِ؛ فيُوقَفُ على ﴿لَهُمْ﴾، وهو قَولُ الأكثَرِينَ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ الله سبحانَه عن تمنِّي المؤمنينَ نزولَ سورةٍ، وحالِ المنافِقينَ إذا دُعُوا للقتالِ والجهادِ في سبيلِ الله، فيقولُ: ويقولُ الَّذين آمَنوا: هلَّا أنزَلَ اللهُ على رَسولِه سُورةً؛ اشتياقًا منهم لِنُزولِ الوَحيِ، فإذا أَنزَلَ اللهُ سُورةً مُحكَمةً، وأوجَبَ فيها قِتالَ الكُفَّارِ؛ رأيتَ -يا محمَّدُ- المُنافِقينَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ يَنظُرونَ إليك نَظَرَ الَّذي غُشِيَ عليه مِن الموتِ؛ لِجُبْنِهم وكَراهِيَتِهم للجِهادِ.

ثمَّ يَتوعَّدُهم الله تعالى ويُهدِّدُهم، فيقولُ: فأَوْلَى لهم. لو أطاعونا، وقالوا قولًا معروفًا، كان أمْثَلَ وأحسَنَ، فإذا وَجَبَ القِتالُ فلو أنَّ المُنافِقينَ صَدَقوا اللهَ في الإيمانِ والجهادِ لَكان صِدقُهم خَيرًا لهم.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٢٣)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٩٨-٧٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٨).

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه حالَ المتولِّي عن طاعةِ ربِّه، وما يُتوقَّعُ منه، فيقولُ: فهل يُتوقَّعُ منكم إن أعرَضْتُم عن الحَقِّ وترَكْتُم الجِهادَ إلَّا أن تَرجِعوا إلى ما كُنتُم عليه في الجاهِليَّةِ مِن الإفسادِ في الأرضِ، وقَطعِ الأرحامِ؟ أُولئِك المُفسِدونَ في الأرضِ المُقَطِّعونَ لأرحامِهم هم الَّذين طرَدَهم اللهُ مِن رَحمتِه، فأصَمَّهم فلا يَسمَعونَ سَماعًا يَنتَفِعونَ به، وأعماهم عن رُؤيةِ الحَقِّ.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى بتدبُّرِ القرآنِ وتفهُّمِه، ويَنهَى عن الإعراضِ عنه، فيقولُ: أفلا يَتدَبَّرُ هؤلاءِ المُنافِقونَ القُرآنَ، أم أقفَلَ اللهُ قُلوبَهم؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى حالَ المُنافِقِ والكافِرِ والمُهتَدي المُؤمِنِ عندَ استِماعِ الآياتِ العِلميَّةِ مِن التَّوحيدِ والحَشرِ وغيرِهما بقَولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ [محمد: ١٦]، وقَولِه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: ١٧]؛ بيَّن حالَهم في الآياتِ العمَليَّةِ(١).

وأيضًا لَمَّا جَرى في هذه السُّورةِ وَصفُ حالِ المُنافِقين؛ أُعقِبَ ذلك بوَصفٍ أجْلَى مَظاهِرَ نِفاقِهم، وذلك حينَ يُدْعَى المُسلِمونَ إلى الجهادِ(٢).

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾.

أي: ويقولُ الَّذين آمَنوا: هلَّا أنزَلَ اللهُ على رَسولِه سُورةً؛ اشتياقًا منهم لِنُزولِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٦).

الوَحيِ، وحِرصًا مِنهم على العَمَلِ بما فيه[١].

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾.

أي: فإذا أَنزَلَ اللهُ سُورةً مُحكَمةً[٢]، وأوجَبَ فيها قِتالَ الكُفَّارِ؛ رأيتَ المُنافِقينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٧).

(٢) قيل: المرادُ: مُحكَمةٌ بالبَيانِ والفرائِضِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٠٦).

وقيل: مُحكَمةٌ: غيرُ مَنسوخةٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وابنُ عطية، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥).

قال ابنُ عطية: (أمَّا الإحكامُ الَّذي هو بمعنى الإتقانِ، فالقُرآنُ فيه كُلُّه سَواءٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٧).

وقيل: مُحكَمةٌ: مُبيَّنةٌ لا تَشابُهَ فيها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البَيْضاويُّ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٧).

قال ابنُ عاشور: (وَصْفُ السُّورةِ بـ ﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ باعتبارِ وَصفِ آياتِها بالإحكامِ، أي: عَدَمِ التَّشابُهِ، وانتفاءِ الاحتِمالِ، كما دَلَّت عليه مُقابَلةُ المُحكَماتِ بالمُتشابِهاتِ في قَولِه تعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران: ٧]، أي: لا تَحتمِلُ آياتُ تلك السُّورةِ المُتعلِّقةُ بالقِتالِ إلَّا وُجوبَ القِتالِ، وعَدَمَ الهَوادةِ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٧).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤).

وقيل: المرادُ: السُّورةُ الَّتي يُذكَرُ فيها الحَلالُ والحرامُ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٠٠).

وقال القاسمي: (﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ أي: مُبيَّنةٌ، لا تَقْبَلُ نَسخًا ولا تأويلًا). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٧٣).

ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٦). =

الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ -يا محمَّدُ- يَنظُرونَ إليك بتحديقٍ شديدٍ، كنَظَرِ المحتضَرِ الَّذي شخَص بصَرُه عندَ الموتِ فلا يَطرِفُ(١)؛ وذلك لِجُبْنِهم وخَوفِهم وكَراهِيَتِهم للجِهادِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

= وقال الشنقيطي: (أي: مُتقَنةُ الألفاظِ والمعاني، واضِحةُ الدَّلالةِ، لا نَسْخَ فيها). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٥٥).

وقال السعدي: (﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ أي: مُلزَمٌ العمَلُ بها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

(١) ممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والسمرقنديُّ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والبِقاعي، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٨).

وقال ابن جرير: (﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ﴾ الَّذي قد صُرِع، وإنَّما عَنَى بقولِه: ﴿مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾: مِن خَوْفِ الموتِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٧، ١٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥٥، ٢٥٦).

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

أي: يقولُ اللهُ تعالى لأولئك المُنافِقينَ مُحَذِّرًا ومُهَدِّدًا لهم: فأوْلَى لهم[(١)].

---

(١) ممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بها وعيدٌ وتهديدٌ: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، والزمخشري، وابن تيميَّة، والبِقاعي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٥٤) وَ (٢٨/ ٤٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٧، ٢٣٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤٩٦).

وقيل: الكَلامُ تمَّ عندَ قولِه: ﴿فَأَوْلَىٰ﴾، وهو تهديدٌ...، ثمَّ ابتَدَأ فقال: ﴿لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، قال الواحِديُّ عن هذا القولِ: (هو القَولُ الحَسَنُ الَّذي يُعرَفُ حُسنُه وصِحَّتُه، ويجوزُ على هذا القولِ أن يكونَ المعنى: لِلمُنافِقينَ طاعةٌ وقَولٌ مَعروفٌ باللِّسانِ، فإذا جَدَّ الأمرُ تبيَّن كَذِبُهم فيما قالوا، بقُعودِهم عن نُصرةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، يدُلُّ على صحَّةِ هذا سياقُ الآيةِ فيما بَعْدُ). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٥١).

وقال ابنُ سِيْدَه: (قولُه تعالى ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤] معناه: التَّوَعُّدُ والتَّهَدُّدُ، أي: الشَّرُّ أقرَبُ إليك. وقال ثعلبٌ: معناه: دَنَوتَ مِن الهَلَكةِ. وكذلك قَولُه: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، أي: وَلِيَهم المكروهُ، وهو اسمٌ لِدَنَوتَ أو قارَبْتَ). ((المحكم)) (١٠/ ٤٥٨).

وقال الزمخشري: (﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ وعيدٌ بمعنى: فوَيلٌ لهم، وهو أفعَلُ: مِنَ الوَلْيِ، وهو القُربُ، ومعناه: الدُّعاءُ عليهم بأنْ يَلِيَهم المكروهُ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤).

وقال الواحدي: (قال الأصمعيُّ: معنى قولِهم في التَّهديد: أَوْلى لك: وَلِيَك وقارَبَك ما تَكرَهُ... قال ثعلبٌ: ولم يَقُلْ أحدٌ في ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ أحسَنَ ممَّا قال الأصمعيُّ. وأبو إسحاقَ -يعني: الزَّجَّاجَ- يختارُ هذا القولَ، ويقولُ: المعنى: وَلِيَهم المكروهُ). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٤٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢).

وقال ابن تيميَّة: (﴿... فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: فبُعْدًا لهم). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤٣٨).

وقال البِقاعي: (﴿فَأَوْلَىٰ﴾ أي: أشَدُّ مَيلٍ ووَيلٍ وانتِكاسٍ وعِثارٍ مُوقِعٍ لهم في الهَلَكةِ: كائِنٌ ﴿لَهُمْ﴾، أي: خاصٌّ بهم). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٣٨).

وقيل: المرادُ: كان الأَوْلى بهم أن يَسمَعوا ويُطيعوا ويَمتَثِلوا ما أوجَبَه اللهُ عليهم مِنَ الطَّاعاتِ =

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

أي: لو أطاعونا، وقالوا قولًا معروفًا؛ كان أمْثَلَ وأحسَنَ(١).

= في الوَقتِ الرَّاهِنِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

قال السعدي: (أي: فأَوْلى لهم أن يَمتَثِلوا الأمرَ الحاضِرَ المحتَّمَ عليهم، ويُجمِعوا عليه هِمَمَهم، ولا يَطلُبوا أن يُشْرَعَ لهم ما هو شاقٌّ عليهم، ولْيَفرَحوا بعافيةِ الله تعالى وعَفْوِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

وعلى هذا القولِ فهذه الجملةُ ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ متَّصِلةٌ بما بعدَها، واللَّامُ في قولِه: ﴿لَهُمْ﴾ بمعنَى الباءِ، أي: الطَّاعةُ أولَى وألْيقُ بهم، وأحقُّ لهم مِنْ تركِ امتثالِ أمرِ اللهِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٤).

(١) قال الرَّسْعَنيُّ: (قال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ قال الخليلُ وسِيبَويهِ: المعنى: طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أمْثَلُ. وقيل: هذا حكايةُ قولِهم، أي: قالوا طاعةٌ، أي: أمْرُنا طاعةٌ وقولٌ معروفٌ...، وذكَر بعضُ المفسِّرينَ أنَّه متَّصِلٌ بما قبْلَه. والمعنى: فأولَى لهم أن يُطيعوا، وأنْ يَقولوا معروفًا). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٦٦).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: أي: أنَّ اللهَ تعالى قال: لو أطاعونا وقالوا قَولًا معروفًا، كان أمْثَلَ وأحسَنَ: الواحديُّ، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٩).

ويُنظر أيضًا: ((الكتاب)) لسيبويه (٢/ ١٣٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ؛ أنَّ هذا حكايةُ قولِهم: ابنُ جرير، والثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١١)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٥).

قال ابن جرير: (قَولُه: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ وهذا خبرٌ مِن الله -تَعالى ذِكرُه- عن قِيلِ هؤلاء المنافِقينَ مِن قبْلِ أنْ تَنزِلَ سورةٌ مُحكَمةٌ ويُذكَرَ فيها القتالُ، وأنَّهم إذا قيل لهم: إنَّ الله مُفتَرِضٌ عليكم الجهادَ، قالوا: سمْعٌ وطاعةٌ. فقال اللهُ عزَّ وجلَّ لهم: فإذا أُنزِلَتْ سورةٌ، وفُرِضَ القتالُ فيها عليهم، فشَقَّ ذلك عليهم وكَرِهوه- ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، قبْلَ وُجوبِ الفرْض عليكم، =

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

أي: فلو أنَّ المُنافِقينَ إذا وَجَب القِتالُ وحَضَر وَقتُه، صَدَقوا اللهَ في إيمانِهم وجهادِهم؛ لَكان صِدقُهم خَيرًا لهم في دُنياهم وأُخراهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٩].

ثمَّ ذَكر تعالى حالَ المُتوَلِّي عن طاعةِ ربِّه، وأنَّه لا يَتولَّى إلى خَيرٍ، بل إلى شرٍّ، فقال[2]:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾.

= فإذا عَزَم الأمرُ كَرِهْتُموه وشَقَّ عليكم). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١١).

والقولُ الثَّالثُ -وهو أنَّ المعنى: أولَى لهم أن يُطيعوا، وأنْ يَقولوا معروفًا- تقدَّمتِ الإشارةُ إليه في الآيةِ السَّابقةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

قال الواحدي: (يجوزُ أن يكونَ هذا متَّصِلًا بما قبْلَه، على معنى: فأَوْلى لهم طاعةُ الله ورسولِه، وقولٌ معروفٌ بالإجابةِ، أي: لو أطاعوا كانت الطَّاعةُ والإجابةُ أَوْلى لهم. وهذا معنى قولِ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عَطاءٍ، واختيارُ الكِسائيِّ). ((الوسيط)) (٤/ ١٢٦).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٠، ١١١).

قال ابن جُزَي: (﴿صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يحتملُ أن يُريدَ صِدقَ اللِّسانِ، أو صِدقَ العَزمِ والنِّيَّةِ وهو أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

القِراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿تُوُلِّيتُمْ﴾ بضَمِّ التَّاءِ والواوِ، وكَسرِ اللَّامِ المشَدَّدةِ، مبنيًّا للمَفعولِ، مِنَ الوِلايةِ، قيل: معناها: إنْ توَلَّاكم وُلاةُ جَورٍ تحَرَّكتُم معهم في الفِتنةِ، وعاوَنتُموهم على ظُلمِهم. وقيل: معناها: إنْ وَلَّيتُكم أُمورَ النَّاسِ(١).

٢- قِراءةُ ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ قيل: معناها: مِنَ الإعراضِ، أي: إن أعرَضتُم عن الحَقِّ. وقيل: معناها: مِنَ الوِلايةِ، أي: إنْ توَلَّيتُم أمورَ النَّاسِ، ووَلِيتُم أعمالَهم(٢).

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: فهل يُتوقَّعُ منكم ويُنتَظَرُ -إن أعرَضْتُم عن الحَقِّ، وترَكتُم الجِهادَ- إلا الإفسادُ في الأرضِ -بالكفرِ والمعاصي وسفْكِ الدِّماءِ-، وقطيعةُ الأرحامِ، والعودةُ إلى ما كنتُم فيه مِن الجاهليَّةِ(٣)؟!

---

(١) قرأ بها رُوَيسٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤)، ((البدور الزاهرة)) لعبد الفتاح القاضي (ص: ٢٩٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٨)، ((المحتسب)) لابن جِنِّي (٢/ ٢٧٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٧٠١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٨)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٧٠١)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٢)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧، ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٠-٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٢).

قال السمعانيُّ: (قَولُه تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فيه قولانِ:

أحدُهما: إن تولَّيتُم ولايةً، أي: كانت لكم ولايةٌ.

والثَّاني: إن تولَّيتُم عن الإيمانِ بالرَّسولِ وبالقُرآنِ؛ أي: أعرَضْتُم، فهل يكونُ منكم سِوى أن تُفسِدوا في الأرضِ، وتقطِّعوا أرحامَكم؟ =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((خَلَق اللهُ الخَلْقَ، فلمَّا فَرَغ منه قامَت الرَّحِمُ فأخَذَت بحَقْوِ[١] الرَّحمنِ، فقال له: مَهْ[٢]، قالت: هذا مَقامُ العائِذِ[٣] بكَ مِن القَطيعةِ، قال: ألَا تَرضَينَ أن أصِلَ مَن وَصَلَكِ، وأقطَعَ مَن قَطَعَكِ؟ قالت: بلى يا رَبِّ، قال: فذَاكِ. قال أبو هُرَيرةَ: اقرَؤوا إنْ شِئتُم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾))[٤].

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن لهم ما يكونُ ممَّن تَثاقَلَ عن أمرِ اللهِ؛ بيَّن حالَهمُ الَّذي أنتجَ لهم ذلك،

= وقيل على القولِ الأوَّلِ: إنَّه قد كان هذا في صدرِ الإسلام؛ فإنَّ قُرَيْشًا لَمَّا تولَّوُا الأمرَ أفسَدوا في الأرضِ وقَطَّعوا الأرحامَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨١).

ممَّن اختار أنَّ التَّولِّيَ بمعنى الإعراضِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابن عطية، وابن القيِّم، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٨)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٢).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: صِرتُم وُلاةً: ابنُ جُزَي، والعُلَيْمي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٢٠).

(١) الحَقْوُ: مَعقِدُ الإزارِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٠).

قال ابنُ تيميَّةَ: (هذا الحديثُ في الجملةِ مِن أحاديثِ الصِّفاتِ الَّتي نصَّ الأئمَّةُ على أنَّه يُمَرُّ كما جاء، ورَدُّوا على مَن نفَى مُوجَبَه). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٦/ ٢٢٢).

(٢) مَهْ: اسمُ فِعلٍ معناه الزَّجرُ، أي: اكفُفْ وانزَجِرْ. وقيل: هي هنا ما الاستِفهاميَّةُ، حُذِفَت ألِفُها، ووُقِفَ عليها بهاءِ السَّكْتِ، والشَّائِعُ ألَّا يُفعَلَ ذلك إلَّا وهي مجرورةٌ، لكِنْ قد سُمِعَ مِثلُ ذلك. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٠).

(٣) العائِذ: أي: المُستَجير. يُنظر: ((شرح القَسْطَلَّاني)) (٧/ ٣٤٣).

(٤) رواه البخاري (٤٨٣٠) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٥٥٤).

فقال[١]:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾.

أي: أُولئِك المُفسِدونَ في الأرضِ المُقَطِّعونَ لأرحامِهم هم الَّذين طرَدَهم اللهُ، وأبْعَدَهم مِن رَحمتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٨، ١٩].

وعن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا يَدخُلُ الجَنَّةَ قاطِعُ رَحِمٍ))[٣].

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن ذَنْبٍ أجدَرُ أن يُعَجِّلَ اللهُ لِصاحِبِه العُقوبةَ في الدُّنيا مع ما يَدَّخِرُ له في الآخِرةِ: مِنَ البَغيِ وقَطيعةِ الرَّحِمِ))[٤].

وعن عَليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لَعَنَ اللهُ مَن لَعَن والِدَه، ولَعَن اللهُ مَن ذَبَح لِغَيرِ اللهِ، ولَعَن اللهُ مَن آوَى مُحْدِثًا[٥]،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

(٣) رواه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦) واللَّفظُ له.

(٤) أخرجه أبو داودَ (٤٩٠٢)، وأحمدُ (٢٠٣٩٨) باختلافٍ يسيرٍ، والترمذيُّ (٢٥١١)، وابنُ ماجه (٤٢١١) واللَّفظُ لهما.

قال الترمذيُّ: (حسَنٌ صَحيحٌ). وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢١١)، وصحَّح إسنادَه الحاكِمُ في ((المستدرك)) (٣٣٥٩)، وشُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٤/ ٤٠).

(٥) آوى مُحْدِثًا: وهو الَّذي جنَى على غيرِه جنايةً، وإيواؤُه إجارتُه مِن خصمِه، والحيلولةُ بيْنَه =

ولَعَن اللهُ مَن غَيَّرَ مَنارَ الأرضِ[(١)]))[(٢)].

﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾.

أي: فسَلَبَهم اللهُ القُدرةَ على سَماعِ الحَقِّ سَماعًا يَنتَفِعونَ به، وسَلَبَهم اللهُ القُدرةَ على رُؤيةِ الحَقِّ على وَجهٍ يَنتَفِعونَ به[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢١ - ٢٣].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ذَكر أنَّ أولئك المُنافِقين أبْعَدَهم اللهُ عن الخَيرِ، فأصَمَّهم فلم يَنتفِعوا بما سَمِعوا، وأعْمى أبْصارَهم فلم يَستَفيدوا بما أبصَروا - بيَّنَ أنَّ حالَهم دائرةٌ بيْنَ أمْرَينِ: إمَّا أنَّهم لا يَتدبَّرونَ القُرآنَ إذا وَصَل إلى قُلوبِهم، أو أنَّهم يَتدبَّرون

= وبيْنَ ما يحِقُّ استيفاؤُه. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٩/ ٢٨٠٥).

(١) غَيَّر مَنارَ الأرضِ: المَنارُ: العَلَمُ والحدُّ بيْنَ الأرْضَينِ، وذلك بأن يُسوِّيَه أو يُغيِّرَه؛ لِيَستبيحَ بذلك ما ليس له بحقٍّ مِن ملكٍ أو طريقٍ. يُنظر: ((كشف المُشْكِل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٢٠٤)، ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٩/ ٢٨٠٥).

(٢) رواه مسلم (١٩٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

ولكنْ لا تَدخُلُ مَعانيه فى قُلوبِهم لِكَونِها مُقفَلةً[١].

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: أفلا يَتدبَّرُ القرآنَ هؤلاءِ المعرِضونَ، ويَتفهَّمونَه، ويَتأمَّلونَه حقَّ التَّأمُّلِ، بل أقفَلَ اللهُ قُلوبَهم، فلا قُدرةَ لهم على أن يَعقِلوا بها، فهي مُطْبَقةٌ لا يَخلُصُ إليها شَيءٌ مِن معانيه[٢]؟

كما قال الله سبحانهُ وتعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۞ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨١، ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۞ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨٦، ٨٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- الشَّوقُ إلى الله تعالى، وإلى رسالاتِه مِن آثارِ محبَّتِه؛ فقد سألَ موسَى عليه السَّلامُ الرؤيةَ شوقًا وتعطُّشًا للجمالِ، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٦، ٢٤٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٥، ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

قال الشنقيطيُّ: (الهمزةُ في قوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ للإنكارِ، والفاءُ عاطفةٌ على جملةٍ محذوفةٍ، على أصحِّ القولَينِ، والتَّقديرُ: أيُعْرِضونَ عن كتابِ اللهِ فلا يَتَدَبَّرونَ القرآنَ؟!). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٥٦).

[الأعراف: ١٤٣]، وسألَ المؤمنونَ نُزولَ السُّورةِ تشوُّقًا إلى سماعِ كلامِ ذي العزِّ والجلالِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾[(١)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: جاءهم أمْرُ جدٍّ، وأمرٌ مُحتَّمٌ؛ ففي هذه الحالِ لو صَدَقوا اللهَ بالاستِعانةِ به، وبَذْلِ الجُهدِ في امتِثالِه ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ مِن حالِهمُ الأُولى، وذلك من وُجوهٍ:

منها: أنَّ العبدَ ناقصٌ مِن كلِّ وجهٍ، لا قُدرةَ له إلَّا إنْ أعانَه اللهُ، فلا يَطلُبُ زِيادةً على ما هو قائمٌ بصدَدِه.

ومنها: أنَّه إذا تعلَّقَت نفْسُه بالمُستقبَلِ، ضَعُفَ عنِ العملِ بوظيفةِ وقتِه وبوظيفةِ المُستقبَلِ، أمَّا الحالُ: فلأنَّ الهِمَّةَ انتقَلَت عنه إلى غَيرِه، والعملُ تَبَعٌ للهِمَّةِ، وأمَّا المستقبَلُ: فإنَّه لا يَجيءُ حتَّى تَفتُرَ الهِمَّةُ عن نشاطِها، فلا يُعانُ عليه.

ومنها: أنَّ العبدَ المؤمِّلَ للآمالِ المُستقبَلةِ، مع كَسَلِه عن عمَلِ الوقتِ الحاضِرِ شَبيهٌ بالمُتألِّي الَّذي يَجزِمُ بقُدرتِه على ما يَستقبِلُ من أُمورِه، فأحرَى به أن يُخذَلَ ولا يقومَ بما هَمَّ به، ووطَّن نفْسَه عليه؛ فالَّذي يَنبغي أنْ يَجمَعَ العبدُ هَمَّه وفِكرَتَه ونَشاطَه على وَقتِه الحاضِرِ، ويُؤدِّيَ وَظيفَتَه بحَسَبِ قدرتِه، ثمَّ كلَّما جاء وَقتٌ استَقبَلَه بنشاطٍ وهِمَّةٍ عاليةٍ مُجتمِعةٍ غيرِ مُتفرِّقةٍ، مُستعينًا بربِّه في ذلك؛ فهذا حَرِيٌّ بالتَّوفيقِ والتَّسديدِ في جميعِ أُمورِه[(٢)].

٣- قال الله تعالى: ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ * فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ فإذَنْ هما أمْرانِ: إمَّا التِزامٌ بطاعةِ اللهِ، وامتِثالٌ لأوامِرِه، فثَمَّ الخَيرُ والرُّشدُ والفَلاحُ، وإمَّا

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

إعراضٌ عن ذلك وتَولٍّ عن طاعةِ اللهِ، فما ثَمَّ إلَّا الفَسادُ في الأرضِ بالعَمَلِ بالمعاصي، وقَطيعةِ الأرحامِ(١).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ عُلِمَ منه أنَّ مَن أمَرَ بالمعروفِ، وجاهَدَ أهلَ المُنكَرِ؛ أمِنَ الإفسادَ في الأرضِ، وقَطيعةَ الرَّحِمِ، ومَن ترَكَه وقَعَ فيهما(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّ الفَسادَ في الأرضِ وقَطيعةَ الأرحامِ مِن شِعارِ أهلِ الكُفرِ؛ فهما جُرْمانِ كَبيرانِ يَجِبُ على المُؤمِنينَ اجتِنابُهما(٣).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ في هذه الآيةِ أعظَمُ حاثٍّ على قَبولِ أوامِرِ اللهِ، ولا سِيَّما الجِهادِ في سَبيلِه، وأشَدُّ زاجرٍ عن الإعراضِ عنه؛ لأنَّ حاصِلَها أنَّه لَعَن مَن أعرَضَ عنه؛ لِكَونِه لا يَتدَبَّرُ القُرآنَ معَ وُضوحِه ويُسْرِه؛ لِيعلَمَ فوائِدَ الجِهادِ الدَّاعيةَ إليه المحَبِّبةَ فيه؛ فكان كأنَّ قَلْبَه مُقفَلٌ(٤).

٧- قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (قرَأَ قارِئٌ عندَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ بها وعِندَه شابٌّ، فقال: اللَّهُمَّ عليها أقفالُها، ومَفاتيحُها بيَدِك لا يَفتَحُها سِواك. فعَرَفَها له عُمَرُ، وزادَتْه عندَه خَيرًا)(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٠).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ يدُلُّ على أنَّ تدَبُّرَ القُرآنِ وتفَهُّمَه وتَعلُّمَه والعَمَلَ به: أمرٌ لا بُدَّ منه للمُسلِمينَ، وقد بَيَّن النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ المُشتَغِلينَ بذلك هم خَيرُ النَّاسِ، كما ثَبَت عنه صلَّى الله عليه وسلَّم في الصَّحيحِ مِن حَديثِ عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ الله عنه أنَّه قال: ((خَيْرُكم مَن تَعلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَه))[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[2] [آل عمران: ٧٩].

٩- قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ الحَقُّ الَّذي لا شَكَّ فيه أنَّ كُلَّ مَن له قُدرةٌ مِن المُسلِمينَ على التَّعَلُّمِ والتَّفَهُّمِ وإدراكِ معاني الكِتابِ والسُّنَّةِ: يَجِبُ عليه تَعَلُّمُهما والعَمَلُ بما عَلِمَ منهما، أمَّا العَمَلُ بهما مع الجَهلِ بما يَعمَلُ به منهما فمَمنوعٌ إجماعًا، وأمَّا ما عَلِمَه مِنهما عِلمًا صَحيحًا ناشِئًا عن تعَلُّمٍ صَحيحٍ فله أن يَعمَلَ به، ولو آيةً واحِدةً أو حديثًا واحِدًا، ومَعلومٌ أنَّ هذا الذَّمَّ والإنكارَ على مَن لم يَتدَبَّرْ كِتابَ اللهِ عامٌّ لجَميعِ النَّاسِ، ومِمَّا يُوَضِّحُ ذلك أنَّ المُخاطَبينَ الأَوَّلينَ به الَّذين نَزَل فيهم هم المُنافِقونَ والكُفَّارُ، وليس أحَدٌ منهم مُستَكمِلًا لِشُروطِ الاجتِهادِ المُقَرَّرةِ عندَ أهلِ الأُصولِ، بل ليس عندَهم شَيءٌ منها أصلًا، فلو كان القُرآنُ لا يَجوزُ أن يَنتَفِعَ بالعَمَلِ به والاهتِداءِ بهَدْيِه إلَّا المجتَهِدونَ بالاصطلاحِ الأُصوليِّ، لَمَا وَبَّخ اللهُ الكُفَّارَ وأنكر عليهم عدَمَ الاهتِداءِ بهُداه، ولَمَا أقام عليهم الحُجَّةَ به حتَّى يُحَصِّلوا شُروطَ الاجتِهادِ المُقَرَّرةَ عندَ مُتأخِّري الأُصوليِّينَ، كما ترى[3].

١٠- في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾، وقوله

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٧) من حديث عثمانَ بنِ عفَّانَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٥٨).

تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] أنَّ الله سبحانَه إنَّما أنزَل كتابَه ليتأدَّبَ عبادُه بآدابِه، ويتخلَّقوا بأخلاقِه، ويتأمَّلوا ما فيه مِن الثَّناءِ على الله تعالى، وما لم يُتدبَّرْ ذلك حتى يُفهمَ لا يُمكِن العملُ به؛ فإنَّه رسائلُ أرسلَها الله إلى عبادِه ليُنفِّذوها، لا لتقرأَ عليهم فلا يَفْهموها ولا يُقيموها[1]! أما غالبُ مسلمةِ اليومَ فقد اكتَفوا مِن القرآنِ بألفاظٍ يُردِّدونَها وأنغام يُلحِّنونها في المآتمِ والمقابرِ والدُّورِ، وبمصاحفَ يَحمِلونَها أو يُودِعونَها تَرِكةً في البيوتِ، ونسوا أنَّ بركةَ القرآنِ العُظمَى إنَّما هي في تدبُّرِه وتفهُّمِه، وفي الجلوسِ إليه، والاستفادةِ من هديِه وآدابِه، ثمَّ في الوقوفِ عندَ أوامرِه ومراضيه، والبعدِ عن مساخطِه ونواهيه.

ألَا إنَّ آخرَ هذه الأمةِ لا يصلحُ إلَّا بما صلَح به أوَّلُها، وهو أنْ يَعودوا إلى كتابِ الله يَستلهِمونَه الرُّشدَ، ويَستمنِحونَه الهدَى، ويُحكِّمونَه في نفوسِهم وفي كلِّ ما يتَّصِلُ بهم، كما كان آباؤنا الأوَّلونَ يَتلونَه حقَّ تلاوتِه، بتدبُّرٍ وتفكُّرٍ في مجالسِهم ومساجدِهم وأنديتِهم وبيوتِهم وفي صلواتِهم المفروضةِ والنَّافلةِ[2].

١١- التَّأمُّلُ في القُرآنِ هو تحديقُ نَظَرِ القَلبِ إلى مَعانيه، وجَمعُ الفِكرِ على تدَبُّرِه وتَعقُّلِه، وهو المقصودُ بإنزالِه، لا مُجَرَّدُ تلاوتِه بلا فَهمٍ ولا تدَبُّرٍ؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال الحَسَنُ: (نَزَل القُرآنُ لِيُتَدَبَّرَ ويُعمَلَ به، فاتَّخَذوا

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((مناهل العرفان في علوم القرآن)) الزرقاني (٢/ ٨).

تِلاوتَه عَمَلًا!)، فليس شَيءٌ أنفعَ للعَبدِ في مَعاشِه ومَعادِه، وأقرَبَ إلى نجاتِه: مِن تدَبُّرِ القُرآنِ، وإطالةِ التَّأمُّلِ فيه، وجَمعِ الفِكرِ على معاني آياتِه؛ فإنَّها تُطلعُ العَبدَ على معالِمِ الخَيرِ والشَّرِّ بحَذافيرِهما، وعلى طُرُقاتِهما وأسبابِهما، وغاياتِهما وثَمَراتِهما، ومآلِ أهلِهما، وتُلْقِي في يَدِه مَفاتيحَ كُنوزِ السَّعادةِ والعُلومِ النَّافِعةِ، وتُثَبِّتُ قواعِدَ الإيمانِ في قَلبِه، وتُشيدُ بُنيانَه، وتُوَطِّدُ أركانَه، وتُريه صورةَ الدُّنيا والآخرةِ، والجنَّةِ والنَّارِ في قَلْبِه، وتُحضِرُه بيْنَ الأُمَمِ، وتُرِيه أيَّامَ اللهِ فيهم، وتُبَصِّرُه مواقِعَ العِبَرِ، وتُشهِدُه عَدلَ اللهِ وفَضْلَه، وتُعَرِّفُه ذاتَه وأسماءَه، وصِفاتِه وأفعالَه، وما يُحِبُّه وما يُبغِضُه، وصِراطَه المُوصِلَ إليه، وما لِسالكِيه بعدَ الوُصولِ والقُدومِ عليه، وقَواطِعَ الطَّريقِ وآفاتِها، وتُعَرِّفُه النَّفْسَ وصِفاتِها، ومُفسداتِ الأعمالِ ومُصَحِّحاتِها، وتُعَرِّفُه طَريقَ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ، وأعمالَهم وأحوالَهم وسِيماهم، ومراتِبَ أهلِ السَّعادةِ وأهلِ الشَّقاوةِ، وأقسامَ الخَلقِ واجتِماعَهم فيما يَجتَمِعونَ فيه، وافتِراقَهم فيما يَفتَرِقونَ فيه. وبالجُملةِ تُعَرِّفُه الرَّبَّ المَدْعُوَّ إليه، وطريقَ الوُصولِ إليه، وما له مِنَ الكَرامةِ إذا قَدِمَ عليه، وتُعَرِّفُه في مقابِلِ ذلك ثلاثةً أُخرى: ما يدعو إليه الشَّيطانُ، والطَّريقَ المُوصِلةَ إليه، وما للمُستَجيبِ لِدَعوتِه مِن الإهانةِ والعَذابِ بعدَ الوُصولِ إليه؛ فهذه سِتَّةُ أُمورٍ ضَروريٌّ للعَبدِ مَعرِفتُها ومُشاهَدتُها ومُطالَعتُها؛ فتُشْهِدُه الآخِرةَ حتَّى كأنَّه فيها، وتُغَيِّبُه عن الدُّنيا حتَّى كأنَّه ليس فيها، وتُمَيِّزُ له بيْنَ الحَقِّ والباطلِ في كُلِّ ما اختَلَف فيه العالَمُ، فتُريه الحَقَّ حَقًّا، والباطِلَ باطِلًا، وتُعْطيه فُرقانًا ونُورًا يُفَرِّقُ به بيْنَ الهُدى والضَّلالِ، والغَيِّ والرَّشادِ، وتُعطيه قُوَّةً في قَلْبِه، وحياةً وسَعةً وانشِراحًا، وبَهجةً وسُرورًا، فيَصيرُ في شأنٍ والنَّاسُ في شأنٍ آخَرَ؛ فإنَّ معانيَ القُرآنِ دائِرةٌ على التَّوحيدِ وبَراهينِه، والعِلمِ باللهِ وما له مِن أوصافِ الكَمالِ، وما يُنَزَّهُ عنه مِن سِماتِ النَّقصِ، وعلى الإيمانِ بالرُّسُلِ، وذِكرِ بَراهينِ

صِدقِهم، وأدِلَّةِ صِحَّةِ نبُوَّتِهم، والتَّعريفِ بحُقوقِهم وحُقوقِ مُرسِلِهم، وعلى الإيمانِ بمَلائِكتِه، وهم رُسُلُه في خَلْقِه وأمْرِه، وتدبيرِهم الأمورَ بإذْنِه ومَشيئتِه، وما جُعِلوا عليه مِن أمرِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفْليِّ، وما يَختَصُّ بالنَّوعِ الإنسانيِّ منهم، مِن حينِ يَستَقِرُّ في رَحِمِ أمِّه إلى يَومِ يُوافي رَبَّه ويَقْدَمُ عليه، وعلى الإيمانِ باليومِ الآخِرِ وما أعَدَّ اللهُ فيه لأوليائِه مِن دارِ النَّعيمِ المُطلَقِ الَّتي لا يَشعُرونَ فيها بألمٍ ولا نَكَدٍ وتَنغيصٍ، وما أعَدَّ لأعدائِه مِن دارِ العِقابِ الوَبيلِ الَّتي لا يُخالِطُها سُرورٌ ولا رَخاءٌ ولا راحةٌ ولا فَرَحٌ، وتفاصيلِ ذلك أتَمَّ تفصيلٍ وأبْيَنَه، وعلى تفاصيلِ الأمرِ والنَّهيِ، والشَّرعِ والقَدَرِ، والحَلالِ والحَرامِ، والمواعِظِ والعِبَرِ، والقَصَصِ والأمثالِ، والأسبابِ والحِكَمِ، والمبادئِ والغاياتِ في خَلْقِه وأمْرِه؛ فلا تَزالُ مَعانيه تُنهِضُ العَبدَ إلى رَبِّه بالوَعدِ الجَميلِ، وتُحَذِّرُه وتُخَوِّفُه بوَعيدِه مِنَ العذابِ الوَبيلِ، وتَحُثُّه على التَّضَمُّرِ والتَّخَفُّفِ لِلِقاءِ اليَومِ الثَّقيلِ، وتَهْديه في ظُلَمِ الآراءِ والمذاهِبِ إلى سَواءِ السَّبيلِ، وتَصُدُّه عن اقتِحامِ طُرُقِ البِدَعِ والأضاليلِ، وتَبعَثُه على الازديادِ مِنَ النِّعَمِ بشُكرِ رَبِّه الجليلِ، وتُبَصِّرُه بحُدودِ الحَلالِ والحَرامِ، وتَقِفُه عليها لئلَّا يَتعَدَّاها فيَقَعَ في العَناءِ الطَّويلِ، وتُثَبِّتُ قَلْبَه عن الزَّيغِ والمَيلِ عن الحَقِّ والتَّحويلِ، وتُسَهِّلُ عليه الأمورَ الصِّعابَ والعَقَباتِ الشَّاقَّةَ غايةَ التَّسهيلِ، وتُناديه كُلَّما فَتَرَت عَزَماتُه ووَنَى في سَيرِه: تَقَدَّمَ الرَّكْبُ وفَاتَك الدَّليلُ؛ فاللَّحاقَ اللَّحاقَ والرَّحيلَ الرَّحيلَ! وتَحدو به وتَسيرُ أمامَه سَيرَ الدَّليلِ، وكُلَّما خرَجَ عليه كَمينٌ مِن كَمائِنِ العَدُوِّ، أو قاطِعٌ مِن قُطَّاعِ الطَّريقِ نادَتْه: الحَذَرَ الحَذَرَ؛ فاعتَصِمْ باللهِ، واستَعِنْ به، وقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ! وفي تأمُّلِ القُرآنِ وتدَبُّرِه وتَفَهُّمِه أضعافُ أضعافِ ما ذكَرْنا مِنَ الحِكَمِ والفوائِدِ. وبالجُملةِ فهو أعظَمُ الكُنوزِ[1].

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٩-٤٥١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ إنَّما قال: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾؛ لأنَّ السُّورةَ ليست كُلُّها مُتَمَحِّضةً لذِكرِ القِتالِ؛ فإنَّ سُوَرَ القُرآنِ ذواتُ أغراضٍ شَتَّى[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ هذه الآيةُ إنباءٌ مِمَّا سيَكونُ مِن المُنافِقينَ حينَ يَجِدُّ الجِدُّ، ويَجيءُ أوانُ القِتالِ، وهي مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ في الإخبارِ بالغَيبِ؛ فقد عَزَم أمرُ القِتالِ يومَ أُحُدٍ، وخَرَج المنافِقونَ معَ جَيشِ المُسلِمينَ في صُورةِ المجاهِدينَ، فلَمَّا بلَغَ الجَيشُ إلى الشَّوطِ[٢] بيْنَ المدينةِ وأُحُدٍ، قال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ رأسُ المُنافِقينَ: ما نَدري عَلامَ نَقتُلُ أنفُسَنا هاهنا أيُّها النَّاسُ؟ ورجع هو وأتْباعُه، وكانوا ثُلُثَ الجَيشِ، وذلك سَنَةَ ثَلاثٍ مِنَ الهِجرةِ[٣]، أي: بعدَ نُزولِ هذه الآيةِ بنَحوِ ثلاثِ سِنينَ[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ فيه سُؤالٌ: (عسى) للتَّوقُّعِ، واللهُ تعالى عالِمٌ بكُلِّ شَيءٍ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المعنى: يَفعَلُ بكم فِعلَ المتَوَقِّعِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ كُلَّ مَن يَنظُرُ إليهم يَتوقَّعُ منهم ذلك.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٧).

(٢) الشَّوط: اسمُ بستانٍ بالمدينةِ. يُنظر: ((معجم البلدان)) للحموي (٣/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٤/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١١).

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّه محمولٌ على الحَقيقةِ؛ وذلك لأنَّ الفِعلَ إذا كان مُمكِنًا في نَفْسِه فالنَّظَرُ إليه غيرُ مُستَلزِمٍ لأمرٍ، وإنَّما الأمرُ يجوزُ أن يَحصُلَ منه تارةً، ولا يَحصُلَ منه أُخرى؛ فيكونُ الفِعلُ لذلك الأمرِ المطلوبِ على سَبيلِ التَّرَجِّي سواءٌ كان الفاعِلُ يَعلَمُ حُصولَ الأمرِ منه، وسواءٌ أَنْ لم يكُنْ يَعلَمُ، مِثالُه: مَن نَصَب شَبكةً لاصطيادِ الصَّيدِ يُقالُ: هو مُتوَقِّعٌ لذلك، فإنْ حَصَل له العِلمُ بوُقوعِه فيه بإخبارِ صادِقٍ أنَّه سيَقَعُ فيه، أو بطَريقٍ أُخرى: لا يَخرُجُ عن التَّوَقُّعِ. غايةُ ما في البابِ أنَّ في الشَّاهِدِ لم يَحصُلْ لنا العِلمُ فيما نَتوَقَّعُه، فيُظَنُّ أنَّ عَدَمَ العِلمِ لازِمٌ للمُتوَقِّعِ، وليس كذلك، بل المتوَقِّعُ هو المُنتَظِرُ لأمرٍ ليس بواجِبِ الوُقوعِ؛ نَظَرًا لذلك الأمرِ فحَسْبُ، سواءٌ كان له به عِلمٌ أو لم يَكُنْ[1].

الوَجهُ الرَّابِعُ: هذا التوقُّعُ الَّذي في (عسى) ليس مَنسوبًا إليه تعالى؛ لأنَّه عالِمٌ بما كان وما يكونُ، وإنَّما هو بالنِّسبةِ لِمَن عَرَف المنافِقينَ، كأنَّه يقولُ لهم: هل يُتَوقَّعُ منكم إذا أعرَضْتُم عن القِتالِ أن يكونَ كذا وكذا[2]؟

الوجهُ الخامسُ: أنَّ (عسى) مِن الله واجبةٌ، أي: مُتحقِّقةُ الوُقوعِ[3].

الوجهُ السَّادسُ: أنَّ فِعلَ (عسى) يدُلُّ على التَّرجِّي، وقد دخل عليه هنا حرفُ الاستِفهامِ (هل)، فأفاد تقريرَ ما هو مُتوقَّعٌ، وأشعَرَ بما هو كائنٌ[4].

٤- قَولُه تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى فَسادِ قَولٍ قاله المُنافِقونَ، وهو أنَّهم كانوا يقولونَ: كيفَ نُقاتِلُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٥٤٤).

والقَتلُ إفسادٌ، والعَرَبُ مِن ذوي أرحامِنا وقبائلِنا؟! فقال تعالى: إنْ تولَّيْتُم لا يَقعُ منكم إلَّا الفَسادُ في الأرضِ؛ فإنَّكم تَقتُلونَ مَن تَقدرونَ عليه، وتَنهَبونَه، والقِتالُ واقِعٌ بيْنَكم، أليس قَتْلُكمُ البَناتِ إفسادًا وقطعًا للرَّحِمِ؟! فلا يَصِحُّ تَعلُّلُكم بذلك معَ أنَّه خِلافُ ما أمَرَ اللهُ، وهذا طاعةٌ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أنَّ صِلةَ الأرحامِ واجِبةٌ، وقَطْعَها سَبَبٌ لِلَّعنةِ والحِرمانِ مِن دُخولِ الجنَّةِ[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ استَدَلَّ به عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضيَ الله عنه على مَنْعِ بَيعِ أمِّ الوَلَدِ[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾، فيه تَرتيبٌ حَسَنٌ؛ قيل: وذلك مِن حيث إنَّهم استَمَعوا الكلامَ العِلميَّ، ولم يَفهَموه، فهُم بالنِّسبةِ إليه صُمٌّ أصمَّهمُ اللهُ، وعندَ الأمرِ بالعَمَلِ تَرَكوه، وعلَّلوا بكَونِه إفسادًا وقطعًا للرَّحِمِ، وهم كانوا يَتعاطَوْنه عندَ النَّهيِ عنه، فلم يَرَوْا حالَهم عليه، وتَرَكوا اتِّباعَ النَّبيِّ الَّذي يأمُرُهم بالإصلاحِ وصِلَةِ الأرحامِ، ولو دعاهم مَن يأمُرُ بالإفسادِ وقَطيعةِ الرَّحِمِ لَاتَّبَعوه؛ فهم عُمْيٌ أعماهمُ اللهُ[٤].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٨).

وأخرج أثرَ عُمَرَ: الحاكمُ في ((المستدرك)) (٣٧٠٨) وصحَّح إسنادَه، ومِن طريقِه البيهقيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠/ ٥٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٥).

يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فيه سُؤالٌ: لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ كيف يُمكِنُهم التَّدَبُّرُ في القُرآنِ؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾، وهو كقَولِ القائِلِ للأعْمى: (أبصِرْ)، وللأصَمِّ: (اسْمَعْ)؟!

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ قَولَه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ المرادُ منه النَّاسُ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ هذه الآيةَ ورَدَت مُحَقِّقةً لِمَعنى الآيةِ المتقَدِّمةِ؛ فإنَّه تعالى قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [محمد:٢٣]، أي: أبعَدَهم عنه، أو عن الصِّدقِ أو عن الخَيرِ، أو غيرِ ذلك مِن الأُمورِ الحَسَنةِ، فأصَمَّهم لا يَسمَعونَ حَقيقةَ الكلامِ، وأعماهم لا يَتَّبِعونَ طَريقَ الإسلامِ، فإذَنْ هُم بيْنَ أمرَينِ؛ إمَّا لا يَتدَبَّرونَ القُرآنَ فيَبعُدونَ منه؛ لأنَّ اللهَ تعالى لعَنَهم وأبعَدَهم عن الخَيرِ والصِّدقِ، والقُرآنُ منهما الصِّنفُ الأعلَى، بل النَّوعُ الأشرَفُ، وإمَّا يَتدَبَّرونَ لكِنْ لا تَدخُلُ مَعانيه في قُلوبِهم؛ لِكَونِها مُقفَلةً، تقديرُه: أفلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ لِكَونِهم مَلعونينَ مَبعودينَ، أم على قُلوبٍ أقفالٌ، فيَتدَبَّرونَ ولا يَفهَمونَ[1]؟

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ فكان قولُه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ كالتَّهييجِ لهم على تركِ ما هم فيه مِن الكفرِ الَّذي استحَقُّوا بسببِه اللَّعنةِ، أو كالتَّبكيتِ لهم على إصرارِهم على الكفرِ[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أنَّ مَعرِفةَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٤٨).

تفسيرِ كتابِ اللهِ فَرضٌ؛ إمَّا فَرضُ كِفايةٍ، وإمَّا فَرضُ عَينٍ[١]؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ اللهَ تعالى وَبَّخَ أولئك الَّذين لا يَتدبَّرون القُرآنَ، وأشار إلى أنَّ ذلك مِن الإقفالِ على قُلوبِهم، وعَدَمِ وُصولِ الخَيرِ إليها، والتَّدبُّرُ هو التَّأمُّلُ في الألفاظِ للوُصولِ إلى مَعانيها؛ فإذا لم يَكُنْ ذلك فاتتِ الحِكمةُ مِن إنزالِ القُرآنِ، وصار مُجرَّدَ ألفاظٍ لا تأثيرَ لها، ولأنَّه لا يُمكِنُ الاتِّعاظُ بما في القُرآنِ بدونِ فَهْمِ مَعانيه؛ فإنَّ اللهَ تعالى لم يُنزِلْ علينا القُرآنَ لِمُجرَّدِ أن نتعبَّدَ بلَفظِه، بل لنَعرِفَ معناه، ونُطبِّقَه عَمَلًا وعِلمًا، وقد كان الصَّحابةُ رَضيَ اللهُ عنهم لا يَتجاوَزون عَشْرَ آياتٍ حتَّى يَتعلَّموها وما فيها مِن العِلمِ والعَمَلِ[٢].

١٠- قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ إذا كان قد حضَّ الكُفَّارَ والمُنافِقينَ على تدَبُّرِه، عُلِمَ أنَّ مَعانيَه مِمَّا يُمكِنُ الكُفَّارَ والمُنافِقينَ فَهمُها ومَعرِفتُها، فكيف لا يكونُ ذلك مُمكِنًا للمُؤمِنينَ؟! وهذا يُبَيِّنُ أنَّ مَعانيَه كانت مَعروفةً بَيِّنةً لهم[٣].

---

(١) قال ابن عثيمين: (لو قال قائلٌ: هل معرفةُ تفسيرِ القُرآنِ واجبةٌ؟

الجوابُ: تفسيرُ ما لا يقومُ دينُ المرءِ إلَّا به فهو واجبٌ، مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] يجبُ أن نعرِفَ ما معنى إقامةِ الصَّلاةِ، ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] كذلك، وما زاد على ذلك فهو فَرضُ كِفايةٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٨٠)، ((أصول في التفسير)) لابن عثيمين (ص: ٢٣).

ويُنظر فيما ورد عن الصَّحابةِ: ما أخرجه الإمامُ أحمدُ في ((مسنده)) (٢٣٤٨٢)، وابنُ أبي شَيْبةَ في ((المصنَّف)) (٢٩٩٢٩) مِن حديثِ رجُلٍ مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وما أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١/ ٧٤)، والطَّحاويُّ في ((مُشْكِل الآثار)) (١٤٥٠) مِن قولِ ابنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٥/ ١٥٧، ١٥٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ * طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾ معلومٌ أنَّ قولَ المُؤمنينَ هذا وقَعَ قبْلَ نُزولِ هذه الآيةِ؛ فالتَّعبيرُ عنه بالفِعلِ المُضارعِ إمَّا لِقَصْدِ استِحضارِ الحالةِ، وإمَّا لِلدَّلالةِ على أنَّهم مُستمِرُّون على هذا القَولِ[(١)].

- وحُذِفَ وَصْفُ كِلمةِ (سورة) في حِكايةِ قَولِهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾؛ لِدَلالةِ ما بعْدَه عليه مِن قَولِه: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾؛ لأنَّ قَولَه: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ -أي: كما تَمنَّوا- اقْتَضى أنَّ المَسؤولَ سُورةٌ يُشرَعُ فيها قِتالُ المُشرِكين؛ فالمعنى: لولا نُزِّلَت سُورةٌ يُذكَرُ فيها القِتالُ وفَرْضُه[(٢)].

- والمَقصودُ مِن هذه الآيةِ هو قَولُه: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، وما قبْلَه تَوطئةٌ له بذِكْرِ سَببِه، وأفاد تَقديمُه أيضًا تَنْويهًا بشَأْنِ الَّذين آمَنوا، وأفاد ذِكْرُه مُقابَلةً بيْنَ حالَيِ الفريقينِ جَرْيًا على سَنَنِ هذه السُّورةِ[(٣)].

- قولُه: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ انتَصَبَ ﴿نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ؛ لِبَيانِ صِفةِ النَّظَرِ مِن قَولِه: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾؛ فهو على مَعنى التَّشبيهِ البليغِ، ووَجْهُ الشَّبَهِ: ثَباتُ الحَدَقةِ وعَدَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٠٦، ١٠٧).

التَّحريكِ، أي: يَنظُرون إليك نظَرَ المُتحيِّرِ بحيثُ يَتَّجِهُ إلى صَوبٍ واحدٍ، ولا يَشتغِلُ بالمَرئيَّاتِ؛ لأنَّه في شاغلٍ عن النَّظَرِ، وإنَّما يُوجِّهون أنْظارَهم إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ كانوا بمَجلِسِه حِينَ نُزولِ السُّورةِ، وكانوا يَتظاهَرون بالإقبالِ على تَلقِّي ما يَنطِقُ به مِن الوحْيِ، فلمَّا سَمِعوا ذِكرَ القِتالِ بُهِتوا؛ فالمَقصودُ المُشابَهةُ في هذه الصُّورةِ[١].

- و(مِنْ) هنا تَعليليَّةٌ، أي: المَغْشِيِّ عليه مِن أجْلِ المَوتِ، أي: حُضورِ الموتِ[٢].

- وفُرِّعَ قَولُه: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، وهذا التَّفريعُ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾[٣].

- ولَفظُ (أَوْلى) هنا يَجوزُ أنْ يكونَ مُستعمَلًا استِعمالَ التَّفضيلِ على شَيءٍ غَيرِ مَذْكورٍ يدُلُّ عليه ما قبْلَه، أي: أَوْلى لهم مِن ذلك الخَوفِ الَّذي دلَّ عليه نَظَرُهم كالمَغْشيِّ عليه مِن المَوتِ؛ أنْ يُطيعوا أمْرَ اللهِ، ويَقولوا قَولًا مَعروفًا، وعلى هذا الوَجْهِ فتَعديةُ (أَوْلى) باللَّامِ دُونَ الباءِ؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ ذلك أَوْلى وأنفَعُ؛ فكان اجتِلابُ اللَّامِ لِلدَّلالةِ على معنى النَّفْعِ، وهو يَرتبِطُ بقَولِه بعْدَه: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ مُستعمَلًا في التَّهديدِ والوَعيدِ، ومَعناهُ: أنَّ اللهَ أخبَرَ عن تَوعُّدِه إيَّاهُم. واللَّامُ على هذا الوَجْهِ إمَّا مَزيدةٌ، أي: أَولاهُم اللهُ ما يَكرَهونَ، وإمَّا مُتعلِّقةٌ بـ(أَوْلى) على أنَّه فِعلُ مُضِيٍّ، وعلى هذا الاستِعمالِ يَكونُ قَولُه: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كَلامًا مُستأْنَفًا، وهو مُبتدَأٌ خَبَرُه مَحذوفٌ، أي: طاعةٌ وقَولٌ مَعروفٌ خَيرٌ لهم، أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

خبَرٌ لِمُبتدَأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: الأمْرُ طاعةٌ وقَولٌ مَعروفٌ، أي: أمَرَ اللهُ أنْ يُطِيعوا[١].

- ونكَّر الاسمَينِ: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ﴾؛ لِيَكونَا صالِحَينِ للتَّعظيمِ وما دونَه[٢].

- وقولُه: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ تَفريعٌ على وَصْفِ حالِ المُنافِقين مِن الهَلَعِ عِندَ سَماعِ ذِكْرِ القِتالِ؛ فإنَّه إذا جَدَّ أمْرُ القِتالِ -أي: حانَ أنْ يُندَبَ المُسلِمون إلى القِتالِ- سيَضْطَرِبُ أمْرُ المُنافِقينَ، ويَتسلَّلون لِواذًا مِن حُضورِ الجِهادِ، وأنَّ الأَوْلَى لهم حِينَئِذٍ أنْ يُخلِصوا الإيمانَ، ويُجاهِدوا كما يُجاهِدُ المُسلِمون الخُلَّصُ؛ وإلَّا فإنَّهم لا مَحيصَ لهم مِن أحَدِ أمْرَينِ: إمَّا حُضورُ القِتالِ بدُونِ نِيَّةٍ؛ فتَكونُ عليهمُ الهَزيمةُ، ويَخْسَروا أنفُسَهم باطِلًا، وإمَّا أنْ يَنخَزِلوا عن القِتالِ[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ تَعريفُ العَهدِ، أو اللَّامُ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: أمْرُ القِتالِ المُتقدِّمِ آنِفًا في قَولِه: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾[٤].

- وقولُه: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ دَليلُ جَوابِ ﴿فَإِذَا﴾؛ لأنَّ (إذا) ضُمِّنت هنا مَعنى الشَّرْطِ، أي: كَذَبوا اللهَ وأخْلَفوا، فلو صَدَقوا اللهَ لَكان خَيرًا لهم، واقترانُ جُملةِ الجَوابِ بالفاءِ؛ لِلدَّلالةِ على تَضمينِ (إذا) مَعنى الشَّرْطِ، وذلك أحسَنُ مِن تَجْريدِه عن الفاءِ إذا كانت جُملةُ الجَوابِ شَرطيَّةً أيضًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٨، ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ومعنَى ﴿صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ قالُوا له الصِّدْقَ -على قولٍ في التفسيرِ-، وهو مُطابَقةُ الكلامِ لِمَا في نفْسِ الأمْرِ، أي: لو صَدَقوا في قَولِهم: نحْن مُؤمِنون، وهم إنَّما كَذَبوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ أظْهَروا له خِلافَ ما في نُفوسِهم؛ فجُعِل الكذِبُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَذِبًا على اللهِ؛ تَفْظيعًا له، وتَهويلًا لِمَغَبَّتِه[١].

- وفي الكَلامِ إيجازٌ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿لَكَانَ خَيْرًا﴾ يُؤذِنُ بأنَّه إذا عَزَم الأمْرُ حصَلَ لهمْ ما لا خَيرَ فيه[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ مُقْتضى تَناسُقِ النَّظْمِ أنَّ هذا مُفرَّعٌ على قَولِه: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]؛ لأنَّه يُفهَمُ منه أنَّه إذا عَزَم الأمْرُ تَولَّوا عن القِتالِ، وانْكشَفَ نِفاقُهم، فتَكونُ إتْمامًا لِمَا في الآيةِ السَّابقةِ مِن الإنْباءِ بما سَيَكونُ مِن المُنافِقين يَومَ أُحُدٍ[٣].

- وفي قَولِه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ الآيةَ، الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، والخِطابُ مُوجَّهٌ إلى الَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ، والسِّرُّ فيه هنا: أنَّه جاء لِتَأكيدِ التَّوبيخِ، وتَشْديدِ التَّقريعِ، وتَسجيلِ ذلك عليهم مُشافَهةً وخِطابًا[٤].

- والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّكذيبِ لِمَا سَيَعْتذِرون به لِانْخِزالِهم؛ ولذلك جِيءَ فيه بـ (هل) الدَّالَّةِ على التَّحقيقِ؛ لأنَّها في الاستِفهامِ بمَنزِلةِ (قدْ) في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٢١).

الخبَرِ؛ فالمَعنى: أفيَتحقَّقُ إنْ تولَّيْتم أنَّكم تُفسِدون في الأرْضِ، وتُقطِّعون أرْحامَكم، وأنتُم تَزْعُمون أنَّكم تَولَّيْتم إبقاءً على أنفُسِكم وعلى ذَوي قَرابةِ أنْسابِكم؟! وهذا تَوبيخٌ[١].

- وعبَّرَ بـ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾ بالتَّشديدِ على التَّكثيرِ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المُخاطَبينَ بطَريقِ الالْتِفاتِ؛ إيذانًا بأنَّ ذِكْرَ هَناتِهم[٣] أوجَبَ إسْقاطَهم عن رُتْبةِ الخِطابِ، وحِكايةَ أحْوالِهم الفَظيعةِ لِغَيرِهم[٤].

- وفيه لَطيفةٌ: وهي أنَّ اللهَ تعالَى قال: ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾، ولم يَقُلْ: أصَمَّ آذانَهم، وقال: ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾، ولم يقُلْ: أعْماهُم؛ وذلك لأنَّ العَينَ آلةُ الرُّؤيةِ، ولو أصابَها آفةٌ لا يَحصُلُ الإبصارُ، والأُذُنُ لو أصابَها آفةٌ مِن قطْعٍ أو قلْعٍ، تَسمَعُ الكلامَ؛ لأنَّ الأُذُنَ خُلِقَت وخُلِقَ فيها تَعاريجُ؛ لِيَكثُرَ فيها الهَواءُ المُتموِّجُ، ولا يَقرَعَ الصِّماخَ بعُنْفٍ فيُؤذِيَ كما يُؤذِي الصَّوتُ القويُّ، فقال: ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾ مِن غَيرِ ذِكْرِ الأُذُنِ، وقال: ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ مع ذِكْرِ العَينِ؛ لأنَّ البصَرَ هاهنا بمَعنى العَينِ، ولهذا جمَعَه بالأبصارِ، ولو كان مَصدَرًا لَمَا جُمِعَ، فلمْ يَذكُرِ الأُذُنَ؛ إذ لا مَدخَلَ لها في الإصمامِ، والعينُ لها مَدخَلٌ في الرُّؤيةِ، بلْ هي الكلُّ، ويدُلُّ عليه أنَّ الآفةَ في غَيرِ هذه المواضعِ لَمَّا أضافَها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١١، ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٢).

(٣) الهَنَات هنا معناها: خِصالُ الشَّرِّ، ولا يُقالُ ذلك في الخَيرِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٥٣٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٩).

إلى الأُذنِ سمَّاها وَقْرًا، كما قال تعالَى: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥]، وقال: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾ [لقمان: ٧]، والوَقْرُ دُونَ الصَّمِّ، وكذلك الطَّرَشُ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- وعُبِّرَ بالصَّمَمِ عن عَدَمِ الانتِفاعِ بالمَسموعاتِ مِن آياتِ القُرآنِ ومَواعِظِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما عُبِّرَ بالعَمَى هنا عن عَدَمِ الفَهمِ؛ لأنَّ حالَ الأعْمى أنْ يكونَ مُضطَرِبًا فيما يُحِيطُ به، لا يَدْري نافِعَه مِن ضارِّه إلَّا بمَعونةِ مَن يُرشِدُه[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾

- الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ تَوبيخيٌّ وتَوقيفيٌّ على مَخازِيهم. وهو إنْكارٌ وتَعْجيبٌ مِن سُوءِ عِلْمِهم بالقُرآنِ، ومِن إعْراضِهم عن سَماعِه[٤].

- قولُه: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ (أمْ) مُنقطِعةٌ، وما فيها مِن مَعنى (بلْ)؛ لِلانتقالِ مِن التَّوبيخِ بعَدَمِ التَّدبُّرِ إلى التَّوبيخِ بكَوْنِ قُلوبِهم مُقْفلَةً لا تَقبَلُ التَّدبُّرَ والتَّفكُّرَ، والهَمْزةُ لِلتَّقريرِ[٥].

- وتَنْكيرُ القُلوبِ؛ إمَّا لِتَهويلِ حالِها، وتَفْظيعِ شَأْنِها بإيهامِ أمْرِها في القَساوةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٢٠).

والجَهالةِ، كأنَّه قِيلَ: على قُلوبٍ مُنكَرةٍ، لا يُعرَفُ حالُها، ولا يُقادَرُ قَدْرُها في القَساوةِ. وإمَّا لأنَّ المُرادَ بها قُلوبُ بَعضٍ منهم، وهمُ المُنافِقونَ، والمعنى: بلْ بَعضُ القُلوبِ عليها أقفالٌ، وهذا مِن التَّعريضِ بأنَّ قُلوبَهم مِن هذا النَّوعِ؛ لأنَّ إثْباتَ هذا النَّوعِ مِن القُلوبِ في أثْناءِ التَّعجيبِ مِن عَدَمِ تَدبُّرِ هؤلاء القُرآنَ يدُلُّ -بدَلالةِ الالتِزامِ- أنَّ قُلوبَ هؤلاءِ مِن هذا النَّوعِ مِن القُلوبِ ذَواتِ الأقْفالِ؛ فكَونُ قُلوبِهم مِن هذا النَّوعِ مُستَفادٌ مِن الإضْرابِ الانتقاليِّ في حِكايةِ أحوالِهم[1]، أو أنَّه لم يحتَجْ إلى تعريفِ القلوبِ؛ لأنَّه معلومٌ أنَّها قلوبُ مَن ذكرَ[2].

وقيل: قال: ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ لأنَّه لو قال: (على قُلوبِهم) لم يَدخُلْ قَلبُ غَيرِهم في هذه الجُملةِ. والمُرادُ: أمْ على قُلوبِ هؤلاء وقُلوبِ مَن كانوا بهذه الصِّفةِ أقفالُها[3].

- وإضافةُ (أقْفالٍ) إلى ضَميرِ ﴿قُلُوبٍ﴾ نظْمٌ بَديعٌ أشارَ إلى اخْتِصاصِ الأقفالِ بتلك القُلوبِ، أي: مُلازَمتِها لها؛ فدلَّ على أنَّها قاسيةٌ، وأنَّها أقفالٌ مُناسِبةٌ لها، غَيرُ مُجانِسةٍ لِسائرِ الأقْفالِ المَعهودةِ[4].

وقيل: قال: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالإضافةِ، ولم يَقُلْ: (أقفالٌ)، كما قال: ﴿قُلُوبٍ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٥، ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٢١).

لأنَّ الأقفالَ كانت مِن شَأنِها، فأضافَها إليها كأنَّها ليستْ إلَّا لها، وفي الجُملةِ لم يُضِفِ القُلوبَ إليهم؛ لعَدَمِ نَفعِها إيَّاهم[١].

وقيل: في قَولِه: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالتَّعريفِ نَوعُ تأكيدٍ؛ فإنَّه لو قال (أقفالٌ) لَذَهَبَ الوَهمُ إلى ما يُعرَفُ بهذا الاسمِ؛ فلمَّا أضافَها إلى القُلوبِ عُلِمَ أنَّ المرادَ بها ما هو للقَلبِ بمَنزلةِ القُفلِ للبابِ؛ فكأنَّه أراد أقفالَها المُختصَّةَ بها، الَّتي لا تكونُ لِغَيرِها، واللهُ أعلمُ[٢].

- والآيةُ مِن الاحتِباكِ[٣]: ذَكرَ التَّدبُّرَ أوَّلًا دليلًا على ضِدِّه ثانيًا، والأقفالَ ثانيًا دليلًا على ضِدِّها أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّه ذَكرَ نَتيجةَ الخَيرِ الكافِلةَ بالسَّعادةِ أوَّلًا، وسببَ الشَّرِّ الجامِعَ للشَّقاوةِ ثانيًا[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٦).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٤٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٤، ٢٤٥).

الآيات (٢٥-٢٨)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ٢٦ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَوَّلَ﴾: أي: زيَّن وسَهَّل، والتَّسويلُ: تَزيينُ النَّفْسِ لِمَا تَحرِصُ عليه، وتصويرُ القَبيحِ منه بصُورةِ الحَسَنِ، وأصلُ التَّسويلِ: تَفعيلٌ مِن سُولِ الإنسانِ، وهو أُمنِيَّتُه الَّتي يَتمَنَّاها فتُزَيِّنُ لطالِبِها الباطِلَ والغُرورَ، قيل: مِن السَّوْلِ وهو الاسترخاءُ، وقيل: أصلُ السُّولِ (السُّؤْلُ) مَهموزًا[1].

﴿وَأَمۡلَىٰ﴾: أي: أمْهَلهم بالمدِّ لهم في العُمُرِ، على أنَّ الإملاءَ راجِعٌ إلى الله، أو: مَدَّ لهم في الآمالِ والأمانيِّ على أنَّ الإملاءَ مِن فِعلِ الشيطانِ، وأصلُ الإملاءِ: يدُلُّ على امتِدادٍ في شَيءٍ؛ زَمانٍ أو غَيرِه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا الأسبابَ الَّتي حمَلَتِ المنافِقينَ على النِّفاقِ: إنَّ المُنافِقينَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

الَّذين فارَقوا الإيمانَ، ورَجَعوا إلى الكُفرِ مِن بَعدِ ما عَرَفوا الحَقَّ: الشَّيطانُ زيَّنَ لهم الارتِدادَ عن الإسلامِ، واللهُ مَدَّ لهم في آجالِهم، وأمهَلَهم، ولم يُعَجِّلْ عُقوبَتَهم، فاغتَرُّوا ووَقَع منهم ذلك.

ذلك التَّسويلُ والإملاءُ وَقَع عليهم؛ بسَبَبِ قَولِهم للكُفَّارِ الَّذين كَرِهوا ما أنزَلَ اللهُ تعالى مِنَ القُرآنِ: سنُطيعُكم ونَتَّبِعُ أهواءَكم في بَعضِ ما كَرِهتُموه مِن الوَحيِ المُنَزَّلِ. واللهُ يَعلَمُ ما يُخفيه المُنافِقونَ والكافِرونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى أحوالَ المنافِقينَ السَّيِّئَةَ عندَما تتَوفَّاهم الملائكةُ، فيقولُ: فكيف يكونُ حالُ أولئك المنافِقينَ إذا جاءتْهم الملائِكةُ لِقَبضِ أرواحِهم، فأخَذوا يَضرِبونَ وُجوهَهم وأعجازَهم؟ ذلك الضَّربُ للمُنافِقينَ عندَ مَوتِهم بسَبَبِ اتِّباعِهم ما أسخَطَ اللهَ، وكَراهيتِهم رِضوانَه تعالى؛ فأبطَلَ اللهُ أعمالَهم وأذهَبَها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ -سُبحانَه وتعالى- بأقفالِ قلوبِ المنافقينَ؛ بيَّن منشأَ ذلك، فقال[1]:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ ﴾.

أي: إنَّ المُنافِقينَ الَّذين فارَقوا الإيمانَ، ورَجَعوا إلى الكُفرِ مِن بَعدِ ما عَرَفوا الحَقَّ، فآثَروا الضَّلالَ على الهُدى بلا بُرهانٍ: إنَّما وَقَع منهم ذلك؛ بسَبَبِ تَزيينِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٥).

الشَّيطانِ لهم الارتِدادَ عن الإسلامِ[(١)].

كما قال الله تعالى ذِكرُه: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٨ - ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿وَأُمْلِيَ﴾ بضَمِّ الهَمزةِ، وكَسرِ اللَّامِ، وفَتحِ الياءِ، على صيغةِ ما لم يُسمَّ فاعِلُه[(٢)].

٢- قِراءةُ ﴿وَأُمْلِي﴾ بضَمِّ الهَمزةِ، وكَسرِ اللَّامِ، وسُكونِ الياءِ، على أنَّه مُسنَدٌ إلى المُتكَلِّمِ، بنِسْبةِ الإملاءِ إلى اللهِ تعالى، أي: وأنا أُملِي لهم، كما قال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٧٩، ٣٨٠).

قال ابنُ عاشور: (لعلَّ المرادَ: الجَماعةُ الَّذين انخَزَلوا يومَ أُحُدٍ مع عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ ابنِ سَلولَ، والارتِدادُ على الأدبارِ على هذا الوَجهِ حَقيقةٌ؛ لأنَّهم رَجَعوا عن مَوقِعِ القِتالِ بعدَ أن نَزَلوا به فرَجَعوا إلى المدينةِ، وكانت المدينةُ خَلْفَهم. وهذا عندي أظهَرُ الوَجهَينِ، وأَلْيَقُ بقولِه بعدُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ [محمد: ٢٦] إلى قولِه: ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧]، و(الهُدى) على هذا الوَجهِ هو الحَقُّ، أي: مِن بَعدِ ما عَلِموا أنَّ الحَقَّ قِتالُ المُشرِكينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٥).

(٢) قرأ بها أبو عَمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٦).

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْـمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقيل: هي كالقِراءةِ السَّابِقةِ، وسُكِّنَت الياءُ تَخفيفًا(١).

٣- قِراءةُ ﴿وَأَمْلَىٰ﴾ بفَتحِ الهَمزةِ واللَّامِ، بنِسبةِ الإملاءِ إلى الشَّيطانِ، أي: وأَملى الشَّيطانُ لهم. أو: هي بمعنى القِراءةِ السَّابِقةِ، أي: واللهُ أَملَى لهم(٢).

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

أي: ووَقَع منهم ذلك؛ لأنَّ اللهَ مَدَّ للمُنافِقينَ في آجالِهم، وأمهَلَهم، ولم يُعَجِّلْ عُقوبَتَهم، فاغتَرُّوا(٣).

---

(١) قرأ بها يعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٧٠٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٨، ٣٢٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٩).
وممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي -وعزاه لأكثَرِ المفسِّرينَ-، والسمعانيُّ، وابنُ عطية، والرَّسْعَني، وأبو حيَّان.
يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣).
وقيل: المعنى: ومَدَّ الشَّيطانُ للمُنافِقينَ في الأمَلِ، ووعَدَهم طُولَ العُمُرِ، وغَرَّهم وخَدَعَهم.
وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البغويُّ، والزمخشري، وابن جُزَي، وابن كثير، وجلال الدين المحلِّي، والعُلَيمي، والشوكاني، والألوسي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ * وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال عز وجل: ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد: ٣٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج: ٤٤].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى تَسليطَه الشَّيطانَ عليهم؛ بَيَّنَ سَبَبَه، فقال[1]:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ ﴾.

= الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٠).

كما قال تعالى: ﴿ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١٢٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وذكر ابنُ جُزَي أنَّ ذلك أظهَرُ؛ لِتَناسُبِ الضَّميرِ بيْن الفاعِلَين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٧).

أي: ذلك التَّسويلُ والإملاءُ المُفضي بهم إلى الكُفرِ قد وَقَع؛ بسَبَبِ قَولِ المُنافِقينَ للكُفَّارِ الَّذين كَرِهوا ما أنزَلَ اللهُ تعالى مِنَ القُرآنِ: سنُطيعُكم ونَتَّبعُ أهواءَكم في بَعضِ ما كَرِهتُموه مِن الوَحيِ المُنَزَّلِ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨١).

قال الرَّازي: (قال بعضُ المفسِّرينَ: ذلك إشارةٌ إلى الإملاءِ، أي: ذلك الإملاءُ بسببِ أنَّهم قالوا لِلَّذينَ كَرِهوا. وهو اختيارُ الواحديِّ. وقال بعضُهم: ذلك إشارةٌ إلى التَّسويلِ. ويحتملُ أن يُقالَ: ذلك الارتدادُ بسبَبِ أنَّهم قالوا سَنُطِيعُكم). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٨).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الإشارةَ في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ تعودُ إلى التَّسويلِ والإملاءِ: ابنُ جرير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨١).

وذهب القاسمي إلى أنَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِر مِن ارتِدادِهم. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٧٦).

قال ابن جرير: (﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ الأمرِ بقِتالِ أهلِ الشِّركِ به). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٠).

وقال القرطبي: (﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في مُخالَفةِ مُحمَّدٍ، والتَّظاهُرِ على عداوتِه، والقُعودِ عن الجِهادِ معه، وتَوهينِ أمْرِه في السِّرِّ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٠).

وقال البِقاعي: (﴿فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ وهو القِتالُ في سَبيلِ اللهِ، الَّذي تقدَّمَ أنَّهم عندَ نُزولِ سُورةٍ يُذكَرُ بها يَصيرونَ كالَّذي يُغشَى عليه مِنَ الموتِ، فأنتم في أمانٍ مِن أن نُقاتِلَكم أبدًا؛ فإنَّا إنَّما أسلَمْنا للأمانِ على دمائِنا وأموالِنا، والَّذي نُحِبُّه مِمَّا يُنَزَّلُ هو التَّأمينُ لِمَن أقَرَّ بكَلِمةِ الإسلامِ، والقَناعةُ منه بالظَّاهِرِ، والوَعدُ العامُّ بالتَّبَسُّطِ في البلادِ، والتَّوسِعةِ في الأرزاقِ، ونحوِ ذلك؛ فكانوا بذلك كَفَرةً؛ فإنَّ الدِّينَ لا يتجَزَّأُ، فمَنْ أضاع مِن أصولِه شَيئًا فقد أضاعه كُلَّه، والتَّقييدُ بالبَعضِ يُفهِمُ أنَّهم لا يُطيعونَهم في البَعضِ الآخَرِ، وهو إظهارُ الإسلامِ، والتَّصَوُّرُ بصُورةِ المُسالَمةِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٤٨).

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿إِسۡرَارَهُمۡ﴾ بكَسرِ الهَمزةِ، مَصدَرُ: أَسَرَّ يُسِرُّ، أي: واللهُ يَعلَمُ إخفاءَهم(١).

٢- قِراءةُ ﴿أَسْرَارَهُمْ﴾ بفَتحِ الهَمزةِ، جَمعُ سِرٍّ، أي: يَعلَمُ الأشياءَ الَّتي يُسِرُّونَها(٢).

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾.

أي: واللهُ يَعلَمُ ما يُخفيه المُنافِقونَ والكافِرونَ، ويُسِرُّونَه بيْنَهم مِنَ الكُفرِ به، ومَعصيةِ رَسولِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].

---

(١) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ، وحفصٌ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).
واستظهر الرَّازيُّ أنَّ المعنى: أنَّ اللهَ يَعلَمُ ما في قُلوبِهم مِمَّا يُسِرُّونَ مِن العِلمِ بصِدقِ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّهم كانوا مُكابِرينَ مُعانِدينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٧).

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٧، ٨].

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى إحاطةَ عِلمِه بهم؛ أتْبَعه إحاطةَ قُدرتِه[1]، فقال تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: فكيف يكونُ حالُ أولئك المنافِقينَ إذا جاءتْهم الملائِكةُ لِقَبضِ أرواحِهم، فأخَذوا يَضرِبونَ وُجوهَهم وأعجازَهم[2]؟

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٢).

وقد ذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ هذه الآيةَ تتعَلَّقُ بما قَبْلَها، أي: واللهُ يَعلَمُ إسرارَ هؤلاء المنافِقينَ، فكيف لا يَعلَمُ حالَهم إذا توفَّتْهم الملائِكةُ وهم يَضرِبونَ وُجوهَهم وأدبارَهم؟! فحالُهم أيضًا لا يخفَى عليه في ذلك الوَقتِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١).

وقال ابن عطيَّة: (يَحتَمِلُ أن يُتوَعَّدوا به على مَعنَيين؛ أحَدُهما: هذا هَلَعُهم وجَزَعُهم لِفَرضِ القِتالِ وقِراعِ الأعداءِ، فكيف فَزَعُهم وجَزَعُهم إذا توفَّتْهم الملائِكةُ؟! والثَّاني: أن يُريدَ: هذه مَعاصيهم وعِنادُهم وكُفرُهم، فكيف تكونُ حالُهم مع اللهِ إذا توفَّتْهم الملائِكةُ؟!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٠).

وقال القرطبي: (معنى الكلامِ التَّخويفُ والتَّهديدُ، أي: إنْ تأخَّرَ عنهم العذابُ فإلى انقِضاءِ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾.

أي: ذلك الضَّربُ للمُنافِقينَ عندَ مَوتِهم إنَّما هو بسَبَبِ اتِّباعِهم ما أسخَطَ اللهَ؛ بالكُفرِ أو العِصيانِ، ومِن ذلك طاعتُهم الشَّيطانَ، ومُوالاةُ الكُفَّارِ الَّذين كَرِهوا ما أنزَلَ الرَّحمنُ(١).

﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾.

أي: وبسَبَبِ أنَّ المُنافِقينَ كَرِهوا ما يُرضي اللهَ عنهم، كالقِتالِ في سَبيلِه، ولم يكُنْ لهم رغبةٌ فيما يُقرِّبُهم إليه(٢).

= العُمُر). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٠).

وقال أيضًا في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الأنفالِ (الآية ٥٠): (﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: أسْتاهَهم، كنَى عنها بالأدبارِ، قالَه مجاهدٌ وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ. الحسَنُ: ظهورَهم... وقيلَ: هذا الضَّرْبُ يكونُ عندَ الموتِ. وقد يكونُ يومَ القيامةِ حينَ يَصيرونَ بهم إلى النَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٢).

قال الواحدي: (﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: يُريدُ ما كتَموا مِن التَّوراةِ. وقال مقاتلٌ: يعني الكفرَ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وقال الزَّجَّاجُ: اتَّبَعوا مَن خالَفَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٥٩). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤).

وقال الشوكاني: (﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ أي: بِسَبَبِ اتِّباعِهم ما يُسْخِطُ اللهَ مِن الكفرِ والمعاصي. وقِيل: كِتْمانُهم ما في التَّوراةِ مِن نَعْتِ نَبيِّنا صلَّى الله عليه وسَلَّم. والأوَّلُ أولَى؛ لِمَا في الصِّيغةِ مِن العُمومِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩). =

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

أي: فأبطَلَ اللهُ أعمالَهم وأذهَبَها؛ فلا نَفْعَ فيها[(١)].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾، بيَّن -جلَّ وعَلا- في هذه الآيةِ الكَريمةِ: أنَّ سببَ ارتِدادِ هؤلاءِ القَومِ مِن بَعدِ ما تبيَّنَ لهمُ الهُدى، هو إغواءُ الشَّيطانِ لهم، كما قال تعالى مُشيرًا إلى عِلَّةِ ذلك: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ أي: زيَّن لهمُ الكُفرَ والارتِدادَ عن الدِّينِ، ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: مدَّ لهم في الأملِ، ووَعَدَهم طولَ العُمُرِ، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ. وإيضاحُ هذا: أنَّ هؤلاءِ المُرتدِّينَ على أدبارِهم مِن بَعدِ ما تبيَّنَ لهمُ الهُدى وَقَع لهم ذلك بسَببِ أنَّ الشَّيطانَ سوَّلَ لهم ذلك، وسهَّلَه لهم وزيَّنَه لهم وحسَّنَه لهم، ومنَّاهم بطولِ الأعمارِ؛ لأنَّ طولَ الأملِ مِن أعظَمِ أسبابِ ارتِكابِ الكُفرِ والمعاصي[(٢)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ

= قال الشنقيطي بعدَ أن ذكر قولَ مَن قال: إنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في المنافقينَ، وقولَ مَن قال: إنَّها نزلت في اليهودِ، قال: (التَّحقيقُ الَّذي لا شكَّ فيه أنَّ هذه الآياتِ عامَّةٌ في كلِّ ما يَتناوَلُه لَفْظُها، وأنَّ كل ما فيها مِن الوعيدِ عامٌّ لِمَن أطاع مَن كَرِهَ ما نزَّل اللهُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٣٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٩، ١٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٠).

فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۞ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ يَجِبُ على كُلِّ مُسلِمٍ في هذا الزَّمانِ تأمُّلُ هذه الآياتِ وتدَبُّرُها، والحَذَرُ التَّامُّ مِمَّا تَضَمَّنتْه مِنَ الوعيدِ الشَّديدِ، فاحذَرْ كُلَّ الحَذَرِ مِن الدُّخولِ في الَّذين قالوا: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾[1].

٣- إنَّ قولَ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» يَقْتَضي ألَّا يُحَبَّ سِواه؛ فإنَّ الإلهَ هو الَّذي يُطاعُ، مَحبَّةً وخَوفًا ورَجاءً، ومِن تمامِ مَحبَّتِه مَحبَّةُ ما يُحِبُّه، وكَراهِيَةُ ما يَكرَهُه؛ فمَن أَحَبَّ شيئًا ممَّا يَكرَهُ اللهُ، أو كَرِه شيئًا ممَّا يُحِبُّه اللهُ لم يَكمُلْ تَوحيدُه ولا صِدقُه في قولِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وكان فيه مِن الشِّركِ الخَفيِّ بحَسَبِ ما كَرِهَه ممَّا يُحِبُّه اللهُ، وما أَحَبَّه ممَّا يَكرَهُه اللهُ. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[2]. وقال أيضًا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، فذَمَّ سُبحانَه مَن كَرِهَ ما أَحَبَّه اللهُ، أو أَحَبَّ ما كَرِهَه اللهُ؛ فالواجِبُ على كُلِّ مُؤمِنٍ أن يحِبَّ ما أَحَبَّه اللهُ مَحبَّةً تُوجِبُ له الإتيانَ بما وَجَب عليه منه، فإنْ زادت المحبَّةُ حتَّى أتَى بما نُدِبَ إليه منه كان ذلك فَضلًا؛ وأن يَكرَهَ ما كَرِهَه اللهُ تعالى كراهةً تُوجِبُ له الكَفَّ عمَّا حَرَّم عليه منه، فإن زادت الكراهةُ حتَّى أوجَبَت الكَفَّ عمَّا كَرِهَه تَنزيهًا كان ذلك فَضلًا. وقد ثَبَت في الصَّحيحَينِ عنه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم حتَّى أكونَ أحَبَّ إليه مِن والدِه ووَلَدِه والنَّاسِ أجمَعينَ))[3]؛ فلا يكونُ المؤمِنُ مُؤمِنًا حتَّى يُقَدِّمَ مَحبَّةَ الرَّسولِ على محبَّةِ جَميعِ الخَلقِ، ومحبَّةُ الرَّسولِ تابِعةٌ لِمَحبَّةِ مُرسِلِه، والمحبَّةُ الصَّحيحةُ تَقتضي المُتابَعةَ والمُوافَقةَ في حُبِّ المحبوباتِ،

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٣، ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٥٩).

(٣) أخرجه البخاريُّ (١٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٤) مِن حديثِ أنسٍ رضيَ الله عنه.

وبُغضِ المكروهاتِ؛ قال عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[1] [آل عمران: ٣١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾، ولم يقلْ: (ما أرضى اللهَ)؛ وذلك لأنَّ رَحمةَ اللهِ سابِقةٌ، فله رحمةٌ ثابِتةٌ، وهي مَنشَأُ الرِّضوانِ، وغَضَبَ اللهِ مُتأخِّرٌ، فهو يكونُ على ذنْبٍ؛ فقال: ﴿ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾؛ لأنَّه وَصفٌ ثابِتٌ للهِ سابِقٌ، ولم يقلْ: (سَخَطَ اللهِ)، بل: ﴿ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ السَّخَطَ ليس ثُبوتُه كثُبوتِ الرِّضوانِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أنَّ الماضيَ مِن العَمَلِ قد يَحبَطُ بالسَّيِّئاتِ[3].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾، فيه سُؤالٌ: المُشرِكون ما كانوا يَكرَهون رِضوانَ اللهِ، بل كانوا يَقولونَ: إنَّ ما نحن عليه فيه رِضوانُ اللهِ، ولا نَطلُبُ إلَّا رِضاءَ اللهِ، فكانوا يَقولونَ: إنَّا نَطلُبُ رِضاءَ اللهِ. كما قالوا: ﴿ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣]، وقالوا: ﴿ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ ﴾ [الأعراف:٥٣]؟

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٩٥، ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٨٥).

الجَوابُ: أنَّ مَعْناه: كَرِهوا ما فيه رِضاءُ اللهِ تعالى[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾ جيءَ بحَرْفِ (على)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الارْتِدادَ مُتمكِّنٌ مِن جِهةِ الأدْبارِ، كما يُقال: على صِراطٍ مُستقيمٍ[٢].

- وأُوثِرَ أنْ يكونَ خَبَرُ (إنَّ) جُملةً؛ لِيَتأتَّى بالجُملةِ اشْتِمالُها على خَصائصِ الابتداءِ باسْمِ الشَّيطانِ؛ للاهتِمامِ به في غَرَضِ ذَمِّهم، وأنْ يُسنَدَ إلى اسْمِه مُسنَدٌ فِعلِيٌّ؛ لِيُفِيدَ تَقوِّيَ الحُكْمِ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ إذِ التَّقديرُ أنْ يَسأَلَ سَائلٌ عن مَظهَرِ تَسويلِ الشَّيطانِ لهم الارتدادَ بعْدَ أنْ تَبيَّنَ لهم الهُدى، فأُجيبَ بأنَّ الشَّيطانَ اسْتَدْرَجَهم إلى الضَّلالِ عِندَما تَبيَّن لهم الهُدى فسَوَّلَ لهم أنْ يُوافِقوا أهْلَ الشِّركِ والكُفرِ في بَعضِ الأُمورِ، مُسوِّلًا أنَّ تلك المُوافَقةَ في بَعضِ الأمْرِ لا تَنقُضُ اهْتِداءَهم، فلمَّا وافَقُوهم وَجَدوا حَلاوةَ ما أَلِفوه مِن الكُفرِ فيما وافَقوا فيه أهْلَ الكُفرِ، فأخَذوا يَعودونَ إلى الكُفرِ المأْلوفِ حتَّى ارْتَدُّوا على أدْبارِهم، وهذا شأْنُ النَّفْسِ في مُعاوَدةِ ما تُحِبُّه بعْدَ الانقطاعِ عنْه إنْ كان الانقطاعُ قَريبَ العَهدِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١١٦).

- وقالوا: ﴿فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾؛ احترازًا لأنفُسِهم إذا لم يُطيعوا في بَعضٍ[(١)].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، مُتضمِّنٌ لِلْإفشاءِ في الدُّنيا، والتَّعذيبِ في الآخِرةِ[(٢)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ في ﴿فَكَيْفَ﴾ لِلتَّفريعِ على جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ [محمد: ٢٥] الآيةَ، وما بيْنَهما مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥] بِناءً على أنَّ الارتِدادَ ارتِدادٌ عن الدِّينِ؛ فيَكونَ التَّفريعُ لِبَيانِ ما سَيَلْحَقُهم مِن العَذابِ عِندَ المَوتِ، وهو استِهلالٌ لِمَا يَتواصَلُ مِن عَذابِهم عندَ مَبدَأِ المَوتِ إلى اسْتِقرارِهم في العَذابِ الخالِدِ. ويَجوزُ إذا كان المُرادُ بالارتِدادِ الارتِدادَ عن القِتالِ، أنْ تَكونَ الفاءُ فَصيحةً، فيُفيدُ: إذا كانوا فَرُّوا مِن القِتالِ هلَعًا وخَوفًا، فكيفَ إذا تَوفَّتْهم الملائكةُ؟! أي: كيف هَلَعُهم ووَجَلُهم الَّذي ارْتَدُّوا بِهما عن القِتالِ؟! وهذا يَقْتضي شَيئينِ؛ أوَّلُهما: أنَّهم مَيِّتُون لا مَحالةَ، وثانِيهما: أنَّ مَوتَتَهم يَصحَبُها تَعذيبٌ؛ فالأوَّلُ مأْخوذٌ بدَلالةِ الالْتزامِ، والثَّاني هو صَريحُ الكلامِ، وهو وَعيدٌ لِتَعذيبٍ في الدُّنيا عِندَ الموتِ، والمَقصودُ: وَعيدُهم بأنَّهم سيُعَجَّلُ لهم العَذابُ مِن أوَّلِ مَنازِلِ الآخِرةِ، وهو حالةُ الموتِ[(٣)].

- قولُه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ...﴾ (إذا) مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ دلَّ عليه اسمُ الاستِفهامِ، تَقْديرُه: كَيف حالُهم أو عَمَلُهم حِينَ تَتوفَّاهم الملائكةُ[(٤)]؟!

- ولَمَّا جُعِلَ هذا العَذابُ مُحقَّقًا وُقوعُه، رُتِّبَ عليه الاسْتِفهامُ عن حالِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ... ﴾ اسْتِفهامًا مُستعمَلًا في مَعنى تَعجيبِ المُخاطَبِ مِن حالِهم عِندَ الوَفاةِ، وهذا التَّعجيبُ مُؤذِنٌ بأنَّها حالةٌ فَظيعةٌ غَيرُ مُعتادةٍ؛ إذ لا يتعجَّبُ إلَّا مِن أمْرٍ غَيرِ مَعهودٍ، والسِّياقُ يدُلُّ على الفَظاعةِ[١].

- قولُه: ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ تَصْويرٌ لِتَوفِّيهم على أهْولِ الوُجوهِ وأفظَعِها بما يَخافون منه، ويَجْبُنون عن القِتالِ مِن أجْلِه[٢].

- وأيضًا جُملةُ ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ حالٌ مِن الملائكةِ، والمَقصودُ مِن هذه الحالِ: وَعيدُهم بهذه المِيتةِ الفَظيعةِ الَّتي قدَّرَها اللهُ لهم، وجَعَل المَلائكةَ تَضرِبُ وُجوهَهم وأدْبارَهم، أي: يَضرِبون وُجوهَهم الَّتي وَقَوْهَا مِن ضَرْبِ السَّيفِ حِينَ فَرُّوا مِن الجِهادِ؛ فإنَّ الوُجوهَ ممَّا يُقصَدُ بالضَّرْبِ بالسُّيوفِ عِندَ القِتالِ، ويَضرِبونَ أدْبارَهم الَّتي كانتْ مَحَلَّ الضَّرْبِ لو قاتَلوا، وهذا تَعريضٌ بأنَّهم لو قاتَلوا لَفَرُّوا، فلا يَقَعُ الضَّرْبُ إلَّا في أدْبارِهم[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ في ذِكرِ اتِّباعِ ما أسخَطَ اللهِ وكَراهةِ رِضوانِه مُحسِّنُ الطِّباقِ[٤]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٨، ١١٩).

(٤) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ مع مُراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِن الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَق بيْنَ الضَّحِكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقون. ومنه: طباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكون الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ مُتوهَّمةً، فتَبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ =

مرَّتينِ؛ لِلمُضادَّةِ بيْن السَّخَطِ والرِّضوانِ، والاتِّباعِ والكَراهيةِ. والجمْعُ بيْن الإخبارِ عنْهم باتِّباعِهم ما أسْخَطَ اللهَ وكَراهَتِهم رِضوانَه، مع إمكانِ الاجْتِزاءِ بأحَدِهما عن الآخَرِ؛ لِلْإيماءِ إلى أنَّ ضَرْبَ الملائكةِ وُجوهَ هؤلاء مُناسِبٌ لِإقبالِهم على ما أسْخَطَ اللهَ، وأنَّ ضَرْبَهم أدْبارَهم مُناسِبٌ لِكَراهَتِهم رِضوانَه؛ لأنَّ الكَراهةَ تَستلزِمُ الإعراضَ والإدبارَ؛ ففي الكلامِ أيضًا مُحسِّنُ اللَّفِّ والنَّشْرِ المُرتَّبِ(١)، فكان ذلك التَّعذيبُ مُناسبًا لِحالَيْ تَوقِّيهم في الفِرارِ مِن القِتالِ، ولِلسَّببينِ الباعثينِ على ذلك التَّوقِّي(٢).

= الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري)) للآمدي (١/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٢٢٥-٢٣٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٣٧٧-٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(١) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٩).

- وفُرِّعَ على اتِّباعِهم ما أسْخَطَ اللهَ وكَراهَتِهم رِضوانَه قَولُه: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ فكان اتِّباعُهم ما أسْخَطَ اللهَ وكَراهَتُهم رِضوانَه سَببًا في الأمْرَينِ: ضَرْبُ الملائكةِ وُجوهَهم وأدْبارَهم عِندَ الوفاةِ، وإحباطُ أعْمالِهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٩).

الآيات (٢٩-٣١)

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَضْغَٰنَهُمْ﴾: أي: أحقادَهم، واحِدُها ضِغْنٌ: وهو ما في القَلبِ مُستَكِنٌّ مِن العَداوةِ، وأصلُ (ضغن): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ في مَيْلٍ واعْوِجاجٍ[(١)].

﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾: أي: بعَلاماتِهم وآثارِهم، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على أثَرٍ ومَعْلَمٍ[(٢)].

﴿لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾: أي: مَعاريضِ الكَلامِ ومَعناه وفَحواه، يُقالُ: لَحَنتُ له ألحَنُ: إذا قُلتَ له قَولًا يَفقَهُه عنك، ويَخفَى على غَيرِه، وأصلُ (لحن): يدُلُّ على إمالةِ شَيءٍ عن جِهتِه[(٣)].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾: أي: لَنَختَبِرَنَّكم ولَنَمتَحِنَنَّكم، والبَلاءُ يكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ، وأصلُ (بلو): يدُلُّ على الامتحانِ والاختِبارِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مهدِّدًا المنافِقينَ بكشفِ أستارِهم، وفضحِ أسرارِهم: بل أَحَسِبَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ أنْ لنْ يُظهِرَ اللهُ ما في قُلوبِهم مِن أحقادٍ وعَداوةٍ للإسلامِ وأهلِه؟

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى قُدرتَه على ذلك، فيقولُ: ولو نَشاءُ لَأَرَيْناك المُنافِقينَ -يا مُحمَّدُ-، فتَعرِفُهم بعَلاماتِهم الظَّاهِرةِ في وُجوهِهم، ولَتَعرِفَنَّهم -يا محمَّدُ- بفَحْوى أقوالِهم الَّتي تدُلُّ على سُوءِ طَوِيَّتِهم، واللهُ يَعلَمُ أعمالَكم، لا يخفَى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سُنَّةً مِن سُننِه في خلقِه، فيقولُ: ولَنَختبِرَنَّ إيمانَكم وصَبرَكم، فنَأمُرُكم بالجِهادِ حتَّى نَعلَمَ المجاهِدينَ مِنكم والصَّابِرينَ، ونختبِرَكم اختبارًا يَكشِفُ أحوالَكم وضمائرَكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذا انتِقالٌ مِن التَّهديدِ والوَعيدِ إلى الإنذارِ بأنَّ اللهَ مُطلِعٌ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما يُضمِرُه المُنافِقونَ مِن الكُفرِ والمَكرِ والكَيدِ؛ لِيَعلَموا أنَّ أسْرارَهم غَيرُ خافيةٍ، فيُوقِنوا أنَّهم يَكُدُّون عُقولَهم في تَرتيبِ المَكايِدِ بلا طائلٍ، وذلك خَيبةٌ لِآمالِهم[1].

وأيضًا لَمَّا صوَّرَ اللهُ -سُبحانَه- ما أثَّرَتْه خِيانةُ المُنافِقين بأقبَحِ صُوَرِه، فبانَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٠).

به أنَّه ما حَمَلهم على ما فَعَلوه إلَّا جَهلُهم وسَفاهَتُهم؛ فأنتَجَ إهانَتَهم بالتَّبْكيتِ، فقال[١]:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: بل[٢] أحَسِبَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ أنَّ اللهَ لن يُظهِرَ ما في قُلوبِهم مِن أحقادٍ وعَداوةٍ للإسلامِ وأهلِه[٣]؟

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان مَفهومُ قَولِه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩] أنَّ اللهَ يُظهِرُ ضَمائرَهم، ويُبرِزُ سَرائرَهم، كأنَّ قائلًا قال: فلِمَ لَمْ يُظهِرْ؟ فقال: أخَّرْناه لِمَحضِ المَشيئةِ، لا لِخَوفٍ منهم كما لا تُفشَى أسرارُ الأكابِرِ خَوفًا منهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥١).

(٢) قال الرَّازي: (المفسِّرونَ على أنَّها [أي: أم] مُنقَطِعةٌ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٨).
وممَّن اختار أنَّها مُنقطِعةٌ بمعنى «بلْ»: ابنُ عطيَّة، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٠).
وذكر الرَّازيُّ أنَّه يحتمِلُ أنْ يُقالَ: إنَّها استِفهاميَّةٌ، و (أمْ) إذا كانت مُتَّصِلةً استِفهاميَّةً تَسْتدْعي سَبْقَ جملةٍ أخرَى استِفهاميَّةٍ، والسَّابقُ مفهومٌ مِن قولِه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦]، فكأنَّه تعالَى قال: أحَسِبَ الَّذينَ كفروا أنْ لن يَعلَمَ اللهُ إسرارَهم، أمْ حَسِبَ المنافقونَ أنْ لنْ يُظْهِرَها؟! والكلُّ فاسدٌ، وإنَّما يَعلَمُها ويُظهِرُها. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٤٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٩).

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾.

أي: ولو نَشاءُ لأَرَيْناكَ المُنافِقينَ -يا مُحمَّدُ- بأشْخاصِهم وأعْيانِهم، فتَعرِفُهم بعَلاماتِهم الظَّاهِرةِ في وُجوهِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ * وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠١، ١٠٢].

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾.

أي: وأُقسِمُ -يا محمَّدُ- لَتَعرِفَنَّ المنافِقينَ في فَحْوى كلامِهم، وما يَصدُرُ منهم مِن أقوالٍ تدُلُّ على مَقاصِدِهم السَّيِّئةِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١).

قال ابنُ عطيَّة: (قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ مُقارَبةٌ في شُهرتِهم، ولكِنَّه تعالى لم يُعَيِّنْهم قَطُّ بالأسماءِ والتَّعريفِ التَّامِّ؛ إبقاءً عليهم وعلى قرابتِهم، وإن كانوا قد عُرِفوا بلَحنِ القَولِ، وكانوا في الاشتِهارِ على مراتِبَ، كعبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ، والجَدِّ بنِ قَيسٍ، وغَيرِهم مِمَّن دونَهم في الشُّهرةِ. والسِّيما: العَلامةُ الَّتي كان تعالى يَجعَلُ لهم لو أراد التَّعريفَ التَّامَّ بهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٠).

وقال ابن عاشور: (يَحتَمِلُ أنَّ اللهَ شاء ذلك وأراهم للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم... ويحتمِلُ أنَّ اللهَ قال هذا إكرامًا لرَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، ولم يُطْلِعْه عليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٢)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٥٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥٣-٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

قال ابن عاشور: (المعنى: فإنْ لم نُرِكَ إيَّاهم بسِيماهم فلَتَقَعَنَّ مَعرِفتُك بهم مِن لَحنِ كَلامِهم، =

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾.

أي: واللهُ يَعلَمُ أعمالَكم، لا يَخْفَى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها[١].

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبرَ اللهُ -سُبحانَه- أنه يُعرِّفُ المُنافِقينَ لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ أتْبَعَه الإخبارَ بأنَّه يُعرِّفُهم للمؤمنينَ كافَّةً أيضًا[٢]، بامتِحانِهم بالجِهادِ في سبيلِ اللهِ.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أي: وأُقسِمُ لَنَختَبِرَنَّ إيمانَكم وصَبْرَكم، فنَأمُرُكم بالجِهادِ حتَّى نَعلَمَ المجاهِدينَ مِنكم والصَّابِرينَ على أداءِ ما فرَضَ اللهُ تعالى، وتَحَمُّلِ البَلاءِ- عِلْمَ شَهادةٍ ووُجودٍ يَترَتَّبُ عليه الجَزاءُ[٣].

= بإلهامٍ يَجعَلُه اللهُ في عِلمِ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، فلا يَخفى عليه شَيءٌ مِن لَحنِ كَلامِهم، فيَحصُلُ له العِلمُ بكُلِّ واحدٍ منهم إذا لحَنَ في قَولِه، وهم لا يخلو واحِدٌ منهم مِنَ اللَّحنِ في قَولِه؛ فمَعرفةُ الرَّسولِ بكُلِّ واحدٍ منهم حاصِلةٌ... ولَحنُ القَولِ: الكَلامُ المحالُ به إلى غَيرِ ظاهِرِه؛ لِيَفطَنَ له مَن يُرادُ أن يَفهَمَه دونَ أن يَفهَمَه غَيرُه، بأن يكونَ في الكلامِ تَعريضٌ أو توريةٌ أو ألفاظٌ مُصطَلَحٌ عليها بيْنَ شَخصَينِ أو فِرقةٍ، كالألفاظِ العِلميَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢١، ١٢٢).

وقال ابن تيميَّة: (فمَعرِفةُ المُنافِقِ في لَحنِ القَولِ لا بدَّ منها، وأمَّا مَعرِفتُه بالسِّيما فمَوقوفةٌ على المشيئةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ١١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٦)، =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٦].

﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾

أي: ونختبِرَكم اختبارًا يَكشِفُ أحوالَكم وضمائرَكم، ويُظهِرُ حَسَنَها وقبيحَها[1].

= ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٤، ٣٨٥).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المرادَ: ولَنَبْلُونَّكم بالجهادِ؛ حتَّى يَعلَمَ المؤمِنونَ المجاهِدينَ والصَّابِرينَ، ويَتبَيَّنَ لهم أهلُ الإيمانِ مِن أهلِ النِّفاقِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٣).

قال الشنقيطي: (ما ذكَرَه [أي: ابنُ جريرٍ] مِن أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ الآيَةَ: حتَّى يَعلَمَ حِزبُنا وأولياؤُنا المجاهِدينَ منكم والصَّابِرينَ- له وَجهٌ، وقد يُرشِدُ له قَولُه تعالى: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: نُظهِرَها ونُبرِزَها للنَّاسِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٣٨٦).

وقال الألوسي: (﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمرِ بالجهادِ ونحوِه مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٦). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مِن شُبهةٍ أو شَهوةٍ، بحيثُ تُخرِجُ القَلبَ عن حالِ صِحَّتِه واعتدالِه، ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أنَّ اللهَ لا يُخرِجُ ما في قُلوبِهم مِن الأضغانِ والعَداوةِ للإسلامِ وأهلِه؟! هذا ظَنٌّ لا يليقُ بحِكمةِ اللهِ تعالى؛ فإنَّه لا بُدَّ أن يُمَيِّزَ الصَّادِقَ مِن الكاذِبِ، وذلك بالابتِلاءِ بالمِحَنِ الَّتي مَن ثَبَت عليها ودام إيمانُه فيها، فهو المؤمِنُ حَقيقةً، ومَن رَدَّتْه على عَقِبَيه فلم يَصبِرْ عليها، وحينَ أتاه الامتِحانُ جَزِعَ وضَعُفَ إيمانُه وخَرَجَ ما في قَلْبِه مِن الضِّغْنِ- تَبَيَّنَ نِفاقُه، هذا مُقتضى الحِكمةِ الإلهيَّةِ[١].

٢- قال الله تعالى عن المُنافِقينَ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ فلا بدَّ أن يظهَرَ ما في قلوبِهم، ويتبيَّنَ بفَلَتاتِ ألسنتِهم؛ فإنَّ الألسُنَ مَغارِفُ القلوبِ، يَظهَرُ منها ما في القلوبِ مِن الخَيرِ والشَّرِّ[٢]، قال عُثمانُ بنُ عفَّانَ رضيَ الله عنه: (ما أسَرَّ أحَدٌ سَريرةً إلَّا أظهَرَها اللهُ على صَفَحاتِ وَجْهِه، وفَلَتاتِ لِسانِه)[٣].

٣- يَبتلي اللهُ تعالى المؤمِنينَ بالمصائِبِ العَظيمةِ؛ امتِحانًا حتَّى يَتبيَّنَ الصَّادِقُ مِن غَيرِه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾؛ فلا يُعرَفُ زَيفُ الذَّهَبِ إلَّا إذا أذَبْناه بالنَّارِ، ولا يُعرَفُ طِيبُ العُودِ إلَّا إذا أحرَقْناه بالنَّارِ، أيضًا لا يُعرَفُ المؤمِنُ إلَّا بالابتلاءِ والامتحانِ؛ فعليك أيُّها المسلمُ بالصَّبرِ، قد تُؤذَى على دينِك، قد يُستهزَأُ بك، ورُبَّما تُلاحَظُ، ورُبَّما

= قال الواحدي: (﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: نظهرَها، ونكشفَها، بإباءِ مَن يأبى القتالَ، ولا يَصبِرُ على الجهادِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١١٠).

تُراقَبُ، ولكنِ اصبِرْ واصْدُقْ[١]، فالمؤمِنُ إذا امتُحِنَ صبَرَ واتَّعَظ واستَغفَرَ، ولم يَتشاغَلْ بذَمِّ مَنِ انتَقَم منه؛ فاللهُ حَكَمٌ مُقسِطٌ، ثمَّ يَحمَدُ اللهَ على سَلامةِ دينِه، ويَعلَمُ أنَّ عُقوبةَ الدُّنيا أهوَنُ وخَيرٌ له[٢].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ فذَكَرَ أعظَمَ امتِحانٍ يَمتَحِنُ به عِبادَه، وهو الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ، فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾، أي: نَختَبِرُ إيمانَكم وصَبْرَكم ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾، فمَنِ امتَثَل أمْرَ اللهِ وجاهَدَ في سَبيلِ اللهِ لِنَصرِ دِينِه، وإعلاءِ كَلِمتِه، فهو المؤمِنُ حَقًّا، ومَن تكاسَلَ عن ذلك كان ذلك نَقصًا في إيمانِه[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ كان مُجاهِدٌ رحِمَه اللهُ إذا بلَغ إلى هذه الآيةِ قال: (اللَّهُمَّ إنَّا نسألُكَ أن لا تَبلُوَ أخبارَنا؛ فإنَّا نَفتضِحُ)[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أنَّ الرُّسُلَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَعلَمونَ ما في قُلوبِ الَّذين يُظهِرونَ اتِّباعَهم، والمَعرِفةُ في لَحنِ القَولِ مَبنيَّةٌ على قَرينةٍ لا على شَيءٍ مَحسوسٍ مَقطوعٍ به[٥].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٨/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٥).

ٱلْقَوْلِ﴾ استَدَلَّ به مَن جَعَل التَّعريضَ بالقَذفِ مُوجِبًا للحَدِّ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ جَعَلَ سُبحانَه الإرادةَ والتَّعريفَ بالسِّيما -الَّذي يُدرَكُ بالبَصرِ- مُعَلَّقًا على المَشيئةِ، وأقسَمَ على التَّعريفِ في لَحْنِ القَولِ -وهو الصَّوتُ الَّذي يُدرَكُ بالسَّمعِ-؛ فدلَّ على أنَّ المُنافِقينَ لا بُدَّ أنْ يُعرَفوا في أصواتِهم وكَلامِهم الَّذي يَظْهَرُ فيه لَحنُ قَولِهم، وهذا ظاهِرٌ بَيِّنٌ لِمَن تأمَّلَه في النَّاسِ مِن أهلِ الفِراسةِ في الأقوالِ وغيرِها مِمَّا يَظهَرُ فيها مِن النَّواقِضِ والفُحْشِ وغيرِ ذلك[٢].

٤- قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أخبَرَ سُبحانَه أنَّه لو شاء لَعَرَّفَهم رسولَه بالسِّيماءِ في وُجوهِهم، ثمَّ قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ فأقسَمَ أنَّه لا بُدَّ أن يعرفَهم في لَحنِ القَولِ، ومنهم مَن كان يَقولُ القَولَ أو يَعمَلُ العمَلَ فيَنزِلُ القُرآنُ يُخبِرُ أنَّ صاحِبَ ذلك القَولِ والعمَلِ منهم؛ كما في سورةِ (بَراءةٌ)، ومنهم مَن كان المُسلِمون أيضًا يَعلَمونَ كَثيرًا منهم بالشَّواهِدِ والدَّلالاتِ والقَرائنِ والأماراتِ، ومنهم مَن لم يَكُنْ يُعرَفُ، كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[٣] [التوبة: ١٠١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ دليلٌ على أنَّ للأشرارِ ظواهِرَ نَكيرٍ تدُلُّ على ما يُخَبِّئونَ مِن الشَّرِّ، لا تَخْفى على ذَوي الأبْصارِ، والمتوسِّمين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢١)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٨٢)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٥٦).

مِن الأخيارِ[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ظاهِرُ هذه الآيةِ قد يَتوَهَّمُ منه الجاهِلُ أنَّه تعالى يَستفيدُ بالاختِبارِ عِلمًا لم يَكُنْ يَعلَمُه -سُبحانَه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كَبيرًا-، بل هو تعالى عالِمٌ بكُلِّ ما سيَكونُ قبْلَ أن يكونَ، وقد بيَّنَ أنَّه لا يستفيدُ بالاختِبارِ عِلمًا لم يَكُنْ يَعلَمُه، بقَولِه جَلَّ وعلا: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ فقَولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بعدَ قَولِه: (لِيَبتليَ) دليلٌ قاطِعٌ على أنَّه لم يَستَفِدْ بالاختِبارِ شَيئًا لم يكُنْ عالِمًا به -سُبحانَه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كَبيرًا-؛ لأنَّ العَليمَ بذاتِ الصُّدورِ غَنيٌّ عن الاختِبارِ، وفي هذه الآيةِ بَيانٌ عَظيمٌ لجَميعِ الآياتِ الَّتي يَذكُرُ اللهُ فيها اختِبارَه لِخَلْقِه. فمعنى ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾ أي: عِلمًا يَترَتَّبُ عليه الثَّوابُ والعِقابُ؛ فلا يُنافي أنَّه كان عالِمًا به قبْلَ ذلك، وفائِدةُ الاختِبارِ: ظُهورُ الأمرِ للنَّاسِ، أمَّا عالِمُ السِّرِّ والنَّجوى فهو عالِمٌ بكُلِّ ما سيَكونُ، كما لا يَخفى[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾

- (أم) مُنقَطِعةٌ في مَعْنى (بل) لِلْإضرابِ الانْتِقاليِّ، والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) لِلْإنكارِ، والمعنى: لا يَحسَبونَ انتِفاءَ إظْهارِ أضْغانِهم في المُستقبَلِ،

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٥).

والقاعدةُ في ذلك: أنَّ اللهَ تعالى متى علَّق عِلمَه بالأمورِ بعدَ وُجودِها، كان المرادُ بذلك: العِلمَ الَّذي يترتَّبُ عليه الجزاءُ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٧٥٥، ٧٥٦).

كما انْتَفى ذلك فيما مَضَى؛ فلَعلَّ اللهَ أنْ يَفضَحَ نِفاقَهم[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ الالتِفاتُ إلى نُونِ العَظَمةِ؛ لِإبرازِ العِنايةِ بالإراءةِ[٢].

- واللَّامُ في ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ تأْكيدٌ لِلامِ ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾؛ لِزِيادةِ تَحقيقِ تَفرُّعِ المَعرفةِ على الإراءةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ في مَعنَى الاحتِراسِ ممَّا يَقْتضيه مَفهومُ (لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ) مِن عَدَمِ وُقوعِ المَشيئةِ لِإراءتِه إيَّاهم بِنُعوتِهم، والمعنَى: فإنْ لم نُرِكَ إيَّاهم بسِيماهُم، فلَتَقَعَنَّ مَعرِفتُك بهم مِن لَحْنِ كَلامِهم بإلْهامٍ يَجعَلُه اللهُ في عِلْمِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلا يَخْفى عليه شَيءٌ مِن لَحنِ كَلامِهم، فيَحصُلُ له العِلْمُ بكلِّ واحدٍ منْهم إذا لَحَنَ في قَولِه، وهمْ لا يَخْلو واحدٌ منْهم مِن اللَّحْنِ في قَولِه؛ فمَعرفةُ الرَّسولِ بكلِّ واحدٍ منهم حاصِلةٌ، وإنَّما ترَكَ اللهُ تَعريفَه إيَّاهم بسِيماهُم، ووَكَلَه إلى مَعرِفتِهم بلَحْنِ قَولِهم إبقاءً على سُنَّةِ اللهِ تعالَى في نِظامِ الخَلْقِ بقَدْرِ الإمكانِ؛ لأنَّها سُنَّةٌ ناشِئةٌ عن الحِكمةِ، فلمَّا أُرِيدَ تَكريمُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإطْلاعِه على دَخائلِ المُنافِقين، سَلَكَ اللهُ في ذلك مَسلَكَ الرَّمْزِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢١، ١٢٢).

- واللَّامُ في ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ لامُ القَسَمِ المَحذوفِ[١].

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ تَذْييلٌ؛ فهو -لِعُمومِه- خِطابٌ لِجَميعِ الأُمَّةِ المَقصودُ منه التَّعليمُ، وهو مع ذلك كِنايةٌ عن لازِمِه، وهو الوَعيدُ لِأَهْلِ الأعمالِ السَّيِّئةِ على أعْمالِهم، والوعْدُ لِأَهْلِ الأعمالِ الصَّالحةِ على أعْمالِهم، وتَنبيهٌ لِأَهْلِ النِّفاقِ بأنَّ اللهَ يُوشِكُ أنْ يَفضَحَ نِفاقَهم[٢].

- واجتِلابُ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿يَعْلَمُ﴾؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ عِلْمَه بذلك مُستمِرٌّ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ عطْفٌ على قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠]، ومَعناهُ الاحْتِراسُ ممَّا قدْ يَتوهَّمُ السَّامِعونَ مِن قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ مِن الاسْتِغناءِ عن التَّكليفِ، ووَجْهُ هذا الاحتِراسِ: أنَّ عِلْمَ اللهِ يَتعلَّقُ بأعْمالِ النَّاسِ بعْدَ أنْ تَقَعَ، ويَتعلَّقُ بها قبْلَ وُقوعِها بأنَّها سَتَقعُ، ويَتعلَّقُ بعَزْمِ النَّاسِ على الاستِجابةِ لِدَعوةِ التَّكاليفِ قُوَّةً وضَعْفًا، ومِن عَدَمِ الاستِجابةِ كُفْرًا وعِنادًا؛ فبَيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّ مِن حِكْمةِ التَّكاليفِ أنْ يَظهَرَ أثَرُ عِلْمِ اللهِ بأحْوالِ النَّاسِ، وتَقومَ الحُجَّةُ عليهم[٤].

- وقولُه: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ مُستعمَلٌ في معنَى: حتَّى نُظهِرَ للنَّاسِ الدَّعاويَ الحقَّ مِن الباطِلةِ؛ فالعِلمُ كِنايةٌ عن إظْهارِ الشَّيءِ المَعلومِ، بقَطْعِ النَّظَرِ عن كَونِ إظْهارِه لِلْغيرِ أو لِلمُتكلِّمِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢٤).

- قولُه: ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ بَلْوُ الإخبارِ: كِنايةٌ عن أحوالِ أعْمالِهم مِن خَيرٍ وشَرٍّ؛ لأنَّ الأخبارَ إنَّما هي أخبارٌ عن أعْمالِهم، وهذه عِلَّةٌ ثانيةٌ عُطِفَتْ على قَولِه: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾. وأُعِيدَ عطْفُ فِعلِ (نَبْلُوَ) على فِعلِ ﴿نَعْلَمَ﴾، وكان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُعطَفَ ﴿أَخْبَارَكُمْ﴾ بالواوِ على ضَميرِ المُخاطَبينَ في (لَنَبْلُوَنَّكُمْ)، ولا يُعادَ (نَبْلُوَ)؛ فالعُدولُ عن مُقْتضَى ظاهِرِ النَّظْمِ إلى هذا التَّركيبِ؛ لِلمُبالَغةِ في بَلْوِ الأخبارِ؛ لأنَّه كِنايةٌ عن بَلْوِ أعْمالِهم، وهي المَقصودُ مِن بَلْوِ ذَواتِهم، فذِكْرُه كذِكْرِ العامِّ بعْدَ الخاصِّ؛ إذ تَعلَّقَ البَلْوُ الأوَّلُ بالجِهادِ والصَّبْرِ، وتَعلَّقَ البَلْوُ الثَّاني بالأعمالِ كلِّها، وحصَلَ مع ذلك تأْكيدُ البَلْوِ تأْكيدًا لَفظيًّا[1].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٤، ١٢٥).

الآيات (٣٢-٣٥)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَشَآقُّواْ﴾: أي: عادَوْا، وخالَفوا، وجانَبوا، والمُشاقَّةُ عِبارةٌ عن كَونِ كلِّ واحدٍ مِن الخَصمينِ في شقٍّ غيرِ شقِّ صاحبِه، وأصلُ (شقق): يدُلُّ على انصِداعٍ في شَيءٍ[1].

﴿تَهِنُواْ﴾: أي: تَضعُفوا، وأصلُ (وهن): يدُلُّ على ضَعْفٍ[2].

﴿ٱلسَّلۡمِ﴾: أي: الصُّلْحِ والمُهادَنةِ والمُسالَمةِ، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على صِحَّةٍ وعافيةٍ[3].

﴿يَتِرَكُمۡ﴾: أي: يَنقُصَكم أو يَظلِمَكم، يُقالُ: وَتَرَه يَتِرُه وَتْرًا وتِرَةً: إذا نَقَصَه،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢، ١٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١، ٢٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١، ٤٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣).

وأصلُه مِنَ الوَتْرِ: وهو الفَردُ؛ فلن يُفرِدَهم ويُجَرِّدَهم مِن أعمالِهم، بل يُوَفِّيهم إيَّاها[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُهدِّدًا الكافرينَ: إنَّ الَّذين كَفَروا وصَدُّوا النَّاسَ عن دينِ اللهِ، وخالَفوا رَسولَه مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ لهم الحَقُّ: لن يَضُرُّوا اللهَ شَيئًا بذلك، وسيُبطِلُ اللهُ أعمالَهم.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى المؤمنينَ بالمُداوَمةِ على طاعتِه وطاعةِ رسولِه، ويَنهَى عن إبطالِ العمل، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا رَسولَه، ولا تُبطِلوا أعمالَكم الصَّالِحةَ، وتُذهِبوها بالشِّركِ أو بغَيرِه مِمَّا يُحبِطُ الأعمالَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه سوءَ مصيرِ مَنِ استمَرَّ على كفرِه حتَّى مات عليه، فيقولُ: إنَّ الَّذين كَفَروا وصَدُّوا النَّاسَ عن دينِ اللهِ، ثمَّ ماتوا على كُفرِهم مِن غيرِ تَوبةٍ: فلن يَغفِرَ اللهُ لهم. ثمَّ يقولُ الله تعالى للمُؤمنينَ: فلا تَضعُفوا عن قِتالِ الكافِرينَ، وتَبدَؤوهم بالصُّلحِ والمُسالَمةِ، والحالُ أنَّكم الأعلَونَ الغالِبونَ لهم، واللهُ معكم، فيَحفَظُكم ويَنصُرُكم عليهم، ولن يَنقُصَكم اللهُ شيئًا مِن ثوابِ أعمالِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

﴿يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: إنَّ الَّذين كَفَروا وصَدُّوا النَّاسَ عن دينِ اللهِ، وخالَفوا رَسولَه مُحمَّدًا؛ عِنادًا منهم مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ لهم أنَّه رَسولُ اللهِ حَقًّا، وأنَّ الإسلامَ هو دِينُه صِدقًا: لن يَضُرُّوا اللهَ شَيئًا بذلك؛ فهو غَنيٌّ عنهم، وإنَّما يَضُرُّونَ أنفُسَهم، وسيَنصُرُ اللهُ رَسولَه، ويُظهِرُ دِينَه، ويُعلِي كَلِمتَه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٦، ٣٨٧).

قال الرازي: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ ...﴾ وفيه وجْهانِ؛ أحدُهما: هم أهلُ الكِتابِ؛ قُرَيْظةُ والنَّضيرُ. والثَّاني: كفَّارُ قُرَيشٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٠).

وقال القرطبي: (يَرجِعُ إلى المنافقينَ أو إلى اليهودِ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: هم المطعمونَ يومَ بَدْرٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤).

وذهب ابنُ كثيرٍ إلى أنَّ هذه الآيةَ في المُرتدِّينَ عن الإيمانِ، وأنَّهم لن يَضُرُّوا إلَّا أنفُسَهم، ولا يُثيبُهم اللهُ على ما عَمِلوه مِنَ الصَّالحاتِ قبْلَ رِدَّتِهم. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٢).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ لقولِه: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، والسمعاني، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٦).

قال الشنقيطي: (﴿وَصَدُّواْ﴾ هنا إن قُدِّرَتْ لازِمةً فمعنَى الصُّدودِ: الكفرُ، فتكونُ كالتَّوكيدِ لقولِه: ﴿كَفَرُواْ﴾. وإن قُدِّرَتْ مُتعَدِّيةً كان ذلك تأسيسًا؛ لأنَّ قولَه: ﴿كَفَرُواْ﴾ يدُلُّ على كفرِهم في أنفُسِهم، وقوله: ﴿وَصَدُّواْ﴾ على أنَّه مُتعَدٍّ يدُلُّ على أنَّهم حمَلوا غيرَهم على الكفرِ، وصَدُّوه عن الحقِّ، وهذا أرجَحُ ممَّا قبْلَه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٣٨٦).

وقال ابن عثيمين في فعلِ «صَدَّ»: (الأَولى أن نقولَ: إنَّه مُتعَدٍّ؛ لأنَّ مَن صدَّ غيرَه فهو عن الحقِّ أصَدُّ، لكنْ مَن صدَّ بنفْسِه فقد لا يَصُدُّ غيرَه. فالأَولى أن نحمِلَ ما جاء في القرآنِ مِن ذِكرِ الصَّدِّ على الشَّيءِ المُتعدِّي، لا على اللَّازِمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩٨).

ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٨، ٩].

﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

أي: وسيُبطِلُ اللهُ أعمالَهم؛ فلا يَنالونَ منها نَفعًا، ولا يَحصُلونَ منها على طائِلٍ[(١)].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا رَسولَه، بامتثالِ الأوامرِ، واجتنابِ النَّواهي، بإخلاصٍ للهِ تعالى، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

أي: ولا تُبطِلوا -أيُّها المُؤمِنونَ- أعمالَكم الصَّالِحةَ، وتُذهِبوها بالشِّركِ، أو الرِّدَّةِ عن الإسلامِ، أو بغَيرِ ذلك مِمَّا يُحبِطُ الأعمالَ، ويُذهِبُ نَفْعَها وثَوابَها[1].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣).

قال ابن تيميَّة: (﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لا تَجعَلوها باطِلةً؛ لا مَنفعةَ فيها ولا ثوابَ ولا فائدةَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٤١٧).

وقال ابن القيِّم: (إبطالُها: تَركُ الصَّبرِ على إتمامِها). ((مدارج السالكين)) (٢/ ١٥١).

وقال ابنُ عاشور: (معنى النَّهيِ عن إبطالِهم الأعمالَ: النَّهيُ عن أسبابِ إبطالِها... وتَسمَحُ محامِلُه بأن يَشملَ النَّهيَ والتَّحذيرَ عن كُلِّ ما بيَّنَ الدِّينُ أنَّه مُبطِلٌ للعَمَلِ كُلًّا أو بَعضًا، مِثلُ: الرِّدَّةِ، ومِثلُ الرِّياءِ في العَمَلِ الصَّالحِ؛ فإنَّه يُبطِلُ ثَوابَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٧).

وقال ابن جُزَي: (﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يَحتملُ أربعةَ مَعانٍ؛ أحدُها: لا تُبطِلوا أعمالَكم بالكُفرِ بعدَ الإيمانِ. والثَّاني: لا تُبطِلوا حَسَناتِكم بفِعلِ السَّيِّئاتِ. ذَكَره الزَّمخشريُّ، وهذا على مذهبِ المعتزِلةِ، خِلافًا للأشعريَّةِ؛ فإنَّ مَذهَبهم أنَّ السَّيِّئاتِ لا تُبطِلُ الحسَناتِ. والثَّالثُ: لا تُبطِلوا أعمالَكم بالرِّياءِ والعُجبِ. والرَّابعُ: لا تُبطِلوا أعمالَكم بأن تَقتَطِعوها قبْلَ تَمامِها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٤).

وقد دلَّت النُّصوصُ على أنَّ حُبوطَ الحَسناتِ كلِّها لا يكونُ إلَّا بالرِّدَّةِ، وهو حبوطٌ عامٌّ، ودلَّت النُّصوصُ أيضًا على أنَّ بعضَ الحَسناتِ يحبطُ ببَعضِ السَّيِّئاتِ، وهو حُبوطٌ جُزئيٌّ. يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٦٦). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٣٧-٦٤٠).

وقال السعدي: (قوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يَشملُ النَّهيَ عن إبطالِها بعدَ عَمَلِها، بما يُفسِدُها؛ مِنْ مَنٍّ بها وإعجابٍ، وفَخرٍ وسُمعةٍ، ومِن عَمَلٍ بالمعاصي الَّتي تَضمَحِلُّ معها الأعمالُ، ويُحبَطُ أجرُها، ويَشملُ النَّهيَ عن إفسادِها حالَ وُقوعِها؛ بقَطْعِها، أو الإتيانَ بمُفسِدٍ مِن مُفسِداتِها، فمُبطِلاتُ الصَّلاةِ والصِّيامِ والحَجِّ ونَحوِها كُلُّها داخِلةٌ في هذا، ومَنهيٌّ عنها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((أَتَدرُونَ ما المُفلِسُ؟ قالوا: المُفلِسُ فينا مَن لا دِرهمَ له ولا مَتاعَ، فقال: إنَّ المُفلِسَ مِن أُمَّتي يأتي يومَ القيامةِ بصَلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شَتَم هذا، وقَذَف هذا، وأكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَب هذا؛ فيُعطَى هذا مِن حَسَناتِه، وهذا مِن حَسَناتِه، فإنْ فَنِيَت حَسَناتُه قبْلَ أن يَقضِيَ ما عليه أُخِذَ مِن خطاياهم، فطُرِحَت عليه، ثمَّ طُرِحَ في النَّارِ!))[(١)].

ثمَّ بيَّن سبحانَه أنَّه لا يغفِرُ للمُصِرِّينَ على الكُفرِ، والصدِّ عن سبيلِ الله[(٢)]، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ٣٤﴾.

أي: إنَّ الَّذين كَفَروا وصَدُّوا النَّاسَ عن دينِ اللهِ، ثمَّ ماتوا على كُفرِهم مِن غيرِ تَوبةٍ: فلن يَغفِرَ اللهُ ذُنوبَهم؛ فلا يَستُرُها عليهم، ولا يَتجاوَزُ عن مُؤاخَذَتِهم بها[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

قال الألوسي في قولِه تعالى: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: (امتنعَوا عن الدُّخولِ في الإسلامِ وسلوكِ طريقِه، أو صَدُّوا النَّاسَ عنه ثُمَّ ماتُوا). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٤). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٥٦٢).

=

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١، ١٦٢].

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن أنَّ عَمَلَ الكافِرِ الَّذي له صورةُ الحَسناتِ مُحبَطٌ، وذَنْبَه الَّذي هو أقبَحُ السَّيِّئاتِ غيرُ مَغفورٍ؛ بيَّنَ أنْ لا حُرمةَ له في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ، وقد أمَرَ اللهُ تعالى بطاعةِ الرَّسولِ بقَولِه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [محمد: ٣٣]، وأمَرَ بالقِتالِ بقَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾، أي: لا تَضعُفوا بعدَما وُجِدَ السَّببُ في الجِدِّ في الأمرِ، والاجتِهادِ في الجِهادِ[1].

وأيضًا لَمَّا قدَّمَ اللهُ سُبحانَه ذمَّ الكَفَرةِ، وأنَّه يُبطِلُ أعمالَهم في الدُّنيا في الحَربِ وغيرِها، وختَمَ بأنَّ عَداوَتَه لهم مُتحتِّمةٌ، لا انفِكاكَ لها، وكان ذلك موجِبًا للاجتِراءِ عليهم- سبَّبَ عنه قَولَه مُرغِّبًا لهم في لُزومِ الجِهادِ، مُحذِّرًا مِن تَركِه[2]:

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾.

أي: فلا تَضعُفوا -أيُّها المُؤمِنونَ- عن قِتالِ الكافِرينَ، وتَبدَؤوا بدَعوتِهم إلى

= وقال الشوكاني: (قيَّد سبحانه عدَمَ المغفرةِ بالموتِ على الكُفرِ؛ لأنَّ بابَ التَّوبةِ وطريقَ المغفرةِ لا يُغلَقانِ على مَن كان حيًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩).

وقال ابن عطية: (وظاهرُ الآيةِ العمومُ في كلِّ ما تناولَتْه الصِّفةُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٣، ٢٦٤).

الصُّلحِ والمُسالَمةِ، والحالُ أنَّكم العالُون عليهم، القاهِرونَ الغالِبونَ لهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾.

أي: واللهُ معكم، فيَحفَظُكم ويُعينُكم، ويَنصُرُكم على الكافِرينَ[٢].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

أي: ولن يَنقُصَكم اللهُ شيئًا مِن ثوابِ أعمالِكم، أو يُحبِطَها ويُبطِلَها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٦-٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٠-١٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٩، ٣٩٠).

قال القرطبي: (﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: وأنتم أعلَمُ بالله منهم. وقيل: وأنتمُ الأعلَوْن في الحُجَّةِ. وقيل: المعنى: وأنتمُ الغالِبون؛ لأنَّكم مؤمنونَ، وإنْ غَلَبوكم في الظَّاهِرِ في بعضِ الأحوالِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٦).

وقال الشنقيطي: (﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: الأقهَرُون والأغلَبُون لأعدائِكم، ولأنَّكم تَرجُون مِن الله مِن النَّصرِ والثَّوابِ ما لا يَرجُون. وهذا التَّفسيرُ في قَولِه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ هو الصَّوابُ. وتدُلُّ عليه آياتٌ مِن كتابِ الله). ((أضواء البيان)) (٧/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٢، ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ يأمُرُ تعالى المُؤمِنينَ بأمرٍ به تَتِمُّ أمورُهم، وتَحصُلُ سَعادتُهم الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ، وهو: طاعتُه وطاعةُ رَسولِه في أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه، والطَّاعةُ هي امتِثالُ الأمرِ، واجتِنابُ النَّهيِ على الوَجهِ المأمورِ به، بالإخلاصِ وتمامِ المُتابَعةِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أي: بمعصيةِ الله ورسولِه؛ فإنَّ الأعمالَ الصَّالِحةَ إذا نُويَ بها ما لا يُرضي اللهَ ورسولَه بَطَلَت، وإن كانت في الذِّروةِ مِن حُسنِ الصُّورةِ؛ فكانت صورةً بلا مَعنًى، فهي ممَّا يكونُ هَباءً مَنثورًا، مِثلُ ما فعل أولئك المُظهِرونَ للإيمانِ، المُبطِنونَ للمُشاقَقةِ، بالنِّفاقِ والرِّياءِ، والعُجبِ، والأذى ونحوِ ذلك مِنَ المعاصي، ولكِنَّ السِّياقَ بسِياقِه ولَحاقِه يدُلُّ على أنَّ الكُفرَ هو المرادُ الأعظَمُ بذلك(٢).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾

= كثير)) (٧/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٠، ٣٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٠).

تفسيرُ الإبطالِ هاهنا بالرِّدَّةِ لأنَّها أعظَمُ المُبطِلاتِ، لا لأنَّ المُبطِلَ يَنحصِرُ فيها، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فهذانِ سَببانِ عَرَضَا بعدُ للصَّدقةِ فأبْطَلاها، شبَّهَ سُبحانَه بُطلانَها بالمَنِّ والأذَى بحالِ المُتصدِّقِ رِياءً في بُطلانِ صَدقةِ كلِّ واحِدٍ منهما، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢]، وفي الصَّحيحِ[(١)] عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن تَرَكَ صَلاةَ العَصرِ فقد حَبِطَ عَمَلُه))[(٢)]، والحُبوطُ نَوعانِ: عامٌّ وخاصٌّ، فالعامُّ: حُبوطُ الحَسناتِ كلِّها بالرِّدَّةِ والسَّيِّئاتِ كلِّها بالتَّوبةِ، والخاصُّ: حُبوطُ السَّيِّئاتِ والحَسناتِ بَعضِها ببَعضٍ، وهذا حُبوطٌ مُقيَّدٌ جُزئيٌّ[(٣)].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ هذه الأمورُ الثَّلاثةُ كُلٌّ منها مُقتَضٍ للصَّبرِ وعَدَمِ الوَهْنِ؛ الأوَّلُ: كَونُهم الأعلَيْنَ. الثَّاني: أنَّ اللهَ معهم. الثَّالِثُ: أنَّ اللهَ لا يَنقُصُهم مِن أعمالِهم شَيئًا، بل سيُوَفِّيهم أُجورَهم، ويَزيدُهم مِن فَضْلِه، خُصوصًا عِبادةَ الِجهادِ، فإذا عَرَفَ الإنسانُ أنَّ اللهَ تعالى لا يُضيعُ عَمَلَه وجِهادَه، أوجَبَ له ذلك النَّشاطَ وبَذْلَ الجُهدِ فيما يَترتَّبُ عليه الأجرُ والثَّوابُ، فكيف إذا اجتمَعَت هذه الأمورُ الثَّلاثةُ؟ فإنَّ ذلك يُوجِبُ النَّشاطَ التَّامَّ؛ فهذا مِن تَرغيبِ اللهِ لِعبادِه وتَنشيطِهم، وتَقويةِ أنفُسِهم على ما فيه صَلاحُهم وفَلاحُهم[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣) من حديث بُرَيْدةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ فيه إرشادٌ بمَنْعِ المُكَلَّفِ مِن الإعجابِ بنَفْسِه؛ وذلك لأنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ كان ذلك سبَبَ الافتِخارِ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾، يعني: ليس ذلك مِن أنفُسِكم، بل مِنَ اللهِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فيه سُؤالٌ: قد تقَدَّمَ في أوَّلِ السُّورةِ أنَّ اللهَ تعالى أحبَطَ أعمالَهم، فكيف يُحبِطُ في المُستَقبَلِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المرادَ مِن قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: ١] في أوَّلِ السُّورةِ: المُشرِكونَ، ومِن أوَّلِ الأمرِ كانوا مُبطِلينَ، وأعمالُهم كانت على غَيرِ شَريعةٍ، والمرادُ مِن الَّذين كَفَروا هاهنا: أهلُ الكِتابِ، وكانت لهم أعمالٌ قبْلَ الرَّسولِ، فأحبَطَها اللهُ تعالى؛ بسَبَبِ تَكذيبِهم الرَّسولَ، ولا يَنفَعُهم إيمانُهم بالحَشرِ والرُّسُلِ والتَّوحيدِ، والكافِرُ المُشرِكُ أحبطَ عمَلَه؛ حيثُ لم يكُنْ على شَرعٍ أصلًا، ولا كان مُعتَرِفًا بالحَشرِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالأعمالِ هاهنا مَكايِدُهم في القِتالِ، واللهُ سيُبطِلُه؛ حيث يكونُ النَّصرُ للمُؤمِنينَ، والمرادُ بالأعمالِ في أوَّلِ السُّورةِ هو ما ظَنُّوه حَسَنةً[٢].

الوجه الثَّالثُ: أنَّ حصولَ الإحباطِ في المستقبَلِ يدُلُّ على أنَّ اللهَ مُحبِطٌ أعْمالَهم مِنَ الآنَ؛ إذ لا يُعجِزُه ذلك حتَّى يَترصَّدَ به المُستقبَلَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٦).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ * فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، في الآياتِ تَرتيبٌ في غايَةِ الحُسنِ؛ وذلك لأنَّ قَولَه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ يَقْتَضي السَّعيَ في القِتالِ؛ لأنَّ أمْرَ اللهِ وأمْرَ الرَّسولِ ورَدَ بالجهادِ، وقد أُمِروا بالطَّاعةِ؛ فذلك يَقْتَضي ألَّا يَضعُفَ المُكلَّفُ ولا يَكسَلَ ولا يَهِنَ ولا يَتهاوَنَ، ثم إنَّ بعدَ المُقتَضى قد يتحقَّقُ مانعٌ، ولا يتحقَّقُ المُسبَّبُ، والمانعُ مِن القتالِ إمَّا أُخرَويٌّ وإمَّا دُنيويٌّ، فذَكرَ الأُخروِيَّ، وهو: أنَّ الكافِرَ لا حُرمةَ له في الدُّنيا والآخِرةِ؛ لأنَّه لا عَمَلَ له في الدُّنيا، ولا مَغفِرةَ له في الآخِرةِ؛ فإذا وُجِد السَّببُ ولم يوجَدِ المانعُ يَنبَغي أن يتحقَّقَ المُسبَّبُ، ولم يُقَدِّمِ المانِعَ الدُّنيَويَّ على قَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ الأُمورَ الدُّنيَويَّةَ لا يَنبَغي أن تكونَ مانِعةً مِنَ القِتالِ، فلا تَهِنوا فإنَّ لكمُ النَّصرَ، ثمَّ قال تعالى بعدَ ذلك: المانِعُ الدُّنيوِيُّ مع أنَّه لا يَنبَغي أن يكونَ مانعًا ليس بموجودٍ أيضًا؛ حيث أنتمُ الأعلَوْنَ[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أنَّ ما جاءَت به السُّنَّةُ جاء في القُرآنِ؛ لأنَّ اللهَ أَمَرَنا أنْ نُطيعَ اللهَ ورَسولَه[(٢)].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ هذه الآيةُ والَّتي في (البَقَرةِ) في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧] مُقَيِّدَتانِ لِكُلِّ نَصٍّ مُطلَقٍ فيه إحباطُ العَمَلِ بالكُفرِ؛ فإنَّه مُقَيَّدٌ بالموتِ عليه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ يُبيِّنُ أنَّ اللهَ لا يَغفِرُ الشِّركَ، وما دونَ ذلك يَغفِرُه إن شاءَ[١].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ يَستَدِلُّ الفُقَهاءُ بهذه الآيةِ على تحريمِ قَطْعِ الفَرْضِ، وكراهةِ قَطْعِ النَّفلِ، مِن غيرِ مُوجِبٍ لذلك، وإذا كان اللهُ قد نهى عن إبطالِ الأعمالِ فهو أمرٌ بإصلاحِها وإكمالِها وإتمامِها، والإتيانِ بها على الوَجهِ الَّذي تَصلُحُ به عِلمًا وعَمَلًا[٢].

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الهُدْنَةَ لا تَجوزُ مع قُوَّةِ الإسلامِ وكَثرةِ أهلِه، واستِعلائِهم على أعدائِهم، ولا يُضرَبُ لها مُدَّةٌ صَغيرةٌ ولا كَبيرةٌ[٣].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ لا يُنافي السَّلْمَ المأذونَ فيه بقَولِه تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال:٦١]؛ فإنَّه سَلْمٌ طَلَبَه العَدُوُّ، فليست هذه الآيةُ ناسِخةً لآيةِ الأنفالِ، ولا العَكسُ، ولِكُلٍّ حالةٌ خاصَّةٌ؛ ومُقَيَّدٌ بكَونِ المُسلِمينَ في حالةِ قُوَّةٍ ومَنَعةٍ وعِدَّةٍ وعُدَّةٍ، بحيثُ يَدْعونَ إلى السَّلمِ رَغبةً في الدَّعَةِ، فإذا كان للمُسلِمينَ مَصلحةٌ في السَّلْمِ، أو كان أخَفَّ ضُرًّا عليهم؛ فلَهم أن يَبتَدِئوا إذا احتاجوا إليه، وأن يُجيبوا إليه إذا دُعُوا إليه، وقد صالَحَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم المُشرِكينَ يومَ الحُدَيبيَةِ؛ لِمَصلحةٍ ظَهَرت فيما بَعدُ، وصالَحَ المُسلِمونَ في غَزْوِهم إفريقيَّةَ أهلَها، وانكفَؤوا راجِعينَ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٥٣). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٣).

مِصرَ[١].

٩- المؤمِنُ عزيزٌ غالِبٌ، مُؤَيَّدٌ مَنصورٌ، مَكفِيٌّ مَدفوعٌ عنه بالذَّاتِ أين كانَ، ولو اجتَمعَ عليه مَن بأقطارِها؛ إذا قام بحقيقةِ الإيمانِ وواجباتِه ظاهِرًا وباطِنًا، وقد قال اللهُ تعالى للمُؤمِنينَ: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، فهذا الضَّمانُ إنَّما هو بإيمانِهم وأعمالِهم الَّتي هي جُندٌ مِن جُنودِ اللهِ يَحفظُهم بها، ولا يُفرِدُها عنهم ويَقتَطِعُها عنهم فيُبطِلَها عليهم، كما يَترُ الكافِرينَ والمُنافِقينَ أعمالَهم؛ إذْ كانت لِغَيرِه، ولم تكُنْ مُوافِقةً لأمْرِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ على أنَّ المَعنِيَّ بالَّذين كَفَروا هنا الَّذين كَفَروا المَذْكورون في أوَّلِ هذه السُّورةِ وفيما بعْدُ مِن الآياتِ الَّتي جَرى فيها ذِكرُ الكافِرينَ، أي: الكُفَّارِ الصُّرحاءِ؛ عاد الكلامُ إليهم بعْدَ الفَراغِ مِن ذِكرِ المُنافِقينَ الَّذين يُخْفُون الكُفْرَ عَوْدًا على بَدْءٍ؛ لِتَهوينِ حالِهم في نُفوسِ المُسلِمينَ؛ فبَعْدَ أنْ أخبَرَ اللهُ أنَّه أضَلَّ أعْمالَهم، وأنَّهم اتَّبَعوا الباطلَ، وأمَرَ بضَرْبِ رِقابِهم، وأنَّ التَّعْسَ لهم، وحقَّرَهم بأنَّهم يَتمتَّعون ويأْكُلون كما تَأكُلُ الأنعامُ، وأنَّ اللهَ أهلَكَ قُرًى هي أشدُّ منهم قُوَّةً، ثمَّ جَرى ذِكرُ المُنافِقين بعْدَ ذلك؛ ثُنِيَ عِنانُ الكلامِ إلى الَّذين كَفَروا أيضًا؛ لِيُعرِّفَ اللهُ المُسلِمينَ بأنَّهم في هذه المآزِقِ الَّتي بيْنَهم وبيْنَ المُشرِكين لا يَلحَقُهم منْهم أدْنى ضُرٍّ، ولِيَزيدَ وَصْفَ الَّذين كَفَروا بأنَّهم شاقُّوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فالجُملةُ استِئنافٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣١). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٢).

ابتِدائيٌّ، وهي تَوطئةٌ لِقَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾[١] [محمد: ٣٥].

- قولُه: ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ المُشاقَّةُ: المُخالَفةُ، كُنِّيَ بالمُشاقَّةِ عن المُخالَفةِ؛ لأنَّ المُستقِرَّ بشِقٍّ مُخالِفٌ لِلْمستقِرِّ بشِقٍّ آخَرَ، فكِلاهما مُخالِفٌ؛ فلذلك صِيغَتْ منه صِيغةُ المُفاعَلةِ[٢].

- قولُه: ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ انتصَبَ ﴿شَيْـًٔا﴾ على المَفعولِ المُطلَقِ لـ﴿يَضُرُّوا۟﴾، والتَّنوينُ لِلتَّقْليلِ، أي: لا يَضُرُّون في المُستقبَلِ اللهَ أقلَّ ضُرٍّ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [محمد: ٣٢]، وبيْن جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [محمد: ٣٤]، وُجِّهَ به الخِطابُ إلى المُؤمِنينَ بالأمْرِ بِطاعةِ اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَجنُّبِ ما يُبطِلُ الأعمالَ الصَّالحةَ؛ اعتِبارًا بما حُكِيَ مِن حالِ المُشرِكين في الصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ، ومُشاقَّةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

- والآيةُ مِن الاحتِباكِ[٥]: ذَكرَ الطَّاعةَ أوَّلًا دليلًا على المَعصيةِ ثانيًا، والإبطالَ ثانيًا دليلًا على الصِّحَّةِ أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه أمَرَ بمَبدأِ السَّعادةِ، ونَهى عن نِهايةِ الفَسادِ ثانيًا؛ لأنَّه أعظَمُ في النَّهيِ عن الفسادِ؛ لِمَا فيه من تَقبيحِ صورتِه، وهَتكِ سَريرتِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢٦، ١٢٧).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٤٦).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٠، ٢٦١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ هذه الآيةُ تَكمِلةٌ لِآيةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ إلخ [محمد: ٣٢]؛ لأنَّ تلك مَسوقةٌ لِعَدَمِ الاكتِراثِ بمَشاقِّهم، ولِبَيانِ أنَّ اللهَ مُبطِلٌ صَنائعَهم، وهذه مَسوقةٌ لِبَيانِ عَدَمِ انتِفاعِهم بمَغفرةِ اللهِ إذا ماتوا على ما هم عليه مِن الكُفْرِ؛ فهي مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتِدائيًّا(١).

- واقتِرانُ خَبرِ المَوصولِ بالفاءِ في قَولِه: ﴿فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه أُشرِبَ مَعنى الشَّرطِ؛ فلا يُرادُ به ذو صِلةٍ مُعيَّنٌ، بلِ المُرادُ كلُّ مَن تَحقَّقتْ فيه ماهيَّةُ الصِّلةِ، وهي الكُفْرُ والمَوتُ على الكُفْرِ(٢).

٤- قَولُه تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ الفاءُ في ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ لِلتَّفريعِ على ما تَقرَّرَ في نُفوسِ المُؤمِنينَ مِن خَذْلِ اللهِ تعالَى المُشرِكين بما أخبَرَ به مِن أنَّه أضَلَّ أعْمالَهم، وقدَّرَ لهم التَّعْسَ، وبما ضَرَب لهم مِن مَصائرِ أمْثالِهم مِن الَّذين مِن قبْلِهم؛ دَمَّرَهم اللهُ وأهْلَكَهم ولم يَجِدوا ناصِرًا، وما وَعَدَ به المُؤمِنينَ مِن النَّصْرِ عليهم، وما أمَرَهم به مِن قِتالِهم، وبتَكلُّفِه للمؤمنينَ بالولايةِ، وما وَعَدَهم مِن الجَزاءِ في دارِ الخُلْدِ، وبما أتْبَعَ ذلك مِن وَصْفِ كَيدِ فَريقِ المُنافِقين للمؤمنينَ وتَعهُّدِهم بإعانةِ المُشرِكين، وذلك ممَّا يُوجِسُ منه المؤمِنون خِيفةً؛ إذ يَعلَمون أنَّ أعْداءً لهم مُنْبَثُّونَ بيْنَ ظَهْرانَيْهم؛ فعلَى ذلك كلِّه فُرِّعَ نَهْيُهم عن الوَهنِ وعن المَيلِ إلى الدَّعةِ، ووعَدَهم بأنَّهم المُنتصِرونَ، وأنَّ اللهَ مُؤيِّدُهم. ويَجوزُ أنْ يُجعَلَ التَّفريعُ على أقرَبِ الأخبارِ المُتقدِّمةِ، وهو قَولُه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٣) [محمد: ٣١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢٩، ١٣٠).

- وعُطِفَ ﴿وَتَدْعُوٓاْ﴾ على ﴿تَهِنُواْ﴾؛ فهو مَعمولٌ لِحَرْفِ النَّهيِ، والمعنى: ولا تَدْعوا إلى السَّلْمِ، وهو عطْفُ خاصٍّ على عامٍّ مِن وَجْهٍ؛ لأنَّ الدُّعاءَ إلى السَّلْمِ مع المَقْدِرةِ مِن طَلَبِ الدَّعةِ لِغَيرِ مَصلحةٍ. وإنَّما خُصَّ بالذِّكْرِ؛ لِئلَّا يُظَنَّ أنَّ فيه مَصلحةَ استِبْقاءِ النُّفوسِ؛ فإنَّ المُشرِكين يَومَئذٍ كانوا مُتكالِبينَ على المُسلِمينَ، فرُبَّما ظَنَّ المُسلِمون أنَّهم إنْ تَداعَوا معهم لِلسَّلْمِ أَمِنوا منهم، فعَرَّفَهم اللهُ أنَّ ذلك يَعودُ عليهم بالمَضرَّةِ؛ لأنَّه يَحُطُّ مِن شَوكَتِهم في نَظَرِ المُشرِكين، فيَحسَبونهم طَلَبوا السَّلْمَ عن ضَعفٍ، فيَزيدُهم ذلك ضَراوةً عليهم، وتَستخِفُّ بهمْ قَبائلُ العَرَبِ بعْدَ أنْ أخَذوا مِن قُلوبِهم مَكانَ الحُرْمةِ، وتَوقُّعِ البأْسِ، ولهذا المَقصدِ الدَّقيقِ جمَعَ بيْن النَّهْيِ عن الوَهنِ، والدُّعاءِ إلى السَّلْمِ، وأتْبَعَ بقَولِه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾، وهي حالٌ مُقرِّرةٌ لِمَعنى النَّهيِ، مَرْدوفةٌ بما يَزيدُها تَقْريرًا وتَبْيينًا، أي: لا يَنْبغي أنْ تَتضرَّعوا إلى الصُّلْحِ، والحالُ أنتمْ قاهِرون عليهم، وأنَّ اللهَ ناصِرُكم عليهم في الدُّنيا، وخاذِلُهم، وهو مُوفِّي أُجورِكم في العُقْبى. والخبَرُ مُستعمَلٌ في الوعْدِ[1].

- و﴿ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ مُبالَغةٌ في العُلُوِّ، وهو هنا بمَعْنى الغَلَبةِ والنَّصرِ[2].

- وصِيغَ كلٌّ مِن جُملتَيْ ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ جُملةً اسميَّةً؛ لِلدَّلالةِ على ثَباتِ الغَلَبِ لهم، وثَباتِ عِنايةِ اللهِ بهم[3].

- وقَولُه: ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ وَعْدٌ بتَسديدِ الأعمالِ ونَجاحِها، وهو عكْسُ قَولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد:

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣١، ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١]، فكُنِّيَ عن تَوفيقِ الأعمالِ ونَجاحِها بعَدَمِ وَتْرِها، أي: نَقْصِها؛ للعِلْمِ بأنَّه إذا كان لا يَنقُصُها فبِالحَرِيِّ ألَّا يُبطِلَها، أي: ألَّا يُخيِّبَها. ويَجوزُ أيضًا أنْ يُرادَ منه صَريحُه، أي: لن يَنقُصَكم ثَوابَكم على أعْمالِكم، أي: الجِهادِ المُستفادِ مِن قَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾، فيُفِيدَ التَّحريضَ على الجِهادِ بالوعْدِ بأجْرِه كامِلًا[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٢).

الآيات (٢٦-٢٨)

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَيُحْفِكُمْ﴾: أي: يُجهِدْكم بمَسألةِ أموالِكم، والإحفاءُ في السُّؤالِ: الإلحاحُ في المُطالَبةِ، وهو مِثلُ الإلحافِ سَواءً؛ فإنَّ الإحفاءَ والإلحافَ: المُبالَغةُ وبُلوغُ الغايةِ في كُلِّ شَيءٍ، وأصلُه يدُلُّ على الاستِقصاءِ[1].

﴿تَتَوَلَّوْا﴾: أي: تُعرِضوا؛ فالفِعلُ (ولَّى) إذا عُدِّي بـ(عن) لَفظًا أو تقديرًا -كما هنا- اقتَضى معنى الإعراضِ والتَّركِ، وإذا عُدِّي بنَفْسِه اقتَضَى مَعنى الوِلايةِ والقُرْبِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا حقيقةَ الدُّنيا، ومُزهِّدًا فيها: إنَّما حَقيقةُ الحياةِ الدُّنيا أنَّها لَعِبٌ لا فائدةَ فيه، ولَهوٌ يَتلهَّى النَّاسُ به؛ فلا تَضعُفوا عن الجِهادِ بسَبَبِها، وإنْ تُؤمِنوا وتَتَّقوا اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نَواهيه، يُعْطِكم ثوابَ إيمانِكم، ولا يَسْألْكم أموالَكم؛ إنْ يَسألْكم اللهُ أموالَكم، ويُجهِدْكم بمَسألةِ أموالِكم في سَبيلِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٣)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥١).

تعالى؛ تَمتَنِعوا مِن إخراجِها بُخلًا بها، ويُظهِرِ اللهُ ما في بواطِنِكم مِن أحقادٍ!

ثمَّ يَدعو اللهُ تعالى إلى الإنفاقِ في سبيلِه، فيقولُ: ها أنتم هؤلاء تُدْعَونَ لِتُنفِقوا أموالَكم في جِهادِ أعداءِ اللهِ، ونُصرةِ دينِه؛ فمِنكم مَن يَبخَلُ بمالِه، ومَن يَبخَلْ بمالِه فإنَّما يُمسِكُ عن نَفْسِه الثَّوابَ والخَيرَ الجَزيلَ، واللهُ الغنيُّ عن كُلِّ ما سِواه، وأنتم الفُقَراءُ إليه، وإنْ تُعرِضوا -أيُّها النَّاسُ- عمَّا أمَرَكم اللهُ تعالى به، يَستبدِلْ بكم قَومًا غَيرَكم، ثمَّ لا يَكونوا أمثالَكم في الإعراضِ عن دينِ اللهِ، والبُخلِ بالأموالِ، بل يَكونونَ أطْوَعَ للهِ منكم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ أمَرَ المُؤمِنينَ بتَركِ المعاصي لأنَّها مُحبِطةٌ لثَوابِ الأعمالِ الصَّالِحةِ، وأمَرَهم بالتَّشميرِ عن ساعِدِ الجِدِّ للجِهادِ ومُقاتَلةِ الأعداءِ نُصرةً لدينِه، ووعَدَهم بأنَّ اللهَ ناصِرُهم وهم الأعلَوْنَ، فلا يَنْبَغي لهم أن يَطلُبوا المُهادَنةَ مِن العُدُوِّ خَوَرًا وجُبنًا خَوفًا على الحياةِ ولَذَّاتِها - أكَّدَ هذا المعنى فأبانَ أنَّه لا يَنبَغي لكم -أيُّها المُؤمِنون- الحِرصُ على الدُّنيا؛ فإنَّها ظِلٌّ زائلٌ، وعَرَضٌ غيرُ باقٍ[1].

وأيضًا لَمَّا أتمَّ العِلَّةَ الأُولى الصَّادَّةَ عن الطَّاعةِ، أقْبَلَ على الثَّانيةِ القائدةِ إلى المعصيةِ، المُلائمةِ للشَّهوةِ، المُبطِلةِ للأعمالِ، المُوجِبةِ للتَّهاوُنِ المُؤدِّي إلى عَدَمِ المَغفِرةِ؛ فقال[2]:

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٣).

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

أي: إنَّما حَقيقةُ الحياةِ الدُّنيا أنَّها لَعِبٌ لا فائدةَ منه، ولَهوٌ يَتلهَّى النَّاسُ به؛ فلا تَضعُفوا عن الجِهادِ بسَبَبِها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

قال الرازيُّ: (اللَّعِبُ: ما تَشتَغِلُ به ولا يكونُ فيه ضَرورةٌ في الحالِ، ولا مَنفعةٌ في المآلِ، ثمَّ إنِ استَعمَلَه الإنسانُ، ولم يَشغَلْه عن غيرِه، ولم يَثْنِه عن أشغالِه المُهِمَّةِ؛ فهو لَعِبٌ، وإن شَغَلَه ودَهَشَه عن مُهِمَّاتِه فهو لَهوٌ، ولهذا يُقالُ: مَلاهٍ لآلاتِ الملاهي؛ لأنَّها مَشْغلةٌ عن الغيرِ، ويقالُ لِما دونَه لَعِبٌ، كاللَّعِبِ بالشِّطْرَنجِ والحَمامِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٢).

وقال أبو هلالٍ العسكريُّ: (الفرقُ بيْنَ اللَّهْوِ واللَّعِبِ: أنَّه لا لَهْوَ إلَّا لَعِبٌ، وقد يكونُ لَعِبٌ ليس بِلَهْوٍ...، وإنَّما اللَّهوُ لَعِبٌ لا يُعقِبُ نفعًا. وسُمِّيَ لَهْوًا؛ لأنَّه يَشغَلُ عما يَعني، مِن قولِهم: ألْهاني الشَّيءُ، أي: شغَلَني، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]). ((الفروق اللغوية)) (ص: ٢٥٤).

وقال السعديُّ: (لَعِبٌ في الأبدانِ، ولهوٌ في القُلوبِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

وقال ابنُ عاشور: (اللَّعِبُ: الفِعلُ الَّذي يريدُ به فاعِلُه الهَزْلَ دونَ اجتِناءِ فائدةٍ، كأفعالِ الصِّبيانِ في مَرَحِهم. واللَّهوُ: العمَلُ الَّذي يُعمَلُ لِصَرفِ العَقلِ عن تَعَبِ الجِدِّ في الأُمورِ، فيَلهو عمَّا يَهتَمُّ له، ويَكِدُّ عَقْلَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٣).

وقيل: اللَّهوُ واللَّعبُ يَشترِكانِ في أنَّهما اشتِغالٌ بما لا يَعني، مِن هوًى أو طرَبٍ، حرامًا أو لا. قيل: واللَّهوُ أعَمُّ مُطلَقًا، فاستِماعُ الملاهي لَهْوٌ لا لَعِبٌ. وقيل: اللَّعِبُ ما قُصِد به تعجيلُ المسَرَّةِ والاستِرواحُ به، واللَّهوُ ما شغَل مِن هوًى وطرَبٍ وإن لم يُقصَدْ به ذلك. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٩٩)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٩/ ٤٩٧).

وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾.

أي: وإنْ تُؤمِنوا وتَتَّقوا اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نَواهيه، ومِن ذلك القيامُ بجِهادِ أعدائِه؛ يُعْطِكم ثوابَ إيمانِكم وتَقواكم بما هو خيرٌ لكم مِن لَعِبِ الدُّنيا ولَهْوِها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾.

أي: وإنْ تُؤمِنوا وتَتَّقوا فإنَّ اللهَ لا يَسْألُكم أموالَكم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٣).

قال البقاعيُّ: (﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ أي: تَخافوا فتَجعَلوا بيْنَكم وبيْنَ غَضَبِه سُبحانَه وقايةً؛ مِن جهادِ أعدائِه، ومُقاساةِ لَفحِ إيقادِ الحُروبِ، وحَرِّ الأمرِ بالمعروفِ، وإنفاقِ الأموالِ في ذلك؛ فتَكونوا جادِّينَ فتَترُكوا اللَّهْوَ واللَّعِبَ القائِدَينِ إلى الكُفرِ ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ أي: اللهُ الَّذي فعَلْتُم ذلك مِن أجْلِه في الدَّارِ الآخرةِ ﴿أُجُورَكُمْ﴾). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣، ٣٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٤، ١٣٥).

قيل: المرادُ: لا يَسألكم رَبُّكم أموالَكم، ولكِنَّه يُكَلِّفُكم توحيدَه، ويَطلُبُ منكم الإيمانَ به، وجهادَ عدوِّه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٦٩٢١). =

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: إنْ يَسأَلْكم اللهُ أموالَكم، ويُجهِدْكم بمسألتِها، ويُلِحَّ عليكم؛ تَمتَنِعوا مِن إخراجِها بُخلًا بها، ويُظهِرِ اللهُ حينَئذٍ ما في بواطِنِكم مِن أحقادٍ[1].

= وقيل: المعنى: لا يَسألكم مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أموالَكم أجرًا على تبليغِ الرِّسالةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٤٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٥).

وقيل: المعنى: لا يأمُركم بإخراجِ جميعِ أموالِكم، بل يأمُرُ ببَعضِها. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: القرطبيُّ، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

وقيل: المعنى: أنَّ اللهَ تعالى غَنيٌّ عنكم، لا يَطلُبُ منكم شيئًا، وإنَّما فرَضَ عليكم الصَّدَقاتِ مِن الأموالِ مُواساةً لإخوانِكم الفُقَراءِ؛ لِيَعودَ نَفعُ ذلك عليكم، ويَرجِعَ ثَوابُه إليكم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣، ٣٢٤).

وممَّن جمَع بيْنَ القولَينِ الأخيرَينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٦).

وقيل: المعنى: لا يسألكم أموالَكم، وإنَّما يَسألُكم أموالَه؛ لأنَّه أَملَكُ لها، وهو المُنعِمُ بإعطائِها. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٠٧).

وقال ابنُ عاشور: (عَطفُ ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ لِمُناسَبةِ قَولِه: ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾، أي: إنَّ اللهَ يتفَضَّلُ عليكم بالخَيراتِ، ولا يحتاجُ إلى أموالِكم... فقَولُه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ يفيدُ بعُمومِه وسِياقِه معنى: لا يَسألْكم جميعَ أموالِكم، أي: إنَّما يَسألُكم ما لا يُجحِفُ بكم... ويجوزُ أن يُفيدَ أيضًا معنى: أنَّه لا يُطالِبُكم بإعطاءِ مالٍ لِذَاتِه؛ فإنَّه غنيٌّ عنكم، وإنَّما يأمُرُكم بإنفاقِ المالِ لِصالِحِكم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٤، ١٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

قال ابنُ عاشور: (الإحفاءُ... عَبَّرَ به هنا عن الجَزمِ في الطَّلَبِ، وهو الإيجابُ، أي: فيُوجِبْ عليكم بَذْلَ المالِ، ويَجعَلْ على مَنْعِه عُقوبةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٥).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾: يُظهِرْ بُغضَكم وعَداوتَكم لله تعالى، ولِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمؤمنينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: السمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، وابنُ الجوزي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٧)، =

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبرَ تعالى ببُخْلِهم لو سُئِلوا أموالَهم، دَلَّ عليه بمَن يَبخَلُ منهم عَمَّا سألَه منهم، وهو جزءٌ يَسيرٌ جِدًّا مِن أموالِهم[1]!

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ﴾.

أي: إنَّكم تُدْعَونَ لِتُنفِقوا أموالَكم في جِهادِ أعداءِ اللهِ، ونُصرةِ دينِه؛ فمِنكم مَن يَبخَلُ بمالِه فلا يُنفِقُه في سَبيلِ اللهِ، كما أمَرَه اللهُ تعالى[2].

= ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥١).

وقيل: المرادُ: يُظهِرِ الإحفاءُ ما في بواطِنِكم مِن البُخلِ والإمساكِ، والنِّفاقِ والشَّكِّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤).

قال الرازي: (﴿وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾ يعني: بسَبَبِه؛ فإنَّ الطَّالِبَ -وهو النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم- وأصحابَه يَطلُبونَكم، وأنتم لِمَحبَّةِ المالِ وشُحِّ الأنفُسِ تَمتَنِعونَ، فيُفضي إلى القِتالِ، وتَظهَرُ به الضَّغائِنُ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

قال الرازي: (يعني: قد طلبتُ منكم اليسيرَ فبَخِلْتُم، فكيف لو طلَبْتُ منكم الكُلَّ؟!). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٣).

وقال السعدي: (والدَّليلُ على أنَّ اللهَ لو طلَبَ منكم أموالَكم وأحفاكم بسُؤالِها أنَّكم تَمتَنِعونَ منها: أنَّكم ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على هذا الوَجهِ الَّذي فيه مَصلحتُكم الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠].

وقال جلَّ شأنُه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

أي: ومَن يَبخَلْ بمالِه فلا يُنفِقْه في سَبيلِ اللهِ، فإنَّما يَحرِمُ نَفْسَه مِنَ الثَّوابِ والخَيرِ الجَزيلِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

قال ابنُ عطية: (قَولُه: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ مَعنَيينِ:

أحدُهما: فإنَّما يَبخَلُ عن شُحِّ نَفْسِه.

والآخَرُ: أن يكونَ بمنزلةِ «على»؛ لأنَّك تقولُ: بَخِلتُ عليك وبَخِلتُ عنك، بمعنى: أمسَكْتُ عنك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٣).

وقال الألوسي: (يُقالُ: بَخِلتُ عليه وبَخِلتُ عنه؛ لأنَّ البُخلَ فيه معنى المَنعِ، ومعنى التَّضييقِ على مَن مُنِعَ عنه المعروفُ، والإضرارِ؛ فناسَبَ أن يُعَدَّى بـ «عن» للأوَّلِ، وبـ «على»: للثَّاني، وظاهِرٌ أنَّ مَن مَنَع المعروفَ عن نَفْسِه فإضرارُه عليها؛ فلا فَرْقَ بيْنَ اللَّفظَينِ في الحاصِلِ). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾.

أي: واللهُ الغنيُّ عن كُلِّ ما سِواه، وأنتم الفُقَراءُ إليه دائِمًا في جميعِ أحوالِكم؛ فلا حاجةَ له إلى أموالِكم، وإنَّما أمَرَكم بالنَّفَقةِ في سَبيلِه؛ لِيَعودَ نَفعُ ذلك إليكم[(١)].

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

أي: وإنْ تُعرِضوا -أيُّها النَّاسُ- عمَّا أمَرَكم اللهُ تعالى به، يَجئْ بقَومٍ غَيرِكم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

= ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٦).

وممَّن ذهب إلى الاحتمالِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٩).

وممَّن ذهب إلى الاحتمالِ الثَّاني: الزمخشريُّ، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٩).

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾.

أي: ثمَّ لا يَكُنِ الَّذينَ نأتي بهم أمثالَكم في الإعراضِ عن دينِ اللهِ، والبُخلِ بالأموالِ، بل يَكونونَ أطوَعَ للهِ منكم[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾ هذا تزهيدٌ منه تعالى لعِبادِه في الحياةِ الدُّنيا، بإخبارِهم عن حقيقةِ أمْرِها بأنَّها لَعِبٌ ولَهوٌ، فلا يزالُ العَبدُ لاهِيًا في مالِه وأولادِه وزِينتِه، ولَذَّاتِه مِنَ النِّساءِ والمآكِلِ والمَشارِبِ، والمساكِنِ والمجالِسِ، والمناظِرِ والرِّياساتِ، لاعِبًا في كُلِّ عمَلٍ لا فائِدةَ فيه، بل هو دائِرٌ بيْنَ البَطالةِ والغَفلةِ والمعاصي، حتَّى يَستكمِلَ دُنياه، ويَحضُرَه أجَلُه، فإذا هذه الأمورُ قد وَلَّت وفارَقَت، ولم يَحصُلِ العَبدُ منها على طائِلٍ! بل قد تَبَيَّنَ له خُسرانُه وحِرمانُه، وحضَرَ عذابُه، فهذا مُوجِبٌ للعاقِلِ الزُّهْدَ فيها، وعَدَمَ الرَّغبةِ فيها والاهتِمامِ بشَأنِها، وإنَّما الذي ينبغي أن يَهتَمَّ به ما ذَكَرَه بقَولِه تعالى: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ بأنْ تُؤمِنوا باللهِ وملائِكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ، وتَقوموا بتَقواه الَّتي هي مِن لوازِمِ الإيمانِ ومُقتَضَياتِه، وهي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

العَمَلُ بمَرْضاتِه على الدَّوامِ، مع تَرْكِ مَعاصيه؛ فهذا الَّذي يَنفَعُ العبدَ، وهو الَّذي يَنبغي أن يُتنافَسَ فيه، وتُبذَلَ الهِمَمُ والأعمالُ في طلَبِه، وهو مقصودُ اللهِ تعالى مِن عِبادِه؛ رَحمةً بهم ولُطفًا؛ لِيُثيبَهم الثَّوابَ الجَزيلَ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ يُبَيِّنُ أنَّ ذلك البُخلَ ضَرَرُه عائِدٌ إليه؛ فلا تَظُنُّوا أنَّهم لا يُنفِقونَه على غَيرِهم، بل لا يُنفِقونَه على أنفُسِهم! فإنَّ مَن يَبخَلُ بأُجرةِ الطَّبيبِ وثَمَنِ الدَّواءِ وهو مريضٌ، لا يَبخَلُ إلَّا على نَفْسِه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ تَحذيرٌ مِن أنْ يَحمِلَهم حُبُّ لَذائِذِ العَيشِ على الزَّهادةِ في مُقابَلةِ العَدُوِّ، والدَّعوةِ إلى مُسالَمتِه؛ فإنَّ ذلك يُغْري العَدُوَّ بهم[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ وَصْفُها باللَّعِبِ واللَّهوِ هو على أنَّها وما فيها مِمَّا يَختَصُّ بها: لَعِبٌ، وإلَّا ففي الدُّنيا ما ليس بلَعِبٍ ولا لَهوٍ، وهو الطَّاعةُ، وأمرُ الآخِرةِ وما جرى مَجراه[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾ دَلَّت إضافةُ الأضغانِ إلى ضَميرِهم على أنَّ كُلَّ إنسانٍ يَنطوي بما له مِنَ النُّقصانِ على ما جُبِلَ عليه مِن الأضغانِ، إلَّا مَن عَصَم الرَّحيمُ الرَّحمنُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٧).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ هذا دليلٌ على أنَّ العَبدَ إذا مَنَع في مواسِمِ الخَيراتِ سِوى الزَّكاةِ: لم يَخرُجْ مِن البُخلِ؛ فحَدُّ البُخلِ: مَنعُ ما يَرتَضيه الشَّرعُ والمروءةُ؛ فلا بُدَّ مِن مُراعاةِ المُروءةِ، ورَفعِ قُبحِ الأُحدُوثةِ[1]، وذلك يختَلِفُ باختِلافِ الأشخاصِ[2].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾، وهذا مُراعاةٌ لحالِ كثيرٍ يومَئذٍ بالمدينةِ كانوا حَديثي عَهدٍ بالإسلامِ، وكانوا قد بَذَلوا مِن أموالِهم للمُهاجِرين فيسَّرَ اللهُ عليهم بأنْ لم يَسألْهم زِيادةً على ذلك، وكان بيْنَهم كثيرٌ مِن أهلِ النِّفاقِ يَترصَّدونَ الفُرَصَ لفِتنَتِهم... وهذا يُشيرُ إليه عَطفُ قَولِه: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾؛ أي: تَحدُثُ فيكم أضغانٌ؛ فيكونُ سُؤالُه أموالَكم سببًا في ظُهورِها، فكأنَّه أظهَرَها، وهذه الآيةُ أصلٌ في سَدِّ ذَريعةِ الفَسادِ[3].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ قَولُه: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟﴾ إلخ. كيف مَوقِعُه بعدَ قَولِه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾؛ فإنَّ الدَّعوةَ للإنفاقِ عَينُ سُؤالِ الأموالِ؟ فكيف يُجمَعُ بيْنَ ما هنا وبيْنَ قَولِه آنِفًا: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾؟

الجوابُ: يجوزُ أن يكونَ المعنى: تُدْعَونَ لِتُنفِقوا في سَبيلِ اللهِ؛ لِتَدفَعوا أعداءَكم عنكم، وليس ذلك لِيَنتفِعَ به اللهُ، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]، ونَظمُ الكَلامِ يَقتَضي أنَّ هذه دَعوةٌ للإنفاقِ في الحالِ،

(١) الأُحْدُوثة: ما يُتحدَّثُ به. ويُقالُ: صار فُلانٌ أُحْدوثةً، أي: أكثَروا فيه الأحاديثَ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٤/ ٢٣٤)، ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٥).

وليس إعلامًا لهم بأنَّهم سيُدْعَونَ للإنفاقِ، فهو طَلَبٌ حاصِلٌ، ويُحمَلُ ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾ على معنى: تُؤمَرونَ، أي: أمْرَ إيجابٍ.

ويجوزُ أن يُحمَلَ ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾ على دَعوةِ التَّرغيبِ، فتَكونَ الآيةُ تَمهيدًا للآياتِ المُقتَضيةِ إيجابَ الإنفاقِ في المُستقبَلِ، مِثلُ آيةِ: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١] ونحوِها.

ويجوزُ أن يكونَ إعلامًا بأنَّهم سيُدعَونَ إلى الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ فيما بعدَ هذا الوَقتِ، فيكونَ المضارِعُ مُستَعمَلًا في زَمَنِ الاستِقبالِ، والمضارِعُ يحتَمِلُه في أصلِ وَضْعِه[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ أنَّ اللهَ غنيٌّ عن العِبادِ، فلو ارتدَّ قَومٌ جاء اللهُ بقَومٍ آخَرينَ[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ تهديدٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يُخالِفَ أوامِرَه أحَدٌ[3].

٩- قد وقَعَ الإخبارُ مِن اللهِ تعالى عن قُدرَتِه سُبحانَه على تَبديلِهم بخَيرٍ منهم، وفي بعضِها تبديلُ أمثالِهم، وفي بعضِها استِبدالُه قومًا غيرَهم، ثمَّ لا يَكونوا أمثالَهم؛ فهذه ثلاثةُ أُمورٍ يجِبُ مَعرِفةُ ما بيْنَها مِن الجَمعِ والفَرقِ.

فحيث وقَعَ التَّبديلُ بخَيرٍ منهم فهو إخبارٌ عن قُدرَتِه على أن يَذهَبَ بهم ويأتِيَ بأطوَعَ وأتْقى له منهم في الدُّنيا، وذلك قَولُه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾؛ يعني: بل يَكونوا خيرًا منكم. قال مُجاهِدٌ: (يَستبدِلُ بهم مَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٥).

شاء مِن عِبادِه فيَجعَلُهم خَيرًا من هؤلاءِ، فلم يَتولَّوْا بحمدِ اللهِ ولم يَستبدِلْ بهم).

وأمَّا ذِكرُه تَبديلَ أمثالِهم ففي سورةِ (الواقِعةِ) وسورةِ (الإنسانِ)؛ فقال في (الواقِعةِ): ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، وقال في سورةِ (الإنسانِ): ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨]؛ قال كثيرٌ مِن المُفسِّرينَ: المعنى: أنَّا إذا أرَدْنا أن نَخلُقَ خَلقًا غَيرَكم لم يَسبِقْنا سابِقٌ، ولم يَفُتْنا ذلك، وفي قَولِه: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ إذا شِئْنا أهْلَكْناهم وأتَيْنا بأشْباهِهم فجَعلْناهُم بَدلًا منهم، قيلَ: قَومًا مُوافِقينَ لهم في الخَلقِ مُخالِفين لهم في العَمَلِ؛ وعلى هذا فتَكونُ هذه الآياتُ نظيرَ قولِه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]، فيكونُ استِدلالًا بقُدرتِه على إذهابِهم والإتيانِ بأمثالِهم على إتْيانِه بهم أنفُسِهم إذا ماتوا[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تَعليلٌ لِمَضمونِ قَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ...﴾ [محمد: ٣٥] الآيةَ. وافْتِتاحُها بـ (إنَّ) مُغْنٍ عن افتِتاحِها بِفاءِ التَّسبُّبِ[٢].

- والمُرادُ بـ ﴿الْحَيَاةُ﴾ أحوالُ مُدَّةِ الحَياةِ؛ فهو على حَذْفِ مُضافَينِ[٣].

- والإخبارُ عن الحياةِ بأنَّها ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ على مَعنَى التَّشبيهِ البَليغِ؛ شُبِّهَت

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٦-١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٣٣).

أحْوالُ الحياةِ الدُّنيا باللَّعِبِ واللَّهوِ في عَدَمِ تَرتُّبِ الفائدةِ عليها؛ لأنَّها فانيةٌ مُنْقضيةٌ، والآخِرةَ هي دارُ القَرارِ[١].

- قولُه: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ عطف على قَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ [محمد: ٣٥]؛ تَذْكيرًا بأنَّ امتِثالَ هذا النَّهيِ هو التَّقْوى المَحمودةُ، ولأنَّ الدُّعاءَ إلى السَّلْمِ قدْ يكونُ الباعثُ عليه حُبَّ إبقاءِ المالِ الَّذي يُنفَقُ في الغَزْوِ، فذُكِّروا هنا بالإيمانِ والتَّقوى؛ لِيَخْلَعوا عن أنفُسِهم الوَهنَ؛ لأنَّهم نُهُوا عنْه وعن الدُّعاءِ إلى السَّلْمِ؛ فكان الكفُّ عن ذلك مِن التَّقوى، وعُطِفَ عليه أنَّ اللهَ لا يَسْأَلُهم أمْوالَهم إلَّا لِفائدتِهم وإصلاحِ أُمورِهم؛ ولذلك وقَعَ بعْدَه قَولُه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾[٢] [محمد: ٣٨].

- والمَقصودُ مِن الجُملةِ قَولُه: ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾، وأمَّا ذِكْرُ ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾؛ فلِلاهتِمامِ بأمْرِ الإيمانِ. ووُقوعُ ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ في حيِّزِ الشَّرْطِ مع كَونِ إيمانِهم حاصِلًا يُعَيِّنُ صَرْفَ مَعنى التَّعليقِ بالشَّرْطِ فيه إلى إرادةِ الدَّوامِ على الإيمانِ؛ إذ لا تَتقوَّمُ حَقيقةُ التَّقْوى إلَّا مع سَبْقِ الإيمانِ[٣].

- والظَّاهرُ أنَّ جُملةَ ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ إدْماجٌ[٤]، وأنَّ المَقصودَ مِن جَوابِ الشَّرْطِ هو جُملةُ ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾، وعُطِفَ ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ لِمُناسَبةِ قَولِه: ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾، أي: إنَّ اللهَ يَتفضَّلُ عليكم بالخَيراتِ، ولا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٤).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٨١).

يَحتاجُ إلى أمْوالِكم، وكانتْ هذه المُناسباتُ أحسَنَ رَوابطَ لِنَظْمِ المَقصودِ مِن هذه المَواعِظِ؛ لأنَّ البُخْلَ بالمالِ مِن بَواعِثِ الدُّعاءِ إلى السَّلْمِ(١).

- وقولُه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ يُفِيدُ بِعُمومِه وسِياقِه معنَى: لا يَسْألْكم جَميعَ أمْوالِكم -على قولٍ-، أي: إنَّما يَسألُكم ما لا يُجحِفُ بكم؛ فإضافةُ (أمْوالٍ) -وهو جمْعٌ- إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ تُفِيدُ العُمومَ؛ فالمَنفِيُّ سُؤالُ إنفاقِ جَميعِ الأمْوالِ، فالكَلامُ مِن نَفْيِ العُمومِ لا مِن عُمومِ النَّفْيِ(٢) بقَرينةِ السِّياقِ، وما يَأْتي بعْدَه مِن قَولِه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ. ويَجوزُ أنْ يُفيدَ أيضًا معنَى: أنَّه لا يُطالِبُكم بإعْطاءِ مالٍ لِذاتِه؛ فإنَّه غَنِيٌّ عنكم، وإنَّما يَأمُرُكم بإنفاقِ المالِ لِصالِحِكم، كما قال: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]. وهذا تَوطِئةٌ لِقَولِه بعْدَه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨]، أي: ما يكونُ طَلَبُ بَذْلِ المالِ إلَّا لِمَصْلحةِ الأُمَّةِ، وأيَّةُ مَصلحةٍ أعظَمُ مِن دَفْعِها العَدُوَّ عن نفْسِها؛ لئلَّا يُفسِدَ فيها ويَستعبِدَها(٣)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٤).

(٢) نفيُ العُمومِ: هو نفْيُ الشُّمولِ والعُمومِ، أي: الكُلِّيَّة، وهو يَصدُقُ بنفيِ واحدٍ، وقد يكونُ بالثُّبوتِ في البعضِ، تقولُ: لم أفعَلْ كلَّ ذلك؛ فتُفيدُ أنَّك نفَيْتَ عن نفْسِك فِعلَ الجميعِ، وهذا لا يَلزَمُ منه نفْيُ البعضِ. بخِلافِ عُمومِ النَّفيِ؛ فإنَّ النَّفيَ فيه يَلزَمُ منه نفْيُ الكلِّ والبعضِ، كقولِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ فإنَّها نفْيٌ لجميعِ الآلِهةِ سِوى اللهِ تعالَى؛ فعُمومُ النَّفيِ إنَّما يَصدُقُ بنَفْيِ الجميعِ. يُنظر: ((المحصول)) للرازي (٢/ ٣٤٣)، ((تلقيح المفهوم في تنقيح صيغ العموم)) للعلائيِّ (ص: ٦٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٢٤)، ((خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني)) لمحمد محمد أبو موسى (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٤، ١٣٥).

- والآيةُ مِن الاحتِباكِ[١]: ذِكرُ الحَياةِ الدُّنيا واللَّهوِ واللَّعِبِ أوَّلًا دالٌّ على ذِكرِ الآخِرةِ والجِدِّ ثانيًا، وذِكرُ الإيمانِ والتَّقْوى ثانيًا دالٌّ على حَذفِ ضِدِّهما: الكُفرانِ والجُرأةِ أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّ تَصويرَ الشَّيءِ بحالِ الصَّبيِّ والسَّفيهِ أشدُّ في الزَّجرِ عنه عندَ ذَوي الهِمَمِ العالِيةِ، وذِكرُ الأجرِ المُرتَّبِ على الخَوفِ -الَّذي هو فِعلُ الحَزَمةِ- أعْوَنُ على تَركِه[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ تَعْليلٌ لِنَفْيِ سُؤالِه إيَّاهم أمْوالَهم[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾

- قولُه: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ مُركَّبٌ مِن كَلمةِ (ها)؛ تَنبيهٌ في ابتِداءِ الجُملةِ، ومِن ضَميرِ الخِطابِ، ثُمَّ مِن (ها) التَّنبيهِ الدَّاخلةِ على اسْمِ الإشارةِ المُفيدةِ تَأْكيدَ مَدلولِ الضَّميرِ. وكَرَّرَ هاءَ التَّنبيهِ للتأكيدِ[٤].

- وقولُه: ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ ومُؤكِّدٌ لِمَا سبَقَ؛ لاتِّحادِ مُحصِّلِ مَعناهما؛ فإنَّ دعوتَهم للإنفاقِ هو سُؤلُ الأموالِ منهم، وبُخْلَ ناسٍ منهم هو معنَى عدمِ الإعطاءِ المذكورِ مُجمَلًا أوَّلًا. أو صِلةٌ لـ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ على أنَّه بمعنَى (الذين)[٥].

---

(١) تقدَّم تعريفه (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٦).

- وقولُه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ إمَّا مَسوقٌ مَساقَ التَّوبيخِ، أو مَساقَ التَّنبيهِ على الخطَأِ في الشُّحِّ ببَذْلِ المالِ في الجِهادِ الَّذي هو مَحَلُّ السِّياقِ؛ لأنَّ المرْءَ قد يَبخَلُ بُخلًا ليس عائدًا بُخْلُه عن نفْسِه[١].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن (إنَّمَا) قَصْرُ قَلْبٍ[٢] باعتبارِ لازِمِ بُخْلِه؛ لأنَّ الباخلَ اعتقَدَ أنَّه مَنَع مَن دَعاهُ إلى الإنفاقِ، ولكنَّ لازِمَ بُخْلِه عاد عليه بحِرْمانِ نَفْسِه مِن مَنافِعِ ذلك الإنفاقِ[٣].

- قَولُه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ﴾ هو كالدَّليلِ على الآيةِ المُتقدِّمةِ[٤].

- وفي قَولِه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ﴾ حَذَف القِسمَ الآخَرَ وهو (وَمِنْكُمْ مَنْ يَجودُ)؛ لأنَّ المُرادَ الاستِدلالُ على ما قبْلَه مِن البُخلِ[٥].

- ولإرادةِ التَّوكيدِ ذَيَّلَ الكلامَ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾، وجعَلَه كالاعتِراضِ بيْنَ المتقابِلَينِ، وهُما قولُه: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ وقولُه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾[٦].

- والتَّعريفُ باللَّامِ في ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ و﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ تَعريفُ الجِنْسِ، وهو فيهما مُؤذِنٌ بِكَمالِ الغِنى ونِهايةِ الفقْرِ، ولَمَّا وقعَا خبَرَينِ وهما مَعرِفتانِ أفادَا الحصرَ، أي: قَصْرَ الصِّفةِ على المَوصوفِ، أي: قَصْرَ جِنسِ الغنيِّ على اللهِ، وقصْرَ جِنسِ الفُقراءِ على المُخاطَبين بـ (أَنْتُمْ) وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ[٧] فيهما،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٦، ١٣٧).

(٢) تقدَّم تعريفه (ص: ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٩).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٨).

(٧) تقدَّم تعريفه (ص: ٩٥).

مُرتَّبٌ على دَلالةِ (أل) على معنَى كمال الجِنسِ؛ فإنَّ كمالَ الغِنَى للهِ لا محالةَ لعُمومِه ودوامِه، وإنْ كان يَثبُتُ بعضُ جِنسِ الغِنَى لغيرِه. وأمَّا كمالُ الفَقرِ للنَّاسِ فبِالنِّسبةِ إلى غِنَى اللهِ تعالَى وإنْ كانوا قد يَغنُونَ في بعضِ الأحوالِ، لكن ذلك غِنًى قليلٌ وغيرُ دائمٍ[1].

- والاسْتِبْدالُ: التَّبديلُ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمبالَغةِ. ومَفعولُ الاستِبْدالِ ﴿قَوْمًا﴾، أو المُستبدَلُ به مَحذوفٌ، دلَّ على تَقديرِه قَولُه: ﴿غَيْرَكُمْ﴾؛ فعُلِمَ أنَّ المُستبدَلَ به هو ما أُضِيفَ إليه (غَير)؛ لِتَعيُّنِ انْحصارِ الاستِبدالِ في شَيئينِ، فإذا ذُكِرَ أحدُهما عُلِمَ الآخَرُ، والتَّقديرُ: يَستبدِلْ قومًا بكم؛ لأنَّ المُستعمَلَ في فِعلِ الاستِبدالِ والتَّبديلِ أنْ يكونَ المَفعولُ هو المُعوَّضَ، ومَجرورُ الباءِ هو العِوَضَ، وعُدِلَ في هذه الآيةِ عن ذِكرِ المَجرورِ بالباءِ مع مَفعولِ الاستِبْدالِ؛ لِلإيجازِ، والمعنى: يَتَّخِذ قَومًا غَيرَكم لِلإيمانِ والتَّقْوى، وهذا لا يَقْتضي أنَّ اللهَ لا يُوجِدُ قَومًا آخَرينَ إلَّا عِندَ ارتدادِ المُخاطَبينَ، بلِ المُرادُ: أنَّكم إنِ ارْتَددْتُم عن الدِّينِ كان للهِ قَومٌ مِن المؤمنينَ لا يَرْتَدُّون، وكان للهِ قَومٌ يَدْخُلون في الإيمانِ ولا يَرتَدُّون[2].

- وحَرْفُ (ثُمَّ) في قَولِه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ لِلتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لإفادةِ الاهتِمامِ بصِفةِ الثَّباتِ على الإيمانِ وعُلُوِّها على مُجرَّدِ الإيمانِ، أي: ولا يَكونوا أمْثالَكم في التَّولِّي[3].

- وهذه الجُملةُ ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ مَعطوفةٌ بـ(ثُمَّ) على جُملةِ ﴿يَسْتَبْدِلْ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٨، ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٣٩).

قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ فهي في حَيِّزِ جَوابِ الشَّرطِ، والمَعطوفُ على جَوابِ الشَّرطِ بحَرْفٍ مِن حُروفِ التَّشريكِ يَجوزُ جَزْمُه على العطْفِ، ويَجوزُ رَفْعُه على الاسْتِئنافِ. وقد جاء في هذه الآيةِ على الجزْمِ، وجاء في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] على الرَّفْعِ. وإيثارُ الجَزْمِ هنا وإيثارُ الاستِئنافِ هنالك لِمُناسَبةٍ حَسَنةٍ؛ وهي أنَّ هاهنا لا يَكونُ مُتعلِّقًا بالتَّولِّي؛ لأنَّهم إنْ لم يَتولَّوا يَكونونَ ممَّن يأْتِي اللهُ بهم على الطَّاعةِ، وإنْ تَولَّوا لا يَكونونَ مِثلَهم؛ لِكَونِهم عاصِينَ، وكَونِ مَن يَأْتي اللهُ بهم مُطِيعينَ، وأمَّا هنالك فسواءٌ قاتَلوا أو لمْ يُقاتِلوا لا يُنصَرون؛ فلمْ يكُنْ لِلتَّعليقِ -أي: بالشَّرْطِ- هُنالك وَجْهٌ، فرُفِعَ بالابتِداءِ، وهاهنا جُزِمَ لِلتَّعليقِ. ويُزادُ أنَّ الفِعلَ المَعطوفَ على الجزاءِ في آيةِ (آل عِمْرانَ) وقَعَ في آخِرِ الفاصِلةِ الَّتي جَرَتْ أخَواتُها على حَرْفِ الواوِ والنُّونِ، فلو أُوثِرَ جَزْمُ الفِعلِ لَأُزِيلَت النُّونُ، فاختَلَّت الفاصِلةُ[1].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّالثُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ الرَّابعُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الفَتْحِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٩، ١٤٠).

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سُورةُ الجاثيةِ

أسماءُ السُّورةِ ١٣
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ١٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ ١٤
الآيات (١-٦) ١٥
غَريبُ الكَلِماتِ ١٥
المعنى الإجماليُّ ١٦
تَفسيرُ الآياتِ ١٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٢
بلاغةُ الآياتِ ٢٦
الآيات (٧-١١) ٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٦
المعنى الإجماليُّ ٣٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٨
الآيات (١٢-١٥) ٤٥
بلاغةُ الآياتِ ٦٤
الآيات (١٦-٢٠) ٧١
غَريبُ الكَلِماتِ ٧١

المعنى الإجماليُّ ٧٢
تَفسيرُ الآياتِ ٧٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٨٢
بلاغةُ الآياتِ ٨٥
الآيات (٢١-٢٣) ٩٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٩٢
مُشكِلُ الإعرابِ ٩٢
المعنى الإجماليُّ ٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ٩٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٠٦
بلاغةُ الآياتِ ١٠٨
الآيات (٢٤-٢٦) ١١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١١٦
المعنى الإجماليُّ ١١٦
تَفسيرُ الآياتِ ١١٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٢٤
بلاغةُ الآياتِ ١٢٧
الآيات (٢٧-٣٠) ١٣٤
غَريبُ الكَلِماتِ ١٣٤

المعنى الإجماليُّ ١٣٥
تَفسيرُ الآياتِ ١٣٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤٣
بلاغةُ الآياتِ ١٤٤
الآيات (٣١-٣٥) ١٤٩
غَريبُ الكَلِماتِ ١٤٩
مُشكِلُ الإعرابِ ١٥٠
المعنى الإجماليُّ ١٥٢
تَفسيرُ الآياتِ ١٥٢
الفوائدُ التربويةُ ١٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥٨
بلاغةُ الآياتِ ١٦١
الآيتان (٣٦-٣٧) ١٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ ١٦٧
المعنى الإجماليُّ ١٦٧
تَفسيرُ الآيتَينِ ١٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٦٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٧٠
بلاغةُ الآيتَينِ ١٧٠

سُورةُ الأحقافِ

أسماءُ السُّورةِ ١٧٧

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ١٧٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ١٧٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ ١٧٨
الآيات (١-٣) ١٨٠
غريبُ الكلماتِ ١٨٠
المَعنى الإجماليُّ ١٨٠
تَفسيرُ الآياتِ ١٨٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٨٣
بلاغةُ الآياتِ ١٨٣
الآيات (٤-٦) ١٨٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١٨٦
المَعنى الإجماليُّ ١٨٦
تَفسيرُ الآياتِ ١٨٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩٤
بلاغةُ الآياتِ ١٩٧
الآيتان (٧-٨) ٢٠٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٠٤
المَعنى الإجماليُّ ٢٠٤
تَفسيرُ الآيتَينِ ٢٠٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٠٨

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٠٨
بلاغةُ الآيتَينِ ٢١٠
الآيتان (٩-١٠) ٢١٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٢١٤
المَعنى الإجماليُّ ٢١٤
تَفسيرُ الآيتَينِ ٢١٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٢٥
بلاغةُ الآيتَينِ ٢٢٧
الآيتان (١١-١٢) ٢٣٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٣٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٣٥
المَعنى الإجماليُّ ٢٣٦
تَفسيرُ الآيتَينِ ٢٣٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٤٢
بلاغةُ الآيتَينِ ٢٤٤
الآيتان (١٣-١٤) ٢٤٩
المَعنى الإجماليُّ ٢٤٩
تَفسيرُ الآيتَينِ ٢٤٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٥١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٥١

بلاغةُ الآيتَينِ ٢٥٣
الآيتان (١٥-١٦) ٢٥٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٥٦
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٥٧
المَعنى الإجماليُّ ٢٥٨
تَفسيرُ الآيتَينِ ٢٥٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٦٨
بلاغةُ الآيتَينِ ٢٧٤
الآيات (١٧-٢٠) ٢٨٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٨٠
المَعنى الإجماليُّ ٢٨٢
تَفسيرُ الآياتِ ٢٨٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩٤
بلاغةُ الآياتِ ٢٩٦
الآيات (٢١-٢٥) ٣٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٠٣
المَعنى الإجماليُّ ٣٠٤
تَفسيرُ الآياتِ ٣٠٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣١٤

بلاغةُ الآياتِ ٣١٦
الآيات (٢٦-٢٨) ٣٢٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٢٥
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٢٧
المَعنى الإجماليُّ ٣٢٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٢٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٣٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٣٤
بلاغةُ الآياتِ ٣٣٥
الآيات (٢٩-٣٢) ٣٤٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٤٢
المَعنى الإجماليُّ ٣٤٣
تَفسيرُ الآياتِ ٣٤٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٥٠
بلاغةُ الآياتِ ٣٥٧
الآيات (٣٣-٣٥) ٣٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٦٣
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٦٣
المَعنى الإجماليُّ ٣٦٤
تَفسيرُ الآياتِ ٣٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٧٢

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٧٤
بلاغةُ الآياتِ ٣٧٥

سورةُ مُحمَّدٍ

أسماءُ السُّورةِ ٣٨٥
بيانُ المكِّيِّ والمدنيِّ ٣٨٥
مَقاصِدُ السُّورةِ ٣٨٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٣٨٦
الآيات (١-٣) ٣٨٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٨٧
المَعنى الإجماليُّ ٣٨٨
تَفسيرُ الآياتِ ٣٨٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٩٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٩٥
بلاغةُ الآياتِ ٣٩٩
الآيات (٤-٦) ٤٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٠٣
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٠٥
المَعنى الإجماليُّ ٤٠٦
تَفسيرُ الآياتِ ٤٠٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤١٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤١٩
بلاغةُ الآياتِ ٤٢٢

الآيات (٧-١١) ٤٢٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٢٧
المَعنى الإجماليُّ ٤٢٨
تَفسيرُ الآياتِ ٤٢٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٣٧
بلاغةُ الآياتِ ٤٤٠
الآيات (١٢-١٥) ٤٤٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٤٥
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٤٦
المَعنى الإجماليُّ ٤٤٨
تَفسيرُ الآياتِ ٤٤٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٥٩
بلاغةُ الآياتِ ٤٦٤
الآيات (١٦-١٩) ٤٧٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٧٥
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٧٦
المَعنى الإجماليُّ ٤٧٧
تَفسيرُ الآياتِ ٤٧٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٩١

بلاغةُ الآياتِ ٤٩٥
الآيات (٢٠-٢٤) ٥٠٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٠٢
مُشكِلُ الإعرابِ ٥٠٤
المَعنى الإجماليُّ ٥٠٥
تَفسيرُ الآياتِ ٥٠٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٢٣
بلاغةُ الآياتِ ٥٢٨
الآيات (٢٥-٢٨) ٥٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٣٦
المَعنى الإجماليُّ ٥٣٦
تَفسيرُ الآياتِ ٥٣٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٤٧
بلاغةُ الآياتِ ٥٤٨
الآيات (٢٩-٣١) ٥٥٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٥٣
المَعنى الإجماليُّ ٥٥٤
تَفسيرُ الآياتِ ٥٥٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٦٠

بلاغةُ الآياتِ ٥٦٢
الآيات (٣٢-٣٥) ٥٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٦٦
المَعنى الإجماليُّ ٥٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ٥٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٧٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٧٦
بلاغةُ الآياتِ ٥٧٩
الآيات (٣٦-٣٨) ٥٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٨٤
المَعنى الإجماليُّ ٥٨٤
تَفسيرُ الآياتِ ٥٨٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٩٣
بلاغةُ الآياتِ ٥٩٦
الفهرس ٦٠٣

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة الفتح وسورة الحجرات وسورة ق

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الرابع والثلاثون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الفتح وسورة الحجرات وسورة ق)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الرابع والثلاثون - سورة الفتح وسورة الحجرات وسورة ق/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٥٤٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩-٠٠-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٣/٢٩٢٠

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٢٩٢٠

ردمك: ٩-٠٠-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorartv dorarrnet dorarnet dorarnet

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الفتح وسورة الحجرات و سورة ق)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الرابع والثلاثون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ الفَتْحِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الفَتْحِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفتح)[١]، وممَّا يدُلُّ على ذلك:

١- عن عبْدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ رَضِي اللهُ عنه، قال: ((قرَأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -عامَ الفَتحِ في مَسيرٍ له- سُورةَ الفَتحِ على راحِلَتِه، فرَجَّعَ في قِراءَتِه[٢]))[٣].

٢- عن سَهلِ بنِ حُنَيفٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أيُّها النَّاسُ اتَّهِموا أنفُسَكم؛ فإنَّا كُنَّا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ الحُدَيبيَةِ، ولوْ نَرى قِتالًا لقاتَلْنا ...)) إلى أنْ قال: ((فنَزَلتْ سُورةُ الفَتحِ، فقَرَأَها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على عُمَرَ إلى آخِرِها))[٤].

فَضائلُ السُّورةِ وخَصائصُها:

عن أَسْلَمَ العَدويِّ مَولَى عمرَ[٥]: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَسيرُ في بعضِ أسْفارِه، وعُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يَسيرُ معه لَيْلًا، فسَأله عُمَرُ بنُ الخطَّابِ عن شَيءٍ، فلَمْ يُجِبْه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ سَأله فلَمْ يُجِبْه، ثمَّ سَأله

---

(١) وسُمِّيَتْ سورةَ الفتْح؛ لقَولِه تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٢).

(٢) التَّرجيعُ: تَرديدُ الصَّوتِ في الحَلْقِ، والجَهرُ بالقَولِ مُكَرَّرًا بعْدَ خَفائِه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٤) و(١٣/ ٥١٥). ويُنظر أيضًا: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٠٢).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٢٨١)، ومسلمٌ (٧٩٤) واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاريُّ (٣١٨٢) واللفظ له، ومسلمٌ (١٧٨٥).

(٥) قال ابن حجر: (هذا السِّياقُ صورتُه الإرسالُ؛ لأنَّ أسلم لم يُدرِكْ زمانَ هذه القصَّةِ، لكنَّه محمولٌ على أنَّه سمِعه مِن عمرَ بدليلِ قولِه في أثنائِه: قال عمرُ: فحرَّكتُ بَعيري... إلخ). ((فتح الباري)) (٨/ ٥٨٣).

فلَمْ يُجِبْه، وقال عُمَرُ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ[١] يا عُمرُ! نَزَرْتَ رسولَ اللهِ[٢] صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثَلاثَ مرَّاتٍ، كلُّ ذلك لا يُجيبُكَ! قال عُمرُ: فحرَّكْتُ بَعيري، ثمَّ تقدَّمْتُ أمامَ المسلمينَ، وخَشيتُ أنْ يَنزِلَ فيَّ قُرآنٌ، فما نَشِبْتُ[٣] أنْ سَمِعتُ صارخًا يَصرُخُ بي، قال: فقلْتُ: لقدْ خَشيتُ أنْ يَكونَ نزَلَ فيَّ قرآنٌ! وجِئتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فسَلَّمْتُ عليه، فقال: لقدْ أُنزِلَتْ عليَّ اللَّيلةَ سُورةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إليَّ ممَّا طلَعَتْ عليه الشَّمْسُ[٤]، ثمَّ قرَأَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾))[٥].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الفتْحِ مَدَنيَّةٌ[٦]، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٧].

---

(١) الثَّكَل والثُّكْل: فِقدانُ المرأةِ ولَدَها. وقدْ دعا عُمَرُ على نفْسِه بسَببِ ما وقَع منه مِن الإلحاحِ. ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ لمْ يُرِدِ الدُّعاءَ على نفْسِه حقيقةً، وإنَّما هي مِن الألفاظِ الَّتي تُقالُ عندَ الغضبِ مِن غيرِ قَصدِ معناها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٣).

(٢) نَزَرتُ رسولَ اللهِ: أي: ألحَحْتُ عليه في المسألةِ. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (٣/ ١٧٣٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٩٤).

(٣) فما نشِبْتُ: أي: لم أتعلَّقْ بشَيءٍ غيرَ ما ذكرْتُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٣).

(٤) أي: لِما فيها من البِشارةِ بالمغفرةِ والفتْحِ المبينِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٣).

(٥) أخرجه البخاريُّ (٤١٧٧) و(٤٨٣٣) و(٥٠١٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٠).

قال ابنُ كثير: (نزَلَتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ لَمَّا رجَعَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِنَ الحُدَيْبِيَةِ في ذي القَعدةِ مِن سَنةِ سِتٍّ مِنَ الهِجرةِ، حينَ صَدَّهُ المشركونَ عن الوُصولِ إلى المسجدِ الحرامِ لِيَقْضيَ عُمْرتَه فيه، وحالُوا بيْنَه وبيْن ذلك، ثمَّ مالُوا إلى المصالَحةِ والمُهادَنةِ، وأنْ يَرجِعَ عامَه هذا، ثمَّ يأتيَ مِن قابِلٍ، فأجابَهُم إلى ذلك على تَكَرُّهٍ مِن جماعةٍ مِنَ الصَّحابةِ؛ منهم عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضيَ اللهُ عنه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٥).

(٧) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوْزي، والقُرطبيُّ، والفيروزابادي، والبِقَاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) =

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

١- تَبشيرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه بألْوانٍ مِنَ البِشاراتِ[(١)].

٢- التَّعريفُ بالمُنافِقينَ والكافِرينَ، وبَيانُ حَقيقتِهم[(٢)].

٣- بيانُ كثيرٍ مِن مَظاهِرِ فضْلِ اللهِ ورَحمتِه بعِبادِه المؤمِنينَ[(٣)].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- بِشارةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالفَتحِ المُبينِ، ووَعْدُه بالمغفرةِ وإتمامِ النِّعمةِ عليه، وهِدايتِه ونَصْرِه.

٢- وَعْدُ المؤمِنينَ، ووَعيدُ الكافِرينَ والمُنافِقينَ.

٣- بيانُ وَظيفةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَوجيهُ المؤمِنينَ إلى واجِبِهم بعدَ تَبليغِهمُ الرِّسالةَ.

٤- الثَّناءُ على الَّذينَ بايَعوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووَعْدُهم بالنَّصرِ في الدُّنيا، والأجرِ العظيمِ في الآخِرةِ.

٥- ذِكْرُ بَيعةِ الحُدَيْبِيَةِ، وبيانُ أحوالِ المُنافِقينَ المُتخَلِّفينَ عنها، وصِفاتِهمُ السَّيِّئةِ، وما حصَلَ مِن مَنْعِهم مِنَ المشارَكةِ في غَزوةِ خَيْبَرَ، وإنبائِهم بأنَّهم سيُدْعَوْنَ

= للفيروزابادي (١/ ٤٣٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٩٢).

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٢)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلى جِهادٍ آخَرَ.

٦- بَيانُ الَّذينَ يُباحُ لهمُ التَّخلُّفُ عن الجِهادِ مِن أصحابِ الأعذارِ.

٧- الحديثُ عن بَيعةِ الرِّضوانِ، والتَّنويهُ بشَأنِ مَن حضَرَها، وتَبشيرُ اللهِ بما أعَدَّ لهم مِنَ مَغانمَ كَثيرةٍ وفُتوحٍ.

٨- بَيانُ الأسبابِ الَّتي دعتِ الكُفَّارَ إلى صَدِّ المؤمِنينَ عن البَيتِ الحَرامِ.

٩- تَصديقُ رُؤْيا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بدُخولِه وأصحابِه المَسجِدَ الحرامَ آمِنِينَ.

١٠- بيانُ مَنزِلةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه، وصِفاتِهِمُ الحسَنةِ في التَّوراةِ والإنجيلِ، وما أعَدَّه اللهُ لِلَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مِنَ المَغفرةِ والأجرِ العظيمِ.

الآيات (١-٢)

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالَى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائِلًا له: إنَّا فتَحْنا لك -يا محمَّدُ- بصُلحِ الحُدَيبِيَةِ فَتحًا بَيِّنًا ظاهِرًا.

ثمَّ يَذكُرُ سُبحانَه مَظاهرَ فضْلِه على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيقولُ: لنَغفِرَ لك جَميعَ ذُنوبِك، وَلِنُتِمَّ نِعمَتَنا عليك في الدُّنيا والآخِرةِ، ونَهْديَك إلى طَريقٍ مُستقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه، ونَنصُرَك على أعدائِك نَصرًا قَويًّا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾.

أي: إنَّا فتَحْنا لك -يا محمَّدُ- بصُلحِ الحُدَيبِيَةِ فَتحًا بَيِّنًا ظاهِرًا، وحَكَمْنا وقَضَينا لك به قَضاءً مُحكَمًا عَظيمًا يَحصُلُ بسَبَبِه الخَيرُ الجَزيلُ، ويَظهَرُ به الحَقُّ المُبينُ[1].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٦، ٢٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

قال الزَّجَّاج: (أكثَرُ ما جاء في التَّفسيرِ أنَّه فَتحُ الحُدَيبيَةِ، وكان في فَتحِ الحُدَيبيَةِ آيةٌ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٩)، ونسَب البغَويُّ وابنُ الجوزي للأكثرينَ أنَّه صُلح الحديبيةِ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٥).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالفَتحِ هنا: صُلحُ الحُدَيبيَةِ: الفرَّاءُ، وابنُ جَرير، والواحديُّ، وابنُ كثير، والبقاعيُّ، والسعديُّ، والشِّنقيطيُّ، ونسَبه إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء =

عن عبْدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، في قِصَّةِ الحُدَيبيَةِ قال: ((... كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا نزَل عليه الوَحيُ اشتَدَّ ذلك عليه، وعرَفْنا ذاك فيه، فتنَحَّى مُنتَبِذًا[1] خَلْفَنا، فجَعَل يُغَطِّي رأسَه بثَوبِه، ويَشتَدُّ ذلك عليه، حتَّى عرَفْنا

= (٣/ ٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٣).

قال الواحديُّ: (يعني: صُلحَ الحُدَيبيَةِ، كان فَتحًا بغيرِ قِتالٍ. قال الفَرَّاء: الفَتحُ قد يكونُ صُلحًا، ومعنى الفَتحِ في اللُّغةِ: فتَحُ المُنغَلِقِ، والصُّلحُ الذي حصَل معَ المُشرِكينَ بالحُدَيبيَةِ كان مَسدودًا مُتعَذِّرًا حتى فتَحَه اللهُ؛ قال جابرٌ: ما كُنَّا نَعُدُّ فَتحَ مكَّةَ إلَّا يومَ الحُدَيبيَةِ! وقال الزُّهْري: لم يكُنْ فَتحٌ أعظَمَ مِن صُلحِ الحُدَيبيَةِ؛ وذلك أنَّ المُشرِكينَ اختَلَطوا بالمُسلِمينَ، فسَمِعوا كلامَهم، فتمَكَّنَ الإسلامُ في قُلوبِهم، وأسلَمَ في ثلاثِ سِنينَ خَلقٌ كَثيرٌ). ((الوسيط)) (٤/ ١٣٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦٤).

وعن أنسٍ رَضِيَ الله عنه قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: (الحُدَيبيَة). رواه البخاري (٤٨٣٤).

وممَّن قال بنحْو هذا القولِ من السَّلف أيضًا: جابرٌ، والبَراء، ومجاهد، والضحَّاك، والشَّعبي، والزهري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٣).

وقيل: المرادُ بهذا الفَتحِ: فَتحُ مَكَّةَ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: الجَصَّاصُ، والزمخشريُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ الرَّازي، واختاره أبو حيَّان. يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصَّاص (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣١-٣٣٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٢).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: أنسٌ في رِوايةٍ عنه، وعائشةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٧).

وقال ابنُ عاشور: (قال جَمعٌ مِن المُفَسِّرينَ: المرادُ بالفَتحِ هنا فَتحُ مَكَّةَ، وإنَّ مَحمَلَه على الوَعدِ بالفَتحِ. والمعنى: سنَفتَحُ، وإنَّما جِيءَ في الأخبارِ بلَفظِ الماضي لتَحَقُّقِه وتيَقُّنِه... وممَّا يَندرِجُ في هذا التَّفسيرِ أن يكونَ المرادُ بالفَتحِ صُلحَ الحُدَيبيَةِ تَشبيهًا له بفَتحِ مَكَّةَ؛ لأنَّه تَوطِئةٌ له). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٤).

(١) مُنتبِذًا: أي: منفرِدًا، يقال: انْتَبَذَ فلانٌ، أي: انتحَى ناحيةً. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري

أنَّه قد أُنزِلَ عليه، فأتانا فأخبَرَنا أنَّه قدْ أُنزِل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾))[١].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نزَلَت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ إلى قَولِه: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١- ٥] مَرْجِعَه مِنَ الحُدَيبِيَةِ، وهم يُخالِطُهم الحُزنُ والكآبةُ، وقدْ نَحَر الهَدْيَ بالحُدَيبيَةِ، فقال: لقدْ أُنزِلتْ علَيَّ آيةٌ هي أحَبُّ إليَّ مِن الدُّنيا جميعًا!))[٢].

وعن سَهلِ بنِ حُنَيفٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أيُّها النَّاسُ اتَّهِموا أنفُسَكم؛ فإنَّا كُنَّا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ الحُدَيبيَةِ، ولو نَرى قِتالًا لقاتَلْنا، فجاء عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ فقال: يا رَسولَ اللهِ، ألَسْنا على الحَقِّ وهمْ على الباطِلِ؟! فقال: بلَى! فقال: أليْس قَتْلانا في الجنَّةِ وقَتْلاهم في النَّارِ؟! قال: بلى! قال: فعَلامَ نُعطي الدَّنِيَّةَ[٣] في دِينِنا؟! أنَرجِعُ ولَمَّا يَحكُمِ اللهُ بيْنَنا وبيْنَهم؟! فقال: يا ابنَ الخَطَّابِ، إنِّي رَسولُ اللهِ، ولنْ يُضَيِّعَني اللهُ أبدًا! فانطلَقَ عُمَرُ إلى أبي بَكرٍ فقال له مِثلَ ما قال للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: إنَّه رَسولُ اللهِ، ولنْ يُضَيِّعَه اللهُ أبدًا! فنَزَلت سورةُ الفَتحِ، فقَرَأَها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على عُمَرَ إلى

(١٤/ ٣١٧)، ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٥٧١).

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٧) مختصرًا، والنَّسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٧٧٥٣) باختلافٍ يسيرٍ، وأحمدُ (٤٤٢١) واللَّفظُ له.

قال البَزَّار في ((البحر الزخار)) (٥/ ٣٩٧): (محفوظٌ). ووَثَّق رجالَ إسنادِه البُوصِيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٢/ ٢٣٦)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ١٩٤)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٤٢١). وصَحَّح الحديثَ مُختصَرًا الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٤٧).

(٢) رواه مسلمٌ (١٧٨٦).

(٣) الدَّنِيَّةُ: الحالةُ الخسيسةُ، والخصلةُ الناقصةُ، ويعني به: الصُّلحَ على ما شرَطوا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٣٧)، ((المفهم)) للقرطبي (٣/ ٦٤٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٤١).

آخِرِها. فقال عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، أوَفَتحٌ هو؟! قال: نعمْ))[١].

وعن أسلَمَ مَولى عُمَرَ: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَسيرُ في بَعضِ أسفارِه، وعُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يَسيرُ معه ليلًا، فسَأله عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ عن شَيءٍ فلم يُجِبْه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ سَأله فلم يُجِبْه، ثمَّ سَأله فلم يُجِبْه، فقال عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: ثَكِلَتْ أمُّ عُمَرَ! نزَرْتَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، كُلَّ ذلك لا يُجيبُك! قال عُمَرُ: فحَرَّكتُ بَعيري ثمَّ تقَدَّمتُ أمامَ النَّاسِ، وخَشِيتُ أنْ يُنزَلَ فِيَّ قُرآنٌ، فما نَشِبتُ أنْ سَمِعتُ صارِخًا يَصرُخُ بي، فقُلتُ: لقدْ خَشِيتُ أنْ يكونَ نزَلَ فِيَّ قُرآنٌ! فجِئتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فسَلَّمتُ عليه، فقال: لقدْ أُنزِلتْ علَيَّ اللَّيلةَ سُورةٌ لَهِيَ أحَبُّ إليَّ مِمَّا طَلَعَت عليه الشَّمسُ، ثمَّ قرَأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾))[٢].

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ الله عنهما قال: ((تَعُدُّونَ أنتُم الفَتحَ فَتحَ مَكَّةَ، وقدْ كان فَتحُ مَكَّةَ فَتحًا، ونحْن نَعُدُّ الفَتحَ بَيعةَ الرِّضوانِ يومَ الحُدَيبيَةِ؛ كُنَّا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أربَعَ عَشْرةَ مِائةً، والحُدَيبيَةُ بِئرٌ، فنَزَحْناها فلمْ نَترُكْ فيها قَطْرةً! فبلَغَ ذلك النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأتاها فجلَسَ على شَفيرِها[٣]، ثمَّ دعا بإناءٍ مِن ماءٍ فتوَضَّأَ، ثمَّ مَضمَضَ ودَعا، ثمَّ صَبَّه فيها، فتَرَكْناها غيرَ بَعيدٍ، ثمَّ إنَّها أصدَرَتْنا[٤] ما شِئْنا نحن ورِكابَنا!))[٥].

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا

(١) رواه البخاريُّ (٣١٨٢) واللفظ له، ومسلمٌ (١٧٨٥).

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٣).

(٣) شَفيرِها: أي: حرفِها. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ٣٤٦).

(٤) أصدَرَتْنا: أي: أرجَعتْنا وقدْ رَوِينا. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلَّاني (٦/ ٣٤٦).

(٥) رواه البخاريُّ (٤١٥٠).

مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى رتَّب على هذا الفَتحِ عِدَّةَ أُمورٍ، فقال[١]:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

أي: إنَّا فتَحْنا لك -يا مُحمَّدُ- فَتحًا مُبينًا؛ كي نَغفِرَ لك جَميعَ ذُنوبِك[٢].

كما قال تعالَى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢، ٣].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٦).

قال الماوَرديُّ: (﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾... فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحَدُها: ما تقدَّمَ قَبلَ الفَتحِ، وما تأخَّرَ بعْدَ الفَتحِ.

الثَّاني: ما تَقدَّمَ قَبلَ النبُوَّةِ، وما تأخَّرَ بعدَ النبُوَّةِ.

الثَّالِثُ: ما وقَعَ وما لم يقَعْ، على طريقِ الوَعدِ بأنَّه مَغفورٌ إذا كان.

ويحتَمِلُ رابعًا: ما تَقدَّمَ قَبلَ نُزولِ هذه الآيةِ، وما تأخَّرَ بعدَها). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٠).

وممَّن ذهَب إلى القَولِ الأوَّلِ: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٧).

وممَّن ذهَب إلى القَولِ الثَّاني: مُقاتِلُ بن سُلَيمان، والسمعانيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السلفِ: عامرٌ الشَّعبي، وأبو جعفر الباقرُ؛ قالا: ما تقدَّم في الجاهليَّة وما تأخَّر في الإسلام. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥١٢).

قال الشَّوكاني: (﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ اللَّامُ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿فَتَحْنَا﴾، وهي لامُ العِلَّةِ. قال ابنُ الأنباريِّ: سألْتُ أبا العبَّاسِ -يعني المبرِّدَ- عن اللَّامِ في قولِه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾، فقال: هي لامُ كيْ، مَعناها: إنَّا فتَحْنا لك فتْحًا مُبينًا لكيْ يَجتمِعَ لكَ مع المغفرةِ تَمامُ النِّعمةِ في الفتْحِ، فلمَّا انضَمَّ إلى المغفرةِ شَيءٌ حادثٌ واقعٌ، حسُنَ معْنى «كيْ»، وغلِطَ مَن قال: ليْس الفتحُ سَببَ المغفرةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣).

صلَّى قام حتَّى تَفطَّرَ رِجلاه! قالتْ عائِشةُ: يا رَسولَ اللهِ، أتصنَعُ هذا وقدْ غُفِرَ لك ما تقَدَّمَ مِن ذَنبِك وما تأخَّرَ؟! فقال: يا عائِشةُ، أفلا أكونُ عَبدًا شَكورًا؟!))[١].

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾.

أي: وليُكْمِلَ اللهُ سُبحانَه نِعمَتَه عليك -يا محمَّدُ- في الدُّنيا والآخِرةِ[٢].

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) واللفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨).

قيل: قَولُه تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ يعني: إتمامَها بإظهارِه على عَدُوِّه، ورَفْعِ ذِكْرِه في الدُّنيا، وغُفرانِ ذُنوبِه في الآخِرةِ، ورِضاه عنك. وممَّن قال بهذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن عطية، وأبو حيَّان، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٨٤).

وقيل: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالنبُوَّةِ والحِكمةِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القَولِ: الواحدي، والبغوي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٣).

وقيل: بالنُّبوةِ وإظهارِ الدِّينِ والفتْحِ والنَّصرِ والتَّمكينِ، وممَّن اختار هذا القولَ في الجُملةِ السَّمرقنديُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٣).

ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٦).

قال أبو السُّعود: (﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاءِ الدِّينِ، وضمِّ المُلْكِ إلى النُّبوَّةِ، وغَيرِهما مِمَّا أفاضَه عليه مِنَ النِّعَمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٤).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي: في الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨).

قال الرازي: (قَولُه تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ يحتَمِلُ وُجوهًا:

أحدُها: هو أنَّ التَّكاليفَ عندَ الفَتحِ تَمَّت حيثُ وَجَب الحَجُّ، وهو آخِرُ التَّكاليفِ، والتَّكاليفُ نِعَمٌ.

ثانيها: يُتِمَّ نِعمَتَه عليك بإخلاءِ الأرضِ لك عن مُعانديك؛ فإنَّ يومَ الفَتحِ لم يَبْقَ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عَدُوٌّ ذو اعتبارٍ؛ فإنَّ بَعضَهم كانوا أُهلِكوا يومَ بَدرٍ، والباقون آمَنوا واستأمَنوا يومَ الفَتْحِ. =

كما قال تعالَى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾.

أي: ولِيُرشِدَكَ اللهُ إلى طَريقٍ مُستقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه، بما يَشرَعُ لك مِنَ الإسلامِ المُوصِلِ إلى رِضوانِ اللهِ وجَنَّتِه(١).

كما قال تعالَى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ

= ثالِثُها: ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ في الدُّنيا، باستِجابةِ دُعائِك في طَلَبِ الفَتحِ، وفي الآخِرةِ، بقَبولِ شَفاعتِك في الذُّنوبِ ولو كانت في غايةِ القُبحِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٦). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٨).

وقال ابنُ عاشور: (وإتمامُ النِّعمةِ: إعطاءُ ما لم يَكُنْ أعطاه إيَّاه مِن أنواعِ النِّعْمةِ، مِثلُ إسلامِ قُرَيشٍ، وخَلاصِ بلادِ الحِجازِ كُلِّها للدُّخولِ تحتَ حُكمِه، وخُضوعِ مَن عاندَهَ وحارَبَه، وهذا يَنظُرُ إلى قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: ٣]؛ فذلك ما وُعِدَ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذه الآيةِ، وحَصَل بعْدَ سِنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (هذه الهِدايةُ الخاصَّةُ التي أعطاه إيَّاها بعْدَ فَتحِ الحُدَيبيَةِ أخَصُّ مِمَّا تقَدَّمَ؛ فإنَّ السَّالِكَ إلى اللهِ لا يَزالُ يَتقَرَّبُ إليه بشَيءٍ بعْدَ شَيءٍ، ويَزيدُه اللهُ هدًى بعْدَ هُدًى). ((الجواب الصحيح)) (٣/ ١٨١).

وقال ابنُ عاشور: (معنى: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾: يَزيدَك هَدْيًا لم يُسْبَقْ، وذلك بالتَّوسيعِ في بيانِ الشَّريعةِ، والتَّعريفِ بما لم يَسبِقْ تَعريفُه به منها؛ فالهِدايةُ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ ثابتةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن وَقتِ بَعثتِه، ولكِنَّها تَزدادُ بزِيادةِ بيانِ الشَّريعةِ، وبسَعةِ بلادِ الإسلامِ، وكَثرةِ المُسلِمينَ؛ مِمَّا يَدْعو إلى سُلوكِ طرائِقَ كَثيرةٍ في إرشادِهم وسِياستِهم، وحمايةِ أوطانِهم، ودَفْعِ أعدائِهم؛ فهذه الهِدايةُ مُتجَمِّعةٌ من الثَّباتِ على ما سَبَق هَدْيُه إليه، ومِنَ الهدايةِ إلى ما لم يُسبَقْ إليه، وكُلُّ ذلك مِنَ الهدايةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨).

وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

أي: ولِيَنصُرَكَ اللهُ على أعدائِك نَصرًا قَويًّا قاهِرًا تامًّا مَنيعًا، بلا ذُلٍّ ولا ضَعفٍ[١].

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((نُصِرْتُ بالرُّعبِ[٢] على العَدُوِّ))[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- الإنسانُ خُلِق ظَلومًا جَهولًا، فالأصْلُ فيه عدَمُ العِلمِ ومَيْلُه إلى ما يَهواهُ مِن الشَّرِّ، فيَحتاجُ دائمًا إلى عِلمٍ مُفصَّلٍ يَزولُ به جَهْلُه، وعَدْلٍ في مَحبَّتِه وبُغضِه، ورِضاهُ وغضَبِه، وفِعلِه وتَرْكِه، وإعطائِه ومَنعِه، وكلُّ ما يَقولُه ويَعمَلُه يَحتاجُ فيه إلى عَدْلٍ يُنافي ظُلْمَه، فإنْ لم يَمُنَّ اللهُ عليه بالعِلمِ المفصَّلِ والعدْلِ المفصَّلِ، كان فيه مِن الجهْلِ والظُّلمِ ما يَخرُجُ به عن الصِّراطِ المستقيمِ، وقدْ قال اللهُ تعالَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

قال ابنُ عاشور: (النَّصرُ العَزيزُ: غَيرُ نَصرِ الفَتحِ المذكورِ؛ لأنَّه جُعِلَ عِلَّةَ الفَتحِ، فهو ما كان مِن فَتحِ مكَّةَ، وما عَقِبَه مِن دُخولِ قبائِلِ العَرَبِ في الإسلامِ بدونِ قِتالٍ، وبَعْثِهم الوُفودَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيَتلَقَّوا أحكامَ الإسلامِ، ويُعلِموا أقوامَهم إذا رَجَعوا إليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨).

(٢) نُصِرتُ بالرُّعبِ: يعني: الخوفَ الَّذي وضَعَه اللهُ تعالَى منه في القلوبِ؛ فإنَّه نصَره به، فكفاهُ كثيرًا مِن القِتالِ. يُنظر: ((الإفصاح عن معاني الصحاح)) لابن هُبَيْرةَ (٦/ ١١٣).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٩٧٧)، ومسلمٌ (٥٢٣) واللفظ له.

لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعْدَ صُلح الحُدَيبيَة وبَيعةِ الرِّضوانِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾، فأخبرَ أنَّه فعَل هذا؛ لِيَهديَه صِراطًا مُستقيمًا، فإذا كان هذا حالَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فكيْف بحالِ غَيرِه[1]؟!

٢- قال تعالَى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ جَمَع سُبحانَه لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْنَ الهُدَى والنَّصرِ؛ لأنَّ هذينِ الأصلَينِ بهما كَمالُ السَّعادةِ والفَلاحِ؛ فإنَّ الهدَى هو العِلمُ باللهِ تعالَى ودِينِه، والعَمَلُ بمَرضاتِه وطاعتِه، فهو العِلمُ النَّافِعُ والعَمَلُ الصَّالحُ، والنَّصرُ: هو القُدرةُ التَّامَّةُ على تَنفيذِ دِينِه بالحُجَّةِ والبَيانِ، والسَّيفِ والسِّنانِ؛ فهو النَّصرُ بالحُجَّةِ واليَدِ؛ قَهرُ قُلوبِ المخالِفينَ له بالحُجَّةِ، وقَهرُ أبدانِهم باليَدِ، وهو سُبحانَه كثيرًا ما يَجمَعُ بيْنَ هذينِ الأصلَينِ؛ إذْ بهما تَمامُ الدَّعوةِ، وظُهورُ دِينِه على الدِّينِ كُلِّه؛ كقَولِه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[2] [التوبة: ٣٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ تأمَّلْ ما جَمَع اللهُ سُبحانَه لِرَسولِه في آيةِ الفَتحِ مِن أنواعِ العَطايا، وذلك خمَسةُ أشياءَ؛ أحَدُها: الفَتحُ المُبينُ. والثَّاني: مَغفِرةُ ما تقدَّمَ مِن ذَنْبِه وما تأخَّرَ. والثَّالِثُ: هِدايتُه الصِّراطَ المُستقيمَ. والرَّابعُ: إتمامُ نِعمتِه عليه. والخامِسُ: إعطاءُ النَّصرِ العَزيزِ[3].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٢/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ لَفظُ الماضي في قَولِه: ﴿فَتَحْنَا﴾ يَدُلُّ على أنَّ ذلك الفَتحَ قدْ مضَى؛ فدَعْوى أنَّه فَتْحُ مَكَّةَ -ولم يقَعْ إلَّا بعْدَ ذلك بقُربِ سَنَتينِ- خِلافُ الظَّاهِرِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾، فيه سُؤالٌ: ما وجْهُ الارتباطِ بيْنَ هذه العِلَّةِ ومَعلولِها؛ لأنَّ فَتْحَ اللهِ لِنَبيِّه لا يَظهَرُ كَوْنُه عِلَّةً لِغُفرانِه له؟

الجوابُ عنه مِن وُجوهٍ؛ منها:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ اللهَ جعَلَ هذه المَغفِرةَ جَزاءً لنَبيِّه على إتمامِ أعمالِه التي أُرسِلَ لأجْلِها مِنَ التَّبليغِ والجِهادِ، والنَّصَبِ والرَّغبةِ إلى اللهِ، فلمَّا كان الفَتحُ حاصِلًا بسَعْيِه وتَسَبُّبِه بتَيسيرِ اللهِ له ذلك، جَعَل اللهُ جَزاءَه غُفرانَ ذُنوبِه بعِظَمِ أثَرِ ذلك الفَتحِ؛ بإزاحةِ الشِّركِ، وعُلُوِّ كَلِمةِ اللهِ تعالَى، وتَكميلِ النُّفوسِ وتَزكيتِها بالإيمانِ وصالحِ الأعمالِ؛ حتى ينتَشِرَ الخيرُ بانتشارِ الدِّينِ، ويَصيرَ الصَّلاحُ خُلُقًا للنَّاسِ يَقتَدي فيه بَعضُهم ببَعضٍ[٢].

الوجهُ الثَّاني: أنَّ المَعنى: فَتْحُ اللهِ لِنَبيِّه يدُلُّ بدَلالةِ الالتِزامِ على شُكرِ النَّبيِّ لنِعمةِ الفتحِ، فيَغفِرُ اللهُ له ما تقدَّمَ وما تأخَّرَ بسَببِ شُكرِه بأنواعِ العِبادةِ على تلك النِّعمةِ، فكأنَّ شُكرَ النَّبيِّ لازِمٌ لنِعمةِ الفتحِ، والغُفرانَ مُرَتَّبٌ على ذلك اللَّازِمِ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ قَولَه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ يُفهَمُ منه بدَلالةِ الالتِزامِ: الجِهادُ في سبيلِ اللهِ؛ لأنَّه السَّببُ الأعظَمُ في الفتحِ، والجِهادُ سَببٌ لِغُفرانِ الذُّنوبِ؛ فيَكونُ المَعنى: لِيَغفِرَ لك اللهُ بسبَبِ جِهادِك المَفهومِ مِن ذِكرِ الفتحِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٦، ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص:٢١٧-٢١٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن =

الوجهُ الرَّابعُ: ليْس الفتحُ كان لِيَغفِرَ له، بل لِيَنصُرَه نَصرًا عزيزًا، ولكنَّه لَمَّا عَدَّ عليه هذه النِّعمةَ، وصَلَه بما هو أعظَمُ النِّعَمِ[١].

الوجهُ الخامسُ: أنَّ المُرادَ منه التَّعريفُ، تقديرُه: إنَّا فَتَحْنا لك؛ لِيُعرَفَ أنَّك مَغفورٌ لك، مَعصومٌ؛ فإنَّ النَّاسَ كانوا عَلِموا بعْدَ عامِ الفيلِ أنَّ مكَّةَ لا يأخُذُها عدُوُّ اللهِ المَسخوطُ عليه، وإنَّما يَدخُلُها ويَأخُذُها حَبيبُ اللهِ المغفورُ له[٢].

الوجهُ السَّادسُ: أنَّ المُرادَ هنا: أنَّ اللهَ فتَحَ لك؛ لِكَيْ يَجعَلَ ذلك أمَارةً وعلامةً لِغُفرانِه لك، فكأنَّها لامُ صَيرورةٍ[٣].

الوجهُ السَّابعُ: جُعِلَتْ مَغفرةُ اللهِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِلَّةً للفتحِ؛ لأنَّها مِن جُملةِ ما أراد اللهُ حُصولَه بسَببِ الفتحِ، وليْستْ لامُ التَّعليلِ مُقتَضيةً حَصْرَ الغرَضِ مِنَ الفِعلِ المُعَلَّلِ في تلك العِلَّةِ؛ فإنَّ كثيرًا مِنَ الأشياءِ تَكونُ لها أسبابٌ كثيرةٌ، فيُذْكَرُ بعضُها ممَّا يَقتَضيهِ المَقامُ، وإذْ قدْ كان الفتحُ لكَرامةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ربِّه تعالَى، كان مِن عِلَّتِه أنْ يَغفِرَ اللهُ لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَغفِرةً عامَّةً؛ إتمامًا للكرامةِ، فهذه مَغفِرةٌ خاصَّةٌ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، هي غيرُ المغفرةِ الحاصِلةِ للمُجاهِدينَ بسَببِ الجهادِ والفتحِ[٤]. وقيل غيرُ ذلك[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هذا مِن خَصائصِه صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه التي لا يُشارِكُه فيها غيْرُه. وليْس في حَديثٍ صَحيحٍ

= جرير)) (٢١/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٥-٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٦).

في ثَوابِ الأعمالِ لغَيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (غُفِرَ له ما تَقدَّمَ مِن ذنْبِه وما تأخَّرَ). وهذا فيه تَشريفٌ عَظيمٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه في جَميعِ أُمورِه على الطَّاعةِ والبرِّ والاستقامةِ التي لم يَنَلْها بشَرٌ سِواه؛ لا مِن الأوَّلينَ ولا مِن الآخِرين، وهو أكمَلُ البشَرِ على الإطلاقِ، وسيِّدُهم في الدُّنيا والآخِرةِ[١].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أنَّ هِدايةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعدَ النُّبوَّةِ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ: لا يكونُ إلَّا زِيادةً في إيمانِه، وهو ردٌّ على المُرجِئةِ المُنكِرينَ زِيادةَ الإيمانِ ونُقصانَه[٢].

٦- القَولُ بأنَّ الأنبياءَ لا ذُنوبَ لهم مُطلقًا هو قَولٌ يُخالِفُ الكِتابَ والسُّنَّةَ؛ فإنَّ اللهَ تعالَى قال في كتابِه لأشرَفِ الرُّسُلِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، وقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[٣] [محمد: ١٩].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٠٨).

وقولُ أكثرِ علماءِ الإسلامِ وأكثرِ أهلِ التَّفسيرِ والحديثِ والفقهاءِ، وقولُ أكثرِ أهلِ الكلامِ: أنَّ الأنبياءَ معصومونَ عن الكبائرِ، وتقعُ منهم بعضُ الصغائرِ معَ العصمةِ من الإقرارِ عليها، ومسارعتِهم إلى التَّوبةِ منها، التي يَرفعُهم الله بها إلى أعظمَ مِمَّا كانوا عليه، ولم يُنقَلْ عن السَّلفِ والأئمَّةِ والصحابةِ والتَّابعينَ وتابعيهم إلَّا ما يُوافِقُ هذا القولَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣١٩) و(١٥/ ٥١)، ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (١/ ٢٠٨)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٥٨).

- افتِتاحُ الكلامِ بحرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ) ناشئٌ على ما أحلَّ بالمُسلِمينَ مِن الكآبةِ على أنْ أُجِيبَ المُشرِكون إلى سُؤالِهم الهُدْنةَ؛ فالتَّأكيدُ مَصْروفٌ للسَّامعينَ على طَريقةِ التَّعريضِ، وأمَّا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقدْ كان واثقًا بذلك[1].

- والفتحُ: إزالةُ غلْقِ البابِ أو الخِزانةِ، ويُطلَقُ على النَّصرِ، وعلى دُخولِ الغازي بِلادَ عَدُوِّه؛ لأنَّ أرضَ كلِّ قومٍ وبِلادَهم مَوانعُ عنها؛ فاقتحامُ الغازي إيَّاها بعْدَ الحربِ يُشبِهُ إزالةَ الغَلقِ عن البَيتِ أو الخِزانةِ؛ ولذلك كثُرَ إطلاقُ الفتْحِ على النَّصرِ المقترِنِ بدُخولِ أرضِ المغلوبِ أو بَلدِه، ولم يُطلَقْ على انتصارٍ كانتْ نِهايتُه غَنيمةً وأسْرًا دونَ اقتحامِ أرضٍ؛ فيُقال: فتْحُ خَيْبرَ، وفتْحُ مَكَّةَ، ولا يُقالُ: فتْحُ بدْرٍ، وفتْحُ أُحُدٍ. ولمُراعاةِ هذا المعنى قال جمْعٌ مِن المُفسِّرين: المُرادُ بالفتْحِ هنا فتْحُ مكَّةَ؛ وإنَّ مَحْمَلَه على الوَعدِ بالفتْحِ، والمعنى: سَنفتَحُ، وإنَّما جِيءَ في الأخبارِ بلَفظِ الماضي؛ لِتَحقُّقِه وتَيقُّنِه، شُبِّهَ الزَّمنُ المُستقبَلُ بالزَّمنِ الماضي، فاسْتُعمِلَت له الصِّيغةُ المَوضوعةُ لِلمُضِيِّ. أو يُقالُ: استُعمِلَ ﴿فَتَحْنَا﴾ بمَعنى: قدَّرنا لك الفتْحَ، ويكونُ هذا الاستِعمالُ مِن مُصطَلحاتِ القُرآنِ؛ لأنَّه كَلامُ مَن له التَّصرُّفُ في الأشياءِ، لا يَحجُزُه عن التَّصرُّفِ فيها مانعٌ، وقدْ جَرَى على عادةِ إخبارِ اللهِ تعالَى؛ لأنَّه لا خِلافَ في إخبارِه، وذلك أيضًا كِنايةٌ عن عُلوِّ شَأْنِ المُخبِرِ جلَّ جَلالُه وعزَّ سُلطانُه. أو المُرادُ صُلْحُ الحُديبيةِ، وإطلاقُ اسمِ الفَتحِ عليه باعتِبارِ أنَّه آلَ إلى فتْحِ خَيبرَ وفتْحِ مكَّةَ، أو كان سَببًا فيهما؛ وعلى هذا فإطلاقُ مادَّةِ الفتْحِ على سَبَبِه ومآلِه لا في صُورةِ الفِعلِ، أي: التَّعبيرُ عن المُستقبَلِ بلَفظِ الماضي؛ لأنَّه بهذا الاعتبارِ قدْ وقَعَ فيما مَضَى؛ فيكونُ اسمُ الفتْحِ استُعمِلَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٣).

استِعمالَ المُشترَكِ في مَعنيَيْه، وصِيغةُ الماضي استُعْمِلَت في مَعنيَيْها؛ فَيَظهَرُ وَجْهُ الإعجازِ في إيثارِ هذا التَّركيبِ[١].

- وأضافَ عزَّ وجلَّ الفتْحَ إلى نفْسِه؛ إشعارًا بأنَّه مِن عِندِ اللهِ، لا بكَثرةِ عَدَدٍ ولا عُدَدٍ، وأكَّدَه بالمصْدرِ، ووصْفُه بأنَّه مُبينٌ مُظهِرٌ لِما تَضمَّنَه مِن النَّصرِ والتَّأييدِ[٢].

- وحُذِف مَفعولُ ﴿فَتَحْنَا﴾؛ للقَصْدِ إلى نفْسِ الفِعلِ، والإيذانِ بأنَّ مَناطَ التَّبشيرِ نفْسُ الفتْحِ الصَّادرِ عنه سُبحانَه، لا خُصوصيَّةُ المَفتوحِ؛ فالمقصودُ الإعلامُ بجِنسِ الفتحِ لا بالمفتوحِ الخاصِّ[٣].

- وتَقديمُ المَجرورِ ﴿لَكَ﴾ قبْلَ المَفعولِ المُطلَقِ ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ -خلافًا لِلأصلِ في تَرتيبِ مُتعلَّقاتِ الفِعلِ-؛ لِقَصدِ الاهتِمامِ والاعتِناءِ بهذه العِلَّةِ[٤].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۞ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾

- قولُه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ بَدلُ اشتِمالٍ مِن ضَميرِ ﴿لَكَ﴾ [الفتح: ١]، والتَّقديرُ: إنَّا فتَحْنا فتْحًا مُبينًا لِأجْلِك؛ لِغُفرانِ اللهِ لك، وإتمامِ نِعمتِه عليك، وهِدايتِك صِراطًا مُستقيمًا، ونصْرِك نصْرًا عزيزًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٣-١٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والالْتِفاتُ إلى اسمِ الذاتِ (الله) المُستتبِعِ لِجَميعِ الصِّفاتِ في قَولِه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾؛ لِلْإشعارِ بأنَّ كلَّ واحدٍ ممَّا انتظَمَ في سِلْكِ الغايةِ مِن أفعالِه تعالَى، صادرٌ عنه تعالَى مِن حَيثيةٍ غَيرِ حَيثيةِ الآخَرِ، مُترتِّبةٍ على صِفةٍ مِن صِفاتِه تعالَى[١]. وإنَّما أُسنِدَ فِعلُ ﴿لِّيَغْفِرَ﴾ إلى اسمِ الجَلالةِ العَلَمِ، وكان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُسنَدَ إلى الضَّميرِ المُستترِ؛ قَصْدًا للتَّنويهِ بهذه المَغفرةِ؛ لأنَّ الاسمَ الظاهرَ أنفَذُ في السَّمعِ، وأجلَبُ للتَّنبيهِ؛ وذلك للاهتِمامِ بالمُسنَدِ وبمُتعلَّقِه؛ لأنَّ هذا الخبَرَ أُنُفٌ لم يكُنْ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِلْمٌ به؛ ولذلك لم يَبرُزِ الفاعلُ في ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ﴾؛ لأنَّ إنعامَ اللهِ عليه مَعلومٌ، وهِدايتَه مَعلومةٌ، وإنَّما أُخبِرَ بازْديادِهما[٢].

- وتَنوينُ ﴿صِرَٰطًا﴾ لِلتَّعظيمِ[٣].

- وانتَصَبَ ﴿صِرَٰطًا﴾ على أنَّه مَفعولٌ ثانٍ لـ(يَهْدي) بتَضمينِ معنى الإعطاءِ، أو بنَزْعِ الخافِضِ[٤].

- وإنَّما أُظهِرَ اسمُ الجَلالةِ في قَولِه: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ ولم يُكتَفَ بالضَّميرِ؛ اهتمامًا بهذا النَّصرِ، وتَشريعًا له بإسنادِه إلى الاسمِ الظَّاهرِ؛ لِصَراحةِ الظَّاهرِ، والصَّراحةُ أدْعى إلى السَّمعِ، والكلامُ مع الإظهارِ أعلَقُ بالذِّهنِ[٥]. وقيل: أُعِيدَ لَفظُ (الله) في ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ لَمَّا بعُدَ عمَّا عُطِفَ عليه؛ إذ في الجُملتَينِ قبْلَه ضَميرٌ يَعودُ على اللهِ، ولِيَكونَ المَبدَأُ مُسنَدًا إلى الاسمِ الظاهرِ والمُنْتهى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٧، ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨، ١٤٩).

كذلك. ولَمَّا كان الغُفرانُ، وإتمامُ النِّعمةِ، والهِدايةُ، والنَّصرُ؛ يَشترِكُ في إطلاقِها الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وغيرُه بقَولِه تعالَى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقَولِه: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢]، وكان الفتْحُ لم يَبْقَ لِأحدٍ إلَّا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -أسنَدَه تَعالى إلى نُونِ العَظَمةِ؛ تَفخيمًا لِشأْنِه، وأُسنِدَ تلك الأشياءُ الأربعةُ إلى الاسمِ الظَّاهرِ، واشتَرَكَت الخُمسةُ -الفتْحُ، والغُفرانُ، وإتمامُ النِّعمةِ، والهِدايةُ، والنَّصرُ- في الخِطابِ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تأْنيسًا له وتَعظيمًا لشأْنِه، ولم يأْتِ بالاسمِ الظَّاهرِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ في الإقبالِ على المُخاطَبِ ما لا يكونُ في الاسمِ الظاهرِ[(١)].

- قَولُه: ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾، أي: نصْرًا فيه عِزٌّ ومَنَعةٌ، أو قَويًّا مَنيعًا، على وَصْفِ المَصدرِ بوَصْفِ صاحبِه للمُبالَغةِ، أو عَزيزًا صاحبُه[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨).

الآيات (٤-٧)

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾: أي: السُّكونَ والطُّمَأنينةَ؛ مِنَ السُّكونِ الَّذي هو الوَقارُ، وزوالُ الرُّعبِ، وأصلُ (سكن): يدُلُّ على خِلافِ الاضطِرابِ[١].

﴿وَيُكَفِّرَ﴾: أي: يَستُرَ، ويَمحُوَ، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على سَترٍ وتَغطيةٍ[٢].

﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾: أي: دائِرةُ الهَزيمةِ والشَّرِّ والعَذابِ، والدَّائِرةُ تكونُ في المكروهِ، وأصلُ (دور): يدُلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ، وأصلُ (سوء): القُبحُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢، ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٠)، و(٣/ ١١٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٨).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ سُبحانَه وتعالَى عن جانبٍ مِن مَظاهرِ فضْلِه على المؤمنينَ، فيقولُ: هو الَّذي أنزَلَ الطُّمَأْنينةَ في قُلوبِ المُؤمِنينَ مِن أصحابِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -وذلك حينَ منَعَهم كُفَّارُ قُرَيشٍ مِن دُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ عامَ الحُدَيبيَةِ-؛ لِيَزدادوا بذلك إيمانًا فَوقَ إيمانِهم.

ثمَّ يُبيِّن اللهُ تعالَى عَظيمَ مُلْكِه وقُدرتِه، فيقولُ: ولِلهِ جُنودُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ مِن الملائِكةِ والجِنِّ والإنسِ وغَيرِهم، وكان اللهُ عَليمًا حَكيمًا سُبحانَه.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالَى عاقبةَ المؤمنينَ وغيرِهم مِن المنافقينَ والمشركينَ، فيقولُ: لِيُدخِلَ اللهُ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ ماكِثينَ فيها أبَدًا، ولِيَمحوَ عنهم ذُنوبَهم، وكان ذلك الوَعدُ فَوزًا عَظيمًا، ولِيُعَذِّبَ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ، والمُشرِكينَ والمُشرِكاتِ؛ في الدُّنيا، الَّذين يَظُنُّونَ أنَّ اللهَ لنْ يَنصُرَ رَسولَه والمُؤمِنينَ، وأنَّه لن يُظهِرَ دِينَهَ وكَلِمتَه على الكُفرِ وأهلِه، عليهم دائِرةُ الشُّرورِ والمَساوِئِ والمصائِبِ تَدورُ عليهم، وتُحيطُ بهم في الدُّنيا، وغَضِبَ اللهُ عليهم، وأبعَدَهم مِن رَحمتِه، وهَيَّأَ لهم جَهنَّمَ يَدخُلونَها في الآخِرةِ، وساءَت جَهنَّمُ مَنزِلًا يَصيرونَ إليه يومَ القِيامةِ!

ثمَّ يقولُ تعالَى مؤكِّدًا على عَظيمِ مُلْكِه وقُدرتِه: ولِلهِ جُنودُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ مِنَ الملائِكةِ والجِنِّ والإنسِ وغَيرِهم، وكان اللهُ عَزيزًا لا يَغلِبُه أحَدٌ، حَكيمًا يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبْلَها:

أنَّه لَمَّا قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح:٣]؛ بيَّن وجْهَ النَّصرِ[١]، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي أنزَلَ الطُّمَأْنينةَ في قُلوبِ المُؤمِنينَ مِن أصحابِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فسَكَنَت قُلوبُهم إلى الحَقِّ حينَ منَعَهم كُفَّارُ قُرَيشٍ مِن دُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ عامَ الحُدَيبيَةِ؛ فلم تَضطَرِبْ نُفوسُهم[٢].

عن البَراءِ بن عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((بيْنَما رجُلٌ مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقرَأُ، وفَرَسٌ له مَربوطٌ في الدَّارِ، فجَعَل يَنفِرُ، فخَرَج الرَّجُلُ فنَظَر فلمْ يَرَ شَيئًا، وجعَلَ [أي: الفَرَسُ] يَنفِرُ، فلمَّا أصبَحَ ذَكَر ذلك للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: السَّكينةُ تَنزَّلَت بالقُرآنِ!))[٣].

﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

أي: أنزَلَ اللهُ السَّكينةَ في قُلوبِ المُؤمِنينَ؛ لِيَزدادوا بذلك إيمانًا فَوقَ إيمانِهم السَّابِقِ مِن قَبلِ صُلحِ الحُدَيبيَةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٥)، ((الإيمان)) لابن تيميَّة (ص: ١٨١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٧١)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٥٤-١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).
قال ابنُ تيمية: (السَّكينةُ طُمأنينةٌ في القلبِ غيرُ علمِ القلبِ وتصديقِه). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٢٩).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٨٣٩) واللفظ له، ومسلمٌ (٧٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولله جُنودُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ مِن الملائِكةِ والجِنِّ والإنسِ وغَيرِهم، يَنتَقِمُ بهم ممَّن يَشاءُ مِن أعدائِه(١).

كما قال تعالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالَى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِلمِ التَّامِّ؛ فلا يَخفَى عليه شَيءٌ، وبالحِكمةِ التَّامَّةِ؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به(٢).

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: لِيُدخِلَ اللهُ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ جَنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ غُرَفِها وأشجارِها، وهم ماكِثونَ فيها أبَدًا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٧-١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٠-١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥١).

قال السعديُّ: (ولكِنَّه تعالَى عليمٌ حَكيمٌ، فتَقتَضي حِكمتُه المداوَلةَ بيْنَ النَّاسِ في الأيَّامِ، وتأخيرَ نَصْرِ المُؤمِنينَ إلى وَقتٍ آخَرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٦-٢٤٧)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٦٩٤٠)، ((تفسير =

= القرطبي)) (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير القنوجي)) (١٣/ ٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٤-٣٩٥).

قال السَّمين الحلبيُّ: (قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ﴾: في مُتعلَّقِ هذه اللَّام أربعةُ أوجهٍ:

أحدُها: مَحذوفٌ، تقديرُه: يَبْتَلي بتلك الجنودِ مَنْ شاء، فيَقبلُ الخيرَ مِمَّن أهَّله له، والشرَّ مِمَّن قَضى له به؛ ليُدْخِلَ ويُعَذِّبَ.

الثاني: أنها مُتعلِّقةٌ بقولِه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾.

الثالث: أنَّها مُتعلِّقةٌ بـ «يَنْصُرَكَ».

الرابع: أنها مُتعلِّقة بـ «يَزْدَادُوا». ((الدر المصون)) (٩/ ٧١٠). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٩).

ممَّن اختار القولَ الأولَ: أبو حيَّان، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤).

وممَّن اختار القولَ الثانيَ -أي أنَّها مُتعَلِّقةٌ بقَولِه تعالى: ﴿فَتَحْنَا لَكَ﴾ أي: إنَّا فتَحْنا لك فَتحًا مُبينًا؛ لِيَغفِرَ اللهُ لك، ولِيُدخِلَ المُؤمنينَ والمُؤمناتِ جَنَّاتٍ-: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٧).

وممَّن اختار القولَ الرَّابعَ: أنها مُتعَلِّقةٌ بـ (يَزْدَادُوا) في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، أي: فبِسَبَبِ زيادةِ إيمانِهم نُدخِلُهم جَنَّاتٍ. ممَّن اختارَ هذا المعنى في الجُملةِ: القُرطبيُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٤).

قال السَّمين الحلَبيُّ: (واسْتُشْكِل هذا: بأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ عطفٌ عليه، وازديادُهم الإيمانَ ليس مُسَبَّبًا عن تعذيبِ اللهِ الكُفَّارَ. وأُجيبَ: بأنَّ اعتقادَهم أنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الكفَّارَ يَزيدُ في إيمانِهم لا مَحالةَ). ((الدر المصون)) (٩/ ٧١٠).

وقال الرازيُّ: (فإنْ قيل: فقولُه: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ عطْفٌ على قولِه ﴿لِّيُدْخِلَ﴾، وازديادُ إيمانِهم [أي: المؤمنين] لا يَصلُحُ سَببًا لتَعذيبِهم [أي: المنافِقين والكافِرين]، نَقولُ: بلَى، وذلك مِن وَجهين:

أحدُهما: أنَّ التَّعذيبَ مَذكورٌ لكونِه مَقصودًا للمؤمنين، كأنَّه تعالَى يقولُ: بسَببِ ازديادِكم في الإيمانِ يُدخِلُكم في الآخرةِ جنَّاتٍ، ويُعذِّبُ بأيْدِيكم في الدُّنيا الكفَّارَ والمنافقينَ.

الثَّاني: تَقديرُه: ويُعَذِّبَ بسَببِ ما لكمْ مِن الازديادِ، يُقال: فعَلْتُه لأُجَرِّبَ به العدُوَّ والصَّديقَ، =

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

أي: وليَمحوَ اللهُ عن المُؤمنينَ والمُؤمِناتِ ذُنوبَهم، فلا يُؤاخِذَهم بها(١).

كما قال تعالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أي: ذلك الوَعدُ بإدخالِ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ الجَنَّةَ، وتَكفيرِ سَيِّئاتِهم: فَوزٌ عَظيمٌ، فيَظفَرونَ بكُلِّ خَيرٍ، ويَنجُونَ مِن كُلِّ شَرٍّ(٢).

كما قال تعالَى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾.

= أي: لأعْرِفَ بوُجودِه الصَّديقَ، وبعَدَمِه العدُوَّ، فكذلك لِيَزدادَ المؤمنُ إيمانًا فيُدخِلَه الجنَّةَ، ويَزدادَ الكافرُ كفْرًا فيُعذِّبَه به.

ووجْهٌ آخَرُ ثالثٌ: وهو أنَّ سَببَ زِيادةِ إيمانِ المؤمنينَ بكثْرةِ صَبْرِهم وثَباتِهم، فيَعيى المنافقُ والكافرُ معه ويَتعذَّبُ، وهو قَريبٌ ممَّا ذكَرْنا). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٩).

وقال ابنُ عطيَّة: (قَولُه تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ معناه: فازْدادوا وتلَقَّوا ذلك، فتمَكَّنَ بعْدَ ذلك قَولُه: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بتكَسُّبِهم القَبولَ لِما أنزَلَ اللهُ عليهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

أي: ولِيُعَذِّبَ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ، والمُشرِكينَ والمُشرِكاتِ؛ في الدُّنيا[١].

كما قال تعالَى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾.

مُناسبتُها لِما قبلَها:

لَمَّا أخبَرَ بعَذابِهم؛ أتْبَعَه وَصْفَهم بما سَبَّبَ لهمْ ذلك، فقال تعالَى[٢]:

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾.

أي: الَّذين يَظُنُّونَ أنَّ اللهَ لنْ يَنصُرَ رَسولَه والمُؤمِنينَ على أعدائِهم، وأنَّه سيُسْلِمُهم للقَتلِ، وأنَّه لنْ يُظهِرَ دِينَه وكَلِمتَه على الكُفرِ وأهلِه؛ فيَنسُبونَ إلى اللهِ ما لا يَليقُ بحِكمتِه وقَضائِه[٣].

كما قال تعالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤).

قال البقاعيُّ: (قال تعالَى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ﴾ أي: المحيطِ بجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ مِن أنَّه لا يَفي بوَعدِه في أنَّه يَنصُرُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأتْباعَه المُؤمِنينَ، أو أنَّه لا يَبعَثُهم، أو أنَّه لا يُعَذِّبُهم لِمُخالفةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومُشاقَقةِ أتباعِه). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٨٩).

وقال سُبحانَه: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ [الفتح: ١٢].

﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿السُّوءِ﴾ بضَمِّ السِّينِ، بمعنى: الهزيمةِ والشَّرِّ والبَلاءِ، أي: عليهم دائِرةُ الشَّرِّ والهَزيمةِ والبَلاءِ والضَّرَرِ[(١)].

٢- قِراءةُ: ﴿ٱلسَّوۡءِ﴾ بفَتحِ السِّينِ، بمعنى: الرَّداءةِ والفَسادِ، أي: عليهم دائِرةُ الفَسادِ. وقيل: المعنى: عليهم الدَّائِرةُ التي تَسوءُهم سَوءًا. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ، كالضُّعْفِ والضَّعْفِ[(٢)].

﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾.

أي: على المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والمُشرِكينَ والمُشرِكاتِ، الَّذين يَظُنُّونَ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ: دائِرةُ العَذابِ والشُّرورِ والمَساوِئِ والمصائِبِ، تَدورُ عليهم وتُحيطُ بهم في الدُّنيا[(٣)].

---

(١) قرَأ بها ابنُ كثير، وأبو عمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٨٣).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((الحُجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٦١)، ((الحُجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٠٦-٢٠٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٥٠٥).

(٢) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٨٣).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٤)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٦١)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٠٦-٢٠٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٥٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير ابن =

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: وغَضِبَ اللهُ على المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والمُشرِكينَ والمُشرِكاتِ[١].

﴿وَلَعَنَهُمۡ﴾.

أي: وأبعَدَهم اللهُ وطرَدَهم مِن رَحمتِه[٢].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَ﴾.

أي: وهَيَّأَ لهم جَهنَّمَ يَدخُلونَها في الآخِرةِ[٣].

﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

أي: وساءَت جَهنَّمُ مَنزِلًا يَصيرونَ إليه يومَ القِيامةِ[٤].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧﴾.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ولِلهِ جُنودُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ مِنَ الملائِكةِ والجِنِّ والإنسِ وغَيرِهم، يَنتَقِمُ بهم ممَّن يَشاءُ مِن أعدائِه[٥].

= عطية)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير مكي)) (١١/ ٦٩٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير ابن =

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالَى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِزَّةِ الكامِلةِ؛ فهو القاهِرُ الغالِبُ لكُلِّ شَيءٍ، لا يَغلِبُه أحَدٌ، ولا يَمنَعُه مِمَّا أراده أحَدٌ، وهو المتَّصِفُ بالحِكمةِ التَّامَّةِ؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[1].

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۞ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، وإنَّما كان هذا ظَنَّ السَّوءِ، وظَنَّ الجاهِليَّةِ المَنسوبَ إلى أهلِ الجهلِ، وظَنَّ غَيرِ الحقِّ؛ لأنَّه ظَنُّ غَيرِ ما يَليقُ بأسمائِه الحُسنى، وصِفاتِه العُلْيا، وذاتِه المُبَرَّأةِ مِن كلِّ عَيبٍ وسُوءٍ، بخِلافِ ما يَليقُ بحِكمتِه وحَمدِه، وتَفرُّدِه بالرُّبوبيَّةِ والإلهيَّةِ، وما يَليقُ بوَعدِه الصَّادِقِ الَّذي لا يُخْلِفُه، وبكَلِمتِه الَّتي سبَقَتْ لِرُسلِه أنَّه يَنصُرُهم ولا يَخذُلُهم، ولِجُندِه بأنَّهم هُمُ الغالِبونَ، فمَن ظَنَّ بأنَّه لا يَنصُرُ رَسولَه، ولا يُتِمُّ أمْرَه، ولا يُؤيِّدُه ويُؤيِّدُ حِزبَه، ويُعْليهم ويُظْفِرُهم بأعدائِه، ويُظهِرُهم عليهم، وأنَّه لا يَنصُرُ دِينَه وكِتابَه، وأنَّه يُديلُ الشِّركَ على التَّوحيدِ، والباطِلَ على الحقِّ إدالَةً مُستقِرَّةً يَضْمَحِلُّ معها التَّوحيدُ والحقُّ اضْمِحْلالًا لا يَقومُ بعدَه أبدًا -فقدْ ظَنَّ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ، ونسَبَه إلى خِلافِ ما يَليقُ

= عطية)) (٥/ ١٢٧-١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

بكَمالِه وجَلالِه وصِفاتِه ونُعوتِه؛ فإنَّ حَمْدَه وعِزَّتَه وحِكمتَه وإلَهِيَّتَه تأبَى ذلك، وتأبَى أنْ يَذِلَّ حِزبُه وجُندُه، وأنْ تَكونَ النُّصرةُ المُستقِرَّةُ والظَّفَرُ الدَّائمُ لأعدائِه المُشركينَ به، العادِلينَ به، فمَن ظَنَّ به ذلك فما عرَفه، ولا عرَفَ أسماءَه، ولا عرَف صِفاتِه وكمالَه. وكذلك مَن أنكَرَ أنْ يَكونَ ذلك بقَضائِه وقَدَرِه، فما عرَفه ولا عرَفَ رُبوبيَّتَه ومُلْكَه وعَظَمتَه. وكذلك مَن أنكَرَ أن يَكونَ قَدَّر ما قدَّرَه مِن ذلك وغَيرِه لحِكمةٍ بالِغةٍ وغايةٍ مَحمودةٍ يَستحِقُّ الحَمدَ عليها، وأنَّ ذلك إنَّما صدَرَ عن مَشيئةٍ مُجَرَّدةٍ عن حِكمةٍ وغايةٍ مَطلوبةٍ هي أحَبُّ إليه مِن فَوْتِها، وأنَّ تلك الأسبابَ المكروهةَ المُفْضيةَ إليها لا يَخرُجُ تَقديرُها عن الحِكمةِ لإفضائِها إلى ما يُحِبُّ، وإنْ كانتْ مَكروهةً له، فما قدَّرها سُدًى، ولا أنشأها عَبَثًا، ولا خَلَقها باطلًا، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. وأكثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ باللهِ غَيْرَ الحقِّ ظَنَّ السَّوءِ فيما يَختَصُّ بهم، وفيما يَفعَلُه بغَيرِهم، ولا يَسلَمُ عن ذلك إلَّا مَن عرَفَ اللهَ، وعرَفَ أسماءَه وصِفاتِه، وعرَفَ مُوجَبَ حَمدِه وحِكمتِه، فمَنْ قَنَطَ مِن رَحمتِه، وأيِسَ مِن رَوحِه؛ فقدْ ظَنَّ به ظَنَّ السَّوءِ. وأكثَرُ الخَلقِ يَظُنُّونَ باللهِ غيرَ الحقِّ ظَنَّ السَّوءِ؛ فإنَّ غالِبَ بَني آدمَ يَعتقِدُ أنَّه مَبخوسُ الحقِّ، ناقِصُ الحظِّ، وأنَّه يَستحِقُّ فوقَ ما أعطاهُ اللهُ، ولسانُ حالِه يقولُ: ظَلَمَني ربِّي، ومَنَعَني ما أستحِقُّه! ونفْسُه تَشهَدُ عليه بذلك، وهو بِلِسانِه يُنكِرُه، ولا يَتجاسَرُ على التَّصريحِ به، ومَن فتَّشَ نفْسَه وتَغلغَلَ في مَعرفةِ دَفائنِها وطَواياها، رأى ذلك فيها كامنًا كُمونَ النَّارِ في الزِّنادِ، فاقدَحْ زِنادَ مَن شِئتَ، يُنبِئْكَ شَرَارُه عمَّا في زِنادِه، ولو فَتَّشْتَ مَن فتَّشْتَه لَرَأيتَ عِندَه تَعَتُّبًا على القَدَرِ، ومَلامةً له، واقتِراحًا عليه خِلافَ ما جرَى به، وأنَّه كان يَنبغي أنْ يَكونَ كذا وكذا! فمُستقِلٌّ ومُستكثِرٌ، وفَتِّشْ نفْسَك: هل أنت سالمٌ مِن ذلك؟

فإنْ تَنْجُ منها تَنْـــجُ مِن ذي عَظيمةٍ وإلَّا فإنِّـــي لا إخالُـــكَ ناجِيَـــا[١]

فلْيَعتَنِ اللَّبيبُ النَّاصحُ لنفْسِه بهذا المَوضعِ، ولْيَتُبْ إلى اللهِ تعالَى، ولْيَستغفِرْهُ كلَّ وقتٍ مِن ظنِّه بربِّه ظَنَّ السَّوءِ، ولْيَظُنَّ السُّوءَ بنفْسِه الَّتي هي مأوَى كلِّ سُوءٍ، ومَنبَعُ كلِّ شرٍّ، المُرَكَّبةِ على الجهلِ والظُّلمِ؛ فهي أَوْلى بظَنِّ السَّوءِ مِن أحكَمِ الحاكِمينَ، وأعدَلِ العادِلينَ، وأرحَمِ الرَّاحمينَ، الغنيِّ الحميدِ، الَّذي له الغِنى التَّامُّ، والحمدُ التَّامُّ، والحِكمةُ التَّامَّةُ، المُنَزَّهُ عن كلِّ سُوءٍ في ذاتِه وصِفاتِه وأفعالِه وأسمائِه؛ فَذاتُه لها الكمالُ المُطْلَقُ مِن كلِّ وجهٍ، وصِفاتُه كذلك، وأفعالُه كذلك؛ كلُّها حِكمةٌ ومَصلحةٌ ورَحمةٌ وعدْلٌ، وأسماؤُه كلُّها حُسنى.

فـــلا تَظْنُـــنْ بِرَبِّـــكَ ظَنَّ سَـــوْءٍ فـــإنَّ اللـــهَ أَوْلـــى بالجَميـــلِ[٢]

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى تَسكينِ النُّفوسِ، وأنْ تكونَ مُسلِّمةً؛ لأنَّه يَنصُرُ متى شاء، وعلى أيِّ صُورةٍ شاء ممَّا لا يُدبِّرُه البشَرُ، ومِن جُندِه: السَّكينةُ التي أنْزَلَها في قُلوبِ أصحابِ محمَّدٍ، فثبَّتَ بَصائرَهم[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ذكَرَ اللهُ سُبحانَه السَّكينةَ في كِتابِه في سِتَّةِ مَواضِعَ:

الأوَّلُ: قَولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

---

(١) البيتُ مَنسوبٌ للأسودِ بنِ سَريعٍ رَضِي الله عنه. يُنظر: ((البيان والتبين)) للجاحظ (١/ ٢٩٣). ومَنسوبٌ للفرزدق. يُنظر: ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٣/ ٧٥). ومَنسوبٌ لِذِي الرُّمة. يُنظر: ((ديوان ذي الرمة شرح الباهلي)) (٣/ ١٩٢٤).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٠٥-٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٧).

الثَّاني: قَولُه تبارك وتعالَى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٢٦].

الثَّالِثُ: قَولُه تعالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠].

الرَّابعُ: قَولُه تعالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤].

الخامِسُ: قَولُه تعالَى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

السَّادِسُ: قَولُه تعالَى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٦].

وكان شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ -رَحِمَه اللهُ- إذا اشتَدَّت عليه الأُمورُ قَرَأَ آياتِ السَّكينةِ، وقال في واقِعةٍ عَظيمةٍ جَرَتْ له في مَرَضِه، تَعجِزُ العُقولُ عن حَمْلِها؛ مِن مُحاربةِ أرواحٍ شَيطانيَّةٍ ظَهَرتْ له إذ ذاك في حالِ ضَعفِ القُوَّةِ -قال: (فلمَّا اشتَدَّ علَيَّ الأمرُ قُلتُ لِأقاربي ومَن حَولي: اقرَؤوا آياتِ السَّكينةِ، قال: ثمَّ أقلَعَ عنِّي ذلك الحالُ، وجَلستُ وما بي قَلَبَةٌ[(١)])[(٢)].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فكُلُّ مَن رَسَخ

---

(١) ما بي قَلَبَةٌ: أي: ما بي شَيءٌ، مأخوذٌ مِن القُلابِ: وهو داءٌ يَأخُذُ الإبلَ في رُؤوسِها، فيَقلِبُها إلى فَوقٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٤/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٧٠-٤٧١).

قال ابنُ القيمِ: (وقد جرَّبتُ أنا أيضًا قِراءةَ هذه الآياتِ عندَ اضطِرابِ القَلبِ بما يَرِدُ عليه، فرأيْتُ لها تأثيرًا عَظيمًا في سُكونِه وطُمَأنينتِه). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٤٧١).

في الإيمانِ له في هذه الآيةِ نَصيبٌ جَناه - أي: قطْفُه وثمرتُه- دانٍ[١].

٣- قال اللهُ تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال في حَقِّ الكافِرينَ: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦] بلَفظِ (القَذفِ) المُزعِجِ، أمَّا في حَقِّ المُؤمِنينَ فبِلَفظِ الإنزالِ المُثَبِّتِ؛ وذلك لأنَّ مَن عَلِمَ شَيئًا مِن قَبلُ وتذَكَّرَه، واستَدامَ تذَكُّرَه، فإذا وقَعَ لا يتغيَّرُ، ومَن كان غافِلًا عن شَيءٍ، فيَقَعُ دَفعةً؛ يَرجُفُ فُؤادُه؛ ألَا تَرى أنَّ مَن أُخبِرَ بوُقوعِ صَيحةٍ، وقِيلَ له: لا تَنزَعِجْ منها، فوقَعَت الصَّيحةُ؛ لا يَرجُفُ، ومَن لم يُخبَرْ به أو أُخبِرَ وغَفَلَ عنه يَرتَجِفُ إذا وقَعَت، فكذلك الكافِرُ؛ أتاهُ اللهُ مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، وقذَفَ في قَلْبِه؛ فارتجَفَ، والمؤمِنُ أتاهُ مِن حيثُ كان يَذكُرُه؛ فسَكَن[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ فيه أنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُصُ، كما عليه أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ، وقدْ دَلَّ عليه الوَحيُ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ[٣].

٥- السَّكينةُ هي طمأنينةُ القلبِ واستقرارُه، وأصلُها في القلبِ، ويظهَرُ أثرُها على الجوارحِ، وهي عامَّةٌ وخاصَّةٌ. فسَكينةُ الأنبياءِ صلواتُ اللَّه وسلامُه عليهم أخصُّ مراتبِها وأعلَى أقسامِها، كالسَّكينةِ التي حصَلت لإبراهيمَ الخليلِ حينَما أُلقِي في النَّارِ، وكذلك السَّكينةُ التي حصَلت لموسَى وقد غشِيَه فرعونُ وجنودُه مِن ورائِهم، والبحرُ أمامَهم، إلى غيرِ ذلك مِن المواقفِ التي حصَلت له فيها السَّكينةُ، وكذلك السَّكينةُ التي حصَلت لنبيِّنا صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، وقد أشرَف عليه وعلى صاحبِه عدوُّهما وهما في الغارِ، فلو نظَر أحدُهم تحتَ قدميه

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٤).

لرآهما، وكذلك السكينةُ التي نزَلت عليه في مواقفِه العظيمةِ، وأعداءُ اللَّه قد أحاطوا به كيومِ بدرٍ ويومِ حُنينٍ ويومِ الخندقِ وغيرِه، فهذه السكينةُ أمرٌ فوقَ عقولِ البشرِ، وهي مِن أعظمِ معجزاتِه عندَ أَربابِ البصائرِ، فإنَّ الكذبَ، -ولا سيَّما على اللَّه تعالى- أقلَقُ ما يكونُ وأخوفُ ما يكونُ وأشدُّه اضطرابًا في مثلِ هذه المواطنِ، فلو لم يكُنْ للرُّسلِ صلواتُ اللَّه وسلامُه عليهم مِن الآياتِ إلَّا هذه وحدَها لكفَتْهم.

وتكونُ السَّكينةُ لأتباعِ الرُّسلِ بحسبِ متابعتِهم، وهي سكينةُ الإيمانِ، وهي سكينةٌ تُسكنُ القلوبَ عن الرَّيبِ والشكِّ، ولهذا أنزَلها اللَّه تعالى على المؤمنينَ في أَصعبِ المواطنِ أحوجَ ما كانوا إليها ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤] فذكَر نعمتَه عليهم بالجنودِ الخارجةِ عنهم، والجنودِ الداخلةِ فيهم، وهي السكينةُ عندَ القلقِ والاضطرابِ الذي لم يَصبرْ عليه مثلُ عمرَ بنِ الخطَّابِ رضِي اللَّه عنه، وذلك يومَ الحديبيةِ قال اللَّه سبحانه وتعالى يذكُرُ نعمتَه عليهم بإنزالِها أحوجَ ما كانوا إليها: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] لمَّا علِم اللَّه سبحانه وتعالى ما في قلوبِهم مِن القلقِ والاضطرابِ لمَّا منَعهم كفَّارُ قريشٍ مِن دخولِ بيتِ اللَّه، وحبَسوا الهديَ عن محلِّه، واشتَرطوا عليهم تلك الشُّروطَ الجائرةَ الظالمةَ، فاضْطَربتْ قلوبُهم وقلقَتْ، ولم تُطِق الصَّبرَ، فعلِم تعالى ما فيها فثبَّتها بالسكينةِ رحمةً منه ورأفةً ولطفًا، وهو اللطيفُ الخبيرُ[(١)].

٦- قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ لمَّا

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٤/ ١٥٤).

أنزَل الله تعالى السَّكينةَ في قلوبِهم مرجعَهم مِن الحُديبيةِ؛ ليزدادوا إيمانًا معَ إيمانِهم دلَّ على أنَّ الإيمانَ المزيدَ حالٌ للقلبِ وصفةٌ له وعملٌ مثلُ طمأنينتِه وسكونِه ويقينِه[١].

٧- قال اللهُ تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، قال: ﴿حَكِيمًا﴾ بعْدَ قولِه: ﴿عَلِيمًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّه يَفعَلُ على وَفقِ العِلمِ؛ فإنَّ الحَكيمَ مَن يَعمَلُ شيئًا مُتْقَنًا ويَعلَمُه، فإنَّ مَن يقَعُ منه صُنْعٌ عَجيبٌ اتِّفاقًا لا يُقالُ له: حكيمٌ، ومَن يَعلَمُ ويَعمَلُ على خِلافِ العلمِ لا يقالُ له: حكيمٌ[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ فيه سُؤالٌ: قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بعْدَ ذِكرِ الإدخالِ، مع أنَّ تَكفيرَ السَّيِّئاتِ قبْلَ الإدخالِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: تَكفيرُ السَّيِّئاتِ والمَغفِرةُ وغَيرُهما: مِن تَوابِعِ كَونِ المُكَلَّفِ مِن أهلِ الجنَّةِ؛ فقُدِّمَ الإدخالُ في الذِّكْرِ، بمعنى: أنَّه مِن أهلِ الجنَّةِ

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ الواوَ لا تَقتَضي التَّرتيبَ[٣]، والتَّرتيبُ المذكورُ هو تَرتيبٌ في الذِّكْرِ لا تَرتيبٌ في الوقوعِ. وكان التَّبشيرُ بدُخولِ الجنةِ أهمَّ، فبُدِئ به[٤].

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّ المرادَ بإدْخالِهم الجنَّةَ إدخالٌ خاصٌّ، وهو إدْخالُهم مَنازِلَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٧).

المُجاهِدينَ، وليْس هو الإدخالَ الذي استَحَقُّوه بالإيمانِ وصالحِ الأعمالِ الأُخرى؛ ولذلك عَطَف عليه: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾[١].

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّه قدَّمَ الإدخالَ على التَّكفيرِ مع أنَّ الأمرَ بالعكسِ؛ لِلمُسارَعةِ إلى بيانِ ما هو المَطلَبُ الأعْلى، والمَقصَدُ الأَسْنى[٢].

الوجْهُ الخامسُ: أنَّ المعنى: يُدخِلُهم الجنَّةَ ويُغطِّي سيِّئاتِهم ويَستُرُها عنهم، فلا تَمُرُّ لهم ببالٍ، ولا يَذكُرونها أصلًا؛ لئلَّا يَخجَلوا فيَتكدَّرَ صَفْوُ عَيشِهم[٣].

٩- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾، ثمَّ قال تعالَى: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ زِيادةً في الإفادةِ؛ لأنَّ مَن كان به بَلاءٌ فقدْ يكونُ مُبتلًى به على وَجهِ الامتِحانِ، فيَكونُ مُصابًا لكي يَصيرَ مُثابًا، وقدْ يكونُ مُصابًا على وَجهِ التَّعذيبِ؛ فقَولُه: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الَّذي حاق بهم على وَجهِ التَّعذيبِ، وقَولُه: ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ زِيادةُ إفادةٍ؛ لأنَّ المغضوبَ عليه قدْ يكونُ بحيثُ يَقنَعُ الغاضِبُ بالعَتْبِ والشَّتمِ أو الضَّربِ، ولا يُفضي غَضَبُه إلى إبْعادِ المغضوبِ عليه مِن جَنابِه، وطَردِه مِن بابِه، وقدْ يكونُ بحيثُ يُفضي إلى الطَّردِ والإبعادِ[٤].

١٠- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ لم يَجمَعْ على أحَدٍ مِنَ الوَعيدِ والعُقوبةِ ما جمَعَ على أهلِ الإشراكِ؛ فإنَّهم ظَنُّوا به ظَنَّ السَّوءِ، حتَّى أشرَكوا به، ولوْ أحسَنوا به الظَّنَّ لَوَحَّدوه حَقَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧١).

تَوحيدِه[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ بَيانٌ لِمَا أفاضَ اللهُ عليهم مِن مَبادِئِ الفتْحِ مِن الثَّباتِ والطُّمأنينةِ، وفي التعبيرِ عن ذلِك بالإنزالِ إيماءٌ إلى عُلوِّ شأنِها[٢].

- وهذه الجُملةُ بَدلُ اشتِمالٍ مِن مَضمونِ جُملةِ ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٣]، وحصَلَ منها الانتِقالُ إلى ذِكرِ حظِّ المُسلمين مِن هذا الفتْحِ؛ فإنَّ المُؤمِنين هم جُنودُ اللهِ الَّذين قدْ نصَرَ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهمْ، فكان في ذِكْرِ عِنايةِ اللهِ بإصلاحِ نُفوسِهم، وإذهابِ خَواطِرِ الشَّيطانِ عنهم، وإلْهامِهم إلى الحقِّ في ثَباتِ عَزْمِهم، وقُرارةِ إيمانِهم؛ تَكوينٌ لِأسبابِ نصْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والفتْحِ المَوعودِ به؛ لِيَندَفِعوا حينَ يَستنفِرُهم إلى العدُوِّ بقُلوبٍ ثابتةٍ، ألَا تَرى أنَّ المُؤمِنين تَبلبَلتْ نُفوسُهم مِن صُلْحِ الحُديبيةِ؛ إذ انصَرَفوا عَقِبَه عن دُخولِ مكَّةَ بعْدَ أنْ جاؤوا لِلعُمرةِ بعَددٍ عَديدٍ حسِبُوه لا يُغلَبُ، وأنَّهم إنْ أرادَهم العدوُّ بسُوءٍ، أو صَدَّهم عن قصْدِهم؛ قابَلوه فانْتَصروا عليه، وأنَّهم يَدخُلون مكَّةَ قسْرًا[٣].

- وفي قَولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ جُعِلَ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٥)، ((تفسير الألوسي)) (٢٦/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٩)

ذلك الازديادُ كالعِلَّةِ لِإنزالِ السَّكينة في قُلوبِهم؛ لأنَّ اللهَ عَلِمَ أنَّ السَّكينةَ إذا حصَلَتْ في قُلوبِهم رسَخَ إيمانُهم، فعُومِلَ المَعلومُ حُصولُه مِن الفِعلِ مُعامَلةَ العِلَّة، وجُعِلَت قُوَّةُ الإيمانِ بمَنزلةِ إيمانٍ آخَرَ دخَلَ على الإيمانِ الأسبقِ؛ لأنَّ الواحدَ مِن أفرادِ الجِنسِ إذا انضَمَّ إلى أفرادٍ أُخَرَ، زادها قُوَّةً؛ فلذلك عُلِّقَ بالإيمانِ ظَرْفُ (مع) في قَولِه: ﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾، فكان في ذلك الحادثِ خَيرٌ عَظيمٌ لهم، كما كان فيه خَيرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بأنْ كان سَببًا لِتَشريفِه بالمَغفرةِ العامَّةِ، ولإتمامِ النِّعمةِ عليه، ولِهدايتِه صِراطًا مُستقيمًا، ولِنَصرِه نصْرًا عزيزًا، فأعظِمْ به حَدَثًا أعقَبَ هذا الخيرَ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ولِأصحابِه[1]!

- قَولُه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تَذْييلٌ لِلْكلامِ السَّابقِ؛ لأنَّه أفادَ أنْ لا عجَبَ في أنْ يَفتَحَ اللهُ لك فتْحًا عَظيمًا، ويَنصُرَك على أقوامٍ كَثيرينَ أشِدَّاءَ نصْرًا صَحِبَه إنزالُ السَّكينةِ في قُلوبِ المُؤمِنين بعْدَ أنْ خامَرَهم الفشَلُ، وانكسارُ الخواطِرِ؛ فاللهُ مَن يَملِكُ جَميعَ وَسائلِ النَّصرِ، وله القُوَّةُ القاهرةُ في السَّمواتِ والأرضِ، وما هذا النَّصْرُ إلَّا بعضٌ ممَّا للهِ مِن القُوَّةِ والقَهْرِ. والواوُ اعتِراضيَّةٌ، وجُملةُ التَّذييلِ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ وبيْنَ مُتعلَّقِها، وهو ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ [الفتح: ٥] الآيةَ[2].

- وفي تَعقيبِ جُملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ...﴾ بجُملةِ التَّذييلِ: إشارةٌ إلى أنَّ المُؤمِنين مِن جُنودِ اللهِ، وأنَّ إنزالَ السَّكينةِ في قُلوبِهم تَشديدٌ لِعَزائمِهم؛ فتَخْصيصُهم بالذِّكْرِ قبْلَ هذا العُمومِ وبعْدَه تَنويهٌ بشَأْنِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُومِئُ إلى ذلك قَولُه بعْدُ: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ الآيةَ[(١)].

- وتَقديمُ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه في قَولِه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لإفادةِ الحصْرِ، وهو حَصْرٌ ادِّعائيٌّ[(٢)]؛ إذ لا اعتِدادَ بما يَجمَعُه المُلوكُ والفاتِحون مِن الجُنودِ لِغَلَبةِ العدُوِّ بالنِّسبةِ لِمَا لله مِن الغَلَبةِ لِأعدائِه والنَّصرِ لِأوليائِه[(٣)].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تَذْييلٌ لِما قبْلَه مِن الفتْحِ والنَّصرِ وإنزالِ السَّكينةِ في قُلوبِ المُؤمِنين، والمَعْنى: أنَّه عَليمٌ بأسبابِ الفتْحِ والنَّصْرِ، وعَليمٌ بما تَطمِئنُّ به قُلوبُ المُؤمِنين بعْدَ البَلبَلةِ، وأنَّه حَكيمٌ يضَعُ مُقتضياتِ عِلْمِه في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥١).

(٢) الحَصرُ أو القَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أنْ يَختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصْرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مَبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتَنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتَقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٧- ١٧)، ((الإتقان)) للسيوطي (٢/ ١٣٤- ١٣٥)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٨٧ - ٩٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (١/ ٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥١).

مَواضِعِها المُناسِبةِ، وأوقاتِها المُلائمةِ[١].

- وأيضًا أثْبَت العِلمَ هنا إشارةً إلى أنَّه لا يَعْزُبُ عنه مِثْقالُ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

- قولُه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ذِكْرُ المؤمناتِ مع المؤمنينَ هنا؛ لدَفْعِ تَوهُّمِ أنْ يكونَ الوعدُ بهذا الإدخالِ مُختَصًّا بالرِّجالِ؛ إذ كانتْ صِيغةُ الجمْعِ صِيغةَ المُذكَّرِ، مع ما قدْ يُؤكِّدُ هذا التَّوهُّمَ مِن وُقوعِه عِلَّةً أو عِلَّةَ عِلَّةٍ للفتْحِ وللنَّصرِ وللجُنودِ، وكلُّها مِن مُلابَساتِ الذُّكورِ، وإنَّما كان للمُؤمناتِ حظٌّ في ذلك؛ لأنَّهنَّ لا يَخلُونَ مِن مُشارَكةٍ في تلك الشَّدائدِ ممَّن يَقُمْنَ منهنَّ على المَرْضى والجَرحَى وسقْيِ الجيشِ وقتَ القِتالِ، ومِن صَبْرِ بَعضِهنَّ على الثُّكْلِ أو التَّأيُّمِ، ومِن صَبْرِهنَّ على غَيبةِ الأزواجِ والأبناءِ وذَوي القَرابةِ[٣]، وكذا في كلِّ مَوضعٍ يُوهِمُ الاختصاصَ يُصرَّحُ بذِكرِ النِّساءِ[٤].

- قولُه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿فَوْزًا﴾، أي: فازوا عِندَ اللهِ، وتَقديمُه على مُتعلَّقِه؛ لِلاهتِمامِ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٢).

بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾

- قولُه: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ الحديثُ عن جُنودِ اللهِ في مَعرِضِ ذِكرِ نَصْرِ اللهِ، يَقْتَضي لا مَحالةَ فَريقًا مَهزومًا بتلك الجُنودِ، وهم العدُوُّ، فإذا كان النَّصرُ الذي قدَّرَه اللهُ مَعلولًا بما بشَّرَ به المُؤمِنين؛ فلا جَرَمَ اقْتَضى أنَّه مَعلولٌ بما يَسوءُ العدُوَّ وحِزْبَه، فذكَرَ اللهُ مِن عِلَّةِ ذلك النَّصرِ أنَّه يُعذِّبُ بسَببِه المُنافِقينَ حِزبَ العدُوِّ، والمُشركينَ صَميمَ العدُوِّ؛ فكان قولُه: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ مَعطوفًا على ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾[1] [الفتح: ٥].

- وفي تَقديمِ المُنافِقينَ على المُشرِكين ما لا يَخفَى مِن الدَّلالةِ على أنَّهم أحقُّ منْهُم بالعَذابِ، وأنَّهم أشَدُّ منهم عَذابًا، ولِتَنْبيهِ المُسلِمينَ بأنَّ كُفْرَ المنافِقينَ خَفِيٌّ، فرُبَّما غفَلَ المُسلِمون عن هذا الفريقِ أو نَسُوه[2].

ولأنَّه لَمَّا كان المُنافِقونَ أكثَرَ ضَررًا على المُسلِمينَ مِن المُشرِكينَ، بُدِئَ بذِكرِهم في التَّعذيبِ[3]. ولأنَّه لَمَّا كان مِن أعظَمِ الفَوزِ إقرارُ العَينِ بالانتِقامِ مِن العَدُوِّ، وكان العَدُوُّ المُكاتِمُ أشَدَّ مِن العَدُوِّ المجاهِرِ المُراغِمِ؛ قال تعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ...﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٩).

- وعُطِفَ ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ لِدَفْعِ تَوهُّمِ أنْ يكونَ الوَعيدُ بهذا العَذابِ مُختصًّا بالرِّجالِ؛ لأنَّ نِساءَ المُنافِقين يُشارِكْنَهم في أسْرارِهم، ويَحُضُّون على ما يُبيِّتونَه مِن الكَيدِ، ويُهيِّئونَ لهم إيواءَ المُشرِكينَ إذا زارُوهم[1].

- وجُملةُ ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دُعاءٌ أو وَعيدٌ؛ ولذلك جاءتِ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ لِصُلوحيَّتِها لذلك، بخِلافِ جُملةِ ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾؛ فإنَّها إخبارٌ عمَّا جَنَوه مِن سُوءِ فِعلِهم؛ فالتَّعبيرُ بالماضي منه أظهَرُ[2].

- قَولُه: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ عطْفٌ لِمَا استَحقُّوه في الآخِرةِ على ما اسْتَوجَبوه في الدُّنيا، والواوُ وُضِعَتْ مَوضِعَ الفاءِ؛ إذ اللَّعنُ سَببٌ للإعدادِ، والغضَبُ سَببٌ له؛ لاستِقلالِ الكلِّ في الوَعيدِ بلا اعتبارِ السَّببيَّةِ[3].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ في الآيةِ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّكريرِ؛ فقدْ قال تعالَى أوَّلًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤] وقال ثانيًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ لأنَّه ذكَرَ قبْلَ الآيةِ الأُولى ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤]، ولَمَّا كان فيهم مَن هو أهلٌ لِلرَّحمةِ، ومَن هو أهلٌ للعَذابِ؛ ناسَبَ أنْ يكونَ خاتمةُ الأُولى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ولَمَّا بالَغَ تعالَى في تَعذيبِ المُنافِقِ والكافِرِ وشِدَّتِه، ناسَبَ أنْ يكونَ خاتمةُ الثَّانيةِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ فالأُولى دلَّتْ على أنَّه المُدبِّرُ لأمْرِ المَخلوقاتِ بمُقْتضَى حِكمتِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٧).

والثَّانيةُ دلَّتْ على التَّهديدِ والوَعيدِ، وأنَّهم في قَبْضةِ المُنتقِمِ[١].

وقيل: كرَّر الإخبارَ بأنَّ له مُلكَ السَّمَواتِ والأرضِ وما فيهما مِن الجُنودِ؛ لِيَعلَمَ العِبادُ أنَّه تعالَى هو المعِزُّ المُذِلُّ، وأنَّه سيَنصُرُ جُنودَه المنسوبةَ إليه، كما قال تعالَى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[٢] [الصافات: ١٧٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٩١).

الآيات (٨-١٠)

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَنَذِيرًا﴾: أي: مُنذِرًا ومُحَذِّرًا ومُخَوِّفًا، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تخويفٍ[١].

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾: أي: تُعَظِّموه وتُقَوُّوه، وأصلُ التَّعزيرِ: النُّصرةُ معَ التَّعظيمِ[٢].

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾: أي: تُسَوِّدوه وتُعَظِّموه؛ مِنَ التَّوقيرِ: وهو الاحترامُ والإجلالُ والإعظامُ، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقلٍ في الشَّيءِ[٣].

﴿بُكۡرَةٗ﴾: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدْئِه[٤].

﴿وَأَصِيلًا﴾: أي: آخِرَ النَّهارِ، وأصلُه: يدُلُّ على ما كان مِنَ النَّهارِ بعدَ العَشيِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

﴿نَّكَثَ﴾: أي: نَقَض، وأصلُ (نكث): يدُلُّ على نَقضِ شَيءٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا وظيفةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ المكلَّفَ بها، والحكمةَ مِن إرسالِه: إنَّا أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- شاهِدًا، ومُبَشِّرًا لِمَن أطاعك، ومُنذِرًا لِمَن عصاك، أرسَلْناه؛ لِتُؤمِنوا -أيُّها النَّاسُ- باللهِ ورَسولِه، ولِتُؤَيِّدوه وتَنصُروه، وتُعَظِّموه وتُجِلُّوه، ولِتُسَبِّحوا اللهَ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه.

ثمَّ يَمدَحُ الله سبحانَه الَّذينَ عاهَدوا الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم، ووَفَّوْا بعُهودِهم، فيقولُ: إنَّ الَّذين يُبايِعونَك -يا مُحمَّدُ- بالحُدَيبيَةِ على ألَّا يَفِرُّوا عندَ لِقاءِ الكُفَّارِ: إنَّما يُبايِعونَ اللهَ تعالى، يدُ اللهِ فَوقَ أيدي أولئك المُبايِعينَ.

ثمَّ يقولُ تَعالى مُحذِّرًا من نقضِ البيعةِ، ومُرغِّبًا في الوفاءِ بها: فمَنْ نَقَض بَيعَتَه فإنَّما يَضُرُّ نَفْسَه بذلك؛ لاستِحقاقِه العِقابَ، ومَن أَوفَى بما عاهَدَ اللهَ عليه في البَيعةِ فسيُؤتيه اللهُ ثَوابًا جَزيلًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨﴾.

أي: إنَّا أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- شاهِدًا[٢]، ومُبَشِّرًا بالخَيرِ والثَّوابِ لِمَن أطاعك،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٢، ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

(٢) قيل: المرادُ: شاهِدًا على أُمَّتِك يومَ القيامةِ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والسمعانيُّ، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٣٥). =

ومُنذِرًا بالشَّرِّ والعَذابِ لِمَن خالَفَك[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧].

= وقال ابنُ جريرٍ، والقاسميُّ: المرادُ: شاهِدًا على أمَّتِك بما أجابوك فيما دَعَوْتَهم إليه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٨٦).

وقال الواحدي، والشوكاني: المرادُ: شاهِدًا على أمَّتِك بإبلاغِ الرِّسالةِ إليهم. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥١٦).

قال ابنُ عطيَّة: (شاهِدًا على النَّاسِ بأعمالِهم وأقوالِهم حينَ بَلَّغْتَ إليهم الشَّرعَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٢).

وقال ابنُ عاشور: (أرسَلْناك في حالِ أنَّك تَشهَدُ على الأُمَّةِ بالتَّبليغِ، بحيثُ لا يُعذَرُ المخالِفونَ عن شَريعتِك فيما خالَفوا فيه، وتَشهَدُ على الأُمَمِ، وهذه الشَّهادةُ حاصِلةٌ في الدُّنيا وفي يومِ القيامةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٥).

وقيل: المرادُ: شاهِدًا لله بالوَحدانيَّةِ، وأنَّه لا إلهَ غَيْرُه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٢).

وقال السعدي: (أي: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ أيُّها الرَّسولُ الكريمُ ﴿ شَٰهِدًا ﴾ لأمَّتِك بما فَعَلوه مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وشاهِدًا على المقالاتِ والمسائِلِ؛ حَقِّها وباطِلِها، وشاهِدًا لله تعالى بالوَحدانيَّةِ والانفِرادِ بالكَمالِ مِن كُلِّ وَجهٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَر الله تعالى حالَ الرِّسالةِ؛ ذكَر عِلَّتَها[١]، وبيَّنَ فائدةَ الإرسالِ على الوجهِ الَّذي ذكَره[٢].

وأيضًا فإنَّ مِن تمامِ البِشارةِ والنِّذارةِ: بيانَ الأعمالِ والأخلاقِ الَّتي يُبَشِّرُ بها ويُنْذِرُ؛ فهو المبَيِّنُ للخَيرِ والشَّرِّ، والسَّعادةِ والشَّقاوةِ، والحقِّ مِنَ الباطلِ؛ ولهذا رتَّبَ على ذلك قَولَه[٣]:

﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: أرسَلْنا مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شاهِدًا ومُبَشِّرًا ونَذيرًا؛ لِتُؤمِنوا -أنتم أيُّها النَّاسُ- باللهِ ورَسولِه، وتَقومُوا بما يَستَلزِمُ ذلك مِن طاعتِهما في جميعِ الأُمورِ[٤].

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

قال الزَّجَّاج: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وخِطابٌ للنَّاسِ ولأُمَّتِه... وجائِزٌ أن يكونَ ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ خِطابًا للمُومِنينَ وللنَّبيِّ جميعًا؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد آمَنَ باللهِ وبآياتِه وكُتُبِه ورُسُلِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢١).

وقيل: قَولُه تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مُتعَلِّقٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: قُلْ. أي: قُلْ لهم: إنَّا أرسَلْناك لِتُؤمِنوا باللهِ ورَسولِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وابنُ عطية. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٩).

أي: ولِتُؤَيِّدوه وتَنصُروه، وتُعَظِّموه وتُجِلُّوه[١].

﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٠-٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٦، ٢٦٧)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

قال ابن تيميَّة: (التَّعزيرُ: اسمٌ جامِعٌ لِنَصرِه وتأييدِه، ومَنْعِه مِن كُلِّ ما يُؤذيه. والتَّوقيرُ: اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ ما فيه سَكينةٌ وطُمَأنينةٌ مِن الإجلالِ والإكرام، وأن يُعامَلَ مِنَ التَّشريفِ والتَّكريمِ والتَّعظيمِ بما يَصونُه عن كُلِّ ما يُخرِجُه عن حَدِّ الوَقارِ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٤٢٢). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٢/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٦).

وقال الماوَرْدي: (مِنهم مَن قال: إنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تُعَزِّروا اللهَ وتُوَقِّروه؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ راجِعٌ إلى اللهِ، وكذلك ما تَقدَّمَه؛ فعلى هذا يكونُ تأويلُ قَولِه: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تُثبِتوا له صِحَّةَ الرُّبوبيَّةِ، وتَنفُوا عنه أن يكونَ له وَلَدٌ أو شَريكٌ. ومنهم مَن قال: المرادُ به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ أن يُعَزِّروه ويُوَقِّروه؛ لأنَّه قد تقَدَّمَ ذِكرُه، فجاز أنْ يكونَ بَعضُ الكلامِ راجِعًا إلى اللهِ، وبَعضُه راجِعًا إلى رَسولِه. قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٣).

وقال ابن عطيَّة: (قال بعضُ المتأوِّلينَ: الضَّمائرُ في قولِه: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ هي كلُّها لله تعالى. وقال الجمهور: «تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» هما للنَّبيِّ عليه السَّلامُ، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ هي لله). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ؛ أنَّ الضَّمائرَ الثَّلاثةَ ترجِعُ إلى الله عزَّ وجلَّ: الزمخشريُّ، والرازي، والنسفي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٨٦).

قال النسفي: (﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتُقَوُّوه بالنَّصر... والمرادُ بتعزيرِ الله: تعزيرُ دينِه ورسولِه). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٣٥).

وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَينِ الأوَّلَينِ يَرجِعانِ إلى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والثَّالثَ يَرجِعُ إلى اللهِ تعالى: القُشَيْريُّ، والكرماني، والبغوي، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١١١٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

أي: ولِتُسَبِّحوا اللهَ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٧)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٦).

قال السَّمعاني: (قَولُه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ تَنصَرِفُ إلى اللهِ قَولًا واحِدًا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩٤).

قال القرطبي: (وفي «تُسَبِّحُوهُ» وجْهانِ؛ أحدُهما: تسبيحُه بالتَّنزيهِ له سُبحانَه مِن كُلِّ قبيحٍ. والثَّاني: هو فِعلُ الصَّلاةِ الَّتي فيها التَّسبيحُ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تُنَزِّهوه عن السُّوءِ والنَّقائصِ: القُشَيريُّ، والجاوي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٢١)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تُصَلُّوا له -أي: لله-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٣٧).

قال السَّمعاني: (والتَّسبيحُ بالبُكرةِ وهو صلاةُ الصُّبحِ، وبالأَصيلِ صلاةُ الظُّهرِ والعصرِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩٤).

وقال النَّسَفي: (﴿بُكۡرَةٗ﴾ صلاةَ الفَجرِ ﴿وَأَصِيلًا﴾ الصَّلَواتِ الأربَعَ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٣٥).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ: التَّنزيهِ والصَّلاةِ: الثعلبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

قال السعدي عن التَّسبيحِ وهو الحقُّ المختصُّ بالله في هذه الآيةِ: (هو التَّسبيحُ له والتَّقديسُ بصَلاةٍ أو غيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ أنَّه مُرسَلٌ؛ ذَكَر أنَّ مَن بايَعَه فقد بايَعَ اللهَ تعالى[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

أي: إنَّ أصحابَك -يا مُحمَّدُ- الَّذين يُبايِعونَك بالحُدَيبيَةِ على ألَّا يَفِرُّوا عندَ لِقاءِ الكُفَّارِ: إنَّما يُبايِعونَ اللهَ في حقيقةِ الأمرِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ قال المفسِّرونَ: يعني بَيعةَ الرِّضوانِ، وكانت بالحُدَيبيَةِ تحتَ الشَّجَرةِ، وكان المسلِمونَ يَومَئذٍ ألفًا وأربَعَمئةِ رجُلٍ، بايَعوا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم على أن يُقاتِلوا ولا يَفِرُّوا). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٩٠).

وقال ابنُ الجوزي: (وعلى ماذا بايَعوه؟ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّهم بايَعوه على الموتِ، قاله عُبادةُ بنُ الصَّامِتِ.

والثَّاني: على ألَّا يَفِرُّوا، قاله جابرُ بنُ عبدِ الله. ومعناهما مُتقارِبٌ؛ لأنَّه أراد: على ألَّا تَفِرُّوا ولو مُتُّمْ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لم يُرِدْ به: إنَّك أنت اللهُ! وإنَّما أراد: إنَّك أنت رسولُ الله، ومُبَلِّغُ أمْرِه ونَهيِه، فمَنْ بايَعَك فقد بايَعَ اللهَ، كما أنَّ مَن أطاعك فقد أطاعَ اللهَ، ولم يُرِدْ بذلك أنَّ الرَّسولَ هو اللهُ، ولكنَّ الرَّسولَ أمَر بما أمَر اللهُ به، فمَنْ أطاعه فقد أطاعَ اللهَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٣٣٣).

وقال ابنُ عثيمين: (إنَّما جَعَل اللهُ تعالى مُبايَعةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُبايعةً له؛ لأنَّه رَسولُه، وقد بايَعَ الصَّحابةُ على الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تعالى، ومُبايَعةُ الرَّسولِ على الجِهادِ في سَبيلِ مَن أرسَلَه مُبايَعةٌ لِمَن أرسَلَه؛ لأنَّه رَسولُه المبلِّغُ عنه، كما أنَّ طاعةَ الرَّسولِ طاعةٌ لِمَن أرسَلَه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وفي إضافةِ مُبايَعتِهم =

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((قال لنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَومَ الحُدَيبيَةِ: أنتم خَيرُ أهلِ الأرضِ. وكُنَّا ألْفًا وأرْبَعَمِئَةٍ))(١).

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾.

أي: يدُ اللهِ فَوقَ أيدي أولئك المُبايِعينَ مِن أصحابِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَقتَ بَيعتِه(٢).

= الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى اللهِ تعالى مِن تَشريفِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتأييدِه، وتوكيدِ هذه المُبايَعةِ وعِظَمِها، ورَفْعِ شَأنِ المُبايِعينَ: ما هو ظاهِرٌ لا يَخفى على أحَدٍ). ((القواعد المثلى)) (ص: ٧٤).

(١) رواه البخاريُّ (٤١٥٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٨٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٨٧)، ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٧٤، ٧٥).

قال ابن القيِّم: (لَمَّا كانوا يُبايِعونَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأيديهم، ويَضرِبُ بيَدِه على أيديهم، وكان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو السَّفيرَ بيْنَه وبَيْنَهم؛ كانت مُبايَعتُهم له مُبايَعةً لله تعالى، ولَمَّا كان سُبحانَه فَوقَ سَمَواتِه وعلى عَرشِه فَوقَ الخلائِقِ كُلِّهم، كانت يَدُه فَوقَ أيديهم، كما أنَّه سُبحانَه فَوقَهم). ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للمَوْصِلي (ص: ٤٠٦).

وقال ابنُ عثيمين: (يَدُ اللهِ تعالى فوقَ أيدي المُبايِعينَ؛ لأنَّ يَدَه مِن صِفاتِه، وهو سُبحانَه فَوقَهم على عَرشِه، فكانت يَدُه فَوقَ أيديهم، وهذا ظاهِرُ اللَّفظِ وحَقيقتُه، وهو لتوكيدِ كَونِ مُبايَعةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُبايَعةً لله عزَّ وجَلَّ، ولا يَلزَمُ منها أن تكونَ يدُ اللهِ جلَّ وعلا مُباشِرةً لأيديهم، ألَا تَرى أنَّه يُقالُ: السَّماءُ فَوقَنا، مع أنَّها مُباينةٌ لنا، بعيدةٌ عنا؟! فيَدُ اللهِ عزَّ وجَلَّ فوقَ أيدي المبايعينَ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع مُبايَنتِه تعالى لِخَلْقِه، وعُلُوِّه عليهم. ولا يمكِنُ لأحدٍ أن يَفهَمَ أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ يدُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! ولا أن يَدَّعيَ أنَّ ذلك ظاهِرُ اللَّفظِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أضاف اليَدَ إلى نَفْسِه، ووَصَفَها بأنَّها فوقَ أيديهم، ويَدُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ مُبايَعةِ الصَّحابةِ لم تكُنْ فوقَ أيديهم، بل كان يَبسُطُها إليهم، فيُمسِكُ بأيديهم كالمُصافِحِ لهم؛ فيَدُه مع أيديهم، لا فَوقَ أيديهم). ((القواعد المثلى)) (ص: ٧٤، ٧٥). ويُنظر: ((الإبانة عن أصول الديانة)) للأشعري (ص: ١٢٥-١٢٨)، ((شرح =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾.

أي: فمَن نَقَض بَيعَتَه فإنَّما يَضُرُّ نَفْسَه بذلك؛ لاستِحقاقِه العِقابَ، وحِرمانِ نَفْسِه مِن الثَّوابِ[١].

﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ التَّرهيبَ؛ لأنَّه مَقامُه للحَثِّ على الوَفاءِ الَّذي به قيامُ الدِّينِ، على أبلَغِ وَجهٍ- أتْبَعَه التَّرغيبَ؛ إتمامًا للحَثِّ، فقال تعالى[٢]:

﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

أي: ومَن أَوفَى بما عاهَدَ اللهَ عليه في البَيعةِ؛ مِن الصَّبرِ عندَ قِتالِ الكُفَّارِ، ونُصرةِ الرَّسولِ: فسيُؤتيه اللهُ ثَوابًا جَزيلًا على وَفائِه، بوَعدٍ لا خُلْفَ فيه[٣].

= الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ٢٦٤)، ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) لعَلَوي السَّقَّاف (ص: ٣٧٦-٣٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٠)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٧، ٢٩٨).=

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ذَكَر اللهُ في هذه الآيةِ الحَقَّ المُشتَرَكَ بيْنَ اللهِ وبيْنَ رَسولِه، وهو: الإيمانُ بهما، والمُختَصَّ بالرَّسولِ، وهو: التَّعزيرُ والتَّوقيرُ، والمُختَصَّ باللهِ، وهو: التَّسبيحُ له والتَّقديسُ بصَلاةٍ أو غَيرِها[١]. على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أنَّ حَقَّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو أوجَبُ الحُقوقِ البَشَريَّةِ، وحَقُّه التَّعظيمُ والإجلالُ والتَّوقيرُ، حتَّى إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ جَعَلَ مِن أسبابِ الرِّسالةِ ومِن حِكمةِ الرِّسالةِ أنْ نُؤمِنَ باللهِ ورَسولِه، ونُعَزِّرَه ونُوَقِّرَه؛ فهذا رُكنٌ وأساسٌ وحِكمةٌ مِن حِكَمِ إرسالِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢]. وذلك بناء على قولٍ في التَّفسيرِ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ سُمِّيَت مُبايَعةً؛ لأنَّهم باعوا أنفُسَهم فيها مِنَ اللهِ بالجنَّةِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ هذا الكلامُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ،

= قال ابن عاشور: (الظَّاهِرُ عندي: أنَّ سَبَبَ المُبايَعةِ قد انعدَمَ بالصُّلحِ الواقِعِ بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبيْنَ أهلِ مكَّةَ، وأنَّ هذه الآيةَ نَزَلت فيما بيْنَ ساعةِ البَيعةِ وبيْنَ انعِقادِ الهُدْنةِ، وحَصَل أجرُ الإيفاءِ بالنِّيَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٤/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٢).

وتأْكيدُه بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتِمام. ولَمَّا أُريدَ الانتِقالُ مِن الوعْدِ بالفتْحِ والنَّصرِ وما اقتَضاهُ ذلك ممَّا اتَّصلَ به ذِكْرُه، إلى تَبْيينِ ما جَرَى في حادِثةِ الحُديبيَةِ، وإبلاغِ كلِّ ذي حظٍّ مِن تلك القَضيَّةِ نَصيبَه المُستحَقَّ ثَناءً أو غَيرَه؛ صُدِّرَ ذلك بذِكْرِ مُرادِ اللهِ مِن إرسالِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِيَكونَ ذلك كالمُقدِّمةِ للقِصَّةِ، وذُكِر مِن حِكمةِ اللهِ تعالَى في إرسالِه ما له مَزيدُ اختِصاصٍ بالواقعةِ المُتحدَّثِ عنها، فذُكِرَتْ أوصافٌ ثلاثةٌ؛ هي: شاهِدٌ، ومُبشِّرٌ، ونَذيرٌ. وقُدِّم منها وَصفُ الشَّاهِدِ؛ لأنَّه يَتفرَّعُ عنه الوَصفانِ بعْدَه[1].

- قَولُه: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ في ﴿لِّتُؤْمِنُواْ﴾ لامَ (كي) مُفيدةً للتَّعليلِ، ومُتعلِّقةً بفِعلِ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾. والخِطابُ يَجوزَ أنْ يكونَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع أُمَّةِ الدَّعوةِ، أي: لتُؤمِنَ أنتَ والَّذين أُرسِلْتَ إليهم شاهِدًا ومُبشِّرًا ونَذيرًا، والمقصودُ الإيمانُ باللهِ، وأُقحِمَ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾؛ لأنَّ الخِطابَ شاملٌ للأُمَّةِ، وهم مَأْمورون بالإيمانِ برَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مأْمورٌ بأنْ يُؤمِنَ بأنَّه رسولُ اللهِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ للنَّاسِ خاصَّةً، ولا إشكالَ في عطْفِ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾. ويَجوزُ أنْ يكونَ الكلامُ قد انْتَهى عندَ قَولِه: ﴿وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: ٨]، وتكونَ جُملةُ ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ...﴾ إلخ جُملةً مُعترِضةً، ويكونَ اللَّامُ في قَولِه: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ﴾ لامَ الأمْرِ، وتكونَ الجُملةُ استِئنافًا للأمْرِ[2].

- وضَمائرُ الغَيبةِ المنْصوبةِ الثَّلاثةُ عائِدةٌ إلى اسمِ الجَلالةِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لأنَّ إفرادَ الضَّمائرِ مع كَونِ المذكورِ قبْلَها اسمَينِ، دَليلٌ على أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٥٥، ١٥٦).

المُرادَ أحَدُهما، والقرينةُ على تَعيينِ المرادِ ذِكْرُ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾، ولأنَّ عطْفَ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ على لَفظِ الجَلالةِ اعتدادٌ بأنَّ الإيمانَ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيمانٌ باللهِ؛ فالمَقصودُ هو الإيمانُ باللهِ[1].

- قَولُه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ البُكرةُ: أوَّلُ النَّهارِ. والأصيلُ: آخِرُه، وهما كِنايةٌ عن استِيعابِ الأوقاتِ بالتَّسبيحِ والإكثارِ منه، كما يُقال: شرْقًا وغرْبًا؛ لاستِيعابِ الجِهاتِ وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ. وقيل: التَّسبيحُ هنا: كِنايةٌ عن الصَّلَواتِ الواجبةِ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ وقَعَ في سُورةِ (الأحزابِ) نَظيرُ هذه الآيةِ، وهو قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]؛ فزِيدَ في صِفاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هنالك ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾، ولم يُذكَرْ مِثلُه في الآيةِ هذه الَّتي في سُورةِ (الفتْحِ)؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ هذه الآيةَ الَّتي في سُورةِ (الفتْحِ) وَرَدتْ في سِياقِ إبطالِ شَكِّ الَّذين شَكُّوا في أمْرِ الصُّلحِ، والَّذين كذَّبوا بوعْدِ الفتْحِ والنَّصرِ، والثَّناءِ على الَّذين اطْمَأنُّوا لذلك؛ فاقتُصِرَ مِن أوصافِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الوَصْفِ الأصليِّ؛ وهو أنَّه شاهِدٌ على الفريقَينِ، وكَونُه مُبشِّرًا لأحَدِ الفريقَينِ، ونَذيرًا للآخَرِ، بخِلافِ آيةِ (الأحزابِ)؛ فإنَّها ورَدَتْ في سِياقِ تَنزيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن مَطاعنِ المُنافِقين والكافرينَ في تَزوُّجِه زينبَ بنتَ جَحشٍ بعْدَ أنْ طلَّقَها زَيدُ بنُ حارثةَ بزَعْمِهم أنَّها زَوجةُ ابنِه؛ فناسَبَ أنْ يُزادَ في صِفاتِه ما فيه إشارةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلى التَّمحيصِ بيْنَ ما هو مِن صِفاتِ الكَمالِ، وما هو مِن الأوهامِ النَّاشئةِ عن مَزاعمَ كاذبةٍ، مِثلُ التَّبنِّي؛ فزيدَ كَونُه داعيًا إلى اللهِ بإذْنِه، أي: لا يتَّبِعُ مَزاعِمَ النَّاسِ ورَغَباتِهم، وأنَّه سِراجٌ مُنيرٌ يَهتدي به مَن هِمَّتُه في الاهتداءِ دونَ التَّقعيرِ[١].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ شُروعٌ في الغرَضِ الأصليِّ مِن هذه السُّورةِ، وهو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ أنَّ مَن بايَعَ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ صُورةً فقد بايَعَ اللهَ حقيقةً[٢].

- وأُكِّدتِ الجُملةُ بحرْفِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ[٣].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ لاستِحضارِ حالةِ المُبايَعةِ الجليلةِ؛ لِتَكونَ كأنَّها حاصِلةٌ في زمَنِ نُزولِ هذه الآيةِ مع أنَّها قد انقَضَت؛ لأنَّها جَديرةٌ بالتَّجْسيدِ؛ لتَكونَ عِبرةَ الأجدادِ للأحفادِ[٤].

- والحصْرُ المُفادُ مِن (إنَّما) حصْرُ الفِعلِ في مَفعولِه، أي: لا يُبايِعون إلَّا اللهَ، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٥]؛ بادِّعاءِ أنَّ غايةَ البَيعةِ وغرَضَها هو النَّصْرُ لدِينِ اللهِ ورَسولِه، فنُزِّلَ الغرَضُ مَنزِلةَ الوَسيلةِ، فادُّعِيَ أنَّهم بايَعوا اللهَ لا الرَّسولَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٦، ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٤٥).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٧).

- جُملةُ ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مُقرِّرةٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ المُفيدةِ أنَّ بَيعتَهم النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الظَّاهِرِ، هي بَيعةٌ منهم للهِ في الواقعِ، فقرَّرَتْه جُملةُ ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ وأكَّدَتْه؛ ولذلك جُرِّدَت عن حرْفِ العطْفِ[1].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ على جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾؛ فإنَّه لَمَّا كشَفَ كُنْهَ هذه البَيعةِ بأنَّها مُبايَعةٌ للهِ ضَرورةَ أنَّها مُبايَعةٌ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ باعتِبارِ رِسالتِه عن اللهِ؛ صارَ أمْرُ هذه البَيعةِ عظيمًا خَطيرًا في الوفاءِ بما وقَعَ عليه التَّبايُعُ وفي نَكْثِ ذلك، والكلامُ تَحذيرٌ مِن نَكْثِ هذه البَيعةِ، وتَفظيعٌ له؛ لأنَّ الشَّرطَ يَتعلَّقُ بالمُستقبَلِ[2].

- و(إنَّما) للقصْرِ، وهو لِقصْرِ النَّكثِ على مَدلولِ ﴿عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾؛ لِيُرادَ: لا يضُرُّ بنَكْثِه إلَّا نفْسَه، ولا يضُرُّ اللهَ شيئًا؛ فإنَّ نَكْثَ العهدِ لا يَخْلو مِن قصْدِ إضرارٍ بالمَنكوثِ؛ فجِيءَ بقصْرِ القَلْبِ لِقلْبِ قصْدِ النَّاكثِ على نفْسِه دونَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[3].

- وعَبَّر بالمُضارِعِ في ﴿يَنكُثُ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ مَن فَعَل النَّكْثَ فهو في كُلِّ لَحظةٍ ناكِثٌ نَكْثًا جَديدًا[4].

- قُرِئَ ﴿فَسَنُؤۡتِيهِ﴾ بنُونِ العَظَمةِ على الالْتِفاتِ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ، وقُرِئَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٥٩، ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٧).

بياءِ الغَيبةِ ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ عائدًا ضَميرُه على اسمِ الجَلالةِ[١].

- والآيةُ مِنَ الاحتِباكِ[٢]: ذكَرَ أوَّلًا أنَّ النَّكْثَ عليه، دليلًا على أنَّ الوفاءَ له ثانيًا، وإيتاءَ الأجرِ ثانيًا، دليلًا على إحلالِ العِقابِ أوَّلًا. وسِرُّه أنَّه بيَّنَ أنَّ ما يُريدُه النَّاكِثُ مِنَ الأذى لغَيرِه إنَّما هو واقِعٌ به؛ لأنَّ ذلك أعظَمُ في التَّرهيبِ عن النَّكْثِ؛ لِمَا جُبِل الإنسانُ عليه مِنَ النَّفرةِ عن ضرِّ نفْسِه، وبُعدِه عنه. وذكَرَ الأجرَ للمُوفِي؛ لأنَّه أعظَمُ في التَّرغيبِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٠).

قال ابن الجزري: (واختلَفوا في: ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا﴾؛ فقرأ أبو عَمرٍو، والكوفيُّون ورُوَيْسٌ بالياءِ. وانفرد بذلك ابنُ مِهْرانَ عن رَوحٍ أيضًا. وقرأ الباقونَ بالنُّونِ). ((النشر في القراءات العشر)) (٢/ ٣٧٥).

(٢) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٨).

الآيات (١١-١٤)

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بُورًا﴾: أي: هَلْكى، وأصلُ (بور): يدُلُّ على هَلاكِ الشَّيءِ وتَعَطُّلِه وخُلُوِّه[1].

﴿سَعِيرًا﴾: أي: نارًا شَديدةَ التَّلَهُّبِ والاتِّقادِ، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه[2].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بما يَعتذِرُ به المتخلِّفونَ الَّذينَ لم يَخرُجوا معَه عامَ الحُدَيبيَةِ، فيقولُ سبحانَه: سيَقولُ لك -يا مُحمَّدُ- أهلُ البَوادي السَّاكِنونَ حوْلَ المدينةِ، الَّذين خَلَّفهم اللهُ عن الخُروجِ معك عامَ الحُدَيبيَةِ، إذا عاتَبْتَهم على تخَلُّفِهم: شغَلَتْنا أموالُنا وأهلُونا عن الخُروجِ معك؛ فادْعُ اللهَ أن يَغفِرَ لنا تخَلُّفَنا عنك! يَقولون ذلك بألسِنَتِهم، ولا يَعتَقِدونَه بقُلوبِهم!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك الأعرابِ: مَن يَملِكُ دَفْعَ الضَّرِّ عنكم إنْ أراده اللهُ بكم؟! أوْ مَن يَملِكُ مَنْعَ النَّفعِ عنكم إن أرادَه اللهُ بكم؟! ليس الأمرُ كما يَظُنُّ أولئك الأعرابُ مِن أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ ما تَنطوي عليه قُلوبُهم؛ فهو تعالى عالِمٌ ببَواطِنِ أُمورِهم، لا يَخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم.

ثمَّ يؤكِّدُ الله تعالى كذِبَهم، فيقولُ: لم تَتخَلَّفوا -أيُّها الأعرابُ- عن الخُروجِ لِشَغْلِكم بأموالِكم وأهليكم كما زعَمْتُم، بل لِظَنِّكم أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ سيَستأصِلونَ الرَّسولَ وأصحابَه بالقَتلِ، فلا يَرجِعونَ إلى أهليهم أبَدًا، وحَسَّن الشَّيطانُ ذلك الظَّنَّ في قُلوبِكم، وظَنَنْتُم ذلك الظَّنَّ السَّيِّئَ، وكُنتُم قَومًا هَلْكَى لا خَيرَ فيكم.

ثمَّ يقولُ تعالى متوعِّدًا مَن كفَر: ومَنْ لم يُؤمِنْ باللهِ ورَسولِه فإنَّه كافِرٌ مُستَحِقٌّ للعِقابِ، وقد أعدَدْنا وهَيَّأْنا للكافِرينَ نارًا شديدةَ الاتِّقادِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سَعةَ مُلكِه، ونُفوذَ مشيئتِه، وأنَّه الحاكمُ المتصرِّفُ في أهلِ السَّمواتِ والأرضِ، فيقولُ: ولله سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ، يتصَرَّفُ فيهما كيف يَشاءُ؛ يَغفِرُ بفَضلِه لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُعَذِّبُ بعَدْلِه مَن يَشاءُ منهم، وكان اللهُ غَفورًا رَحيمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَذَّر مِنَ النَّكْثِ، ورغَّبَ في الوفاءِ؛ أتْبَعَ ذلك بذِكرِ التَّخلُّفِ عن الانضِمامِ

إلى جيشِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ الخروجِ إلى عُمرةِ الحُدَيبيَةِ، وهو ما فعَلَه الأعرابُ الَّذينَ كانوا نازِلينَ حوْلَ المدينةِ، بعدَ أن بايَعوه على الخروجِ معه[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه وتعالى أهْلَ بَيعةِ الرِّضوانِ، تَشَوَّفَ السَّامعُ إلى الخبرِ عمَّن غاب عن ذلك الجَنابِ؛ فاستُؤنِفَ الإخبارُ عمَّا يُنافِقونَ به، بقَولِه تعالى[٢]:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾.

أي: سيَقولُ لك -يا مُحمَّدُ- أهلُ البَوادي السَّاكِنونَ حوْلَ المدينةِ، الَّذين خَلَّفهم اللهُ في أهالِيهم عن السَّفَرِ معك إلى مَكَّةَ عامَ الحُدَيبيَةِ، إذا عاتَبْتَهم على تخَلُّفِهم، وقد أمَرْتَهم بالخُروجِ معك: شغَلَتْنا أموالُنا مِنَ الإبلِ أو غَيرِها، وأهلونا مِنَ النِّساءِ والذَّراريِّ عن الخُروجِ معك؛ فادعُ اللهَ أن يَغفِرَ لنا تخَلُّفَنا عنك[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٠، ١٦١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٧)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦١).

قال ابنُ عاشور: (هو ما فعَلَه الأعرابُ الَّذين كانوا نازِلينَ حوْلَ المدينةِ، وهم ستُّ قبائِلَ: غِفارٌ، ومُزَينةُ، وجُهَينةُ، وأشجَعُ، وأسلَمُ، والدِّيْلُ، بعدَ أنْ بايَعوه على الخُروجِ معه؛ فإنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا أراد المَسيرَ إلى العُمرةِ استَنفَرَ مَن حَوْلَ المدينةِ منهم؛ ليَخرُجوا معه، فيَرهَبَه أهلُ مكَّةَ فلا يَصُدُّوه عن عُمرتِه، فتثاقَلَ أكثَرُهم عن الخُروجِ معه... وتخلَّف عن الخُروجِ معه مُعظَمُهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٠، ١٦١).

وقد اختلف في هؤلاء الأعرابِ فقيل: كانوا مِن المنافقينَ، وقيل: كانوا مِن ضعافِ الإيمانِ، ولم يكونوا منافقينَ.

ممن اختار القولَ الأولَ: ابنُ جرير، والزَّجَّاج، والزَّمَخْشري، والرَّسعني، وابنُ كثير، والشَّوكاني.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣)، =

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: يَقولُ لك أولئك المُخَلَّفونَ بألسِنَتِهم قَولًا مُجرَّدًا لا يَعتَقِدونَه بقُلوبِهم، فهم كاذِبونَ في اعتذارِهم، وفي طلبِهم للاستِغفارِ[1]!

= ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧).

وممن اختار القولَ الثَّاني: الغرناطي، وابن عاشور. يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (١/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦١).

وقال ابنُ عطيةَ، وابنُ جزي: لم يكنْ إيمانُهم متمكِّنًا. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٧)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٣).

قال الرازي في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: (هذا يحتَمِلُ أمْرَينِ؛ أحَدُهما: أن يكونَ التَّكذيبُ راجِعًا إلى قَولِهم: ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾، وتحقيقُه هو أنَّهم أظهَروا أنَّهم يَعتَقِدونَ أنَّهم مُسيئونَ بالتَّخَلُّفِ حتَّى استَغفَروا، ولم يكُنْ في اعتِقادِهم ذلك، بل كانوا يَعتَقِدونَ أنَّهم بالتَّخَلُّفِ مُحسِنونَ. ثانيهما: قالوا: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ امتِناعَنا لهذا لا غَيرُ، ولم يكُنْ ذلك في اعتِقادِهم، بل كانوا يَعتَقِدونَ امتِناعَهم لاعتقادِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمِنينَ يُقهَرونَ ويُغلَبونَ، كما قال بَعْدَه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ أنَّهم في طلَبِ الاستِغفارِ عن التَّخَلُّفِ كاذِبون؛ لأنَّهم لا يُبالون أَسْتَغفَرَ لهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمْ لا: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والواحدي، وابن الجوزي، والخازن، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

وممَّن قال: إنَّ المرادَ تكذيبُهم في الاعتِذارِ والاستِغفارِ: الثعلبيُّ، والزمخشري، والبيضاوي، وأبو حيَّان، والبِقاعي، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) =

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان فِعْلُهم هذا مِن تخَلُّفِهم واعتِلالِهم وسُؤالِهم الاستِغفارَ: ظَنًّا منهم أنَّهم يَدفَعونَ عن أنفُسِهم بذلك المكروهَ، ويُحَصِّلونَ لها المحبوبَ، وكان كأنَّه قيل: قد عُلِمَ كَذِبُهم، فماذا يُقالُ لهم؟ استأنَفَ سُبحانَه الجوابَ بقَولِه[1]:

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿ضُرًّا﴾ بضمِّ الضَّادِ، بمعنى البؤسِ والسُّقمِ وسوءِ الحالِ[2].

٢- قراءةُ ﴿ضَرًّا﴾ بفتحِ الضَّادِ، ضدُّ النَّفعِ، وقيل: هما بمعنًى واحدٍ، مِثلُ:

= (٩/ ٤٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٣).

قال القاسمي: (قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيبٌ لهم في اعتِذارِهم، وأنَّ الَّذي خلَّفَهم ليس بما يَقولون، وإنَّما هو الشَّكُّ في الله، والنِّفاقُ. وكذا طلَبُهم للاستِغفارِ أيضًا ليس بصادرٍ عن حقيقةٍ؛ لأنَّه بغيرِ تَوبةٍ منهم، ولا ندَمٍ على ما سلَف منهم مِن معصيةِ التَّخلُّفِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٣).

وقال أبو حيَّان: (ولَمَّا عَلِموا أنَّ ذلك التَّخلُّفَ عن الرَّسولِ كان معصيةً، سألوا أن يَستغفِرَ لهم. ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: الظَّاهرُ أنَّه راجِعٌ إلى الجُملتَينِ المَقولتَينِ مِن الشُّغلِ وطلَبِ الاستِغفارِ، لأنَّ قولَهم: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ كَذِبٌ، وطلَبَ الاستِغفارِ خُبثٌ منهم، وإظهارُ أنَّهم مؤمِنون عاصون). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠١).

(٢) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٢٠)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٢٠٢).

الضُّعفِ والضَّعفِ[١].

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئكَ الأعرابِ: لا أحَدَ يَملِكُ دَفْعَ الضَّرِّ الَّذي أراده اللهُ بكم مِن أيِّ نَوعٍ كان؛ عَظيمًا أو حَقيرًا؛ فهو قادِرٌ على إهلاكِ أموالِكم وأهليكم مهما فعَلْتُم وشُغِلْتُم بها، ولا أحَدَ يَملِكُ مَنْعَ النَّفعِ الَّذي أرادَه اللهُ لكم مِن أيِّ نَوعٍ كان؛ قليلًا أو كثيرًا؛ فهو قادِرٌ على حِفظِ أموالِكم وأهليكم مع تَغَيُّبِكم، فلا يَضُرُّها بُعدُكم عنها[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧].

﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ أولئك الأعرابُ مِن أنَّ الله لا يَعلَمُ ما تَنطوي عليه قُلوبُهم؛ فاللهُ تعالى عالِمٌ ببَواطِنِ أُمورِهم، لا يَخفَى عليه تخَلُّفُهم أو غَيرُه مِن أعمالِهم[٣].

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٢٠)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٢).

﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾.

أي: لم تَتخَلَّفوا -أيُّها الأعرابُ- عن الخُروجِ مع الرَّسولِ والمُؤمِنينَ لِشَغْلِكم بأموالِكم وأهليكم كما زعَمْتُم، كلَّا! وإنَّما تخَلَّفتُم عنهم لظَنِّكم أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ سيَستأصِلونَهم بالقَتلِ، فلا يَرجِعونَ إلى أهليهم في المدينةِ أبَدًا[١].

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾.

أي: وحَسَّن الشَّيطانُ ذلك الظَّنَّ في قُلوبِكم، فحسَّن لكم التَّخَلُّفَ عن الخُروجِ مع المؤمِنينَ[٢].

﴿وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾.

أي: وظَنَنْتُم أنَّ اللهَ لن يَنصُرَ رَسولَه والمؤمِنينَ، ولن يَرْجِعَهم سالِمينَ، ولن يُظهِرَ الحَقَّ المُبينَ[٣].

﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾.

أي: وكُنتُم -أيُّها المُخلَّفونَ- قَومًا في غايةِ الهَلاكِ والكَسادِ، لا خَيرَ فيكم، ولا نَفْعَ يُرجَى منكم[٤]!

﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ١٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ تعالى أنَّهم قَومٌ بُورٌ؛ ذكَرَ ما يدُلُّ على أنَّهم ليسوا بمؤمِنينَ، فقال[١]:

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾.

أي: ومَنْ لم يُؤمِنْ باللهِ ورَسولِه فإنَّه كافِرٌ مُستَحِقٌّ للعِقابِ، وقد أعدَدْنا وهَيَّأْنا للكافِرينَ نارًا شديدةَ التلَهُّبِ والاتِّقادِ[٢]!

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بَعدَ ما ذكَرَ اللهُ تعالى مَن له أجرٌ عَظيمٌ مِن المُبايِعينَ، ومَن له عذابٌ أليمٌ مِن الظَّانِّينَ الضَّالِّينَ؛ أشار إلى أنَّه يَغفِرُ للأوَّلِينَ بمَشيئتِه، ويُعَذِّبُ الآخَرينَ بمَشيئتِه، وغُفرانُه ورَحمتُه أعَمُّ وأشمَلُ، وأتَمُّ وأكمَلُ[٣].

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ولله سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ، فيَتصَرَّفُ وَحْدَه فيهما كما يَشاءُ، ويَحكمُ بما يَشاءُ[٤].

﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٤، ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

أي: يَغفِرُ اللهُ بفَضلِه لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُعَذِّبُ بعَدْلِه مَن يَشاءُ منهم[١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ بالمَغفِرةِ والرَّحمةِ أزَلًا وأبَدًا، فهو الغَفورُ لِذُنوبِ عِبادِه؛ فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، وهو الرَّحيمُ بهِم؛ فيُكرِمُهم، ويُنعِمُ عليهم بنِعَمِه[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مَنِ اتَّخَذَ أهلًا ومالًا يَشغَلُه عنِ اللهِ -تعالى- فهو خاسِرٌ، كما قالت الأعرابُ: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾، وقال تعالى: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[٣] [سبأ: ٣٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

قال ابن جرير: (هذا مِنَ اللهِ جَلَّ ثناؤه حَثٌّ لهؤلاء الأعرابِ المتخَلِّفينَ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على التَّوبةِ والمُراجَعةِ إلى أمرِ اللهِ في طاعةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يقولُ لهم: بادِروا بالتَّوبةِ مِن تخَلُّفِكم عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ اللهَ يَغفِرُ للتَّائِبينَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٠، ٢٦١).

وقال ابنُ عطيَّة: (القَومُ لم يَكونوا مُجاهِرينَ بالكُفرِ؛ فلذلك جاءَ وَعيدُهم وتَوبيخُهم ممزوجًا فيه بَعضُ الإمهالِ والتَّرجيةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد كان عَلِمَ منهم أنَّهم سيُؤمِنونَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٤٢٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ إنَّما جُعِلَ ذلك الظَّنُّ مُزَيَّنًا في اعتِقادِهم؛ لأنَّهم لم يَفرِضوا غيرَه مِن الاحتِمالِ، وهو أن يَرجِعَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سالِمًا، وهكذا شأنُ العُقولِ الواهيةِ والنُّفوسِ الهاويةِ؛ ألَّا تأخُذَ مِنَ الصُّوَرِ الَّتي تُتصَوَّرُ بها الحوادِثُ إلَّا الصُّورةَ الَّتي تَلوحُ لها في بادِئِ الرَّأيِ، وإنَّما تَلوحُ لها أوَّلَ شَيءٍ؛ لأنَّها الصُّورةُ المحبوبةُ، ثمَّ يَعتَريها التَّزيينُ في العَقلِ، فتَلهو عن فَرضِ غَيرِها، فلا تَستَعِدُّ لحِدْثانِه؛ ولذلك قيل: «حُبُّك الشَّيءَ يُعمِي ويُصِمُّ»[١]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾ لم يَقولوا: (شغَلَتْنا الأموالُ)؛ وذلك لأنَّ جَمْعَ المالِ لا يَصلُحُ عُذرًا؛ لأنَّه لا نهايةَ له، وأمَّا حِفظُ ما جُمِعَ مِن الشَّتاتِ، ومَنْعُ الحاصِلِ مِن الفَواتِ: يَصلُحُ عُذرًا، فقالوا: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾، أي: ما صار مالًا لنا، لا مُطلَقُ الأموالِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أخبَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما بيَّتوه في قُلوبِهم، وفَضَح أمْرَهم مِن قَبلِ أن يَعتَذِروا، وهذه مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ، بالإخبارِ عن ذلك قبْلَ وُقوعِه[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾، وقَولُه تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، حيثُ ذَكَر اللهُ سُبحانَه «يقولونَ بألسِنَتِهم» و«يقولونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦١).

بأفواهِهم»، فالمرادُ به أنَّه قولٌ باللِّسانِ مُجَرَّدٌ لا معنى تَحتَه، فإنَّه باطِلٌ، والباطِلُ لا حقيقةَ تَحتَه، وإنَّما غايتُه وقُصاراه أنَّه حركةُ لسانٍ مجرَّدةٌ عن مَعنًى، فليس وراءَ حَرَكةِ اللِّسانِ به شَيءٌ[١]!

٤- قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ قد عُلِمَ مِن تَصنيفِه سُبحانَه حالَهم إلى صِنفَينِ مع الإبهامِ: أنَّه يكونُ لِبَعضِهم الضَّرُّ؛ لأنَّ مِنهم مَن ارتَدَّ في زَمَنِ الرِّدَّةِ، ولِبَعضِهم النَّفعُ؛ لأنَّه ثَبَت على الإسلامِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ الجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا لِمُناسَبةِ ذِكرِ الإيفاءِ والنَّكثِ؛ فكَمُل بذِكرِ مَن تَخلَّفوا عن الدَّاعي للعهْدِ[٣].

- وبدَؤُوا بذِكرِ الأموالِ ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾؛ لأنَّ بها قِوامَ العَيشِ[٤]، ولأنَّ الانشِغالَ بها أكثَرُ، والعملَ على تنميتِها يَستَدْعي وقتًا طويلًا، وقد يَنشغِلُ المرءُ بها عن أهْلِه[٥].

- ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: إنَّ كلامَهم مِن طرَفِ اللِّسانِ غيرُ مُطابِقٍ لِما في الجَنانِ، وهو كِنايةٌ عن كَذِبِهم؛ فالجملةُ استِئنافٌ لتكذيبِهم.

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل- المجموعة الثامنة)) لابن تيمية (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٠، ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٨).

(٥) يُنظر: ((لمسات بيانية)) للسامرائي (ص: ١٨١، ١٨٢).

وقيل: جُملةُ ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ في موضعِ الحالِ. وقيل: يجوزُ أنْ تكونَ بَدَلَ اشْتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾. والكذبُ راجِعٌ لِما تضَمَّنه الكلامُ مِن الخبَرِ عن تخلُّفِهم بأنَّه لِضَرورةٍ داعيةٍ له، وهي القيامُ بمَصالِحِهم الَّتي لا بُدَّ منها، وعدمُ مَن يَقومُ بها لو ذهَبوا معه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكذا راجِعٌ لِما تضَمَّنه (استَغفِرْ)، وهو وإنْ كان أمرًا وإنشاءً لا يحتمِلُ الصِّدقَ ولا الكَذِبَ، بَيْدَ أنَّ تكذيبَهم في الاستِغفارِ باعتِبارِ ما تضَمَّنه مِنِ اعتِرافِهم بأنَّهم مُذْنِبون، وأنَّ دُعاءَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ لهم يُفيدُهم فائدةً لازِمةً لهم معَ أنَّ اعتِقادَهم يُخالِفُه[1].

- وفي قَولِه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أُمِر الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَ لهمْ ما فيه ردُّ أمْرِهم إلى اللهِ؛ لِيُعلِمَهم أنَّ استِغفارَه اللهَ لهم لا يُكرِهُ اللهَ على المغفرةِ؛ بلِ اللهُ يَفعَلُ ما يَشاءُ إذا أرادَه، فإنْ كان أراد بهم نفعًا نَفَعهم، وإنْ كان أرادَ بهم ضَرًّا ضَرَّهم، فما كان مِن النُّصحِ لأنفُسِهم أنْ يَتورَّطوا فيما لا يُرضِي اللهَ، ثمَّ يَستغْفِروه، فلعلَّه لا يَغفِرُ لهم؛ فالغرَضُ مِن هذا تَخويفُهم مِن عِقابِ ذَنْبِهم؛ إذ تَخلَّفوا عن نَفيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكَذَبوا في الاعتذارِ؛ لِيُكثِروا مِن التَّوبةِ، وتَدارُكِ المُمكِنِ[2].

- ومعنى المُلكِ هنا: القُدْرةُ والاستِطاعةُ، أي: لا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يُغيِّرَ ما أرادهُ اللهُ، والغالِبُ في مِثلِ هذا التَّركيبِ أنْ يكونَ لنَفْيِ القُدرةِ على تَحويلِ الشَّرِّ خَيرًا؛ فكان الجرْيُ على ظاهرِ الاستِعمالِ مُقتضيًا الاقتِصارَ على نفْيِ

(١) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٢).

أنْ يَملِكَ أحدٌ لهم شيئًا إذا أرادَ اللهُ ضَرَّهم دُونَ زِيادةِ ﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعًا﴾، فتُوجَّهُ هذه الزِّيادةُ أنَّها لقَصْدِ التَّتميمِ والاستِيعابِ[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعًاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لا يَخلو مِن الفنِّ المعروفِ عندَ علماءِ البيانِ باللَّفِّ[2]؛ فقد كان الأصْلُ: (فمَن يَملِكُ لكم مِن اللهِ شيئًا إنْ أراد بكم ضَرًّا، ومَن يَحرِمُكم النَّفعَ إنْ أرادَ بكم نفْعًا)؛ لأنَّ مِثلَ هذا النَّظمِ يُستعمَلُ في الضَّرِّ، وسِرُّ اختِصاصِه بدَفْعِ المَضرَّةِ: أنَّ المُلْكَ مُضافٌ في هذه المواضعِ باللَّامِ، ودفْعُ المَضرَّةِ نفْعٌ يُضافُ للمَدْفوعِ عنه، وليس كذلك حِرمانُ المَنفعةِ؛ فإنَّه ضَرَرٌ عائدٌ عليه لا له، فإذا ظهَرَ ذلك فإنَّما انتظَمَت الآيةُ على هذا الوجْهِ؛ لأنَّ القِسمينِ يَشتركانِ في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما نفْيٌ لدَفْعِ المُقدَّرِ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، فلمَّا تَقارَبا أدْرَجَهما في عِبارةٍ واحدةٍ، وخصَّ عِبارةَ دفْعِ الضَّرِّ؛ لأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٣).

(٢) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

هو المُتوقَّعُ لهؤلاء؛ إذ الآيةُ في سِياقِ التَّهديدِ أو الوعيدِ الشَّديدِ[١].

- وهذا الجوابُ ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ لا عِدَةَ فيه مِن اللهِ بأنْ يَغفِرَ لهم؛ إذ المقصودُ تَرْكُهم في حالةِ وجَلٍ؛ لِيَستكثِروا مِن فِعلِ الحَسَناتِ؛ وقُصِدَت مُفاتَحتُهم بالإبهامِ؛ لإلْقاءِ الوجَلِ في قُلوبِهم أنْ يَغفِرَ لهم، ثمَّ سيُتبِعُه بقَولِه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ١٤] الآيةَ، الَّذي هو أقرَبُ إلى الإطماعِ[٢].

- و(بلْ) في قَولِه: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ إضرابٌ لإبطالِ قَولِهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾، وبه يَزدادُ مَضمونُ قَولِه: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ تَقريرًا؛ لأنَّه يَتضمَّنُ إبطالًا لعُذْرِهم، ومِن معنى الإبطالِ يَحصُلُ بيانُ الإجمالِ الَّذي في قَولِه: ﴿كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾؛ إذ يُفيدُ أنَّه خَبيرٌ بكَذِبِهم في الاعتِذارِ؛ فلذلك أبطَلَ اعتِذارَهم بحرْفِ الإبطالِ[٣].

- وتَقديمُ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على مُتعلَّقِه؛ لقَصْدِ الاهتِمامِ بذِكرِ عَمَلِهم هذا[٤].

- وفي قَولِه: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ تَهديدٌ ووَعيدٌ[٥].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ هذه الجُملةُ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ [الفتح: ١١]، أي: خَبيرًا بما عَمِلْتُم، ومنه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٣٣٦)، ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٨٧، ٣٨٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٣، ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ظنُّكم أنْ لنْ يَنقلِبَ الرَّسولُ والمؤمِنون. وأُعِيدَ حرْفُ الإبطالِ؛ زِيادةً لتَحقيقِ معنى البَدَليَّةِ[١].

- قَولُه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ جِيءَ بحرْفِ (لن) المُفيدِ استِمرارَ النَّفيِ، وأُكِّدَ بقَولِه: ﴿أَبَدًا﴾؛ لأنَّ ظنَّهم كان قَويًّا[٢].

- والتَّزيينُ: التَّحسينُ، وهو كِنايةٌ عن قَبولِ ذلك[٣].

- والمُرادُ بقولِه: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ إمَّا الظَّنُّ الأوَّلُ، والتَّكريرُ لتَشديدِ التَّوبيخِ والتَّسجيلِ عليه بالسَّوْءِ. أو هو وسائرُ ما يَظُنُّون باللهِ ورَسولِه مِن الأمورِ الزَّائغةِ الفاسِدةِ، الَّتي مِن جُمْلتِها الظَّنُّ بعدَمِ صِحَّةِ رِسالتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّ الجازِمَ بصِحَّتِها لا يَحومُ حوْلَ فِكْرِه ما ذُكِرَ مِن الاستِئصالِ[٤].

- وإقحامُ كَلِمةِ ﴿قَوْمًۢا﴾ بيْن (كُنْتُمْ) و﴿بُورًا﴾؛ لإفادةِ أنَّ البَوارَ صارَ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم؛ لشِدَّةِ تَلبُّسِه بجَميعِ أفرادِهم[٥].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ كَلامٌ مُبتَدأٌ مِن جِهتِه تعالَى، غيرُ داخلٍ في الكَلامِ المُلقَّنِ، مُقرِّرٌ لبَوارِهم، ومُبيِّنٌ لكَيفيَّتِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٥).

أي: ومَنْ لم يُؤمِنْ بهما كدَأْبِ هؤلاءِ المُخلَّفينَ؛ ﴿فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا﴾[١].

وقيل: هو جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْن أجزاءِ القَولِ المأمورِ به في قَولِه: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [الفتح: ١١] الآياتِ، وقولِه: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الفتح: ١٤]، وهذا الاعتِراضُ للتَّحذيرِ مِن استِدراجِهم أنفُسَهم في مَدارجِ الشَّكِّ في إصابةِ أعمالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُفضِيَ بهم إلى دَرَكاتِ الكُفْرِ بعدَ الإيمانِ؛ إذ كان تَخلُّفُهم عن الخُروجِ معه وما عَلَّلوا به تَثاقُلَهم في نُفوسِهم، وإظهارُ عُذْرٍ مَكذوبٍ أضْمَروا خِلافَه، كلُّ ذلك حَومًا حوْلَ حِمى الشَّكِّ يُوشِكونَ أنْ يَقَعوا فيه[٢]. وذلك على القولِ بأنَّهم لم يكونوا مِن المنافِقينَ.

- وإظْهارُ لَفظِ (الكافرين) في مَقامِ أنْ يُقالَ: (أعتَدْنا لهم سَعيرًا)؛ لِزيادةِ تَقريرِ معنى ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ إيذانًا بأنَّ مَنْ لم يجمَعْ بيْنَ الإيمانِ بالله وبرسولِه فهو كافرٌ، وأنَّه مستوجِبٌ للسَّعيرِ بكُفرِه[٣].

- ونُكِّرَ ﴿سَعِيرٗا﴾ للتَّهويلِ، أو لأنَّها نارٌ مَخصوصةٌ[٤].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [الفتح: ١١]؛ فهو مِن أجزاءِ القَولِ، وهذا انتقالٌ مِن التَّخويفِ الَّذي أشعَرَ به ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ إلى إطْماعِهم بالمَغفرةِ الَّتي سَألوها؛ ولذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٨).

قُدِّمَ الضَّرُّ على النَّفعِ في الآيةِ الأُولى، فقِيل: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح: ١١]؛ لِيَكونَ احتمالُ إرادةِ الضَّرِّ بهم أسبَقَ في نُفوسِهم، وقُدِّمَتِ المَغفرةُ هنا؛ ليَتقرَّرَ معنى الإطْماعِ في نُفوسِهم، فيَبتدِروا إلى استِدراكِ ما فاتَهم. وهذا تَمهيدٌ لوَعْدِهم الآتي في قَولِه: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ إلى قولِه: ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾[1] [الفتح: ١٦].

- وقولُه: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ صِيغَتا مُبالَغةٍ في المَغفرةِ والرَّحمةِ[2].

- وزادَ رَجاءَ المَغفرةِ تأْكيدًا بقَولِه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: الرَّحمةُ والمغفرةُ أقرَبُ مِن العِقابِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٦).

الآيات (١٥-١٧)

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَأْسٍ﴾: أي: قُوَّةٍ وبَطشٍ، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضاهاها[1].

﴿حَرَجٌ﴾: أي: إثمٌ ومُؤاخَذةٌ، وأصلُ (حرج): يدُلُّ على ضِيقٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يحكي اللهُ تعالى جانبًا مِن أقوالِ الَّذين تخلَّفوا عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في عامِ الحُدَيبيَةِ، ويرُدُّ عليها، فيقولُ: سيَقولُ الأعرابُ الَّذين خُلِّفوا في أهلِيهم عامَ الحُدَيبِيَةِ، إذا انطَلَقْتَ -أيُّها الرَّسولُ- وأصحابُك إلى خَيبَرَ؛ لِتَأْخُذوا المغانِمَ الَّتي وعَدَكم اللهُ بأخْذِها: دَعُونا نَتَّبِعْكم إلى خَيبَرَ!

يُريدُون أن يُغَيِّروا بذَهابِهم معكم وَعْدَ اللهِ الَّذي وَعَدَه أهلَ الحُدَيبيَةِ بأنْ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠، ١٥٤، ١٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٠) و(١٨/ ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧).

يَجعَلَ غنائِمَ خَيبَرَ لهم خاصَّةً.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: لن تَسيروا مَعَنا إلى قِتالِ أهلِ خَيبَرَ، هكذا قال اللهُ لنا مِن قَبلِ أن نَرجِعَ إليكم مِنَ الحُدَيبِيَةِ. فسيَقولُ أولئك المُخَلَّفونَ مِن الأعرابِ حينَ تَمنَعونَهم مِنَ الخُروجِ معكم إلى خَيبَرَ: إنَّما مَنعْتُمونا مِنَ الخُروجِ معكم؛ لِكَونِكم تَحسُدونَنا على مُشارَكتِكم في الغنائِمِ! فإنَّما هم قَومٌ لا يَفهَمونَ ولا يَعقِلونَ إلَّا قَليلًا!

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يَدعوَ هؤلاء المخلَّفينَ إلى الجهادِ، فاتحًا لهم بابَ التَّوبةِ إنِ استَجابوا، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- للأعرابِ الَّذين خُلِّفوا عن الخُروجِ معك إلى الحُدَيبِيَةِ: ستُدْعَونَ إلى قِتالِ قَومٍ ذَوي قُوَّةٍ شَديدةٍ في الحَربِ، تُقاتِلونَهم أو يَدخُلونَ في الإسلامِ مِن غَيرِ قِتالٍ، فإنْ تُطيعوا اللهَ بإجابةِ الدَّعوةِ إلى قِتالِ أولئك الكُفَّارِ، يُؤْتِكم اللهُ على الجِهادِ ثَوابًا حَسَنًا، وإنْ تَعصُوا اللهَ كما تَخَلَّفتُم مِن قَبلُ عن الخُروجِ إلى الحُدَيبِيَةِ، يُعَذِّبْكم عَذابًا مُؤلِمًا.

ثمَّ يختِمُ الله سبحانَه هذه الآياتِ بذِكرِ الأعذارِ في تركِ الجهادِ، فيقولُ: ليس على الأعمَى ولا على الأعرَجِ ولا على المَريضِ إثمٌ في تَخَلُّفِهم عن الجِهادِ مع المُؤمِنينَ؛ لِعُذرِهم المانِعِ لهم مِن القِتالِ.

ثمَّ يُبشِّرُ الله تعالى المؤمنينَ الصَّادِقينَ، فيقولُ: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه يُدخِلْه اللهُ جَنَّاتٍ تجري مِن تَحتِها الأنهارُ، ومَن يُعرِضْ عن طاعةِ اللهِ ورَسولِه يُعَذِّبْه اللهُ عَذابًا مُؤلِمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ

أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ -تعالى- المُخَلَّفينَ وذَمَّهم؛ ذكَرَ أنَّ مِن عقوبتِهمُ الدُّنيويَّةِ حِرمانَهم مِنَ الغنائمِ، واختِصاصَ الصَّحابةِ المؤمِنينَ بها[1].

﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡ﴾.

أي: سيَقولُ الأعرابُ الَّذين خُلِّفوا في أهلِيهم، ولم يَخرُجوا مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى مكَّةَ عامَ الحُدَيبيَةِ، إذا انطَلَقْتَ -أيُّها الرَّسولُ- وأصحابُك إلى خَيبَرَ؛ لِتَأخُذوا المغانِمَ الَّتي وعَدَكم اللهُ بأخْذِها: دَعُونا نَتَّبِعْكم إلى خَيبَرَ[2]!

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

أي: يُريدُ الأعرابُ المُخَلَّفونَ عن الحُدَيبيَةِ أن يُغَيِّروا بذَهابِهم معكم وَعْدَ اللهِ الَّذي وَعَدَه أهلَ الحُدَيبيَةِ بأنْ يَجعَلَ غنائِمَ خَيبَرَ لهم خاصَّةً؛ عِوَضًا عن غنائِمِ قُرَيشٍ بعدَ انصِرافِهم عن مَكَّةَ على صُلحِ الحُدَيبيَةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧).

قال ابن عاشور: (إعلامٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما سيَقولُه المُخلَّفون عن الحُدَيبيَةِ يَتعلَّقُ بتَخلُّفِهم عن الحُدَيبيَةِ وعُذْرِهم الكاذبِ، وأنَّهم سيَندَمون على تخلُّفِهم حينَ يَرَوْنَ اجتناءَ أهلِ الحُدَيبيَةِ ثَمرةَ غزوِهم، ويَتضمَّنُ تأكيدَ تَكذيبِهم في اعتِذارِهم عن التَّخلُّفِ بأنَّهم حينَ يَعلَمونَ أنَّ هُنالِكَ مغانمَ مِن قِتالٍ غيرِ شَديدٍ يَحرِصونَ على الخُروجِ، ولا تَشْغَلُهم أموالُهم ولا أهالِيهم؛ فلو كان عذرُهم حقًّا لَمَا حَرَصُوا على الخروجِ إذا توقَّعوا المغانمَ، ولَأقْبَلوا على الاشتِغالِ بأموالِهم وأهلِيهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٦، ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧١)، ((نظم الدرر)) =

= للبقاعي (١٨/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٨).

قال ابنُ كثير: (أمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ألَّا يأذَنَ لهم في ذلك؛ مُعاقَبةً لهم مِن جِنسِ ذَنْبِهم؛ فإنَّ الله تعالى قد وَعَد أهلَ الحُدَيبيَةِ بمغانِمِ خَيبَرَ وَحْدَهم، لا يَشرَكُهم فيها غَيرُهم مِنَ الأعرابِ المُتخَلِّفينَ، فلا يَقَعُ غيرُ ذلك شَرعًا وقَدَرًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧).

وقال ابن جزي: (﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: يُريدونَ أن يُبدِّلوا وعدَ الله لأهلِ الحديبيةِ، وذلك أنَّ الله وعَدهم أنْ يُعوِّضَهم مِن غنيمةِ مكةَ غنيمةَ خيبرَ وفتحَها، وأنْ يكونَ ذلك مختصًّا بهم دونَ غيرِهم، وأراد المخلَّفونَ أن يُشاركوهم في ذلك، فهذا هو ما أرادوا مِن التَّبديلِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٨).

وقال ابنُ عاشورٍ: (تبديلُ كلامِ الله: مخالفةُ وحيِه مِن الأمرِ والنَّهيِ والوعْدِ كرامةً للمُجاهدينَ، وتأديبًا للمخلَّفينَ عن الخروجِ إلى الحديبيةِ. فالمرادُ بكلامِ الله: ما أوحاه إلى رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن وعدِ أهلِ الحُديبيةِ بمغانمِ خيبرَ خاصَّةً لهم، وليس المرادُ بكلامِ الله هنا القرآنَ؛ إذ لم ينزِلْ في ذلك قرآنٌ يومئذٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٨).

وقال محمد رشيد رضا: (قولُه في المُخلَّفينَ مِن الأعرابِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ يعني وَعْدَه في القرآنِ فيما سَبَق في السُّورةِ). ((تفسير المنار)) (٩/ ١٥٥).

وقال مكي: (قولُه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ والذي أرادوا أنْ يُبدِّلوا هو قولُه: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥]، فتقدَّم في علمِ الله أنَّهم لا يتَّبعونَ النبيَّ، فأرادوا أنْ يُبدلِّوا ذلك، فقالوا للنبي: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾، وقد تقدَّم مِن الله أنَّهم لا يتَّبعونَهم فأرادوا أنْ يُغيِّروا ما تقدَّم في علمِ الله، وقد كان أخبَره الله في كتابِه بقولِه: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ إلى ﴿ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣]، فكلامُ الله هنا: ما أخبَر أنَّهم لن يتَّبعوا، فأرادوا أنْ يُبدِّلوا خبرَ الله ويتَّبعوه). ((الهداية الى بلوغ النهاية)) (٣/ ٢١٦٢).

وقال الزجاج: (يعني بقولِه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٤]، فأرادُوا أنْ يَأْتوا بما ينقُضُ هذا، فأعلَم الله عزَّ وجلَّ أنَّهم لا يعقِلونَ، ولا يقدِرونَ على ذلك). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٣).

وقال ابنُ جزي: (وقيل: كلامُ الله قولُه: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٤] وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ هذه الآيةَ نزَلت بعدَ رجوعِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مِن تَبوكَ بعدَ الحُديبيةِ بمدةٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٨).

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: لن تَسيروا مَعَنا إلى خَيبَرَ[١].

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

أي: هكذا قال اللهُ لنا مِن قَبلِ أن نَرجِعَ إليكم مِنَ الحُدَيبِيَةِ، وتَسألونا الخُروجَ مَعَنا إلى خَيبَرَ: إنَّ غَنيمةَ خَيبَرَ خاصَّةٌ بمَن شَهِدَ الحُدَيبِيَةَ، وأنتم تخَلَّفتُم عن الخُروجِ في ذلك الوَقتِ؛ فليس لكم إذَنْ حَقٌّ في غنائِمِ خَيبَرَ[٢].

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾.

أي: فسيَقولُ أولئك المُخَلَّفونَ مِن الأعرابِ حينَ تَمنَعونَهم مِنَ الخُروجِ معكم إلى خَيبَرَ: ليس الأمرُ كما زَعَمْتُم أنَّه قَولُ اللهِ وأمْرُه، وإنَّما مَنَعْتُمونا مِنَ الخُروجِ معكم؛ لِكَونِكم تَحسُدونَنا على مُشارَكتِكم في الغنائِمِ[٣]!

﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: ليس الأمرُ كما زعَمَ الأعرابُ أنَّكم مَنعتُموهم مِنَ الخُروجِ معكم إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

قال ابن عاشور: (أخبَرَ اللهُ عنهم بما سيَقولونَه... وقد قالوا ذلك بعدَ نحوِ شَهرٍ ونِصفٍ! فلمَّا سَمِعَ المسلِمونَ المتأهِّبونَ للخُروجِ إلى خَيبَرَ مَقالتَهم قالوا: قد أخبَرَنا اللهُ في الحُدَيبِيَةِ بأنَّهم سيَقولونَ هذا)! ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٩).

خَيبَرَ حَسَدًا لهم، وإنَّما هم قَومٌ لا يَفهَمونَ ولا يَعقِلونَ إلَّا قَليلًا[(١)]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٩، ١٧٠).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يَعلَمونَ إلَّا أمرَ الدُّنيا، فليس لهم فِكرٌ إلَّا فيها، ويَفطُنون لأمورِها دونَ أمورِ الدِّينِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والقرطبي، والبيضاوي، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩).

وقيل: لا يَعلَمون عن اللهِ ما لَهم وعليهم مِن الدِّينِ، إلَّا قليلًا منهم، وهو مَن صدقَ اللهَ والرَّسولَ. وممَّن اختاره: ابنُ أبي زَمَنين، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٨).

وقيل: لا يَفقَهونَ مِن أمرِ الدِّينِ إلَّا قَليلًا. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٠).

وقال ابنُ كثير: (﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ليس الأمرُ كما زَعَموا، ولكِنْ لا فَهْمَ لهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٨).

وقال ابن عاشور: (أفادَ قولُه: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ انتِفاءَ الفَهمِ عنهم؛ لأنَّ الفِعلَ في سِياقِ النَّفْيِ كالنَّكرةِ في سِياقِ النَّفيِ يَعُمُّ؛ فلذلك استَثْنى منه بقَولِه: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: إلَّا فَهمًا قليلًا، وإنَّما قلَّلَه لِكَونِ فَهمِهم مُقتصِرًا على الأُمورِ الواضحةِ مِن العاديَّاتِ، لا يَنفُذُ إلى المُهمَّاتِ ودَقائقِ المعاني، ومِن ذلك ظَنُّهم حِرمانَهم مِنَ الالتِحاقِ بجَيشِ غَزوةِ خَيبَرَ مُنبعِثًا على الحسَدِ، وقد جَرَوا في ظَنِّهم هذا على المعروفِ مِن أهلِ الأنظارِ القاصِرةِ، والنُّفوسِ الضَّئيلةِ مِن التَّوَسُّمِ في أعمالِ أهلِ الكَمالِ بمِنظارِ ما يَجِدونَ مِن دواعي أعمالِهم وأعمالِ خُلَطائِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٠).

وقال ابن عاشور أيضًا: (نَفَى اللهُ عنهم الفَهمَ دونَ الإيمانِ؛ لأنَّهم كانوا مُؤمِنينَ، ولكنَّهم كانوا جاهِلينَ بشَرائعِ الإسلامِ ونُظُمِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٠).

وذلك على قولِه بأنَّهم لم يَكونوا مُنافقينَ، وقد تقدَّم ذكرُ الخلافِ في ذلك، يُنظر ما تقدَّم (ص: ٦٨).

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ المُخَلَّفينَ مِنَ الأعرابِ يَتخلَّفونَ عن الجهادِ في سبيلِه، ويَعتذِرونَ بغَيرِ عُذرٍ، وأنَّهم يَطلُبونَ الخروجَ معهم إذا لم يكنْ شَوكةٌ ولا قِتالٌ، بل لِمُجَرَّدِ الغَنيمةِ؛ قال تعالى مُمتحِنًا لهم[1]:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للأعرابِ الَّذين خُلِّفوا عن المَسيرِ معَك إلى الحُدَيبِيَةِ: ستُدْعَونَ إلى قِتالِ قَومٍ ذَوي قُوَّةٍ شَديدةٍ في الحَربِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٥-٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٢)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٥١٠، ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧١).

قال ابن جُزَي: (﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ اختُلِف في هؤلاء القَوم على أربعةِ أقوالٍ:
الأوَّلُ: أنَّهم هَوازِنُ ومَن حارَبَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ في غزوةِ خَيبَرَ.
والثَّاني: أنَّهم الرُّومُ؛ إذ دعا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى قتالِهم في غزوةِ تَبوكَ.
والثَّالثُ: أنَّهم أهلُ الرِّدَّةِ مِن بَني حَنيفةَ وغيرِهم الَّذين قاتَلَهم أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ.
والرَّابعُ: أنَّهم الفُرْسُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٨).

ممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بهم: هَوازِنُ وغَطَفانُ، وذلك يومَ حُنَينٍ: سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٢).

قال الخازن: (وأقوى هذه الأقوالِ قولُ مَن قال: إنَّهم هَوازِنُ وثَقيفٌ؛ لأنَّ الدَّاعيَ هو رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٨). واستحسَنَ ابنُ عطيَّةَ هذا القولَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٢).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المُرادَ بهم الرُّومُ: كعبٌ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٦)، =

= ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٢).

واستحسَنَ هذا القولَ أيضًا ابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٢).

قال ابن جُزَي: (ويَتقوَّى الأوَّلُ والثَّاني [أي أنَّ المرادَ هَوازِنُ والرُّومُ] بأنَّ ذلك ظَهَرَ في حياةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بَنو حَنيفةَ (أتْباعُ مُسَيْلِمةَ الكذَّابِ): مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، ونسَبَه الواحديُّ لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٨).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بهم بَنو حَنيفةَ، يومَ اليَمامةِ: الزُّهْريُّ، وابنُ السَّائبِ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٢).

وقال ابن عاشور: (والقَومُ أُولو البأسِ الشَّديدِ يتعيَّنُ أنَّهم قومٌ مِن العربِ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ يُشعِرُ بأنَّ القِتالَ لا يُرفَعُ عنهم إلَّا إذا أسلَموا، وإنَّما يكونُ هذا حُكمًا في قتالِ مُشرِكي العربِ؛ إذ لا تُقبَلُ منهم الجِزيةُ. فيَجوزُ أن يكونَ المرادُ: هَوازِنَ وثَقيفَ، وهذا مَرْويٌّ عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ وعِكْرِمةَ وقَتادةَ، وذلك غزوةُ حُنَينٍ، وهي بعدَ غزوةِ خَيبرَ، وأمَّا فتحُ مكَّةَ فلم يكُنْ فيه قِتالٌ. وعن الزُّهْريِّ ومُقاتِلٍ: أنَّهم أهلُ الرِّدَّةِ؛ لأنَّهم مِن قبائلِ العربِ المعروفةِ بالبأسِ، وكان ذلك صدرَ خلافةِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧١).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بهم فارِسُ: ابنُ عبَّاسٍ، وعَطاءُ بنُ أبي رباحٍ، وعَطاءٌ الخُراسانيُّ، وابنُ أبي ليلى، وابنُ جُرَيْجٍ في آخَرينَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣١، ١٣٢).

وقال السعدي: (وهؤلاء القَومُ فارِسُ والرُّومُ، ومَن نحا نحوَهم وأشْبَهَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

وقال ابن كثير: (وعن مجاهِدٍ: هم رجالٌ أُولو بأسٍ شديدٍ. ولم يُعَيِّنْ فِرقةً، وبه يقولُ ابنُ جُرَيجٍ، وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٨).

قال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه أخبَرَ عن هؤلاء المُخَلَّفينَ مِن الأعرابِ أنَّهم سيُدْعَونَ إلى قتالِ قَومٍ أُولي بأسٍ في القتالِ، ونَجدةٍ في الحروبِ، ولم يُوضَعْ لنا الدَّليلُ مِن خبَرٍ ولا عقلٍ على أنَّ المَعْنيَّ بذلك هَوازِنُ، ولا بَنو حَنيفةَ، ولا فارِسُ، ولا الرُّومُ، ولا أعْيانٌ بأعْيانِهم، وجائزٌ أن يكونَ عُنِيَ بذلك بعضُ هذه الأجناسِ، وجائزٌ أن يكونَ عُنِيَ بهم غيرُهم، ولا قولَ فيه أصَحُّ مِن أن يُقالَ كما قال اللهُ جلَّ ثناؤُه: إنَّهم سيُدْعَونَ إلى قَومٍ =

﴿نُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾.

أي: تُقاتِلونَ هؤلاءِ الَّذين تُدْعَوْنَ إلى قتالِهم، فلا يَزالُ القتالُ مُستمِرًّا عليهم، أو يَدْخُلونَ في دينِكم مِن غَيرِ حربٍ ولا قِتالٍ، فيكونُ أحدُ الأمْرَينِ: إمَّا المُقاتَلةُ، وإمَّا الإسلامُ، لا ثالثَ لهما[1].

﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنًا﴾.

أي: فإنْ تُطيعوا اللهَ -أيُّها الأعرابُ- بإجابةِ الدَّعوةِ إلى قِتالِ الكُفَّارِ الأشِدَّاءِ،

= أُولي بأسٍ شديدٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٩).

وقال أبو حيَّان: (إنَّ هذه الأقوالَ تمثيلاتٌ مِن قائليها، لا أنَّ المَعْنيَّ بذلك ما ذكَروا، بل أخبر بذلك مُبهَمًا دَلالةً على قوَّةِ الإسلامِ وانتِشارِ دعوتِه، وكذا وقَعَ حُسْنُ إسلامِ تلك الطَّوائفِ، وقاتَلوا أهلَ الرِّدَّةِ زمانَ أبي بكرٍ، وكانوا في فتوحِ البلادِ أيَّامَ عُمَرَ وأيَّامَ غيرِه مِن الخُلَفاءِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٠).

وقال ابن كثير: (وسواءٌ كان هؤلاء هم هَوازِنَ، أو أصحابَ مُسَيْلِمةَ، أو الرُّومَ، فقد وقَع ذلك). ((البداية والنهاية)) (٩/ ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٦).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿نُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ هذا حُكمُ مَن لا تُؤخَذُ منهم الجِزيةُ... أي: يكونُ أحَدُ الأمْرَينِ؛ إمَّا المقاتَلةُ، وإمَّا الإسلامُ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٣٥).

وقال السعدي: (﴿نُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ أي: إمَّا هذا وإمَّا هذا، وهذا هو الأمرُ الواقِعُ؛ فإنَّهم في حالِ قِتالِهم ومُقاتَلتِهم لأولئك الأقوامِ، إذْ كانت شِدَّتُهم وبأسُهم معهم، فإنَّهم في تلك الحالِ لا يَقبَلونَ أن يَبذُلوا الجِزيةَ، بل إمَّا أن يَدخُلوا في الإسلامِ، وإمَّا أن يُقاتِلوا على ما هم عليه، فلمَّا أثخَنَهم المُسلِمونَ وضَعُفوا وذَلُّوا، ذهَب بأسُهم؛ فصاروا إمَّا أن يُسلِموا، وإمَّا أن يَبذُلوا الجِزْيةَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣). ويُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٣٢١).

وقال البيضاوي: (معنى ﴿يُسۡلِمُونَ﴾ يَنقادُونَ؛ لِيَتناوَلَ تقَبُّلَهم الجِزْيةَ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٩).

يُؤْتِكم اللهُ على الجِهادِ ثَوابًا حَسَنًا: الغَنيمةَ في الدُّنيا، والجنَّةَ في الآخِرةِ[١].

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

أي: وإنْ تَعصُوا اللهَ فتُعْرِضوا عن القِتالِ كما تخَلَّفتُم مِن قَبلُ عن الخُروجِ إلى الحُدَيبيَةِ، يُعَذِّبْكم اللهُ عَذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا[٢].

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَوعَّدَ اللهُ تعالى المُتخلِّفينَ[٣]؛ بيَّنَ مَن يَجوزُ له التَّخلُّفُ وتَركُ الجِهادِ، وما بِسَببِه يَجوزُ تَركُ الجِهادِ[٤].

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٩، ٢٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالأجرِ الحَسَنِ: الجنَّةُ: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٩).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الغَنيمةُ والنَّصرُ في الدُّنيا، والجنَّةُ في الآخِرةِ: القرطبيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٨).

أي: ليس على الأعمى إثمٌ في تخَلُّفِه عن الجِهادِ مع المُؤمِنينَ؛ لِعُذرِه بالعَمى المانعِ له مِن القِتالِ[١].

﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾.

أي: وليس على الأعرَجِ إثمٌ في تخَلُّفِه عن الجِهادِ معَ المُؤمِنينَ؛ لِعُذرِه بالعَرَجِ المانِعِ له مِن القِتالِ[٢].

﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

أي: وليس على المَريضِ بأمراضٍ أُخرى إثمٌ في تخَلُّفِه عن الجِهادِ معَ المُؤمِنينَ؛ لِعُذرِه بالمَرَضِ المانِعِ له مِن القِتالِ[٣].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه يُدخِلْه اللهُ في الآخِرةِ جَنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ أشجارِها[٤].

﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

قال ابن كثير: (ذَكَر الأعذارَ في تَرْكِ الجِهادِ؛ فمِنها لازِمٌ، كالعَمَى والعَرَجِ المُستَمِرِّ، وعارِضٌ، كالمَرَضِ الَّذي يَطرَأُ أيَّامًا ثمَّ يَزولُ، فهو في حالِ مَرَضِه مُلحَقٌ بذَوي الأعذارِ اللَّازمةِ حتَّى يَبرَأَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

أي: ومَن يُعرِضْ عن طاعةِ اللهِ ورَسولِه يُعَذِّبْه اللهُ عَذابًا مُوجِعًا مُؤلِمًا[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ هذا منتهَى عِلمِهم في هذا الموضِعِ، ولو فَهِموا رُشْدَهم لَعَلِموا أنَّ حِرمانَهم بسَبَبِ عِصيانِهم، وأنَّ المعاصِيَ لها عُقوباتٌ دُنيويَّةٌ ودِينيَّةٌ؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢].

٢- لفظُ «التَّولِّي» بمعنَى التَّولِّي عن الطَّاعةِ مذكورٌ في مواضِعَ مِن القرآنِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وذمُّ مَن تولَّى في غيرِ موضعٍ مِن القرآنِ دَليلٌ على وُجوبِ طاعةِ اللهِ ورَسولِه، وأنَّ الأمرَ المُطلَقَ يَقتَضي وُجوبَ الطَّاعةِ، وذمَّ المتوَلِّي عن الطَّاعةِ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فالسَّعادةُ كُلُّها في طاعةِ اللهِ، والشَّقاوةُ في مَعصِيتِه ومُخالفتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

قيل: المرادُ بالعذابِ الأليمِ: عَذابُ جَهنَّمَ يومَ القيامةِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، ومكِّي، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٩).

وقيل: هو في الدُّنيا بالمذَلَّةِ، وفي الآخِرةِ بالنَّارِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ كثير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٣) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ قولُه: ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾ حِكايةٌ لِمَقالَتِهم، وهو يَقْتضي أنَّهم قالوا هذه الكَلِمةَ استِنزالًا لإجابةِ طَلَبِهم، بأنْ أظهَروا أنَّهم يَخرُجون إلى غزْوِ خَيبَرَ كالأتْباعِ، أي: أنَّهم راضُونَ بأن يَكونوا في مُؤَخَّرةِ الجَيشِ، فيَكونَ حَظُّهم في مَغانِمِه ضَعيفًا[١]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ إثباتُ أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ إثباتُ القَولِ للهِ تعالى[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ على صيغةِ النَّفيِ بدَلًا عن قَولِه: (لا تتَّبِعونا) على صيغةِ النَّهيِ، وفيه مَعنًى لَطيفٌ، وهو: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بنَى على إخبارِ اللهِ تعالى عنهم النَّفيَ؛ لِوُثوقِه وقَطْعِه بصِدْقِه، فجَزَم وقال: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾، يعني: لو أَذِنتُكم ولو أردتُم واختَرتُم، لا يَتِمُّ لكم ذلك؛ لِما أخبَرَ اللهُ تعالى[٤].

وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه ساقَه مَساقَ النَّفيِ، وإن كان المرادُ به النَّهيَ؛ لأنَّه مع كَونِه آكَدَ يكونُ عَلَمًا مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ، وهو أزجَرُ وأدَلُّ على الاستِهانةِ[٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٨).

أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يدُلُّ على فَضيلةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ الدَّاعِينَ لجِهادِ أهلِ البَأسِ مِن النَّاسِ، وأنَّه تَجِبُ طاعتُهم في ذلك(١).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في هذه البِشارةِ فُرصةٌ لهم لِيَستَدرِكوا ما جَنَوه مِن التَّخَلُّفِ عن الحُدَيبِيَةِ، وكُلُّ ذلك دالٌّ على أنَّهم لم يَنسَلِخوا عن الإيمانِ(٢). وذلك على القولِ بأنَّهم لم يكونوا مِن المنافِقينَ.

٧- قَولُه تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ استدَلَّ جماعةٌ مِنَ العلماءِ على صِحَّةِ إمامة أبي بكرٍ وعُمرَ بهذه الآيةِ؛ لأنَّه إن أُريدَ بها بنو حنيفةَ، فأبو بكرٍ دعا إلى قِتالِهم، وإن أُريدَ بها فارِسُ والرُّومُ، فعُمَرُ دعا إلى قِتالِهم، والآيةُ تُلزِمُهمُ اتِّباعَ طاعةِ مَن يَدْعوهم، وتَتَوعَّدُهم على التَّخلُّفِ بالعِقابِ(٣). وذلك على بعضِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٢).
ومِمَّن استدلَّ بالآيةِ على خلافةِ أبي بكرٍ ووجوبِ طاعتِه: الشَّافِعيُّ، والأشعريُّ، وابنُ حزمٍ، وغيرُهم. يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٥٠٥).
وقال أيضًا: (ولا ريْبَ أنَّ أبا بكرٍ دعاهم إلى قتالِ المرتدِّينَ، ثمَّ قتالِ فارِسَ والرُّومِ، وكذلك عُمَرُ دعاهم إلى قتالِ فارِسَ والرُّومِ، وعُثمانُ دعاهم إلى قتالِ البَرْبَرِ ونحوِهم، والآيةُ تَتناوَلُ هذا الدُّعاءَ كلَّه. أمَّا تخصيصُها بمَن دعاهم بعدَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم -كما قاله طائفةٌ مِن المُحتجِّينَ بها على خِلافةِ أبي بكرٍ- فخطأٌ، بل إذا قيل: تَتناوَلُ هذا وهذا كان هذا ممَّا يَسوغُ، =

٨- قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ هذا حُكمُ هؤلاءِ المعاذيرِ في كُلِّ جِهادٍ إلى يومِ القيامةِ، إلَّا أن يَحزُبَ حازِبٌ في حَضرةٍ ما، فالفَرضُ مُتوَجِّهٌ بحَسَبِ الوُسعِ، ومعَ ارتِفاعِ الحَرَجِ فجائِزٌ لهم الغَزوُ، وأجْرُهم فيه مُضاعَفٌ(١).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ فيه عَدَمُ وُجوبِ الجِهادِ على مَن له عُذرٌ؛ كالأعمى، والأعرَجِ، والمَريضِ(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أنَّ الأحكامَ تدورُ مع عِلَلِها؛ فإذا وُجِدَتِ العِلَّةُ في الحُكمِ ثَبَتَ، وإنِ انتَفَتِ العِلَّةُ انتفَى الحُكمُ؛ لأنَّ نَفيَ الحَرَجِ عن هؤلاء إنَّما كان لهذه العِلَّةِ الَّتي فيهم، فإذا بَرِئَ المريضُ واستقامَ، ومشَى الأعرَجُ، ورَدَّ اللهُ البَصَرَ على الأعمَى؛ انتفَى هذا الحُكمُ في حقِّهم، وثَبَتَ في حقِّهم ما يَثبُتُ في حقِّ السَّالِمينَ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

- قَولُه: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ هذا استِئنافٌ ثانٍ بعدَ قَولِه: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا

= ويمكِنُ أن يُرادَ بالآيةِ، ويُستدَلُّ عليه بها؛ ولهذا وجَب قتالُ الكفَّارِ مع كلِّ أميرٍ دعا إلى قتالِهم، وهذا أظهَرُ الأقوالِ في الآيةِ). ((منهاج السنة النبوية)) (٨/ ٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٤١٩).

وَأَهْلُونَا ﴾[١] [الفتح: ١١].

- وفي قَولِه: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ استُغْنِيَ عن وصْفِهم بأنَّهم مِن الأعرابِ؛ لأنَّ تَعريفَ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ تعريفُ العَهدِ، أي: المُخلَّفونَ المَذكورونَ[٢].

- وأشعَرَ قَولُه: ﴿ذَرُونَا﴾ بأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سيَمنَعُهم مِن الخُروجِ معه إلى غَزْوِ خَيبرَ[٣].

- قَولُه: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي: لا تَتَّبِعونَا؛ فإنَّه نفْيٌ في مَعْنى النَّهيِ للمُبالَغةِ[٤].

- وجِيءَ بـ (لَن) المُفيدةِ تأكيدَ النَّفيِ؛ لقَطْعِ أطماعِهم في الإذْنِ لهم باتِّباعِ الجَيشِ الخارجِ إلى خَيبرَ؛ ولذلك حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿تَتَّبِعُونَا﴾؛ للعِلْمِ به[٥].

- في قَولِه: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالمُبالَغةِ؛ فالإضرابُ الأوَّلُ مَعروفٌ، وهو دَيْدَنُهم، ودَليلُ لَجاجِهم وتَمادِيهم في التَّعنُّتِ والإصرارِ على السَّفَهِ، أمَّا الإضرابُ الثَّاني فهو الَّذي تَتجسَّدُ فيه بَلادَتُهم وغَباؤُهم؛ لأنَّ الإضرابَ الأوَّلَ فيه نِسبةٌ إلى جَهلٍ في شَيءٍ مَخصوصٍ، وهو نِسبتُهم الحسَدَ إلى المُؤمِنينَ، والثَّانيَ فيه نِسبةٌ إلى جَهلٍ عامٍّ على الإطلاقِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٦، ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨، ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٤٢).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ انتِقالٌ إلى طَمْأنةِ المُخلَّفينَ بأنَّهم سيَنالون مَغانِمَ في غَزواتٍ آتيةٍ؛ لِيَعلَموا أنَّ حِرمانَهم مِن الخُروجِ إلى خَيبرَ مع جَيشِ الإسلامِ ليس لانسِلاخِ الإسلامِ عنهم، ولكنَّه لحِكمةِ نَوطِ المُسبَّباتِ بأسبابِها على طَريقةِ حِكمةِ الشَّريعةِ؛ فهو حِرمانٌ خاصٌّ بوَقعةٍ مُعيَّنةٍ، وأنَّهم سيُدْعون بعدَ ذلك إلى قِتالِ قَومٍ كافرينَ كما تُدْعَى طَوائفُ المُسلِمينَ، فذِكْرُ هذا في هذا المَقامِ إدخالٌ للمَسرَّةِ بعدَ الحُزنِ؛ لِيُزيلَ عنهم انكسارَ خَواطِرِهم مِن جرَّاءِ الحِرْمانِ[(١)]. وذلك على القولِ بأنَّهم لم يكونوا مِن المنافِقينَ.

- قَولُه: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾ كرَّرَ ذِكْرَهم بهذا الاسمِ؛ مُبالَغةً في الذَّمِّ، وإشعارًا بشَناعةِ التَّخلُّفِ، كأنَّ الذَّمَّ يَتوالَى عليهم كلَّما تَكرَّرَ ذِكْرُهم به، ووَسْمُهم بمِيسَمِه[(٢)].

- وكرَّرَ وَصْفَ ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هنا؛ لِيَظهَرَ أنَّ هذه المَقالةَ قُصِدَ بها الَّذين نزَلَ فيهم قَولُه: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح: ١١]؛ فلا يَتوهَّمَ السَّامِعونَ أنَّ المَعنيَّ بالمُخلَّفينَ كلُّ مَن يقَعُ منه التَّخلُّفُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧١).

- وأُسنِدَ ﴿سَتُدۡعَوۡنَ﴾ إلى المَجهولِ؛ لأنَّ الغرَضَ الأمْرُ بامتِثالِ الدَّاعي، وهو وَليُّ أمْرِ المسلِمينَ؛ بقَرينةِ قَولِه بعْدُ في تَذييلِه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الفتح: ١٧]، ودَعوةُ خُلفاءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن بَعْدِه تَرجِعُ إلى دَعوةِ اللهِ ورسولِه؛ لقولِه: ((ومَن أطاعَ أميري فقد أطاعَني))[١].

- وعُدِّيَ فِعلُ ﴿سَتُدۡعَوۡنَ﴾ بحرْفِ (إلى)؛ لإفادةِ أنَّها مُضمَّنةٌ معنَى المشْيِ. وهذا فرْقٌ دَقيقٌ بيْنَ تَعديةِ فِعلِ الدَّعوةِ بحرْفِ (إلى) وبيْنَ تَعديتِه باللَّامِ، نحوُ قَولِك: دعَوْتُ فلانًا لِما نابَني[٢].

- و(أوْ) في قَولِه: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ للتَّرديدِ بيْنَ الأمْرَينِ، والتَّنويعِ في حالةِ (تُدْعَون)، أي: تُدْعَونَ إلى قِتالِهم وإسلامِهم، وذلك يَستلزِمُ الإمعانَ في مُقاتَلتِهم، والاستِمرارَ فيها ما لم يُسلِموا[٣].

- وقولُه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تَعييرٌ بالتَّولِّي الَّذي مَضَى، وتَحذيرٌ مِن ارْتكابِ مِثلِه في مِثلِ هذه الدَّعوةِ بأنَّه تَوَلٍّ يُوقِعُ في الإثمِ؛ لأنَّه تَوَلٍّ عن دَعوةٍ إلى واجبٍ، وهو القِتالُ للجِهادِ؛ فالتَّشبيهُ في قَولِه: ﴿كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ تَشبيهٌ في مُطلَقِ التَّولِّي؛ لقصْدِ التَّشويهِ، وليس تَشبيهًا فيما يَترتَّبُ على ذلك التَّولِّي[٤].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧١).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٧١٣٧)، ومسلمٌ (١٨٣٥) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦] وبيْنَ جُملةِ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآيةَ، قُصِدَ منها نفْيُ الوَعيدِ عن أصحابِ الأعذارِ، تَنْصيصًا على العُذْرِ؛ للعِنايةِ بحُكْمِ التَّولِّي، والتَّحذيرِ منه[١].

- وفي نفْيِ الحرَجِ عن كلٍّ مِن الطَّوائفِ المَعدودةِ مَزيدُ اعتناءٍ بأمْرِهم، وتَوسيعٌ لِدائرةِ الرُّخصةِ[٢].

- واقتصَرَ على الأصنافِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّ العُذرَ إمَّا أن يَكونَ بإخلالٍ في عضوٍ، أو باختِلالٍ في القوَّةِ، والَّذي يُسبِّبُ إخلالَ العضوِ فإمَّا أن يَكونَ بسَببِ اختِلالٍ في العضوِ الَّذي به الوُصولُ إلى العدُوِّ، والانتِقالِ في مَواضعِ القِتالِ، أو في العضوِ الَّذي تَتِمُّ به فائدةُ الحصولِ في المعركةِ والوُصولِ، والأوَّلُ: هو الرِّجْلُ، والثَّاني: هو العَينُ[٣].

- وقُدِّم الأعمى على الأعرَجِ؛ لأنَّ عُذْرَ الأعمى يَستَمِرُّ ولو حَضَر القِتالَ، والأعرَجُ إنْ حضَرَ راكِبًا أو بطَريقٍ آخَرَ يَقدِرُ على القِتالِ بالرَّمي وغَيرِه[٤].

- وقدَّمَ الآفَةَ في الآلةِ على الآفَةِ في القُوَّةِ؛ لأنَّ الآفَةَ في القُوَّةِ تَزولُ وتَطرَأُ، والآفَةَ في الآلةِ إذا طرَأَت لا تَزولُ؛ فإنَّ الأعمى لا يَعودُ بَصيرًا، فالعُذرُ في مَحَلِّ الآلةِ أتَمُّ[٥].

- وقولُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦] الآيةَ؛ لِمَا تَضمَّنَتْه مِن إيتاءِ الأجْرِ لِكُلِّ مُطيعٍ مِن المخاطَبينَ وغيرِهم، والتَّعذيبِ لكلِّ مُتَولٍّ كذلك، معَ ما في جُملةِ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ مِن بَيانِ أنَّ الأجْرَ هو إدخالُ الجنَّاتِ، وهو يُفيدُ بطَريقِ المُقابَلةِ أنَّ التَّعذيبَ الأليمَ بإدخالِهم جهنَّمَ[١].

- قَولُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فصَّلَ الوعْدَ، وأجمَلَ الوَعيدَ؛ مُبالَغةً في الوَعْدِ؛ لسَبْقِ رَحمتِه، ثمَّ جبَرَ ذلك بالتَّكريرِ على سَبيلِ التَّعميمِ، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ إذ التَّرهيبُ هاهنا أنفَعُ مِن التَّرغيبِ[٢].

- قُرِئَ ﴿نُدْخِلْهُ﴾ و﴿نُعَذِّبْهُ﴾ بنُونِ العظَمةِ على الالتِفاتِ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ، وقُرِئَ ﴿يُدْخِلْهُ﴾ ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ بالياءِ التَّحتيةِ جرْيًا على أُسلوبِ الغَيبةِ بعَودِ الضَّميرِ إلى اسمِ الجَلالةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٢).

قرأ نافعٌ، وأبو جعفرٍ، وابنُ عامرٍ بالنُّونِ فيهما، وقرأهما الباقون بالياءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

الآيات (١٨-٢٢)

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾: أي: فَرُّوا وانفَضُّوا وغُلِبوا؛ يُقالُ: وَلَّاه دُبُرَه: إذا انهزَمَ، والتَّوَلِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ، وأصلُ الدُّبُرِ: آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه[١].

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ﴾: السُّنَّةُ: هي الطَّريقةُ المَسلوكةُ والمِنهاجُ المتَّبَعُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ، واطِّرادِه في سُهولةٍ[٢].

﴿خَلَتْ ﴾: أي: مَضَت وذَهَبت، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تعَرِّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٢٨).

(٢) يُنظر ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٧، ٤٩٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبشِّرًا المؤمنينَ الَّذين بايَعوا رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم يومَ الحُدَيبِيَةِ: لقد رَضِيَ اللهُ عن المُؤمِنينَ حينَ بايَعوا رَسولَه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- تحتَ الشَّجَرةِ في الحُدَيبِيَةِ، على أن يُقاتِلوا كُفَّارَ قُرَيشٍ ولا يَفِرُّوا، فعَلِمَ اللهُ ما في قُلوبِهم مِن الصِّدْقِ والوَفاءِ، والطَّاعةِ للهِ ورَسولِه؛ فأنزل اللهُ الطُّمَأنينةَ على قُلوبِهم، وجَزاهم اللهُ فَتْحًا يَحصُلُ لهم قَريبًا، وغنائِمَ كَثيرةً يَأخُذونَها مِن أموالِ يَهودِ خَيبَرَ جعَلَها خاصَّةً لهم دُونَ غَيرِهم، وكان اللهُ عَزيزًا غالِبًا لكُلِّ شَيءٍ، حَكيمًا يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

وعَدَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- مَغانِمَ أُخرى كَثيرةً تأخُذونَها، فعجَّل اللهُ لكم -أيُّها المُؤمِنونَ المُبايِعونَ- غنائِمَ خَيبَرَ تأخُذونَها في وَقتٍ قَريبٍ بعدَ رُجوعِكم مِنَ الحُدَيبِيَةِ، وكفَّ اللهُ أيدِيَ الكُفَّارِ عنكم؛ فلم يَنَلْكم سوءٌ منهم، ولِيَكونَ ذلك آيةً للمُؤمِنينَ وعِبرةً لهم، ولِيَهدِيَكم اللهُ طَريقًا في الدِّينِ مُستَقيمًا لا اعوِجاجَ فيه.

ووعَدَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- فَتْحَ بلادٍ أُخرى لم تَقدِروا على فَتْحِها الآنَ، قد حَفِظَها اللهُ لكم، ويُيسِّرُ لكم فَتْحَها بعدَ حينٍ، وكان اللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرًا.

ولو قاتَلَكم الَّذين كَفَروا لَفَرُّوا وانهَزَموا عنكم، ثمَّ لا يَجِدونَ وَلِيًّا يَتولَّى أمْرَهم، ولا نَصيرًا يَنصُرُهم عليكم، لو قاتَلُوكم لَخَذَلَهم اللهُ خِذْلانَه أمثالَهم مِن أهلِ الكُفرِ به، الَّذين مَضَوا في الأُمَمِ السَّابِقةِ، سَنَّ الله فيهم الهَزيمةَ والخِذلانَ سُنَّةً مُؤكَّدةً لا تتغَيَّرُ، ولن تَجِدَ -يا مُحمَّدُ- لِعادةِ اللهِ الَّتي سنَّها في خَلْقِه تَغييرًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ

ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ حالَ مَن تخَلَّف عن السَّفَرِ مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ذكَرَ حالَ المُؤمِنينَ الخُلَّصِ الَّذين سافَروا معَه[١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المُخَلَّفينَ بعدَ قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]؛ عاد إلى بَيانِ حالِ المُبايِعينَ[٢].

﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

أي: لقد رَضِيَ اللهُ عن المُؤمِنينَ حينَ بايَعوا رَسولَه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- تحتَ الشَّجَرةِ الكائِنةِ في أرضِ الحُدَيبِيَةِ، على أن يُقاتِلوا كُفَّارَ قُرَيشٍ ولا يَفِرُّوا[٣].

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كُنَّا يوم الحُدَيبيَةِ ألفًا وأربَعَمِئَةٍ، فبايَعْناه وعُمَرُ آخِذٌ بيَدِه تحتَ الشَّجَرةِ، وهي سَمُرةٌ[٤]، وقال: بايَعْناه على ألَّا نَفِرَّ، ولم نبايِعْه على المَوتِ))[٥].

وعن مَعْقِلِ بنِ يَسارٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لقد رأيتُني يومَ الشَّجَرةِ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُبايِعُ النَّاسَ، وأنا رافِعٌ غُصْنًا مِن أغصانِها عن رأسِه، ونحنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٤) السَّمُرة: شجرة الطَّلْحِ. يُنظر: ((الإفصاح)) لابن هُبَيْرة (٤/ ١٦٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٩٩).

(٥) رواه مسلم (١٨٥٦).

أربَعَ عَشْرةَ مِئةً. قال: لمْ نُبايِعْه على الموتِ، ولكِنْ بايَعْناه على ألَّا نَفِرَّ))[١].

وعن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: أخبَرَتْني أمُّ مُبَشِّرٍ أنَّها سَمِعَت النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ عندَ حَفصةَ: ((لا يَدخُلُ النَّارَ -إن شاءَ اللهُ- مِن أصحابِ الشَّجَرةِ أحَدٌ الَّذين بايَعوا تَحْتَها. قالت: بلى، يا رَسولَ اللهِ! فانتَهَرَها. فقالت حَفصةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قد قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]))[٢].

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: فعَلِمَ اللهُ ما في قُلوبِ الصَّحابةِ الَّذين بايَعوا النَّبيَّ تحتَ الشَّجَرةِ، مِن الصِّدْقِ والوَفاءِ، والطَّاعةِ للهِ ورَسولِه[٣].

---

(١) رواه مسلم (١٨٥٨).

(٢) رواه مسلم (٢٤٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).
وممَّن اختار هذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جرير، وابن القيم، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٠).
وقال ابنُ عطيَّةَ: (قَولُه تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ قال قَومٌ: معناه: مِن كراهةِ البَيعةِ على المَوتِ ونَحوِه. وهذا ضعيفٌ؛ فيه مَذمَّةٌ للصَّحابةِ. وقال الطَّبَريُّ ومُنذِرُ بنُ سعيدٍ: معناه: مِنَ الإيمانِ وصِحَّتِه، والحُبِّ في الدِّينِ، والحِرصِ عليه. وهذا قولٌ حسَنٌ، لكنَّه مَن كانت هذه حالُه فلا يَحتاجُ إلى نُزولِ ما يُسكِّنُه، [إلَّا] أنَّه يَحتمِلُ أنْ يُجازَى بالسَّكينةِ والفتحِ القريبِ والمغانمِ. وقال آخَرونَ: معناه: مِنَ الهَمِّ بالانصِرافِ عن المشركينَ، والأَنَفةِ في ذلك، على نحوِ ما خاطَبَ فيه عُمَرُ وغَيرُه. وهذا تأويلٌ حسَنٌ، يَترتَّبُ معه نُزولُ السَّكينةِ، والتَّعريضُ بالفتحِ القريبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٦).

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: فأنزل اللهُ الطُّمَأنينةَ على قُلوبِهم، فثَبَتوا على الدِّينِ، وازدادوا يَقينًا بالحَقِّ المُبِينِ(١).

﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحًا قَرِيبًا﴾.

أي: وجَزاهم اللهُ فَتْحًا يَحصُلُ لهم قَريبًا؛ جزاءً لهم على قِيامِهم بأمرِ اللهِ، ورِضاهم بحُكْمِه(٢).

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦).

قيل: المرادُ بالفَتحِ هنا: فَتحُ خَيبَرَ. وممَّن قال بهذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والواحدي، والشوكاني، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ أبي ليلى، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، والشَّعْبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥٢٤).

وقيل: المرادُ به: فَتحُ مَكَّةَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٧).

قال ابنُ القَيِّم: (كان أوَّلَ الفَتحِ والمغانِمِ فَتحُ خَيبَرَ ومَغانِمُها، ثمَّ استمَرَّت الفُتوحُ والمغانِمُ إلى انقِضاءِ الدَّهرِ). ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨).

وقال ابنُ كثيرٍ: (هو ما أجرى اللهُ على أيديهم مِنَ الصُّلحِ بَيْنَهم وبيْنَ أعدائِهم، وما حَصَل بذلك مِنَ الخَيرِ العامِّ المُستَمِرِّ المتَّصِلِ بفَتحِ خَيبَرَ وفَتحِ مَكَّةَ، ثمَّ فَتحِ سائِرِ البلادِ والأقاليمِ عليهم، وما حَصَل لهم مِنَ العِزِّ والنَّصرِ والرِّفعةِ في الدُّنيا والآخِرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الفَتحَ؛ ذكَرَ بَعضَ ثَمَرتِه[١].

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾.

أي: وأثابَهم غنائِمَ كَثيرةً يَأخُذونَها مِن أموالِ يَهودِ خَيبَرَ، وجعَلَها خاصَّةً لهم دُونَ غَيرِهم[٢].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِزَّةِ الكامِلةِ؛ فهو القاهِرُ الغالِبُ لكُلِّ شَيءٍ، ومُتَّصِفٌ بالحِكمةِ التَّامَّةِ؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[٣].

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٨)، ((سبل الهدى)) للصالحي (٥/ ٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠).

قال ابنُ عاشور: (المغانِمُ الكثيرةُ المذكورةُ هنا هي مغانِمُ أرضِ خَيبَرَ، والأنعامُ والمتاعُ والحوائِطُ، فوُصِفَت بـ﴿ كَثِيرَةً ﴾؛ لتعَدُّدِ أنواعِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٧)، ((سبل الهدى)) للصالحي (٥/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال ابنُ جرير: (وكان اللهُ ذا عِزَّةٍ في انتِقامِه مِمَّن انتَقَم مِن أعدائِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٩).

وقال الواحدي: (حكيمًا في أمْرِه؛ حَكَم لكم بالغَنيمةِ، ولأهلِ خَيبَرَ بالسَّبْيِ والهَزيمةِ). ((التفسير الوسيط)) (٤/ ١٤٠).

وقال السعدي: (﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ أي: له العِزَّةُ والقُدرةُ الَّتي قهَرَ بها الأشياءَ، فلو شاء لانتصَرَ مِن الكُفَّارِ في كُلِّ وَقعةٍ تكونُ بَيْنَهم وبيْنَ المُؤمِنينَ، ولكِنَّه حَكيمٌ يَبتلي بَعضَهم ببَعضٍ، ويمتَحِنُ المؤمِنَ بالكافِرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ وعَدهم فيما سلَف بمغانم خَيْبَرَ- أردَف ذلك بِبَيانِ أنَّ ما آتاهم مِن الفتحِ والمَغانمِ ليس هو الثَّوابَ وحْدَه[١].

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا ﴾.

أي: وعَدَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- مَغانِمَ أُخرى كَثيرةً، وذلك مِن سائرِ المغانِمِ الَّتي يأخُذُها المُسلِمونَ بعدَ خَيبَرَ في الأوقاتِ الَّتي قدَّر اللهُ لهم أخْذَها فيها[٢].

﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ ﴾.

أي: فعجَّل اللهُ لكم -أيُّها المُؤمِنونَ المُبايِعونَ رَسولَه تحتَ الشَّجَرةِ- غنائِمَ خَيبَرَ تأخُذونَها في وَقتٍ قَريبٍ بعدَ رُجوعِكم مِنَ الحُدَيبيَةِ، وستَحصُلُ لكم غنائِمُ كَثيرةٌ بَعدَها[٣].

﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ ﴾.

أي: وكفَّ اللهُ أيدِيَ الكُفَّارِ عنكم؛ فلم يَنَلْكم سوءٌ منهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٩، ٢٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).
قال ابن الجوزي: (أمَّا قولُه...: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا ﴾ فقال المفسِّرونَ: هي الفُتوحُ الَّتي تُفتَحُ على المُسلمينَ إلى يومِ القيامةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٣).
وقال أبو حيَّان: (وهذه المغانمُ المَوعودُ بها هي المغانمُ الَّتي كانت بعدَ هذه، وتكونُ إلى يومِ القيامةِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ ومُجاهِدٌ وجمهورُ المفسِّرينَ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).
قال ابن عاشور: (كان قريبًا مِن يَومِ البَيعةِ بنَحوِ شَهرٍ ونِصفٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٠)، ((تفسير =

= ابن عطية)) (٥/ ١٣٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((سبل الهدى)) للصالحي (٥/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

قال الماوَرْدي: (﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدُها: اليهودُ؛ كفَّ أيديَهم عن المدينةِ عندَ خُروجِهم إلى الحُدَيبيَةِ.

الثَّاني: قُرَيشٌ؛ كفَّ أيديَهم عن المدينةِ عندَ خُروجِهم إلى الحُدَيبيَةِ.

الثَّالثُ: أَسَدٌ وغَطَفانُ الحَليفانِ عليهم عُيَيْنةُ بنُ حِصْنٍ ومالكُ بنُ عَوفٍ؛ جاؤُوا لِيَنصُروا أهلَ خَيبَرَ، فألقى اللهُ في قُلوبِهم الرُّعبَ فانهزَموا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٧).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٣).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: السمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والقرطبي، وابنُ جُزَي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالب، وابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (١/ ٣٩٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥٢٥).

وممَّن اختار القولَ الثَّالثَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين، والبغويُّ، والزمخشري، والنسفي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٦١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥٢٥).

قال ابن القيِّم في قولِه: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾: (قيل: أيديَ أهلِ مَكَّةَ أن يُقاتِلوهم. وقيل: أيدِيَ اليَهودِ حينَ هَمُّوا بأن يَغتالوا مَن بالمدينةِ بعدَ خُروجِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمَن معه مِنَ الصَّحابةِ منها. وقيل: هم أهلُ خَيبَرَ وحُلفاؤُهم الَّذين أرادوا نَصْرَهم مِن أَسَدٍ =

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولِيَكونَ ذلك آيةً للمُؤمِنينَ وعِبرةً لهم[(١)].

= وغَطَفانَ. والصَّحيحُ تَناوُلُ الآيةِ للجَميعِ). ((زاد المعاد)) (٣/ ٢٧٨). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال ابنُ عاشور: (امتِنانٌ عليهم بنِعمةٍ غفَلوا عنها حينَ حَزِنوا لوُقوعِ صُلحِ الحُدَيبيَةِ، وهي نِعمةُ السِّلمِ، أي: كَفَّ أيديَ المُشرِكينَ عنهم؛ فإنَّهم لو واجَهوهم يومَ الحُدَيبيَةِ بالقِتالِ دونَ المراجَعةِ في سَبَبِ قُدومِهم لَرَجَع المُسلِمونَ بعدَ القِتالِ مُتعَبينَ، ولَمَا تهَيَّأَ لهم فَتحُ خَيبَرَ، وأنَّهم لو اقتَتَلوا مع أهلِ مكَّةَ لَدُحِضَ في ذلك مُؤمِنونَ ومُؤمِناتٌ كانوا في مكَّةَ، كما أشار إليه قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ ...﴾ [الفتح: ٢٥] الآيةَ. فالمرادُ بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾: أهلُ مَكَّةَ؛ جَرْيًا على مُصطَلَحِ القُرآنِ في إطلاقِ هذا اللَّفظِ غالِبًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال الشوكاني: (﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ اللَّامُ يجوزُ أن تتعَلَّق بفِعلٍ مَحذوفٍ يُقَدَّرُ بَعْدَه، أي: فَعَل ما فَعَل مِنَ التَّعجيلِ والكَفِّ؛ لِتَكونَ آيةً، أو على عِلَّةٍ مَحذوفةٍ تَقديرُها: وَعَد فعَجَّلَ وكَفَّ؛ لِتَنتَفِعوا بذلك، ولِتَكونَ آيةً. وقيل: إنَّ الواوَ مَزيدةٌ، واللَّامَ لِتَعليلِ ما قَبْلَه، أي: وكَفَّ لِتَكونَ، والمعنى: ذلك الكَفُّ آيةٌ يُعلَمُ بها صِدقُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في جميعِ ما يَعِدُكم به). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١)، ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤١).

قيل: المرادُ: ولِيَكونَ كَفُّهم عن المؤمِنينَ آيةً لهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والنسفي، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٩). ويُنظر أيضًا: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٣).

قال ابنُ كثير: (أي: يَعتَبِرونَ بذلك؛ فإنَّ اللهَ حافِظُهم وناصِرُهم على سائِرِ الأعداءِ مع قِلَّةِ عَدَدِهم، ولِيَعلَموا بصَنيعِ اللهِ هذا بهم أنَّه العَليمُ بعواقِبِ الأُمورِ، وأنَّ الخِيَرَةَ فيما يَختارُه لِعِبادِه المُؤمِنينَ وإنْ كَرِهوه في الظَّاهِرِ، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١).

وقيل: المعنى: ولِتَكونَ الغَنيمةُ آيةً للمُؤمِنينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مكِّي، والواحدي، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٩)، ((الوسيط)) =

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

أي: وليَهدِيَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- طَريقًا في الدِّينِ مُستَقيمًا لا اعوِجاجَ فيه؛ بسَبَبِ انقِيادِكم لأمْرِه، وقيامِكم بطاعتِه، ومُوافَقتِكم لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا سَرَّهم سُبحانَه بما بَشَّرَهم به مِن كَونِ القَضيَّةِ فَتحًا، ومِن غنائِمِ خَيبَرَ؛ أتْبَعَ ذلك البِشارةَ، دالًّا على أنَّه لا مَطمَعَ لهم في حَوْزِه ولا عِلاجِه لولا مَعونتُه[2].

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾.

أي: ووعَدَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- فَتْحَ بلادٍ أُخرى لم تَقدِروا على فَتْحِها

= للواحدي (٤/ ١٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال السعدي: (﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الغَنيمةُ ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَستَدِلُّونَ بها على خَبَرِ اللهِ الصَّادِقِ، ووعَدِه الحَقِّ، وثوابِه للمُؤمِنينَ، وأنَّ الَّذي قَدَّرَها سيُقَدِّرُ غَيرَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

وقيل المعنى: ولِتَكونَ هزيمتُهم وسلامتُكم آيةً للمؤمنينَ. وممَّن اختاره: الثعلبي، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال ابنُ عاشور: (قولُه: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ عَطْفٌ على ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو حِكمةٌ أُخرى، أي: لِيَزولَ بذلك ما خامَرَكم مِن الكآبةِ والحُزنِ؛ فتَتجرَّدَ نُفوسُكم لإدراكِ الخَيرِ المَحضِ الَّذي في أمْرِ الصُّلحِ، وإحالتِكم على الوَعدِ؛ فتُوقِنوا أنَّ ذلك هو الحقُّ، فتَزدادوا يَقينًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٩، ٣٢٠).

الآنَ، قد حَفِظَها اللهُ لكم، وأعَدَّها لكم، ومَنَعَها عن غَيرِكم، فيُيَسِّرُ لكم فَتْحَها بعدَ حينٍ[(١)].

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨، ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

ممَّن قال بأنَّ المرادَ بقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾: فَتحُ مَكَّةَ: ابنُ جريرٍ، والسمرقنديُّ، وابنُ عطيَّةَ، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: فارِسُ والرُّومُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٠٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ -في روايةٍ-، وابنُ أبي ليلى، والحسَنُ البصريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١).

وقيل: هي مغانمُ هَوازِنَ في غزوةِ حُنَينٍ. وممَّن اختاره: الزمخشري، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٤٠).

وقال ابنُ كثير: (قال مجاهِدٌ: هي كلُّ فتحٍ وغنيمةٍ إلى يومِ القيامةِ. وقال أبو داودَ الطَّيالسيُّ: حدَّثَنا شُعْبةُ، عن سِمَاكٍ الحَنَفيِّ، عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ قال: هذه الفُتوحُ الَّتي تُفتَحُ إلى اليَومِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١).

وقال ابن عاشور: (الآيةُ أشارت إلى ثلاثةِ أنواعٍ مِن المغانمِ: نوعٌ مِن مَغانمَ مَوعودةٍ لهم قريبةِ الحُصولِ، وهي مَغانمُ خَيبَرَ؛ ونوعٌ هو مَغانمُ مَرجوَّةٌ كثيرةٌ غيرُ مُعيَّنٍ وَقتُ حُصولِها، ومنها مَغانمُ يومِ حُنَينٍ وما بعْدَه مِن الغزَواتِ؛ ونوعٌ هو مَغانمُ عظيمةٌ لا يَخطُرُ ببالِهم نَوالُها قد أعدَّها اللهُ للمُسلِمينَ، ولعلَّها مغانمُ بلادِ الرُّومِ وبلادِ الفُرسِ وبلادِ البَربرِ، وفي الآيةِ إيماءٌ إلى أنَّ هذا النَّوعَ الأخيرَ لا يَنالُه جَميعُ المخاطَبينَ؛ لأنَّه لم يأْتِ في ذِكرِه بضَميرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨١).

قال الواحديُّ: (أحاطَ اللهُ لكم بها، وجعَلَها لكم، وحَوَاها لكم. قال الفَرَّاءُ: أحاط اللهُ بها لكم حتَّى يَفتَحَها عليكم. ومعنَى الإحاطةِ على هذا القولِ: الحِفظُ، كأنَّه قال: حَفِظَها لكم، ومَنَعَها =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالقُدرةِ التَّامَّةِ على كُلِّ شَيءٍ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ أرادَه(١).

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قَدَّم سُبحانَه أنَّه كَفَّ أيديَ النَّاسِ عنكم أجمَعينَ؛ ذَكَر حُكْمَهم لو وقَعَ

= عن غَيرِكم حتَّى تَفتَحوها فتأخُذوها. وقال ابنُ عبَّاسٍ: عَلِمَ أنَّها ستَكونُ لكم. وهو قولُ مُقاتِلٍ، واختيارُ الزَّجَّاجِ، قال: ﴿أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قد عَلِمَها اللهُ، وقال: وهو ما يَغْنَمُ المسلمونَ إلى أن لا يقاتلَهم أحدٌ. وهذا معنَى قولِ مُجاهِدٍ في تفسيرِ ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾؛ لأنَّه قال: هي ما فتَحوا حتَّى اليَومِ. ومعنَى الإحاطةِ في هذا القَولِ: العِلمُ). ((البسيط)) (٢٠/ ٣٠٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإحاطةِ العِلمُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإحاطةِ: حِفظُها وإعدادُها لكم: البغويُّ، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١).

قِتالٌ[١].

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾.

أي: ولو قاتَلَكم الَّذين كَفَروا باللهِ لَانهَزَموا عنكم، وفَرُّوا منكم[٢].

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

أي: ثمَّ لا يَجِدونَ وَلِيًّا يَتولَّى أمْرَهم ويَحفَظُهم ويَرعاهم، ولا نَصيرًا يَنصُرُهم ويُعينُهم عليكم؛ فهم مَخذولونَ مَغلوبون[٣].

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾.

أي: طريقةَ الله وعادتَه المعهودةَ الَّتي أجراها في السَّابِقينَ، بنصْرِ المؤمنينَ -مِن الرُّسلِ وأتْباعِهم- وهزيمةِ الكافرينَ، وإزهاقِ الباطلِ، وإظهارِ الحقِّ المبينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال ابن القيِّم: (فإنْ قيلَ: فقد قاتَلوهم يومَ أُحُدٍ وانتَصَروا عليهم ولم يُوَلُّوا الأدبارَ؟!

قيل: هذا وَعدٌ مُعَلَّقٌ بشَرطٍ مَذكورٍ في غيرِ هذا الموضِعِ، وهو الصَّبرُ والتَّقْوى، وفات هذا الشَّرطُ يومَ أُحُدٍ بفَشَلِهم المُنافي للصَّبرِ، وتَنازُعِهم وعِصيانِهم المُنافي للتَّقوى؛ فصَرفَهم عن عَدُوِّهم، ولم يَحصُلِ الوَعدُ؛ لانتِفاءِ شَرْطِه). ((زاد المعاد)) (٣/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢١).

قال الرَّسْعَني: (﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ منصوبٌ على المصدرِ، أي: سَنَّ اللهُ غَلَبَةَ رسولِه والمؤمِنينَ سُنَّةً). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣١٠). =

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾.

أي: ولن تَجِدَ -يا مُحمَّدُ- لِعادةِ اللهِ الَّتي سنَّها في خَلْقِه تَغييرًا[1].

كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا * سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ هذه بِشارةٌ مِن اللهِ لِعبادِه المُؤمِنينَ بنَصرِهم على أعدائِهم الكافِرينَ، وأنَّهم لو قابَلوهم وقاتَلوهم فهم مَخذولونَ مَغلوبونَ، وهذه سُنَّةُ اللهِ في الأُمَمِ السَّابِقةِ؛ أنَّ جُندَ اللهِ هم الغالِبونَ[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا * سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ فيه أنَّ عادةَ اللهِ تعالى أنَّه يَنصُرُ المؤمِنينَ على الكافِرينَ إذا كانتْ نِيَّةُ المؤمنينَ نصْرَ دِينِ اللهِ، أي: إنَّ اللهَ ضمِنَ النَّصرَ للمؤمنينَ بأنْ تكونَ عاقبةُ حُروبِهم نَصرًا، وإنْ كانوا قد يُغْلَبون في بَعضِ المواقعِ، وإنَّما يكونُ كَمالُ النَّصرِ على حسَبِ ضَرورةِ

= وقال الشوكاني: (وانتِصابُ ﴿سُنَّةَ﴾ على المَصدريَّةِ بفِعلٍ مَحذُوفٍ، أيْ: بَيَّنَ اللهُ سُنَّةَ اللهِ. أو هو مَصدرٌ مؤكِّدٌ لِمَضمونِ الجُملةِ المُتقدِّمةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٨)، ((سبل الهدى)) للصالحي (٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

المؤمنينَ، وعلى حسَبِ الإيمانِ والتَّقْوى؛ ولذلك كان هذا الوعدُ غالبًا للرَّسولِ ومَن معَه، فيكونُ النَّصرُ تامًّا في حالةِ الخطرِ، كما كان يومَ بدْرٍ، ويكونُ سِجالًا في حالةِ السَّعةِ، كما في وَقعةِ أُحُدٍ، ويكونُ لِمَن بعْدَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن جُيوشِ المسلِمينَ على حسَبِ تَمسُّكِهم بوَصايا الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أنَّ القُرآنَ الكريمَ يَشهَدُ برِضا اللهِ عنِ الصَّحابةِ، وثَنائِه عليهم[2].

٢- عدالةُ الصَّحابةِ ثابِتةٌ مَعلومةٌ بتعديلِ اللهِ لهم، وإخبارِه عن طَهارتِهم، واختيارِه لهم في نَصِّ القرآنِ؛ فمِن ذلك قَولُه تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقَولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقَولُه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، وقَولُه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقَولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، وقَولُه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨، ٩]، في آياتٍ يَكْثُرُ إيرادُها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٢، ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٤٠٤).

ويطولُ تَعْدادُها، وجميعُ ذلك يَقتَضي القَطعَ بتَعديلِهم، ولا يَحتاجُ أَحَدٌ منهم مع تعديلِ اللهِ له إلى تعديلِ أحَدٍ مِنَ الخَلْقِ! على أنَّه لو لم يَرِدْ مِنَ اللهِ ورَسولِه فيهم شَيءٌ مِمَّا ذكَرْناه لَأوجَبَت الحالُ الَّتي كانوا عليها مِنَ الهِجْرةِ والجِهادِ، ونُصرةِ الإسلامِ، وبَذْلِ المُهَجِ والأموالِ، والمُناصَحةِ في الدِّينِ، وقُوَّةِ الإيمانِ واليَقينِ- القَطْعَ على عدالتِهم، والاعتِقادَ لِنَزاهتِهم، وأنَّهم أفضَلُ مِن جَميعِ المُعَدَّلِينَ والمُزَكَّيْنَ الَّذين يَجيئونَ مِن بَعْدِهم، هذا مَذهَبُ كافَّةِ العُلَماءِ، ومَن يُعْتَدُّ بقولِه مِن الفقهاءِ[(١)].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما أتاهم مِنَ الفَتحِ والمغانِمِ ليس هو كُلَّ الثَّوابِ، بل الجَزاءُ قُدَّامَهم، وإنَّما هي لعاجِلةٍ عَجَّلَ بها[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا﴾ دَليلٌ على أنَّ اللهَ جلَّ جَلالُه قد يُثيبُ المؤمِنَ رِزقًا في الدُّنيا على العَمَلِ الصَّالحِ، ولا يَحُطُّ ذلك مِن دَرَجةِ فَضلِه، ويَجعَلُ ذلك مِن أطيَبِ وُجوهِه! ألَا ترى أنَّ الغنائِمَ أطيَبُ وُجوهِ الكَسْبِ[(٣)]؟!

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا﴾ هذا مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّه لم يَزِغْ أَحَدٌ مِن المُخاطَبينَ بهذه الآيةِ، وهم أهلُ الحُدَيبيَةِ، وكأنَّه -واللهُ أعلَمُ-

---

(١) يُنظر: ((الكفاية في علم الرواية)) للخطيب البغدادي (ص: ٤٦).
قال ابنُ حَجَرٍ: (اتَّفَق أهلُ السُّنَّةِ على أنَّ الجَميعَ عُدولٌ، ولم يُخالِفْ في ذلك إلَّا شُذوذٌ مِنَ المُبتَدِعةِ). ((الإصابة في تمييز الصحابة)) (١/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٦١).

لذلك لم يَقُلْ: «ويَهدِيَهم» بالغَيبِ، على ما اقتَضاه السِّياقُ؛ لئَلَّا يَعُمَّ غَيْرَهم ممَّن يُظهِرُ صِدقَه في الإيمانِ ثمَّ يَزيغُ، ولذا أكثَرُ تفاصيلِ هذه السُّورةِ مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّه وقَعَ الإخبارُ به قبْلَ وُقوعِه[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أخبَرَ تعالى أنَّ سُنَّةَ اللهِ الَّتي لا تَبديلَ لها نَصرُ المُؤمِنينَ على الكافِرين، والإيمانُ المُستَلزِمُ لذلك يَتضَمَّنُ طاعةَ اللهِ ورَسولِه، فإذا نَقَصَ الإيمانُ بالمعاصي كان الأمرُ بحَسَبِه، كما جرى يومَ أُحُدٍ، وحيثُ ظهَر الكفَّارُ فإنَّما ذاك لِذُنوبِ المسلمينَ الَّتي أوجَبتْ نقْصَ إيمانِهم، ثمَّ إذا تابوا بتكميلِ إيمانِهم نصَرهم الله[٢]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ دَليلٌ على أنَّ هذا مِن مُقتَضى حِكمتِه تعالى؛ وأنَّه يَقضي في الأُمورِ المُتماثِلةِ بقَضاءٍ مُتماثِلٍ، لا بقَضاءٍ مُخالِفٍ، فإذا كان قد نَصَرَ المؤمِنينَ لأنَّهم مُؤمِنونَ كان هذا مُوجِبًا لنَصْرِهم حيثُ وُجِدَ هذا الوَصفُ، بخِلافِ ما إذا عَصَوا ونَقَصوا إيمانَهم كيومِ أُحُدٍ؛ فإنَّ الذَّنْبَ كان لهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، فعَمَّ كلَّ سُنَّةٍ له، وهو يَعُمُّ سُنَّتَه في خَلْقِه وأمْرِه في الطَّبيعيَّاتِ والدِّينيَّاتِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤١٩، ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥٤).

ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ هو عَودٌ إلى تَفصيلِ ما جازَى اللهُ به أصحابَ بَيعةِ الرِّضوانِ المُتقدِّمِ إجمالُه في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾[1] [الفتح: ١٠].

- قَولُه: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ في قَولِه: ﴿عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾ إيذانٌ بأنَّ مَن لم يُبايِعْ ممَّن خرَجَ مع النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليس حينَئذٍ بمُؤمنٍ، وهو تَعريضٌ بالجَدِّ بنِ قَيسٍ؛ إذ كان يومَئذٍ مُنافِقًا، ثمَّ حسُنَ إسلامُه[2].

- و﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ ﴿رَضِىَ ﴾، وفي تعليقِ هذا الظَّرْفِ بفِعلِ الرِّضا ما يُفهِمُ أنَّ الرِّضا مُسبَّبٌ عن مَفادِ ذلك الظَّرفِ الخاصِّ بما أُضيفَ هو إليه، مع ما يُعطيه تَوقيتُ الرِّضا بالظَّرْفِ المذكورِ مِن تَعجيلِ حُصولِ الرِّضا بحِدْثانِ ذلك الوقتِ. ومع ما في جَعْلِ الجُملةِ المُضافِ إليها الظَّرْفُ فِعليَّةً مُضارعيَّةً ﴿يُبَايِعُونَكَ ﴾ من حُصولِ الرِّضا قبْلَ انقِضاءِ الفِعلِ، بلْ في حالِ تَجدُّدِه؛ فالمُضارعُ في قَولِه: ﴿يُبَايِعُونَكَ ﴾ مُستعمَلٌ في الزَّمانِ الماضي لاستِحضارِ صُورةِ حالةِ المُبايَعةِ الجليلةِ[3].

- وذكَرَ ﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ لاستِحضارِ تلك الصُّورةِ تنْويهًا بالمكانِ؛ فإنَّ لِذِكرِ مَواضِعِ الحوادثِ وأزمانِها مَعانيَ تَزيدُ السَّامعَ تَصوُّرًا، ولِمَا في تلك الحَوادثِ مِن ذِكرَى، مِثلُ مَواقعِ الحُروبِ والحَوادثِ، ومَواقِعِ المَصائِبِ وأيَّامِها[4].

- قَولُه: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ مُتعلِّقٌ بقَولِه: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾، كما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٣). ويُنظر أيضًا: ((صحيح مسلم)) (١٨٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٣، ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٧٥).

يقولُ القائلُ: فَرِحتُ أمسِ إذْ كَلَّمتُ زَيدًا فقام إلَيَّ، أو إذْ دخلْتُ عليه فأَكرَمَني؛ فيَكونُ الفرحُ بعدَ الإكرامِ ترتيبًا. كذلك هاهنا، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ مِنَ الصِّدقِ؛ إشارةً إلى أنَّ الرِّضا لم يكنْ عندَ المُبايَعةِ فحسْبُ، بل عندَ المُبايَعةِ الَّتي كان معها عِلمُ اللهِ بصِدقِهم[١].

وقيل: الفاءُ في قَولِه: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ ليستْ للتَّعقيبِ؛ لأنَّ عِلْمَ اللهِ بما في قُلوبِهم ليس عقِبَ رِضاهُ عنهم، ولا عقِبَ وُقوعِ بَيعتِهم؛ فتَعيَّنَ أنْ تكونَ فاءً فَصيحةً تُفصِحُ عن كَلامٍ مُقدَّرٍ بعْدَها، والتَّقديرُ: فلمَّا بايَعُوك عَلِمَ ما في قُلوبِهم مِن الكآبةِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-. ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ لتَفريعِ الإخبارِ بأنَّ اللهَ علِمَ ما في قُلوبِهم بعدَ الإخبارِ برِضا اللهِ عنهم؛ لِمَا في الإخبارِ بعِلمِه ما في قُلوبِهم مِن إظهارِ عِنايتِه بهم.

ويجوزُ أنْ يكونَ المقصودُ مِن التَّفريعِ قولَه: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾، ويكونَ قَولُه: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ تَوطئةً له على وَجْهِ الاعتراضِ[٢].

- قَولُه: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فترَتَّبَ على عِلْمِه ما في قُلوبِهم إنزالُه السَّكينةَ عليهم، أي: على قُلوبِهم؛ فعُبِّرَ بضَميرِهم عِوَضًا عن ضَميرِ قُلوبِهم؛ لأنَّ قُلوبَهم هي نُفوسُهم[٣].

- وفي قَولِه: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وُصِفَت المَغانمُ بأنَّها كثيرةٌ؛ لتَعدُّدِ أنواعِها[٤]. وفائدةُ وَصْفِ المَغانمِ بجُملةِ ﴿يَأْخُذُونَهَا﴾: تَحقيقُ حُصولِ فائدةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذا الوَعدِ لجَميعِ أهلِ البَيعةِ قبْلَ أنْ يقَعَ بالفِعلِ؛ ففيهِ زِيادةُ تَحقيقٍ لِكَونِ الفتحِ قريبًا، وبشارةٌ لهم بأنَّهم لا يَهلِكُ منهم أحدٌ قبْلَ رُؤيةِ هذا الفتحِ(١).

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ مُعترِضةٌ، وهي مُفيدةٌ تذييلًا لجُملةِ ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾؛ لأنَّ تَيسيرَ الفتْحِ لهم وما حصَلَ لهم فيه مِن المغانمِ الكثيرةِ مِن أثَرِ عِزَّةِ اللهِ الَّتي لا يَتعاصَى عليها شيءٌ صَعبٌ، ومِن أثَرِ حِكمتِه في تَرتيبِ المُسبَّباتِ على أسبابِها في حالةٍ لَيظُنُّ الرَّائي أنَّها لا تُيَسَّرُ فيها أمثالُها(٢).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ على طَريقِ الالْتِفاتِ، وهو استِئنافٌ بَيانيٌّ نشَأَ عن قولِه: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ١٨، ١٩]؛ إذ عُلِمَ أنَّه فتْحُ خَيبَرَ، فحُقَّ لهم ولِغَيرِهم أنْ يَخطُرَ ببالِهم أنْ يَترقَّبوا مَغانِمَ أخرى؛ فكان هذا الكَلامُ جوابًا لهم، أي: لَكم مَغانمُ أُخرى لا يُحرَمُ منها مَن تخلَّفوا عن الحُدَيْبيَةِ، وهي المَغانمُ الَّتي حصَلَتْ في الفتوحِ المُستقبَلةِ(٣).

- ووَصْفُ (مَغَانِمَ) بجُملةِ (تَأْخُذُونَهَا)؛ لتَحقيقِ الوعْدِ(٤).

- وقولُه: ﴿فَعَجَّلَ﴾ مُستعمَلٌ في الزَّمنِ المُستقبَلِ؛ تَنبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه، أي: سيُعجِّلُ لكم هذه، وإنَّما جعَلَ نَوالَهم غنائِمَ خَيبرَ تَعجيلًا؛ لقُربِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦، ١٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

حُصولِه مِن وقتِ الوعدِ به[١].

- قَولُه: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ الظَّاهرُ أنَّ الواوَ عاطفةٌ، وأنَّ ما بعدَ الواوِ عِلَّةٌ كما تَقْتضي لامُ (كيْ)؛ فتعيَّنَ أنَّه تَعليلٌ لشَيءٍ ممَّا ذُكِرَ قَبْلَه في اللَّفظِ، أو عَطْفٌ على تَعليلٍ سبَقَه؛ فيجوزُ أنْ يكونَ مَعطوفًا على بَعضِ التَّعليلاتِ المُتقدِّمةِ مِن قولِه: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، أو مِن قولِه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [الفتح: ٥]، وما بيْنَهما اعتراضًا، وهو وإنْ طالَ فقَدِ اقتضَتْه التَّنقُّلاتُ المُتناسِباتُ، والمعنى: أنَّ اللهَ أنزَلَ السَّكينةَ في قلوبِ المؤمنينَ لِمَصالحَ لهم؛ منها: ازديادُ إيمانِهم، واستِحقاقُهم الجنَّةَ، وتَكفيرُ سيِّئاتِهم، واستِحقاقُ المنافِقينَ والمشرِكينَ العَذابَ، ولِتَكونَ السَّكينةُ آيةً للمؤمنين، أي: عِبرةً لهم واستِدلالًا على لُطفِ اللهِ بهم، وعلى أنَّ وعْدَه لا تأْويلَ فيه.

ويجوزُ أنْ يكونَ مَعطوفًا على تَعليلٍ مَحذوفٍ يُثارُ مِن الكلامِ السَّابقِ؛ حُذِفَ لِتذهَبَ نفْسُ السَّامعِ كلَّ مَذهَبٍ مُمكنٍ في تَقديرِه؛ تَوفيرًا للمعنى، والتَّقديرُ: فعجَّلَ لكم هذه لِغاياتٍ وحِكَمٍ، ولِتَكونَ آيةً؛ فهو مِن ذِكرِ الخاصِّ بعْدَ العامِّ المُقدَّرِ. فالتَّقديرُ مَثَلًا: لِيَحصُلَ التَّعجيلُ لكم بنفْعٍ عِوَضًا عمَّا تَرقَّبْتُموه مِن مَنافعِ قِتالِ المشركينَ، ولِتَكونَ هذه المغانمُ آيةً للمؤمنينَ منكم ومَن يَعرِفون بها أنَّهم مِن اللهِ بمَكانِ عِنايتِه، وأنَّه مُوفٍ لهم ما وَعَدَهم، وضامنٌ لهم نصْرَهم الموعودَ، كما ضمِنَ لهم المغانمَ القريبةَ والنَّصْرَ القريبَ. وتلك الآيةُ تَزيدُ المؤمنينَ قُوَّةَ إيمانٍ. وضَميرُ ﴿وَلِتَكُونَ﴾ على هذه راجِعٌ إلى قَولِه: ﴿هَٰذِهِۦ﴾، على أنَّها المُعلَّلةُ. ويجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ للخِصالِ الَّتي دلَّ عليها مَجموعُ قَولِه: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ ﴾؛ فيَكونَ مَعنى قولِه: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ لِغاياتٍ جَمَّةٍ؛ منها: ما ذُكِرَ آنِفًا، ومنها: سلامةُ المسلمينَ في وقْتٍ هم أحوَجُ فيه إلى استِبقاءِ قُوَّتِهم منهم إلى قِتالِ المشركينَ ادِّخارًا للمُستقبَلِ، أو تكونَ جُملةُ ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ مُعترِضةً، والواوُ اعتراضيَّةً غيرَ عاطفةٍ، وضَميرُ (لِتَكُونَ) عائدًا إلى المرَّةِ مِن فِعلِ (كفَّ)، أي: الكَفَّةِ[1].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴾ هذا مِن عطْفِ الجُملةِ على الجُملةِ؛ فقولُه: (أُخْرَى) مَبتدأٌ مَوصوفٌ بجُملةِ ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا ﴾، والخبرُ قولُه: ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾، ومَجموعُ الجُملةِ عَطفٌ على جُملةِ ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ ﴾ [الفتح: ٢٠]؛ فلفظُ (أُخرى) صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿مَغَانِمَ ﴾ الَّذي في الجُملةِ قبْلَها، أي: هي نَوعٌ آخَرُ مِن المغانمِ صَعبةُ المَنالِ، ومعنى المغانمِ يَقتضي غانِمِينَ؛ فَعُلِمَ أنَّها لهم، أي: غيرَ الَّتي وعَدَهم اللهُ بها، أي: هذه لم يَعِدْهم اللهُ بها، وليستْ ﴿وَأُخۡرَىٰ ﴾ عطْفًا على قَولِه: ﴿هَٰذِهِۦ ﴾ [الفتح: ٢٠] عطفَ المُفردِ على المفْردِ؛ إذ ليس المرادُ غَنيمةً واحدةً، بل غنائمَ كثيرةً[2].

- قَولُه: ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ معنَى الإحاطةِ فيها إيماءٌ إلى أنَّها كالشَّيءِ المُحاطِ به مِن جَوانبِه، فلا يَفوتُهم مكانُه، جُعِلَت كالمَخبوءِ لهم؛ ولذلك ذُيِّلَ بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴾؛ إذ هو أمْرٌ مُقرَّرٌ في عِلمِهم[3].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ هذا عطْفٌ على قَولِه: ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ ﴾ [الفتح: ٢٠]، على أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٨، ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بَعضَه مُتعلِّقٌ بالمَعطوفِ عليه، وبعضَه مَعطوفٌ على المعطوفِ عليه، فما بيْنَهما ليس مِن الاعتِراضِ، والمَقصودُ مِن هذا العَطْفِ التَّنبيهُ على أنَّ كَفَّ أيدَي النَّاسِ عنهم نِعمةٌ على المُسلِمينَ، باستِبْقاءِ قُوَّتِهم وعُدَّتِهم ونَشاطِهم، وليس الكفُّ لدَفعِ غَلَبَةِ المشركينَ إيَّاهم؛ لأنَّ اللهَ قدَّرَ للمُسلِمينَ عاقِبةَ النَّصرِ، فلو قاتَلَهم الَّذين كَفَروا لَهزَمَهم المُسلِمونَ ولم يَجِدوا نصيرًا، أي: لم يَنتصِروا بجَمْعِهم ولا بمَن يُعينُهم[١].

- والمُرادُ بالَّذين كَفَروا في قَولِه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ ما أُريدَ بالنَّاسِ في قَولِه: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾، وكان مُقْتضَى الظَّاهرِ الإتيانَ بضَميرِ النَّاسِ بأنْ يُقالَ: (وَلَو قَاتَلُوكُم)؛ فعُدِلَ عنه إلى الاسمِ الظَّاهرِ؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن الإيماءِ إلى وجْهِ بِناءِ الخبَرِ، وهو أنَّ الكُفرَ هو سببُ تَوليةِ الأدبارِ في قِتالِهم للمُسلِمينَ؛ تمْهيدًا لقَولِه: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾[٢].

- و(الأَدبارَ) منْصوبٌ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لِـ(ولَّوْا)، ومَفعولُه الأولُ مَحذوفٌ؛ لِدَلالةِ ضَميرِ ﴿قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عليه، والتَّقديرُ: لَوَلَّوكُم الأدبارَ[٣].

- قَولُه: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ حرْفُ (ثمَّ) هنا للتَّراخي الرُّتَبيِّ؛ فإنَّ عدَمَ وِجْدانِ الوليِّ والنَّصيرِ أشَدُّ على المنْهزِمِ مِن انهزامِه؛ لأنَّه حِينَ يَنهزِمُ قد يكونُ له أملٌ بأنْ يَستنصِرَ مَن يُنجِدُه، فيَكُرُّ به على الَّذين هزَموه، فإذا لم يَجِدْ وَليًّا ولا نَصيرًا تحقَّقَ أنَّه غيرُ مُنتصِرٍ، وأصلُ الكلامِ: لَولَّوُا الأدبارَ وما وجَدوا وليًّا ولا نَصيرًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- قَولُه تعالَى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾

- قَولُه: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُ ﴾ انتصَبَ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ﴾ نِيابةً عن المفعولِ المُطلَقِ الآتي بدَلًا مِن فِعلِه؛ لإفادةِ مَعنى تأْكيدِ الفِعلِ المَحذوفِ، والمعنى: سنَّ اللهُ ذلك سُنَّةً[1].

- وفائدةُ هذا الوصْفِ ﴿ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُ﴾ الدَّلالةُ على اطِّرادِ سُنَّةِ اللهِ وثَباتِها[2].

- ولَمَّا وصَفَ تلك السُّنَّةَ بأنَّها راسِخةٌ فيما مَضَى؛ أعقَبَ ذلك بوَصْفِها بالتَّحقُّقِ في المُستقبَلِ؛ تعْميمًا للأزمِنةِ بقولِه: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٢، ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٤-٢٦)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَظْفَرَكُمْ﴾: أي: أظْهرَكم ونَصَرَكم، وأصلُ (ظفر): يدُلُّ على القَهرِ والفَوزِ والغَلَبةِ[(١)].

﴿وَٱلْهَدْىَ﴾: أي: ما يُهدَى إلى البَيتِ مِن الأنعامِ؛ وسُمِّيَ هَدْيًا لأنَّ مُهْدِيَه تقرَّبَ به إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ[(٢)].

﴿مَعْكُوفًا﴾: أي: مَحبوسًا، وأصلُ (عكف): يدُلُّ على حَبسٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦٥، ٤٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

﴿تَطَـُٔوهُمۡ﴾: أي: تَقتُلوهم وتُوقِعوا بهم، وأصلُه يدُلُّ على وَطءٍ بالقَدَم، واستُعمِلَ في معنى القَتلِ؛ لأنَّ مَن وَطِئَ الشَّيءَ برِجْلِه فقد استَقصى في إهلاكِه وإهانتِه[١].

﴿مَّعَرَّةُۢ﴾: أي: غُرمُ الكَفَّارةِ ومَسَبَّةُ الكُفَّارِ، وهي مَصدَرٌ مِيميٌّ مِن عَرَّه: إذا دهاه، وأصابَه بما يَكرَهُه ويَشُقُّ عليه؛ مِن ضُرٍّ أو غُرمٍ أو سُوءِ قالةٍ[٢].

﴿تَـزَيَّلُواْ﴾: أي: تمَيَّزوا وتفرَّقوا، وأصلُ (زيل): يدُلُّ على التَّبايُنِ والمُفارَقةِ[٣].

﴿ٱلۡحَمِيَّةَ﴾: أي: الأَنَفةَ والغَضَبَ، وأكثَرُ إطلاقِ ذلك على استِكبارٍ لا مُوجِبَ له، وأصلُها يدُلُّ على حَرارةٍ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يمتنُّ الله تعالى على المؤمنينَ بنعمةٍ مِن نِعَمِه الَّتي أنعَمَ بها عليهم عامَ الحُدَيبيَةِ، فيقولُ: واللهُ وَحْدَه هو الَّذي كَفَّ أيدِيَ المُشرِكينَ عَنْكم -أيُّها المُؤمِنونَ- وأيديَكم عنهم، وأنتم في الحُدَيبيَةِ مِن بَعدِ أن أظْهَرَكم ونَصَرَكم عليهم، وكان اللهُ بما تَعمَلونَ جميعًا بَصيرًا.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٣).

ثمَّ يقولُ تعالى مخبرًا عن المشركينَ: هؤلاء المُشركونَ مِن قُرَيشٍ هم الَّذين كَفَروا بالحَقِّ، وصَدُّوكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عن دُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ عامَ الحُدَيبيَةِ، ومَنَعوا الأنعامَ الَّتي أهدَيْتُموها عن الوُصولِ إلى مَحَلِّ ذَبْحِها في مَكَّةَ!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن حِكمتِه في منعِ قتالِ المشركينَ، فيقولُ: ولَولا رِجالٌ ونِساءٌ مِنَ المُستَضعَفينَ الَّذين يَكتُمونَ إيمانَهم في مَكَّةَ مِمَّن لا تَعلَمونَ حالَهم؛ أن تَقتُلوهم إذا دخَلْتُم مكَّةَ فاتِحينَ، فيَنالَكم بسَبَبِ قَتْلِهم سوءٌ مِن إثمٍ أو مَغْرَمٍ أو غَمٍّ- لَأَذِنَ اللهُ لكم في فَتحِ مَكَّةَ.

مَنَعَكم اللهُ مِن قِتالِ كُفَّارِ قُرَيشٍ عامَ الحُدَيبيَةِ؛ لِيُدخِلَ في الإسلامِ مِن أهلِ مَكَّةَ مَن يَشاءُ منهم قبْلَ أن تَدخُلوها فاتِحينَ، ولو تَمَيَّزَ مَنْ آمَنَ في مكَّةَ عن الكُفَّارِ وتفرَّقوا عنهم، لَعَذَّبْنا أولئك الكُفَّارَ بـأيديكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عَذابًا مُؤلِمًا، حينَ وَضَع كُفَّارُ قُرَيشٍ في قُلوبِهم أنَفَةَ الجاهِليَّةِ واستِكبارَها في شُروطِ الصُّلحِ يومَ الحُدَيبيَةِ، فأنزَلَ اللهُ الطُّمَأنينةَ والصَّبرَ والثَّباتَ على رَسولِه وعلى أصحابِه المُؤمِنينَ، وألزَمَهم اللهُ كَلِمةَ التَّوحيدِ، ووفَّقَهم لالتِزامِها قَولًا وعَمَلًا، وكانوا أحقَّ بتلك الكَلِمةِ مِنَ الكُفَّارِ، وأهلًا لها دُونَهم، وكان اللهُ بكُلِّ شَيءٍ عَليمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها تَبيينٌ لِما تَقدَّمَ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الفتح: ٢٢]، أي: هو بتَقديرِ اللهِ؛ لأنَّه كَفَّ أيديَهم عنكم بالفِرارِ، وأيديَكم عنهم

بالرُّجوعِ عنهم وتَرْكِهم[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾

سَبَبُ النُّزولِ[٢]:

١- عن سَلَمةَ بنِ الأكوَعِ -رَضِيَ اللهُ عنه- في قِصَّةِ صُلحِ الحُدَيبيَةِ، قال: ((قَدِمْنا الحُدَيبيَةَ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونحنُ أربَعَ عَشْرةَ مِئةً... ثمَّ إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دَعانا للبَيعةِ في أصلِ الشَّجَرةِ... ثمَّ إنَّ المُشرِكينَ راسَلونا الصُّلحَ حتَّى مشى بَعضُنا في بَعضٍ، واصطَلَحْنا... فلمَّا اصطَلَحْنا نحنُ وأهلُ مكَّةَ، واختَلَط بَعضُنا ببَعضٍ؛ أتيتُ شَجَرةً فكَسَحْتُ شَوكَها[٣] فاضطجَعْتُ في أصلِها، قال: فأتاني أربعةٌ مِن المُشرِكينَ مِن أهلِ مَكَّةَ، فجَعَلوا يَقَعونَ في رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأبغَضْتُهم، فتحَوَّلتُ إلى شَجَرةٍ أُخرى، وعَلَّقوا سِلاحَهم واضْطَجَعوا، فبَيْنَما هم كذلك إذْ نادى مُنادٍ مِن أسفَلِ الوادي: يا لَلْمُهاجِرينَ! قُتِلَ ابنُ زُنَيْمٍ! قال: فاختَرَطتُ سَيفي[٤]، ثمَّ شَدَدْتُ على أولئك الأربَعةِ وهم رُقودٌ، فأخَذْتُ سِلاحَهم، فجعَلْتُه ضِغْثًا[٥] في يَدي. قال: ثمَّ قُلتُ: والَّذي كرَّمَ وَجْهَ مُحمَّدٍ لا يَرفَعُ أحَدٌ مِنكم رأسَه إلَّا ضَربتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨١).

(٢) قال ابنُ حجر: (المشهورُ في سببِ نُزولِها ما أخرجه مسلمٌ مِن حديثِ سَلَمةَ بنِ الأكْوَعِ، ومِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ أيضًا، وأخرجه أحمدُ والنَّسائيُّ مِن حديثِ عبدِ الله بنِ مغفلٍ). ((فتح الباري)) (٥/ ٣٥١).

(٣) كَسَحْتُ شَوْكَها: أي قطعتُه، وكنستُ ما تحتَها منه. يُنظر: ((كشف المُشْكِل)) لابن الجوزي (٢/ ٣٠٦)، ((المفهم)) للقرطبي (٣/ ٦٧١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٧٦).

(٤) اخترطتُ سيفي: أي: سللتُه مِن غِمْدِه. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٢/ ٣٠٧).

(٥) فجعلْتُه ضِغْثًا في يدي: الضِّغْثُ: الحُزمةُ والباقةُ مِن الشَّيءِ؛ كالبَقْلِ وما أشْبَهَه. والمعنى: جعلتُ سلاحَهم في يدي مِثلَ الضِّغْثِ. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٢/ ٣٠٧).

الَّذي فيه عَيْناه! قال: ثمَّ جِئتُ بهم أسوقُهم إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قال: وجاء عَمِّي عامِرٌ برَجُلٍ مِنَ العَبَلاتِ[١] يُقالُ له: مِكْرَزٌ، يَقودُه إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على فَرَسٍ مُجَفَّفٍ[٢] في سَبعينَ مِنَ المُشرِكينَ، فنظَرَ إليهم رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: دَعوهم يَكُنْ لهم بَدءُ الفُجورِ وثِناه[٣]! فعفا عنهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنزل اللهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآيةَ كُلَّها))[٤].

٢- عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((إنَّ ثمانينَ رَجُلًا مِن أهلِ مَكَّةَ هَبَطوا على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن جَبَلِ التَّنعيمِ مُتَسَلِّحينَ، يُريدونَ غِرَّةَ[٥] النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، فأخَذَهم سَلَمًا[٦] فاستَحْياهم[٧]،

---

(١) العَبَلات: بطنٌ مِن بَني عبدِ شِمسٍ، نُسبوا إلى أُمٍّ لهم تُسَمَّى: عبلةَ بنتَ عبيدٍ. يُنظر: ((المفهم)) للقرطبي (٣/ ٦٧١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٧٦، ١٧٧).

(٢) المجفَّف مِن الخَيلِ: هو الَّذي عليه التَّجافيفُ، وهي كلُّ ما يَمنعُ وُصولَ الأذى إليه، فهو مِثلُ المُدَجَّجِ مِن الرِّجالِ، وهو الَّذي عليه السِّلاحُ التَّامُّ. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٢/ ٣٠٧).

(٣) بَدؤه: ابتِداؤه، وثِنَاهُ: عودُه ثانيةً؛ فبَدءُ الفجورِ وثِنَاهُ، أي: أوَّلُه وآخِرُه. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٢/ ٣٠٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٢٥)، ((المفهم)) للقرطبي (٣/ ٦٧١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٧٧).

(٤) رواه مسلم (١٨٠٧).

(٥) أي: يَلتمِسونَ غفلتَهم؛ لِيَتمكَّنوا منهم، والغِرَّةُ: الغفلةُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٧٦٨).

(٦) فأخذهم سَلَمًا: بفتح السِّينِ واللَّام، أي: أسرى، والسَّلَمُ بالفتح: الأسيرُ؛ لأنَّه أسلَمَ وترَك. وضُبِط أيضًا بإسكانِ اللَّام مع كسرِ السِّينِ وفَتحِها، ومعناه: الصُّلحُ. يُنظر: ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (٢/ ٢١٧). ويُنظر: أيضًا: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٩٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٨٧).

(٧) استَحْياهم: استَبْقاهم ولم يَقتُلْهم. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٣/ ٣٠٨)، ((جامع الأصول)) لابن الأثير (٢/ ٣٥٩).

فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾))[1].

٣- عن عبدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ المُزَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالحُدَيبيَةِ في أصلِ الشَّجَرةِ الَّتي قال اللهُ تعالى في القُرآنِ، وكان يقَعُ مِن أغصانِ تلك الشَّجَرةِ على ظَهرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعليُّ بنُ أبي طالِبٍ وسُهَيلُ بنُ عَمرٍو بيْنَ يَدَيه. فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِعَليٍّ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه: اكتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ. فأخَذَ سُهَيلُ ابنُ عَمرٍو بيَدِه، فقال: ما نَعرِفُ بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ! اكتُبْ في قَضِيَّتِنا ما نَعرِفُ. قال: اكتُبْ باسْمِك اللَّهُمَّ. فكَتَب: هذا ما صالَحَ عليه محمَّدٌ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أهلَ مَكَّةَ. فأمسَكَ سُهَيلُ بنُ عَمرٍو بيَدِه، وقال: لقد ظلَمْناك إنْ كُنتَ رَسولَه! اكتُبْ في قَضِيَّتِنا ما نَعرِفُ. فقال: اكتُبْ هذا ما صالَحَ عليه محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ. وأنا رَسولُ اللهِ! فكَتَب، فبَيْنا نحنُ كذلك إذ خرَجَ علينا ثلاثونَ شابًّا عليهم السِّلاحُ، فثاروا في وُجوهِنا، فدعا عليهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخَذَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بأبصارِهم، فقَدِمْنا إليهم فأخَذْناهم، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هل جِئتُم في عَهدِ أَحَدٍ، أو هل جَعَل لكم أَحَدٌ أمانًا؟ فقالوا: لا. فخلَّى سَبيلَهم، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤]))[2].

---

(١) رواه مسلم (١٨٠٨).

(٢) أخرجه النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٥١١)، وأحمدُ (١٦٨٠٠) واللفظُ له.

قال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٤٨): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٥/ ٣٥١)، وصَحَّحه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٧/ ٣٥٥).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الَّذي كَفَّ أيديَ المُشرِكينَ عنكم -أيُّها المُؤمِنونَ- وأيديَكم عنهم، وأنتم في الحُدَيبيَةِ مِن بَعدِ أن أظْهَرَكم ونَصَرَكم عليهم(١).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة: ١١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ على مَعنى الغَيْبةِ، أي: كانَ الله بما عمِل الكفَّارُ مِن كفرِهم وصدِّهم عن المسجدِ بصيرًا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال الواحدي: (المعنى: أنَّ اللهَ تعالى يَذكُرُ مِنَّتَه بحَجْزِه بيْنَ الفريقَينِ حتَّى لم يَقتَتِلا، وحتَّى اتَّفَق بيْنَهم الصُّلحُ الَّذي كان أعظَمَ مِن الفَتحِ، وسَلِمَ للرَّجُلِ مَن بَيْنَه وبيْنَه قَرابةٌ، ومَن هو مُؤمِنٌ مِن أهلِ مكَّةَ؛ أن يُصابَ. وهذا قَولُ عامَّةِ المُفَسِّرينَ). ((البسيط)) (٢٠/ ٣١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٢).

قال السَّمْعاني: (قَولُه: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعني: الحُدَيبيَةَ، وإنَّما سَمَّاها بَطْنَ مكَّةَ؛ لِقُربِها مِن مكَّةَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٠٤).

وقال ابنُ عاشور: (الحُدَيبيَةُ قَريبةٌ مِن مكَّةَ، وهي مِنَ الحِلِّ، وبَعضُ أرضِها مِنَ الحَرَمِ، وهي على الطَّريقِ بيْنَ مكَّةَ وجُدَّةَ، وهي إلى مكَّةَ أقرَبُ، وتُعرَفُ اليومَ باسمِ الشُّمَيسِي). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٥).

وقال القرطبي: (﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: يريدُ به مكَّةَ. الثَّاني: الحُدَيبيَة؛ لأنَّ بعضَها مُضافٌ إلى الحَرَمِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٢).

(٢) قرأ بها أبو عَمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجوزي (٢/ ٣٧٥).

ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٧٤).

٢- قِراءةُ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على معنى الخِطابِ، أي: أنتم وهم[١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

أي: وكان اللهُ بما تَعمَلونَ -أيُّها المُؤمِنونَ والمُشرِكونَ- بَصيرًا؛ فلا يَخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم[٢].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر الأُمورَ المُهَيِّجةَ على قِتالِ المُشرِكينَ، وهي كُفرُهم باللهِ ورَسولِه، وصَدُّهم رَسولَ اللهِ ومَن معَه مِنَ المُؤمِنينَ أن يأتُوا للبَيتِ الحَرامِ زائِرينَ مُعَظِّمينَ له بالحَجِّ والعُمرةِ[٣].

وأيضًا لَمَّا كان ما مضَى مِن وَصْفِ الكُفَّارِ على وَجهٍ يَشمَلُ غَيرَهم مِن جَميعِ الكُفَّارِ؛ عَيَّنَهم مُبَيِّنًا لِسَبَبِ كَفِّهم عنهم، مع استِحقاقِهم في ذلك الوَقتِ للبَوارِ والنَّكالِ والدَّمارِ، فقال[٤]:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجوزي (٢/ ٣٧٥).
ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٦).

أي: هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ هم الَّذين كَفَروا بالحَقِّ، وصَدُّوكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عن دُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ عامَ الحُدَيبيَةِ(١).

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((خرَجْنا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُعتَمِرينَ، فحالَ كُفَّارُ قُرَيشٍ دونَ البَيتِ، فنَحَرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بُدْنَه، وحَلَق رَأْسَه))(٢).

﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾.

أي: وهم مَن مَنَع الهدْيَ عن الوُصولِ إلى مَحَلِّ ذَبْحِها في مَكَّةَ(٣).

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

أي: ولَولا رِجالٌ ونِساءٌ مِنَ المُستَضعَفينَ الَّذين يَكتُمونَ إيمانَهم في مَكَّةَ، مِمَّن لا تَعلَمونَ بشَأنِهم؛ أن تَقتُلوهم إذا دخَلْتُم مكَّةَ فاتِحينَ، فيَنالَكم بسَبَبِ قَتْلِهم سوءٌ مِن إثمٍ أو مَغْرَمٍ أو غَمٍّ أو مَلامةٍ- لَأَذِنَ اللهُ لكم في فَتحِ مكَّةَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

(٢) رواه البخاريُّ (١٨١٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال ابن عاشور: (الهَدْيُ: ما يُهدَى إلى الكَعبةِ مِنَ الأنعامِ... ومعنى صَدِّهم الهَدْيَ: أنَّهم صَدُّوا أهلَ الهَدْيِ عن الوُصولِ إلى المَنحَرِ...، وليس المرادُ: أنَّهم صَدُّوا الهدايا مُباشَرةً؛ لأنَّه لم يُنقَلْ أنَّ المُسلِمينَ عَرَضوا على المُشرِكينَ تَخليةَ مَن يَذهَبُ بهَداياهم إلى مكَّةَ لِتُنحَرَ بها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٧، ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٤)، =

﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: مَنَعَكم اللهُ مِن قِتالِ كُفَّارِ قُرَيشٍ عامَ الحُدَيبيَةِ؛ لِيُدخِلَ اللهُ في الإسلامِ مِن أهلِ مكَّةَ مَن يَشاءُ منهم قبْلَ أنْ تَدخُلوها فاتِحينَ(١).

﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: لو تَمَيَّزَ مَنْ آمَنَ في مكَّةَ عن كُفَّارِها وتفرَّقوا عنهم، لَعَذَّبْنا أولئك الكُفَّارَ بأيديكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عَذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا في الدُّنيا بالقَتلِ أو غَيرِه، فلا يَلحَقُ أولئك المؤمِنينَ في مكَّةَ ضَرَرٌ أو مَكروهٌ مِن قِبَلِكم(٢).

﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ٢٦﴾.

﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾.

أي: إذ(٣) وَضَع كُفَّارُ قُرَيشٍ في قُلوبِهم أَنَفَةَ الجاهِليَّةِ واستِكبارَها وأخلاقَها

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٩-١٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٢).

(٣) قال الشوكاني: (والظَّرفُ في قولِه: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ منصوبٌ بفعلٍ مُقدَّرٍ، أي: اذكُرْ وَقْتَ جَعْلِ الَّذينَ كفروا في قلوبِهم الحميَّةَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٤).

وقيل: العامِلُ في ﴿إِذۡ﴾ قَولُه تعالى: ﴿لَعَذَّبۡنَا﴾، أي: لَعَذَّبْناهم إذْ جَعَلوا هذا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٦)، =

الشَّنيعةَ، فأبَوا أن يُكتَبَ في كِتابِ الصُّلحِ يومَ الحُدَيبيَةِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، وأن يُكتَبَ فيه: محمَّدٌ رَسولُ اللهِ، ومَنَعوا المؤمِنينَ القادِمينَ للعُمرةِ مِن دُخولِ مَكَّةَ(١).

عن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ قُرَيشًا صالَحوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيهم سُهَيلُ بنُ عَمرٍو، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِعَليٍّ: اكتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ. قال سُهَيلٌ: أمَّا باسمِ اللهِ فما نَدري ما بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ! ولكِنِ اكتُبْ ما نَعرِفُ: باسْمِك اللَّهُمَّ. فقال: اكتُبْ مِن مُحمَّدٍ رَسولِ اللهِ. قالوا: لو عَلِمْنا أنَّك رَسولُ اللهِ لَاتَّبَعْناك، ولكِنِ اكتُبِ اسْمَك واسْمَ أبيك. فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اكتُبْ: مِن مُحمَّدِ بنِ عبدِاللهِ. فاشتَرَطوا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ مَن جاءَ مِنْكم لم نَرُدَّه عليكم، ومَن جاءَكم مِنَّا ردَدْتُموه علينا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، أنكتُبُ هذا؟! قال: نَعَمْ؛ إنَّه مَن ذَهَب مِنَّا إليهم فأبعَدَه اللهُ! ومَن جاءنا منهم سيَجعَلُ اللهُ له فَرَجًا ومَخْرَجًا))(٢).

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: فلمَّا فَعَل المُشرِكونَ ما فَعَلوا مِن ذلك، أنزَلَ اللهُ الطُّمَأنينةَ والرِّضا والصَّبرَ والثَّباتَ على رَسولِه، وعلى أصحابِه المُؤمِنينَ(٣).

= ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٩).

وقال ابن عاشور: (ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بفِعلِ «صَدُّوكُمْ» [الفتح: ٢٥]، أي: صَدُّوكم صدًّا لا عُذْرَ لهم فيه، ولا داعيَ إليه إلَّا حَمِيَّةُ الجاهليَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٧، ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٣).

(٢) رواه مسلم (١٧٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

أي: وألزَم اللهُ رَسولَه وأصحابَه المُؤمِنينَ كَلِمةَ لا إلهَ إلَّا اللهُ، الَّتي يَتَّقونَ بها سَخَطَه وعَذابَه، فَوفَّقَهم لالتِزامِها قَولًا وعَمَلًا، والقيامِ بأداءِ حُقوقِها، فلا يَنفَكُّونَ عنها أبَدًا[1].

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.

أي: وكانوا أحقَّ بتلك الكَلِمةِ مِنَ الَّذين كَفَروا، وهم أهلُها مِن دُونِهم[2].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى متَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِلمِ التَّامِّ بكُلِّ شَيءٍ؛ فلا يَخفَى عليه

= (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٤).

قال ابن عاشور: (وتفريعُ ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يُؤذِنُ بأنَّ المؤمنينَ وَدُّوا أنْ يُقاتِلوا المشركينَ، وأنْ يَدخُلوا مكَّةَ للعُمرةِ عَنوةً؛ غَضَبًا مِن صَدِّهم عنها، ولكنَّ اللهَ أنزَلَ عليهم السَّكينةَ... فعصَمَهم مِن مُقابَلةِ الحَمِيَّةِ بالغضَبِ والانتقامِ، فقابَلوا الحَمِيَّةَ بالتَّعقُّلِ والتَّثبُّتِ؛ فكان في ذلك خَيرٌ كثيرٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٥، ١٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٧).

قال ابن جُزَي: (﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال الجمهورُ: هي: لا إلهَ إلَّا اللهُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٩١). وعزاه الواحديُّ لجماعةِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٢٠).

وقال الرَّسْعَني: (وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٍ، وعِكْرِمةَ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وقَتادةَ، والضَّحَّاكِ، والسُّدِّيِّ في آخَرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٧).

شَيءٌ سُبحانَه، ومِن ذلك عِلْمُه بمَن يَستَحِقُّ فَضْلَه وإنعامَه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الإشارةِ إلى بَيانِ سِرٍّ مِن أسرارِ مَنْعِ اللهِ تعالى لهم مِنَ التَّسليطِ عليهم: حَثٌّ للعَبدِ على ألَّا يَتَّهِمَ اللهَ في قَضائِه؛ فرُبَّما عَسَّر عليه أمرًا يَظهَرُ له أنَّ السَّعادةَ كانت فيه، وفي باطِنِه سُمٌّ قاتِلٌ! فيَكونُ منْعُ اللهِ له منه رَحمةً في الباطِنِ، وإن كان نِقمةً في الظَّاهِرِ! فالزَمِ التَّسليمَ مع الاجتِهادِ في الخَيرِ، والحِرصِ عليه، والنَّدَمِ على فَواتِه، وإيَّاكَ والاعتِراضَ[٢]!

٢- قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ الغَضَبُ والحَميَّةُ تحمِلُ المَرءَ على فِعلِ ما يَضُرُّه، وتَرْكِ ما يَنفَعُه، وهذا مِن الجَهلِ الَّذي هو عَمَلٌ بخِلافِ العِلمِ حتَّى يُقدِمَ المَرءُ على فِعلِ ما يَعلَمُ أنَّه يَضُرُّه، وتَرْكِ ما يَعلَمُ أنَّه يَنفَعُه؛ لِما في نَفْسِه مِن البُغضِ والمُعاداةِ لأشخاصٍ وأفعالٍ، وهو في هذه الحالِ ليس عديمَ العِلمِ والتَّصديقِ بالكُلِّيَّةِ، لكِنَّه لِما في نَفْسِه مِن بُغضٍ وحَسَدٍ غَلَب مُوجبُ ذلك لِمُوجبِ العِلمِ؛ فدَلَّ على ضَعفِ العِلمِ لِعَدَمِ مُوجبِه ومُقتَضاه، ولكِنَّ ذلك المُوجبَ والنَّتيجةَ لا تُوجَدُ عنه وَحْدَه، بل عنه وعمَّا في النَّفْسِ مِن حُبِّ ما يَنفَعُها، وبُغضِ ما يَضُرُّها، فإذا حَصَل لها مَرَضٌ ففَسَدت به أحبَّت ما يَضُرُّها، وأبغَضَت ما يَنفَعُها، فتَصيرُ النَّفْسُ كالمريضِ الَّذي يَتناوَلُ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٩).

يَضُرُّه لِشَهوةِ نَفْسِه له، مع عِلْمِه أنَّه يَضُرُّه[١]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ مَحَلَّ ذَبْحِ الهَدْيِ: الحَرَمُ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ أنَّ الإنسانَ يَنتَفِعُ بعَمَلِ غَيرِه؛ فقد رَفَعَ اللهُ تعالى العَذابَ عن بَعضِ النَّاسِ بسَبَبِ بَعضٍ، وذلك انتِفاعٌ بعَمَلِ الغَيرِ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى قد يَدفَعُ عن الكافِرِ مِن أجْلِ المُؤمِنِ[٤].

٤- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قَولُه تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تفضيلٌ للصَّحابةِ، وإخبارٌ عن صِفتِهم الكريمةِ مِنَ العِفَّةِ عن المَعصيةِ، والعِصمةِ عن التَّعَدِّي، حتَّى إنَّهم لو أصابوا مِن أولئك أحدًا لَكان من غيرِ قَصدٍ، وهذا كما وَصَفَت النَّملةُ جُندَ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ في قَولِها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٥] [النمل: ١٨].

٥- قال الله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في هذه الآيةِ تنبيهٌ على مُراعاةِ الكافِرِ في حُرمةِ المؤمنِ إذا لم تُمكِنْ إذايةُ الكافِرِ إلَّا

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية- المجموعة الخامسة)) (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٩).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٣٨).

بإذايةِ المؤمِنِ[١]، وفيها دَلالةٌ على ما قاله الشَّافِعيُّ ومالِكٌ: إنَّه لا تُحرَقُ سَفينةُ الكُفَّارِ إذا كان فيها أُسارى المُسلِمينَ، وكذلك في إحراقِ الحُصونِ إذا كان فيها أُسارى المُسلِمينَ[٢]. وكذلك لو تَتَرَّسَ كافِرٌ بمُسلِمٍ لم يَجُزْ رَمْيُه، وإنْ فَعَل ذلك فاعِلٌ فأتلَفَ أحَدًا مِنَ المُسلِمينَ فعَليه الدِّيَةُ والكَفَّارةُ، فإنْ لم يَعلَموا فلا دِيَةَ ولا كَفَّارةَ؛ وذلك أنَّهم إذا عَلِموا فليس لهم أن يَرمُوا، فإذا فَعَلوه صاروا قَتَلةً خَطأً، والدِّيةُ على عواقِلِهم، فإن لم يَعلَموا فلَهم أن يَرمُوا، وإذا أُبيحوا الفِعلَ لم يَجُزْ أن يَبقى عليهم فيها تَبِعَةٌ ومَسئوليةٌ[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ لَمَّا كانت حَمِيَّةُ الجاهِليَّةِ تُوجِبُ مِن الأقوالِ والأعمالِ ما يُناسِبُها، جَعَل اللهُ في قُلوبِ أوليائِه سَكينةً تُقابِلُ حَمِيَّةَ الجاهِليَّةِ، وفي ألسِنَتِهم كَلِمةَ التَّقْوى مُقابَلةً لِما تُوجِبُه حَمِيَّةُ الجاهِليَّةِ مِن كَلِمةِ الفُجورِ؛ فكان حَظُّ المؤمِنينَ السَّكينةَ في قُلوبِهم، وكَلِمةَ التَّقْوى على ألسِنَتِهم، وحَظُّ أعدائِهم حَمِيَّةَ الجاهِليَّةِ في قُلوبِهم، وكَلِمةَ الفُجورِ والعُدوانِ على ألسِنَتِهم؛ فكانت هذه السَّكينةُ وهذه الكَلِمةُ جُندًا مِن جُندِ اللهِ أيَّدَ بها اللهُ رَسولَه والمُؤمِنينَ في مُقابَلةِ جُندِ الشَّيطانِ الَّذي في قُلوبِ أوليائِه وألسِنَتِهم[٤].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أُضيفَت (الكَلِمةُ) إلى (التَّقوى)؛

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٥٥).

لأنَّها سَبَبُ التَّقْوى وأساسُها[١]؛ فإنَّهم يتَّقونَ بها غضَبَ الله وعذابَه[٢].

٨- لَفظُ «كلمة» حيثُ وُجِد في الكتابِ والسُّنَّةِ؛ بل وفي كلامِ العربِ -نَظْمِه ونَثْرِه- إنَّما يُرادُ به المفيدُ الَّتي تُسمِّيها النُّحاةُ: «جملةً تامَّةً»، وذلك كقولِه تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[٣]، وهي لا إلهَ إلَّا اللهُ.

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ هذا مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّ أهلَ الحُدَيبيَةِ الَّذين أُلزِموا هذه الكَلِمةَ ماتوا كُلُّهم على الإسلامِ[٤].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ فيه سُؤالٌ: ما فائِدةُ قَولِه: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ بعدَ قَولِه: ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾؟

الجوابُ: الضَّميرُ في ﴿بِهَا﴾ لِكَلِمةِ التوحيد، وفي (أَهْلَهَا) للتَّقْوى؛ فلا تَكرارَ[٥].

١١- إنْ قيل: ما مِن أحدٍ إلَّا وهو حَقيقٌ بقَولِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فما معنَى قَولِه تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾؟

الجوابُ: هو إشعارٌ بأنَّ اللهَ تعالى اصْطَفاهم لدِينِه، وأخلَصَهم لمعرفتِه، وأهَّلَهم لتَوحيدِه؛ فكانوا أحَقَّ بها لِمَوضِعِ اصْطِفاءِ اللهِ تعالى إيَّاهم، حيث جعَلَهم مِن أهلِ السَّعادةِ[٦].

١٢- قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٨٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣١٦).

ﭐللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ في الآيةِ لَطائفُ مَعنويَّةٌ؛ وهو أنَّه تعالَى أبانَ غايةَ البَونِ بيْنَ الكافرِ والمؤمنِ، بايَنَ بيْنَ الفاعِلَينِ؛ إذ فاعلُ ﴿جَعَلَ﴾ هو الكُفارُ، وفاعلُ (أَنْزَلَ) هو اللهُ تعالى، وبيْنَ المفعولَينِ؛ إذ تلك حَمِيَّةٌ، وهذه سَكينةٌ، وبيْنَ الإضافتَينِ؛ أضافَ الحَمِيَّةَ إلى الجاهليَّةِ، وأضافَ السَّكينةَ إلى اللهِ تعالَى، وبيْنَ الفِعلِ (جعَلَ وأنزَلَ)؛ فالحَمِيَّةُ مَجعولةٌ في الحالِ في العرَضِ الَّذي لا يَبْقَى، والسَّكينةُ كالمحفوظةِ في خِزانةِ الرَّحمةِ فأنزَلَها. والحميَّةُ قبيحةٌ مذمومةٌ في نفسِها، وازدادَتْ قُبحًا بالإضافةِ إلى الجاهليَّةِ، والسَّكينةُ حسنةٌ في نفسِها، وازدادَتْ حُسنًا بإضافتِها إلى الله تعالى. والعَطفُ في ﴿فَأَنزَلَ﴾ بالفاءِ لا بالواوِ يدُلُّ على المُقابَلةِ، تقولُ: أكرَمَني زَيدٌ فأكرَمْتُه، فدلَّتْ على المُجازاةِ للمُقابَلةِ، وكذلك ﴿جَعَلَ﴾ ﴿فَأَنزَلَ﴾. ولَمَّا كان الرَّسولُ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو الَّذي أجابَ أوَّلًا إلى الصُّلحِ، وكان المؤمِنونَ عازِمينَ على القِتالِ وألَّا يَرجِعوا إلى أهلِهم إلَّا بعْدَ فتْحِ مكَّةَ أو النَّحْرِ في المَنحَرِ، وأبَوْا إلَّا أنْ يَكتُبوا: محمَّدٌ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وباسمِ اللهِ؛ قال تعالَى: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾. ولَمَّا سكَنَ هو صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للصُّلْحِ سكَنَ المؤمِنونَ، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. ولَمَّا كان المؤمِنونَ عندَ اللهِ تعالى أُلزِموا تلك الكلِمةَ قال تعالَى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[1] [الحجرات: ١٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٥٠).

- قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠]، وهذا كفٌّ غيرُ الكَفِّ المُرادِ مِن قَولِه: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾. وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخَبَرِ الفِعليِّ لإفادةِ التَّخصيصِ، أي: القَصرِ، أي: لم يَكُفَّهم عنكم، ولا كَفَّكم عنهم إلَّا اللهُ تعالى، لا أنتُم ولا هم[١].

- وضَمائرُ الغَيبةِ في قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ راجِعةٌ لِلَّذِينَ كَفَروا في قَولِه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الفتح: ٢٢]، ووَجْهُ عَودِه إليه مع أنَّ الَّذين كفَّ اللهُ أيدِيَهم فريقٌ غيرُ الفريقِ الَّذي في قَولِه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ هو أنَّ عُرْفَ كَلامِ العرَبِ جارٍ على أنَّ ما يَصدُرُ مِن بَعضِ القومِ يُنسَبُ إلى القومِ بدونِ تَمْييزٍ[٢].

- وقيل: ﴿أَظْفَرَكُمْ﴾ مُظهِرًا لكم عليهم؛ فتعديةُ الفعلِ بـ (على) لِتضَمُّنِه ما يتعدَّى به، وهو الإظهارُ والاعلاءُ، أي: جعلَكم ذَوي غلَبةٍ تامَّةٍ. وقيل: عُدِّي بـ (على)؛ لِتَضْمينِه معنَى أيَّدَكم[٣]. وقيل: فِعلُ (ظَفِرَ) يَتعَّدى بالباءِ، كما يَتعدَّى بـ (على)، يقال: ظَفِرْتُ بفُلانٍ، وظَفِرْتُ عليه[٤].

- وقولُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ تَذييلٌ لِما قبْلَه[٥].

- قَولُه: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ قُرِئَ بتاءِ الخِطابِ، وقُرِئَ بياءِ الغَيبةِ[٦]، أي: عليمًا بما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٣، ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٦). ويُنظر أيضًا: ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٥). ويُنظر أيضًا: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٧٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٦).

(٦) يُنظر ما تقدَّم في القِراءات ذات الأثَرِ في التَّفسيرِ (ص: ١٣٣).

يَعمَلونَ مِنِ انحدارِهم على غِرَّةٍ منكم، طامِعينَ أنْ يَتمكَّنوا مِن أنْ يَغلِبوكم، وفي كِلْتا القِراءتَينِ اكتِفاءٌ[(١)]، أي: كان اللهُ بما تَعمَلون ويَعمَلون بصيرًا، أو بما يَعمَلون وتَعمَلون بَصيرًا؛ لأنَّ قولَه: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ يُفيدُ عمَلًا لِكُلِّ فريقٍ، أي: عَلِمَ نِيَّاتِكم، فكَفَّها لحِكمةِ استِبقاءِ قُوَّتِكم، وحُسْنِ سُمعَتِكم بيْنَ قَبائلِ العَربِ، وألَّا يجِدَ المشركون ذَريعةً إلى التَّظلُّمِ منكم بالباطلِ[(٢)].

- قَولُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ على قِراءةِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالياءِ؛ ففيه تَهديدٌ للكُفَّارِ[(٣)].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ استِئنافٌ انتقلَ به مِن مَقامِ الثَّناءِ على المؤمنينَ الَّذين بايَعوا

---

(١) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٥).

رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما اكتَسَبوا بتلك البَيعةِ مِن رِضا اللهِ تعالَى، وجَزائِه ثَوابَ الآخِرةِ، وخَيرَ الدُّنيا عاجِلَه وآجِلَه، وضَمانِ النَّصْرِ لهم في قِتالِ المشرِكين، وما هيَّأَ لهم مِن أسبابِ النَّصْرِ؛ إلى تَعييرِ المشرِكين بهذه المَذمَّةِ الَّتي أتَوْا بها بالصَّدِّ عن المسجِدِ الحرامِ، وصَدِّ الهَدْيِ عن أنْ يُبلَغَ به إلى أهلِه؛ فإنَّها سُبَّةٌ لهم بيْنَ العرَبِ، وهم أَوْلى النَّاسِ بالحَفاوةِ بمَن يَعتَمِرونَ، وضميرُ الغَيبةِ ﴿هُمُ﴾ المُفتتَحُ به عائدٌ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِن قولِه: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ [الفتح: ٢٢] الآيةَ. والمقصودُ بالافتتاحِ بضَميرِهم هنا: استِرعاءُ السَّمْعِ لِمَا يَرِدُ بعدَه مِن الخَبرِ[١].

- وذِكرُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إدماجٌ[٢] للنِّداءِ عليهم بوصْفِ الكُفرِ، ولهذا الإدماجِ نُكتةٌ أيضًا، وهي أنَّ وصْفَ الَّذين كفَروا بمَنْزلةِ الجِنسِ فصارَ الموصولُ في قُوَّةِ المُعرَّفِ بلامِ الجِنسِ؛ فتُفيدُ جُملةُ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قصْرَ جِنسِ الكُفرِ على هذا الضَّميرِ؛ لِقَصْدِ المُبالَغةِ؛ لكَمالِهم في الكُفرِ بصَدِّهم المُعتمِرينَ عن المَسجدِ الحرامِ، وصَدِّ الهَدْيِ عن أنْ يَبلُغَ مَحِلَّه[٣].

- وفائدةُ ذِكرِ هذا الحالِ ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ التَّشنيعُ على الَّذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٧).

(٢) الإدماجُ: أن يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضَينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمَعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجَتِ المُبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه تعالى بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ تعالى بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٧).

كفَروا في صَدِّهم المُسلِمينَ عن البَيتِ بأنَّهم صَدُّوا الهَدايا أنْ تَبلُغَ مَحِلَّها؛ إذ اضْطُرَّ المسلمونَ أنْ يَنحَروا هَداياهم في الحُدَيْبيَةِ؛ فقد عطَّلوا بفِعلِهم ذلك شَعيرةً مِن شَعائرِ اللهِ؛ ففي ذِكرِ الحالِ تَصويرٌ لهيئةِ الهَدايا وهي مَحبوسةٌ[1].

- قولُه: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أتْبَعَ النَّعيَ على المشركينَ سُوءَ فِعلِهم مِن الكُفْرِ، والصَّدِّ عن المَسجدِ الحرامِ، وتَعطيلِ شعائرِ اللهِ؛ وَعْدَه المسلمينَ بفتْحٍ قريبٍ ومَغانِمَ كثيرةٍ، بما يَدفَعُ غُرورَ المشركين بقوَّتِهم، ويُسَكِّنُ تَطلُّعَ المسلِمينَ لتَعْجيلِ الفتْحِ؛ فبيَّنَ أنَّ اللهَ كفَّ أيديَ المسلِمينَ عن المشركين معَ ما قرَّره آنِفًا مِن قولِه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٢] أنَّه إنَّما لم يأمُرِ المسلِمينَ بقِتالِ عَدوِّهم لَمَّا صَدُّوهم عن البيتِ؛ لأنَّه أرادَ رحمةَ جَمْعٍ مِن المؤمنينَ والمؤمناتِ كانوا في خِلالِ أهلِ الشِّركِ لا يَعلَمونَهم، وعصَمَ المسلِمينَ مِن الوُقوعِ في مَصائبَ مِن جرَّاءِ إتلافِ إخوانِهم؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾، أو على جُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ [الفتح: ٢٤]، وأيًّا ما كان فهي كَلامٌ مُعترِضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إلخ، وبيْنَ جُملةِ ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ [الفتح: ٢٦]، ونَظْمُ هذه الآيةِ بَديعٌ في أُسلوبَيِ الإطنابِ والإيجازِ، والتَّفنُّنِ في الانتقالِ ورَشاقةِ كَلِماتِه[2].

- وإجْراءُ الوصْفِ على رِجالٍ ونِساءٍ بالإيمانِ في قَولِه: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٨٨، ١٨٩).

وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ ﴾ مُشيرٌ إلى أنَّ وُجودَهم المانعَ مِن حُصولِ مَضمونِ الجَوابِ، هو الوجودُ الموصوفُ بإيمانِ أصحابِه، ولكنَّ الامتِناعَ ليس مُعلَّقًا على وُجودِ الإيمانِ، بل على وُجودِ ذَواتِ المؤمنينَ والمؤمناتِ بيْنَهم[١].

- ووَجْهُ عَطْفِ ﴿وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ ﴾ -مع أنَّ وُجودَ ﴿رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ ﴾ كافٍ في ربْطِ امتِناعِ الجوابِ بالشَّرطِ، ومع التَّمكُّنِ مِن أنْ يقولَ: ولولا المؤمِنونَ؛ فإنَّ جَمْعَ المذكَّرِ في اصطلاحِ القرآنِ يَتناولُ النِّساءَ غالبًا- أنَّ تَخصيصَ النِّساءِ بالذِّكرِ أنسَبُ بمعنَى انتفاءِ المَعرَّةِ بقَتْلِهنَّ، وبمعنى تَعلُّقِ رَحمةِ اللهِ بهنَّ[٢]. ولأنَّ الموضِعَ مَوضِعُ وَهْمِ اختِصاصِ الرِّجالِ بالحُكمِ، فقال: والنِّساءُ المُؤمِناتُ أيضًا؛ لأنَّ تَخريبَ بُيُوتِهنَّ، ويُتْمَ أولادِهنَّ بسَبَبِ رِجالِهنَّ: وَطأةٌ شَديدةٌ، ولأنَّ في مَحَلِّ الشَّفَقةِ تُعَدُّ المواضِعُ لِتَرقيقِ القَلبِ، يُقالُ لِمَن يُعَذِّبُ شَخصًا: لا تُعَذِّبْه وارحَمْ ذُلَّه وفَقْرَه وضَعْفَه، وأولادَه وصِغارَه وأهلَه الضُّعَفاءَ العاجِزينَ! فكذلك هاهنا قال: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ ﴾؛ لِتَرقيقِ قُلوبِ المُؤمِناتِ، ورِضاهم بما جَرى مِنَ الكَفِّ بعدَ الظَّفَرِ[٣].

- والباءُ في ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ للمُلابَسةِ، أي: مُلابِسينَ لانتِفاءِ العِلمِ[٤].

- قَولُه: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ﴿لِّيُدۡخِلَ ﴾ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ دلَّ عليه المعنى، أي: كان انتِفاءُ التَّسليطِ على أهلِ مكَّةَ، وانتفاءُ العذابِ ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾، وهذا المَحذوفُ هو مَفهومٌ مِن جَوابِ (لو)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٣، ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٧).

- وقولُه: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ تَعليلٌ للكَفِّ عن قِتالِ المؤمنينَ غَيرِ المعروفينَ المُقيمين وسَطَ الكفَّارِ[١].

- و﴿مَن يَشَآءُ﴾ يعُمُّ كلَّ مَن أرادَ اللهَ مِن هذه الحالةِ رَحمتَه في الدُّنيا والآخِرةِ، أو فيهما معًا، وعبَّرَ بقولِه: ﴿مَن يَشَآءُ﴾؛ لِمَا فيه مِن شُمولِ أصنافٍ كثيرةٍ، ولِمَا فيه مِن الإيجازِ، ولِمَا فيه مِن الإشارةِ إلى الحِكمةِ الَّتي اقتَضَتْ مَشيئةُ اللهِ رحمةَ أولئك[٢].

- قَولُه: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ﴾ إلى آخِرِها، أي: لولا وُجودُ رجالٍ مؤمنينَ... إلخ، مُندمِجينَ في جَماعةِ المشركينَ غيرِ مُفترِقينَ؛ لو افترَقوا لَعذَّبْنا الكافرينَ منهم[٣].

- والتَّزيُّلُ: مُطاوِعُ زيَّلَه؛ إذا أبعَدَه عن مكانٍ، وزيَّلَهم، أي: أبْعَدَ بَعضَهم عن بعضٍ، أي: فرَّقَهم، وهو هنا بمَعنى التَّفرُّقِ والتَّميُّزِ مِن غَيرِ مُراعاةِ مُطاوَعةٍ لفِعلِ فاعلٍ؛ لأنَّ أفعالَ المُطاوَعةِ كثيرًا ما تُطلَقُ لإرادةِ المُبالَغةِ؛ لدَلالةِ زِيادةِ المَبْنى على زِيادةِ المَعنى، والمعنى: لو تفرَّقَ المؤمنونَ والمؤمناتُ عن أهلِ الشِّرْكِ لَسَلَّطْنا المسلمينَ على المُشركين فعذَّبوا الَّذين كفَروا عَذابَ السَّيفِ؛ فإسنادُ التَّعذيبِ إلى اللهِ تعالى لأنَّه يَأمُرُ به، ويُقدِّرُ النَّصرَ للمُسلِمينَ[٤].

- وعُدِلَ عن ضَميرِ الغَيبةِ إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ في قَولِه: ﴿لَعَذَّبۡنَا﴾ على طَريقةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الالتِفاتِ[١].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ للتَّبعيضِ، أي: لَعذَّبْنا الَّذين كَفَروا مِن ذلك الجَمْعِ المُتفرِّقِ المتميِّزِ مُؤمِنُهم عن كافرِهم، أي: حينَ يَصيرُ الجمْعُ مُشركين خُلَّصًا وحْدَهم[٢].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ...﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بفِعلِ (صَدُّوكُمْ) [الفتح: ٢٥] -وذلك على قولٍ-؛ فكان تَعليقُ هذا الظَّرْفِ بفِعلِ ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ مُشعِرًا بتَعليلِ الصَّدِّ، بكَونِه حَمِيَّةَ الجاهليَّةِ؛ ليُفيدَ أنَّ الحَمِيَّةَ مُتمكِّنةٌ منهم، تَظهَرُ منها آثارُها، فمنها الصَّدُّ عن المسجِدِ الحرامِ[٣].

- وجُملةُ ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ عطْفُ بَيانٍ للحَميَّةِ، قُصِدَ مِن إجمالِه ثمَّ تَفصيلِه تَقريرُ مَدْلولِه وتأْكيدُه ما يَحصُلُ لو قال: إذ جعَلَ الَّذين كَفَروا في قُلوبِهم حَميَّةَ الجاهليَّةِ[٤].

- وإضافةُ الحَميَّةِ إلى الجاهليَّةِ؛ لقَصْدِ تَحقيرِها وتَشنيعِها؛ فإنَّها مِن خُلُقِ أهلِ الجاهليَّةِ؛ فإنَّ ذلك انتِسابُ ذمٍّ في اصطلاحِ القُرآنِ[٥]، والحَميَّةُ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نفْسِها صِفةٌ مَذمومةٌ، وبالإضافةِ إلى الجاهليَّةِ تَزدادُ قُبحًا[١].

- وإضافةُ السَّكينةِ إلى ضَميرِ اللهِ تعالَى إضافةُ تَشريفٍ؛ لأنَّ السَّكينةَ مِن الأخلاقِ الفاضلةِ[٢]، فهي في نفْسِها وإنْ كانت حسَنةً، لكنَّ الإضافةَ إلى اللهِ فيها مِنَ الحُسنِ ما لا يَبقى معه لِحُسْنٍ اعتِبارٌ[٣].

- والآيةُ مِنَ الاحتِباكِ[٤]: ذكَرَ حَمِيَّةَ الجاهليَّةِ أوَّلًا دليلًا على ضِدِّها ثانيًا، وكَلِمةَ التَّقْوى ثانيًا دليلًا على ضِدِّها أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذكَرَ مَجْمَعَ الشَّرِّ أوَّلًا؛ تَرهيبًا منه، ومَجمَعَ الخَيرِ ثانيًا؛ تَرغيبًا فيه[٥].

- قَولُه: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾ جِيءَ بفِعلِ (كانوا)؛ لدَلالتِها على أنَّ هذه الأحقِّيَّةَ راسخةٌ فيهم، حاصِلةٌ في الزَّمنِ الماضي، أي: في قَدَرِ اللهِ تعالَى، والمعنى: أنَّ نُفوسَ المؤمنينَ كانتْ مُتهيِّئةً لِقَبولِ كَلمةِ التَّقوى والتزامِها بما أرشَدَها اللهُ إليه. والمُفضَّلُ عليه مُقدَّرٌ دلَّ عليه ما تقدَّمَ، أي: أحَقَّ بها مِن الَّذين كفَروا؛ لأنَّ اللهَ قدَّرَ لهم الاستِعدادَ للإيمانِ دونَ الَّذين أصَرُّوا على الكُفرِ[٦].

- وقولُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ تَذْييلٌ، وسَبَق في عِلْمِ اللهِ ذلك في عُمومِ ما أحاطَ به عِلْمُ اللهِ مِن الأشياءِ مَجرَى تَكوينِه على نَحوِ عِلْمِه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٤).

(٤) تقدَّم تعريفه (ص: ٦٥).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٧).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٢٧-٢٨)

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلرُّءْيَا﴾: ما يُرى في المنامِ، وأصلُ (رأى): يدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُؤكِّدًا صِدقَ ما شاهَده النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في رُؤياه: لَقد صَدَقَ اللهُ رَسولَه مُحمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- الرُّؤيا الَّتي رآها في مَنامِه؛ أنَّه يَدخُلُ هو وأصحابُه المَسجِدَ الحَرامَ آمِنينَ، فلَتَدخُلَنَّ -يا مُحمَّدُ- وأصحابُك المَسجِدَ الحَرامَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنينَ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ، مُحَلِّقينَ رُؤوسَكم ومُقَصِّرينَ، لا تَخافونَ.

فعَلِمَ اللهُ ما لم تَعلَموه مِنَ المصالحِ والمَنافِعِ في مَنْعِكم مِن دُخولِ مَكَّةَ عامَ الحُدَيبيَةِ، وتأخيرِ دُخولِكم إلى العامِ الَّذي يَليه، فجعَل اللهُ لكم فَتحًا قَريبًا، وهو صُلحُ الحُدَيبيَةِ.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا الحِكمةَ مِن إرسالِه نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم: واللهُ هو الَّذي بَعَث رَسولَه مُحمَّدًا بالعِلمِ النَّافِعِ، وبَعَثه بدينِ الإسلامِ الحَقِّ؛ لِيُعلِيَ اللهُ الإسلامَ على جَميعِ الأديانِ الأُخرى، وكفَى باللهِ شَهيدًا.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٥).

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قَرَّر اللهُ سُبحانَه وتعالى عِلْمَه بالعواقِبِ؛ لإحاطةِ عِلْمِه، ووَجَّهَ أسبابَ كَفِّه أيديَ الفَريقَينِ، وبَيَّنَ ما فيه مِنَ المصالِحِ، وما في التَّسليطِ مِن المفاسِدِ؛ مِن قَتلِ مَن حَكَم بإيمانِه مِن المُشرِكينَ، وإصابةِ مَن لا يُعلَمُ مِن المُؤمِنينَ، وغيرِ ذلك، إلى أنْ خَتَم بإحاطةِ عِلْمِه المُستَلزِمِ لِشُمولِ قُدرتِه- أنتَجَ ذلك قَولَه لِمَن توقَّعَ الإخبارَ عن الرُّؤيا الَّتي أقلَقَهم أمْرُها، وكاد بَعضُهم أن يُزلزِلَه ذِكْرُها، على سَبيلِ التَّأكيدِ[(١)]:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: لقد حقَّق اللهُ رُؤيا رَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الَّتي رآها في مَنامِه؛ أنَّه يَدخُلُ هو وأصحابُه المَسجِدَ الحَرامَ آمِنينَ[(٢)].

عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمةَ، ومَرْوانِ بنِ الحَكَمِ في قِصَّةِ صُلحِ الحُدَيبِيَةِ، قالا:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٢، ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابن عاشور: (معنى ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾: أنَّه أراهُ رُؤيا صادقةً؛ لأنَّ رُؤيا الأنبياءِ وحْيٌ، فآلَت إلى مَعنى الخبَرِ؛ فوُصِفَت بالصِّدقِ لذلك، وهذا تَطمينٌ لهم بأنَّ ذلك سيَكونُ لا مَحالةَ، وهو في حينِ نُزولِ الآيةِ لَمَّا يَحصُلْ؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٩، ١٤٠).

((... قال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ: فأتَيتُ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلتُ: ألَسْتَ نبَيَّ اللهِ حَقًّا؟ قال: بلى. قلتُ: ألَسْنا على الحَقِّ، وعَدُوُّنا على الباطِلِ؟ قال: بلى. قلتُ: فلِمَ نُعطي الدَّنِيَّةَ في دِينِنا إذًا؟! قال: إنِّي رَسولُ اللهِ، ولَستُ أعصِيه، وهو ناصِري. قلتُ: أوَلَيس كنتَ تُحَدِّثُنا أنَّا سنَأتي البَيتَ فنَطُوفُ به؟! قال: بلى. فأخبَرْتُك أنَّا نأتيه العامَ؟ قال: قُلتُ: لا. قال: فإنَّك آتِيهِ ومُطَّوِّفٌ به. قال: فأتَيتُ أبا بَكرٍ، فقُلتُ: يا أبا بَكرٍ، أليسَ هذا نَبيَّ اللهِ حَقًّا؟ قال: بلى. قُلتُ: ألَسْنا على الحَقِّ وعَدُوُّنا على الباطِلِ؟ قال: بلى. قُلتُ: فلِمَ نُعطي الدَّنِيَّةَ في دينِنا إذًا؟! قال: أيُّها الرَّجُلُ، إنَّه لَرَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وليس يَعصي رَبَّه، وهو ناصِرُه. فاستَمْسِكْ بغَرْزِه[1]؛ فواللهِ إنَّه على الحَقِّ. قلتُ: أليس كان يُحَدِّثُنا أنَّا سنأتي البَيتَ ونَطُوفُ به؟! قال: بلى. أفأخبَرَك أنَّك تأتيه العامَ؟! قُلتُ: لا. قال: فإنَّك آتِيه ومُطَّوِّفٌ به))[2].

﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

أي: أُقسِمُ لَتَدخُلُنَّ[3] المَسجِدَ الحَرامَ إنْ شاءَ اللهُ وأنتم آمِنونَ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ[4].

---

(١) المعنى: تمسَّكْ بأمْرِه ولا تُخالِفْه، كما يتمسَّكُ المرءُ بالغَرْزِ أي: بِركابِ الرَّاكِبِ (وهو ما يضعُ فيه قدمَه)، فلا يُفارِقُه، بلْ يَسيرُ بسَيرِه. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ٥٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٥٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٣٤٦)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطلَّاني (٤/ ٤٥٠).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٣) قال الرازي: (وقولُه: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾، جازَ أنْ يَكونَ تفسيرًا لِلرُّؤْيا، يعني الرُّؤْيا هي: واللهِ لَتَدْخُلُنَّ، وعلى هذا تَبَيَّن أنَّ قولَه: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ كان في الكلامِ؛ لأنَّ الرُّؤْيا كانت كلامًا. ويحتملُ أنْ يكونَ تَحْقيقًا لقولِه تعالَى: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ﴾ يعني: واللَّهِ لَيَقَعَنَّ الدُّخولُ، ولَيَظهرَنَّ الصِّدقُ؛ فـ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾ ابتِداءُ كلامٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥). =

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خرَجَ مُعتَمِرًا، فحالَ كُفَّارُ قُرَيشٍ بَيْنَه وبيْنَ البَيتِ، فنَحَر هَدْيَه، وحَلَقَ رَأسَه بالحُدَيبِيَةِ، وقاضاهم[1] على أن يَعتَمِرَ العامَ المُقبِلَ، ولا يَحمِلَ سِلاحًا عليهم إلَّا سُيوفًا، ولا يُقيمَ بها إلَّا ما أحَبُّوا، فاعتَمَر مِنَ العامِ المُقبِلِ، فدخَلَها كما كان صالَحَهم، فلمَّا أقام بها ثلاثًا أمَرُوه أن يَخرُجَ، فخَرَج))[2].

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾.

أي: وبَعضُكم سيَحلِقُ شَعرَ رأسِه، وبَعضُكم سيُقَصِّرُه[3].

= قال السمعاني: (هذا التَّحقيقُ [أي: للرؤيا] حَصَل في العامِ الثَّاني حينَ اعتَمَروا عُمرةَ القَضاءِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٠٧).

وقال ابن كثير: (﴿... لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذا لِتَحقيقِ الخبَرِ وتَوكيدِه، وليس هذا مِنَ الاستِثناءِ في شَيءٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦).

وقال ابن تيميَّة: (قولُه: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لا يُتَصَوَّرُ فيه شَكٌّ مِن اللهِ؛ بل ولا مِن رَسولِه المخاطَبِ والمؤمنينَ... فقولُه سبحانَه: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تحقيقُ أنَّ ما وَعَدْتُكم به يكونُ لا مَحالةَ بمَشيئَتي وإرادَتي؛ فإنَّ ما شِئْتُ كانَ، وما لم أشأْ لم يَكُنْ؛ فكانَ الاستثناءُ هنا لِقَصدِ التَّحقيقِ؛ لِكَونِهم لم يَحْصُلْ لهم مَطْلوبُهم الَّذي وُعِدوا به ذلك العامَ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٤٥٤، ٤٥٧).

وفي قولِه تعالى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أقوالٌ أخرى، سيأتي ذِكرُها في الفوائدِ العلميَّةِ واللَّطائفِ (ص: ١٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٧).

(١) قاضاهم: أي: صالَحهم. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلَّاني (٦/ ٣٨١).

(٢) رواه البخاري (٢٧٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال القرطبي: (التَّحليقُ والتَّقصيرُ جَميعًا للرِّجالِ؛ ولذلك غَلَّب المذكَّرَ على المُؤَنَّثِ، والحَلقُ أفضَلُ، وليس للنِّساءِ إلَّا التَّقصيرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حالٌ مُقَدَّرةٌ؛ لأنَّهم في حالِ دُخولِهم لم =

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((حَلَق رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحَلَق طائِفةٌ مِن أصحابِه، وقصَّرَ بَعْضُهم. قال عبدُ اللهِ: إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: رَحِمَ اللهُ المحَلِّقينَ -مرَّةً أو مرَّتَينِ- ثمَّ قال: والمُقَصِّرينَ))[١].

﴿لَا تَخَافُونَ﴾.

أي: ولا يَحصُلُ لكم خَوفٌ[٢].

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾.

أي: فعَلِمَ اللهُ ما لم تَعلَموه أنتم -أيُّها المُؤمِنونَ- مِنَ المصالحِ والمَنافِعِ في مَنْعِكم مِن دُخولِ مَكَّةَ عامَ الحُدَيبيَةِ، وتأخيرِ دُخولِكم إلى العامِ الَّذي يَليه[٣].

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

أي: فقدَّر اللهُ لكم قبْلَ دُخولِكم المَسجِدَ الحَرامَ في العامِ التَّالي فَتحًا قَريبًا،

= يَكونوا مُحَلِّقينَ ومُقَصِّرينَ، وإنَّما كان هذا في ثاني الحالِ، كان مِنهم مَن حَلَق رأسَه، ومِنهم مَن قَصَّرَه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦).

(١) رواه البخاريُّ (١٧٢٧)، ومسلمٌ (١٣٠١) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: حالٌ مُؤَكِّدةٌ في المعنى، فأثبَتَ لهم الأمْنَ حالَ الدُّخولِ، ونفَى عنهم الخَوفَ حالَ استِقرارِهم في البَلَدِ؛ لا يَخافونَ مِن أحَدٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابن عطية: (قَولُه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يُريدُ ما قدَّره مِن ظُهورِ الإسلامِ في تلك المُدَّةِ، ودُخولِ النَّاسِ فيه، وما كان أيضًا بمكَّةَ مِن المؤمِنينَ؛ دَفَع اللهُ بهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠).

وهو صُلحُ الحُدَيبيَةِ[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٠، ٢٠١).

قال القرطبي: (﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: مِن دُونِ رُؤيا النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَتحَ خَيبَرَ. قاله ابنُ زَيدٍ، والضَّحَّاكُ. وقيل: فَتحُ مَكَّةَ. وقال مجاهِدٌ: هو صُلحُ الحُدَيبيَةِ. وقاله أكثَرُ المفَسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١).

وممَّن قال بأنَّه فَتحُ خَيبَرَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والسمعاني، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٧٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٣).

ومِمَّن قال بأنَّه صُلحُ الحُدَيبيَةِ: الواحديُّ، وابنُ جُزَي، وابن القيِّم، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٩٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٣٩٠) و (٩/ ١٣٧).

ونسَبَه البغويُّ، والخازنُ، والشوكانيُّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٥).

وقيل: المرادُ: فتحُ خَيبَرَ، وصُلحُ الحُدَيبيَةِ. ومِمَّن ذهب إلى الجَمعِ بيْنَهما: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٥).

وذهبَ ابنُ عَطيَّةَ إلى العُموم، فقال: (يَحسُنُ أن يكونَ الفَتحُ هنا اسمَ جِنسٍ يَعُمُّ كُلَّ ما وَقَع مِمَّا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيه ظهورٌ وفَتحٌ عليه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠).

وقال ابنُ عاشور: (هذا الفَتحُ أوَّلُه هو فَتحُ خَيبَرَ الَّذي وَقَع قبْلَ عُمرةِ القَضيَّةِ، وهذا القَريبُ مِن وَقتِ الصُّلحِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠١).

وقال ابن القيِّم: (﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو صُلحُ الحُدَيبيَةِ، وهو أوَّلُ الفَتحِ المذكورِ في قَولِه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]؛ فإنَّ بسَبَبِه حَصَل مِن مَصالحِ الدِّينِ =

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ فيها تأكيدًا لِصِدقِ رُؤْيا النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَبشيرًا بفَتحِ مكَّةَ[١].

وأيضًا لَمَّا كانت هذه الواقعةُ -أي: رُجوعُهم يَومَ الحُدَيْبِيَةِ مِن غَيرِ دُخولٍ لِمَكَّةَ- ممَّا تَشَوَّشَتْ بها قلوبُ بعضِ المؤمِنينَ، وخَفِيَتْ عليهم حِكمتُها، فبيَّن اللهُ تعالى حِكمتَها ومَنفعتَها، وهكذا سائرُ أحكامِه الشَّرعيَّةِ؛ فإنَّها كلَّها هُدًى ورحمةٌ- أَخبَرَ بحُكمٍ عامٍّ، فقال[٢]:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي بَعَث رَسولَه مُحمَّدًا بالعِلمِ النَّافِعِ المُشتَمِلِ على بَيانِ الحَقِّ، وبَعَثه بدِينِ الإسلامِ المُشتَمِلِ على الأعمالِ الصَّالحةِ، وشرائِعِ الدِّينِ الكامِلةِ[٣].

= والدُّنيا، والنَّصرِ، وظُهورِ الإسلامِ وبُطلانِ الكُفرِ- ما لم يَكونوا يَرجُونَه قبْلَ ذلك، ودخَلَ النَّاسُ بَعضُهم في بَعضٍ، وتكَلَّم المسلمونَ بكَلِمةِ الإسلامِ وبراهينِه وأدِلَّتِه جَهرةً لا يخافون، ودخَلَ في ذلك الوَقتِ في الإسلامِ قَريبٌ مِمَّن دخل فيه إلى ذلك الوَقتِ، وظهر لكُلِّ أحدٍ بَغيُ المُشرِكينَ وعَداوتُهم وعِنادُهم، وعَلِمَ الخاصُّ والعامُّ أنَّ مُحمَّدًا وأصحابَه أَولى بالحَقِّ والهدى، وأنَّ أعداءَهم ليس بأيديهم إلَّا العُدوانُ والعِنادُ؛ فإنَّ البَيتَ الحرامَ لم يُصَدَّ عنه حاجٌّ ولا مُعتَمِرٌ مِن زَمَنِ إبراهيمَ؛ فتحَقَّقَت العرَبُ عِنادَ قُرَيشٍ وعَداوتَهم، وكان ذلك داعِيةً لِبَشَرٍ كَثيرٍ إلى الإسلامِ، وزاد عِنادُ القَومِ وطُغيانُهم، وذلك مِن أكبرِ العَونِ على نُفوسِهم، وزاد صَبرُ المُؤمِنين واحتِمالُهم والتِزامُهم لحُكمِ اللهِ وطاعةِ رَسولِه، وذلك مِن أعظَمِ أسبابِ نَصْرِهم، إلى غيرِ ذلك مِن الأُمورِ الَّتي عَلِمَها اللهُ ولم يَعْلَمْها الصَّحابةُ). ((شفاء العليل)) (ص: ٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٣٤)، ((الجواب =

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

أي: أرسَلَ اللهُ رَسولَه بالهُدى ودِينِ الحَقِّ؛ لِيُعلِيَ اللهُ الإسلامَ على جَميعِ الأديانِ الأُخرى(١).

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَذهَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ حتَّى تُعبَدَ اللَّاتُ والعُزَّى! فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنْ كُنتُ لَأَظُنُّ حينَ أنزَلَ اللهُ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ

= الصحيح)) لابن تيمية (١/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٢٣٩) و(٦/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٢).

قال ابنُ عطيَّة: (إعلامٌ بأنَّه يُظهِرُه على جميعِ الأديانِ، ورأى بَعضُ النَّاسِ لَفظةَ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ تَقتَضي مَحْوَ غَيرِه به؛ فلذلك قالوا: إنَّ هذا الخبَرَ يَظهَرُ للوُجودِ عندَ نُزولِ عيسى ابنِ مَريمَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّه لا يَبقى في وَقتِه غيرُ دينِ الإسلامِ، وهو قَولُ الطَّبَريِّ والثَّعلبيِّ. ورأى قَومٌ أنَّ الإظهارَ هو الإعلاءُ وإنْ بَقِيَ مِن الدِّينِ الآخَرِ أجزاءٌ، وهذا موجودٌ الآنَ في دينِ الإسلامِ؛ فإنَّه قد عمَّ أكثَرَ الأرضِ، وظهَرَ على كُلِّ دينٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٠).

وقال ابن جرير: (هذا إعلامٌ مِنَ اللهِ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والَّذين كَرِهوا الصُّلحَ يومَ الحُدَيبيَةِ مِن أصحابِه: أنَّ اللهَ فاتِحٌ عليهم مكَّةَ وغَيرَها مِن البُلدانِ، مُسَلِّيَهم بذلك عمَّا نالَهم مِن الكآبةِ والحُزنِ بانصِرافِهم عن مكَّةَ قبْلَ دُخولِهمُوها، وقبْلَ طَوافِهم بالبَيتِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠، ٣٢١).

وقال ابنُ القيِّم: (أخبَرَهم بأنَّه هو الَّذي أرسَلَ رَسولَه بالهُدى ودينِ الحَقِّ؛ لِيُظهِرَه على الدِّينِ كُلِّه؛ فقد تكَفَّل اللهُ لهذا الأمرِ بالتَّمامِ والإظهارِ على جميعِ أديانِ أهلِ الأرضِ؛ ففي هذا تقويةٌ لِقُلوبِهم، وبِشارةٌ لهم وتَثبيتٌ، وأن يَكونوا على ثِقةٍ مِن هذا الوَعدِ الَّذي لا بُدَّ أن يُنجِزَه؛ فلا تَظُنُّوا ما وقع مِنَ الإغماضِ والقَهرِ يومَ الحُدَيبيَةِ نُصرةً لِعَدُوِّه، ولا تخَلِّيًا عن رَسولِه ودِينِه، كيف وقد أرسَلَه بدِينِه الحَقِّ، ووَعَده أن يُظهِرَه على كُلِّ دينٍ سِواه؟!). ((زاد المعاد)) (٣/ ٢٨٠).

لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣] أنَّ ذلك تامًّا! قال: إنَّه سيَكونُ مِن ذلك ما شاء اللهُ!))[١].

وعن ثَوْبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ زَوَى[٢] ليَ الأرضَ، فرأيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سيَبلُغُ مُلكُها ما زُوِيَ لي منها))[٣].

وعن تَميم الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لَيَبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بَلَغ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ[٤] إلَّا أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ))[٥].

وعن خبَّابِ بنِ الأرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((شَكَوْنا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدةً[٦] له في ظِلِّ الكَعبةِ، قُلْنا له: ألَا تَستَنصِرُ لنا،

---

(١) رواه مسلم (٢٩٠٧).

(٢) أي: قبَضَها وجمَعَها لي. يُنظر: ((معالم السنن)) للخَطَّابي (٤/ ٣٣٩)، ((المفهم)) للقرطبي (٧/ ٢١٦)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣).

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٤) المَدَر: البيتُ المبنيُّ مِن الطِّينِ، والوَبَر: مِن الشَّعرِ، والعربُ تُعَبِّرُ عن أهل الحضرِ بأهلِ المَدَرِ، وعن أهلِ الباديةِ بأهلِ الوَبَرِ؛ لأنَّهم يَتَّخِذون بُيوتَهم مِن الوَبَرِ. يُنظر: ((المفهم)) للقرطبي (٧/ ٢٨٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٥٢).

(٥) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧) واللَّفظُ له، والحاكم (٨٣٢٦)، والبيهقي (١٩٠٩٠).
صحَّحه الحاكِمُ على شَرطِ الشَّيخَينِ، وقال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وقال الألباني في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): (على شَرطِ مُسلِمٍ). وصَحَّح إسنادَه على شرطِ مُسلِمٍ: شُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨/ ١٥٥).

(٦) أي: جعَلها وِسادةً (أي: مِخَدَّةً) له تحتَ رأسِه، والبُرْدةُ: كِساءٌ أسْوَدُ مربَّعٌ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٤٤٧) و (٢/ ٥٥٠)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١٠/ ٩٦).

أَلَا تَدْعو اللهَ لنا؟! قال: كان الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه فيُشَقُّ باثنَتَينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دِينِه! ويُمشَطُ بأمشاطِ الحَديدِ ما دونَ لَحمِه مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه! واللهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأمرَ، حتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ، لا يخافُ إلَّا اللهَ أو الذِّئبَ على غَنَمِه، ولكِنَّكم تَستَعجِلونَ!))[1].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

أي: ويَكفي أن يَكونَ اللهُ شاهِدًا على أنَّه مُظهِرٌ دِينَه، وعلى أنَّ مُحمَّدًا رَسولُه، صلَّى الله عليه وسلَّم[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٥).

مِمَّن ذهب إلى أنَّ المعنى أنَّه شهيدٌ على أنَّه مُظهِرٌ دِينَه: ابنُ جرير، والرَّسْعَني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣١٩).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ البصريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠).

وقال الزمخشريُّ والنَّسَفيُّ وأبو حيَّان: وكفى بالله شهيدًا على أنَّ ما وعَدَه كائنٌ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٠).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: أنَّه شهيدٌ بأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وأنَّه صادقٌ فيما يُخبِرُ: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنديُّ، والواحدي، والبغوي، والرازي، والقرطبي، والخازنُ، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٨٣).

قال البِقاعي: (وهو يَشهَدُ بكُلِّ ما أخبَر به رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذه السُّورةِ خصوصًا، وفي غيرِها عمومًا). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٣٧).

وقال الشوكاني: (كَفَى اللهُ شَهيدًا على هذا الإظْهارِ الَّذي وَعَدَ المُسلِمينَ به، وعلى صحَّةِ نُبُوَّةِ =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أنَّ رِسالةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تتضَمَّنُ شَيئَينِ؛ هما: العِلمُ النَّافِعُ، والعَمَلُ الصَّالِحُ؛ فالهُدى هو: العِلمُ النَّافِعُ، ودِينُ الحَقِّ هو: العَمَلُ الصَّالِحُ الَّذي اشتمَلَ على الإخلاصِ للهِ، والمُتابَعةِ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾ لَمَّا كان للنَّظَرِ إلى الرُّؤيا اعتِبارانِ: أحَدُهما مِن جِهةِ الواقِعِ، وهو غَيبٌ عن الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهم أجمَعينَ، والآخَرُ مِن جِهةِ الإخبارِ، وهو مع الرُّؤيا شَهادةٌ بالنِّسبةِ إليه سُبحانَه وتعالى- عَبَّرَ بالصِّدقِ والحَقِّ(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، فيه سؤالٌ: ما وجْهُ التَّعليقُ بمَشيئةِ اللهِ -تعالى- في إخبارِه؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّه ذكَرَه تعليمًا للعِبادِ الأدَبَ، وتأكيدًا لقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(٣) [الكهف: ٢٣، ٢٤].

= نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٦).

قال الشنقيطي: (قال علماءُ البصرةِ: المرادُ بالتَّقييدِ بالمشيئةِ في هذا الأمرِ المُحَقَّقِ: هو تعليمُ الخَلْقِ ألَّا يَتكلَّموا عن أمرٍ مُستقبَلٍ إلَّا مُعَلِّقينَ بمشيئةِ اللهِ، وإنَّما جِيءَ بالأمرِ المُحَقَّقِ لِتَوكيدِ ذلك، وأنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أن يَتحدَّثَ عن مُستقبَلٍ أنَّه سيَقَعُ أو سيَفعَلُ إلَّا إذا قُيِّدَ بمشيئةِ اللهِ، =

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الاستِثناءَ في دُخولِ جميعِهم؛ إذْ عُلِم أنَّ بعضَهم يَموتُ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾ مِن قَولِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لأصحابِه، حكايةً عن رُؤْياهُ؛ فيَكونُ الاستِثناءُ في الرُّؤْيا، لا في خبرِ اللهِ.

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّ (إنْ) بمعنى (إذْ)؛ أي: إذْ شاء اللهُ[(١)].

الوجهُ الخامسُ: أنَّ الدُّخولَ لَمَّا لم يقَعْ عامَ الحُدَيبيَةِ، وكان المؤمِنونَ يُريدونَ الدُّخولَ، ويأبَوْنَ الصُّلحَ، قال: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾، ولكنْ لا بجَلادتِكم، ولا بإرادتِكم، إنَّما تَدْخُلون بمَشيئةِ اللهِ تعالى.

الوجهُ السَّادسُ: أنَّ ذلك تحقيقًا للدُّخولِ؛ وذلك لأنَّ أهلَ مكَّةَ قالوا: لا تَدْخُلوها إلَّا بإرادتِنا، ولا نُريدُ دُخولَكم في هذه السَّنةِ، ونَختارُ دُخولَكم في السَّنةِ القابِلةِ، والمؤمِنونَ أرادوا الدُّخولَ في عامِهم، ولم يَقَعْ؛ فكان لِقائلٍ أن يَقولَ: بقيَ الأمرُ موقوفًا على مَشيئةِ أهلِ مكَّةَ: إنْ أرادوا في السَّنةِ الآتيةِ يَتْرُكونَنا نَدخُلُها، وإنْ كَرِهوا لا نَدخُلُها، فقال: لا تُشترَطُ إرادتُهم ومشيئتُهم، بل تمامُ الشَّرطِ بمَشيئةِ اللهِ[(٢)].

الوجهُ السَّابعُ: أنَّها للتَّبرُّكِ[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ أنَّ الشَّيءَ

= كما قال اللهُ لنبيِّه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]). ((العذب النمير)) (٢/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٣٣٢، ١٣٣٣).

قال ابنُ عطيَّةَ: (وهذا حسَنٌ في معناه، ولكنْ كَوْنُ «إنْ» بمعنَى «إذْ» غيرُ موجودٍ في لسانِ العربِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٥).

المُحَقَّقَ قد يُربَطُ بالمشيئةِ؛ إشارةً إلى أنَّه واقِعٌ بمشيئةِ اللهِ[١].

٤- جوازُ الاستِثناءِ في الإيمانِ إذا كان للتَّعليلِ، بمعنى: أنا مُؤمِنٌ بمشيئةِ اللهِ؛ لأنَّ هذه هي الحقيقةُ، والدَّليلُ على ذلك قَولُه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾؛ فالتَّعليقُ هنا ليس للتَّرَدُّدِ؛ لأنَّ اللهَ غيرُ متردِّدٍ، وإنَّما هو لبيانِ العِلَّةِ، وهي أنَّ دُخولَكم بمَشيئةِ اللهِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أنَّ الحَلْقَ والتَّقصيرَ نُسُكٌ في الحجِّ والعُمرةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وصَفَهم به، بقَولِه سُبحانَه: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، ولو لم يكُنْ مِنَ المَناسِكِ لَمَا وصَفَهم به[٣]، فجَعَل الحلقَ والتَّقصيرَ شِعارَ النُّسُكِ وعلامَتَه، وعَبَّر عن النُّسُكِ بالحلقِ والتَّقصيرِ، وذلك يَقْتَضي كونَه جزءًا منه وبعضًا له[٤]، قال العُلماءُ: إذا عُبِّرَ بجُزءٍ مِن العبادةِ عن العبادةِ كان دَليلًا على وُجوبِه فيها[٥].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤١٣).

وأهلُ السُّنَّةِ يَستَثنونَ في الإيمانِ أيضًا؛ لأنَّ الإيمانَ المطْلَقَ يتَضَمَّنُ فِعْلَ كلِّ ما أمَر اللهُ به، وتَرْكَ كلِّ ما نَهى عنه، فإذا قال الرَّجُلُ: أنا مُؤْمِنٌ، بهذا الاعتبارِ: فقَدْ شَهِد لنفْسِه أنَّه مِن الأبرارِ المتَّقينَ، القائِمينَ بجميعِ ما أُمِروا به، وترْكِ كلِّ ما نُهُوا عنه! وهذا مِن تزكيةِ الإنسانِ لنفْسِه، ولو كانت هذه الشَّهادةُ صحيحةً، لَكانَ يَنْبَغي أنْ يَشْهَدَ لنفْسِه بالجنَّةِ إنْ ماتَ على هذه الحالِ، وهذا مَأْخَذُ عامَّةِ السَّلَفِ الَّذينَ كانوا يَسْتَثْنونَ. أمَّا إنْ أراد المُسْتَثني الشَّكَّ في أصلِ إيمانِه فإنَّه يُمنَعُ مِن الاستثناءِ، وهذا ممَّا لا خِلافَ فيه. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٤٦)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٤٩٤- ٤٩٨).

(٣) يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٣/ ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الحج)) لابن تيمية (٢/ ٥٤٢).

(٥) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٧/ ٣٩٦).

وَمُقَصِّرِينَ ﴾ فيه أنَّ الحَلْقَ غيرُ مُتعَيِّنٍ في النُّسُكِ، بل يُجْزِئُ عنه التَّقصيرُ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ أنَّه يَجِبُ أنْ يكونَ الحَلْقُ أو التَّقصيرُ شامِلًا لجَميعِ الرَّأسِ؛ فالفِعلُ المضافُ إلى الرَّأسِ يَشمَلُ جَميعَه. وفيه بيانُ خَطَأِ بعضِ النَّاسِ إذا أراد أنْ يَتحَلَّلَ مِن العُمرةِ فإنَّه يُقَصِّرُ شَعَراتٍ قليلةً مِن رأسِه ومِن جِهةٍ واحدةٍ! وهذا خِلافُ ظاهرِ الآيةِ الكريمةِ؛ فلا بُدَّ أنْ يكونَ للتَّقصيرِ أثَرٌ بَيِّنٌ على الرَّأسِ، ومِن المعلومِ أنَّ قَصَّ شَعرةٍ أو شَعرَتينِ أو ثَلاثِ شَعَراتٍ: لا يُؤَثِّرُ، ولا يَظهَرُ على المُعتَمِرِ أنَّه قَصَّرَ، فيَكونُ مخالِفًا لظاهرِ الآيةِ الكَريمةِ[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ فيه اختِصاصُ الحَلقِ والتَّقصيرِ بالرَّأسِ دُونَ اللِّحْيةِ وسائِرِ شَعرِ البَدَنِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أنَّ مَن اتَّبَعَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فإنَّه غالِبٌ، ومعنى «يُظْهِرَه» يُعْلِيَه؛ لأنَّ الظَّهْرَ والظُّهُورَ كِلَاهما يدُلُّ على الغَلَبةِ[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أنَّ الإسلامَ سيَعْلو على جميعِ الأديانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٢/ ٤٥٤) و (٢٤/ ٣٠٢).
ووُجوبُ حلْقِ أو تقصيرِ جميعِ الرَّأسِ هو مذهبُ المالكيَّةِ والحنابلةِ. يُنظر: ((حاشية العدوي)) (١/ ٦٨٣، ٦٨٩)، ((كشاف القناع)) للبهوتي (٢/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٩).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ حُجَّةٌ لأهلِ السُّنَّةِ على كُلِّ مَن أَسَرَّ دينًا مِن أهلِ البِدْعةِ، وكلِّ مَن كان على شَيءٍ يَزعمُ أنَّه مِن الدِّينِ وهو يَستُرُه ولا يُظْهِرُه خَشيةَ إنكارِه! فقد عُرِفَ بُطلانُه قبْلَ أنْ يُسألَ بُرهانَه، واستَوى في مَعرفةِ تزييفِه العالِمُ والجاهِلُ؛ إذْ مِن شَرْطِ الآيةِ أنْ يكونَ بعدَ نُزولِها دينُ الحقِّ ظاهرًا؛ فإنْ كُتِمَ عَدِمَ شَرْطَه المشروطَ فيه، وفي عَدَمِ شَرْطِه دُخولُ الخَلَلِ عليه، وزَوالُ الحقِّ عنه[1].

١٢- كثيرًا ما يَجمَعُ سُبحانَه بيْنَ هَذينِ الأصلَينِ: (الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ)؛ لأنَّ بهما تَمامَ الدَّعوةِ، وظُهورَ دِينِه على الدِّينِ كُلِّه[2].

١٣- قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ عطَفَ دينَ الحَقِّ على الهُدى؛ لِيَشملَ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الأحكامِ؛ أُصولِها وفُروعِها، مِمَّا أُوحِيَ به إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سِوى القُرآنِ مِن كُلِّ وَحيٍ بكَلامٍ لم يُقصَدْ به الإعجازُ، أو كان مِن سُنَّةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

وفيه وَجهٌ آخَرُ: أن يكونَ المرادُ بالهُدى أصولَ الدِّينِ مِن اعتِقادِ الإيمانِ، وفَضائِلِ الأخلاقِ الَّتي بها تَزكيةُ النَّفْسِ، ودينُ الحَقِّ: شَرائِعُ الإسلامِ وفُروعُه[3].

١٤- قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ فيه تَوطينٌ لنُفوسِ المؤمنينَ على أنَّ اللهَ تعالى سيَفتحُ لهم مِن البلادِ،

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٥٢١، ٥٢٢).

وأخرج اللالكائي في ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)) (٢٥١) قولَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ: (إذا رأيْتَ قومًا يَتناجَوْنَ في دينِهم بشيءٍ دونَ العامَّةِ، فاعلَمْ أنَّهم على تأسيسِ ضلالةٍ).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠١).

ويُقيِّضُ لهم مِن الغلَبةِ على الأقاليمِ ما يَستقِلُّون إليه فتحَ مكةَ[١].

١٥- قَولُه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ فيه إثباتُ الشَّهادةِ للهِ[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أنَّ شَهادةَ اللهِ كافيةٌ عن كُلِّ شَهادةٍ[٣].

بلاغةُ الآيتَين:

١- قَولُه تعالَى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

- قَولُه: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عن قولِه: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦]، ودَحْضُ ما خامَرَ نُفوسَ فريقٍ مِن الفشَلِ، أو الشَّكِّ، أو التَّحيُّرِ، وتَبْيينُ ما أنعَمَ اللهُ به على أهلِ بَيعةِ الرِّضوانِ مِن ثَوابِ الدُّنيا والآخِرةِ إلى كشْفِ شُبهةٍ عرَضَت للقَومِ في رُؤيا رآها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ذلك أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رأى رُؤيا قبْلَ خُروجِه إلى الحُدَيْبِيَةِ -أو وهو في الحُدَيبيَةِ-: كأنَّه وأصحابَه قد دخَلوا مكَّةَ آمِنينَ، وحلَقوا وقصَّروا، هكذا كانتِ الرُّؤْيا مُجْمَلةً، ليس فيها وُقوعُ حَجٍّ ولا عُمرةٍ، والحَلْقُ والتَّقصيرُ مُناسِبٌ لِكِلَيهِما[٤].

- وتَوكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (قد)؛ لإبطالِ شُبْهةِ المنافِقينَ الَّذين قالوا: فأينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٧).

الرُّؤيا[١]؟!

- قَولُه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: مُلتَبِسًا به؛ فإنَّ ما رآهُ كائنٌ لا مَحالةَ في وقْتِه المُقدَّرِ له، وهو العامُ القابِلُ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ صِفةَ مَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: صِدقًا مُلتبِسًا بالحَقِّ، وهو القَصدُ إلى التَّمييزِ بيْنَ الثَّابتِ على الإيمانِ والمُتزلزِلِ فيه، أو حالٌ مِن الرُّؤيا، أي: مُلتبِسةً بالحقِّ ليستْ مِن قَبيلِ أضغاثِ الأحلامِ، وأنْ يكونَ قَسَمًا إمَّا باسمِ اللهِ تعالَى، أو بنَقيضِ الباطلِ[٢].

- قَولُه: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ إلى آخِرِها، يجوزُ أنْ يكونَ بَيانًا لجُملةِ ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ معنى ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾ تَحقيقُ دُخولِ المسجِدِ الحرامِ في المُستقبَلِ، فيُعلَمُ منه أنَّ الرُّؤيا إخبارٌ بدُخولٍ لم يُعيَّنْ زَمنُه؛ فهي صادِقةٌ فيما يَتحقَّقُ في المُستقبَلِ، وهذا تَنْبيهٌ لِلَّذين لم يَتفطَّنوا لذلك، فجَزَموا بأنَّ رُؤيا دُخولِ المسجِدِ تَقْتضي دُخولَهم إليه أيَّامَئذٍ، وما ذلك بمَفهومٍ مِن الرُّؤيا، وكان حَقُّهم أنْ يَعلَموا أنَّها وعْدٌ لم يُعَيَّنْ إبَّانَ مَوعودِه. وقيل: الأحسَنُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ استِئنافًا بَيانيًّا عن جُملةِ ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ﴾، أي: سيَكُون ذلك في المُستقبَلِ لا مَحالةَ؛ فيَنْبغي الوقفُ عندَ قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لِيَظهَرَ معنى الاستِئنافِ. وقولُه: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مِن شأْنِه أنْ يُذيَّلَ به الخبَرُ المُستقبَلُ إذا كان حُصولُه مُتراخيًا[٣].

- قَولُه: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾ التَّحليقُ والتَّقصيرُ كِنايةٌ عن التَّمكُّنِ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٩).

إتمامِ الحَجِّ والعُمرةِ، وذلك مِن استِمرارِ الأمْنِ، على أنَّ هذه الحالةَ حكَتْ ما رآهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في رُؤياهُ، أي: يَحلِقُ مَن رامَ الحَلْقَ، ويُقصِّرُ مَن رامَ التَّقصيرَ، أي: لا يُعجِّلُهم الخَوفُ عن الحَلقِ، فيَقتَصِرون على التَّقصيرِ[١].

- وذَكَر الحِلاقَ والتَّقصيرَ دونَ الطَّوافِ والسَّعْيِ؛ لأنَّهما صِفَتانِ لبدنِ الإنسانِ ينتقلانِ بانْتِقالِه[٢].

- وجُملةُ ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ في مَوضعِ الحالِ؛ فيجوزُ أنْ تكونَ مُؤكِّدةً لقولِه: ﴿ءَامِنِينَ﴾ تأْكيدًا بالمُرادفِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الأمنَ كاملٌ مُحقَّقٌ. ويجوزُ أنْ تكونَ حالًا مُؤسِّسةً على أنَّ ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: لا تَخافونَ غَدْرًا، وذلك إيماءٌ إلى أنَّهم يكونونَ أشدَّ قُوَّةً مِن عدوِّهم الَّذي أمَّنَهم، وهذا يُومِئُ إلى حِكمةِ تأْخيرِ دُخولِهم مكَّةَ إلى عامٍ قابلٍ، حيثُ يَزْدادون قُوَّةً واستِعدادًا، وهو أظهَرُ في دُخولِهم عامَ حَجَّةِ الوداعِ[٣]. وقيل: قال: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ بعدَ قولِه: ﴿ءَامِنِينَ﴾ والمعنَى: آمِنينَ في حالِ الدُّخولِ، لا تَخافُونَ عَدُوَّكم أن يُخرِجَكم منه في المُستَقبَلِ[٤].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ لتَفريعِ الأخبارِ، لا لتَفريعِ المُخبَرِ به؛ لأنَّ عِلمَ اللهِ سابِقٌ على دُخولِهم، وعلى الرُّؤيا المُؤذِنةِ بدُخولِهم[٥].

- قَولُه: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ في إيثارِ فِعلِ (جَعَلَ) في هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الحج)) لابن تيمية (٢/ ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٠).

التَّركيبِ دونَ أنْ يقولَ: (فتَحَ لكم مِن دونِ ذلك فتْحًا قريبًا)، أو نحوَه؛ لإفادةِ أنَّ هذا الفتْحَ أمْرُه عجيبٌ، ما كان لِيَحصُلَ مِثلُه لولا أنَّ اللهَ كوَّنَه. وصِيغةُ الماضي في (جَعَلَ)؛ لِتَنزيلِ المُستقبَلِ المحقَّقِ مَنزِلةَ الماضي، أو لأنَّ (جَعَلَ) بمعنى (قَدَّرَ)[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ زيادةُ تَحقيقٍ لصِدقِ الرُّؤيا؛ بأنَّ الَّذي أرسَلَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذا الدِّينِ ما كان لِيُرِيَه إلَّا رُؤيا صادقةً؛ فهذه الجُملةُ تأكيدٌ للتَّحقيقِ المُستفادِ مِن حرْفِ (قد) ولامِ القَسَمِ في قَولِه: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧]، وبهذا يَظهرُ حُسنُ مَوقعِ الضَّميرِ والمَوصولِ في قَولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ لأنَّ المَوصولَ يُفيدُ العِلمَ بمَضمونِ الصِّلةِ غالبًا[٢].

- والضَّميرُ عائِدٌ إلى اسمِ الجلالةِ في قَولِه: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا﴾، وهم يَعلَمون أنَّ رُؤيا الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وحْيٌ مِن اللهِ؛ فهو يُذكِّرُهم بهاتَينِ الحقيقتَينِ المَعلومتَينِ عندَهم حِين لم يَجْرُوا على مُوجَبِ العِلمِ بهما، فخَامَرَتهم ظُنونٌ لا تَليقُ بمَن يَعلَمُ أنَّ رُؤيا الرَّسولِ وحْيٌ، وأنَّ الموحِيَ له هو الَّذي أرسَلَه؛ فكيف يُرِيه رُؤيا غيرَ صادِقةٍ؟! وفي هذا تَذكيرٌ ولَومٌ للمؤمنينَ الَّذين غفَلوا عن هذا، وتَعريضٌ بالمنافِقين الَّذين أدخَلوا التَّردُّدَ في قُلوبِ المؤمنينَ[٣].

- والباءُ في ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ للمُصاحَبةِ، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿أَرۡسَلَ﴾، والهُدَى أُطلِقَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على ما به الهُدى[١].

- واللَّامُ في ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ لتَعليلِ فِعلِ ﴿أَرْسَلَ﴾ ومُتعلَّقاتِه، أي: أرسَلَه بذلك؛ لِيُظهِرَ هذا الدِّينَ على جَميعِ الأديانِ الإلهيَّةِ السَّالفةِ، ولذلك أكَّدَ بـ ﴿كُلِّهِۦ﴾؛ لأنَّه في معنى الجمْعِ[٢].

- والإظهارُ: أصلُه مُشتقٌّ مِن (ظَهَر) بمعنى بَدَا؛ فاستُعمِلَ كنايةً عن الارتفاعِ الحقيقيِّ، ثمَّ أُطلِقَ على الشَّرَفِ، فصار (أظهرَه) بمعنى أعلاهُ، أي: لِيُشَرِّفَه على الأديانِ كلِّها[٣].

- ولَمَّا كان المَقصودُ مِن قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ الشَّهادةَ بأنَّ الرُّؤيا صِدقٌ؛ ذيَّلَ الجُملةَ بقولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، أي: أجزَأَتْكم شَهادةُ اللهِ بصِدْقِ الرُّؤيا إلى أنْ ترَوا ما صَدَقَها[٤] في الإبَّانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو المَوصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٢).

الآية (٢٩)

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سِيمَاهُمْ﴾: أي: عَلاماتُهم وآثارُهم، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على الأثَرِ والمَعْلَمِ[١].

﴿شَطْـَٔهُۥ﴾: أي: فِراخَه وصِغارَه، وشَطءُ الزَّرعِ: فُروخُ الزَّرعِ، وهو ما خرَجَ منه وتفرَّع في شاطِئَيه وجانِبَيه، وشَطءُ النَّباتِ: ما خرَجَ مِن حَولِ الأصلِ[٢].

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾: أي: أعانَه وقَوَّاه، وأصلُ (أزر): يدُلُّ على القُوَّةِ والشِّدَّةِ[٣].

﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾: أي: غَلُظَ وبلَغَ غايةَ قُوَّتِه، والغِلْظةُ ضِدُّ الرِّقَّةِ[٤].

﴿سُوقِهِۦ﴾: أي: أُصولِه، جمعُ ساقٍ: وهو العُودُ والحامِلُ، وأصلُ (سوق):

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

يدُلُّ على حَدْوِ الشَّيء، وسُمِّيَت السَّاقُ بذلك؛ لأنَّ الماشيَ يَنساقُ عليها[١].

﴿لِيَغِيظَ﴾: الغَيظُ: أشدُّ الغَضَبِ، وهو الحرارةُ الَّتي يجِدُها الإنسانُ مِن فوَرانِ دَمِ قَلبِه، وأصلُه يدُلُّ على كَربٍ يَلحَقُ الإنسانَ مِن غَيرِه[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يختِمُ الله تعالى السُّورةَ بالثَّناءِ على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى أصحابِه، فيقولُ: مُحمَّدٌ رَسولُ اللهِ، وأصحابُه الَّذين معه يُظهِرونَ لِمَن خالَفَ دِينَهم الشِّدَّةَ، ولِمَن وافَقَه الرَّحمةَ والرَّأفةَ، تَراهم -أيُّها الرَّائي- راكِعينَ وساجِدينَ، يَطلُبونَ أن يَتفَضَّلَ اللهُ عليهم برَحمتِه، فيُدخِلَهم جَنَّتَه، وأن يَرضى عنهم، عَلامتُهم في وُجوهِهم؛ مِن أثَرِ سُجُودِهم في صَلاتِهم.

هذا الَّذي وُصِفوا به هو وَصْفُهم في التَّوراةِ، وصِفَتُهم في الإنجيلِ أنَّهم كزَرعٍ أخرَجَ فِراخَه، فقوَّى الزَّرعَ فَرْخُهُ، فغَلُظَ الزَّرعُ، وبَلَغ غايةَ قُوَّتِه، وقام على أُصولِه، يُعجِبُ هذا الزَّرعُ الزُّرَّاعَ؛ لِيَغِيظَ بهم الكُفَّارَ حينَ يَرَونَ كَثرتَهم وقُوَّتَهم.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى ما وعَدهم به، فيقولُ: وَعَد اللهُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ مِن أصحابِ نَبيِّه مَغفِرةً لِذُنوبِهم وأجرًا عَظيمًا.

تَفسيرُ الآيةِ:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٩).

فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن صِدقَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في رُؤياه، واطمَأَنَّت نُفوسُ المُؤمِنينَ؛ أعقَبَ ذلك بتَنويهِ شَأنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والثَّناءِ على المُؤمِنينَ الَّذين معه[1].

وأيضًا لَمَّا ختَمَ اللهُ سُبحانَه بإحاطةِ العِلمِ بالخَفايا والظَّواهرِ في الإخبارِ بالرِّسالةِ؛ عَيَّنَها في قَولِه -جوابًا لِمَن يَقولُ: مَنِ الرَّسولُ المُنَوَّهُ باسمِه؟-[2]:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾.

محمَّدٌ رسولُ الله حقًّا بلا رَيْبٍ[3].

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠).

قال ابن عطية: (قَولُه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ قال جُمهورُ النَّاسِ: هو ابتِداءٌ وخَبَرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠).

وممَّن ذهب إلى هذا: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، وابنُ كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٥).

وقيل: هذه الجُملةُ مُتعَلِّقةٌ بما بَعْدَها، أي: محمَّدٌ رَسولُ اللهِ وأصحابُه أشدَّاءُ على الكفَّارِ، رُحماءُ بيْنَهم. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥). ويُنظر أيضًا: ((الهداية)) لمكي (١١/ ٦٩٧٤).

أي: وأصحابُ مُحمَّدٍ الَّذين معه يُظهِرونَ لِمَن خالَفَ دِينَهم الشِّدَّةَ والصَّلابةَ، ولِمَن وافَقَه الرَّحمةَ والرَّأفةَ واللِّينَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ المُؤمِنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم مَثَلُ الجَسَدِ؛ إذا اشتَكى منه عُضوٌ تَداعَى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى))[(٢)].

وعن أبي موسى الأَشْعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المُؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ؛ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا. وشَبَّك بيْنَ أصابِعِه))[(٣)].

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٤).
قال السعدي: (﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: جادُّونَ ومُجتهِدونَ في عَداوَتِهم، وساعُون في ذلك بغايةِ جُهدِهم، فلمْ يَرَوا منهم إلَّا الغِلظةَ والشِّدَّةَ؛ فلذلك ذلَّ أعداؤُهم لهم، وانكسَروا، وقهَرَهم المُسلِمونَ، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: مُتحابُّونَ مُتراحِمونَ مُتعاطِفونَ، كالجسَدِ الواحدِ، يحِبُّ أحدُهم لأخيه ما يحِبُّ لنفْسِه، هذه مُعامَلتُهم مع الخَلقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).
قال ابن عاشور: (المقصودُ الثَّناءُ على أصحابِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... والمرادُ: أصحابُه كُلُّهم، لا خُصوصُ أهلِ الحُدَيبيَةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٣).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٠١١)، ومسلمٌ (٢٥٨٦) واللَّفظُ له.
(٣) رواه البخاريُّ (٢٤٤٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٥٨٥).

أي: تَرى[١] أصحابَ مُحمَّدٍ مُداوِمينَ على صَلاتِهم، مُكثِرينَ منها؛ فتَراهم راكِعينَ وساجِدينَ[٢].

عن المُخارِقِ، قال: ((خَرَجْنا حُجَّاجًا، فلمَّا بَلَغْنا الرَّبَذَةَ[٣] قُلتُ لأصحابي: تقَدَّموا، وتخَلَّفْتُ، فأتيتُ أبا ذَرٍّ وهو يُصَلِّي، فرأيتُه يُطيلُ القِيامَ، ويُكثِرُ الرُّكوعَ والسُّجودَ، فذكَرتُ ذلك له، فقال: ما أَلَوتُ أن أُحسِنَ؛ إنِّي سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ: مَن رَكَع رَكعةً أو سَجَد سَجدةً، رُفِعَ بها دَرَجةً، وحُطَّت عنه بها خَطيئةٌ))[٤].

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾.

أي: يَطلُبونَ أن يَتفَضَّلَ اللهُ عليهم برَحمتِه، فيُدخِلَهم جَنَّتَه، وأن يَرضى عنهم؛ فهذا مقصودُهم[٥].

---

(١) قال ابن عاشور: (الخِطابُ في ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ، بل لِكُلِّ مَن تتأتَّى رُؤيتُه إيَّاهم، أي: يَراهم الرَّائي). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٥). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

(٣) الرَّبَذة: قَريةٌ كانت عامرةً في صَدْرِ الإسلامِ، وبها قبرُ أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ وجماعةٍ مِن الصَّحابةِ، تقعُ شرقَ المدينةِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٥).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٣٠٨) واللَّفظُ له، والطَّحاويُّ في ((شرح معاني الآثار)) (٢٧٣٠)، والبيهقي (٤٨٨٣).

قال المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ١٩٤): (هو بمجموعِ طُرُقِه حَسَنٌ أو صحيحٌ). وذكر الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٥١) أنَّه رُوِيَ بنحوِه بأسانيدَ بَعضُها رجالُه رجالُ الصَّحيحِ. وصحَّحه لغيرِه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٩٢)، وصحَّحه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٥/ ٢٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧١، ٧٢].

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾.

أي: عَلامةُ أصحابِ مُحمَّدٍ كائِنةٌ في وُجوهِهم؛ مِن أثَرِ سُجُودِهم في صَلاتِهم[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١، ٣٢٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابنُ الجوزي: (هل هذه العَلامةُ في الدُّنيا، أم في الآخِرةِ؟ فيه قولانِ:

أحَدُهما: في الدُّنيا. ثمَّ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّها السَّمتُ الحَسَنُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ في روايةِ ابنِ أبي طَلْحةَ. وقال في روايةِ مُجاهِدٍ: أمَا إنَّه ليس بالَّذي تَرَونَ، ولكِنَّه سِيما الإسلامِ وسَمْتُه وخُشوعُه. وكذلك قال مجاهِدٌ: ليس بِنَدَبِ التُّرابِ في الوَجهِ، ولكِنَّه الخُشوعُ والوَقارُ والتَّواضُعُ.

والثَّاني: أنَّه نَدَى الطَّهورِ، وثَرى الأرضِ. قاله سعيدُ بنُ جُبَيرٍ. وقال أبو العاليةِ: لأنَّهم يَسجُدونَ على التُّرابِ لا على الأثوابِ. وقال الأَوْزاعيُّ: بلَغَني أنَّه ما حمَلَتْ جِباهُهم مِنَ الأرضِ.

والثَّالثُ: أنَّه السُّهومُ، فإذا سَهَم وَجهُ الرجُلِ مِنَ اللَّيلِ أصبَحَ مُصْفارًّا. قال الحَسَنُ البصري: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾: الصُّفرةُ. وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: أثَرُ السَّهَرِ. وقال شِمْرُ بنُ عطيَّةَ: هو تهيُّجٌ في الوَجهِ مِن سَهَرِ اللَّيلِ.

والقَولُ الثَّاني: أنَّها في الآخِرةِ. ثمَّ فيه قولانِ:

أحَدُهما: أنَّ مَواضِعَ السُّجودِ مِن وُجوهِهم تكونُ أشدَّ وُجوهِهم بَياضًا يومَ القيامةِ. قاله عطيَّةُ العَوفيُّ، وإلى نحوِ هذا ذهب الحسَنُ، والزُّهْريُّ. وروَى العَوفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ قال: صَلاتُهم تَبدو في وُجوهِهم يومَ القيامةِ.

والثَّاني: أنَّهم يُبعَثونَ غُرًّا مُحَجَّلينَ؛ مِن أثرِ الطُّهورِ. ذكره الزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٨، ١٣٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩). =

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ﴾.

أي: هذا الَّذي وُصِفوا به هو وَصْفُهم في التَّوراةِ[(١)].

﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾.

أي: وصِفَتُهم في الإنجيلِ أنَّهم كزَرعٍ أخرَجَ فِراخَه، فنَبَتَتْ في جَوانِبِه[(٢)].

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الهَدْيُ والسَّمتُ الحَسَنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: علاماتُ التَّهجُّدِ باللَّيلِ وأماراتُ السَّهرِ: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٣).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: السَّمْتُ الحَسَنُ، وهيئةُ الخُشوعِ والخُضوعِ الباديةُ في وُجوهِهم في الدُّنيا، والبَياضُ في وُجوهِهم في الآخِرةِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٤٠).

وقيل: المرادُ: ما يَلُوحُ في وُجوهِهم مِن نُورِ العبادةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

وقيل: المرادُ: العَلامةُ الَّتي تَحدُثُ في جَبهةِ السُّجَّدِ؛ مِن كَثرةِ السُّجودِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والزمخشري، والبيضاوي، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٩٢، ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٤٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٨).

قال البِقاعي: (﴿أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ أي: فِراخَه ووَرَقَه وما خَرَج حَوْلَ أُصولِه؛ فكان ذلك كُلُّه مَثَلَه). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٤٣).

وقال ابن جرير: (وإنَّما مثَّلَهم بالزَّرعِ المُشطِئِ؛ لأنَّهم ابتَدَؤوا في الدُّخولِ في الإسلامِ وهم =

﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾.

أي: فقوَّى الزَّرعَ فَرْخُه، فغَلُظَ الزَّرعُ، وتَناهَى طُولُه، وبَلَغ غايةَ قُوَّتِه، وقام على أُصولِه(١).

= عَدَدٌ قَليلونَ، ثمَّ جَعَلوا يَتزايَدون، ويَدخُلُ فيه الجَماعةُ بَعْدَهم، ثمَّ الجماعةُ بعدَ الجَماعةِ، حتَّى كَثُر عَدَدُهم، كما يَحدُثُ في أصلِ الزَّرعِ الفَرخُ منه، ثمَّ الفَرخُ بَعْدَه، حتَّى يَكثُرَ ويَنْمِيَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٧).

وقد ذهب مجاهِدٌ والفَرَّاءُ والزمخشريُّ إلى أنَّ مَثَلَ الصَّحابةِ في التَّوراةِ وفي الإنجيلِ: واحِدٌ، فالمعنى عندَهم: ذلك مَثَلُهم في التَّوراةِ ومَثَلُهم في الإنجيلِ أيضًا. وضَعَّفَ هذا القَولَ ابنُ جرير، ورجَّح أنَّ مَثَلَهم في التَّوراةِ غَيرُ مَثَلِهم في الإنجيلِ، كما هو ظاهِرُ الآيةِ. يُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: ٦٠٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣، ٤١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٨).

قال ابن قُتَيْبَةَ: (هذا مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ خَرَج وَحْدَه، فأيَّده بأصحابِه، كما قَوَّى الطَّاقةَ مِن الزَّرعِ بما نَبَت منها، حتَّى كَثُرَت وغَلُظَت واستَحكَمَت). ((غريب القرآن)) (ص: ٤١٤).

وقال القرطبي: (هذا مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ تعالى لأصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يعني: أنَّهم يَكونونَ قَليلًا، ثمَّ يَزدادونَ ويَكثُرونَ؛ فكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ بدأ بالدُّعاءِ إلى دينه ضَعيفًا، فأجابه الواحِدُ بعدَ الواحِدِ حتَّى قَوِيَ أمرُه، كالزَّرعِ يَبدو بعدَ البَذرِ ضَعيفًا، فيَقْوى حالًا بعدَ حالٍ، حتَّى يَغلُظَ نَباتُه وأفراخُه؛ فكان هذا مِن أصَحِّ مَثَلٍ وأقوى بَيانٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٥).

وقال الزمخشري: (هذا مَثَلٌ ضربه اللهُ لِبَدْءِ أمرِ الإسلامِ وتَرَقِّيه في الزِّيادةِ إلى أن قَوِيَ واستَحْكَم؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قام وحْدَه، ثمَّ قوَّاه اللهُ بمَنْ آمَنَ معه كما يُقَوِّي الطَّاقةَ الأولى مِن الزَّرعِ ما يحتَفُّ بها ممَّا يتولَّدُ منها حتَّى يُعجِبَ الزُّرَّاعَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٨).

وقال ابن عاشور: (هذا يتضَمَّنُ نَماءَ الإيمانِ في قُلوبِهم، وأنَّهم يَدْعُونَ النَّاسَ إلى الدِّينِ حتَّى =

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾.

أي: يُثيرُ هذا الزَّرعُ الَّذي استَغلَظَ واستَوَى على سُوقِه إعجابَ الَّذين زَرَعوه[١].

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

أي: إنَّما جَعَل اللهُ تعالى أصحابَ نَبيِّه بتلك الصِّفةِ، فكَثَّرهم وقوَّاهم؛ لِيَغِيظَ بهم الكُفَّارَ حينَ يَرَونَ كَثرتَهم وقُوَّتَهم[٢].

= يَكثُرَ المؤمِنونَ، كما تُنبِتُ الحَبَّةُ مِئةَ سُنْبُلةٍ، وكما تَنبُتُ مِن النَّواةِ الشَّجَرةُ العَظيمةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابنُ عطية: (إذا أعجَبَ الزُّرَّاعَ فهو أَحْرى أن يُعجِبَ غَيرَهم؛ لأنَّه لا عَيبَ فيه؛ إذ قد أعجَبَ العارِفينَ بالعُيوبِ، ولو كان مَعيبًا لم يُعجِبْهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٢، ١٤٣).

وقال الزَّجَّاج: (﴿ٱلزُّرَّاعَ﴾ محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والدُّعاةُ إلى الإسلامِ، وهم أصحابُه). ((معاني القرآن)) (٥/ ٢٩).

وقال ابنُ كثير: (الصَّحابةُ رَضِيَ الله عنهم خَلَصَت نيَّاتُهم، وحَسُنَت أعمالُهم؛ فكُلُّ مَن نَظَر إليهم أعجَبوه في سَمْتِهم وهَدْيِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٢).

وقال السعدي: (الصَّحابةُ رَضيَ الله عنهم هم كالزَّرعِ في نَفْعِهم للخَلْقِ، واحتياجِ النَّاسِ إليهم؛ فقُوَّةُ إيمانِهم وأعمالِهم بمَنزِلةِ قُوَّةِ عُروقِ الزَّرعِ وسُوقِه، وكَونُ الصَّغيرِ والمتأخِّرِ إسلامُه قد لَحِقَ الكَبيرَ السَّابقَ، ووازَرَه وعاوَنَه على ما هو عليه مِن إقامةِ دينِ اللهِ والدَّعوةِ إليه: كالزَّرعِ الَّذي أخرَجَ شَطْأَه، فآزَرَه فاستَغلَظَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥، ٧٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۞ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۞ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥١ - ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

وقال عزَّ شأنُه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾

أي: وَعَد اللهُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ مِن أصحابِ نَبيِّه أن يَنالوا مَغفِرةً لِذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، ووَعَدَهم أن يَنالوا أجرًا عَظيمًا(١).

= قال السعدي: (﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ حينَ يَرَونَ اجتِماعَهم وشِدَّتَهم على دِينِهم، وحينَ يَتصادَمونَ هم وهم في مَعارِكِ النِّزالِ، ومعامِعِ القِتالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٦).

قال النَّحَّاسُ: (يجوزُ أن تكونَ «مِنْ» هاهنا لبَيانِ الجِنسِ، كما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، ويجوزُ أن تكونَ للتَّبعيضِ، أي: وَعَد اللهُ الَّذين ثَبَتوا على الإيمانِ =

كما قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تَسُبُّوا أصحابي؛ فلو أنَّ أحَدَكم أنفقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ما بلَغَ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصِيفَه[(١)]!))[(٢)].

= منهم مَغفِرةً وأجرًا عَظيمًا). ((معاني القرآن)) (٦/ ٥١٨). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩، ٣٠).

وقال ابنُ عاشور: (وقولُه: ﴿مِنۡهُم﴾ يجوزُ أنْ تكونَ «مِن» للبَيانِ...، ويَجوزُ إبقاؤُه على ظاهِرِ المعنى مِن التَّبعيضِ؛ لأنَّه وَعدٌ لكلِّ مَن يكونُ مع النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الحاضرِ والمستقبَلِ؛ فيَكونُ ذِكرُ «مِن» تَحذيرًا، وهو لا يُنافي المغفِرةَ لِجَميعِهم؛ لأنَّ جَميعَهم آمَنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ، وأصحابُ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هم خِيرةُ المُؤمنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٠، ٢١١).

وممَّن قال بأنَّها لبيانِ الجِنسِ: القرطبيُّ، وابن القيِّم، والسمين الحلبي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ١٧٧)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٧٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٣).

قال القونوي: («مِنْ» للبيانِ لا للتَّبعيضِ، فلا يكونُ حُجَّةً للطَّاعِنينَ في الأصحابِ بجَعْلِ «مِنْ» تبعيضيَّةً، ولا نَذكُرُ الصَّحابةَ إلَّا بخَيرٍ، ونُجِلُّهم أجمَعينَ). ((حاشية القونوي على تفسير البيضاوي)) (١٨/ ١٠١).

(١) المُدُّ: رُبعُ الصَّاعِ. والنَّصِيفُ: نِصْفُه. والمعنى: أنَّ جُهْدَ المُقِلِّ منهم واليَسيرَ مِن النَّفَقةِ الَّذي أنفَقوه في سبيلِ الله مع شِدَّةِ العَيشِ والضِّيقِ الَّذي كانوا فيه، أَوْفى عندَ الله وأزكى مِن الكثيرِ الَّذي يُنفِقُه مَن بَعْدَهم. يُنظر: ((غريب الحديث)) لأبي عُبَيْدٍ القاسمِ بنِ سلَّام (١/ ٣٧٩)، ((معالم السنن)) للخَطَّابي (٤/ ٣٠٨)، ((كشف المُشْكِل)) لابن الجوزي (٣/ ١٥٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٠٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٦٧٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٥٤١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ مِن حَقِّ المُسلِمينَ في كُلِّ زَمانٍ أن يُراعُوا هذا التَّذَلُّلَ وهذا التَّعَطُّفَ، فيُشَدِّدوا على مَن ليس مِن دينِهم ويَتحامَوه، ويُعاشِروا إخوانَهم المُؤمِنينَ في الإسلامِ مُتعَطِّفينَ بالبِرِّ والصِّلةِ والمعَونةِ، وكَفِّ الأذى، والاحتِمالِ منهم[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ في بابِ العِبارةِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم علينا أن نُفَرِّقَ بيْنَ مُخاطَبتِه وبيْنَ الإخبارِ عنه؛ فإذا خاطَبْناه كان علينا أن نتأدَّبَ بآدابِ اللهِ تعالى؛ حيثُ قال: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾ [النور: ٦٣]، فلا نقولُ: يا محمَّدُ، يا أحمَدُ، كما يَدعو بَعضُنا بعضًا، بل نقولُ: يا رَسولَ اللهِ، يا نبيَّ اللهِ. واللهُ سُبحانَه وتعالى خاطَبَ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بأسمائِهم، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ۞ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١، ١٢]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ولَمَّا خاطَبَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [التحريم: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]؛ فنَحن أحَقُّ أن نتأدَّبَ في دُعائِه وخِطابِه، وأمَّا إذا كان في مَقامِ الإخبارِ عنه قُلْنا: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ، وقُلْنا: مُحمَّدٌ رَسولُ اللهِ وخاتَمُ النَّبيِّينَ؛ فنُخبِرُ عنه باسمِه كما أخبَرَ اللهُ سُبحانَه لَمَّا أخبَرَ عنه صلَّى

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧).

اللهُ عليه وسلَّم: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ [محمد: ٢]؛ فالفَرقُ بيْنَ مَقامِ المُخاطَبةِ ومَقامِ الإخبارِ فَرقٌ ثابتٌ بالشَّرعِ والعَقلِ[(١)].

ومِنَ النَّاسِ مَنِ احتَجَّ على تَفضيلِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على غَيرِه مِنَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ بهذه الآيةِ وبغَيرِها مِن الآياتِ؛ يقولُ: ما خاطَبَ اللهُ تعالى مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في القُرآنِ إلَّا باسْمِ الرِّسالةِ والنُّبُوَّةِ، وخاطَبَ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بأسمائِهم؛ وذلك لِفَضلٍ جُعِل له دونَ غَيرِه[(٢)].

٣- قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ كلُّ مَنِ اقتَفَى أثَرَ الصَّحابةِ فهو في حُكْمِهم، ولهم الفَضلُ والسَّبقُ والكَمالُ الَّذي لا يَلحَقُهم فيه أحَدٌ مِن هذه الأُمَّةِ، رَضِيَ الله عنهم وأرضاهم، وجَعَل جَنَّاتِ الفِردَوسِ مَأواهم، وقد فَعَل[(٣)].

٤- قال الله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ فمُغايَظةُ الكُفَّارِ غايةٌ مَحبوبةٌ للرَّبِّ، مَطلوبةٌ له؛ فمُوافَقتُه فيها مِن كَمالِ العُبوديَّةِ، وشَرَعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للمُصَلِّي إذا سَها في صَلاتِه سَجدَتَينِ، وقال: ((إذا شكَّ أحدُكم في صَلاتِه

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٣).

فَلْيُلْقِ الشَّكَّ، ولْيَبْنِ على اليَقينِ، فإنِ استَيْقَنَ التَّمامَ سجَد سجدتَينِ، فإن كانت صَلاتُه تامَّةً كانت الرَّكعةُ نافِلةً والسَّجْدَتانِ، وإن كانت ناقِصةً كانت الرَّكعةُ تمامًا لِصَلاتِه، والسَّجْدَتانِ تُرغِمانِ[١] أنْفَ الشَّيطانِ))[٢]، وفي روايةٍ ((تَرغيمًا[٣] للشَّيطانِ))[٤]؛ فمَن تَعَبَّدَ للهِ بمُراغَمةِ عَدُوِّه فقد أخَذَ مِن الصِّدِّيقيَّةِ بسَهمٍ وافِرٍ، وعلى قَدْرِ مَحبَّةِ العَبدِ لِرَبِّه ومُوالاتِه ومُعاداتِه لِعَدُوِّه يكونُ نَصيبُه مِن هذه المُراغَمةِ[٥].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- يَشْهَدُ القرآنُ برِضا اللهِ عنِ الصَّحابةِ، وثنائِه عليهم، كقَولِه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، وقَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم

---

(١) أرْغَمَ أنْفَه: أي: ألصَقَه بالرَّغامِ، وهو التُّرابُ. هذا هو الأصلُ، ثمَّ استُعمِل في الذُّلِّ والعجزِ عن الانتِصافِ، والانقيادِ على كُرهٍ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) أخرجه ابن خزيمة (١٠٢٣)، وابن حبان (٢٦٦٤)، والدارقطني (١٣٩٩)، والبيهقي في ((معرفة السنن والآثار)) (٤٥١٢) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ الله عنه.
صحَّحه النَّوويُّ في ((المجموع)) (٤/ ١٠٦)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٦٣٣)، وقال شعيبٌ في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٢٦٦٧): (إسنادُه قويٌّ على شرطِ مسلمٍ).
وهو في ((صحيح مسلم)) (٥٧١) بمعناه.

(٣) أي: إغاظةً له وإذلالًا. والمعنى: أنَّ الشَّيطانَ لبَّس عليه صلاتَه وتعرَّض لإفسادِها ونقصِها، فجعَلَ اللهُ تعالى للمصلِّي طريقًا إلى جبرِ صَلاتِه، وتَدارُكِ ما لبَسَه عليه، وإرغامِ الشَّيطانِ ورَدِّه خاسئًا مُبعَدًا عن مُرادِه، وكمَلَتْ صلاةُ ابنِ آدَمَ، وامتثَل أمْرَ اللهِ تعالى الَّذي عصى به إبليسُ مِن امتِناعِه مِن السُّجودِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ٦٠، ٦١).

(٤) أخرجه مسلم (٥٧١).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٤١).

بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[1] [الحديد: ١٠].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ في الجمْعِ لأصحابِ النَّبيِّ بيْنَ هاتَينِ الخَلَّتَينِ المُتضادَّتَينِ؛ الشِّدَّةِ والرَّحمةِ: إيماءٌ إلى أصالةِ آرائِهم، وحِكمةِ عُقولِهم، وأنَّهم يَتصرَّفونَ في أخلاقِهم وأعمالِهم تَصرُّفَ الحِكمةِ والرُّشدِ، فلا تَغلِبُ على نُفوسِهم مَحمَدةٌ دُونَ أُخرَى، ولا يَندَفِعونَ إلى العَملِ بالجِبِلَّةِ وعدَمِ الرَّوِيَّةِ[2].

٣- المُبهَمُ[3] لا يُقبَلُ حَديثُه حتَّى يُعلَمَ مَن هو؛ وذلك لِجَهالَتِنا بحالِه، إلَّا المُبهَمَ مِنَ الصَّحابةِ؛ فإنَّ إبهامَه لا يَضُرُّ؛ لأنَّ الصَّحابةَ كُلَّهم عُدولٌ ثِقاتٌ بشَهادةِ اللهِ تعالى لهم في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [الحديد: ١٠]، وتَزكيتِه إيَّاهم في قَولِه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾، وقولِه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[4] [التوبة: ١٠٠]، فلا تضُرُّ الجهالةُ بعَينِ الصَّحابيِّ بعدَ ثُبوتِ صُحبتِه[5].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٥).

(٣) المُبهَمُ: هو الرَّاوي الَّذي لم يُسَمَّ، أو مَن سُمِّيَ ولا تُعرَفُ عَيْنُه. يُنظر: ((اختصار علوم الحديث)) لابن كثير (ص: ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((شرح المنظومة البيقونية)) لابن عثيمين (ص: ٧٣).

(٥) يُنظر: ((تحقيق مُنيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة)) للعلائي (ص: ٥٧).

إلى آخِرِ السُّورةِ: رَدٌّ على الرَّافِضةِ ومَن يَنتَقِصُ أصحابَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤُه وَصَفَهم بهذه الصِّفةِ وَصفًا عامًّا؛ فكُلُّ مَن صَحِبَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وكان معه بعدَ الإسلامِ فقدِ استحَقَّها، وصار مِن أهلِها، ووَجَبَ على النَّاسِ إعظامُهم وتبجيلُهم والرَّحمةُ عليهم، وتَركُ التَّنَقُّصِ لِجَميعِهم، وإنْ فُضِّلَ بعضُهم على بَعضٍ بما فَضَّلَهم اللهُ ورَسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورحِمَهم أجمعينَ[(١)].

٥- قَولُه تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ ثَناءٌ عليهم بهما، وإنْ كان ذِكرُهما مُنتظِمًا لِبَقيَّةِ أفعالِ الصَّلاةِ؛ كما في القِراءةِ والقيامِ والتَّسبيحِ والسُّجودِ المُجَرَّدِ، وهو مِن بابِ التَّعبيرِ بالبَعضِ عن الجَميعِ، وهو دَليلٌ على وُجوبِه فيه[(٢)].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه لَطيفةٌ، وهو أنَّه تعالى قال في حَقِّ الرَّاكِعينَ والسَّاجِدينَ: إنَّهم يَبتَغونَ فَضلًا مِنَ اللهِ، وقال: لهم أجرٌ، في قَولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾، ولم يَقُلْ: لهم ما يَطلُبونَه مِن ذلك الفَضلِ؛ وذلك لأنَّ المُؤمِنَ عندَ العَمَلِ لم يلتَفِتْ إلى عَمَلِه، ولم يَجعَلْ له أجرًا يَعتَدُّ به، فقال: لا أبتَغي إلَّا فَضْلَك. واللهُ تعالى آتاه ما آتاه مِنَ الفَضلِ، وسَمَّاه أجرًا؛ إشارةً إلى قَبولِ عَمَلِه، ووُقوعِه الموقِعَ، وعَدَمِ كَونِه عندَ اللهِ نَزْرًا لا يَستَحِقُّ عليه المُؤمِنُ أجرًا[(٣)]!

٧- أنَّ مَقولةَ بَعضِهم: «إنَّ الإخلاصَ حَقيقةً أنْ تَعبُدَ اللهَ للهِ، لا لِثَوابِ اللهِ!»: خَطَأٌ؛ لأنَّه مخالِفٌ لهَدْيِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٣/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٠).

رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾، فهم يَبتَغونَ الفَضلَ والرِّضوانَ، لكِنَّ ذلك القَولَ المشارَ إليه هو قَولُ بَعضِ الصُّوفيَّةِ؛ يَقولونَ: إنَّك إذا لاحَظْتَ الثَّوابَ فقد أشرَكْتَ في العبادةِ! نسألُ اللهَ العافيةَ. واللهُ عزَّ وجَلَّ يُرشِدُنا إلى هذا، ويُبَيِّنُ أنَّ هذا هو طريقُ الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وأصحابِه[1].

٨- عن أبي عُروةَ الزُّبَيْريِّ، قال: (كنَّا عندَ مالكٍ فذكروا رجُلًا يَنتقِصُ أصحابَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقرأ مالكٌ هذه الآيةَ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾، فقال مالكٌ: مَن أصبَحَ وفي قلبِه غَيظٌ على أحدٍ مِن أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقد أصابَتْهُ الآيةُ)[2].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ لِبَيانِ ترَتُّبِ المَغفِرةِ على الإيمانِ -فإنَّ كُلَّ مُؤمِنٍ يُغفَرُ له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]- وترتُّبِ الأجرِ العَظيمِ على العَمَلِ الصَّالِحِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((السنة)) لأبي بكرٍ الخلَّال (٧٦٠)، ((حلية الأولياء)) لأبي نُعَيم (٦/ ٣٢٧).

قال القرطبي: (لقد أحسَنَ مالكٌ في مَقالَتِه، وأصاب في تأويلِه، فمَنْ نقَصَ واحدًا منهم أو طعَنَ عليه في روايتِه فقد رَدَّ على اللهِ ربِّ العالَمينَ، وأبطَلَ شرائعَ المسلمينَ؛ فالصَّحابةُ كلُّهم عُدولٌ، أولياءُ اللهِ تعالى وأصفياؤُه، وخِيرتُه مِن خَلقِه بعدَ أنبيائِه ورُسلِه، هذا مَذهبُ أهلِ السُّنَّةِ، والَّذي عليه الجماعةُ مِن أئمَّةِ هذه الأُمَّةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٧، ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٠).

١٠- قد اجتمَع حُروفُ المُعجَم التِّسعةُ والعِشرونَ في هذه الآيةِ الكريمةِ، وهي: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ...﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ، أوَّلُ حُروفِ المُعجمِ فيها (ميم) مِن ﴿مُّحَمَّدٌ﴾، وآخِرُها (صاد) مِن ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فبِهِ تَكتمِلُ حُروفُ المُعجمِ فيها. وتقدَّم نظيرُ ذلك في سورةِ آلِ عِمْرانَ، في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ...﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وليس في القرآنِ آيَتانِ كلُّ آيةٍ حَوَتْ حُروفَ المُعجَمِ غيرهما[١].

بلاغةُ الآيةِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾

- قَولُه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ...﴾ ليس المقصودُ إفادةَ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وإنَّما المَقصودُ بَيانُ رسولِ اللهِ مَن هو؟ بعْدَ أنْ أجْرى عليه مِن الأخبارِ مِن قولِه: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] إلى قولِه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨]، فيُعَدُّ السَّامعُ كالمُشتاقِ إلى بَيانِ مَن هذا المُتحدَّثُ عنه بهذه الأخبارِ، فيُقالُ له: محمَّدٌ رسولُ اللهِ، أي: هو محمَّدٌ رسولُ اللهِ، وهذا مِن العِنايةِ والاهتِمامِ بذِكْرِ مَناقبِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فتُعَدُّ الجُملةُ المَحذوفُ مُبتَدؤُها مُستأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا[٢].

وفي هذا أيضًا نِداءٌ على إبطالِ جُحودِ المشركينَ رِسالتَه حِينَ امتَنَعوا مِن أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٣).

يَكتُبَ في صَحيفةِ الصُّلحِ: ((هذا ما قاضَى عليه مُحمَّدٌ رسولُ اللهِ، وقالوا: لو كنَّا نعلَمُ أنَّكَ رسولُ اللهِ ما صَدَدْناك عن البَيتِ))[١].

- والمقصودُ مِن قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ الثَّناءُ على أصحابِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَشريفًا لهم وكَرامةً، ومعنى ﴿مَعَهُۥٓ﴾ المُصاحَبةُ الكامِلةُ بالطَّاعةِ والتَّأييدِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ مِن أُسلوبِ التَّكميلِ؛ فإنَّه لو اكْتَفَى به لَأوْهَمَ الفَظاظةَ والغِلْظةَ، فكمَّلَ بقولِه: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾، يعني أنَّهم معَ كونِهم أشِدَّاءَ على الأعداءِ رُحَماءُ فيما بيْنَهم، أربابُ وَقارٍ وتراحُمٍ[٣].

- وفي تَعليقِ ﴿رُحَمَآءُ﴾ مع ظرْفِ (بيْن) المُفيدِ للمَكانِ الدَّاخلِ وسَطَ ما يُضافُ هو إليه؛ تَنْبيهٌ على انبثاثِ التَّراحُمِ فيهم جميعًا[٤].

- قَولُه: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ فيه إيثارُ صِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ ذلك، أي: تَراهم كُلَّما شِئتَ أنْ تَراهم رُكَّعًا سُجَّدًا، وهذا ثَناءٌ عليهم بشِدَّةِ إقبالِهم على أفضَلِ الأعمالِ المُزَكِّيةِ للنَّفْسِ، وهي الصَّلَواتُ مَفروضُها ونافِلتُها، وأنَّهم يَتطلَّبون بذلك رِضا اللهِ ورِضوانَه. وفي سَوقِ هذا في مَساقِ الثَّناءِ إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ حقَّقَ لهم ما يَبتَغونه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٣).
والحديث أخرجه البخاري (٢٧٣١) و(٢٧٣٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والإشارةُ في قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ إلى ما سبَقَ مِن نُعوتِهم الجَليلةِ، وما في الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ، معَ قُرْبِ العَهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ بعُلوِّ شأْنِه، وبُعدِ مَنزلتِه في الفَضلِ[1].

- وقولُه: ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿مَثَلُهُمۡ﴾، أو حالٌ منه؛ فيَحتمِلُ أنَّ في التَّوراةِ وصْفَ قَومٍ سيأْتونَ، ووُصِفوا بهذه الصِّفاتِ، فبيَّنَ اللهُ بهذه الآيةِ أنَّ الَّذين معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هم المَقصودُونَ بتِلك الصِّفةِ العَجيبةِ الَّتي في التَّوراةِ، أي: إنَّ التَّوراةَ قد جاءتْ فيها بِشارةٌ بمَجيءِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووَصْفُ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

- قَولُه: ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ هذا مثَلٌ ضرَبَه اللهُ لبَدْءِ أمْرِ الإسلامِ، وتَرقِّيه في الزِّيادةِ إلى أنْ قوِيَ واستَحْكَمَ، ومعنى هذا التَّمثيلِ تَشبيهُ حالِ بَدءِ المُسلِمينَ ونَمائِهم حتَّى كَثُروا، وذلك يَتضمَّنُ تَشبيهَ بَدْءِ دِينِ الإسلامِ ضَعيفًا، وتَقوِّيه يومًا فيومًا حتَّى استَحكَمَ أمْرُه، وتغلَّبَ على أعدائِه. وهذا التَّمثيلُ قابِلٌ لاعتِبارِ تَجزئةِ التَّشبيهِ في أجزائِه؛ بأنْ يُشبَّهَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالزَّارِعِ، ويُشبَّهَ المؤمِنونَ الأوَّلونَ بحَبَّاتِ الزَّرعِ الَّتي يَبذُرُها في الأرضِ، مِثلُ أبي بكرٍ وخديجةَ، وعليٍّ وبِلالٍ وعَمَّارٍ، والشَّطْءُ: مَن أيَّدوا المُسلِمينَ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دعا إلى اللهِ وحْدَه، وانضمَّ إليه نفَرٌ قليلٌ، ثمَّ قَوَّاه اللهُ بمَنْ آمَنَ معَه، كما يُقوِّي الطَّاقةَ الأُولى مِن الزَّرعِ ما يَحتَفُّ بها ممَّا يَتولَّدُ منها حتَّى يُعجِبَ الزُّرَّاعَ، وقولُه: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ تَحسينٌ للمُشَبَّهِ به؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٧).

لِيُفيدَ تحسينَ المُشَبَّهِ[١].

- ومعنَى ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ غلُظَ غِلَظًا شَديدًا في نَوعِه؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، مِثل استجابَ[٢].

- قَولُه: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ تَعليلٌ لِمَا دلَّ عليه تَشبيهُهم بالزَّرعِ في زَكائِه واستِحكامِه، ومِن نَمائهم وقُوَّتِهم، كأنَّه قيلَ: إنَّما قوَّاهم وكثَّرَهم؛ ليَغيظَ بهم الكفَّارَ. ويجوزُ أنْ يُعلَّلَ به ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ الكُفَّارَ إذا سمِعوا بما أُعِدَّ لهم في الآخِرةِ معَ ما يُعِزُّهم به في الدُّنيا، غاظَهم ذلك[٣].

- وفي قَولِه في خِتامِ هذه السُّورةِ العَظيمةِ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ أعقَبَ تَنويهَ شأْنِهم والثَّناءَ عليهم بوَعْدِهم بالجَزاءِ على ما اتَّصَفوا به مِن الصِّفاتِ الَّتي لها الأثرُ المَتينُ في نَشْرِ هذا الدِّينِ ونصْرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٩، ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٠).

تَفْسيرُ

سُورَةِ الحُجُراتِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الحُجُراتِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحُجُراتِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الحُجُراتِ مَدَنيَّةٌ[٢]، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ الكريمةِ:

إرشادُ المُؤمِنينَ إلى مَكارِمِ الأخلاقِ مع اللهِ تعالى، ومع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومع المؤمِنينَ[٤].

---

(١) سُمِّيت سورةَ (الحُجُراتِ)؛ لأنَّه ذُكِرَ فيها لَفظُ (الحُجُراتِ)، في قَولِ الله تعالى: ﴿يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ [الحجرات: ٤]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٣).

قال ابنُ عاشور: (سُمِّيَت في جميعِ المصاحِفِ وكُتُبِ السُّنَّةِ والتَّفسيرِ سُورةَ الحُجُراتِ، وليس لها اسمٌ غَيرُه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٩).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٢٩٦).

قال الرازي: (هذه السُّورةُ فيها إرشادُ المؤمنينَ إلى مَكارِمِ الأخلاقِ، وهي إمَّا مع اللهِ تعالى، أو مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو مع غَيرِهم مِن أبناءِ الجِنسِ، وهم على صِنْفَينِ؛ لأنَّهم إمَّا أنْ يَكونوا على طَريقةِ المؤمِنينَ وداخِلينَ في رُتبةِ الطَّاعةِ، أو خارِجًا عنها وهو الفاسقُ، والدَّاخِلُ في طائفتِهم السَّالكُ لطَريقتِهم إمَّا أنْ يكونَ حاضرًا عندَهم، أو غائبًا عنهم، فهذه خمْسةُ =

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلتْ عليها السُّورةُ:

١- تعليمُ المُؤمِنينَ ما يجِبُ عليهم نحوَ خالِقِهم، ونحوَ نَبيِّهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مِن أدَبٍ.

٢- أمْرُ المُؤمِنينَ بالتَّثبُّتِ مِن صِحَّةِ الأخبارِ الَّتي تَصِلُ إلى مَسامِعِهم.

٣- بيانُ جانبٍ مِن مَظاهِرِ فَضلِ اللهِ على المؤمِنينَ.

٤- بيانُ ما يجِبُ على المؤمِنينَ نحوَ إخوانِهم عندَ حُدوثِ قِتالٍ بيْنَهم؛ مِنَ الإصلاحِ بيْنَهم، ومُقاتَلةِ الفِئةِ الباغيةِ إذا ما أصَرَّتْ على بَغْيِها وأَبَت الصُّلحَ، إلى أن تَفيءَ إلى أمرِ اللهِ تعالى.

٥- نَهيُ المُؤمِنينَ عن السُّخْريَةِ، والأمرُ باجتِنابِ الظَّنِّ السَّيِّئِ بالغَيرِ، والنَّهيُ

= أقسام؛ أحدُها: يَتعلَّقُ بجانبِ اللهِ، وثانيها: بجانبِ الرَّسولِ، وثالثُها: بجانبِ الفُسَّاقِ، ورابعُها: بالمؤمنِ الحاضرِ، وخامسُها: بالمؤمنِ الغائبِ، فذكَرَهم اللهُ تعالى في هذه السُّورةِ خمْسَ مرَّاتٍ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وأرشَدَهم في كلِّ مرَّةٍ إلى مَكرُمةٍ مع قِسمٍ مِن الأقسامِ الخمْسةِ؛ فقال أوَّلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، وذِكرُ الرَّسولِ كان لبَيانِ طاعةِ اللهِ؛ لأنَّها لا تُعلَمُ إلَّا بقَولِ رسولِ اللهِ، وقال ثانيًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]؛ لبَيانِ وُجوبِ احترامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال ثالثًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾؛ لبَيانِ وُجوبِ الاحترازِ عن الاعتِمادِ على أقوالِهم؛ فإنَّهم يُريدون إلقاءَ الفِتنةِ بيْنَكم، وقال رابعًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ﴾ [الحجرات: ١١]؛ لبَيانِ وُجوبِ ترْكِ إيذاءِ المؤمنينَ في حُضورِهم والازدِراءِ بحالِهم ومَنصِبِهم، وقال خامسًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ لبَيانِ وُجوبِ الاحترازِ عن إهانةِ جانبِ المؤمنِ حالَ غَيبتِه وذِكْرِ ما لو كان حاضرًا لَتأذَّى، وهو في غايةِ الحُسْنِ مِن التَّرتيبِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٧، ٩٨) بتصرف.

عن التَّجَسُّسِ والغِيبةِ.

٦- تَوجيهُ نِداءٍ إلى النَّاسِ يُبيِّنُ لهم فيه أنَّهم جميعًا قد خُلِقوا مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، وأنَّ أكرَمَهم عندَ اللهِ هو أتقاهم له.

٧- الرَّدُّ على الأعرابِ الَّذين قالوا: آمَنَّا، دونَ أن يَستَقِرَّ الإيمانُ في قُلوبِهم، وتوضيحُ صِفاتِ المُؤمِنينَ الصَّادِقينَ.

٨- ذمُّ المَنِّ على اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإيمانِ، وأنَّ المِنَّةَ لله تعالى والفَضلَ في الهدايةِ للإيمانِ.

٩- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بإحاطةِ عِلمِ اللهِ تعالى بغَيبِ السَّمَواتِ والأرضِ، وكَونِه بَصيرًا بالأعمالِ.

الآيات (١-٥)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَحۡبَطَ﴾: أي: تَبطُلَ؛ فالحَبْطُ: البُطلانُ، وأصلُه مِن الحَبَطِ، وهو: أنْ تُكثِرَ الدَّابَّةُ أكْلًا حتَّى يَنتفِخَ بطْنُها فتَمُوتَ[(١)].

﴿يَغُضُّونَ﴾: أي: يَخفِضُون ويَكُفُّون، والغضُّ: الكَفُّ في لِينٍ، ومنه: غضُّ البصَرِ، وهو كَفُّه عن النَّظرِ، وأصلُ (غضض): يدُلُّ على كَفٍّ ونقْصٍ[(٢)].

﴿ٱمۡتَحَنَ﴾: أي: اختَبَر أو أخْلَصَ، والمَحْنُ: الاختبارُ[(٣)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٣٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥).

قولُه تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ فيه وَجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه مُتعَدٍّ، وحُذِفَ مَفعولُه: إمَّا اقتِصارًا، كقولِهم: هو يُعْطي ويَمنَعُ، ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وإمَّا اختِصارًا؛ لِلدَّلالةِ عليه، أي: لا تُقَدِّموا ما لا يَصلُحُ. والثَّاني: أنَّه لازِمٌ، نحْوُ وَجَّه وتَوَجَّه[١].

٢- قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾

قَولُه تَعالى: ﴿كَجَهْرِ﴾ شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ في مَوضِعِ نصْبٍ نَعتٌ لِمَصدرٍ مَحْذوفٍ، تَقديرُه: جَهرًا كجَهْرِ...[٢].

وقولُه: ﴿أَن تَحْبَطَ﴾ مَفعولٌ مِن أجْلِه، وهو تَعليلٌ لِما قَبْلَه مِنَ النَّهيَينِ ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ﴾ و(لَا تَجْهَرُوا) على طريقِ التَّنازُعِ، بتقديرِ مُضافٍ، أي: مَخافةَ أنْ تَحبَطَ[٣].

٣- قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾

قولُه: ﴿أَنَّهُمْ صَبَرُواْ﴾ فاعلٌ بفِعلٍ مُقدَّرٍ، أي: ولو ثبَتَ صبْرُهم، واسمُ (كان) ضَميرٌ عائدٌ على هذا الفاعلِ. أو في مَحلِّ رفْعٍ بالابتداءِ، وخبَرُه مَحذوفٌ، ويكونُ اسمُ (كان) ضَميرًا عائدًا على (صَبْرِهم) المفهومِ مِن الفعلِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ أنْ يَتقدَّموا بيْنَ يَدَيِ اللهِ ورسولِه بقولٍ أو فِعلٍ، ويَأمُرُهم أنْ يَتَّقُوه بفِعلِ أوامرِه، واجتِنابِ نَواهِيه، فإنَّ اللهَ سبحانَه سَميعٌ لِكلِّ

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٠).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٥، ٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٧).

شَيءٍ، ومِن ذلك أقوالُهم، عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك أعمالُهم ونِيَّاتُهم.

ويَنهاهم كذلك عن أنْ يُعْلوا أصْواتَهم فوقَ صَوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعن أنْ تكونَ مُناداتُهم له باسمِه كما يكونُ النِّداءُ بيْنَهم بَعضِهم لبعضٍ؛ وذلك مَخافةَ أنْ تَبطُلَ أعمالُهم الصَّالِحةُ وهم لا يَشعُرون بذلك.

ثمَّ بيَّن تعالى أنَّ الَّذين يَخفِضونَ أصواتَهم عندَ رسولِ اللهِ أولئك الَّذين اختبَرَ اللهُ قُلوبَهم فأخلَصَها وطهَّرها؛ لِيَكونوا أتْقياءَ، وأنَّ لهم مَغفرةً مِن اللهِ وثَوابًا عَظيمًا.

ثمَّ قال لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ الَّذين يُنادونَك يا محمَّدُ مِن وَراءِ بُيوتِ نِسائِك، أكثرُهم جاهِلون بدِينِ اللهِ، وما يجبُ تُجاهَك، ولو أنَّهم انتَظَروا حتَّى تَخرُجَ مِنْ بَيتِك مِن تِلْقاءِ نفْسِك، لَكان هذا خيرًا لهم، واللهُ غفورٌ رَحيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ رضِيَ اللهُ عنهما: (أنَّه قَدِمَ رَكْبٌ[1] مِن بني تَميمٍ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال أبو بكرٍ: أمِّرِ القَعْقاعَ بنَ مَعبَدِ بنِ زُرارةَ، قال عُمَرُ: بلْ أمِّرِ الأقرعَ بنَ حابِسٍ، قال أبو بكرٍ: ما أرَدْتَ إلَّا خِلافي! قال عمَرُ: ما أردْتُ خِلافَك، فتَمارَيَا[2] حتَّى ارتفَعَت أصواتُهما، فنزَلَ في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) الرَّكْبُ: أصحابُ الإبِلِ في السَّفَرِ، وهم العَشَرةُ فما فَوقَها. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٢٧).

(٢) فتَماريَا: أي: تجادَلَا وتخاصَمَا. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٩/ ١٨٤).

ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾ حتَّى انقضَت)[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَعجَلوا بقَولٍ أو فِعلٍ قبْلَ أنْ يَأمُرَ به اللهُ ورسولُه، فكونوا تَبَعًا لِما يَأْمُرانِ به[٢].

---

(١) رواه البخاري (٤٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧ - ٩).

قال الشوكاني: (... ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ ... فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه مُتعَدٍّ وحُذِفَ مَفعولُه لِقَصدِ التَّعميمِ، أو تُرِكَ المفعولُ للقَصدِ إلى نفْسِ الفِعلِ، كقَولِهم: هو يُعطي ويمنَعُ. والثَّاني: أنَّه لازِمٌ، نحوُ: وَجَّه وتَوَجَّه، ويُعَضِّدُه قِراءةُ ابنِ عبَّاسٍ والضَّحَّاكِ ويَعقوبَ: ﴿تَقَدَّمُوا﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٩).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: لا تَتكَلَّموا بأمرٍ قبْلَ أن يَتكلَّمَ هو به، ولا تَقطَعوا في أمرٍ إلَّا بنَظَرِه. والثَّاني: لا تُقَدِّموا الوُلاةَ بمَحضَرِه؛ فإنَّه يُقدِّمُ مَن شاء. والثَّالِثُ: لا تَتَقَدَّموا بيْنَ يديه إذا مشَى، وهذا إنَّما يجري على قراءةِ يَعقوبَ: ﴿لَا تَقَدَّمُوا﴾ بفَتحِ التَّاءِ والقافِ والدَّالِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٩٤).

وقال القرطبي: (أي: لا تُقَدِّموا قَولًا ولا فِعلًا بيْنَ يَدَيِ اللهِ وقَولِ رَسولِه وفِعْلِه فيما سَبيلُه أن تأخُذوه عنه مِن أمرِ الدِّينِ والدُّنيا، ومَن قدَّم قَولَه أو فِعْلَه على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقد قدَّمه على الله تعالى؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنَّما يأمُرُ عن أمْرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٠).

وقال ابن القيِّم: (أي: لا تَقولوا حتَّى يقولَ، ولا تأمُروا حتَّى يأمُرَ، ولا تُفْتُوا حتَّى يُفْتيَ، ولا تَقطَعوا أمرًا حتَّى يَكونَ هو الَّذي يَحكُمُ فيه ويُمْضيه... والقَولُ الجامعُ في معنى الآيةِ: لا تَعْجَلوا بقَولٍ ولا فِعْلٍ قبْلَ أن يَقولَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو يَفعَلَ). ((إعلام الموقعين)) (١/ ٤١).

ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٧).

وقال ابن عُثيمين: (أي: لا تَتقدَّموا بيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسولِه، والمرادُ: لا تَسبقوا اللهَ ورَسولَه بقَولٍ أو بفِعلٍ. وقيل: المعنى: لا تُقدِّموا شيئًا بيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسولِه. وكِلاهما يَصُبَّانِ في مَصَبٍّ =

كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن رغِبَ عن سُنَّتي فليس مِنِّي))[(١)].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَهَى، أمَرَ بالتَّقْوى؛ لأنَّ مِن التَّقوى اجتِنابَ المنْهيِّ عنه[(٢)].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾.

أي: واتَّخِذوا بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه وِقايةً وحاجزًا بفِعلِ أوامِرِه واجتنابِ نَواهِيهِ، واحْذَروا أنْ تَقولوا أو تَفعَلوا شيئًا لم يَأذَنْ لكم به اللهُ ولا

= واحدٍ، والمعنى: لا تَسبِقوا اللهَ ورَسولَه بقَولٍ ولا فِعلٍ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧).

وقال الشنقيطي: (هذه الآيةُ الكريمةُ فيها التَّصريحُ بالنَّهيِ عن التَّقديم بيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسولِه، ويَدخُلُ في ذلك دُخولًا أوَّليًّا تشريعُ ما لم يأذَنْ به اللهُ، وتحريمُ ما لم يُحرِّمْه، وتحليلُ ما لم يُحلِّلْه؛ لأنَّه لا حرامَ إلَّا ما حرَّمه اللهُ، ولا حلالَ إلَّا ما أحلَّه اللهُ، ولا دِينَ إلَّا ما شرَعه اللهُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٠١).

وقال ابن الجوزي: (﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ... عبارةٌ عن الأمامِ؛ لأنَّ ما بيْنَ يَدَيِ الإنسانِ أمامَه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٤٣).

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٧).

رسولُه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سَميعٌ لِكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك أقوالُ عِبادِه، عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك أعمالُ عِبادِه وقُلوبُهم ونِيَّاتُهم، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أُمورِهم[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا شُروعٌ في النَّهيِ عنِ التَّجاوُزِ في كَيفيَّةِ القَولِ عندَ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بعْدَ النَّهيِ عنِ التَّجاوُزِ في نفْسِ القولِ والفِعلِ[٣].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ أبي مُلَيكةَ، قال: (كادَ الخَيِّرانِ أنْ يَهلِكَا: أبو بكرٍ وعمَرُ رضِيَ اللهُ عنهما! رفَعَا أصواتَهما عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ قَدِمَ عليه ركْبُ بني تَميمٍ، فأشار أحَدُهما بالأقرَعِ بنِ حابسٍ أخي بَني مُجاشِعٍ، وأشار الآخَرُ برَجُلٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٦).

آخَرَ، فقال أبو بكرٍ لعُمَرَ: ما أردْتَ إلَّا خِلافي، قال: ما أردْتُ خِلافَك، فارتفَعَتْ أصواتُهما في ذلك، فأنزَلَ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾)[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَرْفَعوا أصواتَكم فوقَ صَوتِ نبيِّ اللهِ محمَّدٍ؛ فاخْفِضوا أصواتَكم، وخاطِبوه بأدَبٍ ولِينٍ وتَعظيمٍ واحترامٍ[٢].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم افتقَدَ ثابتَ ابنَ قَيسٍ، فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أنا أعلَمُ لكَ عِلْمَه، فأتاهُ فوجَدَه جالسًا في بَيتِه مُنكِّسًا رأْسَه[٣]، فقال: ما شأْنُك؟ فقال: شرٌّ، كان يَرفَعُ صَوتَه فوقَ صَوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقد حبِطَ عمَلُه، وهو مِن أهلِ النَّارِ، فأتى الرَّجُلُ فأخبَرَه أنَّه قال كذا وكذا، فقال مُوسى بنُ أنسٍ: فرجَعَ المرَّةَ الآخِرةَ ببِشارةٍ عَظيمةٍ، فقال: اذهَبْ إليه فقُلْ له: إنَّك لسْتَ مِن أهْلِ النَّارِ، ولكنْ مِن أهْلِ الجنَّةِ))[٤].

---

(١) رواه البخاري (٤٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٥-٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠١).
قال الشنقيطي: (ما تَضمَّنَته هذه الآيةُ الكريمةُ مِن لُزومِ تَوقيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعظيمِه واحترامِه؛ جاء مُبيَّنًا في مَواضِعَ أُخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، على القولِ بأنَّ الضَّميرَ في ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وقولِه تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضًا﴾ [النور: ٦٣]...، وقولِه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٠٢).

(٣) نكَّسَ رأسَه: أي: طأطَأَ وأطرَقَ ونظَرَ إلى الأرضِ كالمُتفكِّرِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٦/ ١٦٦).

(٤) رواه البخاري (٣٦١٣) واللفظ له، ومسلم (١١٩).

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.

أي: ولا تُنادوا النَّبيَّ باسْمِه حينَ تُخاطِبونه كما يُنادي بعضُكم بعضًا، ولكنْ قُولوا: يا نبيَّ اللهِ، أو: يا رسولَ اللهِ، بصَوتٍ مُنخفِضٍ، مع تَعظيمٍ وإجلالٍ يَليقُ به[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠١، ٤٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّ الجهرَ بالصَّوتِ في المُخاطَبةِ، قاله الأكثَرونَ.

والثَّاني: لا تَدْعوه باسمِه: يا محمَّدُ، كما يَدعو بعضُكم بعضًا، ولكنْ قولوا: يا رسولَ الله، ويا نبيَّ الله. وهو معنى قولِ سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، والضَّحَّاكِ، ومُقاتِلٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٤٣).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: السَّمْعانيُّ، والزمخشري، والبيضاوي، وابنُ كثير، والبِقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، ومكِّي، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٨٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٧١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٤٣).

وممَّن جمَع بيْنَ القَولَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦).

كما قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

أي: لا تَفعَلوا ذلك؛ لئلَّا تَبطُلَ أعمالُكم الصَّالِحةُ وأنتم لا تَعلَمون بذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۞ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

وعن أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبْدَ لَيَتكلَّمُ بالكَلمةِ ما يَتبيَّنُ ما فيها، يَهْوي بها في النَّارِ أبْعَدَ ما بيْنَ المَشرِقِ والمغرِبِ!))(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَخفِضونَ أصواتَهم عندَ رسولِ الله؛ أدَبًا معه وتَعظيمًا له: هم الَّذين اختبَرَ اللهُ قُلوبَهم بالأوامرِ والنَّواهي والبَلاءِ، فأخلَصَها وطهَّرها مِن كلِّ شرٍّ؛ لِيَكونوا أتْقياءَ يَمتثِلونَ الأوامرَ، ويَجتنِبونَ النَّواهيَ؛ حذَرًا مِن سَخَطِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٧).

قال ابن تَيميَّةَ: (﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، أي: حذَرَ أن تحبَطَ أعمالُكم، أو خشيةَ أن تَحبَطَ أعمالُكم، أو كَراهةَ أن تَحبَطَ، أو مَنْعَ أن تَحبَطَ، هذا تقديرُ البَصريِّينَ، وتقديرُ الكوفيِّينَ: لئلَّا تَحبَطَ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٥٤).

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) واللَّفظُ له.

وعَذابِه[١].

كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمةَ، ومَرْوانَ بنِ الحَكَمِ في حديثِ صُلْحِ الحُدَيبيَةِ: ((... قال عُروةُ بنُ مَسعودٍ الثَّقَفيُّ لِقُريشٍ حِينَ رجَعَ مِن عندِ رسولِ الله: أيْ قَومِ، واللهِ لقد وفَدْتُ على الملوكِ، ووفَدْتُ على قَيصرَ، وكِسرى، والنَّجاشيِّ، واللهِ إنْ رأيتُ مَلِكًا قَطُّ يُعظِّمُه أصحابُه ما يُعظِّمُ أصحابُ محمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- محمَّدًا، واللهِ إنْ تَنخَّمَ نُخامةً إلَّا وقَعَت في كفِّ رجُلٍ منهم، فدلَكَ بها وجْهَه وجِلْدَه، وإذا أمَرَهم ابتَدَروا[٢] أمْرَه، وإذا تَوضَّأَ كادُوا يَقتَتِلون على وَضوئِه[٣]، وإذا تكلَّمَ خَفَضوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّون[٤] إليه النَّظرَ؛ تَعظيمًا له))[٥].

وعن حُذيفةَ بنِ اليَمانِ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((تُعرَضُ الفِتنُ على القُلوبِ كالحصيرِ عُودًا عُودًا[٦]، فأيُّ قلْبٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٣).
قال ابن الأنباري: (قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ معناه: اختارها وأخلَصها). ((الزاهر في معاني كلمات الناس)) (١/ ٤٠٦).

(٢) ابتَدَروا أمْرَه: أي: أسرَعوا إلى فِعْلِه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٤٤٧).

(٣) وَضُوئِه، بفتحِ الواوِ: أي: فَضلةِ الماءِ الَّذي توضَّأَ به صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٤٤٧).

(٤) ما يُحِدُّونَ إليه النَّظَرَ: أي: لا يَتأمَّلونَه ولا يُديمونَ النَّظَرَ إليه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٤٤٧).

(٥) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٦) أي: تَظهَرُ بها فِتنةٌ بعدَ أخرى، كما يُنسَجُ الحَصيرُ عُودًا عُودًا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٨/ ٣٣٧٨).

أُشرِبَها، نُكِت[١] فيه نُكْتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قلْبٍ أنكَرَها، نُكِت فيه نُكْتةٌ بَيضاءُ، حتَّى تَصيرَ على قَلبَينِ؛ على أبيضَ مِثلِ الصَّفا[٢]، فلا تضُرُّه فِتْنةٌ ما دامَتِ السَّمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسودُ مُرْبَادًّا[٣]، كالكُوزُ مُجَخِّيًا[٤]، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلَّا ما أُشرِبَ مِن هَواهُ))[٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: (كان عمَرُ بعْدُ [أي: بعدَ نزولِ قولِه تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ...﴾] إذا حدَّثَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحديثٍ حدَّثَه كأخِي السِّرارِ[٦]، لم يُسْمِعْه حتَّى يَستفهِمَه)[٧].

وعن عمْرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنه، قال: (ما كان أحدٌ أحَبَّ إلَيَّ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا أجَلَّ في عَينيَّ منه، وما كنتُ أُطِيقُ أنْ أملأَ عَينيَّ منه؛ إجلالًا له، ولو سُئِلتُ أنْ أصِفَه ما أطقْتُ؛ لأنِّي لم أكُنْ أملأُ عَيْنيَّ منه!)[٨].

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: لهم مِن اللهِ مَغفرةٌ لذُنوبِهم فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها،

---

(١) نُكِتَ: أي: نُقِطَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).

(٢) الصَّفا: أي: الحَجَرِ الأملَسِ الَّذي لا يَعلَقُ به شَيءٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).

(٣) مُرْبادًّا: أي: صار كلَونِ الرَّمادِ، مِنَ الرُّبْدةِ: لَونٌ بيْنَ السَّوادِ والغَبَرةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٣٧٨).

(٤) مُجَخِّيًا: أي: مائلًا مَنكوسًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٣).

(٥) رواه مسلم (١٤٤).

(٦) أي: كصاحِبِ السِّرارِ لا يرفَعُ صَوتَه إذا حدَّثَه، بل يكَلِّمُه كلامًا مِثلَ المُسارَّةِ وشِبْهِها؛ لِخَفضِ صَوتِه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١٠/ ٣١٦).

(٧) رواه البخاري (٧٣٠٢).

(٨) رواه مسلم (١٢١).

ولهم ثوابٌ منه جَزيلٌ[١].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

المُناسَبةُ أنَّ المُناداةَ مِن وَراءِ الحُجراتِ فيها رفْعُ الصَّوتِ وإساءةُ الأدَبِ، واللهُ قد أمَرَ بتَوقيرِ رَسولِه وتَعظيمِه[٢].

وأيضًا لَمَّا نَهى اللهُ سُبحانه عن الإخلالِ بالأدَبِ، وأمَرَ بالمُحافَظةِ على التَّعظيمِ، وذكَرَ وصْفَ المُطيعِ؛ أتْبَعَ ذلك -على سَبيلِ النَّتيجةِ- وصْفَ مَن أخَلَّ به[٣].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يُنادونَك مِن وَراءِ بُيوتِ نِسائِك -يا محمَّدُ- أكثَرُهم جاهِلون بدِينِ الله وما يجِبُ عليهم مِن تَعظيمِك، والتَّأدُّبِ معك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٥).

قال النَّيْسابوري: (أمَّا إخبارُ اللهِ تعالى عنهم بأنَّ أكثَرَهم لا يَعقِلون؛ فإمَّا لأنَّ الأكثَرَ أُقيمَ مُقامَ الكلِّ على عادةِ الفُصحاءِ كَيْلَا يكونَ الكلامُ بصَددِ المنعِ، وإمَّا لأنَّ الحُكمَ بقِلَّةِ العُقلاءِ فيهم عِبارةٌ عن العدَمِ؛ فإنَّ القِلَّةَ تقَعُ مَوقعَ النَّفْيِ في كلامِهم، وإمَّا لأنَّ فيهم مَن رجَع ونَدِم على صَنيعِه، فاستَثْناه اللهُ تعالى). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٥٩).

وقال الألوسي: (الحُكمُ على الأكثَرِ دُونَ الكلِّ بذلك؛ لأنَّ منهم مَن لم يَقصِدْ ترْكَ الأدبِ، بل نادى لأمرٍ ما على ما قيل. وجُوِّز أن يكونَ المرادُ بالقِلَّةِ الَّتي يدُلُّ عليها نفْيُ الكَثرةِ العدَمَ؛ =

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضيَ الله عنهما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، قال: ((فقام رجُلٌ فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ حمْدي زَينٌ، وإنَّ ذمِّي شَينٌ! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ذاك اللهُ))[1].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

= فإنَّه يُكْنى بها عنه، وتعقَّبه أبو حيَّان بأنَّ ذلك في صريحِ القِلَّةِ، لا في المفهومِ مِن نفْيِ الكَثرةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٩٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١١).

وقال القاسمي: (ونسَب إلى الأكثَرِ؛ لأنَّه قد يَتبعُ عاقِلٌ جماعةَ الجهَّالِ، مُوافَقةً لهم). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥١٩).

وقال ابن عثيمين: (وقَولُه: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يُفهَمُ منه أنَّ بَعضَهم يَعقِلُ، وأنَّه لم يَحصُلْ منه رفْعُ صَوتٍ، بل هو متأدِّبٌ مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١).

قال البِقاعي: (﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّهم لم يَصبِروا، بل فعَلوا معه صلَّى الله عليه وسلَّم كما يَفعَلُ بعضُهم مع مَن يُماثِلُه! والعَقلُ يَمنعُ مِن مِثلِ ذلك لِمَن اتَّصَف بالرِّئاسةِ، فكيف إذا كانت رِئاسةَ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ عن المَلِكِ الجَبَّارِ، الواحِدِ القَهَّارِ؟!). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٦١).

وقال ابن عُثيمين: (المرادُ بالعَقلِ هنا عَقْلُ الرُّشدِ؛ لأنَّ العَقلَ عَقلانِ: عَقْلُ رُشدٍ، وعَقْلُ تَكليفٍ؛ فأمَّا عَقْلُ الرُّشدِ فضِدُّه السَّفَهُ، وأمَّا عَقلُ التَّكليفِ فضِدُّه الجُنونُ... فالمرادُ بقَولِه هنا: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: عَقْلَ رُشْدٍ؛ لأنَّهم لو كانوا لا يَعقِلونَ عَقْلَ تكليفٍ لم يكُنْ عليهم لَومٌ ولا ذَمٌّ؛ لأنَّ المجنونَ فاقِدُ العَقلِ، لا يَلحَقُه لَومٌ ولا ذمٌّ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١).

وقال ابن عاشور: (ونَفيُ العقلِ عنهم مُرادٌ به عقلُ التَّأدُّبِ الواجبِ في مُعامَلةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو عقلُ التَّأدُّبِ المغفولِ عنه في عادَتِهم الَّتي اعتادوها في الجاهِليَّةِ مِن الجفاءِ والغلظةِ والعُنْجُهيَّةِ، وليس فيها تحريمٌ ولا تَرتُّبُ ذَنْبٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٥).

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٦٧) واللَّفظُ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٥١٥).

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ). وجوَّد إسنادَه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (٥/ ٤٢)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٦٧).

أي: ولو أنَّهم انتَظَروا خُروجَك مِن بَيتِك -يا محمَّدُ- مِن تِلْقاءِ نفْسِك، ولم يُنادوك مِن وَراءِ حُجُراتِك تَعظيمًا لك؛ لَكان خَيرًا وأصلَحَ لهم في دِينِهم ودُنياهم وآخِرتِهم[١].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ بالِغُ المغفرةِ لِذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، بالِغُ الرَّحمةِ بهم[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- عن ابنِ مسعودٍ رَضيَ الله عنه، قال: (إذا سمِعتَ اللهَ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرْعِها سمعَك؛ فإنَّه خَيرٌ يَأمُر به، أو شرٌّ يَنهَى عنه)[٣].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، مُتضمِّنٌ للأدَبِ مع اللهِ تعالى، ومع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّعظيمِ له، واحترامِه، وإكرامِه، فأمَرَ اللهُ عِبادَه المؤمنينَ بما يَقتضيهِ الإيمانُ باللهِ وبرسولِه؛ مِن امتِثالِ أوامرِ اللهِ تعالى، واجتنابِ نَواهيهِ، وأنْ يَكونوا ماشينَ خلْفَ أوامرِ اللهِ، مُتَّبِعينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٨، ٣٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦١، ٣٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١).
قال ابن عطيَّة: (قَولُه تعالى: ﴿لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ﴾ يعني: في الثَّوابِ عندَ اللهِ، وفي انبساطِ نَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقَضائِه لحوائجِهم، ووُدِّه لهم، وذلك كُلُّه خيرٌ، لا مَحالةَ أنَّ بَعضَه انْزَوى بسَبَبِ جَفائِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (١/ ١٩٦)، وأبو نُعَيم في ((حلية الأولياء)) (١/ ١٣٠)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٦١٩).

لسُنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في جميعِ أُمورِهم، وألَّا يَتقدَّموا بيْنَ يدَيِ اللهِ ورسولِه، ولا يَقولوا حتَّى يقولَ، ولا يَأمُروا حتَّى يَأمُرَ؛ فإنَّ هذا حقيقةُ الأدبِ الواجبِ مع اللهِ ورسولِه، وهو عُنوانُ سَعادةِ العبْدِ وفَلاحِه، وبِفَواتِه تَفوتُه السَّعادةُ الأبَديَّةُ، والنَّعيمُ السَّرْمَديُّ، وفي هذا النَّهيُ الشَّديدُ عن تَقديمِ قولِ غيرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على قولِه؛ فإنَّه متى استبانَتْ سُنَّةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وجَبَ اتِّباعُها، وتَقديمُها على غَيرِها، كائنًا ما كان[١]، والتَّقدُّمُ بيْنَ يدَيْ سُنَّتِه بعْدَ وَفاتِه كالتَّقدُّمِ بيْن يَدَيْه في حَياتِه، ولا فَرْقَ بيْنَهما عندَ ذي عقْلٍ سليمٍ[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾، في ذِكرِ الاسمَينِ الكريمَينِ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ -بعْدَ النَّهيِ عن التَّقدُّمِ بيْن يَدَيِ اللهِ ورسولِه، والأمرِ بتَقْواهُ- حثٌّ على امتثالِ تلك الأوامرِ الحَسَنةِ، والآدابِ المُستحسَنةِ، وتَرهيبٌ عن عدَمِ الامتثالِ[٣].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ استَدلَّ به العُلماءُ على المنْعِ مِن رفْعِ الصَّوتِ بحَضْرةِ قَبرِه الشَّريفِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعندَ قِراءةِ حَديثِه؛ لأنَّ حُرمَتَه ميِّتًا كحُرْمتِه حيًّا[٤]، وكلامُه المأثورُ بعدَ مَوتِه في الرِّفْعةِ مِثلُ كَلامِه المَسموعِ مِن لَفظِه؛ فإذا قُرِئَ كَلامُه وَجَب على كُلِّ حاضِرٍ ألَّا يَرفَعَ صَوتَه عليه، ولا يُعرِضَ عنه، كما كان يَلزَمُه ذلك في مَجلِسِه عندَ تلَفُّظِه به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٤٦).

٥- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ دَليلٌ أنَّ على النَّاسِ -وإنْ تواضَعَ لهم إمامُهم، وغَضَّ لهم جَناحَه- أنْ يُوَقِّروه، ولا يُنْزِلوه مِن أنْفُسِهم مَنزِلةَ بَعضِهم مِن بَعضٍ، وأنْ يَنتظِروه لحَوائجِهم -وإنْ رَفَعَ حِجابَه- حتَّى يَخرُجَ إليهم[١].

٦- قولُ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ تأْديبٌ لهم، وتَعليمُهم مَحاسِنَ الأخلاقِ، وإزالةٌ لِعَوائدِ الجاهليَّةِ الذَّميمةِ[٢]، فأدَبُ العبدِ عُنوانُ عقْلِه، وأنَّ اللهَ مُريدٌ به الخيرَ[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾، أي: الَّذي يَتلقَّى عن اللهِ، وتلَقِّيه عنه مُتوقَّعٌ في كلِّ وقتٍ، وهذا يدُلُّ على أنَّ أذى العُلماءِ -الَّذين هيَّأهم اللهُ لتَلقِّي فَهْمِ دِينِه عنه- شديدٌ جدًّا؛ فإنَّ تَكديرَ أوقاتِهم يَمنَعُهم عن كثيرٍ مِن ذلك[٤].

٨- قال ابنُ عَقيلٍ: ما أخْوَفَني أن أُساكِنَ مَعصيةً فتَكونَ سَببًا في سُقوطِ عَمَلي، وسُقوطِ مَنزِلةٍ -إن كانت- عندَ اللهِ تعالى، بَعدَما سَمِعتُ قَولَه تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾، وهذا يدُلُّ على أنَّ في بَعضِ التَّسَبُّبِ وسُوءِ الأدَبِ على الشَّريعةِ ما يُحبِطُ الأعمالَ، ولا يَشعُرُ العامِلُ أنَّه عِصيانٌ يَنتهي إلى رُتبةِ الإحباطِ، وهذا يَترُكُ الفَطِنَ خائِفًا وَجِلًا مِنَ الإقدامِ على المآثِمِ، ثمَّ خَوفًا أن يكونَ تَحتَها مِنَ العُقوبةِ ما يُشاكِلُ هذه[٥]!

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٥٦).

(٥) يُنظر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٢/ ٣١٧).

٩- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾، فحذَّرَ المؤمِنينَ مِن حُبوطِ أعمالِهم بالجَهْرِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما يَجهَرُ بعضُهم لبعضٍ، وإنَّ مَعرفةَ ما يُفسِدُ الأعمالَ في حالِ وُقوعِها ويُبطِلُها ويُحبِطُها بعْدَ وُقوعِها؛ مِن أهمِّ ما يَنْبغي أنْ يُفتِّشَ عليه العبدُ، ويَحرِصَ على عمَلِه ويَحذَرَه، فمُحبِطاتُ الأعمالِ ومُفسِداتُها أكثرُ مِن أنْ تُحصَرَ، وليس الشَّأنُ في العمَلِ، إنَّما الشَّأنُ في حِفظِ العمَلِ ممَّا يُفسِدُه ويُحبِطُه؛ فالرِّياءُ وإنْ دقَّ مُحبِطٌ للعمَلِ، وهو أبوابٌ كثيرةٌ لا تُحصَرُ، وكونُ العملِ غيرَ مُقيَّدٍ باتِّباعِ السُّنةِ أيضًا مُوجِبٌ لكَونِه باطلًا، والمَنُّ به على اللهِ تعالى بقلْبِه مُفسِدٌ له، وكذلك المَنُّ بالصَّدقةِ والمعروفِ والبرِّ والإحسانِ والصِّلةِ؛ مُفسِدٌ لها، كما قال سُبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن ترَكَ صلاةَ العصْرِ فقد حَبِطَ عمَلُه))[(١)]، وأكثَرُ النَّاسِ ما عِندَهم خبَرٌ مِن السَّيِّئاتِ الَّتي تُحبِطُ الحسَناتِ[(٢)].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾، فيه دليلٌ على أنَّ اللهَ يَمتحِنُ القلوبَ، بالأمْرِ والنَّهيِ والمِحَنِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣) مِن حديث بُرَيدةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((الوابل الصيب من الكلم الطيب)) لابن القيم (ص: ١١).

قال ابن القيم: (والحُبوطُ نَوعانِ: عامٌّ وخاصٌّ، فالعامُّ: حُبوطُ الحَسناتِ كلِّها بالرِّدَّةِ، والسَّيِّئاتِ كلِّها بالتَّوبةِ، والخاصُّ: حُبوطُ السَّيِّئاتِ والحَسناتِ بَعضِها ببَعضٍ، وهذا حُبوطٌ مُقيَّدٌ جُزئيٌّ). ((الصلاة وأحكام تاركها)) (ص: ٦٦).

وقال ابن تيميَّةَ: (أمَّا الصَّحابةُ وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ فعلى أنَّ ... الكبيرةَ الواحدةَ لا تُحبِطُ جميعَ الحسَناتِ، ولكنْ قد يُحبَطُ ما يُقابِلُها عندَ أكثَرِ أهلِ السُّنَّةِ، ولا يُحبِطُ جميعَ الحسَناتِ إلَّا الكفرُ، كما لا يُحبِطُ جميعَ السَّيِّئاتِ إلَّا التَّوبةُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٣٢١، ٣٢٢).

فمَنْ لازَمَ أمْرَ اللهِ، واتَّبَع رِضاهُ، وسارَعَ إلى ذلك، وقدَّمَه على هواهُ؛ تَمحَّضَ وتَمحَّصَ للتَّقْوى، وصار قلْبُه صالحًا لها، ومَن لم يكُنْ كذلك، عُلِمَ أنَّه لا يَصلُحُ للتَّقوى[١]، فالآيةُ فيها أنَّ التَّقوى لا تَظهَرُ إلَّا عندَ المِحَنِ والشَّدائدِ بالتَّكليفِ وغيرِها، ولا تَثبُتُ إلَّا بمُلازَمةِ الطَّاعةِ في المَنشَطِ والمَكرَهِ[٢].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، يُحتَجُّ به في اتِّباعِ الشَّرعِ في كلِّ شَيءٍ[٣]، وهو حُجَّةٌ على مَن يَبْتغي معَ القرآنِ والسُّنَّةِ سِواهما، ويَلْتَمِسُ الحُجَّةَ في غيرِهما[٤]!

٢- تَصديرُ اللهِ الخِطابَ بقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يدُلُّ على أنَّ التِزامَ ما خُوطِبَ به: مِن مُقتَضياتِ الإيمانِ، وأنَّ مخالَفَتَه نَقْصٌ في الإيمانِ[٥].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يُحتجُّ به في تَقديمِ النَّصِّ على القِياسِ[٦].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يُؤيِّدُ قولَ الفُقهاءِ: إنَّ المكلَّفَ لا يُقدِمُ على فِعلٍ حتَّى يَعلَمَ حُكْمَ اللهِ فيه[٧].

٥- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ذُكِرَ الرَّسولُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٨١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٦).

مع الله؛ للإشارةِ إلى أنَّ طاعةَ اللهِ لا تُعلَمُ إلَّا بقولِ الرَّسولِ، فهذه طاعةٌ للرَّسولِ تابِعةٌ لِطاعةِ اللهِ(١).

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، السَّمعُ الَّذي اتَّصَف به ربُّنا عزَّ وجلَّ يَنقسِمُ إلى قِسمَينِ: سمْعِ إدراكٍ، وسمْعِ إجابةٍ، فسَمْعُ الإدراكِ معْناهُ أنَّ اللهَ يَسمَعُ كلَّ صَوتٍ خَفِيَ أو ظهَرَ. أمَّا سمْعُ الإجابةِ فمعْناه: أنَّ اللهَ يَستجِيبُ لِمَن دعاهُ، ومنه قولُ إبراهيمَ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، أي: مُجيبُ الدُّعاءِ، ومنه قولُ المصَلِّي: (سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَه)، يعني: استجابَ لِمَن حَمِدَه فأثابَه(٢).

٧- قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾، أي: لا تُنادُوه باسْمِه، كـ: يا محمَّدُ -على قولٍ-. وقد دلَّت آياتٌ مِن كِتابِ اللهِ على أنَّ اللهَ تعالى لا يُخاطِبُه في كِتابِه باسْمِه، وإنَّما يُخاطِبُه بما يدُلُّ على التَّعظيمِ والتَّوقيرِ؛ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، مع أنَّه يُنادي غيرَه مِن الأنبياءِ بأسْمائِهم؛ كقولِه: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقولِه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٤]، وقولِه: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨]، وقولِه: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقولِه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقولِه: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾(٣) [ص: ٢٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣، ١٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠٢).

ويُنظر الفرقُ بينَ مقامِ الإخبارِ ومقامِ المخاطبةِ (ص: ١٨٢).

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ إذا ثبتَ أنَّ رفْعَ الصَّوتِ فوقَ صَوتِ النَّبيِّ، والجهرَ له بالقَولِ يُخافُ منه أن يَكفُرَ صاحِبُه وهو لا يَشعُرُ، ويَحبَطَ عمَلُه بذلك، وأنَّه مَظِنَّةٌ لذلك، وسببٌ فيه؛ فمِنَ المعلومِ أنَّ ذلك لِما يَنبغي له مِن التَّعزيرِ والتَّوقيرِ، والتَّشريفِ والتَّعظيمِ، والإكرامِ والإجلالِ، ولِما أنَّ رفْعَ الصَّوتِ قد يَشتمِلُ على أذًى له، أو استِخفافٍ به، وإن لم يَقصِدِ الرَّافِعُ ذلك[1].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾، فإذا كان رفْعُ أصواتِهم فوقَ صَوتِه سببًا لِحُبوطِ أعمالِهم؛ فكيف تَقديمُ آرائِهم وعُقولِهم، وأذواقِهم وسِياساتِهم ومَعارِفِهم على ما جاء به، ورفْعُها عليه؟! أليس هذا أَولى أنْ يكونَ مُحبِطًا لأعمالِهم[2]؟!

١٠- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ احتجَّ به المعتزِلةُ على أهلِ السُّنَّةِ على أنَّ الكبائرَ بمَنزِلةِ الشِّركِ في الإحباطِ، وأنَّ ذلك مُستلزِمٌ الخُلودَ في النَّارِ.

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) لابن تيمية (ص: ٥٥).
وقال ابن تيميَّة: (وقولُه تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾؛ لأنَّ ذلك قد يَتضمَّنُ الكفرَ فيَقتضي الحُبوطَ وصاحِبُه لا يدري...، فنهاهم عن ذلك لأنَّه يُفضي إلى الكفرِ المُقتضِي لِلحُبوطِ. ولا ريبَ أنَّ المعصيةَ قد تكونُ سببًا للكفرِ، كما قال بعضُ السَّلفِ: المعاصي بريدُ الكفرِ؛ فيُنهى عنها خشيةَ أن تُفضي إلى الكفرِ المُحبِطِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٤١).

والجوابُ أنَّ ذلك مَردودٌ؛ لِوُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّه يجوزُ أن يكونَ الإحباطُ بسببِ تجويزِ الوُقوعِ في الكفرِ بسببِ الاستِهانةِ برسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ومِن أجْلِ أنَّ ذلك قد يؤدِّي إليها على جهةِ التَّجويزِ جاء بأنِ المَصدريَّةِ الَّتي للتَّخويفِ، أي: مخافةَ أن تحبَطَ أعمالُكم، ولو كان ذلك استِهانةً مَحْضةً أو كانت الاستِهانةُ لازِمةً له ولا بُدَّ، لَما جاء بهذه الصِّيغةِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّه فرقٌ واضحٌ بيْن أن يقولَ: «تَحبَط» مِن غيرِ إدخالِ «أنِ» المَصدريَّةِ، ويكونَ مجزومًا في إعرابِه، تقديرُه: إن تَفعَلوا ذلك تَحْبَطْ أعمالُكم؛ وبيْنَ إدخالِ «أنِ» المَصدريَّةِ، ولا شكَّ أنَّ الصُّورةَ الأُولى تدُلُّ على الإحباطِ، وأنَّ دُخولَ «أنْ» قد غيَّرَ معناها إلى معنَى التَّخويفِ الَّذي قد يقَعُ وقد لا يقَعُ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّا لو سَلَّمْنا دَلالةَ ذلك على أنَّ في ذُنوبِ المُسلِمينَ ما يُحْبِطُ العملَ، لم يَستَلزِمْ أنَّ الإحباطَ يَستلزِمُ الخُلودَ؛ لأنَّه لا مانعَ مِن أن يَحبَطَ عمَلُ العبدِ ويَدخُلَ الجنَّةَ برَحمةِ الله تعالى؛ فقد دخلَها الصِّبيانُ بغيرِ عمَلٍ، ويَخلُقُ اللهُ لِفُضولِ الجنَّةِ خَلْقًا لم يَعمَلوا، ولم يُكَلَّفوا، كما ثبَت في البُخاريِّ[1] وغيرِه[2].

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاريُّ (٤٨٥٠)، ومسلمٌ (٢٨٤٦) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضي الله عنه، وما أخرجه البخاريُّ (٧٣٨٤)، ومسلمٌ (٢٨٤٨) مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم)) لابن الوزير (٩/ ٧٥، ٧٦).

وقال ابنُ المُنَيِّرِ في مَعرِضِ ردِّه على الزمخشريِّ: (المرادُ في الآيةِ النَّهيُ عن رفعِ الصَّوتِ على الإطلاقِ، ومعلومٌ أنَّ حُكمَ النَّهيِ الحذَرُ ممَّا يُتوقَّعُ في ذلك مِن إيذاءِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، والقاعدةُ المُختارةُ أنَّ إيذاءَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَبلُغُ مَبلَغَ الكفرِ المُحبِطِ للعمَلِ باتِّفاقٍ، فورَدَ النَّهيُ عمَّا هو مَظِنَّةٌ لأذى النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، سواءٌ وُجِد هذا المعنى أوْ لا؛ حمايةً لِلذَّريعةِ، وحَسْمًا للمادَّةِ، ثمَّ لَمَّا كان هذا المنهيُّ عنه -وهو رفعُ الصَّوتِ- مُنقسِمًا إلى ما يَبلُغُ ذلك المَبلَغَ أو لا، ولا دليلَ يميِّزُ أحدَ القِسمَينِ عن الآخَرِ؛ لَزِمَ المُكلَّفَ أن يَكُفَّ عن ذلك مُطلَقًا، وخوفَ =

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾، فيه مِن خَصائصِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: تَحريمُ رفْعِ الصَّوتِ عليه، والجَهْرِ له بالقولِ[١].

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾، هذا النَّهيُ مَخصوصٌ بغَيرِ المواضعِ الَّتي يُؤمَرُ بالجَهرِ فيها؛ كالأذانِ، وتَكبيرِ يومِ العيدِ، وبغيرِ ما أذِنَ فيه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذْنًا خاصًّا؛ كقولِه للعبَّاسِ حِينَ انهزَمَ المسلِمونَ يومَ حُنَينٍ: ((أيْ عبَّاسُ، نادِ أصحابَ السَّمُرةِ))[٢]، وكان العبَّاسُ جَهيرَ الصَّوتِ[٣].

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾، فيه سُؤالٌ: ما الفائدةُ مِن قولِه: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾، مع أنَّ الجَهرَ مُستفادٌ مِن قولِه: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ المنْعَ مِن رفْعِ الصَّوتِ هو: ألَّا يَجعَلَ كلامَه أو صَوتَه أعْلى مِن كلامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو صَوتِه، والنَّهيُ عن الجَهرِ منْعٌ مِن المُساواةِ، أي: لا تَجهَروا له بالقولِ كما تَجهَرون لنُظرائِكم، بل اجْعَلوا كَلمتَه عُلْيا[٤].

= أن يقَعَ فيما هو مُحبِطٌ للعمَلِ، وهو البالغُ حدَّ الإيذاءِ؛ إذ لا دليلَ ظاهرٌ يُمَيِّزُه، وإن كان فلا يَتَّفِقُ تمييزُه في كثيرٍ مِن الأحيانِ، وإلى الْتِباسِ أحدِ القِسمَينِ بالآخَرِ وقعَتِ الإشارةُ بقولِه: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾. ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٧٥) من حديثِ العبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٥٢٥).

الوجْهُ الثَّاني: أنَّ فائدةَ ذِكرِ ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾: النَّهيُ عن الجَهرِ في مُخاطَبتِه، وإنْ لم يَتضمَّنْ رفْعَ أصواتِهم على صَوتِه.

الوجْهُ الثَّالثُ: أنَّ المرادَ النَّهيُ عن مُخاطَبتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باسمِه[١].

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، ظاهرُ هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ الإنسانَ قد يَحبَطُ عمَلُه وهو لا يَشعُرُ، وقد قيل: (إنَّه لا يَحبَطُ عمَلُه بغيرِ شُعورِه)، وظاهرُ الآيةِ يرُدُّ على ذلك[٢].

١٥- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لم يَصِفْهم بكُفْرٍ ولا نِفاقٍ؛ لكنَّ هؤلاء يُخْشى عليهم الكفْرُ والنِّفاقُ؛ ولهذا ارتَدَّ بَعضُهم؛ لأنَّهم لم يُخالِطِ الإيمانُ بَشاشةَ قُلوبِهم[٣].

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ حُرمةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعْدَ وَفاتِه كحُرمتِه في أيَّامِ حَياتِه، وبه تَعلَمُ أنَّ ما جَرَت به العادةُ اليَومَ مِن اجتِماعِ النَّاسِ قُرْبَ قبْرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهمْ في صَخَبٍ ولَغَطٍ، وأصواتُهم مُرتفِعةٌ ارتِفاعًا مُزعِجًا؛ كلُّه لا يَجوزُ، ولا يَليقُ، وإقرارُهم عليه مِن المنكَرِ. وقد شدَّدَ عمَرُ رضِيَ اللهُ عنه النَّكيرِ على رجُلينِ رفَعَا أصواتَهما في مَسجدِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال: (لو كُنتُما مِن أهلِ البلدِ لَأوجَعْتُكما، تَرْفَعانِ أصواتَكما في مسجدِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)[٤].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٧، ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠٣). =

١٧- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ في هذه الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ الصَّلاحَ صَلاحُ القلْبِ؛ لقولِه: ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾، وكما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الحديثِ الصَّحيحِ[١]: ((التَّقوى هاهنا. ويُشيرُ إلى صَدْرِه))[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تَوطئةٌ للنَّهيِ عن رفْعِ الأصواتِ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والجَهْرِ له بالقولِ، ونِدائِه مِن وَراءِ الحُجراتِ[٣].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه تَصْديرُ الخِطابِ بالنِّداءِ؛ لتَنبيهِ المخاطَبينَ على أنَّ ما في حَيِّزِه أمْرٌ خَطيرٌ يَسْتدعِي مَزيدَ اعتِنائِهم بشَأْنِه، وفرْطِ اهتِمامِهم بتَلقِّيه ومُراعاتِه. ووَصْفُهم بالإيمانِ؛ لتَنشيطِهمْ، والإيذانِ بأنَّه داعٍ إلى المُحافَظةِ عليهِ، ووازِعٌ عن الإخلالِ به[٤].

- وفي تَكريرِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خمْسَ مرَّاتٍ في هذه السُّورةِ فائدةٌ بلاغيَّةٌ لَطيفةٌ؛ وهي إظهارُ الشَّفقةِ على المُسترشِدِ، وإبداءُ المُناصَحةِ له على آكَدِ وجهٍ؛ لِيُقبِلَ على استِماعِ الكلامِ ويُعيرَه بالَه، ولتَحديدِ المُخاطَبينَ بالذَّاتِ، وأنَّهم هم المَعنيُّونَ بالمُناصَحةِ، وفيه أيضًا استدعاءٌ لتَجديدِ الاستِبصارِ، والتَّيقُّظِ والتَّنبُّهِ عندَ كلِّ خِطابٍ[٥].

= وأثرُ عمرَ أخرجه البخاري (٤٧٠).

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦١).

- وفي قولِه تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مِن غَيرِ ذِكرِ مَفعولٍ وَجهانِ؛ أحدُهما: أنْ يُحذَفَ لِيَتناوَلَ كلَّ ما يقَعُ في النَّفْسِ ممَّا يُقدَّمُ[1]، وفي الحذْفِ مِن البلاغةِ ما ليس في الذِّكرِ؛ لأنَّ الخَيالَ يَذهَبُ فيه كلَّ مَذهبٍ. والثَّاني: ألَّا يُقصَدَ مَفْعولٌ ولا حذْفُه، ويُتوجَّهُ بالنَّهيِ إلى نفْسِ التَّقدِمةِ، كأنَّه قِيل: لا تُقْدِموا على التَّلبُّسِ بهذا الفِعلِ، ولا تَجْعلوه منكم بسَبيلٍ[2].

- والنَّهيُ هنا للتَّحذيرِ؛ إذ لم يَسبِقْ صُدورُ فِعلٍ مِن أحدٍ افتياتًا على الشَّرعِ. ويجوزُ أنْ يُجرى مُجرَى قَولِك: سرَّني زَيدٌ وحُسْنُ حالِه، وأُعجِبْتُ بعَمْرٍو وكَرَمِه، فأصلُ الكلامِ: لا تُقدِّموا بيْن يدَيْ رَسولِ اللهِ، وفائدةُ هذا الأسلوبِ: الدَّلالةُ على قُوَّةِ الاختِصاصِ، ولَمَّا كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن اللهِ بالمكانِ الَّذي لا يَخْفى، سُلِكَ به ذلك المَسلكُ؛ فالمقصودُ مِن الآيةِ النَّهيُ عن إبرامِ شَيءٍ دونَ إذْنٍ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذُكِرَ قبْلَه اسمُ اللهِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مُرادَ اللهِ إنَّما يُعرَفُ مِن قِبَلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولتَعظيمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والإيذانِ بجَلالةِ مَحلِّه عندَه عزَّ وجَلَّ[3].

---

(١) ومِن قواعدِ التَّفسيرِ: أنَّ حذفَ المتعلَّقِ يُفيدُ العمومَ النِّسْبيَّ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (ص: ٥٩٧-٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٦).

- وعطْفُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تكملةٌ للنَّهي عن التَّقدُّمِ بيْنَ يدَي الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَدُلَّ على أنَّ تَرْكَ إبرامِ شَيءٍ دونَ إذْنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن تَقوى اللهِ وَحْدَه، أي: ضِدُّه ليس مِن التَّقْوى[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ في مَوضعِ العلَّةِ للنَّهي عن التَّقدُّمِ بيْنَ يدَي اللهِ ورسولِه، وللأمْرِ بتَقوى اللهِ[٢].

- وذِكرُ هاتَينِ الصِّفتَينِ كِنايةٌ عن التَّحذيرِ مِن المخالَفةِ؛ ففي ذلك تأْكيدٌ للنَّهيِ والأمرِ[٣].

- وجُعِلَت هذه الآيةُ في صَدْرِ السُّورةِ مُقدِّمةً على تَوبيخِ وَفْدِ بني تميمٍ حينَ نادَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن وَراءِ الحُجُراتِ؛ لأنَّ ما صدَرَ مِن بني تَميمٍ هو مِن قَبيلِ رفْعِ الصَّوتِ عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولأنَّ مُماراةَ أبي بكرٍ وعُمرَ، وارتِفاعَ أصواتِهما كانت في قَضيَّةِ بني تَميمٍ، فكانت هذه الآيةُ تمْهيدًا لقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآيةَ؛ لأنَّ مَن خصَّه اللهُ بهذه الحُظْوةِ -أي: جعَلَ إبرامَ العملِ بدُونِ أمْرِه كإبرامِه بدُونِ أمْرِ اللهِ- حَقيقٌ بالتَّهيُّبِ والإجلالِ أنْ يُخفَضَ الصَّوتُ لدَيْه. وإنَّما قُدِّمَ هذا على تَوبيخِ الَّذين نادَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ هذا أَوْلى بالاعتِناءِ؛ إذ هو تأْديبُ مَن هو أَولى بالتَّهذيبِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٧، ٢١٨).

لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ توطئةٌ لقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾[1] [الحجرات: ٤].

- وإعادةُ النِّداءِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ثانيًا معَ قُربِ العَهْدِ به؛ لاستِدعاءِ مَزيدِ الاستِبصارِ، والمُبالَغةِ في الاتِّعاظِ[2]، والتَّنبيهِ والإيقاظِ، ولِيَكونَ في ذلك بَيانُ زِيادةِ الشَّفقةِ على المُسترشِدِ؛ لأنَّ النِّداءَ لتَنبيهِ المنادَى ليُقبِلَ على استِماعِ الكلامِ، ويَجعَلَ بالَهُ منه، فإعادتُه تُفيدُ ذلك، ولئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ المخاطَبَ ثانيًا غيرُ المخاطَبِ أوَّلًا، ولِيُعلَمَ أنَّ كلَّ واحدٍ مِن الكلامَينِ مَقصودٌ، وليس الثَّاني تأكيدًا للأوَّلِ، ففيه إباستِقلالِ كُلٍّ مِن الكَلامَينِ باستِدعاءِ الاعتِناءِ بشأنِه، وأنَّه غرَضٌ جَديرٌ بالتَّنبيهِ عليه بخُصوصِه؛ حتَّى لا يَنغمِرَ في الغرَضِ الأوَّلِ؛ فإنَّ هذا مِن آدابِ سُلوكِ المؤمنينَ في مُعامَلةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومُقْتضَى التَّأدُّبِ بما هو آكَدُ مِن المُعامَلاتِ[3].

- واللَّامُ في ﴿لَهُۥ﴾ لتَعديةِ ﴿تَجۡهَرُواْ﴾؛ لأنَّ ﴿تَجۡهَرُواْ﴾ في معْنى: تَقولوا؛ فدلَّتِ اللَّامُ على أنَّ هذا الجَهرَ يَتعلَّقُ بمُخاطبَتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وزادَه وُضوحًا التَّشبيهُ في قولِه: ﴿ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ ﴾[4].

- وقولُه: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ مَنصوبٌ على أنَّه مَفعولٌ له، والعاملُ فيه ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ﴾ أو ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ﴾، ومعَ ذلِك فمِن حيثُ المعْنى: حُبوطُ العَملِ عِلَّةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢١).

في كُلٍّ مِن الرَّفعِ والجَهرِ. وفي مُتعلَّقِه وَجهانِ؛ أحدُهما: أنْ يَتعلَّقَ بمَعْنى النَّهيِ، فيَكونَ المَعْنى: انتَهُوا عمَّا نُهيتُم عنه؛ لِحُبوطِ أعمالِكم، أي: لِخَشيةِ حُبوطِها، على تَقْديرِ حذْفِ المُضافِ. والثَّاني: أنْ يَتعلَّقَ بنفْسِ الفِعلِ، ويَكونَ المعْنى: أنَّهم نُهُوا عن الفِعلِ الَّذي فَعَلوه مِن أجْلِ الحُبوطِ؛ لأنَّه لَمَّا كان بصَدَدِ الأداءِ إلى الحُبوطِ، جُعِل كأنَّه فُعِلَ مِن أجْلِه، وكأنَّه العِلَّةُ والسَّببُ في إيجادِه على طَريقةِ التَّمثيلِ، أي: تَشبيهِ الحالِ بالحالِ؛ فإنَّ فِعلَهم لَمَّا أدَّى إلى الحُبوطِ، فكأنَّهم قصَدوا مِن أجْلِه، كقولِه تعالَى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1] [القصص: ٨].

- وفي هذا النَّهيِ ما يَشملُ صَنيعَ الَّذين نادَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن وراءِ الحُجُراتِ؛ فيَكونُ تَخلُّصًا مِن المقدِّمةِ إلى الغرَضِ المقصودِ، ويَظهَرُ حُسْنُ مَوقِعِ قولِه بعدَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2] [الحجرات: ٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ التَّحذيرَ الَّذي في قولِه: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢] يُثيرُ في النَّفْسِ أنْ يَسألَ سائلٌ عن ضِدِّ حالِ الَّذي يرفَعُ صَوتَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٢٢).

وهو تَرْغيبٌ في الانتِهاءِ عمَّا نُهُوا عنه، بعدَ التَّرهيبِ عن الإخلالِ به[١].

- وافتِتاحُ الكلامِ بحرفِ التأْكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بمَضمونِه مِن الثَّناءِ عليهم، وجَزاءِ عمَلِهم، وتُفيدُ الجُملةُ تَعليلَ النَّهيَينِ بذِكرِ الجزاءِ عن ضِدِّ المنْهيِّ عنهما، وأكَّدَ هذا الاهتِمامَ باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾، مع ما في اسمِ الإشارةِ مِن التَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليهم جَديرون بالخبَرِ المذكورِ بعْدَه؛ مِن أجْلِ ما ذُكِرَ مِن الوصْفِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٢].

- ومُحصِّلُ معنَى قولِه: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ وقولِه: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ﴾[الحجرات: ٢]: الأمْرُ بخفْضِ الصَّوتِ عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبه يتَّضحُ وَجْهُ العُدولِ عن نَوطِ الثَّناءِ هنا بعَدَمِ رفْعِ الصَّوتِ وعدَمِ الجَهرِ عندَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى نَوطِه بَغضِّ الصَّوتِ عندَه[٣].

- وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ الامتحانُ: الاختِبارُ والتَّجرِبةُ، وهو افتِعالٌ مِن مَحَنَه؛ إذا اختبَرَه، وصِيغةُ الافتِعالِ فيه للمُبالَغةِ. واللَّامُ في قَولِه: ﴿لِلتَّقۡوَىٰ﴾ لامُ العِلَّةِ، والتَّقديرُ: امتحَنَ قُلوبَهم مِن أجْلِ التَّقْوى، أي: لِتكونَ فيها التَّقوى، أي: لِيَكونوا أتْقياءَ؛ فيَجوزُ أنْ يُجعَلَ الامتحانُ كِنايةً على تَمكُّنِ التَّقْوى مِن قُلوبِهم وثَباتِهم عليها، بحيثُ لا يُوجَدون في حالٍ ما غيرَ مُتَّقينَ، وهي كِنايةٌ تَلويحيَّةٌ[٤] لِكَونِ الانتقالِ بعِدَّةِ لَوازِمَ؛ فالامتِحانُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٢٢، ٢٢٣).

(٤) تَنقسِمُ الكِنايةُ باعتِبارِ الوسائطِ (اللَّوازِمِ) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريضٍ، وتلويحٍ، ورمْزٍ، وإيماءٍ؛ فالتَّعريضُ: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ؛ نحو =

والتَّجربةُ يُوجِبانِ مُزاوَلةَ الأمرِ ومُعالَجتَه مرَّةً بعْدَ أُخرَى، وذلك يُوجِبُ التَّمرُّنَ فيه، والمُتمَرِّنُ مُضطلِعٌ فيه. ويجوزُ أنْ يكونَ الامتحانُ مِن إطلاقِ السَّببِ على المُسبَّبِ؛ فإنَّ الامتحانَ سَببُ المعرفةِ[1].

- فإنْ قيل: اختِصاصُ (النَّبيِّ) بالذِّكرِ في الآيةِ الثَّانيةِ كان لتَبْجيلِ جانبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذِكْرُ (رَسولِه) في الأُولى كان مِن أجْلِ الاحتِذاءِ على أمثلةِ الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ فلِمَ خُولِفَ ورجَعَ في هذه الآيةِ إلى ما بُدِئَ به؟

فالجوابُ: ليُؤذِنَ بأفضالِ اللهِ في حقِّ أولئك الكَمَلةِ، وتأْديبِه إيَّاهم، وأنَّهم إنَّما غضُّوا أصواتَهم عندَ رسولِ اللهِ، ولم يَرفَعوا بها مِثلَ أولئك؛ لأنَّ اللهَ زيَّنَ باطنَهم باكتِساءِ لِباسِ التَّقْوى، حتَّى سَرى إلى ظاهرِهم بالتَّأدُّبِ بيْنَ يدَيِ المولى، ومَن أرسلَه إليهم وأكْرَمَهم به، ومِن ثَمَّ نُسِبَ ﴿ٱمۡتَحَنَ﴾ إلى اللهِ تعالى، وجِيءَ به ماضيًا، وأُسْنِدَ ﴿يَغُضُّونَ﴾ إليهم، وأُتِيَ به بمُضارِعِه دالًّا به على الاستِمرارِ، كأنَّه قيلَ: إنَّ الَّذين دَأْبُهم وعادتُهم التَّأدُّبُ في حضْرةِ

= قولِك للمؤْذِي: «المُسلِمُ مَن سَلِمَ المسلمونَ مِن لِسانِه ويَدِه»؛ تعريضًا بنَفيِ صِفةِ الإسلامِ عن المؤذِي. والتَّلويحُ: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزومِ بواسطةِ لَوازِمَ؛ نحو قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْعٍ: (زوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي تدلُّ على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الأكَلةِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي تدلُّ على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقل الفكرُ إلى جملةِ وسائطَ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥-١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦- ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٣).

الرِّسالةِ إنَّما اختُصُّوا به؛ لأنَّه تعالى هو الَّذي أدَّبَهم بإرسالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنزالِ الكتابِ والحِكمةِ، حتَّى هُذِّبوا هذا التَّهذيبَ(١).

- وجُملةُ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ خبَرُ (إنَّ)، وهو المَقصودُ مِن هذه الجُملةِ المستأنَفةِ، وما بيْنَهما اعتِراضٌ؛ للتَّنويهِ بشأْنِه. أو خبَرٌ آخَرُ لحرفِ (إنَّ)، أو استِئنافٌ لبيانِ جزائِهم(٢).

- وهذه الآيةُ بنظْمِها الَّذي رُتِّبت عليه؛ مِن إيقاعِ الغاضِّين أصواتَهم اسمًا لـ (إنَّ) المؤكِّدةِ، وتَصييرِ خبَرِها جُملةً مِن مُبتَدأٍ وخبَرٍ مَعْرِفتَينِ مَعًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾، واستِئنافِ الجُملةِ المُستودَعةِ ما هو جَزاؤُهم على عمَلِهم، وإيرادِ الجَزاءِ نَكِرةً مُبهَمًا أمْرُه -ناظرةٌ في الدَّلالةِ على غايةِ الاعتِدادِ والارتِضاءِ لِمَا فعَلَ الَّذين وقَّروا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن خَفضِ أصواتِهم، وفيها الإعلامُ بمَبلَغِ عِزَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقَدْرِ شَرَفِ مَنزِلَتِه، وفيها تَعريضٌ بعظيمِ ما ارتكَبَ الرَّافِعون أصواتَهم، واستِيجابِهم ضدَّ ما استوجَبَ هؤلاء(٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢] بَيانًا بالمثالِ، وهو سَببُ النُّزولِ؛ فهذا شُروعٌ في الغرَضِ، والَّذي نشَأَ عنه ما أوجَبَ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٥٣، ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣، ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣، ١٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٣).

نُزولَ صدْرِ السُّورةِ فافتُتِحَ به؛ لأنَّ التَّحذيرَ والوعدَ -اللَّذَينِ جُعِلَا مِن أجْلِه- صالِحانِ لأنْ يَكونَا مُقدِّمةً للمقصودِ؛ فحصَلَ بذلك نسْجٌ بَديعٌ، وإيجازٌ جليلٌ، وإنْ خالَفَ تَرتيبُ ذِكرِه تَرتيبَ حُصولِه في الخارجِ، وقد صادَفَ هذا التَّرتيبُ المَحَزَّ أيضًا؛ إذْ كان نداؤُهم مِن وَراءِ الحُجُراتِ مِن قَبيلِ الجَهرِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقَولِ كجَهْرِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان النَّهيُ عن الجَهْرِ له بالقولِ تخلُّصًا لذِكرِ نِدائِه مِن وراءِ الحُجُراتِ[١].

- والمرادُ بـ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ رِجالُ وفْدِ بني تميمٍ، وإسنادُ فِعلِ النِّداءِ إلى ضَميرِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لأنَّ جميعَهم نادَوْه، أو ناداهُ بعضُهم وكان الباقون راضِينَ، فكأنَّهم تَولَّوه جميعًا[٢].

- والتَّعبيرُ بصِيغةِ المضارعِ في ﴿يُنَادُونَكَ﴾؛ لاستِحضارِ حالةِ ندائِهم[٣].

- قولُه: ﴿مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ كِنايةٌ عن مَوضِعِ خَلوتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَقيلِه مع بعضِ نِسائِه، وقد ازدادَتِ الكِنايةُ بإيقاعِ الحُجُراتِ مُعرَّفةً بالألِفِ واللَّامِ دونَ الإضافةِ إليه، وفي ذلك مِن حُسنِ الأدبِ ما لا يَخفى[٤]. وكذلك فتَعريفُ ﴿ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ باللَّامِ تَعريفُ العهْدِ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿يُنَادُونَكَ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّ الحُجراتِ حُجراتُه؛ فلذلك لم تُعرَّفْ بالإضافةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

- قولُه: ﴿مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ مُناداةُ مَن نادَوْه مِن وَرائِها يَحتمِلُ أنَّهم قد تَفرَّقوا على الحُجراتِ مُتطلِّبينَ له، فناداهُ بعضٌ مِن وَراءِ هذه، وبعضٌ مِن وَراءِ تلك؛ فأُسنِدَ فِعلُ الأبعاضِ إلى الكلِّ. أو أنَّهم قد أَتَوها حُجرةً حُجرةً، فنادَوه مِن وَرائها. أو أنَّهم نادَوه مِن وَراءِ الحُجْرةِ الَّتي كان فيها، ولكنَّها جُمِعَت ﴿ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ إجلالًا لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولِمَكانِ حُرمَتِه، كأنَّ الجمْعَ يُبطِلُ خُصوصيَّةَ حُجرةٍ دونَ حُجرةٍ[1].

- وإنَّما ذُكِرَ ﴿ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ دونَ البُيوتِ؛ لأنَّ البَيتَ كان بيتًا واحدًا مُقسَّمًا إلى حُجُراتٍ تسْعٍ[2].

- وفي وُرودِ الآيةِ على النَّمَطِ الَّذي وردَتْ عليه: ما لا يَخفى على النَّاظرِ مِن بيِّناتِ إكبارِ مَحَلِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وإجلالِه؛ منها: مَجيئُها على النَّظمِ المُسجَّلِ على الصَّائحِينَ به بالسَّفَهِ والجهلِ؛ لِمَا أقدَموا عليه. ومنها: المرورُ على لَفظِ الحُجُراتِ بالاقتِصارِ على القَدْرِ الَّذي تبيَّنَ به ما استَنكَرَ عليهم، فقال: ﴿ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾، وما زادَ عليه، فلم يَقُلْ: حُجُراتِ نسائِكَ، بلِ اكتَفى بالقدْرِ مِن الكِنايةِ لئلَّا تُوحِشَه؛ لأنَّها تَكفي لِمَن يَقِفُ على الرَّمزِ والإشارةِ الخَفيَّةِ في أنَّ النِّداءَ في هذه الآيةِ أمْرٌ مُنكَرٌ. ومنها: التَّعريفُ باللَّام دونَ الإضافةِ. ومنها: أنْ شفَعَ ذَمَّهم في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ باستِجفائِهم، واستِركاكِ عُقولِهم، وقلَّةِ ضَبطِهم لِمَواضعِ التَّمييزِ في المُخاطَباتِ، فقَرَنَ ذمَّهم ذلك بقولِه: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، الواقعِ خبَرًا لـ (إنَّ)، واسمُها المَوصولةُ المُشتمِلةُ على الصِّلةِ المشعِرةِ بأنَّ خبَرَها

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

ممَّا يُستهجَنُ منه، وأنَّ مَن صدَرَ منه النِّداءُ مِن وَراءِ الحُجُراتِ مَوصوفٌ بالجافي الغليظِ، وقِلَّةِ العَقلِ، وإنَّما فعَلَ ذلك تَهوينًا للخَطْبِ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتسليةً له، وإماطةً لِما تَداخَلَه مِن إيحاشِ تَعجرُفِهم، وسُوءِ أدَبِهم، فقيلَ له: هوِّنْ عليك، واعفُ عنهم؛ فإنَّ أكثَرَهم لا يَعقِلون؛ إذ العقلُ يَقتَضي حُسنَ الأدبِ، ومراعاةَ الحِشمةِ، لا سِيَّما لِمَن كان بهذا المَنصِبِ[١].

- وأيضًا في هذه الآياتِ بلاغةٌ ظاهرةٌ؛ فتأمَّلْ كيف ابتُدِئَت بإيجابِ أنْ تكونَ الأمورُ الَّتي تَنتمي إلى اللهِ ورسولِه مُتقدِّمةً على الأمورِ كُلِّها مِن غيرِ حَصرٍ ولا تقييدٍ، ثمَّ أرْدَفَ ذلك النَّهيَ عمَّا هو مِن جِنسِ التَّقديمِ مِن رفْعِ الصَّوتِ والجهْرِ، كأنَّ الأوَّلَ بِساطٌ للثَّاني ووِطاءٌ لِذِكْرِه ما هو ثناءٌ على الَّذين تحامَوا ذلك فغَضُّوا أصواتَهم؛ دَلالةً على عظيمِ مَوقعِه عندَ اللهِ، ثم جِيءَ على عقِبِ ذلك بما هو أطَمُّ، وهُجنَتُه أتَمُّ مِن الصِّياحِ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حالِ خَلوتِه ببَعضِ حُرُماتِه مِن وَراءِ الجُدُرِ، كما يُصاحُ بأهونِ النَّاسِ قَدْرًا؛ لِيُنبِّهَ على فَظاعةِ ما سبَقوا إليه، وجَسَرُوا عليه؛ لأنَّ مَن رفَعَ اللهُ قَدْرَه عن أنْ يُجهَرَ له بالقولِ حتَّى خاطَبَه جِلَّةُ المهاجرينَ والأنصارِ بأخِي السِّرارِ[٢]، كان صَنيعُ هؤلاء مِن المُنكَرِ الَّذي بلَغَ مِن التَّفاحُشِ مَبلَغًا[٣]!

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

- قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ﴾، ولم يقُلْ: (إلى أنْ تَخرُجَ)؛ لأنَّ (حتَّى) أفادتْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٦٠، ٤٦١).

(٢) يُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٢).

بوَضْعِها أنَّ خُروجَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم غايةٌ قد ضُرِبَت لصَبرِهم، فما كان لهم أنْ يَقطَعوا أمرًا دونَ الانتهاءِ إليه، فـ (حتَّى) نَصٌّ في بَيانِ الغايةِ، وبَتٌّ للحُكْمِ، وأنْ لا رُخصةَ لهم دونَ هذه الغايةِ، بخلافِ (إلى)؛ فإنَّها مُطلَقةٌ تَحتمِلُ أُمورًا؛ فقد يَدخُلُ ما بعْدَها في حُكْمِ ما قبْلَها، وقد لا يَدخُلُ[(١)].

أو يكونُ إيثارُ حرْفِ (حتَّى) دونَ حرْفِ (إلى) مِن أجْلِ الإيجازِ بحذْفِ حرفِ (أنْ)؛ فإنَّه مُلتزَمٌ حَذفُه بعدَ (حتَّى)، بخلافِه بعدَ (إلى)؛ فلا يجوزُ حَذفُه[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ إشعارٌ بأنَّه لو خرَجَ ولم يكُنْ خُروجُه إليهم ومِن أجْلِهم، لَلَزِمَهم أنْ يَصبِروا إلى أنْ يَعلَموا أنَّ خروجَه إليهم، فيُفاتِحَهم بالكلامِ، أوْ يَتوجَّهَ إليهِم[(٣)].

- وفي تَعقيبِ هذا اللَّومِ بقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه تعالى لم يُحْصِ عليهم ذَنْبًا فيما فعَلوا، ولا عرَّضَ لهم بتَوبةٍ، والمعْنى: واللهُ شأنُه التَّجاوُزُ عن مِثلِ ذلك رَحمةً بالنَّاسِ؛ لأنَّ القَومَ كانوا جاهِلينَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

قال ابن عُثَيمين: (في قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ غفَر لهم ورحِمَهم، وهذا مِن كرَمِه جلَّ وعلا؛ أنَّه يَغفِرُ ويَرحَمُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١).

الآيات (٦-٨)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَاسِقٌ﴾ ﴿وَٱلۡفُسُوقَ﴾: الفِسقُ: الخروجُ عن طاعةِ الله، وقد يكونُ بأعظَمِ أنواعِ الخروجِ، وهو الكفرُ، أو بما هو دونَ ذلك مِن المعاصي، وأصلُ الفِسقِ: الخروجُ عن الشَّيءِ، يُقالُ منه: فَسَقتِ الرُّطَبةُ، إذا خَرَجتْ مِن قِشْرِها[(١)].

﴿بِنَبَإٖ﴾: النَّبأُ: خبرٌ فيه خطَرٌ، أو: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يَحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبةُ ظَنٍّ، وأصلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والخبرُ يَأْتي مِن مكانٍ إلى مكانٍ[(٢)].

﴿لَعَنِتُّمۡ﴾: أي: لَوقَعْتُم في ضَررٍ وفسادٍ، ولَنالَكُم مَشقَّةٌ وشِدَّةٌ وإثمٌ، وأصْلُ (عنت): يدُلُّ على مَشقَّةٍ[(٣)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قولُه: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦، ٨١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٤).

قَولُه: ﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ مَفعولٌ مِن أجْلِه، أي: مَخافةَ أنْ تُصِيبوا، أو لئلَّا تُصِيبوا[١].

٢- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۞ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾

قولُه: ﴿فَضۡلٗا﴾ يَجوزُ أنْ يَنتصِبَ على المفعولِ مِن أجْلِه، وناصبُه قولُه: ﴿حَبَّبَ﴾، وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ اعتِراضٌ بيْنَهما. ويَجوزُ أنْ يَنتصِبَ بفِعلٍ مُقدَّرٍ، أي: جَرى ذلك. ويَجوزُ أنْ يَنتصِبَ على المصدَرِ المؤكِّدِ لمَضمونِ الجُملةِ السَّابِقةِ؛ لأنَّها فضْلٌ أيضًا، أي: تَفضَّلَ فضْلًا[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يَأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ أنْ يَتبيَّنوا إنْ جاءهم فاسقٌ بأيِّ خبَرٍ؛ لئلَّا يُصِيبوا قومًا جهْلًا منهم وخطَأً بسَببِ تَصديقِهم لِخبَرِه بدونِ تَثبُّتٍ، فيَندَموا على ذلك.

ويأمُرُ اللهُ عزَّ وجلَّ أصحابَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَعلَموا أنَّ فيهم رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لو يُطِيعهم ويَعمَلُ بآرائِهم في كثيرٍ مِن الأمورِ، لَوقَعوا في شِدَّةٍ ومَشقَّةٍ، ولكنَّ اللهَ حبَّبَ إليهمُ الإيمانَ، وحسَّنَه في قُلوبِهم، وبغَّضَ إليهم الكفْرَ والفُسوقَ وارتكابَ المعاصي، فلْيَشكروا اللهَ على ذلك، ولا يَتقدَّموا اللهَ ورسولَه بأمرٍ؛ إذ يَكفيهم الاتِّباعُ والالتِزامُ، وأولئك هم أُولو الرُّشدِ والاستِقامةِ. فعَلَ اللهُ ذلك بهم تَفضُّلًا منه عليهم ونِعمةً منه، واللهُ عليمٌ حكيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٧).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٧١)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٨)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٧/ ١٢١٨).

فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إنْ جاءكم أيُّ فاسِقٍ كان بأيِّ خبَرٍ، فتَمهَّلوا وتوَقَّفوا عن قَبولِ خَبرِه، حتَّى تَتيقَّنوا منه، فتَتبيَّنوا صِدقَه أو كَذِبَه، وتَظهَرَ لكم الحقيقةُ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١١).

قال ابنُ عطيَّة: (الفِسقُ: الخُروجُ عن نهْجِ الحَقِّ، وهو مراتِبُ مُتباينةٌ، كُلُّها مَظِنَّةٌ للكَذِبِ، ومَوضِعُ تَثَبُّتٍ وتبَيُّنٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٧).

وقال ابنُ عاشور: (الفاسِقُ: المتَّصِفُ بالفُسوقِ، وهو فِعْلُ ما يُحرِّمُه الشَّرعُ مِنَ الكبائِرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٩).

قال ابنُ عبدِ البَرِّ: (ولا خِلافَ بيْنَ أهلِ العِلمِ بتأويلِ القُرآنِ فيما عَلِمتُ أنَّ قولَه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ نزَلت في الوليدِ بنِ عُقْبَةَ، وذلك أنَّه بعَثه رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى بني الْمُصْطَلِق مصدِّقًا [أي: عاملًا على الزكاةِ]، فأخبَر عنهم أنَّهم ارتدوا، وأبَوْا مِن أداءِ الصَّدقةِ، وذلك أنَّهم خرَجوا إليه فهابهم، ولم يعرِفْ مَا عندَهم، فانصَرَف عنهم، وأخبَر بما ذكَرْنا). ((الاستيعاب في معرفة الأصحاب)) (٤/ ١٥٥٣). ويُنظر: ((الإصابة)) لابن حجر (٦/ ٤٨١، ٤٨٢).

وقال النيسابوري: (وقد أجمَع المفسِّرونَ على أنَّها نزَلتْ في الوليدِ بنِ عُقبةَ). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٦٠).

قال البِقاعي: (الفاسِقُ المذكورُ في الآيةِ المرادُ به الجِنسُ، والَّذي نزَل ذلك بسَبَبِه هو الوليدُ بنُ عُقْبَةَ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٦٥، ٣٦٦).

وقال الألوسي: (ليس مُرادُنا مِن كَونِ الصَّحابةِ -رضيَ الله تعالى عنهم- جميعِهم عُدولًا أنَّهم لم يَصدُرْ عن أحدٍ منهم مُفَسِّقٌ أصلًا، ولا ارتكَب ذنْبًا قَطُّ؛ فإنَّ دُونَ إثباتِ ذلك خَرْطَ القَتادِ، فقد كانت تَصدُرُ منهم الهَفَواتُ، ويَرتَكِبونَ ما يُحَدُّون عليه، وإنكارُ ذلك مُكابَرةٌ صِرفةٌ، وعِنادٌ مَحْضٌ، وجهلٌ بمَوارِدِ الآياتِ والأحاديثِ؛ بل مُرادُنا أنَّهم لم يَنتَقِلوا مِن هذه الدَّارِ إلى دارِ القَرارِ إلَّا وهم طاهِرونَ مُطَهَّرونَ، تائِبونَ آيِبونَ بِبَرَكةِ صُحبتِهم لِلنَّبيِّ صلَّى الله تعالى عليه =

﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾.

أي: إنْ جاءكم فاسقٌ بنَبأٍ فتَبيَّنوا؛ لئلَّا تُصِيبوا -خطَأً وجهْلًا منكم- قومًا بُرآءَ ممَّا قُذِفوا به بسَببِ تَصديقِكم الفاسِقَ في خبَرِه الكاذِبِ[1].

= وسلَّم، ونُصرتِهم إيَّاه، وبَذْلِ أنفُسِهم وأموالِهم في محَبَّتِه، وتعظيمِهم له أشدَّ التَّعظيمِ سرًّا وعلانيةً، كما يدُلُّ على ذلك الكِتابُ، وتَشهَدُ له الآثارُ. ((الأجوبة العراقية على الأسئلة اللاهورية)) (ص: ٢٢).

وقال ابن عاشور: (اعلَمْ أنْ ليس في الآيةِ ما يَقتَضي وصْفَ الوَليدِ بالفاسِقِ تصريحًا ولا تلويحًا. وقد اتَّفَق المفسِّرون على أنَّ الوليدَ ظنَّ ذلك، كما في «الإصابة» عن ابنِ عبدِ البَرِّ، وليس في الرِّواياتِ ما يَقتضي أنَّه تعمَّد الكذِبَ. قال الفخرُ: «إنَّ إطلاقَ لَفظِ «الفاسق» على الوليدِ شَيءٌ بعيدٌ؛ لأنَّه توهَّمَ وظنَّ فأخطأَ، والمُخطِئُ لا يُسمَّى فاسِقًا». قلتُ: ولو كان الوليدُ فاسقًا لَما ترَكَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَعنيفَه واستتابتَه... وقد اتَّفَق مَن ترجموا للوليدِ بنِ عُقْبةَ على أنَّه كان شُجاعًا جَوَادًا، وكان ذا خُلُقٍ ومُروءةٍ. واعلَمْ أنَّ جُمهورَ أهلِ السُّنَّةِ على اعتبارِ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عُدولًا، وأنَّ كلَّ مَن رأى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وآمَنَ به فهو مِن أصحابِه... وعلى تَسليمِ أن تكون الآيةُ إشارةً إلى فاسِقٍ مُعَيَّنٍ فلماذا لا يُحمَلُ على إرادةِ الَّذي أعلَمَ الوليدَ بأنَّ القَومَ خرَجوا له لِيَصُدُّوه عن الوُصولِ إلى دِيارِهم؛ قصْدًا لإرجاعِه؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٩، ٢٣٠). وينظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٨).

وذكر ابنُ العربي أنَّ القصَّةَ فيها اختلافٌ، ثمَّ قال: (وبهذا الاختلافِ يُسقِطُ العُلماءُ الأحاديثَ القَويَّةَ. وكيف يُفسَّقُ رجُلٌ بمِثلِ هذا الكلامِ؟ فكيف برَجُلٍ مِن أصحابِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؟!). ((العواصم من القواصم)) (ص: ٩٢).

وقال محبُّ الدِّينِ الخطيب بعدَ أن سرَد الرِّواياتِ الواردةَ في نُزولِ الآيةِ في الوليدِ بنِ عُقْبةَ، قال: (كلُّ هذه الأخبارِ مِن أوَّلِها إلى آخِرِها لا يجوزُ أن يؤاخَذَ بها مُجاهِدٌ كان مَوضِعَ ثِقةِ أبي بكرٍ وعُمَرَ، وقام بخِدْماتٍ للإسلامِ يُرجى له بها أعظَمُ المَثوبةِ إن شاء الله. أضِفْ إلى كلِّ ما تقدَّم أنَّه في الوقتِ الَّذي حدثَتْ فيه لِبَني المُصْطَلِقِ الحادِثةُ الَّتي نزلَتْ فيها الآيةُ كان الوليدُ صغيرَ السِّنِّ). مِن تعليقِه على ((العواصم من القواصم)) لابن العربي (ص: ٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١١). =

﴿فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾.

أي: فتَنْدَموا -أيُّها المؤمنونَ- على إصابتِكم القَومَ البُرآءَ بأذًى وضَررٍ؛ بسَببِ تَعجُّلِكم في قَبولِ خبَرِ الفاسِقِ، وتَرْكِكم التَّبيُّنَ والتَّثبُّتَ(١).

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

أي: واعْلَموا -يا أصحابَ النَّبيِّ- أنَّ رسولَ اللهِ بيْنَ أظْهُرِكم(٢).

= قال الشنقيطي: (قولُه: ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا﴾، أي: لئلَّا تُصيبوا قومًا، أو كراهةَ أن تُصيبوا قومًا بجهالةٍ، أي: لِظَنِّكم النَّبأَ الَّذي جاء به الفاسِقُ حقًّا). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

قيل: المقصودُ: اتَّقُوا أن تَكذِبوا أو تقولوا باطلًا؛ فإنَّ اللهَ تعالى يُخبِرُه بأنبائِكم، ويُعرِّفُه أحوالَكم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، وابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والخازن، وأبو حيَّان، وجلال الدين المحلِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٨٦).

وقيل: إنَّ الله تعالى لَمَّا قال: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ قال بَعْدَه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، أي: الكشْفُ سهْلٌ عليكم بالرُّجوعِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّه فيكم مُبيِّنٌ مُرشِدٌ. قاله الرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠١). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٦).

وقيل: المعنى: اعلَموا أنَّ بيْنَ أظهُرِكم رسولَ الله؛ فعظِّموه ووقِّروه، وتأدَّبوا معه، وانقادوا =

﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾.

أي: لو أنَّ رسولَ اللهِ يَعمَلُ بآرائِكم -أيُّها المؤمنونَ- في كثيرٍ مِن الأمورِ، لَوقَعْتُم في مَشقَّةٍ وشِدَّةٍ(١).

عن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خطَبَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: أيُّها النَّاسُ، قد فرَضَ اللهُ عليكم الحجَّ، فحُجُّوا، فقال رجُلٌ: أكُلَّ عامٍ يا رسولَ اللهِ؟ فسَكَتَ حتَّى قالَها ثلاثًا، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو قلْتُ: نعمْ، لَوجَبَتْ، ولَما استطَعْتُم، ثمَّ قال: ذَرُوني ما ترَكْتُكم؛ فإنَّما هلَكَ مَن كان قبْلَكم بكَثرةِ سُؤالِهم، واختِلافِهم على أنْبيائِهم، فإذا أمَرْتُكم بشَيءٍ فأْتُوا منه ما استطَعْتُم، وإذا نهَيْتُكم عن شَيءٍ فدَعُوه))(٢).

= لأمْرِه؛ فإنَّه أعلَمُ بمَصالِحِكم، وأشفَقُ عليكم منكم، ورأيُه فيكم أتَمُّ مِن رأيِكم لأنفُسِكم. قاله ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٢).

قال ابنُ عاشور: (فالمقصودُ تعليمُ المُسلِمينَ باتِّباعِ ما شرَعَ لهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الأحكام، ولو كانت غيرَ مُوافِقةٍ لرَغَباتِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٤).

وقال ابنُ عُثيمين: (سَبَبُ ما سبَق أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بلَغَه عن قَومٍ ما ليس فيهم، فأمَر اللهُ تعالى بالتَّأكُّدِ مِن الأخبارِ إذا جاء بها مَن لا تُعرَفُ عدالتُه، وكأنَّ بعضَ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم أرادوا مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُعاقِبَ هؤلاء الَّذين بلَغه عنهم ما بلَغه، ولكِنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَفعَلْ بعدَ أن نزَلَت عليه الآيةُ: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٥).

قال ابن جرير: (كما لو قَبِلَ مِنَ الوَليدِ بن عُقْبةَ قَولَه في بَني المُصْطَلِقِ: إنَّهم قد ارتَدُّوا، ومَنَعوا الصَّدَقةَ، وجَمَعوا الجُموعَ لغزْوِ المُسلِمينَ، فغزاهم فقتَلَ منهم، وأصاب مِن دمائِهم وأموالِهم؛ كان قد قتَلَ وقتَلْتُم مَن لا يحِلُّ له ولكم قتْلُه، وأخَذَ وأخَذْتُم مِن المالِ ما لا يَحِلُّ له ولكم أخْذُه مِن أموالِ قَومٍ مُسلِمينَ، فنالَكُم مِنَ اللهِ بذلك عَنَتٌ!). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٤).

(٢) رواه مسلم (١٣٣٧).

وعن أبي ذَرٍّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((صُمْنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رمضانَ، فلم يَقُمْ بنا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى بقِيَ سبْعٌ مِن الشَّهرِ، فقام بنا حتَّى ذهَبَ نحْوٌ مِن ثُلُثِ اللَّيلِ، ثمَّ كانت سادسةٌ فلم يَقُمْ بنا، فلمَّا كانت الخامسةُ قام بنا حتَّى ذهَبَ نحْوٌ مِن شَطرِ اللَّيلِ، قُلْنا: يا رسولَ الله، لو نفَّلْتَنا[1] قِيامَ هذه اللَّيلةِ، قال: إنَّ الرَّجُلَ إذا صلَّى مع الإمامِ حتَّى يَنصرِفَ حُسِب له قِيامُ لَيلةٍ))[2].

وعن عائشةَ رضي الله عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، خَرَج مِن جوفِ اللَّيلِ فصلَّى في المسجدِ، فصلَّى رجالٌ بصلاتِه، فأصْبَح النَّاسُ يتحَدَّثونَ بذلك، فاجْتَمَع أكثرُ منهم، فخَرَج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في اللَّيلةِ الثَّانيةِ، فصَلَّوْا بصلاتِه، فأصْبَح النَّاسُ يَذْكُرونَ ذلك، فكَثُر أهلُ المسجدِ مِن اللَّيلةِ الثَّالثةِ، فخَرَج فصَلَّوْا بصلاتِه، فلمَّا كانت اللَّيلةُ الرَّابعةُ عَجَز المسجدُ عن أهلِه، فلم يَخْرُجْ إليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فطَفِق رِجالٌ منهم يقولونَ: الصَّلاةَ، فلم يخرُجْ إليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم حَتَّى خَرَج لصلاةِ الفجرِ، فلمَّا قضَى الفجرَ أقْبَل على النَّاسِ، ثُمَّ تَشَهَّد، فقال: أمَّا بعدُ، فإنَّه لم يَخْفَ عليَّ شَأْنُكم اللَّيلةَ، ولكنِّي خَشيتُ أنْ تُفْرَضَ عليكم صلاةُ اللَّيلِ فتَعْجِزوا عنها))[3].

---

(١) نَفَّلْتَنا: أي: زِدْتَنا مِن صَلاةِ النَّافِلةِ. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطيبي (٤/ ١٢٣٤).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١٣٧٥)، والترمذيُّ (٨٠٦)، والنسائيُّ (١٣٦٤) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (١٣٢٧)، وأحمد (٢١٤٤٧).

قال الترمذي: (حَسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه الطَّحاويُّ في ((شرح معاني الآثار)) (١/ ٣٤٩)، وابنُ حِبَّان في ((الصحيح)) (٢٥٤٧)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢٥/ ١٧٨)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٣٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٩٢٤)، مسلم (٧٦١) واللفظ له.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ هو الَّذي حبَّب إليكم -يا أصحابَ النَّبيِّ- الإيمانَ، فآثَرْتُموه ورَضِيتُموه، فأنتم تُطِيعون اللهَ ورسولَه، ولا تُقدِّمونَ بيْنَ يدَيِ اللهِ ورَسولِه وإنْ خالَفَ رأْيَكم، فيَقيكم الله بذلك مِن الشِّدَّةِ والمَشقَّةِ(١).

﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾.

أي: وحسَّن اللهُ في قُلوبِكم الإيمانَ؛ فهو وحْدَه مَن وفَّقكم إليه، وحبَّبه إلى نُفوسِكم(٢).

﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾.

أي: وبغَّض اللهُ إليكم الكفْرَ به وبرَسولِه، والخُروجَ عن طاعتِهما، وارتِكابَ المعاصي(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (٩/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩، ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

قال ابنُ القيِّم: (تَحبيبُه سُبحانَه الإيمانَ إلى عبادِه المؤمنينَ هو إلقاءُ محبَّتِه في قُلوبِهم، وهذا لا يَقدِرُ عليه سِواه، وأمَّا تَحبيبُ العبدِ الشَّيءَ إلى غيرِه فإنَّما هو بتَزْيينِه، وذِكْرِ أوصافِه، وما يَدعو إلى محبَّتِه؛ فأخبَرَ سُبحانَه أنَّه جعَل في قُلوبِ عبادِه المؤمِنينَ الأمْرَينِ: حُبَّه، وحُسْنَه الدَّاعيَ إلى حُبِّه). ((شفاء العليل)) (ص: ٥٧).

وقال أيضًا: (ولا تَظُنُّوا أنَّ نُفوسَكم تُريدُ لكم الرُّشدَ والصَّلاحَ كلَّما أرَدْتُم الإيمانَ؛ فلولا أنِّي حبَّبْتُه إليكم وزيَّنْتُه في قُلوبِكم، وكرَّهتُ إليكم ضِدَّه؛ لَما وقَعَ منكم، ولا سمَحَتْ به أنفُسُكم). ((مدارج السالكين)) (١/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٢، ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - =

عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن سَرَّتْه حسَنَتُه وساءَتْه سَيِّئَتُه، فهو مُؤمِنٌ))[(١)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

أي: الَّذين حبَّبَ اللهُ إليهم الإيمانَ، وزيَّنَه في قُلوبِهم، وكَرَّه إليهم الكفْرَ والفُسوقَ والعِصيانَ؛ أولئك هم السَّالِكون طَريقَ الحقِّ، المستَقِيمون عليه، الموفَّقونَ للصَّوابِ[(٢)].

﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ التَّحبيبَ والتَّزيينَ والتَّكريهَ، وما أنتَجَه مِن الرَّشادِ- ذكَرَ عِلَّتَه؛

= الحديد)) (ص: ٣٠).

قال ابن عثيمين: (الكفرُ أعظَمُ مِن الفِسقِ، والفِسقُ أعظَمُ مِن العِصيانِ؛ فالكفرُ هو الخروجُ مِن الإسلامِ بالكُلِّيَّةِ...، وأمَّا الفِسقُ فهو دونَ الكفرِ، لكنَّه فِعلُ كبيرةٍ، ... ولم يَتُبْ منها؛ كالزِّنا، وشُربِ الخَمرِ، والسَّرِقةِ، والقَذفِ، وما أشْبَهَ ذلك، والعِصيانُ: هو الصَّغائرُ الَّتي تُكَفَّرُ بالأعمالِ الصَّالِحةِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠).

وقال الشوكاني: (أصلُ الفِسقِ الخروجُ على الطَّاعةِ، والعِصيانُ جِنْسُ ما يُعصَى اللهُ به. وقيلَ: أراد بذلك الكذِبَ خاصَّةً. والأوَّلُ أوْلَى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧١).

(١) أخرجه الترمذيُّ (٢١٦٥)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٩٢٢٥)، وأحمدُ (١١٤) مطَوَّلًا.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ غريبٌ مِن هذا الوجهِ). وصَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٧٢٥٤)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (٤/ ٩٢)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢١٦٥)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((العواصم والقواصم)) (٩/ ٤٧)، وقال ابن كثير في ((مسند الفاروق)) (٢/ ٥٥٤): (رُوِيت هذه الخُطبةُ عن عُمَرَ مِن وُجوهٍ عديدةٍ إذا تُتُبِّعَت بلَغَت حَدَّ التَّواتُرِ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

إعلامًا بأنَّه تعالى لا يَجِبُ عليه شَيءٌ؛ حثًّا على الشُّكرِ[(١)].

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾.

أي: فعَلَ اللهُ بهم ذلك تفَضُّلًا منه عليهم، ونِعمةً أنعَمَ بها عليهم؛ حيثُ حبَّبَ إليهم الإيمانَ، وزيَّنَه في قُلوبِهم، وكرَّه إليهم الكفْرَ والفُسوقَ والعِصيانَ، فلمْ يَكِلْهم إلى أنفُسِهم، بلْ تولَّى سُبحانَه ذلك مِن غيرِ حَولٍ منهم ولا قوَّةٍ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

ختْمُ الآيةِ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فيه مُناسَباتٌ عِدَّةٌ:

منها: أنَّه تعالى لَمَّا ذكَرَ نَبأَ الفاسِقِ، قال: إنْ يَشتبِهْ على المؤمِنِ كذِبُ الفاسِقِ، فلا تَعتمِدوا على تَرويجِه عليكم الزُّورَ؛ فإنَّ اللهَ عليمٌ، ولا تَقولوا -كما كان عادةُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٧، ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١، ٣٢).

قال الرازي: (فَضْلُ اللهِ إشارةٌ إلى ما عِندَه مِنَ الخَيرِ وهو مُستَغنٍ عنه، والنِّعمةُ إشارةٌ إلى ما يَصِلُ إلى العبدِ وهو محتاجٌ إليه؛ لأنَّ الفَضلَ في الأصلِ يُنبِئُ عن الزِّيادةِ، وعندَه خزائنُ مِنَ الرَّحمةِ لا لِحاجةٍ إليها، ويُرسِلُ منها على عبادِه ما لا يَبْقَونَ معه في ورْطةِ الحاجةِ بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ، والنِّعمةُ تُنبِئُ عن الرَّأفةِ والرَّحمةِ، وهو مِن جانبِ العبدِ، وفيه معنًى لطيفٌ، وهو تأكيدُ الإعطاءِ...، فإذَنْ قَولُه: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى ما هو مِن جانبِ اللهِ الغَنيِّ، والنِّعمةُ إشارةٌ إلى ما هو مِن جانبِ العبدِ مِن اندِفاعِ الحاجةِ، وهذا ممَّا يؤكِّدُ قَولَنا: ﴿فَضْلًا﴾ مَنصوبٌ بفِعْلٍ مُضمَرٍ، وهو الابتِغاءُ والطَّلَبُ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٣، ١٠٤).

المنافِقِ-: لولا يُعذِّبُنا اللهُ بما نقولُ؛ فإنَّ اللهَ حكيمٌ لا يَفعَلُ إلَّا على وَفْقِ حِكمتِه.

وثانيها: لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧]، بمعْنى: لا يُطِيعكم، بل يتَّبِعُ الوحْيَ، قال: فإنَّ اللهَ مِن كَونِه عَليمًا يُعلِّمُه، ومِن كَونِه حَكيمًا يَأمُرُه بما تَقتضِيه الحِكمةُ؛ فاتَّبِعوه.

ثالثُها: المُناسَبةُ الَّتي بيْنَ قولِه تعالى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وبيْنَ قولِه: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾، أي: حبَّبَ بعِلمِه الإيمانَ لأهلِ الإيمانِ، واختارَ له مَن يَشاءُ بحِكمتِه.

رابعُها: أنَّه سُبحانه وتعالى قال: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾، ولَمَّا كان الفضْلُ هو ما عندَ الله مِن الخَيرِ المسْتَغنَى عنه، قال تعالى: هو عليمٌ بما في خَزائنِ رحْمتِه مِن الخَيرِ، وكانت النِّعمةُ هو ما يُدفَعُ به حاجةُ العبْدِ، قال: هو حَكيمٌ يُنزِلُ الخَيرَ بقَدَرٍ ما يَشاءُ على وَفْقِ الحِكمةِ[1].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ بالغُ العِلمِ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلْمُه التَّامُّ بالمحْسِنينَ مِن المسيئينَ، ومَن همْ أهلٌ لفضْلِ اللهِ ونِعمتِه ممَّن لا يَصلُحُ لذلك، وهو بالغُ الحِكمةِ؛ فيَضَعُ كلَّ شَيءٍ في مَوضعِه اللَّائقِ به، ومِن ذلك إيتاؤُه فضْلَه لِمَن يَصلُحُ له[2].

الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢، ٣٣).

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾، هذا مِن الآدابِ الَّتي على أُولي الألبابِ التَّأدُّبُ بها واستِعمالُها؛ وهو أنَّه إذا أخبَرَهم فاسقٌ بخبَرٍ أنْ يَتثبَّتوا في خبَرِه، ولا يأْخُذوه مُجرَّدًا؛ فإنَّ في ذلك خطَرًا كبيرًا، ووُقوعًا في الإثمِ؛ فإنَّ خبَرَه إذا جُعِلَ بمَنزِلةِ خبَرِ الصَّادِقِ العدْلِ، حُكِمَ بمُوجَبِ ذلك ومُقتضاهُ، فحصَلَ مِن تلَفِ النُّفوسِ والأموالِ بغيرِ حقٍّ بسَببِ ذلك الخبَرِ ما يكونُ سَببًا للنَّدامةِ، بلْ الواجبُ عندَ خبَرِ الفاسِقِ التَّثبُّتُ والتَّبيُّنُ، فإنْ دلَّت الدَّلائلُ والقرائنُ على صِدقِه عُمِلَ به وصُدِّقَ، وإنْ دلَّت على كذِبِه كُذِّبَ ولم يُعمَلْ به[1].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾، فيه تَحذيرٌ مِن الوُقوعِ فيما يُوجِبُ النَّدَمَ شرْعًا[2].

٣- ليس حُسنُ النِّيَّةِ بالرَّعيَّةِ والإحسانُ إليهم: أنْ يَفعَلَ ما يَهْوَوْنه، ويَترُكَ ما يَكرَهونَه؛ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وقال تعالى للصَّحابةِ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾، وإنَّما الإحسانُ إليهم فِعْلُ ما يَنفَعُهم في الدِّينِ والدُّنيا ولو كَرِهَه مَن كَرِهَه؛ لكنْ يَنْبغي له أنْ يَرفُقَ بهم فيما يَكرَهونه؛ ففي الصَّحيحِ[3] عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلَّا زانَه، ولا يُنزَعُ مِن شيءٍ إلَّا شانَه))[4].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) من حديثِ عائشةَ رَضيَ الله عنها.

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٨/ ٣٦٤).

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾، فيه إشارةٌ إلى لَطيفةٍ؛ وهي أنَّ المؤمنَ كان مَوصوفًا بأنَّه شَديدٌ على الكافرِ، غليظٌ عليه، فلا يَتمكَّنُ الفاسِقُ مِن أنْ يُخبِرَه بنَبأٍ، فإنْ تَمكَّنَ منه يكونُ نادرًا، فقال: ﴿إِن جَآءَكُمۡ﴾ بحرْفِ الشَّرطِ الَّذي لا يُذكَرُ إلَّا مع التَّوقُّعِ؛ إذ لا يَحسُنُ أنْ يُقالَ: (إنِ احمَرَّ البُسرُ)، و(إنْ طلَعَتِ الشَّمسُ)[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على قَبولِ خبَرِ الواحدِ إذا كان عدْلًا؛ لأنَّه إنَّما أمَرَ فيها بالتَّثبُّتِ عندَ نقْلِ خبَرِ الفاسِقِ[٢]، فقولُه تعالَى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ يدُلُّ بدَليلِ خِطابِه -أي: مفهومِ مخالَفَتِه- أنَّ الجائِيَ بنَبأٍ إنْ كان غيرَ فاسِقٍ بل عدلًا لا يَلزَمُ التَّبيُّنُ في نَبَئِه[٣]، والسِّياقُ مُرشِدٌ إلى أنَّ خبَرَ العدْلِ لا وَقفةَ فيه، وإلَّا لَاسْتوى مع الفاسِقِ، فالتَّثبُّتُ مُعلَّلٌ بالفِسقِ، فإذا انْتَفَى ولم تُوجَدْ عِلَّةٌ أُخرى تُوجِبُ التَّثبُّتَ؛ وجَبَ القَبولُ[٤].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، فيه أنَّ شَهادةَ الفاسِقِ لا تُقبَلُ؛ فإنَّ اللهَ تعالَى أمَرَ بالتَّبيُّنِ في الخَبرِ والنَّبأِ، وبابُ الشَّهادةِ أضيَقُ مِن بابِ الخَبرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٢٩)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٩).

وقال ابن القيِّم: (مَدارُ قَبولِ الشَّهادةِ ورَدِّها على غَلَبةِ ظنِّ الصِّدقِ وعدَمِه. والصَّوابُ المقطوعُ به أنَّ العدالةَ تَتبعَّضُ؛ فيكونُ الرَّجُلُ عدْلًا في شَيءٍ، فاسِقًا في شَيءٍ، فإذا تبيَّنَ للحاكمِ أنَّه عدْلٌ فيما شهِدَ به، قَبِلَ شَهادتَه، ولم يَضُرَّه فِسقُه في غَيرِه). ((الطرق الحكمية)) (ص: ١٤٨).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، فيه دَليلٌ على أنَّ خبرَ الصَّادقِ مَقبولٌ، وخبرَ الكاذبِ مَردودٌ، وخبرَ الفاسِقِ مُتوقَّفٌ فيه؛ ولهذا كان السَّلفُ يَقبَلون رِواياتِ كثيرٍ مِن الخَوارِجِ المعْروفينَ بالصِّدقِ، ولو كانوا فُسَّاقًا[١]. فنَبأُ الفاسِقِ ليس بمَردودٍ، بل هو مُوجِبٌ للتَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ، كما قال تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، وفي القِراءةِ الأُخرى: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾[٢]، فعلَينا التَّبيُّنُ والتَّثبُّتُ عندَ خبَرِ الفاسِقِ الواحدِ، ولم نُؤمَرْ به عندَ خبَرِ الفاسِقينَ؛ وذلك أنَّ خبَرَ الاثنَينِ يُوجِبُ مِن الاعتقادِ ما لا يُوجِبُه خبَرُ الواحدُ، أمَّا إذا عُلِمَ أنَّهما لم يَتواطَآ فهذا قد يَحصُلُ به العِلمُ[٣]، وقولُه تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ يَتناوَلُ خبَرَ كلِّ فاسِقٍ وإنْ كان كافرًا لا يَجوزُ تَكذيبُه إلَّا ببَيِّنةٍ، كما لا يَجوزُ تَصديقُه إلَّا ببَيِّنةٍ[٤].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ فيه وُجوبُ البَحثِ عن عَدالةِ مَن كان مَجهولَ الحالِ في قَبولِ الشَّهادةِ، أو الرِّوايةِ عندَ القاضي وعندَ الرُّواةِ[٥]، وفي الآيةِ دَليلٌ على فَسادِ قَولِ مَن قال: إنَّ المسلِمينَ كلَّهم عُدولٌ حتَّى تَثبُتَ الجرْحةُ[٦]؛ فالمجهولُ الحالِ يحتَمِلُ أن يكونَ فاسِقًا، فالاحتياطُ لازِمٌ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٢) قَرَأها حَمْزَةُ وَالكِسائِيُّ وخَلَفٌ ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ مِن التَّثَبُّتِ، وقَرَأها الباقونَ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ مِن التَّبَيُّنِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٥/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٣).

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ هاهنا فائدةٌ لَطيفةٌ؛ وهي أنَّه سُبحانه لم يَأمُرْ برَدِّ خبَرِ الفاسِقِ وتكذيبِه ورَدِّ شَهادتِه جُملةً، وإنَّما أمَرَ بالتَّبيُّنِ، فإنْ قامت قَرائنُ وأدِلَّةٌ مِن خارجٍ تدُلُّ على صِدقِه، عُمِلَ بدَليلِ الصِّدقِ، ولو أخبَرَ به مَن أخبَرَ، فهكذا يَنْبغي الاعتِمادُ في رِوايةِ الفاسِقِ وشَهادتِه، وكثيرٌ مِن الفاسِقينَ يَصدُقون في أخبارِهم ورِواياتِهم وشَهاداتِهم، بل كثيرٌ منهم يَتحرَّى الصِّدقَ غايةَ التَّحرِّي، وفِسقُه مِن جِهاتٍ أُخَرَ، فمِثلُ هذا لا يُرَدُّ خبَرُه ولا شَهادتُه، ولو رُدَّتْ شَهادةُ مِثلِ هذا ورِوايتُه، لَتَعطَّلَت أكثرُ الحُقوقِ، وبطَلَ كثيرٌ مِن الأخبارِ الصَّحيحةِ، ولا سيَّما مَن فِسقُه مِن جِهةِ الاعتِقادِ والرَّأيِ، وهو مُتحَرٍّ للصِّدقِ، فهذا لا يُرَدُّ خبَرُه ولا شَهادتُه. وأمَّا مَن فِسقُه مِن جِهةِ الكذِبِ؛ فإنْ كثُرَ منه وتَكرَّرَ، بحيث يَغلِبُ كذِبُه على صِدقِه، فهذا لا يُقبَلُ خَبرُه ولا شَهادتُه، وإنْ نَدَرَ منه مرَّةً ومرَّتَينِ، ففي رَدِّ شَهادتِه وخبَرِه بذلك قَولانِ للعُلماءِ[1].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ يَأمُرُ تعالى بالتَّثبُّتِ في خبَرِ الفاسِقِ ليُحتاطَ له؛ لئلَّا يُحكَمَ بقولِه فيَكون -في نفْسِ الأمرِ- كاذبًا أو مُخطئًا، فيَكونَ الحاكمُ بقولِه قد اقتَفى وَراءَه، وقدْ نَهَى اللهُ عن اتِّباعِ سَبيلِ المفسِدين، ومِن هاهنا امتنَعَ طوائفُ مِن العُلماءِ مِن قَبولِ رِوايةِ مَجهولِ الحالِ؛ لاحتِمالِ فِسقِه في نفْسِ الأمْرِ، وقَبلَها آخَرونَ؛ لأنَّا إنَّما أُمِرْنا بالتَّثبُّتِ عندَ خبَرِ الفاسِقِ، وهذا ليس بمُحقَّقِ الفِسقِ؛ لأنَّه مَجهولُ الحالِ[2].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، أصْلٌ عَظيمٌ في تَصرُّفاتِ وُلاةِ الأُمورِ، وفي تَعامُلِ النَّاسِ بَعضِهم مع

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٠).

بَعضٍ؛ مِن عدَمِ الإصغاءِ إلى كلِّ ما يُرْوَى ويُخبَرُ به[١].

٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الأمْرُ بالتَّبيُّنِ أصلٌ عَظيمٌ في وُجوبِ التَّثبُّتِ في القضاءِ، وألَّا يَتتبَّعَ الحاكمُ القِيلَ والقالَ، ولا يَنصاعَ إلى الجَوَلانِ في الخَواطِرِ مِن الظُّنونِ والأوهامِ[٢].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، فيه لَطيفةٌ؛ وهي أنَّ الإصابةَ تُستعمَلُ في السَّيِّئةِ والحَسَنةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[٣] [النساء: ٧٩].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾، أي: فتَصيروا، ولكنَّه عبَّرَ بذلك؛ لأنَّ أشنَعَ النَّدَمِ ما استقبَلَ الإنسانَ صباحًا، وقْتَ انتباهِه وفَراغِه، وإقبالِه على لَذَّاته[٤].

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾، عبَّرَ بـ﴿كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّه قدْ يُوافِقُهم، ويَفعَلُ بمُقْتضَى مَصلحتِهم؛ تَحقيقًا لفائدةِ قولِه تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾[٥] [آل عمران: ١٥٩].

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾، استدلَّ به عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ في الرَّدِّ على القدَريَّةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٢).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

والأثرُ الواردُ عن عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ في ذلك أخرجه أبو نُعَيمٍ في ((الحلية)) (٥/ ٣٤٦).

١٤- يَجِبُ على المسلمِ أنْ يَتبرَّأَ مِن كلِّ عمَلٍ لا يُرْضي اللهَ ورسولَه وإنْ لم يكُنْ كُفْرًا، كالفُسوقِ والعِصيانِ، كما قال سُبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[(١)].

١٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ إلى قولِه سُبحانه: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾، يُبيِّنُ أنَّ ما يَحْصُلُ في القلوبِ مِن الإيمانِ هو مِن اللهِ تعالى بفضْلِه ورَحمتِه[(٢)].

١٦- الفُسوقُ في عُرْفِ الشَّرْعِ أشدُّ مِن العِصيانِ؛ قال تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾[(٣)].

١٧- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ فيه معنًى لَطيفٌ؛ وهو أنَّ اللهَ تعالى في أوَّلِ الأمْرِ قال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، أي: هو مُرشِدٌ لكم، فخِطابُ المؤمنينَ للتَّنبيهِ على شَفَقتِه بالمؤمنينَ، فقال في الأوَّلِ: كفَى النَّبيُّ مُرشِدًا لكم ما تَستَرشِدونَه، فأشفَقَ عليهم وأرشَدَهم، وعلى هذا قولُه: ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي: الموافِقونَ للرُّشدِ؛ يأْخُذونَ ما يأْتِيهم، ويَنتهونَ عمَّا يَنهاهُم[(٤)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ هذا نِداءٌ ثالثٌ ابتُدِئَ به غرَضٌ آخَرُ، وهو آدابُ جماعاتِ المؤمنينَ بَعضِهم معَ بعضٍ، وإعادةُ الخِطابِ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١١).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٣).

ﭐلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وفَصْلُه بدونِ عاطفٍ؛ لتَخْصيصِ هذا الغرَضِ بالاهتِمامِ؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا[١].

- وأفاد حرْفُ التَّنبيهِ (يا)، وإيقاعُ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ صِلةً للمَوصولِ، وجَعْلُها سببًا لِمَا بعْدَه مِن الحرْفِ الموضوعِ لنِداءِ البعيدِ، وقد نُوديَ به القريبُ المُقاطِنُ- أنَّ على المؤمنينَ أنْ يَكونوا على تثبُّتٍ مِن الأمرِ؛ لئلَّا يطمَعَ فاسقٌ في مخاطبَتِهم بكلمةِ زُورٍ[٢].

- قولُه: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أُوثرَ في الشَّرطِ حرْفُ (إنْ) الَّذي الأصلُ فيه أنْ يكونَ للشَّرطِ المشكوكِ في وُقوعِه؛ للتَّنبيهِ على أنَّ شأنَ فِعلِ الشَّرطِ أنْ يكونَ نادرَ الوُقوعِ، لا يُقدِمُ عليه المسلِمونَ[٣].

- وتَنكيرُ (فاسقٍ) و(نَبأٍ) في سِياقِ الشَّرطِ يُفيدُ العُمومَ في الفُسَّاقِ بأيِّ فِسقٍ اتَّصَفوا، وفي الأنباءِ كيف كانتْ، كأنَّه قِيل: أيُّ فاسقٍ جاءَكم بأيِّ نبأٍ، فتَوقَّفوا فيه، وتَطَلَّبوا بَيانَ الأمْرِ وانكشافَه[٤]. والتَّبيُّنُ: قُوَّةُ الإبانةِ، وهو مُتعدٍّ إلى مَفعولٍ بمعْنى أبانَ، أي: تأمَّلوا وأبينوا. والمَفعولُ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿بِنَبَإٖ﴾، أي: تَبيَّنوا ما جاء به[٥].

- والجَهالةُ: تُطلَقُ بمعنى ضِدِّ العِلمِ، وتُطلَقُ بمعنى ضِدِّ الحِلمِ، مِثلُ قولِهم: جَهْلٌ كجَهلِ السَّيفِ؛ فعلَى الأوَّلِ -أنَّ الجهالةَ ضِدُّ العِلمِ- فالباءُ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٩). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣١).

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ للمُلابَسةِ، وهو ظَرفٌ مُستقَرٌّ[١] في مَوضعِ الحالِ، أي: مُتلبِّسينَ أنتُم بعدَمِ العِلمِ بالواقعِ؛ لتَصديقِكم الكاذِبَ، ومُتعلَّقُ ﴿تُصِيبُواْ﴾ على هذا الوجْهِ مَحذوفٌ دلَّ عليه السِّياقُ سابِقًا ولاحِقًا، أي: أنْ تُصيبوهم بضُرٍّ، وأكثرُ إطلاقِ الإصابةِ على إيصالِ الضُّرِّ. وعلى الإطلاقِ الثَّاني -أنَّ الجهالةَ ضِدُّ الحِلْمِ- فالباءُ للتَّعديةِ، أي: أنْ تُصيبوا قومًا بفِعلٍ مِن أثَرِ الجَهالةِ، أي: بفِعلٍ مِن الشِّدَّةِ والإضرارِ[٢].

- ودلَّ قولُه: ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ أنَّه تَحذيرٌ مِن الوُقوعِ فيما يُوجِبُ التَّوبةَ مِن تلك الإصابةِ؛ فكان هذا كِنايةً عن الإثمِ في تلك الإصابةِ[٣].

- وتَقديمُ المَجرورِ على مُتعلَّقِه في قَولِه: ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾؛ للاهتِمامِ بذلك الفِعلِ -وهو الإصابةُ بدُونِ تثبُّتٍ-، والتَّنبيهِ على خطَرِ أمْرِه[٤].

- وقدَّمَ اللهُ في هذه السُّورةِ الكريمةِ ما هو الأهمُّ على ما دُونَه؛ فذكَرَ جانبَ

---

(١) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ «استقرَّ»، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبَرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّيَ ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لَغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولُك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زَيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِفَ الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زَيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهِ، ثمَّ ذكَرَ جانبَ الرَّسولِ، ثمَّ ذكَرَ ما يُفْضي إلى الاقتِتالِ بيْنَ طوائفِ المسلِمينَ بسَببِ الإصغاءِ إلى كَلامِ الفاسِقِ والاعتِمادِ عليه؛ فإنَّه يَذكُرُ كلَّ ما كان أشدَّ نِفارًا للصُّدورِ. وأمَّا المؤمنُ الحاضرُ أو الغائبُ، فلا يُؤذِي المؤمنَ إلى حدٍّ يُفْضي إلى القتْلِ، ولذا لمْ يَذكُرِ المؤمنَ قبْلَ الفاسِقِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ [الحجرات: ٦] عطْفَ تَشريعٍ على تَشريعٍ، وليس مَضمونُها تَكملةً لِمَضمونِ ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ ...﴾ إلخ، بلْ هي جُملةٌ مُستقِلَّةٌ. وابتداءُ الجُملةِ بقولِه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾؛ للاهتِمامِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ تَوبيخٌ لِمَن يُكذِّبُ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ووعيدٌ بالفضيحةِ، ولا يَصدُرُ ذلك إلَّا ممَّن هو شاكٌّ في الرِّسالةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يَترُكُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعتمِدُ على خبَرِ الفاسِقِ، بل بيَّنَ له ذلك. وقولُه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ قيل: هو كلامٌ تامٌّ، أمَرَهم بأنْ يَعلَموا أنَّ الَّذي هو بيْنَ ظَهرانَيْكم هو رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا تُخبِروه بما لا يَصِحُّ؛ فإنَّه رسولُ اللهِ يُطلِعُه على ذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في الإيقاظِ والتَّحذيرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٣).

على وجْهِ الكِنايةِ؛ فإنَّ كَونَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيْنَ ظَهرانَيْهم أمْرٌ مَعلومٌ لا يُخبَرُ عنه، فالمَقصودُ تَعليمُ المسلمينَ اتِّباعَ ما شَرَعَ لهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الأحكامِ، ولو كانت غيرَ مُوافِقةٍ لرغَباتِهم[١].

- وتَقديمُ خبَرِ (إنَّ) على اسمِها في قولِه: ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ للاهتِمامِ بهذا الكَونِ فيهم، وتنْبيهًا على أنَّ واجِبَهم الاغتِباطُ به، والإخلاصُ له؛ لأنَّ كَونَه فيهم شرَفٌ عظيمٌ لِجَماعتِهم، وصَلاحٌ لهم. وأيضًا القصدُ مِن تَقديمِ الخبَرِ على الاسمِ: التَّوبيخُ والتَّشدُّدُ على بعضِ المؤمنينَ؛ لِتَحاشِي ما استهجَنَه اللهُ مِن مُحاوَلتِهم استِتْباعَ رأيِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لآرائِهم؛ فوجَبَ تَقديمُه لانصِبابِ الغرَضِ إليه[٢].

- وجُملةُ ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا ابتدائيًّا؛ فضَميرَا الجمْعِ في قولِه: ﴿يُطِيعُكُمْ﴾ وقولِه: ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ عائدانِ إلى الَّذين آمَنوا على تَوزيعِ الفعلِ على الأفرادِ؛ فالمُطاعُ بعضُ الَّذين آمنوا، وهم الَّذين يَبتَغون أنْ يَعمَلَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما يَطلُبونَ منه، والعانتُ بعضٌ آخَرُ، وهم جُمهورُ المؤمنينَ الَّذين يَجري عليهم قَضاءُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحسَبِ رَغبةِ غَيرِهم. ويجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿فِيكُمْ﴾؛ لأنَّ مَضمونَ الجُملةِ يَتعلَّقُ بأحوالِ المخاطَبينَ، مِن جِهةِ أنَّ مَضمونَ جوابِ (لو) عَنَتٌ يَحصُلُ للمُخاطَبينَ. ومآلُ الاعتِبارَينِ في مَوقعِ الجُملةِ واحدٌ، والكلامُ على كِلَا التَّقديرَينِ مُنتظِمٌ أحسَنَ انتِظامٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٤، ٢٣٥).

- وصِيغةُ المُضارِعِ في قولِه: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾ مُستعمَلةٌ في الماضي؛ لأنَّ حرْفَ (لو) يُفيدُ تَعليقَ الشَّرطِ في الماضي، وإنَّما عُدِلَ إلى صِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّه كان في إرادتِهم استِمرارُ عمَلِه على ما يَستَصوبونَه، وأنَّه كلَّما عَنَّ لهم رأيٌ في أمْرٍ كان مَعمولًا عليه؛ بدليلِ قولِه: ﴿فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾، كقولِك: فلانٌ يَقْري الضَّيفَ، ويَحمي الحريمَ، تُريدُ أنَّه ممَّا اعتادَه ووُجِدَ منه مُستمِرًّا، والمعْنى: لو أطاعَكم في قَضيَّةٍ مُعيَّنةٍ، ولو أطاعكم كُلَّما رَغِبتُم منه أو أشَرْتُم عليه، لَعَنِتُّم؛ لأنَّ بعضَ ما يَطلُبونه مُضِرٌّ بالغَيرِ أو بالرَّاغبِ نفْسِه؛ فإنَّه قد يُحِبُّ عاجِلَ النَّفعِ العائدَ عليه بالضُّرِّ[1].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾ تَعريفُ الجنسِ شامِلٌ لجميعِ الأمورِ؛ ولذلك جِيءَ معه بلفظِ ﴿كَثِيرٖ مِّنَ﴾، أي: في أحداثٍ كثيرةٍ ممَّا لكم رَغبةٌ في تَحصيلِ شَيءٍ منها فيه مُخالَفةٌ لِما شرَعَه، وهذا احترازٌ عن طاعتِه إيَّاهم في بَعضِ الأمْرِ ممَّا هو غيرُ شُؤونِ التَّشريعِ، كما أطاعَهم في نُزولِ الجيشِ يومَ بَدْرٍ على جِهةٍ يَستأثِرونَ فيها بماءِ بدْرٍ[2].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ الاستِدراكُ المُستفادُ من حرْفِ (لكنَّ) ناشئٌ عن قولِه: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾؛ لأنَّه اقتَضَى أنَّ لِبَعضِهم رغبةً في أنْ يُطيعَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يَرغَبونَ أنْ يَفعلَه ممَّا يَبتَغون ممَّا يَخالونَه صالحًا بهم في أشياءَ كثيرةٍ تَعرِضُ لهم. وفي هذا تَحريضٌ على التَّسليمِ لِمَا يأمُرُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦١، ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٥).

به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولذا فكَونُه حبَّبَ إليهم الإيمانَ إدماجٌ[١] وإيجازٌ، والتَّقديرُ: ولكنَّ اللهَ شرَعَ لكم الإسلامَ، وحبَّبَه إليكم، أي: دَعاكم إلى حُبِّه والرِّضا به فامْتَثَلْتُم[٢].

- وذِكرُ اسمِ اللهِ في صَدْرِ جُملةِ الاستِدراكِ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ دونَ ضَميرِ المتكلِّمِ (وَلَكِنِّي)؛ لِمَا يُشعِرُ به اسمُ الجَلالةِ مِن المَهابةِ والرَّوعةِ، وما يَقتضيهِ مِن واجبِ اقتِبالِ ما حَبَّبَ إليه، ونبْذِ ما كَرَّهَ إليه[٣].

- في قولِه: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ تَعريضٌ بأنَّ الَّذين لا يُطيعون الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم بَقيَّةٌ مِن الكُفرِ والفُسوقِ، والمقصودُ مِن هذا أنْ يَترُكوا ما ليس مِن أحكامِ الإيمانِ؛ تَحذيرًا لهم مِن الحِيادِ عن طريقِ الإيمانِ، وتجْنيبًا لهم عمَّا هو مِن شأنِ أهلِ الكُفرِ؛ فالخبَرُ في قولِه: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ مُستعمَلٌ في الإلهابِ، وتَحريكِ الهِمَمِ لمُراعاةِ مَحبَّةِ الإيمانِ، وكراهةِ الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الاندِفاعَ إلى تَحصيلِ المَرغوبِ مِن الهوى دونَ تَمييزٍ بيْنَ ما يُرضي اللهَ وما لا يُرضيه؛ أثَرٌ مِن آثارِ الجاهليَّةِ مِن آثارِ الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ[٤].

- وعُدِّي فِعلَا ﴿حَبَّبَ﴾ ﴿وَكَرَّهَ﴾ بحرْفِ (إلى)؛ لتَضْمينِهما معْنى (بلَّغَ)، أي: بلَّغَ إليكم حُبَّ الإيمانِ وكُرْهَ الكُفرِ، ولم يُعَدَّ فِعلُ ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾ بحرْفِ (إلى) مِثلَ فِعلَيْ ﴿حَبَّبَ﴾ ﴿وَكَرَّهَ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّه لَمَّا رغَّبَهم في الإيمانِ

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((الصدر السابق)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((الصدر السابق)) (٢٦/ ٢٣٦، ٢٣٧).

وكرَّهَهم الكُفرَ، امتَثَلوا فأحَبُّوا الإيمانَ وزانَ في قُلوبِهم[١].

- وجمَعَ بيْنَ الفِسقِ والعِصيانِ في قولِه: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾؛ قيل: لأنَّ الفِسقَ هو الكذِبُ، والعِصيانَ بقيَّةُ المَعاصي، وإنَّما أفرَدَ الكَذِبَ بالذِّكرِ؛ لأنَّه سَببُ نُزولِ الآيةِ. وقيلَ: الفُسوقُ الكبيرةُ، والعِصيانُ: الصَّغيرةُ[٢].

- وجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ مُعترِضةٌ للمَدحِ[٣].

- وأفادَ ضَميرُ الفَصلِ (هُم) القَصرَ، وهو قصْرُ إفرادٍ؛ إشارةً إلى أنَّ بيْنَهم فَريقًا ليسوا براشِدينَ، وهم الَّذين تَلبَّسوا بالفِسقِ حينَ تلبُّسِهم به، فإنْ أقْلَعوا عنه الْتَحَقوا بالرَّاشِدينَ[٤].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، وفي تَغييرِ النَّظمِ الكريمِ والالتِفاتِ مِن الجَزالةِ ما لا يَخفَى[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾

- انتصَبَ قولُه: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾ على المفعولِ المُطلَقِ المبيِّنِ للنَّوعِ مِن أفعالِ (حبَّبَ) و(زَيَّنَ) و(كرَّهَ)؛ لأنَّ ذلك التَّحبيبَ والتَّزيينَ والتَّكريهَ مِن نَوعِ الفَضلِ والنِّعمةِ[٦]. وقيلَ: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾، أيْ: وإنعامًا، تَعليلٌ لـ (حبَّبَ) أو (كرَّه)، وما بيْنَهما اعتِراضٌ. وقيل: نَصبُهما بفِعلٍ مُضمَرٍ، أيْ:

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٢، ٨/ ١٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٨).

جَرَى ذلكَ فضْلًا. وقيل: يَبتغونَ فضْلًا[١].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ...﴾ إلى آخِرِها؛ إشارةً إلى أنَّ ما ذُكِرَ فيها مِن آثارِ عِلْمِ اللهِ وحِكمتِه، والواوُ اعتِراضيَّةٌ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠).
ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ٢٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٨).

الآيتان (٩-١٠)

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَغَتْ﴾: أي: تعَدَّتْ، أو لم تَرْضَ بحُكْمِ رسولِ الله؛ فالبَغْيُ: التَّطاوُلُ والفسادُ، وأصلُ (بغي) هنا: جِنْسٌ مِن الفسادِ[1].

﴿تَفِىٓءَ﴾: أي: تَرجِعَ، والفَيءُ والفَيئةُ: الرُّجوعُ إلى حالةٍ مَحمودةٍ، وأصْلُ (فيأ): يدُلُّ على رُجوعٍ[2].

﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾: أي: اعْدِلوا، و﴿ٱلْمُقْسِطِينَ﴾: العادِلينَ، وأصْلُ القِسطِ يدُلُّ على مَعنيَينِ مُتضادَّينِ: العدْلُ، والجَوْرُ؛ يُقال: أقسَطَ: إذا عدَلَ. وقَسَطَ: إذا جارَ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يَأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ بأنْ يُصلِحوا بيْنَ أيِّ طائفتَينِ مِن المؤمنينَ اقتَتَلوا، فإنْ رَفَضَت إحْدى الطَّائفتَينِ الصُّلحَ وأجابَتِ الأُخرى، فلْيُقاتِلوا الطَّائفةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٧، ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦).

الَّتي رفَضَت الصُّلحَ وبغَتْ واعتدَتْ، حتَّى تَعودَ إلى شرْعِ اللهِ، فإنْ عادت فلْيُصلِحوا بيْنَهما بالعدْلِ، ولْيَحْكُموا بيْنَهما بالحقِّ والإنصافِ؛ إنَّ اللهَ يُحِبُّ مَن يَحكُمُ بذلك.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ المؤمنينَ إخوةٌ في الدِّينِ، فلْيُصلِحوا بيْنَ كِلْتا الطَّائفتَينِ المؤْمِنتَينِ إذا اقْتَتَلَتا، ولْيَتَّقوا اللهَ؛ لَعلَّهم تَنالُهم رَحمتُه.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا حذَّرَ اللهُ المؤمنينَ مِن النَّبأِ الصَّادِرِ مِن الفاسِقِ، أشار إلى ما يَلزَمُ منه؛ استِدراكًا لِما يَفوتُ، فقال: فإنِ اتَّفَق أنَّكم تَبْنون على قولِ مَن يُوقِعُ بيْنَكم، وآلَ الأمْرُ إلى اقتِتالِ طائفتَينِ مِن المؤمنينَ، فأَزيلوا ما أثبَتَه ذلك الفاسِقُ، وأصْلِحوا بيْنَهما[1].

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٤).

وقال البِقاعي: (لَمَّا كانت النَّميمةُ ونقْلُ الأخبارِ الباطلةِ الذَّميمةِ، رُبَّما جرَّت فِتَنًا وأوصَلَت إلى القِتالِ، وكان العليمُ الحكيمُ لا يَنصِبُ سببًا إلَّا ذكَرَ مُسبَّبَه وأشار إلى دَوائِه، وكان لا يَنْهى عن الشَّيءِ إلَّا مَن كان مُتهيِّئًا له لِما في جِبلَّتِه مِن الدَّاعي إليه، فكان قد يُواقِعُه ولو في وقْتٍ؛ قال تعالى معلمًا لنا طَريقَ الحكمةِ في دفْعِ ما جرَّتْ إليه الأخبارُ الباطلةُ مِن القِتالِ...: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ ﴾ ...). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٧٠).

أي: وإنْ طائفتانِ مِن أهلِ الإيمانِ تَقاتَلوا فيما بيْنَهم، فاسْعَوا -أيُّها المؤمنونَ- إلى الإصلاحِ بيْنَهما(١).

كما قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قِيل للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو أتَيتَ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ، فانطلَقَ إليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وركِبَ حِمارًا، فانطلَقَ المسلِمون يَمْشُون معه، وهي أرضٌ سَبِخةٌ(٢)، فلمَّا أتاهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: إليكَ عنِّي، واللهِ لقد آذاني نَتْنُ حِمارِك، فقال رجُلٌ مِن الأنصارِ منهم: واللهِ لَحِمارُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أطيَبُ رِيحًا منك، فغضِبَ لعبدِ اللهِ رجُلٌ مِن قَومِه، فشَتَمَه، فغضِبَ لِكُلِّ واحدٍ منهما أصحابُه، فكان بيْنَهما ضرْبٌ بالجريدِ والأيدي والنِّعالِ، فبَلَغنا أنَّها أُنزِلَت: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤).

قال البخاري: (يُسمَّى الرَّجُلُ طائفةً؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾، فلو اقتتَل رجُلانِ دخَل في معنى الآيةِ). ((صحيح البخاري)) (٩/ ٨٦).

(٢) سَبِخةٌ: أي: ذاتُ سِباخٍ، وهي الأرضُ الَّتي تَعْلوها المُلوحةُ، ولا تكادُ تُنبِتُ إلَّا بعضَ الشَّجَرِ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعَيني (١٣/ ٢٦٧).

ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾))[١].

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((رأيْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على المِنْبَرِ والحسَنُ بنُ عليٍّ إلى جنْبِه، وهو يُقبِلُ على النَّاسِ مرَّةً، وعليه أُخرى، ويقولُ: إنَّ ابْني هذا سيِّدٌ، ولَعلَّ اللهَ أنْ يُصلِحَ به بيْنَ فِئتَينِ عَظيمتَينِ مِن المسلِمينَ))[٢].

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فإنْ أبَتْ إحْدى الطَّائفتَينِ المقْتَتِلتَينِ الإجابةَ إلى الصُّلحِ وأجابَت الأُخرى، فقاتِلوا -أيُّها المؤمنونَ- الطَّائفةَ المعْتدِيةَ المُقاتِلةَ حتَّى تَرجِعَ إلى شرْعِ اللهِ، وتَسمَعَ للحقِّ وتُطيعَه[٣].

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٧٩٩).

قال ابنُ عاشور: (يُناكِدُ هذا [أي: كَوْنَ الآيةِ نزلَت في هذه الحادثةِ] أنَّ تلك الوَقعةَ كانت في أوَّلِ أيَّامِ قُدومِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المدينةَ. وهذه السُّورةُ نزَلت سنةَ تِسعٍ مِن الهِجرةِ، وأنَّ أنَسَ بنَ مالكٍ لم يَجزِمْ بنُزولِها في ذلك؛ لِقَولِه: فبَلَغَنا أنْ نزَلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾، اللَّهُمَّ [إلَّا] أن تكونَ هذه الآيةُ أُلحِقَت بهذه السُّورةِ بعدَ نُزولِ الآيةِ بمدَّةٍ طويلةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٨). ويُنظر: ((المحرر في أسباب نزول القرآن)) لخالد المزيني (٢/ ٩٢٤).

(٢) رواه البخاري (٢٧٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦، ٣١٧)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٣٢-٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤).

قال ابن عطية: (ومدافعةُ الفئةِ الباغيةِ مُتَوجِّهٌ في كلِّ حالٍ، وأمَّا التَّهيُّؤُ لِقِتالِها فمَعَ الوُلاةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٨).

وقال ابن عاشور: (لا يَجوزُ أنْ يَلِيَ قِتالَ البُغاةِ إلَّا الأئمَّةُ والخُلفاءُ، فإذا اختلَّ أمْرُ الإمامةِ فلْيَتولَّ قِتالَ البُغاةِ السَّوادُ الأعظمُ مِن الأُمَّةِ وعُلماؤُها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤١).

عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((انصُرْ أخاك ظالِمًا أو مَظلومًا، فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أنْصُرُه إذا كان مَظلومًا، أفرَأَيتَ إذا كان ظالِمًا؛ كيف أنصُرُه؟! قال: تَحجُزُه -أو: تَمنَعُه- مِن الظُّلْمِ؛ فإنَّ ذلك نَصْرُه))[1].

﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾.

أي: فإنْ رجَعَت الطَّائفةُ الباغيةُ إلى الرِّضا بحُكْمِ اللهِ، فأصْلِحوا -أيُّها المؤمنونَ- بيْنَها وبيْنَ الطَّائفةِ الأُخرى بالعدْلِ[2].

﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾.

أي: واحْكُموا -أيُّها المؤمنونَ- بيْنَ الطَّائفتَينِ المُتقاتِلَتَينِ بالحقِّ والإنصافِ بلا جَورٍ[3].

---

(١) رواه البخاري (٦٩٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

قال ابنُ عاشور: (العدْلُ: هو ما يقَعُ التَّصالحُ عليه بالتَّراضي والإنصافِ، وألَّا يُضَرَّ بإحدى الطَّائفَتينِ؛ فإنَّ المَتالِفَ الَّتي تَلحَقُ كِلْتا الطائفتَينِ قد تَتفاوَتُ تَفاوُتًا شديدًا، فتَجِبُ مُراعاةُ التَّعديلِ... يجِبُ العَدلُ في صورةِ الإصلاحِ، فلا يُضيِّعوا بصُورةِ الصُّلحِ مَنافِعَ عن كِلا الفريقَينِ إلَّا بقَدْرِ ما تَقتَضيه حقيقةُ الصُّلحِ مِن نُزولٍ عن بَعضِ الحَقِّ بالمعروفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٨٥-٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٣)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٥/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢).

قال ابنُ عثيمين: (هذا غيرُ الإصلاحِ الأوَّلِ؛ الإصلاحُ الأوَّلُ لوقْفِ القِتالِ، وهذا الإصلاحُ بالتَّقديرِ، فنَنظُرُ ماذا تَلِفَ على كلِّ طائفةٍ، ثمَّ نسوِّي بيْنَهما، فمَثلًا: إذا كانت إحدى الطَّائفتَينِ أتلَفَتْ على الأخرى ما قِيمتُه مليون ريال، والثَّانيةُ أتلَفَت على الأخرى ما قِيمته مليون ريال، فحينَئذٍ تَعادَل الطَّائفَتانِ، فإن كانت إحداهما أتلَفَت على الأخرى ما قِيمتُه ثمانمئةِ ألْفِ ريال، =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ الحاكِمينَ بالحقِّ والإنصافِ[١].

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمْرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ المُقسِطينَ عندَ اللهِ على مَنابرَ مِن نُورٍ، عن يَمينِ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ، وكِلْتا يَدَيْه يَمينٌ؛ الَّذين يَعدِلون في حُكْمِهم وأهْلِيهم وما وَلُوا[٢]))[٣].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٠﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

أي: إنَّما المؤمِنون إخوةٌ في الدِّينِ، يَجِبُ عليهم التَّوادُدُ والتَّناصُرُ فيما بيْنَهم[٤].

= والأخرى أتلفَت ما قيمتُه مليون، فالفرْقُ مِئتا ألْفِ ريال تحمِلُها على الأخرى الَّتي أتلفَت ما قِيمتُه مليون). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥).

وقال ابن عاشور: (﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ هذا إصلاحٌ ثانٍ بعْدَ الإصلاحِ المأمورِ به ابتِداءً، ومعْناه: أنَّ الفئةَ الَّتي خضَعَت للقوَّةِ، وألْقَتِ السِّلاحَ؛ تكونُ مَكسورةَ الخاطِرِ، شاعِرةً بانتصارِ الفئةِ الأُخرى عليها، فأوجَبَ على المسلمينَ أنْ يُصلِحوا بيْنَهما، بتَرغيبِهما في إزالةِ الإحَنِ، والرُّجوعِ إلى أُخوَّةِ الإسلامِ؛ لئلَّا يَعودَ التَّنكُّرُ بيْنَهما). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٢) وَلُوا -بفَتحِ الواوِ وضَمِّ اللَّامِ المُخَفَّفةِ- أي: مَن كانت لهم عليه وِلايةٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٢١١).

(٣) رواه مسلم (١٨٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٥)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠، ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٣).

كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال سُبحانه: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَباغَضوا، ولا تَحاسَدوا، ولا تَدابَروا، وكُونوا -عِبادَ اللهِ- إخوانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسلِمٍ أنْ يَهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثِ لَيالٍ))(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المُسلِمُ أخو المسلمِ، لا يَظلِمُه، ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخِيه كان اللهُ في حاجتِه، ومَن فرَّجَ عن مُسلمٍ كُرْبةً فرَّجَ اللهُ عنه كُربةً مِن كُرُباتِ يومِ القيامةِ، ومَن ستَرَ مُسلِمًا ستَرَه اللهُ يومَ القيامةِ))(٢).

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ المؤمنينَ في تَوادِّهم، وتَراحُمِهم، وتَعاطُفِهم؛ مَثَلُ الجسَدِ إذا اشْتَكى منه عُضْوٌ تَداعى له سائرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى))(٣).

وعن أبي مُوسى رضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ المؤمنَ للمؤمنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا. وشبَّكَ أصابعَه))(٤).

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٧٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٥٥٨).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٢) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٥٨٠).

(٣) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللَّفظُ له.

(٤) رواه البخاري (٤٨١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٥).

وعن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم حتَّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفْسِه))[١].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَنْ نَفَّسَ عن مُؤمنٍ كُرْبةً مِن كُرَبِ الدُّنيا نفَّسَ اللهُ عنه كُربةً مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ، ومَن يسَّر على مُعسِرٍ يسَّر اللهُ عليه في الدُّنيا والآخرةِ، ومَن ستَرَ مُسلمًا ستَرَه اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ، واللهُ في عَونِ العبْدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيهِ))[٢].

وعن أمِّ الدَّرْداءِ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ: ((دَعوةُ المرْءِ المسلمِ لأخيهِ بظَهْرِ الغيبِ مُستجابةٌ، عندَ رأْسِه مَلَكٌ مُوكَّلٌ كلَّما دعا لأخيهِ بخَيرٍ، قال المَلَكُ الموكَّلُ به: آمِينَ، ولك بمِثْلٍ))[٣].

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

أي: فأصْلِحوا بيْنَ كِلْتا الطَّائفتَينِ المؤمِنَتَينِ إذا اقتَتَلَتا، بحَمْلِهما على حكْمِ اللهِ ورسولِه[٤].

عن سَهلِ بنِ سعدٍ رضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ أهلَ قُباءٍ اقتَتَلوا حتَّى تَرامَوا بالحجارةِ، فأُخبِرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلك، فقال: اذْهَبوا بنا نُصلِحْ بيْنَهم))[٥].

---

(١) رواه البخاري (١٣) واللفظ له، ومسلم (٤٥).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦).

قال الشوكاني: (يعني كلَّ مُسلِمَينِ تَخاصَما وتقاتَلا، وتخصيصُ الاثنَينِ بالذِّكرِ لإثباتِ وُجوبِ الإصلاحِ فيما فوقَهما بطريقِ الأَولى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٨).

(٥) رواه البخاري (٢٦٩٣) واللفظ له، ومسلم (٤٢١).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

أي: واجْعَلوا بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه وِقايةً وحاجزًا -أيُّها المؤمنونَ- بامتِثالِ ما أمَرَ اللهُ تعالى به، واجتِنابِ ما نَهى عنه؛ لعلَّكم تَنالُون رحمةَ اللهِ تعالى[1].

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق: ٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- المؤمِنُ عليه أنْ يُعاديَ في اللهِ، ويُواليَ في اللهِ، فإنْ كان هناك مؤمنٌ فعلَيه أنْ يُواليَه وإنْ ظلَمَه؛ فإنَّ الظُّلمَ لا يَقطَعُ المُوالاةَ الإيمانيَّةَ؛ قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ * إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾، فجعَلَهم إخوةً معَ وُجودِ القتالِ والبغْيِ والأمْرِ بالإصلاحِ بيْنَهم. فلْيَتدبَّرِ المؤمنُ الفرْقَ بيْنَ هذَينِ النَّوعَينِ، فما أكثَرَ ما يَلتبِسُ أحدُهما بالآخَرِ! ولِيَعلَمَ أنَّ المؤمنَ تجِبُ مُوالاتُه وإنْ ظلَمَك واعْتَدى عليك، والكافرَ تجِبُ مُعاداتُه وإنْ أعْطاكَ وأحسَنَ إليك؛ فإنَّ اللهَ سُبحانه بعَثَ الرُّسلَ وأنزَلَ الكُتبَ لِيَكونَ الدِّينُ كلُّه للهِ، فيَكونَ الحُبُّ لأوليائِه، والبُغضُ لأعدائِه، والإكرامُ لأوليائِه، والإهانةُ لأعدائِه، والثَّوابُ لأوليائِه، والعِقابُ لأعدائِه. وإذا اجتمَعَ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦).

الرَّجُلِ الواحدِ خيرٌ وشَرٌّ وفُجورٌ، وطاعةٌ ومَعصيةٌ، وسُنَّةٌ وبِدْعةٌ؛ استحَقَّ مِن الموالاةِ والثَّوابِ بقدْرِ ما فيه مِن الخَيرِ، واستحقَّ مِن المُعاداةِ والعِقابِ بحسَبِ ما فيه مِن الشَّرِّ، فيَجتمِعُ في الشَّخصِ الواحدِ مُوجِباتُ الإكرامِ والإهانةِ، فيَجتمِعُ له مِن هذا وهذا، كاللِّصِّ الفقيرِ؛ تُقطَعُ يَدُه لسَرِقَتِه، ويُعطَى مِن بَيتِ المالِ ما يَكْفيه لحاجتِه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ رَتَّب على القيامِ بحُقوقِ المُؤمِنينَ وبتَقْوى اللهِ الرَّحمةَ، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وإذا حصَلَت الرَّحمةُ حَصَل خيرُ الدُّنيا والآخِرةِ، ودَلَّ ذلك على أنَّ عدَمَ القيامِ بحُقوقِ المُؤمِنينَ مِن أعظَمِ حواجِبِ الرَّحمةِ[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ يدُلُّ على وُجوبِ الإصلاحِ بيْنَ المؤمِنينَ بالعدْلِ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، أي: العادِلينَ في حُكْمِهم بيْنَ النَّاسِ وفي جَميعِ الولاياتِ الَّتي تَولَّوها، حتَّى إنَّه قد يَدخُلُ في ذلك عدْلُ الرَّجُلِ في أهْلِه وعِيالِه في أدائِه حُقوقَهم، وفي الحديثِ الصَّحيحِ: ((إنَّ المُقسِطينَ عندَ اللهِ على مَنابرَ مِن نُورٍ، عن يَمينِ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ، وكِلْتا يَدَيْه يَمينٌ؛ الَّذين يَعدِلون في حُكْمِهم وأهْلِيهم وما وَلُوا))[٤].

٥- مَن كان قائمًا بواجبِ الإيمانِ كان أخًا لِكلِّ مؤمنٍ، ووَجَبَ على كلِّ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث تقدَّم تخريجُه.

مؤمنٍ أنْ يقومَ بحُقوقِه -وإنْ لم يَجْرِ بيْنَهما عقدٌ خاصٌّ-؛ فإنَّ اللهَ تعالى قد عَقَد الأُخُوَّةَ بيْنَهما بقولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[١]. فإذا وُجِد مِن أيِّ شَخصٍ كان في مَشرِقِ الأرضِ ومَغرِبِها الإيمانُ باللهِ، ومَلائكتِه، وكُتبِه، ورُسلِه، واليَومِ الآخِرِ؛ فإنَّه أخٌ للمؤمنينَ أُخَوَّةً تُوجِبُ أنْ يُحِبَّ له المؤمنونَ ما يُحِبُّون لأنفُسِهم، ويَكرَهوا له ما يَكرَهون لأنفُسِهم[٢].

٦- الواجبُ على المسلمِ نحْوَ أخيهِ أنْ يُزِيلَ ما بيْنَه وبيْنَ أخيه مِن الأحقادِ، وأنْ يَجعَلَ بدَلَ هذه الأحقادِ أُلْفَةً ومَحبَّةً؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، والأُخُوَّةُ يُنافيها الحِقْدُ والعَداوةُ والبَغضاءُ[٣].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فيه أنَّ الاقتِتالَ بيْنَ المؤمنينَ مُنافٍ للأُخُوَّةِ الإيمانيَّةِ؛ ولهذا كان مِن أكبَرِ الكبائرِ[٤].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، أمَّا شرْطُ الأُخُوَّةِ: فمِن حقِّ الأُخُوَّةِ في الدِّينِ ألَّا تُحوِجَ أخاك إلى الاستِعانةِ بكَ، أو الْتِماسِ النُّصرةِ منك، وألَّا تُقصِّرَ في تَفقُّدِ أحوالِه بحيث يُشكِلُ عليك مَوضِعُ حاجتِه، فيَحتاجُ إلى مُساءلَتِك.

ومِن حقِّهِ ألَّا تُلجِئَه إلى الاعتِذارِ لك، بل تَبسُطُ عُذْرَه، فإنْ أشكَلَ عليك وجْهُه، عُدْتَ باللَّائمةِ على نفْسِك في خَفاءِ عُذْرِه عليك.

ومِن حقِّه أنْ تستغفِرَ له إذا أذنَبَ، وتَعودَه إذا مرِضَ، وإذا أشار عليك بشَيءٍ فلا تُطالِبْه بالدَّليلِ عليه، وإبرازِ الحُجَّةِ، كما قالوا[٥]:

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٥/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٥) البيت لِوَدَّاك بنِ ثُمَيْل المازِني. يُنظر: ((حماسة الخالديين)) لمحمد بن هاشم وسعيد بن =

إذا استُنْجِدوا لم يَسْألوا مَن دَعاهم لِأيَّـــةِ حَـــرْبٍ أمْ لأيِّ مَـــكانِ

ومِن حقِّه أنْ تَحفَظَ عهْدَه القديمَ، وأنْ تُراعِيَ حقَّه في أهْلِه المتَّصِلينَ به في المَشهَدِ والمَغيبِ، وفي حالِ الحَياةِ وبعْدَ المماتِ[١].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ الإصلاحَ مِن أعظَمِ الطَّاعاتِ[٢]، ومِن أوكَدِ عَزائمِ الدِّينِ، وإذا كان ذلك واجبًا فإنَّه يدُلُّ على عِظَمِ وِزرِ الواشي والنَّمَّامِ في إفسادِ ذاتِ البَينِ[٣].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ فيه أنَّ الإيمانَ والأُخُوَّةَ الإيمانيَّةَ لا تَزولُ معَ وُجودِ القِتالِ، كغَيرِه مِن الذُّنوبِ الكِبارِ الَّتي دونَ الشِّركِ، وعلى ذلك مَذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ[٤]، ففيه دَليلٌ لقولِهم: إنَّ فاعلَ الكبيرةِ لا يَخرُجُ مِن الإيمانِ؛ فهاتانِ الطَّائفتانِ مِن المؤمنينَ اقتَتَلوا، وحمَلَ السِّلاحَ بعْضُهم على بَعضٍ، ومع هذا قال اللهُ تعالى بعْدَ أنْ أمَرَ بالصُّلحِ بيْنَهما للطَّائفةِ الثَّالثةِ الَّتي لم تَدخُلِ القِتالَ: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾؛ فجعَلَ اللهُ تعالى الطَّائفةَ المُصلِحةَ إخْوةً للطَّائفتَينِ المُقتتِلَتَينِ.

= هاشم الخالديين (ص: ٤٦)، ((التنبيه على أوهام أبي عليٍّ في أماليه)) للبكري (ص: ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

وعلى هذا؛ ففي الآيةِ دليلٌ على أنَّ الكبائرَ لا تُخرِجُ مِن الإيمانِ[١].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، فالواجبُ الإصلاحُ بيْنَهما، وإنْ لم تكُنْ واحدةٌ منهما مأمورةً بالقتالِ، فإذا بغَتِ الواحدةُ بعْدَ ذلك قُوتِلت؛ لأنَّها لم تَترُكِ القتالَ، ولم تُجِبْ إلى الصُّلحِ؛ فلم يَندفِعْ شَرُّها إلَّا بالقتالِ، فصار قِتالُها بمَنزِلةِ قِتالِ الصَّائلِ الَّذي لا يَندفِعُ ظُلْمُه عن غَيرِه إلَّا بالقتالِ[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، لم يقُلْ: (وإنْ فِرقتانِ)؛ تَحقيقًا لمعْنى التَّقليلِ؛ لأنَّ الطَّائفةَ دونَ الفِرقةِ، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾[٣] [التوبة: ١٢٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، فيه سُؤالٌ: (إنْ) إشارةٌ إلى نُدرةِ وُقوعِ القتالِ بيْن طَوائفِ المسلمينَ، ونحن نَرى أكثَرَ الاقتِتالِ بيْن طَوائفِهم؟

والجوابُ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَإِن﴾ إشارةٌ إلى أنَّه يَنْبغي ألَّا يقَعَ إلَّا نادرًا، غايةُ ما في البابِ أنَّ الأمْرَ على خِلافِ ما يَنْبغي[٤].

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٧٨).

واصطلحَ الفقهاءُ على تسميةِ الدِّفاعِ الشَّرعيِّ بدفعِ الصَّائلِ، وعلى تسميةِ المُعتدي بالصَّائلِ، والصَّائلُ هو الظَّالمُ بلا تأويلٍ ولا وِلايةٍ، وتتعلَّقُ به أحكامٌ متعدِّدةٌ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣١٩)، ((الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم)) للهرري (١٨/ ٣٥٣)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٨/ ١٠٣- ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ هذا في التَّقاتُلِ بيْنَ الجماعاتِ والقبائلِ، فأمَّا خُروجُ فِئةٍ عن جَماعةِ المسلمينَ فهو أشدُّ، وليس هو مَوردَ هذه الآيةِ، ولكنَّها أصلٌ له في التَّشريعِ[١].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ مُتضَمِّنٌ لِنَهيِ المُؤمِنينَ عن أن يَبغيَ بَعضُهم على بَعضٍ، ويُقاتِلَ بَعضُهم بَعضًا، وأنَّه إذا اقتَتَلت طائِفتانِ مِن المؤمِنينَ فإنَّ على غَيرِهم مِن المُؤمِنينَ أنْ يَتلافَوا هذا الشَّرَّ الكبيرَ بالإصلاحِ بيْنَهم، والتَّوسُّطِ بذلك على أكمَلِ وجْهٍ يَقَعُ به الصُّلحُ، ويَسلُكوا الطَّريقَ الموصِلةَ إلى ذلك[٢].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ لم يَأمُرْ بقتالِ الباغيةِ ابتداءً؛ فالاقتِتالُ ابتداءً ليس مأمورًا به، ولكنْ إذا اقتَتَلوا أُمِرَ بالإصلاحِ بيْنَهم، ثمَّ إنْ بَغَت الواحدةُ قُوتِلَت؛ ولهذا قال مَن قال مِن الفُقهاءِ: إنَّ البُغاةَ لا يُبتَدؤون بقِتالِهم حتَّى يُقاتِلوا. وأمَّا الخوارِجُ فقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم: ((فإذا لَقِيتُموهم فاقْتُلوهم؛ فإنَّ في قتْلِهم أجْرًا لِمَن قتَلَهم عندَ اللهِ يومَ القيامةِ))[٣]، وقال: ((لَئِنْ أدْرَكْتُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦) واللَّفظُ له مِن حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

لَأقتُلَنَّهم قتْلَ عادٍ))[١]. وكذلك مانِعو الزَّكاةِ؛ فإنَّ الصِّدِّيقَ والصَّحابةَ رَضيَ الله عنهم ابتَدؤوا قِتالَهم، قال الصِّدِّيقُ: (واللهِ لو مَنَعوني عَناقًا[٢] كانوا يُؤدُّونَها إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَقاتَلْتُهم على مَنعِها)[٣]. وهم يُقاتَلون إذا امتَنَعوا مِن أداءِ الواجباتِ، وإنْ أقَرُّوا بالوُجوبِ[٤].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، لم يقُلْ: (منْكم)، معَ أنَّ الخطابَ معَ المؤمنينَ؛ لسَبْقِ قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦]؛ تنْبيهًا على قُبْحِ ذلك، وتَبعيدًا لهم عنهم، كما يقولُ السَّيِّدُ لعبْدِه: إنْ رأيتَ أحدًا مِن غِلماني يَفعَلُ كذا فامْنَعْه، فيَصيرُ بذلك مانعًا للمُخاطَبِ عن ذلك الفِعلِ بالطَّريقِ الحسَنِ، كأنَّه يقولُ: أنت حاشاكَ أنْ تَفعَلَ ذلك، فإنْ فعَلَ غَيرُك فامْنَعْه، كذلك هاهنا[٥].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، جعَلَ حكْمَ قِتالِ الباغيةِ أنْ تكونَ طائفةً؛ لأنَّ الجَماعةَ يَعسُرُ الأخذُ على أيْدي ظُلْمِهم بأفرادٍ مِن النَّاسِ وأعوانِ الشُّرطةِ، فَتعيَّنَ أنْ يكونَ كَفُّهم عن البَغْيِ بالجَيشِ والسِّلاحِ[٦].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يَتحقَّقُ وصْفُ البَغْيِ بإخبارِ أهلِ العِلمِ أنَّ الفئةَ بَغَت على الأُخرى،

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤) مطوَّلًا مِن حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ الله عنه.
(٢) العَناقُ: الأُنثَى مِن أولادِ المَعْزِ ما لم يَتِمَّ له سَنَةٌ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣١١).
(٣) أخرجه البخاري (١٤٠٠) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٠) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٥٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٠).

أو بحكْمِ الخليفةِ العالمِ العدْلِ، وبالخُروجِ عن طاعةِ الخليفةِ وعن الجماعةِ بالسَّيفِ إذا أمَرَ بغَيرِ ظُلمٍ ولا جَورٍ ولم تُخْشَ مِن عِصيانِه فِتنةٌ؛ لأنَّ ضُرَّ الفِتنةِ أشدُّ مِن ضُرِّ الجَورِ في غيرِ إضاعةِ المصالحِ العامَّةِ مِن مَصالحِ المسلمينَ؛ وذلك لأنَّ الخُروجَ عن طاعةِ الخليفةِ بَغْيٌ على الجماعةِ الَّذين معَ الخَليفةِ[١].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، فيه سُؤالٌ: كيف يصِحُّ في هذا الموضعِ كلمةُ (إنْ)، مع أنَّها تُستعمَلُ في الشَّرطِ الَّذي لا يُتوقَّعُ وُقوعُه، وبَغْيُ أحدِهما عندَ الاقتِتالِ لا بُدَّ منه؛ إذ كلُّ واحدٍ منهما لا يكونُ مُحسِنًا، فقولُه: (إنْ) تكونُ مَن قَبيلِ قولِ القائلِ: (إنْ طلَعَت الشَّمسُ)؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجْهُ الأوَّلُ: فيه معْنًى لطيفٌ؛ وهو أنَّ اللهَ تعالى يقولُ: الاقتِتالُ بيْنَ طائفتَينِ لا يكونُ إلَّا نادرَ الوُقوعِ، وهو كما تظُنُّ كلُّ طائفةٍ أنَّ الأُخرَى فيها الكفْرُ والفسادُ، فالقتالُ واجبٌ، أو يقَعُ لِكلِّ واحدٍ أنَّ القتالَ جائزٌ بالاجتِهادِ، وهو خطَأٌ، فقال تعالى: الاقتِتالُ لا يقَعُ إلَّا كذا، فإنْ بانَ لهما أو لأحَدِهما الخطأُ واستمَرَّ عليه، فهو نادرٌ، وعندَ ذلك يكونُ قدْ بَغى، فقال: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾، يعني: بعْدَ استِبانةِ الأمْرِ، وحينَئذٍ فقولُه: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ﴾ في غايةِ الحُسنِ؛ لأنَّه يُفيدُ النُّدرةَ، وقِلَّةَ الوُقوعِ[٢].

الوجْهُ الثَّاني: أنَّه لَمَّا كان البَغْيُ مِن أشنَعِ الأمورِ، فكان يَنْبغي ألَّا يُلِمَّ به أحدٌ؛ عُبِّرَ بأداةِ الشَّكِّ إرشادًا إلى ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧١).

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾، يَتضمَّنُ نهْيَ المؤمنينَ عن أنْ يَبْغيَ بعضُهم على بعضٍ، ويُقاتِلَ بعضُهم بعضًا[١].

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ فيه وُجوبُ قِتالِ البُغاةِ[٢] حتَّى يَرجِعوا إلى أمرِ اللهِ[٣].

١٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، يدُلُّ على وُجوبِ نصْرِ المظلومِ؛ لأنَّ القتالَ لا يُباحُ بدُونِ الوُجوبِ[٤].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾، يدُلُّ على جَوازِ قتالِ الصَّائلِ؛ لأنَّ القتالَ لَمَّا كان للفَيئةِ، فإذا حصَلَت لم يُوجَدِ المعْنى الَّذي مِن أجْلِه القتالُ[٥].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، لَمَّا كان القتالُ لا يَجوزُ إلَّا بالاستِمرارِ على البغْيِ، عُبِّرَ بالمُضارِعِ، فقال: ﴿تَبۡغِي﴾؛ إفهامًا لأنَّه متى زال البغْيُ، ولو بالتَّوبةِ مِن غَيرِ شَوكةٍ، حَرُمَ القِتالُ[٦].

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٥٤١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٥).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧١).

﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ يدُلُّ على أنَّ أموالَ البُغاةِ مَعصومةٌ؛ لأنَّ اللهَ أباح دِماءَهم وقْتَ استِمرارِهم على بَغْيِهم خاصَّةً، دونَ أموالِهم[١].

١٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾، فيه أنَّ مَن رجَعَ وأدبَرَ، لا يُقاتَلُ؛ لقولِه: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾[٢].

١٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾، فيه إشارةٌ إلى أنَّ القتالَ ليس جَزاءً للباغي، كحدِّ الشُّربِ الَّذي يُقامُ وإنْ ترَكَ الشُّربَ، بلِ القتالُ إلى حدِّ الفَيئةِ، فإنْ فاءتِ الفئةُ الباغيةُ حَرُمَ قِتالُهم[٣].

٢٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، يدُلُّ على أنَّهم لو رَجَعوا لغيرِ أمْرِ اللهِ -بأنْ رَجَعوا على وجْهٍ لا يجوزُ الإقرارُ عليه والْتِزامُه- أنَّه لا يَجوزُ ذلك[٤].

٢١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾، فيه وُجوبُ الصُّلحِ بيْن أهلِ العدْلِ والبَغْيِ[٥].

٢٢- أنَّه ليس كلَّما جازتِ المقاتَلةُ جاز القتْلُ؛ فالقتلُ أضيَقُ، ولا يَجوزُ إلَّا بشُروطٍ معروفةٍ، والمقاتَلةُ أوسعُ؛ قال اللهُ تَبارك وتَعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، فأَمَر بقِتالِها، وهي مُؤمنةٌ؛ لا يَحِلُّ قَتْلُها، ولا يُباحُ دمُها، لكنْ مِن أجْلِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

الإصلاحِ[(١)].

٢٣- في قولِه تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ أنَّ لَفظَ البَغْيِ إذا أُطْلِقَ فهو الظُّلمُ[(٢)].

٢٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ هذا أمْرٌ بالصُّلحِ، وبالعدْلِ في الصُّلحِ؛ فإنَّ الصُّلحَ قد يُوجَدُ ولكنْ لا يكونُ بالعدْلِ، بل بالظُّلمِ والحَيفِ على أحَدِ الخَصمَينِ! فهذا ليس هو الصُّلحَ المأمورَ به، فيجبُ ألَّا يُراعى أحدُهما لِقَرابةٍ أو وطَنٍ، أو غيرِ ذلك مِن المقاصدِ والأغراضِ الَّتي تُوجِبُ العُدولَ عن العدْلِ[(٣)].

٢٥- قال الله تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾، لَمَّا كان الخِصامُ يَجُرُّ -في الغالبِ- مِن القولِ والفعلِ ما يُورِثُ للمُصلِحينَ إحْنةً[(٤)] على بعْضِ المُتخاصِمينَ، فيَحمِلُ ذلك على المَيلِ مع بعْضٍ على بعْضٍ، قال: ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾، ولا يَحمِلْكم القتالُ على الحقْدِ على المُتقاتِلينَ فتَحِيفوا[(٥)].

٢٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾، فيه سُؤالٌ: قال: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾، فأيَّةُ فائدةٌ في قولِه: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾؟

الجوابُ مِن وَجهينِ:

الوجْهُ الأوَّلُ: قولُه: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ كان فيه تَخصيصٌ بحالٍ دونَ حالٍ، فعُمِّمَ الأمْرُ بقولِه: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾، أي: في كلِّ أمْرٍ مُفضٍ إلى أشرَفِ دَرجةٍ

(١) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٤) الإِحْنة: الحِقْد، وجمعُها: إِحَنٌ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لزين الدِّين الرازي (ص: ١٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٢).

وأرفَعِ مَنزِلةٍ، وهي مَحبَّةُ اللهِ[١].

الوجْهُ الثَّاني: لَمَّا كان العدْلُ في مِثلِ ذلك شَديدًا على النُّفوسِ؛ لِما تَحمَّلَت مِن الضَّغائنِ، قال تعالى: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾، أي: افْعَلوا العدْلَ العظيمَ الَّذي لا جَورَ فيه، في ذلك وفي جَميعِ أُمورِكم[٢].

٢٧- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ أُخُوَّةُ الدِّينِ أثبَتُ مِن أُخُوَّةِ النَّسَبِ؛ فإنَّ أُخُوَّةَ النَّسبِ تَنقطِعُ بمُخالَفةِ الدِّينِ، وأُخُوَّةَ الدِّينِ لا تَنقطِعُ بمُخالَفةِ النَّسبِ[٣].

٢٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، (إنَّما) للحصْرِ، أي: لا أُخُوَّةَ إلَّا بيْنَ المؤمنينَ، وأمَّا بيْنَ المؤمنِ والكافرِ فلا؛ لأنَّ الإسلامَ هو الجامعُ[٤].

٢٩- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ ردٌّ على الرَّافِضةِ -خانِقٌ لهم- فيما يُكفِّرون مُقاتِلي عليٍّ رضِيَ اللهُ عنه وعنهم، وردٌّ على الشُّرَاةِ[٥] فيما يَعُدُّون الذُّنوبَ كُفرًا، وقد سَمَّى اللهُ كُلًّا مُؤمنًا، كما تَرى[٦]، ففيه دَليلٌ على أنَّ البَغْيَ لا يُزيلُ اسمَ الإيمانِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى سمَّاهم إخْوةً مؤمنينَ مع كَونِهم باغِينَ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٧).

(٥) الشُّراةُ: الخوارجُ، الواحدُ: شَارٍ، سُمُّوا بذلك لِقَولِهم: إنَّا شَرَيْنا أنفُسَنا في طاعةِ اللهِ، أي: بِعْناها بالجنَّةِ حينَ فارَقْنا الأئمَّةَ الجائِرةَ! يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٣٩٢).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٧٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٣).

بلاغةُ الآيتَين:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا ...﴾ لَمَّا جَرَى قولُه: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦] الآيةَ، كان ممَّا يَصدُقُ عليه إصابةُ قَومٍ أنْ تقَعَ الإصابةُ بيْنَ طائفتَينِ مِن المؤمنينَ؛ لأنَّ مِن الأخبارِ الكاذبةِ أخبارَ النَّميمةِ بيْنَ القَبائلِ، وخطَرُها أكبرُ ممَّا يَجري بيْنَ الأفرادِ، والتَّبيُّنُ فيها أعسَرُ، وقد لا يَحصُلُ التَّبيُّنُ إلَّا بعدَ أنْ تَستَعِرَ نارُ الفِتنةِ، ولا تُجدي النَّدامةُ[(١)].

- قولُه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ لم يقُلْ: (وإنِ اقتَتَل طائفتانِ مِن المؤْمِنينَ)، معَ أنَّ كَلمةَ (إنْ) اتِّصالُها بالفِعلِ أَولى؛ وذلك لِيَكونَ الابتِداءُ بما يَمنَعُ مِن القِتالِ، فيَتأكَّدَ معْنى النَّكرةِ المدلولِ عليها بكَلمةِ (إنْ)؛ وذلك لأنَّ كَونَهما طائفتَينِ مُؤمنتَينِ يَقْتضي ألَّا يقَعَ القِتالُ منهما[(٢)].

- و(إنْ) حرْفُ شَرطٍ يُخلِّصُ الماضيَ ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ للاستِقبالِ؛ فيَكونُ في قوَّةِ المُضارِعِ، ولكنْ عُدِلَ عن المُضارِعِ (يَقتتلون) معَ كَونِه الأَلْيَقَ بالشَّرطِ؛ لأنَّه لَمَّا أُريدَ تقديمُ الفاعِلِ ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ على فِعلِه ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ -للاهتِمامِ بالمُسنَدِ إليه-، جُعِلَ الفِعلُ ماضيًا على طَريقةِ الكلامِ الفَصيحِ في مِثلِه ممَّا أُولِيَت فيه (إنْ) الشَّرطيَّةُ الاسمَ[(٣)]. وقيل: لم يقُلْ: (يَقتَتِلوا)؛ لأنَّ صِيغةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٤، ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٩).

الاستِقبالِ تُنبِئُ عن الدَّوامِ والاستِمرارِ، فيُفهَمُ منه أنَّ طائفتَينِ مِن المؤمنينَ إنْ تَمادى الاقتِتالُ بيْنَهما فأصْلِحوا؛ وهذا لأنَّ صِيغةَ المستقبَلِ تُنبِئُ عن ذلك، يُقال: فلانٌ يَتهجَّدُ ويَصومُ[١].

- وإنَّما قال: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ ولم يقُلْ: (اقتتَلَتا)، حَمْلًا على المعنى؛ لأنَّ الطَّائفتَينِ في مَعنى القَومِ والنَّاسِ، ثمَّ حمَلَ على اللَّفظِ فقال: ﴿بَيۡنَهُمَا﴾؛ فضَميرُ ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ يعودُ على ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ باعتِبارِ المعْنى؛ لأنَّ طائفةً ذاتُ جمْعٍ، والوجْهُ أنْ يكونَ فِعلُ ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ مُستعمَلًا في إرادةِ الوُقوعِ، أي: يُريدون العَودَ؛ لأنَّ الأمرَ بالإصلاحِ بيْنهما واجبٌ قبْلَ الشُّروعِ في الاقتِتالِ، وذلك عند ظُهورِ بَوادِرِه، وهو أَولى مِن انتِظارِ وُقوعِ الاقتِتالِ؛ لِيُمكِنَ تَدارُكُ الخَطبِ قبْلَ وُقوعِه، وبذلك يَظهَرُ وجْهُ تَفريعِ قولِه: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ على جُملةِ ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾، أي: فإنِ ابتدأَتْ إحدى الطَّائفتَينِ قِتالَ الأُخرى، ولم تَنْصَعْ إلى الإصلاحِ؛ فقاتِلوا الباغيةَ[٢]. ولأنَّه عندَ الاقتِتالِ تكونُ الفِتنةُ قائمةً، وكلُّ أحدٍ برأْسِه يكونُ فاعِلًا فِعْلًا، فقال: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾، وعندَ العَودِ إلى الصُّلحِ تَتَّفِقُ كلمةُ كلِّ طائفةٍ، وإلَّا لم يكُنْ يَتحقَّقُ الصُّلحُ، فقال: ﴿بَيۡنَهُمَا﴾؛ لِكَونِ الطَّائفتَينِ حينَئذٍ كنَفْسَينِ[٣]. وأيضًا لأنَّه لَمَّا كانت الشَّناعةُ والفسادُ في قِتالِ الجماعةِ أكثَرَ، عُبِّرَ بضَميرِ الجمْعِ دونَ التَّثنيةِ؛ تَصويرًا لذلك بأقبَحِ صُورةٍ، فقال: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾، ولَمَّا كانت العِبرةُ في الصُّلحِ إذا وقَعَ بيْنَ الطَّائفتَينِ ما يُسكَنُ به الشَّرُّ، وإنْ تَخلَّفَ شُذَّانٌ[٤] مِن الجانبَينِ لا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٥).

(٤) شُذَّانُ القَومِ: مَن شَذَّ منهم، وخرَج عن جَماعتِهم. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (٢/ ٦٠٦).

يُعبَأُ بهم -عُبِّرَ بالتَّثنيةِ دونَ الجمْعِ، فقال: ﴿بَيْنَهُمَا﴾[١].

- قولُه: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ قرَنَ بالإصلاحِ الثَّاني العدْلَ دونَ الأوَّلِ؛ لأنَّ المُرادَ بالاقتِتالِ في أوَّلِ الآيةِ: أنْ تَقتتِلَا باغيتَينِ معًا، أو راكبتَيْ شُبهةٍ، وأيَّتُهما كانتْ فالَّذي يجِبُ على المسلمينَ أنْ يأْخُذوا به في شأْنِهما: إصلاحُ ذاتِ البَينِ، وتَسكينُ الدَّهماءِ[٢] بإراءةِ الحقِّ والمَواعظِ الشَّافيةِ، ونفْيِ الشُّبهةِ، إلَّا إذا أصَرَّتا، فحينَئذٍ تجِبُ المُقاتَلةُ[٣].

أو يكونُ تَقْييدُ الإصلاحِ بالعدْلِ هاهنا؛ لأنَّه مَظِنَّةُ الحَيفِ مِن حيثُ إنَّه بعدَ المُقاتَلةِ، وقدْ أكَّد ذلكَ حيثُ قيلَ: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾، أيْ: واعدِلُوا في كلِّ ما تأْتونَ وما تَذَرونَ[٤].

أو قُيِّدَ الإصلاحُ المأمورُ به ثانيًا بعدَ أنْ تَفيءَ الباغيةُ بقَيدِ العدْلِ، وهذا القيدُ يُقيَّدُ به أيضًا الإصلاحُ المأمورُ به أوَّلًا؛ لأنَّ القَيدَ مِن شأْنِه أنْ يَعودَ إليه؛ لاتِّحادِ سَببِ المُطلَقِ والمُقيَّدِ، أي: يجِبُ العدْلُ في صُورةِ الإصلاحِ، فلا يُضيِّعوا بصُورةِ الصُّلحِ مَنافعَ عن كِلَا الفَريقينِ إلَّا بقْدرِ ما تَقتضيهِ حَقيقةُ الصُّلحِ مِن نُزولٍ عن بَعضِ الحقِّ بالمعروفِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ أمَرَ المسلمينَ بالعدْلِ أمرًا عامًّا، تَذْييلًا للأمرِ بالعدْلِ الخاصِّ في الصُّلحِ بيْنَ الفريقَينِ، فشَمِلَ هذا الأمرُ العامُّ أنْ يَعدِلوا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٢) الدَّهْماءُ: الفِتْنةُ المُظلِمةُ، ودَهْماءُ النَّاسِ: جَماعتُهم. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٩٢٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢).

في صُورةِ ما إذا قاتَلوا الَّتي تَبْغي. أو هو مِن عطْفِ العامِّ على الخاصِّ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تَعليلٌ وتَقريرٌ لإقامةِ الإصلاحِ بيْنَ المؤمنينَ إذا استَشْرى الحالُ بيْنَهم؛ فالجُملةُ مَوقِعُها مَوقعُ العِلَّةِ، وقد بُنِيَ هذا التَّعليلُ على اعتِبارِ حالِ المسلِمينَ بَعضِهم مع بَعضٍ كحالِ الإخوةِ[٢].

- وجِيءَ بصِيغةِ القَصرِ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ المفيدةِ لِحَصرِ حالِهم في حالِ الأُخوَّةِ؛ مُبالَغةً في تَقْريرِ هذا الحُكمِ بيْنَ المُسلِمينَ، فهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ، أو هو قَصرٌ إضافيٌّ[٣]؛ للرَّدِّ على أصحابِ الحالةِ المفروضةِ الَّذين يَبْغون على غَيرِهم مِن المؤمنينَ[٤].

- وهذه الآيةُ فيها دَلالةٌ قويَّةٌ على تَقرُّرِ وُجوبِ الأخوَّةِ بيْنَ المسلِمينَ؛ لأنَّ شأنَ (إنَّما) أنْ تَجيءَ لخبَرٍ لا يَجهَلُه المخاطَبُ، ولا يَدفَعُ صِحَّتَه، أو لِمَا يُنزَّلُ مَنزِلةَ ذلك[٥].

- والفاءُ في قولِه تعالَى: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ للإيذانِ بأنَّ الأُخوَّةَ الدِّينيَّةَ مُوجِبةٌ للإصلاحِ[٦]؛ فقولُه: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فيه تَفريعُ الأمرِ بالإصلاحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٣).

(٣) تقدَّم تعريفُ القصر الادعائي والإضافي (ص: ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠).

بيْنَ الأخَوَينِ، على تَحقيقِ كَونِ المؤمنينَ إخوةً؛ تأكيدًا لِما دلَّت عليه (إنَّما) مِن التَّعليلِ، فصار الأمرُ بالإصلاحِ الواقعِ ابتِداءً دونَ تعليلٍ في قولِه: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾، وقولِه: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ [الحجرات: ٩]، قد أُردِفَ بالتَّعليلِ، فحصَلَ تقريرُه، ثمَّ عُقِّبَ بالتَّفريعِ فَزادَه تَقْريرًا، وقد حصَلَ مِن هذا النَّظمِ ما يُشبِهُ الدَّعوى، وهي كمَطلوبِ القياسِ، ثمَّ ما يُشبِهُ الاستِدلالَ بالقياسِ، ثمَّ ما يُشبِهُ النَّتيجةَ[١].

- وخَصَّ الاثنَينِ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ دونَ الجمْعِ؛ لأنَّ أقَلَّ مَن يقَعُ منهم الشِّقاقُ اثنانِ، فإذا التُزِمتِ المُصالَحةُ بيْنَ الأقَلِّ كانتْ بيْنَ الأكثَرِ ألزَمَ؛ لأنَّ الفَسادَ والشَّرَّ المُترتِّبَينِ على شِقاقِ الجمْعِ أكثرُ منهما في شِقاقِ الاثنَينِ[٢]. أوْ أُوثِرَت صِيغةُ التَّثنيةِ في قولِه: ﴿أَخَوَيْكُمْ﴾؛ مُراعاةً لِكَونِ الكَلامِ جاريًا على طائفتَينِ مِن المؤمنينَ، فجُعِلَت كلُّ طائفةٍ كالأخِ للأُخرَى[٣].

- قولُه: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ على القِراءةِ بلَفظِ تَثْنيةِ (الأخِ)، أي: بيْنَ الطَّائفةِ والأُخرى؛ مُراعاةً لِجَريانِ الحَديثِ على اقتِتالِ طائفتَينِ، وعلى قِراءةِ ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ﴾ -بتاءٍ فوقيَّةٍ بعدَ الواوِ، على أنَّهُ جمْعُ أخٍ[٤]-؛ فيَكونُ باعتِبارِ كُلِّ فَردٍ مِن الطَّائفتَينِ كالأخِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٥).

(٤) قرأ بها يعقوبُ، وقرأ الباقونَ: ﴿أَخَوَيْكُمْ﴾. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٥).

- وفي قولِه: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ المضمَرِ مُضافًا إلى المأمورينَ بالإصلاحِ؛ للمُبالَغةِ في التَّقريرِ في تأْكيدِ وُجوبِ الإصلاحِ والتَّحضيضِ عليه[١]. أو لَمَّا تقرَّرَ معْنى الأُخوَّةِ بيْنَ المؤمنينَ كَمالَ التَّقرُّرِ، عُدِلَ عن أنْ يقولَ: (فَأَصْلِحُوا بينَ الطَّائفتَينِ)، إلى قولِه: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، فهو وصْفٌ جَديدٌ نشَأَ عن قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾؛ فتعيَّنَ إطلاقُه على الطَّائفتَينِ، فليس هذا مِن وَضْعِ الظَّاهرِ مَوضِعَ الضَّميرِ[٢].

- والمُخاطَبُ بقولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ جميعُ المؤمنينَ؛ فيَشملُ الطَّائفتَينِ: الباغيةَ والمَبْغيَّ عليها، ويَشملُ غيرَهما ممَّن أُمِروا بالإصلاحِ بيْنَهما ومُقاتَلةِ الباغيةِ؛ فتَقْوَى كُلٍّ بالوُقوفِ عندَ ما أمَرَ اللهُ به كُلًّا ممَّا يَخُصُّه، وهذا يُشبِهُ التَّذييلَ[٣].

- وإنَّما اختيرتِ الرَّحمةُ في قولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ لأنَّ الأمْرَ بالتَّقْوى واقعٌ إثرَ تَقريرِ حَقيقةِ الأُخوَّةِ بيْنَ المؤمنينَ، وشأنَ تَعامُلِ الإخوةِ الرَّحمةُ؛ فيَكونُ الجَزاءُ عليها مِن جِنسِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١-١٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَلۡمِزُوٓاْ﴾: أي: تَعِيبوا، واللَّمْزُ: العيبُ[1].

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾: أي: لا تَتَداعَوْا بالألقابِ الَّتي يَسوءُ الشَّخصَ سَماعُها، تَقولُ: نَبَزَه يَنْبِزُه نَبْزًا، أي: لَقَّبَه، والألقابُ جمعُ لَقَبٍ: وهو اسمٌ يُسمَّى به الإنسانُ سِوى اسمِه الأوَّلِ، ويُراعَى فيه المعنى[2].

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾: أي: لا تَتَبَّعُوا عَوْراتِ المسلِمينَ، أو: لا تَبْحثوا عن الأخبارِ، والتَّجسُّسُ: البحثُ، أو: التَّفْتيشُ عن بواطنِ الأُمورِ، وأكثرُ ما يُقالُ ذلك في الشَّرِّ، والجسُّ أصلُه: مَسُّ العِرقِ، وتَعَرُّفُ نبْضِه للحُكمِ به على الصِّحةِ والسَّقَمِ، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٤، ٧٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(جسس): تَعرُّفُ الشَّيءِ بمَسٍّ لطيفٍ[١].

﴿وَلَا يَغْتَب﴾: الغِيبةُ: أنْ يُذكَرَ الإنْسانُ في غَيْبَتِه بسُوءٍ وإنْ كانَ فيه، وأصْلُ (غيب): يدُلُّ على تَستُّرِ الشَّيءِ عن العُيونِ، والغِيبةُ مِن هذا؛ لأنَّها لا تُقالُ إلَّا في غَيْبَةٍ[٢].

﴿شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾: الشُّعُوبُ: جَمعُ شَعْبٍ، وهو الحَيُّ العَظيمُ، أو: رُؤوسُ القبائِلِ؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّ القبائِلَ تتشعَّبُ منها، أو سُمِّيَ الشَّعبُ بذلك؛ للاجتِماعِ والائتِلافِ. ولـ (شعب) أصْلانِ مختَلِفانِ: أحَدُهما يدُلُّ على الافتِراقِ، والآخَرُ على الاجتِماعِ.

والقبائِلُ: جَمعُ قَبيلةٍ، وهي دونَ الشَّعبِ، والقَبيلةُ: بنو أبٍ واحِدٍ، وأصلُ (قبل): يدُلُّ على مُواجَهةِ شَيءٍ لشَيءٍ؛ وسُمِّيت القبائِلُ بذلك لإقبالِ كُلِّ واحِدةٍ منها على الأُخرى[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يَنْهى اللهُ عِبادَه المؤمنينَ أنْ يَسخَرَ قومٌ منهم مِن قومٍ آخَرينَ مؤمنينَ؛ عَسى أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤١٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٠) و(٥/ ٥١، ٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٦٥).

يكونوا خَيرًا منهم، وأعظَمَ قدْرًا، ولا يَسخَرْ كذلك نِساءٌ مِن نِساءٍ؛ عَسى أنْ يكُنَّ خيرًا منهنَّ، وأعظَمَ قدْرًا، ويَنْهاهم أنْ يَطعُنَ بعضُهم بعضًا ويَعيبَه، ويَنهاهم أنْ يَتنادَوا بالألقابِ القَبيحةِ الَّتي يَكرَهُها المُنادَى بها، بِئسَ الاسمُ الَّذي تَنالونَه اسمُ الفسوقِ بعْدَ اتِّصافِكم بالإيمانِ، ومَن لم يَتُبْ مِن ذلك فأولئك هم الظَّالِمون.

ويأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ أنْ يَجتنِبوا كثيرًا مِن الظَّنِّ؛ وذلك لأنَّ بعضَ الظَّنِّ ذنْبٌ وإثْمٌ، ويَنهاهم عن التَّجسُّسِ، وعن غِيبةِ بعضِهم بعضًا، ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى تشبيهًا يُنفِّرُ مِن الغِيبةِ أكمَلَ تنفيرٍ، فيقولُ: أيُحِبُّ أحدُكم أنْ يَأكُلَ لَحْمَ أخيهِ بعْدَ مَوتِه؟! فإذا كَرِهْتُم ذلك فعلَيكم أنْ تَكرَهوا غِيبةَ المسلمِ كذلك، ثمَّ يأمُرُهم أنْ يتَّقُوا اللهَ؛ إنَّ اللهَ توَّابٌ رَحيمٌ.

ثمَّ يوجِّهُ تعالى الخِطابَ إلى النَّاسِ كافَّةً، ويخبِرُهم أنَّه بدَأَ خلْقَهم مِن ذكَرٍ -هو آدَمُ- وأُنثَى -هي حوَّاءُ-، وجعَلَهم شُعوبًا وقَبائلَ مِن أجْلِ أنْ يَحصُلَ بيْنَهم التَّعارُفُ، وأخبَرَهم أنَّ أكْرَمَهم عِندَه الأتْقَى، إنَّه عليمٌ خَبيرٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا اقتَضَت الأُخُوَّةُ أنْ تَحسُنَ المعامَلةُ بيْنَ الأخَوينِ، كان ما تقرَّرَ مِن إيجابِ مُعامَلةِ الأخوةِ بيْنَ المسلمينَ يَقْتضي حُسْنَ المعامَلةِ بيْنَ آحادِهم، فجاءتْ هذه الآياتُ مُنبِّهةً على أُمورٍ مِن حُسْنِ المعامَلةِ قد تقَعُ الغَفلةُ عن مُراعاتِها لكَثرةِ

تَفشِّيها في الجاهليَّةِ لهذه المُناسَبةِ[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا يَستهزِئْ قَومٌ مؤمِنونَ مِن قَومٍ آخَرينَ مُؤمنينَ، ويَستخِفُّوا بهم؛ عَسى أنْ يكونَ المُستهزَأُ بهم خَيرًا مِن الهازِئينَ، وأعظَمَ قدْرًا منهم[٢].

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((المسلِمُ أخو المسلِمِ، لا يَظلِمُه، ولا يَخذُلُه، ولا يَحقِرُه))[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٤، ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٢).
قال ابن جرير: (واختَلَف أهلُ التَّأويلِ في السُّخْريةِ الَّتي نَهَى اللهُ المؤمنينَ عنها في هذه الآيةِ؛ فقال بعضُهم: هي سُخريةُ الغنيِّ مِن الفقيرِ، نُهِيَ أن يُسخَرَ مِن الفقيرِ لِفَقْرِه... وقال آخَرونَ: بل ذلك نَهْيٌ مِن اللهِ مَن سَتَر عليه مِنْ أهلِ الإيمانِ أنْ يَسْخَرَ مِمَّنْ كُشِف في الدُّنيا سِترُه منهم... والصَّوابُ مِن القولِ في ذلك عندي أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ عَمَّ بنَهْيِه المؤمنينَ أنْ يَسْخَرَ بعضُهم مِن بعضٍ جميعَ معاني السُّخريةِ، فلا يَحِلُّ لمؤمنٍ أنْ يَسخَرَ مِن مؤمِنٍ؛ لا لِفَقْرِه، ولا لِذَنْبٍ رَكِبه، ولا لغيرِ ذلِكَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٤-٣٦٦).
وقال ابنُ عثيمين: (والسُّخريةُ قد تكونُ في هَيئتِه، وقد يكونُ كذلك في خِلْقَتِه؛ قِصَرًا أو طولًا، أو ضخامةً أو نَحافةً، أو ما أشْبَهَ ذلك، ويكونُ كذلك سخريةً بكلامِه، وتقليدًا له استِهزاءً وسُخريةً، ويكونُ كذلك في المُعامَلةِ، يَسخَرُ به في مُعامَلتِه النَّاسَ، وكذلك بالمِشْيَةِ، وكلُّ ما كان فيه سُخريةٌ مِن أخيك فإنَّه داخلٌ في هذه الآيةِ). ((شرح رياض الصالحين)) (٦/ ٢٥٧) بتصرف.
وقال الغزالي: (ومعنَى السُّخريةِ الاستهانةُ والتَّحقيرُ، والتَّنبيهُ على العيوبِ والنَّقائصِ على وَجْهٍ يُضْحَكُ منه، وقد يَكونُ ذلك بالمُحاكاةِ في الفعلِ والقولِ، وقد يكونُ بالإشارةِ والإيماءِ، وإذا كان بحضرةِ المُستهزَأِ به لم يُسَمَّ ذلك غِيبةً، وفيه معنى الغِيبةِ). ((إحياء علوم الدين)) (٣/ ١٣١).

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٤).

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

أي: ولا يَستهزِئْ نِساءٌ مُؤمناتٌ مِن نِساءٍ أُخْرياتٍ مُؤمناتٍ، ويَسْتخففْنَ بهنَّ؛ عَسى أنْ يكونَ المسْتهزَأُ بهنَّ خَيرًا مِن المُسْتهزِئاتِ، وأعظَمَ قدْرًا منهنَّ[(١)].

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

أي: ولا يَطعُنْ بعضُكم على بعضٍ، فيَعِيبَه ويَقدَحَ فيه[(٢)].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٨).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾... قال ابنُ عبَّاسٍ والمفسِّرونَ كلُّهم: لا يَطْعنْ بعضُكم على بعضٍ. والمعنى: لا تَلمِزوا إخوانَكم الَّذين هم كأنفُسِكم). ((البسيط)) (٢٠/ ٣٥٦).

وقال الرازي: (قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّ عيبَ الأخِ عائدٌ إلى الأخِ، فإذا عاب عائبٌ نفْسًا فكأنَّما عاب نفْسَه. وثانيهما: هو أنَّه إذا عابه وهو لا يَخلو مِن عَيبٍ يُحارِبُه المَعيبُ، فيَعيبُه؛ فيَكونُ هو بعَيبِه حاملًا للغَيرِ على عَيبِه، وكأنَّه هو العائبُ نفْسُه ... ويحتمِلُ وجهًا آخَرَ ثالثًا، وهو أن تقولَ: لا تَعيبوا أنفُسَكم، أي: كلَّ واحدٍ منكم، فإنَّكم إن فَعَلْتُم فقد عِبْتُم أنفُسَكم، أي: كلُّ واحدٍ عاب كلَّ واحدٍ، فصِرتُم عائبينَ مِن وجْهٍ، مَعيبينَ مِن وجهٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٩).

وقال ابن عاشور: (﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾. اللَّمزُ: ذِكرُ ما يَعُدُّه الذَّاكرُ عَيبًا لأحدٍ مُواجَهةً، فهو المباشَرةُ بالمكروهِ؛ فإن كان بحقٍّ فهو وقاحةٌ واعتداءٌ، وإن كان باطلًا فهو وقاحةٌ وكَذِبٌ، ... ويكونُ بحالةٍ بيْنَ الإشارةِ والكلامِ بتحريكِ الشَّفَتَينِ بكلامٍ خَفيٍّ يَعرِفُ منه المواجَهُ به أنَّه يُذَمُّ أو يُتَوَعَّدُ، أو يُتنقَّصُ باحتِمالاتٍ كثيرةٍ، وهو غيرُ النَّبْزِ، وغيرُ الغِيبةِ. وللمُفَسِّرينَ وكُتبِ اللُّغةِ اضْطِرابٌ في شرحِ معنَى اللَّمزِ، وهذا الَّذي ذكَرْتُه هو المَنخولُ مِن ذلك. ومعنَى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ لا يَلمِزْ بعضُكم بعضًا، فنُزِّل البعضُ المَلْمُوزُ نفْسًا لِلَامِزِه؛ لِتَقَرُّرِ معنَى الأُخُوَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٨).

فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[التوبة: ٧٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴾[الهمزة: ١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((مَن قال في مُؤمنٍ ما ليس فيه أسكَنَه اللهُ رَدْغةَ الخَبالِ[١] حتَّى يَخرُجَ ممَّا قال))[٢].

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ ﴾.

أي: ولا يُنادِ بعضُكم بعضًا -أيُّها المؤمنونَ- بالأسماءِ والصِّفاتِ القَبيحةِ الَّتي يَكرَهُها المنادَى بها[٣].

سَببُ النُّزولِ:

عن أبي جَبِيرةَ بنِ الضَّحَّاكِ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((فِينا نزَلَت هذه

---

(١) رَدْغةُ الخَبالِ: أي: عُصارةُ أهلِ النَّارِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢١٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٩٧)، وأحمد (٥٣٨٥) مطوَّلًا.

صحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٧/ ٢٠٤)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٩/ ٢٨٣)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٥٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٧، ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٨-٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٨، ٢٤٩).

قال النووي: (اتَّفَقَ العُلَماءُ على تحريم تلقيبِ الإنسانِ بما يَكرهُ، سواءٌ كان صِفةً له؛ كالأعمَش، والأجلَح، والأعمى، والأعرَج، والأحوَل، والأبرَص، والأشَجِّ، والأصفر، والأحدَب، والأصَمِّ، والأزرَق، والأفطَس، والأشتَر، والأثرَم، والأقطَع، والزَّمِن، والمُقعَد، والأشَلِّ؛ أو كان صِفةً لأبيه أو لأُمِّه، أو غيرَ ذلك ممَّا يكرَهُ، واتَّفَقوا على جوازِ ذِكْره بذلك على جِهةِ التَّعريفِ لِمَن لا يَعرِفُه إلَّا بذلك). ((الأذكار)) (ص: ٤٧٥). ويُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ١٣٦).

الآيةُ في بني سَلِمةَ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾؛ قال: قدِمَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وليس مِنَّا رجُلٌ إلَّا وله اسمانِ أو ثلاثةٌ، فجعَلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: يا فُلانُ، فيقولونَ: مَهْ يا رسولَ اللهِ؛ إنَّه يَغضَبُ مِن هذا الاسمِ! فأُنزِلَت هذه الآيةُ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾))[1].

﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾.

أي: بِئسَ الاسمُ الَّذي تَنالونَه اسمُ الفسوقِ بعْدَ اتِّصافِكم بالإيمانِ[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٦٢) واللفظ له، والترمذي (٣٢٦٨)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٥١٦)، وابن ماجه (٣٧٤١)، وأحمد (١٨٢٨٨).

قال الترمذي: (حسنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٥٧٠٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (٣٧٢٤) وقال: (على شرطِ مُسلمٍ)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٩٦٢)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٩٦٢): (إسنادُه صحيحٌ إنْ صحَّت صُحبةُ أبي جَبيرةَ بنِ الضَّحَّاكِ، وإلَّا فمُرسَلٌ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٢)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١).

قيل: المرادُ: أنَّ مَن فعَل ما نهَيْتُ عنه مِن السُّخريةِ، واللَّمزِ والنَّبزِ، فهو فاسقٌ؛ فلا تَفعلوا ذلك فتَستَحِقُّوا إنْ فَعَلْتُموه أن تُسَمَّوا فُسَّاقًا، وبِئسَ ذلك بعدَ الإيمانِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والنسفي، وابن تيميَّة، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٨٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٠٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٥٤)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤١).

وقيل: المرادُ: بِئسَ الاسمُ هذا، أن يُسَمِّيَه باسمِ الكُفرِ بعدَ الإيمانِ، يقولُ له: يا يهوديُّ، ويا نصرانيُّ! وممَّن اختار هذا القولَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والقرطبي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧٥).

وزاد الخازنُ أن يُقالَ له أيضًا: يا فاسِقُ بعدَ ما تاب، وزاد القرطبيُّ أن يُسَمَّى زانيًا بعدَ توبتِه. =

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: ومَن لم يَتُبْ مِن السُّخريةِ بإخوانِه المؤمنينَ، أو لَمْزِهم، أو مُنابزتِهم بالألقابِ؛ فإنَّهم هم الظَّالِمونَ لأنفُسِهم بتَعريضِها لِعِقابِ اللهِ، والظَّالِمونَ لغيرِهم بالاعتداءِ عليهم[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ في الجملةِ: الحسَنُ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥٦٤).

قال الزَّجَّاجُ: (ويحتملُ أن يكونَ في كلِّ لقَبٍ يَكرَهُه الإنسانُ؛ لأنَّه إنَّما يجبُ أن يُخاطِبَ المؤمنُ أخاه بأحَبِّ الأسماءِ إليه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٣٦).

وقال ابن كثير: (بئسَ الصِّفةُ والاسمُ الفُسُوقُ، وهو التَّنابُزُ بالألقابِ، كما كان أهلُ الجاهِليَّةِ يَتَناعَتونَ، بَعْدَما دخَلْتُم في الإسلامِ وعَقَلْتُموه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٣، ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ومَن لم يَتُبْ مِن نَبْزِه أخاه بما نهى اللهُ عنه؛ مِن نَبزِه بالألقابِ، أو لَمْزِه إيَّاه، أو بسخريتِه منه- فأولئك هم الَّذين ظلَموا أنفُسَهم بما كَسَّبوها عِقابَ الله، بِرُكوبِهم ما نَهاهم عنه). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٣).

وقال العُلَيمي: (﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوَضعِ العِصيانِ مَوضِعَ الطَّاعةِ). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٧٠).

وقال الشوكاني: (﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لارتكابِهم ما نَهَى اللهُ عنه، وامْتِناعِهم مِن التَّوبةِ، فظَلَموا مَن لَقَّبوه، وظُلْمِهم أنفسَهم بما لزِمها مِن الإثْمِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧٦).

وقال ابن عاشور: (فمَن لم يَتُبْ فهو ظالمٌ: لأنَّه ظلَمَ النَّاسَ بالاعتِداءِ عليهم، وظلَمَ نفْسَه بأنْ رَضيَ لها عِقابَ الآخرةِ معَ التَّمكُّنِ مِن الإقلاعِ عن ذلك؛ فكان ظُلْمُه شديدًا جدًّا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٠).

﴿تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان الإنسانُ رُبَّما دعا صاحِبَه بلقَبٍ له سيِّئٍ، غيرَ قاصدٍ به عَيْبَه، أو فعَلَ فِعلًا يَتنزَّلُ على الهُزْءِ، غيرَ قاصدٍ به الهُزْءَ- نَهَى تعالى عن المُبادَرةِ إلى الظَّنِّ مِن غيرِ تَثبُّتٍ؛ لأنَّ ذلك مِن وضْعِ الأشياءِ في غيرِ مَواضِعِها، الَّذي هو معْنى الظُّلمِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان الظَّنُّ هو السَّببَ فيما تقدَّم وعليه تُبنَى القبائحُ، ومنه يظهرُ العدوُّ المُكاشِحُ، والقائلُ إذا أوقف أمورَه على اليقينِ فقلَّما يتيقَّنُ في أحدٍ عَيبًا فيَلمِزُه به؛ فإنَّ الفعلَ في الصُّورةِ قد يكونُ قبيحًا وفي نفْسِ الأمرِ لا يكونُ كذلك؛ لِجَوازِ أن يكونَ فاعلُه ساهيًا، أو يكونَ الرَّائي مخطئًا[2]، لذا قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَقرَبوا كثيرًا مِن الظَّنِّ، فتتَّهِموا النَّاسَ بالسُّوءِ ظنًّا منكم بلا بُرهانٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٧).

قال ابن جرير في معنَى الآيةِ: (لا تَقرَبوا كثيرًا مِن الظَّنِّ بالمؤمنينَ، وذلك أن تَظُنُّوا بهم سوءًا؛ فإنَّ الظَّانَّ غيرُ مُحِقٍّ.

وقال جلَّ ثَناؤُه: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ولم يقلْ: اجتَنِبوا الظَّنَّ كلَّه؛ إذ كان قد أَذِنَ للمؤمنينَ أن يظُنَّ بعضُهم ببعضٍ الخَيرَ، فقال: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ [النور: ١٢]، فأَذِنَ اللهُ جلَّ ثَناؤُه للمؤمنينَ أن يظُنَّ بعضُهم ببعضٍ الخَيرَ، وأن يَقولوه، وإن لم يَكونوا مِن قِيلِه فيهم على يقينٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٣، ٣٧٤). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحديثِ، ولا تَحَسَّسوا، ولا تَجسَّسوا[١]، ولا تَنافَسوا، ولا تَحاسَدوا، ولا تَباغَضوا، ولا تَدابَروا، وكُونوا -عِبادَ اللهِ- إخوانًا))[٢].

﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾.

أي: إنَّ ظنَّ المؤمنِ بغَيرِه السُّوءَ مِن غيرِ دليلٍ ذنْبٌ[٣].

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾.

= وقال ابن عطية: (حكَم على بعضِه بأنه إثْمٌ؛ إذ بعضُه ليس بإثم، ولا يَلزَمُ اجتِنابُه، وهو ظنُّ الخَيرِ بالنَّاسِ، وحُسْنُه بالله تعالى، والمَظنونُ مِن شَهاداتِ الشُّهودِ، والمظنونُ به مِن أهلِ الشَّرِّ؛ فإنَّ سقوطَ عدالتِه وغير ذلك هو مِن حُكمِ الظَّنِّ به. وظنُّ الخَيرِ بالمؤمنِ محمودٌ. والظَّنُّ المَنهيُّ عنه: هو أنَّ يظُنَّ سوءًا برجُلٍ ظاهِرُه الصَّلاحُ، بل الواجبُ أنْ يُزيلَ الظَّنَّ وحُكمَه، ويَتأوَّلَ الخيرَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥١).

وقال ابن عطيَّةَ أيضًا: (هذه الآياتُ والَّتي بعْدَها نزلتْ في خُلقِ أهلِ الجاهليَّةِ؛ وذلك لأنَّهم كانوا يجرونَ مع شهَواتِ نُفوسِهم، لم يُقَوِّمْهم أمْرٌ مِن الله ولا نهْيٌ، فكان الرَّجُلُ يَسْطو ويَهمِزُ ويَلمِزُ ويَنبِزُ بالألقابِ، ويَظُنُّ الظُّنونَ فيَتكلَّمُ بها، ويَغتابُ، ويَفتخِرُ بنسَبِه، إلى غيرِ ذلك مِن أخلاقِ النُّفوسِ البطَّالةِ؛ فنزلتْ هذه الآيةُ تأديبًا لأمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وذكَر بعضُ النَّاسِ لهذه الآياتِ أسبابًا... والقويُّ عندي أنَّ هذه الآياتِ نزلتْ تقويمًا [لسائرِ الخَلقِ] كسائرِ أمرِ الشَّرعِ، ولو تُتبِّعَتِ الأسبابُ لَكانت أكثرَ مِن أن تُحصى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٩).

(١) قال النَّوَوي: (قال بعضُ العلماءِ: التَّحسُّسُ بالحاءِ: الاستِماعُ لِحَديثِ القَومِ، وبالجيمِ: البحثُ عن العَوْراتِ. وقيل: بالجيمِ: التَّفتيشُ عن بَواطِنِ الأمورِ، وأكثَرُ ما يُقالُ في الشَّرِّ، والجاسوسُ: صاحِبُ سِرِّ الشَّرِّ، والنَّاموسُ: صاحبُ سرِّ الخَيرِ. وقيل: بالجيم: أن تَطلُبَه لِغَيرِك، وبالحاءِ: أن تَطلُبَه لِنَفْسِك. قاله ثعلبٌ. وقيل: هما بمعنًى، وهو طلَبُ معرفةِ الأخبارِ الغائبةِ والأحوالِ). ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١١٩).

(٢) رواه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلمٌ (٢٥٦٣) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥١، ٢٥٢).

مُناسَبتُها لِمَا قبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بصَونِ عِرضِ المسلِمِ غايةَ الصِّيانةِ؛ فنهى عن الخَوضِ فيه بالظَّنِّ؛ فإنْ قال الظَّانُّ: أبحَثُ لِأتحقَّقَ، قيل له[1]:

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾.

أي: ولا تتَّبِعوا -أيُّها المؤمنونَ- عُيوبَ النَّاسِ وتُنَقِّبوا عنها، بلِ اتْرُكوهم، وعامِلوهم بحسَبِ ظَواهِرِهم[2].

عن ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((صَعِدَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المِنبرَ، فنادَى بصَوتٍ رفيعٍ، فقال: يا مَعْشَرَ مَنْ أسلَمَ بلِسانِه، ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلْبِه، لا تُؤذوا المسلمينَ، ولا تُعَيِّروهم، ولا تتَّبِعوا عَوْراتِهم؛ فإنَّه مَن تَتبَّعَ عَورةَ أخيه المسلِمِ تَتبَّعَ اللهُ عَوْرتَه، ومَن تَتبَّعَ اللهُ عَورتَه يَفضَحْه ولو في جَوفِ رَحْلِه))[3].

وعن مُعاويةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّك إنِ اتَّبَعْت عَوْراتِ النَّاسِ أفسَدْتَهم، أو كِدْتَ أنْ تُفسِدَهم))، فقال أبو الدَّرْداءِ: (كلمةٌ سمِعَها مُعاويةُ مِن رسولِ اللهِ نفَعَه اللهُ تعالى بها)[4].

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٥٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٣٢) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٥٧٦٣).

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ). وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وصحَّح إسنادَه الزَّيْلَعيُّ في ((تخريج الكشاف)) (٣/ ٣٤٤)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٠٣٢): (حسَنٌ صحيحٌ). وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٥٧٦٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٨٨) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٥٧٦٠)، والطَّبَرانيُّ (١٩/ ٣٧٩) (٨٩٠). =

﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾؛ فإنْ قال الظَّانُّ: تحقَّقْتُ مِن غيرِ تجسُّسٍ، قيل له[١]:

﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾.

أي: ولا يَذكُرْ -أيُّها المؤمنونَ- بعضُكم بعضًا في حالِ غَيبتِه بما يَكرَهُ سَماعَه مِن عَيبٍ وقدْحٍ فيه[٢].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أتَدْرون ما الغِيبةُ؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: ذِكرُك أخاكَ بما يَكرَهُ. قِيل: أفرأيْتَ إنْ كان في أخي ما أقولُ؟ قال: إنْ كان فيه ما تقولُ فقدِ اغتَبْتَه، وإنْ لم يكُنْ فيه فقدْ بَهَتَّه))[٣].

= صحَّحه ابنُ حِبان، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٨٨)، وصحَّح إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٢/ ٢٥٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٨٨٨).

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٤، ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٥٠).

قال النووي: (الغِيبةُ: ذِكْرُك الإنسانَ بما يَكرَهُ؛ سواءٌ ذكَرْتَه بلَفظِك، أو في كِتابِك، أو رمزتَ أو أشرتَ إليه بعَينِك أو يدِك أو رأسِك. وضابِطُه: كلُّ ما أفهَمْتَ به غيرَك نُقْصانَ مُسلِمٍ فهو غِيبةٌ مُحرَّمةٌ). ((الأذكار)) (ص: ٣٣٨).

وقال ابنُ عثيمين: (سواءٌ كان ذلك في خِلْقتِه، أو خُلُقِه، أو في أحوالِه، أو في عَقلِه، أو في ذَكائِه، أو في غيرِ ذلك). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٥٢).

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٩).

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ دِماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حَرامٌ، كحُرمةِ يَومِكم هذا، في شَهرِكم هذا، ألَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ منكم الغائبَ))(١).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بحَسْبِ امْرِئٍ مِن الشَّرِّ أنْ يَحقِرَ أخاه المُسلِمَ، كلُّ المسلمِ على المسلمِ حَرامٌ: دَمُه، ومالُه، وعِرضُه))(٢).

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((قلْتُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: حَسْبُكَ مِن صَفيَّةَ كذا وكذا -تَعني: قصيرةً-، فقال: لَقد قلْتِ كلمةً لو مُزِجَت بماءِ البحْرِ لَمَزجَتْه!))(٣).

وعن أبي بَرْزةَ الأسْلَميِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا مَعشرَ مَن آمَنَ بلِسانِه، ولم يَدخُلِ الإيمانُ قلْبَه، لا تَغتابُوا المسلمين، ولا تتَّبِعوا عَوْراتِهم؛ فإنَّه مَنِ اتَّبَعَ عَوْراتِهم يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرتَه، ومَن يتَّبِعِ اللهُ عَورتَه يَفضَحْه في بَيتِه))(٤).

---

(١) رواه البخاري (١٠٥) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٩).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) أخرجه أبو داودَ (٤٨٧٥) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (٢٥٠٢)، وأحمدُ (٢٥٥٦٠).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١١٨)، والشوكاني في ((الفتح الرباني)) (١١/ ٥٥٩٣)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٧٥)، وصحَّح إسنادَه على شرط مسلمٍ شُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٢/ ٣٦١).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٨٠) واللَّفظُ له، وأحمد (١٩٧٧٦).

جوَّد إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٢/ ٢٥٠)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٨٠): (حسَنٌ صحيحٌ). وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٨٨٠).

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

أي: أيُحِبُّ أحدُكم -أيُّها المؤمنونَ- أنْ يَأكُلَ لَحمَ أخيهِ بعْدَ مَماتِه؟ فإنْ كَرِهْتُم ذلك واشْمَأْزَزتُم منه -لِحُرْمتِه وبَشاعتِه- فاكْرَهوا كذلك غِيبةَ المسلمِ، وتَقذَّروا منها[1].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

أي: واجْعَلوا بيْنَكم -أيُّها المؤمنونَ- وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِهِ وِقايةً بامتِثالِ أوامرِه، واجتنابِ نَواهِيه، ومِن ذلك تَجنُّبُ ظَنِّ السُّوءِ بالمؤمنِ، وتَتبُّعِ عَوْراتِه، والتَّجسُّسِ عمَّا خَفِيَ مِن أمْرِه، واغتيابِه بما يَكرَهُه[2].

﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُوفِّقُ عِبادَه للتَّوبةِ ويَقبَلُها منهم، رَحيمٌ بهم فيَدْعوهم إلى ما يَنفَعُهم، ويُغدِقُ عليهم نِعَمَه، ولا يُؤاخِذُهم بذُنوبِهم بعْدَ تَوبتِهم منها[3].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٥).

قال القرطبي: (مثَّل اللهُ الغِيبةَ بأكلِ المَيتةِ؛ لأنَّ المَيِّتَ لا يَعلَمُ بأكْلِ لحْمِه، كما أنَّ الحيَّ لا يَعلَمُ بغِيبةِ مَن اغتابَه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانه الأُخُوَّةَ الدِّينيَّةَ؛ تَذكيرًا بالعاطِفِ الموجِبِ للإكرامِ، المانِعِ مِن الانتِقامِ، ونَهَى عن أُمورٍ يَجُرُّ إليها الإعجابُ بالنَّفْسِ مِن جِهةِ التَّعظيمِ بالآباءِ، والعَراقةِ في النَّسبِ العالي- أسقَطَ ذلك مُبيِّنًا أنْ لا نسَبَ إلَّا ما يُثمِرُه الإيمانُ الَّذي بدَأَ به مِن التَّقْوى[١].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ بأنْ يكونوا إخْوةً، وأنْ يُصلِحوا بيْنَ الطَّوائفِ المُتقاتِلةِ، ونَهاهم عمَّا يَثْلِمُ الأُخوَّةَ وما يُغَطِّي على نُورِها في نُفوسِهم؛ مِن السُّخريةِ، واللَّمْزِ، والتَّنابُزِ، والظَّنِّ السُّوءِ، والتَّجسُّسِ، والغِيبةِ -ذكَّرَهم بأصْلِ الأُخوَّةِ في الأنسابِ الَّتي أكَّدَتْها أُخوَّةُ الإسلامِ ووَحدةُ الاعتِقادِ؛ لِيَكونَ ذلك التَّذكيرُ عَونًا على تَبصُّرِهم في حالِهم[٢].

وأيضًا فهو انتقالٌ مِن واجباتِ المعامَلاتِ، إلى ما يجِبُ أنْ يُراعِيَه المرْءُ في نفْسِه[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّا بدَأْنا خلْقَكم مِن أبيكم آدَمَ وأُمِّكم حوَّاءَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٧).

قال ابنُ عطيَّة: (يَحتَمِلُ أن يُريدَ آدمَ وحوَّاءَ، فكأنَّه قال: إنَّا خلَقْنا جميعَكم مِن آدمَ وحوَّاءَ، ويَحتمِلُ أن يُريدَ بالذَّكَرِ والأُنثَى اسمَ الجنسِ، فكأنَّه قال: إنَّا خلَقْنا كلَّ واحدٍ منكم مِن ماءِ ذكَرٍ وماءِ أُنثى، وقصْدُ هذه الآيةِ التَّسويةُ بيْنَ النَّاسِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٢). =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾.

أي: وجعَلْناكم -أيُّها النَّاسُ- راجِعينَ في أنسابِكم إلى شُعوبٍ وقَبائلَ؛ مِن أجْلِ أنْ يَحصُلَ التَّعارُفُ بيْنَكم بالانتِسابِ إليها، لا مِن أجْلِ أنْ يَفخَرَ بها بعضُكم على بعضٍ[1].

= وممَّن ذهَب إلى الاحتمالِ الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، وابنُ كثير، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٧).

وممَّن قال بالاحتمالِ الثَّاني: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٢).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٣، ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٧).

قال السعدي: (لو استقلَّ كلُّ واحدٍ منهم بنفْسِه لم يحصُلْ بذلك التَّعارُفُ الَّذي يترتَّبُ عليه التَّناصُرُ والتَّعاوُنُ، والتَّوارُثُ، والقيامُ بحُقوقِ الأقارِبِ، ولكِنَّ اللهَ جعَلهم شُعوبًا وقبائلَ؛ لأجْلِ أن تَحصُلَ هذه الأمورُ وغَيرُها مِمَّا يتوقَّفُ على التَّعارُفِ، ولُحوقِ الأنسابِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

وقال القَلْقَشَنْدي: (قد عدَّ أهلُ اللُّغةِ طبَقاتِ الأنسابِ ستَّ طبَقاتٍ:

الطَّبقةُ الأولى: الشَّعبُ، بفتحِ العَينِ، وهو النَّسبُ الأبعَدُ؛ كعَدْنانَ مثلًا...

الطَّبقةُ الثَّانيةُ: القَبيلةُ، وهي ما انقسَمَ فيه الشَّعبُ؛ كرَبيعةَ ومُضَرَ...

الطَّبقةُ الثَّالثةُ: العِمارةُ، بكسرِ العَينِ المُهمَلةِ، وهي ما انقسَم فيه أنسابُ القَبيلةِ؛ كقُرَيشٍ وكِنانةَ. وتُجمَعُ على عِماراتٍ، وعَمائرَ. =

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

أي: إنَّ أفضَلَكم وأشرَفَكم -أيُّها النَّاسُ- عندَ اللهِ تعالى أكثَرُكم تَقْوى له بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهيهِ، لا أشرَفُكم نَسَبًا، ولا أعظَمُكم عَشيرةً[1].

عن أبي هريرةَ رضِي الله عنه قال: ((سُئِل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ النَّاسِ أكْرَمُ؟ قال: أكرمُهم عندَ الله أتْقاهم))[2].

وعن أبي هريرةَ أيضًا، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الله لا يَنظرُ إلى صُورِكم وأموالِكم، ولكنْ ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم))[3].

وعن أبي هُرَيرةَ أيضًا، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لَيَدَعَنَّ رِجالٌ

= الطَّبقةُ الرَّابعةُ: البَطنُ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ العِمارةِ؛ كبَني عبدِ مَنافٍ، وبَني مَخزومٍ. ويُجمعُ: على بُطونٍ، وأبْطُنٍ.

الطَّبقةُ الخامِسةُ: الفَخِذُ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ البَطنِ؛ كبَني هاشمٍ، وبني أُمَيَّةَ. وتُجمعُ على: أفخاذٍ.

الطَّبقةُ السَّادسةُ: الفَصيلةُ، بالصَّادِ المُهمَلةِ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ الفَخِذِ؛ كبَني العبَّاسِ... وبالجُملةِ فالفَخِذُ يَجمَعُ الفصائلَ، والبطنُ يجمعُ الأفخاذَ، والعِمارةُ يجمعُ البُطونَ، والقبيلةُ تَجمعُ العَمائرَ، والشَّعبُ يجمعُ القبائلَ... وزاد بعضُهم العَشيرةَ قبْلَ الفَصيلةِ. ((قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان)) (ص: ١٤). ويُنظر: ((الأحكام السلطانية)) للماوَرْدي (ص: ٣٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٤).

وقال الشنقيطي: (ولم يُذكَرْ مِن هذه السِّتِّ في القرآنِ إلَّا ثلاثٌ: الشُّعوبُ والقَبائلُ كما في هذه الآيةِ، والفَصيلةُ في المَعارِجِ، في قولِه: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾ [المعارج: ١٣]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

فَخْرَهم بأقوامٍ؛ إنَّما هم فَحْمٌ مِن فحْم جهنَّمَ، أو لَيَكونُنَّ أهْوَنَ على اللهِ مِن الجِعْلانِ[١] الَّتي تَدفَعُ بأنْفِها النَّتْنَ))، وقال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أذهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ[٢] الجاهليَّةِ وفَخْرَها بالآباءِ؛ مُؤمنٌ تقِيٌّ، وفاجرٌ شقِيٌّ، النَّاسُ بنو آدَمَ، وآدَمُ مِن تُرابٍ))[٣].

وعن سَهلِ بنِ سعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((مَرَّ رجُلٌ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ما تَقولون في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إنْ خطَبَ أنْ يُنكَحَ، وإنْ شَفَع أنْ يُشَفَّعَ، وإنْ قال أنْ يُستمَعَ. قال: ثمَّ سكَتَ، فمرَّ رجُلٌ مِن فُقراءِ المسلمينَ، فقال: ما تَقولونَ في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إنْ خطَبَ ألَّا يُنكَحَ، وإنْ شفَعَ ألَّا يُشَفَّعَ، وإنْ قال ألَّا يُستمَعَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا خَيرٌ مِن مِلْءِ الأرضِ مِثلَ هذا))[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو عِلمٍ تامٍّ بعِبادِه، ذو خِبرةٍ كاملةٍ ببَواطِنِهم وسَرائِرِهم، لا يَخْفَى عليه شَيءٌ مِن أُمورِهم الظَّاهرةِ والباطِنةِ[٥].

---

(١) الجِعْلانُ: واحِدُه جُعَلٌ، وهي دُوَيْبَّةٌ سَوداءُ تكونُ في المواضِعِ النَّدِيَّة يُقالُ لها: الخُنفُساءُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٣٠٧٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٨/ ٢١٠).

(٢) عُبِّيَّةَ الجاهِليَّةِ: أي: نَخْوَتَها وكِبْرَها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٣٠٧٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، وأحمد (١٠٧٨١) واللَّفظُ له.
قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ)، وصحَّح الحديثَ ابنُ تيميَّةَ في ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٢٤٧)، وحسَّنَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥١١٦)، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥١١٦)، وحسَّن إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٦٢).

(٤) رواه البخاري (٥٠٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٥٩).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ وتَوجيهُ الخِطابِ للمؤمنِ يدُلُّ على أنَّ ما يُتلى عليه فهو مِن مُقْتضياتِ الإيمانِ، وأنَّ فَقْدَه ومُخالَفتَه نقْصٌ في الإيمانِ[1].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ هذا مِن حُقوقِ المؤمنينَ بَعضِهم على بعضٍ؛ ألَّا يَسخَرَ قومٌ مِن قومٍ بكلِّ كلامٍ، وقولٍ، وفِعلٍ دالٍّ على تَحقيرِ الأخِ المسلمِ؛ فإنَّ ذلك حَرامٌ لا يَجوزُ، وهو دالٌّ على إعجابِ السَّاخرِ بنفْسِه، وعَسَى أنْ يكونَ المسخورُ به خَيرًا مِن السَّاخِرِ، كما هو الغالِبُ والواقعُ؛ فإنَّ السُّخريةَ لا تقَعُ إلَّا مِن قلْبٍ مُمتلِئٍ مِن مَساوي الأخلاقِ، مُتحَلٍّ بكلِّ خُلقٍ ذَميمٍ؛ ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بحَسْبِ امْرِئٍ مِن الشَّرِّ أنْ يَحقِرَ أخاهُ المسلمَ))[2]، ومِنْ أقبَحِ القبيحِ استِخفافُ الدَّنيءِ الأرذَلِ بالأكرَمِ الأفضَلِ، واسْتِهْزاؤُه به[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ فيه وُجوبُ أنْ يَعتقِدَ كلُّ أحدٍ أنَّ المسخورَ منه رُبَّما كان عندَ اللهِ خَيرًا مِن السَّاخرِ؛ لأنَّ النَّاسَ لا يَطَّلِعونَ إلَّا على ظَواهرِ الأحوالِ، ولا عِلمَ لهم بالخَفيَّاتِ، وإنَّما الَّذي يَزِنُ عندَ اللهِ: خُلوصُ الضَّمائرِ، وتَقْوى القلوبِ، وعِلمُهم مِن ذلك بمَعزِلٍ؛ فيَنْبغي ألَّا يَجترِئَ أحدٌ على الاستِهزاءِ بمَن تَقتَحِمُه عَينُه إذا رآهُ رثَّ الحالِ، أو ذا عاهةٍ في بَدَنِه، أو غيرَ

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

والحديث تقدَّم تخريجُه.

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٣).

لَبِقٍ في مُحادثَتِه؛ فلَعلَّه أخلَصُ ضَميرًا، وأتْقى قلبًا ممَّن هو على ضِدِّ صِفتِه، فيَظلِمُ نفْسَه بتَحقيرِ مَن وقَّرَه اللهُ، والاستِهانةِ بمَن عظَّمَه اللهُ[١].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ تَحريمُ عَيبِ المؤمنينَ بَعضِهم بَعضًا[٢]، وفيه تنبيهٌ على أنَّ العاقلَ لا يعيبُ نفْسَه، فلا ينبغي أن يعيبَ غيرَه؛ لأنَّه كنَفْسِه[٣].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾ فيه تَحريمُ المُنابَزةِ بالألقابِ، وهي الوصْفُ بلقَبٍ يَكرَهُه الشَّخصُ[٤].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فيه أنَّ التَّوبةَ فرْضٌ على العِبادِ[٥]، فالواجبُ على العبْدِ أنْ يَتوبَ إلى اللهِ تعالى، ويَخرُجَ مِن حقِّ أخيهِ المسلمِ؛ باستِحلالِه، والاستِغفارِ، والمدْحِ له، مُقابَلةً على ذَمِّه[٦].

٧- قال بَعضُ السَّلَفِ: (أصبِحُوا تائِبينَ، وأمْسُوا تائِبينَ). يُشيرُ إلى أنَّ المُؤمِنَ لا يَنبغي أن يُصبِحَ ويُمسيَ إلَّا على تَوبةٍ؛ فإنَّه لا يدري متى يُفاجِئُه الموتُ صَباحًا أو مَساءً؛ فمَن أصبَحَ أو أمسى على غيرِ توبةٍ فهو على خَطَرٍ؛ لأنَّه يَخشى أن يَلقَى اللهَ غيرَ تائبٍ، فيُحشَرَ في زُمرةِ الظَّالِمينَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(٧) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣٤٤).

٨- في قولِه تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ تَحضيضٌ على الظَّنِّ الحَسَنِ[١]، وتَحريمُ ظَنِّ السُّوءِ بأهْلِ الخَيرِ، وإباحتُه بأهْلِ الشَّرِّ؛ لأنَّه لم يُنْهَ عن كلِّ الظَّنِّ[٢].

٩- في قولِه تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: اجتَنِبوا الظَّنَّ كلَّه؛ لأنَّ الظَّنَّ يَنقسِمُ إلى قِسمينِ:

القِسمِ الأولِ: ظَنٌّ خَيرٍ بالإنسانِ، وهذا مَطلوبٌ أنْ تَظُنَّ بإخوانِك خيرًا ما داموا أهْلًا لذلك، وهو المسلمُ الَّذي ظاهِرُه العدالةُ؛ فإنَّ هذا يُظَنُّ به خيرًا، ويُثْنى عليه بما ظَهَرَ لنا مِن إسلامِه وأعمالِه.

القِسمِ الثاني: ظَنٌّ السُّوءِ، وهذا يَحرُمُ بالنِّسبةِ لِمُسلمٍ ظاهِرُه العدالةُ؛ فإنَّه لا يَحِلُّ أنْ يُظَنَّ به ظَنُّ السُّوءِ، كما صَرَّحَ بذلك العُلماءُ، أمَّا ظنُّ السُّوءِ بمَن قامتِ القرينةُ على أنَّه أهلٌ لذلك؛ فهذا لا حَرَجَ على الإنسانِ أنْ يَظُنَّ السُّوءَ به[٣].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، فيه تَحريمُ التَّجسُّسِ، قال ابنُ عبَّاسٍ: (وهو تَتبُّعُ عَوْراتِ النَّاسِ)، وقال الأوزاعيُّ: (منه الاستِماعُ إلى حَديثِ القومِ وهم له كارِهون)[٤].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾، فيه وُجوبُ حِفظِ عِرضِ المؤمنِ في غَيبتِه[٥]، وتَحريمُ الغِيبةِ، وهي ذِكرُ الشَّخصِ بما يَكرَهُه ممَّا هو فيه[٦]، ودلَّ قولُه تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾ على التَّحذيرِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٣١).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٩).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).
(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).

الشَّديدِ مِن الغِيبةِ، وأنَّ الغِيبةَ مِن الكبائرِ؛ لأنَّ اللهَ شبَّهَها بأكْلِ لحْمِ الميِّتِ، وذلك مِن الكبائرِ[١].

١٢- قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾، قولُه: ﴿خَلَقْنَٰكُم﴾ و﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى عدَمِ جَوازِ الافتخارِ؛ لأنَّ ذلك ليس بسَعْيِكم، ولا قُدْرةَ لكم على شَيءٍ مِن ذلك، فكيفَ تَفتخِرونَ بما لا مَدخَلَ لكم فيه[٢]؟!

١٣- تَعليقُ الشَّرفِ في الدِّينِ بمُجرَّدِ النَّسبِ هو حكْمٌ مِن أحكامِ الجاهليَّةِ الَّذين اتَّبَعَتْهم عليه الرَّافضةُ وأشباهُهُم مِن أهلِ الجهْلِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، ولهذا ليس في كِتابِ اللهِ آيةٌ واحدةٌ يَمدَحُ فيها أحدًا بنَسَبِه، ولا يَذُمُّ أحَدًا بنَسَبِه؛ وإنَّما يَمدَحُ بالإيمانِ والتَّقوى، ويَذُمُّ بالكفْرِ والفُسوقِ والعِصيانِ[٣].

١٤- أنَّ ثَوابَ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يَنْبني على حَسَبٍ ولا نَسَبٍ، وإنَّما يَنْبني على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٤].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ فيه إثباتُ كَونِ التَّقوى مُتقدِّمةً على كلِّ فَضيلةٍ[٥].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ الفضْلَ والكرَمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٤).

إنَّما هو بتَقْوى اللهِ، لا بغيرِه مِن الانتِسابِ إلى القَبائلِ[١]، وأنَّ كلَّ مَن كان أتْقى فهو أكرَمُ عندَ اللهِ، وأرفَعُ مَنزِلةً[٢].

١٧- رُبَّ مَن يَحقِرُه النَّاسُ لضَعْفِه، وقِلَّةِ حظِّه مِن الدُّنيا، وهو أعظَمُ قدْرًا عندَ اللهِ تعالى ممَّن له قدْرٌ في الدُّنيا؛ فإنَّما النَّاسُ يَتفاوَتون بحسَبِ التَّقْوى، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٣] [الحجرات: ١٣].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾، ولم يقُلْ: (نفْسٌ مِن نفْسٍ)؛ لأنَّ هذا فيه إشارةٌ إلى منْعِ التَّكبُّرِ، والمتكبِّرُ في أكثَرِ الأمْرِ يُري جَبروتَه على رُؤوسِ الأشهادِ، وإذا اجتمَعَ في الخَلَواتِ مع مَن لا يَلتفِتُ إليه في الجامعِ، يَجعَلُ نفْسَه مُتواضِعًا، فذكَرَهم بلَفظِ القومِ؛ منْعًا لهم عمَّا يَفعَلونه[٤].

٢- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ هذه الآيةُ تَقْتضي اختِصاصَ القَومِ بالذُّكْرانِ، وقد يكونُ مع الذُّكْرانِ نِساءٌ فيُقالُ لهم: قومٌ، على تَغليبِ حالِ الذُّكورِ[٥].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ سُمِّيَ الأخُ المؤمنُ نفْسًا لأخيهِ؛ لأنَّ المؤمنينَ يَنْبغي أنْ يكونَ هكذا حالُهم كالجسَدِ الواحدِ، ولأنَّه إذا همَزَ غيرَه أوجَبَ للغَيرِ أنْ يَهمِزَه، فيكونُ هو المتسبِّبَ لذلك[٦].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٨، ١٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، لم يقُلْ: (لا تَنْبزوا)؛ وذلك لأنَّ اللَّمَّازَ إذا لمَزَ، فالملْموزُ قد لا يَجِدُ فيه في الحالِ عَيبًا يَلمِزُه به، وإنَّما يَبحَثُ ويَتتبَّعُه؛ لِيَطَّلِعَ منه على عَيبٍ، فيُوجَدُ اللَّمزُ مِن جانبٍ. وأمَّا (النَّبزُ) فلا يَعجِزُ كلُّ واحدٍ عن الإتيانِ به؛ فإنَّ مَن نبَزَ غيرَه بالحِمارِ، وهو يَنبِزُه بالثَّورِ وغيرِه، فالظَّاهرُ أنَّ النَّبْزَ يُفْضي في الحالِ إلى التَّنابُزِ، ولا كذلك اللَّمزُ[(١)].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، اللَّقبُ إنْ دلَّ على ما يَكرَهُه المدْعوُّ به كان مَنهيًّا عنه، وأمَّا إذا كان حَسنًا فلا يُنْهَى عنه. وما زالت الألقابُ الحَسَنةُ في الأُمَمِ كلِّها مِن العرَبِ والعجَمِ، تَجْري في مُخاطَباتِهم ومُكاتَباتِهم مِن غيرِ نَكيرٍ[(٢)].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، خُصِّصَ النَّهيُ في الآيةِ بالألقابِ الَّتي لم يَتقادَمْ عَهْدُها حتَّى صارتْ كالأسماءِ لأصحابِها، وتُنوسِيَ منها قصْدُ الذَّمِّ والسَّبِّ، كما وقَعَ في كثيرٍ مِن الأحاديثِ؛ كقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أصدَقَ ذُو اليدَينِ؟))[(٣)]، وقولِه لأبي هُريرةَ: ((يا أبا هِرٍّ))[(٤)]. وكقولِ المحدِّثينَ: (الأعرَجُ) لعبْدِ الرَّحمنِ بنِ هُرْمُزَ، و(الأعمشُ) لِسُليمانَ بنِ مِهْرانَ[(٥)].

٧- قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ قولُ اللهِ تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا﴾، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ إشارةٌ إلى الأخْذِ بالأحوطِ، كما أنَّ الطَّريقَ المَخُوفةَ لا يَتَّفِقُ كلَّ مرَّةٍ فيها قاطعُ طَريقٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٤)، ومسلم (٥٧٣) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢٨٥) و (٥٣٧٥) و(٦٤٥٢) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٩).

لكنَّك لا تَسلُكُ لاتِّفاقِ ذلك فيها مرَّةً ومرَّتينِ، إلَّا إذا تعيَّن فتَسلُكُها مع رُفقةٍ، كذلك الظَّنُّ يَنْبغي بعْدَ اجتهادٍ تامٍّ، ووُثوقٍ بالغٍ[١].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ إخراجٌ للظُّنونِ الَّتي عليها تُبْنى الخَيراتُ، وبالجُملةِ كلُّ أمْرٍ لا يكونُ بِناؤُه على اليقينِ فالظَّنُّ فيه غيرُ مُجتنَبٍ، مِثالُه: حكْمُ الحاكمِ على قَولِ الشُّهودِ، وبَراءةُ الذِّمَّةِ عندَ عدَمِ الشُّهودِ، إلى غيرِ ذلك[٢].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، أفاد قولُه: ﴿كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، وتَبْيينُه بأنَّ ﴿بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾؛ أنَّ بَعضًا مِن الظَّنِّ ليس إثمًا، وأنَّا لم نُؤمَرْ باجتنابِ الظَّنِّ الَّذي ليس بإثمٍ؛ لأنَّ ﴿كَثِيرٗا﴾ وصْفٌ، فمَفهومُ المُخالَفةِ منه يدُلُّ على أنَّ كَثيرًا مِن الظَّنِّ لم نُؤمَرْ باجتنابِه، وهو الَّذي يُبيِّنُه ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، أي: إنَّ بَعضَ الظَّنِّ ليس إثمًا، فعلى المسلمِ أنْ يكونَ مِعيارُه في تَمْييزِ أحدِ الظَّنَّينِ مِن الآخَرِ أنْ يَعرِضَه على ما بيَّنَتْه الشَّريعةُ في تَضاعيفِ أحكامِها مِن الكتابِ والسُّنَّةِ، وما أجمَعَت عليه عُلماءُ الأُمَّةِ، وما أفادهُ الاجتهادُ الصَّحيحُ، وتَتَبُّعُ مَقاصِدِ الشَّريعةِ، فمنْه ظنٌّ يجِبُ اتِّباعُه؛ كالحَذَرِ مِن مَكايدِ العدُوِّ في الحرْبِ، وكالظَّنِّ المستنِدِ إلى الدَّليلِ الحاصلِ مِن دَلالةِ الأدِلَّةِ الشَّرعيَّةِ؛ فإنَّ أكثَرَ التَّفريعاتِ الشَّرعيَّةِ حاصِلةٌ مِن الظَّنِّ المستنِدِ إلى الأدِلَّةِ[٣].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ الظَّنُّ على أربعةِ أضرُبٍ: مَحظورٍ، ومأْمورٍ به، ومُباحٍ، ومَندوبٍ إليه؛ فأمَّا المحظورُ فهو سُوءُ الظَّنِّ باللهِ تعالى، والواجبُ حُسْنُ الظَّنِّ باللهِ، وكذلك سُوءُ الظَّنِّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٣).

بالمسلمينَ الَّذين ظاهِرُهم العدالةُ مَحظورٌ، وأمَّا الظَّنُّ المأمورُ به فهو ما لم يُنصَبْ عليه دليلٌ يُوصِلُ إلى العِلمِ به، وقد تُعُبِّدْنا بتَنفيذِ الحكْمِ فيه، والاقتِصارِ على غالبِ الظَّنِّ، وإجراءُ الحكْمِ عليه واجبٌ، وذلك نحْوُ ما تُعبِّدْنا به مِن قَبولِ شَهادةِ العُدولِ، وتَحرِّي القِبلةِ، وتَقويمِ المستهَلكاتِ، وأُروشِ الجِناياتِ الَّتي لم يَرِدْ بمَقاديرِها تَوقيفٌ، فهذا وما كان مِن نَظائرِه قد تُعبِّدْنا فيه بأحكامِ غالبِ الظُّنونِ. فأمَّا الظَّنُّ المباحُ فكالشَّاكِّ في الصَّلاةِ إذا كان إمامًا، أمَرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّحرِّي والعمَلِ على ما يَغلِبُ في ظَنِّه، وإنْ فَعَلَه كان مُباحًا، وإنْ عدَلَ عنه إلى البِناءِ على اليقينِ كان جائزًا[(١)].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ أنكَرَت جماعةٌ مِن المبتدِعةِ التَّعبُّدَ لله تعالى بالظَّنِّ، وجوازَ العمَلِ به؛ تَحكُّمًا في الدِّينِ، ودَعوى في المعقولِ! وليس في ذلك أصلٌ يُعوَّلُ عليه؛ فإنَّ البارئَ تعالى لم يَذُمَّ جَميعَه، وإنَّما أورَدَ الذَّمَّ في بَعضِه. ورُبَّما تَعلَّقوا بحديثِ أبي هُريرةَ: ((إيَّاكم والظَّنَّ))[(٢)]، فإنَّ هذا لا حُجَّةَ فيه؛ لأنَّ الظَّنَّ في الشَّريعةِ قِسمانِ: مَحمودٌ، ومَذمومٌ؛ فالمحمودُ منه ما سَلِمَ معه دِينُ الظَّانِّ والمظنونِ به عندَ بُلوغِه. والمذمومُ ضِدُّه؛ بدَلالةِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾[(٣)].

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، للظَّنِّ حالتانِ: حالةٌ تُعرَفُ وتَقْوَى بوجْهٍ مِن وُجوهِ الأدِلَّةِ، فيَجوزُ الحكْمُ بها، وأكثَرُ أحكامِ الشَّريعةِ مَبْنيَّةٌ على غَلَبةِ الظَّنِّ؛ كالقِياسِ، وخبَرِ الواحِدِ، وغيرِ ذلك مِن قِيَمِ المتْلَفاتِ، وأُروشِ الجِناياتِ. والحالةُ الثَّانيةُ: أنْ يقَعَ في النَّفْسِ شَيءٌ

(١) هذه الفائدةُ مِن كلامِ أبي يَعلى نسَبَها إليه ابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣) مطوَّلًا.

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٢).

مِن غيرِ دَلالةٍ، فلا يكونُ ذلك أَولى مِن ضِدِّه، فهذا هو الشَّكُّ، فلا يَجوزُ الحكْمُ به، وهو المنْهيُّ عنه[١].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ ما نجَمَت العقائدُ الضَّالَّةُ والمذاهبُ الباطلةُ إلَّا مِن الظُّنونِ الكاذبةِ[٢].

١٤- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ الَّذي يُميِّزُ الظُّنونَ الَّتي يجبُ اجتِنابُها عمَّا سِواها: أنَّ كلَّ ما لم تُعرَفْ له أَمارةٌ صَحيحةٌ وسبَبٌ ظاهرٌ؛ كان حَرامًا واجبَ الاجتنابِ؛ وذلك إذا كان المظنونُ به ممَّن شُوهِدَ منه السَّترُ والصَّلاحُ، وأُونِسَت منه الأمانةُ في الظَّاهرِ، فظَنُّ الفسادِ والخيانةِ به مُحرَّمٌ، بخِلافِ مَن اشتهرَ بيْنَ النَّاسِ بتَعاطي الرِّيَبِ والمُجاهَرةِ بالخَبائثِ[٣]، كمَنْ يَدخُلُ ويَخرُجُ إلى حاناتِ الخمْرِ، فمِثلُ هذا يَقْوى الظَّنُّ فيه أنَّه ليس مِن أهلِ الصَّلاحِ -ولا إثمَ في هذا الظَّنِّ- وإنْ كنَّا لا نَراه يَشرَبُ الخمْرَ، بخِلافِ مَن ظاهِرُه الصَّلاحُ، فلا يُظَنُّ به السُّوءُ فهذا هو المنْهيُّ عنه، ويجِبُ أنْ يُزيلَه[٤].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، لم يقُلْ: (اجتَنِبوا تَقولوا أمرًا على خِلافِ ما تَعلَمونه)، ولا قال: (اجتَنِبوا الشَّكَّ)، بلْ أوَّلُ ما نَهى عنه هو القولُ بالظَّنِّ؛ وذلك لأنَّ القولَ على خِلافِ العِلمِ كذِبٌ وافتراءٌ، والقولَ بالشَّكِّ والرَّجمَ بالغَيبِ سَفَهٌ وهُزْءٌ، وهما في غايةِ القبْحِ، فلمْ يَنْهَ عنه اكتِفاءً بقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ وصْفَهم بالإيمانِ يَمنَعُهم مِن الافتراءِ والارتيابِ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٩).

الَّذي هو دأْبُ الكافرِ، وإنَّما منَعهم عمَّا يَكثُرُ وُجودُه في المسلمينَ؛ لذلك قال في الآيةِ: ﴿لَا يَسۡخَرۡ﴾[١].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، أمَرَ تعالى باجتنابِ الظَّنِّ؛ لئلَّا يَجترِئَ أحدٌ على ظنٍّ إلَّا بعْدَ نظَرٍ وتأمُّلٍ وتَمييزٍ بيْن حقِّه وباطِله[٢].

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، لَمَّا جاء الأمْرُ في هذه الآيةِ باجتنابِ كثيرٍ مِن الظَّنِّ، عُلِمَ أنَّ الظُّنونَ الآثمةَ غيرُ قليلةٍ، فوجَبَ التَّمحيصُ والفحْصُ؛ لتَمييزِ الظَّنِّ الباطلِ مِن الظَّنِّ الصَّادقِ[٣].

١٨- مَنَع اللهُ تعالى مِنَ الظَّنِّ في ثلاثةِ مواضِعَ، وفي جميعِ تلك المواضِعِ كان المَنعُ عَقيبَ التَّسميةِ والدُّعاءِ باسمٍ؛ مَوضِعانِ منها في سورةِ (النَّجمِ)، أحَدُهما: قَولُه تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٣]، والثَّاني: قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ۞ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم: ٢٧، ٢٨]، والثَّالِثُ: في (الحُجُراتِ)، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ عَقيبَ الدُّعاءِ باللَّقَبِ، وكُلُّ ذلك دليلٌ على أنَّ حِفظَ اللِّسانِ أَولى مِن حِفظِ غَيرِه مِنَ الأركانِ، وأنَّ الكَذِبَ أقبَحُ مِنَ السَّيِّئاتِ الظَّاهِرةِ مِن الأيدي والأرجُلِ، وهذه المواضِعُ الثَّلاثةُ أحَدُها: مَدحُ مَن لا يَستَحِقُّ المدحَ، كاللَّاتِ والعُزَّى مِنَ العِزِّ. وثانيها:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥١).

ذَمُّ مَن لا يَستَحِقُّ الذَّمَّ، وهم الملائِكةُ الَّذين هم عِبادُ الرَّحمنِ، يُسَمُّونَهم تَسميةَ الأُنثى. وثالِثُها: ذَمُّ مَن لم يُعلَمْ حالُه، وأمَّا مَدحُ مَن حالُه لا يُعلَمُ فلم يَقُلْ فيه: لا يتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ، بل الظَّنُّ فيه مُعتَبَرٌ، والأخذُ بظاهِرِ حالِ العاقِلِ واجِبٌ[١].

١٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ التَّجسُّسُ غالبًا يُطلَقُ في الشَّرِّ، ومنه الجاسوسُ. وأمَّا التَّحسُّسُ فيكونُ غالبًا في الخيرِ، كما قال تعالى إخبارًا عن يَعقوبَ عليه السَّلامُ أنَّه قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقد يُستعمَلُ كلٌّ منهما في الشَّرِّ، كما ثبَتَ في الصَّحيحِ[٢] أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تجسَّسوا، ولا تحسَّسوا))[٣].

٢٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ النَّهيُ عن التَّجسُّسِ مِن فُروعِ النَّهيِ عن الظَّنِّ، فهو مُقيَّدٌ بالتَّجسُّسِ الَّذي هو إثمٌ، أو يُفْضي إلى الإثمِ، فالمنهيُّ عنه هو التَّجسُّسُ الَّذي لا يَنجَرُّ منه نفْعٌ للمُسلمينَ، أو دفْعُ ضُرٍّ عنهم، فلا يَشملُ التَّجسُّسَ على الأعداءِ، ولا تَجسُّسَ الشُّرَطِ على الجُناةِ واللُّصوصِ[٤].

٢١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ الغِيبةُ مُحرَّمةٌ بالإجماعِ[٥]، ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلمٌ (٢٥٦٣) مطوَّلًا من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٤).

(٥) قال النووي: (اعلَمْ أنَّ الغِيبةَ كما يَحرُمُ على المُغتابِ ذِكرُها، يَحرُمُ على السَّامعِ استِماعُها وإقرارُها، فيَجِبُ على مَن سمِع إنسانًا يَبتدئُ بغِيبةٍ مُحرَّمةٍ أن يَنهاهُ إن لم يَخَفْ ضررًا ظاهرًا، فإنْ خافَه وجَب عليه الإنكارُ بقلبِه ومُفارَقةُ ذلك المَجلِسِ إن تمكَّنَ مِن مُفارَقتِه، فإنْ قدَر على الإنكار بلِسانِه، أو على قطْعِ الغِيبةِ بكلامٍ آخَرَ؛ لَزِمَه ذلك، إن لم يَفعَلْ عصَى). ((الأذكار)) (ص: ٣٣٩).

يُسْتثنَى مِن ذلك إلَّا ما رجَحَت مَصلحَتُه، كما في الجرحِ والتَّعديلِ والنَّصيحةِ[١].

٢٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فيه دليلٌ على أنَّ الاغتيابَ الممنوعَ اغتيابُ المؤمنِ، لا ذِكرُ الكافرِ؛ وذلك لأنَّه شبَّهَه بأكْلِ لَحمِ الأخِ، وقال مِن قبْلُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فلا أُخُوَّةَ إلَّا بيْنَ المؤمنينَ، ولا منعَ إلَّا مِن شَيءٍ يُشبِهُ أكْلَ لَحمِ الأخِ، ففي هذه الآيةِ نهْيٌ عن اغتيابِ المؤمنِ دونَ الكافرِ[٢].

٢٣- في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ قِياسٌ مِن أحسَنِ القياسِ التَّمثيليِّ؛ فإنَّه شَبَّهَ تَمزيقَ عِرْضِ الأخِ بتَمزيقِ لحْمِه، ولَمَّا كان المغتابُ يُمَزِّقُ عِرْضَ أخيهِ في غَيبتِه كان بمَنزِلةِ مَن يَقْطَعُ لحْمَه في حالِ غَيبةِ رُوحِه عنه بالموتِ، ولَمَّا كان المُغتابُ عاجزًا عن دَفْعِه عن نفْسِه بكَونِه غائبًا عن ذَمِّه، كان بمَنزلةِ الميِّتِ الَّذي يُقطَعُ لَحْمُه ولا يَستطيعُ أنْ يَدفَعَ عن نفْسِه، ولَمَّا كان مُقْتضى الأُخُوَّةِ: التَّراحُمُ والتَّواصُلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٠).

قال النووي: (اعلَمْ أنَّ الغِيبةَ تُباحُ لِغَرَضٍ صَحيحٍ شَرعيٍّ لا يُمْكِنُ الوُصولُ إليه إلَّا بها، وهو سِتَّةُ أسْبَابٍ) فذكرها، وهي: التَّظَلُّمُ - الاسْتِعانةُ على تَغييرِ المنكَرِ، ورَدِّ العاصي إلى الصَّوابِ - الاسْتِفْتاءُ - تَحذيرُ المسلمينَ مِن الشَّرِّ ونَصيحَتُهم (كجَرْحِ المجروحينَ مِن الرُّواةِ والشُّهودِ- والمُشاوَرةُ في مُصاهَرةِ إنْسانٍ، أو مُشارَكتِه، أو مُعامَلتِه، أو مُجاوَرتِه، وغيرِ ذلك) - أنْ يَكونَ مُجاهِرًا بفِسْقِه أو بِدْعَتِه - التَّعريفُ.

ثمَّ قال: (فهذه ستَّةُ أسبابٍ ذَكَرها العُلماءُ، وأكثرُها مُجْمَعٌ عليه، ودَلائِلُها مِن الأحاديثِ الصَّحيحةِ مشهورةٌ). ((رياض الصالحين)) (ص: ٤٣٢، ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).

أمَّا الحربيُّ فلا تحرمُ غِيبتُه، لكنْ تُكرَهُ إذا اشتملَتْ على تنقيصِ خِلقتِه، وأمَّا الذِّمِّيُّ فكالمسلمِ فيما يرجعُ إلى المنعِ مِن الإيذاءِ؛ لأنَّ الشَّرعَ عصَمَ عِرضَه ودمَه ومالَه. يُنظر: ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) للهَيْتَمي (٢/ ٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣١١).

والتَّناصُرُ، فعَلَّقَ عليها المُغتابُ ضِدَّ مُقتضاها مِن الذَّمِّ والعَيبِ والطَّعْنِ، وكان ذلك نَظيرَ تَقطيعِ لحْمِ أخيهِ، والأُخُوَّةُ تَقْتضي حِفْظَه وصِيانتَه والذَّبَّ عنه، ولَمَّا كان المُغتابُ مُتمتِّعًا بعِرْضِ أخيهِ، مُتَفَكِّهًا بغِيبتِه وذَمِّه، مُتحلِّيًا بذلك؛ شُبِّهَ بآكِلِ لحْمِ أخيهِ بعْدَ تَقطيعِه، ولَمَّا كان المغتابُ مُحِبًّا لذلك مُعجَبًا به؛ شُبِّهَ بمَن يُحِبُّ أكْلَ لحْمِ أخيه مَيْتًا، ومَحبَّتُه لذلك قَدْرٌ زائدٌ على مُجرَّدِ أكْلِه، كما أنَّ أكْلَه قدْرٌ زائدٌ على تَمزيقِه، فتَأمَّلْ هذا التَّشبيهَ والتَّمثيلَ، وحُسْنَ مَوقعِه، ومُطابَقةَ المعقولِ فيه المحسوسَ، وتأمَّلْ إخبارَه عنهم بكَراهةِ أكْلِ لحْمِ الأخِ مَيتًا، ووَصْفَهم بذلك في آخِرِ الآيةِ، والإنكارَ عليهم في أوَّلِها أنْ يُحِبَّ أحَدُهم ذلك، فكما أنَّ هذا مَكروهٌ في طِباعِهم؛ فكيفَ يُحِبُّونَ ما هو مِثْلُه ونَظيرُه؟! فاحتجَّ عليهم بما كَرِهوه على ما أحَبُّوه، وشَبَّه لهم ما يُحِبُّونَه بما هو أكْرَهُ شَيءٍ إليهم، وهم أشدُّ شَيءٍ نفْرةً عنه؛ فلهذا يُوجِبُ العقلُ والفِطرةُ والحكمةُ أنْ يكونوا أشَدَّ شَيءٍ نفْرةً عمَّا هو نَظيرُه ومُشْبِهُه[1].

٢٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فيه سُؤالٌ: ما الحكمةُ في هذا التَّشبيهِ؟

الجوابُ: هو إشارةٌ إلى أنَّ عِرضَ الإنسانِ كدَمِه ولَحْمِه، وهذا مِن بابِ القِياسِ الظَّاهِرِ؛ وذلك لأنَّ عِرضَ المرْءِ أشرَفُ مِن لَحْمِه، فإذا لم يَحسُنْ مِن العاقلِ أكْلُ لُحومِ النَّاسِ، لم يَحسُنْ منه قرْضُ عِرْضِهم بالطَّريقِ الأَولى؛ لأنَّ ذلك آلَمُ[2].

٢٥- في قولِه تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ جَعَلَ سُبحانه جِهةَ التَّحريمِ كونَه أخًا أُخُوَّةَ الإيمانِ؛ ولذلك تَغَلَّظَتِ الغِيبةُ بحسَبِ حالِ المؤمنِ،

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).

فكلَّما كان أعظَمَ إيمانًا كان اغتيابُه أشدَّ[١].

٢٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، استُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّه لا يَجوزُ أكْلُ لحْمِ ابنِ آدَمَ مَيتًا لِمَن اضْطُرَّ إليه؛ لأنَّه تعالى ضرَبَ به المثَلَ في تَحريمِ الغِيبةِ، ولم يَضرِبْ بمَيتةِ سائرِ الحَيوانِ؛ فدلَّ ذلك على أنَّه في التَّحريمِ فَوقَها[٢].

٢٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، كَلمةُ (مَيتًا) إشارةٌ إلى دفْعِ وهْمٍ؛ وهو أنْ يُقالَ: القولُ في الوجْهِ يُؤلِمُ فيَحرُمُ، وأمَّا الاغتيابُ فلا اطلِّاعَ عليه للمُغتابِ، فلا يُؤلِمُ، فقال: أكْلُ لحْمِ الأخِ وهو مَيتٌ أيضًا لا يُؤلِمُ، ومع هذا هو في غايةِ القبْحِ؛ لِما أنَّه لو اطَّلَعَ عليه لَتألَّمَ، كما أنَّ الميتَ لو أحسَّ بأكْلِ لَحمِه لَآلَمَه[٣].

٢٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فيه معْنًى لَطيفٌ؛ وهو أنَّ الاغتيابَ كأكْلِ لحْمِ الآدميِّ مَيتًا، ولا يَحِلُّ أكْلُه إلَّا للمُضطَرِّ بقدْرِ الحاجةِ -على قولِ مَن أجاز ذلك للضَّرورةِ-، والمضطَرُّ إذا وَجَدَ لحْمَ الشَّاةِ الميتةِ ولحْمَ الآدميِّ الميتِ فلا يَأكُلُ لحْمَ الآدميِّ، فكذلك المغتابُ: إنْ وجَدَ لِحاجَتِه مَدْفعًا غيرَ الغِيبةِ، فلا يُباحُ له الاغتيابُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٠٠).

وتحريمُ أكْلِ الآدميِّ المَيتِ على المُضطَرِّ هو مذهبُ الجمهورِ: الحَنَفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والحنابلةِ، وهو مذهبُ الظَّاهريَّةِ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٦/ ٣٣٨)، ((التاج والإكليل)) للمَوَّاق (٢/ ٢٥٤)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (١٠/ ٢٨٣)، ((المحلى)) لابن حزم (٦/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠، ١١١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١١).

٢٩- قال اللهُ تعالى لَمَّا نَهى عن الغِيبةِ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾، فعُلِمَ أنَّ المُغْتابَ له سَبيلٌ إلى التَّوبةِ بكلِّ حالٍ، وإنْ كان الَّذي اغْتِيبَ مَيتًا أو غائبًا[1].

٣٠- قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، فقسَّمَ العِبادَ إلى تائبٍ وظالمٍ، وما ثَمَّ قِسمٌ ثالثٌ البَتَّةَ، وأوقَعَ اسمَ الظَّالمِ على مَن لم يَتُبْ، ولا أظلَمَ منه؛ لِجَهْلِه بربِّه وبحقِّه، وبعَيبِ نفْسِه وآفاتِ أعمالِه[2].

٣١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ خلْقَ النَّاسِ ابتِداؤُه مِن ذكَرٍ وأُنثى. وقد دلَّت آياتٌ أُخَرُ على خلْقِهم مِن غيرِ ذلك؛ كقولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر: ٦٧]، وقولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]؟

والجوابُ: هو أنَّ التُّرابَ هو الطَّورُ الأوَّلُ، وقد قال تَعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، وقد بيَّنَ اللهُ أطوارَ خلْقِ الإنسانِ مِن مَبدئِه إلى مُنتهاهُ بقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٤٩٣).

ويجبُ على مَن وقَع في الغِيبةِ: التَّوبةُ بالإقلاعِ عن الغِيبةِ، والنَّدمِ على فِعلِها، والعزمِ ألَّا يَعودَ إليها، وأن يَستحِلَّ مَن اغتابه ويَطلُبَ عفوَه عنها، والإبراءَ منها. ومِن أهلِ العِلمِ مَن فصَّل؛ فقال: إن كان مَن اغتابه قد عَلِم بذلك فلا بُدَّ مِن أن يَستحِلَّه، أمَّا إذا لم يَعلَمْ فيَكفي أن يَستغفِرَ له، وأن يُثنيَ عليه في المجالِسِ الَّتي كان يَغتابُه فيها.

فإن كان صاحبُ الغِيبةِ مَيتًا أو غائبًا فقد تعذَّر تحصيلُ البراءةِ منها، لكنْ قال العلماءُ: يَنبغي أن يُكثِرَ مِن الاستِغفارِ له والدُّعاءِ، ويُكثِرَ مِن الحسَناتِ. يُنظر: ((الأذكار)) للنووي (ص: ٣٤٦)، ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٥).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٩٦).

[المؤمنون: ١٢-١٣]، إلى آخِرِه[١].

٣٢- مَقولةُ: «إنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خُلِقَ مِن نُورٍ، وإنَّ آدَمَ عليه السَّلامُ خُلِقَ مِن نُورِ محمَّدٍ» مِن أبطَلِ الباطلِ، وهو كذِبٌ مُخالِفٌ للقرآنِ؛ كقولِه تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ * ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾[٢] [المؤمنون:١٢، ١٣].

٣٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾، فيه سُؤالٌ: هذا مَبنيٌّ على عدَمِ اعتبارِ النَّسَبِ، وليس كذلك؛ فإنَّ للنَّسبِ اعتبارًا عُرفًا وشرْعًا.

الجوابُ: إذا جاء الأمرُ العظيمُ، لا يَبْقى الأمرُ الحقيرُ مُعتَبَرًا؛ وذلك في الحسِّ والشَّرعِ والعُرفِ؛ أمَّا الحسُّ: فلأنَّ الكواكبَ لا تُرى عندَ طُلوعِ الشَّمسِ، ولِجَناحِ الذُّبابِ دَوِيٌّ، ولا يُسمَعُ عندَما يكونُ رعْدٌ قوِيٌّ. وأمَّا في العُرفِ: فلأنَّ مَن جاء معَ الملِكِ لا يَبقى له اعتبارٌ، ولا إليه التِفاتٌ. إذا عُلِمَ هذا فيهما ففي الشَّرعِ كذلك، إذا جاء الشَّرفُ الدِّينيُّ الإلهيُّ لا يَبْقَى هناك اعتِبارٌ؛ لا لنَسَبٍ ولا لنَشَبٍ[٣]، فالكافرُ وإنْ كان مِن أعلَى النَّاسِ نَسبًا، والمؤمنُ وإنْ كان مِن أدْونِهم نَسبًا؛ لا يُقاسُ أحَدُهما بالآخَرِ، وكذلك ما هو مِن الدِّينِ معَ غيرِه؛ ولهذا يَصلُحُ للمَناصبِ الدِّينيَّةِ -كالقضاءِ والشَّهادةِ- كلُّ شَريفٍ ووَضيعٍ إذا كان دَيِّنًا عالِمًا صالحًا، ولا يَصلُحُ لشَيءٍ منها فاسقٌ وإنْ كان قُرَشيَّ النَّسَبِ، وقارُونيَّ النَّشَبِ، ولكنْ إذا اجتمَعَ في اثنَينِ الدِّينُ المتينُ، وأحَدُهما نَسيبٌ، ترجَّحَ بالنَّسبِ عندَ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٢١١).

(٣) النَّشَب: المالُ والعَقارُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣١٠).

النَّاسِ لا عندَ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩]، وشرَفُ النَّسبِ ليس مُكتسَبًا، ولا يَحصُلُ بسَعْيٍ(١).

٣٤- قولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ النَّسَبَ لا اعتبارَ به في كَفاءةِ النِّكاحِ(٢).

٣٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾، فيه سُؤالٌ: ما الحكمةُ في اختيارِ النَّسَبِ مِن جُملةِ أسبابِ التَّفاخُرِ، ولم يُذكَرِ المالُ؟

الجوابُ: الأمورُ الَّتي يُفتخَرُ بها في الدُّنيا وإنْ كانت كثيرةً، لكنَّ النَّسبَ أعْلاها؛ لأنَّ المالَ قد يَحصُلُ للفقيرِ، فيَبطُلُ افتخارُ المفتخِرِ به، والحُسْنَ والسِّنَّ وغيرَ ذلك غيرُ ثابتٍ دائمٍ، والنَّسَبُ ثابتٌ مُستمِرٌّ، غيرُ مَقدورِ التَّحصيلِ لِمَن ليس له، فاختارَهُ اللهُ للذِّكْرِ، وأبطَلَ اعتبارَه بالنِّسبةِ إلى التَّقْوى؛ ليُعلَمَ منه بُطلانُ غيرِه بالطَّريقِ الأَولى(٣).

٣٦- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ أنَّ مَن زَعَمَ أنَّ أحدًا يَنفَعُه قَرابتُه مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بغيرِ طاعةِ اللهِ؛ فقد خالَفَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٢، ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٤/ ١٥٨).
وعدَمُ اشتراطِ الكَفاءةِ في النَّسَبِ هو مذهَبُ المالِكيَّةِ. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٢٤٩).
واختاره ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القَيِّمِ، والشَّوكانيُّ، وابنُ باز، وابنُ عثيمينَ، وبه أفتَتِ اللَّجنةُ الدَّائمةُ.
يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٢٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ١٤٥)، ((السيل الجرار)) للشوكاني (ص: ٣٧٧)، ((الحلل الإبريزية)) لابن باز (٣/ ٦٨)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٢/ ١٠١)، ((فتاوى اللجنة الدائمة - المجموعة الأولى)) (١٨/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٣).

الكِتابَ والسُّنَّةَ[١].

٣٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾، فيه سُؤالٌ: الْخِطَابُ معَ النَّاسِ، والأكْرَمُ يَقْتضي اشتِراكَ الكلِّ في الكرامةِ، ولا كَرامةَ للكافرِ؛ فإنَّه أضَلُّ مِن الأنعامِ، وأذَلُّ مِن الهَوامِّ؟

الجوابُ: ذلك غيرُ لازمٍ، معَ أنَّه حاصلٌ؛ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]؛ لأنَّ كلَّ مَن خُلِقَ فقدِ اعترَفَ بربِّه، كأنَّه تعالى قال: مَنِ استمَرَّ عليه لو زاد، زِيدَ في كَرامتِه، ومَن رجَعَ عنه، أُزِيلَ عنه أثَرُ الكرامةِ[٢].

٣٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾، فيه ذَمُّ التَّفاخُرِ بالأنسابِ[٣].

٣٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾، فيه أنَّ التَّقيَّ غيرَ النَّسيبِ يُقدَّمُ على النَّسيبِ غيرِ التَّقيِّ، فيُقدَّمُ العدْلُ والأورَعُ في الإمامةِ على النَّسيبِ غيرِهما[٤].

٤٠- ليس لأحدٍ أنْ يُعلِّقَ الحمْدَ والذَّمَّ، والحُبَّ والبُغضَ، والمُوالاةَ والمُعاداةَ، والصَّلاةَ واللَّعنَ؛ بغيرِ الأسماءِ الَّتي علَّقَ اللهُ بها ذلك، مثلُ أسماءِ القبائلِ، والمدائنِ، والمذاهبِ، والطَّرائقِ المُضافةِ إلى الأئمَّةِ والمشايخِ، ونحْوِ ذلك ممَّا يُراد به التَّعريفُ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٤، ١١٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وقال: ﴿ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٣]، وقد قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألَا إنَّ آلَ أبي -يعني فُلانًا- لَيسوا لي بأولياءَ؛ إنَّما وَلِيِّيَ اللهُ وصالِحُ المؤمنينَ))[١]، وقال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أذهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليَّةِ وفخْرَها بالآباءِ؛ مؤمنٌ تقِيٌّ، وفاجرٌ شقِيٌّ، أنتم بنو آدَمَ، وآدَمُ مِن تُرابٍ))[٢]، وقال: ((ألَا لا فضْلَ لعَربيٍّ على عَجَميٍّ، ولا لعَجَميٍّ على عربيٍّ، ولا أحمرَ على أسْوَدَ، ولا أسودَ على أحمرَ؛ إلَّا بالتَّقْوى))[٣]، فالحمْدُ والذَّمُّ، والحُبُّ والبُغضُ، والموالاةُ والمعاداةُ؛ إنَّما تكونُ بالأشياءِ الَّتي أنزَلَ اللهُ بها سُلطانَه، وسُلطانُه كِتابُه، فمَن كان مؤمنًا وجَبَت مُوالاتُه مِن أيِّ صِنفٍ كان، ومِن كان كافرًا وجَبَت مُعاداتُه مِن أيِّ صِنفٍ كان؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾[٤] [التوبة: ٧١].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٩٩٠)، ومسلمٌ (٢١٥) واللَّفظُ له مِن حديثِ عَمرِو بنِ العاصِ رضيَ الله عنه.

(٢) تقدَّم تخريجه (ص: ٣٠١).

(٣) أخرجه -مِن طُرقٍ- أحمدُ (٢٣٤٨٩) واللَّفظُ له، وعبدُالله بنُ المبارَكِ في ((المسند)) (٢٣٩)، والحارث كما في ((بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث)) للهيثمي (٥١) مِن حديثِ رجُلٍ مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

صحَّح إسنادَه ابنُ تيميَّةَ في ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٤١٢)، والألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦/ ١٩٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٨/ ٤٧٤)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٣/ ٢٦٨): (رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٢٧، ٢٢٨).

٤١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾، يدُلُّ على أنَّ دِينَ الإسلامِ سَماويٌّ صَحيحٌ، لا نظَرَ فيه إلى الألوانِ، ولا إلى العناصرِ، ولا إلى الجِهاتِ، وإنَّما المُعتبَرُ فيه تَقْوى اللهِ جلَّ وعلا وطاعتُه، فأكرَمُ النَّاسِ وأفضَلُهم أتْقاهُم للهِ، ولا كرَمَ ولا فضْلَ لغيرِ المتَّقي، ولو كان رَفيعَ النَّسبِ[١].

٤٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾، فيه دَليلٌ على أنَّ مَعرفةَ الأنسابِ مَطلوبةٌ مَشروعةٌ؛ لأنَّ اللهَ جَعَلهم شُعوبًا وقَبائلَ مِن أجْلِ ذلك[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هذا نِداءٌ رابعٌ أُرِيدَ بما بعْدَه أمْرُ المسلِمينَ بواجِبِ بَعضِ المُجامَلةِ بيْن أفرادِهم[٣].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ افتُتِحَتْ هذه الآيةُ بإعادةِ النِّداءِ؛ للاهتِمامِ بالغرَضِ، فيَكونُ مُستقلًّا غيرَ تابعٍ[٤].

- وإنَّما عبَّرَ بالجَمْعِ في قولِه: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾، ولم يقُلْ: (رجُلٌ مِن رجُلٍ، ولا امرأةٌ مِن امرأةٍ)؛ إيذانًا بإقدامِ غيرِ واحدٍ مِن رجالِهم وغيرِ واحدةٍ مِن نِسائِهم على السُّخريةِ، واستِفظاعًا

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للشَّأْنِ الَّذي كانوا عليه، ولأنَّ مَشهَدَ السَّاخرِ لا يَكادُ يَخلو ممَّن يَتلهَّى ويَستضْحِكُ على قولِه، ولا يأْتي ما عليه مِن النَّهيِ والإنكارِ؛ فيكونُ شَريكَ السَّاخرِ وتِلْوَه في تحمُّلِ الوِزرِ، وكذلك كلُّ مَن يُطرِقُ سمْعَه فيَستطْيِبُه ويَضحَكُ منه، فيُؤدِّي ذلك -وإنْ أوجَدَه واحدٌ- إلى تَكثيرِ السُّخريةِ وانقلابِ الواحدِ جَماعةً[1]. أو لأنَّ السُّخريةَ تَغلِبُ في المجامعِ[2]. أو إنَّما أُسنِدَ ﴿يَسْخَرْ﴾ إلى ﴿قَوْمٌ﴾ دونَ أنْ يَقولَ: لا يَسخَرْ بعضُكم مِن بعضٍ، كما قال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]؛ للنَّهيِ عمَّا كان شائعًا بيْنَ العرَبِ مِن سُخريةِ القبائلِ بعضِها مِن بعضٍ؛ فوُجِّهَ النَّهيُ إلى الأقوامِ، ويُفهَمُ منه النَّهيُ عن أنْ يَسخَرَ أحدٌ مِن أحَدٍ بطَريقِ لَحنِ الخِطابِ[3].

- وتَنكيرُ (قومٍ) و(نِساءٍ) في الموضعَينِ يَحتَمِلُ مَعنيَينِ؛ أنْ يُرادَ: لا يَسْخَرْ بعضُ المؤمنينَ والمؤمناتِ مِن بعضٍ، أو يُقصَدُ إفادةُ العُمومِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ نهْيُ قَومٍ مُعيَّنينَ سَخِروا مِن قومٍ مُعيَّنينَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٧).

ولحنُ الخِطابِ: هو أنْ يكونَ المَسْكوتُ عَنه مُوافقًا للمَنطوقِ في الحُكمِ، ويُسمَّى أيضًا فحوى الخطابِ. وقيل: إنْ كان أَوْلى بالحُكمِ مِن المنطوقِ به فيُسَمَّى فَحْوى الخِطابِ، وإن كان مساويًا فيُسَمَّى لحنَ الخطابِ. وقيل: هو مفهومُ المُخالَفةِ. وقيل: هو دَلالةُ الاقتِضاءِ. يُنظر: ((نفائس الأصول)) للقرافي (٢/ ٦٤١)، ((المختصر في أصول الفقه)) لابن اللحام (ص: ١٣٢)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٦، ٣٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٠).

- وخَصَّ النِّساءَ بالذِّكرِ مع أنَّ القومَ يَشملُهم بطَريقِ التَّغليبِ العُرْفيِّ في الكلامِ؛ دفْعًا لتَوهُّمِ تَخصيصِ النَّهيِ بسُخريةِ الرِّجالِ؛ إذ كان الاستِسخارُ مُتأصِّلًا في النِّساءِ(١).

- وجُملةُ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ، وهي مُستأنَفةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ، تُفيدُ المُبالَغةَ في النَّهيِ عن السُّخريةِ بذِكْرِ حالةٍ يَكثُرُ وُجودُها في المَسخورِ به؛ فتكونُ سُخريةُ السَّاخرِ أفظَعَ، ولأنَّه يُثيرُ انفعالَ الحياءِ في نفْسِ السَّاخرِ بيْنَه وبيْنَ نفْسِه(٢).

- قولُه: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تَذْييلٌ للمَنْهيَّاتِ المتقدِّمةِ، وهو تَعريضٌ قويٌّ بأنَّ ما نُهوا عنه فُسوقٌ وظُلْمٌ؛ إذ لا مُناسَبةَ بيْن مَدلولِ هذه الجُملةِ وبيْن الجُمَلِ الَّتي قبْلَها لولا مَعْنى التَّعريضِ بأنَّ ذلك فُسوقٌ، وذلك مَذمومٌ ومُعاقَبٌ عليه؛ فدلَّ قولُه: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ على أنَّ ما نُهوا عنه مَذْمومٌ؛ لأنَّه فُسوقٌ يُعاقَبُ عليه، ولا تُزيلُه إلَّا التَّوبةُ، فوقَعَ إيجازٌ بحذْفِ جُملتَينِ في الكلامِ؛ اكتِفاءً بما دلَّ عليه التَّذييلُ، وهذا دالٌّ على أنَّ اللَّمزَ والتَّنابُزَ مَعصيتانِ؛ لأنَّهما فُسوقٌ(٣).

- وإيثارُ لفْظِ ﴿ٱلِٱسۡمُ﴾ هنا مِن الرَّشاقةِ بمكانٍ؛ لأنَّ السِّياقَ تَحذيرٌ مِن ذِكرِ النَّاسِ بالأسماءِ الذَّميمةِ؛ إذ الألقابُ أسماءٌ؛ فكان اختيارُ لفظِ الاسمِ للفُسوقِ مُشاكَلةً مَعنويَّةً(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٥٠).

- قولُه: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لَمَّا كان كلٌّ مِن السُّخريةِ واللَّمْزِ والتَّنابُزِ مَعاصيَ، فقد وجَبَت التَّوبةُ منها، فمَن لم يَتُبْ فهو ظالمٌ؛ لأنَّه ظلَمَ النَّاسَ بالاعتداءِ عليهم، وظلَمَ نفْسَه بأنْ رضِيَ لها عِقابَ الآخِرةِ مع التَّمكُّنِ مِن الإقلاعِ عن ذلك، فكان ظُلمُه شديدًا جدًّا؛ فلذلك جِيءَ له بصِيغةِ قصْرِ الظالِمينَ عليهم، كأنَّه لا ظالمَ غيرُهم؛ لعَدَمِ الاعتدادِ بالظالِمينَ الآخَرينَ في مُقابَلةِ هؤلاء على سَبيلِ المُبالَغةِ؛ لِيَزدَجِروا[1].

- وتَوسيطُ اسمِ الإشارةِ (أُولَئِكَ) لزِيادةِ تَمْييزِهم؛ تَفظيعًا لحالِهم، وللتَّنبيهِ على أنَّهم استحقُّوا قَصْرَ الظُّلمِ عليهم مِن أجْلِ ما ذُكِرَ مِن الأوصافِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ أُعيدَ النِّداءُ خامسَ مرَّةٍ؛ لاختِلافِ الغرَضِ والاهتِمامِ به؛ وذلك أنَّ المَنهيَّاتِ المذكورةَ بعدَ هذا النِّداءِ مِن جِنسِ المُعامَلاتِ السَّيِّئةِ الخفيَّةِ الَّتي لا يَتفطَّنُ لها مَن عُومِلَ بها، فلا يَدْفَعُها، فما يُزيلُها مِن نفْسِ مَن عامَلَه بها؛ ففي قولِه تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ تأْديبٌ عظيمٌ يُبطِلُ ما كان فاشيًا في الجاهليَّةِ مِن الظُّنونِ السَّيِّئةِ والتُّهَمِ الباطلةِ، وأنَّ الظُّنونَ السَّيِّئةَ تَنشَأُ عنها الغَيرةُ المُفرِطةُ والمكايدُ والاغتيالاتُ، والطَّعنُ في الأنسابِ، والمُبادَأةُ بالقِتالِ؛ حذَرًا مِن اعتِداءٍ مَظنونٍ ظنًّا باطلًا، كما قالوا:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

خُذِ اللِّصَّ قبْلَ أنْ يَأخُذَك[١].

- والسِّرُّ في تَنكيرِ قَولِه: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ وإبهامِه: إفادةُ مَعنى البَعضيَّةِ؛ للإيذانِ بأنَّ في الظُّنونِ ما يجِبُ أنْ يُجتنَبَ مِن غيرِ تَبْيينٍ لذلك ولا تَعْيينٍ؛ لئلَّا يَجترِئَ أحدٌ على ظنٍّ إلَّا بعدَ تأمُّلٍ، وبُعدِ نَظرٍ، وتَمحيصٍ، واستِشعارٍ للتَّقْوى، والحذَرِ مِن أنْ يكونَ الظَّنُّ طائشَ السَّهمِ، بعيدًا عن الإصابةِ، وما أكثَرَ الَّذين تُسَوِّلُ لهم ظُنونُهم ما ليس واقعًا، ولا يَستنِدُ إلى شَيءٍ مِن اليَقينِ[٢]!

- والمُرادُ بالظَّنِّ هنا: الظَّنُّ المُتعلِّقُ بأحوالِ النَّاسِ، وحُذِفَ المُتَعلَّقُ؛ لتَذهَبَ نفْسُ السَّامعِ إلى كلِّ ظنٍّ مُمكنٍ هو إثمٌ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ يَستوقِفُ السَّامعَ ليَتطلَّبَ البيانَ، فأُعلِموا أنَّ بَعضَ الظَّنِّ جُرمٌ، وهذا كِنايةٌ عن وُجوبِ التَّأمُّلِ في آثارِ الظُّنونِ؛ لِيَعرِضوا ما تُفضي إليه الظُّنونُ على ما يَعلَمونَه مِن أحكامِ الشَّريعةِ، وليس هذا البيانُ تَوضيحًا لأنواعِ الكثيرِ مِن الظَّنِّ المأمورِ باجتِنابِه؛ لأنَّها أنواعٌ كثيرةٌ، فنبَّهَ على عاقِبَتِها وترَكَ التَّفصيلَ؛ لأنَّ في إبهامِه بَعثًا على مَزيدِ الاحتِياطِ[٤].

- وإنَّما قالَ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ دونَ أنْ يقولَ: (اجتنِبوا الغِيبةَ)؛ لقَصْدِ التَّوطئةِ للتَّمثيلِ الواردِ في قولِه: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٠، ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٩٧، ٤٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥١).

لأنَّه لَمَّا كان ذلك التَّمثيلُ مُشتمِلًا على جانبِ فاعلِ الاغتيابِ ومَفعولِه، مهَّدَ له بما يدُلُّ على ذاتَينِ؛ لأنَّ ذلك يَزيدُ التَّمثيلَ وُضوحًا[1].

- ومُثِّلَتِ الغِيبةُ بأكْلِ لَحمِ الأخِ المَيتِ، وهو يَستلزِمُ تَمثيلَ المَولوعِ بها بمَحبَّةِ أكْلِ لحمِ الأخِ المَيتِ، والتَّمثيلُ مَقصودٌ منه استِفظاعُ المُمثَّلِ وتَشويهُه؛ لإفادةِ الإغلاظِ على المُغتابِينَ؛ لأنَّ الغِيبةَ مُتفشِّيةٌ في النَّاسِ، وخاصَّةً في أيَّامِ الجاهليَّةِ، فشُبِّهَت حالةُ اغتيابِ المسلمِ مَن هو أَخوه في الإسلامِ وهو غائبٌ، بحالةِ أكْلِ لَحمِ أخيه وهو مَيتٌ، لا يُدافِعُ عن نفْسِه، وهذا التَّمثيلُ للْهيئةِ قابِلٌ للتَّفريقِ؛ بأنْ يُشبَّهَ الَّذي اغتابَ بآكِلِ لَحمٍ، ويُشبَّهَ الَّذي اغتِيبَ بأخٍ، وتُشبَّهَ غِيبتُه بالموتِ[2].

وفي هذا التَّمثيلِ مُبالَغاتٌ شتَّى؛ منها: الاستِفهامُ التَّقريريُّ الَّذي لا يقَعُ إلَّا على أمْرٍ مُسلَّمٍ عندَ المُخاطَبِ، فجَعْلُك الشَّيءَ في حيِّزِ الاستِفهامِ التَّقريريِّ يَقْتضي أنَّك تدَّعي أنَّه لا يُنكِرُه المُخاطَبُ، وإنَّما لم يَرِدِ الاستِفهامُ على نفْيِ مَحبَّةِ ذلك بأنْ يُقالَ: ألَا يُحِبُّ أحدُكُم -كما هو غالبُ الاستِفهامِ التَّقريريِّ- إشارةً إلى تَحقُّقِ الإقرارِ المُقرَّرِ عليه؛ بحيثُ يُترَكُ للمُقرَّرِ مَجالًا لعدَمِ الإقرارِ، ومع ذلك لا يَسَعُه إلَّا الإقرارُ.

ومنها: جَعْلُ ما هو شَديدُ الكراهةِ للنَّفْسِ مَفعولًا لفِعْلِ المحبَّةِ؛ للإشعارِ بتَفْظيعِ حالةِ ما شُبِّهَ به وحالةِ مَنِ ارْتضاهُ لنفْسِه؛ فلذلك لم يقلْ: أيَتحمَّلُ أحَدُكم أنْ يأكُلَ لَحمَ أخيه مَيتًا؟ بل قالَ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٥).

ومنها: إسنادُ الفعلِ إلى (أَحَد)؛ للإشعارِ بأنَّ أحَدًا مِن الأحَدِينَ لا يُحِبُّ ذلك.

ومنها: أنَّه لم يَقتصِرْ على تَمثيلِ الاغتِيابِ بأكْلِ لحمِ الإنسانِ حتَّى جعَلَ الإنسانَ أخًا.

ومنها: أنَّه لم يَقتصِرْ على كَونِ المأكولِ لحمَ الأخِ حتَّى جعَلَ الأخَ مَيْتًا.

ومنها: إخراجُ تَماثُلِها مُخرَجَ أمْرٍ بَيِّنٍ غنِيٍّ عنِ الإخبارِ به[1].

- ولَمَّا قرَّرَهم عزَّ وجلَّ بأنَّ أحدًا منهم لا يُحِبُّ أكْلَ جيفةِ أخيه؛ عقَّبَ ذلك بقولِه تعالى: ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾، والفاءُ في قَولِه: ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾ فاءُ الفَصيحةِ. وفاءُ الفصيحةِ تُفيدُ الإلزامَ بما بعْدَها، أي: تدُلُّ على أنْ لا مَناصَ للمُواجَهِ بها مِن الْتزامِ مَدلولِ جَوابِ شرْطِها المَحذوفِ. والمعْنى: فتَعيَّنَ إقرارُكم بما سُئِلْتم عنه مِن المُمثَّلِ به -إذ لا يُستطاعُ جَحْدُه- وتَحقَّقتْ كَراهتُكم له وتَقذُّرُكم منه، فلْيَتحقَّقْ أنْ تَكرَهوا نَظيرَه المُمثَّلَ، وهو الغِيبةُ، فكأنَّه قِيل: فاكْرَهوا المُمثَّلَ كما كَرِهْتُم المُمثَّلَ به[2].

- قولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ عطْفٌ على جُمَلِ الطَّلبِ السَّابقةِ، ابتِداءً مِن قولِه: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، وهذا كالتَّذييلِ لها؛ إذ أمَرَ بالتَّقْوى، وهي جِماعُ الاجتِنابِ والامتثالِ، فمَن كان سالِمًا مِن التَّلبُّسِ بتلك المَنهيَّاتِ، فالأمْرُ بالتَّقْوى يُجنِّبُه التَّلبُّسَ بشَيءٍ منها في المُستقبَلِ، ومَن كان مُتلبِّسًا بها أو ببعضِها، فالأمْرُ بالتَّقْوى يَجمَعُ الأمْرَ بالكفِّ عمَّا هو مُتلبِّسٌ به منها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٤ - ٢٥٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٧).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ تَذْييلٌ للتَّذييلِ؛ لأنَّ التَّقْوى تكونُ بالتَّوبةِ بعدَ التَّلبُّسِ بالإثمِ، فقيلَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾، وتكونُ التَّقوى ابتِداءً، فيَرحَمُ اللهُ المُتَّقيَ، فالرَّحيمُ شاملٌ للجميعِ[١].

- والمُبالَغةُ في (التوَّاب)؛ للدَّلالةِ على كَثرةِ مَن يَتوبُ عليه مِن عِبادِه، أو لأنَّه ما مِن ذنْبٍ يَقترِفُه المُقترِفُ إلَّا كان مَعفوًّا عنه بالتَّوبةِ، أو لأنَّه بَليغٌ في قَبولِ التَّوبةِ، مُنزِّلٌ صاحبَها مَنزلةَ مَن لم يُذنِبْ قطُّ؛ لِسَعةِ كَرَمِه[٢].

- وما أحسَنَ ما جاء التَّرتيبُ في الآيةِ! حيثُ جاء الأمْرُ أوَّلًا باجتِنابِ الطَّريقِ الَّتي لا تؤدِّي إلى العِلمِ -وهو الظَّنُّ-، ثمَّ نهَى -ثانيًا- عن طلَبِ تَحقُّقِ ذلك الظَّنِّ، فيَصيرُ عِلْمًا بقولِه: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، ثمَّ نهَى -ثالثًا- عن ذِكْرِ ذلك إذا عَلِم، فهذه أُمورٌ ثلاثةٌ مُترتِّبةٌ: ظنٌّ، فعِلمٌ بالتَّجسُّسِ، فاغتِيابٌ[٣]؛ لأنَّه إنْ ظَنَّ الإنسانُ بأخيه شَيئًا تجَسَّسَ عليه، فإذا تجَسَّس صار يَغتابُه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ أُعِيدَ النِّداءُ للاهتمامِ بهذا الغرَضِ؛ إذ كان إعجابُ كلِّ قَبيلةٍ بفَضائلِها، وتَفضيلُ قَومِها على غيرِهم؛ فاشيًا في الجاهليَّةِ، فجاءتْ هذه الآيةُ لتَأديبِ المؤمنينَ على اجتِنابِ ما كان في الجاهليَّةِ؛ لاقتِلاعِ جُذورِه الباقيةِ في النُّفوسِ بسَببِ اختلاطِ طَبَقاتِ المؤمنينَ بعْدَ سَنةِ الوُفودِ؛ إذ كثُرَ الدَّاخِلون في الإسلامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٨).

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نُودُوا بعُنْوانِ النَّاسِ دونَ (المُؤمنين)؛ رَعْيًا للمُناسَبةِ بيْنَ هذا العُنوانِ وبيْن ما صُدِّرَ به الغرَضُ مِن التَّذكيرِ بأنَّ أصلَهم واحدٌ، أي: إنَّهم في الخِلقةِ سَواءٌ؛ لِيُتوصَّلَ بذلك إلى أنَّ التَّفاضُلَ والتَّفاخُرَ إنَّما يكونُ بالفضائلِ، وإلى أنَّ التَّفاضلَ في الإسلامِ بزِيادةِ التَّقْوى، فقيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ اقتُصِرَ على ذِكْرِ الشُّعوبِ والقَبائلِ؛ لأنَّ ما تحتَها داخلٌ بطَريقِ لَحْنِ الخِطابِ[2]. وتجاوَزَ القرآنُ عن ذِكرِ الأُمَمِ جرْيًا على المُتداوَلِ في كَلامِ العرَبِ في تَقسيمِ طبَقاتِ الأنسابِ؛ إذ لا يُدرِكون إلَّا أنسابَهم[3]، وأيضًا لأنَّهما أقْصى ما يَسهُلُ على الآدميِّ مَعرِفتُه، فما دُونَه أَولى[4].

- والخبَرُ في قولِه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ مُستعمَلٌ كِنايةً عن المُساواةِ في أصلِ النَّوعِ الإنسانيِّ؛ لِيُتَوصَّلَ مِن ذلك إلى إرادةِ اكتِسابِ الفضائلِ والمَزايا الَّتي تَرفَعُ بعضَ النَّاسِ على بَعضٍ كِنايةً بمَرْتبتَينِ. والمعْنى المَقصودُ مِن ذلك هو مَضمونُ جُملةِ ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾؛ فتلك الجُملةُ تَتنزَّلُ مِن جُملةِ ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ مَنزِلةَ المَقصدِ مِن المقدِّمةِ، والنَّتيجةِ مِن القياسِ؛ ولذلك فُصِّلَت؛ لأنَّها بمَنزِلةِ البيانِ. وأمَّا جُملةُ ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ فهي مُعترِضةٌ بيْن الجُملتَينِ الأُخْرَيَينِ، والمقصودُ مِن اعتِراضِها: إدماجُ تأْديبٍ آخَرَ مِن واجبِ بثِّ التَّعارُفِ والتَّواصُلِ بيْنَ القبائلِ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٨).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٢).

والأمَم، وأنَّ ذلك مُرادُ اللهِ منهم[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا، وإنَّما أُخِّرتْ في النَّظمِ عن جُملةِ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾؛ لتَكونَ تلك الجُملةُ السَّابِقةُ كالتَّوطئةِ لهذه، وتَتنزَّلَ منها مَنزِلةَ المُقدِّمةِ؛ لأنَّهم لَمَّا تَساوَوْا في أصْلِ الخِلقةِ مِن أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدةٍ، كان الشَّأنُ ألَّا يَفضُلَ بعضُهم بعضًا إلَّا بالكَمالِ النَّفسيِّ، وهو الكمالُ الَّذي يَرْضاه اللهُ لهم، والَّذي جعَلَ التَّقوى وسِيلتَه؛ ولذلك ناطَ التَّفاضُلَ في الكرَمِ بـ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ إذْ لا اعتِدادَ بكرَمٍ لا يَعبَأُ اللهُ به[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ تَعليلٌ للنَّهْيِ عنِ التَّفاخُرِ بالأنسابِ المُستفادِ مِن الكلامِ بطَريقِ الاستِئنافِ التَّحقيقيِّ، كأنَّه قيلَ: إنَّ الأكرمَ عندَه تعالَى هو الأتْقَى، فإنْ فاخَرْتُم ففاخِروا بالتَّقْوى[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ تَعليلٌ لِمَضمونِ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، أي: إنَّما كان أكرَمُكم أتْقاكم؛ لأنَّ اللهَ عليمٌ بالكرامةِ الحقِّ الَّتي هي التَّقوى؛ خَبيرٌ بمِقدارِ حُظوظِ النَّاسِ مِن التَّقْوى، فهي عِندَه حُظوظُ الكرامةِ؛ فلذلك الأكرمُ هو الأتقَى. وهي تَذْييلٌ، وهو كِنايةٌ عن الأمْرِ بتَزْكيةِ نِيَّاتِهم في مُعامَلاتِهم وما يُريدون مِن التَّقوى بأنَّ اللهَ يَعلَمُ ما في نُفوسِهم، ويُحاسِبُهم عليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٢، ٢٦٣).

الآيات (١٤-١٨)

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَلِتْكُم﴾: أي: يَنقُصْكم، ويَظلِمْكم، مِن: لاتَ يَلِيتُ، واللَّيتُ: النَّقصُ، وفيه لُغةٌ أخرَى: ألَتَ يألُتُ[(١)].

﴿يَرْتَابُوا﴾: أي: يَشُكُّوا؛ وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شكٍّ، أو شكٍّ وخَوْفٍ[(٢)].

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾: أي: يَعدُّونَ إسلامَهم مِنَّةً عليك، والمِنَّةُ تُطلَقُ على العَطيَّةِ، وعلى قَدْرِ العطيَّةِ عندَ مُعطيها، واعتِدادِه بها، والمَنُّ: تَعدادُ المُعطِي على المعطَى ما أعطاه، أو الاعتِدادُ بالصَّنيعةِ، وذِكرُها الَّذي يُكَدِّرُها. والمَنُّ: النَّقصُ مِن الحقِّ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

والبَخسُ له، ومِن هذا: المِنَّةُ المذمومةُ؛ لأنها تَنقُصُ النِّعمةَ وتُكَدِّرُها[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه: ﴿أَنۡ أَسۡلَمُواْ﴾ يَجوزُ فيه وَجهانِ:

أحدُهما: أنَّه مَفعولٌ به؛ لأنَّه ضُمِّنَ (يَمُنُّون) معْنى يَعتَدُّون، كأنَّه قِيل: يَعتَدُّون عليك إسلامَهم مانِّينَ به عليك؛ ولهذا صُرِّحَ بالمفعولِ به في قولِه: ﴿لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُم﴾، أي: لا تَعْتدُّوا علَيَّ إسلامَكم.

الوجْهُ الثَّاني: أنَّه مَفعولٌ مِن أجْلِه، أي: يَمُنُّون عليك مِن أجْلِ أنْ أسْلَموا[٢].

وقولُه: ﴿أَنۡ هَدَىٰكُمۡ﴾ كقولِه: ﴿أَنۡ أَسۡلَمُواْ﴾[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ سُكَّانَ الباديةِ مِن العرَبِ الَّذين لم يَتمكَّنِ الإيمانُ مِن قلوبِهم قالوا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: آمَنَّا بما جِئتَ به، فأمَرَ اللهُ نَبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يقولَ لهم: إنَّكم لم تُؤمِنوا الإيمانَ الكاملَ، ولكنْ قُولوا: أسْلَمْنا، والسَّببُ في ذلك أنَّه لم يَدخُلِ الإيمانُ الكاملُ في قُلوبِكم بعدُ.

ثمَّ يُرشِدُهم الله سبحانَه إلى ما يُكمِلُ إيمانَهم، فيقولُ: وإنْ تُطِيعوا اللهَ ورسولَه لا يَنقُصْكم اللهُ تعالى مِن ثَوابِ عمَلِكم الصَّالِحِ شيئًا، إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى صِفاتِ المؤمنينَ الصَّادِقينَ، فيقولُ: إنَّما المؤمنونَ حقًّا هم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٧٨٠)، ((البسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧، ٧٧٨)، ((تفسير الراغب)) (١/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الَّذين آمَنوا باللهِ ورسولِه، ثمَّ لمْ يَشُكُّوا في ذلك، وجاهَدوا بأمْوالِهم وأنفُسِهم في سَبيلِ اللهِ تعالى، أولئك هم الصَّادِقون في إيمانِهم حقًّا.

ثمَّ يَأمُرُ اللهُ تعالى نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يقولَ للأعرابِ: أتُخْبِرونَ اللهَ بما تَدينونَ به، والحالُ أنَّ اللهَ يَعلَمُ جَميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ؟! فهو لا يَخْفَى عليه حالُكم، فلا داعِيَ لِأنْ تُخبِروه بما في قُلوبِكم، واللهُ بكلِّ شَيءٍ عليمٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى لنَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: يَمُنُّ عليك هؤلاء الأعرابُ أنْ أسْلَموا، فقُلْ لهم: لا تَمُنُّوا علَيَّ بذلك، بلِ المِنَّةُ للهِ أنْ هَداكم للإيمانِ إنْ كُنتم صادِقينَ في ادِّعائِكم الإيمانَ.

ثمَّ يختِمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ ببيانِ سَعةِ علمِه سبحانَه، وبصَرِه بجميعِ الأعمالِ، فيقولُ: إنَّ اللهَ يَعلَمُ كلَّ ما غابَ في السَّمواتِ والأرضِ، واللهُ بَصيرٌ بجَميعِ أعْمالِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ سُبحانه بإجلالِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وإعظامِه، ونَهَى عن أذاهُ في نفْسِه، أو في أُمَّتِه، ونَهَى عن التَّفاخُرِ الَّذي هو سَببُ التَّقاطُعِ والتَّداحُرِ، وختَمَ بصِفتِه (الخَبير) -دلَّ عليها بقولِه[1]:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٥).

أي: قال الأعرابُ -وهم سُكَّانُ الباديةِ مِن العرَبِ- للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: آمَنَّا بما وجَبَ علينا الإيمانُ به(١).

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾.

أي: قلْ -يا محمَّدُ- لأولئك الأعرابِ الَّذين ادَّعَوُا الإيمانَ: لم تُؤمِنوا بعْدُ إيمانًا كاملًا، فلا تَدَّعوا لأنفُسِكم هذا المقامَ، ولكنْ قُولوا: دخَلْنا في الإسلامِ، واقتَصِرُوا على هذا القولِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٨، ٣٩٢)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (٧/ ٤٣٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٠٩، ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٠).

قال الشنقيطي: (وقولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ المرادُ به بعضُ الأعرابِ... وإنَّما قُلْنا: إنَّ المرادَ بعضُ الأعرابِ في هذه الآيةِ؛ لأنَّ اللهَ بيَّنَ في موضعٍ آخَرَ أنَّ مِنهم مَن ليس كذلك، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٢٠).

قيل: إنَّ هؤلاء الأعرابَ لم يَكونوا منافِقينَ، استظهَر ذلك ابنُ تيميَّةَ، ونسَبه للأكثَرينَ، وذهَب إليه ابنُ القيِّم، وابنُ كثير، وابنُ رجب. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٤)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٤٣٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٠٩، ١١٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والزُّهْريُّ، وابنُ زَيدٍ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٩)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩).

قال ابنُ القيِّم: (هؤلاء مُسلِمونَ، وليسوا بمؤمِنينَ؛ لأنَّهم لَيسوا ممَّن باشَر الإيمانُ قلْبَه، فذاق =

عن سَعدِ بن أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قسَمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَسْمًا، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أعْطِ فُلانًا؛ فإنَّه مُؤمنٌ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أوْ مُسلِمٌ. أقولُها ثلاثًا، ويُرَدِّدُها علَيَّ ثلاثًا: أوْ مُسلمٌ، ثمَّ قال: إنِّي لَأُعْطي الرَّجُلَ وغيرُه أحَبُّ إلَيَّ منه؛ مَخافةَ أنْ يَكُبَّه اللهُ في النَّارِ))[1].

= حلاوتَه وطَعْمَه، وهذا حالُ أكثَرِ المُنتَسِبينَ إلى الإسلامِ، وليس هؤلاء كُفَّارًا؛ فإنَّه سبحانه أثبَت لهم الإسلامَ بقَولِه: ﴿وَلَكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾، ولم يُرِدْ: قُولُوا بألسِنَتِكم من غيرِ مُواطأةِ القَلبِ؛ فإنَّه فرَّق بيْنَ قَولِهم: آمَنَّا، وقَولِهم: أسْلَمْنا، ولكِنْ لَمَّا لمْ يَذوقوا طعْمَ الإيمانِ قال: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾، ووعَدَهم سُبحانَه وتعالى -مع ذلك- على طاعتِهم ألَّا يَنقُصَهم مِن أُجورِ أعمالِهم شَيئًا). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٩١). ويُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٢٩٥).

وقيل: إنَّ هؤلاء الأعرابَ كانوا مُنافِقينَ. وممَّن ذهب إلى ذلك: البُخاريُّ، ومحمَّدُ بنُ نصرٍ المروزيُّ، والقرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (١/ ١٤)، ((تعظيم قدر الصلاة)) للمروزي (٢/ ٥٥٤-٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٩، ٤٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومُجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩).

قال القرطبي: (معنى ﴿وَلَكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾، أي: استَسْلَمْنا خَوفَ القَتلِ والسَّبْيِ، وهذه صِفةُ المنافِقينَ؛ لأنَّهم أسْلَموا في ظاهِرِ إيمانِهم، ولم تُؤمِنْ قُلوبُهم). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٤٨).

وقال الشِّنقيطي: (اللهُ نفى عنهم الإيمانَ دونَ الإسلامِ، ولذلك وَجهانِ مَعروفانِ عند العُلَماءِ؛ أظهَرُهما عندي: أنَّ الإيمانَ المنفيَّ عنهم في هذه الآيةِ هو مُسَمَّاه الشَّرعيُّ الصَّحيحُ، والإسلامَ المُثبَتَ لهم فيها هو الإسلامُ اللُّغَويُّ الَّذي هو الاستِسلامُ والانقيادُ بالجَوارحِ دونَ القَلبِ... وإذا حُمِلَ الإسلامُ في قَولِه: ﴿وَلَكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ انقَدْنا واستَسْلَمْنا بالألسِنةِ والجوارحِ، فلا إشكالَ في الآيةِ، وعلى هذا القَولِ فالأعرابُ المذكورونَ مُنافِقونَ؛ لأنَّهم مُسلِمونَ في الظَّاهِرِ، وهم كُفَّارٌ في الباطِنِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بنَفْيِ الإيمانِ في قَولِه: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ نفْيُ كَمالِ الإيمانِ، لا نَفْيُه مِن أصلِه، وعليه فلا إشكالَ أيضًا؛ لأنَّهم مُسلِمونَ مع أنَّ إيمانَهم غيرُ تامٍّ، وهذا لا إشكالَ فيه عندَ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ القائلينَ بأنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُصُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤١٩).

(١) رواه البخاريُّ (٢٧)، ومسلمٌ (١٥٠) واللَّفظُ له.

﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾.

أي: ولمْ يَدخُلِ الإيمانُ الكاملُ وحَقائقُ مَعانيه بعْدُ في قُلوبِكم، أيُّها المُدَّعونَ بُلوغَ مَنزِلةِ الإيمانِ[1].

﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾.

أي: وإنْ تُطِيعوا اللهَ ورسولَه لا يَنقُصْكم اللهُ مِن ثَوابِ أعمالِكم الصَّالِحةِ أيَّ شَيءٍ منها[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غَفورٌ لِذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرَها عليهم، ويَتجاوَزَ عن مُؤاخَذتِهم بها، رَحيمٌ بهم، ومِن رَحمتِه قَبولُه تَوبتَهم، وإكرامُهم بنِعَمِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٠٥، ٣٧٧، ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩).

قال ابنُ عاشور: («لَمَّا» هذه أختُ «لَمْ»، وتدُلُّ على أنَّ النَّفيَ بها متَّصِلٌ بزمانِ التَّكلُّمِ، وذلك الفارِقُ بيْنَها وبيْنَ «لَمْ» أختِها، وهذه الدَّلالةُ على استِمرارِ النَّفيِ إلى زمَنِ التَّكَلُّمِ تُؤذِنُ غالبًا بأنَّ المنفيَّ بها مُتوقَّعُ الوُقوعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٥).

وقال السعدي: (في قولِه: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ أي: وَقْتَ هذا الكلامِ الَّذي صدَر منكم، فكان فيه إشارةٌ إلى أحوالِهم بعدَ ذلك؛ فإنَّ كثيرًا منهم مَنَّ اللهُ عليهم بالإيمانِ الحقيقيِّ، والجهادِ في سَبيلِ اللهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٦).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّها إرشادٌ للأعرابِ الَّذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ إلى حَقيقةِ الإيمانِ[1].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾.

أي: إنَّما المؤمِنون حقًّا هُمُ الَّذين آمَنوا باللهِ ورسولِه، ثمَّ لمْ يشُكُّوا في وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وصِدقِ نُبوَّةِ نَبيِّه، ووُجوبِ طاعتِهما، وثَبَتوا على ذلك، ولم يَتزلْزَلوا[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وهمْ أيضًا مَنْ جاهَدُوا أعداءَ اللهِ بإنفاقِ أموالِهم، وبَذْلِ أرواحِهم في قِتالِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٤٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٣).

مُخلِصينَ للهِ تعالى؛ لِتكونَ كَلمتُه هي العُلْيا[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾.

أي: أولئك الَّذين يُؤمِنونَ باللهِ ورسولِه بلا ارتيابٍ، ويُجاهِدونَ في سَبيلِ الله بأمْوالِهم وأنفُسِهم؛ همُ الصَّادِقونَ في إيمانِهم حقًّا، لا الَّذين يَدَّعونَ الإيمانَ مِن غَيرِ تَحقيقٍ[٢].

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قال هؤلاءِ الأعرابُ: ﴿ءَامَنَّا﴾، وأمَرَ اللهُ نَبيَّه أنْ يُكذِّبَهم في قولِه: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾، وقولِه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ أمَرَ نَبيَّهم أنْ يقولَ لهم بصِيغةِ الإنكارِ: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؟! وذلك بادِّعائِكم أنَّكم مُؤمِنونَ، واللهُ لا يَخْفَى عليه شَيءٌ مِن حالِكم، وهو عالِمٌ بأنَّكم لم تُؤمِنوا، وعالِمٌ بكلِّ ما في السَّمواتِ والأرضِ، وعالِمٌ بكلِّ شَيءٍ[٣].

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٦، ٦٧).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢١).

أي: قُل -يا محمَّدُ- للأعرابِ الَّذين ادَّعَوُا الإيمانَ: أتُخْبِرونَ اللهَ بما في قُلوبِكم مِن الإيمانِ حِينَ قُلْتُم: آمَنَّا، والحالُ أنَّه يَعلَمُ جميعَ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِن الأشياءِ الظَّاهرةِ والباطنةِ؟! فاللهُ لا يَخْفَى عليه حالُكم، وليس بحاجةٍ لإخبارِه بما في قُلوبِكم[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

أي: واللهُ ذو عِلمٍ بكلِّ شيءٍ، فاحْذَروا أنْ تَقولوا خِلافَ ما في قُلوبِكم؛ فاللهُ يَعلَمُ ما فيها مِن الإيمانِ أو غَيرِه[2].

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ ﴾.

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْ ﴾.

أي: يَمُنُّ هؤلاءِ الأعرابُ عليك -يا محمَّدُ- إسلامَهم، فيَذْكُرونه لك ذِكْرَ مَن قدَّم لك مَعروفًا، وأسْدى إليك خَيرًا[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦١)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٠، ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٨).

﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

أي: قُل لهم -يا محمَّدُ-: لا تَمُنُّوا علَيَّ إسلامَكم؛ فليس لكم مِنَّةٌ علَيَّ في ذلك، ونفْعُ إسلامِكم يَعودُ عليكم، وإنَّما للهِ المِنَّةُ عليكم بالتَّوفيقِ للإيمانِ إنْ كُنتم صادِقينَ في ادِّعائِكمُ الإيمانَ[1].

عن عبدِ اللهِ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا فتَحَ حُنَيْنًا قسَمَ الغنائمَ، فأعْطى المؤلَّفةَ قُلوبُهم، فبلَغَه أنَّ الأنصارَ يُحِبُّون أنْ يُصِيبوا ما أصاب النَّاسُ، فقام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فخطَبَهم؛ فحمِدَ اللهَ وأثْنَى عليه، ثمَّ قال: يا مَعشرَ الأنصارِ، ألَمْ أجِدْكم ضُلَّالًا فهَداكُم اللهُ بي؟ وعالةً فأغْناكم اللهُ بي؟ ومُتفرِّقينَ فجمَعَكُم اللهُ بي؟ ويَقولون: اللهُ ورسولُه أمَنُّ[2]))[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَعلمُ كلَّ ما غاب في السَّمواتِ وفي الأرضِ، ومِن ذلك عِلْمُه بالصَّادقِ مِن الكاذبِ، وعِلْمُه بما تُخفِيه السَّرائرُ والضَّمائرُ، فلا يَخْفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٧)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٨).

(٢) أمَنُّ: أفعَلُ تفضيلٍ مِنَ المَنِّ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٣٣٠)، ومسلمٌ (١٠٦١) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٩). =

كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ ذو بَصرٍ بأعمالِكم كلِّها؛ خَيرِها وشَرِّها، ظاهِرِها وباطِنِها، ويُجازيكم عليها بما تَستحِقُّونه مِن ثَوابٍ أو عِقابٍ(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ فيه تَحريضٌ على الإيمانِ الصَّادقِ؛ لأنَّ مَن أتَى بفِعلٍ مِن غَيرِ صِدقِ نِيَّةٍ يَضيعُ عمَلُه، ولا يُعْطَى عليه أجْرًا(٢).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، شرَطَ تعالى في الإيمانِ عدَمَ الرَّيبِ -وهو الشَّكُّ-؛ لأنَّ الإيمانَ النَّافعَ هو الجزْمُ اليَقينيُّ بما أمَرَ اللهُ بالإيمانِ به، الَّذي لا يَعْتريه شَكٌّ بوجْهٍ مِن الوُجوهِ(٣).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟

= قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: إنَّ اللهَ -أيُّها الأعرابُ- لا يَخفَى عليه الصَّادِقُ منكم مِنَ الكاذِبِ، ومَنِ الدَّاخِلُ منكم في مِلَّةِ الإسلامِ رَغبةً فيه، ومَن الدَّاخِلُ فيه رَهبةً مِن رَسولِنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وجُندِه؛ فلا تُعلِّمونا دِينَكم وضَمائرَ صُدورِكم؛ فإنَّ اللهَ يَعلَمُ ما تُكِنُّه ضَمائرُ صُدورِكم، وتحَدِّثونَ به أنفُسَكم، ويَعلَمُ ما غاب عنكم فاستَسَرَّ في خَبايا السَّمواتِ والأرضِ، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾، فيه أنَّ مَن جاهَدَ الكُفَّارَ، دلَّ ذلك على الإيمانِ التَّامِّ في القلْبِ؛ لأنَّ مَن جاهَدَ غيرَه على الإسلامِ، والقيامِ بشَرائعِه، فجِهادُه لنفْسِه على ذلك مِن بابِ أَولَى وأَحرَى، ولأنَّ مَن لم يَقْوَ على الجهادِ فإنَّ ذلك دليلٌ على ضعفِ إيمانِه[1].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ ذكَرَ أهلَ الإيمانِ الَّذين ذاقُوا طَعْمَه، وهم الَّذين آمَنوا به وبرسولِه، ثمَّ لم يَرتابُوا في إيمانِهم، وإنَّما انْتَفَى عنهم الرَّيبُ؛ لأنَّ الإيمانَ قد باشَرَ قُلوبَهم، وخالطَتْها بَشاشتُه، فلمْ يَبْقَ للرَّيبِ فيه مَوضعٌ، وصدَّقَ ذلك الذَّوقَ بَذْلُهم أحَبَّ شَيءٍ إليهم في رِضا ربِّهم تعالى، وهو أموالُهم وأنفُسُهم! ومِن الممتنِعِ حُصولُ هذا البذْلِ مِن غيرِ ذَوقِ طَعْمِ الإيمانِ، ووُجودِ حَلاوتِه؛ فإنَّ ذلك إنَّما يَحصُلُ بصِدْقِ الذَّوقِ والوجْدِ، كما قال الحسَنُ: (ليس الإيمانُ بالتَّمنِّي ولا بالتَّحلِّي، ولكِنْ ما وقَرَ في القلْبِ، وصدَّقَه العمَلُ)، فالذَّوقُ والوجْدُ أمْرٌ باطنٌ، والعمَلُ دَليلٌ عليه، ومُصدِّقٌ له، كما أنَّ الرَّيبَ والشَّكَّ والنِّفاقَ أمْرٌ باطنٌ، والعمَلُ دليلٌ عليه، ومُصدِّقٌ له؛ فالأعمالُ ثَمراتُ العلومِ والعقائدِ، فاليقينُ يُثمِرُ الجِهادَ، ومَقاماتِ الإحسانِ، فعلى حسَبِ قُوَّتِه تكونُ ثَمَرتُه ونَتيجتُه، والرَّيبُ والشَّكُّ يُثمِرُ الأعمالَ المناسِبةَ له[2].

٥- قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾، فيه إشارةٌ إلى أنَّ الدِّينَ يَنْبغي أنْ يكونَ للهِ، والأعرابُ قد أظْهَروا الإيمانَ للمسلمينَ لا لله، فلا يُقبَلُ منهم ذلك[3].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٧).

فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، تَضمَّنتْ هذه الآيةُ الكريمةُ تَقبيحَ تَزكيةِ النَّفْسِ بالكذِبِ(١).

٧- العبْدُ بيْنَ مِنَّةٍ مِن اللهُ عليه، وحُجَّةٍ منْه عليه، ولا يَنفَكُّ عنهما، فالحكْمُ الدِّينيُّ مُتضمِّنٌ لِمِنَّتِه وحُجَّتِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾، وقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]. والحكْمُ الكونيُّ أيضًا مُتضمِّنٌ لِمِنَّتِه وحُجَّتِه، فإذا حكَمَ له -كَونًا- حكْمًا مَصحوبًا باتِّصالِ الحكْمِ الدِّينيِّ به، فهو مِنَّةٌ عليه، وإنْ لم يَصحَبْه الدِّينيُّ فهو حُجَّةٌ منْه عليه. وكذلك حكْمُه الدِّينيُّ إذا اتَّصَل به حكْمُه الكونيُّ، فتَوفيقُه للقيامِ به مِنَّةٌ منْه عليه، وإنْ تَجرَّدَ عن حكْمِه الكونيِّ صار حُجَّةً منْه عليه، فالمِنَّةُ باقترانِ أحَدِ الحُكْمينِ بصاحِبِه، والحُجَّةُ في تَجرُّدِ أحدِهما عن الآخَرِ، فكلُّ عِلمٍ صَحِبَه عَمَلٌ يُرْضي اللهَ سُبحانه فهو مِنَّةٌ، وإلَّا فهو حُجَّةٌ، وكلُّ قُوَّةٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ صَحِبَها تَنفيذٌ لِمَرْضاتِه وأوامِرِه؛ فهي مِنَّةٌ، وإلَّا فهي حُجَّةٌ، وكلُّ حالٍ صَحِبَه تأثيرٌ في نُصرةِ دِينِه، والدَّعوةِ إليه؛ فهو مِنَّةٌ منْه، وإلَّا فهو حُجَّةٌ، وكلُّ مالٍ اقترَنَ به إنفاقٌ في سَبيلِ اللهِ وطاعتُه، لا لطلَبِ الجزاءِ ولا الشُّكورِ؛ فهو مِنَّةٌ مِن اللهِ عليه، وإلَّا فهو حُجَّةٌ، وكلُّ فراغٍ اقترَنَ به اشتِغالٌ بما يُرِيدُ الرَّبُّ مِن عبْدِه، فهو مِنَّةٌ عليه، وإلَّا فهو حُجَّةٌ، وكلُّ قَبولٍ في النَّاسِ، وتَعظيمٍ ومَحبَّةٍ له، اتَّصَل به خُضوعٌ للرَّبِّ، وذُلٌّ وانكسارٌ، ومَعرفةٌ بعَيبِ النَّفْسِ والعمَلِ، وبذْلُ النَّصيحةِ للخلْقِ؛ فهو مِنَّةٌ، وإلَّا فهو حُجَّةٌ، وكلُّ بَصيرةٍ ومَوعظةٍ، وتَذكيرٍ وتَعريفٍ مِن تَعريفاتِ الحقِّ سُبحانه إلى العبْدِ، اتَّصَل به عِبرةٌ ومَزيدٌ في العقْلِ، ومَعرفةٌ في الإيمانِ؛ فهي مِنَّةٌ، وإلَّا فهي حُجَّةٌ، وكلُّ حالٍ مع اللهِ تعالى، أو مَقامٍ اتَّصل به السَّيرُ إلى اللهِ، وإيثارُ مُرادِه على مُرادِ العبْدِ؛ فهو مِنَّةٌ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢١).

مِن اللهِ، وإنْ صَحِبَه الوُقوفُ عِندَه والرِّضا به، وإيثارُ مُقتضاهُ؛ مِن لذَّةِ النَّفْسِ به، وطُمأنينَتِها إليه، ورُكونِها إليه، فهو حُجَّةٌ مِن اللهِ عليه. فلْيتأمَّلِ العبْدُ هذا الموضعَ العظيمَ الخطَرِ، ويُميِّزْ بيْنَ مَواقعِ المِنَنِ والمِحَنِ، والحُجَجِ والنِّعَمِ، فما أكثَرَ ما يَلتبِسُ ذلك على خواصِّ النَّاسِ وأربابِ السُّلوكِ! واللهُ يَهْدي مَن يَشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ[(١)].

٨- في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مَسألةٌ عظيمةٌ في سُلوكِ الإنسانِ وعمَلِه؛ وهي أنْ يَعلَمَ بأنَّ اللهَ تعالى بَصيرٌ بعمَلِه، مُحيطٌ به، فيَخْشَى اللهَ ويَتَّقِيه، وفيها التَّرغيبُ في الأعمالِ الصَّالِحةِ؛ فإنَّها لنْ تَضيعَ، وفيها التَّرهيبُ مِن العملِ السَّيِّئِ؛ لأنَّ العبدَ سيُجازَى عليه؛ لأنَّ الكلَّ مَعلومٌ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ[(٢)].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ هذه الآيةُ ممَّا احتَجَّ بها أحمدُ بنُ حَنبلٍ وغيرُه، على أنَّه يُسْتثنى في الإيمانِ دونَ الإسلامِ، وأنَّ أصحابَ الكبائرِ يَخرُجون مِن الإيمانِ إلى الإسلامِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٨٩، ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٩).

(٣) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٨).

أمَّا الاستِثناءُ في الإيمانِ فإنَّه (يجوزُ الاستِثناءُ باعتِبارٍ وتَرْكُه باعتِبارٍ؛ فإذا كان مقصودُه أنِّي لا أعلَمُ أنِّي قائمٌ بكلِّ ما أوجَب اللهُ علَيَّ، وأنَّه يَقبَلُ أعمالي، ليس مقصودُه الشَّكَّ فيما في قلبِه؛ فهذا استِثْناؤُه حسَنٌ، وقصْدُه ألَّا يُزكِّيَ نفْسَه، وألَّا يَقطَعَ بأنَّه عَمِل عمَلًا كما أُمِر فقُبِل منه، والذُّنوبُ كثيرةٌ، والنِّفاقُ مَخوفٌ على عامَّةِ النَّاسِ). ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٤٠).

أمَّا الاستِثناءُ في الإسلامِ فهو كالاستثناءِ في الإيمانِ، فيُستثنى فيه إذا أُريدَ به فِعلُ الواجباتِ الظَّاهرةِ كلِّها، أمَّا إذا أُريدَ بالإسلامِ الشَّهادتانِ باللِّسانِ فقطْ فلا استِثناءَ فيه، فلمَّا كان كلُّ مَن أتى بالشَّهادتَينِ صار مُسلِمًا مُتميِّزًا عن اليهودِ والنَّصارى، تجري عليه أحكامُ الإسلامِ الَّتي =

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾، فيه سُؤالٌ: قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]، وقال هاهنا: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾، مع أنَّهم ألْقَوا إليهم السَّلامَ؟

الجوابُ: أنَّ هذا إشارةٌ إلى أنَّ عمَلَ القلبِ غيرُ مَعلوم، واجتنابَ الظَّنِّ واجبٌ، وإنَّما يُحكَمُ بالظَّاهرِ، فلا يُقالُ لِمَن يَفعَلُ فِعلًا: هو مُراءٍ، ولا لِمَن أسلَمَ: هو مُنافِقٌ، ولكنَّ اللهَ خَبيرٌ بما في الصُّدورِ، إذا قال: فُلانٌ ليس بمُؤمنٍ، حصَلَ الجزْمُ، وقولُه تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ فهو الَّذي جوَّزَ لنا ذلك القولَ، وكان مُعجزةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيث أطْلَعَه اللهُ على الغَيبِ وضَميرِ قُلوبِهم، فقال لنا: أنتُم لا تَقولوا لِمَن ألْقَى إليكم السَّلامَ: لَستَ مُؤمنًا؛ لعدَمِ عِلمِكم بما في قلْبِه[1].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾، فيه سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يَجُزْ أنْ يُصدَّقوا في إسلامِهم، والإسلامُ هو الانقيادُ، وقد وُجِدَ منهم قولًا وفِعلًا، وإنْ لم يُوجَدْ اعتقادًا وعِلمًا، وذلك القدْرُ كافٍ في صِدْقِهم؟

الجوابُ: التَّكذيبُ يقَعُ على وَجهينِ:

أحدُهما: ألَّا يُوجَدَ نفْسُ المُخبَرِ عنه.

وثانيهما: ألَّا يُوجَدَ كما أخبَرَ في نفْسِه؛ فقد يقولُ: ما جِئتَنا، بلْ جاءَتْ بك الحاجةُ، فاللهُ تعالى كذَّبَهم في قولِهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ على الوجْهِ الأوَّلِ، أي: ما آمنْتُم أصْلًا، ولم يُصدَّقوا في الإسلامِ على الوجْهِ الثَّاني؛ فإنَّهم انقادوا للحاجةِ، وأخْذِ

= تجري على المسلمينَ؛ كان هذا ممَّا يُجزَمُ به بلا استِثناءٍ فيه، فلا زيادةَ فيهما ولا نُقصانَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٥٩، ٤١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٥).

الصَّدقةِ[١]. وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ استُفيدَ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّ الإيمانَ أخصُّ مِن الإسلامِ، كما هو مَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ[٢]، وأنَّه أكمَلُ مِن الإسلامِ[٣]، فكلُّ مؤمنٍ مسلمٌ، وليس كلُّ مُسلمٍ مؤمنًا؛ فالمؤمنُ أفضَلُ مِن المسلمِ[٤].

٥- في قولِه تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ دَلالةٌ على الفرْقِ بيْنَ الإسلامِ والإيمانِ؛ فالإيمانُ يكونُ في القلْبِ، ويَلزَمُ مِن وُجودِه في القلْبِ صَلاحُ الجَوارحِ؛ لقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أَلَا وإنَّ في الجسَدِ مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه؛ أَلَا وهِيَ القلبُ))[٥]، بخِلافِ الإسلامِ؛ فإنَّه يكونُ في الجَوارحِ، وقد يَصدُرُ مِن المؤمنِ حقًّا، وقد يكونُ مِن ناقصِ الإيمانِ، هذا هو الفرْقُ بيْنَهما، ولا يُفَرَّقُ بيْنَهما إلَّا إذا اجتَمَعا في سِياقٍ واحدٍ، وأمَّا إذا انفرَدَ أحَدُهما في سِياقٍ فإنَّه يَشمَلُ الآخَرَ[٦].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾، فيه سُؤالٌ: قولُه: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾، بعْدَ قولِه تعالى: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾، يُشبِهُ التَّكريرَ مِن غيرِ استقلالٍ بفائدةٍ مُتجدِّدةٍ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (١/ ١٢٨).

(٥) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديثِ النُّعمانِ بنِ بَشِيرٍ رضيَ الله عنهما.

(٦) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٥٠).

الجوابُ: ليس كذلك؛ فإنَّ فائدةَ قولِه: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ هو تكذيبُ دَعواهم، وقولِ: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ توقيتٌ لِما أُمِروا به أنْ يَقولوه، كأنَّه قِيل لهم: (ولكنْ قُولوا أسْلَمْنا حِينَ لم تَثبُتْ مُواطأةُ قُلوبكم لِألسِنَتِكم) -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لأنَّه كلامٌ واقعٌ مَوقِعَ الحالِ مِن الضَّميرِ في ﴿قُولُوٓاْ﴾، و(ما) في (لَمَّا) مِن معْنى التَّوقُّعِ، دالٌّ على أنَّ هؤلاء قدْ آمَنوا فيما بعْدُ[١].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾، فيه الرَّدُّ على الكَرَّاميَّةِ[٢] في قولِهم: إنَّ الإيمانَ هو الإقرارُ باللِّسانِ دونَ عقْدِ القلْبِ[٣]!

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾، لم يقُلْ: (لا يَلِتَاكم) بضَميرِ التَّثنيةِ؛ لأنَّ اللهَ هو مُتولِّي الجزاءِ، دونَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، فيه دَليلٌ على أنَّ الأعمالَ مِن الإيمانِ[٥]، وفيه حُجَّةٌ واضحةٌ على المُرْجِئةِ -المنكِرينَ أنَّ العمَلَ مِن الإيمانِ-؛ إذْ هم مُقِرُّون بأنَّ مَن لم يكُنْ له صِدْقُ الإيمانِ فليس بمُؤمنٍ، وقد جَعَلَ اللهُ الجهادَ مِن صِدْقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٧)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ١٣).

(٢) الكَرَّامِيَّةُ: هم أصحابُ محمَّدِ بنِ كَرَّام، يَزعُمونَ أنَّ الإيمانَ هو الإقرارُ والتَّصديقُ باللِّسانِ دونَ القَلبِ، وأنكَروا أن تكونَ مَعرِفةُ القَلبِ أو شَيءٌ غيرُ التَّصديقِ باللِّسانِ إيمانًا. يُنظر: ((الإيمان الأوسط)) لابن تيمية (ص: ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٦).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٣).

الإيمانِ، كما تَرى[١].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أخبَرَ تعالى أنَّ هؤلاء هم الصَّادِقونَ في قولِهم: آمَنَّا، ودلَّ ذلك على أنَّ النَّاسَ في قولِهم: (آمَنَّا) صادقٌ وكاذبٌ، والكاذبُ فيه نِفاقٌ بحسَبِ كذِبِه[٢].

١١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ يُبيِّنُ أنَّ الجِهادَ واجبٌ، وترْكَ الارتيابِ واجبٌ[٣].

١٢- أنَّ النِّيَّةَ مَحْضُ عَمَلِ القلبِ، فلمْ يُشْرَعْ إظهارُها باللِّسانِ؛ لقولِه سُبحانه: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وفاعِلُ ذلك يُعَلِّمُ اللهَ بدِيْنِه الَّذي في قلْبِه[٤]! فالآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّ النُّطقَ بالنِّيَّةِ في العِباداتِ ليس مشروعًا؛ لأنَّ الإنسانَ الَّذي يقولُ: «أُريدُ أنْ أُصلِّيَ» كأنَّه يُعَلِّمُ اللهَ سُبحانه وتعالى بما يُريدُ مِن العملِ! واللهُ يَعلَمُ، والَّذي يقولُ: «أُريدُ أنْ أَصومَ» كذلك، والَّذي يقولُ: «نَويتُ أنْ أتصَدَّقَ» كذلك، والَّذي يقولُ: «نوَيتُ أنْ أَحُجَّ» كذلك أيضًا، ولهذا لا يُسَنُّ النُّطقُ بالنِّيَّةِ في العِباداتِ كلِّها؛ لا في الحجِّ، ولا في الصَّدَقةِ، ولا في الصَّومِ، ولا في الوُضوءِ، ولا الصَّلاةِ، ولا في غيرِ ذلك؛ لأنَّ النِّيَّةَ مَحلُّها القلبُ، واللهُ عالمٌ بذلك، ولا حاجةَ إلى أنْ تُخبِرَ اللهَ بها[٥]!

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيمية - كتاب الصلاة)) (ص: ٥٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٧).

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾، لم يقلْ: (يمُنُّ عليكم أنْ أسلَمْتُم)؛ لأنَّ إسلامَهم كان ضَلالًا، حيث كان نِفاقًا، فما مَنَّ به عليهم[١]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾، فيه سُؤالٌ: كيف مَنَّ عليهم بالهدايةِ إلى الإيمانِ، مع أنَّه بيَّنَ أنَّهم لم يُؤمِنوا؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجْهُ الأوَّلُ: أنَّه تعالى لم يقُلْ: (بلِ اللهُ يمُنُّ عليكم أنْ رزَقَكم الإيمانَ)، بلْ قال: ﴿أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾، وإرسالُ الرُّسلِ بالآياتِ البيِّناتِ هِدايةٌ.

الوجْهُ الثَّاني: أنَّه تعالى يَمُنُّ عليهم بما زَعَموا، فكأنَّه قال: أنتُم قُلْتُم: آمَنَّا، فذلك نِعمةٌ في حقِّكم، حيثُ تخلَّصْتُم مِن النَّارِ، فقال: هَداكم في زَعْمِكم.

الوجْهُ الثَّالثُ: أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ بعْدَ ذلك شَرْطًا، فقال: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[٢].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾، فيه رَدٌّ على القَدَريَّةِ والمُعتزلةِ القائلين: إنَّ العبْدَ يَهْدي نفْسَه[٣]!

١٦- في قولِه تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ أنَّ أعْظَمَ نِعمةٍ هي نِعمةُ الإسلامِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٦٩).

ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

- إنَّما قال: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾؛ تَعليمًا لهم بالفرْقِ بيْنَ الإيمانِ والإسلامِ، وكان مُقْتضَى ظاهرِ نظْمِ الكلامِ أنْ يُقالَ: (قُل لم تُؤمِنوا ولكنْ أسْلَمْتم)، أو أنْ يُقالَ: (قُل لا تَقولوا: آمنَّا، ولكنْ قُولوا: أسْلَمْنا)؛ ليَتوافَقَ المُستدرَكُ عنه والاستِدراكُ بحسَبِ النَّظْمِ المُتعارَفِ في المُجادَلاتِ، فعُدِلَ عن الظَّاهرِ إلى هذا النَّظْمِ؛ لأنَّ فيه صراحةً بنفْيِ الإيمانِ عنهم، فلا يَحسَبوا أنَّهم غالَطوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. واستُغنِيَ بقولِه: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ عن أنْ يُقالَ: (لا تَقولوا: آمنَّا)؛ لاستِهجانِ أنْ يُخاطَبوا بلفظٍ مُؤدَّاه النَّهيُ عن الإعلانِ بالإيمانِ؛ لأنَّهم مُطالَبونَ بأنْ يُؤمنوا ويَقولوا: آمنَّا، قَولًا صادقًا لا كاذبًا، فقيل لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾؛ تَكذيبًا لهم، معَ عدمِ التَّصريحِ بلفظِ التَّكذيبِ، ولكنْ وقَعَ التَّعريضُ لهم بذلك بعْدُ في قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥] إلى قَولِه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، أي: لا أنتُم؛ ولذلك جِيءَ بالاستدراكِ مَحمولًا على المعنى، وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (ولكنْ أسلَمْتُم) إلى ﴿قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾؛ تَعريضًا بوُجوبِ الصِّدقِ في القولِ ليُطابِقَ الواقعَ، فهم يَشعُرونَ بأنَّ كذِبَهم قد ظهَرَ، وذلك ممَّا يُتعيَّرُ به، أي: الشَّأنُ أنْ تقولوا قولًا صادقًا[1].

- وقولُه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ واقعٌ مَوقِعَ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾، وهو مُبيِّنٌ لمَعنى نفْيِ الإيمانِ عنهم في قَولِه: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ بأنَّه ليس انتِفاءَ وُجودِ تَصديقٍ باللِّسانِ، ولكنِ انتفاءُ رُسوخِه وعقْدِ القلْبِ عليه؛ إذ كان فيهم بَقيَّةٌ مِن ارتيابٍ، كما أشعَرَ به مُقابَلتُه بقَولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٥، ٢٦٥).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ ﴾[١] [الحجرات: ١٥].

- قولُه: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ ليس تَكريرًا مع قَولِه: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾؛ وذلك لِمَا في (لَمَّا) مِن مَعنى التَّوقُّعِ الدَّالِّ على أنَّ هؤلاء قدْ آمَنوا فيما بعدُ[٢].

- وفي الآيةِ احتِباكٌ[٣]: ذكَرَ عدَمَ الإيمانِ أوَّلًا، دَليلًا على إثباتِه ثانيًا، وذكَرَ تَوفيرَ الأعمالِ ثانيًا، دَليلًا على بَخْسِها أو إحباطِها أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه نَفى أساسَ الخَيرِ أوَّلًا، ورغَّبَ في الطَّاعةِ بحِفظِ ما تَعِبوا عليه مِن الأعمالِ ثانيًا[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ استِئنافُ تَعليمٍ لهم بأنَّ اللهَ يَتجاوَزُ عن كذِبِهم إذا تابوا، وترْغيبٌ في إخلاصِ الإيمانِ؛ لأنَّ الغَفورَ كثيرُ المغفرةِ شَديدُها، ومِن فَرْطِ مَغفرتِه أنَّه يُجازي على الأعمالِ الصَّالِحةِ الواقِعةِ في حالةِ الكُفرِ غيرَ مُعتدٍّ بها، فإذا آمَنَ عامِلُها جُوزيَ عليها بمُجرَّدِ إيمانِه، وذلك مِن فَرْطِ رَحمتِه بعِبادِه[٥].

- وترْتيبُ ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعدَ ﴿غَفُورٞ﴾؛ لأنَّ الرَّحمةَ أصلٌ للمَغفرةِ، وشأنُ العلَّةِ أنْ تُورَدَ بعدَ المُعلَّلِ بها[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ قيل: هذا تَعليلٌ لقولِه: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ إلى قولِه: ﴿فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: ١٤]، وهو مِن جُملةِ ما أُمِرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٦٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يقولَه للأعرابِ، أي: ليس المؤمِنونَ إلَّا الَّذين آمَنوا، ولم يُخالِطْ إيمانَهم ارتيابٌ أو تَشكُّكٌ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...﴾ (إنَّما) للحصْرِ، و(إنَّ) الَّتي هي جُزْءٌ منها مُفيدةٌ أيضًا للتَّعليلِ، وقائمةٌ مَقامَ فاءِ التَّفريعِ، أي: إنَّما لم تَكونوا مُؤمنينَ؛ لأنَّ الإيمانَ يُنافيه الارتيابُ، والقصْرُ إضافيٌّ(٢)، أي: المؤمنونَ الَّذين هذه صِفاتُهم غيرُ هؤلاء الأعرابِ؛ فأفادَ أنَّ هؤلاء الأعرابَ انْتَفى عنهم الإيمانُ؛ لأنَّهم انتَفَى عنهم مَجموعُ هذه الصِّفاتِ. وإذ قد كان القصرُ إضافيًّا لم يكُنِ الغرَضُ منه إلَّا إثباتَ الوصْفِ لغير المَقصورِ؛ لإخراجِ المُتحدَّثِ عنهم عن أنْ يكونوا مُؤمِنينَ، وليس بمُقْتضٍ أنَّ حقيقةَ الإيمانِ لا تَتقوَّمُ إلَّا بمَجموعِ تلك الصِّفاتِ؛ لأنَّ عَدَّ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ مع صِفتَي الإيمانِ وانتِفاءِ الرَّيبِ فيه يَمْنعُ مِن ذلك؛ لأنَّ الَّذي يَقعُدُ عن الجِهادِ لا يَنتفي عنه وصْفُ الإيمانِ؛ إذ لا يَكفُرُ المسلمُ بارتكابِ الكبائرِ عندَ أهلِ الحقِّ، وما عداهُ خطأٌ واضحٌ(٣).

- وجِيءَ بـ (ثُم) الَّتي تُفيدُ التَّراخيَ في قولِه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾، مع أنَّ عدَمَ الارتيابِ يجِبُ أنْ يكونَ مُقارِنًا للإيمانِ؛ لأنَّ مَن وُجِد منه الإيمانُ رُبَّما اعتَرَضَه الشَّيطانُ أو بعضُ المُضلِّين بعْدَ ثَلجِ الصَّدْرِ، فشَكَّكه، وقذَفَ في قلْبِه ما يَثلِمُ يَقينَه، أو نظَرَ هو نظَرًا غيرَ سَديدٍ يَسقُطُ به على الشَّكِّ، ثمَّ يَستمِرُّ على ذلك راكبًا رأْسَه لا يَطلُبُ له مَخرجًا، فوُصِفَ المؤمنونَ حقًّا بالبُعدِ عن هذه المُوبِقاتِ. أو أنَّ الإيقانَ وزَوالَ الرَّيبِ لَمَّا كان مِلاكَ الإيمانِ، وكان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٧).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٧).

هذا عظيمًا، والثَّباتُ عليه أعظَمَ -وهو عَينُ الحِكمةِ-؛ أشارَ إلى عظيمِ مَزيَّةِ الثَّباتِ بقولِه: ﴿ثُمَّ﴾، أي: بعدَ امتِطاءِ هذه الرُّتبةِ العظيمةِ ﴿لَمْ يَرْتَابُوا﴾، أي: يُنازِعوا الفِطرةَ الأُولى في تعمُّدِ التَّسبُّبِ إلى الشَّكِّ، ولم يُوقِعوا الشَّكَّ في وقتٍ مِن الأوقاتِ الكائنةِ بعدَ الإيمانِ؛ فأُفرِدَ بالذِّكْرِ بعدَ تَقدُّمِ الإيمانِ؛ تَنبيهًا على مَكانِه، وعُطِفَ على الإيمانِ بكلمةِ التَّراخي؛ إشعارًا باستِقرارِه في الأزمنةِ المتراخيةِ المتطاوِلةِ غضًّا جديدًا. أو هو مِن تَرتيبِ الكلامِ لا مِن تَرتيبِ الزَّمانِ، أي: ثُمَّ أقولُ: لم يَرْتابوا[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ إيماءٌ إلى بَيانِ قولِه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، أي: مِن أجْلِ ما يُخالِجُكم ارتيابٌ في بَعضِ ما آمَنْتُم به ممَّا اطَّلَعَ اللهُ عليه[٢]، وهذا بِناءً على كونِهم منافِقين.

- قولُه: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المقصودُ مِن إدْماجِ ذِكْرِ الجِهادِ التَّنويهُ بفضْلِ المؤمنينَ المجاهِدينَ، وتَحريضُ الَّذين دخَلوا في الإيمانِ على الاستعدادِ إلى الجِهادِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ قصْرٌ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ أيضًا[٤]، أي: هم الصَّادقونَ لا أنتُم في قَولِكم: ﴿آمَنَّا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) ١٤/ ٥١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٦٧).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٨).

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أُعيدَ فِعلُ ﴿قُلْ﴾؛ لِيَدُلَّ على أنَّ المَقولَ لهم هذا هُمُ الأعرابُ الَّذين أُمِرَ أنْ يقولَ لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ إلى آخِرِه، فأُعِيدَ لَمَّا طالَ الفصْلُ بيْنَ القولَينِ بالجُمَلِ المُتتابِعةِ؛ فهذا مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] اتِّصالَ البيانِ بالمُبيَّنِ؛ ولذلك لم تُعطَفْ جُملةُ الاستِفهامِ. وجُملةُ (قُلْ) مُعترِضةٌ بيْنَ الجُملتينِ المُبيَّنةِ والمُبيِّنةِ[١].

- قولُه: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قولُه: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾، أيْ: أتُخبِرونَه بذلكَ بقولِكم: ﴿ءَامَنَّا﴾؟! والتَّعبيرُ عَنْه بالتَّعليمِ؛ لغايةِ تَشنيعِهم[٢]، والتَّعليمُ مُبالَغةٌ في إيصالِ العِلمِ إلى المُعلَّمِ؛ لأنَّ صِيغةَ التَّفعيلِ تَقتضي قوَّةً في حُصولِ الفِعلِ، وهذا يُفيدُ أنَّهم تَكلَّفوا وتَعسَّفوا في الاستِدلالِ على خُلوصِ إيمانِهم؛ ليُقنِعوا به الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذي أبلَغَهم أنَّ اللهَ نَفَى عنْهم رُسوخَ الإيمانِ، فمُحاوَلةُ إقناعِه تَدَلُّ إلى مُحاوَلةِ إقناعِ اللهِ بما يَعلَمُ خِلافَه[٣]!

- والاستِفهامُ في ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والإنكارِ، وقد أيَّدَ التَّوبيخَ والإنكارَ بجُملةِ الحالِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: أتُخبِرونَه به بقولِكم: آمَنَّا، واللهُ يعلمُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يَخفَى عليه خافيةٌ؟! وفي هذا تَجْهيلٌ لهم وتَوبيخٌ؛ إذ حاوَلوا إخفاءَ باطِنِهم عن المُطَّلِعِ على كلِّ شيءٍ[٤]! وذلك على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور))

قولٍ في التَّفسيرِ.

- وباءُ ﴿بِدِينِكُمْ﴾ صِلةٌ؛ لتأكيدِ لُصوقِ الفِعلِ بمَفعولِه[١].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَذْييلٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، أيْ: مبالِغٌ في العِلمِ بجميعِ الأشياءِ الَّتي مِن جُملتِها ما أخفَوهُ مِن الكُفرِ عندَ إظهارِهم الإيمانَ، وفيه مَزيدُ تَجْهيلٍ وتوبيخٍ لهم[٢]. وذلك على القولِ بأنَّهم كانوا منافِقينَ.

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ[٣].

- وجِيءَ بالمُضارعِ في ﴿يَمُنُّونَ﴾، معَ أنَّ مَنَّهم بذلك حصَلَ فيما مَضَى؛ لاستِحضارِ حالةِ مَنِّهم؛ كيف يَمُنُّون بما لم يَفعَلوا؟! وجِيءَ بالمُضارعِ في قولِه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾؛ لأنَّه مَنٌّ مَفروضٌ؛ لأنَّ المَمْنونَ به لَمَّا يَقَعْ، وفيه مِن الإيذانِ بأنَّه سيَمُنُّ عليهم بالإيمانِ ما في قولِه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، وهذا مِن التَّفنُّنِ البَديعِ في الكلامِ؛ ليَضَعَ السَّامعُ كلَّ فنٍّ منه في قَرارِه[٤].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في قولِه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾؛ لإفادةِ التَّقويةِ[٥].

- وقد أُضِيفَ الإسلامُ إلى ضَميرِهم ﴿أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾؛ لأنَّهم أتَوا بما يُسمَّى

(٢٦/ ٢٦٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إسلامًا؛ لقولِه: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: ١٤]. وأُتِي بالإيمانِ مُعرَّفًا بلامِ الجنسِ ﴿هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾؛ لأنَّه حقيقةٌ في حدِّ ذاتِه، وأنَّهم مُلابِسوها[١].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ جَوابُ الشَّرطِ محذوفٌ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَه عليه، تَقديرُه: إنْ كنتُم صادِقينَ في ادِّعائِكم الإيمانَ، فلِلَّهِ المِنَّةُ عليكم[٢].

- وفي سِياقِ الآيةِ لُطفٌ ورَشاقةٌ؛ وهو أنَّهم لَمَّا قالوا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿ءَامَنَّا﴾ كما حكاهُ اللهُ آنِفًا، سمَّاهُ هُنا إسلامًا؛ لقولِه: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، أي: إنَّ الَّذي مَنُّوا به عليك إسلامٌ لا إيمانٌ. وأثبَتَ بحرْفِ (بل) أنَّ ما مَنُّوا به إنْ كان إسلامًا حقًّا مُوافِقًا للإيمانِ؛ فالمِنَّةُ للهِ لأنْ هَداهُم إليه، فأسْلَموا عن طَواعيةٍ. وسمَّاهُ إيمانًا مُجاراةً لزَعْمِهم؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ كَونِ المِنَّةِ للهِ؛ فمُناسَبةُ مُسايَرةِ زَعْمِهم أنَّهم آمَنوا، أي: لو فُرِضَ أنَّكم آمنْتُم كما تَزْعمون، فإنَّ إيمانَكم نِعمةٌ أنعَمَ اللهُ بها عَليكم؛ ولذلك ذيَّلَه بقَولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ فنَفى أوَّلًا أنْ يكونَ ما يَمُنُّون به حقًّا، ثمَّ أفادَ ثانيًا أنْ يكونَ الفضْلُ فيما ادَّعَوه لهم لو كانوا صادِقينَ، بل هو فضْلُ اللهِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تَذييلٌ؛ ذُيِّلَ تَقويمُهم على الحقِّ بهذا التَّذييلِ ليَعلَموا أنَّ اللهَ لا يُكتَمُ، وأنَّه لا يُكذَبُ؛ لأنَّه يَعلَمُ كلَّ غائبةٍ في السَّماءِ والأرضِ؛ فإنَّهم كانوا في الجاهليَّةِ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٠).

تَخطُرُ ببالِ كثيرٍ منهم أُصولُ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ، ورُبَّما عَلِمَها بعضُهم[١]. فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ما غابَ فيهما، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ في سرِّكم وعلانيتِكم، فكيفَ يخفَى عليه ما في ضَمائرِكم[٢]؟!

- وتأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ)؛ لأنَّهم بحالِ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ يَعلَمُ الغَيبَ، فكذَبوا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع عِلمِهم أنَّه مُرسَلٌ مِن اللهِ، فكان كَذِبُهم عليه مِثلَ الكذِبِ على اللهِ[٣]. وذلك بِناءً على أنَّهم كانوا مُنافقينَ.

- وقد أفادتْ هذه الجُملةُ تأْكيدَ مَضمونِ جُملَتَي ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦]، ولكنَّ هذه زادَتْ بالتَّصريحِ بأنَّه يَعلَمُ الأمورَ الغائبةَ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ العُمومَينِ في الجُملتَينِ قَبْلَها عُمومانِ عُرفيَّانِ قياسًا على عِلمِ البشرِ[٤].

- وخِتامُ سُورةِ الحُجراتِ بهذِه الآيةِ الجليلةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مع الْتِئامِه بما قبْلَه: فيه تَقريرُ ما في أوَّلِ السُّورةِ، وهو قولُه تعالَى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحجرات: ١]؛ فإنَّه لا يخفَى عليه سِرٌّ؛ فلا تَتْرُكوا خَوفَه في السِّرِّ، ولا يَخفَى عليه علَنٌ؛ فلا تأْمَنوه في العَلانيةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٨).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ ق

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ ق

أسماءُ السُّورة:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ ﴿قٓ﴾، و﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾[(١)]، وممَّا يدُلُّ على ذلك:

١- أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ سَألَ أبا واقِدٍ اللَّيثيَّ: ((ما كان يَقرَأُ به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الأَضحَى والفِطرِ، فقال: كان يَقرَأُ فيهما بـ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]))[(٢)].

٢- عن أمِّ هِشامٍ بِنتِ حارِثةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((لقدْ كان تَنُّورُنا[(٣)] وتَنُّورُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ واحِدًا سَنَتينِ أو سَنةً وبَعضَ سَنةٍ، وما أَخذْتُ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلَّا عن لِسانِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ يَقرَؤُها كُلَّ يومِ جُمُعةٍ[(٤)] على المِنبَرِ إذا خَطَبَ النَّاسَ))[(٥)].

---

(١) سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بـ ﴿قٓ﴾، أو: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾؛ لافتِتاحِها بهما. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٧).

قال ابنُ عاشور: (وهي مِنَ السُّوَرِ التي سُمِّيَت بأسماءِ الحُروفِ الواقِعةِ في ابتدائِها، مِثلُ: ﴿طه﴾، و﴿صٓ﴾، و﴿قٓ﴾، و﴿يسٓ﴾؛ لانفِرادِ كُلِّ سُورةٍ منها بعدَدِ الحُروفِ الواقِعةِ في أوائِلِها، بحيثُ إذا دُعِيَت بها لا تلتَبِسُ بسُورةٍ أُخرى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨٩١).

(٣) التَّنُّور: الَّذي يُخْبَزُ فيه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٩٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/ ٩٥).

(٤) قيل: المرادُ يَقرأُ أولَ السُّورةِ لا جميعَها. وقيل: كان يَقرأُ في كُلِّ جُمعةٍ بعضَها، فحَفِظَت الكلَّ. وقيل: لعلَّ المرادَ جُمُعاتٌ حضَرَت أمُّ هشامٍ فيها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١٠٤٤)، ((لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح)) للدهلوي (٣/ ٥٢٣).

(٥) أخرجه مسلم (٨٧٣).

وفي رِوايةٍ: ((مَا حَفِظْتُ ﴿قٓ﴾ إلَّا مِنْ فِي رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ...))[١].

٣- عن جابِرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَقرَأُ في الفَجرِ بـ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾، وكانتْ صلاتُه بَعْدُ تخفيفًا))[٢].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- يُستَحَبُّ قِراءتُها على المِنبَرِ يَومَ الجُمُعةِ:

عن أمِّ هِشامٍ بنتِ حارِثةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: ((ما أَخذْتُ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلَّا عن لِسانِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ يَقرَؤُها كُلَّ يومِ جُمُعةٍ على المِنبَرِ إذا خَطَبَ النَّاسَ))[٣].

٢- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقرَأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن صَلاةِ العِيدِ:

عن أبي واقِدٍ اللَّيثيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كان يَقرَأُ في الفِطرِ والأضْحَى بـ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]))[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤٥٨).

(٣) تقَدَّم تخريجُه قريبًا.

قال النَّووي: (قال العُلَماءُ: سَبَبُ اختيارِ ﴿قٓ﴾ أنَّها مُشتَمِلةٌ على البَعثِ والمَوتِ، والمواعِظِ الشَّديدةِ، والزَّواجِرِ الأكيدةِ...، وفيه استِحبابُ قِراءةِ ﴿قٓ﴾ أو بَعضِها في كُلِّ خُطبةٍ). ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٦١).

(٤) تقَدَّم تخريجُه قريبًا.

وقال ابنُ كثير: (والقَصدُ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ بهذه السُّورةِ في المجامِعِ الكِبارِ، كالعِيدِ والجُمَعِ؛ لاشتِمالِها على ابتِداءِ الخَلقِ، والبَعثِ والنُّشورِ، والمَعادِ والقِيامِ، =

٣- أنَّ سُورةَ (ق) هي أوَّلُ المُفَصَّلِ[١]، على ما رَجَّحه بَعضُ أهلِ العِلمِ[٢].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ ﴿قٓ﴾ مَكِّيَّةٌ[٣]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٤].

= والحِسابِ، والجنَّةِ والنَّارِ، والثَّوابِ والعِقابِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٣).

(١) قال السُّيوطي: (والمُفَصَّلُ ... سُمِّيَ بذلك لكَثرةِ الفُصولِ التي بيْنَ السُّوَرِ بالبَسملةِ. وقيلَ: لقِلَّةِ المنسوخِ منه؛ ولهذا يُسَمَّى بالمُحْكَمِ أيضًا، كما روَى البُخاريُّ [٥٠٣٥] عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: «إنَّ الذي تَدْعونَه المُفَصَّلَ هو المُحكَمُ»، وآخِرُه سورةُ النَّاسِ بلا نِزاعٍ. واختُلِفَ في أوَّلِه على اثنَي عَشَرَ قَولًا). ((الإتقان في علوم القرآن)) (١/ ٢٢١).

(٢) وممَّن اختار أنَّ المُفَصَّلَ يَبدأُ مِن سُورةِ ﴿قٓ﴾ إلى آخِرِ القُرآنِ: أبو الوَليدِ ابنُ رُشدٍ الجَدُّ، وابنُ كثيرٍ، والبقاعيُّ، وابن حَجرٍ، ومَرعي الكرميُّ، والشَّوكاني. يُنظر: ((البيان والتحصيل)) لابن رشد الجد (١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ١٩٥)، ((قلائد المرجان)) لمرعي (ص: ١٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٣).

وقال الزَّرْكشيُّ: (والصَّحيحُ عندَ أهلِ الأثَرِ أنَّ أوَّلَه ﴿قٓ﴾). ((البرهان في علوم القرآن)) (١/ ٢٤٦). ويُنظر: ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٢/ ٥٥).

وقال ابنُ حجر: (واختُلِفَ في أوَّلِ المُفَصَّلِ مع الاتِّفاقِ على أنَّه آخِرُ جُزءٍ مِنَ القُرآنِ). ((فتح الباري)) (٩/ ٨٤).

وقال السُّيوطيُّ: (فائِدةٌ: للمُفَصَّلِ طِوالٌ وأوساطٌ وقِصارٌ؛ قال ابنُ مَعْنٍ: فطِوالُه إلى ﴿عَمَّ﴾، وأوساطُه منها إلى «الضُّحَى»، ومنها إلى آخِرِ القُرآنِ قِصارُه. هذا أقرَبُ ما قيلَ فيه). ((الإتقان في علوم القرآن)) (١/ ٢٢٢).

(٣) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، فمَدَنيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٩).

(٤) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٧).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

تقريرُ أُصولِ الإيمانِ: البَعثُ والنُّشورُ، والنبُوَّةُ[1].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ الموضوعاتِ التي اشتَمَلت عليها هذه السُّورةُ:

١- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ، والتَّنويهُ بشَأنِه.

٢- ذِكرُ دَعاوَى المُشرِكينَ وإنكارِهم للنبُوَّةِ والبَعثِ، والرَّدُّ عليهم.

٣- الحَثُّ على النَّظَرِ في خَلقِ السَّمَواتِ وما فيها، وخَلقِ الأرضِ وما عليها، ونَشأةِ النَّباتِ والثِّمارِ، وأنَّ ذلك مَثَلٌ للإحياءِ بعدَ الموتِ.

٤- التَّذكيرُ بسُوءِ عاقِبةِ المكَذِّبينَ السَّابِقينَ، وما استحَقُّوا مِن وَعيدٍ وعَذابٍ.

٥- التَّذكيرُ بعِلمِ اللهِ تعالَى الشَّامِلِ لكُلِّ شَيءٍ.

٦- ذِكرُ سكراتِ الموتِ ومشاهدَ مِن يومِ القيامةِ وأهوالِها، وما يَجري فيها.

٧- وَعْدُ المُؤمِنينَ بالجَنَّةِ في الآخِرةِ، مع ذِكرِ أهَمِّ صِفاتِهم.

٨- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا أصابه مِن قَومِه، وإرشادُه إلى ما يُعينُه على مُداوَمةِ الصَّبرِ؛ مِنَ التَّسبيحِ آناءَ اللَّيلِ، وأطرافَ النَّهارِ، وأدبارَ السُّجُودِ.

٩- أمرُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالتذكيرِ بالقرآنِ مَن يخافُ وعيدَ الله ويخشَى عقابَه.

١٠- أمْرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتَّذكيرِ بالقُرآنِ مَن يَخافُ وَعيدَ اللهِ تعالى، ويَخشَى عِقابَه.

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٥).

الآيات (١-٥)

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾: أي: الكَريمِ، الشَّريفِ، والمَجْدُ: بُلوغُ النِّهايةِ في الكرَمِ، ووُصِف القرآنُ بذلك لكثرةِ ما يَتضمَّنُ مِن المكارمِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، والمجدُ أيضًا: الشَّرفُ الواسِعُ، وأصلُ (مجد): يدُلُّ على بُلوغِ النِّهايةِ، ولا يكونُ إلَّا في محمودٍ[١].

﴿مُّنذِرٞ﴾: أي: مُحَذِّرٌ ومُخَوِّفٌ، وأصْلُ الإنذارِ: إخبارٌ فيه تخويفٌ[٢].

﴿رَجۡعُۢ﴾: أي: إعادةٌ، يُريدون البَعثَ بعدَ الموتِ، وأصْلُ (رجع): يدُلُّ على ردٍّ وتَكرارٍ[٣].

﴿مَّرِيجٍ﴾: أي: مُختَلِطٍ، وأصْلُ (مرج): يدُلُّ على الخَلطِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يَبتدئُ اللهُ تعالَى هذه السُّورةَ الكريمةَ بأحَدِ الحُروفِ المُقَطَّعةِ، التي تأتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٧٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧١)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٧).

لبَيانِ إعجازِ هذا القُرآنِ. ثمَّ يُقسِمُ تعالَى بالقُرآنِ الكريمِ الواسِعِ المعاني، ذي الصِّفاتِ العَظيمةِ.

ثمَّ يقولُ سُبحانَه: بلْ تَعَجَّب المشركون واستَنكَروا مَجيءَ رَسولٍ مِنَ البَشَرِ يُحَذِّرُهم مِن عَذابِ اللهِ تعالَى، فقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: إنَّه لشَيءٌ عَجيبٌ أنْ يأتيَنا رَسولٌ مِنَ البَشَرِ، أئِذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا نُبعَثُ أحياءً بعدَ ذلك؟! إنَّ ذلك الرُّجوعَ إلى الحياةِ مرَّةً أخرَى بَعيدٌ وقوعُه!

ثمَّ يرُدُّ اللهُ تعالَى عليهم، فيقولُ: قدْ عَلِمْنا ما تَأكُلُ الأرضُ مِن أجسادِهم بعدَ مَوتِهم، وعِندنا كِتابٌ حافِظٌ لكلِّ شَيءٍ، مَحفوظٌ مِن الشَّياطينِ ومِن التَّغيُّرِ.

ثمَّ يَكشِفُ اللهُ تعالَى عن حَقيقةِ أمْرِهم، فيقولُ: بلْ كَذَّبوا بالقُرآنِ حينَ جاءَهم؛ فهُم في أمْرٍ مُختلِطٍ مُلتبِسٍ عليهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾.

﴿قٓ﴾.

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بهذا الحرفِ مِن الحُروفِ المقطَّعةِ التي تُستفتَحُ بها كثيرٌ مِن سُوَرِ القرآنِ لبيانِ إعجازِه؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، معَ أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها[1].

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾.

أي: أُقْسِم بالقُرآنِ الكريمِ، الواسِعِ المعاني، الشَّريفِ، ذي الصِّفاتِ العظيمةِ الكامِلةِ[2].

---

(١) يُنظر ما تَقدَّم في تفسيرِ سُورةِ البَقَرةِ (١/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾.

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾.

أي: بلْ[1] تَعَجَّبوا واستَنكَروا مَجيءَ رَسولٍ مِنَ البَشَرِ يُحَذِّرُهم مِن عَذابِ اللهِ

= (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣).

قال السَّمين الحلَبيُّ: (قولُه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾: قَسَمٌ. وفي جَوابِه أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّه قولُه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾. الثاني: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ﴾. الثالثُ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾. الرابعُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾. الخامسُ: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾. وهو قولٌ كوفيٌّ؛ قالوا: لأنَّه بمعنى «قدْ عَجِبوا». السادس: أنَّه مَحذوفٌ، فقدَّره الزجَّاج والأخفشُ والمبرِّدُ «لَتُبْعَثُنَّ»). ((الدر المصون)) (١٠/ ١٧).

ويُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٤١).

وقال ابنُ كَثير: (الجَوَابُ هو مَضْمونُ الكلامِ بعْدَ القَسَمِ، وهو إثْباتُ النُّبوَّةِ، وإثباتُ المَعادِ، وتَقْريرُه وتَحقيقُه وإنْ لمْ يَكُنِ القَسَمُ مُتلقًّى لفظًا، وهذا كثيرٌ في أقْسامِ القُرآنِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٢، ٤٢٧).

وقيل: الجوابُ هو الَّذي وقَعَ عنه الإضرابُ بـ﴿بَلْ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق: ٢]، يعني كأنَّه قال: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ ما رَدُّوا أمْرَك بحُجةٍ، أو ما كذَّبوك ببُرهانٍ. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٥).

وقال ابنُ القَيِّم: (هاهنا قد اتَّحَد المُقسَمُ به والمُقسَمُ عليه، وهو القُرآنُ؛ فأقسَمَ بالقُرآنِ على ثُبوتِه وصِدقِه، وأنَّه حَقٌّ مِن عِندِه؛ ولذلك حُذِفَ الجُوابُ ولم يُصَرَّحْ به؛ لِما في القَسَمِ مِن الدَّلالةِ عليه، أو لأنَّ المقصودَ نَفسُ المُقسَمِ به). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٤٢٥).

وقال ابنُ عُثَيمين: (وأظهَرُ ما يكونُ أنْ نقولَ: إنَّ مِثلَ هذا التركيبِ لا يَحتاجُ إلى جَوابِ القَسَمِ؛ لأنَّه معروفٌ مِن عَظَمةِ المُقسَمِ عليه، فكأنَّه أقسَمَ بالقُرآنِ على صِحَّةِ القُرآنِ؛ فالقُرآنُ المَجيدُ لِكَونِه مجَيدًا كان دَليلًا على الحَقِّ، وأنَّه مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وحينَئذٍ لا يَحتاجُ القَسَمُ إلى جوابٍ؛ لأنَّ الجَوابَ في ضِمنِ القَسَمِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٢).

(١) قال الشَّوكاني: (﴿بَلْ﴾ لِلإضْرابِ عن الجوابِ على اختِلافِ الأقوالِ، و﴿أَن﴾ في مَوضِعِ =

تعالى[(١)].

= نَصْبٍ على تقديرِ: لِأَنْ جاءَهم. والمعنى: بلْ عَجِبَ الكفَّارُ لِأَنْ جاءهُم مُنذِرٌ منهم، وهو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولم يَكْتَفوا بمُجَرَّدِ الشَّكِّ والرَّدِّ، بلْ جَعَلوا ذلك مِن الأمورِ العجيبةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٤).

وقال القاسميُّ: (وقيل: هو إضرابٌ عمَّا يُفهَمُ مِن وَصفِ القُرآنِ بالمَجيدِ، كأنَّه قيل: ليس سَبَبُ امتناعِهم من الإيمانِ بالقُرآنِ أنَّه لا مَجْدَ له، ولكِنْ لجَهْلِهم). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٦).

وقال ابنُ عادلٍ: (إذا ترَكَ المتكلِّمُ المُضْرَبَ عنه صريحًا وأتى بحرفِ الإضرابِ، اسْتُفِيدَ منه أمرانِ:

أحدُهما: الإشارةُ إلى أمْرٍ آخَرَ قبْلَه مُضرَبٌ عنه.

والثاني: عِظَمُ التَّفاوتِ بيْنهما، وهاهنا كذلك؛ لأنَّ الشَّكَّ بعْد قيامِ البُرهانِ بعيدٌ، لكنَّ القطعَ بخلافِه في غايةِ ما يكون مِن البُعدِ، فالعجَبُ منه أبعَدُ). ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٩)، ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٨-٢٧٩).

قال ابنُ عطيةَ: (واختَلَف النَّاسُ في الضَّميرِ في ﴿عَجِبُوٓاْ﴾ لِمَن هو؟ فقال جمهورُ المتأوِّلينَ: هو لجَميعِ النَّاسِ مُؤمِنِهم وكافِرِهم... لكِنِ المُؤمِنونَ نَظَروا واهتَدَوا، والكافِرونَ بَقُوا في عَمايتِهم وصَمُّوا وحاجُّوا بذلك العَجَبِ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾. وقال آخَرونَ: بل الضَّميرُ في ﴿عَجِبُوٓاْ﴾ للكافِرينَ، وكَرَّر الكلامَ تأكيدًا ومُبالَغةً). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٦).

قيلَ المرادُ بالآيةِ: تعجُّبُهم من مَجيءِ رَسولٍ بَشَريٍّ إليهم. وممَّن اختارَه: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٨-٢٧٩).

قال السَّعدي: (مِن جِنسِهم، يُمكِنُهم التلقِّي عنه، ومعرفةُ أحوالِه وصِدقِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣).

وقيل: المرادُ بـ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: مِن قَومِهم، قد عرَفوا نسَبَه وصِدقَه وأمانتَه. وممَّن اختارَه في الجُملةِ: السَّمرقنديُّ، والثَّعلبيُّ، والبَغويُّ، والزمخشريُّ، والنَّسَفيُّ، والخازنُ، وهو ظاهِرُ اختيار البقاعيِّ، وابن عُثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦١)، ((تفسير =

كما قال الله تعالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾

أي: فقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: إنَّه لشَيءٌ مُستغرَبٌ ومُستبعَدٌ أنْ يَأتيَنا رَسولٌ مِنَ البَشَرِ يُنذِرُ بعَذابٍ بعدَ الموتِ[1]!

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أظهَرَ الكافِرونَ العَجَبَ مِن رِسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أظهَروا استِبعادَ ما أخبَرَهم به[2].

وأيضًا لَمَّا كان المتعَجَّبُ منه مُجمَلًا، أوضَحَه بقَولِه[3]:

= الخازن)) (٤/ ١٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٣-٤٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٥).

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾.

أي: قال المُشرِكونَ: أئِذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا نُبعَثُ أحياءً بعْدَ ذلك، ونَرى ما وُعِدْنا مِن العَذابِ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨١ - ٨٣].

﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.

أي: قال المُشرِكونَ: رَدُّنا أحياءً بعدَ مَوتِنا وصَيْرورتِنا تُرابًا وعِظامًا، بَعيدٌ وقوعُه، ومحالٌ حُدوثُه[2]!

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبْلَها:

لَمَّا كان السِّياقُ لإحاطةِ العِلمِ بما نَعلَمُ وما لا نَعلَمُ، توقَّع السَّامعُ الجوابَ عن هذا الجَهلِ؛ فقال مُزيلًا لسَببِه[3]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٤).

قال ابنُ عُثَيمين: (يَحسُنُ عندَ التِّلاوةِ أن تَقِفَ على قَولِه: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾؛ لأنَّ قَولَه: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ جملةٌ استِئنافيَّةٌ لا عَلاقةَ لها مِن حيثُ الإعرابُ بما قَبْلَها). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٤). ويُنظر: ((القطع والائتناف)) للنحَّاس (ص: ٦٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٥).

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾.

أي: قدْ عَلِمْنا ما تَأْكُلُ الأرضُ مِن أجسادِهم بعدَ مَوتِهم، ولا يَخْفى علَيْنا شَيءٌ مِن أجزاءِ أجسامِهم المتفرِّقةِ؛ فلا يظُنَّ الكافِرونَ أنَّنا غيرُ قادِرينَ على إحيائِهم إذا ماتوا وصاروا تُرابًا[١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ليْس مِنَ الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبلَى، إلَّا عَظمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ[٢]، ومنه يُركَّبُ الخَلْقُ يومَ القِيامةِ))[٣].

وعن أَوسِ بنِ أَوسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ مِن أفضَلِ أيَّامِكم يومَ الجُمُعةِ؛ فيه خُلِقَ آدَمُ، وفيه النَّفخةُ، وفيه الصَّعقةُ، فأكثِروا علَيَّ مِن الصَّلاةِ فيه؛ فإنَّ صَلاتَكم مَعروضةٌ عليَّ. فقال رجلٌ: يا رَسولَ اللهِ، كيف تُعرَضُ صَلاتُنا عليك وقد أَرَمْتَ؟! -يعني: بَلِيتَ- فقال: إنَّ اللهَ حَرَّم على الأرضِ أنْ تَأْكُلَ أجسادَ الأنبياءِ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠-٢٨١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٤).

(٢) عَجْبُ الذَّنَبِ: هو العَظْمُ اللَّطيفُ الَّذي في أسفلِ فَقارِ الظَّهرِ، وأعْلَى ما بينَ الأَلْيَتَينِ، وهو رأسُ العُصعُصِ. يُنظر: ((التعليق على الموطأ)) للوقشي (١/ ٢٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩٢)، ((طرح التثريب)) للعراقي (٣/ ٣٠٧).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٩٣٥)، ومسلمٌ (٢٩٥٥).

(٤) أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنَّسائيُّ (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٦٣٦) واللفظ له، وأحمد (١٦١٦٢). صَحَّحه على شرْط الشَّيخينِ: الحاكمُ في ((المستدرك)) (٥/ ٧٧٦)، ومحمد بن عبد الهادي في ((الصارم المُنْكي)) (٣٣٦)، وابن باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (٢/ ٢٠٦)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٦٣٦)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((المجموع)) (٤/ ٥٤٨)، وذكَرَ ثُبوتَه ابنُ تيميَّة في ((حقوق آل البيت)) (٦٠)، وصحَّحه لغيره شُعيبٌ الأرناؤوط في =

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾.

أي: وعِندنا كِتابٌ يَحوي كلَّ شَيءٍ، وحافِظٌ لكلِّ شَيءٍ، وهو مَحفوظٌ مِن الشَّياطينِ ومِن التغيُّرِ(١).

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾.

= تخريج ((سنن أبي داود)) (١٠٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٥).

قال الرازيُّ: (الحَفيظُ: يحتَمِلُ أنْ يكونَ بمعنى المحفوظِ، أي: مَحفوظٌ مِن التغييرِ والتبديلِ، ويحتَمِلُ أنْ يكونَ بمعنى الحافِظِ، أي: حافِظٌ أجزاءَهم وأعمالَهم، بحيث لا يَنسى شيئًا منها). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٥).

وقيل: هو محفوظٌ من الشَّياطينِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: مُقاتلُ بنُ سُليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: مَحفوظٌ مِن الشَّياطينِ، ومِن أنْ يُدرَسَ ويُبعثَرَ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ: الثَّعلبيُّ، والبَغويُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٠).

وممَّن اختار أنَّ ﴿حَفِيظٌ﴾ بمعنى حافظٍ: القُرطبيُّ، والشَّوكاني، وابن عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠١).

قال البقاعيُّ: (أي: بالِغٌ في الحِفظِ لا يَشِذُّ عنه شَيءٌ مِن الأشياءِ دَقَّ أو جَلَّ، فكيف يَستبعِدونَ على عظَمَتِنا أنْ نَقدِرَ على تَمييزِ تُرابِهم مِن تُرابِ الأرضِ، ولم يَختلِطْ في عِلْمِنا شيءٌ مِن جُزءٍ منه بشَيءٍ مِن جُزءٍ آخَرَ، فَضلًا عن أنْ يختَلِطَ شَيءٌ منه بشَيءٍ آخَرَ مِن تُرابِ الأرضِ أو غيرِها). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٠٦).

وقال العُلَيمي: (﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ مَحفوظٌ مِن الشياطينِ، جامعٌ لم يَفُتْه شيءٌ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨٠).

أي: بلْ[(١)] سارَعوا إلى التَّكذيبِ بالقُرآنِ حينَ جاءَهم[(٢)].

﴿فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

أي: فهُم في أمْرٍ مُختلِطٍ مُضطَرِبٍ مُلتبِسٍ عليهم[(٣)].

---

(١) قال الشَّوكاني: (أضْرَب سُبحانَه عن كَلامِهم الأوَّلِ، وانْتَقَل إلى ما هو أشنعُ منه فقالَ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾؛ فإنَّه تصريحٌ منهم بالتكذيبِ بعدَ ما تقدَّم عنهم مِن الاستبعادِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٥). يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٤).

وقال ابنُ عُثَيمين: (﴿بَلْ﴾ هنا للإضرابِ الانتقاليِّ، ولَيستْ للإضرابِ الإبطاليِّ؛ لأنَّ الأوَّلَ ثابِتٌ، والثَّانيَ زائِدٌ عليه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٥).

وقال ابنُ عطيةَ: (وقبْلَ قَولِه: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ﴾ مُضمَرٌ، عنه وقَع الإضرابُ، تقديرُه: ما أجادوا النَّظَرَ، أو نحوُ هذا، والَّذي يَقَعُ عنه الإضرابُ بـ﴿بَلْ﴾ الأغلَبُ فيه أنَّه مَنفيٌّ تَقضي «بَلْ» بفَسادِه، وقدْ يكونُ أمرًا موجَبًا تَقضي «بَلْ» بتَركِ القَولِ فيه لا بفَسادِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٧).

وقيل: المضروبُ عنه تقديرُه: لم يَكذِبِ المُنذِرُ، بلْ هم الَّذين كَذَّبوا؛ فإنَّه تعالَى لَمَّا قال عنهم: إنَّهم قالوا: هذا شيءٌ عَجيبٌ، كان في معنى قولِهم: إنَّ المُنذِرَ كاذِبٌ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٥).

قال الماوردي: («الحقُّ» يعني القرآنَ في قَولِ الجميعِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٥، ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٥).

قال ابنُ القيِّم: (لَمَّا تَرَكوا الحَقَّ وعَدَلوا عنه مَرَج عليهم أمرُهم والتَبَس، فلا يَدرونَ ما يقولونَ وما يَفعلونَ، بلْ لا يقولونَ شيئًا إلَّا كان باطِلًا، ولا يَفعلونَ شَيئًا إلَّا كان ضائِعًا غيرَ نافعٍ لهم، وهذا شأنُ كُلِّ مَن خرَج عن الطَّريقِ الموصِلِ إلى المقصودِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٢٧-١٢٨).

وقال السِّعديُّ: (فتارةً يقولونَ عنك: إنَّك ساحِرٌ، وتارةً مجنونٌ، وتارةً شاعِرٌ، وكذلك جعَلوا القُرآنَ عِضِينَ؛ كُلٌّ قال فيه ما اقتضاهُ رأيُه الفاسِدُ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَال اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ فهو وَسيعُ المعاني عَظيمُها، كَثيرُ الوُجوهِ، كَثيرُ البَرَكاتِ، جَزيلُ المبَرَّاتِ، والمجدُ: سَعةُ الأوصافِ وعَظَمتُها، وأحَقُّ كَلامٍ يُوصَفُ بهذا: هذا القُرآنُ الذي قدِ احتوى على عُلومِ الأوَّلِينَ والآخِرينَ، الذي حَوى مِنَ الفَصاحةِ أكمَلَها، ومِنَ الألفاظِ أجزَلَها، ومِنَ المعاني أعَمَّها وأحسَنَها، وهذا مُوجِبٌ لكَمالِ اتِّباعِه، وسُرعةِ الانقيادِ له، وشُكرِ اللهِ على المِنَّةِ به[١]. وقيل: المجْدُ صِفةُ العَظَمةِ والسُّلطانِ، فالقُرآنُ مَجيدٌ ذو غَلَبةٍ وذو سُلطانٍ، يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، مَن تمسَّك به فله العِزَّةُ وله الغَلَبةُ، والمجدُ هو العِزَّةُ والسُّلطانُ والقُوَّةُ، فالقُرآنُ مَجيدٌ، ومَن تمسَّك بالمَجيدِ كان مَجيدًا عَظيمًا[٢].

٢- مَن رَدَّ الحَقَّ مَرَجَ عليه أمرُه، واختَلَطَ عليه، والْتبَسَ عليه وَجهُ الصَّوابِ؛ فلم يَدْرِ أين يذهَبُ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[٣]، فكلُّ إنسانٍ يَرُدُّ الحقَّ أوَّلَ مرَّةٍ فلْيَعلَمْ أنَّه سيُبتلَى بالشَّكِّ والرَّيبِ في قَبولِ الحقِّ في المُستَقبَلِ؛ فهؤلاء لَمَّا كَذَّبوا صاروا في أمْرٍ مَريجٍ، الْتبَسَ عليهم الأمرُ وتَرَدَّدُوا فيه. وبَعضُ النَّاسِ حينَ يُقالُ له: أَمَرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذا، يَقولُ: الأمرُ للوُجوبِ أمْ للاستِحبابِ؟! ويَقصِدُ: إذا كان للاستِحبابِ فأنا في حِلٍّ منه، وإذا كان للوُجوبِ فعَلْتُه! وهذا خَطأٌ، ولكِنْ قُلْ: سَمِعْنا وأطَعْنا، وافعَلْ ما أُمِرْتَ به سواءً على الوُجوبِ أو على الاستِحبابِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٨٠٣).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٥).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالَى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ عَجَّب منهم هذا العَجَبَ بقَولِه: ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ لأنَّ العادةَ عِندَهم وعِندَ جميعِ النَّاسِ أنَّه إذا كان النَّذيرُ منهم لم يُداخِلْهم في إنذارِه شَكٌّ بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ، وهؤلاء خالَفوا عادةَ النَّاسِ في تَعجُّبِهم مِن كَونِ النَّذيرِ -وهو أحَدُهم- خُصَّ بالرِّسالةِ دُونَهم، ولم يُدرِكوا وَجهَ الخُصوصيَّةِ لكونَه مِثْلَهم، فكذلك أنكَروا رِسالتَه وفَضْلَ كِتابِه بألسِنَتِهم نَفاسةً وحَسَدًا؛ لأنَّهم كانوا مُعترِفينَ بخَصائِصِه التي رفَعه اللهُ تعالَى عليهم بها قبْلَ الرِّسالةِ، فحَطَّهم عَجَبُهم ذلك إلى الحَضيضِ مِن دَرَكاتِ السَّفَهِ وخِفَّةِ الأحلامِ؛ لأنَّهم عَجِبوا أنْ كان الرَّسولُ بَشَرًا، وأوجَبوا أنْ يكونَ الإلهُ حَجَرًا! وعَجِبوا مِن أنْ يُعادوا مِن تُرابٍ وتَثبُتَ له الحياةُ، ولم يَعجَبوا أنْ يُبتَدَؤوا مِن تُرابٍ، ولم يكُنْ له أصلٌ في الحياةِ[(١)]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ يدُلُّ على البَعثِ، وقُدرتِه تعالَى عليه؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى عالِمٌ بأجزاءِ كُلِّ واحِدٍ مِن الموتَى، لا يَشتَبِهُ عليه جُزءُ واحِدٍ بجُزءِ الآخَرِ، وقادِرٌ على الجَمعِ والتَّأليفِ؛ فليس الرَّجعُ منه ببَعيدٍ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه يُعيدُ هذا الجَسَدَ بعَينِه، الَّذي أطاع وعَصى، فيُنَعِّمُه ويُعَذِّبُه، كما يُنَعِّمُ الرُّوحَ التي آمَنَتْ بعَينِها، ويُعَذِّبُ التي كَفَرَتْ بعَينِها، لا أنَّه سُبحانَه يَخلُقُ رُوحًا أُخرى غيرَ هذه فيُنَعِّمُها ويُعَذِّبُها، كما قاله مَن لم يَعرِفِ المعادَ الذي أَخبرَتْ به الرُّسُلُ؛ حيثُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٥).

زَعَمَ أنَّ اللهَ سُبحانَه يَخلُقُ بَدَنًا غيرَ هذا البَدَنِ مِن كلِّ وَجهٍ، عليه يَقَعُ النَّعيمُ والعَذابُ! فإنَّه سُبحانَه جَعَلَ هذا جَوابًا لسؤالٍ مُقَدَّرٍ؛ وهو أنَّه يُمَيِّزُ تلك الأجزاءَ التي اختَلَطَتْ بالأرضِ واستَحالتْ إلى العناصرِ بحيثُ لا تَتميَّزُ؛ فأخبَرَ سُبحانَه أنَّه قدْ عَلِمَ ما تَنقُصُه الأرضُ مِن لُحومِهم وعِظامِهم وأشعارِهم، وأنَّه كما هو عالِمٌ بتلك الأجزاءِ فهو قادِرٌ على تَحصيلِها وجَمعِها بعدَ تَفَرُّقِها، وتأليفِها خَلْقًا جديدًا[(١)].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: بناءً على هذا التَّكذيبِ صاروا في أمْرٍ مَريجٍ مُضطَرِبٍ، ليْس لهم قَرارٌ، وليْس لهم سُكونٌ؛ ولذلك تَجِدُ الإنسانَ كُلَّما كان أشَدَّ يَقينًا في دِينِ اللهِ كان أثبَتَ وأنظَمَ لعَمَلِه، وكُلَّما كان أشَدَّ تَكذيبًا كان دائِمًا في قَلَقٍ؛ ولذلك قال: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[(٢)].

٥- قال اللهُ تعالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ يُستفادُ مِن هذه الآيةِ: أنَّ مِمَّا يَفتَحُ اللهُ به على العَبدِ في مَعرفةِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ أنْ يكونَ مُصَدِّقًا مُوقِنًا؛ فكُلَّما كان مُصَدِّقًا مُوقِنًا فَتَحَ اللهُ له ما لا يَفتحُه لِغَيرِه، أمَّا مَن كان مُكَذِّبًا فإنَّ أبوابَ الهدايةِ تُغلَقُ دُونَه؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، والعِياذُ باللهِ![(٣)]

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۞ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٦-١٥٧).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ قسَمٌ بالقُرآنِ، والقسَمُ به كِنايةٌ عن التَّنويهِ بشأْنِه؛ لأنَّ القسَمَ لا يكونُ إلَّا بعَظيمٍ عندَ المُقسِمِ؛ فكان التَّعظيمُ مِن لَوازمِ القَسَمِ، وأتْبَعَ هذا التَّنويهَ الكِنائيَّ بتَنويهٍ صَريحٍ بوصْفِ القرآنِ بـ﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾؛ فالمَجيدُ المتَّصِفُ بقوَّةِ المجْدِ، والمجْدُ: الشَّرَفُ الكاملُ وكَرَمُ النَّوعِ، ودلَّت صِيغةُ المُبالَغةِ (مَجيد) على كَمالِ مَجْدِه[١].

- وجَوابُ القَسمِ مَحذوفٌ؛ لِتَذهَبَ نفْسُ السامعِ في تَقديرِه كلَّ طريقٍ مُمكنٍ في المَقامِ، ويدُلُّ عليه ابتداءُ السُّورةِ بحرْفِ (ق) المُشعِرِ بالنِّداءِ على عَجزِهم عن مُعارَضةِ القرآنِ بعدَ تَحدِّيهم بذلك، أو يَدلُّ عليه الإضرابُ في قَولِه: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾، والتَّقديرُ: والقُرآنِ المَجيدِ، إنَّك لَرسولُ اللهِ بالحقِّ، أو يُقدَّرُ الجوابُ: إنَّه لَتنزيلٌ مِن ربِّ العَالَمين، أو نحوُ ذلك[٢]. وقيلَ غيرُ ذلك.

- وفي قَولِه: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ؛ أضرَبَ عن جَوابِ القسَمِ المحذوفِ لبيانِ حالتِهم الزَّائدةِ في الشَّناعةِ والقُبحِ، وهذا الإضرابُ يَقْتضي كَلامًا مُنتقَلًا منه، فتَعيَّنَ أنْ يُقدِّرَ السَّامعُ جَوابًا تَتمُّ به الفائدةُ يدُلُّ عليه الكلامُ، وهذا مِن إيجازِ الحذْفِ[٣]، وحسَّنَه أنَّ الانتقالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨١).
وينظر ما تقدم (ص: ٣٦٧).

(٣) الإيجازُ: هو الاختِصارُ والجمْعُ للمعاني الكَثيرةِ بالألْفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ مِن الكلامِ بأقلَّ مِن عباراتِ مُتعارَفِ الأوساطِ. ويكونُ الإيجازُ مَحمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصودِ. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغة كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسنُ الإيجازِ.
والإيجازُ نوعانِ: =

مُشعِرٌ بأهمِّيَّةِ المُنتقَلِ إليه، أي: عُدْ عمَّا تُريدُ تَقديرَه مِن جَوابٍ، وانتَقِلْ إلى بَيانِ سَببِ إنكارِهم الذي حَدَا بنا إلى القَسَمِ[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في الإنكارِ إنكارًا لعجَبِهم البالِغِ حَدَّ الإحالةِ؛ فهو إنكارٌ لتَعجُّبِهم ممَّا ليس بعجَبٍ -وهو أنْ يُنذِرَهم بالمَخُوفِ رجُلٌ منهم قدْ عرَفوا وَساطتَه فيهم وعَدالتَه وأمانتَه، ومَن كان على صِفتِه لم يكُنْ إلَّا ناصحًا لقومِه، خائفًا أنْ يَنالَهم سُوءٌ، ويَحُلَّ بهم مَكروهٌ، وإذا عَلِمَ أنَّ مَخُوفًا أظلَّهم، لَزِمَه أنْ يُنذِرَهم ويُحذِّرَهم؛ فكيْف بما هو غايةُ المخاوفِ ونِهايةُ المحاذيرِ؟!- وإنكارٌ لتعجُّبِهم ممَّا أنذَرَهم به مِن البَعثِ مع عِلمِهم بقُدْرةِ اللهِ تعالَى على خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنهما، وعلى اختراعِ كُلِّ شَيءٍ وإبداعِه، وإقرارِهم بالنَّشأةِ الأُولَى، ومعَ شَهادةِ العقلِ بأنَّه لا بُدَّ مِن الجزاءِ[2].

= الأولُ: إيجازُ القِصَرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغةِ)، وهو ما ليس بحَذْفٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه معَ أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا عِلِم أنَّه متَى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتالِ؛ فارتفَع بالقتْلِ -الذي هو قِصاصٌ- كثيرٌ مِن قتْلِ الناسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم.

الثاني: إيجازُ الحَذْف، والإيجازُ بالحذْفِ: هو حذفُ ما يُعلَمُ ويُفهَمُ مِن سِياقِ الكلامِ بشرطِ وُجودُ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه؛ فقدْ يكونُ الإيجازُ بالحذفِ وغيرِه. والفرقُ بينَ الحذفِ والإيجازِ أن يكون في الحذفِ مقدَّرٌ، بخِلافِ الإيجازِ؛ فإنَّه عبارةٌ عن اللفظِ القليلِ الجامعِ للمعاني الجمَّةِ بنفْسِه. يُنظر: ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشِيق (١/ ٢٤٢)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما بعدها)، ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٧٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٩، ٣٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير =

- وضَميرُ ﴿عَجِبُوٓاْ﴾ عائدٌ إلى غَيرِ مذْكورٍ؛ فمَعادُه مَعلومٌ مِن السِّياقِ، وهو افتتاحُ السُّورةِ بحرْفِ التَّهجِّي الذي قُصِدَ منه تَعجيزُهم عن الإتيانِ بمِثلِ القرآنِ؛ لأنَّ عجْزَهم عن الإتيانِ بمِثْلِه في حالِ أنَّه مُركَّبٌ مِن حُروفِ لُغتِهم، يدُلُّهم على أنَّه ليْس بكلامِ بَشرٍ، بلْ هو كلامُ اللهِ أبلَغَه إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على لِسانِ المَلَكِ؛ فإنَّ المُتحَدَّينَ بالإعجازِ مَشهورون يَعلَمُهم المسلِمونَ، وهم أيضًا يَعلَمونَ أنَّهم المَعْنيُّونَ بالتَّحدِّي بالإعجازِ[١]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- و﴿أَن جَآءَهُم﴾ مَجرورٌ بـ (مِن) المَحذوفةِ، أي: عَجِبوا مِن مَجيءِ مُنذرٍ منهم، أو عَجِبوا مِن ادِّعاءِ أنْ جاءهُم مُنذِرٌ منهم[٢].

- وعُبِّرَ عن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بوَصْفِ ﴿مُّنذِرٌ﴾ -وهو المخبِرُ بشَرٍّ سيَكونُ-؛ للإيماءِ إلى أنَّ عجَبَهم كان ناشئًا عن صِفتَينِ في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إحداهما: أنَّه مُخبِرٌ بعذابٍ يكونُ بعدَ الموتِ، أي: مُخبِرٌ بما لا يُصدِّقون بوُقوعِه، وإنَّما أنذَرَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعَذابِ الآخِرةِ بعدَ البعثِ، والثانيةُ: كونُه مِن نَوعِ البشَرِ[٣].

- واقتُصِرَ على النِّذارةِ؛ لأنَّه لَمَّا لم يَتعيَّنْ للبِشارةِ مَوضِعٌ كان في حَقِّهم مُنذِرًا لا غيرُ[٤]، أو لِتَخويفِ مَن أنكَرَ البَعثَ؛ اقتُصِرَ على النِّذارةِ[٥]، أو أنَّه

= أبي حيان)) (٩/ ٥٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٣).

عُبِّرَ بما دَلَّ على النِّذارةِ؛ لأنَّها المقصودُ الأعظَمُ مِن هذه السُّورةِ[١].

- قولُه: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ حِكايةٌ لتعجُّبِهم، وتفسيرٌ له، وبيانٌ لكَونِه مُقارنًا لغايةِ الإنكارِ، مع زِيادةِ تَفصيلٍ لمحَلِّ التَّعجُّبِ[٢].

- وفُرِّعَ على التَّكذيبِ الحاصِلِ في نُفوسِهم ذِكْرُ مَقالتِهم التي تُفصِحُ عنه وعن شُبهتِهم الباطلةِ بقولِه: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، وخُصَّ هذا بالعِنايةِ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه أدخَلُ عِندَهم في الاستبعادِ، وأحَقُّ بالإنكارِ؛ فهو الذي غَرَّهم، فأحالوا أنْ يُرسِلَ اللهُ إليهم أحدًا مِن نَوعِهم؛ ولذلك وُصِفَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ابتداءً بصِفةِ ﴿مُّنذِرٌ﴾ قبْلَ وَصفِه بأنَّه منهم؛ ليدُلَّ على أنَّ ما أنذَرَهم به هو الباعِثُ الأصليُّ لتكذيبِهم إيَّاه، وأنَّ كونَه منْهم إنَّما قوَّى الاستِبعادَ والتَّعجُّبَ. ثم إنَّ ذلك يُتخَلَّصُ منه إلى إبطالِ حُجَّتِهم وإثباتِ البَعثِ، وهو المقصودُ بقولِه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ إلى قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[٣] [ق: ٤- ١١].

- قولُه: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ ...﴾ وقولُه: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ إضْمارُهم أوَّلًا في قَولِه: ﴿عَجِبُوٓاْ﴾؛ للإشعارِ بتَعيُّنِهم بما أُسنِدَ إليهم، وإظهارُهم ثانيًا ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ ...﴾ للتَّسجيلِ عليهم بالكُفْرِ بمُوجِبِه. أوْ عطْفٌ لتَعجُّبِهم مِن البَعثةِ، على أنَّ ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى مُبْهمٍ يُفسِّرُه ما بعْدَه مِن الجُملةِ الإنكاريَّةِ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾، ووضْعُ المُظهَرِ مَوضعَ المُضمرِ؛ إمَّا لسَبْقِ اتِّصافِهم بَما يُوجِبُ كُفْرَهم، وإمَّا للإيذانِ بأنَّ تَعجُّبَهم مِن البَعثِ -لدَلالتِه على

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٩).

استِقصارِهم لقُدْرةِ اللهِ سُبحانَه عنْه، معَ مُعايَنتِهم لقُدْرتِه تعالَى على ما هُو أشقُّ منْه في قِياسِ العَقلِ مِن مَصنوعاتِه البَديعةِ- أشنَعُ مِن الأوَّلِ، وأعرَقُ في كَونِه كُفْرًا[١]، وقيل غيرُ ذلك[٢].

- وحصَلَ في ضمْنِ هاتَينِ الفاصلتينِ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۞ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ خُصوصيَّاتٌ كثيرةٌ مِن البلاغةِ؛ منها إيجازُ الحذْفِ[٣]، ومنها: ما أفادَه الإضرابُ مِن الاهتِمامِ بأمرِ البَعثِ، ومنها: الإيجازُ البَديعُ الحاصِلُ مِن التَّعبيرِ بوصْفِ ﴿مُّنذِرٞ﴾، ومنها: إقحامُ وصْفِه بأنَّه ﴿مِّنۡهُمۡ﴾؛ لأنَّ لذلك مَدخلًا في تَعجبُّهم، ومنها: الإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ على خِلافِ مُقْتضى الظاهرِ؛ فوُضِع ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ للشَّهادةِ على أنَّهم في قَولِهم هذا مُقدِمونَ على الكُفرِ العظيمِ، ومنها: الإجمالُ المُعْقَبُ بالتَّفصيلِ في قَولِه: ﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۞ أَءِذَا مِتۡنَا﴾[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾

- قولُه: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ والإبطالِ، والجُملةُ تَقريرٌ للتَّعجيبِ وتأْكيدٌ للإنكارِ، يُريدون تَعجيبَ السَّامعين مِن ذلك تَعجيبَ إحالةٍ؛ لئلَّا يُؤمِنوا به، وجعَلوا مَناطَ التَّعجيبِ الزَّمانَ الذي

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٤).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٩).

أفادَتْه (إذا) وما أُضِيفَ إليه، أي: زَمنَ مَوتِنا، وكَونِنا تُرابًا. والمُستفهَمُ عنه مَحذوفٌ دلَّ عليه ظرْفُ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾، وحُذِفَ لأنَّه غَنيٌّ عنِ البَيانِ؛ لغايةِ شُهْرتِه معَ دَلالةِ ما بعْدَه عليه، والتَّقديرُ: أنرْجِعُ إلى الحياةِ في حِينِ انعِدامِ الحياةِ منَّا بالموتِ، وحِينِ تَفتُّتِ الجَسَدِ وصَيرورتِه تُرابًا[1]؟!

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ مُؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ بطَريقِ الحَقيقةِ والذِّكْرِ؛ لأنَّ شأنَ التَّأكيدِ أنْ يكونَ أجْلَى دَلالةً[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لرَدِّ قَولِهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]؛ فإنَّ إحالتَهم البَعثَ ناشئةٌ عن عِدَّةِ شُبَهٍ؛ منها: أنَّ تفرُّقَ أجزاءِ الأجسادِ في مَناحي الأرضِ ومَهابِّ الرِّياحِ، لا يُبقي أمَلًا في إمكانِ جَمعِها؛ إذْ لا يُحيطُ بها مُحيطٌ، وأنَّها لو عُلِمَت مَواقعُها لَتعذَّرَ الْتقاطُها وجَمعُها، ولوْ جُمِعَت كيف تَعودُ إلى صُوَرِها التي كانتْ مُشكَّلةً بها، وأنَّها لو عادتْ كيف تَعودُ إليها؟! فاقتُصِرَ في إقْلاعِ شُبَهِهم على إقلاعِ أصْلِها، وهو عَدَمُ العِلمِ بمَواقعِ تلك الأجزاءِ وذرَّاتِها. وفُصِلَت الجُملةُ بدونِ عطْفٍ؛ لأنَّها ابتداءُ كَلامٍ لردِّ كَلامِهم، وهذا هو الأليَقُ بنَظْمِ الكلامِ. وقيل: هي جَوابُ القسَمِ، وأيًّا ما كان فهو رَدٌّ لقولِهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾[3].

- وأيضًا هذا الكَلامُ بَيانٌ للإمكانِ؛ رَعيًا لِمَا تَضمَّنه كَلامُهم مِن الإحالةِ؛ لأنَّ ثُبوتَ الإمكانِ يُقلِعُ اعتِقادَ الاستِحالةِ مِن نُفوسِهم، وهو كافٍ لإبطالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠، ٢٨١).

تَكذيبِهم ولاستِدعائِهم للنَّظَرِ في الدَّعوةِ، ثم يَبْقى النَّظَرُ في كيفيَّةِ الإعادةِ، وهي أمْرٌ لم نُكلَّفْ بالبحثِ عنه[١].

- وعُبِّرَ بلفظِ ﴿نَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾ دونَ التَّعبيرِ بالإعدامِ؛ لأنَّ للأجسادِ درَجاتٍ مِن الاضمحلالِ تَدخُلُ تحْتَ حقيقةِ النَّقصِ؛ فقدْ يَفنى بعضُ أجزاءِ الجسَدِ ويَبْقى بعضُه، وقدْ يَأتي الفَناءُ على جميعِ أجزائِه، إلا أنَّه قدْ صحَّ أنَّ عَجْبَ الذَّنَبِ لا يَفنَى[٢]، فيكون فَناءُ الأجسادِ نَقصًا لا انعدامًا[٣].

- قولُه: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ عُطِفَ على قولِه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ عَطْفَ الأعمِّ على الأخصِّ، وهو بمَعنى تَذييلٍ لجُملةِ ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، أي: وعِندَنا عِلمٌ بكلِّ شَيءٍ عِلمًا ثابتًا؛ فتَنكيرُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ للتَّعظيمِ، وهو تَعظيمُ التَّعميمِ، أي: عِندنا كِتابُ كلِّ شَيءٍ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ إضرابٌ ثانٍ تابعٌ للإضرابِ الذي في قَولِه: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق: ٢] على طَريقةِ تَكريرِ الجُملةِ في مَقامِ التَّنديدِ والإبطالِ، أو بدَلٌ مِن جُملةِ ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾؛ لأنَّ ذلك العجَبَ مُشتمِلٌ على التَّكذيبِ، وكِلا الاعتبارَينِ يَقْتضيانِ فصْلَ هذه الجُملةِ بدونِ عاطفٍ، والمَقصِدُ مِن هذه الجُملةِ: أنَّهم أتَوا بأفظَعَ وأشنَعَ وأقبَحَ مِن إحالتِهم البَعثَ؛ وذلك هو التَّكذيبُ بالحقِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨١).

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي =

- و﴿لَمَّا﴾ حرْفُ تَوقيتٍ؛ فهي دالَّةٌ على ربْطِ حُصولِ جَوابِها بوقْتِ حُصولِ شَرْطِها، فهي مُؤذِنةٌ بمُبادَرةِ حُصولِ الجوابِ عندَ حُصولِ الشَّرطِ، والمعنى: أنَّهم بادَروا بالتَّكذيبِ دونَ تأمُّلٍ ولا نظَرٍ فيما حَواهُ مِن الحَقِّ، بلْ كذَّبوا به مِن أوَّلِ وَهْلةٍ، فكذَّبوا بتَوحيدِ اللهِ، وهو أوَّلُ حقٍّ جاء به القُرآنُ؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ إلى قولِه: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [ق: ٦- ١١]؛ فالتَّكذيبُ بما جاء به القُرآنُ يعُمُّ التَّكذيبَ بالبَعثِ وغيرِه[(١)].

- قولُه: ﴿فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ فُرِّعَ على الخَبرِ المُنتقَلِ إليه بالإضرابِ وَصْفُ حالِهم النَّاشئةِ عن المُبادَرةِ بالتَّكذيبِ قبْلَ التَّأمُّلِ بأنَّها أمْرٌ مَريجٌ أحاط بهمْ، وتَجلْجَلوا فيه، كما دلَّ عليه حَرفُ الظَّرفيَّةِ (في). والمُريجُ: المُضطرِبُ المُختلِطُ، أي: لا قَرارَ في أنفُسِهم في هذا التَّكذيبِ. وهذا تَحميقٌ لهم بأنَّهم طاشَتْ عُقولُهم، فلم يُتْقنوا التَّكذيبَ، ولم يَرْسُوا على وَصْفِ الكلامِ الذي كذَّبوا به[(٢)].

= السعود)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٨٤، ٢٨٥).

الآيات (٦-١١)

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فُرُوجٍ﴾: أي: صُدوعٍ وفُتوقٍ وشُقوقٍ، وأصلُ (فرج): يدُلُّ على تَفتُّحٍ في الشَّيءِ[(١)].

﴿رَوَٰسِيَ﴾: أي: جِبالًا ثوابِتَ، وأصلُه: يدُلُّ على ثَباتٍ[(٢)].

﴿بَهِيجٍ﴾: أي: حَسَنٍ عَجيبٍ، وأصلُ (بهج): يدُلُّ على السُّرورِ والنُّضْرةِ[(٣)].

﴿تَبْصِرَةً﴾: أي: تَبْصيرًا وتِبيانًا، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على عِلمٍ بالشَّيءِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٨).

﴿وَذِكْرَىٰ﴾: أي: مَوعِظةً وتَذكِرةً، وأصلُ (ذكر): يدُلُّ على خِلافِ النِّسيانِ[١].

﴿مُّنِيبٍ﴾: أي: رَجَّاعٍ تائبٍ، ومُتذَلِّلٍ خاشِعٍ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادٍ ورُجوعٍ[٢].

﴿ٱلْحَصِيدِ﴾: أي: الزَّرعِ المحصودِ مِن البُرِّ والشَّعيرِ وسائِرِ أنواعِ الحُبوبِ، وأصلُ (حصد): يدُلُّ على قَطعِ الشَّيءِ[٣].

﴿بَاسِقَٰتٍ﴾: أي: طَويلاتٍ، وأصلُ (بسق): يدُلُّ على ارتفاعِ الشَّيءِ وعُلُوِّه[٤].

﴿طَلْعٌ﴾: الطَّلعُ: أوَّلُ ما يَخرُجُ مِن ثَمَرِ النَّخلِ، وأصلُ (طلع): يدُلُّ على ظُهورٍ وبُروزٍ[٥].

﴿نَّضِيدٌ﴾: أي: مُصَفَّفٌ بَعضُه فَوقَ بَعضٍ، وأصلُ (نضد): يدُلُّ على ضَمٍّ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٠، ٤٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦).

قال ابنُ القيِّم: (وفي اللَّفظةِ معنى الإسراعِ والرُّجوعِ والتقَدُّمِ، والمُنيبُ إلى اللهِ: المُسرِعُ إلى مَرضاتِه، الرَّاجِعُ إليه كُلَّ وَقتٍ، المتقَدِّمُ إلى مَحابِّه). ((مدارج السالكين)) (١/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧).

شَيءٍ إلى شَيءٍ في اتِّساقٍ وجَمْعٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالَى مبيِّنًا الأدلَّةَ على قُدرتِه، وعلى أنَّ البعثَ حقٌّ: أفلمْ يَنظُرْ هؤلاء المكَذِّبونَ بالبعثِ إلى السَّماءِ فَوقَهم، فيَتأمَّلوا كيفيَّةَ بِنائِها وتَزيينِها بالنُّجومِ، وأنَّها مُحكَمةُ البِناءِ ليس بها صُدوعٌ ولا تَشقُّقاتٌ؟! والأرضَ بَسَطَ اللهُ تعالَى سَطْحَها، وجعَلَ فيها جِبالًا راسيةً تُثبِّتُها لكيْلا تَضطرِبَ، وأنبَتَ فيها مِن كُلِّ نوعٍ مِن أنواعِ الزُّروعِ التي تَسُرُّ النَّاظِرينَ؛ لحُسْنِها، قدْ جعَل اللهُ هذه الأشياءَ كُلَّها تَبصِرةً وتَذكيرًا لكُلِّ عَبدٍ رجَّاعٍ إلى اللهِ تعالَى.

ونزَّلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً كثيرَ الخَيرِ، فأنبَتَ بسَبَبِه بَساتينَ وأنواعَ الحُبوبِ التي تُحصَدُ -كالقَمحِ والذُّرَةِ وغَيرِهما-، والنَّخلَ طَويلاتٍ لها ثِمارٌ مَصفوفٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ؛ رِزقًا للنَّاسِ، وأحيَا اللهُ بماءِ المطَرِ بَلدةً مُجدِبةً لا زَرْعَ فيها، فكما أحيَا اللهُ الأرضَ بعْدَ مَوتِها كذلك يُخرِجُكم -أيُّها النَّاسُ- يومَ القِيامةِ أحياءً بعدَ مَوتِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالَى حالةَ المكَذِّبينَ وما ذَمَّهم به، دعاهم إلى النَّظَرِ في آياتِه الأُفُقيَّةِ؛ كي يَعتَبِروا ويَستَدِلُّوا بها على ما جُعِلَت أدِلَّةً عليه[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٨٠٤).

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾.

أي: أفلمْ يَنظُرْ هؤلاء المكَذِّبونَ بقُدرةِ اللهِ على إحياءِ الموتَى إلى السَّماءِ الَّتي رفَعَها اللهُ فوقَهم، فيَتأمَّلوا كيفيَّةَ بُنيانِنا العَظيمِ لها وتَزيينِنا لها بالنُّجومِ، وأنَّه ليس بها صُدوعٌ ولا تَشقُّقاتٌ، بل هي مَبنيَّةٌ بإحكامٍ بلا عُيوبٍ؟! فالَّذي قدَر على فِعلِ ذلك لا يُعجِزُه شَيءٌ سُبحانَه[1]!

كما قال تعالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

وقال تعالَى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢].

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾.

أي: والأرضَ بَسَطْنا سَطْحَها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ [الرعد: ٣].

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾.

أي: وجعَلْنا فيها جِبالًا راسيةً تُثبِّتُها، فلا تَضطرِبُ الأرضُ ولا تَميدُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٧-٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالَى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ﴾ [الرعد: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [لقمان: ١٠].

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾.

أي: وأنبَتْنا في الأرضِ مِن كُلِّ نوعٍ مِن أنواعِ الزُّروعِ والنَّباتِ والثِّمارِ التي تَسُرُّ النَّاظِرينَ؛ مِن حُسْنِها[1].

قال تعالَى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [الرعد: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٖ﴾ [لقمان: ١٠].

﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨﴾.

= (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٨).

قيل: ﴿رَوَٰسِيَ﴾ بمعْنى أنَّها راسيةٌ في الأرضِ وثابتةٌ عليها. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابن جَرير، والسَّمرقندي، والماورْدي، والواحدي، والبَغوي، والبيضاوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٨٧).

وقيل: المعنى أنَّها تُرسي الأرضَ وتُثبِّتها. وهذا ظاهرُ اختيارِ ابنِ أبي زَمَنين، ومكِّي، وجَلال الدِّين المحلِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٦٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٣١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٨٩).

وقال ابنُ عُثَيمين جامعًا بين المعنيينِ: (﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالًا ثابتاتٍ لا تُزعزِعُها الرِّياحُ فهي قاسيةٌ، وكذلك أيضًا تُرسي الأرضَ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٨).

وقال أبو السُّعودِ: (﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبالًا ثَوابتَ، مِنْ رسَا الشَّيءُ: إذَا ثبتَ، والتعبيرُ عنْها بهذا الوصفِ للإيذانِ بأنَّ إلقاءَها لإرساءِ الأرضِ بهَا). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالَى هذه الصَّنائِعَ الباهِرةَ؛ عَلَّلها بقَولِه[١]:

﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ ﴾.

أي: فعَلْنا ذلك مِن أجْلِ أنْ يُبصِرَ ويَتذَكَّرَ كُلُّ عَبدٍ رجَّاعٍ إلى اللهِ تعالَى، مُقبِلٍ على طاعتِه، فيَستَدِلَّ بالنَّظَرِ إليها والتَّفكُّرِ فيها على كَمالِ قُدرتِه على البَعثِ وغَيرِه، وإحاطتِه بجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ[٢].

﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ ﴾.

أي: ونزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً كثيرَ الخَيرِ والنَّفعِ، فأنبَتْنا بسَبَبِه بَساتينَ كَثيرةَ الأشجارِ، وأنبَتْنا به أنواعَ الحُبوبِ التي تُحصَدُ؛ كالبُرِّ والذُّرَةِ، والشَّعيرِ والأَرُزِّ[٣].

﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ ﴾.

﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ ﴾.

أي: وأنبَتْنا بماءِ المطَرِ النَّخلَ طَويلاتٍ عالياتٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٠-٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٠-٢٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٤).

قال الشَّوكاني: (هُما عِلَّتانِ لِما تَقدَّمَ مُنْتصِبانِ بالفِعلِ الأخيرِ منْها، أوْ بمُقدَّرٍ، أي: فعَلْنا ما فعَلْنا للتَّبصيرِ والتَّذكيرِ، قالهُ الزَّجَّاجُ. وقال أبو حاتِمٍ: انتَصَبا على المصْدريةِ، أيْ: جَعَلْنا ذلك تَبصِرةً وذِكْرى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٥)، ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١١-٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) =

﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾.

أي: للنَّخلِ الطِّوالِ طَلعٌ -وهو أوَّلُ ما يَظهَرُ مِن ثَمَرِه، وهو في غِلافِ العُنقودِ- مُتراكِبٌ مَصفوفٌ بَعضُه فوقَ بَعضٍ[١].

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه بَعضَ ما له في الماءِ مِنَ العَظَمةِ؛ ذكَرَ له عِلَّةً هي غايةٌ في المِنَّةِ على الخَلقِ، فقال[٢]:

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾.

أي: أنزَلْنا المطَرَ، وأنبَتْنا به الجنَّاتِ والحُبوبَ والنَّخيلَ؛ رِزقًا للنَّاسِ مُؤمِنِهم وكافِرِهم[٣].

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

أي: وأحيَيْنا بماءِ المطَرِ بَلدةً مُجدِبةً لا زَرْعَ فيها ولا نَبْتَ[٤].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

= (٥/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨١).

أي: كما أحْيَينا الأرضَ بعدَ مَوتِها كذلك نُخرِجُكم يومَ القِيامةِ أحياءً بعدَ مَوتِكم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ[(٢)]، ليس مِنَ الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبلى، إلَّا عَظمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ، ومنه يُركَّبُ الخَلقُ يومَ القِيامةِ))[(٣)].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يَصْعَقُ النَّاسُ، ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مَطرًا كأنَّه الطَّلُّ -أو الظِّلُّ- فتَنبُتُ منه أجسادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنفَخُ فيه أُخرى فإذا هم قِيامٌ يَنظرونَ))[(٤)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالَى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ المُنيبُ إلى رَبِّه يَتذكَّرُ بذلك، فإذا تذَكَّر تبَصَّرَ به، فالتَّذَكُّرُ قبْلَ التَّبَصُّرِ وإنْ قُدِّمَ عليه في اللَّفظِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، والتَّذكُّرُ: تفَعُّلٌ مِنَ الذِّكرِ، وهو حُضورُ صُورةٍ مِنَ المذكورِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٤).

قال ابنُ جَرير: (كما أنبَتْنا بهذا الماءِ هذه الأرضَ المَيْتةَ فأحيَيناها به، فأخرَجْنا نَباتَها وزَرْعَها، كذلك نُخرِجُكم يومَ القِيامةِ أحياءً مِن قُبورِكم من بعْدِ بَلائِكم فيها، بما يَنزِلُ عليها من الماءِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٤).

(٢) البَقْل: هو كلُّ نباتٍ اخضرَّتْ به الأرضُ. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ٤٨).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٩٣٥) واللفظ له، ومسلمٌ (٢٩٥٥).

(٤) رواه مسلم (٢٩٤٠).

في القَلبِ، فإذا استَحضَره القَلبُ وشاهَدَه على وَجهِه أوجَبَ له البَصيرةَ، فأبصَرَ ما جُعِلَ دليلًا عليه، فكان في حَقِّه تَبصرةً وذِكرى، والهُدى مَدارُه على هذَينِ الأصلَينِ: التَّذَكُّرِ، والتبَصُّرِ[١].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ الآياتُ المخلوقةُ والمَتْلوَّةُ فيها تَبصِرةٌ، وفيها تَذكِرةٌ: تَبصِرةٌ مِنَ العَمَى، وتَذكِرةٌ مِنَ الغَفلةِ؛ فيُبصِرُ مَن لم يكُنْ عَرَف حتَّى يَعرِفَ، ويَذكُرُ مَن عَرَف ونَسِيَ[٢]؛ فإنَّ المضادَّ للعِلمِ إمَّا عَمى القلبِ؛ وزوالُه بالتَّبصُّرِ، وإمَّا غفلتُه؛ وزَوالُه بالتَّذكُّرِ. والمقصودُ تَنبيهُ القَلبِ مِن رَقدتِه بالإشارةِ إلى شَيءٍ مِن بَعضِ آياتِ اللهِ[٣].

٣- الإنابةُ إنابتانِ: إنابةٌ لرُبوبيَّتِه، وهي إنابةُ المَخلوقاتِ كُلِّها، يَشتَرِكُ فيها المؤمِنُ والكافِرُ، والبَرُّ والفاجِرُ؛ قال اللهُ تعالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عامٌّ في حَقِّ كُلِّ داعٍ أصابه ضُرٌّ، كما هو الواقِعُ، وهذه الإنابةُ لا تَستلزِمُ الإسلامَ، بلْ تجامِعُ الشِّركَ والكُفرَ؛ كما قال تعالَى في حَقِّ هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ * لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ [الروم: ٣٣، ٣٤]؛ فهذا حالُهم بعدَ إنابتِهم.

والإنابةُ الثَّانيةُ: إنابةُ أَوليائِه، وهي إنابةٌ لإلهيَّتِه، إنابةُ عُبوديَّةٍ ومَحبَّةٍ. وهي تَتضَمَّنُ أربعةَ أُمورٍ: محبَّتَه، والخُضوعَ له، والإقبالَ عليه، والإعراضَ عمَّا سِواه؛ فلا يَستَحِقُّ اسمَ المُنيبِ إلَّا مَن اجتمَعَت فيه هذه الأربَعُ، وتَفسيرُ السَّلَفِ لهذه اللَّفظةِ يَدورُ على ذلك[٤]، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾.

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٣٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ إلى قوله: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ حُجَّةٌ بالاستِدلالِ بالشَّاهدِ على الغائِبِ مِن قُدرةِ الرَّبِّ، وبالخَلْقِ على الخالِقِ مِن صُنعِه[1].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ ذَكَر تعالَى في السَّماءِ ثَلاثةً: البِناءَ، والتَّزيينَ، ونَفْيَ الفُروجِ، وفي الأرضِ ثَلاثةً: المَدَّ، وإلقاءَ الرَّواسي، والإنباتَ. قابَلَ المَدَّ بالبناءِ؛ لأنَّ المَدَّ وَضعٌ، والبِناءَ رَفعٌ، وإلقاءَ الرَّواسي بالتَّزيينِ بالكواكِبِ؛ لارتكازِ كُلِّ واحدٍ منهما، والإنباتَ المترَتِّبَ على الشَّقِّ بانتِفاءِ الفُروجِ؛ فلا شَقَّ فيها[2].

٣- العِلمُ يَحصُلُ بالعِلمِ بالدَّليلِ لِمَن لم يكُنْ عالِمًا به قَطُّ، ولِمَن يَذكُرُه بعْدَ النِّسيانِ إذا كان قدْ عَلِمَه ثمَّ نَسِيَه؛ ولهذا قال سُبحانَه: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾؛ فبَيَّن سُبحانَه أنَّ آياتِه تَبصِرةٌ وتَذكِرةٌ؛ فالتَّبصِرةُ بعْدَ العَمَى، وهو الجَهلُ، والتَّذكِرةُ بعدَ النِّسيانِ، وهو ضِدُّ العِلمِ[3].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ احتَجَّ به بَعضُهم على استِدارةِ السَّماءِ، وإحاطتِها بالأرضِ مِن جميعِ جِهاتِها؛ لأنَّه سُبحانَه قال: لا فُروجَ فيها ولا فُطورَ، ولو كانتْ مَبسوطةً غيرَ

---

(١) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (٤/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣٤١).

مُتَّصِلةِ الأطرافِ، لم تكُنْ كذلك[١]، فنَفيُ الفُروجِ فيها على هذا الوَجهِ المؤكَّدِ يدُلُّ دَلالةً ظاهِرةً على أنَّ السَّماءَ كُرةٌ مُجوَّفةُ الوَسَطِ، مُقبَّبةٌ كالبَيضةِ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ الفَرقُ بيْنَ التَّبصِرةِ والذِّكرى: أنَّ التَّبصِرةَ مُستَمِرَّةٌ، والذِّكرى عندَ النِّسيانِ؛ فهذه الآياتُ لأجْلِ التَّبصِرةِ والذِّكرى، والفَرقُ بيْنهما: أنَّ التَّبصِرةَ تُوجِبُ العِلمَ والمَعرِفةَ، والذِّكرى تُوجِبُ الإنابةَ والانقيادَ، وبهما تَتِمُّ الهِدايةُ[٣].

٦- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ مِن الحِكمِ في إنزالِ الماءِ مِنَ العُلوِّ لِيَشمَلَ قِمَمَ الجِبالِ ومَراتِعَ الإبِلِ، والسَّهْلَ والأوديةَ؛ لأنَّه لو جاء يَمْشي سَيحًا (جاريًا) مِنَ الأرضِ ما وصَلَ إلى قِمَمِ الجِبالِ[٤].

٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ فيه سُؤالٌ: قَولُه ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ فيه إضافةُ الشَّيءِ إلى نَفْسِه -لأنَّ الحَبَّ هو الحَصيدُ- وهي مُمتَنِعةٌ؛ لأنَّ الإضافةَ تَقتَضي المغايرةَ بيْن المُضافِ والمضافِ إليه؟

الجوابُ: أنَّ هذه الإضافةَ ليْستْ مُمتَنِعةً مُطلَقًا، بل هي جائِزةٌ عند اختِلافِ اللَّفظَينِ، كما في قَولِه: ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، و﴿حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، و(لَدَارُ الْآخِرَةِ) [يوسف: ١٠٩]، وبتَقديرِ امتِناعِها مُطلَقًا؛ فالتَّقديرُ: حَبُّ الزَّرعِ أو النَّباتِ الحَصيدِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٠).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٥٣١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ إثباتُ الأسبابِ[١]، وكذا في قَولِه سُبحانَه: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾[٢].

٩- قولُه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ...﴾ الآياتِ، نبَّهَ فيما تعلَّقَ به الإنباتُ على ما يُقطَفُ كُلَّ سَنةٍ، ويَبقَى أصْلُه، وما يُزرَعُ كُلَّ سَنةٍ أو سَنتَينِ، ويُقطَفُ كُلَّ سَنةٍ، وعلى ما اختلَطَ مِن جِنسَينِ، فبَعضُ الثِّمارِ فاكِهةٌ لا قُوتٌ، وأكثَرُ الزَّرعِ قُوتٌ، والثَّمرُ فاكهةٌ وقوتٌ[٣].

١٠- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ لم يُقَيِّدْ هنا العِبادَ بالإنابةِ، وقَيَّدَه في قَولِه تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [ق: ٨]؛ لأنَّ التَّذكِرةَ لا تكونُ إلَّا للمُنيبِ، والرِّزقَ يَعُمُّ كُلَّ أحدٍ، غيرَ أنَّ المُنيبَ يَأكُلُ ذاكِرًا أو شاكِرًا للإنعامِ، وغَيرَه يَأكُلُ كما تَأكُلُ الأنعامُ؛ فلم يُخَصَّصْ بقَيدٍ[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ﴾ [ق: ٢] إلى قولِه: ﴿مَّرِيجٖ﴾ [ق: ٥]؛ لأنَّ أهمَّ ما ذُكِرَ مِن تَكذيبِهم أنَّهم كذَّبوا بالبعثِ، وخَلْقُ السَّمواتِ والنُّجومِ والأرضِ دالٌّ على أنَّ إعادةَ الإنسانِ بعدَ العدَمِ في حيِّزِ الإمكانِ؛ فتلكَ العوالِمُ وُجِدَت عن عدَمٍ[٥].

- قولُه: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ ...﴾ الاستِفهامُ يَجوزُ أنْ يكونَ إنكاريًّا،

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).
(٢) يُنظر: ((بغية المرتاد)) لابن تيمية (ص: ٢٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٨٢). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٥).

ويكونَ النَّظرُ نظرَ الفِكرِ، ومَحلُّ الإنكارِ هو الحالَ التي دلَّ عليها ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾، أي: ألمْ يَتدبَّروا في شَواهدِ الخَليقةِ؛ فتَكونَ الآيةُ في معنى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الروم: ٨].

ويَجوزُ أنْ يكونَ الاستِفهامُ تَقريريًّا، ويكونَ النَّظرُ المُشاهدةَ، ومَحلُّ التَّقريرِ هو فِعلَ ﴿يَنظُرُوٓا۟﴾، أو يكونَ (كيف) مُرادًا به الحالُ المُشاهَدةُ، والتَّقريرُ على نفْيِ الشَّيءِ المُرادِ الإقرارُ بإثباتِه طَريقةٌ قُرآنيَّةٌ، والغرَضُ منه إفساحُ المَجالِ للمُقرَّرِ إنْ كان يَرومُ إنكارَ ما قُرِّرَ عليه؛ ثِقةً مِن المُقرِّرِ بأنَّ المُقرَّرَ لا يُقدِمُ على الجُحودِ بما قُرِّرَ عليه؛ لظُهورِه. وهذا الوجْهُ أشدُّ في النَّعْيِ عليهم؛ لاقتِضائِه أنَّ دَلالةَ المخلوقاتِ المذكورةِ على إمكانِ البَعثِ يَكفي فيها مُجرَّدُ النَّظَرِ بالعينِ[(١)].

- وأيضًا لَمَّا أخبَرَهم أنَّهم قالوا عن غيرِ تأمُّلٍ، أنْكَرَ عليهم ذلك مُوبِّخًا لهم دالًّا على صِحَّةِ ما أنْكَروه وفَسادِ إنكارِهم بقولِه -مُسبَّبًا عن عَجَلتِهم إلى الباطلِ-: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾[(٢)]؛ فالاستفهامُ هنا للتَّوبيخِ؛ يُوبِّخُهم عزَّ وجلَّ لِماذا لم يَنظُروا إلى هذا؟! لِماذا لم يَنظُروا إلى السَّماءِ وما فيها مِن عَجائِبَ[(٣)].

- والفاءُ عاطفةٌ على مَحذوفٍ يُطيحُ بكُلِّ ما قالوه افتِئاتًا على الحقِّ، وإنكارًا له، أي: أغَفَلُوا وعَمُوا فلم يَنظُروا[(٤)]؟!

- قولُه: ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أفْرَدَ السَّماءَ ولم يَجمَعْ؛ لأنَّ بِناءَها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٦).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٢).

على ما ذُكِرَ -وإنْ كانتْ واحدةً- يدُلُّ على كَمالِ القُدرةِ؛ فإنَّ البِناءَ المجوَّفَ لا يُمكِنُ إكْمالُ بِنائِه مِن غيرِ أنْ يكونَ له فُروجٌ، وإنِ اختلَّ ذلك كان مَوضعُ الوصلِ ظاهرًا للرَّائِينَ ما فيه مِن فُتورٍ وشُقوقٍ وقُصورٍ وما يُشبِهُ ذاك[١].

- وقولُه: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ حالٌ مِن السَّماءِ، والتَّقييدُ بالحالِ تنْديدٌ عليهم؛ لإهمالِهم التَّأمُّلَ مع المُكنةِ منه؛ إذ السَّماءُ قَريبةٌ فوقَهم، لا يُكلِّفُهم النَّظرُ فيها إلَّا رفعَ رُؤوسِهم[٢].

- واقتُصِرَ على آيةِ تَزيينِ السَّماءِ دونَ تَفْصيلِ ما في الكواكبِ المُزيَّنةِ بها مِن الآياتِ؛ لأنَّ التَّزيينَ يَشترِكُ في إدراكِه جَميعُ الذين يُشاهدونَه، وللجمْعِ بيْن الاستِدلالِ والامتِنانِ بنِعمةِ التَّمكينِ مِن مُشاهَدةِ المَرائي الحَسنةِ، ثمَّ يَتفاوتُ النَّاسُ في إدْراكِ ما في خَلْقِ الكواكبِ والشَّمسِ والقَمَرِ ونِظامِها مِن دَلائلَ على مِقدارِ تَفاوتِ عُلومِهم وعُقولِهم. والآيةُ صالحةٌ لإفهامِ جَميعِ الطَّبَقاتِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ﴾ [ق: ٦] عطْفَ الخبَرِ على الاستِفهامِ الإنكاريِّ، وهو في مَعنى الإخبارِ، والتَّقديرُ: ومدَدْنا الأرضَ. ولَمَّا كانتْ أحوالُ الأرضِ نُصبَ أعيُنِ الناسِ، وهي أقرَبُ إليهم مِن أحوالِ السَّماءِ؛ لأنَّها تَلوحُ للأنظارِ دونَ تكلُّفٍ؛ لم يُؤتَ في لَفْتِ أنظارِهم إلى دَلالتِها باستِفهامٍ إنكاريٍّ؛ تَنْزيلًا لهم مَنزِلةَ مَن نظَرَ في أحوالِ الأرضِ، فلمْ يَكونوا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٨٦، ٢٨٧).

بحاجةٍ إلى إعادةِ الإخبارِ بأحوالِ الأرضِ تذكيرًا لهم[١].

- وفائِدةُ هذا الوصْفِ ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ زِيادةُ التَّنبيهِ إلى بَديعِ خلْقِ اللهِ؛ إذ جعَلَ الجِبالَ مُتداخلةً مع الأرضِ، ولم تكُنْ مَوضوعةً عليها وضْعًا كما تُوضَعُ الخَيمةُ؛ لأنَّها لو كانتْ كذلك لَتزلزَلَتْ وسقَطَتْ وأهلكَتْ ما حوالَيْها[٢].

- وحرْفُ (مِن) في قَولِه: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ مَزيدٌ للتَّوكيدِ؛ فالمقصودُ مِن التَّوكيدِ بحرْفِ (مِن) تَنزيلُهم مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ أنبَتَ ما على الأرضِ مِن أنواعٍ حين ادَّعَوا استحالةَ إخراجِ الناسِ مِن الأرضِ؛ ولذلك جِيءَ بالتَّوكيدِ في هذه الآيةِ؛ لأنَّ الكلامَ فيها على المشرِكين[٣].

- وكلمةُ ﴿كُلِّ﴾ مُستعمَلةٌ في معْنى الكَثرةِ، وفائدةُ التَّكثيرِ هنا التَّعريضُ بهم؛ لقلَّةِ تَدْبيرِهم؛ إذ عَمُوا عن دَلائلَ كثيرةٍ واضحةٍ بيْنَ أيديهم[٤].

- والوصْفُ ﴿بَهِيجٍ﴾ يُفيدُ ذِكْرُه تَقويةَ الاستدلالِ على دِقَّةِ صُنعِ اللهِ تعالى، وإدْماجَ الامتنانِ عليهم بذلك؛ لِيَشْكُروا النِّعمةَ ولا يَكفُروها بعِبادةِ غيرِه[٥]. و(البَهيج) يَجوزُ أنْ يكونَ صِفةً مُشبَّهةً، يُقال: بهُجَ؛ إذا حسُنَ في أعينِ النَّاظرينَ؛ فالبهيجُ بمعنى الفاعِلِ، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]. ويجوزُ أنْ يكونَ فَعيلًا بمَعنى مَفعولٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: مُنبهَجٌ به، على الحذْفِ والإيصالِ[١]، أي: يُسَرُّ به النَّاظرُ، يُقال: بهَجَه؛ إذا سرَّه، ومنه الابتهاجُ: المَسرَّةُ[٢].

- قولُه: ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ عِلَّتانِ للأفعالِ المذْكورةِ، وإنَّما كانتِ التَّبصرةُ والذِّكْرى علَّةً للأفعالِ المذكورةِ؛ لأنَّ التَّبصرةَ والذِّكرى مِن جُملةِ الحِكَمِ التي أوجَدَ اللهُ تلك المخلوقاتِ لأجْلِها، وليْس ذلك بمُقتضٍ انحصارَ حِكمةِ خَلْقِها في التَّبصرةِ والذِّكرى؛ لأنَّ أفعالَ اللهِ تعالَى لها حِكَمٌ كثيرةٌ عَلِمْنا بَعضَها، وخَفِيَ علينا بعضٌ[٣].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ ﴾؛ ليعُمَّ كلَّ ما يَصلُحُ أنْ يُتبصَّرَ في شأنِه بدَلائلِ خلْقِ الأرضِ وما عليها، وأهمُّ ذلك فيهمْ هو التَّوحيدُ والبَعثُ، كما هو السِّياقُ تصْريحًا وتلويحًا[٤].

- وفي قَولِه: ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ خُصَّ العبدُ المُنيبُ بالتَّبصرةِ والذِّكْرى، وإنْ كان فيما ذُكِرَ مِن أحوالِ الأرضِ إفادةُ التَّبصرةِ والذِّكْرى لكلِّ أحدٍ؛ لأنَّ العبدَ المُنيبَ هو الذي يَنتفِعُ بذلك، فكأنَّه هو المقصودُ مِن حِكمةِ تلك الأفعالِ، وهذا تَشريفٌ للمؤمنينَ، وتَعريضٌ بإهمالِ الكافرين التَّبصُّرَ

---

(١) الحذْفُ والإيصالُ: هو ما يُعرَفُ بنزعِ الخافِض؛ فقدْ يُحذَف حرفُ الجَرِّ سَماعًا، فيَنتصبُ المجرورُ بعدَ حذْفِهِ تشبيهًا له بالمفعول به، ويُسمَّى المنصوبَ على نزعِ الخافض، أي: الاسم الذي نُصبَ بسَببِ حذْفِ حرفِ الجرِّ، كقولِهِ تعالى: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي: مِن قومِه. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٢/ ١٩٠)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٠).

والتَّذكُّرَ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ * وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ بعْدَ التَّنظُّرِ والتَّذكيرِ والتَّبصيرِ في صُنعِ السَّمواتِ وصُنعِ الأرضِ، نُقِلَ الكلامُ إلى التَّذكيرِ بإيجادِ آثارٍ مِن آثارِ تلك المَصنوعاتِ تَتجدَّدُ على مُرورِ الدَّهرِ حيَّةً، ثمَّ تَموتُ ثمَّ تَحْيا دأبًا، وقدْ غُيِّرَ أسلوبُ الكلامِ لهذا الانتقالِ مِن أُسلوبِ الاستِفهامِ في قَولِه: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [ق: ٦]، إلى أُسلوبِ الإخبارِ بقولِه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾؛ إيذانًا بتَبْديلِ المرادِ؛ ليكونَ منه تخلُّصٌ إلى الدَّلالةِ على إمكانِ البعثِ في قَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]؛ فجُملةُ ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ [الحجر: ١٩]، وقدْ ذُكِرَت آثارٌ مِن آثارِ السَّماءِ وآثارِ الأرضِ على طَريقةِ النَّشْرِ المُرتَّبِ على وَفقِ اللَّفِّ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّب، وإمَّا غيرُ مُرتَّب؛ فاللَّفُّ والنشرُ المُرتَّب، هو أنْ يأتي النَّشرُ على وَفقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ، ويُضافُ إلى كلٍّ ما يَليقُ به على الترتيبِ، كقولِه تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيثُ جاء اللَّفُّ بعبارةِ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفقَ توزيعِ مُرتَّبٍ؛ فقوله: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيلِ، وقوله: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهارِ. وغيرُ المرتَّبِ: هو أن يأتيَ النشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَل لَفٌّ مُفَصَّل، وجاء بعدَها نَشْرٌ غَيرُ مُرتَّب؛ فجُملةُ ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجُملة الأُولى ومتعلِّقةٌ بها. وجُملةُ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجُملةِ الثَّالثةِ ومُتعلِّقةٌ بها. وجُملةُ ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثانيةِ ومتعلِّقةٌ بها. يُنظر: ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠- ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

- وهو أيضًا شُروعٌ في بَيانِ كيفيَّةِ إنباتِ ما ذُكِرَ منْ كُلِّ زَوجٍ بَهيجٍ، وهو عَطفٌ على (أَنْبَتْنَا)، وما بيْنهما -على أنَّ ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ عِلَّتان لفِعلٍ مُقدَّرٍ بطَريقِ الاستِئنافِ، أيْ: فعَلْنا ما فعَلْنا تَبصيرًا وتذْكيرًا- اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا قَبلَه ومُنبِّهٌ على ما بعْدَه[1].

- وفي هذا استِدلالٌ بتَفصيلِ الإنباتِ الَّذي سبَقَ إجمالُه في قَولِه: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [ق: ٧]؛ لِمَا فيه مِن سَوقِ العُقولِ إلى التَّأمُّلِ في دَقيقِ الصُّنعِ لذلك الإنباتِ، وأنَّ حُصولَه بهذا السَّببِ، وعلى ذلك التَّطوُّرِ؛ أعظَمُ دَلالةً على حِكمةِ اللهِ وسَعةِ عِلمِه ممَّا لو كان إنباتُ الأزواجِ بالطَّفرةِ؛ إذ تَكونُ حينَئذٍ أسبابُ تكوينِها خفيَّةً، فإذا كان خَلْقُ السَّمواتِ وما فيها، ومَدُّ الأرضِ، وإلقاءُ الجِبالِ فيها؛ دَلائلَ على عَظيمِ القُدرةِ الرَّبانيَّةِ لخَفاءِ كَيفيَّاتِ تَكوينِها؛ فإنَّ ظُهورَ كيفيَّاتِ التَّكوينِ في إنزالِ الماءِ، وحُصولِ الإنباتِ والإثمارِ دَلالةٌ على عَظيمِ عِلمِ اللهِ تعالَى[2].

- قولُه: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ فيه تَخصيصُ إنباتِ الحَبِّ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه المقصودُ بالذَّاتِ[3].

- والحَصيدُ: الزَّرعُ المحصودُ، وفائدةُ ذِكْرِ هذا الوَصْفِ في قولِه: ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ الإشارةُ إلى اختِلافِ أحوالِ استِحصالِ ما يَنفَعُ النَّاسَ مِن أنواعِ النَّباتِ؛ فإنَّ الجنَّاتِ تُستَثمَرُ، وأُصولَها باقيةٌ، والحُبوبَ تُستَثمَرُ بعْدَ حَصْدِ أُصولِها، على أنَّ في ذلك الحَصيدِ مَنافعَ للأنعامِ تَأكُلُه بعْدَ أخْذِ حَبِّه، كما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧).

قال تعالَى: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾[١] [النازعات: ٣٣].

- وفي قَولِه: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ خَصَّ النَّخلَ بالذِّكْرِ مع تَناوُلِ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ له؛ لأنَّه أهَمُّ الأشجارِ عِندَهم، وثَمَرَه أكثَرُ أقواتِهم، ولإتْباعِه بالأوصافِ له ولطَلعِه؛ ممَّا يُثيرُ تَذكُّرَ بَديعِ قَوامِه، وأنيقِ جَمالِه[٢]. وقيلَ: إنَّ تَخصيصَ النَّخلِ بالذِّكرِ معَ اندراجِها في الجَنَّاتِ؛ لبيانِ فضْلِها على سائرِ الأشجارِ، وتَوسيطَ الحَبِّ بيْنهما؛ لتأْكيدِ استقلالِها وامتيازِها عنِ البقيَّةِ، مع ما فيها مِن مُراعاةِ الفواصلِ[٣].

- والباسِقاتُ: الطَّويلاتُ في ارتفاعٍ، والمقصودُ مِن ذلك: الإيماءُ إلى بَديعِ خِلقتِه، وجَمالِ طَلْعتِه؛ استِدلالًا وامتنانًا. والنَّضيدُ: المنْضودُ، أي: المُصفَّفُ بَعضُه فوقَ بعضٍ ما دامَ في الأغطيةِ، وزِيادةُ الحالِ؛ للازديادِ مِن الصِّفاتِ النَّاشئةِ عن بَديعِ الصَّنعةِ، ومِن المِنَّةِ بمَحاسنِ مَنظرِ ما أُوتُوه[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾

- قولُه: ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ عِلَّةٌ لقولِه تعالَى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾. وفي تَعليلِه بذلك بعدَ تَعليلِ (أنْبَتنَا) الأوَّلِ بالتَّبصرةِ والتَّذكيرِ؛ تَنبيهٌ على أنَّ الواجبَ على العبدِ أنْ يكونَ انتفاعُه بذلكَ مِن حيثُ التَّذكُّرُ والاستبصارُ أهَمَّ وأقدَمَ مِن تَمتُّعِه به مِن حيثُ الرِّزقُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣).

- قولُه: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ في التَّعبيرِ عن إخراجِ النَّباتِ مِن الأرضِ بالإحياءِ، وعن حَياةِ المَوْتى بالخُروجِ: تَفخيمٌ لشأْنِ الإنباتِ، وتَهوينٌ لأمرِ البعثِ، وتَحقيقٌ للمُماثَلةِ بيْنَ إخراجِ النَّباتِ وإحياءِ المَوْتى؛ لتَوضيحِ مِنهاجِ القياسِ، وتَقريبِه إلى أفهامِ الناسِ(١).

- وفي قَولِه: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ شبَّهَ الجَدْبَ بالمَوتِ في انعدامِ ظُهورِ الآثارِ؛ ولذلك سُمِّي ضِدُّه -وهو إنباتُ الأرضِ- حياةً(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ فلمْ يُثبِت التَّاءَ في ﴿مَّيْتًا﴾، وقال في سُورةِ (يس): ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣]، فأثبَتَ التَّاءَ هناك فقال: ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾؛ وذلك أنَّ الأرضَ أرادَ بها الوصْفَ، فقال: ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾؛ لأنَّ معْنى الفاعليَّةِ ظاهرٌ هناك. والبَلدةُ الأصلُ فيها الحَياةُ؛ لأنَّ الأرضَ إذا صارتْ حيَّةً صارتْ آهِلةً، وأقام بها النَّاسُ وعَمَرُوها، فصارتْ بلْدةً، فأسقَطَ التَّاءَ؛ لأنَّ معْنى الفاعليَّةِ ثبَتَ فيها، والَّذي بمعْنى الفاعِلِ لا يَثبُتُ فيه التَّاءُ، وتَحقيقُ هذا قولُه: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [سبأ: ١٥]، حيثُ أثبَتَ التاءَ حيث ظَهَرَ بمعْنى الفاعلِ، ولم يَثبُتْ حيث لم يَظهَرْ(٣)، واللهُ أعلمُ.

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ بعْدَ ظُهورِ الدَّلائلِ بصُنعِ اللهِ على إمكانِ البَعثِ؛ لأنَّ خَلقَ تلك المخلوقاتِ مِن عَدمٍ يدُلُّ على أنَّ إعادةَ بعضِ الموجوداتِ الضَّعيفةِ أمكَنُ وأهوَنُ- جِيءَ بما يُفيدُ تَقريبَ البَعثِ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣١-١٣٢).

فهذه الجُملةُ فَذْلَكَةٌ[١] للاستِدلالِ على إمكانِ البعثِ الذي تَضمَّنَتْه الجُمَلُ السَّابقةُ؛ فوجَبَ انفصالُ هذه الجُملةِ -أي: لا تُعطَفُ على ما قَبْلَها-، فتَكونُ استِئنافًا، أو اعتراضًا في آخِرِ الكلامُ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ جُملةٌ قُدِّمَ فيهَا الخَبَرُ للقَصْدِ إلى القَصرِ[٣]. أو تَقديمُ المجرورِ على المبتدأِ؛ للاهتِمامِ بالخبَرِ؛ لِمَا في الخبَرِ مِن دَفعِ الاستحالةِ، وإظهارِ التَّقريبِ، وفيه تَشويقٌ لِتَلقِّي المُسنَدِ إليه[٤].

- والإشارةُ بـ (ذلك) -في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾- إلى ما ذُكِرَ آنفًا مِن إحياءِ الأرضِ بعد مَوتِها؛ فهو إشارةٌ إلى الإحياءِ والبَعثِ، أي: كما أحْيَينا الأرضَ بعْدَ مَوتِها، كذلك نُحيي الناسَ بعدَ مَوتِهم وبِلاهُم، مع إفادتِها تَعظيمَ شأنِ المُشارِ إليه؛ لِما فيها مِن مَعنى البُعدِ، أي: مِثلَ البَعثِ العظيمِ الإبداعِ[٥].

---

(١) الفَذْلَكَةُ: مِن فذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكَةُ) كلِمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوْقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتَّفريعُ عليه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٤).

الآيات (١٢-١٥)

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلرَّسِّ﴾: الرَّسُّ: كُلُّ مَحفورٍ؛ مِثلُ البِئرِ، والقَبرِ، ونَحوِ ذلك. قيل: هي بِئرٌ كانوا عليها نُزولًا، وقيل: قريةٌ مِن قرَى اليَمامةِ، وقيل غيرُ ذلك، وأصلُ (رسس): يدُلُّ على ثَباتٍ[١].

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾: أي: قَومُ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ، والأيْكَةُ: الشَّجَرُ المُلتَفُّ المُجتَمِعُ، وأصلُ (أيك): يدُلُّ على اجتِماعِ شَجَرٍ[٢].

﴿أَفَعَيِينَا﴾: أي: أفعَجَزْنا، يُقالُ لكُلِّ مَن عَجَز عن شَيءٍ: عَيِيَ به: إذا لم يَهتَدِ لِوَجهِه، ولم يَقدِرْ على مَعرِفتِه وتَحصيلِه[٣].

﴿لَبْسٍ﴾: أي: شَكٍّ وحَيرةٍ، وأصلُ (لبس): يدُلُّ على مُخالَطةٍ ومُداخَلةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨، ٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن أحوالِ المكذِّبينَ للرُّسلِ مِن الأُممِ السَّابقةِ تسليةً لرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: كذَّبتْ قبْلَ مُشرِكي قُرَيشٍ قَومُ نوحٍ، وأصحابُ الرَّسِّ، وثمودُ قَومُ صالِحٍ، وعادٌ قَومُ هُودٍ، وفِرعَونُ الَّذي كذَّب موسى، وقَومُ لُوطٍ، وأصحابُ الشَّجَرِ المُلتَفِّ قَومُ شُعَيبٍ، وقَومُ تُبَّعٍ. كُلُّ أولئك كذَّبوا الرُّسُلَ، فوَجَب عليهم عَذابُ الله.

ثمَّ يقرِّرُ الله تعالى أنَّ البعثَ حقٌّ، فيقولُ: أفعَجَزْنا عن ابتِداءِ الخَلقِ أوَّلَ مَرَّةٍ؟! بل أولئك الكُفَّارُ في حَيرةٍ وشَكٍّ مِن قُدرةِ اللهِ على البَعثِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى قَولَه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [ق: ٥]؛ ذكَرَ مَن كَذَّب الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ تَسليةً لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١]، فقال:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾﴾.

أي: كذَّبتْ قبْلَ مُشرِكي قُرَيشٍ -الَّذين كذَّبوا مُحمَّدًا- قَومُ نوحٍ الَّذين كَذَّبوا نُوحًا، وأصحابُ الرَّسِّ[٢]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٢).

(٢) قال الماوَرْدي: (في الرَّسِّ وجهانِ:

أحدُهما: أنَّه كلُّ حفرةٍ في الأرضِ مِن بئرٍ وقبرٍ. =

وثمودُ الَّذين كذَّبوا رَسولَهم صالِحًا[١].

﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: وكذَّبتْ قبْلَ مُشرِكي قُرَيشٍ عادٌ الَّذين كذَّبوا هُودًا، وفِرعَونُ الَّذي كذَّب موسَى، وقَومُ لُوطٍ الَّذين كذَّبوا لُوطًا[٢].

= الثَّاني: أنَّها البئرُ الَّتي لم تُطْوَ بحجرٍ ولا غيرِه.

وأمَّا أصحابُ الرَّسِّ ففيهم أربعةُ أقاويلَ:

أحدُها: أنَّها بئرٌ قُتِل فيها صاحِبُ ياسينَ ورَسُّوه، قاله الضَّحَّاكُ.

الثَّاني: أنَّهم أهلُ بِئرٍ بأَذْرَبِيجانَ، قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّالثُ: أنَّهم قومٌ باليَمامةِ كان لهم آبارٌ، قاله قَتادةُ...

الرَّابعُ: أنَّهم أصحابُ الأُخدودِ. ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤٤). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢١).

قال ابن جرير: (واختلَف أهلُ التَّأويلِ في أصحابِ الرَّسِّ؛ فقال بعضُهم: أصحابُ الرَّسِّ مِن ثَمودَ... وقال آخَرونَ: هم قَومٌ رَسُّوا نبيَّهم في بئرٍ... وقال آخَرونَ: هي بئرٌ كانت تُسَمَّى الرَّسَّ... والصَّوابُ مِن القولِ في ذلك قولُ مَن قال: هم قَومٌ كانوا على بئرٍ). ثمَّ ذكَر احتِمالَينِ: إمَّا أن يَكونوا أصحابَ الأُخدودِ، وإمَّا أنَّهم قَومٌ رَسُّوا نبيَّهم في حُفرةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١-٤٥٣).

وقال ابن عاشور: (الرَّسُّ: يُطلَقُ اسمًا للبئرِ غيرِ المَطْويَّةِ، ويُطلَقُ مصدرًا لِلدَّفنِ والدَّسِّ. واختلَف المفسِّرون في المرادِ به هنا. وأصحابُ الرَّسِّ قومٌ عُرِفوا بالإضافةِ إلى الرَّسِّ، فيحتملُ أنَّ إضافتَهم إلى الرَّسِّ مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى مَوطِنِه؛ مِثلُ «أصحابِ الأَيْكَةِ»، و«أصحابِ الحِجْرِ»، و«أصحابِ القريةِ». ويجوزُ أن تكونَ إضافةً إلى حَدَثٍ حلَّ بهم، مِثلُ «أصحابِ الأخدودِ». وفي تعيينِ أصحابِ الرَّسِّ أقوالٌ ثمانيةٌ أو تسعةٌ، وبعضُها مُتداخِلٌ... والأظهَرُ أنَّ إضافةَ «أصحاب» إلى ﴿ٱلرَّسِّ﴾ مِن إضافةِ اسمٍ إلى حدَثٍ حدَثَ فيه؛ فقد قيل: إنَّ أصحابَ الرَّسِّ عُوقِبوا بخَسْفٍ في الأرضِ، فوقَعوا في مِثلِ البئرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٣، ٨٦).

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾.

أي: وكذَّبَ قبْلَ مُشرِكي قُرَيشٍ أصحابُ الشَّجَرِ المُلتَفِّ المُجتَمِعِ، فكذَّبوا رَسولَهم شُعَيبًا، وكذَّب قَومُ المَلِكِ تُبَّعٍ(١).

قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

وعن عائشةَ رَضيَ الله عنها أنَّها قالت: (كان تُبَّعٌ رجُلًا صالحًا، ألَا ترَى أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذمَّ قَومَه، ولم يَذُمَّه؟)(٢).

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

أي: كُلُّ أولئك الأُمَمِ الماضيةِ كذَّبوا الرُّسُلَ الَّذين أرسَلَهم اللهُ تعالى إليهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٧)،

قال ابن عطية: (﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هم حِمْيَرُ، وتُبَّعٌ اسمُ المَلِكِ فيهم، يذهَبُ تُبَّعٌ ويَجيءُ تُبَّعٌ، كَكِسْرى في الفُرسِ، وقَيصَرَ في الرُّومِ، وكان أسعدُ أبو كَرِبٍ أحَدُ التَّبابِعةِ رَجُلًا صالِحًا، صَحِبَ حَبرَينِ فتعلَّم منهما دينَ موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٨).

وقال السعدي: (تُبَّعٌ: كُلُّ مَلِكٍ ملَكَ اليَمَنَ في الزَّمانِ السَّابِقِ قبْلَ الإسلامِ، فقَومُ تُبَّعٍ كذَّبوا الرَّسولَ الَّذي أرسَلَه اللهُ إليهم، ولم يُخبِرْنا اللهُ مَن هو ذلك الرَّسولُ، وأيُّ تُبَّعٍ مِنَ التَّبابِعةِ؛ لأنَّه -واللهُ أعلَمُ- كان مشهورًا عندَ العرَبِ؛ لِكَونِهم مِنَ العَرَبِ العَرْباءِ الَّذين لا تخفَى ماجَرَياتُهم على العَرَبِ، خُصوصًا مِثلَ هذه الحادثةِ العظيمةِ). ((تفسير السعدي)) ص: ٨٠٤).

(٢) أخرجه عبد الرزَّاق في ((تفسيره)) (٢٨١٩)، ومن طريقه الحاكم في ((المستدرك)) (٢/ ٤٨٨) واللَّفظُ له.

قال الحاكم: (صحيحٌ على شرطِ الشَّيخينِ). ووافقه الذهبي، وقال الألباني: في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٥/ ٥٤٩): (وهو كما قالا)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((المسند)) (٣٧/ ٥٢٠): (رجالُه ثقاتٌ رجالُ الشَّيخينِ).

فوَجَب وثَبَت عليهم عَذابُ اللهِ، الَّذي توعَّدَهم به على كُفرِهم به، وتَكذيبِهم رُسُلَه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٣٩].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٢ - ١٤].

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾.

أي: أفعَجَزْنا عن ابتِداءِ الخَلقِ أوَّلَ مَرَّةٍ، فلم نكُنْ عالِمينَ بما نَصنَعُ فيه، ولا قادِرينَ عليه(٢)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٧).

قال ابن تيميَّة: (لم يُرِدِ الإعياءَ الَّذي هو التَّعَبُ، وإنَّما أراد العِيَّ، كما تقولُ العَرَبُ: عَيِيَ بأمْرِه: إذا لم يَهتَدِ لِوَجهِه). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٧/ ٣٨٣). ويُنظر: ((الفصيح)) لثعلب =

كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ: كذَّبَني ابنُ آدَمَ، ولم يكُنْ له ذلك، يقولُ: لن يُعيدَني كما بدأني! وليس أوَّلُ الخَلقِ بأهْوَنَ عليَّ مِن إعادتِه!))[(١)].

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

أي: ليس الأمرُ كذلك، فلم نَعْيَ بالخَلقِ الأوَّلِ، ولا هم يَشُكُّون في ذلك، وإنَّما هم في شَكٍّ وتردُّدٍ وحَيرةٍ مِن قُدرةِ اللهِ على البَعثِ؛ فالتَبَس عليهم إعادةُ اللهِ

= (ص: ٢٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٤٣)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨، ٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٤٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٢٨).

وقال ابن القيِّم: (قوله ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ يقالُ لكلِّ مَن عجَز عن شَيءٍ: عَيِيَ به، وعَيِيَ فُلانٌ بهذا الأمرِ ... -ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]- قال ابنُ عبَّاسٍ: يريدُ: أفعَجَزْنا؟! وكذلك قال مُقاتِلٌ. قلتُ: هذا تفسيرٌ بلازِمِ اللَّفظةِ، وحقيقتُها أعَمُّ مِن ذلك؛ فإنَّ العرَبَ تقولُ: أعْياني أن أعرِفَ كذا، وعَيِيتُ به؛ إذا لم تَهتَدِ لوجْهِه، ولم تَقدِرْ على مَعرفتِه وتحصيلِه، فتقولُ: أعْياني دواؤُك؛ إذا لم تَهتَدِ ولم تَقِفْ عليه. ولازِمُ هذا المعنَى: العجزُ عنه). ((الفوائد)) (ص: ٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٢).

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤).

الأمواتَ خَلقًا جَديدًا، مع أنَّه لا محلَّ للَّبسِ فيه؛ فالإعادةُ أهوَنُ مِنَ الابتداءِ[(١)]!

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ * قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ [السجدة: ١٠، ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ * وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أخبرَ سُبحانَه أنَّ كُلَّ واحدٍ مِن هؤلاء المذكورينَ: فِرعَونَ وغَيرَه، كَذَّب الرُّسُلَ كُلَّهم؛ إذ لم يُؤمِنوا ببَعضٍ ويَكفُروا ببَعضٍ، كاليَهودِ والنَّصارى، بل كَذَّبوا الجَميعَ، وهذا أعظَمُ أنواعِ الكُفرِ؛ فكُلُّ مَن كَذَّب رَسولًا فقد كَفَر، ومَن لم يُصَدِّقْه ولم يُكَذِّبْه فقد كَفَر؛ فكُلُّ مُكَذِّبٍ للرَّسولِ كافِرٌ به، وليس كُلُّ كافِرٍ مُكَذِّبًا به؛ إذ قد يكونُ شاكًّا في رسالتِه، أو عالِمًا بصِدقِه لكِنَّه يَحمِلُه الحَسَدُ أو الكِبرُ على ألَّا يُصَدِّقَه، وقد يكونُ مُشتَغِلًا بهَواه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٨، ٨٩).
قال الزمخشري: (قد لَبَّس عليهم الشَّيطانُ وحَيَّرَهم... ولَبْسُ الشَّيطانِ عليهم: تَسويلُه إليهم أنَّ إحياءَ الموتى أمرٌ خارِجٌ عن العادةِ، فتَرَكوا لذلك القياسَ الصَّحيحَ: أنَّ مَن قَدَر على الإنشاءِ كان على الإعادةِ أقدَرَ!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٢).

عن استِماعِ رِسالتِه والإصغاءِ إليه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾، ولم يقُلْ: (قومُ فِرعَونَ) لأنَّه ليس في قادةِ هذه الفِرَقِ كافِرٌ غيرُه، والنَّصُّ عليه يُفهِمُ عَظَمتَه، وأنَّه استخَفَّ قَومَه فأطاعوه[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: كُلٌّ مِن هذه الأُمَمِ وهؤلاء القُرونِ كَذَّب رَسولَه، ومَن كَذَّب رَسولًا فكأنَّما كَذَّب جميعَ الرُّسُلِ، كقَولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وإنَّما جاءهم رَسولٌ واحِدٌ، فهم في نفْسِ الأمرِ لو جاءهم جميعُ الرُّسُلِ كَذَّبوهم[٣].

٤- التَّحذيرُ لِمُكَذِّبي الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولهذا قال في آخِرِ ما ذَكَرَ: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، فحَقَّ عليهم وعيدُ اللهِ بالعَذابِ[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ يدُلُّ على أنَّ مَن كَذَّب الرُّسُلَ يَحِقُّ عليه العَذابُ، أي: يتحَتَّمُ ويَثبُتُ في حَقِّه ثُبوتًا لا يَصِحُّ معه تخَلُّفُه عنه، وهو دليلٌ واضِحٌ على أنَّ ما قاله بَعضُ أهلِ العِلمِ مِن أنَّ اللهَ يَصِحُّ أن يُخلِفَ وَعيدَه -لأنَّه قال: إنَّه لا يُخلِفُ وَعْدَه، ولم يَقُلْ: إنَّه لا يُخلِفُ وَعيدَه، وأنَّ إخلافَ الوَعيدِ حَسَنٌ لا قبيحٌ، وإنَّما القَبيحُ هو إخلافُ الوَعدِ- لا يَصِحُّ بحالٍ؛ لأنَّ وَعيدَه تعالى للكُفَّارِ حَقٌّ، ووجَب عليهم بتَكذيبِهم للرُّسُلِ، كما دَلَّ عليه قَولُه هنا: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، وقد تقَرَّر في الأُصولِ أنَّ الفاءَ مِن حُروفِ العِلَّةِ، كقَولِه: (سها فسَجَد)، أي: لِعِلَّةِ سَهوِه، و(سَرَق فقُطِعَت يَدُه)، أي: لِعِلَّةِ

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٨٣، ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٢).

سَرِقتِه، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]؛ فتَكذيبُهم الرُّسُلَ عِلَّةٌ صَحيحةٌ لِكَونِ الوَعيدِ بالعَذابِ حَقًّا ووَجَب عليهم، فدعوى جَوازِ تخلُّفِه باطِلةٌ بلا شَكٍّ، أمَّا الوعيدُ الَّذي لا يمتنِعُ إخلافُه فهو وعيدُ عصاةِ المسلمينَ بتعذيبِهم على كبائرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ الله تعالى أوضَح ذلك في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا في الحقيقةِ تجاوُزٌ مِن الله عن ذُنوبِ عبادِه المؤمنينَ العاصينَ، ولا إشكالَ في ذلك(١).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ مِن براهينِ البَعثِ؛ لأنَّ مَن لم يَعْيَ بخَلقِ النَّاسِ، ولم يَعجِزْ عن إيجادِهم الأوَّلِ: لا شَكَّ في قُدرتِه على إعادتِهم، وخَلْقِهم مرَّةً أُخرى؛ لأنَّ الإعادةَ لا يُمكِنُ أن تكونَ أصعَبَ مِن البَدءِ(٢).

٧- قَولُه تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ فهذا الخَلقُ الجَديدُ قد سمَّاه الله سُبحانَه وتعالى إعادةً، والمَعادُ مِثلُ المَبدَأِ، وسَمَّاه نَشأةً أُخرى، وهي مِثلُ الأُولى، وسَمَّاه خَلقًا جَديدًا، وهو مِثلُ الخَلقِ الأوَّلِ، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾، وسَمَّاه أمثالًا، وهم هم؛ فتَطابَقَت ألفاظُ القُرآنِ، وصَدَّق بَعضُها بَعضًا، وبَيَّن بَعضُها بَعضًا؛ ولهذا تزولُ إشكالاتٌ أورَدَها مَن لم يَفهَمِ المَعادَ الَّذي أخبَرَت به الرُّسُلُ عن اللهِ تعالى؛ ولا يُفهَمُ مِن هذا القَولِ ما قاله بَعضُ المتأخِّرينَ: إنَّهم غَيرُهم مِن كُلِّ وَجهٍ؛ فهذا خَطأٌ قَطعًا، مَعاذَ اللهِ مِن اعتِقادِه! بل هم أمثالُهم وهم أعيانُهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٨).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۞ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ۞ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ لبَيانِ حَقيقةٍ راهنةٍ عن البعثِ، واتِّفاقِ جميعِ الرُّسُلِ عليه، وتعذيبِ مُنكريه، وهو ناشئٌ عن قولِه: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ [ق: ٥]، فعُقِّبَ بأنَّهم لَيسوا ببِدْعٍ في الضَّلالِ؛ فقد كذَّبَت قبْلَهم أُمَمٌ(١).

- وذَكَر مِن الرُّسلِ أشهَرَهم في العالَمِ وأشْهَرَهم بيْنَ العرَبِ؛ فقومُ نُوحٍ أوَّلُ قَومٍ كذَّبوا رَسولَهم، وفِرعونُ كذَّبَ موسى، وقومُ لُوطٍ كذَّبوه، وهؤلاء مَعروفونَ عندَ أهلِ الكِتابِ، وأمَّا أصحابُ الرَّسِّ وعادٌ وثَمودُ وأصحابُ الأَيْكةِ وقَومُ تُبَّعٍ، فهُمْ من العرَبِ، وذُكِروا هنا عقِبَ قومِ نوحٍ؛ للجامعِ الخَياليِّ بيْن القومَينِ، وهو جامعُ التَّضادِّ؛ لأنَّ عَذابَهم كان ضِدَّ عذابِ قَومِ نوحٍ؛ إذ كان عَذابُهم بالخَسفِ، وعذابُ قومِ نوحٍ بالغَرَقِ، ثمَّ ذكَرَ ثَمودَ؛ لشَبَهِ عَذابِهم بعذابِ أصحابِ الرَّسِّ؛ إذْ كانَ عَذابُهم برَجفةِ الأرضِ وصَواعقِ السَّماءِ، ولأنَّ أصحابَ الرَّسِّ مِن بَقايا ثَمودَ -على أحدِ الأقوالِ-، ثمَّ ذُكِرَت عادٌ؛ لأنَّ عذابَها كان بحادثٍ في الجوِّ، وهو الرِّيحُ، ثم ذُكِرَ فِرعونُ وقومُه؛ لأنَّهم كذَّبوا أشهَرَ الرُّسُلِ قبْلَ الإسلامِ، وأصحابُ الأيْكةِ هم قومُ شُعَيبٍ، وهم مِن خُلَطاءِ بني إسرائيلَ(٢).

- قَولُه: ﴿وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ﴾ عبَّرَ بالأُخوَّةِ؛ مع أنه لم يكُنْ مِن نسَبِهم، وإنَّما كان

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٥).

نزيلًا فيهم؛ لاستِوطانِه بلادَهم، واختيارِه لِمُجاوَرتِهم، ومُصاهَرتِهم، وإقامتِه بيْنَهم في مدينتِهم مُدَّةً مَديدةً، وسِنينَ عديدةً، فالمرادُ بـ (إِخْوَانُ) هنا أنَّهم مُلازِمونَ، وهذا مِن إطلاقِ الأُخُوَّةِ على مُلازَمةِ الشَّيءِ ومُمارَستِه[١].

- والمقصودُ بذِكرِ هذِه الأُمَمِ الَّتي أصابَها عذابٌ شَديدٌ في الدُّنيا عِقابًا على تَكذيبِهم الرُّسلَ: تسليةُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّعريضُ بالتَّهديدِ لقَومِه المكذِّبينَ أنْ يحُلَّ بهم ما حلَّ بأولئك[٢].

- وجُملةُ ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ مُؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ إلى آخرِها؛ فلذلك فُصِلَتْ ولم تُعطَفْ، وليُبْنَى عليه قولُه: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾؛ فيَكونَ تَهديدًا بأنْ يحِقَّ عليهم الوعيدُ كما حَقَّ على أولئك مُرتَّبًا بالفاءِ على تَكذيبِهم الرُّسلَ؛ فيكونَ في ذلك تَشْريفٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللرُّسلِ السَّابقينَ[٣].

- قولُه: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ تنْوينُ ﴿كُلٌّ﴾ تَنوينُ عِوَضٍ عن المُضافِ إليه، أي: كلُّ أولئك[٤]. وإفرادُ الضَّميرِ في قَولِه: ﴿كَذَّبَ﴾ باعتِبارِ لَفظِ الكُلِّ، أوْ كُلُّ واحدٍ منهم كذَّبَ جمْعَ الرُّسلِ؛ لاتِّفاقِهم على الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ والإنذارِ بالبعثِ والحَشْرِ؛ فتَكذيبُ واحدٍ منهم تكذيبٌ للكلِّ، وهذا على تقْديرِ رِسالةِ تُبَّعٍ ظاهرٌ، وأمَّا على تَقديرِ عدَمِها -وهُو الأظهرُ- فمعنى تَكذيبِ قَومِه الرُّسلَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٠) و(١٨/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٨) و(٢٦/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٩٧).

تكذيبُهم بمنْ قَبْلَهم مِن الرُّسلِ المُجمِعينِ على التَّوحيدِ والبعثِ، وإلى ذلكَ كان يَدْعُوهم تُبَّعٌ[١].

- قولُه: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ الوعيدُ: الإنذارُ بالعُقوبةِ، واقتَضى الإخبارُ عنه بـ (حَقَّ) أنَّ اللهَ تَوعَّدَهم به، فلمْ يَعبؤوا وكذَّبوا وُقوعَه؛ فحَقَّ وصدَقَ. وحُذِفَت ياءُ المتكلِّمِ الَّتي أُضيفَ إليها ﴿وَعِيدِ﴾؛ للرَّعْيِ على الفاصلةِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ استِئنافٌ مقرِّرٌ لصحَّةِ البَعثِ الَّذي حُكِيَت أحوالُ المنكِرينَ له مِن الأممِ المُهلَكةِ. والفاءُ في ﴿أَفَعَيِينَا﴾ عاطفةٌ على مَحذوفٍ، تقديرُه: أقصَدْنا الخلْقَ فعَجَزْنا عنه حتَّى يتوهَّمَ أحَدٌ عَجْزَنا عن إعادتِه[٣]؟!

- وأيضًا تُشيرُ فاءُ التَّفريعِ إلى أنَّ هذا الكلامَ مُفرَّعٌ على ما قبْلَه، وهو جُملةُ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [ق: ٦]، وقولُه: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ [ق: ٨] المُعرِّضُ بأنَّهم لم يَتبصَّروا به ولم يَتذكَّروا. وقولُه: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ [ق: ٩]، وقولُه: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ تَفريعًا على قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[٤].

- والهَمزةُ في ﴿أَفَعَيِينَا﴾ استِفهامُ إنكارٍ وتَغليطٍ؛ لأنَّهم لا يَسَعُهم إلَّا الاعترافُ بأنَّ اللهَ لم يَعْيَ بالخَلقِ الأوَّلِ؛ إذ لا يُنكِرُ عاقلٌ كَمالَ قُدرةِ الخالِقِ، وعدمَ عَجزِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير أبي =

- وفي قَولِه: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ عُرِّفَ الخلْقُ الأوَّلُ، ونُكِّرَ اللَّبْسُ والخلْقُ الجديدُ؛ وذلك لأنَّه عُرِّفَ الخلْقُ الأوَّلُ لتَفخيمِه وتَعظيمِه؛ لأنَّ الغرَضَ جَعْلُه دَليلًا على إمكانِ الخلْقِ الثَّاني بطَريقِ الأَولى، أي: إذا لم يَعْيَ تعالى بالخلْقِ الأوَّلِ -على عَظَمتِه- فالخلْقُ الآخرُ أَولى ألَّا يَعيا به. وأمَّا تَنكيرُ اللَّبْسِ فللتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، كأنَّه قال: في لَبْسٍ أيَّ لَبْسٍ، وتَنكيرُ الخلْقِ الجديدِ للتَّقليلِ منه، والتَّهوينِ لأمْرِه بالنِّسبةِ إلى الخلْقِ الأوَّلِ، ويحتمِلُ أنْ يكونَ للتَّفخيمِ، كأنَّه أمْرٌ أعظَمُ مِن أنْ يَرضى الإنسانُ بكَونِه مُلتبسًا عليه، مع أنَّه أوَّلُ ما تُبصَرُ فيه صِحَّتُه[1]، أو نكَّره لتعظيمِ شأنِه، والإشعارِ بأنَّه على وجهٍ غيرِ مُتعارَفٍ ولا مُعتادٍ[2]. أو تَنكيرُ ﴿لَبۡسٖ﴾ للنَّوعيةِ، وتَنكيرُ ﴿خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ كذلك، أي: ما هو إلَّا خلْقٌ مِن جُملةِ ما يقَعُ مِن خلْقِ اللهِ الأشياءَ ممَّا وُجِّهَ إحالتُه، ولتَنكيرِه أُجْرِيَت عليه الصِّفةُ بـ﴿جَدِيدٖ﴾[3]. وقيل: نَكَّر الخَلقَ الجَديدَ؛ لأنَّه كان غيرَ مَعروفٍ عندَ الكُفَّارِ المُخاطَبينَ، وعَرَّف الخَلْقَ الأوَّلَ؛ لأنَّه مَعروفٌ مَعهودٌ[4].

- قولُه: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ حرْفُ (بل) أفادَ الإضرابَ الإبطاليَّ عن المُستفهَم عنه، أي: بلْ ما عَيِينا بالخلْقِ الأوَّلِ، أي: وهم يَعلَمون ذلك، ويَعلَمون أنَّ الخلْقَ الأوَّلَ للأشياءِ أَعظَمُ مِن إعادةِ خلْقِ الأمواتِ، ولكنَّهم

= حيان)) (٩/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠١).

تَمكَّنَ منهم اللَّبسُ الشَّديدُ، فأغْشَى إدراكَهم عن دَلائلِ الإمكانِ فأحالُوه؛ فالإضرابُ على أصلِه مِن الإبطالِ[١].

- وأيضًا (بل) عطفٌ على مُقدَّرٍ مُستأنَفٍ مَسوقٍ لبيانِ شُبهتِهم وفضْحِ سَفْسطتِهم، والتَّقديرُ: هم غيرُ مُنكِرين لقدرتِنا، بلْ هم في خَلطٍ وشُبهةٍ[٢].

- وجيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ مِن قولِه: ﴿هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ هذا الحُكمِ لهم، وأنَّه مُتمكِّنٌ مِن نُفوسِهم، لا يُفارِقُهم البتَّةَ، ولِيَتأتَّى اجتِلابُ حرْفِ الظَّرفيَّةِ في الخبَرِ؛ فيَدُلَّ على انغِماسِهم في هذا اللَّبْسِ، وإحاطتِه بهم إحاطةَ الظَّرفِ بالمَظروفِ[٣].

- قولُه: ﴿جَدِيدٍ﴾ في هذا الوصفِ تَحميقٌ لهم مِن إحالتِهم البَعثَ، أي: اجْعَلوه خلْقًا جديدًا كالخَلقِ الأوَّلِ، وأيُّ فارقٍ بيْنَهما[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٦-٢٢)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُوَسْوِسُ﴾: أي: تُلْقي وتُحَدِّثُ، والوَسْوَسةُ: الخَطرةُ الرَّديئةُ وحديثُ النَّفْسِ، والصَّوتُ الخفيُّ، وبه سُمِّيَ صَوتُ الحلْيِ وَسْواسًا، وأصلُ (وسوس): يدُلُّ على صَوتٍ غَيرِ رَفيعٍ[١].

﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾: الحَبلُ هو الوَريدُ؛ فهو مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى نَفْسِه لاختِلافِ اللَّفظَينِ، وهو عِرقٌ في باطِنِ العُنُقِ مُعَلَّقٌ بالقَلبِ[٢].

﴿قَعِيدٌ﴾: أي: قاعِدٌ رَاصِدٌ مُلازِمٌ لا يَبرَحُ[٣].

﴿رَقِيبٌ﴾: أي: مُراقِبٌ لأعمالِه، حافِظٌ لها، شاهِدٌ عليها، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، =

﴿عَتِيدٌ﴾: أي: حاضِرٌ لا يَغيبُ، مُعَدٌّ للحِفظِ والشَّهادةِ، وأصلُ (عتد): يدُلُّ على حُضورٍ وقُربٍ[١].

﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: أي: غَمْرَتُه وشِدَّتُه الَّتي تَغشَى الإنسانَ، وتَغلِبُ على عَقلِه، وأصلُ (سكر): يدُلُّ على حَيرةٍ[٢].

﴿تَحِيدُ﴾: أي: تَفِرُّ منه، وتَميلُ عنه، وأصلُ (حيد): يدُلُّ على مَيلٍ وعُدولٍ عن طَريقِ الاستِواءِ[٣].

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرنِ يَنفُخُ فيه إسرافيلُ[٤].

﴿حَدِيدٌ﴾: أي: نافِذٌ حادٌّ قويٌّ، وحِدَّةُ البَصَرِ: قُوَّةُ نَفاذِه في المَرئيِّ، وأصلُ (حدد): يدُلُّ على مَنعٍ، وسُمِّيَ الحديدُ حَديدًا؛ لامتناعِه وصلابَتِه وشِدَّتِه[٥].

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣) و(٢/ ٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٩).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا شمولَ عِلمِه لكلِّ شَيءٍ: ولقد خَلَقْنا كلَّ إنسانٍ ونحنُ نعلَمُ ما تُحدِّثُه به نفْسُه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، ونحن أقرَبُ إليه مِن حَبلِ الوَريدِ الَّذي في عُنُقِه، إذ يَتلَقَّى المَلَكانِ ما يَصدُرُ منه فيُحصيانِه عليه: أحَدُهما عن يمينِه، والآخَرُ عن شِمالِه.

ما يَتلفَّظُ إنسانٌ بقَولٍ إلَّا وعِندَه مَلَكٌ حافِظٌ لكَلامِه، حاضِرٌ لا يُفارِقُه.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه حالةَ الإنسانِ عندَ الاحتضارِ، فيقولُ: وجاءت شِدَّةُ الموتِ بالحَقِّ الَّذي يكونُ بعدَ الموتِ مِن ثَوابٍ أو عِقابٍ، ذلك الموتُ هو ما كُنتَ تَهرُبُ منه أيُّها الإنسانُ!

ثمَّ يَذكُرُ سبحانَه يومَ القيامةِ وحالَ النَّاسِ فيه، فيقولُ: ونَفَخ المَلَكُ في القَرنِ لِبَعثِ النَّاسِ، وذلك يَومُ القيامةِ الَّذي توعَّد اللهُ الكافِرينَ والظَّالِمينَ فيه بالعَذابِ، وجاءتْ كلُّ نَفسٍ معها سائِقٌ مِنَ الملائِكةِ يَسوقُها إلى اللهِ تعالى، وشَهيدٌ مِنَ الملائكةِ يَشهَدُ عليها بما عَمِلَته.

لقد كنتَ -أيُّها الإنسانُ- في غَفلةٍ مِن هذا اليَومِ، فأزَلْنا عنك الغِطاءَ، ورَفَعْنا عنك الحِجابَ يومَ القيامةِ؛ فظَهَرت لك حقائِقُ الآخِرةِ، فبَصَرُك يومَ القيامةِ حادٌّ قَويٌّ نافِذٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى خَلْقَ الخافِقَينِ -السَّماءِ والأرضِ-؛ أتْبَعَه خَلْقَ ما هو

جامعٌ لجميعِ ما هو فيهما[١].

وأيضًا بعد أن استدَلَّ على إمكانِ البعثِ بقولِه: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥]- أردف ذلك دليلًا آخَرَ على إمكانِه، وهو عِلمُه بما في صدورِهم، وعدَمُ خَفاءِ شَيءٍ مِن أمرِهم عليه[٢].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾.

أي: ولقد خَلَقْنا كلَّ إنسانٍ ونحنُ نعلَمُ ما تُحدِّثُه به نفْسُه سِرًّا، فلا يخفَى علينا ما يَختَلِجُ في قَلْبِه[٣].

قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

أي: ونحن أقرَبُ إليه مِن حَبلِ وَريدِه الَّذي في عُنُقِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٩).

قال البقاعي: (فنحن نعلمُ أنَّ قُلوبَهم عالِمةٌ بقُدرتِنا على أكمَلِ ما نريدُ، وبصِحَّةِ القرآنِ وإعجازِه، وصِدقِ الرَّسولِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وامتيازِه، وإنَّما حمَلَهم الحَسَدُ والنَّفاسةُ [أي: الحسدُ] والكِبرُ والرِّئاسةُ على الإنكارِ باللِّسانِ حتَّى صار ذلك لهم خُلُقًا، وتمادَوا فيه حتَّى غطَّى على عُقولِهم، فصاروا في لَبْسٍ مُحيطٍ بهم مِن جميعِ الجوانِبِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤١٩، ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢١، ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥٠٥)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للموصلي (ص: ٤٨٠، ٤٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) =

كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ﴾ [المجادلة: ٧].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا غَزا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خَيبَرَ أشرَفَ النَّاسُ على وادٍ، فرَفَعوا أصواتَهم بالتَّكبيرِ: اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ارْبَعوا[1] على أنفُسِكم؛ إنَّكم لا تَدْعُونَ أصَمَّ، ولا غائِبًا، إنَّكم تَدْعُونَ سَميعًا قَريبًا، وهو معكم))[2].

= (ص: ٨٩، ٩٠).

قيل: المرادُ: قُربُ ملائكتِه منه. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ تيميَّة، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٩).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يعنى: ملَكَ الموتِ وحْدَه، إذا أتاه لِيَقبِضَ رُوحَه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٥).

وقيل: المرادُ: نحن أقرَبُ إليه بالعِلمِ والقُدرةِ والإحاطةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ في الجملةِ: الأخفَشُ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، وابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٠).

قال ابن كثير: (مَن تأوَّله على العِلمِ فإنَّما فَرَّ لئَلَّا يَلزَمَ حُلولٌ أو اتِّحادٌ، وهما مَنفيَّانِ بالإجماعِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨).

(١) ارْبَعُوا على أنفُسِكم: أي: ارْفُقوا بها، وأمسِكوا عن الجَهرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٥٩٧).

(٢) رواه البخاري (٤٢٠٥) واللفظ له، ومسلم (٢٧٠٤).

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا تَمَّ الإخبارُ مِنَ اللهِ تعالى بالخَلقِ والعِلمِ بخَطَراتِ الأنفُسِ، والقُربِ؛ أخبَرَ بذِكرِ الأحوالِ الَّتي تُصَدِّقُ هذا الخبَرَ، وتُعَيِّنُ وُرودَه عندَ السَّامعِ؛ فمِنها: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾، ومنها مجيءُ سَكرةِ الموتِ، ومنها: النَّفخُ في الصُّورِ، ومنها: مجيءُ كُلِّ نفْسٍ معها سائِقٌ وشَهيدٌ[1].

وأيضًا فإنَّه ذكَر سبحانَه أنَّه مع عِلمِه به وكَّل به مَلَكَينِ يَكتُبانِ ويَحفَظانِ عليه عمَلَه؛ إلزامًا للحُجَّةِ، فقال[2]:

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

أي: نحن أقرَبُ إليه مِن حَبلِ الوَريدِ في الوَقتِ الَّذي يَتلَقَّى فيه المَلَكانِ جميعَ ما يَصدُرُ منه مِن أقوالٍ وأعمالٍ، فيُحصيانِها عليه: أحَدُهما ثابِتٌ عن يمينِه، والآخَرُ ثابتٌ عن شِمالِه، لا يُفارِقانِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩-١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٠، ٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٦، ٤٢٧).

قال ابنُ رجب: (أجمَع السَّلَفُ الصَّالِحُ على أنَّ الَّذي عن يمينِه يَكتُبُ الحَسَناتِ، والَّذي عن شِمالِه يَكتُبُ السَّيِّئاتِ). ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٣٣٦).

وقال الشنقيطي: (المرادُ أنَّ الَّذي خلَق الإنسانَ ويَعلَمُ ما تُوسوِسُ به نفْسُه وهو أقرَبُ إليه مِن حَبلِ الوَريدِ في وَقتِ كِتابةِ الحَفَظةِ أعمالَه: لا حاجةَ له لِكَتْبِ الأعمالِ؛ لأنَّه عالِمٌ بها، لا يَخفى عليه منها شَيءٌ، وإنَّما أمَرَ بكِتابةِ الحَفَظةِ للأعمالِ؛ لحِكَمٍ أُخرى، كإقامةِ الحُجَّةِ على العَبدِ =

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ما يَتكلَّمُ الإنسانُ بقَولٍ إلَّا وعِندَه مَلَكٌ حافِظٌ يُراقِبُ كَلامَه لِيَكتُبَه، حاضِرٌ لا يُفارِقُه[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

وعن عَلْقَمةَ بنِ وقَّاصٍ اللَّيثيِّ، عن بلالِ بنِ الحارِثِ المُزَنيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ الرَّجُلَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن رِضوانِ اللهِ عزَّ وجَلَّ ما يظُنُّ أنْ تَبلُغَ ما بَلَغَت، يَكتُبُ اللهُ عزَّ وجَلَّ له بها رِضوانَه إلى يومِ القيامةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن سَخَطِ اللهِ عزَّ وجَلَّ ما يظُنُّ أن تَبلُغَ ما بلَغَت، يَكتُبُ اللهُ عزَّ وجَلَّ بها عليه سَخَطَه إلى يومِ القيامةِ!))، فكان عَلْقمةُ يقولُ: (كم مِن كَلامٍ قد مَنَعَنيه حديثُ بلالِ بنِ الحارِثِ!)[2].

= يومَ القيامةِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٢٦، ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٢، ٩٣).

قال الماوردي: (﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنَّه المُتتَبِّعُ للأمورِ. الثَّاني: أنَّه الحافظُ، قاله السُّدِّيُّ. الثَّالثُ: أنَّه الشَّاهدُ، قاله الضَّحَّاكُ.

وفي ﴿عَتِيدٌ﴾ وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه الحاضرُ الَّذي لا يَغيبُ. الثَّاني: أنَّه الحافظُ المُعَدُّ؛ إمَّا لِلحِفظِ، وإمَّا للشَّهادةِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤٧). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١).

وقال الشنقيطي في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾: (أي: إلَّا والحالُ أنَّ عندَه رقيبًا، أي: مَلَكًا مُراقِبًا لأعمالِه، حافِظًا، لها شاهدًا عليها، لا يَفوتُه منها شَيءٌ. ﴿عَتِيدٌ﴾: أي: حاضرٌ، ليس بغائبٍ، يَكتُبُ عليه ما يقولُ مِن خَيرٍ وشرٍّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣١٩)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) كما في ((تحفة الأشراف)) للمِزِّي (٢/ ١٠٤)، وابن ماجه (٣٩٦٩)، وأحمد (١٥٨٥٢) واللَّفظُ له. =

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ إنكارَهم البَعثَ، واحتَجَّ عليهم بوصْفِ قُدرتِه وعِلمِه؛ أعلَمَهم أنَّ ما أنكَروه وجَحَدوه هم لاقوهُ عن قريبٍ عندَ مَوتِهم وعندَ قِيامِ السَّاعةِ(١).

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: وجاءتْ شِدَّةُ الموتِ وغَمْرتُه الَّتي تَغشَى الإنسانَ، بما يكونُ بعدَ الموتِ مِن ثَوابٍ وعِقابٍ، وسَعادةٍ وشَقاوةٍ، فيَظهَرُ عندَ الموتِ صِدقُ ما أخبَرَتْ به الرُّسُلُ مِن ذلك(٢).

= قال الترمذي، وابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (٢١٠): (حسَنٌ صحيحٌ). وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٢٨٠)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ١٠٦)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٩٦٩)، وصحَّحه لغيرِه شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٥/ ١٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٥).

قال ابنُ الجوزي: (﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّ معناه: جاءت بحقيقةِ الموتِ. والثَّاني: بالحَقِّ مِن أمرِ الآخِرةِ، فأبانت للإنسانِ ما لم يكُنْ بيِّنًا له مِن أمرِ الآخِرةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٠).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (ليس مُرادُه أنَّها جاءت بالحَقِّ الَّذي هو الموتُ؛ فإنَّ هذا مَشهورٌ لم يُنازَعْ فيه، ولم يَقُلْ أحدٌ: إنَّ الموتَ باطِلٌ حتَّى يُقالَ: جاءت بالحَقِّ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٦٥).

ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٥، ٣٨٦).

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ حضَرَتْه الوَفاةُ جَعَل يُدخِلُ يَديه في الماءِ، فيَمسَحُ بهما وَجْهَه، يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، إنَّ لِلْمَوتِ سَكَراتٍ))(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أحَدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقعَدُه بالغَداةِ والعَشِيِّ؛ إنْ كان مِن أهلِ الجنَّةِ فمِن أهلِ الجَنَّةِ، وإنْ كان مِن أهلِ النَّارِ فمِن أهلِ النَّارِ، يُقال: هذا مَقعَدُك حتَّى يَبعَثَك اللهُ إليه يومَ القيامةِ))(٢).

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾.

أي: ذلك الموتُ الَّذي جاءَتْك سَكْرتُه بالحَقِّ هو ما كُنتَ تَميلُ عنه وتَهرُبُ منه -أيُّها الإنسانُ- وقد أدركَك الآنَ(٣)!

---

(١) رواه البخاري (٤٤٤٩).

(٢) رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٦).

قال ابنُ كثيرٍ: (في قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّ «ما» هاهنا مَوصولةٌ، أي: الَّذي كنتَ منه تحيدُ -بمعنى: تبتَعِدُ وتَنأى وتَفِرُّ- قد حَلَّ بك، ونزل بساحَتِك.

والقولُ الثَّاني: أنَّ «ما» نافيةٌ، بمعنى: ذلك ما كُنتَ تَقدِرُ على الفِرارِ منه، ولا الحَيدِ عنه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٥، ٩٦).

وممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والبِقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٩). =

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ونَفَخ المَلَكُ في القَرنِ لِبَعثِ النَّاسِ يَومَ القيامةِ الَّذي توعَّد اللهُ الكافِرينَ والظَّالِمينَ فيه بالعَذابِ[(١)].

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قَرْنٌ يُنفَخُ فيه))[(٢)].

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

= وقال ابنُ كثير: (﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: هذا هو الَّذي كنتَ تَفِرُّ منه قد جاءك، فلا مَحيدَ ولا مَناصَ، ولا فَكاكَ ولا خَلاصَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٣، ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٦).

قال ابن عثيمين: (المرادُ بقَولِه: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ النَّفخةُ الثَّانيةُ، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾، وهذا يَعني أنَّه بهذه النَّفخةِ صار يومُ القيامةِ الَّذي هو يومُ الوَعيدِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٦).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٤٧٤٢)، والترمذيُّ (٢٤٣٠)، والنَّسائيُّ (١١٤٥٦) واللَّفظُ لهما، وأحمدُ (٦٥٠٧) باختلافٍ يسيرٍ.

حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٥٠)، ووافقه الذهبي في ((التلخيص)) (٢/ ٥٥٠)، وذكر ثبوتَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٥/ ٣٠٨)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ٩)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٣٠).

أي: وجاءت كلُّ نفْسٍ يومَ القيامةِ ومعها سائِقٌ مِنَ الملائِكةِ يَسوقُها إلى اللهِ تعالى، وشَهيدٌ مِنَ الملائكةِ يَشهَدُ عليها بما عَمِلَتْه في الدُّنيا(١).

كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۞ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۞ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾.

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾.

أي: لقد كنتَ -أيُّها الإنسانُ- في الدُّنيا في غَفلةٍ مِن هذا اليَومِ، فلمْ تستَعِدَّ له(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٩، ٤٣٣)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ نُفوسُ جميعِ البَشَرِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٧).

ونسَبَ مكِّيٌّ هذا القولَ إلى أكثَرِ العُلماءِ، ونسَبه الماوَرْديُّ للجُمهورِ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٤٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤٩).

وقيل: المرادُ بـ ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾: نفوسُ المُشرِكينَ، لا المؤمِنينَ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٨).

وقد ذهب ابنُ جرير، وابنُ عطيَّة، والرَّازيُّ، وابنُ كثير -ونسَبه الشَّوكانيُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ-: إلى أنَّ هذا الخِطابَ لكُلِّ إنسانٍ؛ مُؤمِنٍ وكافِرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠). =

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾.

أي: فأزَلْنا عنك الغِطاءَ، ورَفَعْنا عنك الحِجابَ يومَ القيامةِ؛ فظَهَرت لك حقائِقُ الآخِرةِ[1].

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

أي: فبَصَرُك يومَ القيامةِ في غايةِ الحِدَّةِ والقُوَّةِ والنُّفوذِ، فترى به ما كُنتَ غافِلًا عنه في الدُّنيا[2].

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحُسَينُ بنُ عَبدِ الله بنِ عُبَيدِ الله بنِ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٥).

قال الرازي: (الخِطابُ عامٌّ؛ أمَّا الكافِرُ فمَعلومُ الدُّخولِ في هذا الحُكم، وأمَّا المؤمِنُ فإنَّه يَزدادُ عِلمًا، ويظهَرُ له ما كان مَخفيًّا عنه، ويرى عِلمَه يَقينًا، فيكونُ بالنِّسبةِ إلى تلك الأحوالِ وشِدَّةِ الأهوالِ كالغافِلِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٥).

وذهب مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور إلى أنَّ هذا الخِطابَ خاصٌّ بالكافِرِ، وهو ظاهرُ اختيارِ الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، وسُفْيانُ، والضَّحَّاكُ بنُ مُزاحِمٍ، وصالحُ ابنُ كَيْسانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٧٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿فَبَصَرُكَ﴾: بصَرُ العَينِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والماوَرْديُّ، والبغوي، وابنُ جُزَي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير الماوردي)) =

كما قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ في هذا زَجرٌ عن المعاصي الَّتي يَستَخفي الإنسانُ بها(١).

٢- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ وُجوبُ مُراقبةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ وألَّا نُحَدِّثَ أنفُسَنا بما يُغضِبُه وبما يَكرَهُ؛ فعلينا أنْ يكونَ حديثُ نُفوسِنا كلُّه بما يُرضيه؛ لأنَّه يَعلمُ ذلك، أفَلا يَليقُ بنا أنْ نَستحيَ مِن ربِّنا

= (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٨٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به: العِلمُ والبصيرةُ: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والواحدي، وابنُ عطية، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٧٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٢).

قال الشنقيطي: (معنَى قولِه: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦]، أي: تكامَل عِلْمُهم فيها؛ لِمُبالَغَتِهم في سَمْعِ الحقِّ وإبصارِه في ذلك الوقتِ... وكقولِه تعالَى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أيْ: عِلمُكَ اليومَ بما كنتَ تُنْكِرُه في الدُّنيا مِمَّا جاءَتْكَ به الرُّسُلُ حديدٌ، أي: قَوِيٌّ كامِلٌ، و... أنَّ المرادَ بحدَّةِ البصرِ في ذلك اليَومِ: كمالُ العِلمِ، وقوَّةُ المعرفةِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ١٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨).

عزَّ وجلَّ أنْ تُوسوِسَ نُفوسُنا بما لا يَرضاه؟! لكِنَّ الوَساوِسَ الَّتي تَطرَأُ على القَلبِ، ولا يَميلُ الإنسانُ إليها بل يُحارِبُها، ويُحاوِلُ البُعدَ عنها بقَدْرِ إمكانِه: لا تَضُرُّه شَيئًا، بل هي دَليلٌ على إيمانِه؛ لأنَّ الشَّيطانَ إنَّما يأتي إلى القَلبِ، فيُلقي عليه الوَساوِسَ إذا كان قَلبًا سَليمًا[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فيه هَيبةٌ وفَزَعٌ وخَوفٌ لِقَومٍ، ورَوحٌ وسُكونٌ وأُنسُ قَلبٍ لِقَومٍ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هذا ممَّا يدعو الإنسانَ إلى مُراقَبةِ خالِقِه المُطَّلِعِ على ضَميرِه وباطِنِه، القَريبِ منه في جميعِ أحوالِه؛ فيَستَحيي منه أن يَراه حيثُ نهاه، أو يَفقِدَه حيثُ أَمَره، وكذلك ينبغي له أن يَجعَلَ الملائِكةَ الكِرامَ الكاتِبينَ منه على بالٍ، فيُجِلَّهم ويُوَقِّرَهم، ويَحذَرَ أن يَفعَلَ أو يقولَ ما يُكتَبُ عنه مِمَّا لا يُرضي رَبَّ العالَمينَ؛ ولهذا قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: يتَلَقَّيانِ عن العَبدِ أعمالَه كُلَّها[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ المُكَلَّفَ غَيرُ مَتروكٍ سُدًى[٤].

٦- قَولُه تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ في اللِّسانِ آفَتانِ عَظيمتانِ إنْ خَلَص العبدُ مِن إحداهما لم يَخلُصْ مِنَ الأُخرى: آفةُ الكلامِ، وآفةُ السُّكوتِ، وقد يكونُ كُلٌّ منهما أعظَمَ إثمًا مِنَ الأخرى في وَقتِها؛ فالسَّاكِتُ عن الحَقِّ شَيطانٌ أخرَسُ، عاصٍ للهِ، مُراءٍ مُداهِنٌ، إذا لم يَخَفْ على نَفْسِه، والمتكَلِّمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٩، ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٤).

بالباطِلِ شَيطانٌ ناطِقٌ، عاصٍ للهِ، وأكثَرُ الخَلقِ مُنحَرِفٌ في كَلامِه وسُكوتِه، فهُم بيْنَ هذَينِ النَّوعَينِ، وأهلُ الوَسَطِ -وهم أهلُ الصِّراطِ المُستقيمِ- كَفُّوا ألسِنتَهم عن الباطِلِ، وأطلَقوها فيما يَعودُ عليهم نَفْعُه في الآخِرةِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ التَّحذيرُ مِن التَّهاوُنِ بالأعمالِ الصَّالحةِ، والتَّكاسُلِ عن التَّوبةِ؛ وأنَّ الإنسانَ يجبُ أن يُبادِرَ؛ لأنَّه لا يدري متى يأتيه الموتُ[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ يدُلُّ على اعتناءِ اللهِ بالعِبادِ، وحِفظِه لأعمالِهم، ومُجازاتِه لهم بالعَدلِ، فهذا الأمرُ مِمَّا يَجِبُ أن يَجعَلَه العبدُ منه على بالٍ، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ غافِلونَ[٣]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ فائِدةُ الإخبارِ بأنَّ اللهَ يَعلَمُ ما تُوسوِسُ به نفْسُ كُلِّ إنسانٍ: التَّنبيهُ على سَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى بأحوالِهم كُلِّها، فإذا كان يَعلَمُ حَديثَ النَّفْسِ فلا عَجَبَ أن يَعلَمَ ما تَنقُصُ الأرضُ منهم[٤].

٢- مَن أنكَرَ عِلمَ اللهِ تعالى فهو كافِرٌ، سَواءٌ أنكَرَه فيما يَتعلَّقُ بفِعْلِه، أو فيما يتعلَّقُ بخَلْقِه؛ فلو قال: إنَّ اللهَ تعالى لا يَعلَمُ ما يَفعَلُه العبدُ فهو كافِرٌ، كما لو قال: إنَّ اللهَ لا يَعلَمُ ما يَفعَلُه بنَفْسِه؛ ولهذا كفَّر أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ غُلاةَ القَدَريَّةِ الَّذين قالوا: إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لا يَعلَمُ أفعالَ العبادِ؛ فالَّذي يُنكِرُ عِلمَ اللهِ

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٩).

بأفعالِ العِبادِ لا شَكَّ أنَّه كافِرٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يَقولُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، ويَقولُ سُبحانَه وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[1] [الزخرف: ٨٠].

٣- النَّفْسُ لها وَسوَسةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾؛ فهذا تُوسوِسُ به نَفْسُه لِنَفْسِه، فالَّذي يُوسوِسُ في صُدورِ النَّاسِ نُفوسُهم، وشَياطينُ الجِنِّ وشَياطينُ الإنسِ[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ لم يَقُلْ: على اليَمينِ وعلى الشِّمالِ؛ لأنَّهما ليسا على كَتِفَيه، بل هما في مَكانٍ قَريبٍ أقرَبَ مِن حَبلِ الوَريدِ[3].

٥- قولُه تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: يتَلَقَّى المُتلَقِّيانِ جميعَ ما يَصْدُرُ عن الإنسانِ، فيَكْتُبانِه عليه[4]، ويُؤخَذُ منه أنَّ لكُلِّ إنسانٍ ملَكَينِ يُحصِيانِ أعمالَه، وأنَّ أحدَهما يكونُ من جِهةِ يَمينِه، والآخَرَ من جِهةِ شِمالِه[5].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أنَّ الملَكينِ يَكتُبانِ جميعَ أقوالِ العَبدِ؛ فإنَّه قال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ نَكِرةٌ في سياقِ النَّفيِ مُؤكَّدةٌ بحَرفِ «مِن»؛ فهذا يَعُمُّ كُلَّ قَولِه[6]، قال بَعضُهم: يُكتَبُ عليه كُلُّ شَيءٍ حتَّى الأنينُ في المَرَضِ، وهذا هو ظاهِرُ قَولِه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩١).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٩).

وهذا هو ظاهِرُ الآيةِ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿مِن قَوۡلٍ﴾ نَصٌّ صَريحٌ في العُمومِ[١]، فظاهِرُ الآيةِ الكريمةِ أنَّ القَولَ مهما كان يُكتَبُ، سواءٌ كان خيرًا أم شَرًّا أم لَغوًا يُكتَبُ، لكِنْ يُحاسَبُ على ما كان خَيرًا أو شرًّا، ولا يَلزَمُ مِن الكتابةِ أنْ يُحاسَبَ الإنسانُ عليها[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿رَقِيبٌ﴾ حُجَّةٌ في تَسميةِ المخلوقينَ ووصفِهم باسمِ الخالِقِ ووصفِه[٣]، وذلك فيما كان له معنًى كُلِّيٌّ تتفاوتُ فيه أفرادٌ مِنَ الأسماءِ والصِّفاتِ -كالمَلِكِ، والعَزيزِ، والجَبَّارِ- فيَجوزُ تَسميةُ غَيرِ الله بها؛ فقد سَمَّى اللهُ نَفْسَه بهذه الأسماءِ، وسَمَّى بَعضَ عِبادِه بها، أمَّا ما كان مِن أسمائِه لا يقبل الشَّرِكةَ -كالخالِقِ والبارِئِ- فلا تجوزُ التَّسميةُ به[٤].

٨- الرَّقيبُ هو العَتيدُ وليس غيرَه؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، ولم يَقُلْ سُبحانَه: رَقيبٌ وعَتيدٌ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٢).

قال ابن كثير: (اختلف العُلَماءُ: هل يَكتُبُ المَلَكُ كُلَّ شَيءٍ مِن الكلامِ، وهو قَولُ الحَسَنِ وقَتادةَ، أو إنَّما يكتُبُ ما فيه ثوابٌ وعِقابٌ، كما هو قَولُ ابنِ عبَّاسٍ: على قَولَينِ، وظاهِرُ الآيةِ الأوَّلُ؛ لِعُمومِ قَولِه: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨). ويُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٤٤)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٩٠).

(٤) جاء في فتوى اللَّجنةِ الدَّائِمةِ: (ما كان مِن أسماءِ اللهِ تعالى عَلَمَ شَخصٍ -كلَفظِ «اللهِ»- امتَنَع تَسميةُ غَيرِ اللهِ تعالى به؛ لأنَّ مُسَمَّاه مُعَيَّنٌ لا يَقبَلُ الشَّرِكةَ، وكذا ما كان مِن أسمائِه في معناه في عدَمِ قَبولِ الشَّرِكةِ كالخالِقِ والبارِئِ... أمَّا مَا كان له معنًى كُلِّيٌّ تَتفاوَتُ فيه أفرادٌ مِنَ الأسماءِ والصِّفاتِ -كالمَلِكِ، والعَزيزِ، والجَبَّارِ، والمتكَبِّرِ- فيَجوزُ تَسميةُ غَيرِه بها؛ فقد سَمَّى اللهُ نَفْسَه بهذه الأسماءِ، وسَمَّى بَعضَ عِبادِه بها). ((فتاوى اللجنة الدائمة - ٢)) (٢/ ٣٦٨).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٢٦). =

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ أنَّ الموتَ له سَكَراتٌ، وله شِدَّةٌ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ سُؤالٌ: أنَّ يومَ القيامةِ يومُ الوَعيدِ للكُفَّارِ، ويَومُ الوَعدِ للمُؤمِنينَ؛ فلماذا ذَكَرَ اللهُ تعالى هنا الوَعيدَ دونَ الوَعدِ؟

الجوابُ: لأنَّ السُّورةَ كلَّها مَبدوءةٌ بتَكذيبِ المكذِّبينَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فناسَبَ أنْ يُغَلَّبَ فيها جانبُ الوَعيدِ؛ قال تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۞ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ إلخ؛ فكان مِن الحِكمةِ أنْ يُذْكَرَ الوَعيدُ دونَ الوَعدِ، ومع ذلك فقد ذَكَرَ اللهُ تعالى أصحابَ الجنَّةِ فيما بعدُ؛ لأنَّ القُرآنَ مَثانٍ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ أنَّ النَّفْسَ إذا تَمَّ تَجَرُّدُها بالموتِ مِن تَعَلُّقِها بالبَدَنِ، رأتْ ما لم تكُنْ تَراه[٣]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ هذا تَفصيلٌ لبعضِ الخَلْقِ الأوَّلِ بذِكرِ خَلْقِ الإنسانِ، وهو أهمُّ في هذا المَقامِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه المُرادُ من الخلْقِ الأوَّلِ، ولِيُبنى عليه ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ الَّذي هو تَتميمٌ لإحاطةِ صِفةِ العِلمِ في قَولِه: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ﴾ [ق: ٤]، ولِيُنتَقَلَ منه إلى الإنذارِ بإحصاءِ أعمالِ النَّاسِ عليها، وهو ما استُرْسِلَ في وَصْفِه مِن قولِه: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧] إلخ[٤].

= وهما وصفانِ للمَلَكينِ اللذينِ يسجِّلانِ أعمالَ العِبادِ، وليسا اسمينِ لهما. ينظر: ((عالم الملائكة الأبرار)) للأشقر (ص: ١٨).

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٦/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٩).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ تأكيدُ هذا الخبَرِ باللَّامِ و(قدْ) مُراعًى فيه المُتعاطِفاتُ، وهي (نَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ)؛ لأنَّهم وإنْ كانوا يعلَمون أنَّ اللهَ خلَقَ النَّاسَ؛ فإنَّهم لا يَعلَمون أنَّ اللهَ عالمٌ بأحوالِهم[١].

- والإنسانُ يَعُمُّ جميعَ النَّاسِ، ولكنَّ المَقصودَ منهم أوَّلًا المشرِكون؛ لأنَّهم المَسوقُ إليهم هذا الخبَرُ، وهو تَعريضٌ بالإنذارِ، كما يدُلُّ عليه قولُه بعْدَه: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]، وقولُه: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق: ٢٢]، وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾[٢] [ق: ٢٠]. وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ الباءُ في قَولِه: ﴿بِهِۦ﴾ صِلةٌ؛ لتأكيدِ اللُّصوقِ[٣].

- والإخبارُ عن فِعلِ الخَلْقِ بصِيغةِ المُضيِّ ﴿خَلَقْنَا﴾ ظاهرٌ، وأمَّا الإخبارُ عن عِلمِ ما تُوسوِسُ به النَّفْسُ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ فلِلدَّلالةِ على أنَّ تَعلُّقَ عِلمِه تعالى بالوَسوسةِ مُتجدِّدٌ، غيرُ مُنقَضٍ ولا مَحدودٍ؛ لإثباتِ عُمومِ عِلمِ اللهِ تعالى، والكِنايةِ عن التَّحذيرِ مِن إضمارِ ما لا يُرضي اللهَ[٤].

- قولُه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ في مَوضِعِ الحالِ من ضَميرِ ﴿وَنَعْلَمُ﴾، والمَقصودُ منها تأكيدُ عامِلِها، وتحقيقُ استِمرارِ العِلمِ بباطِنِ الإنسانِ، والقُربُ هنا قيل: هو كِنايةٌ على إحاطةِ العِلمِ بالحالِ؛ لأنَّ القُربَ يَستلزِمُ الاطِّلاعَ، ومِن لَطائِفِ هذا التَّمثيلِ أنَّ حبْلَ الوريدِ مع قُربِه لا يَشعُرُ الإنسانُ بقُربِه؛ لِخَفائِه، وكذلك قُرْبُ اللهِ مِن الإنسانِ بعِلمِه -أو قُربُ ملائكتِه- قُربٌ لا يَشعُرُ به

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإنسانُ؛ فلذلك اختيرَ تَمثيلُ هذا القُربِ بقُربِ حبْلِ الوريدِ، وبذلك فاقَ هذا التَّشبيهُ لحالةِ القُربِ كُلَّ تَشبيهٍ مِن نَوعِه ورَدَ في كلامِ البُلغاءِ[١].

- وإضافةُ الحَبْلِ إلى الوريدِ: إمَّا للبَيانِ، كقولِهم: بعيرُ سانيةٍ[٢]، وشَجَرُ الأراكِ. وإمَّا أنْ يُرادَ حبلُ العاتِقِ، فيُضافَ إلى الوَريدِ كما يُضافُ إلى العاتقِ؛ لاجتِماعِهما في عضْوٍ واحدٍ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ هذا الكلامُ تَخلُّصٌ للمَوعظةِ والتَّهديدِ بالجزاءِ يومَ البعثِ والجزاءِ مِن إحصاءِ الأعمالِ خَيرِها وشَرِّها المعلومةِ مِن آياتٍ كثيرةٍ في القرآنِ. وهذا التَّخلُّصُ بكلمةِ (إذ) الدَّالَّةِ على الزَّمانِ مِن ألطَفِ التَّخلُّصِ[٤].

- قولُه: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ مُقدَّرٌ بـ(اذكُرْ)، أو مُتعلِّقٌ بـ﴿أَقْرَبُ﴾ [ق: ١٦]، أي: هو أعلَمُ بحالِه مِن كلِّ قريبٍ حينَ يَتلقَّى -وذلك على قولٍ- أي: يَتلقَّنُ الحَفيظانِ ما يَتلفَّظُ به، وفيه إيذانٌ بأنَّه سُبحانَه غنيٌّ عن استِحفاظِ الملَكَينِ؛ فإنَّه أعلَمُ مِن الملَكَينِ، ومُطَّلِعٌ على ما يَخفَى عليهما، لكنَّه لِحِكمةٍ اقتَضَتْه، وهي ما فيه مِن تَشديدٍ يُثبِّطُ العَبدَ عن المعصيةِ، وتأكيدٍ في اعتِبارِ الأعمالِ وضَبطِها للجزاءِ، وإلزامٍ للحُجَّةِ يومَ يَقومُ الأَشهادُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٠، ٣٠١).

(٢) السَّانِيَةُ: النَّاضِحةُ، وهي النَّاقةُ الَّتي يُستَقَى عليها. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٤، ٣٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨، ١٢٩).

- ومفعولُ التَّلَقِّي في الفعلِ الَّذي هو ﴿يَتَلَقَّى﴾، والوصْفُ الَّذي هو ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ مَحْذوفٌ، تَقديرُه: إذْ يتَلَقَّى المُتلَقِّيانِ جميعَ ما يَصْدُرُ عن الإنسانِ فيَكْتُبانِه عليه[1]. وقيل: حُذِف مَفعولُ ﴿يَتَلَقَّى﴾؛ لدَلالةِ قَولِه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، والتَّقديرُ: إذ تُحصى أقوالُهم وأعمالُهم[2].

- وتعريفُ ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ تعريفُ العهدِ إذا كانتِ الآيةُ نزَلَت بعدَ آياتٍ ذُكِرَ فيها الحفَظةُ، أو تَعريفُ الجِنسِ، والتَّثنيةُ فيها للإشارةِ إلى أنَّ هذا الجِنسَ مُقسَّمٌ اثنَينِ اثنينِ[3].

- والتَّعريفُ في اليمينِ والشِّمالِ تَعريفُ العهدِ، أو اللَّامُ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: عن يمينِ الإنسانِ وعن شِمالِه[4].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿قَعِيدٌ﴾ بدَلًا مِن ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ بدَلَ بعضٍ، ويكونَ ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿قَعِيدٌ﴾، وقُدِّمَ على مُتعلَّقِه؛ للاهتِمامِ بما دلَّ عليه مِن الإحاطةِ، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ خبَرًا مُقدَّمًا، و﴿قَعِيدٌ﴾ مُبتدأً، وتكونَ الجُملةُ بيانًا لِجُملةِ ﴿يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾[5].

- وقالَ ﴿قَعِيدٌ﴾ ولم يقُلْ: قَعيدانِ -إذ إنَّه وصْفٌ للملَكَينِ المذكورَين-؛ لأنَّ معناه عن اليَمينِ قَعيدٌ، وعن الشِّمالِ قَعيدٌ، لكنَّه حُذِفَ أحدُهما لدَلالةِ المَذكورِ عليه، أو أنَّ (فَعيلًا) يَستوي فيه الواحدُ والاثنانِ والجمعُ، وقيل: معناه: مُقاعِدٌ، كما تقولُ: جليسٌ وخليطٌ، أي: مُجالِسٌ ومُخالِطٌ، فيَكونُ عُدِلَ مِن فاعلٍ إلى

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فَعيلٍ للمُبالَغةِ، كـ (عليمٍ)[١]، أو أنه قال ذلك رعايةً للفواصِلِ[٢].

- وجُملةُ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾؛ فلذلك فُصِلَت[٣].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ صِلةٌ في مَفعولِ الفعلِ المنْفيِّ؛ للتَّنْصيصِ على الاستِغراقِ[٤].

- قولُه: ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ استِثناءٌ مِن أحوالٍ عامَّةٍ، أي: ما يقولُ قولًا في حالةٍ إلَّا في حالةِ وُجودِ رَقيبٍ عتيدٍ لَدَيه، وإنَّما خُصَّ القولُ بالذِّكرِ؛ لأنَّ مِن الأقوالِ السَّيِّئةِ ما لَه أثرٌ شديدٌ في الإضلالِ، كالدُّعاءِ إلى عِبادةِ الأصنامِ، ونهْيِ النَّاسِ عن اتِّباعِ الحقِّ، وتَرويجِ الباطلِ بإلقاءِ الشُّبَهِ، وتَغريرِ الأغرارِ، ونحوِ ذلك، على أنَّه مِن المعلومِ بدَلالةِ الاقتِضاءِ[٥] أنَّ المُؤاخَذةَ على الأعمالِ أَوْلى مِن المُؤاخَذةِ على الأقوالِ، وتلك الدَّلالةُ كافيةٌ في تَذْكيرِ المؤمنينَ، وقيل غيرُ ذلك[٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ ما يُلاقونه مِن الموتِ والبَعثِ، وما يَترتَّبُ عليهما مِن الأهوالِ[٧]. أو

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٤، ٣٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣١، ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٠٣).

(٥) دلالةُ الاقتضاءِ: هي دلالةُ اللَّفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصِّدقِ أو الصِّحَّةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((حاشية الطيبي =

هو عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]؛ لاشتراكِهما في التَّنبيهِ على الجَزاءِ على الأعمالِ؛ فهذا تَنقُّلٌ في مَراحلِ الأُمورِ العارضةِ للإنسانِ الَّتي تُسلِّمُه مِن حالٍ إلى آخَرَ، حتَّى يقَعَ في الجزاءِ على أعمالِه الَّتي قدْ أحْصاها الحَفيظانِ(١).

- وعُبِّرَ بصِيغةِ الماضي (جاءتْ)؛ إيذانًا بتَحقيقِ ذلك، وغايةِ اقترابِه، وأنَّه لقُربِه صار بمَنزِلةِ ما حصَلَ؛ قَصدًا لإدخالِ الرَّوعِ في نُفوسِ المشركين(٢).

- وفي التَّعبيرِ عن الحُصولِ والاعتراءِ بالمَجيءِ تَهْويلٌ لحالةِ احتِضارِ الإنسانِ، وشُعورِه بأنَّه مُفارِقٌ الحياةَ الَّتي ألِفَها، وتعلَّقَ بها قلبُه(٣).

- وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ إشارةٌ إلى الموتِ بتَنْزيلِ قُربِ حُصولِه مَنزِلةَ الحاصِلِ المُشاهَدِ، والخِطابُ فيها للإنسانِ المَذكورِ في قَولِه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ على طَريقِ الالْتفاتِ، أو إشارةٌ إلى الحقِّ، والخِطابُ للفاجرِ(٤).

- وتَقديمُ ﴿مِنْهُ﴾ على ﴿تَحِيدُ﴾؛ للاهتِمامِ بما منه الحِيادُ، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ(٥).

- و﴿تَحِيدُ﴾ تَفِرُّ وتَهرُبُ، وهو مُعبَّرٌ به عن الكراهيةِ، أو تجنُّبِ أسبابِ الموتِ،

= على الكشاف)) (١٤/ ٥٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٧).

والخِطابُ المقصودُ الأوَّلُ منه هم المُشرِكون؛ لأنَّهم أشدُّ كراهيةً للمَوتِ؛ لأنَّ حَياتَهم مادِّيَّةٌ مَحضةٌ، فهم يُريدونَ طُولَ الحياةِ؛ إذ لا أمَلَ لهم في حياةٍ أُخرى، ولا أملَ لهم في تَحصيلِ نَعيمِها، فأمَّا المؤمنون فإنَّ كراهتَهم للمَوتِ المُرتكِزةَ في الجِبِلَّةِ بمِقدارِ الإلْفِ لا تبلُغُ بهم إلى حدِّ الجزَعِ منه[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾

- صِيغةُ المُضيِّ ﴿وَنُفِخَ﴾ مُستعمَلةٌ في مَعنى المضارعِ، أي: يُنفَخُ في الصُّورِ؛ وإنَّما صِيغَ له المُضيُّ لتَحقُّقِ وُقوعِه[٢].

- والإخبارُ عن النَّفخِ بأنَّه ﴿يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ بتَقديرِ مُضافٍ، أي: ذلك حُلولُ يومِ الوعيدِ. وإضافةُ ﴿يَوۡمُ﴾ إلى ﴿ٱلۡوَعِيدِ﴾ مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى ما يقَعُ فيه، أي: يومَ حُصولِ الوعيدِ الَّذي كانوا تُوُعِّدوا به، والاقتِصارُ على ذِكرِ الوعيدِ؛ لأنَّ المقصودَ الأوَّلَ مِن هذه الآيةِ هم المشرِكون. وفي الكلامِ اكتفاءٌ[٣]، تَقديرُه: ويومُ الوعْدِ[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾

مَقولُ قَولٍ محذوفٍ دلَّ عليه تَعيُّنُه مِن الخِطابِ، أي: يُقالُ هذا الكلامُ لكلِّ نفْسٍ مِن نُفوسِ المشركين، فهو خِطابُ التَّهكُّمِ التَّوبيخيِّ للنَّفْسِ الكافرةِ؛ لأنَّ المؤمنَ لم يكُنْ في غَفلةٍ عن الحَشرِ والجَزاءِ. أو الخِطابُ لكُلِّ إنسانٍ، والخِطابُ للكُلِّ بذلك؛ لِمَا أنَّه ما مِن أحدٍ إلَّا وله غَفْلةٌ ما مِن الآخرةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٠٧).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٨)، ((إعراب =

- وعَلاماتُ الخِطابِ في كَلماتِ ﴿كُنتَ﴾ ﴿عَنكَ﴾ ﴿غِطَآءَكَ﴾ ﴿فَبَصَرُكَ﴾ مَفتوحةٌ؛ لتَأويلِ النَّفْسِ بالشَّخصِ أو بالإنسانِ، ثمَّ غُلِّبَ فيه التَّذكيرُ على التَّأنيثِ[١].

- قولُه: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ...﴾ الغَفْلةُ: الذُّهولُ عمَّا شَأنُه أنْ يُعلَمَ، وأُطلِقَت هنا على الإنكارِ والجَحدِ على سَبيلِ التهكُّمِ -على قولٍ في التَّفسيرِ- ورَشَّحَ ذلك قولُه: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾، بمعنى: بيَّنَّا لك الدَّليلَ بالحِسِّ، فهو أيضًا تهكُّمٌ[٢].

- وأُوثِرَ قولُه: ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ على أنْ يُقالَ: (غَافلًا)؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ الغَفْلةِ منه[٣].

- وقال: ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ ولم يَقُلْ: «عنه» كما قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠]، ولم يَقُلْ: «في شَكٍّ فيه»، وجاء هذا في المصدَرِ وإنْ لم يَجِئْ في الفِعلِ؛ فلا يُقالُ: «غَفَلْتُ منه»، ولا «شَكَكْتُ منه»، كأنَّ غَفلتَه وشَكَّه ابتِداءٌ منه، فهو مَبدَأُ غفلتِه وشَكِّه، وهذا أبلَغُ مِن أنْ يُقالَ: «في غفلةٍ عنه» و «شَكٍّ فيه»؛ فإنَّه جَعَلَ ما يَنبغي أنْ يكونَ مَبدأَ التَّذكِرةِ واليَقينِ ومَنشأَهما مَبدأً للغَفلةِ والشَّكِّ[٤]!

- وكَشفُ الغِطاءِ كِنايةٌ عن الغَفْلةِ، كأنَّها غطَّتْ جميعَه أو عينَيه فهو لا يُبصِرُ، فإذا كانتِ القِيامةُ زالَتْ عنه الغَفْلةُ فتكشَّفَتْ له الحقائقُ، وانجلَى عنه الرَّينُ

= القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠).

الَّذي كان مَسدولًا أمامَه، فأبصَرَ ما لم يكُنْ يُبصِرُه في حياتِه[١].

- وأُسنِدَ الكَشفُ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه الَّذي أظهَرَ لها أسبابَ حُصولِ اليَقينِ بشَواهِدِ عَينِ اليقينِ[٢].

- وأُضيفَ (غِطاء) إلى ضَميرِ الإنسانِ المُخاطَبِ؛ للدَّلالةِ على اختِصاصِه به، وأنَّه ممَّا يُعرَفُ به[٣].

- قولُه: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ حِدَّةُ البصَرِ: قُوَّةُ نفاذِه في المَرْئيِّ، وحِدَّةُ كلِّ شيءٍ قُوَّةُ مَفعولِه، ومنه حِدَّةُ الذِّهنِ، والكلامُ يَتضمَّنُ تَشْبيهَ حُصولِ اليقينِ برُؤيةِ المَرئيِّ ببَصَرٍ قويٍّ. وتَقييدُه بقولِه: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ تَعريضٌ بالتَّوبيخِ، أي: ليس حالُك اليَومَ كحالِكَ قبْلَ اليومِ؛ إذْ كنتَ في الدُّنيا مُنكِرًا للبَعثِ[٤]. وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ به الكافرُ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴿٣٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَرِينُهُۥ﴾: أي: المَلَكُ المُصاحِبُ له، وقيل: الشَّيطانُ المقرونُ به، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿مُّرِيبٍ﴾: أي: واقِعٍ في الرِّيبةِ والشَّكِّ، ومُوقِعٍ غَيرَه كذلك في الشَّكِّ، والرِّيبةُ: التُّهمةُ، وهي ظَنُّ السوءِ، فهي قِسمٌ مِن الشكِّ، والرِّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتفاءُ الطُّمأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[٢].

﴿أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾: أي: أَضلَلتُه، وأغوَيتُه، وأوقَعتُه في الطُّغيانِ، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[٣].

﴿تَخۡتَصِمُواْ﴾: أي: تَتنازَعوا، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على مُنازَعةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٧)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٥/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٤)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، =

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله سبحانَه بعضَ مَشاهِدِ يومِ القيامةِ، وما يقولُه قَرينُ الإنسانِ، فيقولُ تعالى: وقال المَلَكُ المَقْرونُ بالإنسانِ في الدُّنيا لِكِتابةِ أعمالِه: هذا هو الَّذي وُكِّلتُ به، وهذا عَمَلُه الَّذي أحصَيْتُه عليه حاضِرٌ، فيقولُ اللهُ تعالى: اطْرَحا في نارِ جَهنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ شديدِ العِنادِ، مَنَّاعٍ للخَيرِ، مُعتَدٍ على حُدودِ اللهِ، ظالِمٍ للنَّاسِ، شاكٍّ في وحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِه، ومُشكِّكٌ لِغَيرِه، ذلك الَّذي أشرَكَ باللهِ، فعَبَد معه مَعبودًا آخَرَ، فألْقِياه في عَذابِ النَّارِ الشَّديدِ.

قال الشَّيطانُ مُتَبَرِّئًا مِن ذلك الكافِرِ: رَبَّنا ما أضلَلْتُه ولا أغوَيتُه؛ فلا سُلطانَ لي عليه، ولكِنَّه كان ضالًّا بَعيدًا عن الحَقِّ.

وقال اللهُ تعالى لأولئك المُشرِكينَ وقُرَنائِهم مِنَ الشَّياطينِ: لا تَختَصِموا عندي، وقد سبَق أن أقمْتُ عليكم الحُجَّةَ في الدُّنيا، فلا يُغَيَّرُ قَولي الَّذي قُلْتُه مِن قَبْلُ بأنِّي سأَمْلأُ جَهنَّمَ مِن الجِنَّةِ والنَّاسِ أجمَعينَ، وما أنا بذِي ظُلمٍ لِعِبادي.

يومَ نَقولُ لِجَهنَّمَ: هل امتَلَأتِ، وتقولُ جَهنَّمُ طالِبةً المَزيدَ: هل مِن زيادةٍ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي: وقال المَلَكُ المَقْرونُ بالإنسانِ في الدُّنيا لِكِتابةِ أعمالِه: هذا هو الَّذي وُكِّلتُ به قد أحضَرْتُه، وهذا عَمَلُه الَّذي أحصَيْتُه عليه مُعَدٌّ مُحضَرٌ، بلا زِيادةٍ ولا نُقْصانٍ[1].

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، =

= ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٨، ٩٩).

قال ابنُ كثير: (قال مجاهِدٌ: هذا كلامُ المَلَكِ السَّائِقِ، يقولُ: هذا ابنُ آدَمَ الَّذي وكَّلْتَني به، قد أحضَرْتُه. وقد اختار ابنُ جريرٍ أنْ يَعُمَّ السَّائِقَ والشَّهيدَ، وله اتِّجاهٌ وقُوَّةٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٦، ٤٣٧).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: المَلَكُ الموَكَّلُ به: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابنُ كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٨).

قال النسفي: (﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الجمهورُ على أنَّه المَلَكُ الكاتبُ الشَّهيدُ عليه). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦٥).

وقال ابنُ القيِّم: (يَقولُ لَمَّا يُحضِرُه: هذا الَّذي كُنتَ وَكَّلْتَني به في الدُّنيا قد أحضَرْتُه وأتَيْتُك به. هذا قَولُ مُجاهِدٍ. وقال ابنُ قُتَيْبَةَ: المعنى: هذا ما كَتبتُه عليه وأحصَيتُه مِن قَولِه وعَمَلِه حاضِرٌ عِندي). ((الفوائد)) (ص: ١٠).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أي: هذا الذي وكَّلتني به قد أتيتُكَ به: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٦).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ قُتَيبةَ، والسمعانيُّ، والقرطبيُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره العُلَيمي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨٧).

وممَّن جمَع بيْن القَولَينِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ الجوزي، وابنُ القيم، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦١)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

قال ابن القيم: (والتَّحقيقُ: أنَّ الآيةَ تَتضَمَّنُ الأمْرَينِ، أي: هذا الشَّخصُ الَّذي وُكِّلْتُ به، وهذا عَمَلُه الَّذي أحصَيتُه عليه). ((الفوائد)) (ص: ١٠).

وقال السعدي: (فيُحضِرُه يومَ القيامةِ ويُحضِرُ أعمالَه، ويقولُ: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، أي: قد =

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: فيقول اللهُ تعالى: اطْرَحا[1] في نارِ جَهنَّمَ كُلَّ كثيرِ الكُفرِ باللهِ وبدِينِه، وآياتِه

= أحضَرْتُ ما جُعِلتُ عليه؛ مِن حِفظِه، وحِفظِ عمَلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

وقال ابن عطيَّة: (قال جماعةٌ مِن المفسِّرينَ: قَرينُه مِن زَبانيةِ جهنَّمَ، أي قال: هذا العذابُ الَّذي لَدَيَّ لهذا الإنسانِ الكافرِ حاضرٌ عَتيدٌ، ففي هذا تحريضٌ على الكافرِ، واستِعجالٌ به). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٣).

وقيل: القَرينُ هنا: هو الشَّيطانُ الَّذي سُلِّطَ على إغواءِ الإنسانِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، والبِقاعي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٥، ٤٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢١).

والمعنى على هذا القولِ: هذا الإنسانُ حاضرٌ لدَيَّ، أعتَدْتُه ويَسَّرْتُه لِجَهنَّمَ، وهَيَّأْتُه لها بإغوائي وإضلالي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٠).

(١) قال ابنُ القَيِّم: (هذا إمَّا أن يكونَ خِطابًا للسَّائِقِ والشَّهيدِ، أو خِطابًا للمَلَكِ المُوَكَّلِ بعذابِه وإن كان واحِدًا، وهو مَذهَبٌ مَعروفٌ مِن مَذاهِبِ العَرَبِ في خِطابِها، أو تكونَ الألِفُ مُنقَلِبةً عن نونِ التَّأكيدِ الخَفيفةِ، ثمَّ أُجْرِيَ الوَصلُ مجرى الوَقفِ). ((الفوائد)) (ص: ١٠، ١١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٩).

وأيضًا -على أنَّ الخِطابَ للملَكَينِ-: فقولُه: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ مفردٌ مضافٌ -والمعروفُ أنَّ المفردَ المضافَ يكونُ للعُموم-؛ فيَشملُ كلَّ ما ثَبَتَ مِن قرين، وعلى هذا فيكونُ ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: الملَكانِ الموكّلانِ به، وممَّا يدُلُّ على أنَّ المفردَ يكونُ لأكثَرَ مِن واحدٍ -وذلك إذا أُضيفَ- قولُ الله عزَّ وجل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، فنِعمةُ اللهِ مُفرَدٌ مُضافٌ؛ فتَكونُ شاملةً لكلِّ نعمةٍ. وكذلك إذا كان المفردُ اسمَ جِنسٍ.

أو: أنَّ قولَه: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ هو واحدٌ مِن الملَكَينِ، ولا شكَّ أنَّه يجوزُ أنْ يَتكلَّمَ واحدٌ مِن الاثنَينِ باسمِ الاثنَينِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٩).

وأيضًا: قيل -على أنَّ الخِطابَ لواحدٍ-: إنَّ تَثنيةَ الفاعِلِ أُقيمَت مَقامَ تَكرُّرِ الفِعلِ للتَّأكيدِ، واتِّحادِهما حُكمًا، فكأنَّه قال: ألْقِ ألْقِ، كقَولِ امرئِ القَيسِ: (قِفَا نَبْكِ). وأيضًا فإنَّ العرَبَ =

ونِعَمِه؛ شديدِ العِنادِ للحَقِّ[(١)].

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾.

أي: كَثيرِ المَنعِ لكلِّ خَيرٍ[(٢)].

= أكثَرُ ما يُرافِقُ الرَّجُلَ منهم اثنانِ؛ فكَثُرَ على ألسِنتِهم خِطابُهما، فقالوا: خَليلَيَّ، وصاحِبَيَّ، وقِفَا، ونحوَها. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠، ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٠).

قال ابنُ عطيَّة: (قَولُه تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ لَفظٌ عامٌّ للمالِ، والكلامِ الحَسَنِ، والمُعاوَنةِ على الأشياءِ. وقال قَتادةُ، ومجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ: معناه: الزَّكاةُ المفروضةُ. وهذا التَّخصيصُ ضَعيفٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤).

ممَّن قصَر الخَيرَ هنا على الزَّكاةِ: ابنُ أبي زَمَنِين، والقُشَيريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٥٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الزَّكاةُ، وكلُّ حقٍّ وجَبَ لله، أو لآدَميٍّ في مالِه: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، والبيضاوي، والخازن، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١).

وممَّن اختار العمومَ في كلِّ خَيرٍ دونَ أن يَقصُرَه على المالِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦). =

﴿مُعۡتَدٍ مُّرِيبٍ﴾.

أي: مُعْتَدٍ على حُدودِ اللهِ، ظالِمٍ للنَّاسِ، شاكٍّ في وحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِه، ووَعْدِه ووَعيدِه، ومُشكِّكٌ لِغَيرِه(١).

= وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالخَيرِ: الإيمانُ والإسلامُ، وأنَّهم كانوا يَمنَعون أبناءَهم وذَويهم مِن الإسلامِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: شاكٍّ في الله ووحدانيَّتِه وقدرتِه ودينِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، والخازن، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

وممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿مُّرِيبٍ﴾ المرادُ به أنَّه مُشَكِّكٌ: الثعلبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢).

قال ابن عاشور: (والمريبُ الَّذي أراب غيرَه، أي: جعَلَه مُرتابًا، أي: شاكًّا، أي: بما يُلقُونَه إلى النَّاسِ مِن صُنوفِ المُغالَطةِ؛ لِيُشَكِّكوهم في صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وصحَّةِ الإيمانِ والتَّوحيدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢).

وممَّن جمَع بيْنَ القولَينِ: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٠).

قال ابن عثيمين: (﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: واقِعٍ في الرِّيبةِ والشَّكِّ والقَلَقِ، وكذلك أيضًا يُشَكِّكُ غَيرَه فيُدخِلُ في قَلْبِه الرِّيبةَ. فكَلِمةُ ﴿مُّرِيبٍ﴾ تَقتَضي وَصْفَ الإنسانِ بها، وحَمْلَ هذا الوَصفِ إلى غَيرِه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٠). =

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

أي: الَّذي أشرَكَ باللهِ، فعَبَد معه مَعبودًا آخَرَ مِن خَلْقِه[١].

كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((تَعِسَ[٢] عبدُ الدِّينارِ والدِّرهَمِ، والقَطيفةِ والخَميصةِ[٣]؛ إن أُعطِيَ رَضِيَ، وإنْ لم يُعطَ لم يَرْضَ))[٤].

﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾.

= وقال ابن كثير: (﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: شاكٍّ في أمرِه، مُريبٍ لِمَن نظَر في أمرِه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢).

وقال ابن القيِّم: (ومع هذا فهو آتٍ لكُلِّ رِيبةٍ؛ يقال: فُلانٌ مُريبٌ: إذا كان صاحِبَ رِيبةٍ). ((الفوائد)) (ص: ١١).

وقال ابن عطيَّة: (و: ﴿مُّرِيبٍ﴾ معناه: مُتلَبِّسٌ بما يرتابُ به، أرابَ الرَّجُلُ: إذا أتى بِريبةٍ ودخَل فيها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٩)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

قال ابنُ عثيمين: (﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إن كانت وصْفًا خاصًّا بالكَفَّارِ العنيدِ فإنَّها تختصُّ بمَن يَعبُدُ الصَّنَمَ والوَثَنَ، وإن كانت للعُموم فهي تَشمَلُ كُلَّ مَن اشتغل بغيرِ اللهِ عن طاعتِه؛ حتى التَّاجِرُ الذي ليس له هَمٌّ إلَّا تجارتُه وتنميتُها فإنَّه عابدٌ لها). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠١، ١٠٢) بتصرف.

(٢) تَعِسَ: أي: خاب وخَسِرَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٢٢٨).

(٣) الخَميصةِ: هي ثَوبُ خَزٍّ أو صُوفٍ مُعَلَّمٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٢٢٨).

(٤) رواه البخاري (٦٤٣٥).

أي: يَقولُ اللهُ يومَ القيامةِ: فألْقِيَا ذلك المتَّصِفَ بتلك الصِّفاتِ في عَذابِ النَّارِ الشَّديدِ(١).

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٢٧﴾.

أي: قال الشَّيطانُ مُتَبَرِّئًا مِن ذلك الكافِرِ الَّذي اقترَن به في الدُّنيا: رَبَّنا ما أوقَعْتُه فيما كان فيه مِن طُغيانٍ، ولا أضلَلْتُه ولا أغوَيتُه؛ فإنَّه لا سُلطانَ لي عليه، ولا حُجَّةَ ولا بُرهانَ، ولكِنْ كان بَعيدًا عن الحَقِّ باختيارِه، مُبادِرًا إلى الضَّلالِ بطَبْعِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١١، ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٠، ٤٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٨، ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

قال ابنُ عطيَّة: (هو شَيطانُه في الدُّنيا ومُغْويه بلا خِلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٣).

وقال السمعاني: (قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ القرينُ هاهنا هو الشَّيطانُ باتِّفاقِ المفسِّرينَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٣). ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ والشَّوكانيُّ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧).

وقال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ اختلَفوا في المرادِ بالقرينِ هاهنا؛ فقال ابنُ عبَّاسٍ في روايةِ عَطاءٍ: يعني: قرينَه مِن الشَّياطينِ. وقال مقاتلٌ: ﴿قَرِينُهُۥ﴾ هو شَيطانُه. واختاره ابنُ قُتَيْبةَ... وقال الكَلْبيُّ: يقولُ الملَكُ: ربَّنا ما أطغَيْتُه. وعلى هذا القولِ المرادُ بالقرينِ الملَكُ. وهو قولُ سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: يقولُ الكافرُ: ربِّ إنَّ الملَكَ زاد علَيَّ في الكتابةِ. واختار الفَرَّاءُ هذا القولَ، فقال: إنَّ الكافرَ يقولُ: يا ربِّ إنَّه كان يُعجِلُني عن التَّوبةِ، فيقولُ الملَكُ: ربَّنا ما أطغَيْتُه، أي: ما أعجلتُه عن التَّوبةِ، وما زِدتُ عليه. والمعنى: لم أكُنْ سببَ طُغيانِهِ بالإعجالِ والزِّيادةِ عليه، ولكنْ كان في ضلالٍ بعيدٍ لا يَرجِعُ إلى الحقِّ ولا إلى التَّوبةِ). ((البسيط)) (٢٠/ ٤٠٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٧٩).

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨ ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لأولئك المُشرِكينَ وقُرَنائِهم مِنَ الشَّياطينِ[1]: لا تَختَصِموا عندي وقد سبَق أن أقمْتُ عليكم الحُجَّةَ في الدُّنيا بإنزالِ الكُتُبِ، وإرسالِ الرُّسُلِ، وبلَغَكم وعيدي لِمَن كفَرَ بي، وعصاني، وكذَّب رُسُلي؛ فلا نجاةَ لكم مِن جَهنَّمَ، ولا فائدةَ في اختِصامِكم[2]!

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴾ [الزمر: ٣١].

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩ ﴾.

---

(١) ممَّن اختار أنَّ هذا الخِطابَ للكافرينَ وقرنائِهم مِن الشَّياطينِ: القرطبيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣).

قال ابن عطية: (وجمَعَ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ﴾ يريدُ بذلك مُخاطَبةَ جَميعِ القُرَناءِ؛ إذ هو أمرٌ شائِعٌ لا يَقِفُ على اثنَينِ فقط، وهذا كما يقولُ الحاكِمُ لِخَصْمَينِ: لا تَغلَطوا عليَّ، يريدُ الخَصْمَينِ ومَن هو في حُكْمِهما). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤).

وقال القرطبي: (وقيل: هذا خِطابٌ لكُلِّ مَنِ اختَصَم. وقيل: هو للاثنَينِ وجاء بلَفظِ الجَمعِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧).

وقال الماوَرْدي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّ اختِصامَهم هو اعتِذارُ كلِّ واحدٍ منهم فيما قدَّم مِن مَعاصيه، قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: أنَّه تَخاصُمُ كلِّ واحدٍ مع قَرينِه الَّذي أغْواه في الكفرِ، قاله أبو العاليةِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾.

أي: لا أحدَ يَستطيعُ أن يُغَيِّرَ قَولي الَّذي قُلْتُه مِن قَبْلُ بأنِّي سأَمْلأُ جَهنَّمَ مِن الجِنَّةِ والنَّاسِ؛ فالكُفَّارُ في النَّارِ، وأهلُ الإيمانِ في الجِنانِ، وما قَضَيتُ به لا بُدَّ مِن وُقوعِه لا مَحالةَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١١، ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٣).

قال ابنُ القيِّم: (أخبرَ سُبحانَه أنَّه لا يُبَدَّلُ القَولُ لَدَيه، فقيلَ: المرادُ بذلك قَولُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، ووَعْدُه لأهلِ الإيمانِ بالجنَّةِ، وأنَّ هذا لا يُبَدَّلُ ولا يُخلَفُ. قال ابنُ عبَّاسٍ: يُريدُ: ما لَه عِندي خُلفٌ لأهلِ طاعتي ولا أهلِ مَعصيتي. قال مجاهِدٌ: قد قَضَيتُ ما أنا قاضٍ. وهذا أصَحُّ القَولَينِ في الآيةِ، وفيها قَولٌ آخَرُ: أنَّ المعنى: ما يُغَيَّرُ القَولُ عندي بالكَذِبِ والتَّلبيسِ، كما يُغَيَّرُ عندَ المُلوكِ والحُكَّامِ، فيَكونُ المرادُ بالقَولِ قَولَ المُختَصِمينَ، وهو اختيارُ الفَرَّاءِ وابنِ قُتيبةَ. قال الفرَّاءُ: المعنى: ما يُكذبُ عِندي لِعِلْمي بالغَيبِ. وقال ابنُ قُتَيبةَ: أي: ما يُحَرَّفُ القَولُ عندي ولا يُزادُ فيه ولا يُنقَصُ منه. قال: لأنَّه قال: القَولُ عِندي، ولم يَقُلْ: قَولي. وهذا كما يُقالُ: لا يُكذبُ عِندي، فعلى القَولِ الأوَّلِ يكونُ قَولُه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ مِن تَمامِ قَولِه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ في المعنى، أي: ما قُلتُه ووَعدتُ به لا بُدَّ مِن فِعْلِه، ومع هذا فهو عَدلٌ لا ظُلمَ فيه ولا جَورَ، وعلى الثَّاني: يكونُ قد وَصَفَ نفْسَه بأمْرَينِ؛ أحَدُهما: أنَّ كَمالَ عِلْمِه واطِّلاعِه يَمنَعُ مِن تَبديلِ القَولِ بيْنَ يَدَيه، وتَرويجِ الباطِلِ عليه، وكَمالَ عَدْلِه وغِناه يَمنَعُ مِن ظُلمِه لعَبيدِه). ((الفوائد)) (ص: ١١). يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٧٩)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩).

أي: وما أنا بذِي ظُلمٍ لعِبادي؛ فلا أعاقِبُ أحدًا بغيرِ ذَنْبِه، أو أَزيدُ في سَيِّئاتِه، أو أَنقُصُ مِن حَسَناتِه(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠﴾.

﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾.

أي: يومَ نَقولُ لِجَهنَّمَ: هل امتَلَأتِ كما وَعدْتُ بذلك(٢)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٠٣، ١٠٤).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: أراها اللهُ تصديقَ قَولِه: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود: ١١٩]، فلمَّا امتلأَتْ قال لها: هل امتلأتِ؟). ((الوسيط)) (٤/ ١٦٨).

وقال الألوسي: (﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ أي: اذكُرْ، أو أنذِرْ يومَ... إلخ. فـ﴿يَوۡمَ﴾: مَفعولٌ به لِمُقَدَّرٍ. وقيل: هو ظَرفٌ لِـ«ظَلَّام»). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٣٧).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجملةِ: العُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٣، ١٠٤).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٣). =

﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾.

أي: وتقولُ جَهنَّمُ طالِبةً المزيدَ مِن أهلِ الضَّلالِ: هل مِن زيادةٍ مِنَ الجِنِّ والإنسِ تُزادُ إلَيَّ[1]؟!

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُقالُ لِجَهنَّمَ: هل امتَلأتِ؟ وتقولُ: هل مِن مَزيدٍ؟ فيَضَعُ الرَّبُّ تبارك وتعالى قَدَمَه

= وقيل: المعنى: ما يُبَدَّلُ القَولُ لدَيَّ في ذلك اليَومِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٦، ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٤، ١٠٥).

قال ابن عطية: (الَّذي يترجَّحُ في قَولِ جَهنَّمَ: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾ أنَّها حقيقةٌ، وأنَّها قالت ذلك وهي غيرُ مَلْأَى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٥). ويُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٠).

وممَّن قال بأنَّ الاستِفهامَ هنا مرادٌ به طلبُ الزِّيادةِ: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّة، وابنُ جُزَي، وابن القيِّم، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٣)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٤).

قال ابن كثير: (هذا هو الظَّاهِرُ مِن سياقِ الآيةِ، وعليه تدُلُّ الأحاديثُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣).

وذهب مقاتِلٌ، والواحديُّ، والقرطبيُّ: إلى أنَّ المعنى: ما بَقِيَ فيَّ موضِعٌ يحتَمِلُ الزِّيادةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨).

قال ابنُ القيِّم: (وأخْطَأَ مَن قالَ: إنَّ ذلك للنَّفْيِ، أي: ليسَ مِن مزيدٍ. والحديثُ الصَّحيحُ يرُدُّ هذا التَّأْويلَ). ((الفوائد)) (ص: ١٢).

عليها، فتَقولُ: قَطْ قَطْ[١]))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ للجَنَّةِ: إنَّما أنتِ رَحمَتي أرحَمُ بكِ مَن أشاءُ مِن عبادي، وقال للنَّارِ: إنَّما أنتِ عذابي أعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ مِن عبادي، ولكُلِّ واحدةٍ مِنكما مِلْؤُها؛ فأمَّا النَّارُ فلا تمتَلِئُ حتَّى يَضَعَ اللهُ تبارك وتعالى رِجْلَه، تقولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فهُنالك تمتَلِئُ، ويُزوَى[٣] بَعضُها إلى بَعضٍ، ولا يَظلِمُ اللهُ مِن خَلْقِه أحَدًا))[٤].

وعن أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تزالُ جَهنَّمُ تقولُ: هل مِن مَزيدٍ؟ حتى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فيها قَدَمَه، فتقولُ: قَطْ قَطْ وعِزَّتِك، ويُزوَى بَعضُها إلى بَعضٍ))[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ وعيدٌ شديدٌ على مانعِ الزَّكاةِ[٦]. وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا يُوجِبُ أن يكونَ الإلقاءُ خاصًّا بمَن اجتَمَع فيه هذه الصِّفاتُ بأَسْرِها، والكُفرُ كافٍ في إيراثِ الإلقاءِ في جَهنَّمَ والأمرِ به؟

الجوابُ: قَولُه تعالى: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ليس المرادُ منه الوَصْفَ المُمَيِّزَ،

---

(١) قَطْ قَطْ: أي: كَفَى كَفَى. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٢٩).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٨٤٩).

(٣) ويُزوَى: أي: يُضَمُّ ويُجمَعُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٢٩).

(٤) رواه البخاريُّ (٤٨٥٠)، ومسلمٌ (٢٨٤٦) واللَّفظُ له.

(٥) رواه البخاري (٦٦٦١) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٨٤٨).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٩٢).

كما يُقالُ: (أعْطِ العالِمَ الزَّاهِدَ)، بل المرادُ الوَصفُ المُبَيِّنُ لكَونِ المَوصوفِ مَوصوفًا به؛ إمَّا على سَبيلِ المَدحِ، أو على سَبيلِ الذَّمِّ، كما يُقالُ: (هذا حاتِمٌ السَّخِيُّ)، فقَولُه: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ معناه: أنَّ الكَفَّارَ عَنيدٌ ومَنَّاعٌ؛ لأنَّ آياتِ الوَحدانيَّةِ ظاهِرةٌ، ونِعَمَ اللهِ -تعالى- على عَبدِه وافِرةٌ، وهو مع ذلك عَنيدٌ، ومَنَّاعٌ للخَيرِ؛ لأنَّه يَمدَحُ دِينَه، ويَذُمُّ دينَ الحَقِّ -وذلك على قولٍ-، فهو يَمنَعُ، ومُريبٌ؛ لأنَّه شاكٌّ في الحَشرِ؛ فكُلُّ كافرٍ فهو مَوصوفٌ بهذه الصِّفاتِ[1].

٣- إنْ قيلَ: القائِلُ هنا واحِدٌ، وقال: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾، ولم يَقُلْ: رَبِّ، وفي كَثيرٍ مِن المواضِعِ القائِلُ واحِدٌ، وقال: رَبِّ، كقَولِه: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾[البقرة: ٢٦٠]، وقَولِه: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ [نوح: ٢٨]، ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾، [يوسف: ٣٣]، ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا﴾ [التحريم: ١١]، ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾.

فالجَوابُ: أنَّ في جَميعِ تلك المواضِعِ القائِلَ طالِبٌ، وأمَّا هنا فالموضِعُ مَوضِعُ هَيبةٍ وعَظَمةٍ وعَرضِ حالٍ دونَ الطَّلَبِ؛ لذا قال: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال: ﴿مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ مع أنَّه قال: ﴿لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص:٨٢]؟

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

منها: أنَّ الشَّيطانَ يقولُ: ﴿لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ بمعنى: لَأُزَيِّنَنَّ لهم الأمرَ، وما ألجَأَهم؛ فيَصِحُّ القَولانِ مِنَ الشَّيطانِ.

ومنها: أن تكونَ الإشارةُ إلى حالَينِ: ففي الحالةِ الأُولى: إنَّما فَعلْتُ بهم ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٣٨).

الإغواءَ؛ إظهارًا للانتِقامِ مِن بني آدَمَ، ثمَّ إذا رأى العذابَ، وأنَّه معه مُشترِكٌ، وله على الإغواءِ عَذابٌ -كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]- فيقولُ: رَبَّنا ما أطغَيتُه، فيَرجِعُ عن مقالتِه عندَ ظُهورِ العذابِ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ ما الوَجهُ في اتِّصافِ الضَّلالِ بالبَعيدِ؟

الجوابُ: الضَّالُّ يكونُ أكثَرَ ضَلالًا عن الطَّريقِ، فإذا تمادى في الضَّلالِ وبَقِيَ فيه مُدَّةً يَبعُدُ عن المَقصَدِ كَثيرًا، وإذا عَلِم الضَّلالَ قَصَّرَ في الطَّريقِ مِن قَريبٍ، فلا يَبعُدُ عن المَقصَدِ كثيرًا، فقَولُه: ﴿ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ وَصفٌ للمَصدَرِ بما يُوصَفُ به الفاعِلُ، كما يُقالُ: كلامٌ صادِقٌ، وعِيشةٌ راضيةٌ. أي: ضَلالٌ ذو بُعدٍ، والضَّلالُ إذا بَعُدَ مَداه وامتَدَّ الضَّالُّ فيه يَصيرُ بَيِّنًا، ويَظهَرُ الضَّلالُ؛ لأنَّ مَن حاد عن الطَّريقِ وأبعدَ عنه تتغيَّرُ عليه السِّماتُ والجِهاتُ، ولا يرَى عَينَ المَقصَدِ، ويَتبَيَّنُ له أنَّه ضَلَّ عن الطَّريقِ، وربَّما يَقَعُ في أوديةٍ ومَفاوِزَ، ويَظهَرُ له أماراتُ الضَّلالِ، بخِلافِ مَن حاد قليلًا؛ فالضَّلالُ وصَفَه اللهُ تعالى بالوَصفَينِ في كثيرٍ مِن المواضِعِ، فقال تارةً: ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وأُخرَى قال: ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ فيه رَدٌّ على المُرجِئةِ؛ حيثُ قالوا: ما ورَدَ في القُرآنِ مِن الوَعيدِ فهو تخويفٌ لا يُحَقِّقُ اللهُ شَيئًا منه! وقالوا: الكريمُ إذا وَعَد أنجَزَ ووفَى، وإذا أوعَدَ أخلَفَ وعَفا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٤٠).

قال ابنُ عثيمين: (﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ يعني: لا أحَدَ يَستطيعُ أن يُبَدِّلَ قَولي؛ =

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على الظُّلمِ، ولكِنْ لا يَفعَلُه؛ فَضلًا منه وَجُودًا، وكَرَمًا وإحسانًا إلى عبادِه[1]. ولأنَّه لا يحتاجُه سُبحانَه، وإنَّما يَظلِمُ الَّذي يَرى في الظُّلمِ تحقيقَ حاجةٍ أو مصلحةٍ له، واللهُ تعالى غنيٌّ عن هذا كلِّه.

وفيه إبطالُ مَذهَبِ مَن زَعَم: «أنَّ الظُّلمَ الَّذي نَزَّهَ نفْسَه عنه هو الممتَنِعُ المُستحيلُ، لا أنَّ هناك أمرًا مُمكِنًا مَقدورًا لو فَعَله لَكان ظُلمًا»! قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي: لا أُؤاخِذُ عبدًا بغيرِ ذنْبٍ، ولا أمنَعُه مِن أجرِ ما عَمِلَه مِن صالحٍ؛ ولهذا قال قَبْلَه: ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ المتضمِّنِ لإقامةِ الحُجَّةِ، وبُلوغِ الأمرِ والنَّهيِ، وإذا آخَذْتُكم بعدَ التَّقَدُّمِ فلَسْتُ بظالمٍ، بخِلافِ مَن يُؤاخِذُ العبدَ قبْلَ التَّقَدُّمِ إليه بأمْرِه ونَهْيِه؛ فذلك الظُّلمُ الَّذي تَنَزَّهَ اللهُ سُبحانَه وتعالى عنه[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ دليلٌ على أنَّ القُرآنَ غيرُ مخلوقٍ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ وتعالى كلُّ كلامِه غيرُ مخلوقٍ؛ ما قد تكَلَّمَ به، وما يَتكلَّمُ به يومَ القيامةِ. فكيف يجوزُ أنْ يكونَ ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ مَخلوقًا الآنَ -لو جاز أنْ يكونَ أيضًا مخلوقًا كلامُه، ومعاذَ اللهِ- وهو لم يَقُلْه بعدُ[3]؟!

٩- قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ فإذا كان اللهُ الَّذي خلَقَ العبادَ قد جعَلَ مُؤاخَذةَ مَن لم يَسبِقْ

= لأنَّ الحُكمَ للهِ عزَّ وجَلَّ وَحْدَه، فإذا كان اللهُ تعالى قد وَعَد فهو صادِقُ الوَعدِ سُبحانَه وتعالى، وأمَّا الإيعادُ فقد يَغفِرُ ما شاء مِنَ الذُّنوبِ إلَّا الشِّركَ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٣).

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٩٥).

له تَشريعٌ ظُلمًا، فما بالُكَ بمؤاخَذةِ النَّاسِ بَعضِهم بعضًا بالتَّبِعاتِ دونَ تقدُّمٍ إليهم بالنَّهيِ مِن قَبلُ؟! ولذلك يُقالُ: لا عُقوبةَ إلَّا على عمَلٍ فيه قانونٌ سابقٌ قبْلَ فِعلِه[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ هذا ليس بالْتِفاتٍ؛ إذ ليس هو تَغييرَ ضَميرٍ، ولكنَّه تَغْييرُ أُسلوبِ الكلامِ، وأُعِيدَ عليه ضَميرُ الغائبِ المفرَدِ باعتبارِ معنى نفْسِ أيِّ شخْصٍ، أو غُلِّبَ التَّذكيرُ على التَّأنيثِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ انتِقالٌ مِن خِطابِ النَّفْسِ إلى خِطابِ المَلَكينِ المُوكَّلينِ: السَّائقِ والشَّهيدِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-. والكلامُ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، انتِقالٌ مِن خِطابِ فَريقٍ إلى خِطابِ فَريقٍ آخَرَ[٣].

- وصِيغةُ المُثنَّى في قَولِه: ﴿أَلْقِيَا﴾ قيل: يجوزُ أنْ تكونَ مُستعمَلةً في خِطابِ الواحدِ، وهو الملَكُ المُوكَّلُ بجهنَّمَ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وخُوطِبَ بصِيغةِ المُثنَّى جرْيًا على طَريقةٍ مُستعمَلةٍ في الخِطابِ جَرَت على ألْسنتِهم؛ لأنَّهم يَكثُرُ فيهم أنْ يُرافِقَ السَّائرَ رَفيقانِ، وهي طَريقةٌ مَشْهورةٌ، أو أنَّ تَثنيةَ الفاعلِ نُزِّلَت مَنزِلةَ تَثنيةِ الفِعلِ؛ لاتِّحادِهما، كأنَّه قِيل: ألْقِ ألْقِ؛ للتَّأكيدِ، وقيل غيرُ ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢).

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ اسمُ المَوصولِ بدَلًا مِن ﴿كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ فإنَّ المَعرِفةَ تُبدَلُ مِن النَّكرةِ، على أنَّ الموصولَ هنا تَعريفُه لَفظيٌّ مُجرَّدٌ؛ لأنَّ مَعنى الصِّلةِ غيرُ مَخصوصٍ بمُعيَّنٍ، وأنَّ قولَه: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تَفريعٌ على ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤]، ومَصبُّ التَّفريعِ المتعلِّقُ، وهو ﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾، أي: في أشدِّ عَذابِ جهنَّمَ، تَفريعًا على الأمْرِ بإلْقائِه في جهنَّمَ تَفريعَ بَيانٍ، وإعادةُ فِعلِ (أَلْقِيا) للتَّأكيدِ، مع تَفريعِ مُتعلَّقِ الفِعلِ المُؤكِّدِ، وهذا مِن بَديعِ النَّظْمِ. ويجوزُ أنْ يكونَ اسمُ الموصولِ مُبتدَأً على استِئنافِ الكلامِ، ويُضمَّنُ المَوصولُ مَعنى الشَّرْطِ، فيَكونَ وُجودُ الفاءِ في خبَرِه مِن أجْلِ ما فيه مِن مَعنى الشَّرْطِ، وهذا كثيرٌ، والمقصودُ منه هنا تأْكيدُ العُمومِ الَّذي في قَولِه: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ مَفعولًا لمُضمَرٍ يُفسِّرُه ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾[(١)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ أُخلِيَت جُملةُ ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ عن الواوِ، وأُدخِلَت على الأولى ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ [ق: ٢٣]؛ لأنَّها استُؤنِفَتْ كما تُستأنَفُ الجُمَلُ الواقعةُ في حِكايةِ التَّقاوُلِ؛ فإنَّه لَمَّا قالَ قَرينُه: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾، وتَبِعَه قَولُه: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، وتلاهُ ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾؛ عُلِمَ أنَّ ثَمَّ مُقاوَلةً مِن الكافرِ، لكنَّها طُرِحَتْ وحُذِفَتْ لِمَا يدُلُّ عليها، كأنَّه قالَ: رَبِّ هو أطْغاني، فقال قرينُه: رَبَّنا ما أَطغَيتُه، وأمَّا الجُملةُ الأُولَى فواجبٌ عَطفُها؛ للدَّلالةِ على الجمْعِ بيْنَ معناها ومعْنى ما قَبْلَها في الحُصولِ، أي: مَجيءِ كلِّ نَفْسٍ معَ الملَكَينِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢، ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٩٩-١٢٠١)، ((أسرار التكرار في =

- والاستِدراكُ بقولِه: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ ناشئٌ عن شِدَّةِ المُقارَنةِ بيْنَ القَرينِ وبيْنَ قَرينِه، لا سِيَّما إذا كان المُرادُ بالقَرينِ شَيطانَه المُقيَّضَ له؛ فإنَّه قُرِنَ به مِن وقْتِ إدراكِه، فالاستِدراكُ لدَفعِ توَهُّمِ أنَّ المُقارَنةَ بيْنَهما تَقتضي أنْ يكونَ ما به مِن الطُّغيانِ بتَلقينِ القَرينِ، فهو يَنفي ذلك عن نَفْسِه؛ ولذلك أُتبِعَ الاستِدراكُ بجُملةِ ﴿كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾، فأخبَرَ القَرينُ بأنَّ صاحِبَه ضالٌّ مِن قَبْلُ، فلم يَكُنِ اقترانُه معه في التَّقييضِ أو في الصُّحبةِ بزائدٍ إيَّاه إضلالًا[١].

- وفِعلُ ﴿كَانَ﴾ لإفادةِ أنَّ الضَّلالَ ثابتٌ له بالأصالةِ، مُلازِمٌ لتَكوينِه[٢].

- والبعيدُ: مُعبَّرٌ به عن البالِغِ في قوَّةِ النَّوعِ حدًّا لا يَبلُغُ إليه إدراكُ العاقلِ بسُهولةٍ، كما لا يَبلُغُ سَيرُ السَّائرِ إلى المكانِ البعيدِ إلَّا بمَشقَّةٍ. أو بَعيدُ الزَّمانِ، أي: قديمٌ أصيلٌ؛ فيَكونُ تأكيدًا لمَفادِ فِعلِ (كان)[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ هذا حِكايةُ كلامٍ يَصدُرُ يومَئذٍ مِن جانبِ اللهِ تعالى للفريقَينِ الَّذين اتَّبَعوا والَّذين اتُّبِعوا؛ فالضَّميرُ عائدٌ على غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ [ق: ٢٢]. وعدَمُ عَطفِ فِعلِ ﴿قَالَ﴾ على ما قَبْلَه؛ لِوُقوعِه في مَعرِضِ المُقاوَلةِ[٤].

= القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٧)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وهو استِئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ ممَّا قَبْلَه، كأنَّه قيلَ: فماذَا قال اللهُ تعالَى؟ فقيلَ: قال: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾، أيْ: في مَوقفِ الحسابِ والجزاءِ[١].

- والتَّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿قَالَ﴾؛ لِتَحقُّقِ وُقوعِه[٢].

- والنَّهيُ عن المُخاصَمةِ بيْنَهم يَقتَضي أنَّ النُّفوسَ الكافرةَ ادَّعَتْ أنَّ قُرناءَها أطغَوْها، وأنَّ القُرَناءَ تنصَّلوا مِن ذلك، وأنَّ النُّفوسَ أعادَت رمْيَ قُرنائِها بذلك، فصار خِصامًا؛ فلذلك قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾، وطُوِيَ ذِكرُه لدَلالةِ ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ﴾ عليه؛ إيثارًا لحقِّ الإيجازِ في الكَلامِ. والنَّهيُ عن الاختِصامِ بعدَ وُقوعِه بتأويلِ النَّهيِ عن الدَّوامِ عليه، أي: كُفُّوا عن الخِصامِ[٣].

- وهو كِنايةٌ عن أنَّ حُكمَ اللهِ عليهم قد تَقرَّرَ، فلا يُفيدُهم التَّخاصُمُ لإلْقاءِ التَّبِعةِ على أحدِ الفريقَينِ[٤].

- قولُه: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ حالٌ مُعلِّلةٌ للنَّهيِ عن الاختِصامِ[٥].

- وهو كذلك كِنايةٌ عن عدَمِ الانتِفاعِ بالخِصامِ؛ لِكَونِ العِقابِ عَدلًا من اللهِ، وقدْ قدَّمتُ إليكم الوعيدَ قبْلَ اليومِ[٦].

- والباءُ في ﴿بِٱلْوَعِيدِ﴾ صِلةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى: وقد قدَّمتُ إليكم الوعيدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٥).

قبْلَ اليومِ. أو مُعدِّيةٌ، على أنَّ (قدَّمَ) مُطاوِعُ (تَقدَّمَ)[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

- قولُه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ بيانٌ للمعنَى الأوَّلِ المُكنَى عنه بقولِه: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾، أي: لَستُ مُبطِلًا ذلك الوعيدَ، وهو القولُ؛ إذ الوعيدُ مِن نوعِ القولِ، والتَّعريفُ للعهدِ، أي: فما أوعدتُكم واقعٌ لا مَحالةَ؛ لأنَّ اللهَ تعهَّدَ ألَّا يَغفِرَ لِمَن يُشرِكُ به ويموتُ على ذلك[٢].

- والمُبالَغةُ الَّتي في وصْفِ ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ راجِعةٌ إلى تأْكيدِ النَّفيِ، والمرادُ: لا أَظلِمُ شَيئًا مِن الظُّلمِ، وليس المعنى: ما أنا بشديدِ الظُّلمِ. وقيلَ: هي لِرعايةِ جمْعِه العبيدَ مِن قولِهم: فلانٌ ظالمٌ لعبدِه، وظلَّامٌ لعَبيدِه، على أنَّها مُبالَغةٌ كَمًّا لا كَيفًا، فنفى ظُلْمَه للعبيدِ، والعبيدُ في غايةِ الكثرةِ، والظُّلمُ المنفيُّ عنهم تَستلزِمُ كَثرتُهم كَثرتَه؛ فناسَبَ ذلك الإتيانُ بصيغةِ المُبالَغةِ للدَّلالةِ على كثرةِ المَنفيِّ التَّابِعةِ لكثرةِ العَبيدِ المنفيِّ عنهم الظُّلمُ؛ إذ لو وقع على كُلِّ عبدٍ ظُلمٌ -ولو قليلًا- كان مجموعُ ذلك الظُّلمِ في غايةِ الكثرةِ، وبذلك تعلَمُ اتِّجاهَ التَّعبيرِ بصيغةِ المُبالَغةِ، وأنَّ المرادَ بذلك نَفيُ أصلِ الظُّلمِ عن كُلِّ عبدٍ مِن أولئك العبيدِ الَّذين هم في غايةِ الكثرةِ[٣]. وقيل: كلمةُ (ظَلَّام) ليستْ صيغةَ مُبالَغةٍ، بل هي مِن بابِ النِّسبةِ، أي: لَستُ بذي ظُلمٍ، فقد يُستعمَلُ (فعَّال) بمعنى: صاحِبِ كذا، فمعنى قَولِه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٦، ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٦، ٣١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٢).

بذي ظُلمٍ[١].

وقيل: نفْيُ صِيغةِ المُبالَغةِ إذا دلَّتْ أدِلَّةٌ مُنفصِلةٌ على أنَّ المُرادَ به نفْيُ أصْلِ الفِعلِ؛ فلا إشكالَ؛ لِقيامِ الدَّليلِ على المرادِ، والآياتُ الدَّالَّةُ على نفْيِ الظُّلمِ مِن أصلِه عن اللهِ تعالى كثيرةٌ معروفةٌ؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ...﴾ [النساء: ٤٠]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، وغيرِ ذلك مِن الآياتِ. أو يكون المسَوِّغُ لصِيغةِ المُبالَغةِ أنَّ عذابَه تعالَى بالِغٌ مِن العِظَمِ والشِّدَّةِ أنَّه لولا استِحقاقُ المعذَّبينَ لذلك العذابِ بكُفرِهم ومَعاصيهم لَكان مُعذِّبُهم به ظَلَّامًا بليغَ الظُّلمِ مُتفاقِمَه، سُبحانَه وتعالى عن ذلِك عُلوًّا كَبيرًا[٢]. وقيل: صِيغةُ المُبالَغةِ (ظلَّام) تَقْتضي بظاهِرِها نَفْيَ الظُّلمِ الشَّديدِ، والمقصودُ: أنَّ الظُّلمَ مِن حَيثُ هو ظُلْمٌ أمْرٌ شَديدٌ؛ فصِيغَتْ له زِنَةُ المُبالَغةِ[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

- والتَّعبيرُ بـ (العَبيد) دونَ التَّعبيرِ بالناسِ ونَحوِه؛ لزيادةِ تَقريرِ معنى الظُّلمِ في نُفوسِ الأمَّةِ، أي: لا أَظلِمُ ولو كان المَظلومُ عَبدي[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾

- لفظُ ﴿يَوۡمَ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٨]، والتَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((شرح الكافية الشافية)) لابن مالك (٤/ ١٩٦٢). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣١-٣٣)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ١١٧، ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٤٧٠، ٤٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٧).

قال لهم ذلك القولَ يومَ يقولُ قولًا آخَرَ لجهنَّمَ: هلِ امتلَأْتِ؟ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ- ومناسَبةُ تَعليقِه به أنَّ هذا القولَ لجهنَّمَ مَقصودٌ به تَرويعُ المدفوعينَ إلى جهنَّمَ ألَّا يَطمَعوا في أنَّ كَثرتَهم يَضيقُ بها سَعةُ جهنَّمَ، فيَطمَعَ بَعضُهم أنْ يكونَ ممَّن لا يُوجَدُ له مكانٌ فيها، فحكاهُ اللهُ في القرآنِ؛ عِبرةً لِمَن يَسمَعُه مِن المشركين، وتعليمًا لأهلِ القُرآنِ المؤمنينَ؛ ولذلك استوَتْ قِراءةُ ﴿يَقُولُ﴾ بالياءِ[1] جَرْيًا على مُقتضَى ظاهرِ ما سبَقَه مِن قولِه: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾، وقِراءةُ ﴿نَقُولُ﴾ بالنُّونِ على الالْتفاتِ، بلْ هو الْتفاتٌ تابعٌ لتبْديلِ طَريقِ الإخبارِ مِن الحَديثِ عن غائبٍ إلى خِطابِ حاضرٍ[2].

- والاستِفهامُ في ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ تَقريرٌ وتوقيفٌ مُستعمَلٌ في تنْبيهِ أهلِ العذابِ إلى هذا السُّؤالِ على وجْهِ التَّعريضِ[3].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ مُستعمَلٌ للتَّشويقِ والتَّمنِّي، وفيه دَلالةٌ على أنَّ الموجوداتِ مُشوَّقةٌ إلى الإيفاءِ بما خُلِقَتْ له. وفيه دَلالةٌ على إظهارِ الامتِثالِ لِمَا خلقَها اللهُ مِن أجلِه، ولأنَّها لا تَتلكَّأُ، ولا تتعلَّلُ في أدائِه على أكمَلِ حالٍ في بابِه[4].

---

(١) قرأها بالياءِ نافِعٌ وأَبو بَكْرٍ، وقرأها الباقون بالنُّونِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٨).

الآيات (٢١-٢٥)

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾: أي: قُرِّبَت وأُدنِيَت، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تقَدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[(١)].

﴿أَوَّابٍ ﴾: أي: كثيرِ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالَى بالتَّوبةِ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[(٢)].

﴿حَفِيظٍ ﴾: أي: كثيرِ المحافَظةِ على كلِّ ما يُقرِّبُه إلى الله تعالى، أو: حفيظٍ لِذُنوبِه الَّتي سلفَتْ منه حتَّى يَتوبَ منها ويَستغفِرَ، وأصلُ (حفظ): يدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيءِ[(٣)].

﴿مُّنِيبٍ ﴾: أي: رجَّاعٍ تائبٍ، والنَّوْبُ: رُجوعُ الشَّيءِ مرَّةً بعدَ أُخرَى، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٩، ٣١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٧، ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٠٥٦، ٧٠٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٧).

(نوب): يدُلُّ على اعتيادٍ ورُجوعٍ[(١)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾

قولُه: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: في نَصبِ ﴿غَيْرَ﴾ أوجُهٌ:

أحَدُها: أنَّها مَنصوبةٌ على الحالِ مِنَ ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾، ولم يَقُلْ: غيرَ بَعيدةٍ؛ لتأويلِ الجنَّةِ بالبُستانِ. وقيل: لأنَّ البَعيدَ على زِنةِ المَصدَرِ الَّذي مِن شَأنِه أن يَستويَ فيه المؤنَّثُ والمذَكَّرُ، كالزَّئيرِ والصَّليلِ؛ فعُومِلَ مُعامَلتَه، وأُجريَ مُجراه.

الثَّاني: أنَّها مَنصوبةٌ على الظَّرفِ المكانيِّ، أي: مكانًا غيرَ بَعيدٍ.

الثَّالِثُ: أنَّها نائِبةٌ عن المصدَرِ؛ لِوُقوعِها نعتًا لِمَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: إزلافًا غَيرَ بَعيدٍ[(٢)].

٢- قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾

قَولُه: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾: هذه الجُملةُ يجوزُ فيها وَجهانِ؛ أحَدُهما: أن تكونَ مُعتَرِضةً بيْنَ البَدلِ والمُبدَلِ منه، وذلك أنَّ ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدَلٌ مِن ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ بإعادةِ اللَّامِ. والثَّاني: أن تكونَ مَنصوبةً بقَولٍ مُضمَرٍ، وذلك القَولُ المُضمَرُ مَنصوبٌ على الحالِ، أي: مَقولًا لهم: هذا ما تُوعدونَ.

قَولُه: ﴿مَّنْ خَشِيَ﴾: ﴿مَّنْ﴾ اسمٌ مَوصولٌ مَبنيٌّ في محَلِّ جَرٍّ بَدَلٌ من (كُلِّ)،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٣٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٦/ ٣١٥).

ويجوزُ أن يكونَ بدلًا من مَوصوفِ ﴿أَوَّابٍ﴾ المحذوفِ، أي: لكُلِّ شَخصٍ أوَّابٍ، فيكونَ ﴿مَّنْ﴾ بدَلًا مِنْ (شَخصٍ) المَحذوفِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿مَّنْ﴾ مَرفوعَ المحَلِّ، خبَرًا لمبتدَأٍ مَحذوفٍ، أو مَنصوبَ المحَلِّ بفِعلٍ محذوفٍ، وكِلاهما على قَطعِ البَدَلِ لِلمَدحِ، ويجوزُ أن يكونَ مُبتدأً خبَرُه قَولٌ محذوفٌ ناصِبٌ لِقَولِه: ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ أي: مَنْ خَشِيَ الرَّحمنَ يُقالُ لهم: ادْخُلوها. وجُمِعَ ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ مُراعاةً لِمَعنى ﴿مَّنْ﴾[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن المتَّقينَ وحُسنِ عاقبتِهم، فيقولُ: وقُرِّبتِ الجنَّةُ يومَ القيامةِ للمُتَّقينَ إلى مَوضِعٍ غيرِ بَعيدٍ عنهم، هذا الجَزاءُ وَعدٌ لكُلِّ رجَّاعٍ إلى اللهِ تعالى، كثيرِ المحافَظةِ على حُقوقِ اللهِ؛ الَّذي خاف اللهَ في سِرِّه وخَلْوَتِه، وجاء يومَ القيامة بقَلبٍ عاكِفٍ على حبِّ ربِّه وطاعتِه، غيرِ مُلتَفِتٍ إلى ما سِواه.

فيُقالُ لهم يومَ القيامةِ: ادخُلوا الجنَّةَ بأمانٍ مِن كلِّ سوءٍ ومكروهٍ، ذلك يومُ الخُلودِ في الجنَّةِ أبدًا، لهم في الجنَّةِ ما تَشتَهيه أنفُسُهم، وعِندَ الله لهم ثَوابٌ زائدٌ على ما يُريدونَ ممَّا لم يَخطُرْ لهم على بالٍ، وأعظَمُه النَّظرُ إلى وجهِ الله تعالى!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شُروعٌ في بَيانِ حالِ المؤمنينَ بعدَ النَّفخِ في الصُّورِ، ومَجيءِ النُّفوسِ إلى

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٧٩)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٥٣)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٣٩).

مَوقفِ الحسابِ[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى النَّارَ، وقَدَّمها؛ لأنَّ المقامَ للإنذارِ- أتْبَعَها دارَ الأبرارِ[٢].

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾.

أي: وقُرِّبتِ الجنَّةُ يومَ القيامةِ للَّذين اتَّقَوُا اللهَ تعالى بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه، إلى مَوضِعٍ غيرِ بَعيدٍ عنهم، فيَرَوْنَها قبْلَ دُخولِها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: قُرِّبَتْ بحيثُ يُشاهِدونها ويَنظُرون ما فيها مِن النَّعيمِ المُقيمِ قبْلَ أن يَدخُلوها: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرسعني، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعليمي، وأبو السعود، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٥).

قال الرَّسْعَني: (قُرِّبَتْ لهم حتَّى يَرَوْها قبْلَ أن يَدخُلوها؛ إكرامًا لهم، وتعجيلًا لأسبابِ السُّرورِ والنَّعيمِ لهم). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣٩٣).

وقال القرطبي: (قيل: هذا قبْلَ الدُّخولِ، في الدُّنيا، أي: قُرِّبتْ مِن قُلوبِهم حينَ قيل لهم: اجتَنِبوا المعاصيَ. وقيل: بعدَ الدُّخولِ، قُرِّبتْ لهم مَواضِعُهم فيها فلا تَبعُدُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩).

وقال ابن عاشور: (أَي: جُعِلَت الجنَّةُ قَريبًا مِن المتَّقينَ، أي: أُدْنُوا منها. والجنَّةُ موجودةٌ مِن قَبلِ وُرودِ المُتَّقينَ إليها، فإزلافُها قد يكونُ بحشرِهم للحسابِ بمَقْرُبَةٍ منها؛ كرامةً لهم عن =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠، ٩١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١٣].

وعن أبي هُرَيرةَ وحُذَيفةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يَجمَعُ اللهُ تبارك وتعالى النَّاسَ، فيَقومُ المُؤمِنونَ حتَّى تُزلَفَ لهم الجنَّةُ، فيَأتونَ آدَمَ، فيقولونَ: يا أبانا، استَفتِحْ لنا الجنَّةَ ...)) وذكَرَ الحديثَ بطُولِه[1].

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: هذا الجَزاءُ الَّذي وُعِدْتُم به هو لكُلِّ كثيرِ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى، فيَرجِعُ مِن مَعصيتِه إلى طاعتِه، ومِنَ الغَفلةِ عنه إلى ذِكرِه، ويَتوبُ إليه مِن ذُنوبِه؛ كثيرِ المحافَظةِ على حُقوقِ اللهِ تعالى، وعَدَمِ التَّعَدِّي على حُدودِه[2].

= كُلفةِ المسيرِ إليها، وقد يكونُ عبارةً عن تيسيرِ وُصولِهم إليها بوسائِلَ غَيرِ معروفةٍ في عادةِ أهلِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٨).

قال ابنُ عطية: (﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأكيدٌ وبَيانٌ أنَّ هذا التَّقريبَ هو في المسافةِ؛ لأنَّ قُرِّبَت كان يحتَمِلُ أنَّ معناه: بالوَعدِ والإخبارِ، فرفَعَ الاحتِمالَ بقَولِه: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٦). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٠).

وذهب ابنُ كثيرٍ إلى أنَّ معنى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: يومُ القيامةِ ليس ببعيدٍ؛ لأنَّه واقِعٌ لا مَحالةَ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦).

وقد ذكر الرازي عِدَّةَ احتِمالاتٍ؛ منها: أنَّ المعنى: قُرِّبت الجنَّةُ وهي غيرُ بعيدٍ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٥).

(١) رواه مسلم (١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٩، ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٩). =

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: كنتُ خَلْفَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا، فقال: ((يا غُلامُ، إنِّي أُعَلِّمُك كَلِماتٍ، احفَظِ اللهَ يَحفَظْك، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَك))(١).

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ٣٣﴾.

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

أي: مَن خاف اللهَ وتَرَك مَعصِيتَه في سِرِّه وخَلْوَتِه(٢).

= قال مكي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿حَفِيظٍ﴾: أي: حفِظ ذنوبَه حتَّى تاب منها. وقيل: معناه حفيظٌ على فرائضِ الله، أي: محافظٌ عليها. وقال قتادةُ: ﴿حَفِيظٍ﴾: ما استودَعه الله عزَّ وجلَّ مِن حقِّه ونعمتِه). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١١/ ٧٠٥٦، ٧٠٥٧).

وقال ابن جرير: (وأولَى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أنْ يُقالَ: إنَّ الله تعالى ذكرُه وصَف هذا التَّائبَ الأوَّابَ بأنَّه حفيظٌ، ولم يُحصَرْ به على نوعٍ مِن أنواعِ الطَّاعاتِ دونَ نوعٍ، فالواجبُ أنْ يعمَّ كما عمَّ جلَّ ثناؤُه، فيُقالُ: هو حفيظٌ لكلِّ ما قرَّبه إلى ربِّه مِن الفرائضِ والطاعاتِ، والذُّنوبِ التي سلَفتْ منه للتَّوبةِ منها والاستغفارِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٢).

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥٤١٧). صحَّحه الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٢٥١٦)، وابنُ باز في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١/ ١٦٠)، وحسَّنه ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (١/ ٣٢٧)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: مَن خافَ اللهَ في سِرِّه في حالِ مَغيبِه عن أعيُنِ النَّاسِ: ابنُ جُزَي، وابن كثير، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦، ٨٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٢٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٦). =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾.

أي: وجاء يومَ القيامة بقَلبٍ عاكفٍ على محبَّةِ ربِّه، وطاعتِه، والخُضوعِ والإخلاصِ له، غيرِ مُلتَفِتٍ إلى ما سِواه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧].

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤﴾.

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖ﴾.

= وقيل: المرادُ: مَن خافَ اللهَ في الدُّنيا مِن قَبلِ أن يَراه أو يَلْقاه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابن عطية، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٦).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٧).

قال ابنُ القيم: (قَولُه: ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: راجعٍ عن معاصي اللهِ، مُقبلٍ على طاعةِ اللهِ. وحقيقةُ الإنابةِ: عُكوفُ القَلبِ على طاعةِ اللهِ ومَحبَّتِه، والإقبالُ عليه). ((الفوائد)) (ص: ١٣).

قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾: أنَّه حَضَر يومَ الحَشرِ مُصاحِبًا قَلْبَه المُنيبَ إلى الله، أي: مات مَوصوفًا بالإنابةِ، ولم يُبطِلْ عمَلَه الصَّالِحَ في آخِرِ عُمُرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠).

أي: يُقالُ يومَ القيامةِ لِمَن كانت تلك صِفاتُه: ادخُلوا هذه الجنَّةَ بأمانٍ مِن كُلِّ سُوءٍ ومَكروهٍ، وآفةٍ وشَرٍّ(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر: ٤٥، ٤٦].

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾.

أي: ذلك هو اليَومُ الَّذي يَمكُثونَ فيه في الجنَّةِ أبدًا إلى غيرِ نِهايةٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣].

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾.

أي: لهم في الجنَّةِ كُلُّ ما تَشتَهيه أنفُسُهم، فمهما طَلَبوا مِن شَيءٍ أُحضِرَ لهم(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۞ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٠، ٧١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠، ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

أي: وعِندَنا لهم ثوابٌ زائدٌ على ما يَشاؤونَ مِمَّا لم يَخطُرْ على قُلوبِهم، وأعظَمُ ذلك وأفضَلُه: النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ الكريمِ(١).

كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا دَخَل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ يَقولُ اللهُ تبارك وتعالى: تُريدونَ شَيئًا أَزيدُكم؟ فيقولونَ: ألم تُبَيِّضْ وُجوهَنا؟! ألم تُدخِلْنا الجنَّةَ، وتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ؟! قال: فيَكشِفُ الحِجابَ! فما أُعطُوا شَيئًا أحَبَّ إليهم مِنَ النَّظَرِ إلى رَبِّهم عزَّ وجَلَّ، ثمَّ تلا هذه الآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾))(٢).

وعن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا جُلوسًا عند رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذْ نظَرَ إلى القمَرِ لَيلةَ البَدرِ، فقال: أمَا إنَّكم سترَونَ رَبَّكم كما تَرَونَ هذا القَمَرَ، لا تُضامُّونَ(٣) .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

قال السعدي: (لهم فوقَ ذلك ﴿مَزِيدٌ﴾ أي: ثَوابٌ يَمُدُّهم به الرَّحمنُ الرَّحيمُ، مِمَّا لا عَينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَر على قَلبِ بَشَرٍ، وأعظَمُ ذلك وأجَلُّه وأفضَلُه: النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ -تعالى- الكريمِ، والتَّمَتُّعُ بسَماعِ كَلامِه، والتَّنَعُّمُ بقُربِه، نسألُ اللهَ تعالى أن يَجعَلَنا منهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧). ويُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٧، ١٠٨).

(٢) رواه مسلم (١٨١).

(٣) لا تُضامُّونَ في رُؤيتِه: يُروى بتَشديدِ الميمِ وتخفيفِها؛ فالتَّشديدُ معناه: لا يَنضَمُّ بَعضُكم إلى بَعضٍ وتَزدَحِمونَ وَقتَ النَّظَرِ إليه تعالى؛ مِنَ المُضامَّةِ، وهي المُزاحَمةُ. ومعنى التَّخفيفِ: =

في رُؤيتِه!))[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ لَمَّا كانت النَّفْسُ لها قُوَّتانِ: قُوَّةُ الطَّلَبِ، وقُوَّةُ الإمساكِ، كان الأوَّابُ مُستَعمِلًا لقُوَّةِ الطَّلَبِ في رُجوعِه إلى اللهِ، ومَرضاتِه وطاعتِه، والحَفيظُ مُستَعمِلًا لقُوَّةِ الحِفظِ في الإمساكِ عن مَعاصيه ونواهيه؛ فالحَفيظُ: المُمسِكُ نَفْسَه عَمَّا حُرِّمَ عليه، والأوَّابُ: المُقبِلُ على اللهِ تعالى بِطاعتِه[٢].

٢- خَشيةُ اللهِ في الغَيبِ والشَّهادةِ معناها: أنَّ العَبدَ يَخشى اللهَ سِرًّا وإعلانًا، وظاهِرًا وباطِنًا؛ فإنَّ أكثَرَ النَّاسِ يَرى أنَّه يَخشى اللهَ في العلانيَةِ وفي الشَّهادةِ، ولكِنَّ الشَّأنَ في خَشيتِه اللهَ في الغَيبِ إذا غاب عن أعيُنِ النَّاسِ، وقد مَدَح اللهُ مَن يَخافُه بالغَيبِ؛ قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٣] [الملك: ١٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ الإنابةُ جُعِلَتْ مع الخَشيةِ؛ وذلك لأنَّ الَّذي يَخشى اللهَ لا بُدَّ أنْ يَرجوَه ويَطمَعَ في رَحمتِه؛ فيُنيبَ إليه ويُحِبَّه، ويُحِبَّ عبادتَه وطاعتَه؛ فإنَّ ذلك هو الَّذي يُنجيه ممَّا يخشاه، ويَحصُلُ

= لا يَنالُكم ضَيمٌ -ظُلمٌ- في رُؤيتِه؛ فيَراه بَعضُكم دونَ بَعضٍ! يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٠١)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٠١).

(١) رواه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٢).

به ما يُحِبُّه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ فيه سُؤالٌ: ما وَجهُ التَّقريبِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: هو أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على نَقلِ الجنَّةِ، فيُقَرِّبُها للمُؤمِنِ، لذا قال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ولم يقلْ: (قُرِّبَ المُتَّقونَ مِن الجنَّةِ)؛ بيانًا للإكرامِ؛ حيث جعَلَهم مِمَّن تُنقَلُ إليهم الجِنانُ بما فيها مِنَ الحِسانِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ الجنَّةَ لا تُزالُ ولا تُنقَلُ، ولا المؤمِنُ يُؤمَرُ في ذلك اليَومِ بالانتِقالِ إليها مع بُعْدِها، لكِنَّ اللهَ تعالى يَطوي المسافةَ الَّتي بيْنَ المُؤمِنِ والجنَّةِ، فهو التَّقريبُ إكرامًا للمُؤمِنِ، كأنَّه تعالى أراد بَيانَ شَرَفِ المُؤمِنِ المُتَّقي؛ أنَّه مِمَّن يُمشَى إليه، ويُدنَى منه!

الوَجهُ الثَّالِثُ: قُرِّبَت مِنَ الحُصولِ في الدُّخولِ، لا بمعنى القُربِ المكانيِّ؛ فالجنَّةُ كانت بَعيدةَ الحُصولِ؛ لأنَّه لا قُدرةَ للمُكَلَّفِ على تحصيلِها لولا فَضلُ اللهِ تعالى، وعلى هذا فقَولُه: ﴿غَيْرَ﴾ نَصبٌ على الحالِ، تقديرُه: قُرِّبَت مِن الحُصولِ، ولم تَكُن بَعيدةً في المسافةِ حتَّى يُقالَ: كيف قُرِّبَت[٢]؟

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ فيه سُؤالٌ: إنْ حُمِلَ القُربُ على القُربِ المكانيِّ، فما الفائِدةُ في الاختِصاصِ بالمُتَّقينَ، مع أنَّ المؤمِنَ والكافِرَ في عَرْصةٍ واحِدةٍ؟

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٤، ١٤٨).

ويُنظر ما تقدَّم في حاشيةِ التَّفسيرِ (ص: ٤٧٢).

الجوابُ: قد يكونُ شَخصانِ في مَكانٍ واحِدٍ، وهناك مكانٌ آخَرُ هو إلى أحَدِهما في غايةِ القُربِ، وعن الآخَرِ في غايةِ البُعدِ؛ مِثالُه: مَقطوعُ الرِّجلَينِ والسَّليمُ الشَّديدُ العَدْوِ، إذا اجتَمَعا في مَوضِعٍ وبحَضْرتِهما شَيءٌ لا تَصِلُ إليه اليَدُ بالمَدِّ، فذلك بَعيدٌ عن المقطوعِ، وهو في غايةِ القُربِ مِنَ العادي[1]. ويمكنُ أنْ يُقالَ: فائدةُ الاختِصاصِ بالمتَّقينَ لِكَونِهم أهلَها، معَ عِلمِ الكفَّارِ بأنَّ مصيرَهم إلى النَّارِ.

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ نَبَّه على كثرةِ خَشيتِه بقَولِه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾؛ لأنَّه إذا خاف مع استِحضارِ الرَّحمةِ العامَّةِ للمُطيعِ والعاصي، كان خَوفُه مع استِحضارِ غَيرِها أَولى[2]. أو: لأنَّ الخَشيةَ مِنَ الرَّحمنِ تَكونُ مَقرونةً بالأُنسِ؛ ولذلك لم يقُلْ: مَن خَشِيَ الجبَّارَ، ولا مَن خَشِيَ القَهَّارَ[3].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ فيه سؤالٌ: المؤمِنُ قد عَلِمَ أنَّه إذا دخَلَ الجنَّةَ خُلِّدَ فيها، فما الفائِدةُ في التَّذكيرِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ قَولَه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ قَولٌ قاله اللهُ تعالى في الدُّنيا إعلامًا وإخبارًا، وليس ذلك قَولًا يَقولُه عند قَولِه: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾، فكأنَّه تعالى أخبَرَنا في يَومِنا أنَّ ذلك اليَومَ يَومُ الخُلودِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ اطمِئنانَ القَلبِ بالقَولِ أكثَرُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٨).

٥- قال الله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ الأمرُ هنا أمرُ إكرام؛ أمَّا قَولُه تعالى للمُجرِمينَ: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٧٦] فهذا أمرُ إهانةٍ(١).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾، أي: زيادةً على ما يَشاؤُونَ مِمَّا لم يَخطُرْ ببالِهم، وفيه دَلالةٌ على أنَّ المفاجأةَ بالإنعامِ ضَربٌ مِن التَّلَطُّفِ والإكرامِ، وأيضًا فإنَّ الإنعامَ يَجيئُهم في صُوَرٍ مُعجِبةٍ(٢).

٧- قال الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾، ففي الجنَّةِ أكثرُ مِمَّا يَتمنَّاه الإنسانُ، وأكثرُ مِمَّا يَتصوَّرُه، وهو النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ النَّظَرَ إلى وَجهِ اللهِ أعظَمُ ما يكونُ مِن النَّعيمِ؛ ولهذا سمَّاه اللهُ زيادةً في قَولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٦]؛ فقد فَسَّرَ أعلَمُ الخَلقِ باللهِ -وهو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- الزِّيادةَ بأنَّها النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ(٣) سُبحانَه وتعالى(٤).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ عطفٌ على ﴿وَنُفِخَ﴾ [ق: ٢٠]، أي: قُرِّبَتْ للمتَّقينَ عن الكُفْرِ والمعاصي، بحيثُ يُشاهِدونَها مِن المَوقفِ، ويَقِفُون على ما فيها مِن فُنونِ المحاسِنِ، فيَبتهِجُونَ بأنَّهم مَحشورونَ إليها، فائزُون بها(٥).

أو عطْفٌ على ﴿نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ [ق: ٣٠]؛ فالتَّقديرُ: يومَ أُزْلِفَت الجنَّةُ للمتَّقينَ، وهو رُجوعٌ إلى مُقابِلِ حالةِ الضَّالِّينَ يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ، فهذه الجُملةُ مُتَّصِلةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢١).

(٣) يُنظر ما أخرجه مسلمٌ (١٨١) مِن حديثِ صُهَيبٍ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٢).

في المعنى بجُملةِ ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ [ق: ٢١]، ولو اعتُبِرَت مَعطوفةً عليها لَصحَّ ذلك، إلَّا أنَّ عَطفَها على جُملةِ ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ فيه غُنْيةٌ عن ذلك، ولا سِيَّما مع طُولِ الكلامِ[١].

- وخَصَّ المتَّقينَ بذلك؛ لأنَّهم أحَقُّ بها[٢].

- وأيضًا قالَ: ﴿غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ بعدَ قولِه: ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾ الَّتي بمَعنى قُرِّبَت؛ تأْكيدًا للإزلافِ، أي: مكانًا غيرَ بعيدٍ، بحيثُ يُشاهِدونَها، أو حالَ كَونِها غيرَ بعيدٍ، أيْ: شيئًا غيرَ بعيدٍ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ * مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾

- جُملةُ ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ مُعترِضةٌ؛ فيَجوزُ جعْلُها وحْدَها مُعترِضةً وما بعْدَها مُتَّصلًا بما قبْلَها، فتَكونُ مُعترِضةً بيْنَ البدَلِ والمُبدَلِ منه، وهُما ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ و﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾، وتُجعَلُ ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بَدلًا مِن ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾، وتَكريرُ الحرْفِ الَّذي جُرَّ به المُبدَلُ منه لقصْدِ التَّأكيدِ[٤].

- واسمُ الإشارةِ المُذكَّرُ (هذا) مُراعًى فيه مَجموعُ ما هو مُشاهَدٌ عِندَهم مِن الخَيراتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٩).
ويُنظر ما تقدم في مشكل الإعراب (ص: ٤٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٩).

- قولُه: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ اقترنَتِ الخَشيةُ باسمِ الرَّحمنِ الدَّالِّ على سَعةِ الرَّحمةِ، وفي ذلك مُبالَغةٌ في الثَّناءِ على الخاشي؛ لأنَّه إذا خَشِيَه وهو عالِمٌ بسَعةِ رَحمتِه، فناهيكَ بخَشيتِه الَّتي ما بَعْدَها خَشيةٌ، كما أثْنى عليه بالخَشيةِ مع أنَّ المَخشيَّ منه غائبٌ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا المُتَّقِيَ يَخشى اللهَ وهو يَعلَمُ أنَّه رَحمنٌ، ولقَصدِ التَّعريضِ بالمُشرِكين الَّذين أنكَروا اسمَه الرَّحمنَ، والمعنى على الَّذين خَشُوا: خَشِيَ صاحبَ هذا الاسمِ، فأنتم لا حَظَّ لكم في الجنَّةِ؛ لأنَّكم تُنكِرون أنَّ اللهَ رَحمنٌ، بَلْهَ أنْ تَخشَوه[1].

- والباءُ في ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ بمَعنى (في) الظَّرفيَّةِ؛ لتنزيلِ الحالِ مَنزِلةَ المَكانِ، أي: الحالةِ الغائبةِ، وهي حالةُ عَدَمِ اطِّلاعِ أحَدٍ عليه؛ فإنَّ الخَشيةَ في تلك الحالةِ تدُلُّ على صِدقِ الطَّاعةِ لله؛ بحيثُ لا يَرْجو ثَناءَ أحَدٍ، ولا عِقابَ أحدٍ، فيَتعلَّقُ المَجرورُ بالباءِ بفِعلِ ﴿خَشِيَ﴾. ولك أنْ تُبقِيَ الباءَ على بعضِ مَعانيها الغالبةِ، وهي المُلابَسةُ ونحْوُها، ويكونَ الغَيبُ مَصدرًا، والمجرورُ حالًا مِن ضَميرِ ﴿خَشِيَ﴾[2].

- قولُه: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ فيه وصْفُ القلبِ بالإنابةِ -وهي الرُّجوعُ إلى اللهِ تعالى-؛ لأنَّ الاعتِبارَ بما ثبَتَ منها في القلْبِ[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ بتأويلِ: يُقالُ لهم: ادخُلوها؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٣).

فهي مِن تَمام مَقولِ القَولِ المَحذوفِ، وهذا الإذْنُ مِن كَمالِ إكرامِ الضَّيفِ أنَّه إنْ دُعِيَ إلى الوليمةِ أو جيءَ به؛ فإنَّه إذا بلَغَ المنزِلَ قيلَ له: ادخُلْ بسَلامٍ[١].

- ومَحِلُّ هذه الجُملةِ مِن الَّتي قبْلَها الاستِئنافُ البَيانيُّ؛ لأنَّ ما قَبْلَها يُثيرُ ترقُّبَ المخاطَبينَ للإذْنِ بإنجازِ ما وُعِدوا به[٢].

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ ممَّا يُقالُ للمُتَّقينَ، على حَدِّ قولِه: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، والإشارةُ إلى اليَومِ الَّذي هم فيه، وكأنَّ اسمَ الإشارةِ للبعيدِ للتَّعظيم. ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى اليَومِ المذكورِ في قَولِه: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ [ق: ٣٠]؛ فإنَّه بعْدَ أنْ ذكَرَ ما يُلاقيهِ أهلُ جَهنَّمَ وأهلُ الجَنَّةِ، أعْقَبَه بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ ترهيبًا وترغيبًا، وعلى الوجْهِ الثَّاني تكونُ هذه الجُملةُ مُعترِضةً اعتِراضًا مُوجَّهًا إلى المُتَّقينَ يومَ القيامةِ، أو إلى السَّامِعينَ في الدُّنيا[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مِن بقيَّةِ ما يُقالُ للمتَّقينَ، فيَكونَ ضَميرُ الغَيْبةِ الْتِفاتًا، وأصْلُه: لكمْ ما تَشاؤونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ ممَّا خُوطِبَ به الفَريقانِ في الدُّنيا، وعلى الاحتِمالَينِ فهو مُستأنَفٌ استِئنافًا بَيانيًّا[٤].

وقيل: قال: ﴿لَهُم﴾، ولم يقُلْ: (لكم)؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ مُقَدَّرٌ فيه: (يُقالُ لهم)، أي: يُقالُ لهم: ادخُلوها؛ فلا يَكونُ على هذا التِفاتًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٩).

- وجاء تَرْتيبُ الآياتِ في مُنتهَى الدِّقَّةِ؛ فبدَأَتْ بذِكرِ إكرامِهم بقولِه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ثمَّ بذِكرِ أنَّ الجَنَّةَ جَزاؤُهم الَّذي وُعِدوا به، فهي حَقٌّ لهم، ثمَّ أومأَتْ إلى أنَّ ذلك مِن أجْلِ أعْمالِهم بقولِه: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ...﴾، ثمَّ ذُكِرَت المُبالَغةُ في إكرامِهم بعدَ ذلك كلِّه بقولِه: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾، ثمَّ طَمأَنَهم بأنَّ ذلك نعيمٌ خالدٌ، وزِيدَ في إكرامِهم بأنَّ لهم ما يَشَاؤُونَ ما لم يَرَوه حينَ الدُّخولِ، وبأنَّ اللهَ وعَدَهم بالمَزيدِ مِن لَدُنْه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢١، ٣٢٢).

الآيات (٢٦-٤٠)

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَرْنٍ﴾: القَرْنُ: القَومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المُقترِنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْر مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّةُ القرنِ مِئةُ سَنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثونَ، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقترانِ، وهو اجتِماعُ شيئَينِ، أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[(١)].

﴿بَطْشًا﴾: أي: قُوَّةً، والبَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبةٍ[(٢)].

﴿فَنَقَّبُوا۟﴾: أي: طافوا وسارُوا وتوَغَّلوا، وأصلُه مِنَ النَّقْبِ: وهو الطَّريقُ، كأنَّهم سَلَكوا كُلَّ طَريقٍ، أو مِن التَّنقُّبِ عن الأمرِ، بمعنى البحثِ عنه، وأصلُ (نقب): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٧، ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٤)، ((التبيان)) =

﴿مَّحِيصٍ﴾: أي: مَعدِلٍ ومَهْرَبٍ ومَفَرٍّ، وأصلُ (حيص): يدُلُّ على المَيلِ[١].

﴿شَهِيدٌ﴾: أي: مُتفَهِّمٌ لِما يُخبَرُ به، شاهِدٌ له بقلبِه، غيرُ غافِلٍ عنه ولا ساهٍ، حَاضرٌ بفطنتِه، غيرُ غائبٍ، وأصلُ (شهد): يدُلُّ على حُضورٍ وعِلمٍ وإعلامٍ[٢].

﴿لُّغُوبٍ﴾: أي: ضَعفٍ وإعياءٍ، وأصلُ (لغب): يدُلُّ على ضَعفٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى عاقِبةَ المكذِّبينَ في الأممِ السَّابِقةِ، فيقولُ: وكثيرًا أهلَكْنا مِن الأُمَمِ الماضيةِ مِن قَبلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ، وقد كانوا أشدَّ منهم قُوَّةً، فساروا في الأرضِ، وطافوا، وتوَغَّلوا فيها، فما صرَفَهم ذلك عن العذابِ! فأنتم أيضًا -يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- لن تُغنيَ عنكم قُوَّتُكم شَيئًا مِن عذاب الله، إنَّ في ذلكَ لَتذكيرًا ومَوعِظةً لِمَن كان له عَقلٌ يَعقِلُ به، أو استَمَع لكلامِ اللهِ تعالى غَيرَ غافِلٍ ولا سَاهٍ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى بعضَ مَظاهِرِ قُدرتِه، فيقولُ: ولقد خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ في سِتَّةِ أيَّامٍ، وما أصابَنا مِن تَعَبٍ أو إعياءٍ؛ فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يَقولُ الكُفَّارُ لك مِن أذًى وسُوءٍ، وسبِّحْ بحمدِ ربِّك قبْلَ طُلوعِ

= لابن الهائم (ص: ٣٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧، ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

الشَّمسِ وقبْلَ غُروبِها، ومِنَ اللَّيلِ فسبِّحْ ربَّك، وعَقِبَ الصَّلَواتِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أنذَرَ اللهُ تعالى الكافِرينَ بما بيْنَ أيديهم مِنَ اليَومِ العَظيمِ والعَذابِ الأليمِ؛ أنذَرَهم بما يُعَجَّلُ لهم مِنَ العذابِ المُهلِكِ والإهلاكِ المُدرِكِ، وبيَّنَ لهم حالَ مَن تقَدَّمَهم[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أوَّلَ السُّورةِ تَكذيبَ الأُمَمِ السَّابِقةِ؛ ذكَرَ هنا إهلاكَ قُرونٍ ماضيةٍ[2].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾.

أي: وكثيرًا مِن الأُمَمِ الماضيةِ أهلَكْنا مِن قَبلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ؛ بسَبَبِ كُفرِهم وتَكذيبِهم بالحَقِّ، والحالُ أنَّهم كانوا أقوى وأشدَّ منهم سَطوةً[3]!

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩].

﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٤، ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٨).

أي: فساروا في الأرضِ، وطافوا وتوَغَّلوا فيها، وتَقلَّبوا في أسفارِهم، وسلَكوا كلَّ طريقٍ[(١)]، فهل صرَفَهم ذلك عن العذابِ، وأنجاهم مِنَ الهَلاكِ؟ فأنتم أيضًا

(١) ممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، وابنُ جُزَي، والخازن، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٤٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩).

وممَّن قيَّد هذا السَّيرَ والتَّطْوافَ والبحثَ في الجملةِ بأنَّه كان طلبًا للمَهربِ، وطمَعًا في النَّجاةِ، وبحثًا عن المفَرِّ والمَلجأِ: ابنُ عطيَّة، والقرطبيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٨).

وفسَّر مقاتلٌ (نَقَّبوا) بـ (هرَبوا). يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٥).

قال ابن كثير: (﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: أثَّروا فيها. وقال مجاهدٌ: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾: ضرَبوا في الأرضِ. وقال قَتادةُ: فساروا في البلادِ، أي: ساروا فيها يَبتَغون الأرزاقَ والمَتاجِرَ والمَكاسِبَ أكثَرَ ممَّا طُفْتُم أنتم فيها، ويُقالُ لِمَن طَوَّف في البلادِ: نَقَّبَ فيها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٨).

وقيل: المعنى: أنَّهم تَصَرَّفُوا فِي الأرضِ بالحفرِ والغَرْسِ والبناءِ، فبَنَوا الحُصونَ المنيعةَ، والمنازِلَ الرَّفيعةَ، وغرَسوا الأشجارَ، وأجْرَوُا الأنهارَ، وزرَعوا، وعَمَروا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

قال ابن عاشور: (فيَكونُ في معنى قولِه: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ﴾ في سورةِ الرُّومِ [٩]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

وقال البِقاعي: (﴿فَنَقَّبُواْ﴾ أي: أوقَعوا النَّقْبَ ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ بأنْ فَتَحوا فيها الأبوابَ الحِسِّيَّةَ والمعنويَّةَ، وخَرَّقوا في أرجائِها ما لم يَقدِرْ غَيرُهم عليه، وبالَغوا في السَّيرِ في النِّقابِ: وهي طُرُقُ الجِبالِ والطُّرُقُ الضَّيِّقةُ فَضلًا عن الواسِعةِ وما في السُّهولِ، بعُقولِهم الواسِعةِ، وآرائِهم النَّافذةِ، وطبائِعِهم القَويَّةِ، وبَحَثوا مع ذلك عن الأخبارِ، وأخبَروا غَيرَهم بما لم يَصِلْ إليهم، وكان كُلٌّ منهم نَقَّابًا في ذلك، أي: علَّامةً فيه؛ فصارت له به مناقِبُ أو مَفاخِرُ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٣٥).

-يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- لا مَفَرَّ لكم ولا مَحِيدَ إذا حَلَّ بكم الهَلاكُ، ولن تُغنيَ عنكم قُوَّتُكم وشِدَّتُكم شَيئًا[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾[مريم: ٩٨].

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾.

أي: إنَّ في ذلكَ[(٢)] لَتذكيرًا ومَوعِظةً وعِبرةً لِمَن كان له عَقلٌ يَعقِلُ به ويَتدبَّرُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٠، ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢، ٢٣)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

(٢) قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن تكونَ الإشارةُ بذلك إلى إهلاكِ القُرونِ الأشَدِّ بَطشًا، ويجوزُ أن تكونَ إلى جميعِ ما تقَدَّم مِن استِدلالٍ وتَهديدٍ وتحذيرٍ مِن يومِ الجَزاءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، وابن عطية، وابن الجوزي، والخازن، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني في الجملةِ: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والبيضاوي، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ أي: فيما ذَكَرْناه في هذه السُّورةِ تَذكِرةٌ ومَوعِظةٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي: ما سَبَق من الآياتِ العَظيمةِ، ومنها ما قصَّ اللهُ تعالى =

فيَتذكَّرُ ويَخافُ عذابَ اللهِ تعالى[١].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ * لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

أي: أو استَمَع لكلامِ اللهِ تعالى وأنصَتَ إلى آياتِه إنصاتًا تامًّا، فلا يَغيبُ عنه شَيءٌ، وهو حاضِرُ القَلبِ غَيرُ غافِلٍ ولا سَاهٍ[٢].

= في هذه الآياتِ الكريمةِ مِن إهلاكِ الأُمَمِ السَّابِقةِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩).

قال ابن جرير: (والقلبُ في هذا الموضعِ: العَقلُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٢).

وقال ابنُ القيِّم: (لم يُرِدْ بالقَلبِ هنا مُضغةَ اللَّحمِ المُشتَرِكةَ بيْنَ الحَيَواناتِ، بل المرادُ ما فيه مِنَ العَقلِ). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩).

قال ابن القيِّم: (لم يُختَلَفْ في أنَّ المرادَ بالقَلبِ: القَلبُ الواعي، وأنَّ المرادَ بإلقاءِ السَّمعِ: إصغاؤُه وإقبالُه على المذكِّرِ، وتفريغُ سَمعِه له). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٧٠).

قال الألوسي: (لِذِكْرى لإحدى طائفتَينِ مَن له قلبٌ يَفْقَهُ عن الله عزَّ وجلَّ، ومَن له سمْعٌ مُصْغٍ مع ذِهنٍ حاضرٍ، أي: لِمَن له استِعدادُ القَبولِ عن الفقيهِ إن لم يكُنْ فقيهًا في نفْسِه، و﴿أَوْ﴾ لِمَنعِ الخُلوِّ مِن حيثُ إنَّه يجوزُ أن يكونَ الشَّخصُ فقيهًا ومُستعِدًّا لِلْقَبولِ مِن الفقيهِ. وذكر بعضُهم أنَّها لِتَقسيمِ المُتذَكِّرِ إلى تالٍ وسامعٍ، أو إلى فقيهٍ ومُتعَلِّمٍ، أو إلى عالِمٍ كامِلِ الاستِعدادِ لا يَحتاجُ لِغَيرِ التَّأمُّلِ فيما عندَه، وقاصِرٍ مُحتاجٍ لِلتَّعلُّمِ، فيَتذَكَّرُ إذا أقْبَلَ بكُلِّيَّتِه وأزالَ الموانِعَ بأسْرِها، فتأمَّل). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٤١). ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠). =

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا دَلَّ اللهُ تعالى على تمامِ عِلمِه وشُمولِ قُدرتِه بخَلقِ الإنسانِ؛ ذكَّرَ بخَلقِ ما هو أكبَرُ منه[1].

وأيضًا فمُناسَبةُ اتِّصالِ هذه الآيةِ بما قبْلَها أنَّه لَمَّا نزَلَ قولُه تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ [ق: ٦] إلى قولِه: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق: ١٠]، وكان ذلك قريبًا ممَّا وُصِفَ في التَّوراةِ مِن ترْتيبِ المخلوقاتِ إجمالًا، ثمَّ

= وقال ابن عاشور: (مَوقعُ ﴿أَوْ ﴾ للتَّقسيم؛ لأنَّ المُتذكِّرَ إمَّا أنْ يَتذكَّرَ بما دلَّت عليه الدَّلائلُ العقليَّةُ مِن فَهمِ أدلَّةِ القرآنِ، ومِنَ الاعتبارِ بأدلَّةِ الآثارِ على أصحابِها، كآثارِ الأُمَمِ، مِثلُ ديارِ ثمودَ...، وإمَّا أنْ يَتذكَّرَ بما يَبلُغُه مِن الأخبارِ عن الأمَمِ، كأحاديثِ القرونِ الخاليةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٤).

وقال أبو السعود: (كلمةُ ﴿أَوْ ﴾ لمنعِ الخلوِّ دونَ الجمعِ؛ فإنَّ إلقاءَ السَّمعِ لا يُجدِي بدونِ سلامةِ القلبِ كما يلوحُ به قولُه تعالَى ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي: حاضرٌ بفِطنتِه؛ لأنَّ مَن لا يَحضُرُ ذِهنُه فكأنَّه غائبٌ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٤).

وظاهرُ كلامِ أكثَرِ أهلِ العِلمِ أنَّ هذه الأوصافَ جميعًا لِمَوصوفٍ واحدٍ له قلبٌ حيٌّ، معَ إصغاءِ السَّمعِ، وحُضورِ القلبِ معَ ما يسمَعُ. يُنظر: ((الخلاصة في تدبر القرآن)) لخالد السبت (ص: ٤٠).

وممَّن اختار أنَّ هذَينِ الوصفَينِ لِصِنفَينِ مِن النَّاسِ: النَّيْسابوريُّ، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩).

ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١١) و(١٦/ ١٨٠)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٦٩، ١٧١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢١٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٧).

نزَلَ قولُه بعدَ ذلك: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥]، كان بعضُ اليهودِ بمكَّةَ يقولونَ: إنَّ اللهَ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيامٍ، واستراحَ في اليومِ السَّابعِ، والاستِراحةُ تُؤذِنُ بالنَّصَبِ والإعياءِ، فلمَّا فَرَغَت الآيةُ مِن تَكذيبِ المشركينَ في أقوالِهم؛ عطَفَت إلى تَكذيبِ الَّذين كانوا يُحدِّثونَهم بحديثِ الاستِراحةِ، فهذا تأويلُ موقعِ هذه الآيةِ في هذا المحلِّ[١].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: ولقد أوجَدْنا السَّمَواتِ السَّبْعَ والأرضَ وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ في سِتَّةِ أيَّامٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [السجدة: ٤].

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

أي: وما أصابَنا مِن جرَّاءِ ذلك أيُّ تَعَبٍ أو إعياءٍ؛ لكَمالِ القُدرةِ، وتَمامِ القُوَّةِ[٣].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩، ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما في ستَّةِ أيَّامٍ، ولم يَمَسَّه مِن تَعبٍ ولا إعياءٍ؛ تكذيبًا لأعدائِه مِنَ اليَهودِ؛ حيثُ قالوا: إنَّه استراح في اليَومِ السَّابعِ! أمَرَ نَبيَّه بالتَّأسِّي به سُبحانَه في الصَّبرِ على ما يقولُ أعداؤُه فيه، كما أنَّه سُبحانَه صَبَرَ على قَولِ اليَهودِ: إنَّه استراح! ولا أحَدَ أصبَرُ على أذًى يَسمَعُه منه تعالى[1].

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يَقولُه الكُفَّارُ مِن الأَذَى والسُّوءِ[2].

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣).

ويُنظر ما أخرجه البُخاريُّ (٦٠٩٩)، ومسلمٌ (٢٨٠٤) من حديثِ أبي موسى الأشعَريِّ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٦).

قيل: المعنى: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يقولُ هؤلاء اليهودُ، وما يَفتَرونَ على اللهِ، ويَكذِبونَ عليه [وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ اللهَ خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيامٍ، ثمَّ استراح يومَ السَّابعِ]؛ فإنَّ اللهَ لهم بالمِرْصادِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والبغوي، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الأمرُ بالصَّبرِ على يَقولُه المشرِكون مِن قُرَيشٍ: ابنُ أبي زَمَنين، والقرطبيُّ، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور، وهو ظاهرُ اختيارِ الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣١).

قيل: المرادُ على هذا القول: أي: على ما يَقولونَ له: إنَّه ساحرٌ، وإنَّه شاعرٌ، وإنَّه كاهنٌ، وإنَّه =

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَه اللهُ تعالى بالصَّبرِ؛ أمَرَه بما يَستَعينُ به على الصَّبرِ، وهو التَّسبيحُ بحَمدِ رَبِّه قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غُروبِها، وباللَّيلِ وأدبارَ السُّجُودِ[1].

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾.

أي: ونَزِّهْ ربَّك -يا محمَّدُ- قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غُروبِها تَنزيهًا مُقترِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ؛ محبَّةً له وتعظيمًا، وصَلِّ له[2].

= مجنونٌ، وإنَّه كاذبٌ. وقيل: مِن إنكارِ البعثِ والتَّوحيدِ والنُّبوَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١).

وممَّن اختار ما هو أعَمُّ مِن المشركين ومِن اليهودِ: ابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والثعالبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٢٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١١).

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٦، ٣٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١١).

ذكَرَ ابنُ عطيَّةَ أن (سَبِّحْ) معناه: (صَلِّ) بإجماعٍ مِن المتأوِّلينَ، ونسَبَ ابنُ عاشور هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٧).

وقال ابنُ عثيمين: (سَبِّحْ تَسبيحًا مقرونًا بالحَمدِ في هذَينِ الوَقتينِ: قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ، وقبْلَ الغُروبِ. قال أغلَبُ المفسِّرينَ: المرادُ بذلك: صَلاةُ الفَجرِ، وصلاةُ العَصرِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ هنا: صَلاةُ الصُّبحِ قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ، وصلاةُ العَصرِ قبْلَ غُروبِها: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والثعلبي، والبغوي، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٤٩)، ((تفسير الثعلبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وعن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ البَجَليِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا عندَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فنَظَرَ إلى القَمَرِ لَيلةَ -يعني البَدر-، فقال: إنَّكم سترَونَ ربَّكم كما ترَونَ هذا القَمَرَ لا تُضامونَ في رؤيتِه، فإنِ استطعتُم ألَّا تُغلَبوا على صلاةٍ قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غروبِها فافعَلوا. ثمَّ قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ

= (٩/ ١٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾: صلاةُ الفَجرِ، وبقوله: (قَبْلَ الْغُرُوبِ): صلاةُ الظُّهرِ والعَصرِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، وجلال الدين المحلي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٦).

قال البِقاعي: (﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: أوقِعِ التَّنزيهَ عن كلِّ شائبةِ نَقصٍ مُتلبِّسًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾... ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ بصَلاةِ الصُّبحِ، وما يَليقُ به مِن التَّسبيحِ غيرها ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ بصَلاةِ العصرِ والظُّهرِ كذلك؛ فالعصرُ أصلٌ لذلك الوقتِ، والظُّهرُ تبَعٌ لها). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٣٨).

وقال السعدي: (واشتغِلْ عنهم بطاعةِ ربِّك وتسبيحِه، أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، وفي أوقاتِ اللَّيلِ، وأدبارَ الصَّلَواتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

وقال الشنقيطي: (الصَّلاةُ داخِلةٌ في التَّسبيحِ المذكورِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٣٢).

ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾))[١].

وفي روايةٍ: عن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضيَ الله عنه، قال: ((كُنَّا عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذْ نَظَر إلى القَمَرِ لَيلةَ البَدرِ، فقال: أمَا إنَّكم سترَونَ رَبَّكم كما تَرَونَ هذا، لا تُضامُّونَ -أو لا تُضاهونَ[٢]- في رؤيتِه، فإنِ استطَعْتُم ألَّا تُغلَبوا على صلاةٍ قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غُروبِها، فافعَلوا. ثمَّ قال: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]))[٣].

وعن أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن صَلَّى البَرْدَيْنِ[٤] دخَلَ الجنَّةَ))[٥].

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾.

أي: ومِنْ بَعضِ أوقاتِ اللَّيلِ فسبِّحِ اللهَ تعالى مُنزِّهًا له عن كُلِّ ما لا يَليقُ به، وصَلِّ له[٦].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٥٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٦٣٣).

(٢) لا تُضاهُونَ: مِنَ المُضاهاةِ، أي: لا يَشتَبِهُ عليكم ولا تَرتابونَ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١/ ٥٠٦).

(٣) رواه البخاريُّ (٥٧٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٦٣٣).

(٤) البَرْدَين: أي: الفَجْرَ والعَصرَ؛ لِبَردِ الهواءِ فيهما بالنِّسبةِ إلى وَسَطِ النَّهارِ، ولِكَونِهما في طَرَفَي النَّهارِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١/ ٥٠٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٥٤٠).

(٥) رواه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

= قال ابنُ العربي: (قَولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ فيه أربعةُ أقوالٍ:

الأوَّلُ: هو تَسبيحُ اللهِ في اللَّيلِ.

الثَّاني: أنَّها صلاةُ اللَّيلِ.

الثَّالثُ: أنَّها ركْعَتَا الفَجرِ.

الرَّابعُ: أنَّها صلاةُ العِشاءِ الأخيرةِ... قَولُ مَن قال: إنَّه التَّسبيحُ، يُعَضِّدُه الحديثُ الصَّحيحُ: ((مَن تَعارَّ مِنَ اللَّيلِ فقال: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شريكَ له، له المُلكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ؛ كَفَّر عنه، وغَفَر له)).

وأمَّا من قال: إنَّها صلاةُ اللَّيلِ فإنَّ الصَّلاةَ تُسَمَّى تَسبيحًا؛ لِما فيها مِن تسبيحِ الله، ومنه سُبحةُ الضُّحى.

وأمَّا مَن قال: إنَّها صلاةُ الفَجرِ والعِشاءِ؛ فلأنَّهما مِن صَلاةِ اللَّيلِ، والعِشاءُ أوضَحُه). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٦١، ١٦٢).

وقيل: المرادُ بالتَّسبيحِ باللَّيلِ هنا: صَلاتَا المَغرِبِ والعِشاءِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابنُ عطية، والقرطبي، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٦).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ أي: سَبِّحِ اللهَ مِنَ اللَّيلِ. و «مِنْ» هنا للتَّبعيضِ، يعني: سَبِّحْه أيَّ جُزءٍ مِنَ اللَّيلِ، ويَدخُلُ في ذلك صلاةُ المغرِبِ وصلاةُ العِشاءِ، ويدخُلُ في ذلك أيضًا التَّهَجُّدُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٩).

((مَن تَعارَّ[١] مِنَ اللَّيلِ فقال: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شريكَ له، له المُلكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، الحَمدُ للهِ، وسُبحانَ اللهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، ثمَّ قال: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي، أو دعا؛ استُجِيبَ له، فإنْ توَضَّأَ وصَلَّى قُبِلَت صَلاتُه))[٢].

﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾.

أي: وسبِّحْ ربَّك -يا مُحمَّدُ- عَقِبَ الصَّلَواتِ[٣].

---

(١) تَعارَّ: أي: انتبَه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٢/ ٣٢٩).

(٢) رواه البخاري (١١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢).

قال ابنُ العربي: (فيه قَولانِ؛ أحَدُهما: أنَّه النَّوافِلُ. الثَّاني: أنَّه ذِكرُ اللهِ بعدَ الصَّلاةِ، وهو الأقوى في النَّظَرِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٦٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: التَّسبيحُ بعدَ الصَّلَواتِ: البيضاويُّ، والنسفي، وأبو السعود، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ قال ابنُ أبي نَجيح، عن مُجاهِدٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ: هو التَّسبيحُ بعدَ الصَّلاةِ. ويؤيِّدُ هذا ما ثبت في الصَّحيحَينِ [البخاري (٦٣٢٩) ومسلم (٥٩٥)] عن أبي هُرَيرةَ أنَّه قال: «جاء فُقراءُ المهاجِرينَ فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، ذهَب أهلُ الدُّثُورِ بالدَّرَجاتِ العُلى والنَّعيمِ المُقيم. فقال: وما ذاك؟! قالوا: يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، ويَصومون كما نَصومُ، ويَتصَدَّقون ولا نتصَدَّقُ، ويُعتِقونَ ولا نُعتِقُ! قال: أفَلَا أُعَلِّمُكم شيئًا إذا فعَلْتُموه سبَقْتُم مَن بَعْدَكم، ولا يكونُ أحدٌ أفضَلَ منكم إلَّا مَن فَعَل مِثلَ ما فعَلْتُم؟ تُسَبِّحون وتَحمَدونَ وتُكَبِّرونَ دُبُرَ كُلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثينَ. قال: فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، سَمِعَ إخوانُنا أهلُ الأموالِ بما فعَلْنا، ففَعَلوا مِثلَه! قال: ذلك فَضلُ اللهِ يُؤتيه مَن يَشاءُ!». والقَولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ هما الرَّكعتانِ بعدَ المَغرِبِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ -أي أنَّه التَّسبيحُ بعدَ الصَّلاةِ-: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٧). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن سَبَّح اللهَ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وثلاثينَ، وحَمِدَ اللهَ ثلاثًا وثلاثينَ، وكَبَّرَ اللهَ ثلاثًا وثلاثينَ، فتلك تِسعةٌ وتِسعونَ، وقال تمامَ المِئةِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ

= قال ابنُ تيميَّة: (﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] قال ابنُ عبَّاسٍ: هو التَّسبيحُ أدبارَ الصَّلاةِ. قلتُ: لَعلَّ هذا تفسيرٌ لِقَولِه: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾؛ فإنَّه أنسَبُ، وقد رُوِيَ عن طائفةٍ مِنَ السَّلَفِ أنَّ «أدبارَ السُّجودِ»: الرَّكعتانِ بعدَ المَغرِبِ، و«إدبارَ النُّجومِ»: ركْعَتَا الفَجرِ). ((جامع المسائل - المجموعة الثالثة)) (ص: ٢٩٤).

وقيل: المرادُ: صَلِّ النَّوافِلَ المَسنونةَ عَقِبَ الفرائضِ. وممَّن اختاره: جلالُ الدِّين المحلي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٩١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: الرَّكعتانِ بعدَ المغربِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ، والواحديُّ ونسَبَه لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّابِ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ، وأبو هُرَيرةَ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ بنُ عليٍّ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، والحسَنُ البصريُّ، وعِكْرِمةُ، وأبو أُمامةَ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، وقَتادةُ، والشَّعْبيُّ، والأوزاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٧). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٠).

وقال ابنُ عثيمين: (وهل المرادُ بالتَّسبيحِ أدبارَ الصَّلواتِ: النَّوافِلُ الَّتي تُصَلَّى بعد الصَّلواتِ، كراتِبةِ الظُّهرِ بَعْدَها، وراتبةِ المَغرِبِ بَعْدَها، وراتبةِ العِشاءِ بَعْدَها، أو المرادُ التَّسبيحُ الخاصُّ، وهو سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، واللهُ أكبَرُ؟ فيه قَولانِ للمُفَسِّرينَ، ولو قيل بهذا وهذا لَكان له وَجهٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢).

وممَّن ذهب إلى العُمومِ: البقاعي قال: (لَمَّا ذكَرَ الفرائِضَ الَّتي لا مَندوحةَ عنها على وَجهٍ يَشمَلُ النَّوافِلَ مِن الصَّلاةِ وغَيرِها، أتْبَعَها النَّوافِلَ المقَيَّدةَ بها فقال: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: الَّذي هو أكمَلُ بابِه، وهو صلاةُ الفَرضِ بما يُصَلَّى بَعْدَها مِنَ الرَّواتِبِ، والتَّسبيحُ بالقَولِ أيضًا). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٣٩).

له، له المُلْكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ- غُفِرَت خَطاياه وإن كانت مِثْلَ زَبَدِ البَحرِ))[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾، أي: قَلبٌ عَظيمٌ حَيٌّ، ذَكِيٌّ زَكِيٌّ، فهذا إذا ورد عليه شَيءٌ مِن آياتِ اللهِ تذَكَّرَ بها وانتَفَع، فارتَفَع[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ جَعَلَ اللهُ سُبحانَه كَلامَه ذِكرَى لا يَنتفِعُ بها إلَّا مَن جَمَع هذه الأُمورَ الثَّلاثةَ:

أحدُها: أنْ يكونَ له قَلبٌ حيٌّ واعٍ، فإذا فُقِدَ هذا القَلبُ لم يَنتفِعْ بالذِّكرى.

الثَّاني: أنْ يُصغِيَ بسَمعِه كلِّه نحوَ المخاطَبِ، فإنْ لم يَفعَلْ لم يَنتفِعْ بكَلامِه.

الثَّالثُ: أنْ يُحضِرَ قَلبَه وذِهنَه عندَ المكَلِّمِ له، وهو الشَّهيدُ، أي: الحاضِرُ غيرُ الغائِبِ، فإنْ غاب قَلبُه وسافرَ في موضعٍ آخَرَ لم يَنتفِعْ بالخِطابِ، وهذا كما أنَّ المُبصِرَ لا يُدرِكُ حقيقةَ المَرئيِّ إلَّا إذا كانت له قوَّةٌ مُبصِرةٌ، وحَدَّقَ بها نحوَ المرئيِّ، ولم يكُنْ قَلبُه مَشغولًا بغيرِ ذلك؛ فإنْ فَقَدَ القوَّةَ المُبصِرةَ، أو لم يُحَدِّقْ نحوَ المرئيِّ، أو حَدَّقَ نحوَه ولكِنَّ قَلبَه كُلَّه في موضعٍ آخَرَ- لم يُدرِكْه؛ فكثيرًا ما يَمُرُّ بك إنسانٌ أو غيرُه، وقَلبُك مَشغولٌ بغَيرِه؛ فلا تَشعُرُ بمُرورِه؛ فهذا الشَّأنُ يَستدعي صِحَّةَ القَلبِ وحُضورَه، وكَمالَ الإصغاءِ[٣]. وذلك على أنَّ هذه الأوصافَ لِمَوصوفٍ واحدٍ.

---

(١) رواه مسلم (٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢١٨).

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ مِنَ النَّاسِ مَن يُحرَمُ العِلمَ لِسُوءِ إنصاتِه، فيَكونُ الكلامُ والمُماراةُ آثَرَ عندَه وأحَبَّ إليه مِن الإنصاتِ، وهذه آفةٌ كامِنةٌ في أكثَرِ النُّفوسِ الطَّالبةِ للعِلمِ، وهي تمنَعُهم عِلمًا كَثيرًا، ولو كان حَسَنَ الفَهمِ. ذكَرَ ابنُ عبدِ البَرِّ عن بَعضِ السَّلَفِ أنَّه قال: (مَن كان حَسَنَ الفَهمِ رَديءَ الاستِماعِ، لم يَقُمْ خَيرُه بشَرِّه)[1].

٤- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ تأمَّلْ ما تحتَ هذه الألفاظِ مِن كُنوزِ العِلمِ، وكيف تَفتَحُ مُراعاتُها للعَبدِ أبوابَ العِلمِ والهُدى، وكيف يَنغلِقُ بابُ العِلمِ عنه مِن إهمالِها وعدَمِ مُراعاتِها؛ فإنَّه سُبحانَه ذَكَر أنَّ آياتِه المَتلوَّةَ المسموعةَ والمرئيَّةَ المشهودةَ إنَّما تكونُ تَذكِرةً لِمَن كان له قَلبٌ؛ فإنَّ مَن عَدِمَ القَلبَ الواعيَ عن اللهِ لم ينتَفِعْ بكُلِّ آيةٍ تمُرُّ عليه، ولو مرَّت به كلُّ آيةٍ، ومُرورُ الآياتِ عليه كطُلوعِ الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ ومُرورِها على مَن لا بصَرَ له! فإذا كان له قَلبٌ كان بمنزلةِ البَصيرِ إذا مرَّت به المرئيَّاتُ فإنَّه يراها، ولكِنَّ صاحِبَ القَلبِ لا ينتفِعُ بقَلبِه إلَّا بأمْرَينِ: أن يُحضِرَه ويُشهِدَه لِما يُلقَى إليه، فإذا كان غائبًا عنه مُسافِرًا في الأمانيِّ والشَّهَواتِ والخَيالاتِ لا ينتَفِعُ به. فإذا أحضَرَه وأشهَدَه لم ينتفِعْ إلَّا بأن يُلقِيَ سَمعَه ويُصغيَ بكُلِّيَّتِه إلى ما يُوعَظُ به ويُرشَدُ إليه.

وهاهنا ثلاثةُ أمورٍ:

أحدُها: سلامةُ القَلبِ وصِحَّتُه وقَبولُه.

الثَّاني: إحضارُه وجَمْعُه ومَنعُه مِن الشُّرودِ والتَّفرُّقِ.

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٦٩). ويُنظر أيضًا: ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البَرِّ (١/ ٤٤٨).

الثَّالِثُ: إلقاءُ السَّمعِ وإصغاؤُه، والإقبالُ على الذِّكرِ.

فذكرَ اللهُ تعالى الأمورَ الثَّلاثةَ في هذه الآيةِ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، في قَولِه: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مُجرَّدَ الإصغاءِ لا يُفيدُ ما لم يكُنِ المُصغِي حاضِرًا بفِطنتِه وذِهْنِه، وفي الآيةِ ترتيبٌ حَسَنٌ؛ لأنَّه إن كان ذا قَلبٍ ذَكيٍّ يَستخرِجُ المعانيَ بتدَبُّرِه وفِكرِه فذاك، وإلَّا فلا بُدَّ أن يكونَ مُستَمِعًا مُصْغيًا إلى كلامِ المُنذِرِ؛ لِيَحصُلَ له التَّذكيرُ[٢]. وذلك على القولِ بأنَّ الصِّفاتِ المذكورةَ لِصِنفينِ مِن النَّاسِ.

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ فيه أنَّ مَن ألقَى سَمْعَه إلى آياتِ اللهِ، واستمَعَها استِماعًا يَسترشِدُ به، وقَلبُه شَهيدٌ حاضِرٌ؛ فهذا له ذِكرى ومَوعِظةٌ، وشِفاءٌ وهُدًى[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ لو شاء اللهُ لَكان ذلك في أقَلَّ مِن لَمحِ البَصَرِ، ولكِنَّه سَنَّ لنا التَّأنِّيَ بذلك[٤]، فهو سبحانه يُعَلِّمُ عِبادَه التَّأنِّيَ في الأمورِ؛ وألَّا يأخُذوا الأمورَ بسرعةٍ؛ لأنَّ المهمَّ هو الإتقانُ، وليس الإعجالَ والإسراعَ، وأيضًا فإنَّه سبحانَه يَخْلُقُ الأشياءَ بأسبابٍ ومقدِّماتٍ تَتكاملُ شيئًا فشيئًا حتَّى تتِمَّ، كما لو شاء لَخَلَق الجَنينَ في بطنِ أُمِّه في لحظةٍ، لكنَّه يخْلُقُه أطوارًا حتَّى يَتكاملَ،

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٧).

كذلك السَّمواتُ: لو شاء لَخَلَق السَّمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما في لحظةٍ؛ ولكنَّه عزَّ وجلَّ يَخْلُقُ الأشياءَ تتكاملُ شيئًا فشيئًا[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ فَضيلةُ التَّسبيحِ والذِّكرِ في هذَينِ الوَقتَينِ[٢]. فيُشرَعُ الذِّكرُ بعدَ صَلاةِ الفَجرِ إلى أن تَطلُعَ الشَّمسُ، وبعدَ العصرِ حتَّى تَغرُبَ الشَّمسُ، وهذانِ الوقتانِ -أي: وقتُ الفَجرِ ووقتُ العصرِ- هما أفضَلُ أوقاتِ النَّهارِ للذِّكْرِ؛ ولهذا أمَرَ اللهُ تعالى بذِكْرِه فيهما في مَواضِعَ مِن القرآنِ، كقَولِه: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وقولِه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥]، وقولِه: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقولِه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]، وقولِه: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، وقولِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقولِه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقولِه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[٣] [طه: ١٣٠].

٩- قال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾، قولُه: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مِنَ الذَّمِّ لك، والتَّكذيبِ بما جئتَ به، واشتَغِلْ عنهم بطاعةِ رَبِّك وتَسبيحِه؛ فإنَّ ذِكرَ اللهِ تعالى مُسَلٍّ للنَّفسِ، مُؤْنِسٌ لها، مُهَوِّنٌ للصَّبرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أمْرُه له بالتَّسبيحِ بعدَ أمْرِه له بالصَّبرِ على أذى الكُفَّارِ: فيه دليلٌ على أنَّ التَّسبيحَ يُعينُه اللهُ به على الصَّبرِ المأمورِ به، والصَّلاةُ داخِلةٌ في التَّسبيحِ المذكورِ[١]؛ فإنَّ الصَّلاةَ أعظَمُ تِرياقٍ للنَّصرِ، وإزالةِ الهَمِّ؛ ولهذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا حَزَبه[٢] أمرٌ صلَّى[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمَرَه اللهُ تعالى أن يَصبرَ على ما يَقولونَ، والصَّبرُ على ما يَقولونَ يتضَمَّنُ شَيئَينِ:

الأوَّلُ: عَدَمُ التَّضَجُّرِ مِمَّا يقولُ هؤلاء، وأن يتحَمَّلَ ما يقولُه أعداؤُه فيه وفيما جاء به.

والثَّاني: أن يَمضِيَ في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وألَّا يَتقاعَسَ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ جَمَع سُبحانَه بيْنَ السَّمعِ والعَقلِ، وأقام بهما حُجَّتَه على عِبادِه؛ فلا يَنفَكُّ أحَدُهما عن صاحِبِه أصلًا؛ فالكِتابُ المُنزَّلُ والعَقلُ المُدرِكُ حُجَّةُ اللهِ على خَلْقِه، وكِتابُه هو الحُجَّةُ العُظمى؛ فهو الَّذي عَرَّفَنا ما لم يكُنْ لِعُقولِنا سَبيلٌ إلى

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٢).

(٢) حَزَبه أمرٌ: أي: نَزَل به مُهِمٌّ، أو أصابه غَمٌّ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٠).

والحديث أخرجه أبو داودَ (١٣١٩)، وأحمدُ (٢٣٢٩٩) مِن حديثِ حُذَيْفةَ رضيَ الله عنه.

حسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٣/ ٢٠٥)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ١١٠)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١١).

استِقلالِها بإدراكِه أبدًا، فليس لأحَدٍ عنه مَذهَبٌ، ولا إلى غَيرِه مَفزَعٌ في مَجهولٍ يَعلَمُه، ومُشكِلٍ يَستَبينُه، ومُلتَبِسٍ يُوضِّحُه؛ فمَن ذهَب عنه فإليه يَرجِعُ، ومَن دَفَع حُكمَه فبه يُحاجُّ خَصيمَه؛ إذ كان بالحقيقةِ هو المُرشِدَ إلى الطُّرُقِ العَقليَّةِ والمعارِفِ اليَقينيَّةِ الَّتي بالعبادِ إليها أعظَمُ حاجةٍ، فمَن رَدَّ مِن مُدَّعي البَحثِ والنَّظَرِ حُكومتَه، ودفَعَ قَضيَّتَه؛ فقد كابَرَ وعانَدَ، ولم يكُنْ لأحدٍ سَبيلٌ إلى إفهامِه ولا مُحاجَّتِه، ولا تقريرِ الصَّوابِ عِندَه، وليس لأحَدٍ أن يقولَ: إنِّي غَيرُ راضٍ بحُكمِه بل بحُكمِ العَقلِ؛ فإنَّه متى رَدَّ حُكمَه فقد رَدَّ حُكمَ العَقلِ الصَّريحِ، وعانَدَ الكِتابَ والعَقلَ[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ مَن يُؤتَى الحِكمةَ ويَنتَفِعُ بالعِلمِ على مَنزِلتَينِ: إمَّا رجُلٌ رأى الحَقَّ بنَفْسِه، فقَبِلَه واتَّبَعه ولم يحتَجْ إلى مَن يدعوه إليه؛ فذلك صاحِبُ القَلبِ، أو رجُلٌ لم يَعقِلْه بنَفْسِه، بل هو محتاجٌ إلى مَن يُعَلِّمُه ويُبَيِّنُ له ويَعِظُه ويُؤَدِّبُه؛ فهذا أصغَى فألقَى السَّمعَ وهو شَهيدٌ، أي: حاضِرُ القَلبِ ليس بغائِبِه[2]. وذلك على القولِ بأنَّ الصِّفاتِ المذكورةَ لِصِنفَينِ مِن النَّاسِ.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ أنَّ العَقلَ في القَلبِ، وعُبِّرَ عنه بالقَلبِ؛ لأنَّه مَحَلُّ استِقرارِه[3].

٤- يَمتَنِعُ تعارُضُ الأدِلَّةِ القَطعيَّةِ؛ فلا يَجوزُ أن يَتعارَضَ دليلانِ قَطعيَّانِ، سَواءٌ كَانَا عقليَّينِ، أو سَمعيَّينِ، أو كان أحدُهما عَقليًّا والآخَرُ سَمعيًّا، فإنَّها

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٥٨، ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٢٩).

مُتوافِقةٌ مُتناصِرةٌ مُتعاضِدةٌ؛ فالعَقلُ يدُلُّ على صِحَّةِ السَّمْعِ، والسَّمْعُ يُبَيِّنُ صِحَّةَ العَقلِ، وأنَّ مَن سَلَك أحَدَهما أفضَى به إلى الآخَرِ، وأنَّ الَّذين يَستَحِقُّونَ العَذابَ هم الَّذين لا يَسمَعونَ ولا يَعقِلونَ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ فقد بيَّن القُرآنُ أنَّ مَن كان يَعقِلُ أو كان يَسمَعُ فإنَّه يكونُ ناجيًا وسَعيدًا، ويكونُ مُؤمِنًا بما جاءت به الرُّسُلُ[(١)].

٥- قال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أنَّ الَّذي بيْنَ السَّماءِ والأرضِ مخلوقاتٌ عظيمةٌ، يدُلُّ على عِظَمِها أنَّ اللهَ جَعَلَها عديلةً لِخَلْقِ السَّمواتِ وخَلْقِ الأرضِ؛ فهي مخلوقاتٌ عظيمةٌ[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ نَفيُ مَسِّ اللُّغوبِ الَّذي هو التَّعَبُ والإعياءُ؛ فدلَّ على كَمالِ القُدرةِ، ونِهايةِ القُوَّةِ، بخلافِ المَخلوقِ الَّذي يَلحَقُه مِن التَّعَبِ والكَلالِ ما يَلحَقُه[(٣)].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٦).

وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ فيه تقريرُ المَعادِ؛ لأنَّ مَن قَدَر على خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ ولم يَعْيَ بخَلْقِهنَّ: قادِرٌ على أن يُحييَ الموتَى بطَريقِ الأَوْلَى والأَحْرَى(١).

٨- قولُه تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ استُدِلَّ به على وُجوبِ التَّسبيحِ في الصَّلاةِ؛ فإنَّه أمرٌ بالصَّلاةِ كلِّها، كما ثَبَتَ في الصَّحيحَينِ عن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ البَجَليِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا عندَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فنَظَرَ إلى القَمَرِ لَيلةَ -يعني البَدر-، فقال: إنَّكم سترَونَ ربَّكم كما تَرَونَ هذا القَمَرَ لا تُضامونَ في رؤيتِه، فإنِ استطعتُم ألَّا تُغلَبوا على صلاةٍ قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غروبِها فافعَلوا. ثمَّ قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾))(٢)، وإذا كان اللهُ عزَّ وجلَّ قد سمَّى الصَّلاةَ تسبيحًا فقد دَلَّ ذلك على وُجوبِ التَّسبيحِ، كما أنَّه لَمَّا سمَّاها قيامًا في قَولِه تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل: ٢] دلَّ على وُجوبِ القيامِ، وكذلك لَمَّا سَمَّاها قُرآنًا في قَولِه تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [الإسراء: ٧٨] دلَّ على وُجوبِ القرآنِ فيها، ولَمَّا سَمَّاها رُكوعًا وسُجودًا في مواضِعَ دلَّ على وُجوبِ الرُّكوعِ والسُّجودِ فيها؛ وذلك أنَّ تَسميتَها بهذه الأفعالِ دَليلٌ على أنَّ هذه الأفعالَ لازِمةٌ لها، فإذا وُجِدَت هذه الأفعالُ فتكونُ مِن الأبعاضِ اللَّازمةِ، كما أنَّهم يُسمُّونَ الإنسانَ بأبعاضِه اللَّازمةِ له، فيُسمُّونَه رَقَبةً، ورَأسًا، ووَجهًا، ونحوَ ذلك، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [النساء: ٩٢]، ولو جاز وُجودُ الصَّلاةِ بدونِ التَّسبيحِ لَكان الأمرُ بالتَّسبيحِ لا يَصلُحُ أنْ يكونَ أمرًا بالصَّلاةِ؛ فإنَّ اللَّفظَ حينَئذٍ لا يكونُ دالًّا على معناه، ولا على ما يَستلزِمُ معناه(٣)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٥٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٦٣٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٥٠). =

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ انتِقالٌ مِن الاستِدلالِ إلى التَّهديدِ. وهو معطوفٌ على ما قَبْلَه، وهذا العطفُ انتقالٌ إلى الموعظةِ بما حَلَّ بالأممِ المُكذِّبةِ بعْدَ الاستِدلالِ على إمكانِ البَعثِ بقولِه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤]، وما فُرِّعَ عليه مِن قولِه: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥]. وفي هذا العَطفِ الوعيدُ الَّذي أُجمِلَ في قَولِه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ إلى قولِه: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢، ١٤]؛ فالوعيدُ الَّذي حَقَّ عليهم هو الاستِئصالُ في الدُّنيا، وهو مَضمونُ قَولِه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾[(١)]. أوِ الواوُ استِئنافيةٌ، والكلامُ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لذِكرِ إهلاكِ قرونٍ ماضيةٍ[(٢)].

- والخبَرُ الَّذي أفادَهُ قولُه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ تَعريضٌ بالتَّهديدِ، وتَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(٣)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هاهنا: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾، وقال في سُورةِ (ص): ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ [ص: ٣]؛ فحذَفَ الجارَّ هنا؛ وذلك يدُلُّ على أنَّ كُلَّ مَن كان قبْلَ قُريشٍ كانوا أقْوى منهم، وإثباتُه في (ص)

= ووُجوبُ التَّسبيحِ في الرُّكوعِ والسُّجودِ هو مذهبُ الحنابلةِ، بيْنَما مذهبُ الجمهورِ مِن الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ أنَّه مستحَبٌّ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزيلعي (١/ ١٠٧)، ((التاج والإكليل)) للموَّاق (١/ ٥٣٨)، ((نهاية المحتاج)) للرملي (١/ ٤٩٩)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٢).

يدُلُّ على أنَّ المذكورينَ بالإهلاكِ هناك -مع الاتِّصافِ بالنِّداءِ المذكورِ في قولِه: ﴿فَنَادَوا۟﴾ [ص: ٣]- بَعضُ المُهْلَكينَ، لا كلُّهم[١].

- وضَميرَا ﴿قَبْلَهُم﴾ و﴿مِنْهُم﴾ عائدانِ إلى مَعلومٍ مِن المَقامِ، غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ دخَلَت الفاءُ للتَّسبيبِ عن قولِه: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾، أي: شِدَّةُ بَطشِهم أبطَرَتْهم وأقدرَتْهم على التَّنقيبِ وقَوَّتْهم عليه. والجُملةُ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ إلى آخِرِه، وجُملةِ ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾. وقيلَ: هيَ عاطفةٌ في المَعنى، كأنَّه قيلَ: اشتدَّ بطشُهم فنقَّبُوا. ويجوزُ أنْ يُرادَ: فنقَّبَ أهلُ مكَّةَ في أسفارِهم ومَسايرِهم في بلادِ القرونِ؛ فالفاءُ على هذا للتَّعقيبِ، وفيه الْتِفاتٌ[٣]؟!

- وجُملةُ ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: إهلاكًا لا مَنْجى منه. ويجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُستأنَفةً؛ فالاستِفهامُ إنكاريٌّ بمَعنى النَّفيِ؛ ولذلك دخَلَت (مِن) على الاسمِ الَّذي بعْدَ الاستِفهامِ، كما يُقالُ: ما مِن مَحيصٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ على إضمارِ قَولٍ هو حالٌ مِن واوِ (نقَّبوا)؛ أي: فنقَّبوا في البِلادِ قائلينَ: هلْ مِن مَحيصٍ؟ أو على إجراءِ التَّنقيبِ -لِما فيه من مَعنى التَّتبُّعِ والتَّفتيشِ- مُجْرى القولِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٠، ٣٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾

- قولُه: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ قِيل: المُرادُ: قلْبٌ مَوصوفٌ بالوعْيِ، أي: لِمَن كان له قلْبٌ واعٍ، يُقالُ: لِفُلانٍ مالٌ، أي: كثيرٌ؛ فالتَّنكيرُ يدُلُّ على معنًى في التَّعظيمِ والكَمالِ، والمعنى: لِمَن كان له قلبٌ ذَكيٌّ واعٍ يَستخرِجُ بذَكائِه، أو لِمَن أَلْقَى السَّمْعَ إلى المُنذِرِ فيَتذكَّرُ.

وقيل: هو لبَيانِ وُضوحِ الأمْرِ بعْدَ الذِّكْرِ، وأنْ لا خَفاءَ فيه لِمَن كان له قلْبٌ ما ولو كان غيرَ كاملٍ، كما يُقالُ: أعْطِه شيئًا ولو كان دِرهمًا، ونقولُ: الجنَّةُ لِمَن عمِلَ خَيرًا ولو حَسنةً، فكأنَّه تعالى قال: إنَّ في ذلك لَذِكرى لِمَن يصِحُّ أنْ يُقالَ: له قلْبٌ، وحينَئذٍ فمَن لا يَتذكَّرُ لا قلْبَ له أصلًا، كما في قَولِه تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: ١٨]؛ حيثُ لم تكُنْ آذانُهم وألْسِنَتُهم وأعيُنُهم مُفيدةً لِمَا يُطلَبُ منها، كذلك مَن لا يَتذكَّرُ كأنَّه لا قلْبَ له[(١)].

- قولُه: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ شَبَّهَ توجيهَ السَّمعِ لتلك الأخبارِ دونَ اشتِغالٍ بغيرِها بإلقاءِ الشَّيءِ لِمَن أخَذَه[(٢)].

- وإلقاءُ السَّمعِ: مُعبَّرٌ به عن شِدَّةِ الإصغاءِ للقُرآنِ ومواعظِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كأنَّ أسماعَهم طُرِحَتْ في ذلك، فلا يَشغَلُها شَيءٌ آخَرُ تَسمَعُه[(٣)]. وقيل: إنَّما قال: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾، ولم يقلْ: استمَعَ؛ لأنَّ إلقاءَ السَّمْعِ، أي: يُرسِلُ سَمْعَه، ولا يُمسِكُه وإنْ لم يقصِدِ السَّماعَ، أي: تَحصُلُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الذِّكرى لِمَن له سَمْعٌ، وهو تَعريضٌ بتَمثيلِ المشركينَ بمَن ليس له قلبٌ، وبمَن لا يُلقي سَمْعَه[١].

- وقد جِيءَ بهذه الجُملةِ الحاليَّةِ؛ للإشارةِ إلى اقترانِ مَضمونِها بمَضمونِ عاملِها، بحيثُ يكونُ صاحبُ الحالِ مُلقِيًا سمْعَه وهو شَهيدٌ، وهذه حالةُ المؤمنِ؛ ففي الكلامِ تنْويهٌ بشأنِ المؤمنينَ، وتعريضٌ بالمشركين بأنَّهم بُعَداءُ عن الانتِفاعِ بالذِّكرياتِ والعِبَرِ[٢].

- وقد تَضمَّنتْ هذه الآيةُ تقسيمًا وترديدًا بيْنَ قِسمينِ؛ أحدُهما: مَن كان له قلبٌ. والثَّاني: مَن أَلْقَى السَّمعَ وحضَرَ بقَلبِه ولم يَغِبْ، فهو حاضرُ القلبِ شاهِدُه لا غائبُه، وهذا -واللهُ أعلمُ- سِرُّ الإتيانِ بـ(أو) دونَ الواوِ؛ لأنَّ المنتفِعَ بالآياتِ مِن النَّاسِ نَوعانِ؛ أحدُهما: ذو القلبِ الواعِي الزَّكيِّ الَّذي يَكتفي بهِدايتِه بأدْنَى تنبيهٍ، ولا يَحتاجُ إلى أنْ يَستَجلِبَ قَلبَه ويُحضِرَه ويَجمَعَه مِن مَواضِعِ شَتاتِه، بل قَلبُه واعٍ، ذَكيٌّ، قابِلٌ للهُدَى، غَيرُ مُعرِضٍ عنه؛ فهذا لا يَحتاجُ إلَّا إلى وُصولِ الهُدى إليه فقط؛ لكَمالِ استِعدادِه، وصِحَّةِ فِطرَتِه، فإذا جاءَه الهُدى سارَعَ قَلبُه إلى قَبولِه، كأنَّه كان مَكتوبًا فيه، فهو قد أدرَكَه مُجمَلًا، ثمَّ جاء الهُدَى بتَفصيلِ ما شَهِدَ قَلبُه بصِحَّتِه مُجمَلًا، وهذه حالُ أكمَلِ الخَلقِ استِجابةً لِدَعوةِ الرُّسُلِ، كما هي حالُ الصِّدِّيقِ الأكبَرِ رَضيَ اللهُ عنه. والنَّوعُ الثَّاني: مَن ليس له هذا الاستِعدادُ والقَبولُ، فإذا وَرَدَ عليه الهُدَى أصْغَى إليه بسَمعِه، وأحضَرَ قَلبَه، وجَمَعَ فِكرَتَه عليه، وعَلِمَ صِحَّتَه وحُسنَه بنَظَرِه واستِدلالِه، وهذه طَريقةُ أكثَرِ المُستَجيبينَ، ولهم نُوِّعَ ضَرْبُ الأمثالِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وإقامةُ الحُجَجِ، وذِكْرُ المُعارَضاتِ والأجوبةِ عنها، والأوَّلونَ همُ الَّذين يُدْعَوْنَ بالحِكمةِ، وهؤلاء يُدعَوْنَ بالمَوعظةِ الحَسَنةِ؛ فهؤلاء نَوْعَا المُستَجيبينَ. وأمَّا المُعارِضونَ المُدَّعونَ لِلحَقِّ فنَوعانِ؛ نَوعٌ يُدْعَوْنَ بالمُجادَلةِ بالَّتي هي أحسَنُ، فإنِ استَجابوا، وإلَّا فبالمُجالَدةِ[1]. وذلك على القَولِ بأنَّ الصِّفاتِ المذكورةَ لِصِنفَينِ مِن النَّاسِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ تكملةٌ لِمَا وُصِفَ مِن خلْقِ السَّمواتِ في قَولِه: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ إلى قولِه: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [ق: ٦، ٧]؛ لِيُتوَصَّلَ به إلى قولِه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ إبطالًا لِمَقالةِ اليهودِ، والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُملةِ الَّتي قبْلَها عطْفَ القصَّةِ على القصَّةِ، وقَعَتْ مُعترِضةً بيْنَ الكلامِ السَّابقِ وبيْنَ ما فُرِّعَ عنه مِن قَولِه: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾[2] [ق: ٣٩].

- والواوُ في قَولِه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ واوُ الحالِ؛ لأنَّ لِمَعنى الحالِ هنا مَوقعًا عظيمًا مِن تَقْييدِ ذلك الخَلْقِ العظيمِ في تلك المُدَّةِ القصيرةِ بأنَّه لا يَنصَبُ خالِقُه؛ لأنَّ الغرَضَ مِن مُعظَمِ هذه السُّورةِ بَيانُ إمكانِ البَعثِ؛ إذ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧١).

ثم قال ابن القيِّم: (ومَن تأمَّلَ دعوةَ القرآنِ وجَدَها شاملةً لهؤلاء الأقسام، مُتناولةً لها كلِّها؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ فهؤلاء المَدْعُوُّونَ بالكلامِ، وأمَّا أهلُ الجِلَادِ فهم الَّذين أمَرَ اللهُ بقتالِهم حتَّى لا تَكونَ فِتنةٌ ويَكونَ الدِّينُ كلُّه لله).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٦).

أحالَه المشركون بما يَرجِعُ إلى ضِيقِ القُدرةِ الإلهيَّةِ عن إيقاعِه؛ فكانتْ هذه الآياتُ كُلُّها مُشتمِلةً على إبرازِ معنى سَعةِ القُدْرةِ الإلهيَّةِ(١).

- وحقيقةُ المَسِّ: اللَّمسُ، أي: وضْعُ اليَدِ على شَيءٍ وَضعًا غيرَ شديدٍ، بخِلافِ الدَّفعِ واللَّطمِ، فعبَّرَ عن نَفْيِ أقلِّ الإصابةِ بنَفيِ المَسِّ؛ لنَفيِ أضعَفِ أحوالِ الإصابةِ؛ فنفْيُ قوَّةِ الإصابةِ وتمَكُّنِها أحْرَى(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۞ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾

- قولُه: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ تَفْريعٌ على ما تقدَّمَ كُلِّه مِن قولِه: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ﴾ [ق: ٢] الآياتِ، ومُناسَبةُ وُقوعِه هذا المَوقعَ ما تضَمَّنه قولُه: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٖ﴾ [ق: ٣٦] الآيةَ، مِن التَّعريضِ بتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: فاصبِرْ على ما يقولُ المُشرِكون مِن التَّكذيبِ بما أخبَرْتَهم مِن البَعثِ وبالرِّسالةِ، وقد جمَعَ ذلك كُلَّه المَوصولُ، وهو ﴿مَا يَقُولُونَ﴾، أي: الَّذي يَقولون(٣).

- وقال في الأُولى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿فَسَبِّحۡهُ﴾؛ فقيل: الأمرُ في المَوضِعَينِ واحِدٌ، على تقديرِ: سَبِّحِ اللهَ مُقترِنًا بحَمدِ رَبِّك؛ وذلك لأنَّ (سَبِّحِ اللهَ) كقَولِ القائِلِ: (فسَبِّحْه)، غيرَ أنَّ المفعولَ لم يُذكَرْ أوَّلًا؛ لدَلالةِ قَولِه تعالى: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ عليه، وثانيًا؛ لِدَلالةِ ما سَبَق عليه لم يَذكُرْ (بحَمدِ رَبِّك).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٢٦).

وقيل: على القَولِ بأنَّ (سَبِّحْ) بمعنى: صَلِّ، يكونُ الأوَّلُ أمرًا بالصَّلاةِ، والثَّاني أمرًا بالتَّنزيهِ، أي: وصَلِّ بحَمدِ رَبِّك في الوَقتِ، وباللَّيلِ نَزِّهْه عمَّا لا يَليقُ، وحينَئذٍ يكونُ هذا إشارةً إلى العَمَلِ والذِّكرِ والفِكرِ؛ فقَولُه (سَبِّحْ) إشارةٌ إلى خَيرِ الأعمالِ، وهو الصَّلاةُ، وقَولُه: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إشارةٌ إلى الذِّكرِ، وقَولُه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ إشارةٌ إلى الفِكرِ حينَ هُدوءِ الأصواتِ، وصَفاءِ الباطِنِ، أي: نَزِّهْه عن كُلِّ سُوءٍ بفِكْرِك[1].

- قولُه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ عطْفٌ على ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ فهو مِن تَمامِ التَّفريعِ. ولعلَّ وجْهَ هذا العَطفِ أنَّ المشرِكين كانوا يَسْتهزِئونَ بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ إذا قاموا إلى الصَّلاةِ[2].

- قولُه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾، أي: صَلِّ، فنُزِّلَ فِعلُ التَّسبيحِ مَنزِلةَ اللَّازِمِ، وهو الصَّلاةُ[3]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ على أنْ يكونَ الوقتُ في قَولِه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ تأكيدًا للأمْرِ؛ لإفادةِ الوُجوبِ، فيُجعَلَ التَّفريعُ اعتِراضًا بيْن الظُّروفِ المتعاطِفةِ[4].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هنا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾، وقال في سُورةِ (طه): ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، فوقَعَ في سُورةِ (طه): ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، وفي

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٢٨).

هذه: ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾؛ وذلك لأنَّ فَواصِلَ أكثرِ الآياتِ في سُورةِ (طه) أواخِرُها ألِفٌ؛ فعُدِلَ إلى ﴿غُرُوبِهَا﴾، وهو الأصلُ؛ لأنَّ الطُّلوعَ مُضافٌ إلى الشَّمسِ، وحقُّ الغُروبِ أنْ يكونَ مُضافًا إلى ضَميرِها، وضَميرُها بعْدَها ألِفٌ. وأمَّا سُورةُ (ق) فإنَّ فَواصِلَها مُردَفةٌ بواوٍ أو ياءٍ؛ كالسُّجودِ، والخُلودِ، والقَعيدِ، والعَتيدِ، والمَريجِ. والغُروبُ متى ذُكِرَ عُلِمَ أنه أُرِيدَ به غُروبُها، فكان ذلك أشبَهَ بالفواصلِ الَّتي تَقدَّمَتْها في المكانَينِ؛ فلذلك اختَلَفا[1]. واللهُ أعلَمُ.

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٠٢، ١٢٠٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٩)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٨).

الآيات (٤١-٤٥)

﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٤١ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ٤٢ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ٤٣ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ٤٤ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سِرَاعًا﴾: جَمعُ سَريعٍ، أي: مُسرِعينَ في الخُروجِ إلى محَلِّ الحِسابِ، وأصلُ (سرع): يدُلُّ على خِلافِ البُطءِ[1].

﴿بِجَبَّارٍ﴾: أي: بمُسَلَّطٍ تُجبِرُهم على الإسلامِ؛ مِن: جَبَرَه على الأمرِ، بمعنى: أكرَهَه، وأصلُ (جبر): يدُلُّ على العَظَمةِ والعُلُوِّ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ: واستَمِعْ -يا محمَّدُ- حينَ يُنادي الملَكُ النَّاسَ مِن مَوضِعٍ قَريبٍ؛ يومَ يَسمَعُ الخَلقُ صَيحةَ البَعثِ بالحَقِّ، ذلك اليَومُ هو يَومُ خُروجِ النَّاسِ أحياءً مِن قُبورِهم للحَشرِ والحِسابِ.

ثمَّ يبيِّنُ كمالَ قدرتِه تعالى، فيقولُ: إنَّا نحن نُحيي الموتى، ونُميتُ الأحياءَ بقُدرتِنا، وإلينا مَرجِعُ الخَلائِقِ يومَ القيامةِ؛ يومَ تتصَدَّعُ الأرضُ عن الأمواتِ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٣).

فيَخرُجونَ مِن قُبورِهم أحياءً مُسرِعينَ إلى أرضِ المَحشَرِ، ذلك الحشَرُ سَهلٌ وهَيِّنٌ علينا.

ثمَّ يقولُ تعالى مُسلِّيًا نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: نحن أعلَمُ بما يَقولُ الكُفَّارُ، وما أنت بمُسَلَّطٍ عليهم -يا محمَّدُ- فتُجبِرَهم على اتِّباعِ الحَقِّ، وإنَّما عليك البَلاغُ، فذكِّرْ بالقُرآنِ مَن يخافُ عذابي الَّذي توعَّدْتُ به مَن عَصاني.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٤١﴾.

أي: واستَمِعْ -يا محمَّدُ- حينَ يُنادي المَلَكُ الموكَّلُ بالصُّوْرِ النَّاسَ مِن مَوضِعٍ قَريبٍ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٠).

ممَّن ذهب إلى أنَّه أمرٌ بالاستِماعِ، وأنَّ المعنى: واستَمِعْ لِما أُخبِرُك به مِن حالِ يومِ القيامةِ وأهوالِها: الزمخشريُّ، وابن الجوزي، والنسفي، والخازن، وأبو حيان، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٤).

ونسَبَ ابنُ عاشور حمْلَ الاستِماعِ على حقيقتِه إلى الجمهورِ. ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى قَولِه: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ﴾ أي: انتَظِرْ: ابنُ عطيَّة، والرَّازيُّ، وابن جُزَي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢).

واستبعَدَه السَّمينُ الحلبيُّ، وابنُ عادل. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥١).

قال الماتُريدي: (﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، وانتَظِرْ ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾، ولا تُكافِئْهم، ولا تنتَقِمْ منهم، ولكِنِ اصبِرْ وانتَظِرْ ذلك اليَومَ). ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٣٦٩). =

﴿ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّ ﴾.

أي: وذلك يومَ يَسمَعُ الخَلقُ صَيحةَ البَعثِ بالحَقِّ(١).

= وقد ذكر كثيرٌ مِن المفسِّرينَ أنَّ المناديَ: إسرافيلُ، وأنَّ المكانَ القَريبَ: صَخرةُ بَيتِ المقدِسِ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٠).

قال السمعاني: (القَولُ المعروفُ أنَّه إسرافيلُ عليه السَّلامُ يُنادي النَّاسَ على صَخرةِ بيتِ المَقدِسِ، فيقولُ: أيَّتُها العِظامُ الباليةُ، والجُلودُ المُتمَزِّقةُ، والأجسادُ المتفرِّقةُ، والأوصالُ المتقَطِّعةُ، ارجِعي إلى رَبِّك. وقيل بلَفظٍ آخَرَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٨).

وقال ابنُ عطية: (هذا الخبَرُ إن كان بوَحيٍ وإلَّا فلا سَبيلَ للوُقوفِ على صِحَّتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٠).

وقال ابن عاشور: (وعندي أنَّ هذه الآياتِ مِن قولِه: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ هي معَ ما تُفيدُه مِن تسليةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم تُبَشِّرُ بطريقةِ التَّوجيهِ البَديعيِّ إلى تهديدِ المشركينَ بعذابٍ يَحلُّ بهم في الدُّنيا عَقِبَ نِداءٍ يُفزِعُهم فيَلْقَوْنَ إثْرَه حَتْفَهم، وهو عذابُ يَومِ بدرٍ، فخُوطِبَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بترَقُّبِ يَومٍ يُناديهم فيه مُنادٍ إلى الخُروجِ، وهو نِداءُ الصَّريخِ الَّذي صرَخ بأبي جهلٍ ومَن معَه بمكَّةَ بأنَّ عِيرَ قُرَيشٍ وفيها أبو سُفْيانَ قد لَقِيَها المسلمونَ بِبَدْرٍ... فالمكانُ القريبُ هو بطنُ الوادي؛ فإنَّه قَريبٌ مِن مَكَّةَ. والخروجُ: خروجُهم لبَدْرٍ، وتكونُ جملةُ ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ وعيدًا بأنَّ اللهَ يُميتُ سادَتَهم، وأنَّه يُبْقي مَن قَدَّر إسلامَه فيما بعدُ؛ فهو يُحْيِيه إلى يومِ أجَلِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

وقَولُه تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ قيل: معناه: أنَّها كائنةٌ وواقِعةٌ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩).

وقيل: معنى ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: بالأمرِ بالإجابةِ لله إلى مَوقِفِ الحِسابِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٦٥).

وقيل: معنى ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: أي: بالبَعثِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، وابن الجوزي، والبيضاوي، =

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾.

أي: ذلك اليَومُ هو اليَومُ الَّذي يَخرُجُ فيه النَّاسُ أحياءً مِن قُبورِهم للحَشرِ والحِسابِ[١].

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ٤٣﴾.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾.

أي: إنَّا نحن نُحيي الموتَى، ونُميتُ الأحياءَ بقُدرتِنا[٢].

كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢].

﴿وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وإلينا مَرجِعُ جَميعِ الخَلقِ يومَ القيامةِ، فنُحاسِبُهم ونُجازيهم بحَسَبِ أعمالِهم[٣].

= والنسفي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٩٤).

وقال ابن عاشور: (﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ بمعنَى: بالصِّدْقِ، وهو هنا الحشرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣١).

وقال البقاعي: (﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: الأمرِ الثَّابتِ الَّذي كانوا يُسَمُّونَه سِحرًا، ويَعُدُّونَه خَيالًا، فيَعلَمونَ حينَئذٍ أنَّ الواقعَ قد يُطابِقُه، فكان حقًّا؛ فإنَّه قد طابَقه الواقِعُ، فكان الإخبارُ به صِدقًا). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٤١). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٣٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١١)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨].

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾.

أي: يومَ تتصَدَّعُ الأرضُ عن الأمواتِ، فيَخرُجونَ مِن قُبورِهم أحياءً، وهم مُسرِعونَ إلى أرضِ المَحشَرِ(١).

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((النَّاسُ يَصعَقونَ(٢) .....

= عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٣).
قال ابنُ جرير: (يقولُ جَلَّ ثناؤُه: وإلينا مَصيرُهم يومَ تشَقَّقُ الأرضُ؛ فاليَومُ مِن صِلةِ «مَصيرُ»). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٠).
وقال ابنُ كثير: (وذلك أنَّ اللهَ تعالى يُنَزِّلُ مطَرًا مِنَ السَّماءِ تَنبُتُ به أجسادُ الخلائِقِ في قُبورِها كما يَنبُتُ الحَبُّ في الثَّرى بالماءِ، فإذا تكامَلَت الأجسادُ أمَرَ اللهُ إسرافيلَ فيَنفُخُ في الصُّورِ... فإذا نَفَخ إسرافيلُ فيه خرَجَت الأرواحُ تتوهَّجُ بيْنَ السَّماءِ والأرضِ... فتَرجِعُ كُلُّ رُوحٍ إلى جَسَدِها... وتنشَقُّ الأرضُ عنهم، فيَقومونَ إلى مَوقِفِ الحِسابِ سِراعًا مُبادِرينَ إلى أمرِ اللهِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١١).

(٢) يَصْعَقونَ: مِنْ صَعِقَ الرَّجُلُ: إذا أصابَه فَزَعٌ فأُغمِيَ عليه، ورُبَّما مات منه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٢٣٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٤٤).

يومَ القيامةِ، فأكونُ أوَّلَ مَن تَنشَقُّ عنه الأرضُ))[١].

﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾.

أي: جمْعُ النَّاسِ في أرضِ المَحشَرِ يومَ القيامةِ شَأنٌ سَهلٌ وهَيِّنٌ علينا، لا تَعَبَ فيه ولا مَشقَّةَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها تَسليةٌ لقَلبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُؤمِنينَ، وتَحريضٌ لهم على ما أُمِرَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الصَّبرِ والتَّسبيحِ، أي: اشتَغِلْ بما قُلْناه، ولا تَشغَلْك الشَّكوى إلينا؛ فإنَّا نَعلَمُ أقوالَهم، ونرَى أعمالَهم[٣].

وأيضًا فهذه الآيةُ تَقريرٌ للحَشرِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّ الحَشرَ عليه يَسيرٌ؛ لكَمالِ قُدرتِه، ونُفوذِ إرادتِه، ولكِنَّ تَمامَ ذلك بالعِلمِ الشَّامِلِ، حتَّى يُمَيَّزَ بينَ جُزءِ بَدَنَينِ: جُزءِ بَدَنِ زَيدٍ، وجُزءِ بَدَنِ عَمرٍو؛ فقال: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾؛ لكَمالِ قُدرتِنا، ولا يَخفى علينا الأجزاءُ؛ لِمَكانِ عِلْمِنا[٤].

---

(١) رواه البخاري (٢٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأيضًا لَمَّا أقام اللهُ سُبحانَه الأدِلَّةَ على تمامِ قُدرتِه وشُمولِ عِلْمِه، وخَتَم بسُهولتِه عليه واختِصاصِه به؛ وَصَل -تَسليةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بتَهديدِهم على تَكذيبِهم بالعِلمِ الَّذي هو أعظَمُ التَّهديدِ[١].

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

أي: نحن أعلَمُ بما يَقولُه الكُفَّارُ مِنَ الكَذِبِ والافتراءِ على اللهِ، والتَّكذيبِ بآياتِه ورُسُلِه، والإنكارِ لقُدرتِه على بَعثِ عِبادِه[٢].

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾.

أي: وما أنت بمُسَلَّطٍ عليهم -يا محمَّدُ- فتُجبِرَهم على اتِّباعِ الحَقِّ، وتَقهَرَهم على الانقيادِ إليه، وإنَّما عليك البَلاغُ[٣].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

قال ابن عاشور: (فيه تهديدٌ لهم، وتَسليةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَطْمينٌ له بأنَّه غيرُ مَسؤولٍ عن عدَمِ اهتِدائِهم؛ لأنَّه إنَّما بُعِثَ داعيًا وهاديًا، وليس مَبعوثًا لإرغامِهم على الإيمانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٣).

وقال السمعاني: (قال بعضُهم: إنَّ الآيةَ منسوخةٌ، وهي قبْلَ نُزولِ آيةِ السَّيْفِ، نسَخَتْها آيةُ السَّيفِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٨). ويُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٦).

تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.

أي: فذكِّرْ -يا محمَّدُ- بهذا القُرآنِ مَن يخافُ عذابي الَّذي توعَّدْتُ به مَن عَصاني[1].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس: ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مَدارُ السَّعادةِ وقُطبُ رَحاها على التَّصديقِ بالوَعيدِ، فإذا تعطَّلَ مِن قَلبه التَّصديقُ بالوَعيدِ خَرِبَ خَرابًا لا يُرجَى معه فَلاحُ البتَّةَ، واللهُ تعالى أخبَرَ أنَّه إنَّما تَنفَعُ الآياتُ والنُّذُرُ لِمَن صَدَّق بالوَعيدِ، وخاف عذابَ الآخِرةِ، فهؤلاء هم المقصودونَ بالإنذارِ، والمُنتَفِعونَ بالآياتِ دونَ مَن عَداهم؛ قال اللهُ تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٣).

قال السعدي: (التَّذكيرُ هو: تذكيرُ ما تقرَّرَ في العُقولِ والفِطَرِ مِن محبَّةِ الخَيرِ، وإيثارِه وفِعْلِه، ومِن بُغضِ الشَّرِّ ومُجانَبتِه، وإنَّما يَتذكَّرُ بالتَّذكيرِ مَن يَخافُ وعيدَ اللهِ، وأمَّا مَن لم يخَفِ الوَعيدَ، ولم يُؤمِنْ به، فهذا فائِدةُ تذكيرِه: إقامةُ الحُجَّةِ عليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾، وأخبرَ تعالى أنَّ أهلَ النَّجاةِ في الدُّنيا والآخرةِ هم المصَدِّقونَ بالوَعيدِ، الخائفونَ منه؛ فقال تعالى: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[1] [إبراهيم: ١٤].

٢- تذكُّرُ الوَعدِ والوَعيدِ يُوجِبُ خَشيتَه والحَذَرَ منه، ولا تَنفَعُ الموعِظةُ إلَّا لِمَنْ آمَنَ به وخافَه ورَجاه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وأصرَحُ مِن ذلك قَولُه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾؛ فالإيمانُ بالوَعدِ والوَعيدِ وذِكرُه: شَرطٌ في الانتِفاعِ بالعِظاتِ والآياتِ والعِبَرِ، يَستحيلُ حُصولُه بدُونِه[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ تدُلُّ على خُصوصِ التَّذكيرِ بالقُرآنِ بمَن يَخافُ وَعيدَ اللهِ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على عُمومِه، كقَولِه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، وقَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

الجوابُ: أنَّ التَّذكيرَ بالقُرآنِ عامٌّ، إلَّا أنَّه لَمَّا كان المُنتَفِعُ به هو مَن يَخافُ وَعيدَ اللهِ صار كأنَّه مُختَصٌّ به، كما أشار إليه قَولُه تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٦٤، ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٤٦).

تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[1] [الذاريات: ٥٥].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ * يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾

- قولُه: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [ق: ٣٩]؛ فالأمرُ بالاستِماعِ مُفرَّعٌ بالفاءِ الَّتي فُرِّعَ بها الأمْرُ بالصَّبرِ على ما يقولونَ، فهو لاحِقٌ بتَسليةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فلا يكونُ المَسموعُ إلَّا مِن نَوعِ ما فيه عِنايةٌ به وعقوبةٌ لِمُكذِّبيه[2].

- وابتداءُ الكلامِ بقولِه: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ﴾ يُفيدُ توثيقًا إلى ما يَرِدُ بَعْدَه[3].

- يَجوزُ حمْلُ الاستِماعِ على الإنصاتِ والإصغاءِ، وإذ كان المذكورُ عقِبَ فِعلِ السَّمْعِ لا يَصلُحُ لِأنْ يكونَ مَسموعًا -لأنَّ اليَومَ ليس ممَّا يُسمَعُ- تَعيَّنَ تَقديرُ مَفعولٍ لـ (اسْتَمِعْ) يدُلُّ عليه الكلامُ الَّذي بعْدَه، فيُقدَّرُ: استمِعْ نِداءَ المُنادي، أو استمِعْ خبَرَهم، أو استمِعِ الصَّيحةَ يومَ يُنادي المُنادي. ويجوزُ جعْلُ فِعلِ (اسْتَمِعْ) مُنزَّلًا مَنزِلةَ اللَّازِمِ، أي: كُنْ سامِعًا، فيَكونُ مَعنى الأمْرِ بالاستِماعِ تَخييلًا لصَيحةِ ذلك اليومِ في صُورةِ الحاصِلِ، بحيث يُؤمَرُ المخاطَبُ بالإصغاءِ إليها في الحالِ. أو يُحمَلُ (اسْتَمِعْ) على أنَّه بمَعنى: انتظِرْ؛ لأنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يُؤمَرْ بأنْ يَستمِعَ في يومِ النِّداءِ؛ لأنَّ كلَّ مَن فيه يَستمِعُ، وإنَّما الآيةُ في معنى الوعيدِ للكفَّارِ، فقِيل لمحمَّدٍ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: تَحسَّسْ هذا اليومَ وارْتقِبْه؛ فإنَّ فيه تَبيُّنَ صِحَّةِ ما قُلْتُه. أو المعنى: واستمِعْ لِمَا أُخبِرُك به مِن حالِ يومِ القِيامةِ، وفي ذلك تَهويلٌ وتعظيمٌ لشأنِ المُخبَرِ به؛ لِمَا في الإبهامِ والتَّفسيرِ مِن التَّهْويلِ والتَّعظيمِ[١].

- وتعريفُ ﴿ٱلْمُنَادِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، أي: يومَ يُنادي المَلَكُ الَّذي يَنفُخُ النَّفْخةَ الثَّانيةَ، فتَتكوَّنُ الأجسادُ، وتحُلُّ فيها أرواحُ النَّاسِ للحَشرِ[٢].

- وتنْوينُ ﴿مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ للنَّوعيَّةِ؛ إذ لا يَتعلَّقُ الغرَضُ بتَعيينِه. ووصْفُه بـ﴿قَرِيبٍ﴾؛ للإشارةِ إلى سُرعةِ حُضورِ المُنادَينَ، وهو الَّذي فسَّرَتْه جُملةُ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ النِّداءَ مِن مكانٍ قريبٍ لا يَخفَى على السَّامِعينَ، بخِلافِ النِّداءِ مِن مكانٍ بعيدٍ[٣].

- و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بمعنى: بالصِّدقِ، وهو هنا الحَشرُ -على قولٍ-؛ وُصِفَ بالحقِّ إبطالًا لزعْمِ المشركينَ أنَّه اختِلاقٌ[٤].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ جيءَ به لتَهويلِ المشارِ إليه، وهو ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ فأُريدَ كَمالُ العِنايةِ بتمْييزِه؛ لاختِصاصِه بهذا الخبَرِ العظيمِ، وكان مُقتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (هو يومُ الخُروجِ)[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ تَذييلٌ، أي: هذا الإحياءُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٣١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعدَ أنْ أَمَتْناهم هو مِن شُؤونِنا؛ بأنَّا نُحييهم، ونُحيي غيرَهم، ونُميتُهم، ونُميتُ غيرَهم، والمقصودُ هو قولُه: ﴿وَنُمِيتُ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿نُحْيِۦ﴾؛ فإنَّه لاستِيفاءِ معنى تَصرُّفِ اللهِ تعالى في الخَلْقِ(١).

- وتَقديمُ ﴿وَإِلَيْنَا﴾ في ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾؛ للاهتِمامِ(٢).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ إمَّا تَعريفُ الجِنسِ، أي: كلُّ شَيءٍ صائرٌ إلى ما قدَّرْناه له، وأكبرُ ذلك هو ناموسُ الفَناءِ المكتوبِ على جَميعِ الأحياءِ، وإمَّا تَعريفُ العَهدِ، أي: المصيرُ المُتحدَّثُ عنه، وهو الموتُ؛ لأنَّ المصيرَ بعْدَ الموتِ إلى حُكمِ اللهِ تعالَى(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢]، أو بدَلُ اشتِمالٍ منها، مع ما في المُعادِ منها مِن تأْكيدٍ لِمُرادِفِه. أو استِئنافٌ يُفيدُ الاستِدلالَ على إمكانِ الحَشرِ، ووَصْفَ حالٍ مِن أحوالِه، وهو تَشقُّقُ الأرضِ عنهم، أي: عن أجسادٍ مَثيلةٍ لأجسادِهم، وعن الأجسادِ الَّتي لم يَلحَقْها الفَناءُ(٤).

- وتقدُّمُ الجارِّ المجرورِ ﴿عَلَيْنَا﴾ على الخَبرِ ﴿يَسِيرٌ﴾ يُفيدُ الاختِصاصَ، أي: هو يَسيرٌ في جانبِ قُدرتِنا، لا كما زَعَمَه نُفاةُ الحشرِ(٥).

٤- قولُه تعالَى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٢).

وَعِيدِ ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٩]؛ فهو إيغالٌ في تَسليةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعريضٌ بوَعيدِهم وتَهديدِهم[(١)].

- وفي قَولِه: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فُرِّع أمْرُه بالتَّذكيرِ على ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٍ﴾؛ لأنَّه ناشئٌ عن نفْيِ كَونِه جبَّارًا عليهم، وهذا كقولِه تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ * لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ولكنْ خَصَّ التَّذكيرَ هنا بالمؤمنينَ الَّذين يَخافونَ وعيدَ اللهِ تعالَى؛ لأنَّه أرادَ التَّذكيرَ الَّذي يَنفَعُ المُذَكَّرَ، ولأنَّ مَن لا يَخافُ الوعيدَ -لِكَونِه غيرَ مُصدِّقٍ بوُقوعِه- لا يَذَّكَّرُ؛ إذ لا تَنفَعُ فيه الذِّكرى، كما قال سُبحانَه: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[(٢)] [الذاريات: ٥٥].

- وما أنسَبَ هذا الاختِتامَ بالافتِتاحِ، حيثُ جاءَ أوَّلُ هذِه السُّورةِ وآخِرُها مُتناسِبَينِ ومُتقارِبَينِ في المعنَى، حيثُ قال في الأوَّلِ: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، وقال في آخِرِها: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾؛ فافتَتَحَ بما اختَتَمَ به[(٣)].

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الرَّابِعُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ الخامِسُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الذَّارياتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٩) و(٢٨/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٤٤).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سُورةُ الفَتْحِ

أسماءُ السُّورةِ ٧
فَضائلُ السُّورةِ وخَصائصُها ٧
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ ٨
مقاصِدُ السُّورةِ ٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٩
الآيات (١-٣) ١١
المعنى الإجماليُّ ١١
تَفسيرُ الآياتِ ١١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩
بلاغةُ الآياتِ ٢٢
الآيات (٤-٧) ٢٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٧
المعنى الإجماليُّ ٢٨
تَفسيرُ الآياتِ ٢٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٨
بَلاغةُ الآياتِ ٤٤
الآيات (٨-١٠) ٥١
غَريبُ الكَلِماتِ ٥١
المعنى الإجماليُّ ٥٢
تَفسيرُ الآياتِ ٥٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٠
بلاغةُ الآياتِ ٦٠
الآيات (١١-١٤) ٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٦
المعنى الإجماليُّ ٦٦
تَفسيرُ الآياتِ ٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٧٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٥
بلاغةُ الآياتِ ٧٦
الآيات (١٥-١٧) ٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٨٣
المعنى الإجماليُّ ٨٣
تَفسيرُ الآياتِ ٨٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٩٤

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٩٥
بلاغةُ الآياتِ ٩٧
الآيات (١٨-٢٣) ١٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ ١٠٣
المعنى الإجماليُّ ١٠٤
تَفسيرُ الآياتِ ١٠٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١١٧
بلاغةُ الآياتِ ١١٩
الآيات (٢٤-٢٦) ١٢٧
غَريبُ الكَلِماتِ ١٢٧
المعنى الإجماليُّ ١٢٨
تَفسيرُ الآياتِ ١٢٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٤٠
بلاغةُ الآياتِ ١٤٣
الآيتان (٢٧-٢٨) ١٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ ١٥٢
المعنى الإجماليُّ ١٥٢
تَفسيرُ الآيتَينِ ١٥٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٦٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٦٢
بلاغةُ الآيتَينِ ١٦٧
الآية (٢٩) ١٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ ١٧٢
المعنى الإجماليُّ ١٧٣
تَفسيرُ الآيةِ ١٧٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٨٥
بلاغةُ الآيةِ ١٨٩

سُورةُ الحُجُراتِ

أسماءُ السُّورةِ ١٩٥
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ١٩٥
مَقاصِدُ السُّورةِ ١٩٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ ١٩٦
الآيات (١-٥) ١٩٨
غَريبُ الكَلِماتِ ١٩٨
مُشكِلُ الإعرابِ ١٩٨
المعنى الإجماليُّ ١٩٩
تَفسيرُ الآياتِ ٢٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢١١
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢١٥

بلاغةُ الآياتِ ٢٢١
الآيات (٦-٨) ٢٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٢٣٣
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٣٣
المعنى الإجماليُّ..... ٢٣٤
تَفسيرُ الآياتِ..... ٢٣٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٤٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٢٤٤
بلاغةُ الآياتِ ٢٤٩
الآيتان (٩-١٠) ٢٥٨
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٢٥٨
المعنى الإجماليُّ..... ٢٥٨
تَفسيرُ الآيتَينِ..... ٢٥٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٦٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٢٦٩
بلاغةُ الآيتَينِ ٢٧٨
الآيات (١١-١٣) ٢٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٢٨٤
المعنى الإجماليُّ..... ٢٨٥
تَفسيرُ الآياتِ..... ٢٨٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٠٢
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٣٠٦
بلاغةُ الآياتِ ٣٢١
الآيات (١٤-١٨) ٣٣١
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٣٣١
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٣٢
المعنى الإجماليُّ..... ٣٣٢
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٣٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٤١
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٣٤٤
بلاغةُ الآياتِ ٣٤٩

سُورةُ ق

أسماءُ السُّورة ٣٦١
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها . ٣٦٢
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ..... ٣٦٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ٣٦٤
مَوضوعاتُ السُّورةِ..... ٣٦٤
الآيات (١-٥) ٣٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٦٥
المعنى الإجماليُّ..... ٣٦٥
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٦٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٧٤

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٧٥
بَلاغةُ الآياتِ ٣٧٦
الآيات (٦-١١) ٣٨٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٨٥
المعنى الإجماليُّ ٣٨٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٨٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٩٤
بَلاغةُ الآياتِ ٣٩٦
الآيات (١٢-١٥) ٤٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٠٦
المعنى الإجماليُّ ٤٠٧
تَفسيرُ الآياتِ ٤٠٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤١٢
بَلاغةُ الآياتِ ٤١٥
الآيات (١٦-٢٢) ٤٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٢٠
المعنى الإجماليُّ ٤٢٢
تَفسيرُ الآياتِ ٤٢٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٣٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٣٤
بلاغةُ الآياتِ ٤٣٧
الآيات (٢٣-٣٠) ٤٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٤٦
المعنى الإجماليُّ ٤٤٧
تَفسيرُ الآياتِ ٤٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٥٨
بَلاغةُ الآياتِ ٤٦٢
الآيات (٣١-٣٥) ٤٦٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٦٩
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٧٠
المعنى الإجماليُّ ٤٧١
تَفسيرُ الآياتِ ٤٧١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٧٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٧٩
بَلاغةُ الآياتِ ٤٨١
الآيات (٣٦-٤٠) ٤٨٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٨٦
المعنى الإجماليُّ ٤٨٧
تَفسيرُ الآياتِ ٤٨٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٠١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٥٠٥

بَلاغةُ الآياتِ ٥٠٩
الآيات (٤١-٤٥) ٥١٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٥١٧
المعنى الإجماليُّ ٥١٧
تَفسيرُ الآياتِ ٥١٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٥٢٥
بَلاغةُ الآياتِ ٥٢٦
الفهرس ٥٣١

تم الصف والإخراج في مؤسسة
الدُّرَر السَّنيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الذاريات وسورة الطور وسورة النجم

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بغزة

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الخامس والثلاثون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الذاريات وسورة الطور وسورة النجم)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الخامس والثلاثون - سورة الذاريات وسورة الطور وسورة النجم/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٥٩٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٦-٠١-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- سورة الذاريات - تفسير ٢- القرآن - سورة النجم - تفسير ٣- القرآن - سورة الطور - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/٣٨٤٦

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٣٨٤٦

ردمك: ٦-٠١-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الذاريات وسورة الطور و سورة النجم)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الخامس والثلاثون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ الذَّارِياتِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الذَّارِياتِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الذَّارِياتِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ:

سورةُ الذَّارِياتِ مَكِّيَّةٌ[٢]، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مَقاصدِ هذه السُّورةِ:

إقامةُ الأدِلَّةِ على أنَّ العِبادةَ لا تكونُ إلَّا لله تعالى وَحْدَه، وعلى أنَّ البَعثَ حَقٌّ[٤].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ المَوضوعاتِ الَّتي تناولَتْها هذه السُّورةُ:

١- افتُتِحَت هذه السُّورةُ بالقَسَمِ مِنَ اللهِ تعالى ببَعضِ مَخلوقاتِه على أنَّ البَعثَ والجزاءَ كِلاهما حَقٌّ.

---

(١) سُمِّيَت بالذَّارِياتِ؛ لِمُفتَتَحِها في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ [الذاريات: ١]، ووَجهُ التَّسميةِ أنَّ هذه الكَلِمةَ لم تقَعْ بهذه الصِّيغةِ في غَيرِها مِن سُوَرِ القُرآنِ الكريمِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٤).

(٣) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٥)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٧).

٢- إبطالُ مَزاعِمِ المُكَذِّبينَ، ووعيدُهم بعذابِ النَّارِ.

٣- بيانُ ما أعَدَّه اللهُ سُبحانَه لعبادِه المُتَّقينَ.

٤- ذِكرُ طَرَفٍ مِن قَصَصِ الأنبياءِ: إبراهيمَ، ولُوطٍ، وهُودٍ، وصالحٍ، ومُوسى، ونُوحٍ، عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٥- ذِكرُ ما يدُلُّ على كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وعلى سَعةِ رَحمتِه.

٦- تقريرُ أنَّ اللهَ ما خَلَقَ الجِنَّ والإنسَ إلَّا لعبادتِه.

٧- توعُّدُ المُشرِكينَ بأنْ يَنالَهم نَصيبٌ مِنَ العَذابِ مِثلُ نَصيبِ نُظَرائِهم مِنَ المكَذِّبينَ، ووَعيدُ الكافِرينَ مِن يَومِهم الَّذي يُوعَدونَ.

الآيات (١-٦)

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾: أي: الرِّياحِ التي تُفَرِّقُ التُّرابَ وهَشيمَ النَّبتِ، وأصلُ (ذرو): يدُلُّ على تَساقُطِ الشَّيءِ مُتفرِّقًا[١].

﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾: أي: السَّحابِ الَّذي يَحمِلُ ثِقلًا مِنَ الماءِ، وأصلُ (حمل): يدُلُّ على إقلالِ الشَّيءِ، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقلٍ في الشَّيءِ[٢].

﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾: أي: السُّفُنِ الَّتي تجري في الماءِ مُيَسَّرةً جَريًا سَهلًا، وأصلُ (جري): يدُلُّ على انسياحِ شَيءٍ[٣].

﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾: أي: الملائِكةِ الَّتي تُقَسِّمُ أمرَ اللهِ في خَلْقِه، وأصلُ (قسم): يدُلُّ على تجزئةِ شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٦) و (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) =

﴿ٱلدِّينَ﴾: أي: الجزاءَ بالأعمالِ والقِصاصَ، ومنه يُقالُ: دِنْتُه بما صنَعَ، وأصلُ (دين): جنسٌ مِن الانقيادِ والذُّلِّ[١].

﴿لَوَٰقِعٌ﴾: أي: لَكائنٌ لا مَحالةَ، وأصلُ (وقع): يدُلُّ على سقوطِ شَيءٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُقسِمُ الله تعالى بالرِّياحِ الَّتي تُفَرِّقُ التُّرابَ والنَّباتَ اليابِسَ وغيرَ ذلك، وبالسَّحابِ الَّذي يَحمِلُ ثِقلًا مِن الماءِ، وبالسُّفُنِ الَّتي تجري في البِحارِ بسُهولةٍ ويُسرٍ، وبالملائِكةِ الَّتي تُقَسِّمُ أمْرَ اللهِ تعالى في خَلْقِه؛ على أنَّ وَعْدَه تعالى وَعدٌ صادِقٌ لا كَذِبَ فيه، وأنَّ حِسابَه تعالى لعِبادِه واقِعٌ لا مَحالةَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالرِّياحِ الَّتي تُفَرِّقُ التُّرابَ أو المطَرَ، أو النَّباتَ اليابِسَ، أو غيرَ ذلك مِمَّا تُفَرِّقُه الرِّيحُ وتَنشُرُه[٣].

= للراغب (ص: ٧٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩، ٣٢٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٣، ١٣٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٥).

وقد نقل الزَّجَّاجُ وابنُ عطيَّةَ إجماعَ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالذَّارياتِ: الرِّياحُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧١).

كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ [الروم: ٤٨].

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢﴾.

أي: فالسَّحابِ الَّذي يَحمِلُ ثِقلًا مِن ماءٍ كثيرٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٥).

وممَّن قال بأنَّ الحامِلاتِ هي السَّحابُ: ابنُ جرير، وابن القيِّم، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

ونسَبَ الزَّجَّاجُ هذا القولَ إلى المفسِّرينَ جميعًا، ونسَبه السَّمْعانيُّ والشِّنقيطيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦١٤).

وقيل: هي صِفةٌ للرِّياحِ. وممَّن اختار هذا القَولَ: الرَّازيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٧، ٣٣٨).

وقال ابن عطيَّة: (و«الحامِلاتُ وِقرًا» قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه: هي السَّحابُ المُوقَرةُ بالماءِ. وقال ابنُ عبَّاسٍ وغَيرُه: هي السُّفُنُ المُوقَرةُ بالنَّاسِ وأمتاعِهم. وقال جماعةٌ مِنَ العُلَماءِ: هي أيضًا مع هذا جميعُ الحَيوانِ الحامِلِ. وفي جميعِ ذلك مُعتبَرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧١). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٤، ٤٣٥).

﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾.

أي: فالسُّفُنِ الَّتي تجري في البِحارِ بسُهولةٍ ويُسرٍ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٦).

وممَّن قال بأنَّ الجارياتِ هي السُّفُنُ: ابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، والبغوي، والزمخشري، والرَّسْعَني، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٦).

وذكر ابنُ كثيرٍ أنَّه القَولُ المشهورُ عن الجُمهورِ، ونسَبَه الشِّنقيطيُّ إلى أكثَرِ أهلِ العِلمِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦١٤).

قال الشنقيطي: (ويدُلُّ لهذا القولِ كثرةُ إطلاقِ الوصفِ بالجَري على السُّفنِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الشورى: ٣٢]، وقولِه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥]، وقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٢]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٣٥).

وقيل: المرادُ بالجارياتِ: الكواكِبُ والنُّجومُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

قال ابنُ تيميَّة: (... الأنسَبُ أن تكونَ هي الكواكِبَ المذكورةَ في قَولِه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦]، فسَمَّاها جَواريَ). ((الجواب الصحيح)) (٥/ ٢٠٨).

قيل: إنَّه أحسَنُ في التَّرتيبِ؛ ليكونَ ذلك ترقيًا مِن الأدنَى إلى الأعلَى، إلى ما هو أعلَى منه؛ فإنَّه بدَأ بالرِّياح، وفَوقَها السَّحابُ، وفَوقَه النُّجومُ، وفَوقَها الملائكةُ المقَسِّماتُ أمرَ اللهِ الَّذي أُمِرَت به بيْنَ خَلْقِه. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢].

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تُقَسِّمُ أمْرَ اللهِ تعالى في خَلْقِه بإذْنِه ووَفْقَ ما أمَرَها به، كالأرزاقِ[1].

= لابن القيم (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤).

وقيل: الجارياتُ هي الرِّياحُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السَّمعانيُّ، والرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦١).

وقيل: هي السَّحابُ والسُّفُنُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٤٦، ٤٤٧).

قال ابنُ عطيَّة: («الجارياتُ يُسرًا» قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ وغيرُه: هي السُّفُنُ في البَحرِ، وقال آخَرونَ: هي السَّحابُ بالرِّيحِ، وقال آخَرونَ: هي الجَواري مِنَ الكواكِبِ. واللَّفظُ يَقتضي جميعَ هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧١).

وقال القاسمي: (﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ أي: السُّفُنِ الجاريةِ في البَحرِ سَهلًا، أو الرِّياحِ الجاريةِ في مَهابِّها، أو الكواكِبِ الَّتي تجري في مَنازِلِها... واللَّفظُ مُتَّسِعٌ بجَوهرِه للكُلِّ. واللهُ أعلمُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٤).

وقال الألوسي: (إذا حُمِلَت هذه الصِّفاتُ على أمورٍ مُختَلِفةٍ مُتغايِرةٍ بالذَّاتِ كما في المُعَوَّلِ عليه، فالفاءُ للتَّرتيبِ في الأقسامِ ذِكرًا ورُتبةً، باعتِبارِ تَفاوُتِ مَراتِبِها في الدَّلالةِ على كَمالِ قُدرتِهِ عزَّ وجَلَّ، وهذا التَّفاوُتُ إمَّا على التَّرقِّي أو التَّنَزُّلِ؛ لِما في كُلٍّ منها مِن الصِّفاتِ الَّتي تجعَلُها أعلى مِن وَجهٍ وأدنى مِن آخَرَ إذا نَظَر لها ذو نظَرٍ صَحيحٍ. وقيل: التَّرتيبُ بالنَّظَرِ إلى الأقرَبِ فالأقرَبِ مِنَّا، وإن حُمِلَت على واحدٍ -وهو الرِّياحُ- فهي لترتيبِ الأفعالِ والصِّفاتِ؛ إذ الرِّيحُ تَذْرو الأبخِرةَ إلى الجَوِّ أوَّلًا حتَّى تنعَقِدَ سَحابًا، فتَحمِلُه ثانيًا، وتجري به ثالثًا ناشِرةً وسائِقةً له إلى حيثُ أمَرَها اللهُ تعالى، ثمَّ تُقَسِّمُ أمطارَه). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((أضواء البيان)) =

كما قال الله تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [الدخان: ٤، ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا * فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ٤، ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

وقال جَلَّ شأنُه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حَدَّثَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو الصَّادِقُ المَصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ

= للشنقيطي (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٦).

نقَل ابنُ تيميَّةَ اتِّفاقَ السَّلَفِ وغَيرِهم مِن عُلماءِ المسلمينَ على أنَّ المُقسِّماتِ أمرًا: هم الملائِكةُ. يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٤٧١).

قال ابن القيِّم: (ما يُشاهَدُ مِن تدبيرِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ وما لا يُشاهَدُ إنَّما هو على أيدي الملائكةِ؛ فالرَّبُّ تعالى يُدبِّرُ بهم أمرَ العالَمِ، وقد وكَّل بكُلِّ عَمَلٍ مِن الأعمالِ طائِفةً منهم؛ فوكَّل بالشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ والأفلاكِ طائِفةً منهم، ووكَّل بالقَطْرِ والسَّحابِ طائِفةً، ووكَّل بالنَّباتِ طائِفةً، ووكَّل بالأجِنَّةِ والحَيوانِ طائِفةً، ووكَّل بالموتِ طائفةً، وبحِفظِ بني آدَمَ طائِفةً، وبإحصاءِ أعمالِهم وكتابتِها طائفةً، وبالوَحيِ طائفةً، وبالجِبالِ طائفةً، وبكُلِّ شأنٍ مِن شُؤونِ العالَمِ طائفةً). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٨٤، ٢٨٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

وقيل: المُقَسِّماتُ: هي الرِّياحُ الَّتي تُفَرِّقُ الأمطارَ على الأقطارِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرَّازيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٧).

قال ابن عاشور: (مِنَ المفَسِّرينَ مَن جَعَل هذه الصِّفاتِ الأربَعَ وَصفًا للرِّياحِ، قاله في «الكشَّاف»، ونَقَل بَعضَه عن الحَسَنِ، واستحسَنه الفَخرُ، وهو الأنسَبُ؛ لعطفِ الصِّفاتِ بالفاءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦١).

وقال البِقاعي: (﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ﴾ أي: مِنَ السُّحُبِ بما تُصَرِّفُها فيه الملائكةُ عليهم السَّلامُ، وكذا السُّفُنُ بما يُصَرِّفُها اللهُ به مِن الرِّياحِ اللَّيِّنةِ أو العاصِفةِ مِن سلامةٍ وعَطَبٍ، وسُرعةٍ وإبطاءٍ، وكذا غيرُهما مِن كُلِّ أمرٍ تُصَرِّفُه الملائكةُ بيْنَ العبادِ وتُقَسِّمُه، ولَمَّا كان المحمولُ مُختلِفًا -كما تقدَّمَ- قال جامِعًا لذلك: ﴿أَمْرًا﴾ أي: مِن الرَّحمةِ أو العذابِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٤٧).

أُمِّه أربَعينَ يَومًا، ثمَّ يكونُ في ذلك عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ في ذلك مُضغةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يُرسَلُ الملَكُ فيَنفُخُ فيه الرُّوحَ، ويُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ: بكَتْبِ رِزْقِه، وأجَلِه، وعَمَلِه، وشَقيٌّ أو سعيدٌ))[١].

وعن حُذَيْفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إذا مَرَّ بالنُّطفةِ ثِنتانِ وأربعونَ لَيلةً بَعَث اللهُ إليها مَلَكًا، فصَوَّرها، وخَلَق سَمْعَها وبَصَرَها، وجِلْدَها ولَحْمَها وعِظامَها، ثمَّ قال: يا رَبِّ، أذَكَرٌ أم أُنثى؟ فيَقضي ربُّك ما شاء، ويَكتُبُ الملَكُ، ثمَّ يقولُ: يا رَبِّ، أجَلُه؟ فيقولُ رَبُّك ما شاء، ويَكتُبُ المَلَكُ، ثمَّ يقولُ: يا رَبِّ، رِزقُه؟ فيَقضي رَبُّك ما شاء، ويَكتُبُ المَلَكُ، ثمَّ يَخرُجُ المَلَكُ بالصَّحيفةِ في يَدِه، فلا يَزيدُ على ما أُمِرَ ولا يَنقُصُ))[٢].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قِصَّةِ ذَهابِه إلى الطَّائِفِ: ((قال جِبريلُ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد سَمِعَ قَولَ قَومِك لك، وما رَدُّوا عليك، وقد بَعَث إليك مَلَكَ الجِبالِ؛ لِتَأمُرَه بما شِئتَ فيهم، فناداني مَلَكُ الجِبالِ وسلَّمَ عليَّ، ثمَّ قال: يا محمَّدُ، إنَّ اللهَ قد سَمِعَ قَولَ قَومِك لك، وأنا ملَكُ الجِبالِ، وقد بَعثَني ربُّك إليك؛ لِتَأمُرَني بأمْرِك))[٣].

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾.

أي: إنَّ الَّذي يَعِدُكم اللهُ به -أيُّها النَّاسُ- وَعدٌ صادِقٌ لا كَذِبَ فيه مُطلَقًا[٤].

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٢٠٨)، ومسلمٌ (٢٦٤٣) واللَّفظُ له.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧].

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أجَلُ وَعيدِهم وما يَتعَلَّقُ بالجَزاءِ: يومَ القيامةِ، وكانوا يُنكِرونَه؛ قال[1]:

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ٦﴾.

أي: وإنَّ حِسابَ اللهِ لِعبادِه ومُجازاتَهم لَشَيءٌ كائِنٌ وواقِعٌ لا مَحالةَ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قيل: في جميعِ السُّوَرِ الَّتي أقسَمَ اللهُ في ابتِدائِها بغيرِ الحُروفِ المُقطَّعةِ، كان القَسَمُ لإثباتِ أحَدِ الأُصولِ الثَّلاثةِ، وهي: الوَحدانيَّةُ، والرِّسالةُ، والحَشرُ[3].

= سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٦، ١١٧).

قال ابنُ القيِّم في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا﴾: (يجوزُ أن تكونَ «ما» مَوصولةً، والعائِدُ مَحذوفٌ، والمعنى: الَّذي تُوعَدونَه لَصادِقٌ، أي: كائِنٌ وثابِتٌ، وأن تكونَ مَصدريَّةً، أي: إنَّ وَعْدَكم لَحَقٌّ وصِدقٌ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٨٥).

وقال ابنُ عطيَّة: (﴿تُوعَدُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِنَ الإيعادِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ مِنَ الوَعدِ، وأيَّها كان فالوَصفُ له بالصِّدقِ صَحيحٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٩، ٣٤٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٠)، ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ١٧٥).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۞ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۞ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۞ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ أقسَمَ سُبحانَه بهذه الأُمورِ الأربَعةِ؛ لِمَكانِ العِبرةِ والآيةِ، والدَّلالةِ الباهِرةِ على رُبوبيَّتِه ووَحدانيَّتِه وعِظَمِ قُدرتِه؛ ففي الرِّياحِ مِن العِبَرِ: هُبوبُها وسُكونُها، ولِينُها وشِدَّتُها، واختِلافُ طبائعِها وصِفاتِها ومَهابِّها، وتَصريفُها، وتنَوُّعُ مَنافِعِها، وشِدَّةُ الحاجةِ إليها. فلِلمَطَرِ خَمسةُ رِياحٍ: ريحٌ يَنشُرُ سَحابَه، وريحٌ يُؤَلِّفُ بَيْنَه، وريحٌ تُلَقِّحُه، وريحٌ تَسوقُه حيثُ يُريدُ اللهُ، وريحٌ تَذْرُو ماءَه وتُفَرِّقُه، وللنَّباتِ ريحٌ، وللسُّفُنِ ريحٌ، وللرَّحمةِ ريحٌ، وللعَذابِ ريحٌ، إلى غَيرِ ذلك مِن أنواعِ الرِّياحِ، وذلك يَقضِي بوجودِ خالِقٍ مُصَرِّفٍ لها، مُدَبِّرٍ لها يُصَرِّفُها كيف يَشاءُ، ويَجعَلُها رُخاءً تارَةً، وعاصِفةً تارةً، ورحمةً تارةً، وعذابًا تارةً؛ فتارةً يُحيي بها الزَّرعَ والثِّمارَ، وتارةً يَقطَعُها بها، وتارةً يُنَجِّي بها السُّفُنَ، وتارةً يُهلِكُها بها، وتارةً تُرَطِّبُ الأبدانَ، وتارةً تُذيبُها، وتارةً عَقيمًا، وتارةً لاقِحةً، وتارةً جَنوبًا، وتارةً دَبورًا، وتارةً صَبًا، وتارةً شَمالًا، وتارَةً حارَّةً، وتارةً بارِدةً، وهي مع غايةِ قُوَّتِها ألطَفُ شَيءٍ، وأقبَلُ المخلوقاتِ لكُلِّ كَيفيَّةٍ، سَريعةُ التَّأثُّرِ والتَّأثيرِ، لطيفةُ المسارِبِ بيْنَ السَّماءِ والأرضِ، إذا قُطِعَ عن الحَيوانِ الَّذي على وَجهِ الأرضِ هَلَك كبَحرِ الماءِ الَّذي إذا فارَقَه حيوانُ الماءِ هَلَك، يَحبِسُها اللهُ سُبحانَه إذا شاء، ويُرسِلُها إذا شاء، تَحمِلُ الأصواتَ إلى الآذانِ، والرَّائِحةَ إلى الأنفِ، والسَّحابَ إلى الأرضِ الجُرُزِ، وهي مِن رَوحِ اللهِ تأتي بالرَّحمةِ، ومِن عُقوبتِه تأتي بالعَذابِ، وهي أقوى خَلْقِ اللهِ. والمقصودُ أنَّ الرِّياحَ مِن أعظَمِ آياتِ الرَّبِّ الدَّالَّةِ على عَظَمتِه ورُبوبيَّتِه وقُدرتِه[1].

٣- سَلِ الجارياتِ يُسْرًا مِنَ السُّفُنِ مَن أمسَكَها على وجهِ الماءِ، وسَخَّر لها

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٩-٢٨١).

البَحرَ؟ ومَن أرسَل لها الرِّياحَ الَّتي تَسوقُها على الماءِ سَوْقَ السَّحابِ على مُتونِ الرِّياحِ؟ ومَن حَفِظَها في مَجْراها ومُرْساها مِن طُغيانِ الماءِ وطُغيانِ الرِّيحِ؟ فمَنِ الَّذي جعَل الرِّيحَ لها بقَدْرٍ لو زاد عليها لأغرَقَها، ولو نَقَص عنه لَعاقَها؟ ومَن الَّذي عَلَّم الخَلقَ الضَّعيفَ صَنعةَ هذا البَيتِ العَظيمِ الَّذي يمشي على الماءِ، فيَقطَعُ المسافةَ البعيدةَ ويعودُ إلى بَلَدِه يَشُقُّ الماءَ ويَمخَرُه مُقبِلًا ومُدبِرًا بريحٍ واحِدةٍ تجري في مَوجٍ كالجبالِ؟

وسَلِ الجارياتِ يُسْرًا مِنَ الكواكِبِ والشَّمسِ والقَمَرِ مَنِ الَّذي خَلَقَها وأحسَنَ خَلْقَها، ورَفَع مَكانَها، وزَيَّن بها قُبَّةَ العالَمِ، وفاوَتَ بيْنَ أشكالِها ومَقاديرِها وألوانِها وحَرَكاتِها وأماكِنِها مِن السَّماءِ؟ وأنت إذا تأمَّلْتَ أحوالَ هذه الكواكِبِ وَجَدْتَها تَدُلُّ على المَعادِ كما تدُلُّ على المبدَأِ، وتدُلُّ على وُجودِ الخالِقِ وصِفاتِ كَمالِه ورُبوبيَّتِه وحِكمتِه ووَحدانيَّتِه أعظَمَ دَلالةٍ، وكُلُّ ما دَلَّ على صِفاتِ جَلالِه ونُعوتِ كَمالِه دَلَّ على صِدقِ رُسُلِه، فكما جَعَل اللهُ النُّجومَ هدايةً في طريقِ البَرِّ والبَحرِ فهي هدايةٌ في طُرُقِ العِلمِ بالخالِقِ سُبحانَه وقُدرتِه، وعِلْمِه وحِكْمَتِه، والمبدأِ والمَعادِ والنُّبُوَّةِ. ودَلالتُها على هذه المطالِبِ لا تَقصُرُ عن دَلالتِها على طُرُقِ البَرِّ والبَحرِ، بل دَلالتُها للعُقولِ على ذلك أظهَرُ مِن دَلالتِها على الطُّرُقِ الحِسِّيَّةِ، فهي هدايةٌ في هذا وهذا[1]. وذلك على أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾: الكواكِبُ.

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ أقسَمَ بالسَّحابِ وهو مِن أعظَمِ آياتِ اللهِ في الجَوِّ في غايةِ الخِفَّةِ، ثمَّ يَحمِلُ الماءَ والبَرَدَ، فيَصيرُ أثقَلَ شَيءٍ، فيأمُرُ الرِّياحَ فتَحمِلُه على مُتونِها وتسيرُ به حيث أُمِرَت، فهو مُسَخَّرٌ بيْنَ السَّماءِ والأرضِ، حامِلٌ لأرزاقِ العِبادِ والحيوانِ، فإذا أفرَغَه حيثُ أُمِرَ به اضمَحَلَّ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٢-٢٨٤).

وتلاشى بقُدرةِ اللهِ؛ فإنَّه لو بَقِيَ لأضَرَّ النَّباتَ والحيوانَ، فأنشَأَه سُبحانَه في زَمنٍ يَصلُحُ إنشاؤُه فيه، وحَمَّلَه مِنَ الماءِ ما يَحمِلُه، وساقَه إلى بلَدٍ شَديدِ الحاجةِ إليه. فَسَلِ السَّحابَ مَن أنشَأَه بَعدَ عَدَمِه؟ وحمَّله الماءَ والثَّلجَ والبَرَدَ؟ ومَن حمَلَه على ظُهورِ الرِّياحِ؟ ومَن أمسَكَه بيْنَ السَّماءِ والأرضِ بغيرِ عِمادٍ؟ ومَن أغاث بقَطْرِه العِبادَ، وأحيا به البِلادَ، وصَرَّفه بيْن خَلْقِه كما أراد؟ وأخرَجَ ذلك القَطْرَ بقَدَرٍ مَعلومٍ، وأنزَلَه منه وأفناه بعدَ الاستِغناءِ عنه، ولو شاء لأدامَه عليهم فلم يَستطيعوا إلى دَفْعِه سَبيلًا، ولو شاء لأمسَكَه عنهم فلا يَجِدونَ إليه وُصولًا؟ فإنْ لم يُجِبْك جَوابًا حِوارًا، أجابك اعتِبارًا. وسَلِ الرِّياحَ مَن أنشأَها بقُدرتِه، وصَرَّفَها بحِكْمَتِه، وسَخَّرَها بمَشيئتِه، وأرسَلَها بُشْرًا بيْنَ يَدَي رَحمتِه، جعَلَها سَببًا لتَمامِ نِعمتِه، وسُلطانًا على مَن شاء بعُقوبتِه؟ ومَن جَعَلَها رُخاءً وذاريةً ولاقِحةً ومُثيرةً ومُؤَلِّفةً، ومُغَذِّيةً لأبدانِ الحَيوانِ والشَّجَرِ والنَّباتِ، وجعَلَها قاصِفًا وعاصِفًا ومُهلِكةً وعاتيةً، إلى غيرِ ذلك مِن صِفاتِها؟ فهل ذلك لها مِن نَفْسِها وذاتِها، أم تَدبيرُ مُدَبِّرٍ شَهِدَت الموجوداتُ برُبوبيَّتِه، وأقرَّت المصنوعاتُ بوَحدانيَّتِه، بيَدِه النَّفعُ والضُّرُّ، وله الخَلقُ والأمرُ. تبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ[(١)].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۞ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۞ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ الارتباطُ بيْنَ هذه الثَّلاثةِ: أنَّ الرِّياحَ تُثيرُ السَّحابَ، وتُلقِّحُ السَّحابَ بالماءِ، وأنَّ السُّحُبَ تَحمِلُ الأمطارَ، فتَنزِلُ إلى الأرضِ، فيَكونُ الرِّزقُ للمَواشي والآدميِّينَ، والجارياتُ -أي: السُّفُنُ- هي أيضًا تَحمِلُ الأرزاقَ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ، فلا يُمكِنُ أن تَصِلَ الأرزاقُ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ أُخرى بَيْنَها وبيْنَها بَحرٌ إلَّا عن طريقِ السُّفُنِ[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۞ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۞ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۞ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨١، ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٦).

أَمْرًا﴾ هذه الأقسامُ جاز أن يُقسِمَ اللهُ تعالى بها، ولا يجوزُ أن يُقسِمَ الخَلقُ إلَّا باللهِ؛ لأنَّ قَسَمَ الخَلقِ استِشهادٌ على صِحَّةِ قَولِهم بمَن يَعلَمُ السِّرَّ والعَلانيةَ، وليس ذلك إلَّا اللهَ؛ وقَسَمَ الخالِقِ إرادةٌ لتأكيدِ الخَبرِ في نُفوسِهم ممَّا جرت به العادةُ بيْنَهم؛ فيُقسِمُ ببَعضِ خَلْقِه على وَجهٍ يُوجِبُ الاعتِبارَ، وإحضارَ القَلبِ عندَ التَّنبيهِ على عجائِبِ الفِطرةِ، وبدائِعِ القُدرةِ[1]. وقَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ جوابُ القَسَمِ، كأنَّه استدَلَّ باقتِدارِه على هذه الأشياءِ العَجيبةِ المُخالِفةِ لِمُقتَضى الطَّبيعةِ، على اقتِدارِه على البَعثِ؛ للجَزاءِ المَوعودِ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا * فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا * فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا * فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ هذه الأشياءُ كُلُّها دليلٌ على قُدرةِ اللهِ تعالى على الإعادةِ، فإنْ قيلَ: فلِمَ أخرَجَها مُخرَجَ الأيْمانِ؟

الجوابُ: لأنَّ المتكَلِّمَ إذا شَرَع في أوَّلِ كَلامِه يَحلِفُ، يَعلَمُ السَّامِعُ أنَّه يريدُ أن يتكَلَّمَ بكلامٍ عَظيمٍ؛ فإنَّه يُصغي إليه أكثَرَ مِن أن يُصغِيَ إليه حيثُ يَعلَمُ أنَّ الكلامَ ليس بمُعتَبَرٍ؛ فبدأ بالحَلِفِ، وأدرَجَ الدَّليلَ في صُورةِ اليَمينِ، حتَّى أقبَلَ القَومُ على سَماعِه؛ فخَرَج لهم البُرهانُ المُبينُ والتِّبيانُ المَتينُ في صُورةِ اليَمينِ[3].

٨- الملائكةُ هم رُسُلُ اللهِ في تدبيرِ العالَمِ[4]، فكلُّ حَركةٍ في السَّمَواتِ والأرضِ مِن حَرَكاتِ الأفلاكِ والنُّجومِ، والشَّمسِ والقَمَرِ، والرِّياحِ والسَّحابِ، والنَّباتِ والحَيوانِ: فهي ناشِئةٌ عنِ الملائِكةِ الموكَّلِينَ بالسَّمَواتِ والأرضِ، كما

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٩).

(٤) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٢٥).

قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وقال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾[١].

بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۞ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۞ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۞ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۞ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۞ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۞ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۞ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۞ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ فيه افتِتاحُ هذه السُّورةِ بالقَسَمِ، والقَسَمُ المُفتتَحُ به مُرادٌ منه تَحقيقُ المُقسَمِ عليه، وتأكيدُ وُقوعِه، وقد أقسَمَ اللهُ بعَظيمٍ مِن مَخلوقاتِه، وهو في المَعنى قسَمٌ بقُدْرتِه وحِكمتِه، ومُتضمِّنٌ تَشريفَ تلك المَخلوقاتِ بما في أحوالِها مِن نِعَمٍ ودَلالةٍ على الهُدَى والصَّلاحِ، وفي ضِمنِ ذلك تَذْكيرٌ بنِعمةِ اللهِ فيما أوجَدَ فيها. والمُقسَمُ بها الصِّفاتُ تَقتضي مَوصوفاتِها، فآلَ إلى القسَمِ بالمَوصوفاتِ مِن أجْلِ تلك الصِّفاتِ العظيمةِ، وفي ذلك إيجازٌ دَقيقٌ، على أنَّ في طَيِّ ذِكرِ المَوصوفاتِ تَوفيرًا لِما تُؤذِنُ به الصِّفاتُ مِن مَوصوفاتٍ صالحةٍ بها؛ لِتَذهَبَ أفهامُ السَّامِعينَ في تَقديرِها كلَّ مَذهبٍ مُمكنٍ[٢].

- وفي تَخصيصِ الأُمورِ المذْكورةِ بالإقسامِ بها رمْزٌ إلى شَهادتِها بتَحقُّقِ مَضمونِ الجُملةِ المُقسَمِ عليها، منْ حيثُ إنَّها أُمورٌ بَديعةٌ مُخالِفةٌ لمُقتضَى الطَّبيعةِ، فمَنْ قدَرَ عليها فهُو قادرٌ على البَعثِ المَوعودِ[٣].

- والمُناسَبةُ بيْن المُقسَمِ به والمُقسَمِ عليه: أنَّ أحوالَ الرِّياحِ المذكورةَ هنا -على قولٍ في التَّفسيرِ- مَبْدَؤُها: نفْخٌ، فتَكوينٌ، فإحياءٌ، وكذلك البَعثُ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٦).

مَبْدَؤُه: نفْخٌ في الصُّورِ، فالْتِئامُ أجسادِ النَّاسِ الَّتي كانت مَعدومةً أو مُتفرِّقةً، فبَثُّ الأرْواحِ فيها فإذا هم قِيامٌ يَنظُرون، وقد يكونُ قولُه تعالى: ﴿أَمْرًا﴾ إشارةً إلى ما يُقابِلُه في المثالِ مِن أسبابِ الحياةِ، وهو الرُّوحُ؛ لقولِه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1] [الإسراء: ٨٥].

- وإنْ حُمِلَت الأوصافُ ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا * فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا * فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا * فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ على ذَواتٍ مُختلِفةٍ؛ فالفاءُ لتَرتيبِ الإقسامِ بها باعتِبارِ ما بيْنَها مِن التَّفاوُتِ في الدَّلالةِ على كَمالِ القدْرةِ، أو يُرادُ بالكلِّ الرِّياحُ؛ تَنزيلًا لاختِلافِ الصِّفةِ مَنزِلةَ اختِلافِ الذَّاتِ؛ فالفاءُ لتَرتيبِ الأفعالِ؛ إذ الرِّيحُ -مثلًا- تَذْرو الأبخِرةَ إلى الجوِّ حتَّى تَنعقِدَ سَحابًا، فتَحمِلُه فتَجْري به باسِطةً له إلى حيث أُمِرَت به، فتَقسِمُ المطَرَ[2].

- ونُصِبَ ﴿ذَرْوًا﴾ على المفعولِ المطلَقِ؛ لإرادةِ تَفخيمِه بالتَّنوينِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مَصدرًا بمَعنى المفعولِ، أي: المَذْرُوَّ، ويكونَ نصْبُه على المَفعولِ به[3].

- قولُه: (الْحَامِلَاتِ وِقْرًا) على القولِ بأنَّ المرادَ الرِّياحُ حينَ تَجمَعُ السَّحابَ وقد ثقُلَ بالماءِ؛ شُبِّهَ جمْعُها إيَّاه بالحِمْلِ؛ لأنَّ شأْنَ الشَّيءِ الثَّقيلِ أنْ يَحمِلَه الحامِلُ[4].

- قولُه: ﴿يُسْرًا﴾، أي: جَرْيًا ذا يُسْرٍ، أي: سُهولةٍ، فـ﴿يُسْرًا﴾ مَصدرٌ وُصِفَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

به على تَقديرِ مَحذوفٍ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ الصَّادقُ وصْفٌ للواعِدِ، لا لِما يُوعَدُ؛ فوصَفَ ما يُوعَدُ به بالصِّدقِ مُبالَغةً، والمَعْنَى: (لَصِدْقٌ)؛ فوَضَعَ الاسمَ مكانَ المَصْدَرِ. أو هو بمَعنى مَصدوقٍ، كـ ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، و﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾[٢] [الطارق: ٦]. وقيل: لَمَّا كان ما تُوُعِّدوا به -لتحَقُّقِ وُقوعِه وقُربِه- كأنَّه موجودٌ يُخاطِبُهم عن نَفْسِه، عَبَّرَ عن المصدَرِ باسمِ الفاعِلِ؛ فقال: ﴿لَصَادِقٌ﴾ أي: مُطابِقٌ الإخبارُ به للواقِعِ[٣].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ الدِّين: الجزاءُ، ومعنَى ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ واقعٌ في المُستقبَلِ، بقرينةِ جعْلِه مُرتَّبًا في الذِّكرِ على ما يُوعَدونَ، وإنَّما يكونُ حُصولُ الموعودِ به في الزَّمنِ المستقبَلِ، وفي ذِكرِ الجزاءِ -زِيادةً على الكِنايةِ به عن إثباتِ البعثِ- تَعريضٌ بالوعيدِ على إنْكارِ البعثِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٣، ٥٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٠).

قال ابن القيِّم: (وَصفُ الوَعدِ بكَونِه صادِقًا أبلَغُ مِن وَصفِه بكَونِه صِدقًا، ولا حاجةَ إلى تَكَلُّفِ جَعلِه بمعنى «مَصدوقٍ فيه»، بل هو صادِقٌ نَفْسُه، كما يُوصَفُ المتكلِّمُ بأنَّه صادِقٌ في كَلامِه، فيُوصَفُ كلامُه بأنَّه صادِقٌ، وهذا مِثْلُ قَولِهم: سِرٌّ كاتِمٌ، وليلٌ قاتِمٌ، ونهارٌ صائِمٌ، وماءٌ دافِقٌ، ومنه: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، وليس ذلك بمَجازٍ ولا مُخالِفٍ لِمُقتضى التَّركيبِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٠).

الآيات (٧-١٤)

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْحُبُكِ﴾: أي: الطَّرائِقِ الحَسَنةِ المُحْكَمةِ البِناءِ، وأصلُ (حبك): يدُلُّ على إحكامِ شَيءٍ في امتدادٍ واطِّرادٍ[١].

﴿يُؤْفَكُ﴾: أي: يُصرَفُ، والإفكُ: كُلُّ ما صُرِفَ عن وَجهِه الَّذي يحِقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ شَيءٍ، وصَرفِه عن جِهتِه[٢].

﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾: أي: الكَذَّابونَ، وأصلُ الخَرْصِ: التَّظَنِّي فيما لا يَستيقِنُه، يُقالُ: خرَصْتُ النَّخلَ، إذا حزَرْتَ ثمرَه، وكلُّ قولٍ مقولٍ عن ظنٍّ وتخمينٍ يقالُ: خَرْصٌ، سواءٌ كان مطابقًا للشيءِ أو مخالفًا له، وقيلَ للكَذِبِ: خَرصٌ؛ لِما يَدخُلُه مِن الظُّنونِ الكاذِبةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٠).

﴿غَمْرَةٍ﴾: أي: غَفلةٍ وعَمًى وجَهالةٍ، وأصلُ (غمر): يدُلُّ على تَغطيةٍ وسَترٍ[١].

﴿سَاهُونَ﴾: أي: لاهُونَ غافِلونَ، والسَّهوُ: الغَفلةُ عن الشَّيءِ، وذَهابُ القَلبِ عنه، وأصلُ (سهو): يدُلُّ على غَفلةٍ[٢].

﴿أَيَّانَ﴾: أي: متى، وهو عِبارةٌ عن وَقتِ الشَّيءِ. وقيل: أصلُ (أيَّانَ): أيُّ أوانٍ، فخَفَّفوا (الياءَ) مِن (أيٍّ)، وترَكوا همزةَ (أوان)، فالتَقَتْ ياءٌ سَاكِنةٌ بَعْدَها واوٌ، فأُدغِمَت (الواوُ) فِي (الياءِ)؛ فصارَ (أيَّانَ)[٣].

﴿يُفْتَنُونَ﴾: أي: يُعَذَّبون ويُحرَقون، وأصلُ الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه، واستُعمِلَ في إدخالِ الإنسانِ النَّارَ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يُقسِمُ تعالى قَسَمًا آخَرَ بالسَّماءِ ذاتِ الخَلْقِ الحَسَنِ المُتقَنِ المُحكَمِ البِناءِ على أنَّ المُشرِكينَ لَفي أقوالٍ مُختَلِفةٍ مُتناقِضةٍ، كوَصفِهم القُرآنَ بأنَّه سِحرٌ وشِعرٌ وأساطيرُ الأوَّلينَ، ووَصْفِهم النَّبيَّ بأنَّه ساحِرٌ ومَجنونٌ وشاعِرٌ!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٠)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ١٢٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩).

يُصرَفُ عن الإيمانِ بسَببِ هذا القولِ المختلِفِ مَن صُرِفَ وحُرِمَ منه؛ بسَبَبِ تلك الأقوالِ المُختَلِفةِ الكاذِبةِ الَّتي يَفتَرونَها لِرَدِّ الحَقِّ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى سوءَ عاقِبةِ المكذِّبينَ، فيقولُ: لُعِنَ أولئك الكذَّابونَ الَّذين يَقولونَ الباطِلَ، والَّذين هم في غَفلةٍ وعَمًى وجَهالةٍ عن الحَقِّ.

ثمَّ يبيِّنُ ما كانوا عليه مِن سوءِ أدبٍ، فيقولُ: يَسألُ أولئك المُكَذِّبونَ بالبَعثِ استِهزاءً: متى يَقَعُ هذا اليَومُ الَّذي نُحاسَبُ فيه؟!

ويرُدُّ الله تعالى عليهم مبيِّنًا سوءَ مصيرِهم، فيقولُ: يَقَعُ الجزاءُ عليهم يومَ يُعرَضونَ على النَّارِ، فيُحرَقونَ بها ويُعَذَّبونَ، ويُقالُ لهم: ذُوقُوا حَريقَكم وعَذابَكم؛ جزاءَ كُفرِكم وتَكذيبِكم، هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَطلُبونَ تَعجيلَه في الدُّنيا؛ استِهزاءً به!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ٧﴾.

أي: أُقسِمُ بالسَّماءِ ذاتِ الخَلْقِ الحَسَنِ المُتقَنِ المُحكَمِ البِناءِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤، ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٠، ٣٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٧).

قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ فيه للعُلَماءِ أقوالٌ مُتقارِبةٌ لا يُكَذِّبُ بَعضُها بعضًا؛ فذَهَب بَعضُ أهلِ العِلمِ إلى أنَّ الحُبُكَ جَمعُ حَبيكةٍ أو حِباكٍ، وعليه فالمعنى: ﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ أي: ذاتِ الطَّرائِقِ، فما يَبدو على سطحِ الماءِ السَّاكنِ أو الرَّملِ مِن الطَّرائقِ إذا ضرَبَتْه الرِّيحُ هو الحُبُكُ، وهو جمعُ حَبيكةٍ أو حِباكٍ، قالوا: ولِبُعْدِ السَّماءِ لا تُرى طرائقُها المُعَبَّرُ عنها بالحُبُكِ... وقال بعضُ أهلِ العِلمِ: ﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ أي: ذاتِ الخَلْقِ الحسَنِ المُحكَمِ، وممَّن قال به: ابنُ عَبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ... وقال بعضُ العُلَماءِ: ﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾: أي: الزِّينةِ... وقال بعضُ =

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾.

أي: إنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- لَفي أقوالٍ مُختَلِفةٍ مُتناقِضةٍ مُضطَرِبةٍ في شَأنِ تَكذيبِكم بالحَقِّ، كوَصفِكم القُرآنَ بأنَّه سِحرٌ وشِعرٌ وأساطيرُ الأوَّلينَ، أو وَصْفِكم النَّبيَّ بأنَّه ساحِرٌ ومَجنونٌ وشاعِرٌ(١)!

كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥].

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾.

أي: يُصرَفُ عن الإيمانِ بسببِ هذا القولِ المُختلِفِ مَن سبَق في عِلمِ الله أنَّه مصروفٌ(٢).

= العُلَماءِ: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ أي: ذاتِ الشِّدَّةِ... والآيةُ تَشمَلُ الجَميعَ، فكُلُّ الأقوالِ حَقٌّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٣٧). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٢).

ونَسَب الواحديُّ القولَ بأنَّها ذاتُ الخَلْقِ الحَسَنِ المُستَوي إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٤).

وقال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذَكَر الأقوالَ في معنى الحُبُكِ: (وكُلُّ هذه الأقوالِ تَرجِعُ إلى شَيءٍ واحِدٍ، وهو الحُسْنُ والبهاءُ، كما قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما؛ فإنَّها مِن حُسْنِها مُرتَفِعةٌ شَفَّافةٌ صَفيقةٌ شديدةُ البناءِ، مُتَّسِعةُ الأرجاءِ، أنيقةُ البَهاءِ، مُكَلَّلةٌ بالنُّجومِ الثَّوابِتِ والسَّيَّاراتِ، مُوشَّحةٌ بالشَّمسِ والقَمَرِ والكواكِبِ الزَّاهِراتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤١، ٣٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٢، ٣٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٨، ٤٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٨).

قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أظهَرُ الأقوالِ فيه عندي، ولا يَنبغي العُدولُ عنه في نَظَري: أنَّ لفظةَ «عن» في الآيةِ سَبَبِيَّةٌ، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ * كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣، ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ * مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ - ١٦٣].

﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠﴾.

أي: لُعِنَ أولئك الكذَّابونَ الَّذين يَقولونَ الباطِلَ في الدِّينِ، ظنًّا منهم بلا يَقينٍ[1]!

= [هود: ٥٣]، أي: بسَبَبِ قَولِك، ومِن أَجْلِه، والضَّميرُ المجرورُ بـ «عن» راجِعٌ إلى القَولِ المُختَلِفِ، والمعنى: ﴿يُؤۡفَكُ﴾ أي: يُصرَفُ عن الإيمانِ باللهِ ورَسولِه. ﴿عَنۡهُ﴾ أي: عن ذلك القَولِ المُختَلِفِ، أي: بَسَبِبِه. ﴿مَنۡ أُفِكَ﴾ أي: مَن سَبَقَت له الشَّقاوةُ في الأَزَلِ، فحُرِمَ الهُدى وأُفِكَ عنه؛ لأنَّ هذا القَولَ المُختَلِفَ يُكَذِّبُ بَعضُه بعضًا ويُناقِضُه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٣٨).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿عَنۡهُ﴾ قيل: إنَّ الضَّميرَ يعودُ على الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أي: يُصرَفُ عن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَن صُرِفَ مِنَ النَّاسِ. وقيل: إنَّ الضَّميرَ يعودُ على القَولِ، وعلى هذا القَولِ: تكونُ «عن» بمعنى الباءِ -أي: في إفادَتِها السَّببيَّةَ-، أي: يُؤفَكُ بهذا القَولِ مَن أُفِكَ، يُصْرَفُ بهذا القَولِ عن الحَقِّ مَن صُرِفَ، وهما -أي: المَعنَيانِ- مُتلازِمانِ، والأقرَبُ أنَّ الضَّميرَ في قَولِه ﴿عَنۡهُ﴾ يعودُ على القَولِ؛ لأنَّه أقرَبُ مَذكورٍ، ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ﴾ أي: عن هذا القَولِ، أي: بسَبَبِه ﴿مَنۡ أُفِكَ﴾ أي: مَن صُرِفَ عن الحَقِّ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٨). ويُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٣)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٣، ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢١).
قال السَّمْعاني: (وقولُه: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ أي: لُعِن الكذَّابون، وهذا هو المُتَّفَقُ عليه مِن أهلِ التَّفسير. وعن بعضِهم: أنَّه لا يُعرَفُ «قُتِل» بمعنى «لُعِن» في اللُّغة، ومعناه: أنَّ الخرَّاصينَ قد =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾.

أي: الَّذين هم في الباطِلِ غارِقونَ، وعن الحَقِّ غافِلونَ، وعن الآخِرةِ لاهُونَ[1].

= أتَوا بما يَستَحِقُّونَ [به] القتلَ، ولَعنةُ الله إيَّاهم إهلاكٌ لهم، فهو قتلهم). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٢).

وممَّن قال إنَّ معنى «قُتِل»: «لُعِن» مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: ٦١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٢)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٣).

قال الواحدي: (قالوا جميعًا: لُعِنَ الكَذَّابون. قال ابنُ الأَنْباري: والقَتلُ إذا أُخبِرَ عن اللهِ به كان بمعنى اللَّعنةِ؛ لأنَّ مَن لعَنَه الله كان بمنزلةِ المقتولِ الهالكِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٧٤). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٢).

وقال القرطبي: (معنى ﴿قُتِلَ﴾ أي: هؤلاء ممَّن يجِبُ أن يُدعَى عليهم بالقَتلِ على أيدي المؤمِنينَ. وقال الفَرَّاءُ: معنى ﴿قُتِلَ﴾ لُعِنَ، قال: و﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ الكذَّابون الَّذين يتخَرَّصون بما لا يَعلَمونَ، فيقولونَ: إنَّ مُحمَّدًا مجنونٌ كَذَّابٌ ساحِرٌ شاعِرٌ! وهذا دُعاءٌ عليهم؛ لأنَّ مَن لَعَنه اللهُ فهو بمنزلةِ المقتولِ الهالِكِ. قال ابنُ الأنباري: علَّمَنا الدُّعاءَ عليهم، أي: قولوا: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٨٣).

وقال ابن عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ دعاءٌ عليهم، كما تقولُ: قاتَلَك اللهُ، وقتَلَك اللهُ، وعَقْرَى حَلْقَى، ونحوه. وقال بعضُ المفسِّرينَ: معناه: لُعِن الخَرَّاصونَ. وهذا تفسيرٌ لا تُعطيهِ اللَّفظةُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٣).

وقال ابن عثيمين: (كثيرٌ مِنَ المُفَسِّرينَ يُفَسِّرُها بلُعِنَ، واللَّعنُ هو الطَّردُ والإبعادُ عن رحمةِ الله، ولكِنَّ الصَّحيحَ أنَّها بمعنى أُهلِكَ؛ لأنَّه لا داعيَ أن نَصرِفَها عن ظاهِرِها، وظاهِرُها صَحيحٌ مُستقيمٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٩٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة =

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤].

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾.

أي: يَسألُ أولئك المُكَذِّبونَ بالبَعثِ؛ استِهزاءً به، واستِبعادًا لوُقوعِه: متى يَقَعُ هذا اليَومُ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه عِبادَه لِمُحاسَبتِهم ومُجازاتِهم على أعمالِهم[1]؟!

كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٥، ٢٦].

وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ * ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١ - ٣].

= الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

قال ابن كثير: (﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؛ وإنَّما يقولون هذا تكذيبًا وعِنادًا، وشَكًّا واستِبعادًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢١).

وقال أبو السعود: (﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أيْ: مَتَى وُقوعُ يومِ الجزاءِ، لكنْ لا بطريقِ الاستِعلامِ حقيقةً، بلْ بطريقِ الاستِعجالِ استِهزاءً). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٧).

وقال ابن الجوزي: (أي: يَقولونَ: يا محمَّدُ، متى يَومُ الجزاءِ؟! تكذيبًا منهم واستِهزاءً). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٥).

وقال ابنُ عطيَّة: (يَقولونَ: متى يومُ الدِّينِ؟ على معنَى التَّكذيبِ، وجائزٌ أن يَقترِنَ بذلك مِن بعضِهم هُزءٌ وألَّا يَقترِنَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٣).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٤].

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: يَقَعُ الجزاءُ عليهم يومَ يُعرَضونَ على النَّارِ فيُحرَقونَ بها ويُعَذَّبونَ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: ١٠٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٥، ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٢).

قال ابنُ عطية: (﴿يُفْتَنُونَ﴾ معناه: يُحرَقونَ ويُعَذَّبونَ في النَّارِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ، والجَميعُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٣). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٣٤).

وقال ابنُ القيِّم: (المشهورُ في تفسيرِ هذا الحَرفِ أنَّه بمعنى: يُحرَقونَ، ولكِنَّ لفظةَ ﴿عَلَى﴾ تُعطي معنًى زائدًا على ما ذَكَروه، ولو كان المرادُ نفْسَ الحَرْقِ لَقيلَ: «يومَ هم في النَّارِ يُفتَنونَ»؛ ولهذا لَمَّا عَلِمَ هؤلاء ذلك قال كثيرٌ منهم: «على» بمعنى «في»، كما تكونُ «في» بمعنى «على». والظَّاهِرُ أنَّ فِتنتَهم على النَّارِ قبْلَ فِتنتِهم فيها! فلَهم عندَ عَرْضِهم عليها ووُقوفِهم عليها فِتنةٌ، وعندَ دُخولِهم والتَّعذيبِ بها فِتنةٌ أشَدُّ منها... وحقيقةُ الأمرِ: أنَّ الفِتنةَ تُطلَقُ على العَذابِ وسَبَبِه؛ ولهذا سَمَّى اللهُ الكُفرَ فِتنةً؛ فهم لَمَّا أتَوْا بالفِتنةِ -الَّتي هي أسبابُ العذابِ- في الدُّنيا سَمَّى جزاءَهم فِتنةً؛ ولهذا قال: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾، وكان وُقوفُهم على النَّارِ وعَرضُهم عليها مِن أعظَمِ فِتنَتِهم، وآخِرُ هذه الفتنةِ دُخولُ النَّارِ والتَّعذيبُ بها، ففُتِنوا أوَّلًا بأسبابِ الدُّنيا وزينتِها، ثمَّ فُتِنوا بإرسالِ الرُّسُلِ إليهم، ثمَّ فُتِنوا بمُخالَفتِهم وتكذيبِهم، ثمَّ فُتِنوا بعذابِ الدُّنيا، ثمَّ فُتِنوا بعذابِ الموتِ، ثمَّ يُفتَنونَ في مَوقِفِ القيامةِ، ثمَّ إذا حُشِروا إلى النَّارِ وَوُقِفوا عليها وعُرِضوا عليها، وذلك مِن أعظَمِ فِتنَتِهم، ثمَّ الفِتنةُ الكُبرى الَّتي أنسَتْهم جميعَ الفِتَنِ قَبْلَها!). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٩٠). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٢).

فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾.

أي: يُقالُ لهم وهم يُعَذَّبونَ حينَها في النَّارِ: ذُوقُوا حَريقَكم وعَذابَكم؛ جزاءَ كُفرِكم وتَكذيبِكم[1].

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾.

أي: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَطلُبونَ تَعجيلَه في الدُّنيا؛ استِهزاءً به، وتَكذيبًا واستِبعادًا لِوُقوعِه[2]!

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى: ١٨].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الكُفَّارُ بالأنبياءِ مِن عاداتِهم أن تقولَ كُلُّ طائفةٍ في النَّبيِّ قَولًا يُناقِضُ قَولَ الطَّائِفةِ الأُخرى، وكذلك قَولُهم في الكِتابِ الَّذي أُنزِلَ عليه، وأقوالُهم كُلُّها أقوالٌ مُختَلِفةٌ باطِلةٌ، وهذا هو الاختِلافُ المذمومُ الَّذي ذكَرَه اللهُ تعالى في قَولِه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وفي قَولِه: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذَّاريات: ٨، ٩]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٥، ٣٤٦).
قال ابن كثير: (يُقالُ لهم ذلك؛ تقريعًا وتوبيخًا، وتحقيرًا وتصغيرًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٦).

ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾[١] [البقرة: ١٧٦].

٢- الحَقُّ لا يَنقُضُ بَعضُه بَعضًا، بل يُصَدِّقُ بَعضُه بَعضًا، بخِلافِ الباطِلِ؛ فإنَّه مُختَلِفٌ مُتناقِضٌ، كما قال تعالى في المُخالِفينَ للرُّسُلِ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾، وإنَّ ما عُلِمَ بمَعقولٍ صَريحٍ لا يُخالِفُه قَطُّ لا خَبَرٌ صَحيحٌ، ولا حِسٌّ صَحيحٌ! وكذلك ما عُلِمَ بالسَّمعِ الصَّحيحِ لا يُعارِضُه عَقلٌ ولا حِسٌّ، وكذلك ما عُلِمَ بالحِسِّ الصَّحيحِ لا يُناقِضُه خَبَرٌ ولا مَعقولٌ[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾ فاختِلافُ قَولِهم في الرَّسولِ وفي القرآنِ، ووصْفُهما بأوصافٍ مُتناقِضةٍ معَ الواقعِ، ومعَ بعضِهم البعضِ دَليلٌ على فَسادِه وبُطلانِه، كما أنَّ الحَقَّ الَّذي جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُتَّفِقٌ يُصَدِّقُ بَعضُه بَعضًا، لا تَناقُضَ فيه ولا اختِلافَ، وذلك دليلٌ على صِحَّتِه وأنَّه مِن عندِ اللهِ ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[٣] [النساء: ٨٢]. وإنَّهم لَمَّا كذَّبوا بالحَقِّ اختَلَفَتْ مَذاهِبُهم وآراؤُهم، وطرائِقُهم وأقوالُهم؛ فإنَّ الحَقَّ شَيءٌ واحِدٌ، وطَريقٌ مُستقيمٌ؛ فمَن خالَفَه اختلَفَت به الطُّرُقُ والمذاهِبُ، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، أي: مُختلِطٍ مُلتَبِسٍ[٤]. وكلُّ مَن خالَفَ الرَّسولَ فلا بُدَّ أنَّه يَتناقَضُ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾، وقال: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[٥] [النساء: ٨٢].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((بغية المرتاد)) لابن تيمية (ص: ٣٩٥).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ۞ يَسۡـَٔلُونَ﴾ أي: حِينًا بعدَ حينٍ على سَبيلِ الاستِمرارِ استِهزاءً، بقَولِهم: ﴿أَيَّانَ﴾ أي: متى وأيَّ حينٍ ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: وُقوعُ الجزاءِ الَّذي يُخبِرُنا به؟ ولولا أنَّهم بهذه الحالةِ لَتذَكَّروا مِن أنفُسِهم أنَّه ليس أحَدٌ منهم يَبُثُّ عَبيدَه أو أُجَراءَه في عَمَلٍ مِنَ الأعمالِ إلَّا وهو يُحاسِبُهم على أعمالِهم، ويَنظُرُ قَطعًا في أحوالِهم، ويَحكُمُ بيْنَهم في أقوالِهم وأفعالِهم، فكيف يُظَنُّ بأحكَمِ الحاكِمينَ أن يَترُكَ عَبيدَه الَّذين خلَقَهم على هذا النِّظامِ المُحكَمِ، وأبدَعَ لهم هذَينِ الخافِقَينِ، وهيَّأ مِن أجْلِهم فيهما ما لا ضَرورةَ لهم في التَّزَوُّدِ للمَعادِ إلى سِواه؛ فيَترُكَهم سُدًى، ويُوجِدَهم عَبَثًا[1]؟!

٥- قَولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ يَحتَمِلُ أن يكونَ جَوابًا عن قَولِهم: «أيَّانَ يقَعُ؟»، وحينَئذٍ كما أنَّهم لم يَسألوا سُؤالَ مُستَفهِمٍ طالِبٍ لحُصولِ العِلمِ، كذلك لم يُجِبْهم جوابَ مُجيبٍ مُعْلِمٍ مُبَيِّنٍ؛ حيثُ قال: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾! وجَهْلُهم بالثَّاني أقوى مِن جَهلِهم بالأوَّلِ، ولا يجوزُ أن يكونَ الجَوابُ بالأخفى، فلو قال قائلٌ: متى يَقْدَمُ زَيْدٌ؟ فلو أُجيبَ بقولِه: «يومَ يَقدَمُ رفيقُه»، ولا يَعلَمُ يومَ قُدومِ الرَّفيقِ؛ لم يَصِحَّ هذا الجوابُ إلَّا إذا كان الكلامُ في صورةِ جوابٍ ولا يكونُ جوابًا، كقولِ القائلِ لِمَن يَعِدُ عِدَاتٍ ويُخلِفُها: «إلى متى هذا الإخلافُ؟»، فيَغضَبُ ويقولُ: «إلى أَشْأَمِ يومٍ عليك»؛ فالكلامانِ في صورةِ سؤالٍ وجوابٍ، ولا يُريدُ الأوَّلُ بكلامِه السُّؤالَ، ولا الثَّاني يريدُ به الجَوابَ؛ فكذلك هاهنا قال: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾؛ مُقابَلةً لاستِهزائِهم بالإيعادِ لا على وَجهِ الإتيانِ. ويحتَمِلُ أن يكونَ ذلك ابتداءَ كَلامٍ، تَمامُه في قَولِه تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٦٥، ٦٦).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أنَّ مِن إطلاقاتِ الفِتنةِ: الإحراقَ بالنَّارِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ قَسَمٌ لتَحقيقِ اضْطِرابِ أقوالِهم في الطَّعنِ في الدِّينِ، وهو كالتَّذْييلِ للَّذي قبْلَه؛ لأنَّ ما قبْلَه خاصٌّ بإثباتِ الجَزاءِ، وهذا يعُمُّ إبطالَ أقوالِهم الضَّالَّةِ؛ فالقَسَمُ لتأكيدِ المُقسَمِ عليه؛ لأنَّهم غيرُ شاعِرينَ بحالِهم المُقسَمِ على وُقوعِه، ومُتهالِكونَ على الاستِزادةِ منه، فهم مُنكِرون لِما في أقوالِهم مِن اختِلافٍ واضطرابٍ، جاهِلون به جَهلًا مُركَّبًا، والجَهلُ المركَّبُ إنكارٌ للعِلمِ الصَّحيحِ[٢].

- وإجراءُ هذا الوصْفِ ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ على السَّماءِ: إدماجٌ[٣]؛ أُدمِجَ به الاستِدلالُ على قُدْرةِ اللهِ تعالى معَ الامتِنانِ بحُسْنِ المَرْأى[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٠).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمَعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحَمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤١).

- قولُه: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ كِنايةٌ عن لازمِ الاختِلافِ، وهو التَّردُّدُ في الاعتقادِ، ويَلزَمُه بُطلانُ قَولِهم، وذلك مَصَبُّ التَّأكيدِ بالقسَمِ وحرْفِ (إنَّ) واللَّامِ[١].

- وَلفظُ ﴿قَوْلٍ﴾ يَقتضي شيئًا مَقولًا في شأنِه؛ فإذ لم يُذكَرْ بعْدَ ﴿قَوْلٍ﴾ ما يدُلُّ على مَقولٍ صلَحَ لِجَميعِ أقوالِهم الَّتي اختَلَقوها في شأْنِ القرآنِ، ودَعوةِ الإسلامِ[٢].

- وجُملةُ ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ في مَحلِّ صِفةٍ ثانيةٍ لـ﴿قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾، ويجوزُ أنْ تكونَ مُستأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذَّاريات: ٦]؛ فتكونَ جُملةُ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ مُعتَرِضةً بيْنَ الجُملةِ البَيانيَّةِ والجُملةِ المُبيَّنِ عنها[٣].

- والمُرادُ بقَولِه: ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ المشرِكونَ المَصروفونَ عن الإيمانِ، والمُرادُ بالَّذي فعَلَ الإفكَ المجهولَ المشرِكون الصَّارِفون لقَومِهم عن الإيمانِ، وهما الفريقانِ اللَّذانِ تَضمَّنهما قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. وإنَّما حُذِفَ فاعلُ ﴿يُؤْفَكُ﴾، وأُبهِمَ مفعولُه بالمَوصوليَّةِ؛ للاستِيعابِ، معَ الإيجازِ[٤]، وذلك على قول في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ كِنايةٌ عن مَوصوفٍ، وهو المكذِّبُ الجاحدُ للحقِّ. وفائدةُ الكِنايةِ هنا أنَّه لَمَّا خصَّصَ هذا بأنَّه هو الَّذي صُرِفَ، أفهَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ غَيرَه لم يُصْرَفْ، فكأنَّه قال: لا يَثْبُتُ الصَّرفُ في الحَقيقةِ إلَّا لهذا، وكلُّ صَرفٍ دَونَه يُعدُّ كالمَعدومِ بالنِّسبةِ إليه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾

- قولُه: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ قيل: هو دُعاءٌ بالهلاكِ على أصحابِ ذلك القولِ المُختلِفِ؛ لأنَّ المقصودَ بقَتْلِهم أنَّ اللهَ يُهلِكُهم؛ ولذلك يَكثُرُ أنْ يُقالَ: قاتَلَه اللهُ، ثم أُجرِيَ مُجرى اللَّعنِ والتَّحقيرِ والتَّعجيبِ مِن سُوءِ أحوالِ المدعوِّ عليه بمِثلِ هذا[٢]. وجُملةُ الدُّعاءِ لا تُعطَفُ؛ لأنَّها شَديدةُ الاتِّصالِ بما قبْلَها؛ ممَّا أوجَبَ ذلك الوصفَ لدُخولِهم في هذا الدُّعاءِ، كما كان تَعقيبُ الجُمَلِ الَّتي قبْلَها بها إيماءً إلى أنَّ ما قبْلَها سَببٌ للدُّعاءِ عليهم، وهذا مِن بَديعِ الإيجازِ[٣].

- والخَرْصُ: الظَّنُّ الَّذي لا حُجَّةَ لصاحبِه على ظنِّه، وذلك كِنايةٌ عن الضَّلالِ عَمْدًا أو تَساهُلًا؛ فالخرَّاصونَ هم أصحابُ القولِ المُختلِفِ، فأفاد أنَّ قولَهم المختلِفَ ناشئٌ عن خَواطرَ لا دَليلَ عليها[٤].

- وهذه الجُملةُ ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ حالًا مِن ضَميرِ ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾، ويَجوزُ أنْ تَكونَ استِئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن جُملةِ ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾؛ لأنَّ جُملةَ ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ أفادَت تَعجيبًا مِن سُوءِ عُقولِهم وأحوالِهم؛ فهو مَثارُ سُؤالٍ في نفْسِ السامعِ يَتطلَّبُ البيانَ، فأُجيبَ بأنَّهم يَسأَلون عن يومِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الدِّينِ سُؤالَ مُتهكِّمينَ، يَعنون أنَّه لا وُقوعَ ليومِ الدِّينِ[١].

- وجُملةُ ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾؛ لأنَّ في فِعلِ السُّؤالِ معنى القولِ، فتَقديرُ الكلامِ: يقولون: أيَّانَ يَومُ الدِّينِ؟ ويجوزُ جعْلُ جُملةِ ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ بدَلًا من جُملةِ ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾؛ لتفْصيلِ إجمالِه، وهو مِن نَوعِ البدَلِ المُطابقِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ جَوابٌ لسُؤالِهم جرَى على الأسلوبِ الحَكيمِ[٣] مِن تَلقِّي السَّائلِ بغَيرِ ما يَتطلَّبُ؛ إذ هم حينَ قالوا: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾، أرادوا التَّهكُّمَ والإحالةَ، فتُلُقِّيَ كَلامُهم بغَيرِ مُرادِهم؛ لأنَّ في الجوابِ ما يَشفي وَقْعَ تَهكُّمِهم، والمعنى: يومُ الدِّينِ يقَعُ يومَ تُصْلَونَ النَّارَ ويُقالُ لكم: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾[٤].

- قولُه: ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ الفَتْنُ: التَّعذيبُ والتَّحريقُ، أي: يومَ هم يُعذَّبون في نارِ جهنَّمَ، وأصلُ الفَتْنِ الاختبارُ، وشاع إطلاقُه على مَعانٍ؛ منها إذابةُ الذَّهبِ على النَّارِ في البُوتَقةِ[٥] لاختبارِ ما فيه مِن مَعدِنٍ غَيرِ ذهَبٍ، ولا يُذابُ إلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٤٥).

(٣) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأَولى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٥).

(٥) البُوتَقةُ: الوِعاءُ الَّذي يُذابُ فيه المَعدِنُ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٧٥)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (١/ ٢٦٠).

بحَرارةِ نارٍ شديدةٍ؛ فهو هنا كِنايةٌ عن الإحراقِ الشَّديدِ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه الخِطابُ، أي: يقالُ لهم حينَئذٍ، أو مَقولًا لهم: ذُوقوا فِتنتَكم، أي: عذابَكم[٢].

- والأمرُ في قولِه: ﴿ذُوقُواْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّنكيلِ[٣].

- والذَّوقُ: مُعبَّرٌ به عن الإحساسِ القويِّ؛ لأنَّ اللِّسانَ أشَدُّ الأعضاءِ إحساسًا[٤].

- وإضافةُ فِتنةٍ إلى ضَميرِ المُخاطَبين مِن إضافةِ المصدرِ إلى مَفعولِه. وفي الإضافةِ دَلالةٌ على اختِصاصِها بهم؛ لأنَّهم استحَقُّوها بكُفْرِهم. ويجوزُ أن تكونَ الإضافةُ مِن إضافةِ المصدرِ إلى فاعِلِه. والمعنى: ذُوقوا جزاءَ فِتنتِكم. ويُجعَلَ الكلامُ مُوجَّهًا بتَذكيرِ المُخاطَبينَ في ذلك اليَومِ بما كانوا يَفتِنون به المؤمنينَ مِن التَّعذيبِ. وجُعِلَ المَذوقُ فِتنتَهم؛ إظهارًا لِكَونِه جَزاءً عن فِتنَتِهم المؤمنينَ؛ لِيَزدادوا نَدامةً[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٤٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (لفظُ الذَّوقِ يُستعمَلُ في كُلِّ ما يُحِسُّ به [الإنسانُ]، ويجِدُ ألَمَه أو لَذَّتَه، فدعوَى المدَّعي اختِصاصَ لَفظِ الذَّوقِ بما يكونُ بالفَمِ تحَكُّمٌ منه، لكِنَّ ذاك مُقَيَّدٌ، فيُقالُ: ذُقتُ الطَّعامَ، وذُقتُ هذا الشَّرابَ؛ فيَكونُ معه مِن القيودِ ما يَدُلُّ على أنَّه ذوقٌ بالفَمِ، وإذا كان الذَّوقُ مُستعمَلًا فيما يُحِسُّه الإنسانُ بباطِنِه أو بظاهِرِه حتَّى الماءُ الحَميمُ يُقالُ: ذاقه؛ فالشَّرابُ إذا كان باردًا أو حارًّا يقالُ: ذُقتُ حَرَّه وبَرْدَه). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١١٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والإشارةُ في قَولِه: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ إلى الشَّيءِ الحاضِرِ نُصبَ أعيُنِهم؛ لاستِحضارِ صُورةِ العذابِ[1].

- وجُملةُ ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ استِئنافٌ في مَقامِ التَّوبيخِ وتَعديدِ المَجارِمِ، كما يُقالُ للمُجرِمِ: فعلْتَ كذا، وهي مِن مَقولِ القولِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٥-١٩)

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَهْجَعُونَ﴾: أي: يَنامونَ، والهُجوعُ: النَّومُ باللَّيلِ دونَ النَّهارِ، وأصلُ (هجع): يدُلُّ على نَومٍ[(١)].

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾: جَمعُ سَحَرٍ، وهو آخِرُ اللَّيلِ، وأصلُ (سحر) هنا: يدُلُّ على وَقتٍ مِنَ الأوقاتِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٠٠).

قال السمينُ الحلبي: (واختلَف أهلُ اللُّغةِ في السَّحَرِ: أيُّ وقتٍ هو؟ فقال جماعةٌ منهم الزَّجَّاجُ: إنَّه الوقتُ قبْلَ طُلوعِ الفَجرِ... قال الرَّاغبُ: السَّحَرُ: اختِلاطُ ظلامِ آخِرِ اللَّيلِ بضياءِ النَّهارِ، وجُعِل اسمًا لذلك الوقتِ... وقال بعضُهم: السَّحَرُ مِن ثُلُثِ اللَّيلِ الأخيرِ إلى طُلوعِ الفَجرِ. وقال بعضُهم أيضًا: السَّحَرُ عندَ العرَبِ مِن آخِرِ اللَّيلِ، ثمَّ يَستَمِرُّ حُكمُه إلى الإسفارِ، كلُّه يُقالُ له: سَحَرٌ. قيل: وسُمِّيَ السَّحَرُ سَحَرًا؛ لِخَفائِه، ومنه قيل لِلسِّحْرِ: سِحْرٌ؛ لِلُطْفِه وخَفائه). ((الدر المصون)) (٣/ ٧٠). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٣٨٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٠١).

ونقَل ابنُ عطيَّةَ قولَ مَن قال عن السَّحَرِ: هو قبْلَ طُلوعِ الفَجرِ، ثمَّ علَّق عليه فقال: (وهذا صحيحٌ؛ لأنَّ ما بعدَ الفَجرِ هو مِن اليَومِ لا مِن اللَّيلةِ). ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١).

﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾: أي: الفقيرِ المتعفِّفِ الَّذي لا يَسألُ، وأصلُ (حرم): يدُلُّ على مَنعٍ وتَشديدٍ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ فيه أوجُهٌ:

أحَدُها: أن تجعَلَ ﴿مَا﴾ في ﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾ مَزيدةً للتَّأكيدِ، و﴿يَهْجَعُونَ﴾ خَبَرَ كان. والتَّقديرُ: كانوا يَهجَعونَ مِن اللَّيلِ هُجوعًا أو زَمَنًا قليلًا؛ فـ﴿قَلِيلًا﴾ نَعتٌ لِمَصدَرٍ مَحذوفٍ، أو لظَرفٍ محذوفٍ.

الثَّاني: أن تجعَلَ ﴿مَا﴾ مصدريَّةً، وهي مع مَدخولِها في محَلِّ رَفعٍ فاعِلٌ بـ﴿قَلِيلًا﴾، ويُنصَبُ ﴿قَلِيلًا﴾ على أنَّه خبَرُ «كان»، والتَّقديرُ: كانوا قَليلًا هُجوعُهم.

الثَّالِثُ: أن تجعَلَ ﴿مَا﴾ مصدريَّةً، وهي مع مَدخُولِها في محَلِّ رَفعٍ بدَلٌ مِن اسمِ كان «واوِ الجَماعةِ» بدَلَ اشتِمالٍ، أي: كان هُجوعُهم قليلًا. وقيلَ غَيرُ ذلك[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا حُسنَ عاقبةِ المتَّقينَ، بعدَ بيانِه سوءَ مصيرِ المكذِّبينَ: إنَّ المتَّقينَ ربَّهم بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه: في بَساتينَ عَظيمةٍ وعُيونٍ جاريةٍ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٨٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٣)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٦٠)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٩).

آخِذينَ في الجنَّاتِ ما أعطاهم اللهُ تعالى مِنَ النِّعَمِ والخَيراتِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى أعمالَهم الَّتي أوصَلَتْهم إلى ذلك النَّعيم، فيقولُ: إنَّهم كانوا في الدُّنيا مُحسِنينَ؛كانوا يَنامونَ قليلًا مِنَ اللَّيلِ، ويَقومونَ بيْنَ يدَيْ رَبِّهم يَطلُبونَ منه المَغفِرةَ لِذُنوبِهم، وفي أموالِهم حقٌّ ثابِتٌ للسَّائِلِ، وللمَحرومِ مِن المالِ الَّذي لا يَسألُهم منه شَيئًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله سبحانَه حالَ الكُفَّارِ؛ ذكَرَ حالَ المُؤمِنينَ[١].

وأيضًا فالله سُبحانَه ذكَرَ جزاءَ مَن خَلَص مِن تلك الفِتَنِ بالتَّقوى، وهو الجنَّاتُ والعُيونُ، فقال[٢]:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ تعالى وعَذابَه بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه: لَمُستقِرُّونَ في الدَّارِ الآخِرةِ في بَساتينَ عَظيمةٍ، وعُيونٍ جاريةٍ[٣].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخَان: ٥١، ٥٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨، ٨٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٣، ١٢٤).

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ أمَّ الرُّبَيِّعِ بِنتَ البَراءِ -وهي أمُّ حارِثةَ ابنِ سُراقةَ- أتت النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالت: يا نبيَّ اللهِ، ألَا تُحَدِّثُني عن حارِثةَ؟ -وكان قُتِلَ يومَ بَدرٍ، أصابه سَهمٌ غَرْبٌ[1]- فإنْ كان في الجنَّةِ صَبرْتُ، وإن كان غيرَ ذلك اجتهَدْتُ عليه في البُكاءِ، قال: يا أُمَّ حارِثةَ، إنَّها جِنانٌ في الجنَّةِ، وإنَّ ابنَك أصابَ الفِردَوسَ الأعلى!))[2].

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦﴾.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾.

أي: آخِذينَ في الجنَّاتِ ما أعطاهم اللهُ تعالى مِنَ النِّعَمِ والخَيراتِ[3].

---

(١) سهمٌ غَرْبٌ: أي: لا يُدرى مَن رماه. يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٠٩).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٤).

قال السمعاني: (ومعنى الأخْذِ هو دُخولُهم الجنَّةَ، ووُصولُهم إلى ما وُعِدوا مِن الثَّوابِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٣).

وقال ابن عطيَّة: (﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ أي: محصِّلينَ لِنِعَمِ الله الَّتي أعطاهم مِن جَنَّتِه ورِضوانِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٤).

وقال الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والألوسي، وابنُ عاشور: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾: قابلينَ لِكُلِّ ما أعطاهم، راضينَ به. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧).

قال الزمخشري: (يعني أنَّه ليس فيما آتاهم إلَّا ما هو مُتلَقًّى بالقَبولِ، مَرضيٌّ غيرُ مَسخوطٍ؛ لأنَّ جميعَه حسَنٌ طَيِّبٌ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، أي: يَقْبَلُها ويَرضاها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٨).

وذهَب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المعنى: عامِلينَ في الدُّنيا بما أمَرَهم به اللهُ مِنَ الفرائِضِ. وتابَعه مكِّيٌّ، =

كما قال تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ [الطور: ١٨].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيَقولونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنا وسَعْدَيك[1]، والخَيرُ في يدَيك، فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيَقولونَ: وما لَنا لا نَرضَى يا رَبِّ، وقد أعطَيْتَنا ما لم تُعْطِ أحَدًا مِن خَلْقِك؟! فيَقولُ: ألَا أُعطيكم أفضَلَ مِن ذلك؟! فيقولونَ: يا رَبِّ، وأيُّ شَيءٍ أفضَلُ مِن ذلك؟! فيَقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بَعْدَه أبَدًا))[2].

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾.

= ورُوِيَ ذلك عن ابنِ عبَّاسٍ بإسنادٍ ضَعَّفه ابنُ كثيرٍ، وقال: (والَّذي فسَّر به ابنُ جريرٍ فيه نظَرٌ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿ءَاخِذِينَ﴾ حالٌ مِن قَولِه: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠٠، ٥٠١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٦).

قال السعدي: (﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ يحتملُ أنَّ المعنى: أنَّ أهلَ الجنَّةِ قد أعطاهم مَولاهم جميعَ مُناهُم، مِن جميعِ أصنافِ النَّعيمِ، فأخَذوا ذلك راضينَ به، قد قرَّتْ به أعيُنُهم، وفرِحَتْ به نُفوسُهم، ولم يَطلُبوا منه بدَلًا، ولا يَبْغونَ عنه حِوَلًا، وكلٌّ قد ناله مِن النَّعيمِ، ما لا يَطلُبُ عليه المَزيدَ.

ويحتملُ أنَّ هذا وصْفُ المتَّقينَ في الدُّنيا، وأنَّهم آخِذون ما آتاهم اللهُ مِن الأوامِرِ والنَّواهي، أي: قد تلَقَّوْها بالرُّحبِ، وانشِراحِ الصَّدرِ، مُنقادينَ لِما أمَرَ اللهُ به، بالامتِثالِ على أكمَلِ الوُجوهِ، ولِما نهى عنه، بالانزِجارِ عنه لله، على أكمَلِ وجْهٍ؛ فإنَّ الَّذي أعطاهم الله مِن الأوامِرِ والنَّواهي هو أفضَلُ العَطايا، الَّتي حقُّها أن تُتلَقَّى بالشُّكرِ [لله] عليها، والانقيادِ.

والمعنى الأوَّلُ ألْصَقُ بسياقِ الكلامِ؛ لأنَّه ذكَر وصْفَهم في الدُّنيا، وأعمالَهم بقولِه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ الوقتِ الَّذي وصَلوا به إلى النَّعيمِ ﴿مُحۡسِنِينَ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

(١) لَبَّيك: أي: أدومُ على طاعتِك دَوامًا بعدَ دوامٍ، وأُقيمُ على طاعتِك إقامةً بعدَ إقامةٍ، من: أَلَبَّ بالمكانِ: إذا أقام به. وسَعْدَيْك: أي: ساعَدْتُ طاعتَك يا ربِّ مُساعدةً بعدَ مساعدةٍ، وهي الموافَقةُ والمسارعةُ، أو أسعَدُ بإقامتي على طاعتِك وإجابتي لدعوتِك سعادةً بعدَ سعادةٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٦٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر جَزاءَهم؛ ذَكَر السَّبَبَ الَّذي أوصَلَهم إلى ذلك[١]، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾.

أي: إنَّ المُتَّقينَ كانوا في الدُّنيا مُحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، مُحسِنينَ إلى عبادِ اللهِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

وفي حديثِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه في قِصَّةِ سُؤالِ جِبريلَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: أخبِرْني عن الإحسانِ، قال: ((أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه، فإنْ لم تكُنْ تَراه فإنَّه يَراك))[٣].

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر إحسانَهم؛ فسَّره مُعَبِّرًا عنه بما هو في غايةِ المُبالَغةِ، فقال تعالى[٤]:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٤).
ذكَر ابنُ القيِّم أنَّ إحسانَهم يتضمَّنُ عبادتَه وحْدَه لا شريكَ له، والقيامَ بحقوقِه، وحُقوقِ عبادِه. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).
وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ يقولُ: إنَّهم كانوا قبْلَ أن يَفرِضَ عليهم الفرائضَ ﴿مُحْسِنِينَ﴾، يقولُ: كانوا لله قبْلَ ذلك مُطيعينَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠١).

(٣) أخرجه مسلم (٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٩٦).

أي: كانوا يَنامونَ قليلًا مِنَ اللَّيلِ، فهم يُكابِدونَ السَّهَرَ في اللَّيلِ؛ لعِبادةِ رَبِّهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴾ [الفرقان: ٦٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾ [السجدة: ١٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩].

وقال جلَّ شأنُه: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا * أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ [المزمل: ٢ - ٤].

وقال جَلَّ جَلالُه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠٤، ٥٠٨، ٥٠٩)، ((فضل قيام الليل)) للآجُرِّي (ص: ٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٥).

قال ابن تيميَّةَ: (هذا على أصَحِّ الأقوالِ معناه: كانوا يَهجَعونَ قليلًا، فـ ﴿قَلِيلٗا﴾ مَنصوبٌ بـ ﴿يَهۡجَعُونَ﴾ و ﴿مَا﴾ مُؤَكِّدةٌ. وهذا مِثلُ قَولِه: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. وقَولُه: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ هو مُفَسَّرٌ في سُورةِ المُزَّمِّلِ بقَولِه: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا * أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ [المزمل: ٢ - ٤]؛ فهذا المُستثنى مِنَ الأمرِ هو القليلُ المذكورُ في تلك السُّورةِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٨٥). ويُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١ - ٢٩٣).

وقال الشوكاني: (المعنى: كانوا قليلًا ما يَنامونَ مِنَ اللَّيلِ، و﴿مَا﴾ زائِدةٌ، ويجوزُ أن تكونَ مَصدريَّةً أو مَوصولةً، أي: كانوا قليلًا مِنَ اللَّيلِ هُجوعُهم، أو ما يَهجَعونَ فيه... وقيل: ﴿مَا﴾ نافيةٌ، أي: ما كانوا يَنامون قليلًا مِنَ اللَّيلِ، فكيف بالكثيرِ منه؟! وهذا ضعيفٌ جِدًّا. وهذا قَولُ مَن قال: إنَّ المعنى: كان عَدَدُهم قليلًا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٠، ١٠١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أيُّها النَّاسُ، أفْشُوا السَّلامَ، وأطعِموا الطَّعامَ، وصَلُّوا والنَّاسُ نِيامٌ؛ تَدخُلوا الجنَّةَ بسَلامٍ))(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ غُرفةً يُرى ظاهِرُها مِن باطِنِها، وباطِنُها مِن ظاهِرِها، فقال أبو موسى الأَشْعَريُّ: لِمَن هي يا رَسولَ اللهِ؟ قال: لِمَن ألانَ الكلامَ، وأطعَمَ الطَّعامَ، وبات للهِ قائِمًا والنَّاسُ نِيامٌ))(٢).

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨﴾.

أي: وهم في آخِرِ اللَّيلِ يَطلُبونَ مِنَ اللهِ المَغفِرةَ لِذُنوبِهم، أو لِتَقصيرِهم في عبادةِ رَبِّهم(٣).

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٢٤٨٥)، وابنُ ماجَه (١١٠٥) وأحمدُ (٢٣٧٨٤)، والدَّارِميُّ (١٥٠١).
صحَّحه الترمذيُّ، والذهبيُّ في ((تاريخ الإسلام)) (٢/ ٣٤)، وجَوَّد إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (٣٠٧)، وحَسَّنه ابنُ الملَقِّنِ في ((البدر المنير)) (٩/ ٤٢)، وحَسَّن الحديثَ ابنُ حَجَر كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٥/ ٢٧٧)، وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (٦٦١٥) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ (١٤/ ٨٠) (١٤٦٨٧)، والحاكمُ (٢٧٠).
صَحَّحه على شَرطِ الشَّيخَينِ الحاكِمُ، وحَسَّن إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٢٨٩)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٥٧)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٨/ ٢٣٢). وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ١١١)، وقال الألباني في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (٦١٧): (حَسَنٌ صحيحٌ).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠٩، ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٥).
قال الماوَرْدي: (﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فيه وجْهانِ: =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَنزِلُ رَبُّنا تبارك وتعالى كُلَّ لَيلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا حينَ يَبقى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، يَقولُ: مَن يَدْعوني فأستَجيبَ له؟ مَن يَسألُني فأُعطِيَه؟ مَن يَستَغفِرُني فأَغفِرَ له؟))[١].

﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ مُعامَلتَهم للخالِقِ؛ أتْبَعَه المُعامَلةَ للخلائِقِ؛ تَكميلًا لحقيقةِ الإحسانِ[٢]، فلمَّا وَصَفهم بالصَّلاةِ؛ ثنَّى بوَصْفِهم بالزَّكاةِ والبِرِّ والصِّلَةِ[٣]، فقال:

﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ١٩﴾.

أي: وفي أموالِ أولئك المتَّقينَ المُحسِنينَ نَصيبٌ ثابِتٌ للمُحتاجِ الَّذي يَسألُهم، وللمَحرومِ مِن المالِ الَّذي لا يَسألُهم منه شَيئًا[٤].

= أحَدُهما: وبالأسحارِ هم يُصَلُّونَ. قاله الضَّحَّاكُ.

الثَّاني: أنَّهم كانوا يُؤخِّرونَ الاستِغفارَ مِن ذُنوبِهم إلى السَّحَرِ لِيَستَغفِروا فيه. قاله الحسَنُ. ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٦).

وقال الواحدي: (قال عَطاءٌ، والكَلْبيُّ، ومُقاتِلٌ، ومجاهِدٌ: يُصَلُّونَ، ففَسَّروا الاستِغفارَ بالصَّلاةِ، على أنَّ صَلاتَهم بالأسحارِ طَلَبٌ منهم مَغفِرةَ اللهِ تعالى. وذهب آخَرونَ إلى ظاهِرِ الاستِغفارِ باللِّسانِ، وهو قولُ ابنِ مَسعودٍ، والحسَنِ). ((البسيط)) (٢٠/ ٤٣٩). ويُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: ٦١٩)، ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ١١٣) و(٤/ ١٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠٩، ٥١٠).

(١) أخرجه البخاريُّ (١١٤٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٧٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١١، ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٨، ٣٩)، ((التبيان =

= في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥١).

قال ابنُ جرير: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك عندي: أنَّه الَّذي قد حُرِمَ الرِّزقَ فاحتاج؛ وقد يكونُ ذلك بذَهابِ مالِه وثَمَرِه، فصار مِمَّن حرَمَه اللهُ ذلك، وقد يكونُ بسَبَبِ تعَفُّفِه وتَرْكِه المسألةَ، ويكونُ بأنَّه لا سَهمَ له في الغَنيمةِ؛ لِغَيبتِه عن الوَقعةِ؛ فلا قَولَ في ذلك أَولى بالصَّوابِ مِن أنْ يُعَمَّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١٨).

وقال ابنُ عاشور: (المحرومُ: الفَقيرُ الَّذي لا يُعطَى الصَّدَقةَ؛ لظَنِّ النَّاسِ أنَّه غيرُ مُحتاجٍ؛ مِن تعَفُّفِه عن إظهارِ الفَقرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥١).

وقال الجصَّاصُ: (فَرَّق اللهُ تعالى في الآيةِ بيْنَ السَّائِلِ والمحروم؛ لأنَّ الفَقيرَ قد يَحرِمُ نَفْسَه بتَركِه المسألةَ، وقد يَحرِمُه النَّاسُ بتَركِ إعطائِه، فإذا لم يَسألْ فقد حَرَم نفْسَه بتَركِ المسألةِ؛ فسُمِّيَ مَحرومًا مِن هذا الوَجهِ؛ لأنَّه يَصيرُ مَحرومًا مِن وَجهَينِ: مِن قِبَلِ نفْسِه، ومِن قِبَلِ النَّاسِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٤٨).

وقال ابن عطيَّة: (اختلف النَّاسُ في المحرومِ اختلافًا هو عندي تخليطٌ مِن المتأخِّرينَ؛ إذ المعنى واحدٌ، وإنَّما عبَّر علماءُ السَّلفِ في ذلك بعباراتٍ على جهةِ المثالاتِ، فجعَلها المتأخِّرونَ أقوالًا، وحصَرها مكِّيٌّ ثمانيةً. والمحرومُ هو الَّذي تَبعُدُ عنه مُمكِناتُ الرِّزقِ بعدَ قُربِها منه، فيَنالُه حِرمانٌ وفاقةٌ، وهو معَ ذلك لا يَسألُ؛ فهذا هو الَّذي له حَقٌّ في أموالِ الأغنياءِ كما للسَّائلِ حَقٌّ... والمعنى الجامِعُ لهذه الأقوالِ: أنَّه الَّذي لا مالَ له؛ لِحِرمانٍ أصابه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٥).

وقال ابنُ الفَرَسِ بعدَ أن ذكَرَ الأقوالَ في معنى المحروم: (وهذه الأقوالُ كُلُّها ترجِعُ إلى معنًى واحدٍ من العُدْمِ والاحتياجِ، وبعضُ النَّاسِ يَسوقونَها على أنَّها اختِلافٌ، وليس بصَحيحٍ، وإنَّما ساق العُلَماءُ كُلَّ قولٍ مِن ذلك على جهةِ المثالِ للمعنى العامِّ المرادِ بالآيةِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٠٦).

وقال الشوكاني: (والَّذي يَنبغي التَّعويلُ عليه ما يدُلُّ عليه المعنى اللُّغَويُّ، والمحرومُ في اللُّغةِ: الممنوعُ، مِنَ الحِرمانِ، وهو المنعُ، فيَدخُلُ تحتَه مَن حُرِمَ الرِّزقَ مِنَ الأصلِ، ومَن أُصيبَ مالُه بجائحةٍ أذهَبَتْه، ومَن حُرِمَ العطاءَ، ومَن حُرِمَ الصَّدَقةَ لِتَعفُّفِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠١).

وقال القرطبي: (روى ابنُ وَهبٍ عن مالِكٍ: أنَّه الَّذي يُحرَمُ الرِّزقَ. وهذا قَولٌ حَسَنٌ؛ لأنَّه يَعُمُّ جميعَ الأقوالِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٩). =

= وقال القاسمي: (ويَدخُلُ في «المحروم» كُلُّ مَن لا مالَ له، ومَن هَلَك مالُه بآفةٍ، ومَن حُرِمَ الرِّزقَ واحتاجَ، إلَّا أنَّ أهَمَّ أفرادِه المُتعَفِّفُ؛ ولذا عوَّل عليه الأكثَرُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٩).

وقال الجصَّاصُ: (في المالِ حَقٌّ سِوى الزَّكاةِ باتِّفاقِ المُسلِمينَ؛ منه ما يلزَمُ مِن النَّفَقةِ على والِدَيه إذا كانا فقيرَينِ، وعلى ذَوي أرحامِه، وما يلزَمُ مِن طعامِ المُضطَرِّ، وحَمْلِ المُنقَطِعِ به، وما جرى مَجرى ذلك مِنَ الحُقوقِ اللَّازِمةِ عندَ ما يَعرِضُ مِن هذه الأحوالِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٤٧). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (١/ ٨٨) و (٢/ ٤٨٩).

وقال ابن تيميَّةَ: (وأمَّا الزَّكاةُ فإنَّها تجبُ حقًّا لله في مالِه؛ ولهذا يُقالُ: ليس في المالِ حقٌّ سِوى الزَّكاةِ، أي: ليس فيه حقٌّ يجبُ بسببِ المالِ سِوى الزَّكاةِ، وإلَّا ففيه واجباتٌ بغيرِ سببِ المالِ؛ كما تجبُ النَّفَقاتُ للأقاربِ، والزَّوجةِ، والرَّقيقِ، والبهائمِ، ويجبُ حمْلُ العاقلةِ، ويجبُ قضاءُ الدُّيونِ، ويجبُ الإعطاءُ في النَّائبةِ، ويجبُ إطعامُ الجائعِ، وكِسْوةُ العاري فرضًا على الكفايةِ، إلى غيرِ ذلك مِن الواجباتِ الماليَّةِ، لكنْ بسبَبٍ عارِضٍ، والمالُ شرطُ وُجوبِها، كالاستِطاعةِ في الحجِّ؛ فإنَّ البدَنَ سببُ الوُجوبِ، والاستِطاعةَ شرطٌ، والمالُ في الزَّكاةِ هو السَّببُ والوُجوبُ معه، حتَّى لو لم يكُنْ في بلَدِه مَن يَستحِقُّها حمَلَها إلى بلدٍ أخرى، وهي حقٌّ وجَب لله تعالى). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٣١٦).

وقيل: المرادُ بالحَقِّ هنا: الزَّكاةُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: الْكِيَا الهَرَّاسي، وابنُ العربي. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٨٩)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٦٦).

وقيل: الحَقُّ هنا هو على وَجهِ النَّدبِ، لا على وَجهِ الفَرضِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الفَرَس، وابن جُزَي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٥)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠١).

وقيل: الحَقُّ هنا يَشمَلُ الإنفاقَ الواجِبَ والمُستَحَبَّ. وممَّن ذهب إلى هذا: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٦).

وقال ابن عاشور: (وحقُّ السَّائلِ والمَحرومِ: هو النَّصيبُ الَّذي يُعطُونه إيَّاهما؛ أُطلِقَ عليه لَفظُ الحقِّ؛ إمَّا لأنَّ اللهَ أوجَبَ على المسلمينَ الصَّدقةَ بما تَيسَّرَ قبْلَ أنْ يُفرَضَ عليهم الزَّكاةُ؛ فإنَّ الزَّكاةَ فُرِضَت بعدَ الهجرةِ، فصارتِ الصَّدقةُ حقًّا للسَّائلِ والمحرومِ، أو لأنَّهم ألْزَموا ذلك أنفُسَهم، حتَّى صار كالحقِّ للسَّائلِ والمَحرومِ، وبذلك يُتأوَّلُ قولُ مَن قال: إنَّ هذا الحقَّ هو =

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾ أنَّ وَصْفَ أهلِ الجنَّةِ في هذه السُّورةِ بالأعمالِ الَّتي قَدَّموها يتضَمَّنُ أمْرَ المُكَلَّفينَ بمِثلِ ما جُعِلَ خَبرًا عنهم أنَّهم فَعَلوه[1].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ أحسَنوا في عبادةِ ربِّهم، بأنْ عبَدوه كأنَّهم يَرَوْنَه، فإنْ لم يَكونوا يَرَوْنَه فإنَّه يَراهم، وأحسَنوا إلى عِبادِ اللهِ ببَذْلِ النَّفعِ، والإحسانِ مِن مالٍ أو عِلمٍ، أو جاهٍ أو نصيحةٍ، أو أمْرٍ بمَعروفٍ أو نَهيٍ عن مُنكَرٍ، أو غيرِ ذلك مِن وُجوهِ الإحسانِ وطُرُقِ الخَيراتِ. وأحسَنوا بالقولِ، والكلامِ اللَّيِّنِ، وأحسَنوا إلى المماليكِ، والبَهائمِ المَملوكةِ، وغيرِ المملوكةِ، ومِن أفضَلِ أنواعِ الإحسانِ في عبادةِ الخالِقِ: صَلاةُ اللَّيلِ الدَّالَّةُ على الإخلاصِ، وتَواطُؤِ القَلبِ واللِّسانِ، ولهذا قال: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ سؤالٌ: أنَّه تعالى مدَحَهم بقِلَّةِ الهُجوعِ، ولم يمدَحْهم بكثرةِ السَّهَرِ، فما قال: «كانوا كثيرًا مِنَ اللَّيلِ ما يَسهَرونَ»! فما الحِكمةُ فيه، مع أنَّ السَّهَرَ هو الكُلفةُ والاجتِهادُ لا الهُجوعَ؟!

الجوابُ: إشارةً إلى أنَّ نَومَهم عبادةٌ؛ حيثُ مدَحَهم اللهُ تعالى بكَونِهم

= الزَّكاةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

هاجِعينَ قَليلًا، وذلك الهُجوعُ أورَثَهم الاشتِغالَ بعِبادةٍ أُخرى، وهي الاستِغفارُ في وُجوهِ الأسحارِ، ومَنْعُهم مِن الإعجابِ بأنفُسِهم والاستِكبارِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ استِحبابُ قيامِ اللَّيلِ، وذَمُّ نَومِه كُلِّه[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ هذا كالمِثالِ لأعظَمِ إحسانِهم؛ فإنَّ ما ذُكِرَ مِن أعمالِهم دالٌّ على شِدَّةِ طاعتِهم لله؛ ابتِغاءَ مَرضاتِه، ببَذْلِ أشَدِّ ما يُبذَلُ على النَّفْسِ، وهو شَيئانِ؛ أوَّلُهما: راحةُ النَّفْسِ في وَقتِ اشتِدادِ حاجتِها إلى الرَّاحةِ، وهو اللَّيلُ كُلُّه، وخاصَّةً آخِرَه؛ إذ يكونُ فيه قائمُ اللَّيلِ قد تَعِبَ، واشتَدَّ طَلَبُه للرَّاحةِ. وثانيهما: المالُ الَّذي تَشِحُّ به النُّفوسُ غالِبًا، وقد تضَمَّنَت هذه الأعمالُ الأربعةُ أصْلَيْ إصلاحِ النَّفْسِ وإصلاحِ النَّاسِ، وذلك جِماعُ ما يَرمي إليه التَّكليفُ مِنَ الأعمالِ؛ فإنَّ صَلاحَ النَّفسِ تزكيةُ الباطِنِ والظَّاهِرِ، ففي قيامِ اللَّيلِ إشارةٌ إلى تزكيةِ النَّفسِ باستِجلابِ رِضا اللهِ تعالى، وفي الاستِغفارِ تَزكيةُ الظَّاهِرِ بالأقوالِ الطَّيِّبةِ الجالِبةِ لِمَرضاةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وفي جَعْلِهم الحَقَّ في أموالِهم للسَّائِلينَ نَفعٌ ظاهِرٌ للمُحتاجِ المُظهِرِ لحاجتِه، وفي جَعْلِهم الحَقَّ للمَحرومِ نَفعُ المحتاجِ المتعَفِّفِ عن إظهارِ حاجتِه، الصَّابِرِ على شِدَّةِ الاحتياجِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا يَتهَجَّدونَ ويَجتَهِدونَ، يُريدونَ أن يكونَ عَمَلُهم أكثَرَ مِن ذلك وأخلَصَ منه، ويَستَغفِرونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٨، ٣٤٩).

مِنَ التَّقصيرِ، وهذه سِيرةُ الكريمِ؛ يأتي بأبلَغِ وُجوهِ الكَرَمِ ويَستَقِلُّه، ويَعتَذِرُ مِنَ التَّقصيرِ! واللَّئيمُ يأتي بالقَليلِ ويَستَكثِرُه، ويَمُنُّ به[١]!

٧- أحسَنُ ما خُتِمت به الأعمالُ: التَّوبةُ والاستِغفارُ[٢]، قال تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فهذا مِن حُسْنِ عَمَلِهم، وعَدَمِ إعجابِهم بأنفُسِهم، وكَونِهم يَشعُرونَ بأنَّهم وإنِ اجتَهَدوا فهم مُقَصِّرُون، فيَستَغفِرونَ اللهَ بعدَ فِعلِ الطَّاعةِ؛ جَبرًا لِمَا حَصَلَ فيها مِن خَللٍ، ويُشرَعُ في نهايةِ العباداتِ أن يَستغفِرَ الإنسانُ ربَّه ممَّا قد يكونُ فيها مِن خَلَلٍ؛ فبَعْدَ الصَّلاةِ يَستغفِرُ الإنسانُ ربَّه ثلاثًا، وبعدَ الحجِّ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]، فهم يَسألونَ المغفرةَ بعدَ تهجُّدِهم وقيامِهم[٣]، فهذا ونحوُه مما يُبيِّنُ حقيقةَ الأمرِ، وأنَّ كلَّ أحدٍ محتاجٌ إلى مغفرةِ الله ورحمتِه، وأنَّه لا سبيلَ إلى النَّجاةِ بدونِ مغفرتِه ورحمتِه أصلًا[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ فيها الدَّلالةُ المعروفةُ عِندَ أهلِ الأُصولِ بدَلالةِ الإيماءِ والتَّنبيهِ[٥] على أنَّ سَبَبَ نَيلِ هذه الجَنَّاتِ والعُيونِ هو تَقْوى اللهِ، والسَّبَبُ الشَّرعيُّ هو العِلَّةُ الشَّرعيَّةُ على الأصَحِّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٢٨٧).

(٥) دلالةُ الإيماءِ والتَّنبيهِ ضابطُها: أن يُذكرَ وصْفٌ مُقترِنٌ بحُكمٍ في نصٍّ مِن نصوصِ الشَّرعِ على وجهٍ لو لم يكُنْ ذلك الوصفُ علَّةً لذلك الحُكمِ لَكان الكلامُ معيبًا. يُنظر: ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٦) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٩).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ سُؤالٌ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَعُيُونٍ﴾ يَقتَضي أن يكونَ المتَّقي فيها، ولا لذَّةَ في كَونِ الإنسانِ في ماءٍ أو غيرِ ذلك مِنَ المائعاتِ.

الجوابُ: أنَّ معناه: في خِلالِ العُيونِ، وذلك بيْنَ الأنهارِ؛ بدَليلِ أنَّ قَولَه تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ ليس معناه إلَّا بينَ جَنَّاتٍ، وفي خِلالِها؛ لأنَّ الجنَّةَ هي الأشجارُ، وإنَّما يكونُ بَيْنَها، كذلك القَولُ في العُيونِ[(١)].

٣- أنَّ الصَّلاةَ باللَّيلِ مِن مُوجِباتِ الجنَّةِ، وقد دلَّ عليه قَولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾، فوَصَفهم بالتَّيَقُّظِ باللَّيلِ، والاستِغفارِ بالأسحارِ، وبالإنفاقِ مِن أموالِهم[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ دليلٌ على أُمورٍ؛ منها: قَبولُهم له، ومنها: رِضاهم به، ومنها: وُصولُهم إليه بلا مانِعٍ ولا عائِقٍ، ومنها: أنَّ جَزاءَهم مِن جِنسِ أعمالِهم؛ فكما أَخذوا ما أَمَرَهم به في الدُّنيا وقابَلوه بالرِّضا والتَّسليمِ وانشِراحِ الصَّدْرِ، أَخذوا ما آتاهم مِن الجَزاءِ كذلك[(٣)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ فَضلُ اختِصاصِ اللَّيلِ، وكذا في قَولِه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وقَولِه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقَولِه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠]، وقَولِه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١).

ومِنَ السُّنَّةِ قَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا كان ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ يَنزِلُ رَبُّنا إلى سَماءِ الدُّنيا)) الحديثَ[١]. وهذا يدُلُّ على أنَّ اللَّيلَ أخَصُّ بالنَّفَحاتِ الإلهيَّةِ، وبتجَلِّياتِ الرَّبِّ سُبحانَه لعبادِه؛ وذلك لِخُلُوِّ القَلبِ، وانقِطاعِ الشَّواغِلِ. وسُكونُ اللَّيلِ ورَهبتُه أقوى على استِحضارِ القَلبِ وصَفائِه[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم لا يُخْلُونَ وَقتًا عن العِبادةِ؛ فإنَّهم باللَّيلِ لا يَهجَعونَ، ومع أوَّلِ جُزءٍ مِنَ السَّحَرِ يَستَغفِرونَ؛ فيَكونُ فيه بيانُ كَونِهم مُستَغفِرينَ مِن غَيرِ أن يَسبِقَ منهم ذَنبٌ[٣]!

٧- الزَّكاةُ واجِبةٌ في عُروضِ التِّجارةِ عندَ أكثرِ أهلِ العِلمِ، وهو القَولُ الصَّحيحُ المُتعيِّنُ، والدَّليلُ على ذلك: دُخولُها في عُمومِ قَولِه تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ تأمَّلْ حِكمةَ الرَّبِّ تعالى في كَونِه حَرَمه بقَضائِه، وشَرَع لأصحابِ الجِدَةِ إعطاءَه، وهو أغنى الأغنياءِ، وأجودُ الأجوَدِينَ! فلم يَجْمَعْ عليه بيْنَ الحِرمانِ بالقَدَرِ وبالشَّرْعِ،

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٦/ ١٣٨).

تجِبُ الزَّكاةُ في عُروضِ التِّجارةِ باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحنفيَّة، والمالكيَّة، والشافعيَّة، والحَنابِلَة. يُنظر: ((تبيين الحقائق للزيلعي مع حاشية الشلبي)) (١/ ٢٧٩)، ((الشرح الكبير للدردير مع حاشية الدسوقي)) (١/ ٤٧٢)، ((المجموع)) للنووي (٦/ ٤٧)، ((كشاف القناع)) للبهوتي (٢/ ٢٤٠).

وقد حُكِيَ في ذلك الإجماعُ. يُنظر: ((الأموال)) لأبي عبيد (ص: ٥٢٥)، ((الإشراف)) لابن المنذر (٣/ ٨١).

فشَرَعَ عَطاءَه بأمرِه، وحَرَمه بقَدَرِه، فلم يَجْمَعْ عليه حِرمانَين[١]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ...﴾ اعتِراضٌ قابَلَ به حالَ الكافرين في يومِ الدِّينِ، جَرَى على عادةِ القرآنِ في إتْباعِ النِّذارةِ بالبِشارةِ، والتَّرهيبِ بالتَّرغيبِ[٢].

- قَولِه: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ جُمِعَتْ باعتبارِ أنواعِها وأصنافِها، وقد جاءتْ في القُرآنِ مُفرَدةً، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، فهي مُفردةٌ باعتبارِ الجنسِ، ومَجموعةٌ باعتبارِ النَّوعِ[٣]. وقيل: جُمِعَ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ باعتِبارِ جَمْعِ المُتَّقينَ، وهي جَنَّاتٌ كثيرةٌ مُختلِفةٌ، وتنْكيرُها للتَّعظيمِ[٤]. وقيل: لأنَّها بالنِّسبةِ إلى الدُّنيا وبالإضافةِ إلى جِنانِها جَنَّاتٌ لا يَحصُرُها عَددٌ، ووحَّدها لأنَّها لاتِّصالِ المنازلِ والأشجارِ والأنهارِ كجنَّةٍ واحدةٍ، وقد ثنَّاها في قولِه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]؛ فقيل: يَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ جِنسَينِ مِن الجنَّاتِ، وقد ذُكِرَت الجنَّاتُ في القُرآنِ بصِيغةِ الجمْعِ غيرَ مرَّةٍ، فالمرادُ جِنسانِ مِن الجنَّاتِ. ويجوزُ أنْ تكونَ التَّثنيةُ مُستعمَلةً كِنايةً عن التَّعدُّدِ، وإيثارُ صِيغةِ التَّثنيةِ هنا لِمُراعاةِ الفواصلِ السَّابِقةِ واللَّاحقةِ؛ فقد بُنِيَت قرائنُ السُّورةِ عليها، والقرينةُ ظاهرةٌ،

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧).

وعلى هذا فجَميعُ ما أُجرِيَ بصِيغةِ التَّثنيةِ في شأْنِ الجنَّتينِ فمُرادٌ به الجمْعُ. وقيل: المرادُ بالجنَّتينِ جنَّةٌ واحدةٌ، وإنَّما ثَنَّى مُراعاةً للفواصلِ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ختَمَ الآيةَ هنا بقولِه: ﴿وَعُيُونٍ﴾، وقال: ﴿ءَاخِذِينَ﴾، وقالَ في سُورةِ (الطُّورِ): ﴿وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ﴾ [الطور: ١٧، ١٨]، وليس ذلك بتَكرارٍ؛ لأنَّ ما هنا مُتَّصِلٌ بما به يصِلُ الإنسانُ إلى الجنَّاتِ، وهو قولُه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذَّاريات: ١٦] الآياتِ، وما في (الطُّورِ) مُتَّصِلٌ بما يَنالُه الإنسانُ فيها، وهو قولُه: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ [الطور: ١٨، ١٩] الآياتِ[٣].

- قولُه: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾، أي: قابِلون ما أعْطاهم، أي: راضُون به؛ فالأخذُ مُستعمَلٌ في صَريحِه وكِنايتِه كِنايةً رَمْزيةً عن كَونِ ما يُؤتَونَه أكمَلَ في جِنسِه؛ لأنَّ مَدارِكَ الجماعاتِ تَختلِفُ في الاستِجادةِ، حتَّى تَبلُغَ نِهايةَ الجَودةِ، فيَستوي النَّاسُ في استِجادتِه، وهي كِنايةٌ تَلْويحيَّةٌ[٤]، أي: رمزيَّةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٥) و(٢٩/ ٣٧٠، ٣٧١)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٤).

(٤) تَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازمِ) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء؛ فالتَّعريضُ اصطِلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ؛ نحو قولِك للمؤْذِي: «المسلِمُ مَن سَلِمَ المسلمون مِن لِسانِه ويَدِه»؛ تعريضًا بنَفيِ صِفةِ الإسلامِ عن المؤذِي. والتَّلويحُ اصطِلاحًا: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تَعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزومِ بواسِطةِ لَوازِمَ؛ نحو قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْعٍ: (زَوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ =

عن المقصودِ[١].

- وفي إيثارِ التَّعبيرِ عن الجَلالةِ بوَصْفِ (رب) مُضافٍ إلى ضَميرِ المُتَّقينَ ﴿رَبُّهُمْ﴾: مَعنًى مِن اختِصاصِهم بالكرامةِ، والإيماءُ إلى أنَّ سَببَ ما آتاهم هو إيمانُهم برُبوبيَّتِه المُختصَّةِ بهم، وهي المُطابِقةُ لصِفاتِ اللهِ تعالى في نفْسِ الأمرِ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، أي: كان ذلك جَزاءً لهم عن إحسانِهم[٣].

- وفائدةُ الظَّرفِ في قولِه: ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أنْ يُؤتَى بالإشارةِ إلى ما ذُكِرَ مِن الجنَّاتِ والعيونِ، وما آتاهم ربُّهم ممَّا لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلْبِ بشَرٍ؛ فيَحصُلُ بسَببِ تلك الإشارةِ تَعظيمُ شأنِ المُشارِ إليه، ثمَّ يُفادُ بقَولِه: ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ -أي: قبْلَ التَّنعُّم به- أنَّهم كانوا مُحسِنينَ، أي: عامِلينَ الحَسَناتِ، كما فسَّرَه قولُه: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ...﴾ الآياتِ؛ فالمعنى: أنَّهم كانوا في الدُّنيا مُطيعينَ للهِ تعالى، واثِقينَ بوَعْدِه ولم يَرَوْه[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ

= الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي تدلُّ على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الأكَلةِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي تدلُّ على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقَلَ الفِكرُ إلى جملةٍ وسائطَ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥-١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦- ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ بدَلٌ مِن جُملةِ ﴿كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ بدَلَ بَعضٍ مِن كلٍّ؛ لأنَّ هذه الخِصالَ الثَّلاثَ هي بَعضٌ مِن الإحسانِ في العَملِ[(١)].

- قَولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ خَصَّه بذلك؛ لأنَّ النَّومَ القَليلَ بالنَّهارِ قد يُوجَدُ مِن كُلِّ أحَدٍ، وأمَّا اللَّيلُ فهو زَمانُ النَّومِ، ولا يَسهَرُه في الطَّاعةِ إلَّا مُتعَبِّدٌ مُقبِلٌ[(٢)].

- وحرْفُ (ما) في قَولِه: ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ صِلةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى: كانوا يَهجَعون قليلًا مِن اللَّيلِ، أو كانُوا يَهجَعونَ في طائفةٍ قليلةٍ منَ اللَّيلِ، أو مَصدريَّةٌ، أو مَوصولةٌ، أي: في قليلٍ مِن اللَّيلِ هُجوعُهم، أو ما يَهجَعون فيه[(٣)].

- وقد اشتمَلَت جُملةُ ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ على خَصائصَ مِن البلاغةِ:

أُولاها: فِعلُ الكَونِ في قولِه: (كانوا) الدَّالُّ على أنَّ خَبرَها سُنَّةٌ مُتقرِّرةٌ.

الثَّاني: العُدولُ عن أنْ يُقالَ: كانوا يُقيمونَ اللَّيلَ، أو كانوا يُصَلُّون في جَوفِ اللَّيلِ، إلى قولِه: ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾؛ لأنَّ في ذِكرِ الهُجوعِ تَذكيرًا بالحالةِ الَّتي تَميلُ إليها النُّفوسُ فتَغلِبُها وتَصرِفُها عن ذِكرِ اللهِ تعالى، فكان في الآيةِ إطنابٌ اقتَضاهُ تَصويرُ تلك الحالةِ، والبليغُ قد يُورِدُ في كَلامِه ما لا تَتوقَّفُ عليه استِفادةُ المَعنى إذا كان يَرْمي بذلك إلى تَحصيلِ صُوَرِ الألفاظِ المَزيدةِ.

الثَّالثُ: التَّصريحُ بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ للتَّذكيرِ بأنَّهم ترَكوا النَّومَ في الوقتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٨، ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٩).

الَّذي مِن شَأنِه استِدعاءُ النُّفوسِ للنَّومِ فيه؛ زِيادةً في تَصويرِ جَلالِ قِيامِهم اللَّيلَ، وإلَّا فإنَّ قولَه: (كانوا قليلًا ما يَهجَعون) يُفيدُ أنَّه مِن اللَّيلِ.

الرَّابعُ: تَقييدُ الهُجوعِ بالقليلِ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم لا يَستكمِلون مُنتهى حَقيقةِ الهُجوعِ، بلْ يأخُذون منه قليلًا.

الخامسُ: المُبالَغةُ في تَقليلِ هُجوعِهم؛ لإفادةِ أنَّه أقَلُّ ما يَهْجَعُه الهاجِعُ[(١)].

- وفي بِناءِ الفعلِ على الضَّميرِ في قولِه: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ إشعارٌ بأنَّهم أحِقَّاءُ بذلك؛ لِوُفورِ عِلْمِهم باللهِ، وخَشْيتِهم منه، فكأنَّهم المُختصُّون به؛ لاستِدامتِهم له، وإطنابِهم فيه[(٢)]. وقيل: صِيغَ استِغفارُهم بأُسلوبِ إظهارِ اسمِ المسنَدِ إليه ﴿هُمۡ﴾، دونَ ضَميرِه -حيثُ لم يقُلْ: (وَبِالْأَسْحَارِ يَستغفِرون)-؛ لقصْدِ إظهارِ الاعتناءِ بهم، ولِيقَعَ الإخبارُ عن المُسنَدِ إليه بالمُسنَدِ الفِعليِّ، فيُفيدَ تَقوِّيَ الخبَرِ؛ لأنَّه مِن النُّدرةِ بحيثُ يَقتضي التَّقويةَ؛ لأنَّ الاستِغفارَ في السَّحَرِ يَشُقُّ على مَن يقومُ اللَّيلَ؛ لأنَّ ذلك وقتُ إعيائِه[(٣)].

- والأسحارُ: جمْعُ سَحَرٍ، وهو آخِرُ اللَّيلِ، وخُصَّ هذا الوقتُ؛ لكَونِه يَكثُرُ فيه أنْ يَغلِبَ النَّومُ على الإنسانِ فيه، فصَلاتُهم واستِغفارُهم فيه أعجَبُ مِن صَلاتِهم في أجزاءِ اللَّيلِ الأُخرى. وجُمِعَ الأسحارُ باعتبارِ تَكرُّرِ قِيامِهم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٠، ٣٥١).

كلِّ سَحَرٍ[١].

- وتَقديمُ ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾ على ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ للاهتِمامِ به[٢].

- قولُه: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ في قولِه: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أضافَ المالَ إليهم، وقال في مَواضِعَ: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [يس: ٤٧]، وقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]؛ فأضافَ الرِّزقَ إليه سُبحانَه؛ وسبَبُ هذا أنَّ في تلك المواضِعِ كان الذِّكرُ للحَثِّ، فذُكِرَ معه ما يَدفَعُ الحثَّ ويَرفَعُ المانعَ؛ فقال: هو رِزقُ اللهِ، واللهُ يَرزُقُكم، فلا تَخافوا الفقْرَ وأعْطُوا، وأمَّا هاهنا فمَدْحٌ على ما فَعَلوه؛ فلم يكُنْ إلى الحِرصِ حاجةٌ[٣].

- قيل: لَمَّا كان مَآلُ أمْرِ مَن لم يَسأَلِ النَّاسَ إلى ما يَؤولُ إليه أمْرُ المحرومِ أُطلِقَ عليه لَفظُ المحرومِ تَشبيهًا به، في أنَّه لا تَصِلُ إليه مُمكِناتُ الرِّزقِ بعدَ قُربِها منه؛ فكأنَّه نالَه حِرمانٌ. والمقصودُ مِن هذا الإطلاقِ تَرقيقُ النُّفوسِ عليه، وحثُّ النَّاسِ على البحثِ عنه ليَضَعوا صَدقاتِهم في مَوضعٍ يُحِبُّ اللهُ وضْعَها فيه[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾، وقال في سُورةِ (المعارج): ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]؛ فزِيدَت الصِّفةُ في سُورةِ (المعارج) ﴿مَّعْلُومٌ﴾، وسقَطَت مِن (الذَّارياتِ)؛ وذلك لأنَّ آيةَ (المعارجِ) قد تَقدَّمَها مُتَّصِلًا بها قولُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥١).

تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢٢]، والمرادُ بالصَّلاةِ هنا المكتوبةُ، وأيضًا يُقرَنُ بها في آيِ الكتابِ الزَّكاةُ المفروضةُ، وبها فُسِّرَ الحقُّ المعلومُ في آيةِ (المعارِجِ)؛ وهذا لأنَّها مُقدَّرةٌ مَعلومةٌ، وليس في المالِ حقٌّ مُقدَّرٌ مَعلومٌ وقْتًا ونِصابًا ووُجوبًا غيرَها، فلمَّا أُريدَ بالحقِّ هنا الزَّكاةُ، أُتبِعَ بوَصْفٍ يُحرِزُ المَقصودَ. ولَمَّا قُصِدَ في آيةِ (الذَّارياتِ) غيرُ هذا المَقصدِ؛ بدَليلِ ما تَقدَّمَها مِن وصَفِ هؤلاء بطُولِ صَلاتِهم وتَهجُّدِهم ومُداومتِهم الاستِغفارَ في الأسحارِ؛ فذُكِروا بزِيادةٍ مِن التَّطوُّعِ والنَّفلِ على ما فُرِضَ عليهم -على أحدِ الأقوالِ-؛ فناسَبَ هذا الإطلاقُ الواردُ في إنفاقِهم ليُفهِمَ الزِّيادةَ على ما فُرِضَ عليهم مِن الزَّكاةِ المُقدَّرةِ، ولم يكُنْ لِيُناسِبَ هنا الإشارةُ إلى قدْرِ المَنْفوقِ كما في سُورةِ (المعارِجِ)، ولم يكُنْ عكْسُ الواردِ لِيُناسِبَ، واللهُ أعلَمُ[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٥٠).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ فيه أوجُهٌ:

أحدُها: أنَّ ﴿مِّثْلَ﴾ نَعتٌ لـ (حَقٌّ) مبنيٌّ على الفَتحِ في محَلِّ رَفعٍ، وإنَّما بُنِيَ لإضافتِه إلى مَبنيٍّ وهو ﴿أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾، وعليه فـ ﴿مَآ﴾ زائِدةٌ للتَّأكيدِ.

الثَّاني: أنَّ ﴿مِّثْلَ﴾ نَعتٌ مَنصوبٌ لِمَصدرٍ محذوفٍ، أي: لَحَقٌّ حَقًّا مِثلَ نُطقِكم.

الثَّالِثُ: أنَّه حالٌ مَنصوبٌ مِنَ الضَّميرِ المرفوعِ في ﴿لَحَقٌّ﴾ أو مِن نفْسِ (حَقٌّ) وإن كان نَكِرةً، على مَذهَبِ سِيبَويهِ. و﴿مَآ﴾ على هذه الوُجوهِ المتقَدِّمةِ زائِدةٌ أيضًا، والمصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ في محَلِّ جَرٍّ بإضافةِ ﴿مِّثْلَ﴾ إليه، والتَّقديرُ: إنَّه لحَقٌّ مِثلَ نُطقِكم. وقيل في توجيهِ ﴿مِّثْلَ﴾ غَيرُ ذلك[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى داعيًا عبادَه إلى التَّفكُّرِ والاعتبارِ: وفي الأرضِ دَلائِلُ وعَلاماتٌ على تَوحيدِ اللهِ وقُدرتِه على بَعثِ عِبادِه، للمُوقِنينَ به، وفي أنفُسِكم دَلائِلُ وعَلاماتٌ على توحيدِ اللهِ وقُدرتِه، أفلا تُبصِرونَ تلك الدَّلائِلَ الَّتي في نُفوسِكم؟!

وفي السَّماءِ رِزقُكم مِن الأمطارِ، وصنوفِ الأقدارِ المكتوبةِ، وفيها ما وُعِدْتُم به.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٤)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٦١)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٧).

ثمَّ يقولُ تعالى مُقسِمًا: فوَرَبِّ السَّماءِ والأرضِ إنَّه لحَقٌّ ثابتٌ لا شَكَّ فيه، كما أنَّكم تَنطِقونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

بعدَ أن ذكَر أوصافَ المتَّقينَ، بيَّن أنَّه قد لاحَتْ لهم الأدِلَّةُ الأرضيَّةُ والسَّماويَّةُ الَّتي بها أخْبَتوا إلى ربِّهم، وأنابوا إليه، فقال[1]:

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

أي: وفي الأرضِ دَلائِلُ وعَلاماتٌ على تَوحيدِ اللهِ وحِكمتِه، ورَحمتِه وقُدرتِه على بَعثِ عِبادِه، وغَيرِها مِن صِفاتِ كَمالِه، وذلك للمُوقِنينَ باللهِ ولِقائِه وصِدقِ رُسُلِه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩٥- ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٦، ١٢٧).

قال الشوكاني: (﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي: دلائِلُ واضِحةٌ وعلاماتٌ ظاهِرةٌ مِنَ الجِبالِ، والبَرِّ والبَحرِ، والأشجارِ والأنهارِ والثِّمارِ، وفيها آثارُ الهَلاكِ للأُمَمِ الكافِرةِ المكَذِّبةِ لِما جاءت به رُسُلُ اللهِ، ودَعَتْهم إليه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠١). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٤١).

وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٣، ٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ * وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ * لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ * سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٦].

وقال تقدَّست أسماؤه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال جَلَّ شأنُه: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا * ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا * فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا * وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا * وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا * وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا * وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا * مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ ﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أشار إلى آياتِ الآفاقِ؛ أتْبَعَها آياتِ الأنفُسِ، فقال[1]:

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ ﴾.

أي: وفي أنفُسِكم دَلائِلُ وعَلاماتٌ على توحيدِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه ورَحمتِه وحِكمتِه، وغَيرِ ذلك مِن صِفاتِ كَمالِه، أفلا تُبصِرونَ تلك الدَّلائِلَ الَّتي في نُفوسِكم[2]؟!

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١٩، ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٠)، ((تفسير =

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾.

أي: وفي السَّماءِ رِزقُكم مِن الأمطارِ، وصُنوفِ الأقدارِ المكتوبةِ[1]، وفي السَّماءِ

= البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٠٣- ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٨، ١٢٩).

قيل: المعنى: وفي خَلْقِ أنفُسِكم حينَ كانت نُطْفةً ثمَّ عَلَقةً ثمَّ مُضْغةً ثمَّ عَظْمًا ثمَّ لَحْمًا إلى أن نُفِخَ فيها الرُّوحُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٤).

قال السَّمْعاني: (الأَولى أن يُقالَ: هو سائِرُ الآياتِ الَّتي في النَّفْسِ مِمَّا يدُلُّ على أنَّ لها خالِقًا وصانِعًا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٥).

وقال القاسمي: (﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أي: في حالِ ابتِدائِها وتنَقُّلِها مِن حالٍ إلى حالٍ، واختِلافِ ألسِنَتِها وألوانِها، وما جُبِلَت عليه مِنَ القُوى والإراداتِ، وما بيْنَها مِن التَّفاوُتِ في العُقولِ والأفهامِ، وما في تراكيبِ أعضائِها مِنَ الحِكَمِ في وَضعِ كُلِّ عُضوٍ منها في المحَلِّ المُفتَقِرِ إليه، إلى غيرِ ذلك ممَّا لا يُحصيه قَلَمُ كاتبٍ، ولا لِسانُ بَليغٍ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٩).

والخِطابُ قيل: إنَّه مُوَجَّهٌ إلى المُشرِكين. وممَّن اختاره: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٣).

(١) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ أي: المطَرُ -ومِنهم مَن ذكَر معه الثَّلجَ-: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والنسفي، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٨).

ونَسَب ابنُ الجوزيِّ هذا القَولَ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٩).

قال الثعلبي: (يعني: المطَرَ والثَّلجَ اللَّذينِ بهما تُخرِجُ الأرضُ النَّباتَ الَّذي هو سَبَبُ الأقواتِ.

وقال بعضُ أهلِ المعاني: معناه: وفي المطَرِ والنَّباتِ سَبَبُ رِزقِكم، فسُمِّيَ المطَرُ سَماءً؛ لأنَّه =

ما وُعِدْتُم به كذلك[(١)].

= عن السَّماءِ يَنزِلُ). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٣).

وقال البِقاعي: (قال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: جهةِ العُلُوِّ ﴿رِزۡقُكُمۡ﴾ بما يأتي مِن المطَرِ والرِّياحِ والحَرِّ والبَردِ وغيرِ ذلك ممَّا رَتَّبَه سبحانه لِمَنافِعِ العِبادِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٥٨).

وقال السعدي: (وقولُه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ أي: مادَّةُ رزقِكم، مِنَ الأمطارِ، وصُنوفِ الأقدارِ؛ الرِّزقُ الدِّينيُّ والدُّنْيويُّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

وقال ابنُ عثيمين: (إنَّ في السَّماءِ رِزقًا مِنَ المطَرِ، وما كتَبَه اللهُ لنا في اللَّوحِ المحفوظِ مِنَ المصالِحِ والمنافِعِ الجَسَديَّةِ مِن أموالٍ وبَنينَ وغَيرِ ذلك، فيكونُ هذا القَولُ أشمَلَ وأعَمَّ، فنأخُذُ بالأعَمِّ؛ لأنَّ الأعَمَّ يَدخُلُ فيه الأخَصُّ، ولا عَكْسَ، فالمرادُ بالرِّزقِ ما هو أعَمُّ مِن المطَرِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣١) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٠، ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢١، ٤٢٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٦، ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٠-١٣٢).

في معنى قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أقوالٌ؛ منها: أنَّه أمْرُ السَّاعةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الرَّبيعُ، وابنُ سِيرينَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٤٣).

ومنها: أنَّ المرادَ: العذابُ السَّماويُّ؛ لأنَّ مؤاخَذاتِ المكذِّبينَ الأوَّلينَ كانت مِن جِهَتِها، والخِطابُ لِمُشركي مكَّةَ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٠).

ومنها: أنَّه كُلُّ ما وُعِدَ به العِبادُ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وثَوابٍ أو عِقابٍ، في الدُّنيا والآخرةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

قال السعدي: (﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ مِنَ الجَزاءِ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فإنَّه يَنزِلُ مِن عندِ اللهِ، كسائِرِ الأقدارِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ في الجملةِ: مُجاهِدٌ، وعطاءٌ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٢)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٤٣).=

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ: ((كتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخلائِقِ قبْلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألْفَ سَنةٍ))(١).

= وقيل: المرادُ: الجنَّةُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ الجوزي، وابنُ القيِّم، والنَّيسابوريُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٦)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٩).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: سفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤١).

وقال الرَّازي: (﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ إمَّا مِن الجنَّةِ والنَّارِ في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الذاريات: ١٣] وقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ﴾ [الذاريات: ١٥]؛ فيَكونُ إيعادًا عامًّا، وإمَّا مِن العذابِ؛ وحينَئذٍ يكونُ الخِطابُ مع الكفَّارِ، فيَكونُ كأنَّه تعالى قال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ كافيةٌ، وأمَّا أنتم أيُّها الكافِرون ففي أنفُسِكم آياتٌ هي أظهَرُ الآياتِ، وتَكفُرون بها لِحُطامِ الدُّنيا، وحُبِّ الرِّياسةِ، وفي السَّماءِ الأرزاقُ، فلو نظَرْتُم وتأمَّلْتُم حقَّ التَّأمُّلِ لَمَا ترَكْتُم الحقَّ لأجْلِ الرِّزقِ؛ فإنَّه واصلٌ بكلِّ طريقٍ، ولَاجْتَنَبْتُم الباطِلَ؛ اتِّقاءً لِما تُوعَدونَ مِن العذابِ النَّازِلِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٢).

قال الشَّوكاني: (والأَولى الحَملُ على ما هو أعَمُّ مِن هذه الأقوالِ؛ فإنَّ جزاءَ الأعمالِ مَكتوبٌ في السَّماءِ، والقَضاءُ والقَدَرُ يَنزِلُ منها، والجنَّةُ... فيها). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن سُبحانَه الآياتِ، ونَبَّه عليها تنبيهًا يَنتَبِهُ به الذَّكيُّ اللَّبيبُ؛ أقسَمَ تعالى على أنَّ وَعْدَه وجَزاءَه حَقٌّ، وشَبَّه ذلك بأظهَرِ الأشياءِ لنا، وهو النُّطقُ، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾، فكما لا تَشُكُّونَ في نُطقِكم فكذلك لا يَنبغي الشَّكُّ في البَعثِ بعدَ المَوتِ[1].

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: أُقسِمُ برَبِّ السَّماءِ والأرضِ إنَّه لحَقٌّ ثابتٌ لا شَكَّ فيه، كما أنَّكم تَنطِقونَ حَقيقةً بلا خيالٍ ولا سِحرٍ، ودونَ أدنى شَكٍّ منكم في ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤١، ٤٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٥، ١٧٦، ٤٢٢، ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٩، ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٢، ١٣٣).

قال الشوكاني: (﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي: ما أُخبِرُكم به في هذه الآياتِ. قال الزَّجَّاجُ: هو ما ذُكِرَ مِن أمرِ الرِّزقِ والآياتِ. قال الكلبيُّ: يعني: ما قَصَّ في الكتابِ. وقال مقاتلٌ: يعني: مِن أمرِ السَّاعةِ. وقيل: إنَّ «ما» في قولِه: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ مُبتدأٌ، وخَبَرُه ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾؛ فيكونُ الضَّميرُ لـ «ما»). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٢٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٤).

واختار ابنُ جريرٍ أنَّ مَرجِعَ الضَّميرِ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٦).

واختار الرَّازي أن الضَّميرَ راجِعٌ إلى القرآنِ، أي: إنَّ القرآنَ حَقٌّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٢). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۞ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ دَعوةٌ منه سُبحانَه لعبادِه إلى التَّفَكُّرِ والاعتِبارِ، فقولُه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ﴾ شامِلٌ لِنَفْسِ الأرضِ وما فيها مِن جِبالٍ وبحارٍ، وأنهارٍ وأشجارٍ، ونباتٍ: تدُلُّ المتفكِّرَ فيها المُتأمِّلَ لِمَعانيها على عَظَمةِ خالِقِها، وسَعةِ سُلطانِه، وعَميمِ إحسانِه، وإحاطةِ عِلْمِه بالظَّواهِرِ والبواطِنِ، وكذلك في نفْسِ العَبدِ مِنَ العِبَرِ والحِكمةِ والرَّحمةِ ما يدُلُّ على أنَّ اللهَ وَحْدَه الأحَدُ الفَردُ الصَّمَدُ، وأنَّه لم يَخلُقِ الخَلْقَ سُدًى[(١)]! فهي دَعوةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ لعِبادِه أنْ يَتبَصَّروا في الآياتِ، فمَن لم يَتبَصَّرْ في الآياتِ فلْيَعلَمْ أنَّه مَحرومٌ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۞ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ كُلَّما نَظَرَ في الآياتِ الكونيَّةِ الَّتي هي المخلوقاتُ، ازداد عِلمًا بخالِقِه ومَعبودِه[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ تَنبيهٌ منه سُبحانَه لنا على فِعْلِه

= قال ابنُ عثيمين: (﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ الفاءُ عاطِفةٌ، والواوُ للقَسَمِ، ورَبُّ السَّماءِ والأرضِ: هو اللهُ عزَّ وجَلَّ، أقسَمَ بنَفْسِه تبارك وتعالى بمُقتَضى ربوبيَّتِه للسَّماءِ والأرضِ أنَّ ما يُوعَدونَ حَقٌّ؛ لأنَّه قال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۞ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾، أي: ما تُوعَدونَ. ويَحتَمِلُ أن يكونَ الضَّميرُ عائدًا للقُرآنِ، ويحتمِلُ أيضًا أنَّه عائدٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعاني الثَّلاثةُ كُلُّها مُتلازِمةٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١٩).

فينا[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أنَّه مِن مِعناه: أنَّك لا تَشتَغِلْ برِزقٍ؛ فإنَّه في السَّماءِ، ولا سَبيلَ لك إلى العُروجِ إليها، واشتَغِلْ بما كُلِّفْتَه مِن الخِدمةِ لِمَن عِندَه الرِّزقُ؛ ففي السَّماءِ الرِّزقُ، وإليها يُرفَعُ العَمَلُ، فإنْ أردْتَ أن يَنزِلَ إليك رِزقُك فأَصعِدْ إليها الصَّالِحَ مِن عَمَلِك؛ ولهذا قالوا: «الصَّلاةُ قَرعُ بابِ الرِّزقِ»، ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ﴾[٢] [طه: ١٣٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ لم يُبَيِّنِ اللهُ هذه الآياتِ، بل جاءتْ مُنَكَّرَةً؛ لِيَشملَ كلَّ آيةٍ في الأرضِ؛ سواءٌ كانتِ الآياتُ فيما يَحدثُ فيها مِن الحوادثِ، أو كانت في نَفْسِ طبيعةِ الأرضِ وتركيبِ الأرضِ؛ فإنَّ فيها آياتٍ عظيمةً مِن حيثُ التَّركيبُ، كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ [الرعد: ٤]، فتَجِدُ الحَجَرَ الواحدَ يَشتمِلُ على عدَّةِ مَعادِنَ، وهو حَجَرٌ واحدٌ! وترى أحيانًا كقَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ [فاطر: ٢٧]! وتَجِدُ فيها الأرضَ اللَّيِّنةَ الرِّخْوةَ، والأرضَ الصُّلبةَ إلى غيرِ ذلك ممَّا يَعرِفُه عُلَماءُ (الجيولوجيا) مِن الآياتِ العظيمةِ، وفيها آياتٌ مِن جهةِ الحوادثِ الَّتي تَحدُثُ فيها مِن الزَّلازلِ والبراكينِ وغيرِها، وفيها آياتٌ أيضًا مِن جهةِ طبيعةِ الجوِّ مِن حَرٍّ وبرْدٍ، ورياحٍ عاصفةٍ، ورياحٍ باردةٍ، ورياحٍ دافئةٍ، وغيرِ ذلك ممَّا إذا تأمَّلَه الإنسانُ عَرَف به قدرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ مِن جهةٍ، وعَرَف حِكمتَه ورحمتَه أيضًا مِن جِهةٍ أخرى؛ لأنَّ آياتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى يَتبَصَّرُ بها الإنسانُ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٩).

مِن حيثُ القدرةُ والعَظَمةُ، ومِن حيثُ الحِكمةُ والرَّحمةُ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ تَجِدُه مُناسِبًا لِمَكانِه وزَمانِه، وكلَّ شيءٍ تَجِدُه مِن آثارِ رحمةِ اللهِ تبارك وتعالى، فكلمةُ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ نَكِرةٌ عامَّةٌ لكلِّ ما يَحدُثُ في الأرضِ مِن آياتٍ، ولكلِّ ما فيها مِن طبيعتِها، وتركيبِها، وغيرِ ذلك[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أنَّ الآياتِ المرموقةَ مِن أحوالِ الأرضِ صالِحةٌ للدَّلالةِ أيضًا على تفرُّدِه تعالى بالإلهيَّةِ في كيفيَّةِ خَلْقِها ودَحْوِها للحَيوانِ والإنسانِ، وكيف قُسِّمَت إلى سَهلٍ وجَبَلٍ وبَحرٍ، ونظامِ إنباتِها الزَّرعَ والشَّجَرَ، وما يَخرُجُ مِن ذلك مِن منافِعَ للنَّاسِ؛ ولهذا حُذِفَ تَقييدُ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بمتعَلَّقٍ؛ لِيَعُمَّ كُلَّ ما تَصلُحُ الآياتُ الَّتي في الأرضِ أن تدُلَّ عليه[٢].

٣- في الآياتِ الثَّلاثِ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ترتيبٌ حَسَنٌ؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ له أمورٌ يَحتاجُ إليها لا بُدَّ مِن سَبْقِها حتَّى يُوجَدَ هو في نَفْسِه، وأمورٌ تُقارِنُه في الوُجودِ، وأمورٌ تَلحَقُه وتُوجَدُ بَعْدَه؛ لِيبقَى بها؛ فالأرضُ هي المكانُ، وإليه يحتاجُ الإنسانُ، ولا بُدَّ مِن سَبْقِها؛ فقال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾، ثمَّ في نَفْسِ الإنسانِ أمورٌ مِن الأجسامِ والأعراضِ؛ فقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾، ثمَّ بقاؤُه بالرِّزقِ؛ فقال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾، ولولا السَّماءُ لَمَا كان للنَّاسِ البَقاءُ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أنَّها لا لكُلِّ إنسانٍ، بل للمُوقِنِ، أمَّا الشَّاكُّ والمتردِّدُ والكافرُ فإنَّه لن يَنتفِعَ بهذه الآياتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٧).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أنَّ هذا التَّكوينَ العَجيبَ كما يدُلُّ على إمكانِ الإيجادِ بعدَ المَوتِ يدُلُّ على تفَرُّدِ مُكَوِّنِه تعالى بالإلهيَّةِ؛ إذ لا يَقدِرُ على إيجادِ مِثلِ الإنسانِ غَيرُ اللهِ تعالى؛ فإنَّ بواطِنَ أحوالِ الإنسانِ وظواهِرَها عجائِبُ مِن الانتِظامِ والتَّناسُبِ، وأعجَبُها خَلقُ العَقلِ وحَرَكاتِه، واستِخراجُ المعاني، وخَلقُ النُّطقِ، والإلهامُ إلى اللُّغةِ، وخَلقُ الحواسِّ، وحَرَكةُ الدَّورةِ الدَّمَويَّةِ، واتِّساقُ الأعضاءِ الرَّئيسةِ وتفاعُلُها، وتسويةُ المفاصِلِ والعَضَلاتِ والأعصابِ والشَّرايينِ، وحالُها بيْنَ الارتخاءِ واليُبسِ؛ فإنَّه إذا غَلَب عليها التَّيبُّسُ جاء العَجزُ، وإذا غَلَب الارتِخاءُ جاء الموتُ[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى عَلامةِ الصَّنعةِ الموجودةِ في الإنسانِ؛ مِن يَدَينِ يَبطِشُ بهما، ورِجلَينِ يَمشي بهما، وعَينٍ مُبْصِرةٍ، وأُذُنٍ يَسمَعُ بها، ولِسانٍ يتكلَّمُ به، وأضراسٍ تَحدُثُ له عندَ غِناه عنِ الرَّضاعِ، وحاجتِه إلى الغِذاءِ، ومَعِدةٍ أُعِدَّتْ لطَبخِ الغِذاءِ، وكبدٍ يَسلُكُ إليها صَفْوُه، وعُروقٍ ومَعابِرَ يَنفُذُ منها إلى الأطرافِ، وأمعاءٍ يَرسُبُ إليها بَقيَّةُ الغِذاءِ، ويَبرُزُ عن أسفَلِ البَدَنِ[2]!

٧- قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ في إيثارِ صِيغةِ ﴿تُوعَدُونَ﴾ خُصوصيَّةٌ مِن خصائصِ إعجازِ القرآنِ؛ فإنَّ هذه الصِّيغةَ صالِحةٌ لأنْ تَكونَ مَصوغةً مِن الوعدِ؛ فيَكونَ وزْنُ (تُوعَدون): (تُفعَلون)، وهو مُضارِعُ (وعَدَ) مَبنيًّا للنَّائبِ، وصالِحةٌ لأنْ تكونَ مِن الإيعادِ، ووزنُه حينَئذٍ: (تُؤَفْعَلون)، مِثلُ تَصريفِ أُكرِمَ يُكرَمُ، وبذلك صار (تُوعَدون) مِثلَ تُكرَمونَ؛ فاحتمَلَت البِشارةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٥٠٦، ٥٠٧).

والإنذارَ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ ما أُوعِدوه يأْتيهم مِن قِبَلِ السَّماءِ -على قولٍ في التَّفسيرِ في معنى ﴿تُوعَدُونَ﴾-؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ * يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الدخان: ١٠، ١١]؛ فإنَّ ذلك الدُّخَانَ كان في طَبقاتِ الجوِّ[٢]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الدُّخانِ.

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ أنَّه سُبحانَه أقسَمَ مِن قَبْلُ بالأُمورِ الأرضيَّةِ -وهي الرِّياحُ-، وبالسَّماءِ في قَولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ [الذَّارِيات: ٧]، ولم يُقسِمْ برَبِّها، وهاهنا أقسَمَ برَبِّها. ووَجهُ ذلك: أنَّه كذلك التَّرتيبُ؛ يُقسِمُ المتكَلِّمُ أوَّلًا بالأدنى، فإنْ لم يُصَدَّقْ به يرتقي إلى الأعلى[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى ضَمِنَ أرزاقَ عبادِه، وتَكفَّلَ بها، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾[٤] [هود: ٦].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أنَّ الجنَّةَ في السَّماءِ، وليست في الأرضِ؛ لقولِه: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾، يعني: وفيه الَّذي تُوعدونَ، والَّذي نُوعدُ: الجنَّةُ، ولهذا قال اللهُ تعالى في قِصَّةِ آدمَ: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا﴾[البقرة: ٣٨]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٨٠).

والهبوطُ يكونُ مِن أعلى إلى أسفَلَ؛ فالجنَّةُ في السَّماءِ[١]. وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ بـ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾: الجنَّةُ.

١٢- يجوزُ للمُفتي والمناظِرِ أنْ يَحلِفَ على ثُبوتِ الحُكمِ عندَه، وإنْ لم يكُنْ حَلِفُه مُوجِبًا لثُبوتِه عندَ السَّائلِ والمُنازِعِ؛ لِيَشعُرَ السَّائلُ والمُنازِعُ له أنَّه على ثِقةٍ ويَقينٍ ممَّا قال له، وأنَّه غيرُ شاكٍّ فيه؛ قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾، وقد أمر اللهُ نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَحلِفَ على ثُبوتِ الحَقِّ الَّذي جاء به، في ثلاثةِ مَواضِعَ مِن كِتابِه؛ في سورةِ يُونُسَ الآية (٥٣): ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، وسورةِ سَبَأٍ الآية (٣): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وسُورةِ التَّغابُنِ الآية (٧): ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾[٢].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ هاهنا أمرٌ يَنبغي التَّفَطُّنُ له، وهو أنَّ الرَّبَّ تعالى شَهِد بصِحَّةِ ما أخبَرَ به، وهو أصدَقُ الصَّادِقينَ، وأقسَمَ عليه، وهو أبَرُّ المُقسِمينَ، وأكَّدَه بتَشبيهِه بالواقِعِ الَّذي لا يَقبَلُ الشَّكَّ بوَجهٍ، وأقام عليه مِنَ الأدِلَّةِ العِيانيَّةِ والبُرهانيَّةِ ما جعله مُعايَنًا مُشاهَدًا بالبصائِرِ، وإنْ لم يُعايَنْ بالأبصارِ، ومع ذلك فأكثَرُ النُّفوسِ في غَفلةٍ عنه، لا تَستَعِدُّ له، ولا تأخُذُ له أُهبَةً، والمُستَعِدُّ له الآخِذُ له أُهبةً لا يُعطيه حَقَّه منهم إلَّا الفَردُ بعدَ الفَردِ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٢).
ويُنظر للخِلافِ في الجنَّةِ الَّتي أُسكِنَها آدَمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأُهبِط منها: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ مُتَّصِلٌ بالقَسَمِ وجوابِه مِن قولِه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ وقولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾، إلى قولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذَّاريات: ١ - ٧]؛ فبعْدَ أنْ حُقِّقَ وُقوعُ البَعثِ بتأكيدِه بالقسَمِ، انتُقِلَ إلى تَقريبِه بالدَّليلِ لإبطالِ إحالتِهم إياه، فيكونُ هذا الاستِدلالُ كقولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩]، وما بيْنَ هاتَينِ الجُملتَينِ اعتِراضٌ؛ فجُملةُ ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مَعطوفةً على جُملةِ جَوابِ القسَمِ، وهي ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذَّاريات: ٥]، والمعنى: وفيما يُشاهَدُ مِن أحوالِ الأرضِ آياتٌ للمُوقنينَ، وهي الأحوالُ الدَّالَّةُ على إيجادِ مَوجوداتٍ بعدَ إعدامِ أمْثالِها وأُصولِها، مِثْلُ إنباتِ الزَّرعِ الجديدِ بعْدَ أنْ باد الَّذي قبْلَه وصار هَشيمًا. وهذه دَلائلُ واضحةٌ مُتكرِّرةٌ لا تَحتاجُ إلى غَوصِ الفِكرِ؛ فلذلك لم تُقرَنْ هذه الآياتُ بما يَدْعو إلى التَّفكُّرِ كما قُرِنَ قولُه: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1] [الذَّاريات: ٢١].

- وتَقديمُ الخبَرِ ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ على المبتدأِ ﴿ءَايَٰتٌ﴾؛ للاهتِمامِ بالأرضِ باعتِبارِها آياتٍ كثيرةً، والتَّشويقِ إلى ذِكرِ المبتَدأِ ﴿ءَايَٰتٌ﴾[2].

- واللَّامُ في ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ مُعلَّقٌ بقولِه: ﴿ءَايَٰتٌ﴾. وخُصَّتِ الآياتُ بـ ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾؛ لأنَّهم الَّذين انتَفَعوا بدَلالتِها، فأكسَبَتْهم الإيقانَ بوُقوعِ البعثِ. وأُوثِرَ وصْفُ الموقِنينَ هنا دونَ (الَّذين أَيْقَنوا)؛ لإفادةِ أنَّهم عُرِفوا بالإيقانِ. وهذا الوصفُ يَقْتَضي مَدْحَهم بثُقوبِ الفَهمِ؛ لأنَّ الإيقانَ لا يكونُ إلَّا عن دليلٍ، ودلائلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٥٢، ٣٥٣).

هذا الأمرِ نَظريَّةٌ، ومَدْحَهم أيضًا بالإنصافِ وترْكِ المكابَرةِ؛ لأنَّ أكثرَ المنكِرينَ لِلحقِّ تَحمِلُهم المُكابرةُ أو الحسَدُ على إنكارِ حقِّ مَن يَتوجَّسونَ منه أنْ يَقضيَ على مَنافِعِهم(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ﴾، وقال في سُورةِ (يس): ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [يس: ٣٣]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا جعَلَ الآيةَ للمُوقِنينَ جمَعها؛ لأنَّ الموقِنَ لا يَغفُلُ عن اللهِ تعالى في حالٍ، ويَرى في كلِّ شيءٍ آياتٍ دالَّةً، وأمَّا الغافلُ فلا يَتنبَّهُ إلَّا بأُمورٍ كثيرةٍ؛ فيكونُ الكلُّ له كالآيةِ الواحدةِ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ عطْفٌ على ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الذَّاريات: ٢٠]، فالتَّقديرُ: وفي أنفُسِكم آياتٌ، أفلا تُبْصِرون، تَفريعًا على هذه الجُملةِ المَعطوفةِ، فيُقدَّرُ الوقفُ على ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾، وتَقديمُ ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ على مُتعلِّقِه المَحذوفِ؛ للاهتِمامِ بالنَّظَرِ في خلْقِ أنفُسِهم(٣).

- والخِطابُ قيل: إنه مُوجَّهٌ إلى المُشرِكين. والاستِفهامُ ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ إنكاريٌّ، أنكَرَ عليهم عدَمَ الإبصارِ للآياتِ(٤)، وإنَّما أتَى بصيغةِ الخِطابِ؛ لأنَّها أظهَرُ؛ لِكَونِ عِلمِ الإنسانِ بما في نَفْسِه أتَمَّ(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ بعْدَ أنْ ذكَرَ دلائلَ الأرضِ ودلائلَ الأنفُسِ الَّتي هي مِن عَلائقِ الأرضِ، عطَفَ ذِكرَ السَّماءِ للمُناسَبةِ، وتمْهيدًا للقَسَمِ الَّذي بعْدَه بقولِه: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [الذَّاريات: ٢٣]، ولِمَا في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٢، ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٢).

السَّماءِ مِن آيةِ المطَرِ الَّذي به تُنبتُ الأرضُ بعدَ الجَفافِ، فالمعْنى: وفي السَّماءِ آيةُ المطَرِ؛ فعُدِلَ عن ذِكرِ المطَرِ إلى الرِّزقِ إدماجًا[١] للامتِنانِ في الاستِدلالِ؛ فإنَّ الدَّليلَ في كَونِه مَطرًا يُحيي الأرضَ بعدَ مَوتِها، وهذا قِياسُ تمْثيلٍ[٢] للنَّبتِ، أي: في السَّماءِ المطَرُ الَّذي تُرزَقون بسَبَبِه[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وتقديمُ المجرورِ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ﴾ على مُتعلَّقِه ﴿رِزۡقُكُمۡ﴾؛ للتَّشويقِ، وللاهتمامِ بالمكانِ، وللرَّدِّ على الفاصلةِ[٤].

- وجاءتِ السَّماءُ مُفرَدةً في قولِه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾؛ فالرِّزقُ المطَرُ -على قولٍ-، وما وُعِدْنا به الجنَّةُ -على قولٍ-، وكِلاهما في هذه الجِهةِ، لا أنَّهما في كلِّ واحدةٍ واحدةٍ مِن السَّمواتِ؛ فكان لَفظُ الإفرادِ أَلْيقَ بها[٥].

- وعطْفُ ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ إدماجٌ بيْنَ أدلَّةِ إثباتِ البَعثِ؛ لقصْدِ المَوعظةِ الشاملةِ للوعيدِ على الإشراكِ، والوعْدِ على الإيمانِ إنْ آمنوا -على قولٍ-، تَعجيلًا بالموعظةِ عندَ سُنوحِ فُرصتِها[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ بعدَ أنْ

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٣٥).

(٢) قياس التَّمثيلِ: هو: حمْلُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتراكِهما في عِلَّة الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المشتركَ الكُلِّيَّ، أو: إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما، مِثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ هو القياسُ الأصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٩/ ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٦، ١١٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٤).

أكَّدَ الكلامَ بالقَسَمِ بالذَّارِياتِ وما عُطِفَ عليها؛ فرَّعَ على ذلك زِيادةَ تأْكيدٍ بالقَسَمِ بخالقِ السَّماءِ والأرضِ على أنَّ ما يُوعَدون حقٌّ؛ فهو عطفٌ على الكلامِ السَّابقِ، ومُناسبَتُه قولُه: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1] [الذَّارِيات: ٢٢].

- وفيه مِن البَلاغةِ ما يُعرَفُ بالقسَمِ، وهو أنْ يُريدَ المُتكلِّمُ الحلِفَ على شَيءٍ، فيَحلِفَ بما يكونُ فيه فخْرٌ له، أو تَعظيمٌ لشأْنِه، أو تَنويهٌ بقدْرِه، أو ما يكونُ ذمًّا لغَيرِه، أو جاريًا مَجرى الغزَلِ والتَّرقُّقِ، أو خارجًا مَخرَجَ الموعظةِ والزُّهدِ؛ فقد أقسَمَ سبحانَه بقسَمٍ يُوجِبُ الفَخرَ لتضمُّنِه التَّمدُّحَ بأعظَمِ قُدرةٍ، وأجلِّ عَظَمةٍ، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾[2].

- وإظهارُ اسمِ (السَّماءِ والأرضِ) دونَ ذِكرِ ضَميرِهما؛ لإدخالِ المَهابةِ في نُفوسِ السَّامِعينَ بعَظَمةِ الربِّ سُبحانه[3].

- وضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ عائدٌ إلى (مَا تُوعَدُونَ)، وهذا مِن ردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[4]؛ لأنَّه ردٌّ على قولِه أوَّلَ السُّورةِ: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾[الذَّارِيات: ٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٥).

(٤) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ، أو المُتجانِسَينِ، أو المُلحَقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلِمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء: ١٦٦]، والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[آل عمران: ٨]، والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلِماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة =

وانتَهى الغرَضُ[١].

- وقولُه: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ زِيادةُ تقريرٍ لوُقوعِ ما أُوعِدوه، بأنْ شُبِّهَ بشَيءٍ مَعلومٍ كالضَّرورةِ لا امترِاءَ في وُقوعِه، وهو كَونُ المخاطَبينَ يَنطِقونَ، وهو مِن التَّمثيلِ بالأُمورِ المحسوسةِ[٢].

- قولُه: ﴿مِّثْلَ﴾ بالنَّصبِ على أنَّه صِفةُ حالٍ مَحذوفٍ قُصِدَ منه التَّأكيدُ، والتَّقديرُ: إنَّه لَحَقٌّ حقًّا مِثلَ ما أنَّكم تَنطِقون[٣]. على أحدِ الأقوالِ.

- و(ما) الواقعةُ بعْدَ (مِثلَ) صِلةٌ للتَّوكيدِ، وأُردِفَت بحرْفِ (أنَّ) المُفيدِ للتَّأكيدِ؛ تقويةً لتَحقيقِ حَقِّيَّةِ ما يُوعَدون[٤].

- واجتِلابُ المضارِعِ في ﴿تَنطِقُونَ﴾ دونَ أنْ يقالَ: (نُطقِكم): يُفيدَ التَّشبيهَ بنُطقِهم المُتجدِّدِ، وهو أقوى في الوُقوعِ؛ لأنَّه مَحسوسٌ[٥].

- وخَصَّ النُّطقَ دونَ سائرِ الأعمالِ الضَّروريَّةِ؛ لِكَونِه أبْيَنَ وأظهَرَ، ومِنَ الاحتِمالِ أبْعَدَ، وفيه إيماءٌ إلى استِجلابِ رأسِ الشُّكرِ؛ فذِكْرُ النِّعمةِ باللِّسانِ، والثَّناءُ على مُوليها أشْيَعُ لها مِن الاعتقادِ وآدابِ الجوارحِ؛ لأنَّ النُّطقَ يُفصِحُ عن كلِّ خفِيٍّ، ويُجلي كلَّ مُشتَبِهٍ[٦].

= في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٢).

الآيات (٢٤-٣٠)

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَرَاغَ﴾: أي: مالَ في خُفيةٍ، وأصلُ (روغ): يدُلُّ على مَيلٍ، وقِلَّةِ اسْتِقْرارٍ[١].

﴿فَأَوْجَسَ﴾: أي: أضمرَ وأحَسَّ، والوَجْسُ: الصَّوتُ الخفيُّ، وأصلُه يدُلُّ على إحساسٍ بِشَيءٍ وتَسَمُّعٍ له[٢].

﴿صَرَّةٍ﴾: أي: ضجَّةٍ، وشِدَّةِ صِياحٍ، ومنه أُخِذَ صَريرُ البابِ، وهو صوتُه، وأصلُ (صرر): يدُلُّ على صَوتٍ[٣].

﴿فَصَكَّتْ﴾: أي: لَطَمت وضَربَت، وأصلُ (صكك): يدُلُّ على تلاقي شَيئَينِ بقُوَّةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩١)، =

﴿عَقِيمٌ﴾: أي: لا تَحمِلُ ولا تَلِدُ؛ مِن العُقمِ: وهو القَطعُ والمَنعُ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾

﴿سَلَٰمًا﴾: مَفعولٌ به مَنصوبٌ بـ (قَالُوا)، أي: قالوا هذا اللَّفظَ بعَينِه، وهو التَّحيَّةُ المعهودةُ. أو مَفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: نُسَلِّمُ، وذلك الفِعلُ في محلِّ نصبٍ بالقَولِ، تقديرُه: قالوا: نُسَلِّمُ سلامًا.

﴿سَلَٰمٞ﴾: مُبتدَأٌ، وخبَرُه محذوفٌ، أي: سَلامٌ عليكم. أو خبَرُ مبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: أمري أو قَولي سلامٌ.

﴿قَوۡمٞ﴾: خبَرُ مُبتدَأٍ محذوفٍ، أي: أنتم قَومٌ، أو: هؤلاءِ قومٌ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾

قَولُه: ﴿كَذَٰلِكِ﴾: جارٌّ ومجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ في محَلِّ نَصبٍ على النِّيابةِ عن المَصدَرِ؛ لِوُقوعِه نَعتًا لِمَصدَرٍ مَحذوفٍ بـ ﴿قَالَ﴾ الثَّانيةِ، أي: قال ربُّكِ قَولًا مِثلَ ذلك القَولِ الَّذي أخبَرْناكِ به[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصصِ أنبيائِه، ويَبتدئُ بأبي الأنبياءِ إبراهيمَ عليه

= ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٤)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٩/ ٣١٤).

السَّلامُ، فيقولُ: هل أتاك -يا محمَّدُ- خبَرُ ضُيوفِ إبراهيمَ مِن الملائِكةِ المُكْرَمينَ، حينَ دَخَل أولئك الملائِكةُ على إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فقالوا له: سَلامًا، قال إبراهيمُ لهم: سلامٌ عليكم، قَومٌ غيرُ مَعروفينَ! فمالَ إبراهيمُ إلى أهلِ بَيتِه في خُفيةٍ عن ضُيوفِه، فأحضَر لهم عِجلًا سَمينًا، فقرَّبه إليهم، فلم تمتَدَّ أيديهم للطَّعامِ، فقال لهم: ألَا تأكُلونَ!

فشَعَر إبراهيمُ في نَفْسِه بخَوفٍ منهم حينَ امتَنَعوا عن تناوُلِ الطَّعامِ، فقالوا مُطَمْئِنينَ له: لا تخَفْ، وبَشَّروه بغُلامٍ عَليمٍ، وهو إسحاقُ عليه السَّلامُ، فأقبَلَت امرأةُ إبراهيمَ في صَيحةٍ حينَ سَمِعَت تلك البِشارةَ، فضَرَبت وَجْهَها؛ تعَجُّبًا مِمَّا سَمِعَتْه، وقالت: أنا عَجوزٌ عَقيمٌ، فكيف ألِدُ الآنَ؟! قالت الملائِكةُ لها: هكذا قال ربُّكِ، إنَّه سُبحانَه هو الحَكيمُ العليمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها انتِقالٌ مِنَ الإنذارِ والمَوعِظةِ والاستِدلالِ، إلى الاعتِبارِ بأحوالِ الأُمَمِ الماضيةِ المُماثِلةِ للمُخاطَبينَ المُشرِكينَ في الكُفرِ وتكذيبِ الرُّسُلِ[1]؛ ففيه تسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتبشيرٌ له بالفَرَجِ[2]، والبِشارةُ بإكرامِ المصَدِّقِ، وإهانةِ المكَذِّبِ[3].

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦١).

أي: أَلَمْ يأتِكَ -يا محمَّدُ- خبَرُ ضُيوفِ إبراهيمَ مِن الملائِكةِ المُكْرَمينَ عندَ اللهِ، وعندَ إبراهيمَ وأهلِه بحُسنِ ضيافتِهم(١)؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٤)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

قال الماوَرْدي: (في قَولِه: ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ وجْهانِ:

أحَدُهما: أنَّهم عندَ الله المُعظَّمون.

الثَّاني: مُكْرَمونَ لإكرامِ إبراهيمَ لهم حينَ خدَمَهم بنَفْسِه). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٩).

ومِمَّن قال بالوَجهِ الأوَّلِ؛ أي: أنَّهم مُكرَمونَ عندَ الله: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والقرطبيُّ، والنسفي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٨).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ العزيزِ بنُ يحيى الكِنانيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٤٩).

ومِمَّن قال بالوَجهِ الثَّاني؛ أي: لإكرامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لهم، وخدمتِه إيَّاهم بنفْسِه: ابنُ جرير، والماتُريدي، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٥)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٣٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٦).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٧(، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٤٩).

ومِمَّن جمَع بيْنَ القَولَينِ: ابنُ جُزَي، وابنُ القيِّم، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦١).

قال ابنُ القيِّم: (لا تَنافيَ بيْنَ القولَينِ؛ فالآيةُ تدُلُّ على المعنيَينِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٧١).

وقال السعدي: (﴿مُّكْرَمُونَ﴾: أي: أكرَمَهم إبراهيمُ، ووَصَفَ اللهُ ما صَنَع بهم مِنَ الضِّيافةِ قَولًا وفِعلًا، ومُكْرَمونَ أيضًا عندَ اللهِ تعالى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ الخطابَ هنا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٥).

وقال ابنُ عثيمين: (الخِطابُ ليس للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فحَسْبُ، بل له، ولكلِّ مَن يَتأتَّى =

قال تعالى عن الملائكةِ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

أي: وذلك حينَ دَخَل أولئك الملائِكةُ على إبراهيمَ، فقالوا له: نُسَلِّمُ عليك سَلامًا[(١)].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ...﴾ [الحجر: ٥١، ٥٢].

﴿قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لهم: سلامٌ دائمٌ عليكم، قَومٌ غيرُ مَعروفينَ[(٢)]!

= خِطابُه ويصِحُّ توجيهُ الخِطابِ إليه، كأنَّه قال: هل أتاك أيُّها المُخاطَبُ ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٨)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٥، ٥٢٦)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٦)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٤).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المعنى أنَّهم قَومٌ غُرَباءُ لم يَعرِفْهم إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٤).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٥).

وقيل: إنَّهم قَدِموا عليه في صورةٍ وهَيئةٍ مُختلِفةٍ عمَّا يكونُ عليه النَّاسُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الرَّازيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٠). =

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦﴾.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾.

أي: فانسَلَّ إبراهيمُ ومالَ إلى أهلِ بَيتِه في خُفيةٍ عن ضُيوفِه؛ لِيُبادِرَ بإكرامِهم[(١)]!

﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾.

أي: فأحضَر لهم عِجلًا مِن البَقَرِ سَمينًا مَشويًّا؛ ليُكرِمَهم به[(٢)]!

= وقيل: كان هذا سُؤالًا لهم، كأنَّه قال: أنتم قومٌ مُنكَرونَ فعَرِّفوني: مَن أنتم؟ يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١).

قال الشوكاني: (قيل: إنَّه أنكَرَهم لكَونِهم ابتَدؤوا بالسَّلامِ ولم يكنْ ذلك معهودًا عندَ قَومِه. وقيل: لأنَّه رأى فيهم ما يخالِفُ بعضَ الصُّوَرِ البَشَريَّةِ. وقيل: لأنَّه رآهم على غيرِ صُورةِ الملائكةِ الَّذين يَعرِفُهم. وقيل غيرُ ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٥). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (المُنكَرُ: الَّذي يُنكِرُه غَيرُه، أي: لا يَعرِفُه، وأُطلِقَ هنا على مَن يُنكَرُ حالُه، ويُظَنُّ أنَّه حالٌ غيرُ مُعتادٍ، أي: يُخشى أنَّه مُضمِرُ سُوءٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٨). ويُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧٢).

قيل: إنَّه قال هذا في نَفْسِه، ولم يُخاطِبْ أضيافَه به؛ لأنَّ ذلك يخالِفُ الإكرامَ. وقيل: إنَّه قال ذلك لِمَن كان معَه مِن أتْباعِه وغِلمانِه بحيثُ لا يَسمعونَ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٥).

من المفسِّرينَ مَن فسَّر الرَّوغانَ بأنَّه الذَّهابُ بسرعةٍ، بالإضافةِ إلى كونِه خُفْيةً؛ ومنهم: الرَّازيُّ، وابنُ القيِّم، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٦)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٥)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٧، ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٥).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود: ٦٩].

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

أي: فقرَّب إبراهيمُ العِجْلَ إليهم، فلم تمتَدَّ أيديهم لأَكْلِه! فقال عارِضًا عليهم الطَّعامَ بلُطفٍ: ألَا تأكُلونَ[(١)]!

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾.

أي: فشَعَر إبراهيمُ في نَفْسِه بخَوفٍ منهم حينَ امتَنَعوا عن تناوُلِ الطَّعامِ[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [هود: ٧٠].

﴿ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ﴾.

أي: فقالوا مُطَمْئِنينَ له: لا تخَفْ منَّا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٨)، ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٦، ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٧).

قال الواحديُّ: (قال عامَّةُ المفَسِّرينَ: لَمَّا رآهم إبراهيمُ شَبابًا أقوياءَ، ولم يتحَرَّموا بطعامِه =

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ [هود: ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ * قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الحجر: ٥٢، ٥٣].

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾.

أي: وبَشَّرَتْه الملائِكةُ بِولادةِ زَوجِه سارةَ غُلامًا يكونُ مِن أهلِ العِلمِ باللهِ وبدِينِه، وهو إسحاقُ عليه السَّلامُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ * قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٣].

﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩﴾.

﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾.

أي: فأقبَلَت امرأةُ إبراهيمَ في صَيحةٍ حينَ سَمِعَت تلك البِشارةَ[(٢)]!

= [يُقالُ: تحرَّمتُ بطعامِك، أي: حرُم عليك منِّي بسببِه ما كان لك أخذُه]، لم يأمَنْ أن يكونوا جاؤوا لبلاءٍ؛ وذلك أنَّ سُنَّتَهم كانت في ذلك الدَّهرِ إذا وَرَد عليهم القَومُ فأتَوا بالطَّعامِ فلم يَمَسُّوه ظَنُّوا أنَّهم عَدُوٌّ أو لُصوصٌ، فهنالك أَوجَسَ في نَفْسِه فَزَعًا، ورأوا علامةَ ذلك في وَجْهِه، فقالوا له: لا تَخَفْ). ((البسيط)) (١١/ ٤٧٣).

وقال القُرطبيُّ: (أعلَموه أنَّهم ملائِكةُ اللهِ ورُسُلُه). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦٠).

قال السَّمْعانيُّ: (أجمَع المفَسِّرون على أنَّه إسحاقُ عليه السَّلامُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٧).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾.

أي: فضَرَبت وَجْهَها بيَدِها؛ تعَجُّبًا مِمَّا سَمِعَتْه[١]!

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

أي: وقالت: أنا عَجوزٌ عَقيمٌ لم أَلِدْ في شبابي، فكيف أَلِدُ الآنَ بعدَ كِبَرِ سِنِّي، وعَدَمِ صَلاحِيَتي للحَملِ[٢]؟!

= (٧/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

قال ابنُ عطيَّة: (يحتَمِلُ أن يكونَ قَرُبَت إليهم مِن ناحيةٍ مِن نواحي المنزِلِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ هذا الإقبالَ، كما تقولُ: أقبَلَ فُلانٌ يَشتُمُني، أو يَفعَلُ كذا: إذا جَدَّ في ذلك وتلَبَّس به). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨).

والصَّرَّةُ: الصَّيحةُ، قيل: هي صَيحةُ فَرَحٍ وسُرورٍ بالبِشارةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

قال القرطبي: (أي: في صَيحةٍ وضَجَّةٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ وغيرِه، ومنه أُخِذَ صَريرُ البابِ، وهو صَوتُه. وقال عِكْرِمةُ وقَتادةُ: إنَّها الرَّنَّةُ والتَّأَوُّهُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

قال ابنُ جرير: (قد قيل: إنَّ صَكَّها وَجْهَها: أنْ جَمَعَت أصابعَها، فضَرَبت بها جَبهتَها). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٠). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

قال السعدي: (أي: أنَّى ليَ الولَدُ وأنا عجوزٌ قد بلغتُ مِنَ السِّنِّ ما لا تَلِدُ معه النِّساءُ، ومع ذلك فأنا عقيمٌ غيرُ صالحٍ رَحمي للوِلادةِ أصلًا؟! فثَمَّ مانِعانِ كُلٌّ منهما مانِعٌ مِن الولَدِ، وقد ذكَرَتِ =

كما قال تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ [هود: ٧٢].

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾.

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾.

أي: قالت الملائكةُ لها: هكذا قال ربُّكِ إنَّك ستَلِدينَ غُلامًا كما بشَّرْناكِ[١]!

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو الحَكيمُ في أفعالِه وخَلْقِه، وشَرْعِه وقَدَرِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به، البالِغُ العِلمِ بكُلِّ شَيءٍ؛ فلا يَخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ أنَّ مِنَ الحِكمةِ قَصَّ اللهِ على عبادِه نَبَأَ الأخيارِ والفُجَّارِ؛ لِيَعتَبِروا بحالِهم، وأين وصَلَت بهم الأحوالُ[٣].

= المانِعَ الثَّالِثَ في سورةِ هودٍ بقَولِها: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ [هود: ٧٢]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦٤، ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ أنَّ الضَّيفَ يُكرَمُ بأنواعِ الإكرامِ؛ بالقَولِ والفِعلِ؛ لأنَّ اللهَ وَصَف أضيافَ إبراهيمَ بأنَّهم مُكْرَمونَ، وذكَر ما أكرَمهم به إبراهيمُ مِنَ الضِّيافةِ قَولًا وفِعلًا (١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ * فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ اشتملَتْ هذه الآياتُ على عددٍ مِن آدابِ الضِّيافةِ:

منها: الإكرامُ أوَّلًا مِمَّن جاءه ضَيفٌ قبْلَ أن يجتَمِعَ به ويُسَلِّمَ أحَدُهما على الآخَرِ؛ أنواعٌ مِن الإكرامِ: وهي اللِّقاءُ الحَسَنُ، والخُروجُ إليه، والتَّهَيُّؤُ له.

ومنها: السَّلامُ مِنَ الضَّيفِ على الوَجهِ الحَسَنِ، فسَلَكوا طريقَ الأدبِ في الابتِداءِ بالسَّلامِ، فردَّ عليهم إبراهيمُ سلامًا أكمَلَ مِن سلامِهم وأتَمَّ، فقولُه لهم: ﴿سَلَٰمٞ﴾ بالرَّفعِ، وهم سَلَّموا عليه بالنَّصبِ، والسَّلامُ بالرَّفعِ أكمَلُ؛ فإنَّه يدُلُّ على الجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثُّبوتِ والتَّجَدُّدِ، والمنصوبُ يدُلُّ على الفِعليَّةِ الدَّالَّةِ على الحُدوثِ والتَّجَدُّدِ؛ فإبراهيمُ حَيَّاهم أحسَنَ مِن تحيَّتِهم؛ فإنَّ قولَهم: ﴿سَلَٰمٗا﴾ يدُلُّ على «سَلَّمْنا سَلامًا»، وقولَه: ﴿سَلَٰمٞ﴾ أي: سَلامٌ عليكم (٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٢) قال ابن القيِّم: (وعندي فيه جوابٌ أحسَنُ مِن هذا، وهو أنَّه لم يَقصِدْ حكايةَ سلامِ الملائكةِ، فنصَبَ قولَه: ﴿سَلَٰمٗا﴾ انتِصابَ مَفعولِ القولِ المُفرَدِ، كأنَّه قيل: قالوا قولًا سلامًا، وقالوا سَدادًا وصَوابًا، ونحو ذلك؛ فإنَّ القولَ إنَّما تُحكى به الجُمَلُ، وأمَّا المُفرَدُ فلا يكونُ مَحكيًّا به، بل منصوبٌ به انتِصابَ المفعولِ به، ومِن هذا قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ليس المرادُ أنَّهم قالوا هذا اللَّفظَ المُفرَدَ المنصوبَ، وإنَّما معناه: قالوا قولًا سَلامًا، مِثل: سَدادًا وصَوابًا، وسُمِّيَ القولُ سَلامًا؛ لأنَّه يؤدِّي معنى السَّلامِ ويَتضَمَّنُه، مِن رفْعِ الوَحشةِ، وحُصولِ الاستِئناسِ. وحُكيَ عن إبراهيمَ لَفظُ سَلامِه، فأتى به على لَفظِه مَرفوعًا بالابتِداءِ، مَحكيًّا بالقَولِ، ولولا قصْدُ الحكايةِ لَقال: سلامًا، بالنَّصبِ؛ لأنَّ ما بعدَ القولِ إذا =

ومنها: أدبُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ولُطفُه في الكلامِ؛ فإنَّه حَذَفَ المُبتدَأَ مِن قَولِه: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾؛ فإنَّه لَمَّا أنكَرَهم ولم يَعرِفْهم احتشَمَ مِن مواجهتِهم بلَفظٍ يُنَفِّرُ الضَّيفَ لو قال: أنتم قَومٌ مُنكَرونَ؛ فحَذفُ المبتدأ هنا مِن ألطفِ الكلامِ.

ومنها: أنَّه بنى الفِعلَ للمَفعولِ وحَذَفَ فاعِلَه، فقال: ﴿مُّنكَرُونَ﴾، ولم يَقُلْ: إنِّي أُنكِرُكم. وهو أحسَنُ في هذا المقامِ، وأبعدُ مِن التَّنفيرِ والمُواجَهةِ بالخُشونةِ.

ومنها: المُبادَرةُ إلى الضِّيافةِ، والإسراعُ بها، وتَعجيلُ القِرَى الَّذي دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ [هود: ٦٩]، وقَولُه هاهنا ﴿فَرَاغَ﴾؛ فإنَّ الرَّوَغانَ يدُلُّ على السُّرعةِ[(١)]، وذلك على قولٍ في معنى الرَّوغانِ.

ومنها: أنَّه راغَ إلى أهلِه لِيَجيئَهم بنُزُلِهم، والرَّوَغانُ أيضًا هو الذَّهابُ في اختِفاءٍ، بحيثُ لا يَكادُ يَشعُرُ به الضَّيفُ، وهذا مِن كَرَمِ ربِّ المَنزِلِ المُضيفِ: أنْ يَذهبَ في اختِفاءٍ بحيثُ لا يَشعُرُ به الضَّيفُ فيَشُق عليه ويَستحي[(٢)]؛ فلا يَشعُرُ به إلَّا وقد جاءَه بالطَّعامِ، بخِلافِ مَن يُسمِعُ ضيفَه ويقولُ له أو لِمَن حَضَرَ: مكانَكم حتَّى آتيَكم بالطَّعامِ، ونحوَ ذلك مما يُوجِبُ حياءَ الضَّيفِ واحتِشامَه.

= كان مرفوعًا فعَلى الحكايةِ ليس إلَّا، فحصَل مِن الفَرقِ بيْن الكلامَينِ في حكايةِ سَلامِ إبراهيمَ ورفْعِه، ونصْبِ ذلك: إشارةٌ إلى معنًى لطيفٍ جدًّا، وهو أنَّ قولَه: «سَلامٌ عليكم» مِن دينِ الإسلامِ المُتلَقَّى عن إمامِ الحُنفاءِ، وأبِي الأنبياءِ، وأنَّه مِن مِلَّةِ إبراهيمَ الَّتي أمَر الله بها وباتِّباعِها؛ فحكى لنا قولَه لِيَحصُلَ الاقتِداءُ به، والاتِّباعُ له، ولم يَحْكِ قولَ أضيافِه، وإنَّما أخبَر به على الجُملةِ دونَ التَّفصيلِ، والله أعلَمُ. فَزِنْ هذا الجوابَ والَّذي قبْلَه بميزانٍ غيرِ جائرٍ؛ يَظهَرْ لك أقْواهما، وباللهِ التَّوفيقُ. ((بدائع الفوائد)) (٢/ ١٥٨).

(١) وأيضًا: عَطفُ ﴿فَجَآءَ﴾ على ﴿فَرَاغَ﴾ يدُلُّ على سُرعةِ مجيئِه بالقِرَى. ويُنظر ما سيأتي في بَلاغةِ الآياتِ (ص: ١٠٩).

(٢) قال ابن عاشور: (انتَزَع منه الزَّمخشريُّ أنَّ إخفاءَ إبراهيمَ مَيْلَه إلى أهلِه: مِن حُسنِ الضِّيافةِ؛ كي لا يُوهِمَ الضَّيفَ أنَّه يُريدُ أن يُحضِرَ لهم شيئًا، فلعَلَّ الضَّيفَ أن يَكُفَّه عن ذلك ويَعذِرَه، وهذا مَنزَعٌ لَطيفٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٩). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١).

ومنها: غَيبةُ المُضيفِ عن الضَّيفِ؛ لِيَستريحَ، ويأتيَ بما يمنَعُه الحياءُ منه.

ومنها: أنَّه ذَهَبَ إلى أهلِه فجاء بالضِّيافةِ؛ فدَلَّ على أنَّ ذلك كان مُعَدًّا عندَهم مُهَيَّأً للضِّيفانِ، ولم يَحتَجْ أنْ يَذهَبَ إلى غيرِهم مِن جيرانِه أو غَيرِهم، فيَشتريَه أو يَستقرِضَه.

ومنها: خِدمتُه للضَّيفِ بنَفْسِه، كما دَلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾، ولم يَقُلْ: فأَمَرَ لهم، بل هو الَّذي ذَهَبَ وجاء به بنَفْسِه، ولم يَبعَثْه مع خادِمِه، وهذا أبلَغُ في إكرامِ الضَّيفِ.

ومنها: أنَّه جاء بعِجلٍ كاملٍ ولم يأتِ ببَضْعةٍ منه، لِيَتخيَّروا مِن أطيَبِ لحمِه ما شاؤوا، وهذا مِن تمامِ كَرَمِه صلَّى الله عليه وسلَّم.

ومنها: اختيارُ الأجوَدِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿سَمِينٖ﴾، فهو سَمينٌ لا هَزيلٌ، ومَعلومٌ أنَّ ذلك مِن أفخَرِ أموالِهم، ومِثلُه يُتَّخَذُ للاقتِناءِ والتَّربيةِ، فآثَرَ به ضيفانَه.

ومنها: أنَّه قَرَّبَه إليهم بنَفْسِه، ولم يأمُرْ خادِمَه بذلك.

ومنها: تقديمُ الطَّعامِ إليهم، لا نَقلُهم إلى الطَّعامِ، فقد قَرَّبَه إليهم في المكان الَّذي هم فيه، ولم يُقَرِّبْهم إليه، فهذا أيسَرُ عليهم وأحسَنُ، وأبلَغُ في الكرامةِ: أنْ يُجلِسَ الضَّيفَ ثمَّ يُقَرِّبَ الطَّعامَ إليه، ويَحمِلَه إلى حَضْرتِه، ولا يَضَعَ الطَّعامَ في ناحيةٍ ثمَّ يأمُرَ الضَّيفَ بأن يَتقرَّبَ إليه؛ لأنَّ مَن قَدَّم الطَّعامَ إلى قَومٍ يكونُ كُلُّ واحدٍ مُستَقِرًّا في مَقَرِّه لا يختَلِفُ عليه المكانُ؛ فإنْ نَقَلَهم إلى مكانِ الطَّعامِ رُبَّما يحصُلُ هناك اختِلافُ جُلوسٍ، فيُقَرَّبُ الأدنى، ويُضَيَّقُ على الأعلى[1]!

(١) وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ الأظهرَ أنَّ تقريبَ الطَّعامِ إلى الضُّيوفِ يختلِفُ باختِلافِ الأحوالِ والعاداتِ، وأنَّه إذا كان مِن الإكرامِ أنْ تأتيَ بالطَّعامِ إلى مَحَلِّ جلوسِهم فأْتِ به، وإذا كان مِن الإكرامِ أنْ تجعلَه في مَحَلٍّ آخَرَ فافعَلْ؛ لأنَّ عُمومَ قولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((مَن =

ومنها: حُسنُ ملاطفةِ الضَّيفِ في الكلامِ اللَّيِّنِ، خصوصًا عندَ تقديمِ الطَّعامِ إليه؛ فإنَّ إبراهيمَ عرَض عليهم عرضًا لطيفًا[1]، وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، ولم يقلْ: (كلوا) أو: (مُدُّوا أيديَكم) ونحوَه مِن الألفاظِ الَّتي غيرُها أَولى منها، بل أتَى بأداةِ العَرضِ لا الأمرِ، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، فيَنبغي للمُقتدي به أن يَستعمِلَ مِن الألفاظِ الحسَنةِ ما هو المناسِبُ واللَّائقُ بالحالِ، كقولِه لأضيافِه: (ألَا تأكلون) أو: (ألَا تتفضَّلون علينا وتُشرِّفوننا وتُحسِنون إلينا) ونحوِه، وهذا مِمَّا يَعلَمُ النَّاسُ بعُقولِهم حُسنَه ولُطفَه.

ومنها: أنَّه إنَّما عَرَضَ عليهم الأكلَ؛ لأنَّه رآهم لا يأكُلونَ، ولم يكُنْ ضُيوفُه يحتاجونَ معه إلى الإذنِ في الأكلِ، بل كان إذا قُدِّمَ إليهم الطَّعامُ أكَلوا، وهؤلاء الضُّيوفُ لَمَّا امتنَعوا مِن الأكلِ قال لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؛ ولهذا أوجَسَ منهم خِيفةً، أي: أَحَسَّها وأضْمَرها في نفْسِه، ولم يُبْدِها لهم.

ومنها: كَونُ المُضيفِ مَسرورًا بأكْلِهم، غيرَ مَسرورٍ بتَركِهم الطَّعامَ، كما يُوجَدُ في بَعضِ البُخَلاءِ المتكَلِّفينَ الَّذين يُحضِرونَ طَعامًا كَثيرًا، ويكونُ نَظَرُه ونَظَرُ أهلِ بَيتِه في الطَّعامِ متى يُمسِكُ الضَّيفُ يَدَه عنه؛ يدُلُّ عليه قَولُه تعالى:

= كان يؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فلْيُكْرِمْ ضَيْفَه)) [البخاري (٦١٣٨)، ومسلم (٤٧) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه] يدُلُّ على إكرامِهم بما جَرَتِ العادةُ بإكرامِهم به. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٦).

(١) قال أبو حيَّان: (إنَّ في ذلك تأنيسًا للآكِلِ، بخِلافِ مَن قَدَّمَ طعامًا ولم يَحُثَّ على أكلِه؛ فإنَّ الحاضِرَ قد يَتوَهَّمُ أنَّه قَدَّمَه على سَبيلِ التَّجَمُّلِ عسى أن يمتَنِعَ الحاضِرُ مِن الأكلِ، وهذا موجودٌ في طِباعِ بَعضِ النَّاسِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٦).

وقال ابنُ عاشور: (والعَرْضُ على الضَّيفِ عَقِبَ وَضعِ الطَّعامِ بيْنَ يَدَيه زيادةٌ في الإكرامِ، بإظهارِ الحِرصِ على ما يَنفَعُ الضَّيفَ، وإن كان وَضْعُ الطَّعامِ بيْنَ يَدَيه كافيًا في تمكينِه منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٩).

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

فقد جمَعتْ هذه الآياتُ آدابَ الضِّيافةِ الَّتي هي أشرَفُ الآدابِ، وما عَداها مِن التَّكَلُّفاتِ -الَّتي هي تَخَلُّفٌ وتَكَلُّفٌ- إنَّما هي مِن أوضاعِ النَّاسِ وعوائِدِهم، وكفى بهذه الآدابِ شَرَفًا وفَخرًا! فصَلَّى اللهُ على نبيِّنا وعلى إبراهيمَ وعلى آلِهما وعلى سائِرِ النَّبيِّينَ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ مَشروعيَّةُ تعرُّفِ مَن جاء إلى الإنسانِ، أو صار له فيه نَوعُ اتِّصالٍ؛ لأنَّ في ذلك فوائِدَ كَثيرةً(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أنَّ الذَّبيحةَ الحاضِرةَ الَّتي قد أُعِدَّت لِغَيرِ الضَّيفِ الحاضِرِ، إذا جُعِلَت له ليس فيها أقَلُّ إهانةٍ، بل ذلك مِنَ الإكرامِ، كما فَعَل إبراهيمُ عليه السَّلامُ، وأخبَرَ اللهُ أنَّ ضَيفَه مُكْرَمونَ(٣)، ففيه إشعارٌ بأنَّ كرامةَ الضَّيفِ معدَّةٌ حاصِلةٌ عندَ أهلِه، وأنَّه لا يحتاجُ أنْ يستقرِضَ مِن جيرانِه، ولا يذهَبَ إلى غيرِ أهلِه إذ قِرَى الضَّيفِ حاصلٌ عندَهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٦، ١٧٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧١-٢٧٤)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٣-٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٧).

قال أبو حيَّان: (كَوْنُه عَطَفَ ﴿فَجَآءَ﴾ على ﴿فَرَاغَ﴾ يدُلُّ على سرعةِ مجيئه بالقِرَى، وأنَّه كان مُعَدًّا عِندَه لِمَنْ يَرِدُ عليه. وقال في سورةِ هُودٍ: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، وهذا يدُلُّ أيضًا على أنَّه كان العِجلُ سابِقًا شَيُّهُ قبْلَ مَجيئِهم). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥).

وقال الألوسي: (اختُلِف في هذا العِجلِ: هل كان مُهَيَّأً قبْلَ مَجيئِهم، أو أنَّه هُيِّئَ بعدَ أن جاؤوا؟ قَولانِ، اختار أبو حيَّانَ أوَّلَهما؛ لِدَلالةِ السُّرعةِ بالإتيانِ به على ذلك، ويختارُ الفقيرُ ثانيَهما؛ لأنَّه أزْيَدُ في العِنايةِ، وأبلَغُ في الإكرامِ). ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٢٩١).

٦- قال تعالى: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ في مجيئِه بالعِجلِ كلِّه معَ أنَّهم -بحسَبِ الظَّاهرِ- يَكفيهم بعضُه؛ دَليلٌ على أنَّه يُحضَرُ للضَّيفِ أكثَرُ مِمَّا يأكُلُ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ أنَّ أكْلَ الضَّيفِ أَمَنةٌ، ودليلٌ على انبِساطِ نَفْسِه، وللطَّعامِ حُرمةٌ وذِمامٌ، والامتِناعُ منه وَحْشةٌ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ فيه مِن أدَبِ الضَّيفِ أُمورٌ:

منها: أنَّه إذا أكَلَ حَفِظَ حَقَّ المُؤاكَلةِ؛ يدُلُّ عليه أنَّه خافَهم حيثُ لم يأكُلوا.

ومنها: وُجوبُ إظهارِ العُذرِ عندَ الإمساكِ؛ يدُلُّ عليه قَولُهم: ﴿لَا تَخَفۡ﴾.

ومنها: تحسينُ العبارةِ في العُذرِ؛ وذلك لأنَّ مَن يكونُ مُحتَمِيًا وأُحضِرَ لديه الطَّعامُ؛ فهناك أمْرانِ، أحَدُهما: أنَّ الطَّعامَ لا يَصلُحُ له؛ لِكَونِه مُضِرًّا به. الثَّاني: كَونُه ضَعيفَ القُوَّةِ عن هَضمِ ذلك الطَّعامِ؛ فيَنبغي ألَّا يَقولَ الضَّيفُ: هذا طَعامٌ غَليظٌ لا يَصلُحُ لي! بل الحَسَنُ أن يأتيَ بالعبارةِ الأُخرى ويقولَ: لي مانِعَ مِن أكلِ الطَّعامِ، وفي بيتي لا آكُلُ أيضًا شَيئًا؛ بل بشَّروه بالولدِ؛ إشعارًا بأنَّهم ملائكةٌ، يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾؛ حيثُ فَهَّموه أنَّهم لَيسُوا مِمَّن يأكُلونَ[٣]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ أنَّ مَن خاف مِنَ الإنسانِ لِسَبَبٍ مِنَ الأسبابِ فإنَّ عليه أن يُزيلَ عنه الخَوفَ، ويَذكُرَ له ما يُؤَمِّنُ رَوْعَه، ويُسَكِّنُ جَأشَه، كما قالت الملائِكةُ لإبراهيمَ عليه السَّلامُ لَمَّا خافَهم: ﴿لَا تَخَفۡ﴾، وأخبَروه بتلك البِشارةِ السَّارَّةِ بعدَ الخَوفِ منهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أنَّ التَّبشيرَ مطَلوبٌ فيما يَسُرُّ مِن أمرِ الدِّينِ والدُّنيا[١]. فيُستحَبُّ للمُسلِمِ أنْ يُبادِرَ إلى مَسَرَّةِ أخيه، وإعلامِه بما يُفرِحُه، ومِن ذلك استِحبابُ بِشارةِ مَن وُلِدَ له ولدٌ وتَهنِئتِه[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أدَبٌ في البِشارةِ: ألَّا يُخبِرَ الإنسانَ بما يَسُرُّه دَفْعةً؛ فإنَّه يُورِثُ مَرَضًا؛ يدُلُّ عليه أنَّهم جَلَسوا واستأنَسَ بهم إبراهيمُ عليه السَّلامُ، ثمَّ قالوا: نُبَشِّرُك، ثمَّ ذكَروا أشرَفَ النَّوعَينِ -وهو الذَّكَرُ-، ولم يقتَنِعوا به حتَّى وصَفوه بأحسَنِ الأوصافِ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أنَّهم تَرَكوا سائِرَ الأوصافِ؛ مِنَ الحُسنِ والجَمالِ، والقُوَّةِ والسَّلامةِ، واختاروا العِلمَ؛ إشارةً إلى أنَّ العِلمَ رأسُ الأوصافِ، ورَئيسُ النُّعوتِ[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ حُسنُ أدبِ المرأةِ عندَ خِطابِ الرِّجالِ، واقتِصارُها مِنَ الكلامِ على ما تتأدَّى به الحاجةُ؛ فإنَّها حَذَفتِ المبتدَأَ ولم تَقُلْ: أنا عَجوزٌ عقيمٌ! واقتَصَرتْ على ذِكْرِ السَّبَبِ الدَّالِّ على عَدَمِ الولادةِ، ولم تذكُرْ غيرَه، وأمَّا في سورةِ (هودٍ) فذكرتِ السَّبَبَ المانِعَ منها ومِن إبراهيمَ، وصَرَّحَتْ بالعَجَبِ[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ فَضلُ إبراهيمَ

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٩).

الخَليلِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيث ابتدأ اللهُ تعالى قِصَّتَه بما يدُلُّ على الاهتِمامِ بشَأنِها، والاعتِناءِ بها[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ مَشروعيَّةُ الضِّيافةِ، وأنَّها مِن سُنَنِ إبراهيمَ الخَليلِ الَّذي أمرَ اللهُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأمَّتَه أن يتَّبِعوا مِلَّتَه، وساقها اللهُ في هذا الموضِعِ على وَجهِ المَدحِ له والثَّناءِ[٢].

٣- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ افتتحَ سُبحانَه القصَّةَ بصيغةٍ مَوضوعةٍ للاستِفهامِ؛ وليس المرادُ بها حقيقةَ الاستِفهامِ! ولكنْ في وُرودِ الكلامِ في مِثلِ هذا بصيغةِ الاستِفهامِ سِرٌّ لطيفٌ، ومعنًى بديعٌ؛ فإنَّ المتكلِّمَ إذا أراد أنْ يُخْبِرَ المخاطَبَ بأمرٍ عجيبٍ -يَنبغي الاعتِناءُ به، وإحضارُ الذِّهنِ له- صَدَّرَ له الكلامَ بأداةِ الاستِفهامِ لتنبيه سمْعِه وذِهْنِه للمُخبَرِ به، فتارةً يُصَدِّرُه بـ «أَلَا»، وتارةً يُصَدِّرُه بـ «هل»، فيقولُ: هل عَلِمتَ ما كان مِن كَيْتَ وكَيْتَ؟ إمَّا مذَكِّرًا به، وإمَّا واعظًا له مخوِّفًا، وإمَّا منبِّهًا على عظَمةِ ما يُخبِرُ به، وإمَّا مقرِّرًا له، فقولُه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥]، و﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ [ص: ٢١]، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ متضمِّنٌ لتعظيم هذه القصص، والتَّنبيهِ على تدبُّرِها، ومعرفةِ ما تضَمَّنَتْه، وفيه أمرٌ آخَرُ؛ وهو التَّنبيهُ على أنَّ إتيانَ هذا إليك عَلَمٌ مِن أعلامِ النُّبوَّةِ، فإنَّه مِن الغَيبِ الَّذي لا تَعلَمُه أنت ولا قَومُك؛ فهل أتاك مِن غيرِ إعلامِنا وإرسالِنا وتعريفِنا؟ أمْ لم يأتِك إلَّا مِن قِبَلِنا؟ فانظُرْ ظُهورَ هذا الكلامِ بصيغةِ الاستِفهامِ، وتأمَّلْ عِظَمَ مَوقعِه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

جميعِ مَوارِدِه يَشْهَد أنَّه مِن الفصاحةِ في ذُروتِها العُلْيا[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ سؤالٌ: أنَّه إذا كان المرادُ مِن حَديثِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ التَّسليةَ والإنذارَ، فأيُّ فائدةٍ في حِكايةِ الضِّيافةِ؟

الجوابُ: لِيَكونَ ذلك إشارةً إلى الفَرَجِ في حَقِّ الأنبياءِ، والبَلاءِ على الجَهَلةِ والأغبياءِ إذا جاءهم مِن حيثُ لا يُحتَسَبُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ [الحشر: ٢]، فلم يكُنْ عندَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ خَبَرٌ مِن إنزالِ العَذابِ معَ ارتِفاعِ مَكانتِه[٢]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ سُؤالٌ: كيف سَمَّاهم سُبحانَه ضَيفًا، ولم يكونوا؟

الجَوابُ: لَمَّا حَسِبَهم إبراهيمُ عليه السَّلامُ ضَيفًا لم يُكَذِّبْه اللهُ تعالى في حِسْبانِه؛ إكرامًا له[٣]، أو جعَلَهم ضَيفًا؛ لأنَّهم كانوا في صُورةِ الضَّيفِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ سُؤالٌ: أنَّ الملائِكةَ أُرسِلَت بالعَذابِ، بدَليلِ قَولِهم: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ [الذَّاريات: ٣٢]، فما الحِكمةُ في مَجيئِهم إلى إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شَيخُ المُرسَلينَ، ولُوطٌ مِن قَومِه،

(١) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١).

ومِن عادةِ المَلِكِ إذا أرسَلَ رَسولًا لمَلِكٍ، وفي طَريقِه مَن هو أكبَرُ منه، يقولُ له: اعبُرْ على فُلانٍ المَلِكِ، وأخبِرْه برِسالتِك، وخُذْ فيها رَأيَه.

الثَّاني: أنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان شديدَ الشَّفَقةِ حَليمًا، فكان يَشُقُّ عليه إهلاكُ أمَّةٍ عَظيمةٍ، وكان ذلك ممَّا يَحزُنُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ شَفَقةً منه على العِبادِ؛ فقال لهم: بَشِّروه بغُلامٍ يَخرُجُ مِن صُلبِه أضعافُ مَن يَهلِكُ، ويكونُ مِن صُلبِه خُروجُ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ[(١)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: أنَّ الملائِكةَ أحياءٌ ناطِقةٌ قائِمةٌ بأنفُسِها، ليست أعراضًا قائِمةً بغَيرِها، وأنَّهم يأتُونَ بأخبارِ الأُمورِ الغائبةِ، وأنَّهم يَفعَلونَ أفعالًا خارِجةً عن قُدرةِ البَشَرِ[(٢)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ سُؤالٌ عن وَجهِ التَّنافي في الظَّاهِرِ ما بيْنَ هذا النَّعتِ ومَنعوتِه؛ لأنَّ النَّعتَ ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ صيغةُ جَمعٍ، والمنعوتَ ﴿ضَيۡفِ﴾ لَفظٌ مُفرَدٌ.

الجَوابُ: أنَّ لَفظةَ «الضَّيفِ» تُطلَقُ على الواحِدِ والجَمعِ؛ لأنَّ أصلَها مَصدَرُ «ضاف»، فنُقِلَت من المَصدريَّةِ إلى الاسميَّةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢١).

قال ابنُ عاشور: (الضَّيفُ: اسمٌ يُقالُ للواحِدِ وللجَمعِ؛ لأنَّ أصلَه مَصدَرُ ضافَ: إذا مالَ، فأُطلِقَ على الَّذي يَميلُ إلى بَيتِ أحَدٍ لِيَنزِلَ عِندَه، ثمَّ صار اسمًا؛ فإذا لُوحِظَ أصلُه أُطلِقَ على الواحِدِ وغَيرِه ولم يُؤَنِّثوه، ولا يَجمَعونَه، وإذا لُوحِظَ الاسمُ جَمَعوه للجَماعةِ وأنَّثوه للأُنثى، فقالوا أضيافٌ، وضُيوفٌ، وامرأةٌ ضَيفةٌ، وهو هنا اسمُ جَمعٍ؛ ولذلك وُصِفَ بـ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٧).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قد كان بَيتُه مأوًى للطَّارِقينَ والأضيافِ؛ لأنَّهم دَخَلوا عليه مِن غيرِ استِئذانٍ[١]، فلم يَذكرِ الله استئذانَهم؛ ففي هذا دليلٌ على أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم كان قد عُرِفَ بإكرامِ الضِّيفانِ، واعتيادِ قِراهم؛ فبقيَ مَنزِلُه مَضْيفةً، مَطروقًا لِمَن وَرَدَه، لا يَحتاجُ إلى الاستِئذانِ، بلِ استئذانُ الدَّاخلِ دُخولُه، وهذا غايةُ ما يكونُ مِن الكَرَمِ[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أنَّ السَّلامَ مِن سُنَنِ الرُّسُلِ والملائِكةِ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أنَّ حذفَ الرَّادِّ «الواوَ»، فيَقولُ: «عليك السَّلامُ» هو ردٌّ صَحيحٌ، كما لو كان بـ «الواوِ»، ولكِنْ حَسُنَ الحَذفُ في الرَّدِّ هنا؛ مِن أجْلِ الحَذفِ في الابتِداءِ[٤].

١٢- إنْ قِيل: قولُه في سُورةِ (هُودٍ): ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠] دلَّ على أنَّ إنكارَه حصَلَ بعْدَ تَقريبِ العِجلِ إليهم، وهاهنا قال: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، ثمَّ قال: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ -بفاءِ التَّعقيبِ-، وذلك يدُلُّ على تَقريبِ الطَّعامِ منهم بعْدَ حُصولِ إنكارِه؛ فما وَجْهُه؟

فالجوابُ: أنْ يُقالَ: لعلَّهم كانوا مُخالِفينَ لِصِفةِ النَّاسِ في الشَّكلِ والهَيئةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٢/ ٣٨٦).

والعلَّةُ البَلاغيَّةُ هنا حيث حسُن الفصلُ ولم يَحسُنِ الوصلُ، أي: العطفُ بالواوِ؛ لأنَّه عبارةٌ عن جوابٍ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ، تقديرُه: فماذا قال إبراهيمُ؟ وهو ما يُعرَفُ في البلاغةِ بشِبهِ كمالِ الاتِّصالِ، وهو معنى كلامِ ابنِ القيِّمِ: مِن أجْلِ الحذفِ في الابتداءِ.

ولذلك قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، أي: عندَ كلِّ أحدٍ، ثمَّ لَمَّا امتَنَعوا عن الطَّعام تأكَّدَ الإنكارُ؛ لأنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تفرَّدَ بمُشاهَدةِ إمساكِهم؛ فنَكِرَهم فوقَ الإنكارِ الأوَّلِ(١).

١٣- وُصِفَ العِجلُ هنا بـ﴿سَمِينٍ﴾، ووُصِفَ في سُورةِ (هودٍ) بـ﴿حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، أي: مَشويٍّ؛ فهو عِجلٌ سَمينٌ شَواهُ وقرَّبَه إليهم(٢).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ هذا الغُلامُ إسحاقُ لا إسماعيلُ؛ لأنَّ امرأتَه عَجِبَتْ مِن ذلك، فقالت: عَجوزٌ عَقيمٌ لا يُولَدُ لمِثْلي! فأنَّى لي بالوَلَدِ؟! وأمَّا إسماعيلُ فإنَّه مِن سُرِّيَّتِه هاجرَ، وكان بِكْرَه، وأوَّلَ وَلَدِه، وقد بَيَّنَ سُبحانَه هذا في سُورةِ (هودٍ) في قَولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وهذه هي القِصَّةُ نفْسُها(٣).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ فائِدةٌ في تقديمِ البِشارةِ على الإخبارِ عن إهلاكِهم قَومَ لُوطٍ؛ لِيَعلَمَ أنَّ الله تعالى يُهلِكُهم إلى خَلَفٍ، ويأتي ببَدَلِهم خَيرًا منهم(٤).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ أنَّه سيَكونُ عَليمًا، وفيه تَبشيرٌ بحَياتِه حتَّى يكونَ مِنَ العُلَماءِ(٥).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ شِدَّةُ فَرَحِ سارَةَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٦).

امرأةِ إبراهيمَ، حتَّى جرَى منها ما جرَى؛ مِن صَكِّ وَجْهِها، وصَيحَتِها غيرِ المَعهودةِ[١].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ مُتضَمِّنٌ لإثباتِ صِفةِ القَولِ له تعالى[٢].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ أضاف الرُّبوبيَّةَ هنا إلى هذه المرأةِ العَجوزِ العَقيمِ الكَبيرةِ؛ إشارةً إلى أنَّ هذا مِن عنايةِ اللهِ بها؛ لأنَّ إضافةَ الرُّبوبيَّةِ إلى الشَّخصِ المعيَّنِ تكونُ ربوبيَّةً خاصَّةً، وهي تقتضي عنايةً خاصَّةً، والرُّبوبيَّةُ العامَّةُ تكونُ لكلِّ أحدٍ، فاللهُ ربُّ كلِّ شيءٍ؛ كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨]؛ الرُّبوبيَّةُ العامَّةُ: ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والرُّبوبيَّةُ الخاصَّةُ: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[٣].

٢٠- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ القُرآنُ إذا جمَعَ اللهُ فيه بيْنَ هذَينِ الاسمَينِ الكريمَينِ: العَليمِ والحَكيمِ؛ يُقَدَّمُ غالبًا العَليمُ، لكِنْ هنا قُدِّمَ الحَكيمُ؛ لأنَّ المقامَ يَقتَضي هنا تقديمَ الحِكمةِ على العِلمِ. والحِكمةُ هنا في شَيئَينِ:

أوَّلًا: تأخيرُ الوِلادةِ بالنِّسبةِ لهذه المرأةِ: أنَّ اللهَ لم يُؤَخِّرْ ولادتَها إلى أنْ تَبلُغَ العَجزَ إلَّا لحِكمةٍ.

ثانيًا: كَونُها وَلَدتْ بعدَ أنْ أَيِسَت واعتقَدَت أنَّها عقيمٌ، فهاهنا حِكمتانِ: حِكمةٌ سابِقةٌ، وحِكمةٌ لاحِقةٌ؛ ومِن ثَمَّ قُدِّمَ اسمُ «الحكيمِ» على اسمِ «العليمِ»[٤].

٢١- قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ مُتضَمِّنٌ لإثباتِ صِفةِ الحِكمةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٩).

والعِلمِ اللَّذَينِ هما مَصدَرُ الخَلقِ والأمرِ؛ فجَميعُ ما خَلَقَه سُبحانَه صادِرٌ عن عِلمِه وحِكمتِه، وكذلك أمْرُه وشَرعُه مَصدَرُه عن عِلمِه وحِكمتِه، والعِلمُ والحِكمةُ مُتضَمِّنانِ لجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ؛ فالعِلمُ يتضَمَّنُ الحياةَ ولوازِمَ كمالِها مِنَ القَيُّوميَّةِ والقُدرةِ والبَقاءِ، والسَّمعِ والبَصَرِ وسائِرِ الصِّفاتِ الَّتي يَستلزِمُها العِلمُ التَّامُّ، والحِكمةُ تتضَمَّنُ كَمالَ الإرادةِ مِن العَدلِ، والرَّحمةِ، والإحسانِ، والجُودِ والبِرِّ، ووَضْعِ الأشياءِ في مَواضِعِها على أحسَنِ وُجوهِها، وتتضَمَّنُ إرسالَ الرُّسلِ، وإثباتَ الثَّوابِ والعِقابِ. كُلُّ هذا يُعلَمُ مِن اسمِه الحَكيمِ كما هي طريقةُ القُرآنِ في الاستِدلالِ على هذه المطالِبِ العَظيمةِ بصِفةِ الحِكمةِ، والإنكارِ على مَن يَزعُمُ أنَّه خَلَقَ الخَلقَ عَبثًا وسُدًى وباطِلًا؛ فحينَئِذٍ صِفةُ حِكمتِه تتضَمَّنُ الشَّرْعَ والقَدَرَ، والثَّوابَ والعِقابَ[1].

٢٢- قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ اختَصَّت هذه القِصَّةُ بذِكرِ هذَينِ الاسمَينِ؛ لاقتِضائِها لهما؛ لتعَجُّبِ النُّفوسِ مِن توَلُّدِ مولودٍ بيْنَ أبوَينِ لا يُولَدُ لِمثلِهما عادةً، وخَفاءِ العِلمِ بسَبَبِ هذا الإيلادِ، وكَونِ الحِكمةِ اقتَضَت جريانَ هذه الولادةِ على غَيرِ العادةِ المعروفةِ؛ فذَكَر في الآيةِ اسمَ العِلمِ والحِكمةِ المتضَمِّنَ لعِلْمِه سُبحانَه بسَبَبِ هذا الخَلقِ وغايتِه، وحِكمتِه في وَضْعِه مَوضِعَه مِن غيرِ إخلالٍ بموجَبِ الحِكمةِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ الجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وغُيِّرَ أُسلوبُ الكلامِ مِن خِطابِ المُنذَرينَ مُواجَهةً إلى أُسلوبِ التَّعريضِ؛ تَفنُّنًا بذِكرِ قصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لِتَكونَ تَوطئةً للمَقصودِ مِن ذِكرِ

(١) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٠).

ما حَلَّ بقَوم لُوطٍ عليه السَّلامُ حينَ كذَّبوا رَسولَهم؛ فالمقصودُ هو ما بعدَ قولِه: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾[1] [الذاريات: ٣١].

- وكان في الابتِداءِ بذِكرِ قَومِ لُوطٍ في هذه الآيةِ على خِلافِ التَّرتيبِ الَّذي جَرَى عليه اصطلاحُ القرآنِ في تَرتيبِ قَصَصِ الأُمَمِ المُكذِّبةِ بابتدائِها بقَومِ نُوحٍ، ثمَّ عادٍ، ثمَّ ثَمودَ، ثمَّ قَومِ لوطٍ؛ أنَّ المناسَبةَ للانتِقالِ مِن وَعيدِ المشركينَ إلى العِبرةِ بالأُمَمِ الماضيةِ: أنَّ المشركينَ وُصِفوا آنِفًا بأنَّهم في غَمْرةٍ ساهونَ، فكانوا في تلك الغَمْرةِ أشبَهَ بقَومِ لوطٍ؛ إذ قالَ اللهُ فيهم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، ولأنَّ العذابَ الَّذي عُذِّبَ به قومُ لوطٍ كان حِجارةً أُنزِلَت عليهم مِن السَّماءِ مُشبَّهةً بالمَطرِ، وقد سُمِّيَت مَطَرًا في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠]، وقولِه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]، ولأنَّ في قصَّةِ حُضورِ الملائكةِ عندَ إبراهيمَ وزَوجِه عِبرةً بإمكانِ البَعثِ؛ فقد تَضمَّنَت بِشارَتَها بمَولودٍ يُولَدُ لها بعدَ اليأْسِ مِن الوِلادةِ، وذلك مِثلُ البعثِ بالحياةِ بعدَ المَماتِ[2].

وقيل: بدأ بقِصَّةِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإن كانت مُتأخِّرةً عن قِصَّةِ عادٍ؛ هزًّا للعَرَبِ؛ إذ كان أباهم الأعلى، ولِكَونِ الرُّسُلِ الَّذين وَفَدوا عليه جاؤوا بإهلاكِ قَومِ لُوطٍ إذ كَذَّبوه؛ ففيه وعيدٌ للعَرَبِ، وتهديدٌ واتِّعاظٌ، وتَسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ما يَجري عليه مِن قَومِه[3].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ؛ لتَجتمِعَ نفْسُ المخاطَبِ، كما تَبدأُ المَرءَ إذا أردتَ أنْ تُحدِّثَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٥٦، ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٤).

بعجيبٍ، فتُقرِّرَه هلْ سمِعَ ذلك أم لا؟ فكأنَّك تَقْتضي أنْ يقولَ: لا، ويَطلُبَ منك الحديثَ. وفيه تَفخيمٌ للحديثِ، وتَنبيهٌ على أنَّه ليس مِن عِلمِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنَّما عرَفَه بالوحْيِ[(١)].

- ولَمَّا وُجِّهَ الخِطابُ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ ...﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ عُرِفَ أنَّ المقصودَ الأصليَّ تَسليتُه على ما لَقِيَه مِن تَكذيبِ قَومِه، ويَتبَعُ ذلك تَهديدٌ وتَعريضٌ بالسَّامِعينَ حينَ يُقرَأُ عليهم القرآنُ -أو يَبْلُغُهم- بأنَّهم صائِرونَ إلى مِثلِ ذلك العذابِ؛ لاتِّحادِ الأسبابِ[(٢)].

- ووَصْفُ الضَّيفِ بأنَّهم مُكرَمونَ كَلامٌ مُوجَّهٌ (أي: يصلحُ لاحتِمالِ معنيَينِ)؛ لأنَّه يُوهِمُ أنَّ ذلك لإكرامِ إبراهيمَ إيَّاهم كما جرَتْ عادتُه مع الضَّيفِ، وهو الذي سَنَّ القِرَى[(٣)]، والمقصودُ: أنَّ اللهَ أكرَمَهم برفْعِ الدَّرجةِ؛ لأنَّ الملائكةَ مُقرَّبون عندَ اللهِ تعالى[(٤)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿سَلَـٰمًا﴾ مَصدرٌ سادٌّ مَسدَّ الفِعلِ مُستغنًى به عنه، وأصلُه: نُسلِّمُ عليكم سلامًا، وأمَّا ﴿سَلَـٰمٌ﴾ فمَعدولٌ به إلى الرَّفعِ على الابتِداءِ، وخبَرُه مَحذوفٌ، مَعناهُ: عليكم سلامٌ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ السَّلامِ، كأنَّه قصَدَ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٧).

(٣) القِرَى: ضِيافةُ الضَّيفِ والإحسانُ إليه. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٥٢)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٨).

يُحيِّيَهم بأحسَنَ ممَّا حَيَّوهُ به؛ فإنَّ تحيتَهم باسمٍ مَنصوبٍ مُتضمِّنٌ لجُملةٍ فِعليَّةٍ، تقديرُه: سلَّمْنا عليك سلامًا. وتَحيةَ إبراهيمَ لهم باسمٍ مرفوعٍ مُتضمِّنٌ لجُملةٍ اسميَّةٍ، تقديرُه: سلامٌ دائمٌ، أو ثابتٌ أو مستقِرٌّ عليكم، ولا ريبَ أنَّ الجُملةَ الاسميَّةَ تَقتضي الثُّبوتَ واللُّزومَ، والفِعليَّةَ تقتضي التَّجدُّدَ والحدوثَ؛ فكانتْ تحيةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أكملَ وأحسنَ[١].

- وفي قولِه: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ، فقيلَ: إنَّ الَّذي يُناسِبُ حالَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه لا يُخاطِبُهم بذلك؛ إذ فيه مِن عدَمِ الأُنسِ ما لا يَخفَى، بل يَظهَرُ أنَّه يكونُ التَّقديرُ: هؤلاء قومٌ مُنكَرونَ، وقال ذلك مع نفْسِه أو لِمَن كان معَه مِن أتْباعِه وغِلمانِه، بحيثُ لا يَسمَعُ ذلك الأضيافُ[٢]. فحذَفَ المبتدَأَ، ولم يُواجِهْهم بهذا؛ لِما فيه مِن الاستِيحاشِ. وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يُواجِهُ أحدًا بما يَكرَهُه، بل يقولُ: وما بالُ أقْوامٍ يَقولون كذا ويَفعَلون كذا[٣]؟! وأيضًا قولُه: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ فيه حذْفُ فاعِلِ الإنكارِ، وهو الَّذي كان أنكَرَهم، كما قال في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠]، ولا ريبَ أنَّ قولَه: ﴿مُّنكَرُونَ﴾ ألطَفُ مِن أنْ يقولَ: أنكَرْتُكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيِّم (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٩، ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣١٥).

(٣) مِن ذلك قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ما بالُ أقوامٍ يَشترِطونَ شُروطًا ليست في كتابِ اللهِ)). [البخاري (٢٧٣٥)، ومسلم (١٥٠٤)].
وقولُه: ((ما بالُ أقوامٍ يَرْفَعونَ أبْصارَهُم إلى السَّماءِ في صَلاتِهم)). [البخاري (٧٥٠)].
وقولُه: ((ما بالُ أقوامٍ قالوا كذا وكذا)). [مسلم (١٤٠١)].

(٤) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٦، ٦٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ الفاءُ فَصيحةٌ؛ مُفصِحةٌ عن جُمَلٍ قد حُذِفَت؛ ثِقةً بدَلالةِ الحالِ عليها، وإيذانًا بكَمالِ سُرعةِ المجيءِ بالطَّعامِ، أيْ: فذَبَح عِجلًا فحَنَذَه، فجاءَ به[1].

- ومَجيءُ الفاءِ لعطفِ أفعالِ ﴿فَرَاغَ﴾ ﴿فَجَآءَ﴾ ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذه الأفعالَ وقعَتْ في سُرعةٍ، والإسراعُ بالقِرى مِن تَمامِ الكرَمِ[2].

- الهمزةُ في قولِه: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ للعرْضِ والحثِّ على الأكْلِ على طَريقةِ الأدَبِ، إنْ قالَه أوَّلَ ما وضَعَه، أو للاستِفهامِ؛ للإنكارِ إنْ قاله حِينَما رَأى إعْراضَهم، وكأنَّه ثَمَّ مَحذوفٌ تَقديرُه: فامتَنَعوا مِن الأكْلِ، فأنكَرَ عليهم ترْكَ الأكلِ، فقال: ألَا تأكُلون[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ جاء قولُه هنا: ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ بغيرِ فاءٍ، وفي سُورةِ (الصَّافَّاتِ) جاء قولُه: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ بالفاءِ؛ وذلك لأنَّ ما في سُورةِ (الصَّافَّاتِ) جُملةٌ اتَّصَلَت بخمْسِ جُمَلٍ كلُّها مَبْدوءةٌ بالفاءِ على التَّوالي، وهي: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ...﴾ الآياتِ إلى قولِه: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الصافات: ٨٧- ٩١]، وفي (الذَّارياتِ) مُتَّصِلٌ بمحذوفٍ -على قولٍ- تَقديرُه: فقَرَّبَه إليْهِم فلمْ يأْكُلوا، فلمَّا رآهُم لا يأْكُلون

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٠).

قال ابن عاشور: («ألَا» كَلمةٌ واحدةٌ، وهي حرْفُ عرْضٍ، أي: رَغْبةٍ في حُصولِ الفِعلِ الَّذي تَدخُلُ عليه. وهي هنا مُتعيِّنةٌ للعَرْضِ؛ لوُقوعِ فِعلِ القولِ بَدلًا مِن فِعلِ ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، ولا يَحسُنُ جَعْلُها كَلمتينِ مِن همزةِ استِفهامٍ للإنكارِ مع «لا» النَّافيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٩، ٣٦٠).

﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؛ فجاء في كلِّ مَوضِعٍ بما يُلائِمُه[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾

- الفاءُ في ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فَصيحةٌ؛ لإفصاحِها عن جُملةٍ مُقدَّرةٍ يَقْتضيها ربْطُ المعنى، أي: فلمْ يَأْكُلوا فأوجَسَ منهم خِيفةً، وقد صُرِّح بذلك في سُورةِ (هودٍ): ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ -أي: إلى العِجلِ- ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[٢] [هود: ٧٠].

٥- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾

- الإشارةُ في قولِ الملائكةِ: ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ إلى الحادثِ، وهو التَّبشيرُ بغُلامٍ، والكافُ للتَّشبيهِ، أي: مِثل قَولِنا قال ربُّكِ، فنحن بلَّغْنا ما أُمِرْنا بتَبليغِه[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ تَعليلٌ لكَلامِ الملائكةِ المُقتضي أنَّ الملائكةَ ما أخبَروا إبراهيمَ إلَّا تَبليغًا مِن اللهِ، وأنَّ اللهَ صادقٌ وَعْدَه، وأنَّه لا مَوقِعَ لتعجُّبِ امرأةِ إبراهيمَ؛ لأنَّ اللهَ حكيمٌ يُدبِّرُ تكوينَ ما يُريدُه، وعليمٌ لا يَخفَى عليه حالُها مِن العَجْزِ والعُقمِ[٤].

- ولم تكُنْ هذه المُفاوَضةُ معَ سارةَ فقطْ، بلْ معَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أيضًا حسَبَما جاء في سُورةِ (الحِجْرِ)، وإنَّما لمْ يُذكَرْ هاهُنا اكتِفاءً بما ذُكِرَ هناك، كما أنَّه لم يُذكَرْ هناك سارةُ اكتِفاءً بما ذُكِرَ هاهنا وفي سُورة (هُودٍ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦١).

الآيات (٢١-٢٧)

﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَطْبُكُمْ﴾: أي: أمرُكم وشأنُكم المُهِمُّ، وأصلُ (خطب) هنا: يدُلُّ على الكلامِ بيْنَ اثنَينِ، وسُمِّيَ بذلك لِمَا يَقَعُ فيه مِن التَّخاطُبِ والمُراجَعةِ[(١)].

﴿مُّسَوَّمَةً﴾: أي: مُعلَّمةً؛ مِن السِّيماءِ: أي: العلَامةِ[(٢)].

﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾: أي: المُتعَدِّينَ حُدودَ اللهِ، والسَّرَفُ: تجاوُزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يَفعَلُه الإنسانُ، وأصلُه: يدُلُّ على تعدِّي الحَدِّ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لَمَّا عرَف حقيقةَ ضيوفِه، وأنَّهم ملائكةٌ؛ أخَذ يسألُهم: قال لهم: فما الشَّأنُ الخَطيرُ الَّذي أرسَلَكم اللهُ مِن أجْلِه؟ قالوا له: إنَّا أُرسِلْنا إلى قَومٍ كافِرينَ -وهم قَومُ لُوطٍ عليه السَّلامُ-؛ لِنُمطِرَ عليهم حِجارةً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

مِن طينٍ، مُعلَّمةً عندَ ربِّك لِلَّذين تعَدَّوا حُدودَ اللهِ.

ثمَّ يقولُ تعالى: فأخرَجْنا مَن كان في هذه القَريةِ مِنَ المُؤمِنينَ، فما وَجَدْنا في تلك القَريةِ غَيرَ أهلِ بَيتٍ واحِدٍ مِن المُسلِمينَ، وأبقَيْنا في تلك القَريةِ عَلامةً دالَّةً على سُوءِ عاقِبةِ أهلِها، للَّذين يَخافونَ عَذابَ اللهِ؛ لِيَتَّعِظوا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَلِمَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ مِن مُحاورَتِهم فيما ذُكِرَ في هذه الآيةِ، وما ورَدَ ذِكْرُه في آياتٍ أُخرى أنَّهم مَلائكةٌ مُرسَلونَ مِن عندِ اللهِ؛ سأَلَهم عن الشَّأنِ الَّذي أُرسِلوا مِن أجْلِه[1].

وأيضًا لَمَّا كان الخَليلُ عليه السَّلامُ أعلَمَ أهلِ زَمانِه بالأُمورِ الإلهيَّةِ؛ عَلِمَ أنَّ اجتِماعَ الملائِكةِ على تلك الهَيئةِ الَّتي يَراهم فيها ليس لهذه البِشارةِ فقط؛ فلذلك استأنفَ تعالى الجوابَ لِمَن كان كأنَّه قال: ما كان مِن حالِه وحالِهم بعدَ هذا؛ بقَولِه[2]:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: قال إبراهيمُ للمَلائكةِ بعدَ تَلقِّي بِشارتِهم له بالوَلَدِ: فما الشَّأنُ الخَطيرُ الَّذي أرسَلَكم اللهُ مِن أجْلِه[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾.

أي: قالوا له: إنَّا أرسَلَنا اللهُ إلى قَومٍ كافِرينَ فاسِدينَ، وهم قَومُ لُوطٍ عليه السَّلامُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ * وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠ - ٨٤].

﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣﴾.

أي: لنُمطِرَ عليهم مِنَ السَّماءِ حِجارةً أصلُها مِن طينٍ، فنَرجُمَهم بها[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا

= (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

قال ابنُ عطية: (الخَطبُ: الأمرُ المُهِمُّ، وقَلَّما يُعبَّرُ به إلَّا عن الشَّدائدِ والمكارِهِ، حتَّى قالوا: خُطوبُ الزَّمانِ، ونحوُ هذا، فكأنَّه يقولُ لهم: ما هذه الطَّامَّةُ الَّتي جِئتُم لها؟). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨).

وقال ابنُ عاشور: (قد عَلِمَ إبراهيمُ أنَّ نُزولَ الملائكةِ بتلك الصُّورةِ لا يكونُ لمجَرَّدِ بشارتِه بابنٍ يُولَدُ له ولِزَوجِه؛ إذْ كانت البِشارةُ تَحصُلُ له بالوَحيِ؛ فكان مِن عِلمِ النُّبُوَّةِ أنَّ إرسالَ الملائكةِ إلى الأرضِ بتلك الصُّورةِ لا يكونُ إلَّا لخَطبٍ! قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٤٩).

كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ٣٤﴾.

أي: حِجارةً مُعلَّمةً عندَ اللهِ تعالى، قد أُعِدَّت لأولئك القَومِ الَّذين تعَدَّوا حُدودَ اللهِ[1].

كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أراد اللهُ تعالى أن يُهلِكَ المُجرِمينَ، مَيَّزَ المؤمِنينَ بقَولِه تعالى[2]:

﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨، ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨).

قال القرطبي: (﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُعَلَّمةً. قيل: كانت مُخطَّطةً بسَوادٍ وبَياضٍ. وقيل: بسَوادٍ وحُمرةٍ. وقيل: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مَعروفةً بأنَّها حِجارةُ العذابِ. وقيل: على كُلِّ حَجَرٍ اسمُ مَن يَهلِكُ به. وقيل: عليها أمثالُ الخواتيمِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨).

وقد ذهب ابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين: إلى أنَّ المعنى أنَّ كلَّ حجرٍ عليه اسمُ صاحِبِه. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٠).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الرَّبيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٤).

وقال ابنُ عطيَّة: (ويحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: أنَّها بجُملتِها مَعلومةٌ عندَ رَبِّك لهذا المعنى، مُعَلَّمةٌ له، لا أنَّ كُلَّ واحدٍ منها له علامةٌ خاصَّةٌ به). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٠٢).

أي: فلَمَّا أرَدْنا إهلاكَ قَومِ لُوطٍ أخرَجْنا مَن كان في بَلَدِهم مِنَ المُؤمِنينَ باللهِ تعالى[١].

كما قال تعالى: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [الحجر: ٥٩، ٦٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ [الحجر: ٦٥].

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

أي: فما وَجَدْنا في تلك القَريةِ غَيرَ أهلِ بَيتٍ واحِدٍ مِن أهلِ الإسلامِ[٢].

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان إبقاءُ آثارِ المُهلَكينَ أدَلَّ على قُدرةِ مَن أهلَكَهم؛ قال[٣]:

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

أي: وأبقَيْنا في تلك القَريةِ عَلامةً دالَّةً على سُوءِ عاقِبةِ أهلِها، للَّذين يخافونَ عَذابَ اللهِ المُؤلِمَ المُوجِعَ، فيَستَدِلُّونَ بذلك على قُدرةِ اللهِ تعالى وانتِقامِه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٦).

قال الواحدي: (قال مجاهِدٌ ومُقاتِلٌ والمفَسِّرونَ: يعني: لوطًا وبنتَيه). ((البسيط)) (٢٠/ ٤٥٣).

ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦٧).

المُجرِمينَ، ويَعتَبِرونَ ويتَّعِظونَ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٥ - ٧٧].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أنَّه إنَّما سألَهم بعدَ أنْ قَراهم؛ جَريًا على سُنَّةِ الضِّيافةِ: ألَّا يُسألَ الضَّيفُ عن الغَرَضِ الَّذي أورَدَه ذلك المَنزِلَ إلَّا بعدَ استِعدادِه للرَّحيلِ؛ كيلا يَتوهَّمَ سآمةَ مُضَيِّفِه مِن نُزولِه به، ولِيُعينَه على أمرِه إن كان مُستطيعًا[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أتَى الملائِكةُ هنا بما هو مِن آدابِ الصَّديقِ الَّذي لا يُسِرُّ عن الصَّديقِ شيئًا، لا سيَّما وكان ذلك بإذنِ اللهِ تعالى لهم في إطلاعِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ على إهلاكِهم، وجَبْرِ قَلْبِه بتَقديمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥١).

قال ابن كثير: (أي: جعَلْناها عِبرةً لِمَا أنزَلْنا بهم مِنَ العَذابِ والنَّكالِ، وحِجارةِ السِّجِّيلِ، وجعَلْنا مَحَلَّتَهم بُحيرةً مُنتِنةً خَبيثةً؛ ففي ذلك عِبرةٌ للمُؤمِنينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢).

وقال ابنُ عاشور: (معنى ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾: أنَّ القَريةَ بَقِيَتْ خرابًا لم تَعمُرْ، فكان ما فيها مِن آثارِ الخَرابِ آيةً للَّذين يخافونَ عَذابَ اللهِ؛ قال تعالى في سورةِ «الحِجْرِ»: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥).

البِشارةِ بأبي الأنبياءِ إسحاقَ عليه السَّلامُ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أنَّه ينبغي للدَّاعيةِ ألَّا يَجزَعَ إذا دَعَا فلم يَستجِبْ لدعوتِه إلَّا القليلُ؛ فالرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ قد يَبقَونَ في أُمَمِهم دُهورًا كثيرةً ولا يَتَّبِعُهم إلَّا القَليلُ، هذا لوطٌ عليه السَّلامُ ظلَّ يدعو قَريةً كامِلةً إلى توحيدِ اللهِ وإلى تَركِ الفاحشةِ فما اتَّبَعَه مِن القَريةِ أحَدٌ، وتَخَلَّفَ عن دَعوتِه مَن تَخَلَّفَ، حتَّى أهلُ بيتِه لم يخلصوا؛ فيهم مَن لم يؤمِنْ به عليه السَّلامُ! قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أنَّ الغَيبَ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى؛ فهذا نبيُّ اللهِ إبراهيمُ -وهو مَن هو- ذبَحَ عِجْلَه، وتَعِبَ هو وامرأتُه بإنضاجِ العِجلِ وحَمْلِه -وذلك على أنَّه هُيِّئ بعدَ مجيئِهم-، كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، ولم يَدْرِ أنَّ الَّذين يُنضِجُ لهم عِجْلَه مَلائِكةٌ كِرامٌ لا يأكُلونَ! ومِن أجْلِ عَدَمِ عِلمِه بذلك لَمَّا لم يأكُلوا خاف منهم ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]، وما هذا إلَّا لأنَّه لا يَعلَمُ بحَقيقتِهم، وما درَى عن الأمرِ حتَّى أخبَروه، فسألَهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه إذا كانت الحِجارةُ مُسَوَّمةً للمُسرِفينَ، فكيف قالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ ...﴾ مع أنَّ المُسرِفَ غيرُ المُجرِمِ في اللُّغةِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٨٨).

الجوابُ: المُجرِمُ هو الآتي بالذَّنْبِ العَظيمِ؛ لأنَّ الجُرمَ فيه دَلالةٌ على العِظَمِ، ومنه: جِرْمُ الشَّيءِ؛ لعَظَمةِ مِقدارِه، والمُسرِفُ هو الآتي بالكَبيرةِ، ومَن أسرف ولو في الصَّغائِرِ يَصيرُ مُجرِمًا؛ لأنَّ الصَّغيرَ إلى الصَّغيرِ إذا انضَمَّ صار كبيرًا، ومَن أجرَمَ فقد أسرَفَ؛ لأنَّه أتى بالكَبيرةِ ولو دَفعةً واحِدةً؛ فالوَصفانِ اجتَمَعا فيهم[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ سُؤالٌ: أيُّ حاجةٍ إلى قَومٍ مِن الملائِكةِ، وواحِدٌ منهم كان يَقلِبُ المدائِنَ بِريشةٍ مِن جَناحِه؟!

الجوابُ مِن جِهتَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ المَلِكَ القادِرَ قد يأمُرُ الحَقيرَ بإهلاكِ الرَّجُلِ الخَطيرِ، ويأمُرُ الرَّجُلَ الخَطيرَ بخِدمةِ الشَّخصِ الحَقيرِ؛ إظهارًا لِنَفاذِ أمْرِه، فحيث أهلَكَ الخَلقَ الكَثيرَ بالقُمَّلِ والجَرادِ والبَعوضِ، بل بالرِّيحِ الَّتي بها الحياةُ؛ كان أظهَرَ في القُدرةِ، وحيث أمَرَ آلافًا مِنَ الملائكةِ بإهلاكِ أهلِ بَدرٍ مع قِلَّتِهم، كان أظهَرَ في نفاذِ الأمرِ.

الثَّاني: أنَّ مَن يكونُ تحتَ طاعةِ مَلِكٍ عَظيمٍ، ويَظهَرُ له عَدُوٌّ، ويَستعينُ بالمَلِكِ فيُعينُه بأكابِرِ عَسكَرِه؛ يكونُ ذلك تعظيمًا منه له، وكُلَّما كان العَدُوُّ أكثَرَ، والمَدَدُ أوفَرَ؛ كان التَّعظيمُ أتَمَّ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ استُدِلَّ به على رَجْمِ اللَّائِطِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٨٨).

قال الشنقيطي: (وحجَّةُ مَن قال: إنَّ قتلَه بالرَّجمِ هو ... روايةُ سعيدِ بنِ جُبيرٍ، ومجاهدٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّه يُرجَمُ، وما ذكَره البَيْهَقيُّ وغيرُه عن عليٍّ أنَّه رجَم لوطيًّا، ويُستأنَسُ لذلك بأنَّ الله رمَى أهلَ تلك الفاحشةِ بحجارةِ السِّجِّيلِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٩٥). ويُنظر: ((السنن الكبرى)) =

٥- قَولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ * لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ متى اتَّصَلت «أَرسَلَ» بـ «على» فهي بمعنى المُبالَغةِ في المُباشَرةِ والعَذابِ، ومتى اتَّصَلت بـ «إلى» فهي أخَفُّ، وانظُرْ ذلك تَجِدْه مُطَّرِدًا[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مِّن طِينٖ﴾ سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في تأكيدِ الحِجارةِ بكَونِها مِن طِينٍ؟

الجوابُ: لأنَّ بَعضَ النَّاسِ يُسَمِّي البَرَدَ حِجارةً؛ فقَولُه: ﴿مِّن طِينٖ﴾ يَدفَعُ ذلك التَّوهُّمَ[٢].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ لَمَّا كانوا قد رأَوُا اهتِمامَه عليه السَّلامُ بالعِلمِ بخَبَرِهم؛ خَشيةً مِن أن يَكونوا أُرسِلوا لِعَذابِ أحَدٍ يَعِزُّ عليه أمْرُه؛ أمَّنوا خَوفَه بوَصفِ الإحسانِ، فقالوا: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: المُحسِنِ إليك بهذه البِشارةِ وغَيرِها[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بيانُ أنَّه ببَركةِ المُحسِنِ ينجو المُسيءُ؛ فإنَّ القَريةَ ما دام فيها المؤمِنُ لم تَهلِكْ[٤].

= للبيهقي (٨/ ٤٠٤).

وقال ابن كثير: (وقد ذهَب الإمامُ أبو حنيفةَ رحمه الله إلى أنَّ اللَّائطَ يُلْقى مِن شاهِقٍ، ويُتبَعُ بالحجارةِ، كما فُعِل بقَومِ لوطٍ. وذهب آخَرون مِن العلماءِ إلى أنَّه يُرجَمُ، سواءٌ كان مُحصَنًا أو غيرَ مُحصَنٍ. وهو أحدُ قَولَيِ الشَّافِعيِّ رحمه الله... وقال آخَرون: هو كالزَّاني؛ فإن كان مُحصَنًا رُجِم، وإن لم يكُنْ مُحصَنًا جُلِد مِئةَ جَلْدةٍ. وهو القولُ الآخَرُ للشَّافِعيِّ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عَبَّرَ عنهم بـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ إيمانَهم هو سَبَبُ نَجاتِهم[١].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فُرِّقَ بيْنَ الإسلامِ والإيمانِ هنا لِسِرٍّ اقتضاه الكلامُ؛ فإنَّ الإخراجَ هنا عبارةٌ عن النَّجاةِ، فهو إخراجُ نجاةٍ مِن العذابِ، ولا ريبَ أنَّ هذا مختَصٌّ بالمؤمِنينَ المتَّبِعينَ للرُّسُلِ ظاهِرًا وباطنًا، وقولُه تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لَمَّا كان الموجودونَ مِن المخرَجينَ أوقَعَ اسمَ الإسلامِ عليهم؛ لأنَّ امرأةَ لوطٍ كانت مِن أهلِ هذا البيتِ، وهي مُسلِمةٌ في الظَّاهِرِ؛ فكانت في البيتِ بينَ الموجودينَ، لا في القَومِ النَّاجِينَ، وقد أخبَر سُبحانَه عن خيانةِ امرأةِ لوطٍ، وخيانتُها أنَّها كانت تدُلُّ قومَها على أضيافِه وقلْبُها معهم، وليست خيانةَ فاحشةٍ؛ فكانت مِن أهلِ البيتِ المُسلِمينَ ظاهرًا، وليست مِن المؤمِنينَ النَّاجِينَ، وبهذا خَرَج الجوابُ عن السُّؤالِ المشهورِ وهو: أنَّ الإسلامَ أعمُّ مِن الإيمانِ، فكيفَ استثنَى الأعمَّ مِن الأخصِّ، وقاعدةُ الاستثناءِ تقتضي العَكسَ[٢]؟ والمقصودُ أنَّ امرأةَ لوطٍ لم تكُنْ مؤمنةً، ولم تكُنْ مِن النَّاجينَ المخرَجينَ، فلم تدخُلْ في قولِه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكانت مِن أهلِ البيتِ المسلمينَ، وممَّن وُجِد فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. وبهذا تظهَرُ حِكمةُ القرآنِ حيثُ ذكَر الإيمانَ لَمَّا أخبَر بالإخراجِ، وذكَر الإسلامَ لما أخبَر بالوجودِ[٣].

١١- الإسلامُ والإيمانُ: تارةً يُرادُ بالإسلامِ كُلُّ الدِّينِ فيَدخُلُ فيه الإيمانُ، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]؛ فهذا يَشمَلُ الإسلامَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٧٤).

الَّذي هو الشَّرائِعُ الظَّاهِرةَ، والإيمانَ الَّذي هو أعمالُ القُلوبِ وأقوالُ القُلوبِ، وكذلك إذا أُطلِقَ الإيمانُ، مِثلُ قَولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣] يَشمَلُ حتَّى المُسلِمينَ، أمَّا إذا قيل: مُؤمِنٌ ومُسلِمٌ؛ فالإيمانُ في القَلبِ، والإسلامُ في الجوارحِ، والإيمانُ أكمَلُ مِن الإسلام، والدَّليلُ على ذلك قَولُه تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، ويدُلُّ عليه أيضًا قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ لأنَّ اللهَ أنجى لوطًا وأهلَه إلَّا امرأتَه، وكانت امرأتُه معه في البَيتِ مُسلِمةً، ظاهِرُها أنَّها مُؤمِنةٌ باللهِ ورَسولِه، لكِنَّها تُبطِنُ الكُفرَ؛ فسَمَّى اللهَ البَيتَ بَيتَ إسلام، سَمَّى اللهُ أهلَه مُسلِمينَ كُلَّهم، ولكِنَّه لم يَنجُ منه إلَّا المُؤمِنُ؛ لأنَّ امرأةَ لُوطٍ -كما ذكَرَ اللهُ في القُرآنِ- قد خانَتْه، فكَفَرَت كُفرًا لم يَعلَمْ به؛ فصارتْ بذلك مِنَ المُنافِقينَ.

وعلى هذا فنَقولُ: كُلُّ مُؤمِنٍ مُسلِمٌ دونَ عَكسٍ، وليس كُلُّ مُسلِمٍ مُؤمِنًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾[1] [الحجرات:١٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الكُفرَ إذا غَلَب، والفِسقَ إذا فشا؛ لا تَنفَعُ معه عِبادةُ المُؤمِنينَ، بخِلافِ ما لو كان أكثَرُ الخَلقِ على الطَّريقةِ المُستَقيمةِ، وفيهم شِرْذِمةٌ يَسيرةٌ يَسرِقونَ ويَزنُونَ[2].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى أبقَى آياتٍ -وهي: العَلاماتُ والدَّلالاتُ- فدَلَّ ذلك على أنَّ ما يَخُصُّه مِن أخبارِ المؤمِنينَ، وحُسْنِ عاقبتِهم في الدُّنيا، وأخبارِ الكُفَّارِ، وسُوءِ عاقبتِهم في

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨١).

الدُّنيا: هو مِن بابِ الآياتِ والدَّلالاتِ الَّتي يُستدَلُّ بها ويُعتبَرُ بها عِلمًا ووَعظًا؛ فيُفيدُ مَعرِفةَ صِحَّةِ ما أخبَرَتْ به الرُّسُلُ، ويُفيدُ التَّرغيبَ والتَّرهيبَ، ويدُلُّ ذلك على أنَّ اللهَ تعالى يرضَى عن أهلِ طاعتِه ويُكرِمُهم، ويَغضَبُ على أهلِ مَعصيتِه ويُعاقِبُهم[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ دَليلٌ على أنَّ آياتِ اللهِ سُبحانَه، وعَجائِبَه الَّتي فَعَلَها في هذا العالَمِ، وأبقَى آثارَها دالَّةً عليه وعلى صِدْقِ رُسُلِه: إنَّما يَنتفِعُ بها مَن يُؤمِنُ بالمَعادِ، ويخشَى عذابَ اللهِ تعالى[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

- حُكِيَ فِعلُ القولِ ﴿قَالَ﴾ بدُونِ عاطفٍ؛ لأنَّه في مُقاوَلةٍ مُحاوَرةٍ بيْنَه وبيْنَ ضَيفِه[٣].

- الفاءُ فيما حُكِيَ مِن كَلامِ إبراهيمَ في قولِه: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فَصيحةٌ مُؤْذِنةٌ بكلامٍ مَحذوفٍ ناشئٍ عن المُحاوَرةِ الواقعةِ بيْنَه وبيْنَ ضَيفِه، وهو مِن عطْفِ كَلامٍ على كَلامٍ مُتكلِّمٍ آخَرَ؛ فإبراهيمُ خاطَبَ الملائكةَ بلُغتِه ما يُؤدَّى مِثلُه بفَصيحِ الكلامِ العربيِّ بعِبارةِ ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وتَقديرُ المَحذوفِ: إذ كُنتُم مُرسَلينَ مِن جانبِ اللهِ تعالى، فما خطْبُكم الَّذي أُرسِلْتُم مِن أجْلِه[٤]؟

- وخاطَبَهم بقولِه: ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ لأنَّه لا يَعرِفُ ما يُسمِّيهم به إلَّا وصْفَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣١٤).

أنَّهم المُرسَلون، والمُرسَلون مِن صِفاتِ الملائكةِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ * لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾

- الإرسالُ الَّذي في قَولِه: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ مُستعمَلٌ في الرَّمْيِ، كما يُقال: أرسَلَ سَهمَه على الصَّيدِ[٢].

- قولُه: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ عبَّرَ بالرَّبِّ إشارةً إلى كثرةِ إحسانِه إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه إنَّما أمَرَه بالإنذارِ رحمةً لأمَّتِه التي جعَلَها خيرَ الأُمَمِ، وسيجعَلُها أكثَرَ الأمَمِ، ولا يُهلِكُها كما أهلَكَهم[٣].

- قولُه: ﴿لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ المسرِفون: المُفرِطون في العِصيانِ، وذلك بكُفْرِهم وشُيوعِ الفاحشةِ فيهم؛ فالمُسرِفون القومُ المُجرِمون، وعُدِلَ عن ضَميرِهم إلى الوصْفِ الظَّاهِرِ ﴿لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾؛ لتَسجيلِ إفراطِهم في الإجرامِ[٤].

- وسمَّاهم مُسرِفينَ، كما سمَّاهم عادِينَ في قولِه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾[الشعراء: ١٦٦]؛ لإسْرافِهم وعُدوانِهم في عَمَلِهم، حيثُ لم يَقنَعوا بما أُبِيحَ لهم[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ * وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ هذه الجُملةُ ليستْ مِن حِكايةِ كَلامِ الملائكةِ، بلْ هي تَذييلٌ لقصَّةِ مُحاوَرةِ الملائكةِ مع إبراهيمَ عليه السَّلامُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

- والفاءُ في ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ فَصيحةٌ؛ لأنَّها تُفصِحُ عن كَلامٍ مُقدَّرٍ هو ما ذُكِرَ في سُورةِ (هُودٍ) مِن مَجيءِ الملائكةِ إلى لُوطٍ عليه السَّلامُ وما حدَثَ بيْنه وبيْن قَومِه، فالتَّقديرُ: فحَلُّوا بقَرْيةِ لُوطٍ، فأمَرْناهم بإخراجِ مَن كان فيها مِن المؤمنينَ، فأخْرَجوهم[١].

- وضَميرُ ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ ضَميرُ عظَمةِ الجَلالةِ. وإسنادُ الإخراجِ إلى اللهِ؛ لأنَّه أمَرَ به الملائكةَ أنْ يُبلِّغوه لُوطًا عليه السَّلامُ، ولأنَّ اللهَ يسَّرَ إخراجَ المؤمنينَ ونَجاتَهم؛ إذ أخَّرَ نُزولَ الحجارةِ إلى أنْ خرَجَ المؤمنون[٢].

- قولُه: ﴿مَنْ كَانَ فِيهَا﴾ أيْ: في قُرى قَومِ لُوطٍ عليه السَّلامُ، وأضْمَرَها بغَيرِ ذِكرٍ؛ لشُهْرتِها، ولكَونِها مَعلومةً مِن آياتٍ أُخرى، كقولِه: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾[٣] [الفرقان: ٤٠].

- و(مِن) في ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ صِلةٌ؛ لتأْكيدِ النَّفيِ[٤].

- قولُه: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ التَّرْكُ: مُفارَقةُ شَخصٍ شيئًا حصَلَ معه في مكانٍ، ففارَقَ ذلك المكانَ، وأبْقَى منه ما كان معه، والتَّرْكُ في الآيةِ كِنايةٌ عن إبقاءِ الشَّيءِ في مَوضعٍ دونَ مُفارَقةِ التَّارِكِ[٥].

- وقال: ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ هم المؤمِنونَ بالبَعثِ والجزاءِ مِن أهلِ الإسلامِ وأهلِ الكتابِ دونَ المُشرِكين؛ فإنَّهم لَمَّا لمْ يَنتفِعوا بدَلالةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨، ٩).

مَواقعِ الاستِئصالِ على أسبابِ ذلك الاستئصالِ، نُزِّلَت دَلالةُ آيتِه بالنِّسبةِ إليهم مَنزِلةَ ما ليس بآيةٍ، والمعنى: أنَّ الَّذين يَخافون اتَّعَظوا بآيةِ قَومِ لوطٍ، فاجتَنَبوا مِثلَ أسبابِ إهلاكِهم، وأنَّ الَّذين أشْرَكوا لا يتَّعِظون فيُوشِكُ أنْ يَنزِلَ عليهم عذابٌ أليمٌ[(١)].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، وقال في سُورةِ (العَنكبوتِ): ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]، وبيْنَهما في اللَّفظِ فرْقٌ؛ قال هاهنا: ﴿ءَايَةً﴾، وقال هناك: ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾، وقال هناك: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وقال هاهنا: ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ آيةَ سُورةِ (العنكبوتِ) مَذْكورةٌ بأبلَغِ وَجْهٍ، يدُلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ حيثُ وصَفَها بالظُّهورِ، وكذلك ﴿مِنْهَآ﴾ و﴿فِيهَآ﴾؛ فإنَّ (مِن) للتَّبعيضِ؛ فكأنَّه تعالى قال: مِن نفْسِها لكمْ آيةً باقيةً، وكذلك قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ فإنَّ العاقلَ أعمُّ مِن الخائفِ؛ فكانت الآيةُ هناك أظهَرَ، وسَببُه: أنَّ القصْدَ هناك تَخويفُ القَومِ، وهاهنا تَسليةُ القلْبِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨١).

الآيات (٣٨-٤٦)

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ٤٠ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ٤٢ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ٤٣ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٤٤ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ٤٥ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٤٦ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾: أي: حُجَّةٍ، وأصلُ السُّلطانِ: يدُلُّ على القُوَّةِ والقَهرِ والتَّسلُّطِ[١].

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾: أي: فأدبَرَ وأعرَضَ؛ فـ(التَّولِّي) إذا عُدِّيَ بـ(عن) لَفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتَضى معنى الإعراضِ[٢].

﴿بِرُكۡنِهِۦ﴾: أي: بجانِبِه، وبما يَركَنُ إليه مِنَ القُوَّةِ في نَفْسِه وأعوانِه وجُنودِه، وأصلُ (ركن): يدُلُّ على قُوَّةٍ[٣].

﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾: أي: طرَحْناهم وألقَيْناهم، والنَّبذُ: إلقاءُ الشَّيءِ وطَرحُه؛ لِقلَّةِ الاعتِدادِ به[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥، ٨٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، =

﴿ٱلۡيَمِّ﴾: أي: البَحرِ[١].

﴿مُلِيمٞ﴾: أي: مُسيءٌ، مُذنِبٌ، آتٍ بما يُلامُ عليه، وأصلُ (لوم): يدُلُّ على عَتْبٍ[٢].

﴿ٱلۡعَقِيمَ﴾: أي: الَّتي لا خَيرَ فيها؛ فلا تأتي بمطرٍ ولا سحابٍ، ولا تُلقِحُ شجرًا، إنَّما هي للإهلاكِ، وأصلُ (عقم): يدُلُّ على غُمُوضٍ وضِيقٍ وشِدَّةٍ[٣].

﴿تَذَرُ﴾: أي: تَترُكُ وتَدَعُ، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه؛ لِقِلَّةِ اعتِدادِه به[٤].

﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾: أي: كالشَّيءِ الهالِكِ البالي. والرَّميمُ: ما يَبِسَ مِن نَباتِ الأرضِ وتفَتَّتَ ودِيسَ، وأصلُ (رمم) هنا: يدُلُّ على بَلاءِ الشَّيءِ[٥].

﴿فَعَتَوۡاْ﴾: أي: تكَبَّروا وتجَبَّروا، والعُتُوُّ: الخُروجُ عن الطَّاعةِ، وأصلُه يدُلُّ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٧٤-٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠).

على استِكبارٍ[(١)].

﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: أي: الصَّيحةُ الَّتي يموتُ مَن يَسمعُها، أو يُغشَى عليه. وقيل: كُلُّ عَذابٍ مُهلِكٍ. وقيل: الصَّاعِقةُ: الصَّوتُ الشَّديدُ مِنَ الرَّعدِ، يَسقُطُ معها قِطعةُ نارٍ، وأصلُ (صعق): يدُلُّ على شِدَّة الصَّوتِ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصصِ موسى وهودٍ وصالحٍ ونوحٍ -عليهم السَّلامُ- معَ أقوامِهم، فيقولُ: وفي قِصَّةِ مُوسى آيةٌ وعِبرةٌ حينَ أرسَلْناه إلى فِرعَونَ بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ، فأعرَضَ فِرعَونُ مُستَقْوِيًا بجُنْدِه، وقال لموسى: أنت ساحِرٌ أو مَجنونٌ!

فأخَذَ اللهُ فِرعَونَ وجُنودَه، فطَرَحَهم في البَحرِ، فغَرِقوا والحالُ أنَّ فِرعَونَ قد أتَى بما يُلامُ عليه مِنَ الكُفرِ والظُّلمِ.

وفي قِصَّةِ عادٍ آيةٌ وعِبرةٌ حينَ أرسَلْنا عليهم الرِّيحَ العقيمَ الَّتي لا خَيرَ فيها، فما تَركَت تلك الرِّيحُ شَيئًا ممَّا مَرَّت عليه إلَّا صَيَّرَتْه باليًا مُفتَّتًا!

وفي قِصَّةِ ثَمودَ آيةٌ وعِبرةٌ حينَ قال لهم نَبيُّهم صالحٌ: تَمتَّعوا في الدُّنيا إلى وَقتِ انتِهاءِ آجالِكم، فأعرَضوا عن أمرِ اللهِ وتكَبَّروا، فأخَذَتْهم صاعِقةُ العَذابِ، وهم يَنظُرونَ إلى عُقوبةِ اللهِ النَّازِلةِ بهم، فما استَطاعوا أن يَفِرُّوا مِن عَذابِ اللهِ، ولا أنْ يَدفَعوه عن أنفُسِهم، وما كانوا مُنتَصِرينَ!

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤، ٤٨٥)، ((تفسير البغوي)) (١/ ٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

وأهلَكْنا قَومَ نُوحٍ مِن قَبلِ تلك الأُمَمِ؛ إنَّهم كانوا قَومًا كافِرينَ، خارِجينَ عن طاعةِ اللهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨ ﴾.

أي: وفي قِصَّةِ مُوسى آيةٌ وعِبرةٌ حينَ أرسَلْناه إلى فِرعَونَ بحُجَّةٍ واضِحةٍ ظاهِرةٍ دالَّةٍ على صِدقِه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٧، ٥٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩، ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٢).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أي: في قِصَّةِ موسى آيةٌ أيضًا. هذا قَولُ الأكثَرينَ، ومنهم مَن لم يذكُرْ غَيرَه، كأبي الفَرَجِ [ابن الجوزي]. وقيل: هو عَطفٌ على قَولِه: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٠] ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ ﴾، وهو ضَعيفٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٤٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧١).

وقال الشَّوكاني: (قوله: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ ﴾ مَعطوفٌ على «فيها» مِن قَولِه ﴿ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ ﴾ [الذاريات: ٣٧] بإعادةِ الخافِضِ، والتَّقديرُ: وترَكْنا في قِصَّةِ موسى آيةً، أو معطوفٌ على ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الذاريات: ٢٠] والتَّقديرُ: وفي الأرضِ وفي موسى آياتٌ. قاله الفرَّاءُ وابنُ عطيَّةَ والزمخشريُّ. قال أبو حيَّانَ: وهو بَعيدٌ جِدًّا، يُنَزَّهُ القرآنُ عن مِثْلِه... والوَجهُ الأوَّلُ هو الأَوْلى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٧). ويُنظر: ((تفسير ابنُ عطيَّةَ)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٧، ٥٥٨).

وقال السَّمينُ الحلبي تعليقًا على كلامِ أبي حيان: (ووَجْهُ استِبعادِه له: بُعْدُ ما بَيْنَهما). ((الدر المصون)) (١٠/ ٥٣).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ في قِصَّةِ موسى وفِرعونَ آيةً للَّذين يَخافونَ العذابَ الأليمَ، فيَجتَنِبونَ مِثلَ أسبابِ ما حَلَّ بفِرعَونَ وقَومِه مِن العذابِ، وهي الأسبابُ الَّتي ظهرَت في مُكابَرةِ فِرعَونَ عن تصديقِ الرَّسولِ الَّذي أُرسِلَ إليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾[الأعراف: ١٠٦ - ١٠٨].

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾.

أي: فأعرَضَ فِرعَونُ بجانبِه عن الحقِّ واتِّباعِه، مُستَقْوِيًا بجُنْدِه الَّذين يَعتمِدُ عليهم، ويَركَنُ إليهم في شَدائِدِه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٣).

قال ابن عثيمين: (﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ أي: بقوَّتِه وسُلطانِه وجُندِه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٥٣).

وقال البِقاعي: (﴿ بِرُكْنِهِۦ ﴾ أي: بسَبَبِ ما يَركَنُ إليه مِنَ القُوَّةِ في نَفْسِه، وبأعوانِه وجُنودِه، أو بجَميعِ جُنودِه؛ كنايةً عن المبالَغةِ في الإعراضِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٦٩).

وقيل: المعنى: أعرَض بجانبِه عن الحَقِّ رَفضًا له وعِنادًا وكِبرًا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢، ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠).

قال الواحدي: (وقولُه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ ومقاتِلٌ: أي: بجَمْعِه وجُنْدِه ورَهْطِه. وعلى هذا سَمَّى جَمْعَه رُكنًا له؛ لأنَّه يَتقَوَّى بهم، كالبُنْيانِ يتقَوَّى برُكنِه. والباءُ يكونُ في ﴿ بِرُكْنِهِۦ ﴾ للتَّعْديةِ، أي: جعَلَهم يَتولَّونَ. ويجوزُ أن يكونَ المعنى: تولَّى هو بسَبَبِ جُنْدِه، أي: بقُوَّتِهم وشَوكَتِهم، كما تقولُ: فعَلتُ هذا بقُوَّةِ فُلانٍ. وقال الفَرَّاءُ: أعرَضَ بقُوَّتِه في نَفْسِه، وعلى هذا رُكْنُه: قُوَّتُه. وهذا راجِعٌ إلى الأوَّلِ؛ لأنَّ قُوَّتَه بجُنْدِه. وقال أبو عُبَيدةَ: ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ وبجانِبِه: سَواءٌ، إنَّما هي ناحيتُه. وهو اختيارُ ابنِ قُتَيْبَةَ، قال: فتَوَلَّى برُكْنِه، ونأَى بجانِبِه: سَواءٌ. وعلى هذا رُكْنُه: نَفْسُه. وهو قَولُ المؤَرِّجُ، قال: برُكْنِه: بجانِبِه). ((البسيط)) (٢٠/ ٤٥٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٨٧)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٢٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢).

قال الألوسي: (﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ فأعرَضَ عن الإيمانِ بموسى عليه السَّلامُ، على أنَّ رُكنَه جانِبُ =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠ - ٢٢].

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

أي: وقال فِرعَونُ: إمَّا أنَّ موسى ساحِرٌ يَسحَرُ النَّاسَ، أو هو مَجنونٌ لا عَقْلَ له[١]!

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝٤٠﴾.

أي: فأخَذْنا فِرعَونَ وجُنودَه، فطَرَحْناهم في البَحرِ، فغَرِقوا والحالُ أنَّ فِرعَونَ قد أتَى بما يُلامُ عليه مِنَ الكُفرِ والظُّلمِ، فاستحقَّ عذابَ اللهِ تعالى[٢].

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

انتِقالٌ إلى العِبرةِ بأُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ العَربيَّةِ -وهم عادٌ-، وهم أشهَرُ العَرَبِ البائِدةِ[٣]؛ .....

= بدَنِه وعِطْفه... والباءُ للتَّعديةِ؛ لأنَّ معناه: ثَنى عِطْفَه، أو للمُلابَسةِ. وقال قَتادةُ: تَولَّى بقَومِه، على أنَّ الرُّكنَ بمعنَى القَومِ؛ لأنَّه يَركَنُ إليهم، ويَتقوَّى بهم، والباءُ للمُصاحَبةِ أو المُلابَسةِ، وكَوْنُها للسَّببيَّةِ غيرُ وجيهٍ. وقيل: تولَّى بقوَّتِه وسُلطانِه). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٦). ويُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠).
قال ابن عثيمين: (البَحرُ الَّذي هَلَك فيه فِرعَونُ هو البَحرُ الأحمرُ، الَّذي بيْنَ آسيا وأفريقيا). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١).

تَسليةً لِنبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾.

أي: وفي قِصَّةِ عادٍ آيةٌ وعِبرةٌ حينَ أرسَلْنا عليهم الرِّيحَ الشَّديدةَ الَّتي لا خَيرَ ولا بَرَكةَ فيها؛ فلا تُلقِحُ شَجَرًا، ولا تَسوقُ مَطَرًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٦].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نُصِرْتُ بالصَّبَا[٣]، وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ[٤]))[٥].

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: ما تَترُكُ تلك الرِّيحُ العَقيمُ شَيئًا ممَّا تمُرُّ عليه إلَّا صَيَّرَتْه كالشَّيءِ البالي اليابِسِ المُفتَّتِ[٦]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٥).

(٣) الصَّبا: هي الرِّيحُ الشَّرقيَّةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٩٨).

(٤) الدَّبُور: هي الرِّيحُ الغَربيَّةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٩٨).

(٥) أخرجه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٠، ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢).

قال ابنُ عاشور: (هذا العُمومُ مُخَصَّصٌ بدليلِ العَقلِ؛ لأنَّ الرِّيحَ إنَّما تُبلِي الأشياءَ الَّتي تمُرُّ =

كما قال الله سبحانَه وتعالَى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: وفي قِصَّةِ ثَمودَ آيةٌ وعِبرةٌ حينَ قال لهم نَبيُّهم صالحٌ: تَمتَّعوا في الدُّنيا إلى وَقتِ انتِهاءِ آجالِكم(١)!

= عليها إذا كان شأنُها أن يتطرَّقَ إليها البِلَى؛ فإنَّ الرِّيحَ لا تُبلي الجبالَ ولا البِحارَ ولا الأوديةَ وهي تمُرُّ عليها، وإنَّما تُبلي الدِّيارَ والأشجارَ والنَّاسَ والبَهائِمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١).

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: (ومعروفٌ مِن كلامِ العرَبِ الإتيانُ بلَفظِ العُمومِ والمرادُ به الخُصوصُ، ألَا ترى إلى قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وهذه الإشارةُ في النَّاسِ إنَّما هي إلى رجُلٍ واحدٍ أخبَر أصحابَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ قُرَيْشًا جمعَتْ لهم، وجاء اللَّفظُ كما ترى على العُموم. ومِثلُه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ﴿مَا نَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾، ومِثلُ هذا كثيرٌ لا يَجهَلُه إلَّا مَن لا عنايةَ له بالعِلمِ). ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) (٢١/ ٢٦٥).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورة الأحقاف الآية (٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥١).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ لقولِه تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٨).

قال السمرقندي: (قال لهم نبيُّهم صالحٌ عليه السَّلامُ: عِيشوا إلى مُنتهى آجالِكم، ولا تَعصوا أمْرَ الله). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٦).

وقال ابنُ أبي زَمَنين: (إلى آجالِكم بغيرِ عذابٍ إن آمَنْتُم، وإن عصَيْتُم عُذِّبْتُم). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٩).

وقد ذهب الفرَّاءُ، والواحديُّ، والقرطبي، والشوكاني، وابنُ عثيمين: إلى أنَّ المرادَ بالتَّمَتُّعِ المذكورِ هنا: التَّمتُّعُ في ديارِهم ثلاثةَ أيَّامٍ بعدَ أنْ عَقَروا النَّاقةَ، كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا =

﴿ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾.

أي: فترَك كُفَّارُ ثَمودَ أمْرَ اللهِ، وأعرَضوا عن امتِثالِه؛ تكَبُّرًا منهم[1].

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس: ١١ - ١٤].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾.

أي: فأخَذَتْهم صاعِقةُ العَذابِ والحالُ أنَّهم يَنظُرونَ إلى عُقوبةِ اللهِ النَّازِلةِ

= فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]. وضعَّف هذا القَولَ: الرَّازيُّ وأبو حيَّانَ وابنُ عاشور؛ لأنَّ قَولَه تعالى بَعْدَها: ﴿ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ [الذاريات: ٤٤] بحَرفِ (الفاء) يدُلُّ على أنَّ العُتُوَّ كان بعدَ قَولِه: ﴿تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٧).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ﴿حِينٍ ﴾ زَمَنٌ مُبهَمٌ، جُعِلَ نِهايةً لِما مُتِّعوا به مِنَ النِّعَمِ؛ فإنَّ نِعَمَ الدُّنيا زائلةٌ، وذلك الأجَلُ: إمَّا أنْ يُرادَ به أجَلُ كُلِّ واحدٍ منهم الَّذي تَنتهي إليه حياتُه، وإمَّا أن يُرادَ به أجَلُ الأُمَّةِ الَّذي يَنتهي إليه بقاؤُها، وهذا نحوُ قَولِه تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [هود: ٣]، فكما قاله اللهُ للنَّاسِ على لسانِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لعَلَّه قاله لِثَمودَ على لسانِ صالحٍ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣).

قال ابن جُزَي: (﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّ الحِينَ هي الثَّلاثةُ الأيَّامُ بعدَ عَقْرِهم النَّاقةَ. والآخَرُ. أنَّ الحينَ مِن بَعدِ ما بُعِث صالحٌ عليه السَّلامُ إلى حينِ هَلاكِهم، وعلى هذا يكونُ ﴿ فَعَتَوْا۟ ﴾ مُترتِّبًا بعدَ تمتُّعِهم، وأمَّا على الأوَّلِ فيَكونُ إخبارًا عن حالِهم، غيرَ مرتَّبٍ على ما قبْلَه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣).

بهم[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾.

أي: فما استَطاعوا أن يَفِرُّوا مِن عَذابِ اللهِ، ولا أن يَدفَعوه عن أنفُسِهم[(٢)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣، ١٤).

قال ابن عطيَّة: (قَولُه: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ: فَجأةً وهم يُبصِرونَ بعُيونِهم حالَهم...، ويحتَمِلُ أن يريدَ: وهم يَنتظِرونَ ذلك في تلك الأيَّامِ الثَّلاثةِ الَّتي أُعلِموا به فيها، ورَأَوا علاماتِه في تلَوُّنِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٠).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: يَرَوْنَ ذلك ويُبصِرونَه ويُعاينونَه: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابن جُزَي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: يَنتظِرون: مكِّي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٢).

وقال البِقاعي: (﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ بسَبَبِ عُتُوِّهم أخْذَ قَهرٍ وعَذابٍ ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: الصَّيحةُ العَظيمةُ الَّتي حمَلَتْها الرِّيحُ، فأوصَلَتْها إلى مَسامِعِهم بغايةِ العَظَمةِ، ورَجَّت ديارَهم رَجَّةً أزالت أرواحَهم بالصَّعْقِ، وقَولُه: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ دالٌّ على أنَّها كانت في غَمامٍ، وكان فيها نارٌ، ويجوزُ -مع كَونِه مِنَ النَّظَرِ- أنْ يكونَ أيضًا مِنَ الانتِظارِ؛ فإنَّهم وُعِدوا نُزولَ العذابِ بعدَ ثلاثةِ أيَّامٍ، وجُعِلَ لهم في كُلِّ يومٍ عَلامةٌ وَقَعت بهم، فتحَقَّقوا وُقوعَه اليومَ الرَّابعَ!). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥١، ٥٢)، ((تفسير ابن =

= كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤).

قال الرازي: (قَولُه تعالى: ﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ ﴾ يحتَمِلُ وَجهَينِ؛ أَحَدُهما: أنَّه لِبَيانِ عَجْزِهم عن الهَربِ والفِرارِ على سَبيلِ المُبالَغةِ؛ فإنَّ مَن لا يَقدِرُ على قيامٍ كيف يَمشي فضلًا عن أن يَهرُبَ... الوجهُ الثَّاني: هو أنَّ المرادَ ﴿مِن قِيَامٖ ﴾ القيامُ بالأمرِ، أي: ما استطاعوا مِن قيامٍ به). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٥).

وقال القرطبي: (﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ ﴾ قيل: معناه: مِن نُهوضٍ. وقيل: ما أطاقوا أن يَستَقِلُّوا بعذابِ اللهِ، وأنْ يتحَمَّلوه ويَقوموا به، ويَدفَعوه عن أنفُسِهم، تقولُ: لا أقومُ لهذا الأمرِ، أي: لا أُطيقُه). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥١).

ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ ﴾ عِبارةٌ عن جُثومِهم، وأنَّه كقولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾: الزمخشريُّ، والبيضاوي، وأبو حيَّان، والنيسابوري، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٧).

وقال جلال الدين المحلي: (ما قَدَروا على النُّهوضِ حِينَ نُزولِ العذابِ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٥)، وذكر نحوَه: الرَّسْعَني، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٢٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٠٩).

وقال السمعاني: (وَقَعوا وُقوعًا لم يَستطيعوا بعدَه القيامَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦١).

وقال الشوكاني: (﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ ﴾ أي: لم يَقدِروا على القيامِ. قال قَتادةُ: مِن نُهوضٍ، يعني: لم يَنهَضوا مِن تلك الصَّرْعةِ، والمعنى: أنَّهم عَجَزوا عن القيامِ، فضْلًا عن الهَرَبِ، ومِثلُه قَولُه: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٩).

وقال ابنُ جرير: (فما استَطاعوا مِن دِفاعٍ لِما نزَل بهم مِن عذابِ الله، ولا قدَروا على نُهوضٍ به). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: ما استَطاعوا أن يَقوموا لعذابِ الله: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والسَّمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٧).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: فما قاموا بعدَ نُزولِ العذابِ بهم، ولا قدَروا على نُهوضٍ به ولا دفاعٍ: الثعلبيُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٧).

﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإنسانُ قد لا يَتمَكَّنُ مِن القِيامِ؛ لعارِضٍ في رِجْلَيه، ويَنتَصِفُ مِن عَدُوِّه بما يُرَتِّبُه مِن عَقْلِه، ويُدَبِّرُه برَأيه- قال[١]:

﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾.

أي: وما كان كُفَّارُ ثَمودَ قادِرينَ على الانتِصارِ بأيِّ وَسيلةٍ كانت[٢]!

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ٤٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ قِصَّةَ مَن أُهلِكوا بما مِن شَأنِه الإهلاكُ -وهو الصَّاعِقةُ-؛ أتْبَعَهم قِصَّةَ مَن أُهلِكوا بما مِن شأنِه الإحياءُ، وهو الماءُ[٣].

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ٤٦﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَقَوْمَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿وَقَوْمِ﴾ بكَسرِ الميمِ، على معنى: وفي قَومِ نُوحٍ آيةٌ وعِبرةٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٢).

(٤) قرأ بها أبو عَمرٍو، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٧). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٣٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٠، ٦٨١).

٢- قِراءةُ ﴿ وَقَوْمَ ﴾ بفَتحِ الميمِ، على معنى: أهلَكْنا قَومَ نُوحٍ، أو أغرَقْناهم، أو اذكُرْ قَومَ نوحٍ(١).

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾.

أي: وأهلَكْنا قَومَ نُوحٍ مِن قَبلِ تلك الأُمَمِ؛ فهم أوَّلُ مَن كذَّبوا بالحَقِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾.

أي: إنَّهم كانوا قومًا كافِرينَ عُصاةً، خارِجينَ عن طاعةِ اللهِ تعالى(٣).

كما قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ [النجم: ٥٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ بِشارةُ المُؤمِنينَ. وَجهُه: أنَّ مَن التقَمَه الحوتُ وهو مُليمٌ، نجَّاه اللهُ

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٣٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٠).

تعالى بتَسبيحِه[١]، ومَن أهلَكَه اللهُ بتَعذيبِه لم ينفَعْه إيمانُه حينَ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[٢] [يونس: ٩٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِى ٱلۡيَمِّ﴾ فيه دَلالةٌ على غايةِ عِظَمِ شأنِ القُدرةِ الرَّبَّانيَّةِ، ونِهايةِ ذِلَّةِ فِرعونَ وقَومِه[٣].

٢- أنَّ الشَّيءَ الواحِدَ قد يكونُ خيرًا وقد يكونُ شَرًّا بحَسَبِ آثارِه ونتائِجِه؛ فالرِّياحُ في موضعٍ هي: ﴿بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [النمل: ٦٣]، وعلى عادٍ ونَحوِهم عذابٌ ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾، والكلُّ مِن فِعلِه تبارك وتعالى[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ دَليلٌ على أنَّ سائِرَ الرِّياحِ تُلَقِّحُ الأشجارَ، وتُودِعُها الثِّمارَ بإذنِ الجبَّارِ؛ فكانت تلك وَحْدَها عَقيمًا أُثيرَتْ للعَذابِ لا لمنافِعِ العِبادِ في أشجارِهم وزُروعِهم[٥].

٤- ذُكرتِ الرِّياحُ في القُرآنِ جَمعًا ومُفرَدةً؛ فحيث كانت في سياقِ الرَّحمةِ أتتْ مجموعةً، وحيثُ وقَعَتْ في سياقِ العَذابِ أتتْ مُفرَدةً؛ وسِرُّ ذلك أنَّ رياحَ الرَّحمةِ مُختَلِفةُ الصِّفاتِ والمهابِّ والمَنافِعِ، وأمَّا في العذابِ فإنَّها تأتي مِن وجهٍ واحدٍ وصِمَامٍ واحدٍ لا يقومُ لها شَيءٌ، ولا يعارِضُها غيرُها حتَّى تنتهيَ

---

(١) كما في قوله تعالى عن يونسَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ * فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٤].

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٣٧٦).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٩٧).

إلى حيث أُمِرَتْ؛ ولهذا وَصَفَ سُبحانَه الرِّيحَ الَّتي أَرسلَها على عادٍ بأنَّها عقيمٌ، فقال سُبحانَه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾، وهي الَّتي لا تُلقِحُ[(١)]، ولا خيرَ فيها[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ سؤالٌ: هل في هذا تخصيصٌ، كما في قَولِه تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]؟

الجوابُ: أنَّ المرادَ به المُبالَغةُ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ وصْفٌ لِقَولِه: ﴿شَيْءٍ﴾، كأنَّه قال: كُلَّ شَيءٍ أتت عليه، أو كُلَّ شَيءٍ تأتي عليه. ولا يدخُلُ فيه السَّمَواتُ؛ لأنَّها ما أتت عليه، وإنَّما يَدخُلُ فيه الأجسامُ الَّتي تَهَبُّ عليها الرِّياحُ[(٣)].

---

(١) أي: لا تُلقِحُ شَجرًا، ولا تُنشِئُ سَحابًا، ولا تَحمِلُ مطرًا، إنَّما هي ريحُ الإهلاكِ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١/ ١٨٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٨).

قال ابن عطية: (الرِّياحُ جَمعُ رِيحٍ، وجاءت في القُرآنِ مَجموعةً مع الرَّحمةِ، مُفرَدةً مع العذابِ، إلَّا في «يُونُسَ» في قَولِه تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]، وهذا أغلَبُ وُقوعِها في الكَلامِ). ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٣٣).

وقال ابنُ القيِّمِ في توجيهِ إفرادِ الرَّحمةِ في سورةِ «يونس»: (ذكَرَ ريحَ الرَّحمةِ الطَّيِّبةَ بلفظِ الإفرادِ؛ لأنَّ تمامَ الرَّحمةِ هناك إنَّما تَحصُلُ بوَحدةِ الرِّيحِ، لا باختِلافِها؛ فإنَّ السَّفينةَ لا تَسيرُ إلَّا بريحٍ واحدةٍ مِن وجهٍ واحدٍ تُسَيِّرُها، فإذا اختلفَتْ عليها الرِّياحُ وتصادمَتْ وتقابلَتْ فهو سببُ الهلاكِ، فالمطلوبُ هناك ريحٌ واحدةٌ لا رياحٌ، وأُكِّد هذا المعنى بوصفِها بالطِّيبِ؛ دفْعًا لِتَوهُّمِ أن تكونَ ريحًا عاصفةً، بل هي ممَّا يُفرَحُ بها؛ لِطِيبِها). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١١٩).

وقال ابنُ عاشور: (الرِّياحُ حيثُما وقَعَت في القُرآنِ فهي مُقتَرِنةٌ بالرَّحمةِ، كقَولِه: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢].

وأكثَرُ ذِكرِ الرِّيحِ المُفرَدةِ أن تكونَ مُقتَرِنةً بالعَذابِ، كقَولِه: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، ونحوِ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٩٧).

فإن قيل أنَّ الجِبالَ والصُّخورَ أتتْ عليه وما جعَلَتْه كالرَّميمِ.

فالجوابُ: أنَّ المرادَ: أتتْ عليه قاصِدةً له، وهو عادٌ وأبنِيتُهم وعُروشُهم؛ لأنَّها كانت مأمورةً بأمرٍ مِن عندِ اللهِ، فكأنَّها كانت قاصِدةً لهم، فما ترَكَت شَيئًا مِن تلك الأشياءِ إلَّا جعَلَتْه كالرَّميمِ(١).

٦- قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ تأمَّلِ الآيةَ؛ كيف أنَّ قَومَ عادٍ قَومٌ أقوياءُ أشِدَّاءُ، حتى إنَّهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]! فقال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فهَلَكوا بهذه الرِّيحِ اللَّطيفةِ الَّتي لا تَرى لها جِسمًا، وإنَّما تُحِسُّ بها بدون أنْ ترى شيئًا! ومع ذلك قَضَتْ عليهم بأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾، فهذا فيه آياتٌ مِن آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، أَرسلَ اللهُ عليهم هذه الرِّيحَ فأهلكَتْهم عن آخِرِهم(٢)!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ لطيفةٌ لَفظيةٌ؛ فإنَّ الاستِطاعةَ دونَ القُدرةِ؛ لأنَّ في الاستِطاعةِ دَلالةَ الطَّلَبِ، وهو يُنبِئُ عن عَدَمِ القُدرةِ والاستِقلالِ، فمَنِ استَطاع شيئًا كان دونَ مَن يَقدِرُ عليه(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ عطْفٌ على ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ [الذَّاريات: ٢٠] -على قولٍ-؛ وذلك أنَّه تعالى لَمَّا ذمَّ الخَرَّاصينَ الأفَّاكينَ، ووصَفَهم بما به أوقَعوا أنفُسَهم في تلك الوَرَطاتِ، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٥).

أنَّهم في غَمَراتِ الجَهلِ، وسَكراتِ السَّهوِ، يَتورَّطون فيما لا يَعنِيهم مِن السُّؤالِ عن أيَّانِ السَّاعةِ، مع إنْكارِ مَجيئِها، والامتناعِ مِن الاستعدادِ لها، وأوعَدَهم على ذلك بقولِه: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذَّاريات: ١٤]، وجعَلَه مُخلِّصًا إلى ذِكرِ أضْدادِهم، وذِكرِ ما به فازَوا إلى النَّعيمِ المُقيمِ؛ مِن أخْذِ التَّأهُّبِ للمَعادِ، والتَّهيُّؤِ لاستعدادِ زاد يومِ التَّنادِ -أتَى بعْدَ ذلك بدَليلٍ للآفاقِ والأنفُسِ؛ تنْبيهًا لهم، وإيقاظًا مِن سِنةِ الغفْلةِ، وعُطِفَ عليه قصَّةُ مُوسى وفِرعونَ اتِّعاظًا وتَخويفًا، وأمَّا قصَّةُ إبراهيمَ ولوطٍ عليهما السَّلامُ، فمُعترِضَتانِ بيْنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ تَسليةً لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن تَكذيبِهم، ووعْدًا له بإهلاكِ أعدائِه الأفَّاكينَ كما أُهلِكَ قومُ لُوطٍ[1].

أو قولُه: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ ...﴾ عطْفٌ على قَولِه: ﴿فِيهَآ ءَايَةً﴾ [الذَّاريات: ٣٧]، والتَّقديرُ: وترَكْنا في مُوسى آيةً؛ فهذا العطْفُ مِن عطْفِ جُملةٍ على جُملةٍ، لتَقديرِ فِعْلِ: (ترَكْنا) بعدَ واوِ العطْفِ، والكلامُ على حذْفِ مُضافٍ، أي: في قصَّةِ مُوسى حينَ أرسَلْناهُ إلى فِرعونَ بسُلطانٍ مُبينٍ فتَولَّى... إلخ، فيكونُ التَّرْكُ المُقدَّرُ في حرْفِ العطْفِ مُرادًا به جَعْلُ الدَّلالةِ باقيةً، فكأنَّها مَتروكةٌ في الموضعِ لا تُنقَلُ منه[2].

- قيل: أُعقِبَتْ قصَّةُ قَومِ لوطٍ بقصَّةِ مُوسى وفِرعونَ؛ لشُهرةِ أمْرِ مُوسى وشَريعتِه، ولِما بيْنَهما مِن تَناسُبٍ في أنَّ العذابَ الَّذي عُذِّبَ به الأُمَّتانِ عَذابٌ أرضيٌّ؛ إذ عُذِّبَ قومُ لوطٍ بالحِجارةِ الَّتي هي مِن طِينٍ، وعُذِّبَ قومُ فِرعونَ بالغرَقِ في البحْرِ، ثمَّ ذُكِرَ عادٌ وثمودُ، وكان عذابُهما سَماويًّا؛ إذ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٧، ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩).

عُذِّبَت عادٌ بالرِّيحُ، وثمودُ بالصَّاعقةِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ تَمثيلٌ لهَيئةِ رفْضِ فِرعونَ دَعوةَ مُوسى بهَيئةِ المُنصرِفِ عن شخْصٍ، وبإيرادِ قولِه: ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ تمَّ التَّمثيلُ، والمعنى: أنَّ في قصَّةِ مُوسى وفِرعونَ آيةً للَّذين يَخافونَ العذابَ الأليمَ، فيَجتنِبونَ مِثلَ أسبابِ ما حلَّ بفِرعونَ وقَومِه مِن العَذابِ، وهي الأسبابُ الَّتي ظهَرَتْ في مُكابَرةِ فِرعونَ عن تَصديقِ الرَّسولِ الَّذي أُرسِلَ إليه، وأنَّ الَّذين لا يَخافون العذابَ ولا يُؤمنون بالبَعثِ والجَزاءِ لا يتَّعِظون بذلك؛ لأنَّهم لا يُصدِّقون بالنَّواميسِ الإلهيَّةِ، ولا يَتدبَّرون في دَعوةِ أهلِ الحقِّ، فهمْ لا يَزالون مُعرِضينَ ساخِرينَ عن دَعوةِ رَسولِهم، مُتكبِّرين عليه، مُكابِرينَ في دَلائلِ صِدْقِه، فيُوشِكُ أنْ يَحُلَّ بهم مِن مِثلِ ما حلَّ بفِرعونَ وقَومِه؛ لأنَّ ما جاز على المِثلِ يَجوزُ على المُماثِلِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۞ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ عطْفٌ على قَولِه: ﴿فِيهَآ ءَايَةً﴾ [الذَّاريات: ٣٧]، والتَّقديرُ: وترَكْنا في عادٍ آيةً، فهذا العطْفُ مِن عطْفِ جُملةٍ على جُملةٍ؛ لتَقديرِ فِعْلِ: (ترَكْنا) بعدَ واوِ العطْفِ، والكلامُ على حذْفِ مُضافٍ، أي: في قصَّةِ عادٍ حِينَ أرسَلْنا عليهمُ الرِّيحَ العقيمَ... إلخ؛ فيكونُ التَّرْكُ المُقدَّرُ في حرْفِ العطْفِ مُرادًا به جَعلُ الدَّلالةِ باقيةً، فكأنَّها مَتْروكةٌ في الموضعِ لا تُنقَلُ منه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩، ١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٠، ١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١١).

- قولُه: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ وُصِفتْ الرِّيحُ بالعُقْمِ؛ لأنَّها أهلكَتْهم، وقطَعَتْ دابرَهم، أوْ لأنَّها لم تَتضمَّنْ خيرًا ما؛ مِنْ إنشاءِ مطَرٍ، أو إلْقاحِ شجَرٍ. والعرَبُ يَكرَهونَ العُقْمَ في مَواشِيهم، فالرِّيحُ كالنَّاقةِ العَقيمِ لا تُثمِرُ نسْلًا ولا دَرًّا؛ فوصْفُ الرِّيحِ بالعَقيمِ تَشبيهٌ بَليغٌ في الشُّؤمِ[(١)].

- وجُملةُ ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ صِفةٌ ثانيةٌ، أو حالٌ، فهو ارتقاءٌ في مَضرَّةِ هذه الرِّيحِ؛ فإنَّها لا تَنفَعُ، وأنَّها تضُرُّ أضرارًا عظيمةً[(٢)].

- وصِيغَ ﴿تَذَرُ﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ لاستِحضارِ الحالةِ العَجيبةِ، و﴿شَيۡءٍ﴾ في مَعنى المفعولِ لـ ﴿تَذَرُ﴾؛ فإنَّ (مِن) لتأْكيدِ النَّفيِ، والنَّكرةُ المجرورةُ بـ (مِن) هذه نصٌّ في نفْيِ الجِنسِ، ولذلك كانت عامَّةً، إلَّا أنَّ هذا العُمومَ مُخصَّصٌ بدَليلِ العقْلِ[(٣)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أُتبِعَتْ قصَّةُ عادٍ بقصَّةِ ثَمودَ؛ لتَقارُنِهما غالبًا في القرآنِ؛ مِن أجْلِ أنَّ ثَمودَ عاصَرَت عادًا وخلَفَتْها في عَظَمةِ الأُمَمِ؛ قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]، ولاشتِهارِهما بيْنَ العرَبِ، ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ عطْفٌ على (فِي عَادٍ) [الذَّاريات: ٤١]، أو على (تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً) [الذَّاريات: ٣٧]، والمعنى: وترَكْنا آيةً للمؤمنينَ في ثَمودَ في حالِ قدْ أخذَتْهم الصَّاعقةُ، أي: في دَلالةِ أخْذِ الصَّاعقةِ إيَّاهم، على أنَّ سَبَبَه هو إشراكُهم وتَكذيبُهم وعُتوُّهم عن أمْرِ ربِّهم، فالمؤمِنونَ اعتبَروا بتلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٣٢) و(ص: ١٤٠).

فسَلَكوا مَسلكَ النَّجاةِ مِن عَواقِبِها، وأمَّا المُشرِكون فإصْرارُهم على كُفرِهم سيُوقِعُهم في عَذابٍ مِن جِنسِ ما وقَعَت فيه ثَمودُ(١).

- وهذا القولُ الَّذي ذُكِر هنا ﴿تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هو كَلامٌ جامعٌ لِمَا أنذَرَهم به صالحٌ رسولُهم، وذكَّرَهم به، مِن نحْوِ قَولِه: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقولِه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٤٨]، وقولِه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّهم أُعْطُوا ما هو مَتاعٌ، أي: نفْعٌ في الدُّنيا؛ فإنَّ مَنافعَ الدُّنيا زائلةٌ، فكانتْ الأقوالُ الَّتي قالَها رسولُهم -تَذكيرًا بنِعمةِ اللهِ عليهم- يَجمَعُها ﴿تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، على أنَّه يَجوزُ أنْ يكونَ رَسولُهم قال لهم هذه الكلمةَ الجامعةَ، ولم تُحْكَ في القرآنِ إلَّا في هذا الموضعِ؛ فإنَّ أخبارَ الأُمَمِ تأْتي مُوزَّعةً على قصَصِهم في القرآنِ؛ فقولُه: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ أمْرٌ مُستعمَلٌ في إباحةِ المَتاعِ(٢).

- والمُرادُ بلفظِ ﴿حِينٍ﴾ زمَنٌ مُبْهمٌ، جُعِلَ نِهايةً لِما مُتِّعوا به مِن النِّعَمِ؛ فإنَّ نِعَمَ الدُّنيا زائلةٌ(٣).

- وليس قولُه: ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ بمُشيرٍ إلى قولِه في الآيةِ الأخرى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] ونحوِه؛ لأنَّ ذلك الأمْرَ مُستعمَلٌ في الإنذارِ والتَّأييسِ مِن النَّجاةِ بعْدَ ثَلاثةِ أيَّامٍ؛ فلا يكونُ لقولِه بعْدَه: ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ مُناسَبةٌ لتَعقيبِه به بالفاءِ؛ لأنَّ التَّرتيبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٢، ١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٣).

الَّذي تُفيدُه الفاءُ يَقْتضي أنَّ ما بعْدَها مُرتَّبٌ في الوُجودِ على ما قبْلَها[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ جاء العطْفُ بالفاءِ المُقتضيةِ تأخُّرَ العُتوِّ عمَّا أُمِروا به، فهو مُطابِقٌ لفْظًا ووُجودًا[٢].

- وضُمِّنَ (عَتَوا) معنى (أعرَضُوا)، فعُدِّيَ بـ (عن)، أي: فأعْرَضوا عمَّا أمَرَهم اللهُ على لِسانِ رَسولِه صالحٍ عليه السَّلامُ[٣]. وقيل: عُدِّيَ فِعلُ «عتا» بـ «عن»؛ لأنَّ فيه معنى الاستِكبارِ، كقَولِه: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾[٤] [الأنبياء: ١٩].

- قولُه: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ النَّصبِ في ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ﴾، أي: أخذَتْهم في حالِ نَظَرِهم إلى نُزولِها -على قولٍ-؛ لأنَّهم لَمَّا رَأَوا بَوارِقَها الشَّديدةَ، عَلِموا أنَّها غيرُ مُعتادةٍ، فاستَشْرَفوا يَنظُرون إلى السَّحابِ، فنزَلَت عليهم الصَّاعقةُ وهم يَنظُرون، وذلك هولٌ عظيمٌ عندَ الصَّاعقةِ زِيادةً في العذابِ؛ فإنَّ النَّظرَ إلى النِّقمةِ يَزيدُ صاحبَها ألَمًا، كما أنَّ النَّظرَ إلى النِّعمةِ يَزيدُ المُنعَّمَ مَسرَّةً[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴾

- عبَّر بقولِه: ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ ﴾ ولم يقُلْ: (فما قَدَروا)؛ لأنَّ نفْيَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٩٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣، ١٤).

الاستطاعةِ أبلَغُ مِن نفْيِ القُدْرةِ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ أبلَغُ مِن نفْيِ الانتِصارِ، أي: فما قَدَروا على الهرَبِ، ولا كانوا ممَّن يَنتصِرُ لنفْسِه، فيَدفَعَ ما حلَّ به[٢].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَسِقِينَ﴾ (قومَ) مَنصوبٌ بتَقديرِ (اذكُرْ)، أو بفِعلٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه ما ذُكِرَ مِن القصصِ قبْلَه، تَقديرُه: وأهلَكْنا قومَ نُوحٍ، وهذا مِن عطْفِ الجُمَلِ، وليس مِن عطْفِ المُفرَداتِ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَسِقِينَ﴾ تَعليلٌ لِما تَضمَّنَه قولُه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾، وتَقدير كَونِهم آيةً للَّذين يَخافون العذابَ مِن كَونِهم عُوقِبوا، وأنَّ عِقابَهم لأنَّهم كانوا قومًا فاسقينَ[٤].

- وأُخِّر الكلامُ على قَومِ نُوحٍ لِمَا عَرَضَ مِن تَجاذُبِ المُناسَباتِ فيما أُورِدَ مِن آياتِ العذابِ للأُمَمِ المذكورةِ آنفًا؛ ولذلك كان قولُه: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ تنْبيهًا على وجْهِ مُخالَفةِ عادةِ القُرآنِ في تَرتيبِ حِكايةِ أحوالِ الأُمَمِ على حسَبِ تَرتيبِهم في الوجودِ، وقد أومَأَ قولُه: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ إلى هذا[٥].

- قيل: ذكَرَ الأُمَمَ الأربعَ؛ للإشارةِ إلى أنَّ اللهَ عذَّبَهم بما هو مِن أسبابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٩). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٥).

وُجودِهم، وهو التُّرابُ والماءُ والهواءُ والنَّارُ، وهي عناصرُ الوُجودِ، فأهلَكَ قَومَ لُوطٍ بالحِجارةِ، وهي مِن طِينٍ، وأهلَكَ قومَ فِرعونَ بالماءِ، وأهلَكَ عادًا بالرِّيحِ، وهو هواءٌ، وأهلَكَ ثمودَ بالنَّارِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦).

الآيات (٤٧-٥١)

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِأَيۡيْدٖ﴾: أي: بقُوَّةٍ وَقُدرةٍ، وأصلُ (أيد): يدُلُّ على القُوَّةِ والحِفظِ[١].

﴿لَمُوسِعُونَ﴾: أي: قادِرونَ، مُطيقونَ، ذَوُو سَعةٍ، يقال: أوسَعَ الرَّجُلُ، أي: صار ذا سَعةٍ وغِنًى، وأصلُ (وسع): يدُلُّ على خِلافِ الضِّيقِ والعُسرِ[٢].

﴿ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾: المُهَيِّئُونَ المُوَطِّئُونَ، يقالُ: مَهَدْتُ الفِراشَ مَهْدًا: أي: بَسطْتُه ووطَّأْتُه، وتمهيدُ الأمورِ: تَسويتُها وإصلاحُها، ومنه المِهادُ: أي: الفِراشُ والمكانُ الممهَّدُ المُوطَّأُ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا مظاهرَ قدرتِه، وسَعةَ رحمتِه، ومُنَبِّهًا على خَلقِ العالَمِ العُلْوِيِّ والسُّفليِّ: وبَنَيْنا السَّماءَ بقوَّةٍ وقُدرةٍ عَظيمةٍ، وإنَّا لَموسِعونَ لأرجاءِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧، ٣٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

السَّماءِ، موسِعونَ على خَلقِنا بالرِّزقِ، قادِرونَ على خَلقِ ما نشاءُ خَلْقَه، وبَسَطْنا الأرضَ وجعَلْناها كالفِراشِ؛ لِيَسهُلَ على الخَلْقِ الانتِفاعُ بها، فنِعْمَ الماهِدونَ نحنُ؛ حيثُ سَوَّيْنا الأرضَ وأصلَحْناها! وخَلَقْنا مِن كُلِّ شَيءٍ صِنفَينِ؛ لعَلَّكم تَتذَكَّرونَ.

ثمَّ يقولُ الله تعالى: فقُلْ لِقَومِك -يا محمَّدُ- اهرُبوا إلى اللهِ تعالى؛ بالإيمانِ به، والعَمَلِ بطاعتِه، والتَّوبةِ إليه؛ إنِّي لكم مِنَ اللهِ نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ، ولا تَجعَلوا مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ، بل أخْلِصوا العِبادةَ له؛ إنِّي لكم مِنَ اللهِ نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت شُبهةُ نُفاةِ البَعثِ قائمةً على توَهُّمِ استِحالةِ إعادةِ الأجسامِ بعدَ فَنائِها؛ أُعقِبَ تَهديدُهم بما يُقَوِّضُ توَهُّمَهم، فوُجِّهَ إليهم الخِطابُ يُذَكِّرُهم بأنَّ اللهَ خَلَق أعظَمَ المخلوقاتِ، ولم تكُنْ شَيئًا، فلا تُعَدُّ إعادةُ الأشياءِ الفانيةِ بالنِّسبةِ إليها إلَّا شَيئًا يَسيرًا، كما قال تعالى: ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1] [غافر: ٥٧].

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ ﴾.

أي: وبَنَيْنا السَّماءَ بقوَّةٍ وقُدرةٍ عَظيمةٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٩). =

كما قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨].

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

أي: وإنَّا لَموسِعونَ لأرجاءِ السَّماءِ، موسِعونَ على خَلقِنا بالرِّزقِ، قادِرونَ على خَلقِ ما نشاءُ خَلْقَه(١).

= قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ ليس مِن آياتِ الصِّفاتِ المعروفةِ بهذا الاسم؛ لأنَّ قَولَه: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ ليس جَمعَ يَدٍ، وإنَّما الأيْدُ: القُوَّةُ، فوَزْنُ قَولِه هنا ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ فَعْلٌ، ووَزْنُ الأيدي: أَفْعُلٌ؛ فالهمزةُ في قَولِه: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ في مكانِ الفاءِ، والياءُ في مكانِ العَينِ، والدَّالُ في مكانِ اللَّام، ولو كان قَولُه تعالى: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ جمعَ يَدٍ، لَكان وزنُه أَفْعُلًا، فتكونُ الهمزةُ زائدةً، والياءُ في مكانِ الفاءِ، والدَّالُ في مكانِ العَينِ، والياءُ المحذوفةُ -لِكَونِه مَنقوصًا- هي اللَّامَ. والأيْدُ والآدُ في لغةِ العرَبِ، بمعنى: القُوَّة، ورَجُلٌ أَيِّدٌ: قَوِيٌّ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، أي: قَوَّيْناه به، فمَن ظَنَّ أنَّها جَمعُ يدٍ في هذه الآيةِ فقد غَلِطَ غَلَطًا فاحِشًا). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٤٢). ويُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٣٤٢، ٣٤٣)، ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (١/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٠).

قال ابن القيِّم: (قال تعالى: ﴿... وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: ذَوو سَعةٍ وقدرةٍ وملكٍ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٣٨٣).

وقال الرازي: (قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فيه وُجوهٌ؛ أحَدُها: أنَّه مِنَ السَّعَةِ، أي: أوسَعْناها بحيثُ صارت الأرضُ وما يُحيطُ بها مِنَ الماءِ والهواءِ بالنِّسبةِ إلى السَّماءِ وسَعَتِها كحَلْقةٍ في فَلاةٍ، والبِناءُ الواسِعُ الفَضاءِ عَجيبٌ؛ فإنَّ القُبَّةَ الواسِعةَ لا يَقدِرُ عليها البَنَّاؤونَ؛ لأنَّهم يَحتاجونَ إلى إقامةِ آلةٍ يَصِحُّ بها استدارتُها، ويُثبَّتُ بها تماسُكُ أجزائِها إلى أن يتَّصِلَ بَعضُها ببعضٍ.

ثانيها: قَولُه: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: لَقادِرونَ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] أي: قُدْرَتَها، والمُناسَبةُ حينَئذٍ ظاهِرةٌ، ويحتَمِلُ أن يُقالَ بأنَّ ذلك حينَئذٍ إشارةٌ إلى المقصودِ الآخَرِ، وهو الحَشرُ، كأنَّه يقولُ: بَنَيْنا السَّماءَ وإنَّا لَقادِرونَ على أن نَخلُقَ أمثالَها، =

= كما في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١].
ثالِثُها: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ الرِّزقَ على الخَلْق). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٨).
ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: أنَّها مِنَ السَّعةِ، أي: أنَّه جَعَل بيْنَ السَّماءِ والأرضِ سَعَةً، ووَسَّعَ أرجاءَها: الزَّجَّاجُ، وأبو حيَّان، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٠).
قال أبو حيان: (﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾: أي: بِناءَها، فالجُملةُ حاليَّةٌ، أي: بَنَيْناها مُوسِعيها، كقَولِه: جاء زَيدٌ وإنَّه لَمُسرِعٌ، أي: مُسرِعًا، فهي بحيثُ إنَّ الأرضَ وما يحيطُ مِنَ الماءِ والهواءِ كالنُّقطةِ وسَطَ الدَّائِرةِ. وقال ابنُ زَيدٍ قريبًا مِن هذا، وهو: أنَّ الوُسعَ راجِعٌ إلى السَّماءِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٠).
ومِمَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المعنى: لَذُو سَعَةٍ لِخَلْقِنا، أي: قادِرونَ على رزْقِهم: الفَرَّاءُ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠).
ومِمَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ السَّابِقَينِ: السعديُّ، فقال: (﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لأرجائِها وأنحائِها، وإنَّا لَمُوسِعونَ أيضًا على عبادِنا، بالرِّزقِ الَّذي ما تَرَكَ اللهُ دابَّةً في مَهامِهِ القِفارِ، ولُجَجِ البِحارِ، وأقطارِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ، إلَّا وأوصَلَ إليها من الرِّزقِ ما يَكفيها، وساق إليها من الإحسانِ ما يُغنِيها. فسُبْحانَ مَن عَمَّ بجُودِه جميعَ المخلوقاتِ، وتبارَكَ الَّذي وَسِعَت رَحمتُه جميعَ البَرِيَّاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).
ومِمَّن اختار أنَّ المعنى: لَذو سَعَةٍ بخَلْقِها وخَلْقِ ما شاء أن يَخْلُقَه، وقُدرةٍ عليه: ابنُ جرير، ومكِّي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٩).
ومِمَّن اختار أنَّ المعنى: نحن قادِرونَ على أن نُوسِعَها كما نُريدُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٧).
ومِمَّن اختار العُمومَ: البِقاعي، فقال: (﴿لَمُوسِعُونَ﴾ أي: أغنياءُ وقادِرونَ ذَوو سَعةٍ لا تَتناهى، أي: قُدرةٍ، مِنَ الوُسعِ، وهو اللَّطافةُ، وكذلك أوسَعْنا مِقدارَ جِرْمِها وما فيها مِنَ الرِّزقِ على أهلِها، فالأرضُ كُلُّها على اتِّساعِها كالنُّقطةِ في وَسَطِ دائرةِ السَّماءِ بما اقتضَتْه صِفةُ الإلهيَّةِ الَّتي لا يَصِحُّ فيها الشَّرِكةُ أصلًا، ومُطيقون لِما لا يُحصى من أمثالِ ذلك، ومِمَّا هو أعظَمُ منه مِمَّا لا يتناهى، =

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾.

أي: وبَسَطْنا الأرضَ وجعَلْناها كالفِراشِ؛ لِيَسهُلَ على الخَلْقِ الانتِفاعُ بها[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠].

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الفِراشُ قد يكونُ صالِحًا للانتِفاعِ مِن كُلِّ وَجهٍ، وقد يكونُ مِن وَجهٍ دونَ وَجهٍ؛ أخبَرَ تعالى أنَّه مَهَّدَها أحسَنَ مِهادٍ، على أكمَلِ الوُجوهِ وأحسَنِها، وأثنَى على نَفْسِه بذلك؛ تذكيرًا بعَظَمتِه ونِعمتِه[2].

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾

أي: فنِعْمَ الماهِدونَ نحنُ؛ حيث جعَلْنا الأرضَ مَهْدًا لأهْلِها، بتَسويتِها وإصلاحِها[3]!

= ومحيطون بكُلِّ شَيءٍ قُدرةً وعِلمًا، وجَديرون وحَقيقون بأن يكونَ ذلك مِن أوصافِنا، فنُوصَفُ به لِما يُشاهَدُ لنا مِن القُوَّةِ على كُلِّ ما نريدُ؛ فلَسْنا كمَنْ يُعرَفون مِن الملوكِ؛ لأنَّهم إذا فَعَلوا لا يَقدِرونَ على أعظَمَ منه، وإن قَدَروا كان ذلك منهم بكُلفةٍ ومشَقَّةٍ، ... ومِن اتِّساعِنا جَعْلُها بلا عَمَدٍ، معَ ما هي عليه مِن العَظَمةِ، إلى غيرِ ذلك مِن الأُمورِ الخارقةِ للعوائِدِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أشعَرَ قولُه: ﴿فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذَّاريات: ٤٨] بأنَّ في ذلك نِعمةً على الموجوداتِ الَّتي على الأرضِ؛ أُتبِعَ ذلك بصِفةِ خلْقِ تلك الموجوداتِ؛ لِمَا فيه مِن دَلالةٍ على تَفرُّدِ اللهِ تعالى بالخلْقِ المُستلزِمِ لتَفرُّدِه بالإلهيَّةِ، فقال[1]:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: وخَلَقْنا مِن كُلِّ شَيءٍ صِنفَينِ؛ لعَلَّكم تَتذَكَّرونَ بذلك وَحدانيَّةَ اللهِ تعالى، وكَمالَ قُدرتِه على بَعثِ عِبادِه، أو غيرِ ذلك[2].

= (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٧- ٥٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٥، ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧-١٨).

قيل: المرادُ بالزَّوجَينِ هنا: الشَّيئانِ المُتقابِلانِ؛ كالذَّكَرِ والأُنثى، والشَّمسِ والقَمَرِ، والحَرِّ والبَرْدِ، والحُلوِ والحامِضِ، والسَّعادةِ والشَّقاوةِ، وغيرِ ذلك. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن عطية، والقرطبي، وابن تيميَّة، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٥، ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٠، ١٦١).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٧).

وقيل: المرادُ: الذَّكَرُ والأُنثى. وممَّن قال بهذا القولِ: الزَّجَّاجُ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧، ١٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [الرعد: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥].

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا دعا العِبادَ إلى النَّظَرِ لآياتِه المُوجِبةِ لخَشيتِه، والإنابةِ إليه؛ أمَرَ بما هو المقصودُ مِن ذلك، وهو الفِرارُ إليه، فقال[1]:

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِقَومِك: فاهرُبوا إلى اللهِ تعالى؛ بالإيمانِ به، والعَمَلِ بطاعتِه، والتَّوبةِ إليه، والتَّوكُّلِ عليه[2].

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال له: ((إذا أخَذْتَ مَضجَعَك فتَوَضَّأْ وُضوءَك للصَّلاةِ، ثمَّ اضطَجِعْ على شِقِّك الأيمنِ، ثمَّ قُلْ: اللَّهمَّ إنِّي أسلَمتُ وَجهي إليكَ، وفوَّضتُ أمري إليكَ، وألجأتُ ظَهري إليكَ؛ رَغبةً ورَهبةً إليك، لا مَلْجأَ ولا مَنجَى مِنكَ إلَّا إليكَ، آمَنْتُ بكِتابِك الَّذي

= ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦١، ١٦٢).

أنزَلْتَ، وبنَبِيِّكَ الَّذي أرسَلْتَ، واجعَلْهُنَّ مِن آخِرِ كَلامِك؛ فإنْ مِتَّ مِن لَيلتِكَ مِتَّ وأنت على الفِطرةِ))[١].

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: إنِّي لكم مِنَ اللهِ نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ، فأُحَذِّرُكم وأخَوِّفُكم عِقابَه على الكُفرِ به ومَعصيتِه[٢]!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩].

ثمَّ ذَكَر اللهُ تعالى أعظَمَ ما يَجِبُ أن يَفِرَّ المرءُ منه، وهو الشِّرْكُ، فقال تعالى[٣]:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

أي: ولا تَجعَلوا مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ، بل أخْلِصوا له العِبادةَ، ولا تُشرِكوا به شَيئًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: إنِّي لكم مِنَ اللهِ نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ، فأُحَذِّرُكم وأُخَوِّفُكم مِن عِبادتِكم

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٧)، ومسلمٌ (٢٧١٠) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).

غَيرَه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كُلُّ ما يُصيبُ الإنسانَ مِن مِحَنِ الدُّنيا ومَصائِبِها، وأمراضِها وخُصوماتِها، ومِن جَميعِ بَلائِها: لا يُنْجيه مِن شَيءٍ منه إلَّا فِرارُه إلى اللهِ؛ ففي العَدالةِ الشَّرعيَّةِ ما يَقطَعُ كُلَّ نِزاعٍ، وفي المواعِظِ الدِّينيَّةِ ما يُهَوِّنُ كُلَّ مُصابٍ، وفي الهِدايةِ القُرآنيَّةِ والسِّيرةِ النَّبَويَّةِ ما يُنيرُ كُلَّ سَبيلٍ مِن سُبُلِ النَّجاةِ والسَّعادةِ في الحياةِ، يَعرِفُ ذلك الفُقَهاءُ القُرآنيُّونَ السُّنِّيُّونَ، واسألوا أهلَ الذِّكرِ إنْ كُنتُم لا تَعلَمونَ[٢].

٢- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليس الفِرارُ مِن الأمراضِ بمُعالجتِها، ومِن المصائِبِ بمقاوَمتِها فِرارًا مِنَ اللهِ؛ لأنَّ الأمراضَ هو قَدَّرَها، والأدويةَ هو وَضَعَها، ودعا إلى استِعمالِها والتَّعالُجِ بها، وكذلك المصائِبُ وما شُرِعَ مِن أسبابِ مُقاومتِها، فكُلُّها منه بقَدَرِه، والإنسانُ مأمورٌ منه بأن يُعالِجَ ويُقاوِمَ، فما فَرَّ مِن قَدَرِه إلَّا إلى قَدَرِه؛ ولهذا لَمَّا قال أبو عُبَيدةَ لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما -في قِصَّةِ الوَباءِ: (أفِرارًا مِن قَدَرِ اللهِ يا عُمَرُ؟! قال عُمَرُ: نَعَمْ، نَفِرُّ مِن قَدَرِ اللهِ إلى قَدَرِ اللهِ!)[٣]، وفي الحقيقةِ كان الفِرارُ مِن شَرٍّ في مخلوقٍ إلى اللهِ يرجو منه الخَيرَ في غَيرِه[٤].

٣- أنَّ العبدَ لا يَعصِمُه مِن اللهِ أحدٌ إنْ أراد به سُوءًا أو أراد به رَحمةً، وليس

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٢، ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩) مطوَّلًا.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦٢).

له مِن دونِ اللهِ وليٌّ ولا نَصيرٌ، فأين نَفِرُّ مِن أمْرِه وحُكْمِه ولا مَلْجأَ منه إلَّا إليه؟! قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾، وهذا أمرٌ يَعرفُه النَّاسُ مِن أهلِ طاعةِ اللهِ وأهلِ مَعصيتِه[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الفِرارُ إليه سُبحانَه، أي: الفِرارُ مِمَّا يَكرَهُه اللهُ ظاهِرًا وباطِنًا إلى ما يُحِبُّه ظاهِرًا وباطِنًا؛ فِرارٌ مِنَ الجَهلِ إلى العِلمِ، ومِنَ الكُفرِ إلى الإيمانِ، ومِنَ المَعصيةِ إلى الطَّاعةِ، ومِنَ الغَفلةِ إلى ذِكرِ اللهِ؛ فمَنِ استكمَلَ هذه الأُمورَ فقد استكمَلَ الدِّينَ كُلَّه، وقد زال عنه المرهوبُ، وحصَلَ له نِهايةُ المرادِ والمَطلوبِ[٢].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليس المقصودُ بالفِرارِ مِنَ الدُّنيا تَرْكَ السَّعيِ والعَمَلِ وتعاطي الأسبابِ المشروعةِ لِتَحصيلِ القُوتِ، ورَغَدِ العَيشِ، وتَوسيعِ العُمرانِ، وتَشييدِ المَدَنيَّةِ!

بل المقصودُ: الفِرارُ مِن شُرورِها وفِتنتِها. وتناوُلُ ذلك كُلِّه على الوَجهِ المَشروعِ هو مِنَ الفِرارِ إليه، والدُّخولِ تحتَ شَرعِه، وقد ضَلَّ قَومٌ فزَعَموا ذلك طاعةً وعِبادةً؛ فعَطَّلوا الأسبابَ، وخالَفوا الشَّريعةَ، وحادوا عمَّا ثَبَت مِنَ السُّنَّةِ! وفيهم سُئِلَ إمامُ الحديثِ والسُّنَّةِ أحمدُ بنُ حَنبلٍ رَحِمه اللهُ؛ سُئِلَ عن القائلِ: أجلِسُ لا أعمَلُ شَيئًا حتَّى يأتيَني رِزقي! فقال: «هذا رجُلٌ جَهِلَ العِلمَ؛ أمَا سَمِعَ قَولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسَلَّم...: ((تَغدو خِماصًا، وتَروحُ بِطانًا[٣]))[٤]»، وكان

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).

(٣) أي: تَغْدو بُكرةً وهي جِياعٌ، وتَروحُ عِشاءً وهي مُمتَلِئةُ الأجوافِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٨٠).

(٤) أخرجه مِن طُرقٍ مطوَّلًا: الترمذيُّ (٢٣٤٤)، وابنُ ماجه (٤١٦٤)، وأحمدُ (٣٧٠) مِن حديثِ =

الصَّحابةُ يَتَّجِرونَ في البَرِّ والبَحرِ، ويَعمَلونَ في نَخيلِهم، وبهم القُدوةُ[١].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ حَقيقةُ الفِرارِ: الهَرَبُ مِن شَيءٍ إلى شَيءٍ، وهو نَوعانِ: فِرارُ السُّعَداءِ، وفِرارُ الأشقياءِ؛ ففِرارُ السُّعَداءِ: الفِرارُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وفِرارُ الأشقياءِ: الفِرارُ منه لا إليه[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ سَمَّى اللهُ تعالى الرُّجوعَ إليه فِرارًا؛ لأنَّ في الرُّجوعِ لِغَيرِه أنواعَ المَخاوِفِ والمَكارِهِ، وفي الرُّجوعِ إليه أنواعَ المحابِّ، والأمنَ والسُّرورَ، والسَّعادةَ والفَوزَ؛ فيَفِرُّ العَبدُ مِن قَضائِه وقَدَرِه إلى قَضائِه وقَدَرِه، وكُلُّ مَن خِفْتَ منه فرَرْتَ منه إلَّا الله تعالى؛ فإنَّه بحَسَبِ الخَوفِ منه يكونُ الفِرارُ إليه[٣]!

٨- قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ * وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذا مِنَ الفِرارِ إلى اللهِ تعالى، بل هذا أصلُ الفِرارِ إليه؛ أن يَفِرَّ العَبدُ مِن اتِّخاذِ آلِهةٍ غَيرِ اللهِ؛ مِنَ الأوثانِ والأندادِ والقُبورِ، وغَيرِها مِمَّا عُبِدَ مِن دونِ اللهِ، ويُخلِصَ العَبدُ لرَبِّه العِبادةَ، والخَوفَ والرَّجاءَ، والدُّعاءَ والإنابةَ[٤].

= عمَرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ الله عنه.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ لا نَعرِفُه إلَّا مِن هذا الوجهِ)، وصحَّح الحديثَ ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٧٣٠)، وابنُ العربي في ((أحكام القرآن)) (٢/ ٤٧١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤١٦٤)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١/ ٤٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٦٦، ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ فيه أنَّ السَّماءَ مَبْنِيَّةٌ، إذًا هي أجرامٌ، ولا شكَّ في هذا[١]. وفيه دَلالةٌ واضِحةٌ على أنَّ ما يَزعُمُه مَلاحِدةُ الكَفَرةِ، ومَن قَلَّدَهم مِن مَطموسي البَصائِرِ مِمَّن يَدَّعونَ الإسلامَ: أنَّ السَّماءَ فَضاءٌ لا جِرْمٌ مَبنيٌّ- أنَّه كُفرٌ وإلحادٌ وزَندَقةٌ، وتكذيبٌ لِنُصوصِ القُرآنِ العَظيمِ[٢]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ كَرَّر عزَّ وجلَّ ذِكرَ البِناءِ في السَّمَواتِ، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [غافر: ٦٤]، فما الحِكمةُ فيه؟

الجَوابُ مِن وُجوهٍ:

منها: أنَّ البِناءَ باقٍ إلى قيامِ القيامةِ لم يَسقُطْ منه شَيءٌ، ولم يَعدَمْ منه جزءٌ، وأمَّا الأرضُ فهي في التَّبَدُّلِ والتَّغَيُّرِ، فهي كالفَرشِ الَّذي يُبسَطُ ويُطوى ويُنقَلُ، والسَّماءُ كالبِناءِ المبنيِّ الثَّابِتِ، وإليه الإشارةُ بقَولِه تعالى: ﴿سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ [النبأ: ١٢]، وأمَّا الأراضي فكَمْ منها ما صار بحرًا وعاد أرضًا مِن وَقتِ حُدوثِها.

ومنها: أنَّ السَّماءَ تُرى كالقُبَّةِ المَبنيَّةِ فوقَ الرُّؤوسِ، والأرضُ مَبسوطةٌ مَدْحُوَّةٌ، والبِناءُ بالمَرفوعِ أليَقُ، كما قال تعالى: ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا﴾[٣] [النازعات: ٢٨].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ إذا كان المقصودُ إثباتَ التَّوحيدِ، فكيف قال: ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾، ولم يَقُلْ: «بَنَيتُها» أو «بَناها اللهُ»؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة غافر)) (ص: ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٧).

والجوابُ: أنَّ قَولَه: «بَنَيْنا» أدَلُّ على عَدَمِ الشَّريكِ في التَّصَرُّفِ والتَّدبيرِ، وقَولُه: «بَنَيتُها» يُمكِنُ أن يكونَ فيه تشريكٌ، وتمامُ التَّقريرِ: هو أنَّ قَولَه تعالى: ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ لا يُورِثُ إيهامًا بأنَّ الآلهةَ الَّتي كانوا يَعبُدونَها هي الَّتي يَرجِعُ إليها الضَّميرُ في ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾؛ لأنَّ تلك إمَّا أصنامٌ مَنحوتةٌ، وإمَّا كواكِبُ جَعَلوا الأصنامَ على صُوَرِها وطبائِعِها؛ فأمَّا الأصنامُ المنحوتةُ فلا يَشُكُّونَ أنَّها ما بَنَت مِنَ السَّماءِ شَيئًا، وأمَّا الكواكِبُ فهي في السَّماءِ مُحتاجةٌ إليها؛ فلا تكونُ هي بانِيَتَها، وإنَّما يمكِنُ أن يُقالَ: إنَّما بُنِيَت لها، وجُعِلَت أماكِنَها، فلمَّا لم يُتوَهَّمْ ما قالوا، قال: بَنَيْنا نحنُ، ونحن غيرُ ما يقولونَ ويَدَّعونَه، فلا يَصلُحونَ لنا شُرَكاءَ؛ لأنَّ كُلَّ ما هو غيرُ السَّماءِ ودونَ السَّماءِ في المَرتبةِ: لا يكونُ خالِقَ السَّماءِ وبانيَها؛ فإذَنْ عُلِمَ أنَّ المرادَ جَمعُ التَّعظيمِ، وأفاد النَّصُّ عَظَمَتَه، فالعَظَمَةُ أنفى للشَّريكِ؛ فثَبَت أنَّ قَولَه: ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ أدَلُّ على نَفيِ الشَّريكِ مِن «بَنَيتُها» و«بناها اللهُ»[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾، وقَولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾، وقَولِه: ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مُناسَباتٌ في كُلٍّ منها؛ فإنَّه لَمَّا كانت السَّماءُ مُتلاحِمةَ الأجزاءِ في العَلاءِ، ثابتةً على حالةٍ مُستَمِرَّةٍ في هذه الدُّنيا على البَقاءِ؛ ناسبَها لفظُ البِناءِ، ولَمَّا كانت مَظهَرَ العَظَمةِ والجَلالِ ناسبها لَفظُ القُوَّةِ، ولَمَّا كانت الأرضُ يَطرَأُ عليها التَّبديلُ والتَّغييرُ بما يَنقُصُ البَحرُ مِن أطرافِها، وبما قد يتحَوَّلُ مِن سُهولِها وجِبالِها، وبما يَتعاقَبُ عليها مِن حَرثٍ وغِراسةٍ، وخِصْبٍ وجَدْبٍ؛ ناسَبَها لَفظُ الفِراشِ الَّذي يُبسَطُ ويُطوَى، ويُبدَّلُ ويُغَيَّرُ، ولَمَّا كانت أسبابُ الانتِفاعِ بها المُيَسَّرةُ ضَروريَّةً للحياةِ عليها، وكُلُّها مُهَيَّأةٌ، وكَثيرٌ منها مُشاهَدٌ، وغَيرُه مُعَدٌّ يُتوصَّلُ إليه بالبَحثِ والاستِنباطِ؛ ناسَبَ ذِكرُ التَّمهيدِ، ولَمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٧).

كانت الأزواجُ مُكوَّنًا بَعضُها مِن بَعضٍ ناسَبَها لَفظُ الخَلقِ، ولَمَّا كان النَّظَرُ في الزَّوجَينِ هو نَظَرٌ في أساسِ التَّكوينِ لتلك المذكوراتِ السَّابِقةِ، وهو مُحَصِّلٌ للعِلمِ الَّذي يَحصُلُ مِنَ النَّظَرِ فيها- قُرِنَ بلَفظِ التَّذَكُّرِ[١].

٥- قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ * وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ المقصودُ الأساسيُّ مِن الآياتِ هو تحذيرُ الخَلقِ مِن الهَلاكِ، وتَرغيبُهم في النَّجاةِ، ولا سَبيلَ إلى ذلك إلَّا بالفِرارِ إلى اللهِ تعالى؛ فمَهَّد لذلك بالآياتِ الثَّلاثِ الأُوَلِ؛ للتَّرغيبِ فيه، وخَتَم بالخامِسةِ؛ لبيانِ الفِرارِ الصَّحيحِ المُنَجِّي عندَ اللهِ[٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ السَّماءَ كُرةٌ لا سَطحيَّةٌ؛ وَجهُ الدَّلالةِ: أنَّ قَولَه: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ يقتضي المُبالَغةَ في الاتِّساعِ؛ لأنَّه في مَقامِ الفَخرِ والامتِنانِ؛ والشَّكلُ الكُرويُّ أوسَعُ مِنَ المُسَطَّحِ[٣]، فالسَّمَواتُ طِباقٌ؛ واحِدةٌ فَوقَ الأُخرى، وإذا كانت واحِدةٌ فَوقَ الأُخرى لَزِمَ أن تكونَ السَّماءُ الثَّانيةُ أوسَعَ مِنَ الأُولى؛ لأنَّها دائِرةٌ، والثَّالِثةُ أوسَعَ مِنَ الثَّانيةِ... وهَلُمَّ جَرًّا؛ ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، كُلَّما ارتفَعْتَ في السَّمَواتِ اتَّسَعَت السَّمَواتُ[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ هذا استِدلالٌ بأثَرِ الخلْقِ الَّذي عايَنوا أثَرَه ولم يَشْهَدوا كَيفيَّتَه؛ لأنَّ أثَرَه يُنبِئُ عن عَظيمِ كَيفيَّتِه، وأنَّها أعظَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الزخرف)) (ص: ٦٣).

ممَّا يُتصوَّرُ في كَيفيَّةِ إعادةِ الأجسامِ الباليةِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ إلى آخرِ السِّياقِ لَطيفةٌ: أنَّ اللهَ تعالى بَيَّن عَظَمتَه بقَولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾، وهَيْبتَه بقَولِه: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [الذَّاريات: ٤٠]، وقَولِه تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذَّاريات: ٤١]، وقَولِه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾[٢] [الذَّاريات: ٤٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ دَقيقةٌ كَونيَّةٌ؛ فإنَّ شأنَ الفِراشِ أن يكونَ ما تحتَه لا يَصلُحُ للجُلوسِ والنَّومِ عليه، وما تحتَ وَجهِ الأرضِ هو كذلك لا يَصلُحُ للحَياةِ فيه؛ فإنَّ تحتَ القِشرةِ العُليا مِنَ الأرضِ الموادَّ المصهورةَ، والمياهَ المَعدنيَّةَ، والأبخِرةَ الحارَّةَ؛ مِمَّا تَنطِقُ به البَراكينُ المُنتَشِرةُ على وَجهِ الأرضِ في أماكِنَ عَديدةٍ؛ فكانت القِشرةُ العُليا مِنَ الأرضِ مِثلَ الفِراشِ تمامًا[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّ دَحْوَ الأرضِ هو بعدَ خَلقِ السَّماءِ؛ لأنَّ بِناءَ البَيتِ يكونُ في العادةِ قبْلَ الفَرشِ[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ دَلالةٌ على قُدرةِ اللهِ تعالى وحِكمتِه؛ إذ جَعَل الأرضَ مَبسوطةً -فيما يبدو للنَّاسِ مِن سطحِها، دونَ تعرُّضٍ إلى تكويرِها- لَمَّا أراد أن يَجعَلَ على سَطحِها أنواعَ الحَيوانِ يمشي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٨).

وآيةُ سورةِ (النَّازعَاتِ) تدُلُّ على أنَّ دَحْوَ الأرضِ بعدَ خَلْقِ السَّماءِ؛ لأنَّ الله تعالى قال فيها: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، ثُمَّ قال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، لكنَّ خَلْقَ الأرضِ قبْلَ خَلْقِ السَّماءِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤).

عليها ويَتوسَّدُها ويَضطَجِعُ عليها، ولو لم تكُنْ كذلك لَكانت مُحدَودِبةً تُؤلِمُ الماشيَ بَلْهَ المتوَسِّدَ والمُضطَجِعَ(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ رَدٌّ على الفلاسِفةِ في قَولِهم: «لا يَنشَأُ عن الواحِدِ إلَّا واحِدٌ»(٢)!

١٣- تكوينُ هذه الخليقةِ هو مِن زَوجَينِ، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾؛ فكلُّ شيءٍ مِن الخليقةِ فلا بُدَّ لِتَركيبِه مِن زَوجَينِ، حتَّى المياهُ، وحتَّى الهواءُ، وكلُّ شَيءٍ(٣).

١٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الزَّوجُ يُرادُ به النَّظيرُ المُماثِلُ، والضِّدُّ المخالِفُ، وهو النِّدُّ؛ فما مِن مخلوقٍ إلَّا له شَريكٌ ونِدٌّ، والرَّبُّ سُبحانَه وَحْدَه هو الَّذي لا شَريكَ له ولا نِدَّ، بل ما شاء كان، وما لم يَشَأْ لم يكُنْ(٤).

١٥- قَولُه تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ فيه إنباءٌ عن سُرعةِ الإهلاكِ، كأنَّه يقولُ: الإهلاكُ والعَذابُ أسرَعُ وأقرَبُ مِن أن يَحتَمِلَ الحالُ الإبطاءَ في الرُّجوعِ؛ فافزَعوا إلى اللهِ سَريعًا وفِرُّوا(٥)!

١٦- قَولُه تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ في الرِّسالةِ أُمورٌ ثلاثةٌ: المُرسِلُ، والرَّسولُ، والمُرسَلُ إليه، وهاهنا ذَكَر الكُلَّ؛ فقَولُه: ﴿لَكُم﴾ إشارةٌ إلى المُرسَلِ إليهم، وقَولُه: ﴿مِّنْهُ﴾ إشارةٌ إلى المُرسِلِ، وقَولُه: ﴿نَذِيرٌ﴾ بيانٌ للرَّسولِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الزمر)) (ص: ٦٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٧- قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ في أمْرِه تعالَى للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَأمُرَهم بالهرَبِ إليهِ تعالَى مِنْ عِقابِه، وتَعليلِه بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُنذِرُهم مِنْ جهتِه تعالَى لا مِنْ تِلْقاءِ نفْسِه: وعْدٌ كَريمٌ بنَجاتِهم مِن المَهروبِ، وفَوزِهم بالمطلوبِ[١].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ التَّحذيرُ مِن دُعاءِ إلهٍ مع اللهِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾

- هذه الجُملةُ والجُمَلُ المعطوفةُ عليها إلى قَولِه: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذَّارِيات: ٥١] مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُ ...﴾ [الذَّارِيات: ٤٦] إلخ، وجُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ ...﴾ [الذَّارِيات: ٥٢] الآيةَ. وابتُدِئَ بخلْقِ السَّماءِ؛ لأنَّ السَّماءَ أعظَمُ مَخلوقٍ يُشاهِدُه النَّاسُ، وعُطِفَ عليه خلْقُ الأرضِ عطْفَ الشَّيءِ على مُخالِفِه؛ لاقترانِ المُتخالفَينِ في الجامعِ الخياليِّ، وعُطِفَ عليها خلْقُ أجناسِ الحيوانِ؛ لأنَّها قريبةٌ للأنظارِ، لا يُكلِّفُ النَّظرُ فيها والتَّدبُّرُ في أحوالِها ما يُرهِقُ الأذهانَ[٣].

- وتَقديمُ (السَّمَاءَ) على عامِلِه ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾؛ للاهتِمامِ به، ثمَّ بسُلوكِ طَريقةِ الاشتِغالِ[٤] زادَه تَقويةً؛ ليَتعلَّقَ المَفعولُ بفِعلِه مرَّتينِ: مرَّةً بنفْسِه، ومرَّةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥).

(٤) الاشتغالُ في مصطلَحِ النُّحاةِ معناه: إذا تَقدَّم اسمٌ على فِعلٍ صالحٍ لأنْ يَنصِبَه لفظًا أو محلًّا، وشُغِلَ الفِعلُ عن عمِلِه فيه بعمَلِه في ضميرِه، صحَّ في الاسمِ أنْ يُنصَب بفِعلٍ لا يَظهَرُ، مماثلٍ =

بضَميرِه؛ فإنَّ الاشتِغالَ في قُوَّةِ تَكرُّرِ الجُملةِ، وزِيدَ تأْكيدُه بالتَّذييلِ بقَولِه: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[١].

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أُكِّدَ الخبَرُ بحرْفِ (إنَّ)؛ لتَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ سَعةَ قُدْرةِ اللهِ تعالى؛ إذ أحالوا إعادةَ المَخلوقاتِ بعْدَ بِلاها[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾

- فيه تَقديمُ المفعولِ به ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ على عامِلِه ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾؛ للاهتِمامِ به، ثمَّ بسُلوكِ طَريقةِ الاشتغالِ زادَه تَقويةً؛ ليَتعلَّقَ المَفعولُ بفِعلِه مرَّتينِ: مرَّةً بنفْسِه، ومرَّةً بضَميرِه؛ فإنَّ الاشتغالَ في قُوَّةِ تَكرُّرِ الجُملةِ، وزِيدَ تأْكيدُه بالتَّذييلِ بقَولِه: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾[٣].

- واستُغْنيَ هنا عن إعادةِ ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ [الذَّاريات: ٤٧]؛ لدَلالةِ ما قبْلَه عليه[٤].

- قولُه: ﴿فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ لَمَّا كان في فرْشِها إرادةُ جَعلِها مَهدًا لِمَن عليها مِن الإنسانِ، أُتبِعَ ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾ بتَفريعِ ثَناءِ اللهِ على نفْسِه على إجادةِ تَمْهيدِها فقال: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾؛ تذْكيرًا بعَظَمتِه ونِعمتِه، أي: فنِعمَ الماهِدون نحنُ. وصِيغةُ الجمْعِ ﴿ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ للتَّعظيمِ[٥].

- وكذلِك رُوعِيَ في وصْفِ خلْقِ الأرضِ ما يَبْدو للنَّاسِ مِن سطْحِها؛ لأنَّه

= للظاهِرِ أو مُقَارِبِه. وله أحوالٌ في إعرابِه. يُنظر: ((شرح ألفية ابن مالك)) لابن الناظم (ص: ١٧٢)، ((شرح التصريح على التوضيح)) لخالد الأزهري (١/ ٤٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الَّذي يَهُمُّ النَّاسَ في الاستِدلالِ على قُدْرةِ اللهِ تعالى، وفي الامتِنانِ عليهم بما فيه لُطْفُهم والرِّفقُ بهم، دونَ تَعرُّضٍ إلى تَكويرِها؛ إذ لا يَبلُغون إلى إدراكِه، كما رُوعِيَ في ذِكرِ السَّماءِ ما يَبْدو مِن قُبَّةِ أجْوائِها دونَ بحْثٍ عن تَرامي أطْرافِها، وتَعدُّدِ عَوالِمِها لِمثلِ ذلك؛ ولذلك أُتبِعَ الاعتِراضُ بالتَّذييلِ بقَولِه: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ المُرادِ منه تَلقينُ النَّاسِ الثَّناءَ على اللهِ فيما صنَعَ لهم فيها مِن مِنَّةٍ؛ ليَشكُروه بذلك الثَّناءِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

- هذا استِدلالٌ عليهم بخلْقٍ يُشاهِدونَ كَيفيَّاتِه وأطوارَه كلَّما لَفَتوا أبصارَهم، وقَدَحوا أفكارَهم، وهو خلْقُ الذَّكَرِ والأُنثى -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لِيَكونَ منهما إنشاءُ خلْقٍ جديدٍ يَخلُفُ ما سلَفَه، وذلك أقرَبُ تَمثيلٍ لإنشاءِ الخلْقِ بعْدَ الفَناءِ، وهو البَعثُ الَّذي أنْكَروه؛ لأنَّ الأشياءَ تُقرَّبُ بما هو واضحٌ مِن أحوالِ أمْثالِها، ولذلك أتْبَعَه بقولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: تَتفكَّرون في الفُروقِ بيْنَ المُمكناتِ والمُستحيلاتِ، وتَتفكَّرون في مَراتبِ الإمكانِ؛ فلا يَختلِطُ عليكم الاستبعادُ وقِلَّةُ الاعتيادِ بالاستِحالةِ، فتَتوهَّموا الغريبَ مُحالًا؛ فالتَّذكُّرُ مُستعمَلٌ في إعادةِ التَّفكُّرِ في الأشياءِ ومُراجَعةِ أنفُسِهم فيما أحالوه؛ ليَعلَموا بعدَ إعادةِ النَّظرِ أنَّ ما أحالُوه مُمكِنٌ، ولكنَّهم لم يأْلَفوه، فاشتَبَه عليهم الغريبُ بالمُحالِ فأحالُوه، فلمَّا كان تَجديدُ التَّفكُّرِ المَغفولِ عنه شَبيهًا بتَذكُّرِ الشَّيءِ المَنْسيِّ، أُطلِق عليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وهذا في معنى قَولِه تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠-٦٢]؛ فقد ذُيِّلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧).

هنالك بالحثِّ على التَّذكُّرِ، كما ذُيِّلَ هنا برَجاءِ التَّذكُّرِ، فأفادَ أنَّ خلْقَ الذَّكَرِ والأُنثى مِن نُطفةٍ هو النَّشأةُ الأُولى، وأنَّها الدَّالَّةُ على النَّشأةِ الآخرةِ(١).

- وجُملةُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، أي: رَجاءَ أنْ يكونَ في الزَّوجَينِ تذَكُّرٌ لكم، أي: دَلالةٌ مَغفولٌ عنها(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ لَمَّا فرَغَ مِن التَّعريضِ بالمكذِّبينَ الخرَّاصينَ في قولِه: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٞ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ﴾ [الذَّاريات: ٢٠، ٢١]، ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ [الذَّاريات: ٣٨]، والتَّذكيرِ بشِدَّةِ سَطوتِه وكَمالِ قُدْرتِه في قَولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٖ﴾ [الذَّاريات: ٤٧]؛ أمَرَ رسولَه صَلواتُ اللهِ عليه وسَلامُه بأنْ يقولَ لقَومِه: إذا ظهَرَ لكم شِدَّةُ قَهرِه وكَمالُ سَطوتِه، وما فعَلَ بالأُمَمِ المكذِّبةِ، وعرَفْتم كلَّ ذلك، وأنَّه إذا أخَذَ لا يُبْقي ولا يذَرُ؛ ففِرُّوا إلى اللهِ مِن اللهِ، واتْرُكوا العِنادَ، وخافُوا سُوءَ مَغبَّةِ تَكذيبِكم؛ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ وتكريرُه إظهارًا للنَّصيحةِ، وأنَّه النَّذيرُ العُريانُ(٣)، وقولُه بعْدَ ذلك: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾.

ويجوزُ تعليقُ الفاءِ في ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ بقولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) هذا مَثَلٌ يُضرَبُ مبالغةً في صِدقِ النِّذارةِ؛ لأنَّه إذا كان عريانًا كان أبينَ، وأصلُه أنَّ الرَّجلَ إذا أراد إنذارَ قومِه وإعلامَهم بما يُوجِبُ المخافةَ نزَعَ ثوبَه، وأشار به إليهم إذا كان بعيدًا منهم؛ ليخبرَهم بما دهَمهم، وأكثرُ ما يفعَلُ هذا طليعةُ القومِ ورقيبُهم، قالوا: وإنَّما يفعلُ ذلك؛ لأنَّه أبينُ للنَّاظرِ وأغربُ وأشنعُ منظرًا، فهو أبلغُ في استحثاثِهم في التأهُّبِ للعدوِّ. وقيل: معناه النَّذيرُ الذي أدرَكه جيشُ العدوِّ، فأخَذ ثيابَه، فهو يُنذِرُهم عريانًا. يُنظر: ((مطالع الأنوار على صحاح الآثار)) لابن قرقول (٤/ ٤١٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٨).

وتقريرُ ذلك: أنَّه تعالى لَمَّا أظْهَرَ القَهَّاريَّةَ بإهلاكِ الأُمَمِ الماضيةِ، وبيَّن الفَرْدانيَّةَ بقَولِه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذَّاريات: ٤٩]، ونبَّه على ذلك بقولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ورَتَّبَ عليه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ووضَعَ الاسمَ الجامعَ مَوضعَ الضَّميرِ، يعني: إذا تَفكَّرْتُم واعتبَرْتُم وتذكَّرْتُم، وتَبيَّن لكم أنَّه هو القهَّارُ الصَّمَدُ، وإليه المَرجِعُ والملْجأُ؛ فلُوذوا إليه، وتَوكَّلوا عليه، ولا تُشرِكوا به شيئًا، والعبادةُ مِن لَوازِمِ ذلك؛ ولذلك عقَّبَه بقَولِه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٦]، وحينَ لم يكُنْ يَنجَعُ في المشركين تلك المواعظُ والتَّخويفُ والتَّذكيرُ، رجَعَ عَودًا إلى بَدْءٍ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ [الذَّاريات: ٥٢] إلى آخِرِه، مُسلِّيًا رسولَه صَلواتُ اللهِ عليه، وجُعِلَ التَّخلُّصُ إلى المَقصودِ مِن الخلْقِ قولُه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] [الذَّاريات: ٥٥].

فبعْدَ أنْ بُيِّنَ ضَلالُ هؤلاء في تَكذيبِهم بالبَعثِ بَيانًا بالبُرهانِ السَّاطعِ، ومُثِّلَ حالُهم بحالِ الأُمَمِ الَّذين سَلَفوهم في التَّكذيبِ بالرُّسلِ وما جاؤوا به، جمْعًا بيْنَ الموعظةِ للضَّالِّينَ وتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ، وكانتْ فيما مَضى مِن الاستدلالِ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ مُتفرِّدٌ بخلْقِ العالَمِ، وفي ذلك إبطالُ إشراكِهم مع اللهِ آلهةً أُخرى -أقبَلَ اللهُ على تَلقينِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يَستخلِصُه لهم عقِبَ ذلك؛ بأنْ يَدعُوهم إلى الرُّجوعِ إلى الحقِّ بقَولِه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ فالجُملةُ المُفرَّعةُ بالفاءِ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: فقُلْ: فِرُّوا، دلَّ عليه قولُه: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ فإنَّه كلامٌ لا يَصدُرُ إلَّا مِن قائلٍ، ولا يَستقيمُ أنْ يكونَ كَلامَ مُبلِّغٍ. وحذْفُ القولِ كَثيرُ الوُرودِ في القرآنِ، وهو مِن ضُروبِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨، ١٩).

إيجازِه، فالفاءُ مِن الكلامِ الَّذي يَقولُه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُفادُها التَّفريعُ، وليست مُفرِّعةً فِعلَ الأمْرِ المحذوفَ؛ لأنَّ المُفرَّعَ بالفاءِ هو ما يُذكَرُ بعْدَها، فقولُه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مقدرٌ لقولٍ خُوطِبَ بهِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بطريقِ التَّلوينِ، والفاءُ إمَّا لترتيبِ الأمرِ على ما حُكِيَ من آثارِ غضَبِه الموجِبةِ للفرارِ منها، ومِن أحكامِ رحمتِه المستدعيةِ للفرارِ إليها، كأنَّه قيلَ: قُلْ لهم: إذا كانَ الأمرُ كذلكَ فاهرُبوا إلى اللهِ الَّذي هذه شُؤونُه بالإيمانِ والطَّاعةِ؛ كيْ تَنجوا من عِقابِه، وتَفوزُوا بثَوابِه، وإمَّا للعَطفِ على جملةٍ مقدَّرةٍ مترتِّبةٍ على قولِه تعالَى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، كأنَّه قيلَ: قُلْ لهم: فتَذكَّروا، ففِرُّوا إلى اللهِ... إلخ[1].

- وقد غُيِّر أُسلوبُ الموعظةِ إلى تَوجيهِ الخِطابِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يقولَ لهم هذه الموعظةَ؛ لأنَّ لتَعدُّدِ الواعظينَ تأثيرًا على نُفوسِ المُخاطَبينَ بالمَوعظةِ[2]، فجاءت هذه الآيةُ كما يكونُ قَولُها مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تنويعًا للخِطابِ وتفَنُّنًا؛ فإنَّه لَمَّا كان في هذه الآيةِ هو المقصودَ حوَّل أُسلوبَ الكلامِ مِنَ الإخبارِ إلى الأمرِ؛ تَجديدًا لنَشاطِ السَّامِعِ، وبَعْثًا لاهتِمامِ المُخاطَبينَ، وحَثًّا لهم، وتوكيدًا عليهم. وفيه تنبيهٌ على أنَّ ما يَقولُه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسَلَّم مِثلُ ما يَقولُه اللهُ، في وُجوبِ الإيمانِ والامتثالِ[3].

- وقولُه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أمْرٌ بالدُّخولِ في الإيمانِ وطاعةِ اللهِ، وجُعِلَ الأمْرُ بذلك بلَفظِ الفِرارِ؛ ليُنبِّهَ على أنَّ وَراءَ الناسِ عِقابًا وعذابًا، وأمْرًا حقُّه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨، ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦١).

أنْ يُفَرَّ منه، فجمَعَت لَفظةُ ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ بيْنَ التَّحذيرِ والاستِدعاءِ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بـ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ باعتبارِ أنَّ الغايةَ مِن الإنذارِ قصْدُ السَّلامةِ مِن العِقابِ؛ فصار الإنذارُ بهذا الاعتبارِ تَعليلًا للأمْرِ بالفِرارِ إلى اللهِ، أي: التَّوجُّهِ إليه وحْدَه. أو تَعليلٌ لوُجوبِ الامتثالِ بالفرارِ؛ فإنَّ كَونَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُنذِرًا منهُ تعالَى مُوجِبٌ عليهِ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنْ يأمُرَهُم بالفرارِ إليهِ، وعليهم أنْ يَمتثِلُوا به[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ عطْفُ قولِه: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ على ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ نهْيٌ عن نِسبةِ الإلهيَّةِ إلى أحدٍ غَيرِ اللهِ؛ فجُمِعَ بيْنَ الأمْرِ والنَّهيِ مُبالَغةً في التَّأكيدِ بنفْيِ الضِّدِّ لإثباتِ ضِدِّه[٣].

- وكُرِّرَ قولُه: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ للتَّأكيدِ، أو الأوَّلُ مُرتَّبٌ على ترْكِ الإيمانِ والطَّاعةِ، والثَّاني على الإشراكِ. وقِيل: فائدةُ التَّكرارِ: التَّنبيهُ على أنَّه لا تَنفَعُ العِبادةُ مع الإشراكِ؛ إذ حُكْمُ المشرِكِ حكْمُ الجاحِدِ المُعطِّلِ، أو المأمورُ به في الأوَّلِ الطَّاعةُ المُوظَّفةُ بعْدَ الإيمانِ، فتُوُعِّدَ تارِكُها بالوعيدِ المعروفِ دونَ الخُلودِ، فيكونُ وَعيدًا مُختلِفًا لا تَكرارًا[٤].

أو فيه تأكيدٌ لِما قبْلَه مِنَ الأمْرِ بالفِرارِ مِن العِقابِ إليه تعالَى، لكنْ لا بطَريقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٩)، ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٣).

التَّكريرِ كما قِيل، بل بالنَّهيِ عن سَببِه، وإيجابِ الفرارِ منه[١].

وقيل: أعادها هنا؛ لِيُبيِّنَ لهم أنَّ عِبادةَ اللهِ مع الإشراكِ به كتَعطيلِ عِبادتِه؛ فهَلاكُ المُشرِكِ كهَلاكِ الجاحِدِ، والنَّجاةُ أن تَعبُدوا اللهَ ولا تُشرِكوا به شَيئًا لا في رُبوبيَّتِه ولا في أُلوهيَّتِه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦٣).

الآيات (٥٢-٥٥)

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ﴾: أي: أَأَوصى بَعضُهم بعضًا بهذه المقالةِ، وتواطَؤوا عليها، وأصلُ (وصي): يدُلُّ على وَصْلِ شَيءٍ بشَيءٍ، ومنه الوصِيَّةُ، كأنَّه كلامٌ يُوصَى، أيْ: يُوصَلُ[1].

﴿طَاغُونَ﴾: أي: مُتَجاوِزونَ حُدودَ اللهِ بالعِصيانِ، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ[2].

﴿فَتَوَلَّ﴾: أي: فأعرِضْ؛ فالتَّولِّي إذا عُدِّيَ بـ (عن) لَفظًا أو تقديرًا اقتَضى معنى الإعراضِ[3].

﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾: أي: التَّذكيرَ، وأصلُ (ذكر) هنا: يدُلُّ على خِلافِ النِّسيانِ[4].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى مواقفَ الكفَّارِ -في الأممِ السَّابقةِ- مِن رُسلِهم، مسلِّيًا رسولَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥، ٨٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٦) و(٢١/ ٥٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩).

صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا ناله مِن تكذيبٍ مِن المشركين، فيقولُ: كَذَّبَ كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلَهم مِثلَ تَكذيبِ قُرَيشٍ نَبيَّها، فقالت كُلُّ أُمَّةٍ منهم لِرَسولِهم: هو ساحِرٌ أو مَجنونٌ! فهل أوصى الكُفَّارُ بَعضُهم بَعضًا بذلك القَولِ، فاتَّفَقت كَلِمتُهم على تَكذيبِ رُسُلِهم ووَصْفِهم بهذا الوَصفِ؟! بَلِ اتَّفَقَت أقوالُهم في هذا الشَّأنِ؛ لأنَّهم قَومٌ مُتعَدُّونَ أمْرَ اللهِ، مُتجاوِزونَ لحُدودِه.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى رسولَه بالإعراضِ عنهم، فيقولُ: فأَعرِضْ -يا محمَّدُ- عنهم؛ فلَسْتَ بمَلُومٍ مِنَ اللهِ؛ فقد بلَّغْتَ رِسالةَ رَبِّك، وذَكِّرْ؛ فإنَّ الذِّكْرى تنفَعُ المؤمِنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى قَولَهم المُختَلِفَ الَّذي منه تَكذيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونِسبتُه إلى السِّحرِ والجُنونِ وغَيرِ ذلك مِنَ الفُنونِ، ومنه الإشراكُ مع اعترافِهم بأنَّه لا خالِقَ إلَّا اللهُ، ولا كاشِفَ ضُرٍّ غَيرُه، إلى غَيرِ ذلك مِن أنواعِ الاضطِرابِ، وأخبَرَ بهلاكِهم على ذلك، وحَذَّرهم منه، ودَلَّ عليه إلى أنْ خَتَم بإنذارِ مَنِ اتَّخَذ إلهًا غَيرَه- قال مُسَلِّيًا[1]:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢﴾.

أي: مِثْلَ ما كذَّبَتْ قُرَيشٌ نَبيَّها ووصَفَتْه بأوصافٍ باطِلةٍ كَذَّبَ كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ مِن قبْلِ قُرَيشٍ رُسُلَهم، فقالت كُلُّ أُمَّةٍ منهم لِرَسولِهم: هو ساحِرٌ أو

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٨).

مَجنونٌ[١]!

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ٥٣﴾.

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾.

أي: هل أوصَى الكُفَّارُ بَعضُهم بَعضًا بذلك القَولِ، فاتَّفَقت كَلِمتُهم على تَكذيبِ رُسُلِهم، ووَصْفِهم بالسِّحرِ أو الجُنونِ[٢]؟!

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

أي: لم يُوصِ الكُفَّارُ بَعضُهم بَعضًا بذلك، وإنَّما اتَّفَقَت أقوالُهم في هذا الشَّأنِ؛ لاشتِراكِهم في صِفةِ الطُّغيانِ، فجَميعُهم مُتعَدُّونَ أمْرَ اللهِ، مُتجاوِزونَ لحُدودِه، لا يأتَمِرونَ بأَمْرِه، ولا يَنتَهُونَ عن نَهْيِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ٥٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذه تَسليةٌ أُخرى؛ وذلك لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مِن كَرَمِ الأخلاقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٣، ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢، ٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٢، ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٥).

يَنسُبُ نَفْسَه إلى تَقصيرٍ، ويقولُ: إنَّ عَدَمَ إيمانِهم لِتَقصيري في التَّبليغِ! فيَجتَهِدُ في الإنذارِ والتَّبليغِ، فلَمَّا كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يكادُ يُتلِفُ نفْسَه الشَّريفةَ؛ غَمًّا عليهم، وأسَفًا لتخَلُّفِهم عن الإسلامِ، وخَوفًا ألَّا يكونَ وَفَى بما عليه مِنَ التَّنبيهِ والإعلامِ- سَبَّب تعالى عن حالِهم قَولَه[1]:

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾.

أي: فأعرِضْ -يا محمَّدُ- عن هؤلاء المكَذِّبينَ المُعانِدينَ للحَقِّ رَغْمَ ظُهورِه، وقيامِ الحُجَّةِ عليهم[2].

كما قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٧٤].

﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾.

أي: فلَسْتَ بمَلُومٍ مِنَ اللهِ؛ فقد بلَّغْتَهم رِسالةَ رَبِّهم، ونصَحْتَ لهم، ولم يقَعْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (كُلُّ مَن لم يُصْغِ إليه [أي: النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم] ولم يَستَمِعْ لِقَولِه فإنَّه يُعرِضُ عنه، كما قال: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾، ثمَّ قال: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ فهو إذا بلَّغ قَومًا الرِّسالةَ فقامت الحُجَّةُ عليهم، ثمَّ امتَنَعوا مِن سَماعِ كَلامِه، أعرَضَ عنهم؛ فإنَّ الذِّكرى حينَئِذٍ لا تَنفَعُ أحَدًا، وكذلك مَن أظهَرَ أنَّ الحُجَّةَ قامت عليه، وأنَّه لا يَهتَدي، فإنَّه لا يُكَرَّرُ التَّبليغُ عليه). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١٦٣).

وقال ابنُ عاشور: (أي: أعرِضْ عن الإلحاحِ في جِدالِهم؛ فقد كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم شَديدَ الحِرصِ على إيمانِهم، ويَغتَمُّ مِن أجْلِ عِنادِهم في كُفرِهم، فكان اللهُ يُعاوِدُ تَسليتَه الفَينةَ بعدَ الفَينةِ، كما قال تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣).

مِنك تَفريطٌ في دَعوتِهم[١].

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾.

أي: وذكِّرْ -يا محمَّدُ- فإنَّ التَّذكيرَ يَنفَعُ حَقًّا أهلَ الإيمانِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ٩، ١٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- أنَّ الدَّاعيةَ لا بُدَّ أنْ يكونَ صابرًا على ما يَعتَرِضُه مِن الأذى؛ لأنَّ الدَّاعيةَ لا بُدَّ أنْ يُؤذَى إمَّا بالقَولِ وإمَّا بالفِعلِ، وهاهُم الرُّسُلُ -صلواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم- أُوذُوا بالقَولِ، وأُوذوا بالفِعلِ، اقرأْ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾، ومع هذا فالرُّسُلُ صَبَروا على ما أُوذوا[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه الآيةُ الكَريمةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٥).

قال السعدي: (التَّذكيرُ نَوعانِ: تَذكيرٌ بما لم يُعرَفْ تَفصيلُه مِمَّا عُرِف مُجمَلُه بالفِطَرِ والعُقولِ؛ فإنَّ اللهَ فَطَرَ العُقولَ على محبَّةِ الخَيرِ وإيثارِه، وكراهةِ الشَّرِّ والزُّهدِ فيه، وشَرْعُه مُوافِقٌ لذلك، فكُلُّ أمرٍ ونَهيٍ مِنَ الشَّرعِ فإنَّه مِنَ التَّذكيرِ، وتمامُ التَّذكيرِ أن يُذكَّرَ بما في المأمورِ به مِنَ الخَيرِ والحُسنِ والمصالِحِ، وما في المنهيِّ عنه مِنَ المَضارِّ.

والنَّوعُ الثَّاني مِنَ التَّذكيرِ: تذكيرٌ بما هو معلومٌ للمُؤمِنينَ، ولكِنِ انسحَبَت عليه الغَفلةُ والذُّهولُ، فيُذَكَّرونَ بذلك، ويُكَرَّرُ عليهم؛ لِيَرسَخَ في أذهانِهم، ويَنتَبِهوا ويَعمَلوا بما تذَكَّروه مِن ذلك، ولِيُحدِثَ لهم نشاطًا وهِمَّةً تُوجِبُ لهم الانتِفاعَ والارتِفاعَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).

(٣) يُنظر: ((زاد الداعية إلى الله)) لابن عثيمين (ص: ١٤).

تضَمَّنَتْ واحِدةً مِن حِكَمِ التَّذكيرِ، وهي رَجاءُ انتِفاعِ المذَكَّرِ به؛ لأنَّه تعالى قال هنا: ﴿ وَذَكِّرْ ﴾، ورَتَّب عليه قولَه: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ومِن حِكَمِ التَّذكيرِ أيضًا: خُروجُ المُذَكِّرِ مِن عُهدةِ التَّكليفِ بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، وقد جمَعَ اللهُ هاتينِ الحِكمَتينِ في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[الأعراف: ١٦٤].

ومن حِكَمِ ذلك أيضًا النِّيابةُ عن الرُّسُلِ في إقامةِ حُجَّةِ اللهِ على خَلْقِه في أرضِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى يَقولُ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[النساء: ١٦٥]، وقد بَيَّنَ هذه الحُجَّةَ في آخرِ سُورةِ (طه) في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ ﴾[طه: ١٣٤]، وأشار لها في (القَصَص) في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] [القصص: ٤٧].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دَليلٌ على أنَّه كُلَّما كان الإيمانُ أقوى كان الانتِفاعُ بالذِّكرى أعظَمَ وأشَدَّ، وذلك مِن قاعدةٍ مَعروفةٍ عندَ العُلَماءِ، وهي: «أنَّ الحُكمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ ازداد بزيادتِه، ونَقَصَ بنُقصانِه»[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنَّ التَّذكيرَ واجبٌ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنَّ الذِّكرى لا ينتَفِعُ بها

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٤).

كُلُّ النَّاسِ؛ فغَيرُ المؤمنِ الذِّكرى تُقيمُ عليه الحُجَّةَ لكِنْ لا تَنفَعُه؛ لا تنفَعُ الذِّكرى إلَّا المؤمنَ[١]، فهذه آيةٌ غَليظةٌ على مَن لا يَنتفِعُ بالموعِظةِ؛ لِمَا يُخشَى عليه مِنَ النِّفاقِ إذا زالت عنه مَنافِعُ المواعِظِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ دَليلٌ على أنَّ المُكَذِّبينَ للرُّسُلِ طريقتُهم واحِدةٌ ولو تباعدَتْ أزمانُهم، ولو تباعدَتْ أقطارُهم؛ لأنَّ المُجرِمَ أخو المُجرِمِ؛ فالطَّريقةُ واحِدةٌ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ سُؤالٌ: أنَّ مِن الأنبياءِ مَن قَرَّر دينَ النَّبيِّ الَّذي كان قَبْلَه، وبَقِيَ القَومُ على ما كانوا عليه، كأنبياءِ بني إسرائيلَ، وكيف وآدَمُ لَمَّا أُرسِلَ لم يُكَذَّبْ؟!

الجوابُ: أنَّا لا نُسَلِّمُ أنَّ المُقَرِّرَ رَسولٌ، بل هو نَبيٌّ على دينِ رَسولٍ، ومَن كَذَّب رَسولَه فهو يُكَذِّبُه أيضًا ضَرورةً[٤]. وأمَّا آدمُ فنبيٌّ، وليس برسولٍ، والدليلُ قولُه تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وفي حديثِ الشَّفاعةِ[٥]: ((فيَأْتونَ نُوحًا، فيَقولونَ: يا نوحُ، أنت أوَّلُ الرُّسُلِ إلى أهلِ الأرضِ))[٦].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذا يدُلُّ على أنَّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ١٨١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٠٤).

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٤٠) ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٣١٦).

كُلَّهم قالوا: «ساحِرٌ»، والأمرُ ليس كذلك؛ لأنَّه ما مِن رَسولٍ إلَّا وآمنَ به قَومٌ، وهم ما قالوا ذلك!

الجوابُ: أنَّ ذلك ليس بعامٍّ؛ فإنَّه لم يَقُلْ: «إلَّا قال كُلُّهم»، وإنَّما قال: ﴿إِلَّا قَالُواْ﴾[1]؛ فهو إسنادٌ باعتِبارِ أنَّه قَولُ أكثَرِهم؛ فإنَّ الأُمورَ الَّتي تُنسَبُ إلى الأقوامِ والقبائِلِ تجري على اعتِبارِ الغالِبِ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يَذكُرِ المصَدِّقِينَ كما ذَكَر المُكَذِّبينَ، وقال: إلَّا بَعضُهم صَدَّق، وبَعضُهم كَذَّب؟

الجوابُ: لأنَّ المقصودَ التَّسليةُ، وهي على التَّكذيبِ؛ فكأنَّه تعالى قال: لا تَأْسَ على تَكذيبِ قَومِك؛ فإنَّ أقوامًا قَبْلَك كَذَّبوا، ورُسُلًا كُذِّبوا[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ أنَّ الهوَى هو الَّذي أوجبَ لهم هذا التَّناقُضَ الظَّاهِرَ، سواءٌ كانت «أو» للتَّفصيلِ بأنَّ بَعضَهم قال واحِدًا، وبَعْضَهم قال آخَرَ، أو كانت للشَّكِّ؛ لأنَّ السَّاحِرَ يكونُ لَبيبًا فَطِنًا آتيًا بما يَعجِزُ عنه كثيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ والمَجنونُ بالضِّدِّ مِن ذلك[4]! فتارةً يَصِفونه بغايةِ الحِذْقِ، والخِبرةِ، والمعرفةِ؛ فيَقولون: ساحرٌ، وتارةً بغايةِ الجهلِ، والغَباوةِ، والحُمقِ؛ فيَقولون: مجنونٌ[5]!

٦- ما جاء رسولٌ صادِقٌ قَطُّ إلَّا قيل فيه: إنَّه ساحِرٌ أو مجنونٌ، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۞ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٩).

(٥) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٣٤).

هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ وذلك أنَّ الرَّسولَ يأتي بما يخالِفُ عاداتِهم، ويَفعَلُ ما يَرَونَه غَيرَ نافِعٍ، ويَترُكُ ما يَرَونَه نافِعًا. وهذا فِعلُ المجنونِ؛ فإنَّ المجنونَ فاسِدُ العِلمِ والقَصدِ. ومَن كان مَبلَغُه مِنَ العِلمِ إرادةَ الحياةِ الدُّنيا، كان عندَه مَن تَرَك ذلك وطَلَب ما لا يَعلَمُه: مجنونًا!

ثمَّ الرَّسولُ مع هذا يأتي بأمورٍ خارجةٍ عن قُدرةِ النَّاسِ؛ مِن إعلامٍ بالغُيوبِ، وأمورٍ خارقةٍ لعاداتِهم، فيقولونَ: هو ساحِرٌ، وأيضًا فالسَّاحرُ لَمَّا كان يَتصرَّفُ في العقولِ والنُّفوسِ بما يُغَيِّرُها، وكان مَن سَمِع القُرآنَ وكلامَ الرَّسولِ خضَع له عقلُه ولُبُّه، وانقادتْ له نفْسُه وقلبُه؛ صاروا يقولون: ساحرٌ، وشَتَّانَ[1]. فقالوا: ﴿سَاحِرٌ﴾ باعتِبارِ تأثيرِه وبيانِه وبلاغتِه؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ مِنَ البَيانِ لَسِحْرًا))[2]، ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ باعتبارِ تصَرُّفاتِه؛ لأنَّ هذا التَّصَرُّفَ في نظَرِ هؤلاء المكَذِّبينَ جُنونٌ. نسألُ اللهَ العافيةَ[3].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أنَّ قُلوبَ الكُفَّارِ مُتشابِهةٌ؛ فكانت أعمالُهم مُتشابِهةً، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[4] [البقرة: ١١٨].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ نَفْيُه جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكَريمةِ لِلَّومِ عن نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يدُلُّ على أنَّه أدَّى الأمانةَ، ونَصَح للأمَّةِ، وقد أوضَحَ تعالى هذا المعنى في غيرِ هذا الموضِعِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]،

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٣٤، ١٠٤٢).

(٢) رواه البخاري (٥٧٦٧) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عمَرَ رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٣).

وقَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾[١] [الرعد: ٤٠].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ النَّفعُ الحاصِلُ مِنَ الذِّكرى هو رُسوخُ العِلمِ بإعادةِ التَّذكيرِ لِمَا سَمِعوه، واستِفادةُ عِلمٍ جَديدٍ فيما لم يَسمَعوه أو غَفَلوا عنه، وظُهورُ حُجَّةِ المُؤمِنينَ على الكافِرينَ يَومًا فيَومًا، وتكَرُّرُ عَجزِ المُشرِكينَ عن المعارَضةِ، ووَفرةُ الكلامِ المُعجِزِ[٢].

١٠- أنَّ اللهَ تعالى نَصَبَ مِن الأدِلَّةِ على وُجودِه ووَحدانيَّتِه وصِفاتِ كَمالِه الأدِلَّةَ على اختِلافِ أنواعِها، ولا يُطيقُ حَصْرَها إلَّا اللهُ، ثمَّ رَكَز ذلك في الفِطرةِ، ووَضَعَه في العَقلِ جُملةً، ثمَّ بَعَثَ الرُّسُلَ مُذَكِّرينَ به؛ ولهذا يقولُ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾

- كلمةُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فصْلُ خِطابٍ تدُلُّ على انتهاءِ حديثٍ والشُّروعِ في غَيرِه، أو الرُّجوعِ إلى حَديثٍ قبْلَه أتَى عليه الحديثُ الأخيرُ، والتَّقديرُ: الأمْرُ كذلك، والإشارةُ إلى ما مَضى مِن الحديثِ، ثمَّ يُورَدُ بعْدَه حديثٌ آخَرُ، والسَّامعُ يَرُدُّ كُلًّا إلى ما يُناسِبُه، فيكونُ ما بعْدَ اسمِ الإشارةِ مُتَّصلًا بأخبارِ الأُمَمِ الَّتي تَقدَّمَ ذِكرُها مِن قَومِ لوطٍ ومَن عُطِفَ عليهم؛ أُعقِبَ تَهديدُ المشرِكين بأنْ يَحُلَّ بهم ما حلَّ بالأُمَمِ المُكذِّبين لرُسلِ اللهِ مِن قبْلِهم بتَنظيرِهم بهم في مَقالِهم، فقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فصْلٌ، وجُملةُ ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ ...﴾ الآيةَ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٨٠).

مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا. ويُمكِنُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مَبدأَ استِئنافٍ، عَودًا إلى الإنحاءِ على المشركين في قَولِهم المُختلِفِ بأنواعِ التَّكذيبِ في التَّوحيدِ والبَعثِ وما يَتفرَّعُ على ذلك[١].

- وفي قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا ...﴾ أُوثِرَ استخدامُ حرْفِ (مَا) على (لَمْ)؛ ليُؤذِنَ بانفصالِ ما صدَرَ بها على ما قبْلَه، واتِّصالِه بقَولِه: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾ إلى آخِرِ القصصِ، فلمَّا وُسِّطَ بيْنَهما الحديثُ في بَيانِ الآياتِ الدَّالَّةِ على التَّوحيدِ، ونفْيِ الشِّركِ والفِرارِ إلى اللهِ تعالى عمَّا سِواه؛ جِيءَ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فصْلًا للخِطابِ؛ ليُتخلَّصَ منه إلى ما سِيقَ له الكلامُ، ولو أُتِيَ بحرفِ (لَمْ) لَاختلَّ النَّظْمُ[٢].

- وزِيادةُ (مِنْ) في قَولِه: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ للتَّنصيصِ على إرادةِ العُمومِ، أي: أنَّ كلَّ رسولٍ قال فيه فريقٌ مِن قَومِه: هو ساحرٌ، أو مَجنونٌ، أي قال بعضُهم: ساحرٌ، وقال بعضُهم: مَجنونٌ، وهذا العُمومُ يُفيدُ أنَّه لم يَخْلُ قَومٌ مِن الأقوامِ المذكورينَ إلَّا قالوا لرَسولِهم أحَدَ القولَينِ، أو جمَعوا القولَينِ لهم[٣].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ القصْرُ المُستفادُ مِن الاستِثناءِ بـ(ما .. إلَّا) قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٤]؛ لأنَّ للأُمَمِ أقوالًا غيرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٥، ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١).

(٤) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه =

ذلك وأحوالًا أُخرى، وإنَّما قُصِروا على هذا اهتِمامًا بذِكرِ هذه الحالةِ العجيبةِ مِن البُهتانِ؛ إذ يَرْمُون أعقَلَ النَّاسِ بالجُنونِ، وأقوَمَهم بالسِّحرِ[(١)]!

- وإسنادُ القولِ إلى ضَميرِ الَّذين مِن قبْلِ مُشْركي العرَبِ الحاضرينَ إسنادٌ باعتبارِ أنَّه قولُ أكثَرِهم؛ فإنَّ الأمورَ الَّتي تُنسَبُ إلى الأقوامِ والقبائلِ تَجْري على اعتبارِ الغالِبِ[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن تَواطُئِهم على

= بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذا القولِ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أي: كأنَّهم أَوصَى بعضُهم بعضًا بأنْ يَقولوهُ؛ فالاستِفهامُ هنا كِنايةٌ عن لازِمِه، وهو التَّعجيبُ؛ لأنَّ شأْنَ الأمْرِ العجيبِ أنْ يُسأَلَ عنه، والجُملةُ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ تَماثُلَ هؤلاء الأُمَمِ في مَقالةِ التَّكذيبِ يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن مَنشَأِ هذا التَّشابُهِ. أو الاستِفهامُ لإنكارِ إجماعِهم على تلكَ الكلمةِ الشَّنيعةِ الَّتي لا تَكادُ تَخطُرُ ببالِ أحدٍ مِن العُقلاءِ، فضْلًا عن التَّفوُّهِ بها[1].

- وقولُه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضرابٌ عن مُفادِ الاستفهامِ مِن التَّشبيهِ، أو عن التَّواصي به، ببَيانِ سَببِ التَّواطؤِ على هذا القولِ؛ فإنَّه إذا ظهَرَ السَّببُ بطَلَ العجَبُ، أي: ما هو بتَواصٍ، ولكنَّه تَماثُلٌ في مَنشَأِ ذلك القولِ، أي سبَبُ تَماثُلِ المَقالةِ تَماثُلُ التَّفكيرِ والدَّواعي للمَقالةِ؛ إذ جَميعُهم قومٌ طاغونَ، فالجامعُ لهم على هذا القولِ مُشارَكتُهم في الطُّغيانِ الحاملِ عليه، وأنَّ طُغيانَهم وكِبرياءَهم يَصُدُّهم عن اتِّباعِ رسولٍ يَحسَبون أنفُسَهم أعظَمَ منه، وإذ لا يَجِدون وَصمةً يَصِمونه بها اختَلَقوا لتَنقيصِه عِلَلًا لا تَدخُلُ تحت الضَّبْطِ، وهي ادِّعاءُ أنَّه مَجنونٌ، أو أنَّه ساحرٌ، فاستَوَوا في ذلك بعِلَّةِ استوائِهم في أسبابِه ومَعاذيرِه[2].

- وفي إقحامِ كَلمةِ ﴿قَوْمٌ﴾ في قولِه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إيذانٌ بأنَّ الطُّغيانَ راسخٌ في نُفوسِهم، بحيثُ يكونُ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢، ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ تَفريعٌ على قَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ إلى قولِه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذَّارِيات: ٥٢، ٥٣]، وهو مُشعِرٌ بأنَّهم بُعَداءُ عن أنْ تُقنِعَهم الآياتُ والنُّذُرُ، أي: أعرِضْ عن الإلحاحِ في جِدالِهم؛ فقد كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شَديدَ الحرْصِ على إيمانِهم، ويَغتَمُّ مِن أجْلِ عِنادِهم في كُفْرِهم، فكان اللهُ يُعاوِدُ تَسليتَه الفَينةَ بعْدَ الفَينةِ(١).

- وفي قولِه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ فُرِّعَ على أمْرِه بالتَّولِّي عنهم إخبارُه بأنَّه لا لَومَ عليه في إعراضِهم عنه. وصِيغَ الكَلامُ في صِيغةِ الجُملةِ الاسميَّةِ دونَ (لا نَلومُك)؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ مَضمونِ الجُملةِ في النَّفيِ(٢).

- وجِيءَ بضَميرِ المُخاطَبِ مُسنَدًا إليه، فقال: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (فلا ملامَ عليك) أو نَحوَه؛ للاهتِمامِ بالتَّنويهِ بشأْنِ المُخاطَبِ وتَعظيمِه(٣).

- وزِيدَت الباءُ في الخبَرِ المَنفيِّ ﴿بِمَلُومٍ﴾؛ لتَوكيدِ نفْيِ أنْ يكونَ مَلومًا(٤).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

- عطْفُ ﴿وَذَكِّرْ﴾ على ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ احتراسٌ؛ كيْ لا يَتوهَّمَ أحدٌ أنَّ الإعراضَ إبطالٌ للتَّذكيرِ، بل التَّذكيرُ باقٍ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذكَّرَ النَّاسَ بعْدَ أمْثالِ هذه الآياتِ، فآمَنَ بعضُ مَن لم يكُنْ آمَنَ مِن قبْلُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣، ٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٤).

ولِيَكونَ الاستِمرارُ على التَّذكيرِ زِيادةً في إقامةِ الحُجَّةِ على المُعرِضين، ولئلَّا يَزدادوا طُغيانًا فيَقولوا: ها نحن أُولاءِ قد أفحَمْناهُ، فكفَّ عمَّا يَقولُه[١].

- والأمْرُ في ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ مُرادٌ به الدَّوامُ على التَّذكيرِ وتَجديدُه[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ اقتُصِرَ في تَعليلِ الأمْرِ بالتَّذكيرِ على علَّةٍ واحدةٍ، وهي انتفاعُ المؤمنينَ بالتَّذكيرِ؛ لأنَّ فائدةَ ذلك مُحقَّقةٌ، ولإظهارِ العِنايةِ بالمؤمنينَ في المَقامِ الَّذي أُظهِرَت فيه قِلَّةُ الاكتِراثِ بالكافرين، ولذلك فوَصْفُ المؤمنينَ يُرادُ به المتَّصِفون بالإيمانِ في الحالِ كما هو شأْنُ اسمِ الفاعِلِ، وأمَّا مَن سيُؤمِنُ فعلَّتُه مَطويَّةٌ[٣].

- وخَصَّ المُؤمِنينَ؛ لأنَّهم المُنتَفِعونَ بها[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٥).

الآيات (٥٦-٦٠)

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمَتِينُ﴾: أي: الشَّديدُ القَوِيُّ، وأصلُ (متن): يدُلُّ على صَلابةٍ[١].

﴿ذَنُوبًا﴾: أي: نَصيبًا وحَظًّا مِنَ العَذابِ، مَأخوذٌ مِن مُقاسَمةِ السُّقاةِ الماءَ بالذَّنُوبِ، والذَّنُوبُ في كَلامِ العَرَبِ: الدَّلْوُ العَظيمةُ، ولا تُسَمَّى ذَنُوبًا إلَّا إذا كانت مَلْأَى، وأصلُ (ذنب) هنا: يدُلُّ على الحَظِّ والنَّصيبِ[٢].

﴿فَوَيْلٌ﴾: أي: عَذابٌ وهَلاكٌ. وقيلَ: وَيْلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مُبيِّنًا الغايةَ الَّتي خلَق الجنَّ والإنسَ مِن أجْلِها: وما خَلَقْتُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨).

قال الراغب: (ومَن قال: «ويْلٌ»: وادٍ في جهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ «ويْلًا» في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد مَن قال الله تعالى ذلك فيه فقد استحَقَّ مقرًّا مِن النَّارِ، وثبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨).

الجِنَّ والإنسَ إلَّا مِن أجْلِ عِبادتي وَحْدي، ما أُريدُ مِنهم مِنْ رِزقٍ؛ لا لي، ولا لأنفُسِهم، ولا لغيرِهم، وما أريدُ منهم أن يُطعِموني، ولا أن يُطعموا أنفُسَهم ولا غيرَهم، إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الرَّزَّاقُ لجَميعِ خَلْقِه، صاحِبُ القُوَّةِ التَّامَّةِ، الشَّديدُ القُوَّةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سوءَ عاقِبةِ الظَّالِمينَ، فيقولُ: فإنَّ للَّذينَ ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ نَصيبًا وافِرًا مِن عذابِ اللهِ تعالى مِثلَ نَصيبِ أمثالِهم مِن كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ؛ فلا يَستعجِلوني بالعَذابِ.

فعَذابٌ وهَلاكٌ للَّذينَ كَفَروا مِنَ اليَومِ الَّذي يُوعَدونَ بنُزولِ العَذابِ عليهم فيه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

في تعَلُّقِ الآيةِ بما قَبْلَها وُجوهٌ:

منها: أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ [الذَّاريات: ٥٥] يعني: أقصى غايةِ التَّذكيرِ، وهو أنَّ الخَلْقَ ليس إلَّا للعبادةِ، فالمقصودُ مِن إيجادِ الإنسانِ العبادةُ، فذَكِّرْهم به، وأعلِمْهم أنَّ كُلَّ ما عَدَاه تضييعٌ للزَّمانِ.

ومنها: أنَّه لَمَّا بَيَّنَ حالَ مَن قَبْلَه مِنَ التَّكذيبِ؛ ذكَرَ هذه الآيةَ؛ لِيُبَيِّنَ سُوءَ صَنيعِهم حيثُ تَرَكوا عبادةَ اللهِ، فما كان خَلْقُهم إلَّا للعِبادةِ[1].

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلَّا مِن أجْلِ عِبادتي وَحْدي؛ لِيَتذلَّلوا ويَخضَعوا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥).

لي بطاعتي[١].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۞ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَصَر سُبحانَه خَلْقَهم في إرادةِ العِبادةِ؛ صَرَّح بهذا المفهومِ بقَولِه[٢]:

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ما أُريدُ مِن الجِنِّ والإنسِ أيَّ رِزقٍ؛ لا لي، ولا لأنفُسِهم، ولا لغيرِهم، ولا أريدُ منهم أن يُطعِموني؛ لأنِّي مُنزَّهٌ عن الأكلِ، ولا أن يُطعِموا أنفُسَهم ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٦)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٦٨، ٤٧٣، ٤٨١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤١، ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥، ٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨١).

غيرَهم، فلْيَشتَغِلوا بعبادتي[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٥٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥، ٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٧).

قيل: معنى ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾: ما أُريدُ منهم أن يَرزُقوا خَلْقي. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦٤).

وقيل: المعنى: ما أُريدُ أن يَرزُقوا أنفُسَهم. ومِمَّن اختاره: يحيى بنُ سلام، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٣).

وقيل: المعنى: ما أُريدُ منهم أن يَرزُقوا أنفُسَهم ولا غَيرَهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، والبغوي، والنسفي، وابنُ جُزَي، والخازن، وأبو حيَّان. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨١، ١٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٢).

وقيل: المعنى: ما أُريدُ منكم مِن رزقٍ لي؛ فلَستُ بحاجةٍ إلى ذلك، فاللهُ تعالى غنيٌّ عن خَلْقِه، فهذه الجملةُ فيها بيانُ استغنائِه سُبحانَه عن عبادِه. وهو في الجملةِ اختيارُ الزمخشريِّ، والرازيِّ، والبيضاوي، وابنِ تيميَّةَ، والبِقاعي، والشوكاني، والألوسي، وابنِ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (الرِّزقُ يَعُمُّ كُلَّ ما يَنتَفِعُ به المُرتَزِقُ؛ فالإنسانُ يُرزَقُ الطَّعامَ والشَّرابَ واللِّباسَ، وما يَنتَفِعُ بسَمْعِه وبَصَرِه وشَمِّه، ويُرزَقُ ما يَنتَفِعُ به باطِنُه مِن عِلمٍ وإيمانٍ، وفَرَحٍ وسُرورٍ، وقُوَّةٍ ونورٍ، وتأييدٍ، وغير ذلك. واللهُ سُبحانَه ما يريدُ مِنَ الخَلقِ مِن رِزقٍ؛ فإنَّهم لن يَبلُغوا ضُرَّه فيَضُرُّوه، ولن يَبلُغوا نَفْعَه فيَنفَعوه، بل هو الغَنيُّ، وهم الفُقَراءُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٥٥٥).

قال ابنُ جُزَي: (﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ أي: لا أريدُ أن يُطعِموني؛ لأنِّي مُنَزَّهٌ عن الأكلِ وعن =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((دعا رجُلٌ مِنَ الأنصارِ مِن أهلِ قُباءٍ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فانطلَقْنا معه، فلمَّا طَعِمَ وغَسَل يَدَه أو يَدَيه قال: الحَمدُ للهِ الَّذي يُطعِمُ ولا يُطعَمُ، مَنَّ علينا فهَدانا، وأطعَمَنا وسَقانا، وكُلَّ بلاءٍ حَسَنٍ أبلانا، الحَمدُ لله غيرَ مُودَّعٍ ولا مُكافَأٍ، ولا مَكفورٍ ولا مُستَغنًى عنه، الحَمدُ لله الَّذي أطعَمَ مِنَ الطَّعامِ، وسَقى مِنَ الشَّرابِ، وكسَا مِنَ العُرْيِ، وهَدى مِنَ الضَّلالةِ، وبصَّرَ مِنَ العَمَى، وفضَّلَ على كثيرٍ مِنْ خَلْقِه تَفضيلًا، الحَمدُ للهِ

= صِفاتِ البَشَرِ، وأنا غنيٌّ عن العالَمينَ. وقيل: المعنى: ما أُريدُ أن يُطعِموا عَبيدي، فحُذِفَ المُضافُ تجَوُّزًا... والأوَّلُ أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠).

ومِمَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الرازيُّ، وابنُ جُزَي، والبِقاعي، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨).

ومِمَّن اختار أنَّ المعنى: وما أُريدُ أن يُطعِموا أحدًا مِن خَلْقِي: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، والبغويُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٣).

قال ابن الجوزي: (وإنَّما أَسنَدَ الإطعامَ إلى نَفْسِه؛ لأنَّ الخَلْقَ عِيالُ اللهِ، ومَن أطعمَ عِيالَ أحَدٍ فقد أطعمَه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٣).

ومِمَّن جمَعَ بيْنَ الأقوالِ في الرِّزقِ والإطعامِ: جلالُ الدين المحلي، فقال: (﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ لي ولأنفُسِهم وغَيرِهم، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ ولا أنفُسَهم ولا غَيرَهم). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٦).

رَبِّ العالَمينَ))[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الرَّزَّاقُ لجَميعِ خَلْقِه؛ فهم المحتاجُونَ إليه في جميعِ أحوالِهم[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ [هود: ٦].

﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

أي: وهو صاحِبُ القُوَّةِ التَّامَّةِ، الشَّديدُ القُوَّةِ[٣].

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩﴾.

---

(١) أخرجه النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠١٣٣) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّان (٥٢١٩)، والحاكِمُ (٢٠٠٣).
صَحَّحه ابنُ حبَّانَ، والحاكمُ وقال: (على شرطِ مسلمٍ). وأحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧٦٥)، وصَحَّح إسنادَه على شرطِ مسلمٍ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٥٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٩).
قال ابن عاشور: (المعنى: أنَّه المسْتَغْني غِنًى مُطلَقًا، فلا يَحتاجُ إلى شَيءٍ، فلا يكونُ خلْقُه الخلْقَ لتَحصيلِ نفْعٍ له، ولكنْ لعُمْرانِ الكَونِ، وإجراءِ نِظامِ العُمْرانِ باتِّباعِ الشَّريعةِ الَّتي يَجمَعُها معنى العِبادةِ في قولِه: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه تعالى بَيَّنَ أنَّ مَن يَضَعُ نَفْسَه في مَوضِعِ عِبادةِ غَيرِ اللهِ يكونُ وَضَع الشَّيءَ في غَيرِ مَوضِعِه، فيَكونُ ظالِمًا؛ فقال: إذا ثَبَت أنَّ الإنسَ مَخلوقونَ للعِبادةِ فإنَّ الَّذين ظَلَموا بعِبادةِ غيرِ الله لهم هلاكٌ مِثلُ هَلاكِ مَن تَقدَّمَ[١].

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾.

أي: فإنَّ للَّذينَ ظَلَموا فأشرَكوا باللهِ مِن قُرَيشٍ أو غَيرِهم نَصيبًا وافِرًا مِن عذابِ اللهِ تعالى مِثلَ نَصيبِ أمثالِهم مِن كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ؛ فلا يَستعجِلوني بالعَذابِ؛ فإنَّه نازِلٌ بهم في وَقتِه المُقَدَّرِ له لا مَحالةَ[٢].

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: فعَذابٌ وهَلاكٌ[٣] للَّذينَ كَفَروا بالحَقِّ مِنَ اليَومِ الَّذي وعَدَهم اللهُ بنُزولِ العَذابِ فيه[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠، ٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٩، ٤٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٧٠).

ومالَ الرَّازيُّ إلى أنَّ الذُّنوبَ ليس بعذابٍ ولا هلاكٍ، وإنَّما هو رغَدُ العَيشِ، والمعنى: فإنَّ للَّذين ظَلَموا مِن الدُّنيا وطَيِّباتِها ذَنوبًا، ولا يكونُ لهم في الآخرةِ مِن نصيبٍ، قال الرَّازيُّ: (وهو أَلْيَقُ بالعربيَّةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٧).

(٣) قال الشنقيطي: (كلمة «ويلٌ»، قال فيها بعضُ أهلِ العِلمِ: إنَّها مَصدَرٌ لا فِعلَ له مِن لَفظِه، ومعناه: الهلاكُ الشَّديدُ. وقيل: هو وادٍ في جهنَّمَ تَستعيذُ مِن حَرِّه، والَّذي سَوَّغ الابتِداءَ بهذه النَّكِرةِ أنَّ فيها معنى الدُّعاءِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٤ - ٢٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤].

= كثير)) (٧/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٧١).

قال ابن جُزَي: (﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ يومَ القيامةِ، أو يومَ هَلاكِهم ببَدرٍ، والأوَّلُ أرجَحُ؛ لِقَولِه في «المعارجِ»: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤] يعني: يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠).

وقال الألوسي: (المرادُ بذلك اليَومِ: قيل: يومُ بَدرٍ، ورُجِّح بأنَّه الأوفَقُ لِما قَبْلَه مِن حيثُ إنَّه ذَنوبٌ مِن العذابِ الدُّنيويِّ. وقيل: يومُ القيامةِ، ورُجِّح بأنَّه الأنسَبُ لِما في صَدرِ السُّورةِ الكريمةِ الآتيةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٥). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٥).

وممَّن قال بالقَولِ الأوَّلِ: إنَّه يومُ القيامةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابنُ جُزَي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٧١).

ونسَبه ابنُ عطيَّةَ لجمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٤).

ومِمَّن قال به مِن السَّلفِ: عَطاءٌ، والكلبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧١).

وممَّن ذهب إلى أنَّه يومُ بَدرٍ: الثعلبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢).

وقال البِقاعي: (﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾ أضافه إليهم؛ لأنَّه خاصٌّ بهم دونَ المُؤمِنينَ ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ في الدُّنيا والآخِرةِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٨٣).

وقال تبارَك وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]

وقال عزَّ شأنُه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فالحِكمةُ مِن خَلقِ الجِنِّ والإنسِ العِبادةُ؛ فلم يُخلَقوا مِن أجْلِ أن يَعمُروا الأرضَ، ولا مِن أجْلِ أن يأكُلوا، ولا مِن أجْلِ أن يَشرَبوا، ولا أن يَتمَتَّعوا كما تتمَتَّعُ الأنعامُ، وإنَّما خُلِقوا لعبادةِ اللهِ، وخَلَق لهم ما في الأرضِ، فنحن مخلوقونَ للعبادةِ، وكُلُّ ما في الأرضِ مَخلوقٌ لنا ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، والعَجَبُ أنَّ قَومَنا الآنَ اشتَغَلوا فيما خُلِقَ لهم عمَّا خُلِقوا له! وهذا مِنَ السَّفَهِ؛ أن يَشتَغِلوا بشَيءٍ خُلِقَ لهم عن شَيءٍ خُلِقوا مِن أجْلِه[١]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أنَّ الإنسَ والجِنَّ مُكَلَّفونَ بعبادةِ اللهِ تعالى[٢]، فمَن لم يَعْبُدِ اللهَ، أو عَبَد مع اللهِ غيرَه، أو لم يَعبُدْ أحدًا؛ فإنَّه أضاع دِينَه ودُنياه؛ لأنَّه أضاع ما خُلِقَ مِن أجْلِه[٣].

٢- خَلَق اللهُ الخَلْقَ وأوجَدَهم لعبادتِه الجامِعةِ لخَشيتِه ورَجائِه ومحَبَّتِه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وإنَّما يُعبَدُ اللهُ سُبحانَه بعدَ العِلْمِ به ومعرفتِه، فبذلك خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ وما فيهما للاستِدلالِ بهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٧، ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٣٩٨).

على تَوحيدِه وعَظَمتِه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقد عُلِمَ أنَّ العِبادةَ إنَّما تُبنى على ثلاثةِ أُصولٍ: الخَوفِ، والرَّجاءِ، والمحَبَّةِ. وكلٌّ منها فَرضٌ لازِمٌ، والجَمعُ بيْنَ الثَّلاثةِ حَتمٌ واجِبٌ؛ فلهذا كان السَّلَفُ يَذُمُّونَ مَن تعَبَّد بواحِدٍ منها، وأهمَلَ الآخَرَينِ؛ فإنَّ بِدَعَ الخوارِجِ ومَن أشبَهَهم إنَّما حَدَثَت مِنَ التَّشديدِ في الخَوفِ، والإعراضِ عن المحبَّةِ والرَّجاءِ؛ وبِدَعَ المُرجِئةِ نَشَأت مِن التَّعلُّقِ بالرَّجاءِ وَحْدَه، والإعراضِ عن الخَوفِ؛ وبِدَعَ كَثيرٍ مِن أهلِ الإباحةِ والحُلولِ مِمَّن يُنسَبُ إلى التَّعَبُّدِ نشَأَت مِن إفرادِ المحبَّةِ، والإعراضِ عن الخَوفِ والرَّجاءِ[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ذمٌّ وتوبيخٌ لِمَن لم يَعبُدِ اللهَ منهم؛ لأنَّ اللهَ خَلَقَه لشَيءٍ فلم يَفعلْ ما خُلِقَ له؛ ولهذا عَقَّبَها بقَولِه تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾، فإثباتُ العبادةِ ونفْيُ هذا يُبيِّنُ أنَّه خَلَقَهم للعبادةِ، ولم يُرِدْ منهم ما يُريدُه السَّادةُ مِن عبيدِهم مِن الإعانةِ لهم بالرزقِ والإطعامِ[(٢)].

٤- عِبادةُ اللهِ وَحْدَه حقٌّ استحَقَّه على الخَلقِ لِذَاتِه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾، فأخبرَ سُبحانَه أنَّه إنَّما خَلَق الخلْقَ لعبادتِه، وأخبرَ أنَّ الَّذي خَلَقه لهم، وأمَرَهم به، ورَضِيَه وأَحبَّه وأرادَه بأَمْرِه منهم: هو عبادتُه، لم يُرِدْ منهم رزقًا ولا أنْ يُطعِموه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٢٣٦).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أنَّه لا يَصِحُّ التَّوكيلُ في عبادةٍ مَحضةٍ، كالصَّلاةِ والصَّومِ ونَحوِهما؛ لأنَّ ذلك مَطلوبٌ مِن كُلِّ أحَدٍ بعَينِه؛ فلا يَنوبُ فيه أحَدٌ عن أحَدٍ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لا يُنافي ذلك عَدَمُ عِبادةِ الكافِرينَ؛ لأنَّ الغايةَ لا يَلزَمُ وُجودُها، كما في قَولِك: بَرَيتُ القَلَمَ لأكتُبَ به؛ فإنَّك قد لا تكتُبُ به، أو لأنَّ ذلك عامٌّ أريدَ به الخُصوصُ، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[الأعراف: ١٧٩]، ومَن خُلِقَ لجَهنَّمَ لا يكونُ مَخلوقًا للعبادةِ[٢]! وأيضًا فالتَّعليلُ هنا ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ تعليلٌ شرعيٌّ، أي: مِن أجْلِ أنْ يَعبُدونِ، حيثُ آمُرُهم فيَمتَثِلونَ أمْري، وليستِ اللَّامُ هنا تَعليلًا قَدَريًّا؛ لأنَّه لو كان تَعليلًا قَدَريًّا لَلَزِمَ أنْ يَعبُدَه جميعُ الجِنِّ والإنسِ، لكِنَّ اللَّامَ هنا لبيانِ الحِكمةِ الشَّرعيَّةِ في خَلقِ الجِنِّ والإنسِ[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

٧- أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ دعا جميعَ النَّاسِ على ألسِنةِ رُسُلِه إلى الإيمانِ به وعبادتِه وَحْدَه، وأمَرَهم بذلك، وأمْرُه بذلك مُستلزِمٌ للإرادةِ الدِّينيَّةِ الشَّرعيَّةِ، ثمَّ إنَّ اللهَ جَلَّ وعلا يَهدي مَن يشاءُ منهم، ويُضِلُّ مَن يشاءُ بإرادتِه الكَونيَّةِ القَدَريَّةِ، فيَصيرونَ إلى ما سَبَق به العِلمُ مِن شَقاوةٍ وسَعادةٍ، وبهذا تَعلَمُ وجْهَ الجَمعِ بيْنَ قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[الأعراف: ١٧٩]،

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٣٠).
ثمَّ قال: (أمَّا الحَجُّ عن الميِّتِ والمعضوبِ [أي: العاجِزِ عجزًا لا يُرجى زوالُه]، والصومُ عن الميِّتِ: فقد دلَّت أدلَّةٌ أُخرُ على النِّيابةِ في ذلك، وإنْ خالَف كثيرٌ مِن العلماءِ في الصَّومِ عن الميِّتِ). ((المصدر السابق)). ويُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٩/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٠٧).

وقَولِه تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ﴾ [هود: ١١٩]، وبيْنَ قَولِه تعالى هنا: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾، وإنَّما ذكَرْنا أنَّ الإرادةَ قد تكونُ دِينيَّةً شَرعيَّةً، وهي مُلازِمةٌ للأمرِ والرِّضا، وقد تكونُ كَونيَّةً قَدَريَّةً وليست مُلازِمةً لهما؛ لأنَّ اللهَ يأمُرُ الجَميعَ بالأفعالِ المرادةِ منهم دينًا، ويريدُ ذلك كَونًا وقَدَرًا مِن بَعضِهم دونَ بَعضٍ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، فقَولُه: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ أي: فيما جاء به مِن عِندِنا؛ لأنَّه مَطلوبٌ مُرادٌ مِن المُكَلَّفينَ شَرعًا ودِينًا، وقَولُه: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ يدُلُّ على أنَّه لا يقَعُ مِن ذلك إلَّا ما أراده اللهُ كَونًا وقَدَرًا، واللهُ جَلَّ وعلا يقولُ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥]، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له))[(١)]. والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى[(٢)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ تنبيهٌ للمُشرِكينَ بأنَّ الجِنَّ غيرُ خارِجينَ عن العُبوديَّةِ لله تعالى، وقد حكى اللهُ عن الجَنِّ في سورةِ (الجِنِّ) قَولَ قائِلِهم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا﴾[(٣)] [الجن: ٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ سؤالٌ عن الحِكمةِ في أنَّه لم يَذكُرِ الملائِكةَ مع أنَّهم مِن أصنافِ المكَلَّفينَ، وعبادتُهم أكثَرُ مِن عِبادةِ غَيرِهم مِنَ المكَلَّفينَ! قال تعالى: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) مطوَّلًا مِن حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٨، ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨).

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ الآيةَ سِيقَت لبَيانِ قُبحِ ما يَفعَلُه الكَفَرةُ مِن تَرْكِ ما خُلِقوا له، وهذا مُختَصٌّ بالجِنِّ والإنسِ؛ لأنَّ الكُفرَ موجودٌ في الجِنِّ والإنسِ، بخِلافِ الملائِكةِ.

الثَّاني: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مَبعوثًا إلى الجِنِّ والإنسِ، فلَمَّا قال: ﴿وَذَكِّرْ﴾ [الذَّارِيات: ٥٥] بَيَّنَ ما يُذكِّرُ به -وهو كَونُ الخَلقِ للعبادةِ-، وخَصَّصَ أُمَّتَه بالذِّكْرِ، أي: ذَكِّرِ الإنسَ والجِنَّ.

الثَّالِثُ: أنَّ عُبَّادَ الأصنامِ كانوا يقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى عظيمُ الشَّأنِ، خَلَق الملائِكةَ وجَعَلَهم مُقرَّبينَ، فهم يَعبُدونَ اللهَ، وخَلَقَهم لعبادتِه، ونحن لِنُزولِ درَجَتِنا لا نَصلُحُ لعِبادةِ اللهِ، فنَعبُدُ الملائِكةَ وهم يَعبُدونَ اللهَ! كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، ولم يَذكُرِ الملائِكةَ؛ لأنَّ الأمرَ فيهم كان مُسَلَّمًا مِنَ القَومِ، فذَكَرَ المُتنازَعَ فيه.

الرَّابعُ: أنَّ فِعلَ الجَنِّ يَتناوَلُ الملائِكةَ؛ لأنَّ أصلَ الجِنِّ مِن الاستِتارِ، وهم مُستَتِرونَ عن الخَلْقِ، فذَكَر الجِنَّ لدُخولِ الملائكةِ فيهم[1].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ اعلَمْ أنَّ الآياتِ الدَّالَّةَ على حِكمةِ خَلْقِ اللهِ للسَّمَواتِ والأرضِ وأهلِهما وما بَيْنَهما قد يَظُنُّ غَيرُ المتأمِّلِ أنَّ بَيْنَها اختِلافًا، والواقِعُ خِلافُ ذلك؛ لأنَّ كَلامَ اللهِ تعالى لا يُخالِفُ بَعضُه بَعضًا، وإيضاحُ ذلك أنَّ اللهَ تبارك وتعالى ذكَرَ في بعضِ الآياتِ أنَّ حِكمةَ خَلْقِه للسَّمَواتِ والأرضِ هي إعلامُ خَلْقِه بأنَّه قادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ، وأنَّه مُحيطٌ بكُلِّ شَيءٍ عِلْمًا، وذلك في قَولِه تعالى في آخِرِ الطَّلاقِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٠٦).

وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢]، وذكَرَ في مواضِعَ كثيرةٍ مِن كِتابِه أنَّه خَلَق الخَلْقَ لِيُبَيِّنَ للنَّاسِ كَونَه هو المعبودَ وَحْدَه، كقَولِه تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ثمَّ أقام البُرهانَ على أنَّه إلهٌ واحِدٌ، بقَولِه بَعْدَه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [البقرة: ١٦٤] إلى قَولِه: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ولَمَّا قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة: ٢١]، بَيَّنَ أنَّ خَلْقَهم بُرهانٌ على أنَّه المعبودُ وَحْدَه، بقَولِه بَعْدَه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١]، والاستِدلالُ على أنَّ المعبودَ واحِدٌ بكَونِه هو الخالِقَ- كثيرٌ جِدًّا في القُرآنِ؛ قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۞ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا ﴾ [الفرقان: ٢، ٣]، وقال تعالى أيضًا: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦]، وذكَرَ في بعضِ الآياتِ أنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ لِيَبتلِيَ النَّاسَ، وذلك في قَولِه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧]، وذَكَر في بعضِ الآياتِ أنَّه خَلَقَهم لِيَجزيَهم بأعمالِهم، وذلك في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [يونس: ٤]، وذَكَر في آيةِ (الذَّارِياتِ) هذه أنَّه ما خَلَق الجِنَّ والإنسَ إلَّا لِيَعبُدوه، فقد يَظُنُّ غيرُ العالِمِ أنَّ بيْنَ هذه الآياتِ اختِلافًا، مع أنَّها لا اختِلافَ بَينَها؛ لأنَّ الحُكمَ المذكورَ فيها كُلِّها راجِعٌ إلى شَيءٍ واحِدٍ، وهو مَعرفةُ اللهِ وطاعتُه، ومَعرِفةُ وَعْدِه ووَعيدِه، فقَولُه تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الطلاق: ١٢]، وقَولُه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١] راجِعٌ إلى شَيءٍ واحِدٍ هو العِلمُ باللهِ؛ لأنَّ مَن عَرَف اللهَ أطاعه ووَحَّده. وهذا العِلمُ يُعَلِّمُهم اللهُ إيَّاه، ويُرسِلُ لهم الرُّسُلَ بمُقتَضاه؛

لِيَهلِكَ مَن هَلَك عن بَيِّنةٍ، ويحيَا مَن حَيَّ عن بَيِّنةٍ، فالتَّكليفُ بعْدَ العِلمِ، والجزاءُ بعدَ التَّكليفِ، فظَهَر بهذا اتِّفاقُ الآياتِ؛ لأنَّ الجزاءَ لا بُدَّ له مِن تَكليفٍ، وهو الابتلاءُ المذكورُ في الآياتِ، والتَّكليفُ لا بُدَّ له مِن عِلمٍ؛ ولذا دَلَّ بعضُ الآياتِ على أنَّ حِكمةَ الخَلقِ للمَخلوقاتِ هي العِلمُ بالخالِقِ، ودَلَّ بَعضُها على أنَّها الابتِلاءُ، ودَلَّ بَعضُها على أنَّها الجزاءُ، وكُلُّ ذلك حَقٌّ لا اختِلافَ فيه، وبَعضُه مُرَتَّبٌ على بَعضٍ(١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ سُؤالٌ: أنَّ المَطالِبَ لا تَنحَصِرُ فيما ذَكَرَه تعالى؛ فإنَّ السَّيِّدَ قد يَشتري العَبدَ لا لطلَبِ عَمَلٍ منه، ولا لطَلَبِ رِزقٍ، ولا للتَّعظيمِ، بل يَشتريه للتِّجارةِ!

الجوابُ: أنَّ عُمومَ قَولِه تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ يتناوَلُ ذلك؛ فإنَّ مَن اشترى عبدًا لِيَتَّجِرَ فيه فقد طلَب منه رزقًا(٢).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ دليلٌ على أنَّ الرِّزقَ أعمُّ مِن الأكلِ(٣).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ أنَّ «الرَّزَّاقَ» مِن أسماءِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأتتِ «الرَّزَّاقُ» بصيغةِ المبالغةِ؛ لكَثرةِ رِزقِه، وكَثرةِ مَن يَرزُقُه عزَّ وجلَّ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]، فما أكثَرَ الَّذين يَرزُقُهم اللهُ! ثمَّ المرزوقُ مِن عبادِ اللهِ رِزقُهُ كثيرٌ أيضًا؛ لو أحصَيتَ ما يَرزُقُك اللهُ عزَّ وجلَّ ما استطعتَ أنْ تحصِيَ له عَدَدًا(٤)!

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((شرح الكافية الشافية)) لابن عثيمين (٣/ ١٩٧).

١٤- أسماءُ الرَّبِّ تبارك وتعالى دالَّةٌ على صفاتِ كمالِه، فهي أسماءٌ، وهي أوصافٌ، وبذلك كانت حُسنَى؛ لأنَّها لو لم تَدُلَّ على مَعانٍ وأوصافٍ لم يَجُزْ أنْ يُخبَرَ عنها بمَصادرِها، ويُوصَفَ بها، لكِنَّ اللهَ أَخبرَ عن نفْسِه بمَصادرِها، وأَثبتَها لنفْسِه، وأَثبتَها له رَسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾؛ فعُلِمَ أنَّ القَويَّ مِن أسمائِه، ومعناه: الموصوفُ بالقُوَّةِ[(١)].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ لم يَقُل: القَويُّ، بل قال: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾؛ لأنَّ المقصودَ تقريرُ ما تقدَّمَ مِن عَدَمِ إرادةِ الرِّزقِ وعَدَمِ الاستِعانةِ بالغَيرِ، وقُيِّد بـ ﴿ٱلْمَتِينُ﴾؛ لأنَّ ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ لا يدُلُّ إلَّا على أنَّ له قُوَّةً ما؛ فزاد في الوَصفِ المتانةَ -وهو الَّذي له ثباتٌ لا يتزلزَلُ[(٢)]. وأيضًا فمِن خصائِصِ «ذو» أن تُضافَ إلى أمرٍ مُهِمٍّ؛ فعُلِمَ أنَّ القُوَّةَ هنا قُوَّةٌ خَلِيَّةٌ مِنَ النَّقائِصِ[(٣)].

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا﴾ وَجهُ مُناسَبةِ الذُّنُوبِ أنَّ العَذابَ مُنصَبٌّ عليهم كما يُصَبُّ الذُّنُوبُ؛ قال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٨]، والذُّنُوبُ كذلك؛ فكأنَّه قال: نَصُبُّ فَوقَ رُؤوسِهم ذَنوبًا مِنَ العَذابِ كذَنُوبٍ صُبَّ فوقَ رُؤوسِ أولئك.

ووَجهٌ آخَرُ: وهو أنَّ العَرَبَ يَستَقُونَ مِنَ الآبارِ على النَّوْبةِ ذَنوبًا فذَنوبًا، وذلك وَقتَ عَيشِهم الطَّيِّبِ، فكأنَّه تعالى قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مِنَ الدُّنيا وطَيِّباتِها ﴿ذَنُوبًا﴾ إذا مَلؤوه، ولا يكونُ لهم في الآخِرةِ مِن نَصيبٍ، كما كان عليه حالُ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩).

أصحابِهم؛ استَقَوا ذَنوبًا وتَرَكوها، وعلى هذا فالذَّنُوبُ ليس بعَذابٍ ولا هَلاكٍ، وإنَّما هو رَغَدُ العَيشِ[(١)].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ سمَّى اللهُ تعالى السَّابِقِينَ بأزمانٍ بعيدةٍ أصحابًا لهؤلاء؛ وذلك لاتِّفاقِهم في التَّكذيبِ، ورَمْيِ الرُّسُلِ بما لا يَستَحِقُّونَ، فهم أصحابٌ في الواقِعِ وإنْ تباعَدَتِ الأزمانُ والأماكِنُ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ [الذَّاريات: ٥٢] الآيةَ، الَّتي هي ناشئةٌ عن قَولِه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذَّاريات: ٥٠، ٥١]، عطْفَ الغرَضِ على الغرَضِ لوُجودِ المُناسَبةِ؛ فبَعْدَ أنْ نظَّرَ حالَهم بحالِ الأُمَمِ الَّتي صمَّمَت على التَّكذيبِ مِن قبْلِهم؛ أعقَبَه بذِكرِ شَنيعِ حالِهم مِن الانحرافِ عمَّا خُلِقوا مِن أجْلِه وغُرِزَ فيهم؛ فقولُه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بالمشرِكين الَّذين انحَرَفوا عن الفِطرةِ الَّتي خُلِقوا عليها، فخالَفوا سُنَّتَها اتِّباعًا لتَضليلِ المُضِلِّين[(٣)].

وقيل: هو استئنافٌ مُؤكِّدٌ للأمرِ، مُقرِّرٌ لِمَضمونِ تَعليلِه؛ فإنَّ كَونَ خَلْقِهم مُغيًّا بعِبادتِه تعالَى ممَّا يَدعُوه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى تَذكيرِهم، ويُوجِبُ عليهم التَّذكُّرَ والاتِّعاظَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤، ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٤).

- والحصْرُ المُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قصْرُ عِلَّةِ خلْقِ اللهِ الإنسَ والجنَّ على إرادتِه أنْ يَعبُدوه، قيل: إنَّه قصْرٌ إضافيٌّ، وإنَّه مِن قَبيلِ قصْرِ الموصوفِ على الصِّفةِ، وإنَّه قصْرُ قلْبٍ باعتبارِ مَفعولِ ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾، أي: إلَّا ليَعْبُدوني وَحْدي، أي: لا ليُشرِكوا غَيري في العِبادةِ، فهو رَدٌّ للإشراكِ، وليس هو قصْرًا حَقيقيًّا[١]؛ فإنَّا وإنْ لم نَطَّلِعْ على مَقاديرِ حِكَمِ اللهِ تعالى مِن خلْقِ الخلائقِ، لكنَّا نَعلَمُ أنَّ الحِكمةَ مِن خلْقِهم ليست مُجرَّدَ أنْ يَعبُدوه؛ لأنَّ حِكَمَ اللهِ تعالى مِن أفعالِه كَثيرةٌ لا نُحِيطُ بها، وذِكرُ بعضِها -كما هنا- لا يَقْتضي عَدَمَ وُجودِ حِكمةٍ أُخرى[٢].

- قيل: المقصودُ مِن هذا الإخبارِ هو الإنسُ، وإنَّما ذُكِرَ الجنُّ إدماجًا[٣]؛ فما ذكَرَ اللهُ الجنَّ هنا إلَّا لتَنبيهِ المشركينَ بأنَّ الجنَّ غيرُ خارجينَ عن العُبوديَّةِ للهِ تَعالى[٤].

- وتَقديمُ الجنِّ في الذِّكرِ؛ للاهتِمام بهذا الخبرِ الغريبِ عندَ المشرِكين الَّذين كانوا يَعبُدون الجنَّ؛ ليَعلَموا أنَّ الجنَّ عُبَّادٌ للهِ تعالى[٥]. أو لعلَّ تقديمَ خلْقِ الجَنِّ في الذِّكرِ؛ لتَقدُّمِه على خَلْقِ الإنسِ في الوُجودِ[٦].

وقيل: لأنَّ الكُفرَ في الجِنِّ أكثَرُ، والكافِرُ منهم أكثَرُ مِن المؤمِنِ. وقيل: الجِنُّ يتناوَلُ الملائِكةَ؛ لأنَّ الجِنَّ أصلُه مِنَ الاستِتارِ، وهم مُستَترونَ عن الخَلقِ، وعلى

(١) يُنظر ما تقدَّم في تعريفِ القصرِ وأنواعِه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦، ٢٧).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥، ٢٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٤).

هذا فتَقديمُ الجِنِّ؛ لدُخولِ الملائكةِ فيهم، وكَونِهم أكثَرَ عِبادةً وأخلَصَها. وقيل غيرُ ذلك[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ تَقريرٌ لمَعنى ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾، بإبطالِ بَعضِ العِلَلِ والغاياتِ الَّتي يَقصِدُها الصَّانِعون شيئًا يَصنَعونَه أو يَتَّخِذونَه؛ فإنَّ المعروفَ في العُرْفِ أنَّ مَن يَتَّخِذُ شيئًا إنَّما يتَّخِذُه لنفْعِ نفْسِه، وليست الجُملةُ لإفادةِ الجانبِ المقصورِ دونَه بصِيغةِ القصْرِ؛ لأنَّ صِيغةَ القصْرِ لا تَحتاجُ إلى ذِكرِ الضِّدِّ، ولا يَحسُنُ ذِكرُ الضِّدِّ في الكلامِ البليغِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ الاحتِياجِ إليهم؛ لأنَّ أشدَّ الحاجاتِ في العُرْفِ حاجةُ النَّاسِ إلى الطَّعامِ واللِّباسِ والسَّكنِ، وإنَّما تَحصُلُ بالرِّزقِ، وهو المالُ؛ فلذلك ابتُدِئَ به، ثمَّ عُطِفَ عليه الإطعامُ، أي: إعطاءُ الطَّعامِ؛ لأنَّه أشدُّ ما يَحتاجُ إليه البشَرُ، وقد لا يجِدُه صاحبُ المالِ إذا قحَطَ الناسُ، فيَحتاجُ إلى مَن يُسلِفُه الطَّعامَ أو يُطعِمُه إيَّاه، وفي هذا تَعريضٌ بأهْلِ الشِّركِ؛ إذ يُهْدون إلى الأصنامِ الأموالَ والطَّعامَ تَتلقَّاه منهم سَدَنةُ الأصنامِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ فيه تَعريضٌ بأصنامِهم؛ فإنَّهم كانوا يَعمَلون معها ما يَنفَعُها، ويُحضِرون لها الأكلَ، فرُبَّما أكلَتْها الكِلابُ ثمَّ بالَتْ على الأصنامِ، ثمَّ لا يَصُدُّهم ذلك[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨١، ٤٨٢).

- وفائدةُ تَكرارِ لَفظِ ﴿مَآ أُرِيدُ﴾ إفادةُ حُكْمٍ زائدٍ على ما قبْلَه؛ إذ المعنى: ما أُرِيدُ منهم أنْ يُطعِموا أنفُسَهم، وما أُرِيدُ منهم أنْ يُطعِموا عَبيدي -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وإنَّما أضافَ تعالى الإطعامَ إلى نفْسِه؛ لأنَّ الخلْقَ عِيالُه وعَبيدُه، ومَن أطعَمَ عِيالَ غيرِه فكأنَّه أطعَمَه، ويُؤيِّدُه خبَرُ: ((إنَّ اللهَ تعالى يقولُ يومَ القيامةِ: يا ابنَ آدَمَ، استطْعَمْتُك فلمْ تُطعِمْني))[1]، أي: استطعَمَك عَبْدي فلمْ تُطعِمْه[2]. وقيل: لأنَّ السَّيِّدَ قد يَطلُبُ مِنَ العَبدِ الكَسْبَ له -وهو طَلَبُ الرِّزقِ منه-، وقد يكونُ للسَّيِّدِ مالٌ وافِرٌ يَستَغْني عن الكَسبِ، لكِنَّه يَطلُبُ منه قَضاءَ حوائِجِه بما له مِن المالِ، وإحضارَ الطَّعامِ بيْنَ يَدَيه مِن مالِه، فالسَّيِّدُ قال: لا أريدُ ذلك ولا هذا[3].

- وفائِدةُ تَخصيصِه الإطعامَ بالذِّكرِ -مع أنَّ المقصودَ عَدَمُ طَلَبِ فِعلٍ منهم غيرِ التَّعظيمِ-، هو أنه لَمَّا عَمَّم في المَطلَبِ الأوَّلِ اكتفى بقَولِه: ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾؛ فإنَّه يُفيدُ العُمومَ، وأشار إلى التَّعميمِ، فذكَرَ الإطعامَ؛ وذلك لأنَّ أدنَى دَرَجاتِ الأفعالِ أن يَستعِينَ السَّيِّدُ بعَبدِه أو جاريتِه في تهيئةِ أمرِ الطَّعامِ، ونَفْيُ الأدنَى يَستَتبِعُه نَفيُ الأعلَى بطَريقِ الأَوْلى؛ فصار كأنَّه تعالى قال: ما أُرِيدُ منهم مِن عَينٍ ولا عَمَلٍ[4].

- وتقديمُ طَلَبِ الرِّزقِ على طَلَبِ الإطعامِ مِن بابِ الارتقاءِ، كقَولِ القائِلِ: لا أطلُبُ منك الإعانةَ ولا ممَّن هو أقوى، ولا يَعكِسُ. ويقولُ: فُلانٌ يُكرِمُه الأمراءُ بل السَّلاطينُ، ولا يَعكِسُ؛ فقال هاهنا: لا أطلُبُ منكم رِزقًا ولا ما

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٩) مطوَّلًا مِن حديثِ أبي هريرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هو دون ذلك، وهو تقديمُ طَعام بيْنَ يَدَي السَّيِّدِ؛ فإنَّ ذلك أمرٌ كثيرُ الطَّلَبِ مِنَ العبادِ، وإن كان الكَسبُ لا يُطلَبُ منهم[١].

- وحُذِفَت ياءُ المُتكلِّم مِن ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ و﴿يُطۡعِمُونِ﴾ للتَّخفيفِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ تَعليلٌ لِجُملتَيْ ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾[٣] [الذَّاريات: ٥٧].

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ إخراجٌ للكلامِ على خِلافِ مُقْتضى الظاهِرِ؛ لأنَّ مُقتضاهُ: إنِّي أنا الرَّزَّاقُ، فعُدِلَ عن الإضمارِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ؛ لتَكونَ هذه الجُملةُ مُستقِلَّةً بالدَّلالةِ؛ لأنَّها سُيِّرَتْ مَسيرَ الكلامِ الجامعِ والأمثالِ[٤].

- وكَلمةُ (الرَّزَّاق) أبلَغُ مِن كَلمةِ (الرَّازق)؛ لأنَّ (الرَّزَّاق) صِيغةُ مُبالَغةٍ تدُلُّ على كَثرةِ الرِّزقِ، وعلى كثرةِ المرزوقِ، فرِزْقُ اللهِ تعالى كثيرٌ باعتبارِ كَثرةِ المرزوقينَ، فكلُّ دابَّةٍ في الأرضِ على اللهِ رِزقُها؛ مِن إنسانٍ وحيوانٍ، ومِن طائرٍ وزاحِفٍ، ومِن صَغيرٍ وكبيرٍ، ولا يُمكِنُ أنْ نُحصِيَ أنواعَ المخلوقاتِ على الأرضِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ قصْرٌ؛ لوُجودِ ضَميرِ الفصْلِ، أي: لا رزَّاقَ، ولا ذا قُوَّةٍ، ولا مَتينَ إلَّا اللهُ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ[٦]، أي: دونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٨).

(٦) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

الأصنامِ الَّتي يَعبُدونها، فالقصْرُ قصْرُ إفرادٍ[١] بتَنزيلِ المشرِكين في إشراكِهم أصنامَهم باللهِ مَنزِلةَ مَن يَدَّعِي أنَّ الأصنامَ شُركاءُ للهِ في صِفاتِه الَّتي منها: الإرزاقُ، والقوَّةُ، والشِّدَّةُ، فأبطَلَ ذلك بهذا القصْرِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٦] باعتبارِ أنَّ المقصودَ مِن سِياقِه إبطالُ عِبادتِهم غيرَ اللهِ، أي: فإذا لم يُفرِدْني المُشرِكون بالعِبادةِ، فإنَّ لهم ذَنوبًا مِثلَ ذَنوبِ أصحابِهم، وهو يُلمِحُ إلى ما تَقدَّمَ مِن ذِكرِ ما عُوقِبَتْ به الأُمَمُ السَّالفةُ مِن قولِه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الذَّاريات: ٣٢- ٤٦]، والمعنى: فإذ ماثَلَهم الَّذين ظَلَموا فإنَّ لهم نَصيبًا عَظيمًا مِن العذابِ مِثلَ نَصيبِ أولئك[٣].

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ. ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثلاثةِ أقسام: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ الشَّرِكةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقدُ اشتِراكَ اللهِ والأصنامِ في الأُلوهيَّةِ. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ إثباتَ الحُكمِ لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نَمرودُ، الَّذي اعتَقد أنَّه هو المحيي المميتُ دون اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْران، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩، ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٠).

- والكلامُ تَمثيلٌ لهَيئةِ تَساوي حَظِّ الَّذين ظَلَموا مِن العرَبِ بحُظوظِ الَّذين ظَلَموا مِن الأُمَمِ السَّالفةِ بهَيئةِ الَّذين يَسْتَقُون مِن قَليبٍ واحدٍ؛ إذ يَتساوونَ في أنصبائِهم مِن الماءِ، وهو مِن تَشبيهِ المَعقولِ بالمحسوسِ، وأُطلِقَ على الأُمَمِ الماضيةِ اسمُ وصْفِ أصحابِ الَّذين ظَلَموا باعتبارِ الهيئةِ المُشبَّهِ بها؛ إذ هي هيئةُ جماعاتِ الوِرْدِ يكونونَ مُتصاحِبينَ، وهذا التَّمثيلُ قابِلٌ للتَّوزيعِ؛ بأنْ يُشَبَّهَ المشرِكونَ بجماعةٍ ورَدَت على الماءِ، وتُشبَّهَ الأُمَمُ الماضيةُ بجَماعةٍ سبَقَتْهم للماءِ، ويُشبَّهَ نَصيبُ كلِّ جَماعةٍ بالدَّلْوِ الَّتي يأْخُذونَها مِن الماءِ[1].

- وفي الآيةِ مِن اللَّطائفِ تَمثيلُ ما سيُصِيبُ الَّذين كَفَروا بالذَّنوبِ، والذَّنوبُ يُناسِبُ القَليبَ، وقد كان مَثواهم يومَ بدْرٍ قَليبَ بدْرٍ الَّذي رُمِيَت فيه أشلاءُ سادتِهم[2].

- وهذا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمقصودُ: أنْ يَسمَعَه المشرِكون، فهو تَعريضٌ. وبهذا الاعتِبارِ أُكِّدَ الخبَرُ ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا﴾ بحرْفِ (إنَّ)؛ لأنَّهم كانوا مُكذِّبينَ بالوعيدِ، ولذلك فُرِّعَ على التأْكيدِ: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾؛ لأنَّهم كانوا يَستعجِلون بالعذابِ استِهزاءً، وإشعارًا بأنَّه وعْدٌ مَكذوبٌ، فهُم في الواقعِ يَستعجِلون اللهَ تعالى بوَعيدِه[3].

- وفي قولِه: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ عُدِّيَ الاستِعجالُ إلى ضَميرِ الجلالةِ، وهم إنَّما استَعْجلوه النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لإظهارِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠، ٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣١).

وسلَّم مُخبِرٌ عن اللهِ تعالى؛ تَوبيخًا لهم، وإنذارًا بالوعيدِ[١].

- وأيضًا هذا النَّهيُ ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ؛ إظهارًا لغضَبِ اللهِ عليهم[٢].

- وحُذِفَت ياءُ المُتكلِّمِ في ﴿يَسْتَعْجِلُونِ﴾ للتَّخفيفِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ فُرِّعَ على وَعيدِهم إنذارٌ آخَرُ بالويلِ، أو إنشاءُ زَجرٍ[٤].

- وتَنكيرُ (ويل) للتَّعظيمِ[٥].

- والكلامُ يَحتمِلُ الإخبارَ بحُصولِ وَيلٍ، أي: عذابٌ وسُوءُ حالٍ لهم يومَ أُوعِدوا به، ويَحتمِلُ إنشاءَ الزَّجْرِ والتَّعجيبِ مِن سُوءِ حالِهم في يومٍ أُوعِدوه[٦].

- و(الذين كَفَروا) في قولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ همُ (الذين ظَلَموا) في قولِه: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا﴾ [الذاريات: ٥٩]؛ وعُدِلَ عن ضَميرِهم إلى الاسمِ الظَّاهرِ -حيثُ لم يقُلْ: (فإنَّ لهم)-؛ لِما فيه مِن تأْكيدِ الاسمِ السَّابقِ تأْكيدًا بالمُرادِفِ، مع ما في صِفةِ الكفْرِ مِن الإيماءِ إلى أنَّهم لم يَشكُروا نِعمةَ خالِقِهم، وتَسجيلًا عليهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ مِنَ الكُفرِ، وإشعارًا بعِلَّةِ الحُكمِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢).

- وإضافةُ (يوم) إلى ضَميرِ الَّذين كَفَروا في قولِه: ﴿مِن يَوۡمِهِمُ﴾؛ للدَّلالةِ على اختِصاصِه بهم، أي: هو مُعيَّنٌ لجَزائِهم[١].

- وأوَّلُ هذه السُّورةِ وآخِرُها مُتناسِبانِ؛ حيث قال تعالى في أوَّلِها: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥]، وقال تعالى في آخِرِها: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾[٢]، وفيه ردُّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٣]؛ ففيه إيذانٌ بانتِهاءِ السُّورةِ، وذلك مِن بَراعةِ المَقطَعِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٩).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣).

تَفْسيرُ
سُورَةِ الطُّورِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الطُّورِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الطُّورِ)[١]، وممَّا يدُلُّ على ذلك:

١- عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قرَأَ في المَغرِبِ بـ «الطُّورِ»))[٢].

٢- عن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((شَكَوتُ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنِّي أشتكي، فقال: طوفي مِن وراءِ النَّاسِ وأنتِ راكِبةٌ، فطُفتُ ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُصَلِّي إلى جَنبِ البَيتِ يَقرَأُ بـ «الطُّورِ وكتابٍ مَسطورٍ»))[٣].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الطُّورِ مَكِّيَّةٌ[٤]، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٥].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

١- تقريرُ البَعثِ، وبَيانُ سُوءِ عاقِبةِ المكَذِّبينَ، وحُسنِ عاقِبةِ المُؤمِنينَ[٦].

---

(١) سُمِّيَتْ سورةَ الطُّورِ؛ لِمُفتَتَحِها بقَولِه تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾[الطور: ١]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤١).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٧٦٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٦٣).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٨٥٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٨).

(٥) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبيُّ، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٧).

(٦) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ =

٢- الرَّدُّ على مُفتَرَياتِ المُشرِكينَ وأكاذيبِهم[١].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- قَسَمُ اللهِ تعالى ببَعضِ مخلوقاتِه الدَّالَّةِ على كَمالِ قُدرتِه، وبَديعِ صُنعِه، وبكتابِه؛ على أنَّ البَعثَ حَقٌّ، وعلى أنَّ الجزاءَ حَقٌّ وكائِنٌ يومَ القيامةِ.

٢- الحديثُ عن سُوءِ عاقِبةِ المكَذِّبينَ، وما أعَدَّه اللهُ للمُتَّقينَ، وصِفةِ نَعيمِهم، وثنائِهم على اللهِ بما مَنَّ عليهم.

٣- الرَّدُّ على شُبَهِ المُشرِكينَ وأكاذيبِهم.

٤- الإخبارُ بأنَّ الظَّالِمينَ يُعَذَّبونَ في الدُّنيا قبْلَ عذابِهم في الآخِرةِ.

٥- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووَعْدُه بالتَّأييدِ، وأمْرُه بالصَّبرِ وأن يُسَبِّحَ بحَمدِ اللهِ.

= ٣٦، ٦٧).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٣٥).

الآيات (١-٨)

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلطُّورِ﴾: أي: الجَبَلِ الَّذي كَلَّم اللهُ عليه موسى عليه السَّلامُ. وقيل: هو اسمٌ لكُلِّ جَبَلٍ، وأصلُ (طور): يدُلُّ على الامتِدادِ في شَيءٍ مِن مكانٍ أو زمانٍ[١].

﴿مَّسۡطُورٖ﴾: أي: مَكتوبٍ مَحفوظٍ، وأصْلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ الشَّيءِ[٢].

﴿رَقّٖ﴾: الرَّقُّ: الَّذي يُكتَبُ فيه، قيل: هو الوَرقُ، وقيل: هو ما كان مِن الجِلدِ، وقيل: كلُّ ما يُكتَبُ فيه مِن صحيفةٍ وغيرِها. والرِّقَّةُ متى كانت في جِسمٍ تُضادُّها الصَّفاقةُ، نحو: ثوبٌ رَقيقٌ وصفيقٌ، ومتى كانت في نفْسٍ تُضادُّها الجَفوةُ والقسوةُ[٣].

﴿مَّنشُورٖ﴾: أي: مَبْسوطٍ، ونَشَرَ الثَّوبَ، والصَّحيفةَ، والسَّحابَ، والنِّعْمَةَ، والحَديثَ: بَسَطَهَا، وأصْلُ (نشر): يدُلُّ على فتْحِ شَيءٍ وتَشعُّبِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٢).

﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾: أي: المَملوءِ؛ يُقالُ: سَجَرَ الإناءَ: إذا مَلأَه. وقيل: المُوقَدُ المُحمَى، بمَنزلةِ التَّنُّورِ المسجورِ، وأصلُ (سجر): يدُلُّ على المَلْءِ والإيقادِ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يُقسِمُ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ الكَريمةِ بجَبَلِ طُورِ سَيناءَ الَّذي كلَّم اللهُ عليه موسى عليه السَّلامُ، وبالكِتابِ المُسطَّرِ المَكتوبِ الكائِنِ في وَرَقٍ مَبسوطٍ غيرِ مَطْويٍّ، وبالبَيتِ المَعمورِ بالملائِكةِ في السَّماءِ، وبالسَّماءِ الَّتي رفَع اللهُ بُنيانَها وجعَلَها سَقفًا للأرضِ، وبالبَحرِ المسجورِ؛ على أنَّ عذابَه تعالى واقِعٌ ونازِلٌ بمَن يَستحِقُّه، ما لَه مِن دافعٍ يَدفَعُه عن أهلِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلطُّورِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بجَبَلِ طُورِ سَيناءَ الَّذي كلَّم اللهُ عليه موسى عليه السَّلامُ[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات-الحديد)) (ص: ١٧٣).

قال الواحدي: (قال عامَّةُ المفَسِّرينَ: أقسَمَ اللهُ بالجَبَلِ الَّذي كلَّم اللهُ عليه موسى بنَ عِمْرانَ عليه السَّلامُ). ((البسيط)) (٢٠/ ٤٧٥).

وقال ابنُ القَيِّم: (الطُّورُ: هو الجَبَلُ الَّذي كَلَّم اللهُ عليه نَبيَّه وكليمَه موسى بنَ عِمرانَ، عندَ جُمهورِ المفَسِّرينَ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٦٤).

وقال ابنُ كثير: (الطُّورُ هو: الجَبَلُ الَّذي يكون فيه أشجارٌ، مِثلُ الَّذي كَلَّم اللهُ عليه موسى، وأرسَل منه عيسى، وما لم يكُنْ فيه شَجَرٌ لا يُسَمَّى طُورًا، إنَّما يُقالُ له: جَبَلٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٥).

كما قال الله تعالى عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [مريم: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ [القصص: ٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢].

﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بكِتابٍ مُسطَّرٍ مَكتوبٍ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٧).

قال ابنُ عطية: (الكِتابُ المسطورُ: معناه بإجماعٍ: المكتوبُ أَسطارًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٥).

وقال البِقاعي: (﴿مَّسۡطُورٖ﴾ أي: مُتَّفِقِ الكتابةِ بسُطورٍ مَصفوفةٍ مِن حُروفٍ مُرَتَّبةٍ جامعةٍ لِكَلِماتٍ مُتَّفِقةٍ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣).

وذكر ابنُ الجوزي في المرادِ بالكتابِ المسطورِ أربعةَ أقوالٍ: (أحَدُها: أنَّه اللَّوحُ المحفوظُ. قاله أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثَّاني: كُتُبُ أعمالِ بني آدمَ. قاله مُقاتِلٌ والزَّجَّاجُ.

والثَّالثُ: التَّوراةُ. والرَّابعُ: القُرآنُ. حكاهما الماوَرْديُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٥).

ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ ما أُثبِتَ على بني آدَمَ مِن أعمالِهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، ونَسَبه إلى أكثرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٥، ٤٧٦).

وممَّن رجَّح أنَّ المرادَ: القرآنُ الكريمُ: ابنُ القَيِّم، واختاره الشَّوكاني، واستظهَره الشنقيطي. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٤).

قال ابنُ القَيِّم: (اختُلِفَ في هذا الكتابِ [أي: الكِتابِ المسطورِ]؛ فقيل: هو اللَّوحُ المحفوظُ، =

﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ ﴾.

أي: والكِتابِ المَسطورِ في وَرَقٍ مَبسوطٍ غيرِ مَطْويٍّ(١).

= وهذا غَلَطٌ؛ فإنَّه ليس برَقٍّ. وقيل: هو الكِتابُ الَّذي تضَمَّن أعمالَ بني آدمَ، وقال مقاتِلٌ: تُخرَجُ إليهم أعمالُهم يومَ القيامةِ في رَقٍّ مَنشورٍ، وهذا وإنْ كان أقوى وأصَحَّ مِنَ القَولِ الأوَّلِ واختاره جماعةٌ مِنَ المفَسِّرين، ومنهم مَن لم يَذكُرْ غَيرَه؛ فالظَّاهِرُ أنَّ المرادَ به الكتابُ المُنَزَّلُ مِن عندِ اللهِ، وأقسَمَ اللهُ به لعَظَمتِه وجلالتِه، وما تضَمَّنه مِن آياتِ رُبوبيَّتِه وأدِلَّةِ توحيدِه، وهدايةِ خَلْقِه. ثمَّ قيل: هو التَّوراةُ الَّتي أنزل اللهُ على موسى، وكأنَّ صاحِبَ هذا القَولِ رأى اقترانَ الكِتابِ بالطُّورِ، فقال: هو التَّوراةُ. ولكِنَّ التَّوراةَ إنَّما أُنزِلَت في ألواحٍ لا في رَقٍّ إلَّا أن يقالَ: هي في رَقٍّ في السَّماءِ، وأنزِلَت في ألواحٍ. وقيل: هو القرآنُ، ولعَلَّ هذا أرجَحُ الأقوالِ؛ لأنَّه سبحانه وَصَفَ القرآنَ بأنَّه في صُحُفٍ مُطهَّرةٍ، بأيدي سَفَرةٍ، كرامٍ بَرَرةٍ؛ فالصُّحُفُ هي الرَّقُّ، وكَونُه بأيدي سَفَرةٍ هو كَونُه مَنشورًا، وعلى هذا فيكونُ قد أقسَمَ بسَيِّدِ الجبالِ وسَيِّدِ الكُتُبِ، ويكونُ ذلك مُتضَمِّنًا للنُّبوَّتينِ المُعظَّمتينِ: نُبُوَّةِ موسى، ونبُوَّةِ محمَّدٍ، وكثيرًا ما يُقرَنُ بيْنَهما وبيْنَ محَلِّهما، كما في سورةِ التِّينِ والزَّيتونِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٦٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٣).

وممَّن رجَّح أنَّ المرادَ به التَّوراةُ خاصَّةً: النَّيسابوريُّ، والعُلَيمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٩٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧).

قال ابنُ عاشور: (كان اليَهودُ يَكتُبونَ التَّوراةَ في رُقوقٍ مُلصَقٍ بَعضُها ببعضٍ، أو مخيطٍ بَعضُها ببَعضٍ، فتَصيرُ قِطعةً واحِدةً، ويَطوونَها طَيًّا أُسطوانيًّا؛ لِتُحفَظَ، فإذا أرادوا قراءتَها نَشَروا مَطويَّها، وليس المرادُ بـ«كتابٍ مَسطورٍ» القُرآنَ؛ لأنَّ القُرآنَ لم يكُنْ يَومَئذٍ مكتوبًا سُطورًا، ولا هو مكتوبًا في رَقٍّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به: اللَّوحُ المحفوظُ: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٥).

وذهب السعديُّ إلى احتمالِ أنْ يكونَ المرادُ به اللَّوحَ المحفوظَ، وإلى احتِمالِ أن يكونَ المرادُ به القُرآنَ الكريمَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣).

وقال أبو حيَّان بعدَ أن ذكر الخلافَ والأقوالَ: (ولا يَنْبَغي أنْ يُحْمَلَ شيءٌ منها على التَّعيينِ، إنَّما تُورَدُ على الاحتِمالِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) =

= (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧، ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالرَّقِّ: الورَقُ: أبو عُبَيدَة، وابنُ جرير، والسعديُّ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣).
قال ابن عطيَّة: (الرَّقُّ: الورَقُ المُعدَّةُ للكتبِ، وهي مُرقَّقةٌ؛ فلذلك سُمِّيتْ رَقًّا، وقد غلَب الاستِعمالُ على هذا الَّذي هو مِن جُلودِ الحيَوانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٦).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ: أديمُ (جِلدُ) الصُّحفِ الَّذي يُكتَبُ فيه الشَّيءُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والسمعاني، والبغوي، والرَّسْعَني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٩(، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٣٦). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧).
وقال السمرقنديُّ والزمخشريُّ: المرادُ: الصَّحيفةُ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٨).
وقال الشنقيطي: (الرَّقُّ بفتحِ الرَّاءِ: كلُّ ما يُكتَبُ فيه مِن صحيفةٍ وغيرِها). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٥١).
وقال ابن عثيمين: (الكتابُ المسطورُ في الرَّقِّ اختلَف فيه العلماءُ، وهذا الخلافُ يَنبني على كلمةِ ﴿رَقٍّ﴾: هل الرَّقُّ كلُّ ما يُكتَبُ فيه مِن جِلدٍ وورَقٍ وعَظمٍ وحجَرٍ وغيرِ ذلك؟ أو هو خاصٌّ بما يُكتَبُ فيه مِن جُلودٍ ونحوِها؟ إن قُلْنا بالأوَّلِ صار المرادُ بالكِتابِ عدَّةَ أشياءَ؛ منها اللَّوحُ المحفوظُ، ومنها الكُتبُ الَّتي بأيدي الملائكةِ، ومنها القرآنُ الكريمُ، ومنها التَّوراةُ، فيَشملُ عدَّةَ كُتبٍ، وإذا قُلْنا: إنَّ الرَّقَّ هو الورَقُ وشِبهُه ممَّا يُكتَبُ فيه عادةً، فاللَّوحُ المحفوظُ لا يدخُلُ في هذا، وإنَّما المرادُ به إمَّا التَّوراةُ، وإمَّا القرآنُ؛ فالَّذين قالوا: إنَّه التَّوراةُ رجَّحوا قولَهم بأنَّه قُرِن بالطُّورِ، والطُّورُ هو الَّذي كلَّم منه موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فكان الكتابُ المسطورُ هو التَّوراةَ الَّتي جاء بها موسى، ومَن قال: إنَّ المرادَ به القرآنُ الكريمُ رجَّح ذلك بأنَّ اللهَ ذكر الطُّورَ الَّذي أُوحيَ منه إلى موسى، وذكَر الكتابَ الَّذي هو القرآنُ أوحيَ إلى محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيكونُ الله تبارك وتعالى ذكَرَ أشرَفَ الرِّسالاتِ في بني إسرائيلَ إيماءً بذِكرِ الطُّورِ، وذكَرَ أشرفَ الرِّسالاتِ الَّتي بُعِث بها من بني إسماعيلَ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٣).
وممَّن قال بأنَّ معنى ﴿مَنشُورٍ﴾: مبسوطٌ غيرُ مَطْويٍّ: الواحديُّ، وابنُ عطية، والقرطبي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٦)، =

﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤﴾.

أي: وأُقسِمُ بالبيتِ المعمورِ بالملائِكةِ في السَّماءِ[1].

= ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١).

قال البِقاعي: (أي: مُهيَّأٌ للقِراءةِ والاتِّعاظِ بما فيه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣).

وقال الرازي: (ما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿فِي رَقٖ مَّنشُورٖ﴾ وعَظَمةُ الكتابِ بلَفظِه ومعناه، لا بخَطِّه ووَرقِه؟

نقولُ: هو إشارةٌ إلى الوُضوحِ؛ وذلك لأنَّ الكِتابَ المَطْويَّ لا يُعلَمُ ما فيه، فقال: هو في رَقٍّ مَنشورٍ، وليس كالكُتُبِ المَطويَّةِ، وعلى هذا المرادُ اللَّوحُ المحفوظُ، فمعناه: هو منشورٌ لكم لا يَمنعُكُم أحدٌ مِن مُطالَعتِه، وإنْ قُلْنا بأنَّ المرادَ كتابُ أعمالِ كلِّ أحدٍ، فالتَّنكيرُ لعدَمِ المعرفةِ بعَينِه، و﴿فِي رَقٖ مَّنشُورٖ﴾ لبيانِ وصْفِه، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورٗا﴾ [الإسراء: ١٣]). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٩).

وقال ابن عثيمين: (وهذا يَصدُقُ تمامًا على القُرآنِ الكريمِ؛ فإنَّه -ولله الحَمدُ- بيْنَ يَدَي كُلِّ قارئٍ، حتَّى الصِّغارُ مِن المُسلِمينَ يَقرؤونَه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١).

قال السَّمْعاني: (القَولُ المعروفُ: أنَّه بيتٌ في السَّماءِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وعامَّةُ المفَسِّرينَ، وهو مرويٌّ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه أيضًا. واختلفوا في موضِعِه، فروى أنسٌ عن مالِكِ بنِ صَعصَعةَ، عن النَّبيِّ -في قِصَّةِ المعراجِ- أنَّه قال: «رُفِعَ لِيَ البَيتُ المعمورُ في السَّماءِ السَّابعةِ»). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦٧). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٧).

وقيل: البَيتُ المعمورُ: هو الكَعبةُ. ورجَّحه القاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨، ٣٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٧).

قال القاسمي: (﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾، أي: الَّذي يَعمُرُ بكثرةِ غاشيتِه، وهو الكعبةُ المعمورةُ بالحُجَّاجِ والعُمَّارِ، والطَّائِفينَ والعاكِفين والمجاوِرينَ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٩). ويُنظر: ((تفسير =

عن مالكِ بنِ صَعْصَعةَ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال في حديثِ الإسراءِ: ((... ثمَّ رُفِعَ ليَ البَيتُ المعمورُ، فقُلتُ: يا جِبريلُ، ما هذا؟ قال: هذا البَيتُ المعمورُ يَدخُلُه كُلَّ يَومٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ، إذا خَرَجوا منه لم يَعودوا فيه آخِرَ ما عليهم!))[1].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال في حديثِ الإسراءِ: ((... ففُتِحَ لنا فإذا أنا بإبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُسنِدًا ظَهْرَه إلى البَيتِ المَعمورِ، وإذا هو يَدخُلُه كُلَّ يومٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ لا يعودونَ إليه!))[2].

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥﴾.

أي: وأُقسِمُ بالسَّماءِ الَّتي رفَع اللهُ بُنْيانَها، وجعَلَها سَقفًا للأرضِ مِن جميعِ

= ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٢).

وقال ابنُ عاشور: (﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾: عن الحَسَنِ: أنَّه الكعبةُ، وهذا الأنسَبُ بعَطفِه على الطُّورِ، ووَصفُه بالمعمورِ لأنَّه لا يخلو مِن طائفٍ به، وعُمرانُ الكعبةِ هو عُمرانُها بالطَّائفينَ... وثمَّةَ أخبارٌ كثيرةٌ مُتفاوتةٌ في أنَّ في السَّماءِ مَوضِعًا يُقالُ له: البيتُ المعمورُ، لكِنَّ الرِّواياتِ في كَونِه المرادَ مِن هذه الآيةِ ليست صريحةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨، ٣٩).

وقال ابنُ القَيِّم: (المشهورُ أنَّه الضُّراحُ الَّذي في السَّماءِ الَّذي رُفِعَ للنَّبيِّ لَيلةَ الإسراءِ، يَدخُلُه كُلَّ يوم سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ، ثمَّ لا يَعودون إليه آخِرَ ما عليهم، وهو بحِيالِ البيتِ المعمورِ في الأرضِ. وقيل: هو البيتُ الحرامُ، ولا ريبَ أنَّ كُلًّا منهما معمورٌ؛ فهذا معمورٌ بالملائكةِ وعبادتِهم، وهذا معمورٌ بالطَّائفينَ والقائِمينَ والرُّكَّعِ والسُّجودِ، وعلى كِلا القولَينِ فكُلٌّ منهما سَيِّدُ البُيوتِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٦٦).

وممَّن ذهب إلى حملِ الآيةِ على كِلا القولينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٤، ١٧٥).

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٢٠٧)، ومسلمٌ (١٦٤) واللَّفظُ له.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٢).

جَوانِبِها[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧].

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾.

أي: وأُقسِمُ بالبَحرِ المسجورِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ«السَّقفِ المرفوعِ»: السَّماءُ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن القيم، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

ونسَب ابنُ الجوزي هذا القولَ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٦). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٦).

وقال ابنُ كثير: (قال الرَّبيعُ بنُ أنسٍ: هو العَرشُ، يعني: أنَّه سَقفٌ لجميعِ المخلوقاتِ، وله اتِّجاهٌ، وهو يُرادُ مع غيرِه كما قاله الجُمهورُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ أيضًا: ابنُ عبَّاسٍ، وزاد أنَّه سقفُ الجنَّةِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٧-٥٦٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٦-٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٩، ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٦، ١٧٧).

اختلف المفسِّرون في موضِعِ هذا البَحرِ؛ فقيل: هو بحرٌ تحت عَرشِ الرَّحمنِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥١). =

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وعبدُ الله بنُ عَمرٍو، وأبو صالحٍ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٩).

وقيل: هو بحرُ الدُّنيا، الموجودُ في الأرضِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، واستظهَره الماوَرْديُّ، وذهب إليه ابنُ جُزَي، والألوسي، وابنُ عثيمين، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ وابنُ كثيرٍ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٩).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّه بحرٌ مخصوصٌ، وهو البحرُ الأحمرُ. قال: (ومُناسَبةُ القَسَم به أنَّه به أُهلِكَ فِرعَونُ وقَومُه حينَ دخَلَه موسى وبنو إسرائيلَ، فلَحِقَ بهم فِرعَونُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩).

واختَلفوا في معنى ﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾؛ فقيل: المرادُ به: المملوءُ ماءً. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٩).

قال ابنُ جريرٍ: (وأَولى الأقوالِ في ذلك عندي بالصَّوابِ قَولُ مَن قال: معناه: والبَحرِ المملوءِ المجموعِ ماؤُه بَعضُه في بعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٩).

وقيل: المسجورُ بمعنى: المُوقَدِ، مِن السَّجرِ: وهو إيقادُ النَّارِ في التَّنُّورِ. واختاره: الخازنُ، والشوكانيُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٤، ١٢٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ، وعبدُ الله بنُ عُبَيدِ بنِ عُمَيرٍ، والضَّحَّاكُ، وشِمْرُ ابنُ عطيَّةَ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٤).

وذكر ابنُ الجوزي الأقوالَ في معنى المسجورِ، ومنها: أنَّه اليابِسُ الذي قد ذهَب ماؤُه ونَضَب، قاله أبو العاليةِ. وأنَّه قد رُوي عن الحَسَنِ أنَّه قال: تُسجَرُ -يعني البِحارَ- حتى يذهَبَ ماؤُها، فلا يبقَى فيها قَطرةٌ. ثمَّ قال: (وقَولُ هذين يرجِعُ إلى معنى قولِ مجاهدٍ [أي: أنَّه المُوقَدُ]). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٦). =

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾.

أي: أُقسِمُ بتلك الأشياءِ على أنَّ عذابَ ربِّك -يا محمَّدُ- لَواقِعٌ ونازِلٌ حَتمًا بمَن يَستحِقُّه(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ٥، ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧].

= وقيل: هو بمعنى المحبوسِ، فلولا أنَّ البَحرَ يُمسَكُ لَفاضَ على الأرضِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٩).

وظاهِرُ اختيارِ البِقاعي والسعدي الجَمعُ بيْنَ معنى الامتلاءِ بالماءِ، وحَبْسِه عن الفَيَضانِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣، ٨١٤).

وقال ابن عثيمين: («مسجور» أي: ممنوعٌ مِن أن يَفيضَ على الأرضِ فيُغرِقَ أهْلَها. وقيل: المرادُ بالمسجورِ الَّذي سيُسجَرُ، أي: يُوقَدُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]. أي: أُوقِدَتْ. وهذا يكونُ يومَ القيامةِ، ... والمرادُ به المَعنيانِ جميعًا؛ لأنَّه لا مُنافاةَ بيْنَ هذا وهذا، فكِلاهما مِن آياتِ الله عزَّ وجلَّ، أي: سواءٌ قُلْنا: المسجورُ الممنوعُ مِن أن يَفيضَ على الأرضِ، أو المسجورُ الَّذي سيُسجَرُ -أي: يُوقَدُ-، فكلُّ ذلك مِن آياتِ الله). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٦).

وقال أيضًا: (هل معنى: «البحرِ المسجورِ» الَّذي سيُسجَّرُ ويكونُ نارًا يومَ القيامةِ، أو المسجور: المملوء، أو المسجور: الممنوع عن الفيَضانِ على الأرضِ... الآية صالحةٌ للجميعِ، أي: تُحمَلُ على الجميعِ، ولا مانِعَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٨٧).

وقيل: المسجورُ: المُختَلِطُ عَذبُه بمِلْحِه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٧، ١٧٨).

﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ ﴾.

أي: ما لِذلك العَذابِ مِن دافعٍ يَدفَعُه عن أهلِه، فيُنقِذُهم منه[١]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ١، ٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ في وَصفِ الكتابِ بأنَّه مَسطورٌ تحقيقٌ لكَونِه مَكتوبًا مَفروغًا منه[٢]، وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ به القرآنُ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ في وَصفِ الكتابِ بأنَّه مَنشورٌ إيذانٌ بالاعتِناءِ به، وأنَّه بأيدي الملائكةِ مَنشورٌ غيرُ مَهجورٍ[٣]، وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ به القرآنُ.

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ لَمَّا كان سُبحانَه عَظيمَ الإكرامِ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أضاف العَذابَ إلى صِفةِ الإحسانِ والتَّربيةِ الخاصَّةِ به[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠، ٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٨).

قال ابنُ القيِّم: (لَمَّا كان الَّذي يقعُ قد يمكِنُ دَفْعُه، أخبَرَ سُبحانَه أنَّه لا دافِعَ له، وهذا يتناوَلُ أمْرَينِ؛ أحَدُهما: أنَّه لا دافِعَ لوُقوعِه، والثَّاني: أنَّه لا دافِعَ له إذا وَقَع). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦).

وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۞ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ القسَمُ بهذِه الأمورِ؛ للتَّأكيدِ وتَحقيقِ الوَعيدِ، وتَخصيصُ هذهِ الأُمورِ بالإقسامِ بها؛ لأنَّها أُمورٌ عِظامٌ تُنبِئُ عنْ عِظَمِ قُدْرةِ اللهِ تعالَى، وكَمالِ عِلْمِهِ وحِكمتِه الدَّالَّةِ عَلى إحاطتِه تعالَى بتَفاصيلِ أعمالِ العِبادِ وضبْطِها، الشَّاهدةِ بصِدْقِ أخْبارِه الَّتي مِن جُمْلتِها الجُملةُ المُقسَمُ عَليها[1].

وقيل: مُناسَبةُ الأُمورِ المُقسَمِ بها للمُقسَمِ عليه: أنَّ هذه الأشياءَ المُقسَمَ بها مِن شُؤونِ بَعثةِ مُوسى عليه السَّلامُ إلى فِرعونَ -بِناءً على أنَّ الكِتابَ هو التَّوراةُ، والبحرَ هو الأحمرُ-، وكان هَلاكُ فِرعونَ ومَن معَه مِن جَرَّاءِ تَكذيبِهم مُوسى عليه السَّلامُ[2].

- والطُّورُ: الجبَلُ باللُّغةِ السُّريانيَّةِ، وغُلِّبَ عَلَمًا على طُورِ سَيناءَ الَّذي ناجَى فيه مُوسى عليه السَّلامُ، وأُنزِلَ عليه فيه الألواحُ المُشتمِلةُ على أُصولِ شَريعةِ التَّوراةِ؛ فالقسَمُ به باعتِبارِ شَرَفِه بنُزولِ كَلامِ اللهِ فيه، ونُزولِ الألواحِ على مُوسى، وفي ذِكرِ الطُّورِ إشارةٌ إلى تلك الألواحِ؛ لأنَّها اشتُهِرَتْ بذلك الجَبَلِ، والقسَمُ بالطُّورِ تَوطئةٌ للقسَمِ بالتَّوراةِ الَّتي أُنزِلَ أوَّلُها على مُوسى في جبَلِ الطُّورِ[3]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وتَنكيرُ (كِتابٍ) و(رَقٍّ)؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، والإشْعارِ بأنَّهما لَيسَا مِن المُتعارَفِ فيما بيْنَ النَّاسِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٦، ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٣٠).

- وإجراءُ الوصْفينِ ﴿مَّسۡطُورٖ ۝ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ على الكِتابِ؛ لتَمْييزِه بأنَّه كِتابٌ مُشرَّفٌ، مُرادٌ بَقاؤُه، مأْمورٌ بقِراءتِه؛ إذ المَسطورُ هو المكتوبُ، أي: أقسَمَ بحالِ نَشْرِه لقِراءتِه، وهي أشرَفُ أحوالِه؛ لأنَّها حالةُ حُصولِ الاهتِداءِ به للقارِئِ والسَّامعِ[١].

- ومُناسَبةُ القَسَمِ بالتَّوراةِ -وذلِك على القَولِ بأنَّها المقصودةُ بلفظِ (كِتابٍ)- أنَّها الكِتابُ الموجودُ الَّذي فيه ذِكْرُ الجَزاءِ وإبطالِ الشِّرْكِ، وللإشارةِ إلى أنَّ القرآنَ الَّذي أنْكَروا أنَّه مِن عِندِ اللهِ ليس بِدْعًا؛ فقد نَزَلَت قبْلَه التَّوراةُ؛ وذلك لأنَّ المُقسَمَ عليه وُقوعُ العَذابِ بهم، وإنَّما هو جَزاءٌ على تَكذيبِهم القُرآنَ ومَن جاء به؛ بدَليلِ قَولِه بعْدَ ذِكْرِ العذابِ: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾[٢] [الطور: ١١، ١٢].

- والبيتُ المَعمورُ هنا هو الكَعْبةُ -وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ-، ووَصْفُه بالمَعمورِ؛ لأنَّه لا يَخلو مِن طائفٍ به، وعُمرانُ الكَعبةِ هو عُمرانُها بالطَّائفينَ[٣].

- ومُناسَبةُ القسَمِ بالبَيتِ المَعمورِ الَّذي هو الكعبةُ: سَبْقُ القَسَمِ بكِتابِ التَّوراةِ، فعُقِّبَ ذلك بالقسَمِ بمَواطنِ نُزولِ القُرآنِ؛ فإنَّ ما نزَلَ به مِن القُرآنِ أُنزِلَ بمكَّةَ وما حَوْلَها، مِثْلُ جَبلِ حِراءَ، وكان نُزولُه شَريعةً ناسِخةً لشَريعةِ التَّوراةِ، على أنَّ الوحْيَ كان يَنزِلُ حوْلَ الكَعبةِ؛ فيكونُ تَوسيطُ القسَمِ بالكعْبةِ في أثناءِ ما أُقسِمَ به مِن شُؤونِ شَريعةِ مُوسى عليه السَّلامُ إدماجًا[٤]. وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨، ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩).
وتقدَّم تعريفُ الإدماجِ (ص: ٣٥).

على قَولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ السَّقْفُ المرفوعُ هو السَّماءُ، ومُناسَبةُ القسَمِ بها أنَّها مَصدرُ الوحْيِ كلِّه؛ التَّوراةِ والقُرآنِ، وتَسميةُ السَّماءِ على طَريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ(١).

- والمَسجورُ: مَشتقٌّ مِن السَّجْرِ، وهو المِلْءُ والإمدادُ؛ فهو صِفةٌ كاشفةٌ(٢)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩).

والتَّشبيهُ: هو إلحاقُ شيءٍ بذِي وصْفٍ في وصْفِه. وقيل: هو إثباتُ حُكمٍ للمُشَبَّهِ مِن أحكامِ المُشبَّهِ به. وينقسمُ التَّشبيهُ عِدَّةَ تَقسيماتٍ باعتِباراتٍ عِدَّة، ومنه: التَّشبيهُ البليغُ: وهو ما كانتْ أداةُ التَّشبيهِ فيه مَحذوفةً. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(٢) الصِّفةُ الكاشفةُ: هي الَّتي تُبيِّنُ الواقعَ، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ؛ لأنَّ الصِّفاتِ منها صِفةٌ مقيِّدةٌ تُخرِجُ ما سِواه، ومنها صفةٌ كاشِفةٌ تبيِّنُ حقيقةَ أمرِه، فهي خبرٌ عن المَوصوفِ عندَ التَّحقيقِ، تبيِّنُ ماهيَّةَ الشَّيءِ بأن تكونَ وصفًا لازمًا مختصًّا به. والصِّفةُ إذا كان لها مفهومٌ فهي مقيِّدةٌ، وإن لم يكن لها مفهومٌ فهي كاشِفةٌ، أي: مبيِّنةٌ للحقيقةِ، مثالُ ذلك: قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فقولُه: ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، ولا مفهومَ مخالفةٍ له، فلا يصحُّ لأحدٍ أن يقولَ: أمَّا مَن عبَدَ معه إلهًا آخَرَ له بُرهانٌ به فلا مانعَ مِن ذلك! لاستِحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، فقولُه: ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وصفٌ مطابقٌ للواقعِ؛ لأنَّهم يَدْعون معه غيرَه بلا بُرهانٍ، فذِكْرُ الوصفِ لموافقتِه الواقِعَ، لا لإخراجِ المفهومِ عن حُكمِ المنطوقِ، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، وقولُه: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٩٩، ٣١٤)، ((دراسات أصولية في القرآن الكريم)) للحفناوي (ص: ٢٢).

قُصِدَ منها التَّذكيرُ بحالِ خلْقِ اللهِ إيَّاهُ مَملوءًا ماءً دونَ أنْ تَملأَه أَوديةٌ أو سُيولٌ -وذلك علَى قولٍ-. أو هي للاحترازِ عن إرادةِ الوادي؛ إذ الوادي يَنقُصُ، فلا يَبْقى على مَلْئِه، وذلك دالٌّ على عِظَمِ القُدْرةِ، أو أنَّ وصْفَه بالمَسجورِ؛ للإيماءِ إلى الحالةِ الَّتي كان بها هَلاكُ فِرعَونَ بعْدَ أنْ فرَقَ اللهُ البحرَ لِمُوسى وبني إسرائيلَ، ثمَّ أسجَرَهُ، أي: أفاضَهُ على فِرعونَ ومَلَئِه[١]. وذلك على أنَّ المرادَ به البحرُ الأحمرُ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ تَحقيقُ وُقوعِ عَذابِ اللهِ يومَ القِيامةِ إثباتٌ للبَعثِ بطَريقِ الكِنايةِ القريبةِ، وتَهديدٌ للمُشرِكين بطَريقِ الكِنايةِ التَّعريضيَّةِ[٢].

- وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ جوابُ القَسَمِ[٣].

- وفي إضافةِ العذابِ لقولِه: ﴿رَبِّكَ﴾ لَطيفةٌ؛ إذ هو المالِكُ والنَّاظِرُ في مَصلَحةِ العبْدِ؛ فبالإضافةِ إلى الرَّبِّ وإضافتِه لِكافِ الخِطابِ أمانٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ العذابَ لَواقِعٌ هو بمَن كذَّبَه[٤]، وأيضًا أضاف الصِّفةَ إلى ضَميرِه؛ إيذانًا بأنَّه سُبحانَه يُري النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩، ٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٠).

وتَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازم) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريضٍ، وتلويحٍ، ورمْزٍ، وإيماءٍ. والتَّعريضُ اصطلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ، ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ، نحو قولِك للمؤذِي: ((المُسلِمُ مَن سَلِمَ المُسلمونَ مِن لِسانِه ويَدِه)) تَعريضًا بنَفي صِفةِ الإسلامِ عن المؤذِي. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٤٠٣، ٤١١)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٨).

أُمَّتِه ما يَسُرُّه[١].

- وقولُه: ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى الشِّدَّةِ، وهو أدَلُّ عليها مِن (لَكائنٌ)، كأنَّه مُهيَّأٌ في مَكانٍ مُرتفِعٍ، فيَقَعُ على مَن حلَّ به[٢].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿لَوَٰقِعٌ﴾، وتَقديرُه: على المكذِّبين، أو بالمكذِّبين، كما دلَّ عليه قولُه بعْدُ: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١]، أي: المكذِّبين بك، بقَرينةِ إضافةِ (ربّ) إلى ضَميرِ المُخاطَبِ المُشعِرِ بأنَّه مُعذِّبُهم؛ لأنَّه ربُّك وهم كذَّبوك، فقد كذَّبوا رِسالةَ الرَّبِّ[٣].

- وقد تَضمَّنَ قولُه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ إثباتَ البَعثِ بعْدَ كَونِ الكلامِ وَعيدًا لهم على إنكارِ البعثِ، وإنكارِهم أنْ يَكونوا مُعذَّبينَ[٤].

- وفي قولِه: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ زِيدَتْ (مِن) في النَّفْيِ؛ لتَحقيقِ عُمومِ النَّفْيِ وشُمولِه، أي: نفْيِ جِنسِ الدَّافعِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١).

الآيات (٩-١٦)

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَمُورُ﴾: أي: تَدورُ، وتتحَرَّكُ، وتَضطَرِبُ بما فيها، وأصلُ (مور): يدُلُّ على تَرَدُّدٍ[١].

﴿خَوْضٍ﴾: أي: تَكذيبٍ، وتَخبُّطٍ في الأباطيلِ، والخَوضُ: الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، ويُطلَقُ على الدُّخولِ في الأمرِ بالقَولِ، وأكثَرُ ما وردَ في القُرآنِ وردَ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، وأصلُ (خوض): يدُلُّ على توسُّطِ شَيءٍ ودُخولٍ[٢].

﴿يُدَعُّونَ﴾: أي: يُدفَعونَ بشِدَّةٍ، والدَّعُّ في اللُّغةِ: الدَّفعُ في قَسوةٍ وعُنفٍ، وأصلُ (دعع): يدُلُّ على دَفعٍ[٣].

﴿ٱصْلَوْهَا﴾: أي: ادخُلوها، وذُوقوا حَرَّها، وأصلُ الصَّليِ: الإيقادُ بالنَّارِ، وأصلُ (صلى) هنا: النَّارُ وما أشبَهَها مِن الحمَّى[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٠)، =

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ عذابَه يَقَعُ يومَ تتحَرَّكُ السَّماءُ وتَضطَرِبُ، وتَذهَبُ الجِبالُ وتَزولُ عن أماكِنِها، فتَصيرُ هَباءً، وذلك كائِنٌ يومَ القيامةِ؛ فعَذابٌ وهَلاكٌ في ذلك اليَومِ للمُكَذِّبينَ الَّذين هم مُنغَمِسونَ في الباطِلِ، غافِلونَ عن الآخِرةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حالَهم يومَ القيامةِ، فيقولُ: يَومَ يُدفَعُونَ إلى نارِ جَهنَّم دَفعًا شَديدًا، ويُقالُ لهم: هذه هي النَّارُ الَّتي كُنتُم في الدُّنيا تُكذِّبونَ بها، أهذا الَّذي تَرَونَه مِن عذابِها الآنَ سِحرٌ لا حقيقةَ له، أم أنتم لا تُبصِرونَه بأعيُنِكم؟! ادخُلوا النَّارَ وذُوقُوا حَرَّها، فسَواءٌ عليكم الصَّبرُ والجَزَعُ؛ لن يَنفَعَكم شَيءٌ، إنَّما تُعذَّبونَ في النَّارِ بسَبَبِ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالَى أنَّ العذابَ واقعٌ؛ بَيَّن متَى يَقَعُ العَذابُ، فقال[1]:

﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ٩ ﴾.

أي: يومَ[2] تتحَرَّكُ السَّماءُ وتَضطَرِبُ، وتَذهَبُ وتَجيءُ، وذلك كائِنٌ يومَ

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١١٩).

(٢) قال السمين: (يجوزُ أن يكونَ العاملُ فيه «واقع»، أي: يقَعُ في ذلك اليومِ؛ وعلى هذا فتكونُ الجملةُ المَنفيَّةُ مُعترِضةً بيْنَ العامِلِ ومَعمولِه. ويجوزُ أن يكونَ العامِلُ فيه ﴿دَافِعٖ﴾ [الطور: ٨]، قاله الحوفيُّ وأبو البقاءِ، ومنَعَه مكِّيٌّ). ((الدر المصون)) (١٠/ ٦٤، ٦٥). ويُنظر: ((التبيان =

القِيامةِ[(١)]!

﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾.

أي: وتَذهَبُ الجِبالُ وتَزولُ عن أماكِنِها، فتَصيرُ هَباءً[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ [الكهف: ٤٧].

= في إعراب القرآن)) لأبي البقاء (٢/ ١١٨٣)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٤).

ممَّن اختار أنَّ ﴿ يَوْمَ ﴾ متعَلِّقٌ بقَولِه تعالى في الآيةِ السَّابِقةِ: ﴿لَوَٰقِعٌ ﴾ [الطور: ٧]، أي: إنَّ عذابَ رَبِّك لَواقِعٌ يومَ القيامةِ حينَ تمورُ السَّماءُ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكِّيُّ بن أبي طالب، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦١)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٤).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ العامِلُ مَحذوفًا، تقديرُه: اذكُرْ. يُنظر: ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٤١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٠، ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤).

قال ابنُ القيِّم: (المَورُ: قد فُسِّر بالحَرَكةِ، وفُسِّر بالدَّوَرانِ، وفُسِّرَ بالتَّمَوُّجِ والاضطِرابِ، والتَّحقيقُ: أنَّه حركةٌ في تمَوُّجٍ وتكَفُّؤٍ، وذَهابٍ ومَجيءٍ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٧٠).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قَلَّ أن يُعبَّرَ عن لفظٍ واحدٍ بلَفظٍ واحدٍ يؤدِّي جميعَ معناه، بل يكونُ فيه تقريبٌ لِمعناه، وهذا مِن أسبابِ إعجازِ القُرآنِ، فإذا قال القائلُ: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ إنَّ المورَ هو الحَرَكةُ، كان تقريبًا؛ إذ المَورُ حَرَكةٌ خَفيفةٌ سريعةٌ). ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩، ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤).

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وقال جَلَّ شأنُه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣].

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَقَّق العذابَ وبَيَّن يومَه؛ بَيَّن أهلَه بقَولِه مُسَبَّبًا عن ذلك[(١)]:

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

أي: فعَذابٌ وهَلاكٌ شَديدٌ في ذلك اليَومِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[(٢)]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢).

ذكَرَ ابنُ جريرٍ أنَّ الوَيلَ: هو الوادي الَّذي يَسيلُ مِن قَيحٍ وصَديدٍ في جَهنَّمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٤).

وتقدَّم (ص: ١٨٨) قولُ الراغبِ أنَّ مَن قال: وَيْلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ وَيْلًا في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد: مَن قال اللهُ تعالى ذلك فيه فقد استحَقَّ مَقَرًّا من النَّارِ، وثَبَت ذلك له.

وقال السعدي: (الوَيلُ: كَلِمةٌ جامِعةٌ لكُلِّ عُقوبةٍ وحُزنٍ، وعَذابٍ وخَوفٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤).

وممَّن اختار أنَّ الوَيلَ كَلِمةٌ تُقالُ للهالِكِ: الزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، والقرطبيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤).

قال ابن عثيمين: (وَيلٌ: كَلِمةُ وَعيدٍ وتهديدٍ، وإن كان قد رُوِيَ أنَّها وادٍ في جهنَّمَ، لكِنَّ الصَّوابَ أنَّها كَلِمةُ تهديدٍ ووعيدٍ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٨١). =

﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ١٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّكذيبُ قد يكونُ في محَلِّه؛ بَيَّن أنَّ المرادَ تكذيبُ ما محَلُّه الصِّدقُ، فقال[1]:

﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ١٢ ﴾.

أي: الَّذين هم في الدُّنيا مُنغَمِسونَ في الباطِلِ، فيَتخَبَّطونَ فيه بأقوالِهم وأفعالِهم، غافِلونَ عن الآخِرةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

﴿ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا صَوَّر تكذيبَهم بأشنَعِ صُورةٍ؛ بَيَّن وَيْلَهم ببَيانِ ظَرْفِه وما يُفعَلُ فيه[3]، فقال:

= وقال الشنقيطي: (الأظهرُ أنَّ لفظةَ «وَيْلٌ» كلمةُ عَذابٍ وهلاكٍ، وأنَّها مَصدرٌ لا فِعلَ له مِن لَفظِه، وأنَّ المسَوِّغَ للابتِداءِ بها -مع أنَّها نَكِرةٌ- كَونُها في مَعرِضِ الدُّعاءِ عليهم بالهَلاكِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢).

قال ابن عطيَّةَ: (الخَوضُ: التَّخَبُّطُ في الأباطيلِ، يُشَبَّهُ بخَوضِ الماءِ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ [الأنعام: ٦٨]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠).

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾.

أي: يَومَ يُدفَعُونَ إلى نارِ جَهنَّم دَفعًا شَديدًا عَنيفًا[1]!

﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

أي: ويُقالُ لهم: هذه هي النَّارُ الَّتي كُنتُم في الدُّنيا تُكذِّبونَ بها، ولا تُصدِّقونَ الرُّسُلَ الَّذين أخبَروكم بها[2].

كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ٢٠].

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

أي: أهذا الَّذي تَرَونَه الآنَ سِحرٌ لا حقيقةَ له، أم أنتم لا تُبصِرونَه بأعيُنِكم[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٢).

قال السَّمينُ: (قولُه: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾: يجوزُ أَنْ يكونَ ظرفًا لـ «يُقالُ» المقدَّرةِ مع قَولِه: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ﴾، أي: يُقالُ لهم هذه النَّارُ يومَ يُدَعُّونَ. ويجوزُ أَنْ يكونَ بدَلًا مِنْ قولِه ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ﴾ أو مِنْ ﴿يَوْمَئِذٍ ﴾ قَبْلَه). ((الدر المصون)) (١٠/ ٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

قال البقاعي: (أي: هل تَستطيعونَ أن تقولوا: إنَّكم لا تُبصِرونَ المُخبَرَ عنه، كما كنتُم تقولونَ في الخبَرِ كَذِبًا وفُجورًا؟!). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١١).

﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦ ﴾.

﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾.

أي: ادخُلوا النَّارَ وذُوقُوا حَرَّها، فسَواءٌ عليكم الصَّبرُ والجَزَعُ؛ فإنَّكم لن تَنتَفِعوا في جميعِ الأحوالِ بالصَّبرِ ولا بالجَزَعِ(١)!

قال تعالى حاكيًا عن أهلِ النَّارِ قولَهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾.

أي: إنَّما تُعذَّبونَ في النَّارِ بسَبَبِ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ؛ فالأمرُ جارٍ عليكم بالعَدلِ، ولم يَظلِمْكم اللهُ شَيئًا(٢)!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادًا ۞ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۞ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ۞ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدًا وَلَا شَرَابًا ۞ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۞ جَزَآءً وِفَاقًا ۞ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابًا ۞ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۞ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبًا ۞ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ: ٢١ - ٣٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرًا ۞ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرًا ﴾ حِكمةٌ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤).

الإيذانِ والإعلامِ بأنْ لا عَودَ إلى الدُّنيا؛ وذلك لأنَّ الأرضَ والجِبالَ والسَّماءَ والنُّجومَ كُلَّها لعِمارةِ الدُّنيا، والانتِفاعِ لبني آدَمَ بها، فإنْ لم يتَّفِقْ لهم عَودٌ لم يَبْقَ فيها نَفعٌ؛ فأعدَمَها اللهُ تعالى(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ إيذانٌ بأمانِ أهلِ الإيمانِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ٧] لم يُبَيِّنْ مُوقِعَه بمَنْ، فلَمَّا قال: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ عُلِمَ المخصوصُ به، وهو المكَذِّبُ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أنَّه اجتمَع عليهم أمْرانِ مُوجِبانِ للباطِلِ: الخَوضُ، واللَّعِبُ، فهم بحيثُ لا يكادُ يقَعُ لهم قَولٌ ولا فِعلٌ في مَوضِعِه؛ فلا يُؤسَّسُ على بيانٍ أو حُجَّةٍ(٣).

٤- قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ لَمَّا كانت علومُهم التي هي خوضٌ بالباطِلِ، وأعمالُهم- مُستَلزِمةً لدَفعِ الحَقِّ بعُنفٍ وقَهرٍ، أُدخِلوا جَهنَّمَ وهم يُدَعُّونَ إليها دَعًّا، أي: يُدفَعُ في أقفِيَتِهم وأكتافِهم دَفعًا بعدَ دَفعٍ(٤)!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أنَّ هؤلاءِ المكذِّبينَ الكافِرينَ يُحضَرونَ إلى العَذابِ قَسْرًا وقَهرًا، يعني: يُدفَعونَ بعُنفٍ وشِدَّةٍ. والعياذُ باللهِ(٥)!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ بيانُ عَدَمِ الخَلاصِ، وانتِفاءِ المَناصِ؛ فإنَّ مَن لا يَصبِرُ فإنَّه يَدفَعُ الشَّيءَ عن نَفْسِه؛ إمَّا بأن يَدفَعَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الروم)) (ص: ٨٥).

المُعَذِّبَ فيَمنَعَه، وإمَّا بأن يُغضِبَه فيَقتُلَه ويُريحَه، ولا شَيءَ مِن ذلك يُفيدُ في عذابِ الآخِرةِ؛ فإنَّ مَن لا يَغلِبُ المُعَذِّبَ فيَدفَعُه، ولا يتخَلَّصُ بالإعدامِ؛ فإنَّه لا يُقضَى عليه فيَموتَ، فإذَنِ الصَّبرُ كعَدَمِه؛ لأنَّ مَن يَصبِرُ يدومُ فيه، ومَن لا يَصبِرُ يَدومُ فيه[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ بيانُ ما يَتفاوَتُ به عَذابُ الآخِرةِ عن عَذابِ الدُّنيا؛ فإنَّ المُعَذَّبَ في الدُّنيا إنْ صَبَر رُبَّما انتَفَع بالصَّبرِ؛ إمَّا بالجَزاءِ في الآخِرةِ، وإمَّا بالحَمدِ في الدُّنيا؛ فيُقالُ له: ما أشجَعَه! وما أقوى قَلْبَه! وإنْ جَزِعَ يُذَمُّ فيُقالُ: يَجزَعُ كالصِّبيانِ والنِّسوانِ! وأمَّا في الآخِرةِ فلا مَدْحَ ولا ثوابَ على الصَّبرِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۞ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ يَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ بقولِه: ﴿لَوَٰقِعٞ﴾ [الذاريات: ٦]، على أنَّه ظرْفٌ له، مُبيِّنٌ لكَيفيَّةِ الوُقوعِ، مُنبِئٌ عن كَمالِ هَولِه وفَظاعتِه؛ فيَكونَ قولُه: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١] تَفريعًا على الجُملةِ كلِّها، ويَكونَ العَذابُ عَذابَ الآخرةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الكلامُ قد تمَّ عندَ قولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ [الطور: ٧]؛ فيَكونَ ﴿يَوۡمَ﴾ مُتعلِّقًا بالكَونِ الَّذي بيْنَ المُبتدَأِ والخبَرِ في قولِه: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وقُدِّمَ الظَّرْفُ على عامِلِه للاهتِمامِ، فلمَّا قُدِّمَ الظَّرْفُ اكتسَبَ معْنى الشَّرطيَّةِ، وهو استِعمالٌ مُتَّبَعٌ في الظُّروفِ والمَجروراتِ الَّتي تُقدَّمُ على عَوامِلِها؛ فلذلك قُرِنَت الجُملةُ بعْدَه بالفاءِ على تَقديرِ: إنْ حلَّ ذلك اليَومُ فوَيلٌ للمكذِّبينَ، وقولُه: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ على هذا الوجْهِ أُريدَ به التَّأكيدُ للظَّرفِ، فحصَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَحقيقُ الخبَرِ بطَريقينِ: طَريقِ المُجازاةِ، وطَريقِ التَّأكيدِ في قولِه: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ الآيةَ، تَصريحًا بيَومِ البَعثِ بعْدَ أنْ أُشِيرَ إليه تَضمُّنًا بقولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾؛ فحصَلَ بذلك تأْكيدُه أيضًا[١].

- وتأْكيدُ فِعلَيْ ﴿تَمُورُ﴾ و(تَسيرُ) بمَصْدرَيْ ﴿مَوْرًا ﴾ و﴿سَيْرًا ﴾؛ لرفْعِ احتِمالِ المجازِ، أي: هو مَورٌ حَقيقيٌّ، وتَنقُّلٌ حَقيقيٌّ[٢]. أو للإيذانِ بغَرابتِهما وخُروجِهما عن الحُدودِ المَعهودةِ، أي: مَورًا عَجيبًا، وسَيرًا بَديعًا، لا يُدْرَكُ كُنْهُهما[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي: فويلٌ يومَئذٍ للَّذين يُكذِّبون الآنَ، وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾؛ لعِلْمِه مِن المَقامِ، أي: الَّذين يُكذِّبون بما جاءَهُم به الرَّسولُ مِن تَوحيدِ اللهِ والبَعثِ والجَزاءِ والقُرآنِ؛ فاسمُ الفاعلِ في زمَنِ الحالِ[٤].

- وحرْفُ (في) في قولِه: ﴿فِى خَوْضٍ ﴾ للظَّرفيَّةِ، أفادَ المُلابَسةَ الشَّديدةَ، كمُلابَسةِ الظَّرْفِ للمَظروفِ، أي: الَّذين تَمكَّنَ منهم الخَوضُ حتَّى كأنَّه أحاطَ بهم[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ الدَّعُّ هو الدَّفعُ العَنيفُ، وذلك إهانةٌ لهم، وغِلْظةٌ عليهم، أي: يومَ يُساقُون إلى نارِ جهنَّمَ سَوقًا بدَفْعٍ، وفيه تَمثيلُ حالِهم بأنَّهم خائِفون مُتقَهْقِرون، فتَدفَعُهم الملائكةُ المُوكَّلون بإزْجائِهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلى النَّارِ[١].

- وتأْكيدُ ﴿يُدَعُّونَ﴾ بـ﴿دَعًّا﴾؛ لِيُوصَلَ إلى إفادةِ تَعظيمِه بتَنْكيرِه[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ، وتَقديرُه: يُقالُ لهم، أو مَقولًا لهم[٣].

- والإشارةُ بـ﴿هَٰذِهِ﴾ -الَّذي هو للمُشارِ إليه القَريبِ المُؤنَّثِ- تُومِئُ إلى أنَّهم بَلَغوها وهمْ على شَفاها. والمَقصودُ بالإشارةِ التَّوطئةُ لِمَا سيَرِدُ بعْدَها مِن قولِه: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ إلى ﴿لَا تُبْصِرُونَ﴾[٤].

- والمَوصولُ وَصِلتُه في قولِه: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ لتَنبيهِ المُخاطَبينَ على فَسادِ رأْيِهم؛ إذ كذَّبوا بالحَشْرِ والعِقابِ؛ فرَأَوا ذلك عِيانًا[٥].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ فُرِّعَ على قولِه: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ تنبيهًا على ضَلالِهم في الدُّنيا؛ إذ كانوا حِينَ يَسمَعون الإنذارَ بيَومِ البَعثِ والجزاءِ، يَقولون: هذا سِحرٌ، وإذا عُرِضَ عليهم القرآنُ قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥]؛ فلِلمُناسَبةِ بيْنَ ما في صِلةِ المَوصولِ مِن مَعنى التَّوقيفِ على خَطَئِهم وبيْنَ التَّهكُّمِ عليهم بما كانوا يَقولونه، دخَلَت فاءُ التَّفريعِ، وهو مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

جُملةِ ما يُقالُ لهم، المَحكيِّ بالقولِ المقدَّرِ[١].

- قولُه: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ هذه الفاءُ تَقْتضي مَعطوفًا عليه، وهو مُقدَّرٌ دلَّ عليه مَضمونُ قولِه: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤]، فدخَلَت الهمزةُ بيْنَ المَعطوفينِ لمَزيدٍ مِن التَّقريعِ والتَّهكُّمِ؛ فإنَّه لَمَّا قِيل: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، عُقِّب بقولِه: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾؛ يعْني: هذا المِصداقُ أيضًا سِحرٌ؟! أي: كُنتم تَقولون للقُرآنِ الَّذي أنذَرَكم هذه النَّارَ: هذا سِحرٌ، فتَقولون: سِحرٌ هذا أيضًا! فالمُشارُ إليه بـ﴿هَٰذَآ﴾ النَّارُ، وذُكِّر لأنَّه في تأْويلِ المِصداقِ، أو الخبَرُ مُذكَّرٌ. وقُدِّم الخبَرُ؛ لإفادةِ الاختِصاصِ تَتْميمًا للتَّقريعِ. أو قُدِّم الخبَرُ؛ لأنَّه المَقصودُ بالإنكارِ والتَّوبيخِ[٢].

- و(أَمْ) في قولِه: ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ مُنقطِعةٌ، أي: بلْ أنتُم عُمْيٌ عن المُخبَرِ عنه، وهذا تَقريعٌ وتَهكُّمٌ. والاستِفهامُ الَّذي تَقْتضيهِ (أَمْ) بعْدَها مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والتَّهكُّمِ، والتَّقديرُ: بلْ أأنْتُم لا تُبصِرون. أو تكونُ (أمْ) مُعادِلةً؛ فالمعْنى: هلْ في المَرئيِّ شَكٌّ، أمْ هلْ في بصَرِكم خَلَلٌ؟ أي: لا واحدَ منهما ثابتٌ[٣].

- وأيضًا جِيءَ بالمسنَدِ إليه مُخبَرًا عنه بخَبرٍ فِعليٍّ مَنْفيٍّ ﴿لَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكْمِ؛ فلذلك لم يقلْ: (أمْ لا تُبصِرون)؛ لأنَّه لا يُفِيدُ تَقوِّيًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

ولا (أمْ لا تُبصِرون أنتُم)؛ لأنَّ مَجيءَ الضَّميرِ المُنفصِلِ بعْدَ الضَّميرِ المتَّصلِ يُفِيدُ تَقريرَ المُسنَدِ إليه المَحكومِ عليه، بخِلافِ تَقديمِ المُسنَدِ إليه؛ فإنَّه يُفِيدُ تأْكيدَ الحُكْمِ وتَقويتَه، وهو أشدُّ تَوكيدًا، وكلُّ ذلك في طَريقةِ التَّهكُّمِ(١).

٦- قولُه تعالَى: ﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ لَمَّا قِيلَ لهم: إنَّ هذه هي النَّارُ، وُقِفوا بعْدَ ذلك على الجِهتينِ اللَّتينِ يُمكِنُ دُخولُ الشَّكِّ في أنَّها النارُ؛ وهي: إمَّا أنْ يكونَ ثَمَّ سِحْرٌ يُلَبِّسُ ذاتَ المَرْئيِّ، وإمَّا أنْ يكونَ في نَظَرِ الناظِرِ اختِلالٌ، فأمَرَهم بصَلْيِها على جِهةِ التَّقريعِ، ثمَّ قِيلَ لهم على قَطْعِ رَجائِهم: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾، أي: ادْخُلوها على أيِّ وجْهٍ شِئتُم مِن الصَّبْرِ وعَدَمِه؛ فإنَّه لا مَحيصَ لكمْ عنها، فعَذابُكم حَتْمٌ، فسَواءٌ صَبْرُكم وجَزَعُكم، لا بُدَّ مِن جَزاءِ أعْمالِكم(٢).

- وقولُه: ﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ ﴾ استِئنافٌ بمَنزِلةِ النَّتيجةِ المُترقَّبةِ مِن التَّوبيخِ والتَّغليظِ السَّابقَينِ، أي: ادْخُلوها فاصْطَلوا بنارِها(٣).

- والأمْرُ في ﴿ ٱصۡلَوۡهَا ﴾ إمَّا مُكنًّى به عن الدُّخولِ؛ لأنَّ الدُّخولَ لها يَستلزِمُ الاحتِراقَ بنارِها، وإمَّا مُستعمَلٌ في التَّنكيلِ(٤).

- وفُرِّعَ على ﴿ ٱصۡلَوۡهَا ﴾ أمْرٌ للتَّسويةِ بيْنَ صَبْرِهم على حَرِّها وبيْن عدَمِ الصَّبْرِ، وهو الجزَعُ؛ لأنَّ كِلَيهما لا يُخفِّفانِ عنهم شيئًا مِن العَذابِ؛ فإنَّهم يَقولونَ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴾ [إبراهيم: ٢١]؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لأنَّ جُرْمَهم عظيمٌ لا مَطْمعَ في تَخفيفِ جَزائِه[١].

- وقولُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: سواءٌ عليكم الأمْرانِ: الصَّبْرُ وعَدَمُه، أو ذلك سَواءٌ عليكمْ. وهي جُملةٌ مُؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾؛ فلذلك فُصِلَت عنها، ولمْ تُعطَفْ عليها[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تَعليلٌ للاسْتِواءِ في جُملةِ ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾؛ وعليه فجُملتَا ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ مُعترِضتانِ بيْن جُملةِ ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ والجُملةِ الواقعةِ تَعليلًا لها[٣].

- وعُلِّلَ استواءُ الصَّبْرِ وعَدَمِه بقَولِه: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنَّ الصَّبْرَ إنَّما يكونُ له مَزيَّةٌ على الجَزَعِ لنَفْعِه في العاقِبةِ بأنْ يُجازَى عليه الصَّابرُ جَزاءَ الخَيرِ، فأمَّا الصَّبرُ على العذابِ الَّذي هو الجزاءُ ولا عاقبةَ له ولا مَنفعةَ، فلا مَزيَّةَ له على الجَزَعِ[٤].

- والحَصْرُ المُستفادُ مِن كَلمةِ (إنَّما) قصْرُ قلْبٍ[٥]، بتَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ ما لَقُوه مِن العذابِ ظُلْمٌ لم يَستوجِبوا مِثلَ ذلك؛ مِن شِدَّةِ ما ظهَرَ عليهم مِن الفزَعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧، ١٤٨).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

- وعُدِّيَ ﴿تُجْزَوْنَ﴾ إلى ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بدونِ الباءِ، خِلافًا لقولِه بعْدَه: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩]؛ لِيَشملَ القصْرُ مَفعولَ الفِعلِ المَقصورِ، أي: تُجْزَون مِثلَ عمَلِكم لا أكثَرَ منه، فيَنْتفي الظُّلمُ عن مِقدارِ الجَزاءِ كما انْتَفى الظُّلمُ عن أصْلِه، ولهذه الخُصوصيَّةِ لم يُعلَّقْ مَعمولُ الفِعلِ بالباءِ؛ إذ جُعِلَ بمَنزلةِ نفْسِ الفِعلِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

الآيات (١٧-٢١)

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَٰكِهِينَ﴾: أي: ناعِمينَ مُستَمتِعينَ، وأصلُ (فكه): يدُلُّ على طِيبٍ واستِطابةٍ[١].

﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾: أي: طَيِّبًا، مُستَساغًا، لا يُكَدِّرُه شَيءٌ، والهَنيءُ: الطَّيِّبُ المُساغُ الَّذي لا يُنغِّصُه شَيءٌ، وأصلُ (هنأ): يدُلُّ على إصابةِ خَيرٍ مِن غيرِ مَشقَّةٍ[٢].

﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾: الحَوراءُ: البَيضاءُ، أو: الشَّديدةُ بَياضِ العَينِ الشَّديدةُ سوادِها، والعِينُ: جَمعُ عَيناءَ، وهي: الواسِعةُ العَينَينِ مِنَ النِّساءِ[٣].

﴿أَلَتْنَٰهُم﴾: أي: نَقَصْناهم وظَلَمْناهم، وأصلُ (ألت): يدُلُّ على نَقصٍ[٤].

﴿رَهِينٌ﴾: أي: مُرتَهَنٌ بكَسبِه، مأخوذٌ بعَمَلِه؛ إمَّا خَلَّصَه وإمَّا أوبَقَه، ورَهينٌ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (٦/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥) و(٤/ ١٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٢) و (ص: ٥٩٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٧٥).

فَعيلٌ بمعنى مَفعولٍ؛ مِنَ الرَّهنِ: وهو الحَبسُ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مخبرًا عن حالِ المتَّقينَ السُّعداءِ بعدَ أن بيَّن حالَ الكافرينَ الأشقياءِ: إنَّ الَّذين اتَّقوُا اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه: في بَساتينَ ونَعيمٍ عَظيمٍ في الآخِرةِ، فَرِحينَ مَسرورينَ بما أعطاهم رَبُّهم في الجنَّةِ مِنَ النَّعيم، وقد نجَّاهم اللهُ مِن عذابِ النَّارِ، ويُقالُ لهؤلاء المُتَّقينَ: كُلُوا واشرَبوا مُتهَنِّئينَ بلا أذًى ولا نَكَدٍ ولا كَدَرٍ؛ بسَبَبِ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الصَّالحاتِ، مُتَّكِئينَ على سُرُرٍ مَصفوفةٍ، وزوَّجْناهم بنِساءٍ بِيضٍ، شَديدٍ سوادُ أعيُنِهنَّ وبَياضُها، عظيماتِ الأعيُنِ معَ حُسنِها واتِّساعِها.

ثمَّ يُخبِرُ الله تعالَى عن أنواعٍ أُخرَى مِن تكريمِه لعبادِه المؤمنينَ، وفضلِه وكَرَمِه عليهم، وإحسانِه إليهم، فيقولُ: والَّذين آمَنوا ألحَقْنا بهم أولادَهم الَّذين اتَّبَعوهم على الإيمانِ، فجعَلْناهم معهم في دَرَجاتِهم في الجنَّةِ وإنْ لم يَعمَلوا بعَمَلِ آبائِهم، وما نَقَصْنا الآباءَ مِن أُجورِ أعمالِهم الصَّالِحةِ شَيئًا حينَ جعَلْنا ذُرِّيَّتَهم معهم في الجنَّةِ.

ثمَّ يُخبِرُ الله تعالى عن مقامِ عدلِه بعدَ أن أخبَرَ عن مقامِ فضلِه وكرمِه، فيقولُ: كُلُّ إنسانٍ مُرتَهَنٌ بعَمَلِه، لا يُحمَلُ عليه ذنْبُ غَيرِه مِنَ النَّاسِ، سواءٌ كان أبًا أو ابنًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى عُقوبةَ المُكَذِّبينَ؛ ذكَرَ نَعيمَ المُتَّقينَ؛ لِيَجمَعَ بيْنَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، فتكونَ القُلوبُ بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ(١).

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذين اتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، بامتِثالِ ما أمَرَ به، واجتِنابِ ما نهى عنه: في بَساتينَ ونَعيمٍ عَظيمٍ في الآخِرةِ(٢).

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿فَكِهِينَ﴾ قيلَ: بمعنى: فَرِحينَ أو مُعجَبينَ. وقيل: بمعنى: يتفَكَّهونَ، أي: يَستَطيبونَ ويَسْتَحْلونَ(٣).

٢- قِراءةُ ﴿فَٰكِهِينَ﴾ بألفٍ بعد الفاءِ، قيل: بمعنى: أصحابِ فاكِهةٍ. وقيل: ناعِمينَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ، مِثْلُ: حاذِرينَ وحَذِرينَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

(٣) قرأ بها أبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٧، ٥٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٦٢٣). ويُنظر أيضًا: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٤، ٣٥٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٧)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٦٢٣).

﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ ﴾.

أي: مُعجَبينَ بما أعطاهم رَبُّهم في الجنَّةِ مِنَ النَّعيمِ، ومُتَمتِّعينَ به، فَرِحينَ مَسرورينَ بذلك(١).

﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المتنَعِّمُ قد تكونُ نِعمتُه بعدَ عَذابٍ؛ بَيَّنَ أنَّهم لَيسُوا كذلك(٢).

﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾.

أي: وقد نجَّاهم اللهُ مِن عذابِ النَّارِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ [الإنسان: ١١].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٩١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات-الحديد)) (ص: ١٨٤).

ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجُملةِ: الفرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، وابنُ عطية، وابن القيِّم، والسعديُّ، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وذهب أبو عُبَيدةَ، وابنُ جَرير، والقُرطبيُّ إلى أنَّ معنى ﴿ فَٰكِهِينَ ﴾ أي: عندَهم فاكِهةٌ كثيرةٌ، كقَولِ العَرَبِ لِمَن عِندَه تَمرٌ كثيرٌ، أو لَبَنٌ كثيرٌ: رجُلٌ تامِرٌ، ولابِنٌ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥).

وقال ابنُ كثير: (أي: يَتفكَّهونَ بما آتاهم اللهُ مِنَ النَّعيمِ مِن أصنافِ المَلاذِّ؛ مِن مآكِلَ ومَشارِبَ، ومَلابِسَ ومَساكِنَ ومَراكِبَ وغَيرِ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦).

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مَن باشَرَ النِّعمةَ وجانَبَ النِّقْمةَ في هَناءٍ عَظيمٍ؛ قال مُترجِمًا لذلك[1]:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: يُقالُ للمُتَّقينَ: كُلُوا مِن طَعامِ الجنَّةِ، واشرَبوا مِن شَرابِها، مُتهَنِّئينَ بذلك بلا أذًى ولا تنغيصٍ، ولا نَكَدٍ ولا كَدَرٍ؛ بسَبَبِ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الصَّالحاتِ[2].

كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۞ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۞ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤١ - ٤٤].

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾.

أي: مُتَّكِئينَ على سُرُرٍ قد جُعِلَت صُفوفًا[3]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات-الحديد)) (ص: ١٨٤، ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٨)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات-الحديد)) (ص: ١٨٦، ١٨٧).

قال ابنُ عاشور: (أي: يُقالُ لهم: كُلُوا واشرَبوا حالَ كَونِهم متَّكِئينَ، أي: وهم في حالِ إِكلةِ =

﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا اجتَمَع لهم مِن نَعيمِ القَلبِ والرُّوحِ والبَدَنِ ما لا يَخطُرُ بالبالِ، ولا يَدورُ في الخَيالِ؛ مِن المآكِلِ والمشارِبِ اللَّذيذةِ، والمجالِسِ الحَسَنةِ الأنيقةِ- لم يَبْقَ إلَّا التَّمَتُّعُ بالنِّساءِ اللَّاتي لا يَتِمُّ سُرورٌ بدونِهنَّ؛ فذَكَر اللهُ أنَّ لهم مِنَ الأزواجِ أكمَلَ النِّساءِ أوصافًا وخَلْقًا وأخلاقًا؛ ولهذا قال[١]:

﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

أي: وزوَّجْنا[٢] المتَّقينَ بنِساءٍ بِيضٍ، شَديدٍ سوادُ أعيُنِهنَّ وبَياضُها[٣]، عظيماتِ

= أهلِ التَّرفِ المعهودِ في الدُّنيا؛ فقد كان أهلُ الرَّفاهيةِ يأكُلونَ متَّكِئينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٢) قيل: المرادُ: قرَنَّاهم بهم. وممَّن قال بهذا المعنى: مكِّي، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والنسفي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٧).

وقال ابنُ القَيِّم: (وعلى هذا فـ «زَوَّجْناهم» عندَ هؤلاءِ مِنَ الاقترانِ والشَّفعِ، أي: شَفَعْناهم وقَرَنَّاهم بهِنَّ. وقالت طائفةٌ منهم مجاهِدٌ: زوَّجْناهم بهِنَّ، أي: أنكَحْناهم إيَّاهُنَّ. قُلتُ: وعلى هذا فتَلويحُ فِعلِ التَّزويجِ قد دَلَّ على النِّكاحِ، وتعديتُه بالباءِ المتضَمِّنةِ معنى الاقترانِ والضَّمِّ؛ فالقَولانِ واحِدٌ. واللهُ أعلَمُ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٧٤).

(٣) قيل: الحُورُ جَمعُ حَوراءَ: وهي المرأةُ البيضاءُ النَّقيَّةُ البياضِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٧). =

الأعيُنِ معَ حُسنِها واتِّساعِها[١].

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩٦).
قال النَّحَّاس: (وفي قراءةِ عبدِ اللهِ: «كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِعِيسٍ عِينٍ»، ومعناه: البِيضُ، يقالُ: جمَلٌ أعيَسُ: إذا كان أبيَضَ يَضرِبُ إلى الشُّقرةِ). ((معاني القرآن)) (٦/ ٤١٦).
وقال القرطبي: (والحُورُ: البِيضُ، في قَولِ قَتادةَ والعامَّةِ، جمعُ حَوراءَ، والحوراءُ: البَيضاءُ الَّتي يُرى ساقُها مِن وراءِ ثِيابِها، ويَرى النَّاظِرُ وَجهَه في كَعبِها كالمرآةِ؛ مِن دِقَّةِ الجِلدِ وبَضاضةِ البَشَرةِ [أي: رِقَّتِها ونُعومتِها] وصَفاءِ اللَّونِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢).
وقيل: الحَوراءُ: الشَّديدةُ بَياضِ بَياضِ العَينِ، والشَّديدةُ سَوادِ سَوادِ العَينِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: أبو عُبَيدةَ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢).
وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ السَّابقَينِ، فقال: هي البيضاءُ، القويَّةُ بياضِ بياضِ العَينِ، وسَوادِ سَوادِها: ابنُ عطيَّة، وابنُ القيِّم، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٠).
قال ابن القيِّم: (حوراءُ: إذا اشتَدَّ بَياضُ أَبيَضِها، وسَوادُ أسوَدِها، ولا تُسَمَّى المرأةُ حَوراءَ حتَّى يكونَ مع حَوَرِ عَينِها بياضُ لَونِ الجَسَدِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٩).
وقيل: المرادُ: أنَّ الطَّرْفَ يَحارُ فيهنَّ؛ مِن حُسنِهنَّ وجمالِهنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥، ٨١٥).
وممَّن ذهب إلى نحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٨).
وقد ردَّ ابنُ جريرٍ هذا المعنى، فقال: (هذا الَّذي قاله مجاهِدٌ مِن أنَّ الحُورَ إنَّما معناها: أنَّه يَحارُ فيها الطَّرْفُ، قولٌ لا معنَى له في كلامِ العَرَبِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٧٤، ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٧).
ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ العِينَ: جمْعُ عَيناءَ، وهي العظيمةُ العَينِ في حُسنٍ وسَعةٍ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابنُ عطية، وابن جُزَي، وجلال الدين المحلِّي، والعُلَيمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۞ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٥، ٥٦].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ﴾ بنِسبةِ الفِعلِ إلى اللهِ تعالى، بمعنى: أتْبَعْنا أولادَهم بهم[(١)].

٢- قِراءةُ ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ﴾ بنِسبةِ الفِعلِ إلى الذُّرِّيَّةِ، بمعنى: اتَّبَعَ الأولادُ آباءَهم

= العليمي)) (٦/ ٤٢٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالعِينِ حِسانُ الأعيُنِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٢).

قال ابنُ القيِّم: (والعِينُ: جَمعُ عَيناءَ، وهي العَظيمةُ العَينِ مِن النِّساءِ ... والصَّحيحُ: أنَّ العِينَ: اللَّاتي جَمَعَت أعيُنُهنَّ صِفاتِ الحُسنِ والْمَلَاحةِ، قال مُقاتلٌ: العِينُ: حِسانُ الأعيُنِ، ومِن محاسِنِ المرأةِ اتِّساعُ عَيْنِها في طُولٍ. وضِيقُ العَينِ في المرأةِ مِن العُيوبِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٩).

ويُنظَرُ ما تقَدَّمَ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ (الدُّخَان) الآية (٥٤).

قال ابنُ عاشور: (هُنَّ النِّساءُ اللَّاتي كُنَّ أزواجًا لهم في الدُّنيا إنْ كُنَّ مُؤمِناتٍ، ومَن يَخلُقُهنَّ اللهُ في الجنَّةِ لنِعمةِ الجنَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٨).

(١) قرأ بها أبو عَمرٍو البَصْريُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٢)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٦٧).

على الحَقِّ، فآمَنوا به مِثلَهم[١].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا ألحَقْنا بِهم أولادَهم الَّذين اتَّبَعوهم على الإيمانِ، فجعَلْناهم معهم في دَرَجاتِهم في الجنَّةِ، وإنْ لم يَعمَلوا كعَمَلِ آبائِهم[٢].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٣٣)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٦٧).

قال ابن زنجلة: (قَولُه: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ﴾ ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ﴾ يَتداخَلانِ تَداخُلَ ﴿يُدۡخَلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ و﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ لأنَّ اللهَ تعالى إذا أتْبَعَهم ذرِّيَّتَهم اتَّبَعَتْهم). ((حجة القراءات)) (ص: ٦٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦٥، ٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

وممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ عطيَّة -ونَسَبه للجُمهورِ-، والرازيُّ، وابن جُزَي، وابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الشوكاني: (ومعنى هذه الآيةِ: أنَّ اللهَ سُبحانَه يَرفَعُ ذُرِّيَّةَ المؤمِنِ إليه، وإن كانوا دونَه في العَمَلِ؛ لتَقَرَّ عَينُه، وتَطِيبَ نفْسُه، بشَرطِ أن يكونوا مؤمِنينَ، فيختَصُّ ذلك بمَن يتَّصِفُ بالإيمانِ مِن الذُّرِّيَّةِ، وهم البالِغونَ دونَ الصِّغارِ؛ فإنَّهم وإن كانوا لاحِقينَ بآبائِهم فبدليلٍ آخَرَ غيرِ هذه الآيةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٧).

وذهب الواحديُّ، والخازِنُ، والبِقاعي، والعُلَيمي إلى شُمولِ الذُّرِّيَّةِ لِمَن أدرَكَ العَمَلَ ومَن لم يُدرِكْه، فتَشمَلُ الصِّغارَ والكِبارَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢١).

قال الواحدي: (لأنَّ الكِبارَ يَتَّبِعونَ الآباءَ بإيمانٍ منهم، والصِّغارَ يتَّبِعونَ الآباءَ بإيمانٍ مِن الآباءِ، والوَلَدُ يُحكَمُ له بالإسلامِ تَبَعًا لوالِدِه). ((الوسيط)) (٤/ ١٨٦).

وقال مقاتل: (﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ يعني: مَن أدرَكَ العمَلَ مِن أولادِ بني آدمَ المؤمنينَ فعَمِلَ خَيرًا فهم مع آبائِهم في الجنَّةِ، ثمَّ قال: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ يعني: الصِّغارَ الَّذين لم يَبلُغوا العمَلَ مِن أولادِ المؤمِنينَ فهم معهم وأزواجهم في الدَّرجةِ؛ لِتَقَرَّ أعينُهم). ((تفسير =

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان رُبَّما خِيفَ أن يُنقَصَ الآباءُ بسَبَبِ إلحاقِ ذُرِّيَّاتِهم بهم شَيئًا مِن دَرَجاتِهم؛ قال[1]:

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

أي: وما نَقَصْنا الآباءَ مِن أُجورِ أعمالِهم الصَّالِحةِ شَيئًا حينَ جعَلْنا ذُرِّيَّتَهم معهم في الجنَّةِ[2]!

﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ عن مَقامِ الفَضلِ، وهو رَفعُ دَرَجةِ الذُّرِّيَّةِ إلى مَنزِلةِ الآباءِ مِن غَيرِ عمَلٍ يَقتَضي ذلك؛ أخبَرَ عن مَقامِ العَدلِ، وهو أنَّه لا يُؤاخِذُ أحدًا بذَنْبِ أحَدٍ، بل

= مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٥).

وقد رجَّح ابنُ القَيِّم وابنُ عثيمين أنَّ المرادَ بالذُّرِّيَّةِ في الآيةِ: الصِّغارُ دونَ الكِبارِ. يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٩٦، ٣٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٧).

قال ابنُ القيِّم: (اختلَف المفسِّرون في الذُّرِّيَّةِ في هذه الآيةِ: هل المرادُ بها الصِّغارُ أو الكِبارُ أو النَّوعانِ؟ على ثلاثةِ أقوالٍ، واختِلافُهم مبنيٌّ على أنَّ قَولَه: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حالٌ مِن الذُّرِّيَّةِ والتَّابعينَ، أو المؤمِنينَ المتبوعينَ... واختِصاصُ الذُّرِّيةِ هاهنا بالصِّغارِ أظهَرُ؛ لئَلَّا يلزَمَ استِواءُ المتأخِّرينَ بالسَّابِقينَ في الدَّرَجاتِ، ولا يلزَمُ مِثلُ هذا في الصِّغارِ؛ فإنَّ أطفالَ كُلِّ رجُلٍ وذُرِّيَّتَه معه في دَرَجتِه. واللهُ أعلَمُ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٣٩٦، ٣٩٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٧)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٧).

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ أي: مُرتَهَنٌ بعَمَلِه، لا يُحمَلُ عليه ذنْبُ غَيرِه مِنَ النَّاسِ، سواءٌ كان أبًا أو ابنًا(١).

وأيضًا لَمَّا كان رُبَّما تَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أنَّ أهلَ النَّارِ كذلك يُلحِقُ اللهُ بهم أبناءَهم وذُرِّيَّتَهم؛ أخبَرَ أنَّه ليس حُكمُ الدَّارَينِ حُكمًا واحِدًا؛ فإنَّ النَّارَ دارُ العَدلِ، ومِن عَدلِه تعالى ألَّا يُعَذِّبَ أحدًا إلَّا بذَنْبٍ(٢).

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾.

أي: كُلُّ نفْسٍ تَنالُ جَزاءَها وَفْقَ ما عَمِلَت في الدُّنيا، وكُلُّ إنسانٍ يُعاقَبُ بذُنوبِه، ولا يُؤاخَذُ بذَنْبِ غَيرِه ولو كان مِن أقارِبِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

قيل: هذه الآيةُ في المُشرِكينَ، وأمَّا المؤمِنُ فهو غيرُ مَحبوسٍ ولا مُرتَهَنٌ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والخازن، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٤).

قال السمعاني: (هذا في المُشرِكينَ، ومعناه: أنَّ الكُفَّارَ مَحبوسونَ في النَّارِ بعَمَلِهم، وأمَّا المؤمِنُ فهو غيرُ محبوسٍ ولا مُرتَهَنٍ؛ فإنِ ارتُهِنَ بعَمَلِه فلا بُدَّ أن يَدخُلَ النَّارَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٤).

وقال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ ظاهِرُ هذه الآيةِ الكريمةِ العُمومُ في جميعِ النَّاسِ، وقد بَيَّن تعالى في آياتٍ أُخَرَ أنَّ أصحابَ اليَمينِ خارِجونَ مِن هذا العُموم، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ۝ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤١]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٥٤).

وقيل: الآيةُ شامِلةٌ للجَميعِ: المؤمِنِ والكافِرِ. وهو ظاهِرُ اختيارِ البِقاعي، وقال به ابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥، ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥١). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هذا فَضلُه تعالى على الأبناءِ ببَركةِ عَمَلِ الآباءِ، وأمَّا فَضلُه على الآباءِ ببَرَكةِ دُعاءِ الأبناءِ، فعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيَرفَعُ الدَّرَجةَ للعَبدِ الصَّالِحِ في الجنَّةِ، فيَقولُ: يا رَبِّ، أنَّى لي هذه؟! فيقولُ: باستِغفارِ وَلَدِك لك))[1].

= قال البِقاعي: (﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ﴾ أي: مِنَ الَّذين آمَنوا والمتَّقينَ وغَيرِهم ﴿بِمَا كَسَبَ﴾ أي: مِن وَلَدٍ وغَيرِه ﴿رَهِينٌ﴾ أي: مُسابِقٌ ومُخاطِرٌ ومَطلوبٌ، وآخِذٌ شَيئًا بَدَلَ كَسْبِه، ومُوفًّى على قَدرِ ما يَستَحِقُّه، ومُحتَبَسٌ به إن كان عاصِيًا، فمَنْ كان صالحًا كان آخِذًا بسَبَبِ صلاحِ وَلَدِه؛ لأنَّه كَسْبُه، ولا يُؤخَذُ به ذلًّا وهو حَسَنٌ في نَفْسِه؛ لأجْلِ الحُكمِ بإيمانِه سواءٌ كان حقيقةً أو حُكمًا، وكُلُّ حَسَنٍ مُرتَفِعٌ؛ فلذلك يَلتَحِقُ بأبيه، وأمَّا الإساءةُ فقاصِرةٌ على صاحِبِها يُؤخَذُ بها ويُرهَنُ بذَنْبِه، ولا يُؤخَذُ بذَنْبِ غَيرِه، والحاصِلُ أنَّ المعاليَ الَّتي هي كالحياةِ تَفيضُ مِن صاحبِها على غَيرِه فتُحييه، والمساوئَ الَّتي هي كالموتِ لا تتعَدَّى صاحِبَها). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٥، ١٦).

وقال ابنُ عاشور: (﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ﴾ يَعُمُّ أهلَ الآخرةِ كُلَّهم، وليس المرادُ كُلَّ امرئٍ مِنَ المتَّقينَ خاصَّةً. والمعنى: انتفى إنقاصُنا إيَّاهم شيئًا مِن عَمَلِهم؛ لأنَّ كُلَّ أحَدٍ مَقرونٌ بما كَسَب، ومُرتَهَنٌ عِندَه، والمتَّقون لَمَّا كَسَبوا العَمَلَ الصَّالحَ كان لازِمًا لهم مُقتَرِنًا بهم، لا يُسلَبونَ منه شيئًا، والمرادُ بما كَسَبوا: جزاءُ ما كَسَبوا؛ لأنَّه الَّذي يَقتَرِنُ بصاحِبِ العَمَلِ، وأمَّا نَفْسُ العَمَلِ فقد انقضَى في إبَّانِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٣).

والحديث أخرجه ابنُ ماجه (٣٦٦٠)، وأحمدُ (١٠٦١٠) واللَّفظُ له.

قوَّى إسنادَه الذهبيُّ في ((المهذب)) (٥/ ٢٦٥٠)، وصحَّحه ابنُ كثير في ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤) وقال: (وله شاهدٌ في صحيحِ مسلمٍ)، والبوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٩٨) وقال: (رجالُه ثِقاتٌ)، وحسَّنه العِراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٤١٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط =

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ جُمِعَتِ الجنَّاتُ في الآيةِ لأنَّها أنواعٌ، ذَكَر اللهُ في سورةِ (الرَّحمنِ) أربعةَ أنواعٍ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثمَّ قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] هذه الجِنانُ الأربعُ تختَلِفُ بما جاء في وَصفِها في سورةِ (الرَّحمنِ)[١].

٢- قال اللهُ عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَنَعِيمٍ﴾ مُناسَبةٌ: أنَّ الجَنَة وإن كانت مَوضِعَ السُّرورِ، لكِنَّ النَّاطورَ[٢] قد يكونُ في البُستانِ الَّذي هو غايةُ الطِّيبةِ، وهو غَيرُ مُتنعِّمٍ؛ فقَولُه: ﴿وَنَعِيمٍ﴾ يُفيدُ أنَّهم فيها يَتنعَّمونَ كما يكونُ المتفرِّجُ لا كما يكونُ النَّاطورُ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ هذه الجُملةُ خَبَريَّةٌ مؤكَّدةٌ بـ «إنَّ»، والتَّوكيدُ أسلوبٌ مِن أساليبِ اللُّغةِ العربيَّةِ، مُستعمَلٌ عندَ العَرَبِ، وهذا القرآنُ نَزَلَ بلُغةِ العَرَبِ، وإلَّا ففي الواقعِ فإنَّ خَبَرَ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يَحتاجُ إلى توكيدٍ؛ لأنَّه أصْدَقُ القَولِ، فالرَّبُّ عزَّ وجلَّ إذا أخبَرَ بخبَرٍ فإنَّه لا يحتاجُ إلى أنْ يُؤَكِّدَ؛ لأنَّ خَبَرَ اللهِ صِدْقٌ، لكنْ لَمَّا كان القرآنُ العظيمُ نَزَلَ بلسانٍ عربيٍّ، صار جاريًا على ما كان يَعرِفُه العَرَبُ في لُغتِهم، فهنا أَكَّدَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الجُملةَ[٤].

= في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦/ ٣٥٧)، والحديث حسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٦٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٤).

(٢) النَّاطورُ: حافِظُ الكَرْمِ والنَّخلِ والزَّرعِ، وهي لفظةٌ أعجميَّةٌ، وليسَت بعَرَبيَّةٍ مَحْضةٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٤/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ بيانُ أسبابِ التَّنعيمِ على التَّرتيبِ؛ فأوَّلُ ما يكونُ: المَسكَنُ -وهو الجنَّاتُ-، ثمَّ الأكلُ والشُّربُ، ثمَّ الفُرُشُ والبُسُطُ، ثمَّ الأزواجُ، فهذه أمورٌ أربعةٌ ذَكَرها اللهُ على التَّرتيبِ، وذكَرَ في كُلِّ واحدٍ منها ما يدُلُّ على كَمالِه[١].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ في قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ مُناسَبةٌ؛ أنَّ المتنعِّمَ قد تكونُ آثارُ التَّنعُّمِ على ظاهِرِه وقَلبُه مَشغولٌ، فلمَّا قال: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ دَلَّ على غايةِ الطِّيبةِ[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فيه أنَّ الفَكِهَ قد يكونُ خَسيسَ النَّفْسِ فيَسُرُّه أدنى شَيءٍ، ويَفرَحُ بأقَلِّ سَبَبٍ؛ فقال: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ لا لدُنُوِّ هِمَمِهم، بل لعُلُوِّ نِعَمِهم؛ حيثُ هي مِن عندِ رَبِّهم[٣].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ فوقاهم مِمَّا يَكرَهونَ، وأعطاهم ما يُحِبُّونَ؛ جَزاءً وِفاقًا؛ لأنَّهم تَرَكوا ما يَكرَهُ، وأَتَوا بما يُحِبُّ؛ فكان جزاؤُهم مُطابِقًا لأعمالِهم[٤]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أنَّ عَمَلَهم في الدُّنيا سَبَبٌ في تمَتُّعِهم بنَعيمِ الجنَّةِ في الآخِرةِ، وجاء في الحديثِ: ((لا يَدخُلُ أحدٌ منكم الجنَّةَ بعملِه))[٥]، ولا مُعارَضةَ بيْنَ النَّصَّيْنِ؛ إذِ الدُّخولُ بفضلٍ مِن الله،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٣).

(٥) أخرجه البخاريُّ (٥٦٧٣)، ومسلمٌ (٢٨١٦)، وأحمدُ (٧٤٧٩) واللَّفظُ له، مِن حديثِ أبي =

وبعدَ الدُّخولِ يكونُ التَّوارُثُ، وتكونُ الدَّرَجاتُ، ويكونُ التَّمتُّعُ بسببِ الأعمالِ. فكلُّهم يَشترِكون في التَّفضُّلِ مِن الله عليهم بدُخولِ الجنَّةِ، ولكنَّهم بعدَ الدُّخولِ يَتفاوَتون في الدَّرَجاتِ بسببِ الأعمالِ[١].

ويُجابُ أيضًا: بأنَّه لا مُناقَضةَ بيْنَ ما جاء به القرآنُ وما جاءت به السُّنَّةُ؛ إذِ المُثبَتُ في القرآنِ ليس هو المنفيَّ في السُّنَّةِ، والتَّناقُضُ إنَّما يكونُ إذا كان المُثبَتُ هو المَنفيَّ! وذلك أنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقال: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٩]، وقال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ * جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٢ - ٢٤]، فبيَّن بهذه النُّصوصِ أنَّ العملَ سببٌ للثَّوابِ، والباءُ للسَّببِ، ولا رَيْبَ أنَّ العملَ الصَّالحَ سببٌ لِدُخولِ الجنَّةِ، واللهُ قدَّر لعبدِه المؤمنِ دُخولَ الجنَّةِ بما يُيَسِّرُه له مِن العملِ الصَّالحِ، كما قدَّر دُخولَ النَّارِ لِمَن يَدخُلُها بعمَلِه السَّيِّئِ.

أمَّا الحديثُ فقد نفى ما قد تَتوَهَّمُه النُّفوسُ مِن أنَّ الجزاءَ مِن الله عزَّ وجلَّ على سبيلِ المُعاوَضةِ والمُقابَلةِ كالمُعاوَضاتِ الَّتي تكونُ بيْنَ النَّاسِ في الدُّنيا[٢].

٩- قَولُه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ فِعلُ أمْرٍ، وهذا الأمرُ ليس تكليفًا، وإنَّما الأمرُ هنا للتَّكريمِ، أي: يُقالُ لهم: كُلُوا مِن كلِّ ما في الجنَّةِ مِن النَّعيمِ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾ إخبارٌ عن دَوامِ ذلك لهم بما

= هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٣، ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٤٥- ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٤).

أفهَمَه قَولُه تعالى: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾؛ فإنَّهم لو عَلِموا زَوالَه وانقِطاعَه لَنَغَّصَ عليهم ذلك نَعيمَهم، ولم يكُنْ هناءً لهم[١]!

١١- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ إشارةٌ إلى خُلُوِّهما عمَّا يكونُ فيهما من المفاسِدِ في الدُّنيا:

منها: أنَّ الآكِلَ يخافُ مِنَ المَرَضِ، فلا يَهنَأُ له الطَّعامُ.

ومنها: أنَّه يخافُ النَّفادَ، فلا يَسخُو بالأكلِ. والكُلُّ مُنتَفٍ في الجنَّةِ؛ فلا مَرَضَ، ولا انقِطاعَ؛ فإنَّ كُلَّ أحَدٍ عِندَه ما يَفضُلُ عنه، ولا إثمَ ولا تَعَبَ في تحصيلِه؛ فإنَّ الإنسانَ في الدُّنيا رُبَّما يَترُكُ لَذَّةَ الأكلِ؛ لِما فيه مِن تهيئةِ المأكولِ بالطَّبخِ، والتَّحصيلِ مِنَ التَّعبِ أو المِنَّةِ، أو ما فيه مِن قَضاءِ الحاجةِ واستِقذارِ ما فيه؛ فلا يَتهَنَّأُ، وكُلُّ ذلك في الجنَّةِ مُنتَفٍ[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ شُمولٌ لكُلِّ العَمَلِ: عَمَلِ الجوارحِ، والقَلبِ، واللِّسانِ؛ فعَمَلُ الجوارِحِ: الأفعالُ، كالرُّكوعِ، والسُّجودِ، وعَمَلُ اللِّسانِ: الأقوالُ، كالأذكارِ، وعَمَلُ القلوبُ: كالخَوفِ، والرَّجاءِ، والتَّوكُّلِ، وما أَشبَهَ ذلك؛ فكلُّ هذه تُسَمَّى أعمالًا[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖ﴾ ذكَرَ سُبحانَه وتعالى في السُّرُرِ أُمورًا:

منها: الاتِّكاءُ، فإنَّه هَيئةٌ تختَصُّ بالمُنعَّمِ والفارِغِ الَّذي لا كُلْفةَ عليه، ولا تكَلُّفَ لديه؛ فإنَّ مَن يكونُ عِندَه مَن يَتكَلَّفُ له: يَجلِسُ له، ولا يَتَّكِئُ عِندَه، ومَن

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٦).

يكونُ في مُهِمٍّ: لا يتفرَّغُ للاتِّكاءِ؛ فالهَيئةُ دَليلُ خَيرٍ، والمتكِئُ تدُلُّ هيئتُه على أنَّه في سُرورٍ، وانشراحٍ، وطُمأنينةٍ.

ومنها: الجَمعُ في قَولِه: ﴿سُرُرٍ﴾؛ وذلك لأمْرَينِ: أظهَرُهما: أن يكونَ لكُلِّ واحدٍ سُرُرٌ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ يدُلُّ على أنَّه لواحدٍ؛ لأنَّ سُرُرَ الكُلِّ لا تكونُ في مَوضِعٍ واحِدٍ مُصطَفَّةً.

ومنها: لَفظُ السَّريرِ، فيه حُروفُ السُّرورِ، بخِلافِ التَّخْتِ[1] وغَيرِه.

ومنها: ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ فهي دليلٌ على أنَّه لمجَرَّدِ العِظَمِ؛ فإنَّها لو كانت مُتفرِّقةً لَقيلَ: في كُلِّ مَوضِعٍ واحِدٌ؛ ليتَّكِئَ عليه صاحِبُه إذا حضَرَ في هذا الموضِعِ[2].

١٤- قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هو نِعمةٌ جَمَع اللهُ بها للمُؤمِنينَ أنواعَ المسَرَّةِ؛ بسَعادتِهم بمُزاوَجةِ الحُورِ، وبمؤانَسةِ الإخوانِ المُؤمِنينَ، وباجتِماعِ أولادِهم ونَسْلِهم بهم؛ وذلك أنَّ في طَبعِ الإنسانِ التَّأنُّسَ بأولادِه، وحُبَّه اتِّصالَهم به[3].

١٥- قال اللهُ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ ذَكَر مجالِسَهم وهَيئاتِهم فيها، وفي ذِكْرِ اصطِفافِها تَنبيهٌ على كَمالِ النِّعمةِ عليهم بقُرْبِ بَعضِهم مِن بَعضٍ، ومُقابَلةِ بعضِهم بَعضًا، كما قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٦]؛ فإنَّ مِن تمامِ اللَّذَّةِ والنَّعيمِ أنْ يكونَ مع الإنسانِ في بُستانِه ومَنزِلِه مَن يُحِبُّ مُعاشَرتَه، ويُؤْثِرُ قُربَه، ولا يكونُ بعيدًا منه، قد حِيلَ بيْنَه وبيْنَه، بل سريرُه إلى جانِبِ سَريرِ

(١) التَّخْتُ: مَكانٌ مُرتفِعٌ للجلوسِ أو للنَّومِ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٩).

مَن يُحِبُّه[١]!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ وَصَف اللهُ السُّرُرَ بأنَّها مَصفوفةٌ؛ لِيَدُلَّ ذلك على كَثرتِها، وحُسنِ تَنظيمِها، واجتِماعِ أهلِها، وسُرورِهم بحُسنِ مُعاشَرتِهم، ولُطفِ كَلامِ بَعضِهم لبَعضٍ[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ ذِكرُ أُمورٍ تَدُلُّ على كَمالِ الحالِ:

أحدُها: أنَّه تعالى هو المُزَوِّجُ، وهو يَتولَّى الطَّرَفَينِ، يزوِّجُ عِبادَه بإمائِه، ومَن يكونُ كذلك لا يَفعَلُ إلَّا ما فيه راحةُ العبادِ والإماءِ.

ثانيها: قال: ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ﴾، ولم يَقُل: «وزوَّجناهم حُورًا»، مع أنَّ لفظَ التَّزويجِ يتعَدَّى فِعلُه إلى مفعولينِ بغيرِ حَرفٍ، يقال: «زَوَّجْتُكَها»، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]؛ وذلك إشارةٌ إلى أنَّ المَنفَعةَ في التَّزويجِ لهم، وإنَّما زُوِّجوا لِلَذَّتِهم بالحُورِ، لا لِلَذَّةِ الحُورِ بهم؛ وذلك لأنَّ المفعولَ بغيرِ حَرفٍ يُعَلَّقُ الفِعلُ به، كذلك التَّزويجُ تعَلَّقَ بهم ثمَّ بالحُورِ؛ لأنَّ ذلك بمعنى: جعَلْنا ازْدِواجَهم بهذا الطَّريقِ، وهو الحُورُ[٣].

ثالِثُها: عَدَمُ الاقتصارِ على الزَّوجاتِ، بل وصَفَهنَّ بالحُسنِ، واختار الأحسَنَ مِن الأحسَنِ؛ فإنَّ أحسَنَ ما في صورةِ الآدَميِّ وَجهُه، وأحسَنَ ما في الوَجهِ العَينُ[٤].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ﴾ تأمَّلْ كيفَ أتَى بالواوِ العاطفةِ في اتِّباعِ الذُّرِّيَّةِ، وجَعَل الخبرَ عن المؤمِنينَ الَّذين هذا شَأنُهم؛

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٣) ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ٢٧٤ - ٢٧٥)

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٧).

فجَعَل الخبرَ مُستحَقًّا بأمْرَينِ:

أحدُهما: إيمانُ الآباءِ، **والثَّاني**: اتِّباعُ ذُرِّيَّتِهم لهم، وذلك لا يقتضي أنَّ كلَّ مؤمنٍ يَتَّبِعُه كلُّ ذُرِّيَّةٍ له، ولو أُريدَ هذا المعنى لَقيل: «والَّذين آمنوا تَتَّبِعُهم ذرِّيَّاتُهم»، فعَطفُ الاتِّباعِ بـ «الواوِ» يقتضي أنْ يكونَ المعطوفُ بها قَيدًا وشَرطًا في ثُبوتِ الخبَرِ، لا حصولَه لكلِّ أفرادِ المبتدأِ[1].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ سُؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ مع قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمًا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ الآيةَ [لقمان: ٣٣]؛ فإنَّ هذه الآيةَ تدُلُّ بظاهِرِها على أنَّ يومَ القيامةِ لا يَنفَعُ فيه والِدٌ وَلَدَه، وأمَّا الآيةُ الشَّاهِدُ فهي تدُلُّ على رَفعِ دَرَجاتِ الأولادِ بسَبَبِ صَلاحِ آبائِهم حتَّى يكونوا في دَرَجةِ الآباءِ، مع أنَّ عَمَلَهم -أي: الأولادِ- لم يُبَلِّغْهم تلك الدَّرَجةَ؛ إقرارًا لعُيونِ الآباءِ بوُجودِ الأبناءِ معهم في مَنازِلِهم من الجَنَّةِ، وذلك نَفعٌ لهم!

الجوابُ: وَجهُ الجَمعِ أُشيرَ إليه بالقَيدِ الَّذي في هذه الآيةِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾، وعَيَّنَ فيها النَّفعَ بأنَّ إلحاقَهم بهم في دَرَجاتِهم هو بقَيدِ الإيمانِ، فهي أخَصُّ مِنَ الآيةِ الأُخرى، والأخَصُّ لا يُعارِضُ الأعَمَّ، وعلى قَولِ مَن فَسَّرَ الآيةَ بأنَّ معنى قَولِه: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ لا يَقضي عنه حَقًّا لَزِمَه، ولا يَدفَعُ عنه عذابًا حَقَّ عليه؛ فلا إشكالَ في الآيةِ[2].

٢٠- ثَمَّ سُؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ بيْنَ قَولِه تعالى هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ مع قَولِه تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٨٢).

[النجم: ٣٩]؛ فإنَّ هذه الآيةَ الكَريمةَ تدُلُّ على أنَّه لا يَنتَفِعُ أحَدٌ بعَمَلِ غَيرِه، وأمَّا الآيةُ الشَّاهِدُ فهي تدُلُّ على أنَّ بَعضَ النَّاسِ رُبَّما انتفَعَ بعَمَلِ غَيرِه؛ فرَفْعُ دَرَجاتِ الأولادِ -سواءٌ قُلْنا: إنَّهم الكِبارُ أو الصِّغارُ- نَفعٌ حاصِلٌ لهم، وإنَّما حَصَل لهم بعَمَلِ آبائِهم لا بعَمَلِ أنفُسِهم.

والجوابُ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ آيةَ ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ إنَّما دَلَّت على نَفيِ مِلكِ الإنسانِ لغَيرِ سَعْيِه، ولم تدُلَّ على نَفيِ انتِفاعِه بسَعيِ غَيرِه؛ لأنَّه لم يَقُلْ: «وأنْ لن ينتَفِعَ الإنسانُ إلَّا بما سعى»، وإنَّما قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ ﴾ وبيْنَ الأمرينِ فَرقٌ ظاهِرٌ؛ لأنَّ سَعيَ الغَيرِ مِلكٌ لِساعيه، إنْ شاء بَذَلَه لِغَيرِه فانتَفَع به ذلك الغَيرُ، وإنْ شاء أبقاه لنَفْسِه، وقد أجمَعَ العُلَماءُ على انتِفاعِ المَيِّتِ بالصَّلاةِ عليه، والدُّعاءِ له، والحَجِّ عنه، ونحوِ ذلك مِمَّا ثبت الانتِفاعُ بعَمَلِ الغَيرِ فيه.

الثَّاني: أنَّ إيمانَ الذُّرِّيَّةِ هو السَّبَبُ الأكبَرُ في رَفعِ دَرَجاتِهم؛ إذ لو كانوا كُفَّارًا لَما حَصَل لهم ذلك؛ فإيمانُ العبدِ وطاعتُه سَعيٌ منه في انتِفاعِه بعَمَلِ غَيرِه مِنَ المُسلِمينَ، كما وقَعَ في الصَّلاةِ في الجَماعةِ؛ فإنَّ صلاةَ بَعضِهم مع بَعضٍ يَتضاعَفُ بها الأجرُ زيادةً على صَلاتِه مُنفَرِدًا، وتلك المُضاعَفةُ انتِفاعٌ بعَمَلِ الغَيرِ سعَى فيه المصَلِّي بإيمانِه وصلاتِه في الجَماعةِ، وهذا الوَجهُ يُشيرُ إليه قَولُه تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾.

الثَّالِثُ: أنَّ السَّعيَ الَّذي حَصَل به رَفعُ دَرَجاتِ الأولادِ ليس للأولادِ، كما هو نَصُّ قَولِه تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، ولكِنَّه مِن سَعيِ الآباءِ؛ فهو سَعيٌ للآباءِ أقَرَّ اللهُ عُيونَهم بسَبَبِه؛ بأنْ رَفَع إليهم أولادَهم لِيَتمتَّعوا في الجنَّةِ برُؤيتِهم، فالآيةُ تُصَدِّقُ الأُخرَى، ولا تُنافيها؛ لأنَّ المقصودَ بالرَّفعِ إكرامُ الآباءِ

لا الأولادِ؛ فانتِفاعُ الأولادِ تَبَعٌ، فهو بالنِّسبةِ إليهم تفَضُّلٌ مِنَ اللهِ تعالى عليهم بما ليس لهم، كما تفَضَّل بذلك على الوِلدانِ، والحُورِ العِينِ، والخَلقِ الَّذين يُنشِئُهم للجَنَّةِ(١).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أنَّ غَيرَ المكلَّفِ قد يُرحَمُ؛ فإنَّ أطفالَ المؤمِنينَ معَ آبائِهم في الجنَّةِ(٢).

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ اللهَ سُبحانَه يُلحِقُ ذُرِّيَّةَ المؤمِنينَ بهم في الجنَّةِ، وأنَّهم يكونونَ معهم في دَرَجتِهم، ومع هذا فلا يُتوهَّمُ نُزولُ الآباءِ إلى دَرَجةِ الذُّرِّيَّةِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى لم يَلِتْهم -أي: لم يَنقُصْهم- مِن أعمالِهم مِن شَيءٍ، بل رفَعَ ذُرِّيَّاتِهم إلى دَرَجاتِهم مع توفيرِ أُجورِ الآباءِ عليهم، ولَمَّا كان إلحاقُ الذُّرِّيَّةِ بالآباءِ في الدَّرَجةِ إنَّما هو بحُكمِ التَّبَعيَّةِ لا بالأعمالِ، رُبَّما تَوَهَّم مُتوَهِّمٌ أنَّ ذُرِّيَّةَ الكُفَّارِ يُلحَقونَ بهم في العَذابِ تَبَعًا وإنْ لم يكُنْ لهم أعمالُ الآباءِ، فقَطَع تعالى هذا التَّوَهُّمَ بقَولِه تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾(٣).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ ذَكَر «الإيمانَ»؛ لئلَّا يُتوَهَّمَ أنَّ الاتِّباعَ هو في نَسَبٍ أو تَربيةٍ، أو حُرِّيَّةٍ أو رِقٍّ، أو غَيرِ ذلك(٤).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ أنَّ مِن تمامِ نَعيمِ أهلِ الجنَّةِ أنْ ألحَقَ اللهُ بهم ذُرِّيَّتَهم الَّذين اتَّبَعوهم بإيمانٍ -أي: الَّذين لَحِقوهم بالإيمانِ الصَّادِرِ مِن آبائِهم -على

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٣٩٢).

قَولٍ-؛ فصارت الذُّرِّيَّةُ تَبَعًا لهم بالإيمانِ، ومِن بابِ أَولى إذا تَبِعَتهم ذُرِّيَّتُهم بإيمانِهم الصَّادِرِ منهم أنفُسِهم، فهؤلاء المذكورون يُلحِقُهم اللهُ بمنازِلِ آبائِهم في الجنَّةِ وإن لم يَبلُغوها؛ جزاءً لآبائِهم، وزيادةً في ثوابِهم، ومع ذلك لا يَنقُصُ اللهُ سُبحانَه الآباءَ مِن أعمالِهم شَيئًا[١]!

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ الذُّرِّيَّاتُ هنا تَصدُقُ على الآباءِ وعلى الأبناءِ، وإنَّ المُؤمِنَ إذا كان عَمَلُه أكثَرَ أُلحِقَ به مَن دُونَه في العَمَلِ ابنًا كان أو أبًا، وهو مَنقولٌ عن ابنِ عبَّاسٍ[٢] وغَيرِه[٣].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على قراءةِ ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ﴾ فيه دَلالةٌ على تَبعيَّةِ الوَلَدِ الصَّغيرِ لِمَن أسلَمَ مِن أَبَويه أو آبائِه[٤]، فالله تعالى أَتْبَعَ الوَلَدَ الوالِدَينِ في الإيمانِ، ولم يُتْبِعْه أباه في الكُفرِ، وبدليلِ أنَّ مَن أسلَمَ مِنَ الكُفَّارِ حُكِمَ بإسلامِ أولادِه، ومَن ارتَدَّ مِن المُسلِمينَ -والعياذُ باللهِ- لا يُحكَمُ بكُفرِ وَلَدِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٢) يُنظر ما أخرجه عبد الرَّزَّاقِ في ((تفسيره)) (٣/ ٢٤٥) (٣٠٠٩)، وسعيدُ بنُ منصورٍ في ((سننه)) (٧/ ٤٢٨) (٢٠٦٥)، وابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢١/ ٥٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٤٨).

قال ابن العربي بعدَ أن ذكر القراءتَينِ: (القِراءتانِ لِمَعنيَينِ: أمَّا إذا كان «اتَّبَعَتْهُم» على أن يكونَ الفِعلُ لِلذُّرِّيَّةِ فيَقتضي أن يكونَ الذُّرِّيَّةُ مُستَقِلَّةً بنفْسِها، تَعقِلُ الإيمانَ، وتَتلفَّظُ به. وأمَّا إذا كان الفِعلُ واقِعًا بهم مِن الله عزَّ وجلَّ بغيرِ واسِطةِ نِسبةٍ إليهم، فيكونُ ذلك لِمَن كان مِن الصِّغَرِ في حدٍّ لا يَعقِلُ الإسلامَ، ولكنْ جعَلَ اللهُ له حُكمَ أبيه لِفَضلِه في الدُّنيا مِن العِصمةِ والحُرمةِ. فأمَّا إتْباعُ الصَّغيرِ لأبيه في أحكامِ الإسلامِ فلا خِلافَ فيه، وأمَّا تبعيَّتُه لأُمِّه فاختلَف فيه العُلماءُ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٨).

٢٧- استُدِلَّ بقَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ على صِحَّةِ إسلامِ الصَّبيِّ؛ فإنَّ اللهَ نَسَب الفِعلَ إليهم، فهذا يدُلُّ على أنَّهم عَقَلوه وتكَلَّموا به؛ فاعتَبَره اللهُ، وجَعَل لهم حُكمَ المُسلِمينَ، وقد احتَجَّ جماعةٌ بإسلامِ عليِّ بنِ أبي طالِبٍ صَغيرًا وأبواه كافِرانِ[١].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أنَّه مِن جُملةِ إحسانِه سُبحانَه إلى أهلِ الجنَّةِ أنَّه يَرعى المحسِنَ في المُسيءِ، ولَفظةُ ﴿أَلۡحَقۡنَا﴾ تَقتَضي أنَّ للمُلحَقِ بَعضَ التَّقصيرِ في الأعمالِ[٢].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ لطيفةٌ: أنَّه قال سُبحانَه في الدُّنيا: ﴿وَأَتۡبَعۡنَاهُمۡ﴾ على قراءةٍ، وقال في الآخِرةِ: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ﴾؛ وذلك لأنَّ في الدُّنيا لا يُدرِكُ الصَّغيرُ التَّابِعُ مُساواةَ المَتبوعِ، وإنَّما يكونُ هو تَبَعًا والأبُ أصلًا؛ لفَضلِ السَّاعي على غَيرِ السَّاعي.

وأمَّا في الآخِرةِ فإذا أَلحَقَ اللهُ بفَضلِه وَلَدَه به جَعَل له مِنَ الدَّرَجةِ مِثلَ ما لأبيه[٣].

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أنَّ شَفَقةَ الأُبُوَّةِ كما هي في الدُّنيا مُتوفِّرةٌ كذلك في الآخِرةِ؛ ولهذا طَيَّب اللهُ تعالى قُلوبَ عِبادِه بأنَّه لا يُوَلِّهُهم[٤]

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٦٨)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٨).

(٤) الوَلَهُ: ذَهابُ العَقلِ والتَّحَيُّرُ مِن شِدَّةِ الحُزنِ، أو: ذِهابُ العقلِ لِفقْدانِ الحبيبِ، والتَّوْليهُ أنْ يُفَرَّقَ بينَ المرأةِ وولدِها. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٤٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٥٦١).

بأولادِهم، بل يَجمَعُ بيْنَهم[١]!

٣١- قال اللهُ عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾ تَطييبٌ لِقَلبِهم، وإزالةُ وَهمِ المتوَهِّم أنَّ ثوابَ عَمَلِ الأبِ يُوزَّعُ على الوالِدِ والوَلَدِ، بل للوالِدِ أجْرُ عَمَلِه بفَضلِ السَّعيِ، ولأولادِه مِثلُ ذلك؛ فَضلًا مِنَ اللهِ تعالى ورَحمةً[٢]!

٣٢- قَولُه تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ هذه قاعِدةٌ عامَّةٌ في جميعِ العامِلينَ: أنَّ كلَّ واحدٍ رَهينٌ بعَمَلِه، لا يَنقُصُ منه شَيءٌ، أمَّا الزِّيادةُ فهي فَضلٌ مِن اللهِ تبارك وتعالى على مَن شاء مِن عِبادِه[٣].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ أنَّه لَمَّا كان هذا الإلحاقُ في الثَّوابِ والدَّرَجاتِ فضلًا مِن اللهِ، فرُبَّما وَقَع في الوَهمِ أنَّ إلحاقَ الذُّرِّيَّةِ أيضًا حاصِلٌ لهم في حُكْمِ العَدلِ؛ فلمَّا اكتَسَبوا سيِّئاتٍ أوجَبَتْ عقوبةً كان كلُّ عاملٍ رَهينًا بكَسْبِه لا يَتعلَّقُ بغَيرِه شَيءٌ، فالإلحاقُ المذكورُ إنَّما هو في الفَضلِ والثَّوابِ، لا في العَدلِ والعِقابِ، وهذا نَوعٌ مِن أسرارِ القرآنِ وكُنوزِه الَّتي يَختَصُّ اللهُ بفَهمِها مَن شاء[٤]، فلا يُتَوَهَّمْ أنَّ هذا الاتِّباعَ حاصِلٌ في أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ، بل هو للمُؤمِنينَ دُونَ الكُفَّارِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بكَسْبِه، وقد يُثيبُه مِن غيرِ كَسْبٍ منه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٥٧).

(٥) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٣٩٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ بعْدَ أنْ ذكَرَ حالَ المُكذِّبين وما يُقالُ لهم، فمِن شأْنِ السَّامِعِ أنْ يَتساءَلَ عن حالِ أضْدادِهم، وهمُ الفريقُ الَّذين صدَّقوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما جاء به القرآنُ، وخاصَّةً إذ كان السَّامِعونَ المؤمنينَ، وعادةُ القرآنِ تَعقيبُ الإنذارِ بالتَّبشيرِ وعكْسُه؛ فلَمَّا ذكَرَ حالَ الكُفَّارِ، ذكَرَ حالَ المؤمنينَ؛ ليقَعَ التَّرهيبُ والتَّرغيبُ، وهو إخبارٌ عمَّا يَؤولُ إليه حالُ المؤمنينَ، أُخبِروا بذلك. والجُملةُ مُعترِضةٌ بيْنَ ما قبْلَها وجُملةِ ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾[1] [الطور: ٣٠]. ويَجوزُ أنْ يكونَ مِن جُملةِ القَولِ للكُفَّارِ؛ إذ ذلك زِيادةٌ في غمِّهم، وتَنكيدٌ لهم[2].

- وتأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ به[3].

- وتَنكيرُ ﴿جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، أي: في أيَّةِ جنَّاتٍ وأيِّ نَعيمٍ! بمعْنى الكَمالِ في الصِّفةِ. أوْ في جَنَّاتٍ ونَعيمٍ مَخصوصةٍ بالمُتَّقينَ، خُلِقَتْ لهم خاصَّةً، عَلى أنَّ التَّنكيرَ للتَّنويعِ[4].

- وجُمِعَ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ باعتبارِ جَمْعِ المُتَّقينَ، وهي جَناتٌ كثيرةٌ مُختلِفةٌ[5].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾

- قولُه: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فيه استِحضارُ الجَلالةِ بوصْفِ ﴿رَبُّهُمْ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧) و (١٧/ ٤٥).

للإشارةِ إلى عَظيمِ ما آتاهُم؛ إذ العَطاءُ يُناسِبُ حالَ المُعْطي. وفي إضافةِ (ربّ) إلى ضَميرِهم تقْريبٌ لهم وتَعظيمٌ[١].

- قولُه: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ المَقصودُ مِن ذِكرِ هذه الحالةِ: إظهارُ التَّبايُنِ بيْن حالِ المُتَّقينَ وحالِ المُكذِّبين؛ زِيادةً في الامتِنانِ؛ فإنَّ النِّعمةَ تَزدادُ حُسْنَ وقْعٍ في النَّفْسِ عندَ مُلاحَظةِ ضِدِّها[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ إظْهارُ الرَّبِّ في مَوقعِ الإضمارِ مُضافًا إلى ضَميرِهم؛ للتَّشريفِ والتَّعليلِ[٣]، فهو سُبحانَه المتفَضِّلُ بتَربيتِهم بكَفِّهم عن المعاصي والقاذوراتِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ في مَوضعِ الحالِ، تَقديرُه: يُقالُ لهم، أو مَقولًا لهم، وهذا القولُ مُقابِلُ ما يُقالُ للمُكذِّبين: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦][٥].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ لإفادةِ التَّعميمِ، أي: كُلوا كلَّ ما يُؤكَلُ، واشْرَبوا كلَّ ما يُشرَبُ، وهو عُمومٌ عُرْفيٌّ، أي: ممَّا تَشْتَهونَ[٦]. وأيضًا تُرِكَ ذِكرُ المأكولِ والمَشروبِ؛ لِتَنوُّعِهما وكَثرتِهما[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٦).

- والباءُ في قولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سَببيَّةٌ، و(ما) مَوصولةٌ، أي: بسَببِ العمَلِ الَّذي كُنتُم تَعمَلونه، وهو العمَلُ الصَّالِحُ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالَى في حقِّ الكُفَّارِ: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقال في حقِّ المؤمنينَ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وبيْن العِبارتَينِ بَونٌ عَظيمٌ مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: كلمةُ (إنَّما) للحصْرِ، أي: لا تُجْزَون إلَّا ذلك، ولم يَذكُرْ هذا في حقِّ المؤمِنِ؛ فإنَّه يَجْزِيه أضعافَ ما عمِلَ، ويَزِيدُه مِن فضْلِه.

الثاني: قال هنا: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾، وقال هناك: ﴿مَا كُنتُمْ﴾، أي: تُجْزَون عَينَ أعمالِكم؛ إشارةً إلى المُبالَغةِ في المماثَلةِ، كما تقولُ: هذا عَينُ ما عمِلْتَ، وقال في حقِّ المؤمنِ: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾، كأنَّ ذلك أمرٌ ثابتٌ مُستحَقٌّ بعمَلِكم هذا.

الثالث: ذكَرَ الجزاءَ هناك؛ وقال هاهنا: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّ الجزاءَ يُنبِئُ عن الانقطاعِ؛ فإنَّ مَن أحسَنَ إلى أحدٍ فأتى بجَزائِه، لا يَتوقَّعُ المحسِنُ منه شيئًا آخَرَ(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ جِيءَ بالباءِ معَ أنَّ التَّزويجَ ممَّا يَتعدَّى إلى مَفعولَينِ؛ لِما في التَّزويجِ مِن معْنى الوصْلِ والإلصاقِ والقرْنِ. أو للسَّببيَّةِ؛ إذِ المعْنى: صيَّرْناهم أزواجًا بسَببِهنَّ؛ فإنَّ الزَّوجيَّةَ لا تَتحقَّقُ بدونِ انْضِمامِهنَّ إليهمْ(٣). وقيل: الباءُ للمُصاحَبةِ، أي: جعَلْنا حورًا عينًا معهم، ولم يُعَدَّ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٦)، ((تفسير =

فِعلُ (زوجناهم) إلى (بحُورٍ) بنفْسِه على المفعوليَّةِ، كما في قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]؛ لأنَّ (زَوَّجْنا) في هذه الآيةِ ليس بمعنى: أنكَحْناهم؛ إذ ليس المرادُ عقْدَ النِّكاحِ؛ لِنُبُوِّ المرادِ عن هذا المعنى؛ فالتَّزويجُ هنا واردٌ بمعنى جعْلِ الشَّيءِ المفردِ زَوجًا -وذلك على قَولٍ في تَفسيرِها-، وليس الباءُ لتعديةِ فِعلِ (زوَّجْناهم) بتضمينِه معنى: قرَنَّا[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ حالِ طائفةٍ مِن أهْلِ الجنَّةِ إثرَ بَيانِ حالِ الكُلِّ، وهُم الَّذينَ شاركَتْهم ذُرِّيَّتُهم في الإيمانِ[٢]. أو اعتِراضٌ بيْن ذِكرِ كَراماتِ المؤمنينَ، والواوُ اعتراضيَّةٌ[٣].

- والتَّعبيرُ بالمَوصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لتَكونَ الصِّلةُ إيماءً إلى وجْهَ بِناءِ الخبَرِ الواردِ بعْدَها، أي: إنَّ سَببَ إلْحاقِ ذُرِّيَّاتِهم بهمْ في نَعيمِ الجنَّةِ هو إيمانُهم، وكَونُ الذُّرِّيَّاتِ آمَنوا بسَببِ إيمانِ آبائِهم؛ لأنَّ الآباءَ المؤمنينَ يُلقِّنون أبْناءَهم الإيمانَ[٤].

- ولفْظُ ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ الأوَّلُ قُرِئَ بصِيغةِ الإفرادِ، على أنَّه فاعلُ (اتَّبَعَتْهُمْ)، وقُرِئَ أيضًا بصِيغةِ الجمْعِ مَرفوعًا ﴿ذُرِّيَّاتُهُمْ﴾؛ للمُبالَغةِ في كثْرتِهم، والتَّصريحِ؛ فإنَّ الذُّرِّيَّةَ تقَعُ على الواحدِ والكثيرِ، فيكونُ الإنعامُ على آبائِهم بإلْحاقِ

= أبي السعود)) (٨/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ذُرِّيَّاتِهم بهمْ، وإنْ لم يَعمَلوا مِثلَ عمَلِهم. وقُرِئَ ﴿ذُرِّيَتَهُمْ﴾ و﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ بالنَّصبِ[١]، على أنَّهما مَفعولَا (أَتْبَعْنَاهُمْ)[٢].

- وقولُه: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ عطْفٌ على ﴿ءَامَنُواْ﴾، وقيل: إنَّه اعتِراضٌ للتَّعليلِ[٣].

- والتَّنكيرُ في قَولِه: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ قيل: إنه للنَّوعيَّةِ، أي: بما يَصدُقُ عليه حَقيقةُ الإيمانِ؛ للإشعارِ بأنَّه يَكْفي للإلحاقِ المُتابَعةُ في أصْلِ الإيمانِ. ويجوزُ أنْ يُرادَ: إيمانُ الذُّرِّيَّةِ الدَّاني المَحلِّ، كأنَّه قال: بشَيءٍ مِن الإيمانِ لا يُؤهِّلُهم لدَرَجةِ الآباءِ، أَلْحَقْناهم بهمْ، فهو إيمانٌ في الجُملةِ قاصرٌ عن رُتْبةِ إيمانِ الآباءِ، والتَّنكيرُ حِينَئذٍ للتَّقليلِ[٤]، فالمعنى: بشَيءٍ مِن الإيمانِ لم يَكونوا به أهلًا لدرجةِ آبائِهم، ولكنَّهم لَحِقوا بهم كرامةً للآباءِ، فالمرادُ تقليلُ إيمانِ الذُّرِّيَّةِ، ولكنَّه رفَع درجتَهم، فكيف إذا كان إيمانًا عظيمًا[٥]؟!

- وإيثارُ فِعلِ ﴿أَلْحَقْنَا﴾ دونَ أنْ يُقالَ: أدخَلْنا معهم، أو جعَلْنا معهم؛ لعلَّه لِما

---

(١) قولُه تعالى: ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ قرأه البَصريَّانِ -أبو عَمرٍو ويعقوبُ- وابنُ عامرٍ بألِفٍ على الجَمعِ، وقرأ الباقون بغيرِ ألِفٍ على التَّوحيدِ، وكسَرَ التَّاءَ أبو عَمرٍو وحْدَه، وضمَّها الباقونَ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٩).

ويُنظر ما تقدَّم في القراءات ذات الأثر في التَّفسير (ص: ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨، ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٨، ٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢).

في مَعْنى الإلحاقِ مِن الصَّلاحيةِ للفَورِ والتَّأخيرِ؛ فقدْ يكونُ ذلك الإلحاقُ بعْدَ إجراءِ عِقابٍ على بَعضِ الذُّرِّيَّةِ استَحقُّوه بسَيِّئاتِهم على ما في الأعمالِ مِن تَفاوتٍ في استحقاقِ العِقابِ، واللهُ أعلَمُ بمُرادِه مِن عِبادِه. وأيضًا ففِعلُ الإلحاقِ يَقْتضي أنَّ الذُّرِّيَّاتِ صاروا في دَرَجاتِ آبائِهم[١].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾، أي: وما نقَصْناهم، والمعْنى: أنَّ اللهَ ألْحَقَ بهم ذُرِّيَّاتِهم في الدَّرَجةِ في الجنَّةِ فضْلًا منه على الَّذين آمَنوا دُونَ عِوَضٍ؛ احتِراسًا مِن أنْ يَحسَبوا أنَّ إلْحاقَ ذُرِّيَّاتِهم بهمْ بعْدَ عطاءِ نَصيبٍ مِن حَسناتِهم لذُرِّيَّاتِهم ليَدخُلوا به الجنَّةَ، على ما هو مُتعارَفٌ عِندَهم في فكِّ الأسيرِ، وحَمالةِ الدِّيَاتِ، وخَلاصِ الغارِمينَ، وعلى ما هو مَعروفٌ في الانتِصافِ مِن المظلومِ للظَّالِمِ بالأخْذِ مِن حَسَناتِه وإعطائِها للمَظلومِ، وهو كِنايةٌ عن عَدَمِ انتقاصِ حُظوظِهم مِن الجَزاءِ على الأعمالِ الصَّالحةِ[٢].

- و﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾، و(مِن) للتَّبعيضِ، و(مِن) الَّتي في قولِه: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ لتَوكيدِ النفْيِ، وإفادةِ الإحاطةِ والشُّمولِ للنَّكرةِ[٣].

- قولُه: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم﴾ وبيْن جُملةِ ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ [الطور: ٢٢]؛ قيل: قُصِدَ منها تَعليلُ الجُملةِ الَّتي قبْلَها، وهي بما فيها مِن العُمومِ صالِحةٌ للتَّذييلِ مع التَّعليلِ[٤].

- وفي هذا التَّعليلِ كِنايتانِ؛ إحْداهما: أنَّ أهْلَ الكفْرِ مَقرونونَ بجَزاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥٠، ٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أعمالِهم. وثانيَتُهما: أنَّ ذُرِّيَّاتِ المؤمنينَ الَّذين أُلْحِقوا بآبائِهم في النَّعيمِ، أُلْحِقوا بالجنَّةِ كَرامةً لآبائِهم، ولولا تلك الكرامةُ لَكانت مُعاملتُهم على حسَبِ أعمالِهم، وبهذا كان لهذه الجُملةِ هنا وقْعٌ أشدُّ حُسْنًا ممَّا سِواهُ، مع أنَّها صارتْ مِن حُسْنِ التَّتميمِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥١).

الآيات (٢٢-٢٨)

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾: أي: يَتعاطَونَ ويَتداوَلون؛ هذا يأخُذُ مِن يَدِ هذا، وهذا يأخُذُ مِن يَدِ هذا، كالشَّيءِ المُتنازَعِ فيه، وأصلُه مِن نَزْعِ الدَّلوِ مِنَ البِئرِ عندَ الاستِقاءِ؛ فإنَّ النَّاسَ كانوا إذا وَرَدوا للاستِقاءِ نَزَعَ أحَدُهم دَلوًا مِنَ الماءِ، ثمَّ ناوَلَ الدَّلْوَ لِمَن حَوْلَه[1].

﴿لَغْوٌ﴾: أي: باطِلٌ مِن القَولِ يَصدُرُ عن خَلَلِ العَقلِ، وأصلُه يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[2].

﴿تَأْثِيمٌ﴾: أي: ما يُؤَثِّمُهم مِن فِعلٍ أو قَولٍ، مِثلُ الضَّربِ والشَّتمِ وغَيرِهما، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على بُطءٍ وتأخُّرٍ؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ، مُتأخِّرٌ عنه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٤).

﴿مَّكْنُونٌ﴾: أي: مَصونٌ مَستورٌ، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ أو صَونٍ[١].

﴿مُشْفِقِينَ﴾: أي: خائِفينَ حَذِرينَ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[٢].

﴿فَمَنَّ﴾: أي: أنْعَمَ، وصنَع الصُّنعَ الجَميلَ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على اصطِناعِ الخَيرِ[٣].

﴿ٱلسَّمُومِ﴾: أي: النَّارِ الحارَّةِ، وأصلُه اسمُ الرِّيحِ الَّتي تَهُبُّ مِن جِهةٍ حارَّةٍ جِدًّا، فتكونُ جافَّةً شَديدةَ الحرارةِ؛ سُمِّيت سَمومًا لدُخولِها بلُطفٍ في مَسامِّ البَدَنِ[٤].

﴿ٱلْبَرُّ﴾: أي: اللَّطيفُ الواسِعُ الفَضلِ، الصَّادقُ فيما وعَدَ، وأصلُ (برر) هنا: يدُلُّ على الصِّدقِ والسَّعةِ؛ فأمَّا الصِّدقُ فمِنْه قولُهم: صدَقَ فُلانٌ وبَرَّ، وبرَّتْ يَمينُه: صدَقَت، وأمَّا السَّعةُ فهو مِن البَرِّ الَّذي هو خِلافُ البَحرِ، وتُصُوِّرَ منه التَّوسُّعُ، فاشتُقَّ منه البِرُّ، أي: التَّوسُّعُ في فِعلِ الخَيرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦، ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

(٥) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧، ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣١).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا آخَرَ مِن مَظاهرِ فِضلِه على عبادِه المؤمنينَ، فيقولُ: وأمدَدْنا المؤمِنينَ في الجنَّةِ بفاكِهةٍ ولَحمٍ ممَّا يَشتَهونَه، ويَتعاطَونَ في الجنَّةِ كأسًا مملوءةً بالخَمرِ، لا يَهذُونَ بكَلامٍ لا فائدةَ منه بسببِها، ولا يأثَمُ شارِبُها بشُرْبِها ولا يُؤثِّمُه أحدٌ، ولا يحْمِلُه شُرْبُها على أنْ يَفعلَ إثْمًا بخِلافِ خَمْرِ الدُّنيا، ويَطوفُ عليهم غِلمانٌ لخِدمتِهم؛ فُهم لنَظافتِهم ونَضارتِهم مِثلُ اللُّؤلؤِ المصُونِ في صَدَفِه!

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن حَديثِهم في الجنَّةِ، فيقولُ: وأقبَلَ بَعضُهم على بَعضٍ يَتحادَثونَ في أحوالِهم الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا، فقال بَعضُهم لِبَعضٍ: إنَّا كُنَّا في الدُّنيا خائِفينَ مِن عَذابِ اللهِ تعالى يومَ القِيامةِ، فمَنَّ اللهُ علينا بفَضلِه فنجَّانا مِن عَذابِ النَّارِ؛ إنَّا كُنَّا في الدُّنيا نَدعوه تعالى وحْدَه، إنَّه تعالى هو اللَّطيفُ بعبادِه، الواسِعُ الإحسانِ، الرَّحيمُ بهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَمَدَّنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢﴾.

أي: وزِدْنا المؤمِنينَ في الجنَّةِ مِن فَضْلِنا، فأعطَيْناهم فاكِهةً ولَحمًا مِمَّا يَشتَهونَه ويَستَلِذُّونَه[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠، ٢١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٢).

قال القرطبي: (أي: أكثَرْنا لهم مِن ذلك؛ زيادةً مِنَ اللهِ، أمدَّهم بها غيرَ الَّذي كان لهم). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٨).

وقال سبحانَه: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣].

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان هذا النَّعيمُ العَظيمُ المُقيمُ يدعو إلى المعاشَرةِ بالقَرينةِ العاطِرةِ؛ بَيَّنَ أنَّ ذلك حالُهم اللَّازِمةُ الظَّاهِرةُ مِن الخِصالِ اللَّائِقةِ الطَّاهِرةِ؛ فقال[1]:

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾.

أي: يَتعاطَونَ فيها كأسَ الشَّرابِ المملوءةَ بالخَمرِ[2].

﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٤، ٤٥٥).

قيل: المعنى: يَتعاطَونَ فيها كأسًا، يأخُذُها بعضُهم مِن بَعضٍ للشُّربِ، ويَتداوَلونَها بيْنَهم. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ -في ظاهرِ اختيارِهما-، والماتُريديُّ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦٣)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٤٠٦)، ((تفسير النسفي)).

قال البقاعي: (﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ أي: يَشرَبونَ مُتجاذِبينَ مُجاذَبةَ الملاعَبةِ؛ لِفَرطِ المحبَّةِ والسُّرورِ، وتَحلِيةِ المُصاحَبةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٨).

وقال ابن عاشور: (الكأس... يجوزُ أن يكونَ هنا مرادًا به الإناءُ المعروفُ، ومرادًا به الجنسُ... وليس المرادُ أنَّهم يَشرَبونَ في كأسٍ واحدةٍ، يأخُذُ أحَدُهم مِن آخَرَ كأسَه، ويجوزُ أن يُرادَ بالكأسِ الخمرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٣).

وقال السعدي: (﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾ أي: تدورُ كاساتُ الرَّحيقِ والخمرِ عليهم، ويتعاطَوْنها فيما بيْنَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان في خَمرِ الدُّنيا غوائِلُ؛ نفاها عنها؛ فقال[١]:

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

أي: لا يَقَعُ منهم بسَبَبِ الشُّربِ هَذَيانٌ وكَلامٌ لا فائِدةَ منه، ولا يأثَمُ شارِبُها بِشُرْبِها، ولا يُؤثِّمُه أحدٌ، ولا يحْمِلُه شُرْبُها على أنْ يَفعلَ إثْمًا، بخِلافِ خَمْرِ الدُّنيا[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٨، ٦٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٨).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: أنَّهم لا يأثَمونَ في شُربِها: السمرقنديُّ، والثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّه لا يكونُ منهم ما يُؤَثِّمُهم: ابنُ قُتَيبةَ، وابنُ جرير، والسمعانيُّ، والبغوي، والزمخشري. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١١).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤).

وقال ابنُ عطية: (والتَّأثيمُ: يَلحَقُ خَمرَ الدُّنيا في نفْسِ شُربِها، وفي الأفعالِ الَّتي تكونُ مِن شَرابِها، وذلك كُلُّه مرتفِعٌ في الآخرةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٠).

وقال ابنُ القيِّم: (فنَفى باللَّغوِ السِّبابَ والتَّخاصُمَ، والهُجْرَ والفُحْشَ في المقالِ، والعَرْبدةَ، ونفى بالتَّأثيم جَميعَ الصِّفاتِ المذمومةِ الَّتي أثَّمَت شارِبَ الخَمرِ، وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾، ولم يَقُلْ: ولا إثمٌ، أي: ليس فيها ما يَحمِلُهم على الإثمِ، ولا يُؤَثِّمُ بَعضُهم بَعضًا بشُربِها، ولا يؤثِّمُهم اللهُ بذلك ولا الملائِكةُ، فلا يَلْغُونَ ولا يَأثَمونَ. قال ابنُ قُتيْبةَ: لا تَذهَبُ بعُقولِهم فيَلْغُوا، ولم يَقَعْ منهم ما يُؤَثِّمُهم). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٧٧).

وقال الشنقيطي: (واللَّغْوُ: كُلُّ كلامٍ ساقِطٍ لا خيرَ فيه، فخَمرُ الآخرةِ لا تَحمِلُ شارِبيها على =

قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٥ - ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ: ٣٤، ٣٥].

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت المُعاطاةُ لا يَكمُلُ بَسطُها ولا يَعظُمُ إلَّا بخَدَمٍ وسُقاةٍ؛ قال[1]:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ويَطوفُ على المُؤمِنينَ في الجنَّةِ غِلمانٌ لِخدمتِهم، وهم في حُسْنِهم وبياضِهم، وصَفائِهم وبهائِهم ونظافتِهم: مِثلُ اللُّؤلؤِ المصُونِ في صَدَفِه[2].

= الكَلامِ الخَبيثِ والهَذَيانِ؛ لأنَّها لا تُؤَثِّرُ في عُقولِهم، بخِلافِ خَمرِ الدُّنيا؛ فإنَّهم إن يَشرَبوها سَكِروا، وطاشت عُقولُهم، فتكَلَّموا بالكلامِ الخبيثِ والهَذَيانِ، وكُلُّ ذلك من اللَّغوِ.

والتأثيمُ: هو ما يُنسَبُ به فاعِلُه إلى الإثمِ، فخَمرُ الآخرةِ لا يأثَمُ شارِبُها بشُربِها؛ لأنَّها مباحةٌ له، فيَنعَمُ بلذَّتِها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥]، ولا تحمِلُ شارِبَها على أن يَفعَلَ إثمًا، بخِلافِ خَمرِ الدُّنيا؛ فشارِبُها يأثَمُ بشُربِها، ويَحمِلُه السُّكْرُ على الوُقوعِ في المحَرَّماتِ؛ كالقَتلِ والزِّنا والقَذفِ. ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٥٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٥).

قال ابنُ القيِّم: (الأشبَهُ أنَّ هؤلاءِ الوِلدانَ مخلوقونَ مِن الجنَّةِ -كالحُورِ العِينِ- خَدَمًا لهم وغِلْمانًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾، وهؤلاءِ غيرُ أولادِهم؛ فإنَّ مِن تمامِ كَرامةِ اللهِ تعالى لهم أن يجعَلَ أولادَهم مخدومينَ معهم، ولا يَجعَلَهم غِلمانًا لهم). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٦).

كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ - ٢١].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩].

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: وأقبَلَ بَعضُ أهلِ الجنَّةِ على بَعضٍ يتحادَثونَ فيما بَيْنَهم، ويَتساءَلونَ عن أحوالِهم الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا[١].

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: قال بَعضُهم لِبَعضٍ: إنَّا كُنَّا في الدُّنيا بيْنَ أهلِنا خائِفينَ وحَذِرينَ مِن عَذابِ اللهِ يومَ القيامةِ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧].

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: فمَنَّ اللهُ علينا بفَضلِه فهَدانا، ونجَّانا مِن عَذابِ النَّارِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٧). =

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَروا إشفاقَهم بَيَّنوه مُؤَكِّدينَ أيضًا لِمثْلِ ذلك، بقَولِهم[1]:

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾.

أي: إنَّا كُنَّا في الدُّنيا نَدعو اللهَ تعالى وَحْدَه دعاءَ عبادةٍ ودعاءَ مسألةٍ، ونتضَرَّعُ إليه؛ فأجاب دُعاءَنا فوَقانا عذابَ السَّمومِ، وأدخَلَنا دارَ النَّعيمِ[2].

= قال القرطبي: (قال الحَسَنُ: السَّمُومُ: اسمٌ مِن أسماءِ النَّارِ، وطَبَقةٌ مِن طِباقِ جَهنَّمَ. وقيل: هو النَّارُ، كما تقولُ: جهنَّمُ. وقيل: نارُ عذابِ السَّمومِ. والسَّمُومُ: الرِّيحُ الحارَّةُ، تُؤَنَّثُ، يُقالُ منه: سُمَّ يَومُنا فهو مَسمومٌ، والجمعُ سمائِمُ. قال أبو عُبَيدَةَ: السَّمومُ بالنَّهارِ، وقد تكونُ باللَّيلِ، والحَرورُ باللَّيلِ، وقد تكونُ بالنَّهارِ، وقد تُستعمَلُ السَّمُومُ في لَفحِ البَردِ، وهو في لَفحِ الحَرِّ والشَّمسِ أكثَرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٨).

ممَّن نصَّ على أنَّ عذابَ السَّمومِ أي عذابُ النَّارِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، الخازن، والعُلَيمي، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٢٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٨).

قال العُلَيمي: (﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ اسمٌ من أسماءِ جَهنَّمَ، والسَّمُومُ: الحارُّ الَّذي يَبلُغُ مَسامَّ الإنسانِ، وهو النَّارُ في هذه الآيةِ). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٤).

وقال البِقاعي: (﴿عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: الحَرِّ النَّافِذِ في المسامِّ نُفوذَ السُّمِّ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٠).

وقال ابنُ عاشور: (﴿ٱلسَّمُومِ﴾ بفَتحِ السِّينِ، أصلُه اسمُ الرِّيحِ الَّتي تهُبُّ مِن جِهةٍ حارَّةٍ جِدًّا، فتكونُ جافَّةً شَديدةَ الحرارةِ، وهي معروفةٌ في بلاد العَرَبِ، تُهلِكُ منَ يَتنشَّقُها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((مجموع الفتاوى)) =

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

= لابن تيمية (١٥/ ١٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥، ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٨).

قال السمعاني: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: نُوَحِّدُه ونَعبُدُه، والدُّعاءُ هاهنا بمعنى التَّوحيدِ، وعليه أكثَرُ المفسِّرينَ. ويُقالُ: إنَّه الدُّعاءُ المعروفُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٥).

وذهب ابنُ تيميَّةَ وابنُ القيِّمِ إلى أنَّ المرادَ دعاءُ العبادةِ المُتضَمِّنُ للسُّؤالِ رَغبةً ورَهبةً. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥).

قال ابن القيِّم: (أمَّا قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهذا دعاءُ العبادةِ المُتضَمِّنُ للسُّؤالِ رَغبةً ورَهبةً، والمعنى: إنَّا كنَّا مِن قبْلُ نُخلِصُ له العبادةَ، وبهذا استحَقُّوا أنْ وقاهم عذابَ السَّموم، لا بمُجرَّدِ السُّؤالِ المُشتركِ بيْن النَّاجي وغيرِه؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه يَسألُه مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ، والفوزُ والنَّجاةُ إنَّما هي بإخلاصِ العبادةِ، لا بمُجرَّدِ السُّؤالِ والطَّلبِ). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٥).

وذهب السعديُّ وابنُ عثيمين إلى أنَّ قولَه: ﴿نَدْعُوهُ﴾ شاملٌ لِدُعاءِ العبادةِ، ودعاءِ المسألةِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٩).

قال ابن عثيمين: (قولُهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ يَشملَ دعاءَ العبادةِ؛ كالصَّلاةِ، والصَّدقةِ، والصِّيامِ، والحجِّ، وبرِّ الوالِدَين، وصِلةِ الأرحام، كلُّ هذا دعاءٌ، وإن كان هو عبادةً، فلو سألْتَ الدَّاعيَ: لماذا تَعبُدُ اللهَ، ولو سألْتَ العابدَ: لماذا تَعبُدُ اللهَ؟ لَقال: أرجو رحمتَه، وأخافُ عذابَه، فتَكونُ هذه العِبادةُ بمعنَى الدُّعاءِ. كذلك نَدْعوه دعاءَ مسألةٍ، لا يَسألونَ غيرَ الله، ولا يَلجَؤونَ إلَّا إلى الله؛ لأنَّهم يَعلَمون أنَّهم مُفتَقِرونَ إليه، وأنَّه هو القادرُ على كلِّ شَيءٍ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٩).

وقال السعدي: (﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أنْ يَقِيَنا عذابَ السَّمُومِ، ويُوصِلَنا إلى النَّعيمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ المرادَ: نَبْتَهِلُ إليه في أُمورِنا، ويَدخُلُ في ذلك الدُّعاءُ لأنفُسِهم ولذُرِّيَّاتِهم بالنَّجاةِ مِن النَّارِ، وبنوالِ نعيمِ الجنَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

وقال سُبحانَه: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

أنَّهم عَلَّلوا دُعاءَهم إيَّاه تعالى مُؤكِّدينَ؛ لأنَّ إنعامَه عليهم مع تَقصيرِهم مِمَّا لا يكادُ يَفعَلُه غَيرُه سُبحانَه؛ فهو مِمَّا يُعجَبُ منه غايةَ العَجَبِ؛ فقالوا[١]:

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو اللَّطيفُ بعبادِه، الواسِعُ الإحسانِ، البالِغُ الرَّحمةِ بهم[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ كمالُ أدبِ أهلِ الجنَّةِ؛ في أنَّهم عندَ المحادَثةِ يُقبِلُ بعضُهم على بعضٍ، وهذا مِن كمالِ الأدبِ: أنْ تُقبِلَ إلى مُحَدِّثِك[٣]!

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ ذكَرَ جَلَّ وعلا هنا أنَّ الإشفاقَ مِن عَذابِ اللهِ: مِن أسبابِ دُخولِ الجنَّةِ، والنَّجاةِ مِن العَذابِ يومَ القيامةِ، كما دَلَّ عليه مَنطوقُ هذه الآيةِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩١)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزَّجَّاج (ص: ٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٢٢).

وقال تعالى في (المعارِج): ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ [المعارج: ٢٧، ٢٨] إلى قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥]، وذكَرَ ذلك مِن صِفاتِ أهلِ الجنَّةِ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] إلى قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1] [الواقعة: ١٠ - ١٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُ﴾ أنَّه لَمَّا كان هذا الكلامُ في دارِ الحقيقةِ لا يَصدُرُ إلَّا عن إلْهامٍ ومَعرِفةٍ، كان دليلًا على أنَّ دُعاءَ الصَّالِحينَ لأبنائِهم وذُرِّيَّاتِهم مَرجُوُّ الإجابةِ -على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-، كما دَلَّ على إجابةِ دُعاءِ الصَّالحينَ مِنَ الأبناءِ لآبائِهم على ذلك؛ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا مات الإنسانُ انقطَعَ عنه عَمَلُه إلَّا مِن ثَلاثةٍ))، فذكَرَ: ((أو ولَدٌ صالحٌ يدعو له))[2].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ﴾ أي: أنَّه وَحْدَه الواسِعُ الجُودِ، الَّذي عَطاؤُه حِكمةٌ، ومَنْعُه رَحمةٌ؛ لأنَّه لا يَنقُصُه إعطاءٌ، ولا يَزيدُه مَنعٌ؛ فهو يَبَرُّ عَبْدَه المُؤمِنَ بما يُوافِقُ نفْسَه؛ فرُبَّما بَرَّه بالنِّعمةِ، ورُبَّما بَرَّه بالبُؤسِ، فهو يختارُ له مِنَ الأحوالِ ما هو خيرٌ له؛ لِيُوسِّعَ له في العُقبى؛ فعلى المؤمِنِ ألَّا يتَّهِمَ رَبَّه في شَيءٍ مِن قَضائِه، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المُكرِمُ لِمَن أراد مِن عبادِه بإقامتِه فيما يَرضاه مِن طاعتِه، ثمَّ بإفضالِه عليه وإن قَصَّرَ في خِدمتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

والحديث أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ لطيفةٌ: وهي أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، ونَفيُ النُّقصانِ يَصدُقُ بحُصولِ المُساوِي؛ فقال: ليس عَدَمُ النُّقصانِ بالاقتِصارِ على المُساوي، بل بطريقٍ آخَرَ، وهو الزِّيادةُ والإمدادُ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أنَّه ليس فيه شَيءٌ منه مِمَّا لا يُعجِبُهم غايةَ الإعجابِ[٢]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أنَّه ليس في الجنَّةِ كَلامٌ لَغْوٌ: وهو الَّذي لا فائِدةَ فيه، ولا تأثيمٌ: وهو الَّذي فيه إثمٌ ومَعصيةٌ؛ وإذا انتفَى الأمْرانِ ثَبَت الأمرُ الثَّالِثُ، وهو أنَّ كَلامَهم فيها سلامٌ طَيِّبٌ طاهِرٌ، مُسِرٌّ للنُّفوسِ، مُفرِحٌ للقُلوبِ، يَتعاشَرونَ أحسَنَ عِشرةٍ، ويَتنادَمونَ أطيَبَ المُنادَمةِ، ولا يَسمَعونَ مِن رَبِّهم إلَّا ما يُقِرُّ أعيُنَهم، ويدُلُّ على رِضاه عنهم، ومحبَّتِه لهم[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: مِلْكُهم؛ إعلامًا لهم بقُدرتِهم على التَّصَرُّفِ فيهم بالأمرِ والنَّهيِ والاستِخدامِ، وهذا هو المشهورُ، ويحتَمِلُ وَجهًا آخَرَ: وهو أنَّه تعالى لَمَّا بَيَّن امتيازَ خَمرِ الآخرةِ عن خَمرِ الدُّنيا؛ بيَّنَ امتيازَ غِلمانِ الآخِرةِ عن غِلمانِ الدُّنيا؛ فإنَّ الغِلْمانَ في الدُّنيا إذا طافُوا على السَّادةِ الملوكِ يَطوفونَ عليهم لحَظِّ أنفُسِهم؛ إمَّا لتوَقُّعِ النَّفعِ، أو لتوَقُّرِ الصَّفحِ، وأمَّا في الآخِرةِ فطَوفُهم عليهم مُتمَحِّضٌ لهم ولِنَفعِهم، ولا حاجةَ لهم إليهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ لم يُضِفْهم؛ لئَلَّا يُظَنَّ أنَّهم الَّذين كانوا يَخدُمونَهم في الدُّنيا، فيُشفِقَ كُلُّ مَن خَدَم أحَدًا في الدُّنيا بقَولٍ أو فِعلٍ أن يكونَ خادِمًا له في الجنَّةِ، فيَحزَنَ بكَونِه لا يزالُ تابعًا، وأفاد التَّنكيرُ أنَّ كُلَّ مَن دَخَل الجنَّةَ وَجَد له خَدَمًا لم يَعرِفْهم قبْلَ ذلك[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ أنَّه إذا كان هذا حالَ الخادِمِ، فما ظَنُّك بالمَخدومِ[٢]؟!

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ وصَف تعالى خَدَمَهم الطَّائِفينَ عليهم بأنَّهم كاللُّؤلُؤِ في بياضِهم، والمَكْنونُ: المَصونُ الَّذي لا تُدَنِّسُه الأيدي؛ فلم تُذهِبِ الخِدمةُ تلك المحاسِنَ، وذلك اللَّونَ والصَّفاءَ والبَهجةَ، بل مع انتِصابِهم لخِدمتِهم كأنَّهم لُؤلؤٌ مَكْنونٌ، ووصَفهم في مَوضِعٍ آخَرَ، فقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]؛ ففي ذِكرِه المنثورَ إشارةٌ إلى تفرُّقِهم في حوائِجِ ساداتِهم وخِدمتِهم، وذَهابِهم ومَجيئِهم، وسَعةِ المكانِ بحيث لا يحتاجُونَ أن يَنضَمَّ بَعضُهم إلى بَعضٍ فيه لضِيقِه[٣]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم يَعلَمونَ ما جرى عليهم في الدُّنيا ويَذكُرونَه، وكذلك الكافِرُ لا يَنسى ما كان له مِنَ النَّعيمِ في الدُّنيا؛ فتَزدادُ لذَّةُ المؤمِنِ؛ مِن حيثُ يرَى نفْسَه انتقَلَت مِنَ السِّجنِ إلى الجنَّةِ، ومِنَ الضِّيقِ إلى السَّعةِ، ويَزدادُ الكافِرُ ألَمًا؛ حيثُ يرَى نفْسَه مُنتقِلةً مِنَ الشَّرَفِ إلى التَّلَفِ، ومِنَ النَّعيمِ إلى الجَحيمِ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨). ويُنظر ما سيأتي في بلاغةِ الآياتِ (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٢).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ فيه أنَّ الإشفاقَ الَّذي هو الخَوفُ الشَّديدُ مِن عَذابِ اللهِ في دارِ الدُّنيا سَبَبٌ للسَّلامةِ منه في الآخِرةِ، يُفهَمُ مِن دَليلِ خِطابِه -أي: مَفهومِ مُخالَفتِه-: أنَّ مَن لم يَخَفْ مِن عذابِ اللهِ في الدُّنيا لم يَنْجُ منه في الآخِرةِ، وما تضَمَّنَتْه هذه الآيةُ الكريمةُ بمَنطوقِها ومَفهومِها جاء مُوضَّحًا في غيرِ هذا الموضِعِ؛ مِن ذلك ما ذكَرَه اللهُ تعالى مِن أنَّ السُّرورَ في الدُّنيا وعَدَمَ الخَوفِ مِنَ اللهِ تعالى سَبَبُ العذابِ يومَ القيامةِ، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ * فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا * وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا * إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾[1] [الانشقاق: ١٠ - ١٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ أنَّه لم يَقُلْ: «مِن قَبْلُ» كما في قَولِه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُ﴾، فقد أسقَطَ الجارَّ «مِنْ»؛ إشارةً إلى دوامِ خَوفِهم؛ تنبيهًا على أنَّ الخوفَ الحامِلَ على الكَفِّ عن المعاصي يُشترَطُ فيه الدَّوامُ، بخِلافِ الرَّجاءِ الحامِلِ على الطَّاعاتِ؛ فإنَّه يكفي فيه ما تَيسَّرَ، كما أشار إليه إثباتُ الجارِّ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُ﴾. وفي هذا الإثباتِ للجارِّ هنا ﴿مِن قَبۡلُ﴾ مع إسقاطِه فيما قَبْلَه إشارةٌ إلى أنَّ التَّحلِّيَ بالفضائلِ يُرضَى منه باليَسيرِ، والتَّخلِّيَ عن الرَّذائلِ لا بُدَّ فيه مِن البراءةِ عن كُلِّ قليلٍ وكثيرٍ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ * يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩، ٢٠).

- قولُه: ﴿وَأَمَدَّنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ خُصَّ الفاكهةُ واللَّحمُ تَمهيدًا لقولِه: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾، منَحهم اللهُ في الآخرةِ لذَّةَ نشْوةِ الخمْرِ والمُنادَمةِ على شُرْبِها؛ لأنَّها مِن أحسَنِ اللَّذَّاتِ فيما ألِفَتْه نُفوسُهم، وكان أهلُ التَّرَفِ في الدُّنيا إذا شَربوا الخمْرَ كَسَروا سَورةَ حِدَّتِها في البطْنِ بالشِّواءِ مِن اللَّحمِ؛ ولذلك جِيءَ بقولِه: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ حالًا مِن ضَميرِ الغائبِ في ﴿وَأَمَدَّنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ ...﴾ إلخ[1]. وأيضًا اختار مِنَ المأكولِ أرفَعَ الأنواعِ، وهو الفاكِهةُ واللَّحمُ؛ فإنَّهما طَعامُ المُتنعِّمينَ[2].

- وجُملةُ ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ صِفةً لكأْس، وضَميرُ ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾ عائدًا إلى (كأْس)، ووصْفُ الكأْسِ بـ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ إنْ فُهِمَ الكأْسُ بمعْنى الإناءِ المعْروفِ، فهو على تَقديرِ: لا لَغْوٌ ولا تأْثيمٌ يُصاحِبُها؛ فإنَّ (في) للظَّرفيَّةِ الَّتي تُؤَوَّلُ بالمُلابَسةِ، أو تُؤَوَّلُ (في) بمعْنى التَّعليلِ. وإنْ فُهِمَ الكأْسُ مُرادًا به الخمْرُ، كانتْ (في) للسَّببيَّةِ، أي: لا لَغْوٌ يقَعُ بسَببِ شُرْبِها. والمعْنى على كِلا الوجهَينِ: أنَّها لا يُخالِطُ شارِبيها اللَّغْوُ والإثمُ بالسِّبابِ والضَّرْبِ ونحْوِه، أي: إنَّ الخمْرَ الَّتي استُعْمِلَت الكأْسُ لها لَيستْ كخُمورِ الدُّنيا. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ مُستأْنَفةً ناشئةً عن جُملةِ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾، ويكونَ ضَميرُ ﴿فِيهَا﴾ عائدًا إلى ﴿جَنَّٰتٖ﴾ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ﴾ [الطور: ١٧]، فيَكونَ في الجُملةِ معْنى التَّذييلِ؛ لأنَّه إذا انْتَفى اللَّغْوُ والتَّأثيمُ عن أنْ يَكونَا في الجنَّةِ انْتَفى أنْ يَكونَا في كأْسِ شُرْبِ أهْلِ الجنَّةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ [الطور: ٢٣]؛ فهو مِن تَمامِه، وواقعٌ مَوقِعَ الحالِ مِثلَه[١].

- وجِيءَ بقولِه: ﴿وَيَطُوفُ﴾ في صِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والتَّكرُّرِ، أي: ذلك لا يَنقطِعُ، بخِلافِ لذَّاتِ الدُّنيا؛ فإنَّها لا بدَّ لها مِن الانقطاعِ بنِهاياتٍ تَنْتهي إليها، فتُكَرَّهُ لأصحابِها الزِّيادةُ منها؛ مِثلُ ذهابِ العقلِ، والصُّداعِ، ووجَعِ الأمعاءِ في شُرْبِ الخمْرِ، ومِثلُ الشِّبَعِ في تَناوُلِ الطَّعامِ، وغيرُ ذلك مِن كلِّ ما يُورِّثُ العجْزَ عن الازديادِ عن اللَّذَّةِ، ويَجعَلُ الازديادَ ألَمًا[٢].

- وأيضًا لَمَّا أشعَرَ فِعلُ (يَطُوفُ) بأنَّ الغِلمانَ يُناوِلونَهم ما فيه لذَّاتُهم، كان مُشعِرًا بتَجدُّدِ المُناوَلةِ وتَجدُّدِ الطَّوافِ، وقد صار كلُّ ذلك لذَّةً لا سآمةَ منها[٣].

- والطَّوافُ: مشْيٌ مُتكرِّرٌ ذَهابًا ورُجوعًا، وأكثرُ ما يكونُ على استِدارةٍ، وسُمِّيَ مشْيُ الغِلمانِ بيْنَهم طَوافًا؛ لأنَّ شأْنَ مَجالسِ الأحبَّةِ والأصدقاءِ أنْ تكونَ حِلَقًا ودَوائرَ؛ ليَسْتَووا في مَرْآهم، كما أشارَ إليه قولُه تعالى في سُورةِ (الصَّافاتِ) [٤٤]: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[٤].

- وتُرِكَ ذِكرُ مُتعلَّقِ (يَطوف) -حيثُ لم يُذكَرْ ما يَطوفونَ به عليهم-؛ لظُهورِه مِن قولِه: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾، وقولِه: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ﴾ [الطور: ٢٢]، ودلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥٥).

[الزخرف: ٧١]، وقولُه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٥، ٤٦]، فلمَّا تقدَّمَ ذِكرُ ما شأْنُه أنْ يُطافَ به هنا، تُرِكَ ذِكرُه بعْدَ فِعلِ ﴿يُطَافُ﴾، بخِلافِ ما في الآيتَينِ الأُخْريَينِ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقولُه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾[(١)] [الصافات: ٤٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا وفي سُورةِ (الإنسانِ): ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ [الطور: ٢٤] [الإنسان: ١٩] بالواوِ، عطْفًا على ما قبْلَه، وقالَه في سُورةِ (الواقعةِ) بغَيرِ واوٍ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ [الواقعة: ١٧]؛ لأنَّه حالٌ أو خبرٌ بعْدَ خَبرٍ[(٢)].

- ومعنَى قولِه: ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾: خَدَمةٌ لهم، وعُبِّرَ عنهم بالتَّنكيرِ، وتَعليقِ لامِ المِلْكِ بضَميرِ الَّذين آمَنوا دُونَ الإضافةِ الَّتي هي على تَقديرِ اللَّامِ؛ لِما في الإضافةِ مِن معْنى تَعريفِ المُضافِ بالانتِسابِ إلى المُضافِ إليه عِندَ السَّامِعِ مِن قبْلُ، وليس هؤلاء الغِلمانُ بمَمْلوكينَ للمُؤمنينَ، ولكنَّهم مَخلوقونَ لخِدْمَتِهم مَخصوصونَ بهم، خلَقَهم اللهُ مِن أجْلِهم في الجنَّةِ[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ شُبِّهتِ الغِلمانُ باللُّؤلؤِ المَكنونِ في حُسْنِ المرْأَى؛ لأنَّه أحسَنُ وأصْفَى، أو شُبِّهتْ باللُّؤلؤِ المَكنونِ في الأصدافِ؛ لأنَّه مَخزونٌ، ولا يُخزَّنُ إلَّا الثَّمينُ الغالي القِيمةِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٣٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۞ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾ [الطور: ٢٣]، والتَّقديرُ: وقدْ أقبَلَ بعضُهم على بَعضٍ يَتساءَلون، أي: همْ في تلك الأحوالِ قد أقبَلَ بَعضُهم على بَعضٍ يَتساءَلون(١).

- وجُملةُ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾(٢).

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿مُشۡفِقِينَ﴾؛ لأنَّه دلَّ عليه ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾. وعلى هذا الوجْهِ يكونُ معْنى (في) الظَّرفيَّةَ، ويَتعلَّقُ ﴿فِيٓ أَهۡلِنَا﴾ بـ ﴿كُنَّا﴾، أي: حِينَ كنَّا في ناسِنا في الدُّنيا، فأهْلُنا هنا بمعْنى آلِنَا(٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ الفاءُ في قولِه: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ تدُلُّ على أنَّ عِلَّةَ ذلك هي الخَوفُ مِن اللهِ في دارِ الدُّنيا(٤).

- قولُه: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ قيل: لَمَّا كان عَذابُ الذُّرِّيَّاتِ يُحزِنُ آباءَهُم، جُعِلَت وِقايةُ الذُّرِّيَّاتِ منه بمَنزلةِ وِقايةِ آبائِهم فقالوا: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾؛ إغراقًا في الشُّكرِ عنهم وعن ذُرِّيَّاتِهم، أي: فمَنَّ علينا جَميعًا ووَقَانا جميعًا عَذابَ السَّمومِ(٥).

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ تَعليلٌ لِمِنَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٧، ٤٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

اللهِ عليهم، وثَناءٌ على اللهِ بأنَّه استجابَ لهم، أي: كنَّا مِن قبْلِ اليومِ نَدْعوه، أي: في الدُّنيا[١].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿نَدْعُوهُ﴾ للتَّعميمِ، أي: كنَّا نَبتَهِلُ إليه في أُمورِنا -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وسَببُ العُمومِ داخِلٌ ابتداءً، وهو الدُّعاءُ لأنفُسِهم ولذُرِّيَّاتِهم بالنَّجاةِ مِن النَّارِ، وبنَوالِ نَعيمِ الجنَّةِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ قُرِئَ ﴿أَنَّهُ﴾ على تَقديرِ حرْفِ الجرِّ مَحذوفًا حذْفًا مُطَّرِدًا مع (أنَّ)، وهو هنا اللَّامُ تَعليلًا لـ ﴿نَدْعُوهُ﴾، وقُرِئَ بكسْرِ همْزةِ (إنَّ)[٣]، ومَوقِعُ جُملتِها التَّعليلُ[٤].

- وضَميرُ الفصْلِ (هُو) لإفادةِ الحَصْرِ، وهو لقصْرِ صِفتَي ﴿ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ على اللهِ تعالى، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٥] للمُبالَغةِ؛ لعدَمِ الاعتِدادِ ببُرورِ غيرِه ورَحمةِ غيرِه بالنِّسبةِ إلى بُرورِ اللهِ ورَحمتِه باعتبارِ القوَّةِ؛ فإنَّ غيرَ اللهِ لا يَبلُغُ بالمَبرَّةِ والرَّحمةِ مَبلَغَ ما للهِ، وباعتِبارِ عُمومِ المُتعلَّقِ، وباعتبارِ الدَّوامِ؛ لأنَّ اللهَ بَرٌّ في الدُّنيا والآخِرةِ، وغيرَ اللهِ بَرٌّ في بَعضِ أوقاتِ الدُّنيا، ولا يَملِكُ في الآخرةِ شيئًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ قرأه المَدَنيَّانِ -نافعٌ وأبو جعفرٍ-، والكِسائيُّ بفتحِ الهَمزةِ، وقرأه الباقون بكَسرِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨).

(٥) تقدَّم تعريفه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨).

الآيات (٢٩-٣٦)

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِكَاهِنٍ﴾: الكاهِنُ: هو الَّذي يُوهِمُ أنَّه يَعلمُ الغيبَ مِن غيرِ وحيٍ، وقيل: هو مَن يدَّعي عِلمَ الغَيبِ في المستقبَلِ. وقيل: هو الَّذي يُخبِرُ بالأخبارِ الماضيةِ الخَفيَّةِ بضَربٍ مِنَ الظَّنِّ[(١)].

﴿نَّتَرَبَّصُ﴾: أي: نَنتَظِرُ، وأصل (ربص): يدُلُّ على الانتِظارِ[(٢)].

﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾: أي: حوادِثَ الدَّهرِ وأوجاعَه ومصائِبَه؛ مِن قَولِهم: رابَه الأمرُ رَيبًا، أي: نابَه وأصابَه، والمَنُونُ: الدَّهرُ، وأصلُه مِنَ المَنِّ بمعنى القَطعِ؛ وذلك أنَّه يَقطَعُ الأعمالَ والأجَلَ، والمَنُونُ كذلك: المَوتُ؛ لأنَّه يَقطَعُ الأجَلَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٣)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٧٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٥٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٩١).

﴿أَحْلَٰمُهُم﴾: أي: عُقولُهم، والعَقلُ والحِلمُ مِن بابٍ واحِدٍ مِن حيثُ المعنى؛ لأنَّ العَقلَ يَضبِطُ المرءَ فيَكونُ كالبَعيرِ المَعقولِ، والحِلمُ أيضًا سَبَبُ وَقارِ المَرءِ وثَباتِه، وقيل: الحِلْمُ: ضبْطُ النَّفْسِ والطَّبعِ عن هَيجانِ الغضبِ، ويُفَسَّرُ الحِلمُ بالعقلِ، لِكَونِه مِن مُسبَّباتِ العقلِ، وأصلُ (حلم) هنا: يدُلُّ على تَركِ العَجَلةِ[١].

﴿طَاغُونَ﴾: أي: مُجاوِزونَ الحَدَّ في العِنادِ والكفرِ، وأصلُ (طغى): مُجاوَزةُ الحدِّ[٢].

﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾: أي: اختَلَقه وافتَعَله وافتَراه، والتَّقَوُّلُ أصلُه تَكَلُّفُ القولِ، ولا يُستعمَلُ إلَّا في الكذِبِ في الغالِبِ، وأصلُ (قول): يدُلُّ على النُّطقِ[٣].

﴿يُوقِنُونَ﴾: أي: يَعلَمونَ عِلمًا مُتمَكِّنًا في نُفوسِهم لا يَدخُلُه شَكٌّ، وأصلُ اليَقينِ: يدُلُّ على زَوالِ الشَّكِّ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالَى آمِرًا رَسولَه صلَّى اللَّهِ عليه وسلَّم بأنْ يُبَلِّغَ رِسالَتَه إلى عِبادِه: فذكِّرِ النَّاسَ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ؛ فلَسْتَ بإنعامِ الله عليك بكاهِنٍ تدَّعي عِلمَ الغَيبِ، ولستَ بمَجنونٍ كما يَزعُمونَ!

ثمَّ يُبيِّنُ جانبًا مِن أكاذيبِ المشركينَ، وادِّعاءاتِهم الباطِلةِ في حقِّه صلَّى الله

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥١، ٥٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٦).

عليه وسلَّم، ويُلقِّنُه الرَّدَّ عليهم، فيقولُ: أم يَقولُ مُشركو قُرَيشٍ: مُحمَّدٌ شاعِرٌ نتَظِرُ به حوادِثَ الدَّهرِ ومَصائِبَه! قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: انتَظِروا ما يُصيبُني مِنَ الهَلاكِ؛ فإنِّي أيضًا مِنَ المُنتَظِرينَ ما يُصيبُكم مِن عذابِ اللهِ.

أم أمَرَتْهم عُقولُهم بهذا التَّكذيبِ والبُهتانِ؟! أمْ هم قَومٌ تجاوَزوا حُدودَ اللهِ؟!

أم يَقولُونَ: اختَلَق محمَّدٌ القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ونَسَبَه إلى اللهِ تعالى كَذِبًا؟! ليس الأمرُ كما يَقولُونَ، بل لا يُؤمِنونَ بالحَقِّ الَّذي جاءَهم مِنَ اللهِ تعالى!

ثمَّ يقولُ تعالى متحدِّيًا لهم: فلْيَأْتوا بمِثْلِ هذا القُرآنِ إن كانوا صادِقينَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مستدِلًّا عليهم بأمرٍ لا يمكنُهم فيه إلَّا التَّسليمُ للحقِّ: أم خُلِق أولئك المُشركونَ مِن غَيرِ خالِقٍ يَخلُقُهم؟! أم هم الخالِقونَ؟! أم خَلَقوا السَّمَواتِ والأرضَ؟! بل لا يُوقِنونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سَبَق معَ تشويقِه إلى الجنَّةِ والأعمالِ المُوصِلةِ إليها وَعْظًا يُرَقِّقُ القُلوبَ، ويُجَلِّي الكُروبَ؛ سَبَّبَ عنه قَولَه: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: جَدِّدِ التَّذكيرَ بمِثلِ هذا لكُلِّ مَن يرجو خَيرَه، ودُمْ على ذلك[1].

وأيضًا لَمَّا تَقدَّمَ إقسامُ اللهِ تعالى على وُقوعِ العَذابِ، وذَكَر أشياءَ مِن أحوالِ المعَذَّبينَ والنَّاجينَ؛ أمَرَه بالتَّذكيرِ إنذارًا للكافِرِ، وتبشيرًا للمؤمِنِ، ودعاءً إلى اللهِ تعالى بنَشرِ رِسالتِه، ثمَّ نفَى عنه ما كان الكُفَّارُ يَنسُبونَه إليه مِن الكِهانةِ والجُنونِ؛

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١).

إذ كانا طريقَينِ إلى الإخبارِ ببَعضِ المُغَيَّباتِ، وكان للجِنِّ بهما مُلابَسةٌ للإنْسِ[(١)].

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾.

أي: فذكِّرِ النَّاسَ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ؛ فلَسْتَ -بإنعامِ اللهِ عليك- بكاهِنٍ تدَّعي عِلمَ الغَيبِ، ولستَ بمَجنونٍ فاقدٍ للعَقلِ كما يَزعُمونَ، بلْ ما تَقولُه وَحْيٌ مِنَ اللهِ تعالى[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩، ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٠).

قال الشوكاني: (﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ أي: اثبُتْ على ما أنت عليه مِن الوعظِ والتَّذكيرِ، والباءُ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ هو حالٌ، أي: ما أنت مُتلبِّسًا بنعمةِ ربِّك الَّتي أنعَمَ بها عليك مِن رَجاحةِ العقلِ والنُّبوَّةِ بكاهِنٍ ولا مجنونٍ. وقيل: بمحذوفٍ يدُلُّ عليه الكلامُ، أي: ما أنت في حالِ إذكارِك بنعمةِ ربِّك بكاهِنٍ ولا مجنونٍ. وقيل: الباءُ سببيَّةٌ مُتعلِّقةٌ بمَضمونِ الجملةِ المنفيَّةِ، والمعنى: انتفى عنك الكِهانةُ والجنونُ بسببِ نعمةِ الله عليك، كما تقولُ: ما أنا بمُعسِرٍ بحمدِ الله. وقيل: الباءُ للقسَمِ، متوَسِّطةٌ بيْنَ اسمِ «ما» وخبَرِها، والتَّقديرُ: ما أنت ونعمةِ الله بكاهِنٍ ولا مجنونٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: بإنعامِه عليك بالنُّبوَّةِ وما أنزَل عليك مِن الوحيِ: ابنُ الجوزي، والنسفي، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٠).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: ما أنت بحمدِ الله وإنعامِه: ابنُ أبي زَمَنين، والزمخشريُّ، والبيضاوي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: برحمتِه وعِصمتِه: البغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٠).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: أم[1] يَقولُ مُشرِكو قُرَيشٍ: مُحمَّدٌ شاعِرٌ ننتَظِرُ به حوادِثَ الدَّهرِ وقوارِعَه،

(١) ممَّن اختار أنَّ «أمْ» هنا للاستِفهامِ: الخليلُ -كما في ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩)- والسَّمعانيُّ، وابن جُزَي، والمعنى: أيَقولون شاعرٌ؟ يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٣).

قال ابن جُزَي: («أم» في هذا الموضِعِ وفيما بعدَه للاستِفهامِ بمعنى الإنكارِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٣).

وممَّن اختار أنَّ «أمْ» هي المُنقَطِعةُ: الرَّسْعَنيُّ، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩١).

وفي «أم» المُنقطِعةِ خِلافٌ: هل هي مُقَدَّرةٌ بـ(بَلْ) والهمزةِ، أو بـ(بَلْ) وحْدَها؟ ونصَّ الرَّسْعَنيُّ، والعُلَيمي، وابنُ عثيمينَ على أنَّها بمعنى (بل) والهمزةِ، والمعنى: بل أيَقولون. ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩).

قال النسفي: (و«أمْ» في أوائلِ هذه الآيِ مُنقطِعةٌ بمعنى بلْ والهمزةِ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٦)، وذكَر الرَّسْعَنيُّ أيضًا أنَّ هذا هو معنى «أم» في هذه الآيةِ والآياتِ التي تَليها. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥١).

ومذهَبُ البصريِّينَ أنَّ (أم) المنقَطِعةَ بمعنى (بل) والهمزةِ، وذهَب الكِسائيُّ وهشامٌ إلى أنَّها بمعنى (بلْ) فقط، واختار ابنُ مالكٍ أنَّ الأصلَ فيها الإضرابُ (معنى بل)، والأكثَرُ أنَّها تُفيدُ الاستِفهامَ مع الإضرابِ، واختار ابنُ هشامٍ أنَّها قد تأتي بمعنى (بلْ) وحْدَها، وقد تأتي بمعنى (بلْ) والهمزةِ. يُنظر: ((شرح التسهيل)) لابن مالك (٣/ ٣٦٢)، ((شرح الكافية الشافية)) لابن مالك (٣/ ١٢١٩)، ((الجنى الداني في حروف المعاني)) للمرادي (ص: ٢٠٥)، ((شرح شذور الذهب)) لابن هشام (ص: ٥٨٠)، ((المساعد على تسهيل الفوائد)) لابن عقيل (٢/ ٤٥٦).=

فيَموتُ ويَهلِكُ كما هَلكَ مَن قَبْلَه مِنَ الشُّعراءِ، ونَستريحُ منه ومِن شَأنِه[١]؟!

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك المُشرِكينَ: انتَظِروا ما يُصيبُني مِنَ الهَلاكِ؛ فإنِّي أيضًا مِنَ المُنتَظِرينَ ما يُصيبُكم مِن عذابِ اللهِ، وسنَعلَمُ لِمَن تكونُ العاقِبةُ الحَسَنةُ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾.

= وقال ابن القيم في تفسيرِ ﴿أَمْ﴾ المُنقطِعةِ: (الحقُّ أن يُقالَ: إنَّها على بابِها وأصلِها الأوَّلِ مِن المُعادَلةِ والاستِفهامِ حيث وقعتْ، وإن لم يكُنْ قبْلَها أداةُ استِفهامٍ في اللَّفظِ، وتقديرُها بـ «بَلْ» والهمزةِ خارجٌ عن أُصولِ اللُّغةِ العربيَّةِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٠٦، ٢٠٧). ويُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

وقال الشوكاني: (قال سيبوَيْهِ: خُوطِبَ العبادُ بما جَرَى في كلامِهم. قال النَّحَّاسُ: يريدُ سيبويهِ أنَّ «أمْ» في كلامِ العربِ للخروجِ مِن حديثٍ إلى حديثٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩١).

قال ابنُ عثيمين: (قيل: إنَّ المَنُونَ: هو الدَّهرُ. وقيل: إنَّ المَنُونَ هو الموتُ، وهما مُتلازِمانِ، والمرادُ بذلك حوادِثُ الدَّهرِ المُهلِكةُ المُبيدةُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩١، ١٩٢).

أي: هل أمَرَتْهم عُقولُهم بهذا التَّكذيبِ للرَّسولِ، ووَصْفِه بالباطِلِ[١]؟!

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

أي: أمْ هم قَومٌ تجاوَزوا حُدودَ اللهِ، فحَمَلَهم طُغيانُهم هذا على تَكذيبِ الرَّسولِ، ورَمْيِه بالباطِلِ[٢]؟!

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾.

أي: أم يَقولُونَ: اختَلَق محمَّدٌ القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ونَسَبَه إلى اللهِ تعالى كَذِبًا[٣]؟!

كما قال تعالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [السجدة: ٣].

﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَقولُونَ، بل هم غَيرُ مُؤمِنينَ بالحَقِّ الَّذي جاءَهم مِنَ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٢).

تعالى، ولو آمَنوا لَمَا قالوا ما قالوا[١].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ثمَّ ردَّ الله عليهم جميعَ ما زعَموا وتحدَّاهم في دحضِ ما قالوا، فقال[٢]:

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: فلْيَأْتِ المُشرِكونَ بمِثْلِ هذا القُرآنِ إن كانوا صادِقينَ في دَعواهم أنَّ مُحمَّدًا افتَراه وتقَوَّلَه مِن عندِ نَفْسِه، فإنْ عَجَزوا عن ذلك فإنَّهم كاذِبونَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٥-٦٧).

قال ابن عاشور: (يجوزُ أن يكونَ الحديثُ هنا قد أُطلِقَ على الكلامِ... أي: فلْيَأتوا بكلامٍ مِثلِه، أي: في غَرَضٍ مِن الأغراضِ الَّتي يَشتَمِلُ عليها القُرآنُ، لا خُصوصِ الأخبارِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الحَديثُ هنا أُطلِقَ على الأخبارِ، أي: فلْيأتوا بأخبارٍ مِثلِ قَصَصِ القُرآنِ، فيَكونَ استِنزالًا لهم؛ فإنَّ التَّكَلُّمَ بالأخبارِ أسهَلُ على المتكَلِّمِ مِن ابتكارِ الأغراضِ الَّتي يتكَلَّمُ فيها؛ فإنَّهم كانوا يقولونَ: إنَّ القُرآنَ «أساطيرُ الأوَّلينَ»، أي: أخبارٌ عن الأُمَمِ الماضِينَ، فقيلَ لهم: فلْيأتوا بأخبارٍ مِثلِ أخبارِه؛ لأنَّ الإتيانَ بمِثلِ ما في القُرآنِ مِن المعارِفِ والشَّرائعِ والدَّلائلِ لا قِبَلَ لعُقولِهم به، وقُصاراهم أن يَفهَموا ذلك إذا سَمِعوه. ومعنى المِثْليَّةِ في قَولِه: ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ المِثْليَّةُ في فَصاحتِه وبلاغتِه، وهي خُصوصيَّاتٌ يُدرِكونَها إذا سَمِعوها، ولا تحيطُ قرائحُهم بإيداعِها في كلامِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٦).

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كَذَّبوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونَسَبوه إلى الكِهانةِ والجُنونِ والشِّعرِ، وبَرَّأه اللهُ مِن ذلك؛ ذكَرَ الدَّليلَ على صِدقِه إبطالًا لتَكذيبِهم، وبَدَأ بأنفُسِهم، كأنَّه يقولُ: كيف يُكَذِّبونَه وفي أنفُسِهم دَليلُ صِدقِه[1]؟!

ما ورد في هذه الآيةِ والآيتَينِ بعدَها:

عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رضيَ الله عنه، قال: ((سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ في المَغرِبِ بالطُّورِ، فلمَّا بَلَغ هذه الآيةَ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ قال: كاد قَلبي أن يَطيرَ[2]!))[3].

وفي روايةٍ قال: (وذلك أوَّلَ ما وقَرَ[4] الإيمانُ في قلبي[5])[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٥).

(٢) قال الخَطَّابي: (إنَّما كان انزِعاجُه عندَ سَماعِ هذه الآيةِ لحُسنِ تَلَقِّيه معنى الآيةِ، ومَعرفتِه بما تضَمَّنَتْه مِن بليغِ الحُجَّةِ، فاستَدرَكَها واستَشَفَّ مَعناها بذَكِيِّ فَهْمِه). ((أعلام الحديث)) (٣/ ١٩١٢).

وقال ابن عثيمين: («كاد قلبي يطيرُ»؛ لقُوَّةِ هذا الدَّليلِ المُفحِمِ المُقنِعِ حتَّى دخَل الإيمانُ في قَلبِه، ثمَّ اطمأنَّ الإيمانُ في قلبِه بعدَ ذلك؛ لأنَّ هذه الآيةَ دليلٌ واضِحٌ على أنَّ الخَلْقَ حادِثٌ بعدَ أنْ لم يكُنْ، وأنَّ الَّذي أحدَثَه هو الله). ((فتح ذي الجلال والإكرام)) (٢/ ٩٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٨٥٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٦٣) مختصرًا.

(٤) وقَر: أي: ثبَت. يُنظر: ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (٢١/ ٩٩).

(٥) قال ابنُ كثيرٍ: (وجُبَيْرُ بنُ مُطْعِمٍ كان قد قَدِم على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَ وَقْعةِ بَدْرٍ في فِداءِ الأُسارَى، وكان إذ ذاك مُشرِكًا، وكان سماعُه هذه الآيةَ مِن هذه السُّورةِ مِن جُملةِ ما حَمَله على الدُّخولِ في الإسلامِ بعدَ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧).

وقال القَسْطَلَّاني: (وقد كان حِينَئذٍ كافِرًا، ولم يَنطِقْ بالإسلامِ والتزَمَ أحكامَه إلَّا عندَ فَتحِ مكَّةَ). ((إرشاد الساري)) (٦/ ٢٧٣).

(٦) أخرجها البخاري (٤٠٢٣).

﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾.

أي: أم خُلِق أولئك المُشرِكونَ مِن غَيرِ خالِقٍ يَخلُقُهم[(١)]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٣٦)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٤).

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى المذكورِ: السمرقنديُّ، واستظهره السمعانيُّ، وذهب إليه ابنُ تيميَّةَ ونَسَبه إلى الأكثَرينَ، واختاره ابنُ القيِّم، وابنُ كثير، والشوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٥).

وقيل: المعنى: أخُلِق المُشرِكونَ مِن غَيرِ آباءٍ ولا أمَّهاتٍ، فهم كالجَمادِ لا يَعقِلونَ؟! وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٣١).

وقيل: المعنى: أم خُلِقوا باطِلًا لِغَيرِ شَيءٍ، فهم لا يُؤمَرونَ ولا يُنهَونَ ولا يُحاسَبونَ؟! وممَّن اختار هذا المعنى: الواحديُّ، وأبو القاسمِ النَّيْسابوريُّ، وذكره الزَّجَّاجُ قَولًا في الآيةِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٣٦)، ((إيجاز البيان)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٧٦٩).

وقال ابنُ أبي زَمَنين: (﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ أي: لم يُخلَقوا مِن غَيرِ شَيءٍ، خَلَقْناهم مِن نُطفةٍ، وأوَّلُ ذلك مِن ترابٍ). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وقيل: أم خُلِقوا مِن غيرِ مادَّةٍ؟ وهذا ضعيفٌ؛ لِقَولِه بعد ذلك: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، فدَلَّ ذلك على أنَّ التَّقسيمَ: أم خُلِقوا مِن غيرِ خالِقٍ، أم هم الخالِقون؟ ولو كان المرادُ مِن غيرِ مادَّةٍ، لَقال: أم خُلِقوا مِن غيرِ شَيءٍ أم مِن ماءٍ مَهينٍ؟ فدَلَّ على أنَّ المرادَ: أنَا خالِقُهم لا مادَّتُهم، ولأنَّ كَونَهم خُلِقوا مِن غيرِ مادَّةٍ ليس فيه تعطيلُ وُجودِ الخالِقِ، فلو ظَنُّوا ذلك لم يَقدَحْ في إيمانِهم بالخالِقِ، بل دَلَّ على جَهْلِهم، ولأنَّهم لم يَظُنُّوا ذلك، ولا يُوسْوِسُ الشَّيطانُ لابنِ آدَمَ بذلك، بل كلُّهم يَعرِفونَ أنَّهم خُلِقوا مِن آبائِهم وأُمَّهاتِهم، ولأنَّ اعترافَهم بذلك لا يُوجِبُ إيمانَهم، ولا يَمنَعُ كُفرَهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٨/ ٢٣٦). =

﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾.

أي: أم هم الخالِقونَ لأنفُسِهم أو لِغَيرِهم مِنَ المخلوقاتِ(١)؟!

قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

= وقال الرازي: (ما المرادُ مِن قولِه تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾؟ نقولُ: فيه وُجوهٌ، المنقولُ منها أنَّهم خُلِقوا مِن غيرِ خالِقٍ. وقيل: إنَّهم خُلِقوا لا لِشَيءٍ عبَثًا. وقيل: إنَّهم خُلِقوا مِن غيرِ أبٍ وأمٍّ. ويحتمِلُ أن يُقالَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، أي: ألم يُخلَقوا مِن ترابٍ أو مِن ماءٍ؟ ودليلُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]. ويحتملُ أن يُقالَ: الاستِفهامُ الثَّاني ليس بمعنى النَّفيِ، بل هو بمعنى الإثباتِ؛ قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٩] و﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤] و﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧٢] كلُّ ذلك في الأوَّلِ مَنفيٌّ، وفي الثَّاني مُثبَتٌ، كذلك هاهنا قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي: الصَّادقُ هو هذا الثَّاني حينَئذٍ، وهذا كما في قولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، فإن قيل: كيف يكونُ ذلك الإثبات، والآدميُّ خُلِق مِن تُرابٍ؟ نقولُ: والتُّرابُ خُلِق مِن غيرِ شَيءٍ، فالإنسانُ إذا نظَرْتَ إلى خَلقِه وأسنَدْتَ النَّظرَ إلى ابتِداءِ أمرِه وجَدْتَه خُلِق مِن غيرِ شَيءٍ. أوْ نقول: المرادُ: أمْ خُلِقوا مِن غيرِ شَيءٍ مَذكورٍ أو مُعتبَرٍ، وهو الماءُ المَهينُ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٤).

قال القرطبي: (﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، أي: أَيقولونَ إنَّهم خَلَقوا أنفُسَهم فهم لا يأتَمِرونَ لأمرِ اللهِ، وهم لا يقولونَ ذلك، وإذا أقرُّوا أنَّ ثَمَّ خالِقًا غَيرَهم فما الذي يمنَعُهم مِنَ الإقرارِ له بالعبادةِ دونَ الأصنامِ، ومِنَ الإقرارِ بأنَّه قادِرٌ على البَعثِ؟). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤).

أي: أمْ هم الَّذين خَلَقوا السَّمَواتِ والأرضَ[(١)]؟!

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾.

أي: لم يَخلُقِ المُشرِكونَ ذلك، ولكِنْ عَدَمُ يَقينِهم بالحَقِّ هو الَّذي حمَلَهم على تَرْكِه، والوُقوعِ في الباطِلِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٦).

قال ابنُ القيِّم: (فإنْ قِيلَ: فما مَوقِعُ قَولِه: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مِن هذه الحُجَّةِ؟ قيل: أحسَنُ مَوقِعٍ؛ فإنَّه بَيَّن بالقِسمَينِ الأوَّلَينِ أنَّ لهم خالِقًا وفاطِرًا، وأنَّهم مخلوقونَ، وبَيَّن بالقِسمِ الثَّالِثِ أنَّهم بعدَ أنْ وُجِدوا وخُلِقوا فهم عاجِزونَ غَيرُ خالِقينَ؛ فإنَّهم لم يَخلُقوا نُفوسَهم، ولم يَخلُقوا السَّمَواتِ والأرضَ؛ وأنَّ الواحِدَ القَهَّارَ الَّذي لا إلهَ غَيرُه ولا رَبَّ سِواه هو الَّذي خلَقَهم وخَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؛ فهو المتفَرِّدُ بخَلقِ المَسكَنِ والسَّاكِنِ، بخَلقِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ وما فيه). ((الصواعق المرسلة)) (٢/ ٤٩٤).

وقال ابنُ عاشورٍ: (المعنى: أنَّ الَّذي خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ لا يُعجِزُه إعادةُ الأجسادِ بعدَ الموتِ والفَناءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٦، ١٩٧).

قال ابن جرير: (لا يُوقِنونَ بوَعيدِ اللهِ وما أعَدَّ لأهلِ الكُفرِ به مِنَ العَذابِ في الآخِرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٧).

وقال الزمخشري: (إذا سُئِلوا مَن خَلَقَكم وخَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؟ قالوا: اللهُ، وهم شاكُّونَ فيما يقولونَ، لا يُوقِنونَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٤).

وقال السعدي: (لَكِنَّ المُكَذِّبينَ ﴿لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: ليس عِندَهم عِلمٌ تامٌّ، ويَقينٌ يُوجِبُ لهم الانتِفاعَ بالأدِلَّةِ الشَّرعيَّةِ والعَقليَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ تأمَّلْ هذا التَّرديدَ والحَصرَ المتضَمِّنَ لإقامةِ الحُجَّةِ بأقرَبِ طَريقٍ، وأفصَحِ عِبارةٍ؛ يقولُ تعالى: هؤلاء مخلوقونَ بعدَ أنْ لم يَكونوا، فهل خُلِقوا مِن غيرِ خالِقٍ خَلَقَهم؟! فهذا مِنَ المُحالِ المُمتَنِعِ عندَ كُلِّ مَن له فَهمٌ وعَقلٌ؛ أن يكونَ مَصنوعٌ مِن غيرِ صانِعٍ، ومخلوقٌ مِن غيرِ خالِقٍ. ولو مَرَّ رجُلٌ بأرضٍ قَفرٍ لا بناءَ فيها، ثمَّ مَرَّ بها فرأى فيها بُنيانًا وقُصورًا وعِماراتٍ مُحكَمةً؛ لم يتخالَجْه شَكٌّ ولا رَيبٌ أنَّ صانِعًا صنَعَها، وبانيًا بناها. ثمَّ قال: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، وهذا أيضًا مِن المُستَحيلِ؛ أن يكونَ العَبدُ مُوجِدًا خالِقًا لنَفْسِه؛ فإنَّ مَن لا يَقدِرُ أن يَزيدَ في حياتِه بعدَ وُجودِه وتَعاطِيه أسبابَ الحياةِ ساعةً واحِدةً، ولا إِصْبَعًا ولا ظُفُرًا ولا شَعرةً، كيف يكونُ خالِقًا لنَفْسِه في حالِ عَدَمِه؟!

وإذا بَطَلَ القِسمانِ تعَيَّنَ أنَّ لهم خالِقًا خلَقَهم، وفاطِرًا فطَرَهم؛ فهو الإلهُ الحَقُّ الَّذي يَستَحِقُّ عليهم العِبادةَ والشُّكرَ، فكيف يُشرِكونَ به إلهًا غَيرَه وهو وَحْدَه الخالِقُ لهم[1]؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ قد اكْتُفِيَ في إبطالِ كَونِه كاهنًا أو مَجنونًا بمُجرَّدِ النَّفيِ دونِ استِدلالٍ عليه؛ لأنَّ مُجرَّدَ التَّأمُّلِ في حالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كافٍ في تَحقُّقِ انتفاءِ ذَينِكَ الوصْفَينِ عنه، فلا يُحتاجُ

= وقال ابنُ عثيمين: (ليس عندَهم إيقانٌ في خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ؛ أنَّ الَّذي خلَقَهم هو الله؛ لأنَّه لو كان عندَهم يَقينٌ لَحمَلَهم هذا اليَقينُ على تصديقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والإقرارِ برسالتِه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٦، ١٩٧).

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٩٣، ٤٩٤).

في إبطالِ اتِّصافِه بهما إلى أكثَرَ مِن الإخبارِ بنَفْيِهما؛ لأنَّ دَليلَه المُشاهَدةُ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥] نَجِدُ آدابًا كثيرةً مِن المناظَرةِ؛ فقد تَدَرَّجَ اللهُ تعالى معهم في الحُجَجِ، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨]؛ إنْ كان الأمرُ كذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور: ٣٨]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، فإنْ كان الأمرُ كذلك ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾، فاللهُ سُبحانَه وتعالى في ختامِ المناظرةِ يَجعَلُ الخَصمَ مُفحَمًا بتحَدِّيه بما لا يَستطيعُ[٢].

٣- قال تعالَى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ لَمَّا كان انتِفاءُ كَونِه شاعِرًا أمْرًا واضحًا يَكْفي فيه مُجرَّدُ التَّأمُّلِ، لم يَتَصدَّ القرآنُ للاستِدلالِ على إبطالِه، وإنَّما اشتَمَلَت مَقالتُهم على أنَّهم يَتربَّصون أنْ يحُلَّ به ما حَلَّ بالشُّعراءِ الَّذين همْ مِن جُملةِ النَّاسِ، فأمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُجيبَهم عن مَقالتِهم هذه بأنْ يقولَ: ﴿تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾، وهو جوابٌ مُنصِفٌ؛ لأنَّ تَربُّصَ حُلولِ حَوادثِ الدَّهْرِ بأحدِ الجانبينِ، أو حُلولِ المَنيَّةِ مُشترِكُ الإلزامِ، لا يَدْري أحدُنا ماذا يَحُلُّ بالآخَرِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ سؤالٌ عن وَجهِ تعَلُّقِ قَولِهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ بقَولِهم: ﴿شَاعِرٌ﴾؟

الجوابُ فيه وَجهانِ:

الأوَّلُ: أنَّ العَرَبَ كانت تحترِزُ عن إيذاءِ الشُّعَراءِ، وتتَّقي ألسِنَتَهم؛ فإنَّ الشِّعرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٢).

كان عندَهم يُحفَظُ ويُدَوَّنُ، وقالوا: لا نُعارِضُه في الحالِ؛ مخافةَ أن يَغلِبَنا بقُوَّةِ شِعرِه، وإنَّما سَبيلُنا الصَّبرُ وتربُّصُ مَوتِه.

الثَّاني: أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ: إنَّ الحَقَّ دينُ اللهِ، وإنَّ الشَّرعَ الَّذي أتيتُ به يَبقَى أبَدَ الدَّهرِ، وكتابي يُتلَى إلى قيامِ السَّاعةِ، فقالوا: ليس كذلك، إنَّما هو شاعِرٌ، والَّذي يَذكُرُه في حَقِّ آلهتِنا شِعرٌ، ولا ناصِرَ له، وسيُصيبُه مِن بَعضِ آلهتِنا الهَلاكُ، فنتَرَبَّصُ به ذلك[1].

٥- كلُّ آيةٍ مِن القُرآنِ فإنَّها مُعجِزةٌ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾. حديثٌ: آيةٌ، أو عَشْرُ آياتٍ، أو سورةٌ، أو عَشرُ سُوَرٍ، أو القُرآنُ كُلُّه[2]؛ فتَبيَّنَ بُطلانُ قَولِهم: إنَّه تقوَّلَه؛ لأنَّ اللهَ تعالى تحَدَّاهم أن يأتُوا بمِثْلِه، إنْ كانوا صادِقينَ في دَعواهم أنَّك تقوَّلْتَه فلْيَأتوا بحديثٍ مِثلِه، ولكِنَّهم عَجَزوا[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ لم يُكَلِّفْهم نَفْسَ الإحداثِ، بل طالَبَهم بالإتيانِ بمِثلِه؛ إمَّا إحداثًا، وإمَّا تبليغًا عنِ اللهِ أو عن مَخلوقٍ؛ لِيُظهِرَ عَجزَهم عن جميعِ الجِهاتِ[4].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ الاستِدلالُ بدَليلِ «السَّبْرِ والتَّقسيمِ»[5]، وهو مِن أُمَّهاتِ الجَدَلِ العِظامِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٤).

على خلافٍ في قَدْرِ المُعْجِزِ مِن القرآنِ. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٤/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٧٢).

(٥) السَّبرُ والتَّقسيمُ: يُقصَدُ بالتَّقسيمِ عندَ الأصوليِّين: حصْرُ الأوصافِ الَّتي تَحتمِلُ أنْ يُعَلَّلَ بها حُكمُ الأصلِ في عدَدٍ مُعيَّنٍ، والسَّبرُ: هو الاختبارُ لكلِّ الأوصافِ الَّتي قدْ جُمِعَت، فيُستبْعَدُ =

شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ كأنَّه يقولُ: لا يخلو حالُهم مِن واحِدةٍ مِن ثَلاثِ حالاتٍ: إمَّا أن يكونوا خَلَقوا أنفُسَهم، أو خُلِقوا مِن غَيرِ خالِقٍ، أو خَلَقَهم خالِقٌ، فهذه ثلاثةُ أقسامٍ؛ اثنانِ منها باطِلانِ بلا نِزاعٍ -وهو كَونُهم خَلَقوا أنفُسَهم، أو خُلِقوا مِن غيرِ خالِقٍ-، فتغَلَّب القِسمُ الثَّالِثُ: أنَّ لهم خالِقًا هو رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ، تجِبُ عليهم طاعتُه وعِبادتُه[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ أنَّ العِلمَ بأنَّ «المُحدَثَ لا بُدَّ له مِن مُحدِثٍ» عِلمٌ فطريٌّ ضروريٌّ[2]، حتَّى للصِّبيانِ؛ فإنَّ الصَّبيَّ لو ضَرَبَه ضاربٌ، وهو غافلٌ لا يُبصِرُه؛ لَقال: مَن ضرَبَني؟ فلو قيلَ له: لم يَضْرِبْك أحَدٌ، لم يَقبَلْ عَقلُه أن تكونَ الضَّربةُ حدَثَت مِن غيرِ مُحدِثٍ، بل يَعلَمُ أنَّه لا بُدَّ للحادثِ مِن مُحدِثٍ، فإذا قيل: فُلانٌ ضَرَبَك، بكى حتَّى يَضرِبَ ضاربَه؛ فكان في فِطرتِه الإقرارُ بالصَّانعِ، وبالشَّرعِ الَّذي مَبناه على العَدلِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[3].

٩- مِن اللَّطائِفِ: أنَّه أعادَ (أَمْ) في هذه السُّورةِ خمْسَ عَشْرةَ مرَّةً، وكلُّها

= منها ما لا يَصلُحُ أنْ يكون عِلَّةً يُعلَّلُ بها الحُكمُ، ويُستبقَى ما يَصلُحُ أن يكونَ عِلَّةً، مثالُ ذلك أنْ يقولَ المجتهِدُ: تَحريمُ الرِّبا في «البُرِّ» ثبَتَ لعِلَّةٍ، والعِلَّةُ هذه هي إمَّا لِكَونِه مَكيلًا، وإمَّا لكَونِه مَطْعومًا، وإمَّا لكونِه قوتًا مُدَّخرًا، وإمَّا لكونِه مَوْزونًا، وإمَّا لكونِه مالًا. فهذا يُسمَّى «التَّقسيم»، ثمَّ يَختبِرَ هذه العِلَلَ ويَختارَ ما يَراهُ صَحيحًا ويُهمِلَ ما عداهُ، والتَّقسيمُ مُقدَّمٌ على السَّبْرِ في التَّطبيقِ. يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٧)، ((الإحكام في أصول الأحكام)) للآمدي (٣/ ٢٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٩١، ٤٩٢)، ((التعريفات الفقهية)) للبركتي (ص: ١١١).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٣٥٨).

إلزاماتٌ؛ ليس للمُخاطَبينَ بها عنها جوابٌ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾

- قولُه: ﴿فَذَكِّرْ ...﴾ تَفريعٌ على ما تَقدَّمَ كلِّه مِن قَولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ٧]؛ لأنَّه تَضمَّنَ تَسليةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن تَكذيبِ المُكذِّبين والافتِراءِ عليه، وعُقِّبَ بهذا؛ لأنَّ مِن النَّاسِ مُؤمنينَ به، مُتيَقِّنينَ أنَّ اللهَ أرْسَلَه مع ما أعدَّ لِكِلا الفريقَينِ، فكان ما تَضمَّنه ذلك يَقْتضي أنَّ في استِمرارِ التَّذكيرِ حِكمةً أرادَها اللهُ، وهي ارعِواءُ بَعضِ المُكذِّبينَ عن تكذيبِهم، وازديادُ المُصدِّقينَ تَوغُّلًا في إيمانِهم، ففُرِّعَ على ذلك أنْ أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالدَّوامِ على التَّذكيرِ[٢].

- وهذا الأمْرُ ﴿فَذَكِّرْ﴾ مُستعمَلٌ في طَلَبِ الدَّوامِ، والمعْنى: فاثبُتْ على ما أنتَ عليه مِن التَّذكيرِ بما أُنزِلَ إليك مِن الآياتِ والذِّكْرِ الحَكيمِ[٣].

- ولَمَّا كان أثَرُ التَّذكيرِ أهمَّ بالنِّسبةِ إلى فَريقِ المُكذِّبينَ ليَهتدِيَ مَن شُرِحَ قلْبُه للإيمانِ، رُوعِيَ ما يَزيدُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثَباتًا على التَّذكيرِ مِن تَبْرئتِه ممَّا يُواجِهونَه مِن قولِهم له: هو كاهنٌ، أو هو مَجنونٌ، فربَطَ اللهُ جأْشَ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأعْلَمَه بأنَّ بَراءتَه مِن ذلك نِعمةٌ أنعَمَ بها عليه ربُّه تعالى، ففُرِّعَ هذا الخبرُ على الأمْرِ بالتَّذكيرِ بقولِه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨).

بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾. ونفْيُ هَذينِ الوَصْفينِ عنه -في خِطابِ أمثالِه ممَّن يَستحِقُّ الوصْفَ بصِفاتِ الكَمالِ- يدُلُّ على أنَّ المُرادَ مِن النَّفيِ غرَضٌ آخَرُ، وهو هنا إبطالُ نِسبةِ مَن نسَبَه إلى ذلك، ولذلك حسُنَ تَعقيبُه بقولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ [الطور: ٣٠] مُصرَّحًا فيه ببَعضِ أقوالِهم، فعُلِمَ أنَّ المَنْفيَّ عنه فيما قبْلَه مَقالةٌ مِن مَقالِهم(١).

- وقدِ اشتَمَلَت هاتِه الكلمةُ الطَّيِّبةُ ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ على خَصائصَ تُناسِبُ تَعظيمَ مَن وُجِّهت إليه، وبيانُ ذلك: أنَّها صِيغَت في نَظْمِ الجُملةِ الاسميَّةِ، فقِيلَ فيها: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ دونَ: (فلسْتَ بكاهنٍ)؛ لتَدُلَّ على ثَباتِ مَضمونِ هذا الخبَرِ. وقُدِّمَ فيها المُسنَدُ إليه، مع أنَّ مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُقدَّمَ المُسنَدُ، وهو ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾؛ لأنَّ المَقامَ يَقْتضي الاهتِمامَ بالمُسنَدِ، ولكنَّ الاهتِمامَ بالضَّميرِ المُسنَدِ إليه كان أرجَحَ هنا؛ لِما فيه مِن استِحضارِ مُعادِه المُشعِرِ بأنَّه شَيءٌ عَظيمٌ. وأفادَ مع ذلك أنَّ المَقصودَ أنَّه مُتَّصِفٌ بالخبَرِ، لا نفْسُ الإخبارِ عنه بالخبَرِ، كقَولِنا: الرَّسولُ يأْكُلُ الطَّعامَ ويَتزوَّجُ النِّساءَ. وأفاد أيضًا قصْرًا إضافيًّا(٢) بقَرينةِ المَقامِ؛ لقَلْبِ ما يَقولونَه أو يَعتقِدونَه مِن قَولِهم: هو كاهنٌ أو مَجنونٌ. وقُرِنَ الخبَرُ المَنْفيُّ بالباءِ الزَّائدةِ؛ لتَحقيقِ النَّفيِ، فحصَلَ في الكلامِ تَقويتانِ. وجِيءَ بالحالِ قبْلَ الخبَرِ، أو بالجُملةِ المُعترِضةِ بيْنَ المُبتدأِ والخبَرِ؛ لتَعجيلِ المَسرَّةِ، وإظهارِ أنَّ اللهَ أنعَمَ عليه بالبَراءةِ مِن هذَينِ الوَصْفينِ. وعُدِلَ عن استِحضارِ الجَلالةِ بالاسمِ العَلَمِ إلى تَعريفِه بالإضافةِ وبوَصْفِه الرَّبِّ؛ لإفادةِ لُطْفِه تعالى برَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه ربُّه، فهو يَرُبُّه ويُدبِّرُ نفْعَه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨، ٥٩).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

ولتُفيدَ الإضافةُ تَشريفَ المُضافِ إليه[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ ...﴾ (أَمْ) مُنقطِعةٌ، وهي للإضرابِ عن مَقالتِهم المرْدودةِ بقَولِه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]؛ للانتِقالِ إلى مَقالةٍ أُخرى، وهي قولُهم: (هو شاعرٌ نتربَّصُ به رَيبَ المَنونِ). وعُدِلَ عن الإتيانِ بحرْفِ (بل) مع أنَّه أشهَرُ في الإضرابِ الانتِقاليِّ؛ لقصْدِ تَضمُّنِ (أَمْ) للاستِفهامِ، والمعْنى: بلْ أيقولونَ: شاعرٌ... إلخ. والاستِفهامُ المُقدَّرُ إنكاريٌّ[٢].

- وإنْ كانتْ (أَمْ) مُجرَّدةً عن عمَلِ العطْفِ؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا، وإلَّا فهي عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾[٣] [الطور: ٢٩].

- ومُناسَبةُ هذا الانتقالِ أنَّ أمْرَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالدَّوامِ على التَّذكيرِ، يُشيرُ إلى مَقالاتِهم الَّتي يَرُدُّون بها دَعوتَه، فلمَّا أُشيرَ إلى بَعضِها بقولِه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]، انتُقِلَ إلى إبطالِ صِفةٍ أُخرى يُثَلِّثون بها الصِّفتينِ المذْكورتينِ قبْلَها، وهي صِفةُ شاعرٍ[٤].

- وجاء ﴿يَقُولُونَ﴾ مُضارِعًا؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ ذلك القولِ منهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٠، ٦١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦١).

- قولُه: ﴿تَتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ التَّربُّصُ مُبالَغةٌ في الرَّبْصِ، وهو الانتظارُ[١].

والباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ للسَّببِ، أي: بسَببِه، أي: نَتربَّصُ مِن أجْلِه؛ فتكونَ الباءُ مُتعلِّقةً بـ ﴿تَتَرَبَّصُ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ للمُلابَسةِ، وتتعلَّقَ بـ ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ حالًا منه مُقدَّمةً على صاحبِها، أي: حُلولَ رَيبِ المَنونِ به[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾

- وَرَدتْ جُملةُ ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ﴾ مَفصولةً بدُونِ عطْفٍ؛ لأنَّها وقَعَتْ في مَقامِ المُحاوَرةِ؛ لسَبْقِها بجُملةِ ﴿يَقُولُونَ شَاعِرٌ ...﴾ إلخ [الطور: ٣٠]، فإنَّ أمْرَ أحدٍ بأنْ يَقولَ بمَنزلةِ قَولِه، فأُمِرَ بقَولِه[٣].

- والأمْرُ في ﴿تَرَبَّصُواْ﴾ هو أمْرُ تَهديدٍ[٤]. أو الأمْرُ مُستعمَلٌ في التَّسويةِ، أي: سَواءٌ عِندي تربُّصُكم بي وعَدَمُه[٥].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ على الأمْرِ بالتَّربُّصِ، أي: فإنِّي مُتربِّصٌ بكمْ مِثلَ ما تَتربَّصون بي؛ إذْ لا نَدْري أيُّنا يُصِيبُه رَيبُ المَنونِ قبْلُ[٦].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ المَقصودِ به التَّهديدُ[٧]، وفيه عِدَةٌ كريمةٌ بإهلاكِهم[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٣٧).

(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٠).

- وتأْكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ) في قولِه: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ لتَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ أنَّه يَتربَّصُ بهمْ كما يَتربَّصون بهِ؛ لأنَّهم لغُرورِهم اقتَصَروا على أنَّهم يَتربَّصون به لِيَرَوا هَلاكَه، فهذا مِن تَنزيلِ غيرِ المُنكِرِ مَنزِلةَ المُنكِرِ[(١)].

- ولَمَّا كان قولُه: ﴿مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ مُقدَّرًا معه (بِكُمْ) -لِمُقابَلةِ قولِهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]- كان في الكَلامِ تَوجيهٌ بأنَّه يَبْقَى معهم يَتربَّصُ هَلاكَهم حِين تَبْدو بَوادِرُه، إشارةً إلى وَقْعةِ بَدْرٍ؛ إذ أصابَهم مِن الحَدَثانِ القتْلُ والأسْرُ؛ فَتكونُ الآيةُ مُشيرةً إلى صَريحِ قولِه تعالَى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾[(٢)] [التوبة: ٥٢].

- وإنَّما قال هنا: ﴿مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾؛ ليُشيرَ إلى أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتربَّصُ بهمْ رَيبَ المَنونِ في جُملةِ المُتربِّصينَ مِن المؤمنينَ[(٣)].

- وقد صِيغَ نظْمُ الكلامِ في هذه الآيةِ على ما يُناسِبُ الانتِقالَ مِن غرَضٍ إلى غرَضٍ، وذلك بما نُهِّيَ به مِن شِبْهِ التَّذييلِ بقولِه: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾؛ إذ تمَّتْ به الفاصلةُ[(٤)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ إضرابُ انتقالٍ دَعا إليه ما في الاستِفهامِ الإنكاريِّ المُقدَّرِ بعْدَ (أَمْ) مِن معْنى التَّعجيبِ مِن حالِهم؛ إذ كيف يَقولونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِثلَ ذلك القولِ السَّابِقِ ويَستقِرُّ ذلك في إدْراكِهم، وهمْ يَدَّعُون أنَّهم أهْلُ عُقولٍ، لا تَلتبِسُ عليهم أحوالُ النَّاسِ؟! فهمْ لا يَجهَلون أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليس بحالِ الكُهَّانِ، ولا المجانينِ، ولا الشُّعراءِ[١].

- ومعْنى إنكارِ أنْ تأْمُرَهم أحلامُهم بهذا أنَّ الأحلامَ الرَّاجحةَ لا تأْمُرُ بمِثلِه، وفيه تَعريضٌ بأنَّهم أضاعُوا أحلامَهم حِينَ قالُوا ذلك؛ لأنَّ الأحلامَ لا تأْمُرُ بمِثلِه، فهمْ كمَنْ لا أحلامَ لهم[٢].

- وقولُه: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ أيضًا مُتَّصِلٌ بالَّذي قبْلَه، انتُقِلَ به إلى استِفهامٍ عن اتِّصافِهم بالطُّغيانِ[٣].

- والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) مُستعمَلٌ: إمَّا في التَّشكيكِ؛ لِيَكونَ التَّشكيكُ باعثًا على التَّأمُّلِ في حالِهم، فيُومِئَ بأنَّهم طاغُون. وإمَّا مُستعمَلٌ في التَّقريرِ لكلِّ سامعٍ؛ إذْ يَجِدُهم طاغينَ[٤].

- وذِكرُ كَلِمةِ (قَومٍ) في قولِه: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ يُمهِّدُ لكَونِ الطُّغيانِ مِن مُقوِّماتِ حَقيقةِ القوميَّةِ فيهم، أي: تأصَّلَ فيهم الطُّغيانُ وخالَطَ نُفوسَهم، فدَفَعَهم إلى أمثالِ تلك الأقوالِ[٥].

- وفي الآيةِ احتِباكٌ[٦]؛ فقد ذَكَر الأحلامَ أوَّلًا دَليلًا على ضِدِّها ثانيًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) الاحتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالة الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالة الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصِر إعجازِه، وهو =

والطُّغيانَ ثانيًا دليلًا على ضِدِّه -العَدلِ السَّواءِ- أوَّلًا[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ انتِقالٌ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ...﴾ [الطور: ٣٠]. وهذا حِكايةٌ لإنكارِهم أنْ يكونَ القُرآنُ وَحْيًا مِن اللهِ، فزَعَموا أنَّه تَقوَّلَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على اللهِ، فالاستِفهامُ إنكارٌ لقَولِهم، وهمْ قد أكثَرُوا مِن الطَّعْنِ وتَمالَؤوا عليه؛ ولذلك جِيءَ في حِكايتِه عنْهم بصِيغةِ ﴿يَقُولُونَ﴾ المُفيدةِ للتَّجدُّدِ[٢].

- وابتُدِئَ الرَّدُّ عليهم بقَولِه: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لتَعجيلِ تَكذيبِهم قبْلَ الإدْلاءِ بالحُجَّةِ عليهم، وليَكونَ وُرودُ الاستِدلالِ مُفرَّعًا على قَولِه: ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ بمَنزلةِ دَليلٍ ثانٍ[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾ لَمَّا كانتْ مَقالتُهم طَعْنًا في القُرآنِ، وهو المُعجزةُ القائمةُ على صِدْقِ رِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكانتْ دَعْواهم أنَّه تقَوَّلَ على اللهِ مِن تِلْقاءِ نفْسِه قد تَرُوجُ على الدَّهْماءِ؛ تَصدَّى القُرآنُ لبَيانِ إبطالِها بأنْ تَحدَّاهم بأنْ يأْتُوا بمِثلِ هذا القُرآنِ بقولِه: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾، أي: صادِقينَ في أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تقوَّلَه مِن تِلْقاءِ نفْسِه، أي: فعَجْزُهم عن أنْ يأْتُوا بمِثلِه دَليلٌ على أنَّهم كاذِبون. ووَجْهُ المُلازَمةِ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أحدُ العرَبِ، وهو يَنطِقُ بلِسانِهم، فالمُساواةُ بيْنَه وبيْنَهم في المَقْدرةِ على نظْمِ الكَلامِ ثابتةٌ،

= مِن أَلْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فلو كان القرآنُ قد قالَه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَكانَ بَعضُ خاصَّةِ العرَبِ البُلغاءِ قادِرًا على تأْليفِ مِثلِه، فلمَّا تَحدَّاهم اللهُ بأنْ يأْتوا بمِثلِ القرآنِ وفيهم بُلَغاؤُهم وشُعراؤُهم وكَلِمتُهم، وكلُّهم واحدٌ في الكفْرِ؛ كان عَجْزُهم عن الإتيانِ بمِثلِ القرآنِ دالًّا على عجْزِ البشَرِ عن الإتيانِ بالقرآنِ؛ ولذلك قال تعالَى في سُورةِ (هُودٍ): ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[(١)] [هود: ١٣، ١٤].

- ولامُ الأمْرِ في ﴿فَلْيَأْتُوا۟﴾ مُستعمَلةٌ في أمْرِ التَّعجيزِ[(٢)]. والإتيانُ بالشَّيءِ: إحضارُه مِن مَكانٍ آخَرَ، واختِيرَ هذا الفِعلُ دونَ نحْوِ: (فلْيَقولوا مِثلَه) ونحْوِه؛ لقصْدِ الإعذارِ لهم بأنْ يُقتنَعَ منهم بجَلْبِ كَلامٍ مِثلِه ولو مِن أحَدٍ غَيرِهم[(٣)].

- وقولُه: ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾، أي: في زَعْمِهم أنَّه تقوَّلَه، أي: فإنْ لم يأْتُوا بكَلامٍ مِثلِه فهمْ كاذِبون، وهذا إلهابٌ لعَزيمتِهم؛ ليَأْتُوا بكَلامٍ مِثلِ القُرآنِ؛ لِيَكونَ عدَمُ إتيانِهم بمِثلِه حُجَّةً على كَذِبِهم[(٤)].

- وقد أشعَرَ نَظْمُ الكلامِ في قولِه: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ الواقعِ مَوقِعًا شَبيهًا بالتَّذييلِ والمَختومِ بكَلِمةِ الفاصلةِ؛ أنَّه نِهايةُ غَرَضٍ، وأنَّ ما بعْدَه شُروعٌ في غرَضٍ آخَرَ[(٥)].

٧- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٥، ٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إبطالِ ضَرْبٍ آخَرَ مِن شُبْهَتِهم في إنكارِهم البعثَ، ومِن أغراضِ هذه السُّورةِ إثباتُ البَعثِ والجَزاءِ، على أنَّ ما جاء بعْدَه مِن وصْفِ يومِ الجَزاءِ وحالِ أهْلِه قدِ اقتَضَتْه مُناسَباتٌ نَشَأتْ عنها تلك التَّفاصيلُ؛ فإذ وُفِّيَ حقُّ ما اقتَضَتْه تلك المُناسباتُ، ثُنِيَ عِنانُ الكلامِ إلى الاستِدلالِ على إمكانِ البَعثِ وإبطالِ شُبهتِهم الَّتي تَعلَّلوا بها، مِن نحْوِ قَولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، فكان قولُه تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ ...﴾ الآياتِ أدلَّةً على أنَّ ما خلَقَه اللهُ مِن بَدْءِ الخلْقِ أعظَمُ مِن إعادةِ خلْقِ الإنسانِ. وهذا مُتَّصِلٌ بقولِه آنفًا: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ [الطور: ٧]؛ لأنَّ شُبْهتَهم المَقصودُ رَدُّها بقَولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ هي قَولُهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾، ونحوُ ذلك[1].

- وحرْفُ (مِن) في قَولِه: ﴿مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ للابتِداءِ؛ فيكونَ معْنى الاستِفهامِ المُقدَّرِ بعْدَ (أَمْ) تَقريريًّا، والمعْنى: أيُقِرُّون أنَّهم خُلِقوا بعْدَ أنْ كانوا عدَمًا، فكَما خُلِقوا مِن عدَمٍ في نَشأتِهم الأُولى، يُنْشَؤونَ مِن عدَمٍ في النَّشأةِ الآخِرةِ، وذلك إثباتٌ لإمكانِ البَعثِ، ومعْنى (شَيءٍ) على هذا الوجْهِ: الموجودُ، فغَيرُ شَيءٍ: المَعدومُ، والمعْنى: أَخُلِقوا مِن عدَمٍ؟! وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ (مِن) للتَّعليلِ؛ فيكونَ الاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) إنكاريًّا، ويكونَ اسمُ (شَيءٍ) صادِقًا على ما يَصلُحُ لِمَعْنى التَّعليلِ المُستفادِ مِن حَرْفِ (مِن) التَّعليليَّةِ، والمعْنى: إنكارُ أنْ يكونَ خلْقُهم بغَيرِ حِكمةٍ، وهذا إثباتُ أنَّ البَعثَ واقعٌ مِن أجْلِ الجَزاءِ على الأعمالِ، بأنَّ الجَزاءَ مُقْتَضى الحِكمةِ الَّتي لا يَخْلو عنها فِعلُ أحكَمِ الحُكماءِ. ولِحَرْفِ (مِن) في هذا الكلامِ الوقْعُ البَديعُ؛ إذ كانت -على احتِمالِ مَعنيَيْها- دَليلًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٧).

على إمكانِ البَعثِ، وعلى وُقوعِه، وعلى وُجوبِ وُقوعِه وُجوبًا تَقْتضيهِ الحِكمةُ الإلهيَّةُ العُلْيا[١].

- ولعلَّ العُدولَ عن صَوغِ الكلامِ بالصِّيغةِ الغالِبةِ في الاستِفهامِ التَّقريريِّ -وهي صيغةُ النَّفيِ- بأنْ يُقالَ: أَمَا خُلِقوا مِن غَيرِ شَيءٍ، والعُدولَ عن تَعْيينِ ما أُضِيفَ إليه (غَير) إلى الإتيانِ بلَفظٍ مُبْهَمٍ، وهو لَفظُ (شَيء)؛ رُوعِيَ فيه الصَّلاحيةُ لاحتِمالِ المَعنيَينِ، وذلك مِن مُنتَهى البَلاغةِ[٢].

- وإذ كان فرْضُ أنَّهم خُلِقوا مِن غَيرِ شَيءٍ واضِحَ البُطلانِ، لم يُحْتَجْ إلى استِدلالٍ على إبطالِه [إلَّا] بقولِه: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ * أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾، وهو إضرابُ انتقالٍ أيضًا، والاستفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) إنكاريٌّ، أي: ما همُ الخالِقون، وإذ كانوا لمْ يَدَّعُوا ذلك، فالإنكارُ مُرتَّبٌ على تَنزيلِهم مَنزِلةَ مَن يَزعُمون أنَّهم خالِقون[٣].

- وصِيغَتِ الجُملةُ في صِيغةِ الحصْرِ الَّذي طَريقُه تَعريفُ الجُزْأينِ ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ قصْرًا إضافيًّا[٤]؛ للرَّدِّ عليهم بتَنزيلِهم مَنزلةَ مَن يَزعُمُ أنَّهم الخالِقون لا اللهُ؛ لأنَّهم عَدُّوا مِن المُحالِ ما هو خارجٌ عن قُدْرتِهم، فجَعَلوه خارجًا عن قُدْرةِ اللهِ، فالتَّقديرُ: أمْ همُ الخالِقون لا نحنُ، والمعْنى: نحنُ الخالِقون لا همْ[٥].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿ٱلْخَٰلِقُونَ﴾؛ لقَصْدِ العُمومِ، أي: الخالِقون للمَخلوقاتِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٧، ٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٨).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٨، ٦٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٩).

٨- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بَدَلٌ مِن جُملةِ ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ بدَلَ مُفصَّلٍ مِن مُجمَلٍ إنْ كان مَفعولُ ﴿ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ المَحذوفُ مُرادًا به العُمومُ، وكان المُرادُ بالسَّماءِ والأرضِ ذاتَيْهما مع مَن فِيهما، أو بدَلُ بَعضٍ مِن كلٍّ إنْ [كانَ] المُرادُ ذاتَي السَّمواتِ والأرضِ؛ فيَكونُ تَخصيصُ السَّمواتِ والأرضِ بالذِّكْرِ لعِظَمِ خلْقِهما. وإعادةُ حرْفِ (أمْ) للتَّأْكيدِ، كما يُعادُ عامِلُ المُبدَلِ منه في البَدَلِ، والمعْنى: أمْ همُ الخالِقون للسَّمواتِ والأرضِ[1].

- والاستِفهامُ ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إنكاريٌّ، والكَلامُ كِنايةٌ عن إثباتِ أنَّ اللهَ خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ، والمعْنى: أنَّ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ لا يُعجِزُه إعادةُ الأجسادِ بعْدَ المَوتِ والفَناءِ[2].

- وقوله: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ إضْرابُ إبطالٍ على مَضمونِ الجُملتَينِ اللَّتَينِ قبْلَه، أي: لمْ يُخلَقوا مِن غَيرِ شَيءٍ، ولا خَلَقوا السَّمواتِ والأرضَ؛ فإنَّ ذلك بيِّنٌ لهم، فما إنكارُهم البعثَ إلَّا ناشِئٌ عن عَدَمِ إيقانِهم في مَظانِّ الإيقانِ، وهي الدَّلائلُ الدَّالَّةُ على إمكانِ البَعثِ، وأنَّه ليس أغرَبَ مِن إيجادِ المَخلوقاتِ العَظيمةِ، فما كان إنكارُهم إيَّاهُ إلَّا عن مُكابَرةٍ وتَصميمٍ على الكفْرِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩، ٧٠).

الآيات (٣٧-٤٢)

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾: أي: المُسَلَّطونَ الجبَّارونَ الحَفَظةُ؛ مَأخوذٌ مِن تَسطيرِ الكِتابِ الَّذي يَحفَظُ ما كُتِبَ فيه[١].

﴿سُلَّمٌ﴾: أي: دَرَجٌ، والسُّلَّمُ: ما يُتوصَّلُ به إلى الأمكنةِ العاليةِ، فيُرْجَى به السَّلامةُ، ثمَّ جُعِل اسمًا لكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شَيءٍ رَفيعٍ كالسَّببِ، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على الصِّحَّةِ والعافيةِ[٢].

﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾: أي: بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ، وسُمِّيت الحُجَّةُ سُلطانًا؛ لِمَا يَلحَقُ مِن الهُجومِ على القُلوبِ، وأصلُ (سلط): يدُلُّ على القُوَّةِ والقَهرِ[٣].

﴿مَّغْرَمٍ﴾: أي: غُرمٍ، وهو: ما يَنوبُ الإنسانَ في مالِه مِن ضَرَرٍ لغَيرِ جِنايةٍ منه أو خيانةٍ، وأصلُ (غرم): يدُلُّ على مُلازَمةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٧)، =

﴿كَيْدًا﴾: أي: مَكْرًا، والكَيْدُ ضَرْبٌ مِن الاحتيالِ، وقدْ يكونُ مَذمومًا ومَمدوحًا، وإنْ كان يُستعمَلُ في المذمومِ أكثَرَ، وأصلُ (كيد): يدُلُّ على مُعالَجةٍ لشَيءٍ بشِدَّةٍ، وكلُّ شُيءٍ تُعالِجُه فأنتَ تَكيدُه(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: أمْ عندَ أولئك المُشرِكينَ مَفاتيحُ رَحمةِ ربِّك، يا محمَّدُ، أمْ هم المُتسَلِّطونَ بتدبيرِ الأُمورِ؟!

أمْ لهم سُلَّمٌ يَصعَدونَ به إلى السَّماءِ؛ لِيَستَمِعوا فيه إلى الوَحيِ؟! فلْيَأْتِ مَنِ استَمَعَ منهم بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ على زَعْمِهم.

أمْ للهِ -سُبحانَه- البَناتُ ولكم البَنونَ؟!

أمْ تَسألُهم -يا محمَّدُ- مالًا على دَعوتِك؛ فهم بسَبَبِ تَكليفِهم الأموالَ لا يَستَجيبونَ لك؟! أم عِندَهم عِلمُ الغَيبِ، فهم يَكتُبونَه؟!

أمْ يُريدُون كَيدًا يُبطِلونَ به الحَقَّ؟! فالَّذين كَفَروا هم الَّذين يُكادُ بهم في الحَقيقةِ.

أمْ لهم إلهٌ آخَرُ غَيرُ اللهِ يَستَحِقُّ العِبادةَ، فهم يَعبُدونَه؟! تنزَّه اللهُ عمَّا يُشرِكونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٥٠).

أي: أم عندَ أولئك المُشرِكينَ خزائنُ الله -يا محمَّدُ- مِن الرَّحمةِ والأرزاقِ وغيرِ ذلك[(١)]؟!

قال تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩].

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٠، ٧١).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: خَزائِنُ الأرزاقِ: الشوكانيُّ، والقاسمي، وابن عثيمين. وقال السمرقنديُّ (مفاتيح رزقِ ربِّك). يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: خزائنُ رحمتِه: العُلَيمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الخزائنُ مِن النُّبوَّةِ والرِّزقِ وغيرِهما: النَّسَفي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٩).

وقال الألوسي: (خزائنُ رِزقِه تعالى ورحمتِه حتَّى يَرزُقوا النُّبوَّةَ مَن شاؤوا، ويُمسِكوها عمَّن شاؤوا). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٨).

قال ابن عطيَّة: (قولُه تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ بمَنزِلةِ قولِه: أم عندَهم الاستِغناءُ عن الله في جميعِ الأمورِ؛ لأنَّ المالَ والصِّحَّةَ والقوَّةَ وغيرَ ذلك مِن الأشياءِ كلُّها مِن خَزائنِ الله). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٢).

وقال ابن كثير: (أهم يَتصرَّفون في المُلكِ، وبيَدِهم مَفاتيحُ الخَزائنِ؟). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٥).

وقال الزَّجَّاج: (أي: عندَهم ما في خزائنِ ربِّك مِن العِلمِ؟). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠١).

وقال ابن جُزَي: (﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ المعنى: أعِندَهم خزائنُ الله بحيث يَستَغنون عن عبادتِه؟ وقيل: أعِندَهم خزائنُ الله بحيث يُعطُون مَن شاؤوا، ويَمنَعون مَن شاؤوا، ويَخُصُّون بالنُّبوَّةِ مَن شاؤوا؟). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٤).

أي: أم هم المُتسَلِّطونَ في الدُّنيا بتدبيرِ الأُمورِ، وقَهرِ النَّاسِ، والتَّصَرُّفِ في إعطائِهم ومَنْعِهم[١]؟!

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَفَى أن يكونَ لهم تصَرُّفٌ قَوِيٌّ أو ضعيفٌ في مواهِبِ اللهِ تعالى على عبادِه؛ أعقَبَه بنَفيِ أن يكونَ لهم اطِّلاعٌ على ما قَدَّره اللهُ لِعبادِه اطِّلاعًا يُخَوِّلُهم إنكارَ أن يُرسِلَ اللهُ بَشَرًا أو يُوحِيَ إليه؛ وذلك لإبطالِ قَولِهم: ﴿نَقَوَّلَهُۥ﴾[٢] [الطور: ٣٣].

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾.

أي: أم لهم سُلَّمٌ يَصعَدونَ به إلى السَّماءِ؛ لِيَستَمِعوا فيه إلى الوَحيِ أو الغَيبِ[٣]؟!

﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: فلْيَأْتِ مَن استَمَعَ منهم إذَنْ بحُجَّةٍ ظاهِرَةٍ تُبَيِّنُ أنَّهم على الحَقِّ فيما يَدَّعُونَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٧، ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٥، ٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٣).

﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جرَى نَفيُ أن تكونَ لهم مُطالَعةُ الغَيبِ مِن المَلإِ الأعلَى؛ إبطالًا لِمَقالاتِهم في شُؤونِ الرُّبوبيَّةِ- أعقَبَ ذلك بإبطالِ نِسبتِهم للهِ بناتٍ؛ استِقصاءً لإبطالِ أوهامِهم في المُغَيَّباتِ مِن العالَمِ العُلويِّ[1].

﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

أي: أمْ للهِ -سُبحانَه- البَناتُ، كما ادَّعيتُم وزَعمتُم أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ، ولكم البَنونَ الَّذين تُفَضِّلونَهم على البَناتِ، فنَسَبتُم إلى اللهِ تعالى الأنقَصَ لَدَيكم[2]؟!

قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۞ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۞ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۞ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۞ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۞ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٥].

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أن أبطَلَ وَسائِلَ اكتِسابِ العِلمِ بما زَعَموه؛ عاد إلى إبطالِ الدَّواعي الَّتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٤).

تحمِلُهم على الإعراضِ عن دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: أم تَسألُهم -يا محمَّدُ- مالًا مُقابِلَ دَعوتِك لهم إلى الحَقِّ، أو انقيادِهم إليه؛ فهم بسَبَبِ مَشقَّةِ ما كلَّفْتَهم مِن أموالٍ لا يَستَجيبونَ لك[٢]؟!

قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٦، ٨٧].

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ رَدَّ عليهم إنكارَهم الإسلامَ بأنَّهم كالَّذين سألَهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أجرًا على تَبليغِها؛ أعقَبَه برَدٍّ آخَرَ بأنَّهم كالَّذين اطَّلَعوا على أنَّ عندَ اللهِ ما يُخالِفُ ما ادَّعى الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إبلاغَه عن اللهِ، فهم يَكتُبونَ ما اطَّلَعوا عليه، فيَجِدونَه مُخالِفًا لِما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣]!

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾.

أي: أم عِندَ المُشرِكينَ عِلمُ ما غاب عنِ النَّاسِ، فهم يَكتُبونَه[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٩)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٥، ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها انتِقالٌ مِن نقْضِ أقوالِهم وإبطالِ مَزاعِمِهم إلى إبطالِ نيَّاتِهم وعَزائمِهم مِن التَّبييتِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وللمُؤمنينَ، ولدَعوةِ الإسلامِ مِن الإضرارِ والإخفاقِ[1].

وأيضًا لَمَّا قالوا: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، قيل لهم: أتَعلَمونَ الغَيبَ، فتَعلَمونَ أنَّه يَموتُ قَبْلَكم، أم تُريدونَ كَيدًا ومِن ذلك أنَّكم تقولونَ: نَقتُلُه فيَموتُ قَبْلَنا؟ فإنْ كنتُم تَدَّعُونَ الغَيبَ فأنتم كاذِبونَ، وإنْ كنتُم تظُنُّونَ أنَّكم

= (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٦).

قال ابن عطية: (فهم يُبَيِّنونَ ذلك للنَّاسِ سَنَنًا وشَرعًا يَكتُبونَه، وذلك عبادةُ الأوثانِ، وتَسييبُ السَّوائِبِ، وغَيرُ ذلك مِن سِيَرِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٣).

وقال القرطبي: (أي: يَكتُبونَ للنَّاسِ ما أرادوه مِن عِلمِ الغُيوبِ. وقيل: أي: أم عِندَهم عِلمُ ما غاب عن النَّاسِ حتَّى عَلِموا أنَّ ما أخبَرَهم به الرَّسولُ مِن أمرِ القيامةِ والجنَّةِ والنَّارِ والبَعثِ باطِلٌ. وقال قتادةُ: لَمَّا قالوا: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ قال الله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ حتَّى عَلِموا متى يموتُ محمَّدٌ، أو إلامَ يَؤولُ إليه أمرُه. وقال ابنُ عبَّاسٍ: أم عِندَهم اللَّوحُ المحفوظُ، فهم يَكتُبونَ ما فيه، ويُخبِرونَ النَّاسَ بما فيه). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨١).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: أعِنْدَهم اللَّوحُ المحفوظُ: ابنُ جرير، والرَّسْعَنيُّ، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: عِلمُ ما غاب عنهم: الثعلبيُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠١).

وقال ابن أبي زَمَنين: (عِلْم غَيبِ الآخرةِ). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

تَقدِرونَ عليه فأنتم غالِطونَ؛ فإنَّ اللهَ يَصونُه عنكم، ويَنصُرُه عليكم[١].

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾.

أي: أم يُريدُ أولئك أن يَكيدوا كَيدًا يُبطِلونَ به الحَقَّ[٢]؟!

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾.

أي: فالَّذين كَفَروا هم الَّذين يُكادُ بهم في الحَقيقةِ، ووَبالُ كَيدِهم عائِدٌ على أنفُسِهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

قال السعدي: (قوله: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ ﴾ بقَدْحِهم فيك وفيما جِئتَهم به ﴿ كَيْدًا ﴾ يُبطِلون به دينَك، ويُفسِدون به أمْرَك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧).

وقال ابن جُزَي: (﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ إشارةٌ إلى كَيدِهم في دارِ النَّدوةِ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، حيث تشاوَروا في قتلِه أو إخراجِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٤).

وقال ابن عثيمين: (﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ يعني: أيُريدُ هؤلاء أن يَكيدوا لك يا محمَّدُ بإبطالِ دعوتِك، وإهلاكِك وإماتَتِك). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

أي: أم لهم مَعبودٌ آخَرُ غَيرُ اللهِ يَستَحِقُّ العِبادةَ، فهم يَعبُدونَه[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: تنزَّه اللهُ عن أن يكونَ له شَريكٌ في العِبادةِ؛ فهو الواحِدُ الأحَدُ الَّذي لا مِثْلَ له ولا نِدَّ[٢].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ ضُرِبَ المَثَلُ بالخَزائِنِ؛ لأنَّ الخِزانةَ بَيتٌ يُهَيَّأُ لجَمعِ أنواعٍ مُختَلِفةٍ مِنَ الذَّخائِرِ، ومَقدوراتُ الرَّبِّ كالخزائِنِ الَّتي فيها مِن كُلِّ الأجناسِ، فلا نهايةَ لها[٣]!

٢- ليس في الآيةِ الاستِدلالُ لهذا النَّفْيِ في قولِه: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾؛ لأنَّ وُضوحَه كَنارٍ على عَلَمٍ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِ﴾ سؤالٌ: أنَّ المقصودَ نَفيُ الصُّعودِ، ولا يَلزَمُ مِن نَفيِ السُّلَّمِ لهم نفيُ الصُّعودِ، فما الجوابُ عنه؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٠)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٧١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤، ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧١، ٧٢).

الجوابُ: أنَّ النَّفيَ أبلَغُ مِن نَفيِ الصُّعودِ، وهو نَفيُ الاستِماعِ، وآخِرُ الآيةِ شامِلٌ للكُلِّ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ إشارةٌ إلى لَطيفةٍ: وهي أنَّه لو طُلِبَ منهم ما سَمِعوه، وقيلَ لهم: فلْيَأتِ مُستَمِعُهم بما سَمِعَ، لَكان لواحِدٍ أن يَقولَ: أنا سَمِعتُ كذا وكذا، فيَفتَري كَذِبًا، فقال: لا، بل الواجِبُ أن يأتيَ بدَليلٍ يدُلُّ عليه[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ إشارةٌ إلى نَفيِ الشِّركِ، وفَسادِ ما يقولونَ بطَريقٍ آخَرَ، وهو أنَّ المتصَرِّفَ إنَّما يَحتاجُ إلى الشَّريكِ لِعَجزِه، واللهُ قادِرٌ فلا شريكَ له؛ فإنَّهم قالوا: نحنُ لا نجعَلُ هذه الأصنامَ وغَيرَها شُرَكاءَ، وإنَّما نُعَظِّمُها لأنَّها بناتُ اللهِ! فقال تعالى: كيف تَجعَلونَ لله البَناتِ، وخَلقُ البناتِ والبَنينَ إنَّما كان لجَوازِ الفَناءِ على الشَّخصِ؟! ولهذا لا يكونُ في الجنَّةِ وِلادةٌ؛ لأنَّ الدَّارَ دارُ البَقاءِ، لا مَوتَ فيها للآباءِ حتَّى تُقامَ العِمارةُ بحُدوثِ الأبناءِ، إذا ثَبَت هذا فالولَدُ إنَّما يكونُ في صورةِ إمكانِ فَناءِ الأَبِ؛ ولهذا قال تعالى في أوائِلِ سُورةِ (آلِ عِمرانَ): ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢] أي: حيٌّ لا يموتُ فيَحتاجَ إلى وَلَدٍ يَرِثُه! وهو قيُّومٌ لا يتغَيَّرُ ولا يَضعُفُ فيَفتَقِرَ إلى ولَدٍ لِيَقومَ مَقامَه[(٣)].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ هل في خُصوصِ قَولِه تعالى: ﴿أَجْرًا﴾ فائِدةٌ لا تُوجَدُ في غيرِه، كما لو قال: «أم تسألُهم شيئًا أو مالًا» أو غيرَ ذلك؟

الجوابُ: نعَمْ؛ فكُلُّ لفظٍ في القُرآنِ فيه فائِدةٌ وإنْ كُنَّا لا نَعلَمُها، والَّذي يَظهَرُ هاهنا أنَّ ذلك إشارةٌ إلى أنَّ ما يأتي به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيه مَصلحتُهم؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وذلك لأنَّ الأجرَ لا يُطلَبُ إلَّا عندَ فِعلِ شَيءٍ يُفيدُ المطلوبَ منه الأجرُ، فقال: أنت أتَيْتَهم بما لو طلَبْتَ عليه أجرًا، وعَلِموا كمالَ ما في دعوتِك من المنفَعةِ لهم وبهم؛ لَأتَوك بجَميعِ أموالِهم، ولَفَدوك بأنفُسِهم، ومع هذا لا تَطلُبُ منهم أجرًا، ولو قال: «شيئًا أو مالًا» لَمَا حصَلَت هذه الفائِدةُ. واللهُ أعلَمُ[1].

٧- الرُّسُلُ عليهم الصَّلواتُ والسَّلامُ لا يأخُذونَ أجرًا على التَّبليغِ، وهناك آياتٌ دالَّةٌ على ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾، فما وجهُ الجَمعِ بيْنَ تلك الآياتِ وآيةِ سُورةِ (الشُّورى): ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: على القَولِ بأنَّ معنى الآيةِ: إلَّا أن تَوَدُّوني في قَرابتي الَّتي بيْني وبيْنَكم، فتَكُفُّوا عنِّي أذاكم، وتمنَعوني مِن أذى النَّاسِ، كما تَمنَعونَ كُلَّ مَن بيْنَكم وبيْنَه مِثلُ قرابتي منكم، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له في كُلِّ بَطنٍ مِن قُرَيشٍ رَحِمٌ؛ فهذا الَّذي سألهم ليس بأجرٍ على التَّبليغِ؛ لأنَّه مَبذولٌ لكُلِّ أحَدٍ؛ لأنَّ كُلَّ أحَدٍ يَوَدُّه أهلُ قَرابتِه، وينتَصِرونَ له مِن أذى النَّاسِ، وقد فَعَل له ذلك أبو طالبٍ، ولم يكُنْ يسألُ أجرًا على التَّبليغِ؛ لأنَّه لم يُؤمِنْ، وإذا كان لا يَسألُ أجرًا إلَّا هذا الَّذي ليس بأجرٍ؛ تحَقَّق أنَّه لا يَسألُ أجرًا.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ معنى الآيةِ ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: لا تُؤذُوا قرابتي وعِتْرتي، واحفَظوني فيهم، وعليه فلا إشكالَ؛ لأنَّ المودَّةَ بين المُسلِمينَ واجِبةٌ فيما بيْنَهم، وأحرى قرابةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والأحاديثُ في مِثلِ هذا كثيرةٌ جِدًّا، وإذا كان نفْسُ الدِّينِ يُوجِبُ هذا بيْنَ المسلِمينَ؛ تَبيَّن أنَّه غيرُ عِوَضٍ عن التَّبليغِ.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٠).

وقيل: الاستِثناءُ مُنقَطِعٌ على كِلا القَولَينِ، وعليه فلا إشكالَ، فمعناه على القَولِ الأوَّلِ: لا أسألُكم عليه أجرًا لكِنْ أُذَكِّرُكم قرابتي فيكم. وعلى الثَّاني: لكِنْ أُذَكِّرُكم اللهَ في قرابتي؛ فاحفَظوني فيهم.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ معنى ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلَّا أن تتودَّدوا إلى اللهِ، وتتقَرَّبوا إليه بالطَّاعةِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وعليه فلا إشكالَ؛ لأنَّ التَّقَرُّبَ إلى اللهِ ليس أجرًا على التَّبليغِ.

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّ معنى ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلَّا أن تتودَّدوا إلى قراباتِكم، وتَصِلوا أرحامَكم، وعليه أيضًا فلا إشكالَ؛ لأنَّ صِلةَ الإنسانِ رَحِمَه ليست أجرًا على التَّبليغِ[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ كَشفٌ لسرائِرِ المُشرِكينَ، وتنبيهٌ للمُؤمِنينَ؛ للحَذَرِ مِن كَيدِهم[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ الجَوابُ حَقيقةً: لا، وادِّعاءً: نعَمْ، لهم آلهةٌ غيرُ اللهِ يَعبُدونَها: اللَّاتُ، والعُزَّى، ومَناةُ، وهُبَلُ، وغَيرُها مِن الأصنامِ المعروفةِ عندَ العربِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فنَزَّهَ اللهُ سُبحانَه وتعالى نفْسَه عمَّا يُشرِكُ به هؤلاء؛ لِيُبيِّنَ أنَّ هذه الأصنامَ باطِلةٌ، وأنَّ اللهَ تعالى مُنَزَّهٌ عن كلِّ شَريكٍ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ انتِقالٌ بالعَودِ إلى

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٩-٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٠).

رَدِّ جُحودِهم رِسالةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ولذلك غُيِّرَ أُسلوبُ الإخبارِ فيه إلى مُخاطَبَةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمعْنى: إبطالُ أنْ يكونَ لهم تَصرُّفٌ في شُؤونِ الرُّبوبيَّةِ، فيَجعَلوا الأُمورَ على مَشيئتِهم كالمالِكِ في مُلْكِه، والمُدبِّرِ فيما وُكِّلَ عليه(١).

- والاستِفهامُ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ إنكاريٌّ، بتَنزيلِهم في إبطالِ النُّبوَّةِ عمَّن لا يَرْضَونَه مَنزِلةَ مَن عِندَهم خَزائنُ اللهِ؛ يَخلَعونَ الخُلَعَ منها على مَن يَشاؤُونَ، ويَمنَعونَ مَن يَشاؤُونَ(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ لم تُذكَرِ الرَّحمةُ هنا؛ لأنَّه لَمَّا كان ذِكرُ الرَّحمةِ لا يَقتضيهِ مَقصودُ السُّورةِ -الَّذي هو العذابُ-؛ لم تُذكَرْ كما في سُورةِ (ص) في قولِه تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩]، وكذا في سُورةِ (الإسراءِ) في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠]؛ فلذلك قِيل هنا: ﴿رَبِّكَ﴾(٣).

- وأيضًا قد سُلِكَ معهم هنا مَسلَكُ الإيجازِ في الاستِدلالِ بإحالَتِهم على مُجمَلٍ أجْمَله قولُه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ غَضَبٍ عليهم؛ لجُرْأَتِهم على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في نفْيِ الرِّسالةِ عنه بوَقاحةٍ مِن قولِهم: كاهنٌ، ومَجنونٌ، وشاعرٌ، بخِلافِ آيةِ (الأنعام) في قولِه تعالَى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]؛ فإنَّها ردَّتْ عليهم تَعريضَهم أنفُسَهم لنَوالِ الرِّسالةِ عن اللهِ؛ فقولُه تعالى هنا: ﴿أَمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨).

عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ هو كَقولِه في سُورةِ (ص): ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾ [ص: ٨، ٩]، وقولِه في سُورةِ (الزُّخرفِ): ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾[١] [الزخرف: ٣٢].

- قولُه: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ إنكارٌ لأنْ يكونَ لهم تَصرُّفٌ في عَطاءِ اللهِ تَعالى ولو دونَ تَصرُّفِ المالِكِ، مِثْلُ تَصرُّفِ الوكيلِ والخازِنِ، وهو ما عُبِّرَ عنه بـ﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾

- حُذِفَ مَفعولُ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾؛ ليَعُمَّ كَلامًا مِن شأْنِه أنْ يُسمَعَ مِن الأخبارِ المُغَيَّبَةِ بالمُستقبَلِ وغيرِه، الواقِعِ وغيرِه[٣].

- وسُلِكَ في نفْيِ عِلْمِهم بالغَيبِ طَريقُ التَّهكُّمِ بهم بإنكارِ أنْ يكونَ لهم سُلَّمٌ يَرْتَقون به إلى السَّماءِ ليَسْتمِعوا ما يَجْري في العالَمِ العُلويِّ مِن أمْرٍ تَتلقَّاهُ الملائكةُ، أو أهلُ المَلأِ الأعْلى بعضُهم مع بعضٍ، فيَسْترِقُوا بعضَ العِلمِ ممَّا هو مَحجوبٌ عن النَّاسِ؛ إذ مِن المَعلومِ أنَّه لا سُلَّمَ يصِلُ أهلَ الأرضِ بالسَّماءِ، وهم يَعلَمون ذلك، ويَعلَمُه كلُّ أحدٍ[٤].

- وعُلِمَ مِن اسمِ السُّلَّمِ أنَّه آلةُ الصُّعودِ، وعُلِمَ مِن ذِكْرِ السَّمواتِ في الآيةِ قبْلَها أنَّ المُرادَ سُلَّمٌ يَصعَدونَ به إلى السَّماءِ؛ فلذلك وُصِفَ بـ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٠، ٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: يَرْتَقون به إلى السَّماءِ فيَستمِعون وهمْ فيه -أي: في دَرَجاتِه- الكلامَ الَّذي يَجْري في السَّماءِ[١].

- وإسنادُ الاستِماعِ إلى ضَميرِ جَماعَتِهم على اعتبارِ أنَّ المُستمِعَ سَفيرٌ عنهم، على عادةِ استعمالِ الكلامِ العرَبيِّ مِن إسنادِ فِعلِ بَعضِ القَبيلةِ إلى جَميعِها إذا لم تَصُدَّه عن عمَلِه؛ ألَا تَرى أنَّه قال بعْدَ هذا: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾، أي: مَن استمَعَ منهم لأجْلِهم، أي: أرْسَلوه للسَّمْعِ[٢].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ لتَفريعِ هذا الأمْرِ التَّعجيزيِّ على النَّفيِ المُستفادِ مِن استِفهامِ الإنكارِ، فالمَعْنى: فما يأْتي مُستمِعٌ منهم بحُجَّةٍ تدُلُّ على صِدْقِ دَعواهم، فلامُ الأمْرِ مُستعمَلٌ في إرادةِ التَّعجيزِ؛ بقَرينةِ انتفاءِ أصْلِ الاستِماعِ بطَريقِ استِفهامِ الإنكارِ[٣].

- قولُه: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هذا تَحدٍّ لهم بكَذِبِهم؛ فلذلك اكْتُفِيَ بأنْ يأتِيَ بعضُهم بحُجَّةٍ دونَ تَكليفِ جَميعِهم بذلك، أي: فلْيأتِ مَن يَتعهَّدُ منهم بالاستِماعِ بحُجَّةٍ، وهذا بمَنزِلةِ التَّذييلِ للكلامِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾

- الاستِفهامُ إنكارٌ لأنْ يَكونَ للهِ البناتُ، ودليلُ الإنكارِ في نفْسِ الأمْرِ استحالةُ الولَدِ على اللهِ تعالى، ولكنْ لَمَّا كانت عُقولُ أكثَرِ المُخاطَبينَ بهذا الرَّدِّ غيرَ مُستعِدَّةٍ لإدراكِ دَليلِ الاستِحالةِ، وكان اعتقادُهم البناتِ للهِ مُنكَرًا؛ تُصُدِّيَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٢، ٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لدَليلِ الإبطالِ، وسُلِكَ في إبطالِه دَليلٌ إقناعيٌّ يَتفطَّنون به إلى خَطَلِ رأْيِهم، وهو قولُه: ﴿وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾؛ فجُملةُ ﴿وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ الغائبِ، أي: كيف يكونُ للهِ البناتُ في حالِ أنَّ لكم بَنينَ؟! وهم يَعلَمونَ أنَّ صِنفَ الذُّكورِ أشرَفُ مِن صِنفِ الإناثِ على الجُملةِ، كما أشارَ إليه قولُه تعالَى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]؛ فهذا مُبالَغةٌ في تَشنيعِ قولِهم، وتَسفيهٌ لهم ولعُقولِهم، فليس المُرادُ أنَّهم لو نَسَبوا للهِ البنينَ لَكانَ قَولُهم مَقبولًا؛ لأنَّهم لم يَقولوا ذلك، فلا طائلَ تحتَ إبطالِه[1]. وفيه إشعارٌ بأنَّ مَن هذا رأيُه لا يُعَدُّ مِن العُقلاءِ، فضلًا أنْ يترقَّى برُوحِه إلى عالَمِ الملَكوتِ فيَتطلَّعَ على الغُيوبِ[2].

- وتَغييرُ أُسلوبِ الغَيبةِ المُتَّبَعِ مِن قولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ [الطور: ٣٠] إلى أُسلوبِ الخِطابِ الْتِفاتٌ؛ مُكافَحةً لهم بالرَّدِّ بجُملةِ الحالِ، ولتَشْديدِ ما في (أَم) المُنقطِعةِ مِن الإنكارِ والتَّوبيخِ[3].

- وتَقديمُ (لَكُمْ) على ﴿ٱلْبَنُونَ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: لكمُ البَنونَ دونَه، فهمْ لهم بَنونَ وبناتٌ، وزَعَموا أنَّ اللهَ ليس له إلَّا البناتُ! وأمَّا تَقديمُ المَجرورِ على المُبتدَأِ في قَولِه: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾؛ فللاهتِمامِ باسمِ الجَلالةِ. وقد أُنْهِيَ الكلامُ بالفاصِلةِ؛ لأنَّه غرَضٌ مُستقِلٌّ[4].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ مُرتبطٌ بقولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ [الطور: ٣٣]، وقولِه: ﴿أَمْ عِندَهُمُ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٣٧]؛ إذ كلُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٤).

ذلك إبطالٌ للأسبابِ الَّتي تَحمِلُهم على زعْمِ انتفاءِ النُّبوَّةِ عن محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والإعراضِ عن دَعوتِه، ومِن أجْلِ ذلك جاء هذا الكلامُ على أُسلوبِ الكلامِ الَّذي اتَّصَلَ هو به، وهو أُسلوبُ خِطابِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال هنا: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾، وقال هنالكَ: ﴿أَمْ عِندَهُمُ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾[1] [الطور: ٣٧].

- والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ بهم بتَنزيلِهم مَنزِلةَ مَن يَتوجَّسُ خِيفةً مِن أنْ يَسأَلَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أجْرًا على إرشادِهم، والمَقصودُ: ما في التَّهكُّمِ مِن مَعنى أنَّ ما نشَأَ عنه التَّهكُّمُ أمْرٌ لا يَنْبغي أنْ يَخطُرَ بالبالِ[2].

- وجِيءَ بالمُضارِعِ ﴿تَسْـَٔلُهُمْ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ، أي: تَسأَلُهم سُؤالًا مُتكرِّرًا؛ لأنَّ الدَّعوةَ مُتكرِّرةٌ، وقدْ شُبِّهَت بسُؤالِ سائلٍ[3].

- وتَفريعُ ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾؛ لِما فيه مِن بَيانِ المُلازَمةِ بيْنَ سُؤالِ الأجْرِ وبيْنَ تَجَهُّمِ مَن يَسأَلُ والتَّحرُّجِ منه، وقد فُرِّعَ قولُه: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ على الفِعلِ المُستفهَمِ عنه لا على الاستِفهامِ، أي: ما سألْتَهم أجْرًا فَيثْقُلَ غُرْمُه عليهم؛ لأنَّ الاستِفهامَ في مَعنى النَّفْيِ، والإثقالُ يَتفرَّعُ على سُؤالِ الأجْرِ المفروضِ؛ لأنَّ مُجرَّدَ السُّؤالِ مُحرِجٌ للمَسؤولِ؛ لأنَّه بيْنَ الإعطاءِ وهو ثَقيلٌ، وبيَّنَ الرَّدِّ وهو صعْبٌ[4].

- والمُثقَلُ: أصْلُه المُحمَّلُ بشَيءٍ ثَقيلٍ، وهو هنا مُعبَّرٌ به عمَّن يُطالَبُ بما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَعسُرُ عليه أداؤُه، شُبِّهَ طَلَبُه أداءَ ما يَعسُرُ عليه بحَمْلِ الشَّيءِ الثَّقيلِ على مَن لا يَسهُلُ عليه حَمْلُه(١).

- و(مِنْ) للتَّعليلِ، أي: مُثقَلونَ مِن أجْلِ مَغْرَمٍ حُمِّلَ عليهم(٢).

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ هذا نَظيرُ الإضرابِ والاستِفهامِ في قولِه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٣٧]، أي: بلْ أعِندَهم الغَيبُ فهمْ يَكتُبون ما يَجِدونه فيه ويَرْوُونه للنَّاسِ؟! أي: ما عِندَهم الغَيبُ حتَّى يَكتُبوه(٣).

- وكَلمةُ (عِند) تُؤذِنُ بمَعنى الاختِصاصِ والاستئثارِ، أي: اسْتأْثروا بمَعرفةِ الغَيبِ، فعَلِموا ما لم يَعلَمْه غيرُهم(٤).

- والتَّعريفُ في (الغيب) تَعريفُ الجِنسِ(٥).

- والكِتابةُ في قولِه: ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ يَجوزُ أنَّها مُعبَّرٌ بها عن الجزْمِ الَّذي لا يَقبَلُ التَّخلُّفَ؛ لأنَّ شأْنَ الشَّيءِ الَّذي يُرادُ تَحقيقُه والدَّوامُ عليه أنْ يُكتَبَ ويُسجَّلَ؛ فيَكونُ الخبَرُ في قولِه: ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ مُستعمَلًا في مَعناهُ مِن إفادةِ النِّسبةِ الخبَريَّةِ. ويجوزُ أنْ تكونَ الكتابةُ على حَقيقتِها، أي: فهمْ يُسجِّلونَ ما اطَّلَعوا عليه مِن الغَيبِ؛ ليَبْقَى مَعلومًا لِمَن يطَّلِعُ عليه، ويكونَ الخبَرُ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ مُستعمَلًا في مَعنى الفرْضِ والتَّقديرِ، تَبَعًا لفرْضِ قولِه: ﴿عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾، وحاصِلُ المَعنى: أنَّهم لا قِبَلَ لهم بإنكارِ ما جَحَدوه، ولا بإثباتِ ما أثْبَتوه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٥، ٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٦، ٧٧).

٦- قولُه تعالَى: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾

- حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿كَيْدًا﴾؛ ليَعُمَّ كلَّ ما يَسْتطيعونَ أنْ يَكِيدوهُ؛ فكانتْ هذه الجُملةُ بمَنزِلةِ التَّتميمِ لنقْضِ غَزْلِهم، والتَّذييلِ بما يَعُمُّ كلَّ عَزْمٍ يَجْري في الأغراضِ الَّتي جَرَت فيها مَقالاتُهم[١].

- وعُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾، وكان مُقْتضى الظاهِرِ أنْ يُقالَ: (فهُمُ المَكِيدون)؛ للتَّسجيلِ على كُفْرِهم؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن وَجْهِ حُلولِ الكَيدِ بهم؛ لأنَّهم كَفَروا باللهِ، فاللهُ يُدافِعُ عن رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعن المؤمنينَ، وعن دِينِه كَيْدَهم، ويُوقِعُهم فيما نَوَوا إيقاعَهم فيه، فالتَّعريفُ في ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ للعهدِ. أو التَّعريفُ للجنسِ، والمرادُ جميعُ الكفرةِ، وكفَّارُ قريشٍ داخِلونَ فيهم دُخولًا أوَّليًّا[٢].

- وضَميرُ الفصْلِ (هُم) أفادَ القَصْرَ، أي: الَّذين كَفَروا المَكِيدونَ دونَ مَن أرادوا الكَيدَ به[٣].

- وتَفريعُ ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾؛ لِما فيه مِن بَيانِ المُلازَمةِ بيْنَ كَيدِهم للنَّبيِّ والمؤمنينَ، وبيْنَ كَيدِ اللهِ لهُمْ[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ لَمَّا كان ما نُعِيَ عليهم مِن أوَّلِ السُّورةِ ناقضًا لأقوالِهم ونيَّاتِهم، وكان ما همْ فيه مِن الشِّركِ أعظَمَ؛ لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٥، ٧٨).

يُتْرَكْ عَدُّ ذلك عليهمْ مع اشتِهارِه، بعْدَ استيفاءِ الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ بهذه المُناسَبةِ؛ ولذلك كان هذا المُنتقَلُ إليه بمَنزِلةِ التَّذييلِ لِما قبْلَه؛ لأنَّه ارْتِقاءٌ إلى الأهمِّ في نَوعِه، والأهمُّ يُشبِهُ الأعمَّ؛ فكان كالتَّذييلِ[1].

- وقدْ وقَعَ قولُه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ إتمامًا للتَّذييلِ، وتَنهيةً للمَقصودِ مِن فضْحِ حالِهم[2].

- والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَم) استِفهامٌ إنكاريٌّ[3].

- ومِن قولِه تعالَى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ﴾ [الطور: ٣٠] إلى قولِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [الطور: ٤٣]، تَدرُّجٌ منه سُبحانه في حِكايةِ ما قالُوه مِن المنكَرِ إلى ما هو أدخَلُ فيه، والكلامُ لتَسليتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّه لا مَحالةَ يَنتقِمُ له منْهم، وأنَّ العذابَ المكذَّبَ به واقِعٌ بهم جَزاءً لتَكذيبِهم بالمُنبِئِ والنَّبأِ والمُنبَّأِ به.

ومِن قولِه تعالَى: ﴿فَمَآ أَنتَ﴾ [الطور: ٢٩] إلى قولِه سُبحانَه: ﴿هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]، تَفصيلٌ لما أُجْمِل معَ التَّعريضِ بفَسادِ مَقالاتِهم الحَمقاءِ، وأنَّهم بمَرأًى مِن اللهِ تعالَى ومَسمَعٍ؛ فلا مَحالةَ يَنتقِمُ لنَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ منهم، وفيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن اللهِ تَعالى بمَكانٍ لا يُقادَرُ قدْرُه.

وقولُه سُبحانَه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ ...﴾ [الطور: ٢٩] إلخ، فيه أنَّ مَن أُنعِمَ عليه بالنُّبوَّةِ يَستحيلُ أنْ يكونَ أحَدَ هذَينِ، وبدَأَ بقَولِهم المتناقِضِ؛ ليُنبِّهَ أوَّلًا على فَسادِ آرائِهم، ويَجعَلَه دُستورًا في إعراضِهم عن الحقِّ، وإيثارِ اتِّباعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أهْوائِهِم، والمعنى: فما أبعَدَ حالَ مَن كان أتقَنَهم رأْيًا، وأرجَحَهم عقْلًا، وأبْيَنَهم آيًا، منذُ تَرَعرَعَ إلى أنْ بلَغَ الأَشُدَّ عن الجُنونِ والكِهانةِ! على أنَّهما مُتناقِضانِ؛ لأنَّ الكُهَّانَ كانوا عِندَهم مِن كامِلِيهم، وكان قولُهم إمامًا مُتَّبَعًا عِندَهم، فأينَ الكِهانةُ مِن الجُنونِ؟!

ثمَّ تَرقَّى مُضرِبًا إلى قَولِهم فيه -وحاشاهُ صلَّى اللهُ تعالى عليه وسلَّمَ-: إنَّه شاعِرٌ؛ لأنَّه أدْخَلُ في الكذِبِ مِن الكاهِنِ والمجنونِ، وقديمًا قِيل: أحسَنُ الشِّعرِ أكذَبُه؛ ليُبيِّنَ حالَ تَلَجْلُجِهم واضْطِرابِهم.

وقولُه تعالَى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ [الطور: ٣١] مِن بابِ المُجازاةِ بمِثلِ صَنيعِهم، وفيه تتْميمٌ للوعيدِ؛ فهذا بابٌ مِن إنْكارِهم، هَدَمَه سُبحانه أوَّلًا تَلويحًا بقولِه تعالَى: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾، وثانيًا تَصريحًا بقَولِه جلَّ وعَلا: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم﴾ [الطور: ٣٢]، كأنَّه قِيل: دَعْهم وتِلكَ المقالةَ وما فيها مِن الاضطرابِ؛ ففيها عِبرةٌ، ثمَّ قِيل: لا، بلْ ذلك مِن طُغيانِهم؛ لأنَّه أدخَلُ في الذَّمِّ مِن نُقْصانِ العَقْلِ، وأبلَغُ في التَّسليةِ؛ لأنَّ مَن طَغَى على اللهِ عزَّ وجلَّ، فقدْ باءَ بِغَضَبِه.

ثمَّ أخَذَ في بابِ أدْخَلَ في الإنكارِ، وهو نِسبةُ الافتراءِ إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ وذلك لأنَّ الافتراءَ أبعَدُ شَيءٍ مِن حالِه؛ لاشتِهارِه بالصِّدقِ، على أنَّ كَونَه افتِراءً وعجْزَهم عن الإتيانِ بأقصَرِ سُورةٍ مِن هذا المُفترَى؛ مُتنافيانِ؛ لدَلالتِه على الصِّدقِ، ولأنَّ الشَّاعِرَ لا يَتعمَّدُ الكذِبَ لِذاتِه، ثمَّ قدْ يكونُ شِعْرُه حِكَمًا ومَواعِظَ.

والتَّدرُّجُ عن الشِّعرِ هاهنا عكْسُ التَّدرُّجِ إليه في (الأنبياءِ) في قولِه سبحانه: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]؛ لأنَّ بِناءَ الكلامِ هاهنا على التَّدرُّجِ في المناقَضةِ والتَّوغُّلِ في القدْحِ فيه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ

ونفْيِ رِسالتِه، وهنالك عن القدْحِ في بَعضٍ مِن الذِّكْرِ مُتجدِّدِ النُّزولِ، فقِيل: إنَّ افتراءَه لا يَبعُدُ ممَّن هو شاعرٌ ذو افتراءاتٍ كثيرةٍ، وأيْن هذا مِن ذاك؟! وللتَّنبيهِ على التَّوغُّلِ جِيءَ بصَريحِ حرْفِ الإضرابِ في الرَّدِّ، فقِيل: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣]، وعُقِّبَ بقولِه تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ [الطور: ٣٤]، ثمَّ مَن لا يُؤمِنُ أشدُّ إنكارًا له مِن الطَّاغي، كما أنَّ المفتريَ أدخَلُ في الكذِبِ مِن الشَّاعِرِ.

ثمَّ أخَذَ في أُسلوبٍ أبلَغَ في الرَّدِّ على مَقالاتِهم -الجُنونِ والكِهانةِ-؛ لتَقارُبِهما، ثمَّ الشِّعرِ، ثمَّ الافتراءِ، حيث نزَّل القائلينَ مَنزِلةَ مَن يدَّعي أنَّه خُلِقَ مِن غَيرِ شَيءٍ، أي: مُقدِّرٍ وخالِقٍ، وإلَّا لَأهَمَّهم البحثُ عن صِفاتِه وأفعالِه فلَمْ يُنكِروا منك ما أنْكَروا، ومَن حسِبَ أنَّه مُستغنٍ عن الخالقِ نَسَب رَسولَه إلى الجُنونِ والكِهانةِ، لا، بلْ كمَن يدَّعي أنَّه خالِقُ نفْسِه، فلا خالِقَ له ليَبحَثَ عن صِفاتِه، فهو يَنسُبُه إلى الشِّعرِ؛ إذ لا يُرسَلُ إليه البتَّةَ، والشِّعرُ أدخَلُ في الكذِبِ، لا، بلْ كمَن يدَّعي أنَّه خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما، فهو يَنسُبُه إلى الافتِراءِ حيثُ لم يُرسِلْه!

ثمَّ أضرَبَ عنه صَريحًا بقولِه تعالَى: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦]، ومَن لا إيقانَ له بمِثلِ هذا البَديهيِّ لا يَبعُدُ أنْ يَزُنَّك بما زَنَّ[1]، فكأنَّه قِيل: مَقالتُهم تلك تُؤدِّي إلى هذه، لا أنَّهم كانوا قائلينَ بها؛ إظهارًا لتَماديهم في العِنادِ.

ثمَّ بُولِغَ فيه فجِيءَ في قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٣٧] بما يدُلُّ على أنَّ الرَّسولَ لا بُدَّ أنْ يكونَ مُفتريًا، غيرَ صالحٍ للنُّبوَّةِ في زعْمِهم؛ لأنَّه إذا كان عِندَهم جَميعُ خَزائنِ ربِّه وهمْ ما أرسَلُوه، لَزِمَ أنْ يكونَ مُفتريًا البتَّةَ، وأُدمِجَ فيه إنكارُهم للمَعادِ، ونِسبتُهم إيَّاهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في ذلك أيضًا خاصَّةً إلى

(١) يَزُنَّك: أي: يتَّهِمَك. مِن قولهم: زَنَنْتُه زَنًّا: إذا ظننتَ به واتَّهَمْتَه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٥٧).

الافتراءِ. ولا يَخْفى ما في قولِه تعالى: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧] مِن التَّرقِّي.

ثمَّ لَمَّا فرَغَ مِن ذلك، وبيَّنَ فسادَ ما بَنَوا عليه أمْرَ الإنكارِ بدَليلِ العقْلِ؛ قِيل: لم يَبْقَ إلَّا المُشاهَدةُ والسَّماعُ منه تعالَى، وهو أظهَرُ استِحالةً، فتُهكِّمَ بهمْ، وقِيل: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ﴾ [الطور: ٣٨]، وذُيِّلَ بقولِه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾ [الطور: ٣٩]؛ إشعارًا بأنَّ مَن جعَلَ خالِقَه أدْوَنَ حالًا منه، لم يُستبعَدْ منه تلك المقالاتُ الخرقاءُ، كأنَّه سُلِّيَ صلَّى اللهُ تعالَى عليه وسلَّمَ؛ وقيل: ناهِيكَ بتَساوي الطَّعنينِ في البُطلانِ، وبما يَلْقَون مِن سُوءِ مَغبَّتِهما.

ثم قِيل: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ [الطور: ٤٠]، وفيه تَهكُّمٌ بهم، وذمٌّ لهم بالحسَدِ واللُّؤمِ.

ثُمَّ قِيل: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ على معْنى: بلْ أعِندَهم اللَّوحُ -على قولٍ-، فيَعلَمون كُلَّ ما هو كائنٌ، ويَكتبُون فيه تلك المعلوماتِ، وقدْ عَلِموا أنَّ ما تدَّعِيه مِن المَعادِ ليس مِن الكائنِ المكتوبِ؟! والمقصودُ مِن هذا نفْيُ المُنْبَأ به -أي: البعثِ- على وجْهٍ يَتضمَّنُ دفْعَ النُّبوَّةِ أيضًا إدماجًا[1]، عكْسَ الأوَّلِ؛ ولهذا أخَّرَه عن قولِه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾؛ فقدْ سلَفَ أنَّ مَصَبَّ الغرَضِ حديثُ المُنبِئِ والنَّبأِ والمنبَّأ به، فقَضى الوطَرَ مِن الأوَّلَينِ مع الرَّمْزِ إلى الأخيرِ، ثمَّ أخَذَ فيه مع الرَّمْزِ إليهما قَضاءً لحَقِّ الإعجازِ؛ ففي ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ إشارةٌ إلى السَّاعةِ، وفيه ترَقٍّ في دَفْعِ كذبِهم وافتِراءاتِهم مِن وجْهٍ أيضًا؛ لأنَّ العِلمَ أشمَلُ مَوردًا مِن القُدْرةِ، ولأنَّ الأوَّلَ إنكارٌ مِن حيثُ إنَّهم لم يُرسِلُوه، وهذا مِن تلك الحَيثيَّةِ، ومِن حيثُ إنَّهم ما عَلِموا بإرْسالِ غيرِه إيَّاه أيضًا مع إحاطةِ عِلمِهم، لكنَّه غيرُ مَقصودٍ قصْدًا أوَّليًّا.

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٥).

ثمَّ ختَمَ الكلامَ بالإضرابِ عن الإنكارِ إلى الإخبارِ عن حالِهم بأنَّهم يُرِيدونَ بكَ كيدًا؛ فهمْ يَنصِبُون لك الحَبائلَ قوْلًا وفِعلًا، لا يَقِفون على هذه المقالةِ وحْدَها، وهم المَكيدونَ لا أنت؛ قولًا وفِعلًا، وحُجَّةً وسَيفًا، وحقَّقَ ما ضمَّنَه مِن الوَعيدِ بقولِه سُبحانَه: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾، فيُنجِّيهم مِن كَيدِه وعَذابِه؟! لا واللهِ، سُبحانَ اللهِ عن أنْ يكونَ إلهٌ غَيرُه! وما بَعْدَه مِن الآياتِ تأْكيدٌ لأمْرِ طُغيانِهم، ومَزيدُ تَحقيقٍ للوعيدِ، ومُبالَغةٌ في التَّسليةِ[1].

(١) نقَل هذه الوجوهَ ولخَّصها الألوسيُّ عن القزويني صاحِب «الكشف على الكشاف»؛ يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٤١ - ٤٣).

الآيات (٤٤-٤٩)

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كِسْفًا﴾: أي: قِطْعةً أو قِطَعًا؛ يَجوزُ أنْ يكونَ وَاحِدًا، وأنْ يكونَ جمْعَ كِسْفَةٍ، مِثل سِدْرَةٍ وسِدْرٍ، وأمَّا (الكِسَف) -بفتْحِ السِّينِ- أي: القِطَعُ، فإنَّه جمْعُ كِسْفةٍ. والكِسْفةُ: القِطعةُ مِن الشَّيءِ، وأصلُ (كسف) هنا: يدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[١].

﴿مَّرْكُومٌ﴾: أي: مُتراكِمٌ؛ بَعضُه فوقَ بَعضٍ، وأصلُ (ركم): يدُلُّ على تجَمُّعِ شَيءٍ[٢].

﴿يُصْعَقُونَ﴾: أي: يَموتونَ ويُهلَكونَ، وقيل: يُعذَّبون، والصَّاعِقةُ: هي الصَّوتُ الشَّديدُ مِن الجوِّ، ثمَّ يكونُ منه نارٌ فقط، أو عذابٌ، أو موتٌ، وقيل: الصَّاعقةُ: كلُّ عَذابٍ مُهلِكٍ، أو: هي اسمٌ للعذابِ على أيِّ حالٍ كان، وأصلُ (صعق): يدُلُّ على شِدَّةِ الصَّوتِ[٣].

---

(١) يُنظَر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٤/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٠٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤، ٤٨٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مبيِّنًا عنادَ المشركينَ ومُكابَرَتَهم للمحسوسِ: وإنْ يَرَ أولئك المُشرِكونَ قِطَعًا مِن السَّماءِ ساقِطةً عليهم، يقولوا: هذا سَحابٌ تراكَم بعضُه على بَعضٍ، ولا يُؤمِنوا بأنَّه عذابٌ مِنَ اللهِ تعالى؛ فاترُكْهم -يا محمَّدُ- حتَّى يُلاقُوا يومَهم الَّذي فيه يُعذَّبونَ؛ يومَ لا يَنفَعُهم كَيدُهم شَيئًا، ولا هم يُنصَرونَ، وإنَّ لِلَّذِين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ باللهِ تعالى عَذابًا قبْلَ عَذابِ ذلك اليَومِ، ولكِنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمونَ!

ثمَّ يختمُ الله تعالى هذه الآياتِ بتوجيهِ الخِطابِ إلى نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، آمِرًا له بالصَّبرِ، وألَّا يعبأَ بهم، فيقولُ: واصبِرْ -يا محمَّدُ- لحُكْمِ رَبِّك؛ فإنَّك بمَرأًى مِنَّا، نَحُوطك ونَحميك، ونَزِّهْ ربَّك -يا محمَّدُ- عن النَّقائِصِ تَنزيهًا مُقتَرِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ حينَ تَقومُ، وسَبِّحْ رَبَّك في بَعضِ أوقاتِ اللَّيلِ وحينَ تَميلُ النُّجومُ للمَغيبِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن فسادَ أقوالِهم وسُقوطَها عن درجةِ الاعتبارِ، أشار إلى أنَّه لم يَبْقَ لهم شيءٌ مِنْ وجهِ الاعتذارِ؛ فإنَّ الآياتِ ظَهَرتْ، والحُجَجَ تَميَّزَتْ، ولم يُؤْمِنوا[1]،

= (٣/ ٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢).

قال ابن جرير: (وأصْلُ الصَّاعِقةِ: كُلُّ أمْرٍ هائِلٍ رآه أو عايَنَه أو أصابَه، حتَّى يَصيرَ مِن هَوْلِه وعَظيمِ شَأْنِه إلى هَلاكٍ وعَطَبٍ، أو إلى ذَهابِ عَقلٍ وغُمورِ فَهْمٍ، أو فَقْدِ بَعضِ آلاتِ الجِسمِ؛ صَوتًا كان ذلك، أو نارًا، أو زَلزَلةً، أو رَجْفًا). ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٩٠، ٦٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٣).

فبَعْدَ ذلك استحَقُّوا الانتقامَ[(١)].

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

أي: وإنْ يَرَ المُشرِكونَ قِطَعًا من السَّماءِ ساقِطةً عليهم، يقولوا: هذا سَحابٌ تراكَم بعضُه على بَعضٍ، ولا يُؤمِنوا بأنَّه عذابٌ مِنَ اللهِ تعالى[(٢)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

قال البِقاعي: (﴿ كِسْفًا ﴾ أي: قِطعةً، وقيلَ: قِطَعًا، واحِدتُها كِسْفةٌ، مِثلُ: سِدْرةٍ وسِدْرٍ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٤).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ؛ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ كِسْفًا ﴾: أي: قِطعةً: ابنُ أبي زَمَنين، والثعلبيُّ، والبغوي، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٩).

قال ابنُ عاشور: (الكِسْفُ -بكَسرِ الكافِ: القِطعةُ... و﴿ مِّنَ ﴾ تبعيضيَّة، أي: قِطعةً مِن أجزاءِ السَّماءِ مِثلَ القِطَعِ الَّتي تَسقُطُ مِنَ الشُّهُبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٩).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني -أي: أنَّها جمْعُ كِسفةٍ-: ابنُ جرير، والنَّحَّاسُ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٠)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٧).

قال أبو حيَّان: (﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾: كانت قُريشٌ قد اقتَرَحَتْ على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما اقتَرَحَتْ مِن قولِهم: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ [الإسراء: ٩٢]، فأخْبَرَ تعالَى أنَّهم لو رَأَوا ذلك عِيانًا، حَسَبَ اقتراحِهم، لَبَلَغ بهم عُتُوُّهم وجهلُهم أنْ يُغالِطوا أنفُسَهم فيما عايَنوه، وقالوا: هو سَحابٌ مركومٌ، تَرَاكَم بعضُه على بعضٍ مُمْطِرُنا، وليسَ بكِسفٍ ساقِطٍ للعذابِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٦).

واختار السعديُّ وابنُ عثيمينَ أنَّ المرادَ: قِطعٌ من العذابِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سبأ: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٢].

وقال تعالى حكايةً عن قَولِ أصحابِ الأَيْكةِ لِشُعَيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٧].

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

أي: فاترُكْ -يا محمَّدُ- هؤلاء المُشرِكينَ المُعانِدينَ حتَّى يُلاقُوا اليَومَ الَّذي فيه يموتونَ ويهلكونَ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

وقد ذهَب ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وابنُ جُزَي: إلى أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾: النَّفخةُ الأُولى، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٣).

وذهب أبو السُّعودِ، وابنُ عجيبة، والألوسيُّ: إلى أنَّ المرادَ بذلك اليَومِ: يومُ بَدرٍ، واستَظْهَره البِقاعي. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٤٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥). =

كما قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣].

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال: ﴿يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾، وكُلُّ بَرٍّ وفاجرٍ يُلاقي يَومَه؛ أعاد صِفةَ يَومِهم، وذكَرَ ما يتمَيَّزُ به يومُهم عن يومِ المُؤمِنينَ؛ فقال[1]:

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

= قال ابن عجيبة: (هو اليَومُ الَّذي صُعِقُوا فيه بالقَتلِ يومَ بَدرٍ، لا عِندَ النَّفخةِ الأُولى كما قيلَ؛ إذ لا يُصعَقُ بها إلَّا مَن كان حيًّا حينَئذٍ). ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٤٩٦).

وقال ابن عطية: (واختلَف النَّاسُ في اليومِ الَّذي تُوُعِّدوا به؛ فقال بعضُ المتأوِّلينَ: هو مَوتُهم واحدًا واحدًا، وهذا على تجَوُّزٍ، والصَّعقُ: التَّعذيبُ في الجملةِ، وإن كان الاستِعمالُ قد كثُر فيه فيما يُصيبُ الإنسانَ مِن الصَّيحةِ المُفرطةِ ونحوِه.

ويحتملُ أن يكونَ اليومُ الَّذي تُوعِّدوا به يومَ بدرٍ؛ لأنَّهم عُذِّبوا فيه. وقال الجمهورُ: التَّوعُّدُ بيومِ القيامةِ؛ لأنَّ فيه صَعقةً تعُمُّ جميعَ الخلائقِ، لكنْ لا مَحالةَ أنَّ بيْنَ صعقةِ المؤمنِ وصعقةِ الكافرِ فرقًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٤).

وقال ابنُ عثيمين: (هو يومُ مَوتِهم، يعني: اترُكْ هؤلاءِ؛ فإنَّ مآلَهم إلى الموتِ وإنْ فَرُّوا، وهم إذا لاقَوا يَومَهم الَّذي يُوعَدونَ عَرَفوا أنَّهم على باطِلٍ، وأنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الحَقِّ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: يَموتون ويهلكون: السَّمرقنديُّ، والرسعني، والخازن، وجلال الدين المحلي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٤).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿فَذَرْهُمْ﴾ فخَلِّ عنهم يا محمَّدُ ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ في الآخِرةِ ﴿الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ يعني: يُعذَّبون). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٦).

أي: يومَ لا يَنفَعُهم كَيدُهم الَّذي كادوا به الحَقَّ شَيئًا[١]!

كما قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ۝ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: ٣٨، ٣٩].

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾.

أي: ولا هم يُنصَرونَ؛ فيُنجيَهم أحَدٌ مِن عَذابِه[٢]!

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان: ٤١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ [الطارق: ١٠].

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عذابَ الظَّالِمينَ في القيامةِ؛ أخبَرَ أنَّ لهم عَذابًا دونَ عَذابِ يومِ القِيامةِ[٣].

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

أي: وإنَّ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ باللهِ تعالى عَذابًا قبْل ذلك اليَومِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).
قال ابن كثير: (﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا يَنفَعُهم كَيدُهم ومَكْرُهم الَّذي استَعمَلوه في الدُّنيا، ولا يُجدي عنهم يومَ القيامةِ شَيئًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨).
وقال ابن عاشور: (أي: لا يَستطيعونَ كيدًا يومَئذٍ كما كانوا في الدُّنيا، فالمعنى: لا كَيدَ لهم فيُغْنيَ عنهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٤، ٦٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير =

= القرطبي)) (١٧/ ٧٨)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦١).

قيل: العَذابُ المذكورُ هنا شامِلٌ لعَذابِ الدُّنيا بالقَتلِ أو غَيرِه، ولِعَذابِ البَرزخِ والقَبرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابن القيم، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦١).

قال ابن جرير: (الصَّوابُ مِن القولِ في ذلك عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه أخبَر أنَّ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم به عذابًا دونَ يَومِهم الَّذي فيه يُصعقونَ، وذلك يومُ القيامةِ، فعذابُ القبرِ دونَ يومِ القيامةِ؛ لأنَّه في البَرزَخِ، والجوعُ الَّذي أصاب كفَّارَ قُرَيشٍ، والمصائبُ الَّتي تُصيبُهم في أنفُسِهم وأموالِهم وأولادِهم دونَ يومِ القيامةِ، ولم يَخصُصِ اللهُ نَوعًا مِن ذلك أنَّه لهم دونَ يومِ القيامةِ دونَ نَوعٍ، بل عَمَّ، فقال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، فكلُّ ذلك لهم عذابٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٤).

وقال ابنُ القيِّم: (هذا يحتَمِلُ أن يُرادَ به عذابُهم بالقَتلِ وغَيرِه في الدُّنيا، وأن يرادَ به عذابُهم في البَرزخِ، وهو أظهَرُ؛ لأنَّ كثيرًا منهم مات ولم يُعَذَّبْ في الدُّنيا. وقد يُقالُ -وهو أظهَرُ-: إنَّ مَن مات منهم عُذِّبَ في البَرزخِ، ومَن بَقِيَ منهم عُذِّبَ في الدُّنيا بالقَتلِ وغَيرِه؛ فهو وَعيدٌ بعَذابِهم في الدُّنيا وفي البَرزخِ). ((الروح)) (ص: ٧٥).

وقال الشنقيطي: (الظَّاهرُ أنَّ قولَه: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ هو ما عُذِّبوا به في دارِ الدُّنيا مِن القتلِ وغيرِه. كما دَلَّ على ذلك قولُه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ الآيةَ [السجدة: ٢١]، وقولُه تعالَى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ، ولا مانِعَ مِن دُخولِ عَذابِ القَبرِ في ذلك؛ لأنَّه قد يَدخُلُ في ظاهِرِ الآيةِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٦١).

وقيل: المرادُ به: العَذابُ في الدُّنيا، واختلَفوا؛ فمِنهم مَن اقتصَر على كَونِه في الدُّنيا؛ كالخازنِ، وابنِ كثير. ومِنهم مَن قصَر هذا العذابَ على القتلِ ببَدْرٍ؛ كابنِ جُزَي، والعُلَيمي، والشَّوكاني. ومِنهم مَن قال: عذابُ الجوعِ في سِنِي القَحطِ، وعذابُ السَّيْفِ يومَ بَدْرٍ، كابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

وقال ابن عثيمين: (﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، يعني: دونَ عذابِ الموتِ، وهو ما أُصيبوا به مِن =

كما قال تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

= الجدبِ والقحطِ والخوفِ والحروبِ وغيرِ ذلك، ممَّا كان قبْلَ الموتِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

وممَّن قال بمعنى هذا القولِ مِن السَّلفِ -معَ تنَوُّعِ عباراتِهم-: (الجوع، والقحط، والقتل ببدر، وذهاب الأموال والأولاد)-: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، ومجاهِدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بهذا العذابِ: عذابُ القبرِ: الكرماني، والرسعني. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١١٤٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: البَراءُ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٢).

قال ابن عاشور: (كلمةُ «دونَ» أصْلُها المكانُ المنفصِلُ عن شَيءٍ انفصالًا قريبًا، وكَثُر إطلاقُه على الأقلِّ، يُقالُ: هو في الشَّرفِ دونَ فلانٍ، وعلى السَّابقِ؛ لأنَّه أقرَبُ حُلولًا مِن المسبوقِ، وعلى معنَى «غيرِ». و«دُونَ» في هذه الآيةِ صالِحةٌ للثَّلاثةِ الأخيرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

وقال الرازي: (﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾، على قولِ أكثَرِ المفسِّرينَ معناه: «قبْلَ»، ويُؤَيِّدُه قولُه تعالَى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السَّجْدَة: ٢١]. ويحتمِلُ وجهَيْنِ آخَرَيْنِ: أحدُهما: دونَ ذلك، أي: أقلَّ مِن ذلك في الدَّوامِ والشِّدَّةِ...

الثَّاني: على طريقةِ قولِ القائلِ: تحتَ لَجاجِكَ مفاسِدُ، ودونَ غَرَضِك متاعِبُ، وبَيانُه هو أنَّهم لَمَّا عَبَدوا غيرَ اللهِ ظلَموا أنفُسَهم، حيثُ وَضَعوها في غيرِ موضِعِها الَّذي خُلِقَتْ له، فقيلَ لهم: إنَّ لكم دونَ ذلك الظُّلمِ عذابًا). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: قبْلَ عذابِ الآخرةِ: البغويُّ، والخازنُ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٦).

واختار ابنُ عثيمينَ أنَّ المرادَ: قبْلَ عذابِ الموتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ الكافِرينَ لا يَعلَمونَ ما سيَصيرونَ إليه مِنَ العَذابِ الواقِعِ بهم لا مَحالةَ[1]!

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى الحُجَجَ والبَراهينَ على بُطلانِ أقوالِ المُكَذِّبينَ؛ أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ألَّا يَعبَأَ بهم شَيئًا، وأن يَصبِرَ لحُكمِ رَبِّه القَدَريِّ والشَّرعيِّ بلُزومِه والاستِقامةِ عليه، ووَعَدَه اللهُ تعالى بالكفايةِ[2].

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾.

أي: واصبِرْ -يا محمَّدُ- لِحُكمِ ربِّك القَدَريِّ -ممَّا قدَّره عليك مِن ظُلمٍ يُصيبُك، وأذًى يَنالُك- ولحُكمِه الشَّرعيِّ؛ بلُزومِه، والاستقامةِ عليه، وتبليغِ رسالةِ الله؛ فإنَّك بمَرأًى مِنَّا، نَحوطُك ونَحفَظُك مِن كُلِّ سُوءٍ وكَيدٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٢).

قال ابن عرفة: («الأكثر» إمَّا على بابِه، أو بمعنى «الجميعِ»، وعاقَبَهم على الجهلِ؛ لِتَمكُّنِهم مِن العِلمِ). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٢٥، ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٢).

قال القرطبي: (﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ قيل: لِقَضاءِ ربِّك فيما حمَّلَك مِن رسالتِه. وقيل: لِبَلائِه فيما ابتَلاك به مِن قَومِك). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٨). =

= قيل: معنى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ أي: لِما أمَرَك ربُّك، ونهاك عنه. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٧).

وقيل: معنى ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ أي: إلى أن يقَعَ بهم العذابُ الَّذي حكَمْنا عليهم. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والبغوي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٥١٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٣).

وقيل: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ أي: لِما حكَم به عليك. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والسَّمعانيُّ، وابن الجوزي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٥).

وقيل: المعنى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ بإمهالِهم، وما يَلحَقُك فيه مِن المشَقَّةِ والكُلفةِ وتمَكُّنِهم مِن أذاك، معَ مُقاساةِ الأحزانِ، ومُعاناةِ الهمومِ. وممَّن اختاره في الجملةِ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والرسعني، والنسفي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٤٠).

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ أي: اصبِرْ على أذاهم، ولا تُبالِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بحُكم رَبِّك: ما حَكَم به وقدَّره مِن انتفاءِ إجابةِ بَعضِهم، ومِن إبطاءِ إجابةِ أكثَرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٣).

وممَّن جمَع بيْنَ معنَيَي الحُكمِ، واختار أنَّ المرادَ: الأمرُ بالصَّبرِ على حُكمِ الله الشَّرعيِّ والكَونيِّ: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٢).

قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ يَشملُ الحُكمَ الكَونيَّ، والحُكمَ الشَّرعيَّ، يعني: اصبِرْ لِما حكَم به ربُّك مِن وُجوبِ إبلاغِ الرِّسالةِ وإن أصابك ما يُصيبُك، واصبِرْ لِحُكمِ ربِّك القَدَريِّ الكَونيِّ، وهو ما يُقدِّرُه اللهُ تعالى عليك مِن هؤلاء السُّفهاءِ مِن السُّخريةِ والعُدوانِ والظُّلمِ، ولقد أُوذيَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم كما أُوذيَ إخوانُه مِن المُرسَلينَ، أُوذيَ إيذاءً عظيمًا). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٢).

وقال ابن تيميَّة: (بعضُ المفسِّرينَ يقولُ: هذه الآيةُ منسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ، وهذا يتوجَّهُ إن كان =

كما قال تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ [المزمل: ١٠].

﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾.

أي: ونزِّهْ ربَّك -يا محمَّدُ- عن النَّقائِصِ تَنزيهًا مُقترِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ مَحبَّةً وتَعظيمًا له؛ حينَ تَقومُ[1].

= في الآيةِ النَّهيُ عن القتالِ، فيكون هذا النَّهيُ منسوخًا. ليس جميعُ أنواعِ الصَّبرِ منسوخةً، كيف والآيةُ لم تتعرَّضْ لذلك هنا لا بنَفْيٍ ولا إثباتٍ؟! بل الصَّبرُ واجبٌ لِحُكمِ الله ما زال واجبًا، وإذا أُمِر بالجهادِ فعليه أيضًا أن يَصبرَ لِحُكمِ الله؛ فإنَّه يُبتلى مِن قتالِهم بما هو أعظَمُ مِن كلامِهم، كما ابتُلِيَ به يومَ أُحُدٍ والخَندقِ، وعليه حينَئذٍ أن يَصبرَ ويَفعَلَ ما أُمِر به مِن الجهادِ.

والمقصودُ هنا قولُه: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾؛ فإنَّ ما فعَلوه مِن الأذى هو ممَّا حكَم به عليك قَدَرًا، فاصبِرْ لِحُكمِه وإن كانوا ظالِمينَ في ذلك، وهذا الصَّبرُ أعظَمُ مِن الصَّبرِ على ما جرى وفُعِل بالأنبياءِ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٣٢٥).

وقال الرَّسْعَني: (وهذا مِن المواضعِ الَّتي يقولُ أكثرُ المفسِّرينَ: إنَّها منسوخةٌ. ولا يصحُّ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٨). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٢).

وقال الرازي: (اللَّام في قولِه: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ ﴾ تحتمِلُ وُجوهًا:

الأوَّل: هي بمعنى «إلى»، أي: اصبِرْ إلى أن يَحكُمَ اللهُ.

الثَّاني: الصَّبرُ فيه معنى الثَّباتِ، فكأنَّه يقولُ: فاثبُتْ لِحُكمِ ربِّك، يُقالُ: ثبَتَ فلانٌ لحملِ قِرنِه.

الثَّالث: هي اللَّامُ الَّتي تُستعمَلُ بمعنى السَّببِ، يُقالُ: لِمَ خرَجْتَ؟ فيُقالُ: لِحُكمِ فُلانٍ علَيَّ بالخروجِ، فقال: واصبِرْ واجعَلْ سببَ الصَّبرِ امتِثالَ الأمرِ، حيثُ قال: واصبِرْ لهذا الحُكمِ عليك، لا لشَيءٍ آخَرَ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٨-٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨، ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٤، ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣).

= قال الماوَرْدي: (فيه أربعةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: أنْ يُسَبِّحَ اللهَ إذا قام مِن مَجلِسِه -قاله أبو الأحوصِ-؛ لِيَكونَ تَكفيرًا لِما أجرى في يَومِه.

الثَّاني: حينَ تقومُ مِن مَنامِك؛ لِيَكونَ مُفتَتَحًا لعَمَلِه بذِكرِ الله. قاله حسَّانُ بنُ عطيَّةَ.

الثَّالِثُ: حينَ تقومُ مِن نَومِ القائلةِ لصَلاةِ الظُّهرِ. قاله زَيدُ بنُ أسلَمَ.

الرَّابِعُ: أنَّه التَّسبيحُ في الصَّلاةِ إذا قام إليها. وفي هذا التَّسبيحِ قَولانِ:

أحَدُهما: هو قَولُ: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ، في الرُّكوعِ، وسُبحانَ رَبِّيَ الأعلى، في السُّجودِ.

الثَّاني: التوَجُّهُ في الصَّلاةِ بقَولِه: سُبحانَك اللَّهُمَّ وبحَمدِك، وتبارَكَ اسمُك، وتعالى جَدُّك، ولا إلهَ غَيرُك. قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٨٧).

وقد ذكَرَ الرَّازي وُجوهًا أُخرى؛ منها: حينَ تَقومُ لأمرٍ ما، ولا سيَّما إذا قُمتَ مُنتَصِبًا لمجاهَدةِ قَومِك ومُعاداتِهم، والدُّعاءِ عليهم؛ فسَبِّحْ بحَمدِ رَبِّك، وبَدِّلْ قِيامَك للمُعاداةِ وانتِصابَك للانتِقامِ بقيامِك لذِكرِ اللهِ وتَسبيحِه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: التَّسبيحُ حينَ القيامِ مِن المَجلِسِ: الواحديُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٣).

قال الواحدي: (أكثرُ المفسِّرينَ على أنَّه أُمِر أن يقولَ حينَ يقومُ مِن مَجلِسِه: سُبحانَ الله وبحَمدِه). ((البسيط)) (٢٠/ ٥١٣).

وممَّن اختار هذا القولَ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ، ومجاهِدٌ، وعَطاءُ بنُ أبي رباحٍ، وأبو الأحوصِ عَوفُ بنُ مالكٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وسُفْيانُ الثَّوريُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٣٧).

وقال الزَّجَّاجُ: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حينَ تقومُ مِن مَنامِك). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٦٨).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ قَولُ: سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه، وإلى العُمومِ في معنى: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ فيَشمَلُ ذلك القيامَ مِن أيِّ شَيءٍ؛ كالقيامِ مِن النَّومِ، والقيامِ مِن المَجلِسِ، وغَيرِ ذلك: الزمخشريُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٥، ٥٦).

وقال مقاتل: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يقولُ: وصَلِّ بأمرِ ربِّك حِينَ تَقومُ إلى الصَّلاةِ المكتوبةِ). =

كما قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [غافر: ٥٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ [ق: ٣٩، ٤٠].

وعنْ عائِشةَ رَضِيَ الله عنها: أنَّها قالتْ: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

= ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٠).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صَلِّ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ أي: للصَّلاةِ المكتوبةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والتُّسْتَريُّ، والقُشَيريُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير التستري)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٧٩).

وممَّن ذهَبَ إلى أنَّ المرادَ: صلاةُ الظُّهرِ بعدَ القيامِ مِن نَومِ القائِلةِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٦).

وقال ابن عاشور: (والقيامُ: جعلُ وَقْتٍ للصَّلَواتِ: إمَّا للنَّوافلِ، وإمَّا لصلاةِ الفريضةِ وهي الصُّبْحُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥).

قال السعدي: (وأمَره أن يستعينَ على الصَّبرِ بالذِّكرِ والعبادةِ، فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

وقال البقاعي: (﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: أوقِعِ التَّنزيهَ عن شائبةِ كلِّ نقصٍ بالقلبِ واللِّسانِ والأركانِ، متلبِّسًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: المُحسِنِ إليك، فأثبِتْ له كلَّ كمالٍ، مع تنزيهِه له عن كلِّ نقصٍ، فلا يكونُ في مُلكِه ما لا يريدُ، ولا يريدُ إلا ما هو حِكمةٌ بالِغةٌ ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ أي: مِن اللَّيلِ في جميعِ الأوقاتِ الَّتي هي مَظِنَّةُ القيامِ على الأمورِ الدُّنيويَّةِ، والأشغالِ النَّفسانيَّةِ، وهي أوقاتُ النَّهارِ، الَّذي هو للانتِشارِ بصلاةِ الصُّبحِ والظُّهرِ والعصرِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٨).

يُكثِرُ أنْ يَقولَ في رُكوعِه وسُجودِه: سُبْحانكَ اللَّهُمَّ ربَّنا وبِحَمْدِك، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي يَتأَوَّلُ القُرْآنَ))(١).

وعنْ عائِشةَ أيضًا، قالتْ: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُكثِرُ مِن قَولِ: سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْدِه أسْتَغفِرُ اللهَ وأتُوبُ إليه، قالتْ: فقُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، أَرَاكَ تُكثِرُ مِن قَولِ: سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْدِه أسْتَغفِرُ اللهَ وأتُوبُ إليه؟ فقال: خَبَّرني رَبِّي أنِّي سأَرَى عَلامةً في أُمَّتِي، فإذا رَأَيْتُها أكثَرْتُ مِن قَولِ: سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْدِه أسْتَغفِرُ اللهَ وأتُوبُ إليه، فقَدْ رَأَيْتُها ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١] فَتْحُ مكَّةَ، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا * فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ٢، ٣]))(٢).

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾.

أي: وسَبِّحْ رَبَّك -يا محمَّدُ- في بَعضِ أوقاتِ اللَّيلِ(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).
يتأوَّلُ القرآنَ أي: يعملُ ما أُمِر به في قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾ [النصر: ٣]، ويجعلُ ما أُمِر به مِن التَّسبيحِ والتَّحميدِ والاستِغفارِ في أشرَفِ الأوقاتِ والأحوالِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٤/ ٢٠١)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧٣٤).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣).
قال الماوَرْدي: (﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ...﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: أنَّها صَلاةُ اللَّيلِ. الثَّاني: التَّسبيحُ فيها. الثَّالثُ: أنَّه التَّسبيحُ في صَلاةٍ وغَيرِ صَلاةٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٨٧).
وممَّن قال بأنَّ المرادَ قَولُ: سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه في هذا الوقتِ: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾.

أي: وسبِّحْه أيضًا حينَ تَميلُ النُّجومُ للمَغيبِ(١).

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ: صَلاةُ المَغرِبِ والعِشاءِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥، ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣، ٢٠٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ قَولُ: سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه إذا أدبرَتِ النُّجومُ مِن آخِرِ اللَّيلِ: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: صَلاةُ الفَجرِ: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٩، ٦١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٢).

وقال السعدي: (﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: آخِرَ اللَّيلِ، ويَدخُلُ فيه صَلاةُ الفَجرِ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

وقيل: المرادُ: الرَّكعتانِ قبْلَ الفَجرِ، وهو اختيارُ الواحدي -ونسَبه لقولِ الجميعِ-، ونسَبه البَغَويُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ، وابنُ الجوزي إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٥١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّابِ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ، وجابرُ بنُ عبدِ الله، وأنسُ بنُ مالكٍ، وأبو هُرَيرةَ، وابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦١١، ٦٣٨).

قال ابنُ عاشور: (والإدبارُ: رُجوعُ الشَّيءِ مِن حَيثُ جاء؛ لأنَّه يَنقَلِبُ إلى جِهةِ الدُّبُرِ، أي: الظَّهْرِ. وإدبارُ النُّجومُ: سُقوطُ طَوالِعِها...، وسقوطُ طوالِعِها الَّتي تَطلُعُ: أنَّها تَسقُطُ في جِهةِ المَغرِبِ عندَ الفَجرِ إذا أضاء عليها ابتِداءُ ظُهورِ شُعاعِ الشَّمسِ؛ فإدبارُ النُّجومِ: وَقتُ السَّحَرِ). ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ هذه الآيةُ ينبغي أن يُقَرِّرَها كُلُّ مُؤمِنٍ في نفْسِه؛ فإنَّها تَفْسَحُ مَضايِقَ الدُّنيا[١]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾، وحُكمُ الله نَوعانِ: خَلْقٌ، وأمْرٌ؛ فالأوَّلُ: ما يُقدِّرُه مِن المصائبِ، والثَّاني: ما يأمُرُ به ويَنهى عنه، والعبدُ مأمورٌ بالصَّبرِ على هذا وعلى هذا؛ فعليه أن يَصبرَ لِما أُمِر به ولِما نُهيَ عنه، فيَفعلَ المأمورَ ويَترُكَ المحظورَ، وعليه أن يَصبرَ لِما قدَّره اللهُ عليه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ممَّا يَنشَأُ عنه الرِّضا استِحضارَ اطِّلاعِ اللهِ عزَّ وجلَّ على عَبدِه في حالِ العَمَلِ له، وتَحَمُّلِ المَشاقِّ مِن أجْلِه؛ فمَن تَيَقَّنَ أنَّ البَلاءَ بعَينِ مَن يُحِبُّه هان عليه الألَمُ[٣]!

= ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥، ٨٦).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني: وَقتَ إدبارِها، وهل المرادُ إدبارُ ضَوئِها بانتِشارِ نُورِ الشَّمسِ، أو إدبارُ ذَواتِها عند الغُروبِ؟ فالجَوابُ هذا وهذا، والمرادُ بذلك: صَلاةُ الفَجرِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣، ٢٠٤).

وقال التُّسْتَري: (قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ قال: يعني لا تَغفُلْ عن ذِكرِ مَن لا يَغفُلُ عن بِرِّك وحِفظِك في كلِّ الأوقات صباحًا ومساءً). ((تفسير التستري)) (ص: ١٥٥).

وقال القُشَيري: (في الآيةِ دليلٌ وإشارةٌ إلى أنَّه أمَره أن يَذكُرَه في كلِّ وقتٍ، وألَّا يَخلوَ وقتٌ مِن ذِكرِه). ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٧٩).

وقال ابن عاشور: (الآيةُ تُشيرُ إلى أوقاتِ الرَّغائِبِ مِن النَّوافِلِ وهي صلاةُ الفَجْرِ، والأشفاعُ بعدَ العشاءِ، وقيامُ آخِرِ اللَّيلِ، وقيل: أشارت إلى الصَّلَواتِ الخَمسِ بوَجهِ الإجمالِ، وبَيَّنَته السُّنَّةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ١٩).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: قُلْ: سبحانَ اللهِ وبحمدِه ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ حينَ تقومُ مِن مجلسِك، أو حِينَ تقومُ مِن منامِك، أو غير ذلك، فهي عامَّةٌ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، ولهذا كان كفَّارةُ المجلسِ أنْ يقولَ الإنسانُ: «سُبْحانَك اللَّهمَّ وبحَمدِك، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا أنت، أستَغفِرُك وأتوبُ إليك»[(١)]، فينبغي للإنسانِ كلَّما قام مِن مجلسٍ أنْ يَخْتِمَ مجْلِسَه بهذا[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم حينَ يَعجِزونَ عن التَّكذيبِ، ولا يُمكِنُهم أن يعقِلوا وُقوعَ شيءٍ على الأرضِ، يَرجِعونَ إلى التَّأويلِ والتَّخييلِ[(٣)].

٢- إنَّ اللهَ تعالى لم يُهلِكْ أحدًا ولم يُعَذِّبْه إلَّا بذَنْبٍ، وقد بيَّن الله تعالى ذلك في كتابِه، ومِن ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾[(٤)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ على القولِ بأنَّ معنَى ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾، أي: أقَلَّ مِن ذلك في الدَّوامِ والشِّدَّةِ ففيه فائدةُ التَّنبيهِ على عذابِ الآخِرةِ العَظيمِ؛ وذلك لأنَّه إذا قال: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: قتْلًا وعذابًا في القبرِ -على

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٥٩)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٢٥٩)، وأحمد (١٩٧٦٩) من حديث أبي بَرْزَةَ الأسْلَميِّ رضي الله عنه
حسَّن إسنادَه ابنُ القيِّم في ((تهذيب السنن)) (١٣/ ٢٠٤)، وحسَّن الحديثَ السَّخاويُّ في ((البلدانيات)) (٢٦٣)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٥٩): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٣/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٢٤).

قولٍ في التَّفسيرِ-، فيَتفكَّرُ المتفكِّرُ ويقولُ: ما يكونُ القتْلُ دُونَه لا يكونُ إلَّا عظيمًا[١]!

٤- قَولُه تعالَى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ هذا يَتضَمَّنُ الحِراسةَ والكِلاءةَ والحِفظَ؛ للصَّابرِ لحُكْمِه[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ إثباتُ العَينِ للهِ عزَّ وجلَّ، وهي حقيقيَّةٌ، ولكنَّها لا تُماثِلُ أعيُنَ الخَلقِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[٣] [الشورى: ١١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ سُؤالٌ: كيف نَجمَعُ بيْن الجَمعِ وبيْن المُثَنَّى فيما ثَبَتَ مِن صفةِ العَينِ للهِ تعالَى؟

الجوابُ: الجَمْعُ بيْنَهما سَهلٌ، هو نَظيرُ الجَمعِ بيْنَ اليَدينِ الواردِ مَجيؤُهما بصِيغةِ التَّثنيةِ وبصيغةِ الجَمعِ؛ فإمَّا أنْ يُرادَ بالجَمعِ ما دونَ الثَّلاثةِ؛ لأنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ قد جاءتْ بالجَمعِ مُرادًا به ما دونَ الثَّلاثةِ، فيكونَ قولُه: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ كقَولِه: بـ «عَينَيْنا»؛ لأنَّ أقلَّ الجَمعِ اثنانِ، وإمَّا أنْ يُقالَ: أقلُّ الجَمعِ ثلاثةٌ -كما هو الأكثَرُ-، ولكنَّ الجَمعَ هنا لا يُرادُ به مَدلولُه التعَدُّديُّ، وإنَّما يُرادُ به مَدلولُه المَعنويُّ، وهو التَّعظيمُ، فيكونُ اللهُ عزَّ وجلَّ جَمَعَ العَينَينِ، فقال: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾؛ تَعظيمًا لهما، وأيضًا يُضافُ إلى التَّعظيمِ المناسَبةُ؛ لأنَّ «نا» دالَّةٌ على الجَمعِ في أصلِ الوَضعِ؛ فناسَبَ أنْ يكونَ المُضافُ إليها مَجموعًا للتَّعظيمِ، كما هي في قَولِه تعالى: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ للتَّعظيمِ، فيَتناسَبُ هنا المُضافُ والمُضافُ إليه، وهذه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣).

المُناسَبةُ لَفظيَّةٌ[١].

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ يعني: وسَبِّحْ ربَّك مِن اللَّيلِ لا كُلَّ اللَّيلِ، و«مِن» هنا للتَّبعيضِ؛ ولهذا لَمَّا سَمِع النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأقوامٍ مِن أصحابِه قال أحدُهم: «أنا أقومُ ولا أنامُ»، قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لكنِّي أُصَلِّي وأنامُ -وفي لفظٍ: وأرقُدُ- فمَنْ رَغِب عن سُنَّتِي فليس مِنِّي))[٢]؛ ولذلك يُكرَهُ للإنسانِ أن يَقومَ اللَّيلَ كلَّه حتَّى لو كان فيه قُوَّةٌ ونَشاطٌ، فلا يَقُمِ اللَّيلَ كلَّه إلَّا في العَشرِ الأواخِرِ مِن رمضانَ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم كان يُحيي ليلَها كلَّه[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ استَدلَّ بَعضُ الفُقَهاءِ بالآيةِ على أنَّ الإسفارَ بصَلاةِ الفَجرِ أفضَلُ؛ لأنَّ النُّجومَ لا إدبارَ لها، وإنَّما ذلك بالاستِتارِ عن العُيونِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ﴾ [الطور: ٣٠] وما بعْدَها مِن الجُمَلِ الحاكيةِ لأقوالِهم، بمُناسَبةِ اشتِراكِ مَعانيها معَ ما في هذه الجُملةِ في تَصويرِ بُهتانِهم ومُكابَرتِهم

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١١٥٠).

قال القاسمي: (وهو استدلالٌ متينٌ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧).

والمذكورُ هو مذهبُ الحنفيَّة، أمَّا مذهبُ جمهورِ الفُقهاءِ مِن المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ فهو أنَّ الأفضلَ تَعجيلُ صلاةِ الفَجرِ في أوَّلِ وقتِها إذا تَحقَّق طُلوعُ الفَجرِ، وهو التَّغليسُ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (١/ ٣٦٦)، ((الشرح الكبير)) للدردير (١/ ١٨٠)، ((المجموع)) للنووي (٣/ ٥١)، ((منتهى الإرادات)) لابن النجار (١/ ١٥٢).

الدَّالَّةِ على أنَّهم أهْلُ البُهتانِ، فلو أُرُوا كِسْفًا ساقطًا مِن السَّماءِ، وقِيل لهم: هذا كِسْفٌ نازلٌ؛ كابَروا وقالوا: هو سَحابٌ مَرْكومٌ(١).

- ووقَعَ ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ خبرًا عن مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، وتَقديرُه: هو سَحابٌ، أو هذا سَحابٌ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ لكَونِ المَقصودِ مِن قولِه: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أنَّ العِنادَ شِيمتُهم، فُرِّعَ عليه أنْ أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَترُكَهم، أي: يَترُكَ عرْضَ الآياتِ عليهم، أي: ألَّا يَسألَ اللهَ إظهارَ ما اقتَرَحوه مِن الآياتِ؛ لأنَّهم لا يَقترِحون ذلك طلَبًا للحُجَّةِ، ولكنَّهم يُكابِرون، وليس المُرادُ ترْكَ دَعوتِهم، وعرْضَ القُرآنِ عليهم. ويجوزُ أنْ يكونَ الأمْرُ في قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ مُستعمَلًا في تَهديدِهم؛ لأنَّهم يَسمَعونَه حِينَ يُقرَأُ عليهم القُرآنُ، كما يُقالُ للَّذي لا يَرْعوي عن غَيِّه: دَعْهُ؛ فإنَّه لا يُقلِعُ(٣).

- وأفادتِ الغايةُ أنَّه يَترُكُهم إلى الأبَدِ؛ لأنَّهم بعْدَ أنْ يُصْعَقوا لا تُعادُ مُحاجَّتُهم بالأدلَّةِ والآياتِ(٤).

- وإضافةُ اليَومِ إلى ضَميرِهم ﴿يَوْمَهُمُ﴾؛ لأنَّهم اشْتُهِروا بإنكارِه، وعُرِفوا بالَّذين لا يُؤمِنون بالآخِرةِ، أو لأنَّه اليومُ الَّذي أُوعِدُوه؛ فالإضافةُ لِأدْنى مُلابَسةٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والإتيانُ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على خَطَئِهم في إنْكارِه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِى عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِى عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ يَنْفي عنهم التَّخلُّصَ بوَسائلَ مِن فِعْلِهم، وعُطِفَ عليه ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾؛ لنَفْيِ أنْ يَتخلَّصوا مِن العَذابِ بفِعلِ مَن يُخلِّصُهم ويَنصُرُهم؛ فانْتَفَى نوعَا الوَسائلِ المُنجيةِ[٢].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِى عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ لم يَقُل: «يومَ لا يُغْنيهم كَيدُهم» مع أنَّ الإغناءَ يتعدَّى بنَفْسِه، وفي هذا فائدةٌ جليلةٌ، وهي: أنَّ قولَ القائِلِ: «أغناني كذا» يُفهَمُ منه أنَّه نفَعَني، وقولُه: «أغنى عنِّي» يُفهَمُ منه أنَّه دَفَع عنِّي الضَّرَرَ، فقَولُه: ﴿لَا يُغۡنِى عَنۡهُمۡ﴾ أي: لا يَدفَعُ عنهم الضَّرَرَ، ولا شَكَّ أنَّ قَولَه: «لا يَدفَعُ عنهم ضررًا» أبلَغُ مِن قَولِه: «لا يَنفَعُهم نَفعًا»، وإنَّما في المؤمِنِ لو قال: «يومَ يُغْني عنهم صِدقُهم» لَمَا فُهِمَ منه نَفعُهم، فقال: ﴿يَوۡمُ يَنفَعُ﴾ [المائدة: ١١٩] كأنَّه قال: «يومُ يُغْنيهم صِدقُهم»، فكأنَّه استعمَلَ في المؤمِنِ «يُغْنيهم»، وفي الكافِرِ «لا يُغْني عنهم». وهذا مِمَّا لا يَطَّلِعُ عليه إلَّا من يكونُ عِندَه مِن عِلمِ البَيانِ طَرَفٌ، ويتفَكَّرُ بقريحةٍ وقَّادةٍ آياتِ اللهِ، ووفَّقَه اللهُ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، أي: وإنَّ لهم عذابًا في الدُّنيا قبْلَ عَذابِ الآخِرةِ، وهو عَذابُ الجُوعِ في سِنِي القَحْطِ، وعذابُ السَّيفِ يومَ بَدْرٍ[٤]، وهذا علَى قولٍ في تَفسيرِها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨١، ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: وإنَّ لهم عَذابًا، جَرْيًا على أُسلوبِ قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥]؛ فخُولِفَ مُقْتضى الظَّاهِرِ لإفادةِ عِلَّةِ استِحقاقِهم العَذابَ في الدُّنيا بأنَّها الإشراكُ باللهِ[١].

- ولِكَونِ هذا العَذابِ مُستبْعَدًا عِندَهم، وهمْ يَرَون أنفُسَهم في نِعمةٍ مُستمِرَّةٍ، أُكِّدَ الخبَرُ بحرْفِ (إنَّ)؛ فالتَّأكيدُ مُراعًى فيه شكُّهُم حِينَ يَسمَعونَ القُرآنَ، كما دلَّ عليه تَعقيبُه بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستِدراكُ الَّذي أفادَتْه (لكنَّ) راجِعٌ إلى مُفادِ التَّأكيدِ، أي: هو واقعٌ لا مَحالةَ، ولكنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمون وُقوعَه، أي: لا يَخطُرُ ببالِهم وُقوعُه، وذلك مِن بَطَرِهم وزَهْوِهم[٣].

- وأُسنِدَ عدَمُ العِلمِ إلى أكثَرِهم دونَ جَميعِهم؛ لأنَّ فيهم أهلَ رأْيٍ ونَظَرٍ يَتوقَّعون حُلولَ الشَّرِّ إذا كانوا في خَيرٍ[٤]. وقيل: الأكثرُ هنا بمعنَى الجميعِ[٥].

- ومَفعولُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ مَحذوفٌ اختِصارًا؛ للعِلمِ به[٦].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ...﴾ [الطور: ٤٥] إلخ، وما بيْنَهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨٢، ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٩٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

اعتِراضٌ، وكان مُفتتَحُ السُّورةِ خِطابًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ابتداءً مِن قَولِه تَعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ٧] المَسوقِ مَساقَ التَّسليةِ له، وكان في مُعظَمِ ما في السُّورةِ مِن الأخبارِ ما يُخالِطُه في نفْسِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الكَدَرِ والأسَفِ على ضَلالِ قَومِه، وبُعْدِهم عمَّا جاءَهُم به مِن الهُدى؛ خُتِمَت السُّورةُ بأمْرِه بالصَّبرِ تَسليةً له، وبأمْرِه بالتَّسبيحِ وحمْدِ اللهِ، شُكرًا له على تَفضيلِه بالرِّسالةِ[(١)].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ بمَعنى (على)؛ فتَكونَ لتَعديةِ فِعلِ (اصْبِرْ). ويَجوزُ فيها مَعنى (إلى)، أي: اصبِرْ إلى أنْ يَحكُمَ اللهُ بيْنَك وبيْنَهم. ويَجوزُ أنْ تكونَ للتَّعليلِ، فيكونَ ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ هو ما حَكَم به مِن إرسالِه إلى النَّاسِ، أي: اصبِرْ لأنَّك تقومُ بما وجَبَ عليك؛ فلِلَّامِ في هذا المكانِ مَوقعٌ جامعٌ لا يُفيدُ غيرُ اللَّامِ مِثلَه[(٢)].

- والتَّفريعُ في قولِه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ تَفريعُ العِلَّةِ على المَعلولِ، أي: اصبِرْ لأنَّك بأعْيُنِنا، أي: بمرأًى مِنَّا وبمَحلِّ العِنايةِ والكِلاءةِ مِنَّا، ونحنُ نَعلَمُ ما تُلاقِيه وما يُريدَونه بك، فنحنُ نُجازيك على ما تَلْقاهُ، ونَحرُسُك مِن شَرِّهم، ونَنتقِمُ لك منهم. وقال: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ دونَ أنْ يقولَ: واصبِرْ لِحُكْمِنا، أو لحُكْمِ اللهِ؛ فإنَّ المَربوبيَّةَ تُؤذِنُ بالعِنايةِ بالمَربوبِ[(٣)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هاهنا: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، وكذا في قِصَّةِ نُوحٍ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٥٧ - ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨٣، ٨٤).

الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]، على الجَمْعِ، وقال في مَواضِعَ أُخَرَ: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] على الإفرادِ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا وحَّدَ الضَّميرَ هناك -وهو ياءُ المتكلِّمِ- وحَّدَ العَينَ، ولَمَّا ذكَرَ هاهنا ضَميرَ الجمْعِ في قولِه: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ -وهو النُّونُ- جمَعَ العَينَ وقال: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾، وهذا مِن حيثُ اللَّفظُ. وأمَّا مِن حيثُ المعنى؛ فلأنَّ الحِفظَ هاهنا أتمُّ؛ لأنَّ الصَّبرَ مَطِيَّةُ الرَّحمةِ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حيثُ اجتمَعَ له النَّاسُ، وجمَعُوا له مَكايدَ، وتَشاوَروا في أمْرِه، وكذلك أمْرُه بالفُلكِ في قصَّةِ نوحٍ عليه السَّلامُ، وأمْرُه بالاتِّخاذِ عندَ عدَمِ الماءِ، وحِفْظُه مِن الغرَقِ -مع كَونِ كلِّ البِقاعِ مَغمورةً تحتَ الماءِ تَحتاجُ إلى حِفظٍ عَظيمٍ في نظَرِ الخلْقِ-[1]؛ فقال: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾، وذلك خِلافُ قولِه في قِصَّةِ مُوسى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]؛ فإنَّه تَعلُّقٌ واحِدٌ؛ بمَشْيِ أُختِه إلى آلِ فِرعونَ، وقولِها: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥ﴾[2] [طه: ٤٠].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ للمُصاحَبةِ؛ جمْعًا بيْنَ تَعظيمِ اللهِ بالتَّنزيهِ عن النَّقائصِ، وبيْنَ الثَّناءِ عليه بأوْصافِ الكَمالِ[3].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾: أفْرَدَ اللَّيلَ بالذِّكرِ دونَ النَّهارِ وقدَّمَه على الفِعلِ؛ لتَعظيمِه؛ لأنَّ العِبادةَ فيه أشقُّ على النَّفْسِ، وأبعَدُ مِن الرِّياءِ[4].

---

(١) في مِثل قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤].

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١١).

- وقولُه: ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ اكتِفاءٌ[١]، أي: واحْمَدْه[٢].

(١) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَين بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَر؛ لنُكتةٍ بلاغيَّة؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ النَّجْمِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ النَّجْمِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (النَّجْمِ)[١]، وممَّا يدُلُّ على ذلك ما يلي:

١- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَجَد بالنَّجْمِ، وسَجَدَ معه المُسلِمونَ والمُشرِكونَ، والجِنُّ والإنسُ))[٢].

٢- عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قرأ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم النَّجْمَ فسَجَدَ))[٣].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- في سُورةِ النَّجْمِ سَجدةٌ.

وذلك عندَ قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ﴾[٤] [النَّجْم: ٦٢]. وممَّا يدُلُّ على ذلك ما جاء عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ النَّجمِ؛ لأنَّها ذُكِرَ فيها النَّجمُ، فافتُتِحَت بقَولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٧).
وتُسمَّى أيضًا سُورةَ ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ بواوٍ، بحكايةِ لفظِ القرآنِ الواقِعِ في أوَّلِها، ويدلُّ عليه حديثُ ابنِ مسعودٍ، وسيأتي (ص: ٣٧٨).
وتُسمَّى أيضًا ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ كما في حديثِ زيدِ بنِ ثابتٍ رضي الله عنه: ((أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قرَأ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ...)) [مسلم (٥٧٧) وهو في البخاري (١٠٧٢) بدونِ قولِه: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٧١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٥٣) واللَّفظُ له، ومسلم (٥٧٦).

(٤) وهذا مَذهَبُ الجُمهورِ مِنَ الحَنَفيَّةِ والشَّافِعيَّةِ والحنابِلةِ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٢/ ١٠٤)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٩)، (كشاف القناع)) للبُهوتي (١/ ٤٤٧).

وسلَّم قرأَ سُورةَ النَّجْمِ، فسَجَد فيها، وما بقِيَ أحدٌ مِنَ القَومِ إلَّا سَجَدَ))[١].

٢- سورةُ النَّجْمِ أوَّلُ سُورةٍ أُنزِلَت فيها سَجدةٌ.

عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (أوَّلُ سورةٍ أُنزِلتْ فيها سَجدةٌ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾)[٢].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ النَّجْمِ مَكِّيَّةٌ[٣]، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٤].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

١- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى[٥].

٢- تحقيقُ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صادِقٌ فيما يُبَلِّغُه عن اللهِ تعالى[٦].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

٣- افتُتِحَت السُّورةُ بقَسَمِ اللهِ تعالى بالنَّجْمِ، على صِدقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٧٠)، ومسلم (٥٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٦٣).

(٣) قيل: إلَّا آيةً واحِدةً، وهي قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النجم: ٣٢]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٨٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٦).

(٤) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٣)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٥٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٨)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٥٦).

وسلَّم فيما يُبَلِّغُه عن رَبِّه تعالى.

٤- وَصفُ جِبريلَ عليه السَّلامُ -وهو أمينُ الوَحيِ- بصِفاتٍ تدُلُّ على قُوَّتِه وشِدَّتِه، وعلى أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد رآه على هيئتِه الَّتي خَلَقه اللهُ عليها.

٥- الحديثُ عن آلهةِ المُشرِكينَ المزعومةِ، وبَيانُ أنَّها مُجَرَّدُ أسماءٍ أطلَقوها عليها، وأنَّها أوهامٌ لا حقائِقَ لها، وأنَّ العِبادةَ إنَّما تكونُ للهِ وَحْدَه.

٦- توبيخُ المُشرِكينَ على جَعْلِ الملائِكةِ إناثًا، وتَسميتِهم إيَّاهم بناتِ اللهِ.

٧- أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عمَّن يَتولَّى عن ذِكرِ اللهِ، ويَشغَلُ نَفْسَه بالدُّنيا وَحْدَها؛ وتَسليتُه عمَّا لَحِقَه مِنَ المُشرِكينَ مِن أذًى.

٨- بيانُ مَظاهِرِ رَحمةِ اللهِ وعَدْلِه في خَلْقِه، وسَعةِ عِلمِه وقُدرتِه على كُلِّ شَيءٍ، والتَّذكيرُ بمَن جاء قبْلَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الرُّسُلِ، وما حَلَّ بالأُمَمِ المكذِّبةِ بهم.

٩- التَّعَجُّبُ مِن استهزاءِ المُشرِكينَ بالقُرآنِ حِينَ سَماعِه، وغَفلتِهم عن مَواعِظِه.

١٠- خُتِمَت السُّورةُ بالأمرِ بالخُضوعِ لله وعبادتِه، والإخلاصِ له في العَمَلِ.

الآيات (١-١٨)

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَوَىٰ﴾: أي: سَقَط، والهُوِيُّ: سُقوطٌ مِن عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، وأصلُه يدُلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ[(١)].

﴿غَوَىٰ﴾: أي: اعتَقَد باطِلًا، وتجاوَز الحَقَّ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ[(٢)].

﴿ٱلۡهَوَىٰٓ﴾: أي: ما تَميلُ إليه النَّفْسُ، والهَوى: مَيلُ النَّفْسِ إلى الشَّهوةِ، قيل: سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يَهوِي بصاحِبِه في الدُّنيا إلى كلِّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاوِيةِ، وأصلُه يدُلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

﴿وَحۡيٞ﴾: الوَحْيُ هو كُلُّ ما أَلْقَيْتَه إلى غَيْرِكَ حتَّى عَلِمه كيفَ كانَ: إمَّا بإرسالِ رسولٍ، أو بإلهامٍ، أو بكتابةٍ، أو بإشارةٍ، يُقالُ: وحَى إليه بالكلامِ وَحْيًا، وأوْحَى يُوحِي إيحاءً، وأصلُه: إعلامٌ في خفاءٍ(١).

﴿مِرَّةٖ﴾: أي: قُوَّةٍ وشِدَّةٍ، وأصلُ المِرَّةِ: مِن أمرَرْتُ الحَبلَ، أي: شَدَدتُ فَتْلَه(٢).

﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾: أي: اعتَدَل واستقامَ على صُورتِه الحَقيقيَّةِ، وهو جِبريلُ عليه السَّلامُ، أو ارتَفَع وعلا، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بيْنَ شَيئَينِ(٣).

﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾: أي: أُفُقِ السَّماءِ الَّذي هو أعلَى مِنَ الأرضِ. وقيل: أُفُقِ مَشرِقِ الشَّمسِ، والأُفُقُ: ناحِيةُ السَّماءِ، وأصلُ (أفق): يدُلُّ على تباعُدِ ما بيْنَ أطرافِ الشَّيءِ(٤).

﴿فَتَدَلَّىٰ﴾: أي: دَنا وقَرُبَ، والتَّدَلِّي: هو النُّزولُ إلى الشَّيءِ حتَّى يَقرُبَ منه، وأصلُ (دلي): يدُلُّ على مُقارَبةِ الشَّيءِ ومُداناتِه(٥).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٩٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٦٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾: أي: قَدْرَ قَوسَينِ، والقَوسُ: ما يُرمَى به. وقيل: قَدْرَ ذِراعَينِ، والقَوسُ: الذِّراعُ يُقاسُ بها كُلُّ شَيءٍ، وهذا إشارةٌ إلى تأكيدِ القُربِ، وأصلُه: أنَّ الحليفَينِ مِنَ العَرَبِ كانا إذا أرادا عَقْدَ الصَّفاءِ والعَهدِ خَرَجا بقَوسَيهما فألصَقا بَيْنَهما؛ يُريدانِ بذلك أنَّهما مُتظاهِرانِ يُحامي كُلُّ واحِدٍ مِنهما عن صاحِبِه[١].

﴿ٱلْفُؤَادُ﴾: أي: القلبُ، سُمِّيَ بذلك لحرارَتِه، أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[٢].

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾: أي: أفتُجادِلونَه، والامتِراءُ والمُماراةُ: المحاجَّةُ فيما فيه مِريَةٌ، أي: تَرَدُّدٌ، وأصلُ (مري): يدُلُّ على صَلابةٍ في شَيءٍ؛ لأنَّ المِراءَ كَلامٌ فيه بَعضُ الشِّدَّةِ[٣].

﴿نَزْلَةً﴾: أي: مَرَّةً، وأصلُ (نزل): يدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه[٤].

﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: أي: شَجَرةِ نَبْقٍ عَظيمةٍ فَوقَ السَّماءِ السَّابِعةِ، والمُنتَهى: أي: الانتِهاءِ، وقِيلَ لها سِدرةُ المُنتهَى؛ لانتِهاءِ عِلمِ كُلِّ عالِمٍ مِنَ الخَلقِ إليها، أو لانتِهاءِ ما يَصعَدُ مِن تحتِها، ويَنزِلُ مِن فَوقِها إليها، وقيل غيرُ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠، ٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦، ٩١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣، ٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٠)، ((النهاية)) =

﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾: أي: الجنَّةُ الَّتي يَأوي ويَرجِعُ إليها المؤمِنونَ يومَ القيامةِ. وقيل: هي عن يَمينِ العَرشِ تأوي إليها أرواحُ الشُّهَداءِ، والمَأْوَى: مَكانُ كُلِّ شَيءٍ ومَرجِعُه الَّذي يعودُ إليه، وأصلُ (أوي): يدُلُّ على التَّجمُّعِ[١].

﴿زَاغَ﴾: أي: عَدَلَ ومالَ، والزَّيغُ: المَيلُ عنِ القَصْدِ، وأصلُ (زيغ): يدُلُّ على مَيلٍ[٢].

﴿طَغَىٰ﴾: أي: زادَ وتَجاوَزَ، وأصلُ الطُّغيانِ: يدُلُّ على مُجاوَزةِ الحَدِّ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

افتتَح الله تعالى هذه السُّورةَ بهذا القَسَمِ العظيمِ؛ بالقسَمِ بالنَّجْمِ إذا سَقَطَ على أنَّه ما حادَ رسولُ اللهِ محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- عن الحَقِّ -يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ-، وما كان غاوِيًا مُتَّبِعًا لِهَواه، وما يَصدُرُ كَلامُه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- عن هَوًى في نَفْسِه؛ فما نُطْقُه في الدِّينِ إلَّا وَحْيٌ يُوحِيه اللهُ إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن صفاتِ جبريلَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: وقد علَّم مُحمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- هذا القُرآنَ جِبريلُ -عليه السَّلامُ- الشَّديدُ القُوَى،

= لابن الأثير (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٧).

ذو الجِسمِ القَوِيِّ السَّالمِ مِنَ النَّقصِ، الجَميلُ ظاهِرًا وباطِنًا.

فارتَفَع جِبريلُ وعلا في السَّماءِ على صُورتِه الحَقيقيَّةِ، وهو في ناحيةِ السَّماءِ العُليا، ثمَّ اقتَرَب جِبريلُ مِن مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وتدَلَّى إليه؛ لِيُوحِيَ إليه ما شاء اللهُ، فكان مِقدارُ قُربِ جِبريلَ مِن مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قَدْرَ قَوسَينِ، أو هو أقرَبُ، فأوحى جِبريلُ إلى عبدِ اللهِ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ما أوحاه إليه مِنَ اللهِ تعالى، وما كَذَب قَلبُ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ما رآه ببَصَرِه.

ثمَّ يوبِّخُ الله تعالى المشركينَ على تكذيبِهم للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: أفتُجادِلونَه -يا كُفَّارَ قُرَيشٍ- على ما أخبَرَكم برُؤيتِه ليلةَ الإسراءِ؟! ولقد رأَى محمَّدٌ جِبريلَ مرَّةً أُخرى على صُورتِه الحَقيقيَّةِ الَّتي خلَقَه اللهُ عليها عندَ شَجَرةِ نَبْقٍ عَظيمةٍ في السَّماءِ، تُسمَّى سِدْرةَ المنتهَى، عِندَ هذه الشَّجَرةِ جنَّةُ المأوى، وقد رأى محمَّدٌ جِبريلَ حينَ غَشِيَ سِدْرةَ المُنتَهى ما غَشِيَها مِن أمْرِ اللهِ تعالى، فما مالَ بَصَرُ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يَمينًا ولا شِمالًا، ولا تجاوَزَ الحدَّ الَّذي رآه، ولقد رأى محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لَيلةَ الإسراءِ والمعراجِ الآياتِ الكُبرى مِن آياتِ رَبِّه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالنَّجْمِ إذا سَقَط[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٩-٩١).

قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ هذا قسَمٌ. وفي المرادِ بالنَّجمِ خمسةُ أقوالٍ: =

= أحدُها: أنَّه الثُّرَيَّا، رواه العَوْفيُّ عن ابنِ عبَّاس، وابنُ أبي نَجيح عن مُجاهِدٍ. قال ابنُ قُتَيْبَةَ: والعربُ تُسمِّي الثُّريَّا -وهي ستَّةُ أنجُمٍ- نَجمًا. وقال غيرُه: هي سبعةٌ؛ فستَّةٌ ظاهرةٌ، وواحدٌ خفيٌّ يمتحِنُ به النَّاسُ أبصارَهم.

والثَّاني: الرُّجومُ مِن النُّجومِ، يعني ما يُرمى به الشَّياطينُ، رواه عِكْرِمةُ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثَّالثُ: أنَّه القرآنُ، نزَل نُجومًا متفرِّقةً، قاله عطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ، والأعمشُ عن مجاهِدٍ. وقال مجاهِدٌ: كان يَنزِلُ نُجومًا؛ ثلاثَ آياتٍ، وأربعَ آياتٍ، ونحوَ ذلك.

والرَّابعُ: نجومُ السَّماءِ كُلُّها، وهو مَرويٌّ عن مجاهدٍ أيضًا.

والخامسُ: أنَّها الزُّهَرةُ، قاله السُّدِّيُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٣). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٧).

القولُ الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بالنَّجمِ في الآيةِ: الثُّرَيَّا، فالمعنى: أُقسِمُ بالثُّرَيَّا إذا سقَطَت. وممَّن اختاره: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥، ٧).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وسُفْيانُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٤٠).

وتقدَّم أنَّ العربَ تُسمِّي الثُّريَّا نَجمًا، وتُطلِقُ اسمَه عليها خاصَّةً وإن كانت في العددِ نُجومًا. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٢).

القولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ: القَسَمُ بالنُّجومِ الَّتي تُرمَى بها الشَّياطينُ الَّذين يَستَرِقونَ السَّمعَ. وقد استظهَرَ ابنُ القَيِّمِ هذا القَولَ ورَجَّحه، وذكَرَ ابنُ كثيرٍ أنَّ له اتِّجاهًا. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٤).

قال ابن القيِّم: (ويكونُ سُبحانَه قد أقسَمَ بهذه الآيةِ الظَّاهِرةِ المُشاهَدةِ الَّتي نصَبها الله سُبحانَه آيةً وحِفظًا للوَحيِ مِنِ استِراقِ الشَّياطينِ له، على أنَّ ما أتى به رسولُه حقٌّ وصدقٌ، لا سبيلَ للشَّيطانِ ولا طريقَ له إليه، بل قد حُرِسَ بالنَّجمِ إذا هوى؛ رَصدًا بيْنَ يدَيِ الوحيِ، وحرسًا له. وعلى هذا فالارتِباطُ بيْنَ المُقْسَمِ به والمقسَمِ عليه في غايةِ الظُّهورِ، وفي المقسَمِ به دليلٌ على المقسَمِ عليه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٤٤).

القولُ الثَّالثُ: أنَّ المرادَ بالنَّجمِ إذا هوى: القُرآنُ إذا نَزَل على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ؛ لأنَّه نَزَل مُنَجَّمًا، أي: مُفَرَّقًا. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ =

= سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، والواحديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٣، ٤٦٤).

قال الواحدي: (أُنزِلَ نُجومًا مُتفرِّقةً على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في عِشرينَ سَنةً، والمرادُ بالنَّجمِ: القُرآنُ، سُمِّيَ نَجمًا؛ لِتَفريقِه في النُّزولِ، والعَرَبُ تُسَمِّي التَّفريقَ تَنجيمًا، والمُفَرَّقَ مُنَجَّمًا). ((الوسيط)) (٤/ ١٩٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠٠).

القولُ الرَّابعُ: أنَّ المرادَ: جَميعُ النُّجومِ في السَّماءِ. وممَّن اختاره: أبو عُبَيْدَةَ، واستظهَرَ هذا القَولَ: السَّمعانيُّ، ذاهِبًا إلى أنَّ النَّجمَ هنا بمعنى الجَمعِ، فالمعنى: أُقسِمُ بنُجومِ السَّماءِ إذا غابت وغارت. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧).

قال السَّمعانيُّ: (عُبِّر عنها باسمِ الجِنْسِ، وهذا أظهَرُ الأقاويلِ؛ لأنَّه يُطابقُ اللَّفظَ مِن كلِّ وجهٍ. ويجوزُ أن يُذكَرَ النَّجْمُ بمعنى النُّجومِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٣).

قال الألوسي: (وأظهَرُ الأقوالِ القولُ بأنَّ المرادَ بالنَّجمِ جِنسُ النَّجمِ المعروفِ؛ فإنَّ أصْلَه اسمُ جِنسٍ لكلِّ كوكبٍ، وعلى القولِ بالتَّعيينِ فالأظهَرُ القَولُ بأنَّه الثُّرَيَّا). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٤٥).

وقال ابنُ عطية: (قال الحَسَنُ ومَعْمَرُ بنُ المُثنَّى [أبو عُبَيْدَةَ] وغَيرُهما: النَّجْمُ هنا: اسمُ جِنسٍ، أرادوا النُّجومَ إذا هَوَت، واختَلَف قائلو هذه المقالةِ في معنى ﴿هَوَىٰ﴾؛ فقال جمهورُ المُفَسِّرينَ: هوى إلى الغُروبِ، وهذا هو السَّابِقُ إلى الفَهمِ مِن كَلامِ العَرَبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٥). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٥).

وقال الشَّوكاني: (ومعنَى هُوِيِّهِ: سُقوطُه مِن علْوٍ، يُقالُ: هَوَى النَّجمُ يَهْوِي هُوِيًّا: إذا سَقَط مِن علْوٍ إلى سُفْلٍ، وقيل: غروبُه، وقيل: طلوعُه، والأوَّلُ أولَى، وبه قال الأصمعيُّ وغيرُه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٦).

وقال السعدي: (يُقسِمُ تعالى بالنَّجمِ عند هُوِيِّه، أي: سُقوطِه في الأُفُقِ في آخِرِ اللَّيلِ عندَ إدبارِ اللَّيلِ وإقبالِ النَّهارِ؛ لأنَّ في ذلك مِن آياتِ اللهِ العَظيمةِ ما أوجَبَ أن أَقسَم به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨). =

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾.

أي: ما حادَ صاحِبُكم محمَّدٌ -يا قُرَيشُ- عن الحَقِّ، وما زالَ عن اعتِقادِه والإيمانِ به، وما صار غاوِيًا مُتَّبِعًا لِهَواه، بل هو مُهْتَدٍ في عِلْمِه، راشِدٌ في عَمَلِه[1].

كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يس: ٣، ٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣].

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قد يكونُ مع الهُدى مُصادَفةً، قال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ ﴾ أي: يُجاوِزُ نُطقُه فَمَه في وَقتٍ مِن الأوقاتِ لا في الحالِ ولا في الاستِقبالِ، نُطقًا ناشِئًا ﴿ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾[2].

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾.

أي: وما يَصدُرُ كَلامُ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- عن هَوًى في نَفْسِه[3].

= وقال ابن الجوزي: (على قولِ مَن قال: النَّجمُ: الثُّرَيَّا، يكونُ ﴿هَوَىٰ﴾ بمعنى: غابَ. ومَن قال: هو الرُّجومُ، يكونُ هُوِيُّها في رمْيِ الشَّياطينِ. ومَن قال: القرآن، يكونُ معنى ﴿هَوَىٰ﴾: نزَل. ومَن قال: نجومُ السَّماءِ كُلُّها، ففيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّ هُوِيَّها أن تغيبَ. والثَّاني: أن تَنتثِرَ يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧، ٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٤)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيميَّة (٢/ ١٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٤).

قال ابنُ جرير: (قَولُه: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ جَوابُ قَسَمٍ ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٧)، =

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾.

أي: ما نُطقُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الدِّينِ إلَّا وَحْيٌ يُوحِيه اللهُ إليه، فيَتَّبِعُه في نَفْسِه، ويُبَلِّغُه لِغَيرِه دونَ زيادةٍ أو نَقصٍ(١).

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٦).

قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ معناه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يُبَلِّغُ عن اللهِ إلَّا شَيئًا أوحى اللهُ إليه أن يُبَلِّغَه، فمَن يَقولُ: إنَّه شِعرٌ أو سِحرٌ أو كِهانةٌ أو أساطيرُ الأوَّلينَ- هو أكذَبُ خَلقِ اللهِ وأكفَرُهم). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٦٥).

وحكى ابنُ عطيَّةَ الإجماعَ على أنَّ المرادَ به القرآنُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والخازنُ، وابنُ جُزَي، والقاسميُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٦).

وقيل: المرادُ: نُطقُه في الدِّينِ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ. وممَّن ذهب إلى هذا: الثعلبيُّ، والبغويُّ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره ابنُ القيِّم، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٧-٢٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٦).

قال ابنُ القيِّم: (قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فأعاد الضَّميرَ على المصدَرِ المفهومِ مِن الفِعلِ، أي: ما نُطقُه إلَّا وَحيٌ يُوحى، وهذا أحسَنُ مِن قَولِ مَن جَعَل الضَّميرَ عائدًا إلى القُرآنِ؛ فإنَّه يَعُمُّ نُطقَه بالقُرآنِ والسُّنَّةِ، وأنَّ كِلَيهما وَحيٌ يُوحى). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٤٧-٢٤٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

وقال البِقاعي: (﴿إِنْ﴾ أي: ما ﴿هُوَ﴾ أي: الَّذي يَتكلَّمُ به مِن القرآنِ وبيانِه، وكل أقوالِه وأفعالِه، وأحوالِه ﴿إِلَّا وَحْيٌ﴾ أي: مِن الله تعالى). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٣). =

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الوَحيُ ظاهِرًا فيما بواسِطةِ المَلَكِ؛ تشَوَّف السَّامِعُ إلى بَيانِ ذلك؛ فقال مُبَيِّنًا له بأوصافِه؛ لأنَّ ذلك أضخَمُ في حَقِّه، وأعلَى لِمِقدارِه[1]:

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾.

أي: علَّم مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هذا القُرآنَ جِبريلُ -عليه السَّلامُ- الشَّديدُ القُوى[2].

= وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ نَفيَ النُّطقِ عن هَوًى يَقتضي نَفيَ جِنسِ ما يَنطِقُ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن الاتِّصافِ بالصُّدورِ عن هوًى، سواءٌ كان القُرآنَ أو غيرَه مِن الإرشادِ النَّبويِّ بالتَّعليمِ والخطابةِ والمَوعِظةِ والحِكمةِ، ولكِنَّ القُرآنَ هو المقصودُ؛ لأنَّه سَبَبُ هذا الرَّدِّ عليهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٣).

وقال ابن عاشور: (النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَنطِقُ بغيرِ القُرآنِ عن وَحيٍ... وقد يَنطِقُ عن اجتِهادٍ، كأمْرِه بكَسرِ القُدورِ الَّتي طُبِخَت فيها الحُمُرُ الأهليَّةُ، فقيل له: أوْ نُهريقُها ونَغسِلُها؟ فقال: «أوْ ذاك» [البخاري (٤١٩٦)، ومسلم (١٨٠٢)]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٤). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٤، ٤٦٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨، ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٥).

وقد حكى الإجماعَ على أنَّ المرادَ هنا: جِبريلُ عليه السَّلامُ: الماوَرْديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).

وقال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ يعني: جِبريلَ عليه السَّلامُ، في قَولِ سائِرِ المفَسِّرينَ سِوى الحَسَنِ؛ فإنَّه قال: هو اللهُ عزَّ وجلَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٥).

قال السعدي: (﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أي: شَديدُ القُوَّةِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، قَوِيٌّ على تنفيذِ ما أمَرَه اللهُ بتَنفيذِه، قَويٌّ على إيصالِ الوَحيِ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومَنْعِه مِن اختِلاسِ الشَّياطينِ له، أو إدخالِهم فيه ما ليس منه، وهذا مِن حِفظِ اللهِ تعالى لِوَحْيِه؛ أنْ أرسَلَه مع هذا الرَّسولِ القَوِيِّ الأمينِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

وقال عزَّ شَأنُه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾.

أي: إنَّ جِبريلَ ذو جِسمٍ قَويٍّ صَحيحٍ، سالمٍ مِنَ النَّقصِ، حَسَنُ الخَلْقِ، جَميلٌ ظاهِرًا وباطِنًا[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠، ١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٦)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٥).

قال الماوَرْدي: (﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ فيه خَمسةُ أوجُهٍ:

أحدُها: ذو مَنظَرٍ حَسَنٍ. الثَّاني: ذو غَناءٍ. الثَّالِثُ: ذو قُوَّةٍ... الرَّابعُ: ذو صِحَّةٍ في الجِسمِ وسَلامةٍ مِنَ الآفاتِ. الخامِسُ: ذو عَقلٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩١، ٣٩٢).

ومِمَّن قال بأنَّ المعنى: ذو قُوَّةٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٦).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: مجاهدٌ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ، وسُفيانُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤).

ومِمَّن قال بأنَّ المعنى: ذو صِحَّةٍ في الجِسمِ، وسَلامةٍ مِنَ الآفاتِ والعاهاتِ: ابنُ جرير. =

﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾.

أي: فارتَفَع جِبريلُ وعلا في السَّماءِ على صُورتِه الحَقيقيَّةِ[١].

= وأرجَعَ هذا إلى معنى القُوَّةِ؛ فإنَّه قال: (الجِسمُ إذا كان كذلك مِنَ الإنسانِ كان قَوِيًّا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١).

قال ابنُ القيِّمِ: (الأظهَرُ: أنَّ المِرَّةَ هي الصِّحَّةُ والسَّلامةُ مِنَ الآفاتِ والعاهاتِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، وذلك يَستلزِمُ كَمالَ الخِلقةِ وحُسْنَها وجَمالَها؛ فإنَّ العاهةَ والآفةَ إنَّما تكونُ مِن ضَعفِ الخِلْقةِ والتَّركيبِ، فهي قُوَّةٌ وصِحَّةٌ تتضَمَّنُ جَمالًا وحُسنًا. واللهُ أعلَمُ). ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) (٢/ ١٢٩). بيْنَما اختار في موضِعٍ آخَرَ أنَّ المرادَ بالمِرَّةِ: المنظَرُ البَهِيُّ الجَميلُ. يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٧٧).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّ المرادَ: ذو مَنظَرٍ حَسَنٍ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤).

وذهب ابنُ كثيرٍ إلى أنَّه لا تنافيَ بيْنَ قولِ مَن قال: إنَّ المعنى: ذو قوَّةٍ، وقولِ مَن قال: المعنى: أنَّه ذو منظرٍ حسَنٍ؛ فجِبريلُ عليه السَّلامُ ذو مَنظَرٍ حَسَنٍ، وذو قُوَّةٍ شديدةٍ. وممَّن اختار هذا القولَ: السعديُّ -وزاد جمالَ الباطنِ- وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٧).

وقيل: ذو حَصافةٍ في عَقْلِه ورَأيِه. وممَّن اختاره: البيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٧٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٦-٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤).

قال السمعاني: (قَولُه: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ أي: فاستوى جِبريلُ في أُفُقِ السَّماءِ على صُورتِه الَّتي خُلِقَ فيها. وكذا قَولُ ابنِ مَسعودٍ، وابنِ عَبَّاسٍ، ومُجاهدٍ، وقَتادةَ، وعَلْقَمةَ، ومُرَّةَ بنِ شَراحِيلَ، وأكثرِ أهلِ التَّفسيرِ. وعن الحسَنِ البَصريِّ: أنَّه اللهُ تعالى). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٥).

وقد ذهب الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، ومَكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ، والبغويُّ، والرَّسْعَنيُّ، والخازنُ: إلى أنَّ المعنى: فاستوى جِبريلُ ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالأُفُقِ الأعلى. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٩٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١، ١٢)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٧١٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير =

﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ﴾.

أي: وجِبريلُ في ناحيةِ السَّماءِ العُليا[1].

= الرسعني)) (٧/ ٤٦٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٣).

قال ابنُ جرير: (وذلك لَمَّا أُسرِيَ برَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم استوى هو وجِبريلُ عليهما السَّلامُ بمَطلِعِ الشَّمسِ الأعلى، وعَطَفَ الأعلى، وعَطَف بقَولِه: ﴿وَهُوَ﴾ على ما في قَولِه: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ مِن ذِكرِ -أي: ضَميرِ- محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأكثَرُ كَلامِ العَرَبِ إذا أرادوا العَطفَ في مِثلِ هذا الموضِعِ أن يُظهِروا كِنايةَ المعطوفِ عليه، فيقولوا: استوى هو وفُلانٌ، وقلَّما يقولونَ: استوى وفُلانٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١، ١٢).

وقد ضعَّف الزَّجَّاجُ، والواحِديُّ وغيرُهما أن يكونَ المعنى فاستوى أي: جِبريلُ ومحمَّدٌ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤).

وقَولُه: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي: علا؛ لأنَّ جِبريلَ عليه السَّلامُ يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ، فيُلْقِي الوَحْيَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسَلَّم، ثمَّ يَصعَدُ إلى السَّماءِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٧، ٢٠٨).

وقيل: فاستقام على صورةِ نفْسِه الحقيقيَّةِ، دُونَ الصُّورةِ الَّتي كان يتمثَّلُ بها كلَّما هبَطَ بالوحْيِ. قاله الزمخشريُّ، وتَبِعه البَيضاويُّ، والنَّسَفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٠).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٤٨).

ذهب أكثَرُ المُفَسِّرينَ؛ منهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، والزمخشريُّ، إلى تخصيصِ الأُفُقِ الأعلى المذكورِ في الآيةِ بجِهةِ مَشرِقِ الشَّمسِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٤).

قال الواحدي: (قال مقاتلٌ ﴿وَهُوَ﴾ يعني: جِبريلَ ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعني: مِن قِبَلِ المَطلِعِ. وقال الكَلبيُّ: يعني مَطلِعَ الشَّمسِ، وهذا قَولُ الجَميعِ في الأُفُقِ الأعلى. يعني: أُفُقَ المَشرِقِ). =

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾.

أي: ثمَّ اقتَرَب جِبريلُ مِن مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وتدَلَّى إليه، فاقتَرَب منه أكثَرَ حِينَ هَبَط إليه مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ؛ لِيُوحِيَ إليه ما شاء اللهُ[1].

= ((البسيط)) (٢١/ ١٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، ومجاهدٌ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٤٤).

وقال الواحدي: (والمرادُ بالأعلى: جانِبُ المَشرِقِ، وهو فَوقَ جانِبِ المَغرِبِ، في صَعيدِ الأرضِ لا في الهواءِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٩٣).

وذهب ابنُ عَطيَّةَ إلى أنَّه لا دليلَ على تخصيصِه بجهةِ المَشرِقِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٧).

قال السعدي: (أي: أُفُقِ السَّماءِ الَّذي هو أعلى مِنَ الأرضِ، فهو مِنَ الأرواحِ العُلويَّةِ الَّتي لا تنالُها الشَّياطينُ، ولا يتمَكَّنونَ مِنَ الوُصولِ إليها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٠٠-٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجُملةِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، وابن القيم، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ عطية: (اختلَف النَّاسُ إلى مَن استَند قولُه: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾؛ فقال الجُمهورُ: استَنَد إلى جِبريلَ عليه السَّلامُ، أي: دنا إلى محمَّدٍ في الأرضِ عندَ حِرَاءٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٧).

وقال ابنُ كثير: (هذه الرُّؤيةُ لجِبريلَ لم تكُنْ ليلةَ الإسراءِ، بل قَبْلَها، ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الأرضِ، فهَبَط عليه جِبريلُ عليه السَّلامُ، وتدلَّى إليه، فاقتَرَب منه وهو على الصُّورةِ الَّتي خلَقَه اللهُ عليها، له ستُّمئةِ جَناحٍ، ثمَّ رآه بعدَ ذلك نَزلةً أُخرى عندَ سِدرةِ المُنتَهى، يعني: لَيلةَ الإسراءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٥).

وقال البِقاعي: (هذه النَّزْلةُ -واللهُ أعلَمُ- كانت على هذا التَّقديرِ في أوَّلِ الوَحيِ لَمَّا كان بحِراءٍ، وفَرِقَ منه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فرَجَع تَرجُفُ بَوادِرُه، وقال: زَمِّلوني زَمِّلوني). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٦).

=

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ قالت: ((ذاكَ جِبريلُ، كان يأتيه في صُورةِ الرَّجُلِ، وإنَّه أتاه هذه المرَّةَ في صُورتِه الَّتي هي

= وقال أيضًا: (﴿فَتَدَلَّىٰ﴾... أي: أُنزِلَ إليه نُزولًا هو فيه كالمتدَلِّي إليه بحَبلٍ، فوَصَل إليه ولم ينفَصِلْ عن محَلِّه مِنَ الأُفُقِ الأعلى؛ لِما له مِن القُوَّةِ والاستِحكامِ؛ قال البَيضاوي: فإنَّ التَّدَلِّيَ هو استِرسالٌ مع تعَلُّقٍ، كتَدَلِّي الثَّمَرةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٥). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٧).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّ المرادَ هو جِبريلُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحَسَنُ، وقَتادةُ، والرَّبيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٧).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى اللهِ تعالى، وأنَّ المعنى: أنَّ اللهَ تعالى اقتَرَب مِنَ النَّبيِّ لَيلةَ الإسراءِ والمعراجِ إلى السَّماءِ السَّابِعةِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٠).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤).

أمَّا ما جاء في ((صحيحِ البُخاريِّ)) (٧٥١٧) مِن تصريحٍ بنِسبةِ ذلك إلى اللهِ؛ فقد قال ابنُ رَجَبٍ: (وفي روايةِ شَريكِ بنِ أبي نَمِرٍ، عن أنَسٍ: «ثمَّ علا به فَوقَ ذلك بما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، حتَّى جاء سِدْرةَ المنتهَى، ودنا الجبَّارُ رَبُّ العِزَّةِ فتَدَلَّى، فكان قابَ قَوسَينِ أو أدنى، فأوحى فيما يُوحِي خَمسينَ صَلاةً على أمَّتِك كلَّ يَومٍ ولَيلةٍ». وقد تفَرَّد شَريكٌ بهذه الألفاظِ في هذا الحديثِ، وهي ممَّا أُنكِرَت عليه فيه). ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣١٨).

قال ابنُ حَجَرٍ: (قال الخَطَّابي: إنَّ الَّذي وقَع في هذه الرِّوايةِ مِن نِسبةِ التَّدَلِّي للجَبَّارِ عزَّ وجَلَّ مخالِفٌ لعامَّةِ السَّلَفِ والعُلَماءِ وأهلِ التَّفسيرِ مَن تقَدَّم منهم ومَن تأخَّر. قال: والَّذي قِيلَ فيه ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: أنَّه دنا جِبريلُ مِن مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتدَلَّى: أي: تقَرَّبَ منه. وقيل: هو على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، أي: تدَلَّى فَدَنَا؛ لأنَّ التَّدَلِّيَ بسَبَبِ الدُّنُوِّ. الثَّاني: تدَلَّى له جِبريلُ بعدَ الانتِصابِ والارتِفاعِ حتَّى رآه متدَلِّيًا كما رآه مُرتَفِعًا، وذلك مِن آياتِ اللهِ؛ حيثُ أقدَرَه على أن يتدَلَّى في الهواءِ مِن غَيرِ اعتِمادٍ على شيءٍ، ولا تمسُّكٍ بشَيءٍ. الثَّالِثُ: دنا جِبريلُ فتَدَلَّى محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ساجِدًا لرَبِّه تعالى؛ شُكرًا على ما أعطاه. قال: وقد رُوِيَ هذا الحديثُ عن أنَسٍ مِن غَيرِ طَريقِ شَريكٍ، فلم يُذكَرْ فيه هذه الألفاظُ الشَّنيعةُ، وذلك ممَّا يُقَوِّي الظَّنَّ أنَّها صادِرةٌ مِن جِهةِ شَريكٍ. انتهى). ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٤٨٤). ويُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (٤/ ٢٣٥٣).

صُورتُه؛ فسَدَّ الأُفُقَ!))[١].

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾.

أي: فكان مِقدارُ مَسافةِ قُربِ جِبريلَ مِن مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قَدْرَ قَوسَينِ، أو هو أقرَبُ إليه مِن ذلك[٢]!

عن أبي إسحاقَ الشَّيْبانيِّ، قال: ((سألتُ زِرَّ بنَ حُبَيْشٍ عن قَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ:

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣٤) واللَّفظُ له، ومسلم (١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٧، ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٦، ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٧، ٩٨).

قال ابنُ كثير: (﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: بقَدْرِهما إذا مُدَّا. قاله مجاهِدٌ، وقَتادةُ. وقد قيل: إنَّ المرادَ بذلك بُعْدُ ما بيْنَ وَتَرِ القَوسِ إلى كَبِدِها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٦).

وقال ابن عثيمين: (قَولُه: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ بمعنى «بلْ»، أي: بلْ هو أدنى مِن ذلك). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٨).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾... هذه الصِّيغة تُستَعمَلُ في اللُّغةِ لإثباتِ المُخبَرِ عنه، ونَفيِ ما زاد عليه، كقَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أي: ما هي بألْيَنَ مِن الحِجارةِ، بل هي مِثلُها أو تَزيدُ عليها في الشِّدَّةِ والقَسوةِ، وكذا قَولُه: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقَولُه: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، أي: ليسُوا أقَلَّ منها، بل هم مِئةُ ألْفٍ حَقيقةً، أو يَزيدونَ عليها. فهذا تحقيقٌ للمُخبَرِ به، لا شَكٌّ ولا تَرَدُّدٌ؛ فإنَّ هذا ممتَنِعٌ هاهنا، وهكذا هذه الآيةُ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٦، ٤٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨).

وقال ابن القيِّم: (أخبَرَ سُبحانَه عن مسافةِ هذا القُربِ بأنَّه قَدْرُ قَوسَينِ أو أدنى مِن ذلك، وليس هذا على وَجهِ الشَّكِّ، بل تحقيقٌ لقَدْرِ المسافةِ، وأنَّها لا تَزيدُ عن قَوسَينِ البتَّةَ...، وهذا المعنى أحسَنُ وألطَفُ وأدَقُّ مِن قَولِ مَن جَعَلَ «أو» في هذه المواضِعِ بمعنى «بل»، ومِن قَولِ مَن جَعَلَها للشَّكِّ بالنِّسبةِ إلى الرَّائي، وقَولِ مَن جَعَلَها بمعنى الواوِ؛ فتَأمَّلْه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٥٠).

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، قال: أخبَرَني ابنُ مَسعودٍ: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأى جِبريلَ له سِتُّمِئةِ جَناحٍ))[١].

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ١٠﴾.

أي: فأوحى جِبريلُ إلى عبدِ اللهِ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ما أوحاه إليه مِنَ اللهِ تعالى[٢].

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿كَذَّبَ﴾ بتَشديدِ الذَّالِ، بمعنى: أنَّ فُؤادَ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يُكَذِّبِ الَّذي رأى، ولم يَشُكَّ فيه، ولم يُنكِرْه، بل جعَلَه حَقًّا وصِدقًا. وقيل: المعنى: ما كَذَّب صاحِبُ الفؤادِ ما رأَى[٣].

٢- قِراءةُ ﴿كَذَبَ﴾ بتَخفيفِ الذَّالِ، أي: ما كذَبَ فؤادُ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما رأى بعَينِه؛ فقد رأى الحَقَّ. وقيل: ما كَذَب فؤادُ مُحمَّدٍ محمَّدًا

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٨).

قال ابنُ كثير: (معناه: فأوحى جِبريلُ إلى عبدِ اللهِ مُحمَّدٍ ما أوحى، أو: فأوحى اللهُ إلى عَبدِه مُحمَّدٍ ما أوحى بواسِطةِ جِبريلَ، وكِلا المعنَيَينِ صَحيحٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٨).

(٣) قرأ بها هشامٌ عن ابنِ عامرٍ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦، ٢٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٣).

الَّذي رأى، ولكِنَّه صَدَقَه[١].

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

أي: ما كَذَب قَلبُ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ما رآه ببَصَرِه، بل صَدَقَه، وتحَقَّقَه وعَلِمَه يَقينًا[٢].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١، ٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٩).

قال ابنُ الجوزي: (في الَّذي رأى قَولانِ:

أحدُهما: أنَّه رأى ربَّه عزَّ وجَلَّ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وأنسٌ، والحسَنُ، وعِكْرِمةُ.

والثَّاني: أنَّه رأى جِبريلَ في صورتِه الَّتي خُلِقَ عليها. قاله ابنُ مسعودٍ، وعائِشةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٦).

ونَسَب ابنُ عطيَّةَ القَولَ الثَّانيَ إلى جمهورِ العُلَماءِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٨).

قال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: رأى محمَّدٌ رَبَّه بفُؤادِه، ولم يَرَه بعَينِه. ويكونُ ذلك على أنَّ اللهَ تعالى جَعَل بَصَرَه في فؤادِه، أو خَلَق لفُؤادِه بَصَرًا، حتَّى رأى رَبَّه رُؤيةً غَيرَ كاذِبةٍ، كما ترى بالعَينِ. ومَذهَبُ جماعةٍ مِن المفَسِّرينَ: أنَّه رآه بعَينِه، وهو قَولُ أَنَسٍ، وعِكْرِمةَ، والحَسَنِ، وكان يَحلِفُ باللهِ لقد رأى محمَّدٌ رَبَّه. فكُلُّ هؤلاء أثبَتوا رُؤيةً صَحيحةً؛ إمَّا بالعَينِ، وإمَّا بالفُؤادِ، ومَذهَبُ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ وعائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنهما في هذه الآيةِ: أنَّه رأى جِبريلَ في صُورتِه الَّتي خُلِقَ عليها). ((الوسيط)) (٤/ ١٩٥).

وقال ابنُ كثير: (ومَن روى عنه بالبَصَرِ فقد أغرَبَ؛ فإنَّه لا يَصِحُّ في ذلك شَيءٌ عن الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم، وقَولُ البغَويِّ في تفسيرِه: وذهب جماعةٌ إلى أنَّه رآه بعَينِه، وهو قَولُ أَنَسٍ والحَسَنِ وعِكْرِمةَ: فيه نظَرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٨). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠٤).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا «الرُّؤيةُ» فالَّذي ثبت في الصَّحيحِ عن ابنِ عَبَّاسٍ أنَّه قال: «رأى محمَّدٌ رَبَّه بفُؤادِه مَرَّتينِ»، وعائِشةُ أنكَرَت الرُّؤيةَ؛ فمِنَ النَّاسِ مَن جمَع بيْنَهما، فقال: عائِشةُ أنكَرَت رُؤيةَ =

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿أَفَتَمْرُونَهُ﴾ بفَتحِ التَّاءِ، وإسكانِ الميمِ، مِن غيرِ ألفٍ، بمعنى: أفتَجْحَدونَه(١)؟

٢- قِراءةُ: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ ﴾ بضَمِّ التَّاءِ، وفَتحِ المَيمِ، وألِفٍ بعْدَها، بمعنى: أفتُجادِلونَه(٢)؟

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾.

= العَينِ، وابنُ عبَّاسٍ أثبَتَ رُؤيةَ الفُؤادِ. والألفاظُ الثَّابتةُ عن ابنِ عَبَّاسٍ هي مُطلَقةٌ أو مُقيَّدةٌ بالفُؤادِ؛ تارةً يقول: رأى محمَّدٌ رَبَّه، وتارةً يقولُ: رآه محمَّدٌ. ولم يَثبُتْ عن ابنِ عبَّاسٍ لَفظٌ صَريحٌ بأنَّه رآه بعَينِه... وليس في الأدِلَّةِ ما يقتضي أنَّه رآه بعَينِه، ولا ثَبَت ذلك عن أحَدٍ مِنَ الصَّحابةِ، ولا في الكِتابِ والسُّنَّةِ ما يدُلُّ على ذلك، بل النُّصوصُ الصَّحيحةُ على نَفْيِه أدَلُّ)). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٥٠٩، ٥١٠).

وقال الكرماني: (يحتَمِلُ أنَّ المَرئيَّ ما فَسَّره اللهُ تعالى بقَولِه: (﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾؛ ولهذا قال: ﴿مَا رَأَىٰٓ ﴾، ولم يقُلْ: «مَن رأى»)). ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١١٥٤).

وقال ابنُ عاشور: (الأظهَرُ أنَّ هذا ردٌّ لتكذيبٍ مِنَ المُشركينَ فيما بلَغَهم مِن الخَبَرِ عن رُؤيةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المَلَكَ جبريلَ، وهو الَّذي يُؤذِنُ به قَولُه بَعدُ: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨).

(١) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٥).

وقال القرطبي: (المعنيانِ مُتداخِلانِ؛ لأنَّ مُجادَلتَهم جُحودٌ. وقيل: إنَّ الجُحودَ كان دائمًا منهم، وهذا جِدالٌ جَديدٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٣).

أي: أفتُجادِلونَ مُحمَّدًا -يا كُفَّارَ قُرَيشٍ- على ما أخبَرَكم أنَّه رآه لَيلةَ الإسراءِ[(١)]؟ كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١].

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

أي: ولقد رأى محمَّدٌ جِبريلَ مرَّةً أُخرى على صُورتِه الحَقيقيَّةِ الَّتي خلَقَه اللهُ عليها[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٩)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٥٣٢).

قال الواحدي: (قال عامَّةُ المفَسِّرينَ وأهلُ التَّأويلِ: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ أفتُجادِلونَه). ((البسيط)) (٢١/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥١، ٤٥٣).

نسَب السمرقنديُّ والشوكانيُّ هذا المعنى المذكورَ إلى جُمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٨).

قال الثعلبي: (وذلك أنَّ جِبريلَ رآه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على صُورتِه الَّتي خُلِقَ عليها مَرَّتَينِ: مَرَّةً بالأُفُقِ الأعلى في الأرضِ، ومَرَّةً عندَ سِدرةِ المُنتهى في السَّماءِ، وهذا قَولُ عائشةَ وأكثَرِ العُلَماءِ، وهو الاختيارُ؛ لأنَّه قَرَن الرُّؤيةَ بالمكانِ، فقال: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، ولأنَّه قال: ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عائشةُ، وابنُ مسعودٍ، وأبو هُرَيرةَ، ومجاهِدٌ، والرَّبيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٤٩).

وقد ذهب مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ إلى أنَّ المعنى: ولقد رأى محمَّدٌ رَبَّه بقَلبِه مرَّةً أُخرى. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢).

قال ابنُ كثيرٍ: (وقَولُه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ هذه هي المرَّةُ الثَّانيةُ الَّتي رأى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيها جِبريلَ على صُورتِه الَّتي خَلَقَه اللهُ عليها، وكانت لَيلةَ الإسراءِ، وابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما كان يُثبِتُ الرُّؤيةَ لَيلةَ الإسراءِ، ويَستَشهِدُ =

عن مَسروقٍ، قال: قلْتُ: يا أُمَّ المؤمنينَ، أَنْظِريني، ولا تُعْجِليني، أَلَمْ يَقُلِ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾؟ فقالت: أنا أوَّلُ هذه الأمَّةِ سَأل عن ذلك رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: ((إنَّما هو جِبريلُ، لم أرَهُ على صورتِه الَّتي خُلِق عليها غيرَ هاتَينِ المرَّتَينِ، رأيْتُه مُنهَبِطًا مِن السَّماءِ، سادًّا عِظَمُ خَلْقِه ما بيْنَ السَّماءِ إلى الأرضِ!))[1].

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ١٤﴾.

أي: رأى محمَّدٌ جِبريلَ عندَ شَجَرةِ نَبْقٍ عَظيمةٍ في السَّماءِ تُسمَّى سِدرةَ المنتهَى[2].

= بهذه الآيةِ. وتابَعَه جماعةٌ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ، وقد خالفَه جماعاتٌ مِنَ الصَّحابةِ رَضِي اللهُ عنهم والتَّابعينَ وغَيرِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥١) بتصرف.

(١) أخرجه مسلم (١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣، ٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٨، ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

قال أبو السعود: (والمُنْتهى مَوضِعُ الانتِهاءِ أو الانتِهاءُ، كأنَّها في مُنْتَهى الجنَّةِ. وقيلَ: إليها يَنْتهي عِلمُ الخلائقِ وأعمالُهم، ولا يَعلَمُ أحدٌ ما وراءَها. وقيل: يَنتهي إليها أرواحُ الشُّهداءِ. وقيل: يَنتهي إليها ما يَهبِطُ مِن فَوقِها، ويَصعَدُ مِن تَحتِها). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٦).

قال ابنُ جرير: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك أن يُقالَ: إنَّ معنى المُنتَهى الانتِهاءُ، فكأنَّه قال: عندَ سِدرةِ الانتِهاءِ. وجائزٌ أن يكونَ قيل لها سِدرةُ المُنتَهى؛ لانتهاءِ عِلمِ كُلِّ عالِمٍ مِنَ الخَلقِ إليها، كما قال كَعبٌ. وجائزٌ أن يكونَ قيل ذلك لها؛ لانتِهاءِ ما يَصعَدُ مِن تَحتِها، ويَنزِلُ مِن فَوقِها إليها، كما رُوِيَ عن عبدِ اللهِ [أي: ابن مسعود]. وجائزٌ أن يكونَ قيل ذلك كذلك؛ لانتِهاءِ كلِّ مَن خلا مِنَ النَّاسِ على سُنَّةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليها. وجائزٌ أن يكونَ قيل لها ذلك؛ لجَميعِ ذلك، ولا خبَرَ يَقطَعُ العُذرَ بأنَّه قيل ذلك لها لبَعضِ ذلك دونَ بَعضٍ، فلا قَولَ فيه أصَحُّ مِنَ القَولِ الَّذي قال رَبُّنا جَلَّ ثناؤُه، وهو أنَّها سِدرةُ المُنتَهى). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩٥، ٣٩٦).

ومِمَّن قال: إنَّها سمِّيت بذلك؛ لأنَّه يَنتهي إليها ما يَنزِلُ مِن عندِ اللهِ، وما يَصعَدُ إليه مِن الأرضِ: ابنُ القيِّم، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين: =

عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال -كما في قِصَّةِ الإسراءِ والمِعراجِ-: ((... ثمَّ ذَهَبَ بي إلى السِّدرةِ المُنتَهى، وإذا وَرَقُها كآذانِ الفِيَلةِ، وإذا ثَمَرُها كالقِلالِ، فلمَّا غَشِيَها مِن أمرِ اللهِ ما غَشِيَ تغيَّرَت، فما أحَدٌ مِن خَلقِ اللهِ يَستطيعُ أن يَنعَتَها؛ مِن حُسنِها، فأوحى اللهُ إلَيَّ ما أوحى!))[1].

= سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٥٠).

وممَّن قال: إنَّها سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّه إليها يَنتهي عِلمُ الخَلقِ، وما وراءَها لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ عزَّ وجَلَّ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والواحديُّ، وابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٩).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وكعبُ الأحبارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٤٩).

وجمَع البِقاعي بيْنَ هذينِ القَولينِ السَّابِقَينِ، فقال: (ويَنتَهي إليها عِلمُ الخلائِقِ، وينتهي إليها ما يَعرُجُ مِن تحتٍ وما يَنزِلُ مِن فَوقٍ، فيُتلَقَّى هنالِكَ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٥٣).

قال الشربيني: (إضافةُ السِّدْرةِ إلى المُنتَهَى تَحتَمِلُ وُجوهًا:

أحدُها: إضافةُ الشَّيءِ إلى مكانِه، كقَولِك: أشجارُ بَلدةِ كذا... فالمُنتهى حينَئذٍ مَوضِعٌ لا يتعدَّاه مَلَكٌ،... قال كَعبٌ:... إليها يَنتهي عِلمُ الخلائِقِ، وما خَلْفَها غَيبٌ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى. وقيل: يَنتهي إليها ما هَبَط مِن فَوقِها، ويَصعَدُ مِن تَحتِها، وقال كَعبٌ: تنتهي إليها الملائِكةُ والأنبياءُ. وقال الرَّبيعُ: تنتهي إليها أرواحُ المؤمِنينَ.

وثانيها: إضافةُ المِلْكِ إلى مالِكِه، كقَولِك: دارُ زَيدٍ، وشَجَرُ زَيدٍ، وحينَئذٍ المُنتهَى فيه محذوفٌ تقديرُه: سِدرةُ المُنتهَى إليه. قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، فالمنتهى إليه هو اللهُ تعالى، وإضافةُ السِّدْرةِ إليه حينَئذٍ كإضافةِ البَيتِ إليه للتَّشريفِ والتَّعظيمِ.

وثالِثُها: إضافةُ المحَلِّ إلى الحالِّ فيه، كقَولِك: كِتابُ الفِقهِ، وعلى هذا فالتَّقديرُ: سِدرةٌ عِندَها مُنتهى العُلومِ، فتُتَلَقَّى هناك). ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٢٦). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٤٤).

(١) رواه البخاريُّ (٣٨٨٧)، ومسلمٌ (١٦٢) واللَّفظُ له.

وفي حديثِ أَنَسِ بنِ مالِكٍ، عن مالِكِ بنِ صَعصَعةَ رَضِيَ اللهُ عنهما -في قِصَّةِ الإسراءِ والمِعراجِ- قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((... فأَتَيْنا السَّماءَ السَّابِعةَ، قيلَ: مَن هذا؟ قيل: جِبريلُ، قيلَ: مَن معك؟ قيل: محمَّدٌ. قيل: وقد أُرسِلَ إليه؟ مَرحَبًا به، ولَنِعْمَ المجيءُ جاءَ! فأتيتُ على إبراهيمَ فسَلَّمْتُ عليه، فقال: مَرحَبًا بك مِن ابْنٍ ونَبيٍّ، فرُفِعَ ليَ البَيتُ المعمورُ، فسألتُ جِبريلَ، فقال: هذا البَيتُ المَعمورُ، يُصَلِّي فيه كُلَّ يَومٍ سَبعونَ أَلْفَ ملَكٍ، إذا خَرَجوا لم يَعودوا إليه آخِرَ ما عليهم! ورُفِعَت لي سِدرةُ المُنتهى، فإذا نَبقُها كأنَّه قِلالُ هَجَرَ، ووَرَقُها كأنَّه آذانُ الفُيولِ))[1].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا أُسرِيَ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم انتُهِيَ به إلى سِدْرةِ المُنتَهى، وهي في السَّماءِ السَّادِسةِ، إليها يَنتَهي ما يُعرَجُ به مِنَ الأرضِ، فيُقبَضُ منها، وإليها ينتَهي ما يُهبَطُ به مِن فَوقِها، فيُقبَضُ منها))[2].

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ١٥﴾.

أي: عِندَ شَجَرةِ سِدْرةِ المُنتَهى الجنَّةُ الَّتي يَأوي ويَصيرُ إليها المُؤمِنونَ يومَ القيامةِ[3].

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٠٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٦٤).

(٢) رواه مسلم (١٧٣).

ذهب أكثَرُ العُلَماءِ -كما نَسَبه إليهم القاضي عِياضٌ وصَحَّحه- إلى أنَّ سِدرةَ المنتهى في السَّماءِ السَّابعةِ لا السَّادسةِ. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (١/ ٥٢٥).

وذهب القُرطبيُّ والنَّوويُّ إلى الجَمعِ بيْن الرِّوايةِ المرفوعةِ عن أَنَسٍ الَّتي فيها أنَّ سِدرةَ المُنتَهى في السَّماءِ السَّابعةِ، والرِّوايةِ الموقوفةِ عن ابنِ مَسعودٍ الَّتي فيها أنَّها في السَّماءِ السَّادسةِ: بأنَّ سِدْرةَ المُنتهى أصلُها في السَّماءِ السَّادسةِ، وأعلاها في السَّماءِ السَّابعةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٥)، ((شرح صحيح مسلم)) للنووي (٣/ ٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٩].

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ١٦﴾.

أي: رأى محمَّدٌ جِبريلَ حينَ غَشِيَ سِدْرةَ المُنتَهى ما غَشِيَها مِن أمْرِ اللهِ تعالى[1]!

= جزي)) (٢/ ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١١).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الجنَّةُ الَّتي وعَدها الله عبادَه، ويأْوي إليها المؤمنونَ يومَ القيامةِ: السمعانيُّ، والزمخشري، وابنُ جُزَي، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: الجنَّةُ الَّتي تأوي إليها أرواحُ الشُّهَداءِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٠)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٢).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (قال قَتادةُ وابنُ عبَّاسٍ بخِلافٍ: هي جنَّةٌ يأوي إليها أرواحُ الشُّهَداءِ والمؤمِنينَ، وليست بالجنَّةِ الَّتي وُعِدَ بها المؤمِنونَ؛ جَنَّةَ النَّعيمِ، وهذا يحتاجُ إلى سَنَدٍ، وما أراه يَصِحُّ عن ابنِ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٩).

وقيل: هي الجنَّةُ الَّتي تأوي إليها الملائكةُ. وممَّن اختاره: العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٣٨).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ قال عَطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ: يريدُ الجنَّةَ الَّتي يأوي إليها جِبريلُ والملائكةُ). ((البسيط)) (٢١/ ٣٢).

وقال جلالُ الدِّين المحلِّي: (﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ تأوي إليها الملائكةُ وأرواحُ الشُّهداءِ والمتَّقينَ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠١).

وقال ابنُ عاشور: (﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾: الجنَّةُ المعروفةُ بأنَّها مأوى المتَّقينَ؛ فإنَّ الجنَّةَ مُنتهى مراتِبِ ارتِقاءِ الأرواحِ الزَّكيَّةِ، وفي حديثِ الإسراءِ بعد ذِكرِ سِدرةِ المُنتهى: «ثمَّ أُدْخِلتُ الجنَّةَ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) =

وفي حديثِ أَنَسِ بن مالِكٍ عن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنهما -في قِصَّةِ المِعراجِ- قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((... ثمَّ انطَلَق بي جِبريلُ حتى نأتيَ سِدْرةَ المُنتَهى، فغَشِيَها ألوانٌ لا أدري ما هي!))[(١)].

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

أي: ما مالَ بَصَرُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَمينًا ولا شِمالًا، ولا تجاوَزَ الحدَّ الَّذي رآه[(٢)].

= (٧/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

قال ابن عطية: (﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ معناه: مِن قُدرةِ اللهِ، وأنواعِ الصِّفاتِ الَّتي يختَرِعُها لها، وذلك مُبهَمٌ على جِهةِ التَّفخيمِ والتَّعظيمِ. وقال مجاهِدٌ: تُبَدَّلُ أغصانُها دُرًّا وياقوتًا ونحوَه. وقال ابنُ مسعودٍ ومَسروقٌ ومجاهِدٌ: ذلك جَرادٌ مِن ذَهَبٍ كان يَغشاها... وقال الرَّبيعُ وأبو هُرَيرةَ: «كان تَغشاها الملائكةُ كما تَغشى الطَّيرُ الشَّجَرَ»، وقيل غيرُ هذا ممَّا هو تكَلُّفٌ في الآيةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أبهَمَ ذلك وهم يريدونَ شَرْحَه، وقد قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «فغَشِيَها ألوانٌ لا أدري ما هي»). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٠).

وقال ابن كثير: (قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾:... في أحاديثِ الإسراءِ أنَّه غَشِيَتْها الملائكةُ مِثلَ الغِرْبانِ، وغَشِيَها نورُ الرَّبِّ، وغَشِيَها ألوانٌ ما أدري ما هي). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٤).

وقال السعدي: (﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾: أي: يَغْشاها مِن أمْرِ اللهِ شيءٌ عظيمٌ لا يَعلَمُ وصْفَه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

(١) رواه البخاريُّ (٣٤٩)، ومسلمٌ (١٦٣) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٧، ٩٨)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٢).

قال ابنُ عطية: (قَولُه: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ معناه: ولا تجاوَزَ المَرئيَّ، بل وَقَع عليه وُقوعًا صَحيحًا، وهذا تحقيقٌ للأمرِ، ونَفيٌ لِوُجودِ الرَّيبِ عنه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٠).

وقال ابنُ القيِّم: (قال ابنُ عبَّاسٍ: ما زاغ البَصَرُ يَمينًا ولا شِمالًا، ولا جاوزَ ما أُمِرَ به. وعلى هذا المفسِّرونَ؛ فنفى عن نبيِّه ما يَعرِضُ للرَّائي الَّذي لا أدَبَ له بيْنَ يدَيِ الملوكِ والعُظَماءِ مِن الْتِفاتِه يَمينًا وشِمالًا، ومُجاوَزةِ بَصَرِه لِما بيْنَ يدَيْه، وأخبَرَ عنه بكمالِ الأدَبِ في ذلك المقامِ =

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانوا قد أنكَروا الإسراءَ إنكارًا لم يقَعْ لهم في غَيرِه مِثْلُه؛ زاد في تأكيدِه على وَجهٍ يَعُمُّ غَيرَه، فقال(١):

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨﴾.

أي: لقد رأى محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لَيلةَ الإسراءِ والمعراجِ مِن آياتِ رَبِّه وعجائِبِ مُلكِه الآياتِ الكُبرى(٢).

= وفي تلك الحَضرةِ؛ إذ لم يَلتفِتْ جانِبًا، ولم يَمُدَّ بَصَرَه إلى غيرِ ما أُرِيَ مِن الآياتِ، وما هناك مِن العجائِبِ، بل قام مقامَ العَبدِ الَّذي أوجب أَدَبُه إطراقَه وإقبالَه على ما أُرِيَ دونَ التفاتِه إلى غَيرِه، ودونَ تطَلُّعِه إلى ما لم يَرَه، مع ما في ذلك من ثباتِ الجَأشِ، وسُكونِ القَلبِ وطُمأنينتِه، وهذا غايةُ الكمالِ. وزَيغُ البَصَرِ: التِفاتُه جانِبًا. وطُغيانُه: مَدُّه أمامَه إلى حيثُ يَنتهي؛ فنَزَّه في هذه السُّورةِ عِلْمَه عن الضَّلالِ، وقَصْدَه وعَمَلَه عن الغَيِّ، ونُطْقَه عن الهوى، وفُؤادَه عن تكذيبِ بَصَرِه، وبصَرَه عن الزَّيغِ والطُّغيانِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٦١، ٢٦٢). ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦١، ٣٦٢).

وقال البِقاعي: (﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: تجاوَزَ الحَدَّ إلى ما لم يُؤذَنْ له فيه، مع أنَّ ذلك العالَمَ غَريبٌ عن بني آدَمَ، وفيه مِنَ العجائِبِ ما يُحَيِّرُ النَّاظِرَ! بل كانت له العِفَّةُ الصَّادِقةُ المتوسِّطةُ بيْنَ الشَّرَهِ والزَّهادةِ، على أتمِّ قوانينِ العَدلِ، فأثبَتَ ما رآه على حقيقتِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٣).

قال ابنُ الجوزي: (للمُفَسِّرينَ في المرادِ بما رأى مِنَ الآياتِ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه رأى رَفرَفًا أخضَرَ مِن الجنَّةِ قد سَدَّ الأُفُقَ. قاله ابنُ مسعودٍ.

والثَّاني: أنَّه رأى جِبريلَ في صورتِه الَّتي يكونُ عليها في السَّمواتِ. قاله ابنُ زَيدٍ.

والثَّالِثُ: أنَّه رأى مِن أعلامِ ربِّه وأدلَّتِه الأعلامَ والأدِلَّةَ الكبرى. قاله ابنُ جريرٍ). ((تفسير ابن =

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ نفَى سُبحانَه عن رَسولِه الضَّلالَ المنافيَ للهُدى، والغَيَّ المنافيَ للرَّشادِ؛ فالهُدى في عِلمِه، والرَّشادُ في عَمَلِه، وهذان الأصلانِ هما غايةُ كَمالِ العَبدِ، وبهما سعادتُه وفَلاحُه، وبهما وَصَفَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم خُلَفاءَه، فقال: ((عليكم بسُنَّتي، وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ المَهْدِيِّينَ مِن بَعْدِي))[1]. فالرَّاشِدُ ضِدُّ الغاوي، والمَهدِيُّ ضِدُّ الضَّالِّ،

= الجوزي)) (٤/ ١٨٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤).

قال القاسمي: (﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ يعني: المَلَكَ الَّذي عايَنَه، وأخبَره برسالتِه. وفيه غايةُ التَّفخيمِ لِمَقامِه، وأنَّه مِن الآياتِ الكُبَرِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٦٥).

وممَّن قال مِن السَّلفِ إنَّه رأى جِبريلَ في صورتِه الَّتي يكونُ عليها في السَّمواتِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ في روايةٍ، وابنُ زَيدٍ، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (لأنَّ رُؤيةَ جِبريلَ هي مِن تمامِ نبُوَّتِه، وممَّا يُبَيِّنُ أنَّ الَّذي أتاه بالقُرآنِ مَلَكٌ لا شيطانٌ). ((النبوات)) (١/ ٥٣٣).

وقيل: المرادُ: ما رأَى لَيلةَ الإسراءِ مِن الآياتِ العِظامِ وعجائبِ الملكوتِ ممَّا لا يحيطُ به الوصفُ مِنَ السَّمَواتِ والجنَّةِ والنَّارِ، والملائكةِ والأنبياءِ، وغيرِ ذلك. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: البيضاويُّ، والنسفي، والخازن، وابنُ جُزَي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

قال الألوسي: (رأى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ آياتٍ كُبرى لَيلةَ المعراجِ لا تُحصى، ولا تَكادُ تُستقصَى). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٥٢).

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (١٧١٤٢)، من حديث العرباض ابن سارية رضي الله عنه.

وهو الَّذي زَكَت نفْسُه بالعِلمِ النَّافِعِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وهو صاحِبُ الهُدى ودينِ الحَقِّ، ولا يَشتَبِهُ الرَّاشِدُ المَهدِيُّ بالضَّالِّ الغاوي إلَّا على أجهَلِ خَلقِ اللهِ، وأعماهم قلبًا، وأبعَدِهم مِن حقيقةِ الإنسانيَّةِ؛ فالنَّاسُ أربَعةُ أقسامٍ:

الأوَّلُ: ضالٌّ في عِلمِه، غاوٍ في قَصدِه وعَمَلِه، وهؤلاء شِرارُ الخَلقِ، وهم مُخالِفو الرُّسُلِ.

الثَّاني: مُهتَدٍ في عِلمِه، غاوٍ في قَصْدِه وعَمَلِه، وهؤلاء هم الأُمَّةُ الغَضَبيَّةُ ومَن تَشَبَّه بهم، وهو حالُ كُلِّ مَن عَرَف الحَقَّ ولم يَعمَلْ به.

الثَّالِثُ: ضالٌّ في عِلمِه، ولكِنَّ قَصْدَه الخَيرُ، وهو لا يَشعُرُ.

الرَّابِعُ: مُهتَدٍ في عِلمِه، راشِدٌ في قَصدِه، وهؤلاء وَرَثةُ الأنبياءِ، وهم وإن كانوا الأقَلِّينَ عَدَدًا، فهم الأكثَرونَ عندَ اللهِ قَدْرًا، وهم صَفوةُ اللهِ مِن عِبادِه، وحِزبُه مِن خَلْقِه[1]. فصلاحُ العبدِ في أنَّه يَعلَمُ الحقَّ ويَعمَلُ به، فمَن لم يَعلَمِ الحقَّ فهو ضالٌّ عنه، ومَن عَلِمَه فخالفَه واتَّبَعَ هواه فهو غاوٍ، ومَن عَلِمَه وعَمِلَ به كان مِن أُولي الأيدي عَمَلًا، ومِن أُولي الأبصارِ عِلمًا، وهو الصِّراطُ المستقيمُ الَّذي أمَرَنا اللهُ سُبحانَه في كلِّ صلاةٍ أنْ نَقولَ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، فالمغضوبُ عليهم: الَّذين يَعرِفونَ الحقَّ ولا يَتَّبِعونَه،كاليهودِ، والضَّالُّون: الَّذين يَعمَلونَ أعمالَ القُلوبِ والجَوارِحِ بلا عِلمٍ،كالنَّصارى[2].

= قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ عبدِ البَرِّ في ((جامع بيان العلم وفضله)) (٢/ ١١٦٤)، والجورقاني في ((الأباطيل والمناكير)) (١/ ٤٧٢)، وابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (٢٠/ ٣٠٩)، وابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (٩/ ٥٨٢).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((حقوق آل البيت)) لابن تيمية (ص: ٣٧).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ أنَّ مَن لم يكُنْ رَشيدًا فهو إمَّا غاوٍ، وإمَّا ضالٌّ؛ فالغاوي مَن تَعَمَّدَ خِلافَ الحقِّ، والضَّالُّ مَن لم يَتعمَّدْ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ أي: ما زاغَ يَمْنةً ولا يَسْرةً عن مَقصودِه، ﴿وَمَا طَغَىٰ ﴾ أي: وما تجاوَزَ البَصَرُ، وهذا كمالُ الأدبِ منه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه؛ أنْ قام مَقامًا أقامَه اللهُ فيه، ولم يَقصُرْ عنه، ولا تجاوَزَه، ولا حاد عنه. وهذا أكمَلُ ما يكونُ مِنَ الأدَبِ العَظيمِ الَّذي فاق فيه الأوَّلينَ والآخِرينَ؛ فإنَّ الإخلالَ يكونُ بأحَدِ هذه الأُمورِ: إمَّا ألَّا يَقومَ العَبدُ بما أُمِرَ به، أو يقومَ به على وَجهِ التَّفريطِ أو على وجهِ الإفراطِ، أو على وَجهِ الحَيدةِ يَمينًا وشِمالًا، وهذه الأمورُ كُلُّها مُنتَفِيَةٌ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ أسرارٌ عَجيبةٌ، وهي مِن غوامِضِ الآدابِ اللَّائقةِ بأكمَلِ البَشَرِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تواطأَ هناك بصَرُه وبَصيرتُه، وتوافَقَا وتصادَقَا؛ فما شاهدَه بصَرُه فالبصيرةُ مواطِئةٌ له، وما شاهَدَتْه بصيرتُه فهو أيضًا حقٌّ مَشهودٌ بالبَصرِ، فتواطأَ في حقِّه مَشهَدُ البَصَرِ والبَصيرةِ؛ ولهذا قال سُبحانَه وتعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ * أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ أي: ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رآه ببَصَرِه؛ ولهذا قرأَها أبو جعفرٍ: ﴿مَا كَذَّبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ بتشديدِ الذَّالِ[٣]، أي: لم يُكَذِّبِ الفُؤادُ البصرَ، بل صَدَّقَه وواطأَه؛ لِصِحَّةِ الفُؤادِ والبَصَرِ، أو استِقامةِ البَصيرةِ والبَصَرِ، وكَونِ المرئيِّ المُشاهَدِ بالبَصَرِ والبَصيرةِ حقًّا، وقَرَأَ الجمهورُ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ بالتَّخفيفِ، وهو مُتَعَدٍّ، و ﴿مَا رَأَىٰٓ ﴾ مَفعولُه، أي: ما كَذَبَ قَلبُه ما رأَتْه عَيْناه، بل واطأَه ووافَقَه، فلِمُواطأةِ قلْبِه لقالَبِه، وظاهِرِه

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

(٣) يُنظر ما تقدَّم في القراءات ذات الأثر في التَّفسير (ص: ٣٩٦).

لباطنِه، وبَصَرِه لبصيرتِه: لم يَكْذِبِ الفُؤادُ البَصَرَ، ولم يَتجاوَزِ البَصَرُ حدَّه فيَطغى، ولم يَمِلْ عنِ المرئيِّ فيَزيغَ، بلِ اعتدلَ البصرُ نحوَ المرئيِّ، ما جاوزَه ولا مالَ عنه، كما اعتدلَ القلبُ في الإقبالِ على اللهِ، والإعراضِ عمَّا سِواه؛ فإنَّه أقبَلَ على اللهِ بكُلِّيَّتِه، وللقَلبِ زَيغٌ وطُغيانٌ، وكِلاهما مُنتَفٍ عن قَلبِه وبَصَرِه؛ فلم يَزِغْ قلبُه التِفاتًا عنِ اللهِ إلى غَيرِه، ولم يَطْغَ بمجاوزتِه مَقامَه الَّذي أُقيمَ فيه، وهذا غايةُ الكمالِ والأدبِ مع اللهِ الَّذي لا يَلحَقُه فيه سِواه؛ فإنَّ عادةَ النُّفوسِ إذا أُقيمَتْ في مقامٍ عالٍ رفيعٍ أنْ تَتطَلَّعَ إلى ما هو أعلَى منه وفَوْقَه، ألَا ترى أنَّ موسى صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا أُقيمَ في مقامِ التَّكليمِ والمُناجاةِ طَلَبت نَفْسُه الرُّؤيةَ؟! ونَبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا أُقيمَ في ذلك المقامِ وَفَّاه حقَّه، فلم يَلتَفِتْ بَصَرُه ولا قَلبُه إلى غيرِ ما أُقيمَ فيه البتَّةَ، ومِن أجْلِ هذا ما عاقَه عائِقٌ، ولا وَقَفَ به مُرادٌ حتَّى جاوزَ السَّمواتِ السَّبْعَ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ أقسَمَ سُبحانَه بالنُّجومِ على صِحَّةِ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الوَحيِ الإلهيِّ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لأنَّ في ذلك مُناسَبةً عَجيبةً؛ فإنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ النُّجومَ زينةً للسَّماءِ، فكذلك الوَحيُ وآثارُه زينةٌ للأرضِ، فلولا العِلمُ الموروثُ عن الأنبياءِ لَكان النَّاسُ في ظُلمةٍ أشَدَّ مِنَ اللَّيلِ البَهيمِ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ أنَّ المعراجَ الَّذي حَصَلَ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان بجسَدِه ورُوحِه؛ فالعبدُ -وكذلك الصَّاحبُ- لا يكونُ إلَّا في الرُّوحِ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

والجَسَدِ؛ فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُسرِيَ به بجَسَدِه ورُوحِه، وعُرِجَ به إلى السَّمَواتِ حتَّى بَلَغ مُستوًى بجَسَدِه ورُوحِه صلَّى الله عليه وسلَّم، ولو كان ذلك برُوحِه فقط ما أنكَرَت قُرَيشٌ ذلك؛ إذ إنَّ المناماتِ يَقَعُ منها شيءٌ كثيرٌ مِن جِنسِ هذا، ولكِنَّه كان صلَّى الله عليه وسلَّم قد أُسرِيَ به بجَسَدِه ورُوحِه، وعُرِجَ به إلى السَّمَواتِ كذلك[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ * إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ بَيانُ أنَّ اللهَ عزَّ شأنُه أوجبَ اتِّباعَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما يقولُه، وإنْ لم يكنْ مِن القُرآنِ، وأيضًا فرِسالتُه اقتَضَتْ صِدْقَه فيما يُخبِرُ به عنِ اللهِ تعالى مِن القُرآنِ وغيرِ القُرآنِ؛ فوَجَبَ بذلك تصديقُه فيما أخبَرَ به، وإنْ لم يكُنْ ذلك مِن القُرآنِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ سؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ مع قَولِه تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]؟

الجَوابُ: أنَّ المرادَ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا﴾ أي: عمَّا أنت عليه الآنَ مِنَ الشَّريعةِ، فهداك إليها، بخِلافِ هذه الآيةِ[٣].

٥- قَولُه تعالى: ﴿مَا ضَلَّ﴾ دليلٌ على كمالِ عِلمِه ومَعرفتِه، وأنَّه على الحَقِّ المُبينِ، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ دليلٌ على كمالِ رُشدِه، وأنَّه أبَرُّ العالَمينَ؛ فهو الكامِلُ في عِلمِه وفي عَمَلِه[٤]. ففي ضِمنِ النَّفيِ الشَّهادةُ له بأنَّه على الهُدى والرَّشادِ[٥].

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٠).

(٥) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٥).

فالمُقسَمُ عليه: تَنزيهُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الضَّلالِ في عِلمِه، والغَيِّ في قَصدِه، ويَلزَمُ مِن ذلك أن يكونَ مُهتديًا في عِلمِه، هاديًا حَسَنَ القَصدِ، ناصِحًا للأُمَّةِ، بعَكسِ ما عليه أهلُ الضَّلالِ مِن فَسادِ العِلمِ، وفَسادِ القَصدِ[١].

وإذا انتفَى عنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الجهلُ، وانتفَى عنه الغَيُّ؛ تبيَّنَ أنَّ منهجَه صلَّى الله عليه وسلَّم عِلْمٌ ورُشْدٌ؛ عِلْمٌ ضِدُّ الجهلِ وهو الضَّلالُ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، ورُشْدٌ ضِدُّ الغَيِّ ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، إذًا النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كلامُه حقٌّ، وشريعتُه حقٌّ؛ لأنها عن عِلْمٍ ورُشْدٍ[٢].

٦- تولَّى الحقُّ سُبحانَه الرَّدَّ عن نبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾؛ أمَّا بقيَّةُ الأنبياءِ فدَفَعوا عن أنفُسِهم؛ قال سُبحانه عن نوحٍ -عليه السَّلامُ- وقومِه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٠، ٦١]، وقال عن هودٍ -عليه السَّلامُ- وقومِه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦، ٦٧]؛ فشَتَّانَ بيْنَ مَن دافَعَ عن نفْسِه، وبيْن مَن دافَعَ عنه ونَفَى عنه ربُّه[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ تَنزيهُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن النُّطقِ عن هَوًى، وهذا يقتَضي التَّنزيهَ عن أن يَفعَلَ أو يَحكُمَ عن هَوًى؛ لأنَّ التَّنزُّهَ عن النُّطقِ عن هَوًى هو أعظَمُ مَراتِبِ الحِكمةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (١/ ٥٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٣).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ يُحتَجُّ به في جوازِ نَسخِ القُرآنِ وتَخصيصِه بالسُّنَّةِ(١).

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ دَليلٌ على أنَّ كُلَّ ما سَنَّه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم فبِوَحيٍ سَنَّه(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]: أنَّ الأخْذَ بالسُّنَّةِ أخْذٌ بكِتابِ اللهِ تعالى(٣).

١١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ لم يَقُلْ: «وما ينطِقُ بالهَوى»؛ لأنَّ نُطقَه عنِ الهوى أبلَغُ؛ فإنَّه يتضَمَّنُ أنَّ نُطقَه لا يَصدُرُ عن هوًى، وإذا لم يَصدُرْ عن هوًى فكيف يَنطِقُ به؟! فتضَمَّنَ نفْيَ الأمْرَينِ: نفْيَ الهَوى عن مَصدَرِ النُّطقِ، ونَفْيَه عن نفْسِه؛ فنُطقُه بالحَقِّ، ومَصدَرُه الهُدَى والرَّشادُ، لا الغَيُّ والضَّلالُ(٤).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذه الآيةَ الكَريمةَ تدُلُّ بظاهِرِها على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يجتَهِدُ في شَيءٍ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رُبَّما اجتَهد في بَعضِ الأُمورِ، كما دلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقَولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. فما الجَوابُ؟

---

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٧).

الجوابُ مِن وجهَين:

الأوَّلُ: أنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ أي: في كُلِّ ما يُبَلِّغُه عن اللهِ تعالى ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي: كُلُّ ما يُبَلِّغُه عن اللهِ تعالى ﴿ إِلَّا وَحْىٌ ﴾ مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنَّه لا يقولُ على اللهِ شيئًا إلَّا بوَحيٍ منه تعالى، فالآيةُ رَدٌّ على الكُفَّارِ؛ حيث قالوا: إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم افترى هذا القُرآنَ!

الثَّاني: أنَّه إنِ اجتَهَد فإنَّه إنَّما يجتَهِدُ بوَحيٍ مِنَ اللهِ يأذَنُ له به في ذلك الاجتِهادِ، وعليه فاجتِهادُه بوَحيٍ؛ فلا منافاةَ، ويدُلُّ لهذا الوَجهِ أنَّ اجتِهادَه في الإذنِ للمتخَلِّفينَ عن غَزوةِ تَبوكَ أَذِنَ اللهُ له فيه؛ حيثُ قال: ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور: ٦٢]، فلَمَّا أَذِنَ للمُنافِقينَ عاتَبَه بقَولِه: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة: ٤٣]؛ فالاجتِهادُ في الحقيقةِ إنَّما هو الإذنُ قبْلَ التَّبيُّنِ، لا في مُطلَقِ الإذنِ؛ للنَّصِّ عليه.

والَّذي يَظهَرُ أنَّ التَّحقيقَ في هذه المسألةِ: أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رُبَّما فَعَل بَعضَ المسائِلِ مِن غَيرِ وَحيٍ في خُصوصِه، كإذْنِه للمُتخَلِّفينَ عن غَزوةِ تَبُوكَ قبْلَ أن يتبيَّنَ صادِقَهم مِن كاذِبِهم، وكأسْرِه لأُسارى بَدرٍ، وكأمْرِه بتَركِ تأبيرِ النَّخلِ[1]، وكقَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لو استَقبَلْتُ مِن أمري ما استَدبَرْتُ ...)) الحديثَ[2]. إلى غيرِ ذلك؛ وأنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ لا إشكالَ فيه؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَنطِقُ بشَيءٍ مِن أجْلِ الهَوى، ولا يتكَلَّمُ بالهوى، وقَولُه تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ يعني: أنَّ كُلَّ ما يُبَلِّغُه عن اللهِ تعالى فهو وَحيٌ مِنَ اللهِ، لا بِهوًى ولا بكَذِبٍ ولا افتِراءٍ[3].

---

(١) يُنظر ما أخرجه مسلمٌ (٢٣٦١).

(٢) أخرجه البخاريُّ (١٦٥١)، ومسلمٌ (١٢١٦) مطوَّلًا مِن حديثِ جابرِ بنِ عبدِ الله رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٣).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أنَّ السُّنَّةَ وَحيٌ مِنَ اللهِ تعالى لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، وأنَّه مَعصومٌ فيما يُخبِرُ به عن اللهِ تعالى وعن شَرعِه؛ لأنَّ كَلامَه لا يَصدُرُ عن هوًى، وإنَّما يَصدُرُ عن وَحيٍ يُوحَى[١].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿يُوحَىٰ﴾ فائِدةُ المجيءِ بهذا الوَصفِ أنَّه ينفي المجازَ، أي: هو وَحيٌ حَقيقةً لا مُجرَّدُ تَسميةٍ، كقَولِك: هذا قَولٌ يُقالُ[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ فوائِدُ، وتَنبيهٌ على أُمورٍ:

الأوَّلُ: أنَّ مَدْحَ المعَلِّمِ مَدحٌ للمُتعَلِّمِ؛ فلو قال: «عَلَّمه جِبريلُ» ولم يَصِفْه، ما كان يحصُلُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَضيلةٌ ظاهِرةٌ.

الثَّاني: أنَّ فيه ردًّا عليهم حيثُ قالوا: أساطيرُ الأوَّلينَ سَمِعَها وَقتَ سَفَرِه إلى الشَّامِ! فقال: لم يُعَلِّمْه أحدٌ مِنَ النَّاسِ، بل مُعَلِّمُه شَديدُ القُوى، والإنسانُ خُلِقَ ضَعيفًا، وما أُوتيَ مِن العِلمِ إلَّا قَليلًا.

الثَّالثُ: فيه وُثوقٌ بقَولِ جِبريلَ عليه السَّلامُ؛ فقَولُه تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ جمَعَ ما يوجِبُ الوُثوقَ؛ لأنَّ قُوَّةَ الإدراكِ شَرطُ الوُثوقِ بقَولِ القائِلِ؛ لأنَّا إنْ ظَنَنَّا بواحِدٍ فَسادَ ذِهنٍ، ثمَّ نَقَل إلينا عن بعضِ الأكابِرِ مَسألةً مُشكِلةً؛ فلا نَثِقُ بقَولِه، ونقولُ: هو ما فَهِمَ ما قال. وكذلك قُوَّةُ الحِفظِ؛ حتَّى لا نَقولَ: أدرَكَها لكِنْ نَسِيَها. وكذلك قُوَّةُ الأمانةِ؛ حتَّى لا نَقولَ: حَرَّفَها وغَيَّرَها؛ فقال: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ لِيَجمعَ هذه الشَّرائِطَ، فيَصيرَ كقَولِه تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] إلى أن قال: ﴿أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٨٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٥٧).

الرَّابِعُ: في تَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهي مِن حيثُ إنَّه إذا عُلِّمَ مُحمَّدٌ بواسِطةِ جِبريلَ يكونُ هذا نَقصًا عن دَرجتِه، فقال: ليس كذلك؛ لأنَّه شَديدُ القُوى يَثبُتُ لِمُكالمتِنا، وأنتَ بَعدُ ما استَوَيتَ، فتَكونُ كموسى حيثُ خَرَّ، فكأنَّه تعالى قد عَلَّمَه بواسِطةٍ، ثمَّ عَلَّمَه مِن غيرِ واسِطةٍ، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[1] [النساء: ١١٣].

الخامسُ: أنَّه بقُوَّتِه يَمنَعُ الشَّياطينَ أن تَدنوَ مِن القُرآنِ، وأن يَنالوا منه شَيئًا، وأنْ يَزيدوا فيه أو يَنقُصوا منه، بل إذا رآه الشَّيطانُ هَرَبَ منه ولم يَقرَبْه.

السَّادسُ: أنَّه مُوالٍ لهذا الرَّسولِ الَّذي كذَّبتُموه، ومُعاضِدٌ له، ومُوادٌّ له وناصِرٌ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، ومَن كان هذا القَويُّ وليَّه ومِن أنصارِه وأعوانِه ومُعَلِّمَه، فهو المَهديُّ المنصورُ، واللهُ هاديه وناصِرُه.

السَّابعُ: أنَّ مَن عادى هذا الرَّسولَ فقد عادى صاحِبَه ووليَّه جِبريلَ، ومَن عادى ذا القُوَّةِ والشِّدَّةِ فهو عُرضةٌ للهَلاكِ.

الثَّامنُ: أنَّه قادِرٌ على تنفيذِ ما أُمِرَ به؛ لقُوَّتِه، فلا يَعْجِزُ عن ذلك، مُؤَدٍّ له كما أُمِرَ به؛ لأمانتِه، فهو القَويُّ الأمينُ، وأحدُكم إذا انتَدبَ غيرَه في أمْرٍ مِن الأُمورِ لرسالةٍ أو وِلايةٍ أو وَكالةٍ أو غَيرِها فإنَّما يَنتدِبُ لها القويَّ عليه، الأمينَ على فِعلِه، وإنْ كان ذلك الأمرُ مِن أهمِّ الأُمورِ عندَه انتَدبَ له قويًّا أمينًا مُعَظَّمًا ذا مكانةٍ عندَه، مُطاعًا في النَّاسِ، كما وَصَفَ اللهُ عبْدَه جِبريلَ بهذه الصِّفاتِ، وهذا يدُلُّ على عَظَمةِ شأنِ المُرسِلِ والرَّسولِ والرِّسالةِ والمُرسَلِ إليه؛ حيثُ انتَدبَ له الكَريمَ القويَّ المَكينَ عندَه، المُطاعَ في الملأِ الأعلى، الأمينَ حقَّ الأمينِ؛ فإنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣٧).

الملوكَ لا تُرسِلُ في مُهمَّاتِها إلَّا الأشرافَ ذوي الأقدارِ والرُّتَبِ العاليةِ[١]!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: أنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ الملائِكةَ بصِفاتٍ تقتضي أنَّهم أحياءٌ ناطِقونَ خارِجونَ عن قُوى البَشَرِ، وعنِ العُقولِ والنُّفوسِ الَّتي تُثبِتُها الفلاسِفةُ؛ فعُلِمَ أنَّ الملائِكةَ الَّتي أخبرَتْ عنها الأنبياءُ ليسوا مُطابِقينَ لِمَا يقولُه هؤلاء الفلاسِفةُ[٢]!

١٧- دلَّ القرآنُ على أنَّ المرئيَّ في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ هو جِبريلُ وليس اللهَ تعالى؛ وذلك مِن وُجوهٍ:

أحدُها: أنَّه تعالى قال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾، وهذا جِبريلُ الَّذي وَصَفَه اللهُ بالقُوَّةِ في سُورةِ (التَّكويرِ)، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠].

الثَّاني: أنَّه تعالى قال: ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾، أي: حَسَنُ الخَلْقِ، وهو الكريمُ المذكورُ في (التَّكويرِ).

الثَّالثُ: أنَّه تعالى قال: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وهو ناحيةُ السَّماءِ العُليا، وهذا استِواءُ جِبريلَ بالأُفُقِ الأعلى، وأمَّا استِواءُ الرَّبِّ جلَّ جلالُه فعلى عَرشِه.

الرَّابعُ: أنَّه تعالى قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾، فهذا دُنُوُّ جِبريلَ وتدَلِّيه إلى الأرضِ حيث كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

الخامِسُ: أنَّه تعالى قال: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾، والمَرئيُّ عندَ السِّدْرةِ هو جِبريلُ قَطعًا، كما في حديث عائشةَ رضيَ الله عنها[٣].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٩٩).

(٣) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٠٠).

السَّادِسُ: أنَّ مُفَسَّرَ الضَّميرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾، وفي قَولِه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾، وفي قَولِه: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾، وفي قَولِه: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: واحِدٌ؛ فلا يجوزُ أنْ يُخالَفَ بيْنَ المُفَسِّرِ والمُفَسَّرِ مِن غَيرِ دليلٍ.

السَّابِعُ: أنَّه سُبحانَه ذَكَر في هذه السُّورةِ الرَّسولَينِ الكَريمَينِ: المَلَكيَّ، والبَشَريَّ، ونَزَّه البَشَريَّ عن الضَّلالِ والغَوايةِ، ونَزَّه المَلَكيَّ عن أن يكونَ شَيطانًا قَبيحًا ضَعيفًا، بل هو قَويٌّ كريمٌ حَسَنُ الخَلْقِ، وهذا نظيرُ الوَصفِ المَذكورِ في سورةِ (التَّكويرِ) سَواءً.

الثَّامِنُ: أنَّه أخبَرَ هناك أنَّه رآه بالأُفُقِ المُبينِ، وهاهنا أخبَرَ أنَّه رآه بالأُفُقِ الأعلى، وهو واحِدٌ وُصِفَ بصِفتَينِ؛ فهو مُبينٌ، وهو أعلى؛ فإنَّ الشَّيءَ كلَّما عَلَا بانَ وظَهَرَ.

التَّاسِعُ: أنَّه تعالى قال: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، والمِرَّةُ: الخَلْقُ الحَسَنُ المُحْكَمُ، فأخبَرَ عن حُسْنِ خَلْقِ الَّذي عَلَّمَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ثمَّ ساق الخبَرَ كلَّه عنه نَسَقًا واحِدًا.

العاشِرُ: أنَّه لو كان خبَرًا عن الرَّبِّ سُبحانَه تعالى لَكان القُرآنُ قد دَلَّ على أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأى رَبَّه سُبحانَه مرَّتَينِ: مرَّةً بالأُفُقِ، ومَرَّةً عندَ السِّدْرةِ، ومَعلومٌ أنَّ الأمرَ لو كان كذلك لم يَقُلِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي ذَرٍّ وقد سأله: ((هل رأيْتَ رَبَّك؟ فقال: نورٌ أَنَّى أَراه؟!))[1]، فكيف يُخبِرُ القُرآنُ أنَّه رآه مرَّتَينِ، ثمَّ يَقولُ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أنَّى أَراه؟!))، وهذا أبلَغُ مِن قَولِه: لم أَرَه؛ لأنَّه مع النَّفيِ يَقتَضي الإخبارَ عن عَدَمِ الرُّؤيةِ فقط، وهذا يتضَمَّنُ النَّفيَ وطَرَفًا مِنَ الإنكارِ على السَّائِلِ، كما إذا قال لرجُلٍ: هل كان كَيْتَ وكَيْتَ؟ فيقولُ: كيف يكونُ ذلك؟!

(١) أخرجه مسلمٌ (١٧٨) من حديث أبي ذَرٍّ رضيَ الله عنه.

الحادِيَ عَشَرَ: أنَّه لم يَتقدَّمْ للرَّبِّ جلَّ جلالُه ذِكْرٌ يعودُ الضَّميرُ عليه في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾، والَّذي يعودُ الضَّميرُ عليه لا يَصلُحُ له، وإنَّما هو لِعَبدِه.

الثَّانيَ عَشَرَ: أنَّه كيف يعودُ الضَّميرُ إلى ما لم يُذكَرْ، ويُترَكُ عَودُه إلى المذكورِ مع كَونِه أَولى به؟!

الثَّالِثَ عَشَرَ: أنَّه قد تقدَّم ذِكرُ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، وأعاد عليه الضَّمائرَ الَّتي تليقُ به، ثمَّ ذَكَر بعْدَه ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ﴾ [النَّجْم: ٥، ٦]، وأعاد عليه الضَّمائرَ الَّتي تليقُ به، والخبَرُ كُلُّه عن هذينِ المُفَسَّرينِ، وهما الرَّسولُ المَلَكيُّ، والرَّسولُ البَشَريُّ.

الرَّابعَ عَشَرَ: أنَّهم لم يُمارُوه -صلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه- على رُؤيةِ رَبِّه، ولا أخبَرَهم بها؛ لِتقَعَ مُماراتُهم له عليها، وإنَّما مارَوه على رُؤيةِ ما أخبَرَهم مِنَ الآياتِ الَّتي أراه اللهُ تعالى إيَّاها، ولو أخبَرَهم برؤية الرَّبِّ تعالى لَكانت مُماراتُهم له عليها أعظَمَ مِن مُماراتِهم على رُؤيةِ المَخلوقاتِ.

الخامسَ عَشَرَ: أنَّه سُبحانَه قَرَّرَ صِحَّةَ ما رآه الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّ مُماراتَهم له على ذلك باطِلةٌ، بقَولِه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النَّجْم: ١٨]، فلو كان المَرئيُّ هو الرَّبَّ سُبحانَه وتعالى، والمُماراةُ على ذلك منهم؛ لَكان تقريرُ تلك الرُّؤيةِ أَولى، والمَقامُ إليها أحوَجَ. واللهُ أعلمُ[(١)].

١٨- قولُه تعالى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أصْلُه قابَيْ قوسٍ، أو قابَيْ قَوسيْنِ -بتَثنيةِ أحَدِ اللَّفظينِ؛ المُضافِ والمُضافِ إليه، أو كِلَيْهما-؛ فوقَعَ إفرادُ أحَدِ اللَّفظينِ أو كِلَيْهما تَجنُّبًا لثِقَلِ المُثنَّى، كما في قولِه تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٠٠-٣٠٢).

[التحريم: ٤]، أي: قَلْباكُما[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ دَلالةٌ على أنَّ وصْفَ الإنسانِ بالعُبوديَّةِ للهِ يُعَدُّ كَمالًا؛ لأنَّ العُبوديَّةَ للهِ هي حَقيقةُ الحُرِّيَّةِ، فمَن لم يَتعبَّدْ له كان عابدًا لغَيرِه[٢].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ أنَّ مَقامَ العُبوديَّةِ أشرَفُ مَقاماتِ الخَلقِ؛ ولهذا سَمَّى اللهُ تعالى محمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في أشرَفِ مَقاماتِه وأعلاها بالعُبوديَّةِ، كما قال تعالى في صِفةِ لَيلةِ الإسراءِ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، وقال في حَقِّه في مَقامِ الدَّعوةِ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[٣] [البقرة: ٢٣].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ثمَّ قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ دَلالةٌ على شِدَّةِ الوُصْلةِ والارتباطِ بينَ القَلبِ والبَصَرِ؛ ولهذا يَقرأُ الإنسانُ ما في قَلبِ الآخَرِ مِن عَينِه، وهذا كثيرٌ في كلامِ النَّاسِ: نَظْمِه ونَثْرِه[٤].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ وقَولِه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أنَّه لو كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم رأى ربَّه بعَينِه لَكان ذِكْرُ ذلك أَولى[٥].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠٥).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥١٠).

رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ أنَّ المعراجَ كان يَقَظةً؛ فالآياتُ صريحةٌ في أنَّ بَصَرَه رأى ما رآه في الملأِ الأعلى، وأنَّه ما زاغ بَصَرُه وما طَغى، وقد ثَبَتَ أنَّ جَنَّةَ المأوى وسِدرةَ المُنتَهى في السَّماءِ لا في الأرضِ، فإذا رأى بعَينِه ما هنالك امتنعَ أنْ يكونَ ذلك مَنامًا، ودلَّ ذلك على أنَّ جَسَدَه كان هُنالِك، ولكِنَّه سُبحانَه ذَكَرَ في سُورةِ (سُبحانَ): ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: ١]؛ لأنَّه مِمَّا ذُكِرَ له دلائِلُه وشواهِدُه؛ وذلك تَمهيدًا لِمَا أخبَرَ به عن رُؤيةِ ما رآه عندَ سِدرةِ المُنتَهى، والقُرآنُ يدُلُّ على ذلك؛ حيثُ قال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النَّجم: ٥ - ٧]، كما قال في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ثمَّ قال في (النَّجم): ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾ أي: رأى الَّذي رآه بالأُفُقِ الأعلَى مرَّةً أُخرى ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾[1].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ لَمَّا ذَكَر رؤيتَه لجبريلَ عندَ سِدْرةِ المُنتَهى استطردَ منها، وذَكَر أنَّ جَنَّةَ المأوَى عِندَها، وأنَّه يَغشاها مِن أمْرِه وخَلْقِه ما يَغشَى، وهذا مِن أحسَنِ الاستِطرادِ، وهو أسلوبٌ لطيفٌ جدًّا في القرآنِ، وهو نَوعانِ:

أحدُهما: أنْ يَستطردَ مِن الشَّيءِ إلى لازمِه، مِثلُ هذا، ومِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، ثمَّ استطردَ مِن جوابِهم إلى قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ۝ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٧/ ٤٦).

تَرۡكَبُونَ * لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٠-١٣]، وهذا ليس مِن جوابِهم، ولكنْ تقريرٌ له، وإقامةٌ للحُجَّةِ عليهم.

والنَّوعُ الثَّاني: أنْ يَستطرِدَ مِن الشَّخصِ إلى النَّوعِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ * ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] إلى آخرِه، فالأوَّلُ آدمُ، والثَّاني بَنُوه[١].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ سُؤالٌ: لِمَ اختيرَت السِّدْرةُ لهذا الأمرِ دونَ غَيرِها مِنَ الشَّجَرِ؟

الجوابُ: قيل: لأنَّ السِّدْرةَ تَختَصُّ بثلاثةِ أوصافٍ: ظِلٌّ مديدٌ، وطَعمٌ لذيذٌ، ورائِحةٌ ذَكِيَّةٌ؛ فشابهت الإيمانَ الَّذي يَجمَعُ قَولًا وعَمَلًا ونِيَّةً؛ فظِلُّها بمنزِلةِ العَمَلِ لِتَجاوُزِه، وطَعمُها بمنزِلةِ النِّيَّةِ لكُمونِه، ورائحتُها بمنزلةِ القَولِ لظُهورِه[٢].

٢٦- قال الله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ أي: الجنَّةُ الجامِعةُ لكُلِّ نَعيمٍ، بحيث كانت مَحَلًّا تنتهي إليه الأماني، وتَرغَبُ فيه الإراداتُ، وتأوي إليها الرَّغَباتُ، وهذا دليلٌ على أنَّ الجَنَّةَ في أعلَى الأماكِنِ، وفَوقَ السَّماءِ السَّابعةِ[٣]. وفي الآيةِ دَليلٌ أيضًا على أنَّ الجنَّةَ مَخلوقةٌ، وموجودةٌ الآنَ، ومَن زَعَم أنَّها غَيرُ مَخلوقةٍ فهو كافِرٌ بهذه الآيةِ[٤].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ يعني: المَصيرَ؛ مأوى مَن جَمعوا بيْنَ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، يأوُونَ إليها، ويَخلُدونَ فيها، وأمَّا النَّارُ فهي مأوى الكافِرينَ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٩١). ويُنظر أيضًا: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٥).

-والعِياذُ باللهِ-، وفي هذا دليلٌ واضِحٌ على أنَّ غايةَ الخلائِقِ -الجِنِّ والإنسِ- إمَّا إلى الجَنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ، ولا ثالثَ لهما، فالجِنُّ والإنسُ إمَّا في النَّارِ، وإمَّا في الجَنَّةِ(١).

٢٨- يُستفادُ مِن قوله: ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أنَّ القُبورَ ليست هي المَأوى والمَثوى؛ لأنَّ القبورَ مَمَرٌّ ومَعبَرٌ؛ إذ إنَّ وراءَ القُبورِ بَعْثًا(٢).

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ إمَّا كبيرةٌ، وإمَّا كُبرَى عُظمَى؛ لأنَّ «الكُبرَى» اسمُ تَفضيلٍ، ولا يقالُ: إنَّ مِن آياتِ اللهِ ما هو صغيرٌ؛ فالمِعْراجُ الَّذي حَصَل لا شَكَّ أنَّه مِن الآياتِ الكُبرى العَظيمةِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أقسَمَ اللهُ تعالى بالنَّجمِ؛ لِما في خلْقِه مِن الدَّلالةِ على عَظيمِ قُدْرةِ اللهِ تعالَى(٤).

- ومُناسَبةُ القَسَمِ بالنَّجْمِ إذا هَوَى: أنَّ الكلامَ مَسوقٌ لإثباتِ أنَّ القُرآنَ وحْيٌ مِن اللهِ مُنزَّلٌ مِن السَّماءِ، فشابَهَ حالُ نُزولِه الاعتباريِّ حالَ النَّجْمِ في حالةِ هُويِّه مُشابَهةً تَمثيليَّةً حاصلةً مِن نُزولِ شَيءٍ مُنيرٍ إنارةً مَعنويَّةً نازِلٍ مِن مَحلِّ رِفعةٍ مَعنويَّةٍ، شُبِّهَ بحالةِ نُزولِ نَجْمٍ مِن أعْلى الأفُقِ إلى أسْفلِه، وهو مِن تمثيلِ المعقولِ بالمحسوسِ، أو الإشارةُ إلى مُشابَهةِ حالةِ نُزولِ جِبريلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٠).

مِن السَّمواتِ بحالةِ نُزولِ النَّجْمِ مِن أعلى مَكانِه إلى أسْفَلِه، أو بانقِضاضِ الشِّهابِ؛ تَشبيهُ مَحسوسٍ بمَحسوسٍ[١]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وتَعريفُ (النَّجْم) باللَّامِ يَجوزُ أنْ يكونَ للجِنسِ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ تَعريفَ العَهْدِ، وأشهَرُ النُّجومِ بإطلاقِ اسمِ النَّجمِ عليه: الثُّريَّا؛ لأنَّهم كانوا يُوقِّتونَ بأزمانِ طُلوعِها مَواقيتَ الفُصولِ ونُضْجَ الثِّمارِ. وقيل: النَّجْمُ: الشِّعْرى اليَمانيَةُ، وهي العَبورُ، وكانتْ مُعظَّمةً عندَ العرَبِ، وعبَدَتْها خُزاعةُ[٢].

- وفي ذِكْرِ ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ احتِراسٌ مِن أنْ يَتوهَّمَ المشرِكون أنَّ في القسَمِ بالنَّجْمِ إقرارًا لعِبادةِ نَجْمِ الشِّعْرى؛ فإنَّ حالةَ الغُروبِ المُعبَّرَ عنها بالهُوِيِّ حالةُ انخفاضٍ ومَغيبٍ في تَخيُّلِ الرَّائي؛ لأنَّهم يَعُدُّون طُلوعَ النَّجمِ أَوْجًا لشَرَفِه، ويَعُدُّون غُروبَه حَضيضًا، وتلك اعتباراتٌ لهم تَخيليَّةٌ شائعةٌ بيْنَهم، فمِن النَّافعِ مَوعظةُ النَّاسِ بذلك؛ لأنَّه كافٍ في إقناعِهم وُصولًا إلى الحقِّ، فيَكونُ قولُه: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إشعارًا بأنَّ النُّجومَ كلَّها مُسَخَّرةٌ لقُدْرةِ اللهِ تعالى، مُسيَّرةٌ في نِظامٍ أوجَدَها عليه، ولا اختيارَ لها، فليست أهْلًا لأنْ تُعبَدَ، فحصَلَ المَقصودُ مِن القسَمِ بما فيها مِن الدَّلالةِ على القُدرةِ الإلهيَّةِ، مع الاحتراسِ عن اعتقادِ عِبادتِها[٣].

- وفي الإقْسامِ بالنَّجْمِ إذا هَوى -على نَزاهتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عن شائبةِ الضَّلالِ والغَوايةِ- مِن البَراعةِ البَديعةِ وحُسْنِ المَوقعِ ما لا غايةَ وَراءَه؛ لأنَّ النَّجْمَ شأْنُه أنْ يَهتدِيَ بهِ السَّارِي إلى مَسالكِ الدُّنيا، كأنَّه قِيل: والنَّجْمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩١، ٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣٣).

الَّذي يَهتدِي به السَّابلةُ[١] إلى سَواءِ السَّبيلِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ فيه تَنْويهٌ بشأْنِ القُرآنِ، وتَنبيهٌ على مَناطِ اهتِدائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ومَدارِ رَشادِه، كأنَّه قيلَ: والقُرآنِ الَّذي هو عَلَمٌ في الهِدايةِ إلى مَناهجِ الدِّينِ، ومَسالكِ الحقِّ؛ ما ضلَّ عنَها محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وما غَوى[٣]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ لم يَقُلْ: ما ضَلَّ محمَّدٌ؛ تأكيدًا لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم بأنَّه صاحِبُهم، وهم أعلَمُ الخَلقِ به وبحالِه وأقوالِه وأعمالِه، وأنَّهم لا يَعرِفونَه بكَذِبٍ ولا غَيٍّ ولا ضَلالٍ، ولا يَنقِمونَ عليه أمرًا واحِدًا قَطُّ، وقد نَبَّه على هذا المعنى بقَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، وبقَولِه تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢][٤]، فإيرادُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعُنوانِ صاحبيَّتِه ﴿صَاحِبُكُمْ﴾؛ للإيذانِ بوُقوفِهم على تَفاصيلِ أحوالِه الشَّريفةِ، وإحاطتِهم خُبْرًا ببَراءتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ممَّا نُفِيَ عنه بالكُلِّيَّةِ، واتِّصافِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بغايةِ الهُدَى والرَّشادِ؛ فإنَّ طُولَ صُحبتِهم له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومُشاهدَتَهم لِمَحاسنِ شُؤونِه العظيمةِ؛ مُقْتضيةٌ لذلكَ حتْمًا. وللتَّعريضِ بأنَّهم أهلُ بُهتانٍ؛ إذ هو بيْنَهم في بلَدٍ لا تَتعذَّرُ فيه إحاطةُ عِلمِ أهلِه بحالِ واحدٍ مُعيَّنٍ مَقصودٍ مِن بيْنِهم[٥].

---

(١) السَّبيلُ: الطَّريقُ، وما وَضَح منه، والسَّابِلةُ: القومُ المُختَلِفَةُ عليها في حوائِجِهم، جمعُ سَابِلٍ. يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ٢٦٣)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٩/ ١٦١، ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٢).

وأيضًا فإنَّه إذا كان صاحبَهم فإنَّ مقتضَى الصُّحبةِ أنْ يُصَدِّقُوه ويَنصروه؛ لا أنْ يكونوا أعداءً له[١].

- وهذا ردٌّ مِن اللهِ تعالَى على المشرِكينَ، وإبطالٌ لقولِهم في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّهم قالوا: مَجنونٌ، وقالوا: ساحِرٌ، وقالوا: شاعِرٌ، وقالوا في القُرآنِ: إنْ هذا إلَّا اختِلاقٌ، فالجنونُ مِن الضَّلالِ؛ لأنَّ المَجنونَ لا يَهْتدي إلى وَسائلِ الصَّوابِ، والكذِبُ والسِّحرُ ضَلالٌ وغَوايةٌ، والشِّعرُ المُتعارَفُ بيْنَهم غَوايةٌ[٢].

- وقدْ ذُكِرَتِ الضَّلالةُ والغَوايةُ وهما غيرُ مُتَّحِدَتَينِ في المعْنى؛ إذ الضَّلالةُ ضِدُّ الهُدى، والغَوايةُ ضِدُّ الرُّشْدِ، أو المعْنى: ما ضلَّ في قولِه، ولا غَوَى في فِعلِه. وبتَقديرِ اتِّحادِهما يكونُ ذلك مِن بابِ التَّأكيدِ باللَّفظِ المُخالِفِ مع اتِّحادِ المعْنى[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ عطْفٌ على جَوابِ القَسَمِ، وهذا وصْفُ كَمالٍ لِذاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: وما يَصدُرُ نُطقُه بالقُرآنِ -على قول- عن هَواهُ ورأْيِه أصلًا؛ فإنَّ المرادَ استِمرارُ نفْيِ النُّطقِ عن الهوَى، لا نفْيُ استِمرارِ النُّطقِ عنه[٤].

- و(ما) نافيةٌ، نَفَتْ أنْ يَنطِقَ عن الهَوى، ونفْيُ النُّطقِ عن هوًى يَقْتضي نفْيَ جِنسِ ما يَنطِقُ به عن الاتِّصافِ بالصُّدورِ عن هوًى، سواءٌ كان القرآنَ أو غيرَه مِن الإرشادِ النَّبويِّ بالتَّعليمِ والخَطابةِ، والمَوعظةِ والحِكمةِ، ولكنَّ القُرآنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٢، ٩٣).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٣).

هو المَقصودُ؛ لأنَّه سَببُ هذا الرَّدِّ عليهم[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾

- قولُه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لجُملةِ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[٢] [النَّجْم: ٣].

- وضَميرُ ﴿هُوَ﴾ عائدٌ إلى المَنطوقِ به، المأخوذِ مِن فِعلِ ﴿يَنطِقُ﴾. ويَجوزُ أنْ يَعودَ الضَّميرُ إلى مَعلومٍ مِن سِياقِ الرَّدِّ عليهم؛ لأنَّهم زَعَموا في أقوالِهم المَردودةِ بقَولِه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النَّجْم: ٢]؛ زَعَموا القُرآنَ سِحرًا، أو شِعرًا، أو كِهانةً، أو أساطيرَ الأوَّلينَ، أو إفْكًا افتراهُ[٣]!

- وجُملةُ ﴿يُوحَىٰ﴾ مُؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، مع دَلالةِ المُضارِعِ على أنَّ ما يَنطِقُ به مُتجدِّدٌ وحْيُه غيرُ مُنقطِعٍ[٤].

- ومُتعلَّقُ ﴿يُوحَىٰ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: إليه، أي: إلى صاحِبِكم[٥].

- وتُرِكَ فاعلُ ﴿يُوحَىٰ﴾ لضرْبٍ مِن الإجمالِ الَّذي يَعقُبُه التَّفصيلُ؛ لأنَّه سيَرِدُ بعْدَه ما يُبيِّنُه مِن قولِه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[٦] [النَّجْم: ١٠].

- وجُملةُ ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ...﴾ إلخ، مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لبَيانِ كَيفيَّةِ الوحْيِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وضَميرُ الغائبِ في ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ عائدٌ إلى الوَحْيِ، أو إلى ما عادَ إليه ضَميرُ ﴿هُوَ﴾ مِن قولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ﴾، وضَميرُ (هو) يَعودُ إلى القُرآنِ، وهو ضَميرٌ في مَحلِّ أحَدِ مَفعولَيْ (علَّم)، وهو المَفعولُ الأوَّلُ، والمفعولُ الثَّاني مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: علَّمَه إيَّاهُ، يَعودُ إلى ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ [النَّجم: ٢]. ويَجوزُ جَعْلُ هاءِ ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ عائدًا إلى ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، والمَحذوفُ عائدٌ إلى ﴿وَحْيٌ﴾؛ إبطالًا لقولِ المُشرِكين: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[1] [النحل: ١٠٣].

- و﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ صِفةٌ لمَحذوفٍ يدُلُّ عليه ما يُذكَرُ بعْدُ ممَّا هو مِن شُؤونِ الملائِكةِ، أي: مَلَكٌ شَديدُ القُوى[2].

- والمِرَّةُ: تُطلَقُ على قوَّةِ الذَّاتِ، وتُطلَقُ على مَتانةِ العقْلِ وأصالتِه. وتَخصيصُ جِبريلَ بهذا الوَصْفِ يُشعِرُ بأنَّه الملَكُ الَّذي يَنزِلُ بفُيوضاتِ الحِكمةِ على الرُّسلِ والأنبياءِ[3].

- وقوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ مُفرَّعٌ على ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ بطَريقِ التَّفسيرِ، والفاءُ لتَفصيلِ ﴿عَلَّمَهُۥ﴾؛ فإنَّه إلى قولِه تعالى: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ بيانٌ لكيفيَّةِ التعليمِ، أي: فاستقامَ على صُورتِه الَّتي خلَقَه اللهُ تعالَى عليها دونَ الصُّورةِ الَّتي كانَ يَتمثَّلُ بها كلَّما هبَطَ بالوحْيِ. وقيلَ: استوَى بقُوَّتِه على ما جُعلَ له مِن الأمرِ[4].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وصْفُ الأُفقِ بالأعْلى يُفيدُ أنَّه ناحيةٌ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥، ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٦).

جَوِّ السَّماءِ؛ وذُكِرَ هذا ليُرتَّبَ عليه قولُه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾

- (ثُمَّ) عاطفةٌ على جُملةِ ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النَّجْم: ٦]، والتَّراخي الَّذي تُفيدُه (ثُمَّ) تراخٍ رُتبيٌّ؛ لأنَّ الدُّنوَّ إلى حيثُ يَبلُغُ الوحيُ هو الأهمُّ في هذا المقام، والدُّنوُّ: القُربُ، وإذ قدْ كان فِعلُ الدُّنوِّ قدْ عُطِفَ بحَرْفِ (ثُمَّ) على ﴿فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ عُلِمَ أنَّه دنَا إلى العالَم الأرضيِّ، أي: أخَذَ في الدُّنوِّ بعدَ أنْ تلقَّى ما يُبلِّغُه إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- و(تَدلَّى): انخفَضَ مِن عُلُوٍّ قَليلًا، أي: ينزِلُ مِن طَبقاتٍ إلى ما تحتَها كما يَتدَلَّى الشَّيءُ المُعلَّقُ في الهواءِ، بحيثُ لو رآهُ الرَّائي يَحسَبُه مُتدلِّيًا وهو ينزِلُ مِن السَّماءِ غيرَ مُنقَضٍّ[٣].

- قولُه: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ، والتَّقديرُ: فكان مِقدارُ مَسافةِ قُربِه مِثلَ قابِ قَوسَيْنِ، فحُذِفَت هذه المُضافاتُ[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ قيل: هو كِنايةٌ عن المُعاهَدةِ على لُزومِ الطَّاعةِ؛ لأنَّ الحَليفَينِ في عُرْفِ العربِ إذا تَحالَفا على الوفاءِ والصَّفاءِ، أَلْصَقا وتَرَيْ قَوسَيْهما[٥].

- وحرْفُ (أوْ) في قولِه: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ للتَّخييرِ في التَّقديرِ، وهو مُستعمَلٌ في التَّقريبِ، أي: إنْ أراد أحدٌ تَقريبَ هذه المسافةِ، فهو مُخيَّرٌ بيْنَ أنْ يَجعَلَها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٤٢٠).

قابَ قوسَينِ أو أدْنى، أي: لا أزيَدَ؛ إشارةً إلى أنَّ التَّقديرَ لا مُبالَغةَ فيه[١].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾

- تفرَّعَ قولُه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ على قولِه: ﴿فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ المُفرَّعِ على المُفرَّعِ على قَولِه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، وهذا التَّفريعُ هو المَقصودُ مِن البَيانِ، وما قبْلَه تَمهيدٌ له، وتَمثيلٌ لأحوالٍ عَجيبةٍ بأقرَبِ ما يَفهَمُه النَّاسُ؛ لقصْدِ بَيانِ إمكانِ تَلقِّي الوحْيِ عن اللهِ تعالى؛ إذ كان المشرِكون يُحيلونه[٢].

- وضَميرُ ﴿أَوْحَىٰ﴾ عائدٌ إلى اللهِ تعالى المَعلومِ مِن قولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النَّجْم: ٤]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ، والمعْنى: فأَوحَى اللهُ إلى عَبْدِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا كافٍ في هذا المَقامِ؛ لأنَّ المَقصودَ إثباتُ الإيحاءِ لإبطالِ إنكارِهم إيَّاهُ[٣].

- وقيل: قولُه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾، أي: جِبريلُ عليهِ السَّلامُ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ عبْدِ الله تعالَى، وإضمارُه قبْلَ الذِّكرِ لغايةِ ظُهورِه، وإنْ لم يَجْرِ لاسْمِه عزَّ وجل ذِكرٌ؛ لأنَّه لا يُلْبِسُ[٤].

- وإيثارُ التَّعبيرِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعُنوانِ ﴿عَبْدِهِۦ﴾ إظْهارٌ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨).
ويُنظر ما تقدم في حاشية تفسير الآية (ص: ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٦).

مَقامِ الإضمارِ؛ لِمَا في اختِصاصِ الإضافةِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ مِن التَّشريفِ[١].

- في قولِه: ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾ إبهامٌ؛ لتَفخيمِ الوحْيِ الَّذي أُوحِيَ إليه وتعظيمِه، كأنَّه أعظَمُ مِن أنْ يُحيطَ به بَيانٌ، فأبْهَمَ الأمْرَ الَّذي أوحاهُ إلى عبْدِه وجعَلَه عامًّا، وذلك أبلَغُ؛ لأنَّ السَّامعَ يَذهَبُ وهمُه فيه كلَّ مَذهبٍ[٢].

٨- قولُه تعالَى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ اللَّامُ في قولِه: ﴿ٱلۡفُؤَادُ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: فُؤادُه؛ وعليه فيكونُ تَفريعُ الاستِفهامِ في قولِه: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ استفهامًا إنكاريًّا؛ لأنَّهم مارَوْه. ويَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ تأْكيدًا لمَضمونِ قَولِه: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ [النَّجْم: ٩]؛ فإنَّه يُؤذِنُ بأنَّه بمَرأًى مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لرفْعِ احتمالِ المجازِ في تَشبيهِ القُرْبِ، أي: هو قُرْبٌ حِسِّيٌّ، وليس مُجرَّدَ اتِّصالٍ رُوحانيٍّ[٣].

٩- قولُه تعالَى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾

- قولُه: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ مِن المُماراةِ، وهي المُلاحاةُ والمُجادَلةُ في الباطلِ، وتَعديةُ الفِعلِ فيهما بحرْفِ الاستِعلاءِ (علَى)؛ لتَضمُّنِه معْنى الغَلَبةِ، أي: هَبْكُم غالَبْتُموه على عِبادتِكم الآلهةَ، وعلى الإعراضِ عن سَماعِ القرآنِ، ونحْوِ ذلك؛ أتَغْلِبونه على ما رَأى ببصَرِه[٤]؟!

- وفي قولِه: ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ عبَّر عن الماضِي بالمضارِعِ ﴿يَرَىٰ﴾؛ إشارةً إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨، ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٩، ١٠٠).

استِحضارِ هذا الشَّيءِ، وأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ أخْبَرَ به كأنَّما يَراهُ الآنَ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا حدَّثَ عن ماضٍ فرُبَّما يقولُ قائلٌ: لعلَّه نسِيَ فأخطأَ، ولكنْ إذا عبَّرَ بالمضارِعِ صارَ كأنَّه يَتحدَّثُ عن شَيءٍ هو يُشاهِدُه[١]. وقيل: فيه إشارةٌ إلى ما يمكِنُ حدوثُه بعدُ[٢].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، أي: إنْ كُنتُم تَجحَدون رُؤيتَه جِبريلَ في الأرضِ، فلقدْ رآهُ رُؤيةً أعظَمَ منها؛ إذ رآهُ في العالَمِ العُلويِّ مُصاحِبًا، فهذا مِن التَّرقِّي في بَيانِ مَراتبِ الوحْيِ، والعطفُ عطْفُ قِصَّةٍ على قِصَّةٍ، ابتُدِئَ بالأضْعَفِ، وعُقِّبَ بالأقْوى؛ فتأْكيدُ الكلامِ بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ مِن أجْلِ ما في هذا الخبَرِ مِن الغَرابةِ، مِن حيثُ هو قدْ رأَى جِبريلَ، ومِن حيثُ إنَّه عرَجَ به إلى السَّماءِ، ومِن الأهمِّيَّةِ مِن حيثُ هو دالٌّ على عَظيمِ مَنزلةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فضَميرُ الرَّفْعِ في ﴿رَءَاهُ﴾ عائدٌ إلى ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ [النَّجْم: ٢]، وضَميرُ النَّصبِ عائدٌ إلى جِبريلَ، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ الرُّؤيةَ في هذه المرَّةِ كانت أيضًا بنُزولٍ ودُنُوٍّ[٣].

- وانتِصابُ ﴿نَزْلَةً﴾ على نزْعِ الخافضِ، أو على النِّيابةِ عن ظرْفِ المكانِ، أو على حذْفِ مُضافٍ بتَقديرِ: وقْتَ نَزلةٍ أُخرى، فتَكونُ نائبًا عن ظرْفِ الزَّمانِ[٤].

- وقوله: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿رَءَاهُ﴾، وخُصَّت بالذِّكرِ رُؤيتُه عندَ سِدرةِ المُنتَهى؛ لعَظيمِ شرَفِ المكانِ بما حصَلَ عِندَه مِن آياتِ ربِّه الكُبْرى،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٩، ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ولأنَّها مُنتهَى العُروجِ في مَراتبِ الكَرامةِ[١].

- وإضافةُ ﴿سِدْرَةِ﴾ إلى ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ إضافةً بَيانيَّةً. ويَجوزُ كونُها لتَعريفِ السِّدرةِ بمَكانٍ يُنْتهَى إليه لا يَتجاوَزُه أحدٌ؛ لأنَّ ما وراءَهُ لا تُطيقُه المخلوقاتُ. أو إضافةُ المِلْكِ إلى المالِكِ على حذْفِ الجارِّ والمَجرورِ، أي: سِدرةُ المُنْتَهى إليهِ هو اللهُ عزَّ وجلَّ[٢].

١١- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ ظرْفٌ مُستقَرٌّ[٣] في مَوضعِ الحالِ مِن ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، أُريدَ به التَّنويهُ بما حفَّ بهذا المكانِ المُسمَّى سِدرةَ المُنْتهى مِن الجَلالِ والجَمالِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ إبهامٌ للتَّفخيمِ الإجماليِّ، وتَعظيمٌ وتَكثيرٌ لِمَا يَغْشاها، وأنَّه تَضيقُ عنه عِباراتُ الوصْفِ في اللُّغةِ؛ فقد عُلِمَ بهذه العِبارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

ويُنظر ما تقدم في حاشية تفسير هذه الآية (ص: ٤٠٥).

(٣) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبَرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّيَ ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لَغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولُك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زَيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِفَ الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زَيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

أنَّ ما يَغشاها مِن الخلائقِ الدَّالَّةِ على عَظَمةِ اللهِ وجَلالِهِ أشياءُ لا يَكتَنِهُها النَّعتُ، ولا يُحيطُ بها الوصفُ[١].

- وتأْخيرُ ﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾ عن المَفعولِ؛ للتَّشويقِ إليهِ[٢].

- وصِيغةُ المُضارعِ ﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾ لحِكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ استِحضارًا لصُورتِها البَديعةِ، وللإيذانِ باستِمرارِ الغَشَيانِ بطَريقِ التَّجدُّدِ[٣].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾

- جُملةُ ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ مُعترِضةٌ، وهي في معْنى جُملةِ ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ إلى آخِرِها، أي: رأى جِبريلَ رُؤيةً لا خطَأَ فيها، ولا زِيادةَ على ما وُصِفَ، أي: لا مُبالَغةَ[٤].

١٣- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ تَذْييلٌ، أي: رأى آياتٍ غيْرَ سِدرةِ المُنْتهَى، وجنَّةِ المأْوَى، وما غشِيَ السِّدرةَ مِن البَهجةِ والجَلالِ؛ رأى مِن آياتِ اللهِ الكُبْرى[٥].

- وفيه إيجازٌ بالحذْفِ، أي: واللهِ لقدْ رأَى ...[٦].

- قولُه: ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ صِفةُ ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾، والمَرئيُّ مَحذوفٌ؛ لتَفخيمِ الأمْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٠٢).

ويُنظر ما تقدم في حاشية تفسير الآية (ص: ٤٠٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢١).

وتَعظيمِه، كأنَّه قال: لقدْ رَأى مِن آياتِ ربِّه الكُبْرى أُمورًا عِظامًا لا يُحِيطُ بها الوصْفُ، والحذْفُ في مِثلِ هذا أبلَغُ وأهولُ؛ لأنَّ فيه تَفخيمًا لآياتِ اللهِ الكُبرى، وأنَّ فيها ما رآهُ، وفيها ما لمْ يَرَهُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٤٢١)، ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٥/ ٩١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٩ / ٣٥٠).

الآيات (١٩-٢٥)

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ﴾: أصنامٌ مِن حِجارةٍ كانوا يَعبُدونَها، قيل: اشتَقُّوا اللَّاتَ مِنَ اللهِ، والعُزَّى مِنَ العَزيزِ، ومَناةَ مِن المنَّانِ. وقيل: اللَّاتُ: كان رجُلًا يَلُتُّ السَّويقَ ويُطعِمُه الحاجَّ، فلمَّا ماتَ عَكَفُوا على قَبرِه يَعبُدونَه، والعُزَّى: تأنيثُ الأعزِّ، ومَناةُ: قيل: سُمِّيَتْ بذلك؛ لأنَّ دماءَ النَّسائِكِ تُمْنَى عندَها، أي: تُراقُ[(١)].

﴿ضِيزَىٰٓ﴾: أي: جائِرةٌ ناقِصةٌ عَوْجاءُ، وأصلُ (ضيز): يدُلُّ على اعوِجاجٍ[(٢)].

﴿تَمَنَّىٰ﴾: أي: اشتَهى وأمَّلَ، والتَّمَنِّي: تَشَهِّي حُصولِ الأمرِ المَرغوبِ فيه، وأصلُ (مني): يدُلُّ على تَقديرِ شَيءٍ ومنه التَّمَنِّي: لأنَّه أملٌ يُقدِّرُه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٩/ ٥٦٢).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى عمَّا عليه المشركونَ مِن جهلٍ وسَفَهٍ، ويُبيِّنُ بُطلانَ عبادتِهم للأصنامِ، فيقولُ: أفرأيتُم -أيُّها المُشرِكونَ- اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ الثَّالِثةَ الأُخرَى؛ تلك الأصنامَ الَّتي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ، وتَزعُمونَ أنَّها بَناتٌ للهِ تعالى: أتَختارون الذُّكْرانَ لأنفُسِكم، وتَنسُبونَ للهِ تعالى الإناثَ اللَّاتي تَكرَهونَهنَّ ولا تَرضَونَ بهنَّ بناتٍ لكم؟! قِسْمتُكم تلك -أيُّها المُشرِكونَ- قِسْمةٌ جائِرةٌ ظالِمةٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى منكِرًا عليهم ما ابتَدَعوه مِن الافتراءِ والكفرِ، مِن عبادةِ الأصنامِ وتسميتِها آلهةً: ما هذه الأسماءُ الَّتي سَمَّيتُم بها أصنامَكم إلَّا أسماءٌ لا حَقيقةَ لها، اختَرَعْتُموها أنتم وآباؤُكم وزَعمتُم أنَّها آلِهةٌ، وما أنزَل اللهُ تعالى بها مِن حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ!

ما يتَّبِعُ المُشرِكونَ في عِبادتِهم تلك الأصنامَ إلَّا الظَّنَّ وما تَميلُ إليه أنفُسُهم مِنَ الباطِلِ، ولقد جاء أولئك المُشرِكينَ الهُدَى مِن رَبِّهم.

ثمَّ ينكِرُ تعالى على مَن زعَم أنَّه يحصُلُ له ما تمنَّى، ويُبيِّنُ أنَّه ليس للإنسانِ ما يَتمنَّاه ويَشتهيه؛ فالأمرُ كلُّه للهِ، فيقولُ: أمْ للإنسانِ ما يَتمنَّاه مِنَ الخَيرِ؟! فلِلَّهِ وَحْدَه الآخِرةُ والدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى ما جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الهُدَى ودِينِ الحَقِّ، والأمرِ بعبادةِ اللهِ وتوحيدِه؛ ذَكَرَ بُطلانَ ما عليه المُشرِكونَ مِن عبادةٍ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

وأيضًا لَمَّا قرَّرَ الرِّسالةَ أوَّلًا، وأتْبَعَه مِن ذِكرِ عَظَمةِ اللهِ وقُدرتِه الباهرةِ بذِكرِ التَّوحيدِ، والمنْعِ عن الإشراكِ باللهِ تعالى؛ وقَّفَهم على حَقارةِ مَعبوداتِهم، وهي الأوثانُ، وأنَّها ليستْ لها قُدرةٌ(١).

وأيضًا لَمَّا قرَّر الرِّسالةَ؛ ذَكَر ما ينبغي أن يَبتدِئَ به الرَّسولُ، وهو التَّوحيدُ، ومَنعُ الخَلقِ عن الإشراكِ، فقال(٢):

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: أفرأيتُم -أيُّها المُشرِكونَ- اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ الثَّالِثةَ الأُخرى، الَّتي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ، وتَزعُمونَ أنَّها بَناتٌ للهِ تعالى(٣)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٥).
قال الشوكاني: (﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ أي: أَخبِرُوني عن الآلِهةِ الَّتي تَعبُدونَها مِن دُونِ اللهِ: هل لها قُدرةٌ تُوصَفُ بها؟ وهل أَوحَت إليكم شَيئًا كما أَوحى اللهُ إلى محمَّدٍ؟ أمْ هي جماداتٌ لا تَعقِلُ ولا تَنفَعُ؟). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٢).
وقال ابنُ كثير: (كانت اللَّاتُ صَخرةً بَيضاءَ مَنقوشةً، وعليها بيتٌ بالطَّائِفِ له أستارٌ وسَدَنةٌ، وحَولَه فِناءٌ مُعظَّمٌ عندَ أهلِ الطَّائِفِ، وهم ثَقيفٌ ومَن تابَعَها، يفتَخِرون بها على مَن عداهم مِن أحياءِ العرَبِ بعدَ قُرَيشٍ. قال ابنُ جرير: وكانوا قد اشتَقُّوا اسمَها مِن اسمِ اللهِ تعالى، فقالوا: اللَّاتَ، يَعْنونَ مُؤنَّثةً منه -تعالى اللهُ عن قَولِهم عُلُوًّا كَبيرًا-! وحُكِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ ومجاهدٍ والرَّبيعِ بنِ أنسٍ: أنَّهم قَرَؤُوا ﴿اللَّاتَّ﴾ بتشديدِ التَّاءِ، وفَسَّروه بأنَّه كان رجُلًا يَلُتُّ للحَجيجِ في الجاهِليَةِ السَّويقَ، فلمَّا مات عكَفوا على قَبرِه فعَبَدوه... قال ابنُ جرير: وكذا العُزَّى مِنَ العَزيزِ، وكانت شَجَرةً عليها بناءٌ وأستارٌ بنَخلةَ -وهي بيْنَ مكَّةَ والطَّائِفِ- كانت قُرَيشٌ يُعَظِّمونَها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٥). ويُنظر: ((كتاب الأصنام)) لهشام الكلبي (ص: ١٦، ١٧، ٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٩). =

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

أي: أتختارونَ لأنفُسِكم -أيُّها المُشرِكونَ- صِنفَ الذُّكورِ مِنَ الأولادِ، فتُفَضِّلونَهم على الإناثِ، وتَنسُبونَ للهِ تعالى الإناثَ اللَّاتي تَكرهونَهنَّ ولا تَرضَونَ بهنَّ بناتٍ لكم؛ إذ زَعمتُم أنَّ تلك الأصنامَ بناتٌ للهِ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۞ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٧ - ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَٰتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۞ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۞ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۞ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۞ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦].

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: قِسْمتُكم تلك -أيُّها المُشرِكونَ- قِسْمةٌ جائِرةٌ ظالِمةٌ مائِلةٌ عن الحَقِّ

= وقال ابنُ كثير أيضًا: (وأمَّا مَناةُ فكانت بالمُشَلَّلِ -عندَ قُدَيدٍ بيْنَ مكَّةَ والمَدينةِ- وكانت خُزاعةُ والأَوسُ والخَزْرجُ في جاهليَّتِها يُعظِّمونَها، ويُهِلُّونَ منها للحَجِّ إلى الكعبةِ... وقد كانت بجزيرةِ العرَبِ وغَيرِها طواغيتُ أُخَرُ تُعظِّمُها العرَبُ كتعظيمِ الكعبةِ غيرُ هذه الثَّلاثةِ الَّتي نَصَّ عليها في كتابِه العزيزِ، وإنَّما أفرَد هذه بالذِّكرِ؛ لأنَّها أشهَرُ مِن غَيرِها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٦).

ويُنظر: ((كتاب الأصنام)) لهشام الكلبي (ص: ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

وقال السعدي: (سَمَّوُا «اللَّاتَ» مِنَ «الإلهِ» المُستَحِقِّ للعبادةِ! و«العُزَّى» مِنَ «العزيزِ»، و «مَناةَ» مِنَ «المنَّانِ»؛ إلحادًا في أسماءِ اللهِ تعالى، وتجَرِّيًا على الشِّركِ به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٦).

والصَّوابِ[١]!

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾.

أي: ما هذه الأسماءُ الَّتي سَمَّيتُم بها أصنامَكم -اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ- إلَّا أسماءٌ لا معانيَ تَحتَها، ولا حَقيقةَ لها، وإنَّما اختَرَعْتُموها أنتم وآباؤُكم، وزَعمتُم أنَّها آلِهةٌ، وادَّعيتُم أنَّها بناتُ اللهِ[٢]!

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

أي: ما أنزل اللهُ بذلك مِن حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ يدُلُّ على ما زَعمتُم وادَّعيتُم بشَأنِها[٣]!

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٤ - ١٥٧].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾.

أي: ما يتَّبِعُ المُشرِكونَ إلَّا الوَهمَ وما تَميلُ إليه أنفُسُهم مِنَ الباطِلِ، بلا عِلمٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٦، ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨).

ويقينٍ، ولا حُجَّةٍ وبُرهانٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠ - ٢٢].

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

أي: ولقد جاء أولئك المُشرِكينَ الهُدى مِن رَبِّهم؛ إذ أنزَلَ عليهم القُرآنَ وفيه الأمرُ بعِبادةِ اللهِ وَحْدَه، وبيانُ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ(٢).

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٧).

قال ابنُ عطية: (الظَّنُّ: مَيلُ النَّفْسِ إلى أحدِ مُعتقَدَينِ مُتخالِفَينِ دونَ أن يكونَ مَيلُها بحُجَّةٍ ولا بُرهانٍ. وهوى الأنفُسِ: هو إرادتُها المَلذَّةَ لها، وإنَّما تَجِدُ هَوى النَّفْسِ أبدًا في تَركِ الأفضَلِ؛ لأنَّها مَجبولةٌ بطَبعِها على حُبِّ المَلاذِّ، وإنَّما يَردَعُها ويَسوقُها إلى حُسنِ العاقِبةِ: العَقلُ والشَّرعُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٢).

وقال الرَّسْعَني: (﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ في عبادتِها واعتقادِ إلاهيَّتها ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: الوَهْمَ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٨٣).

وقال ابن جُزَي: (﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ يعني: أنَّهم يقولون أقوالًا بغيرِ حُجَّةٍ؛ كقولِهم: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله، وقولِهم: إنَّ الأصنامَ تَشفَعُ لهم، وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٨).

وقال الشوكاني: (﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: ما يَتَّبِعونَ فيما ذُكِرَ مِن التَّسميةِ والعملِ بموجَبِها إلَّا الظَّنَّ الَّذي لا يُغْني مِن الحقِّ شيئًا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠).

أي: أم للإنسانِ ما يَتمنَّاه ويَشتَهيه مِنَ الخَيرِ[(١)]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٨).

قال القرطبي: (﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ أي: اشتهى، أي: ليس ذلك له. وقيل: ﴿لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ مِنَ البَنينَ، أي: يكونُ له دونَ البناتِ. وقيل: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ مِن غيرِ جَزاءٍ، ليس الأمرُ كذلك. وقيل: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ مِن النُّبُوَّةِ أن تكونَ فيه دونَ غَيرِه. وقيل: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ مِن شَفاعةِ الأصنامِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ في الآيةِ: محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والمعنى: أم اشتهى محمَّدٌ النُّبُوَّةَ، فأعطاه اللهُ إيَّاها؟ ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ مُعَقِّبًا على هذا القَولِ: (هذا لا تَقتَضيه الآياتُ، وإن كان اللَّفظُ يَعُمُّه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٢).

وقيل: المعنى: أمْ للكافِرِ ما تمنَّى مِن شَفاعةِ الأصنامِ، وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٢).

وذهب مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ إلى أنَّ المرادَ: ما تمنَّى مِن أنَّ الملائكةَ تَشفَعُ لهم. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٢).

وممَّن اختار العُمومَ -أي: ليس لأحدٍ ما يتمنَّى ويَشتهي، إنَّما الأمرُ كلُّه لله-: ابنُ عطية، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠).

قال ابنُ جُزَي: (﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ «أم» هنا للإنكارِ، والإنسانُ هنا جِنسُ بني آدَمَ، أي: ليس لأحَدٍ ما يَتمَنَّى، بل الأمرُ بيَدِ اللهِ. وقيل: إنَّ الإشارةَ إلى ما طَمِعَ فيه الكُفَّارُ مِن شَفاعةِ الأصنامِ. وقيل: إلى قَولِ العاصي بنِ وائِلٍ: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [مريم: ٧٧]. وقيل: هو تمَنِّي بَعضِهم أن يكونَ نَبيًّا. والأحسَنُ حَملُ اللَّفظِ على إطلاقِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٨).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فلِلَّهِ وَحْدَه مُلكُ الآخِرةِ والدُّنيا، وله وَحْدَه مُطلَقُ التَّصَرُّفِ فيهما؛ فيُعطي مَن يَشاءُ ما شاء، ويَمنَعُ مَن يشاءُ ما شاء؛ فالأمرُ كما يُريدُ الرَّحمنُ، لا كما يَتمنَّى الإنسانُ(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- الظَّنُّ الَّذي لا يُعلَمُ رُجحانُه لا يجوزُ اتِّباعُه، وذلك هو الَّذي ذَمَّ اللهُ به مَن قال فيه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، فهم لا يَتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ، ليس عندَهم عِلْمٌ، ولو كانوا عالِمينَ بأنَّه ظَنٌّ راجِحٌ لَكانوا قدِ اتَّبَعوا عِلمًا، ولم يَكونوا ممَّن لا يَتَّبِعُ إلَّا الظَّنَّ(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١، ١١٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٢٠).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ذَمُّ مَن أجاب داعيَ الجَهلِ والظُّلمِ[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أنَّ الشُّبهةَ والشَّهوةَ هما الأصلان اللَّذان ذَمَّ اللهُ مَن يَتَّبِعُهما، ويُحكِّمُهما على الوَحيِ الَّذي بَعَثَ اللهُ به أنبياءَه ورُسُلَه؛ فـ «الظَّنُّ»: الشُّبهةُ، و «ما تَهْوى الأنفُسُ»: الشَّهوةُ، والهُدى الَّذي جاءنا مِن ربِّنا مخالِفٌ لهذا وهذا[(٢)].

٤- قال الله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ اعلَمْ أنَّ الأُمنيَّةَ مَذمومةٌ، والإرادةَ مَحمودةٌ، والفَرقُ بيْنَهما أنَّ الأُمنيَّةَ شَهوةٌ لا يُصَدِّقُها العَمَلُ، والإرادةَ هي ما يُصَدِّقُه العَمَلُ[(٣)].

٥- قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ والمقصودُ إبطالُ نوالِ الإنسانِ ما يَتَمَنَّاه، وأنْ يَجعلَ ما يَتَمَنَّاه باعثًا عن أعمالِه ومُعْتَقَداتِه، بل عليه أنْ يَتطلَّبَ الحقَّ مِن دلائِلِه وعلاماتِه وإنْ خالَف ما يَتَمنَّاه، وهذا تأْديبٌ وتَرويضٌ للنُّفوسِ على تَحمُّلِ ما يُخالِفُ أهواءَها إذا كان الحقُّ مُخالِفًا للهَوى، وليَحمِلَ نفْسَه عليه

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٩٦).

قال ابن القيِّم: (وممَّا يَنبغي أنْ يُعلَمَ أنَّ مَن رجَا شيئًا استلزَم رجاؤُه ثلاثةَ أمورٍ؛ أحدُها: محبَّةُ ما يَرجوه. الثَّاني: خَوفُه مِن فَواتِه. الثَّالثُ: سعيُه في تحصيلِه بحسَبِ الإمكانِ. وأمَّا رجاءٌ لا يُقارِنُه شيءٌ مِن ذلك فهو مِن بابِ الأمانيِّ، والرَّجاءُ شَيءٌ والأمانيُّ شيءٌ آخَرُ). ((الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)) (ص: ٣٩).

وقال أيضًا: (والفرقُ بيْنَ الرَّجاءِ والتَّمَنِّي أنَّ الرَّجاءَ يكونُ معَ بذْلِ الجهدِ واستِفراغِ الطَّاقةِ في الإتيانِ بأسبابِ الظَّفَرِ والفَوزِ، والتَّمَنِّيَ حَديثُ النَّفْسِ بحُصولِ ذلك معَ تَعطيلِ الأسبابِ الموصلةِ إليه). ((الروح)) (ص: ٢٤٥).

حتَّى تَتخلَّقَ به[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الأُنثى ناقِصةٌ بمُقتضى الخِلْقةِ والطَّبيعةِ، وأنَّ الذَّكَرَ أفضَلُ وأكمَلُ منها[٢]، فالذُّكورةُ قوَّةٌ وكمالٌ، والأنوثةُ ضَعفٌ خِلْقيٌّ جِبلِّيٌّ، ونقصٌ خلْقيٌّ جبَلَ اللهُ هذا النَّوعَ مِن الإنسانِ عليه، وهو أمرٌ مُشاهَدٌ لا يُنكِرُه العقلاءُ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ دَلالةٌ على بُطلانِ قِصَّةِ الغَرانيقِ[٤]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قرأَ بعْدَ ذلك هذه الآيةَ، فلو فرَضْنا أنَّه قال: «تلك الغَرانيقُ العُلَا»، ثمَّ أبطلَ ذلك بقَولِه: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، فكيف يَفرَحُ المُشرِكونَ بعدَ هذا الإبطالِ والذَّمِّ التَّامِّ لأصنامِهم بأنَّها أسماءٌ بلا مُسَمَّياتٍ[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٢١) و (٤/ ٣٩٦).

(٤) يُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الحج، الآية (٥٢).

(٥) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٦٢).

أمَّا قِصَّةُ الغَرانيقِ فقد رُويت في سببِ نُزولِ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ...﴾ [الحج: ٥٢]، وحاصلُها: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قرأَ بمكَّةَ: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، فلمَّا بَلَغَ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] أَلْقى الشَّيطانُ على لسانِه: تلك الغَرانيقُ العُلى، وإنَّ شَفاعتَهُنَّ لتُرتَجى! فقال المشركون: ما ذَكَرَ آلهتَنا بخَيرٍ قبْلَ اليَومِ، فسَجَد وسَجَدوا؛ فنزلتْ هذه الآيةُ.

قال الشَّوكانيُّ: (لمْ يَصِحَّ شَيءٌ مِن هذا، ولا ثَبَتَ بوجْهٍ مِنَ الوُجوهِ، ومع عدَمِ صِحَّتِه -بل بُطلانِه- فقد دفَعَه المُحقِّقون بكِتابِ اللهِ سُبحانَه؛ قال اللهُ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]، وقولُه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]، =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أنَّ هذه الآلهةَ وإن سُمِّيَت آلِهةً فما هي إلَّا أسماءٌ لا حَقيقةَ لها؛ فهي باطِلةٌ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ المعنى: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يُنزِلْ بها دَليلًا، وسُمِّيَ الدَّليلُ سُلطانًا؛ لأنَّ صاحِبَ الدَّليلِ معه سُلطةٌ يَعلُو بها على خَصْمِه، ومَن ليس له دليلٌ ليس له سُلطانٌ؛ فالسُّلطانُ يأتي بمعنى الحُجَّةِ -أي: الدَّليلِ-؛ لأنَّ مَن معه الدَّليلُ ذو سُلطةٍ على خَصْمِه[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ لَمَّا كان الظَّنُّ قد يكونُ مُوافِقًا للحَقِّ مُخالِفًا للهَوى، قال: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أنَّ أكثرَ ما يَحمِلُ

= وقولُه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٧٤]، فنَفى المقارَبةَ للرُّكونِ، فضْلًا عن الرُّكونِ. قال البَزَّارُ: هذا حديثٌ لا نَعْلَمُه يُروى عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإسنادٍ مُتَّصِلٍ. وقال البَيهقيُّ: هذه القصَّةُ غيرُ ثابتةٍ مِن جهةِ النَّقلِ. ثمَّ أَخَذ يَتكلَّمُ أنَّ رُواةَ هذه القصَّةِ مَطعونٌ فيهم. وقال إمامُ الأئمَّةِ ابنُ خُزَيْمةَ: إنَّ هذه القصَّةَ مِن وضْعِ الزَّنادقةِ. قال القاضي عِياضٌ في الشِّفا: إنَّ الأُمَّةَ أجمَعَتْ فيما طريقُه البَلاغُ أنَّه معصومٌ فيه مِنَ الإخبارِ عن شَيءٍ بخِلافِ ما هو عليه، لا قصْدًا ولا عَمْدًا ولا سَهْوًا ولا غلَطًا. قال ابنُ كثيرٍ: قد ذَكَر كثيرٌ مِنَ المُفسِّرين هاهنا قصَّةَ الغَرانيقِ، وما كان مِن رُجوعِ كثيرٍ مِنَ المُهاجِرينَ إلى أرضِ الحبشةِ ظَنًّا منهم أنَّ مُشْركي قُرَيشٍ قد أَسلَموا، ولكنَّها مِن طُرُقٍ كلُّها مُرسَلةٌ، ولمْ أَرَها مُسنَدةً مِن وجْهٍ صحيحٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٦). ويُنظر: ((مسند البزار)) (١١/ ٢٩٦)، ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى)) للقاضي عياض (٢/ ١٢٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤١)، ((نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق)) للألباني.

ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الحج الآية (٥٢).

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٣/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦١).

الإنسانَ على اتِّباعِ الظَّنِّ المُخطِئِ هو هواه[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أنَّ مَنشَأَ الباطلِ هو مِن نَقْصِ العِلمِ، أو سُوءِ القَصدِ[٢].

٨- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، قولُه: ﴿مِّن رَّبِّهِمُ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه لا يجوزُ تلقِّي الشَّريعةِ إلَّا مِن عندِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى هو الرَّبُّ، والرَّبُّ هو الخالِقُ المالِكُ المُدَبِّرُ[٣].

٩- قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي: ليس للإنسانِ ما تمنَّى، وكثيرًا ما يَتَمَنَّى الإنسانُ شيئًا، بل ويسعَى في أسبابِه ولكنْ لا يحصُلُ؛ لأنَّ هناك مُدبِّرًا، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ الَّذي بيدِه الأمرُ جلَّ وعلا؛ ولهذا قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾، وفي ذلك إشارةٌ إلى رَدِّ صنيعِ هؤلاءِ المشركينَ الَّذين يَعبدونَ الأصنامَ، ويقولونَ: إنَّها تُقَرِّبُهم إلى اللهِ؛ وليس لهم ذلك! وأيضًا رَدٌّ لقولِهم: إنَّ للهِ البناتِ، ولهم البنينَ، وليس لهم ذلك، وهم وإنْ تَمنَّوْا ذلك وصار في مُخَيِّلَتِهم، فإنَّه لا يَحْصُلُ، وليس للإنسانِ ما تَمَنَّى[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ لَمَّا جَرَى في صِفةِ الوحْيِ ومُشاهَدةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جِبريلَ عليه السَّلامُ، ما دلَّ على شُؤونٍ جَليلةٍ مِن عَظَمةِ اللهِ تعالى، وشرَفِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وشرَفِ جِبريلَ عليه السَّلامُ؛ إذ وُصِفَ بصِفاتِ الكَمالِ، ومَنازِلِ العِزَّةِ،

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كما وُصِفَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعُروجِ في المَنازلِ العُلْيا -كان ذلك ممَّا يُثيرُ موازَنةَ هذه الأحوالِ الرَّفيعةِ بحالِ أعظَمِ آلهَتِهم الثَّلاثِ في زعْمِهم، وهي: اللَّاتُ، والعُزَّى، ومَناةُ الَّتي هي أحجارٌ مَقرُّها الأرضُ، لا تَملِكُ تَصرُّفًا، ولا يُعرَجُ بها إلى رِفعةٍ، فكان هذا التَّضادُّ جامِعًا خَياليًّا يَقْتضي تَعقيبَ ذِكرِ تلك الأحوالِ بذِكرِ أحوالِ هاتِه، فانتُقِلَ الكلامُ مِن غرَضِ إثباتِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُوحًى إليه بالقُرآنِ، إلى إبطالِ عِبادةِ الأصنامِ، ومَناطُ الإبطالِ قولُه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾؛ فالفاءُ لتَفريعِ الاستِفهامِ وما بعْدَه على جُملةِ ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١٢] المُفرَّعةِ على جُملةِ ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[1] [النجم: ١١].

- ولَمَّا كان المشركون مع عِبادتِهم لهذه الأصنامِ يقولونَ: إنَّ الملائكةَ وتلكَ الأصنامَ بناتُ اللهِ -تعالَى اللهُ عن ذلكَ عُلوًّا كبيرًا-؛ قِيل لهم تَوبيخًا وتبكيتًا: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ...﴾ إلخ[2].

- والرُّؤيةُ في ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ بَصريَّةً، تَتعدَّى إلى مَفعولٍ واحدٍ، فلا تَطلُبُ مَفعولًا ثانيًا، ويكونَ الاستِفهامُ تَقريريًّا تَهكُّميًّا، أي: كيف ترَونَ اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ بالنِّسبةِ لِما وُصِفَ في عَظَمةِ اللهِ تعالى، وشرَفِ مَلائكتِه، وشَرَفِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟! وهذا تَهكُّمٌ بهم، وإبطالٌ لإلهيَّةِ تلك الأصنامِ بطَريقِ الفَحْوى، ودَليلُه العِيانُ، وتَكونَ جُملةُ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١] استِئنافًا وارتقاءً في الرَّدِّ، أو بدَلَ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾؛ لأنَّ مَضمونَها ممَّا تَشتمِلُ عليه مَزاعِمُهم؛ كانوا يَزعُمون أنَّ اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ بَناتُ اللهِ!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨).

ويَجوزُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ عِلْميَّةً قَلبيَّةً، أي: أزَعَمْتُم اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ؟! فحُذِفَ المَفعولُ الثَّاني اختصارًا، والتَّقديرُ: أزَعَمْتُموهنَّ بَناتِ اللهِ، أتَجْعَلون له الأُنثى وأنتُم تَبْتَغون الأبناءَ الذُّكورَ؟! ولدَلالةِ الحالِ عليه؛ فالمعْنى: عَقِيبَ ما سمِعْتُم مِن آثارِ كَمالِ عَظَمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في مُلكِه ومَلكوتِه، وجَلالِه وجَبروتِه، وإحكامِ قُدرتِه ونفاذِ أمْرِه في الملأِ الأَعْلى وما تحتَ الثَّرى وما بيْنَهما؛ رأيتُم هذهِ الأصنامَ -مع غايةِ حَقارتِها وقَماءتِها- بَناتٍ له تعالَى! وتَكونَ جُملةُ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ ...﴾ إلخ بَيانًا للإنكارِ، وارتقاءً في إبطالِ مَزاعِمِهم، أي: أتَجْعَلون للهِ البناتِ خاصَّةً وتَختصُّون أنفُسَكم بالبنينَ الذُّكورِ؟! وقولُه تعالَى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ يَشهَدُ به شَهادةً بيِّنةً؛ فإنَّه تَوبيخٌ مَبنيٌّ على التَّوبيخِ الأوَّلِ، وحيثُ كانَ مَدارُه تَفضيلَ جانبِ أنفُسِهم على جَنابِه تَعالى بنِسبتِهم إليه تَعالى الإناثَ مع اختيارِهم لأنفُسِهم الذُّكورَ، وجَبَ أنْ يكونَ مَناطُ الأولِ نفْسَ تلك النِّسبةِ؛ حتَّى يَتسنَّى بِناءُ التَّوبيخِ الثَّاني[1].

وقيل: لَمَّا كان فيما جَرَى مِن صِفةِ الوحْيِ ومَنازلِ الزُّلْفى الَّتي حَظِيَ بها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعَظَمةِ جبريلَ: إشعارٌ بسَعةِ قُدرةِ اللهِ تَعالى وعَظيمِ مَلكوتِه، ممَّا يُسجِّلُ على المشركين في زَعْمِهم شُركاءَ للهِ أصنامًا مِثلَ اللَّاتِ والعُزَّى ومَناةَ، فسادَ زعْمِهم، وسَفاهةَ رأْيِهم -أُعقِبَ ذِكرُ دَلائلِ العَظَمةِ الإلهيَّةِ بإبطالِ إلهيَّةِ أصنامِهم بأنَّها أقلُّ مِن مَرتبةِ الإلهيَّةِ؛ إذ تلك أوهامٌ لا حَقائقَ لها، ولكنِ اخترَعَتْها مُخيَّلاتُ أهلِ الشِّركِ، ووَضَعوا لها أسماءً ما لها حَقائقُ، ففُرِّعَ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ...﴾ إلخ؛ فيَكونُ الاستِفهامُ تَقريريًّا إنكاريًّا، والرُّؤيةُ عِلْميَّةً، والمَفعولُ الثَّاني هو قولَه: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، وتَكونُ جُملةُ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٢، ١٠٣).

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ إلخ مُعترِضةً بيْنَ المَفعولينِ؛ للارتقاءِ في الإنكارِ، أي: وزَعَمْتُموهنَّ بَناتٍ للهِ، أو وزَعَمْتُم الملائكةَ بَناتٍ للهِ! وهذه الوجوهُ غيرُ مُتنافيةٍ، فنَحمِلُها على أنَّ جميعَها مَقصودٌ في هذا المَقامِ. ويجوزُ جَعْلُ فِعلِ (أرأَيْتُم) -على اعتبارِ الرُّؤيةِ علْميَّةً- مُعلَّقًا عن العَملِ؛ لوُقوعِ (إنْ) النَّافيةِ بعْدَه في قولِه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، وتُجعَلَ جُملةُ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ اعتراضًا[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ جاء هنا بالفاءِ حيث قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾، وفي مَواضعَ بغيرِ الفاءِ، كما قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٤]، وقال: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ [فاطر: ٤٠]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا قدَّمَ مِن عَظَمةِ آياتِ اللهِ في مَلَكوتِه أنَّ رسولَ اللهِ إلى الرُّسلِ -الَّذي يسُدُّ الآفاقَ ببَعضِ أجْنحَتِه، ويُهلِكُ المدائنَ بشِدَّتِه وقوَّتِه- لا يُمكِنُه أنْ يَتعدَّى السِّدرةَ في مَقامِ جَلالِ اللهِ وعِزَّتِه؛ قال: أفرَأَيْتُم هذه الأصنامَ -مع ذِلَّتِها وحَقارتِها- شُركاءَ اللهِ مع ما تَقدَّمَ؟! فقال بالفاءِ -عَقيبَ ما سمِعْتُم مِن عَظَمةِ آياتِ اللهِ تَعالى الكُبرى، ونَفاذِ أمْرِه في الملأِ الأعلى وما تحتَ الثَّرى-: فانْظُروا إلى اللَّاتِ والعُزَّى؛ تَعلَموا فسادَ ما ذَهبْتُم إليه، وعوَّلْتُم عليه[2].

- ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ﴾ قيل: إنَّها مَنصوبةٌ بقولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾، وهي بمعْنى أخْبروني، والمفعولُ الثَّاني الَّذي لها هو قولُه: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾، ولم يَعُدْ ضَميرٌ مِن جُملةِ الاستِفهامِ على اللَّاتِ والعُزَّى ومَناةَ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ هو في معْنى: وله هذه الإناثُ، فأغْنى عن الضَّميرِ. وكانوا يَقولون في هذه الأصنامِ: هي بِناتُ اللهِ، فالمعْنى: ألَكمُ النَّوعُ المحبوبُ المستحسَنُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٤٨).

الموجودُ فيكم، وله النَّوعُ المذمومُ بزَعْمِكم؟! وهو المستثقَلُ. وحسَّنَ إبرازَ ﴿ٱلْأُنثَىٰٓ﴾ كونُه نصًّا في اعتِقادِهم أنَّهنَّ إناثٌ، وأنَّهنَّ بَناتُ اللهِ تَعالى، وإنْ كان في لَحاقِ تاءِ التأنيثِ في (اللَّاتِ) وفي (مَناةَ)، وألِفِ التأنيثِ في (العُزَّى) ما يُشعِرُ بالتَّأنيثِ، لكنَّه قد يُسمَّى المُذَكَّرُ بالمؤنَّثِ، فكان في قولِه: ﴿ٱلْأُنثَىٰٓ﴾ نصٌّ على اعتقادِ التَّأنيثِ فيها. وحسَّن ذلك أيضًا كونُه جاء فاصلةً؛ إذ لو أتَى ضَميرًا فكان التَّركيبُ (ألكمُ الذَّكَرُ وله هُنَّ)، لم تَقَعْ فاصلةً[1].

- قوله: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ صِفتانِ للتَّأكيدِ، أو ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ مِن التَّأخُّرِ في الرُّتبةِ، فقد وصَفَ مَناةَ بقولِه: ﴿ٱلثَّالِثَةَ﴾؛ لأنَّها أقلُّ بالرُّتبةِ مِن اللَّاتِ والعُزَّى؛ فقد كانتْ عِندَهم دونَهما في المَنزِلةِ، أمَّا الوصْفُ بقولِه: ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فإنَّها تُقوِّي هذا المعْنى، وتَزيدُ في وَضاعتِها، وإلَّا لَقال: الأُخرياتِ. ويجوزُ أنْ تكونَ الأوَّليَّةُ والتَّقديمُ عِندَهم لِلَّاتِ والعُزَّى؛ فالتَّراخي المستفادُ مِن لَفظِ ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ بحسَبِ الزَّمانِ[2]. وقيل: ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ صِفةٌ للعُزَّى، وإنَّما أخَّرها

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦).

قال أبو السعود: (وأمَّا ما قيلَ مِن أنَّ هذه الجملةَ مفعولٌ ثانٍ للرُّؤيةِ، وخلوها عن العائدِ إلى المفعولِ الأوَّلِ؛ لِما أنَّ الأصلَ: أخبِرونِي أنَّ اللَّاتَ والعُزَّى ومناةَ ألكُم الذَّكرُ وله هُنَّ، أي: تلك الأصنامُ، فوُضِعَ مَوضِعَ الأُنثى؛ لِمُراعاةِ الفواصلِ، وتحقيقِ مناطِ التَّوبيخِ- فمعَ ما فيه مِن التَّمَحُّلاتِ الَّتي ينبغي تنزيهُ ساحةِ التَّنزيلِ عن أمثالِها؛ يَقتَضِي اقتِصارَ التَّوبيخِ على ترجيحِ جانبِهم الحَقيرِ على جَنابِ اللهِ العزيزِ الجَليلِ، مِن غَيرِ تعَرُّضٍ للتَّوبيخِ على نِسبةِ الوَلَدِ إليه سُبحانَه). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٩٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٥٤، ٣٥٥).

على أنَّ أبا حيَّان قد قال: (ولفظُ «آخَرَ» ومُؤنَّثُه «أُخرى» لم يُوضَعَا للذَّمِّ ولا للمدحِ، إنَّما يدُلَّان على معنى «غيْر»، إلَّا أنَّ مِن شرطِهما أنْ يكونَا من جِنس ما قبْلَهما. لو قلتَ: مررتُ برجُلٍ =

رِعايةً للفاصلةِ[١].

وقيل: فيه تَقديمٌ وتأخيرٌ، تَقديرُه: والعُزَّى الأُخْرى، ومَناةَ الثَّالثةَ الذَّليلةَ؛ وذلك لأنَّ الأُولى كانت وَثَنًا على صُورةِ آدميٍّ، والعُزَّى صُورةَ نَباتٍ، ومَناةَ صُورةَ صَخْرةٍ، فالآدميُّ أشرَفُ مِن النَّباتِ، والنَّباتُ أشرَفُ مِن الجَمادِ، فالجَمادُ مُتأخِّرٌ، ومَناةُ جَمادٌ؛ فهي في أُخرياتِ المراتبِ[٢].

وقيل: وصْفُ مَناةَ بالثَّالثةِ في قولِه: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾؛ لأنَّها ثالثةٌ في الذِّكْرِ، وهو صِفةٌ كاشفةٌ[٣]، ووصْفُها بالأُخرى أيضًا صِفةٌ كاشفةٌ؛ لأنَّ كونَها

= وآخَرَ، لم يدُلَّ إلَّا على معنى «غير»، لا على ذمٍّ ولا على مدحٍ). ((تفسيرِ أبي حيان)) (١٠/ ١٧).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٩، ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧).

(٣) الصِّفةُ الكاشفةُ: هي الَّتي تُبيِّنُ الواقعَ، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ؛ لأنَّ الصِّفاتِ منها صِفةٌ مقيِّدةٌ تُخرِجُ ما سِواه، ومنها صفةٌ كاشِفةٌ تبيِّنُ حقيقةَ أمرِه، فهي خبرٌ عن المَوصوفِ عندَ التَّحقيقِ، تبيِّنُ ماهيَّةَ الشَّيءِ بأن تكونَ وصفًا لازمًا مختصًّا به. والصِّفةُ إذا كان لها مفهومٌ فهي مقيِّدةٌ، وإن لم يكن لها مفهومٌ فهي كاشِفةٌ، أي: مبيِّنةٌ للحقيقةِ، مثالُ ذلك: قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، ولا مفهومَ مخالفةٍ له، فلا يصحُّ لأحدٍ أن يقولَ: أمَّا مَن عبَدَ معه إلهًا آخَرَ له بُرهانٌ به فلا مانعَ مِن ذلك! لاستِحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وصفٌ مطابقٌ للواقعِ؛ لأنَّهم يَدْعون معه غيرَه بلا بُرهانٍ، فذِكْرُ الوصفِ لموافقتِه الواقِعَ، لا لإخراجِ المفهومِ عن حُكمِ المنطوقِ، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، وقولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٩٩، ٣١٤)، ((دراسات أصولية في القرآن الكريم)) للحفناوي (ص: ٢٢).

ثالثةً في الذِّكرِ غيرَ المَذكورتينِ قبْلَها مَعلومٌ للسَّامعِ، فالحاصلُ مِن الصِّفتينِ تأْكيدُ ذِكْرِها؛ لأنَّ اللَّاتَ والعُزَّى عندَ قُريشٍ وعندَ جُمهورِ العرَبِ أشهَرُ مِن مَناةَ؛ لبُعْدِ مَكانِ مَناةَ عن بِلادِهم، ولأنَّ تَرتيبَ مَواقعِ بُيوتِ هذه الأصنامِ كذلك؛ فاللَّاتُ في أعْلى تِهامةَ بالطَّائفِ، والعُزَّى في وَسَطِها بنَخْلةَ بيْنَ مكَّةَ والطَّائفِ، ومَناةَ بالمُشلَّلِ بيْن مكَّةَ والمدينةِ، فهي ثالثةُ البِقاعِ[1].

أو أنَّ قولَه: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ جَرى على أُسلوبِ العرَبِ إذا أخبَروا عن مُتعدِّدٍ، وكان فيه مَن يُظَنُّ أنَّه غيرُ داخلٍ في الخبَرِ لعَظَمةٍ، أو تَباعُدٍ عن التَّلبُّسِ بمِثلِ ما تَلبَّسَ به نُظراؤه؛ أنْ يَختِموا الخبَرَ فيَقولوا: وفلانٌ هو الآخَرُ، ووَجْهُه هنا: أنَّ عُبَّادَ مَناةَ كَثيرون في قَبائلِ العرَبِ، فنَبَّه على أنَّ كَثرةَ عَبَدتِها لا يَزيدُها قوَّةً على بَقيَّةِ الأصنامِ في مَقامِ إبطالِ إلهيَّتِها. وكلُّ ذلك جارٍ مَجرى التَّهكُّمِ والتَّسفيهِ، والتَّوبيخِ والتَّبكيتِ لهم[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ ارتِقاءٌ في الإبطالِ والتَّهكُّمِ والتَّسفيهِ والتَّوبيخِ، وهي مُجاراةٌ لاعتقادِهم أنَّ تلك الأصنامَ الثَّلاثةَ بَناتُ اللهِ، وأنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ، أي: أجعَلْتُم للهِ البناتِ خاصَّةً وأنتم تَعلَمون أنَّ لكم أولادًا ذُكورًا وإناثًا، وأنَّكم تُفضِّلون الذُّكورَ وتَكرَهون الإناثَ، وقد خصَصْتُم اللهَ بالإناثِ دونَ الذُّكورِ، واللهُ أَولى بالفضْلِ والكَمالِ لو كُنتُم تَعلَمون؟! فكان في هذا زِيادةُ تَشنيعٍ لكُفْرِهم؛ إذ كان كُفْرًا وسَخافةَ عقْلٍ[3].

- وتَقديمُ المَجرورينِ في جُملةِ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾؛ للاهتِمامِ بالاختصاصِ الَّذي أفادَتْه اللَّامُ اهتِمامًا في مَقامِ التَّهكُّمِ والتَّسفيهِ، على أنَّ في تَقديمِ ﴿وَلَهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٦).

ٱلْأُنثَىٰ﴾ إفادةَ الاختِصاصِ، أي: دونَ الذَّكَرِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ تَعليلٌ للإنكارِ والتَّهكُّمِ المُفادِ مِن الاستفهامِ في ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١]، أي: قد جُرْتُم في القِسمةِ وما عدَلْتُم، فأنتمْ أحِقَّاءُ بالإنكارِ[٢].

- والإشارةُ بكلمةِ ﴿تِلْكَ﴾ إلى المَذكورِ باعتبارِ الإخبارِ عنه بلَفظِ ﴿قِسْمَةٌ﴾؛ فإنَّه مُؤنَّثُ اللَّفظِ[٣].

- و﴿إِذًا﴾ حرْفُ جَوابٍ أُرِيدَ به جَوابُ الاستِفهامِ الإنكاريِّ، أي: تَرتَّبَ على ما زعَمْتُم أنَّ ذلك قِسمةٌ ضِيزَى، أي: قسَمْتُم قِسمةً جائرةً[٤].

- قولُه: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ فيه استِعمالُ كَلمةِ ﴿ضِيزَىٰٓ﴾، وهي لفظةٌ غريبةٌ، هي مِن أغربِ ما في القرآنِ، ومعَ ذلك فإنَّ حُسنَها في نظمِ الكلامِ مِن أغربِ الحُسنِ وأعجبِه؛ فهي لَفظةٌ في مَوضعِها لا يسُدُّ غيرُها مسَدَّها؛ فسُورةُ (النَّجمِ) كلُّها مَسجوعةٌ على حَرْفِ الياءِ اللَّيِّنةِ، فلمَّا ذكَرَ الأصنامَ وقِسمةَ الأولادِ، وما كان يَزعُمُه الكفَّارُ، قال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾؛ فجاءت هذه اللَّفظةُ على الحرْفِ المَسجوعِ الَّذي جاءت السُّورة جميعُها عليه، هذا مِن النَّاحيةِ اللَّفظيَّةِ، أمَّا مِن ناحيةِ المعْنَى فإنَّها في مَعرِضِ الإنكارِ على العربِ المشركينَ؛ إذ ورَدت في ذِكرِ الأصنامِ، وزعمِهم في قِسمةِ الأولادِ، فكانت غرابةُ اللَّفظِ أشدَّ الأشياءِ مُلاءمةً لغرابةِ هذه القِسمةِ الَّتي أنكَرها، والغرَضُ تَهجينُ قَولِهم، وتفْنيدُ قِسمتِهم، والتَّشنيعُ عليها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذا مِن أعجَبِ ما ورَدَ في القرآنِ الكريمِ مِن مُطابَقةِ الألفاظِ لمُقْتضَى الحالِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾

- جُملةُ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ استِئنافٌ يَكُرُّ بالإبطالِ على مُعتقَدِهم مِن أصْلِه، بعْدَ إبطالِه بما هو مِن لَوازِمِه على مُجاراتِهم فيه؛ لإظهارِ اختلالِ مُعتقَدِهم، وفي هذه الجُملةِ احتِراسٌ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ إنكارَ نَسبتِهم البَناتِ للهِ، أنَّه إنكارٌ لتَخصيصِهم اللهَ بالبَناتِ، وأنَّ له أولادًا ذُكورًا وإناثًا، أو أنَّ مَصبَّ الإنكارِ على زعْمِهم أنَّها بناتٌ وليست ببَناتٍ، فيَكونُ كالإنكارِ عليهم في زعْمِهم الملائكةَ بَناتٍ(٢).

- والقَصْرُ في قولِه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ قَصْرٌ إضافيٌّ(٣)، أي: هي أسماءٌ لا حَقائقَ عاقلةً مُتصرِّفةً كما تَزعُمون، وليس القصْرُ حَقيقيًّا؛ لأنَّ لِهاتِه الأصنامِ مُسمَّياتٍ، وهي الحِجارةُ أو البيوتُ الَّتي يَقصِدُونها بالعِبادةِ، ويَجعَلون لها سَدَنةً(٤).

- وجُملةُ ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ تَعليلٌ لمعْنى القَصْرِ بطَريقةِ الاكتِفاءِ(٥)؛ لأنَّ كونَها لا حَقائقَ لها في عالَمِ الشَّهادةِ أمْرٌ مَحسوسٌ؛ إذ ليستْ إلَّا حِجارةً،

---

(١) يُنظر: ((المثل السائر)) لابن الأثير (١/ ١٦٢)، ((إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)) للرافعي (ص: ١٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٥٥، ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٧).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٨٣-١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٧، ١٠٨).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٣٧٣).

وأمَّا كَونُها لا حَقائقَ لها مِن عالَمِ الغَيبِ؛ فلأنَّ عالَمَ الغَيبِ لا طَريقَ إلى إثباتِ ما يَحتويه إلَّا بإعلامٍ مِن عالِمِ الغَيبِ سُبحانَه، أو بدليلِ العقْلِ -فيما للعقلِ فيه إدراكٌ-، كدَلالةِ العالَمِ على وُجودِ الصَّانعِ وبعْضِ صِفاتِه، واللهُ لم يُخبِرْ أحدًا مِن رُسلِه بأنَّ للأصنامِ أرواحًا أو مَلائكةً، مِثلَ ما أخبَرَ عن حَقائقِ الملائكةِ والجنِّ والشَّياطينِ[١].

- والسُّلطانُ: الحُجَّةُ، وعُبِّرَ عن الإخبارِ المُوحى به بفِعلِ ﴿أَنزَلَ﴾؛ لأنَّه إخبارٌ يَرِدُ مِن العالَمِ العُلويِّ؛ مِن اللهِ تعالى، وهذا كِنايةٌ عن انتفاءِ أنْ تكونَ عليها حُجَّةٌ؛ لأنَّ وُجودَ الحُجَّةِ يَستلزِمُ ظُهورَها، فنفْيُ إنزالِ الحُجَّةِ بها مِن بابِ: (على لاحِبٍ لا يُهتدَى بمَنارِه)[٢]، أي: لا مَنارَ له فيُهْتَدى به[٣].

- وأُكِّدَ نفْيُ إنزالِ السُّلطانِ بحرْفِ (مِن) الزَّائدةِ؛ لتَوكيدِ نفْيِ الجِنسِ[٤].

- قولُه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ فضَميرُ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ عائدٌ إلى الَّذين كان الخِطابُ مُوجَّهًا إليهم، أُعقِبَ نفْيُ أنْ تَكونَ لهم حُجَّةٌ على الخَصائصِ الَّتي يَزعُمونها لأصنامِهم، أو على أنَّ اللهَ سمَّاهم بتلك الأسماءِ؛ بإثباتِ أنَّهم استَنَدوا فيما يَزعُمونَه إلى الأوهامِ، وما تُحِبُّه نُفوسُهم مِن عِبادةِ الأصنامِ ومَحبَّةِ سَدَنتِها ومَواكبِ زِيارتِها، وغُرورِهم بأنَّها تَسعَى في الوساطةِ لهم عندَ اللهِ تعالى بما يَرغَبونَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٨).

(٢) القائلُ هو امرُؤ القَيس. يُنظر: ((ديوان امرئ القيس)) (ص: ٩٦).
واللَّاحبُ: الطَّريقُ الواضحُ، ولم يُرِدْ أن فيه منارًا لا يُهتدَى به، ولكنَّه نفَى أن يكون به منارٌ. والمعنى: لا منارَ فيه فيُهتدَى به. يُنظر: ((خزانة الأدب)) للبغدادي (١٠/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في حَياتِهم؛ فتلك أوهامٌ وأمانيُّ مَحبوبةٌ لهم يَعيشون في غُرورها[١].

- وقولُه: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ تَحويلٌ عن خِطابِ المشرِكينَ الَّذي كان ابتِداؤُه مِن أوَّلِ السُّورةِ، وهو مِن ضُروبِ الالْتِفاتِ؛ فهذا الْتِفاتٌ مِن خِطابِ المُشرِكينَ إلى الغَيبةِ عنْهم؛ تحقيرًا لهم، وللإيذانِ بأنَّ تَعدادَ قَبائحِهم اقْتضَى الإعراضَ عنهم تَحقيرًا لشأْنِهم، وحِكايةَ جِناياتِهم لغيرِهم[٢].

- وجِيءَ بالمُضارعِ في ﴿يَتَّبِعُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم سيَستَمِرُّونَ على اتِّباعِ الظَّنِّ وما تَهواهُ نُفوسُهم، وذلك يدُلُّ على أنَّهم اتَّبعوا ذلك مِن قبْلُ، بدَلالةِ لَحْنِ الخِطابِ أو فَحواهُ[٣].

- قولُه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ وقولُه بعْدَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٧، ٢٨] فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تكرَّرَ قولُه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ في الآيتَينِ، واختَلفَ خِتامُهما؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا قال قبْلُ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾، ثمَّ قال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، أي: سمَّيتُم هذه الأصنامَ آلهةً، والملائكةَ بناتِ اللهِ تَسميةً باطلةً لا حُجَّةَ لكم فيها؛ فلم يَحصُلْ لكم إلَّا ألفاظُها! فأمَّا المعاني؛ فإنَّكم تتَّبِعون فيها الظَّنَّ وهَوى النَّفْسِ، وما في الطَّبعِ مِن حُبِّ الإلفِ، وقد أتاكُم مِن ربِّكم ما يَثْنِيكم

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٩).

عنه إلى الرَّشادِ! ومَن جاءه مِن اللهِ الهُدى فترَكَهُ لاتِّباعِ الهَوى؛ فقد ضلَّ وهَوَى، فلمَّا كان الَّذي يَجذِبُهم إلى مَقالتِهم شَيئانِ: ظنٌّ وهَوًى؛ ذُكِرَا معًا ليُبيِّنَ صارِفَهم عن الحقِّ. ثمَّ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ۞ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾؛ فخصَّ الَّذين يقولونَ: الملائكةُ بناتُ اللهِ بالذِّكرِ تَوكيدًا لإلزامِه الحُجَّةَ عليهم، وأنَّهم يتَّبِعون الظَّنَّ بمَقالتِهم، والظَّنُّ لا يقومُ مَقامَ العلمِ، ولا يُغْني غَناءَه -والمرادُ بالحقِّ هاهنا هو العلمُ-؛ فوَصَفَ أنَّ الَّذي تَعتمِدونه لا يَجوزُ أنْ يُعتمَدَ؛ لأنَّه ظنٌّ، وبإزائِه عِلمٌ يُبطِلُه، وهُدًى مِن اللهِ تَعالى يَدفَعُه، ويَصرِفُ عنه إلى الحقِّ الَّذي لا مَهرَبَ منه، ومَن لم يَقبَلْه بعدَ وُضوحِ الحُجَّةِ له، فأعْرِضْ عنه، وهو قولُه: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ [النجم: ٢٩]؛ ففي الآيةِ الأُولى ذَكَر صارفَهم عن الحقِّ، وداعِيَهم إلى الباطلِ؛ فبيَّن ما هو، وفي الثَّانيةِ طَعَن على هذا الصَّارفِ والدَّاعي إلى الباطلِ، وإثباتُ الشَّيءِ أوَّلٌ في العَقلِ، ووَصْفُه بأنَّه صحيحٌ أو سقيمٌ ثانٍ في الرُّتبةِ؛ فلذلك اختُصَّت الأُولى بما اختُصَّت، والثَّانيةُ بما تَبِعَها[1]. وليس بتَكرارٍ؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصلٌ بعِبادتِهم اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ، والثَّانيَ بعِبادتِهم الملائكةَ؛ والظَّنُّ فيها مَذمومٌ بقولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾، أي: لا يقومُ مَقامَ العِلمِ[2].

- وأصلُ الظَّنِّ الاعتِقادُ غيرُ الجازِمِ، ويُطلَقُ على العِلمِ الجازمِ إذا كان مُتعلِّقًا بالمُغيَّباتِ، وكَثُرَ إطلاقُه في القرآنِ على الاعتقادِ الباطلِ، وهو المُرادُ هنا؛ بقَرينةِ عطْفِ ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾ عليه، وهو كِنايةٌ عن الخطَأِ باعتبارِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٢٢-١٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٠).

لُزومِه له غالبًا، ومَناطُ الذَّمِّ في هذه الآيةِ هو قصْرُ اتِّباعِهم على ما تَهواهُ أنفُسُهم[١].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَنفُسُ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: وما تَهواهُ أنفُسُهم[٢].

- وعطْفُ ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ على ﴿ٱلظَّنَّ﴾ عطْفُ العِلَّةِ على المَعلولِ، أي: الظَّنَّ الَّذي يَبعَثُهم على اتِّباعِه أنَّه مُوافقٌ لِهَواهم وإلْفِهم[٣].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ تَوبيخٌ لهم، والَّذي همْ عليه باطلٌ، واعتِراضٌ بيْنَ الجُملتَينِ، أي: يَفعَلونَ هذه القبائحَ، والهُدى قد جاءَهُم، فكانوا أَولى مَن يَقبَلُه ويَترُكُ عِبادةَ مَن لا يُجدي عِبادتُه[٤]!

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ حالٌ مُقرِّرةٌ للتَّعجيبِ مِن حالِهم، أي: يَستمِرُّون على اتِّباعِ الظَّنِّ والهَوى في حالِ أنَّ اللهَ أرسَلَ إليهم رسولًا بالهُدى[٥]!

- ولامُ القَسَمِ لتأْكيدِ الخبَرِ؛ للمُبالَغةِ فيما يَتضمَّنُه مِن التَّعجيبِ مِن حالِهم، كأنَّ المُخاطَبَ يشُكُّ في أنَّه جاءَهم ما فيه هُدًى مُقنِعٌ لهم مِن جِهةِ استِمرارِهم على ضَلالِهم استمرارًا لا يُظَنُّ مِثلُه بعاقلٍ[٦].

- والتَّعبيرُ عن الجَلالةِ بعُنوانِ ﴿رَّبِّهِمُ﴾؛ لِزيادةِ التَّعجيبِ مِن تَصامُمِهم عن سَماعِ الهُدى، مع أنَّه ممَّن تجِبُ طاعتُه، فكان ضَلالُهم مَخلوطًا بالعِصيانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٩، ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والتَّمرُّدِ على خالِقِهم[١].

- والتَّعريفُ في الهُدَى؛ للدَّلالةِ على معْنى الكَمالِ، أي: الهُدى الواضحُ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، والاستفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) إنكاريٌّ، وهذا مُتَّصِلٌ بقولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[٣] [النجم: ٢٣].

- وتَعريفُ الإنسانِ في قولِه: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، ووُقوعُه في حيِّزِ الإنكارِ المُساوي للنفْيِ جَعَله عامًّا في كلِّ إنسانٍ[٤].

- و(ما) المَوصولةُ في ﴿مَا تَمَنَّىٰ﴾ بمَنزِلةِ المُعرَّفِ بلامِ الجِنسِ؛ فوُقوعُها في حيِّزِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ الَّذي بمَنزلةِ النَّفْيِ يَقْتضي العُمومَ، أي: ما للإنسانِ شَيءٌ ممَّا تمنَّى، أي: ليس شَيءٌ جاريًا على إرادتِه، بلْ على إرادةِ اللهِ، وقد شمِلَ ذلك كلَّ هَوًى دَعاهم إلى الإعراضِ عن كَلامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فشَمِلَ تَمنِّيَهم شَفاعةَ الأصنامِ، وهو الأهمُّ مِن أحوالِ الأصنامِ عِندَهم، وذلك ما يُؤذِنُ به قولُه بعْدَ هذا: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٦] الآيةَ، وتَمنِّيَهم أنْ يكونَ الرَّسولُ مَلَكًا، وغيرَ ذلك، نحْوَ قولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقولِهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾[٥] [يونس: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١).

- وتَقدُّمُ المَجرورِ في ﴿لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾؛ لأنَّ مَحطَّ الإنكارِ هو أمْنيَّتُهم أنْ تَجرِيَ الأمورُ على حسَبِ أهْوائِهم، فلذلك كانوا يُعرِضون عن كلِّ ما يُخالِفُ أهواءَهُم، فتَقديمُ المَعمولِ هنا لإفادةِ القصْرِ، وهو قصْرُ قلْبٍ[1]، أي: ليس ذلك مَقصورًا عليهم كما هو مُقْتضى حالِهم، فنُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَرَونَ الأمورَ تَجْري على ما يَتمنَّون، أي: بلْ أماني الإنسانِ بيَدِ اللهِ؛ يُعطي بعْضَها، ويَمنَعُ بعضَها، كما دلَّ عليه التَّفريعُ عقِبَه بقولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾[2].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ بعْدَ أنْ أُنكِرَ أنَّ للإنسانِ ما تَمنَّى، فُرِّعَ عليه أنَّ اللهَ مالِكُ الآخِرةِ والأُولى، أي: فهو يَتصرَّفُ في أحوالِ أهلِهما بحسَبِ إرادتِه، لا بحسَبِ تَمنِّي الإنسانِ، وهذا إبطالٌ لمُعتقَداتِ المُشرِكين، الَّتي منها يَقينُهم بشَفاعةِ أصْنامِهم[3].

- وقولُه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ تعليلٌ لانتِفاءِ أنْ يكونَ للإنسانِ ما يَتمنَّاهُ حتْمًا؛ فإنَّ اختِصاصَ أُمورِ الآخرةِ والأُولى جَميعًا بهِ تعالى مُقْتضٍ لانتِفاءِ أنْ يكونَ للإنسانِ أمْرٌ مِن الأمورِ[4].

- وتَقديمُ المَعمولِ هنا ﴿فَلِلَّهِ﴾ لإفادةِ القصْرِ، وهو قصْرُ قلْبٍ، أي: للهِ، لا للإنسانِ[5].

- والمَقصودُ مِن ذِكرِ الآخرةِ والأُولى تَعميمُ الأشياءِ، وإنَّما قُدِّمَت الآخرةُ للاهتمامِ بها، والتَّنبيهِ إلى أنَّها الَّتي يجِبُ أنْ يكونَ اعتِناءُ المؤمنينَ بها؛ لأنَّ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣-١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١، ١١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٢).

الخِطابَ في هذه الآيةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمينَ، معَ ما في هذا التَّقديمِ مِن الرِّعايةِ للفاصلةِ[١]، وأيضًا لأنَّ مُلْكَ اللهِ عزَّ وجلَّ في الآخرةِ يَظهَرُ أكثَرَ مِمَّا في الدُّنيا؛ فالدُّنيا فيها مُلوكٌ، وفيها رُؤساءُ، وفيها زُعَماءُ، يرى العامَّةُ أنَّ لهم تَدبيرًا، لكِنْ في الآخرةِ لا يُوجَدُ هذا ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[٢] [غافر: ١٦].

- وفي تَعَلُّقِ الفاءِ بالكلامِ وُجوهٌ:

الأوَّلُ: أنَّ تقديرَه: الإنسانُ إذا اختار معبودًا في دُنياه على ما تمنَّاه واشتهاه، فلِلَّهِ الآخِرةُ والأُولى، يُعاقِبُه على فِعلِه في الدُّنيا، وإنْ لم يُعاقِبْه في الدُّنيا فيُعاقِبُه في الآخِرةِ، وقولُه تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾ [النجم: ٢٦] يكونُ مُؤَكِّدًا لهذا المعنى، أي: عِقابُهم يَقَعُ، ولا يَشفَعُ فيهم أحَدٌ، ولا يُغْنِيهم شَفاعةُ شافِعٍ.

الثَّاني: أنَّه تعالى لَمَّا بَيَّن أنَّ اتِّخاذَ اللَّاتِ والعُزَّى باتِّباعِ الظَّنِّ وهَوى الأنفُسِ، كأنَّه قَرَّره وقال: إنْ لم تَعلَموا هذا فلِلَّه الآخرةُ والأُولى، وهذه الأصنامُ ليس لها مِن الأمرِ شَيءٌ، فكيف يجوزُ الإشراكُ؟! وقَولُه تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ على هذا الوَجهِ جَوابُ كَلامٍ، كأنَّهم قالوا: لا نُشرِكُ باللهِ شَيئًا، وإنَّما هذه الأصنامُ شُفَعاؤُنا؛ فإنَّها صورةُ مَلائِكةٍ مُقَرَّبينَ، فقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٦].

الثَّالِثُ: هذه تسليةٌ، كأنَّه تعالى قال ذلك لنَبيِّه حيثُ بَيَّن رِسالتَه ووحدانيَّةَ اللهِ ولم يُؤمِنوا، فقال: لا تأْسَ؛ فلِلَّهِ الآخِرةُ والأُولى، أي: لا يُعجِزونَ اللهَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٨).

الرَّابعُ: هو ترتيبُ حَقٍّ على دليلِه. بيانُه هو أنَّه تعالى لَمَّا بَيَّن رِسالةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقَولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] إلى آخِرِه، وبَيَّن بَعضَ ما جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو التَّوحيدُ، قال: إذا عَلِمتُم صِدْقَ مُحمَّدٍ ببَيانِ رِسالةِ اللهِ تعالى، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أخبَرَكم عن الحَشرِ، فهو صادِقٌ.

الخامِسُ: هو أنَّ الكُفَّارَ كانوا يقولونَ عن المؤمنينَ: أهؤلاءِ أَهْدى مِنَّا؟ وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، فقال تعالى: إنَّ اللهَ اختار لكم الدُّنيا، وأعطاكم الأموالَ، ولم يُعْطِ المؤمِنينَ بَعضَ ذلك الأمرِ، بل قُلتُم: لو شاء اللهُ لأغناهم، وتحَقَّقْتُم هذه القَضيَّةَ، فلِلَّهِ الآخِرةُ والأُولى، قُولُوا في الآخِرةِ ما قُلتُم في الدُّنيا؛ يَهدي اللهُ مَن يَشاءُ كما يُغْني اللهُ مَن يَشاءُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥٣).

الآيات (٢٦-٣٢)

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَبۡلَغُهُم﴾: أي: غايتُهم، وأصلُ (بلغ): يدُلُّ على وُصولٍ إلى شَيءٍ[1].

﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾: أي: بالجنَّةِ والثَّوابِ، وأصلُ (حسن): يدُلُّ على ضِدِّ القُبحِ[2].

﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾: الإثمُ والأثامُ: اسمٌ للأفعالِ المُبَطِّئةِ عن الثَّوابِ، أو الذَّنْبُ الَّذي يَستحِقُّ العقوبةَ عليه، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، والإثمُ مُشتَقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه[3].

﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾: جمعُ فاحِشَةٍ، أي: ما عَظُم قُبحُه مِنَ الكبائِرِ، والفُحْشُ والفَحْشاءُ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

والفاحِشةُ: ما عظُم قُبحُه مِن الأفعالِ والأقوالِ، وكلُّ شَيءٍ جاوَز قَدْرَه فهو فاحِشٌ، ولا يكونُ ذلك إلَّا فيما يُتكَرَّهُ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ[١].

﴿ٱللَّمَمَ﴾: أي: صِغارَ الذُّنوبِ؛ مِنْ أَلَمَّ بالشَّيءِ: إذا لم يتعَمَّقْ فيه ولم يَلزَمْه، وأصلُ اللَّمَمِ: ما يَعمَلُه الإنسانُ الحِينَ بعدَ الحِينِ، ولا يكونُ له عادةً ولا إقامة عليه[٢].

﴿أَجِنَّةٌ﴾: جمعُ جَنينٍ: وهو الوَلَدُ ما دامَ في البَطنِ، وسُمِّيَ جَنينًا؛ لاجتِنانِه واستِتارِه، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَترٍ[٣].

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾: أي: لا تُبَرِّئُوها عن الآثامِ، ولا تَمدَحوها بحُسنِ أعمالِها، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على نَماءٍ وزِيادةٍ، وطهارةٍ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى منكِرًا على مَن عبَد الملائكةَ وغيرَهم، وزعَم أنَّها تشفعُ له عندَ الله يومَ القيامةِ، ومبينًا أنَّ الملائكةَ معَ سُمُوِّ مَنزِلتِهم ورِفعةِ مَقامِهم، لا يَملِكون الشَّفاعةَ لأحدٍ إلَّا بإذنِه تعالى، فيقولُ: وكَثيرٌ مِنَ الملائِكةِ في السَّمَواتِ لا تَنفَعُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٠).

شَفاعتُهم شَيئًا إلَّا مِن بَعدِ أن يأذَنَ اللهُ في الشَّفاعةِ لِمَن يَشاءُ منهم، ويَرضَى عن المَشفوعِ لهم.

ثمَّ ينكِرُ الله تعالى على المشركينَ ما كانوا يَعتقِدونَه في الملائكةِ مِن عقيدةٍ فاسدةٍ، فيقولُ: إنَّ الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ لَيُسَمُّونَ مَلائكةَ اللهِ إناثًا، ويَزعُمونَ أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ سُبحانَه! وما للمُشرِكينَ بذلك مِن عِلمٍ، ما يَتَّبِعونَ في زَعْمِهم هذا إلَّا الوَهمَ الكاذِبَ، وإنَّ الظنَّ المَبنيَّ على الوَهمِ لا يُفيدُ شَيئًا!

ولَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّهم لا غرَضَ لهم في اتِّباعِ الحقِّ؛ أمَر نبيَّه بالإعراضِ عنهم، فقال: فأعْرِضْ -يا محمَّدُ- عمَّن أعرَضَ عن القُرآنِ، ولم يُرِدْ إلَّا الحَياةَ الدُّنيا، وذلك هو مُنتهى عِلْمِهم وغايتُه، إنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- هو أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن طَريقِه، وهو أعلَمُ بالَّذين اهتَدَوا إلى الحَقِّ.

ولله وَحْدَه مُلْكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ؛ لِيَجزيَ الَّذين أساؤُوا بما عَمِلوه مِن كُفرٍ أو عِصيانٍ، ولِيُثيبَ الَّذين أحسَنوا بالجنَّةِ.

ثمَّ يصِفُ الله تعالى هؤلاء المحسنينَ، فيقولُ: وأولئك المُحسِنونَ هم الَّذين يَبتَعِدونَ عن كَبائِرِ الذُّنوبِ والفواحِشِ، إلَّا صَغائِرَ الذُّنوبِ دونَ إصرارٍ عليها، فهي مَعفوٌّ عنها، إنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- واسِعُ المَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه، هو أعلَمُ بكم حينَ خَلَق أباكم آدَمَ مِن الأرضِ، وحينَ كُنتُم حَمْلًا في بُطونِ أمَّهاتِكم؛ فلا تَشهَدوا لأنفُسِكم بالبَراءةِ مِنَ الذُّنوبِ ولا بالصَّلاحِ والتَّقْوى؛ فاللهُ وَحْدَه أعلَمُ بمَن اتَّقى!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أيأَسَهم مِن أنْ يَنالوا خَيرًا مِن عِبادةِ أصنامِهم والتَّقَرُّبِ إليها، وأنَّها لا تكونُ وَسيلةً لهم عندَ رَبِّهم؛ حَرَمَهم فائِدةَ عِبادتِها مِن وَجهٍ آخَرَ(١).

وأيضًا لَمَّا كان التَّقديرُ: فكم مِن شَخصٍ تَرَونَه في الأرضِ -معَ أنَّه في غايةِ المُكْنةِ فيما يَظهَرُ لكم- لا يَصِلُ إلى رُبُعِ ما يتمَنَّاه؛ عَطَفَ عليه قَولَه مُظهِرًا لضَخامةِ مُلكِه، وأنَّه لا يُبالي بأحَدٍ(٢):

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: وما أكثَرَ الملائِكةَ الَّذين في السَّمَواتِ، ولا تَنفَعُ شَفاعتُهم شَيئًا إلَّا مِن بَعدِ أن يأذَنَ اللهُ في الشَّفاعةِ لِمَن يَشاءُ منهم، وبَعْدَ رِضاه عن المَشفوعِ لهم الَّذين هم مِن أهلِ التَّوحيدِ(٣)!

كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦، ٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((حاشية الخفاجي)) (٨/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٩).

قال الزمخشري: (يعني: أنَّ أمْرَ الشَّفاعةِ ضَيِّقٌ، وذلك أنَّ الملائِكةَ مع قُربتِهم وزُلْفاهم وكَثرتِهم واختِصاصِ السَّمَواتِ بجُموعِهم: لو شَفَعوا بأجمُعِهم لأحَدٍ لم تُغْنِ شَفاعتُهم عنه شَيئًا قطُّ ولم تَنفَعْ، إلَّا إذا شَفَعوا مِن بَعدِ أن يأذَنَ اللهُ لهم في الشَّفاعةِ لِمَن يَشاءُ الشَّفاعةَ له ويَرضاه ويَراه أهلًا لأن يُشفَعَ له، فكيف تَشفَعُ الأصنامُ إليه لعَبَدتِهم؟!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قِيلَ لهم: إنَّ الصَّنَمَ جَمادٌ لا يَشفَعُ، وبَيَّنَ لهم أنَّ أعظَمَ أجناسِ الخَلقِ لا شَفاعةَ لهم إلَّا بالإذْنِ؛ قالوا: نحن لا نَعبُدُ الأصنامَ لأنَّها جماداتٌ، وإنَّما نَعبُدُ الملائكةَ بعبادتِها؛ فإنَّها على صُوَرِها، ونَنصِبُها بيْنَ أيدينا لِيُذَكِّرَنا الشَّاهِدُ الغائِبَ، فنُعَظِّمَ المَلَكَ الَّذي ثَبَت أنَّه مُقَرَّبٌ عَظيمُ الشَّأنِ، رفيعُ المكانِ؛ فقال تعالى ردًّا عليهم: كيف تُعَظِّمونَهم وأنتم تُسَمُّونَهم تَسميةَ الأُنثى[1]؟!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ لَيُسَمُّونَ مَلائكةَ اللهِ إناثًا، ويَزعُمونَ أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ سُبحانَه[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤، ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٥).
قال السعدي: (يعني: أنَّ المُشرِكينَ باللهِ المكَذِّبينَ لرُسُلِه، الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ، وبسَبَبِ عَدَمِ إيمانِهم بالآخِرةِ: تجَرَّؤوا على ما تجَرَّؤوا عليه مِنَ الأقوالِ والأفعالِ المُحادَّةِ للهِ ولِرَسولِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠).

أي: وما للمُشرِكينَ بادِّعائِهم أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ مِن عِلمٍ صَحيحٍ يَعتَمِدونَ عليه في إثباتِ صِحَّةِ دَعواهم؛ كمُشاهَدةٍ لخَلْقِهم، أو قِراءةِ ذلك في كِتابٍ مِن كُتُبِ اللهِ، أو سَماعِ رَسولٍ يُخبِرُهم بصِدقِ ما يَزعُمونَ[١].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا نفى عِلْمَهم؛ تشَوَّفَ السَّامِعُ إلى الحامِلِ لهم على ذلك، فقال[٢]:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

أي: ما يَتَّبِعونَ في زَعْمِهم هذا إلَّا الوَهمَ الكاذِبَ بغَيرِ عِلمٍ ولا يَقينٍ[٣]!

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانوا كالقاطِعينَ بأنَّ ذلك يَنفَعُهم؛ أكَّدَ بقَولِه[٤]:

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

أي: وإنَّ الظنَّ المَبنيَّ على الوَهمِ لا يُفيدُ شَيئًا مِنَ الحَقِّ، أو يقومُ مَقامَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٣).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحَديثِ))(١).

﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٢٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ أنْ وَصَف مَدارِكَهم الباطِلةَ وضَلالَهم؛ فَرَّع عليه أمْرَ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عنهم؛ ذلك لأنَّ ما تقَدَّمَ مِن وَصفِ ضَلالِهم كان نَتيجةَ إعراضِهم عن ذِكرِ اللهِ، وهو التَّوَلِّي عن الذِّكرِ؛ فحَقَّ أن يكونَ جَزاؤُهم عن ذلك الإعراضِ إعراضًا عنهم(٢).

وأيضًا لَمَّا كان هذا دَأْبَ هؤلاءِ المذكورينَ؛ أنَّهم لا غَرَضَ لهم في اتِّباعِ الحَقِّ، وإنَّما غَرَضُهم ومَقصودُهم ما تَهواه نُفوسُهم؛ أمَرَ اللهُ رَسولَه بالإعراضِ عمَّن تولَّى عن ذِكْرِه، ولم يُرِدْ إلَّا الحياةَ الدُّنيا(٣).

﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا ﴾.

أي: فأعْرِضْ -يا محمَّدُ- عمَّنْ أعرَضَ عن القُرآنِ(٤).

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٦، ١١٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٤).

قال ابن كثير: (قَولُه: ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا ﴾، أي: أعرِضْ عن الَّذي أعرَضَ عن الحَقِّ، واهجُرْه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٨/ ١٦٤).

وقال ابنُ عاشور: (إعراضُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عنهم المأمورُ به: مرادٌ به عَدَمُ الاهتِمامِ بنَجاتِهم؛ لأنَّهم لم يَقبَلوا الإرشادَ، وإلَّا فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مأمورٌ بإدامةِ دَعوتِهم =

= للإيمانِ، فكما كان يَدعوهم قبْلَ نُزولِ هذه الآيةِ فقد دعاهم غيرَ مَرَّةٍ بعدَ نُزولِها، على أنَّ الدَّعوةَ لا تَختَصُّ بهم؛ فإنَّها يَنتَفِعُ بها المؤمِنونَ، ومَن لم يَسبِقْ منه إعراضٌ مِنَ المُشرِكينَ؛ فإنَّهم يَسمَعونَ ما أُنذِرَ به المُعرِضونَ، ويتأمَّلونَ فيما تَصِفُهم به آياتُ القُرآنِ، وبهذا تَعلَمُ أنْ لا عَلاقةَ لهذه الآيةِ وأمثالِها بالمُتارَكةِ، ولا هي مَنسوخةٌ بآياتِ القِتالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٧).

وقال ابنُ عثيمين: (ليس المعنى: أعرِضْ عنه لا تَنصَحْه... معنى أعرِضْ: لا تُبالِ به، ولا يُهِمَّنَّك أمْرُه، ولا تَستَحسِرْ مِن أجْلِ توَلِّيه، بل ادْعُ إلى سَبيلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ أيًّا كان). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٤).

وقال القاسمي: (والمرادُ مِن «الإعراضِ»: هَجْرُهم هَجرًا جَميلًا، وتَرْكُ إيذائِهم. وقَولُ الزَّمخشريِّ: أي: أعرِضْ عن دَعوةِ مَن رأَيْتَه مُعرِضًا عن ذِكرِ اللهِ ... إلخ: لا يَصِحُّ؛ لأنَّ الصَّدعَ بالحَقِّ لا تَسامُحَ فيه، لا سِيَّما والدَّعوةُ للمُعرِضِينَ، وهي تَستَلزِمُ أن يُحاجُّوا به بمُنتَهى الطَّاقةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢]، وإنَّما معنى الآيةِ: فاصفَحْ عنهم، ودَعْ أذاهم في مُقابَلةِ ما يَجهَلونَ به عليك، كما بَيَّنَ ذلك في مواضِعَ مِن التَّنزيلِ، والقُرآنُ يُفَسِّرُ بَعضُه بَعضًا). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٧٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٤).

ممَّن اختار أنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ: ابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، وابنُ عطية، والقُرطبيُّ، والعُلَيمي، والشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٤).

واستظهر الشنقيطيُّ أنَّه كان في أوَّلِ الأمرِ مأمورًا بالإعراضِ عن المُشرِكينَ، ثمَّ نُسِخَ ذلك بآيةِ السَّيفِ، وذَكَرَ أنَّ مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على ذلك قَولَه تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقَولَه: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠]، وقَولَه: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [النجم: ٢٩]، وقَولَه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤٨]. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٢٠).

وقال الرازي: (وأكثَرُ المفَسِّرين يقولونَ بأنَّ كُلَّ ما في القُرآنِ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ﴾ منسوخٌ بآيةِ القَتلِ، وهو باطِلٌ؛ فإنَّ الأمرَ بالإعراضِ مُوافِقٌ لآيةِ القِتالِ، فكيف يُنسَخُ به؟ وذلك لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مأمورًا بالدُّعاءِ بالحِكمةِ والموعِظةِ الحَسَنةِ، فلمَّا عارَضوه بأباطيلِهم قيل له: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ثمَّ لَمَّا لم يَنفَعْ قال له رَبُّه: فأعرِضْ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النساء: ٦٣].

﴿وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المُعْرِضُ في وَقتٍ قد يُقبِلُ في آخَرَ، دَلَّ على دَوامِه على وَجهٍ بَليغٍ، بقَولِه: ﴿وَلَمۡ يُرِدۡ﴾ أي: في وَقتٍ مِنَ الأوقاتِ ﴿إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾[(١)]!

﴿وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: ولم يَطلُبْ إلَّا الحَياةَ الدُّنيا ولَذَّاتِها[(٢)].

﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ٣٠﴾.

﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾.

أي: طَلَبُ الدُّنيا والسَّعيُ لها: هو مُنتهى عِلْمِهم وغايتُه؛ فليس لهم عِلمٌ فَوقَ ذلك[(٣)].

= عنهم، ولا تُقابِلْهم بالدَّليلِ والبُرهانِ؛ فإنَّهم لا يتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ، ولا يتَّبِعونَ الحَقَّ، وقابِلْهم بالإعراضِ عن المُناظَرةِ بشَرطِ جوازِ المُقابَلةِ، فكيف يكونُ مَنسوخًا؟!). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦٠).

والقاعدةُ أنَّ النَّسخَ لا يثبُتُ مع الاحتِمالِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٧٢٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٦٥)، ((تفسير =

كما قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر ما هم عليه؛ أخبَرَ تعالى بأنَّه عالِمٌ بالضَّالِّ والمُهتَدِي، وهو مُجازِيهما[١].

وأيضًا لَمَّا قال تعالى للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أعرِضْ، وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شديدَ المَيلِ إلى إيمانِ قَومِه، وكان رُبَّما هَجَس في خاطِرِه أنَّ في الذِّكرى بَعْدُ مَنفعةً، ورُبَّما يُؤمِنُ مِن الكافِرينَ قَومٌ آخَرونَ مِن غَيرِ قِتالٍ؛ فقال له[٢]:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

أي: إنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- هو أعلَمُ بمَن حادَ عن طَريقِه، فلم يتَّبِعِ الحَقَّ[٣].

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾.

= ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٦).

وممَّن قال بأنَّ المشارَ إليه هو طَلَبُهم الحياةَ الدُّنيا: القرطبيُّ، وابنُ تيميَّة، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المشارُ إليه: ادِّعاؤُهم أنَّ الملائِكةَ بناتُ اللهِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

أي: ورَبُّك -يا محمَّدُ- أعلَمُ بالَّذين اهتَدَوا إلى الحَقِّ[١].

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه أعلَمُ بمَن ضَلَّ وبمَنِ اهتَدَى، وكان هذا رُبَّما أوهَمَ أنَّ مَن ضَلَّ على هذه الحالةِ ليس في قَبضَتِه؛ قال نافيًا لهذا الإبهامِ، مُبَيِّنًا أنَّ له الأسماءَ الحُسنى ومُقتَضياتِها في العالَمِ[٢]:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ولله وَحْدَه مُلْكُ جَميعِ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ[٣].

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾.

أي: لِيَجزيَ اللهُ الَّذين أساؤُوا العَمَلَ جَزاءَ ما عَمِلوه مِن كُفرٍ أو عِصيانٍ[٤].

﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾.

أي: ولِيُثيبَ اللهُ الَّذين أحسَنوا العَمَلَ فآمَنوا به وأطاعوه المَثوبةَ الحُسنى، وهي الجنَّةُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير =

= الزمخشري)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠).

قال ابن جُزَي: (﴿لِيَجْزِيَ﴾ اللَّامُ مُتعلِّقةٌ بمعنى ما قبْلَها، والتَّقديرُ: أنَّ اللهَ مالكُ أمرِ السَّمواتِ والأرضِ ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٩).

وقال القرطبي: (اللَّامُ مُتعلِّقةٌ بالمعنى الَّذي دلَّ عليه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، كأنَّه قال: هو مالكُ ذلك، يَهدي مَن يَشاءُ، ويُضِلُّ مَن يَشاءُ؛ لِيَجزيَ المُحسِنَ بإحسانِه، والمُسيءَ بإساءتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥). وتبِعه الشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٥).

واللَّامُ في قولِه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ ذكر ابنُ عاشور أنَّها لامُ التَّعليلِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٠).

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ مُتعلِّقٌ بمعنَى قولِه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٣٠]، فإذا كان أعْلَمَ بهم، جازى كُلًّا بما يَستحِقُّه؛ لأنَّ نتيجةَ العِلمِ بالضَّالِّ والمُهتدي: جزاؤُهما، وأنَّ ما بيْنَهما اعتِراضٌ. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والرَّسْعَني، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٨٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٤٣، ٤٤٤).

قال الواحدي: (وهي لامُ العاقِبةِ؛ وذلك لأنَّ عِلمَه بالفريقَينِ أدَّى إلى جزائِهم باستِحقاقِهم، وإنَّما يَقدِرُ على مُجازاةِ المُحسِنِ والمُسيءِ إذا كان كثيرَ المِلْكِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٠١).

وذهب ابنُ عطيَّةَ والرَّازيُّ إلى أنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ مُتعلِّقةٌ بقولِه: ﴿ضَلَّ﴾ وبقولِه: ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾، وقولُه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ اعتِراضٌ.

قال ابن عطية: (فكأنَّه قال: لِيَصيرَ أمْرُهم جميعًا إلى أن يجزى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٣).

قال الألوسي: (ولا يخفى بُعْدُه). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٦٠).

وقال الرَّازي: (قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿ضَلَّ﴾ و﴿ٱهْتَدَىٰ﴾، لا بالعِلمِ ولا بخَلقِ ما في السَّمواتِ، تقديرُه كأنَّه قال: هو أعْلَمُ بمَن ضلَّ واهتدى ﴿لِيَجْزِيَ﴾، أي: مَن ضلَّ واهتدى يُجزى الجزاءَ، واللهُ أعلَمُ به). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٨).

وقال البِقاعي: (لَمَّا أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عنهم، وسَلَّاه، وأعلَمَه أنَّ الكُلَّ في مُلكِه، فلو شاء لَهداهم ورَفَع النِّزاعَ، ولكِنَّه له في ذلك حِكَمٌ تَحارُ فيها الأفكارُ- عَلَّل الإعراضَ... بقَولِه تعالى ﴿لِيَجْزِيَ﴾...). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٦٦).

وقيل: إنَّ اللَّامَ مُتعلِّقةٌ بقولِه: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾، قال الشَّوكاني: (وهو بعيدٌ مِن حيثُ اللَّفظُ ومِن حيثُ المعنَى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٥). ويُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي =

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَعَد سُبحانَه الَّذين وَقَع منهم الإحسانُ؛ وصَفَهم فقال[1]:

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾.

أي: الَّذين يَبتَعِدونَ عن كبائِرِ الذُّنوبِ، ويَبتَعِدونَ عن الفواحِشِ، كالزِّنا وعَمَلِ قَومِ لُوطٍ[2].

= (٢/ ٦٩٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٦٠).

و«الحُسْنَى»: الجنَّةُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والعُلَيمي، والشوكاني، وغيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٥).

وقال البيضاوي: (﴿بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ بالمَثوبةِ الحُسنى، وهي الجنَّةُ، أو بأحسَنَ مِن أعمالِهم، أو بسببِ الأعمالِ الحُسنى). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٠).

وقال ابن عثيمين: (﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾... فأنت إذا فعَلْتَ حسَنةً فتَكونُ عَشْرَ حسَناتٍ إلى سَبْعِمِئةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ... ولهذا قال: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾، أي: بما هو أحسَنُ وأكثَرُ مِن عمَلِهم). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص:٢٢٩، ٢٣٠).

وقال السعدي: (﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾ أي: بالحالةِ الحسَنةِ في الدُّنيا والآخرةِ، وأكبَرُ ذلك وأجَلُّه رِضا ربِّهم، والفوزُ بنعيمِ الجنَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٠، ٢٣٢).

وقد اختُلِف في ضابطِ الكبيرةِ على أقوالٍ كثيرةٍ، وأقرَبُ الأقوالِ أنَّها ما يَترتَّبُ عليها حدٌّ في =

= الدُّنيا، أو تُوُعِّدَ عليها بالنَّارِ، أو اللَّعنةِ، أو الغضَبِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١١/ ٦٥٠)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٢٧)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٥٢٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤١٠)، ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) للهيتمي (١/ ٨).

وقال الشنقيطي: (الأظهرُ عندي في ضابطِ الكبيرةِ أنَّها كلُّ ذنْبٍ اقتَرن بما يدُلُّ على أنَّه أعظَمُ مِن مُطلَقِ المعصيةِ، سواءٌ كان ذلك الوعيد عليه بنارٍ أو غضَبٍ أو لعنةٍ أو عذابٍ، أو كان وجوب الحدِّ فيه، أو غير ذلك ممَّا يدُلُّ على تغليظِ التَّحريمِ وتوكيدِه). ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٤).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الفواحشَ مِن الكبائرِ، لكنَّها أعظَمُ قُبحًا، وأشَدُّ فُحشًا، وأقوى إثمًا: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والرَّسْعَني، والنَّسَفي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي، والألوسي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٧).

قال القاسمي: (والعطفُ إمَّا مِن عطفِ أحدِ المُترادِفَينِ، أو الخاصِّ على العامِّ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٧٩).

وقال السعدي: (﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ أي: يَفعلون ما أمَرَهم اللهُ به مِن الواجباتِ، الَّتي يكونُ ترْكُها مِن كبائرِ الذُّنوبِ، ويَترُكون المحرَّماتِ الكِبارَ؛ كالزِّنا، وشُربِ الخَمرِ، وأكلِ الرِّبا، والقتلِ، ونحوِ ذلك مِن الذُّنوبِ العظيمةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

وقال في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الشُّورى: (الفرقُ بيْنَ الكبائرِ والفواحِشِ -معَ أنَّ جميعَهما كبائرُ- أنَّ الفواحشَ هي الذُّنوبُ الكِبارُ الَّتي في النُّفوسِ داعٍ إليها، كالزِّنا ونحوِه، والكبائرَ ما ليس كذلك، هذا عندَ الاقترانِ، وأمَّا مع إفرادِ كلٍّ منهما عنِ الآخَرِ فإنَّ الآخَرَ يَدخُلُ فيه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠).

قال السمرقندي: (قال بعضُهم: ﴿ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ ﴾ يعني: الشِّركَ بالله، ﴿ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ يعني: المعاصيَ. وقال بعضُهم: ﴿ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ بمعنًى واحدٍ؛ لأنَّ كلَّ فاحِشةٍ كبيرةٌ، وكلَّ كبيرةٍ فاحِشةٌ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٣).

كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ...﴾ [الشورى: ٣٦، ٣٧].

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.

أي: إلَّا صَغائِرَ الذُّنوبِ دونَ إصرارٍ عليها، فهي مَعفوٌّ عنها، وليس ذلك بمُخرِجٍ لصاحِبِها مِن جُملةِ المُحسِنينَ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٨، ٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٦-١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ باللَّمَمِ صَغائِرُ الذُّنوبِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، وابن كثير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٨، ٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٣).

وقيل: إنَّ المُرادَ: القُبْلةُ، والغمزةُ، والنَّظرةُ، ونحوُ ذلك. وممَّن قال بهذا مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو هُرَيرةَ، وأبو سعيدٍ الخُدْريُّ، وحُذَيْفةُ بنُ اليَمانِ، ومَسروقٌ، والشَّعْبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠).

وقيل: إنَّ المُرادَ باللَّمَمِ هو ما دونَ حدِّ الدُّنيا وحدِّ الآخرةِ، فليس فيه حدٌّ في الدُّنيا، ولا عذابٌ في الآخرةِ. وممَّن قال بهذا مِن السَّلفِ: ابنُ الزُّبَيرِ، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٢). والأقوالُ المذكورةُ متقاربةٌ.

وقال ابنُ رجب: (في تفسيرِ اللَّمَمِ قَولانِ للسَّلَفِ:

أحدُهما: أنَّه مُقَدِّماتُ الفواحِشِ، كاللَّمسِ والقُبلةِ. وعن ابنِ عبَّاسٍ: هو ما دونَ الحَدِّ مِن وعَيدِ الآخِرةِ بالنَّارِ، وحَدِّ الدُّنيا. والثَّاني: أنَّه الإلمامُ بشَيءٍ مِنَ الفَواحِشِ والكبائِرِ مرَّةً واحِدةً، ثمَّ يتوبُ منه، ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ وأبي هُريرةَ... ومَن فَسَّر الآيةَ بهذا قال: لا بُدَّ أن يتوبَ منه، بخِلافِ مَن فَسَّره بالمقَدِّماتِ؛ فإنَّه لم يَشترِطْ تَوبةً. والظَّاهِرُ أنَّ القولَينِ صَحيحانِ، وأنَّ =

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ما رأيتُ شَيئًا أشبَهَ باللَّمَمِ مِمَّا قال أبو هُرَيرةَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ كَتَب على ابنِ آدَمَ حَظَّه مِنَ الزِّنا، أدرَكَ ذلك لا مَحالةَ؛ فزِنا العَينِ النَّظَرُ، وزِنا اللِّسانِ المَنطِقُ، والنَّفْسُ تَمَنَّى وتَشتَهي، والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلك كُلَّه ويُكَذِّبُه))(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخرَجَ تعالى المُسِيءَ عن المَغفِرةِ؛ بَيَّنَ أنَّ ذلك ليس لضِيقٍ فيها، بل ذلك بمَشيئةِ اللهِ تعالى، ولو أراد اللهُ المَغفِرةَ لكُلِّ مَن أحسَنَ وأساء لَفَعَل، وما كان يَضيقُ عنهم مَغفِرتُه(٢).

وأيضًا لَمَّا كان المُلوكُ لا يَغفِرونَ لِمَن تكَرَّرَتْ ذُنوبُه إليهم وإنْ صَغُرَت، فكان السَّامِعُ يَستَعظِمُ أن يَغفِرَ مَلِكُ المُلوكِ سُبحانَه مِثْلَ هذا؛ عَلَّلَ ذلك بقَولِه تعالى(٣):

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

أي: إنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- واسِعُ المَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم،

= كِلَيْهِما مُرادٌ مِنَ الآيةِ، وحينَئذٍ فالمحسِنُ: هو مَن لا يأتي بكبيرةٍ إلَّا نادِرًا، ثمَّ يتوبُ منها، ومَن إذا أتى بصغيرةٍ كانت مَغمورةً في حَسَناتِه المُكَفِّرةِ لها، ولا بُدَّ ألَّا يكونَ مُصِرًّا عليها، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٤٨، ٤٤٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

قال السعدي: (هذه مع الإتيانِ بالواجباتِ وتَرْكِ المُحَرَّماتِ تَدخُلُ تحتَ مَغفِرةِ اللهِ الَّتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

(١) رواه البخاري (٦٢٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٨).

ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[١].

كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ: ((الصَّلَواتُ الخَمْسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورَمَضانُ إلى رمَضانَ: مُكَفِّراتٌ ما بيْنَهنَّ إذا اجتَنَب الكبائِرَ))[٢].

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

تقريرٌ لِما مَرَّ مِن قَولِه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ [النجم: ٣٠]، كأنَّ العامِلَ مِن الكُفَّارِ يَقولُ: نحن نَعمَلُ أُمورًا في جَوفِ اللَّيلِ المُظلِمِ، وفي البَيتِ الخالي، فكيف

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٤، ٢٣٥).
قال ابنُ عثيمين: (في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الصَّغائِرَ تُغفَرُ، وقد ثَبَت في القُرآنِ الكريم أنَّ الصَّغائِرَ تُغفَرُ باجتِنابِ الكبائِرِ، فقال جلَّ وعلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾. أمَّا إذا قُلْنا: اللَّمَمُ: القَليلُ مِنَ الفَواحِشِ والكبائِرِ، فيَكونُ قَولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ إشارةً إلى أنَّ الكبائِرَ إذا تاب الإنسانُ منها غَفَر اللهُ له، وكأنَّها لم تكُنْ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٥).

(٢) رواه مسلم (٢٣٣).

يَعلَمُه اللهُ تعالى؟! فقال: ليس عَمَلُكم أخفى مِن أحوالِكم وأنتم أجِنَّةٌ في بُطونِ أُمَّهاتِكم، واللهُ عالمٌ بتلك الأحوالِ(١).

وأيضًا فهو تأكيدٌ وبَيانٌ للجَزاءِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا قال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [النجم: ٣١] كأنَّ الكافِرينَ قالوا: هذا الجزاءُ لا يتحَقَّقُ إلَّا بالحَشرِ، وجَمْعِ الأجزاءِ بعدَ تفرُّقِها. وإعادةُ ما كان لِزَيدٍ مِن الأجزاءِ في بَدَنِه مِن غَيرِ اختِلاطٍ: غَيرُ مُمكِنٍ؛ فقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم﴾، فيَجمَعُها بقُدرتِه على وَفْقِ عِلْمِه كما أنشَأَكم(٢).

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾.

أي: ربُّكم أعلَمُ بكم حينَ خَلَق أباكم آدَمَ مِن الأرضِ قبْلَ أن تُوجَدوا، وحينَ كُنتُم حَمْلًا مَستورينَ في بُطونِ أمَّهاتِكم قبْلَ أن تُولَدوا(٣).

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٦، ٢٣٧).

قال السعدي: (أي: هو تعالى أعلَمُ بأحوالِكم كُلِّها، وما جَبَلكم عليه مِنَ الضَّعفِ والخَوَرِ عن كَثيرٍ ممَّا أمرَكم اللهُ به، ومِن كَثرةِ الدَّواعي إلى بَعضِ المحَرَّماتِ، وكثرةِ الجواذِبِ إليها، وعدَمِ الموانِعِ القويَّةِ، والضَّعفُ موجودٌ مُشاهَدٌ منكم حينَ أنشأكم اللهُ مِن الأرضِ، وإذ كنتُم في بُطونِ أمَّهاتِكم، ولم يَزَل موجودًا فيكم، وإنْ كان اللهُ تعالى قد أوجدَ فيكم قوَّةً على ما أمرَكم به، ولكنَّ الضَّعفَ لم يَزَلْ؛ فلِعلمِه تعالى بأحوالِكم هذه ناسبَت الحِكمةُ الإلهيَّةُ والجُودُ الرَّبَّانيُّ أن يتغَمَّدَكم برَحمتِه ومَغفرتِه وعَفْوِه، ويَغمُرَكم بإحسانِه)). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ إنشاءَهم مِنَ الأرضِ يَستلزِمُ ضَعفَ قُدَرِهم عن تحمُّلِ المَشاقِّ مع تفاوُتِ أطوارِ نَشأةِ بني آدمَ، فاللهُ عَلِمَ ذلك، وعَلِمَ أنَّ آخِرَ الأُمَمِ -وهي أمَّةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أضعفُ الأُمَمِ)). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٤).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن عادةِ مَن سَلِمَ مِنَ الذُّنوبِ أن يَفتَخِرَ على مَن قارَفَها -لِما بُنِيَ الإنسانُ عليه مِن محبَّةِ الفَخرِ؛ لِما جُبِلَ عليه مِنَ النُّقصانِ-، وكان حالُه قد يَتبدَّلُ، فيَسبِقُ عليه الكِتابُ فيَشقَى- سَبَّبَ عن ذلك قَولَه تعالى[1]:

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.

أي: فلا تَشهَدوا لأنفُسِكم بالبَراءةِ مِنَ الذُّنوبِ والآثامِ، أو تَمدَحوها بحُسنِ الأعمالِ[2].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا * ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٤٩، ٥٠].

وعن مُحمَّدِ بنِ عَمرِو بنِ عَطاءٍ، قال: سَمَّيتُ ابنَتي بَرَّةَ، فقالت لي زَينبُ بنتُ أبي سَلَمةَ: ((إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نهى عن هذا الاسمِ، وسُمِّيتُ بَرَّةَ، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا تُزَكُّوا أنفُسَكم؛ اللهُ أعلَمُ بأهلِ البِرِّ منكم! فقالوا: بمَ نُسَمِّيها؟ قال: سَمُّوها زَينبَ))[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٩٨)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٧).

قال ابن عاشور: (ويَشمَلُ تَزكيةَ المَرءِ غَيرَه، فيَرجِعُ ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾ إلى معنى: قَومَكم أو جماعتَكم، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النور: ٦١]، أي: لِيُسَلِّمْ بَعضُكم على بَعضٍ. والمعنى: فلا يُثْنِ بَعضُكم على بَعضٍ بالصَّلاحِ والطَّاعةِ؛ لئَلَّا يَغُرَّه ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٤٢).

وعن أبي بَكْرةَ الثَّقفيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: أَثْنَى رَجُلٌ على رَجُلٍ عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ((وَيْلَك! قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبك، قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبك -مِرارًا-، ثمَّ قال: مَن كان مِنْكم مادِحًا أخاه لا مَحالةَ فلْيَقُلْ: أحسَبُ فُلانًا، واللهُ حَسيبُه[1]، ولا أُزَكِّي على اللهِ أحدًا[2]، أحسَبُه كذا وكذا، إنْ كان يَعلَمُ ذلك منه))[3].

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

أي: اللهُ أعلَمُ بمَن اتَّقى سَخَطَه وعَذابَه مِنْكم، فامتثَلَ أوامِرَه، واجتنَبَ نواهيَه[4].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مَنَع اللهُ تعالى مِنَ الظَّنِّ في ثلاثةِ مَواضِعَ، وفي جميعِ تلك المواضِعِ كان المَنعُ عَقيبَ التَّسميةِ والدُّعاءِ باسمٍ؛ مَوضِعانِ منها في هذه السُّورةِ، أحَدُهما: قَولُه تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٣]، والثَّاني: قَولُه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨]، والثَّالِثُ: في (الحُجُراتِ)، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١١، ١٢] عَقِيبَ الدُّعاءِ باللَّقَبِ، وكُلُّ ذلك دليلٌ على أنَّ حِفظَ اللِّسانِ أَولى مِن حِفظِ

---

(١) أي: كافِيه، أو يكون فَعِيلٌ مِن الحِسابِ، أي: مُحاسِبُه على عمَلِه الَّذي يَعلَمُ حقيقتَه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٧٧).

(٢) أي: لا أقطعُ على عاقِبةِ أحدٍ، ولا على ما في ضميرِه؛ لكونِ ذلك مُغيَّبًا عنه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٦٢) واللَّفظُ له، ومسلم (٣٠٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٠).

غَيرِه مِنَ الأركانِ، وأنَّ الكَذِبَ أقبَحُ مِنَ السَّيِّئاتِ الظَّاهِرةِ مِن الأيدي والأرجُلِ، وهذه المواضِعُ الثَّلاثةُ: أحَدُها: مَدحُ مَن لا يَستَحِقُّ المدحَ، كاللَّاتِ والعُزَّى مِنَ العِزِّ. وثانيها: ذَمُّ مَن لا يَستَحِقُّ الذَّمَّ، وهم الملائِكةُ الَّذين هم عِبادُ الرَّحمنِ، يُسَمُّونَهم تَسميةَ الأُنثى. وثالِثُها: ذَمُّ مَن لم يُعلَمْ حالُه. وأمَّا مَدحُ مَن يُعلَمُ حالُه فلم يَقُلْ فيه: لا يتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ، بل الظَّنُّ فيه مُعتَبَرٌ، والأخذُ بظاهِرِ حالِ العاقِلِ واجِبٌ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ الاستِثناءُ هنا بمعنى الاستِدراكِ. ووَجهُه: أنَّ ما سُمِّيَ باللَّمَمِ: ضَربٌ مِنَ المعاصي المحَذَّرِ منها في الدِّينِ؛ فقد يَظُنُّ النَّاسُ أنَّ النَّهيَ عنها يُلحِقُها بكبائِرِ الإثمِ؛ فلذلك حَقَّ الاستِدراكُ، وفائدةُ هذا الاستِدراكِ عامَّةٌ وخاصَّةٌ؛ أمَّا العامَّةُ فلِكَيلا يُعامِلَ المُسلِمونَ مُرتَكِبَ شَيءٍ منها مُعامَلةَ مَن يَرتَكِبُ الكبائِرَ. وأمَّا الخاصَّةُ فرَحمةٌ بالمُسلِمينَ الَّذين قد يَرتَكِبونَها؛ فلا يَفُلُّ ارتِكابُها مِن نَشاطِ طاعةِ المُسلِمِ، ولِيَنصَرِفَ اهتِمامُه إلى تجنُّبِ الكبائِرِ؛ فهذا الاستِدراكُ بِشارةٌ لهم، وليس المعنى أنَّ اللهَ رَخَّص في إتيانِ اللَّمَمِ[٢]!

٣- صرَّح الله تعالى بالنَّهيِ العامِّ عن تزكيةِ النَّفْسِ في قَولِه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾، وأحْرَى نَفْسُ الكافِرِ الَّتي هي أخَسُّ شَيءٍ وأنجَسُه[٣]! وفيه تحذيرٌ للمُؤمِنينَ مِن العُجْبِ بأعمالِهم الحَسَنةِ عُجبًا يُحدِثُه المَرءُ في نَفْسِه، أو يُدخِلُه أحَدٌ على غيرِه بالثَّناءِ عليه بعَمَلِه، ويَشمَلُ ذلك ذِكرَ المَرءِ أعمالَه الصَّالِحةَ للتَّفاخُرِ بها، أو إظهارَها للنَّاسِ، ولا يجوزُ ذلك إلَّا إذا كان فيه جَلبُ مَصلحةٍ عامَّةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥).

٤- إنَّ تزكيةَ الإنسانِ نَفْسَه ضَربانِ؛ أحَدُهما: بالفِعلِ، وهو مَحمودٌ، وإليه قُصِدَ بقَولِه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، والثَّاني: بالقَولِ -كتَزكيةِ العَدلِ غَيرَه-، وذلك مذمومٌ أن يَفعَلَ الإنسانُ بنَفْسِه، وقد نهى اللهُ تعالى عنه بقَولِه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾، ونَهيُه عن ذلك تأديبٌ؛ لِقُبحِ مَدحِ الإنسانِ نَفْسَه عَقلًا وشَرعًا؛ ولهذا قيل لحَكيمٍ: ما الَّذي لا يَحسُنُ وإنْ كان حقًّا؟ فقال: مَدْحُ الإنسانِ نَفْسَه[1]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ إشارةٌ إلى وُجوبِ الخَوفِ مِن العاقِبةِ، أي: لا تَقطَعوا بخَلاصِكم أيُّها المُؤمِنونَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَعلَمُ عاقِبةَ مَن يكونُ على التُّقَى، وهذا يؤيِّدُ قَولَ مَن يَقولُ: «أنا مؤمِنٌ إن شاء اللهُ»؛ للصَّرفِ إلى العاقِبةِ[2].

٦- أنَّ المؤمِنَ مع المؤمِنِ بمَنزلةِ العُضوِ مع العُضوِ اللَّذَينِ تَجمَعُهما نَفْسٌ واحِدةٌ؛ ولهذا سَمَّى اللهُ تعالى الأخَ المؤمِنَ نَفْسًا لأخيه في غَيرِ مَوضِعٍ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[3]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ إنْ قال قائِلٌ: أليس اللهُ تعالى يقولُ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]؟

الجوابُ: بلى، لكِنْ معنى: ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: مَن عَمِلَ عملًا تَزكُو به نَفْسُه، وليس معنى مَن زَكَّاها: مَن أَثنَى عليها ومَدَحَها بأنَّها عَمِلَت وعَمِلَت! بلِ المرادُ عَمِلَ عَمَلًا تَزكُو به نَفْسُه؛ فلا مُعارَضةَ بيْنَ الآيتَينِ، والتَّزكيةُ الَّتي يُذَمُّ عليها أنْ

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٨).

يُدِلَّ بعَمَلِه على ربِّه، ويَمدَحَ وكأنَّه يَمُنُّ على اللهِ! يقولُ: صَلَّيتُ، وتصَدَّقتُ، وصُمْتُ، وحَجَجْتُ، وجاهَدْتُ، وبَرَرتُ والديَّ، وما أشْبَهَ ذلك؛ فلا يجوزُ للإنسانِ أنْ يُزَكِّيَ نَفْسَه[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ رَدٌّ على أولئك الصُّوفيَّةِ الَّذين يَدَّعونَ أنَّهم أئِمَّةٌ، ويُزَكُّون أنْفُسَهم، ويقولونَ: وصَلْنا إلى حَدٍّ لا تَلْزَمُنا الطَّاعةُ! وصَلْنا إلى عالَمِ المَلَكوتِ؛ فليس علينا صَلاةٌ ولا صَدَقةٌ ولا صيامٌ، ولا يَحْرُمُ علينا شَيءٌ! وهؤلاء مُنسَلِخونَ مِنَ الدِّينِ انسِلاخًا تامًّا؛ ولذلك نقولُ: هؤلاء الَّذين يُزَكُّون أنْفُسَهم هم أبعَدُ النَّاسِ عن الزَّكاةِ؛ لأنَّهم أُعجِبوا بأعمالِهم، وأَدَلُّوا بها على اللهِ عزَّ وجلَّ، وجَعلوا لأنْفُسِهم مَنصِبًا لم يَجعَلْه اللهُ تعالى لهم، ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ كأنَّه يقولُ: لماذا تُزَكُّون أنْفُسَكم؟ أتُريدونَ أنْ تُعْلِموا اللهَ بما أنتم عليه؟! الجوابُ: لا؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، يعني: إنْ كنتَ مُتَّقيًا للهِ فاللهُ أعلَمُ بك، ولا حاجةَ أنْ تَقولَ للهِ: إنِّي فعَلْتُ وفعَلْتُ[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي: لا تَصِفُوها بالزَّكاةِ افتِخارًا، وأمَّا التَّحَدُّثُ بنِعمةِ اللهِ على العَبدِ، مِثلُ أنْ يقولَ القائلُ: إنَّه كان مُسرِفًا على نَفْسِه، كان مُنحَرِفًا، فهداه اللهُ ووَفَّقَه ولَزِمَ الاستِقامةَ؛ تحدُّثًا بنِعمةِ اللهِ، لا تزكيةً لنَفْسِه- فإنَّ هذا لا بأسَ به، ولا حَرَجَ فيه؛ أنْ يَذْكُرَ الإنسانُ نِعمةَ اللهِ عليه في الهِدايةِ والتَّوفيقِ، كما أنَّه لا حَرَجَ أنْ يَذْكُرَ نِعمةَ اللهِ عليه بالغِنى بعدَ الفَقرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٥٢١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قولُه: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ صِفةٌ لـ﴿مَّلَكٍ﴾، والمقصودُ منها بَيانُ شَرَفِ الملائكةِ بشَرَفِ العالَمِ الَّذي هم أهلُه، وهو عالَمُ الفضائلِ ومنازِلِ الأسرارِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أمورٌ كُلُّها تُشيرُ إلى عِظَمِ الأمرِ:

أحَدُها: «كم»؛ فإنَّه للتَّكثيرِ.

ثانيها: لَفظُ «المَلَك»؛ فإنَّه أشرَفُ أجناسِ المخلوقاتِ.

ثالِثُها: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ فإنَّها إشارةٌ إلى عُلُوِّ مَنزِلتِهم، ودُنُوِّ مَرتبتِهم مِن مَقَرِّ السَّعادةِ.

رابعُها: اجتِماعُهم على الأمرِ في قَولِه: ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾. وكُلُّ ذلك لبيانِ فَسادِ قَولِهم: إنَّ الأصنامَ يَشفَعونَ[٢]، كأنَّه يقولُ: الملائكةُ الكرامُ لا تُغْني شفاعتُهم شيئًا إلَّا بإذْنِ الله، فكيفَ أوثانُكم[٣]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ نفَى سُبحانَه أنْ تُغْنِيَ شفاعةُ الملائكةِ الَّذين في السَّماءِ إلَّا مِن بعدِ إذْنِه؛ تنبيهًا بذلك على أنَّ مَن دَونَهم أَولى ألَّا تُغنِيَ شَفاعتُهم؛ فإنَّ المُشرِكينَ كانوا يقولونَ عن الأصنامِ: إنَّها تَشفَعُ لهم[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((الاستغاثة في الرد على البكري)) لابن تيمية (ص: ٢٣١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾ أُفرِدَت الشَّفاعةُ؛ لأنَّها مَصدَرٌ، ولأنَّهم لو شَفَع جَميعُهم لواحدٍ لم تُغْنِ شَفاعتُهم عنه شيئًا[١]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ أنَّ للشَّفاعةِ شَرطَينِ؛ الأوَّلُ: الإذْنُ مِنَ اللهِ تعالى؛ لِقَولِه: ﴿أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾. والثَّاني: رِضاه عنِ الشَّافعِ والمَشفوعِ له؛ لِقَولِه: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]؛ فلا بُدَّ مِن إذْنِه تعالى، ورِضاهُ عنِ الشَّافعِ والمَشفوعِ له، إلَّا في التَّخفيفِ عن أبي طالبٍ كما جاء في الحَديثِ[٢]، فالمُشرِكونَ إذَنْ لا نَصيبَ لهم مِن شَفاعةِ الشَّافِعينَ، وقد سَدُّوا على أنفُسِهم رَحمةَ أرحَمِ الرَّاحِمينَ[٣]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ أنَّه لَمَّا كان المَلِكُ قد يأذَنُ في الشَّفاعةِ وهو كارِهٌ، قال مُعْلِمًا أنَّه ليس كأولئك؛ فحينَئذٍ تُغْني شَفاعتُهم إذا كانوا مِن المأذونِ لهم، كلُّ هذا قَطعًا لأطماعِهم وعن قَولِهم بمُجَرَّدِ الهوى: إنَّ آلهتَهم تَشفَعُ لهم[٤]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ سُؤالٌ: كيف يَصِحُّ أن يُقالَ: «إنَّهم لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ» مع أنَّهم كانوا يقولونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وكان مِن عادتِهم أن يَربِطوا مَركوبًا على قَبرِ مَن يموتُ، ويَعتَقِدونَ أنَّه يُحشَرُ عليه؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٣٦).

ويُنظر ما أخرجه البخاريُّ (٣٨٨٥) ومسلمٌ (٢١٠) من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٣).

الجوابُ مِن وَجهينِ:

أحَدُهما: أنَّهم لَمَّا كانوا لا يَجزِمونَ به؛ كانوا يقولونَ: لا حَشْرَ، فإنْ كان فَلَنا شُفَعاءُ، يدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

ثانيهما: أنَّهم ما كانوا يَعترِفونَ بالآخرةِ على الوَجهِ الحَقِّ، وهو ما وَرَد به الرُّسُلُ(١).

ويمكنُ أن يُقالَ: إنَّهم كانوا يَطلُبون بعبادةِ الأصنامِ الشَّفاعةَ لِيَتحقَّقَ لهم ما يَطلُبون في الدُّنيا مِن أرزاقٍ ومكاسِبَ وعافيةٍ ونصْرٍ... إلخ.

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ سؤالٌ: كيف أنَّ الظَّنَّ لا يَقومُ مَقامَ العِلمِ مع أنَّه يقومُ مَقامَه في كثيرٍ مِنَ المسائِلِ كالقياسِ؟

الجوابُ: المرادُ هنا: الظَّنُّ الحاصِلُ مِن اتِّباعِ الهوى، دونَ الظَّنِّ الحاصِلِ مِنَ الاستِدلالِ والنَّظَرِ، بقَرينةِ قَولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾(٢) [النجم: ٢٣].

٩- قَولُ مَن قال: إنَّه لا يجوزُ العَمَلُ بالظَّنِّ في المسائِلِ الفِقهيَّةِ وغَيرِها: خَطَأٌ؛ لأنَّ كثيرًا من المسائِلِ الفِقهيَّةِ ظَنِّيَّةٌ؛ إمَّا لخفاءِ الدَّليلِ، أو خفاءِ الدَّلالةِ: ليس كُلُّ مَسألةٍ في الفَقهِ يَقولُ بها الإنسانُ على سبيلِ اليقينِ أبَدًا، بل بَعضُها يَقينٌ وبَعضُها ظَنٌّ، والظَّنُّ إذا تعذَّرَ اليَقينُ: مِمَّا أحَلَّ اللهُ، ومِن نِعمةِ اللهِ أنَّه إذا تعَذَّر اليقينُ رجَعْنا إلى غَلَبةِ الظَّنِّ، فليس كلُّ ظَنٍّ مُنكَرًا، لكِنَّ الظَّنَّ الَّذي ليس له أصلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٠).

يُبنَى عليه: مُنكَرٌ[(١)].

١٠- الظَّنُّ يُطلَقُ في لُغةِ العَرَبِ الَّتي نزل بها القُرآنُ على معنيَينِ:

أحَدُهما: الشَّكُّ المستوي الطَّرَفَينِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾، وقَولِه تعالى عن الكُفَّارِ: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، وقولِه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

والثَّاني: هو إطلاقُ الظَّنِّ مُرادًا به العِلمُ واليَقينُ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [فصلت: ٤٨] أي: أيقَنوا أنَّهم ليس لهم يومَ القيامةِ مَحيصٌ، وقولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي: يوقِنون أنَّهم مُلاقو اللهِ، وقولُه: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ * ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦]، وقولُه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩، ٢٠] أي: أيقنتُ ذلك[(٢)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ لطيفةٌ: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان كالطَّبيبِ للقُلوبِ؛ فقد أتَى على ترتيبِ الأطِبَّاءِ في أنَّ المَرَضَ إذا أمكَنَ إصلاحُه بالغِذاءِ لا يَستَعمِلونَ الدَّواءَ القَويَّ، ثمَّ إذا عَجَز عن المُداواةِ بالمشروباتِ وغَيرِها عَدَلوا إلى الحديدِ والكَيِّ، كما قيل: آخِرُ الدَّواءِ الكَيُّ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٢٣). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٠) و (٧/ ٣٥).

فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أوَّلًا: أمَرَ القُلوبَ بذِكرِ اللهِ فحَسْبُ؛ فإنَّ بذِكرِ اللهِ تَطمَئِنُّ القُلوبُ، كما أنَّ بالغِذاءِ تَطمَئِنُّ النُّفوسُ؛ فالذِّكرُ غِذاءُ القَلبِ؛ ولهذا قال أوَّلًا: قولوا: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» أمَرَ بالذِّكرِ لِمَن انتَفَع، مِثلُ أبي بَكرٍ وغَيرِه مِمَّن انتَفَع، ومَن لم ينتَفِعْ ذَكَر لهم الدَّليلَ، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، ﴿ قُلِ انظُرُوا ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ [الغاشية: ١٧] إلى غيرِ ذلك، ثمَّ أتى بالوَعيدِ والتَّهديدِ، فلَمَّا لم يَنفَعْهم قال: أعرِضْ عن المعالَجةِ، واقطَعِ الفاسِدَ؛ لئَلَّا يُفسِدَ الصَّالحَ[(١)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ سؤالٌ: أنَّ اللهَ تعالى بَيَّنَ أنَّ غايتَهم ذلك، و﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، والمجنونُ الَّذي لا عِلْمَ له والصَّبيُّ لا يُؤمَرُ بما فوقَ احتِمالِه، فكيف يُعاقِبُهم اللهُ؟

الجوابُ: ذَكَر سُبحانَه قبْلَ ذلك أنَّهم تولَّوا عن ذِكرِ اللهِ، فكان عدَمُ عِلْمِهم لعَدَمِ قَبولِهم العِلمَ، وإنَّما قَدَّرَ اللهُ تولِّيَهم؛ لِيُضافَ الجَهلُ إلى ذلك، فيُحَقَّقَ العِقابُ[(٢)].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ صيغةَ التَّفضيلِ -الَّتي هي: ﴿أَعْلَمُ ﴾ في هذه الآيةِ- يُرادُ بها مُطلَقُ الوَصفِ لا التَّفضيلُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يُشارِكُه أحَدٌ في عِلمِ ما يَصيرُ إليه خَلْقُه مِن شَقاوةٍ وسَعادةٍ[(٣)].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ إنَّما بَيَّنَ اللهُ سُبحانَه وتعالى أنَّه أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن سَبيلِه، وبمَنِ اهتدَى؛ لفائدتَينِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٦).

الفائدةُ الأُولى: أنْ نَعلَمَ أنَّ ما وَقَعَ مِن الضَّلالِ والهدايةِ فهو صادِرٌ عن علمِ اللهِ تعالى، وبإرادتِه؛ إذ لا يُمكِنُ أنْ يوجَدَ في خَلْقِه خِلافُ مَعلومِه تعالى.

الفائدةُ الثَّانيةُ: التَّحذيرُ مِن الضَّلالِ، والتَّرغيبُ في الاهتِداءِ، ما دام الإنسانُ يَعلَمُ أنَّ أيَّ عَمَلٍ صَدَرَ منه فعِلْمُه عندَ اللهِ فإنَّه سوف يَخشَى أنْ يَعصِيَ اللهَ، وسوف يَسعَى أنْ يُرضِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ، كأنه يقولُ: إنْ ضَلَلْتَ فاللهُ أعلمُ بك، وإنِ اهتديتَ فاللهُ أعلمُ بك؛ فيَجزي الَّذين أساؤوا بما عَمِلوا، ويَجزي الَّذين أحسَنوا بالحُسنى[(١)].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ عَبَّرَ بالرَّبِّ؛ إشارةً إلى أنَّ ضلالَ هذا مِنَ الإحسانِ إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لو دخل في دينِه لأفسَدَ أكثَرَ مِمَّا يُصلِحُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾[(٢)] [التوبة: ٤٧].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنه سُبحانَه مالِكٌ لِذَواتِهما، ومالِكٌ لِمَا فيهما أيضًا، يتصرَّفُ فيه كما يشاءُ حسَبَ ما تقتضيه حكمتُه. وإيمانُنا بأنَّ للهِ مُلْكَ السَّمَواتِ والأرضِ يُفيدُ فائدتَينِ عظيمتَينِ:

الفائدة الأُولى: الرِّضا بقضاءِ اللهِ تعالى؛ لأنَّك ملْكُه، فهو كما يَتصرَّفُ في السَّحابِ يُمْطِرُ أو لا يُمطِرُ، يَمضي أو لا يَمضي، ويَتصرَّفُ في الشَّمسِ والقمرِ، ويَتصرَّفُ في المخلوقاتِ؛ يَتصرَّفُ فيك أيضًا كما يشاءُ، إنْ شاء أعطاك صحَّةً، وإنْ شاء سَلَبَها، إنْ شاء أعطاك عقلًا، وإنْ شاء سَلَبَك، إنْ شاء أعطاك مالًا، وإنْ شاء سَلَبَك، أنت ملْكُه، فإذا آمنتَ بهذا رضيتَ بقضائِه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٥).

الفائدة الثَّانية: الرِّضا بشرْعِه، وقَبولُ شرْعِه، والقيامُ به؛ لأنك ملْكُه، إذا قال لك: افعلْ فافعلْ، وإذا قال: لا تفعلْ فلا تفعلْ، فإذا عصيتَ ربَّك -إمَّا بفعلِ مُحَرَّم، وإمَّا بتركِ واجبٍ- فإنَّك خرجتَ عن مُقتضى العبوديَّةِ التَّامَّة؛ لأنَّ مقتضى العبوديَّةِ التَّامَّةِ أنْ تَخضَعَ لشرْعِه كما أنَّك خاضعٌ كرهًا أو طَوعًا لقضائه وقَدَرِه، فليس معنى قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أنْ يُخبرَنا أنه مالكٌ فقط! لكنْ مِن أجْلِ أنْ نعتقدَ مُقتضى هذا المُلْكِ، وهو الرِّضا بقضائِه، والرِّضا بشرْعِه، هذه حقيقةُ المُلْكِ[(١)].

١٧- إنَّ وُقوعَ الذَّنْبِ مع تَعَقُّبِه بالتَّوبةِ والاستِغفارِ لا يَقدَحُ في كَونِ الرَّجُلِ مِن المُقَرَّبينَ السَّابقينَ ولا الأبرارِ، ولا يَلْحَقُه بذلك وعيدٌ في الآخرةِ، فضلًا عن أنْ يَجعلَه مِن الفُجَّارِ، وقد قال تعالى في عُمومِ وَصْفِ المؤمنينَ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[(٢)].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أنَّ السَّيِّئَةَ لا يُجازَى الإنسانُ بأكثرَ منها[(٣)]، فحينَ ذَكَر سُبحانَه جزاءَ المُسيءِ قال: ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾، وحينَ ذكَرَ جزاءَ المُحسِنِ أتَى بالصِّفةِ الَّتي تَقتَضي التَّفضُّلَ، وتدُلُّ على الكَرَمِ والزِّيادةِ للمُحسِنِ ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾، وهي كقَولِه تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[(٤)] [العنكبوت: ٧]، فقال تعالى: ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ ولم يَقُلْ: «بما عَمِلوا»؛ لأنَّ فَضْلَ اللهِ أوسعُ مِن أعمالِنا، فأنت إذا فعَلْتَ حَسَنةً فتكونُ عشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعِمِئةِ ضِعْفٍ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠).

أضعافٍ كثيرةٍ، وهذا يَدُلُّك على سَعةِ فضلِ اللهِ عزَّ وجلَّ وإحسانِه وكمالِ عدلِه[١]!

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ بَيانُ المُسيءِ والمُحسِنِ؛ لأنَّ مَن لا يجتَنِبُ كبائرَ الإثمِ يكونُ مُسيئًا، والَّذي يجتَنِبُها يكونُ مُحسِنًا، وعلى هذا ففيه لَطيفةٌ: وهي أنَّ المُحسِنَ لَمَّا كان هو مَن يجتَنِبُ الآثامَ، فالَّذي يأتي بالنَّوافِلِ يكونُ فَوقَ المُحسِنِ، واللهُ تعالى وَعَد المُحسِنَ بالزِّيادةِ؛ فالَّذي فَوقَه يكونُ له زياداتٌ فَوقَها، وهم الَّذين لهم جزاءُ الضِّعفِ[٢].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وَصْفُ اللهِ المُحسِنينَ باجتِنابِ الكبائرِ[٣]، فقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ صِفةٌ لـ﴿ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾، أي: الَّذين أحسَنوا واجتَنَبوا كبائرَ الإثمِ والفواحِشَ، أي: فَعَلوا الحَسَناتِ واجتَنَبوا المَنهيَّاتِ؛ وذلك جامعُ التَّقْوى. وهذا تنبيهٌ على أنَّ اجتِنابَ ما ذُكِرَ يُعَدُّ مِنَ الإحسانِ؛ لأنَّ فِعلَ السَّيِّئاتِ يُنافي وَصْفَهم بالَّذين أحسَنوا؛ فإنَّهم إذا أتَوا بالحَسَناتِ كُلِّها ولم يَترُكوا السَّيِّئاتِ، كان فِعْلُهم السَّيِّئاتِ غَيرَ إحسانٍ، ولو تَرَكوا السَّيِّئاتِ وتَرَكوا الحَسَناتِ كان تَركُهم الحَسَناتِ سَيِّئاتٍ[٤].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ أنَّ مِن الذُّنوبِ كَبائِرَ وصَغائِرَ[٥]، وفي قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ دَلالةٌ على عَدَمِ المساواةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن رجب الحنبلي)) (١/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٠).

(٥) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢٥).

بيْنَ المعاصي[١].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ ...﴾ الآيةَ: تَكفيرُ الصَّغائِرِ باجتِنابِ الكبائِرِ[٢].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ سُؤالٌ: إذا ذُكِرَتِ الكبائِرُ، فما الفواحِشُ بَعْدَها؟

الجوابُ: الكبائِرُ إشارةٌ إلى ما فيها مِن مِقدارِ السَّيِّئةِ، والفواحِشُ إشارةٌ إلى ما فيها مِن وَصفِ القُبحِ، كأنَّه قال: «عظيمةُ المقاديرِ، قَبيحةُ الصُّوَرِ»، والفاحِشُ في اللُّغةِ مُختَصٌّ بالقَبيحِ الخارِجِ قُبحُه عن حَدِّ الخَفاءِ، ولهذا لم يَقُل: «الفواحِشَ مِن الإثمِ»، وقال في الكبائِرِ: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾؛ لأنَّ الكبائِرَ إنْ لم يُمَيِّزْها بالإضافةِ إلى الإثمِ لَمَا حَصَل المقصودُ، بخِلافِ الفواحِشِ[٣].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ أنَّ الكبائرَ تختلِفُ؛ وأنَّ الفواحشَ تختلفُ، لأنَّ الكبائرَ وَصْفٌ؛ كلمَّا كان أعظمَ صار أشدَّ كبيرةً، والفواحشُ كذلك، وفي قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] فَرَّقَ اللهُ بيْنَها -معَ أنَّها كلَّها فواحشُ- لكنَّ بعضَها أعظمُ مِن بعضٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٠).

ويُنظر ما تقدَّم في حاشية تفسير الآية (ص: ٤٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٢).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أنَّه تعالى عالِمٌ بكُلِّ شَيءٍ قبْلَ وُقوعِه؛ فهو يَعلَمُ ما سيَعمَلُه الخَلقُ[١].

٢٦- قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ المعنى أنَّ الضَّعْفَ المُقتَضِيَ لسَعةِ التَّجاوُزِ بالمَغفِرةِ مُقرَّرٌ في عِلمِ اللهِ مِن حينِ إنشاءِ آدَمَ مِنَ الأرضِ بالضَّعفِ الملازِمِ لجِنسِ البَشَرِ على تفاوُتٍ فيه؛ قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]؛ فإنَّ إنشاءَ أصلِ الإنسانِ مِن الأرضِ -وهي عُنصُرٌ ضَعيفٌ- يَقتَضي ملازَمةَ الضَّعفِ لجَميعِ الأفرادِ المنحَدِرةِ مِن ذلك الأصلِ[٢].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ تَنبيهٌ على كَمالِ العِلمِ والقُدرةِ؛ فإنَّ بَطنَ الأُمِّ في غايةِ الظُّلمةِ، ومَن عَلِمَ بحالِ الجَنينِ فيها لا يَخفَى عليه ما ظَهَر مِن حالِ العِبادِ[٣].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ دَليلٌ على تثبيتِ نَسَبِ ولدِ الزِّنا مِن أُمِّه، ومُغْنٍ عن قياسِه على وَلَدِ المُلاعَنةِ؛ لِدُخولِ ولَدِ الزِّنا -لا محالةَ- في هذا الخِطابِ، ونِسبتِه جلَّ وتعالى جميعَ الأَجِنَّةِ إلى الأُمَّهاتِ[٤].

٢٩- قَولُه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ دليلٌ على أنَّ الزَّكاةَ هي التَّقْوى، وعُلِم مِن ذلك أنَّ التَّزكيةَ هي الإخبارُ بالتَّقوى[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٤).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٩١) و (١٦/ ١٩٩).

يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ لَمَّا بيَّنَ اللهُ أنَّ أُمورَ الدَّارَينِ بيَدِ اللهِ تعالى، وأنْ ليس للإنسانِ ما تَمنَّى، ضرَبَ لذلك مِثالًا مِن الأمانيِّ الَّتي هي أعظَمُ أمانيِّ المُشرِكين؛ وهي قولُهم في الأصنام: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]، وقولُهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، فبيَّنَ إبطالَ قولِهم بطَريقِ فَحوى الخِطابِ؛ وهو أنَّ الملائكةَ الَّذين لهم شرَفُ المَنزلةِ -لأنَّ الملائكةَ مِن سُكَّانِ السَّمواتِ، فهمْ لا يَسْتطيعون إنكارَ أنَّهم أشرَفُ مِن الأصنامِ- لا يَملِكون الشَّفاعةَ إلَّا إذا أذِنَ اللهُ أنْ يُشفَعَ إذا شاء أنْ يَقبَلَ الشَّفاعةَ في المَشفوعِ له، فكيف يكونُ للمُشرِكينَ ما تَمنَّوا مِن شَفاعةِ الأصنامِ للمشركينَ الَّذين يَقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، وهي حِجارةٌ في الأرضِ، وليست مَلائكةً في السَّمواتِ؟! فثبَتَ أنْ لا شَفاعةَ إلَّا لِمَن شاء اللهُ، وقد نفَى اللهُ شَفاعةَ الأصنامِ، فبَطَلَ اعتقادُ المشرِكينَ أنَّهم شُفعاؤُهم، فهذه مُناسَبةُ عطْفِ هذه الجُملةِ على جُملةِ ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ [النجم: ٢٤]، وليس هذا الانتِقالُ اقتضابًا لبَيانِ عِظَمِ أمْرِ الشَّفاعةِ(١).

- وفي هذا إقناطٌ لهم عمَّا علَّقوا به أطماعَهم مِن شَفاعةِ الملائكةِ لهم، مُوجِبٌ لإقناطِهم مِن شَفاعةِ الأصنامِ بطَريقِ الأَولويَّةِ(٢).

- وجُملةُ ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ... ﴾ إلخ، خبَرٌ عن (كَمْ)، أي: لا تُغْني شَفاعةُ أحدِهم، فهو عامٌّ؛ لوُقوعِ الفِعلِ في سِياقِ النَّفْيِ، ولإضافةِ شَفاعةٍ إلى ضَميرِهم، أي: جَميعُ الملائكةِ -على كَثرتِهم وعُلوِّ مِقدارِهم- لا تُغْني شَفاعةُ واحدٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٢، ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٠).

منهم[(١)].

- و﴿شَيۡـٔٗا﴾ مَفعولٌ مُطلَقٌ -أي: لم تُذكَرْ مُتعلَّقاتُه- للتَّعميمِ، أي: شيئًا مِن الإغناءِ؛ لِزيادةِ التَّنصيصِ على عُمومِ نفْيِ إغناءِ شَفاعتِهم[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ لم يقُلْ: (لا يَشفَعون)، مع أنَّ دَعْواهم: أنَّ هؤلاء شُفعاؤُنا، لا أنَّ شَفاعتَهم تَنفَعُ أو تُغْني، وقد قال تَعالى -في مواضِعَ أُخَرَ-: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ فنَفَى الشَّفاعةَ بدونِ الإذْنِ، وقال: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]؛ فنَفَى الشَّفيعَ، وهاهنا نَفى الإغناءَ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّهم كانوا يَقولون: هؤلاء شُفعاؤُنا، وكانوا يَعتقِدون نفْعَ شَفاعتِهم، كما قال تَعالى: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ثمَّ نقولُ: نفْيُ دَعواهم يَشتمِلُ على فائدةٍ عَظيمةٍ، أمَّا نفْيُ دَعواهم؛ لأنَّهم قالوا: الأصنامُ تَشفَعُ لنا شَفاعةً مُقرِّبةً مُغْنيةً! فقال: لا تُغْني شَفاعتُهم؛ بدليلِ أنَّ شَفاعةَ الملائكةِ لا تُغْني، وأمَّا الفائدةُ فلأنَّه لَمَّا استَثْنى بقولِه: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾، أي: فيَشفَع، ولكنْ لا يكونُ فيه بَيانُ أنَّها تُقبَلُ وتُغْني أو لا تُقبَلُ، فإذا قال: ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ﴾، ثمَّ قال: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾، فيَكونُ معناهُ: تُغْني؛ فتَحصُلُ البِشارةُ؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧]، وقال تَعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٥]، والاستِغفارُ شَفاعةٌ. وأمَّا قولُه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فليس المرادُ نفْيَ الشَّفاعةِ وقَبولَها، كما في هذه الآيةِ حيثُ رَدَّ عليهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قولَهم، وإنَّما المرادُ عَظَمةُ اللهِ تَعالى، وأنَّه لا يَنطِقُ في حضْرتِه أحدٌ ولا يَتكلَّمُ، كما في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[1] [النبأ: ٣٨].

- ولَمَّا كان ظاهرُ قولِه: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾ يُوهِمُ أنَّهم قد يَشفَعون فلا تُقبَلُ شَفاعتُهم، وليس ذلك مُرادًا؛ لأنَّ المُرادَ أنَّهم لا يَجْرُؤونَ على الشَّفاعةِ عندَ اللهِ؛ فلذلك عُقِّبَ بالاستِثناءِ بقولِه: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰ﴾، وذلك ما اقتضاهُ قولُه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقولُه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، أي: إلَّا مِن بَعْدِ أنْ يَأذَنَ اللهُ لأحدِهم في الشَّفاعةِ، ويَرضَى بقَبولِها في المَشفوعِ له، فالمُرادُ بـ ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ مَن يَشاؤُه اللهُ منهم، أي: فإذا أذِنَ لأحدِهم قُبِلَت شَفاعتُه[2].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ هي اللَّامُ الَّتي تَدخُلُ بعدَ مادَّةِ الشَّفاعةِ على المشفوعِ له؛ فهي مُتعلِّقةٌ بشفاعتِهم، وليستِ اللَّامُ مُتعلِّقةً بـ ﴿يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾، ومَفعولُ ﴿يَأْذَنَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾، وتَقديرُه: أنْ يَأْذَنَهُم اللهُ. ويَجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ لتَعديةِ ﴿يَأْذَنَ﴾ إذا أُرِيدَ به معْنى يَستمِعُ. ومعْنى ذلك أنَّ الملائكةَ لا يَزالون يَتقرَّبون بطلَبِ إلْحاقِ المؤمنينَ بالمَراتبِ العُلْيا، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]، وقولُه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]؛ فإنَّ الاستغفارَ دُعاءٌ، والشَّفاعةَ تَوجُّهٌ أعْلى، فالملائكةُ يَعلَمون إذا أرادَ اللهُ استجابةَ دَعوتِهم في بَعضِ المؤمنينَ، أذِنَ لأحدِهم أنْ يَشفَعَ له عندَ اللهِ، فيَشفَعَ، فتُقبَلَ شَفاعتُه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٣، ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٤).

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ على ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ إذْنَ اللهِ بالشَّفاعةِ يَجْري على حسَبِ إرادتِه إذا كان المَشفوعُ له أهْلًا لأنْ يُشفَعَ له[١].

- وفي هذا الإبهامِ تَحريضٌ للمؤمنينَ أنْ يَجتهِدوا في التَّعرُّضِ لِرضا اللهِ عنهم؛ ليَكونوا أهْلًا للعفْوِ عمَّا فَرَّطوا فيه مِن الأعمالِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ اعتِراضٌ واستِطرادٌ لِمُناسَبةِ ذِكرِ الملائكةِ، وتبَعًا لِما ذُكِرَ آنِفًا مِن جَعْلِ المشرِكين اللَّاتَ والعُزى ومَناةَ بَناتٍ للهِ بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ١٩- ٢١]؛ ثُنِيَ إليهم عِنانُ الرَّدِّ والإبطالِ لزعْمِهم أنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ، جمْعًا بيْن رَدِّ باطلَينِ مُتشابهينِ، وكان مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُعبَّرَ عن المَردودِ عليهم بضَميرِ الغَيبةِ تَبَعًا لقولِه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٨]، فعُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ بالمَوصوليَّةِ؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن التَّوبيخِ لهم، والتَّحقيرِ لعَقائدِهم؛ إذ كَفَروا بالآخرةِ، وقد تواتَرَ إثباتُها على ألْسِنةِ الرُّسلِ وعندَ أهْلِ الأديانِ المُجاورينَ لهم مِن اليهودِ والنَّصارَى والصَّابئةِ، فالمَوصوليَّةُ هنا مُستعمَلةٌ في التَّحقيرِ والتَّهكُّمِ نَظيرَ حِكايةِ اللهِ عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، إلَّا أنَّ التَّهكُّمَ المَحكيَّ هنالك تَهكُّمُ المُبطِلِ بالمُحقِّ؛ لأنَّهم لا يَعتقِدون وُقوعَ الصِّلةِ، وأمَّا التَّهكُّمُ هنا فهو تَهكُّمُ المُحِقِّ بالمُبطِلِ؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَضمونَ الصِّلةِ ثابتٌ لهم[١].

- وفي تَعليقِ تَسميتِهم الملائكةَ تَسميةَ الأُنثى بعَدَمِ الإيمانِ بالآخرةِ، إشعارٌ بأنَّها في الشَّناعةِ والفَظاعةِ واستِتْباعِ العقوبةِ في الآخرةِ بحيثُ لا يَجترِئُ عليها إلَّا مَن لا يُؤمِنُ بها رأْسًا[٢].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأُنثَىٰ﴾ تَعريفُ الجِنسِ الَّذي هو في معْنى المُتعدِّدِ، والَّذي دَعا إلى هذا النَّظْمِ مُراعاةُ الفَواصلِ؛ ليَقَعَ لَفظُ ﴿ٱلْأُنثَىٰ﴾ فاصِلةً[٣].

- جُملةُ ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿لَيُسَمُّونَ﴾، أي: يُثبِتونَ للملائكةِ صِفاتِ الإناثِ في حالِ انتِفاءِ عِلْمٍ منهم بذلك، وإنَّما هو تَخيُّلٌ وتَوهُّمٌ؛ إذ العِلمُ لا يكونُ إلَّا عن دَليلٍ لهم، فنَفْيُ العِلمِ مُرادٌ به نفْيُه ونفْيُ الدَّليلِ على طَريقةِ الكِنايةِ[٤].

- قولُه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ مَوقِعُ هذه الجُملةِ ذو شُعَبٍ؛ فإنَّ فيها بَيانًا لجُملةِ ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾، وعَودًا إلى جُملةِ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، وتأْكيدًا لمَضمونِها، وتَوطئةً لتَفريعِ ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾[٥] [النجم: ٢٩].

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أُظهِرَ لَفظُ الظَّنِّ دونَ ضَميرِه؛ لتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بنفْسِها، فتَسيرَ مَسيرَ الأمثالِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٤، ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١١٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ونفْيُ الإغناءِ مَعناهُ نفْيُ الإفادةِ، أي: لا يُفيدُ شيئًا مِن الحقِّ؛ فحرْفُ (مِنْ) بَيانٌ، وهو مُقدَّمٌ على المُبيَّنِ، أعني ﴿شَيْـًٔا﴾[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ بعْدَ أنْ وصَفَ مَدارِكَهم الباطِلةَ وضَلالَهم، فَرَّعَ عليه أمْرَ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعْراضِ عنهم؛ ذلك لأنَّ ما تَقدَّمَ مِن وَصْفِ ضَلالِهم كان نَتيجةَ إعراضِهم عن ذِكرِ اللهِ، وهو التَّولِّي عن الذِّكْرِ، فحَقَّ أنْ يكونَ جَزاؤُهم عن ذلك الإعراضِ إعراضًا عنهم، فإنَّ الإعراضَ والتَّولِّي مُترادِفانِ أو مُتقارِبانِ[2].

- وماصَدَقَ[3] ﴿مَّن تَوَلَّىٰ﴾ القومُ الَّذين تَولَّوا، وإنَّما جَرَى الفِعلُ على صِيغةِ المُفرَدِ مُراعاةً للَفظِ (مَن)؛ ألَا تَرى قولَه: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم﴾ بضَميرِ الجمْعِ[4]؟

- وجِيءَ بالاسمِ الظَّاهرِ في مَقامِ الإضمارِ فقِيل: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾، دونَ: (فأعرِضْ عنهم)؛ لِما تُؤذِنُ به صِلةُ المَوصولِ مِن عِلَّةِ الأمْرِ بالإعراضِ عنهم، ومِن تَرتُّبِ تَولِّيهم عن ذِكرِ اللهِ على ما سبَقَ وصْفُه مِن ضَلالِهم؛ إذْ لم يَتقدَّمْ وصْفُهم بالتَّولِّي عن الذِّكْرِ، وإنَّما تَقدَّمَ وصْفُ أسبابِه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٦، ١١٧).

(٣) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو الموصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ومعْنى ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ الإيمانِ بالحياةِ الآخِرةِ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]؛ لأنَّهم لو آمَنوا بها على حَقيقتِها لَأرادُوها ولو ببَعضِ أعمالِهم(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾

- جُملةُ ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ لقُصورِ هِمَمِهم بالدُّنيا، وهو استِئنافٌ بَيانيٌّ بُيِّنَ به سَببُ جَهْلِهم بوُجودِ الحياةِ الآخِرةِ؛ لأنَّه لغَرابتِه ممَّا يَسأَلُ عنه السَّائلُ، وفيه تَحقيرٌ لهم، وازْدِراءٌ بهم بقُصورِ مَعلوماتِهم، وهذا الاستِئنافُ وقَعَ مُعترِضًا بيْنَ الجُمَلِ ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ وعِلَّتِها في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الآيةَ(٢).

- وفي تَعليلِ الأمرِ بإعراضِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عن الاعتِناءِ بأمْرِهم باقتِصارِ العِلمِ بأحوالِ الفَريقينِ عليهِ تعالَى؛ رمْزٌ إلى أنَّه تعالَى يُعامِلُهم بمُوجَبِ عِلْمِه بهم، فيَجْزي كُلًّا منْهم بما يَليقُ بهِ مِن الجزاءِ؛ ففيهِ وَعيدٌ ووعْدٌ ضِمْنًا كما سيأْتي صَريحًا(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾، وهو تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والخبَرُ مُستعمَلٌ في معْنى أنَّه مُتولِّي حِسابِهم وجَزائِهم على طَريقةِ الكِنايةِ، وفيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦١).

وَعيدٌ للضَّالِّينَ[١].

- والتَّوكيدُ المُفادُ بحرْفِ (إنَّ) وبضَميرِ الفَصْلِ راجعٌ إلى المعْنى الكِنائيِّ، وأمَّا كونُه تعالى أعلَمَ بذلك، فلا مُقْتضى لتأْكيدِه؛ لمَّا كان المُخاطَبُ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعْنى: هو أعلَمُ منكَ بحالِهم[٢].

- وضَميرُ الفصْلِ ﴿هُوَ﴾ مُفيدٌ القصْرَ، وهو قصْرٌ حَقيقيٌّ[٣]، والمعْنى: أنتْ لا تَعلَمُ دَخائلَهم؛ فلا تَتحسَّرْ عليهم[٤].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ تَتْميمٌ[٥]، وفيه وعْدٌ للمؤمنينَ، وبِشارةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٦].

- وتَكريرُ قولِه تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ لزِيادةِ التَّقريرِ، والإيذانِ بكَمالِ تَبايُنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣-١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

(٥) التَّتميمُ: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثِّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٩).

المَعلومَين[١].

- والباءُ في ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ وفي ﴿بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ لتَعديةِ صِفتَيْ (أعلَم)، وهي للمُلابَسةِ، أي: هو أشدُّ عِلمًا مُلابِسًا لِمَن ضَلَّ عن سَبيلِه، أي: مُلابِسًا لحالِ ضَلالِه[٢].

- وقَدَّم العِلمَ بمَن ضَلَّ على العِلمِ بالمُهتَدي، وكذا في كثيرٍ مِنَ المواضِعِ، منها قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧]، ومنها قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القلم: ٧]؛ ووَجْهُه: أنَّ المذكورَ في المواضِعِ كُلِّها نَبيُّه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- والمعانِدونَ؛ فذَكَرهم أوَّلًا تَهديدًا لهم، وتَسليةً لقَلبِ نَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣]، وأيضًا لأنَّ الضَّالِّينَ أهمُّ في هذا المَقامِ، وأمَّا ذِكرُ المُهتدينَ فتَتميمٌ[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ...﴾ إلخ؛ فبَعْدَ أنْ ذكَرَ أنَّ للهِ أُمورَ الدَّارَينِ بقولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥]، انتقَلَ إلى أهمِّ ما يَجْري في الدَّارينِ مِن أحوالِ النَّاسِ الذين همْ أشرَفُ ما على الأرضِ، بمُناسَبةِ قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [النجم: ٣٠]، المُرادِ به الإشارةُ إلى الجَزاءِ، وهو إثباتٌ لوُقوعِ البَعثِ والجَزاءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ ...﴾ يَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ قولُه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ بما في الخبَرِ مِن معْنى الكَونِ المقدَّرِ في الجارِّ والمجرورِ المُخبَرِ به عن ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: كائنٌ مِلْكًا للهِ كَونًا، عِلَّتُه أنْ يَجزيَ الَّذين أساؤُوا والَّذين أحْسَنوا مِن أهْلِ الأرضِ، وهم الَّذين يَصدُرُ منهم الإساءةُ والإحسانُ، فاللَّامُ في قولِه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ لامُ التَّعليلِ، جعَلَ الجزاءَ عِلَّةً لثُبوتِ مِلكِ اللهِ لِما في السَّمواتِ والأرضِ. وقيل: قولُه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ تَعليلٌ لقولِه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وهو مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]، أي: فأعرِضْ عن دَعوةِ مَن تَدْعوه إلى لِقاءِ ربِّه والدَّارِ الآخِرةِ وهو يقولُ: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، والحالُ أنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى إنَّما خلَقَ العالَمَ وسَوَّى هذا الملَكوتَ؛ ليَجزِيَ المُحسِنَ والمُسيءَ، ويكون قولُه: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ تعريضًا بهم، وبظَنِّهم الباطلِ أنَّهم يُتْرَكون سُدًى، ويَزعُمون أنَّ السَّمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما خُلِقَ عبَثًا، وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الآيةَ على هذا اعتِراضٌ وتَوكيدٌ للتَّهديدِ والوعيدِ.

ويَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بقولِه: ﴿أَعْلَمُ﴾ مِن قولِه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [النجم: ٣٠]، أي: مِن خَصائصِ عِلْمِه الَّذي لا يَعزُبُ عنه شَيءٌ أنْ يكونَ عِلْمُه مُرتَّبًا عليه الجَزاءُ[(١)].

- والباءانِ في قولِه: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ وقولِه: ﴿بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ لتَعديةِ فِعْلَيْ ﴿لِيَجْزِيَ﴾ ﴿وَيَجْزِيَ﴾؛ فما بعْدَ الباءَينِ في معْنى مَفعولِ الفِعلَينِ، فهما داخِلَتانِ على الجزاءِ، وقولُه: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ حينَئذٍ تَقديرُه: بمِثلِ ما عَمِلوا، أي: جَزاءً عادِلًا مُماثِلًا لِما

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٠).

عَمِلوا؛ فلذلك جُعِلَ بمَنزلةِ عَينِ ما عَمِلوه على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ[١].

- وقوله: ﴿بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: بالمَثوبةِ الحُسنى، أي: بأفضلَ ممَّا عَمِلوا، وفيه إشارةٌ إلى مُضاعَفةِ الحَسَناتِ[٢].

- و(الْحُسْنَى) صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه (يَجزي)، وهي المَثوبةُ بمعْنى الثَّوابِ[٣].

- وجاء تَرتيبُ التَّفصيلِ لجَزاءِ المُسيئينَ والمُحسنينَ على وَفْقِ تَرتيبِ إجْمالِه الَّذي في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [النجم: ٣٠] على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المُرتَّبِ[٤].

- وتَكريرُ الفِعلِ (يَجزي) لإبرازِ كَمالِ الاعتِناءِ بأمْرِ الجَزاءِ، والتَّنبيهِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

تَبايُنِ الجَزاءَينِ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى في حقِّ المسيءِ: ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾، وقال في حَقِّ المُحسِنِ: ﴿بِالْحُسْنَى﴾؛ ووجهُه: أنَّ جزاءَ المسيءِ عذابٌ؛ فنَبَّه على ما يَدفَعُ الظُّلمَ، فقال: لا يُعذِّبُ إلَّا عن ذَنْبٍ. وأمَّا في الحُسنَى فلم يقُلْ: (بما عمِلوا)؛ لأنَّ الثَّوابَ إنْ كان لا علَى حَسنةٍ يكونُ في غايةِ الفَضلِ، فلا يُخِلُّ بالمعنَى، هذا إذا قُلنا: الحُسنَى هي المَثوبةُ بالحُسنَى، وأمَّا إذا قُلْنا: الأعمالُ الحُسنَى؛ ففيه لطيفةٌ غيرُ ذلك، وهي أنَّ أعمالَهم لم يُذكَرْ فيها التَّساوي، وقال في أعمالِ المُحسنِينَ: الحسنَى؛ إشارةً إلى الكَرمِ والصَّفحِ، حيثُ ذكَرَ أحْسَنَ الاسمَينِ، والحُسنَى صِفةٌ أُقيمتْ مُقامَ المَوصوفِ، كأنَّه تعالَى قال: بالأعمالِ الحُسنَى، كقولِه تعالى: ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وحينَئذٍ هو كقولِه تعالَى: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧]، أي: يأخُذُ أحْسنَ أعمالِهم ويَجعَلُ ثوابَ كلِّ ما وُجِدَ منهم لجزاءِ ذلك الأحسَنِ، أو هي صِفةُ المَثوبةِ، كأنَّه قال: ويَجزي الَّذين أحْسَنوا بالمَثوبةِ الحُسنَى، أو بالعاقِبةِ الحُسنَى، أي: جزاؤُهم حُسنُ العاقبةِ، وهذا جزاءٌ فحَسْبُ، وأمَّا الزِّيادةُ -الَّتي هي الفَضلُ بعْدَ الفَضلِ- فغيرُ داخلةٍ فيه[٢].

وقيل: لم يقلْ: (بما عملوا)؛ لأنَّ فضْلَ اللهِ أوسعُ مِن أعمالِنا[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٩).

- صِيغةُ المُضارِعِ ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ دالَّةٌ على الاستِقبالِ، وعلى تَجدُّدِ الاجتِنابِ واستِمرارِه[١].

- قُرِئَ ﴿كَبِيرَ الْإِثْمِ﴾ بصِيغةِ الإفرادِ والتَّذكيرِ[٢]؛ لأنَّ اسمَ الجِنسِ يَسْتوي فيه المُفرَدُ والجمْعُ[٣].

- وعطْفُ الفواحشِ يَقْتضي أنَّ المعطوفَ بها مُغايِرٌ للكبائرِ، ولكنَّها مُغايَرةٌ بالعُمومِ والخُصوصِ الوجْهيِّ؛ فالفواحشُ أخصُّ مِن الكَبائرِ، وهي أقْوى إثْمًا[٤].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ استِثناءُ اللَّمم استِثناءٌ مُنقطِعٌ -على قولٍ-؛ لأنَّ اللَّمَمَ ليس مِن كبائرِ الإثمِ ولا مِن الفواحشِ، فالاستِثناءُ بمعْنى الاستِدراكِ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في الكَبائرِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وقال في عبادةِ الطَّاغوتِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١٧]، والفرْقُ -مِن جِهةِ زمَنِ الفعلِ-: أنَّ عِبادةَ الطَّاغوتِ راجعةٌ إلى الاعتِقادِ، والاعتِقادُ إذا وُجِدَ دامَ ظاهرًا؛ فمَنِ اجتَنَبَها اعتَقَدَ بُطلانَها فيَستمِرُّ. وأمَّا مِثلُ الشُّربِ والزِّنا فأمرٌ تَختلِفُ أحوالُ النَّاسِ فيه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢).

(٢) وهي قراءةُ حمزةَ والكِسائيِّ وخلَفٍ، وقرأ الباقون ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٢١، ١٢٢).

فيَترُكُه زَمانًا ويَعودُ إليه، فقال في الآثامِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ دائمًا، ويُثابِرونَ على التَّركِ أبدًا، وفي عِبادةِ الأصنامِ: ﴿ٱجۡتَنَبُواْ﴾ بصِيغةِ الماضي؛ لِيَكونَ أدَلَّ على الحُصولِ، ولأنَّ كَبائرَ الإثمِ لها عددُ أنواعٍ؛ فيَنْبغي أنْ يُجتنَبَ عن نوعٍ، ويُجتنَبَ عن آخَرَ، ويُجتنَبَ عن ثالثٍ؛ ففيه تَكرُّرٌ وتَجدُّدٌ؛ فاستُعمِلَ فيه صِيغةُ الاستِقبالِ، وعِبادةُ الصَّنمِ أمْرٌ واحدٌ مُتَّحِدٌ؛ فتُرِكَ فيه ذلك الاستِعمالُ، وأُتِيَ بصِيغةِ الماضي الدَّالَّةِ على وُقوعِ الاجتِنابِ لها دَفْعةً[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ تَعليلٌ لاستِثناءِ اللَّمَمِ مِنِ اجتنابِهم كَبائرَ الإثمِ والفواحشَ شرْطًا في ثُبوتِ وصْفِ الَّذين أحْسَنوا لهم، وتَنْبيهٌ على أنَّ إخراجَه عن حُكمِ المُؤاخَذةِ به ليسَ لخُلُوِّه عن الذَّنْبِ في نفْسِه، بل لِسَعةِ المَغفرةِ الرَّبَّانيَّةِ[٢].

- وفي بِناءِ الخبَرِ على جَعْلِ المُسنَدِ إليه ﴿رَبَّكَ﴾ دونَ الاسمِ العَلَمِ: إشعارٌ بأنَّ سَعةَ المَغفرةِ رِفقٌ بعِبادِه الصَّالِحينَ، شأْنَ الرَّبِّ معَ مَربوبِه الحقِّ[٣].

- والواسعُ: الكثيرُ المَغفرةِ، عُبِّرَ بالسَّعةِ عن كَثرةِ الشُّمولِ؛ لأنَّ المكانَ الواسِعَ يُمكِنُ أنْ يَحتويَ على العدَدِ الكثيرِ ممَّنْ يَحِلُّ فيه[٤].

- وجُملةُ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ ...﴾ إلخ استِئنافٌ بَيانيٌّ لجُملةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾؛ لِما تَضمَّنَتْه مِن الامتِنانِ، فكأنَّ السَّامِعينَ لَمَّا سَمِعوا ذلك الامتِنانَ، شَكَروا اللهَ وهجَسَ في نُفوسِهم خاطرُ البَحثِ عن سَببِ هذه الرَّحمةِ بهم،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٢٣).

فأُجيبوا بأنَّ ربَّهم أعلَمُ بحالِهم مِن أنفُسِهم؛ فهو يُدبِّرُ لهم ما لا يَخطُرُ ببالِهم[١].

- وقوله: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ صِفةٌ كاشِفةٌ[٢]؛ إذ الجَنينُ لا يُقال إلَّا على ما في بطْنِ أُمِّه، وفائدةُ هذا الكشْفِ أنَّ فيه تَذكيرًا باختلافِ أطْوارِ الأجِنَّةِ مِن وَقتِ العُلوقِ إلى الوِلادةِ، وإشارةً إلى إحاطةِ عِلمِ اللهِ تعالى بتلك الأطْوارِ[٣].

- وجُملةُ ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ وجُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ [النجم: ٣٣] إلخ، والفاءُ لتَفريعِ الاعتِراضِ[٤]. أو الفاءُ لتَرتيبِ النَّهيِ عن تَزْكيةِ النَّفْسِ على ما سبَقَ مِنْ أنَّ عدَمَ المُؤاخَذةِ باللَّمَمِ ليسَ لعدَمِ كَونِه مِن قَبيلِ الذُّنوبِ، بلْ لمَحْضِ مَغفرتِه تعالى مع عِلْمِه بصُدورِه عنكُم، أي: إذا كان الأمرُ كذلكَ، فلا تُثْنوا عليها بالطَّهارةِ عن المعاصِي بالكُلِّيَّةِ، أو بما يَستلزِمُها مِن زَكاءِ العمَلِ ونَماءِ الخَيرِ، بلِ اشكرُوا اللهَ تعالى على فضْلِه ومَغفرتِه[٥].

- ولَفظُ ﴿تُزَكُّوٓاْ﴾ مُضارِعُ (زكَّى) الَّذي هو مِن التَّضعيفِ المُرادِ منه نِسبةُ المَفعولِ إلى أصْلِ الفِعلِ، نحْو (جهَّلَه)، أي: لا تَنسُبوا لأنفسِكُم الزَّكاةَ، فقولُه: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ صادقٌ بتَزكيةِ المرْءِ نفْسَه في سِرِّه أو عَلانيتِه، فرجَعَ الجمْعُ في قولِه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ﴾ إلى مُقابَلةِ الجمْعِ بالجمْعِ التي تَقتضي التَّوزيعَ على الآحادِ، مِثلُ: ركِبَ القومُ دَوابَّهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٤).

(٢) تقدَّم تعريفُها (ص: ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥).

- ووَقَعَتْ جُملةُ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ مَوقعَ البَيانِ لسَببِ النَّهيِ، أو لأهمِّ أسبابِه، والمعْنى: فَوِّضوا ذلك إلى اللهِ؛ إذ هو أعلَمُ بمَنِ اتَّقى، أي: بحالِ مَنِ اتَّقى؛ مِنْ كَمالِ تَقْوًى، أو نَقْصِها، أو تَزييفِها[1]. أو هو استِئنافٌ مُقرِّرٌ للنَّهيِ، ومُشعِرٌ بأنَّ فيهم مَن يَتَّقِيها بأسْرِها[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢).

الآيات (٢٢-٥٥)

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾
أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾
وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ
﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ
خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ
وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ
نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾: أي: مَنَع وانقَطَع، وأصلُه مِنَ الكُدْيةِ -وهي ما صَلُبَ مِنَ الأرضِ- يقالُ لِمَن حفَرَ بِئرًا ثمَّ بَلَغ إلى حَجَرٍ لا يتهَيَّأُ له فيه حَفرٌ: قد أكْدَى، فشُبِّه الرَّجُلُ إذا أعطَى يسيرًا ثمَّ قَطَع بالحافرِ يَحفِرُ فيُكْدي فيُمْسِكُ عن الحفرِ(١).

﴿يُنَبَّأْ﴾: أي: يُخْبَرْ، والنَّبَأُ: الخَبَرُ ذو الفائدةِ العَظيمةِ يَحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبةُ ظَنٍّ، وأصلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والخبرُ يَأْتي مِن مكانٍ إلى مكانٍ(٢).

﴿وَفَّىٰٓ﴾: أي: أكمَلَ وأتمَّ ما يَجِبُ للهِ تعالى عليه بالطَّاعةِ والصَّبرِ، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨).

(وفي): يدُلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ[١].

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: أي: لا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ إثْمَ نفْسٍ أُخرى، ولا تُؤخَذُ نفْسٌ بذَنْبِ غَيرِها، والوِزْرُ: الإثمُ والثِّقْلُ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقْلِ في الشَّيءِ[٢].

﴿ٱلْأَوْفَىٰٓ﴾: أي: الأكمَلَ والأتَمَّ، وأصلُ (وفي): يدُلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ[٣].

﴿نُّطْفَةٍ﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[٤].

﴿تُمْنَىٰ﴾: أي: تُصَبُّ، وتُلقَى في الرَّحِم، مِن قَولِك: أَمْنَى الرَّجُلُ: إذا خرَجَ منه المَنِيُّ، والمَنِيُّ: الماءُ الَّذي يُخلَقُ ويُقدَّرُ منه الوَلَدُ، ويَحتَمِلُ أن يكونَ مِن قَولِك: مَنَى اللهُ الشَّيءَ: إذا خَلَقه، فكأنَّه قال: تُخْلَقُ وتُقَدَّرُ، وأصلُ (مني): يدُلُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ٤٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٦).

قال الشنقيطي: (النُّطْفة مختلِطةٌ مِنْ ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ، خلافًا لِمَنْ زَعَم أنَّها مِن ماءِ الرَّجُلِ وحْدَه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٦). وذكَر الدَّليلَ على ذلك في موضِعٍ آخَرَ، فقال: (بدليلِ قولِه تعالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: أخلاطٍ مِنْ ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

على تقديرِ شَيءٍ ونَفاذِ القَضاءِ به، وماءُ الإنسانِ مَنِيٌّ، أيْ: يُقَدَّرُ منه خِلْقَتُه[١].

﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾: أي: الخَلْقَ الثَّانيَ لِلبَعثِ يومَ القيامةِ، وأصلُ (نشأ): يدُلُّ على ارتِفاعٍ في شَيءٍ[٢].

﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أي: أعطاهم قُنْيَةً يَقتَنونَها مِن أُصولِ الأموالِ وما يَدَّخِرونَه بعدَ الكِفايةِ؛ مِن قُنْيَةِ المالِ: وهو كَسْبُه وادِّخارُه، يُقالُ: أقْناه اللهُ مالًا: أي: أَكْسَبه إيَّاه، وقيل غيرُ ذلك[٣].

﴿ٱلشِّعْرَىٰ﴾: اسمُ نَجمٍ في السَّماءِ، وكان ناسٌ في الجاهليَّةِ يَعبُدونَها[٤].

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾: أي: قُرى قَومِ لُوطٍ المَخْسوفَ بها الَّتي ائتَفَكَت بأهلِها: أي: انقَلَبَت فصار أعلاها أسفَلَها، ومعنى الائتِفاكِ في اللُّغةِ: الانقِلابُ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ شَيءٍ وصَرفِه عن جِهتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٩)، =

﴿أَهْوَىٰ﴾: أي: طَرَحَها مِن هواءٍ عالٍ إلى أسفَلَ، وأصلُ (هوي): يدُلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ[١].

﴿فَغَشَّىٰهَا﴾: أي: ألبَسَها، والتَّغْشيةُ: إلباسُ الشَّيءِ الشَّيءَ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تَغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[٢].

﴿ءَالَآءِ﴾: أي: نِعَمِ، واحِدُها أَلًى وإِلًى[٣].

﴿تَتَمَارَىٰ﴾: أي: تَرتابُ وتَشُكُّ وتُجادِلُ، والمِرْيةُ: التَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهو أخَصُّ مِنَ الشَّكِّ، وأصلُ (مري): يدُلُّ على صَلابةٍ في شَيءٍ؛ لأنَّ المِراءَ كَلامٌ فيه بَعضُ الشِّدَّةِ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٦) و (٢١/ ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

قَولُه تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾: أَنْ: مُخفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلةِ، واسمُها ضَميرُ الشَّأنِ مَحذوفٌ، أي: أنَّه. والجُملةُ المَنفيَّةُ (لا تَزِرُ) في محَلِّ رَفعٍ خَبَرُ «أَنْ» المخفَّفةِ، والمَصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾: في محَلِّ جَرٍّ بَدَلٌ مِن «ما» في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ﴾، والتَّقديرُ: بأنَّه لا تَزِرُ وازِرةٌ...

ويجوزُ أن يكونَ المصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾: في محَلِّ رَفعٍ خَبَرًا لِمُبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: ذلك أَنْ لا تَزِرُ، أو هو أنْ لا تَزِرُ. وجملةُ «هُو أَنْ لا تَزِرُ» استِئنافيَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ، وهو استِئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيلَ: ما في صُحُفِهما؟ فقيلَ: هو ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾. ويجوزُ أن يكونَ المصدَرُ في محَلِّ نَصبٍ على المفعوليَّةِ بإضمارِ «أعني»[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى ذامًّا مَنْ أعرَض عن الحقِّ: أفرَأيتَ -يا محمَّدُ- الَّذي أعرَضَ عن الحَقِّ، وأعطى قليلًا مِنَ الخَيرِ ثمَّ انقَطَع عنه، أعِندَه عِلمُ الغَيبِ، فهو يَراه؟! أم لَمْ يُخبَرْ هذا الكافِرُ بما في التَّوراةِ الَّتي أنزَلَها اللهُ على موسى، وبما في صُحُفِ إبراهيمَ الَّذي أكمَلَ وأتمَّ شَرائِعَ الإسلامِ الَّتي فرَضَها اللهُ عليه؟!

وذلك الَّذي في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى هو أنَّه لا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ ذَنْبَ نفْسٍ أُخرى، وأنَّه ليس للمَرءِ في الآخِرةِ إلَّا ما عَمِلَه في الدُّنيا، وأنَّ عَمَلَ كُلِّ عاملٍ سوف يُرى ويُشاهَدُ يومَ القيامةِ، ثمَّ يُجزَى على سَعْيِه الجزاءَ التَّامَّ الأكمَلَ!

ثمَّ يقولُ الله تعالى مبيِّنًا جانبًا مِن مظاهرِ قدرتِه ورحمتِه: وأنَّ إلى ربِّك -يا محمَّدُ- مَرجِعَ ومَصيرَ جَميعِ العِبادِ، وأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي أضحَكَ وأبكى،

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٥)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١١٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٦٥).

وأنَّه تعالى هو الَّذي أمات وأحيا، وأنَّه تعالى خَلَق الصِّنفَينِ -الذَّكَرَ والأُنثى- مِن نُطفةِ مَنِيٍّ حينَ تُصَبُّ في الأرحامِ، وأنَّ عليه تعالى إعادةَ المخلوقاتِ بعدَ مَوتِهم، وأنَّه تعالى هو الَّذي أغنى مَن شاءَ مِن عِبادِه، وجَعَل لِمَن شاءَ منهم ما يَقتَنيه ويَدَّخِرُه بَعْدَ كِفايتِه، وأنَّه تعالى هو خالِقُ نَجمِ الشِّعْرَى!

وأنَّه تعالى أهلَكَ عادًا قَومَ هُودٍ، وثَمودَ قَومَ صالحٍ، فما أبقى منهم أحَدًا، وأهلَكَ بالغَرَقِ قَومَ نُوحٍ مِن قَبْلِ عادٍ وثَمودَ؛ إنَّهم كانوا هم أشَدَّ ظُلمًا، وأعظَمَ كُفرًا وطُغيانًا، وقَلَبَ قَريةَ قَومِ لُوطٍ؛ فجَعَل عالِيَها سافِلَها، فغطَّى تلك القَريةَ ما غَطَّاها مِنَ الحِجارةِ الَّتي أُمطِرَت عليهم. فبأيِّ نِعَمِ رَبِّك تَرتابُ وتُكذِّبُ وتُجادِلُ، أيُّها الإنسانُ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ جَهْلَ المُشرِكينَ في عِبادةِ الأصنامِ؛ ذَكَر واحِدًا منهم مُعَيَّنًا بسُوءِ فِعْلِه[1].

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أي: أفرأيتَ -يا محمَّدُ- الَّذي أعرَضَ عن الحَقِّ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٩).

واستظهر الرَّازيُّ أنَّ ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ في هذه الآيةِ يعودُ إلى المُتوَلِّي في قَولِه تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩]، فهو عامٌّ غيرُ مُختَصٍّ بواحِدٍ مِنَ المعانِدينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٢، ٢٧٣).

=

كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۞ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢].

﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾.

أي: وأعطَى قليلًا مِنَ الخَيرِ ثمَّ انقَطَع عنه، ولم يَستَمِرَّ على ذلك[1]!

﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ٣٥﴾.

أي: أعِندَه عِلمُ ما غاب عن النَّاسِ، فهو يراه[2]؟!

= وقال ابنُ عاشور: (اتَّفق المفَسِّرون والرُّواةُ على أنَّ المرادَ به هنا مُعَيَّنٌ... واختَلَفوا في تعيينِ هذا ﴿ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ۞ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا﴾؛ فروى الطَّبريُّ عن مجاهِدٍ وابنِ زَيدٍ: أنَّ المرادَ به: الوليدُ بنُ المُغيرةِ... وروى القرطبيُّ عن السُّدِّيِّ: أنَّها نزَلَت في العاصي بنِ وائلٍ السَّهْميِّ، وعن محمَّدِ ابنِ كَعبٍ: نزَلَت في أبي جَهلٍ، وعن الضَّحَّاكِ: نزَلَت في النَّضرِ بنِ الحارثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١١، ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٧).

قال ابنُ جرير: (ذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نَزَلت في الوليدِ بنِ المُغيرةِ؛ مِن أجْلِ أنَّه عاتَبَه بَعضُ المُشرِكينَ، وكان قد اتَّبَع رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على دينِه، فضَمِنَ له الَّذي عاتَبَه إنْ هو أعطاه شَيئًا مِن مالِه ورَجَع إلى شِرْكِه أن يتحَمَّلَ عنه عذابَ الآخرةِ، ففَعَل، فأعطى الَّذي عاتَبَه على ذلك بَعضَ ما كان ضَمِنَ له، ثمَّ بَخِلَ، ومَنَعَه تمامَ ما ضَمِنَ له!). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧١).

قال أبو حيان: (﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ﴾ قال ابنُ عبَّاس: أطاع قليلًا ثمَّ عصى.

وقال مجاهِدٌ: أعطى قليلًا مِن نَفْسِه بالاستِماعِ، ثمَّ أكْدَى بالانقِطاعِ.

وقال الضَّحَّاكُ: أعطى قليلًا مِن مالِه ثمَّ مَنَع.

وقال مقاتِلٌ: أعطى قليلًا مِنَ الخَيرِ بلِسانِه ثمَّ قَطَع). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٨٤).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المعنى: وأعطى قليلًا مِن مالِه، ثمَّ بَخِلَ عليه فمَنَعه ولم يستَمِرَّ في عَطائِه: ابنُ جرير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٩، ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٢)، ((تفسير =

﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان هذا الَّذي تولَّى قد يظُنُّ أنَّ عَمَلَ غَيرِه يَنفَعُه، عَبَّرَ عنه جامِعًا للوَعظِ والتَّهويلِ، بقَولِه[1]:

﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ ﴾.

أي: أم لمْ يُخبَرْ هذا الكافِرُ بما في التَّوراةِ الَّتي أنزَلَها اللهُ على موسى[2]؟!

﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧ ﴾.

أي: أم لمْ يُخبَرْ أيضًا بما في صُحُفِ إبراهيمَ الَّذي أطاع اللهَ تعالى في جميعِ أوامِرِه ونواهيه، وأكمَلَ شَرائِعَ الإسلامِ الَّتي فرَضَها اللهُ عليه، فلم يَنقُصْ منها

= ابن كثير)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٠).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: أعِندَ هذا الَّذي ضَمِنَ له صاحِبُه أن يتحَمَّلَ عنه عذابَ اللهِ في الآخرةِ عِلمُ الغَيبِ، فهو يرى حقيقةَ قَولِه، ووفاءَه بما وَعَده؟!). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٤).

وقال الشنقيطي: (الآيةُ تدُلُّ على أنَّ سَبَبَ النُّزولِ لا يَخلو مِن إعطاءِ شَيءٍ في مُقابَلةِ تحَمُّلِ الذُّنوبِ عمَّن أعطى؛ لأنَّ فاعِلَ ذلك ليس عِندَه عِلمُ الغَيبِ؛ فيَعلَمَ به أنَّ الَّذي ضَمِنَ له تحمُّلَ ذُنوبِه يَفعَلُ ذلك، ولم يُنَبَّأْ بما في الصُّحُفِ الأُولى مِن ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾ [النجم: ٣٨]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٧٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٠).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: أم لم يُخْبَرْ هذا المَضمونُ له أن يُتحَمَّلَ عنه عذابُ اللهِ في الآخِرةِ بالَّذي في صُحُفِ موسى بنِ عِمْرانَ صَلَواتُ الله عليه ...؟!). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٤).

شَيئًا[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ * فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠١ - ١١١].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩].

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: وذلك الَّذي في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى هو أنَّه لا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ ذَنْبَ نفْسٍ أُخرى؛ فكُلُّ إنسانٍ يُجازَى بعَمَلِه، ولا يَحمِلُ ذنْبَ غَيرِه[(٢)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٤، ٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٣)، ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٩)، ((السنن الكبرى)) للبيهقي (٨/ ٥٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٢).

قال ابنُ جريرٍ: (وإنَّما عَنَى بقَولِه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الَّذي ضَمِنَ للوَليدِ بنِ المُغيرةِ أن يتحَمَّلَ عنه عذابَ اللهِ يومَ القيامةِ! يقولُ: ألم يُخبَرْ قائِلُ هذا القَولِ وضامِنُ هذا الضَّمانِ =

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَفَى أن يَضُرَّه إثمُ غَيرِه؛ نَفَى أن يَنفَعَه سَعيُ غَيرِه، فقال[1]:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: وأنَّه ليس للمَرءِ في الآخِرةِ إلَّا ما عَمِلَه في الدُّنيا[2].

= بالَّذي في صُحُفِ موسى وإبراهيمَ؛ مَكتوبٌ: أنْ لا تأثَمُ آثِمةٌ إثمَ أُخرى غَيرِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٢).

قال أبو حيان: (﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾: الظَّاهِرُ أنَّ الإنسانَ يَشملُ المُؤْمنَ والكافرَ، وأنَّ الحصرَ في السَّعيِ، فليس له سَعْيُ غيرِه، وقال عِكْرِمةُ: كان هذا الحُكمُ في قومِ إبراهيمَ وموسى، وأمَّا هذه الأمَّةُ فلها سعيُ غيرِها... وقال الرَّبيعُ: الإنسانُ هنا الكافرُ، وأمَّا المؤمنُ فله ما سعى وما سعى له غيرُه). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤). =

كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثَبَت أنَّه ليس له ولا عليه إلَّا ما عَمِلَ، وكان في الدُّنيا قد يَفعَلُ الشَّيءَ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ ولا يَراه مَن فَعَله مِن أجْلِه ولا غَيرُه؛ نفى أن تكونَ الآخرةُ كذلك،

= قال السَّمعاني: (قولُه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ مَعْناهُ: إنْ سعى في الخَيرِ يَلْقَ الخَيْرَ، وإنْ سعى في الشَّرِّ يَلْقَ الشَّرَّ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠١).

وقال ابن كثير: (﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي: كما لا يُحمَلُ عليه وِزْرُ غيرِه، كذلك لا يُحصِّلُ مِن الأجرِ إلَّا ما كسَبَ هو لِنَفْسِه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥).

واختار ابنُ عاشور أنَّ المرادَ بالسَّعيِ هنا: عمَلُ الخَيرِ وما سعاه مِن الأعمالِ الصَّالحةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٢).

وقال الرَّازي: (قولُه تعالى: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ليس المرادُ منه أنَّ له عيْنَ ما سعى، بل المرادُ... ليس له إلَّا ثوابُ ما سعى، أو إلَّا أجرُ ما سعى، أو يقالُ بأنَّ المرادَ: أنَّ ما سعى محفوظٌ له، مَصونٌ عن الإحباطِ؛ فإذَنْ له فِعلُه يومَ القيامةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٦).

وقال ابنُ جُزَي: (اتَّفَق العلماءُ على أنَّ الأعمالَ الماليَّةَ -كالصَّدقةِ والعِتقِ- يجوزُ أن يَفعَلَها الإنسانُ عن غيرِه، ويَصِلُ نفعُها إلى مَن فُعِلَتْ عنه. واختلَفوا في الأعمالِ البدَنيَّةِ، كالصَّلاةِ والصِّيامِ. وقيل: إنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ بقولِه: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]. والصَّحيحُ أنَّها مُحْكَمةٌ؛ لأنَّها خبَرٌ، والأخبارُ لا تُنسَخُ.

وفي تأويلِها ثلاثةُ أقوالٍ؛ الأوَّلُ: أنَّها إخبارٌ عمَّا كان في شريعةِ غيرِنا، فلا يَلزَمُ في شريعتِنا. الثَّاني: أنَّ للإنسانِ ما عَمِل بحقٍّ، وله ما عَمِل له غيرُه بهِبَةِ العاملِ له، فجاءت الآيةُ في إثباتِ الحقيقةِ دونَ ما زاد عليها. الثَّالثُ: أنَّها في الذُّنوبِ، وقد اتُّفِق أنَّه لا يَحتمِلُ أحدٌ ذنْبَ أحدٍ، ويدُلُّ على هذا قولُه بعدَها: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وكأنَّه يقولُ: لا يؤاخَذُ أحدٌ بذنْبِ غيرِه، ولا يؤاخَذُ إلَّا بذنْبِ نفْسِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٠).

فقال[١]:

﴿ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ﴾.

أي: وأنَّ عَمَلَ كُلِّ عاملٍ سوف يُرى ويُشاهَدُ يومَ القيامةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٩).

قيل: إنَّ المعنى: يُعرَضُ عليه، ويُكشَفُ له، أي: أنَّ اللهَ تعالى يُريه إيَّاهُ -مِن أرَيْتُه الشَّيءَ- فيرى العبدُ عمَلَه يومَ القيامةِ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: السَّمعانيُّ، والرازي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٨٢).

وقال القرطبي: (أي: يُريه اللهُ تعالى جزاءَه يومَ القيامةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٥). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٩٥).

قال الرازي: (وفيه بِشارةٌ للمؤمنينَ...، وذلك أنَّ اللهَ يُريه أعمالَه الصَّالحةَ؛ لِيَفرَحَ بها. أو يكونُ يُري ملائكتَه وسائرَ خَلْقِه؛ لِيَفتخِرَ العاملُ به على ما هو المشهورُ، وهو مذكورٌ لفرَحِ المسلِمِ ولحزنِ الكافرِ؛ فإنَّ سَعْيَه يُرى للخَلقِ، ويُرى لنفْسِه). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٧).

ويحتمِلُ أن يكونَ قولُه: ﴿يُرَىٰ﴾ مِن رأى يَرى، فيكونَ كقولِه تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٤).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: وأنَّ عمَلَ كلِّ عاملٍ سوف يَراه يومَ القيامةِ مَن ورَدَ القيامةَ، بالجزاءِ الَّذي يُجازَى عليه؛ خيرًا كان أو شرًّا، لا يؤخَذُ بعقوبةِ ذنْبٍ غيرُ عامِلِه، ولا يُثابُ على صالِحِ عمَلٍ عامِلٌ غيرُه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٠).

وقال ابن جُزَي: (﴿وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ﴾ قيل: معناه: يَراه الخَلقُ يومَ القيامةِ، والأظهرُ أنَّه صاحِبُه؛ لقولِه: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٠).

وقال مكِّي: (قال تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ﴾ أي: وإنَّ عمَلَ كلِّ عامِلٍ سوف يَراه اللهُ يومَ القيامةِ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١١/ ٧١٧٢). =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

أي: ثمَّ يَجزيه اللهُ على سَعْيِه الجزاءَ الأَوفَرَ التَّامَّ[1].

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: وأنَّ إلى ربِّك -يا محمَّدُ- مَرجِعَ ومَصيرَ جَميعِ العِبادِ، لا إلى غَيرِه[2].

= وقال ابن عطيَّة: (وقولُه: ﴿يُرَىٰ﴾ فاعِلُه حاضِرو القيامةِ، أي: يَراه الله ومَن شاهَدَ الأمرَ، وفي عَرضِ الأعمالِ على الجميعِ تشريفٌ للمُحسِنينَ، وتَوبيخٌ للمُسيئينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧).

وذهب ابنُ عثيمينَ إلى أنَّ الآيةَ عامَّةٌ، أي: أنَّ عمَلَه سوف يُرَى في الدُّنيا وفي الآخرةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٥).

وذهب ابنُ قُتَيْبَةَ إلى أنَّ معنى قولِه: ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: يُعلَمُ. يُنظر: ((غريب القرآن)) (ص: ٤٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٠).

قال ابنُ عاشور: (﴿ٱلْأَوْفَىٰ﴾: اسمُ تَفضيلٍ مِنَ الوَفاءِ، وهو التَّمامُ والكَمالُ، والتَّفضيلُ مُستَعمَلٌ هنا في القُوَّةِ، وليس المرادُ تَفضيلَه على غَيرِه. والمعنى: أنَّ الجزاءَ على الفِعلِ مِن حَسَنٍ أو سَيِّئٍ مُوافِقٌ للمَجْزيِّ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٠).

وقال ابنُ عثيمين: (الأكمَلُ والأَوفى في الصَّالِحِ: زيادةُ المَثوبةِ، والأَوفى في السَّيِّئِ: العَدلُ، بحيثُ لا يُزادُ في سَيِّئاتِه، وعلى هذا فالأَوفى يُفَسَّرُ بمعنى العَدلِ، ويُفَسَّرُ بالزِّيادةِ والفَضلِ؛ العَدلُ في السَّيِّئةِ: لا يُمكِنُ أن يُزادَ سَيِّئةً، والفَضلُ في الحَسَناتِ: الحَسَنةُ بعَشرِ أمثالِها إلى سَبْعِمِئَةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كَثيرةٍ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٨). =

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ٤٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

انتِقالٌ مِنَ الاعتِبارِ بأحوالِ الآخِرةِ إلى الاعتِبارِ بأحوالِ الحياةِ الدُّنيا(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى الأُمورَ الاختياريَّةَ وقَدَّمَها لأنَّها مَحَطٌّ للبَلاءِ، وسَلَب عِلْمَها عن أصحابِها، وحَذَّرَ مِن عاقِبَتِها بإحاطتِه بكُلِّ شَيءٍ، وكان معنى ذلك أنَّه القادِرُ على غَيرِه، والعالِمُ لا غَيرُه؛ عَطَف عليه قَولَه ذاكِرًا للأُمورِ الاضطراريَّةِ الَّتي هي في غايةِ التَّنافي؛ إكمالًا للدَّليلِ على أنَّه يَعلَمُ ما في النُّفوسِ دونَ أصحابِها وغَيرِهم، وأنَّه إليه المُنتهَى إعادةً وإبداءً(٢).

وأيضا إنَّما جَرَى ذِكْرُ الإضحاكِ والإبكاءِ في هذا المَقامِ؛ لمُناسَبةِ أنَّ الجزاءَ الأَوفى لسعْيِ النَّاسِ: بعضُه سارٌّ لفريقٍ، وبَعضُه مُحزِنٌ لفريقٍ آخَرَ(٣).

= وممَّن قال بالمعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: المصادر السابقة.

وذهب البِقاعي والسعدي إلى ما هو أعَمُّ مِن معنى الرُّجوعِ الأُخرويِّ إلى اللهِ تعالى. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).

قال البقاعي: (﴿ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ أي: الانتِهاءَ برُجوعِ الخَلائِقِ حِسًّا بالبَعثِ، ومَعنًى بالعَمَلِ والعِلمِ، وإسنادِ الأُمورِ وإرسالِ الآمالِ؛ ومكانَ رُجوعِهم وزَمانَه، كما كان منه المُبتَدأُ؛ أكَّدَ ذلك خَلقًا لذلك كُلِّه وحِسابًا عليه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٧٣).

وقال السعدي: (قَولُه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ أي: إليه تَنتهي الأمورُ، وإليه تَصيرُ الأشياءُ والخلائِقُ بالبَعثِ والنُّشورِ، وإلى اللهِ المُنتَهى في كُلِّ حالٍ؛ فإليه يَنتهي العِلمُ والحُكمُ، والرَّحمةُ وسائِرُ الكمالاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).

وممَّن ذهب إلى هذا العُمومِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٧). ويُنظر أيضًا: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٩٩) و(٢/ ٢٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٢، ١٤٣).

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ٤٣﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي أضحَكَ وأبكَى مَنْ شاء أن يُضحِكَهم أو يُبكِيَهم(١).

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ٤٤﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي أمات مَن شاءَ مِن خَلْقِه، وأحيا مَن شاءَ مِنهم(٢).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ ...﴾ [الملك: ٢].

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٧١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٩، ٦٠، ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٧، ٢٤٨).

قال الواحدي: (أكثَرُ المُفَسِّرينَ على أنَّ هذا عامٌّ في كُلِّ ضَحِكٍ وبُكاءٍ). ((البسيط)) (٢١/ ٧١).

وممَّن قال بأنَّ هذا الضَّحِكَ والبُكاءَ عامٌّ في الدُّنيا والآخِرةِ: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٧، ٢٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (لَمَّا كان هذا الغَرَضَ مِن إثباتِ انفرادِ اللهِ تعالى بالتَّصَرُّفِ في الإنسانِ بما يَجِدُه النَّاسُ في أحوالِ أنفُسِهم مِن خُروجِ أسبابِ الضَّحِكِ والبُكاءِ عن قُدرتِهم؛ تعَيَّنَ أنَّ المرادَ: أضحَكَ وأبكى في الدُّنيا، ولا عَلاقةَ لهذا بالمَسَرَّةِ والحُزنِ الحاصِلَينِ في الآخِرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٢، ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٨).

قال الواحدي: (المتقَدِّمون مِنَ المفَسِّرينَ حَمَلوا هذا على الإماتةِ في الدُّنيا، والإحياءِ للبَعثِ، والمتأخِّرونَ منهم ذَكَروا وُجوهًا أُخرى؛ منها: أنَّه أمات الآباءَ، وأحيا الأبناءَ... ومنها: أنَّه أمات النُّطفةَ، وأحيا النَّسَمةَ، وأمات الكافِرَ بالكُفرِ، وأحيا المؤمِنَ بالإيمانِ). ((البسيط)) (٢١/ ٧٢).

ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٥٦)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ الانتقالِ إلى هذه الجُملةِ أنَّ فيها كَيفيَّةَ ابتداءِ الحياةِ[١].

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي خَلَق الصِّنفَينِ: الذَّكَرَ والأُنثى[٢].

قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ٤٦﴾.

أي: خلَق اللهُ الصِّنفينِ -الذَّكَرَ والأُنثى- مِن نُطفةِ مَنِيٍّ حينَ تُصَبُّ وتُراقُ في الأرحامِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٨).

قال الشوكاني: (المرادُ بالزَّوجَينِ: الذَّكَرُ والأُنثَى مِن كُلِّ حَيوانٍ، ولا يدخُلُ في ذلك آدَمُ وحَوَّاءُ؛ فإنَّهما لم يُخلَقا مِن النُّطفةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٠).

وقصَر ابنُ عاشورٍ المرادَ بالزَّوجينِ على البشرِ، فقال: (المرادُ بالزَّوجَينِ: الذَّكَرُ والأُنثَى مِن خُصوصِ الإنسانِ؛ لأنَّ سياقَ الكلامِ للاعتِبارِ ببَديعِ صُنعِ اللهِ، وذلك أشَدُّ اتِّفاقًا في خِلْقةِ الإنسانِ، ولأنَّ اعتِبارَ النَّاسِ بما في أحوالِ أنفُسِهم أقرَبُ وأمكَنُ، ولأنَّ بَعضَ الأزواجِ مِن الذُّكورِ والإناثِ لا يَتخَلَّقُ مِن نُطفةٍ، بل مِن بَيضٍ وغَيرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٦، ١٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٩). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۞ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ساق هذه الأشياءَ دَليلًا على إحاطةِ عِلْمِه، فلَزِمَها أنْ دَلَّت على تمامِ قُدرتِه، وخَتَمَها بالنَّشأةِ الأُولى، فلَزِمَ من ذلك الإقرارُ حَتمًا بأنَّه قادِرٌ على البَعثِ- عَبَّرَ بما يَقتَضي أنَّه لَمَّا تقَدَّمَ به وَعْدُه على جميعِ ألسِنَةِ رُسُلِه صار واجِبًا عليه، بمعنى أنَّه لا بُدَّ مِن كَونِه؛ لأنَّه لا يُبَدَّلُ القَولُ لَدَيه، لا غَيرُ ذلك(١).

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: وأنَّ على اللهِ تعالى أن يَخلُقَ النَّاسَ بعدَ مَوتِهم، فيُعيدَهم أحياءً يومَ القيامةِ(٢).

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي أغنى مَن شاءَ مِن عِبادِه، وجَعَل لِمَن شاءَ منهم ما يَقتَنيه ويَدَّخِرُه بَعْدَ كِفايتِه(٣).

= وقيل: معنى ﴿تُمْنَىٰ﴾: تُخلَقُ وتُقدَّرُ. وممَّن اختاره: أبو عُبَيْدَة، وابنُ قُتَيْبَة، والسَّمْعانيُّ، ونسَبه الماوَرْديُّ للأخفَشِ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).=

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ٤٩﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى هو خالِقُ نَجمِ الشِّعْرَى المُضيءِ، ومالِكُه ومُدَبِّرُ شَأنِه[1].

= قال الواحدي: (﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ﴾ النَّاسَ بالأموالِ ومَوَّلَهم، ﴿وَأَقۡنَىٰ﴾ أعطى القُنْيَةَ وأصولَ الأموالِ، وما يَدَّخِرونَه بعد الكفايةِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٠٤).

وقال ابنُ عطية: (والوَجهُ فيها بحَسَبِ اللُّغةِ: أكسَبَ ما يُقتَنَى. وقال ابنُ عبَّاسٍ: «أَقْنى»: قَنَّعَ. والقَناعةُ خَيرُ قُنْيةٍ، والغِنى عَرَضٌ زائِلٌ، فلِلَّه دَرُّ ابنِ عَبَّاسٍ!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٨).

وقال ابن كثير: (﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ أي: مَلَّك عِبادَه المالَ، وجعَلَه لهم قُنْيةً مُقيمًا عِندَهم لا يحتاجونَ إلى بَيعِه، فهذا تمامُ النِّعمةِ عليهم، وعلى هذا يدورُ كَلامُ كَثيرٍ مِنَ المفَسِّرينَ؛ منهم أبو صالحٍ، وابنُ جريرٍ، وغَيرُهما). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٢).

وقال ابن عاشور: (معنى ﴿أَغۡنَىٰ﴾ جَعَل غَنيًّا، أي: أعطى ما به الغِنى، والغِنى: التَّمَكُّنُ مِن الانتِفاعِ بما يُحَبُّ الانتِفاعُ به. ويَظهَرُ أنَّ معنى «أقْنَى» ضِدُّ معنى «أغْنَى»؛ رَعيًا لنظائِرِه الَّتي زاوَجَت بيْنَ الضِّدَّينِ مِن قَولِه: ﴿أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣]، و﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ [النجم: ٤٤]، و﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]؛ ولذلك فَسَّره ابنُ زَيدٍ والأخفَشُ وسُليمانُ التَّيْميُّ بمعنى: أفقَرَ. وعن مُجاهِدٍ وقَتادةَ والحَسَنِ: أقنى: أخْدَمَ؛ فيكونُ مُشتَقًّا مِنَ القِنِّ: وهو العَبدُ، أو المولودُ في الرِّقِّ، فيكونُ زيادةً على الإغناءِ. وقيل: أقنى: أعطى القُنْيَةَ، وهذا زيادةٌ في الغِنى. وعن ابنِ عبَّاسٍ: أقنى: أرضَى، أي: أرضَى الَّذي أغناه بما أعطاه، أي: أغناه حتَّى أرضاه، فيكونُ زيادةً في الامتِنانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٩).ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥١).

قال ابنُ جرير: (هو نَجمٌ كان بَعضُ أهلِ الجاهِليَّةِ يَعبُدُه مِن دونِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٥).

وأوَّلُ مَن سنَّ للعربِ عِبادةَ «الشِّعْرَى»، وأدخَل تلك العبادةَ إليهم: «أبو كَبْشةَ»، فخالَف قُرَيشًا في عبادةِ الأصنامِ، وعبَدَ الشِّعْرى، فقيل: لم يَعبُدْها مِن قبائلِ العربِ إلَّا خُزاعةُ، وقيل: حِمْيَرُ وخُزاعةُ، وقيل: بعضُ قبائلِ لَخْمٍ وخُزاعةَ وحِمْيَرَ وقُرَيشٍ، ولم تَعبُدِ العربُ مِن الكواكبِ غيرَها؛ فلذلك عُيِّنَتْ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٩)، ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ١٥٥)، ((المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام)) لجواد علي (١١/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥١).

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا استُوفِيَ ما يَستحِقُّه مَقامُ النِّداءِ على باطلِ أهْلِ الشِّركِ مِن تَكذيبِهم النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وطعْنِهم في القرآنِ، ومِن عِبادةِ الأصنامِ، وقولِهم في الملائكةِ، وفاسِدِ مُعتَقَدِهم في أُمورِ الآخرةِ، وفي المُتصرِّفِ في الدُّنيا، وكان مُعظَمُ شأْنِهم في هذه الضَّلالاتِ شَبيهًا بشأْنِ أُمَمِ الشِّركِ البائدةِ؛ نُقِلَ الكلامُ إلى تَهديدِهم بخَوفِ أنْ يَحُلَّ بهم ما حلَّ بتلك الأُمَمِ البائدةِ، فذُكِرَ مِن تلك الأُمَمِ أشهَرُها عندَ العربِ، وهمْ: عادٌ، وثَمودُ، وقومُ نوحٍ، وقومُ لوطٍ[1].

وأيضًا لَمَّا دَلَّ سُبحانَه على كَمالِ عِلْمِه وشُمولِ قُدرتِه بأُمورِ الخافِقَينِ -العُلويِّ والسُّفليِّ-، فكان ذلك داعِيًا إلى الإقبالِ على ما يُرضِيه، وناهيًا عن الإلمامِ بما يُسخِطُه؛ شَرَع في التَّهديدِ لِمَن وَقَف عن ذلك، بما وَقَع في مَصارِعِ الأوَّلينَ مِن عجائِبِ قُدرتِه؛ فقال تعالى[2]:

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى أهلَكَ قَبيلةَ عادٍ؛ قَومِ هُودٍ[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥١).

وقد ذهب ابنُ جريرٍ ومكِّيٌّ والواحديُّ إلى أنَّ عادًا لَمَّا أهلَكَها اللهُ بالرِّيحِ خَلَفَتْها أمَّةٌ أُخرى مِن نَسْلِها فكانوا عادًا الأخرى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٦-٨٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥). =

كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٩، ٢٠].

﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى أهلَكَ قَبيلةَ ثَمودَ؛ قَومِ صالحٍ، فما أبقَى منهم أحَدًا[1]!

= وضعَّف هذا القَولَ ابنُ عَطيَّةَ، وابنُ عاشور؛ لعَدَمِ وُجودِ دَليلٍ على صِحَّتِه. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٣).

قال ابنُ عطية: (اختُلِفَ في معنى وَصْفِها بـ﴿الْأُولَىٰ﴾؛ فقال ابنُ زَيدٍ والجُمهورُ: ذلك لأنَّها في وَجهِ الدَّهرِ وقَديمِه، فهي أُولى بالإضافةِ إلى الأُمَمِ المتأخِّرةِ. وقال الطَّبريُّ: سُمِّيَت أُولى، لأنَّ ثَمَّ عادًا أَخيرةً، وهي قَبيلةٌ كانت بمكَّةَ مع العماليقِ، وهم بنو لُقَيْمِ بنِ هَزَّالٍ. قال القاضي أبو محمَّدٍ [ابن عطية]: والقَولُ الأوَّلُ أبيَنُ؛ لأنَّ هذا الأخيرَ لم يَصِحَّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٧).

وقال ابن عاشور: (معنى كَونِها أُولى؛ لأنَّها أوَّلُ العَرَبِ ذِكرًا، وهم أوَّلُ العَرَبِ البائِدةِ، وهم أوَّلُ أمَّةٍ أُهلِكَت بعدَ قَومِ نُوحٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥١).

وقال ابن عثيمين: (﴿الْأُولَىٰ﴾ وَصْفٌ كاشِفٌ، وليس وَصفًا مُقيِّدًا، يعني: ليس هناك عادٌ أُولى وعادٌ ثانيةٌ، بل هي واحِدةٌ، لكِنَّها عادٌ قديمةٌ سابِقةٌ؛ ولهذا وَصَفَها بأنَّها الأُولى، أي: أنَّها القَديمةُ السَّابقةُ، وليس ثَمَّةَ عادٌ أُخرى). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥١).

وقيل: سمَّاها الأُولى؛ لأنَّهم كانوا مِن قبْلِ ثَمودَ. وممَّن اختاره: القُرطبيُّ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: ولم يُبْقِ اللهُ ثَمودَ فيَترُكَها على طُغيانِها وتمَرُّدِها على رَبِّها مُقيمةً، ولكِنَّه عاقَبَها بكُفرِها وعُتُوِّها، فأهلَكَها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٥).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤].

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَدَّمَ مَن كان إهلاكُهم بنَفْسِ الرِّيحِ الَّتي هي مَبدَأُ الأمطارِ الآتيةِ لهم في السَّحابِ، وأتْبَعَهم مَن إهلاكُهم بها بحَمْلِها للصَّيحةِ وإرجافِها بهم؛ أتْبَعَهم مَن كان إهلاكُهم بالماءِ الَّذي هو غايةُ السَّحابِ، فقال تعالى[(١)]:

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى أهلَكَ بالغَرَقِ قومَ نُوحٍ مِن قَبْلِ عادٍ وثَمودَ[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ [الفرقان: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾.

أي: إنَّ قومَ نُوحٍ كانوا هم أشَدَّ ظُلمًا، وأعظَمَ كُفرًا وطُغيانًا مِن غَيرِهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٨، ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٤).

قال ابنُ عطية: (جَعَلَهم أظلَمَ وأطغى؛ لأنَّهم سَبَقوا إلى التَّكذيبِ دونَ اقتداءٍ بأحَدٍ قَبْلَهم، وأيضًا فإنَّهم كانوا في غايةٍ مِنَ العُتُوِّ، وكان عُمُرُ نوحٍ قد طال في دُعائِهم!). ((تفسير ابن عطية)) =

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ٩، ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦].

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣﴾.

أي: وقَريةَ قَومِ لُوطٍ أسقَطَها جبريلُ، وجَعَل عالِيَها سافِلَها[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۝ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩، ١٠].

﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾.

أي: فغطَّى تلك القَريةَ ما غَطَّاها مِنَ الحِجارةِ الَّتي أُمطِرَت عليهم[(٢)].

= (٥/ ٢٠٩).

قال ابن عاشور: (ضميرُ الجَمعِ في ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى قَومِ نُوحٍ، أي: كانوا أظلَمَ وأطغَى من عادٍ وثَمودَ، ويجوزُ أن يكونَ عائِدًا إلى عادٍ وثَمودَ وقَومِ نُوحٍ، والمعنى: أنَّهم أظلَمُ وأطغى مِن قَومِك الَّذين كَذَّبوك؛ فتكونَ تَسليةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ الرُّسُلَ مِن قَبْلِه لَقُوا مِن أُمَمِهم أشَدَّ مِمَّا لَقِيَه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٤).

وقال ابن عثيمين: (وكِلا المعنَيَينِ صَحيحٌ؛ فهؤلاء الأُمَمُ أظلَمُ وأطغى مِن قُرَيشٍ، وقَومُ نوحٍ أظلَمُ وأَطغى مِن عادٍ وثمودَ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٤).

قال ابنُ عطيَّةَ: (المُؤتَفِكةُ: قَريةُ قَومِ لُوطٍ، بإجماعٍ مِنَ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٤). =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّك -أيُّها الإنسانُ- تَرتابُ وتُشَكِّكُ، وتُكذِّبُ وتُجادِلُ[1]؟!

= قال الواحدي: (﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أي: فغَشَّاها اللهُ وألبَسَها ما غَشَّى، يعني: الحِجارةَ، في قَولِ جَميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (٢١/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣١، ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).

ممَّن ذهب إلى أنَّ الخِطابَ للإنسانِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والواحدي، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).

وقيل: الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: البِقاعي، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٥، ١٥٦).

وقيل: هو خِطابٌ للكافِرِ على وَجهِ الخُصوصِ. وممَّن قال بهذا: الماوَرْديُّ، والسمعاني، وابن عطية، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢١).

قال ابنُ تيميَّةَ: (لَمَّا ذَكَر ما ذَكَره في سورةِ «النَّجم»، وذكَرَ إهلاكَ مُكَذِّبي الرُّسُلِ؛ قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾، فإهلاكُهم مِن آلاءِ رَبِّنا، وآلاؤُه: نِعَمُه الَّتي تدُلُّ على رحمتِه، وعلى حِكمتِه، وعلى مَشيئتِه وقُدرتِه، ورُبوبيَّتِه سُبحانَه وتعالى). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١٧٠).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ جاء الفِعلُ بصيغةِ الماضي دونَ المُستَقبَلِ؛ لزِيادةِ الحَثِّ على السَّعيِ في العَمَلِ الصَّالحِ، فقال: ليس له إلَّا ما قد سعى وحَصَّل وفَرَغ منه، وأمَّا تسويلاتُ الشَّيطانِ وعِداتُه فلا اعتِمادَ عليها(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي: المنتهى في أمورِ الدِّينِ والدُّنيا -على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-؛ فإلى اللهِ المنتهى في مسائلِ العِلمِ، في الحُكْمِ بيْنَ النَّاسِ وللنَّاسِ، ومنتهَى جميعِ الخلائقِ إليه يومَ القيامةِ، فإلى اللهِ المصيرُ، فمُنتهى أحوالِنا وأحكامِنا وجميعِ ما يَصْدُرُ مِنَّا وعلينا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وإذا كان إلى اللهِ المنتهَى؛ فاجعَلْ شكواكَ إليه إذا أصابَك الضُّرُّ، واجعَلْ توجُّهَك إليه إذا أرَدْتَ النَّفعَ؛ لأنَّ إليه المنتهَى، فلا يَجْلِبُ لك الخَيرَ إلَّا اللهُ، ولا يمنعُ عنك الضَّرَرَ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، فاجعَلْه مُنتهاك في كلِّ أمورِك(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ مُتضَمِّنٌ لكَنزٍ عَظيمٍ، وهو أنَّ كلَّ مُرادٍ إنْ لم يُرَدْ مِن أجْلِه، ويَتَّصِلْ به، وإلَّا فهو مُضمَحِلٌّ مُنقَطِعٌ؛ فإنَّه ليس إليه المُنتهى! وليس المُنتهى إلَّا إلى الَّذي انتَهَتْ إليه الأمورُ كلُّها؛ فانتَهَتْ إلى خَلْقِه ومَشيئتِه وحِكمتِه وعِلْمِه؛ فهو غايةُ كلِّ مطلوبٍ، وكلُّ محبوبٍ لا يُحَبُّ مِن أجْلِه فمَحبَّتُه عَناءٌ وعذابٌ، وكلُّ عَمَلٍ لا يُرادُ مِن أجْلِه فهو ضائعٌ وباطلٌ، وكلُّ قلبٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٦).

قال ابن تيميَّة: (وما هَمَّ به مِن القولِ الحسَنِ والعملِ الحسَنِ إنَّما يُكتَبُ له به حسَنةٌ واحدةٌ، فإذا صار قولًا وفعلًا كُتِب له به عَشْرُ حسَناتٍ إلى سَبْعِمِئةٍ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٣٧).

وقال السعدي: (مَن نَوى الخَيرَ، واقترَن بنيَّتِه الجازِمةِ سَعْيٌ فيما يَقدِرُ عليه، ثمَّ لم يقدرْ؛ فإنَّه يُنزَّلُ مَنزِلةَ الفاعِلِ التَّامِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٧).

لا يَصِلُ إليه فهو شَقِيٌّ مَحجوبٌ عن سَعادتِه وفَلاحِه! فاجتمَعَ ما يُراد منه كلُّه في قَولِه: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [الحجر: ٢١]، واجتَمَعَ ما يُرادُ له كلُّه في قَولِه: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾؛ فليس وراءَه سُبحانَه غايةٌ تُطلَبُ، وليس دونَه غايةٌ إليها المُنتَهى، وتحتَ هذا سِرٌّ عظيمٌ مِن أسرارِ التَّوحيدِ، وهو أنَّ القلبَ لا يَستقِرُّ ولا يَطمئِنُّ ويَسكُنُ إلَّا بالوُصولِ إليه، وكلُّ ما سِواه مما يُحَبُّ ويُرادُ فمُرادٌ لغَيرِه، وليس المرادُ المحبوبُ لِذَاتِه إلَّا واحِدًا إليه المُنتَهى، ويَستحيلُ أنْ يكونَ المُنتَهى إلى اثنَينِ، كما يَستحيلُ أنْ يكونَ ابتِداءُ المخلوقاتِ مِن اثنَينِ؛ فمَنْ كان انتِهاءُ مَحبَّتِه ورَغبتِه وإرادتِه وطاعتِه إلى غَيرِه، بَطَلَ عليه ذلك، وزالَ عنه، وفارقَه أحْوَجَ ما كان إليه، ومَن كان انتهاءُ محبَّتِه ورغبتِه ورَهبتِه وطَلَبِه هو سُبحانَه، ظَفِرَ بنِعَمِه ولَذَّتِه وبَهجتِه وسَعادتِه أَبَدَ الآبادِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ تَنبيهٌ إلى أنَّ الظُّلمَ والطُّغيانَ لا يُخَلِّصُ الإنسانَ، ولا يُغْني ولا يُجدِي، بل يُرْدِي، بدَلالةِ قومِ نوحٍ؛ فقد كانوا أظْلَمَ منهم وأَطغَى، فأُهلِكوا[٢]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ﴾ هذا الاستِخبارُ ليس لعدَمِ عِلْمِه جلَّ وعلا، ولكنْ لِشَحْذِ النُّفوسِ والهِمَمِ إلى الاستِماعِ إلى ما يُلْقَى[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ يقتَضي أنَّ المُنَبَّأَ بذلك يجِبُ عليه تصديقُ ذلك، والإيمانُ به؛ لأنَّه مِمَّا أَخبرَ به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٥٠٨، ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٠).

مُصَدِّقًا لإبراهيمَ وموسى، كما ذُكِرَ ذلك في آخرِ سورةِ (الأعلَى): ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، وهذا يَقتَضي ثلاثةَ أُصولٍ؛ الأوَّلُ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. الثَّاني: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾. الثَّالثُ: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾؛ فالأصلُ الأوَّلُ: أنَّ ذَنْبَ الإنسانِ لا يَحمِلُه غيرُه، وهو قَولُه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يَحْمِلُ أحدٌ عن أحدٍ مِن ذنْبِه شَيئًا. الثَّاني: أنَّه ليس للإنسانِ إلَّا سعيُه، وهو قولُه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾. الثَّالِثُ: أنَّه ﴿يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾، وهذه أصولُ الإيمانِ بالوَعدِ والوَعيدِ، والثَّوابِ والعِقابِ، وهي نتيجةُ الإيمانِ بالأمرِ والنَّهيِ والمَعادِ، بل نتيجةُ الجزاءِ في الدُّنيا والآخِرةِ[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ...﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: أنَّ أكثَرَ هذه الصُّحُفِ أمثالٌ ومَواعِظُ[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: تأكيدُ تَرابُطِ الكُتُبِ السَّماويَّةِ[(٣)].

٥- قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ۝ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أمَّا بَيانُ تَوفيتِه ففيه لطيفةٌ: وهي أنَّه لم يَعْهَدْ عَهدًا إلَّا وَفَّى به، وقال لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٧] فاستغفَرَ ووَفَّى بالعَهدِ، ولم يغفِرِ اللهُ له! فعُلِمَ أنْ ليس للإنسانِ إلَّا ما سعَى، وأنَّ وِزرَه لا تَزِرُه نَفْسٌ أُخرى[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير آيات أَشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٥).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَحمِلُ ذَنْبَ غيرِه، إلَّا أنَّه يُستَثنَى مِن ذلك إذا كان صاحِبَ سُنَّةٍ آثمةٍ؛ فإنَّ عليه وِزْرَها ووِزْرَ مَن عَمِلَ بها إلى يومِ القيامةِ، ولكِنَّ الحقيقةَ أنَّ هذا لا يَتحمَّلُ وِزْرَ غَيرِه؛ لأنَّ غيرَه قد وُزِرَ وأَثِمَ، لكِنْ هو تَحَمَّلَ إثمَ السُّنَّةِ السَّيِّئةِ، والبَدْءِ بالشَّرِّ، فيكونُ حقيقةً أنَّه لم يُوزَرْ وِزْرَ غَيرِه، ولكِنَّه وُزِرَ بوِزْرِ نفْسِه[1]!

٧- قَولُه تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ هذا خبَرٌ مِن الرَّسولَينِ الكَريمَينِ: إبراهيمَ وموسى عليهما السَّلامُ، وهما خبَرانِ عامَّانِ، والأخبارُ لا تُنسَخُ، ولا تَختَلِفُ شرائِعُ الأنبياءِ في الأخبارِ المُجرَّدةِ[2]، فهما آيتانِ مُحكَمتانِ يَقتَضيهما عَدلُ الرَّبِّ تعالى، وحِكمتُه، وكمالُه المُقَدَّسُ، والعَقلُ والفِطرةُ شاهِدانِ بهما، فالأُولى: تقتَضي أنَّه لا يُعاقَبُ بجُرْمِ غَيرِه، والثَّانيةُ: تقتَضي أنَّه لا يُفْلِحُ إلَّا بعَمَلِه وسَعْيِه، فالأُولى: تُؤَمِّنُ العبدَ مِن أخْذِه بجَريرةِ غيرِه، كما يَفعلُه مُلوكُ الدُّنيا، والثَّانيةُ: تَقطَعُ طَمَعَه مِن نجاتِه بعَمَلِ آبائِه وسَلَفِه ومَشايخِه، كما عليه أصحابُ الطَّمَعِ الكاذِبِ؛ فتأمَّلْ حُسْنَ اجتِماعِ هاتَينِ الآيتَينِ[3]، وهذا هو العَدلُ الَّذي نَزَّهَ نفْسَه عن خِلافِه[4].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أنَّه قال في حَقِّ المُسيءِ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وهو لا يدُلُّ إلَّا على عَدَمِ الحَملِ عن الوازِرةِ، وهذا لا يَلزَمُ منه بقاءُ الوِزرِ عليها -مِن ضَرورةِ اللَّفظِ-؛ لجَوازِ أن يَسقُطَ عنها ويَمحوَ اللهُ ذلك الوِزرَ، فلا يَبقى عليها، ولا يَتحَمَّلُ عنها غَيرُها، ولو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٠٨).

قال: «لا تَزِرُ وازرةٌ إلَّا وِزرَ نَفْسِها» كان مِن ضَرورةِ الاستِثناءِ أنَّها تَزِرُ؛ وقال في حَقِّ المحسِنِ: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، ولم يَقُلْ: «ليس له ما لم يَسْعَ»؛ لأنَّ العبارةَ الثَّانيةَ ليس فيها أنَّ له ما سعى، وفي العبارةِ الأُولى أنَّ له ما سعى -نظرًا إلى الاستِثناءِ-، فقال في حَقِّ المُسيءِ بعِبارةٍ لا تَقطَعُ رَجاءَه، وفي حَقِّ المُحسِنِ بعِبارةٍ تَقطَعُ خَوفَه؛ كُلُّ ذلك إشارةً إلى سَبْقِ الرَّحمةِ الغَضَبَ(١).

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ استَدَلَّ به الشَّافِعيُّ على أنَّ ثَوابَ القِراءةِ لا يَلحَقُ المَيِّتَ(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَملِكُ غيرَ سَعيِه، ولا يَستَحِقُّ غيرَه، وإنْ كان قد يَحصُلُ له نَفعٌ بفَضلِ اللهِ وبرَحمتِه وبدُعاءِ غيرِه؛ فإنَّه قد عُرِفَ أنَّ اللهَ يَرحَمُ كثيرًا مِن النَّاسِ مِن غيرِ جِهةِ عَمَلِه، لكِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥١).

قال ابن كثير: (ومِن هذه الآيةِ الكريمةِ استنبط الشَّافعيُّ -رحِمه الله- ومَن اتَّبعه أنَّ القِراءةَ لا يَصِلُ إهداءُ ثَوابِها إلى الموتَى؛ لأنَّه ليس مِن عمَلِهم ولا كَسبِهم؛ ولهذا لم يَندُبْ إليه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أمَّتَه، ولا حثَّهم عليه، ولا أرشَدهم إليه بنصٍّ ولا إيماءٍ، ولم يُنقَلْ ذلك عن أحدٍ مِن الصَّحابةِ رضيَ الله عنهم، ولو كان خيرًا لَسَبَقونا إليه، وبابُ القُرُباتِ يُقتصَرُ فيه على النُّصوصِ، ولا يُتصرَّفُ فيه بأنواعِ الأقيسةِ والآراءِ، فأمَّا الدُّعاءُ والصَّدقةُ فذاك مُجمَعٌ على وُصولِهما، ومنصوصٌ مِن الشَّارعِ عليهما). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥).

وقال السعدي: (وقد استَدلَّ بقولِه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ مَن يرَى أنَّ القُرَبَ لا يُفيدُ إهداؤُها للأحياءِ ولا للأمواتِ؛ قالوا: لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، فوُصولُ سعْيِ غيرِه إليه مُنافٍ لذلك، وفي هذا الاستِدلالِ نظرٌ؛ فإنَّ الآيةَ إنَّما تدُلُّ على أنَّه ليس للإنسانِ إلَّا ما سعَى بنفْسِه، وهذا حقٌّ لا خلافَ فيه، وليس فيها ما يدُلُّ على أنَّه لا ينتفعُ بسَعيِ غيرِه إذا أهداه ذلك الغيرُ له، كما أنَّه ليس للإنسانِ مِن المالِ إلَّا ما هو في ملكِه وتحتَ يدِه، ولا يَلزَمُ مِن ذلك ألَّا يَملِكَ ما وهَبه له الغيرُ مِن مالِه الَّذي يَملِكُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).

ليس له إلَّا ما سعَى[(١)]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ سؤالٌ: أنَّ هذه الآيةَ تدُلُّ على أنَّه لا يَنتَفِعُ أحَدٌ بعَمَلِ غَيرِه، وقد جاءت آيةٌ أُخرى تدُلُّ على أنَّ بَعضَ النَّاسِ رُبَّما انتفَع بعَمَلِ غيرِه، وهي قَولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور: ٢١]، فرَفعُ دَرَجاتِ الأولادِ -سواءٌ قُلنا: إنَّهم الكِبارُ أو الصِّغارُ- نَفعٌ حاصِلٌ لهم، وإنَّما حصَلَ لهم بعَمَلِ آبائِهم لا بعَمَلِ أنفُسِهم؟

الجوابُ مِن ثَلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ آيةَ ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ إنَّما دَلَّت على نَفيِ مِلكِ الإنسانِ لغَيرِ سَعْيِه، ولم تدُلَّ على نَفيِ انتِفاعِه بسَعيِ غَيرِه؛ لأنَّه لم يَقُلْ: «وأنْ لن ينتَفِعَ الإنسانُ إلَّا بما سَعى»، وإنَّما قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ ﴾، وبيْنَ الأمْرَينِ فَرقٌ ظاهِرٌ؛ لأنَّ سَعيَ الغَيرِ مِلكٌ لساعيه: إنْ شاء بَذَله لِغَيرِه فانتفَعَ به ذلك الغَيرُ، وإن شاء أبقاه لنَفْسِه، وقد أجمَعَ العُلَماءُ على انتِفاعِ المَيِّتِ بالصَّلاةِ عليه، والدُّعاءِ له، والحَجِّ عنه، ونحوِ ذلك مِمَّا ثَبَت الانتِفاعُ بعَمَلِ الغَيرِ فيه.

الثَّاني: أنَّ إيمانَ الذُّرِّيةِ هو السَّبَبُ الأكبَرُ في رَفعِ دَرَجاتِهم؛ إذ لو كانوا كُفَّارًا لَمَا حَصَل لهم ذلك؛ فإيمانُ العَبدِ وطاعتُه سَعيٌ منه في انتِفاعِه بعَمَلِ غَيرِه مِنَ المُسلِمينَ، كما وَقَع في الصَّلاةِ في الجَماعةِ؛ فإنَّ صَلاةَ بَعضِهم مع بعضٍ يَتضاعَفُ بها الأجرُ زِيادةً على صَلاتِه مُنفَرِدًا، وتلك المُضاعَفةُ انتِفاعٌ بعَمَلِ الغَيرِ سَعى فيه المُصَلِّي بإيمانِه وصلاتِه في الجماعةِ، وهذا الوَجهُ يُشيرُ إليه قَولُه تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾.

الثَّالِثُ: أنَّ السَّعيَ الَّذي حَصَل به رفْعُ دَرَجاتِ الأولادِ ليس للأولادِ، كما

(١) يُنظر: ((تفسير آيات أَشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٤٥١).

هو نَصُّ قَولِه تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، ولكِنَّه مِن سَعيِ الآباءِ، فهو سَعيٌ للآباءِ أقَرَّ اللهُ عُيونَهم بسَبَبِه بأنْ رَفَع إليهم أولادَهم؛ لِيَتمتَّعوا في الجنَّةِ برُؤيتِهم؛ فالآيةُ تُصَدِّقُ الأُخرى ولا تُنافيها؛ لأنَّ المقصودَ بالرَّفعِ إكرامُ الآباءِ لا الأولادِ، فانتِفاعُ الأولادِ تَبَعٌ، فهو بالنِّسبةِ إليهم تفَضُّلٌ مِنَ اللهِ سُبحانَه وتعالى عليهم بما ليس لهم، كما تَفضَّلَ بذلك على الوِلْدانِ والحُورِ العِينِ والخَلْقِ الَّذين يُنشِئُهم للجَنَّةِ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ بِشارةٌ للمُوَحِّدِ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى يُريه أعمالَه الصَّالِحةَ لِيَفرَحَ بها، ويَحزَنَ الكافِرُ بأعمالِه الفاسِدةِ، فيَزدادَ غَمًّا[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أنَّه لَمَّا كان في هذه الدَّارِ رُبَّما وَقَعت المُسامَحةُ ببَعضِ الأشياءِ، والغَفلةُ عن بَعضِها؛ قال: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أي: الأتَمَّ الأكمَلَ؛ فإن كان خيرًا فمعَ المُضاعَفةِ، وإن كان غَيرَه فعلى السَّواءِ؛ لِمَن أراد اللهُ تعالى ذلك له، ويَعفو عن كثيرٍ، لكِنَّه تَذكِرةٌ له[٣]!

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ كُلَّ ما يَعمَلُه الإنسانُ فبِقَضاءِ اللهِ تعالى وخَلْقِه، حتَّى الضَّحِكَ والبُكاءَ[٤].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾، وكذا قَولُه: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾: أَتَى بالأمْرَينِ وهما مُتقابِلانِ؛ لِيُعلَمَ بذلك أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى على

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢١١).

كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، وهو القادِرُ على خَلْقِ الضِّدَّين[١].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ أنَّه سُبحانَه المُحْيي المُميتُ، وأنَّه خَلَقَ الموتَ والحياةَ؛ فثَبَتَ أنَّ الأفعالَ كلَّها؛ خَيرَها وشرَّها: صادِرةٌ عن خَلْقِه وإحداثِه إيَّاها[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ أنَّه سُبحانَه خَلَقَ هذَين الصِّنفَينِ المُختَلِفَينِ خَلْقًا، والمُختَلِفَينِ مِزاجًا، والمُختَلِفَينِ عَقلًا، والمُختَلِفَينِ فِكْرًا؛ خَلَقَهما مِن شيءٍ واحدٍ؛ مِن نطفةٍ؛ ولهذا قال اللهُ تبارك وتعالى في آخرِ سورةِ (القيامةِ): ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۞ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٩، ٤٠]؟ **الجوابُ**: بلى، فاللهُ تعالى خَلَقَ الزَّوجَينِ مِن شَيءٍ واحدٍ، وهذا يدُلُّ على كمالِ قُدرتِه جلَّ وعلا؛ إذْ إنَّه خَلَقَ صِنفَينِ مُختَلِفَينِ في كلِّ الأحوالِ: في القُوَّةِ البَدَنيَّةِ، والعَقليَّةِ، والفِكريَّةِ، والتَّنظيميَّةِ، يختَلِفُ الذَّكَرُ عنِ الأنثى، وبذلك نَعْرِفُ ضلالَ أولئك القومِ الَّذين يُريدونَ أنْ يُلْحِقوا المرأةَ بالرَّجُلِ في أعمالٍ تختَصُّ بالرَّجُلِ! فإنَّهم سُفَهاءُ العُقولِ، ضُلَّالُ الأديانِ، فكيف يمكنُ أنْ نُساوِيَ بيْنَ صِنفَينِ فَرَّقَ اللهُ بيْنَهما خِلْقةً وشَرعًا؟! فهناك أحكامٌ يُطالَبُ بها الرَّجُلُ ولا تُطالَبُ بها المرأةُ، وأحكامٌ تُطالَبُ بها المرأةُ ولا يُطالَبُ بها الرَّجُلُ، وأمَّا قَدَرًا وخِلْقةً فالأمرُ واضحٌ، لكنَّ هؤلاء الَّذين لم يُوَفَّقوا وسَلَبَ اللهُ عقولَهم، وأَضعَفَ أديانَهم يُحاوِلونَ الآن أنْ يُلْحِقوا النِّساءَ بالرِّجالِ! وهذه لا شكَّ أنَّها فِكرةٌ خاطِئةٌ، مُخالِفةٌ للفِطرةِ، ومُخالِفةٌ للطَّبيعةِ، كما أنَّها مُخالِفةٌ للشَّريعةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٩).

١٨- قَولُه تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ هذا مِن أعظَمِ الأدِلَّةِ على كَمالِ قُدرتِه سُبحانَه وتعالى، وانفرادِه بالعِزَّةِ العَظيمةِ، وهذا مِن وَجهَينِ؛ الأوَّلُ: أنَّه أوجَدَ تلك الحيواناتِ -صَغيرَها وكبيرَها- مِن نُطفةٍ ضَعيفةٍ مِن ماءٍ مَهينٍ، ثمَّ نَمَّاها وكَمَّلها، حتَّى بلَغَت ما بلَغَت، ثمَّ صار الآدميُّ منها إمَّا إلى أرفَعِ المقاماتِ في أعلى عِلِّيِّينَ، وإمَّا إلى أدنى الحالاتِ في أسفَلِ سافِلينَ[(١)]. الثَّاني: أنَّ النُّطفةَ جسمٌ مُتناسِبُ الأجزاءِ، يَخلُقُ اللهُ منها أعضاءً مُختَلِفةً، وطِباعًا مُتباينةً! وخَلْقُ الذَّكَرِ والأُنثى منها أعجَبُ ما يكونُ؛ ولهذا لم يَقدِرْ أحَدٌ على أن يَدَّعِيَه، كما لم يَقدِرْ على أن يدَّعِيَ خَلْقَ السَّمَواتِ[(٢)].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ دَليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى أَوجبَ على نفْسِه أنْ يَبْعَثَ النَّاسَ؛ لأنَّه لو كان النَّاسُ يَحيَونَ ويَموتونَ بلا إرجاعٍ لَكان هذا عَبَثًا مَحْضًا؛ لأنَّنا نَعلَمُ الآنَ أنَّ النَّاسَ في الدُّنيا يختَلِفونَ في الغِنى والفَقرِ، والقُوَّةِ والضَّعفِ، والذَّكاءِ والعَقلِ، وغيرِ ذلك، ولو كان الخَلْقُ هكذا فقط بدونِ إرجاعٍ لَكان هذا مُنافيًا للحِكمةِ تمامًا، لكِنْ لا بُدَّ مِن رُجوعٍ[(٣)].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ القادِرَ على الأُولى قادِرٌ على الآخِرةِ، كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[(٤)] [الروم: ٢٧].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ سُؤالٌ: أنَّ قَولَه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ المقصودُ منه تخويفُ الظَّالِمِ بالهَلاكِ، فإذا قال: هم كانوا في

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٠).

غايةِ الظُّلمِ والطُّغيانِ فأُهلِكوا، فيَقولُ الظَّالِمُ: هم كانوا أظلَمَ فأُهلِكوا؛ لِمُبالَغتِهم في الظُّلمِ، ونحن ما بالَغْنا، فلا نَهلِكُ! وأمَّا لو قال: أُهلِكوا لأنَّهم ظَلَمةٌ، لَخاف كُلُّ ظالمٍ؛ فما الفائدةُ في قَولِه: ﴿أَظْلَمَ﴾؟

الجوابُ: المقصودُ بَيانُ شِدَّتِهم، وقُوَّةِ أجسامِهم؛ فإنَّهم لم يُقْدِموا على الظُّلمِ والطُّغيانِ الشَّديدِ إلَّا بتَماديهم وطولِ أعمارِهم، ومع ذلك ما نجا أحَدٌ منهم! فما حالُ مَن هو دُونَهم مِن العُمُرِ والقُوَّةِ؟! فهو كقَولِه تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾[1] [الزخرف: ٨].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في اختِصاصِ المُؤتَفِكةِ باسمِ الموضِعِ في الذِّكرِ، وقال في عادٍ وثمودَ وقَومِ نُوحٍ اسمَ القَومِ؟

الجَوابُ مِن وَجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ ثَمودَ اسمُ المَوضِعِ، فذَكَر عادًا باسمِ القَومِ، وثمودَ باسمِ المَوضِعِ، وقَومَ نوحٍ باسْمِ القَومِ، والمُؤتَفِكةَ باسْمِ المَوضِعِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ القَومَ لا يُمكِنُهم صَونُ أماكِنِهم عن عذابِ اللهِ تعالى، ولا الموضِعُ يُحَصِّنُ القَومَ عنه؛ فإنَّ في العادةِ تارةً يَقوَى السَّاكِنُ فيَذُبُّ عن مَسكَنِه، وأُخرى يَقوَى المَسكَنُ فيَرُدُّ عن ساكِنِه؛ وعذابُ اللهِ تعالى لا يَمنَعُه مانعٌ! وهذا المعنى حَصَل للمُؤمِنينَ في آيَتَينِ؛ إحداهما: قَولُه تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠]، وقَولُه تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢]؛ ففي الأُولى: لم يَقدِرِ السَّاكِنُ على حِفظِ مَسكَنِه، وفي الثَّانيةِ: لم يَقْوَ الحِصنُ على حِفظِ السَّاكِنِ.

والوَجهُ الثَّاني: هو أنَّ عادًا وثَمودَ وقَومَ نوحٍ كان أمرُهم مُتقَدِّمًا، وأماكِنُهم كانت قد دَثَرت؛ ولكِنَّ أمْرَهم كان مَشهورًا مُتواتِرًا؛ وقومَ لُوطٍ كانت مساكِنُهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٨٤).

وآثارُ الانقِلابِ فيها ظاهِرةً؛ فذَكَر الأظهَرَ مِنَ الأمْرَينِ في كُلِّ قَومٍ[١].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ ضُمِّنَ «تَتمارى» معنى «تُكَذِّبُ»؛ ولهذا عَدَّاه بالباءِ؛ فإنَّه «تَفاعَلَ» مِن المِراءِ، يقالُ: تَمارَيْنا في الهِلالِ، و((مِراءٌ في القُرآنِ كُفْرٌ))[٢]، وهو يكونُ لتكذيبٍ وتشكيكٍ، ويقالُ: لَمَّا كان الخِطابُ لهم قال: «تَتمارَى» أي: يَتمارَونَ، ولم يَقُلْ: «تَمتَري»؛ لأنَّ التَّفاعُلَ يكونُ بيْنَ اثنَينِ[٣].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ سؤالٌ: كيف قال تعالى ذلك بعدَ تَعديدِ النِّقَمِ، والآلاءُ: النِّعَمُ؟!

الجَوابُ: قد تَقدَّمَ تعديدُ النِّعَمِ، مع أنَّ النِّقمةَ في طَيِّها نِعمةٌ؛ لِما تَضمَّنَتْه مِنَ المواعِظِ والزَّواجِرِ[٤] لِمَن اعتَبَرَ وتَدبَّرَ، لذا أُطلِقَ على النِّعَمِ والنِّقَمِ لفظُ الآلاءِ، وهي النِّعَمُ الَّتي لا يَتشكَّكُ فيها سامعٌ[٥]. وأيضًا فهلاكُ الكافرينَ مِن حيثُ إنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٨٤).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٤٦٠٣)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٨٠٩٣)، وأحمد (٧٨٤٨) واللَّفظُ له مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.
استحسنه يحيى بنُ مَعِينٍ كما في ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (٤٥/ ٧٣)، وصحَّح الحديثَ ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (١٤٦٤)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٢٤٣) وقال: (على شرطِ مسلمٍ)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٣/ ٢٤١)، وحسَّن الحديثَ ابنُ القيِّم في ((تهذيب السنن)) (١٢/ ٣٥٣)، وقال الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٦٠٣): (حسَنٌ صحيحٌ).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٦٨).

تَخليصٌ لأهلِ الأرضِ مِن شُؤمِ عَقائدِهم وأعمالِهم نعمةٌ جليلةٌ، يحقُّ أن يُحمَدَ عليها[١].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أنَّ كلَّ ما خَلَقَه اللهُ تعالى فهو نِعمةٌ على عبادِه المُؤمِنينَ؛ يَستَحِقُّ أنْ يَحمَدوه ويَشكُروه عليه، وهو مِن آلائِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ الفاءُ لتَفريعِ الاستِفهامِ التَّعجيبيِّ على قولِه: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]؛ إذ كان حالُ هذا الَّذي تَولَّى وأعْطَى قَليلًا وأَكْدَى جَهْلًا بأنَّ للإنسانِ ما سَعى، وقد حصَلَ في وقْتِ نُزولِ الآيةِ المُتقدِّمةِ أو قبْلَها حادثٌ أنبَأَ عن سُوءِ الفَهمِ لمُرادِ اللهِ مِن عِبادِه، مع أنَّه واضحٌ لِمَن صرَفَ حقَّ فَهْمِه، ففُرِّعَ على ذلك كلِّه تَعجيبٌ مِن انحرافِ أفْهامِهم؛ فالَّذي تَولَّى وأعْطى قليلًا هو هنا ليس فَريقًا مِثلَ الَّذي عَناهُ قولُه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩]، بلْ هو شَخصٌ بعَينِه، ولعلَّ ذلك وَجْهُ التَّعبيرِ عنه بلَفظِ (الَّذي) دونَ كَلمةِ (مَن)؛ لأنَّ (الَّذي) أظهَرُ في الإطلاقِ على الواحِدِ المُعيَّنِ دونَ لَفظِ (مَن)[٣].

- قولُه: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ وُصِفَ عَطاؤُه بأنَّه قليلٌ؛ تَوطئةً لذَمِّه بأنَّه مع قِلَّةِ ما أعطاهُ قد شحَّ به فقطَعَه، وأشار قولُه: ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ إلى بُخْلِه وقَطْعِه العَطاءَ، وهذه مَذمَّةٌ ثانيةٌ بالبُخلِ[٤]، على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٢٨).

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ إنكاريٌّ، أي: ما عِندَه عِلمُ الغيبِ. وهذا الخبَرُ كِنايةٌ عن خَطئِه فيما تَوهَّمَه، والجُملةُ استِئنافٌ بَيانيٌّ للاستِفهامِ التَّعجيبيِّ مِن قولِه: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰٓ ...﴾ إلخ[1].

- وتَقديمُ (عِنْدَهُ) -وهو مُسنَدٌ- على ﴿عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ -وهو مُسنَدٌ إليه-؛ للاهتِمامِ بهذه العِنديَّةِ العَجيبِ ادِّعاؤُها، والإشارةِ إلى بُعْدِه عن هذه المَنزِلةِ[2].

- وفُرِّعَ على هذا التَّعجيبِ قولُه: ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾، أي: فهو يُشاهِدُ أُمورَ الغَيبِ. والرُّؤيةُ في قولِه: ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ بَصريَّةٌ، ومَفعولُها مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: فهو يَرى الغَيبَ[3].

- وتَقديمُ الضَّميرِ المُسنَدِ إليه ﴿فَهُوَ﴾ على فِعلِه المُسنَدِ ﴿يَرَىٰٓ﴾ دونَ أنْ يقولَ: فيَرى؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكمِ، نحْو: هو يُعطِي الجَزيلَ. وهذا التَّقوِّي بِناءً على ما أظهَرَ مِن اليقينِ بالصَّفقةِ الَّتي عاقَدَ عليها -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهو أدخَلُ في التَّعجيبِ مِن حالِه[4].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾

- حرْفُ (أَمْ) لإضرابِ الانتِقالِ إلى مُتعجَّبٍ منه، وإنكارٍ عليه آخَرَ، وهو جَهْلُه بما عليه أنْ يَعلَمَه الَّذين يَخشَون اللهَ تعالى مِن عِلمِ ما جاء على ألْسِنةِ الرُّسلِ الأوَّلينَ؛ فإنْ كان هو لا يُؤمِنُ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهلَّا تَطلَّبَ ما أخبَرَت به رُسلٌ مِن قبْلُ، طالَما ذَكَرَ هو وقومُه أسماءَهُم وشَرائعَهم في الجُملةِ؟ وطالَما سأَلَ هو وقَومُه أهلَ الكتابِ عن أخبارِ مُوسى، فهلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٢٩).

سأَلَ عمَّا جاء عنهم في هذا الغرَضِ الَّذي يَسْعى إليه؟ -وهو طلَبُ النَّجاةِ مِن عَذابِ اللهِ- فيُنبِّئَه العالِمون؛ فإنَّ مآثِرَ شَريعةِ إبراهيمَ مأْثورٌ بعضُها عندَ العرَبِ، وشَريعةَ مُوسى مَعلومةٌ عندَ اليهودِ، فالاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) إنكارٌ، والتَّقديرُ: بلْ ألمْ يُنبَّأْ بما في صُحفِ مُوسى... إلخ[1].

- قولُه: ﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ تَنبيهٌ لِمَن خُوطِبَ بقولِه: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ * وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴾ على خَطَئِه في إمساكِه عن البرِّ، وقَبولِ قولِ أخيهِ: أنا أتحمَّلُ ذُنوبَك كلَّها -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ ولذلك جُعِلَ قولُه: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾ [النجم: ٣٨]؛ تَمهيدًا لقولِه: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[2] [النجم: ٣٩].

- وإنَّما خصَّ هذه الصُّحفَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ العرَبَ يَعرِفون إبراهيمَ وشَريعتَه ويُسَمُّونها الحَنيفيَّةَ، ورُبَّما ادَّعى بعضُهم أنَّه على أثارةٍ منها، وأمَّا صُحفُ مُوسى فهي مُشتهِرةٌ عندَ أهْلِ الكِتابِ، والعرَبُ يُخالِطون اليهودَ في خَيبرَ وقُرَيظةَ والنَّضيرِ وتَيْمَا، ويُخالِطون نَصارى نَجْرانَ[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قدَّمَ مُوسَى هاهنا فقال: ﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾، وفي سُورةِ (الأعْلى) قال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ * صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، فقدَّمَ إبراهيمَ؛ وذلك لعِدَّةِ أوجهٍ: الأوَّلُ: مِثلُ هذا في كلامِ الفُصحاءِ لا يُطلَبُ له فائدةٌ، بلِ التَّقديمُ والتأخيرُ سواءٌ في كَلامِهم. الثَّاني: أنَّ الذِّكرَ في سُورةِ (الأعلى) لمُجرَّدِ الإخبارِ والإنذارِ، وهاهنا المقصودُ بَيانُ انتفاءِ الأعذارِ، فذُكِرَ هناك على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٩، ١٣٠).

تَرتيبِ الوجودِ: صُحفُ إبراهيمَ قبْلَ صُحفِ مُوسى في الإنزالِ، وأمَّا هاهنا فإنَّ الكلامَ مع أهلِ الكِتابِ -وهم اليهودُ- فقدَّمَ كِتابَهم، وإنْ قُلنا: الخِطابُ عامٌّ؛ فصُحُفُ مُوسى عليه السَّلامُ كانتْ كثيرةَ الوجودِ؛ فكأنَّه قِيل لهم: انْظُروا فيها تَعلَموا أنَّ الرِّسالةَ حقٌّ، وأُرسِلَ مِن قبْلِ مُوسى رُسلٌ، والتَّوحيدَ صِدقٌ، والحَشرَ واقعٌ، فلمَّا كانتْ صُحُفُ مُوسى عندَ اليَهودِ كثيرةَ الوجودِ قدَّمَها، وأمَّا صُحُفُ إبراهيمَ فكانتْ بعيدةً، وكانتِ المواعظُ الَّتي فيها غيرَ مَشهورةٍ فيما بيْنَهم كصُحُفِ مُوسى؛ فأخَّرَ ذِكرَها[1]، ولأنَّ كتابَ موسى عليه السَّلامُ أعظَمُ كتابٍ بعدَ القرآنِ الكريمِ[2].

وقيل: إنَّ تَقديمَ صُحفِ مُوسى؛ لأنَّها اشتُهِرَت بسَعةِ ما فيها مِن الهُدَى والشَّريعةِ، وأمَّا صُحفُ إبراهيمَ فكان المأْثورُ منها أشياءَ قليلةً. وإنَّما قُدِّمَ في سُورةِ (الأعْلى) صُحفُ إبراهيمَ على صُحفِ مُوسى؛ مُراعاةً لوُقوعِهما بدَلًا مِن الصُّحفِ الأُولى، فقُدِّمَ في الذِّكْرِ أقدَمُهما. أو تأْخيرُ ذِكرِ صُحفِ إبراهيمَ؛ ليقَعَ ما بعْدَها هنا جامعًا لِما احتَوَت عليه صُحفُ إبراهيمَ، فتَكونَ صُحفُ إبراهيمَ هي الكلماتِ الَّتي ابتَلى اللهُ بها إبراهيمَ المذكورةَ في قولِه في سُورةِ (البقرةِ): ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي: بلَّغَهنَّ إلى قَومِه ومَنْ آمَنَ به، ويكونَ قَولُه هنا: ﴿ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ في معنى قولِه: ﴿فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ في سُورةِ البقرةِ، الآية (١٢٤)[3].

- ووَصْفُ إبراهيمَ بأنَّه ﴿ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ تَسجيلٌ على المشرِكين بأنَّ إبراهيمَ بلَّغَ ما أُوحِيَ إليه إلى قَومِه وذُرِّيَّتِه، ولكنَّ العرَبَ أهْمَلوا ذلك، واعتاضُوا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٠).

عن الحنيفيَّةِ بالإشراكِ[١].

- وتَخصيصُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ بـ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾؛ لاحتِمالِه ما لم يَحتمِلْه غيرُه، كالصَّبرِ على نارِ نُمْروذَ، وذَبْحِ الولَدِ[٢]. وقيل: مَدحُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه كان مُتَّفَقًا عليه بيْنَ اليَهودِ والمُشرِكينَ والمُسلِمينَ، ولم يُنكِرْ أحَدٌ كَونَه وَفيًّا ومُوفِيًا، ورُبَّما كان المُشرِكونَ يَتوقَّفونَ في وَصفِ موسى عليه السَّلامُ[٣].

- وجاءَ قولُه: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ مُشدَّدًا، والتَّشديدُ مُبالَغةٌ في الوفاءِ، أو بمعْنى: وفَّى وأتَمَّ ما الْتزَمَه أو أُمِرَ به[٤].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿وَفَّىٰٓ﴾؛ ليَتناوَلَ كلَّ وَفاءٍ وتَوفيةٍ، مِن ذلك: تَبليغُه الرِّسالةَ، واستِقلالُه بأعباءِ النُّبوَّةِ، والصَّبرُ على ذبْحِ ولَدِه وعلى نارِ نَمروذَ، وقِيامُه بأضيافِه وخِدمتُه إيَّاهم بنفْسِه[٥].

- وخَصَّ هذَينِ النَّبيَّينِ عليهما أفْضلُ الصَّلاةِ والسَّلامُ بالذِّكرِ؛ قِيل: لأنَّه ما بيْنَ نوحٍ وإبراهيمَ كانوا يأْخُذون الرَّجُلَ بأبيه وابنِه وعمِّه وخالِه، والزَّوجَ بامرأتِه، والعبدَ بسيِّدِه، فأوَّلُ مَن خالَفَهم إبراهيمُ، ومِن شَريعةِ إبراهيمَ إلى شَريعةِ مُوسى صلَّى اللهُ وسلَّم عليهما كانوا لا يأْخُذون الرَّجُلَ بجَريمةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٠).

غَيرِه[١].

وقيل: لأنَّ المُدَّعِينَ مِن بني إسرائيلَ -اليهودَ والنَّصارى- يَدَّعونَ مُتابَعةَ مُوسى عليه السَّلامُ، ومِنَ العَرَبِ يَدَّعونَ مُتابَعةَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ومَن عَداهم لا مُتمَسَّكَ لهم ولا سَلَفَ في نبُوَّةٍ مُحَقَّقةٍ، ولا شَريعةٍ مَحفوظةٍ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

- تَفسيرٌ للَّذي في الصُّحُفِ، أو استِئنافٌ[٣].

- وعُمومُ لَفظِ ﴿وِزْرَ﴾ يَقْتضي اطِّرادَ الحُكمِ في أُمورِ الدُّنيا وأُمورِ الآخرةِ، وتأنيثُ ﴿وَازِرَةٌ﴾ بتأْويلِ: (نَفْس)، وكذلك تأنيثُ ﴿أُخْرَىٰ﴾، ووُقوعُ (نَفْس) و﴿أُخْرَىٰ﴾ في سِياقِ النَّفيِ يُفيدُ العُمومَ[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ بَيانٌ لعدَمِ انتِفاعِ الإنسانِ بعمَلِ غَيرِه مِن حيثُ جلْبُ النَّفعِ إليه، إثرَ بَيانِ عدَمِ انتِفاعِه بِهِ مِنْ حيثُ دفْعُ الضَّررِ عنه[٥].

- وهو عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]؛ فيصِحُّ أنْ تكونَ عطْفًا على المَجرورِ بالباءِ، فتَكونَ (أنْ) مُخفَّفةً مِن الثَّقيلةِ. ويصِحُّ أنْ تكونَ عطْفًا على ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فتَكونَ (أنْ) تَفسيريَّةً، وعلى كِلا الاحتمالَينِ تكونُ (أنْ) تأْكيدًا لنَظيرتِها في المَعطوفِ عليها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧١)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٣، ١٦٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٢).

- وتَعريفُ الإنسانِ هنا تَعريفُ الجِنسِ، ووُقوعُه في سِياقِ النَّفيِ يُفيدُ العُمومَ، والمعْنى: لا يَختصُّ به إلَّا ما سعاهُ، قيل: المُرادُ هنا عمَلُ الخَيرِ؛ بقَرينةِ ذِكرِ لامِ الاختِصاصِ، وبأنْ جُعِلَ مُقابِلًا لقولِه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]، والمعْنى: لا تَحصُلُ لأحدٍ فائدةُ عمَلٍ إلَّا ما عمِلَه بنفْسِه، فلا يكونُ له عمَلُ غيرِه، ولامُ الاختِصاصِ يُرجِّحُ أنَّ المُرادَ ما سَعاهُ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ، وبذلك يكونُ ذِكْرُ هذا تَتْميمًا لمعْنى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۞ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ فيه وَعيدٌ للكافِرِ، ووعْدٌ للمؤمِنِ[2].

- ومعنَى ﴿يُرَىٰ﴾ يُشاهَدُ عِندَ الحِسابِ؛ فيَجوزُ أنْ تُجسَّمَ الأعمالُ فتَصيرَ مُشاهَدةً، وأُمورُ الآخرةِ مُخالِفةٌ لمُعتادِ أُمورِ الدُّنيا. ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ عَلاماتٌ على الأعمالِ يُعلَنُ بها عنها، كما في قولِه تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [التحريم: ٨]، وما في الحديثِ: «إنَّ الغادرَ يُنصَبُ له لِواءٌ يومَ القِيامةِ، فيُقال: هذه غَدْرةُ فُلانِ بنِ فُلانٍ»[3]، فيُقدَّرُ مُضافٌ تَقديرُه: وأنَّ عُنوانَ سَعْيِه سَوف يُرى. ويَجوزُ أنْ يكونَ ذلك بإشهارِ العمَلِ والسَّعيِ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ٤٩] الآيةَ، فتكون الرُّؤيةُ مُعبَّرًا بها عن العِلْمِ؛ لقصْدِ تَحقُّقِ العِلمِ واشتِهارِه. وحِكمةُ ذلك تَشريفُ المُحسنينَ بحُسْنِ السُّمعةِ، وانكسارُ المُسيئينَ بسُوءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٦١٧٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٧٣٥) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما.

الأُحدوثةِ، وقولُه: ﴿ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰٓ ﴾ هو المَقصودُ مِن الجُملةِ[١].

- و(ثمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ حُصولَ الجَزاءِ أهمُّ مِن إظهارِه، أو إظهارِ المَجزيِّ عنه[٢].

- وضَميرُ النَّصبِ في قولِه: ﴿يُجۡزَىٰهُ﴾ عائدٌ إلى السَّعي، أي: يُجْزَى عليه، أو يُجْزى به؛ فحُذِفَ حرْفُ الجرِّ، ونُصِبَ على نَزعِ الخافضِ؛ فقد كثُرَ أنْ يُقالَ: جَزاهُ عمَلَه، وأصْلُه: جَزاهُ على عمَلِه، أو جَزاهُ بعمَلِه[٣].

- والأَوْفَى: اسمُ تَفضيلٍ مِن الوَفاءِ، وهو التَّمامُ والكَمالُ، والتَّفضيلُ مُستعمَلٌ هنا في القوَّةِ، وليس المُرادُ تَفضيلَه على غيرِه، والمعْنى: أنَّ الجَزاءَ على الفِعلِ -مِن حَسَنٍ أو سَيِّئٍ- مُوافِقٌ للمَجزيِّ عليه[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم: ٤٠]، فتَكونَ تَتِمَّةً لِما في صُحفِ مُوسى وإبراهيمَ، ويكونَ الخِطابُ في قَولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الْتِفاتًا مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، والمُخاطَبُ غيرُ مُعيَّنٍ، فكأنَّه قِيل: وأنَّ إلى ربِّه المُنْتهى. ويَجوزُ أنَّها ليستْ ممَّا اشتمَلَتْ عليه صُحفُ مُوسى وإبراهيمَ، ويَكونُ عطْفُها عطْفَ مُفرَدٍ على مُفرَدٍ، فيَكونُ المَصدَرُ المُنسبِكُ مِن (أنْ) ومَعمولِها مَدخولًا للباءِ، أي: لم يُنبَّأْ بأنَّ إلى ربِّك المُنتهى، والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا نَتطلَّبُ لها نَظيرًا مِن كَلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٠، ١٤١).

- والتَّعبيرُ عن اللهِ بلفْظِ ﴿رَبِّكَ﴾ تَشريفٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَعريضٌ بالتَّهديدِ لمُكذِّبيه؛ لأنَّ شأْنَ الرَّبِّ الدِّفاعُ عن مَرْبوبه(١).

- ومعنى الرُّجوعِ إلى اللهِ: قيل: الرُّجوعُ إلى حُكْمِه المحْضِ الَّذي لا تُلابِسُه أحكامٌ هي في الظَّاهرِ مِن تَصرُّفاتِ المَخلوقاتِ ممَّا هو شأْنُ أُمورِ الدُّنيا؛ فالكلامُ على حذْفِ مُضافٍ دلَّ عليه السِّياقُ(٢).

- وقيل: في الآيةِ معنًى آخَرُ، وهو أنْ يكونَ المُنتهى مُعبَّرًا به عن انتهاءِ السَّيرِ، بمعْنى الوُقوفِ؛ لأنَّ الوقوفَ انتهاءُ سَيرِ السَّائرِ، ويكونَ الوُقوفُ تَمثيلًا لحالِ المُطيعِ لأمْرِ اللهِ؛ تَشبيهًا لأمْرِ اللهِ بالحدِّ الَّذي تُحدَّدُ به الحوائطُ، والمعْنى: التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ لِما أمَرَ اللهُ ونَهى، وقيل غير ذلك(٣).

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ لا يَخْلو الإنسانُ مِن حالَيْ حُزنٍ وسُرورٍ؛ لأنَّه إذا لم يكُنْ حَزينًا مَغمومًا كان مَسرورًا؛ لأنَّ اللهَ خلَقَ السُّرورَ والانشراحَ مُلازِمًا للإنسانِ بسَببِ سَلامةِ مِزاجِه وإدراكِه؛ لأنَّه إذا كان سالِمًا كان نَشيطَ الأعصابِ، وذلك النَّشاطُ تَنشَأُ عنه المَسرَّةُ في الجُملةِ، وإنْ كانتْ مُتفاوِتةً في الضَّعفِ والقُوَّةِ؛ فذِكْرُ الضَّحِكِ والبُكاءِ يُفيدُ الإحاطةَ بأحوالِ الإنسانِ بإيجازٍ، ويَرمُزُ إلى أسبابِ الفرَحِ والحُزنِ، ويُذكِّرُ بالصَّانعِ الحَكيمِ، ويُشيرُ إلى أنَّ اللهَ هو المُتصرِّفُ في الإنسانِ؛ لأنَّه خلَقَ أسبابَ فرَحِه ونكَدِه، وألْهَمَه إلى اجتِلابِ ذلك بما في مَقدورِه، وجعَلَ حدًّا عظيمًا مِن ذلك خارجًا عن مَقدورِ الإنسانِ، وذلك لا يَمْتري فيه أحدٌ إذا تأمَّلَ، وفيه ما يُرشِدُ إلى الإقبالِ على طاعةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ الآيةِ (ص: ٥٢٤ - ٥٢٥).

اللهِ والتَّضرُّعِ إليه؛ ليُقدِّرَ للنَّاسِ أسبابَ الفرَحِ، ويَدفَعَ عنهم أسبابَ الحُزنِ[١].

- وأفادَ ضَميرُ الفصْلِ (هُو) قصْرًا لصِفةِ خلْقِ أسبابِ الضَّحِكِ والبُكاءِ على اللهِ تعالى؛ لإبطالِ الشَّريكِ في التَّصرُّفِ، فتَبطُلُ الشَّرِكةُ في الإلهيَّةِ، وهو قصْرُ إفرادٍ[٢]؛ لأنَّ المَقصودَ نفْيُ تَصرُّفِ غيرِ اللهِ تعالى، وإنْ كان هذا القصْرُ بالنَّظرِ إلى نفْسِ الأمرِ قصْرًا حقيقيًّا لإبطالِ اعتِقادِ أنَّ الدَّهرَ مُتصرِّفٌ، وإسنادُ الإضحاكِ والإبكاءِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه خالِقُ قُوَّتي الضَّحِكِ والبُكاءِ في الإنسانِ، وذلك خلْقٌ عَجيبٌ، ولأنَّه خالقُ طِبائعِ المَوجوداتِ الَّتي تَجلِبُ أسبابَ الضَّحِكِ والبُكاءِ مِن سُرورٍ وحُزْنٍ[٣].

- ولم يُذكَرْ مَفعولُ ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾؛ لأنَّ القصْدَ إلى الفِعلَينِ، لا إلى مَفعولَيْهما، فالفِعلانِ مُنزَّلانِ مَنزِلةَ اللَّازِمِ، أي: أوجَدَ الضَّحِكَ والبُكاءَ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ تَضادٌّ، وفي الاعتِبارِ بخلْقِ الشَّيءِ وضِدِّه إشارةٌ إلى دَقائقِ حِكمةِ اللهِ تعالى. وتَقديمُ الضَّحِكِ على البُكاءِ؛ لأنَّ فيه امتِنانًا بزِيادةِ التَّنبيهِ على القُدْرةِ، وحصَلَ بذلك مُراعاةُ الفاصِلةِ[٥].

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ انتُقِلَ مِن الاعتبارِ بانفرادِ اللهِ بالقُدرةِ على إيجادِ أسبابِ المَسرَّةِ والحُزنِ -وهما حالتانِ لا تَخلو عن إحداهما نفْسُ الإنسانِ- إلى العِبرةِ بانفرادِه تَعالى بالقُدْرةِ على الإحياءِ والإماتةِ، وهما حالتانِ لا يَخلو الإنسانُ عن إحْداهما؛ فإنَّ الإنسانَ أوَّلُ وُجودِه نُطفةٌ مَيتةٌ، ثمَّ عَلَقةٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٢، ١٤٣).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ثمَّ مُضْغةٌ -قِطعةٌ ميِّتةٌ وإنْ كانت فيها مادَّةُ الحياةِ، إلَّا أنَّها لم تَبرُزْ مَظاهرُ الحياةِ فيها-، ثمَّ يُنفَخُ فيه الرُّوحُ، فيَصيرُ إلى حياةٍ، وذلك بتَدْبيرِ اللهِ تَعالى وقُدرتِه. ولعلَّ المقصودَ هو العِبرةُ بالإماتةِ؛ لأنَّها أوضَحُ عِبْرةً، وللرَّدِّ عليهم قولَهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وأنَّ عطْفَ ﴿وَأَحۡيَا﴾ تَتْميمٌ[١] واحتراسٌ[٢]؛ ولذلك قُدِّمَ ﴿أَمَاتَ﴾ على (أَحْيَا)، مع الرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٣].

- وفِعلَا ﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ مُنزَّلانِ مَنزلةَ اللَّازِمِ؛ إظهارًا لبَديعِ القُدْرةِ على هذا الصُّنْعِ الحَكيمِ، مع التَّعريضِ بالاستدلالِ على كَيفيَّةِ البَعثِ وإمكانِه، حيث أحالَه المُشرِكون، وشاهِدُه في خلْقِ أنفُسِهم[٤].

- وضَميرُ الفصلِ (هُو) للقصْرِ؛ ردًّا على أهلِ الجاهليَّةِ الَّذين يُسنِدون الإحياءَ والإماتةَ إلى الدَّهرِ، فقالوا: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فليس المُرادُ الحياةَ الآخرةَ؛ لأنَّ المُتحدَّثَ عنهم لا يُؤمِنون بها، ولأنَّها مُستقبَلةٌ، والمُتحدَّثُ عنه ماضٍ[٥]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٥٠٣).

(٢) الاحتراس: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفَعُ ذلك الاحتِمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ: التَّكميلَ.
والفَرقُ بيْنَ الاحتِراسِ والتَّتميمِ: أنَّ الاحتِراسَ يجبُ أنْ يكونَ لرَفْعِ إيهامِ خِلافِ المقصودِ، وأمَّا التَّتميمُ فإنَّه يكونُ في كلامٍ لا يُوهِمُ خِلافَ المقصودِ؛ فالنِّسبةُ بيْنَهما إذَنْ هي التَّبايُنُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩-٥١، ٢٤٠-٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ و﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ و﴿وَأَعْطَىٰ﴾ ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ و﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ طِباقٌ[1] لا يَخفَى، وهو في السُّورة جَميعِها مُتعدِّدٌ؛ ولهذا يَدخُلُ في بابِ المُقابَلةِ، وقد زادَ هذا الطِّباقَ حُسْنًا أنَّه أتَى في مَعرِضِ التَّسجيعِ الفَصيحِ؛ لمَجيءِ المُناسَبةِ التَّامَّةِ في فَواصِلِ الآيِ[2].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ هذه الآيةُ وإنْ كانتْ مُستقِلَّةً بإفادةِ أنَّ اللهَ خالِقُ الأزواجِ مِن الإنسانِ خلْقًا بَديعًا مِن نُطفةٍ فيَصيرُ إلى خَصائصِ نَوعِه، وذلك ما لا يَجهَلُه المُخاطَبون؛ فما كان ذِكْرُه إلَّا تَمهيدًا وتَوطئةً لقولِه: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٧] على نحْوِ قولِه: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وباعتبارِ استقلالِها بالدَّلالةِ على عَجيبِ تَكوينِ نسْلِ الإنسانِ عُطِفَت عليها جُملةُ ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾

---

(١) الطِّباقُ: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ مع مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]؛ طابَقَ بيْنَ الضَّحكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقون. ومنه: طباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ مُتوهَّمةً، فتبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٢٢٥ - ٢٣٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٣٧٧ - ٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٦٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٧/ ٥٩).

[النجم: ٤٧]، وإلَّا لَكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (إنَّ عليه النَّشأةَ الأُخرى) بدونِ عطْفٍ، وبكسْرِ هَمزةِ (إنَّ)[١].

- ولم يُؤتَ في هذه الجُملةِ بضَميرِ الفصْلِ (هو) كما في اللَّتَينِ قبْلَها؛ لعدَمِ الدَّاعي إلى القَصْرِ هنا؛ إذ لا يُنازِعُ أحدٌ في أنَّ اللهَ خالِقُ الخلْقِ[٢].

- ولعلَّ وجْهَ ذِكرِ الزَّوجينِ والبدَلِ منه ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (وأنَّه خلَقَه -أي: الإنسانَ- مِن نُطفةٍ)، كما قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ...﴾ [الطارق: ٥، ٦] الآيةَ؛ أمْرانِ: أحدُهما: إدماجُ الامتِنانِ في أثناءِ ذِكرِ الانفِرادِ بالخلْقِ بنِعمةِ أنْ خلَقَ لكلِّ إنسانٍ زوجةً، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ...﴾[الروم:٢١] الآيةَ. الثَّاني: الإشارةُ إلى أنَّ لكِلَا الزَّوجَينِ حظًّا مِن النُّطفةِ الَّتي منها يُخلَقُ الإنسانُ، فكانتْ للذَّكَرِ نُطفةٌ، وللمرأةِ نُطفةٌ، كما ورَدَ في الحديثِ الصَّحيحِ أنَّه إذا سبَقَ ماءُ الرَّجُلِ أشبَهَ المولودُ أباهُ، وإنْ سبَقَ ماءُ المرأةِ أشبَهَ المولودُ أُمَّه[٣]، وبهذا يَظهَرُ أنَّ لكلٍّ مِن الذَّكَرِ والأُنثى نُطفةً، وإنْ كان المُتعارَفُ عندَ الناسِ قبْلَ القُرآنِ أنَّ النُّطفةَ هي ماءُ الرَّجلِ، إلَّا أنَّ القرآنَ يُخاطِبُ النَّاسَ بما يَفهَمون، ويُشيرُ إلى ما لا يَعلَمون إلى أنْ يَفهَمَه المُتدبِّرون[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٧).

قال ابنُ عرفة: (السُّهَيلي: لم يُؤْتَ في هذه بضَميرِ الفَصلِ كما أتى به فيما قَبْلَها؛ لأنَّ بَعضَ الجُهَّالِ قد نَسَب تلك الأفعالَ لغَيرِ اللهِ تعالى، كقَولِ النُّمرودِ: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، وأمَّا هذا فلم يَدَّعِه أحَدٌ. انتهى). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٠٤).

(٣) يُنظر ما أخرجه البخاريُّ (٣٩٣٨) مِن حديثِ أنَسِ بنِ مالِكٍ رضيَ الله عنه.

وما أخرجه مسلمٌ (٣١١) مِن حديثِ أمِّ سُلَيمٍ رضيَ الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٥، ١٤٦).

- ولفْظُ (مِن) في قولِه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ ابتدائيَّةٌ؛ فإنَّ خلْقَ الإنسانِ آتٍ وناشئٌ بواسِطةِ النُّطفةِ، فإذا تكوَّنَتِ النُّطفةُ وأُمْنِيَتِ ابتدَأَ خلْقُ الإنسانِ[(١)].

- والتَّقييدُ بـ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾؛ لِمَا في اسمِ الزَّمانِ مِن الإيذانِ بسُرعةِ الخلْقِ عندَ دَفْقِ النُّطفةِ في رَحِمِ المرأةِ؛ فإنَّه عندَ الْتِقاءِ النُّطفتَينِ يَبتدِئُ تخَلُّقُ النَّسلِ، فهذا إشارةٌ خَفيَّةٌ إلى أنَّ البُويضةَ -الَّتي هي نُطفةُ المرأةِ- حاصِلةٌ في الرَّحِمِ، فإذا أُمْنِيَتْ عليها نُطفةُ الذَّكرِ أخَذَت في التَّخلُّقِ إذا لم يَعُقْها عائقٌ، ثمَّ لِما في فِعلِ ﴿تُمْنَىٰ﴾ مِن الإشارةِ إلى أنَّ النُّطفةَ تُقطَّرُ وتُصَبُّ على شَيءٍ آخَرَ؛ لأنَّ الصَّبَّ يَقْتضي مَصبوبًا عليه، فيُشيرُ إلى أنَّ التَّخلُّقَ إنَّما يَحصُلُ مِن انصبابِ النُّطفةِ على أُخرى، فعندَ اختلاطِ الماءَينِ يَحصُلُ تَخلُّقُ النَّسلِ، فهذا سِرُّ التَّقييدِ بقولِه: ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾[(٢)].

١١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ كان مُقْتضَى الظَّاهِرِ مِن التَّنظيرِ أنْ يُقدَّمَ قولُه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨] على قولِه: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾؛ لِما في قولِه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ مِن الامتنانِ وإظهارِ الاقتِدارِ المُناسبَينِ لقولِه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ...﴾ [النجم: ٤٣- ٤٥] إلخ؛ إذ يُنتقَلُ مِن نِعمةِ الخلْقِ إلى نِعمةِ الرِّزقِ، كما في قولِه تعالى حِكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨، ٧٩]، وقولِه تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]، ولكنْ عُدِلَ عن ذلك على طَريقةٍ تُشبِهُ الاعتِراضَ؛ ليُقرَنَ بيْنَ البَيانَيْنِ ذِكْرُ قُدْرتِه على النَّشأتَينِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٦، ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٧).

- وفي جُملةِ ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ تَحقيقٌ لِفعلِه إيَّاها؛ شبَّهَها بالحقِّ الواجبِ على المَحقوقِ به بحيثُ لا يَتخلَّفُ، فكأنَّه حقٌّ واجبٌ؛ لأنَّ اللهَ وعَدَ بحُصولِ ما اقتَضَتْه الحِكمةُ الإلهيَّةُ؛ لظُهورِ أنَّ اللهَ لا يُكرِهُه شَيءٌ[(١)].

- والنَّشأةُ: المرَّةُ مِن الإنشاءِ، أي: الإيجادِ والخلْقِ، والأُخرى: مُؤنَّثُ الأخيرِ، أي: النَّشأةُ الَّتي لا نَشأةَ بعْدَها، وهي مُقابِلُ النَّشأةِ الأُولى الَّتي يَتضمَّنُها قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]، وهذه المُقابَلةُ هي مُناسَبةُ ذِكْرِ هذه النَّشأةِ الأُخرى[(٢)].

- وتَقديمُ الخبَرِ ﴿عَلَيْهِ﴾؛ للاهتِمامِ بالتَّحقيقِ الَّذي أفادَتْه (على)؛ تَنبيهًا على زِيادةِ تَحقيقِه بعْدَ أنْ حُقِّقَ بما في (أنَّ) مِن التَّوكيدِ[(٣)].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾

- الإتيانُ بضَميرِ الفصْلِ (هو) لقصْرِ صِفةِ الإغناءِ والإقناءِ عليه تَعالى دونَ غيرِه، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[(٤)]؛ لمُقابَلةِ ذُهولِ النَّاسِ عن شُكرِ نِعمةِ اللهِ تَعالى بإسنادِهم الإرزاقَ لوسائلِه العاديَّةِ، معَ عدَمِ التَّنبُّهِ إلى أنَّ اللهَ أوجَدَ مَوادَّ الأرزاقِ وأسبابَها، وصرَفَ موانِعَها[(٥)].

١٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ في هذه الآيةِ مِن البَلاغةِ والبَديعِ مُحسِّنُ التَّنكيتِ؛ وهو أنْ يَقصِدَ المُتكلِّمُ إلى شَيءٍ بالذِّكرِ دونَ غيرِه ممَّا يسُدُّ مَسدَّه مِن أجْلِ نُكتةٍ في المَذكورِ تُرجِّحُ مَجيئَه؛ فقولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٨، ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٩).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٠).

﴿ٱلشِّعۡرَىٰ﴾، خَصَّ الشِّعرى بالذِّكرِ دونَ غيرِها مِن النُّجوم؛ لأنَّ العرَبَ كان ظهَرَ فيهم رجلٌ يُعرَفُ بأبي كَبْشةَ عبَدَ الشِّعرى ودَعا خلْقًا إلى عِبادتِها، فأنزَلَ اللهُ سُبحانَه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ الَّتي ادُّعِيَت فيها الرُّبوبيَّةُ دونَ سائرِ النُّجومِ[١]. أو لَعلَّ تَخصيصَها؛ للإشعارِ بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وإنْ وافَقَ أبا كَبْشةَ في مخالِفةِ قُرَيشٍ بتركِ عبادةِ الأوثانِ، خالَفَه أيضًا بتركِ عبادةِ الشِّعرَى[٢].

وقيل: إنَّ تَخصيصَ الشِّعرى بالذِّكرِ في هاتِه السُّورةِ؛ لأنَّه تَقدَّمَ ذِكرُ اللَّاتِ والعُزَّى ومَناةَ، وهي مَعبوداتٌ وَهْميَّةٌ لا مُسمَّياتٍ لها، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٌ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ [النجم: ٢٣]، وأعْقَبَها بإبطالِ إلهيَّةِ الملائكةِ، وهي مِن المَوجوداتِ المُجرَّداتِ الخَفيَّةِ -أعقَبَ ذلك بإبطالِ عِبادةِ الكواكبِ، وخُزاعةُ أجوارٌ لأهْلِ مكَّةَ، فلمَّا عَبَدوا الشِّعرَى ظَهَرتْ عِبادةُ الكَواكبِ في الحِجازِ، وإثباتُ أنَّها مَخلوقةٌ للهِ تعالى دليلٌ على إبطالِ إلهيَّتِها؛ لأنَّ المخلوقَ لا يكونُ إلهًا، مع ما في لَفظِ ﴿ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ مِن مُناسَبةِ فَواصلِ هذه السُّورةِ[٣].

- والإتيانُ بضَميرِ الفصْلِ (هو) يُفيدُ قصْرَ مَربوبيَّةِ الشِّعرَى على اللهِ تعالى، وذلك كِنايةٌ عن كَونِه ربَّ ما يَعتقِدون أنَّه مِن تَصرُّفاتِ الشِّعرى، أي: هو ربُّ تلك الآثارِ ومُقدِّرُها، وليستِ الشِّعرى ربَّةَ تلك الآثارِ المُسنَدةِ إليها في مَزاعِمِهم، وليس لقصْرِ كَونِ ربِّ الشِّعرى على اللهِ تعالى دونَ غيرِه؛ لأنَّهم لم يَعتقِدوا أنَّ للشِّعرى ربًّا غيرَ اللهِ، ضَرورةَ أنَّ منهم مَن يَزعُمُ أنَّ الشِّعرى

---

(١) يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥١، ١٥٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٦٩، ٣٧٠)

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٢).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٢).

ربَّةٌ مَعبودةٌ، ومنهم مَن يَعتقِدُ أنَّها تَتصرَّفُ بقطْعِ النَّظَرِ عن صِفتِها[١].

١٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾

- إنَّما قُدِّمَ في الآيةِ ذِكرُ عادٍ وثَمودَ على ذِكرِ قَومِ نُوحٍ، مع أنَّ هؤلاء أسبَقُ؛ لأنَّ عادًا وثمودَ أشهَرُ في العرَبِ وأكثَرُ ذِكرًا بيْنَهم، وديارُهم في بلادِ العرَبِ[٢].

- وجاء بيْنَ أنَّ وخبَرِها لَفظُ (هو) في قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾؛ ففي الثَّلاثةِ الأُوَلِ لَمَّا كان قد يَدَّعي ذلك بعضُ النَّاسِ، كقولِ نُمْروذَ: أنا أُحْيي وأُميتُ، احتِيجَ إلى تأْكيدٍ في أنَّ ذلك إنَّما هو للهِ لا غَيرِه، فهو الَّذي يُضحِكُ ويُبْكي، وهو المميتُ المُحْيي، والمُغْني والمُقْني حقيقةً، وإنِ ادَّعى ذلك أحدٌ فلا حَقيقةَ له، وأمَّا ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾؛ فلأنَّها لَمَّا عُبِدَتْ مِن دونِ اللهِ تعالى، نصَّ على أنَّه تعالى هو ربُّها ومُوجِدُها، ولَمَّا كان خلْقُ الزَّوجينِ، والإنشاءُ الآخَرُ، وإهلاكُ عادٍ ومَن ذُكِرَ لا يُمكِنُ أنْ يَدَّعيَ ذلك أحدٌ؛ لم يُحتَجْ إلى تأْكيدٍ ولا تَنصيصٍ أنَّه تعالى هو فاعِلُ ذلك[٣]. وأيضًا لِكَونِ هلاكِ هؤلاء مَعلومًا، لم تُقرَنِ الجُملةُ بضَميرِ الفَصْلِ هنا[٤].

١٥- قولُه تعالَى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿أَهۡلَكَ عَادًا﴾ إلى آخِرِها، وضَميرُ الجمْعِ في ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ﴾ يَجوزُ أنْ يَعودَ إلى قَومِ نُوحٍ، أي: كانوا أظلَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٣).

وأطْغَى مِن عادٍ وثَمودَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ عائدًا إلى عادٍ وثَمودَ وقَومِ نُوحٍ، والمعْنى: أنَّهم أظلَمُ وأطْغى مِن قَومِك الَّذين كذَّبوك، فتَكونُ تَسليةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ الرُّسلَ مِن قبْلِه لَقُوا مِن أُمَمِهم أشدَّ ممَّا لقِيَه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ مُبْقٍ على أُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلا يُهلِكُها؛ لأنَّه قدَّرَ دُخولَ بقيَّتِها في الإسلامِ ثمَّ أبنائِها[١].

- وضَميرُ الفصْلِ (هُمْ) في قولِه: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ﴾ لتَقويةِ الخبَرِ[٢].

١٦- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾

- (المُؤتفِكةُ) صِفةٌ لمَوصوفٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه اشتِقاقُ الوصْفِ، والتَّقديرُ: القُرَى المُؤتفِكةَ، وهي قُرى قومِ لُوطٍ الأربعُ، ووُصِفَتْ في سُورةِ (بَراءةَ) بـ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ [التوبة: ٧٠]؛ لأنَّ وصْفَ جمْعِ المُؤنَّثِ يَجوزُ أنْ يُجمَعَ، وأنْ يكونَ بصِيغةِ المُفرَدِ المُؤنَّثِ، وقد صار هذا الوصْفُ غالبًا عليها بالغَلَبةِ. وذُكِّرت القُرى باعتبارِ ما فيها مِن السُّكَّانِ؛ تَفنُّنًا، ومُراعاةً للفواصلِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ المؤتفكةُ هنا وصْفًا للأُمَّةِ، أي: لأُمَّةِ لُوطٍ؛ ليكونَ نَظيرًا لذِكْرِ عادٍ وثَمودَ وقومِ نُوحٍ[٣].

- وتَقديمُ المفعولِ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾؛ للاهتِمامِ بعِبْرةِ انقلابِها[٤].

١٧- قولُه تعالَى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾

- أفاد العَطْفُ بفاءِ التَّعقيبِ في قولِه: ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ أنَّ ذلك كان بعَقِبِ إهْوائِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- و﴿مَا﴾ هنا مَوصولةٌ، وجِيءَ بصِلَتِها مِن مادَّةِ وصِيغةِ الفِعلِ الَّذي أُسنِدَ إليها ﴿غَشَّىٰ﴾، وذلك لا يُفيدُ خَبرًا جديدًا زائدًا على مُفادِ الفِعلِ، والمَقصودُ منه التَّهويلُ؛ كأنَّ المُتكلِّمَ أراد أنْ يُبيِّنَ بالمَوصولِ والصِّلةِ وصْفَ فاعِلِ الفِعلِ، فلمْ يَجِدْ لبَيانِه أكثَرَ مِن إعادةِ الفِعلِ؛ إذ لا يُستطاعُ وصْفُه[1].

١٨- قولُه تعالَى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ تَفريعُ فَذْلَكةٍ[2] لِما ذُكِرَ مِن أوَّلِ السُّورةِ ممَّا يَختَصُّ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن ذلك -على قولٍ في تفسيرِ هذه الآيةِ-، كقولِه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ٢- ١٨]، وممَّا يَشملُه ويَشملُ غيرَه، مِن قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٣- ٤٩]؛ فإنَّ ذلك خَليطٌ مِن نِعَمٍ وضِدِّها على نَوعِ الإنسانِ، وفي مَجموعِها نِعمةُ تَعليمِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأُمَّتِه بمَنافعِ الاعتِبارِ بصُنْعِ اللهِ. ثمَّ مِن قَولِه: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا﴾ [النجم: ٥٠] إلى هنا، فتلك نِقَمٌ مِن الضَّالِّين والظَّالِمين لنَصْرِ رُسلِ اللهِ، وذلك نِعمةٌ على جَميعِ الرُّسلِ، ونِعمةٌ خاصَّةٌ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهي بِشارتُه بأنَّ اللهَ سيَنصُرُه؛ فجَميعُ ما عُدِّدَ مِن النِّعَمِ على أقوامٍ والنِّقَمِ على آخَرينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٥).

(٢) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحَوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

هو نِعَمٌ مَحضَةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمؤمنينَ[١].

- والاستِفهامُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ في معْنى الإنكارِ[٢]. و(أيّ) اسمُ استفهامٍ يُطلَبُ به تَمييزُ مُتشارِكٍ في أمْرٍ يعُمُّ بما يُميِّزُ البعضَ عن البقيَّةِ مِن حالٍ يَختَصُّ به، مُستعمَلٌ هنا في التَّسويةِ؛ كِنايةً عن تَساوي ما عُدِّد مِن الأُمورِ في أنَّها نِعَمٌ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -وذلك على قولٍ-؛ إذ ليس لواحدٍ مِن هذه المَعدوداتِ نقْصٌ عن نَظائرِه في النِّعمةِ، والمَقصودُ مِن هذا الاستفهامِ تَذكيرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذه النِّعَمِ؛ فالمعْنى: أنَّك لا تَحصُلُ لك مِرْيةٌ في واحدةٍ مِن آلاءِ ربِّك؛ فإنَّها سواءٌ في الإنعامِ[٣].

- والتَّماري: التَّشكُّكُ، وهو تَفاعُلٌ مِن المِرْيةِ؛ فإنْ كان الخِطابُ بقَولِه: ﴿رَبِّكَ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كان ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ مُطاوِعَ مَاراهُ، والمعْنى: فبأيِّ آلاءِ ربِّك يُشكِّكونَك، أي: لا يَستَطيعونَ أنْ يُشكِّكوكَ في حُصولِ آلاءِ ربِّك الَّتي هي نِعَمُ النُّبوَّةِ، والَّتي منها رُؤيتُه جِبريلَ عِندَ سِدْرةِ المُنْتهى، والكلامُ مَسوقٌ لتأْييسِ المُشرِكين مِن الطَّمَعِ في الكفِّ عنهم. وإنْ كان الخِطابُ لغَيرِ مُعيَّنٍ كان ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ تفاعلًا مُستعمَلًا في المُبالَغةِ في حُصولِ الفِعلِ، ولا يُعرَفُ فِعلٌ مُجرَّدٌ للمِراءِ، وإنَّما يُقال: امترَى، إذا شكَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٥، ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٥٧).

الآيات (٥٦-٦٢)

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾: أي: قرُبَت ودَنَت القيامةُ، وسُمِّيت بذلك؛ لِقُربِها، وأصلُ (أزف): يدُلُّ على الدُّنُوِّ والمُقارَبةِ[1].

﴿سَٰمِدُونَ﴾: أي: لاهُونَ غافِلونَ مُعرِضونَ، وأصلُ (سمد): يدُلُّ على مُضِيٍّ قُدُمًا مِن غَيرِ تَعريجٍ؛ لأنَّ اللَّاهيَ يَمضي في أَمرِه غَيرَ مُعَرِّجٍ ولا مُتمَكِّثٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقرِّرُ الله تعالى رسالةَ نبيِّه ويحذِّرُ مِن اقتِرابِ السَّاعةِ، فيقولُ: هذا رَسولُ اللهِ محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- نَذيرٌ للنَّاسِ مِن جِنْسِ مَن سَبَق مِن الرُّسُلِ.

قَرُبَت ودَنَت القيامةُ، ليس لها مِن دونِ اللهِ تعالى كاشِفٌ لوَقتِها، أو قادِرٌ على دَفعِ شَدائِدِها وأهوالِها.

ثمَّ يقولُ تعالى مُتوعِّدًا المنكِرينَ لرسالةِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، المعرِضينَ عن القرآنِ: أفمِنْ هذا القُرآنِ تَعجَبونَ -أيُّها المُشرِكونَ-؟! وتَضحَكونَ مِنَ القُرآنِ استِهزاءً، ولا تَبكُونَ، وأنتم غافِلونَ لاهُون.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤، ٤٢٥).

ثمَّ يختمُ الله تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ آمرًا لعبادِه بالسُّجودِ له والعبادةِ، فيقولُ: فاسجُدوا للهِ وَحْدَه، واعبُدوه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ٥٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَمَّ الكلامُ على هذا المِنهاجِ البَديعِ، والنَّمَطِ الرَّفيعِ، في حُسنِ البَيانِ للمَواعِظِ والشَّرعِ، والقَصَصِ القَديمةِ، والإنذارِ العَظيمِ التَّامِّ على وَجهٍ مُعجِزٍ مِن وُجوهٍ شَتَّى- أنتَجَ قَولَه مُرَغِّبًا مُرَهِّبًا خاتِمًا السُّورةَ بما بدأ هنا به مِن ذِكْرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1]:

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ٥٦﴾.

أي: هذا الرَّسولُ محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- نَذيرٌ للنَّاسِ مِن جِنْسِ مَن سَبَق مِن الرُّسُلِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤١، ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).
قال الماوَرْدي: (فيه قَولانِ؛ أحَدُهما: أنَّ مُحمَّدًا نذيرٌ بالحَقِّ، الذي أنذَرَ به الأنبياءُ قَبْلَه. قاله ابنُ جُرَيجٍ. الثَّاني: أنَّ القُرآنَ نَذيرٌ بما أنذَرَت به الكُتُبُ الأُولى. قاله قَتادةُ. ويحتَمِلُ قولًا ثالثًا: أنَّ هلاكَ مَن تقَدَّم ذِكرُه مِن الأُمَمِ الأُولى نذيرٌ لكم). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٦).
وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فهو مِن جِنسِ الرُّسُلِ قَبْلَه: الواحدي، ومال إليه ابنُ عطيَّةَ، وذهب إليه ابنُ كثير، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عطية (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير =

كما قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر إهلاكَ مَن تقدَّمَ ذِكرُه، وذَكَر قولَه: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾؛ ذكَرَ أنَّ الَّذي أنذَرَ به قَريبُ الوُقوعِ، فقال[1]:

﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾.

أي: قَرُبَت ودَنَت القيامةُ القَريبةُ مِنكم، أيُّها النَّاسُ[2]!

= السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ في روايةٍ عنه، وابنُ جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٦).

قال ابنُ عطيَّةَ: (الأشبَهُ أن تكونَ الإشارةُ إلى محمَّدٍ). ((تفسير ابن عطية (٥/ ٢٠٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ قيل: محمَّدٌ. وقيل: القُرآنُ. وهما مُتلازِمانِ، يقولُ: هذا نذيرٌ أنذَرَ بما أنذَرَت به الرُّسُلُ والكُتُبُ الأُولى. وقَولُه: ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: مِن جِنسِها). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٢٠٩).

وقيل: المعنى: هذا المذكورُ في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى نذيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولى الَّتي جاءت الأُمَمَ قَبْلَكم كما جاءَتكم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٧، ١٥٨).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: أبو مالكٍ الغِفاريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٦، ٧].

﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ٥٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ضاق الخِناقُ مِن ذِكرِها على هذا الوَجهِ، تشَوَّفَ السَّامِعُ إلى دَفعِها؛ فاستأنَفَ قَولَه[1]:

﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ٥٨﴾.

أي: لا يَدفَعُها مِن دونِ اللهِ أحَدٌ، ولا يَطَّلِعُ على عِلْمِها سِواه[2].

قال ابنُ عطية: (الآزِفةُ: عِبارةٌ عن القيامةِ بإجماعٍ مِنَ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: هذا نذيرٌ بآزفةٍ قَرُبَت). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨).

قال الواحدي: (ومعنى الكشفِ في اللُّغةِ: رفْعُ الشَّيءِ عمَّا يُواريه، والمعنى على هذا القولِ: أنَّ القيامةَ إذا غَشِيَتِ الخلْقَ بشَدائدِها وأهوالِها لم يَكشِفْها أحدٌ مِن آلهتِهم، أي: أنَّها لا تُنجيهم منها... والكاشفةُ على هذا القولِ نعتُ مؤنَّثٍ محذوفٍ، على تقديرِ: نفْسٌ كاشِفةٌ، أو جماعةٌ كاشفةٌ، وهذا معنَى قولِ قَتادةَ: ليس لها مِن دونِ الله رادٌّ.

ويجوزُ أن تكونَ الكاشِفةُ مَصدرًا، كالخائنةِ والعاقِبةِ والعافيةِ، فإذا قدَّرْتَها مصدرًا كان المعنى: ليس لها مِن دونِ الله كشْفٌ، أي: لا يَكشِفُ عنها غيرُه، بمعنَى: لا يُبديها ولا يُظهِرُها ولا يُزيلُ =

= عنها ما يَستُرُها، وهو معنَى قولِ مُقاتِلٍ: لا يَكشِفُها أحدٌ إلَّا الله، قال: يعني: السَّاعةَ اللهُ الَّذي يَكشِفُها... وهذا القولُ اختيارُ الزَّجَّاجِ والفَرَّاءِ، وهو قولُ الكلبيِّ، قال: ليس لها مَن يَكشِفُ عن عِلمِها إلَّا اللهُ، وإذا كشَف عن عِلمِها فقد كشَف عنها). ((البسيط)) (٢١/ ٨٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٨).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ، أي: أنَّ المرادَ: لا يَكشِفُها إذا غَشِيتْ، ولا يَقدِرُ على دفْعِ شَدائدِها وأهوالِها إلَّا اللهُ: الماوَرْديُّ، والواحدي، وابن الجوزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: عَطاءٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٤).

وممَّن اختار القَولَ الثَّانيَ -أي: أنَّ المرادَ: ليس للقيامةِ مُظهِرٌ لعِلمِ وَقتِها ومتى تكونُ غَيرُ اللهِ تعالى، ولا يَكشِفُ عنها ولا يُظهِرُها إلَّا اللهُ-: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والبغوي، والخازن، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٨٤).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنَيَينِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨).

وقال ابن جرير: (ليس تَنكَشِفُ فتَقومَ إلَّا بإقامةِ اللهِ إيَّاها وكَشْفِها، دونَ مَن سِواه مِن خَلْقِه؛ لأنَّه لم يُطلِعْ عليها مَلَكًا مُقَرَّبًا، ولا نَبيًّا مُرسَلًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٥، ٩٦).

وقال القرطبي: (﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ليس لها مِن دُونِ اللهِ مَن يُؤَخِّرُها أو يُقَدِّمُها). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٢).

قال ابن جُزَي: (﴿كَاشِفَةٌ﴾ يحتمِلُ لفظُه ثلاثةَ أوجُه: أن يكونَ مَصدرًا كالعافيةِ، أي: ليس لها كشْفٌ. وأن يكونَ بمعنَى كاشِفٍ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، كعلَّامةٍ. وأن يكونَ صِفةً لِمَحذوفٍ تقديرُه: نفْسٌ كاشِفةٌ، أو جماعةٌ كاشِفةٌ. ويحتملُ معناه وجْهَينِ:

أحدُهما: أن يكونَ مِن الكَشفِ بمعنَى: الإزالةِ، أي: ليس لها مَن يُزيلُها إذا وقعَتْ.

والآخَرُ: أن يكونَ بمعنى الاطِّلاعِ، أي: ليس لها مَن يَعلَمُ وقتَها إلَّا اللهُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢١).

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أفهَمَ هذا أنَّ اللهَ تعالى يَكشِفُ كُرَبَها عمَّن يُريدُ مِن عِبادِه، ويُثَقِّلُه على مَن يَشاءُ، ويَكشِفُ عِلْمَها بإقامتِها، ولا حِيلةَ لِغَيرِه في شَيءٍ مِن ذلك بوَجهٍ- سَبَّبَ عنه وعمَّا تقَدَّمَه مِنَ الإنذارِ قَولَه مُنكِرًا مُوَبِّخًا[1]:

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾.

أي: أفمِن هذا القُرآنِ تَعجَبونَ، أيُّها المُشرِكونَ[2]؟!

قال تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢].

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾.

أي: وتَضحَكونَ مِنَ القُرآنِ استِهزاءً، ولا تَبكُونَ انزِجارًا وخَوفًا[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن =

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ٦١﴾.

أي: وأنتم غافِلونَ لاهُون[1].

= عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٨).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٨).

قال السَّمينُ الحلبي: (قوله: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾: هذه الجُملةُ تحتَمِلُ أن تكونَ مُستأنَفةً؛ أخبَرَ اللهُ تعالى عنهم بذلك، وتحتَمِلُ أن تكونَ حالًا، أي: انتفى عنكم التَّباكي حالَ كَونِكم ﴿سَٰمِدُونَ﴾). ((الدر المصون)) (١٠/ ١١٦).

وقال ابن الجوزي: (﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ فيه خمسةُ أقوالٍ:

أحدُها: لاهُون، رواه العَوْفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ. قال أبو عُبَيْدَةَ: يقالُ: دَعْ عنك سُمودَك، أي: لَهْوَك.

والثَّاني: مُعْرِضون، قاله مجاهِدٌ.

والثَّالثُ: أنَّه الغِناءُ، وهي لغةٌ يمانيةٌ، يقولون: اسْمُدْ لنا، أي: تَغَنَّ لنا، رواه عِكْرِمةُ عن ابنِ عبَّاسٍ. وقال عِكْرِمةُ: هو الغِناءُ بالحِمْيَرِيَّةِ.

والرَّابعُ: غافِلونَ، قاله قَتادةُ.

والخامسُ: أَشِرون بَطِرون، قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ١٠٣)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: لاهون غافِلون: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والبغوي، والرَّسْعَني، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣).

وقال ابن عثيمين: (الصَّوابُ أنَّ المرادَ: غافِلون عنه بالغناءِ وغيرِه ممَّا تَتَلَهَّون به؛ حتَّى لا تَسمَعوا =

قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

أي: فاسجُدوا للهِ وَحْدَه خاضِعينَ له، واعبُدوه وَحْدَه مُخلِصينَ له[(١)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾

= كلامَ الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٨).

وقال الزمخشري: (﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ شامِخون مُبَرْطِمُون [البَرْطَمة: الانتِفاخُ مِن الغضَبِ]). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٠). ويُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١١٥).

وقال ابن عاشور: (﴿سَٰمِدُونَ﴾: مِن السُّمودِ، وهو ما في المرءِ مِن الإعجابِ بالنَّفْسِ، يقالُ: سَمَدَ البَعيرُ، إذا رفَع رأسَه في سَيرِه، مُثِّل به حالُ المُتكبِّرِ المُعرِضِ عن النُّصحِ، المُعجَبِ بما هو فيه بحالِ البَعيرِ في نشاطِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦٠).

وقال البِقاعي: (﴿سَٰمِدُونَ﴾ أي: دائِبون في العملِ، جاهِدون في العمل؛ فإنَّ الأمرَ جِدٌّ، فالدَّأبُ في العملِ والجِدُّ فيه حينَئذٍ علَّةٌ للبُكاءِ، فكأنَّه قيل: ولا تَدأبون في العملِ فتَبكون؛ وإنَّما قلتُ ذلك لأنَّ «سَمَد» معناه: دأبَ في العملِ، ورفَع رأسَه تكبُّرًا وعلا). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٨، ٢٥٩).

قال السَّمْعاني: (وقَولُه: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ حمَل بعضُهم هذا على الصَّلَواتِ الخَمْسِ. وقيل: إنَّ الآيةَ نزلتْ بمَكَّةَ قبْلَ فرضِ الصَّلَواتِ الخَمسِ، والسُّورةُ مكِّيَّةٌ، فعلى هذا معناه: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ أي: اخضَعوا لله ووَحِّدوا. ويُقالُ: المُرادُ منه أصلُ السُّجودِ، والمرادُ مِن العبادةِ هي الطَّاعةُ. وهو مَوضِعُ سُجودٍ عِندَ أكثَرِ الفُقهاءِ إلَّا مالك). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٥).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ قيل: المرادُ به: سُجودُ تِلاوةِ القرآنِ. وهو قولُ ابنِ مسعودٍ. وبه قال أبو حنيفةَ والشَّافعيُّ... وقيل: المرادُ: سُجودُ الفرضِ في الصَّلاةِ، وهو قولُ ابنِ عُمرَ، كان لا يَراها مِن عَزائمِ السُّجودِ. وبه قال مالكٌ... والأوَّلُ أصَحُّ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٤).

ذَمُّ المعرِضِينَ عن سَماعِ القُرآنِ، المتعوِّضِينَ عنه بسَماعِ الغِناءِ، كما هو حالُ السَّمَّاعاتِيَّةِ المُؤْثِرِينَ لسَماعِ المُكاءِ والتَّصْدِيةِ على سَماعِ القُرآنِ، المتعوِّضِينَ عنه بسَماعِ الغِناءِ، وهو نَظيرُ الَّذين أضاعوا الصَّلاةَ واتَّبَعوا الشَّهَواتِ[١]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ...﴾ استِحبابُ البُكاءِ عندَ قِراءةِ القُرآنِ وسَماعِه، وذَمُّ الضَّحِكِ والغِناءِ، واللَّهوِ واللَّعِبِ والغَفلةِ[٢]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ لم يَقُلْ: «بشيرٌ»؛ لأنَّ المقامَ لا يَقتَضي إلَّا ذِكْرَ الإنذارِ؛ إذْ إنَّ اللهَ تعالى تَحَدَّثَ مِن أوَّلِ السُّورة إلى آخِرِها عن قُرَيشٍ، وتَكذيبِها للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعبادتِها للأصنامِ، فيقولُ: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم ﴿نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾، أي: مِن الرُّسُلِ السَّابقينَ، وكما أنَّ الَّذين كَذَّبوا الرُّسُلَ حَلَّ بهمُ العِقابُ والنَّكالُ، فأنتم -أيُّها المكَذِّبونَ- لِرَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُوشِكُ أنْ يَحُلَّ بكم النَّكالُ والعُقوبةُ؛ لأنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم مِثْلُ غَيرِه نَذيرٌ مِن النُّذُرِ، فإذا كان نَذيرًا مِن النُّذُرِ فإنَّ مَن كَذَّبَه سوف يَقَعُ به مِثْلُ ما وَقَعَ بالأُمَمِ السَّابقةِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ التَّنبيهُ على قُربِ المُنذَرِ به، وهو مِن كَمالِ الإنذارِ؛ للبِدارِ بتجَنُّبِ الوُقوعِ فيما يُنذَرُ به[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ الأمرُ بالسُّجودِ لله تعالى خُصوصًا؛

---

(١) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٨).

لِيَدُلَّ ذلك على فَضلِه، وأنَّه سِرُّ العِبادةِ ولُبُّها؛ فإنَّ لُبَّها الخُشوعُ للهِ والخُضوعُ له؛ والسُّجودُ هو أعظَمُ حالةٍ يَخضَعُ بها العَبدُ؛ فإنَّه يُخضِعُ قَلبَه وبَدَنَه، ويَجعَلُ أشرَفَ أعضائِه على الأرضِ المَهينةِ مَوضِعَ وَطءِ الأقدامِ[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ﴾ أنَّ السُّجودَ يُطلَقُ على الصَّلاةِ كلِّها[٢]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، أو فَذْلَكةٌ[٣] لِما تَقدَّمَ على اختِلافِ الاعتِبارَينِ في مَرجِعِ اسمِ الإشارةِ؛ فإنْ جُعِلَ اسمُ الإشارةِ راجعًا إلى القُرآنِ؛ فإنَّه لحُضورِه في الأذهانِ يُنزَّلُ مَنزِلةَ شَيءٍ مَحسوسٍ حاضرٍ بحيث يُشارُ إليه، فالكلامُ انتِقالٌ اقتضابيٌّ تَنهيةً لِما قبْلَه، وابتِداءً لِما بعْدَ اسمِ الإشارةِ، على أُسلوبِ قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]. والكلامُ مُوجَّهٌ إلى المُخاطَبينَ بمُعظَمِ ما في هذه السُّورةِ؛ فلذلك اقتُصِرَ على وصْفِ الكَلامِ بأنَّه نذيرٌ، دونَ أنْ يقولَ: نَذيرٌ وبَشيرٌ. وإنْ جُعِلَ اسمُ الإشارةِ عائدًا إلى ما تَقدَّمَ مِن أوَّلِ السُّورة بتأْويلِه بالمذْكورِ، أو إلى ما لمْ يُنبَّأْ به الَّذي تَولَّى وأعْطى قليلًا، ابتِداءً مِن قولِه: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ [النجم: ٣٦] إلى هنا؛ فتَكونُ الإشارةُ إلى الكَلامِ المُتقدِّمِ تَنزيلًا لحُضورِه في السَّمعِ مَنزِلةَ حُضورِه في المُشاهَدةِ بحيث يُشارُ إليه[٤].

وعلى أنَّ الإشارةَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فيكونُ افتتَحَ أوَّلَ السُّورة

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (١/ ٤٣٤).

(٣) تقدَّم تعريفُها (ص: ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٧).

بِه، واختَتَمَ آخِرَها به[١].

- وتَنوينُ ﴿نَذِيرٌ﴾ للتَّفخيمِ[٢].

- و(مِنْ) مُتعلِّقةٌ بمَحْذوفٍ هو نَعتٌ لـ﴿نَذِيرٌ﴾، مُقرِّرٌ له، ومُتضمِّنٌ للوعيدِ، أي: هذا القرآنُ الَّذي تُشاهِدونَه نذيرٌ مِن قَبيلِ الإنذاراتِ المُتقدِّمةِ الَّتي سمِعْتُم عاقبتَها، أو هذا الرَّسولُ مُنذِرٌ مِن جِنسِ المُنذِرينَ الأوَّلينَ، و﴿ٱلْأُولَىٰٓ﴾ على تأويلِ الجَماعةِ؛ لمُراعاةِ الفواصلِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ تَتنزَّلُ هذه الجُملةُ مِن الَّتي قبْلَها مَنزِلةَ البَيانِ للإنذارِ الَّذي تَضمَّنَه قولُه: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ [النجم: ٥٦]؛ فالمعْنى: هذا نَذيرٌ بآزِفةٍ قرُبَتْ[٤].

- وقولُه: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ أي: دنَتِ القيامةُ، عُبِّرَ عنها بلفْظِ الماضي؛ لقُرْبِها، وضِيقِ وقْتِها[٥].

- وجِيءَ لفِعلِ ﴿أَزِفَتِ﴾ بفاعِلٍ مِن مادَّةِ الفِعلِ؛ للتَّهويلِ على السَّامعِ؛ لتَذهَبَ النَّفْسُ كلَّ مذهبٍ مُمْكنٍ في تَعيينِ هذه الحادثةِ الَّتي أزِفَتْ، ومَعلومٌ أنَّها مِن الأُمورِ المَكروهةِ؛ لوُرودِ ذِكْرِها عقِبَ ذِكرِ الإنذارِ[٦].

- والتَّأنيثُ في ﴿ٱلْآزِفَةُ﴾ بتَأويلِ الوَقْعةِ، أو الحادثةِ، كما يُقالُ: نزَلَتْ به نازِلةٌ، أو وقعَتِ الواقعةُ، وغشِيَتْه غاشيةٌ، والعرَبُ يَستعمِلون التَّأنيثَ دَلالةً على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٨).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١١٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٨).

المُبالَغةِ في النَّوعِ[١].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَزِفَةُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وفيه زِيادةُ تَهويلٍ بتَمْييزِ هذا الجِنسِ مِن بيْنِ الأجناسِ؛ لأنَّ في استِحضارِه زِيادةَ تَهويلٍ؛ لأنَّه حَقيقٌ بالتَّدبُّرِ في المَخلَصِ منه[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ مُستأنَفٌ بَيانيٌّ، أو صِفةٌ للآزِفةِ، و﴿كَاشِفَةٌ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مَصدرًا بوزْنِ فاعِلةٍ، كالعافيةِ، وخائنةِ الأعيُنِ، والمعْنى: ليس لها كشْفٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿كَاشِفَةٌ﴾ اسمَ فاعلٍ، قُرِنَ بهاءِ التَّأنيثِ للمُبالَغةِ، مِثلُ راويةٍ، وباقِعةٍ، ودَاهيةٍ، أي: ليس لها كاشفٌ قويُّ الكشْفِ، فضْلًا عمَّن دونَه[٣].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ صِلةٌ؛ للتَّوكيدِ[٤].

- والكشْفُ يَجوزُ أنْ يكونَ بمعْنى التَّعريةِ مُرادٌ به الإزالةُ، وذلك ضِدُّ ما يُقالُ: غَشِيَه الضُّرُّ؛ فالمعْنى: لا يَستطيعُ أحدٌ إزالةَ وَعيدِها غيرُ اللهِ، وقد أخبَرَ بأنَّها واقِعةٌ بقولِه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ كِنايةً عن تَحقُّقِ وُقوعِها[٥].

- وفي قولِه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّمثيلِ؛ فقد أُخرِجَ الكلامُ مُخرَجَ المثَلِ السَّائرِ يُتمثَّلُ به في الوقائعِ[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ تَفريعٌ على ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٨، ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٠).

[النجم: ٥٦] وما عُطِف عليه وبُيِّن به مِن بَيانٍ أو صِفةٍ، فُرِّعَ عليه استِفهامُ إنكارٍ وتَوبيخٍ(١).

- ومعْنى العجَبِ هنا الاستِبعادُ والإحالةُ، أو كِنايةٌ عن الإنكارِ(٢).

- وتَقديمُ المجْرورِ ﴿أَفَمِنْ﴾؛ للقصْرِ، أي: هذا الحديثُ ليس أهلًا لِأنْ تُقابِلوه بالضَّحِكِ والاستِهزاءِ والتَّكذيبِ، ولا لِئلَّا يَتوبَ سامِعُه، أي: لو قابلْتُم بفِعلِكم كلامًا غيرَه، لَكان لكم شُبْهةٌ في فِعلِكم، فأمَّا مُقابلتُكم هذا الحديثَ بما فَعَلْتُم فلا عُذْرَ لكمْ فيها(٣).

٥- قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ الجُملةُ حالٌ مِنْ فاعلِ ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾، وهي قَيدٌ للنَّفْيِ، والإنكارُ مُتوجِّهٌ إلى نفْيِ البُكاءِ ووُجودِ السُّمودِ. وقيل: هي حالٌ مِنْ فاعلِ ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ خَلا أنَّ مَضمونَها -على أنَّها بمعْنى: خاشِعونَ جامِدونَ، مِن السُّمودِ بمَعْنى الجُمودِ والخُشوعِ- قَيْدٌ للمَنْفيِّ، والإنكارُ واردٌ على نَفْيِ البُكاءِ والسُّمودِ معًا(٤).

- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ ذُكِرَ (سامِد) باسمِ الفاعِلِ -دونَ الضَّحِكِ والعَجَبِ-؛ لأنَّ الغَفلةَ دائِمةٌ، وأمَّا الضَّحِكُ والعَجَبُ فهُما أمْرانِ يَتجَدَّدانِ ويَعدَمانِ(٥).

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ تَفريعٌ على الإنكارِ والتَّوبيخِ المُفرَّعَينِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٨٧).

على الإنذارِ بالوعيدِ، فُرِّعَ عليه أمْرُهم بالسُّجودِ للهِ؛ لأنَّ ذلك التَّوبيخَ مِن شأْنِه أنْ يَعْمُقَ في قُلوبِهم، فيَكُفَّهم عمَّا همْ فيه مِن البطَرِ والاستِخفافِ بالدَّاعي إلى اللهِ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ﴾ لتَرتيبِ الأمْرِ أو مُوجِبِه على ما تَقرَّرَ مِن بُطلانِ مُقابَلةِ القُرآنِ بالإنكارِ والاستِهزاءِ، ووُجوبِ تَلقِّيه بالإيمانِ مع كَمالِ الخضوعِ والخُشوعِ، أي: وإذا كانَ الأمرُ كذلِكَ فاسْجُدوا للهِ الَّذي أنزَلَه واعْبُدوا[٢].

- والسُّجودُ يَجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ به سُجودَ الصَّلاةِ، ويكونَ الأمرُ به كِنايةً عن الأمْرِ بأنْ يُسلِموا؛ فإنَّ الصَّلاةَ شِعارُ الإسلامِ[٣].

وقيل: يَحتمِلُ أنْ يكونَ الأمرُ عامًّا، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ الْتِفاتًا؛ فيكونَ كأنَّه قال: أيُّها المؤمنونَ اسجُدوا شُكرًا على الهدايةِ، واشتغِلوا بالعِبادةِ[٤].

- وعُطِفَ على الأمْرِ بالسُّجودِ أمْرُهم بعِبادةِ اللهِ؛ لأنَّهم إذا خَضَعوا له حَقَّ الخُضوعِ، عَبَدوه وتَرَكوا عِبادةَ الأصنامِ، وقد كان المشرِكون يَعبُدون الأصنامَ بالطَّوافِ حوْلَها ومُعرِضين عن عِبادةِ اللهِ؛ فقَدْ عَمَدوا إلى الكعْبةِ فوَضَعوا فيها الأصنامَ؛ لِيَكونَ طَوافُهم بالكعْبةِ طَوافًا بما فيها مِن الأصنامِ[٥].

- ولم يقُلْ: (اعبُدوا الله)؛ إمَّا لِكَونِه معلومًا، وإمَّا لأنَّ العِبادةَ في الحَقيقةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦١).

ويُنظر ما تقدَّم في حاشية تفسير هذه الآية (ص: ٥٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦١).

لا تَكونُ إلَّا للهِ، فقال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ﴾، أي: ائتُوا بالمأمورِ، ولا تَعبُدوا غيرَ اللهِ؛ لأنَّها ليستْ بعِبادةٍ[1].

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الخامِسُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ السَّادِسُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ القَمَرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٨٧).

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ الذَّارِياتِ

أسماءُ السُّورةِ ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ٧
موضوعاتُ السُّورةِ ٧
الآيات (١-٦) ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٩
المعنى الإجماليُّ ١٠
تَفسيرُ الآياتِ ١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٦
بلاغةُ الآياتِ ٢١
الآيات (٧-١٤) ٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٤
المعنى الإجماليُّ ٢٥
تَفسيرُ الآياتِ ٢٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٢
بلاغةُ الآياتِ ٣٥
الآيات (١٥-١٩) ٤١
غَريبُ الكَلِماتِ ٤١
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٢
المعنى الإجماليُّ ٤٢
تَفسيرُ الآياتِ ٤٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٤
بلاغةُ الآياتِ ٥٧
الآيات (٢٠-٢٣) ٦٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٦٤
المعنى الإجماليُّ ٦٤
تَفسيرُ الآياتِ ٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٢
بلاغةُ الآياتِ ٧٧
الآيات (٢٤-٣٠) ٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٨٢
مُشكِلُ الإعرابِ ٨٣
المعنى الإجماليُّ ٨٣
تَفسيرُ الآياتِ ٨٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٩٨
بلاغةُ الآياتِ ١٠٥

الآيات (٣١-٣٧) ١١١
غَريبُ الكَلِماتِ ١١١
المعنى الإجماليُّ ١١١
تَفسيرُ الآياتِ ١١٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١١٧
بلاغةُ الآياتِ ١٢٢
الآيات (٣٨-٤٦) ١٢٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١٢٦
المعنى الإجماليُّ ١٢٨
تَفسيرُ الآياتِ ١٢٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٣٩
بلاغةُ الآياتِ ١٤١
الآيات (٤٧-٥١) ١٤٩
غَريبُ الكَلِماتِ ١٤٩
المعنى الإجماليُّ ١٤٩
تَفسيرُ الآياتِ ١٥٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٦٠
بلاغةُ الآياتِ ١٦٥
الآيات (٥٢-٥٥) ١٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ ١٧٣
المعنى الإجماليُّ ١٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ١٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٧٩
بلاغةُ الآياتِ ١٨٢
الآيات (٥٦-٦٠) ١٨٨
غَريبُ الكَلِماتِ ١٨٨
المعنى الإجماليُّ ١٨٨
تَفسيرُ الآياتِ ١٨٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٩٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٩٦
بلاغةُ الآياتِ ٢٠٤

سورةُ الطُّورِ

أسماءُ السُّورةِ ٢١٥
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٢١٥
مَقاصِدُ السُّورةِ ٢١٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٢١٦
الآيات (١-٨) ٢١٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٢١٧
المعنى الإجماليُّ ٢١٨
تَفسيرُ الآياتِ ٢١٨

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٢٧
بلاغةُ الآياتِ ٢٢٧
الآيات (٩-١٦) ٢٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٣٣
المعنى الإجماليُّ ٢٣٤
تَفسيرُ الآياتِ ٢٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٣٩
بلاغةُ الآياتِ ٢٤١
الآيات (١٧-٢١) ٢٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٤٨
المعنى الإجماليُّ ٢٤٩
تَفسيرُ الآياتِ ٢٤٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٦٠
بلاغةُ الآياتِ ٢٧٢
الآيات (٢٢-٢٨) ٢٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٧٩
المعنى الإجماليُّ ٢٨١
تَفسيرُ الآياتِ ٢٨١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٨٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٩٠
بلاغةُ الآياتِ ٢٩٢
الآيات (٢٩-٣٦) ٢٩٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٩٨
المعنى الإجماليُّ ٢٩٩
تَفسيرُ الآياتِ ٣٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣١٠
بلاغةُ الآياتِ ٣١٤
الآيات (٣٧-٤٣) ٣٢٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٢٥
المعنى الإجماليُّ ٣٢٦
تَفسيرُ الآياتِ ٣٢٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٣٣
بلاغةُ الآياتِ ٣٣٦
الآيات (٤٤-٤٩) ٣٤٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٤٩
المعنى الإجماليُّ ٣٥٠
تَفسيرُ الآياتِ ٣٥٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٦٥
بلاغةُ الآياتِ ٣٦٧

سُورةُ النَّجْمِ

أسماءُ السُّورةِ ٣٧٧

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها . ٣٧٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٣٧٨
مَقاصِدُ السُّورةِ ٣٧٨
موضوعاتُ السُّورةِ ٣٧٨
الآيات (١-١٨) ٣٨٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٨٠
المعنى الإجماليُّ ٣٨٣
تَفسيرُ الآياتِ ٣٨٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٠٩
بلاغةُ الآياتِ ٤٢٢
الآيات (١٩-٢٥) ٤٣٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٣٥
المعنى الإجماليُّ ٤٣٦
تَفسيرُ الآياتِ ٤٣٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٤٤
بلاغةُ الآياتِ ٤٤٦
الآيات (٢٦-٣٢) ٤٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٦٣
المعنى الإجماليُّ ٤٦٤
تَفسيرُ الآياتِ ٤٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٨٦
بلاغةُ الآياتِ ٤٩٥
الآيات (٣٣-٥٥) ٥١٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٥١٢
مُشكِلُ الإعرابِ ٥١٥
المعنى الإجماليُّ ٥١٦
تَفسيرُ الآياتِ ٥١٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٥٣٦
بلاغةُ الآياتِ ٥٤٦
الآيات (٥٦-٦٢) ٥٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٦٦
المعنى الإجماليُّ ٥٦٦
تَفسيرُ الآياتِ ٥٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٥٧٤
بلاغةُ الآياتِ ٥٧٥
الفهرس ٥٨١

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة القمر وسورة الرحمن وسورة الواقعة

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الأستاذ خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الأستاذ أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السادس والثلاثون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة القمر وسورة الرحمن وسورة الواقعة)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد السادس والثلاثون - سورة القمر وسورة الرحمن وسورة الواقعة/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٥٦٠ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٠-٠٣-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧ ١٤٤٣/٨٦٩٥

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٨٦٩٥

ردمك: ٠-٠٣-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة القمر وسورة الرحمن و سورة الواقعة)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السادس والثلاثون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ القَمَرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ القَمَرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (القَمَرِ)[١].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

مِنَ السُّنَّةِ قِراءةُ سُورةِ القَمَرِ في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن صَلاةِ العِيدِ:

عن عُبَيدِ اللهِ بنِ عَبدِ اللهِ: أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ سأل أبا واقِدٍ اللَّيْثيَّ: ((ما كان يَقرَأُ به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الأضحَى والفِطرِ؟ فقال: كان يَقرَأُ فيهما بـ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]))[٢].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ القَمَرِ مَكِّيَّةٌ[٣]، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٤].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ القَمَرِ؛ لاشتِمالِها على ذِكرِ انشِقاقِ القَمَرِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٥).

وتُسمَّى أيضًا: سورةَ ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ حِكايةً لأوَّلِ كَلِمةٍ افتُتِحَت بها. وتُسمَّى ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ لحديثِ أبي واقِدٍ في ((صحيح مسلم)) (٨٩١). يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦١٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ١٩٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨٩١).

(٣) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا ثلاثَ آياتٍ؛ مِن قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾ [القمر: ٤٤] إلى قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]؛ فمَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٠).

(٤) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٥)، ((مصاعد النظر)) (٣/ ٣٩).

قال القرطبي: (سُورةُ القَمَرِ مَكِّيَّةٌ كُلُّها في قَولِ الجُمهورِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٥).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

الحَديثُ عن سُنَنِ اللهِ تعالى في خَلْقِه، الَّتي مِن أبرَزِ مَظاهِرِها نَصرُ المؤمِنينَ، وخِذْلانُ الكافِرينَ[1].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- الإنذارُ باقترابِ القيامةِ، وتَسجيلُ مُكابَرةِ المُشرِكينَ في الآياتِ البَيِّنةِ، وجُحودِهم للحَقِّ بعدَ إذ جاءَهم.

٢- أمْرُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالإعراضِ عنهم حتَّى يأتيَ قَضاءُ اللهِ فيهم.

٣- إنذارُ المُشرِكينَ بما سيَكونونَ عليه يومَ القيامةِ مِن ذِلَّةٍ ونَدامةٍ وحَسْرةٍ.

٤- ذِكرُ قَصَصِ المُكَذِّبينَ مِن سالِفي الأُمَمِ؛ كقَومِ نُوحٍ، وعادٍ، وثَمودَ، وقَومِ فِرعَونَ، وما لاقَوه مِن الجزاءِ على تكذيبِهم، وما حَلَّ بهم مِن هَلاكٍ ودَمارٍ.

٥- توبيخُ المُشرِكينَ على عَدَمِ الاعتِبارِ بهذه النُّذُرِ، وذِكرُ ما يُلاقُونَه مِنَ الجَزاءِ في الآخِرةِ إهانةً وتحقيرًا لهم.

٦- بيانُ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وبَليغِ حِكمتِه، وأنَّ كُلَّ شَيءٍ بقَضائِه وقَدَرِه، وأنَّ مَشيئتَه نافِذةٌ في الكَونِ، وأنَّه قد أحاط عِلمًا بأفعالِهم وبكُلِّ شَيءٍ.

٧- خُتِمَت السُّورةُ بتبشيرِ المتَّقينَ بحُسنِ العاقبةِ، وما يُؤتَونَه مِنَ الكَرامةِ.

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٩٤).

الآيات (١-٨)

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾: أي: ذاهِبٌ، مِن قَولِهم: مَرَّ الشَّيءُ على وَجهِه واستَمَرَّ، أي: ذَهَبَ، وقيل: شَديدٌ قَوِيٌّ مُحكَمٌ؛ مِن قَولِهم: قد مرَّ الحَبْلُ: إذا صَلُبَ وقَوِيَ واشتَدَّ، وأصلُ (مرر) هنا: يدُلُّ على مُضِيِّ الشَّيءِ[١].

﴿مُّسۡتَقِرّٞ﴾: أي: واقِعٌ كائِنٌ، وأصلُ (قرر): يدُلُّ على تمكُّنٍ[٢].

﴿مُزۡدَجَرٌ﴾: أي: مُتَّعَظٌ ومُنتهًى عن الشِّركِ والمَعاصي، وأصلُ (زجر): يدُلُّ على الانتِهارِ[٣].

﴿ٱلنُّذُرُ﴾: أي: الرُّسُلُ، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تخويفٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٢-١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٩٠، ٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٦).

﴿نُّكُرٍ﴾: أي: مُنكَرٍ فَظيعٍ، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ[١].

﴿خُشَّعًا﴾: أي: ذَليلةً خاضِعةً، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[٢].

﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾: أي: القُبورِ، جَمعُ جَدَثٍ[٣].

﴿مُّهْطِعِينَ﴾: أي: مُسرِعينَ مُقبِلينَ، وأصلُ (هطع): يدُلُّ على إقبالٍ على الشَّيءِ وانقيادٍ[٤].

﴿عَسِرٌ﴾: أي: صَعبٌ شَديدٌ، وأصلُ (عسر): يدُلُّ على صُعوبةٍ وشِدَّةٍ[٥].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۞ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾

قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ﴾: مَنصوبٌ على الظَّرفيَّةِ بـ ﴿يَخْرُجُونَ﴾، أو على المَفعوليَّةِ بـ «اذْكُرْ» مُضمَرةً. وعليهما فيُوقَفُ على ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وَقفًا تامًّا، ثمَّ يُبدَأُ بما بَعْدَها. وجَوَّزَ بَعضُهم نَصْبَ ﴿يَوْمَ﴾ على الظَّرفيَّةِ بـ «تَوَلَّ»، معناه: فتَولَّ عنهم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٠).

يومَ يدعو الدَّاعي؛ لأنَّهم لَمَّا أعرَضوا حينَ دعاهم كان جزاؤُهم أن يُعرِضَ عنهم يومَ حاجتِهم إليه؛ لأنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ. وعلى هذا فلا يُوقَفُ على ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾. وقيلَ غَيرُ ذلك في ناصِبِ ﴿يَوۡمَ﴾.

وحُذِفَت الواوُ مِن ﴿يَدۡعُ﴾ لَفظًا؛ لالتِقاءِ السَّاكِنَينِ، وخَطًّا؛ اتِّباعًا لِلَّفظِ.

وحُذِفَت الياءُ مِن ﴿ٱلدَّاعِ﴾ تخفيفًا واكتِفاءً بالكَسرةِ؛ إجراءً لـ «أل» مجرى ما عاقَبَها وهو التَّنوينُ، فكما تُحذَفُ الياءُ مع التنوينِ كذلك مع ما عاقَبها.

﴿خُشَّعًا﴾ حالٌ مُقَدَّمةٌ مِن فاعلِ ﴿يَخۡرُجُونَ﴾. ﴿أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ فاعِلٌ باسمِ الفاعِلِ ﴿خُشَّعًا﴾: جمعُ خاشِعٍ. ﴿يَخۡرُجُونَ﴾ حالٌ مِنَ الضَّميرِ في ﴿أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾، أو جملةٌ مُستأنَفةٌ لا محَلَّ لها مِن الإعرابِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ بدُنُوِّ القيامةِ، وبانفِلاقِ القَمَرِ فِلقَتَينِ؛ تأييدًا لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ثمَّ يُخبِرُ تعالى عنْ مُشرِكي قُرَيشٍ بأنَّهم إنْ يَرَوا عَلامةً تَدُلُّهم على صِدقِ نُبُوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يُعرِضوا عن الإيمانِ بها، ويَقولوا مُنكِرينَ لها: هذا الَّذي يُرينا محمَّدٌ إيَّاه سِحرٌ ذاهِبٌ لا حقيقةَ له!

ثمَّ بيَّن الله تعالى حالَهم، فقال: وكَذَّبوا بالحَقِّ، واتَّبَعوا ما يَشتَهونَه بلا بُرهانٍ، وكُلُّ أمرٍ مُستَقِرٌّ إلى غايةٍ في الدُّنيا أو في الآخِرةِ، ولقد جاء مُشرِكي قُرَيشٍ مِنَ الأنباءِ ما فيه زَجرٌ لهم عن الكُفرِ باللهِ، والتَّكذيبِ بآياتِه ورُسُلِه؛ حِكمةٌ تامَّةٌ قد

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٩٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٩٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٢٣-١٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٧٩).

بَلَغَت الغايةَ، واصِلةٌ إلى المقصودِ منها، فما تَنفَعُهم النُّذُرُ، وهم مُعرِضونَ عن الآياتِ؟!

ثمَّ سلَّى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: فأَعرِضْ عنهم؛ فإنَّ الإنذارَ لا يُجدي فيهم. يومَ يَدعو الدَّاعي النَّاسَ إلى مَوقِفٍ فَظيعٍ كَثيرِ الأهوالِ يَخرُجونَ مِن قُبورِهم وأبصارُهم ذَليلةٌ خاضِعةٌ؛ مِن شِدَّةِ خَوفِهم وفَزَعِهم، فيَتوَجَّهونَ إلى مَوقِفِ الحِسابِ، وكأنَّهم في انتِشارِهم وكَثرتِهم جَرادٌ مُنتَشِرٌ، مُسرِعينَ إلى الدَّاعي؛ تلبيةً لنِدائِه، يقولُ الكافِرونَ يومَ القيامةِ: هذا يومٌ شَديدُ الصُّعوبةِ والعُسرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾.

أسبابُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (انشَقَّ القَمَرُ على عَهدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت قُرَيشٌ: هذا سِحرُ ابنِ أبي كَبْشةَ[1]! سَحَرَكم، فسَلُوا السُّفَّارَ[2]، فسَألُوهم، فقالوا: نَعَمْ، قد رَأَيْناه، فأنزَلَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾)[3].

---

(١) أبو كَبْشةَ: رجُلٌ مِن خُزاعةَ خالَفَ قُرَيشًا في عبادةِ الأوثانِ، وعَبَد الشِّعْرَى، فلمَّا خالَفَهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في عبادةِ الأوثانِ شَبَّهوه به، ونَسَبوه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليه. وقيل: إنَّه كان جَدَّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قِبَلِ أمِّه، فأرادوا أنَّه نَزَع في الشَّبَهِ إليه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٤٤).

(٢) السُّفَّارَ: أي: المسافِرينَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٧١)، ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: ١٤٨).

(٣) أخرجه الطَّيالسي (٢٩٣)، والطَّحاوي في ((شرح مُشْكِل الآثار)) (٦٩٧) مختصَرًا، وابنُ جرير في ((التفسير)) (٢٢/ ٥٦٧) واللَّفظُ له. =

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (سأَلَ أهلُ مكَّةَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم آيةً، فانشَقَّ القمَرُ بمكَّةَ مرَّتَينِ[١]، فنزَلت ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ إلى قَولِه: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾، يقولُ: ذاهِبٌ)[٢].

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾.

أي: دَنَت القيامةُ الَّتي يَبعَثُ اللهُ فيها عِبادَه للحِسابِ والجَزاءِ[٣]!

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ * مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ * لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بُعِثْتُ أنا والسَّاعةُ كهاتَينِ -وضَمَّ السَّبَّابةَ والوُسْطى))[٤].

= صَحَّحه ابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (١/ ٢٠٣)، وصَحَّح إسنادَه على شرطِ البخاريِّ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((شرح مُشْكِل الآثار)) (٦٩٧).

(١) مرَّتَين: أي: شِقَّتَينِ وفِلقتَينِ. يُنظر: ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٣٠١)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٤/ ٣٠٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ١٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٨٦) واللَّفظُ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٥٥٤)، وأحمد (١٢٦٨٨).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصَحَّحه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥١٣) وقال: (على شرطِهما)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٨٦)، وصَحَّح إسنادَه على شرط الشَّيخينِ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٠/ ١١٨).

والحديثُ أصلُه في الصَّحيحَينِ دونَ ذِكرِ نُزولِ الآيةِ؛ أخرجه البخاري (٤٨٦٧)، ومسلم (٢٨٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦١).

(٤) رواه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) واللَّفظُ له.

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه سَمِعَ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّما أجَلُكم في أجَلِ مَن خَلا مِنَ الأُمَمِ ما بيْنَ صلاةِ العَصرِ إلى مَغرِبِ الشَّمسِ!))[١].

﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإخبارُ باقتِرابِ السَّاعةِ يَحتاجُ عندَ المعانِدِ إلى آيةٍ دالَّةٍ عليه، وكانت الآياتُ السَّماويَّةُ أعظَمَ -فالتَّأثيرُ فيها أدَلُّ على تمامِ الاقتِدارِ-، وكان القَمَرُ أدَلَّ على الأنواءِ الَّتي بها مَنافِعُ الخَلقِ في مَعاشِهم، وكانت العَرَبُ أعرَفَ النَّاسِ بها- دَلَّهم على التَّأثيرِ فيه على اقتِرابِها، فقال[٢]:

﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾.

أي: وقد انفَلَق القَمَرُ، فصار فِلقَتَينِ بإذنِ اللهِ؛ تأييدًا لنبيِّه محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٥، ١٢٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ١٦٠، ١٦١، ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٣).
قال ابن كثير: (قد كان هذا في زَمانِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما ثَبَت ذلك في الأحاديثِ المُتواتِرةِ بالأسانيدِ الصَّحيحةِ، وقد ثَبَت في الصَّحيحِ عن ابنِ مَسعودٍ أنَّه قال: «خَمْسٌ قد مَضَيْنَ: الرُّومُ، والدُّخَانُ، واللِّزامُ، والبَطشةُ، والقمَرُ» [((صحيح البخاري)) (٤٧٦٧)، ((صحيح مسلم)) (٢٧٩٨)]، وهذا أمرٌ مُتَّفَقٌ عليه بيْنَ العُلَماءِ: أنَّ انشِقاقَ القَمَرِ قد وقع في زمانِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه كان إحدى المُعجِزاتِ الباهِراتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٢).
ويُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٤/ ٢٩٣)، (٨/ ٥٥٨). =

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((انشَقَّ القَمَرُ على عَهدِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شِقَّتَينِ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اشهَدوا!))[١].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ أهلَ مَكَّةَ سألوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُريَهم آيةً، فأراهم القَمَرَ شِقَّتَينِ، حتَّى رأَوا حِراءً بَيْنَهما))[٢].

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّقديرُ: فأعرَضَ الكُفَّارُ عن آيةِ انشِقاقِه، وقالوا: سِحرٌ، مع عِلْمِهم بأنَّه دالٌّ قَطْعًا على صِدقِ مَن انَشَقَّ لتَصديقِه؛ عَطَف عليه الإعلامَ بحالِهم في المُستَقبَلِ؛ فَطمًا لِمَن يَطلُبُ مِنَ المُؤمِنينَ إجابةَ مُقتَرَحٍ مِن مُقتَرحاتِهم؛ رجاءَ إيمانِهم، فقال[٣]:

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾.

أي: وإنْ يَرَ مُشرِكو قُرَيشٍ عَلامةً باهِرةً تَدُلُّهم على صِدقِ نُبُوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يُعرِضوا عن الإيمانِ بها، ويَقولوا مُنكِرينَ لها: هذا الَّذي يُرينا محمَّدٌ مِنَ المُعجِزاتِ -كانشِقاقِ القَمَرِ- سِحرٌ ذاهِبٌ باطِلٌ لا قَرارَ له، وخيالٌ لا حقيقةَ له[٤]!

= وقال الواحدي: (إلَّا ما روى عثمانُ بنُ عطاءٍ عن أبيه أنَّه قال: معناه: وسيَنشَقُّ القمرُ. وهو مَحجوجٌ بإجماعِ المفسِّرينَ على خلافِه، وبالأخبارِ المتظاهرةِ في انشقاقِ القمرِ). ((البسيط)) (٢١/ ٨٩).

(١) رواه البخاري (٣٦٣٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٨٠٠).

(٢) رواه البخاري (٣٨٦٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٨٠٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٧)، ((تفسير ابن =

﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾.

﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

أي: وكَذَّبوا بالحَقِّ، واتَّبَعوا ما يَشتَهونَه ويَختارونَه مِنَ الباطِلِ بلا دَليلٍ ولا

= كثير)) (٧/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٣، ٢٦٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ؛ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ذاهبٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابن أبي زَمَنين، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٧٧)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٨٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٨٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥).

وقيل: إنَّ المرادَ به: دائمٌ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والخازن، وابنُ جُزَي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٧٧).

وقيل: المرادُ: شديدٌ. وممَّن اختاره: أبو عُبَيْدةَ، وابنُ قُتَيْبَةَ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣١).

قال ابنُ جُزَي: (قيل: شديدٌ. وهو على هذا المعنى مِن المِرَّةِ، وهي القُوَّةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٢).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ: مُحكَمٌ شديدٌ قويٌّ: الضَّحَّاكُ، وأبو العاليةِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٧).

قال الفراءُ: (قال بعضُهم: سِحْرٌ يُشبِهُ بعضُه بعضًا). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٠٤).

وقال السمعاني: (فيحتمِلُ أن يكونَ معناه: فِعلُه هذا في السِّحرِ يُشبِهُ سائرَ أفعالِه في السِّحرِ. ويحتملُ أنَّ معناه: سِحرُه يُشبِهُ سِحرَ موسى وعيسى وغَيرِهما). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٧).

بُرهانٍ[١].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

أي: وكُلُّ أمرٍ لا بُدَّ أن يَستَقِرَّ في نهايتِه إلى غايةٍ في الدُّنيا أو في الآخِرةِ؛ فالحَقُّ ثابِتٌ، والباطِلُ زائِلٌ، وأهلُ الخَيرِ يَستَقِرُّونَ في الجنَّةِ، وأهلُ الشَّرِّ يَستَقِرُّونَ في النَّارِ[٢].

قال تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾.

أي: ولقد جاء مُشرِكي قُرَيشٍ مِنَ الأنباءِ ما فيه زَجرٌ لهم وانتِهاءٌ يَردَعُهم عن الكُفرِ باللهِ، والتَّكذيبِ بآياتِه ورُسُلِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٤).=

﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥﴾.

﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾.

أي: حِكمةٌ تامَّةٌ كامِلةٌ -قد بَلَغَت الغايةَ، فلا نَقْصَ فيها ولا خَلَلَ-، واصِلةٌ إلى المقصودِ منها[1].

= قيل: الأنباءُ هنا هي أخبارُ الأُمَمِ المُكَذِّبةِ لرُسُلِها، وما أصابهم مِنَ الهلاكِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، واستظهره الرَّازيُّ، وذهب إليه القرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥).

قال ابنُ عاشور: (أي: جاءهم في القُرآنِ مِن أنباءِ الأُمَمِ ما فيه مُزدَجَرٌ لهؤلاء. أو أُريدَ بالأنباءِ: الحُجَجُ الواردةُ في القُرآنِ، أي: جاءهم ما هو أشَدُّ في الحُجَّةِ مِن انشِقاقِ القَمَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٤).

وقيل: يدخُلُ في المرادِ بالأنباءِ: ما ورد في القُرآنِ مِن المواعِظِ والقَصَصِ والبَراهينِ ومَثُلاتِ الأُمَمِ الكافِرةِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

قال الرَّسْعَني: (﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾ بدَلٌ مِن «ما»، أو خَبَرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: هو حِكمةٌ تامَّةٌ قد بَلَغت الغايةَ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥١١).

قيل: المرادُ بالحِكمةِ البالِغةِ: القُرآنُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسَّمعانيُّ، والبغوي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٦).

قال البغوي: (﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾، يعني: القُرآنُ حِكمةٌ تامَّةٌ قد بلغت الغايةَ في الزَّجْرِ). ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٢). =

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾.

أي: فما تَنفَعُهم النُّذُرُ وهم مُعرِضونَ عن الآياتِ[(١)].

قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾.

= وقال الواحدي: (﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أي: ما أتاهم مِن أخبارِ مَنْ قَبْلَهم حِكمةٌ بالِغةٌ تامَّةٌ ليس فيها نُقصانٌ، أي: القُرآنُ؛ وذلك أنَّ تلك الأخبارَ قُصَّت عليهم في القُرآنِ). ((الوجيز)) (ص: ١٠٤٦).

وذكر الرَّازيُّ وُجوهًا؛ منها: أنَّ المرادَ: شأنُ السَّاعةِ وعَلاماتُها. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٤).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أي: في هدايتِه تعالى لِمَن هَداه، وإضلالِه لِمَن أضَلَّه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ معنى ﴿بَٰلِغَةٌ﴾: تامَّةٌ وكامِلةٌ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والشوكاني. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٦).

وقيل: المرادُ: واصِلةٌ إلى الغَرَضِ المقصودِ منها. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

قال ابنُ جرير: (في «مَا» الَّتي في قَولِه: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ وجهانِ؛ أحَدُهما: أن تكونَ بمعنى الجَحدِ، فيكونَ -إذا وُجِّهَتْ إلى ذلك- معنى الكلامِ: فليسَت تُغْني عنهم النُّذُرُ، ولا يَنتَفِعونَ بها؛ لإعراضِهم عنها، وتكذيبِهم بها. والآخَرُ: أن تكونَ بمعنى: «أَنَّى»، فيكونَ معنى الكلامِ إذا وُجِّهَت إلى ذلك: فأيَّ شَيءٍ تُغْني عنهم النُّذُرُ؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦).

وقال الشوكاني: (والنُّذُرُ جمعُ نذيرٍ، بمعنَى المُنْذِرِ، أو بمعنَى الإنذارِ على أنَّه مَصدَرٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بان أنَّ المكذِّبينَ لا حيلةَ في هداهم؛ لم يَبْقَ إلَّا الإعراضُ والتَّولِّي عنهم، فقال[١]:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾.

أي: فأعرِضْ -يا محمَّدُ- عن هؤلاء المكذِّبينَ المُعانِدينَ[٢].

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اقترابَ السَّاعةِ بالإجابةِ إلى بَعضِ مُقترَحاتِهم، تطَلَّعَت النُّفوسُ إلى وَصفِ السَّاعةِ؛ فأجاب عن ذلك على سَبيلِ الاستِئنافِ بذِكرِ ظَرْفِها، وذِكرِ ما يقَعُ فيه مِنَ الأهوالِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

قال ابن عاشور: (هذا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَطمينٌ له بأنَّه ما قَصَّر في أداءِ الرِّسالةِ، ولا تعَلُّقَ لهذه الآيةِ بأحكامِ قِتالِهم؛ إذْ لم يكن السِّياقُ له، ولا حدَثَت دواعيه يومَئذٍ؛ فلا وَجْهَ للقَولِ بأنَّها مَنسوخةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٦).

قال الواحدي: (وهاهنا وقْفُ التَّمام). ((البسيط)) (٢١/ ٩٤).

قال أبو عَمرٍو الدَّاني: (﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تامٌّ. وقال ابنُ الأنباري: غيرُ تامٍّ. وليس كما قال؛ لأنَّ جميعَ أهلِ التَّفسيرِ يَجعلَون العاملَ في الظَّرفِ ﴿يَخْرُجُونَ﴾ [القمر: ٧]. والمعنى عندَهم على [التَّقديمِ و] التَّأخيرِ، والتَّقديرُ: يَخرُجون مِن الأجْداثِ يومَ يَدْعُ الدَّاعِ، فإذا كان كذلك فالتَّمامُ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾). ((المكتفى في الوقف والابتدا)) (ص: ٢٠٧). ويُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) لابن الأنباري (٢/ ٩١٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩٩).

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾.

أي: يومَ يَدعو داعي اللهِ النَّاسَ إلى مَوقِفٍ فَظيعٍ، شَديدِ البَلاءِ، كَثيرِ الأهوالِ، لم يُشاهِدِ النَّاسُ له نظيرًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١، ٤٢].

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن دُعاءَه بما هال أمرُه؛ بَيَّنَ حالَ المَدْعُوِّينَ؛ زيادةً في الهَولِ، فقال[٢]:

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾.

أي: يَخرُجونَ مِن قُبورِهم والحالُ أنَّ أبصارَهم ذَليلةٌ خاضِعةٌ؛ مِن شِدَّةِ خَوفِهم وفَزَعِهم[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦، ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٦-١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

قال القرطبي: (﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ العامِلُ في ﴿يَوْمَ﴾: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾، أو ﴿خُشَّعًا﴾، أو فِعلٌ مُضمَرٌ تَقديرُه: واذكُرْ يَومَ. وقيل: على حَذفِ حَرفِ الفاءِ وما عَمِلَت فيه مِن جوابِ الأمرِ، تقديرُه: فتوَلَّ عنهم؛ فإنَّ لهم يومَ يدعو الدَّاعي. وقيل: توَلَّ عنهم -يا محمَّدُ-؛ فقد أقمْتَ الحُجَّةَ، وأبصِرْهم يومَ يدعو الدَّاعي. وقيل: أي: أعرِضْ عنهم يومَ القيامةِ، ولا تسألْ عنهم وعن أحوالِهم؛ فإنَّهم يُدْعَونَ إلى شيءٍ نُكُرٍ، ويَنالُهم عذابٌ شديدٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩).

وقال أبو حيَّان: (الدَّاعِ: هو إسرافيلُ، أو جِبرائيلُ، أو مَلَكٌ غيرُهما موكَّلٌ بذلك). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ * أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾ [النازعات: ٨، ٩].

﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾.

أي: يَخرُجونَ مِنَ القُبورِ، فيَتوَجَّهونَ إلى مَوقِفِ الحِسابِ، وكأنَّهم في انتِشارِهم وكَثرتِهم جَرادٌ مُنتَشِرٌ(١).

= (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٦).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: يعني: ذليلةً خاضعةً أبصارُهم عِندَ مُعايَنةِ العَذابِ. وقال أهل المعاني: وُصِفَت الأبصارُ بالخُشوعِ؛ لأنَّ ذِلَّةَ الذَّليلِ وعِزَّةَ العَزيزِ تَتبيَّنُ في نَظَرِه). ((البسيط)) (٢١/ ٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

قال ابن جُزَي: (شبَّههم بالجرادِ في خروجِهم مِن الأرضِ، فكأنَّه استِدلالٌ على البعثِ، كالاستِدلالِ بخروجِ النَّباتِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٣).

وقال ابن جرير: (كأنَّهم في انتِشارِهم وسَعيِهم إلى مَوقِفِ الحِسابِ جَرادٌ مُنتَشِرٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٨).

وقال ابن كثير: (﴿كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ أي: كأنَّهم في انتِشارِهم وسُرعةِ سَيرِهم إلى مَوقِفِ الحسابِ إجابةً للدَّاعي ﴿جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ في الآفاقِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦).

وقال الشوكاني: (كأنَّهم لكثرتِهم واختِلاطِ بعضِهم ببعضٍ ﴿جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾، أي: مُنْبَثٌّ في الأقطارِ، مُختلِطٌ بعضُه ببعضٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٧).

وقال الرَّسْعَني: (كأنَّهم في كثرتِهم واضْطِرابِهم وتمَوُّجِهم جَرادٌ مُنبَثٌّ في كلِّ مكانٍ، ليست له جِهةٌ يَقصِدُها). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥١٤).

وقال البِقاعي: (كأنَّهم في كثرتِهم، وتَراكُمِ بعضِهم على بعضٍ مِن كبيرِهم وصغيرِهم، وضعيفِهم وقَويِّهم). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٠١).

وذكر ابن عاشور أنَّ التَّشبيهَ في الاكتِظاظِ، واستِتارِ بعضِهم ببعضٍ مِن شدَّةِ الخَوفِ، بالإضافةِ =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۞ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤].

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الانتِشارُ قد يكونُ على وَجهِ المَهَلِ والوَقارِ؛ قال مُبَيِّنًا أنَّ الأمرَ على خِلافِ ذلك؛ زيادةً في هَولِ ذلك اليَومِ، وتَقريرًا لِما تقَدَّمَ مِن وَصفِه[١]:

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾.

أي: يَخرُجونَ مِن قُبورِهم مُقبِلينَ مُسرِعينَ إلى الدَّاعي؛ تلبيةً لِندائِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٨].

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

= إلى الكثرةِ والتَّحرُّكِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤).

قال القرطبي: (﴿مُّهْطِعِينَ﴾ معناه: مُسرِعينَ... الضَّحَّاكُ: مُقبِلينَ. قَتادةُ: عامِدينَ. ابنُ عبَّاسٍ: ناظِرينَ. عِكْرِمةُ: فاتِحينَ آذانَهم إلى الصَّوتِ. والمعنى مُتقارِبٌ؛ يُقال: هَطَعَ الرَّجُلُ يَهطَعُ هُطوعًا: إذا أقبَلَ على الشَّيءِ ببَصَرِه لا يُقلِعُ عنه، وأهطَعَ: إذا مَدَّ عُنُقَه وصَوَّبَ رأسَه). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠١)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٢/ ٣٩٨).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن حالَ الكُلِّ؛ حَصَرَ حالَ المُبطِلينَ، فقال[١]:

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

أي: يقولُ الكافِرونَ باللهِ يومَ القيامةِ: هذا يومٌ في غايةِ العُسْرِ والصُّعوبةِ والشِّدَّةِ[٢].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩، ١٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ هذا بالنِّسبةِ للقَريبينَ مِن مَكَّةَ؛ كأهلِ الجزيرةِ مثلًا، أمَّا البَعيدونَ فقد لا يَرَونَه، وكما نعلَمُ الآنَ أنَّ اللَّيلَ هنا يكونُ نَهارًا في مكانٍ آخَرَ، أو لوجودِ غيومٍ وضبابٍ كثيرٍ يَمنَعُ الرُّؤيةَ؛ ولهذا لا يُمكِنُ أبدًا لأيِّ عاقِلٍ أنْ يُنكِرَ انشِقاقَ القَمَرِ انشقاقًا حِسِّيًّا لأنه لم يُذْكَرْ في تاريخِ اليونانِ! ولم يُذْكَرْ في تاريخِ الهندِ! ولم يُذْكَرْ في كذا وكذا! هذا ليس حجَّةً يَبطُلُ به ما ثَبَتَ في الصَّحيحَينِ وغَيرِهما مِن أنَّ القمرَ انشقَّ فِعلًا انشِقاقًا حِسِّيًّا، ونحن نؤمِنُ بأنَّ القادرَ على أنْ يَطويَ السَّمَواتِ بيَمينِه كطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُبِ قادِرٌ على أنْ يَفْلُقَ القَمرَ فِلْقَتَينِ، ولا شَيءَ يُعْجِزُهُ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]؛ ولهذا لا وَجْهَ لإنكارِ مَن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤).

أنكَر ذلك ممَّن يَنتَسِبونَ إلى الإسلامِ، ويقولونَ: إنَّ الأفلاكَ السَّماويَّةَ لا يُمكِنُ أنْ تتغيَّرَ! نقولُ: اللهُ أكبَرُ! مَنِ الَّذي خَلَقَ الأفلاكَ السَّماويَّةَ؟ أليس اللهَ؟! بلى، إذنْ هو قادِرٌ على أنْ يُغَيِّرَها ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1] [يس: ٨٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ ذَكَر اللهُ تعالى انشِقاقَ القَمَرِ، وبَيَّن أنَّ اللهَ فَعَله، وأخْبَر به؛ لحِكمتَينِ عَظيمتَينِ؛ إحداهما: كَونُه مِن آياتِ النُّبُوَّةِ لَمَّا سَأَلَه المُشرِكونَ آيةً، فأراهم انشِقاقَ القمرِ. والثَّانيةُ: أنَّه دَلالةٌ على جَوازِ انشقاقِ الفَلَكِ، وأنَّ ذلك دليلٌ على ما أَخبَرَتْ به الأنبياءُ مِن انشقاقِ السَّمَواتِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾، فذَكَر اقترابَ السَّاعةِ، وانشِقاقَ القَمَرِ، وجَعَل الآيةَ في انشِقاقِ القَمَرِ دونَ الشَّمسِ وسائرِ الكواكبِ؛ لأنَّه أقرَبُ إلى الأرضِ مِن الشَّمسِ والنُّجومِ، وكان الانشِقاقُ فيه دونَ سائرِ أجزاءِ الفَلَكِ؛ إذْ هو الجِسمُ المُستنيرُ الَّذي يَظهَرُ فيه الانشِقاقُ لكُلِّ مَن يَراه ظُهورًا لا يُتمارَى فيه، وأنَّه نَفْسَه إذا قَبِل الانشِقاقَ فقَبولُ مَحَلِّه أَولى بذلك، وقد عاينَه النَّاسُ وشاهَدوه، وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرأُ بهذه السُّورةِ في المجامِعِ الكِبارِ، مِثلُ: صَلاةِ الجُمُعةِ والعيدَينِ؛ لِيُسمِعَ النَّاسَ ما فيها مِن آياتِ النُّبُوَّةِ ودلائِلِها، والاعتِبارِ بما فيها. وكُلُّ النَّاسِ يُقِرُّ بذلك ولا يُنكِرُه؛ فعُلِمَ أنَّ انشِقاقَ القَمَرِ كان معلومًا عندَ النَّاسِ عامَّةً، وفي الحديثِ ((أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٢). ويُنظر أيضًا: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٤/ ٢٩٩) و (٨/ ٥٦٤).

عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ سأل أبا واقدٍ اللَّيثيَّ: ما كان يَقرَأُ به رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الأضحى والفِطرِ؟ فقال: كان يَقرَأُ فيهما بـ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] و ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]))[١]. ومعلومٌ بالضَّرورةِ في مُطَّرِدِ العادةِ أنَّه لو لم يكُنِ انشَقَّ لَأسرعَ المؤمِنونَ به إلى تكذيبِ ذلك، فضلًا عن أعدائِه الكُفَّارِ والمنافقِينَ، ومعلومٌ أنَّه كان مِن أحرَصِ النَّاسِ على تصديقِ الخَلقِ له، واتِّباعِهم إيَّاه، فلو لم يكُنِ انشَقَّ لَمَا كان يُخبِرُ به ويَقرَؤُه على جميعِ النَّاسِ، ويَستَدِلُّ به ويَجعَلُه آيةً له[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ التَّكذيبُ واتِّباعُ الهَوى قَرينانِ؛ فإذا حَصَل اتِّباعُ الهوى فمِن شُؤمِه يَحصُلُ التَّكذيبُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يُلبِّسُ على قَلبِ صاحِبِه حتَّى لا يَستَبصِرَ الرُّشدَ، أمَّا اتِّباعُ الرِّضا فمَقْرونٌ بالتَّصديقِ؛ لأنَّ اللهَ ببَركاتِ اتِّباعِ الحَقِّ يَفتَحُ عَينَ البَصيرةِ، فيَحصُلُ التَّصديقُ[٣]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾ دليلٌ على أنَّ القرآنَ -على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ- غايةُ كُلِّ حُجَّةٍ، وفاتِقُ كلِّ لُبْسَةٍ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾ أنَّه ما مِن شَيءٍ يَحكُمُ اللهُ تعالى به إلَّا وهو حِكمةٌ عَظيمةٌ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ أنَّ خَفْضَ البَصَرِ مِن تمامِ الخُشوعِ[٦].

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٧).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٩٤).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣).

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٧٨).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ إجازةُ تَشبيهِ النَّاسِ بغَيرِهم، وفي ذلك حُجَّةٌ للشُّعراءِ، إذا لم يَكذِبوا كَذِبًا مَحْضًا لا تأويلَ فيه[١]، ولم يكُنْ على سبيلِ الاحتِقارِ أو السُّخريةِ، أو التَّنقُّصِ لِخَلقِ الله.

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «يقولُ النَّاسُ»؛ لأنَّ هذا اليومَ العَسِرَ لا شكَّ أنَّه في حَدِّ ذاتِه عَسِرٌ شديدٌ عظيمٌ، ولكِنَّه على الكافِرينَ عَسيرٌ، وعلى المؤمِنينَ يَسيرٌ، كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠]، وأمَّا على المؤمِنينَ فهو يَسيرٌ[٢]، وبقَدْرِ ما يكونُ الإيمانُ عندَ العبدِ يكونُ اليُسرُ في ذلك اليَومِ؛ لأنَّ الجزاءَ مِن جِنْسِ العَمَلِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾

- تَصديرُ السُّورةِ بقَولِه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ للاهتِمامِ بالمَوعظةِ؛ إذْ قد تَقرَّرَ المَقصودُ مِن تَصديقِ المُعجزةِ، فجُعِلَت تلك المُعجزةُ وَسيلةً للتَّذكيرِ باقترابِ السَّاعةِ على طَريقةِ الإدماجِ[٤]؛ بمُناسَبةِ أنَّ القمَرَ كائنٌ مِن

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٢٥٨).

(٤) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ =

الكائناتِ السَّماويَّةِ ذاتِ النِّظامِ المُسايِرِ لنَظامِ الجوِّ الأرضيِّ، فلمَّا حدَثَ تَغيُّرٌ في نِظامِه لم يكُنْ مألوفًا؛ ناسَبَ تَنبيهُ النَّاسِ للاعتبارِ بإمكانِ اضمِحلالِ هذا العالَمِ، وكان الفِعلُ الماضي مُستعمَلًا في حَقيقتِه[١].

- قولُه: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ بمعْنى قَرُبَت، وزِيادةُ المبْنى تدُلُّ على زِيادةِ المعْنى، وهنا ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ فيها زِيادةُ المبْنى على (قَرُبَت)، فيَدُلُّ على أنَّ القربَ قريبٌ جدًّا، فمعْنى ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ أي: قَرُبَت جِدًّا[٢]. فقوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ أبلَغُ من قَرُبَت، كما أنَّ (اقتدَرَ) أبلَغُ مِن (قَدَرَ)[٣].

والاقتِرابُ أصْلُه صِيغةُ مُطاوَعةٍ، أي: قَبولُ فِعلِ الفاعِلِ، وهو هنا للمُبالَغةِ في القُرْبِ، فإنْ حُمِلَ على حَقيقةِ القُربِ فهو قُرْبٌ اعتباريٌّ، أي: قُرْبُ حُلولِ السَّاعةِ فيما يأْتي مِن الزَّمانِ قُرْبًا نِسبيًّا بالنِّسبةِ لِما مَضى مِن الزَّمانِ ابتِداءً مِن خلْقِ السَّماءِ والأرضِ. وفائدةُ هذا الاعتِبارِ أنْ يُقبِلَ النَّاسُ على نَبْذِ الشِّركِ، وعلى الاستِكثارِ مِن الأعمالِ الصَّالحاتِ، واجتِنابِ الآثامِ؛ لقُرْبِ يومِ الجَزاءِ[٤].

- قولُه: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ الخبَرُ مُستعمَلٌ في لازمِ مَعناهُ، وهو المَوعظةُ إنْ كانت الآيةُ نزَلَت بعْدَ انشقاقِ القمَرِ؛ لأنَّ عِلْمَهم بذلك حاصلٌ، فلَيسوا بحاجةٍ

= فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفِرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفِرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦٨، ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٠، ١٧١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٤).

إلى إفادتِهم حكْمَ هذا الخبَرِ، وإنَّما هم بحاجةٍ إلى التَّذكيرِ بأنَّ مِن أماراتِ حُلولِ السَّاعةِ أنْ يقَعَ خسْفٌ في القمَرِ بما تَكرَّرت مَوعظتُهم به؛ كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٧، ٨] الآيةَ؛ إذ ما يُؤَمِّنُهم أنْ يكونَ ما وقَعَ مِن انشِقاقِ القمَرِ أمارةً على اقترابِ السَّاعةِ، فما الانشقاقُ إلَّا نوعٌ مِن الخسْفِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ تَذييلًا للإخبارِ بانشقاقِ القمَرِ، فيَكونَ المُرادُ بـ﴿ءَايَةً﴾ في قولِه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ القمَرَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ كلامًا مُستأنَفًا مِن ذِكرِ أحوالِ تَكذيبِهم ومُكابرتِهم، وعلى كِلا الوجْهينِ فإنَّ وُقوعَ ﴿ءَايَةً﴾ -وهو نَكرةٌ- في سِياقِ الشَّرطِ يُفيدُ العُمومَ[٢].

- وجِيءَ بهذا الخبرِ في صُورةِ الشَّرطِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا دَيدنُهم ودأْبُهم[٣].

- وضَميرُ ﴿يَرَوْا۟﴾ عائدٌ إلى غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ دالٍّ عليه المَقامُ، وهم المُشرِكون[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾، هذا إخبارٌ عن حالِهم فيما مَضَى، بعْدَ أنْ أخبَرَ عن حالِهم في المُستقبَلِ بالشَّرطِ الَّذي في قولِه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ [القمر: ٢]، ومُقابَلةُ ذلك بهذا فيه شِبهُ احتِباكٍ[٥]؛ كأنَّه قِيل: وإنْ يَرَوا آيةً يُعرِضوا ويَقولوا: سِحرٌ، وقد رَأَوُا الآياتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٧١، ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) الاحْتِبَاك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، =

وأعْرَضوا وقالوا: سِحرٌ مُستمِرٌّ، وكذَّبوا واتَّبعوا أهواءَهُم، وسيُكذِّبون ويتَّبِعون أهواءَهُم[١].

- وعُطِفَ ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ عطْفَ العِلَّةِ على المَعلولِ؛ لأنَّ تَكذيبَهم لا دافعَ لهم إليه إلَّا اتِّباعُ ما تَهواهُ أنفُسُهم مِن بَقاءِ حالِهم على ما أَلِفُوه وعهِدُوه واشتُهِرَ دَوامُه[٢].

- وذِكرُ الفِعلينِ ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ بلَفظِ الماضي؛ للإِشعارِ بأنَّهما مِن عادتِهم القديمةِ، وللدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[٣].

- وجمَعَ الأهواءَ دونَ أنْ يقولَ: واتَّبعوا الهَوى، كما قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١١٦]؛ حيثُ إنَّ الهَوى اسمُ جِنسٍ يَصدُقُ بالواحدِ والمتعدِّدِ، فعُدِلَ عن الإفرادِ إلى الجمْعِ؛ لمُزاوَجةِ ضَميرِ الجمْعِ المُضافِ إليه، وللإشارةِ إلى أنَّ لهم أصنافًا مُتعدِّدةً مِن الأهواءِ: مِن حُبِّ الرِّئاسةِ، ومِن حسَدِ المؤمنينَ على ما آتاهم اللهُ، ومِن حُبِّ اتِّباعِ مِلَّةِ آبائِهم، ومِن مَحبَّةِ أصنامِهم، وإلْفِ لعَوائدِهم، وحِفاظٍ على أنفَتِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لإقناطِهم عمَّا علَّقوا به أمانِيَهم الفارغةَ مِن عدَمِ استِقرارِ أمْرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حسبَما قالُوا:

= إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن أَلْطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٢، ١٧٣).

سِحرٌ مُستمرٌّ؛ ببَيانِ ثَباتِه ورُسوخِه، أي: وكلُّ أمْرٍ مِن الأمورِ مُستقِرٌّ، أي: مُنتَهٍ إلى غايةٍ يَستقِرُّ عليها لا مَحالةَ، ومِن جُملتِها أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فسَيصيرُ إلى غايةٍ يَتبيَّنُ عندَهَا حقِّيَّتُه، وعُلوُّ شَأْنِه. وإبهامُ المُستقَرِّ عليهِ؛ للتَّنبيهِ على كَمالِ ظُهورِ الحالِ، وعدَمِ الحاجةِ إلى التَّصريحِ بهِ[١].

أو تَذييلٌ للكَلامِ السَّابقِ مِن قَولِه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ إلى قولِه: ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القمر: ٢، ٣]، فهو اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ وجُملةِ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ [القمر: ٤]، والواوُ اعتراضيَّةٌ، وهو جارٍ مَجْرى المثَلِ[٢].

- و(كُلُّ) مِن أسماءِ العُمومِ، و(أمْر): اسمٌ يدُلُّ على جِنسٍ عالٍ، ومِثلُه: شَيءٌ، ومَوجودٌ، وكائنٌ، وهو هنا يَعُمُّ الأمورَ ذواتِ التَّأثيرِ[٣].

- قولُه: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ فيه تعريضٌ بأنَّ أمرَ الرَّسولِ لا بدَّ أنْ يستقِرَّ إلى غايةٍ، هي الظُّهورُ والنُّصرةُ، وأمرَ مكذبيه إلى الخذلانِ والشَّقاوةِ[٤].

- ومُستقِرٌّ: اسمُ فاعلٍ مِن استقَرَّ، أي: قَرَّ، والسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ؛ مِثلُ السِّينِ والتَّاءِ في استجابَ[٥].

- وقد تَضمَّنَ هذا التَّذييلُ بإجْمالِه تَسليةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَهديدًا للمُشرِكين، واستِدعاءً لنظَرِ المُتردِّدين[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٤).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٤).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾[(١)] [القمر: ٣].

- وهذه الجملةُ مؤكَّدةٌ بثَلاثةِ مُؤكِّداتٍ: باللَّامِ و(قد) في قولِه: ﴿وَلَقَدْ﴾، وبالقسَمِ المقدَّرِ الذي دلَّتْ عليه اللَّامُ[(٢)].

- و﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ بيانُ ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾، قُدِّمَ على المُبيَّنِ، و(مِن) بَيانيَّةٌ[(٣)].

- قولُه: ﴿مُزْدَجَرٌ﴾ مَصدرٌ مِيميٌّ، وهو مُصاغٌ بصِيغةِ اسمِ المَفعولِ الَّذي فِعْلُه زائدٌ على ثَلاثةِ أحرُفٍ، ازدَجَره بمعْنى زجَرَه، ومادَّةُ الافتِعالِ فيه للمُبالَغةِ[(٤)].

- قولُه: ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ما فيه مانعٌ لهم مِن ارتكابِ ما ارتكَبُوه، والمعْنى: ما هو زاجرٌ لهم، فجُعِلَ الازدجارُ مَظروفًا فيه؛ للمُبالَغةِ في مُلازَمتِه له على طَريقةِ التَّجريدِ[(٥)]؛ كقولِه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، أي: هو أُسوةٌ[(٦)].

و﴿مَا﴾ مَوصولةٌ أو مَوصوفةٌ، وهي فاعل بـ(جاءَ)، ومعناها: أنباءٌ وأخبارٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٧٤، ١٧٥).

(٥) التَّجريد: أن يُنتزَعَ مِن أمرٍ ذي صِفةٍ أمرٌ آخَرُ مِثلُه في تلك الصِّفةِ، حتَّى تَصيرَ الذَّاتُ الواحدةُ ذاتَينِ؛ مُبالَغةً لكمالِ الوصفِ في تلكَ الذَّاتِ. كقَولِهم: لي مِنكَ صديقٌ حميمٌ، و: لَئِنْ سألْتَ فُلانًا، لَتَسْأَلَنَّ به بحرًا. يُنظر: ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٩)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥).

و﴿مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ حالٌ منها[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ لتَرتيبِ عدَمِ الإغناءِ على مَجيءِ الحكمةِ البالغةِ مع كَونِه مَظِنَّةً للإغناءِ[٢].

- وصِيغةُ المُضارِعِ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ عدَمِ الإغناءِ واستِمرارِه حسَبَ تَجدُّدِ مَجيءِ الزَّواجرِ واستمرارِه[٣].

- و(مَا) تَحتمِلُ النَّفيَ، أي: لا تُغْني عنهم النُّذرُ بعْدَ ذلك، وهذا تَمهيدٌ لقولِه: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾ [القمر: ٦]، فالمُضارِعُ للحالِ والاستقبالِ، أي: ما هي مُغْنيةٌ، ويُفيدُ بالفَحوى أنَّ تلك الأنباءَ لم تُغْنِ عنهم فيما مَضى بطَريقِ الأحْرى؛ لأنَّه إذا كان ما جاءهُم مِن الأنباءِ لا يُغْني عنهم مِن الانزجارِ شيئًا في الحالِ والاستقبالِ، فهو لم يُغْنِ عنهم فيما مَضى؛ إذ لو أغْنى عنهم لارْتفَعَ اللَّومُ عليهم. ويَحتمِلُ أنْ تكونَ (ما) استفهاميَّةً للإنكارِ، أي: ماذا تُفيدُ النُّذرُ في أمثالِهم المُكابِرين المُصِرِّين؟! أي: لا غَناءَ لهم في تلك الأنباءِ؛ فـ(ما) على هذا في مَحلِّ نصْبٍ على المَفعولِ المُطلَقِ لـ﴿تُغۡنِ﴾، وحُذِفَ ما أُضِيفَت إليه (ما)، والتَّقديرُ: فأيَّ غَناءٍ تُغْني النُّذرُ[٤]؟!

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠٥)، ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥).

يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۞ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾

- قولُه: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ تفريعٌ على ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥]، أي: أعرِضْ عن مُجادلتِهم؛ فإنَّهم لا تُفيدُهم النُّذرُ، أي: إنَّك قد بلَّغْتَ، فما أنت بمَسؤولٍ عن استِجابتِهم، وهذا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

وقيل: قوله: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾، أي: لعِلْمِك أنَّ الإنذارَ لا يُغْني فيهم، فالفاءُ نَتيجةٌ للكَلامِ السَّابقِ، وفي مَدخولِها معْنى المُتارَكةِ والمُوادَعةِ؛ وذلك أنَّه تعالى لَمَّا أخبَرَ عن المُعانِدين أنَّه بلَغَ إعراضُهم وتَمرُّدُهم بحيث إنْ يَرَوا آيةً يَقولوا: سِحرٌ مُستمِرٌّ، وكرَّرَ المعْنى بقولِه: ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾؛ لأنَّ الإعراضَ وقولَهم: سِحرٌ مُستمِرٌّ، تَكذيبٌ ومُتابَعةٌ للهوَى، ثمَّ جاء بقَولِه: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ ﴾ جُملةً قَسَميَّةً حالًا مُقرِّرةً لجِهةِ الإشكالِ، أي: يُكذِّبون والحالُ أنَّه جاءتْهم حِكمةٌ بالغةٌ، ثمَّ سجَّلَ عِنادَهم بقولِه: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ -قال: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾، أي: بعْدَ أنِ استعْلَمْتَ حالَهم وأنَّهم لا يُؤمِنون البَتَّةَ، فتَولَّ عنهم وأعرِضْ عن الإنذارِ؛ لأنَّ الإنذارَ إنَّما يُفيدُ إذا انتفَعَ به المُنذَرُ(٢).

- قولُه: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۞ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۞ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ الأمْرَ بالتَّولِّي مُؤْذِنٌ بغضَبٍ ووَعيدٍ، فمِن شأْنِه أنْ يُثيرَ في نفْسِ السَّامعِ تَساؤُلًا عن مُجمَلِ هذا الوعيدِ، وهذا الاستئنافُ وقَعَ مُعترِضًا بيْن جُملةِ ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ ﴾ [القمر: ٤] وجُملةِ ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ [القمر: ٩]، وإذ قد كان المُتوعَّدُ به شيئًا يَحصُلُ يومَ القيامةِ قُدِّمَ الظَّرفُ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٢١).

عامِلِه -وهو ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾-؛ ليَحصُلَ بتَقديمِه إجمالٌ يُفصِّلُه بَعضَ التَّفصيلِ ما يُذكَرُ بعْدَه، فإذا سمِعَ السَّامعُ هذا الظَّرفَ، عَلِمَ أنَّه ظرْفٌ لأهوالٍ تُذكَرُ بعْدَه هي تَفصيلُ ما أجْمَلَه قولُه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ مِن الوعيدِ، بحيث لا يَحسُنُ وقْعُ شَيءٍ ممَّا في هذه الجُملةِ هذا المَوقعَ غيرُ هذا الظَّرْفِ، ولولا تَقديمُه لَجاء الكلامُ غيرَ مَوثوقِ العُرى، وانظُرْ كيف جمَعَ فيما بعْدُ قولُه: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ كثيرًا مِن الأهوالِ آخِذٌ بَعضُها بحُجَزِ بَعضٍ بحُسْنِ اتِّصالٍ يَنقُلُ كلٌّ منها ذِهنَ السَّامعِ إلى الَّذي بعْدَه، مِن غيرِ شُعورٍ بأنَّه يُعدِّدُ له أشياءَ[1].

- وعُدَّ في قولِه: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ سَبعةٌ مِن مَظاهرِ الأهوالِ:

أوَّلُها: دُعاءُ الدَّاعي؛ فإنَّه مُؤْذِنٌ بأنَّهم مُحضَرونَ إلى الحسابِ؛ لأنَّ مَفعولَ ﴿يَدْعُ﴾ مَحذوفٌ، بتَقديرِ: يَدْعوهم الدَّاعي؛ لدَلالةِ ضَميرِ ﴿عَنْهُمْ﴾ على تَقديرِ المَحذوفِ.

الثَّاني: أنَّه يَدْعو إلى شَيءٍ عظيمٍ؛ لأنَّ ما في لَفظِ ﴿شَيْءٍ﴾ مِن الإبهامِ يُشعِرُ بأنَّه مَهولٌ، وما في تَنكيرِه مِن التَّعظيمِ يُجسِّمُ ذلك الهَولَ.

وثالثُها: وصْفُ ﴿شَيْءٍ﴾ بأنَّه ﴿نُّكُرٍ﴾، أي: مَوصوفٌ بأنَّه تُنكِرُه النُّفوسُ وتَكرَهُه.

ورابعُها: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾، أي: ذَليلةً يَنظُرونَ مِن طرْفٍ خَفيٍّ، لا تَثبُتُ أحداقُهم في وُجوهِ النَّاسِ، وهي نَظْرةُ الخائفِ المُفتضَحِ، وهو كِنايةٌ؛ لأنَّ ذِلَّةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٦، ١٧٧).

الذَّليلِ وعِزَّةَ العزيزِ تَظهَرانِ في عُيونِهما.

وخامسُها: تَشبيهُهم بالجَرادِ المُنتشِرِ في الاكتِظاظِ واستتارِ بَعضِهم ببَعضٍ مِن شِدَّةِ الخوفِ -على قولٍ-، زِيادةً على ما يُفيدُه التَّشبيهُ مِن الكثرةِ والتَّحرُّكِ، وهو تَشبيهٌ تَمثيليٌّ[1]؛ لأنَّه تَشبيهُ هَيئةِ خُروجِ النَّاسِ مِن القبورِ مُتراكِمينَ، بهَيئةِ خُروجِ الجَرادِ مُتعاظِلًا (يَركَبُ بَعضُه بَعضًا) يَسيرُ غيرَ ساكنٍ، وقد أفاد هذا التَّشبيهُ تَجْسيدَ الصُّورةِ وتَشخيصَها؛ فهذه الجُموعُ الخارجةُ مِن الأجداثِ في مِثلِ رجْعِ الطَّرْفِ تُشبِهُ الجَرادَ الَّذي اشتُهِرَ بانتشارِه واحتشادِه دونَ أنْ يكونَ له هدَفٌ مِن هذا الانتشارِ والاحتشادِ، وكذلك هذه الجُموعُ قد أَلْجَمَها الخَوفُ، وعقَدَ الهولُ أفهامَها، وضرَبَ عليها رَواكِدَ مِن الحَيرةِ، وغشِيَها بأمواجٍ مِن الضَّلالةِ والرَّينِ، فهي تَسيرُ تَلبيةً لدَعوةِ الدَّاعِ دونَ أنْ تَعرِفَ لِمَ يَدْعوها، ولكنَّها تَعرِفُ بصُورةٍ مُبْهَمةٍ أنَّه يَدْعوها إلى شَيءٍ نُكُرٍ لا تَكتَنِهُ حَقيقتَه، ولا تَعرِفُ فَحواهُ.

وسادسُها: وصْفُهم بمُهطِعينَ، والمُهطِعُ: الماشي سَريعًا مادًّا عُنُقَه، وهي مِشْيَةُ مَذعورٍ غيرِ مُلْتفِتٍ إلى شَيءٍ.

وسابعُها: قولُهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾، وهو قولٌ مِن أثَرِ ما في نُفوسِهم مِن خَوفٍ، و﴿عَسِرٞ﴾: صِفةٌ مُشبَّهةٌ مِن العُسْرِ، وهو الشِّدَّةُ والصُّعوبةُ، ووصْفُ اليومِ بـ﴿عَسِرٞ﴾

---

(١) التشبيه: هو إلحاقُ شيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: إثباتُ حُكمٍ للمُشبَّه من أحكام المُشبَّه به. وينقسمُ التشبيهُ عِدَّةَ تقسيماتٍ باعتبارات عِدَّة: فمنه: التشبيه المفرَد. ومنه: التشبيه المركَّب: هو الذي يكون وجهُ الشبه فيه مُنتزَعًا من متعدِّد، أو من أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتشبيهُ مركَّب من أحوال الحِمار. وخصَّ البيانيون لفظ «التمثيل» بالتشبيه المركَّب. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي، (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

باعتِبارِ كَونِه زَمانًا لأُمورٍ عَسِرةٍ شَديدةٍ مِن شِدَّةِ الحسابِ، وانتِظارِ العَذابِ[١].

- وفي قولِه: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ شبَّهَهم بالجَرادِ المنتشِرِ، أي: كأنَّهم مِن كَثرتِهم، وتموُّجِ بعضِهم في بعضٍ، وكأنَّهم في انتِشارِهم وسُرعةِ سَيرِهم إلى مَوقفِ الحِسابِ إجابةً للدَّاعي جرادٌ منتشِرٌ في الآفاقِ، مُسرِعينَ لا يُخالِفونَ ولا يَتأخَّرونَ[٢].

- والجرادُ المنتشِرُ هو المُنبَثُّ في الأرضِ الَّذي لا يَدْري أين وجْهُه، ليس له طريقٌ قائمةٌ، لا يَعرِفُ كيف يَنْتهي، ولكنَّهم مُنتشِرونَ، وهذا مِن أدقِّ التَّشبيهاتِ؛ لأنَّ الجرادَ المنتشِرَ تَجِدُه يَذهَبُ يَمينًا ويَسارًا لا يَدْري أين يَذهَبُ؛ فهمْ سيَخرُجون مِن الأجداثِ على هذا الوجْهِ، بيْنَما هم في الدُّنيا لهم قائدٌ، ولهم أميرٌ، ولهم مُوجِّهٌ، يَعرِفون طَريقَهم، وإنْ كان طريقًا فاسدًا[٣].

- وفي إسنادِ القولِ المَذكورِ إلى الكُفَّارِ تَلويحٌ بأنَّ المؤمنينَ ليسُوا في تلكَ المَرْتبةِ مِن الشِّدَّةِ[٤].

- قولُه: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لوصْفِهم بهذا الوصْفِ الذَّميمِ، وفيه تَفسيرُ الضَّمائرِ السَّابقةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٤، ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٧، ١٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٤، ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٨).

الآيات (٩-١٧)

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَازْدُجِرَ﴾: أي: انتُهِر وزُجِر وأُوعِدَ، أو استُطيرَ جُنونًا، وأصلُ (زجر): يدُلُّ على انتِهارٍ[١].

﴿مُنْهَمِرٍ﴾: أي: كثيرٍ، سَريعِ الانصِبابِ، وأصلُ (همر): يدُلُّ على صَبٍّ وانصِبابٍ[٢].

﴿قُدِرَ﴾: أي: قُضِيَ، والقَدَرُ: قَضاءُ اللهِ تعالى الأشياءَ على مَبالِغِها ونهاياتِها الَّتي أرادَها لها، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايتِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦).

قال ابن عثيمين: (الزَّجرُ هو النَّهرُ بشدَّةٍ وعُنفٍ، والدَّالُ هنا مُنقلِبةٌ عن تاءٍ، وقد قال العلماءُ: إنَّ زيادةَ المبنى تدُلُّ على زيادةِ المعنى، والمعنى: أنَّه زجرٌ شديدٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٠).

﴿أَلْوَٰحٍ﴾: أي: خَشَبٍ عَريضٍ، واللَّوحُ: واحِدُ ألواحِ السَّفينةِ[١].

﴿وَدُسُرٍ﴾: أي: مَساميرَ تُشَدُّ بها الألواحُ، وأصلُ (دسر): يدُلُّ على دَفعٍ شَديدٍ؛ لأنَّ المِسمارَ يُدفَعُ أبدًا حتَّى يَستويَ[٢].

﴿كُفِرَ﴾: أي: جُحِدَ، والكُفرُ في اللُّغةِ: سَترُ الشَّيءِ[٣].

﴿مُّدَّكِرٍ﴾: أي: مُتَذَكِّرٍ مُتَّعِظٍ، مُعتَبِرٍ خائفٍ، وأصلُه مُذْتَكِرٌ مُفْتَعِلٌ مِنَ الذِّكْرِ، فقُلِبَت التَّاءُ دالًا، وأُدْغِمَت الذَّالُ فيها، وأصلُ (ذكر): يدُلُّ على خِلافِ النِّسيانِ[٤].

﴿وَنُذُرِ﴾: أي: إنذاري، وهو اسمٌ مِنَ الإنذارِ يقومُ مَقامَ المَصدَرِ، والإنذارُ: الإبلاغُ، ولا يكونُ إلَّا في التَّخويفِ، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تَخويفٍ[٥].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا عقوباتِ المكذِّبينَ في الأممِ السَّابقةِ: كذَّبَت قبْلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ قَومُ نوحٍ، فكذَّبوا نُوحًا، واتَّهَموه بالجُنونِ، وزجَروه عن دَعوتِهم، فدعا نوحٌ ربَّه قائلًا: إنِّي مَغلوبٌ؛ فانتَصِرْ لي! فاستَجَبْنا لنُوحٍ دُعاءَه، ففَتَحْنا أبوابَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٢)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٦).

السَّماء بماءٍ مُتدَفِّقٍ كثيرٍ شَديدٍ، وأنبَعْنا عُيونَ الماءِ مِنَ الأرضِ، فالتَقَى الماءانِ: ماءُ السَّماءِ وماءُ الأرضِ على أمرٍ قد كَتَبه اللهُ تعالى وقَضاه!

وحَمَلْنا نُوحًا على سَفينةٍ ذاتِ ألواحٍ ومَساميرَ، تجري تلك السَّفينةُ على الماءِ بمَرأًى وحِفظٍ مِنَّا؛ ثوابًا لنُوحٍ على صَبْرِه على أذى قَومِه وتكذيبِهم. ولقد تَرَكْنا فَعلَتَنا بقومِ نوحٍ وإهلاكَنا لهم عِبرةً وعِظةً لِمَن بعدَهم، وترَكْنا جنسَ السُّفنِ علامةً على كَمالِ قُدرة الله، وعِبرةً على ما جرَى لنوحٍ عليه السَّلامُ معَ قومِه، فهل مِن مُتذَكِّرٍ لِما قد فُعِل بتلك الأُمَّةِ الَّتي كفَرَت بربِّها، وعَصَت رَسولَه؛ فيتَّعِظَ بذلك ويَعتَبِرَ؟ فكيف كان عذابي لأولئك الكُفَّارِ مِن قَومِ نُوحٍ، وكيف كان إنذاري بتلك العُقوبةِ مَن بَعْدَهم مِنَ الكُفَّارِ؛ لِيَحذَروا أن يَحُلَّ بهم العَذابُ؟

ثمَّ يقولُ الله تعالى مبينًا مظاهرَ فضلِه ورحمتِه على هذه الأمَّةِ: ولقد سَهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به والاتِّعاظِ، فهل مِن مُتذَكِّرٍ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما فيه؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شروعٌ في تَعدادِ بعضِ ما ذُكِر مِن الأنباءِ الموجِبةِ للازْدِجارِ، ونَوعُ تفصيلٍ لها وبيانٍ لعدمِ تأثُّرِهم بها؛ تقريرًا لِفَحوى قولِه تعالى: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾[1] [القمر: ٥].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تبارك وتعالى حالَ المُكَذِّبينَ لِرَسولِه، وأنَّ الآياتِ لا تَنفَعُ فيهم، ولا تُجْدي عليهم شَيئًا؛ أنذَرَهم وخَوَّفَهم بعُقُوباتِ الأُمَمِ الماضيةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٨٠).

المُكَذِّبةِ للرُّسُلِ، وكيف أهلَكَهم اللهُ وأحَلَّ بهم عِقابَه[١]؛ ففيها تهوينٌ وتَسليةٌ لقَلبِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ حالَه كحالِ مَن تقَدَّمَه[٢].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾.

أي: كذَّبَت قبْلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ قَومُ نوحٍ، فكذَّبوا عَبْدَنا نُوحًا حينَ أرسَلْناه إليهم[٣].

﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾.

أي: وقال قومُ نوحٍ عن رَسولِهم نوحٍ عليه السَّلامُ: هو مجنونٌ. وزجَروه بشدَّةٍ وعُنفٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٣، ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٨، ٢٦٩).

قال البِقاعي: (﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي: أعمَلوا أنفُسَهم في انتِهارِه وتوَعُّدِه وتَهديدِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٠٣).

وقال الشوكاني: (وقولُه: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ معطوفٌ على قالوا، أي: وزُجِرَ عن دَعْوَى النُّبُوَّةِ، وعن تَبْليغِ ما أُرْسِل به بأنواعِ الزَّجْرِ...، وقيلَ: إنَّه مَعْطوفٌ على مجنونٍ، أي: وقالوا: إنَّه ازدُجِر، أي: ازْدَجَرَتْه الجِنُّ وذَهَبَتْ بلُبِّه، والأوَّلُ أولَى. قال مُجاهِدٌ: هو مِنْ كلامِ اللهِ سُبحانَه، أخبَرَ عنه بأنَّه انتُهِر وزُجِر بالسَّبِّ وأنواعِ الأذَى. قال الرَّازيُّ: وهذا أصَحُّ؛ لأنَّ المقصودَ تقويةُ قلبِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم بذِكْرِ مَن تَقَدَّمه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٤).

وقال الرَّسْعَني: (﴿وَازْدُجِرَ﴾ قال المفسِّرون: زجَروه عن دعوتِه بالشَّتمِ والوعيدِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥١٦).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾.

أي: فدعا نوحٌ ربَّه قائِلًا: إنَّ قَومي غَلَبوني بتمَرُّدِهم وكُفرِهم، وتَكذيبِهم وتخويفِهم؛ فانتَصِرْ لي منهم[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٥، ٧٦].

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾.

أي: فاستَجَبْنا لنُوحٍ دُعاءَه على قَومِه، ففَتَحْنا أبوابَ السَّماء بماءٍ مُتدَفِّقٍ مُنصَبٍّ بكَثرةٍ وشِدَّةٍ[2].

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٩).

قال ابن جُزَي: (﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ عِبارةٌ عن كثرةِ المطرِ، فكأنَّه يخرُجُ مِن أبوابٍ. وقيل: فُتِحَتْ في السَّماءِ أبوابٌ يومَئذٍ حقيقةً). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٣).

ونسَبَ ابنُ عطيَّةَ القولَ الأوَّلَ لجمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٤).

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾.

أي: وأنبَعْنا الماءَ بقُوَّةٍ وكَثرةٍ مِنَ الأرضِ[١].

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

أي: فالتَقى ماءُ السَّماءِ وماءُ الأرضِ على أمرٍ قد كَتَبه اللهُ تعالى وقَضاه[٢]!

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى ﴿قَدْ قُدِرَ﴾: أنَّه أمرٌ مَكتوبٌ ومُقدَّرٌ مِنَ اللهِ تعالى: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي، واستظهره الشنقيطي، وذهب إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

قال السعدي: (قد كَتَبه اللهُ في الأزَلِ وقَضاه؛ عُقوبةً لهؤلاء الظَّالِمينَ الطَّاغينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

وقيل: المعنى: أنَّ ماءَ السَّماءِ وماءَ الأرضِ قَدَّرَهما اللهُ، فكانا سواءً؛ لم يَزِدْ أحَدُهما على الآخَرِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٢).

وقال البِقاعي: (لَمَّا تقرَّرَت هذه العَظَمةُ لهذه الواقِعةِ، فكان رُبَّما ظُنَّ أنَّه صار جُزافًا، وزاد على الحَدِّ المأمورِ به؛ أشار إلى أنَّه بالنِّسبةِ إلى عَظمتِه في غايةِ الحَقارةِ، فقال: ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ أي: مع كَونِه مَقدورًا عليه في كُلِّ وَقتٍ بغايةِ السُّهولةِ قد وَقَع تَقديرُه في الأزَلِ، فلم يَستَطِعْ أن يَزيدَ على ذلك قَطرةً فما فَوقَها، ولا أن يُهلِكَ غَيرَ مَن أمَرْناه بإهلاكِه، وأشار بالتَّخفيفِ إلى غايةِ السُّهولةِ في ذلك سُبحانَه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٠٥).

وقال ابن عاشور: (وُصِفَ الأمرُ بأنَّه ﴿قَدْ قُدِرَ﴾، أي: أُتقِنَ وأُحكِمَ بمِقدارٍ؛ يُقالُ: قَدَرَه -بالتَّخفيفِ-: إذا ضَبَطَه وعَيَّنَه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٣، ١٨٤).

أي: وحَمَلْنا نُوحًا على سَفينةٍ ذاتِ ألواحٍ مِن خَشَبٍ، وذاتِ مَساميرَ قد رُبِطَت بها تلك الألواحُ(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩].

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٠، ٢٧١).

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرون: ألواحُها: خشباتُها العريضةُ الَّتي منها جُمِعت. وفي الدُّسُرِ أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّها المساميرُ، رواه الوالِبيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال قَتادةُ، والقُرَظيُّ، وابنُ زَيدٍ. وقال الزَّجَّاجُ: الدُّسُرُ: المساميرُ والشُّرُطُ [حبالٌ تُفْتَلُ مِن الخُوصِ] الَّتي تُشَدُّ بها الألواحُ... والثَّاني: أنَّه صَدْرُ السَّفينةِ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يَدْسُرُ الماءَ، أي: يَدفَعُه، رواه العَوفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال الحسَنُ وعِكْرِمةُ...

والثَّالثُ: أنَّ الدُّسُرَ: أضلاعُ السَّفينةِ، قاله مجاهدٌ.

والرَّابعُ: أنَّ الدُّسُرَ: طرَفاها وأصلُها، والألواحُ: جانِباها، قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٨٧، ٨٨).

قال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ ومقاتِلٌ والكلبيُّ وجماعةُ المفسِّرينَ: يعني: المساميرَ والشُّروطَ، وكلَّ ما شُدَّتْ به السَّفينةُ). ((البسيط)) (٢١/ ٩٩، ١٠٠). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٧٩).

قال ابن عثيمين: (﴿وَدُسُرٍ﴾ أي: مساميرَ. وقيل: إنَّ الدُّسُرَ ما تُربَطُ به الأخشابُ، فيكونُ أعَمَّ مِن المساميرِ؛ لأنَّ الأخشابَ قد تُربَطُ بالمساميرِ وقد تُربَطُ بالحبالِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧١).

أي: تجري سَفينةُ نُوحٍ على الماءِ بمَرأًى مِنَّا، وحِفظٍ ورعايةٍ مِنَّا[١].

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

أي: أغرَقْنا قومَ نُوحٍ وأنجَيْناه ومَن معه؛ ثوابًا لنُوحٍ على صَبْرِه على أذى قَومِه، وتَكذيبِهم وكُفْرِهم به[٢].

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٥﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧١).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والقرطبي، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الزمخشري: (جعَلَه مَكفورًا؛ لأنَّ النَّبيَّ نِعمةٌ مِنَ اللهِ تعالى ورَحمةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فكان نوحٌ عليه السَّلامُ نِعمةً مَكفورةً!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٥).

وقال ابن جرير: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي ما قاله مجاهِدٌ، وهو أنَّ معناه: ففتَحْنا أبوابَ السَّماءِ بماءٍ مُنهَمِرٍ، وفجَّرْنا الأرضَ عُيونًا، فغرَّقْنا قَومَ نوحٍ، ونجَّيْنا نوحًا؛ عِقابًا مِن الله وثَوابًا للَّذي جحَدَ وكفَر؛ لأنَّ معنى الكفرِ: الجُحودُ، والَّذي جحَد أُلُوهَتَه ووحدانيَّتَه قومُ نوحٍ).

وأجاز أيضًا المعنى الأوَّلَ المتقدِّمَ ذِكرُه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٧، ١٢٨).

وظاهِرُ عبارةِ ابنِ كثيرٍ الجَمعُ بيْنَ المعنيَين، فقال: (أي: جزاءً لهم على كُفرِهم بالله، وانتِصارًا لنوحٍ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٧).

قال الشوكاني: (﴿كُفِرَ﴾... قيل: هو اللهُ سُبْحانَه؛ فإنَّهم كَفَروا به، وجَحَدوا نِعْمَتَه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَمَّ الخبَرُ عن نجاتِه عليه السَّلامُ بحَمْلِه فيها؛ نَبَّه على آثارِها بقَولِه[1]:

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾.

أي: ولقد تَرَكْنا فَعلَتَنا بقومِ نوحٍ وإهلاكَنا لهم عِبرةً وعِظةً لِمَن بعدَهم ليَنتَهوا عن الكُفرِ باللهِ والتَّكذيبِ برُسُلِه؛ كيلا تكونَ عاقِبتُهم مِثلَ عاقِبةِ قَومِ نُوحٍ، وأبقَيْنا جنسَ السُّفنِ علامةً على رحمةِ الله وعنايتِه بخَلقِه، وكَمالِ قُدرتِه، وبَديعِ صَنعتِه، وعِبرةً على ما جرَى لنوحٍ معَ قومِه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٢).

وممَّن ذهب إلى عَوْدِ الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿تَرَكْنَٰهَآ﴾ إلى سفينةِ نوحٍ عليه السَّلامُ: ابنُ جرير، والرازي، وابن عادل، وابن عاشور، وهو ظاهرُ اختيارِ مقاتِلِ بنِ سُلَيمانَ، وابنِ أبي زَمَنين، ومكِّي، والسَّمْعاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٦)، ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣١٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٩٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٨).

قال ابنُ عاشور: (أي: أبقَيْنا سفينةَ نوحٍ مَحفوظةً مِنَ البِلَى؛ لِتَكونَ آيةً يَشهَدُها الأُمَمُ الَّذين أُرسِلَت إليهم الرُّسُلُ، متى أراد واحِدٌ مِنَ النَّاسِ رُؤيتَها مِمَّن هو بجوارِ مكانِها؛ تأييدًا للرُّسُلِ، وتخويفًا بأوَّلِ عذابٍ عُذِّبَت به أمَّةٌ كَذَّبَت رَسولَها؛ فكانت حُجَّةً دائِمةً، مِثلُ ديارِ ثَمودَ، ثمَّ أخَذَت تتناقَصُ حتَّى بَقِيَ منها أخشابٌ شَهِدَها صَدرُ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ، فلم تضمَحِلَّ حتَّى رآها ناسٌ مِن جميعِ الأُمَمِ بعدَ نوحٍ، فتواتَرَ خبَرُها بالمشاهَدةِ؛ تأييدًا لتواتُرِ الطُّوفانِ بالأخبارِ المتواترةِ. وقد ذَكَرَ القرآنُ أنَّها استقَرَّت على جبَلِ الجُودِيِّ، فمنه نزَلَ نوحٌ ومَن معه، وبَقِيَت السَّفينةُ هنالك لا ينالُها أحدٌ؛ وذلك مِن أسبابِ حِفظِها عن الاضمِحلالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٦). =

= وقيل: المراد: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي: ترَكْنا هذه الفَعْلةَ الَّتي فعَلْنا. وممَّن اختاره: البغويُّ، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٩).

قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ الضَّميرُ في قولِه تعالى: ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾، قال بعضُ العلماءِ: إنَّه عائدٌ إلى هذه الفعلةِ العظيمةِ الَّتي فعَل بقَومِ نوحٍ. والمعنى: ولقد ترَكْنا فَعلَتَنا بقومِ نوحٍ وإهلاكَنا لهم آيةً لِمَن بَعْدَهم؛ لِيَنزَجِروا ويَكُفُّوا عن تكذيبِ الرُّسلِ؛ لئلا نَفعلَ بهم مِثلَ ما فعَلْنا بقَومِ نوحٍ، وكَوْنُ هذه الفَعلةِ آيةً نصَّ عليه تعالى بقولِه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان: ٣٧]، وقولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٩ - ١٢١].

وقال بعضُ العلماءِ: الضَّميرُ في ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾ عائدٌ إلى السَّفينةِ، وكَونُ سفينةِ نوحٍ آيةً بيَّنه اللهُ تعالى في آياتٍ مِن كتابِه؛ كقولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وقولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٧٨).

وقال الزَّجَّاجُ: (قولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: ترَكْنا هذه الفَعْلةَ وأمْرَ سفينةِ نُوحٍ ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامةً؛ لِيُعتبَرَ بها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٨٨).

واستظهر ابنُ كثيرٍ أنَّ المعنى: ترَكْنا جِنسَ السُّفُنِ بيْنَ النَّاسِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٧).

قال ابن تيميَّة: (﴿... وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فأخبَر أنَّه أبقى السُّفُنَ آيةً على قدرةِ الرَّبِّ، وعلى ما جرى لنوحٍ مع قَومِه). ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) (١/ ٤١٤، ٤١٥).

وقال السعدي: (أي: ولقد ترَكْنا قِصَّةَ نوحٍ مع قومِه آيةً يَتذكَّرُ بها المتذَكِّرونَ، على أنَّ مَن عصى الرُّسُلَ وعانَدَهم أهلَكَه اللهُ بعِقابٍ عامٍّ شَديدٍ، أو أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى السَّفينةِ وجِنسِها، وأنَّ أصلَ صَنعتِها تعليمٌ مِن اللهِ لعَبدِه نوحٍ عليه السَّلامُ، ثمَّ أبقى اللهُ تعالى صَنعتَها وجِنسَها بيْنَ النَّاسِ؛ ليَدُلَّ ذلك على رحمتِه بخَلقِه، وعنايتِه وكَمالِ قُدرتِه، وبَديعِ صَنعتِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

وذهب ابنُ عثيمينَ إلى حملِ الآيةِ على كِلا المعنيَينِ اللَّذينِ ذكَرَهما السعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٢).

وقال البِقاعي: (﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي: هذه الفعلةَ العظيمةَ، مِن جريِ السَّفينةِ على هذا الوجهِ، =

كما قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ لِما قد فُعِل بتلك الأُمَّةِ الَّتي كفَرَت برَبِّها، وعَصَت رَسولَه نُوحًا؛ فيتَّعِظَ بذلك ويَعتَبِرَ(١)؟

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦﴾.

أي: فكيف كان عذابي لأولئك الكُفَّارِ مِن قَومِ نُوحٍ؟ وكيف كان إنذاري(٢)؟

= وإبقاءِ نَوعِها دالَّةً على ما لَنا مِن العظَمةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٠)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٧١٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

قال الفرَّاءُ: (النُّذُرُ هاهنا مصدرٌ معناه: فكيفَ كان إنْذاري). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٠٧).

وقال ابنُ قتيبةَ: (﴿وَنُذُرِ﴾ جمعُ نَذيرٍ. ونذيرٌ بمعنى الإنذارِ، أي: فكيفَ كان عذابي وإنْذاري. ومثلُه النَّكيرُ بمعنَى الإنكارِ). ((غريب القرآن)) (ص: ٤٣٢).

وقال الرازي: (أكثرُ المفسِّرينَ على أنَّه [أي: نُذُر] مصدرٌ هاهنا، أي: كيف كان عاقبةُ عذابي، وعاقبةُ إنذاري). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٠).

وقال الواحدي: (المعنى: كيف كان إنذاري إيَّاهم، إذ دعاهم نوحٌ إلى الإيمانِ فلمْ يؤمنوا، =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾.

أي: ولقد سَهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، وحُصولِ الفَهمِ والاتِّعاظِ به(١).

= وفي هذا تخويفٌ للمشركين). ((البسيط)) (٢١/ ١٠٢).

وقال أبو حيَّان: (﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾: تهويلٌ لِمَا حلَّ بقومِ نوحٍ مِن العذابِ، وإعظامٌ له، إذ قد اسْتَأْصَل جميعَهم، وقَطَع دابِرَهم، فلم يَنْسُلْ منهم أحدٌ، أي: كيفَ كان عاقِبةُ إنذاري؟). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥).

وقال ابن جرير: (وكيفَ كان إنذاري بما فعلْتُ بهم مِن العقوبةِ الَّتي أحْلَلْتُ بهم، بكفرِهم برَبِّهم، وتكذيبِهم رسولَه نوحًا عليه السَّلامُ مَن أنذَرْتُه به، وهذا سُنَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ لِمُكَذِّبي رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن قَومِه مِن قُرَيشٍ، وتحذيرٌ منه لهم، أنْ يَحِلَّ بهم على تماديهم في غَيِّهم، مِثلُ الَّذي حلَّ بقومِ نوحٍ مِن العذابِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٠).

وقال السمرقندي: (يعني: كيفَ رأيْتَ عَذابي وإنذاري لِمَن أنذَرَهم الرُّسُلُ فلم يؤمِنوا؟). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

وقال ابن كثير: (أي: كيفَ كان عذابي لِمَن كفَر بي وكذَّب رُسُلي ولم يتَّعِظْ بما جاءتْ به نُذُري؟ وكيفَ انتصرتُ لهم، وأخذْتُ لهم بالثَّأرِ؟). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣).

قال ابن عاشور: (معنى تيسيرِه يَرجِعُ إلى تيسيرِ ما يُرادُ مِن الكلامِ، وهو فَهْمُ السَّامِعِ المعانيَ الَّتي عَناها المتكلِّمُ به بدُونِ كُلْفةٍ على السَّامِعِ ولا إغلاقٍ، وهذا اليُسرُ يَحصُلُ مِن جانبِ الألفاظِ، وجانبِ المعاني.

فأمَّا مِن جانبِ الألفاظِ؛ فذلك بكَونِها في أعلى درَجاتِ فَصاحةِ الكلماتِ، وفصاحةِ التَّراكيبِ -أي: فصاحةِ الكلامِ-، وانتِظامِ مَجموعِها؛ بحيث يخِفُّ حِفظُها على الألسِنةِ.

وأمَّا مِن جانبِ المعاني؛ فبِوُضوحِ انتِزاعِها مِن التَّراكيبِ، ووَفرةِ ما تحتوي عليه التَّراكيبُ منها مِن مَغازي الغرَضِ المَسوقةِ هي له، وبتوَلُّدِ مَعانٍ مِن مَعانٍ أُخَرَ كلَّما كرَّر المتدَبِّرُ تدَبُّرَه في =

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ؛ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما في القُرآنِ الكريمِ[(١)]؟

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ عَبَّرَ هنا بما يُفهِمُ العِلَّةَ؛ لِيَحذَرَ السَّامِعُ وُقوعَ مِثلِ ذلك العَذابِ له إن وَقَع منه مِثلُ فِعلِ قَومِه[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ قوَّةٌ لرَجاءِ أهلِ الدِّينِ إذا لَقُوا في دينِ اللهِ مِحنةً؛ فإنَّ اللهَ يُهلِكُ عن قَريبٍ عَدُوَّهم، ويُمَكِّنُهم مِن ديارِهم وبِلادِهم، ويُورِثُهم ما كان إليهم[(٣)].

= فَهمِها، ووسائلُ ذلك لا يُحيطُ بها الوصفُ... ومِن أهمِّها: إيجازُ اللَّفظِ؛ لِيُسرِعَ تعلُّقُه بالحفظِ. وإجمالُ المَدلولاتِ؛ لِتَذهَبَ نُفوسُ السَّامِعينَ في انتِزاعِ المعاني منها كلَّ مَذهَبٍ يَسمَحُ به اللَّفظُ والغرَضُ والمَقامُ. ومنها: الإطنابُ بالبيانِ إذا كان في المعاني بعضُ الدِّقَّةِ والخَفاءِ. ويتأتَّى ذلك بتأليفِ نظمِ القرآنِ بلُغةٍ هي أفصَحُ لُغاتِ البشَرِ، وأسمَحُ ألفاظًا وتراكيبَ بوَفرةِ المعاني، وبكَوْنِ تراكيبِه أقْصى ما تَسمَحُ به تلك اللُّغةُ، فهو خِيارٌ مِن خيارٍ مِن خيارٍ، قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٨، ١٨٩).

وقال السعدي: (ولقد يسَّرْنا وسهَّلْنا هذا القرآنَ الكريمَ -ألفاظَه للحفظِ والأداءِ، ومعانيَه للفَهمِ والعِلمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٩٧).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ هذا التَّيسيرُ يُنبِئُ بعِنايةِ اللهِ تعالى بالقُرآنِ، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] تَبصِرةً للمُسلِمينَ؛ لِيَزدادوا إقبالًا على مُدارستِه، وتَعريضًا بالمُشرِكينَ عسى أن يَرعَوُوا عن صُدودِهم عنه[١].

٤- مَن تدَبَّر القُرآنَ الكريمَ جاعِلًا إيَّاه دليلًا على الحَقِّ فإنَّه لا بُدَّ أن يهتدِيَ للحَقِّ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، وتيسيرُه شامِلٌ لتيسيرِ لَفظِه ومعناه، والعَمَلِ به، لكِنْ يحتاجُ إلى تذَكُّرٍ[٢].

٥- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ كُلُّ مَن أقبَلَ على القُرآنِ يَسَّرَ اللهُ عليه مَطلوبَه غايةَ التَّيسيرِ، وسَهَّلَه عليه، فعِلْمُ القُرآنِ حِفظًا وتَفسيرًا أسهَلُ العُلومِ، وأجَلُّها على الإطلاقِ، وهو العِلمُ النَّافِعُ الَّذي إذا طَلَبَه العَبدُ أُعِينَ عليه. قال بَعضُ السَّلَفِ عِندَ هذه الآيةِ: «هل مِن طالِبِ عِلمٍ فيُعانَ عليه؟»؛ ولهذا يدعو اللهُ تعالى عِبادَه إلى الإقبالِ عليه والتَّذَكُّرِ، بقَولِه: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٣]. أفلا يَليقُ بنا -وقد سهَّل اللهُ القُرآنَ للذِّكْرِ- أن نتَّعِظَ ونتذكَّرَ؟ بلى، هذا هو اللَّائِقُ[٤]!

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- كلمةُ (قَومٍ) تُذكَّرُ وتؤنَّثُ؛ لأنَّ أسماءَ الجُموعِ الَّتي لا واحدَ لها مِن لفظِها إذا كانت للآدَميِّينَ تُذكَّرُ وتؤنَّثُ، مِثل رهْطٍ ونفَرٍ، قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ [الأنعام: ٦٦] فذكَّرَ، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الشعراء: ١٠٥] وقال:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣).

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ فأنَّث. وقيل: القَومُ مؤنَّثٌ مجازيُّ التَّأنيثِ، ويُصغَّرُ: قُوَيْمَةٌ، ويُذَكَّرُ؛ لأنَّ مَدلولَه أفرادٌ ذكورٌ عُقلاءُ. وقيل: (قَومٌ) مُذَكَّرٌ، وأُنِّثَ لأنَّه في معنى الأمَّةِ والجماعةِ، فتَأْنيثُ (قَومٍ) باعتبارِ معناه، وتذكيرُه باعتبارِ لفظِه[1]. وقيل: أنَّث سبحانَه فِعلَهم فقال: ﴿كَذَّبَتۡ﴾؛ تحقيرًا لهم، وتهوينًا لأمرِهم في جنبِ قدرتِه[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ وهو نُوحٌ عليه السَّلامُ، وَصَفَه اللهُ تعالى بالعُبوديَّةِ؛ لأنَّ العُبوديَّةَ أشرَفُ ألقابِ البَشَرِ، وهي التَّذَلُّلُ للهِ بالطَّاعةِ والإنابةِ والتَّوكُّلِ، وغيرِ ذلك[3]. وهي أدلُّ على صِدقِه، وقُبحِ تكذيبِهم مِن قولِه: «رسولنا» لو قاله؛ لأنَّ العبدَ أقلُّ تحريفًا لكلامِ السَّيِّدِ مِن الرَّسولِ، فيكونُ كقولِه تبارك وتعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾[4] [الحاقة: ٤٤ - ٤٦].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾ سُؤالٌ عن وَجهِ قَولِ ذلك، مع أنَّه قد يُتوهَّمُ أنَّه لو قيل: «كَذَّبوا عَبْدَنا وزَجَروه» كان الكلامُ أكثَرَ مُناسَبةً!

الجوابُ: أنَّ المقصودَ تَقويةُ قَلبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ مَن تقَدَّمَه، فقال: ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ أي: فَعَلوا ما يُوجِبُ الانزِجارَ مِن دُعائِهم، حتَّى تَرَكَ دَعوتَهم، وعَدَل عن الدُّعاءِ إلى الإيمانِ إلى الدُّعاءِ عليهم! ولو قال: «زَجَروه» ما كان يفيدُ أنَّه تأذَّى منهم؛ لأنَّ في السَّعةِ يُقالُ: «آذَوني ولكِنْ ما تأذَّيتُ»، وأمَّا «أُوذيتُ» فهو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨٧)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٤).

كاللَّازمِ، لا يُقالُ إلَّا عندَ حُصولِ الفِعلِ لا قَبْلَه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أنَّ للسَّماءِ أبوابًا تُفتَحُ وتُغلَقُ[٢]. على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أنَّه سُبحانَه قال في السَّماءِ: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾؛ لأنَّ السَّماءَ ذاتُ الرَّجْعِ، وما لَها فُطورٌ، ولم يقُلْ: «وشَقَقْنا السَّماءَ». وقال في الأرضِ: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ ﴾؛ لأنَّها ذاتُ الصَّدْعِ[٣].

٦- قال تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ كأنَّ الأرضَ كلَّها كانت عُيونًا مُتفَجِّرةً، وفي هذا مِن الدَّلالةِ على قُدرةِ اللهِ تبارك وتعالى ما لا يَخفى، وأنَّ هذه الفَيَضاناتِ الَّتي تَحدُثُ إنَّما تَحدُثُ بأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وليست كما قال الطَّبيعيُّونَ: إنَّها مِن الطَّبيعةِ! يقولون: هاجتِ الطَّبيعةُ! غَضِبَتِ الطَّبيعةُ! وما أشْبَهَ ذلك. نسألُ اللهَ العافيةَ. بل هي بأمرِ مَن يَقولُ للشَّيءِ: كُنْ؛ فيَكونُ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ معنًى لطيفٌ، وذلك أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ذكَرَ الماءَ وذكَرَ الانهمارَ -وهو النُّزولُ بقُوَّةٍ-، فلمَّا قال: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ كان مِن الحَسَنِ البَديعِ أن يقولَ ما يُفيدُ أنَّ الماءَ نَبَع منها بقُوَّةٍ، فقال: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي: مِن العَينِ فار الماءُ بقُوَّةٍ حتَّى ارتفَعَ والتقى بماءِ السَّماءِ، ولو جرى جَريًا ضَعيفًا لَما كان هو يلتقي مع ماءِ السَّماءِ، بل كان ماءُ السَّماءِ يَرِدُ عليه ويتَّصِلُ به، ولعَلَّ المرادَ مِن قَولِه: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠]

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٠).

مِثلُ هذا[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَرِيَّةِ بلَفظِ «القَدَرِ»[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ أنَّه سُبحانَه له عَينان -بلا كَيْف-[٣]، يَنظُرُ بهما حقيقةً على الوَجهِ اللَّائقِ به، وهما مِن الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ الثَّابتةِ بالكِتابِ والسُّنَّةِ[٤].

١٠- صفةُ العينَينِ ثابِتةٌ للهِ تعالى، فكيف الجَمعُ بيْنَ المُثنَّى وصيغةِ الجَمعِ في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقَولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾؟

الجوابُ: الجَمعُ بيْنَهما سَهلٌ، هو نظيرُ الجَمعِ بيْنَ اليدَينِ الواردِ مَجيؤُهما بصيغةِ التَّثنيةِ وبصيغةِ الجَمعِ؛ فإمَّا أنْ يُرادَ بالجَمعِ ما دونَ الثَّلاثةِ؛ لأنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ قد جاءتْ بالجمعِ مرادًا به ما دونَ الثَّلاثةِ، فيكونَ قولُه: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ كقَولِه: «بعَينَينا»؛ لأنَّ أقلَّ الجَمعِ اثنانِ، وإمَّا أنْ يقالَ: أقلُّ الجَمعِ ثلاثةٌ -كما هو الأكثرُ- ولكنَّ الجمعَ هنا لا يُرادُ به مَدلولُه التَّعدُّديُّ، وإنَّما يُرادُ به مَدلولُه المعنويُّ، وهو التَّعظيمُ، فيكونَ اللهُ عزَّ وجلَّ جَمَعَ العينَينِ، فقال: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾؛ تعظيمًا لهما، وأيضًا يُضافُ إلى التَّعظيمِ المناسَبةُ؛ لأنَّ «نا» دالَّةٌ على الجَمعِ في أصلِ الوَضعِ؛ فناسَبَ أنْ يكونَ المضافُ إليها مَجموعًا للتَّعظيمِ، كما هي في قَولِه تعالى: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ للتَّعظيمِ؛ فيَتناسَبُ هنا المضافُ والمضافُ إليه، وهذه المناسَبةُ لفظيَّةٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((الإبانة)) للأشعري (ص: ٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٥٨).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢٧٠).

١١- قال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ ظاهرُ الكلامِ أنَّ السَّفينةَ تجري وعينُ اللهِ تَرعاها وتَكلؤُها، وهذا معنى قولِ بعضِ السَّلفِ: «بمرأًى منِّي»؛ فإنَّ اللهَ تعالى إذا كان يَكلؤُهم بعَينِه لَزِمَ مِن ذلك أنْ يَراهم، ولازِمُ المعنى الصَّحيحِ جزءٌ منه، كما هو معلومٌ مِن دَلالةِ اللَّفظِ، حيثُ تكونُ بالمُطابَقةِ، والتَّضَمُّنِ، والالتزامِ، ولا يُقالُ: إنَّ ظاهرَ الكلامِ وحقيقتَه أنَّ السَّفينةَ تجري في عينِ اللهِ! فهذا قول باطلٌ مِن وَجهينِ:

الأوَّلُ: أنَّه لا يقتضيه الكلامُ بمقتضى الخِطابِ العربيِّ، والقرآنُ الكريمُ إنَّما نَزَلَ بلُغةِ العربِ، ولا أحدَ يَفهمُ مِن قولِ القائلِ: فلانٌ يسيرُ بعَيني: أنَّ المعنى أنَّه يسيرُ داخلَ عيْنِه!

الثَّاني: أنَّ هذا ممتنعٌ غايةَ الامتِناعِ، ولا يمكنُ لِمَن عَرَفَ اللهَ وقَدَرَه حقَّ قدْرِه أنْ يَفْهَمَه في حقِّ اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى مُستَوٍ على عرْشِه، بائِنٌ مِن خلْقِه، لا يَحُلُّ فيه شيءٌ مِن مخلوقاتِه، ولا هو حالٌّ في شيءٍ مِن مخلوقاتِه، سُبحانَه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا. فإذا تبيَّنَ بُطلانُ هذا القولِ مِن النَّاحيةِ اللَّفظيَّةِ والمعنويَّةِ، تَعَيَّنَ أنْ يكونَ ظاهرُ الكلامِ أنَّ السَّفينةَ تجري وعينُ اللهِ تَرعاها وتَكلؤُها[1].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أنَّه سُبحانَه يَسَّرَ قِراءتَه على ألسِنةِ النَّاسِ، ويَسَّر عِلْمَه على قُلوبِ قَومٍ، ويَسَّر فَهْمَه على قُلوبِ قَومٍ، ويَسَّر حِفظَه على قُلوبِ قَومٍ، وكُلُّهم أهلُ القُرآنِ، وكُلُّهم أهلُ اللهِ تعالى وخاصَّتُه[2]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أنَّ اللهَ تعالى أبقَى آياتٍ -وهي: العلاماتُ والدَّلالاتُ-؛ فدلَّ ذلك على أنَّ ما يَخُصُّه مِن أخبارِ المؤمنينَ

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٨).

وحُسْنِ عاقبتِهم في الدُّنيا، وأخبارِ الكُفَّارِ وسوءِ عاقبتِهم في الدُّنيا: هو مِن بابِ الآياتِ والدَّلالاتِ الَّتي يُستدَلُّ بها، ويُعتبَرُ بها عِلمًا ووَعظًا؛ فيُفيدُ مَعرِفةَ صِحَّةِ ما أخبَرَتْ به الرُّسُلُ، ويفيدُ التَّرغيبَ والتَّرهيبَ، ويدُلُّ ذلك على أنَّ اللهَ تعالى يَرضَى عن أهلِ طاعتِه ويُكرِمُهم، ويَغضَبُ على أهلِ مَعصيتِه ويُعاقِبُهم[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أنَّ السُّفُنَ بعدَ نوحٍ مَتروكةٌ إلى القيامةِ آيةً للوَرَى[٢]، على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ دليلٌ على أنَّ الذِّكْرَ مُلتمَسٌ منه، وطالبَه مُعانٌ عليه[٣].

١٦- بيْنَ قولِه: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وقولِه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فرْقٌ دَقيقٌ؛ فالادِّكارُ الأوَّلُ: ادِّكارُ اعتِبارٍ عن مُشاهَدةِ آثارِ الأُمَّةِ البائدةِ، والادِّكارُ الثَّاني: ادِّكارٌ عن سَماعِ مَواعظِ القرآنِ البالغةِ، وفَهْمِ مَعانيه، والاهتِداءِ به[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤]؛ فإنَّ مِن أشهَرِها تَكذيبَ قَومِ نوحٍ رَسولَهم، وسبَقَ الإنباءُ به في القرآنِ في السُّوَرِ النَّازلةِ قبْلَ هذه السُّورةِ. وهو خَبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّذكيرِ، وليُفرَّعَ عليه ما بعْدَه، فالمَقصودُ النَّعيُ عليهم عدَمَ ازدجارِهم بما جاءَهُم مِن الأنْباءِ بتَعدادِ بَعضِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٠).

المُهِمِّ مِن تلك الأنباءِ[١].

- وفائدةُ ذِكرِ الظَّرْفِ ﴿قَبْلَهُمْ﴾ تَقريرُ تَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: إنَّ هذه شِنْشِنةُ -أي: عادةُ وطَبيعةُ- أهلِ الضَّلالِ، معَ ما في ذلك مِن التَّعريضِ بأنَّ هؤلاء مُعرِضون[٢]. وكذلك في ذِكرِ الظَّرفِ مِن غيرِ حرْفِ جَرٍّ؛ لأنَّه أعظَمُ في التَّسليةِ[٣].

- قيل: عُرِّفَ قومُ نُوحٍ بالإضافةِ إلى اسْمِه؛ إذ لم يَكُنْ للأُمَّةِ في زمَنِ نُوحٍ عليه السَّلامُ اسمٌ يُعرَفون به[٤].

- وأُسنِدَ التَّكذيبُ إلى جَميعِ القَومِ؛ لأنَّ الَّذين صدَّقوه عدَدٌ قليلٌ؛ فإنَّه ما آمَنَ به إلَّا قَليلٌ[٥].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا﴾ لتَفريعِ الإخبارِ بتَفصيلِ تَكذيبِهم إيَّاهُ بأنَّهم قالوا: ﴿مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾، على الإخبارِ بأنَّهم كذَّبوه على الإجمالِ، وإنَّما جِيءَ بهذا الأُسلوبِ؛ لأنَّه لَمَّا كان المَقصودُ مِن الخبَرِ الأوَّلِ تَسليةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فُرِّعَ عليه الإخبارُ بحُصولِ المُشابَهةِ بيْن تَكذيبِ قَومِ نُوحٍ رَسولَهم وتَكذيبِ المُشرِكين محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ في أنَّه تَكذيبٌ لِمَن أرسَلَه اللهُ واصطفاهُ بالعُبوديَّةِ الخاصَّةِ، وفي أنَّه تَكذيبٌ مَشوبٌ ببُهتانٍ؛ إذ قال كِلا الفريقَينِ لرَسولِه: مَجنونٌ، ومَشوبٌ ببَذاءةٍ؛ إذ آذَى كِلا الفريقينِ رَسولَهم وازدَجَروه؛ فمَحلُّ التَّفريعِ هو وصْفُ نُوحٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعُبوديَّةِ اللهِ تَكْريمًا له، والإخبارُ عن قَومِه بأنَّهم افترَوا عليه وَصْفَه بالجُنونِ، واعتَدَوا عليه بالأذَى والازدِجارِ، فأصْلُ تَركيبِ الكلامِ: كذَّبَت قبْلَهم قومُ نُوحٍ فقالوا: مَجنونٌ، وازْدُجِرَ. ولَمَّا أُرِيدَ الإيماءُ إلى تَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ابتِداءً جُعِلَ ما بعْدَ التَّسليةِ مُفرَّعًا بفاءِ التَّفريعِ؛ ليَظهَرَ قصْدُ استِقلالِ ما قبْلَه، ولولا ذلك لَكان الكلامُ غَنيًّا عن الفاءِ؛ إذ كان يقولُ: كذَّبَت قومُ نوحٍ عبْدَنا.

ويَجوزُ أنْ يكونَ فِعلُ ﴿كَذَّبَتۡ﴾ مُستعمَلًا في معْنى أنَّهم اعتَقَدوا كذِبَه، فتَفريعُ ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ عليه تَفريعُ تَصريحِهم بتَكذيبِه على اعتقادِهم كذِبَه؛ فيَكونَ فِعلُ ﴿فَكَذَّبُواْ﴾ مُستعمَلًا في معْنًى غيرِ الَّذي استُعْمِلَ فيه فِعلُ ﴿كَذَّبَتۡ﴾، والتَّفريعُ ظاهرٌ على هذا الوجْهِ[1].

أو يكونُ في إعادةِ التَّكذيبِ -في قولِه: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ بعْدَ قولِه: ﴿كَذَّبَتۡ﴾- فائدةُ حِكايةِ الواقعِ؛ وهو أنَّهم كذَّبوا تَكذيبًا بعْدَ تَكذيبٍ، كلَّما مَضى منهم قَرْنٌ مُكذِّبٌ تَبِعَه قرْنٌ مُكذِّبٌ. وفيه مَزيدةُ تَقريرٍ وتَحقيقٍ للتَّكذيبِ. أو لإفادةِ تَوكيدِ التَّكذيبِ، أي: هو تَكذيبٌ قوِيٌّ.

أو المعْنى: كذَّبت قَومُ نوحٍ الرُّسلَ فكذَّبوا عبْدَنا، أي: لَمَّا كانوا مُكذِّبين بالرُّسلِ جاحِدين للنُّبوَّةِ رأْسًا، كذَّبوا نوحًا؛ لأنَّه مِن جُملةِ الرُّسلِ.

أو الأوَّلُ تَكذيبُهم بالتَّوحيدِ، والثَّاني بالرِّسالةِ.

أو الأوَّلُ تَكذيبُهم باللهِ، والثَّاني برَسولِه نُوحٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٠).

- وفي ذِكرِ نُوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعُنوانِ العُبوديَّةِ، مع الإضافةِ إلى نُونِ العظَمةِ، تَفخيمٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ورفْعٌ لمَحلِّه، وزِيادةُ تَشنيعٍ لمُكذِّبيهِ(١).

- وصِيغةُ الافتعالِ في لَفظِ ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ للمُبالَغةِ(٢).

- ونُكتةُ بِناءِ الفِعلِ ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ للمَجهولِ هنا التَّوصُّلُ إلى حذْفِ ما يُسنَدُ إليه فِعلُ الازدجارِ المَبْنيُّ للفاعلِ، وهو ضَميرُ ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾، فعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (وازدَجَروه) إلى قولِه: ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾؛ مُحاشاةً للدَّالِّ على ذاتِ نُوحٍ -وهو ضَميرٌ- مِن أنْ يقَعَ مَفعولًا لضَميرِهم(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ تَفريعٌ على ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ [القمر: ٩] وما تَفرَّعَ عليه(٤).

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿فَٱنتَصِرۡ﴾؛ للإيجازِ، وللرَّعْيِ على الفاصلةِ، والتَّقديرُ: فانتصِرْ لي، أي: انصُرْني(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ مُفرَّعٌ على جُملةِ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ [القمر: ١٠]، ففُهِمَ مِن التَّفريعِ أنَّ اللهَ استجابَ دَعوتَه، وأنَّ إرسالَ هذه المياهِ عِقابٌ لقَومِ نُوحٍ. وحاصِلُ المعْنى: فأرْسَلْنا عليهم الطُّوفانَ بهذه الكيفيَّةِ المُحكَمةِ السَّريعةِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٢).

- قولُه: ﴿ فَفَتَحْنَآ ﴾ قُرِئَ ﴿فَفَتَّحْنَا﴾ بالتَّشديدِ[١] على المُبالَغةِ، أو لكَثرةِ الأبوابِ[٢].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ للتَّعديةِ على المُبالَغةِ؛ حيث جُعِلَ الماءُ كأنَّه آلةٌ يُفتَحُ بها، كما تقولُ: فتَحْتُ البابَ بالمِفتاحِ، وكأنَّ الماءَ جاءَ وفتَحَ البابَ، فجُعِلَ المَقصودُ -وهو الماءُ- مُقدَّمًا في الوجودِ على فتْحِ البابِ المُغلَقِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الباءُ للحالِ، أي: مُلْتبِسةً بماءٍ مُنهمِرٍ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أبلَغُ مِن قولِك: وفجَّرْنا عُيونَ الأرضِ؛ جُعِلَت الأرضُ مِن كَثرةِ عُيونِها كأنَّها عَينٌ تَتفجَّرُ، وفي هذا إجمالٌ جِيءَ مِن أجْلِه بالتَّمييزِ له بقَولِه: ﴿عُيُونًا﴾ لبَيانِ هذه النِّسبةِ، والمعْنى: وفجَّرْنا عُيونَ الأرضِ، ونُكتةُ ذلك: إفادةُ شُمولِ العُيونِ الأرضَ[٤].

- قولُه: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾، أي: ماءُ السَّماءِ وماءُ الأرضِ، والإفرادُ لتحقيقِ أنَّ الْتِقاءَ الماءَينِ لم يكُنْ بطَريقِ المُجاوَرةِ والتَّقارُبِ، بلْ بطَريقِ الاختلاطِ والاتِّحادِ[٥]. .....

(١) قرأ بها أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ، وقرأ الباقون بالتَّخفيفِ. يُنظر: ((المبسوط في القراءات العشر)) لابن مهران (ص: ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩).

أو أراد به جِنسَ الماءِ، ووحَّده مُوافقةً لقولِه قبْلُ: ﴿بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾[١] [القمر: ١١].

- وإنَّما قيل: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ والالتقاءُ لا يكونُ مِن واحدٍ، وإنَّما يكونُ مِنِ اثنينِ فصاعدًا؛ لأنَّ الماءَ قد يكونُ جمْعًا وواحدًا، وأُرِيدَ به في هذا الموضعِ: مِياهُ السَّماءِ ومياهُ الأرضِ، فخرَجَ بلَفظِ الواحدِ ومعْناهُ الجمْعُ[٢].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡمَآءُ﴾ للجنسِ، وعُلِمَ مِن إسنادِ الالتقاءِ أنَّهما نَوعانِ مِن الماءِ: ماءُ المطَرِ، وماءُ العُيونِ[٣].

- ويَجوزُ أنْ تكونَ (على) بمعْنى (في)، ويَجوزُ أنْ تكونَ (على) للاستِعلاءِ، أي: مُلابِسًا لأمْرٍ قد قُدِرَ ومُتمكِّنًا منه، ومعْنى التَّمكُّنِ: شِدَّةُ المُطابَقةِ لِما قُدِرَ، وأنَّه لم يَحِدْ عنه قِيدَ شَعْرةٍ[٤].

- والجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ﴾ مُتعلِّقانِ بـ (الْتَقَى)، وأفادتْ (على) معْنى التَّعليلِ، والمعْنى: اجتَمَعَ مِن أجْلِ إغراقِهم المَقْضِيِّ أزَلًا[٥].

- والأمْرُ: الحالُ والشَّأنُ، وتَنوينُه للتَّعظيمِ[٦].

- واكْتُفِيَ بهذا الخبَرِ عن بَقيَّةِ المعْنى -وهو طُغيانُ الطُّوفانِ عليهم- اكتِفاءً بما أفادَه تَفريعُ ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [القمر: ١١]، انتقالًا إلى وَصْفِ إنجاءِ نُوحٍ مِن ذلك الكرْبِ العظيمِ، فجُملةُ ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ﴾ [القمر: ١٣] مَعطوفةٌ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٣).

على التَّفريعِ عطْفَ احتِراسٍ، والمعْنى: فأغْرَقْناهم ونَجَّيْناهُ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾

- عُدِّيَ فِعلُ (حمَلْنا) إلى ضَميرِ نُوحٍ دونَ مَن معَه مِن قَومِه؛ لأنَّ هذا الحَمْلَ كان إجابةً لدعوتِه ولنَصْرِه، فهو المَقصودُ الأوَّلُ مِن هذا الحَمْلِ، وهو المَقصودُ بالإنجاءِ، وقدْ أشارَ إلى ذلك قَولُه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [الأعراف: ٧٢]، وقَولُه: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، ونحْوُه مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على أنَّه المَقصودُ بالإنجاءِ، وأنَّ نَجاةَ قَومِه بمَعيَّتِه، وحسْبُك قولُه في تَذييلِ هذه الآيةِ: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾؛ فإنَّ الَّذي ﴿كَانَ كُفِرَ﴾ هو نوحٌ؛ كفَرَ به قَومُه[٢].

- وحرْفُ (على) للاستِعلاءِ الَّذي يُفيدُ التَّمكُّنَ مِن الرُّكوبِ، وإلَّا فإنَّ استِقرارَه في السَّفينةِ كائنٌ في جَوفِها[٣].

- وقولُه: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ صِفةُ السَّفينةِ، أُقِيمَت مُقامَ المَوصوفِ هنا عِوَضًا عن أنْ يُقالَ: وحمَلْناه على الفُلْكِ؛ لأنَّ في هذه الصِّفةِ بَيانَ مَتانةِ هذه السَّفينةِ وإحكامِ صُنْعِها، وفي ذلك إظهارٌ لعِنايةِ اللهِ بنَجاةِ نُوحٍ ومَن معَه، وعادةُ البُلغاءِ إذا احتاجوا لذِكرِ صِفةٍ بشَيءٍ، وكان ذِكْرُها دالًّا على مَوصوفِها؛ أنْ يَستغْنُوا عن ذِكرِ الموصوفِ إيجازًا[٤].

وأيضًا مُراعاةً للآياتِ وفَواصِلِها، فلو قال: حمَلْنا على فُلْكٍ أو على سَفينةٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٩).

لم تتناسَبْ هذه الآيةُ مع ما بَعْدَها ولا ما قَبْلَها، وأيضًا مِن أجْلِ أنْ يَتَعَلَّمَ النَّاسُ كيف يَصنَعونَ السُّفُنَ، وبيانِ أنَّها مِن الألواحِ والمساميرِ[١].

وقيل: حَذَف المَوصوفَ وأقامَ الصِّفةَ مقامَه؛ إشارةً إلى أنَّها كانت مِن ألواحٍ مُرَكَّبةٍ مُوثَقةٍ بدُسُرٍ، وكان انفِكاكُها في غايةِ السُّهولةِ ولم يَقَعْ؛ فهو بفَضلِ اللهِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾

- ﴿جَزَآءً﴾ مَفعولٌ لأجْلِه لـ(فتَحْنا) وما عُطِفَ عليه، أي: فَعَلْنا ذلك كلَّه جَزاءً لنُوحٍ. والمَقصودُ بقَولِه: ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ هو نوحٌ؛ فإنَّ قَومَه كَفَروا به، أي: لم يُؤمِنوا بأنَّه رسولٌ، وكان كُفْرُهم به مُنذُ جاءَهُم بالرِّسالةِ؛ فلذلك أُقحِمَ هنا فِعلُ (كان)، أي: لِمَن كُفِرَ منذُ زمانٍ مَضى[٣].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿كُفِرَ﴾؛ لدَلالةِ الكَلامِ عليه، وتَقديرُه: كُفِرَ به. أو لأنَّه نصَحَ لهم ولقِيَ في ذلك أشَدَّ العَناءِ، فلم يَشكُروا له، بل كَفَروه، فهو مَكفورٌ[٤].

- وفي قوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ مناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال في سورةِ (طه): ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] بحرفِ «على»، وقال تعالى هنا في سورةِ (القمرِ): ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ وفي سورةِ (هودٍ): ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧] بحرفِ الباءِ؛ أمَّا في سورةِ (طه) فقد ورَدتْ في إظهارِ أمرٍ كان خفيًّا، وإبداءِ ما كان مكتومًا؛ فإنَّ الأطفالَ إذ ذاك كانوا يُغْذَونَ ويُصنعونَ سِرًّا؛ فلَمَّا أراد أنْ يُصْنَعَ موسى عليه السَّلامُ ويُغْذَى ويُرَبَّى على حالِ أَمْنٍ وظهورٍ -لا

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٥).

تحتَ خَوفٍ واستِسْرارٍ- دخلتْ «على» في اللَّفظِ؛ تنبيهًا على المعنى؛ لأنَّها تُعطي الاستِعلاءَ، والاستِعلاءُ: ظهورٌ وإبداءٌ، فكأنَّه يقولُ سُبحانَه وتعالى: «ولِتُصْنَعَ على أَمْنٍ؛ لا تحتَ خَوفٍ!»، وذَكَر العينَ لِتَضَمُّنِها معنى الرِّعايةِ والكِلاءةِ، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وقولُه سُبحانَه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧] فإنَّه إنَّما يريدُ: «برعايةٍ مِنَّا وحِفْظٍ»، ولا يريدُ إبداءَ شيءٍ، ولا إظهارَه بعدَ كَتْمٍ! فلمْ يُحْتَجْ في الكلامِ إلى معنى «على»، بخِلافِ ما تقَدَّم[1].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾

- التَّركُ كِنايةٌ عن الإبقاءِ، وعدَمِ الإزالةِ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾، وقال في (العنكبوتِ): ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ [العنكبوت: ١٥]، وهُما وإنْ كانَا في المعْنى واحدًا، لكنَّ لَفظَ التَّركِ يَدلُّ على الجَعلِ والفراغِ بالأيَّامِ؛ فكأنَّها هنا مَذكورةٌ بالتَّفصيلِ، حيث بيَّنَ الإمطارَ مِن السَّماءِ، وتَفجيرَ الأرضِ، وذَكَر السَّفينةَ بقولِه: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾، وذَكَر جَرْيَها فقال: ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾؛ إشارةً إلى تَمامِ الفعلِ المقدورِ، وقال هناك: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾؛ إشارةً إلى بَعضِ ذلك. فإنْ قِيل: إنْ كان الأمرُ كذلك؛ فكيف قال هاهنا: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ ولم يقُلْ: «وأصحابَه»، وقال هناك: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]؟

فالجوابُ: أنَّ النَّجاةَ هاهنا مَذكورةٌ على وجْهٍ أبلَغَ ممَّا ذَكَره هناك؛ لأنَّه قال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: حِفْظِنا، وحِفظُ السَّفينةِ حِفظٌ لأصحابِه، وحِفظٌ لأموالِهم

(١) يُنظر: ((نتائج الفكر)) للسهيلي (ص: ٢٣٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٦).

ودَوابِّهم والحيواناتِ الَّتي معَهم؛ فقولُه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ لا يَلزَمُ منه إنجاءُ الأموالِ إلَّا ببَيانٍ آخَرَ، والحِكايةُ في سُورةِ (هُودٍ) أشدُّ تَفصيلًا وأتمُّ؛ فلهذا قال: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠]، يَعني: المَحمول، ثمَّ قال تَعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] تَصريحًا بخَلاصِ السَّفينةِ، وإشارةً إلى خَلاصِ كلِّ مَن فيها[١]. وفيه وجهٌ آخَرُ، وهو أنَّه إنَّما قالَ هنا: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾، وقال في سُورةِ (العنْكبوتِ): ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]؛ لأنَّ ذِكرَها في سُورةِ (القمَرِ) ورَدَ بعْدَ ذِكرِ كَيفيَّةِ صُنْعِها، وحُدوثِ الطُّوفانِ، وحمْلِ نُوحٍ في السَّفينةِ، فأخبرَ بأنَّها أُبْقِيَت بعْدَ تلك الأحوالِ، فالآيةُ في بَقائِها، وفي سُورةِ (العنْكبوتِ) ورَدَ ذِكرُ السَّفينةِ ابتداءً، فأخبرَ بأنَّ اللهَ جعَلَها آيةً؛ إذ أَوحى إلى نُوحٍ بصُنْعِها، فالآيةُ في إيجادِها، وهو المُعبَّرُ عنه بـ (جَعَلْنَاهَا)[٢].

- قولُه: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، فُرِّعَ على إبقاءِ السَّفينةِ آيةً استِفهامٌ عمَّن يَتذكَّرُ بتلك الآيةِ، وهو استفهامٌ مُستعمَلٌ في معْنى التَّحضيضِ على التَّذكُّرِ بهذه الآيةِ واستِقْصاءِ خَبَرِها، والتَّحضيضُ مُوجَّهٌ إلى جَميعِ مَن تَبلُغُه هذه الآياتُ. و(مِن) صِلةٌ؛ للدَّلالةِ على عُمومِ الجِنسِ في الإثباتِ[٣].

٨- قولُه تعالَى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ تَفريعٌ على القصَّةِ بما تَضمَّنَتْه مِن قولِه: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [القمر: ١١] إلى آخِرِه[٤].

- و(كيف) للاستِفهامِ عن حالةِ العذابِ، وهو عَذابُ قَومِ نُوحٍ بالطُّوفانِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٦، ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٧).

والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعظيمِ والتَّعجيبِ مِن شِدَّةِ هذا العذابِ المَوصوفِ، أي: كان على كيفيَّةٍ هائلةٍ لا يُحيطُ بها الوصْفُ[١].

- والجُملةُ في معْنى التَّذييلِ، وهو تَعريضٌ بتَهديدِ المُشرِكين أنْ يُصيبَهم عَذابٌ جَزاءَ تَكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وإعراضِهم وأذاهُم كما أصابَ قومَ نُوحٍ عليه السَّلامُ[٢].

- وحُذِفَ ياءُ المُتكلِّمِ مِن ﴿وَنُذُرِ﴾، وأصْلُه: (نُذُري)، وحذْفُها في الكلامِ في الوقْفِ فَصيحٌ، وكثُرَ في القرآنِ عندَ الفواصلِ[٣].

- والنُّذُرُ: جمْعُ نَذيرٍ -على قولٍ- الَّذي هو اسمُ مَصدرِ (أنْذَرَ)، كالنِّذارةِ، وإنَّما جُمِعَت لتَكرُّرِ النِّذارةِ مِن الرَّسولِ لقَومِه؛ طلَبًا لإيمانِهم[٤].

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، لَمَّا كانتْ هذه النِّذارةُ بُلِّغَت بالقرآنِ، والمُشرِكون مُعرِضون عن استِماعِه، حارِمينَ أنفُسَهم مِن فَوائدِه؛ ذُيِّل خبَرُها بتَنويهِ شأْنِ القرآنِ بأنَّه مِن عِندِ اللهِ، وأنَّ اللهَ يسَّرَه وسهَّلَه لتَذكُّرِ الخلْقِ بما يَحتاجونَه مِن التَّذكيرِ ممَّا هو هدًى وإرشادٌ، وفيه تَعريضٌ بالمُشرِكينَ، كما أنبَأَ عنه قولُه: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٥].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إلخ، جُملةٌ قَسَميَّةٌ ورَدَتْ في أواخِرِ القصصِ الأربَعِ؛ تَقريرًا لِمَضمونِ ما سبَقَ مِن قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٧، ١٨٨).

جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤، ٥]، وتَنبيهًا على أنَّ كلَّ قصَّةٍ منها مُستقِلَّةٌ بإيجابِ الادِّكارِ، كافيةٌ في الازدجارِ[١]!

- وتأْكيدُ الخبَرِ باللَّامِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قد) مُراعًى فيه حالُ المُشرِكين الشَّاكِّينَ في أنَّه مِن عِندِ اللهِ[٢].

- قولُه: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، فُرِّعَ على تَيسيرِ القرآنِ للذِّكرِ استِفهامٌ، وهو استِفهامٌ مُستعمَلٌ في معْنى التَّحضيضِ، والتَّحضيضُ مُوَجَّهٌ إلى جَميعِ مَن تَبلُغُه هذه الآياتُ. و(مِن) صِلةٌ؛ للدَّلالةِ على عُمومِ الجِنسِ[٣].

- وقيل: قولُه: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إنْكارٌ ونفْيٌ للمُتَّعِظِ على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه؛ حيثُ يدُلُّ على أنَّه لا يَقدِرُ أحدٌ أن يُجيبَ المُستفهَمَ بـ «نَعَمْ»[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠).

الآيات (١٨-٢٢)

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَرْصَرًا﴾: أي: شَديدةَ البَردِ والصَّوتِ، والصَّرصَرُ: الرِّيحُ العاصِفةُ الَّتي يكونُ لها صَرصَرةٌ، أي: دَوِيٌّ في هُبوبِها؛ مِن شِدَّةِ سُرعةِ تنقُّلِها، والتَّضعيفُ فيه للمُبالَغةِ في شِدَّتِها، مأخوذٌ مِن الصِّرِّ: وهو البَردُ الَّذي يَصُرُّ، أي: يَجمَعُ ويَقبِضُ[(١)].

﴿نَحْسٍ﴾: أي: شُؤْمٍ وشَرٍّ، وأصلُه يدُلُّ على خِلافِ السَّعدِ[(٢)].

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾: أي: تقلَعُهم مِن مَواضعِهم، ونَزَعَ الشَّيءَ: جَذَبه مِن مقرِّه، وأصلُ (نزع): يدُلُّ على قَلْعِ شَيءٍ[(٣)].

﴿أَعْجَازُ﴾: أي: أُصولُ، وأصلُ (عجز) هنا: يدُلُّ على مُؤَخَّرِ الشَّيءِ[(٤)].

﴿مُّنقَعِرٍ﴾: أي: مُنقَطِعٍ مِن أصولِه، ساقِطٍ على الأرضِ، يُقالُ: قَعَرتُ النَّخلةَ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧-٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥١).

إذا قلَعْتَها مِن أصْلِها حتَّى تَسقُطَ، وقَعرُ الشَّيءِ: نِهايةُ أسفَلِه[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا موقفَ عادٍ مِن نبيِّهم هودٍ عليه السَّلامُ، وما نزَل بهم مِن العِقابِ: كذَّبت عادٌ رَسولَهم هُودًا، فكيف كان عذابي لهم؟ وكيف كان إنذاري بتلك العُقوبةِ مَن نَهَج نَهْجَهم؟! إنَّا بَعَثْنا عليهم رِيحًا باردةً شَديدةَ الهُبوبِ، في يَومِ شُؤمٍ مُستَمِرٍّ بهم عَذابُه، تَقتَلِعُ تلك الرِّيحُ كُفَّارَ عادٍ، فتَرْفعُهم، ثمَّ تَرْمي بهم وتَطرحُهم إلى الأرضِ فتَصرَعُهم، فتَذَرُهم بعدَ هَلاكِهم كأنَّهم أُصولُ نَخلٍ مُنقَلِعٍ مِن أصلِه! فكيف كان عذابي لهم؟ وكيف كان إنذاري؟!

ثمَّ ختَم الله تعالى هذه القصَّةَ بالدَّعوةِ إلى الاعتِبارِ بالقرآنِ وما فيه مِن قصصٍ وعِبَرٍ إلى غيرِ ذلك، فقال: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، والاتِّعاظِ، فهل مِن مُتذَكِّرٍ؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا انقَضَت قِصَّةُ نوحٍ عليه السَّلامُ على هذا الهَولِ العَظيمِ؛ ذَكَر قِصَّةَ عادٍ؛ لأنَّها أعظَمُ قِصَّةٍ جَرَتْ بعدَ قَومِ نُوحٍ فيما تَعرِفُه العَرَبُ[٢].

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٤٦).

أي: كذَّبت قَبيلةُ عادٍ رَسولَهم هُودًا، فكيف كان عذابي لهم جزاءَ تَكذيبِهم؟ وكيف كان إنذاري[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾.

أي: إنَّا بَعَثْنا عليهم حينَ أصَرُّوا على كُفرِهم رِيحًا بارِدةً شَديدةَ الهُبوبِ، لِصَوتِها صَريرٌ[(٢)].

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾.

أي: في يَومِ شُؤمٍ وشَرٍّ دائمٍ على عادٍ، استمرَّ عليهم بنُحوسِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

قال ابن عثيمين: (الجوابُ: كان شَديدًا عَظيمًا واقِعًا مَوقِعَه؛ فالاستِفهامُ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ والتَّقريرِ، وهو أنَّ عذابَ اللهِ كان عظيمًا، وكان واقِعًا مَوقِعَه، ﴿وَنُذُرِ﴾ يعني: آياتِه، كذلك كانت عَظيمةً واقِعةً مَوقِعَها). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

قال ابنُ القيِّم: (كان اليَومُ نَحسًا عليهم؛ لإرسالِ العَذابِ عليهم، أي: لا يُقلِعُ عنهم كما تُقلِعُ مَصائِبُ الدُّنيا عن أهلِها، بل هذا النَّحسُ دائِمٌ على هؤلاء المكَذِّبينَ للرُّسُلِ، و﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ صِفةٌ للنَّحسِ لا لليَومِ، ومَن ظَنَّ أنَّه صِفةٌ لليَومِ، وأنَّه كان يومَ أربعاءَ آخِرَ الشَّهرِ، وأنَّ هذا اليومَ نَحسٌ أبدًا؛ فقد غَلِطَ، وأخطأَ فَهْمَ القُرآنِ؛ فإنَّ اليومَ المذكورَ بحَسَبِ ما يقَعُ فيه، وكم للهِ مِن نِعمةٍ =

كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧].

﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: تَقتَلِعُ الرِّيحُ كُفَّارَ عادٍ بعُنفٍ وشِدَّةٍ، فتَرْفعُهم ثمَّ تَرْمي بهم وتَطرَحُهم إلى الأرضِ فتَصرَعُهم، وتكونُ جُثَثُهم بعدَ هَلاكِهم مِثلَ أُصولِ نَخلٍ مُنقَلِعٍ مِن مَنْبِتِه[1]!

= على أوليائِه في هذا اليَوم، وإن كان له فيه بلايا ونِقَمٌ على أعدائِه! كما يقَعُ ذلك في غيرِه مِن الأيَّام). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ١٩٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٦)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٢٩٩).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾: أنَّ العذابَ استمَرَّ عليهم في الدُّنيا سَبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيَّامٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمعاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

وقيل: المرادُ بالاستِمرارِ: اتِّصالُ عَذابِهم الدُّنيويِّ بالأُخْرويِّ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨).

قال البِقاعي: (وحَقَّق -لأنَّ المرادَ باليَومِ الجِنسُ لا الواحِدُ- بالوَصفِ، فقال: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١١٥).

وقال ابنُ عاشور: (أُريدَ بـ﴿يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أوَّلُ أيَّامِ الرِّيحِ الَّتي أُرسِلَت على عادٍ؛ إذ كانت سَبعةَ أيَّامٍ... والنَّحسُ: سوءُ الحالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٥، ١٣٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٣، ١٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٥). =

كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾.

أي: فكيف كان عَذابي لعادٍ على كُفرِهم؟ وكيف كان إنذاري[(١)]؟!

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾.

أي: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، وحُصولِ الفَهمِ والاتِّعاظِ به[(٢)].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

= قال ابن جُزَي: (شبَّهَ اللهُ عادًا لَمَّا هلَكوا بذلك؛ لأنَّهم طِوالٌ عِظامُ الأجسادِ كالنَّخلِ. وقيل: كانت الرِّيحُ تَقطَعُ رؤوسَهم، فتبقى أجسادًا بلا رُؤوسٍ، فشبَّههم بأعجازِ النَّخلِ؛ لأنَّها دونَ أغصانٍ. وقيل: كانوا حفَروا حُفَرًا يَمتَنِعون بها مِن الرِّيحِ، فهلَكوا فيها، فشبَّههم بأعجازِ النَّخلِ إذا كانت في حُفَرِها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٤).

وقال الواحدي: (شَبَّههم في طولِ قاماتِهم حينَ صَرَعتْهم الرِّيحُ وكَبَّتْهم على وُجوهِهم، بالنَّخيلِ السَّاقِطةِ على الأرضِ الَّتي ليست لها رُؤوسٌ؛ وذلك أنَّ الرِّيحَ قَلَعت رُؤوسَهم أوَّلًا، ثمَّ كَبَّتْهم على وُجوهِهم!). ((الوسيط)) (٤/ ٢١٠).

وقال الرَّسْعَني: (﴿كَأَنَّهُمْ﴾ وقد بانتْ رُؤوسُهم عن أجسادِهم، أو مالَتْ على أكتافِهم، صَرْعَى على الأرضِ، وهم جُثَثٌ طِوالٌ عِظامٌ ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ قُطعتْ فُروعُها ﴿مُنقَعِرٍ﴾ مُنقلِعٍ عن مَغارِسِها). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٧١٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣، ٢٧٦).

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ؛ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما في القُرآنِ الكريمِ[١]؟

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ كَرَّرَ اللهُ تعالى هذا عندَ آخرِ كلِّ قصَّةٍ؛ مِن أجْلِ أنْ نَحرِصَ على التَّذكُّرِ بالقُرآنِ، وتدبُّرِ القُرآنِ، وتفَهُّمِ القُرآنِ؛ لأنه مُيَسَّرٌ، والجملةُ مؤكَّدةٌ بمؤكِّداتٍ ثلاثةٍ: القَسَمِ، واللَّامِ، و«قد»؛ ممَّا يدُلُّ على التَّرغيبِ في تَذَكُّرِ القُرآنِ، والتَّذَكُّرِ به، فهل مِن مُدَّكِرٍ[٢]؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ سؤالٌ: لِمَ لَمْ يَقُلْ: «فكَذَّبوا هُودًا»، كما قال تعالى في قِصَّةِ نُوحٍ: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ [القمر: ٩]؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ تَكذيبَ قَومِ نُوحٍ أبلَغُ؛ لِطُولِ مُقامِه فيهم، وكَثرةِ عِنادِهم.

الثَّاني: أنَّ قِصَّةَ عادٍ ذُكِرَت مُختَصَرةً[٣].

٢- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أنَّ قَولَ: «هذا يومُ النَّحْسِ» لا بأسَ به إذا لم يُقصَدِ السَّبُّ والعَيبُ، وإنَّما قُصِدَ الإخبارُ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ إضافةُ اليَومِ إلى النَّحْسِ باعتِبارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٥٤)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٨٢).

المنحوسِ؛ فهو يومُ نَحسٍ للمُعَذَّبينَ، ويَومُ نَصرٍ للمُؤمِنينَ، ومَصائِبُ قَومٍ عِندَ قَومٍ فَوائِدُ، وليس في الأيَّامِ يَومٌ يُوصَفُ بنَحسٍ أو بسَعْدٍ؛ لأنَّ كُلَّ يَومٍ تَحدُثُ فيه نُحوسٌ لِقَومٍ وسُعُودٌ لآخَرِينَ، وما يُروَى مِن أخبارٍ في تعيينِ بَعضِ أيَّامِ السَّنةِ للنَّحسِ هو مِن أغلاطِ القَصَّاصِينَ! فلا يُلْقي المُسلِمُ الحَقُّ إليها سَمْعَه. واشتَهَر بيْنَ كثيرٍ مِن المُسلِمينَ التَّشاؤُمُ بيَومِ الأربِعاءِ، وأصلُ ذلك انجَرَّ لهم مِن عقائِدِ مَجوسِ الفُرسِ، ويُسَمُّونَ الأربِعاءَ الَّتي في آخِرِ الشَّهرِ: «الأربِعاءَ الَّتي لا تَدورُ» أي: لا تعودُ، أرادوا بهذا الوَصفِ ضبْطَ مَعنَى كَونِها آخِرَ الشَّهرِ؛ لئَلَّا يُظَنَّ أنَّه جَميعُ النِّصفِ الأخيرِ منه، وإلَّا فأيَّةُ مُناسَبةٍ بيْن عَدَمِ الدَّورانِ وبيْن الشُّؤمِ؟! وما مِن يَومٍ إلَّا وهو يقَعُ في الأُسبوعِ الأخيرِ مِنَ الشَّهرِ، ولا يدورُ في ذلك الشَّهرِ[1]! فسُعُودُ الأيَّامِ ونُحوسُها إنَّما هو بسُعُودِ الأعمالِ ومُوافَقتِها لِمَرضاةِ الرَّبِّ تعالى، ونُحوسُ الأعمالِ مُخالَفتُها لِمَا جاءتْ به الرُّسُلُ، واليومُ الواحِدُ يكونُ يومَ سَعدٍ لطائفةٍ، ونَحْسٍ لطائفةٍ، كما كان يَومُ بدرٍ يومَ سَعْدٍ للمُؤمِنينَ، ويَومَ نَحْسٍ على الكافِرينَ[2]، فمَن أرادَ أنْ يعرِفَ النَّحسَ والشُّؤمَ والنَّكدَ والبَلاءَ والشَّقاءَ على الحقيقةِ، فليتحقَّقْ أنَّ ذلك كلَّه في معصيةِ الله، وعدمِ امتثالِ أمرِه[3].

٤- دَلَّ قَولُه تعالى: ﴿نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ على أنَّه سُبحانَه أبادهم؛ إذ لو نَجَوا لَما كان النَّحسُ مُستَمِرًّا[4].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ أنَّ الرِّيحَ تَنزِعُهم بعُنفٍ كأنَّهم أعجازُ نَخلٍ مُنقَعِرٍ، فيَنقَعِرونَ! وهذا إشارةٌ إلى عِظَمِ أجسادِهم، أو إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٣).

ثَباتِهم في الأرضِ، فكأنَّهم كانوا يَجعَلونَ أرجُلَهم في الأرضِ، ويَقصِدونَ المَنْعَ به على الرِّيحِ[١]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ لطيفةٌ: في أنَّه لو قال القائلُ: أكثَرُ المفسِّرينَ على أنَّ «النُّذُر» في هذا الموضِعِ جَمعُ «نَذيرٍ» الَّذي هو مَصدَرٌ معناه: «إنذارٌ»، فما الحِكمةُ في توحيدِ العَذابِ؛ حيثُ لم يَقُلْ: «فكيف كان أنواعُ عذابي، ووَبالُ إنذاري»؟

الجوابُ: فيه إشارةٌ إلى غَلَبةِ الرَّحمةِ للغَضَبِ؛ وذلك لأنَّ الإنذارَ إشفاقٌ ورَحمةٌ، فقال: الإنذاراتُ الَّتي هي نِعَمٌ ورَحمةٌ تواتَرَت، فلمَّا لم تَنفَعْ وَقَع العذابُ دَفعةً واحِدةً؛ فكانت النِّعَمُ كَثيرةً، والنِّقمةُ واحِدةً[٢].

٧- يُستفادُ مِن تَكرارِ قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فائِدتانِ:

الأُولى: رَحمةُ اللهِ بعِبادِه، وعِنايتُه بهم؛ حيث دعاهم إلى ما يُصلِحُ دُنياهم وأُخراهم[٣].

الثَّانيةُ: الإيذانُ بأنَّ تيسيرَ القُرآنِ -مع إعجازِه- لا يكونُ إلَّا بعَظَمةٍ تَفُوتُ قُوى البَشَرِ، وتَعجِزُ عنها منهم القُدَرُ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مَوقعُ هذه الجُملةِ كمَوقعِ جُملةِ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [القمر: ٩]؛ فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ تُعطَفَ عليها،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١١٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٤٧).

وإنَّما فُصِلَتْ عنها؛ ليَكونَ في الكلام تَكريرُ التَّوبيخ والتَّهديدِ والنَّعْيِ عليهم عقِبَ قولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤، ٥]، ومَقامُ التَّوبيخِ والنَّعْيِ يَقْتضي التَّكريرَ[١].

- قولُه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ أي: كذَّبَت رَسولَها هودًا عليه السَّلامُ، ولم يُتعرَّضْ لكَيفيَّةِ تَكذيبِهم له؛ رَوْمًا للاختِصارِ، ومُسارَعةً إلى بَيانِ ما فيه الازدجارُ[٢].

- وفي مَفعولِ ﴿كَذَّبَتْ﴾ المَحذوفِ إشعارٌ برَسولِهم الَّذي كذَّبوه، وبعْثُ الرَّسولِ وتَكذيبُهم إيَّاه يَتضمَّنُ الإنذارَ؛ لأنَّهم لَمَّا كذَّبوه حقَّ عليه إنذارُهم[٣].

- والحُكْمُ على عادٍ بالتَّكذيبِ عُمومٌ عُرْفيٌّ، بِناءً على أنَّ مُعظَمَهم كذَّبوه، وما آمَنَ به إلَّا نفَرٌ قليلٌ؛ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[٤] [هود: ٥٨].

- ولَمَّا كانت عادٌ عَلَمًا لقَومِ هُودٍ، ذُكِرَ العَلَمُ؛ لأنَّه أبلَغُ في الذِّكرِ مِن التَّعريفِ بالإضافةِ[٥].

- وفُرِّعَ على التَّذكيرِ بتَكذيبِ عادٍ قولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ قبْلَ أنْ يُذكَرَ في الكلامِ ما يُشعِرُ بأنَّ اللهَ عذَّبَهم، فضْلًا عن وصْفِ عَذابِهم، فالاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّشويقِ للخبَرِ الواردِ بعْدَه؛ لأنَّ الاستِفهامَ يَستلزِمُ طلَبَ الجوابِ، والجوابُ يَتوقَّفُ على صِفةِ العَذابِ، وهي لَمَّا تُذكَرْ. وهو أيضًا مُكنًّى به عن تَهويلِ ذلك العذابِ. وفي هذا الاستِفهامِ إجمالٌ لحالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١).

العَذابِ، وهو إجمالٌ يَزيدُ التَّشويقَ إلى ما يُبيِّنُه بعْدَه مِن قولِه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ الآيةَ[١].

- قولُه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ قيل: هو لتَوجيهِ قُلوبِ السَّامِعينَ نحْوَ الإصْغاءِ إلى ما يُلْقى إليهم قبْلَ ذِكرِه، لا لتَهويلِه وتَعظيمِه وتَعجيبِهم مِن حالِه بعْدَ بَيانِه كما قَبْلَه وما بَعْدَه؛ كأنَّه قِيلَ: كذَّبتْ عادٌ، فهلْ سمِعْتُم -أو فاسْمَعُوا- كيفَ كان عذابي وإنْذاراتي لهم[٢]؟ وقيل: هو للتَّهويلِ؛ لغَرابةِ ما عُذِّبوا به مِن الرِّيحِ، وانفِرادِه بهذا النَّوعِ مِن العَذابِ[٣].

- وهذه ليست تكريرًا لنَظيرِها السَّابِقِ في خَبَرِ قَومِ نُوحٍ، ولا اللَّاحِقِ في آخِرِ قِصَّةِ عادٍ؛ للاختِلافِ بيْنَ مُفادِها ومُفادِ مُماثِلَتِها وإن اتَّحَدَت ألفاظُهما. والبَليغُ يَتفَطَّنُ للتَّغايُرِ بيْنَهما فيَصرِفُه عن توَهُّمِ أن تكونَ هذه تكريرًا؛ فإنَّه لَمَّا لم يَسبِقْ وصْفُ عذابِ عادٍ، لم يَستَقِمْ أن يكونَ قَولُه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي﴾ تعجيبًا مِن حالةِ عَذابِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَنُذُرِ﴾ عطْفٌ على ﴿عَذَابِي﴾ بتَقديرِ مُضافٍ دلَّ عليه المَقامُ، والتَّقديرُ: وعاقِبةُ نُذُري، أي: إنْذاراتي لهم، أي: كيف كان تَحقيقُ الوعيدِ الَّذي أنْذَرَهم، وهو مَوعِظةٌ مِن تَحقُّقِ وَعيدِ اللهِ إيَّاهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٨٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩١، ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واستدلَّ أبو الحسنِ المجاشِعيُّ على أنَّ الواوَ لا تقتضي الترتيبَ بهذه الآيةِ، قال: (والنُّذُرُ قبلَ العذابِ). ((النكت)) (ص: ١٨٠).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ بيانٌ للإجمالِ الَّذي في قولِه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، وهو في صُورةِ جَوابٍ للاستِفهامِ الصُّوريِّ، وكِلْتا الجُملتينِ يُفيدُ تَعريضًا بتَهديدِ المُشركين بعَذابٍ على تَكذيبِهم، وجُملةُ البَيانِ إنَّما تَصِفُ حالَ العَذابِ دونَ حالِ الإنذارِ، أو حالِ رَسولِهم، وهو اكتِفاءٌ[١]؛ لأنَّ التَّكذيبَ يَتضمَّنُ مَجيءَ نَذيرٍ إليهم[٢].

- وتَعديةُ إرسالِ الرِّيحِ إلى ضَميرِهم هي كإسنادِ التَّكذيبِ إليهم؛ بِناءً على الغالِبِ، وقد أنْجَى اللهُ هودًا والَّذين معه، أو هو عائدٌ إلى المُكذِّبين، بقَرينةِ قولِه: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾[٣] [القمر: ١٨].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾، وفي (الذَّاريات) قال: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، فعرَّفَ الرِّيحَ هناك، ونكَّرَها هاهنا؛ قيل: وَجْهُ ذلك: أنَّ العُقْمَ في الرِّيحِ أظهَرُ مِن البَرْدِ الَّذي يَضُرُّ النَّباتَ، أو الشِّدَّةِ الَّتي تَعصِفُ الأشجارَ؛ لأنَّ الرِّيحَ العقيمَ هي الَّتي لا تُنشِئُ سَحابًا، ولا تُلقِّحُ شَجَرًا -وهي كَثيرةُ الوُقوعِ-؛ وأمَّا الرِّيحُ المُهلِكةُ الباردةُ فقَلَّما تُوجَدُ؛ فقال: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾، أي: هذا الجِنسَ المعروفَ، ثمَّ زادَهُ

---

(١) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بَيانًا بقولِه: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]، فتَميَّزَت عن الرِّيحِ العقيمِ، وأمَّا الصَّرصرُ فقَليلةُ الوُقوعِ، فلا تَكونُ مَشهورةً؛ فنكَّرَها[١].

- وأيضًا قال تعالَى هنا: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾، وقال في سُورةِ (فُصِّلت): ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]، وقال في (الحاقة): ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ المُرادَ مِن اليَومِ هنا الوقتُ والزَّمانُ، كما في قولِه: ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣]، وقولُه: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ يُفيدُ ما يُفيدُه «الأيَّام»؛ لأنَّ الاستِمرارَ يُنبِئُ عن امتِدادِ الزَّمانِ كما تُنبِئُ عنه الأيَّامُ، والحكايةُ هنا مَذكورةٌ على سَبيلِ الاختِصارِ؛ فذُكِرَ الزَّمانُ، ولم يُذكَرْ مِقدارُه على سَبيلِ الإيجازِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾

- قولُه: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ صِفةً للرِّيحِ، وأنْ يكونَ حالًا منها؛ لأنَّها وُصِفَت فقَرُبَت مِن المعْرفةِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ ﴿تَنزِعُ﴾ مُستأنَفًا[٣].

- وفي قولِه: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ وضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ وذلك لإفادةِ العُمومِ، أي: إنَّ النَّزْعَ يعُمُّ الذُّكورَ والإناثَ جَميعًا، وإلَّا فالأصلُ: تَنزِعُهم[٤].

- في قولِه: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ شبَّهَهم بأعجازِ النَّخلِ المُنقَعِرِ؛ إذ تَساقَطوا على الأرضِ أمواتًا، وهم جُثَثٌ عِظامٌ طِوالٌ، والأعجازُ: الأصولُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨١).

بلا فُروعٍ قد انقلَعَت مِن مَغارِسِها. وقيل: كانتِ الرِّيحُ تَقطَعُ رُؤوسَهم، فتَبْقَى أجسادًا بلا رُؤوسٍ، فأَشْبَهَت أعجازَ النَّخلِ الَّتي انقلَعَتْ مِن مَغرِسِها[1].

- ومُنقعِرٌ: وصْفُ النَّخلِ، رُوعِيَ في إفرادِه وتَذكيرِه صُورةُ لَفظِ (نخْل) دونَ عدَدِ مَدلولِه، خِلافًا لِما في قولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، وقولِه: ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾[2] [الرحمن: ١١].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تَعالى هاهنا: ﴿مُنقَعِرٍ﴾، فذكَّرَ النَّخلَ، وقال في (الحاقةِ): ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، فأنَّثَها؛ ووَجْهُ ذلك أمْرانِ:

الأوَّلُ: في تلك السُّورةِ كانتْ أواخرُ الآياتِ تَقْتضي ذلك؛ لقولِه: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ و﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ و﴿مُّنتَشِرٌ﴾؛ فإنَّ الكلامَ كما يُزيَّنُ بحُسْنِ المعْنى يُزيَّنُ بحُسْنِ اللَّفظِ.

الثَّاني: أنَّ «النَّخلَ» لَفظُه لَفظُ الواحدِ -كالبَقلِ والنَّملِ- ومعْناهُ معْنى الجَمْعِ؛ فيَجوزُ أنْ يُقالَ فيه: نَخْلٌ مُنقَعِرٌ، ومُنقَعِرةٌ، ومُنقَعِراتٌ، ونخْلٌ خاوٍ، وخاويةٌ، وخاوياتٌ، ونخْلٌ باسِقٌ، وباسِقةٌ، وباسِقاتٌ.

فإذا قال قائلٌ: «مُنقعِرٌ، أو: خاوٍ، أو: باسقٌ»؛ جرَّدَ النَّظرَ إلى اللَّفظِ، ولم يُراعِ جانبَ المعْنى، وإذا قال: «مُنقعِراتٌ، أو: خاوياتٌ، أو: باسِقاتٌ»؛ جرَّدَ النَّظرَ إلى المعْنى، ولم يُراعِ جانبَ اللَّفظِ، وإذا قال: «مُنقعِرةٌ، أو: خاويةٌ، أو: باسقةٌ»؛ جمَعَ بيْنَ الاعتِبارينِ مِن حيثُ وَحْدةُ اللَّفظِ، ورُبَّما قال: «مُنقَعِرةٌ» -على الإفرادِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨١).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٧١ - ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٤).

مِن حيث اللَّفظُ- وألْحَقَ به تاءَ التَّأنيثِ الَّتي في الجَماعةِ. إذا تقرَّرَ هذا، فنقولُ: ذكَرَ اللهُ تَعالى لَفظَ «النَّخلِ» في مَواضِعَ ثلاثةٍ، ووَصَفها على الوُجوهِ الثَّلاثةِ؛ فقال: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ [ق: ١٠]؛ فإنَّها حالٌ منها وهي كالوصْفِ، وقال: ﴿نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧]، وقال: ﴿نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾، فحيثُ قال: ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ كان المختارُ ذلك؛ لأنَّ «المُنقعِرَ» في حَقيقةِ الأمرِ كالمفعولِ؛ لأنَّ الَّذي وَرَدَ عليه القعرُ فهو مَقعورٌ، والخاوِ والباسِقُ فاعلٌ، ومعناهُ إخلاءُ ما هو مَفعولٌ مِن عَلامةِ التَّأنيثِ أوَّلًا، كما تقولُ: امرأةٌ كفيلٌ، وامرأةٌ كَفيلةٌ، وامرأةٌ كبيرٌ، وامرأةٌ كبيرةٌ. وأمَّا «الباسِقاتُ» فهي فاعِلاتٌ حقيقةً؛ لأنَّ البُسوقَ أمْرٌ قام بها. وأمَّا «الخاويةُ» فهي مِن بابِ «حسن الوجْه»؛ لأنَّ الخاويَ مَوضِعُها؛ فكأنَّه قال: «نخْلٌ خاويةُ المَواضِعِ»، وهذا غايةُ الإعجازِ؛ حيثُ أتَى بلَفظٍ مُناسِبٍ للألفاظِ السَّابقةِ واللَّاحقةِ مِن حيثُ اللَّفظُ؛ فكان الدَّليلُ يَقْتضي ذلك، وهذا بخِلافِ الشَّاعرِ الَّذي يَختارُ اللَّفظَ على المذهبِ الضَّعيفِ مِن أجْلِ الوزنِ والقافيةِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

- في إعادةِ ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ في قصَّةِ عادٍ عدَّةُ أوجُهٍ:

منها: أنَّ الأوَّلَ لتَحذيرِهم قبْلَ إهلاكِهم، والثَّاني لتَحذيرِ غَيرِهم بهم بعْدَ هَلاكِهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٤).

وقدْ قال القُرطبيُّ في ((تفسيره)) (١٧/ ١٣٧): (وقال أبو بَكرِ بنُ الأنباريِّ: سُئِلَ المُبَرِّدُ بحَضرةِ إسماعيلَ القاضي عن ألْفِ مَسألةٍ، هذه مِن جُملتِها، فقيل له: ما الفرقُ بيْنَ قولِه تعالَى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ﴾ [الأنبياء: ٨١] و﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ [يونس: ٢٢]، وقولِه: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧] و﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ [القمر: ٢٠]؟ فقال: كلَّما ورَدَ عليك مِن هذا البابِ، فإنْ شِئتَ رَدَدْتَه إلى اللَّفظِ تذكيرًا، أو إلى المعنَى تأنيثًا).

(٢) يُنظر: ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٠).

ومنها: أنَّ الأوَّلَ سُؤالٌ؛ كقولِ المعلِّمِ للمُتعلِّمِ: كيفَ المسألةُ الفُلانيَّةُ؟ ثُمَّ بيَّنَ فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا﴾، وأمَّا في المَرَّةِ الثَّانيةِ فاستَفهَم للتَّعظيمِ والتَّهويلِ، كما يقولُ القائلُ للعارفِ المشاهِدِ: كيف فَعلتُ وصَنعتُ؟ فيقولُ: نِعْمَ ما فَعلْتَ، ويقولُ: أتيْتُ بعَجيبةٍ، فيُحقِّقُ عَظَمةَ الفِعلِ بالاستِفهامِ[1].

ومنها: تَكرَّرَ التَّهويلُ بالاستِفهامِ قبْلَ ذِكرِ ما حلَّ بهم وبَعْدَه؛ لغَرابةِ ما عُذِّبوا به مِن الرِّيحِ، وانفِرادِهِم بهذا النَّوعِ مِن العذابِ، ولأنَّ الاختصارَ داعيةُ الاعتبارِ والتَّدبُّرِ[2].

ومنها: أنَّ مَقامَ التَّهويلِ والتَّهديدِ يَقْتضي تَكريرَ ما يُفيدُهما[3].

- و(كيف) هنا استِفهامٌ عن حالةِ العَذابِ المَوصوفةِ في قولِه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ إلى ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ [القمر: ١٩، ٢٠]، والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٥).

الآيات (٢٢-٣٢)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ
ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟
ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟
صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟
كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَسُعُرٍ﴾: أي: شَقاءٍ وعَناءٍ وعَذابٍ، أو جُنُونٍ؛ مِن قَولِهم: ناقةٌ مَسعورةٌ: إذا كانت كأنَّ بها جُنونًا، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ شَيءٍ واتِّقادِه[1].

﴿أَشِرٌ﴾: أي: مُتكَبِّرٌ بَطِرٌ يُريدُ أن يَتعظَّمَ علينا بالنُّبُوَّةِ. والأَشَرُ: المَرَحُ والتَّجَبُّرُ والكِبرياءُ، وأصلُ (أشر): يدُلُّ على الحِدَّةِ[2].

﴿فِتْنَةً﴾: أي: اختِبارًا، وابتِلاءً، وامتِحانًا، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على اختِبارٍ وابتِلاءٍ[3].

﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾: أي: فانتَظِرْهم وتَبصَّرْ ما هم صانِعوه، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠).

انتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ[١].

﴿شِرْبٍ﴾: أي: نصيبٍ وحظٍّ مِن المَاءِ[٢].

﴿مُّحْتَضَرٌ﴾: أي: محضورٌ مَشهودٌ، وأصلُ (حضر): يدُلُّ على الوُرودِ والمُشاهَدةِ[٣].

﴿فَتَعَاطَىٰ﴾: أي: فتَناوَلَ النَّاقةَ؛ مِنَ العَطوِ: وهو التَّناوُلُ باليَدِ، وأصلُ (عطو): يدُلُّ على أخذٍ ومُناوَلةٍ[٤].

﴿فَعَقَرَ﴾: أي: قَتَل ونَحَر، وأصلُ (عقر) هنا: يدُلُّ على جَرحٍ[٥].

﴿صَيْحَةً﴾: الصَّيحةُ: المرَّةُ مِن الصَّوتِ الشَّديدِ، المُزعِجِ المُهلِكِ، وأصلُ (صيح): يدُلُّ على الصَّوتِ العالي[٦].

﴿كَهَشِيمِ﴾: الهشيمُ: هو ما يَبِسَ مِنَ الوَرَقِ وتكَسَّرَ وتحطَّمَ، وأصلُ (هشم):

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨١).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢).

يدُلُّ على الكَسرِ[١].

﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: أي: صاحِبِ الحَظيرةِ؛ يُقالُ: احتَظَر على نَعَمِه وحَظَر: إذا جَمَع الشَّجَرَ ووَضَع بَعضَه فَوقَ بَعضٍ؛ لِيَمنَعَ بَرْدَ الرِّيحِ عن النَّعَمِ، وأصلُ (حظر): يدُلُّ على المَنعِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا موقفَ ثَمُودَ مِن نبيِّهم صالحٍ عليه السَّلامُ: كذَّبت ثَمُودُ -قَومُ صالحٍ- بنُذُرِ اللهِ الَّتي تُنذِرُهم عَذابَه! فقالوا: أَبَشَرًا مِثلَنا واحِدًا نتَّبِعُه؟ إنَّا إنِ اتَّبَعْناه لَفِي ذَهابٍ عن الحقِّ والصَّوابِ، وفي شَقاءٍ وعَذابٍ. أأُنزِلَ الوَحيُ عليه مِن بَيْنِنا؟! كيف يكونُ ذلك؟ بل هو كذَّابٌ مُتجَبِّرٌ مُتكَبِّرٌ مُعجَبٌ بنَفْسِه. فقال اللهُ تعالى ردًّا عليهم، ومهدِّدًا لهم: سيَعلَمونَ قَريبًا: مَنِ الكَذَّابُ المُتجَبِّرُ المُتكَبِّرُ؟!

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى ما اختَبر به قومَ صالحٍ، وما أمَر به نبيَّه صالحًا عليه السَّلامُ، فيقولُ: إنَّا مُرسِلو النَّاقةِ؛ اختِبارًا لِثَمودَ، فترَقَّبْهم -يا صالِحُ- وانظُرْ ماذا يَصنَعون، واصبِرْ عليهم صَبرًا بالِغًا، وأخبِرْهم أنَّ ماءَ القَريةِ مَقسومٌ بَيْنَهم وبيْنَ النَّاقةِ؛ فلَها يَومٌ تَشرَبُ فيه مِن ذلك الماءِ، ولهم يومٌ يَشرَبونَ فيه مِنه، كُلُّ شِربٍ مَحضورٌ مَشهودٌ؛ فإذا كان يومُ النَّاقةِ حَضَرت نصيبَها مِن الماءِ، وإذا كان يومُ ثَمودَ حَضَروا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٠، ٨١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

نصيبَهم مِن الماءِ.

ثمَّ يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما كان مِن ثمودَ واتِّفاقِهم على قتلِ النَّاقةِ: فنادى كُفَّارُ ثَمودَ صاحِبَهم وأشقاهم، فنَحَرَ النَّاقةَ، فكيف كان عذابي لِثَمودَ؟ وكيف كان إنذاري بتلك العُقوبةِ مَن نَهَج نَهْجَهم؟!

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى ما حلَّ بهم مِن عذابٍ، فيقولُ: إنَّا أرسَلْنا على ثمودَ صيَحةً واحِدةً عَظيمةً، فأهلَكَتْهم! فصاروا كحُطامِ النَّباتِ المتفَتِّتِ الَّذي يجمعُه مَن يَصنعُ الحظيرةَ.

ثمَّ يختِمُ الله سبحانَه هذه القصَّةَ بما ختَم به القصَّتينِ السَّابقتَينِ، فيقولُ: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، والاتِّعاظِ، فهل مِن مُتذَكِّرٍ؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا انقَضَت قِصَّةُ عادٍ؛ ذَكَر تعالى قِصَّةَ ثَمودَ؛ لأنَّها تلي قِصَّةَ عادٍ في الفَظاعةِ، فقال تعالى[1]:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: كذَّبت قَبيلةُ ثَمُودَ -قَومِ صالحٍ- بما جاءَهم مِنَ اللهِ مِن النُّذرِ الَّتي تُنذِرُهم عَذابَه[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٥، ١٩٦).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ هم قومُ صالحٍ، كَذَّبوا الرُّسُلَ ونَبيَّهم، أو كذَّبوا بالآياتِ الَّتي هي النُّذُرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥١).

﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤﴾.

﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾.

أي: فقال كُفَّارُ ثَمُودَ: هو آدَميٌّ مِثلُنا، ورَجُلٌ واحِدٌ فحَسْبُ، فكيف نتَّبِعُه[1]؟

﴿إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾.

أي: إنَّا إنِ اتَّبَعْناه لَفي ذَهابٍ عن الحقِّ والصَّوابِ، وفي شَقاءٍ وعَذابٍ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٦).

قال ابنُ عاشور: (وَصْفُ «بَشَرًا» بـ﴿وَٰحِدٗا﴾: إمَّا بمعنى أنَّه مُنفَرِدٌ في دَعوتِه، لا أتْباعَ له ولا نُصَراءَ، وإمَّا بمعنى أنَّه مِن جملةِ آحادِ النَّاسِ، أي: ليس مِن أفضَلِنا، وإمَّا بمعنى أنَّه مُنفَرِدٌ في ادِّعاءِ الرِّسالةِ، لا سلَفَ له). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٩).

قيل: السُّعُرُ: بمعنى: العَناءِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، والسَّمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والحسَنُ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٧٩).

وقيل: السُّعُرُ هنا: الجُنونُ. ومِمَّن ذهب إلى ذلك: الزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٧).

قال ابن عطيَّة: (﴿وَسُعُرٍ﴾ معناه: في احتِراقِ أنفُسٍ واستِعارِها حَنَقًا وهَمًّا باتِّباعِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٧).

﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥﴾.

﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

أي: وقالوا: أأُنزِلَ الوَحيُ على هذا الرَّجُلِ فاختُصَّ بالنُّبُوَّةِ مِن بَيْنِنا؟! كيف يكونُ ذلك؟ وأيُّ مَزيَّةٍ له علينا حتَّى يَستَحِقَّ ذلك[1]؟!

﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾.

أي: وقالوا: لَمْ يختَصَّ اللهُ صالِحًا بالوَحيِ والنُّبُوَّةِ، وإنَّما هو امرُؤٌ كَذَّابٌ، كَثيرُ المَرَحِ والتَّجَبُّرِ والتَّكبُّرِ، فهو مُعجَبٌ بنَفْسِه، مُدَّعٍ ما ليس له[2]!

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦﴾.

أي: قال اللهُ تعالى: سيَعلَمونَ قَريبًا حينَ يأتيهم العَذابُ: مَنِ الكَذَّابُ، الكَثيرُ المَرَحِ والتَّجَبُّرِ والتكَبُّرِ: أصالِحٌ أم قَومُه[3]؟!

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ۝٢٧﴾.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾.

أي: إنَّا باعِثُو النَّاقةِ؛ اختِبارًا وامتِحانًا لِثَمودَ؛ فإمَّا أن يُؤمِنوا باللهِ ويتَّبِعوا نَبيَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٨).
قال القرطبي: (﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ أي: سيَرَونَ العَذابَ يومَ القيامةِ، أو في حالِ نُزولِ العَذابِ بهم في الدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٩).

صالِحًا، أو يُكَذِّبوه ويَكفُروا باللهِ تعالى[١].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾.

أي: فترقَّبْ -يا صالِحُ- وانظُرْ ما يَحصُلُ لهم مِنَ الفِتنةِ عندَ ظُهورِ النَّاقةِ، وما هم صانِعوه فيها، واصبِرْ عليهم صَبرًا قَويًّا بالِغًا[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٩).

قال السعدي: (أرسَل اللهُ النَّاقةَ الَّتي هي مِن أكبَرِ النِّعَمِ عليهم، آيةً مِن آياتِ الله، ونعمةً يَحتلِبون مِن ضَرْعِها ما يكفيهم أجمَعينَ، ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: اختِبارًا منه لهم وامتِحانًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

وقال الشنقيطي: (﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: ابتِلاءً واختِبارًا، وهو مفعولٌ مِن أجْلِه؛ لأنَّهم اقترَحوا على صالحٍ إخراجَ ناقةٍ مِن صخرةٍ، وأنَّها إن خرجتْ لهم منها آمَنوا به واتَّبَعوه، فأخرَجَ اللهُ النَّاقةَ مِن تلك الصَّخرةِ مُعجِزةً لصالحٍ، وفِتْنةً لهم، أي: ابتِلاءً واختِبارًا؛ وذلك أنَّ تلك النَّاقةَ مُعجِزةٌ عايَنوها، وأنَّ اللهَ حذَّرهم على لسانِ نبيِّه صالحٍ مِن أن يَمَسُّوها بسوءٍ، وأنَّهم إن تعرَّضوا لها بأذًى أخَذَهم اللهُ بعذابِه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٧٩). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

قال ابن عاشور: (الارتقابُ: الانتظارُ... والمعنى: فارتقِبْ ما يحصُلُ لهم مِن الفتنةِ عندَ ظهورِ النَّاقةِ. والاصطبارُ: الصَّبرُ القويُّ... أي: اصبِرْ صبرًا لا يَعتريه مللٌ ولا ضجَرٌ، أي: اصبِرْ على =

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ﴾.

أي: وأخبِرْهم أنَّ ماءَ القَريةِ مَقسومٌ بَيْنَهم وبيْنَ النَّاقةِ؛ فلَها يَومٌ تَشرَبُ فيه مِن ذلك الماءِ، ولهم يومٌ يَشرَبونَ فيه مِنه[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾.

أي: إذا كان يومُ النَّاقةِ حَضَرت نصيبَها مِن الماءِ، وإذا كان يومُ ثَمودَ حَضَروا نصيبَهم مِن الماءِ[2].

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾.

= تكذيبِهم، ولا تيأسْ مِن النَّصرِ عليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٠، ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨٠).

قال ابنُ عاشور: (هذا مِن جملةِ ما أُمِرَ رَسولُهم بأن يُنَبِّئَهم به، أي: لا يَحضُرِ القَومُ في يَومِ شِرْبِ النَّاقةِ، وهي بإلهامِ اللهِ لا تَحضُرُ في أيَّامِ شِرْبِ القَومِ، والشِّرْبُ -بكَسرِ الشِّينِ-: نَوبةُ الاستِقاءِ مِن الماءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١).

وقيل: المعنى: أنَّ ثمودَ يَحضُرونَ في يَومِهم إذا غابت النَّاقةُ فيَشرَبونَ مِن الماءِ، ويَحضُرونَ في يومِ النَّاقةِ فيَشرَبونَ مِن لَبَنِها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وممَّن قال به مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٣).

أي: فنادى كُفَّارُ ثَمودَ صاحِبَهم وأشقاهم لِعَقرِ النَّاقةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢].

﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾.

أي: فباشَرَ قَتْلَها بنَفْسِه[٢].

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٠﴾.

أي: فكيف كان عَذابي لِثَمودَ على كُفرِهم؟ وكيف كان إنذاري بتلك العُقوبةِ للكُفَّارِ مِن غَيرِهم؛ لِيَحذَروا أن يَحُلَّ بهم العَذابُ[٣]؟

ثُمَّ بَيَّن الله تعالى ما أجْمَله مِن العذابِ، فقالَ[٤]:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١﴾.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾.

أي: إنَّا أرسَلْنا على ثمودَ صيَحةً واحِدةً عَظيمةً، فأهلَكَتْهم[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧).

قال ابنُ كثير: (قال المفسِّرون: هو عاقِرُ النَّاقةِ، واسمُه قُدارُ بنُ سالفٍ، وكان أشقى قَومِه!). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩).

قال ابنُ عاشور: (العَقرُ: أصلُه: ضَربُ البَعيرِ بالسَّيفِ على عراقيبِه؛ لِيَسقُطَ إلى الأرضِ جاثيًا، فيتَمكَّنَ النَّاحِرُ مِن نَحْرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨١، ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩، ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - =

كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣].

﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾.

أي: فصاروا كحُطامِ النَّباتِ وما تكَسَّرَ مِنَ الشَّجَرِ اليابِسِ الَّذي يجمعُه مَن يصنعُ الحظيرةَ(١).

= الحديد)) (ص: ٢٨٣).

وقد ذهب مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والزمخشريُّ، والقرطبيُّ: إلى أنَّ الصَّيحةَ كانت صادِرةً مِن جِبريلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. يُنظر: ((مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٢).

وقال الواحدي: (يعني: الصَّاعِقةَ الَّتي أخذَتْهم، وهي مذكورةٌ في مواضِعَ مِن التَّنزيلِ. وقال عَطاءٌ: يُريدُ صَيحةَ جِبريلَ). ((البسيط)) (٢١/ ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٢، ٢٠٣).

قال القاسمي: (﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ أي: كالشَّجرِ اليابسِ المُتكسِّرِ، الَّذي يتَّخِذُه مَن يَعملُ الحَظيرةَ للغنَمِ ونحوِها. أو كالحشيشِ اليابسِ الَّذي يَجمَعُه صاحبُ الحظيرةِ لماشيتِه في الشِّتاءِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٩٣).

والمُحتَظِرُ: قيل: هو صاحِبُ الحَظيرةِ، فكأنَّه يعني: صاحِبَ الغَنَمِ الَّذي يجمَعُ الحَشيشَ في الحظيرةِ لغَنَمِه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ قُتَيْبةَ، والألوسيُّ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٨٩).

وقيل: المُحتظِرُ: الَّذي يَعمَلُ الحَظيرةَ، وهي حائِطٌ مِن الأغصانِ أو القَصَبِ ونحوِ ذلك، وما يُحتظَرُ به يَيبَسُ بطُولِ الزَّمانِ، وتطَؤُه البهائمُ فيَتحطَّمُ ويَتهشَّمُ. وممَّن قال بهذا: الواحديُّ، والزَّمخشريُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ جُزَي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٨)، =

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾.

أي: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، وحُصولِ الفَهمِ والاتِّعاظِ به[١].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ؛ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما في القُرآنِ[٢]؟

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ تعالى قد يُظْهِرُ للإنسانِ مِن الآياتِ ما يُؤْمِنُ على مِثْلِه البشَرُ، حتَّى إذا استكبرَ كان استِكبارُه عن عِلْمٍ، فكان عِقابُه أشدَّ وأوجَعَ؛ ولهذا جَعَلَ اللهُ النَّاقةَ فِتنةً؛ لأنَّها أظهرَتِ الحقَّ لهم، ولكِنْ لم يَقبَلوه، وانتبِهْ لهذا الاستِدراجِ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، إذا يَسَّرَ اللهُ

= ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٥).

قال السَّمينُ الحَلَبي: (أي: لَمَّا هَلَكوا صاروا مِثلَ حُطامِ النَّباتِ الَّذي يتَّخِذُه الرَّاعي حَظيرةً، في كَونِه هشيمًا مُتكَسِّرًا، ولله دَرُّ القُرآنِ! ما أبلَغَ تَشبيهاتِه!). ((عمدة الحفاظ)) (٤/ ٢٥٢).

وقال ابنُ عطية: (قرأ جمهورُ النَّاسِ: ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ بكَسرِ الظَّاءِ، ومعناه: الَّذي يَصنَعُ حَظيرةً؛ مِن الرِّعاءِ ونَحوِهم، قاله أبو إسحاقَ السَّبيعيُّ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ، وهي مأخوذةٌ مِن الحَظْرِ، وهو المنعُ، والعرَبُ وأهلُ البوادي يَصنَعونَها للمَواشي وللسُّكنى أيضًا مِنَ الأغصانِ والشَّجَرِ المُورِقِ والقَصَبِ ونَحوِه، وهذا كُلُّه هَشيمٌ يَتفَتَّتُ إمَّا في أوَّلِ الصَّنعةِ، وإمَّا عندَ بِلَى الحَظيرةِ وتَساقُطِ أجزائِها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣، ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

لك أسبابَ المعصيةِ فلا تَفعَلْ؛ فإنَّ اللهَ رُبَّما يُيَسِّرُ أسبابَ المعصيةِ للإنسانِ؛ فِتنةً له[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾ لم يَقُلْ: «فارتَقِبِ العذابَ»؛ إشارةً إلى حُسنِ الأدَبِ، والاجتِنابِ عن طَلَبِ الشَّرِّ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ سؤالٌ عن وَجهِ قَولِه تعالى هنا: ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾، وفي قِصَّةِ عادٍ قال: ﴿كَذَّبَتۡ﴾ [القمر: ١٨] ولم يقُلْ: «بالنُّذُرِ»، وفي قِصَّةِ نوحٍ قال: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ [القمر: ٩]!

الجوابُ: أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ أنَّ عادتَهم ومَذهَبَهم إنكارُ الرُّسُلِ وتَكذيبُهم؛ فكَذَّبوا نُوحًا بِناءً على مذهبِهم، وإنَّما صَرَّح هاهنا؛ لأنَّ كلَّ قَومٍ يأتُونَ بعدَ قَومٍ، وأتاهما رَسولانِ، فالمكَذِّبُ المتأخِّرُ يُكَذِّبُ المُرسَلينَ جَميعًا حَقيقةً، والأوَّلونَ يُكَذِّبونَ رَسولًا واحِدًا حَقيقةً، ويَلزَمُهم تَكذيبُ مَن بَعْدَه بِناءً على ذلك؛ لأنَّهم لَمَّا كَذَّبوا مَن تقَدَّمَ في قَولِه: «اللهُ تعالى واحِدٌ، والحَشرُ كائِنٌ» ومَن أُرسِلَ بعْدَه كذلك في قَولِه ومَذْهَبِه- لَزِمَ منه أن يكَذِّبوه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ أنَّ المُشابَهةَ في البَشَريَّةِ لا تَستَلزِمُ عدَمَ التَّفاوُتِ في فَضلِ اللهِ تعالى! كما قال جَلَّ وعلا: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤]، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ، وهذه الأقيسةُ فاسدةٌ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٤٢).

٣- في قَولِه تعالى؛ إنكارًا على ثَمودَ: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ حُجَّةٌ واضحةٌ في قَبولِ خبرِ الواحدِ العَدْلِ، ورَدٌّ على مَن يَرُدُّه؛ لأنَّ ثمودَ مع بشَريَّةِ صالحٍ أَنكَروا وَحْدَتَه، فكذَّبوه لذلك[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ أنَّ هذا الكَلامَ مِن ضَلالِهم وشَقائِهم؛ فإنَّهم أَنِفُوا أن يتَّبِعوا رَسولًا مِنَ البَشَرِ، ولم يَأنَفوا أن يكونوا عابِدينَ للشَّجَرِ والحَجَرِ والصُّوَرِ[٢]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ أنَّ مِن مَدارِكِ عُقولِ الجَهَلةِ قِياسَ الأُمورِ بمقاييسِ قُصورِ أفهامِهم، ويَحسَبونَ أنَّ أسبابَ الأَثَرةِ في العاداتِ هي أسبابُها في الحقائِقِ[٣]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ مع قَولِه عن مُشرِكي قُرَيشٍ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فيه أنَّ قُلوبَ الكُفَّارِ مُتشابِهةٌ، فكانت أعمالُهم مُتشابِهةً، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [البقرة: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾[٤] [الذاريات: ٥٣]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ دَلالةٌ على جوازِ «المُهايَأَةِ»[٥]

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٢).

(٥) المُهايَأَةُ: هي أنْ يَتواضَعوا على أمرٍ فيَتَراضَوْا به، وحقيقَتُه أنَّ كلًّا منهم يرضَى بحالةٍ واحدةٍ ويختارُها. أو هي مُقاسَمةُ المنافِعِ، وهي أنْ يَتراضى الشَّريكانِ أنْ يَنتَفِعَ هذا بهذا النِّصفِ المُفْرَزِ، وذاك بذاك النِّصفِ، أو هذا بكلِّه في كذا مِن الزَّمانِ، وذاك بكُلِّه في كذا مِن الزَّمانِ بقَدرِ مُدَّةِ =

على الماءِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الماءَ مَقسومٌ بيْنَ النَّاسِ، ليس لأحدٍ أنْ يَنفرِدَ به، ويَمنعَ غيرَه، فما كان مِن السَّماءِ والأنهارِ والعُيونِ فالقِسمةُ واقعةٌ عليه بالسَّوِيَّةِ، وما كان يَجري بالنَّفَقةِ والكُلْفةِ فهو لِمَن أجراه وأَنفقَ عليه؛ يَمنَعُه ممَّن أحَبَّ إلَّا الشَّفةَ[٢]، فلا يجوزُ مَنعُه بوَجهٍ مِن الوُجوهِ، إلَّا أنْ يُحرَزَ منه شَيءٌ في بيتٍ أو رَكْوةٍ أو آنيةٍ، أو ما أشْبَهَ ذلك[٣].

٩- قولُه تعالَى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ عاقرَ النَّاقةِ واحدٌ، وقد جاءتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على كَونِه غيرَ واحدٍ، كقولِه: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقولِه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤]؟

والجوابُ مِن وجهَين:

الأوَّلُ: أنَّهم تَمالَؤوا كلُّهم على عَقْرِها، فانْبَعَث أشْقاهم لمُباشَرةِ الفِعلِ؛ فأُسنِدَ العقْرُ إليهم؛ لأنَّه برِضاهم ومُمالأتِهم. فثَمودُ اتَّفَقوا كلُّهم على عقْرِ الناقةِ، فنادَوا واحدًا منهم ليُنفِّذَ ما اتَّفَقوا عليه؛ أصالةً عن نفْسِه، ونِيابةً عن غيرِه. ومَعلومٌ أنَّ المُتمالئِينَ على العقْرِ كُلهم عاقِرون، وصحَّت نِسبةُ العقْرِ إلى المُنفِّذِ المباشِرِ للعقرِ، وصحَّت نِسبتُه أيضًا إلى الجميعِ؛ لأنَّهم مُتمالِئون، كما دلَّ عليه تَرتيبُ

= الأوَّلِ. يُنظر: ((طلبة الطلبة)) للنسفي (ص: ١٢٧)، ((المغرب في ترتيب المعرب)) للمُطَرِّزي (ص: ٥٠٩).

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٩٥)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٢).

(٢) الشَّفَةُ واحدةُ الشِّفاهِ، أصلُها شَفَهَةٌ، أُسقِطَت الهاءُ تَخفيفًا، والمرادُ الشُّرْبُ بالشِّفاهِ، وأهلُ الشَّفَةِ هم الَّذين لهم حَقُّ الشُّرْبِ بشِفاهِهم، وسَقْيُ دَوابِّهم والاستِقاءُ بالأوانِي، دونَ سقيِ الأراضي. يُنظر: ((طلبة الطلبة)) للنسفي (ص: ١٥٦)، ((العناية شرح الهداية)) للبابرتي (١٠/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٨).

تَعاطي العقْرِ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ على نِدائِهم صاحبَهم؛ ليَنوبَ عنهم في مُباشَرةِ العقْرِ في قولِه تَعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾، أي: نادَوه ليَعقِرَها.

الوجهُ الثَّاني: أنَّه مِن إسنادِ الفعلِ إلى المجموعِ مُرادًا به بَعضُه[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ مُناسَبةٌ في أخذِ ثَمودَ بالصَّيحةِ الطَّاغيةِ؛ لأنَّهم نَادَوا صاحِبَهم ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾، فلمَّا كان نِداؤُهم صاحِبَهم سَبَبًا في عَقرِ النَّاقةِ، كان هَلاكُهم بالصَّيحةِ الطَّاغيةِ[2]!

١١- عبَّر الله عزَّ وجلَّ عن الهلاكِ الَّذي أهلَك به ثمودَ بعِباراتٍ مُختلِفةٍ؛ فذكره في مَواضِعَ مِن كتابِه باسمِ الصَّيحةِ، ومِن ذلك قولُه هنا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾.

وعبَّر عنه بالصَّاعِقةِ في مَواضِعَ مِن كتابِه، منها قولُه تعالى في سورةِ (الذَّارياتِ): ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۞ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٣، ٤٤].

وعبَّر عنه بالرَّجْفةِ في سورةِ (الأعرافِ)، في قولِه تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

وعبَّر عنه بالتَّدميرِ في سورةِ (النَّملِ)، في قولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١].

وعبَّر عنه بالطَّاغيةِ في (الحاقَّة)، في قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٥٩).

وعبَّر عنه بالدَّمْدَمةِ في (الشَّمس)، في قولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤].

وعبَّر عنه بالعذابِ في سورةِ (الشُّعَراء)، في قولِه تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧، ١٥٨].

ومعنى هذه العِباراتِ كلِّها راجعٌ إلى شيءٍ واحدٍ، وهو أنَّ اللهَ أرسَل عليهم صَيحةً أهلكَتْهم، والصَّيحةُ: الصَّوتُ المُزعِجُ المُهلِكُ. والصَّاعِقةُ تُطلَقُ أيضًا على الصَّوتِ المُزعِجِ المُهلِكِ، وعلى النَّارِ المُحرِقةِ، وعليهما معًا، ولِشِدَّةِ عظمِ الصَّيحةِ وهَوْلِها مِن فَوقِهم رجفَتْ بهم الأرضُ مِن تحتِهم، أي: تحرَّكَتْ حرَكةً قويَّةً، فاجتمَع فيها أنَّها صَيحةٌ وصاعِقةٌ ورَجْفةٌ، وكَوْنُ ذلك تدميرًا واضحٌ. والمرادُ بالصَّيحةِ: الطَّاغيةُ الَّتي أهلَكهم الله بها، وقيل لها طاغيةٌ؛ لأنَّها واقِعةٌ مُجاوِزةٌ للحدِّ في القوَّةِ وشدَّةِ الإهلاكِ.

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ [الشمس: ١٤] فإنَّه لا يُخالِفُ ما ذكَرْنا؛ لأنَّ معنَى الآيةِ أنَّه أطبَق عليهم العذابَ، وألْبَسَهم إيَّاه بسببِ ذَنْبِهم.

وأمَّا إطلاقُ العذابِ عليه في سورةِ (الشُّعَراءِ) فواضِحٌ؛ فاتَّضَح رُجوعُ معنَى الآياتِ المذكورةِ إلى شَيءٍ واحدٍ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ * فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ * أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾

- مَوقِعُ هذه الجُملةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ كمَوقعِ جُملةِ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١-٢٣).

[القمر: ٩]؛ فكان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ تُعطَفَ عليها، وإنَّما فُصِلَت عنها؛ ليَكونَ في الكلامِ تَكريرُ التَّوبيخِ والتَّهديدِ والنَّعْيِ عليهم عقِبَ قولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤، ٥]، ومَقامُ التَّوبيخِ والنَّعْيِ يَقْتضي التَّكريرَ(١).

- وإسنادُ حُكْمِ التَّكذيبِ إلى ثَمودَ -وهو اسمُ القَبيلةِ- مُعتبَرٌ فيه الغالبُ الكثيرُ؛ فإنَّ صالحًا قد آمَنَ به نفَرٌ قليلٌ، كما حَكاهُ اللهُ عنهم في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾(٢) [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

- وفُرِّعَ على جُملةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ قولُه: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ إلى قولِه: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾؛ لأنَّ المعنى: أنَّهم كذَّبوا إنذاراتِ رَسولِهم -أي: جَحَدوها- ثمَّ كذَّبوا رَسولَهم(٣).

- وقولُهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ...﴾ إلى آخِرِه، هذا القولُ يَقتَضي كَوْنَه جَوابًا عن دَعوةٍ وإنذارٍ، وإنَّما فُصِّلَ تَكذيبُ ثَمودَ وأُجمِلَ تَكذيبُ عادٍ؛ لقَصْدِ بَيانِ المُشابَهةِ بيْن تَكذيبِ ثَمودَ وتَكذيبِ قُريشٍ؛ إذ تَشابَهَت أقوالُهم(٤).

- وهذا قَولٌ قالوه لرَسولِهم لَمَّا أنْذَرَهم بالنُّذُرِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿كَذَّبَتْ﴾ يُؤْذِنُ بمُخبِرٍ؛ إذ التَّكذيبُ يَقْتضي وُجودَ مُخبِرٍ، وهو كلامٌ شافَهوا به صالحًا عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩١، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السَّلامُ، وهو الَّذي عَنَوه بقَولِهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا﴾ إلخ، وعَدَلوا عن الخِطابِ إلى الغَيبةِ[١].

- قولُه: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾، الاستفهامُ هنا إنكاريٌّ؛ أنْكَروا أنْ يُرسِلَ اللهُ إلى النَّاسِ بشَرًا مِثلَهم في الجِنسيَّةِ، وطَلَبوا أنْ يكونَ مِن جِنسٍ أعْلى مِن جِنسِ البشَرِ، وهم الملائكةُ[٢].

- وانتَصَب ﴿أَبَشَرًا﴾ على المَفعوليَّةِ لـ ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ على طَريقةِ الاشتِغالِ[٣]، وقُدِّمَ لاتِّصالِه بهَمزةِ الاستفهامِ؛ لأنَّ حقَّها التَّصديرُ، واتَّصَلت به دونَ أنْ تَدخُلَ على (نتَّبِع)؛ لأنَّ مَحلَّ الاستفهامِ الإنكاريِّ هو كَونُ البشَرِ مَتْبوعًا، لا اتِّباعُهم له، وهذا مِن دَقائقِ مَواقعِ أدواتِ الاستفهامِ[٤].

- قوله: ﴿وَٰحِدًا﴾ صِفةٌ أُخرى لـ (بَشَرًا)، وتأْخيرُه عن الصِّفةِ المُؤوَّلةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ كلًّا مِن الجِنسيَّةِ والوَحدةِ ممَّا يَمنَعُ الاتِّباعَ، ولو قُدِّمَ عليها لَفاتتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٦).

(٣) الاشتِغالُ: هو أن يتقَدَّمَ اسمٌ واحِدٌ، ويتأخَّرَ عنه عامِلٌ مُشتَغِلٌ عن العَمَلِ في ذلك الاسمِ بالعَمَلِ في ضَميرِه مُباشَرةً، أو في سَبَبِه -أي: كلِّ شَيءٍ له صِلةٌ وعَلاقةٌ به؛ مِن قَرابةٍ، أو صداقةٍ، أو عَمَلٍ-، بحيثُ لو فُرِّغ مِن ذلك المعمولِ وسُلِّطَ على الاسمِ المتقَدِّمِ، لعَمِلَ فيه النَّصبُ لَفظًا أو محَلًّا. وأركانُ الاشتِغالِ ثلاثةٌ؛ هي:

أ- مَشغولٌ عنه: وهو الاسمُ المتقَدِّمُ.

ب- مشغولٌ: وهو الفِعلُ المتأخِّرُ.

ج- ومَشغولٌ به: وهو الضَّميرُ الَّذي تعدَّى إليه الفِعلُ بنَفْسِه أو بالوَساطةِ. يُنظر: ((أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك)) لابن هشام (٢/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٦).

هذه النُّكتةُ[١].

- جُملةُ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ تَعليلٌ لإنكارِ أنْ يتَّبِعوا بشَرًا منهم، تَقديرُه: أَنتَّبِعُك وأنت بشَرٌ واحدٌ منَّا[٢]؟!

- و(في) للظَّرفيَّةِ، جَعَلوا تَلبُّسَهم بالضَّلالِ والجُنونِ كتَلبُّسِ المَظروفِ بالظَّرْفِ[٣].

- وجُملةُ ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ تَعليلٌ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، أي: كيف يُلْقَى عليه الذِّكرُ دُونَنا؟! يُريدون أنَّ فيهم مَن هو أحقُّ منه بأنْ يُوحَى إليه[٤].

- وقولُه: ﴿بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ إضرابٌ عمَّا أنْكَروه بقَولِهم: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾، أي: لم يَنزِلِ الذِّكرُ عليه مِن بيْنِنا، بلْ هو كذَّابٌ فيما ادَّعاهُ، بَطِرٌ مُتكبِّرٌ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ، تَقديرُه: قُلْنا لنَذيرِهم... الَّذي دلَّ عليه قولُه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣]؛ فإنَّ النُّذرَ تَقْتضي نَذيرًا بها، وهو المُناسِبُ لقولِه بعْدَه: ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ﴾ [القمر: ٢٧]، وذلك مَبْنيٌّ على أنَّ قولَه آنِفًا: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤] كَلامٌ أجابوا به نِذارةَ صالحٍ إيَّاهم المُقدَّرةَ مِن قَولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣]، وبذلك انتظَمَ الكلامُ أتمَّ انتِظامٍ[٦]؛ فقولُه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا ...﴾ حِكايةٌ لِما قالَهُ تعالَى لصالحٍ عليهِ السَّلامُ؛ وعْدًا له، ووَعيدًا لقَومِه، والسِّينُ لتَقريبِ مَضمونِ الجُملةِ وتأْكيدِه[١].

- قولُه: ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾ قُرِئَ بياءِ الغَيبةِ، وهو مِن إعلامِ اللهِ تعالى لصالحٍ عليه السَّلامُ. وعلى قِراءةِ ﴿سَتَعۡلَمُونَ﴾ -بتاءِ الخِطابِ[٢]- فهي تَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا حِكايةَ كَلامٍ مِن اللهِ لصالحٍ عليه السَّلامُ، على تَقديرِ: قُلْنا له: قُلْ لهم؛ ففيه حذْفُ قَولٍ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ خِطابًا مِن اللهِ لهم، بتَقديرِ: قُلْنا لهم: ستَعْلَمون. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ خِطابًا للمُشرِكين على جعْلِ الجُملةِ مُعترِضةً[٣].

- وفي قولِه: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالإبهامِ؛ ليَكونَ الوَعيدُ أحفَلَ بالانتقامِ والتَّهديدِ، وأشدَّ أثَرًا في النُّفوسِ، وأَورَدَه مَورِدَ الإبهامِ وإنْ كانوا همُ المَعْنِيِّينَ؛ لأنَّه أراد وقْتَ الموتِ، ولم يُرِدْ غدًا بعَينِه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ﴾ هذه الجُملةُ بَيانٌ لجُملةِ ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦]، باعتِبارِ ما تَضمَّنَته الجُملةُ المُبيَّنةُ مِن الوَعيدِ، وتَقريبِ زَمانِه، وأنَّ فيه تَصديقَ الرَّسولِ الَّذي كذَّبوه[٥].

- وضَميرُ ﴿لَّهُمۡ﴾ جارٍ على مُقْتضَى الظَّاهرِ على قِراءةِ ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾ بياءِ الغائبةِ. وعلى قِراءةِ ﴿سَتَعۡلَمُونَ﴾ -بتاءِ الخِطابِ- فضَميرُ ﴿لَّهُمۡ﴾ الْتِفاتٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧١).

(٢) وهي قراءةُ ابنِ عامرٍ، وحمزةَ، وقرأ الباقون ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وإرسالُ النَّاقةِ إشارةٌ إلى قِصَّةِ مُعجزةِ صالحٍ أنَّه أخرَجَ لهم ناقةً مِن صَخْرةٍ -على قولٍ-، وكانتْ تلك المُعجزةُ مُقدِّمةَ الأسبابِ الَّتي عُجِّلَ لهم العذابُ مِن أجْلِها؛ فذِكْرُ هذه القِصَّةِ في جُملةِ البَيانِ تَوطئةٌ وتَمْهيدٌ[١].

- واسمُ الفاعلِ مِن قولِه: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ مُستعمَلٌ في الاستِقبالِ، بقَرينةِ قولِه: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾، فعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (سنُرسِلُ) إلى صِيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لتَقريبِ زمَنِ الاستِقبالِ مِن زمَنِ الحالِ[٢].

- قولُه: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ الارتقابُ: الانتِظارُ، ارتقَبَ مِثلُ: رقَبَ، وهو أبلَغُ دَلالةً مِن رقَبَ؛ لِزيادةِ المَبْنى فيه[٣].

- وعُدِّيَ الارتقابُ إلى ضَميرِهم على تَقديرِ مُضافٍ يَقْتضيهِ الكلامُ؛ لأنَّه لا يَرتقِبُ ذَواتِهم، وإنَّما يَرتقِبُ أحوالًا تَحصُلُ لهم، وهذه طَريقةُ إسنادِ أو تعليقِ المُشتقَّاتِ الَّتي مَعانيها لا تُسنَدُ إلى الذَّواتِ، فتَكونُ على تَقديرِ مُضافٍ اختصارًا في الكلامِ؛ اعتمادًا على ظُهورِ المعْنى[٤].

- والاصطبارُ: الصَّبرُ القويُّ، وهو أقْوى دَلالةً مِن الصَّبرِ[٥].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ (اصْطَبِرْ)؛ لِيَعُمَّ كلَّ حالٍ تَسْتدعي الضَّجَرَ، والتَّقديرُ: واصطَبِرْ على أذاهُم، وعلى ما تَجِدُه في نفْسِك مِن انتظارِ النَّصرِ[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ مَعطوفٌ على جُملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾، باعتبارِ أنَّ الوعْدَ بخلْقِ آيةِ النَّاقةِ يَقْتضي كَلامًا مَحذوفًا، تَقديرُه: فأرسَلْنا لهم النَّاقةَ، وقُلْنا: نَبِّئْهم أنَّ الماءَ قِسمةٌ بيْنَهم، على طَريقةِ العَطْفِ والحذْفِ في قولِه: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، وإنْ كان حرْفُ العطْفِ مُختلِفًا، ومِثلُ هذا الحذْفِ كَثيرٌ في إيجازِ القرآنِ[١].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡمَآءَ﴾ للعهْدِ، أي: ماءَ القريةِ الَّذي يَسْتقُون منه؛ فإنَّ لكلِّ مَحلَّةٍ يَنزِلُها قومٌ ماءً لسُقْياهُم[٢].

- وأُخبرَ عن الماءِ بأنَّه قِسمةٌ بيْنَ النَّاسِ وبيْنَ النَّاقةِ، والمُرادُ مَقسومٌ؛ فهو مِن الإخبارِ بالمَصدرِ للتَّأكيدِ والمُبالَغةِ[٣].

- وضَميرُ (بَيْنَهُمْ) عائدٌ إلى مَعلومٍ مِن المَقامِ بعْدَ ذِكرِ الماءِ؛ إذ مِن المُتعارَفِ أنَّ الماءَ يَسْتقي منه أهلُ القريةِ لأنفُسِهم وماشِيَتِهم، ولَمَّا ذُكِرَت النَّاقةُ عُلِمَ أنَّها لا تَسْتغني عن الشُّربِ؛ فغُلِّب ضَميرُ العُقلاءِ على ضَميرِ النَّاقةِ الواحدةِ[٤].

- والمُحتضَرَ: اسمُ مَفعولٍ مِن الحُضورِ، وهو ضِدُّ الغَيبةِ، والمعْنى: مُحتضَرٌ عندَه، فحُذِفَ المُتعلَّقُ؛ لظُهورِه[٥].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾

- عُبِّرَ عن قاتِلِ النَّاقةِ بـ﴿صَاحِبَهُمۡ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم راضُون بفِعلِه؛ إذ همْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١).

مُصاحِبون له ومُمالِئون[١].

- ونِداؤهم إيَّاهُ نِداءُ الإغراءِ بالنَّاقةِ، وإنَّما نادَوه لأنَّه مُشتهِرٌ بالإقدامِ، وقِلَّةِ المُبالاةِ؛ لعِزَّتِه[٢].

- و﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ مُطاوِعُ عاطاهُ، وهو مُشتَقٌّ مِن: عَطا يَعْطو، إذا تناوَلَ. وصِيغةُ (تَفاعل) تَقْتضي تَعدُّدَ الفاعلِ، شُبِّهَ تَخوُّفُ القَومِ مِن قتْلِها لِما أنذَرَهم به رسولُهم مِن الوعيدِ، وتَردُّدُهم في الإقدامِ على قتْلِها بالمُعاطاةِ؛ فكلُّ واحدٍ حِينَ يُحجِمُ عن مباشَرةِ ذلك، ويُشيرُ بغَيرِه، كأنَّه يُعْطي ما بيَدِه إلى يَدِ غيرِه حتَّى أخَذَه أشقَى القَومِ فعقَرها[٣].

- وعُطِفَ ﴿فَعَقَرَ﴾ بالفاءِ؛ للدَّلالةِ على سُرعةِ إتيانِه ما دَعَوه مِن أجْلِه[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تَفريعٌ على القصَّةِ، فليس هو تَكريرًا، ولكنَّه خاصٌّ بهذه القصَّةِ[٥].

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ بَيانٌ للإجمالِ الَّذي في قولِه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٠]، وهو في صُورةِ جَوابٍ للاستِفهامِ الصُّوريِّ، وكِلْتا الجُملتَينِ يُفيدُ تَعريضًا بتَهديدِ المُشرِكين بعَذابٍ على تَكذيبِهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤، ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١، ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٧، ٢٠٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٩٢، ٢٠٢).

- والصَّيحةُ: الصَّاعقةُ، وهي المُعبَّرُ عنها بالطَّاغيةِ في سُورةِ (الحاقَّةِ)، وفي سُورةِ (الأعرافِ) بالرَّجْفةِ، وهي صاعقةٌ عظيمةٌ خارِقةٌ للعادةِ أهلَكَتْهم؛ ولذلك وُصِفَت بـ﴿وَٰحِدَةٌ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّها خارقةٌ للعادةِ؛ إذ أتَتْ على قَبيلةٍ كاملةٍ[١].

- والهشيمُ: ما يَبِسَ وجَفَّ مِن الكلَأِ ومِن الشَّجَرِ، وهو مُشتقٌّ مِن الهشْمِ، وهو الكسْرُ؛ لأنَّ اليابِسَ مِن ذلك يَصيرُ سَريعَ الانكسارِ، والمرادُ هنا شَيءٌ خاصٌّ منه، وهو ما جَفَّ مِن أغصانِ العِضاهِ والشَّوكِ وعَظيمِ الكلَأِ، كانوا يتَّخِذون منه حَظائرَ لحِفظِ أغنامِهم مِن الرِّيحِ والعاديةِ[٢]؛ ولذلك أُضِيفَ الهَشيمُ إلى المُحتظِرِ -وهو بكسْرِ الظَّاءِ المُعجَمةِ- الَّذي يَعمَلُ الحظيرةَ ويَبْنِيها؛ وذلك بأنَّه يَجمَعُ الهشيمَ ويُلْقِيه على الأرضِ؛ ليَرصُفَه بعْدَ ذلك سِياجًا لحَظيرتِه، فالمُشبَّهُ به هو الهشيمُ المَجموعُ في الأرضِ قبْلَ أنْ يُسيَّجَ؛ ولذلك قال: ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾، ولم يَقُلْ: كهَشيمِ الحظيرةِ؛ لأنَّ المَقصودَ بالتَّشبيهِ حالتُه قبْلَ أنْ يُرصَفَ ويُصفَّفَ، وقبْلَ أنْ تُتَّخَذَ منه الحَظيرةُ[٣].

- وتَعديةُ إرسالِ الصَّيحةِ إلى ضَميرِهم بِناءً على الغالِبِ[٤].

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تَكريرٌ ثانٍ بعْدَ نَظيرَيه السَّالفَينِ في قصَّةِ قَومِ نُوحٍ وقصَّةِ عادٍ؛ تَذْييلًا لهذه القصَّةِ كما ذُيِّلَت بنَظيرَيه القِصَّتانِ السَّالِفتانِ، اقْتَضى التَّكريرَ مَقامُ الامتِنانِ والحثِّ على التَّدبُّرِ بالقرآنِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٢).

(٢) العاديَةُ: مِن عَدَا يَعْدو على الشَّيءِ، إذا اختلَسه. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢، ٢٠٣).

لأنَّ التَّدبُّرَ فيه يأْتي بتَجنُّبِ الضَّلالِ، ويُرشِدُ إلى مَسالِكِ الاهتداءِ، فهذا أهمُّ مِن تَكريرِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؛ فلذلك أُوثِرَ[1].

- وفائدةُ تَكريرِ قولِه: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ وقولِه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ حتَّى يُجدِّدَ المُستمِعون عندَ استماعِ كلِّ نَبأٍ مِن أنباءِ الأوَّلينَ ادِّكارًا واتِّعاظًا، وأنْ يَستأنِفوا تَنبُّهًا واستيقاظًا إذا سَمِعوا الحثَّ على ذلك والبَعثَ عليه، وأنْ يَقْرَعَ لهم العَصا مرَّاتٍ، ويُقعقِعَ لهم الشَّنَّ [أي: القِرْبة الخَلَق] تاراتٍ؛ لئلَّا يَغلِبَهم السَّهوُ، ولا تَستوليَ عليهم الغَفْلةُ، وهكذا حُكْمُ التَّكريرِ؛ كقولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ عندَ كلِّ نِعمةٍ عدَّها في سُورةِ (الرَّحمنِ)، وقولِه: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عندَ كلِّ آيةٍ أورَدَها في سُورةِ (المرسَلاتِ)، وكذلك تَكريرُ الأنباءِ والقصصِ في أنفُسِها؛ لتَكونَ تلك العِبَرُ حاضرةً للقلوبِ، مُصوَّرةً للأذهانِ، مَذكورةً غيرَ مَنْسيةٍ في كلِّ أوانٍ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٩).

الآيات (٢٢-٤٠)

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَاصِبًا﴾: أي: حِجارةً، أو: ريحًا عاصِفًا تَرمي بالحَصْباءِ، وهي الحَصَى، وأصلُ (حصب): يدُلُّ على الرَّمي[١].

﴿بِسَحَرٍ﴾: السَّحَرُ: آخِرُ اللَّيلِ، وأصلُه: يدُلُّ على وَقتٍ مِن الأوقاتِ[٢].

﴿بَطْشَتَنَا﴾: أي: عُقوبتَنا، وأخْذَنا إيَّاهم بالعَذابِ، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخْذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وغَلَبةٍ[٣].

﴿فَتَمَارَوْا﴾: أي: شَكُّوا وكَذَّبوا، والمِرْيَةُ: التَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهو أخصُّ مِن الشَّكِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٩).

﴿رَٰوَدُوهُ﴾: أي: أرادوا منه تَمكينَهم مِن ضُيوفِه، والمُراوَدةُ: مُفاعَلةٌ مِن راد يَرودُ: إذا جاء وذَهبَ، وأصلُ (رود): يدُلُّ على مجيءٍ وذَهابٍ[١].

﴿فَطَمَسۡنَآ﴾: أي: مَحَوْنا وأَعمَيْنا، والطَّمسُ: إزالةُ الأثَرِ بالمحْوِ، وأصلُ (طمس): يدُلُّ على مَحوِ الشَّيءِ ومَسْحِه[٢].

﴿صَبَّحَهُم بُكۡرَةً﴾: أي: جاءَهم وقْتَ الصُّبحِ، يُقالُ: صَبَحْتُ فُلانًا وصَبَّحْتُه: إذا أَتَيْتَه صَباحًا، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدئِه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا موقفَ قَومِ لوطٍ مِن نبيِّهم لوطٍ عليه السَّلامُ: كذَّبتْ قَومُ لُوطٍ بما جاءَهم مِنَ اللهِ مِن نُذُرٍ تُنذِرُهم عَذابَه، إنَّا أرسَلْنا على قَومِ لُوطٍ حِجارةً مِنَ السَّماءِ لإهلاكِهم إلَّا آلَ لُوطٍ الَّذين آمَنوا به واتَّبَعوه على دينِه؛ فإنَّا نَجَّيْناهم مِنَ العَذابِ وقْتَ السَّحَرِ في آخِرِ اللَّيلِ؛ إنعامًا مِنَّا عليهم، وكما أنجَيْنا لُوطًا وآلَه مِنَ العَذابِ نُنْجِي أيضًا كُلَّ مَن شَكَرَنا على نِعَمِنا.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا الأسبابَ الَّتي أدَّت إلى إهلاكِ قَومِ لوطٍ: ولقد خوَّف لُوطٌ قَومَه وحَذَّرهم مِن أخْذَتِنا الشَّديدةِ لهم، فشَكُّوا في إنذارِه لهم وكذَّبوا، ولقد راوَدوه عن ضُيوفِه؛ أنْ يمكِّنَهم مِن فِعلِ الفاحِشةِ بهم، فطَمَسْنا أعيُنَهم، فلمْ يُبصِروا! فذُوقوا -يا قَومَ لُوطٍ- عَذابي وعاقِبةَ إنذاري.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٣٣).

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى ما حلَّ بهم مِن عذابٍ، فيقولُ: ولقد صبَّحَهم أوَّلَ النَّهارِ عَذابٌ ثابِتٌ مُستَمِرٌّ. فذُوقوا -يا قَومَ لُوطٍ- عَذابي وعاقِبَةَ إنذاري.

ويختمُ سبحانَه قِصَّتَهم بما ختَم به القصصَ السَّابقةَ، فيقولُ: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، والاتِّعاظِ، فهل مِن مُتذَكِّرٍ؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت قِصَّةُ لُوطٍ -عليه السَّلامُ- مع قَومِه أعظَمَ ما كان بعدَ ثَمودَ مِمَّا تَعرِفُه العَرَبُ بالأخبارِ، ورُؤيةِ الآثارِ، ومعَ ما في قِصَّتِهم مِن تَصويرِ السَّاعةِ مِن تبديلِ الأرضِ غيرَ الأرضِ- استأنَفَ قَولَه[1]:

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣﴾.

أي: كذَّبتْ قَومُ لُوطٍ بما جاءَهم مِنَ اللهِ مِن النُّذرِ الَّتي تُنذِرُهم عَذابَه[2].

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٤).

قوله: ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ جمعَ نذيرٍ، أي: كَذَّبَتْ بِالرُّسلِ المُرسَلينَ إليهم، وقال: ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ معَ أنَّ لُوطًا كان واحدًا؛ لأنَّ مَن كذَّب واحِدًا مِن الرُّسُلِ، فكأنَّه كذَّب جميعَ الرُّسلِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مصدرًا بمعنَى الإنذارِ، أي: كَذَّبَتْ بالإنذارِ الَّذي أُنْذِروا به. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥١).

فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾.

أي: إنَّا أرسَلْنا على قَومِ لُوطٍ حِجارةً أُمطِرَتْ عليهم؛ لإهلاكِهم[(١)].

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾.

أي: إلَّا لوطًا ومَن تبِعه على دينِه وآمَن به؛ فإنَّا نَجَّيْناهم مِنَ العَذابِ وَقتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٤).

قيل: الحاصِبُ: هو الحِجارةُ. ومِمَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: هو الرِّيحُ الَّتي تَرمي بالحَصباءِ، وهي الحَصى. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ صِغارُ الحَصى: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٦).

وقيل: الحاصِبُ: السَّحابُ الرَّامي بالبَرَدِ وغَيرِه. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٩).

قال الشنقيطي في سورةِ الإسراءِ بعدَ أن ذكر أنَّ الحاصِبَ قد قيل: إنَّها السَّحابةُ أو الرِّيحُ، قال: (وكِلا القَولَينِ صحيحٌ؛ لأنَّ كلَّ ريحٍ شديدةٍ تَرمي بالحَصْباءِ تُسمَّى حاصِبًا وحَصِبَةً، وكلَّ سَحابةٍ تَرمي بالبَرَدِ تُسمَّى حاصِبًا أيضًا). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٧٣).

وقيل غيرُ ذلك في معنى الحصباءِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤١٧).

السَّحَرِ في آخِرِ اللَّيلِ[١].

كما قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾.

أي: إنعامًا مِنَّا عليهم، وكَرامةً لهم مِن عِندِنا[٢]!

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾.

أي: كما أنجَيْنا لُوطًا وآلَه مِنَ العَذابِ؛ بسَبَبِ طاعتِهم للهِ تعالى- نُنْجِي أيضًا كُلَّ مَن شَكَرَنا على ما أنعَمْنا عليه مِنَ النِّعَمِ، فآمَنَ باللهِ وأطاعَه[٣].

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: ولقد خوَّف لُوطٌ قَومَه، وحَذَّرهم مِن أخْذَتِنا الشَّديدةِ قبْلَ حُصولِها، فشَكُّوا في إنذاراتِه، وكذَّبوا بها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٣-١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).
﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ أي: لُوطًا ومَن تَبِعه، وقيل: لم يَتْبَعْه إلَّا ابنتاه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٢٥/ ٢٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).
قال ابنُ عثيمين: (أي: أنعَمْنا على آلِ لوطٍ نِعمةً مِن عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ مِن وَجهَين: الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ اللهَ أنجاهم. والوَجهُ الثَّاني: أنَّ اللهَ أهلَكَ عَدُوَّهم؛ لأنَّ إهلاكَ العَدُوِّ مِن نِعمةِ اللهِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن =

﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ ﴾.

أي: ولقد طَلَب قَومُ لُوطٍ منه تمكينَهم مِن فِعلِ الفاحِشةِ بضُيوفِه، وألَحُّوا في طَلَبِهم مِرارًا[1]، فطَمَسْنا أعيُنَهم، فصارت كسائِرِ الوَجهِ بلا شَقٍّ، فلم يُبصِروا[2]! كما قال تعالى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ

= كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٥، ٢٨٦).

(١) قال ابن كثير: (﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ ﴾ وذلك لَيلةَ ورَدَ عليه الملائِكةُ: جِبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ في صورةِ شَبابٍ مُرْدٍ حِسانٍ؛ محنةً مِنَ اللهِ بهم، فأضافهم لوطٌ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٦).

وممَّن قال بأنَّ معنى طَمْسِ الأعيُنِ هنا: هو تصييرُها كسائِرِ الوَجهِ، فلا يكونُ لها شَقٌّ: ابنُ جرير، والبِقاعي، والشوكاني، ونسَبَه البَغَويُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٩، ١٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٦).

وقال القرطبي: (﴿ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ ﴾ يُروى أنَّ جِبريلَ عليه السَّلامُ ضَرَبَهم بجَناحِه، فعَمُوا.

وقيل: صارت أعينُهم كسائِرِ الوَجهِ لا يُرى لها شَقٌّ، كما تَطمِسُ الرِّيحُ الأعلامَ بما تَسفي عليها مِنَ التُّرابِ.

وقيل: لا، بل أعماهم اللهُ مع صِحَّةِ أبصارِهم، فلم يَرَوهم. قال الضَّحَّاكُ: طَمَس اللهُ على أبصارِهم، فلم يرَوُا الرُّسُلَ، فقالوا: لقد رأَيْناهم حينَ دَخَلوا البَيتَ فأين ذَهَبوا؟! فرجَعوا ولم يَرَوهم). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤).

وقال ابن عثيمين: (أمَّا كيف طَمَس أعيُنَهم: هل جِبريلُ عليه السَّلامُ ضَرَبَهم بجَناحِه، أو غيرُ ذلك؟ اللهُ أعلَمُ، إنَّما علينا أن نؤمِنَ بأنَّ اللهَ تعالى طَمَس أعيُنَهم، حتَّى أصبَحوا لا يُبصِرونَ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٦).

يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ۞ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ۞ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٧٨ - ٨٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۞ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۞ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ۞ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٦٧ - ٧١].

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

أي: فذُوقوا -يا مَعشَرَ قَومِ لُوطٍ- عَذابي الَّذي حلَّ بكم، وعاقِبةَ إنذاراتي الَّتي أُنذِرْتُم بها[1]!

﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٌ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣٨﴾.

أي: ولقد صبَّحَ قَومَ لوطٍ أوَّلَ النَّهارِ عَذابٌ ثابِتٌ لا يَنقَطِعُ عنهم[2].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ۞ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٢)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٢٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٦، ٢٠٧).
قال أبو حيَّان: (﴿عَذَابٌ مُّسۡتَقِرّٞ﴾: أي: لم يَكشِفْه عنهم كاشِفٌ، بل اتَّصَل بمَوتِهم، ثمَّ بما بعدَ ذلك مِن عذابِ القَبرِ، ثمَّ عذابِ جَهنَّمَ!). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦).
وقال ابنُ عاشور: (المُستَقِرُّ: الثَّابِتُ الدَّائِمُ الَّذي يجري على قُوَّةٍ واحِدةٍ لا يُقلِعُ، حتَّى استأصَلَهم. والعذابُ: هو الخَسفُ ومَطَرُ الحِجارةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٧).

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۞ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٣، ٧٤].

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: فذُوقوا -يا مَعشَرَ قَومِ لُوطٍ- عَذابي الَّذي حَلَّ بكم، وعاقِبَةَ إنذاراتي الَّتي أُنذِرْتُم بها[١].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾.

أي: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، وحُصولِ الفَهمِ والاتِّعاظِ به[٢].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ؛ فيتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما في القُرآنِ الكريمِ[٣]؟

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَسَّرَ القرآنَ للذِّكْرِ؛ لِحِفْظِه، ولِفَهْمِ مَعناه، وهذا الخبرُ يُرادُ به الحَثُّ على حِفْظِ القُرآنِ، وعلى تَدَبُّرِ معناه؛ لأنه مُيَسَّرٌ سَهْلٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٣)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٢٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣، ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾ أَخَذَ منه أهلُ العِلمِ أنَّ اللُّوطيَّ يُقتَلُ بكُلِّ حالٍ -الفاعِلَ والمفعولَ به-، وهذا هو القَولُ الرَّاجِحُ: أنَّ اللِّواطَ يجبُ فيه القَتلُ على كُلِّ حالٍ، وليس كالزِّنا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ أنَّ لفْظَ «آلِ فلانٍ» إذا أُطلِقَ في الكتابِ والسُّنَّةِ دَخَلَ فيه فُلانٌ[٢].

٣- ذِكْرُ ﴿بِسَحَرٖ﴾ -أي: في وقْتِ السَّحَرِ-؛ للإشارةِ إلى إنجائِهم قُبَيلَ حُلولِ العَذابِ بقَومِهم؛ لقولِه بعْدَه: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾[٣] [القمر: ٣٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ أنَّ إهلاكَ العَدُوِّ هو مِن نِعمةِ اللهِ تعالى[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ أنَّه كما جازَيْنا لُوطًا وأهْلَه بالإنجاءِ فكذلك نَجزي مَن شَكَر -أي: آمَنَ باللهِ وأطاعه-. قال المفَسِّرونَ: هو وعْدٌ لأمَّةِ محمَّدٍ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بأنَّه يَصونُهم عن الهلاكِ العامِّ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ دليلٌ على أنَّ قومَ لوطٍ عَمُوا قبْلَ أنْ يُخسَفَ بهم، ويُمطَرَ عليهم؛ ففيه بيانٌ واضِحٌ -لِمَن تَدَبَّرَه- أنَّ النَّظَرَ إلى المُرْدِ للشَّهوةِ مَعصِيةٌ؛ لأنَّ الملائِكةَ كانوا جاؤوا لوطًا في صُورةِ المُرْدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٧١).

مِنَ البَشَرِ، فلمَّا رَمَقُوهم بعَينِ الشَّهوةِ عُوقِبوا بالعَمَى[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ سؤالٌ: أنَّ النُّذُرَ كيف تُذاقُ؟

الجوابُ: أنَّ المرادَ ثَمَرتُه وفائِدتُه[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أنَّ لفْظَ «الذَّوقِ» يُستعمَلُ في كلِّ ما يُحَسُّ به ويَجِدُ أَلَمَه أو لَذَّتَه، ولا يَختَصُّ لفظُ «الذَّوقِ» بما يكونُ بالفَمِ[٣]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ قيل: عُرِّفَ قومُ لُوطٍ بالإضافةِ إليه؛ إذ لم يكُنْ لتلك الأُمَّةِ اسمٌ يُعرَفون به عندَ العرَبِ[٤].

- ولم يُحْكَ هنا ما تَلَقَّى به قومُ لُوطٍ دَعوةَ لُوطٍ، كما حُكِيَ في القصصِ الثَّلاثِ قبْلَ هذه، وقد حُكِيَ ذلك في سُورةِ (الأعرافِ)، وفي سُورةِ (هُودٍ)، وفي سُورةِ (الحِجْرِ)؛ لأنَّ سُورةَ (القمَرِ) بُنِيَت على تَهديدِ المُشرِكين عن إعراضِهم عن الاتِّعاظِ بآياتِ اللهِ الَّتي شاهَدوها، وآثارِ آياتِه على الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي عَلِموا أخبارَها، وشَهِدوا آثارَها؛ فلم يكُنْ ثَمَّةَ مُقْتَضٍ لتَفصيلِ أقوالِ تلك الأُمَمِ إلَّا ما كان منها مُشابِهًا لأقوالِ المُشرِكين في تَفصيلِه، ولم تكُنْ أقوالُ قَومِ لوطٍ بتلك المَثابةِ؛ فلذلك اقتُصِرَ فيها على حِكايةِ ما هو مُشترِكٌ بيْنَهم وبيْنَ المُشرِكين، وهو تَكذيبُ رسولِهم، وإعراضُهم عن نُذُرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن الإخبارِ عن قَومِ لوطٍ بأنَّهم كذَّبوا بالنُّذرِ، وكذلك جُملةُ ﴿نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾[١].

- والاستِثناءُ حَقيقيٌّ؛ لأنَّ آلَ لُوطٍ مِن جُملةِ قَومِه، وآلُ لوطٍ: قَرابتُه، وهم بَناتُه، ولُوطٌ داخِلٌ بدَلالةِ الفَحْوى[٢].

- وقد ذُكِرَ في آياتٍ أُخرى أنَّ زَوجةَ لوطٍ لم يُنَجِّها اللهُ، ولم يُذكَرْ ذلك هنا؛ اكتِفاءً بمَواقِعِ ذِكرِه، وتَنبيهًا على أنَّ مَن لا يُؤمِنُ بالرَّسولِ لا يُعَدُّ مِن آلِه، كما قال: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾[٣] [هود: ٤٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾

- جُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ مُعترِضةٌ، وهي استِئنافٌ بَيانيٌّ عن جُملةِ ﴿نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: ٣٤]، باعتِبارِ ما معها مِن الحالِ، أي: إنعامًا مِن أجْلِ أنَّه شكَرَ؛ ففيه إيماءٌ بأنَّ إهلاكَ غيرِهم لأنَّهم كَفَروا، وهذا تَعريضٌ بإنذارِ المُشرِكين، وبِشارةٌ للمؤمنينَ[٤].

- وفي قولِه: ﴿مِّنۡ عِندِنَا﴾ تَنويهٌ بشَأْنِ هذه النِّعمةِ؛ لأنَّ ظرْفَ (عِند) يدُلُّ على الادِّخارِ والاستِئثارِ، فذلِكَ أبلَغُ مِن أنْ يُقالَ: نِعمةً مِنَّا، أو: أنعَمْنا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والمرادُ بالفَحْوى هنا: إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَوْلَى. يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي الآيةِ احتِباكٌ[١]؛ فقد ذكَرَ الإنعامَ أوَّلًا -لأنَّه السَّبَبُ الحَقيقيُّ- دليلًا على حَذْفِه ثانيًا، والشُّكرَ ثانيًا -لأنَّه السَّبَبُ الظَّاهِرُ- دليلًا على حَذْفِه أوَّلًا[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ [القمر: ٣٤]. وتأْكيدُ الكلامِ بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قدْ) يُقصَدُ منه تأْكيدُ الغرَضِ الَّذي سِيقَت القصَّةُ مِن أجْلِه، وهو مَوعظةُ قُرَيشٍ الَّذين أنذَرَهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتَمارَوا بالنُّذرِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ لَطيفةٌ ومُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالَى هاهنا: ﴿بَطْشَتَنَا﴾، ولم يقُلْ: (بطْشَنا)، وقال في سُورةِ (البُروجِ): ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]؛ وذلك لأنَّ قولَه تَعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ بَيانٌ لجِنسِ بطْشِه، فإذا كان جِنسُه شَديدًا؛ فكيف الكُبْرَى منه؟! وأمَّا لُوطٌ عليه السَّلامُ فذَكَرَ لهم البَطْشةَ الكُبرَى؛ لئلَّا يكونَ مُقصِّرًا في التَّبليغِ[٤].

- والتَّماري: تَفاعُلٌ مِن المِراءِ، وهو الشَّكُّ، وصِيغةُ المُفاعَلةِ للمُبالَغةِ[٥].

- وضُمِّن ﴿فَتَمَارَوْا﴾ معنى: كذَّبوا؛ فعُدِّيَ بالباءِ[٦].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ إجمالٌ

---

(١) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لِمَا ذُكِرَ في غيرِ هذه السُّورةِ في قِصَّةِ قَومِ لوطٍ؛ أنَّه نزَلَ به ضَيفٌ، فرامَ قومُه الفاحشةَ بهم، وعجَزَ لُوطٌ عن دفْعِ قَومِه؛ إذ اقتَحَموا بَيتَه، وأنَّ اللهَ أعْمى أعيُنَهم -على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-، فلمْ يَرَوا كيف يَدخُلون[١].

- وأُسنِدَت المُراوَدةُ إلى ضَميرِ قَومِ لُوطٍ وإنْ كان المُراوِدونَ نفَرًا منهم؛ لأنَّ ما راوَدوا عليه هو مُرادُ جَميعِ القومِ، بقَطْعِ النَّظَرِ عن تَعيينِ مَن يَفعَلُه[٢].

- ويَتعلَّقُ قولُه: ﴿عَن ضَيۡفِهِۦ﴾ بفِعلِ ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ بتَقديرِ مُضافٍ، أي: عن تَمكينِهم مِن ضُيوفِهِ[٣]. وقيل: ضُمِّنَ ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ معْنى دفَعُوه وصَرَفوه؛ فعُدِّيَ بحرْفِ (عَن)[٤].

- قولُه: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه سِياقُ الكلامِ، أي: قُلْنا للنَّفَرِ الَّذين طمَسْنا أعيُنَهم: فذُوقوا عَذابي[٥].

- وعطْفُ النُّذرِ على العَذابِ باعتِبارِ أنَّ العذابَ تَصديقٌ للنُّذرِ، أي: ذُوقوا مِصْداقَ نُذُري[٦].

- وتَعديةُ فِعلِ ﴿فَذُوقُوا۟﴾ إلى نُذُري بتَقديرِ مُضافٍ، أي: وآثارَ نُذُري[٧].

- وحُذِفَت ياءُ المتكلِّمِ مِن قولِه: ﴿وَنُذُرِ﴾؛ تَخفيفًا[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٦).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٦).

(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي تَكرارِ قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أنَّ سَبَبَ العذابِ التَّكذيبُ بالإنذارِ لأيِّ رَسولٍ كان، وكان استِئنافُ كُلِّ قِصَّةٍ مُنَبِّهًا على أنَّها أهلٌ على حِدَتِها لأنْ يُتَّعَظَ بها[١]!

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾

- ذِكْرُ ﴿بُكْرَةً﴾؛ للدَّلالةِ على تَعجيلِ العذابِ لهم[٢].

- وفي وصْفِ العَذابِ بالاستِقرارِ إيماءٌ إلى أنَّ ما قبْلَه مِن عَذابِ الطَّمْسِ يَنتهِي إليهِ[٣].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ تَفريعُ قَولٍ مَحذوفٍ خُوطِبوا به، مُرادٍ به التَّوبيخُ[٤].

- والخِطابُ لجَميعِ الَّذين أصابَهم العذابُ المُستقِرُّ، وبذلك لم تكُنْ هذه الجُملةُ تَكريرًا[٥].

- والعذابُ الَّذي نزَلَ بهم مِن طمْسِ الأعيُنِ غيرُ العذابِ الَّذي أُهْلِكوا به؛ فلذلك حَسُنَ التَّكريرُ[٦].

- وفائدةُ الإعلامِ بما قِيل لهم مِن قولِه: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ في الموضِعَينِ: أنْ يَتجدَّدَ عندَ استِماعِ كلِّ نبَأٍ مِن ذلك ادِّكارٌ لهم، واتِّعاظٌ، وإيقاظٌ؛ استيفاءً

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤).

لحقِّ التَّذكيرِ القُرآنيِّ[١].

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تَكريرٌ ثالثٌ؛ تَنويهًا بشأْنِ القرآنِ؛ للخُصوصيَّةِ الَّتي تقدَّمت في المواضعِ الَّتي كُرِّرَ فيها نَظيرُه وما يُقارِبُه، وخاصَّةً في نَظيرِه المُوالي هو له. ولم يُذكَرْ هنا ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾؛ اكتِفاءً بحِكايةِ التَّنكيلِ لقَومِ لُوطٍ في التَّعريضِ بتَهديدِ المُشرِكين[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤١-٤٦)

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلزُّبُرِ﴾: أي: الكُتُبِ، جَمْعُ زَبورٍ، وأصلُ (زبر) هنا: يدُلُّ على قِراءةٍ وكتابةٍ[١].

﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾: أي: يَنهَزِمونَ فيُوَلُّونَكم أدبارَهم، يُقالُ: ولَّاه دُبُرَه: إذا انهزَم. والتَّولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ. والإدبارُ: الذَّهابُ إلى جِهةِ الخَلفِ، وأصلُ (دبر): يدُلُّ على خِلافِ القُبُلِ[٢].

﴿أَدْهَىٰ﴾: أي: أشدُّ وأفظَعُ، وهو «أفعَلُ»، مِنَ الدَّاهيةِ: وهي الرَّزِيَّةُ العُظمى تَنزِلُ بالمرءِ، وأصلُ (دهي): يدُلُّ على الإصابةِ بما يَسوءُ[٣].

﴿وَأَمَرُّ﴾: أي: أشَدُّ مَرارةً؛ مِن قَولِهم: مَرَّ الشَّيءُ وأمَرَّ: إذا اشتَدَّت مَرارتُه، وأصلُ (مرر) هنا: يدُلُّ على خِلافِ الحلاوةِ والطِّيبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٣٤).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما حلَّ بفِرعونَ وقَومِه: ولقد جاء أتْباعَ فِرعَونَ وقَومَه النُّذُرُ الَّتي تُنذِرُهم عذابَ اللهِ تعالى، كذَّبوا بجَميعِ آياتِ اللهِ تعالى، فأخَذَهم اللهُ تعالى أخْذَ شديدٍ قَويٍّ بالِغِ القُدرةِ سُبحانَه!

ثمَّ يُخاطِبُ اللهُ تعالى المشركينَ محذِّرًا مِن سوءِ العاقبةِ، وداعيًا إلى التَّفكُّرِ والاعتِبارِ، فيقولُ: أكُفَّارُكم -يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- خَيرٌ مِن أولئك الَّذين أهلَكْتُهم لكُفرِهم وتَكذيبِهم، أمْ لكم بَراءةٌ مَكتوبةٌ في الكُتُبِ الإلهيَّةِ السَّابِقةِ، مِن عاقبةِ كُفرِكم وتكذيبِكم، وعَذابِ رَبِّكم؟!

ثمَّ يقولُ الله تعالى موبِّخًا للمشركينَ على أحدِ أقوالِهم الباطِلةِ: أمْ يَقولُ كُفَّارُ قُرَيشٍ: نحنُ جماعةٌ كثيرةٌ مُنتَصِرونَ!

سيُهزَم جَمعُ كُفَّارِ قُرَيشٍ، ويَفِرُّونَ عن المُسلِمينَ مُدبِرينَ!

بل السَّاعةُ مَوعِدُ عَذابِهم الأصليِّ، وما يَحيقُ بهم في الدُّنيا فمِن طَلائِعِه، والسَّاعةُ أشدُّ فَظاعةً وأكثَرُ ألَمًا ومَرارةً مِمَّا يُصيبُهم مِن عَذابِ الدُّنيا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الآخِرُ يَنبغي له أنْ يَحذَرَ ما وَقَع للأوَّلِ، وكان قَومُ فِرعَونَ قد جاؤوا بعدَ قَومِ لُوطٍ عليه السَّلامُ، فكان رُبَّما ظُنَّ أنَّهم لم يُنذَروا؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ العادةَ جَرَت أنَّ مَن كَذَّب الرُّسُلَ هَلَك: أنكَرَ أن يَحصُلَ مِمَّن تَبِعَ ذلك تكذيبٌ، فقال

مُقسِمًا[١]:

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾.

أي: ولقد جاء فِرعَونَ وآلَه النُّذرُ الَّتي تُنذِرُهم عذابَ اللهِ تعالى[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧).

قيل: المرادُ بـ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾: أتْباعُه وقَومُه: وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٠).

وقال ابنُ عطية: (ويحتَمِلُ أن يُريدَ بـ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾: قرابتَه على عُرفِ الآلِ، وخَصَّصَهم بالذِّكرِ؛ لأنَّهم عُمدةُ القَومِ وكُبراؤُهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٠).

وقيل: المرادُ بـ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾: القِبطُ: وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥).

قال ابن عاشور: (﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، أي: فِرعونَ وآلَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٨).

وقال ابن تيميَّة: (فِرعون: داخلٌ في آلِ فِرعونَ المكذِّبينَ المأْخوذينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٢٨١).

وقال أيضًا: (الآلُ يُضافُ إلى مُعَظَّمٍ مِن شأنِه أنْ يَؤولَ غَيْرَه، أو يَسوسَه فيَكونَ مآلُه إليه، فآلُ الشَّخصِ هم مَن يَؤولُه، ويَؤولُ إليه، ويَرجِعُ إليه، ونفْسُه هي أوَّلُ وأَولَى مَن يَسُوسُه، ويَؤولُ إليه؛ فلهذا كان لفظُ «آل فُلانٍ» مُتناوِلًا له، ولا يُقالُ هو مُختَصٌّ به، بل يَتَناوَلُه ويَتناوَلُ مَنْ يَؤولُه). ((الفتاوى الكبرى)) (٢/ ١٩٦) بتصرف. ويُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٣٧٢، ٣٧٥)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٤).

قال الواحدي: (وفي ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّ المرادَ به موسى وهارونُ. وهذا قَولُ ابنِ عبَّاسٍ، ومُقاتِلٍ، والمفَسِّرينَ، وهو على تسميةِ الاثنَينِ باسمِ الجماعةِ؛ لأنَّه جَمعُ نَذيرٍ.

والثَّاني: أنَّ المرادَ به الآياتُ الَّتي أنذَرَهم بها موسى، وكُلُّ آيةٍ منها نذيرٌ.

والآخِرُ: أنَّ المرادَ به الإنذارُ.

ويدُلُّ على القَولِ الثَّاني قَولُه: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾، يعني: الآياتِ التِّسعَ، في قَولِ المفَسِّرينَ). =

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ٤٢﴾.

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾.

أي: كذَّبَ فِرعَونُ وآلُه بجَميعِ آياتِ اللهِ تعالى، الدَّالَّةِ على الحَقِّ(١).

= ((البسيط)) (٢١/ ١١٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٨، ٢٨٩).

قيل: المرادُ بالآياتِ هنا: الآياتُ التِّسْعُ؛ وهي: اليَدُ، والعَصا، والطَّمسُ، والسِّنونَ، والطُّوفانُ، والجَرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥).

وقيل: هي: العَصا، واليدُ، والطُّوفانُ، والجَرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ، والجَدْبُ، ونَقصُ الثَّمَراتِ. وهو كالقولِ السَّابقِ لكنْ مع إبدالِ نقصِ الثَّمراتِ بالطَّمسِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ أبي زَمَنين، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٤٣) و(٤/ ٣٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١١) و(٥/ ١٥٤). ويُنظر أيضًا: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤).

وممَّن قال: إنَّها الآياتُ التِّسعُ دونَ تفصيلِها: السمرقنديُّ، والثعلبي، والواحديُّ -ونسَبَه إلى قولِ المفسِّرينَ-، والبغوي، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢١).

وعزاه الرَّازيُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣١٩).

وقيل: المرادُ: كلُّ ما جاءهم به موسى عليه السَّلامُ. وممَّن اختاره: مكِّي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٠٣).

وقيل: المرادُ: جَميعُ آياتِ مُوسى، وجميعُ آياتِ الأنبياءِ قَبْلَه، والآياتُ الدَّالَّةُ على وُجودِ الرَّبِّ وقُدرتِه ومَشيئتِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٤٨).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

أي: فأخَذْناهم أخْذَ مَنْ هو شديدٌ قَويٌّ؛ فلا يُغلَبُ، بالِغُ القُدرةِ؛ فلا يَعجِزُ عمَّا يُريدُ[(١)]!

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠].

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾.

أي: أكُفَّارُكم -يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- خَيرٌ مِن أولئك الَّذين أهلَكْتُهم لكُفرِهم وتَكذيبِهم، مِثلُ: قَومِ نُوحٍ، وعادٍ، وثَمودَ، وقَومِ لُوطٍ، وآلِ فِرعَونَ؟ كلَّا! ليسوا خَيرًا منهم؛ فلْتَحذَروا مِن عِقابِ اللهِ إنْ أصرَرْتُم على كُفرِكم وتَكذيبِكم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٩).

قال ابنُ عاشور: (هذا الأخْذُ: هو إغراقُ فِرعَونَ ورِجالِ دَولتِه وجُندِه الَّذين خَرَجوا لنُصرتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٩).

وقال البِقاعي: (﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: لا يَعجَلُ بالأخْذِ؛ لأنَّه لا يَخافُ الفَوتَ، ولا يَخشى مُعَقِّبًا لحُكمِه، بالِغُ القُدرةِ إلى حَدٍّ لا يُدرِكُ الوَصفُ كُنْهَه؛ لأنَّ صِيغةَ الافتِعالِ مَبناها على المعاجَلةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٩).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾.

أي: أم لكم -يا كُفَّارَ قُرَيشٍ- بَراءةٌ مَكتوبةٌ في صَحائِفِ الكُتُبِ الإلهيَّةِ السَّابِقةِ؛ فأنتم بَريئُونَ مِن عاقبةِ كُفرِكم وتكذيبِكم، وآمِنونَ مِن عذابِ رَبِّكم[(١)]؟!

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَلَغوا إلى هذا الحَدِّ مِنَ التَّمادي في الكُفرِ مع المواعِظِ البالِغةِ والاستِعطافِ المَكِينِ، استحَقُّوا أعظَمَ الغَضَبِ؛ فأعرَضَ عنهم الخِطابُ؛ إيذانًا بذلك، وإهانةً لهم واحتِقارًا، وإقبالًا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَسليةً، فقال عاطِفًا على ما تَقديرُه: أيَدَّعُونَ -جَهلًا ومُكابَرةً- شيئًا مِن هذَينِ الأمرَينِ[(٢)]؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: أم يَقولُ كُفَّارُ قُرَيشٍ: نحنُ جماعةٌ كثيرةٌ مُنتَصِرونَ، فسنَغلِبُ مُحمَّدًا ومَن معه[(٣)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٠).

﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥ ﴾.

أي: سيُهزَمُ جمعُ كُفَّارِ قُرَيشٍ، ويتفرَّقونَ، ويَفِرُّونَ عن المُسلِمينَ مُدبِرينَ[(١)]!

قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ * قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو في قُبَّةٍ: ((اللَّهُمَّ إنِّي أَنشُدُكَ[(٢)] عَهْدَكَ ووَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إنْ شِئْتَ لم تُعبَدْ بعدَ اليَومِ! فأخَذ أبو بكرٍ بيَدِه، فقال: حَسْبُك يا رَسولَ اللهِ؛ فقد ألَحَحْتَ على رَبِّك -وهو في الدِّرْعِ-، فخَرَج وهو يقولُ: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ * بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٥، ٤٦]))[(٣)].

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ٤٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَقَع هذا في الدُّنيا -وكان في يومِ بَدْرٍ-، وكان ذلك مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ، وكان رُبَّما ظَنَّ ظانٌّ أنَّ ذلك هو النِّهايةُ- كان كأنَّه قيل: ليس ذلك الموعِدَ الأعظَمَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (ظَهَر تَصديقُ ذلك يومَ بَدرٍ وغَيرَه، وبعدَ ذلك بسِنينَ كَثيرةٍ). ((الجواب الصحيح)) (١/ ٤٠٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥، ١٤٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٢) أَنشُدُك: أي: أطلُبُك وأسألُك. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٨١).

(٣) رواه البخاري (٢٩١٥).

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ ﴾[١].

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ المُشرِكونَ، فهم حَتمًا سيُبعَثونَ بعدَ مَوتِهم، ويُجازَونَ بعُقوبةٍ تامَّةٍ على كُفرِهم؛ فالسَّاعةُ مَوعِدُ عَذابِهم الأصليِّ، وما يَحيقُ بهم في الدُّنيا فمِن طَلائِعِه[٢].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (لقد أُنزِلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمكَّةَ، وإنِّي لَجاريةٌ ألعَبُ: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾)[٣].

﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾.

أي: والسَّاعةُ أشدُّ فَظاعةً وفَتْكًا، وأكثَرُ ألَمًا ومَرارةً مِنَ القَتلِ أو غَيرِه مِمَّا يُصيبُهم مِن عَذابِ الدُّنيا[٤]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾ سؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه: ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ بَدَلَ «قَومَ فِرعَونَ»؟

الجَوابُ: أنَّ «القَومَ» أعَمُّ مِن «الآلِ»؛ فالقَومُ: كُلُّ مَن يقومُ الرَّئيسُ بأمْرِهم، أو يقومونَ هم بأمْرِه، وقومُ فِرعَونَ كانوا تحتَ قَهرِه بحيث لا يُخالِفونَه في قليلٍ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤).

(٣) رواه البخاري (٤٨٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٠).

ولا كثيرٍ؛ فأُرسِلَ إليه الرَّسولُ وَحْدَه، غيرَ أنَّه كان عندَه جماعةٌ مِنَ المقرَّبينَ، مِثلُ: قارونَ، مُقَدَّمٌ عندَه لمالِه العظيمِ، وهامانَ لدَهائِه؛ فاعتبَرَهم اللهُ تعالى في الإرسالِ؛ حيث قال في مواضِعَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾[الزخرف: ٤٦]، وقال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾[غافر: ٢٤]، وقال في (العنكبوتِ): ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾ [العنكبوت: ٣٩]؛ لأنَّهم إن آمَنوا آمَنَ الكُلُّ، بخِلافِ الأقوامِ الَّذين كانوا قَبْلَهم وبَعْدَهم؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾، وقال: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[1] [غافر: ٤٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ أنَّه قال هنا: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ﴾، ولم يَقُلْ في غيرِهم: «جاء»؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ موسى عليه السَّلامُ ما جاءهم كما جاء المُرسَلونَ أقوامَهم، بل جاءهم حقيقةً؛ حيث كان غائبًا عن القَومِ فقَدِمَ عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[2] [الحجر: ٦١]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾ أنَّه قد خُتِمَت القِصَصُ بمِثلِ ما افتُتِحَت به مِن عَذابِ المُفسِدينَ بالإغراقِ؛ لِيُطابِقَ الخَتمُ البَدْءَ، وكانت نجاةُ المُصلِحينَ مِن الأوَّلينَ بالسَّفينةِ، وكانت نجاةُ المُصلِحينَ مِن الآخِرينَ بأرضِ البَحرِ، كانت هي سفينتَهم؛ لِيَكونَ الخَتمُ أعظَمَ مِنَ البَدْءِ، كما هو شأنُ أهلِ الاقتِدارِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣١٨، ٣١٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٩).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ إنَّما ذَكَرَ اللهُ تعالى أنَّه أَخَذَهم ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾؛ لأنَّ فِرعونَ كان مُتكبِّرًا، وكان يقولُ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]! وكان يَسخَرُ مِن موسى ومَن أرسَلَه؛ فناسَبَ أنْ يَذكُرَ اللهُ تعالى أخْذَه أخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ بيانُ أنَّ أولئك إذا كانوا كُفَّارًا وقد عذَّبْناهم، فالكُفَّارُ الَّذين كذَّبوا مُحمَّدًا ليسوا خيرًا مِن أولئك، بل هم مِثْلُهم، استحَقُّوا مِن العُقوبةِ ما استحقَّه أولئك، ولو كانوا خَيرًا منهم لم يَستَحِقُّوا ذلك؛ فعُلِمَ أنَّه سُبحانَه يُسوِّي بيْنَ المتماثِلَين، ويُفَضِّلُ صاحبَ الخَيرِ، فلا يُسوِّي بيْنَه وبيْنَ مَن هو دونَه(٢). وفيه التَّنبيهُ على أنَّ الميزانَ العقليَّ حقٌّ -كما ذَكَرَ اللهُ في كتابِه-، وليس هو مُختَصًّا بمنطقِ اليُونانِ، بل هي الأقيسةُ الصَّحيحةُ المتضمِّنةُ للتَّسويةِ بيْنَ المتماثِلَين، والفَرقِ بيْنَ المختلِفَين، سواءٌ صِيغَ ذلك بصيغةِ قياسِ الشُّمولِ(٣)، أو بصيغةِ قياسِ التَّمثيلِ(٤)، وصِيَغُ التَّمثيلِ هي الأصلُ، وهي أكمَلُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ١٠٨).

(٣) قياس الشُّمولِ: هو انتِقالُ الذِّهنِ مِن المُعَيَّنِ إلى المعنى العامِّ المُشترَكِ الكُلِّيِّ المُتناوِلِ له ولغَيرِه، والحُكمُ عليه بما يلزمُ المُشترَكَ الكُلِّيَّ، بأن ينتقلَ مِن ذلك الكُلِّيِّ اللَّازِمِ إلى الملزومِ الأوَّلِ وهو المُعَيَّنُ، فهو انتِقالٌ مِن خاصٍّ إلى عامٍّ، ثمَّ انتِقالٌ مِن ذلك العامِّ إلى الخاصِّ؛ مِن جُزئيٍّ إلى كُلِّيٍّ، ثمَّ مِن ذلك الكُلِّيِّ إلى الجُزئيِّ الأوَّلِ، فيُحكَمُ عليه بذلك الكُلِّيِّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّةَ (٩/ ١١٩).

(٤) قياس التَّمثيلِ: هو حمْلُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ، أو: إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما مثل: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وهو القياسُ الأُصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (ص: ٢٩١، ٢٩٢).

والميزانُ هو القَدْرُ المُشتَرَكُ، وهو الجامِعُ[(١)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ بِشارةٌ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلك، وهو يَعلَمُ أنَّ اللهَ مُنجِزٌ وَعْدَه، ولا يَزيدُ ذلك الكافِرينَ إلَّا غُرورًا، فلا يُعِيرُوه جانِبَ اهتمامِهم، وأخْذَ العُدَّةِ لِمُقاوَمتِه، كما قال تعالى في نحوِ ذلك: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[(٢)] [الأنفال: ٤٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في اختِصاصِ السَّاعةِ بمَوعِدِهم، مع أنَّها مَوعِدُ كُلِّ أحَدٍ؟

الجوابُ: المَوعِدُ: الزَّمانُ الَّذي فيه الوَعدُ والوَعيدُ، والمؤمِنُ مَوعودٌ بالخَيرِ، ومأمورٌ بالصَّبرِ، فلا يقولُ هو: متى يكونُ؟ بل يُفَوِّضُ الأمرَ إلى اللهِ تعالى، وأمَّا الكافِرُ فغَيرُ مُصَدِّقٍ، فيقولُ: متى يكونُ العَذابُ؟ فيُقالُ له: اصبِرْ؛ فإنَّه آتٍ يومَ القيامةِ؛ ولهذا كانوا يقولونَ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦]، وقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾[(٣)] [الحج: ٤٧].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ لَمَّا كانتْ دَعوةُ مُوسَى عليه السَّلامُ غيرَ مُوجَّهةٍ إلى أُمَّةِ القِبطِ، وغيرَ مُرادٍ منها التَّشريعُ لهم، ولكنَّها مُوجَّهةٌ إلى فِرعونَ وأهْلِ دَولتِه الَّذين بأيْدِيهم تَسييرُ أُمورِ المَمْلكةِ الفِرْعَونيَّةِ؛ ليَسمَحوا بإطلاقِ بني إسرائيلَ مِن الاستِعبادِ، ويُمكِّنوهم مِن الخُروجِ مع مُوسَى -خُصَّ بالنُّذرِ هنا آلُ فِرعونَ، أي: فِرْعونُ وآلُه؛ لأنَّه يَصدُرُ عن رأْيِهم، ألَا تَرى أنَّ فِرعونَ لم يَستأثِرْ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٢٢).

بردِّ دَعوةِ مُوسى، بلْ قال لِمَن حولَه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥]، وقال: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥]؟ ولذلك لم يكُنْ أُسلوبُ الإخبارِ عن فِرعونَ ومَن معه مُماثِلًا لأُسلوبِ الإخبارِ عن قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ وقَومِ لُوطٍ؛ إذ صُدِّرَ الإخبارُ عن أولئك بجُملةِ ﴿كَذَّبَتْ﴾ [القمر: ٩، ١٨، ٢٣، ٣٣]، وخُولِفَ في الإخبارِ عن فِرعونَ، فصُدِّرَ بجُملةِ ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾، وإنْ كان مآلُ هذه الأخبارِ الخمْسةِ مُتماثلًا[١].

- وأيضًا الاكتفاءُ بذِكرِ آلِ فِرعونَ؛ للعِلمِ بأنَّ نفْسَه أَوْلى بذلكَ[٢].

- وصُدِّرتْ قِصَّتُهم بالتَّوكيدِ القَسَمِي؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بشأْنِها لِغايةِ عِظَمِ ما فيها مِن الآياتِ وكَثرتِها، وهَولِ ما لاقَوه مِنَ العَذابِ، وقوَّةِ إيجابِها للاتِّعاظِ[٣].

- والنُّذرُ: جمْعُ نَذيرٍ، اسمُ مَصْدرٍ بمعْنى الإنذارِ -على قولٍ-. ووجْهُ جمْعِه أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ كرَّرَ إنذارَهم[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ استِئنافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ مَجيءِ النُّذرِ؛ كأنَّه قِيلَ: فماذا فعَلوا حِينَئذٍ؟ فقيلَ: كذَّبُوا بجَميعِ آياتِنا[٥].

- أو جُملةُ ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[٦] مِن جُملةِ ﴿جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣).

(٦) البَدَلُ: هو التَّابعُ المقصودُ بحُكمٍ بلا واسِطةٍ، وهو أقسامٌ: بدَلُ كُلٍّ مِن كُلٍّ بأنِ اتَّحَدَا معنًى، نحو: =

لأنَّ مَجيءَ النُّذرِ إليهم مُلابِسٌ للآياتِ، وظُهورَ الآياتِ مُقارِنٌ لتَكذيبِهم بها، فمَجيءُ النُّذرِ مُشتمِلٌ على التَّكذيبِ؛ لأنَّه مُقارِنُ مُقارِنِه[١].

- وإسنادُ التَّكذيبِ إليهم بِناءً على ظاهِرِ حالِهم، وإلَّا فقدْ آمَنَ منهم رجُلٌ واحدٌ كما في سُورةِ (غافرٍ)، وأيضًا آسِيةُ امرأةُ فِرعونَ[٢].

- وتأْكيدُ (آيَاتِنَا) بـ﴿كُلِّهَا﴾ إشارةٌ إلى كثْرةِ الآياتِ، وأنَّهم لم يُؤمِنوا بشَيءٍ منها، وتَكذيبُهم بآيةِ انفِلاقِ البحْرِ تَكذيبٌ فِعْليٌّ؛ لأنَّ مُوسى لم يَتحَدَّهم بتلك الآيةِ، وقومُ فِرعونَ لَمَّا رَأَوا تلك الآيةَ عدُّوها سِحرًا، وتَوهَّموا البحرَ أرْضًا؛ فلم يَهتَدُوا بتلك الآيةِ[٣].

- وانتصَبَ ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ مُبيِّنًا لنَوعِ الأخْذِ بأفظَعِ ما هو مَعروفٌ للمُخاطَبينَ مِن أخْذِ المُلوكِ والجَبابرةِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ كالنَّتيجةِ لحاصِلِ القصصِ عن الأُمَمِ الَّتي كذَّبَتِ الرُّسلَ مِن قومِ نُوحٍ فمَن ذُكِرَ بعْدَهم؛ ولذلك فُصِلتْ ولمْ تُعطَفْ، وقد غُيِّرَ أُسلوبُ الكلامِ مِن كَونِه مُوجَّهًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى تَوجيهِه للمُشرِكين؛ ليُنتقَلَ عن التَّعريضِ إلى التَّصريحِ؛ اعتِناءً

= ﴿صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]. وبدَلُ بعضٍ إن دلَّ على بعضِ ما دلَّ عليه الأوَّلُ، نحو: مرَرْتُ بقَومِك ناسٍ منهم. وبدَلُ اشتِمالٍ إن دلَّ على معنًى في الأوَّلِ أو استَلْزَمَه فيه، كعَجِبتُ مِن زَيدٍ عِلمِه أو قراءتِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. يُنظر: ((همع الهوامع)) للسيوطي (٣/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بمَقامِ الإنذارِ والإبلاغِ[١].

- والاستِفهامُ يَجوزُ أنْ يكونَ على حَقيقتِه، ويكونَ مِن المُحسِّنِ البَديعيِّ المُسمَّى (سَوْقَ المَعلومِ مَساقَ غَيرِه)، أو (تَجاهُلَ العارِفِ)[٢]، وهو هنا للتَّوبيخِ، والتَّوبيخُ عن تَخطئتِهم في عدَمِ العَذابِ الَّذي حَلَّ بأمثالِهم حتَّى كأنَّهم يَحسَبون كُفَّارَهم خيرًا مِن الكُفَّارِ الماضينَ المُتحدَّثِ عن قَصَصِهم، أي: ليس لهم خاصيَّةٌ تَربَأُ بهم عن أنْ يَلحَقَهم ما لَحِقَ الكُفَّارَ الماضينَ، فما الَّذي طمْأَنَكم مِن أنْ يُصِيبَكم مِثلُ ما أصابَهم[٣]؟!

- وضَميرُ (كُفَّارُكُمْ) لأهلِ مكَّةَ، وهم أنفُسُهم الكُفَّارُ؛ فإضافةُ لَفظِ (كُفَّار) إلى ضَميرِهم إضافةٌ بَيانيَّةٌ؛ لأنَّ المُضافَ صِنفٌ مِن جِنسِ مَن أُضِيفَ هو إليه، فهو على تَقديرِ (مِن) البَيانيَّةِ، والمعْنى: الكُفَّارُ منكم خيرٌ مِن الكُفَّارِ السَّالِفينَ، أي: أأنتُم الكُفَّارُ خيرٌ مِن أولئك الكُفَّارِ[٤]؟!

- وقولُه: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ إضرابٌ وانتِقالٌ إلى تنكيتٍ آخَرَ، فكأنَّه قيل: بل ألِكُفَّارِكم براءةٌ وأمْنٌ مِن تَبِعاتِ ما يَعمَلونَ مِن الكُفرِ والمعاصي، وغَوائِلِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٩).

(٢) تَجاهُل العارِفِ: له عِدَّةُ تعريفاتٍ، وتَرجِعُ كلُّها إلى: سَوْقِ المعلومِ مَساقَ غيرِه لنُكتةٍ؛ فمِن تعريفاتِه: أنَّه سؤالُ المتكلِّمِ عمَّا يَعلمُه حقيقةً تجاهُلًا؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ. ومنها: أنَّه إخراجُ ما يَعرِفُ صِحَّتَه مخرَجَ ما يَشُكُّ فيه؛ ليَزيدَ بذلك تأكيدًا. وقيل: هو إخراجُ الكلامِ مخرجَ الشَّكِّ في اللَّفظِ دون الحقيقةِ؛ لضربٍ مِن المُسامَحةِ وحَسْمِ العِنادِ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٩، ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٠).

في الكُتُبِ السَّماويَّةِ؛ فلذلك يُصِرُّونَ على ما هم عليه ولا يخافونَ[١]؟!

- وقدْ أفادَ هذا الكلامُ تَرديدَ النَّجاةِ مِن العَذابِ بيْنَ الأمْرَينِ: إمَّا الاتِّصافُ بالخَيرِ الإلهيِّ المُشارِ إليهِ بقَولِه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات: ١٣]، وإمَّا المُسامَحةُ والعفْوُ عمَّا يَقترِفُه المَرْءُ مِن السَّيِّئاتِ، والمعْنى انتفاءُ كِلا الأمْرَينِ عن المُخاطَبينَ؛ فلا مأْمَنَ لهم مِن حُلولِ العَذابِ بهم كما حلَّ بأمثالِهم. والآيةُ تُؤْذِنُ بارتقابِ عَذابٍ يَنالُ المُشرِكين في الدُّنيا دونَ العَذابِ الأكبرِ، وذلك عَذابُ الجُوعِ الَّذي في قولِه: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[الدخان: ١٠]، وعَذابُ السَّيفِ يومَ بدْرٍ الَّذي في قولِه: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[٢] [الدخان: ١٦]. على قولٍ فيهما.

- وفي الآيةِ احتِباكٌ[٣]؛ فقد أثبَتَ الخَيريَّةَ أوَّلًا؛ دليلًا على حَذفِها ثانيًا، والبراءةَ ثانيًا؛ دليلًا على حَذْفِها أوَّلًا[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾

- (أَمْ) مُنقطِعةٌ لإضرابٍ انتِقاليٍّ، والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) مُستعمَلٌ في تَوبيخِهم والإنكارِ عليهم أنْ يَقولوا ذلك، فإنْ كانوا قد صرَّحوا بذلك فظاهرٌ، وإنْ كانوا لم يُصرِّحوا به فهو إنباءٌ بأنَّهم سيَقولونَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٩، ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١١).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١١٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١١).

- وغُيِّرَ أُسلوبُ الكَلامِ مِن الخِطابِ المُوجَّهِ إلى المشركينَ بقولِه: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ﴾ إلخ [القمر: ٤٣]، إلى أُسلوبِ الغَيبةِ الْتفاتًا ورُجوعًا إلى الأُسلوبِ الجاري مِن أوَّلِ السُّورةِ في قولِه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ [القمر: ٢]، بعْدَ أنْ قُضِيَ حقُّ الإنذارِ بتَوجيهِ الخِطابِ إلى المشركين في قولِه: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾[(١)] [القمر: ٤٣].

- والكلامُ بِشارةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَعريضٌ بالنِّذارةِ للمُشركين، مَبْنيٌّ على أنَّهم تُحدِّثُهم نُفوسُهم بذلك، وأنَّهم لا يَحسَبونَ حالَهم وحالَ الأُمَمِ الَّتي سِيقَت إليهم قصَصُها مُتساويةً، أي: نحن مُنتصِرونَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه ليس رسولَ الله، فلا يُؤيِّدُه اللهُ، والمعْنى: بلْ أيَدَّعونَ أنَّهم يُغالِبونَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابَه، وأنَّهم غالِبُوهم؛ لأنَّهم جَميعٌ لا يُغلَبونَ؟! وتَغييرُ أُسلوبِ الكَلامِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ مُشعِرٌ بأنَّ هذا هو ظَنُّهم واغترارُهم[(٢)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ جَوابٌ عن قولِهم: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، وردٌّ وإبطالٌ لقولِهم؛ فلذلك لم تُعطَفِ الجُملةُ على الَّتي قبْلَها[(٣)].

- والسِّينُ في ﴿سَيُهْزَمُ﴾ لتَقريبِ المُستقبَلِ، وللتَّأكيدِ، أي: يُهزَمُ جمْعُهم ألْبتَّةَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

- وبُنِيَ الفِعلُ ﴿سَيُهۡزَمُ﴾ للمَجهولِ؛ لظُهورِ أنَّ الهازِمَ المُسلِمونَ[١].

- قولُه: ﴿وَيُوَلُّونَ﴾، أي: يَجعَلونَ غيرَهم يَلِي، فهو يَتعدَّى بالتَّضعيفِ إلى مَفعولَينِ، وقد حُذِفَ مَفعولُه الأوَّلُ هنا للاستِغناءِ عنه؛ إذ الغرَضُ الإخبارُ عنهم بأنَّهم إذا جاء الوغَى[٢] يَفِرُّون ويُوَلُّونكم الأدبارَ[٣].

- وأُفرِدَ ﴿ٱلدُّبُرَ﴾ والمُرادُ الجمْعُ؛ لأنَّه جِنسٌ يَصدُقُ بالمُتعدِّدِ، أي: يُولِّي كلُّ أحدٍ منهم دُبُرَه؛ وذلك لرِعايةِ الفاصلةِ، ومُزاوَجةِ القرائنِ، على أنَّ انهزامَ الجمْعِ انهزامةٌ واحدةٌ، ولذلك الجيشِ جِهةُ تَولٍّ واحِدةٌ[٤].

- وأيضًا فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث أُفرِدَ ﴿ٱلدُّبُرَ﴾ هنا وجُمِعَ في غيرِه؛ لأنَّ الجمْعَ هو الأصلُ؛ لأنَّ الضَّميرَ يَنوبُ مَنابَ تَكرارِ العاطفِ؛ فكأنَّه قِيل: تولَّى هذا وهذا، وأُفرِدَ لمُناسَبةِ المقاطعِ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ جَميعَهم يَكونون في الانهزامِ كشخصٍ واحدٍ، وأمَّا قولُه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] فجمْعٌ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ برَأْسِه مَنهيٌّ عن توليةِ دُبرِه، ثمَّ جمَع الفعلَ بقولِه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ﴾ ولا يتمُّ إلَّا بقولِه: ﴿ٱلۡأَدۡبَارَ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ [الأحزاب: ١٥]، أي: كلُّ واحدٍ قال: أنا أثْبُتُ ولا أُوَلِّي دُبُري[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٢) الوَغَى: الجَلبةُ والأصواتُ، وتُطلَقُ على الحربِ نفْسِها، وقيل للحربِ: وَغًى؛ لِما فيها مِن الصَّوتِ والجَلَبةِ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٨/ ١٨٩)، ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٥٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٧٧).

٦- قولُه تعالَى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾

- (بَل) للإضرابِ الانتِقاليِّ، وهو انتقالٌ مِن الوَعيدِ بعَذابِ الدُّنيا كما حلَّ بالأُمَمِ قبْلَهم إلى الوعيدِ بعَذابِ الآخرةِ، وعَذابُ الآخرةِ أعظَمُ؛ فلذلك قال: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، وقال في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، وفي الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰ﴾[(١)] [فصلت: ١٦].

- والمَوعِدُ: وقْتُ الوَعْدِ، وهو هنا وعْدُ سُوءٍ، أي: وَعيدٌ، وهذا إجمالٌ بالوَعيدِ، ثمَّ عُطِفَ عليه ما يُفصِّلُه، وهو: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، ووجْهُ العَطْفِ أنَّه أُرِيدَ جَعْلُه خَبرًا مُستقِلًّا[(٢)].

- وأُعِيدَ اسمُ السَّاعةِ دونَ أنْ يُؤتَى بضَميرِها؛ لقصْدِ التَّهويلِ، ولتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بنفْسِها؛ فتَسيرَ مَسيرَ المَثَلِ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٤).

الآيات (٤٧-٥٥)

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَسَّ﴾: أي: إصابةَ وألَمَ، وأصلُ (مسس): يدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[١].

﴿سَقَرَ﴾: أي: جَهنَّمَ، وهي عَلَمٌ مُشتَقٌّ مِنَ السَّقْرِ: وهو التِهابُ النَّارِ، وأصلُ (سقر): يدُلُّ على إحراقٍ[٢].

﴿بِقَدَرٍ﴾: أي: بقَضاءٍ مَعلومٍ سابِقٍ في الأزَلِ، وبتَقديرٍ وحِكمةٍ، أو: بمِقدارٍ قدَّرْناه وقضَيْناه، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايتِه[٣].

﴿كَلَمْحٍ﴾: أي: كخَطْفةٍ، واللَّمحُ: النَّظرُ بسُرعةٍ، وأصلُ ذلك مِن لَمَحْتُ البَرقَ، أي: أبصرتُ لَمعانَه، وهو أسرَعُ الأشياءِ زَوالًا[٤].

﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾: أي: أشباهَكم ونُظراءَكم في الكُفرِ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٠).

(شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ[١].

﴿مُّسْتَطَرٌ﴾: أي: مَكتوبٌ مَسطورٌ، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على الاصطفافِ[٢].

﴿وَنَهَرٍ﴾: أي: أنهارٍ، وحَّدَ وأراد الجَمْعَ، والنَّهْرُ: مَجرى الماءِ؛ وسُمِّيَ نهْرًا لأنَّه يَنهَرُ الأرضَ، أي: يَشُقُّها، وأصلُه يدُلُّ على تفتُّحٍ شَيءٍ أو فَتْحِه[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾

قَولُه تعالى: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾: ﴿كُلَّ﴾: مَنصوبٌ على الاشتِغالِ[٤]؛ مَفعولٌ به لِفعلٍ مَحذوفٍ تقديرُه «خلَقْنا» يُفَسِّرُه ما بَعْدَه، والفِعلُ المقدَّرُ مع مَفعولِه في محلِّ رَفعٍ خَبَرُ «إنَّ»، أي: إنَّا خَلَقْنا كُلَّ شَيءٍ بقَدَرٍ. ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ جُملةٌ تَفسيريَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ. ﴿بِقَدَرٍ﴾: جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ حالٌ، أي: مُقَدَّرًا مُحكَمًا، أو مُلتَبِسًا بقَدَرٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٥).

قال الكفوي: (كلُّ اسْمٍ على «فَعْلٍ» عَينُه حَرفُ حَلقٍ: يَجوزُ تَسكينُ عَينِه وفَتحُه؛ كشَهْرٍ، ونَهْرٍ، وشَعْرٍ، ونَحْرٍ، إلَّا «نَحْو»؛ فإنَّه لا يجوزُ فتْحُ عَينِه). ((الكليات)) (ص: ٩٩٦).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٠٢)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٧٠٢)، ((إعراب القرآن)) للباقولي (٣/ ٩٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٩٣).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما سينزِلُ بالمشركينَ مِن عذابٍ يومَ القيامةِ، ومفصِّلًا في ذلك: إنَّ المُشرِكينَ في ضَلالٍ وفي عَناءٍ وشَقاءٍ وعَذابٍ يومَ يُسحَبونَ في النَّارِ على وُجوهِهم، ويُقالُ لهم: ذُوقوا ألَمَ النَّارِ وعَذابَها.

ثمَّ يبيِّنُ تعالى مَظاهِرَ كمالِ قدرتِه وحِكمتِه، فيقولُ: إنَّا خَلَقْنا كُلَّ شَيءٍ بقَضاءٍ سابِقٍ مُحكَمٍ، وما أمْرُنا إذا أرَدْنا شَيئًا إلَّا كَلِمةٌ واحِدةٌ -كُنْ- فيُوجَدُ ما أرَدْناه كلَمْحِ البَصَرِ!

ثمَّ يبيِّنُ تعالى ما يدُلُّ على نفاذِ هذه القدرةِ وسرعتِها، فيقولُ: ولقد أهلَكْنا أشباهَكم وأمثالَكم في الكُفرِ -يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي كفَرَت باللهِ، وكَذَّبت رُسُلَها، فهل مِن مُتذَكِّرٍ مُعتَبِرٍ بإهلاكِ اللهِ للكُفَّارِ السَّابِقينَ؛ فيَحذَرَ أن يحُلَّ به ما حَلَّ بهم؟!

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّ أعمالَ الإنسانِ مسجلةٌ عليه، فيقولُ: وكُلُّ شَيءٍ فَعَلوه موجودٌ في صحائفِ أعمالِهم الَّتي تُحصِيها الملائِكةُ عليهم، وكُلُّ صَغيرٍ وكَبيرٍ مِنَ الأشياءِ مَكتوبٌ مَسطورٌ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ ببِشارةٍ عظيمةٍ للمتَّقينَ، فيقولُ: إنَّ المتَّقينَ في جَنَّاتٍ وأنهارٍ؛ في مَجلِسِ حَقٍّ ثابتٍ، كامِلٍ في نَعيمِه، عِندَ مَلِكٍ عَظيمٍ بالِغِ القُدرةِ سُبحانَه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ٤٧﴾.

أي: إنَّ المُشرِكينَ في ضَلالٍ، وفي عَناءٍ وشَقاءٍ وعَذابٍ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير =

= القرطبي)) (١٧/ ١٤٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٥، ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩١).

قال ابن عطيَّة: (وأكثرُ المفسِّرينَ على أنَّ المجرمِينَ هنا يُرادُ بهم الكفَّارُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢١).

قيل: المرادُ: أنَّ المُشرِكينَ في ضَلالٍ عن الهدى في الدُّنيا، وفي عذابِ السَّعيرِ والاحتِراقِ بالنَّارِ في الآخِرةِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: السمرقنديُّ، وابنُ عطية، والبيضاوي، وابن جُزَي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩١).

ممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بالسُّعُرِ: النَّارُ الَّتي تُسعَرُ عليهم: الضَّحَّاكُ، والحُسينُ بنُ الفضلِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٧).

وذكر الرَّازيُّ احتِمالَ الجَمعِ بيْنَ الأمْرَينِ في الدُّنيا، أي: هم في الدُّنيا في ضلالٍ وجنونٍ، لا يعقلونَ ولا يَهْتَدونَ، وعلى هذا فقولُه: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ بَيانُ حالِهم في تلك الصُّورةِ، قال: (وهو أقرَبُ).

وذكر أيضًا احتمالَ الجمعِ في الآخرةِ، أي: هم في ضلالِ الآخرةِ وسُعُرٍ أيضًا؛ أمَّا السُّعُرُ فكَونُهم فيها ظاهِرٌ، وأمَّا الضَّلالُ فلا يَجِدونَ إلى مَقصدِهم أو إلى ما يصلُحُ مقصدًا وهم مُتحَيِّرونَ سَبيلًا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٢٥).

وقال ابن كثير: (يخبِرُنا تعالى عن المجرمينَ أنَّهم في ضَلالٍ عن الحقِّ، وسُعُرٍ ممَّا هم فيه من الشُّكوكِ والاضْطِرابِ في الآراءِ، وهذا يَشملُ كلَّ مَنِ اتَّصَف بذلك مِن كافرٍ ومُبتَدِعٍ مِن سائرِ الفِرَقِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٢).

وقيل: المرادُ: في شَقاءٍ وعَناءٍ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٤).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بالسُّعُرِ العَناءُ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩).

وقال ابن جرير: (﴿وَسُعُرٍ﴾ يقولُ: في احْتِراقٍ مِن شِدَّةِ العَناءِ والنَّصَبِ في الباطِلِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩).

وقال ابنُ عاشور: (الضَّلالُ يُطلَقُ على ضِدِّ الهُدى، ويُطلَقُ على الخُسرانِ، وأكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ به هنا المعنى الثَّاني؛ فعن ابنِ عبَّاسٍ: المرادُ: الخُسرانُ في الآخرةِ؛ لأنَّ الظَّاهِرَ =

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾.

أي: يومَ يُجَرُّ أولئك المُجرِمونَ في النَّارِ على وُجوهِهم الَّتي هي أشرَفُ أعضائِهم الظَّاهِرةِ، فيُهانونَ بذلك ويُخْزَونَ[1]!

﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾.

أي: يُقالُ لهم: ذُوقوا ألَمَ النَّارِ وعَذابَها[2].

قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهَا تِسْعَةَ

= أنَّ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ ظَرفٌ للكَونِ في ضَلالٍ وسُعُرٍ، على نحوِ قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦ - ٨]، وقَولِه: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢]، فلا يُناسِبُ أن يكونَ الضَّلالُ ضِدَّ الهُدى. ويجوزُ أن يكونَ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ ظَرفًا للكَونِ الَّذي في خَبَرِ إنَّ، أي: كائِنونَ في ضَلالٍ وسُعُرٍ يومَ يُسحَبونَ في النَّارِ، فالمعنى: أنَّهم في ضَلالٍ وسُعُرٍ يومَ القيامةِ). (٢٧/ ٢١٥).

وقال ابنُ عثيمين: (يحتَمِلُ أنَّ قَولَه: ﴿فِي ضَلَـٰلٍ﴾ أي: في ضَلالٍ عن الطَّريقِ الَّذي يَهتَدونَ به إلى الجنَّةِ؛ لأنَّهم ضَلُّوا في الدُّنيا، فضَلُّوا في الآخِرةِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩١).

قال الشوكاني: (الظَّرفُ [يومَ] مُنْتَصِبٌ بما قبلَه، أي: كائِنونَ ﴿فِي ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ۝ يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾، أو بقولٍ مُقَدَّرٍ بعدَه، أي: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ يُقالُ لهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩١).

قال ابنُ جرير: (وأمَّا سَقَرُ فإنَّها اسمُ بابٍ مِن أبوابِ جَهنَّمَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩).

وقال القرطبي: (﴿سَقَرَ﴾ اسمٌ مِن أسماءِ جَهنَّمَ لا يَنصَرِفُ... وقال عَطاءٌ: ﴿سَقَرَ﴾ الطَّبَقُ السَّادِسُ مِن جَهنَّمَ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٧).

عَشَرَ﴾ [المدثر: ٢٦ - ٣٠].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء مُشرِكو قُرَيشٍ يُخاصِمونَ رَسولَ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في القَدَرِ، فنَزَلَت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۞ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾))[1].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: إنَّا خَلَقْنا كُلَّ شَيءٍ بقَضاءٍ سابِقٍ مَضبوطٍ مُحكَمٍ[2].

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٦-٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٢).

قال ابن جُزَي: (بقضاءٍ معلومٍ سابقٍ في الأزَلِ، ويحتملُ أن يكونَ معنَى ﴿بِقَدَرٍ﴾: بمِقْدارٍ في هيئتِه وصِفَتِه وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٦).

وقال السعدي: (بقضاءٍ سبَقَ به عِلمُه، وجرى به قلَمُه، بوقتِها ومِقْدارِها، وجميعِ ما اشتملَتْ عليه مِن الأوصافِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨).

وقال ابن جرير: (بمِقْدارٍ قدَّرْناه وقضَيْناه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٠).

وقال الألوسي: (﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: مُقَدَّرًا مَكتوبًا في اللَّوحِ قبْلَ وُقوعِه؛ فالقَدَرُ بالمعنى المشهورِ الَّذي يُقابِلُ القَضاءَ، وحَمْلُ الآيةِ على ذلك هو المأثورُ عن كثيرٍ مِن السَّلَفِ... وجُوِّزَ كَونُ المعنى: إنَّا كُلَّ شَيءٍ خَلَقْناه مُقَدَّرًا مُحكَمًا مُستوفًى، فيه مُقتَضى الحِكمةِ الَّتي يدورُ عليها أمرُ التَّكوينِ؛ فالآيةُ مِن بابِ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٩٣).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((كَتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائِقِ قبْلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألْفَ سَنةٍ، وعَرشُه على الماءِ))(١).

وعن طاوسٍ، قال: أدرَكْتُ ناسًا مِن أصحابِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولونَ: كُلُّ شَيءٍ بقَدَرٍ، قال: وسَمِعتُ عبدَ اللهِ بنَ عُمَرَ يَقولُ: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كُلُّ شَيءٍ بقَدَرٍ، حتَّى العَجْزُ والكَيْسُ(٢))(٣).

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ تعالى أنَّ كُلَّ شَيءٍ بفِعْلِه؛ بَيَّن يُسْرَ ذلك وسُهولتَه عليه، فقال(٤):

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾.

أي: وما أمْرُنا إذا أرَدْنا شَيئًا إلَّا أن نَقولَ له مَرَّةً واحِدةً: كُنْ، فيُوجَدُ ما أرَدْناه كسُرعةِ اللَّمْحِ بالبَصَرِ بلا تأخيرٍ(٥)!

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) الكَيْسُ: ضِدُّ العَجْزِ، وهو النَّشاطُ والحِذقُ بالأمورِ، ومعناه: أنَّ العاجزَ قد قُدِّر عَجْزُه، والكَيِّسَ قد قُدِّر كَيْسُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٢٠٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٤).

قال ابن كثير: (هو إخبارٌ عن نُفوذِ مَشيئتِه في خَلْقِه، كما أخبَرَ بنُفوذِ قَدَرِه فيهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٥، ٤٨٦).

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ بتَمامِ قُدرتِه، وكان إهلاكُ مَن ذُكِرَ مِن الكُفَّارِ، وإنجاءُ مَن ذُكِرَ مِن الأبرارِ في هذه السُّورةِ نَحوًا مِمَّا ذُكِرَ مِن أَمرِ السَّاعةِ في السُّهولةِ والسُّرعةِ- دَلَّ على ذلك بإنجاءِ أوليائِه، وإهلاكِ أعدائِه؛ فذَكَّرَ بهم جُملةً، وبما كان مِن أحوالِهم[١].

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾.

أي: ولقد أهلَكْنا أشباهَكم وأمثالَكم في الكُفرِ -يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي كفَرَت باللهِ، وكَذَّبت رُسُلَها[٢].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ [سبأ: ٥٤].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ يَعلَمُ أنَّ سُنَّةَ اللهِ في الأوَّلينَ والآخِرينَ واحِدةٌ، ويتَّعِظُ ويَعتَبِرُ بإهلاكِ اللهِ للكُفَّارِ السَّابِقينَ، فيَحذَرَ أن يكونَ مِثْلَهم[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٤).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: فكما أهلَكْنا أشياعَكم نُهلِكُكم، وكذلك كان؛ فإنَّ المُشرِكينَ لَمَّا حَلُّوا ببَدرٍ وهم أوفَرُ عَدَدًا وعُدَدًا، كانوا واثِقينَ بأنَّهم مُنقِذونَ عِيرَهم، وهازِمونَ المُسلِمينَ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٥).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۞ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٨].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَمَّت الدَّلالةُ على إحاطةِ القُدرةِ بما شُوهِدَ مِن الأفعالِ الهائِلةِ الَّتي لا تَسَعُها قُدرةُ غَيرِه سُبحانَه، وكانوا يَظُنُّونَ أنَّ أحوالَه غَيرُ مَضبوطةٍ؛ لأنَّه لا يُمكِنُ ضَبطُها، ولا يَسَعُها عِلمُ عالمٍ، ولا سيَّما إذا ادَّعى أنَّه واحِدٌ؛ شَرَع في إتمامِ الإخبارِ بعَظَمةِ القدرةِ، بالإخبارِ بأنَّ أفعالَهم كُلَّها مكتوبةٌ، فَضلًا عن كَونِها محفوظةً؛ فقال[1]:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢﴾

أي: وكُلُّ شَيءٍ فَعَلوه موجودٌ في الصَّحائِفِ والدَّواوينِ الَّتي تُحصِي الحَفَظةُ مِنَ الملائكةِ أعمالَهم فيها[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨٦).

قال ابنُ عثيمين: (﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: فعَلَتْه الأُمَمُ السَّابِقةُ، أو الأُمَمُ اللَّاحِقةُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٥).

وممَّن قال بأنَّ الزُّبُرَ هنا: صحائِفُ الأعمالِ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابن كثير، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: الزُّبُرُ: اللَّوحُ المحفوظُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٥).

قال ابنُ عثيمين: (﴿فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أي: في الكُتُبِ، وكِتابةُ الأعمالِ كِتابةٌ سابِقةٌ، وكِتابةٌ =

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خَصَّهم عَمَّ بقَولِه -واعِظًا ومُخَوِّفًا ومُحَذِّرًا- بأنَّ كُلَّ شَيءٍ مَحفوظٌ فمَكتوبٌ فمَعروضٌ على الإنسانِ يومَ الجَمعِ[(١)]:

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾.

أي: وكُلُّ صَغيرٍ وكَبيرٍ مِنَ الأشياءِ مَكتوبٌ مَسطورٌ[(٢)].

= لاحِقةٌ، والكِتابةُ السَّابِقةُ معناها أنَّ اللهَ سَبحانَه وتعالى كَتَب في اللَّوحِ المحفوظِ كُلَّ شَيءٍ... أمَّا الكِتابةُ اللَّاحِقةُ فهي أنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى إذا عَمِلَ الإنسانُ عَمَلًا كَتَبَه؛ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ٩ - ١١]). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٥، ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٧).

قيل: مَسطورٌ في اللَّوحِ المحفوظِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: السمرقنديُّ، والسمعاني، والزمخشري، والبيضاوي، والنيسابوري، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٧).

قال السعدي: (﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي: كلُّ ما فعلوه مِن خَيرٍ وشرٍّ مكتوبٌ عليهم في الكُتبِ القَدَريَّةِ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ أي: مُسطَّرٌ مكتوبٌ، وهذا حقيقةُ القَضاءِ والقدَرِ، وأنَّ جميعَ الأشياءِ كلِّها، قد عَلِمَها اللهُ تعالى، وسَطرها عندَه في اللَّوحِ المحفوظِ، فما شاء اللهُ =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه- في جَنَّاتٍ وأنهارٍ جاريةٍ فيها[1].

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾.

= كان، وما لم يشَأْ لم يكُنْ، فما أصاب الإنسانَ لم يكُنْ لِيُخْطِئَه، وما أخطأه لم يكُنْ لِيُصيبَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨).

وقيل: مُسَطَّرٌ في صحائِفِهم. وممَّن قال بهذا: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٦).

قال الزَّجَّاج: (المعنى: كلُّ صغيرٍ مِن الذُّنوبِ وكبيرٍ مُستطَرٌ مَكتوبٌ على فاعِليه قبْلَ أن يَفعلوه، ومكتوبٌ لهم وعليهم إذا فعَلوه؛ لِيُجازَوْا على أفعالِهم). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٨).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ في نعيمِ جَنَّاتٍ ونَهَرٍ؛ فإنَّ للجَنَّاتِ والأنهارِ لذَّاتٍ مُتعارَفةً مِنَ اللَّهوِ والأُنسِ والمحادَثةِ، واجتِناءِ الفواكِهِ، ورؤيةِ جَرَيانِ الجَداولِ، وخَريرِ الماءِ، وأصواتِ الطُّيورِ، وألوانِ السَّوابِحِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٤).

أي: في مَجلِسِ حَقٍّ، ثابتٍ لا يَزولُ، كامِلٍ في نَعيمِه، لا باطِلَ فيه ولا لَغْوَ ولا آثامَ[(١)].

﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

أي: عِندَ مَلِكٍ عَظيمٍ تامِّ المُلْكِ، بالِغِ القُدرةِ على كلِّ شَيءٍ، وهو اللهُ سُبحانَه وتعالى[(٢)]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ مَخلوقٌ للهِ تعالى، وأنَّ أفعالَه مخلوقةٌ للهِ، وأنَّ كلَّ شيءٍ قد قُدِّرَ وانتهى، وإذا كان كذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٥٩-٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٥، ٢٢٦).

وقيل: مَقعَدُ الصِّدقِ: هو الجنَّةُ. وممَّن قال بهذا القَولِ: السمرقنديُّ، والثعلبي، والقرطبي، وابن القيم، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٦).

قال الثعلبي: (﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مجلِسِ حقٍّ، لا لَغْوَ فيه ولا مأثَمَ، وهو الجنَّةُ). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٤).

وقال السمرقندي: (﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ يعني: في أرضٍ كريمةٍ. ويُقالُ: في مجلِسٍ حسَنٍ، وهي أرضُ الجنَّةِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٧).

وذكَر ابنُ القيِّمِ أنَّ وصفَ المقعدِ وغيرِه بالصِّدقِ (مستلزمٌ ثبوتَه واستقرارَه -وأنَّه حقٌّ-، ودوامَه ونفعَه، وكمالَ عائدتِه؛ فإنَّه متَّصِلٌ بالحقِّ سبحانَه، كائنٌ به وله، فهو صِدقٌ غيرُ كذبٍ، وحقٌّ غيرُ باطلٍ، ودائمٌ غيرُ زائلٍ، ونافعٌ غيرُ ضارٍّ، وما للباطلِ ومتعلقاتِه إليه سبيلٌ ولا مدخلٌ). ((مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين)) (٢/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٧).

فلْيَلْجأِ الإنسانُ إذا أصابتْه ضَرَّاءُ إلى اللهِ الخالقِ، وإذا أراد السَّرَّاءَ أيضًا يلتجِئُ إلى اللهِ الخالقِ، لا يَفْخَرَنَّ ويُعْجَبَنَّ بنَفْسِه إذا حَصَلَ له مطلوبٌ، ولا ييأسَنَّ إذا أصابَه المكروبُ؛ فالأمرُ بيدِ اللهِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ أنَّه يَجبُ الحذَرُ مِن المخالفةِ؛ فإيَّاك أنْ تُخالِفَ بقَولِك، أو فِعْلِك، أو تَرْكِك؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ مَكتوبٌ[٢]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أنَّ الضَّلالَ والشَّقاءَ مُتلازِمانِ، لا يَنفكُّ أحدُهما عن الآخَرِ[٣].

٢- قَول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ نصٌّ في أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى خالقُ كُلِّ شيءٍ، ومُقَدِّرُه[٤].

فالآية حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ؛ لأنَّ أفعالَنا شَيءٌ، فتكونُ داخِلةً في كُلِّ شَيءٍ، فتكونُ مَخلوقةً للهِ تعالى[٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ الرَّدُّ على القَدَرِيَّةِ الَّذين يُنكِرونَ أنَّ اللهَ تعالى يشاءُ أفعالَ العِبَادِ، ويقولونَ: إنَّ الإنسانَ خالِقُ عَمَلِه، مُريدٌ له، مُستَقِلٌّ به، وأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لا إرادةَ له به[٦]؛ فإنَّ قَولَه تعالى: ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٤٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٢٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٣).

يعني: من الأشياءِ المخلوقةِ -صَغيرِها وكَبيرِها- ﴿خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أي: قَضاءٍ وحُكمٍ وقياسٍ مَضبوطٍ، وقِسمةٍ مَحدودةٍ، وقوَّةٍ بالِغةٍ، وتدبيرٍ مُحكَمٍ، في وَقتٍ مَعلومٍ، ومكانٍ مَحدودٍ، مكتوبٌ ذلك في اللَّوحِ قبلَ وُقوعِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۞ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أنَّ خَلْقَ اللهِ تعالى الأشياءَ مُصاحِبٌ لقوانينَ جاريةٍ على الحِكمةِ، وهذا المعنى قد تكَرَّرَ في القُرآنِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، ومِمَّا يَشملُه عُمومُ كُلِّ شَيءٍ خَلقُ جَهنَّمَ للعَذابِ، وفيه إحاطةُ عِلمِ اللهِ تعالى بكُلِّ مَوجودٍ، وإيجادُ الموجوداتِ بحِكمةٍ، وصُدورُها عن إرادةٍ وقُدرةٍ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أنَّ كلَّ شيءٍ وَقَعَ في السَّمَواتِ والأرضِ فإنَّه مُطابِقٌ لعِلْمِه السَّابقِ، ولِمَا كَتَبَه في اللَّوحِ المحفوظِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى إذا أَمَرَ بشَيءٍ كَونًا فإنَّه لا يُعيدُ الأمرَ مرَّةً ثانيةً، بل يكونُ الشَّيءُ بأوَّلِ أمْرٍ، والَّذي يُعيدُ الأمرَ والكَلامَ هو العاجِزُ، وأمَّا القادِرُ فلا يُعيدُه[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ دَلالةٌ على كَمالِ قُدرةِ الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ أمْرَه التَّكوينيَّ كَلِمةٌ واحِدةٌ، وقد يُورَدُ على المَرءِ سؤالٌ: لماذا خَلَقَ اللهُ تعالى السَّمواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيامٍ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق: ٣٨]؟ وهل هذا يُنافي قَولَه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٧، ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٩١).

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾؟ ولماذا يَخلُقُ الجنينَ في بطْنِ أمِّه لمدَّةِ تِسعةِ أشهُرٍ، وما أشْبَهَ ذلك؟

الجوابُ: أنَّ أفعالَه سُبحانَه مَقرونةٌ بحِكمةٍ، وأنَّه سُبحانَه وتعالى جَعَل الأسبابَ مَربوطةً بمُسبَّباتِها؛ فلا بُدَّ مِن أنْ يكونَ هناك سَبَبٌ، ويَنتُجَ عنه مُسبَّبٌ، ولا بُدَّ مَن أنْ يكونَ هذا السَّببُ مُطابِقًا مُوافِقًا؛ حتَّى يَتِمَّ الخَلقُ على كَمالِه، فهذا الخَلقُ يحتاجُ إلى مُقدِّماتٍ وأسبابٍ يَحصُلُ بها كَمالُ الخَلقِ، فاللهُ سُبحانَه وتعالى قادِرٌ على أن يَخلُقَ الجَنينَ في بَطنِ أُمِّه بدونِ أنْ يَتناوَلَها الرَّجُلُ -كما حَصَلَ في عيسى عليه السَّلامُ- ومع هذا فإنَّ اللهَ تعالى قد جعَلَ لهذا أسبابًا: اتِّصالُ ماءِ الرَّجُلِ بالمرأةِ، ثمَّ بعدَ ذلك الجنَينُ يَتطوَّرُ شيئًا فشيئًا حتَّى يَصِلَ إلى الغايةِ، ثمَّ إذا كان قابِلًا لأنْ يَخرُجَ إلى الدُّنيا خرَجَ، ثمَّ مع ذلك يَنمو شيئًا فشيئًا، لا يأتيه العَقلُ كامِلًا دَفعةً واحِدةً، ولا يأتيه النُّمُوُّ دَفعةً واحِدةً، ولكنَّه على وَفْقِ الحِكمةِ، كما قال تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾[الزمر: ٦]؛ فكُلُّ خَلقٍ منها يَحصُلُ بكَلِمةٍ واحِدةٍ كلَمحِ البَصَرِ، على أنَّ بَعضَ المخلوقاتِ تتولَّدُ منه أشياءُ وآثارٌ، فيُعتبَرُ تَكوينُه عندَ إيجادِ أوَّلِه[١]. ومِن جِهةٍ ثانيةٍ: أنَّه سُبحانَه أراد أن يُعَلِّمَ خَلْقَه التَّمَهُّلَ في الأُمورِ، والتَّدَرُّجَ فيها[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٞ﴾ تعميمٌ للحُكمِ، أي: ليست الكِتابةُ مُقتَصِرةً على ما فَعَلوه، بل ما فعَلَه غَيرُهم أيضًا مَسطورٌ؛ فلا يَخرُجُ عن الكُتُبِ صَغيرةٌ ولا كبيرةٌ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٞ﴾ أنَّ الذُّنوبَ في نفْسِها تنَقسِمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٠).

إلى كبائرَ وصغائرَ[(١)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ سؤالٌ: أنَّه ذَكَر هنا نَهرًا واحِدًا، وفي مَواضِعَ أُخَرَ ذَكَرَ أنهارًا.

الجوابُ: أنَّ الإفرادَ باعتِبارِ الجِنسِ؛ فلا يُنافي التَّعَدُّدَ، فالمرادُ جِنسُ الأنهارِ[(٢)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ لم يقُلْ: «في مَجلِسِ صِدقٍ»؛ لأنَّ القُعودَ جُلوسٌ فيه مُكثٌ، ومنه: «قواعِدُ البَيتِ»، ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٦٠]، ولا يُقالُ: «جوالِسُ»، فأشار إلى دَوامِه وثَباتِه، ولأنَّ حُروفَ «ق ع د» كيف دارت تدُلُّ على ذلك، والاستِعمالُ في القُعودِ يدُلُّ على ذلك، ومنه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥]، وقَولُه: ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إشارةً إلى الثَّباتِ، وكذا قَولُه: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، فذَكَر المَقعَدَ؛ لِدَوامِه أو لطُولِه، وقال في المجلِسِ: ﴿تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ [المجادلة: ١١] إشارةً إلى الحَرَكةِ، وقال: ﴿ٱنشُزُوا۟﴾ [المجادلة: ١١] إشارةً إلى تَركِ الجُلوسِ، أي: هو مَجلِسٌ؛ فلا يَجِبُ مُلازَمتُه، بخِلافِ المَقعَدِ[(٣)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ إشارةٌ إلى مُخالَفةِ مَعنى القُربِ منه مِن معنى القُربِ مِن الملوكِ؛ فإنَّ الملوكَ يُقَرِّبونَ مَن يكونُ مِمَّن يُحِبُّونَه، ومِمَّن يَرهَبونَه؛ مخافةَ أن يَعصَوا عليه، ويَنحازُوا إلى عَدُوِّه فيَغلِبوه، واللهُ تعالى قال:

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٦).

قال ابن عاشور: (﴿وَنَهَرٍ﴾: -بفتحتَينِ- لغةٌ في نَهْرٍ -بفَتحٍ فسُكونٍ-، والمرادُ به: اسمُ الجِنسِ الصَّادِقُ بالمتعَدِّدِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الكهف: ٣١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٨٨).

﴿مُّقۡتَدِرٖ﴾ لا يُقَرِّبُ أحَدًا إلَّا بفَضلِه[١]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ۞ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ بَيانٌ لقولِه: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]. واقترانُ الكلامِ بحرْفِ (إنَّ) لفائدتَينِ؛ إحداهُما: الاهتِمامُ بصَريحِه الإخباريِّ. وثانيهما: تأْكيدُ ما تَضمَّنَه مِن التَّعريضِ بالمُشرِكين؛ لأنَّ الكلامَ وإنْ كان مُوجَّهًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو لا يَشُكُّ في ذلك، فإنَّ المُشرِكين يَبلُغُهم ويَشيعُ بيْنَهم وهم لا يُؤمِنون بعَذابِ الآخرةِ، فكانوا جَديرين بتأْكيدِ الخبَرِ في جانبِ التَّعريضِ؛ فتَكونُ (إنَّ) مُستعمَلةً في غرَضَيها مِن التَّوكيدِ والاهتمامِ[٢].

- والتَّعبيرُ بالمُجرمينَ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإلْصاقِ وصْفِ الإجرامِ بهم[٣].

- و(سُعُر) جمْع سَعيرٍ، وهو النَّارُ، وجُمِعَ السَّعيرُ؛ لأنَّه قَويٌّ شَديدٌ[٤]، وذلك على قول في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ السَّحْبُ: الجَرُّ، وهو في النَّارِ أشدُّ مِن مُلازَمةِ المكانِ؛ لأنَّه به يَتجدَّدُ مُماسَّةُ نارٍ أُخرى؛ فهو أشدُّ تَعذيبًا. وجُعِل السَّحبُ على الوُجوهِ؛ إهانةً لهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقولُه: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ مُستأنَفةٌ[١].

- وصِيغةُ الأمْرِ ﴿ذُوقُواْ﴾ مُستعمَلةٌ في الإهانةِ والمُجازاةِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ استِئنافٌ وقَعَ تذْييلًا لِما قبْلَه مِن الوعيدِ والإنذارِ والاعتِبارِ بما حلَّ بالمُكذِّبين، وهو أيضًا تَوطئةٌ لقولِه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾، والمعْنى: إنَّا خلَقْنا وفعَلْنا كلَّ ما ذُكِرَ مِن الأفعالِ، وأسبابِها، وآلاتِها، وسلَّطْناه على مُستحقِّيه؛ لأنَّا خلَقْنا كلَّ شَيءٍ بقدَرٍ، أي: فإذا علِمْتُم هذا فانتَبِهوا إلى أنَّ ما أنتم عليه مِن التَّكذيبِ والإصرارِ مُماثلٌ لِما كانت عليه الأُمَمُ السَّالفةُ[٣].

- ولَمَّا تَضمَّنتِ الآياتُ السَّابقةُ معْنى ادِّعاءِ المُشرِكين القُدرةَ والقُوى لأنفُسِهم، والوعيدَ بالإهلاكِ عاجلًا وآجلًا، والوعْدَ للمؤمنينَ بالانتصارِ منهم؛ جِيءَ بقولِه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ تَوكيدًا للوعْدِ والوعيدِ؛ يعْني: أنَّ هذا الوعدَ حقٌّ، وصِدقُ الموعدِ والموعودِ مُثبَتٌ في اللَّوحِ، مُقدَّرٌ عندَ اللهِ، لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، وذلك على اللهِ يَسيرٌ[٤].

- واقترانُ الكَلامِ بحرْفِ (إنَّ) للتَّوكيدِ والاهتمامِ[٥].

- وقد أشار إلى أنَّ الجزاءَ مِن مُقتضَى الحِكمةِ قولُه تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقولُه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٤٣، ١٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٥، ٢١٦).

ٱلْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥، ٨٦]، وقولُه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٣٨- ٤٠]، فترى هذه الآياتِ وأشباهَها تُعقِّبُ ذِكرَ كَونِ الخلْقِ كلِّه لحِكمةٍ بذِكرِ السَّاعةِ ويومِ الجزاءِ. فهذا وَجْهُ تَعقيبِ آياتِ الإنذارِ والعِقابِ المذكورةِ في هذه السُّورةِ بالتَّذييلِ بقولِه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]، وسيَقولُ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾[(١)] [القمر: ٥١].

- والباءُ في ﴿بِقَدَرٍ﴾ للمُلابَسةِ، والمَجرورُ ظرْفٌ مُستقَرٌّ[(٢)]؛ فهو في حُكْمِ المَفعولِ الثَّاني لفِعلِ ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾؛ لأنَّه مَقصودٌ بذاتِه؛ إذ ليس المَقصودُ الإعلامَ بأنَّ كلَّ شَيءٍ مَخلوقٌ للهِ؛ فإنَّ ذلك لا يَحتاجُ إلى الإعلامِ به بلْهَ تأْكيدَه، بلِ المَقصودُ إظهارُ معْنى العِلمِ والحِكمةِ في الجَزاءِ[(٣)].

- وقدِ انتصَبَ ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ على المَفعوليَّةِ لـ ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ على طَريقةِ الاشتِغالِ[(٤)]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٧).

(٢) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّي ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٧).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ١٠٠).

وتَقديمُه على ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾؛ ليَتأكَّدَ مَدلولُه بذِكرِ اسمِه الظَّاهرِ ابتداءً، وذِكرِ ضَميرِه ثانيًا، وذلك هو الَّذي يَقْتضي العُدولَ إلى الاشتِغالِ في فَصيحِ الكلامِ العرَبيِّ، فيَحصُلَ تَوكيدٌ للمَفعولِ بعْدَ أنْ حصَلَ تَحقيقُ نِسبةِ الفِعلِ إلى فاعِلِه بحرْفِ (إنَّ) المُفيدِ لتَوكيدِ الخبَرِ، ولِيَتَّصِلَ قولُه: ﴿بِقَدَرٍ﴾ بالعامِلِ فيه، وهو ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾؛ لئلَّا يَلتبِسَ بالنَّعتِ لـ﴿شَيْءٍ﴾، لو قِيل: إنَّا خلَقْنا كلَّ شَيءٍ بقدَرٍ، فيُظَنُّ أنَّ المُرادَ: إنَّا خلَقْنا كلَّ شيءٍ مُقدَّرٍ، فيَبْقى السَّامعُ مُنتظِرًا لخبَرِ (إنَّ)[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]؛ فهو داخلٌ في التَّذييلِ، أي: خلَقْنا كلَّ شَيءٍ بعِلمٍ، فالمَقصودُ منه وما يَصلُحُ له مَعلومٌ لنا، فإذا جاء وقْتُه الَّذي أعدَدْناه حصَلَ دَفْعةً واحدةً، لا يَسبِقُه اختبارٌ ولا نظَرٌ ولا بَداءٌ[٢]. والغرَضُ مِن هذا تَحذيرُهم مِن أنْ يَأخُذَهم العَذابُ بَغتةً في الدُّنيا عندَ وُجودِ مِيقاتِه، وسبْقِ إيجادِ أسبابِه ومُقوِّماتِه الَّتي لا يَتفطَّنون لوُجودِها، وفي الآخرةِ بحُلولِ الموتِ، ثم بقِيامِ الساعةِ[٣].

- وعطْفُ هذا عَقِبَ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، مُشعِرٌ بتَرتُّبِ مَضمونِه على مَضمونِ المَعطوفِ عليه في التَّنبيهِ والاستدلالِ، حسَبَ ما هو جارٍ في كَلامِ البُلغاءِ مِن مُراعاةِ تَرتُّبِ مَعاني الكلامِ بَعضِها على بعْضٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٩).

(٢) يُقالُ: بدا له في هذا الأمرِ بَداءٌ، أي: نشأ له فيه رأيٌ. والبَداءُ له مَعانٍ: البَداءُ في العِلمِ، وهو أن يَظهَرَ له خِلافُ ما عَلِم. والبَداءُ في الإرادةِ، وهو أن يَظهَرَ له صوابٌ على خِلافِ ما أراد وحكَمَ. والبَداءُ في الأمرِ: وهو أن يأمُرَ بشَيءٍ، ثمَّ يأمُرَ بشَيءٍ آخَرَ بَعْدَه بخِلافِ ذلك. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٢٧٨)، ((الفصل)) لابن حزم (١/ ١٤٨، ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٩، ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٢٠).

- صِفةُ ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ وصْفٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه الكلامُ هو خبَرٌ عن ﴿أَمْرُنَآ﴾، والتَّقديرُ: إلَّا كَلمةٌ واحدةٌ، وهي كَلمةُ (كُنْ)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1] [يس: ٨٢].

- وصحَّ الإخبارُ عن (أمْر) -وهو مُذكَّرٌ- بـ ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ -وهو مُؤنَّثٌ- باعتبارِ أنَّ ماصَدَقَ[2] (الأمْر) هنا هو أمْرُ التَّسخيرِ، وهو الكلِمةُ، أي: كَلمةُ (كُنْ)[3].

- وقولُه: ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ﴿أَمْرُنَآ﴾ باعتِبارِ الإخبارِ عنه بأنَّه كَلمةٌ واحدةٌ، أي: حُصولُ مُرادِنا بأمْرِنا كلَمْحٍ بالبصَرِ، وهو تَشبيهٌ في سُرعةِ الحُصولِ، أي: ما أمْرُنا إلَّا كلمةٌ واحدةٌ سَريعةُ التَّأثيرِ في المُتعلِّقةِ هي به كسُرعةِ لَمْحِ البصَرِ، وهذا التَّشبيهُ في تَقريبِ الزَّمانِ أبلَغُ ما جاء في الكَلامِ العرَبيِّ[4].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾، وقال في سُورةِ (النَّحلِ): ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]؛ فزِيدَ هنالك: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾؛ لأنَّ المَقامَ للتَّحذيرِ مِن مُفاجَأةِ النَّاسِ بها قبْلَ أنْ يَستعِدُّوا لها؛ فهو حَقيقٌ بالمُبالَغةِ في التَّقريبِ، بخِلافِ ما في هذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٠).

(٢) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو الموصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يقالَ مثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢١).

الآيةِ؛ فإنَّه لتَمثيلِ أمْرِ اللهِ، وذلك يَكفي فيه مُجرَّدُ التَّنبيهِ؛ إذ لا يَتردَّدُ السَّامعُ في التَّصديقِ به(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ الْتُفِتَ مِن طَريقِ الغَيبةِ إلى الخِطابِ، ومَرجِعُ الخِطابِ هم المُشرِكون؛ لظُهورِ أنَّهم المَقصودُ بالتَّهديدِ، وهو تَصريحٌ بما تَضمَّنَه قولُه: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]؛ فهو بمَنزِلةِ النَّتيجةِ لقولِه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ إلى ﴿كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾(٢) [القمر: ٤٩، ٥٠].

- وهذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ بالإهلاكِ، وبأنَّه يُفاجِئُهم قياسًا على إهلاكِ الأُمَمِ السَّابقةِ، وهذا المَقصَدُ هو الَّذي مِن أجْلِه أُكِّدَ الخبَرُ بلامِ القسَمِ وحرْفِ (قدْ)، أمَّا إهلاكُ مَن قبْلَهم فهو مَعلومٌ لا يَحتاجُ إلى تأْكيدٍ. ويجوزُ جعْلُ مَناطِ التَّأكيدِ إثباتَ أنَّ إهلاكَهم كان مِن أجْلِ شِركِهم وتَكذيبِهم الرُّسلَ. وتَفريعُ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ قَرينةٌ على إرادةِ المَعنيَينِ؛ فإنَّ قومَ نوحٍ بقُوا أزمانًا، فما أقْلَعوا عن إشراكِهم حتَّى أخَذَهم الطُّوفانُ بَغتةً، وكذلك عادٌ وثَمودُ كانوا غيرَ مُصدِّقينَ بحُلولِ العَذابِ بهم، فلمَّا حلَّ بهم العذابُ حلَّ بهم بَغتةً، وقومُ فِرعون خرَجوا مُقتَفينَ مُوسى وبني إسرائيلَ، واثِقينَ بأنَّهم مُدرِكوهم، واقتَرَبوا منهم، وظَنُّوا أنَّهم تَمكَّنوا منهم، فما راعَهُم إلَّا أنْ أنْجى اللهُ بني إسرائيلَ، وانطبَقَ البحرُ على الآخَرينَ(٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ المَرفوعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في قولِه: ﴿فَعَلُوهُ﴾ عائدًا إلى ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ [القمر: ٥١]، والمعْنى: أهلَكْناهم بعَذابِ الدُّنيا وهيَّأْنا لهم عَذابَ الآخِرةِ، فكُتِبَ في صَحائفِ الأعمالِ كلُّ ما فَعَلوه مِن الكُفْرِ وفُروعِه؛ فالكتابةُ في الزُّبُرِ -مع ثُبوتِها حقيقةً- وقَعَت هنا كِنايةً عن لازِمِها، وهو المُحاسَبةُ به فيما بعْدُ، وعن لازِمِ لازِمِها، وهو العِقابُ بعْدَ المُحاسَبةِ[١].

- وهذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بالمُخاطَبين بأنَّهم إذا تَعرَّضوا لِما يُوقِعُ عليهم الهلاكَ في الدُّنيا، فليس ذلك قُصارى عَذابِهم؛ فإنَّ بعْدَه حِسابًا عليه في الآخرةِ يُعذَّبون به[٢].

- و﴿ٱلزُّبُرِ﴾ جمْعُ زَبورٍ، وهو الكِتابُ، مُشتَقٌّ مِن الزَّبْرِ، وهو الكِتابةُ، وجُمِعَت الزُّبرُ؛ لأنَّ لكلِّ واحدٍ كِتابَ أعمالِه[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ كالتَّذييلِ لقولِه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]؛ فـ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أعمُّ مِن ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾، والمعْنى: وكلُّ شَيءٍ حَقيرٍ أو عظيمٍ مَكتوبٌ مَسطورٌ، أي: في عِلمِ اللهِ تعالى، أي: كلُّ ذلك يَعلَمُه اللهُ ويُحاسِبُ عليه، وذلك كِنايةٌ عن الجَزاءِ عليه؛ فكانَ ذلك جامِعًا للتَّبشيرِ والإنذارِ[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّه لَمَّا ذكَرَ أنَّ كلَّ صَغيرٍ وكَبيرٍ مُستطَرٌ على إرادةِ أنَّه مَعلومٌ ومُجازًى عليه، وقد عُلِمَ جَزاءُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٢٤).

المُجرِمين مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ [القمر: ٤٧]؛ كانت نفْسُ السَّامعِ بحيث تَتشوَّفُ إلى مُقابِلِ ذلك مِن جَزاءِ المُتَّقينَ، وجرْيًا على عادةِ القُرآنِ مِن تَعقيبِ النِّذارةِ بالبِشارةِ والعكْسِ[١].

- وافتِتاحُ هذا الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ به[٢].

- و(فِي) للظَّرفيةِ الَّتي هي بمعْنى التَّلبُّسِ القَويِّ كتَلبُّسِ المَظروفِ بالظَّرفِ، والمُرادُ في نَعيمِ جنَّاتٍ ونهَرٍ، وبهذا الاعتِبارِ عُطِفَ (نَهَرٍ) على ﴿جَنَّٰتٖ﴾؛ إذ ليس المُرادُ الإخبارَ بأنَّهم ساكِنون جنَّاتٍ؛ فإنَّ ذلك يُغْني عنه قولُه بعْدُ: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾، ولا أنَّهم مُنغمِسون في أنهارٍ؛ إذ لم يكُنْ ذلك ممَّا يَقصِده السَّامِعون[٣].

- قولُه: ﴿وَنَهَرٖ﴾، أي: أنهارٍ كذلكَ، والإفرادُ للاكتِفاءِ باسمِ الجنسِ مُراعاةً للفواصلِ[٤]. والتَّنكيرُ فيه للتَّعظيمِ[٥].

- وجُمِعَت الجنَّاتُ هنا إشارةً إلى سَعتِها وتَنوُّعِها، وأُفرِدَ النَّهَرُ قيل: لأنَّ المعْنى: «في خِلالِه»، فاستُغْنِيَ عن جَمْعِه، وجُمِعَ في قولِه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥] وغيرِه؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّه ليس في الجنَّةِ إلَّا نَهرٌ[٦].

٨- قولُه تعالَى: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ إضافةُ ﴿مَقۡعَدِ﴾ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٨٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿صِدۡقٍ﴾ مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفتِه؛ للمُبالَغةِ في تَمكُّنِ الصِّفةِ منه، والمعْنى: هم في مَقعدٍ يَشتمِلُ على كلِّ ما يَحمَدُه القاعدُ فيه[١].

- و﴿مَلِيكٍ﴾: فَعيلٌ بمعْنى المالِكِ مُبالَغةً، وهو أبلَغُ مِن (مَلِكٍ)[٢].

- و﴿مُّقۡتَدِرٖ﴾ أبلَغُ مِن قادِرٍ[٣].

- وتَنكيرُ ﴿مَلِيكٍ﴾ و﴿مُّقۡتَدِرٖ﴾؛ للتَّعظيمِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٥، ٢٢٦).

ذكَرَ اللهُ تعالى في كتابِه خمسةَ أشياءَ مُضافةً إلى الصِّدقِ؛ وهي: مَقعَدُ الصِّدقِ -كما هنا-، ولِسانُ الصِدْقِ كما في سورةِ (مريم) [الآية: ٥٠]، و(الشعراء) [الآية: ٨٤]، وقدَمُ الصِّدقِ، كما في سورة (يونسَ) [الآية: ٢]، ومُدخَلُ الصِّدقِ، ومُخرَجُ الصِّدقِ، كما في سورةِ (الإسراءِ) [الآية: ٨٠]، وحقيقةُ الصِّدقِ في هذه الأشياءِ: هو الحقُّ الثَّابِتُ، المتَّصِلُ باللهِ، المُوصِلُ إلى اللهِ -وهو ما كان به وله، مِن الأقوالِ والأعمالِ-، وجزاءُ ذلك في الدُّنيا والآخرةِ. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ الرَّحْمنِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الرَّحْمنِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الرَّحمنِ)[١]؛ فعنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أقرَأَني رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سورةَ الرَّحمنِ))[٢].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الرَّحمنِ مَكِّيَّةٌ[٣]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٤].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

التَّذكيرُ بعَظَمةِ اللهِ تعالى، وبيانُ جانِبٍ مِن نِعَمِه على خَلْقِه في الدُّنيا والآخِرةِ، والإنكارُ على مَن أخَلَّ بمُوجَبِ شُكْرِها[٥].

---

(١) وَجْهُ تَسميةِ هذه السُّورةِ بسُورةِ الرَّحمنِ أنَّها ابتُدِئَت باسمِه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٧).

(٢) أخرجه ابنُ حِبَّانَ (٧٤٧) مُطوَّلًا.

صحَّحه ابنُ حِبَّان، وحَسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٧٤٧).

(٣) قال ابنُ عاشور: (وهي [أي: سُورةُ الرَّحمنِ] مَكِّيَّةٌ في قَولِ جُمهورِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٨).

وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا آيةً واحِدةً، وهي قَولُه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩]؛ فمَدَنيَّةٌ. وقيل: بَعضُها مَكِّيٌّ وبَعضُها مَدَنيٌّ. وقيل: السُّورةُ مَدَنيَّةٌ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٠).

(٤) ممَّن نقَل الإجماعَ على أنَّها مَكِّيَّةٌ: الفيروزابادي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٦)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ١٢٦).

=

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- البَدءُ بالثَّناءِ على اللهِ تعالى، والمِنَّةِ على الخَلْقِ بتَعليمِ القُرآنِ.

٢- بيانُ جانِبٍ مِن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، ونِعَمِه على خَلْقِه.

٣- التَّذكيرُ بفَناءِ كُلِّ مَن على ظَهرِ الأرضِ، وأنَّ الباقيَ هو وَجهُ اللهِ تعالى وَحْدَه.

٤- تحَدِّي الجِنِّ والإنسِ أن يَنفُذُوا مِن أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ.

٥- بيانُ أهوالِ القيامةِ، وسُوءِ عاقِبةِ المكَذِّبينَ، وحُسنِ عاقِبةِ المؤمِنينَ؛ ووَصفُ ما أعَدَّه اللهُ لهم مِنَ النَّعيمِ.

٦- خُتِمَت السُّورةُ بتَعظيمِ اللهِ والثَّناءِ عليه.

= قال الرَّسْعَني: (جميعُ ما يأتيك في هذه السُّورةِ فهو: إمَّا تحديثٌ بنِعمةٍ، أو تحذيرٌ مِن نِقمةٍ، أو إعلامٌ بقُدرةٍ باهرةٍ، أو عَظَمةٍ ظاهِرةٍ، وجميعُ ذلك نِعَمٌ؛ فإنَّ شَخصًا لو جاءك مُنقِذًا لك مِن هَلَكةٍ كنتَ غافِلًا عنها لَرأيْتَها له نِعمةً جَسيمةً، ومِنَّةً عَظيمةً). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٥٨).

الآيات (١-٩)

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ٱلۡبَيَانَ﴾: أي: النُّطقَ والتَّمييزَ، والفَهمَ والإبانةَ، وأصلُ (بين): يدُلُّ على الانكِشافِ والظُّهورِ[١].

﴿بِحُسۡبَانٖ﴾: أي: بحِسابٍ، ومَنازِلَ لا تَعْدوها الشَّمسُ ولا القمرُ، ولا يَحيدان عنها، وأصلُ (حسب): يدُلُّ على عَدَدٍ[٢].

﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾: يُطلَقُ النَّجمُ على النبَّتِ على الأرضِ ليس له ساقٌ، وسُمِّيَ نَجمًا لأنَّه نَجَمَ، أي: ظَهَر وطَلَع. ويُطلَقُ على الكَوكَبِ، وهو اسمُ الجِنسِ مِن نُجومِ السَّماءِ. وأصلُ (نجم): يدُلُّ على طُلوعٍ وظُهورٍ[٣].

﴿تَطۡغَوۡاْ﴾: أي: تُجاوِزوا العَدْلَ، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٢٥/ ٢٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((البسيط)) =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ * أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾

قَولُه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾: مَنصوبةٌ على الاشتِغالِ[1] بفِعلٍ مُضمَرٍ على شَريطةِ التَّفسيرِ، أي: ورفَعَ السَّماءَ.

وقَولُه: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ﴾: في «أنْ» هذه وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّها النَّاصبةُ وقَبْلَها لامُ عِلَّةٍ مُقَدَّرةٌ، و«لا» بعْدَها نافيةٌ، و﴿تَطۡغَوۡاْ﴾ مَنصوبٌ بـ «أنْ»، والجارُّ والمجرورُ «لِئَلَّا تَطْغَوا» مُتعَلِّقٌ بقَولِه: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾، والتَّقديرُ: ووَضَعَ المِيزانَ؛ لئَلَّا تَطْغَوا. والثَّاني: أنْ تكونَ المُفسِّرةَ؛ لأنَّ وَضْعَ الميزانِ يَستَدعي الأمرَ بالعَدْلِ، وفي الأمرِ بالعَدلِ مَعنى القَولِ دُونَ حُروفِه، وعلى هذا تكونُ «لا» ناهيةً، والفِعلُ مجزومٌ بها[2].

المعنى الإجماليُّ:

بدأ الله تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ باسمِه «الرَّحمن» الدَّالِّ على سَعةِ رحمتِه، وعمومِ إحسانِه، وجزيلِ بِرِّه، وواسعِ فضلِه، ثمَّ ذكَر ما يدُلُّ على رحمتِه وأثَرِها الَّذي أوصَله إلى عبادِه مِن النِّعمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، فذكَر أنَّه تعالى علَّم عِبادَه القُرآنَ، ويَسَّرَه لهم، وأنَّه تعالى خَلَق آدَمَ وذُرِّيَّتَه، وأنَّه تعالى علَّم الإنسانَ النُّطقَ

= للواحدي (٢١/ ١٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٠٠).

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١١٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٩٦)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١١٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٥٤-١٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٧/ ٨٩).

والإبانةَ عَمَّا في نَفْسِه.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ يَجريانِ بحِسابٍ دَقيقٍ مُتقَنٍ، وأنَّ جَميعَ النُّجومِ والأشجارِ تَسجُدُ للرَّحمنِ، وأنَّه تعالى رَفَعَ السَّماءَ فَوقَ الأرضِ، ووَضَعَ العَدْلَ بيْنَ خَلْقِه؛ لِئَلَّا يَتجاوَزوا الحَدَّ فيَجوروا، ثمَّ يأمُرُ تعالى عِبادَه بأن يُقيموا وَزْنَ الأشياءِ بالعَدلِ التَّامِّ، وألَّا يَنقُصوا الوَزنَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١﴾.

أي: اللهُ: الواسِعُ الرَّحمةِ، المُنعِمُ على عبادِه بالنِّعَمِ الكَثيرةِ في دِينِهم ودُنياهم وأُخراهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال سُبحانَه حاكيًا دُعاءَ مَلائِكتِه: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ للهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠١).

قال ابنُ عاشور: (﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ هذه آيةٌ واحِدةٌ عندَ جمهورِ العادِّينَ، ووقَعَ في المصاحِفِ الَّتي بروايةِ حَفصٍ عن عاصِمٍ علامةُ آيةٍ عَقِبَ كَلِمةِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ إذ عَدَّها قُرَّاءُ الكوفةِ آيةً؛ فلذلك عَدَّ أهلُ الكوفةِ آيَ هذه السُّورةِ ثمانيًا وسَبعينَ، فإذا جُعِلَ اسمُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ آيةً تعَيَّنَ أن يكونَ اسمُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: إمَّا خبَرًا لمُبتدَأٍ محذوفٍ تقديرُه: هو الرَّحمنُ، أو مبتدأً خَبَرُه محذوفٌ يُقَدَّرُ بما يُناسِبُ المقامَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٣).

وهذا الاختِلافُ في عدِّ الآياتِ لا تأثيرَ له في النَّصِّ القُرآنيِّ زيادةً أو نقصًا، بل النَّصُّ القُرآنيُّ كما أنزله الله لم يَتغيَّرْ منه شَيءٌ.

مِئةَ رَحمةٍ، أنزَلَ منها رَحمةً واحِدةً بيْنَ الجِنِّ والإنسِ والبهائِمِ والهَوامِّ، فبها يَتعاطَفونَ، وبها يَتراحَمونَ، وبها تَعطِفُ الوَحشُ على وَلَدِها، وأخَّرَ اللهُ تِسعًا وتِسعينَ رَحمةً، يَرحَمُ بها عِبادَه يومَ القيامةِ))[١].

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾.

أي: علَّم الرَّحمنُ -سُبحانَه- عِبادَه ألفاظَ القُرآنِ ومَعانيَه، ويَسَّرَها لهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٧].

وعن عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

---

(١) رواه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠١).

قال ابن عثيمين: (﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: علَّمه مَن شاءَ مِن عبادِه، فعلَّمه جِبريلَ عليه السَّلامُ أوَّلًا، ثمَّ نزَل به جبريلُ على قلبِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ثانيًا، ثمَّ بلَّغه محمَّدٌ صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم ثالثًا إلى جميعِ النَّاسِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠١).

وقال ابن الجوزي: (في قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ قولان؛ أحدُهما: علَّمه محمَّدًا، وعلَّمه محمدٌ أمَّتَه، قاله ابنُ السَّائبِ. والثاني: يسَّر القرآنَ، قاله الزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٠٥). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٩٥).

وقال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: علَّم نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم القرآنَ، فتلقَّته أمَّتُه عنه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٨٨). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٧).

((خَيْرُكم مَن تَعلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَه))[١].

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثَبَت كَونُه الرَّحمنَ، وأشار إلى ما هو شِفاءٌ ورَحمةٌ -وهو القُرآنُ-؛ ذكَرَ نِعَمَه، وبدأ بخَلْقِ الإنسانِ؛ فإنَّه نِعمةٌ تَتِمُّ جميعُ النِّعَمِ به، ولولا وُجودُه لَما انتَفَع بشَيءٍ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تَعليمَ القُرآنِ ولم يَذكُرِ المُعَلَّمَ؛ ذكَرَه بَعْدُ لِيُعلَمَ أنَّه المقصودُ بالتَّعليمِ[٣].

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ ﴾.

أي: خَلَق الرَّحمنُ آدَمَ وذُرِّيَّتَه[٤].

كما قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [النحل: ٤].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٨، ١٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠١).

﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

ذَكَر تعالى الوَصفَ الَّذي يتمَيَّزُ به الإنسانُ مِن المَنطِقِ المُفصِحِ عن الضَّميرِ، والَّذي به يُمكِنُ قَبولُ التَّعليمِ، وهو البَيانُ(١).

﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾.

أي: علَّم الرَّحمنُ الإنسانَ النُّطقَ والفَهمَ، والإبانةَ عَمَّا في نَفْسِه بالكَلامِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٢، ١٥٣)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٢).

قال ابن عاشور: (والبيانُ: الإعرابُ عمَّا في الضَّميرِ مِن المقاصِدِ والأغراضِ، وهو النُّطْقُ، وبه تَمَيُّزُ الإنسانِ عن بَقِيَّةِ أنواعِ الحيوانِ، فهو مِن أعظَمِ النِّعَمِ. وأمَّا البيانُ بغيرِ النُّطقِ مِن إشارةٍ وإيماءٍ ولمحِ النَّظرِ فهو أيضًا مِن مُمَيِّزاتِ الإنسانِ، وإنْ كان دونَ بيانِ النُّطقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٣).

وقال السعدي: (﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ أي: التَّبيينَ عمَّا في ضميرِه، وهذا شاملٌ للتَّعليمِ النُّطقيِّ والتَّعليمِ الخطِّيِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨).

وقال ابن عثيمين: (﴿ٱلۡبَيَانَ﴾ أي: ما يُبينُ به عمَّا في قَلبِه، وأيضًا ما يَستَبينُ به عندَ المُخاطَبةِ؛ فهنا بيانانِ: البَيانُ الأوَّلُ مِن المتكَلِّمِ، والبَيانُ الثَّاني مِن المخاطَبِ؛ فالبَيانُ مِن المتكلِّمِ يعني التَّعبيرَ عمَّا في قَلبِه، ويكونُ باللِّسانِ نُطْقًا، ويكونُ بالبَنانِ كتابةً...، وأيضًا ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ كيف يَستبينُ الشَّيءَ، وذلك بالنِّسبةِ للمُخاطَبِ، يَعلَمُ ويَعرِفُ ما يقولُ صاحِبُه، ولو شاء اللهُ تعالى لأسمعَ المخاطَبَ الصَّوتَ دون أنْ يَفهَمَ المعنى). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٢).

ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى ما أنعَمَ به على الإنسانِ مِن تَعليمِه البَيانَ؛ ذكَرَ ما امتَنَّ به مِن وُجودِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وما فيهما مِنَ المنافِعِ العَظيمةِ للإنسانِ؛ إذ هما يَجريانِ على حِسابٍ مَعلومٍ وتَقديرٍ سَوِيٍّ في بُروجِهما ومَنازِلِهما(١).

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥﴾.

أي: الشَّمسُ والقَمَرُ يَجريانِ بحِسابٍ دَقيقٍ مُتقَنٍ لا يَختَلِفُ ولا يَضطَرِبُ، ولا يُجاوِزانِ مَنازِلَهما، ولا يتأخَّرانِ في جَرَيانِهما، فيَحسِبُ النَّاسُ بهما السِّنينَ والشُّهورَ والأيَّامَ والأوقاتَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِۚ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٢، ٣٠٣).

أي: وجَميعُ النُّجومِ والأشجارِ تَسجُدُ للرَّحمنِ[(١)].

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٧، ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٣).

قال ابن جرير: (اخْتَلَف أهلُ التَّأويلِ في معنَى النَّجْمِ في هذا الموضعِ، معَ إجماعِهم على أنَّ الشَّجَرَ ما قامَ على ساقٍ؛ فقال بعضُهم: عُنِيَ بالنَّجمِ في هذا الموضعِ مِن النَّباتِ: ما نَجَم مِن الأرضِ، ممَّا يَنْبَسِطُ عليها، ولم يَكُنْ على ساقٍ، مِثلَ البَقْلِ ونحوِه... وقال آخَرونَ: عُنِيَ بالنَّجمِ في هذا الموضعِ: نَجْمُ السَّماءِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٣، ١٧٤).

وقال الزَّجَّاجُ: (قال أهلُ اللُّغةِ وأكثَرُ أهلِ التَّفسيرِ: النَّجمُ: كُلُّ ما نَبَت على وَجهِ الأرضِ مِمَّا ليس له ساقٌ، والشَّجَرُ: كُلُّ ما له ساقٌ، ومعنى سُجودِهما: دَوَرانُ الظِّلِّ معهما، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ٤٨]. وقد قيلَ: إنَّ النَّجمَ أيضًا يرادُ به النُّجومُ. وهذا جائزٌ أن يكونَ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ قد أعلَمَنا أنَّ النَّجمَ يَسجُدُ، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ [الحج: ١٨]. ويجوزُ أن يكونَ النَّجمُ هاهنا يعني به: ما نَبَت على وَجهِ الأرضِ، وما طَلَع مِن نُجومِ السَّماءِ؛ يُقالُ لكُلِّ ما طَلَع: قد نَجَم). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٩٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالنَّجْمِ: النَّجمُ الَّذي في السَّماءِ: ابنُ القيِّم، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٧، ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ، وقَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩).

قال ابنُ عثيمين: («النَّجْمُ» اسمُ جِنسٍ، والمرادُ به النُّجومُ... النُّجومُ العُلْيا الَّتي نشاهِدُها في السَّماءِ تَسجُدُ لله عَزَّ وجَلَّ سجودًا حقيقيًّا، لكِنَّنا لا نعلَمُ كيفيَّتَه؛ لأنَّ هذا مِنَ الأمورِ الَّتي لا تُدرِكُها العُقولُ، والشَّجَرُ يَسجُدُ لله عزَّ وجَلَّ سُجودًا حقيقيًّا، لكِنْ لا ندري كيف ذلك، واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٣).

وقد ذهب مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، والبغوي، والزمخشري، وأبو حيَّان، والشوكاني: إلى أنَّ المرادَ بالنَّجْمِ: نَباتُ الأرضِ الَّذي ليس له ساقٌ. =

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾.

أي: ورَفَع الرَّحمنُ السَّماءَ فَوقَ الأرضِ[1].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

فيها مُقابَلَةٌ عَظيمةٌ بيْنَ رَفعِ السَّماءِ -الَّذي هو حَقٌّ وعَدلٌ وقُدرةٌ- والميزانِ الَّذي

= يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٨).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والسُّدِّيُّ، وسُفْيانُ الثَّوْريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ للنَّجْم: البِقاعي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٣).

قال البِقاعي: (﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ أي: حِسًّا بعدَ أن كانت مُلتَصِقةً بالأرضِ، ففَتَقَها منها، وأعلاها عنها). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٤٧).

وَضَعه في الأرضِ؛ لِتَقوموا بالعَدلِ والإنصافِ، وبهذا العَدلِ قامت السَّمَواتُ والأرضُ(١).

﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾.

أي: ووَضَع الرَّحمنُ العَدْلَ بيْنَ خَلْقِه في الأرضِ، والآلَةَ الَّتي يُعرَفُ بها العَدلُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨﴾.

أي: لِئَلَّا تَتجاوزوا الحَدَّ فتَجوروا(٣).

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٣، ٣٠٤).

قال ابنُ القيِّم: (الميزانُ يُرادُ به العَدلُ والآلةُ الَّتي يُعرَفُ بها العَدلُ وما يُضادُّه). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٠٣).

وقال ابن تيميَّةَ: (قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ * أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ * وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾، وقال كثيرٌ مِن المفسِّرينَ: هو العدلُ. وقال بعضُهم: ما يوزَنُ به ويُعرَفُ العدلُ. وهما مُتلازِمانِ). ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٣٨٤).

وقال السعدي: (ووضَعَ اللهُ الميزانَ، أي: العَدلَ بيْنَ العِبادِ في الأقوالِ والأفعالِ، وليس المرادُ به الميزانَ المعروفَ وَحْدَه، بل... يَدخُلُ فيه الميزانُ المعروفُ، والمكيالُ الَّذي تُكالُ به الأشياءُ والمقاديرُ، والمِساحاتُ الَّتي تُضبَطُ بها المجهولاتُ، والحقائِقُ الَّتي يُفصَلُ بها بيْنَ المخلوقاتِ، ويُقامُ بها العَدلُ بَيْنَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن =

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

أي: وأقيموا وَزْنَ الأشياءِ بالعَدلِ التَّامِّ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

= عطية)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٤).

قال القرطبي: (الطُّغْيانُ: مُجاوَزةُ الحَدِّ. فمَن قال: الميزانُ: العَدلُ، قال: طُغيانُه: الجَورُ. ومَن قال: إنَّه الميزانُ الَّذي يُوزَنُ به، قال: طُغيانُه: البَخسُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٥).

وقال ابنُ عاشور: (ولَفظُ الميزانِ يَسمَحُ بإرادةِ المَعنَيينِ، على طريقةِ استِعمالِ المُشتَرَكِ في معنَيَيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ التَّعليلُ، أي: وَضَع الميزانَ لئَلَّا تَطْغَوا: البغويُّ، وابن عطية، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٤).

قال ابنُ عاشور: (ويجوزُ أن تكونَ «أنْ» مَصدريَّةً بتَقديرِ لامِ الجَرِّ محذوفةً قَبْلَها. والتَّقديرُ: لئَلَّا تَطغَوا في الميزانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٨).

وقيل: «أنْ» مُفَسِّرةٌ، و«لا» ناهيةٌ، والمعنى: النَّهيُ عن الطُّغيانِ. وممَّن جوَّز ذلك: ابنُ عطية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٨).

وقال البِقاعي: (﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ ﴾ أي: لا تَتجاوَزوا الحدودَ ﴿فِي ٱلْمِيزَانِ ﴾ أي: الأشياءِ الموزونةِ مِن الموزوناتِ المعروفةِ، والعِلمِ والعملِ المقدَّرِ أحدُهما بالآخَرِ، وفي مساواةِ الظَّاهرِ والباطنِ والقولِ والفعلِ، فالميزانُ الثَّاني عامٌّ لميزانِ المعلوماتِ، وميزانِ المحسوساتِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٤).

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].

﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾.

أي: ولا تَنقُصوا الوَزنَ، بل أعطُوا الحُقوقَ كامِلةً وافِيةً[١].

كما قال شُعَيبٌ عليه السَّلامُ لِقَومِه: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ﴾ وُجوبُ العَدلِ في الوَزنِ، وتحريمُ البَخْسِ فيه[٢].

٢- عَن قَتادةَ في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ﴾ قال: (اعْدِلْ يا ابنَ آدَمَ كما تُحِبُّ أن يُعدَلَ عليك، وأَوْفِ كما تُحِبُّ أن يُوفَى لك؛ فإنَّ العَدلَ يُصلِحُ النَّاسَ)[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

قال ابن عاشور: (إنْ حُمِلَ ﴿ٱلْمِيزَانِ﴾ فيه على معنى العَدلِ كان المعنى: النَّهيَ عن التَّهاوُنِ بالعَدلِ؛ لغَفلةٍ أو تسامُحٍ بعدَ أنْ نهى عن الطُّغيانِ فيه، ... وإنْ حُمِلَ فيه على آلةِ الوَزنِ كان المعنى: النَّهيَ عن غَبْنِ النَّاسِ في الوَزنِ لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٢/ ١٧٨)، وابن المنذر كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٩٢).

٣- لَمَّا كانت السَّماءُ مع عُلُوِّها الدَّالِّ على عِزَّةِ مُوجِدِها ومُدَبِّرِها دالَّةً على عَدْلِه باعتِدالِ جميعِ أحوالِها مِنَ الحَرِّ والبَردِ، والمطَرِ والثَّلجِ، والنَّدى والطَّلِّ وغَيرِ ذلك؛ في أنَّ كُلَّ فَصلٍ منها معادِلٌ لضِدِّه، وأنَّها لا يُنزِلُها سُبحانَه إلَّا بقَدَرٍ مَعلومٍ، وإلَّا لفَسَدت الأرضُ كُلُّها- دَلَّنا على أنَّه شَرَعَ لنا مِثلَ ذلك العَدلِ؛ لِتَقومَ أحوالُنا، وتَصلُحَ أقوالُنا وأفعالُنا بما قامت به السَّمَواتُ والأرضُ- فقال: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: العَدْلَ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ابتدأَ سُبحانَه هذه السُّورة بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ عُنوانًا على أنَّ ما بَعْدَه كلَّه مِن رَحمةِ اللهِ تعالى[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ خَصَّ سُبحانَه مِن أسمائِه الحُسنى هذا الاسمَ؛ إشعارًا برَحمتِه بالكِتابِ، وعَظيمِ إحسانِه به[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ ردٌّ على الكُفَّارِ في قَولِهم: «إنَّه تعَلَّمَ هذا القُرآنَ مِن بَشَرٍ»؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ تعالى، لا كَلامُ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[٤].

٤- قال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ فدلَّ تعليمُه القرآنَ على أنَّه يقدِرُ أنْ يعلِّمَ ما أراد مَن أراد، وكما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾[٥] [البقرة: ٣١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يَبدأُ بالشَّرائعِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤٧، ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤١).

قبْلَ ذِكْرِ الخَلْقِ وما يَتعَلَّقُ به؛ لأنَّ المخلوقاتِ إنَّما سُخِّرَتْ للقيامِ بطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] [الذاريات: ٥٦].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۞ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ دَلَّتْ هذه الكَلِماتُ على إعطائِه سُبحانَه مراتِبَ الوُجودِ بأَسْرِها؛ فقَولُه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ إخبارٌ عن الإيجادِ الخارجيِّ العَينيِّ، وخَصَّ الإنسانَ بالخَلْقِ؛ لأنَّه مَوضِعُ العِبْرةِ، والآيةُ فيه عَظيمةٌ، وقَولُه: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إخبارٌ عن إعطاءِ الوُجودِ العِلميِّ الذِّهنيِّ، فإنَّما تَعَلَّمَ الإنسانُ القُرآنَ بتَعليمِه، كما أنَّه إنَّما صار إنسانًا بخَلْقِه، فهو الَّذي خَلَقَه وعَلَّمَه، ثمَّ قال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ والبَيانُ يَتناوَلُ مراتبَ ثلاثةً كلٌّ منها يُسمَّى بيانًا؛ أحدُها: البيانُ الذِّهنيُّ الَّذي يُميِّزُ فيه بيْنَ المعلوماتِ. الثَّاني: البيانُ اللَّفظيُّ الَّذي يُعَبِّرُ به عن تلك المعلوماتِ، ويُتَرجِمُ عنها فيه لغَيرِه. الثَّالثُ: البيانُ الرَّسميُّ الخَطِّيُّ الَّذي يَرسُمُ به تلك الألفاظَ؛ فيَتبيَّنُ النَّاظِرُ معانيَها كما يَتبيَّنُ للسَّامعِ معاني الألفاظِ. فهذا بَيانٌ للعَينِ، وذاك بَيانٌ للسَّمعِ، والأوَّلُ بَيانٌ للقَلبِ، وكثيرًا ما يَجمَعُ سُبحانَه بيْنَ هذه الثَّلاثةِ، كقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقولِه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ويَذُمُّ مَن عَدِمَ الانتِفاعَ بها في اكتِسابِ الهُدى والعِلمِ النَّافِعِ، كقَولِه: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨]، وقَولِه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾[2] [البقرة: ٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٧).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٧٩).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ بَدَأَ اللهُ تعالى بتعليمِ القُرآنِ قَبْلَ خَلْقِ الإنسانِ؛ إشارةً إلى أنَّ نِعمةَ اللهِ علينا بتعليمِ القرآنِ أشدُّ وأبلغُ مِن نعمتِه بخَلْقِ الإنسانِ، وإلَّا فمِنَ المعلومِ أنَّ خَلْقَ الإنسانِ سابِقٌ على تعليمِ القُرآنِ، لكنْ لَمَّا كان تَعليمُ القرآنِ أعظمَ مِنَّةٍ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ على العَبدِ، قَدَّمَه على خَلْقِه[١]؛ لأنَّ أصلَ النِّعَمِ الدِّينيَّةِ وأجَلَّها هو إنعامُه بالقُرآنِ وتَنزيلُه وتعليمُه؛ فإنَّه أساسُ الدِّينِ، ومَنشأُ الشَّرعِ، وأعظَمُ الوَحيِ، وأعزُّ الكُتُبِ؛ إذ هو بإعجازِه واشتِمالِه على خُلاصتِها مُصَدِّقٌ لِنَفْسِه ومِصْداقٌ لها[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ تعالى، وكَلامُ اللهِ صفةٌ مِن صفاتِ ذاتِه، وليس شيءٌ مِن صفاتِ ذاتِه مَخلوقًا ولا مُحدَثًا ولا حادِثًا، فخَصَّ سُبحانَه القُرآنَ بالتَّعليمِ؛ لأنَّه كَلامُه وصِفتُه، وخَصَّ الإنسانَ بالتَّخليقِ؛ لأنَّه خَلْقُه ومَصنوعُه، ولولا ذلك لَقال: «خَلَقَ القُرآنَ والإنسانَ»[٣]، واللهُ تعالى ذَكَر القُرآنَ في كِتابِه في أربعةٍ وخمسينَ مَوضِعًا، ما فيها موَضِعٌ صَرَّح فيه بلَفظِ الخَلْقِ، ولا أشار إليه، وذكَرَ الإنسانَ على الثُّلُثِ مِن ذلك؛ في ثمانيةَ عَشَرَ مَوضِعًا، كُلُّها نَصَّت على خَلْقِه، وقد اقتَرَن ذِكرُهما في هذه السُّورةِ على هذا النَّحوِ[٤].

٩- تأمَّلْ قَولَه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ كيفَ جَعَل الخَلْقَ والتَّعليمَ ناشِئًا عن صِفةِ الرَّحمةِ، مُتعَلِّقًا باسمِ الرَّحمنِ، وجَعَل معانيَ السُّورةِ مُرتَبِطةً بهذا الاسمِ، وختَمَها بقَولِه: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((الاعتقاد)) للبيهقي (ص: ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٣).

رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]؛ فالاسمُ الَّذي تبارَكَ هو الاسمُ الَّذي افتَتَح به السُّورةَ؛ إذ مجيءُ البَرَكةِ كُلِّها منه، وبه وُضِعَت البَرَكةُ في كُلِّ مُبارَكٍ، فكُلُّ ما ذُكِرَ عليه بُورِكَ فيه، وكُلُّ ما خَلِيَ منه نُزِعَت منه البَرَكةُ؛ فإنْ كان مُذَكًّى وخَلِيَ منه اسمُه، كان مَيتةً، وإن كان طعامًا، شارَكَ صاحِبَه فيه الشَّيطانُ، وإن كان مَدخَلًا، دَخَل معه فيه، وإن كان حَدَثًا، لم يُرفَعْ عندَ كثيرٍ مِن العُلَماءِ، وإن كان صَلاةً، لم تَصِحَّ عندَ كَثيرٍ منهم(١)!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ مُناسَبةٌ بيْنَ القُرآنِ والميزانِ؛ فإنَّ القُرآنَ فيه مِنَ العِلمِ ما لا يُوجَدُ في غَيرِه مِنَ الكُتُبِ، والميزانَ فيه مِنَ العَدلِ ما لا يُوجَدُ في غَيرِه مِنَ الآلاتِ(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ لم يَذكُرْ سُبحانَه خَلْقَ غيرِ الإنسانِ؛ لأنَّ أشرَفَ المخلوقاتِ جِنسًا هم البَشَرُ، مِن حيثُ الجِنسُ لا مِن حيثُ الأفرادُ؛ لأنَّ بَعضَ البَشَرِ أخَسُّ مِن الأنعامِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، لكِنَّ البَشَرَ مِن حيثُ الجنسُ هم أفضلُ أجناسِ المَخلوقاتِ(٣).

١٢- استدَلَّ بَعضُهم بقَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ على أنَّ الألفاظَ تَوقيفيَّةٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((دروس الحرم المدني)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٩٥).

قال الطُّوفي: (هذه المسألةُ مِن مسائلِ اللُّغاتِ مِن أصولِ الفقهِ، وقد اختُلِف فيها؛ فقيل: اللُّغاتُ توقيفٌ، وقيل: اصْطِلاحٌ، وقيل: القَدْرُ المعرِّفُ للتَّخاطُبِ توقيفٌ، والباقي اصطلاحٌ، وقيل غيرُ ذلك، وهذه المسألةُ مِن رياضاتِ الفنِّ، لا مِن ضَروريَّاتِه). ((الإشارات الإلهية إلي المباحث =

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ أنَّ عدَمَ البيانِ صِفةُ نَقصٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى مَيَّزَ الإنسانَ بالنُّطقِ والبَيانِ، الَّذي فَضَّلَه به على سائرِ الحَيوانِ[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ نِعمةَ البَيانِ مِن أجَلِّ النِّعَمِ على الإنسانِ[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ تَنويهٌ بالعُلومِ الزَّائدةِ في بيانِ الإنسانِ، وهي خصائِصُ اللُّغةِ وآدابُها[٣].

١٦- قال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۞ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ بعدَ ذِكرِ القُرآنِ، وكان هو كافيًا لا يُحتاجُ معه إلى دليلٍ آخَرَ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ بَعضَ النَّاسِ إنْ لم تكُنْ له النَّفْسُ الزَّكيَّةُ الَّتي يُغنيها اللهُ بالدَّلائِلِ الَّتي في القُرآنِ، فله في الآفاقِ آياتٌ: منها الشَّمسُ والقَمَرُ[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ سؤالٌ: ما معنى الجَمعِ بيْنَ آلةِ الوَزنِ والسَّماءِ؟ وأين الميزانُ مِنَ السَّماءِ؟! وإنَّما يُوصَلُ الشَّيءُ بجِنسِه وشِبْهِه!

الجوابُ: أنَّ الجَمعَ لم يكُنْ مِن قِبَلِ النَّظَرِ في شَخصِ الميزانِ وصِغَرِه، ولو نُظِرَ إلى مَبلغِ الحاجةِ إليه لَاستُعظِمَ مِن أمرِه ما استُصغِرَ، معَ ما في النُّفوسِ

= الأصولية)) (ص: ٤٩). ويُنظر: ((روضة الناظر وجنة المناظر)) لابن قدامة (١/ ٤٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٩٠) و(١٢/ ٤٤٦)، ((المزهر في علوم اللغة وأنواعها)) للسيوطي (١/ ١٢)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٩).

مِن الظُّلم ما يُبعِدُ عن العَدلِ في التَّعامُلِ لولا الميزانُ؛ ألَا ترَى إلى قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]؛ إذ كان الكِتابُ يتضَمَّنُ حِفظَ العَدلِ، والميزانُ يُظهِرُ العَدْلَ؛ فقَرَن آلةَ العَمَلِ إلى آلةِ العِلمِ، ومَن اعتبَرَ حالَ الميزانِ بحَجْمِه دونَ مَنافِعِه كان كمَن اعتبَرَ القَلَمَ بشَخصِه إذ رآه قِطعةَ قَصَبٍ! وقد عَظَّمَه اللهُ في قَولِه: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ [القلم: ١]، وقَولِه: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾[(١)] [العلق: ٤].

١٨- قال تعالى: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ أي: أنزَلَ اللهُ الميزانَ؛ لئلَّا تَتجاوَزوا الحَدَّ في الميزانِ؛ فإنَّ الأمرَ لو كان يَرجِعُ إلى عُقولِكم وآرائِكم لحَصَل مِنَ الخَلَلِ ما اللهُ به عليمٌ، ولفَسَدت السَّمَواتُ والأرضُ[(٢)].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ إشارةٌ إلى العَدلِ، وفيه لطيفةٌ: وهي أنَّه تعالى بدأ أوَّلًا بالعِلمِ، ثمَّ ذَكَر ما فيه أشرَفُ أنواعِ العُلومِ، وهو القُرآنُ، ثمَّ ذَكَر العَدلَ، وذَكَر أخَصَّ الأُمورِ له، وهو الميزانُ، وهو كقَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ لِيَعمَلَ النَّاسُ بالكِتابِ، ويَفعَلوا بالميزانِ ما يأمُرُهم به الكِتابُ[(٣)].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ سُؤالٌ عن الميزانِ: أنَّه ما الَّذي فيه مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ الَّتي بسَبَبِها يُعَدُّ في الآلاءِ؟

الجَوابُ: النُّفوسُ تأبى الغَبْنَ، ولا يَرضى أحدٌ بأن يَغلِبَه الآخَرُ -ولو في الشَّيءِ اليَسيرِ-، ويَرى أنَّ ذلك استِهانةٌ به؛ فلا يَترُكُه لخَصمِه لغَلَبةٍ، فلا أحَدَ

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٢).

يَذهَبُ إلى أنَّ خَصْمَه يَغلِبُه، فلولا التَّبيينُ ثمَّ التَّساوي لأوقَعَ الشَّيطانُ بيْنَ النَّاسِ البَغضاءَ -كما وَقَع عندَ الجَهلِ، وزَوالِ العَقلِ، والسُّكْرِ-، فكما أنَّ العَقلَ والعِلمَ صارا سَبَبًا لبَقاءِ عِمارةِ العالَمِ؛ فكذلك العَدلُ في الحِكمةِ سَبَبٌ، وأخَصُّ الأسبابِ الميزانُ؛ فهو نِعمةٌ كامِلةٌ، ولا يُنظَرُ إلى عدَمِ ظُهورِ نِعمَتِه لكَثرتِه، وسُهولةِ الوُصولِ إليه،كالهَواءِ والماءِ اللَّذَينِ لا يتبَيَّنُ فَضلُهما إلَّا عندَ فَقدِهما[1]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۞ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ إمَّا خبَرٌ لمُبتدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: هو الرَّحمنُ، أو مُبتدأٌ خبَرُه مَحذوفٌ، يُقدَّرُ بما يُناسِبُ المَقامَ. ويجوزُ أنْ يكونَ واقعًا مَوقعَ الكلماتِ الَّتي يُرادُ لفْظُها؛ للتَّنبيهِ على غلَطِ المُشرِكين؛ إذ أنْكَروا هذا الاسمَ؛ قال تعالَى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، فيَكونَ مَوقعُه شَبيهًا بمَوقعِ الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي يُتهجَّى بها في أوائلِ بعضِ السُّوَرِ -على أظهَرِ الوجوهِ في تأْويلِها-، وهو التَّعريضُ بالمُخاطَبينَ بأنَّهم أخْطؤوا في إنكارِهم الحقائقَ[2].

- ومِن بَديعِ أُسلوبِ السُّورة افتتاحُها الباهرُ باسمِه الرَّحمنِ، وهي السُّورة الوَحيدةُ المُفتتَحةُ باسمٍ مِن أسماءِ اللهِ لم يَتقدَّمْه غيرُه. وكان في افتِتاحِ السُّورة باسمِ الرَّحمنِ تَشويقُ جَميعِ السَّامِعينَ إلى الخبَرِ الَّذي يُخبَرُ به عنه؛ إذ كان المُشرِكون لا يأْلَفون هذا الاسمَ؛ قال تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، فهُمْ إذا سَمِعوا هذه الفاتحةَ تَرقَّبوا ما سيَرِدُ مِن الخبَرِ عنه، والمؤمنونَ إذا طرَقَ أسماعَهم هذا الاسمُ، استَشْرَفوا لِما سيَرِدُ مِن الخبرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٠).

المناسِبِ لوصْفِه هذا ممَّا هم مُتشوِّقون إليه مِن آثارِ رَحمتِه[١].

- وأُوثِرَ استِحضارُ الجَلالةِ باسْمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ دونَ غيرِه مِن الأسماءِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ يَأبَونَ ذِكرَه، فجُمِعَ في هذه الجُملةِ بيْنَ رَدَّينِ عليهم، معَ ما للجُملةِ الاسميَّةِ مِن الدَّلالةِ على ثَباتِ الخبَرِ. ولأنَّ مُعظَمَ هذه السُّورةِ تَعدادٌ للنِّعمِ والآلاءِ؛ فافتِتاحُها باسمِ الرَّحمنِ بَراعةُ استِهلالٍ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ جِيءَ بالمُسنَدِ ﴿عَلَّمَ﴾ فِعلًا مُؤخَّرًا عن المُسنَدِ إليه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ لإفادةِ التَّخصيصِ، أي: هو علَّمَ القرآنَ، لا بشَرٌ علَّمَه[٣].

- وحُذِفَ المفعولُ الأوَّلُ لفِعلِ ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ لظُهورِه لدَلالةِ المعْنى عليه، فقيل: التَّقديرُ: علَّمَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّهم ادَّعَوا أنَّه مُعلَّمٌ، وإنَّما أنْكَروا أنْ يكونَ مُعلِّمُه القرآنَ هو اللهَ تعالى، وهذا تَبكيتٌ أوَّلُ. وقيل: علَّمَ جِبريلَ، أو الإنسانَ[٤].

- وفي قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أُسنِدَ تَعليمُ القرآنِ إلى اسمِ الرَّحمنِ؛ للإيذانِ بأنَّه مِن آثارِ الرَّحمةِ الواسعةِ وأحْكامِها، وقد اقتُصِرَ على ذِكرِه؛ تَنبيهًا على أصالتِه، وجَلالةِ قَدْرِه[٥].

- وقولُه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ خبَرٌ ثانٍ، والمُرادُ بالإنسانِ جِنسُ الإنسانِ، وهذا تَمهيدٌ للخبَرِ الآتي، وهو ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤]، وهذه قَضيَّةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٦).

لا يُنازِعون فيها، ولكنَّهم لَمَّا أعْرَضوا عن مُوجَبِها -وهو إفرادُ اللهِ تعالى بالعِبادةِ-، سِيقَ لهم الخبَرُ بها على أُسلوبِ التَّعديدِ بدونِ عطْفٍ، كالَّذي يَعُدُّ للمُخاطَبِ مَواقعَ أخطائِه وغَفلتِه، وهذا تَبكيتٌ ثانٍ؛ ففي خلْقِ الإنسانِ دَلالتانِ؛ أُولاهما: الدَّلالةُ على تَفرُّدِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ. وثانيتُهما: الدَّلالةُ على نِعمةِ اللهِ على الإنسانِ، والخلْقُ نِعمةٌ عَظيمةٌ؛ لأنَّ فيها تَشريفًا للمخلوقِ بإخراجِه مِن غَياهِبِ العدَمِ إلى مَبْرَزِ الوجودِ في الأعيانِ[١].

- وقُدِّمَ خَلْقُ الإنسانِ على خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لِمُناسَبةِ إردافِه بتَعليمِ القُرآنِ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ جِيءَ بالمُسنَدِ فِعلًا بعْدَ المُسنَدِ إليه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وهو يُفيدُ تَقوِّي الحُكمِ، أو للتَّخصيصِ؛ بتَنزيلِهم مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ خلَقَ الإنسانَ؛ لأنَّهم عَبَدوا غيرَه[٣].

- وفي قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في سُورةِ (العَلَقِ): ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، ثمَّ قال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٣، ٤]، فقدَّمَ الخلْقَ على التَّعليمِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه في تلك السُّورةِ لم يُصرِّحْ بتَعليمِ القُرآنِ؛ فهو كالتَّعليمِ الَّذي ذَكَرَه في هذه السُّورة بقولِه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ بعدَ قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾[٤].

وقيل: لأنَّ سورةَ (العَلَقِ) أوَّلُ ما نزَل مِن القرآنِ، ولم يكُنِ القرآنُ معهودًا للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ولا لغيرِه، وسورةُ (الرحمنِ): نزَلت بعدَ معرفةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤)() يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٨).

القرآنِ، وشهرتِه عندَهم، فكان الابتداءُ بما يعرِفُه مِن تقديمِ الخلقِ في سورةِ (العلقِ) أنسبُ مِن القرآنِ الذي لم يعهَدْه، وكان الابتداءُ بتعليمِ القرآنِ الذي نعرِفُه، والمنَّةُ به في سورةِ (الرحمنِ) أنسبُ لسياقِ ما ورَدت به السُّورةُ مِن عظيمِ المنَّةِ على العبادِ[١].

- وقولُه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ خبَرٌ ثالثٌ تضمَّنَ الاعتبارَ بنِعمةِ الإبانةِ عن المُرادِ، والامتِنانَ بها بعْدَ الامتنانِ بنِعمةِ الإيجادِ، أي: علَّم جِنسَ الإنسانِ أنْ يُبِينَ عمَّا في نفْسِه ليُفيدَ غيرَه ويَستفيدَ هو[٢].

- وكذلك قولُه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ فيه مَجيءُ المُسنَدِ فِعلًا بعدَ المُسنَدِ إليه؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكمِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ تَبْكيتٌ؛ ووجْهُه أنَّهم لم يَشكُروه على نِعمةِ البيانِ؛ إذ صَرَفوا جُزءًا كبيرًا مِن بَيانِهم فيما يُلْهِيهم عن إفرادِ اللهِ بالعبادةِ، وفيما يُنازِعون به مَن يَدْعوهم إلى الهُدى[٤].

- وفي قولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۞عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ عدَّدَ اللهُ عزَّ وعَلا آلاءَه، فأرادَ أنْ يُقدِّمَ أوَّلَ شَيءٍ ما هو أسبَقُ قِدَمًا مِن ضُروبِ آلائِه، وأصنافِ نَعمائِه، وهي نِعمةُ الدِّينِ، فقدَّمَ مِن نِعمةِ الدِّينِ ما هو في أعْلى مَراتبِها، وأقْصى مَراقِيها؛ وهو إنعامُه بالقرآنِ وتَنزيلِه وتَعليمِه؛ لأنَّه أعظَمُ وَحْيِ اللهِ رُتبةً، وأعلاه مَنزلةً، وأحسَنُه في أبوابِ الدِّينِ أثرًا، وهو سَنامُ

(١) يُنظر: ((كشف المعانى فى المتشابه من المثانى)) لابن جماعة (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٣، ٢٣٤).

الكتُبِ السَّماويَّةِ، ومِصداقُها والعِيارُ[١] عليها. وأخَّر ذِكرَ خلْقِ الإنسانِ عن ذِكرِه، ثمَّ أتْبَعَه إيَّاه؛ لِيُعْلِمَ أنَّه إنَّما خلَقَه للدِّينِ، وليُحيطَ عِلمًا بوَحْيِه وكُتبِه وما خُلِقَ الإنسانُ مِن أجْلِه، وكأنَّ الغرَضَ في إنشائِه كان مُقدَّمًا عليه، وسابقًا له، ثمَّ ذكَرَ ما تَميَّزَ به عن سائرِ الحيوانِ مِن البَيانِ، وهو المنطِقُ الفَصيحُ المُعرِبُ عمَّا في الضَّميرِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۞ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾

- قولُه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ خبَرٌ رابعٌ عن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ورابطُ الجُملةِ بالمُبتدأِ تَقديرُه: بحُسبانِه، أي: حُسبانِ الرَّحمنِ وضبْطِه، وهذا استِدلالٌ على التَّفرُّدِ بخلْقِ كوكبِ الشمسِ وكُرةِ القمَرِ، وامتِنانٌ بما أُودِعَ فيهما مِن مَنافعَ للنَّاسِ، ونِظامِ سَيرِهما الَّذي به تَدقيقُ نِظامِ مُعاملاتِ النَّاسِ واستِعْدادهم لِما يَحتاجون إليه عندَ تَغيُّراتِ أجْوائهم وأرزاقِهم، ويَتضمَّنُ الامتِنانَ بما في ذلك مِن مَنافعِهم[٣].

- وفيه تَبكيتٌ، ووجْهُه: أنَّهم غَفَلوا عمَّا في نِظامِ الشَّمسِ والقَمرِ مِن الحِكمةِ، وما يدُلُّ عليه ذلك النِّظامُ مِن تَفرُّدِ اللهِ بتَقديرِه، فاشتغَلَ بعضُهم بعِبادةِ الشَّمسِ، وبعضُهم بعِبادةِ القمرِ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن

(١) العِيَارُ: مصدرُ عايَرَ المَكاييلَ؛ إذا عدَّلها، والمُعَدِّلُ يكون حفيظًا على المُعدَّلِ ومُهَيْمِنًا عليه، أي: القرآنُ عِيارٌ على سائرِ الكتبِ كلِّها، ومُصَدِّقُها، ومُهَيْمِنٌ عليها. يُنظر: ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٤٦، ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٩، ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٤).

كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[١] [فصلت: ٣٧].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ جِيءَ بهذه الجُملةِ اسميَّةً؛ للتَّهويلِ بالابتداءِ باسمِ الشَّمسِ والقمرِ، وللدَّلالةِ على أنَّ حُسبانَهما ثابتٌ لا يَتغيَّرُ منذُ بَدْءِ الخلْقِ، مُؤْذِنٌ بحِكمةِ الخالقِ[٢].

- واستُغْنِيَ بجَعْلِ اسمِ الشَّمسِ والقمَرِ مُسنَدًا إليهما عن تَفكيكِ المُسنَدِ إلى مُسندَينِ: أحدُهما يدُلُّ على الاستِدلالِ، والآخَرُ يدُلُّ على الامتِنانِ، كما وقَعَ في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[٣] [الرحمن: ٣، ٤].

- قولُه: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ الباءُ للمُلابَسةِ، وهي ظرْفٌ مُستقَرٌّ[٤] هو خبَرٌ عن الشَّمسِ والقمَرِ، والتَّقديرُ: كائنانِ بحُسبانٍ، أي: بمُلابَسةِ حُسبانٍ، أي: لحِسابِ النَّاسِ مَواقِعَ سَيرِهما[٥].

- والحُسبانُ كِنايةٌ عن انتظامِ سَيرِ الشَّمسِ والقمَرِ انتظامًا مُطَّرِدًا، لا يَختلُّ حِسابُ النَّاسِ له، والتَّوقيتُ به[٦].

- واقتُصِرَ على ذِكرِ الشَّمسِ والقمرِ دونَ بَقيَّةِ الكواكبِ، وإنْ كان فيها حُسبانُ الأنواءِ، والحَرِّ والبرْدِ -مِثل الجَوزاءِ، والشِّعْرى، ومَنزلةِ الأسَدِ، والثُّرَيَّا-؛ لأنَّ هذَين الكوكبَينِ هما الباديانِ لجميعِ النَّاسِ، لا يَحتاجُ تَعقُّلُ أحوالِهما إلى تَعليمِ توقيتٍ مِثلَ الكواكبِ الأُخرى، ولأنَّ السُّورةَ هذه بُنِيَت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٥).

على ذِكرِ الأُمورِ المُزدوَجةِ، والشَّمسُ والقمرُ مُزدوجانِ في مَعارفِ عُمومِ النَّاسِ، فذِكْرُ الشَّمسِ والقمرِ كذِكْرِ السَّماءِ والأرضِ، والمَشرِقِ والمَغربِ، والبحرَينِ[(١)].

أو: خَصَّهما بالذِّكْرِ؛ لأنَّ حَرَكتَهما بحُسبانٍ تدُلُّ على فاعلٍ مُختارٍ سَخَّرَهما على وَجهٍ مَخصوصٍ[(٢)].

- قولُه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ * وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ اتَّصلت هاتانِ الجُملتانِ بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، واستُغْنِيَ فيهما عن الوصْلِ اللَّفظيِّ بالوصْلِ المَعنويِّ، وكان حقُّ النَّظمِ في الجُملتينِ أنْ يُقالَ: وأجْرى الشَّمسَ والقمَرَ، وأسجَدَ النَّجمَ والشَّجرَ، أو الشَّمسُ والقَمَرُ بحُسبانِه، والنَّجمُ والشَّجرُ يَسجُدانِ له؛ إشعارًا بأنَّ وُضوحَه يُغْنيهِ عن البيانِ، ولِما عُلِمَ أنَّ الحُسبانَ حُسبانُه، والسُّجودَ له لا لغيرِه. وللتَّناسُبِ بيْن هاتَين الجُملتَينِ وُسِّط بيْنَهما العاطفُ؛ لأنَّ الشَّمسَ والقمرَ سَماويَّانِ، والنَّجمَ والشَّجرَ أرضيَّانِ، -على قولٍ في النَّجمِ- فبيْن القَبيلَينِ تَناسُبٌ مِن حيث التَّقابُلُ، ولأنَّ السَّماءَ والأرضَ لا تَزالانِ تُذْكَرانِ قَرينتَينِ، ولأنَّ جَرْيَ الشَّمسِ والقمرِ بحُسبانٍ مِن جِنسِ الانقيادِ لأمْرِ اللهِ، فهو مُناسِبٌ لسُجودِ النَّجمِ والشَّجرِ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن: ٥]، عطْفَ الخبَرِ على الخبرِ؛ لأنَّ سُجودَ الشَّمسِ والقمرِ للهِ تعالى، وهو انتقالٌ مِن الامتنانِ بما في السَّماءِ مِن المنافعِ إلى الامتنانِ بما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٣، ٤٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٧).

في الأرضِ، وجُعِلَ لَفظُ (النَّجم) واسِطةَ الانتِقالِ لصَلاحيَّتِه لأنْ يُرادَ منه نُجومُ السَّماءِ، وما يُسمَّى نَجْمًا مِن نباتِ الأرضِ[١].

- وعُطِفت جُملةُ ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ ولم تُفصَلْ، فخرَجَت مِن أُسلوبِ تَعدادِ الأخبارِ إلى أُسلوبِ عطْفِ بَعضِ الأخبارِ على بعْضٍ؛ لأنَّ الأخبارَ الواردةَ بعْدَ حُروفِ العطفِ لم يُقصَدْ بها التَّعدادُ؛ إذ ليس فيها تَعريضٌ بتَوبيخِ المُشرِكين، فالإخبارُ بسُجودِ النَّجمِ والشَّجرِ أُرِيدَ به الإيقاظُ إلى ما في هذا مِن الدَّلالةِ على عَظيمِ القدرةِ دَلالةً رمْزيَّةً، ولأنَّه لَمَّا اقْتَضى المَقامُ جمْعَ النَّظائرِ مِن المُزاوَجاتِ بعْدَ ذِكرِ الشَّمسِ والقمرِ، كان ذلك مُقتضيًا سُلوكَ طَريقةِ الوصْلِ بالعطْفِ بجامِعِ التَّضادِّ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن: ٥]؛ ليُؤْذِنَ بأنَّ الأصلَ: أجْرى الشَّمسَ والقمَرَ، وأسجَدَ النَّجمَ والشجَرَ، فعُدِلَ إلى معْنى دَوامِ التَّسخيرِ والانقِيادِ في الجُملتينِ الأُولَيَين، ومعْنى التَّوكيدِ في الأخيرةِ؛ فدَلَّ الاختلافُ في الأخبارِ المُتواليةِ لـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ على مَعانٍ تَبْهَرُ ذا اللُّبِّ[٣]!

- ولَمَّا ذكَرَ ما به حياةُ الأرواحِ مِن تَعليمِ القُرآنِ، ذكَرَ ما به حَياةُ الأشباحِ مِن النَّباتِ الَّذي له ساقٌ، وكان تَقديمُ النَّجمِ -وهو ما لا ساقَ له- وذلك على قولٍ؛ لأنَّه أصلُ القُوتِ، والَّذي له ساقٌ ثَمرُه يُتفكَّهُ به غالبًا[٤].

- ويُطلَقُ النَّجْمُ على النَّباتِ والحَشيشِ الَّذي لا سُوقَ له، فهو مُتَّصِلٌ بالتُّرابِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦).

فحصَلَ مِن قولِه: ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ﴾ قَرينتانِ مُتوازِيتانِ في الحرَكةِ والسُّكونِ، وهذا مِن المحسِّناتِ البَديعيَّةِ الكامِلةِ[١]. وذلك على قولٍ.

- وجُعِلَتِ الجُملةُ ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ مُفتتَحةً بالمُسنَدِ إليه ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ ﴾؛ لتكونَ على صُورةِ فاتحةِ الجُملةِ الَّتي عُطِفَتْ هي عليها[٢].

- وأُتِيَ بالمُسنَدِ فِعلًا مُضارِعًا ﴿يَسۡجُدَانِ ﴾؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ هذا السُّجودِ وتَكرُّرِه[٣].

- قولُه: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ۞ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ على القولِ بأنَّ المرادَ بالنَّجمِ هنا: النَّباتُ الَّذي لا ساقَ له؛ ففيه ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بإيهامِ التَّناسُبِ، وهو أن يُجمَعَ بيْنَ معنيَينِ غيرِ مُتناسِبَينِ بلَفظَينِ يكونُ لهما مَعنَيانِ مُتناسِبانِ وإن لم يَكونا مَقصودَينِ هاهنا، كقولِه تعالى: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ۞ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر لفظَ الشَّمسِ والقمرِ، وذكَر النَّجمَ بعدَهما في قولِه: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ۞ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ فإنَّه أوْهَمَ أنَّ المرادَ بالنَّجمِ نَجمُ السَّماءِ؛ لِمُناسَبةِ الشَّمسِ والقمرِ، ولأنَّه أكثَرُ ما يُطلَقُ النَّجمُ على نَجمِ السَّماءِ، فتُوهِمَ أنَّ المُناسَبةَ هنا هي مِن بابِ مُراعاةِ النَّظيرِ أو الائتِلافِ، بَيْدَ أنَّ المرادَ بالنَّجمِ هنا هو النَّباتُ الَّذي لا ساقَ له، وعلى ذلك ففي النَّصِ إيهامٌ للتَّناسُبِ بيْنَ النَّجمِ والشَّمسِ والقمرِ، وتَناسُبٌ واضحٌ بيْنَ النَّجمِ بمعناه الَّذي ذكَرْناه وبيْنَ الشَّجرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويمكنُ أن يكونَ بيْنَ النَّجمِ بالمعنى المذكورِ وبيْنَ الشَّمسِ والقمرِ تَناسُبٌ لكنْ بطريقِ التَّقابُلِ أو المُضادَّةِ؛ لأنَّ الشَّمسَ والقمرَ سَماويَّانِ، والنَّجمَ والشَّجرَ أرْضيَّانِ(١).

- وأخبَرَ عن اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بأربعةِ أخبارٍ مُتتاليةٍ غيرِ مُتعاطِفةٍ، رابعُها هو جُملةُ ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن: ٥]؛ لأنَّها جِيءَ بها على نمَطِ التَّعديدِ في مَقامِ الامتِنانِ، وللتَّوقيفِ على الحَقائقِ، والتَّبكيتِ للخَصمِ في إنكارِهم صَريحَ بعْضِها، وإعراضِهم عن لَوازمِ بَعضِها، كما تقولُ: زَيدٌ أغناكَ بعْدَ فقْرٍ، أعَزَّكَ بعْدَ ذُلٍّ، كثَّرَكَ بعْدَ قِلَّةٍ، فعَلَ بك ما لم يَفعَلْ أحدٌ بأحدٍ، فما تُنكِرُ مِن إحسانِه؟! ففَصْلُ جُملتَيْ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤] عن جُملةِ ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ خِلافُ مُقْتضى الظَّاهرِ لنُكتةِ التَّعديدِ؛ للتَّبكيتِ. وعطَفَ عليها أربعةً أُخَرَ بحرْفِ العطفِ مِن قولِه: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ [الرحمن: ٦- ١٠]، وكلُّها دالَّةٌ على تَصرُّفاتِ اللهِ؛ ليُعلِمَهم أنَّ الاسمَ الَّذي استَنْكَروه هو اسمُ اللهِ، وأنَّ المُسمَّى واحدٌ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾

- في قولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ اطَّرَدَ أُسلوبُ المقابَلةِ بيْن ما

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٩٩)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٩٧).

يُشبِهُ الضِّدَّينِ بعْدَ مُقابَلةِ ذِكرِ الشَّمسِ والقَمرِ بذِكرِ النَّجْمِ والشَّجرِ؛ فجِيءَ بذِكرِ خلْقِ السَّماءِ وخلْقِ الأرضِ، وعاد الكلامُ إلى طَريقةِ الإخبارِ عن المسنَدِ إليه بالمسنَدِ الفِعليِّ؛ كما في قولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، وهذا مَعطوفٌ على الخبرِ؛ فهو في معْناهُ(١).

- ورفْعُ السَّماءِ يَقْتضي خَلْقَها، وذُكِرَ رفْعُها؛ لأنَّه مَحلُّ العِبرةِ بالخلْقِ العجيبِ، ومعْنى رَفْعِها: خلْقُها مَرفوعةً؛ إذ كانت مَرفوعةً بغيرِ أعمدةٍ، كما يُقال للخيَّاطِ: وسِّعْ جَيبَ القميصِ، أي: خِطْهُ واسعًا، على أنَّ في مُجرَّدِ الرَّفعِ إيذانًا بسُموِّ المنزلةِ وشرَفِها(٢).

- وتَقديمُ (السَّمَاءَ) على الفِعلِ النَّاصبِ له ﴿رَفَعَهَا﴾ زِيادةٌ في الاهتِمامِ بالاعتبارِ بخلْقِها(٣).

- والمِيزانُ هنا مُرادٌ به العدْلُ -على قولٍ-، مِثلَ الَّذي في قولِه تعالَى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ لأنَّه الَّذي وضَعَه اللهُ، أي: عيَّنَه لإقامةِ نِظامِ الخلْقِ؛ فالوضْعُ هنا مُعبَّرٌ به عن الجَعْلِ، فهو كالإنزالِ في قولِه: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾(٤).

- وفي قولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ قرَنَ وَضْعَ الميزانِ مع رفْعِ السَّماءِ؛ تَنويهًا بشأْنِ العدلِ؛ بأنْ نُسِبَ إلى العالَمِ العُلويِّ، وهو عالَمُ الحقِّ والفضائلِ، وأنَّه نزَلَ إلى الأرضِ مِن السَّماءِ، أي: هو ممَّا أمَرَ اللهُ به؛ ولذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٨).

تَكرَّرَ ذلك العدلُ مع ذِكرِ خلْقِ السَّماءِ، كما في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يُونس: ٥]، وقولِه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحِجر: ٨٥]، وقولِه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدُّخَان: ٣٨، ٣٩]، وإذ قد كان الأمرُ بإقامةِ العدْلِ مِن أهمِّ ما أَوصى اللهُ به إلى رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قُرِنَ ذِكرُ جَعْلِه بذِكرِ خلْقِ السَّماءِ، فكأنَّه قِيل: ووضَعَ فيها الميزانَ[1]. وأيضًا قُرِنَ برفعِ السَّماءِ؛ لأنَّه تعالى عدَّدَ نِعَمَه على عِبادِه، ومِن أجَلِّ هذه النِّعَمِ الميزانُ، الَّذي هو العدلُ، الَّذي به نِظامُ العالَمِ وقِوامُه[2].

- و(أنْ) في قولِه: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ تَفسيريَّةً؛ لأنَّ فِعلَ (وَضَعَ الْمِيزَانَ) فيه معْنى أمْرِ النَّاسِ بالعَدلِ، وفي الأمرِ معْنى القولِ دونَ حُروفِه؛ فهو حَقيقٌ بأنْ يأتِيَ تَفسيرُه بحرْفِ (أنْ) التَّفسيريَّةِ، فكان النَّهيُ عن إضافةِ العدلِ في أكثرِ المُعامَلاتِ تَفسيرًا لذلك؛ فتَكونَ (لا) ناهيةً. ويَجوزُ أنْ تكونَ (أنْ) مَصدريَّةً، بتَقديرِ لامِ الجرِّ مَحذوفةً قبْلَها، والتَّقديرُ: لئلَّا تَطْغَوا في الميزانِ، وتكونَ (لا) نافيةً، وفِعلُ ﴿تَطْغَوْا۟﴾ مَنصوبًا بـ(أنْ) المصدريَّةِ[3].

- والمُرادُ بالميزانِ ما يَشملُ العدلَ، ويَشملُ ما به تَقديرُ الأشياءِ الموزونةِ ونحْوِها في البيعِ والشِّراءِ، أي: مِن فوائدِ تَنزيلِ الأمرِ بالعدْلِ أنْ تَجتَنِبوا الطُّغيانَ في إقامةِ الوزنِ في المعامَلةِ، ولفظُ الميزانِ يَسمَحُ بإرادةِ المعْنيَينِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٨).

على طَريقةِ استِعمالِ المُشتركِ في مَعنيَيْه. وفي لَفظِ الميزانِ وما قارَنَه مِن فِعلِ (وَضَعَ) وفِعلَيْ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ ﴿وَأَقِيمُوا﴾، وحرْفِ الباءِ في قولِه: ﴿بِالْقِسْطِ﴾، وحرْفِ (في) مِن قولِه: ﴿فِي الْمِيزَانِ﴾، ولفظِ ﴿بِالْقِسْطِ﴾؛ كلُّ هذه تَظاهَرَت على إفادةِ هذه المعاني، وهذا مِن إعجازِ القرآنِ[١].

- وحرْفُ (في) للظَّرفيَّةِ الَّتي تُفيدُ النَّهيَ عن أقلِّ طُغيانٍ على الميزانِ، أي: ليس النَّهيُ عن إضاعةِ الميزانِ كلِّه، بلِ النَّهيُ عن كلِّ طُغيانٍ يَتعلَّقُ به[٢].

- قولُه: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ على احتِمالِ كَونِ المعطوفِ عليها تَفسيريَّةً، وعلى جُملةِ ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ على احتِمالِ كَونِ المعطوفِ عليها تَعليلًا[٣].

- والباءُ في ﴿بِالْقِسْطِ﴾ للمُصاحَبةِ، والمعْنى: اجْعَلوا العدْلَ مُلازِمًا لِما تُقوِّمونه مِن أُمورِكم. أو الباءُ للسَّببيَّةِ، أي: راعُوا في إقامةِ التَّمحيصِ ما يَقْتضيهِ العدْلُ. وقد كان المُشرِكون يَعهَدون إلى التَّطفيفِ في الوزْنِ، كما جاء في قولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١- ٣]، فلمَّا كان التَّطفيفُ سُنَّةً مِن سُنَنِ المشركين، تَصدَّتِ الآيةُ للتَّنبيهِ عليه، ويَجِيءُ على الاعتِبارَينِ تَفسيرُ قولِه: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾؛ فإنْ حُمِلَ الميزانُ فيه على معْنى العدْلِ، كان المعْنى النَّهْيَ عن التَّهاوُنِ بالعدْلِ لغَفلةٍ أو تَسامحٍ بعْدَ أنْ نَهى عن الطُّغيانِ فيه، ويَكونُ إظهارُ لفظِ (الميزان) في مَقامِ ضَميرِه تَنبيهًا على شِدَّةِ عِنايةِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بالعدلِ، وإنْ حُمِلَ فيه على آلةِ الوزْنِ، كان المعْنى النَّهيَ عن غَبْنِ الناسِ في الوزْنِ لهم، كما قال تعالى في سُورةِ (المطفِّفين): ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[1] [المطففين: ٣].

- وفائدةُ تَكرارِ لَفظِ الميزانِ ثَلاثَ مرَّاتٍ: التَّشديدُ؛ للتَّوصيةِ به، ولتَقويةِ الأمْرِ باستِعمالِه والحثِّ عليه، ولتوكيدِ إيفاءِ الحقوقِ وعدَمِ التَّطفيفِ لِفَرطِ الحاجةِ إليه في المعاملاتِ الجاريةِ بيْنَ الناس، وبيانِ أنَّ كلًّا مِن الآياتِ مُستقِلَّةٌ بنفْسِها، أو أنَّ كلًّا مِن الألفاظِ الثَّلاثةِ مُغايرٌ لكلٍّ مِن الآخَرَين؛ فالأوَّلُ: هو الآلةُ ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾، والثَّاني: بمعْنى المصدَرِ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾، أي: الوزْنِ، والثَّالثُ: للمفعولِ ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾، أي: الموزونَ، وذَكَرَ الكلَّ بلَفظِ «الميزانِ»؛ لأنَّ الميزانَ أشمَلُ للفائدةِ. وقيل: الأوَّلُ: مِيزانُ الدُّنيا، والثَّاني: مِيزانُ الآخرةِ، والثَّالثُ: مِيزانُ العقْلِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣١)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٣)، ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) لابن جَمَاعة (ص: ٣٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٣).

الآيات (١٠-١٢)

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡأَكۡمَامِ﴾: أي: الأَوعيةِ الَّتي يكونُ فيها الثَّمَرُ، واحِدُها «كِمٌّ»: وهو وعاءُ الطَّلعِ قبْلَ أن يَنشَقَّ، وأصلُ (كمم): يدُلُّ على غِطاءٍ[1].

﴿ٱلۡعَصۡفِ﴾: أي: تِبنِ الزَّرعِ ووَرَقِه الَّذي تَعصِفُه الرِّياحُ، وأصلُ (عصف): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[2].

﴿ءَالَآءِ﴾: الآلاءُ: النِّعَمُ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى بأنَّه خفَضَ الأرضَ ومَهَّدَها لِخَلْقِه، وجَعَل فيها أنواعَ الفواكِهِ، والنَّخلَ ذا الأوعيةِ الَّتي يكونُ فيها الثَّمَرُ، والحُبوبَ المأكولةَ ذواتِ الوَرَقِ اليابسِ والتِّبنِ، والرَّيحانَ ذا الرَّائحةِ الجَميلةِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ -يا مَعشَرَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣).

الإنسِ والجِنِّ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر إنعامَه الدَّالَّ على اقتِدارِه، برَفعِ السَّماءِ؛ ذَكَر على ذلك الوَجهِ مُقابِلَها، بعدَ أنْ وَسَّط بيْنَهما ما قامتا به مِنَ العَدلِ؛ تنبيهًا على شِدَّةِ العنايةِ والاهتِمامِ، فقال[1]:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠﴾.

أي: والأرضَ خفَضَها الرَّحمنُ، ووطَّأها لِخَلْقِه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٢).

قال الماوَرْدي: (في الأنامِ ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: أنَّهم النَّاسُ... الثَّاني: أنَّ الأنامَ الإنسُ والجِنُّ... الثَّالِثُ: أنَّ الأنامَ جميعُ الخَلقِ مِن كُلِّ ذي رُوحٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٥).

ومِمَّن قال بالقَولِ الأوَّلِ: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤١).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٥).

ومِمَّن قال بالقَولِ الثَّاني: الزَّجَّاجُ، والشربيني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٩٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٠).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٨).

ومِمَّن قال بالقَولِ الثَّالِثِ، وهو أنَّ المرادَ الخلْقُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زَمَنين، والثعلبي، والبغوي، والزمخشري، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٩)، ((تفسير =

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١﴾.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾.

أي: في الأرضِ أنواعُ الفواكِهِ المُختَلِفةِ الألوانِ والطُّعومِ والرَّوائِحِ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٩].

﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾.

أي: وفي الأرضِ شَجَرُ النَّخلِ المُغَطَّى ثَمَرُه بالأوعيةِ التي تَنْشَقُّ، فتَخرُجُ

= السمرقندي)) (٣/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٩).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ، والشَّعبيُّ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٥).

قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿وَضَعَهَا﴾: خَفَضَها لهم، أي: جعَلَها تحتَ أقدامِهم وجُنوبِهم؛ لِتَمكينِهم مِنَ الانتِفاعِ بها بجَميعِ ما لهم فيها مِن منافعَ ومُعالجاتٍ، واللَّامُ في ﴿لِلۡأَنَامِ﴾ للأَجْلِ. والأنامُ: اختَلَفَت أقوالُ أهلِ اللُّغةِ والتَّفسيرِ فيه... وفَسَّره الزَّمخشري بقَولِه: الخَلقُ، وهو كُلُّ ما ظَهَر على وَجهِ الأرضِ مِن دابَّةٍ فيها رُوحٌ، وهذا مَرويٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ وجَمعٍ مِن التَّابِعينَ. وعن ابنِ عبَّاسٍ أيضًا: أنَّه الإنسانُ فقط. وهو اسمُ جَمعٍ لا واحِدَ له مِن لَفظِه، وسياقُ الآيةِ يُرَجِّحُ أنَّ المرادَ به الإنسانُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٤).

قال ابنُ عاشور: (الفاكِهةُ: اسمٌ لِما يُؤكَلُ تفَكُّهًا لا قُوتًا، مُشتقَّةٌ مِن فَكِهَ كفَرِحَ: إذا طابت نَفْسُه بالحديثِ والضَّحِكِ؛ قال تعالى: ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥]؛ لأنَّ أكْلَ ما يَلَذُّ للآكِلِ وليس بضَروريٍّ له: إنَّما يكونُ في حالِ الانبِساطِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤١).

منها عُذوقُ التَّمْرِ[١].

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر ما يُقتاتُ مِنَ الفَواكهِ -وهو في غايةِ الطُّولِ-؛ أتْبَعَه الأصلَ في الاقتياتِ للنَّاسِ والبَهائِمِ -وهو بمكانٍ مِنَ القِصَرِ-، فقال ذاكِرًا ثَمَرتَه؛ لأنَّها المقصودةُ بالذَّاتِ[٢]:

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾.

أي: وفي الأرضِ الحُبوبُ المأكولةُ -كالبُرِّ والشَّعيرِ ونحوِهما- ذواتُ الورقِ اليابسِ، والتِّبنِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨١، ١٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٣)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٣).

قال الشنقيطي: (وقولُه: ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ قال أكثرُ العلماءِ: العصفُ وَرَقُ الزَّرْعِ، ومنه قولُه تعالَى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥]. وقيلَ: العصفُ التِّبْنُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٩٣).

وقال الواحدي: (العصف ورَقُ الزَّرعِ، ثمَّ إذا يَبِسَ ودِيسَ صار تِبنًا. وعلى هذا يَدورُ كلامُ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (٢١/ ١٤٣).

وقال العُلَيمي: (﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ التِّبنُ وورَقُ النَّباتِ اليابسِ). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٧٩).

وقال ابنُ عاشور: (هذا وَصفٌ لحَبِّ الشَّعيرِ والحِنطةِ، وبهما قِوامُ حياةِ مُعظَمِ النَّاسِ، وكذلك ما أشبَهَهما مِن نَحوِ السُّلْتِ [ضربٌ مِن الشَّعيرِ] والأَرُزِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٢).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿وَالرَّيْحَانَ﴾ بفَتحِ النُّونِ، وكذلك بفَتحِ ما قَبْلَها ﴿وَالْحَبَّ ذَا الْعَصْفِ﴾، أي: وخَلَق الحَبَّ ذا العَصْفِ، والرَّيحانَ الَّذي يُشَمُّ. وقيل: الرَّيحانُ: الرِّزقُ[(١)].

٢- قِراءةُ: ﴿وَالرَّيْحَانِ﴾ بكَسرِ النُّونِ عَطفًا على العَصْفِ، أي: وفيها الحَبُّ ذو العَصْفِ وذو الرَّيحانِ. فقيل: المرادُ هنا أنَّ العَصْفَ: ما تأكُلُه الأنعامُ، والرَّيحانُ: ما يأكُلُه النَّاسُ مِن نَفسِ الحَبِّ[(٢)].

٣- قِراءةُ: ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ بضَمِّ النُّونِ عَطفًا على الحَبِّ، أي: وفيها الحَبُّ ذو العَصفِ، وفيها الرَّيحانُ الَّذي يُشَمُّ. وقيل: الرَّيحانُ: الرِّزقُ[(٣)].

---

(١) قرأ بها ابنُ عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ١١٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٤).

(٢) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٨، ١٨٩)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٣٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩٠، ٦٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٤).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٨، ١٨٩)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٣٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٤).

﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾.

أي: وفي الأرضِ الرَّيحانُ، وهو النَّبتُ ذو الرَّائِحةِ الجَميلةِ، الَّذي يُشَمُّ لِطيبِ رائِحتِه(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

قال السعدي: (﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ يحتَمِلُ أنَّ المرادَ بذلك جميعُ الأرزاقِ الَّتي يأكُلُها الآدميُّونَ، فيَكونُ هذا مِن بابِ عَطفِ العامِّ على الخاصِّ، ويكونُ اللهُ قد امتَنَّ على عبادِه بالقُوتِ والرِّزقِ عُمومًا وخُصوصًا.

ويحتَمِلُ أنَّ المرادَ بالرَّيحانِ: الرَّيحانُ المعروفُ، وأنَّ اللهَ امتَنَّ على عبادِه بما يَسَّرَه في الأرضِ مِن أنواعِ الرَّوائِحِ الطَّيِّبةِ، والمشامِّ الفاخِرةِ الَّتي تَسُرُّ الأرواحَ، وتَنشَرِحُ لها النُّفوسُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

وقال الشنقيطي: (قَولُه: ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾: اختَلَفَ العُلَماءُ في معناه؛ فقال بَعضُ أهلِ العِلمِ: هو كُلُّ ما طابَ رِيحُه مِن النَّبتِ، وصار يُشَمُّ للتَّمَتُّعِ بريحِه. وقال بعضُ العُلَماءِ: الرَّيحانُ: الرِّزقُ... ويتعَيَّنُ كَونُ الرَّيحانِ بمعنى الرِّزقِ على قراءةِ حَمزةَ والكِسائيِّ [أي: بكسرِ النونِ]؛ وأمَّا على قراءةِ غَيرِهما فهو مُحتَمِلٌ للأمْرَينِ المذكورَينِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٩٣، ٤٩٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ به النَّبتُ الطَّيِّبُ الرَّائِحةِ: ابنُ القيِّم، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالرَّيحانِ: الرِّزقُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّي، والواحدي، والخازن، ونسَبَه الواحديُّ والبغويُّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٢).

وممَّن قال مِن السَّلفِ إنَّ المرادَ بالرَّيحانِ: الرِّزقُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٩). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن عُرِضَ عليه رَيحانٌ فلا يَرُدُّه[١]؛ فإنَّه خَفيفُ المَحْمِلِ[٢]، طَيِّبُ الرِّيحِ))[٣].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَدَّد تعالى نِعَمَه، وكان الجِنُّ والإنسُ مِمَّن دَخَلوا في قَولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾؛ خاطبَهما بقَولِه[٤]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٥]؟!

= قال مقاتلٌ: (يعني الرِّزقَ -بلِسانِ حِمْيَرَ- الَّذي يخرجُ مِن الحبِّ مِن دَقيقٍ أو سَويقٍ أو غيرِه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالرَّيحانِ: الرِّزقُ، وخَصَّه بالحَبِّ المأكولِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٨).

وقال الزمخشري: (والرَّيحانُ: الرِّزقُ، وهو اللُّبُّ، أراد: فيها ما يُتلذَّذُ به مِن الفَواكِهِ، والجامعُ بيْنَ التَّلذُّذِ والتَّغذِّي وهو ثمرُ النَّخلِ، وما يُتغذَّى به وهو الحَبُّ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٤).

(١) قال النووي: (فلا يردُّه برفعِ الدَّالِ على الفصيحِ المشهورِ). ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٩).

(٢) أي: خفيفُ الحَملِ، ليس بثقيلٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٩).

(٣) رواه مسلم (٢٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٩، ١٩١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٠١-٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

قال القرطبي: (الآلاءُ: النِّعَمُ، وهو قَولُ جَميعِ المفَسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٩).

وقال أيضًا: (قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ خِطابٌ للإنسِ والجنِّ؛ لأنَّ الأنامَ واقعٌ عليهما. وهذا قولُ الجمهورِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٨). =

كما قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

رُوِيَ عن الرَّبيعِ بنِ زيادٍ الحارثيِّ: (أنَّه قال لعلِيِّ بنِ أبي طالبٍ رضِيَ اللهُ عنه: اعْدِني[1] على أخي عاصمٍ، قال: فما بالُه؟ قال: لَبِسَ العَباءةَ يُريدُ النُّسُكَ، فقال عليٌّ رضِيَ اللهُ عنه: علَيَّ به. فأُتِيَ به مُؤتزِرًا بعَباءةٍ مُرتديًا لأُخرى، شَعْثَ الرَّأسِ واللِّحيةِ، فعبَسَ في وجْهِه، وقال: ويْحَك! أمَا استحْيَيْتَ مِن أهلِك؟ أمَا رحِمْتَ ولَدَك؟ أَترى اللهَ أباح لك الطَّيِّباتِ وهو يَكرَهُ أنْ تَنالَ منها شيئًا؟! بل أنتَ أهونُ على اللهِ مِن ذلك، أمَا سمِعْتَ اللهَ يقولُ في كتابِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ إلى قولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٠ - ٢٢]؟ أفَترى اللهَ أباح هذه لعِبادِه إلَّا ليَبتَذِلُوه[2] ويَحمَدوا اللهَ عليه فيُثيبَهم عليه، وإنَّ ابتِذالَك نِعَمَ اللهِ بالفِعلِ خَيرٌ منه بالقولِ؟ قال عاصمٌ: فما بالُكَ في خُشونةِ مَأْكَلِك وخُشونةِ مَلبَسِك؟ قال: ويْحَك! إنَّ اللهَ فرَضَ على أئمَّةِ الحقِّ أنْ يَقدُروا أنفُسَهم بضَعَفةِ النَّاسِ).

إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يُطالِبِ العبادَ بتركِ الملذوذاتِ! وإنَّما طالبَهم بالشُّكرِ عليها إذا تَناوَلوها، فالاقتِصارُ على البَشِعِ في المأكولِ مِن غيرِ عُذْرٍ، وكذلك الاقتصارُ على الخشِنِ في الملبسِ مِن غيرِ ضرورةٍ: هو مِن قَبيلِ التَّشديدِ والتَّنطُّعِ

= واختار ابن عاشور أنَّه خِطابٌ للمؤمنينَ والكافرين الذين يَنقسِمُ إليهما جنسُ الإنسانِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٣).

(١) أي: أَعِنِّي وانصُرْني عليه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٩٨)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٩/ ١٠).

(٢) أي: إلَّا لِيَستَعمِلوه، فالابتِذالُ: ضِدُّ الصِّيانةِ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٩٦٥).

المذمومِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ أخَذَ بَعضُ عُلَماءِ الأُصولِ مِن هذه الآيةِ الكَريمةِ وأمثالِها مِنَ الآياتِ، كقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩]: «أنَّ الأصلَ فيما على الأرضِ الإباحةُ حتَّى يَرِدَ دَليلٌ خاصٌّ بالمنعِ»؛ لأنَّ اللهَ تعالى امتَنَّ على الأنامِ بأنَّه وَضَع لهم الأرضَ، وجَعَل لهم فيها أرزاقَهم، وامتَنَّ عليهم بأنَّه خَلَق لهم ما في الأرضِ جَميعًا في قَولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩]، ومَعلومٌ أنَّه جَلَّ وعلا لا يمتَنُّ بحَرامٍ؛ إذْ لا مِنَّةَ في شَيءٍ مُحَرَّمٍ.

وفي هذه المسألةِ قَولانِ آخَرانِ:

أحدُهما: أنَّ الأصلَ فيما على الأرضِ التَّحريمُ حتَّى يدُلَّ دَليلٌ على الإباحةِ.

القَولُ الثَّاني: هو الوَقفُ وعَدَمُ الحُكمِ فيها بمَنعٍ ولا إباحةٍ حتَّى يقومَ الدَّليلُ.

فتَحَصَّل أنَّ في المسألةِ ثَلاثةَ مَذاهِبَ: المَنعُ، والإباحةُ، والوَقفُ.

والصَّوابُ هو التَّفصيلُ؛ لأنَّ الأعيانَ الَّتي خلَقَها اللهُ في الأرضِ للنَّاسِ فيها ثلاثُ حالاتٍ: **الأُولى:** أن يكونَ فيها نَفعٌ لا يَشوبُه ضَرَرٌ، كأنواعِ الفواكِهِ، وغَيرِها.

الثَّانيةُ: أن يكونَ فيها ضَرَرٌ لا يَشوبُه نَفعٌ،كأكلِ الأعشابِ السَّامَّةِ القاتِلةِ.

الثَّالِثةُ: أن يكونَ فيها نَفعٌ مِن جِهةٍ، وضَرَرٌ مِن جِهةٍ أُخرى.

فإنْ كان فيها نَفعٌ لا يَشوبُه ضَرَرٌ، فالتَّحقيقُ حَملُها على الإباحةِ حتَّى يقومَ

(١) يُنظر: ((تلبيس إبليس)) لابن الجوزي (ص: ١٨٠)، ((الاعتصام)) للشاطبي (١/ ٤٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٠٠).

دَليلٌ على خِلافِ ذلك؛ لِعُمومِ قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقَولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾.

وإنْ كان فيها ضَرَرٌ لا يَشوبُه نَفعٌ، فهي على التَّحريمِ.

وإن كان فيها نَفعٌ مِن جِهةٍ وضَرَرٌ مِن جِهةٍ أُخرى، فلها ثلاثُ حالاتٍ؛ الأُولى: أن يكونَ النَّفعُ أرجَحَ مِنَ الضَّرَرِ. والثَّانيةُ: عَكسُ هذا. والثَّالثةُ: أن يَتساوى الأمْرانِ؛ فإن كان الضَّرَرُ أرجَحَ مِن النَّفعِ أو مُساويًا له فالمَنعُ؛ لأنَّ «دَرْءَ المفاسِدِ مُقَدَّمٌ على جَلبِ المصالِحِ»، وإن كان النَّفعُ أرجحَ فالأظهَرُ الجوازُ؛ لأنَّ المقَرَّرَ في الأُصولِ «أنَّ المَصلَحةَ الرَّاجِحةَ تُقَدَّمُ على المَفسَدةِ المَرجوحةِ»[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ﴾ ما الحِكمةُ في ذِكرِ الفاكِهةِ باسمِها لا باسمِ أشجارِها، وذِكرِ النَّخلِ باسمِها لا باسْمِ ثَمَرِها؟

الجَوابُ: أنَّ شَجَرةَ العِنَبِ -وهي الكَرْمُ- بالنِّسبةِ إلى ثَمَرتِها -وهي العِنبُ- حقيرةٌ، وشَجَرةَ النَّخلِ بالنِّسبةِ إلى ثَمَرتِها عَظيمةٌ، وفيها مِن الفوائِدِ الكثيرةِ على ما عُرِفَ مِن اتِّخاذِ الظُّروفِ مِنها، والانتِفاعِ بجُمَّارِها[(٢)]، وبالطَّلعِ والبُسرِ والرُّطَبِ، وغَيرِ ذلك؛ فثَمَرتُها في أوقاتٍ مُختَلِفةٍ كأنَّها ثَمَراتٌ مُختَلِفةٌ، فهي أتمُّ نِعمةً بالنِّسبةِ إلى الغَيرِ مِنَ الأشجارِ؛ فذَكَرَ النَّخلَ باسمِه، وذَكَرَ الفاكِهةَ دونَ أشجارِها؛ فإنَّ فوائِدَ أشجارِها في عَينِ ثِمارِها[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ذِكرُ لَفظِ «الرَّبِّ»؛ إشعارًا

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٥).

(٢) جُمَّارُ النَّخلةِ: قَلْبُها، ومِنه يَخرُجُ الثَّمَرُ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٥).

بالرَّحمةِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أنَّ مُخاطَبتَه سُبحانَه بهذا للثَّقَلَينِ دَليلٌ على أنَّ هذه الأشياءَ تَعُمُّ على الجِنِّ كما أنَّها تَعُمُّ على الإنسِ، وأنَّ لهم مِن ذلك ما لهم[٢].

٥- في ذِكرِه تعالى لهذه الآيةِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بعدَ ذِكرِ هذا العَدَدِ مِن الآياتِ إشارةٌ إلى أنَّ زيادةَ النِّعَمِ: إلى حَدٍّ لا يُحصَى، بحيثُ إنَّ استيفاءَ عَدَدِها لا تُحيطُ به عُقولُ المكَلَّفينَ؛ لئلَّا يَظُنُّوا أنَّه لا نِعمةَ غَيرُ ما ذُكِرَ في هذه السُّورةِ[٣]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ذُكِرَتْ هذه الآيةُ إحدى وثلاثينَ مرَّةً؛ ثمانيةٌ منها ذُكِرَتْ عَقِبَ آياتٍ فيها تَعدادُ عَجائبِ خَلْقِ اللهِ، وبدائعِ صُنْعِه، ومَبْدَأِ الخَلْقِ ومَعادِهم، ثمَّ سَبعةٌ منها عَقِبَ آياتٍ فيها ذِكْرُ النَّارِ وشَدائدِها بعَدَدِ أبوابِ جهنَّمَ، وحَسُنَ ذِكْرُ الآلاءِ عَقِبَها؛ لأنَّ مِن جملةِ الآلاءِ رَفْعَ البلاءِ، وتأخيرَ العِقابِ، وبَعْدَ هذه السَّبعةِ ثمانيةٌ في وَصْفِ الجنَّتَينِ وأهلِهما بعَدَدِ أبوابِ الجَنَّةِ، وثمانيةٌ أُخرى بَعْدَها في الجنَّتَينِ اللَّتَينِ هما دونَ الجَنَّتَينِ الأُولَيَينِ؛ أَخْذًا مِن قَولِه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]؛ فمَن اعتقدَ الثَّمانيةَ الأُولى وعَمِلَ بموجَبِها استحقَّ هاتينِ الثَّمانِيَتَينِ مِن اللهِ، ووقاه السَّبعةَ السَّابِقةَ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أنَّ كُلَّ ما يَفعَلُه سُبحانَه هو إحسانٌ للعِبادِ ونِعمةٌ عليهم؛ ولهذا يَقولُ عَقِيبَ ما يُعَدِّدُه مِن النِّعَمِ على العِبادِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وآلاؤُه هي نِعَمُه، وهي مُتضَمِّنةٌ لقُدرتِه ومَشيئتِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١١٧).

كما هي مُستَلزِمةٌ لرَحمتِه وحِكمتِه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ * وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ عطْفٌ على ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧]، وهو مُقابِلُه في المُزاوَجةِ، والوضْعُ يُقابِلُ الرَّفعَ؛ فحصَلَ مُحسِّنُ الطِّباقِ[٢] مرَّتَين[٣].

- وجُملةُ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتقريرِ ما أفادَتْه الجُملةُ السَّابقةُ ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾؛ مِن كَونِ الأرضِ مَوضوعةً لمَنافعِ الأنامِ، وتَفصيلِ المنافعِ العائدةِ إلى البشرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٦١).

(٢) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ مع مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَقَ بيْن الضَّحِكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقونَ. ومنه: طِباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةً، فتَبدو المطابَقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإن إدخال النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٨).

- وجُملةُ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ إلى آخِرِها، مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾، ولَمَّا كان قولُه: ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ يَتضمَّنُ وضْعًا وعِلَّةً لذلك الوضْعِ، كانت الجُملةُ المُبيِّنةُ له مُشتمِلةً على ما فيه العِبرةُ والامتنانُ(١).

- وتَقديمُ ﴿فِيهَا﴾ على المُبتدأِ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾؛ للاهتِمامِ بما تَحتوي عليه الأرضُ(٢).

- ووصْفُ النَّخلِ بأنَّه ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ وصْفٌ للتَّحسينِ؛ فليست الأكمامُ ممَّا يُنتفَعُ به، فتَعيَّنَ أنَّ ذِكرَها مع النَّخلِ للتَّحسينِ، فهو اعتبارٌ بأطوارِ ثَمرِ النَّخلِ، وامتنانٌ بجَمالِه وحُسْنِه(٣).

- ووَصْفُ الحَبِّ بأنَّه ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾؛ للتَّحسينِ، وللتَّذكيرِ بمِنَّةِ جَمالِ الزَّرعِ حِينَ ظُهورِه في سُنبلِه في حُقولِه، ولأنَّ في الموصوفِ ووَصْفِه أقواتَ البشَرِ وحَيوانِهم(٤).

- والرَّيحانُ: ما له رائحةٌ ذَكيَّةٌ مِن الأزهارِ والحشائشِ، وهذا اعتبارٌ وامتنانٌ بالنَّباتِ المُودَعةِ فيه الأطيابُ؛ مِثلَ الورْدِ والياسَمينِ، وما يُسمَّى بالرَّيحانِ الأخضرِ(٥).

- قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ * وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾، بدَأَ بقولِه: ﴿فَٰكِهَةٌ﴾؛ إذ هو مِن بابِ الابتداءِ بالأدْنى والتَّرقِّي إلى الأعْلى، ونكَّرَ لَفْظَها؛ لأنَّ الانتِفاعَ بها دونَ الانتفاعِ بما يُذكَرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعْدَها، ولِيَدُلَّ على كثرتِها، وقد صرَّح بالكثرةِ في مواضِعَ أُخَرَ. ثمَّ ثَنَّى بالنَّخلِ، فذكَرَ الأصلَ، ولم يَذكُرْ ثَمرَتَها -وهو الثَّمَرُ-؛ لكَثرةِ الانتفاعِ بها مِن لِيفٍ وسَعفٍ، وجَريدٍ وجُذوعٍ، وجُمَّارٍ وثمَرٍ. ثمَّ أتى ثالثًا بالحَبِّ الَّذي هو قِوامُ عَيشِ الإنسانِ في أكثَرِ الأقاليمِ، وهو البُرُّ والشَّعيرُ وكلُّ ما له سُنبلٌ وأوراقٌ مُتشعِّبةٌ على ساقِه، ووصَفَه بأنَّه ﴿ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾؛ تَنبيهًا على إنعامِه عليهم بما يَقُوتُهم مِن الحَبِّ، ويَقوتُ بَهائمَهم مِن ورَقِه الَّذي هو التِّبْنُ. وذكَرَ النَّخلَ باسْمِها، والفاكهةَ دونَ شَجَرِها؛ لعِظَمِ المَنفعةِ بالنَّخلِ مِن جِهاتٍ مُتعدِّدةٍ، وشَجرةُ الفاكهةِ بالنِّسبةِ إلى ثَمرتِها حَقيرةٌ، فنَصَّ على ما يَعظُمُ به الانتفاعُ مِن شَجرةِ النَّخلِ ومِن الفاكهةِ دونَ شَجَرتِها[1].

- وبَدَأ بالفاكِهةِ، وخَتَم بالمشمومِ، وبَيْنَهما النَّخلُ والحَبُّ؛ لِيَحصُلَ ما به يُتفَكَّهُ، وما به يُتَقَوَّتُ، وما به تَقَعُ اللَّذاذةُ مِنَ الرَّائِحةِ الطَّيِّبةِ[2].

- ولَمَّا عدَّدَ تعالَى نِعَمَه، خاطَبَ الثَّقلَينِ -الإنسَ والجنَّ- بقولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، أي: إنَّ نِعَمَه كَثيرةٌ لا تُحصى، فبأيِّها تُكذِّبانِ؟ أي: مَن هذه نِعَمُه لا يُمكِنُ أنْ يُكذَّبَ بها[3]. وقيل: هو خِطابٌ للمؤمنينَ والكافرينَ الَّذين يَنقسِمُ إليهما جِنسُ الإنسانِ المذكور في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [الرحمن: ٣]، وهم المُخاطَبونَ بقولِه: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨] الآيةَ، والمُنقسِمُ إليهما الأنامُ المُتقدِّمُ ذِكرُه، أي: إنَّ نِعَمَ اللهِ على النَّاسِ لا يَجحَدُها كافرٌ، بلْهَ المؤمنَ، وكلُّ فَريقٍ يَتوجَّهُ إليه الاستِفهامُ بالمعْنى الَّذي يُناسِبُ حالَه. والمَقصودُ الأصليُّ: التَّعريضُ بالمُشرِكين وتَوبيخُهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧، ٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٥٨).

على أنْ أشْرَكوا في العِبادةِ مع المُنعِمِ غيرَ المُنعِمِ، والشَّهادةُ عليهم بتَوحيدِ المؤمنينَ. وقيل: التَّثنيةُ قائمةٌ مَقامَ تَكريرِ اللَّفظِ لتَأكيدِ المعْنى؛ مِثل: لبَّيكَ وسَعْدَيك، ومعْنى هذا أنَّ الخطابَ لواحدٍ، وهو الإنسانُ[١].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ للتَّفريعِ على ما تَقدَّمَ مِن المِنَنِ المُدمَجةِ مع دَلائلِ صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحَقِّيَّةِ وَحْيِ القرآنِ، ودَلائلِ عَظَمةِ اللهِ تعالى وحِكمتِه؛ باستفهامٍ عن تَعيينِ نِعمةٍ مِن نِعَمِ اللهِ يَتأتَّى لهم إنكارُها، وهو تَذييلٌ لِما قبْلَه. وحرْفُ (أيّ) استِفهامٌ عن تَعيينِ واحدٍ مِن الجِنسِ الَّذي تُضافُ إليه، وهي هنا مُستعمَلةٌ في التَّقريرِ بذِكرِ ضِدِّ ما يُقرِّبُه[٢].

- والفاءُ كذلِك لتَرتيبِ الإنكارِ والتَّوبيخِ على ما فُصِّلَ مِن فُنونِ النَّعماءِ وصُنوفِ الآلاءِ المُوجِبةِ للإيمانِ والشُّكرِ. والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُنْبئةِ عن المالكيَّةِ الكُلِّيَّةِ والتَّربيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِهم؛ لتأْكيدِ النَّكيرِ، وتَشديدِ التَّوبيخِ[٣].

- ومعْنى تَكذيبِهم بآلائِه تعالى كفْرُهم بها، والتَّعبيرُ عن كُفرِهم المَذكورِ بالتَّكذيبِ؛ لِما أنَّ دَلالةَ الآلاءِ المَذكورةِ على وُجوبِ الإيمانِ والشُّكرِ شَهادةٌ منها بذلك، فكُفْرُهم بها تَكذيبٌ بها لا مَحالةَ، أي: فإذا كان الأمْرُ كما فُصِّلَ، فبأيِّ فرْدٍ مِن أفرادِ آلاءِ مالِكِكُما ومُربِّيكُما بتلكَ الآلاءِ تُكذِّبانِ، مع أنَّ كلًّا منها ناطقٌ بالحقِّ، شاهدٌ بالصِّدقِ[٤]؟! وقيل: تَكذيبُ الآلاءِ هو كِنايةٌ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإشراكِ باللهِ في الإلهيَّةِ، والمعْنى: فبأيِّ نِعمةٍ مِن نِعَم اللهِ عليكم تُنكِرون أنَّها نِعمةٌ عليكم، فأشْرَكْتُم فيها غيرَه، بلْهَ إنكارَ جَميعِ نِعَمِه؛ إذ تَعبُدون غيرَه دَوامًا[1]؟!

- والتَّكريرُ في قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تكريرٌ عذْبٌ، وفيه أوجُهٌ:

الأولُ: السِّرُّ في تَكريرِ الآيةِ عقِبَ آياتٍ فيها تَعدادُ عَجائبِ خلْقِ اللهِ وبَدائعِ صُنْعِه، وبعْدَ آياتٍ فيها ذِكرُ النَّارِ وشَدائدِها؛ لأنَّ مِن جُملةِ الآلاءِ رفْعَ البلاءِ، وتأْخيرَ العقابِ، والتَّقريرَ بالنِّعَمِ المَعدودةِ، والتَّأكيدَ في التَّذكيرِ بها كلِّها، ولأنَّ مِن عَلاماتِ العاطفةِ المُحتدِمةِ هذا التَّكريرَ[2].

الثَّاني: أنَّ اللهَ تَعالى عدَّدَ في هذه السُّورة نَعماءَه، وذكَّرَ خلْقَه آلاءَه، ثمَّ أتْبَعَ كلَّ خَلَّةٍ وصَفَها بهذه الآيةِ، وجَعَلَها فاصِلةً بيْن كلِّ نِعمتَينِ؛ ليُنبِّهَهم على النِّعَمِ ويُقرِّرَهم بها، كما تقولُ -لِمَن تَتابَعَ فيه إحسانُك وهو يَكفُرُه ويُنكِرُه-: ألمْ تكُنْ فقيرًا فأغنَيْتُك؟! أفتُنكِرُ هذا؟! ألمْ تكُنْ خامِلًا فعزَّزْتُك؟! أفتُنكِرُ هذا؟! ألم تكُنْ راجِلًا فحمَلْتُك؟! أفتُنكِرُ هذا؟! والتَّكريرُ حَسَنٌ في مِثلِ هذا[3].

الثَّالثُ: أنَّ المُنكِرَ إذا تَكرَّرَ إنكارُه جِدًّا بحيث أحرَقَ الأكبادَ في المُجاهَرةِ بالعِنادِ؛ حَسُنَ سَرْدُ ما أنكَرَه عليه، وكلَّما ذُكِّرَ بفرْدٍ منه قِيل له: لِمَ تُنكِرُه؟ سواءٌ أقرَّ به حالَ التَّقريرِ، أو استمرَّ على العِنادِ؛ فالتَّكرارُ حينَئذٍ يُفيدُ التَّعريفَ بأنَّ إنكارَه تَجاوَزَ الحدَّ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣١٢).

الرَّابعُ: أنَّه لتَغايُرِ النِّعَمِ وتَعدُّدِها واختِلافِها حَسُنَ تَكريرُ التَّوقيفِ عليها واحدةً واحدةً؛ تَنبيهًا على جَلالتِها؛ فإنْ كانت نِعمةً فالأمرُ فيها واضحٌ، وإنْ كانت نِقمةً فالنِّعمةُ دَفْعُها، أو تأخيرُ الإيقاعِ بها[1].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٣).

الآيات (١٤-١٨)

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَلۡصَٰلٖ﴾: أي: طينٍ يابسٍ له صَوتٌ وصَلْصَلةٌ، وأصلُ الصَّلصالِ: تردُّدُ الصَّوتِ مِن الشَّيءِ اليابسِ[(١)].

﴿كَٱلۡفَخَّارِ﴾: أي: الطِّينِ المَطبوخِ بالنَّارِ، إذا مَسَّه الماءُ فَخَر، أي: رَبَا وعَظُمَ، وهو الخَزَفُ. وأصلُ (فخر): يدُلُّ على عِظَمٍ[(٢)].

﴿مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾: أي: الصَّافي مِن لَهَبِ النَّارِ الَّذي لا دُخَانَ فيه. وقيل: هو ما اختَلَط بعضُه ببَعضٍ مِنَ اللَّهَبِ الأحمَرِ والأصفَرِ والأخضَرِ الَّذي يعلو النَّارَ إذا أُوقِدَت؛ مِن قَولِهم: مَرَجَ أمرُ القَومِ: إذا اختَلَط، وأصلُ (مرج): يدُلُّ على مجيءٍ وذهابٍ واضطِرابٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٦).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى بأنَّه خَلَق آدَمَ أبا البَشَرِ مِن طِينٍ يابسٍ في غايةِ الصَّلابةِ، له صَوتٌ وصَلْصَلةٌ إذا نُقِرَ، كالخَزَفِ، وهو الطِّينُ المطبوخُ بالنَّارِ، وأنَّه تعالى خَلَق الجانَّ مِن لَهبِ النَّارِ الَّذي لا دُخَانَ له؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يذكرُ سبحانَه مَظهرًا آخَرَ مِن مظاهرِ قدرتِه، وهو أنَّه خالِقُ ومالِكُ مَشرِقِ الشَّمسِ وَمغرِبِها في الشِّتاءِ والصَّيفِ؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ -يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى خَلْقَ العالَمِ الكبيرِ مِن السَّماءِ والأرضِ وما أوجَدَ فيهما مِن النِّعَمِ، وما فيهما مِنَ الدَّلالاتِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه؛ ذكَرَ خَلْقَ العالَمِ الصَّغيرِ، وهو مبدأُ مَن خُلِقَت له هذه النِّعَمُ[1].

وأيضًا لَمَّا كان قد تقَدَّمَ في إشارةِ الخِطابِ الامتِنانُ بخَلقِ الإنسانِ، ثمَّ ذَكَر أصولَ النِّعَمِ عليه على وَجهٍ بديعِ الشَّأنِ إلى أنْ ذَكَر غِذاءَ رُوحِه «الرَّيحانَ»؛ أتْبَعَ ذلك تفصيلًا لِما أُجمِلَ، فقال[2]:

﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٥).

أي: خلَق اللهُ آدَمَ أبا البَشَرِ مِن طِينٍ يابسٍ في غايةِ الصَّلابةِ، له صَوتٌ وصَلْصَلةٌ إذا نُقِرَ، كالخَزَفِ، وهو الطِّينُ المطبوخُ بالنَّارِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾.

أي: وخَلَق اللهُ الجانَّ مِن لَهبِ النَّارِ الَّذي لا دُخَانَ له(٢).

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

قال القرطبي: (﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ باتِّفاقٍ مِن أهلِ التَّأويلِ يعني آدَمَ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٩).

قال القرطبي: (قال الحَسَنُ: الجانُّ: إبليسُ، وهو أبو الجِنِّ. وقيل: الجانُّ واحِدُ الجِنِّ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦١).

وممَّن قال بقول الحَسَنِ: السمرقنديُّ، وابن جُزَي، وجلال الدين المحلي، والشربيني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ به: إبليسُ دونَ وَصفِه بأبي الجِنِّ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٥).

وذهب كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ إلى أنَّ الجانَّ هو أبو الجِنِّ، دونَ تَقييدِه بإبليسَ. ومنهم: الواحديُّ، والسمعاني، والزمخشري، والبِقاعي، والشنقيطي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، =

قال تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر: ٢٧].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((خُلِقَت الملائِكةُ مِن نُورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِن مارجٍ مِن نارٍ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لكم))(١).

= ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٩).

وقال ابنُ عطيَّة: (الجانُّ اسمُ جِنسٍ، كالجِنَّةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٦).

ممَّن اختار أنَّ المارِجَ هو الصَّافي مِن لهبِ النَّارِ ليس له دُخَانٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والنسفي، والخازن، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٩).

ونسَبَه الواحديُّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((البسيط)) (٢١/ ١٥٢).

وقال ابن جرير: (﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ ﴾ وهو ما اختلَط بعضُه ببعضٍ، مِن بيْنِ أحمَرَ وأصفَرَ وأخضَرَ... وذلك هو لَهبُ النَّارِ ولسانُه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٤).

وقال الزَّجَّاج: (المارِجُ: اللَّهَبُ المُختَلِطُ بسَوادِ النَّارِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٩٩).

وقال ابن جُزَي: (المارِجُ: اللَّهيبُ المُضطرِبُ مِن النَّارِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٨).

وقال القرطبي: (والمارِجُ: اللَّهَبُ. عن ابنِ عبَّاسٍ، وقال: خَلَق اللهُ الجانَّ مِن خالِصِ النَّارِ. وعنه أيضًا: مِن لسانِها الَّذي يكونُ في طَرَفِها إذا التهَبَت. وقال اللَّيثُ: المارِجُ: الشُّعلةُ السَّاطِعةُ ذاتُ اللَّهَبِ الشَّديدِ. وعن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّه اللَّهَبُ الَّذي يعلو النَّارَ، فيَختَلِطُ بَعضُه ببَعضٍ أحمَرَ وأصفَرَ وأخضَرَ، ونحوُه عن مجاهدٍ، وكلُّه متقارِبُ المعنى. وقيل: المارِجُ: كُلُّ أمرٍ مُرسَلٍ غَيرِ مَمنوعٍ... وقال أبو عُبيدَةَ والحَسَنُ: المارِجُ: خلطُ النَّارِ، وأصلُه مِن مَرَجَ: إذا اضطَرَب واختَلَط). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦١). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٣).

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن خَلْقَ الثَّقَلينِ ومادَّةَ ذلك، وكان ذلك مِنَّةً منه تعالى على عِبادِه؛ قال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا كان خَلْقُ هذين القَبيلَينِ على هذينِ الوَجهَينِ اللَّذَين هما في غايةِ التَّنافي: مَستورًا أحدُهما عن الآخَرِ، مع مَنعِ كُلٍّ مِن التَّسَلُّطِ على الآخَرِ إلَّا نادِرًا؛ إظهارًا لعظيمِ قُدرتِه وباهِرِ حِكمتِه- مِن أعظَمِ النِّعَمِ؛ قال مُسَبِّبًا عنه[2]:

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[3]؟!

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه هذَينِ الجِنسَينِ -اللَّذينِ أحدُهما ظاهِرٌ والآخَرُ مُستَتِرٌ- إرشادًا إلى التَّأمُّلِ فيما فيهما مِن الدَّلالةِ على كَمالِ قُدرتِه؛ فكانا محتاجَينِ إلى ما هما فيه مِنَ المحَلِّ، وكان صلاحُه مِمَّا دَبَّر سُبحانَه فيه مِن منازِلِ الشُّروقِ الَّذي هو سَبَبُ الأنوارِ والظُّهورِ، والغُروبِ الَّذي هو مَنشَأُ الظُّلمةِ والخَفاءِ؛ أتْبَعَه قَولَه مُنَبِّهًا على النَّظَرِ في بديعِ صُنعِه الدَّالِّ على توحيدِه[4]:

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٧).

أي: اللهُ خالِقُ ومالِكُ ومُدَبِّرُ مَشرِقِ الشَّمسِ في الشِّتاءِ والصَّيفِ، ومَغرِبِ الشَّمسِ في الشِّتاءِ والصَّيفِ(١).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان في هذا مِنَ النِّعَمِ ما لا يُحصى؛ قال مُسَبِّبًا(٢):

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٩٥).

قال ابنُ عاشور: (المَشرِقُ: جِهةُ شُروقِ الشَّمسِ، والمَغرِبُ: جِهةُ غُروبِها، وتثنيةُ المَشرِقَينِ والمَغرِبَينِ باعتبارِ أنَّ الشَّمسَ تَطلُعُ في فَصلَيِ الشِّتاءِ والرَّبيعِ مِن سَمْتٍ، وفي فَصلَيِ الصَّيفِ والخَريفِ مِن سَمْتٍ آخَرَ، وبِمُراعاةِ وَقْتِ الطُّولِ ووَقتِ القِصَرِ، وكذلك غُروبُها، وهي فيما بيْنَ هذَينِ المَشرِقَينِ والمَغرِبَينِ يَنتَقِلُ طُلوعُها وغُروبُها في دَرَجاتٍ مُتقارِبةٍ، فقد يُعتبَرُ ذلك فيُقالُ: المشارِقُ والمغارِبُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]، ومَن زَعَم أنَّ تثنيةَ المَشرِقَينِ لِمُراعاةِ مَشرِقِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وكذلك تثنيةُ المَغرِبَينِ- لم يَغُصْ على مَعنًى كبيرٍ! وعلى ما فَسَّر به الجُمهورُ المَشرِقَينِ والمَغرِبَينِ بمَشرِقَيِ الشَّمسِ ومَغرِبَيها فالمرادُ بـ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾: النِّصفُ الشَّرقيُّ مِنَ الأرضِ، وبـ﴿ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾: النِّصفُ الغَربيُّ منها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٧).

وقال ابنُ عثيمين: (ثَنَّى المَشرِقَ هنا باعتِبارِ مَشرِقِ الشِّتاءِ ومَشرِقِ الصَّيفِ، فالشَّمسُ في الشِّتاءِ تَشرُقُ مِن أقصى الجَنوبِ، وفي الصَّيفِ بالعَكسِ، والقَمَرُ في الشَّهرِ الواحِدِ يَشرُقُ مِن أقصى الجَنوبُ، ومِن أقصى الشَّمالِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٩).

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[١]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في كُلِّ ما خَلَقه اللهُ إحسانٌ إلى عِبادِه يُحمَدُ عليه حَمْدَ شُكرٍ، وله فيه حِكمةٌ تَعودُ إليه يَستَحِقُّ مِن أجْلِها أن يُحمَدَ عليه حَمدًا يَستَحِقُّه لِذَاتِه؛ فجَميعُ المخلوقاتِ فيها إنعامٌ على العِبادِ، كالثَّقَلينِ المخاطَبَينِ بقَولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مِن جِهةِ أنَّها آياتٌ للرَّبِّ تعالى، يَحصُلُ بها هدايتُهم وإيمانُهم الَّذي يَسعَدونَ به في الدُّنيا والآخِرةِ، فيَدُلُّهم عليه وعلى وَحدانيَّتِه وقُدرتِه، وعِلْمِه وحِكْمتِه ورَحمتِه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ تذكيرٌ ومَوعِظةٌ بمَظهَرٍ مِن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ وحِكمتِه في خَلْقِ نَوعِ الإنسانِ وجِنسِ الجانِّ، وفيه إيماءٌ إلى ما سَبَق في القُرآنِ النَّازِلِ قبْلَ هذه السُّورة مِن تَفضيلِ الإنسانِ على الجانِّ؛ إذْ أمَرَ اللهُ إبليسَ -وهو مِن الجانِّ- بالسُّجودِ للإنسانِ، وما يَنطوي في ذلك مِن وَفرةِ مَصالحِ الإنسانِ على مَصالحِ الجانِّ، ومِن تأهُّلِه لعُمرانِ العالَمِ؛ لكَونِه مَخلوقًا مِن طِينتِه؛ إذ الفَضيلةُ تَحصُلُ مِن مَجموعِ أوصافٍ، لا مِن خُصوصيَّاتٍ مُفرَدةٍ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٥).

مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ دَلالةٌ على شَرَفِ عُنصُرِ الآدَميِّ المخلوقِ مِنَ الطِّينِ والتُّرابِ -الَّذي هو محَلُّ الرَّزانةِ، والثِّقلِ، والمنافِعِ-، بخِلافِ عُنصُرِ الجانِّ، وهو النَّارُ، الَّتي هي محَلُّ الخِفَّةِ والطَّيشِ، والشَّرِّ والفَسادِ[1].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ إنْ قيلَ: إنَّ المقصودَ هنا تَعديدُ النِّعَمِ على الإنسانِ، فما وَجهُ بَيانِ خَلْقِ الجانِّ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ قولَه: ﴿رَبِّكُمَا﴾ خِطابٌ مع الإنسِ والجِنِّ، يُعَدِّدُ عليهما النِّعَمَ، ليس على الإنسانِ وَحْدَه!

ثانيها: أنَّه بَيانُ فَضلِ اللهِ تعالى على الإنسانِ؛ حيثُ بَيَّن أنَّه خُلِقَ مِن أصلٍ كَثيفٍ كَدِرٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِن أصلٍ لَطيفٍ، وجُعِلَ الإنسانُ أفضَلَ مِنَ الجانِّ؛ فإنَّه إذا نَظَرَ إلى أصلِه عَلِمَ أنَّه ما نالَ الشَّرَفَ إلَّا بفَضلِ اللهِ تعالى، فكيف يُكَذِّبُ بآلاءِ اللهِ؟!

ثالِثُها: أنَّ الآيةَ مَذكورةٌ لبَيانِ القُدرةِ، لا لبَيانِ النِّعْمةِ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ سؤالٌ: وهو إذا كان الجِنُّ مِن نارٍ، فكيف تُحرِقُه النَّارُ؟

الجوابُ: أنَّ النَّارَ يكونُ بَعضُها أقوى مِن بَعضٍ؛ فالأقوى يُؤَثِّرُ على الأضعَفِ، ومِمَّا يَشهَدُ له قَولُه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، والسَّعيرُ: أشَدُّ النَّارِ، ومَعلومٌ أنَّ النَّارَ طَبَقاتٌ بَعضُها أشَدُّ مِن بَعضٍ، وهذا أمرٌ مَلموسٌ؛

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٩).

فقد تكونُ الآلةُ مَصنوعةً مِن حَديدٍ، وتُسَلَّطُ عليها آلةٌ مِن حَديدٍ أيضًا أَقوى منها فتَكسِرُها، كما قيل: «لا يَفُلُّ الحديدَ إلَّا الحَديدُ»، فلا يَمنَعُ كَونُ أصلِه مِن نارٍ ألَّا يتعَذَّبَ بالنَّارِ، كما أنَّ أصلَ الإنسانِ مِن طِينٍ مِن حَمَأٍ مَسنونٍ، ومِنْ صَلصالٍ كالفَخَّارِ، وبَعْدَ خَلْقِه فإنَّه لا يحتَمِلُ التَّعذيبَ بالصَّلصالِ ولا بالفَخَّارِ؛ فقد يُقضى عليه بضَربةٍ مِن قِطعةٍ مِن فَخَّارٍ[١].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى أضاف الشَّياطينَ والجانَّ إلى النَّارِ حسَبَ ما أضاف الإنسانَ إلى التُّرابِ والطِّينِ والفَخَّارِ، والمرادُ به في حقِّ الإنسانِ أنَّ أصْلَه الطِّينُ، وليس الآدميُّ طينًا حقيقةً، لكنَّه كان طينًا، وكذلك الجانُّ كان نارًا في الأصلِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- إذا أُرِيدَ بالإنسانِ آدَمُ عليه السَّلامُ، فقد جاءتْ غاياتٌ له مُختلِفةٌ، وذلك بتَنقُّلِ أصْلِه؛ فكان أوَّلًا تُرابًا، ثمَّ طِينًا، ثمَّ حمَأً مَسنونًا، ثمَّ صَلْصالًا؛ فناسَبَ أنْ يُنسَبَ خلْقُه لكلِّ واحدٍ منها. وعلى القَولِ بأنَّ المرادَ بالإنسانِ الجِنْسُ كلُّه، فيَسوغُ ذلك؛ لأنَّ أباهم مَخلوقٌ مِن الصَّلصالِ[٣].

- وقولُه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ تَمهيدٌ للتَّوبيخِ على إخلالِهم بمَواجِبِ شُكرِ النِّعمةِ المُتعلِّقةِ بذاتَيْ كلِّ واحدٍ مِن الثَّقلَينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((آكام المرجان في أحكام الجان)) للشبلي (ص: ٣١، ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٩).

- وجاءَ هنا أنَّ الإنسانَ خُلِقَ مِن صَلْصالٍ، وورَدَ في القرآنِ أنَّه خُلِقَ مِن التُّرابِ، وورَدَ أنَّه خُلِقَ مِن الطِّينِ، ومِن حمَأٍ، ومِن ماءٍ مَهينٍ، إلى غيرِ ذلك، كما في قولِه: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] تارةً، و﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] أُخرى، وإنَّما ذلِك باعتِبارِ شَخصينِ: آدَمَ خُلِقَ مِن الصَّلصالِ ومِن حَمَأٍ، وأولادِه خُلِقوا مِن ماءٍ مَهينٍ، ولولا خلْقُ آدَمَ لَما خُلِقَ أولادُه. ويجوزُ أنْ يُقالَ: «زيدٌ خُلِقَ مِن حمَأٍ»، بمعْنى أنَّ أصْلَه -الَّذي هو جدُّه- خُلِقَ منه[1].

وأمَّا قولُه: ﴿مِن صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾، وقال تَعالى في سُورةِ (الحِجرِ): ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، وقال تَعالى في (الصَّافاتِ): ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]، وقال تَعالى في (آلِ عِمرانَ): ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]؛ فكلُّه مُتَّفِقُ المعْنى؛ وذلك أنَّه أخَذَه مِن تُرابِ الأرضِ، فعَجَنَه بالماءِ، فصار طِينًا، ثمَّ تُرِكَ حتَّى صار حمَأً مَسنونًا ثمَّ مُنتِنًا، ثمَّ صوَّرَه -كما يُصوَّرُ الإبريقُ وغيرُه مِن الأواني-، ثمَّ أيْبَسَه حتَّى صار في غايةِ الصَّلابةِ، فصار كالخزَفِ -الَّذي إذا نُقِرَ صوَّتَ صَوتًا يُعلَمُ منه هل فيه عَيبٌ أو لا-؛ فالمذكورُ هنا آخِرُ تَخليقِه -وهو أنسَبُ بالرَّحمانيَّةِ-، وفي غيرِها تارةً مَبدؤه، وتارةً أثناؤه[2].

- وقولُه: ﴿مِّن نَّارٍ﴾ بَيانٌ لـ﴿مَّارِجٍ﴾، كأنَّه قِيل: مِن صافٍ مِن نارٍ، أو مُختلِطٍ مِن نارٍ، أو أراد مِن نارٍ مَخصوصةٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٩).

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ فيه بَيانٌ لجُملةِ ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]. وعُطِفَ ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾؛ مِن أجْلِ مُراعاةِ المُزاوَجةِ(١).

- وفي قولِه تَعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥] أفرَدَ سُبحانه المشرِقَ والمغربَ، وهنا ثَنَّاهما في سُورةِ (الرَّحمن)، وجمَعَهما في سُورةِ (سأَلَ سائلٌ) في قولِه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، وأفرد المشارقَ بالذِّكرِ في سُورةِ (الصَّافَّات) في قولِه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ٥]؛ فما وَجْهُ ذلك؟

الجوابُ: أنَّ قولَه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥] وقولَه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩] المرادُ به جِنسُ المشرقِ والمغربِ، فهو صادقٌ بكلِّ مَشرقٍ مِن مَشارقِ الشَّمسِ -الَّتي هي ثلاثُمئةٍ وسِتُّون-، وكلُّ مَغربٍ مِن مَغاربِها الَّتي هي كذلك. وقيل: قولُه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩] باعتبارِ النَّاحيةِ؛ لأنَّ النَّواحيَ أربعٌ: مَشرِقٌ، ومَغرِبٌ، وشَمالٌ، وجَنوبٌ. وقولُه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾، يعْني مَشرقَ الشِّتاءِ ومَشرقَ الصَّيفِ ومَغربَهما -كما عليه الجُمهورُ-، وقيل: مَشرقُ الشَّمسِ والقمرِ ومَغربُهما. وقولُه: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، أي: مَشارقِ الشَّمسِ ومَغاربِها، فجَمعُ المغاربِ والمشارقِ باعتبارِ مَشْرِقِ كُلِّ يومٍ ومَغْرِبِه؛ لأنَّ الشَّمسَ كلَّ يومٍ تَشْرُقُ مِن غيرِ المكانِ الَّذي شَرَقَتْ منه بالأَمسِ؛ فالشَّمسُ يَتغَيَّرُ شُروقُها وغُروبُها كُلَّ يومٍ، ولا سيَّما عندَ تَساوي اللَّيلِ والنَّهارِ، فتَجِدُ الفَرقَ دقيقةً أو دقيقةً ونِصفًا بيْنَ غُروبِها بالأمسِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٧).

واليَوم، وكذلك الغُروبُ. وقيل: مَشارقِ الشَّمسِ والقمَرِ والكواكبِ ومَغاربِها، فجمع باعتبارِ الشَّارقاتِ والغارِباتِ، وهذه لا يُحصيها إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ(١).

وأمَّا كَونُه اكْتَفى بذِكرِ المشارقِ في قولِه: ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ٥] فلِوَجهَين؛ الأوَّلُ: أنَّه اكْتَفى بذِكرِ المشارقِ كقولِه: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، يعني: وتَقِيكم البرْدَ أيضًا. والثَّاني: أنَّ الشَّرقَ أقوى حالًا مِن الغروبِ، وأكثَرُ نفْعًا مِن الغروبِ؛ فذُكِرَ الشَّرقُ تَنبيهًا على كثرةِ إحسانِ اللهِ تَعالى على عِبادِه، ولهذه الدَّقيقةِ استَدلَّ إبراهيمُ عليه السَّلامُ بالمشرقِ فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾(٢) [البقرة: ٢٥٨].

وأمَّا ورُودُه مُثَنًّى في سورةِ (الرَّحمنِ)؛ فلأنَّه لَمَّا كان مَساقُ السُّورةِ مَساقَ المَثاني المُزدوجاتِ؛ فذَكَر أوَّلًا نَوعَي الإيجادِ -وهما الخَلقُ والتَّعليمُ-، ثمَّ ذكَر سِراجَي العالَمِ ومَظهَرَيْ نُورِه -وهما الشَّمسُ والقَمَرُ-، ثمَّ ذكَرَ نوعَي النَّباتِ؛ ما قام منه على ساقٍ، وما انبسَطَ منه على وَجهِ الأرضِ، -وهما النَّجمُ (على قولٍ) والشَّجرُ-، ثمَّ ذَكَر نَوعَي السَّماءِ المرفوعةِ والأرضِ الموضوعةِ، وأخبَرَ أنَّه رَفَع هذه، ووَضَع هذه، ووَسَّط بيْنَهما ذِكرَ الميزانِ، ثمَّ ذكَرَ العَدْلَ والظُّلمَ في الميزانِ، فأمَرَ بالعَدلِ ونَهى عن الظُّلمِ، وذكَرَ نَوعَي الخارجِ مِن الأرضِ -وهما الحبوبُ والثِّمارُ-، ثمَّ ذكَرَ خَلْقَ نَوعَي المكَلَّفينَ -وهما نوعُ الإنسانِ ونوعُ الجانِّ-، ثمَّ ذكَرَ نَوعَي المشرِقَينِ ونَوعَي المغرِبَينِ، ثمَّ ذكَرَ بعد ذلك البَحرينِ المِلْحَ والعَذْبَ؛ فتأمَّلْ حُسنَ تَثنيةِ المشرِقِ والمغرِبِ في هذه السُّورةِ، وجلالةَ وُرودِهما لذلك، وقَدِّرْ مَوضِعَهما اللَّفظَ مُفردًا ومجموعًا، تجِدِ السَّمعَ يَنْبو عنه،

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٦).

ويَشهَدِ العَقلُ بمُنافَرتِه للنَّظمِ[١]!

- وكرَّرَ هنا في قولِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ ذِكرَ الرَّبِّ، بخِلافِ سُورتَي (المعارِجِ) و(المزمِّلِ)، حيثُ قالَ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، وقال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩]؛ تأكيدًا، وخَصَّ ما هنا بالتأْكيدِ؛ لأنَّه مَوضعُ الامتِنانِ، وتَعديدِ النِّعَمِ، ولأنَّ الخِطابَ فيه مِن جِنسينِ؛ هما: الإنسُ، والجنُّ، بخلافِ ذَينِك[٢].

- وقولُه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فيه تَوبيخٌ على عدَمِ الاعترافِ بنِعَمِ اللهِ تعالى، جِيءَ فيه بمِثلِ ما جِيءَ به في نَظيرِه الَّذي سبَقَه؛ ليكونَ التَّوبيخُ بكَلامٍ مِثلِ سابقِه، وذلك تَكريرٌ مِن أُسلوبِ التَّوبيخِ ونحوِه أنْ يكونَ بمِثلِ الكلامِ السَّابقِ، فحَقُّ هذا أنْ يُسمَّى بالتَّعدادِ لا بالتَّكرارِ؛ لأنَّه ليس تَكريرًا لمُجرَّدِ التَّأكيدِ، فالفاءُ مِن قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هنا تَفريعٌ على قولِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]؛ لأنَّ رُبوبيَّتَه تَقْتضي الاعترافَ له بنِعمةِ الإيجادِ والإمدادِ، وتَحصُلُ مِن تَماثُلِ الجُمَلِ المُكرَّرةِ فائدةُ التَّأكيدِ والتَّقريرِ أيضًا؛ فيَكونُ للتَّكريرِ غَرَضانِ. وفائدةُ التَّكريرِ تَوكيدُ التَّقريرِ بما للهِ تعالى مِن نِعَمٍ على المُخاطَبينَ، وتَعريضٌ بتَوبيخِهم على إشراكِهم باللهِ أصنامًا لا نِعمةَ لها على أحدٍ، وكلُّها دَلائلُ على تَفرُّدِ الإلهيَّةِ، فالتَّكريرُ طَرْدٌ للغَفْلةِ، وتأكيدٌ للحُجَّةِ، وهكذا القولُ في نَظائرِ قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ المذكورِ هنا، إلى ما في آخِرِ السُّورةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢١، ١٢٢). ويُنظر أيضًا: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٤، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٦، ٢٤٧).

الآيات (١٩-٢٥)

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَرَجَ﴾: أي: خلَطَ أو خلَّى بَيْنَهما وأرسَلَهما، وأصلُ (مرج): يدُلُّ على مجيءٍ وذَهابٍ واضطرابٍ[١].

﴿بَرْزَخٌ﴾: أي: حاجِزٌ وحَدٌّ، وأصلُ (برزخ): يدُلُّ على الحدِّ بيْنَ الشَّيئينِ[٢].

﴿يَبْغِيَانِ﴾: أي: يَختَلِطانِ ويَلتَقيانِ، وأصلُ (بغي) هنا: جنسٌ مِن الفَسادِ[٣].

﴿ٱلْجَوَارِ﴾: أي: السُّفُنُ، وأصلُ (جري): يدُلُّ على انسِياحِ شَيءٍ[٤].

﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾: أي: المخلوقاتُ المُسخَّراتُ، أو المرفوعاتُ القِلاعِ، أو اللَّواتي أُنْشِئْنَ، أي: ابتُدِئَ بهنَّ في البحرِ، وأصلُ (نشأ): يدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣، ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣).

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾: أي: كالجِبالِ، واحِدُها عَلَمٌ: وهو الجَبَلُ الطَّويلُ، شَبَّهَ السُّفُنَ في البَحرِ بالجِبالِ في البَرِّ، وأصلُ (علم): يدُلُّ على أَثَرٍ مُمَيِّزٍ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه أرسَلَ البَحرَ المِلْحَ والبَحرَ العَذْبَ يتَّصِلانِ مِن غَيرِ أن يختَلِطا، وجَعَلَ بَيْنَهما حاجِزًا يَمنَعُ اختِلاطَ أحَدِهما بالآخَرِ؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّه يَخرُجُ مِنَ البَحرينِ -المِلْحِ والعَذْبِ- اللُّؤلُؤُ والمَرْجانُ اللَّذانِ يتَّخِذُهما النَّاسُ حِلْيَةً وزِينةً؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

ولِلهِ سُبحانَه السُّفُنُ الجارياتُ المُنشَآتُ في البِحارِ، فتَبدو كالجِبالِ؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى المَشرِقَ والمَغرِبَ -وهما حركتانِ في الفَلَكِ-؛ ناسَبَ ذلك ذِكرُ البَحرينِ؛ لأنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ يَجرِيانِ في الفَلَكِ كما يجري الإنسانُ في البَحرِ؛ قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]؛ فذَكَرَ البَحرينِ عَقِيبَ المَشرِقَينِ والمَغرِبَينِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣، ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٠).

وأيضًا فإنَّ المَشرِقَينِ والمَغرِبَينِ فيهما إشارةٌ إلى البَحرِ؛ لانحِصارِ البَرِّ والبَحرِ بيْنَ المشرِقِ والمَغرِبِ، لكِنَّ البَرَّ كان مذكورًا بقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ [الرحمن: ١٠]؛ فذكَرَ هاهنا ما لم يكُنْ مَذكورًا[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ أنَّه سُبحانَه ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾، وكانتِ الأبحُرُ والأنهارُ في جِهاتِ الأرضِ؛ ناسَبَ الانتِقالُ إلى الاعتِبارِ بخلْقِهما، والامتِنانِ بما أودَعَهما مِن مَنافعِ النَّاسِ[٢].

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩﴾.

أي: أرسَلَ اللهُ البَحرَ المِلْحَ والبَحرَ العَذْبَ وتَرَكَهما يتَّصِلانِ مِن غَيرِ أن يختَلِطا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٨).

قال الشنقيطي: (لفظة: مرَج، تُطلَقُ في اللُّغةِ إطلاقَينِ:

الأوَّلُ: مرَج بمعنى: أرسَل وخلَّى... وعلى هذا فالمعنى: أرسَل البحَرينِ وخلَّاهما لا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ.

والإطلاقُ الثَّاني: مرَج بمعنى: خلَط...

فعلى القولِ الأوَّلِ: فالمرادُ بالبحرَينِ: الماءُ العَذبُ في جميعِ الدُّنيا، والماءُ المِلْحُ في جميعِها... وأمَّا على القولِ الثَّاني بأنَّ مرَج بمعنى خلَط، فالمعنى: أنَّه يوجَدُ في بعضِ المواضعِ اختِلاطُ الماءِ المِلْحِ والماءِ العَذبِ في مجرًى واحدٍ، ولا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ، بل يكونُ بيْنَهما حاجزٌ مِن قدرةِ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٥).

وفي البَحرَينِ أقوالٌ أخرى. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٥٠).

قال الشوكاني: (﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: يَتجاوَرانِ لا فصْلَ بيْنَهما في مَرْأَى العَينِ، ومعَ ذلك فلم يَخْتَلِطا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦١). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: بيْنَ البَحرِ المِلْحِ والبَحرِ العَذْبِ حاجِزٌ يَمنَعُ اختِلاطَ أحَدِهما بالآخَرِ، وتَغييرَ طَعْمِه وصِفاتِه(١).

= وقال ابن عاشور: (﴿يَلْتَقِيَانِ﴾: يتَّصِلانِ بحيثُ يصُبُّ أحدُهما في الآخَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٨).

وقال الرازي: (﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسَل بعضَهما في بعضٍ، وهُما عندَ الإرسالِ بحيثُ يَلتَقيانِ أو مِن شأنِهما الاختِلاطُ والالتِقاءُ، ولكنَّ اللهَ تعالى منَعَهما عمَّا في طبعِهما، وعلى هذا ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ حالٌ مِن البحرَينِ، ويحتملُ أن يُقالَ: مِن مَحذوفٍ تقديرُه: ترَكَهما فهُما يَلتَقيانِ إلى الآنَ ولا يَمتَزِجانِ. وعلى الأوَّلِ فالفائدةُ إظهارُ القُدرةِ في النَّفعِ؛ فإنَّه إذا أرسَل الماءَينِ بعضَهما على بعضٍ وفي طبعِهما بخَلقِ الله وعادَتِه السَّيلانُ والالتِقاءُ ويَمنَعُهما البَرزخُ الَّذي هو قدرةُ الله أو بقُدرةِ الله، يكونُ أدَلَّ على القُدرةِ ممَّا إذا لم يَكونا على حال يَلتَقيانِ.... وعلى الوجهِ الثَّاني: الفائدةُ في بيانِ القُدرةِ أيضًا على المنعِ مِن الاختِلاطِ؛ فإنَّ الماءَينِ إذا تَلاقَيا لا يَمتزِجانِ...). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٥٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٨).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ ونسَبَه إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ، والسَّمعانيُّ، والزمخشريُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال الواحدي: (﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: حاجِزٌ مِن قُدرةِ اللهِ تعالى، فلا يَبْغي المِلْحُ على العَذْبِ؛ فيُفسِدَه، ولا يَبغي على المِلحِ؛ فيَختَلِطَ به. والمعنى: لا يَطلُبانِ أن يَخرُجا ممَّا حُدَّ لهما. هذا قَولُ مقاتلٍ وأكثَرِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (٢١/ ١٥٤).

وممَّن فسَّر الحاجِزَ بالأرضِ اليابِسةِ: ابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[(١)]؟!

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر المِنَّةَ بالبَحرِ؛ ذَكَر النِّعمةَ بما يَنبُتُ فيه، كما فَعَل بالبَرِّ[(٢)].

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾.

= قال الشنقيطي: (هذا الحاجزُ هو اليَبْسُ مِن الأرضِ الفاصلُ بيْنَ الماءِ العَذبِ والماءِ المِلْحِ على التَّفسيرِ الأوَّلِ [أي أنَّ مرَج بمعنى أرسَل].

وأمَّا على التَّفسيرِ الثَّاني [أي أنَّ مرَج بمعنى خلَط]: فهو حاجزٌ مِن قدرةِ الله، غيرُ مَرئيٍّ للبشَرِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٦).

قال ابن عثيمين: (﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ وهو اليابسُ مِن الأرضِ ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يَبغي أحدُهما على الآخَرِ، ولو شاء اللهُ تعالى لَسَلَّط البحارَ ولَفاضتْ على الأرضِ وأغرَقَت الأرضَ، لأنَّ البحرَ عندَما تقفُ على السَّاحلِ لا تجدُ جِدارًا يمنعُ انسيابَه إلى اليابسِ، معَ أنَّ الأرضَ كرويَّةٌ، ومع ذلك لا يَسيحُ البحرُ؛ لا هاهنا ولا هاهنا، بقدرةِ الله عزَّ وجلَّ... إذَنِ البَرزخُ الَّذي بيْنَهما هو اليابسُ مِن الأرضِ...، وقال بعضُ أهلِ العِلمِ: بل البرزخُ أمرٌ معنويٌّ يَحولُ بيْن المالحِ والعَذبِ أن يَختلِطَ بعضُهما ببعضٍ، وقالوا: إنَّه يوجَدُ الآنَ في عمقِ البحارِ عيونٌ عَذْبةٌ تَنبَعُ مِن الأرضِ... ومعَ ذلك لا تُفسِدُها مياهُ البحارِ، فإذا ثبت ذلك فلا مانعَ مِن أن نقولَ بقولِ علماءِ الجغرافيا وقولِ علماءِ التَّفسيرِ، واللهُ على كلِّ شَيءٍ قديرٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٠٨).

وجوَّز ابنُ عاشور أن يكون المرادُ بالبَحرين: بحرَينِ مِلْحَينِ مُعيَّنَين، واستظهَرَ أنَّهما البَحرُ الأحمَرُ وبَحرُ العَرَبِ، والحاجِزُ بيْنَهما مَضِيقُ بابِ المَندَبِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٩).

ويُنظَرَ ما تقَدَّمَ في تفسيرِ سورة الفرقانِ الآية (٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦١).

أي: يَخرُجُ مِنَ البَحرينِ -المِلْحِ والعَذْبِ- اللُّؤلُؤُ والمَرْجانُ اللَّذانِ يتَّخِذُهما النَّاسُ حِلْيةً وزِينةً(١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٩).

وممَّن قال: إنَّهما يَخرُجانِ مِن الماءِ المِلحِ، ويَخرُجانِ أيضًا مِن الماءِ العَذْبِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٩).

وقد أثبت العِلمُ والواقعُ أنَّ اللَّآلئَ تُستخرَجُ مِن المياهِ العَذبةِ، كما تُستخرَجُ مِن البحارِ المِلْحةِ. يُنظر: ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٧٠٥).

وقيل: المرادُ: أنَّهما يَخرُجانِ مِن الماءِ المِلْحِ فقط. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٥٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٣).

قال الواحدي: (وقَولُه: ﴿مِنْهُمَا﴾ وإنَّما يخرُجُ مِن أحَدِ البَحرَينِ، وهو المِلحُ دونَ العَذبِ، قال أبو عُبَيدةَ: العرَبُ تَجمَعُ الجنسَينِ ثمَّ تُخبِرُ عن أحَدِهما، كقَولِه تعالى ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وإنَّما الرُّسُلُ مِن الإنسِ، وتقول: أكلتُ خُبزًا ولَبنًا، وإنَّما يقَعُ الأكلُ على الخُبزِ. وقال أبو إسحاقَ [الزَّجَّاجُ]: إنَّ اللهَ تعالى قد ذكَرَهما وجمَعَهما، فإذا أُخرِجَ مِن أحَدِهما فقد خَرَج منهما، ومِثلُ ذلك قَولُه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا * وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ [نوح: ١٥، ١٦] والقَمَرُ في السَّماءِ الدُّنيا، إلَّا أنَّه لَمَّا أجمَلَ ذِكرَ السَّبْعِ كأنَّ ما في إحداهنَّ فيهنَّ). ((البسيط)) (٢١/ ١٥٥). ويُنظر ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٠).

وقال الشنقيطي: (جماعةٌ مِن أهلِ العِلمِ قالوا: إنَّ المرادَ بقَولِه في هذه الآيةِ: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا﴾ أي: مِن مَجموعِهما الصَّادِقِ بالبَحرِ المِلْحِ، وإنَّ الآيةَ مِن إطلاقِ المَجموعِ وإرادةِ بَعْضِه، وإنَّ اللُّؤلُؤَ والمَرْجانَ يَخرُجانِ مِنَ البَحرِ المِلْحِ وَحْدَه دونَ العَذْبِ. وهذا القَولُ الَّذي قالوه في هذه الآيةِ -مع كَثرتِهم وجلالتِهم- لا شَكَّ في بُطلانِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَرَّحَ بنَقيضِه في سورةِ «فاطرٍ»، ولا شَكَّ أنَّ كُلَّ ما ناقَضَ القُرآنَ فهو باطِلٌ، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا =

= عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [فاطر: ١٢]؛ فالتَّنوينُ في قَولِه: «مِنْ كُلٍّ» تنوينُ عِوَضٍ، أي: مِن كُلِّ واحِدٍ مِنَ العَذبِ والمِلْحِ تأكُلونَ لَحمًا طَرِيًّا، وتَستَخرِجونَ حِليةً تَلبَسونَها، وهي اللُّؤلؤُ والمَرْجانُ، وهذا مِمَّا لا نِزاعَ فيه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٠٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٩، ٣١٠).

وقال السمعاني: (ذَكَر القَفَّالُ الشَّاشي في تفسيرِه: أنَّ اللُّؤلؤَ والمَرْجانَ لا يكونُ إلَّا في مُلتقى البَحرينِ في أوَّلِ ما يُخلَقُ، ثمَّ حينَئذٍ مَوضِعُ الأصدافِ هو البَحرُ المِلْحُ دونَ العَذْبِ؛ فصَحَّ قولُه: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ﴾؛ لأنَّهما في ابتِداءٍ عندَ مُلتقى البَحرينِ، وهذا قَولٌ حَسَنٌ إن كان كذلك). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٧). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦١، ١٦٢).

وقال ابنُ عاشور: (أي: يَخرُجُ اللُّؤلُؤُ والمَرْجانُ بسَبَبِهما، أي: بسَبَبِ مَجموعِهما؛... قال الرُّمَّاني: لَمَّا كان الماءُ العَذبُ كاللِّقاحِ للماءِ المِلْحِ في إخراجِ اللُّؤلؤِ، قيل: يَخرجُ منهما، كما يُقالُ: يتخَلَّقُ الوَلَدُ مِنَ الذَّكَرِ والأُنثى... والمَرْجانُ: لا يَخرُجُ مِن مُلتقى البَحرينِ المِلْحِ والعَذْبِ، بل مِنَ البَحرِ المِلْحِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٠).

واللُّؤلُؤُ هو الدُّرُّ الكِبارُ، والمَرْجانُ هو ما صَغُرَ منها. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جريرٍ، ونَسَبه الواحديُّ إلى جَميعِ أهلِ اللُّغةِ، ونَقَله ابنُ الجوزيِّ عن أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٠٩). ويُنظر أيضًا: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٢٥٠).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: عليٌّ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ، وأبو رَزِينٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣).

وذهب مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ إلى عَكسِ ذلك. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، ومُرَّةُ الهَمْدانيُّ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٩٧).

ممَّن اختار أنَّ اللُّؤلُؤَ هو الدُّرُّ، وأنَّ المَرجانَ هو الخرزُ الأحمرُ: ابنُ عطيَّةَ، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨٢، ٤٨٣)، =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[1]؟!

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾﴾.

القَراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿الْمُنْشِآتُ﴾ بكَسرِ الشِّينِ. قيل بمعنى: الرَّافِعاتِ الشُّرُعِ. وقيل: المعنى: المُنشِئاتُ السَّيرَ، فنَسَب الفِعلَ إليها على الاتِّساعِ، كما يُقالُ: مات زَيدٌ، ومَرِضَ عَمرٌو، وغَيرُ ذلك مِمَّا يُضافُ الفِعلُ إليه إذا وُجِدَ فيه، وهو في الحقيقةِ لِغَيرِه. وقيل: يجوزُ أن يكونَ المُنشِئاتُ مُشتَقًّا مِن أنشَأَ السَّيرَ: إذا أسرَعَ، أي:

= ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٠).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المَرجانَ هو الخرزُ الأحمرُ: ابنُ مسعود، وأبو مالكٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٩٧).

وقال ابن عاشور: (اللُّؤلُؤُ: الدُّرُّ. ويُقالُ له: الجُمَانُ والجَوهَرُ، وهو حُبوبٌ بَيضاءُ وصَفراءُ ذاتُ بَريقٍ رَقراقٍ، تُستخرَجُ مِن أجوافِ حَيوانٍ مائيٍّ حَلَزونيٍّ مُستَقِرٍّ في غِلافٍ ذي دَفَّتَينِ مُغلَقَتينِ عليه، يَفتَحُهما بحَرَكةٍ حَيويَّةٍ منه؛ لامتِصاصِ الماءِ الَّذي يَسبَحُ فيه، ويُسَمَّى غِلافُه صَدَفًا، فتُوجَدُ في جَوفِ الحيوانِ حَبَّةٌ ذاتُ بَريقٍ، وهي تتفاوَتُ بالكِبَرِ والصِّغَرِ، وبصَفاءِ اللَّونِ وبَياضِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٢).

وقال ابنُ عاشور أيضًا: (والمَرْجانُ: حَيوانٌ بَحريٌّ ذو أصابعَ دَقيقةٍ، يَنشَأُ لَيِّنًا ثمَّ يتحَجَّرُ ويتلوَّنُ بلَونِ الحُمرةِ، ويتصَلَّبُ كلَّما طال مُكثُه في البَحرِ، فيُستخرَجُ منه كالعُروقِ تُتَّخَذُ منه حِلْيَةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٠).

الَّتي يَسيرُ بها النَّاسُ سَيرًا سَريعًا[١].

٢- قِراءةُ: ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ بفَتحِ الشِّينِ. قيل: المعنى: المَرفوعاتُ الشُّرُعِ. وقيل: المعنى: أنَّها أُجرِيَت وفُعِل بها الإنشاءُ، ولم تَفعَلْ ذلك بنَفْسِها[٢].

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ولِلهِ -ملْكًا وتَدبيرًا وتَسخيرًا- السُّفُنُ الجارياتُ، المنشَآتُ، فتَبدو في البِحارِ كالجِبالِ[٣].

---

(١) قرأ بها حمزةُ، وشُعبةُ عن عاصمٍ في أحدِ الوجهينِ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨١). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٠٠)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٢٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩١، ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٠٠)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٢٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٠).
قال البغوي: (﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾... أي: المرفوعاتُ، وهي الَّتي رُفِعَ خَشَبُها بَعضُها على بعضٍ. وقيل: هي ما رُفِعَ قِلْعُه [أي: شِراعُه] مِنَ السُّفُنِ، وأمَّا ما لم يُرفَعْ قِلْعُه فليس مِن المُنشَآتِ. وقيل: المخلوقاتُ المسَخَّراتُ). ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٤).
ممَّن اختار أنَّ المعنى: المرفوعاتُ الشُّرُعِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، والرَّسْعَني، والنسفي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٥٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤١٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٠٥).
قال ابن جرير: (﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ بفتحِ الشِّينِ، بمعنَى: المرفوعاتِ القِلاعِ، اللَّاتي تُقْبِلُ بهنَّ وتُدْبِرُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما في الجواري مِن المنافِعِ هو بالتَّكَسُّبِ مِن البَحرِ بالصَّيدِ وغَيرِه، والتَّوصُّلِ إلى البِلادِ الشَّاسِعةِ للفوائِدِ الهائِلةِ؛ سَبَّبَ عن ذلك قَولَه تعالى[1]:

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[2]؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ سمَّى اللهُ تعالى الأنهارَ والبِحارَ

= وممَّن اختار أنَّ المعنى: المرفوعاتُ، وهي الَّتي رُفِعَ خَشَبُها بعضُها على بعضٍ: البغويُّ، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٢).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: أنشاها النَّاسُ: ابنُ جُزَي، والسعدي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣١٠).

قال ابن عاشور: (﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ بفتحِ الشِّينِ، هو اسمُ مفعولٍ، إذا أُوجِدَ وصُنع، أي: الَّتي أنشأها النَّاسُ بإلهامٍ مِن الله). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

وقال ابن عطيَّة: (أي: أنشأها اللهُ تعالى، أو النَّاسُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٨).

وقال جلال الدين المحلي: (﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾: المُحْدَثاتُ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٠).

وقال الثعلبي: (أي: المخلوقاتُ المرفوعاتُ المسخَّراتُ في البَحرِ). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١١).

المِلْحةَ بِحارًا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ على قولِ مَن قال: إنَّ اللُّؤلؤَ لا يَخرُجُ إلَّا مِنَ البحرِ المِلْحِ، فكيفَ يُوجَّهُ قولُه تعالى: ﴿مِنْهُمَا﴾؟

الجوابُ إنْ صَحَّ قَولُهم في اللُّؤلُؤِ: إنَّه لا يَخرُجُ إلَّا مِنَ البَحرِ المِلْحِ، فنَقولُ: فيه وُجوهٌ:

أحَدُها: أنَّ الصَّدَفَ لا يتوَلَّدُ فيه اللُّؤلُؤُ إلَّا مِنَ المطَرِ، وهو بَحرُ السَّماءِ.

ثانيها: أنَّه يتولَّدُ في مُلتقاهما ثمَّ يَدخُلُ الصَّدَفُ في الماءِ المِلْحِ عندَ انعِقادِ الدُّرِّ فيه؛ طالِبًا للمُلوحةِ، فيَثقُلُ هناك فلا يُمكِنُه الدُّخولُ في العَذبِ.

ثالِثُها: أنَّ ما ذكَرتُم إنَّما كان يَرِدُ أنْ لو قال: «يَخرُجُ مِن كُلِّ واحِدٍ مِنهما»، فأمَّا على قَولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ فلا يَرِدُ؛ إذِ الخارِجُ مِن أحَدِهما -مع أنَّ أحَدَهما مُبهَمٌ- خارِجٌ مِنهما، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦].

رابِعُها: أنَّ «مِنْ» ليست لابتداءِ شَيءٍ، كما يُقالُ: «خرَجْتُ مِنَ الكُوفةِ»، بل لابتِداءٍ عَقليٍّ، كما يُقالُ: «خُلِقَ آدَمُ مِن تراب، ووُجِدَت الرُّوحُ مِن أمرِ اللهِ»؛ فكذلك اللُّؤلُؤُ يَخرُجُ مِن الماءِ، أي: منه يتوَلَّدُ[٢].

خامسُها: أنَّ هذا مِن بابِ التَّغليبِ، والتَّغليبُ أنْ يُغَلَّبَ أحدُ الجانبَينِ على الآخَرِ، مِثلَما يُقالُ: العُمَرانِ: لأبي بكرٍ وعُمرَ، ويُقالُ: القَمَرانِ: للشَّمسِ والقَمَرِ، فهذا مِن بابِ التَّغليبِ، فـ﴿مِنْهُمَا﴾ المرادُ: واحِدٌ منهما.

سادسُها: أنَّ هذا على حَذفِ مُضافٍ، والتَّقديرُ: يَخرُجُ مِن أحَدِهما[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٩).

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي: منهما جميعًا يَخرُجُ اللُّؤلؤُ والمَرجانُ، وإنِ امتاز المِلْحُ بأنَّه أكثَرُ وأطيَبُ، وهذا الَّذي يُوافِقُ ظاهِرَ القرآنِ؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ وهو خالِقُهما، وهو يَعلَمُ ماذا يَخرُجُ منهما، فإذا كانتِ الآيةُ ظاهِرُها أنَّ اللُّؤلؤَ يَخرُجُ مِنهما جميعًا وَجَبَ الأخذُ بظاهِرِها، لكنْ لا شكَّ أنَّ اللُّؤلؤَ مِن الماءِ المِلْحِ أكثَرُ وأطيَبُ، لكِنْ لا يَمنَعُ أنْ نَقولَ بظاهِرِ الآيةِ، بل يَتعيَّنُ أنْ نَقولَ بظاهِرِ الآيةِ، وهذه قاعِدةٌ في القُرآنِ والسُّنَّةِ: أنَّنا نَحْمِلُ الشَّيءَ على ظاهِرِه ولا نُؤَوِّلُ، اللَّهمَّ إلَّا لضَرورةٍ، فإذا كان هناك ضرورةٌ فلا بُدَّ أنْ نَتَمَشَّى على ما تَقتَضيه الضَّرورةُ، أمَّا بغيرِ ضَرورةٍ فيَجِبُ أنْ نَحمِلَ القُرآنَ والسُّنَّةَ على ظاهِرِهما[1]. فظاهِرُ كَلامِ اللهِ تعالى أَولى بالاعتِبارِ مِن كَلامِ بَعضِ النَّاسِ، الَّذي لا يُوثَقُ بقَولِه! ومَن عَلِمَ أنَّ اللُّؤلُؤَ لا يَخرُجُ مِنَ الماءِ العَذْبِ؟! وهَبْ أنَّ الغوَّاصِينَ ما أخرَجوه إلَّا مِنَ المِلْحِ وما وَجَدوه إلَّا فيه، لكِنْ لا يَلزَمُ مِن هذا ألَّا يُوجَدَ في الغَيرِ، وكيف يُمكِنُ الجَزمُ والأمورُ الأرضيَّةُ الظَّاهِرةُ خَفِيَت عن التُّجَّارِ الَّذين قَطَعوا المفاوِزَ، ودارُوا البِلادَ، فكيف لا يَخفى أمرُ ما في قَعرِ البَحرِ عليهم[2]؟!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ فائدةٌ عَظيمةٌ في جمعِ الجَواري وتوحيدِ البَحرِ وجَمعِ الأعلامِ، وهي أنَّ ذلك إشارةٌ إلى عَظَمةِ البَحرِ، ولو قال: «في البِحارِ» لَكانت كلُّ جاريةٍ في بَحرٍ، فيَكونُ البَحرُ دونَ بَحرٍ يكونُ فيه الجَواري الَّتي هي كالجِبالِ، وأمَّا إذا كان البَحرُ واحِدًا، وفيه الجواري الَّتي هي كالجِبالِ، يكونُ ذلك بحرًا عَظيمًا، وساحِلُه بَعيدًا؛ فيَكونُ الإنجاءُ بقُدرةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٢).

كامِلةٍ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ أنَّه لَمَّا كانت الأركانُ أربعةً: التُّرابُ، والماءُ، والهواءُ، والنَّارُ؛ فاللهُ تعالى بَيَّن بقَولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ﴾ [الرحمن: ١٤] أنَّ التُّرابَ أصلٌ لمخلوقٍ عَجيبٍ، وبَيَّنَ بقَولِه: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] أنَّ النَّارَ أيضًا أصلٌ لمخلوقٍ عَجيبٍ، وبَيَّنَ بقَولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أنَّ الماءَ أصلٌ لمخلوقٍ آخَرَ كالحَيوانِ عَجيبٍ، بَقِيَ الهواءُ لكِنَّه غيرُ مَحسوسٍ؛ فلم يَذكُرْ أنَّه أصلُ مَخلوقٍ، لكِنْ ذكَر أنَّ الهواءَ له تأثيرٌ عظيمٌ في جَرْيِ السَّفينةِ كالأعلامِ[٢]، وذلك على قولٍ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ خبَرٌ آخَرُ عن لَفظِ ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾، قُصِدَ منه العِبرةُ بخلْقِ البحارِ والأنهارِ، وذلك خلْقٌ عَجيبٌ دالٌّ على عَظَمةِ قُدرةِ الله وعِلمِه وحِكمتِه[٣].

- قولُه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسَلَ البَحرينِ لا يَحبِسُ ماءَهُما عن الجرْيِ حاجزٌ، وهذا تَهيئةٌ لقولِه بعْدُ: ﴿يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾، والمرادُ: أنَّه خلَقَهما ومرَجَهُما؛ لأنَّه ما مرَجَهُما إلَّا عقِبَ أنْ خلَقَهُما[٤].

- وذِكرُ البَرْزخِ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: بيْنَهما مِثلُ البَرْزخِ، وهو معْنى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٢، ٣٥٣)، ((روح البيان)) للخلوتي (٩/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: لا يَبْغي أحدُهما على الآخَرِ، أي: لا يَغلِبُ عليه فيُفسِدَ طَعْمَه؛ فعُبِّرَ عن هذِه الغَلبةِ بلفْظِ (البغي)[١].

- وجُملةُ ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿يَخْرُجُ﴾ قُرِئ ﴿يُخْرَجُ﴾ على البناءِ للمجهولِ[٣]، وعلى قراءةِ: ﴿يَخْرُجُ﴾ ففيه ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالاتِّساعِ[٤]؛ فقد أُسنِدَ الخُروجُ إلى اللُّؤلؤِ والمَرجانِ؛ لأنَّه إذا أُخرِجَ ذلك فقدْ خرَجَ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]؛ لأنَّ هذا مِن أحوالِ البَحرينِ، وقد أغْنَتْ إعادةُ لفظِ (البحر) عن ذِكرِ ضَميرِ البحرَينِ الرَّابطِ لجُملةِ الحالِ بصاحبِها[٦].

- واللَّامُ في (لَهُ) للمِلكِ، وهو مِلْكُ تَسخيرِ السَّيرِ فيها؛ قال تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) قرأ بها (أي: بضَمِّ الياءِ وفتحِ الرَّاءِ) نافعٌ وأبو عَمرٍو وأبو جعفرٍ ويعقوبُ، وقرأ الباقون ﴿يَخْرُجُ﴾ بفتحِ الياءِ وضمِّ الرَّاءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٠).

(٤) الاتِّساع: هو أن يأتيَ المتكلِّمُ بكلامٍ يتَّسِعُ فيه التَّأويلُ بحسَبِ ما تحتمِلُه ألفاظُه، فيتَّسِعُ التَّأويلُ فيه على قدرِ عقولِ النَّاسِ، وتفاوُتِ أفهامِهم. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٥٤)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٤٠٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٢/ ٤٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٠٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ [الشورى: ٣٢ - ٣٤]؛ فالمعْنى: أنَّ الجواريَ في البَحرِ في تَصرُّفِه تعالَى؛ قال تعالَى: ﴿وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥]. والإخبارُ عن الجَواري بأنَّها له؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إنشاءَ البشرِ للسُّفنِ لا يُخرِجُها عن مِلكِ الله سُبحانَه[١]، فتَخصيصُ الجَواري بأنَّها له -وهو تعالى له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما فِيهِنَّ-؛ لأنَّهم لَمَّا كانوا هم مُنشِئِيها، أسنَدَها تعالى إليه؛ إذ كان تمامُ مَنفَعتِها إنَّما هو منه تعالى، فهو في الحقيقةِ مالِكُها[٢].

- و﴿ٱلۡجَوَارِ﴾ صِفةٌ لمَوصوفٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه مُتعلِّقُه، وهو قولُه: ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، والتَّقديرُ: السُّفنُ الجَواري؛ إذ لا يَجري في البحرِ غيرُ السُّفنِ[٣].

- وتقديمُ الجارِّ «له» فيه إشارةٌ إلى أنَّ السَّائرَ في الفُلْكِ لا تصريفَ له، وإنْ ظَهَر له تصريفٌ؛ فهو -لضَعفِه- كَلَا تصريفٍ[٤].

- قولُه: ﴿ٱلۡمُنشَـَٔاتُ﴾ قُرِئَ بفتْحِ الشِّينِ؛ فهو اسمُ مَفعولٍ، إذا أُوجِدَ وصُنِعَ، أي: الَّتي أنشَأَها النَّاسُ بإلهامٍ مِن اللهِ تعالى؛ فحصَلَ مِن الكلامِ مِنَّتانِ: مِنَّةُ تَسخيرِ السُّفنِ للسَّيرِ في البحرِ، ومِنَّةُ إلهامِ النَّاسِ لإنْشائِها. وقُرِئَ بكسْرِ الشِّينِ (المُنْشِآتُ)[٥]؛ فهو اسمُ فاعلٍ، فيَجوزُ أنْ يكونَ المُنشِآتُ مُشتَقًّا مِن: أنشَأَ السَّيرَ؛ إذا أسرَعَ، أي: الَّتي يَسيرُ بها النَّاسُ سَيرًا سريعًا، والآيةُ تَحتمِلُ المعْنيَينِ على القراءتَينِ باستِعمالِ الاشتِقاقِ في معْنَيَي المُشتقِّ منه، ويكونُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦٣).

(٥) يُنظر ما تقدَّم في القراءات ذات الأثر في التَّفسير (ص: ٢٤٠).

في ذلك تَذكيرٌ بنِعمةِ إلهامِ النَّاسِ إلى اختِراعِ الشِّراعِ لإسراعِ سَيرِ السُّفنِ[١].

- ووُصِفَتِ الجواري بأنَّها كالأعلامِ -أي: الجِبالِ- وَصْفًا يُفيدُ تَعظيمَ شأْنِها في صُنْعِها المُقتضي بَداعةَ إلْهامِ عُقولِ البشَرِ لصُنعِها، والمُقتضي عِظَمَ المِنَّةِ بها؛ لأنَّ السُّفنَ العظيمةَ أمكَنُ لحمْلِ العددِ الكثيرِ مِن النَّاسِ والمَتاعِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ تَشبيهٌ؛ فقد شَبَّهَ السُّفنَ وهي تَمخَرُ عُبابَ البحرِ رائحةً جائيةً بالجِبالِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٠٤).

الآيات (٢٦-٣٠)

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿فَانٍ﴾: أي: هالِكٌ[1].

﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: أي:المُستحِقُّ لأنْ يُجَلَّ - فهو ذو العَظَمةِ والكِبرياءِ والمجدِ-، ولأنْ يُكرَمَ؛ لاتِّصافِه بما يُوجبُ ذلك، والإجلالُ يتضمَّنُ التَّعظيمَ، والإكرامُ يتضمَّنُ الحمدَ والمحبةَ، والجَلالةُ: عِظَمُ القَدْرِ، والجَلالُ: التَّناهي في ذلك، وأصلُ (جلل): يدُلُّ على العَظَمةِ، وأصلُ (كرم): يدُلُّ على الشَّرَفِ[2].

﴿شَأْنٍ﴾: الشَّأْنُ: الحالُ والأمرُ، ولا يُقالُ إلَّا فيما يعظُمُ مِن الأحوالِ والأمورِ، فهو الشَّيءُ العظيمُ والحدثُ المهمُّ مِن مخلوقاتٍ وأعمالٍ مِن السَّمَواتِ والأرضِ، وأصل (شأن): يدُلُّ على ابْتِغاءٍ وطلَبٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبرُ اللهُ تعالى عن تفرُّدِه بالبقاءِ بعدَ فناءِ جميعِ المخلوقاتِ على ظهرِ الأرضِ، فيقولُ: كلُّ مَنْ على الأرضِ مِن إنسٍ أو جِنٍّ أو غَيرِهما: هالِكٌ لا يَبقى، ولا يَبقى إلَّا وَجْهُ ربِّك -يا محمَّدُ- ذو العَظَمةِ والإكرامِ، المُستحِقُّ للتَّعظيمِ والمحبةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٨)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤١٧) و(٥/ ١٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٦، ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٥).

فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

وأنَّه تعالى يَسألُه مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ لقَضاءِ حاجاتِهم، وأنَّه سُبحانَه كُلَّ يومٍ هو في شَأنٍ؛ يُفَرِّجُ كَربًا، ويَغفِرُ ذنْبًا، ويُجيبُ دُعاءً، ويَشفِي مَريضًا، ويُغْني فَقيرًا، ويُحيي خَلْقًا ويُميتُ آخَرِينَ، ويُعِزُّ قَومًا ويُذِلُّ آخَرِينَ -سُبحانَه وبِحَمْدِه! فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ أن ذَكَر الله تعالى النِّعَمَ الَّتي أنعَمَ بها على عِبادِه في البَرِّ والبَحرِ، في السَّماءِ والأرضِ؛ رَدِفَ ذلك بيانُ أنَّ هذه النِّعَمَ تَفنى ولا تَبقى[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤] مُؤْذِنًا بنِعمةِ إيجادِ أسبابِ النَّجاةِ مِن الهَلاكِ، وأسبابِ السَّعيِ لتَحصيلِ ما به إقامةُ العَيشِ؛ إذ يسَّرَ للنَّاسِ السُّفنَ عَونًا لهم على الأسْفارِ، وقَضاءِ الأوطارِ، مع السَّلامةِ مِن طُغيانِ ماءِ البِحارِ، وكان وَصْفُ السُّفنِ بأنَّها كالأعلامِ تَوسعةً في هذه النِّعمةِ؛ أتْبَعَه بالموعظةِ بأنَّ هذا لا يَحولُ بيْن النَّاسِ وبيْن ما قدَّره اللهُ لهم مِن الفَناءِ، على عادةِ القرآنِ في انتهازِ الفُرَصِ للموعظةِ والتَّذكيرِ[(٢)].

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: كلُّ مَنْ على الأرضِ مِن إنسٍ أو جِنٍّ أو غَيرِهما: هالِكٌ لا يَبقى[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢١)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف: ٧، ٨].

﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

أي: ويَبقَى وَجهُ ربِّك -يا محمَّدُ- الموصوفُ وَجهُه بالعَظَمةِ والإكرامِ، واستِحقاقِ التَّعظيمِ والمحبَّةِ، وإثباتِ صِفاتِ الكَمالِ والجَمالِ، فالله عزَّ وجلَّ هو الحيُّ الَّذي لا يموتُ أبدًا(١).

= عطية)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١١).

قال السمينُ الحلبي: (غَلَّبَ -بقَولِه ﴿مَنْ عَلَيْهَا﴾- مَن يَعقِلُ على غَيرِه، وجَميعُهم مرادٌ. والضَّميرُ في ﴿عَلَيْهَا﴾ للأرضِ. قال بَعضُهم: وإنْ لم يَجْرِ لها ذِكرٌ... وقد رُدَّ على هذا القائِلِ، وقالوا: بل تقَدَّمَ ذِكرُها في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾ [الرحمن: ١٠]). ((الدر المصون)) (١٠/ ١٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٢٠-٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤).

قال ابنُ عثيمين: (أي: يبقَى اللهُ عزَّ وجَلَّ ذو الوَجهِ الكَريمِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣١١).

وقال ابن تيميَّة: (والإجلالُ مِن جِنسِ التَّعظيمِ، والإكرامُ مِن جِنسِ الحُبِّ والحَمدِ،... فله الإجلالُ والمُلْكُ، وله الإكرامُ والحَمدُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣٢٠).

وقال أيضًا: (وقولُه: ﴿ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ: قيل: أهلٌ أنْ يُجَلَّ وأنْ يُكرَمَ. كما يُقالُ: إنَّه أَهْلُ التَّقْوَى، أي: المستحِقُّ لأنْ يُتَقَّى. وقيل: أهلٌ أنْ يجلَّ في نفسِه، وأنْ يُكْرِمَ أهلَ ولايتِه وطاعتِه. وقيل: أهلٌ أنْ يجلَّ في نفسِه، وأهلٌ أنْ يُكرَمَ...

قلت: القولُ الأوَّلُ هو أقربُها إلى المرادِ معَ أنَّ الجلالَ هنا ليسَ مصدرَ جلَّ جلالًا، بل هو اسمُ =

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المَوتُ نفْسُه فيه نِعَمٌ لا تُنكَرُ، وكان مَوتُ ناسٍ نعمةً على ناسٍ -معَ ما ختَم به الآيةَ مِن وصفِه بالإنعامِ-؛ قال[1]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[2]؟!

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أفضَى الإخبارُ إلى حاجةِ النَّاسِ إليه تعالى، أتْبَعَ بأنَّ الاحتِياجَ عامٌّ في أهلِ الأرضِ وأهلِ السَّماءِ؛ فالجَميعُ يَسألونَه[3].

= مصدرِ أجلَّ إجلالًا... وإذا كان مستحقًّا للإجلالِ والإكرامِ، لزِم أنْ يكونَ متَّصِفًا في نفسِه بما يُوجِبُ ذلك). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣١٧). ويُنظر: ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٩١).

وقال السعدي: (﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: ذو العظمةِ والكبرياءِ والمجدِ، الذي يعظَّمُ ويبجَّلُ ويجَلُّ لأجلِه، والإكرامُ الذي هو سَعةُ الفضلِ والجودِ، والداعي لأنْ يكرمَ أولياءَه وخواصَّ خلقِه بأنواعِ الإكرامِ، الذي يكرمُه أولياؤه ويُجِلُّونَه، [ويُعظِّمونَه] ويُحبُّونَه، ويُنيبونَ إليه ويَعبدونَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠).

وذكَر ابنُ عاشور أنَّ قولَه: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفيه تعظيمٌ لقَدرِه، وأنَّه يجوزُ أن يكونَ خِطابًا لغَيرِ مُعَيَّنٍ؛ ليَعُمَّ كُلَّ مُخاطَبٍ. ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤).

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: إلى اللهِ يَفزَعُ جَميعُ مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ بسُؤالِ حاجاتِهم؛ فلا يَستَغني الخَلائِقُ عن دُعاءِ رَبِّهم(١).

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾.

أي: كُلَّ يَومٍ يُحدِثُ اللهُ تعالى شأنًا عَظيمًا؛ كأنْ يُحيِيَ خَلْقًا ويُميتَ آخَرينَ، أو يُفَرِّجَ كَربًا، أو يَغفِرَ ذنْبًا، أو يُجيبَ دُعاءً، أو يَشفِيَ مَريضًا، أو يُغنيَ فَقيرًا، أو يُعلِّمَ جاهِلًا، أو يَهدِيَ ضالًّا، أو يُعِزَّ قَومًا، ويُذِلَّ آخَرينَ(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٣).

قال ابن كثير: (هذا إخبارٌ عن غِناه عمَّا سِواه، وافتِقارِ الخلائقِ إليه في جميعِ الآناتِ، وأنَّهم يَسألونه بلِسانِ حالِهم وقالِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٧)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٦٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٤٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٢٣، ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤-٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٤).

قال الواحدي: (قال المفَسِّرون: مِن شأنِه أنَّه يُحيي ويُميتُ، ويَرزُقُ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويَشفي مريضًا، ويُجيبُ داعيًا، ويُعطي سائِلًا، ويَغفِرُ ذنْبًا، ويَكشِفُ كَربًا، إلى ما لا يُحصى من أفعالِه، وإحداثِه في خَلْقِه ما يشاءُ!). ((الوسيط)) (٤/ ٢٢١).

وقال السعدي: (وهذه الشؤونُ الَّتي أخبَر أنَّه تعالى كلَّ يومٍ هو في شأنٍ، هي تقاديرُه وتدابيرُه الَّتي قدَّرها في الأزلِ وقضاها، لا يزالُ تعالى يُمضيها ويُنفذُها في أوقاتِها الَّتي اقتضَتْه حكمتُه، =

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[١]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الحَثُّ على العِبادةِ، وصَرفِ الزَّمانِ اليَسيرِ إلى الطَّاعةِ[٢]، والاستِعدادِ للحياةِ الباقيةِ بِفعلِ الصَّالحاتِ، والتَّفكُّرِ في عظيمِ قُدرةِ الله تعالَى، والإقبالِ على توحيدِه، وطَلَبِ مرضاتِه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ المَنعُ مِن الوُثوقِ بما يكونُ للمَرءِ، فلا يقولُ إذا كان في نِعمةٍ: إنَّها لن تَذهَبَ؛ فيَترُكَ الرُّجوعَ إلى اللهِ تعالى مُعتَمِدًا على مالِه ومُلْكِه[٤]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الأمرُ بالصَّبرِ إن كان في ضُرٍّ -فلا يَكفُرُ باللهِ- مُعتَمِدًا على أنَّ الأمرَ ذاهِبٌ، والضُّرَّ زائِلٌ[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ تَركُ اتِّخاذِ الغَيرِ مَعبودًا، والزَّجرُ عن

= وهي أحكامُه الدِّينيَّةُ الَّتي هي الأمرُ والنَّهيُ، والقَدَريَّةُ الَّتي يُجريها على عبادِه مدَّةَ مقامِهم في هذه الدَّارِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠).

وقال سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ: (الدَّهرُ كلُّه عندَ الله سبحانه يَومانِ: أحدُهما مدَّةُ أيَّامِ الدُّنيا، والآخَرُ يومُ القيامةِ، والشَّأنُ الَّذي هو فيه اليَومَ الَّذي هو مدَّةُ الدُّنيا: الاختبارُ بالأمرِ والنَّهيِ، والإحياءِ والإماتةِ، والإعطاءِ والمنعِ، وشأنُ يومِ القيامةِ: الجزاءُ والحسابُ، والثَّوابُ والعِقابُ). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الاغتِرارِ بالقُربِ مِنَ المُلوكِ، وتَركِ التَّقَرُّبِ إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّ أمْرَهم إلى الزَّوالِ قَريبٌ، فيبقى القَريبُ منهم -عن قَريبٍ- في نَدَمٍ عَظيمٍ؛ لأنَّه إن مات قَبْلَهم يَلقى اللهَ كالعَبدِ الآبِقِ، وإنْ مات المَلِكُ قبْلَه فيَبقى بيْنَ الخَلقِ وكُلُّ أحَدٍ يَنتَقِمُ منه، ويتشَفَّى فيه، ويَستحِي مِمَّن كان يتكَبَّرُ عليه، وإن ماتا جميعًا فلِقاءُ اللهِ عليه -بعدَ التَّوَفِّي- في غايةِ الصُّعوبةِ[١]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ حُسنُ التَّوحيدِ، وتَركِ الشِّركِ الظَّاهِرِ والخَفيِّ جميعًا؛ لأنَّ الفانيَ لا يَصلُحُ لِأنْ يُعبَدَ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ لم يَقُلْ: «فيها»؛ لأنَّه عندَ الفَناءِ ليس الحالُ حالَ القَرارِ والتَّمكينِ[٣]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أنَّ الدُّنيا إنَّما خُلِقَتْ للفَناءِ؛ ما خُلِقَ النَّاسُ للبَقاءِ في الدُّنيا[٤]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ قال الشَّعبيُّ: (إذا قرأتَ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فلا تَسْكُتْ حتَّى تَقْرَأَ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾). وهذا مِن فِقْهِه في القُرآنِ، وكَمالِ عِلْمِه؛ إذِ المقصودُ: الإخبارُ بفَناءِ مَن عليها مع بَقاءِ وَجْهِه سُبحانَه؛ فإنَّ الآيةَ سِيقَتْ لِتَمْدَحَه بالبَقاءِ وَحْدَه، ومُجَرَّدُ فَناءِ الخَليقةِ ليس فيه مَدْحُه، إنَّما المدحُ في بَقائِه بعدَ فَناءِ خَلْقِه؛ فهي نظيرُ قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٢٧).

إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[١] [القصص: ٨٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أفرَدَ كلمةَ ﴿فَانٍ﴾؛ لأنَّهم لم يَجتَمِعوا في الفَناءِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ سؤالٌ: أنَّ «مَنْ» للعُقَلاءِ، وكُلُّ ما على وَجهِ الأرضِ مع الأرضِ فانٍ، فما فائِدةُ الاختِصاصِ بالعُقَلاءِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ المُنتَفِعَ بالتَّخويفِ هو العاقِلُ؛ فخَصَّه تعالى بالذِّكْرِ[٣].

الثَّاني: أنَّ الآيةَ دلَّتْ بفَناءِ العاقِلِ على فَناءِ غَيرِ العاقِلِ بطَريقِ الأَولى[٤].

الثَّالثُ: أنَّه ذكَره بلفظةِ ﴿مَنْ﴾ تغليبًا للعقلاءِ[٥].

٦- اللهُ سُبحانَه وتعالى حيٌّ باقٍ يَرِثُ ولا يُورَثُ، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ...﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٦] [آل عمران: ١٨٠].

٧- لَمَّا كان الوَجهُ أشرَفَ ما في الوُجودِ، وكان يُعَبَّرُ به عمَّا أُريدَ به صاحِبُ الوَجهِ -مع أنَّه لا يُتصَوَّرُ بَقاءُ الوَجهِ بدُونِ صاحِبِه؛ فكان التَّعبيرُ به عن حقيقةِ ذلك الشَّيءِ أعظَمَ وأدَلَّ على الكَمالِ؛ قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[٧].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٧).

(٦) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ١٥٢).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦٥، ١٦٦).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ بكافِ الخِطابِ: إشارةٌ إلى اللُّطفِ، والإبقاءُ إشارةٌ إلى القَهرِ، والمَوضِعُ مَوضِعُ بَيانِ اللُّطفِ وتَعديدِ النِّعَمِ؛ فلهذا قال بلَفظِ الرَّبِّ وكافِ الخِطابِ، ولم يقُل: (ويبقى وجهُ الرَّبِّ)[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أنَّ «الوَجهَ» صِفةٌ مِن صِفاتِ اللهِ العَلِيِّ، وَصَف بها نَفْسَه؛ فعَلَينا أن نُصَدِّقَ رَبَّنا، ونُؤمِنَ بما وَصَف به نفْسَه، مع التَّنزيهِ التَّامِّ عن مُشابَهةِ صِفاتِ الخَلقِ[٢]، فهو وجهٌ لا يُشْبِهُ أوجُهَ المخلوقينَ؛ لقولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][٣]. وقد أثنى سُبحانَه على هذه الصِّفةِ ثَناءً خاصًّا لم يُثْنِ به على صِفةٍ غَيرِها؛ حيثُ قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وفي قَولِه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] يَرِدُ إشكالٌ؛ فجاء في الآيةِ الأُولى «ذو»، وفي الآيةِ الثَّانيةِ «ذي»!

الجوابُ: ذلك لأنَّ «ذو» في الآيةِ الأُولى صِفةٌ للوجهِ الَّذي هو فاعلُ الفعلِ «يَبْقَى»، قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، وأمَّا «ذي» في الآيةِ الثَّانيةِ فهي صفةٌ للرَّبِّ تعالى، وليست صفةً للاسمِ؛ لأنَّ الاسمَ لا يُوصَفُ! فهو صفةٌ للذَّاتِ، وليس صفةً للاسمِ، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، فقال: ﴿رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾، وهذا يعني أنَّه لا يَصِحُّ أنْ يُوصفَ الاسمُ بأنه ذو جلالٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣١٥).

وإكرامٍ! بخلافِ الوجهِ[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فائدةٌ: أنَّه دَخَل في ﴿ٱلْجَلَٰلِ﴾ جميعُ الصِّفاتِ الرَّاجِعةِ إلى التَّنزيهِ عن النَّقصِ، وفي (الْإِكْرَامِ) جميعُ صِفاتِ الكَمالِ الوُجوديَّةِ، وصِفاتِ الجَمالِ كالإحسانِ[٢].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فيه أنَّ حَمْلَ «وجْهِ اللهِ» على «ثوابِ اللهِ» باطلٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ الوجهَ بالجَلالِ والإكرامِ، فقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، و«ذو» صِفةُ الوَجهِ، ومَعلومٌ أنَّ الثَّوابَ لا يُوصَفُ بأنَّه ذو الجَلالِ والإكرامِ[٣]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سُؤالٌ: أيُّ نِعمةٍ في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ حتَّى تُعَدَّ مِن نِعَمِ الدُّنيا؟!

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ فيه التَّسويةَ بيْنَ الصَّغيرِ والكبيرِ، والأميرِ والمأمورِ، والمالِكِ والمملوكِ، والظَّالِمِ والمظلومِ في الفَناءِ المؤدِّي إلى دارِ البَقاءِ، ومُجازاةِ المحسِنِ والمسيءِ بحَقِّه مِن الجزاءِ؛ فالمظلومُ يأخُذُ حَقَّه، والظَّالمُ يَفزَعُ فيَترُكُ الظُّلمَ له، وسَبَبُ الفَناءِ يَعلَمُه الإنسانُ باضطرارٍ؛ فلا نِعْمةَ إذَن أكبَرُ مِن هذه[٤].

الثَّاني: أنَّ الموتَ سَبَبُ النَّقلِ إلى دارِ الجَزاءِ والثَّوابِ[٥]، فهو نِعمةٌ لأولياءِ

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (ص: ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٢٤).

اللهِ؛ حيثُ أفضَى بهم إلى السَّعادةِ الأبَديَّةِ، والنِّعمةِ العُظمَى[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سُؤالٌ: كيف قال: ﴿رَبِّكُمَا﴾ خِطابًا مع الاثنَينِ، وقال: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ خِطابًا مع الواحِدِ؟!

الجَوابُ: عندَ قَولِه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ وَقَعت الإشارةُ إلى فَناءِ كُلِّ أحَدٍ، وبَقاءِ اللهِ تعالى ذي الوجهِ الكريمِ، فقال: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: يا أيُّها السَّامِعُ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فلا تلتَفِتْ إلى أحَدٍ غَيرِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ كُلَّ مَن عَداه فانٍ[٢]. وقيل: قَولُه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ اقتَضَى تَعميمَ الخِطابِ لكلِّ مَن يَصلُحُ للخِطابِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لعِظَمِ الأمْرِ وفَخامتِه، ويَندرِجُ فيه الثَّقلانِ أوَّليًّا، ولا كذلك الثَّاني؛ فترَكَه على ظاهِرِه[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ دَلالةٌ على التَّقديرِ اليَوميِّ -كما ذَكَرَه بعضُ أهلِ العِلمِ-؛ فهو سُبحانَه كلَّ يومٍ يُغْني فَقيرًا، ويُفقِرُ غَنيًّا، ويُوجِدُ مَعدومًا، ويُعْدِمُ موجودًا، ويَبسُطُ الرِّزقَ ويَقْدِرُه، ويُنشِئُ السَّحابَ والمطَرَ، وغيرَ ذلك[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ أنَّ العِبادَ كلَّهم مُضطَرُّونَ إلى دُعاءِ الرَّبِّ سُبحانَه، وسُؤالِه وقَصْدِه، والافتِقارِ إليه[٥].

١٧- قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَسألُه أولياؤُه وأعداؤُه، ويُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء، وأبغَضُ خَلْقِه عَدُوُّه إبليسُ، ومع هذا فقد سأله حاجةً فأعطاه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٤٠٥).

(٥) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٠٦).

إيَّاها، ومَتَّعَه بها، ولِيُعلَمَ أنَّ إجابةَ اللهِ لسائِليه ليست لكرامةِ السَّائِلِ عليه، بل يَسألُه عَبدُه الحاجةَ فيَقضِيها له وفيها هَلاكُه وشِقْوتُه، ويكونُ قَضاؤه له مِن هَوانِه عليه، وسُقوطِه مِن عَينِه، ويكونُ مَنْعُه منها لكرامتِه عليه، ومحبَّتِه له، فيَمنَعُه؛ حمايةً وصِيانةً وحِفظًا، لا بُخلًا، وهذا إنَّما يَفعَلُه بعَبدِه الَّذي يُريدُ كرامتَه ومَحبَّتَه، ويُعامِلُه بلُطْفِه، فيَظُنُّ بجَهْلِه أنَّ اللهَ لا يُحِبُّه ولا يُكرِمُه، ويَراه يقضي حوائِجَ غَيرِه، فيُسيءُ ظَنَّه برَبِّه[1]!

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ ثُبوتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للرَّبِّ سُبحانَه، وقيامُها به[2].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ سؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ معَ كونِ القَلَمِ جَفَّ بما هو كائِنٌ إلى يومِ القيامةِ!

الجوابُ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ أنَّها شُؤونٌ يُبدِيها ولا يَبتدِيها[3]، وقال الحسينُ بنُ الفضلِ: (هو سَوْقُ المَقاديرِ إلى المَواقيتِ)[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ وُقوعُ هذه الجُملةِ عقِبَ ما عُدِّدَ مِن النِّعَمِ فيه إيماءٌ إلى أنَّ مَصيرَ نِعَمِ الدُّنيا إلى الفناءِ، وهذا

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٠٠).
(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٥٤).

تَذكيرٌ بالموتِ وما بعْدَه مِن الجزاءِ، والجُملةُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ[١].

- وتَفريعُ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إنَّما هو تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ مِن أنَّه يَتضمَّنُ مُعامَلةَ خلْقِه مُعاملةَ العظيمِ الَّذي لا تَصدُرُ عنه السَّفاسِفُ، الكريمِ الَّذي لا يَقطَعُ إنعامَه، وذلك مِن الآلاءِ العظيمةِ[٢].

- وفي مَجموعِ قولِه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ نِعمةٌ عَظيمةٌ؛ فإنَّه تعالَى رتَّبَ بالفاءِ في قولِه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ على تِلك الآيةِ؛ تأنيبًا وتَوبيخًا على كُفرانِهم هذه النِّعمةَ السَّنِيَّةَ؛ فالمرادُ مِن الآيةِ مَلزومُ معْناها؛ لأنَّها كِنايةٌ عن مَجيءِ وقتِ الجَزاءِ، وهو مِن أجَلِّ النِّعَمِ؛ ولذلك خَصَّ الوَصفَينِ بالذِّكرِ -يعني: الجلالَ والإكرامَ-؛ لأنَّهما يدُلَّانِ على الإثابةِ والعِقابِ؛ ففي وصْفِه تعالَى بذلكَ بعْدَ ذِكرِ فَناءِ الخلْقِ وبَقائِه تعالى إيذانٌ يُفيضُ عليهم بعْدَ فَنائِهم أيضًا آثارَ لُطْفِه وكرَمِه حسبَما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؛ فإنَّ إحياءَهم بالحَياةِ الأبديَّةِ وإثابتَهم بالنَّعيمِ المُقيمِ أجَلُّ النَّعماءِ، وأعظَمُ الآلاءِ[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالافتِنانِ[٤]؛ فقدْ جمَعَ سُبحانه بيْنَ التَّعزيةِ والفخْرِ؛ إذ عزَّى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٠).

(٤) الافتنانُ: هو أنْ يَفْتَنَّ المتكلِّمُ، فيَأتيَ في كَلامِه بفَنَّينِ مِن فُنونِ الكَلامِ وأغراضِه؛ إمَّا مُتضادَّينِ، أو مُختلِفَينِ، أو مُتَّفقَينِ، والافتِنانُ في ضروبِ الفَصاحةِ أعلَى مِن الاسْتِمرارِ على ضَرْبٍ واحدٍ؛ =

جَميعَ المخلوقاتِ، وتمدَّحَ بالانفرادِ بالبَقاءِ بعْدَ فَناءِ الموجوداتِ، معَ وصفِ وجهِه الكريمِ بأنَّه ذو الجلالِ والإكرامِ[(١)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ استِئنافٌ، والمعْنى أنَّ النَّاسَ تَنقرِضُ منهم أجيالٌ، وتَبْقى أجيالٌ، وكلُّ باقٍ مُحتاجٌ إلى أسبابِ بَقائِه، وصَلاحِ أحوالِه؛ فهُمْ في حاجةٍ إلى الَّذي لا يَفْنَى وهو غيرُ مُحتاجٍ إليهم، ولَمَّا أفْضى الإخبارُ إلى حاجةِ النَّاسِ إليه تعالى، أُتْبِعَ بأنَّ الاحتياجَ عامٌّ في أهلِ الأرضِ وأهلِ السَّماءِ، فالجميعُ يَسألونَه؛ فسُؤالُ أهلِ السَّمواتِ -وهم الملائكةُ- يُسبِّحون بحمْدِ ربِّهم ويَستغفِرون لِمَن في الأرضِ، ويَسألون رِضا اللهِ تعالى، ومَن في الأرضِ -وهم البشرُ- يَسألونَه نِعَمَ الحياةِ، والنَّجاةَ في الآخِرةِ، ورفْعَ الدَّرَجاتِ في الآخرةِ[(٢)].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ﴾؛ لإفادةِ التَّعميمِ، أي: يَسألونه حَوائجَهم ومَهامَّهم[(٣)].

- قولُه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ حالًا مِن ضَميرِ النَّصبِ في ﴿يَسْـَٔلُهُۥ﴾، أو تَذييلًا لجُملةِ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: كلَّ يومٍ

= ولهذا ورَد بعضُ آيِ القُرآنِ مُتماثِلَ المقاطعِ، وبعضُها غيرَ متماثلٍ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٨٨)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ١٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤، ١٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٠٥).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هو في شأْنٍ مِن الشُّؤونِ للسَّائلينَ وغيرِهم؛ فهو تعالى يُبرِمُ شُؤونًا مُختلِفةً مِن أحوالِ الموجوداتِ دَوامًا، ويكونَ ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ ظَرْفًا مُتعلِّقًا بالاستِقرارِ في قولِه: ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، وقُدِّمَ على ما فيه مُتعلَّقُه؛ للاهتِمامِ بإفادةِ تَكرُّرِ ذلك ودَوامِه، والمعْنى: في شأْنٍ مِن شُؤونِ مَن في السَّمواتِ والأرضِ؛ مِن استِجابةِ سُؤْلٍ، ومِن زِيادةٍ، ومِن حِرمانٍ، ومِن تأخيرِ الاستِجابةِ، ومِن تَعويضٍ عن المسؤولِ بثَوابٍ، كما ورَدَ في أحاديثِ الدُّعاءِ[1] أنَّ استجابتَه تكونُ مُختلِفةً. ومعْنى (في) على هذا التَّفسيرِ: تَقويةُ ثُبوتِ الشُّؤونِ للهِ تعالى، وهي شُؤونُ تَصرُّفِه، ومَظاهرُ قُدْرتِه[2].

---

(١) منها: حديثُ أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((ما مِن مُسلم يدْعو بدَعوةٍ ليسَ فيها إثمٌ، ولا قطيعةُ رحِمٍ، إلَّا أعطاهُ الله بها إحْدَى ثَلاثٍ: إمَّا أنْ تُعجَّلَ له دعوتُه، وإمَّا أنْ يَدَّخِرَها له في الآخِرةِ، وإمَّا أنْ يَصرِفَ عنه مِن السُّوءِ مِثلَها. قالوا: إذَنْ نُكثِرُ! قال: اللهُ أكثرُ)).

أخرجه أحمد (١١١٣٣) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ في ((المعجم الأوسط)) (٤٣٦٨)، والحاكمُ (١٨١٦).

ذكر ثبوتَه الشوكانيُّ في ((فتح القدير)) (١/ ٢٧٤)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢٦/ ١٢٢)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الأدب المفرد)) (٥٤٧)، وجوَّد إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٧/ ٢١٤).

ومنها: حديثُ عُبادةَ بنِ الصَّامتِ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما على الأرضِ مُسلِمٌ يدْعو اللهَ بدَعوةٍ إلَّا آتاهُ اللهُ إيَّاها، أو صَرَف عنه مِن السُّوءِ مِثلَها، ما لم يَدْعُ بإثمٍ، أو قَطيعةِ رَحِمٍ. فقال رجُلٌ مِن القَومِ: إذَنْ نُكثِرُ! قال: اللهُ أكثرُ)).

أخرجه الترمذي (٣٥٧٣) واللَّفظُ له، وعبدُ الله بنُ أحمدَ في ((زوائد المسند)) (٢٢٧٨٥) مختصرًا.

صحَّحه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٩٨)، وابنُ باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (١٠/ ١٣٧)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٧٣): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٧/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤، ٢٥٥).

- والظَّرفيَّةُ المُستعمَلةُ فيها حرْفُ (في) تُفِيدُ شِدَّةَ التَّلبُّسِ والتَّعلُّقِ بتَصرُّفاتِ اللهِ تعالى بمَنزِلةِ إحاطةِ الظَّرفِ بالمظروفِ، أو بأسئلةِ المخلوقاتِ الَّذين في السَّماءِ والأرضِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٥، ٢٥٦).

الآيات (٢١-٢٦)

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَنَفْرُغُ﴾: أي: سنَقصِدُ لكم بعدَ طُولِ التَّركِ والإمهالِ، والفَراغُ في اللُّغةِ على ضَربَينِ: أحَدُهما: الفَراغُ مِنَ الشُّغلِ، والآخَرُ: القَصدُ للشَّيءِ، تقولُ: سأتفَرَّغُ لفُلانٍ، أي: سأجعَلُ قَصْدي إليه[1].

﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾: أي: الإنسُ والجِنُّ؛ سُمِّيا بذلك قيل: لأنَّهما مُثقلانِ بالتَّكليفِ. وقيل: لعِظَمِ شَأنِهما بالإضافةِ إلى ما في الأرضِ مِن غَيرِهما. وقيل: لأنَّهما مُثقَلانِ بالذُّنوبِ[2].

﴿تَنفُذُوا۟﴾: أي: تَجوزوا وتَخرجوا، يُقالُ: نفَذَ الشَّيءُ مِن الشَّيءِ إذا خلَص منه، ونفَذ السَّهمُ في الرَّمِيَّةِ نُفوذًا ونَفاذًا، إذا خرَقَ إلى الجهةِ الأخرى، وأصلُ (نفذ): يدُلُّ على مَضاءٍ في أمرٍ وغيرِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٦).

﴿أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي: جَوانِبِها ونَواحيها[١].

﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾: أي: بمُلْكٍ وقُوَّةٍ، والسُّلطانُ: القُوَّةُ الَّتي يُتسَلَّطُ بها على الأمرِ، فالمُلْكُ والقُدرةُ والحُجَّةُ: كُلُّها سُلطانٌ[٢].

﴿شُوَاظٌ﴾: أي: لَهَبٌ بِلَا دُخَانٍ[٣].

﴿وَنُحَاسٌ﴾: أي: دُخَانٌ، أو: دُخَانٌ فيه شَرَرٌ مُتطايِرٌ، وقِطْرٌ مُذابٌ، وقيل: هو الدُّخانُ الذي لا لهبَ فيه[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مهدِّدًا الَّذين يخالِفونَ أمْرَه: سنَقصِدُ لمُحاسَبتِكم يومَ القيامةِ -يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ- ونُجازيكم بحَسَبِ أعمالِكم؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن عَجْزِهم وضَعفِهم، وكمالِ سلطانِه، ونفوذِ مشيئتِه وقدرتِه، فيقول: يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ إنِ استَطَعْتُم أن تَخرجُوا هَرَبًا مِن جَوانِبِ السَّمَواتِ والأرضِ ونواحيها، فافعَلوا، لا تستطيعونَ النُّفوذَ مِن جوانبِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨)، ((الكليات)) (ص: ٥٤١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٣).

السَّمَواتِ والأرضِ إلَّا بقُوَّةٍ وقَهرٍ وغَلَبةٍ، وأنَّى لكم ذلك؟! فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يذكرُ ما أعدَّ لهم، فيقولُ: يُرسَلُ عليكما لَهَبٌ عَظيمٌ مِن نارٍ لا دُخانَ معها، ويُرسَلُ عليكما دُخانٌ فيه شَرَرٌ مُتطايِرٌ، وقِطرٌ مُذابٌ، فلا تَنتَصِرانِ مِن عَذابِه؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى ما أنعَمَ به مِن تَعليمِ العِلمِ، وخَلْقِ الإنسانِ والسَّماءِ والأرضِ، وما أودَعَ فيهما، وفَناءَ ما على الأرضِ- ذَكَر ما يَتعَلَّقُ بأحوالِ الآخِرةِ والجَزاءِ، فقال تعالى[1]:

﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١﴾.

أي: سنَقصِدُ لمُحاسَبتِكم يومَ القيامةِ -يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ- ونُجازيكم ثوابًا أو عِقابًا بحَسَبِ أعمالِكم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٥).

قال الواحدي: (المفسِّرونَ على أنَّ هذا تهديدٌ منه لعِبادِه). ((الوسيط)) (٤/ ٢٢٢).

وقال البغوي: (ليسَ المرادُ منه الفراغَ عن شُغْلٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى لا يَشغلُه شأْنٌ عن شأنٍ، ولكنَّه وَعيدٌ مِن اللهِ تعالَى [للخَلْقِ] بالمحاسَبةِ، كقولِ القائلِ: لَأتفرَّغَنَّ لك، وما به شُغْلٌ، وهذا قولُ ابنُ عبَّاسٍ والضَّحَّاكِ، وإنَّما حَسُنَ هذا الفراغُ لسَبْقِ ذِكْرِ الشَّأْنِ. وقال آخَرونَ: معناه سنَقْصِدُكم بعدَ التَّرْكِ والإمهالِ ونأخُذُ في أمْرِكم، كقولِ القائلِ للَّذي لا شُغْلَ له: قد تفرَّغْتُ لك. وقال =

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما تقدَّم مِن أجَلِّ النِّعَمِ الَّتي يَدورُ عليها العِبادُ، ويَصلُحُ بها البِلادُ، وتقومُ بها السَّمَواتُ والأرضُ؛ لأنَّ مُطلَقَ التَّهديدِ يَحصُلُ به انزِجارُ النَّفْسِ عَمَّا لها مِنَ الانتِشارِ فيما يَضُرُّ ولا يَنفَعُ؛ فكيف بالتَّهديدِ بيَومِ الفَصلِ- قال تعالى[1]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[2]؟!

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بانَ أنَّ اللهَ تعالى لا يَشغَلُه شَأنٌ عن شأنٍ، كأنَّ قائِلًا قال: فلِمَ أخَّرَ عَذابَهم؟ فأُجيبَ بأنَّ الجَميعَ في قَبضتِه، وأنَّ الَّذي يَستَعجِلُ إنَّما يَخافُ الفَوتَ، والجَميعُ

= بعضُهم: إنَّ اللهَ وَعَد أهلَ التَّقوى وأَوْعدَ أهلَ الفجورِ، ثُمَّ قال: سنَفرُغُ لكم مِمَّا وعَدْناكم وأخبَرْناكم، فنُحاسِبُكم ونُجازيكم، ونُنجِزُ لكم ما وعَدْناكم، فنُتِمُّ ذلك ونَفرُغُ منه، وإلى هذا ذَهَب الحسَنُ ومقاتلٌ). ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٦). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٩).

وقال الواحدي: (وقولُه: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ يريدُ الجنَّ والإنسَ في قولِ الجميعِ). ((البسيط)) (٢١/ ١٦٦).

وقال ابن كثير: (الثَّقلانِ: الإنسُ والجنُّ، كما جاء في الصَّحيحِ: «يَسمَعُها كلُّ شَيءٍ إلا الثَّقلَينِ» وفي روايةٍ: «إلَّا الجنَّ والإنسَ». وفي حديثِ الصُّورِ: «الثَّقلانِ: الإنسُ والجنُّ»). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٧).

في قَبضةِ اللهِ تعالى، فلا يَفوتُونَه[١].

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ ﴾.

أي: يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ إنِ استَطَعْتُم أن تَنفُذوا مِن جَوانِبِ السَّمَواتِ والأرضِ ونواحيها الواسِعةِ، فتَخرُجوا منها فِرارًا مِن رَبِّكم حتَّى لا يَقدِرَ عليكم- فافعَلوا[٢]!

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٧، ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦١)، ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٣، ٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٨، ٢٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٦).

قال الشنقيطي: (المَعْشَرُ في لغةِ العربِ: الجماعةُ، كُلُّ جماعةٍ تُسَمَّى مَعْشَرًا، ويُجمَعُ على: مَعاشِرَ. كان بعضُهم يقولُ: لأنَّ بعضَهم يُعاشِرُ بعضًا. وقد يُطْلَقُ المَعْشَرُ على الجماعةِ المتَّفِقينَ في نِحْلةٍ أو ناحيةٍ وإن لم يُعاشِرْ بعضُهم بعضًا). ((العذب النمير)) (٢/ ٢٢٩).

وقال السمعاني: (اختلَفوا أنَّ هذا القَولَ متى يكونُ؟ فالأكثَرونَ على أنَّه يومَ القيامةِ يَكونُ، ويُنزِلُ اللهُ تعالى الملائِكةَ حتَّى يَنفُذوا على أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ، فإذا رأى الجِنُّ والإنسُ أهوالَ القيامةِ هَرَبوا، فتَرُدُّهم الملائِكةُ... ويُقالُ: إنَّ المرادَ هو الهَربُ مِنَ الموتِ، يعني: إنِ استَطَعتُم أن تَنفُذوا مِن أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ هَرَبًا مِن الموتِ، فانفُذوا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣٠).

وممَّن قال بأنَّه يُقالُ لهم ذلك يَومَ القيامةِ: ابنُ القيِّم، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٣، ٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣١٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الهَربُ مِنَ الموتِ في الدُّنيا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٨).

﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾.

أي: ليسَت لكم -يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ- استِطاعةٌ على النُّفوذِ مِن أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ إلَّا بقُوَّةٍ وقَهرٍ وغَلَبةٍ، وليس لكم ذلك[1]!

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣١٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ قولَه: ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بقُوَّةٍ وقَهرٍ وغَلَبةٍ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٩).

واقتصَر ابنُ جُزَي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ على تفسيرِه بالقوَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٠).

قال ابن عطيَّة: (السُّلطانُ هنا القوَّةُ على غرضِ الإنسانِ، ولا يُستعمَلُ إلَّا في الأعظَمِ مِن الأمرِ والحُجَج أبدًا مِن القويِّ في الأمورِ، ولذلك يُعبِّرُ كثيرٌ مِن المفسِّرينَ عن السُّلطانِ بأنَّه الحُجَّةُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٠).

قال ابن الجوزي: (قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحَدُها: لا تَنفُذونَ إلَّا في سُلطانِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه مالِكُ كُلِّ شَيءٍ. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

والثَّاني: لا تَنفُذونَ إلَّا بحُجَّةٍ. قاله مجاهِدٌ.

والثَّالثُ: لا تَنفُذونَ إلَّا بمُلكٍ، وليس لكم مُلكٌ. قاله قَتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ الحُجَّةُ: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣٠).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: إلَّا بمُلْكي، وفي سُلْطاني، أي: حيثُما توجَّهْتُم كنتم في ملْكي وسلْطاني: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والبغويُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٤).

وقال الرَّسْعَني: (بقُدرةٍ تَتسَلَّطون بها على ما تُريدون، وأنَّى لكم ذلك وأنتم خَلْقي، وتحتَ سُلْطاني، وفي قبضتي؟!). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٦١). =

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[(١)]؟!

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾.

أي: يُرسَلُ عليكما -يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ- لَهَبٌ عَظيمٌ مُنتَشِرٌ مِن نارٍ لا دُخانَ معها، ويُرسَلُ عليكما دُخانٌ فيه شَرَرٌ مُتطايِرٌ، وقِطرٌ مُذابٌ[(٢)].

= وقال ابن عاشور: (السُّلْطانُ: القُدرةُ، أي: لا تَنفُذون مِن هذا المأزِقِ إلَّا بقُدرةٍ عظيمةٍ تَفوقُ قُدرةَ الله الَّذي حشَرَكم لهذا الموقفِ، وأنَّى لكم هاتِه القوَّةُ؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٩).

وقال السعدي: (إلَّا بقوَّةٍ وتسَلُّطٍ منكم، وكمالِ قُدرةٍ، وأنَّى لهم ذلك؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠).

وقال الواحدي: (معنى السُّلْطانِ: القوَّةُ الَّتي يُتسَلَّطُ بها على الأمرِ، ثمَّ المُلْكُ والقُدرةُ والحُجَّةُ كلُّها سُلْطانٌ، يدُلُّ على أنَّه واحدٌ). ((البسيط)) (٢١/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٤)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢١، ٢٢٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٠، ١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

قال القرطبي: (أي: لو خرَجْتُم أُرسِلَ عليكم شُواظٌ مِن نارٍ، وأخَذَكم العذابُ المانِعُ مِن النُّفوذِ. وقيل: ليس هذا متعَلِّقًا بالنُّفوذِ، بل أخبَرَ أنَّه يُعاقِبُ العُصاةَ عَذابًا بالنَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٠).

وقال ابن عاشور: (الشُّواظُ: اللَّهبُ الَّذي لا يُخالِطُه دُخَانٌ؛ لأنَّه قد كمَلَ اشتعالُه، وذلك أشدُّ إحراقًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٠).

قال ابن الجوزي: (في «النُّحَاسِ» قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه دُخانُ النَّارِ... والقَولُ الثَّاني: أنَّه الصُّفْرُ المُذابُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١١). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٧، ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ * كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٠ - ٣٣].

﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾.

أي: فلا يُمكِنُكما الانتِصارُ -يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ-، فلا تمتَنِعانِ مِن عَذابِه بأنفُسِكم، ولا بناصِرٍ مِن غَيرِكم[1]!

كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان تخويفُه سُبحانَه لعِبادِه نِعمةً مِنه عليهم، وسَوطًا يَسوقُهم به إلى أعلى المَطالِبِ، وأشرَفِ المواهِبِ- امتَنَّ عليهم، فقال[2]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[3]؟!

= وممَّن جمع بين المعنيَينِ للنُّحَاسِ: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٧٣).
قال البِقاعي: (أي: دُخانٌ هو في غايةِ الفَظاعةِ، فيه شَرَرٌ مُتطايِرٌ، وقِطرٌ مُذابٌ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ هذه الجُملةُ المقصودُ بها الوَعيدُ، كما يقولُ قائلٌ لِمَن يَتَوَعَّدُه: سأتفرَّغُ لك، وأُجازيك، وليس المعنى أنَّ اللهَ تعالى يَشغَلُه شأنٌ عن شأنٍ، ثمَّ يَفْرُغُ مِن هذا ويأتي إلى هذا! هو سُبحانَه يُدَبِّرُ كلَّ شيءٍ في آنٍ واحدٍ في مَشارقِ الأرضِ ومَغاربِها، وفي السَّمَواتِ وفي كُلِّ مكانٍ، يُدَبِّرُه في آنٍ واحدٍ ولا يُعجِزُه، فلا تتوهمَنَّ أنَّ قولَه: ﴿سَنَفْرُغُ﴾ أنَّه -تعالى- الآنَ مَشغولٌ وسَيَفرُغُ! بل هذه جُملةٌ وعيديَّةٌ تُعَبِّرُ بها العَرَبُ، والقُرآنُ الكريمُ نَزَلَ بلُغةِ العَرَبِ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ سؤالٌ عن سَبَبِ التَّثنيةِ بعدَ الجَمعِ.

الجَوابُ: لأنَّهما فَريقانِ، وكُلُّ فَريقٍ جَمعٌ، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ولم يقُلْ: «إنِ استَطعْتُما»؛ لأنَّهما فريقانِ في حالِ الجَمعِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥]، وقَولِه تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[(٢)] [الحج: ١٩].

٣- يدُلُّ ما تضَمَّنَتْه سورةُ (الرَّحمن) على أنَّ الجِنَّ مُكَلَّفونَ مُخاطَبونَ، مَأمورونَ مَنهيُّونَ، مُثابونَ مُعاقَبونَ، كالإنسِ سَواءً؛ مُؤمِنُهم كمُؤمِنِهم، وكافِرُهم ككافِرِهم؛ فإنَّه سُبحانَه وتعالى ذَكَرَ خَلْقَ النَّوعَينِ في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ * وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥]، ثمَّ خاطَبَ النَّوعَينِ بالخِطابِ المتضمِّنِ لاستِدعاءِ الإيمانِ منهم، وإنكارِ تَكذيبِهم بالآيةِ، وتَرغيبِهم في وَعْدِه، وتخويفِهم مِن وَعيدِه، وتهديدِهم؛ بقَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨٦).

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، وتخويفِهم مِن عواقِبِ ذنوبِهم، وأنَّه لِعِلْمِه بها لا يَحتاجُ أنْ يَسألَهم عنها سُؤالَ استِعلام، بل يُعْرَفُ المجرِمونَ منهم بسِيماهم فيُؤخَذُ بنواصيهم والأقدام، ثمَّ ذَكَر عِقابَ الصِّنفَينِ وثَوابَهم، وهذا كُلُّه تَصريحٌ في أنَّهم هم المُكَلَّفون، المأمورونَ المنهيُّون، المُثابون المُعاقَبون. ومِن الأدِلَّةِ على ذلك أيضًا قَولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ * وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٨، ١٩]، وقولُه سبحانَه: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا * يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١، ٢] إلى قولِه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا * وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾[1] [الجن: ١٤، ١٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: إعلانٌ لهم بأنَّهم في قَبضةِ اللهِ تعالى لا يَجِدونَ مَنجًى منها، وهو تَرويعٌ للضَّالِّينَ والمُضِلِّينَ مِنَ الجِنِّ والإنسِ بما يترَقَّبُهم مِنَ الجَزاءِ السَّيِّئِ؛ لأنَّ مِثلَ هذا لا يُقالُ لجَمعٍ مُختَلِطٍ إلَّا والمقصودُ أهلُ الجِنايةِ مِنهم[2]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ﴾ دَلالةٌ على أنَّ كُلَّ واحِدةٍ منها مُحيطةٌ بالأخرى؛ لأنَّ النُّفوذَ لا يكونُ حَقيقةً إلَّا مع الخَرْقِ[3].

٦- زَعَم بَعضُ مَن لا عِلْمَ عِندَه بكتابِ اللهِ تعالى أنَّ قَولَه جَلَّ وعلا: ﴿لَا

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧١).

تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ يُشيرُ إلى الوُصولِ إلى السَّماءِ، بدعوى أنَّ المرادَ بالسُّلطانِ في الآيةِ هو هذا العِلمُ الحادِثُ، الَّذي مِن نتائِجِه الصَّواريخُ والأقمارُ الصِّناعيَّةُ، وإذَنْ فإنَّ الآيةَ قد تكونُ فيها الدَّلالةُ على أنَّهم يَنفُذونَ بذلك العِلمِ مِن أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ! وهذا مردودٌ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ معنى الآيةِ الكريمةِ هو إعلامُ اللهِ جَلَّ وعلا خَلْقَه أنَّهم لا مَحيصَ لهم ولا مَفَرَّ عن قَضائِه، ونُفوذِ مَشيئتِه فيهم، وذلك عندَما تحُفُّ بهم صُفوفُ الملائِكةِ يومَ القيامةِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، فكُلَّما فَرُّوا إلى جِهةٍ وَجَدوا صُفوفَ الملائِكةِ أمامَهم، ويُقالُ لهم في ذلك الوَقتِ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ...﴾، والسُّلطانُ قيل: الحُجَّةُ والبَيِّنةُ، وقيل: المُلْكُ والسَّلْطَنةُ، وكُلُّ ذلك مَعدومٌ عندَهم يومَ القيامةِ؛ فلا نُفوذَ لهم.

الثَّاني: أنَّ الجِنَّ أعطاهم اللهُ القُدرةَ على الطَّيرانِ والنُّفوذِ في أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ، وكانوا يَستَرِقونَ السَّمْعَ مِنَ السَّماءِ، وإنَّما مُنِعوا من ذلك حينَ بُعِثَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فالجِنُّ كانوا قادِرينَ على بُلوغِ السَّماءِ مِن غَيرِ حاجةٍ إلى صاروخٍ ولا قَمَرٍ صِناعيٍّ! فلو كان معنى الآيةِ هو ما يَزعُمُه أولئك لم يَقُلْ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ﴾؛ لأنَّهم كانوا يَنفُذونَ إلى السَّماءِ قبْلَ حُدوثِ السُّلطانِ المزعومِ!

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ العِلمَ المذكورَ -الَّذي لا يُجاوِزُ صِناعةً يَدويَّةً- أهوَنُ على اللهِ جَلَّ وعلا مِن أن يُطلِقَ عليه اسمَ السُّلطانِ؛ لأنَّه لا يُجاوِزُ أغراضَ هذه الحياةِ الدُّنيا، ولا نَظَرَ فيه البتَّةَ لِما بعدَ الموتِ، وعِلمُ هؤلاءِ الكُفَّارِ نفى اللهُ عنه اسمَ العِلمِ الحَقيقيِّ، وأثبَتَ له أنَّه عِلمٌ ظاهِرٌ مِنَ الحياةِ الدُّنيا، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ * يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧]؛ فحِذْقُ الكُفَّارِ في الصِّناعاتِ اليَدويَّةِ كحِذقِ بَعضِ

الحَيواناتِ في صِناعتِها بإلهامِ اللهِ لها ذلك!

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّا لو سَلَّمْنا تسليمًا جَدَليًّا أنَّ ذلك المعنى المزعومَ كَذِبًا هو معنى الآيةِ، فإنَّ اللهَ تعالى أتْبَعَ ذلك بقَولِه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ الآيةَ، فهو يدُلُّ -على ذلك التَّقديرِ- على أنَّهم لو أرادوا النُّفوذَ في أقطارِها أحرَقَهم ذلك الشُّواظُ والنُّحاسُ[1]!

الوجهُ الخامسُ: أنَّ الآيةَ في سياقِ التَّحدِّي ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، ولا يمكنُ أنْ يَتَحَدَّى اللهُ عزَّ وجلَّ أحدًا بما يستطيعُ! التَّحدِّي معناه أنَّ المخاطَبَ لا يستطيعُ، وإذا كان أفضلُ رسولٍ في البشرِ وأفضلُ رسولٍ في الملائكةِ لم يَدْخُلا السَّماءَ الدُّنيا إلَّا باستفتاحٍ وإذْنٍ؛ فكيف بهؤلاء[2]؟!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سُؤالٌ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ لا يخفى ما يَسبقُ إلى الذِّهنِ مِن أنَّ إرسالَ شُواظِ النَّارِ والنُّحاسِ، وعَدَمَ الانتِصارِ؛ ليس في شَيءٍ منه إنعامٌ على الثَّقَلينِ، وقولُه لهم: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يُفهَمُ منه أنَّ إرسالَ الشُّواظِ والنُّحاسِ، وعَدَمَ الانتِصارِ: هو مِن آلاءِ اللهِ -أي: نِعَمِه على الجِنِّ والإنسِ!

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ تكريرَ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ للتَّوكيدِ، ولم يُكَرِّرْه مُتواليًا؛ لأنَّ تكريرَه بعدَ كُلِّ آيةٍ أحسَنُ مِن تكريرِه مُتواليًا، وإذا كان للتَّوكيدِ فلا إشكالَ؛ لأنَّ المذكورَ منه بعدَ ما ليس مِن الآلاءِ مُؤَكِّدٌ للمَذكورِ بعدَ ما هو مِنَ الآلاءِ.

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٦١، ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٤١).

الثَّاني: أنَّ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ذُكِرَتْ بعدَ ذِكرِ الإنذارِ والتَّخويفِ؛ ففيه أيضًا أعظَمُ نِعمةٍ على العَبدِ؛ لأنَّ إنذارَه في دارِ الدُّنيا مِن أهوالِ يومِ القيامةِ هو مِن أعظَمِ نِعَمِ اللهِ عليه؛ ألَا ترى أنَّه لو كان أمامَ إنسانٍ مُسافِرٍ مَهلَكةٌ كُبرى وهو مُشرِفٌ على الوُقوعِ فيها مِن غيرِ أن يَعلَمَ بها، فجاءه إنسانٌ فأخبَرَه بها وحَذَّره مِنَ الوُقوعِ فيها؛ أنَّ هذا يكونُ يدًا له عندَه، وإحسانًا يُجازيه عليه جزاءَ أكبَرِ الإنعامِ؟ وهذا الوَجهُ الأخيرُ هو مُقتضى الأُصولِ؛ لأنَّه قد تقَرَّرَ في عِلمِ الأُصولِ: أنَّ النَّصَّ إذا احتَمَل التَّوكيدَ والتَّأسيسَ فالأصلُ حَملُه على التَّأسيسِ لا على التَّوكيدِ؛ لأنَّ في التَّأسيسِ زِيادةَ مَعنًى ليست في التَّوكيدِ، وعلى هذا القَولِ فتكريرُ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إنَّما هو باعتِبارِ أنواعِ النِّعَمِ المذكورِ قَبْلَها؛ مِن إنعامٍ، أو مَوعِظةٍ، أو إنذارٍ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ تَخلُّصٌ مِن الاعتِبارِ بأحوالِ الحَياةِ العاجلةِ إلى التَّذكيرِ بأحوالِ الآخِرةِ والجزاءِ فيها؛ انتُقِلَ إليه بمُناسَبةِ اشتِمالِ ما سبَقَ مِن دَلائلِ سَعةِ قُدرةِ اللهِ تعالَى، على تَعريضٍ بأنَّ فاعلَ ذلك أهلٌ للتَّوحيدِ بالإلهيَّةِ، ومُستحِقٌّ الإفرادَ بالعِبادةِ، وإذ قد كان المُخاطَبون بذلك مُشرِكين مع اللهِ في العِبادةِ، انتُقِلَ إلى تَهديدِهم بأنَّهم وأولياءَهم مِن الجِنِّ المُسوِّلينَ لهم عِبادةَ الأصنامِ، سيُعرَضون على حُكمِ اللهِ فيهم[(٢)].

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٦).

- وحرْفُ التَّنفيسِ (السِّين) مُستعمَلٌ في مُطلَقِ التَّقريبِ المُكنَّى به عن التَّحقيقِ[١].

- قولُه: ﴿سَنَفْرُغُ﴾ قُرِئَ بالياءِ المفتوحةِ ﴿سَيَفْرُغُ﴾[٢]، على أنَّ الضَّميرَ عائدٌ إلى اللهِ تعالى على طَريقةِ الالتِفاتِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ هما الثَّقَلانِ، خُوطِبا باسمِ جِنسِهما؛ لزيادةِ التَّقريرِ، ولأنَّ الجِنَّ مَشهورونَ بالقُدرةِ على الأفاعيلِ الشَّاقَّةِ، فخُوطِبوا بما يُنبِئُ عن ذلكَ؛ لبَيانِ أنَّ قُدرتَهُم لا تَفِي بما كُلِّفُوه[٤].

- وقيل: قولُه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه سِياقُ الكلامِ السَّابقِ واللَّاحقِ، وليس خِطابًا للإنسِ والجنِّ في الحياةِ الدُّنيا -على قولٍ-، والتَّقديرُ: فنقولُ لكم: يا مَعشَرَ الجنِّ... فقولُه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ المقصودُ به أهلُ الجِنايةِ منهم؛ فهو عامٌّ مُرادٌ به الخصوصُ، بقَرينةِ قولِه بعْدَه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾ [الرحمن: ٣٥] إلخ[٥]. وذلك على قولٍ.

- فإنْ قِيل: ما الحِكمةُ في تَقديمِ الجِنِّ على الإنسِ هاهنا، وتقديمِ الإنسِ على الجنِّ في قولِه تَعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٧).

(٢) قرأها بالياءِ حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ، وقرَأها الباقونَ بالنُّونِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٨).

الجوابُ: النُّفوذُ مِن أقطارِ السَّمواتِ والأرضِ بالجنِّ أَلْيَقُ -إنْ أمكَنَ-، والإتيانُ بمِثلِ القُرآنِ بالإنسِ أَلْيَقُ -إنْ أمكَنَ-؛ فقُدِّمَ في كلِّ مَوضعٍ مَن يُظَنُّ به القُدرةُ على ذلك[١].

- قال تعالَى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [الرحمن: ٣٣]، ولم يقُلْ: (إنِ استطعتُما)؛ لإرادة الجَماعةِ كما في آيةٍ أخرَى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالَى: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا﴾ [الرحمن: ٣٥]، ولم يقُلْ: (يُرسَل عليكم)؛ لإرادةِ الصِّنفَينِ، أي: لا يختصُّ به صِنفٌ عن صِنفٍ، بلْ يُرسَلُ ذلك على الصِّنفينِ معًا. وهذا وإنْ كان مرادًا بقولِه تعالَى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [الرحمن: ٣٣]؛ فخِطابُ الجَماعةِ في ذلك بلفظ الجمْعِ أحسَنُ، أي: مَنِ استطاعَ منكم. وحسَّنَ الخِطابَ بالتَّثنيةِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَيۡكُمَا﴾ [الرحمن: ٣٥] أمرٌ آخَرُ، وهو موافقةُ رُؤوسِ الآيِ؛ فاتَّصلَتِ التَّثنيةُ بالتَّثنيةِ. وفيه التَّسويةُ بيْن الصِّنفينِ في العذابِ بالتَّنصيصِ عليهما، فلا يَحتمِلُ اللَّفظُ إرادةَ أحدِهما[٢]. فقولُه: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ هو لبيانِ عَجزِهم وعَظَمةِ ملْكِ الله تعالى؛ فقال: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ﴾ باجتِماعِكم وقوَّتِكم ﴿فَٱنفُذُواْ﴾، ولا تَستطيعون؛ لِعَجزِكم؛ فقد بان عندَ اجتِماعِكم واعتِضادِكم بعضِكم ببعضٍ؛ فهو عندَ افتِراقِكم أظهَرُ، فهو خِطابٌ عامٌّ مع كلِّ أحدٍ عندَ الانضِمامِ إلى جميعِ مَن عَداهُ مِن الأعوانِ والإخوانِ. وأمَّا قولُه تعالى: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا﴾ فهو لِبَيانِ الإرسالِ على النَّوعَينِ، لا على كلِّ واحدٍ منهما؛ لأنَّ جميعَ الإنسِ والجنِّ لا يُرسَلُ عليهم العذابُ والنَّارُ، فهو يُرسَلُ على النَّوعَينِ، ويَتخلَّصُ منه بعضٌ منهما -بفضلِ الله-، ولا يَخرُجُ أحدٌ مِن الأقطارِ أصلًا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤).

ويُجابُ أيضًا بأنَّ الخِطابَ مع المَعْشَرِ؛ فقولُه: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أيُّها المَعشَرُ، وقولُه: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا﴾ ليس خِطابًا مع النِّداءِ، بل هو خِطابٌ مع الحاضِرينَ -وهما نَوعانِ-، وليس الكلامُ مذكورًا بحرفِ واوِ العطفِ حتَّى يكونَ النَّوعانِ مُنادَيَينِ في الأوَّلِ! وعندَ عدَمِ التَّصريحِ بالنِّداءِ فالتَّثنيةُ أَوْلى، كقولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾، وهذا يتأيَّدُ بقولِه تعالى: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، وحيثُ صرَّح بالنِّداءِ جمَع الضَّميرَ، وقال بعدَ ذلك: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ حيث لم يُصرِّحْ بالنِّداءِ[1].

- والشَّرطُ ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ، وكذلك الأمرُ الَّذي هو جوابُ هذا الشَّرطِ مِن قولِه: ﴿فَٱنفُذُواْ﴾، أي: وأنتم لا تَستَطيعون الهُروبَ، والمعْنى: إنْ قدَرْتُم على الانفلاتِ مِن هذا الموقفِ فأفْلِتُوا، وهذا مُؤْذِنٌ بالتَّعريضِ بالتَّخويفِ ممَّا سيَظهَرُ في ذلك الموقفِ مِن العقابِ لأهلِ التَّضليلِ[2].

- وذِكرُ السَّمواتِ والأرضِ؛ لتَحقيقِ إحاطةِ الجِهاتِ كلِّها تَحقيقًا للتَّعجيزِ، أي: فهذه السَّمواتُ والأرضُ أمامَكم، فإنِ استَطَعْتُم فاخْرُجوا مِن جهةٍ منها فِرارًا مِن مَوقِفِكم هذا؛ وذلك أنَّ تَعدُّدَ الأمكنةِ يُسهِّلُ الهروبَ مِن إحدى جِهاتِها[3].

- والأرضُ المذكورةُ هنا إمَّا أنْ تكونَ الأرضَ الَّتي في الدُّنيا، وذلك حينَ البعثِ، وإمَّا أنْ تكونَ أرضَ الحشْرِ، وهي الَّتي سمَّاها القرآنُ ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ في سُورةِ (النازعاتِ) [١٤]، وإمَّا أنْ يكونَ ذلك جاريًا مَجْرى المثَلِ المُستعمَلِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦٢، ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٥٩).

للمُبالَغةِ في إحاطةِ الجهاتِ، وهذه المعاني لا تَتنافى، وهي مِن حدِّ إعجازِ القرآنِ[١].

- وجُملةُ ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ بَيانٌ للتَّعجيزِ الَّذي في الجُملةِ قبْلَه[٢]!

٣- قولُه تعالَى: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ عن جُملةِ ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ ...﴾ [الرحمن: ٣٣] إلخ؛ لأنَّ ذلك الإشعارَ بالتَّهديدِ يُثيرُ في نُفوسِهم تَساؤلًا عمَّا وراءَه[٣].

- وضَميرُ ﴿عَلَيۡكُمَا﴾ راجعٌ إلى الجنِّ والإنسِ؛ فهو عامٌّ مُرادٌ به الخُصوصُ بالقرينةِ، وهي قولُه بعْدَه: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] الآياتِ، وهذا تَصريحٌ بأنَّهم مُعاقَبون بعْدَ أنْ عرَّضَ لهم بذلك تَعريضًا بقولِه: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ﴾[الرحمن: ٣٣]، والمُضارعُ ﴿يُرۡسَلُ﴾ للحالِ، أي: ويُرسَلُ عليكما الآنَ شُواظٌ[٤]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿شُوَاظٞ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿يُرۡسَلُ﴾، أو بمُضمرٍ هو صِفةٌ للشُّواظِ، أي: كائنٌ مِن نارٍ، والتَّنوينُ للتَّفخيمِ[٥].

- وذيل بقولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٢).

نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾؛ فإنَّ التَّهديدَ لُطْفٌ، والتَّمييزَ بيْنَ المطيعِ والعاصي بالجزاءِ والانتقامِ مِن الكفَّارِ في عِدادِ الآلاءِ؛ إذ به يَنزَجِرُ الشَّخصُ عن المعاصي، فيَفوزُ بالنَّعيمِ المُقيمِ، فبهذا الاعتِبارِ كان مِن الآلاءِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٣٥).

الآيات (٣٧-٤٥)

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٨ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٠ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ٤١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٤٣ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ٤٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾: ﴿وَرۡدَةٗ﴾: أي: حَمراءَ كالوردةِ المعروفةِ، وقيل: المرادُ: كالفَرَسِ الوَرْدِ، يُقالُ له ذلك إذا كان يَتلَوَّنُ بألوانٍ مُختَلِفةٍ، والدِّهانُ: جمعُ دُهْنٍ، قيل: هو دُرْدِيُّ الزَّيتِ، وذلك أنَّ السَّماءَ يَعتَريها يومَ القيامة ذَوبٌ وتَمَيُّعٌ؛ مِن شِدَّةِ الهَولِ. وقيل: تحمَرُّ احمِرارَ الوَردِ، ثمَّ تذوبُ ذَوَبانَ الدُّهنِ. وقيل: تَمورُ كالدُّهنِ صافِيَةً. وقيل: الدِّهانُ اسمٌ لِما يُدهَنُ به، وقيل: الدِّهانُ: الأديمُ الأحمرُ، وأصلُ (ورد) هنا: لَوْنٌ مِن الألوانِ، وأصلُ (دهن): يدُلُّ على لِينٍ وسُهولةٍ[1].

﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾: أي: بعَلاماتِهم وآثارِهم، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على أثَرٍ ومَعْلَمٍ[2].

﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾: أي: تُضَمُّ ناصيةُ كُلٍّ منهم (أي: مُقَدَّمُ رأسِه) إلى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩، ٣٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٨) و(٦/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٣١). ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

قَدَمَيه مِن خَلفٍ أو قُدَّامٍ، ويُلقَى في النَّارِ[١].

﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾: أي: ماءٍ مُغْلًى بَلَغ الغايةَ في شِدَّةِ حَرِّه، وأصلُ (حمم): يدُلُّ على الحَرارةِ، وأصلُ (أنى) هنا: يدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا جانبًا مِن أهوالِ يومِ القيامةِ، والعذابِ الَّذي ينزِلُ بالمجرِمينَ: فإذا انشَقَّت السَّماءُ يومَ القيامةِ، فصارت مِثلَ الوَردةِ حمراءَ، كالدُّهنِ؛ فما أعظَمَ الهَولَ يومَئِذٍ! فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟! ففي ذلك اليَومِ لا يُسأَلُ إنسِيٌّ ولا جِنِّيٌّ عمَّا اقتَرَف مِن ذنْبٍ؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يُبينُ الله سُبحانَه ما يحلُّ بالمجرِمينَ في هذا اليَومِ مِن عذابٍ، فيقولُ: ويُعرَفُ المُجرِمونَ يومَ القيامةِ بعَلاماتٍ تُمَيِّزُهم عن غَيرِهم، فيُؤخَذُ بمُقَدَّمِ رُؤوسِهم وبأقدامِهم، فيُدْفَعون إلى جَهنَّمَ! فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

يُقالُ لهم: هذه جَهنَّمُ الَّتي يُكذِّبُ بها المُجرِمونَ في الدُّنيا، يَطوفونَ بَيْنَها وبيْنَ حَميمٍ قد بَلَغ النِّهايةَ في حَرِّه! فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١) و(٢/ ٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها إشارةٌ إلى ما هو أعظَمُ مِن إرسالِ الشُّوَاظِ على الإنسِ والجِنِّ، فكأنَّه تعالى ذَكَر أوَّلًا ما يَخافُ منه الإنسانُ، ثمَّ ذَكَر ما يَخافُ منه كُلُّ واحِدٍ مِمَّن له إدراكٌ؛ مِن الجِنِّ والإنسِ والمَلَكِ، حيثُ تخلو أماكِنُ الملائِكةِ بالشَّقِّ، ومَساكِنُ الجِنِّ والإنسِ بالخَرابِ[1]!

وأيضًا لَمَّا عَدَّد -عَزَّت قُدرتُه- نَعماءَه على عِبادِه، وما يجِبُ مِن شُكرِهم عليها، ثمَّ أرشَدَهم إلى أنَّ هذه النِّعَمَ لا بقاءَ لها ولا ثباتَ، ثمَّ ذَكَر أنَّ النَّاسَ مُحاسَبونَ على الصَّغيرِ والكَبيرِ مِن أعمالِهم، وسيَلقَونَ الجَزاءَ عليها، ولا مَهرَبَ حينَئذٍ مِنها، ولا نَصيرَ لهم يُنقِذُهم مِمَّا سيَحُلُّ بهم مِنَ العذابِ- ذكَرَ هنا أنَّه إذا جاء ذلك اليَومُ اختَلَّ نِظامُ العالَمِ[2].

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧﴾.

أي: فإذا انشَقَّت السَّماءُ يومَ القيامةِ، فصارت مِثلَ الوَردةِ حَمراءَ، كالدُّهْنِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٦، ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠١، ٥٠٢).

قال الرَّسْعَني: (قال ابنُ قُتَيْبَةَ: فكانت حَمْراءَ في لَونِ الفَرَسِ الوَرْدِ. وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ، وقَتادةَ، والضَّحَّاكِ، والرَّبيعِ، وجمهورِ المفسِّرينَ. وقيل: هي وردةُ النَّباتِ، وقد تختلِفُ ألوانُها، إلَّا أنَّ الأغلَبَ عليها الحُمْرةُ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٦٣).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جريرٍ، ومكِّيٌّ، والواحديُّ ونسَبَه للأكثَرِ، والبَغَويُّ، والخازنُ. ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١١٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٩). =

= وممَّن اختار القولَ الثَّاني -أي: تكونُ مِثلَ الوردةِ في الحُمرةِ: الزَّجَّاجُ، والزمخشري، والبيضاوي، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والشربيني، والشوكاني، وابن عاشور، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٧).

قال ابنُ عاشور: (والوَردةُ: واحِدةُ الوَرْدِ، وهو زَهرٌ أحمَرُ مِن شَجَرةٍ دَقيقةٍ ذاتِ أغصانٍ شائِكةٍ تَظهَرُ في فَصلِ الرَّبيعِ، وهو مَشهورٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦١).

وقال الشنقيطي: (والقولُ بِأنَّ الوردةَ تشبيهٌ بالفَرَسِ الكُمَيْتِ وهو الأحمرُ؛ لأنَّ حُمْرَتَه تَتَلَوَّنُ باختلافِ الفصولِ، فتَشْتَدُّ حُمْرَتُها في فَصْلٍ، وتميلُ إلى الصُّفْرةِ في فصلٍ، وإلى الغَبَرةِ في فصلٍ، وأنَّ المرادَ بالتَّشْبيهِ كَونُ السَّماءِ عندَ انْشِقاقِها تَتَلَوَّنُ بألوانٍ مُختلفةٍ: واضِحُ البُعدِ عن ظاهِرِ الآيةِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٠٢).

وقال الشنقيطي أيضًا: (وقولُه: ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ فيه قَولانِ معروفانِ للعلماءِ:

الأوَّلُ منهما: أنَّ الدِّهانَ هو الجلدُ الأحمَرُ، وعليه فالمعنَى أنَّها تَصِيرُ وَرْدةً مُتَّصِفَةً بلَونِ الوَرْدِ مُشابِهةً للجِلْدِ الأحمرِ في لونِه.

والثَّاني: أنَّ الدِّهانَ هو ما يُدهنُ به، وعليه، فالدِّهانُ، قيل: هو جمعُ دُهْنٍ، وقيلَ: هو مُفْرَدٌ، لأنَّ العربَ تُسَمِّي ما يُدْهَنُ به دِهانًا، وهو مُفْرَدٌ، ...

وحَقيقةُ الفرْقِ بيْنَ القولينِ أنَّه على القولِ بأنَّ الدِّهانَ هو الجلدُ الأحمَرُ يَكونُ اللهُ وصَفَ السَّماءَ عندَ انْشِقاقِها يومَ القيامةِ بوصْفٍ واحِدٍ، وهو الحُمْرةُ، فشَبَّهَها بحُمْرةِ الورْدِ، وحُمرةِ الأديمِ الأحْمَرِ.

قال بعضُ أهلِ العلمِ: إنَّها يَصِلُ إليها حرُّ النَّارِ فتَحْمَرُّ مِنْ شِدَّةِ الحرارةِ. وقال بعضُ أهلِ العلمِ: أصلُ السَّماءِ حمراءُ، إلَّا أنَّها لشِدَّةِ بُعْدِها وما دُونَها مِنَ الحَواجِزِ لم تَصِلِ العيونُ إلى إدراكِ لَوْنِها الأحمرِ على حقيقتِه، وأنَّها يومَ القيامةِ تُرَى على حقيقةِ لَوْنِها.

وأمَّا على القولِ بأنَّ الدِّهانَ هو ما يُدهنُ به، فإنَّ اللهَ قد وصَفَ السَّماءَ عندَ انْشِقاقِها بوصفَينِ؛ أحدُهما: حُمْرةُ لَونِها، والثَّاني: أنَّها تَذوبُ وتَصيرُ مائعةً كالدُّهْنِ.

أمَّا على القولِ الأوَّلِ، فلم نَعلَمْ آيةً مِن كتابِ اللهِ تُبَيِّنُ هذه الآيةَ، بأنَّ السَّماءَ ستَحْمَرُّ يومَ القيامةِ =

= حتَّى تكونَ كلَونِ الجلدِ الأحمرِ.

وأمَّا على القولِ الثَّاني الَّذي هو أنَّها تَذُوبُ وتَصيرُ مائعةً، فقد أوضَحه اللهُ في غيرِ هذا الموضعِ، وذلك في قولِه تعالَى في «المعارجِ»: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٦ - ٨]، والمُهْلُ شَيءٌ ذائِبٌ على كِلا القولَينِ، سواءٌ قُلْنا: إنَّه دُرْدِيُّ الزَّيْتِ وهو عَكَرُه، أو قُلْنا: إنَّه الذَّائِبُ مِن حَديدٍ أو نُحاسٍ أو نحوِهما). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٠١).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ أنَّها تُذابُ وتكونُ كالزَّيتِ أو المُهلِ والرَّصاصِ المُذابِ ونحوِ ذلك: النسفيُّ، وابنُ جُزَي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ أنَّها تكونُ كالجِلدِ الأحمرِ: أبو حيَّان، وجلالُ الدِّينِ المحليُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٧).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ أي: تَذوبُ كما يَذوبُ الدُّردِيُّ والفِضَّةُ في السَّبْكِ، وتتلوَّنُ كما تتلوَّنُ الأصباغُ الَّتي يُدَّهَنُ بها؛ فتارةً حمراءُ، وصفراءُ، وزرقاءُ، وخَضراءُ؛ وذلك مِن شِدَّةِ الأمرِ، وهَولِ يومِ القيامةِ العَظيمِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٨).

وقيل: إنَّه عُنيَ به الدُّهنُ في إشراقِ لَونِه وصفائِه. وممَّن اختاره في الجملةِ: ابنُ جرير، وأبو القاسمِ النَّيسابوريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٦، ٢٢٩)، ((إيجاز البيان عن معاني القرآن)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٧٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠٠).

وممَّن قال بنحوِ ذلك مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٨، ٢٢٩).

وقال البِقاعي: (﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ أي: ذائبةً صافيةً كالشَّيءِ الَّذي يُدهنُ به، أو كالأديمِ الأحمَرِ، والمكانِ الزَّلِقِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٧٤).

وقال القرطبي: (وقيل: المعنى أنَّها تمرُّ وتَجيءُ. قال الزَّجَّاجُ: أصلُ الواوِ والرَّاءِ والدَّالِ للمَجيءِ والإتيانِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٣).

قال الشنقيطي: (وقولُ مَن قال: إنَّها تَذْهَبُ وتَجيءُ - مَعْناه له شاهدٌ في كتابِ اللهِ، وذلك في قولِه تعالَى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ الآيةَ [الطور: ٩]، ولكِنَّه لا يَخْلو عِندي مِنْ بُعْدٍ). ((أضواء =

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان حِفظُ السَّماءِ عن مِثلِ ذلك -بتأخيرِ إرسالِ هذا وغَيرِه مِنَ الأسبابِ- وجَعلُها محَلَّ الرُّوحِ والحياةِ والرِّزقِ- مِن أعظَمِ الفواضِلِ؛ قال مُسَبِّبًا عنه[1]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[2]؟!

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى أنَّ العذابَ في الدُّنيا مُؤَخَّرٌ -بقَولِه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ [الرحمن: ٣١]- بَيَّن أنَّه في الآخِرةِ لا يُؤخَّرُ بقَدْرِ ما يُسْأَلُ[3]!

وأيضًا لَمَّا كان يومُ القيامةِ ذا ألوانٍ كثيرةٍ، ومواقِفَ مَهُولةٍ طَويلةٍ شَهيرةٍ، تكونُ في كُلٍّ مِنها شُؤونٌ عَظيمةٌ وأمورٌ كَبيرةٌ؛ ذكَرَ بَعضَ ما سَبَّبَه هذا الوَقتُ مِن التَّعريفِ بالعاصي والطَّائعِ، بآياتٍ جَعَلها اللهُ سَبَبًا في عِلْمِها؛ فقال[4]:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾.

= البيان)) (٧/ ٥٠٢).

وقال ابنُ عطيَّة: (جوابُ «إذا» -في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾- محذوفٌ، مقصودٌ به الإبهامُ، كأنَّه يقولُ: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ فما أعظَمَ الهَولَ!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٥).

أي: ففي ذلك اليَومِ لا يُسْأَلُ إنسِيٌّ ولا جِنِّيٌّ عمَّا اقترَف مِن ذنْبٍ[١]!

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[٢]؟!

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾.

أي: يُعرَفُ المُجرِمونَ يومَ القيامةِ بعَلاماتٍ تُمَيِّزُهم عن غَيرِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٤)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٣، ٥٠٤).

قال السعدي: (﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ أي: سُؤالَ استِعلامٍ بما وقع؛ لأنَّه تعالى عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ، والماضي والمستقبَلِ، ويُريدُ أن يُجازيَ العِبادَ بما عَلِمَه مِن أحوالِهم، وقد جَعَل لأهلِ الخَيرِ والشَّرِّ يومَ القيامةِ علاماتٍ يُعرَفونَ بها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٧).

قال ابنُ جزي: (والمجرِمونَ هنا الكفَّارُ بدليلِ قولِه: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن: ٤٣]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٠).

وقال ابنُ عاشور: (أي: يُستغنَى عن سُؤالِهم بظُهورِ عَلاماتِهم للملائِكةِ، ويَعرفونَهم بسِيماهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢).

وقال البقاعي: (﴿يُعْرَفُ ﴾ أي: لكلِّ أحدٍ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٧٦).

وقال الواحدي: (قال جماعةُ المفسِّرينَ: يُعرَفُ بسَوادِ الوُجوهِ، وزُرقةِ الأعيُنِ، ودليلُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقَولُه تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه: ١٠٢]). ((البسيط)) (٢١/ ١٧٩). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٤).

قال ابنُ كثيرٍ: (وهذا كما يُعرَفُ المؤمِنونَ بالغُرَّةِ والتَّحْجيلِ مِن آثارِ الوضوءِ). ((تفسير ابن =

﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾.

أي: فيُؤخَذ بمُقَدَّمِ رُؤوسِ المُجرِمينَ وبأقدامِهم، ويُلقَوْن في جَهنَّمَ[١].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٢﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[٢]؟!

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٤٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أخْذُهم على هذا الوَجهِ مُؤذِنًا بأنَّه يَصيرُ إلى خِزيٍ عَظيمٍ؛ صَرَّح به، فقال تعالى[٣]:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٤٣﴾.

أي: يُقالُ لهم: هذه هي جَهنَّمُ الَّتي يُكذِّبُ بوُجودِها المُجرِمونَ في الدُّنيا، هاهي حاضِرةٌ يُشاهِدونَها في الآخِرةِ عِيانًا[٤]!

= كثير)) (٧/ ٤٩٩).

وقيل: سِيماهم ما يَعْلوهم مِن الحزنِ والكآبةِ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٣).

قال ابنُ جُزَي: (﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ قيل: معناه: يُؤخَذُ بعضُ الكفَّارِ بناصيتِه، وبعضُهم بقدميه. وقيل: بل يُؤخَذُ كلُّ واحدٍ بناصيتِه وقدميه فيُطوى ويُطرحُ في النَّارِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٠). =

كما قال تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُم تُوعَدُونَ * ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ [يس: ٦٣، ٦٤].

﴿ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴿٤٤﴾ ﴾.

أي: يَطوفُ المُجرِمونَ بيْنَ مَوضِعِ جَهنَّمَ وبيْنَ مَوضِعِ الحَميمِ الَّذي قد بَلَغ ماؤُه الغايةَ في حَرِّه، ويَتردَّدونَ بَيْنَهما[1]!

قال تعالى: ﴿ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ * فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مُعاقَبةُ العُصاةِ المُجرِمينَ وتنعيمُ المتَّقِينَ: مِن فَضْلِه ورَحمتِه، وعَدْلِه

= قال ابن جرير: (يقولُ تعالَى ذِكْرُه: يُقالُ لهؤلاءِ المجرِمينَ الَّذينَ أخبَر جلَّ ثناؤُه أنَّهم يُعرَفونَ يومَ القيامةِ بسِيماهم حينَ يُؤخَذُ بالنَّواصي منهم والأقدامِ: هذه جهنَّمُ الَّتي يُكَذِّبُ بها المجرمونَ، فترَكَ ذِكْرَ «يُقالُ»؛ اكتفاءً بدَلالةِ الكلامِ عليه منه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٢).

وقال الرَّسْعَني: (قولُه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ هو على إضمارِ القولِ، تقديرُه: يُقال لهم إذا سُحبوا إليها تحقيرًا وتعنيفًا وانتقامًا منهم: هذه جهنَّمُ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٠)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٣، ٢٦٤).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: يَمشُونَ بيْنَ مكانِ النَّارِ وبيْنَ الحَميمِ، فإذا أصابَهم حَرُّ النَّارِ طَلَبوا التَّبَرُّدَ، فَلاحَ لهم الماءُ، فذَهَبوا إليه، فأصابهم حَرُّه، فانصَرَفوا إلى النَّارِ دَوالَيك!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٤).

وقال ابن عثيمين: (أمَّا كيفَ يكون ذلك؟ فاللهُ أعلَمُ، لكِنَّنا نُؤمِنُ بأنَّهم يَطوفونَ بيْنَها وبيْنَ الحَميمِ الحارِّ الشَّديدِ الحَرارةِ. واللهُ أعلَمُ بذلك). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٨).

ولُطفِه بخَلْقِه، وكان إنذارُه لهم عَذابَه وبأسَه مِمَّا يَزجُرُهم عمَّا هم فيه مِنَ الشِّركِ والمعاصي وغيرِ ذلك- قال مُمتَنًّا بذلك على بَرِيَّتِه[1]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٥﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[2]؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ وكذلك قَولُه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] سُؤالٌ: كيفَ الجَمعُ بيْنَ هذا وبيْنَ الآياتِ الَّتي تدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، وقَولِه تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، وقَولِه تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ٦]؛ مِمَّا يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى يسألُ جَميعَ النَّاسِ يومَ القيامةِ؟

والجوابُ عن ذلك مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ للآخِرةِ مَواطِنَ؛ فلا يُسألُ في مَوطِنٍ، ويُسأَلُ في مَوطِنٍ.

الثَّاني: أنَّه لا يُسأَلُ سُؤالَ استِعلامٍ واسترشادٍ، بل يُسأَلُ سُؤالَ تَوبيخٍ وتَبكيتٍ؛ فإنَّ السُّؤالَ قِسمانِ: سؤالُ تَوبيخٍ وتقريعٍ، وأداتُه غالبًا: (لِمَ)، وسؤالُ استِخبارٍ واستعلامٍ، وأداتُه غالبًا: (هَل)، فالمُثبَتُ هو سؤالُ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والمنفيُّ هو سُؤالُ الاستِخبارِ والاستِعلامِ. وَجْهُ دَلالةِ القُرآنِ على هذا: أنَّ سؤالَه لهم المنصوصَ في كُلِّه توبيخٌ وتقريعٌ؛ كقَولِه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٠).

٢٤، ٢٥]، وقَولِه: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]، وكقَولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]، وقَولِه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ.

الثَّالثُ: أنَّ السُّؤالَ المنفيَّ في قَولِه هنا أخَصُّ مِن السُّؤالِ المثبَتِ في قَولِه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]؛ لأنَّ هذه فيها تعميمُ السُّؤالِ في كُلِّ عَملٍ، وتلك ليس فيها نَفيُ السُّؤالِ إلَّا عن الذُّنوبِ خاصَّةً.

الرَّابعُ: أنَّ إثباتَ السُّؤالِ مَحمولٌ على السُّؤالِ عن التَّوحيدِ وتَصديقِ الرُّسُلِ، وعَدَمَ السُّؤالِ محمولٌ على ما يَستَلزِمُه الإقرارُ بالنُّبُوَّاتِ مِن شرائعِ الدِّينِ وفُروعِه، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

الخامسُ: أنَّهم يُسأَلونَ قبْلَ الخَتمِ على أفواهِهم، ثمَّ يُختَمُ على أفواهِهم، وتتكَلَّمُ جوارِحُهم شاهِدةً عليهم.

السَّادسُ: أنَّهم لا يُسأَلونَ إذا استقَرُّوا في النَّارِ. وقيل غيرُ ذلك[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ أضاف سُبحانَه الذُّنوبَ إلى الثَّقَلَينِ، وهذا دَليلٌ على أنَّهما مُستَويانِ في التَّكليفِ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أنَّ لصاحبِ كلِّ ذنْبٍ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٠، ٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٠)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٣)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤).

الذُّنوبِ الَّتي يُريد اللهُ إظهارَها علامةً يُعرَفُ بها صاحِبُها[١].

٤- كلُّ ما ذَكَر اللهُ تعالى مِن قَولِه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ [الرحمن: ٢٦] إلى هاهنا مَواعِظُ ومَزاجِرُ، وتهديدٌ وتخويفٌ، وهي كُلُّها نِعمةٌ مِنَ اللهِ تعالى؛ لِلانزجارِ عن المعاصي؛ ولذلك خَتَم كُلَّ آيةٍ بقَولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٢].

٥- كُرِّرَت هذه الآيةُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ عَقِبَ ذِكرِ النَّارِ وأهوالِها سَبْعَ مرَّاتٍ؛ تنبيهًا على استِدفاعِ أبوابِها السَّبعةِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ تَفريعُ إخبارٍ على إخبارٍ؛ فُرِّعَ على بعضِ الخبَرِ المُجمَلِ في قولِه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] إلى آخرِه، تَفصيلٌ لذلك الإجمالِ؛ بتَعيينِ وَقتِه، وشَيءٍ مِن أهوالِ ما يقَعُ فيه للمُجرِمين، وبَشائرِ ما يُعطاهُ المتَّقونَ مِن النَّعيمِ والحُبورِ[٤].

- قولُه: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: كانتِ السَّماءُ كوَرْدةٍ (أي: زهرةٍ حمراءَ، وذلك على قولٍ). ووَجْهُ الشَّبهِ قيل: هو شِدَّةُ الحُمرةِ، أي: يَتغيَّرُ لونُ السَّماءِ المعروفُ أنَّه أزرَقُ إلى البياضِ، فيَصيرُ لَونُها أحمَرَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ وَجْهُ الشَّبَهِ كَثرةَ الشُّقوقِ كأوراقِ الوردةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((حاشية =

وقيل: أراد لَونَ الفَرَسِ الوَرْدِ، يكونُ في الرَّبيعِ إلى الصُّفرةِ، وفي الشِّتاءِ إلى الحُمرةِ، وفي اشتِدادِ البَردِ إلى الغُبْرةِ، فشُبِّهَ تلَوُّنُ السَّماءِ بتَلَوُّنِ الوردةِ مِن الخَيلِ[١].

- قولُه: ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ جمْعُ دُهنٍ، شبَّه السَّماءَ يومَ القيامةِ به؛ لأنَّها تَذوبُ مِن شِدَّةِ الهَولِ. وقيل: شبَّه لَمَعانَها بلَمَعانِ الدُّهنِ[٢]. وقيل: للدُّهنِ ألوانٌ، شبَّه السَّماءَ بألوانِه[٣]. وقيل: الدِّهانُ: الجِلدُ الأحمرُ، وبه شبَّهها[٤].

- وجَوابُ (إذَا) مَحذوفٌ، أي: يكونُ مِن الأحوالِ والأهوالِ ما لا يُحيطُ بِهِ دائرةُ المَقالِ، أي: فما أعظَمَ الهولَ[٥]!

- قولُه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ الشَّرطِ ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ وجُملةِ الجوابِ ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾، وهي تَكريرٌ، للتَّقريرِ والتَّوبيخِ[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- التَّنوينُ في ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ للعِوَضِ مِن الجُملةِ المحذوفةِ، والتَّقديرُ: فيومَ إذِ

= الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦١).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (٢/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦١، ٢٦٢).

انشقَّتِ السَّماءُ...[١].

- ومعْنى قولِه: ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ نفْيُ السُّؤالِ الَّذي يُريدُ به السَّائلُ مَعرفةَ حُصولِ الأمرِ المُتردِّدِ فيه، وهذا مِثْلُ قولِه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[٢] [القصص: ٧٨].

- والضَّميرُ في ﴿ذَنۢبِهِۦٓ﴾ للإنسِ؛ لتَقدُّمِه رُتْبةً، وإفرادُه لِما أنَّ المُرادَ فرْدٌ مِن الإنسِ، كأنَّه قيلَ: لا يُسأَلُ ذنْبَه إنْسيٌّ ولا جِنيٌّ[٣].

- وتَكريرُ جُملةِ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ للتَّقريرِ والتَّوبيخِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ، يَجْري مَجْرى التَّعليلِ لعدَمِ السُّؤالِ[٥].

- و(أل) في ﴿بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: بنَواصِيهم وأقدامِهم، أو الضَّميرُ مَحذوفٌ تَقديرُه: بالنَّواصي والأقدامِ منْهم[٦].

- وأُسنِدَ الأخذُ إلى النَّواصي دونَ ضَميرِ المُجرِمينَ؛ إشارةً إلى استيلاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢).

الآخِذينَ على المأخوذينَ، وكَثرتِهم، وكيفيَّةِ الأخذِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ على إرادةِ القَولِ، أي: يُقالُ لهم ذلكَ يومَ القِيامةِ على رُؤوسِ الملأِ بطَريقِ التَّوبيخِ، على أنَّ الجُملةَ إمَّا استِئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ ناشئٍ مِن حِكايةِ الأخْذِ بالنَّواصِي والأقدامِ، كأنَّه قِيلَ: فماذا يُفعَلُ بهم عندَ ذلكَ؟ فقيلَ: يُقالُ... إلخ. أو حالٌ مِن أصحابِ النَّواصِي والأقدامِ؛ لأنَّ الألِفَ واللَّامَ عِوَضٌ عن المضافِ إليهِ، وما بيْنَهما اعتِراضٌ[٢].

- وخُصَّ هذا الاسمُ ﴿جَهَنَّمُ﴾؛ إشارةً إلى أنَّها تَلْقاهم بالتَّجَهُّمِ والعُبوسةِ والكَلاحةِ والفَظاعةِ، كما كانوا يَفعَلونَ مع الصَّالحينَ عندَ الإجرامِ المذكورِ[٣]!

- ووَصْفُ جَهنَّمَ بقولِه: ﴿ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ تَسفيهٌ للمجرمينَ، وفضْحٌ لهم[٤].

- وقال سُبحانَه: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ولَمْ يَقُلْ: «تكذِّبون بها»! إشارةً إلى أنَّهم مُجرِمون، وما أعظَمَ جُرْمَ الكفَّارِ الَّذين كفروا باللهِ ورسولِه، واستهزَؤوا بآياتِ اللهِ، واتَّخَذوها هُزُوًا ولَعِبًا[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٨).

الآيات (٤٦-٦١)

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾: أي: أغْصانٍ، واحِدُها فَنَنٌ، وهو الغُصنُ المُستَقيمُ طُولًا. وقيل: الأفنانُ: الألوانُ المُختَلِفةُ[(١)].

﴿بَطَآئِنُهَا﴾: جَمعُ بِطانةٍ، وهي الَّتي تحتَ الظِّهارةِ مِمَّا يلي الأرضَ[(٢)].

﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾: أي: ما غَلُظَ مِنَ الحَريرِ، وهو فارسيٌّ مُعَرَّبٌ[(٣)].

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾: أي: ثَمَرُهما قَريبٌ يَنالُه القائِمُ والقاعِدُ والنَّائِمُ، والجَنَى: ما يُجتَنَى مِنَ الثِّمارِ، وأصلُ (جني): أخْذُ الثَّمرةِ مِن شجرِها، وأصلُ (دنو):

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

المُقارَبةُ[١].

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾: أي: حابِساتُ الأبصارِ على أزواجِهنَّ، وأصلُ (قصر): يدُلُّ على الحَبسِ[٢].

﴿يَطۡمِثۡهُنَّ﴾: أي: يَمْسَسْهنَّ ويَفتَضُّهنَّ ويَدْنُ مِنهنَّ، والطَّمْثُ: النِّكاحُ بالتَّدميَةِ، وأصلُه مِنَ الطَّمْثِ، وهو الدَّمُ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

بعدَ أنْ أخبَرَ الله تعالى عمَّا أعدَّه للمجرِمينَ مِن عِقابٍ يخبِرُ عمَّا أعدَّه للمُتَّقينَ مِن جزيلِ الثَّوابِ، فيقولُ: ولِمَنْ خاف مَقامَه بيْنَ يَدَيِ اللهِ للحِسابِ يومَ القيامةِ: جَنَّتانِ في الآخِرةِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وهاتانِ الجَنَّتانِ ذَواتا أغصانٍ كَثيرةٍ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفي هاتَينِ الجنَّتينِ عَينانِ تَجريانِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفيهما مِن كُلِّ أنواعِ الفاكِهةِ صِنفانِ مُختَلِفانِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٢) و (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤).

مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

يَتنَعَّمُ أهلُها مُتَّكِئينَ على فُرُشٍ بطائنُها مِنَ الحَريرِ الغَليظِ اللَّامِعِ، فكيف بظَواهِرِها الَّتي تَلِي بَشَرَتَهم؟!

وثَمَرُ هاتَينِ الجنَّتينِ قَريبٌ مِن أهلِهما، فيَتناوَلونَه بيُسرٍ وسُهولةٍ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفيهنَّ نِساءٌ قد قَصَرْنَ نَظَرَهنَّ على أزواجِهنَّ، فلا يَرغَبْنَ في غَيرِهم، ولم يُجامِعْهنَّ ويَفتَضَّ بَكارتَهنَّ قبْلَ أزواجِهنَّ أحَدٌ مِنَ الإنسِ أو الجِنِّ! فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

أولئك الحُورُ العِينُ كأنَّهنَّ الياقوتُ والمَرْجانُ في الصَّفاءِ واللَّونِ! فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يقولُ تعالى: هل جَزاءُ مَن أحسَنَ العَمَلَ في الدُّنيا إلَّا أن يُحسَنَ إليه بالنَّعيمِ في الآخِرةِ؟! فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى ما يُفعَلُ بالمُجرِمينَ؛ ذَكَر جَزاءَ المُتَّقينَ الخائِفينَ[1].

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: ولكلِّ مَن خاف -مِنَ الإنسِ والجِنِّ- مَقامَه بيْنَ يَدَيِ اللهِ للحِسابِ يومَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

القيامةِ، فاتَّقاه في الدُّنيا بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهِيه: جَنَّتانِ في الآخِرةِ[(١)].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٦، ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٨).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والزمخشري، وابن عطية، والقرطبي، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وجوَّز الزَّمخشري أنَّ المرادَ: خاف قيامَ اللهِ عليه في الدُّنيا، ومُراقبتَه لأعمالِه، وإحصاءَها عليه، وهو ظاهِرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٦).

قال ابنُ جُزَي: (واختُلِف هل الجنَّتانِ لكُلِّ خائفٍ على انفِرادِه؟ أو للصِّنفِ الخائِفِ، وذلك مبنيٌّ على قَولِه: «لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ» هل يُرادُ به واحِدٌ أو جماعةٌ؟ وقال الزمخشريُّ: إنَّما قال: جنَّتانِ؛ لأنَّه خاطَبَ الثَّقَلينِ، فكأنَّه قال: جَنَّةٌ للإنسِ، وجنَّةٌ للجِنِّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢).

وقال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ كلامُ بَعضِ المفَسِّرينَ يدُلُّ على أنَّ كُلَّ مَن تَرَكَ المعصيةَ خَوفًا مِنَ اللهِ، فله جنَّتانِ على حِدَتِه، لا يشارِكُه فيهما غيرُه، وكلامُ بَعضِهم يدُلُّ على أنَّهما جَنَّتانِ لكُلِّ مَن خاف اللهَ تبارك وتعالى بتَركِ المعصيةِ، على المشارَكةِ فيهما، وهذا معنى قَولِ مُقاتِلٍ، يعني: جَنَّةَ عَدْنٍ، وجنَّةَ النَّعيمِ). ((البسيط)) (٢١/ ١٨١). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠٢).

وقال السعدي: (له جَنَّتانِ مِن ذَهَبٍ آنيتُهما وحِلْيتُهما وبُنيانُهما وما فيهما؛ إحدى الجنَّتينِ جزاءٌ على تَركِ المَنهيَّاتِ، والأُخرى على فِعلِ الطَّاعاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١١٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت هذه نِعمةً جامِعةً؛ سَبَّبَ عنها قَولَه تعالى[١]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٢]؟!

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت البَساتينُ لا يَكمُلُ مَدحُها إلَّا بكَثرةِ الأنواعِ والألوانِ، والفُروعِ المُشتَبِكةِ والأغصانِ؛ قال واصِفًا لهما[٣]:

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وهاتانِ الجَنَّتانِ صاحِبَتا أغصانٍ كَثيرةٍ[٤].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٥]؟!

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات-الحديد)) (ص: ٣١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت الجِنانُ لا تقومُ إلَّا بالأنهارِ؛ قال[١]:

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠﴾.

أي: في هاتَينِ الجنَّتينِ عَينانِ تَجريانِ[٢].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٣]؟!

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان بالمياهِ حَياةُ النَّباتِ وزَكاؤُه، قال ذاكِرًا أفضَلَ النَّباتِ[٤]:

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

قال القرطبي: (أي: في كلِّ واحدةٍ منهما عينٌ جاريةٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦).

وقال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: تَجريانِ بالماءِ الزُّلالِ، إحداهما: السَّلْسَبيلُ، والأُخرى: التَّسْنيمُ. وقال عطيَّةُ: إحداهما: مِن ماءٍ غيرِ آسِنٍ، والأخرى: مِن خَمرٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٣).

واستظهر ابنُ عثيمين أنَّ هاتَينِ العينَينِ الجاريتَينِ غيرُ الأنهارِ الأربعةِ الَّتي ذكر اللهُ أنَّها في الجنَّةِ مِن ماءٍ ولَبَنٍ وخَمْرٍ وعَسَلٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨١).

أي: في الجنَّتينِ مِن كُلِّ أنواعِ الفاكِهةِ صِنفانِ مُختَلِفانِ(١).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ(٢)؟!

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّفَكُّهُ لا يَكمُلُ حُسنُه إلَّا مع التَّنَعُّمِ مِن طِيبِ الفُرُشِ وغَيرِه؛ قال تعالى مُخبِرًا عن هؤلاء الَّذين يَخافونَ مَقامَ رَبِّهم(٣):

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾.

أي: مُتنَعِّمينَ بالاتِّكاءِ على فُرُشٍ بطائنُها الَّتي تلي جِهةَ الأرضِ: مِنَ الحَريرِ الغَليظِ اللَّامِعِ، فكيفَ بظَواهِرِها الَّتي تَلِي بَشَرَتَهم(٤)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٩)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٩).

قال ابنُ القيِّم: (اختُلِفَ في هذين الزَّوجَينِ بعدَ الاتِّفاقِ على أنَّهما صِنفانِ؛ فقالت طائِفةٌ: الزَّوجانِ: الرَّطْبُ، واليابِسُ الَّذي لا يَقصُرُ في فَضلِه وجَودتِه عن الرَّطبِ، وهو مُتمَتَّعٌ به كما يُتمتَّعُ باليابِسِ، وفيه نظَرٌ لا يخفَى. وقالت طائِفةٌ: الزَّوجانِ: صِنفٌ مَعروفٌ، وصِنفٌ مِن شَكلِه غَريبٌ. وقالت طائفةٌ: نَوعانِ، ولم تَزِدْ. والظَّاهِرُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّه الحُلوُ والحامِضُ، والأبيضُ والأحمَرُ؛ وذلك لأنَّ اختِلافَ أصنافِ الفاكِهةِ أعجَبُ وأشهى، وألَذُّ للعَينِ والفَمِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ١٠٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير =

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المُتَّكِئُ قد يَشُقُّ عليه القيامُ لِتَناوُلِ ما يُريدُ، قال تعالى[1]:

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾.

أي: وثَمَرُ هاتَينِ الجنَّتينِ قَريبٌ مِن أهلِهما، فيَتناوَلونَه بيُسرٍ وسُهولةٍ[2].

قال تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٢، ٢٣].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[3]؟!

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦﴾.

= ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٩).

قال ابنُ عاشور: (الاتِّكاءُ: افتِعالٌ مِنَ الوَكْءِ -مَهموزِ اللَّامِ- وهو الاعتِمادُ، فصار الاتِّكاءُ اسمًا لاعتِمادِ الجالِسِ ومَرفِقُه إلى الأرضِ وجَنبُه إلى الأرضِ، وهي هيئةٌ بيْنَ الاضطِجاعِ على الجَنبِ والقُعودِ... والاتِّكاءُ: جِلسةُ أهلِ التَّرَفِ المخدومينَ؛ لأنَّها جِلسةُ راحةٍ، وعَدَمِ احتياجٍ إلى النُّهوضِ للتَّناوُلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٧، ٢٦٨).

وقال البقاعي: (﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ثَخينُ الدِّيباجِ، يُوجَدُ فيه مِن حُسْنِه بَريقٌ كأنَّه مِن شِدَّةِ لَمَعانِه يَطلُبُ إيجادَه، حتَّى كأنَّه نورٌ مُجَرَّدٌ!). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٨٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما ذُكِرَ لا تَتِمُّ نِعمتُه إلَّا بالنِّساءِ الحِسانِ؛ قال تعالى[(١)]:

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾.

أي: فيهنَّ نِساءٌ قد قَصَرْنَ نَظَرَهنَّ على أزواجِهنَّ، فلا يُبصِرْنَ سِواهم، ولا يَرغَبْنَ في غَيرِهم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٩).

قال ابن الجوزي: (وفي قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ قَولانِ:

أحدُهما: أنَّها تَعودُ إلى الجَنَّتَينِ وغيرِهما ممَّا أُعِدَّ لصاحبِ هذه القِصَّةِ، قاله الزَّجَّاجُ. والثَّاني: أنَّها تعودُ إلى الفُرُشِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٤).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ﴾ عائِدٌ على الفُرُشِ المتقَدِّمِ ذِكرُها: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعاني، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٩).

قال مكِّي: (و«في» بمعنى «على»، والمعنى: على الفُرُشِ حورٌ قاصِراتُ الطَّرفِ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١١/ ٧٢٣٧).

وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الجنَّتَينِ: الزَّجَّاجُ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧٠).

وقيل: ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في الجِنانِ. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، والشربيني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٧٣).

وقال الزمخشري: (﴿فِيهِنَّ﴾ في هذه الآلاءِ المعدودةِ مِن الجنَّتَينِ والعَينَينِ والفاكهةِ والفُرُشِ والجَنَى. أو في الجنَّتَينِ؛ لاشتِمالِهما على أماكنَ وقُصورٍ ومَجالِسَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٣).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿فِيهِنَّ﴾ أكثَرُ العُلَماءِ يقولونَ: إنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الجنَّتينِ، وإنَّ الجَمعَ باعتبارِ أنَّ لكُلِّ واحِدٍ مِن النَّاسِ جَنَّةً خاصَّةً به، فيكونُ ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في جَنَّةِ كُلِّ واحِدٍ مِمَّن =

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨، ٤٩].

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الاختِصاصُ بالشَّيءِ -ولا سيَّما المرأةِ- مِن أعظَمِ المَلَذَّاتِ؛ قال تعالى[(١)]:

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾.

أي: لم يُجامِعْهنَّ فيَفتَضَّ بَكارتَهنَّ قبْلَ أزواجِهنَّ أحَدٌ مِنَ الإنسِ أو الجِنِّ[(٢)].

= هو في هاتينِ الجنَّتينِ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، وعندي أنَّ قولَه: ﴿فِيهِنَّ﴾ يَشملُ الجنَّاتِ الأربَعَ: هاتينِ الجنَّتينِ، والجنَّتينِ اللَّتينِ بَعْدَهما). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٠).

قال ابنُ القيِّم في قولِه: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: (المفسِّرونَ كُلُّهم على أنَّ المعنى: قَصَرْنَ طَرْفَهنَّ على أزواجِهنَّ، فلا يَطمَحْنَ إلى غَيرِهم). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٠).

وقيل: المعنى: أنهنَّ قد قصَرْنَ طَرْفَهنَّ على أزواجِهنَّ؛ مِن حُسنِهم وجمالِهم، وكمالِ محبَّتِهنَّ لهم، وقَصَرْنَ أيضًا طَرْفَ أزواجِهنَّ عليهنَّ؛ مِن حُسنِهنَّ وجمالِهنَّ ولَذَّةِ وِصالِهنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: البِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠).

قال ابنُ القيِّم: (ظاهِرُ القُرآنِ أنَّ هؤلاء النِّسوةَ لَسْنَ مِن نِساءِ الدُّنيا، وإنَّما هُنَّ مِن الحُورِ العِينِ، وأمَّا نِساءُ الدُّنيا فقد طَمَثَهنَّ الإنسُ، ونِساءُ الجِنِّ قد طَمَثَهنَّ الجِنُّ، والآيةُ تدُلُّ على ذلك). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[١]؟!

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾.

أي: أولئك الحُورُ العِينُ مِثلُ الياقوتِ والمَرْجانِ صَفاءً ولَونًا[٢].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لِكُلِّ امْرِئٍ منهم زَوجتانِ، كلُّ واحدةٍ مِنهما يُرَى مُخُّ ساقِها مِن وَراءِ لَحمِها؛ مِنَ الحُسنِ!))[٣].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٤]؟!

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٤)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢١).

قال الزجاج: (قال أهلُ التَّفسيرِ وأهلُ اللُّغةِ: هنَّ في صفاءِ الياقوتِ، وبَياضِ المَرْجانِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٠٣).

وقال ابن القيِّم: (قال الحَسَنُ وعامَّةُ المفَسِّرينَ: أراد صَفاءَ الياقوتِ في بَياضِ المَرْجانِ، شَبَّههنَّ في صفاءِ اللَّونِ وبَياضِه بالياقوتِ والمَرْجانِ). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٢٢٣).

(٣) رواه البخاري (٣٢٤٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٨٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أَلَذُّ ما أفاده الإنسانُ مِنَ النِّعمِ ما كان تسَبُّبًا منه؛ قال[١]:

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: هل جَزاءُ مَن أحسَنَ العَمَلَ في الدُّنيا إلَّا أن يُحسَنَ إليه بالتَّنعيمِ في الآخِرةِ[٢]؟!

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٣]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ أضاف المَقامَ إلى اللهِ تعالى مِن حَيثُ هو بيْنَ يَدَيه، وفي هذه الإضافةِ تَنبيهٌ على صُعوبةِ المَوقِفِ، وتحريضٌ على الخَوفِ الَّذي هو أسرَعُ المطايا إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ هذا الخَوفُ يَستلزِمُ شَيئينِ:

الأوَّلُ: الإيمانُ بلِقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يخافُ مِن شَيءٍ إلَّا وقد تيَقَّنَه.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧).

والثَّاني: أنْ يَتجنَّبَ محارِمَ اللهِ، وأنْ يقومَ بما أوجَبَه اللهُ خَوفًا مِن عِقابِ اللهِ تعالى؛ فعليه يَلزَمُ كلَّ إنسانٍ أنْ يُؤمِنَ بلِقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وأنْ يقومَ بما أوجَبَه اللهُ، وأنْ يَجتنِبَ محارِمَ اللهِ؛ فمَن خاف هذا المقامَ بيْنَ يَدَيِ اللهِ عزَّ وجلَّ فله جَنَّتانِ(١).

٣- مَن خاف اللهَ تعالى في الدُّنيا أمَّنَه في الآخِرةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾(٢) [النازعات: ٤٠، ٤١].

٤- الإحسانُ مِن أفضَلِ مَنازِلِ العُبوديَّةِ؛ لأنَّه لُبُّ الإيمانِ ورُوحُه وكَمالُه، وجميعُ المنازِلِ مُنطَوِيَةٌ فيها؛ قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾، وقال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((الإحسانُ أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه))(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ لطيفةٌ: أنَّه لَمَّا قال تعالى في حَقِّ المُجرِمِ: إنَّه يَطوفُ بيْنَ نارٍ وبيْنَ حَميمٍ آنٍ -وهما نَوعانِ-، ذكَرَ لِغَيرِه -وهو الخائِفُ- جنَّتينِ في مُقابَلةِ ما ذَكَر في حَقِّ المُجرِمِ، لكِنَّه ذَكَر هناك أنَّهم يَطوفونَ فيُفارِقونَ عَذابًا، ويَقَعونَ في الآخَرِ، ولم يَقُلْ هاهنا: يَطوفونَ بيْنَ الجَنَّتينِ، بل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٤٧١).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٤٦٥).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٤٧٧٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩) مِن حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

جعَلَهم اللهُ تعالى مُلوكًا، وهم فيها يُطافُ عليهم، ولا يُطافُ بهم؛ احترامًا لهم، وإكرامًا في حَقِّهم[١]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ ثوابَ مُحسِني الجِنِّ الجَنَّةُ؛ وَجْهُه: أنَّ «مَنْ» مِن صِيغِ العُمومِ، فتَتناوَلُ كلَّ خائفٍ. ولأنَّه رَتَّبَ الجزاءَ المذكورَ على خَوفِ مَقامِه، فدلَّ على استِحقاقِه به[٢]، وأيضًا في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مُؤمِني الجِنِّ والإنسِ يَدخُلونَ الجَنَّةَ، وأنَّه لم يَسْبِقْ مِن أحَدٍ منهم طَمْثٌ لأحدٍ مِن الحُورِ؛ فدلَّ على أنَّ مُؤمِنيهم يَتأتَّى منهم طَمْثُ الحُورِ العِينِ بعدَ الدُّخولِ، كما يَتأتَّى مِن الإنسِ، ولو كانوا ممَّن لا يَدخُلُ الجَنَّةَ لَمَا حَسُنَ الإخبارُ عنهم بذلك[٣]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ترتيبٌ في غايةِ الحُسنِ؛ لأنَّه في أوَّلِ الأمرِ بَيَّنَ المَسكَنَ -وهو الجنَّةُ-، ثمَّ بَيَّن ما يُتنَزَّهُ به؛ فإنَّ مَن يَدخُلُ بُستانًا يتفرَّجُ أوَّلًا، فقال: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ و﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ﴾، ثمَّ ذَكَر ما يُتناوَلُ مِن المأكولِ، فقال: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾، ثمَّ ذَكَر مَوضِعَ الرَّاحةِ بعدَ التَّناوُلِ وهو الفِراشُ، ثمَّ ذَكَر ما يكونُ في الفِراشِ معه[٤]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٤- قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ وَحَّد الضَّميرَ؛ مُراعاةً لِلَفْظِ «مَنْ» إشارةً إلى قِلَّةِ الخائِفينَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٧٠).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ أنَّه سُبحانَه ضَمِنَ الجَنَّةَ لِمَن خافَه مِن أهلِ الإيمانِ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إن قيلَ: إنَّه سُبحانَه سَوَّى بيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ في الاعتِدادِ بالإنعامِ على الثَّقَلَينِ بوَصفِهما، وإنَّما النِّعمةُ إحداهما دونَ الأُخرى!

فالجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى مُنعِمٌ على عبادِه نِعمَتَينِ: نِعمةَ الدُّنيا، ونِعمةَ الدِّينِ، وأعظَمُها في الأُخرى، واجتِهادُ الإنسانِ رَهبةً مِمَّا يُؤلِمُه أكثَرُ مِن اجتِهادِه رَغبةً فيما يُنَعِّمُه؛ فالتَّرهيبُ زَجرٌ عن المعاصي، وبَعثٌ على الطَّاعاتِ، وهو سَبَبُ النَّفعِ الدَّائِمِ، فأيَّةُ نِعمةٍ أكبَرُ إذَنْ مِن التَّخويفِ بالضَّرَرِ المُؤَدِّي إلى أشرَفِ النِّعَمِ؟! فلمَّا جاز عندَ ذِكرِ ما أنعَمَ به علينا في الدُّنيا، وعندَ ذِكرِ ما أعَدَّه للمُطيعينَ في الأُخرى أن يَقولَ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ جاز أن يقولَ عندَ ذِكرِ ما تخَوَّفَنا به مِمَّا يَصرِفُنا عن مَعصيتِه إلى طاعتِه الَّتي تَكسِبُنا نعيمَ جَنَّتِه، لأنَّ هذا أسوَقُ إلى تلك الكرامةِ مِن وَصفِ ما أُعِدَّ فيها مِنَ النِّعمةِ(٢)!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ و﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ و﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ سؤالٌ: أنَّ هذه أوصافٌ للجَنَّتينِ المذكورتَينِ، فهو كالكلامِ الواحِدِ، تَقديرُه: «جنَّتانِ ذواتا أفنانٍ، وفيهما عينانِ تجريانِ، وفيهما مِن كُلِّ فاكِهةٍ زَوجانِ»، فما الفائِدةُ في فَصلِ بَعضِها عن بَعضٍ بقَولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع أنَّه لم يَفصِلْ -حينَ ذَكَرَ العَذابَ- بيْنَ الصِّفاتِ، بل قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾[الرحمن: ٣٥]، مع أنَّ إرسالَ النُّحاسِ غيرُ إرسالِ الشُّواظِ،

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٤٠).

وقَولُه: ﴿ يَطُوفُونَ ﴾ [الرحمن: ٤٤] كلامٌ آخَرُ؟!

الجَوابُ: أنَّه جَمَع العذابَ جُملةً، وفَصلَ آياتِ الثَّوابِ؛ ترجيحًا لجانبِ الرَّحمةِ على جانبِ العَذابِ، وتَطييبًا للقَلبِ، وتَهييجًا للسَّامِعِ؛ فإنَّ إعادةَ ذِكرِ المحبوبِ مَحبوبٌ، وتطويلَ الكَلامِ في اللَّذَّاتِ مُستَحسَنٌ[(١)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ ﴾ وَصْفُ الفُرُشِ بكَونِها مُبَطَّنةً بالإستَبرَقِ، وهذا يدُلُّ على أمْرَينِ:

أحدُهما: أنَّها فُرُشٌ عاليةٌ، لها سمْكٌ وحشْوٌ بيْنَ البِطانةِ والظِّهارةِ.

الثَّاني: أنَّ ظهائِرَها أعلى وأحسَنُ مِن بطائِنِها؛ لأنَّ بطائِنَها للأرضِ، وظهائِرَها للجَمالِ والزِّينةِ والمُباشَرةِ؛ عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ في قَولِه تعالى: ﴿ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ ﴾؛ قال: (هذه البطائِنُ قد أُخْبِرْتُم بها، فكيف بالظَّهائِرِ؟!)[(٢)]. فقولُه: ﴿ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ ﴾ يدُلُّ على نهايةِ شَرَفِها؛ فإنَّ ما تكونُ بَطائِنُها مِنَ الإستبرَقِ تكونُ ظَهائِرُها خَيرًا منها، وكأنَّه شَيءٌ لا يُدرِكُه البَصَرُ مِن سُندُسٍ، وهو الدِّيباجُ الرَّقيقُ النَّاعِمُ.

وفيه وجهٌ آخَرُ مَعنويٌّ: وهو أنَّ أهلَ الدُّنيا يُظهِرونَ الزِّينةَ ولا يتمَكَّنونَ مِن أن يَجعَلوا البَطائِنَ كالظَّهائِرِ؛ لأنَّ غَرَضَهم إظهارُ الزِّينةِ، والبَطائِنُ لا تَظهَرُ، وإذا انتفى السَّبَبُ انتفى المُسَبَّبُ؛ فلمَّا لم يَحصُلْ في جَعلِ البَطائِنِ مِن الدِّيباجِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٤٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٠٥).

وقد أخرج أثرَ ابنِ مسعودٍ ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٢٢/ ٢٤٣)، والحاكمُ في ((مستدركه)) (٢/ ٥١٦).

قال الحاكم: (صحيحٌ على شرطِ الشَّيخَينِ)، وقال المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٣٨٦): (إسنادُه حسَنٌ)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (٣٧٤٦).

مَقصودُهم -وهو الإظهارُ- تَرَكوه، وفي الآخِرةِ الأمرُ مَبنيٌّ على الإكرامِ والتَّنعيمِ؛ فتكونُ البطائِنُ كالظَّهائِرِ، فذَكَر البَطائِنَ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ ذُكِرَ الاتِّكاءُ؛ لأنَّه حالُ الصَّحيحِ، الفارِغِ القَلبِ، المُتنَعِّمِ، بخلافِ المَريضِ والمَهمومِ[٢]. وقيل: ذُكِر الاتِّكاءُ فِي الجنَّة؛ لأنَّهم لا يَنامونَ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ -بضَميرِ الجَمعِ- دَلالةٌ على أنَّ في كُلِّ بُستانٍ جَماعةً مِنَ النِّسوانِ[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أنَّ الحُورَ المذكوراتِ في الجَنَّتَينِ الأُولَيَينِ والأُخرَيَينِ أوصافُهنَّ للجَميعِ؛ ولهذا تَجِدُ: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦]، ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ [الرحمن: ٦٨] كلُّها بلَفظِ التَّثنيةِ، لكنْ لَمَّا تَكَلَّمَ عن الحُورِ قال: ﴿فِيهِنَّ﴾ فأتَى بالجَمْعِ، فيُستفادُ منه -واللهُ أعلمُ- أنَّ هذه الأوصافَ -أوصافَ الحُورِ العِينِ- ثابتةٌ في كلٍّ مِن الجَنَّتَينِ الأُولَيَينِ والأُخرَيَينِ[٥].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ دَلالةٌ على عِفَّتِهنَّ، وعلى حُسنِ المُؤمِنينَ في أعيُنِهنَّ، فيُحبِبْنَ أزواجَهنَّ حُبًّا يَشغَلُهنَّ عن النَّظَرِ إلى غَيرِهم، ويدُلُّ أيضًا على الحَياءِ؛ لأنَّ الطَّرْفَ حَرَكةُ الجَفْنِ، والحُوريَّةُ لا تُحَرِّكُ جَفْنَها، ولا تَرفَعُ رَأسَها[٦]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٤٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((دروس الحرم المدني)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٦).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الجِنَّ تَغشى كالإنسِ، وتَدخُلُ الجنَّةَ[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ أنَّ الجنَّ يَتناكَحونَ، وكذا في قَولِه تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾[٢] [الكهف: ٥٠].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ أنَّه كما أنَّ كافِري الجِنِّ في النَّارِ فمُؤمِنُهم المُطيعُ في الجنَّةِ؛ فإنَّ في الآيةِ أنَّ في الجنَّةِ جانًّا يَطمِثونَ النِّساءَ، ومِن أصرَحِ الأدِلَّةِ في ذلك قَولُه تعالى مُخاطِبًا الجِنَّ والإنسَ: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، ثمَّ قال مُبَيِّنًا دُخولَ الجِنِّ والإنسِ فيه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فلو لم يكُنْ مِنَ الآلاءِ على الجِنِّ دُخولُهم الجنَّةَ لَمَا قال فيهم وفي الإنسِ معًا: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بعدَ قَولِه: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[٣]!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ دليلٌ على فَضْلِ الأبكارِ على الثَّيِّباتِ؛ إذْ لا يَصِفُهنَّ ببراءتِهنَّ مِنَ الطَّمْثِ إلَّا وقد فَضَّلَهنَّ على مَن طُمِثْنَ[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ إعلامٌ بكمالِ اللَّذَّةِ بهنَّ؛ فإنَّ لَذَّةَ الرَّجُلِ بالمرأةِ الَّتي لم يَطَأْها سِواه لها فَضْلٌ على لَذَّتِه بغَيرِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٠).

والفضلُ هنا ليس فضْلَ الذَّواتِ، وإنَّما فضْلُ الصِّفاتِ مِن حيثُ قوَّةُ داعيةِ الرَّغبةِ، والإقبالِ على الزَّوجِ.

وكذلك هي أيضًا[١].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ تقديمُ الإنسِ على الجِنِّ، والحِكمةُ هنا: هو أنَّ النَّفيَ تابعٌ لِمَا تَعْقِلُه القُلوبُ مِن الإثباتِ، فيَرِدُ النَّفيُ عليه، وعِلْمُ النُّفوسِ بطَمْثِ الإنسِ ونفْرَتُها ممَّن طَمَثَها الرِّجالُ هو المعروفُ؛ فجاء النَّفيُ على مقتضى ذلك، وكان تقديمُ الإنسُ في هذا النَّفيِ أهمَّ[٢].

١٩- قد يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ أنَّ ألوانَهنَّ البَياضُ والحُمرةُ على نَوعٍ مِنَ الإشرابِ، وهو في غايةِ الإعجابِ مِن الشُّفوفِ والصَّفاءِ، وهو مع ذلك ثابِتٌ لا يَعتَريه تغَيُّرٌ، وقد شَبَّهَهنَّ بهما فيما يَحسُنُ التَّشبيهُ به؛ فالياقوتُ في إملاسِه وشُفوفِه، والمَرْجانُ في إملاسِه وجَمالِ مَنظَرِه[٣].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ دليلٌ على أنَّ الصَّفاءَ والرِّقَّةَ مَدْحٌ في الأشخاصِ[٤].

٢١- هذه الآيةُ: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ خِتامُ ثماني آياتٍ حاثَّةٍ على العَمَلِ الموصِلِ إلى الثَّمانيةِ الأبوابِ الكائنةِ لجَنَّةِ المُقَرَّبينَ[٥].

٢٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ عُلِمَ منه أنَّ جَزاءَ الإساءةِ السُّوءُ؛ قال تعالى: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقٗا﴾[٦] [النبأ: ٢٦].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ كمالُ فَضْلِ اللهِ عزَّ

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧١).

وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الَّذي أحسَنَ إليك أوَّلًا بتَوفيقِك للطَّاعاتِ والإحسانِ، ثمَّ أحسَنَ إليك ثانيًا بالجَزاءِ عليه[١]. فمِن فَضْلِ اللهِ على عبْدِه أنْ يُحسِنَ إليه، ثمَّ يَعُدَّ إحسانَ العَبدِ إحسانًا[٢]!

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ أنَّ مَن أدَّى عن غيرِه واجبًا أنَّه يَرْجِعُ عليه به[٣]، وكذلك مَن خَلَّصَ مالَ غيرِه مِن التَّلَفِ بما أدَّاه عنه يَرجِعُ به عليه، مِثلُ مَن خَلَّصَ مالًا مِن قُطَّاعٍ، أو عَسْكَرٍ ظالمٍ، أو مُتَوَلٍّ ظالمٍ -ولم يُخَلِّصْه إلَّا بما أدَّى عنه-؛ فإنه يَرجِعُ بذلك، وهو مُحسِنٌ إليه بذلك -وإنْ لم يكُنْ مؤتمَنًا على ذلك المالِ، ولا مُكْرَهًا على الأداءِ عنه-؛ فإنَّه مُحسِنٌ إليه بذلك، وهل جزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحسانُ[٤]؟!

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ أنَّ الأعمالَ مَحَلُّ الثَّناءِ والقَدْحِ؛ فقولُه تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ مَحَلُّ الثَّناءِ، وقَولُه: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١] هذا قَدْحٌ؛ فالأعمالُ مَحَلُّ القَدْحِ ومَحَلُّ المَدْحِ، وإذا ثَبَتَ القَدْحُ أوِ المَدْحُ في العَمَلِ فهو يَستلزِمُ قَدْحَ العاملِ إنْ أساء، ومَدْحَه إنْ أحسَنَ، وهذا هو الأصلُ، ولاسيَّما في أمورِ الدُّنيا؛ فإنَّه ليس لنا إلَّا الظَّاهِرُ، أمَّا أمورُ الآخرةِ فعِندَ اللهِ؛ ولهذا لو أنَّنا رَأَيْنا شَخصًا يَسجُدُ لصَنَمٍ قُلْنا: كافِرٌ، مع أنه يَحتَمِلُ أنْ يكونَ جاهِلًا، فإنِ استقامَ ووَحَّدَ اللهَ ارتفَعَ عنه هذا الوَصفُ، وإلَّا فهو باقٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٣٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١ - قولُه تعالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ شُروعٌ في تَعدادِ الآلاءِ الفائضةِ عليهم في الآخرةِ، بعْدَ تَعدادِ ما وصَلَ إليهم في الدُّنيا مِن الآلاءِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ[١].

- وهو انتِقالٌ مِن وصْفِ جَزاءِ المُجرمين إلى ثَوابِ المتَّقينَ، والجُملةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١] إلى آخرِها[٢].

- قولُه: ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، أي: خاف مَوقِفَه الَّذي يقِفُ فيه العِبادُ للحِسابِ، وفي هذه الإضافةِ تَنبيهٌ على صُعوبةِ الموقفِ. أو خاف قِيامَ اللهِ على أحوالِه، مِن: قام عليه، إذا راقَبَه. أو خاف مَقامَ الخائفِ عندَ ربِّه للحسابِ؛ فأُضِيفَ إلى الرَّبِّ تَفخيمًا وتَهويلًا. أو خاف ربَّه، و(مَقام) مُقحَمٌ؛ للمُبالَغةِ والتَّعظيمِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قيل: يَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ جِنسَينِ مِن الجنَّاتِ، وقد ذُكِرَت الجنَّاتُ في القُرآنِ بصِيغةِ الجمْعِ غيرَ مرَّةٍ، فالمرادُ جِنسانِ مِن الجنَّاتِ. ويجوزُ أنْ تكونَ التَّثنيةُ مُستعمَلةً كِنايةً عن التَّعدُّدِ، وإيثارُ صِيغةِ التَّثنيةِ هنا لمُراعاةِ الفواصلِ السَّابقةِ واللَّاحقةِ؛ فقد بُنِيَت قرائنُ السُّورةِ عليها، والقرينةُ ظاهرةٌ، وعلى هذا فجَميعُ ما أُجرِيَ بصِيغةِ التَّثنيةِ في شأْنِ الجنَّتينِ فمُرادٌ به الجمْعُ. وقيل: المرادُ بالجنَّتينِ جنَّةٌ واحدةٌ، وإنَّما ثَنَّى مُراعاةً للفواصلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي =

- ولَمَّا ذَكَر سُبحانه الخوفَ ذَكَر المقامَ، وعندَ الخشيةِ ذَكَر اسمَه الكريمَ فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ لأنَّهم عرَفوا عَظَمةَ اللهِ فخافوه لا لِذُلٍّ منهم، وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]؛ لأنَّه يَعرِفُ ربَّه بالعَظَمةِ فيَخشاهُ، فالخَوفُ خَشيةُ سببُها ذُلُّ الخاشي، والخشيةُ خَوفٌ سببُه عَظَمةُ المَخشيِّ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ صِفةٌ للجنَّتينِ، وما بيْنَهما اعتِراضٌ وُسِّطَ بيْنَهما؛ تَنبيهًا على أنَّ تَكذيبَ كلٍّ مِن الموصوفِ والصِّفةِ مُوجِبٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ[٢].

- وخَصَّ الأفنانَ بالذِّكرِ -وهي الأغصانُ الَّتي تَتشعَّبُ مِن فُروعِ الشَّجرةِ-؛ لأنَّها هي الَّتي تُورِقُ وتُثمِرُ، فمنها تَمتَدُّ الظِّلالُ، ومنها تُجْتنى الثِّمارُ[٣]. أو خَصَّ الأفنانَ بالذِّكرِ ونكَّرَها؛ لأنَّ المقصودَ هنا أفنانٌ عظيمةٌ، كثيرةُ الإيراقِ والإثمارِ والظِّلِّ، بقَرينةِ أنَّ الأفنانَ لا تَخلو عنها الجنَّاتُ، فلا يُحتاجُ إلى ذِكرِ الأفنانِ لولا قصْدُ ما في التَّنكيرِ مِن التَّعظيمِ[٤].

= حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦).

- وإنْ كان الجنَّتانِ اثنتَينِ لكلِّ مَن خاف مَقامَ ربِّه؛ فلكلِّ جنَّةٍ منهما عَينٌ؛ فهما عَينانِ لكلِّ مَن خاف مَقامَ ربِّه. وإنْ كان الجنَّتانِ جِنسَينِ، فالتَّثنيةُ مُستعمَلةٌ في إرادةِ الجمْعِ، أي: عُيونٌ على عدَدِ الجنَّاتِ. وكذلك إذا كان المرادُ مِن تَثنيةِ ﴿جَنَّتَانِ﴾ الكثرةَ، كان تَثنيةُ ﴿عَيْنَانِ﴾ للكَثرةِ[١].

- وجاء الفصْلُ بيْنَ قولِه: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ وبيْنَ قولِه: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ بقولِه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ -والأفنانُ عليها الفواكهُ-؛ لأنَّ الدَّاخلَ إلى البُستانِ لا يَقْدَمُ إلَّا للتَّفرُّجِ بِلَذَّةِ ما فيه بالنَّظرِ إلى خُضرةِ الشَّجرِ، وجرْيِ الأنهارِ، ثمَّ بعْدُ يَأخُذُ في اجتِناءِ الثِّمارِ للأكلِ[٢].

أو فصَلَ بيْنَ الأفنانِ وبيْنَ ذِكرِ الفاكهةِ بذِكرِ العَينينِ، معَ أنَّ الفاكهةَ بالأفنانِ أنسَبُ؛ لأنَّه لَمَّا جَرَى ذِكرُ الأفنانِ -وهي مِن جَمالِ مَنظَرِ الجنَّةِ-، أعقَبَ بما هو مِن مَحاسِنِ الجنَّاتِ -وهو عُيونُ الماءِ- جمْعًا للنَّظيرَينِ، ثمَّ أعقَبَ ذلك بما هو مِن جَمالِ المَنظَرِ -أعني: الفواكهَ في أفنانِها- ومِن مَلذَّاتِ الذَّوقِ[٣].

- وأمَّا تَثنيةُ ﴿زَوْجَانِ﴾ فإنَّ الزَّوجَ هنا النَّوعُ، وأنواعُ فواكهِ الجنَّةِ كثيرةٌ، وليس لكلِّ فاكهةٍ نَوعانِ: فإمَّا أنْ تكونَ التَّثنيةُ بمعْنى الجمْعِ، ويكونَ إيثارُ صِيغةِ التَّثنيةِ لمُراعاةِ الفاصِلةِ، ومِن أجْلِ المُزاوَجةِ مع نَظائرِها مِن قولِه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ إلى هنا، وإمَّا أنْ تكونَ تَثنيةُ ﴿زَوْجَانِ﴾ لكونِ الفواكهِ بَعضُها يُؤكَلُ رَطْبًا، وبَعضُها يُؤكَلُ يابِسًا؛ مِثلُ الرُّطَبِ والتَّمرِ، والعِنبِ والزَّبيبِ، وغيرِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقولُه: ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ بَيانٌ لـ ﴿زَوۡجَانِ﴾ مُقدَّمٌ على المُبيَّنِ؛ لرعْيِ الفاصِلةِ[(١)].

٣- قوله تعالى ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- انتصَبَ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حالًا مِن (لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)، وجِيءَ بالحالِ صِيغةَ جمْعٍ باعتِبارِ معْنى صاحبِ الحالِ، وصَلاحيةِ لَفْظِه للواحدِ والمتعدِّدِ، لا باعتبارِ وُقوعِ صِلتِه بصِيغةِ الإفرادِ؛ فإنَّ ذلك اعتبارٌ بكونِ (مَن) مُفرَدةَ اللَّفظِ، والمعْنى: أُعْطوا الجِنانَ، واستقَرُّوا بها، واتَّكَؤوا على فُرُشٍ. وقيل: العاملُ مَحذوفٌ، أي: يَتنعَّمون مُتَّكئينَ. وقيل: نُصِبَ على المدْحِ[(٢)].

- قولُه: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾، البِطانةُ: هي الثَّوبُ الَّذي يُجعَلُ على الفِراشِ، والظِّهارةُ: الثَّوبُ الَّذي يُجعَلُ فوقَ البِطانةِ؛ ليَظهَرَ لرُؤيةِ الدَّاخلِ للبَيتِ، فتَكونُ الظِّهارةُ أحسَنَ مِن البطانةِ في الفِراشِ، فالمعْنى هنا: أنَّ بطائنَ فُرشِ الجنَّةِ مِن إستبرقٍ، وإذا كانت البطائنُ كذلك فما ظنُّكَ بالظَّهائرِ؟! فلا بُدَّ أنَّها أجودُ مِن ذلك، فوَصْفُ البطائنِ بذلك هنا كِنايةٌ عن نَفاسةِ وصْفِ ظَهائرِ الفُرشِ[(٣)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٨). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣١٣).

- قولُه: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ جُمِعَ الضَّميرُ مع أنَّ قبْلَه ﴿جَنَّتَانِ﴾؛ لرُجوعِه إلى الآلاءِ المعدودةِ في الجنَّتَينِ، أو إلى الجنَّتَينِ لكنَّ جمْعَه لاشتِمالِهما على قُصورٍ ومَنازلَ، أو إلى المنازلِ والقصورِ الَّتي دلَّ عليها ذِكرُ الجنَّتينِ، أو إلى الفُرُشِ لقُرْبِها، وتكونُ (في) بمعْنى (على)، كما في قولِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨]، أي: عليه[١].

- وضَميرُ ﴿فِيهِنَّ﴾ عائدٌ إلى ﴿فُرُشٖ﴾ -على قولٍ-، وهو سَببُ تأْخيرِ نِعَمِ أهلِ الجنَّةِ بلَذَّةِ التأنُّسِ بالنِّساءِ عمَّا في الجنَّاتِ مِن الأفنانِ والعُيونِ والفواكهِ والفُرشِ؛ ليكونَ ذِكرُ الفُرشِ مُناسبًا للانتقالِ إلى الأوانسِ [جمع آنسةٍ] في تلك الفُرشِ، وليَجِيءَ هذا الضَّميرُ مُفيدًا معنًى كثيرًا مِن لفْظٍ قليلٍ، وذلك مِن خَصائصِ التَّرتيبِ في هذا التَّركيبِ فـ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ كائنةٌ في الجنَّةِ، وكائنةٌ على الفُرشِ مع أزواجِهنَّ[٢].

- و﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾: صِفةٌ لموصوفٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: نِساءٌ، وشاعَ المدْحُ بهذا الوصفِ في الكلامِ حتَّى نُزِّلَ مَنزلةَ الاسمِ[٣]. وحُذِفَ الموصوفُ لِنُكتةٍ، وهي أنَّه تعالى لم يَذكُرْهنَّ باسمِ الجِنسِ -وهو النِّساءُ- بل بالصِّفاتِ، فقال: ﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾ [الواقعة: ٢٢]، ﴿وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا﴾ [النبأ: ٣٣]، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ [الصافات: ٤٨]، ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ﴾ [الرحمن: ٧٢]، ولم يقُلْ: نِساءٌ عُرُبٌ، ولا نِساءٌ قاصِراتٌ؛ لِوَجهَينِ: إمَّا على عادةِ العُظماءِ -كبناتِ الملوكِ- إنَّما يُذكَرْنَ بأوصافِهنَّ، وإمَّا لأنهنَّ لَمَّا كَمَلْنَ كأنَّهنَّ خرَجْنَ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٦، ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

جِنسِهنَّ[(١)].

- والطَّمْثُ: مَسيسُ الأُنثى البِكرِ، وعُبِّرَ عن البكارةِ بقولِه: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ إطنابًا في التَّحسينِ[(٢)].

- وقولُه: ﴿إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ﴾، أي: لم يَطمِثْهُنَّ أحدٌ قبْلُ، وقولُه: ﴿وَلَا جَآنّٞ﴾ تَتميمٌ واحتِراسٌ[(٣)]، وهو إطنابٌ دَعا إليه أنَّ الجنَّةَ دارُ ثوابٍ لصالحِي الإنسِ والجنِّ، فلمَّا ذُكِرَ ﴿إِنسٞ﴾ نشَأَ تَوهُّمُ أنْ يَمسَّهُنَّ جِنٌّ؛ فدُفِعَ ذلك التَّوهُّمُ بهذا الاحتِراسِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٥٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠).

(٣) التَّتميمُ: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها.
والاحتِراسُ: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفَعُ ذلك الاحتِمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ: التَّكميلَ.
والفَرقُ بيْنَ الاحتِراسِ والتَّتميمِ: أنَّ الاحتِراسَ يجبُ أنْ يكونَ لرَفْعِ إيهامِ خِلافِ المقصودِ، وأمَّا التَّتميمُ فإنَّه يكونُ في كلامٍ لا يُوهِمُ خِلافَ المقصودِ؛ فالنِّسبةُ بيْنَهما إذَنْ هي التَّبايُنُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و (٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩-٥١، ٢٤٠ - ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠).

- وفي قولِه: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالإردافِ[(١)]، والمعْنى في الآيةِ: فيهنَّ عَفيفاتٌ قد قَصَرَت عِفَّتُهنَّ طَرْفَهنَّ على بُعولتِهنَّ، وعُدِلَ عن المعْنى الخاصِّ إلى لَفظِ الإردافِ؛ لأنَّ كلَّ مَن عفَّ غضَّ الطَّرْفَ عن الطُّموحِ، فقد يَمتدُّ نظَرُ الإنسانِ إلى شَيءٍ وتَشتهيهِ نفْسُه ويَعِفُّ عنه مع القُدرةِ عليه لأمرٍ آخَرَ، وقصْرُ طَرْفِ المرأةِ على بَعْلِها، أو قصْرُ طَرْفِها حَياءً وخَفَرًا[(٢)]، أو قَصْرُ عَينَيْ مَن يَنظُرُ إليهنَّ عن النَّظرِ إلى غيرِهنَّ؛ أمرٌ زائدٌ على العِفَّةِ؛ لأنَّ مَن لا يَطمَحُ طَرْفُها لغيرِ بَعْلِها، أو لا يَطمَحُ حَياءً وخَفَرًا؛ فإنَّها ضَرورةً تكونُ عَفيفةً، فكلُّ قاصرةِ الطَّرْفِ عَفيفةٌ، وليست كلُّ عفيفةٍ قاصرةَ الطَّرْفِ؛ فلذلك عُدِلَ عن اللَّفظِ الخاصِّ إلى لَفظِ الإردافِ[(٣)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ تَشبيهٌ مُرسَلٌ[(٤)] مُجمَلٌ، قيل: وَجْهُ الشَّبهِ

---

(١) الإرداف: هو أنْ يُريدَ المُتكلِّمُ معنًى، فلا يُعبِّرُ عنه بلَفظِه الموضوعِ له، بلْ بلَفظٍ هو رِدفُ المعْنى الخاصِّ وتابِعُه قَريبٌ مِن لَفظِ المعْنى الخاصِّ قُرْبَ الرَّديفِ مِن الرِّدفِ. وهو شبيهٌ بالتَّنكيتِ، إلاَّ أنَّ الإردافَ يُتْرَكُ فيه اللَّفظُ الَّذي يُدَلُّ به عادةً على المعنَى، ويُسْتَخدَمُ تعبيرٌ غيرُه؛ لتحقيقِ أغراضٍ فِكريَّةٍ ومَعانٍ لا تُؤَدَّى بالتَّعبيرِ المتروكِ. يُنظر: ((نقد الشعر)) لقدامة بن جعفر (ص: ٥٧)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٠٧)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٣٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤١٦)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨٠).

(٢) الخَفَرُ: شِدَّةُ الحَياءِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤١٦).

(٤) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذي وصفٍ في وصْفِه. وقيل: أن تُثبِتَ للمُشَبَّهِ حُكمًا مِن أحكامِ المُشَبَّهِ به. وقد اتَّفَق الأدباءُ على شرَفِه في أنواعِ البلاغةِ، وأنَّه إذا جاء في أعقابِ المعاني أفادها كمالًا، وكساها حلَّةً وجمالًا، وهو جارٍ في كلامِ العربِ، بل هو أكثرُ كلامِهم. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ عدَّةَ تقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّةٍ؛ فمنه: التَّشبيهُ المُفرَدُ. ومنه: التَّشبيهُ المُركَّبُ: وهو الَّذي يكونُ =

في لَونِ الحُمرةِ المَحمودةِ، أي: حُمرةُ الخدودِ، كما يُشبَّهُ الخدُّ بالورْدِ، ويجوزُ أنْ يكونَ التَّشبيهُ بهما في الصَّفاءِ واللَّمَعانِ[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما فُصِّلَ قبْلَه[٢]. وهو تَذييلٌ للجُمَلِ المَبدوءةِ بقولِه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، أي: لأنَّهم أحْسَنوا فجازاهم ربُّهم بالإحسانِ[٣].

- والاستِفهامُ هنا مُستعمَلٌ في النَّفيِ؛ ولذلك عُقِّبَ بالاستِثناءِ، فأفاد حصْرَ مُجازاةِ الإحسانِ في أنَّها إحسانٌ، وهذا الحصرُ إخبارٌ عن كَونِه الجزاءَ الحقَّ، ومُقتضى الحكمةِ والعدلِ، وإلَّا فقدْ يَتخلَّفُ ذلك لدى الظَّالِمينَ، قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[٤] [الواقعة: ٨٢].

= وجْهُ الشَّبَهِ فيه مُنتزَعًا مِن مُتعدِّدٍ، أو مِن أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتَّشبيهُ مُركَّبٌ مِن أحوالِ الحِمارِ. وخصَّ البَيانيُّون لفظَ «التَّمثيلِ» بالتَّشبيهِ المُركَّبِ. ومنه: التَّشبيهُ البليغُ: وهو ما كانت أداةُ التَّشبيهِ فيه محذوفةً. ويَنقسِمُ باعتبارٍ آخَرَ إلى: مؤكَّدٍ: وهو ما حُذِفت فيه الأداةُ، نحو: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مِثلَ مَرِّ السَّحابِ. ومُرْسَلٍ: وهو ما لم تُحذَفْ فيه الأداةُ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٢-٧٨)

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾: دُونَ: أقَلُّ، أي: أقَلُّ منهما في المَنزِلةِ والقَدرِ، يُقالُ للقاصِرِ عن الشَّيءِ: دُون، وقيل: (دون) بمعنَى (غير)، ولها مَعانٍ كثيرةٌ، و(دُونَ) قيل: هو مقلوبٌ مِن الدُّنوِّ، وأصل (دون): يدُلُّ على المُداناةِ والمُقارَبةِ[١].

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾: أي: سَوْداوانِ؛ مِن شِدَّةِ الخُضرةِ والرِّيِّ، والأصلُ في ذلك أنَّ الخُضرةَ إذا اشتَدَّت ضَرَبَت إلى السَّوادِ[٢].

﴿نَضَّاخَتَانِ﴾: أي: فوَّارتانِ بالماءِ بقُوَّةٍ، والنَّضْخُ: فَورُ الماءِ مِنَ العَينِ، وهو أكثَرُ مِنَ النَّضْحِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٥، ٢/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٠)، ((غريب =

﴿حُورٌ﴾: جمعُ حوراءَ، وهي: البَيضاءُ، أو: الشَّديدةُ بَياضِ العَينِ الشَّديدةُ سَوادِها[١].

﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾: أي: مَحبوساتٌ مَستوراتٌ، والقَصرُ: المَنعُ والحَبسُ[٢].

﴿رَفْرَفٍ﴾: أي: ما تدَلَّى مِنَ الأَسِرَّةِ مِن غالي الثِّيابِ والبُسُطِ؛ مِن رَفَّ البَيتُ: إذا تنَعَّمَ وحَسُنَ، جَمعٌ واحِدتُها: رَفرَفةٌ[٣].

﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ أي: بُسُطٍ ووسائِدَ فائِقةِ الجَمالِ، بديعةِ الصُّنعِ، والعَبقريُّ: نِسبةٌ

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٣، ٢٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٣)، ((أدب الكاتب)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

قال الرازي: (إمَّا أنْ يَكونَ أصْلُه مِن رَفَّ الزَّرْعُ إذا بَلَغ مِن نضارَتِه، فيكونَ مُناسِبًا لقولِه تعالَى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤]، ويكونَ التَّقديرُ أنَّهم مُتَّكِئونَ على الرِّياضِ والثِّيابِ العبقريَّةِ. وإمَّا أنْ يكونَ مِن رفرفةِ الطَّائرِ، وهي حَوْمُه في الهواءِ حوْلَ ما يُريدُ النُّزولَ عليه، فيكونَ المعنَى أنَّهم على بُسُطٍ مَرْفوعةٍ، كما قال تعالَى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤]، وهذا يدُلُّ على أنَّ قولَه تعالَى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] أنَّهما دونَهما في المكانِ، حيثُ رُفِعَتْ فُرُشُهم). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٨١).

إلى عَبقَرٍ: اسمُ بلادِ الجِنِّ في مُعتَقَدِ العَرَبِ، فنَسَبوا إليه كُلَّ ما تجاوَزَ العادةَ في الإتقانِ والحُسْنِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومِن دُونِ هاتَينِ الجَنَّتَينِ -اللَّتَينِ تقَدَّمَ ذِكرُهما- في الرُّتبةِ والفَضلِ جَنَّتانِ أُخْرَيانِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يُفصِّلُ اللهُ سُبحانَه أوصافَ هاتَينِ الجنَّتَينِ، فيقولُ: هاتانِ الجَنَّتانِ مُسْوَدَّتانِ؛ مِن شِدَّةِ خُضرتِهما؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفيهما عَيْنانِ فوَّارتانِ بالماءِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفيهما فَواكِهُ ونَخلٌ ورُمَّانٌ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفِيهنَّ نساءٌ خَيْراتُ الصِّفاتِ والأخلاقِ، حِسانُ الوُجوهِ والأبدانِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟! وهُنَّ بِيضٌ، شَديدٌ سوادُ أعيُنِهنَّ وبَياضُها، مَحجوباتٌ في بُيوتِ اللُّؤلؤِ المُجَوَّفِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟! ولم يُجامِعْهنَّ فيَفتَضَّ بَكارتَهُنَّ قبْلَ أزواجِهنَّ أحَدٌ مِنَ الإنسِ أو الجِنِّ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

يَتنَعَّمونَ بالاتِّكاءِ على ثيابٍ خَضراءَ فاخِرةٍ مُتدَلِّيةٍ مِن فُرُشِهم، وعلى بُسُطٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٥).

ووسائِدَ بديعةِ الصُّنعِ، حَسَنةِ المَنظَرِ! فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يختمُ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ، فيقولُ: تَبارَكَ اسمُ رَبِّك -يا محمَّدُ- ذي العَظَمةِ والإكرامِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قد عُلِمَ مِمَّا ذُكِرَ أوَّلَ هذا الكلامِ مِنَ الخَوفِ معَ ذِكرِ وَصفِ الإكرامِ، وآخِرَه مِن ذِكرِ الإحسانِ: أنَّ هذا الفَريقَ مُحسِنٌ، وكان مِن المعلومِ أنَّ العامِلينَ طَبَقاتٌ، وأنَّ كُلَّ طَبَقةٍ أجرُها على مِقدارِ أعمالِها؛ اقتضى الحالُ بَيانَ ما أُعِدَّ لِمَن دُونَهم[1].

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾.

أي: ومِن دُونِ الجَنَّتَينِ -اللَّتَينِ تقَدَّمَ ذِكرُهما- جَنَّتانِ أقَلُّ مِنهما رُتبةً وفَضلًا[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٢ - ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٦، ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي: دُونَهما في الفَضلِ والرُّتبةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحديُّ، وابن القيِّم، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٢، ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٦، ٥٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢١). =

عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((جَنَّتانِ مِن فِضَّةٍ، آنِيَتُهما وما فيهما، وجَنَّتانِ مِن ذَهَبٍ، آنِيَتُهما وما فيهما))[(١)].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[(٢)]؟!

﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

أي: هاتانِ الجَنَّتانِ مُسْوَدَّتانِ؛ مِن شِدَّةِ خُضرتِهما[(٣)].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ ﴾.

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وأبو موسى الأشعريُّ، وابنُ زَيدٍ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٤٣).

قال الرَّسْعَني: (قال المفسِّرون: مِن دُونِهما في الفضلِ والدَّرَجاتِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٧٥).

وذكَر ابنُ عطيَّةَ أنَّ أكثَرَ النَّاسِ على هذا التَّأويلِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٥).

وقيل: المعنى: هما أقرَبُ مَكانًا مِن الأُولَيَينِ، وأفضَلُ مِنهما مَرتبةً ومَنزِلةً. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٩٣).

وقال الشوكاني: (ومعنَى «مِنْ دُونِهما» أيْ: مِن أمامِهما ومِنْ قَبلِهما، أي: هما أقرَبُ منهما). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧١). ويُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٩٤).

(١) أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

قال ابن حجر: (قولُه: «جنَّتانِ» إشارةٌ إلى قولِه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، وتفسيرٌ له). ((فتح الباري)) (١٣/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[١]؟!

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: في هاتَينِ الجنَّتَينِ عَينانِ فوَّارتانِ بالماءِ بقُوَّةٍ[٢].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٣]؟!

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الرِّيَّ والسَّبَبَ فيه؛ ذَكَر ما يَنشَأُ عنه، فقال[٤]:

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: في هاتَينِ الجَنَّتَينِ فَواكِهُ ونَخيلٌ ورُمَّانٌ[٥].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٦]؟!

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٨، ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما ذُكِرَ لا تَكمُلُ لذَّتُه إلَّا بالأنيسِ؛ قال[١]:

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠﴾.

أي: فِيهنَّ خَيْراتُ الصِّفاتِ والأخلاقِ والشِّيَمِ، وحِسانُ الوُجوهِ والأبدانِ؛ فهنَّ في غايةِ الجَمالِ خَلْقًا وخُلُقًا[٢]!

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٣]؟!

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢﴾.

أي: مِن وَصفِهنَّ أنَّهنَّ بِيضٌ شَديدٌ سوادُ أعيُنِهنَّ وبَياضُها[٤]، مَحجوباتٌ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ﴾: في هذه الجِنانِ الأربَعِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، والرَّسْعَني، والعُلَيمي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٧٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٢٢).

وذهب الشوكاني إلى أنَّ هذه الصِّفةَ ليست عائدةً إلى الجِنانِ الأربَعِ، وذكَرَ أنَّه لا وَجْهَ لهذا؛ وعلَّل ذلك بأنَّه قد وَصَف نِساءَ الجنَّتَينِ الأُولَيَينِ بأنَّهنَّ قاصِراتُ الطَّرفِ كأنَّهنَّ الياقوتُ والمَرجانُ، قال: (وبَيْنَ الصِّفَتينِ بَونٌ بعيدٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٣).

(٤) الحُورُ جَمعُ حَوراءَ، قيل: هي المرأةُ البيضاءُ، وقيل: الحَوراءُ: الشَّديدةُ بَياضِ بَياضِ العَينِ، =

ومَحبوساتٌ في بُيوتِ اللُّؤلؤِ المُجَوَّفِ[(١)].

= والشَّديدةُ سَوادِ سَوادِ العَينِ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عُبَيدة (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢) و(١٧/ ١٨٨).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ: ابنُ عطيَّةَ، والعُلَيمي، فقالا: الحَوْراءُ هي البيضاءُ، القويَّةُ بياضِ بياضِ العَينِ، وسَوادِ سَوادِها. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٠).

قال ابنُ القيِّم: (الصَّحيحُ أنَّ الحُورَ مأخوذٌ مِنَ الحَوَرِ في العَينِ: وهو شِدَّةُ بَياضِها مع قُوَّةِ سَوادِها، فهو يتضَمَّنُ الأمْرَينِ... ولا تُسَمَّى المرأةُ حَوراءَ حتَّى يكونَ مع حَوَرِ عَيْنِها بياضُ لَونِ الجَسَدِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٩).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ الطُّورِ، الآية (٢٠).

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨٨، ١٨٩)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٣، ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٢).

قال ابنُ عاشور: (المقصوراتُ: اللَّائي قُصِرْنَ على أزواجِهنَّ لا يَعْدُونَ الأُنسَ مع أزواجِهنَّ، وهو من صِفاتِ التَّرَفِ في نساءِ الدُّنيا؛ فهُنَّ اللَّائي لا يحتَجْنَ إلى مُغادرةِ بُيوتِهنَّ لخِدمةٍ أو وِردٍ أو اقتِطافِ ثِمارٍ، أي: هُنَّ مخدوماتٌ مُكْرَماتٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٢٠)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٨/ ٢٧٩).

وقال السعدي: (أي: محبوساتٌ في خِيامِ اللُّؤلؤِ، قد تهيَّأنَ وأعدَدْنَ أنفُسَهنَّ لأزواجِهنَّ، ولا يَنفي ذلك خُروجَهنَّ في البَساتينِ ورِياضِ الجنَّةِ، كما جَرَت العادةُ لبناتِ المُلوكِ ونَحوِهنَّ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).

وقال ابن القيِّم: (قال تعالى في وصْفِهنَّ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، المقصوراتُ: المحبوساتُ. قال أبو عُبَيدةَ: خُدِّرْنَ في الخيامِ. وكذلك قال مقاتلٌ: محبوساتٌ في الخِيامِ. وفيه معنًى آخَرُ، وهو أن يكونَ المرادُ: أنَّهنَّ مَحبوساتٌ على أزواجِهنَّ، لا يَرَوْنَ غيرَهم، وهم في الخيامِ. وهذا معنَى قولِ مَن قال: قُصِرْنَ على أزواجِهنَّ، فلا يُرِدْنَ غيرَهم، ولا يَطمَحْنَ إلى مَن سِواهم، وذكره الفرَّاءُ.

قلتُ: وهذا معنى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ [الرحمن: ٥٦]، ولكنَّ أولئك قاصِراتٌ بأنفُسِهنَّ، =

عن أبي موسى الأَشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((في الجنَّةِ خَيمةٌ مِن لُؤلؤةٍ مُجَوَّفةٍ، عَرضُها سِتُّونَ مِيلًا، في كُلِّ زاويةٍ منها أهلٌ ما يَرَونَ الآخَرينَ، يَطوفُ عليهم المُؤمِنُ!))[1].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٣﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[2]؟!

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ٧٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت أنفُسُ الأخيارِ، ذَوِي الهِمَمِ العاليةِ الكِبارِ، في الالتِفاتِ إلى الأبكارِ؛ قال[3]:

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ٧٤﴾.

= وهؤلاء مقصوراتٌ. وقولُه: ﴿فِي ٱلْخِيَامِ﴾ على هذا القولِ صِفةٌ لـ ﴿حُورٌ﴾، أي: هُنَّ في الخيامِ، وليس معمولًا لـ ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾، وكأنَّ أربابَ هذا القولِ فرُّوا مِن أن يَكُنَّ مَحبوساتٍ في الخيامِ، لا تُفارِقْنَها إلى الغُرَفِ والبَساتينِ.

وأصحابُ القولِ الأوَّلِ يُجيبونَ عن هذا بأنَّ اللهَ سُبحانَه وصَفَهنَّ بصِفاتِ النِّساءِ المُخَدَّراتِ المَصوناتِ، وذلك أجملُ في الوصفِ، ولا يَلزَمُ مِن ذلك أنَّهنَّ لا يُفارِقْنَ الخيامَ إلى الغُرَفِ والبَساتينِ، كما أنَّ نساءَ الملوكِ وذَوِيهم مِن النِّساءِ المُخدَّراتِ المَصوناتِ لا يَمتنِعُ أن يَخرُجْنَ في سفَرٍ وغيرِه إلى مُتنزَّهٍ وبُستانٍ ونحوِه، فوَصْفُهنَّ اللَّازِمُ لهنَّ: القصرُ في البيتِ، ويَعرِضُ لهنَّ مع الخدَمِ الخُروجُ إلى البساتينِ ونحوِها. وأمَّا مجاهدٌ فقال: مقصوراتٌ قلوبُهُنَّ على أزواجِهنَّ في خيامِ اللُّؤْلُؤِ. ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٣، ٢٢٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٢٠)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٦).

(١) رواه البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩١).

أي: لم يُجامِعْهنَّ فيَفتَضَّ بَكارتَهُنَّ قبْلَ أزواجِهنَّ أحَدٌ مِنَ الإنسِ أو الجِنِّ[(١)].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[(٢)]؟!

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

أي: يَتنَعَّمونَ بالاتِّكاءِ على ثيابٍ خَضراءَ فاخِرةٍ رَقيقةٍ مُتدَلِّيةٍ مِن فُرُشِهم، ومُتَّكِئينَ على بُسُطٍ فائِقةِ الجَمالِ، بديعةِ الصُّنعِ، حَسَنةِ المَنظَرِ[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٢، ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٣، ٢٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٠، ١٩٢)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٠٧-٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٩، ٥١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٤، ٢٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٣).

ممَّن اختار أنَّ الرَّفْرَفَ هو ما تدلَّى مِن الأَسِرَّةِ مِن عالي الثِّيابِ: أبو حيَّان، والسَّمينُ الحلبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٨٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالرَّفرفِ: البُسُطُ: السمعانيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٢).

وقال ابن القيِّم: (والرَّفْرَفُ: ثيابٌ خُضْرٌ يُتَّخَذُ منها المحابسُ [وهي الثيابُ الَّتي تُطرَحُ على ظَهرِ الفِراشِ للنَّومِ عليه] الواحدةُ رَفْرَفةٌ، وكلُّ ما فضَل مِن شَيءٍ فثُنِيَ وعُطِف فهو رَفْرَفٌ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٠٨).

وقال ابن الجوزي: (واختلَف المفسِّرونَ في المرادِ بالرَّفرفِ على ثلاثةِ أقوالٍ؛ أحدُها: فُضولُ المحابسِ والبُسُط... والثَّاني: أنَّها رياضُ الجنَّةِ... والثَّالثُ: أنَّها الوسائدُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٧).

=

= وقال القرطبي: (قولُه تعالَى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ﴾ الرَّفْرَفُ المحابِسُ. وقال ابنُ عَبَّاسٍ: الرَّفْرَفُ فضولُ الفُرُشِ والبُسُطِ. وعنه أيضًا: الرَّفْرَفُ المحابِسُ يَتَّكِئونَ على فضولِها، وقالَه قَتادةُ. وقال الحسنُ والقُرَظيُّ: هي البُسُطُ. وقال ابنُ عُيَيْنَةَ: هي الزَّرابيُّ. وقال ابنُ كَيْسانَ: هي المرافقُ، وقالَه الحسَنُ أيضًا... وقال اللَّيثُ: ضَرْبٌ مِن الثِّيابِ الخضْرِ تُبْسَطُ. وقيلَ: الفُرُشُ المرتفعةُ. وقيل: كلُّ ثوبٍ عريضٍ عندَ العربِ فهو رَفْرَفٌ... وهذه أقوالٌ مُتَقارِبَةٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٠).

وقال السعدي: (أي: أصحابُ هاتينِ الجنَّتينِ مُتَّكَؤُهم على الرَّفرفِ الأخضَرِ، وهي الفُرُشُ الَّتي فوق المجالسِ العاليةِ، الَّتي قد زادت على مجالِسِهم، فصار لها رَفرفةٌ مِن وراءِ مَجالِسِهم؛ لزيادةِ البَهاءِ، وحُسنِ المنظَرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).

وقال ابنُ عثيمين: (أي: مُعتَمِدينَ بأيديهم وظُهورِهم ﴿عَلَىٰ رَفۡرَفٍ﴾ أي: على مَسانِدَ تُرفرِفُ مِثلَ ما يكونُ على أطرافِ المسانِدِ، ويكونُ في الأسِرَّةِ، هكذا يُرفرِفُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٣).

وقال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّها الزَّرابيُّ -كُلُّ ما بُسِطَ واتُّكِئَ عليه-، قاله ابنُ عبَّاسٍ، وعَطاءٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ، وكذلك قال ابنُ قُتَيْبَةَ: العَبقريُّ: الطَّنَافِسُ -بِساطٌ له خَمْلٌ رَقيقٌ- الثِّخانُ. قال أبو عُبَيدَةَ: يُقالُ لكُلِّ شَيءٍ مِنَ البُسُطِ: عَبقريٌّ.

والثَّاني: أنَّه الدِّيباجُ الغَليظُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٧). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٤).

وقال ابنُ جرير: (وأمَّا العَبقريُّ فإنَّه الطَّنافِسُ الثِّخانُ، وهي جمْعٌ، واحِدُها: عَبقريَّةٌ، وقد ذُكِرَ عن العربِ أنَّها تُسمِّي كُلَّ شَيءٍ مِنَ البُسُطِ عَبقريًّا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٦).

وقال ابن عاشور: (عَبقريٌّ: وَصفٌ لِما كان فائِقًا في صِنفِه، عَزيزَ الوُجودِ، وهو نِسبةٌ إلى عَبْقَرٍ -بفَتحٍ فسُكونٍ ففَتحٍ-: اسمُ بلادِ الجِنِّ في مُعتَقَدِ العَرَبِ، فنَسَبوا إليه كُلَّ ما تجاوَزَ العادةَ في الإتقانِ والحُسنِ، حتَّى كأنَّه ليس مِنَ الأصنافِ المعروفةِ في أرضِ البَشَرِ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٥).

وقال السعدي: (﴿وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ العَبْقريُّ: نِسبةٌ لكُلِّ مَنسوجٍ نَسجًا حَسَنًا فاخِرًا؛ ولهذا وَصَفَها بالحُسنِ الشَّامِلِ؛ لحُسنِ الصَّنعةِ، وحُسنِ المنظَرِ، ونُعومةِ المَلمَسِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[(١)]؟!

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خَتَم سُبحانَه نِعَمَ الدُّنيا بقَولِه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، خَتَم نِعَمَ الآخِرةِ بقَولِه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ الباقيَ والدَّائِمَ لِذَاتِه هو اللهُ تعالى لا غَيرُ، والدُّنيا فانيةٌ، والآخِرةُ وإن كانت باقيةً لكِنَّ بقاءَها بإبقاءِ اللهِ تعالى[(٢)].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى سَعةَ فَضلِه وإحسانِه؛ قال[(٣)]:

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ بالواوِ رَفعًا على الوَصفِ لـ﴿ٱسْمُ﴾[(٤)].

٢- قراءةُ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ بالياءِ جَرًّا على الوَصفِ لـ﴿رَبِّكَ﴾[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).

(٤) قرأ بها ابنُ عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٨).

(٥) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٨).

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾.

أي: تَبارَكَ اسمُ رَبِّك -يا محمَّدُ- فالبَرَكةُ كلُّها منه، فكلُّ ما ذُكِر عليه بُورِك فيه[1]، صاحِبِ العَظَمةِ الباهِرةِ، المُستَحِقِّ لتَعظيمِه وعِبادتِه، والمُكرِمِ عِبادَه

(١) قال ابن أبي زمنين: (﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾: تقدَّسَ اسْمُ رَبِّك). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٣٥).
وقال العُلَيمي: (﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ تعالى اسمُه مِن حَيثُ إنَّه مُطلَقٌ على ذاتِه، فما ظَنُّك بذاتِه). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٩٧).
وقال السعدي: (﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ أي: تعاظَمَ وكَثُرَ خَيرُه، الَّذي له الجَلالُ الباهِرُ، والمجدُ الكامِلُ، والإكرامُ لأوليائه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).
وقال ابن عثيمين: (﴿تَبَٰرَكَ﴾: قال العُلَماءُ: معناها: تعالى وتعاظَمَ إنْ وُصِفَ بها اللهُ، كقَولِه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنين: ١٤]، وإنْ وُصِفَ بها اسمُ اللهِ، معناها: أنَّ البَرَكةَ تكونُ باسمِ اللهِ، أي: إنَّ اسمَ اللهِ إذا صاحَبَ شَيئًا، صارت فيه البَرَكةُ... فنقول: إنَّ ﴿فَتَبَارَكَ﴾ هنا ليست بمعني: تعالى وتعاظَمَ، بل: يتعَيَّنُ أن يكونَ معناها: حَلَّت البَرَكةُ باسمِ اللهِ، أي: إنَّ اسمَه سَبَبٌ للبَرَكةِ إذا صَحِبَ شَيئًا). ((شرح العقيدة الواسطية)) (١/ ٣٤٩، ٣٥٠).
وقيل: الاسمُ هنا يُرادُ به المسَمَّى. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١١٤).
قال القاسمي: (و «الاسمُ» هنا كنايةٌ عن الذَّاتِ العَلِيَّةِ؛ لأنَّه كَثُر اقترانُ الفعلِ المذكورِ معها، كآيةِ ﴿نَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ [الفرقان: ٦١]، وآيةِ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك: ١] ونحوِهما، وسِرُّ إيثارِ الاسمِ: التَّنبيهُ على أنَّه لا يُعرَفُ منه تعالى إلَّا أسماؤه الحُسنى [أي: وما تضَمَّنَتْه مِن أوصافِ الكمالِ، وكذا أوصافُه الَّتي دلَّ عليها النَّقلُ]؛ لاستِحالةِ اكتِناهِ الذَّاتِ المقَدَّسةِ، فما عَرَفَ اللهَ إلَّا اللهُ. هذا هو التَّحقيقُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١١٤).
وقال ابنُ تيميَّة: (قال ابنُ الأنباريِّ وغيرُه: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ تفاعَلَ مِن البَرَكةِ، والمعنَى: أنَّ البركةَ تُكتسَبُ وتُنالُ بذِكرِ اسمِه، فلو كان لفظُ الاسمِ مَعْناه المسمَّى لَكانَ يكفي قولُه: «تبارَكَ رَبُّك»؛ فإنَّ نفْسَ الاسمِ عندَهم هو نفْسُ الرَّبِّ، فكان هذا تكريرًا. وقد قال بعضُ النَّاسِ: إنَّ ذِكْرَ الاسمِ هنا صِلَةٌ، والمرادُ تبارَكَ رَبُّك، ليسَ المرادُ الإخبارَ عن اسمِه بأنَّه تبارَكَ. وهذا غَلَطٌ؛ فإنَّه على هذا يكونُ قولُ المصَلِّي: تَبارَكَ اسمُك، أي: تبارَكْتَ أنت، ونَفْسُ أسماءِ الرَّبِّ لا بَرَكةَ فيها! ومعلومٌ أنَّ نفْسَ أسْمائِه مُبارَكةٌ، وبَرَكَتُها مِن جهةِ دَلالَتِها على المسمَّى). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ١٩٣).

بنِعَمِه، المُستَحِقِّ للإكرامِ والحُبِّ مِن جَميعِ خَلْقِه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- إنَّ الصِّفاتِ الأخلاقيَّةَ تُزاحِمُ الصِّفاتِ المادِّيَّةَ في نعتِ هؤلاء الرَّفيقاتِ العُلويَّاتِ، ليس ذلك فحَسْبُ، ولكنِ العنصرُ الأخلاقيُّ يَتقدَّمُ على المادِّيِّ، ومِن ثَمَّ وجَدْنا: ﴿أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] [النساء: ٥٧]، و﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ﴾ -أوَّلًا- ﴿حِسَانٌ حِسَانٌ﴾، و﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ -أوَّلًا- ﴿عِينٌ﴾ [الصافات: ٤٨]، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص: ٥٢]، وهنَّ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٦، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٤-٣٢٥).

قال الماوَرْدي: (في ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ وَجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه الجليلُ. الثَّاني: أنَّه المستَحِقُّ للإجلالِ والإعظامِ. وفي «الإكرام» وجهانِ؛ أحَدُهما: الكريمُ. الثَّاني: ذو الإكرامِ لِمن يُطيعُه). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٤٤).

وقال ابنُ جرير: (﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ يعني: ذي العَظَمةِ ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ يعني: ومَن له الإكرامُ مِن جَميعِ خَلْقِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٨).

وقال ابنُ القَيِّم: (حقيقةُ العِبادةِ هي الحُبُّ والذُّلُّ، وهذا هو الإجلالُ والإكرامُ الَّذي وَصَف به نفْسَه في قَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، وأصَحُّ القولَينِ في ذلك: أنَّ الجَلالَ هو التَّعظيمُ، والإكرامَ هو الحُبُّ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ١٨٦).

قال ابنُ عثيمين: (﴿ٱلْجَلَٰلِ﴾ بمعني: العَظَمةِ. ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ بمعني: التَّكريمِ، وهو صالِحٌ لأن يكونَ الإكرامُ مِن اللهِ لِمَن أطاعه، وممَّن أطاعه له. فـ﴿ٱلْجَلَٰلِ﴾: عَظَمتُه في نفْسِه، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾: عَظَمتُه في المؤمِنينَ، فيُكرِمونَه ويُكرِمُهم). ((شرح العقيدة الواسطية)) (١/ ٣٥٠).

وقال البِقاعي: (قال الرَّازي في «اللَّوامِعِ»: كأنَّه يريدُ بالاسمِ الَّذي افتَتَح به السُّورةَ، وقد انعَطَف آخِرُ السُّورةِ على أوَّلِها على وَجهٍ أعَمَّ، فيَشملُ الإكرامَ بتَعليمِ القُرآنِ وغَيرِه، والانتِقامَ بإدخالِ النِّيرانِ وغَيرِها). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٩٤).

لا يَبرَحْنَها. هذه الصِّفاتُ الأخلاقيَّةُ ذاتُها هي الَّتي أمَرَنا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن نبنيَ عليها اختيارَنا الزَّوْجيَّ، فقال: ((تُنكَحُ المرأةُ لِأربَعٍ: لِمالِها، ولحَسَبِها، وجمالِها، ولدِينِها، فاظفَرْ بذاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَداك))(١).

٢- قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ فأثنى عليهنَّ بكَونِهنَّ مَقصوراتٍ في خِيامِهنَّ، لا يَخرُجْنَ منها، كما قال تعالى لأزواجِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وكَونُ المرأةِ مَقصورةً في بيتِها لا تخرُجُ منه مِن صِفاتِها الجميلةِ، وذلك معروفٌ في كلامِ العربِ(٢)؛ وذلك لأنَّ الصِّيانةَ تَصونُ ماءَ الملاحةِ ومعناها، والابتِذالَ يُذهِبُ ذلك كلَّه(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أنَّه إذا عَلِمْنا أنَّ اللهَ تعالى مَوصوفٌ بالجَلالِ فإنَّ ذلك يَستوجِبُ أنْ نُعَظِّمَه، وأنْ نُجِلَّه، وإذا عَلِمْنا أنَّه مَوصوفٌ بالإكرامِ فإنَّ ذلك يَستوجِبُ أنْ نرجوَ كَرَمَه وفَضْلَه، وبذلك نُعَظِّمُه بما يَستَحِقُّه مِن التَّعظيمِ والتَّكريمِ(٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ سُؤالٌ: كيف انقَسَمتْ هذه الجِنانُ الأربَعُ على مَن خاف مَقامَ رَبِّه؟

الجوابُ: لَمَّا كان الخائِفونَ نَوعَينِ: مُقَرَّبينَ، وأصحابَ يمينٍ، كان للمُقَرَّبينَ

---

(١) يُنظر: ((دستور الأخلاق في القرآن)) لمحمد عبد الله دراز (ص: ٣٨٦، ٣٨٧).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٠٩٠)، ومسلمٌ (١٤٦٦) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٣، ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((رحلة الحج إلى بيت الله الحرام)) للشنقيطي (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٥٥).

منهم الجَنَّتانِ العاليتانِ، ولأصحابِ اليَمينِ الجَنَّتانِ اللَّتانِ دُونَهما[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أنَّ هاتَينِ الجنَّتَينِ دونَ الجنَّتَينِ الأُولَيَينِ، وكما وَصَفَ الأُولَيَينِ بعِدَّةِ أوصافٍ لم يَصِفْ بها الأُخرَيَينِ؛ فقال في الأُولَيَينِ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠]، وفي الأُخرَيَينِ: ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾، ومِنَ المعلومِ الفَرقُ بيْنَ الجاريةِ والنَّضَّاخةِ، وقال في الأُولَيَينِ: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨]، ولم يَقُلْ ذلك في الأُخرَيَينِ، وقال في الأُولَيَينِ: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]، وفي الأُخرَيَينِ: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، وقد عُلِمَ ما بيْنَ الوَصفَينِ مِنَ التَّفاوُتِ، وقال في الأُولَيَينِ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، ولم يَقُلْ ذلك في الأُخرَيَينِ، بل قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾، وقال في الأُولَيَينِ -في وَصفِ نِسائِهم وأزواجِهم-: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، وقال في الأُخرَيَينِ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾، وقد عُلِمَ التَّفاوُتُ بيْنَ ذلك، وقال في الأُولَيَينِ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ الأُولَيَينِ جَزاءُ المُحسِنينَ، ولم يَقُلْ ذلك في الأُخرَيَينِ، ومجَرَّدُ تَقديمِ الأُولَيَينِ على الأُخرَيَينِ يدُلُّ على فَضلِهما، فبهذه الأوجُهِ يُعرَفُ فَضلُ الأُولَيَينِ على الأُخرَيَينِ، وأنَّهما مُعَدَّتانِ للمُقَرَّبينَ مِنَ الأنبياءِ والصِّدِّيقينَ وخَواصِّ عِبادِ اللهِ الصَّالِحينَ، وأنَّ الأُخرَيَينِ مُعَدَّتانِ لعُمومِ المُؤمِنينَ[٢]. وقيل: جَعَل عزَّ وجَلَّ لِمَن خاف مَقامَ رَبِّه -وهو الرَّجُلُ يَهُمُّ بالمعصيةِ، ثمَّ يَدَعُها مِن خَوفِ اللهِ- أربَعَ جِنانٍ؛ لِيَتضاعَفَ سُرورُه بالتَّنَقُّلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).

(٣) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٤٤١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ يَحتَجُّ به مَن يُخرِجُ الرُّمَّانَ والنَّخلَ مِن مُطلَقِ اسمِ الفاكِهةِ؛ لأنَّ الشَّيءَ لا يُعطَفُ على نَفْسِه، وإنَّما يُعطَفُ على غَيرِه، هذا ظاهِرُ الكَلامِ. والشَّافعيُّ يقولُ: هو كقَولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[1] [البقرة: ٩٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ أنَّ التَّقديمَ ليس لازِمًا للفَضلِ، فلَمْ يَدُلَّ التَّقديمُ فيها على فَضْلِ المبدوءِ به[2].

٥- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾ وقال قَبْلًا: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٥٦]، إنْ قيلَ: كيف قال في ذِكْرِ النِّساءِ: ﴿فِيهِنَّ﴾ في الموضِعَين، ولَمَّا ذَكَرَ غيرَهُنَّ قال: «فيهما»؟!

قيل: لَمَّا ذَكَر الفُرُشَ في قَولِه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الرحمن: ٥٤] قال بَعْدَها: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾، ثمَّ أعاده هنا في الجَنَّتَينِ الأُخرَيَينِ بهذا اللَّفظِ؛ لِيَتشاكَلَ اللَّفظُ والمعنى. واللهُ أعلَمُ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾ أنَّهنَّ خَيْراتُ الأخلاقِ، حِسانُ الأوجُهِ؛ فجَمَعْنَ بيْنَ جَمالِ الظَّاهِرِ والباطِنِ، وحُسْنِ الخَلْقِ والخُلُقِ[4].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ إشارةٌ إلى عَظَمتِهنَّ؛ فإنَّهنَّ

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٩٧)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٣).

ويُنظر ما سيأتي في بلاغةِ الآياتِ (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

ما قُصِرْنَ حَجرًا عليهِنَّ، وإنَّما ذلك إشارةٌ إلى ضَربِ الخِيامِ لهنَّ، وإدلاءِ السِّترِ عليهنَّ، والخَيمةُ مَبيتُ الرَّجُلِ كالبَيتِ مِن الخَشَبِ، حتَّى إنَّ العَرَبَ تُسَمِّي البَيتَ مِنَ الشَّعرِ خيمةً؛ لأنَّه مُعَدٌّ للإقامةِ.

إذا ثَبَت هذا، فقَولُه: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ إشارةٌ إلى معنًى في غايةِ اللُّطفِ، وهو أنَّ المؤمِنَ في الجنَّةِ لا يحتاجُ إلى التَّحَرُّكِ لشَيءٍ، وإنَّما الأشياءُ تتحَرَّكُ إليه؛ فالمأكولُ والمشروبُ يَصِلُ إليه مِن غيرِ حَركةٍ منه، ويُطافُ عليهم بما يَشتَهونَه[1]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أنَّ الحُورَ العِينَ لَسْنَ مِن نِساءِ أهلِ الدُّنيا -وهو المَشهورُ-، وإنَّما هُنَّ مَخلوقاتٌ في الجنَّةِ؛ فإنَّ أكثَرَ نِساءِ أهلِ الدُّنيا مَطْموثاتٌ[2].

٩- بهذه الآيةِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تَمَّت النِّعَمُ الثَّمانِي المُختَصَّةُ بجَنَّةِ أصحابِ اليَمينِ؛ إشارةً إلى العَمَلِ لأبوابِها الثَّمانيةِ[3].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ قَولُه تعالى: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ (ذي) صِفةٌ لـ (رَبِّكَ)، وكأنَّه يريدُ الاسمَ الَّذي افتَتَح به السُّورةَ، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الرحمن: ١]، فافتتَحَ بهذا الاسمِ، فوَصَف خَلْقَ الإنسانِ والجِنِّ، وخَلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ، وصُنْعَه، وأنَّه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، ووَصَف تَدبيرَه فيهم، ثمَّ وَصَف يومَ القيامةِ وأهوالَها وصِفةَ النَّارِ، ثمَّ خَتَمها بصِفةِ الجِنانِ، ثمَّ قال في آخِرِ السُّورةِ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: هذا الاسمُ الَّذي افتَتَح به هذه السُّورةَ، كأنَّه يُعْلِمُهم أنَّ هذا كُلَّه خرَج لكم مِن رحمتي؛ فمِن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٣).

رحمتي خلَقْتُكم، وخلَقْتُ لكم السَّماءَ والأرضَ، والخَلْقَ والخليقةَ، والجنَّةَ والنَّارَ؛ فهذا كُلُّه لكم مِن اسمِ الرَّحمنِ؛ فمَدَح اسمَه، ثمَّ قال: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ جَليلٌ في ذاتِه، كريمٌ في أفعالِه سُبحانَه وتعالى[1].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ خَتَمَ اللهُ تبارك وتعالى هذه السُّورةَ بهذه الجُملةِ العَظيمةِ، أي: ما أعظَمَ بَركةَ اللهِ عزَّ وجلَّ! وما أعظَمَ البَركةَ باسمِه! حتَّى إنَّ اسمَ اللهِ يُحَلِّلُ الذَّبيحةَ أو يُحَرِّمُها؛ لو ذَبَحَ الإنسانُ ذبيحةً ولم يَقُلْ: باسمِ اللهِ، تكونُ مَيْتةً حَرامًا نَجسةً، مُضِرَّةً على البَدَنِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فانظُرِ البَركةَ! والإنسانُ إذا رأى الصَّيدَ الزَّاحِفَ أوِ الطَّائرَ فرَماه ولم يُسَمِّ، يكونُ هذا الصَّيدُ حَرامًا مَيْتةً نَجسًا مُضِرًّا على البَدَنِ، فانظُرِ البَركةَ! والإنسانُ إذا أتى أهلَه -يعني: جامَعَ زوجتَه- وقال: «باسمِ اللهِ، اللَّهمَّ جَنِّبْنا الشَّيطانَ، وجَنِّبِ الشَّيطانَ ما رَزَقْتَنا» كان هذا حمايةً لهذا الوَلَدِ الَّذي يَنشَأُ مِن هذا الجِماعِ؛ حِمايةً له مِن الشَّيطانِ؛ قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لو أنَّ أحدَهم إذا أراد أن يأتيَ أهلَه قال: باسمِ اللهِ، اللهمَّ جَنِّبْنا الشَّيطانَ، وجَنِّبِ الشَّيطانَ ما رَزَقْتَنا؛ فإنَّه إنْ يُقَدَّرْ بيْنَهما وَلَدٌ في ذلك لم يَضُرَّه الشَّيطانُ أبدًا))[2]، وكلُّ هذا دَليلٌ على بَركةِ اسمِ اللهِ عزَّ وجلَّ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٣٨٨)، ومسلمٌ (١٤٣٤) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٤).

فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

- قولُه: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، أي: ومِن دُونِ تَينِكَ الجنَّتينِ جنَّتانِ، أي: لِمَن خاف مَقامَ ربِّه[١].

- وقدْ وَصَف ما في هاتَينِ الجنَّتينِ بما يُقارِبُ ما وَصَف به ما في الجنَّتينِ الأُوليَينِ وصْفًا سُلِكَ فيه مَسلَكُ الإطنابِ أيضًا؛ لبَيانِ حُسْنِهما؛ تَرغيبًا في السَّعْيِ لنَيلِهما بتَقْوى اللهِ تعالى، فذلك مُوجِبٌ تَكريرَ بَعضِ الأوصافِ، أو ما يَقرُبُ مِن التَّكريرِ بالمُترادِفاتِ[٢].

- وقولُه: ﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾ صِفةٌ لـ ﴿ جَنَّتَانِ ﴾، وُسِّطَ بيْنَهما الاعتِراضُ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؛ لِما ذُكِر مِن التَّنبيهِ على أنَّ تَكذيبَ كلٍّ مِن الموصوفِ والصِّفةِ حَقيقٌ بالإنكارِ والتَّوبيخِ[٣].

- وقولُه: ﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾ وصْفٌ مُشتَقٌّ مِن الدُّهمةِ، وهي لَونُ السَّوادِ، ووَصْفُ الجنَّتينِ بالسَّوادِ مُبالَغةٌ في شِدَّةِ خُضرةِ أشجارِهما حتَّى تَكونَا بالْتِفافِ أشجارِها وقُوَّةِ خُضرتِها كالسَّوداوَينِ؛ لأنَّ الشَّجرَ إذا كان ريَّانَ اشتدَّتْ خُضرةُ أوراقِه حتَّى تَقرُبَ مِن السَّوادِ[٤].

- قولُه: ﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾ قيل: فيه إشعارٌ بأنَّ الغالبَ على هاتَينِ الجنَّتينِ النَّباتُ والرَّياحينُ المنبسِطةُ على وجْهِ الأرضِ، وعلى الأُوليَينِ الأشجارُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).

والفواكهُ[١]؛ فإنَّ الأشجارَ توصَفُ بأنَّها ذَواتُ أفنانٍ، والنَّباتَ يوصَفُ بالخُضرةِ الشَّديدةِ، فالاقتِصارُ في كلٍّ منهما على أحدِ الأمْرَينِ مُشعِرٌ بما ذُكِر[٢].

- وُصِفَتِ العَينانِ في قولِه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ بغَيرِ ما وُصِفَت به العَينانِ في الجنَّتينِ المذكورتينِ قبْلُ؛ فقِيل: هما صِنفانِ مُختلِفانِ في أوصافِ الحُسنِ، يُشيرُ اختِلافُهما إلى أنَّ هاتَينِ الجنَّتينِ دونَ الأُولَيينِ في المَحاسِنِ؛ ولذلك جاء هنا ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، وجاء فيما تَقدَّم ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]. وقيل: الوصْفانِ سَواءٌ؛ وعليه فالمُخالَفةُ بيْنَ الصِّنفَينِ مِن الأوصافِ تَفنُّنٌ[٣].

- قولُه: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، عطَفَ النَّخلَ والرُّمَّانَ على الفاكهةِ -وهما منْها-؛ اختِصاصًا لهما، وبَيانًا لفضْلِهما وشَرَفِهما؛ فإنَّهما كأنَّهما مِن المَزيَّةِ جِنسانِ آخَرانِ، فهذا العطْفُ مِن بابِ عطْفِ الجُزئيِّ على الكُلِّيِّ؛ تَنويهًا ببَعضِ أفرادِ الجنَّتينِ، أو لأنَّ النَّخلَ ثَمرةُ فاكهةٍ وطَعامٍ، والرُّمَّانَ فاكهةٌ ودَواءٌ؛ فلم يَخْلُصَا للتَّفكُّهِ[٤].

- وهذا كقولِه تَعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]؛ وذلك لأنَّ الفاكهةَ أرضيَّةٌ -نحْو البِطِّيخِ وغيرِه مِن الأرضيَّاتِ المزروعاتِ- وشَجريَّةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٢١).

-نحْو النَّخلِ وغيرِه مِن الشَّجَريَّاتِ-؛ فقال: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ بأنواعِ الخُضَرِ الَّتي منها الفواكهُ الأرضيَّةُ، وفيهما أيضًا الفواكهُ الشَّجَريَّةُ، وذَكَر منها نَوعَينِ -وهما الرُّمَّانُ والرُّطَبُ-؛ لأنَّهما مُتقابِلانِ؛ فأحدُهما حُلوٌ والآخرُ غيرُ حُلوٍ، وكذلك أحدُهما حارٌّ، والآخرُ باردٌ، وأحدُهما فاكهةٌ وغِذاءٌ، والآخَرُ فاكهةٌ، وأحدُهما مِن فَواكِهِ البلادِ الحارَّةِ، والآخرُ مِن فَواكِهِ البلادِ الباردةِ، وأحدُهما أشجارُه في غايةِ الطُّولِ، والآخرُ أشجارُه بالضِّدِّ، وأحدُهما ما يُؤكَلُ منه بارزٌ وما لا يُؤكَلُ كامنٌ، والآخرُ بالعكسِ؛ فهما كالضِّدَّينِ، والإشارةُ إلى الطَّرَفينِ تَتناوَلُ الإشارةَ إلى ما بيْنَهما؛ كما قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾[1] [الرحمن: ١٧].

- وجاءتْ جُملُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مُعترِضاتٍ بيْنَ ﴿جَنَّتَانِ﴾ وصِفاتِها؛ اعتِراضًا للازديادِ مِن تَكريرِ التَّقريرِ والتَّوبيخِ لِمَن حُرِموا مِن تلك الجنَّاتِ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ ضَميرُ ﴿فِيهِنَّ﴾ عائدٌ إلى الجنَّاتِ الأربعِ -على قولٍ-: الجنَّتينِ الأُولَيينِ، والجنَّتَينِ اللَّتَينِ مِن دُونِهما، فيَجوزُ أنْ يكونَ لصاحبِ الجنَّتَينِ الأُولَيينِ جَنَّتانِ أُخريانِ؛ فصارت له أربعُ جنَّاتٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ تَوزيعًا على مَن خافوا ربَّهم[3].

- و﴿خَيْرَٰتٌ﴾ صِفةٌ لمَحذوفٍ يُناسِبُ صِيغةَ الوصْفِ، أي: نِساءٌ خَيْراتٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

و(خَيْراتٌ) مُخفَّفٌ مِن خَيِّراتٍ بتَشديدِ الياءِ؛ مُؤنَّثِ خَيِّرٍ، وهو المُختَصُّ بأنَّ صِفتَه الخيرُ ضِدَّ الشَّرِّ. وخُفِّفَ في الآيةِ؛ طلَبًا لخِفَّةِ اللَّفظِ، معَ السَّلامةِ مِن اللَّبسِ بما أُتبِعَ به مِن وَصفِ ﴿حِسَانٌ﴾ الَّذي هو جمْعُ حَسناءَ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ فيه وصْفُ نِساءِ الجَنَّتينِ الأُوليَيْنِ بأنَّهنَّ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، ووصْفُ نِساءِ الجنَّاتِ الأربعِ بأنهنَّ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾؛ فعُلِم أنَّ الصِّفاتِ الثَّابتةَ لنِساءِ الجنَّتينِ واحِدةٌ[٢].

- واعتُرِضَ بجُملةِ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بيْن البَدَلِ ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ والمُبدَلِ منْه ﴿حُورٌ﴾، وبيْن الصِّفتَينِ ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾؛ لقَصْدِ التَّكريرِ في كلِّ مَكانٍ يَقْتضيه[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حالٌ مِن ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، كُرِّرَت بدونِ عطْفٍ؛ لأنَّها في مَقامِ تَعدادِ النِّعمِ، وهو مَقامٌ يَقْتضي التَّكريرَ استِئنافًا. أو حالٌ حُذِفَ عامِلُه، أي: يَتنعَّمون، أو نُصِبَ على الاختِصاصِ[٤].

- وقولُه: ﴿رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ الرَّفرفُ: ضَرْبٌ مِن البُسطِ، وهو اسمُ جمْعِ رَفرفةٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٢٠).

وهي ما يُبسَطُ على الفِراشِ ليُنامَ عليه، وهي تُنسَجُ على شِبهِ الرِّياضِ، ويَغلِبُ عليها اللَّونُ الأخضرُ، فوصْفُ الرَّفرفِ بأنَّها خُضْرٌ وصْفٌ كاشفٌ؛ لاستِحضارِ اللَّونِ الأخضرِ؛ لأنَّه يَسُرُّ النَّاظرَ[١].

- و(عَبْقَرِيٍّ) وصْفٌ لِمَا كان فائقًا في صِنفِه، عَزيزَ الوجودِ؛ فضَرَبه القرآنُ مثَلًا لِما هو مألوفٌ عندَ العرَبِ في إطلاقِه[٢].

- وقولُه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تكريرٌ في آخِرِ الأوصافِ؛ لزِيادةِ التَّقريرِ والتَّوبيخِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ لَمَّا ختَمَ تعالى نِعَمَ الدُّنيا بقولِه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ختَمَ نِعَمَ الآخرةِ بقولِه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، وناسَبَ هنالك ذِكرُ الوصفِ بالبَقاءِ والدَّيمومةِ له تعالى؛ إذ ذُكِرَ فَناءُ العالَمِ، وناسَبَ هنا ذِكرُ ما اشتُقَّ مِن البَرَكةِ -وهي النُّموُّ والزِّيادةُ-؛ إذ جاء ذلك عَقِبَ ما امتنَّ به على المؤمنينَ، وما آتاهُم في دارِ كَرامتِه مِن الخَيرِ وزِيادتِه ودَيمومتِه[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ تَنزيهٌ وتَقديسٌ له سُبحانَه تعالَى، فيه تَقريرٌ لِمَا ذُكِرَ في السُّورةِ الكَريمةِ مِن آلائِه الفائِضةِ على الأنامِ، أي: تعالَى اسمُه الجليلُ الَّذي مِن جُمْلتِه ما صُدِّرتْ به السُّورةُ مِن اسمِ الرَّحمنِ المُنبئِ عن إفاضتِه الآلاءَ المُفصَّلةَ، وارتفَعَ عمَّا لا يَليقُ بشأنِه مِن الأمورِ الَّتي مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٢).

جُملتِها جُحودُ نَعمائِه وتَكذيبُها. وإذا كان حالُ اسمِه بمُلابَسةِ دَلالتِه عليه؛ فما ظنُّك بذاتِه الأقدسِ الأَعْلى[١]؟!

- قولُه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ إيذانٌ بانتِهاءِ الكلامِ، وفَذْلَكةٌ[٢] لِما بُنِيَتْ عليه السُّورةُ مِن التَّذكيرِ بعَظَمةِ اللهِ تعالى ونَعْمائِه في الدُّنيا والآخِرةِ، والكلامُ إنشاءُ ثَناءٍ على اللهِ تعالى مُبالَغٍ فيه بصِيغةِ التَّفعُّلِ، الَّتي إذا كان فِعلُها غيرَ صادرٍ مِن اثنينِ فالمَقصودُ منها المُبالَغةُ[٣].

- وأُسنِدَ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ إلى ﴿ٱسۡمُ﴾ -وهو ما يُعرَفُ به المُسمَّى- دونَ أنْ يقولَ: (تَبارَكَ ربُّك)؛ لقصْدِ المُبالَغةِ في وَصْفِه تعالى بصِفةِ البَرَكةِ، على طَريقةِ الكِنايةِ؛ لأنَّها أبلَغُ مِن التَّصريحِ؛ لأنَّه إذا كان اسمُه قد تبارَكَ، فإنَّ ذاتَه تَبارَكَت لا مَحالةَ؛ لأنَّ الاسمَ دالٌّ على المُسمَّى، فذِكرُ ﴿ٱسۡمُ﴾ في قولِه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ﴾ مُراعًى فيه أنَّ ما عُدِّدَ مِن شُؤونِ اللهِ تعالى ونِعَمِه وإفضالِه، لا تُحيطُ به العِبارةُ، فعُبِّرَ عنه بهذه المُبالَغةِ -إذ هي أقْصى ما تَسمَحُ به اللُّغةُ في التَّعبيرِ-؛ ليَعلَمَ النَّاسُ أنَّهم مَحقوقونَ للهِ تعالى بشُكرٍ يُوازي عِظَمَ نِعَمِه عليهم[٤].

- وفي استِحضارِ الجَلالةِ بعُنوانِ (ربّ) مُضافًا إلى ضَميرِ المُخاطَبِ -وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٧).

(٢) الفَذْلَكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغَ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوقلة)، من قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحِسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٧٦، ٢٧٧).

النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- إشارةٌ إلى ما في معْنى الرَّبِّ مِن السِّيادةِ المَشوبةِ بالرَّأفةِ والتَّنميةِ، وإلى ما في الإضافةِ مِن التَّنويهِ بشَأنِ المُضافِ إليه، وإلى كَونِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو الواسِطةَ في حُصولِ تلك الخَيراتِ للَّذين خافوا مَقامَ ربِّهم بما بلَّغَهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الهُدى[١].

- وقولُه: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وُصِفَ به الرَّبُّ تعالى تَكميلًا لِما ذُكِرَ مِن التَّنزيهِ والتَّقريرِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٧).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ الواقِعةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الواقِعةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ الواقِعةِ[١].

بيانُ المكِّيِّ والمدَنيِّ:

سورةُ الواقِعةِ مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

تقريرُ البَعثِ والجزاءِ، والتَّذكيرُ بيَومِ القيامةِ، وبيانُ أقسامِ النَّاسِ فيه[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- التَّذكيرُ بيومِ القيامةِ، والحَديثُ عن أهوالِها، وبيانُ أصنافِ النَّاسِ في هذا

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ الواقعةِ؛ لِافتتاحِها بلَفظِ (الواقِعةِ). يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٠).

قال ابنُ عاشور: (وهكذا سُمِّيَتْ في المصاحِفِ وكُتُبِ السُّنَّةِ، فلا يُعْرَفُ لها اسمٌ غيرُ هذا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٩).

(٢) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا آيةً منها فمَدَنيَّةٌ، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]. وقيل: والآيةُ الَّتي قَبْلَها. وقيل: السُّورةُ كُلُّها مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٩)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٨).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٠).

ونَسَب ابنُ الجوزي إلى الأكثَرينَ القَولَ بأنَّها مَكِّيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٧).

اليومِ، ومآلِ كُلِّ صِنفٍ.

٢- الحَديثُ عن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وسَعةِ رَحمتِه، وعَظيمِ فَضْلِه.

٢- تأكيدُ أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تعالى، وأنَّه نِعمةٌ أنعَمَ اللهُ بها عليهم فلم يَشكُروها، وكَذَّبوا بما فيه.

٣- ذِكرُ مَشهَدِ الاحتِضارِ، وحالِ المتوَفَّينَ وأقسامِهم، وعاقِبةِ كُلِّ قِسمٍ.

الآيات (١-٩)

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾: أي: القيامةُ، والواقِعَةُ لا تُقالُ إلَّا في الشِّدَّةِ والمَكروهِ[١].

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾: أي: ليس لمجيئِها رَدٌّ ولا رُجوعٌ ولا تكذيبٌ، والكاذِبةُ هنا: مَصدَرٌ بمعنى الكَذِبِ، كالخائِنةِ، واللَّاغيةِ، والخاطِئةِ، والعافيةِ، والعاقِبةِ[٢].

﴿رُجَّتِ﴾: أي: زُلْزِلَتْ واضطَرَبت، وأصلُ (رجج): يدُلُّ على الاضطِرابِ[٣].

﴿وَبُسَّتِ﴾: أي: فُتِّتَتْ، وقيل: خُلِطَتْ فصارَتْ كالدَّقيقِ المبْسوسِ، وهو الملتوتُ بشيءٍ مِن الماءِ، وقيل: معناه: سِيقَت سَوقًا سَريعًا؛ مِن قَولِهم: انْبَسَّتِ الحيَّاتُ: أي: انسابت انسيابًا سريعًا، وأصلُ (بسس) هنا: فَتُّ الشَّيءِ وخَلْطُه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٨١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٣- ٢١٤)، ((المفردات)) =

﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾: أي: غُبارًا مُنتشِرًا مُتَفَرِّقًا كالَّذي يُرى في شُعاعِ الشَّمسِ إذا دَخَل مِنَ الكَوَّةِ، وأصلُ (هبو): يدُلُّ على غَبرةٍ ورِقَّةٍ فيها، وأصلُ (بثث): تفريقُ الشَّيءِ وإظهارُه[١].

﴿أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾: أي: أصنافًا وأنواعًا ثلاثةً، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لشَيءٍ[٢].

﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾: أي أصحابُ اليمينِ، والمَيمنةُ: ناحيةُ اليمينِ[٣].

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾: أي: وأصحابُ الشِّمالِ، وأصلُ (شأم): يدُلُّ على الجانبِ اليَسارِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مقرِّرًا الحقيقةَ الَّتي لا بدَّ مِن وُقوعِها: إذا قامت القيامةُ وتحقَّقَ وُقوعُها، ليس وُقوعُها بكَذِبٍ؛ فهو أمرٌ حَقٌّ واقعٌ لا محالةَ، فتَخفِضُ أقوامًا فيَدخُلونَ النَّارَ، وتَرفَعُ آخَرينَ فيَدخُلونَ الجنَّةَ.

= للراغب (ص: ١٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢) و (٦/ ٣١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٩).

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى ما يَحدُثُ في هذا اليَوم، فيقولُ: إذا زُلْزِلَت الأرضُ زِلزالًا شَديدًا، وفُتِّتَت الجِبالُ تَفتيتًا، فصارت غُبارًا مُتفرِّقًا، وصِرْتُم -أيُّها النَّاسُ- أصنافًا ثلاثةً.

ثمَّ يقولُ الله تعالى مفصِّلًا أحوالَ الأزواجِ الثَّلاثةِ: فالصِّنفُ الأوَّلُ: أصحابُ اليَمينِ، ما أعظَمَ شَأنَهم! والصِّنفُ الثَّاني: أصحابُ الشِّمالِ، ما أفظَعَ شأنَهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾.

أي: إذا قامت القيامةُ، وتحقَّقَ وُقوعُها[1].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٥].

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾.

أي: ليس وُقوعُها بكَذِبٍ؛ فهو أمرٌ حَقٌّ واقِعٌ يَقينًا لا محالةَ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٨).

قال ابنُ كثير: (الواقِعةُ: مِن أسماءِ يومِ القيامةِ؛ سُمِّيَت بذلك لتحَقُّقِ كَونِها ووُجودِها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٨، ٥٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٧).

قال ابن جُزَي: (﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ يحتمِلُ ثلاثةَ أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أن تكونَ الكاذبةُ مصدرًا كالعافيةِ، والمعنى: ليس لها كذِبٌ ولا ردٌّ. =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧].

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾.

أي: تَخفِضُ أقوامًا إلى النَّارِ فيَدخُلونَ الجَحيمَ، وإن كانوا في الدُّنيا أعِزَّاءَ، وتَرفَعُ أقوامًا إلى الجنَّةِ فيَنالونَ النَّعيمَ، وإن كانوا في الدُّنيا أذِلَّاءَ(١)!

= الثَّاني: أن تكونَ ﴿كَاذِبَةٌ﴾ صفةَ مَحذوفٍ، كأنَّه قال: ليس لها حالةٌ كاذبةٌ، أي: هي صادِقةُ الوُقوعِ، ولا بُدَّ، وهذا المعنى قريبٌ مِن الأوَّلِ.

الثَّالثُ: أن يكونَ التَّقديرُ: ليس لها نفْسٌ كاذبةٌ أيَّ تكذيبٍ في إنكارِ البعثِ؛ لأنَّ كلَّ نفْسٍ تؤمنُ حينَئذٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٤).

وممَّن اختار القولَ المذكورَ وأنَّ المرادَ: تَخفِضُ قَومًا إلى النَّارِ، وتَرفَعُ آخَرينَ إلى الجنَّةِ: ابن جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبي، والبغوي، وابن جُزَي، والخازن، وابن كثير، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٣).

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرون: تَخفِضُ أقوامًا إلى أسفَلِ السَّافِلينَ في النَّارِ، وتَرفَعُ أقوامًا إلى عِلِّيِّينَ في الجنَّةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّابِ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ، وعثمانُ بنُ عبدِ الله بنِ سُراقةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٠)،))تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٢)،))تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٤(، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤، ٥).

وقيل: المعنى: خَفَضَت صَوتَها فأسمَعَت القَريبَ، ورَفَعَت صَوتَها فأسمَعَتِ البعيدَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢١].

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ ﴾.

أي: إذا زُلْزِلَت الأرضُ على سَعَتِها وثِقْلِها، فحُرِّكت تَحريكًا شَديدًا، فاهتَزَّت واضطَرَبتْ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١].

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ ﴾.

أي: وفُتِّتَت الجِبالُ على عَظَمتِها وصَلابتِها تَفتيتًا[(٢)]!

= ابن كثير)) (٧/ ٥١٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ المعنى: خافِضةٌ الأشياءَ المُرتَفِعةَ كالنُّجومِ، رافِعةٌ الأشياءَ الَّتي كانت مُنخَفِضةً. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٩، ٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١١، ٥١٢).

قال الشنقيطي: (وقولُه تعالى: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ في معناه لأهلِ العلمِ أوجهٌ متقاربةٌ، لا يُكذِّبُ بعضُها بعضًا، وكلُّها حقٌّ، وكلُّها يشهدُ له قرآنٌ). ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١١)

وذكَر الواحديُّ في معنى (بُسَّت) ثلاثةَ أقوالٍ: =

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾.

أي: فصارت ذَرَّاتِ غُبارٍ صَغيرةً مُتطايرةً مُتفرِّقةً، كالَّتي تُرَى لدى انعِكاسِ أشِعَّةِ الشَّمسِ في مَوضِعٍ مُظلِمٍ[(١)]!

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾.

أي: وصِرْتُم -أيُّها النَّاسُ- أصنافًا ثلاثةً بحَسَبِ أعمالِكم في الدُّنيا[(٢)].

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾.

= الأوَّلُ: خُلِطت، فصارَتْ كالدَّقيقِ المبسوسِ، وهو الملتوتُ بشيءٍ مِن الماءِ.

الثَّاني: أنَّ معنَى البسِّ الفتُّ.

الثَّالثُ: أنَّ البسَّ هو السَّوقُ والطَّردُ، فمعنى (بُسَّت) سِيقَتْ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٤).

ونسَب الشِّنقيطي إلى أكثرِ المفسِّرينَ أنَّ معنَى ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي: فُتِّتْ تَفتيتًا حتَّى صارَتْ كالبسيسةِ، وهي دقيقٌ ملتوتٌ بسمنٍ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٤-٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَسَّمَهم إلى ثلاثةِ أقسامٍ، وفَرَّع تَقسيمَهم؛ ذكَرَ أحوالَهم، فقال[١]:

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ ﴾.

أي: فالصِّنفُ الأوَّلُ: أصحابُ اليَمينِ الَّذين يَدخُلونَ الجنَّةَ، وما أعظَمَ شَأنَ أصحابِ اليَمينِ[٢]!

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ ﴾.

أي: والصِّنفُ الثَّاني: أصحابُ الشِّمالِ الَّذين يَدخُلونَ النَّارَ، وما أفظَعَ شأنَ أصحابِ الشِّمالِ[٣]!

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [البلد: ١٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- هذه السُّورةُ لو لم يَنزِلْ في القُرآنِ إلَّا هي، لَكانت كافيةً في الحَثِّ على فِعلِ الخَيرِ وتَرْكِ الشَّرِّ؛ فقد ذَكَرَ اللهُ تعالى في أوَّلِها يومَ القيامةِ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٤).

قال الشنقيطي: (قال بَعضُ العُلَماءِ: قيل لهم أصحابُ اليَمينِ؛ لأنَّهم يُؤتَونَ كُتُبَهم بأيْمانِهم. وقيل: لأنَّهم يُذهَبُ بهم ذاتَ اليَمينِ إلى الجنَّةِ. وقيل: لأنَّهم عن يمينِ أبيهم آدَمَ، كما رآهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كذلك لَيلةَ الإسراءِ. وقيل: سُمُّوا أصحابَ اليَمينِ وأصحابَ المَيمَنةِ؛ لأنَّهم مَيامينُ، أي: مُبارَكونَ على أنفُسِهم؛ لأنَّهم أطاعوا ربَّهم فدَخَلوا الجنَّةَ، واليُمْنُ: البَرَكةُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٤).

ٱلۡوَاقِعَةُ﴾، ثمَّ قَسَّمَ النَّاسَ فيها إلى ثلاثةِ أقسامٍ: السَّابقِينَ، وأصحابِ اليمينِ، وأصحابِ الشِّمالِ، ثمَّ ذَكَر اللهُ في آخرِها حالَ الإنسانِ عندَ الموتِ، وقَسَّمَ كلَّ النَّاسِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: مُقرَّبينَ، وأصحابِ يَمينٍ، ومُكذِّبينَ ضالِّينَ، وكذلك ذَكَر اللهُ فيها ابتِداءَ الخلْقِ في قَولِه: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۞ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩]، والرِّزْقَ مِن طَعامٍ وشَرابٍ وما يُصلِحُهما؛ فهي سورةٌ مُتكامِلةٌ؛ ولهذا ينبغي للإنسانِ أنْ يَتدبَّرَها إذا قَرَأها، كما يَتدبَّرُ سائِرَ القُرآنِ، لكنْ هي اشتَمَلتْ على مَعانٍ عظيمةٍ. واللهُ الموفِّقُ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ ترغيبٌ وترهيبٌ؛ ليَخافَ النَّاسُ في الدُّنيا مِن أسبابِ الخَفضِ في الآخِرةِ، فيُطيعوا اللهَ، ويَرغَبوا في أسبابِ الرَّفعِ فيُطيعوه أيضًا[٢].

٣- عَن زَيدِ بنِ أسلَمَ في قَولِه تعالى: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ قال: (مَنِ انخفَضَ يَومَئِذٍ لم يَرتَفِعْ أبدًا، ومَن ارتَفَع يَومَئِذٍ لم يَنخَفِضْ أبدًا)[٣]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّها تَقَع دَفْعةً واحِدةً؛ فالواقِعةُ: للمَرَّةِ الواحِدةِ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾ إلى قَولِه: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٨] بِشارةٌ للمُؤمِنينَ كَبيرةٌ، ورَدٌّ على المُعتَزِلةِ واضِحٌ؛ لأنَّ اللهَ -جلَّ جَلالُه- زَمَرَ جميعَ خلْقِه ثلاثَ زُمَرٍ، وأخبَرَ عن كلِّ زُمرةٍ بما هو فاعِلٌ بها ومُصَيِّرُهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٠).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنَّف)) (٧/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٨٥).

إليه، فأخبَرَ عن المقرَّبينَ بما أخبَرَ، فعُلِمَ أنَّه مَيَّزَهم عنِ المؤمِنينَ بفَضلِ الطَّاعةِ، وزيادةِ ما أُوتوا؛ إذ فيهم الأنبياءُ والصِّدِّيقونَ والشُّهَداءُ، وأخبَرَ عن أصحابِ اليَمينِ بما أخبَرَ، فعُلِمَ أنَّهم دونَهم في المَنزِلةِ، مُساوونَ لهم في التَّوحيدِ، فمَن كان مُذنِبًا مُوَحِّدًا فهو داخِلٌ معهم، وأخبَرَ عن أصحابِ الشِّمالِ بما أخبَرَ، وجَعَل في صِفَتِهم أنَّهم كانوا: ﴿يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧]؛ فعُلِمَ أنَّهم الكُفَّارُ كلُّهم عَبَدةُ الأوثانِ، والمنافقونَ، وأهلُ الكِتابِ الَّذين لا يُؤمِنونَ باللهِ ولا باليَومِ الآخِرِ، وكذا قال في آخرِ السُّورةِ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩٤]، فلم يَذْكُرْ لهم ثالِثًا، وذَكَرَ أصحابَ الأعرافِ -في موضعٍ آخَرَ- وذَكَرَ نجاتَهم؛ فهُم زُمَرٌ ثلاثٌ لا رابعَ لهم، أو أَربَعٌ لا خامِسَ لهم، فمَنِ الزُّمرةُ الخامِسةُ -ليتَ شِعْري!- الَّتي يُخَلِّدُها المُعتَزِلةُ مع الكُفَّارِ في النَّارِ؟! إذ غيرُ مُمكِنٍ أنْ تُجعَلَ واحِدةً مِن هؤلاء، ولا خارجَ في قَولِهم بَتَّةً!

فقد وَضَحَ -بنِعمةِ اللهِ- دَحْضُ حُجَّتِهم في الوَعيدِ، بالدَّليلِ العَتيدِ في هذا الفَصلِ، وحَقَّتْ بِشارةُ المؤمِنينَ المُذنِبينَ بالنَّجاةِ، بنِعمةِ ربِّهم ورَأفَتِه[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ * وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ ذَكَرَهم اللهُ تعالى غيرَ مُرَتَّبينَ في الفَضلِ؛ فبَدَأَ اللهُ بأصحابِ المَيمَنةِ، ثمَّ ثَنَّى بأصحابِ الشِّمالِ، ثمَّ ثَلَّثَ بالسَّابِقينَ، لكِنْ عندَ التَّفصيلِ بَدَأَ بهم مُرَتَّبينَ على حَسَبِ الفَضلِ؛ فبَدَأَ بالسَّابِقينَ، ثمَّ بأصحابِ اليَمينِ، ثمَّ بأصحابِ الشِّمالِ، وهذا التَّفصيلُ المُرَتَّبُ خِلافُ التَّرتيبِ المُجمَلِ،

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١١).

وهو مِن أساليبِ البلاغةِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾

- افتِتاحُ هذِه السُّورةِ بالظَّرفِ المُتضمِّنِ الشَّرطَ -وهو قولُه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾- افتتاحٌ بَديعٌ؛ لأنَّه يَسْترعي الألْبابَ لتَرقُّبِ ما بعْدَ هذا الشَّرْطِ الزَّمانيِّ، معَ ما في الاسمِ المُسنَدِ إليه -﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾- مِن التَّهويلِ بتَوقُّعِ حدَثٍ عَظيمٍ يَحدُثُ[٢].

- و(إذَا) في قولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ قيل: إنَّها هي الظَّرفيَّةُ المضَمَّنةُ معنَى الشَّرطِ، وإنَّ قولَه الآتيَ: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ بدَلٌ مِن قولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، وجوابَ (إذا) هو قولُه: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾؛ فالمعْنى: إذا قامتِ القِيامةُ، وحَصَلَتْ هذه الأحوالُ العَظيمةُ؛ ظَهَرَت مَنزِلةُ أصحابِ الميمنةِ وأصحابِ المشْأمةِ[٣]. وقيل: إنَّ انتصابَ (إذَا) بمُضمَرٍ يُنبِئُ عن الهَولِ والفَظاعةِ، ولتذهبَ النَّفْسُ فيه كلَّ مَذهبٍ؛ فيَكونَ أهْوَلَ، أي: إذا وقعتْ كانتْ أمورًا يَضيقُ عنها نِطاقُ الحَصرِ، أو كأنَّه قيلَ: إذَا وقَعَتِ الواقعةُ يَكونُ مِن الأهوالِ ما لا يَفي به المَقالُ[٤].

- والتَّعبيرُ عن القِيامةِ بالواقِعةِ؛ للإيذانِ بتَحقُّقِ وُقوعِها لا مَحالةَ، فكأنَّه قِيل: إذا وقَعَت الَّتي لا بُدَّ مِن وُقوعِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) =

- وأيضًا حُذِفَ جوابُ الشَّرطِ في هذِه الآياتِ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ...﴾؛ مِن أجْلِ أنْ يَذهبَ الذِّهنُ في تَقديرِه كلَّ مذهبٍ، يعني: إذا وقعتِ الواقعةُ صارتِ الأهوالُ العظيمةُ، وصارَ انقسامُ النَّاسِ، وحصَل ما حصَل ممَّا أخبَرَ به اللهُ سُبحانَه، ورسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّا يكونُ في يومِ القيامةِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عن قولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ...﴾ إلخ، وهو اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ...﴾ [الواقعة: ٨] إلخ، والجوابُ قولُه: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٨، ٩]، فيُفيدُ جوابًا للشَّرطِ، ويُفيدُ تَفصيلَ جُملةِ ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧]، وتكونُ الفاءُ مُستعمَلةً في مَعنيَينِ: ربْطِ الجوابِ، والتَّفريعِ، وتكونُ جُملةُ ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ وما بعْدَه اعتِراضًا[٢].

- وقيل: انتصابُ (إذَا) بمُضمَرٍ يُنبِئُ عن الهَولِ والفظاعةِ كأنَّه قيلَ: إذَا وقعتِ الواقعةُ يكونُ من الأهوالِ ما لا يفي به المقالُ، وعليه فقولُه ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ الشَّرطِ، على أنَّ الكاذبةَ مَصدَرٌ كالعافيةِ، أي: ليسَ لأجْلِ وَقْعَتِها وفي حقِّها كذِبٌ أصْلًا، بلْ كلُّ ما ورَدَ في شأْنِها مِن الأخبارِ حقٌّ صادقٌ لا رَيبَ فيه[٣].

- وهذا وَعيدٌ بتَحذيرِ المُنكِرينَ للقِيامةِ مِن خِزْيِ الخَيبةِ، وسَفاهةِ الرَّأيِ بيْنَ

= (٨/ ١٨٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٨).

أهلِ الحشْرِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ خَبرانِ لمُبتدأٍ مَحذوفٍ ضَميرِ ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١]، أي: هي خافضةٌ رافعةٌ[٢].

- وهذا تَقريرٌ لعَظَمةِ القِيامةِ، وتَهويلٌ لأمْرِها؛ فإنَّ الوقائعَ العِظامَ شأْنُها كذلك، أو بَيانٌ لِما يكونُ حِينَئذٍ مِن حَطِّ الأشقياءِ إلى الدَّرَكاتِ، ورفْعِ السُّعداءِ إلى الدَّرجاتِ، ومِن زَلزلةِ الأشياءِ، وإزالةِ الأجرامِ عن مَقارِّها، بنَثْرِ الكواكبِ، وإسقاطِ السَّماءِ كِسَفًا، وتَسييرِ الجبالِ في الجوِّ كالسَّحابِ[٣].

- وتَقديمُ الخفْضِ على الرَّفعِ؛ للتَّشديدِ في التَّهويلِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ مُحسِّنُ الطِّباقِ[٥]، مع الإغرابِ بثُبوتِ الضِّدَّينِ لشَيءٍ واحدٍ[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ الرَّجُّ: الاضطرابُ والتَّحرُّكُ الشَّديدُ، وهو ما يَطرَأُ فيها مِن الزَّلازلِ والخسْفِ ونحْوِ ذلك، والتَّأكيدُ بالمَصدرِ ﴿رَجًّا﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقُّقِه، وليَتأتَّى التَّنوينُ المُشعِرُ بالتَّعظيمِ والتَّهويلِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٨).

(٥) تقدَّم تعريفه (ص: ٢١٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٣).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٨٤).

٥- قولُه تعالَى: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ فيه تأْكيدُ الفِعلِ ﴿ وَبُسَّتِ ﴾ بقولِه: ﴿بَسًّا ﴾؛ لإفادةِ التَّعظيمِ بالتَّنوينِ[١].

- وتَفريعُ ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ على (بُسَّتِ الْجِبَالُ) لائقٌ بمَعْنيَي البَسِّ -وهما التَّفتُّتُ وتَفريقُ الأجزاءِ، والسَّوقُ-؛ لأنَّ الجِبالَ إذا سُيِّرَت فإنَّما تُسيَّرُ تَسييرًا يُفتِّتُها ويُفرِّقُها، أي: تَسْييرَ بَعثرةٍ وارتِطامٍ[٢].

- والمُنبَثُّ: مُطاوِعُ بثَّه، إذا فرَّقَه، واختِيرَ هذا المُطاوِعُ لمُناسَبتِه مع قولِه: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ ﴾ في أنَّ المَبنيَّ للنَّائبِ معْناه كالمُطاوَعةِ[٣].

- قولُه: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: فكانت كالهَباءِ المُنبَثِّ[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ الخِطابُ في ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ للنَّاسِ كلِّهم، وهذا تَخلُّصٌ للمَقصودِ مِن السُّورةِ، وهو المَوعِظةُ[٥].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ لَمَّا وقَعَ قولُه: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ [الواقعة: ٧] عطْفًا على الجُمَلِ الَّتي أُضِيفَ إليها (إذا) مِن قولِه: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ [الواقعة: ٤]، كان هو مَحَطَّ القصْدِ مِن التَّوقيتِ بـ(إذا) الثَّانيةِ الواقعةِ بَدَلًا مِن (إذا) الأُولى، وكِلْتاهما مُضمَّنةٌ معْنى الشَّرطِ، فكان هذا في معْنى الجَزاءِ؛ فيجوزُ جعْلُ الفاءِ في قولِه: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ لربْطِ الجَزاءِ، مع التَّفصيلِ للإجمالِ، وتكونُ جُملةُ ﴿ فَأَصْحَٰبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴾ جَوابًا لـ (إذا) الثَّانيةِ، يَؤُولُ إلى كَونِه جَوابًا لـ (إذا) الأُولى؛ لأنَّ الثَّانيةَ مُبدَلةٌ منها؛ ولذلك جاز أنْ يكونَ هذا هو جوابَ (إذا) الأُولى، فتَكونَ الفاءُ مُستعمَلةً في مَعْنَيَيها: ربْطِ الجَوابِ بالشَّرطِ، والتَّفريعِ -كما تقدَّمَ عِندَ قولِه تعالَى: ﴿ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾[1] [الواقعة: ٢].

- وقد أفاد التَّفصيلُ أنَّ الأصنافَ ثلاثةٌ: صِنفٌ منهم أصحابُ المَيمنةِ، واليمينُ جِهةُ عِنايةٍ وكَرامةٍ في العُرفِ، قيل: اشتُقَّتْ مِن اليُمْنِ، أي: البَرَكةِ، وصِنفٌ أصحابُ المَشأمةِ، وهي اسمُ جِهةٍ، قيل: هي مُشتقَّةٌ مِن الشُّؤمِ، وهو ضِدُّ اليُمْنِ، فهو الضُّرُّ وعدَمُ النَّفعِ، وقد سُمِّيَا في الآيةِ الآتيةِ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٢٧]، و﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ [الواقعة: ٤١]؛ فجُعِلَ الشِّمالُ ضِدَّ اليَمينِ، كما جُعِلَ المَشأمةُ هنا ضِدَّ المَيمنةِ؛ إشعارًا بأنَّ حالَهم حالُ شُؤمٍ وسُوءٍ، وكلُّ ذلك مُعبَّرٌ به عمَّا عُرِفَ في كَلامِ العَربِ مِن إطلاقِ هذَينِ اللَّفظَينِ على هذا المعْنى الكِنائيِّ الَّذي شاعَ حتَّى ساوَى الصَّريحَ؛ ولذلك استُغنِيَ هنا عن الإخبارِ عن كِلَا الفَريقينِ بخبَرٍ فيه وصْفُ بَعضِ حالَيْهما بذِكرِ ما هو إجمالٌ لحالَيْهما، ممَّا يُشعِرُ به ما أُضِيفَ إليه أصحابُه مِن لَفظَي المَيمنةِ والمَشأمةِ بطَريقةِ الاستِفهامِ المُستعمَلِ في التَّعجيبِ مِن حالِ الفريقَينِ في السَّعادةِ والشَّقاوةِ، وهو تَعجيبٌ تُرِكَ على إبْهامِه هنا؛ لتَذهَبَ نفْسُ السَّامعِ كلَّ مَذهبٍ مُمكِنٍ مِن الخَيرِ والشَّرِّ، فـ (ما) في المَوضعينِ اسمُ استِفهامٍ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٨٥، ١٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٥، ٢٨٦).

- وإظهارُ لَفظَيْ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ وتَكريرُهما بعْدَ الاستِفهامَينِ دونَ الإتيانِ بضَميرَيْهما؛ لأنَّ مَقامَ التَّعجيبِ والتَّفخيمِ والتَّشهيرِ يَقْتضي الإظهارَ، كما في قولِه: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٣]، وكما يُقالُ: زيدٌ ما زيدٌ! والمقصودُ تكثيرُ ما لأصحابِ الميمنةِ مِن الثَّوابِ، وما لأصحابِ المشأمةِ مِن العِقابِ[١].

- قيل: والَّذي تَقتضيهِ جَزالةُ التَّنزيلِ أنَّ قولَه تعالَى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ وقولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾؛ فإنَّ المُترقَّبَ عندَ بَيانِ انقسامِ النَّاسِ إلى الأقسامِ الثَّلاثةِ بَيانُ أنفَسِ الأقسامِ الثَّلاثةِ، وأمَّا أَوصافُها وأَحوالُها فحَقُّها أنْ تُبيَّنَ بعْدَ ذلكَ بإسنادِها إليها، والتَّقديرُ: فأحدُها أصحابُ المَيمنةِ، والآخَرُ أصحابُ المشْأَمةِ، والثَّالثُ السَّابقونَ، خَلا أنَّه لَمَّا أُخِّرَ بيانُ أحوالِ القِسمَينِ الأوَّلَينِ، عُقِّبَ كلٌّ منهُما بجُملةٍ مُعترِضةٍ بيْنَ القِسمَينِ مُنبئةٍ عن تَرامي أحوالِهما في الخَيرِ والشَّرِّ إنباءً إجماليًّا، مُشعِرًا بأنَّ لأحوالِ كلٍّ منهُما تفصيلًا مُترقَّبًا، لكنْ لا على أنَّ (مَا) الاستِفهاميَّةَ مُبتدَأٌ وما بعْدَها خَبرٌ، بلْ على أنَّها خبَرٌ لِما بعْدَها؛ فإنَّ مَناطَ الإفادةِ بَيانُ أنَّ أصحابَ المَيمنةِ أمْرٌ بَديعٌ، كما يُفيدُه كونُ (ما) خبَرًا، لا بَيانُ أنَّ أمْرًا بَديعًا أصحابُ المَيمنةِ، كما يُفيدُه كونُها مُبتدأً، وكذا الحالُ في أصحابِ المشْأمةِ، وأمَّا القِسمُ الأخيرُ فحيثُ قُرِنَ بَيانُ مَحاسِنِ أحوالِه بذِكْرِه لم يُحتَجْ فيهِ إلى تَقديمِ الأُنْمُوذَجِ؛ فقولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأٌ، والإظهارُ في مقامِ الإضمارِ للتَّفخيمِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٣٣، ١٣٤).

الآيات (١٠-٢٦)

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلْأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوْضُونَةٖ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٖ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوٗا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ثُلَّةٞ﴾: أي: فِرقةٌ وجَماعةٌ غَيرُ مَحصورةِ العَدَدِ في قِلَّةٍ ولا كَثرةٍ، وأصلُ (ثلل) هنا: يدُلُّ على التَّجمُّعِ[(١)].

﴿مَّوْضُونَةٖ﴾: أي: مَنسوجةٍ مُتداخِلٍ بعضُها في بَعضٍ، والوَضْنُ: نَسجُ الدِّرْعِ، ويُستَعارُ لكُلِّ نَسجٍ مُحكَمٍ[(٢)].

﴿مُّخَلَّدُونَ﴾: أي: لَا يَموتونَ، مِن الخُلْدِ وهو البقاءُ، أو: يبقونَ على حالِهم لا يَتغيَّرونَ، ولا يَكبَرونَ، ولا يهرَمونَ، والعربُ تقولُ للَّذي لا يشيبُ: مخلَّدٌ، وأصلُ (خلد): يدُلُّ على الثَّباتِ والملازمةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٧)، =

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ﴾: الأكوابُ جَمْعُ كُوبٍ، وهو الإناءُ المستديرُ الرَّأسِ الَّذي لا عُرْوةَ له ولا خُرطومَ، فإنْ كان له ذلك فهو الإبريقُ، والكأسُ: الإناء فيه الخَمرُ والشَّرابُ، فإن كان فارغًا فليس بكأسٍ، فالكأسُ اسْمٌ يَقعُ لكلِّ إناءٍ معَ شَرابه(١).

﴿مَّعِينٍ﴾: أي: شرابٍ ظاهرٍ للعيونِ جارٍ، يقالُ: مَعَن الماءُ: أي: جرى، وأصلُ (معن): يدُلُّ على سُهولةٍ في جَرَيانٍ، وقيل: هو مشتقٌّ مِن العينِ، ووزنُه مفعولٌ، فالميمُ زائدةٌ(٢).

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾: أي: لا تُصَدَّعُ رُؤوسُهم مِن شُرْبِها، والتَّصديعُ: الإصابةُ بالصُّداعِ، وهو وَجَعُ الرَّأسِ النَّاشِئُ عن السُّكرِ، والصَّدعُ: الشَّقُّ في الأجسامِ الصُّلبةِ، كالزُّجاجِ والحَديدِ ونَحوِهما، واستُعيرَ منه الصُّداعُ، وهو شِبهُ الانشِقاقِ

= ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٥٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٧، ١٢٣، ٢١٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٤) و(٢٢/ ٢٩٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢١) و(٥/ ١٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٢٥/ ٤٣٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ١٨٣) و(٣/ ٣٦٢، ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).
ذكر الرَّازيُّ أنَّ ﴿مَّعِينٍ﴾ على وزن فَعِيلٍ أو مَفعولٍ، ثمَّ قال: (فإنْ قُلْنا: «فَعِيل» فهو مِن مَعَن الماءُ، إذا جرى، وإنْ قُلْنا: «مفعول» فهو مِن عانه، إذا شخَصه بعَينِه وميَّزه، والأوَّلُ أصحُّ وأظهَرُ؛ لأنَّ المَعْيونَ يوهِمُ بأنَّه مَعيوبٌ؛ لأنَّ قولَ القائلِ: عانَني فُلانٌ معناه: ضرَّني إذا أصابَتْني عَيْنُه، ولأنَّ الوصفَ بالمفعولِ لا فائدةَ فيه، وأمَّا الجرَيانُ في المشروبِ فهو إن كان في الماءِ فهو صِفةُ مدحٍ، وإن كان في غيرِه فهو أمرٌ عجيبٌ لا يوجَدُ في الدُّنيا، فيكونُ كقولِه تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥]). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٩٤).

في الرَّأسِ مِنَ الوَجَعِ[١].

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾: أي: لا يَسْكَرونَ، ولا تَذْهَبُ عُقولُهم، ولا يَنفَدُ شَرابُهم، يقالُ: أنزَفَ الرَّجُلُ: إذا فَنِيَت خَمرُه، وأنزَفَ: إذا ذَهَب عَقْلُه مِنَ السُّكْرِ، وأصلُ (نزف): يدُلُّ على نَفادِ شَيءٍ وانقِطاعٍ[٢].

﴿وَحُورٌ﴾: جمعُ حَوْراءَ، وهي: البَيضاءُ، أو: الشَّديدةُ بَياضِ العَينِ الشَّديدةُ سَوادِها[٣].

﴿عِينٌ﴾: جمعُ عَيْناءَ، وهي نَجْلاءُ العَيْنِ (أي: واسِعَتُها) في حُسْنٍ، وأصلُ (عين): يدُلُّ على حاسَّةِ البَصَرِ[٤].

﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾: أي: المَصُونِ المَخزونِ في الصَّدَفِ لم تَمَسَّه الأيدي، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٣، ٣٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٤٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١١).

﴿لَغۡوًا﴾: أي: باطِلًا مِن القَولِ يَصدُرُ عن خَلَلِ العَقلِ، وأصلُه يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[١].

﴿تَأۡثِيمًا﴾: أي: ما يُؤَثِّمُهم مِن فِعلٍ أو قَولٍ، مِثلُ الضَّربِ والشَّتمِ وغَيرِهما، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على بُطءٍ وتأخُّرٍ؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ مُتأخِّرٌ عنه[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾: فيه وَجهانِ:

أحدُهما: أنَّهما مُبتدَأٌ وخَبَرٌ، على وَجهِ التَّعظيمِ والتَّفخيمِ، كقَولِهم: أنتَ أنتَ، والنَّاسُ النَّاسُ! أو على تقديرِ: والسَّابِقونَ إلى الإيمانِ: السَّابِقونَ إلى الجنَّةِ، أو السَّابِقونَ إلى طاعةِ اللهِ: السَّابِقونَ إلى رَحمتِه، أو نحوِ ذلك. وعليه يَكونُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ بدَلًا أو خبَرًا ثانيًا.

الوَجهُ الثَّاني: أَنْ يكونَ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الثَّاني توكيدًا لفَظيًّا للأوَّلِ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ جملةٌ في محلِّ رَفعٍ خَبَرٌ للمُبتَدَأِ، والرَّابِطُ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[٣].

- قَولُه تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٩)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢١٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٠٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٩٥).

قَولُه تعالى: ﴿وَحُورٌ﴾: مَرفوعٌ على وَجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّه مُبتدأٌ مَرفوعٌ خَبَرُه مَحذوفٌ مُقَدَّمٌ عليه، تَقديرُه: لهم حُورٌ، أو عِندَهم، أو ثَمَّ.

الثَّاني: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿وِلْدَانٌ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾[1] [الواقعة: ١٧].

- قَولُه تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾

قولُه تعالى: ﴿قِيلًا﴾ مَنصوبٌ على الاستِثناءِ المُنقَطِعِ؛ لأنَّ هذا القِيلَ لا يندَرِجُ تحتَ اللَّغْوِ والتَّأثيمِ.

قولُه تعالى: ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ فيه أوجُهٌ:

أحَدُها: أنَّه بدَلٌ مِن ﴿قِيلًا﴾، أي: لا يَسمَعونَ فيها إلَّا سَلامًا سَلامًا.

الثاني: أنَّه مَنصوبٌ على المَفعوليَّةِ بالمَصدَرِ ﴿قِيلًا﴾، أي: إلَّا أن يَقولَ بَعضُهم لِبَعضٍ: سَلامًا سَلامًا.

الثَّالِثُ: أنَّه نَعتٌ لـ ﴿قِيلًا﴾ على معنى: إلَّا قِيلًا يسلَمُ فيه مِنَ اللَّغوِ والإثمِ.

الرَّابعُ: أنَّه مَنصوبٌ على المَصدَريَّةِ بفِعلٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: إلَّا قِيلًا اسْلَموا سَلامًا، و﴿سَلَامًا﴾ الثَّاني: توكيدٌ لَفظيٌّ للأوَّلِ[2].

---

(١) يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (١/ ١٧٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١١)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢١٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٢٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٠٥).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى أحوالَ السَّابقينَ، فيقولُ: والسَّابقونَ إلى الإيمانِ والأعمالِ الصَّالِحةِ هم السَّابقونَ إلى دخولِ الجنَّاتِ، أولئك المُقَرَّبونَ عِندَ اللهِ تعالى، في جَنَّاتِ النَّعيمِ، وهم جَماعةٌ كثيرةٌ مِنَ الأوَّلينَ، وعَدَدٌ قَليلٌ مِنَ الآخِرينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ ما أعدَّه لهؤلاءِ السَّابقينَ بالخَيراتِ مِن النَّعيمِ، فيقولُ: يَجلِسونَ على سُرُرٍ مَنسوجةٍ بالذَّهَبِ واللَّآلِئِ وغيرِهما، متَّكِئينَ على تلك السُّرُرِ مُتقابِلينَ لا يَنظُرُ بَعضُهم إلى قَفا بَعضٍ.

ويَدورُ عليهم لخِدمتِهم وِلدانٌ صِغارٌ لا يَهرَمونَ ولا يموتونَ؛ يَطوفُون عليهم بأكوابٍ وأباريقَ وكُؤوسٍ مِن خَمرٍ ظاهرةٍ جاريةٍ بلا انقطاعٍ، لا يُصيبُهم مِن تلك الخَمْرِ صُداعٌ، ولا يَسْكَرونَ، ولا ينفَدُ شرابُهم، ويَطوفُ عليهم أولئك الوِلْدانُ بفاكِهةٍ مِمَّا يَتخَيَّرونَه، ولَحْمِ طَيرٍ مِمَّا يَشتَهونَه، ولهم نِساءٌ بِيضٌ، شَديدٌ سوادُ أعيُنِهنَّ وبَياضُها، واسعاتُ الأعْيُنِ معَ حُسنِها، وهُنَّ في بَياضِهنَّ وجَمالِهنَّ كالدُّرِّ الأبيَضِ الصَّافي، المحفوظِ المَستورِ؛ جَزاءً بما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا.

لا يَسمَعونَ في تلك الجَنَّاتِ كَلامًا باطِلًا، ولا ما يُوقِعُهم في الإثمِ، إنَّما يَسمَعون فيها التَّسليمَ، والقَولَ السَّالِمَ مِنَ اللَّغْوِ والتَّأثيمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾.

أي: والَّذين يَسبِقونَ إلى الإيمانِ والأعمالِ الصَّالِحاتِ، ويُبادِرونَ إلى فِعلِ الخَيراتِ هم السَّابقونَ إلى دخولِ الجنَّاتِ ونَيلِ الكراماتِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ عُلُوَّ شأنِهم، ونَسَب السَّبْقَ إليهم؛ تَرجَمَه نازِعًا للفِعلِ منهم، بقَولِه[1]:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١﴾.

أي: أولئك الَّذين يُقرِّبُهم اللهُ تعالى منه[2].

= ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ لفظَ «السَّابِقونَ» الأوَّلَ (المبتدأ)، غيرُ الثَّاني (الخبر)، وأنَّ المعنى: والسَّابِقونَ في الدُّنيا إلى الطَّاعاتِ هم السَّابِقونَ في الآخِرةِ إلى الجنَّاتِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ، واستظهره ابنُ القَيِّم، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٣)، ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٩).

وقيل: السَّابِقونَ الأوَّلُ: مُبتدَأٌ، والثَّاني: خَبَرُه، على وَجهِ التَّعظيم، كقولِك: أنتَ أنتَ! أو النَّاسُ النَّاسُ. وممَّن اختار هذا المعنى: الشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٧).

وقال أبو حيَّان: (ويرجِّحُ هذا القَولَ أنَّه ذَكَر أصحابَ المَيمَنةِ مُتعَجِّبًا منهم في سعَادتِهم، وأصحابَ المَشأَمةِ مُتعَجِّبًا منهم في شَقاوتِهم، فناسَبَ أن يَذكُرَ «السَّابِقونَ» مُثبِتًا حالَهم مُعَظِّمًا، وذلك بالإخبارِ أنَّهم نهايةٌ في العَظَمةِ والسَّعادةِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٩).

وقيل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأوَّلُ مُبتدَأٌ، والثَّاني توكيدٌ، والخبرُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٩، ٣٣٠).

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لما ذَكَر السَّابِقينَ وأنَّهم المقرَّبونَ؛ بَيَّن تَقريبَه لهم بقَولِه تعالى[١]:

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾.

أي: في جَنَّاتٍ مُشتَمِلةٍ على نِعَمٍ كَثيرةٍ -بَدَنيَّةٍ وقَلبيَّةٍ- لا تَنقَطِعُ أبدًا[٢].

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر السَّابِقينَ فَصَّلَهم؛ فقال[٣]:

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣﴾.

أي: هم جَماعةٌ كثيرةٌ مِنَ الأوَّلينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٧-٥١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٥، ٥١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣١).
قيل: المرادُ: جماعةٌ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، وقَليلٌ مِن أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٥، ٥١٦).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٨). =

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وهم عَدَدٌ قَليلٌ مِنَ الآخِرينَ(١).

= قال الشنقيطي: (ظاهِرُ القرآنِ في هذا المقامِ أنَّ الأوَّلينَ في الموضِعَينِ مِن الأُمَمِ الماضيةِ، والآخِرينَ فيهما مِن هذه الأُمَّةِ، وأنَّ قولَه تعالَى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ في السَّابقينَ خاصَّةً، وأنَّ قولَه: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩، ٤٠] في أصحابِ اليمينِ خاصَّةً. وإنَّما قُلْنا: إنَّ هذا هو ظاهرُ القرآنِ في الأمورِ الثَّلاثةِ، الَّتي هي شُمولُ الآياتِ لجميعِ الأُممِ، وكَونُ قليلٍ مِن الآخِرينَ في خصوصِ السَّابقينَ، وكَونُ ثُلَّةٍ مِن الآخِرينَ في خصوصِ أصحابِ اليمينِ؛ لأنَّه واضحٌ مِن سِياقِ الآياتِ. أمَّا شمولُ الآياتِ لجميعِ الأُممِ فقد دَلَّ عليه أوَّلُ السُّورةِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ إلى قولِه: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ لا شكَّ أنَّه لا يَخُصُّ أُمَّةً دُونَ أُمَّةٍ، وأنَّ الجَميعَ مُسْتَوونَ في الأهوالِ والحسابِ والجزاءِ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ قولَه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ عامٌّ في جميعِ أهلِ المحشَرِ، فظَهَر أنَّ السَّابقينَ وأصحابَ اليمينِ مِنهم مَنْ هو مِنَ الأُمَمِ السَّابقةِ، ومنهم مَنْ هو مِنْ هذه الأُمَّةِ. وعلى هذا فظاهِرُ القُرآنِ أنَّ السَّابِقينَ مِن الأُمَمِ الماضيةِ أكثَرُ مِنَ السَّابقينَ مِن هذه الأُمَّةِ، وأنَّ أصحابَ اليمينِ مِن الأُممِ السَّابِقةِ ليست أكثرَ مِن أصحابِ اليمينِ مِن هذه الأُمَّةِ؛ لأنَّه عَبَّر في السَّابقينَ مِن هذه الأُمَّةِ بقولِه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، وعَبَّر عن أصحابِ اليمينِ مِن هذه الأُمَّةِ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٤٠]. ولا غرابةَ في هذا؛ لأنَّ الأُمَمَ الماضيةَ أُممٌ كثيرةٌ، وفيها أنبياءُ كثيرةٌ ورُسُلٌ، فلا مانِعَ مِن أن يَجتَمِعَ مِن سابِقيها مِنْ لَدُنْ آدَمَ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أكثرُ مِن سابِقي هذه الأُمَّةِ وحْدَها. أمَّا أصحابُ اليمينِ مِن هذه الأُمَّةِ فيحتملُ أنْ يَكونوا أكثرَ مِن أصحابِ اليمينِ مِن جميعِ الأممِ؛ لأنَّ الثُّلَّةَ تَتناوَلُ العددَ الكثيرَ، وقد يكونُ أحدُ العددَيْنِ الكثيرَينِ أكثَرَ مِن الآخَرِ، معَ أنَّهما كِلَيْهما كثيرٌ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥١٥).

وقيل: الأوَّلونَ هم أوَّلُ هذه الأُمَّةِ، والآخِرونَ: المُتأخِّرونَ مِن هذه الأُمَّةِ. وممَّن رجَّح هذا القَولَ: ابنُ جُزَي، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٨، ٥١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٧-٥١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((أضواء =

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾.

أي: مَجالِسُهم على سُرُرٍ مَنسوجةٍ بالذَّهَبِ وغَيرِه مِنَ الجواهِرِ واللَّآلِئِ[1]!

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر السُّرَرَ وبَيَّنَ عَظَمَتَها؛ ذَكَر غايتَها، فقال[2]:

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: متَّكِئِينَ على تلك السُّرُرِ مُتقابِلينَ بوُجوهِهم، لا يَنظُرُ بَعضُهم إلى قَفا

= البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٥، ٥١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٧).

قال البِقاعي: (﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ وهو ما يَسُرُّ الإنسانَ مِن المقاعِدِ العاليةِ المصنوعةِ للرَّاحةِ والكرامةِ، الَّتي هي آيةُ المُلْكِ، وهو العَرشُ ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ أي: مَنسوجةٍ نَسْجًا مُضاعَفًا، مَنضودةٍ، داخِلٍ بَعضُها في بَعضٍ، مُقارِبةِ النَّسْجِ... لكِنْ نَسْجُها بالذَّهَبِ، مُفَصَّلًا بالجَوهَرِ مِنَ الدُّرِّ والياقوتِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٠٢).

وقال ابن عاشور: (السُّرُرُ: جَمعُ سَريرٍ، وهو كُرسيٌّ طَويلٌ مُتَّسِعٌ، يجلِسُ عليه المُتَّكِئُ والمُضطجِعُ، له سُوقٌ أربَعٌ، مُرتَفِعٌ على الأرضِ بنَحوِ ذِراعٍ، يُتَّخَذُ مِن مُختَلِفِ الأعوادِ، ويتَّخِذُه الملوكُ مِن ذَهَبٍ ومِن فِضَّةٍ، ومِن عاجٍ ومِن نَفيسِ العُودِ... والمَوضونةُ: المَسبوكُ بَعضُها ببَعضٍ، كما تُسبَكُ حِلَقُ الدُّروعِ، وإنَّما تُوضَنُ سُطوحُها، وهي ما بَينَ سُوقِها الأربَعِ، حيث تُلقى عليها الطَّنافِسُ أو الزَّرابيُّ؛ للجُلوسِ والاضطِجاعِ؛ لِيَكونَ ذلك المَفرَشُ وَثيرًا، فلا يُؤلِمَ المُضطجِعَ ولا الجالِسَ. وفَسَّرَ بَعضُهم ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ بمَرمولةٍ، أي: مَنسوجةٍ بقُضبانِ الذَّهَبِ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٢).

بَعضٍ؛ فليس أحَدٌ منهم وراءَ أحَدٍ[١]!

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٧].

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المُتَّكِئُ قد يَصعُبُ عليه القيامُ لحاجتِه؛ بَيَّنَ تعالى أنَّهم في غايةِ الرَّاحةِ، بقَولِه تعالى[٢]:

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: يَدورُ عليهم لخِدمتِهم وِلدانٌ صِغارٌ، لا يَهرَمونَ ولا يموتونَ[٣]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ [الإنسان: ١٩].

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مَدْحُهم هذا في غايةِ الإبلاغِ مع الإيجازِ، وكان فيه -إلى تبليغِ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٧).

قال السَّعدي: (﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا ﴾ أي: على تلك السُّرُر، جُلوسَ تمكُّنٍ وطُمأنينةٍ، وراحةٍ واستِقرارٍ. ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ وَجهُ كُلٍّ مِنهم إلى وَجهِ صاحِبِه؛ مِن صفاءِ قُلوبِهم، وحُسنِ أدَبِهم، وتَقابُلِ قُلوبِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٤، ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٣).

لهم- تحريكٌ إلى مِثْلِ أعمالِهم، وكان الأكلُ الَّذي هو مِن أعظَمِ المآرِبِ مُشارًا إليه بالمَدحِ العَظيمِ الَّذي مِن جُملتِه الاستِراحةُ على الأسِرَّةِ الَّتي عُلِمَ أنَّ مِن عادةِ الملوكِ أنَّهم لا يَتسَنَّمونَها إلَّا بعدَ قَضاءِ الوَطَرِ منه؛ فلم يَبْقَ بَعدَه إلَّا ما تدعو الحاجةُ إليه مِنَ المَشارِبِ وما يَتْبَعُها- قال تعالى[١]:

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾.

أي: يَطوفُ الوِلْدانُ عليهم بأكوابٍ مُستديرةٍ لا خراطيمَ لها ولا آذانَ، وأباريقَ يَبرُقُ لَونُها مِن صَفائِها، لها خراطيمُ وآذانٌ[٢].

﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

أي: ويَطوفُ الوِلْدانُ عليهم بكُؤوسٍ مِن خَمرٍ ظاهِرةٍ جاريةٍ تَنبُعُ كما يَنبُعُ الماءُ، بلا انقِطاعٍ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٣، ٢٩٤).

قال البقاعي: (﴿بِأَكْوَابٍ﴾ أي: كِيزانٍ مُستديرةِ الأفواهِ بلا عُرًى ولا خَراطيمَ، لا يَعوقُ الشَّارِبَ منها عائِقٌ عن الشُّربِ مِن أيِّ مَوضِعٍ أراد منها، فلا يحتاجُ أن يحَوِّلَ الإناءَ عن الحالةِ الَّتي تَناوَله بها لِيَشرَبَ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٠٣). ويُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٨٣).

وقال ابنُ عاشور: (الأباريقُ: جَمعُ إبريقٍ، وهو إناءٌ تُحمَلُ فيه الخَمرُ للشَّارِبينَ، فتُصَبُّ في الأكوابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٤).

قال الزجاج: (الكأسُ: الإناءُ فيه الشَّرابُ، فإن لم يكُنْ فيه شَرابٌ فليس بكأسٍ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١١٠).

وقال ابن جُزَي: (وقيل: الكأسُ إناءٌ واسعُ الفَمِ، ليس له مِقْبَضٌ، سواءٌ كان فيه خمرٌ أمْ لا). =

كما قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٥ - ٤٧].

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أثبَتَ نَفْعَها وما يُشَوِّقُ إليها؛ نفَى ما يُنَفِّرُ عنها، فقال تعالى[(١)]:

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾.

أي: لا يَنشَأُ عن شُربِهم مِن تلك الخَمرِ صُداعٌ في رُؤوسِهم[(٢)].

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ بكَسرِ الزَّاي، أي: لا يَسكَرونَ بها، أو: لا يَنفَدُ شَرابُهم[(٣)].

٢- قِراءةُ: ﴿وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ بفَتحِ الزَّاي، قيل: لا تذْهبُ عُقولهم. أو: لا يسكرون. وقيل: لا تَتَغَيَّرُ ألوانُهم، وَقيل غيرُ ذلك[(٤)].

= ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٤).

(٣) قرأ بها عاصِمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣١٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٨٦).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧). =

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾.

أي: لا يَسْكَرُ بها شارِبُوها، فتَزولَ عُقولُهم، ولا ينفَدُ شرابُهم[(١)].

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠﴾.

أي: ويَطوفُ عليهم الوِلْدانُ بفاكِهةٍ مِمَّا يَختارونَه مِن أصنافِ الفَواكِهِ الكَثيرةِ في الجَنَّةِ[(٢)].

= ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣١٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٤).

ذكَر الفرَّاءُ أنَّ ﴿يُنزِفُونَ﴾ لها معنيانِ: الأوَّلُ: مِن أنزفَ الرَّجلُ إذا فنِيتْ خَمْرُه، والثَّاني: مِن أنزفَ إذا ذهَب عقلُه. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٥).

وممَّن اختار أنَّه على قراءةِ الكسرِ فالمعنى: لا يَنفَدُ شَرابُهم، ولا تفنَى خمرُهم: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٠٤).

وممن اختار أنَّ المعنَى: لا تذهبُ عقولُهم، ولا يسكرونَ: جلالُ الدِّين المحلِّي، وأبو السُّعودِ، والشَّوكاني، والقنوجي، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٠) ((تفسير القنوجي)) (١٣/ ٣٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥).

وممَّن جمَع بينَ المعنيينِ السَّابقينِ: السَّمرقندي، فقال: (لا تَذْهبُ عقولُهم، ولا ينفَدُ شرابُهم). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر ما جَرَت العادةُ بتَناوُلِه لمُجَرَّدِ اللَّذَّةِ؛ أتْبَعَه ما العادةُ أنَّه لإقامةِ البِنْيَةِ، وإنْ كان هناك لمجَرَّدِ اللَّذَّةِ أيضًا؛ فقال تعالى[1]:

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: ويَطوفُ الوِلْدانُ عليهم بلَحْمِ طَيرٍ مِمَّا تَرغَبُ أنفُسُهم في أكْلِه[2].

قال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢].

وعن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُئِلَ عن الكَوثَرِ، فقال: نَهرٌ أعطانِيه رَبِّي، أشَدُّ بَياضًا مِنَ اللَّبَنِ، وأحلى مِنَ العَسَلِ، وفيه طَيرٌ كأعناقِ الجُزُرِ[3]! فقال عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ تلك لَطَيرٌ ناعِمةٌ! فقال: أكَلَتُها أنعَمُ منها يا عُمَرُ!))[4].

= (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٤).

قال السعدي: (أي: مِن كُلِّ صِنفٍ مِنَ الطُّيورِ يَشتَهونَه، ومِن أيِّ جِنسٍ مِن لَحمِه أرادوا، وإنْ شاؤوا مَشويًّا أو طَبيخًا أو غيرَ ذلك!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(٣) الجُزُرُ: جَمعُ جَزُورٍ، وهو: ما يَصلُحُ للذَّبحِ مِنَ الإبِلِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٥٩١).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥٤٢)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٧٠٣)، وأحمد (١٣٣٠٦) واللَّفظُ له.

قال الترمذي: (حَسَنٌ غَريبٌ). وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٥٤٢): (حَسَنٌ =

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا لم يَكُنْ بعْدَ الأكلِ والشَّرابِ أشهَى مِنَ النِّساءِ؛ قال تعالى[(١)]:

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿وَحُورٍ عِينٍ﴾ بالخَفضِ، قيل: المعنى: ويُطافُ عليهم بِحُورٍ عِينٍ. وقيل: المعنى: يُنعَّمونَ بحُورٍ عِينٍ، أو يُكرَمونَ بحُورٍ عِينٍ. وقيل هي عَطفٌ على قَولِه تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٢]، على تقديرِ: أولئك المُقَرَّبونَ في جنَّاتِ النَّعيمِ، وفي حُورٍ عِينٍ، أي: في مُقارَنةِ حُورٍ عِينٍ، أو مُباشَرةِ حُورٍ عِينٍ[(٢)].

= صَحيحٌ). وصَحَّح إسنادَه شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢١/ ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٨٤).

(٢) قرأ بها أبو جعفرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٢).

وقال ابنُ كثير: (وقراءةُ الجَرِّ تحتَمِلُ مَعنَيَينِ؛ أحَدُهما: أن يكونَ الإعرابُ على الإتْباعِ لِما قَبْلَه؛ لِقَولِه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ﴾، كما قال: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] [على قراءةِ الجَرِّ]، وكما قال: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١]. [على قراءةِ الجَرِّ]. والاحتِمالُ الثَّاني: أن يكونَ مِمَّا يَطوفُ به الوِلْدانُ المخَلَّدونَ عليهم: الحُورُ العِينُ، ولكِنْ يكونُ ذلك في القُصورِ، لا بيْن بَعضِهم بَعضًا، بل في الخيامِ يطوفُ عليهم الخُدَّامُ بالحُورِ العِينِ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٤).

٢- قِراءةُ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالرَّفع، على معنى: ولهم حُورٌ عِينٌ، أو: وعِندَهم حُورٌ عِينٌ. وقيل: هو مَعطوفٌ على ﴿وِلْدَٰنٌ﴾، والمعنى: ويَطوفُ عليهم حُورٌ عِينٌ[(١)].

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: ولهم نِساءٌ بِيضٌ، شَديدٌ سوادُ أعيُنِهِنَّ وبَياضُها، واسِعاتُ الأعيُنِ معَ حُسنِها[(٢)].

﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: وهُنَّ في بَياضِهنَّ وجَمالِهنَّ وصَفائِهنَّ يُشبِهْنَ الدُّرَّ الأبيَضَ الصَّافيَ المُتَلألِئَ المَستورَ عن لَمسِ الأيدي، وإصابةِ الغُبارِ والشَّمسِ والرِّياحِ[(٣)]!

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥).

الحُورُ جَمعُ حَوراءَ، قيل: هي المرأةُ البيضاءُ النَّقيَّةُ البياضِ.

وقيل: الحَوراءُ: الشَّديدةُ بَياضِ العَينِ، والشَّديدةُ سَوادِ سَوادِ العَينِ.

وقيل جمعًا بينَ القولينِ السابقينِ: هي البيضاءُ القويَّةُ بَياضِ بياضِ العَينِ، وسوادِ سَوادِها.

والعِينُ: جمعُ عَيناءَ، وهي العظيمةُ العَينِ في حُسنٍ وسَعةٍ.

وقيل: المرادُ بالعِينِ حِسانُ الأعيُنِ.

ويُنظَرُ ما تقدَّمَ في سورةِ (الدُّخَان) الآية (٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٤).

ممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ بالمكنونِ: أي: في أصدافِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والواحدي، =

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أبلَغَ في وَصفِ جَزائِهم بالحُسْنِ والصَّفاءِ؛ دَلَّ على أنَّ أعمالَهم كانت كذلك؛ لأنَّ الجَزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فقال تعالى[1]:

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾.

أي: إنَّما كانت جَنَّاتُ النَّعيمِ ثوابًا لأولئك السَّابِقينَ المُقَرَّبينَ؛ بسَبَبِ أعمالِهم الصَّالِحةِ الَّتي كانوا يَعمَلونَها في الدُّنيا[2].

قال تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥﴾.

= والسمعاني، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١١، ٤١).

قال الألوسي: (وقُيِّد بالمكنونِ -أي: المستورِ بما يَحفَظُه؛ لأنَّه أصفى وأبعَدُ مِن التَّغيُّرِ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها تكملةٌ لوصفِ النَّعيمِ بذِكْرِ نعمةٍ رُوحيَّةٍ؛ فإنَّ سَلامةَ النَّفْسِ مِن سَماعِ ما لا يُحَبُّ سَماعُه، ومِن سَماعِ ما يُكرَهُ سَماعُه مِنَ الأذى: نِعمةٌ براحةِ البالِ، وشُغلِه بسَماعِ المَحْبوبِ(١).

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: لا يَسمَعونَ في تلك الجَنَّاتِ كَلامًا باطِلًا لا يَنفَعُهم، ولا يَسمَعونَ فيها كَلامًا يَجلِبُ عليهم الإثمَ، فيَضُرُّهم(٢).

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ: ٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية: ١٠، ١١].

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه أتْبَع ذِكرَ النِّعمةِ السَّابِقةِ بذِكرِ نِعمةٍ أُخرى مِنَ الإنعامِ بالمَسموعِ الَّذي يُفيدُ الكَرامةَ؛ لأنَّ الإكرامَ لَذَّةٌ رُوحيَّةٌ، يَكسِبُ النَّفْسَ عِزَّةً وإدلالًا؛ بقَولِه تعالى(٣):

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: إنَّما يَسمَعُ أهلُ الجَنَّةِ فيها التَّسليمَ، والقَولَ السَّالِمَ مِنَ اللَّغْوِ والتَّأثيمِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٤، ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٠، ٤٠٣)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأَخِرِينَ﴾ بِشارةٌ للمُسلِمينَ بأنَّ حَظَّهم في هذا الصِّنفِ كحَظِّ المُؤمِنينَ السَّالِفينَ -أصحابِ الرُّسُلِ-؛ لأنَّ المُسلِمينَ كانوا قد سَمِعوا في القُرآنِ وفي أحاديثِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تنويهًا بثَباتِ

= القرطبي)) (١٧/ ٢٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٥، ٣٣٦).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المرادَ هنا: التَّسليمُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، وابنُ عاشور، وهو ظاهِرُ اختيارِ الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥١، ١٥٢) و(٣/ ٤٦٦) و(٧/ ٥١٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤١).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المرادَ: عُمومُ الكلامِ السَّالمِ مِنَ اللَّغوِ والإثمِ: الواحديُّ، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٣٦).

وظاهِرُ عبارةِ ابنِ كثيرٍ الجَمعُ بيْنَ المَعنَيَينِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٥).

قال ابنُ القيِّم: (قَولُه تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ وهذا فيه نَفيٌ لِسَماعِ اللَّغْوِ والتَّأثيمِ، وإثباتٌ لضِدِّه، وهو السَّلامُ المُنافي لهما، فالمَقصودُ به نَفيُ شَيءٍ، وإثباتُ ضِدِّه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٦٩).

وقال السعدي: (﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ أي: إلَّا كلامًا طيِّبًا؛ وذلك لأنَّها دارُ الطَّيِّبينَ، ولا يكونُ فيها إلَّا كلُّ طيِّبٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

المُؤمِنينَ السَّالِفينَ مع الرُّسُلِ ومُجاهَدتِهم؛ فرُبَّما خامَرَ نُفوسَهم أنَّ تلك صِفةٌ لا تُنالُ بَعْدَهم، فبَشَّرَهم اللهُ بأنَّ لهم حَظًّا منها، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤ - ١٤٦] وغَيرِها؛ تلهيبًا للمُسلِمينَ، وإذكاءً لِهِمَمِهم في الأخذِ بما يُلحِقُهم بأمثالِ السَّابِقينَ مِن الأوَّلِينَ، فيَستَكثِرونَ مِن تلك الأعمالِ[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ قولُه: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿عَلَىٰ﴾ مِن قولِه: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾، وهو العاملُ فيها، أي: استَقرُّوا عليها مُتَّكِئينَ مُتَقابِلينَ، لا يَنظُرُ بَعضُهم في أقْفاءِ بَعضٍ، وُصِفوا بحُسنِ العِشرةِ، وتَهذيبِ الأخلاقِ والآدابِ[2]، فلَدَيهم مِن كَمالِ الأدَبِ ما لا يُمكِنُ أنْ يَستَدبِرَ أحدُهم الآخَرَ، كلُّهم مُؤَدَّبونَ، كلُّهم قُلوبٌ صافيةٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] ولو أنَّ أحدًا يُكَلِّمُك وقد ولَّاك ظَهْرَه، هل يكونُ سماعُك له ومحبَّتُك له كما لو كان يُحَدِّثُك مُستَقبِلًا إيَّاك؟ وهذا شيءٌ مُشاهَدٌ مَعلومٌ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ * أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أنَّ كلَّ شيءٍ يُخالِفُ الإسلامَ فهو تأخُّرٌ، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٢).

وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ ﴾ [التوبة: ١٠٠] هؤلاء هم أهلُ السَّبْقِ، هم أهلُ التَّقَدُّمِ، هم أهلُ السَّعادةِ والفَلاحِ في الدُّنيا والآخِرةِ، أمَّا مَن خَرَجَ عن سَبيلِهم فهو في تأخُّرٍ، إلَّا أنْ يُرادَ بالتَّقَدُّمِ أنَّه كما قال اللهُ تعالى في فِرعَونَ: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴾[1] [هود: ٩٨]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ ذَكَرَ سُبحانَه مَنزِلتَهم قبْلَ ذِكْرِ مَنزِلِهم، وكما يقالُ: الجارُ قبْلَ الدَّارِ، وكما قالتِ امرأةُ فِرعَونَ: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ ﴾ [التحريم: ١١] بدأتْ بالجِوارِ ﴿لِي عِندَكَ ﴾، وهنا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ قبْلَ أنْ يَبدأَ بذِكرِ الثَّوابِ؛ لأنَّ قُربَهم مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ فوقَ كلِّ شيءٍ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أضاف الجَنَّاتِ إلى النَّعيمِ؛ لأنَّ ساكِنَها مُنَعَّمٌ في بَدَنِه، ومُنَعَّمٌ في قَلْبِه، كما قال عزَّ وجلَّ في سورةِ (الإنسانِ): ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا * فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴾ [الإنسان: ١٠، ١١]؛ نَضرةً في الوُجوهِ، وسُرورًا في القُلوبِ، فهم في نِعمَتَينِ؛ هما: نَعيمُ البَدَنِ، ونَعيمُ القَلبِ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ دَلالةٌ على فَضلِ صَدرِ هذه الأُمَّةِ -في الجُملةِ- على مُتأخِّريها؛ لِكَونِ المُقَرَّبينَ مِنَ الأوَّلينَ أكثَرَ مِنَ المتأخِّرينَ[4]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٥/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: تَبشيرٌ ببَعضِ ما لهم مِنَ النَّعيمِ مِمَّا تَشتاقُ إليه النُّفوسُ في هذه الحياةِ الدُّنيا؛ لِتَشويقِهم إلى هذا المَصيرِ، فيَسْعَوا لنوالِه بصالحِ الأعمالِ، وليس الاقتِصارُ على المذكورِ هنا بمُقتَضٍ حَصْرَ النَّعيمِ فيما ذُكِرَ؛ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[1] [الزخرف: ٧١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ أنَّ مِن تمامِ اللَّذَّةِ والنَّعيمِ أنْ يكونَ مع الإنسانِ في بُستانِه ومَنزِلِه مَن يُحِبُّ مُعاشَرتَه، ويُؤْثِرُ قُربَه، ولا يكونَ بَعيدًا منه، قد حِيلَ بَيْنَه وبيْنَه، بل سريرُه إلى جانبِ سَريرِ مَن يُحِبُّه[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ دَلالةٌ على سَعةِ المكانِ؛ لأنَّ المكانَ إذا كان ضَيِّقًا فلا يُمكِنُ أنْ يكونَ النَّاسُ مُتقابِلينَ، والجَنَّةُ عَرضُها كعَرضِ السَّمَواتِ والأرضِ، ومَن يحيطُ بسَماءٍ واحدةٍ؟! كيف وهي عَرضُ السَّمَواتِ السَّبْعِ، والسَّمواتُ السَّبْعُ بعضُها مِن فَوقِ بعضٍ، وكُلَّما كان الشَّيءُ فَوقَ كانت دائِرتُه أوسَعَ، فمَن يحيطُ بهذا إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؟! إذَنْ هم مُتقابِلونَ؛ لأنَّ أمكِنتَهم واسِعةٌ[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ سُؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّ التَّخليدَ لا يَختَصُّ بالوِلْدانِ في الجنَّةِ؟!

الجَوابُ: مَعناه: أنَّهم لا يَتحَوَّلونَ عن شَكلِ الوِلْدانِ[4]، فهم مُخلَّدونَ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٨).

صفةِ الوِلْدانِ، أي: بالشَّبابِ والغضاضةِ، أي: ليسوا كوِلْدانِ الدُّنيا يَصيرونَ قريبًا فِتيانًا، فكُهولًا، فشُيوخًا. فهم دائِمونَ على الطَّوافِ عليهم ومُناوَلتِهم، لا يَنقطِعون عن ذلك. وإذ قد أَلِفوا رؤيتَهم؛ فمِنَ النِّعمةِ دَوامُهم معهم(١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ دليلٌ على جوازِ أكلِ الفاكِهةِ على صِفةِ التَّخَيُّرِ، وهو مُستثنًى مِنَ الأكلِ مِمَّا يلي(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ لطيفةٌ: وهي أنَّه تعالى قال: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾، ولم يَقُلْ: «ممَّا يَختارونَ» مع قُربِ أحَدِهما إلى الآخَرِ في المعنى، وهو أنَّ التَّخَيُّرَ مِن بابِ التَّكَلُّفِ، فكأنَّهم يأخُذونَ ما يكونُ في نهايةِ الكَمالِ، وهذا لا يُوجَدُ إلَّا مِمَّن لا يكونُ له حاجةٌ ولا اضطِرارٌ(٣).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ لَمَّا كان في لَحمِ الطَّيرِ مِمَّا يُرغَبُ عنه، احتَرَز عنه بقَولِه: ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي: غايةَ الشَّهوةِ، بحيثُ يَجِدونَ لآخِرِه مِنَ اللَّذَّةِ ما لأَوَّلِه(٤).

١٢- قَولُه تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٞ * كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُؤِ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الصَّفاءَ والرِّقَّةَ مَدْحٌ في الأشخاصِ(٥).

١٣- قَولُه تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فيه أنَّ العملَ سببٌ للثَّوابِ، فالباءُ للسَّبَبِ(٦)، وأنَّه كما حَسُنَت منهم الأعمالُ، أحسَنَ اللهُ لهم الجزاءَ، ووَفَّرَ لهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٠)

(٦) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٤٥).

الفَوزَ والنَّعيمَ[١].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ دليلٌ على حُسنِ أدَبِ أهلِ الجنَّةِ في خِطابِهم فيما بَيْنَهم؛ وأنَّه أطيَبُ كَلامٍ، وأسَرُّه للنُّفوسِ، وأسلَمُه مِن كُلِّ لَغوٍ وإثمٍ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ هو القِسمُ الثَّالثُ مِن الأزواجِ الثَّلاثةِ، ولعلَّ تأْخيرَ ذِكرِهم مع كَونِهم أسبَقَ الأقسامِ، وأقدَمَهم في الفضلِ؛ لِيَقترِنَ ذِكرُهم ببَيانِ مَحاسِنِ أحوالِهم، على أنَّ إيرادَهم بعُنوانِ السَّبقِ مُطْلَقًا مُعرِبٌ عن إحرازِهم لقَصَبِ السَّبقِ مِن جَميعِ الوجوهِ[٣].

أو: أُخِّرَ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ في الذِّكرِ عن أصحابِ اليمينِ؛ لتَشويقِ السَّامِعينَ إلى مَعرفةِ صِنفِهم بعْدَ أنْ ذُكِرَ الصِّنفانِ الآخَرانِ مِن الأصنافِ الثلاثةِ؛ تَرغيبًا في الاقتِداءِ[٤].

- وقولُه: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ ثانيًا يَجوزُ جعْلُه خبَرًا عن ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأوَّلِ، كما أُخبِرَ عن أصحابِ المَيمنةِ بأنَّهم ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨]؛ لأنَّه يدُلُّ على وصْفِهم بشَيءٍ لا يُكْنَهُ كُنْهُه، بحيث لا يَفي به التَّعبيرُ بعبارةٍ غيرِ تلك الصِّفةِ؛ إذ هي أقْصى ما يَسَعُه التَّعبيرُ، فإذا أراد السَّامعُ أنْ يَتصوَّرَ صِفاتِهم، فعليهِ أنْ يَتدبَّرَ حالَهم. ويَجوزُ جَعْلُه تأْكيدًا للأوَّلِ، فمآلُ جُملةِ ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٨).

ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾، ونَظيرتِها ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾، وجُملةِ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ هو التَّعجيبُ مِن حالِهم، وطَريقُه هو الكِنايةُ، ولكنَّ بيْن الكنايتَين فرْقًا بأنَّ إحداهما كانتْ مِن طريقِ السُّؤالِ عن الوصْفِ، والأُخرى مِن طَريقِ تَعذُّرِ التَّعبيرِ بغيرِ ذلك الوصْفِ، والمعْنى: أنَّ حالَهم بلَغَت مُنتهَى الفضْلِ والرِّفعةِ، بحيث لا يَجِدُ المُتكلِّمُ خبَرًا يُخبِرُ به عنهم أدَلَّ على مَرتبتِهم مِن اسمِ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾، فهذا الخبَرُ أبلغُ في الدَّلالةِ على شرَفِ قدْرِهم مِن الإخبارِ بـ(ما) الاستِفهاميَّةِ التَّعجيبيَّةِ في قولِه: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾، ألَا ترى كيف سبَقَ بَسْط حالِ السَّابقينَ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾، فجمعَ بيْنَ اسمِ الإشارةِ المشارِ به إلى مَعروفٍ، وبيْنَ الإخبارِ عنه بقولِه: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ مُعرَّفًا بالألِفِ واللَّامِ العهديَّةِ، وليس مِثلُ هذا مَذكورًا في بَسْطِ حالِ أصحابِ اليمينِ؛ فإنَّه مُصدَّرٌ بقولِه: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨]، معَ ما في اشتِقاقِ لَقَبِهم مِن (السَّبْق) مِن الدَّلالةِ على بُلوغِهم أقْصى ما يَطلُبُه الطَّالِبون[١].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ مُستعمَلًا في المُبادَرةِ والإسراعِ إلى الخَيرِ في الدِّينِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ مُستعمَلًا في المُغالَبةِ في تَحصيلِ الخَيرِ[٢].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ في الآيةِ؛ لقصْدِ جَعْلِ وَصْفِ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ بمَنزلةِ اللَّقَبِ لهم، وليُفِيدَ العُمومَ، أي: إنَّهم سابِقون في كلِّ مَيدانٍ تَتسابَقُ إليه النُّفوسُ الزَّكيَّةُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٦، ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٨٧).

- جُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّها جَوابٌ عمَّا يُثيرُه قولُه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مِن تَساؤُلِ السَّامعِ عن أثَرِ التَّنويهِ بهم، وبذلك كان هذا ابتداءَ تَفصيلٍ لجَزاءِ الأصنافِ الثَّلاثةِ على طَريقةِ النَّشرِ بعْدَ اللَّفِّ[1]، اقتَضَتْه مُناسَبةُ اتِّصالِ المَعاني بالنِّسبةِ إلى كلِّ صِنفٍ أقرَبَ ذِكرًا، ثمَّ مُراعاةُ الأهمِّ بالنِّسبةِ إلى الصِّنفينِ الباقيَينِ؛ فكان

(١) اللَّف والنَّشْر: هو أن يُذكَرَ شَيئانِ أو أشياءُ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكَرَ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضَ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلِّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كقولِه تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارةِ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفْقَ توزيعٍ مُرتَّبٍ؛ فقولُه: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيلِ، وقولُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهارِ.

وغيرُ المرتَّبِ -وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوسِ»- هو: أن يأتيَ النَّشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّلٌ، وجاء بعدَها نَشْرٌ غيرُ مُرَتَّبٍ؛ فجُملةُ ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى، ومتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ، ومُتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ، ومتعلِّقةٌ بها.

يُنظر في تفصيلِ أقسامِه وأمثلةٍ على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

بَعضُ الكلامِ آخِذًا بِحُجَزِ بَعضٍ[١].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، المُقرَّبُ: أبلَغُ مِن القريبِ؛ لدَلالةِ صِيغتِه على الاصطفاءِ والاجتباءِ[٢].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى السَّابقينَ، وما فيه مِن معْنى البُعدِ مع قُرْبِ العهْدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الفضْلِ[٣]، وفي جَعْلِ المُسنَدِ إليه اسمَ إشارةٍ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تَنبيهٌ على أنَّهم أحْرياءُ بما يُخبَرُ عنه مِن أجْلِ الوصْفِ الوارِدِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ، وهو أنَّهم السَّابقونَ[٤].

- ولم يُذكَرْ مُتعلَّقُ ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾؛ لظُهورِ أنَّه مُقرَّبٌ مِن اللهِ[٥].

- قولُه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، أو بمُضمَرٍ هو حالٌ مِن ضَميرِه، أي: كائنينَ في جنَّاتِ النَّعيمِ، وإيقاعُ قولِه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ بعْدَ وصْفِ ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ مُشيرٌ إلى أنَّ مَضمونَه مِن آثارِ التَّقريبِ المذكورِ[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٢] وجُملةِ ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ﴾ [الواقعة: ١٥]، وهذا الاعتِراضُ يُقصَدُ منه التَّنويهُ بصِنفِ السَّابقينَ، وتَفضيلُهم بطَريقِ الكِنايةِ عن ذلك بلَفْظَيْ ﴿ثُلَّةٞ﴾ ﴿وَقَلِيلٞ﴾ المُشعِرَينِ بأنَّهم قُلٌّ مِن كُثْرٍ، فيَستلزِمُ ذلك أنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٠).

صِنفٌ عَزيزٌ نَفيسٌ؛ لِما عُهِدَ في العُرفِ مِن قِلَّةِ الأشياءِ النَّفيسةِ[١].

- و﴿ ثُلَّةٌ ﴾ خبَرٌ عن مُبتدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: همْ ثُلَّةٌ، ومَعادُ الضَّميرِ المُقدَّرِ (السَّابِقون)، أي: السَّابقونَ ثُلَّةٌ مِن الأوَّلينَ، وقَليلٌ مِن الآخِرينَ[٢].

- ولِما في هذا الاعتِراضِ مِن الإشعارِ بالعِزَّةِ، قُدِّمَ على ذِكرِ ما لهم مِن النَّعيمِ؛ للإشارةِ إلى عَظيمِ كَيفيَّتِه المُناسِبةِ لوَصْفِهم بالسَّابقينَ، بخلافِ ما يَأتي في أصحابِ اليمينِ[٣].

- و(مِن) في قولِه: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ تَبعيضيَّةٌ، فاقْتَضى أنَّ السَّابقينَ في الأزْمنةِ الماضيةِ وزَمانِ الإسلامِ حاضِرِه ومُستقبَلِه، بَعضٌ مِن كلٍّ، والبَعضيَّةُ تَقْتضي القِلَّةَ النِّسبيَّةَ، ولَفظُ ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ مُشعِرٌ بذلك، ولَفظُ (قَلِيلٌ) صَريحٌ فيه، وإنَّما قُوبِلَ لَفظُ ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ بلَفظِ (قَلِيلٌ)؛ للإشارةِ إلى أنَّ الثُّلَّةَ أكثَرُ منه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ * جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٩١).

- قولُه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[(١)] [الواقعة: ١٢].

- قولُه: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ الكأْسُ جِنسٌ يَصدُقُ بالواحدِ والمُتعدِّدِ، فليس إفرادُه هنا للوَحدةِ؛ فإنَّ المُرادَ كُؤوسٌ كَثيرةٌ كما اقتَضاهُ جمْعُ أكوابٍ وأباريقَ، فإذا كانت آنيةُ حمْلِ الخمْرِ كَثيرةً كانت كُؤوسُ الشَّاربينَ أكثَرَ، وإنَّما أُوثِرَت صِيغةُ المُفرَدِ؛ لأنَّ في لَفظِ (كُؤوس) ثِقَلًا بوُجودِ همْزةٍ مَضمومةٍ في وَسَطِه مع ثِقَلِ صِيغةِ الجمْعِ[(٢)]. وقيلَ: إنَّما أفرَدَ الكأْسَ؛ لأنَّها لا تُسمَّى كأْسًا إلَّا إذا كانتْ مَمْلوءةً[(٣)].

- في قولِه: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ فنُّ الإيجازِ، فجُمِعَ في هاتَينِ الكَلمتينِ جَميعُ عُيوبِ الخمْرِ في الدُّنيا[(٤)].

- ومعْنى ﴿عَنْهَا﴾ مُجاوزينَ لها، أي: لا يقَعُ لهم صُداعٌ ناشئٌ عنها، أي: فهي مُنزَّهةٌ عن ذلك، بخِلافِ خُمورِ الدُّنيا، فاستُعْمِلَت (عن) في معْنى السَّببيَّةِ، وعُطِفَ ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ على ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾ عنها، فيُقدَّرُ له مُتعلَّقٌ دلَّ عليه مُتعلَّقُ ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾؛ فقد قال في سُورةِ (الصَّافاتِ): ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، أي: لا يَعتَريهم نَزْفٌ بسَببِها كما يَحصُلُ للشَّاربينَ في الدُّنيا[(٥)].

- و(ما يَتخيَّرون) هو الجِنسُ الَّذي يَختارونه ويَشْتهونَه، أي: يَطوفون عليهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٤).

بفاكهةٍ مِن الأنواعِ الَّتي يَختارونها؛ ففِعلُ ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ يُفيدُ قُوَّةَ الاختيارِ[١].

- قولُه: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾ ذكَر لحمَ الطَّيرِ؛ لأنَّ لحومَ الطَّيرِ أنعمُ اللُّحومِ وألَذُّها، وأشهاها وأعزُّها[٢].

- قولُه: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ الاشتِهاءُ: مَصدرُ اشْتَهى، وهو افتِعالٌ مِن الشَّهوةِ الَّتي هي مَحبَّةُ نَيلِ شَيءٍ مَرغوبٍ فيه مِن مَحسوساتٍ ومعْنوياتٍ، يُقالُ: شَهِيَ كرَضِيَ، وشَها كدَعا، والأكثرُ أنْ يُقالَ: اشْتَهى، والافتِعالُ فيه للمُبالَغةِ[٣].

- وتَقديمُ ذِكرِ الفاكهةِ على ذِكرِ اللَّحمِ قد يكونُ لأنَّ الفواكِهَ أعَزُّ، وبهذا يَظهَرُ وجْهُ المُخالَفةِ بيْن الفاكهةِ ولَحمِ طَيرٍ، فجُعِلَ التَّخيُّرُ للأوَّلِ، والاشتِهاءُ للثَّاني؛ لأنَّ الاشتِهاءَ أعلَقُ بالطَّعامِ منه بالفواكهِ؛ فلَذَّةُ كَسرِ الشَّاهيةِ بالطَّعامِ لَذَّةٌ زائدةٌ على لَذَّةِ حُسنِ طَعمِه، وكثرةُ التَّخيُّرِ للفاكهةِ هي لَذَّةُ تَلوينِ الأصنافِ[٤]؛ فإنَّ اللَّحمَ والفاكِهةَ إذا حَضَرا عندَ الجائعِ تميلُ نفْسُه إلى اللَّحمِ، وإذا حضَرَا عند الشَّبعانِ تَميلُ نفْسُه إلى الفاكِهةِ؛ فالجائِعُ مُشتَهٍ، والشَّبعانُ غيرُ مُشتَهٍ، بل هو مختارٌ، وأهلُ الجنَّةِ إنَّما يأكُلونَ لا مِن جُوعٍ، بل للتفَكُّهِ؛ فمَيلُهم للفاكِهةِ أكثَرُ، فيتخَيَّرونَها؛ ولهذا ذُكِرَت في مواضِعَ كَثيرةٍ في القرآنِ، بخِلافِ اللَّحمِ، وإذا اشتهاه حَضَر بيْن يديه على ما يَشتَهيه، فتَميلُ نفْسُه إليه أدنى مَيلٍ، فالفاكِهةُ تَلَذُّ الأعيُنُ بحُضورِها، واللَّحمُ لا تلَذُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأعيُنُ بحُضورِه؛ ولهذا قدَّم الفاكِهةَ على اللَّحمِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ تَشبيهٌ مُرسَلٌ مُجمَلٌ[٢]، ووَجْهُ الشَّبَهِ هو الصَّونُ[٣].

- والأمثالُ: الأشباهُ. ودُخولُ كافِ التَّشبيهِ على (أمثال) للتَّأكيدِ، والمعْنى: هنَّ أمثالُ اللُّؤلؤِ المكنونِ[٤].

- ووَصَفَ اللُّؤلُؤَ بالمَكنونِ؛ لأنَّه أصْفَى وأبْعَدُ مِن التَّغيُّرِ[٥].

- قولُه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، انتصَبَ ﴿جَزَآءَۢ﴾ على المفعولِ لأجْلِه لِفعلٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١١]، أي: أعطَيْناهم ذلك جَزاءً. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿جَزَآءَۢ﴾ مَصدرًا جاء بدَلًا عن فِعلِه، والتَّقديرُ: جازَيْناهم جَزاءً. والجُملةُ على التَّقديرَينِ اعتِراضٌ يُفيدُ إظهارَ كَرامتِهم، بحيثُ جُعِلَتْ أصنافُ النَّعيمِ الَّذي حُظُوا به جَزاءً على عمَلٍ قَدَّموه، وذلك إتمامٌ لكَونِهم مُقرَّبينَ[٦].

- قولُه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾، فيه (تأْكيدُ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه) المُشتهرُ في البَديعِ باسمِ (تأْكيدِ المدْحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ[٧])،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٩٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٨٤).

(٢) تقدَّم تعريفه (ص: ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٦).

(٧) تأكيدُ المدحِ بما يُشبه الذمَّ- أو: تأكيد الشَّيءِ بما يُشبه ضِدَّه-: هو عند عُلماءِ البلاغةِ استِثناءُ صِفة مَدْحٍ مِن صِفةِ ذمٍّ منفيَّةٍ عن الشَّيء، بتقديرِ دُخولِها في صِفة الذمِّ المنفيَّة. يُنظر: ((البرهان)) =

بأنْ يُستثنَى مِن صفةِ ذمٍّ مَنْفِيَّةٍ عن الشَّيءِ صِفةُ مدحٍ بتقديرِ دُخولِها فيها، وله مَوقعٌ عَظيمٌ مِن البَلاغةِ[(١)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تَعالى هنا: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾، وقال تعالى في سُورةِ (النَّبأِ): ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٣٥]؛ ووجْهُ الفرْقِ بيْنَهما: أنَّ الكِذَّابَ كثيرُ التَّكذيبِ، ومعْناه -هناك-: أنَّهم لا يَسمَعون كذِبًا، ولا أحدًا يقولُ لآخَرَ: كذَبْتَ. وفائدتُه: أنَّهم لا يَعرِفون كذِبًا مِن مُعيَّنٍ مِن النَّاسِ، ولا مِن واحدٍ منهم غيرِ مُعيَّنٍ؛ لتَفاوُتِ حالِهم وحالِ الدُّنيا؛ فإنَّا نَعلَمُ أنَّ بَعضَ النَّاسِ بأعْيانِهم كذَّابون، فإنْ لم نَعرِفْ ذلك نَقطَعُ بأنَّ في النَّاسِ كذَّابًا؛ لأنَّ أحدَهم يقولُ لصاحِبِه: كذَبْتَ، فإنْ صدَقَ فصاحبُه كذَّابٌ، وإنْ لم يَصدُقْ فهو كاذبٌ، فيُعلَمُ أنَّ في الدُّنيا كذَّابًا بعَينِه أو بغيرِ عَينِه، ولا كذلك في الآخرةِ؛ فلا كَذِبَ فيها. وقال هاهنا: ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾، وهو أبلَغُ مِن التَّكذيبِ؛ فإنَّ مَن يقولُ في حقِّ مَن لا يَعرِفُه: إنَّه زانٍ، أو شاربُ الخَمرِ -مثلًا-؛ فإنَّه يَأثَمُ -وقد يكونُ صادقًا-، فالَّذي ليس عن عِلمٍ: إثْمٌ، فلا يقولُ أحدٌ لأحدٍ: قُلْتَ ما لا عِلمَ لك به، فالكلامُ هاهنا أبلَغُ؛ لأنَّه قَصَرَ السُّورةَ على بَيانِ أحوالِ الأقسامِ؛ لأنَّ المذكورينَ هنا هم السَّابقون، وفي سُورةِ (النَّبأِ) هم المتَّقون، والسَّابقُ فوقَ المتَّقي[(٢)].

- القيلُ اسمٌ لقولٍ لم يُعلَمْ قائِلُه؛ لذا قال: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ لعدَمِ اختِصاصِ هذا القولِ بقائلٍ دونَ قائلٍ، فيُسمَعُ هذا القولُ دائمًا مِن الملائكةِ والنَّاسِ،

= للزركشي (٣/ ٥١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥١١).

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[(١)] [يس: ٥٨].

- وقولُه: ﴿سَلَٰمًا﴾ الأوَّلُ مَقُولُ ﴿قِيلًا﴾، أي: هذا اللَّفظُ الَّذي تَقديرُه: سلَّمْنا سَلامًا، فهو جُملةٌ مَحكيَّةٌ بالقولِ، و﴿سَلَٰمًا﴾ الثَّاني تَكريرٌ لـ﴿سَلَٰمًا﴾ الأوَّلِ تَكريرًا ليس للتَّأكيدِ، بلْ لإفادةِ التَّعاقُبِ، أي: سَلامًا إثرَ سَلامٍ، أو مُشارًا به إلى كَثرةِ المُسَلِّمينَ، فهو مُؤْذِنٌ -مع الكرامةِ- بأنَّهم مُعظَّمونَ مُبجَّلون، والفرقُ بيْنَ الوَجهَينِ أنَّ الأوَّلَ يُفيدُ التَّكريرَ بتَكريرِ الأزمنةِ، والثَّانيَ يُفيدُ التَّكرارَ بتَكرارِ المسَلِّمينَ. وقيل: التَّكرارُ للدَّلالةِ على فُشُوِّ السَّلامِ بيْنَهم[(٢)].

وقيل: فائِدةُ تَكريرِ السَّلامِ الإشارةُ إلى تمامِ النِّعْمةِ؛ وذلك لأنَّ أثَرَ السَّلامِ في الدُّنيا لا يَتِمُّ إلَّا بالتَّسليمِ ورَدِّ السَّلامِ، فكما أنَّ أحَدَ المُتلاقِيَينِ في الدُّنيا يقولُ للآخَرِ: السَّلامُ عليك، فيَقولُ الآخَرُ: وعليك السَّلامُ، فكذلك في الآخِرةِ يَقولونَ: ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾[(٣)].

- وإنَّما جِيءَ بلفظِ ﴿سَلَٰمًا﴾ مَنصوبًا دونَ الرَّفعِ، مع كَونِ الرَّفعِ أدلَّ على المُبالَغةِ -كما ذكَروه في قولِه: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ في سُورةِ (هودٍ) [٦٩]، وسُورةِ (الذَّارياتِ) [٢٥]: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾-؛ لأنَّه أُريدَ جَعْلُه بدَلًا مِن ﴿قِيلًا﴾[(٤)].

وقيل: الفرقُ بيْن قولِه تَعالى: ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ -بنصْبِهما-، وبيْن قولِه تَعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧).

﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾ [هود: ٦٩]؛ أنَّ قولَه: (سلامٌ عليك) أتمُّ وأبلَغُ مِن قولِهم: (سلامًا عليك)؛ فإبراهيمُ عليه السَّلامُ أراد أنْ يَتفضَّلَ عليهم بالذِّكرِ، ويُجيبَهم بأحسَنَ ممَّا حَيَّوا -وذلك على قولٍ-، وأمَّا هنا فلا يَتفضَّلُ أحدٌ مِن أهلِ الجنَّةِ على الآخَرِ مِثلَ التَّفضُّلِ في تلك الصُّورةِ؛ إذ هم مِن جِنسٍ واحدٍ -وهم المؤمنون-، ولا يَنسُبُ أحدٌ إلى أحدٍ تَقصيرًا[١].

- وأيضًا قال اللهُ تعالى في سُورةِ (يس): ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨] ولم يكُنْ له رَدٌّ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ تَسليمَ اللهِ على عبْدِه مُؤمِّنٌ له، فأمَّا اللهُ تَعالى فهو مُنزَّهٌ عن أنْ يُؤمِّنَه أحدٌ، بل الرَّدُّ -إنْ كان- فهو قولُ المؤمَّنِ: سلامٌ عَلينا وعلى عِبادِ اللهِ الصَّالِحينَ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٧-٤٠)

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سِدْرٍ﴾: أي: شَجَرِ نَبْقٍ[١].

﴿مَّخْضُودٍ﴾: أي: مَنْزوعِ الشَّوكِ، والخَضْدُ: كَسرُ الشَّيءِ اللَّيِّنِ، وأصلُ (خضد): يدُلُّ على تَثَنٍّ في شَيءٍ لَيِّنٍ[٢].

﴿وَطَلْحٍ﴾: الطَّلْحُ: شَجَرٌ ذو شَوكٍ، له ظِلٌّ بارِدٌ طَيِّبٌ. وقيل: المرادُ به هنا المَوْزُ[٣].

﴿مَّنضُودٍ﴾: أي: مُتراكِمٍ بَعضُه على بَعضٍ، قد جُمِع بعضُه إلى بعضٍ، أو نُضِدَ بالحِمْلِ (الثَّمرِ) مِن أوَّلِه إلى آخِرِه، فليست له سُوقٌ بارزةٌ، والنَّضْدُ هو الرَّصُّ، والمُنَضَّدُ: المرصوصُ، وأصلُ (نضد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شيءٍ في اتِّساقٍ وجَمعٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٢). قيل: هو شجرٌ يشبهُ الطَّلحَ فِي الكِبَرِ وَحسنِ المنظرِ، فالجنَّةُ لا شوكَ فيها. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٢)، ((مقاييس =

﴿مَّسْكُوبٍ﴾: أي: مَصبوبٍ جارٍ غَيرِ مُنقَطِعٍ، وأصلُ (سكب): يدُلُّ على صَبِّ الشَّيءِ[١].

﴿عُرُبًا﴾: جَمعُ عَرُوبٍ: وهي المُتَحَبِّبَةُ إلى زَوجِها، الحَسَنةُ التَّبَعُّلِ، وأصلُ (عرب) هنا: يدُلُّ على النَّشاطِ وطِيبِ النَّفْسِ، والإبانةِ والإفصاحِ؛ فالمرأةُ العَروبُ: ضَحَّاكةٌ طَيِّبةُ النَّفْسِ، تُفصِحُ عن حُبِّها لِزَوجِها[٢].

﴿أَتْرَابًا﴾: أي: أقرانًا مُستَوياتٍ على سِنٍّ واحدةٍ، والتِّرْبُ: هو الَّذي مَسَّ التُّرابَ مع تِرْبِه في وَقتٍ واحِدٍ، وأصلُ (ترب) هنا: يدُلُّ على التَّساوي[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يبينُ الله تعالى نعيمَ أصحابِ اليمينِ بعدَ أن ذكَر السَّابقينَ، فيقولُ: وأصحابُ اليَمينِ ما أعظَمَ شَأنَهم! فهم في شَجَرِ نَبْقٍ لا شَوكَ فيه، وشَجَرِ طَلحٍ ثَمَرُه مُتراصٌّ بَعضُه مع بَعضٍ، وظِلٍّ دائِمٍ لا يَزولُ، وماءٍ مَصبوبٍ جارٍ بلا أُخدودٍ، وفاكِهةٍ كثيرةٍ لا تَنقَطِعُ عنهم ولا تُمنَعُ، وهم في فُرُشٍ عاليةٍ مُرتَفِعةٍ.

= اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩).

إنَّا خَلَقْنا نِساءَ أهلِ الجَنَّةِ خَلْقًا، فجَعَلْناهنَّ أبكارًا، مُحِبَّاتٍ لأزواجِهنَّ، مُتَساوِياتٍ في السِّنِّ، أنشَأْناهنَّ لأصحابِ اليَمينِ، وأصحابُ اليَمينِ جَماعةٌ كَثيرةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ، وجَماعةٌ كَثيرةٌ مِنَ الآخِرِينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ حالَ السَّابِقينَ؛ شَرَع في شأنِ أصحابِ المَيمَنةِ مِنَ الأزواجِ الثَّلاثةِ، فقال تعالى[(١)]:

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧﴾.

أي: وأصحابُ اليَمينِ ما أعظَمَ شَأنَهم! وما أحسَنَ حالَهم[(٢)]!

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨﴾.

أي: هم في شَجَرِ نَبْقٍ لا شَوكَ فيه، مُثقَلةٍ أغصانُه بالثَّمَرِ الكثيرِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٦، ٣٠٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٦٥، ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

قال ابن القيِّم: (والمخضودُ: الَّذي قد خُضِد شَوكُه، أي نُزِع وقُطِع، فلا شوكَ فيه... وقالت طائفةٌ: المخضودُ: هو المُوقَرُ حَمْلًا، وأُنكِر عليهم هذا القولُ، وقالوا: لا يُعرَفُ في اللُّغةِ الخَضدُ بمعنى الحملِ، ولم يُصِبْ هؤلاء الَّذين أنكروا هذا القولَ، بل هو قولٌ صحيحٌ، وأربابُه ذهبوا إلى أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لَمَّا خضَدَ شَوْكَه وأذهَبَه، وجعَلَ مكانَ كلِّ شَوكةٍ ثَمَرةً أوقَرَه بالحملِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ١٦٥). =

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: وفي شَجَرِ طَلحٍ بلا شَوكٍ، ذي ثَمَرٍ مَنظومٍ مُتراكِمٍ ومُتراصٍّ بَعضُه مع بَعضٍ، على تَرتيبٍ في غايةِ الحُسنِ[1].

= وقال ابن كثير: (قال ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، وأبو الأحوصِ، وقَسامةُ بنُ زُهَيرٍ، والسَّفْرُ ابنُ نُسَيْرٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، وعبدُ الله بنُ كثيرٍ، والسُّدِّيُّ، وأبو حَزْرةَ، وغيرُهم: هو الَّذي لا شَوكَ فيه. وعن ابن عبَّاسٍ: هو المُوقَرُ بالثَّمرِ. وهو روايةٌ عن عِكْرِمةَ، ومجاهدٍ، وكذا قال قَتادةُ أيضًا: كنَّا نُحَدَّثُ أنَّه المُوقَرُ الَّذي لا شوكَ فيه.

والظَّاهرُ أنَّ المرادَ هذا وهذا؛ فإنَّ سِدْرَ الدُّنيا كثيرُ الشَّوكِ قليلُ الثَّمرِ، وفي الآخرةِ على عكسٍ مِن هذا؛ لا شوكَ فيه، وفيه الثَّمرُ الكثيرُ الَّذي قد أثقَلَ أصْلَه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٤)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٩).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى المعنى المذكورِ: ابنُ عطية، وابن القيم، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٤)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٩).

وقال الواحدي: (قَولُه: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قال اللَّيثُ: الطَّلحُ شَجَرُ أمِّ غيلانَ، له شَوكٌ أحجَنُ، وهو مِن أعظَمِ العِضاهِ شَوكًا، وأصلَبِه عُودًا، وأجوَدِه صَمغًا، والواحِدةُ طَلحةٌ، وهذا قَولُ جميعِ أهلِ اللُّغةِ في الطَّلْحِ). ((البسيط)) (٢١/ ٢٣٠).

وقيل: المرادُ: شجَرُ المَوزِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: القُشَيريُّ، والزمخشري، والواحدي، والسمعاني، والرازي، والقرطبي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢٣).

ونسَبَ أبو عُبَيْدةَ، والهرَويُّ، والواحديُّ هذا القولَ إلى أهلِ التَّفسيرِ، ونسَبَه الثَّعلبيُّ والقُرطبيُّ والرَّسْعَنيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٣٠)، ((تفسير =

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: وهُم في ظِلٍّ دائِمٍ باقٍ لا يتقَلَّصُ أو يَزولُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((إنَّ في الجَنَّةِ شَجَرةً يَسيرُ الرَّاكِبُ في ظِلِّها مِئةَ عامٍ لا يَقطَعُها، واقرؤُوا إنْ شِئتُم: ﴿وَظِلٍّ

= الثعلبي)) (٩/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٩٨).

ونَسَبه ابن جرير إلى مُفَسِّري السَّلَفِ مِنَ الصَّحابةِ والتَّابِعينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وأبو سعيدٍ الخُدْريُّ، وأبو هُرَيرةَ، والحسَنُ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، وعَطاءٌ، وقَسامةُ بنُ زُهَيرٍ، وقَتادةُ، وأبو حَزْرةَ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٣).

وذهب ابنُ القيِّم إلى أنَّ مَنْ ذَكَر الموزَ مِنَ السَّلَفِ إنَّما أراد التَّمثيلَ به لحُسْنِ نَضْدِه، لا التَّخصيصَ. واللهُ أعلَمُ. يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٠٩)، ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ١٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٦).

قال ابنُ عاشور: (هو ظِلٌّ حاصِلٌ مِن التِفافِ أشجارِ الجنَّةِ وكَثرةِ أوراقِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٩).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي: لا نهايةَ له؛ لأنَّ الجنَّةَ ليس فيها شَمسٌ، بل هي ظِلٌّ، وصَفَها بَعضُ السَّلَفِ بأنَّها كالنُّورِ الَّذي يكون قُربَ طُلوعِ الشَّمسِ؛ تجِدُ الأرضَ مملوءةً نُورًا، ولكِنْ لا تُشاهِدُ شَمسًا، فهو ظِلٌّ ممدودٌ في المساحةِ والزَّمَنِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٣٦).

مَّمْدُودٍ﴾))[١].

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾.

أي: وفي ماءٍ مَصبوبٍ جارٍ مِن غيرِ أُخدودٍ، لا ينقطعُ[٢].

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: وفي فَواكِهَ كَثيرةٍ مُتنَوِّعةٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [ص: ٥١].

﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: لا تَنقَطِعُ عنهم تلك الفَواكِهُ في وَقتٍ مِنَ الأوقاتِ، ولا يَمنَعُهم مِن تَناوُلِها

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٨١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٨٢٦).
ورواه البخاريُّ (٣٢٥١) أيضًا مِن حديثِ أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٩).
ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: ماءٌ مصبوبٌ جارٍ مِن غيرِ أُخدودٍ، دائمُ الجرَيانِ لا يَنقَطِعُ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والماوَرْدي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٠٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢٣).
وقال مقاتلٌ، والسمرقنديُّ: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي: منصبًّا كثيرًا. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٩).

مانِعٌ أبَدًا[١].

عن عبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((خَسَفَت الشَّمسُ على عَهدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فصَلَّى، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، رَأَيْناك تناوَلْتَ شَيئًا في مَقامِك، ثمَّ رَأَيناك تكَعْكَعْتَ[٢]! قال: إنِّي أُرِيتُ الجنَّةَ، فتناوَلْتُ منها عُنقودًا، ولو أخَذْتُه لأكلْتُم منه ما بَقِيَت الدُّنيا!))[٣].

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّفَكُّهُ لا يَكمُلُ الالتِذاذُ به إلَّا مع الرَّاحةِ؛ قال[٤]:

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: وهم في فُرُشٍ عاليةٍ مُرتَفِعةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٠)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(٢) تَكَعْكَعْتَ: أي: توقَّفْتَ وأحجَمْتَ وتأخَّرْتَ إلى وراءٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٨٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٢١٣).

(٣) رواه البخاري (٧٤٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٩٠٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨).

قيل: المعنى: أنَّ الفُرُشَ مَرفوعةٌ فوقَ السُّرُرِ بعضها فوقَ بعضٍ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وجلال الدين المحلي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٠). =

﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الَّذي مع الإنسانِ في الفِراشِ الحُورَ العِينَ؛ قال اللهُ تعالى[(١)]:

﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥﴾.

أي: إنَّا خَلَقْنا نِساءَ أهلِ الجَنَّةِ خَلْقًا فأوجَدْناهنَّ[(٢)].

= قال الواحدي: (وجماعةُ المفسِّرينَ قالوا: بعضُها فوقَ بعضٍ، فهي مرفوعةٌ، أي: عاليةٌ). ((البسيط)) (٢١/ ٢٣٤).

وقال ابن الجوزي بعدَ أن عرَّف الفُرُشَ بأنَّها الحَشايا المفروشةُ للجلوسِ والنَّومِ، قال: (وفي رفْعِها قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّها مرفوعةٌ فوقَ السُّرُرِ. والثَّاني: أنَّ رفْعَها: زيادةُ حَشوِها؛ لِيَطيبَ الاستِمتاعُ بها). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٣).

وقيل: الفُرُشُ هي الأَسِرَّةُ. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٦).

قال ابن عاشور: (والفُرُشُ: جمْعُ فِراشٍ بكسرِ الفاءِ، وهو ما يُفرَشُ... و﴿مَّرۡفُوعَةٍ﴾: وصْفٌ لفُرُشٍ، أي: مرفوعةٍ على الأسِرَّةِ، أي: ليست مفروشةً في الأرضِ. ويجوزُ أن يُرادَ بالفُرُشِ الأسِرَّةُ، مِن تسميةِ الشَّيءِ باسمِ ما يَحلُّ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٠).

وقيل: المرادُ بالفُرُشِ: النِّساءُ، ونسَبَه السَّمْعانيُّ لجماعةٍ مِن التَّابِعينَ، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى أبي عُبَيْدةَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٤).

قال ابن الجوزي: (وفي معنى رَفْعِهنَّ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّهنَّ رُفِعْنَ بالجَمالِ على نساءِ أهلِ الدُّنيا. والثَّاني: رُفِعنَ عن الأدناسِ. والثَّالثُ: رُفِعنَ في القلوبِ؛ لشِدَّةِ المَيلِ إليهِنَّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٦، ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨). =

= قيل: المرادُ: أنَّ اللهَ تعالى ابتدَأَ إنشاءَ خَلْقٍ جَديدٍ لم تَقَعْ عليه وِلادةٌ مِن قَبلُ، وهُنَّ الحُورُ العِينُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، واستظهره أبو حيَّانَ، وذهب إليه الشَّوكانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٤).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهِرُ أنَّ الإنشاءَ هو الاختِراعُ الَّذي لم يُسبَقْ بخَلقٍ، ويكونُ ذلك مخصوصًا بالحُورِ اللَّاتي لَسْنَ مِن نَسْلِ آدَمَ، ويحتَمِلُ أن يُريدَ إنشاءَ الإعادةِ، فيَكونَ ذلك لبناتِ آدَمَ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٢).

وقال ابن القيِّم: (الظَّاهرُ أنَّ المرادَ: أنْشَأَهنَّ اللهُ تعالى في الجَنَّةِ إنشاءً [ولَسْنَ هُنَّ نساءَ الآدميَّاتِ]، ويدُلُّ عليه وُجوهٌ:

أحدُها: أنَّه قد قال في حقِّ السَّابقِينَ: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧] إلى قولِه: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣]، فذَكَر سُرُرَهم، وآنيتَهم، وشرابَهم، وفاكهتَهم، وطعامَهم، وأزواجَهم، والحُوْرَ العِينَ، ثمَّ ذَكَرَ أصحابَ المَيمنةِ وطعامَهم، وشرابَهم، وفِراشَهم، ونساءَهم، والظَّاهرُ أنهنَّ مِثْلُ نساءِ مَن قَبْلَهم خُلِقْنَ في الجَنَّةِ.

الثَّاني: أنَّه سُبحانَه قال: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾، وهذا ظاهرٌ أنه إنشاءٌ أوَّلُ لا ثانٍ؛ لأنَّه سُبحانَه حيثُ يريدُ الإنشاءَ الثَّانيَ يُقَيِّدُه بذلك، كقولِه: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٧]، وقولِه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الواقعة: ٦٢].

الثَّالثُ: أنَّ الخِطابَ بقولِه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧] إلى آخِرِه للذُّكورِ والإناثِ، والنَّشأةُ الثَّانيةُ عامَّةٌ أيضًا للنَّوعَينِ، وقولُه: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ ظاهرُه اختصاصُهُنَّ بهذا الإنشاءِ، وتأمَّلْ تأكيدَه بالمصدر). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٦).

وقيل: المرادُ: نِساءُ الدُّنيا مِن أهلِ الجنَّةِ. والمعنى: أعاد إنشاءَهنَّ وخَلْقَهنَّ على صِفةٍ أُخرى. وممَّن قال بهذا القَولِ في الجُملةِ: الماوَرْديُّ، وابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٩).

قال ابنُ الجوزي: (وفي المُشارِ إليهِنَّ قَولانِ؛ أحَدُهما: أنَّهنَّ نِساءُ أهلِ الدُّنيا المؤمِناتُ. ثمَّ في إنشائِهنَّ قَولانِ؛ أحَدُهما: أنَّه إنشاؤُهنَّ مِنَ القُبورِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. والثَّاني: إعادتُهنَّ بعدَ الشَّمَطِ والكِبَرِ صِغارًا. قاله الضَّحَّاكُ.

والثَّاني: أنَّهنَّ الحُورُ العِينُ، وإنشاؤُهنَّ: إيجادُهنَّ عن غَيرِ وِلادةٍ. قاله الزَّجَّاجُ.

والصَّوابُ أن يُقالَ: إنَّ الإنشاءَ عمَّهنَّ كُلَّهنَّ؛ فالحُورُ أُنشِئْنَ ابتداءً، والمُؤمِناتُ أُنشِئْنَ بالإعادةِ =

﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان للنَّفْسِ أَتَمُّ التِفاتٍ إلى الاختِصاصِ، وكان الأصلُ في الأُنثى المُنْشأةِ أن تكونَ بِكرًا؛ نَبَّه على أنَّ المرادَ بَكارةٌ لا تَزولُ إلَّا حالَ الوَطْءِ ثمَّ تَعودُ، فكُلَّما عاد إليها وَجَدَها بِكرًا[1]!

﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾.

أي: فجَعَلْناهنَّ أبكارًا عَذارى[2].

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

أي: جَعَلْناهُنَّ مُظهِراتٍ شِدَّةَ مَحبَّتِهنَّ لأزواجِهنَّ، وجعَلْناهُنَّ على سِنٍّ واحِدةٍ في غايةِ الشَّبابِ[3].

= وتَغييرِ الصِّفاتِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٣).

وممَّن ذهب إلى حَملِ الآيةِ على العُمومِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٩)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨).

قال السعدي: (عمومُ ذلك يَشملُ الحُورَ العِينَ ونِساءَ أهلِ الدُّنيا، وأنَّ هذا الوَصفَ -وهو البَكارةُ- ملازِمٌ لهنَّ في جميعِ الأحوالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢٣، ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١١)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٤٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٣، ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣٣].

﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: أنشَأْنا تلك النِّسوةَ على تلك الصِّفاتِ لأصحابِ اليَمينِ[(١)].

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: وأصحابُ اليَمينِ جَماعةٌ كَثيرةٌ مِنَ الأوَّلِينَ[(٢)].

= قال البِقاعي: (لَمَّا كان الاتِّفاقُ في السِّنِّ أَدعى إلى المحبَّةِ ومَزيدِ الأُلْفةِ قال: ﴿أَتْرَابًا﴾، أي: على سِنٍّ واحدةٍ، وقَدٍّ واحدٍ، بناتِ ثلاثٍ وثلاثينَ سَنةً، وكذا أزواجُهنَّ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢١٠).

وقال ابنُ عاشور: (جُعِلْنَ في سِنٍّ مُتساوِيةٍ لا تفاوُتَ بَيْنَهنَّ، أي: هُنَّ في سِنِّ الشَّبابِ المُستوي، فتكونُ مَحاسِنُهنَّ غَيرَ مُتفاوِتةٍ في جميعِ جِهاتِ الحُسنِ، وعلى هذا فنِساءُ الجنَّةِ هنَّ الموصوفاتُ بأنَّهنَّ «أترابٌ» بَعضُهنَّ لِبَعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢١).

وممَّن قال بأنَّ قَولَه تعالى: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ يتعلَّقُ بقَولِه: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾: ابنُ جرير، وابنُ كثير، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢١).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: ذلك المذكورُ مِنَ النَّعيمِ النَّفْسيِّ والبَدَنيِّ لأصحابِ اليَمينِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤).

قيل: معنى قَولِه تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾: جماعةٌ كَثيرةٌ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، وجماعةٌ كثيرةٌ مِن أُمَّةِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، الَّتي هي آخِرُ الأُمَمِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦١). =

﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠﴾.

أي: وجَماعةٌ كَثيرةٌ مِنَ الآخِرِينَ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ * وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ وقَولِه: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ سؤالٌ: ما الحِكمةُ في ذِكرِ الأشجارِ المُورِقةِ بأنفُسِها، وذِكرِ أشجارِ الفواكِهِ بثِمارِها؟

الجوابُ: أنَّ الأوراقَ حُسنُها عندَ كَونِها على الشَّجَرِ، وأمَّا الثِّمارُ فهي في أنفُسِها مَطلوبةٌ، سواءٌ كانت عليها أو مقطوعةً؛ ولهذا صارت الفواكِهُ لها أسماءٌ بها تُعرَفُ أشجارُها، فيُقالُ: شَجَرُ التِّينِ ووَرَقُه[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَّخۡضُودٖ﴾ تنبيهٌ على أنَّ كُلَّ ما لا نَفْعَ فيه، أو فيه نوعُ أذًى؛

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ في روايةٍ عنه، وعَطاءٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٥).

وتقدَّم (ص: ٣٨٠) كلامُ الشنقيطيِّ أنَّ ظاهِرَ القرآنِ في هذا المقامِ أنَّ (الأوَّلينَ) في هذا الموضعِ والموضعِ السَّابقِ مِن الأُممِ الماضيةِ، والآخِرينَ فيهما مِن هذه الأمَّةِ، وتوجيهُه لهذا القولِ.

وقيل: المرادُ: جماعةٌ كثيرةٌ مِن أوَّلِ هذه الأمَّةِ المحَمَّديَّةِ، وجماعةٌ كَثيرةٌ مِن آخِرِها. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، وابنُ جُزَي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو العاليةِ، ومجاهِدٌ، وعَطاءُ بنُ أبي رباحٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ في روايةٍ عنه، ومحمَّدُ بنُ سِيرينَ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢١٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣، ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٦).

له في الجَنَّةِ وُجودٌ كَريمٌ؛ لأنَّ الجنَّةَ إنَّما خُلِقَت للنَّعيمِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في وَصفِ الفاكِهةِ بالكَثرةِ، لا بالطِّيْبِ واللَّذَّةِ؟

الجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى حيثُ ذَكَر الفاكِهةَ ذَكَر ما يدُلُّ على الكَثرةِ؛ لأنَّها ليست لدَفعِ الحاجةِ حتَّى تكونَ بقَدْرِ الحاجةِ، بل هي للتَّنَعُّمِ؛ فوَصَفَها بالكَثرةِ والتَّنَوُّعِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ * لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ أنَّ طعامَ الجَنَّةِ، وما فيها: لا يَنفَدُ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ تَفضيلُ الأبكارِ على الثَّيِّباتِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا * عُرُبًا أَتۡرَابًا﴾ جَمَع سُبحانَه بيْنَ حُسْنِ صُورتِهنَّ، وحُسْنِ عِشرَتِهنَّ، وهذا غايةُ ما يُطلَبُ مِن النِّساءِ، وبه تَكمُلُ لَذَّةُ الرَّجُلِ بِهنَّ[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ الآخِرينَ أكثَرُ؛ فإنَّ وَصْفَ الأوَّلِينَ بالكَثرةِ لا يُنافي كَونَ غَيرِهم أكثَرَ؛ لِيَتَّفِقَ مع إخبارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ هذه الأُمَّةَ ثُلُثا أهلِ الجنَّةِ؛ فقد قال: ((أهلُ الجنَّةِ عِشرونَ ومِئةُ صَفٍّ، ثمانونَ منها مِن هذه الأُمَّةِ، وأربعونَ مِن سائرِ الأمَمِ))[٦]، على قولٍ في معنى الآيةِ.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١١).

(٥) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١١). =

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ شُروعٌ في تَفصيلِ ما أُجمِلَ عندَ التَّقسيمِ مِن شؤونِهم الفاضِلةِ إثْرَ تَفصيلِ شُؤونِ السَّابقينَ، وعَوْدٌ إلى نشْرِ ما وقَعَ لَفُّه في قولِه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾[1] [الواقعة: ٧].

- جُملةُ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٥] عطْفَ القصَّةِ على القصَّةِ[2].

- وجُملةُ ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ خبَرٌ عن ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ بإبهام يُفيدُ التَّنويهَ بهم، وهي جُملةٌ استفهاميَّةٌ لتَفخيمِهم، والتَّعجيبِ مِن حالِهم[3].

- الفائدةُ في ذِكرِهم بلَفظِ: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨] عندَ ذِكرِ الأقسامِ، وبلَفظِ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ عندَ ذِكرِ الإنعامِ مِن وَجهينِ:

الأوَّلُ: «المَيْمَنةُ» مَفعلةٌ؛ إمَّا بمعْنى مَوضعِ اليمينِ -كالمحكمةِ لموضعِ الحُكمِ-، أي: الأرضُ الَّتي فيها اليمينُ، وإمَّا بمعْنى مَوضعِ اليمنِ -كالمنارةِ مَوضعُ النَّارِ، والمِجْمرةِ مَوضعُ الجمْرِ-؛ فكَيْفما كان فالمَيمنةُ فيها دَلالةٌ على الموضعِ، لكنَّ الأزواجَ الثَّلاثةَ في أوَّلِ الأمرِ يَتميَّزُ بعضُهم عن بَعضٍ ويَتفرَّقون؛ لقولِه تَعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقال: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم:

= والحديث أخرجه الترمذيُّ (٢٥٤٦)، وابنُ ماجَه (٤٢٨٩) مِن حديثِ بُرَيْدةَ الأسْلَميِّ رضيَ الله عنه.

قال الترمذيُّ: (حيثٌ حسَنٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ (٧٤٦٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٥٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٨).

٤٣]، فيَتفرَّقونَ بالمكانِ؛ فأشار في الأوَّلِ إليهم بلَفظٍ يدُلُّ على المكانِ، ثمَّ عندَ الثَّوابِ وقَعَ تَفرُّقُهم بأمْرٍ مُبهَمٍ لا يَتشاركونَ فيه كالمكانِ؛ فقال: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾[1]. الثَّاني: أنَّ ذلك تَفنُّنٌ في العبارةِ، والمعنى واحدٌ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ * وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ * وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ * وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ * وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ * لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ * وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾

- قولُه: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ خبَرٌ ثانٍ للمُبتدَأِ، أو خبَرٌ لمُبتدَأٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ استِئنافٌ لبَيانِ ما أُبهِمَ في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ مِن عُلوِّ الشَّأنِ، أي: همْ في سِدْرٍ غيرِ ذي شَوكٍ، لا كَسِدْرِ الدُّنيا[3].

قيل: خُصَّ السِّدرُ -وكان مَحبوبًا للعرَبِ- بالذِّكرِ مِن بيْنِ شَجرِ الجنَّةِ؛ إغرابًا به وبمَحاسِنِه الَّتي كان مَحرومًا منها مَن لا يَسكُنُ البواديَ، وبوَفْرةِ ظِلِّه، وتَهَدُّلِ أغصانِه، ونَكهةِ ثَمَرِه، ووُصِفَ بالمَخضودِ، أي: المُزالِ شَوكُه؛ فقد كمَلَت مَحاسنُه بانتِفاءِ ما فيه مِن أذًى[4].

- قولُه: ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾ يُسكَبُ لهم أينَ شاؤوا، وكيف شَاؤوا بلا تعَبٍ، أو مَصبوبٍ سائلٍ، كأنَّه لَمَّا شبَّهَ حالَ السَّابقينَ في التَّنعُّمِ بأعْلى ما يُتصوَّرُ لأهلِ المُدُنِ، شَبَّهَ حالَ أصحابِ اليمينِ بأكمَلِ ما يَتمنَّاهُ أهلُ البوادي؛ إشعارًا بالتَّفاوُتِ بيْنَ الحالَينِ[5].

- وسكْبُ الماءِ: صبُّه، وأُطلِقَ هنا على جَرْيِه بقوَّةٍ تُشْبِهُ السَّكبَ، وهو ماءُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٣).

أنهارِ الجنَّةِ[١].

- ووُصِفَت الفاكهةُ بأنَّها ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ وَصْفًا بانتفاءِ ضِدِّ المطلوبِ؛ إذ المطلوبُ أنَّها دائمةٌ مَبذولةٌ لهم، والنَّفيُ هنا أوقَعُ مِن الإثباتِ؛ لأنَّه بمَنزِلةِ وصْفٍ وتَوكيدِه[٢].

- وجُمِعَ بيْن الوصْفينِ ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾؛ لأنَّ فاكهةَ الدُّنيا لا تَخْلو مِن أحدِ ضِدَّيْ هذَينِ الوصْفَينِ؛ فإنَّ أصحابَها يَمنعونَها، فإنْ لم يَمنَعوها فإنَّ لها إبَّانًا تَنقطِعُ فيه[٣].

- قولُه: ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ إنْ أُرِيدَ بها النِّساءُ كانت كنايةً عن مَوصوفٍ، والعرَبُ تُسمِّي المرأةَ فِراشًا ولِباسًا[٤]. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالفُرُشِ الأَسِرَّةُ؛ مِن تَسميةِ الشَّيءِ باسمِ ما يَحُلُّ فيه[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝ عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾ لَمَّا جَرى ذِكرُ الفُرشِ -وهي ممَّا يُعَدُّ للاتِّكاءِ والاضطجاعِ وقتَ الرَّاحةِ في المَنزلِ- يَخطُرُ بالبالِ بادئَ ذي بَدْءٍ مُصاحَبةُ الحُورِ العِينِ معهم في تلك الفُرُشِ، فيُتشوَّفُ إلى وَصْفِهنَّ، فكانت جُملةُ ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ بَيانًا؛ لأنَّ الخاطرَ بمَنزِلةِ السُّؤالِ عن صِفاتِ الرَّفيقاتِ، فضَميرُ المؤنَّثِ مِن ﴿أَنشَأۡنَٰهُنَّ﴾ عائدٌ إلى غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ، ولكنَّه مَلحوظٌ في الأفهامِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٠٠، ٣٠١).

- في قولِه: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ كِنايةٌ عن عَودتِهنَّ أو نَشأتِهنَّ في سِنٍّ صَغيرةٍ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾

- اللَّامُ في ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ لإفادةِ تَوكيدِ الاعتناءِ بأصحابِ اليمينِ المُستفادِ مِن المقامِ مِن قولِه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] الآيةَ[٢].

- وقيل: إنَّما أُخِّرَ هذا ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ عن ذِكرِ ما لهم مِن النَّعيمِ؛ للإشعارِ بأنَّ عِزَّةَ هذا الصِّنفِ وقِلَّتَه دونَ عِزَّةِ صِنفِ السَّابقينَ؛ فالسابقونَ أعزُّ، وهذه الدَّلالةُ مِن مُستتبَعاتِ التَّراكيبِ المُستفادةِ مِن تَرتيبِ نظْمِ الكلامِ[٣].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٢، ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٠٣).

الآيات (٤١-٥٦)

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ
وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟
يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ
ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ
﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ
شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿سَمُومٍ﴾: أي: رِيحٍ حارَّةٍ تدخُلُ مَسامَّ الإنسانِ، وأصلُ (سمم): يدُلُّ على مَدخَلٍ في الشَّيءِ[1].

﴿وَحَمِيمٍ﴾: أي: ماءٍ حارٍّ شَديدِ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على الحَرارةِ[2].

﴿يَحْمُومٍ﴾: أي: دُخَانٍ شَديدِ السَّوادِ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على الاسوِدادِ[3].

﴿ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾: أي: الذَّنْبِ العَظيمِ، وهو الشِّركُ، وأصلُ (حنث): يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٦).

الإثْمِ والحَرَجِ[١].

﴿زَقُّومٍ﴾: الزَّقُّومُ: ثَمَرُ شَجَرةٍ خَبيثةٍ مُرَّةٍ كَريهةِ الطَّعمِ، يُكرَهُ أهلُ النَّارِ على تَناوُلِه، فهم يتزَقَّمونَه على أشَدِّ كراهيةٍ، ومنه قَولُهم: تزقَّمَ الطَّعامَ: إذا تناوَلَه على كُرهٍ ومَشقَّةٍ شَديدةٍ[٢].

﴿ٱلْهِيمِ﴾: أي: الإبِلِ العِطاشِ الَّتي أصابَها مَرَضٌ لا تَرْوَى معه مِنَ الماءِ، وأصلُ (هيم): يدُلُّ على عَطَشٍ شَديدٍ[٣].

﴿نُزُلُهُمْ﴾: أي: رِزْقُهم وطَعامُهم، والنُّزُلُ: ما يُعَدُّ للضَّيفِ مِنَ الزَّادِ عندَ قُدومِه[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا حالَ أصحابِ الشِّمالِ وما أعدَّه لهم: وأصحابُ الشِّمالِ ما أفظَعَ شَأنَهم؛ فهم في رِيحٍ حارَّةٍ، وماءٍ شَديدِ الحَرارةِ، وظِلٍّ مِن دُخَانٍ شَديدِ السَّوادِ، لا باردٍ ولا حَسَنِ المَنظَرِ!

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه الأسبابَ الَّتي أدَّت بهم إلى هذا المصيرِ، فيقولُ: إنَّهم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٠).

كانوا في الدُّنيا مُترَفِينَ مُقبلينَ على شَهَواتِهم، وكانوا مُقيمينَ على الشِّركِ باللهِ تعالى، وكانوا يَقولونَ مُنكِرينَ البَعثَ يومَ القيامةِ: أَئِذا مِتْنا وصِرْنا في قُبورِنا تُرابًا وعِظامًا أَئِنَّا لَمَبعوثونَ أحياءً مِن بَعدِ ذلك، أَوَيُبعَثُ آباؤُنا الأوَّلونَ كذلك؟!

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك المُنكِرينَ البَعثَ: إنَّ الأوَّلِينَ والآخِرينَ لَمَجموعونَ إلى وَقتٍ مُحَدَّدٍ معلومٍ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله عزَّ وجلَّ ما سيُصيبُهم مِن العذابِ في هذا اليومِ، فيقولُ: ثمَّ إنَّكم -أيُّها الضَّالُّونَ المكذِّبونَ- لَآكِلونَ مِن شَجَرٍ مِنَ الزَّقُّومِ كَريهٍ مُرٍّ خَبيثٍ، فمَالِئونَ مِنه بُطونَكم؛ لشِدَّةِ جُوعِكم، فشارِبونَ على هذا الشَّجَرِ شَرابًا مُغْلًى شديدَ الحَرارةِ، فشارِبونَ مِن هذا الحَميمِ شُربَ الإبلِ العِطاشِ الَّتي لا تَرْوَى مِن الماءِ لمرضٍ أصابها، وهذا الطَّعامُ والشَّرابُ هو ما أُعِدَّ لأولئك الضَّالِّينَ المُكَذِّبينَ عِندَ مَقْدَمِهم يَومَ القيامةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى حالَ أصحابِ اليمينِ؛ عطَف عليهم بذكرِ أصحابِ الشِّمالِ، وتَفصيلِ أحوالِهم الَّتي أُشيرَ عندَ التَّنويعِ إلى هَولِها وفَظاعتِها، فقال[1]:

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤).

أي: وأصحابُ الشِّمالِ ما أفظَعَ شَأنَهم! وما أسوَأَ حالَهم[١]!

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَمَّهم وعابَهم، ذَكَر عَذابَهم؛ لِيُعلَمَ أنَّ القِسمَ الأشَدَّ منهم في الشُّؤمِ أشَدُّ عَذابًا؛ فقال[٢]:

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: هم في رِيحٍ شَديدةِ الحَرارةِ، وشَرابٍ بَالِغِ الغايةِ في الحَرارةِ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٠، ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤).
وقال السعدي: (المرادُ بأصحابِ الشِّمالِ: هم أصحابُ النَّارِ، والأعمالِ المَشؤومةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤).
قيل: سُمُّوا بأصحابِ الشِّمالِ؛ لأنَّهم يُؤخَذُ بهم ذاتَ الشِّمالِ مِن مَوقِفِ الحِسابِ إلى النَّارِ. وقيل: لأنَّهم على شِمالِ العَرشِ، وهنالك هي النَّارُ. وقيل: لأنَّهم يَأخُذونَ كُتُبَهم بشَمائِلِهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣).
قال ابنُ القيِّم: (مَصيرُهم ومآلُهم إلى جِهةٍ واحِدةٍ، وهي جِهةُ الشِّمالِ؛ مُستَقَرِّ أهلِ النَّارِ، والنَّارُ مِن جِهةِ الشِّمالِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٢٠).
وقال البِقاعي: ([وهي] الجهةُ الَّتي تَتشاءَمُ العربُ بها، وعُبِّر بها عن الشَّيءِ الأخَسِّ، والحظِّ الأنقَصِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢١١).
وذكر ابنُ كثيرٍ ما ظاهرُه الجمعُ بيْن هذه الأقوالِ، وهو أنَّ عامَّةَ أهلِ النَّارِ يومَ القيامةِ يَكونونَ عن يَسارِ العرشِ، وأنَّهم هم الَّذين خرَجوا مِن شقِّ آدَمَ الأيسَرِ، ويُؤْتَوْنَ كُتُبَهم بشَمائِلِهم، ويُؤخَذُ بهم ذاتَ الشِّمالِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤). =

كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ۞ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٥].

﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣﴾.

أي: وفي ظِلٍّ مِن دُخَانٍ شَديدِ السَّوادِ[١]!

قال تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۞ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ۞ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٢٩ - ٣١].

﴿لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المعهودُ مِنَ الظِّلِّ البَردَ والإراحةَ؛ نفَى ذلك عنه، فقال[٢]:

﴿لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤﴾.

أي: وهو ظِلٌّ غيرُ باردٍ، وليس بحَسَنِ المَنظَرِ[٣]!

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ٤٥﴾.

= قال القرطبي: (السَّمومُ: الرِّيحُ الحارَّةُ الَّتي تَدخُلُ في مَسامِّ البَدَنِ، والمرادُ هنا: حَرُّ النَّارِ ولَفْحُها). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣).

وقال ابنُ عاشور: (السَّمومُ: الرِّيحُ الشَّديدُ الحرارةِ الَّذي لا بَلَلَ معه، وكأنَّه مأخوذٌ مِنَ السُّمِّ، وهو ما يُهلِكُ إذا لاقى البَدَنَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر -جلَّ وعلا- ما أعَدَّ لأصحابِ الشِّمالِ مِن العذابِ؛ بَيَّن بعضَ أسبابِه[١]، فقال:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

أي: إنَّ أصحابَ الشِّمالِ كانوا في الدُّنيا قبْلَ أن يُصيبَهم هذا العَذابُ في تنَعُّمٍ وإسرافٍ وإقبالٍ على الشَّهَواتِ؛ فاستحَقُّوا تلك العُقوباتِ[٢].

قال تعالى: ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ [المزمل: ١١].

﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

أي: وكانوا في الدُّنيا مُستَمِرِّينَ على الإقامةِ على الذَّنْبِ العَظيمِ، وهو الشِّركُ باللهِ تعالى[٣].

﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

أي: وكانوا يَقولونَ إنكارًا للبَعثِ يومَ القيامةِ: أَئِذا مِتْنا وصِرْنا في قُبورِنا تُرابًا وعِظامًا أَئِنَّا لَمَبعوثونَ أحياءً مِن بَعدِ ذلك[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

أي: وهل يُبعَثُ أيضًا آباؤُنا الأوَّلونَ[١]؟!

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى استِفهامَهم عن البَعثِ على طَريقِ الاستِبعادِ والإنكارِ؛ أمَرَ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُخبِرَهم ببَعثِ العالَمِ -أوَّلِهم وآخِرِهم- للحِسابِ، وبما يَصِلُ إليه المُكَذِّبونَ للبَعثِ مِنَ العَذابِ[٢].

وأيضًا لَمَّا جَرى تَعليلُ ما يُلاقِيه أصحابُ الشِّمالِ مِن العذابِ بما كانوا عليه مِن كُفْرانِ النِّعمةِ، وكان المقصودُ مِن ذلك وَعيدَ المُشرِكين، وكان إنكارُهم البعثَ أدخَلَ في استِمرارِهم على الكفْرِ -أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُخاطِبَهم بتَحقيقِ وُقوعِ البعثِ، وشُمولِه لهم ولآبائِهم ولجَميعِ الناسِ[٣]، فقال:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك المُنكِرينَ للبَعثِ: إنَّ الأوَّلِينَ والآخِرينَ مِنكم أو مِن غَيرِكم[٤].

= (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤). =

﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: لَمَجموعونَ بالبَعثِ والحَشرِ إلى وَقتٍ مُحَدَّدٍ عِندَ اللهِ تعالى، وهو يومُ القيامةِ[1].

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾.

أي: ثمَّ إنَّكم بعْدَ بَعثِكم أيُّها الضَّالُّونَ عن طَريقِ الهُدى، المكذِّبونَ بالحَقِّ[2].

﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾.

= قيل: المرادُ: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِن آبائِكم، ﴿وَٱلْآخِرِينَ﴾ منكم. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٣٩).

وقيل: المرادُ: الأوَّلونَ والآخِرونَ مِن جَميعِ بني آدَمَ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ كثير، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٢/ ٢٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

وقيل: المرادُ بالأَوَّلينَ: الأُمَمُ الماضيةُ. وبالآخِرينَ: أمَّةُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. ومِمَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٥).

وقال الشَّوكاني: (قُلْ لهم يا محمَّدُ: إنَّ الأوَّلينَ مِن الأمَمِ، والآخِرينَ منهم الَّذين أنتم مِن جُملَتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾: أنَّهم يُبعَثونَ ويُحشَرونَ جميعًا، وليس البَعثُ على أفواجٍ في أزمانٍ مُختَلِفةٍ كما كان موتُ النَّاسِ، بل يُبعَثُ الأوَّلونَ والآخِرونَ في يومٍ واحِدٍ ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

أي: لَآكِلونَ مِن شَجَرٍ كَريهِ المَنظَرِ والطَّعْمِ والرَّائِحةِ[١]!

كما قال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ * طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ * فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٦].

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٥٣﴾.

أي: فمَالِئونَ مِن شَّجَرِ الزقُّومِ بُطونَكم؛ لشِدَّةِ جُوعِكم، واضطِرارِكم للأكْلِ[٢].

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ٥٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ أكْلَهم؛ أتْبَعَه مَشْرَبَهم[٣].

وأيضًا لَمَّا كان مَن يأكُلُ كَثيرًا يَعطَشُ عَطشًا شَديدًا، فيَشرَبُ ما قَدَر عليه؛ رَجاءَ تَبريدِ ما به مِن حَرارةِ العَطَشِ- سَبَّبَ عنه قَولَه تعالى[٤]:

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ٥٤﴾.

أي: فشارِبونَ على هذا الزَّقُّومِ الَّذي مَلأْتُم به بُطونَكم شَرابًا مُغْلًى قد بَلَغ النِّهايةَ في الحَرارةِ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤١). =

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٧، ٦٨].

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان شُربُهم لأدنى قَطرةٍ مِن ذلك في غايةِ العَجَبِ؛ أتْبَعَه ما هو أعجَبُ منه، وهو شِدَّةُ تمَلُّئِهم منه؛ فقال مُسَبِّبًا عَمَّا مضى[1]:

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥﴾.

أي: فشارِبونَ مِن هذا الحَميمِ شُربَ الإبِلِ العِطاشِ الَّتي أصابَها مَرَضٌ لا تَرْوَى معه مِن الماءِ[2]!

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان كأنَّه قيل: هذا عَذابُهم كُلُّه؟! قيل تهكُّمًا بهم، ونِكايةً لهم[3]:

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦﴾.

أي: هذا الطَّعامُ والشَّرابُ مِن الزَّقُّومِ والحَميمِ هو ضيافةُ أولئك الضَّالِّينَ

= قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الزَّقُّومِ، أو على الأكْلِ، أو على الشَّجَرِ؛ لأنَّه يُذكَّرُ ويُؤَنَّثُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤).

وقال ابن جرير: (قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا﴾ مرادٌ به مِن الشَّجرِ، أنَّث للمعنَى، وقال: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ مُذَكَّرًا للَفظِ الشَّجرِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٢، ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٨).

المُكَذِّبينَ، المُعَدَّةُ لهم عندَ مَقْدَمِهم، وذلك في يَومِ القيامةِ الَّذي يُحاسِبُ اللهُ فيه عِبادَه، ويُجازيهم على أعمالِهم(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ نَفْيُ محاسِنِ الظِّلالِ عن أصحابِ الشِّمالِ؛ ففيه تذكيرٌ للسَّامِعينَ بما حُرِمَ منه أصحابُ الشِّمالِ؛ عسى أن يَحذَروا أسبابَ الوُقوعِ في الحِرْمانِ، ولإفادة هذا التَّذكيرِ عُدِلَ عن وصْفِ الظِّلِّ بالحرارةِ والمَضرَّةِ إلى وصْفِه بنَفْيِ البرْدِ ونفْيِ الكرَمِ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ فيه ذَمُّ التَّرَفِ والتَّنَعُّمِ في الدُّنيا، والتَّرَفُ طريقٌ إلى البَطالةِ، وتَرْكِ التَّفَكُّرِ في العاقِبةِ(٣).

٣- الإسرافُ في المباحاتِ منهيٌّ عنه، كما قال تعالى عن أصحابِ النَّارِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾(٤) [الفرقان: ٦٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١١، ٣١٢).

وقال البِقاعي: (﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ﴾ أي: ما يُعَدُّ لهم أوَّلَ قُدومِهم مكانَ ما يُعَدُّ للضَّيفِ أوَّلَ حُلولِه؛ كرامةً له... وإذا كان هذا نُزُلَهم فما ظَنُّك بما يأتي بَعْدَه؟!). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ١٣٣).

وذكر ابنُ تيميَّةَ أنَّ الإسرافَ في المباحاتِ هو مُجاوَزةُ الحدِّ، وهو مِن العُدوانِ المحَرَّمِ، وكذلك فإنَّ الامتِناعَ مِن فِعلِ المُباحاتِ مُطلَقًا، كالَّذي يمتنِعُ مِن أكلِ اللَّحمِ أو لبسِ الكَتَّانِ والقُطنِ، ولا يَلبَسُ إلَّا الصُّوفَ، ويمتنِعُ مِن نكاحِ النِّساءِ، ويظُنُّ أنَّ هذا مِن الزُّهدِ المُستحَبِّ؛ فهذا جاهلٌ ضالٌّ، مِن جنسِ زُهَّادِ النَّصارى.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لَمَّا كانتِ اليمينُ جهةَ الخَيرِ والفَلاحِ -وأهلُها هم النَّاجون- أُفْرِدَتْ؛ لأنَّ طريقَ الحقِّ واحدٌ؛ إذ مَرَدُّه إلى الله الملكِ الحقِّ، ولَمَّا كانتِ الشِّمالُ جهةَ أهلِ الباطلِ -وهم أصحابُ الشِّمالِ- جُمِعَتْ في قَولِه: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨]؛ لأنَّ طرقَ الباطلِ متشعِّبةٌ متعدِّدةٌ؛ فإنْ قيلَ: فهَلَّا كذلك في قَولِه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾؟ وما بالُها جاءتْ مُفرَدةً؟

الجوابُ: جاءتْ مُفرَدةً؛ لأنَّ المرادَ أهلُ هذه الجهةِ، ومصيرُهم، ومآلُهم إلى جهةٍ واحدةٍ؛ وهي جهةُ الشِّمالِ؛ مُسْتَقَرُّ أهلِ النَّارِ، والنَّارُ مِن جهةِ الشِّمالِ؛ فلا يَحْسُنُ مجيئُها مجموعةً؛ لأنَّ الطُّرُقَ الباطلةَ -وإنْ تَعَدَّدَتْ- فغايتُها المَرَدُّ إلى طريقِ الجحيمِ، وهي جهةُ الشِّمالِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ هذه الآياتُ تَضمَّنَتْ ذِكْرَ ما يُتبَرَّدُ به في الدُّنيا مِن الكَرْبِ والحَرِّ، وهو ثلاثةٌ: الماءُ، والهواءُ، والظِّلُّ؛ فهواءُ جَهنَّمَ: السَّمُومُ، وهو الرِّيحُ الحارَّةُ الشَّديدةُ الحَرِّ، وماؤُها: الحميمُ الَّذي قد اشتَدَّ حَرُّهُ، وظِلُّها: اليَحْمومُ، وهو قِطَعُ دُخَانِها(٢)، كأنَّه قيل: أبرَدُ الأشياءِ في الدُّنيا حارٌّ عِندَهم، فكيف أحَرُّها(٣)؟!

٣- لم يقُلِ الله سبحانَه في حقِّ أصحابِ اليمينِ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

أمَّا تَركُ فُضولِ المُباحاتِ -وهو ما لا يحتاجُ إليه لمصلحةِ دينِه- فهو مِن الزُّهدِ المُباحِ، ويُثابُ على تركِ فُضولِها. يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٣٤). ويُنظر أيضًا: ((الموافقات)) للشاطبي (١/ ١٩١).

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٠٦). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٩).

[الواقعة: ٢٤] كما قاله عزَّ وجلَّ في حقِّ السَّابقينَ؛ رمزًا إلى أنَّ الفضلَ في حَقِّهم مُتمَحِّضٌ، كأنَّ عمَلَهم -لقُصورِه عن عملِ السَّابقينَ- لم يُعتبَرِ اعتِبارَه[1].

٤- النَّارُ محلُّ ذوي الشَّهواتِ الَّذين ليس لهم همٌّ إلَّا اتِّباعُ شهواتِهم، ولذلك أكثرُ مَن يَدخُلُ النَّارَ المُترَفونَ؛ فالتَّرَفُ سبَبٌ للتَّلَفِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ سُؤالٌ: أنَّ إصرارَهم على الحِنْثِ وإنكارَهم البَعثَ لا يَخفى تَسَبُّبُه في العَذابِ؛ لأنَّ اللهَ توَعَّدَهم عليه فلم يُقلِعوا عنه، وإنَّما يَبقى النَّظَرُ في قَولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾؛ فإنَّ التَّرَفَ في العَيشِ ليس جريمةً في ذاتِه، وكم مِن مُؤمِنٍ عاش في تَرَفٍ؟! وليس كُلُّ كافِرٍ مُترَفًا في عَيشِه، فلا يكونُ التَّرَفُ سَبَبًا مُستَقِلًّا في تسَبُّبِ الجزاءِ الَّذي عُومِلوا به، فما وجْهُ ذلك؟

الجَوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ الإترافَ سَبَبٌ باعتِبارِ ضَميمةِ ما ذُكِرَ بَعْدَه إليه، بأنْ كان إصرارُهم على الحِنْثِ وتكذيبُهم بالبَعثِ جَريمتَينِ عَظيمتَينِ؛ لأنَّهما مَحفوفتانِ بكُفرِ نِعمةِ التَّرَفِ الَّتي خَوَّلَهم اللهُ إيَّاها، على نَحوِ قَولِه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، فيكونُ الإترافُ جُزءَ سَبَبٍ، وليس سَبَبًا مُستَقِلًّا، وفي هذا مِن معنى قَولِه تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٢١)، ((شرح صحيح البخاري)) لابن عثيمين (٨/ ٣٨١).

الثَّاني: أنَّ التَّرَفَ في العَيشِ عَلَّقَ قُلوبَهم بالدُّنيا، واطمأَنُّوا بها؛ فكان ذلك مُمْليًا على خَواطِرِهم إنكارَ الحياةِ الآخِرةِ، فيَكونُ المرادُ التَّرَفَ الَّذي هذا الإنكارُ عارِضٌ له وشَديدُ المُلازَمةِ له، فوِزانُه وِزانُ قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢].

فجُعِلَ أهلُ الشِّمالِ مُترَفِينَ؛ لأنَّهم لا يخلو واحِدٌ منهم عن تَرَفٍ -ولو في بَعضِ أحوالِه وأزمانِه- مِن نِعَمِ الأكْلِ والشُّرْبِ، والنِّساءِ، وكُلُّ ذلك جديرٌ بالشُّكرِ لواهِبِه، وهم قد لابَسوا ذلك بالإشراكِ في جميعِ أحوالِهم، أو لأنَّهم لَمَّا قَصَروا أنظارَهم على التَّفكيرِ في العِيشةِ العاجِلةِ صَرَفَهم ذلك عن النَّظَرِ والاستِدلالِ على صِحَّةِ ما يدعوهم إليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فهذا وجْهُ جَعْلِ التَّرَفِ في الدُّنيا من أسبابِ جَزائِهم الجَزاءَ المذكورَ[(١)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ * وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ * وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ لَطيفةٌ: وهي أنَّه أشار في الآياتِ الثَّلاثِ إلى الأُصولِ الثَّلاثةِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ -مِن حيثُ الاستِعمالُ- يدُلُّ على ذَمِّهم بإنكارِ الرُّسُلِ؛ إذ المُترَفُ مُتكَبِّرٌ بسَبَبِ الغِنى، فيُنكِرُ الرِّسالةَ. والمُترَفونَ كانوا يَقولونَ: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤]. وقَولُه: ﴿يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ إشارةٌ إلى الشِّركِ ومخالفةِ التَّوحيدِ. وقَولُه تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾ إشارةٌ إلى إنكارِ الحَشرِ والنَّشْرِ[(٢)].

٧- أنَّ الجَدَّ يُسمَّى أبًا؛ لأنَّهم قالوا: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾، وآباؤُهم الأَوَّلونَ أجدادٌ سابِقونَ، فالجَدُّ يُسمَّى أبًا، ويَتفرَّعُ على ذلك مَسألةٌ فَرَضيَّةٌ، وهي: أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤١١).

الجَدَّ يُسقِطُ الإِخْوةَ، أشقَّاءَ كانوا، أمْ لأبٍ، أمْ لأمٍّ[١].

٨- قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، والنُّزُلُ: هو ما يُعَدُّ للضَّيفِ عندَ قُدومِه، فدَلَّت هذه الآياتُ على أنَّ أهلَ النَّارِ يُتحَفونَ عندَ دُخولِها بالأكْلِ مِن شَجَرةِ الزَّقُّومِ، والشُّربِ مِن الحَميمِ، وهم إنَّما يُساقُونَ إلى جَهنَّمَ عِطاشًا[٢]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾

- في هذا الاستِفهامِ ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ تَعظيمُ مُصابِهم[٣].

- وأُتْبِعَ الإبهامُ الَّذي في قولِه: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ بما يُبيِّنُ بَعضَه[٤].

- قولُه: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ وصْفُ الظِّلِّ بأنَّه مِن يَحموم؛ للإشعارِ بأنَّه ظِلُّ دُخَانِ لهَبِ جهنَّمَ، والدُّخَانُ الكثيفُ له ظِلٌّ؛ لأنَّه بكَثافتِه يَحجُبُ ضَوءَ الشَّمسِ، وإنَّما ذُكِرَ مِن الدُّخَانِ ظِلُّه لمُقابَلتِه بالظِّلِّ الممدودِ المُعَدِّ لأصحابِ اليمينِ في قولِه: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٤٧).
وهذا المذكورُ -أي: حَجْبُ الجدِّ للإخوةِ- هو قولُ أبي حنيفةَ، وهو خلافُ قولِ مالكٍ، والشَّافعيِّ، وأحمدَ. يُنظر: ((اختلاف الأئمة العلماء)) لابن هبيرة (٢/ ٩١)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٣/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤).

٣٠]، أي: لا ظِلَّ لأصحابِ الشِّمالِ سِوى ظِلِّ اليَحْموم، وهذا مِن قَبيلِ التَّهكُّمِ، ولتَحقيقِ معْنى التَّهكُّمِ وُصِفَ هذا الظِّلُّ بما يُفيدُ نفْيَ البرْدِ عنه ونفْيَ الكرَمِ، فبرْدُ الظِّلِّ ما يَحصُلُ في مَكانِه مِن دفْعِ حَرارةِ الشمْسِ، وكرَمُ الظِّلِّ ما فيه مِن الصِّفاتِ الحَسَنةِ في الظِّلالِ؛ مِثل سَلامتِه مِن هبُوبِ السَّمومِ عليه، وسَلامةِ الموضعِ الَّذي يُظِلُّه مِن الحشراتِ والأوساخِ، وسَلامةِ أرْضِه مِن الحجارةِ ونحْوِ ذلك؛ إذ الكريمُ مِن كلِّ نوعٍ هو الجامعُ لأكثرِ مَحاسِنِ نَوعِه، فوُصِفَ ظِلُّ اليَحموم بوصْفٍ خاصٍّ، وهو انتفاءُ البُرودةِ عنه، وأُتبِعَ بوصْفٍ عامٍّ، وهو انتفاءُ كَرامةِ الظِّلالِ عنه[١].

أو هذا تَتْميمٌ[٢] لنفْيِ كَرامةِ مَن يَستروِحُ إليه، والمرادُ هم، أي: يَستظِلُّون إليه وهم مُهانون، وقد يُحتمَلُ المجلسُ الرَّديءُ لنَيلِ الكرامةِ. وقد يجوزُ أنْ يكونَ ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ صِفةً لـ ﴿يَحْمُومٍ﴾، ويلزَمُ منه أنْ يكونَ الظِّلُّ مَوصوفًا بذلك[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّعريضِ[٤]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤، ٣٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٦).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٤).

(٤) التَّعريضُ في اصطلاحِ البَلاغيِّينَ: هو الدَّلالةُ على المعنى مِن طريقِ المفهومِ، أي: تضمينُ الكلامِ ما يَصلُحُ للدَّلالةِ على مقصودِ المتكلِّمِ، ويصلُحُ للدَّلالةِ على غيرِ مقصودِه؛ إلَّا أنَّ إشعارَه بجانبِ المقصودِ أتمُّ وأرجَحُ. وقد يُسمَّى تلويحًا؛ لأنَّه يَلوحُ منه ما يُريدُ. والفرقُ بيْن الكِنايةِ والتَّعريضِ: أنَّ الكِنايةَ ذِكرُ الشَّيءِ بذِكرِ لَوازِمِه، كقولِك: فُلانٌ طويلُ النِّجادِ، كثيرُ الرَّمادِ... والتَّعريضَ: ذِكرُ كلامٍ يحتملُ مقصودَ المتكلِّمِ ويحتملُ غيرَ مقصودِه، إلَّا أنَّ قرائنَ الأحوالِ تؤكِّدُ حمْلَه على مقصودِه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٦٩)، ((المثل السائر)) لابن الأثير (٢/ ١٨٦)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣١١)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٤٠٧)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (٢/ ١٢٧).

وهو أنَّ الَّذين يَستأْهِلون الظِّلَّ الَّذي فيه بَرْدٌ وإكرامٌ غيرُ هؤلاء، فيَكونُ أشْجَى لحُلوقِهم، وأدْعَى لتَحسُّرِهم[١].

- وفي قولِه: ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ مُقابَلةٌ خَفيَّةٌ كامِنةٌ فيما بيْن سُطورِ هذا الكلامِ العجيبِ؛ فهؤلاء الَّذين أمْسَوا بهذه المَثابةِ كانوا في الدُّنيا يَعيشون غارِقين في التَّرَفِ، مُتقلِّبين في أعطافِه، فإذا بهم وقد لَفَّهم السَّمومُ واليَحْمومُ، يَتذكَّرون ما كانوا فيه، ويُقابِلون بيْنه وبيْن حالتِهم الرَّاهنةِ، والتَّجسيدُ والتَّخييلُ حاضرانِ مُهيَّآنِ أمامَهم[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ تَعليلٌ لِما يَلقاهُ أصحابُ الشِّمالِ مِن العذابِ، فيَتعيَّنُ أنَّ ما تَضمَّنَه هذا التَّعليلُ كان مِن أحوالِ كُفْرِهم، وأنَّه ممَّا له أثرٌ في إلحاقِ العذابِ بهم؛ بقَرينةِ عطْفِ ﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾... ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ ﴾ إلخ عليه[٣].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُصِرُّونَ﴾ و﴿يَقُولُونَ﴾ تُفيدُ تكرُّرَ الإصرارِ والقولِ مِنْهم[٤].

- وذِكرُ فِعلِ (كَانُوا)؛ لإفادةِ أنَّ ذلك دَيدنُهم[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ الاستِفهامُ في قولِهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ؛

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كِنايةً عن الإحالةِ والاستبعادِ[١].

- وتَقديمُ التُّرابِ؛ لعَراقتِه في الاستِبعادِ، وانْقلابِه مِن الأجْزاءِ البادِيةِ[٢].

- وأُعيدَ الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؛ تَوكيدًا للاستبعادِ والإنكارِ، وللدَّلالةِ على إنكارِ البعثِ مُطلقًا[٣].

- وتَحليةُ الجُملةِ ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ بـ(إنَّ) لتأكيدِ الإنكارِ لا لإنكارِ التَّأكيدِ؛ كما عسَى يُتوَهَّمُ مِن ظاهِرِ النَّظمِ؛ فإنَّ تَقديمَ الهَمزةِ لاقتِضائِها الصَّدارةَ -كما في مِثلِ قولِه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ومعناه: تعقيبُ الإنكارِ لا إنكارُ التَّعقيبِ، ومَرجِعُه إلى إنكارِ البَعثِ بعدَ تِلك الحالةِ، وفيه مِن الدَّلالةِ على غُلوِّهم في الكُفْرِ وتَماديهم في الضَّلالِ ما لا مَزيدَ عليه[٤].

- وتَكريرُ الهَمزةِ في قولِه تعالَى: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ لتأْكيدِ النَّكيرِ والاستبعادِ، والواوُ للعطْفِ على المُستكِنِّ في ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾، وحسُنَ العطْفُ على المُضمَرِ في ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ مِن غيرِ تأكيدٍ بـ(نحن)؛ لوُجودِ الفاصلِ الَّذي هو الهمزةُ[٥]. وهذه الهَمزةُ على قِراءةِ بَعضِ القُرَّاءِ ﴿أَوْ﴾ بسُكونِ الواوِ[٦]؛ فمعْنى الآيةِ: استِبعادُ أنْ يُبعَثوا همْ وآباؤهم على حدٍّ واحدٍ مِن الاستبعادِ. وعلى قِراءةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٧).

(٦) قرأ بها أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ وقالونُ، وقرأ الباقونَ بفتحِ الواوِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧).

الجُمهورِ: ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ﴾ بتَحريكِ الواوِ، على أنَّها واوُ العطْفِ دخَلَ عليها ألِفُ الاستِفهامِ، ومعْناها: شِدَّةُ الاستبعادِ في الآباءِ، كأنَّهم استَبْعَدوا أنْ يُبعَثوا، ثمَّ أتَوا بذِكرِ مَنِ البعثُ فيهم أبعَدُ، وهذا بيِّنٌ لأهلِ العلمِ بلِسانِ العربِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾

- قولُه: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴾ افتُتِحَ الكلامُ بالأمْرِ بالقولِ؛ للاهتِمامِ به، كما افتُتِحَ به نَظائرُه في آياتٍ كثيرةٍ؛ لِيَكونَ ذلك تَبليغًا عن اللهِ تعالى، فيكون قولُه: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ إلخ استئنافًا ابتدائيًّا لِمُناسَبةِ حِكايةِ قَولِهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ [الواقعة: ٤٧] الآيةَ(٢).

- وفي تَقديمِ الأوَّلِينَ مُبالَغةٌ في الرَّدِّ؛ حيثُ كان إنكارُهم لبَعثِ آبائِهم أشدَّ مِن إنكارِهم لبَعْثِهم، مع مُراعاةِ التَّرتيبِ الوُجوديِّ(٣).

- قولُه: ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ معْناهُ أنَّهم يُبعَثون ويُحشَرون جميعًا، وهذا إبطالٌ لِما اقتضاهُ عطْفُ ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ في كَلامِهم مِنِ اسْتِنتاجِ استِبعادِ البَعثِ؛ لأنَّهم عَدُّوا سبْقَ مَن سبَقَ مَوتُهم أدَلَّ على تَعذُّرِ بَعثِهم بعْدَ أنْ مَضَت عليهم القرونُ ولم يُبعَثْ فريقٌ منهم إلى يومِ هذا القيلِ(٤).

- وتأْكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) واللَّامِ؛ لرَدِّ إنكارِهم مَضمونَه(٥).

- وقد ضُمِّنَ ﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ معْنى (مَسوقون)؛ فتَعلَّقَ به مَجرورُه بحرْفِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(إلى) للانتهاءِ، وإلَّا فإنَّ ظاهرَ (مَجمُوعون) أنْ يُعدَّى بحرْفِ (في). وأفاد تَعليقُ مَجرورِ ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ به بواسطةِ (إلى) أنَّه مُسيَّرٌ إليه حتَّى يَنْتهيَ إليه؛ فدلَّ على مَكانٍ، وهذا مِن الإيجازِ[1].

- وإضافةُ ﴿مِيقَٰتِ﴾ إلى ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾؛ لأنَّ التَّجمُّعَ واقعٌ في ذلك اليَومِ، وإذ كان التَّجمُّعُ الواقعُ في اليومِ واقعًا في ذلك المِيقاتِ، كانت بيْنَ المِيقاتِ واليومِ مُلابَسةٌ صحَّحت إضافةَ المِيقاتِ إليه لأدْنى مُلابَسةٍ، وهذا أدقُّ مِن جَعْلِ الإضافةِ بَيانيَّةً، وهذا تَعريضٌ بالوعيدِ بما يَلْقَونه في ذلك اليومِ الَّذي جَحَدوه[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾، هذا مِن جُملةِ ما أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَقولَه لهم، و(ثُمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ فإنَّ في التَّصريحِ بتَفصيلِ جَزائِهم في ذلك اليومِ ما هو أعظَمُ وقْعًا في النُّفوسِ مِن التَّعريضِ الإجماليِّ بالوعيدِ الَّذي استُفيدَ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وهذا التَّراخي الرُّتبيُّ بمَنزلةِ الاعتِراضِ بيْن جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٤٩] وجُملةِ ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾[3] [الواقعة: ٥٧].

- قولُه: ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾، نِداؤُهم بهذَين الوصْفينِ إيماءٌ إلى أنَّهما سبَبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما لَحِقَهم مِن الجزاءِ السَّيِّئِ[١].

- والمقصودُ مِن قولِه: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ تَفظيعُ حالِهم في جَزائِهم على ما كانوا عليه مِن التَّرَفِ في الدُّنيا بمَلْءِ بُطونِهم بالطَّعامِ والشَّرابِ مَلْئًا أنْساهم إقبالَهم عليه، ومنَعهم مِن التَّفكُّرِ في مَصيرِهم. وقد زِيدَ تَفظيعًا بالتَّشبيهِ في قولِه: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾[٢].

- يَجوزُ أنْ يكونَ (علَى) في قولِه: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ﴾ للاستِعلاءِ، أي: شارِبون فوقَه الحميمَ، ويَجوزُ مع ذلك استِفادةُ معْنى (مع) مِن حرْفِ (علَى) تَعجيبًا مِن فَظاعةِ حالِهم، أي: يَشرَبون هذا الماءَ المُحرِقَ مع ما طَعِموه مِن شجَرِ الزَّقُّوم، فيُفيدُ أنَّهم يَتجرَّعونه، ولا يَستطيعونَ امتِناعًا[٣].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ عطْفٌ على ﴿لَأٓكِلُونَ﴾؛ لإفادةِ تَعقيبِ أكْلِ الزَّقُّومِ بـ﴿شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ دونَ فَتْرةٍ ولا استراحةٍ، وإعادةُ ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ تَوكيدٌ لَفظيٌّ لنَظيرِه، وفائدةُ هذا التَّوكيدِ زيادةُ تَقريرِ ما في هذا الشُّربِ مِن الأعجوبةِ، وهي أنَّه مع كَراهتِه يَزدادونَ منه، فيَزيدُهم تَقطيعًا لأمعائِهم؛ لإفادةِ التَّعجيبِ مِن حالِهم تَعجيبًا ثانيًا بعْدَ الأوَّلِ؛ فإنَّ كَونَهم شارِبين للحَميمِ على ما هو عليه مِن تَناهي الحرارةِ أمْرٌ عَجيبٌ، وشُرْبُهم له كما تَشرَبُ الإبلُ الهِيمُ في الإكثارِ أمْرٌ عَجيبٌ أيضًا؛ فكانتَا صِفَتينِ مُختلفتَينِ[٤].

- وجملةُ ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ مَسوقةٌ مِن جِهَتِه تعالَى بطَريقِ الفذْلَكةِ[٥]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١١).

(٥) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٥٠).

مُقرِّرةٌ لمَضمونِ الكَلامِ المُلقَّنِ، غَيرُ داخلةٍ تَحتَ القولِ[١].

- والكلامُ أيضًا اعتِراضٌ بيْن جُمَلِ الخِطابِ، موجَّهٌ إلى السَّامِعينَ غيرِهم؛ فليس في ضَميرِ الغَيبةِ الْتِفاتٌ[٢].

- قولُه: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ﴾ تَشبيهٌ تَهكُّميٌّ؛ فقد سمَّى الجحيمَ وما فيه مِن صُنوفِ العذابِ وضُروبِ الأهوالِ نُزُلًا تَهكُّمًا بهم؛ لأنَّ النُّزُلَ ما يُعَدُّ للنَّازلِ تَكرمةً له، كما في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٣] [آل عمران: ٢١].

- وجَعْلُ يومِ الدِّينِ وقْتًا لنُزُلِهم مُؤْذِنٌ بأنَّ ذلك الَّذي عُبِّر عنه بالنُّزُلِ جَزاءٌ على أعمالِهم، وهذا تَجريدٌ[٤] للتَّشبيهِ التَّهكُّميِّ، وهو قَرينةٌ على التَّهكُّمِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٧).

(٤) التجريد: هو اعتقادُ أنَّ في الشَّيءِ مِن نفْسِه معنًى آخَرَ كأنَّه مباينٌ له، فيخرجُ ذلك إلى ألفاظِه بما اعتقَد ذلك؛ كقولِهم: لئنْ لَقيتَ زيدًا لَتلقيَنَّ معه الأسدَ؛ فظاهرُ هذا أنَّ فيه مِن نفْسِه أسدًا، وهو عينُه هو الأسدُ، لا أنَّ هناك شيئًا منفصلًا. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٢).

الآيات (٥٧-٦٢)

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّا تُمْنُونَ﴾: أي: ما تَقْذِفونَ وتَصبُّونَ في أرحامِ النِّساءِ مِن المَنيِّ؛ مِن قَولِك: أَمْنَى الرَّجُلُ: إذا خرَجَ منه المَنِيُّ، والمَنِيُّ: الماءُ الَّذي يُخلَقُ ويُقدَّرُ منه الوَلَدُ، وأصلُ (مني): يدُلُّ على تقديرِ شَيءٍ، وقيل: سُمِّي المنيُّ مَنِيًّا لأنَّه يُمْنَى، أي: يُراقُ[1].

﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾: أي: ابتِداءَ الخَلْقِ، وأصلُ (نشأ): يدُلُّ على ارتِفاعِ شَيءٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مقرِّرًا للمَعادِ، ردًّا على المكذِّبينَ به، ومقيمًا الأدِلَّةَ على كمالِ قدرتِه: نحن خَلَقْناكم أوَّلَ مرَّةٍ مِنَ العَدَمِ، فهَلَّا تُصَدِّقونَ خالِقَكم في إخبارِه ببَعْثِكم أحياءً يومَ القيامةِ بعْدَ مَوتِكم!

أفرأيتُم ما تَقْذِفونَ مِنَ المنيِّ في أرحامِ نِسائِكم، أأنتُم تَخلُقونَه أم نحن الخالِقونَ له؟

نحن قَضَيْنا بَيْنَكم الموتَ، وما نحن بعاجِزينَ عن تَبديلِ صُوَرِكم وأشخاصِكم، وأن نُنشِئَكم نَشأةً أُخرى في خِلْقةٍ لا تَعلَمونَها مِنَ الصُّوَرِ والهَيئاتِ، ولقد عَلِمتُم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩).

خَلْقَنا لكم أوَّلَ مَرَّةٍ، فهَلَّا تَتذكَّرونَ ذلك فتَعلَموا أنَّ الَّذي خلَقكم ولم تَكونوا شَيئًا، قادرٌ على إعادتِكم أحياءً بعْدَ مَوتِكم؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنكَرَ الكُفَّارُ بَعْثَهم وآبائِهم الأوَّلِينَ، وأمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُخبِرَهم أنَّه تعالى باعِثٌ جَميعَ الأوَّلِينَ والآخِرينَ، وذَكَر جَزاءَ مُنكِري البَعثِ بأكْلِ الزَّقُّومِ وشُربِ الحَميمِ- أتْبَع ذلك بالبَراهينِ القاطِعةِ الدَّالَّةِ على البَعثِ، فقال تعالى[1]:

﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ٥٧﴾.

أي: نحن خَلَقْناكم -أيُّها الكفرةُ المكذِّبونَ بالبعثِ[2]- أوَّلَ مرَّةٍ مِنَ العَدَمِ، فهَلَّا تُصَدِّقونَ خالِقَكم في إخبارِه ببَعْثِكم أحياءً يومَ القيامةِ بعْدَ مَوتِكم؟ فالَّذي قَدَر على ابتِداءِ خَلْقِكم قادِرٌ على إعادتِكم بطَريقِ الأَولى[3].

قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٦)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٢).

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ٥٨﴾.

أي: أفرأيتُم ما تَقْذِفونَ مِنَ المَنيِّ في أرحامِ نِسائِكم[(١)]؟

قال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ * يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ * إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ [الطارق: ٥ - ٨].

﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٥٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت العِبرةُ بالمُسَبَّبِ لا بالسَّبَبِ، نَبَّه على ذلك بتَجديدِ الإنكارِ؛ تَنبيهًا على أنَّهم وإن كانوا مُعتَرِفينَ بتفَرُّدِه بالإبداعِ، فإنَّ إنكارَهم للبَعثِ مُستلزِمٌ لإنكارِهم لذلك، فقال تعالى[(٢)]:

﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٥٩﴾.

أي: أأنتُم تَخلُقونَ ذلك المَنِيَّ أم نحن الخالِقونَ له[(٣)]؟

﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٦٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه تقريرٌ لما سبَق، فقال: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ [الواقعة: ٥٧]، ثمَّ قال: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٨).

بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ فمَنْ قدَر على الإحياءِ والإماتةِ، وهما ضِدَّانِ ثبَت كونُه مختارًا، فيمكِنُ الإحياءُ ثانيًا منه بعدَ الإماتةِ[١].

وأيضًا لما كان الجوابُ عن قولِه: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾: أنتَ الخالقُ وحدَك، وكان ربَّما نازَع في ذلك أهلُ الطَّبائِعِ، وكانت المفاوتةُ للآجالِ معَ المساواةِ في اسميةِ الحياةِ مِن الدَّلائلِ العظيمةِ على تمامِ القدرةِ على الإفناءِ والإبداءِ بالاختيارِ، مبطلةً لقولِ أهلِ الطَّبائعِ دافعةً لهم؛ أكَّد ذلك الدليلَ بقولِه[٢]:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾.

أي: نحن قَضَيْنا بَيْنَكم الموتَ، فما مِن إنسانٍ يُفلِتُ مِنَ الموتِ في الوَقتِ الَّذي قدَّرَه اللهُ تعالى لذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٩، ٥٣٠).

قال الشنقيطي: (قوله: ﴿قَدَّرْنَا﴾ فيه وجْهانِ مِن التَّفسيرِ:

فقال بعضُ العلماءِ، وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ، أنَّ قولَه: ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: قدَّرْنا لِمَوتِكم آجالًا مُختلِفةً، وأعمارًا مُتفاوِتةً؛ فمِنكم مَن يموتُ صغيرًا، ومنكم مَن يموتُ شابًّا، ومنكم مَن يموتُ شَيخًا. وهذا المعنى دلَّتْ عليه آياتٌ كثيرةٌ مِن كتابِ الله؛ كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [الحج: ٥]، وقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]...

الوجهُ الثَّاني: أنَّ ﴿قَدَّرْنَا﴾ بمعنى: قضَيْنا وكَتَبْنا، أي: كتَبْنا الموتَ وقدَّرْناه على جميعِ الخلْقِ. وهذا الوجهُ تَشهَدُ له آياتٌ مِن كتابِ الله؛ كقولِه تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: =

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

﴿... وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

أي: وما نحن بمَغلوبينَ ولا عاجِزينَ على تَبديلِ صُوَرِكم وأشخاصِكم، وأن نُنشِئَكم نَشأةً أُخرى في خِلْقةٍ لا تَعلَمونَها مِنَ الصُّوَرِ والهَيئاتِ، والأحوالِ والصِّفاتِ[1]!

= ٨٨]، وقولِه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] [الأنبياء: ٣٥] [العنكبوت: ٥٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٢٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والسمرقندي، والخازن، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٧).

وبنحوِ هذا القولِ قولُ مَن قال: قَسَمْناه عليكم قِسمةَ الرِّزقِ على اختِلافٍ وتَفاوُتٍ كما تَقتَضيه مَشيئتُنا، ووقَّتْنا موتَ كلِّ أحدٍ بوقتٍ مُعيَّنٍ؛ فاختلفتْ أعمارُكم مِن قصيرٍ وطويلٍ ومتوسِّطٍ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٧).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ في الجملةِ: القرطبيُّ، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٦، ٢١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((نظم =

= الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٢، ٣٤٣).

قال ابن جُزَي: (المسبوقُ على الشَّيءِ هو المغلوبُ عليه، بحيث لا يقدِرُ عليه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٧).

قال أبو حيَّان: (المعنَى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾: أيْ: نحنُ قادِرونَ على ذلك، لا تَغْلِبونَنا عليه، إنْ أرَدْنا ذلك. وقال الطَّبَريُّ: «المعنَى: نحنُ قادِرونَ، قَدَّرْنا بَيْنَكم الموتَ، ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أيْ: بموتِ طائفةٍ ونُبَدِّلُها بطائِفةٍ، هكَذا قَرْنًا بعدَ قَرْنٍ». انتهى. فـ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بقولِه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾، وعلى القولِ الأوَّلِ مُتَعَلِّقٌ ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: لا نُسْبَقُ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٦).

ممَّن نصَّ على أنَّ قولَه: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ ...﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾: السمينُ الحلبي، وابنُ عادل، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤١٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٦).

قال الشنقيطي: (والمعنى: وما نحن بمغلوبينَ على أن نُبدِّلَ أمثالَكم إنْ أهلَكْناكم لو شِئْنا، فنحن قادِرونَ على إهلاكِكم، ولا يوجَدُ أحدٌ يَغلِبُنا ويَمنَعُنا مِن خَلقِ أمثالِكم بدَلًا منكم. وهذا المعنى تَشهدُ له آياتٌ مِن كتابِ الله؛ كقولِه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقولِه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقولِه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠] [فاطر: ١٦، ١٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣٠).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أيُّها النَّاسُ في أنفُسِكم وآجالِكم، فمُفْتاتٌ علينا فيها في الأمرِ الَّذي قدَّرْناه لها مِن حياةٍ ومَوتٍ، بل لا يَتقدَّمُ شَيءٌ منها أجَلَنا، ولا يَتأخَّرُ عنه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٦).

قال الشنقيطي موضِّحًا هذا القولَ: (﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: ما نحن بمَغلوبينَ... أي: وما نحن بمغلوبينَ على ما قدَّرْنا مِن آجالِكم، وحدَّدْناه مِن أعمارِكم، فلا يَقدِرُ أحدٌ أن يُقدِّمَ أجَلًا أخَّرْناه، ولا يؤخِّرَ أجَلًا قدَّمْناه.

وهذا المعنى دلَّتْ عليه آياتٌ كثيرةٌ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] [النحل: ٦١]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ =

= [نوح: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣٠).

وقال أيضًا: (وعلى هذا القولِ، فقولُه تعالَى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾، ليس مُتَعَلِّقًا بـ«مَسْبُوقِينَ»، بل بقولِه تعالَى: ﴿نَّحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، والمعنَى: نحنُ قَدَّرْنا بيْنكم الموتَ على أنْ نُبَدِّلَ أمثالَكم، أي: نُبَدِّلَ مِن الَّذينَ ماتوا أمثالًا لهم نُوجِدُهم.

وعلى هذا، فمعنَى تبديلِ أمثالِهم: إيجادُ آخَرينَ مِن ذُرِّيَّةِ أُولئكَ الَّذين ماتوا، وهذا المعنَى تشهدُ له آياتٌ مِن كتابِ اللهِ؛ كقولِه تعالَى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣٠).

وقال ابنُ القَيِّم: (المرادُ بتَبديلِ أمثالِهم: الخَلْقُ الجَديدُ، والنَّشأةُ الآخِرةُ الَّتي وُعِدوا بها... وكَونُهم أمثالَهم هو إنشاؤُهم خَلقًا جديدًا بعَينِه، فهم هم بأعيانِهم، وهم أمثالُهم، فهم أنفُسُهم يُعادُونَ، فإذا قُلتَ: المُعادُ هذا هو الأوَّلُ بعَينِه، صَدَقْتَ، وإنْ قُلْتَ: هو مِثلُه، صَدَقْتَ، فهو هو مُعادٌ، أو هو مِثلُ الأوَّلِ.

وقد أوضَحَ هذا سُبحانَه بقَولِه: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، فهذا الخَلقُ الجَديدُ هو المتضمِّنُ لكَونِهم أمثالَهم، وقد سَمَّاه اللهُ سُبحانَه وتعالى إعادةً، والمُعادُ مِثلُ المُبتَدَأِ، وسَمَّاه نشأةً أُخرى، وهي مِثلُ الأُولى، وسمَّاه خَلقًا جَديدًا، وهو مِثلُ الخَلقِ الأوَّلِ، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، وسَمَّاه أمثالًا، وهم هم؛ فتطابَقَت ألفاظُ القُرآنِ، وصدَّقَ بَعضُها بعضًا، وبيَّنَ بَعضُها بَعضًا، وبهذا تَزولُ إشكالاتٌ أورَدَها مَن لم يَفهَمِ المَعادَ الَّذي أخبَرَت به الرُّسُلُ عن اللهِ. ولا يُفهَمُ مِن هذا القَولِ ما قاله بَعضُ المتأخِّرينَ: إنَّهم غَيرُهم مِن كُلِّ وجْهٍ! فهذا خَطأٌ قَطعًا -مَعاذَ اللهِ مِن اعتِقادِه-، بل هم أمثالُهم، وهم أعيانُهم، فإذا فُهِمَت الحقائِقُ فلا يُناقِشُ في العِبارةِ إلَّا ضَيِّقُ العَطَنِ، صَغيرُ العَقلِ، ضَعيفُ العِلمِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٩٨، ١٩٩).

وقال الشنقيطي: (وقولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فيه للعلماءِ أقوالٌ مُتقارِبةٌ:

قال بعضُهم: نُنشِئَكم بعدَ إهلاكِكم فيما لا تَعلَمونه مِن الصُّوَرِ والهَيئاتِ، كأنْ نُنشِئَكم قِرَدةً وخَنازيرَ، كما فعَلْنا ببعضِ المجرمين قبْلَكم.

وقال بعضُهم: نُنشِئَكم فيما لا تَعلَمونه مِن الصِّفاتِ، فنُغيِّرَ صِفاتِكم، ونُجَمِّلَ المؤمنينَ ببَياضٍ =

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۞ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۞ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ [النجم: ٤٥ - ٤٧].

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾.

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾.

أي: ولقد عَلِمتُم خَلْقَنا لكم أوَّلَ مَرَّةٍ، ولم تَكونوا شَيئًا قبْلَ ذلك[1]!

= الوُجوهِ، ونُقَبِّحَ الكافرين بسَوادِ الوُجوهِ وزُرقةِ العُيونِ. إلى غيرِ ذلك مِن الأقوالِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

قيل: المرادُ: خلْقُهم مِن نطفةٍ ثُمَّ مِن عَلَقةٍ ثُمَّ مِن مُضْغةٍ في بُطونِ أمَّهاتِهم، ولم يَكونوا قبْلَ ذلك شيئًا. وممَّن اختار هذا القولَ في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، وابن الجوزي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

وقيل: المرادُ: الإحداثةُ الأُولى والخِلْقةُ الأُولى: خلْقُ آدَمَ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والسمعانيُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٠).

قال ابن عطية: (﴿ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾: قال أكثرُ المفسِّرينَ: إشارةٌ إلى خلْقِ آدَمَ، ووقف عليه؛ لأنَّه لا تجِدُ أحدًا يُنكِرُ أنَّه مِن ولدِ آدَمَ، وأنَّه مِن طينٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٨). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: فهَلَّا تَتذكَّرونَ ذلك؛ فتَعلَموا أنَّ الَّذي أنشَأَكم النَّشْأَةَ الأُولى ولم تَكونوا شَيئًا: لا يَتعَذَّرُ عليه إعادتُكم أحياءً بعْدَ مَوتِكم[(١)]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ التَّحريضُ على العَمَلِ الصَّالِحِ؛ لأنَّ التَّبديلَ والإنشاءَ -وهو الموتُ والحَشرُ- إذا كان واقِعًا في زَمانٍ لا يَعلَمُه أحَدٌ، فيَنبغي ألَّا يَتَّكِلَ الإنسانُ على طُولِ المُدَّةِ، ولا يَغفُلَ عن إعدادِ العُدَّةِ[(٢)].

٢- عن أبي جعفرٍ، قال: (كان يُقالُ: يا عجَبًا لِمَن يُكذِّبُ بالنَّشأةِ الآخرةِ وهو يرى النَّشأةَ الأُولَى! يا عجَبًا كلَّ العجَبِ لِمَن يُكَذِّبُ بالنَّشرِ بعدَ الموتِ وهو يُنْشَرُ في كلِّ يومٍ ولَيلةٍ!)[(٣)].

= وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ البِقاعي -وتبعه الشربيني-، فذكَرَا أنَّ ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: التُّرابيَّةَ لأبيكم آدَمَ عليه السَّلامُ، واللَّحميَّةَ لأُمِّكم حوَّاءَ رضيَ الله عنها، والنُّطفيَّةَ لكم. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤١٩).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في ((الأهوال)) (٢١١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ هذا البُرهانُ الدَّالُّ على البَعثِ -الَّذي هو خلْقُ الإنسانِ مِن نُطفةِ مَنِيٍّ تُمنَى- يَجِبُ على كُلِّ إنسانٍ النَّظَرُ فيه؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ وعلا وَجَّه صِفةَ الأمرِ بالنَّظَرِ فيه إلى مَنِيِّ الإنسانِ، والأصلُ في صيغةِ الأمرِ على التَّحقيقِ: الوُجوبُ إلَّا لدَليلٍ صارِفٍ عنه، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥، ٦] الآيةَ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ سؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّهم مُصَدِّقونَ بذلك، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]؟

الجوابُ: هم وإنْ صَدَّقوا بألسِنَتِهم لكِنْ لَمَّا كان مَذهَبُهم خِلافَ ما يَقتَضيه التَّصديقُ، كانوا كأنَّهم مُكَذِّبونَ به، أو أنَّ ذلك تَحضيضٌ على التَّصديقِ بالبَعثِ بعدَ المَوتِ بالاستِدلالِ بالخَلْقِ الأوَّلِ، فكأنَّه قال: هو خَلَقَكم أوَّلًا باعتِرافِكم؛ فلا يَمتَنِعُ عليه أن يُعيدَكم ثانيًا؛ فهلَّا تُصَدِّقونَ بذلك[(٢)]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ فيما يَرَونَ المقتولَ مَيِّتًا بغَيرِ أَجَلِه، وهو جَهلٌ بَيِّنٌ[(٣)]!

٤- قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ احتِجاجٌ عليهم، أي: إذا أقْرَرْتُم بأنَّا خالِقوه لا غيرُنا، فاعتَرِفوا بالبعثِ، وقولُه تعالَى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٣).

بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ احْتِجاجٌ أيضًا، أي: الَّذي يَقدِرُ على الإماتةِ يَقدِرُ على الخلْقِ، وإذا قَدَر على الخلقِ قَدَر على البعثِ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ عُدِّيَ بـ «على» دونَ «إلى»؛ لأنَّه لَمَّا ضَمَّنَه معنى «مَغلوبينَ ومَقهورين» عَدَّاه بـ «على»، بخِلافِ «سَبَقَه إليه»؛ فإنَّه فَرْقٌ بيْنَ «سَبَقْتُه إليه» و«سَبَقْتُه عليه»؛ فالأوَّلُ بمعنى: غَلَبْتُه وقَهَرْتُه عليه، والثَّاني بمعنى: وصَلْتُ إليه قَبْلَه[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أنَّ مَن قَدَر على النَّشْأةِ الأُولى قَدَر على الثَّانيةِ؛ فإنَّها أقَلُّ صنعًا؛ لحُصولِ المَوادِّ، وتخصيصِ الأجزاءِ، وسَبْقِ المِثالِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ دَليلٌ على صِحَّةِ القياسِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أُعقِبَ إبطالُ نفْيِهم البَعثَ بالاستِدلالِ على إمكانِه، وتَقريبِ كَيفيَّةِ الإعادةِ الَّتي أحالوها، فاستُدِلَّ على إمكانِ إعادةِ الخلْقِ بأنَّ اللهَ خَلَقَهم أوَّلَ مرَّةٍ؛ فلا يَبعُدُ أنْ يُعيدَ خلْقَهم، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ لأنَّهم لم يَكونوا يُنكِرون ذلك، وليس المقصودُ إثباتَ أنَّ اللهَ خلَقَهم. وهذا الكلامُ يَجوزُ أنْ يكونَ مِن تمامِ ما أُمِرَ بأنْ يَقولَه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهم، ويجوزُ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يكونَ استئنافًا مُستقلًّا. والخِطابُ على كِلا الوجهينِ مُوجَّهٌ للسَّامعينَ؛ فليس في ضَميرِ ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ الْتفاتٌ[1]. وقيل: قولُه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ تَلوينٌ للخِطابِ، وتَوجيهٌ له إلى الكَفرةِ بطَريقِ الإلزامِ والتَّبكيتِ[2].

- وتقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿نَحْنُ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكمِ؛ ردًّا على إحالتِهم أنْ يَكونَ اللهُ قادرًا على إعادةِ خَلْقِهم بعْدَ فَناءِ مُعظَمِ أجسادِهم حِينَ يَكونونَ تُرابًا وعِظامًا، فهذا تَذكيرٌ لهم بما ذُهِلوا عنه بأنَّ اللهَ هو خلَقَهم أوَّلَ مرَّةٍ، وهو الَّذي يُعيدُ خَلْقَهم ثانيَ مرَّةٍ؛ فإنَّهم -وإنْ كانوا يَعلَمون أنَّ اللهَ خلَقَهم- لَمَّا لم يَجْروا على مُوجَبِ ذلك العِلمِ بإحالتِهم إعادةَ الخَلْقِ؛ نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يشُكُّ في أنَّ اللهَ خلَقَهم، فالمَقصودُ بتَقوِّي الحُكْمِ الإفضاءُ إلى ما سيُفرَّعُ عنه مِن قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾[3] [الواقعة: ٥٨- ٦١].

- ومَوقعُ هذه الجُملةِ استِدلالٌ وعِلَّةٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]؛ ولذلك لم تُعطَفْ[4].

- وأيضًا الفاءُ في قولِه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ لترتيبِ التَّحضيضِ على ما قبْلَها، أي: فهلَّا تُصدِّقونَ بالخَلْقِ؟! فإنَّ ما لا يُحقِّقُه العمَلُ ولا يُساعِدُه -بلْ يُنبِئُ عن خِلافِه- ليس مِن التَّصديقِ في شَيءٍ. وقيل: التَّقديرُ: فلولا تُصدِّقونَ بالبَعثِ استِدلالًا عليه بالإنشاءِ؛ فإنَّ مَن قدَرَ عليه قدَرَ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإعادةِ حتْمًا[١]؛ ففُرِّعَ على التَّذكيرِ بخلْقِ اللهِ لهم في قولِه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ تَحضيضُهم على التَّصديقِ، أي: بالخَلْقِ الثاني، وهو البَعثُ؛ فإنَّ ذلك هو الَّذي لم يُصَدِّقوا به[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ تَفريعٌ على ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [الواقعة: ٥٧]، أي: خلَقْناكُم الخلْقَ الَّذي لم تَرَوه، ولكنَّكم تُوقِنون بأنَّا خلَقْناكم، فتَدبَّروا في خلْقِ النَّسلِ؛ لتَعلَموا أنَّ إعادةَ الخلْقِ تُشبهُ ابتداءَ الخلْقِ[٣].

- والاستِفهامُ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ للتَّقريرِ بتَعْيينِ خالِقِ الجَنينِ مِن النُّطفةِ؛ إذ لا يَسَعُهم إلَّا أنْ يُقِرُّوا بأنَّ اللهَ خالِقُ النَّسلِ مِن النُّطفةِ، وذلك يَستلزِمُ قُدرتَه على ما هو مِن نَوعِ إعادةِ الخلْقِ[٤].

- وإنَّما ابتُدِئَ الاستِدلالُ بتَقديمِ جُملةِ ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ زِيادةً في إبطالِ شُبهتِهم؛ إذ قاسُوا الأحوالَ المَغيبةَ على المُشاهَدةِ في قولِهم: لا نُعادُ بعْدَ أنْ كنَّا تُرابًا وعِظامًا، وكان حقُّهم أنْ يَقيسوا على تَخلُّقِ الجنينِ مِن مَبدأِ ماءِ النُّطفةِ، فيَقولوا: لا تَتخلَّقُ مِن النُّطفةِ المَيتةِ أجسامٌ حيَّةٌ، كما قالوا: لا تَصِيرُ العِظامُ الباليةُ ذواتًا حيَّةً، وإلَّا فإنَّهم لم يدَّعُوا قطُّ أنَّهم خالِقون؛ فكان قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ تَمْهيدًا للاستِدلالِ على أنَّ اللهَ هو خالِقُ الأجنَّةِ بقُدرتِه، وأنَّ تلك القدرةَ لا تَقصُرُ عن الخلْقِ الثَّاني عندَ البَعْثِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٣).

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿ءَأَنتُمۡ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾ لإفادةِ التَّقوِّي؛ لأنَّهم لَمَّا نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَزعُمُ ذلك، صِيغَتْ جُملةُ نَفْيِه بصِيغةٍ دالَّةٍ على زَعْمِهم تَمكُّنَ التَّصرُّفِ في تَكوينِ النَّسْلِ[١].

- وقد حصَلَ مِن نفْيِ الخلْقِ عنهم وإثباتِه للهِ تعالَى معْنى قَصْرِ الخلْقِ على اللهِ تعالَى[٢].

- و﴿أَمۡ﴾ في قولِه: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ مُتَّصِلةٌ، مُعادِلةٌ للهَمزةِ، وما بعْدَها مَعطوفٌ؛ لأنَّ الغالبَ ألَّا يُذكَرَ له خبَرٌ اكتِفاءً بدَلالةِ خبَرِ المعطوفِ عليه على الخبَرِ المحذوفِ، وهاهنا أُعِيدَ الخَبرُ في قولِه: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ زِيادةً في تَقريرِ إسنادِ الخَلْقِ إلى اللهِ في المعْنى، وللإيفاءِ بالفاصِلةِ، وامتدادِ نفَسِ الوقْفِ. ويَجوزُ أنْ نَجعَلَ ﴿أَمۡ﴾ مُنقطِعةً بمعْنى (بل)؛ لأنَّ الاستِفهامَ ليس بحَقيقيٍّ، فليس مِن غرَضِه طلَبُ تَعيينِ الفاعلِ، ويكونَ الكلامُ قد تمَّ عندَ قولِه: ﴿تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾، والمعْنى: أتظُنُّون أنفُسَكم خالِقينَ النَّسَمةَ ممَّا تُمْنون[٣]؟!

- قولُه: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ فيه احتِباكٌ[٤]؛ ذكَرَ أوَّلًا «تَخلُقُونَ» دليلًا على حَذفِ مِثْلِه له سُبحانَه ثانيًا، وذكَرَ الاسمَ ثانيًا دَليلًا على حَذفِ مِثلِه لهم أوَّلًا، وسِرُّ ذلك: أنَّه ذَكَر ما هو الأوفَقُ لأعمالِهم ممَّا يدُلُّ على وقتِ التَّجَدُّدِ ولو وقتًا ما، وما هو الأَولى بصِفاتِه سُبحانَه ممَّا يدُلُّ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٤).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩).

الثَّباتِ والدَّوامِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ استِدلالٌ بإماتةِ الأحياءِ على أنَّها مَقدورةٌ للهِ تعالَى، ضَرورةَ أنَّهم مُوقِنون بها ومُشاهِدونها، وواثِقُون دفْعَها أو تأْخيرَها؛ فإنَّ الَّذي قدَرَ على خلْقِ الموتِ بعْدَ الحياةِ قادرٌ على الإحياءِ بعْدَ الموتِ؛ إذ القدرةُ على حُصولِ شَيءٍ تَقْتضي القُدرةَ على ضِدِّه، فلا جَرَمَ أنَّ القادرَ على خلْقِ حَيٍّ ممَّا ليس فيه حَياةٌ، وعلى إماتتِه بعْدَ الحياةِ، قَديرٌ على التَّصرُّفِ في حالتَيْ إحيائِه وإماتتِه، وما الإحياءُ بعْدَ الإماتةِ إلَّا حالةٌ مِن تَينِكَ الحقيقتَينِ؛ فوضَحَ دليلُ إمكانِ البَعثِ، هذا أصلُ المُفادِ مِن قولِه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، ثمَّ هو مع ذلك تَنبيهٌ على أنَّ الموتَ جعَلَه اللهُ طَورًا مِن أطوارِ الإنسانِ؛ لحِكمةِ الانتِقالِ به إلى الحياةِ الأبَديَّةِ بعْدَ إعدادِه لها بما تُهيِّئُه له أسبابُ الكمالِ المُؤهِّلةُ لتلك الحياةِ؛ لتَتِمَّ المُناسَبةُ بيْن ذلك العالَمِ وبيْن عامِريه؛ فهذا وجْهُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ دونَ: (نحن نُميتُكم)، أي: إنَّ الموتَ مَجعولٌ على تَقديرٍ مَعلومٍ مُرادٍ، مع ما في مادَّةِ (قدَّرْنا) مِن التَّذكيرِ بالعِلمِ والقُدرةِ والإرادةِ؛ لتَتوجَّهَ أنظارُ العُقولِ إلى ما في طَيِّ ذلك مِن دَقائقَ، وهي كثيرةٌ، وخاصَّةً في تَقديرِ مَوتِ الإنسانِ الَّذي هو سَبيلٌ إلى الحياةِ الكاملةِ إنْ أُخِذَ لها أسبابُها[٢].

- وفي كَلمةِ ﴿بَيْنَكُمُ﴾ معْنًى آخَرُ، وهو أنَّ الموتَ يأْتي على آحادِهم تَداوُلًا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٤، ٣١٥).

وتَناوُبًا، فلا يُفْلِتُ واحدٌ منهم، ولا يَتعيَّنُ لحُلولِه صِنفٌ ولا عُمُرٌ، فآذَنَ ظَرفُ (بيْن) بأنَّ الموتَ كالشَّيءِ الموضوعِ للتَّوزيعِ، لا يَدري أحدٌ متى يُصِيبُه قِسطُه منه، فالنَّاسُ كمَن دُعُوا إلى قِسمةِ مالٍ، أو ثمَرٍ، أو نَعَمٍ، لا يَدْري أحدٌ متى يُنادَى عليه ليَأخُذَ قِسمَه، أو متى يَطيرُ إليه قِطُّه -أي: نصيبُه- ولكنَّه يُوقِنُ بأنَّه نائلُه لا مَحالةَ، وفي هذا كِنايةٌ عن كَونِ الموتِ فائدةً ومَصلحةً للنَّاسِ؛ أمَّا في الدُّنيا فلئلَّا تَضيقَ بهم الأرضُ والأرزاقُ، وأمَّا في الآخرةِ فلِلْجَزاءِ الوِفاقِ[1].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿نَحْنُ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿قَدَّرْنَا﴾؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكْمِ وتَحقيقِه، والتَّحقيقُ راجِعٌ إلى ما اشتَمَلَ عليه التَّركيبُ مِن فِعلِ (قدَّرْنا) وظَرفِ (بيْنكم) في دَلالتِهما على ما في خَلْقِ الموتِ مِن الحِكمةِ[2].

- قولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا نَتيجةٌ لِما سبَقَ مِن الاستِدلالِ على أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على الإحياءِ بعْدَ الموتِ؛ فكان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُعطَفَ بفاءِ التَّفريعِ أو يُترَكَ عطْفُه، فعُدِلَ عن الأمْرَينِ، وعُطِفَ بالواوِ عَطْفَ الجُمَلِ، فيكونُ جُملةً مُستقلَّةً مَقصودًا لِذاتِه؛ لأنَّ مَضمونَه يُفيدُ النَّتيجةَ، ويُفيدُ تَعليمًا اعتقاديًّا، فيَحصُلُ الإعلامُ به تَصريحًا وتَعريضًا؛ فالصَّريحُ منه التَّذكيرُ بتَمامِ قُدرةِ اللهِ تعالَى، وأنَّه لا يَغلِبُه غالبٌ، ولا تَضيقُ قُدرتُه عن شَيءٍ، وأنَّه يُبدِلُهم خلْقًا آخَرَ في البَعثِ مُماثِلًا لخلْقِهم في الدُّنيا، ويُفيدُ تَعريضًا بالتَّهديدِ باستئصالِهم وتَعويضِهم بأُمَّةٍ أُخرى، ولو جِيءَ بالفاءِ لَضاقتْ دَلالةُ الكَلامِ عن المعْنيَينِ الآخَرينِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ويَتعلَّقُ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ بـ (مَسْبُوقِينَ) -على قولٍ-؛ لأنَّه يُقالُ: غلَبَه على كذا، إذا حالَ بيْنه وبيْن نَوالِه، وأصْلُه: غلَبَه على كذا، أي: تمكَّنَ مِن كذا دُونَه؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، ويكونُ الوقفُ على قولِه: ﴿أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿قَدَّرۡنَا﴾ [الواقعة: ٦٠]، أي: قدَّرْنا الموتَ على أنْ نُحيِيَكم فيما بعْدُ، إدماجًا[1] لإبطالِ قولِهم: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧]؛ فتَكونَ (على) بمعْنى (مع)، وتَكونَ حالًا مُقدَّرةً، وهذا كقولِ الواعظِ: «على شَرْطِ النَّقضِ رُفِعَ البُنيانُ، وعلى شَرْطِ الخُروجِ دخَلَتِ الأرواحُ للأبدانِ»، ويكونَ مُتعلِّقُ (مَسبوقين) مَحذوفًا دالًّا عليه المَقامُ، أي: ما نحن بمَغلوبينَ فيما قدَّرْناه مِن خلْقِكم وإماتتِكم، ويُجعَل الوقْفُ على (مَسبوقِين)، ويُفيدُ قولُه: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ ...﴾ إلخ وراءَ ذلك عِبرةً بحالِ الموتِ بعْدَ الحياةِ؛ فإنَّ في تَقلُّبِ ذَينِكَ الحالَين عِبرةً وتدبُّرًا في عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وتَصرُّفِه، ومعْنَى: ﴿أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾: نُبدِّلَ بكم أمْثالَكم، أي: نَجعَلَ أمْثالَكم بدَلًا، وفِعلُ (بدَّل) يَنصِبُ مَفعولًا واحدًا، ويَتعدَّى إلى ما هو في معْنى المفعولِ الثَّاني بحرْفِ الباءِ -وهو الغالبُ- أو بـ (مِن) البَدليَّةِ؛ فإنَّ مَفعولَ (بدَّلَ) صالحٌ لأنْ يكونَ مُبدَلًا ومُبدَلًا منه، فالتَّقديرُ هنا: على أنْ نُبدِّلَ منكم أمثالَكم، فحُذِفَ مُتعلَّقُ (نُبدِّل) وأُبقِيَ المفعولُ؛ لأنَّ المجرورَ أَوْلَى بالحَذْفِ. ويجوزُ أنْ يُفيدَ معْنى التَّهديدِ بالاستِئصالِ، أي: لو شِئْنا استِئصالَكم لَما أعْجزْتُمونا؛ فيَكونَ إدماجًا للتَّهديدِ في أثناءِ الاستدلالِ[2].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٦، ٣١٧).

- قولُه: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عُطِفَ بالواوِ دونَ الفاءِ؛ لأنَّه بمُفردِه تَصويرٌ لقُدرةِ اللهِ تعالى وحِكمتِه بعْدَ ما أفادَهُ قولُه: ﴿أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ مِن إثباتِ أنَّ اللهَ قادرٌ على البعثِ(١).

- و(ما) في قولِه: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ صادِقةٌ على الكَيفيَّةِ أو الهيئةِ الَّتي يَتكيَّفُ بها الإنشاءُ، أي: في كَيفيَّةٍ لا تَعلَمونها؛ إذ لم تُحِيطوا عِلمًا بخَفايا الخِلْقةِ، وهذا الإجمالُ جامِعٌ لجَميعِ الصُّوَرِ الَّتي يَفرِضُها الإمكانُ في بَعثِ الأجسادِ لإيداعِ الأرواحِ(٢).

- والظَّرفيَّةُ المُستفادةُ مِن (في) معْناها قوَّةُ المُلابَسةِ الشَّبيهةِ بإحاطةِ الظَّرفِ بالمَظروفِ؛ كقولِه: ﴿فَعَدَلَكَ * فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾(٣) [الانفطار: ٧، ٨].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أُعقِبَ دَليلُ إمكانِ البعثِ المُستنِدِ للتَّنبيهِ على صَلاحيةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ لذلك، ولسَدِّ مَنافذِ الشُّبهةِ -بدَليلٍ مِن قِياسِ التَّمثيلِ(٤)، وهو تَشبيهُ النَّشأةِ الثَّانيةِ بالنَّشأةِ الأُولى المَعلومةِ عندَهم بالضَّرورةِ، فنُبِّهوا ليَقِيسوا عليها النَّشأةَ الثَّانيةَ في أنَّها إنشاءٌ مِن أثَرِ قُدرةِ اللهِ وعِلمِه، وفي أنَّهم لا يُحيطون عِلمًا بدَقائقِ حُصولِها(٥).

- ولَمَّا كان عِلمُهم بالنَّشأةِ الأُولَى كافيًا لهم في إبطالِ إحالتِهم النَّشأةَ الثَّانيةَ، رُتِّبَ عليه مِن التَّوبيخِ ما لم يُرتَّبْ مِثلُه على قولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٨).

أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، فقال: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، أي: هلَّا تَذكَّرْتم بذلك، فأمسَكْتُم عن الجحْدِ؟! وهذا تَجهيلٌ لهم في تَرْكِهم قِياسَ الأشباهِ على أشْباهِها[١].

- وجِيءَ بالمضارعِ في قولِه: ﴿تَذَكَّرُونَ ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ بابَ التَّذكُّرِ مَفتوحٌ، فإنْ فاتَهُم التَّذكُّرُ فيما مَضى فلْيَتدارَكوه الآنَ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٢-٧٤)

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حُطَٰمًا﴾: أي: فُتاتًا مُكَسَّرًا، مِن تحطَّمَ العُودُ: إذا تفتَّت مِن اليُبْسِ، وأصلُ (حطم): يدُلُّ على كَسرِ الشَّيءِ[١].

﴿تَفَكَّهُونَ﴾: أي: تَنْدَمونَ. وقيلَ: تَتعَجَّبونَ مِمَّا نَزَل بزَرْعِكم[٢].

﴿لَمُغْرَمُونَ﴾: أي: مُعَذَّبونَ؛ مِنَ الغَرامِ: وهو أشَدُّ العَذابِ. وقيل: أي: غَرِمْنا أموالَنا وصار ما أنفَقْنا غُرْمًا علينا، والمُغْرَمُ: الَّذي ذَهَب مالُه بغَيرِ عِوَضٍ، وأصلُ (غرم): يدُلُّ على مُلازَمةٍ[٣].

﴿ٱلْمُزْنِ﴾: أي: السَّحابِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٨)، =

﴿أُجَاجًا﴾: أي: شَديدَ المُلوحةِ، وأصلُ (أجج): يدُلُّ على الشِّدَّةِ[١].

﴿تُورُونَ﴾: أي: تَستَخرِجونَ، يُقالُ: وَرَى الزَّنْدُ (أي: العودُ الَّذي تُقدَحُ به النَّارُ) يَرِي وَرْيًا: خَرَجَت نارُه[٢].

﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾: أي: مَنْفَعةً للمُسافِرينَ، والمُقْوِي: الَّذي يَنزِلُ بالقَوَاءِ: وهي الأرضُ الخاليةُ. وقيل: هم الَّذين لا زادَ معهم ولا مالَ لهم؛ مِن قَولِهم: أقْوَتِ الدَّارُ، أي: خَلَت، فالمُقْوِي: الخالي مِنَ الزَّادِ، وأصلُ (قوي) هنا: يدُلُّ على قِلَّةِ خَيرٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى دليلًا آخَرَ على صحَّةِ البعثِ وإمكانيَّتِه، وعلى كمالِ قدرتِه، وهو الدَّليلُ الثَّاني، فيقولُ: أفرأيتُمُ البَذْرَ الَّذي تَحرُثونَ له الأرضَ، فتُلْقونَه فيها لِيَنبُتَ؟ أأنتُم تُصَيِّرونَ ذلك البَذْرَ زَرْعًا أمْ نحن؟ لو نَشاءُ لصَيَّرْنا ذلك الزَّرْعَ مُتفَتِّتًا يابِسًا، فبَقِيتُم نادِمينَ مُتعَجِّبينَ مِن هَلاكِه، فتَقولونَ: إنَّا لَمُعَذَّبونَ، بل نحن مَحرومونَ!

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

ثمَّ يذكرُ الدَّليلَ الثَّالثَ، فيقولُ: أفرأيتُمُ الماءَ العَذْبَ الَّذي تَشرَبونَ؟ أأنتم أنزَلْتُموه مِنَ السَّحابِ أمْ نحن المُنزِلونَ؟ لو نَشاءُ جَعَلْنا ذلك الماءَ العَذْبَ مِلْحًا شَديدَ المَرارةِ، فهلَّا تَشكُرونَ اللهَ تعالى!

ثمَّ يذكرُ الدَّليلَ الرَّابعَ، فيقولُ: أفرأيتُمُ النَّارَ الَّتي تَستَخرِجونَها مِنَ الشَّجَرِ؟ أأنتُم أنشَأْتُم تلك الشَّجَرةَ الَّتي تَخرُجُ منها النَّارُ، أمْ نحن الَّذين أنشَأْناها بقُدْرتِنا؟ نحن جعَلْنا تلك النَّارَ تَذكيرًا للنَّاسِ بنارِ جَهنَّمَ، ومَنفَعةً للمُسافِرينَ؛ فنَزِّهْ ربَّك العَظيمَ -يا مُحمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها انتِقالٌ إلى دليلٍ آخَرَ على إمكانِ البَعثِ، وصلاحيَةِ قُدرةِ اللهِ له، بضَربٍ آخَرَ مِن ضُروبِ الإنشاءِ بعدَ العَدَمِ[1].

وأيضًا فمُناسَبةُ الانتقالِ مِن الاستِدلالِ بخَلقِ النَّسلِ إلى الاستِدلالِ بنَباتِ الزَّرعِ: هي التَّشابُه البَيِّنُ بيْنَ تكوينِ الإنسانِ وتكوينِ النَّباتِ؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[2] [نوح: ١٧].

وأيضًا لَمَّا كان عِلْمُهم بأمرِ النَّباتِ -الَّذي هو الآيةُ العظمى لإعادةِ الأمواتِ- أعظَمَ مِن عِلْمِهم بجَميعِ ما مضى، وكان أمرُه في الحَرثِ وإلقاءِ البَذرِ فيه أشبَهَ شَيءٍ بالجِماعِ وإلقاءِ النُّطفةِ -ولذلك سُمِّيَت المرأةُ حَرثًا-؛ وصل بما مضى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٢٠).

مُسَبِّبًا عنه قَولَه، مُنكِرًا عليهم[١]:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: أفرأيتُمُ البَذْرَ الَّذي تَشُقُّون له الأرضَ وتُثيرونَها، فتُلْقونَه فيها لِيَنبُتَ[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانوا لا يَدَّعُونَ القُدرةَ على الإنباتِ بوَجهٍ، وكان القادِرُ عليه قادِرًا على كُلِّ شَيءٍ، وهم يَعتَقِدونَ في أمرِ البَعثِ ما يُؤَدِّي إلى الطَّعنِ في قُدرتِه- كَرَّر الإنكارَ عليهم، فقال تعالى[٣]:

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: أأنتُم تُصَيِّرونَ ذلك البَذْرَ زَرْعًا، أم نحن الَّذين أنبَتْناه بقُدرَتِنا[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٤٣).

﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الجوابُ قَطْعًا: «أنت الفاعِلُ لذلك وَحْدَك» قال مُوَضِّحًا -لأنَّه ما زَرَعَه غَيرُه- بأنَّ الفاعِلَ الكامِلَ هو مَن يَدفَعُ عَمَّا صَنَعَه ما يُفسِدُه، ومَن إذا أراد إفسادَه لم يَقدِرْ أحَدٌ على مَنْعِه[1]:

﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾.

أي: لو نَشاءُ لَصَيَّرْنا ذلك الزَّرْعَ -الَّذي أنبَتْناه- هَشيمًا يابِسًا، فلا تَنتَفِعونَ به[2]!

﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾.

أي: فبَقِيتُم نادِمينَ مُتعَجِّبينَ مِن هَلاكِ زَرْعِكم، قد زال عنكم السُّرورُ والمَرَحُ[3]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: لو نَشاءُ لَجعَلْنا ما يَنبُتُ بعدَ خُروجِه مِنَ الأرضِ حُطامًا، بأن نُسَلِّطَ عليه ما يُحَطِّمُه مِن بَردٍ أو رِيحٍ أو حَشَراتٍ قبْلَ أن تَنتَفِعوا به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥).

﴿فَظَلۡتُمۡ﴾ أصلُه فظللْتُم، حُذِفتْ إحدى اللامينِ تخفيفًا. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧).

قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ بمعنى: تَنْدَمونَ على ما خَسِرْتُم مِنَ الإنفاقِ عليه، كقَولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]. وقال بعضُ العلماءِ: تَنْدَمونَ على مَعصيةِ اللهِ الَّتي كانت سَبَبًا لتَحطيمِ زَرْعِكم. والأوَّلُ مِنَ الوَجهَينِ في سَبَبِ النَّدَمِ هو الأظهَرُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٩).

وقال ابنُ عثيمين: (أي: تَتفَكَّهونَ بالكلامِ، تُريدونَ أن تُذهِبوا الحُزْنَ عنكم، فتَقولونَ: ﴿إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ﴾ أي: لَحِقَنا الغُرمُ بهذا الزَّرعِ الَّذي صار حُطامًا، ثمَّ تَستأنِفون فتَقولون: ﴿بَلۡ نَحۡنُ =

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تَفَكُّهَهم، وكان التَّفَكُّهُ يُطلَقُ على التَّعَجُّبِ والتَّنَدُّمِ، وعلى التَّنَعُّمِ؛ بَيَّن المرادَ بقَولِه حِكايةً لتفَكُّهِهم(١):

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: فتَقولونَ: إنَّا لَمُعَذَّبونَ(٢)!

= مَحْرُومُونَ﴾). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

قال ابنُ عطيَّة: (المعنى: يحتَمِلُ أن يكونَ: إنَّا لَمُعَذَّبونَ؛ مِنَ الغَرامِ: وهو أَشَدُّ العَذابِ... ويحتَمِلُ أن يكونَ: إنَّا لَمُحَمَّلونَ الغُرْمَ، أي: غَرِمْنا في النَّفَقةِ، وذَهَب زَرْعُنا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٩).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: الفرَّاءُ، وأبو عُبَيْدَةَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٢٩)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥١٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢١٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٠).

قال الواحدي: (كأنَّهم ذهبوا إلى أنَّهم عُذِّبوا بذَهابِ أموالِهم). ((البسيط)) (٢١/ ٢٥٢).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير الشوكاني)) =

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: إنَّما نحن مَحرومونَ مِن مَنفَعةِ زَرْعِنا، وحُصولِ خَيْرِه، فلا حَظَّ لنا فيه[١]!

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى نِعمَتَه على عِبادِه بالطَّعامِ؛ ذكَرَ نِعمتَه عليهم بالشَّرابِ العَذْبِ الَّذي منه يَشرَبونَ[٢].

وأيضًا فهذا انتِقالٌ إلى دليلٍ آخَرَ على إمكانِ البعثِ وصَلاحيةِ قُدرةِ اللهِ له، بضَرْبٍ آخَرَ مِن ضُروبِ الإنشاءِ بعْدَ العدَمِ، ومُناسبةُ الانتِقالِ أنَّ الحرْثَ إنَّما يَنبُتُ زَرْعُه وشَجرُه بالماءِ، فانتُقِلَ مِن الاستِدلالِ بتَكوينِ النَّباتِ إلى الاستِدلالِ بتَكوينِ الماءِ الَّذي به حياةُ الزَّرعِ والشَّجرِ[٣].

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: أفرأيتُمُ الماءَ العَذْبَ الَّذي تَشرَبونَ منه[٤]؟

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: أأنتُم الَّذين أنزَلْتُم هذا الماءَ مِنَ السَّحابِ إلى الأرضِ، أم نحن المُنزِلونَ

= (٥/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٤٣). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٣).

له بقُدْرتِنا[١]؟

﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ٧٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الجَوابُ عمَّا سَبقَ: «أنتَ وَحْدَك فعَلْتَ ذلك، على غِناكَ عن الخَلْقِ بما لك مِنَ الرَّحمةِ وكَمالِ الذَّاتِ والصِّفاتِ»؛ قال مُذَكِّرًا بنِعمةٍ أُخرى[٢]:

﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾.

أي: لو نَشاءُ جَعَلْنا ذلك الماءَ العَذْبَ مِلْحًا شَديدَ المَرارةِ؛ فلا يُمكِنُكم شُربُه، والانتِفاعُ به[٣]!

﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾.

أي: فهلَّا تَشكُرونَ اللهَ الَّذي رزَقَكم الماءَ العَذْبَ الزُّلالَ[٤]!

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ٧١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٣).

قال ابنُ عطيَّة: (المُزْنُ: السَّحابُ، بلا خِلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٩).

وقال البِقاعي: (أي: السَّحابِ المَملوءِ المَمدوحِ الَّذي شأنُه الإسراعُ في المُضِيِّ. وقال الأصبهاني: وقيل: السَّحابُ الأبيَضُ خاصَّةً، وهو أعذَبُ ماءً). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

انتَقَلَ اللهُ تعالى إلى أمرٍ ثالثٍ يُصْلَحُ به الطَّعامُ والشَّرابُ، وهو النَّارُ[١].

وأيضًا مُناسَبةُ الانتِقالِ مِن الاستِدلالِ بخَلقِ الماءِ إلى الاستِدلالِ بخَلقِ النَّارِ: هي ما تقدَّمَ في مناسَبةِ الانتِقالِ إلى خَلقِ الماءِ مِن الاستِدلالِ بخَلقِ الزَّرعِ والشَّجَرِ؛ فإنَّ النَّارَ تَخرُجُ مِن الشَّجَرِ بالاقتِداحِ، وتُذْكَى بالشَّجَرِ في الاشتِعالِ والالتِهابِ، وهذا استِدلالٌ على تقريبِ كَيفيَّةِ الإحياءِ للبَعثِ؛ مِن حَيثُ إنَّ الاقتِداحَ إخراجٌ، والزَّندُ الَّذي به إيقادُ النَّارِ يَخرُجُ مِن أعوادِ الاقتداحِ، وهي مَيِّتةٌ[٢]!

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾.

أي: أفرأيتُم النَّارَ الَّتي تَستَخرِجونَها مِنَ الشَّجَرِ بالاقتِداحِ، وتُوقِدونَها[٣]؟

﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: أأنتُم أنشَأْتُم الشَّجَرةَ الَّتي تَخرُجُ منها النَّارُ، أم نحن الَّذين أنشَأْناها بقُدْرتِنا[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٥، ٥٣٦).

قال ابنُ عاشور: (شَجَرةُ النَّارِ: هي جِنسُ الشَّجَرِ الَّذي فيه حُرَّاقٌ، أي: ما يُقتَدَحُ منه النَّارُ، وهو شَجرُ الزَّنْدِ أو الزِّنَادِ، وأشجارُ النَّارِ كَثيرةٌ؛ منها: المَرْخُ -بفَتحٍ فسُكونٍ-، والعَفَارُ -بفَتحِ العَينِ- ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٥).

وقال ابن عثيمين: (وشجرةُ النَّارِ هي شجرٌ معروفٌ في الحجازِ، ورُبَّما يكونُ معروفًا غيره، يُسمَّى المَرْخَ والعَفَارَ، وهذا الشَّجرُ له خاصيَّةٌ إذا ضُرِب بالمَرْو أو بشَيءٍ يَنقدِحُ مع المُماسَّةِ، اشتعَل =

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٠].

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الجوابُ عمَّا سَبقَ قَطْعًا: «أنتَ وَحْدَك»، قال دالًّا على ذلك؛ تنبيهًا على عِظَمِ هذا الخَبَرِ[(١)]:

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾.

أي: نحن جعَلْنا تلك النَّارَ تَذكيرًا للنَّاسِ بنارِ جَهنَّمَ، فيَعتَبِرونَ ويَنزَجِرونَ خَوفًا منها[(٢)].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِي الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نارُكم جُزءٌ مِن سَبعينَ جُزءًا مِن نارِ جَهنَّمَ! قيلَ: يا رَسولَ اللهِ: إنْ كانت لَكافيةً! قال: فُضِّلَت عليهِنَّ بتِسعةٍ وسِتِّينَ جُزءًا، كُلُّهنَّ مِثلُ حَرِّها))[(٣)].

﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾.

أي: وجعَلْنا نارَ الدُّنيا مَنفَعةً للمُسافِرينَ؛ في الطَّبخِ، والتَّدفِئةِ، والاستِضاءةِ،

= نارًا يوقَدُ منه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٤، ٣٤٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٣٦)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٦).

(٣) رواه البخاري (٣٢٦٥) واللفظ له، ومسلم (٢٨٤٣).

وغيرِ ذلك[١].

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن مِن نِعَمِه ما يُوجِبُ الثَّناءَ عليه مِن عِبادِه، وشُكرَه وعبادتَه؛ أمرَ بتَسبيحِه وتحميدِه[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ المكَذِّبينَ بالحَشرِ والوحدانيَّةِ، وذكَرَ الدَّليلَ عليهما بالخَلقِ والرِّزقِ، ولم يُفِدْهم الإيمانُ؛ قال لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ وظيفتَك أن تَكمُلَ في نفْسِك، وهو عِلمُك برَبِّك، وعَمَلُك لرَبِّك؛ فسَبِّحْ باسمِ رَبِّك[٣].

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾.

أي: فنَزِّهْ ربَّك المتَّصِفَ بكَمالِ العَظَمةِ -يا مُحمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، قائِلًا: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ[٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ، يَجِبُ على كُلِّ إنسانٍ

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٨)، ((ياقوتة الصراط)) لغلام ثعلب (ص: ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣١، ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٥).

أن يَنظُرَ في هذا البُرهانِ الَّذي دَلَّت عليه هذه الآيةُ الكريمةُ؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ وعلا وَجَّه في كتابِه صِيغةَ أمرٍ صَريحةً عامَّةً في كُلِّ ما يَصدُقُ عليه مُسَمَّى الإنسانِ بالنَّظَرِ في هذا البُرهانِ العَظيمِ المتضَمِّنِ للامتِنانِ لأعظَمِ النِّعَمِ على الخَلقِ، ولِلدَّلالةِ على عَظَمةِ اللهِ وقُدرتِه على البَعثِ وغَيرِه، وشِدَّةِ حاجةِ خَلْقِه إليه -مع غِناه عنهم-؛ وذلك قَولُه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢]. والمعنى: انظُرْ -أيُّها الإنسانُ الضَّعيفُ- إلى طعامِك، كالخُبزِ الَّذي تأكُلُه ولا غِنى لك عنه: مَنِ الَّذي خَلَق الماءَ الَّذي صار سَبَبًا لإنباتِه؟ هل يَقدِرُ أحَدٌ غيرُ اللهِ على خَلقِ الماءِ، أي: إبرازِه مِن أصلِ العَدَمِ إلى الوُجودِ؟ ثمَّ هَبْ أنَّ الماءَ خُلِقَ، هل يَقدِرُ أحَدٌ غيرُ اللهِ أن يُنزِلَه على هذا الأُسلوبِ الهائِلِ العَظيمِ الَّذي يَسقي به الأرضَ مِن غَيرِ هَدْمٍ ولا غَرَقٍ؟ ثمَّ هَبْ أنَّ الماءَ نَزَل في الأرضِ، مَن الَّذي يَقدِرُ على شَقِّ الأرضِ عن مَسارِ الزَّرعِ؟ ثمَّ هَبْ أنَّ الزَّرعَ طَلَع، فمَن الَّذي يَقدِرُ على إخراجِ السُّنبُلِ منه؟ ثمَّ هَبْ أنَّ السُّنبُلَ خَرَج منه، فمَن الَّذي يَقدِرُ على إنباتِ الحَبِّ فيه وتَنميتِه حتَّى يُدرَكَ صالِحًا للأكلِ[1]؟!

٢- النَّارُ مِن أكبرِ الماعونِ، وأعظمِ المنافعِ والمرافقِ، ولو لم يكُنْ فيها إلَّا أنَّ الله تعالى جعَلها الزَّاجرةَ عن المعاصي، لكان في ذلك ما يزيدُ في قدرِها ونباهةِ ذِكرِها، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾، فالعاقِلُ المعتبِرُ إذا تأمَّل قولَه تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ تصوَّر ما فيها مِن النِّعَمِ أوَّلًا ومِن

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٨، ٢١٩).

النِّقَم آخرًا[١]، فقولُه: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ أي: نذكِّرُ النَّاسَ بها في دارِ الدُّنيا -إذا أحسُّوا شدَّةَ حرارتِها- نارَ الآخرةِ، الَّتي هي أشدُّ منها حرًّا؛ ليَنزَجِروا عن الأعمالِ المقتضيةِ لدُخولِ النَّارِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ دَلالةٌ على إباحةِ الزَّرعِ، مِن جِهةِ الامتِنانِ به[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذا يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى هو الزَّارِعُ، فكيف قال تعالى: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩]؟

الجَوابُ: قد ثَبَت مِنَ التَّفسيرِ أنَّ الحَرْثَ مُتَّصِلٌ بالزَّرعِ؛ فالحَرثُ أوائِلُ الزَّرعِ، والزَّرعُ أواخِرُ الحَرْثِ، فيَجوزُ إطلاقُ أحَدِهما على الآخَرِ، لكِنْ قَولُه: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بدَلًا عن قَولِه: «يُعجِبُ الحُرَّاثَ» يدُلُّ على أنَّ الحارِثَ إذا كان هو المُبتدئَ فرُبَّما يَتعَجَّبُ بما يترتَّبُ على فِعْلِه مِن خُروجِ النَّباتِ، والزَّارِعُ لَمَّا كان هو المُنتهيَ، ولا يُعجِبُه إلَّا شَيءٌ عَظيمٌ؛ فقال: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ الَّذين تعَوَّدوا أخْذَ الحِرَاثِ، فما ظَنُّك بإعجابِه الحُرَّاثَ[٤]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ أنَّه يُوصَفُ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنَّه الزَّارِعُ؛ ولا يُسمَّى به[٥].

---

(١) يُنظر: ((الأزمنة والأمكنة)) للمرزوقي (ص: ٥٣٥)، ويُنظر أيضًا: ((الحيوان)) للجاحظ (٤/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٠).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١١٩).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على ما لا يَفعَلُه؛ فإنَّه أخبرَ أنَّه لو شاء جَعَلَ الماءَ أُجاجًا، وهو لم يَفعَلْه، ومِثْلُ هذا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ [البقرة: ٢٥٣]؛ فإنَّه أخبرَ في غيرِ مَوضعٍ أنَّه لو شاء لَفَعَل أشياءَ، وهو لم يَفعَلْها، فلو لم يكُنْ قادِرًا عليها لَكان إذا شاءَها لم يُمكِنْ فِعلُها[1]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أنَّ جَميعَ الماءِ السَّاكِنِ في الأرضِ، النَّابِعِ مِن العُيونِ والآبارِ ونَحوِ ذلك: أنَّ أصْلَه كُلَّه نازِلٌ مِنَ المُزْنِ، وأنَّ اللهَ أسكَنَه في الأرضِ، وخَزَنَه فيها لخَلْقِه[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أنَّه لو شاء تعالى لجَعَل الماءَ غيرَ صالحٍ للشُّرْبِ، وقد جاء مَعناه في آياتٍ أُخَرَ؛ كقَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠]، وقَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]؛ لأنَّ الذَّهابَ بالماءِ، وجَعْلَه غَورًا لا يُوصَلُ إليه، وجَعْلَه أُجاجًا: كُلُّ ذلك في المعنى سَواءٌ، بجامِعِ عَدمِ تأتِّي شُربِ الماءِ، وهذه الآياتُ المذكورةُ تدُلُّ على شِدَّةِ حاجةِ الخَلْقِ إلى خالِقِهم كما ترى[3].

٧- قولُه تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ استِدلالٌ مِن اللهِ سُبحانه بأنَّه قادرٌ على نقْضِ ما في الماءِ مِن الصَّلاحيةِ للنَّفْعِ بعْدَ وُجودِ صُورةِ المائيَّةِ فيه؛ تَكملةً

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لدَليلِ إمكانِ البعثِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه لم يَقُلْ عندَ ذِكرِ الطَّعامِ «الشُّكْرَ»؛ وذلك لأوجُهٍ:

أحَدُها: أنَّه لم يَذكُرْ في المأكولِ أكْلَهم، فلمَّا لم يَقُلْ: «تأكُلونَ» لم يَقُلْ: «تَشكُرونَ»، وقال في الماءِ: ﴿تَشۡرَبُونَ﴾ فقال: ﴿تَشۡكُرُونَ﴾.

الثَّاني: أنَّ في المأكولِ قال: ﴿تَحۡرُثُونَ﴾ فأثبَتَ لهم سَعيًا، فلم يَقُلْ: «تَشكُرونَ»، وقال في الماءِ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ﴾ لا عَمَل لكم فيه أصلًا، فهو مَحْضُ النِّعْمةِ؛ فقال: ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾.

ثالِثُها -وهو الأحسَنُ-: أن يُقالَ: النِّعمةُ لا تَتِمُّ إلَّا عندَ الأكلِ والشُّربِ؛ ألَا ترى أنَّ في البَراريِّ -الَّتي لا يُوجَدُ فيها الماءُ- لا يأكُلُ الإنسانُ شَيئًا مخافةَ العَطَشِ؟ فلمَّا ذَكَر المأكولَ أوَّلًا وأتَمَّه بذِكرِ المَشروبِ ثانيًا، قال: ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ على هذه النِّعمةِ التَّامَّةِ[٢]؟!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ * ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾ بُطلانُ مَقولةِ: «أنَّ الأسبابَ مُؤَثِّرةٌ بطبائِعها، بمُقتضى طَبيعتِها، مُؤثِّرةٌ بذاتِها»؛ فالحَجَرُ هو الَّذي كَسَرَ الزُّجاجةَ بنَفْسِه وبطَبيعتِه، والنَّارُ هي الَّتي أحرَقَتِ الوَرَقَ بنَفْسِها! وهذا القولُ باطلٌ بدَلالةِ الواقعِ ودَلالةِ الشَّرعِ، وهو نَوعٌ مِن الشِّركِ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ اعتقادَ أنَّ شيئًا ما يُؤَثِّرُ في الشَّيءِ الآخَرِ بنَفْسِه دونَ اللهِ: هذا شَيءٌ مِن الشِّركِ لا شكَّ فيه.

ووَجهُ بُطلانِه مِن الشَّرعِ قولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢١، ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٢).

ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ﴾، فبَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الَّذي أَنْشَأَ شَجَرةَ النَّارِ -الَّتي تَنقَدِحُ بها النَّارُ- هو اللهُ عزَّ وجلَّ، وبَيَّنَ أنَّه جَعَلَها مَتاعًا للمُقْوِينَ، وتَذكِرةً للمُتَّقينَ.

وأمَّا الواقعُ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قال للنَّارِ الَّتي أُلقِيَ فيها إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ﴿ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فكانت[١].

١٠- إنَّ بَرَكةَ الاسمِ تابعةٌ لبَرَكةِ المُسمَّى؛ فقَولُه تعالى: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ دَليلٌ على الأمرِ بتَسبيحِ الرَّبِّ بطَريقِ الأَولى؛ فإنَّ تَنزيهَ الاسمِ مِن توابِعِ تَنزيهِ المُسمَّى[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ أنَّهم أثبَتوا أَلِفَ الوَصلِ هنا في «باسمِ رَبِّك»؛ لأنَّه لم يَكثُرْ دَورُه كَثْرَتَه في البَسمَلةِ، وحَذَفوه منها؛ لكَثرةِ دَورِها، وهم شأنُهم الإيجازُ وتقليلُ الكثيرِ إذا عُرِفَ مَعناه، وهذا مَعروفٌ لا

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٥/ ٤٨٣).
قال ابن عثيمين: (النَّاسُ في الأسبابِ طرَفانِ ووسَطٌ:
فالطَّرَفُ الأوَّلُ: نُفاةٌ أنكَروا تأثيرَ الأسبابِ، وجعَلوها مجرَّدَ علاماتٍ يَحصُلُ الشَّيءُ عندَها، لا بها، حتَّى قالوا: إنَّ انكِسارَ الزُّجاجةِ بالحجَرِ إذا رمَيْتَها به حصَل عندَ الإصابةِ، لا بها! وهؤلاء خالَفوا السَّمْعَ، وكابَروا الحِسَّ، وأنكَروا حِكمةَ الله تعالى في ربطِ المُسبَّباتِ بأسبابِها.
والطَّرَفُ الثَّاني: غُلاةٌ أثبَتوا تأثيرَ الأسبابِ، لكنَّهم غَلَوْا في ذلك وجعَلوها مؤَثِّرةً بذاتِها! وهؤلاء وقَعوا في الشِّركِ، حيث أثبَتوا مُوجِدًا مع الله تعالى، وخالَفوا السَّمعَ والحِسَّ...
وأمَّا الوسَطُ: فهم الَّذين هُدُوا إلى الحقِّ، وتوَسَّطوا بيْن الفريقَينِ، وأخَذوا بما مع كلِّ واحدٍ منهما مِن الحقِّ، فأثبَتوا للأسبابِ تأثيرًا في مُسَبَّباتِها، لكنْ لا بذاتِها، بل بما أودَعه اللهُ تعالى فيها مِن القُوَى المُوجِبةِ، وهؤلاء هم الطَّائفةُ الوسَطُ الَّذين وُفِّقوا للصَّوابِ، وجمَعوا بيْن المَنقولِ والمعقولِ والمحسوسِ). ((تقريب التدمرية)) (ص: ٩٨). ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٧).

يُجهَلُ، وإثباتُ ما أُثبِتَ مِن أشكالِه مِمَّا لا يَكثُرُ: دَليلٌ على الحَذفِ منه؛ ولذا لا تُحذَفُ مع غيرِ الباءِ في «اسمِ اللهِ»، ولا مع الباءِ في غيرِ الجلالةِ الكريمةِ مِن الأسماءِ[1].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ سُؤالٌ: ما الفائدةُ في دُخولِ الباءِ في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، ولم تَدخُلْ في قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]؟

الجوابُ: التَّسبيحُ يُرادُ به التَّنزيهُ والذِّكْرُ المُجَرَّدُ دونَ مَعنًى آخَرَ، ويُرادُ به ذلك مع الصَّلاةِ، وهو ذِكْرٌ وتَنزيهٌ مع عَمَلٍ؛ ولهذا تُسَمَّى الصَّلاةُ تَسبيحًا، فإذا أُريدَ التَّسبيحُ المُجَرَّدُ فلا مَعنى للباءِ؛ لأنَّه لا يَتعدَّى بحَرفِ جَرٍّ، لا تَقولُ: سَبَّحْتُ باللهِ، وإذا أردتَ المقرونَ بالفِعلِ -وهو الصَّلاةُ- أدْخَلتَ الباءَ؛ تنبيهًا على ذلك المرادِ، كأنَّك قُلتَ: سَبِّحْ مُفتَتِحًا باسمِ ربِّك، أو ناطِقًا باسمِ ربِّك، كما تَقولُ: صَلِّ مُفتَتِحًا أو ناطِقًا باسمِه؛ ولهذا السِّرِّ -واللهُ أعلمُ- دَخَلتِ اللَّامُ في قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، والمرادُ: التَّسبيحُ الَّذي هو السُّجودُ والخُضوعُ والطَّاعةُ، ولم يَقُلْ في مَوضِعٍ: سَبَّحَ اللهَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]. وتأمَّلْ قَولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] كيف قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ لَمَّا ذَكَرَ السُّجودَ باسمِه الخاصِّ، فصار التَّسبيحُ ذِكْرَهم له، وتَنزيهَهم إيَّاه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٢).

قال النووي: (قال الكُتَّابُ مِن أهلِ العربيَّةِ: إذا قيل: «باسمِ الله» تعَيَّنَ كَتْبُه بالألِفِ، وإنَّما تُحذَفُ الألِفُ إذا كتب «بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيم» بكمالِها). ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٠).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ دَلالةٌ على أنَّه مأمورٌ بالذِّكرِ اللِّسانيِّ، وليس له أن يَقتَصِرَ على الذِّكرِ القَلبيِّ[1]! ففائِدةُ ذِكْرِ الاسم هي أنْ يكونَ التَّسبيحُ باللِّسانِ؛ إذْ لا يُمكِنُ تَسبيحُ اللهِ تعالى باللِّسانِ إلَّا بذِكرِ اسمِه، أمَّا إذا لم تَذْكُرِ اسمَ اللهِ فإنَّ التَّسبيحَ يكونُ بالقَلبِ؛ ولهذا تقولُ: «سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ»، «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه»، «سُبحانَ اللهِ العَظيمِ» تَذْكُرُ الاسمَ، ففائدةُ ذِكْرِ الاسمِ هنا عَظيمةٌ جِدًّا؛ لئلَّا يَقتَصِرَ الإنسانُ على التَّسبيحِ بقَلبِه، الَّذي لا يَظْهَرُ معه الاسمُ[2].

١٤- قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ وهذه الأربعةُ الَّتي ذكَرها الله تعالى ووقَفهم عليها -مِن أمرِ خلقِهم وما به قوامُ عيشِهم مِن المطعومِ والمشروبِ والنَّارِ- مِن أعظمِ الدَّلائلِ على البعثِ، وفيها انتِقالٌ مِن شيءٍ إلى شيءٍ، وإحداثُ شيءٍ مِن شيءٍ، ولذلك أمر في آخرها بتنزيهِه تعالَى عمَّا يقولُ الكافِرونَ، ووَصَف تعالَى نفْسَه بالعظيمِ، فقال: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ إذ مَن هذه أفعالُه تدُلُّ على عَظَمتِه وكبريائِه وانفرادِه بالخلقِ والإنشاءِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ * ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ الفاءُ لتَفريعِ ما بعْدَها على جُملةِ ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧]، كما فُرِّع عليه قولُه: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨]؛ لِيَكونَ الغرَضُ مِن هذه الجُمَلِ مُتَّحِدًا، وهو الاستِدلالُ على إمكانِ البعثِ، فقُصِدَ تَكريرُ الاستِدلالِ وتَعدادُه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٠).

بإعادةِ جُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾، وإنْ كان مَفعولُ فِعلِ الرُّؤيةِ مُختلِفًا. وإنْ شِئتَ جعَلْتَ الفاءَ لتَفريعِ مُجرَّدِ استدلالٍ على استدلالٍ، لا لتَفريعِ معْنى مَعطوفِها على معْنى المعطوفِ عليه، على أنَّه لَمَّا آلَ الاستِدلالُ السَّابقُ إلى عُمومِ صَلاحيةِ القدرةِ الإلهيَّةِ، جاز أيضًا أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مُرادًا بها تَمثيلٌ بنَوعٍ عَجيبٍ مِن أنواعِ تَعلُّقاتِ القدْرةِ بالإيجادِ دونَ إرادةِ الاستِدلالِ على خُصوصِ البعثِ؛ فيَصِحُّ جَعْلُ الفاءِ تَفريعًا على جُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾، مِن حيثُ إنَّها اقتَضَت سَعةَ القدْرةِ الإلهيَّةِ[١].

- وجُملةُ ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ...﴾ إلخ بَيانٌ لجُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾[٢].

- والاستِفهامُ في ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ للتَّقريرِ[٣].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿ءَأَنتُمْ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ لإفادةِ التَّقَوِّي؛ لأنَّهم لَمَّا نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَزعُمُ ذلك، صِيغَت جُملةُ نَفْيِه بصِيغةٍ دالَّةٍ على زَعْمِهم تَمكُّنَ إنباتِ ما يَحرُثون[٤].

- ونفْيُ الزَّرعِ عنهم وإثباتُه للهِ تعالى يُفيدُ معْنى قَصْرِ الزَّرعِ -أي: الإنباتِ- على اللهِ تعالى، أي: دُونَهم، وهو قصْرُ مُبالَغةٍ[٥]؛ لعدَمِ الاعتِدادِ بزَرعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣١٤، ٣٢١).

(٥) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ =

النَّاسِ[(١)].

وقيلَ: أضافَ الحرْثَ إليهم، والزَّرعَ إليه تَعالى؛ لأنَّ الحرْثَ فِعْلُهم، ويَجْري على اختِيارِهم، والزَّرعَ مِن فِعلِ اللهِ تَعالى، ويَنبُتُ على اختِيارِه لا على اختِيارِهم[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾

- جُملةُ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ مَوقِعُها كمَوقِعِ جُملةِ ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠] في أنَّها استِدلالٌ مِن اللهِ سُبحانَه بإفْنائِه ما أوجَدَه

= الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكور منزلةَ العدَمِ، وقصْر الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعِرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و (٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٧، ٢١٨).

على انفرادِه بالتَّصرُّفِ إيجادًا وإعدامًا؛ تَكمِلةً لدَليلِ إمكانِ البَعثِ[١].

- ودخَلَتِ اللامُ على جَوابِ (لَوْ) في قولِه: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، ونُزِعَتْ مِن قولِه: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾؛ لِوُجوهٍ: الوجْهُ الأولُ: ذكَرَ في جَوابِ (لو) في الزَّرعِ اللَّامَ عمَلًا بالأصلِ، وحذَفَها منه في الماءِ اختصارًا؛ لدَلالةِ الأوَّلِ عليه. الوجْهُ الثَّاني: أنَّ هذه اللَّامَ مُفيدةٌ معْنى التَّوكيدِ لا مَحالةَ، فأُدخِلَت في آيةِ المطعومِ دونَ آيةِ المشروبِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ أمْرَ المطعومِ مُقدَّمٌ على أمْرِ المشروبِ، وأنَّ الوعيدَ بفَقْدِه أشدُّ وأصعبُ؛ مِن قِبَلِ أنَّ المشروبَ إنَّما يُحتاجُ إليه تبَعًا للمَطعومِ؛ ولذلك رُتِّبَ على أمْرِ المطعومِ قولُه: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، وعلى أمْرِ المشروبِ قولُه: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، والأوَّلُ أدلُّ على التَّوبيخِ والتَّعييرِ على كُفرانِ النِّعَمِ؛ لمَجيئِه إخباريًّا مُفصَّلًا فيه تَصويرُ خَيبتِهم وتَحسُّرِهم. الوجْهُ الثالثُ: أنَّ الزَّرعَ ونباتَه وجَفافَه بعْدَ النَّضارةِ حتَّى يَعودَ حُطامًا، ممَّا يَحتمِلُ أنَّه مِن فِعلِ الزَّارعِ، أو أنَّه مِن سَقْيِ الماءِ، وجَفافُه مِن عدَمِ السَّقْيِ، فأخبَرَ سُبحانه أنَّه الفاعلُ لذلك على الحقيقةِ، وأنَّه قادرٌ على جَعْلِه حُطامًا في حالِ نُموِّه لو شاءَ، وإنزالُ الماءِ مِن السَّماءِ ممَّا لا يُتوهَّمُ أنَّ لأحدٍ قُدرةً عليه غيرَ اللهِ تعالى[٢].

وقيل: اللَّامُ تَقَعُ للاستِقبالِ؛ تقولُ: لَأَضْرِبَنَّك -أي: فيما بعْدُ؛ لا في الحالِ، والمعنى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢١١، ٢١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢١، ٣٢٤، ٣٢٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٤٤، ٤٤٥).

حُطَٰمًا ﴾ أي: في مُستقبَلِ الزَّمانِ إذا تَمَّ فاستَحْصَدَ (أي: حان له أن يُحصدَ)، وذلك أشدُّ العذابِ؛ لأنها حالةُ انتهاءِ تَعَبِ الزَّارِعِ، واجتماعِ الدَّيْنِ عليه؛ لرجاءِ القضاءِ بعدَ الحصادِ، مع فراغِ البيوتِ مِن الأقواتِ، وأمَّا في الماءِ فقال: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ أي: الآنَ، لأنَّا لو أَخَّرْنا ذلك لشَرِبَ العطشانُ، وادَّخَرَ الإنسانُ[(١)].

وقيل: أُدخِلت اللَّامُ في آيةِ المطعومِ دونَ آيةِ المشروبِ؛ لأنَّ جَعْلَ الماءِ العذبِ مِلحًا أسهلُ إمكانًا في العُرفِ والعادةِ، والموجودُ مِن الماءِ الملحِ أكثرُ مِن الماءِ العذبِ، وكثيرًا ما إذا جرَت المياهُ العذبةُ على الأراضي المتغيرةِ التربة أحالَتْها إلى الملوحةِ، فلم يحتَجْ في جعلِ الماءِ العذبِ ملحًا إلى زيادةٍ تأكيد، فلذلك لم تدخُلْ عليه لامُ التأكيدِ المفيدةُ زيادةَ التحقيقِ، وأمَّا المطعومُ فإنَّ جعلَه حطامًا مِن الأشياءِ الخارجةِ عن المعتادِ، وإذا وقَع فلا يكونُ إلا عن سخطٍ مِن الله شديدٍ، فلذلك قُرِن بلامِ التَّأكيدِ زيادةً في تحقيقِ أمرِه، وتقريرِ إيجادِه[(٢)].

وأيضًا قال: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾، ولم يقُلْ عزَّ وجَلَّ: (لو نشاءُ لم نُخرِجْه)، بل قال: ﴿لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ أي: بَعْدَ أن يَخرُجَ ويكونَ زَرعًا وتتعَلَّقَ به النُّفوسُ، يَجعَلُه اللهُ تعالى حُطامًا! وهذا أشَدُّ ما يكونُ سَبَبًا للحُزنِ والأَسى؛ لأنَّ الشَّيءَ قبْلَ أن يَخرُجَ لا تتعَلَّقُ به النُّفوسُ، فإذا خَرَج وصار زَرْعًا ثمَّ سَلَّط اللهُ عليهم آفةً، فكان حُطامًا -أي: محطومًا لا فائدةَ منه-؛ فهو أشَدُّ حَسرةً[(٣)]!

- قولُه: ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴾، أي: فأقمْتُم دائمًا تَندَمونَ على مَعاصيكم الَّتي سبَّبَتْ ذلك التَّلفَ، أو تَتعجَّبون، أو تَحدَّثونَ في ذلك ولم تُعرِّجوا على شُغلٍ

(١) الكلامُ لابنِ هُبَيْرَةَ، نقَله عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر)) لابن الأثير (٢/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٤٣).

غَيرِه كما تَفعَلونَ عِندَ الأشياءِ السَّارَّةِ الَّتي هي في غايةِ الإعجابِ والمَلاحةِ والمُلاءَمةِ؛ ولهذا عبَّرَ عمَّا المرادُ به الإقامةُ مع الدَّوامِ بـ (ظَلَّ) الَّذي معْناه: أقامَ نَهارًا؛ إشارةً إلى تَرْكِ الأشغالِ الَّتي تُهِمُّ ومَحلُّها النَّهارُ، ويَمنَعُ الإنسانَ مِن أكثرِ ما يُهِمُّه مِن الكلامِ لهذا النَّازلِ الأعظَمِ[١].

- قولُهم: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ تَندُّمٌ وتَحسُّرٌ، أي: تَعلَمون أنَّ حَطْمَ زَرعِكُم حِرمانٌ مِن اللهِ جَزاءً لكُفْرِكم، ومعْنى ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ مِن الغَرامِ، وهو الهلاكُ[٢]. وقيل: الجملةُ إخبارٌ بمعنى الإنكارِ والجحودِ[٣]، وقُرِئ بالاستِفهامِ ﴿أَئِنَّا﴾[٤] لإنكارِ هذا الواقعِ، والاستِعظامِ له، والتَّعجُّبِ منه، وهي مُنبِّهةٌ على أنَّهم -لِشِدَّةِ اضْطِرابِهم مِن ذلك الحادثِ- مُذَبْذَبونَ؛ تارةً يَجزِمون باليأسِ والشَّرِّ، وتارةً يَشُكُّون فيه، ويَنسُبونَ الأمرَ إلى سوءِ تصَرُّفِهم، وعليه يدُلُّ إضرابُهم: ﴿بَلْ نَحْنُ﴾[٥].

- ومعْنى الآيةِ يَجوزُ أنْ يكونَ جاريًا على ظاهرِ مادَّةِ فِعلِ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ الَّذي هو المَسرَّةُ والفرَحُ، ويكون ذلك تَهكُّمًا بهم، حمْلًا لهم على مُعتادِ أخلاقِهم مِن الهَزْلِ بآياتِ اللهِ، وقَرينةُ التَّهكُّمِ ما بعْدَه مِن قولِه عنهم: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ مَحمَلُ الآيةِ على جَعْلِ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ بمعْنى تَندَمون وتَحزَنون؛ ولذلك كان لفِعلِ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ هنا وقْعٌ لا يُعوِّضُه غيرُه[٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥١٦).

(٤) وهي قراءةُ أبي بكرٍ عن عاصمٍ، وقرأه الباقونَ بهمزةٍ واحدةٍ على الخبَرِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٢).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٥، ٢٢٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣).

- وجُملةُ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ هو حالٌ مِن ضَميرِ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾

- وَصْفُ ﴿ٱلْمَآءَ﴾ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ إدماجٌ[٢] للمِنَّةِ في الاستِدلالِ، أي: أفرأيتُم الماءَ العذْبَ الَّذي تَشرَبونه؛ فإنَّ شُرْبَ الماءِ مِن أعظَمِ النِّعَمِ على الإنسانِ؛ ليُقابَلَ بقولِه بعْدَه: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[٣] [الواقعة: ٧٠].

- ووَجْهُ الاستِدلالِ على البعثِ هو إنشاءُ ما به الحياةُ بعْدَ أنْ كان مَعدومًا؛ بأنْ كوَّنَه اللهُ في السَّحابِ بحِكمةِ تكوينِ الماءِ، فكما استُدِلَّ بإيجادِ الحيِّ مِن أجزاءٍ مَيتةٍ في خلْقِ الإنسانِ والنَّباتِ، استُدِلَّ بإيجادِ ما به الحياةُ عن عدَمٍ؛ تَقريبًا لإعادةِ الأجسامِ بحِكمةٍ دَقيقةٍ خَفيَّةٍ، أي: يَجوزُ أنْ يُمطِرَ اللهُ مطَرًا على ذواتِ الأجسادِ الإنسانيَّةِ يكونُ سَببًا في تَخلُّقِها أجسادًا كاملةً كما كانت أُصولُها، كما تَتكوَّنُ الشَّجرةُ مِن نَواةِ أصْلِها، وقد تمَّ الاستدلالُ على البعثِ عندَ قولِه: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾[٤].

- وجُعِل قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ استِدلالًا مَنوطًا بإنزالِ الماءِ مِن المُزْنِ على طَريقةِ الكنايةِ بإنزالِه عن تَكوينِه صالحًا للشَّرابِ؛ لأنَّ إنزالَه هو الَّذي يَحصُلُ منه الانتفاعُ به؛ ولذلك وُصِفَ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وأُعقِبَ قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ بقولِه: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]، فحصَلَ بيْن الجُملتينِ احتِباكٌ[١]، كأنَّه قِيل: أأنْتُم خلَقْتُموه عَذْبًا صالحًا للشُّربِ وأنْزَلْتُموه مِن المُزْنِ؟ لو نَشاءُ جَعَلْناه أُجاجًا، ولَأمْسكناهُ في سَحاباتِه، أو أنْزَلْناه على البحارِ أو الخَلاءِ، فلمْ تَنتفِعوا به[٢].

- قولُه: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾، أي: جعَلْناه مِلْحًا، كَريهَ الطَّعمِ، لا يُمكِنُ أنْ يُشرَبَ، ولم يقُلْ: لو نَشاءُ لغَوَّرْناه، أو مَنَعْنا إنزالَه؛ لأنَّ كونَهم يَنظُرون إلى الماءِ رأْيَ العينِ ولكنْ لا يُمكِنُهم شُرْبُه، أشدُّ حَسرةً ممَّا لو لم يكُنْ مَوجودًا، واللهُ عزَّ وجلَّ يُريدُ أنْ يَتحدَّاهم بما هو أعظَمُ شَيءٍ في حَسرةِ نُفوسِهم[٣].

- جُملةُ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥] وجُملةُ ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] شَرطيَّتانِ، مُستأنَفتانِ، مَسوقتانِ لبَيانِ أنَّ عِصْمتَه تعالى للزَّرعِ والماءِ عمَّا يُخِلُّ بالتَّمتُّعِ بهما، نِعمةٌ أُخرى بعْدَ نِعمةِ الإنباتِ والإنزالِ، مُستوجِبةٌ للشُّكرِ[٤].

- وتُخُلِّصَ مِن هذا التَّتميمِ[٥] إلى الامتِنانِ بقولِه: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾؛ تَحضيضًا لهم على الشُّكرِ، ونبْذِ الكفْرِ والشِّركِ[٦].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال سُبحانَه في الأُولى: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وقال في الماءِ: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الأُولى تَنبيهٌ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٨).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٢٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٤).

على البَعثِ والإعادةِ -وهي: النَّشأةُ الثَّانيةُ كالنَّشأةِ الأُولى-، وحمْلٌ على أنْ يَتذكَّرَ الأوَّلَ -الَّذي هو الأصلُ-؛ ليُثبِتَ به الثَّانيَ -الَّذي هو فرْعٌ على أنَّ القادرَ كما كان لم يَتغيَّرْ-، وأمَّا قولُه: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فإنَّه بعْدَ قولِه: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]، أي: شديدَ المُلوحةِ كماءِ البَحرِ، كما قال: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، أي: فهلَّا تَشكُرون أنْ جَعَلَه عَذْبًا؟! فكلُّ مكانٍ لائقٌ به ما ذُكِرَ فيه[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ * نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ إدماجٌ للامتِنانِ في الاستِدلالِ بما تقدَّمَ في قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨]، وهو أيضًا وَصْفٌ للمَقصودِ مِن الدَّليلِ، وهو النَّارُ الَّتي تَقتدِحُ مِن الزَّنْدِ، لا النَّارُ المُلتهِبةُ[٢].

- قولُه: ﴿ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ حُذِفَ العائدُ على المَوصولِ؛ لأنَّ ضَميرَ النَّصبِ يَكثُرُ حذْفُه مِن الصِّلةِ، وتَقديرُه: الَّتي تُورُونَها. وتَعديةُ ﴿تُورُونَ﴾ إلى ضَميرِ النَّارِ تَعديةٌ على تَقديرِ مُضافٍ، أي: تُورُونَ شَجرَتَها، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾، وقد شاعَ هذا الحذْفُ في الكَلامِ، فقالوا: أَورَى النارَ، كما قالوا: أَورَى الزِّنادَ[٣].

- وجُملةُ ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾[٤].

- قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ عَبَّرَ عن خَلْقِ الشَّجرةِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٣/ ١٢٤٧-١٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بالإنشاءِ المُنبِئِ عن بَديعِ الصُّنعِ المُعرِبِ عن كَمالِ القُدرةِ والحِكمةِ؛ لِمَا فيه مِن الغَرابةِ الفارقةِ بيْنها وبيْن سائرِ الشَّجرِ الَّتي لا تَخلُو عن النارِ، كما أنَّ التَّعبيرَ عن نفْخِ الرُّوحِ بالإنشاءِ في قولِه تعالَى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] لذلك[١].

- قولُه: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لِمَنافعِها[٢]، أو بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾[٣].

- قولُه: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾، أي: مَنفعةً للنَّازلينَ بالقَواءِ -الأرضِ القَفْرِ-، وهم المسافِرون، يُقالُ: أقْوى الرَّجلُ؛ إذا نزَلَ بالقِيِّ والقَوَى، وهي الأرضُ الخاليةُ، وخصَّ المُقْوينَ بالذِّكرِ -وإنْ كانتْ مَنفَعتُها عامَّةً للمُسافِرينَ والمُقيمينَ؛ تَنْبيهًا لعِبادِه -واللهُ أعلَمُ بمُرادِه مِن كَلامِه- على أنَّهم كلَّهم مُسافِرونَ، وأنَّهم في هذه الدَّارِ على جَناحِ سَفرٍ، لَيْسوا همْ مُقيمينَ ولا مُستَوطِنينَ، وأنَّهم عابِرو سَبيلٍ وأبناءُ سَفرٍ[٤]، وأيضًا لشِدَّةِ حاجتِهم إليها في خَبْزِهم وطَبْخِهم؛ حيثُ لا يَجِدُون ما يَشترونَه، فيُغْنيَهم عمَّا يَصنَعونَه بالنَّارِ[٥].

وقيل: إيثارُ هذا الوصْفِ في هذه الآيةِ ليَجمَعَ بيْن مَعْنيَي القواءِ، فالمُقْوي يُطلَقُ على الدَّاخلِ في القَوَاءِ، وهي القَفْرُ، ويُطلَقُ المُقْوي على الجائعِ؛ فإنَّ النَّارَ مَتاعٌ للمُسافرينَ يَسْتضيئون بها في مناخِهم، ويَصْطَلون بها في البرْدِ، ويَراها السَّائرُ ليلًا في القفْرِ فيَهْتدي إلى مَكانِ النُّزَّلِ، فيَأْوي إليهم، ومَتاعٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) (ص: ١٤١، ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٣٦).

للجائعينَ يَطبُخونَ بها طَعامَهم في الحضَرِ والسَّفرِ، وهذا إدماجٌ للامتنانِ في خِلالِ الاستِدلالِ، واختِيرَ هذانِ الوصفانِ ﴿تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾؛ لأنَّ احتياجَ أصحابِهما إلى النَّارِ أشدُّ مِن احتياجِ غَيرِهما[1].

- وقَدَّم سُبحانَه كَونَها تَذكِرةً على كَونِها مَتاعًا؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الأهمَّ هو النَّفعُ الأُخرويُّ[2].

- وفي قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ و﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ و﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ و﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾، بدَأَ بذِكرِ خلْقِ الإنسانِ، ثمَّ بما لا غِنى له عنه، وهو الحَبُّ الَّذي منه قُوتُه، ثمَّ بالماءِ الَّذي به سَوْغُه وعَجْنُه، ثمَّ بالنَّارِ الَّتي بها نُضْجُه وصَلاحُه، وذكَرَ عقِبَ كُلٍّ مِن الثَّلاثةِ الأُولى ما يُفسِدُه؛ فقال في الأولى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، وفي الثالثةِ: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾، ولم يقُلْ في الرَّابعةِ ما يُفسِدُها، بل قال: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾، أي: جعَلْناها تَذكرةً تتَّعِظون بها، ومتاعًا للمسافِرينَ يَنتفِعون بها[3].

- وفي الآياتِ الآنِفةِ الذِّكرِ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بِصِحَّةِ الأقسامِ؛ وهو استيفاءُ المُتكلِّمِ جميعَ الأقسامِ للمعْنى المذكورِ الآخِذِ فيه، بحيث لا يُغادِرُ منه شيئًا، فقد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٧).
قال أبو السعود: (وقد جُوِّز أن يُرادَ بالمُقْوِينَ الَّذين خلَتْ بُطونُهم ومَزاوِدُهم مِن الطَّعام، وهو بعيدٌ؛ لعدَمِ انحصارِ ما يهمُّهم ويسُدُّ خللَهم فيما لا يؤكَلُ إلَّا بالطَّبخِ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥١، ٤٥٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٩).

عُدِلَ عن لَفظِ الحِرمانِ والمنْعِ إلى لَفظٍ هو رِدفُه وتابعُه، وهو لَفظُ الجَعْلِ؛ إذ قال ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾، وكذلك جاء لَفظُ الاعتدادِ بالماءِ؛ حيث قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ بلَفظِ الجَعْلِ عندَ ذِكرِ الحرمانِ وما هو في معْناه، وجاء العطاءُ بلَفظِ الزَّرعِ في الحرْثِ، وفي الماءِ بلَفظِ الإنزالِ[1].

- وأيضًا في هذه الآياتِ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّسهيمِ؛ وهو أنْ يكونَ ما تَقدَّمَ مِن الكلامِ دَليلًا على ما يَتأخَّرُ منه أو بالعكسِ؛ فقولُه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ تَقْتضي أوائلُ هذه الآياتِ أواخِرَها اقتِضاءً لَفظيًّا ومعنويًّا، كما ائْتَلَفت الألفاظُ فيها بمَعانيها المُجاورةِ؛ الملائمُ بالملائمِ، والمناسبُ بالمُناسبِ؛ لأنَّ ذِكرَ الحرْثِ يُلائمُ ذِكرَ الزَّرعِ، والاعتدادَ بكَونِه سُبحانَه لم يَجعَلْه حُطامًا مُلائمٌ لحُصولِ التَّفكُّهِ به، وعلى هذه الآيةِ يُقاسُ نظْمُ أخْتِها[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، رُتِّب على ما مَضَى مِن الكلامِ المُشتمِلِ على دَلائلِ عَظَمةِ القُدْرةِ الإلهيَّةِ، وعلى أمثالٍ لتَقريبِ البَعثِ الَّذي أنْكَروا خبَرَه، وعلى جَلائلِ النِّعَمِ المُدمَجةِ في أثناءِ ذلك -أنْ أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُنزِّهَه تَنزيهًا خاصًّا، مُعقِّبًا لِما تُفيضُه عليه تلك الأوصافُ الجَليلةُ الماضيةُ مِن تَذكُّرٍ جَديدٍ يكونُ التَّنزيهُ عَقِبَه ضَرْبًا مِن التَّذكُّرِ في جَلالِ ذاتِه، والتَّشكُّرِ لآلائِه؛ فإنَّ للعباداتِ مَواقعَ تكونُ هي فيها أكمَلَ منها في دُونِها،

(١) يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٧٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٤٥).

فيكونُ لها مِن الفضْلِ ما يُجزَلُ ثوابُه، فالرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَخْلو عن تَسبيحِ ربِّه، والتَّفكُّرِ في عَظَمةِ شأْنِه، ولكنْ لاختلافِ التَّسبيحِ والتَّفكُّرِ مِن تَجدُّدِ مُلاحَظةِ النَّفْسِ، ما يَجعَلُ لكلِّ حالٍ مِن التَّفكُّرِ مَزايا تَكْسِبُه خَصائصَ، وتَزيدُه ثَوابًا؛ فالجُملةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٤٩- ٧٣]، وهي تَذييلٌ، وتَعقيبُ الأمرِ بالتَّسبيحِ لَمَّا عدَّدَ مِن بَدائعِ صُنعِه وإنعامِه؛ إمَّا لتَنزيهِه تعالى عمَّا يقولُ الجاحِدون لوَحدانيَّتِه، الكافِرون لنِعمتِه، أو للتَّعجُّبِ مِن أمْرِهم في غَمْطِ نِعَمِه، أو للشُّكرِ على ما عدَّها مِن النِّعَمِ(١).

- ولَمَّا كان الكلامُ مَوضوعًا للدَّلالةِ على ما في النَّفْسِ، كان تَسبيحُ الاسمِ مُقتضيًا تَنزيهَ مُسمَّاهُ، وكان أيضًا مُقتضيًا أنْ يكونَ التَّسبيحُ باللَّفظِ مع الاعتِقادِ، لا مُجرَّدَ الاعتِقادِ؛ لأنَّ التَّسبيحَ لَمَّا عُلِّقَ بلَفظِ (اسم) تعيَّنَ أنَّه تَسبيحٌ لَفظيٌّ، أي: قُلْ كلامًا فيه معْنى التَّنزيهِ، وعلِّقْه باسمِ ربِّك؛ فكلُّ كلامٍ يدُلُّ على تَنزيهِ اللهِ مَشمولٌ بهذا الأمْرِ، ولكنْ مُحاكاةُ لَفظِ القرآنِ أَولى وأجمَعُ، بأنْ يَقولَ: سُبحانَ اللهِ(٢).

- والباءُ الدَّاخلةُ على ﴿بِٱسْمِ﴾ قيل: زائدةٌ لتَوكيدِ اللُّصوقِ، أي: اتِّصالِ الفِعلِ بمَفعولِه؛ وذلك لوُقوعِ الأمْرِ بالتَّسبيحِ عَقِبَ ذِكرِ عدَّةِ أُمورٍ تَقْتضيه، حسبَما دلَّت عليه فاءُ التَّرتيبِ، فكان حَقيقًا بالتَّقويةِ والحثِّ عليه، وهذا بخِلافِ قولِه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]؛ لوُقوعِه في صَدْرِ جُملتِه؛ كقولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٧، ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٨).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾. وقيل: مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ، أي: فسَبِّحْ مُتلَبِّسًا باسْمِ ربِّكَ، أو للمُصاحَبةِ، يعني: سبِّحِ اللهَ تسبيحًا مَصحوبًا باسمِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٥).
قال الشنقيطي: (وزيادةُ حرفِ الباءِ للتَّوكيدِ قبْلَ مفعولِ الفعلِ المتعدِّي بنفْسِه، كثيرةٌ في القرآنِ، وفي كلامِ العربِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٩٩).
ويُنظر ما تَقدَّم (ص: ٤٨١).

الآيات (٧٥-٨٢)

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: أي: مَطالِعِ النُّجومِ ومَغارِبِها، ومَساقِطِها ومَنازِلِها، وأصلُ (نجم): يدُلُّ على طُلوعٍ وظُهورٍ، وأصلُ (وقع): يدُلُّ على سُقوطِ شَيءٍ[(١)].

﴿مَّكۡنُونٖ﴾: أي: مَصونٍ مَحفوظٍ، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[(٢)].

﴿مُّدۡهِنُونَ﴾: أي: مُكَذِّبونَ، يُلاينُ بَعضُكم بَعضًا، ويتَّبِعُه على الكُفرِ؛ مِنَ الإدهانِ: وهو الجَريُ في الباطِنِ على خِلافِ الظَّاهِرِ، هذا أصلُه، ثمَّ قِيلَ للمُكَذِّبِ: مُدْهِنٌ وإنْ صَرَّح بالتَّكذيبِ والكُفرِ، والمُداهَنةُ: عِبارةٌ عن المُداراةِ والمُلايَنةِ، مَأخوذةٌ مِنَ الدُّهنِ؛ لِلِينِه وإملاسِه، وأصلُ (دهن): يَدُلُّ على لِينٍ وسُهولةٍ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُثنيًا على كتابِه المجيدِ: فلا أُقسِمُ بمواقِعِ النُّجومِ في السَّماءِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٦، ٦/ ١٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩، ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٠).

-وإنَّ هذا القَسَمَ لَقَسَمٌ عَظيمٌ، لو تَعلَمونَ قَدْرَه وعَظَمتَه- إنَّ هذا القُرآنَ لَعَظيمُ النَّفعِ والخَيرِ، مُنزَّهٌ عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، في كِتابٍ مَصونٍ مِن كُلِّ سُوءٍ، لا يَمَسُّه إلَّا الملائِكةُ المطَهَّرونَ مِنَ الذُّنوبِ والعُيوبِ، وهذا القُرآنُ الكريمُ مُنزَّلٌ مِن رَبِّ العالَمينَ.

ثمَّ يقولُ تعالى منكِرًا على الكافرينَ: أفبِهذا القُرآنِ أنتم كافِرونَ مُكذِّبونَ، وتَجعَلونَ شُكرَ رِزقِكم التَّكذيبَ ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن أنَّه خالقُ الخلْقِ والرِّزقِ وله العَظَمةُ بالدَّليلِ القاطِعِ، ولم يؤمِنوا؛ قال: لم يَبْقَ إلَّا القسَمُ[1].

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾.

أي: فلا أُقسِمُ بمواقِعِ النُّجومِ في السَّماءِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٧) و(٢/ ١٩٢، ١٩٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٠، ٣٣١).

قال ابن الجوزي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ في «لا» قَولانِ:

أحدُهما: أنَّها دخلت توكيدًا. والمعنى: فأُقسِمُ، ومِثلُه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩]، قاله الزَّجَّاجُ، وهو مذهبُ سعيدِ بنِ جُبَيرٍ.

والثَّاني: أنَّها على أصلِها. ثمَّ في مَعناها قَولانِ: =

= أحدُهما: أنَّها تَرجِعُ إلى ما تقدَّم، ومعناه: النَّهيُ [أي: ناهية]، تقديرُ الكلامِ: فلا تُكَذِّبوا، ولا تَجحَدوا ما ذَكَرْتُه مِن النِّعَمِ والحُجَجِ، قاله الماوَرْديُّ.

والثَّاني: أنَّ «لا» ردٌّ لِما يقولُه الكفَّارُ في القرآنِ: إنَّه سِحرٌ، وشِعرٌ، وكِهانةٌ [أي: نافية]، ثمَّ استأنف القسَمَ على أنَّه قرآنٌ كريمٌ، قاله عليُّ بنُ أحمدَ النَّيْسابوريُّ. ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٧). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩).

وممَّن قال: دَخَلَت (لا) توكيدًا. والمعنى: فأُقسِمُ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والزمخشري، وأبو السعود، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٠).

ونسَبَ هذا القولَ إلى أكثَرِ المُفَسِّرينَ وجمهورِهم: البغويُّ، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٥٨).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٢٠)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٠).

واختلف المُفَسِّرونَ في المُرادِ بالنُّجومِ:

فقيل: المرادُ بها: نُجومُ السَّماءِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والقرطبي، وابن القيم، والسعدي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٧) و(٢/ ١٩٢، ١٩٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٠، ٣٣١).

ونسَبه ابنُ الجوزي إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والحسَنُ، وابنُ جُرَيجٍ، والضَّحَّاكُ، وعطاءُ بنُ أبي رباحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤).

وعلى القولِ بأنَّ المرادَ نجومُ السَّماءِ فقد وقع خِلافٌ في المرادِ بمَواقِعِها، فقال ابنُ القيِّمِ: (... ففي مَواقِعِها أقوالٌ: =

= أحَدُها: أنَّه انكِدارُها وانتِشارُها يومَ القيامةِ. وهذا قَولُ الحَسَنِ. والمُنَجِّمونَ يُكَذِّبونَ بهذا ولا يُقِرُّونَ به.

والثَّاني: مَواقِعُها: مَنازِلُها. قاله عَطاءٌ وقَتادةُ [حكاه ابنُ الجوزي عنهما].

والثَّالِثُ: أنَّه مَغارِبُها.

والرَّابعُ: أنَّه مَواقِعُها عندَ طُلوعِها وغُروبِها. حكاه ابنُ عطيَّةَ عن مجاهدٍ وأبي عُبَيدةَ.

والخامِسُ: أنَّ مَواقِعَها: مَواضِعُها مِنَ السَّماءِ. وهذا الَّذي حكاه ابنُ الجوزي عن قَتادةَ حكاه ابنُ عطيَّةَ عنه، فيَحتَمِلُ أن يكونَا واحِدًا، وأن يكونَا قَولَينِ.

السَّادِسُ: أنَّ مَواقِعَها: انقِضاضُها إثرَ العِفْريتِ وقْتَ الرُّجومِ. حكاه ابنُ عطيَّةَ أيضًا، ولم يَذكُرْ أبو الفَرَجِ بنُ الجوزيِّ سِوى الثَّلاثةِ الأُوَلِ. ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ١٩٢). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بمَواقِعِ النُّجومِ: مَساقِطُها ومَغايِبُها في السَّماءِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والزمخشري، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦١).

وقيل: النُّجومُ: هي آياتُ القُرآنِ الكريمِ، ومَواقِعُها: هي نُزولُها شيئًا بعدَ شَيءٍ؛ فالقُرآنُ نَزَل جُملةً واحِدةً مِن اللَّوحِ المحفوظِ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ثمَّ نَزَل مُنَجَّمًا -أي: مُفَرَّقًا- على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ورجَّحه الشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٢٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٣، ٤٦٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ، وأبو حَزْرةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٩)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٦).

قال ابنُ عطيَّة: (ويُؤَيِّدُ هذا القَولَ عَودُ الضَّميرِ على القُرآنِ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾؛ وذلك أنَّ ذِكْرَه لم يتقَدَّمْ إلَّا على هذا التَّأويلِ، ومَن لا يتأوَّلُ بهذا التَّأويلِ يَقولُ: إنَّ الضَّميرَ يَعودُ على القُرآنِ وإن لم يتقَدَّمْ ذِكرُه؛ لِشُهرةِ الأمرِ، ووُضوحِ المعنى، كقَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ =

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾.

أي: وإنَّ هذا القَسَمَ لَقَسَمٌ عَظيمٌ، لو تَعلَمونَ قَدْرَه وعَظَمتَه[1]!

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾.

أي: أُقسِمُ على أنَّ هذا القُرآنَ المُنزَّلَ على مُحمَّدٍ: قرآنٌ عَظيمُ الحُسْنِ والنَّفعِ، والخَيرِ والإنعامِ؛ مُتَّصِفٌ بصِفاتِ الكَمالِ والجَمالِ، مُنزَّهٌ عن كُلِّ شائِبةِ نَقصٍ وعَيبٍ وقُبحٍ[2]!

﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾.

أي: إنَّ القُرآنَ مَحفوظٌ عِندَ اللهِ -تعالى- في كِتابٍ مَصونٍ مِن كُلِّ سُوءٍ[3].

= [ص: ٣٢]، و﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [الرحمن: ٢٦] وغيرِ ذلك. وقال جمهورٌ كَثيرٌ مِنَ المُفَسِّرينَ: النُّجومُ هنا: الكواكِبُ المعروفةُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي: وإنَّ هذا القَسَمَ الَّذي أقسمتُ به لَقَسَمٌ عظيمٌ، لو تعلمون عظَمتَه لَعظَّمْتُم المُقسَمَ به عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤).

وقال أبو السعود: (جوابُ ﴿لَّوۡ﴾ إمَّا مَتروكٌ أُريدَ به نَفيُ عِلْمِهم، أو محذوفٌ ثِقةً بظُهورِه، أي: لَعَظَّمتُموه، أو لَعَمِلتم بمُوجبِه). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٠).

وقال أبو حيَّان: (في إقسامِه تعالى بمواقِعِ النُّجومِ سِرٌّ في تعظيمِ ذلك لا نَعلَمُه نحن، وقد أعظَمَ ذلك تعالى، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦). =

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾.

أي: لا يَمَسُّ هذا الكِتابَ المكنونَ إلَّا الملائكةُ الَّذين طَهَّرهمُ اللهُ تعالى مِنَ الذُّنوبِ والعُيوبِ(١).

= نَقَل ابنُ عَطيَّةَ اتِّفاقَ المُفَسِّرينَ على أنَّ المكنونَ بمعنى: المَصُونِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥١).

واختَلَفوا في المرادِ بهذا الكِتابِ؛ فقيل هو: اللَّوحُ المحفوظُ، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ * فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والرازي، والخازن، والعُلَيمي، والسعدي، ونسَبَه ابنُ عثيمينَ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٣٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٨).

قال ابن جُزَي: (المرادُ بهذا الكتابِ المَكنونِ المصاحفُ الَّتي كُتِب فيها القرآنُ، أو صُحُفُ القُرآنِ الَّتي بأيدي الملائكةِ عليهم السَّلامُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

وقال ابنُ القَيِّم: (الصَّحيحُ أنَّه الكتابُ الَّذي بأيدي الملائكةِ، وهو المذكورُ في قولِه: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ * مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ * بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ * كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١٣ - ١٦]، ويدُلُّ على أنَّه الكتابُ الَّذي بأيدي الملائكةِ قولُه: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، فهذا يدُلُّ على أنَّه بأيديهم يَمَسُّونَه، وهذا هو الصَّحيحُ في معنى الآيةِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٢٦).

وقيل: المرادُ: المصاحِفُ الَّتي بأيدي المُسلِمينَ، واستحسَنه ابنُ الفَرَس، وعليه فهذا إخبارٌ بغَيبٍ؛ وذلك لأنَّه لم تكُنْ مَصاحفُ يومَ نزلَتِ الآيةُ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥١٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٨).

قال الواحدي: (أكثَرُ المُفَسِّرين على أنَّ الكِنايةَ -الضَّميرَ- في قَولِه: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ تعودُ إلى الكِتابِ المكنونِ، والمُطَهَّرونَ: هم الملائكةُ، قال المُبَرِّدُ: لا يَمَسُّ ذلك اللَّوحَ المحفوظَ إلَّا الملائكةُ الَّذين وُصِفوا بالطَّهارةِ. ومَذهَبُ قَومٍ: أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى القُرآنِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٣٩).=

= وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ ﴾ يعودُ إلى الكتابِ المكنونِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثَرِ المُفَسِّرينَ، وذهب إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٨).

قال ابن جرير: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ مِن ذلك عِندَنا: أنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤُه أخبَرَ أنَّه لا يَمَسُّ الكتابَ المكنونَ إلَّا المُطَهَّرونَ، فعَمَّ بخَبَرِه المُطَهَّرينَ، ولم يَخْصُصْ بَعضًا دونَ بَعضٍ؛ فالملائِكةُ مِنَ المُطَهَّرينَ، والرُّسُلُ والأنبياءُ مِنَ المُطَهَّرينَ، وكُلُّ مَن كان مُطَهَّرًا مِنَ الذُّنوبِ فهو مِمَّن اسْتُثْنِيَ وعُنِيَ بقَولِه: ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧).

وتخصيصُ المُطَهَّرينَ هنا بالملائِكةِ: ذهب إليه مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٨).

ونسَبَ الواحديُّ، وابنُ عاشور هذا القولَ إلى جمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أنسٌ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وأبو الشَّعْثاءِ جابرُ بنُ زَيدٍ، وأبو نَهيكٍ، وباذانُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وأبو العاليةِ، والضَّحَّاكُ، والكلبيُّ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤).

قال ابن تيميَّةَ: (والصَّحيحُ اللَّوحُ المحفوظُ الَّذي في السَّماءِ مُرادٌ مِن هذه الآيةِ، وكذلك الملائِكةُ مُرادُونَ مِن قَولِه: ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾؛ لوُجوهٍ:

أحدُهما: أنَّ هذا تفسيرُ جماهيرِ السَّلَفِ مِن الصَّحابةِ ومَن بعدَهم، حتَّى الفُقَهاءُ الَّذين قالوا: «لا يَمَسُّ القُرآنَ إلَّا طاهرٌ» مِن أئمَّةِ المذاهبِ صَرَّحوا بذلك، وشَبَّهوا هذه الآيةَ بقَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١ - ١٦].

أنَّه أخبَرَ أنَّ القرآنَ جميعَه في كِتابٍ، وحينَ نزَلَتْ هذه الآيةُ لم يكُنْ نَزَلَ إلَّا بعضُ المكِّيِّ منه، ولم يُجْمَعْ جميعُه في المُصحَفِ إلَّا بعدَ وَفاةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وثالثُها: أنَّه قال: ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ والمَكنونُ: المصونُ المُحْرَزُ الَّذي لا تَنالُه أيدي المُضِلِّينَ؛ فهذه صِفةُ اللَّوحِ المحفوظِ. =

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الَّذي منه صيانتُه؛ أتْبَعَه شَرَفَه بشَرَفِ مُنزِلِه[1]:

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾.

= ورابِعُها: أنَّ قولَه: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ صِفةٌ للكتابِ، ولو كان معناها الأمرَ لم يَصِحَّ الوَصفُ بها، وإنَّما يوصَفُ بالجُملةِ الخَبَريَّةِ.

وخامِسُها: أنَّه لو كان معنى الكلامِ الأمرَ لَقيل: «فلا يَمَسَّه»؛ لِتَوسُّطِ الأمرِ بما قَبْلَه.

وسادِسُها: أنَّه قال: ﴿ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾، وهذا يَقتَضي أنْ يكونَ تَطهيرُهم مِن غَيرِهم، ولو أُريدَ طهارةُ بني آدمَ فقط لقِيلَ: المُتَطَهِّرونَ، كما قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وسابِعُها: أنَّ هذا مَسوقٌ لبيانِ شَرَفِ القُرآنِ وعُلُوِّهِ وحِفْظِه، وذلك بالأمرِ الَّذي قد ثَبَتَ واستقرَّ أبلَغُ منه بما يَحْدُثُ ويكونُ.

نعمْ، الوجهُ في هذا -واللهُ أعلمُ- أنَّ القرآنَ الَّذي في اللَّوحِ المحفوظِ هو القُرآنُ الَّذي في المُصحَفِ، كما أنَّ الَّذي في هذا المُصحَفِ هو الَّذي في هذا المُصحَفِ بعَينِه، سواءٌ كان المَحَلُّ وَرَقًا أو أَديمًا، أو حَجَرًا أو لِخَافًا، فإذا كان مِن حُكْمِ الكتابِ الَّذي في السَّماءِ ألَّا يَمَسَّه إلَّا المُطَهَّرونَ وَجَبَ أنْ يكونَ الكِتابُ الَّذي في الأرضِ كذلك؛ لأنَّ حُرمَتَه كحُرمَتِه، أو يكونُ الكِتابُ اسمَ جنسٍ يَعُمُّ كلَّ ما فيه القُرآنُ، سواءٌ كان في السَّماءِ أو الأرضِ، وقد أَوحى إلى ذلك قَولُه تعالى: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾ [البينة: ٢ - ٣]، وكذلك قولُه تعالى: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ﴾ [عبس: ١٣]. ((شرح العمدة - كتاب الطهارة)) لابن تيمية (ص: ٣٨٣).

ويُنظر أيضًا: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٩٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢٧).

واستظهر أبو حيَّان أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى القُرآنِ، وذهب إليه السعديُّ، وكِلاهما على أنَّ المطَهَّرينَ هم الملائِكةُ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

وقيل: المُطَهَّرونَ هم المُتَطَهِّرونَ مِنَ الجَنابةِ والحَدَثِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٩).

أي: هذا القُرآنُ الكريمُ مُنزَّلٌ مِن رَبِّ العالَمينَ؛ فهو الحَقُّ الَّذي لا مِرْيَةَ فيه[١].

قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ٢].

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾.

أي: أفبِهذا القُرآنِ أنتم[٢] كافِرونَ مُكذِّبونَ[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٩).

قال السعدي: (أي: إنَّ هذا القُرآنَ الموصوفَ بتلك الصِّفاتِ الجَليلةِ هو تنزيلُ رَبِّ العالَمينَ، الَّذي يُرَبِّي عِبادَه بنِعَمِه الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، ومِنْ أجَلِّ تَربيةٍ رَبَّى بها عِبادَه إنزالُه هذا القُرآنَ الَّذي قد اشتَمَل على مصالِحِ الدَّارَينِ، ورَحِمَ اللهُ به العِبادَ رَحمةً لا يَقدِرونَ لها شُكورًا!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

(٢) هذا خِطابٌ للكفَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٠).

وقال البغوي: (﴿أَنتُم﴾، يا أهلَ مَكَّةَ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٨، ٣٣٩).

قيل: إنَّ المُدهِنَ هو الكذَّابُ المنافقُ. وممَّن قال بهذا: الزَّجَّاجُ، والبغوي، والبِقاعي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٠).

وقال السمعاني: (مكذِّبون تكذيبَ مُنافِقٍ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٠).

وقال البِقاعي: (أي: كذَّابون منافِقون، بسببِه تُظهِرون غيرَ ما تُبطِنون: أنَّه كذَّابٌ وأنتم تَعلَمون صِدقَه بحُسنِ مَعانيه، وعَجْزِكم عن مُماثَلَتِه في نُظومِه ومَبانيه، وتقولونَ: لو شِئْنا لَقُلْنا مِثلَ هذا! وجميعُ أفعالِكم تُخالِفُ هذا). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٤٠).

وقال البغوي: (وهو مِن الإدهانِ، وهو الجريُ في الباطنِ على خِلافِ الظَّاهرِ، هذا أصْلُه، ثُمَّ قيل للمكَذِّبِ مُدْهِنٌ وإنْ صَرَّح بالتَّكذيبِ والكفرِ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١). =

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان هذا القُرآنُ مُتَكَفِّلًا بسَعادةِ الدَّارَينِ؛ قال تعالى[1]:

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وتَجعَلونَ شُكْرَ رزقِكم التَّكذيبَ؛ فتَضَعونَ التَّكذيبَ مَوضِعَ الشُّكرِ، وتُقابِلونَ مِنَّةَ الله عليكم بالكُفرِ بها[2]؟!

= وقيل: المعنى: مُتهاوِنون، كمَنْ يُدْهِنُ في الأمرِ أي: يُلينُ جانبَه ولا يَتصلَّبُ فيه تهاوُنًا به. وممَّن قال بهذا: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٠).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: أفبِهذا القُرآنِ الَّذي أنبَأْتُكم خَبَرَه، وقَصَصْتُ عليكم أمْرَه -أيُّها النَّاسُ- أنتم تُلِينونَ القَولَ للمُكَذِّبينَ به؛ مُمالأةً منكم لهم على التَّكذيبِ به والكُفرِ؟!). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧).

وقال ابن عطية: (﴿مُدْهِنُونَ﴾ معناه: يُلايِنُ بعضُكم بعضًا، ويَتبعُه في الكفرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٢).

قال ابن عاشور: (وعلى تفسيرِ ﴿مُدْهِنُونَ﴾ بمعنى الإلانةِ، فالمعنى: لا تَتراخَوْا في هذا الحديثِ، وتَدبَّروه، وخُذوا بالفورِ في اتِّباعِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٠).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والزَّمخشريُّ، والقرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادرُ السَّابقة.

قال ابن عطيَّة: (وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أجمَع المفسِّرونَ على أنَّ الآيةَ =

= توبيخٌ للقائلينَ في المطَرِ الَّذي يُنزِلُه اللهُ للعِبادِ: هذا بنَوْءِ كذا وكذا... والمعنى: وتَجعَلونَ شُكرَ رِزْقِكم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٢).

وقال الشنقيطي: (قولُه: ﴿رِزۡقَكُمۡ﴾، أي: المطرَ؛ كما قال تعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗا﴾ [غافر: ١٣]. وقولُه: ﴿أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، أي: بقوْلِكم: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٣).

وقال الرازي: (تَجعلونَ شُكْرَ النِّعَمِ أنَّكم تَقولونَ: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا! وهذا عليه أكثرُ المفسِّرينَ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٣٤).

وقال ابن الجوزي: (وتَجعلونَ شُكرَ رِزقِكم تكذيبَكم. قاله الأكثَرونَ؛ وذلك أنَّهم كانوا يُمطَرونَ، فيَقولون: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا!). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٩).

وقال ابن القيِّم: (ومِن بَعضِ معنى الآيةِ قَولُهم: مُطِرْنا بنَوءِ كذا وكذا، فهذا يَصلحُ أن تَدُلَّ عليه الآيةُ ويُرادَ بها، وإلَّا فمعناها أوسَعُ منه وأعَمُّ وأعلى. واللهُ أعلَمُ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٣٦).

وقيل: تَجعَلونَ شُكرَ اللهِ على ما رزَقَكم تكذيبَ رُسُلِه والكُفرَ به. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٥).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: وتَجعَلون حظَّكم ونصيبَكم مِن القرآنِ أنَّكم تُكَذِّبون: الثعلبيُّ، والبغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٢١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٢).

وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ مِنَ السَّلَفِ: الحَسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٢).

قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿رِزۡقَكُمۡ﴾: الرِّزقُ هو العَطاءُ، والمرادُ به هنا ما هو أعَمُّ مِن المطرِ؛ فيَشمَلُ معنيَين:

الأوَّل: أنَّ المرادَ به رزقُ العِلم؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢]، أي: تَخافونَهم فتُداهِنونَهم، وتَجعَلون شُكرَ ما رزَقَكم اللهُ به مِن العِلم والوحي أنَّكم تُكَذِّبون به، وهذا هو ظاهرُ سياقِ الآيةِ.

الثَّاني: أنَّ المرادَ بالرِّزقِ المطرُ، وقد... صحَّ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما في تفسيرِ الآيةِ: أنَّ المرادَ بالرِّزقِ المطَرُ، وأنَّ التَّكذيبَ به نِسبتُه إلى الأنواءِ...

والقاعدةُ في التَّفسيرِ: أنَّ الآيةَ إذا كانت تحتمِلُ المعنيَينِ جميعًا بدونِ مُنافاةٍ، تُحمَلُ عليهما جميعًا، وإن حصَل بيْنَهما مُنافاةٌ طُلِب المُرَجِّحُ. =

قال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢].

= ومعنى الآيةِ: أنَّ اللهَ يوبِّخُ هؤلاء الَّذين يَجعلون شُكرَ الرِّزقِ التَّكذيبَ والاستِكبارَ والبُعدَ؛ لأنَّ شُكرَ الرِّزقِ يكونُ بالتَّصديقِ والقَبولِ والعمَلِ بطاعةِ المُنعِمِ...، سواءٌ قُلْنا: المرادُ بالرِّزقِ المطرُ الَّذي به حياةُ الأرضِ، أو قُلْنا: إنَّ المرادَ به القرآنُ الَّذي به حياةُ القُلوبِ؛ فإنَّ هذا مِن أعظَمِ الرِّزقِ؛ فكيف يليقُ بالإنسانِ أن يُقابِلَ هذه النِّعمةَ بالتَّكذيبِ؟!). ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (٢/ ١٩).

وجوَّز الرَّازيُّ أن يكونَ المعنى: تَخافون أنَّكم إن صدَّقتُم ومَنعْتُم ضُعَفاءَكم عن الكُفرِ يَفوتُ عليكم مِن كَسْبِكم ما تَربَحونَه بسَبَبِهم، فتَجعلونَ رِزقَكم أنَّكم تُكَذِّبونَ الرُّسُلَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٣٤).

وقال ابنُ عاشور: (أي: تَجعَلونَ شُكرَ اللهِ على رِزْقِه إيَّاكم أن تُكَذِّبوا بقُدرتِه على إعادةِ الحياةِ؛ لأنَّهم عَدَلوا عن شُكرِ اللهِ تعالى فيما أنعَمَ به عليهم، فاستَنقَصوا قُدرتَه على إعادةِ الأجسامِ، ونَسَبوا الزَّرعَ لأنفُسِهم، وزَعَموا أنَّ المطَرَ تُمطِرُه النُّجومُ المُسَمَّاةُ بالأنواءِ؛ فلذلك قال ابنُ عبَّاسٍ: نزلت في قَولِهم: مُطِرْنا بنَوءِ كذا، أي: لأنَّهم يقولونَه عن اعتقادِ تأثيرِ الأنواءِ في خَلْقِ المطَرِ، فمعنى قَولِ ابنِ عبَّاسٍ: نَزَلت في قَولِهم: مُطِرْنا بنَوءِ كذا- أنَّه مُرادٌ مِن معنى الآيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٠).

قال ابن القيِّم: (إنَّ اللهَ تعالى تأذَّنَ أنَّه لا بدَّ أن يَزيدَ الشَّكورَ مِن نِعَمِه، ولا بدَّ أن يَسْلُبَها مَن لم يَشكُرْها، فلمَّا وضَعوا الكفرَ والتَّكذيبَ مَوضِعَ الشُّكرِ والإيمانِ، جعَلوا رِزقَهم نفْسَه تكذيبًا؛ فإنَّ التَّصديقَ والشُّكرَ لَمَّا كانا سببَ زيادةِ الرِّزقِ، وهما رِزقُ القلبِ حقيقةً، فهؤلاء جعَلوا مكانَ هذا الرِّزقِ التَّكذيبَ والكفرَ، فجعَلوا رِزقَهم التَّكذيبَ، وهذا المعنى هو الَّذي حامَ حوْلَه مَن قال: التَّقديرُ: وتَجعَلون شُكرَ رِزقِكم أنَّكم تُكَذِّبون). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٣٥، ٢٣٦).

وقال القرطبي: (إنَّما صلَح أن يُوضَعَ اسمُ الرِّزقِ مكانَ شُكرِه؛ لأنَّ شُكرَ الرِّزقِ يَقتضي الزِّيادةَ فيه، فيكونُ الشُّكرُ رِزقًا على هذا المعنى، فقيل: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾، أي: شُكرَ رِزقِكم الَّذي لو وُجِد منكم لَعادَ رِزقًا لكم). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٨).

وعن زَيدِ بنِ خالِدٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((صلَّى بنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ الصُّبحِ بالحُدَيْبِيَةِ في إِثْرِ السَّماءِ[١] كانت مِنَ اللَّيلِ، فلمَّا انصَرَف أقبَلَ على النَّاسِ فقال: هل تَدْرُونَ ماذا قال رَبُّكم؟ قالوا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ. قال: قال: أصبَحَ مِن عِبادي مُؤمِنٌ بي وكافِرٌ؛ فأمَّا مَن قال: مُطِرْنا بفَضلِ اللهِ ورَحمتِه فذلك مُؤمِنٌ بي، كافِرٌ بالكوكَبِ، وأمَّا مَن قال: مُطِرْنا بنَوءِ[٢] كذا وكذا فذلك كافِرٌ بي، مُؤمِنٌ بالكوكَبِ))[٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألم تَرَوا إلى ما قال رَبُّكم؟! قال: ما أنعَمْتُ على عبادي مِن نِعمةٍ إلَّا أصبَحَ فَريقٌ منهم بها كافِرينَ، يقولونَ: الكواكِبُ، وبالكواكِبِ!))[٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ فوصَفه بما يَقتَضي حُسْنَه، وكَثرةَ خَيرِه ومَنافِعِه، وجلالتَه؛ فإنَّ الكريمَ هو البَهيُّ، الكثيرُ الخَيرِ، العَظيمُ النَّفعِ، وهو مِن كلِّ شيءٍ أحسَنُه وأفضَلُه، واللهُ سُبحانَه وَصَف نفْسَه بالكَرَمِ، ووَصَف به كلامَه، ووَصَف به عرْشَه، ووَصَف به ما كَثُرَ خيْرُه وحَسُنَ منْظَرُه مِن النَّباتِ وغيرِه؛ ولذلك فَسَّرَ السَّلَفُ «الكريمَ» بالحَسَنِ. وبالجُملةِ فالكريمُ: الَّذي مِن شأنِه أنْ يُعطيَ الخَيرَ الكثيرَ بسُهولةٍ ويُسْرٍ، وضِدُّهُ: اللَّئيمُ: الَّذي لا يُخرِجُ خيْرَه النَّزْرَ إلَّا بعُسْرٍ وصُعوبةٍ، وكذلك الكريمُ في النَّاسِ واللَّئيمُ[٥]، والقُرآنُ يُعطي

(١) السَّمَاءِ: أي: المَطَر. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٦٠).

(٢) بنَوءِ كذا: أي: بنَجْمِ كذا، والنَّوءُ عندَ العَرَبِ: سُقوطُ نَجمٍ مِن نُجومِ المنازِلِ الثَّمانيةِ والعِشرينَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٩٩).

(٣) رواه البخاريُّ (١٠٣٨)، ومسلمٌ (٧١) واللَّفظُ له.

(٤) رواه مسلم (٧٢).

(٥) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢٥).

أهلَه مِن الخَيراتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ والجِسْميَّةِ والقَلبيَّةِ؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]؛ فهو سِلاحٌ لِمَن تمسَّكَ به، ولكنْ يَحتاجُ إلى أنْ نتمَسَّكَ به بالقَولِ والعَمَلِ والعَقيدةِ، فلا بُدَّ أنْ يُصَدِّقَ العَقيدةَ العَمَلُ؛ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ألَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَد الجَسَدُ كلُّه، ألَا وهي القَلبُ))[١]، ووَصَفَ اللهُ القرآنَ في آيةٍ أُخرى بأنَّه مَجيدٌ، والمَجْدُ صِفةُ العَظَمةِ والعِزَّةِ والقُوَّةِ، والقُرآنُ جامِعٌ بيْنَ الأمْرَينِ: فيه قُوَّةٌ وعَظَمةٌ، وكذا خَيراتٌ كثيرةٌ وإحسانٌ لِمَن تمسَّكَ به[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه يَجبُ علينا أنْ نَعمَلَ به؛ لأنَّ الَّذي أنزَلَه هو الرَّبُّ المُطاعُ الخالِقُ الرَّازِقُ الَّذي يَجِبُ أنْ نُطيعَه بما أمَرَ، وننتهيَ عمَّا نهى عنه وزَجَرَ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ إنكارٌ على مَن سَمِعَ أحَدًا يتكَلَّمُ في القُرآنِ بما لا يَليقُ، ثمَّ لا يُجاهِرُه بالعَداوةِ[٤]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أنَّ الواجِبَ على مَنْ آمَنَ بأنَّه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وأنَّه قرآنٌ كريمٌ، وأنَّه لا يَمَسُّه إلَّا المطهَّرونَ- الواجِبَ أنْ يُصارِحَ ويُصَرِّحَ، ولا يُدْهِنَ، وقد قال اللهُ تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، ولكنْ هذا ليس بحاصِلٍ، فالواجِبُ على المؤمِنِ أنْ يَبرُزَ بدينِه، ويَفتَخِرَ به، ويُظهِرَه، بخِلافِ ما عليه كثيرٌ مِن النَّاسِ اليومَ مع الأسفِ؛

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٢)، ومسلمٌ (١٥٩٩) من حديثِ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضيَ الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٠).

تَجِدُ الرَّجُلَ منهم إذا قام ليصَلِّيَ يَستحي أنْ يُصَلِّيَ، ورُبَّما يُداهِنُ ويُؤَخِّرُ الصَّلاةَ عن وقتِها؛ موافَقةً لهؤلاء الَّذين لا يُصَلُّونَ! وهذا غلَطٌ عظيمٌ، بلِ الواجبُ أنْ يكونَ الإنسانُ صَريحًا، فلا يُداهِنَ في دِينِ اللهِ عزَّ وجلَّ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بَيانُ أنَّ ما أصاب العِبادَ مِن خَيرٍ فلا يَنبغي أن يَرَوه مِن قِبَلِ الوَسائِطِ الَّتي جَرَت العادةُ بأن تكونَ أسبابًا، بل ينبغي أن يَرَوه مِن قِبَلِ الله تعالى، ثمَّ يُقابِلوه بشُكرٍ إنْ كان نِعمةً، أو صَبرٍ إن كان مَكروهًا؛ تعَبُّدًا له تعالى وتذَلُّلًا(٢).

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تَجعَلونَ عَطاءَ اللهِ إيَّاكم تَكذيبًا له، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، ومِن ذلك أنْ يَنسُبَ الإنسانُ نِعمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ إلى السَّبَبِ مُتناسيًا المُسَبِّبَ سُبحانَه وتعالى، كقَولِه مثلًا: مُطِرْنا بنَوءِ كذا، فيَنْسُبُ المطرَ إلى النَّوءِ لا إلى الخالقِ عزَّ وجلَّ، فهذا نَوعٌ مِن الشِّركِ(٣)!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ تَنبيهٌ على فَضيلةِ القُرآنِ لِيَتدَبَّروه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٠).

قال ابن عثيمين: (نِسبةُ المطرِ إلى النَّوءِ تَنقسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

١- نِسبةُ إيجادٍ، وهذه شِركٌ أكبَرُ.

٢- نِسبةُ سببٍ، وهذه شِركٌ أصغَرُ.

٣- نِسبةُ وقتٍ، وهذه جائزةٌ، بأن يريدَ بقولِه: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا؛ أي: جاءنا المطرُ في هذا النَّوءِ، أي: في وقتِه). ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (٢/ ٣١).

فإنَّه ليس بشِعرٍ ولا سِحرٍ ولا كِهانةٍ، كما زَعَموا[١]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ سؤالٌ: ما الفائدةُ مِن إقسامِه سُبحانَه مع أنَّه صادقٌ بلا قَسَمٍ؛ لأنَّ القَسَمَ إنْ كان لقَومٍ يؤمِنون به ويُصَدِّقون كلامَه فلا حاجةَ إليه، وإنْ كان لقَومٍ لا يُؤمِنونَ به فلا فائدةَ منه؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥]؟

الجوابُ: أنَّ فائدةَ القَسَمِ مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ هذا أُسلوبٌ عربيٌّ لتأكيدِ الأشياءِ بالقَسَمِ، وإنْ كانت مَعلومةً عندَ الجميعِ، أو كانت مُنكَرةً عندَ المخاطَبِ، والقرآنُ نَزَلَ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ.

الثَّاني: أنَّ المؤمِنَ يَزدادُ يقينًا مِن ذلك، ولا مانِعَ مِن زيادةِ المؤكِّداتِ الَّتي تَزيدُ في يقينِ العَبدِ؛ قال تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

الثَّالثُ: أنَّ اللهَ تعالى يُقْسِمُ بأمورٍ عظيمةٍ دالَّةٍ على كَمالِ قدرتِه وعَظَمتِه وعِلْمِه، فكأنَّه يُقيمُ في هذا المُقسَمِ به البَراهينَ على صِحَّةِ ما أقسَمَ عليه بواسِطةِ عِظَمِ ما أقسَمَ به.

الرَّابعُ: التَّنويهُ بحالِ المُقسَمِ به؛ لأنه لا يُقسَمُ إلَّا بشَيءٍ عَظيمٍ، وهذانِ الوَجهان لا يَعودانِ إلى تصديقِ الخَبَرِ، بل إلى ذِكْرِ الآياتِ الَّتي أقسَمَ بها تَنويهًا له بها، وتنبيهًا على عِظَمِها.

الخامِسُ: الاهتِمامُ بالمُقسَمِ عليه، وأنَّه جديرٌ بالعِنايةِ والإثباتِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذه الآيةَ تَقتَضي أنَّه لم يُقسِمْ بهذا القَسَمِ، وقَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ يدُلُّ على خِلافِ ذلك، فما الجوابُ؟

الجوابُ على وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ «لا» النَّافيةَ يَتعَلَّقُ نَفيُها بكَلامِ الكُفَّارِ، فمعناها إذَنْ: ليس الأمرُ كما يَزعُمُه الكُفَّارُ المُكَذِّبونَ للرَّسولِ، وعليه فقَولُه: ﴿أُقۡسِمُ﴾ إثباتٌ مُؤتَنَفٌ.

الثَّاني: أنَّ لَفظةَ «لا» صِلةٌ، وهذا على عادةِ العَرَبِ؛ فإنَّها رُبَّما لَفَظَت «لا» مِن غيرِ قَصدِ مَعناها الأصليِّ، بل لمُجَرَّدِ تَقويةِ الكلامِ وتَوكيدِه، كقَولِه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [طه: ٩٢، ٩٣] يعني: أن تتَّبِعَني[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ﴾ مُناسَبةٌ بيْنَ ذِكْرِ النُّجومِ في القَسَمِ وبيْنَ المُقْسَمِ عليه -وهو القُرآنُ- مِن وُجوهٍ:

منها: أنَّ النُّجومَ جَعَلَها اللهُ يُهتدَى بها في ظُلُماتِ البَرِّ والبحرِ، وآياتُ القُرآنِ يُهتدَى بها في ظُلُماتِ الجَهلِ والغَيِّ، فتلك هدايةٌ في الظُّلماتِ الحِسِّيَّةِ، وآياتُ القُرآنِ هِدايةٌ في الظُّلُماتِ المَعنويَّةِ، فجَمَعَ بيْنَ الهدايتَينِ. معَ ما في النُّجومِ مِن الرُّجومِ للشَّياطينِ، وفي آياتِ القُرآنِ مِن رُجومِ شياطينِ الإنسِ والجِنِّ.

والنجومُ آياتُه: المشهودةُ المُعايَنةُ، والقرآنُ آياتُه: المَتلوَّةُ السَّمعيَّةُ، معَ ما في مَواقِعِها عندَ الغُروبِ مِن العِبرةِ والدَّلالةِ على آياتِه القُرآنيَّةِ ومَواقِعِها عندَ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٩، ٢٦٣).
ويُنظر ما تقدَّم في حاشية تفسير الآية (ص: ٤٩٧).

النُّزولِ[١].

٥- تأمَّلْ جُمَلَ القَسَمِ الَّتي في القُرآنِ، المُصَدَّرَةَ بحَرفِ النَّفي: كيفَ تجدُ المُقْسَمَ عليه مَنفيًّا ومُتَضَمِّنًا للنَّفي، ولا يخرمُ هذا قولُه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾؛ فإنَّه لَمَّا كان المقصودُ بهذا القَسَم نَفيَ ما قاله الكُفَّارُ في القُرآنِ مِن أنَّه شِعرٌ أو كِهانةٌ أو أساطيرُ الأوَّلينَ، صَدَّرَ القَولَ بأداةِ النَّفي، ثمَّ أثبَتَ له خِلافَ ما قالوه، فتَضمَّنتِ الآيةُ معنى: ليس الأمرُ كما يَزعُمونَ، ولكِنَّه قُرآنٌ كَريمٌ[٢]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ أنَّ القُرآنَ لا يَهُونُ بكَثرةِ التِّلاوةِ؛ لأنَّ الكلامَ متى أُعيدَ وكُرِّرَ استُهِينَ به، والقُرآنُ يكونُ إلى آخِرِ الدَّهرِ ولا يَزدادُ إلَّا عِزًّا[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ وقولِه: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] أنَّ القرآنَ حروفٌ وكلماتٌ؛ لأنَّ اللهَ أَخبرَ بأنه محفوظٌ في صدورِ أهلِ العلمِ، ومكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ؛ ولا يُحفَظُ ويُكتَبُ إلَّا ما هو حروفٌ وكلماتٌ، والقرآنُ كلامُ اللهِ حروفُه ومعانيه[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ أنَّه مِن كَرَمِ هذا القرآنِ العَظيمِ كَونُه مِن المَلِكِ الأعلى إلى خَيرِ الخَلقِ بسِفارةِ رُوحِ القُدُسِ، مُشتَمِلًا على أُصولِ العُلومِ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٢٧، ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٤٢).

المُهِمَّةِ في إصلاحِ المَعاشِ والمَعادِ، وبلِسانِ العَرَبِ -الَّذين اتَّفَقَت عُلَماءُ الفِرَقِ على أنَّ لِسانَهم أفصَحُ الألسُنِ-، وعلى وَجهٍ أعجَزَ العَرَبَ كافَّةً، وبَقيَّةَ الخَلقِ أجمَعينَ[(١)]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ دَلالةٌ مِن أظهرِ الأدِلَّةِ على نُبُوَّةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّ هذا القُرآنَ جاء مِن عِندِ اللهِ تعالى، وأنَّ الَّذي جاء به رُوحٌ مُطَهَّرٌ، فما للأرواحِ الخَبيثةِ عليه سَبيلٌ، وأنَّ الآيةَ أُختُ قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[(٢)] [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ تفضيلٌ للقُرآنِ على أفرادِ نَوعِه مِنَ الكُتُبِ الإلهيَّةِ، مثل التَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ، وفَضْلُه عليها: بأنَّه فاقها في استيفاءِ أغراضِ الدِّينِ، وأحوالِ المَعاشِ والمَعادِ، وإثباتِ المعتَقَداتِ بدَلائلِ التَّكوينِ، والإبلاغِ في دَحْضِ الباطِلِ دَحْضًا لم يَشتَمِلْ على مِثْلِه كِتابٌ سابِقٌ -وخاصَّةً الاعتقادَ-، وفي وُضوحِ معانيه، وفي كثرةِ دَلالتِه مع قِلَّةِ ألفاظِه، وفي فصاحتِه، وفي حُسنِ آياتِه، وحُسنِ مواقِعِها في السَّمعِ، وذلك مِن آثارِ ما أراد اللهُ به مِن عُمومِ الهدايةِ به، والصَّلاحيةِ لكُلِّ أمَّةٍ ولكُلِّ زَمانٍ؛ فهذا وصْفٌ للقُرآنِ بالرِّفعةِ على جميعِ الكُتُبِ حَقًّا، لا يستطيعُ المخالِفُ طَعنًا فيه[(٣)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا يَمَسُّ المُصحَفَ إلَّا طاهِرٌ؛ لأنَّه إذا كانت تلك الصُّحُفُ لا يَمَسُّها إلَّا المُطهَّرونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٣).

لكَرامتِها على اللهِ، فهذه الصُّحُفُ أَولى ألَّا يَمَسَّها إلَّا طاهِرٌ[١]، فدلَّت الآيةُ بتَنبيهِها على أنَّه لا يجوزُ أن يَمَسَّ القُرآنَ إلَّا طاهِرٌ؛ ولهذا قيل: إنَّ الآيةَ خَبَرٌ بمعنى النَّهيِ، أي: لا يَمَسَّ القُرآنَ إلَّا طاهِرٌ[٢].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه لا يُدْرِكُ مَعانيَ القُرآنِ ولا يَفهَمُه إلَّا القُلوبُ الطَّاهِرةُ، وحَرامٌ على القَلبِ المُتلوِّثِ بنَجاسةِ البِدَعِ والمُخالَفاتِ أنْ يَنالَ مَعانيَه، وأنْ يَفهَمَه كما ينبغي؛ قال البُخاريُّ في صَحيحِه في هذه الآيةِ: «لا يَجِدُ طَعْمَه ونفْعَه إلَّا مَنْ آمَنَ به»[٣]، وهذا أيضًا مِن إشارةِ الآيةِ وتَنبيهِها، وهو أنَّه لا يَلْتَذُّ به وبقِراءتِه وفَهْمِه وتدَبُّرِه إلَّا مَن شَهِدَ أنَّه كلامُ اللهِ، تكلَّمَ بها حقًّا، وأَنزَلَه على رَسولِه وَحْيًا، ولا يَنالُ مَعانيَه إلَّا مَن لم يكُنْ في قلْبِه حَرَجٌ منه بوَجهٍ مِن الوُجوهِ[٤]! وقد قيل: إنَّه لا يَبلُغُ حقائِقَ مَعرفةِ القُرآنِ إلَّا مَن يُطَهِّرُ نفْسَه مِن دَرَنِ الفَسادِ والجَهالاتِ والمُخالَفاتِ[٥]!

١٣- قَولُه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَتضَمَّنُ أُمورًا؛ أحدُها: أنَّه تعالى فوقَ خلْقِه كلِّهم، وأنَّ القرآنَ نَزَلَ مِن عندِه. والثَّاني: أنَّه تَكَلَّمَ به حقيقةً؛ لِقَولِه:

---

(١) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (١/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

واتَّفَقت المذاهبُ الفقهيَّةُ الأربعةُ على عدَمِ جوازِ مسِّ المصحفِ مِن غيرِ وُضوءٍ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (١/ ٥٧)، ((الشرح الكبير للدردير وحاشية الدسوقي)) (١/ ١٠٧)، ((المجموع)) للنووي (٢/ ٦٧)، ((الفروع)) لابن مفلح (١/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((صحيح البخاري)) (كتاب التوحيد- باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ [آل عمران: ٩٣]) (٤/ ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٣٠). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٤٢)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٥٢٨).

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولو كان غيرُه هو المتكلِّمَ به لَكان مِن ذلك الغَيرِ.

الأمرُ الثَّالثُ: ما تضمَّنَه قولُه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ رُبوبيَّتَه الكاملةَ لِخَلْقِه تأبى أنْ يَترُكَهم سُدًى؛ لا يأمُرُهم ولا ينهاهُم، ولا يُرشِدُهم إلى ما يَنفَعُهم، ويُحَذِّرُهم ما يَضُرُّهُم، بل يَترُكُهم هَمَلًا بمنزلةِ الأنعامِ السَّائمةِ! فمَن زَعَمَ ذلك لم يَقْدُرْ رَبَّ العالَمينَ قَدْرَه، ونَسَبَه إلى ما لا يَليقُ به تعالى. ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾[1] [المؤمنون: ١١٦].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القُرآنَ ليس بمَخلوقٍ؛ لأنَّه نَزَلَ مِنَ اللهِ تعالى، فهو كَلامُه، وكَلامُه مِن صِفاتِه تعالى، وصِفاتُه غيرُ مَخلوقةٍ[2].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القُرآنَ نازِلٌ لجَميعِ الخَلْقِ؛ ففيه دَليلٌ على عُمومِ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[3].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القُرآنَ نازِلٌ مِن رَبِّهم، وإذا كان كذلك فهو الحَكَمُ بَيْنَهم، الحاكِمُ عليهم[4].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ نُزولَ القُرآنِ هو مِن كَمالِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى، فإذا أُضيفَ إلى هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ٢، ٣] عُلِمَ أنَّ القُرآنَ رَحمةٌ للعِبادِ أيضًا، ورُبوبيَّةُ اللهِ تعالى مَبنيَّةٌ على الرَّحمةِ؛ قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣]، وكلُّ ما أمَرَ اللهُ به عبادَه أو نهاهم عنه فهو رَحمةٌ بهم[5].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٦ - ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، يُعرِبُ عن خِطابٍ مِن اللهِ تعالى مُوجَّهٍ إلى المُكذِّبين بالبعثِ القائلينَ: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧]، انتُقِلَ به إلى التَّنويهِ بالقرآنِ؛ لأنَّهم لَمَّا كذَّبوا بالبعثِ، وكان إثباتُ البعثِ مِن أهمِّ ما جاء به القرآنُ، وكان ممَّا أغْراهُم بتَكذيبِ القرآنِ اشتِمالُه على إثباتِ البعثِ الَّذي عَدُّوه مُحالًا، زِيادةً على تَكذيبِهم به في غَيرِ ذلك ممَّا جاء به مِن إبطالِ شِرْكِهم وأكاذيبِهم؛ فلمَّا قامَتِ الحُجَّةُ على خَطَئِهم في تَكذيبِهم، فقد تَبيَّنَ صِدقُ ما أنْبَأَهم به القرآنُ، فثبَتَ صِدْقُه؛ ولذلك تَهيَّأَ المقامُ للتَّنويهِ بشَأْنِه[١].

- والفاءُ لتَفريعِ القسَمِ على ما سبَقَ مِن أدلَّةِ وُقوعِ البَعثِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠] إخبارٌ بيَومِ البعثِ، وإنذارٌ لهم به، وهم قد أنْكَروه، ومِن أجْلِ استِحالتِه في نَظَرِهم القاصرِ كذَّبوا القرآنَ، وكذَّبوا مَن جاء به، ففُرِّعَ على تَحقيقِ وُقوعِ البعثِ والإنذارِ به تَحقيقُ أنَّ القرآنَ مُنزَّهٌ عن النَّقائصِ، وأنَّه تَنزيلٌ مِن اللهِ، وأنَّ الَّذي جاء به مُبلِّغٌ عن اللهِ؛ فتَفريعُ القسَمِ تَفريعٌ مَعنويٌّ باعتبارِ المُقسَمِ عليه، وهو أيضًا تَفريعٌ ذِكريٌّ باعتبارِ إنشاءِ القسَمِ إنْ قالوا لك: أَقْسِمْ بمَواقعِ النُّجومِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ بمعْنى: أُقسِمُ، و(لا) مَزيدةٌ للتَّوكيدِ، وأصْلُها نافيةٌ تدُلُّ على أنَّ القائلَ لا يُقدِمُ على القسَمِ بما أقسَمَ به خَشيةَ سُوءِ عاقبةِ الكذِبِ في القسَمِ، وبمعْنى أنَّه غيرُ مُحتاجٍ إلى القسَمِ؛ لأنَّ الأمرَ واضحُ الثُّبوتِ، ثمَّ كثُرَ هذا الاستِعمالُ فصارَ مُرادًا به تأْكيدُ الخبرِ، فساوى القسَمَ؛ بدليلِ قولِه عَقِبَه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، وعلى الوجْهينِ فهو إدماجٌ[1] للتَّنويهِ بشأْنِ ما لو كان مُقسِمًا لأقسَمَ به. وعلى الوجْهِ الثَّاني يكونُ قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ بمعْنى: وإنَّ المذكورَ لَشيءٌ عظيمٌ يُقسِمُ به المُقسِمون، فإطلاقُ (قَسَم) عليه مِن إطلاقِ المصدرِ وإرادةِ المفعولِ، كالخلْقِ بمعْنى المَخلوقِ. ويجوزُ أنْ يكونَ (لا) حرْفًا مُستقِلًّا عن فِعلِ ﴿أُقۡسِمُ﴾، واقعًا جَوابًا لكلامٍ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه ما بعْدَه مِن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾، ردًّا على أقوالِهم في القرآنِ: إنَّه شِعرٌ، أو سِحرٌ، أو أساطيرُ الأوَّلين، أو قولُ كاهنٍ، ويكونَ قولُه: ﴿أُقۡسِمُ﴾ استئنافًا، فمَعنى الكلامِ مع فاءِ التَّفريعِ: أنَّه تفرَّعَ على ما سطَعَ مِن أدلَّةِ إمكانِ البعثِ ما يُبطِلُ قولَكم في القرآنِ، فهو ليس كما تَزعُمون، بلْ هو قرآنٌ كريمٌ... إلخ[2].

- وذِكرُ (مَواقع النُّجوم) تَنويهٌ بها، وتَعظيمٌ لأمْرِها؛ لدَلالةِ أحوالِها على دَقائقِ حِكمةِ اللهِ تعالى في نِظامِ سَيرِها، وبدائعِ قُدرتِه على تَسخيرِها[3].

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ اعتراضٌ في اعتراضٍ، قُصِدَ به

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣١).

المُبالَغةُ في تَحقيقِ مَضمونِ الجُملةِ القَسَميَّةِ وتأْكيدِه؛ حيث اعتُرِضَ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ بيْن القسَمِ وجَوابِه الَّذي هو قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾، وبقولِه تعالى: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ بيْن المَوصوفِ وصِفتِه[1]، فجاء هذا الاعتراضُ في ضِمْنِ هذا الاعتراضِ ألطَفَ شَيءٍ وأحسَنَه مَوقِعًا، وأحسَنُ ما يَقَعُ هذا الاعتِراضُ إذا تَضَمَّنَ تأكيدًا أو تَنبيهًا أو احتِرازًا[2].

- والعِلمُ الَّذي اقْتَضَى شَرْطُ (لو) الامتِناعيَّةِ عدَمَ حُصولِه لهم -إنْ كان ضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدًا على القسَمِ- هو العِلمُ التَّفصيليُّ بأحوالِ مَواقعِ النُّجومِ؛ فإنَّ المُشرِكين لا يَخْلُون مِن عِلمٍ إجماليٍّ مُتفاوِتٍ بأنَّ في تلك المواقعِ عِبرةً للنَّاظِرينَ، أو نُزِّلَ ذلك العِلمُ الإجماليُّ مَنزِلةَ العدَمِ؛ لأنَّهم بكُفْرِهم لم يَجْرُوا على مُوجَبِ ذلك العِلمِ مِن تَوحيدِ اللهِ، فلو عَلِموا ما اشتَمَلَت عليه أحوالُ مَواقعِ النُّجومِ مِن مُتعلِّقاتِ صِفاتِ اللهِ تعالى، لَعَلِموا أنَّها مَواقعُ قُدْسيَّةٌ لا يَحلِفُ بها إلَّا بارٌّ في يَمينِه، ولكنَّهم بمَعزِلٍ عن هذا العِلمِ؛ فإنَّ جَلالةَ المُقسَمِ به ممَّا يَزَعُ الحالِفَ عن الكذبِ في يَمينِه[3].

- وجوابُ (لو) إمَّا محذوفٌ بالكليَّةِ؛ لأنَّه لا يتعلَّقُ بذِكرِه غرضٌ؛ إذ المقصودُ هو نفْيُ عِلْمِهم، أي: أُقسِمُ بمواقِعِ النُّجومِ، وإنَّه لقَسَمٌ عظيمٌ، ولكنَّكم لا تَعْلمونَ منزلتَه. وإمَّا أنْ يكونَ جوابُها مقدَّرًا، أي: لَعظَّمْتموه، ولآمنْتُم بما أقْسَمْنا عليه، لكنَّكم ما عظَّمتُموه ولا آمنْتُم، فعُلِم أنَّكم لا تَعْلمونَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٠)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ١٨٣).

- ومَفعولُ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه الكلامُ، أي: لو تَعلَمون عظَمَتَه، أي: دَلائلَ عَظَمتِه. ولك أنْ تَجعَلَ فِعلَ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ مُنزَّلًا مَنزِلةَ اللَّازمِ، أي: لو كان لكم عِلمٌ، لَكِنَّكم لا تَتَّصِفون بالعِلمِ[١].

- وضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ راجعٌ إلى غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ؛ لكَونِه مَعلومًا مُستحضَرًا لهم[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- جُملةُ ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨، ٧٩]، فهي تابِعةٌ لصِفةِ القرآنِ، أي: فبُلوغُه إليكم كان بتَنزيلٍ مِن اللهِ، أي: نزَّلَ به الملائِكةَ[٣].

- وسمَّاه باسمِ المَصدَرِ للمُبالَغةِ، ولأنَّ هذا المَصدَرَ أغلَبُ أحوالِه؛ ولذلك غَلَب عليه هذا الاسمُ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، الفاءُ تَفريعٌ على ما سِيقَ لأجْلِه الكلامُ الَّذي قبْلَها في غرَضِه مِن التَّنويهِ بشأْنِ القرآنِ[٥].

- قولُه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ إشارةٌ إلى القرآنِ؛ لِمُناسَبةِ الانتِقالِ مِن التَّنويهِ بشأْنِ القرآنِ إلى الإنكارِ على المُكذِّبين به وتَوبيخِهم، فالتَّفريعُ على قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٧).

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٧] الآيةَ، والعدولُ عن الإضمارِ إلى اسمِ الإشارةِ بقولِه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ دونَ أنْ يقولَ: أفبِهِ أنتُم مُدهِنون، إخراجٌ للكلامِ على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ؛ لتَحصُلَ باسمِ الإشارةِ زِيادةُ التَّنويهِ بالقرآنِ الَّذي ذُكِرَتْ نُعوتُه الجليلةُ المُوجِبةُ لإعظامِه وإجلالِه[١].

- والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والإنكارِ، أي: كَلامُكم لا يَنْبغي إلَّا أنْ يكونَ مُداهَنةً، كما يُقالُ لأحدٍ قال كلامًا باطلًا: أتَهزَأُ؟! أي: قد نهَضَ بُرهانُ صِدقِ القرآنِ بحيث لا يُكذِّبُ به مُكذِّبٌ إلَّا وهو لا يَعتقِدُ أنَّه كذِبٌ؛ لأنَّ حُصولَ العلمِ بما قام عليه البرهانُ لا يَستطيعُ صاحبُه دفْعَه عن نفْسِه، فليس إصرارُكم على التَّكذيبِ بعْدَ ذلك إلَّا مُداهنةً لقَومِكم، تَخشَون إنْ صدَّقْتُم بهذا الحديثِ أنْ تَزولَ رِئاستُكم[٢].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾؛ للاهتمامِ[٣].

- وصَوغُ الجُملةِ الاسميَّةِ في ﴿أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾؛ لأنَّ المُقرَّرَ عليه إدْهانٌ ثابتٌ مُستمِرٌّ[٤].

- قولُه: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١] عطْفَ الجُملةِ على الجُملةِ، فهي داخلةٌ في حيِّزِ الاستفهامِ ومُستقِلَّةٌ بمعْناها، والمعْنى: أفَتجْعَلون رِزقَكم أنَّكم تُكذِّبون؟! وهو تَفريعٌ على ما تَضمَّنَه الاستِدلالُ بتَكوينِ نسْلِ الإنسانِ، وخلْقِ الحَبِّ، والماءِ في المُزنِ، والنَّارِ مِن أعوادِ الاقتِداحِ؛ فإنَّ في مَجموعِ ذلك حُصولَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٧، ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُقوِّماتِ الأقواتِ، وهي رِزقٌ، والنَّسلُ رِزقٌ، يُقال: رُزِقَ فُلانٌ ولَدًا؛ لأنَّ الرِّزقَ يُطلَقُ على العطاءِ النَّافعِ، والاستفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ العاطفِ إنكاريٌّ[١].

- وإذ كان التَّكذيبُ لا يصِحُّ أنْ يُجعَلَ رِزقًا، تَعيَّنَ بدلالةِ الاقتضاءِ تَقديرُ مَحذوفٍ يُفيدُه الكلامُ، أي: شُكرَ رِزقِكم، أو نحْوه، أي: تَجعَلون شُكرَ اللهِ على رِزقِه إيَّاكم أنْ تُكذِّبوا بقُدرتِه على إعادةِ الحياةِ؛ لأنَّهم عَدَلوا عن شُكرِ اللهِ تعالى فيما أنْعَمَ به عليهم، فاسْتَنْقَصوا قُدرتَه على إعادةِ الأجسامِ، ونَسَبوا الزَّرعَ لأنفُسِهم، وزَعَموا أنَّ المطَرَ تُمطِرُه النُّجومُ المُسمَّاةُ بالأنواءِ[٢]، وذلك على قولٍ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٣٩، ٣٤٠).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٥٠٥).

الآيات (٨٢-٩٦)

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن
لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ
مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ
لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾
وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾: أي: مَجْرى النَّفَسِ، وقيل: مجرَى الطَّعامِ[١].

﴿مَدِينِينَ﴾: أي: مَجْزِيِّينَ مُحاسَبِينَ. وقيل: مَملوكينَ أذِلَّاءَ؛ مِن قَولِك: دِنْتُ له بالطَّاعةِ، وأصلُ (دين): يدُلُّ على الانقيادِ والذُّلِّ، فالحسابُ والجزاءُ كِلاهما أمرٌ يُنْقادُ له[٢].

﴿فَرَوْحٌ﴾: أي: راحةٌ واستِراحةٌ وفَرَحٌ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ، وفُسحةٍ، واطِّرادٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

﴿وَرَيْحَانٌ﴾: أي: رِزقٌ طَيِّبٌ. وقيل: هو النَّبتُ ذو الرَّائحةِ الجَميلةِ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ، وفُسحةٍ، واطِّرادٍ، وأصلُ ذلك كلِّه الرِّيحُ[(١)].

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾: أي: دُخولٌ لها، ومُقاساةٌ لحَرِّها، وأصلُ (صلي): يدُلُّ على الإيقادِ بالنَّارِ، والجحيمُ: النَّارُ، وأصْلُ (جحم): عِظَمُ الحرارةِ وشِدَّتُها[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا حالَ الإنسانِ عندَ الاحتضارِ: فهلَّا إذا بَلَغَت رُوحُ المَيِّتِ حَلْقَه، وأنتم -أيُّها الحاضِرونَ عندَه- تَنظُرونَ إليه وهو في سَكَراتِ المَوتِ، ومَلائِكتُنا المُوكَّلونَ بقَبضِ رُوحِه أقرَبُ إليه منكم، ولكِن لا تَرَونَهم، فهلَّا إنْ كُنتُم -أيُّها المُكَذِّبونَ بالبَعثِ- غَيرَ مملوكينَ، ولا مُحاسَبينَ على أعمالِكم؛ هلَّا تَرجِعونَ رُوحَ المُحتَضَرِ إلى جَسَدِه إنْ كُنتُم صادِقينَ في دَعوى إنكارِ البَعثِ والحِسابِ!

ثمَّ يذكرُ الله تعالى أحوالَ الطَّوائفِ الثَّلاثِ: المقرَّبينَ، وأصحابِ اليمينِ، والمكذِّبينَ الضَّالِّينَ، فيقولُ: فأمَّا إنْ كان المَيِّتُ مِن المُقَرَّبينَ عِندَ اللهِ سُبحانَه تعالى، فله راحةٌ وسُرورٌ ورَحمةٌ، ورِزقٌ طَيِّبٌ وطِيبُ رائِحةٍ، وجَنَّةٌ يَتنَعَّمُ فيها؛ وأمَّا إنْ كان المَيِّتُ مِن أصحابِ اليَمينِ، فيُقالُ له: سَلامٌ لك لأنَّك مِن أصحابِ اليَمينِ؛ وأمَّا إن كان المَيِّتُ مِنَ المُكَذِّبينَ الضَّالِّينَ، فله ضِيافةٌ مِن شَرابٍ شَديدِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤، ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩) و (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠).

الحَرارةِ، ونارٌ يُقاسِي حَرَّها.

إنَّ هذا الجَزاءَ المذكورَ لِمَن تَقَدَّمَ ذِكرُهم لَهُو أمرٌ ثابِتٌ لا شَكَّ في وُقوعِه؛ فنَزِّهْ ربَّك العَظيمَ -يا مُحمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، قائِلًا: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنكَرَ الله تعالى عليهم، وعَجَّب منهم في أن يَنسُبوا لِغَيرِه فِعلًا، أو يُكَذِّبوا له خبَرًا؛ سَبَّب عن ذلك -تحقيقًا لأنَّه لا فاعِلَ سِواه- قَولَه[1]:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: فهلَّا إذا بَلَغَت رُوحُ المَيِّتِ حَلْقَه حينَ خُروجِها مِن جَسَدِه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٥٠).

ممَّن اختار أنَّ الحُلْقومَ هو مجرى الطَّعامِ: ابنُ عطيَّة، والسَّمينُ الحلبي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٥٧).

قال البقاعي: (﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾: وهو مَجرى الطَّعامِ في الحَلقِ، والحَلقُ: مَساغُ الطَّعامِ والشَّرابِ، مَعروفٌ، فكان الحُلْقومُ أَدنى الحَلقِ إلى جِهةِ اللِّسانِ؛ لأنَّ المِيمَ لِمُنقَطَعِ التَّمامِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٤٢).

وممَّن اختار أنَّ الحُلقومَ هو مجرى النَّفَسِ: الخازنُ، والنيسابوري، وابن عثيمين: يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٨)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٤٨). =

كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۞ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ۞ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۞ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۞ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦ - ٣٠].

﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ٨٤﴾.

أي: وأنتم -أيُّها الحاضِرونَ عندَ المُحتَضَرِ- تَنظُرونَ إليه وهو في سَكَراتِ المَوتِ، ولا تَستَطيعونَ رَدَّ رُوحِه إلى مَوضِعِها[1].

﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ٨٥﴾.

أي: ومَلائِكتُنا -الَّذين نُرسِلُهم إلى المُحتَضَرِ لِقَبضِ رُوحِه- أقرَبُ إليه منكم -أيُّها الحاضِرونَ عِندَه- ولكِن لا تَرَونَهم[2].

= قال الأزهري: (والحُلْقومُ وهي الحُنْجورُ، وهو مَخْرَجُ النَّفَسِ، لا يَجْري فيه الطَّعامُ والشَّرابُ، والَّذي يجْري فيه الطَّعامُ والشَّراب يُقال له المَرِيءُ). ((تهذيب اللغة)) (٥/ ١٩٦). ويُنظر: ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (٤/ ٤٤).

وقال ابن أبي نصر: (والحُلْقومُ مَبدؤُه من أقْصَى الفَمِ، وهو مجْرى النَّفَسِ لا غيرُ). ((تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم)) (ص: ٧٥).

وفي ((المعجم الوسيط)) (١/ ١٩٣): (الحُلْقومُ: تَجويفٌ خلْفَ تَجويفِ الفَمِ، وفيه سِتُّ فَتَحاتٍ: فَتْحةُ الفَمِ الخَلفيَّةُ، وفَتْحَتَا المَنخِرَينِ، وفتحَتا الأُذُنَينِ، وفتحةُ الحَنجرةِ، وهي مجْرى الطَّعامِ والشَّرابِ والنَّفَسِ).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٣)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٣)، ((شرح حديث النزول)) لابن تيميَّة (ص: ١٢٥-١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥١، ٣٥٢).

وقد دَلَّ سياقُ الآياتِ على أنَّ المرادَ بالآيةِ الملائِكةُ؛ فقولُه: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ هذا القريبَ في المكانِ نفْسِه ولكن لا نُبصِرُه، وهذا يُعَيِّنُ أن يكونَ المرادُ قُربَ =

كما قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا * وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ [النازعات: ١، ٢].

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: فهلَّا إنْ كُنتُم -أيُّها المُكَذِّبونَ بالبَعثِ- غَيرَ مقهورينَ مملوكينَ، ولا مُحاسَبينَ مَجْزِيِّينَ بأعمالِكم[1].

= الملائكةِ؛ لاستِحالةِ ذلك في حقِّ الله تعالى. فاللهُ تعالى لو أراد قُرْبَ ذاتِه لم يُخَصَّ ذلك بهذه الحالِ، ولا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾؛ فإنَّ هذا إنَّما يُقالُ إذا كان هناك مَن يجوزُ أنْ يُبصَرَ في بَعضِ الأحوالِ، ولكِنْ نحن لا نُبْصِرُه، والرَّبُّ تعالى لا يَراه في هذه الحالِ لا الملائِكةُ ولا البَشَرُ. وأيضًا فإنَّ القُربَ مُقَيَّدٌ بحالِ الاحتِضارِ، والَّذي يَحضُرُ الميتَ عندَ موتِه هم الملائكةُ.

وأيضًا فإنَّه قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، فأخبَرَ عمَّن هو أقرَبُ إلى المُحتَضَرِ مِن النَّاسِ الَّذين عِندَه في هذه الحالِ، ولا يجوزُ أنْ يرادَ به قُرْبُ الرَّبِّ الخاصُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]؛ فإنَّ ذاك إنَّما هو قُرْبُه إلى مَن دعاه أو عَبَدَه، وهذا المُحتَضَرُ قد يكونُ كافِرًا أو فاجِرًا أو مُؤمِنًا أو مُقَرَّبًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾، ومَعلومٌ أنَّ مِثلَ هذا المُكَذِّبِ لا يَخُصُّه الرَّبُّ بقُرْبِه منه دونَ مَن حَوْلَه، وقد يكونُ حَوْلَه قومٌ مُؤمِنونَ، وإنَّما همُ الملائِكةُ الَّذين يَحضُرونَ عندَ المؤمِنِ والكافِرِ.

ومِمَّا يدُلُّ على ذلك أنَّه ذَكَرَه بصيغةِ الجَمعِ، فقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، وهذا كقَولِه سُبحانَه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧ - ١٩]؛ فإنَّ مِثْلَ هذا اللَّفظِ إذا ذَكَرَه اللهُ تعالى في كتابِه دلَّ على أنَّ المرادَ أنَّه سُبحانَه يَفعَلُ ذلك بجُنودِه وأعوانِه مِن الملائِكةِ؛ فإنَّ صيغةَ «نحن» يقولُها المتبوعُ المُطاعُ العَظيمُ الَّذي له جُنودٌ يَتَّبِعون أمْرَه، وليس لأحدٍ جُندٌ يُطيعونَه كطاعةِ الملائِكةِ ربَّهم، وهو خالِقُهم وربُّهم؛ فكان لفظُ «نحن» هنا هو المناسِبَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٥/ ٥٠٥ - ٥٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٣، ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣١)، ((تفسير =

﴿تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٨٧﴾.

أي: هلَّا تَرجِعونَ رُوحَ المُحتَضَرِ إلى جَسَدِه إنْ كُنتُم صادِقينَ في دَعوى إنكارِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ[1]؟

= ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٢).

قال الرازي: (في ﴿مَدِينِينَ﴾ أقوالٌ؛ منهم مَن قال: المرادُ مَملوكينَ، ومنهم مَن قال: مَجزيينَ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ١٧٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مَدِينِينَ﴾: أي: مَجزيِّينَ مُحاسَبينَ: أبو عُبَيْدَةَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والقرطبيُّ، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٢).

ونسَبَ الواحديُّ والبغويُّ هذا القولَ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢).

وممَّن اختار أنَّ معنى مَدينينَ: مملوكينَ: الفرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، وابن عطية، والخازن. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٣).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ: الثعلبيُّ، والواحدي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٣).

قال الزمخشري: (ترتيبُ الآيةِ: فلولا ترجِعونَها إذا بلَغَت الحلقومَ إنْ كنتُم غيرَ مدينينَ. و﴿فَلَوۡلَآ﴾ الثانيةُ مكرَّرةٌ للتوكيدِ، والضَّميرُ في ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾ للنَّفسِ وهي الرُّوحُ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٣، ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

قال ابن جرير: (جوابُ قولِه: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، وجوابُ قولِه: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ جوابٌ واحدٌ، وهو قولُه: ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٥). ويُنظر: ((تفسير =

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شُروعٌ في بَيانِ حالِ المُتوفَّى بعْدَ المماتِ، إثرَ بَيانِ حالِه عندَ الوفاةِ[١].

وأيضًا لَمَّا دَلَّ بما ذُكِرَ على أنَّهم مُحاسَبونَ ومَجْزِيُّونَ ومَملوكونَ؛ ذكَرَ طَبَقاتِهم[٢].

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨ ﴾.

أي: فأمَّا إنْ كان المَيِّتُ مِن المُقَرَّبينَ عِندَ اللهِ سُبحانَه تعالى[٣].

﴿ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ٨٩ ﴾.

﴿ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿فَرُوحٌ﴾ بضَمِّ الرَّاءِ، أي: فله حياةٌ دائِمةٌ لا مَوتَ فيها. وقيل:

= القرطبي)) (١٧/ ٢٣١، ٢٣٢).

وقال ابنُ عاشور: (معنى الكلام: قد أخبرَكم اللهُ بأنَّه يُجازي النَّاسَ على أفعالِهم؛ ولذلك فهو مُحْييهم بعْدَ موتِهم لإجراءِ الجَزاءِ عليهم، وقد دلَّكم على ذلك بانتِزاعِ أرواحِهم منهم قَهرًا، فلو كان ما تَزعُمونَ مِن أنَّكم غيرُ مَجْزِيِّينَ بعْدَ الموتِ، لَبَقِيَت الأرواحُ في أجسادِها؛ إذ لا فائِدةَ في انتِزاعِها منها بعْدَ إيداعِها فيها لولا حِكمةُ نَقْلِها إلى حياةٍ ثانيةٍ؛ لِيَجريَ جَزاؤُها على أفعالِها في الحياةِ الأُولى!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨).

قال ابنُ كثير: (هم الَّذين فَعَلوا الواجِباتِ والمُستَحَبَّاتِ، وتَرَكوا المحَرَّماتِ والمكروهاتِ وبَعضَ المُباحاتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٣).

المعنى: تخرُجُ رُوحُه معها الرَّيحانُ. وقيل: فله رَحمةٌ[١].

٢- قِراءةُ: ﴿فَرَوْحٌ﴾ بفَتحِ الرَّاءِ، أي: فله بعْدَ مَوتِه راحةٌ. وقيل: رَحمةٌ ومَغفِرةٌ. وقيل: فَرَجٌ. وقيل: بَردٌ. وقيلَ: فَرَحٌ. وقيل: طِيبُ النَّسيمِ[٢].

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾.

أي: فله راحةٌ وسُرورٌ ورَحمةٌ، ورِزقٌ طَيِّبٌ وطِيبُ رائِحةٍ[٣].

---

(١) قرأ بها رُوَيسٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٢، ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٧، ٣٤٨).
قال ابنُ جرير بعدَ أن ذكر الأقوالَ في الرَّوحِ، وأنَّ مِنهم مَن قال: هي الرَّاحةُ، ومنهم مَن قال: الفرَحُ، ومنهم مَن قال: الرَّحمةُ- قال: (وأَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ عندي: قَولُ مَن قال: عُنِيَ بالرَّوحِ: الفَرَحُ والرَّحمةُ والمَغفِرةُ، وأصْلُه مِن قَولِهم: وجَدْتُ رَوحًا: إذا وَجَد نَسيمًا رَوْحًا يَستريحُ إليه مِن كَرْبِ الحَرِّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٩). ويُنظر: ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٤٠).
وقال النَّحَّاسُ: (أمَّا ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ ففي معناه ثلاثةُ أقوالٍ؛ منها أنَّه الرِّزقُ، ومنها أنَّه الرَّاحةُ، ومنها أنَّه الرَّيحانُ الَّذي يُشَمُّ). ((إعراب القرآن)) (٤/ ٢٣٠).
ممَّن اختار أنَّ الرَّيحانَ المرادُ به الرِّزقُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٢٢٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٩٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٢٣).
قال ابنُ جرير: (أمَّا الرَّيحانُ فإنَّه عِندي الرَّيحانُ الَّذي يُتلَقَّى به عندَ الموتِ، كما قال أبو =

عن أبي قَتادةَ بنِ رِبْعِيٍّ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم مُرَّ عليه بجِنازةٍ، فقال: مُستريحٌ ومُستراحٌ منه! قالوا: يا رَسولَ اللهِ، ما المُستريحُ والمُستراحُ منه؟ قال: العَبدُ المُؤمِنُ يَستريحُ مِن نَصَبِ الدُّنيا وأذاها إلى رَحمةِ اللهِ، والعَبدُ الفاجِرُ يَستريحُ منه العِبادُ والبِلادُ، والشَّجَرُ والدَّوابُّ!))[1].

وعن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبْدَ المؤمِنَ إذا كانَ في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقْبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهمُ الشَّمْسُ، معَهم كَفَنٌ مِن أكْفانِ الجَنَّةِ، وحَنُوطٍ[2] مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجلِسوا مِنه مَدَّ البَصَرِ، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوْتِ علَيه السَّلامُ، حتَّى يَجلِسَ عندَ رَأْسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخْرُجي إلى مَغْفِرةٍ مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ. فتَخْرُجُ تَسِيلُ كَما تَسِيلُ القَطْرةُ مِن فِي السِّقَاءِ،

= العاليةِ والحَسَنُ ومَن قال في ذلك نحوَ قَولِهما؛ لأنَّ ذلك الأغلَبُ والأظهَرُ مِن معانيه)). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٩).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ -أي أنَّ الرَّيحانَ الرِّزقُ، وأيضًا النَّبتُ طيِّبُ الرَّائحةِ-: البِقاعي، فقال: (﴿وَرَيْحَانٌ﴾ أي: رِزقٌ عظيمٌ، ونباتٌ حسَنٌ بهِجٌ، وأزاهيرُ طيِّبةُ الرَّائحةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٤٥).

وذكر ابنُ عثيمينَ أنَّ القولَ بأنَّ المرادَ بالرَّيحانِ كلُّ ما يسُرُّ النَّفْسَ، وما فيه راحتُها ولَذَّتُها مِن مأكولٍ، ومَشروبٍ، ومَلبوسٍ، ومنكوحٍ، ومَشمومٍ- هو أشمَلُ الأقوالِ، فتُحمَلُ الآيةُ عليه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٣).

وقال ابنُ كثيرٍ -بعدَ أن ذكَر بعضَ الأقوالِ في الرَّوحِ والرَّيحانِ-: (وكلُّ هذه الأقوالِ مُتقاربةٌ صحيحةٌ؛ فإنَّ مَن مات مُقرَّبًا حصَل له جميعُ ذلك مِن الرَّحمةِ والرَّاحةِ والاستِراحةِ، والفرَحِ والسُّرورِ والرِّزقِ الحسَنِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٩).

(١) رواه البخاريُّ (٦٥١٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩٥٠).

(٢) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٦).

فيَأْخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَأخُذوها، فيَجْعَلوها في ذَلِك الكَفَنِ، وفي ذلك الحَنُوطِ، ويَخْرُجُ مِنها كأَطْيَبِ نَفْحةٍ[١] مِسْكٍ وُجِدَت على وَجْهِ الأرضِ. فيَصْعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ المَلائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحْسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنْتَهوا بها إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيَسْتَفتِحون له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها، حتَّى يُنْتَهى به إلى السَّماءِ السَّابِعةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَ عَبْدي في عِلِّيِّينَ[٢]، وأعيدُوه إلى الأرضِ؛ فإنِّي مِنها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومِنْها أُخْرِجُهم تارَةً أُخْرى. فتُعادُ رُوحُه في جَسَدِه، فيَأْتيه مَلَكانِ، فيُجْلِسانِه، فيَقولانِ له: مَن رَبُّك؟ فيَقولُ: رَبِّيَ اللهُ، فيَقولانِ له: ما دِينُك؟ فيَقولُ: دِينيَ الإسلامُ، فيَقولانِ له: ما هذا الرَّجُلُ الَّذي بُعِث فيكُم؟ فيَقولُ: هو رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيَقولانِ له: وما عِلْمُك؟ فيَقولُ: قرَأتُ كِتابَ اللهِ، فآمَنْتُ به وصَدَّقتُ، فيُنادي مُنادٍ في السَّماءِ: أنْ صَدَق عَبْدي، فأفْرِشوه مِنَ الجنَّةِ، وألبِسُوه مِن الجَنَّةِ، وافْتَحوا له بابًا إلى الجنَّةِ. فيَأْتِيه مِنْ رَوْحِها[٣] وطِيبِها، ويُفْسَحُ[٤] له في قَبْرِه مَدَّ بَصَرِه. ويَأْتيه رجُلٌ حسَنُ الوَجهِ، حَسنُ الثِّيابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فيَقولُ: أبْشِرْ بالَّذي يَسُرُّك؛ هذا يَومُك الَّذي كنتَ تُوعَدُ، فيَقولُ له: مَن أنتَ؛ فوَجْهُك الوَجهُ يَجيءُ بالخَيرِ؟ فيَقولُ: أنا عمَلُكَ الصَّالحُ، فيَقولُ: رَبِّ أقِمِ السَّاعةَ حتَّى أرجِعَ إلى أهْلي ومالي))[٥].

---

(١) النَّفحةُ: المرَّةُ مِن نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحَتِه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).

(٢) عِلِّيِّينَ: هو دِيوانُ المُقَرَّبينَ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٦).

(٣) مِن رَوْحِها (بفتحِ الرَّاءِ): أي: مِن نَسيمِها. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٧).

(٤) يُفسَحُ: أي: يُوسَّعُ له. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٧).

(٥) أخرجه ابنُ أبي شَيْبةَ في ((المصنَّف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والطيالسي (٧٨٩)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقارِبةٍ. =

﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.

أي: وله جَنَّةٌ يَتنعَّمُ فيها[١].

عن كَعبِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّما نَسَمةُ المُؤمِنِ طائِرٌ يَعْلُقُ[٢] في شَجَرِ الجَنَّةِ حتَّى يَرجِعَه اللهُ تبارك وتعالى إلى جَسَدِه يومَ يَبعَثُه))[٣].

وعن عائِشةَ رضيَ اللهُ عنها، قالت: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن أحَبَّ لِقاءَ اللهِ أحَبَّ اللهُ لِقاءَه، ومَن كَرِهَ لِقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقاءَه. فقُلتُ: يا نبيَّ اللهِ، أكراهيةَ المَوتِ؟ فكُلُّنا نَكرَهُ الموتَ! فقال: ليس كذلك، ولكِنَّ المؤمِنَ إذا بُشِّرَ برَحمةِ اللهِ ورِضوانِه وجَنَّتِه، أحَبَّ لِقاءَ اللهِ، فأحَبَّ اللهُ لِقاءَه، وإنَّ الكافِرَ إذا بُشِّرَ

= صَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨)، وحَسَّنه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠). وصَحَّح إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وقال ابن مَنْدَه في ((الإيمان)) (٣٩٨): (إسنادُه مُتَّصِلٌ مَشهورٌ ثابتٌ على رَسمِ الجماعةِ).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧).

قال السمعاني: (قال أهلُ التَّفسيرِ: الرَّوحُ والرَّيحانُ في القَبرِ، وجَنَّةُ نَعيمٍ يومَ القيامةِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٢).

وقال ابن القيِّم: (فيُعطَون هذه الثَّلاثَ في البَرزَخِ وفي المَعادِ الثَّاني). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٤١).

(٢) يَعلُقُ -بضَمِّ اللَّامِ- أي: يتناوَلُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢١٦).

(٣) أخرجه النَّسائي (٢٠٧٣)، وابن ماجه (٤٢٧١)، وأحمد (١٥٧٧٨) واللَّفظُ له.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٤٦٥٧)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (٢/ ٦١٤)، وابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٤/ ١٢٥)، وابنُ القيم في ((الروح)) (١/ ٣٨١)، وابنُ حجر في ((توالي التأسيس)) (١/ ٢٠٣)، وابن باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (١٠/ ٩٧)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢٧١).

بعَذابِ اللهِ وسَخَطِه، كَرِهَ لِقاءَ اللهِ، وكَرِهَ اللهُ لِقاءَه))[١].

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩٠﴾.

أي: وأمَّا إنْ كان المَيِّتُ مِن أصحابِ اليَمينِ[٢].

﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩١﴾.

أي: فيُقالُ له: سَلامٌ لك لأنَّك مِن أصحابِ اليمينِ[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥٠).

قال السعدي: (﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ وهم الَّذين أدَّوُا الواجباتِ، وتَرَكوا المحَرَّماتِ، وإنْ حَصَل منهم التَّقصيرُ في بَعضِ الحُقوقِ الَّتي لا تُخِلُّ بتوحيدِهم وإيمانِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ: ابنُ جرير، وابن القيم، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر المصادر السابقة.

قال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: معناه: فسَلامٌ لك أنَّك مِن أصحابِ اليمينِ، ثمَّ حُذِفَتْ «أن»، واجتُزِئَ بدَلالةِ «مِن» عليها منها، بمعنى: فسَلِمْتَ مِن عذابِ الله، وممَّا تَكْرَهُ؛ لأنَّك مِن أصحابِ اليمينِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨١).

وقال السمعاني: (وقولُه تعالَى: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: لأنَّك مِن أصحابِ اليمينِ. وهذا قولُ كثيرٍ مِن المُفسِّرينَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٣).

وقال ابن كثير: (أي: تُبشِّرُهم الملائكةُ بذلك، تقولُ لأحدِهم: سلامٌ لك، أي: لا بأسَ عليك، أنت إلى سلامةٍ، أنت مِن أصحابِ اليمينِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥٠).

وقال ابن القيِّم: (﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ﴾ أي: ثبَت لك السَّلامُ، وحصَل لك، وعلى هذا فالخِطابُ لكلِّ مَن هو مِن هذا الضَّربِ، فهو خِطابٌ للجِنسِ، أي: فسلامٌ لك يا مَن هو مِن أصحابِ اليمينِ، =

= كما تقولُ: هنيئًا لك يا مَن هو منهم؛ ولهذا -واللهُ أعلَمُ- أتى بحرفِ «مِن» في قولِه: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، والجارُّ والمجرورُ في موضعِ حالٍ، أي سلامٌ لك كائنًا مِن أصحابِ اليمينِ، كما تقولُ: هنيئًا لك مِن أتْباعِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وحِزبِه، أي: كائنًا منهم، والجارُّ والمجرورُ بعدَ المعرفةِ ينتصِبُ على الحالِ، كما تقولُ: أحبَبْتُك مِن أهلِ الدِّينِ والعِلمِ، أي: كائنًا منهم، فهذا معنَى هذه الآيةِ. ((بدائع الفوائد)) (٢/ ١٤٧).

وقال أيضًا: (أكثَرُ المفسِّرينَ حامُوا حوْلَ المعنى وما ورَدوه، وقالوا أقوالًا لا يَخفى بُعْدُها عن المقصودِ، وإنَّما معنى الآيةِ واللهُ أعلَمُ: فسلامٌ لك أيُّها الرَّاحلُ عن الدُّنيا حالَ كَوْنِك مِن أصحابِ اليمينِ، أي: فسلامُه لك كائنًا مِن أصحابِ اليمينِ الَّذين سَلِموا مِن الدُّنيا وأنكادِها، ومِن النَّارِ وعذابِها، فبُشِّرَ بالسَّلامةِ عندَ ارتحالِه مِن الدُّنيا وقُدومِه على الله، كما يُبشِّرُ المَلَكُ رُوحَه عندَ أخْذِها بقولِه: «أبْشِري برَوحٍ ورَيْحانٍ، ورَبٍّ غيرِ غَضْبانَ»، وهذا أوَّلُ البُشْرى الَّتي للمؤمنِ في الآخرةِ). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٩٦).

وقال ابن عثيمين: (﴿فَسَلَٰمٌ﴾ أي: سلامةٌ ﴿لَّكَ﴾ أي: أيُّها المُحتضَرُ ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: أنت مِن أصحابِ اليمينِ، والمعنى: فسلامٌ لك حالَ كَونِك مِن أصحابِ اليمينِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٤).

وقال الفَرَّاءُ: (قولُه: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: فذلك مُسلَّمٌ لك أنَّك مِن أصحابِ اليمينِ، وأُلغِيَتْ «أنَّ» وهو معناها، كما تقولُ: أنت مُصَدَّقٌ مُسافرٌ عن قليلٍ، إذا كان قد قال: إنِّي مسافرٌ عن قليلٍ...). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٣١). وذكره البخاريُّ بلَفظِه. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٤٦).

قال ابن حجر: (ويؤيِّدُ ما قال الفَرَّاءُ ما أخرَج ابنُ المُنذِرِ مِن طريقِ عَطاءٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: تأتيه الملائكةُ مِن قِبَلِ الله: سلامٌ لك مِن أصحابِ اليمينِ، تُخبِرُه أنَّه مِن أصحابِ اليمينِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٦٢٧).

وقيل: المعنى: فسَلامٌ لك يا صاحبَ اليمينِ مِن إخوانِك أصحابِ اليمينِ يُسلِّمون عليك. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والسمين الحلبي، والشربيني، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٢٣٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٢).

قال السعدي: («فـ»يُقالُ لأحَدِهم: «سَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» أي: سلامٌ حاصلٌ لك مِن =

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الصِّنفَينِ النَّاجِيَينِ؛ أَتْبَعَهما الهالِكِينَ، فقال[1]:

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢﴾.

= إخوانِك أصحابِ اليمينِ، أي: يُسَلِّمون عليه ويُحَيُّونه عندَ وُصولِه إليهم ولقائِهم له. أو يُقالُ له: سلامٌ لك مِن الآفاتِ والبَلِيَّاتِ والعذابِ؛ لأنَّك مِن أصحابِ اليمينِ، الَّذين سَلِموا مِن الذُّنوبِ الموبِقاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧).

وقيل: المعنى: سلامةٌ لك يا محمَّدُ منهم، فلَسْتَ تَرَى فيهم إلَّا ما تُحِبُّ مِن السَّلامةِ، فلا تَهْتَمَّ بهم، فإنَّهم يَسْلَمونَ مِن عذابِ اللهِ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والثَّعلبيُّ، والبَغَوي، والرَّسْعَني، والقُرطبي، والخازن، وأبو حيَّان، والعُلَيمي، والشَّوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٥).

قال ابن جُزَي: (﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ معنى هذا على الجملةِ: نجاةُ أصحابِ اليمينِ وسعادتُهم، والسَّلامُ هنا يحتمِلُ أن يكونَ بمعنى السَّلامةِ أو التَّحيَّةِ، والخِطابُ في ذلك يحتمِلُ أن يكونَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أو لأحدٍ مِن أصحابِ اليمينِ؛ فإنْ كان للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ فالسَّلامُ بمعنى السَّلامةِ، والمعنى: سلامٌ لك يا محمَّدُ منهم، أي: لا ترى منهم إلَّا السَّلامةَ مِن العذابِ، وإن كان الخِطابُ لأحدٍ مِن أصحابِ اليمينِ فالسَّلامُ بمعنى التَّحيَّةِ، والمعنى: سلامٌ لك -أي: تحيَّةٌ لك- يا صاحبَ اليمينِ مِن إخوانِك، وهم أصحابُ اليمينِ، أي: يُسَلِّمون عليك، فهو كقولِه: ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٦]، أو يكونُ بمعنى السَّلامةِ، والتَّقديرُ: سلامةٌ لك يا صاحبَ اليمينِ، ثمَّ يكونُ قولُه: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ خبَرَ ابتِداءٍ مُضمَرٍ تقديرُه: أنت مِن أصحابِ اليمينِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٣٨، ٤٣٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٧).

أي: وأمَّا إن كان المَيِّتُ مِنَ المُكَذِّبينَ بآياتِ اللهِ، الضَّالِّينَ عن سَبيلِه[١].

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾.

أي: فله ضِيافةٌ مِن شَرابٍ قد بَلَغ الغايةَ في الحَرارةِ[٢]!

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

أي: وله نارٌ شَديدةُ التَّوَقُّدِ يُقاسِي حَرَّها[٣].

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((وإنَّ العَبدَ الكافِرَ إذا كان في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا، وإقبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَل إليه مِن السَّماءِ مَلائكةٌ سُودُ الوُجوهِ، مَعَهمُ المُسُوحُ[٤]، فيَجْلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ حتَّى يَجْلِسَ عِندَ رأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخْرُجي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧).
قال ابنُ عثيمين: (﴿مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالخَبَرِ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ في العَمَلِ، فلا تصديقَ ولا التِزامَ؛ فكُلُ كافِرٍ داخِلٌ في هذه الآيةِ حتَّى المُنافِقُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧١٠)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٠).
قال ابنُ عجيبة: (هذا يدُلُّ على أنَّ الكافِرَ بمُجَرَّدِ مَوتِه يَدخُلُ النَّارَ. وقيل: معنى ذلك: ما يَجِدُه في القَبرِ مِن سَمومِ النَّارِ ودُخَانِها. ويحتمِلُ: أنَّ الآيةَ لا تَختَصُّ بعالَمِ البَرزخِ، بل تَعُمُّ البَرْزخَ وما بَعْدَه). ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٣٠٥).

(٤) المُسوحُ: جمعُ المِسحِ: وهو اللِّباسُ الخَشِن. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٩).

إلى سَخَطٍ مِن اللهِ وغَضَبٍ! فتَفَرَّقُ في جسَدِه، فيَنتَزِعُها كما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ[١] مِنَ الصُّوفِ المَبْلولِ، فيَأْخُذُها، فإذا أخَذَها لَم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَجْعَلوها في تِلك المُسوحِ، ويَخْرُجُ مِنها كأنْتَنِ رِيحِ جِيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ. فيَصْعَدونَ بها، فلا يَمُرُّون بها على مَلأٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأقبَحِ أسمائِه الَّتي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتَّى يُنتَهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستَفتَحُ له، فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرَأ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفْلى، فتُطْرَحُ رُوحُه طَرحًا. ثمَّ قرَأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. فتُعادُ رُوحُه في جَسَدِه، ويَأْتيه مَلَكانِ، فيُجْلِسانِه، فيَقُولانِ له: مَن ربُّك؟ فيَقولُ: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيَقولانِ له: ما دينُك؟ فيقول: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيَقولانِ له: ما هذا الرَّجُلُ الَّذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيُنادي مُنادٍ مِن السَّماءِ: أنْ كَذَب، فأفْرِشوا له مِنَ النَّارِ، وافْتَحوا له بابًا إلى النَّارِ، فيَأتيه مِنْ حَرِّها، وسَمُومِها، ويُضيَّقُ عليه قَبرُه حتَّى تَختَلِفَ فيه أَضلاعُه، ويَأتيه رجُلٌ قَبيحُ الوَجْهِ، قبيحُ الثِّيابِ، مُنتِنُ الرِّيحِ، فيَقولُ: أبْشِرْ بالَّذي يَسوؤُك! هذا يَومُك الَّذي كُنتَ تُوعَدُ، فيَقولُ: مَن أنتَ؛ فوَجْهُك الوَجهُ يَجيءُ بالشَّرِّ، فيَقولُ: أنا عمَلُك الخَبيثُ، فيَقولُ: رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعةَ))[٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾.

---

(١) السَّفُّودُ: الحديدةُ الَّتي يُشوى عليها اللَّحمُ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٨).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٥٣٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا انقَضى الإخبارُ بتَقسيمِ أحوالِهم وما آلَ إليه كُلُّ قِسمٍ منهم؛ أكَّدَ ذلك بقَولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: إنَّ هذا الخبَرَ المذكورَ في هذه السُّورةِ ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[١].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾.

أي: إنَّ هذا المذكورَ عن المُقرَّبينَ وأصحابِ اليَمينِ وعن المُكَذِّبينَ الضَّالِّينَ، وما يَصيرونَ إليه: لَهُو خَبَرٌ أكيدٌ لا شَكَّ فيه، وأمرٌ ثابتٌ لا بُدَّ مِن وُقوعِه[٢].

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تحَقَّق للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هذا اليَقينُ؛ سَبَّبَ عنه أمْرَه بالتَّنزيهِ له سُبحانَه عمَّا وَصَفوه به مِمَّا يَلزَمُ منه وَصْفُه بالعَجزِ[٣]!

وأيضًا لَمَّا بَيَّن سُبحانَه الحَقَّ وامتَنَع الكُفَّارُ؛ قال لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا هو حَقٌّ؛ فإن امتَنَعوا فلا تترُكْهم ولا تُعرِضْ عنهم، وسَبِّحْ رَبَّك في نَفْسِك، وما عليك مِن قَومِك، سواءٌ صَدَّقوك أو كَذَّبوك[٤].

وأيضًا لَمَّا تقدَّمَ ذِكرُ الأقسامِ الثَّلاثةِ مُسهَبًا الكَلامُ فيهم؛ أمَرَه تعالَى بتَنزيهِه عمَّا لا يَليقُ به مِن الصِّفاتِ، ولَمَّا أعاد التَّقسيمَ مُوجزًا الكلامَ فيه؛ أمَرَه أيضًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٢)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤٠).

بتَنزيهِه وتَسبيحِه[١].

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

فنَزِّهْ ربَّك المُتَّصِفَ بكَمالِ العَظَمةِ -يا مُحمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، قائِلًا: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ عِبارةٌ تَقتضي الأمرَ بالإعراضِ عن أقوالِ الكفَّارِ وسائرِ أمورِ الدُّنيا المُختصَّةِ بها، وبالإقبالِ على أمورِ الآخرةِ وعِبادةِ الله تعالى والدُّعاءِ إليه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ ذَكَرَ اللهُ تعالى الحُلْقومَ دونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٥).

قال ابن تيميَّة: (قولُه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] و ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أمرٌ بتسبيحِ ربِّه، ليس أمرًا بصيغةٍ مُعَيَّنة، فإذا قال: «سُبْحانَ اللهِ وبحَمْدِه» «سُبْحانَك اللَّهمَّ وبحَمدِك» فقد سبَّحَ ربَّه الأعلى والعظيمَ؛ فإنَّ اللهَ هو الأعلى وهو العظيمُ، واسمُه «اللهُ» يَتناوُلُ معانيَ سائرِ الأسماءِ بطريقِ التَّضمُّنِ، وإن كان التَّصريحُ بالعُلوِّ والعَظَمةِ ليس هو فيه). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١١٧).

وقال أيضًا: (المراد المقصود مِن الاسم هو المُسمَّى، لا أنَّ نفْسَ اللَّفظِ هو المُسمَّى؛ فإنَّ هذا لا يقولُه عاقلٌ، وتنزيهُ الاسم وتسبيحُه تنزيهٌ للمُسمَّى وتسبيحٌ له، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾). ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) (٣/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٥).

المَرِيءِ؛ لأنَّ الحُلْقومَ مجرى النَّفَسِ -على قولٍ-، وبانقِطاعِه يَموتُ الإنسانُ، فإذا بلَغَتِ الرُّوحُ الحُلْقومَ وهي صاعِدةٌ مِن أسفَلِ البَدَنِ إلى هذا المَوضِعِ، حينَئذٍ تَنقَطِعُ العلائِقُ مِن الدُّنيا، ويَعرِفُ الإنسانُ أنه أقبَلَ على الآخرةِ، وانتهى مِن الدُّنيا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الرُّوحَ تَخرُجُ مِن أسفَلِ البَدَنِ، تَصْعَدُ حتَّى تَصِلَ إلى أعلى البَدَنِ، ثمَّ تُقبَضُ مِن هناك، فأوَّلُ ما يموتُ مِن الإنسانِ أسفَلُه[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ توقيفٌ على مَوضِعِ عَجزٍ يَقتَضي النَّظَرُ فيه أنَّ اللهَ تعالى مالكُ كُلِّ شَيءٍ[٣]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ لم يَقُلْ: «تُبصِرونَ»؛ لئَلَّا يُظَنَّ أنَّ لهم إدراكًا بالبَصَرِ لِشَيءٍ مِن البَواطِنِ مِن حَقيقةِ الرُّوحِ وغَيرِها[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ ما أحْسَنَ إعادةَ «لولا» ثانيًا قبْلَ ذِكْرِ الفعلِ الَّذي يَقتضيه الأوَّلُ؛ وجَعْلَ الحَرْفَينِ يَقتَضِيانِه اقتِضاءً واحدًا، وذِكْرَ الشَّرطِ بيْنَ «لولا» الثَّانيةِ وما تَقتَضيه مِن الفعلِ، ثُمَّ الموالاة بيْنَ الشَّرطِ الأوَّلِ والثَّاني مع الفصلِ بيْنَهما بكلمةٍ واحدةٍ هي الرَّابطُ بيْنَ «لولا» الأُولى والثَّانيةِ؛ والشَّرطِ الأوَّلِ والثَّاني، وهذا تركيبٌ يَسجُدُ العقلُ والسَّمعُ لمعناه ولَفظِه. فتضمَّنَتِ الآيَتانِ تقريرًا وتوبيخًا واستِدلالًا على أصولِ الإيمانِ؛ مِن وُجودِ الخالقِ سُبحانَه، وكمالِ قدرتِه، ونُفوذِ مشيئتِه ورُبوبيَّتِه، وتَصَرُّفِه في أرواحِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٢).

عبادِه، حيثُ لا يَقْدِرون على التَّصرُّفِ فيها بشَيءٍ؛ وأنَّ أرواحَهم بيَدِه يَذْهَبُ بها إذا شاء، ويَرُدُّها إليهم إذا شاء، ويُخْلِي أبدانَهم منها تارةً، ويَجْمَعُ بيْنَها وبَيْنَها تارةً، وإثباتِ المعادِ، وصِدْقِ رسولِه فيما أخبَرَ به عنه، وإثباتِ ملائكتِه، وتقريرِ عبوديَّةِ الخَلْقِ. وأتَى بهذا في صورةِ تحضيضَينِ، وتوبيخَينِ، وتقريرَينِ، وجوابَينِ، وشرطَينِ، وجزاءَينِ، مُنتَظِمةً أحْسَنَ الانتِظامِ، ومُتداخِلةً أحْسَنَ التَّداخُلِ؛ مُتَعَلِّقًا بعضُها ببعضٍ، وهذا كلامٌ لا يَقدِرُ البشرُ على مِثلِ نَظْمِه ومعناه[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ارتباطٌ بيْنَ هذين الأمْرَينِ، وهو مِن أحسَنِ الاستِدلالِ وأبْلَغِه؛ فإنَّهم إمَّا أنْ يُقِرُّوا بأنَّهم مَربوبونَ مَملوكونَ -على قولٍ في معنى مَدينينَ-، عَبيدٌ لمالِكٍ قادِرٍ مُتصَرِّفٍ فيهم قاهرٍ، آمِرٍ ناهٍ، أو لا يُقِرُّون بذلك؛ فإنْ أقَرُّوا به لَزِمَهم القيامُ بحقِّه عليهم، وشُكْرُه وتَعظيمُه وإجلالُه، وألَّا يَجعَلوا له نِدًّا ولا شَريكًا، وهذا هو الَّذي جاءهم به رَسولُه، ونَزَلَ عليه به كتابُه، وإنْ أنكروا ذلك وقالوا: إنَّهم ليسوا بعَبيدٍ ولا مملوكِينَ ولا مَربوبِينَ، وإنَّ الأمرَ إليهم؛ فهَلَّا يَرُدُّون الأرواحَ إلى مَقَارِّها إذا بَلَغتِ الحُلْقومَ! فإنَّ المتصرِّفَ في نفْسِه الحاكِمَ على رُوحِه لا يَمتَنِعُ منه ذلك! بخِلافِ المحكومِ عليه، المتصرِّفِ فيه غيرُه، المُدَبِّرِ له سِواهُ، الَّذي هو عَبدٌ مملوكٌ مِن جَميعِ الجِهاتِ، وهذا الاستِدلالُ لا مَحيدَ عنه، ولا مَدْفَعَ له، ومَن أعطاه حقَّه مِن التَّقريرِ والبَيانِ انتَفَعَ به غايةَ النَّفعِ، وانقادَ مِن أجْلِه للعُبوديَّةِ وأذعَنَ، ولم يَسَعْه غَيرُ التَّسليمِ للرُّبوبيَّةِ والإلهيَّةِ، والإقرارِ بالعُبوديَّةِ[2].

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إلى آخِرِ الآياتِ: استُدِلَّ به على

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٦).

أنَّ الرُّوحَ بعدَ مُفارَقةِ البَدَنِ مُنَعَّمةٌ أو مُعَذَّبةٌ، وعلى أنَّ مَقَرَّ أرواحِ المُؤمِنينَ في الجنَّةِ، ومَقَرَّ أرواحِ الكُفَّارِ في النَّارِ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ جَعَل سُبحانَه تحيَّةَ المُقَرَّبينَ عندَ الوَفاةِ الرَّوحَ والرَّيحانَ والجَنَّةَ، وهذه الكَراماتُ الثَّلاثُ الَّتي يُعطَونَها بعدَ الموتِ نَظيرُ الثَّلاثِ الَّتي يُعطَونَها يومَ القيامةِ؛ فالرَّوحُ: الفَرَحُ والسُّرورُ، والابتِهاجُ ولَذَّةُ الرُّوحِ، فهي كَلِمةٌ جامِعةٌ لنَعيمِ الرُّوحِ ولَذَّتِها، وذلك قُوتُها وغِذاؤُها. والرَّيحانُ: الرِّزْقُ -على قولٍ-، وهو الأكلُ والشُّربُ. والجَنَّةُ: المَسْكَنُ الجامِعُ لذلك كلِّه؛ فيُعطَونَ هذه الثَّلاثَ في البَرزَخِ، وفي المَعادِ الثَّاني(٢).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أنَّهم لَمَّا كانوا دونَ المُقَرَّبينَ في المَرتَبةِ، جَعَل تحيَّتَهم عندَ القُدومِ عليه السَّلامةَ مِنَ الآفاتِ والشُّرورِ الَّتي

---

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٤).

قال ابن القيِّم -بعدَ أن ذكر الأقوالَ في مُسْتقَرِّ الأرواحِ ما بيْنَ الموتِ إلى القيامةِ-، مُبينًا الرَّاجحَ: (الأرواح مُتَفاوِتةٌ في مُستقَرِّها في البَرزَخِ أعظَمَ تَفاوُتٍ؛ فمنها أرواحٌ في أعلَى عِلِّيِّينَ في الملأِ الأعلى، وهي أرواحُ الأنبياءِ صلَواتُ الله وسَلامُه عليهم، وهم مُتفاوِتون فِي مَنازِلِهم كما رآهم النَّبيُّ لَيلةَ الإسراءِ.

ومنها أرواحٌ في حَواصِلِ طَيرٍ خُضْرٍ تَسرَحُ في الجنَّةِ حيثُ شاءَت، وهي أرواحُ بعضِ الشُّهَداءِ لا جميعِهم، بل مِن الشُّهَداءِ مَن تُحبَسُ رُوحُه عن دُخولِ الجنَّةِ لِدَيْنٍ عليه أو غَيرِه... ومنهم مَن يكونُ مَحْبوسًا على بابِ الجنَّةِ... ومنهم مَن يكونُ محبوسًا في قبرِه... ومنهم مَن يكونُ مَقَرُّه ببابِ الجنَّةِ... ومنهم مَن يكونُ محبوسًا في الأرضِ... ومنها أرواحٌ تكونُ في تَنُّورِ الزُّناةِ والزَّواني، وأرواحٌ في نهرِ الدَّمِ تَسبَحُ فيه وتُلْقَمُ الحِجارةَ؛ فليس للأرواحِ سعيدِها وشقيِّها مُستقَرٌّ واحدٌ، بل رُوحٌ في أعلَى عِلِّيِّينَ، ورُوحٌ أرضيَّةٌ سُفليَّةٌ لا تَصعَدُ عن الأرضِ). ((الروح)) (ص: ١١٥، ١١٦).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٠).

تَحصُلُ للمُكذِّبينَ الضَّالِّينَ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٠- الوَجهُ في «اللَّامِ» في قَولِه تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ دونَ «على»: أنَّ هذا ليس سلامَ تحيَّةٍ، ولو كان تحيَّةً لَقال: «فسَلامٌ عليه»، كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ [الصافات: ٧٩]، ولكنَّ الآيةَ تضَمَّنتْ ذِكْرَ مراتبِ النَّاسِ وأقسامِهم عندَ القيامةِ الصُّغرى حالَ القُدومِ على اللهِ تعالى؛ فذَكَر أنَّهم ثلاثةُ أقسامٍ: مُقَرَّبٌ له الرَّوحُ والرَّيحانُ وجَنَّةُ النَّعيمِ، ومُقتَصِدٌ مِن أصحابِ اليَمينِ له السَّلامةُ -فوَعَدَه بالسَّلامةِ، ووَعَدَ المُقَرَّبَ بالغَنيمة والفَوزِ، وإنْ كان كلٌّ منهما سالِمًا غانِمًا-؛ وظالِمٌ بتَكذيبِه وضَلالِه، فأوعَدَه بنُزُلٍ مِن حَميمٍ، وتَصليةِ جَحيمٍ، فلمَّا لم يكنِ المَقامُ مَقامَ تحيَّةٍ، وإنَّما هو مقامُ إخبارٍ عن حالِه، ذَكَر ما يَحصُلُ له مِنَ السَّلامةِ[٢].

١١- ذَكَر اللهُ تعالى أحوالَ الطَّوائِفِ الثَّلاثِ -المقَرَّبينَ، وأصحابِ اليَمينِ، والمكَذِّبينَ الضَّالِّينَ- في أوَّلِ السُّورةِ في دارِ القَرارِ، ثمَّ ذَكَر أحوالَهم في آخرِها عندَ الاحتِضارِ والموتِ[٣].

١٢- المراتبُ ثلاثٌ؛ علمُ يقينٍ يحصلُ عن الخبرِ، ثمَّ تتجلَّى حقيقةُ المخبَرِ عنه للقلبِ أو البصرِ، حتَّى يصيرَ العِلمُ به عينَ يقينٍ، ثمَّ يباشرُه ويلابِسُه فيصيرُ حقَّ يقينٍ، فعِلمُنا بالجنَّةِ والنَّارِ الآنَ عِلمُ يقينٍ، فإذا أُزلِفَت الجنَّةُ للمتَّقينَ في الموقفِ، وبُرِّزت الجحيمُ للغاوينَ، وشاهدوهما عيانًا، كان ذلك عينَ يقينٍ، كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦ - ٧]،

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

فإذا دخَل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ، فذلك حقُّ اليقينِ، وقد مُثِّلت المراتبُ الثلاثةُ بمَن أخبَرك أنَّ عندَه عسلًا، وأنتَ لا تشكُّ في صِدقِه، ثمَّ أراك إيَّاه فازْدَدْتَ يقينًا، ثمَّ ذُقتَ منه. فالأوَّلُ: عِلمُ اليقينِ. والثَّاني: عينُ اليقينِ. والثَّالثُ: حقُّ اليقينِ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ مُقْتضَى فاءِ التَّفريعِ أنَّ الكلامَ الواقعَ بعْدَها ناشئٌ عمَّا قبْلَه على حسَبِ تَرتيبِه، وإذ قد كان الكلامُ السَّابقُ إقامةَ أدلَّةٍ على أنَّ اللهَ قادرٌ على إعادةِ الحياةِ للنَّاسِ بعْدَ الموتِ، وأعقَبَ ذلك بأنَّ تلك الأدلَّةَ أيَّدَت ما جاء في القرآنِ مِن إثباتِ البعثِ، وأنْحَى عليهم أنَّهم وَضَحَت لهم الحُجَّةُ، ولكنَّهم مُكابِرونَ فيها، ومُظهِرونَ الجُحودَ وهم مُوقِنون بها في الباطنِ، وكلُّ ذلك راجعٌ إلى الاستدلالِ بقُوَّةِ قُدرةِ اللهِ على إيجادِ مَوجوداتٍ لا تَصِلُ إليها مَداركُ الناسِ -انتقَلَ الكلامُ إلى الاستدلالِ على إثباتِ البَعثِ بدَليلٍ لا مَحيصَ لهم عن الاعترافِ بدَلالتِه؛ فالتَّفريعُ على جُملةِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]، وهو أنَّ عجْزَهم عن إرجاعِ الرُّوحِ عندَ مُفارقتِها الجسَدَ، يُنبِّهُهم على أنَّ تلك المُفارَقةَ مُقدَّرةٌ في نِظامِ الخِلْقةِ، وأنَّها لحِكمةٍ[2].

- قولُه: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ تَبكيتٌ مَبْنيٌّ على تَكذيبِهم بالقُرآنِ فيما نطَقَ به قولُه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [الواقعة: ٥٧] إلى هُنا، مِن القوارعِ الدَّالَّةِ على كَونِهم تحتَ مَلكوتِه تعالى مِن حيثُ ذَواتُهم، ومِن حيث طَعامُهم

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) (١/ ٤٦٩، ٤٧٠)، (٢/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٢).

وشَرابُهم، وسائرُ أسبابِ مَعايشِهم[١].

- و(لولا) حرْفُ تَحضيضٍ مُستعمَلٌ هنا في التَّعجيزِ؛ لأنَّ المحضوضَ إذا لم يَفعَلْ ما حُضَّ على فِعلِه، فقدْ أظهَرَ عجْزَه، والفعلُ المحضوضُ عليه هو ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾، أي: تُحاوِلون رُجوعَها[٢].

- قولُه: ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ مُقدَّمٌ عليه؛ لتَهويلِه، والتَّشويقِ إلى الفعلِ المَحضوضِ عليه[٣].

- والضَّميرُ المُستتِرُ في ﴿بَلَغَتِ﴾ عائدٌ على مَفهومٍ مِن العِباراتِ؛ لظُهورِ أنَّ الَّتي تَبلُغُ الحُلقومَ هي الرُّوحُ، حُذِفَ إيجازًا[٤].

- جُملةُ ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿بَلَغَتِ﴾، ومَفعولُ ﴿تَنظُرُونَ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: تَنظُرون صاحبَها، أي: صاحبَ الرُّوحِ؛ بقَرينةِ قولِه بعْدَه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾

- جُملةُ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن مَفعولِ ﴿تُبْصِرُونَ﴾ المَحذوفِ، أو مُعترِضةٌ والواوُ اعتراضيَّةٌ. وأيًّا ما كانتْ فهي احتراسٌ لبَيانِ أنَّ ثَمَّةَ حُضورًا أقرَبَ مِن حُضورِهم عندَ المُحتضَرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٤٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجُملةُ ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ وجُملةِ ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾[1] [الواقعة: ٨٦].

- ومَفعولُ ﴿تُبْصِرُونَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

- كَلمةُ (فلولا) الثَّانيةُ تأْكيدٌ لَفظيٌّ لنَظيرِها السَّابقِ، أُعِيدَ لتُبْنى عليه جُملةُ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾؛ لطُولِ الفَصلِ[3].

- وجُملةُ ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ مُعترِضةٌ، أو حالٌ مِن الواوِ في ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾، وجَوابُ شَرطِ (إنْ) مَحذوفٌ دلَّ عليه فِعلُ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾[4].

- قيل: أُسنِدَ فِعلُ ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ إلى المُخاطَبينَ بضَميرِ المُخاطَبينَ، دونَ أنْ يَقولَ: إنْ كان النَّاسُ غيرَ مَدينينَ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ همُ الَّذين مِن أجْلِ إنكارِهم البعثَ سِيقَ هذا الكلامُ، والمعْنى: لو كُنتُم أنتُم وكان النَّاسُ غيرَ مَدينينَ، لَما أُخرِجَت الأرواحُ مِن الأجسادِ؛ إذْ لا فائدةَ تَحصُلُ مِن تَفريقِ ذَينِكَ الإلْفَينِ لولا غرَضٌ سام، وهو وضْعُ كلِّ رُوحٍ فيما يَلِيقُ بها مِن عالَمِ الخُلودِ جَزاءً على الأعمالِ؛ ولذلك أُوثِرَ لَفظُ ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: غيرَ مَبعوثِينَ، أو غيرَ مُعادِينَ، وإنْ كان لا يَلزَمُ مِن نفْيِ الإدانةِ نفْيُ البَعثِ؛ فإنَّه يجوزُ أنْ يكونَ بعثٌ بلا جَزاءٍ، لكنْ ذلك لا يُدَّعَى؛ لأنَّه عبَثٌ؛ فقولُه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٤).

﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الغرَضَ مِن سَوقِ هذا الدَّليلِ إبطالُ إنكارِهم البعثَ الَّذي هو لحِكمةِ الجزاءِ. ومِن مُستتبَعاتِ هذا الكلامِ أنْ يُفيدَ الإيماءَ إلى حِكمةِ الموتِ بالنِّسبةِ للإنسانِ؛ لأنَّه لتَخليصِ الأرواحِ مِن هذه الحياةِ الزَّائلةِ المَملوءةِ باطلًا إلى الحياةِ الأبَديَّةِ الحقِّ الَّتي تَجْري فيها أحوالُ الأرواحِ على ما يُناسِبُ سُلوكَها في الحياةِ الدُّنيا، كما أشار إليه قولُه تَعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فيَقْتضي أنَّه لولا أنَّكم مَدِينونَ لَما انتَزَعْنا الأرواحَ مِن أجسادِها بعْدَ أنْ جَعَلْناها فيها، ولَأبْقَيْناها؛ لأنَّ الرُّوحَ الإنسانيَّ ليس كالرُّوحِ الحَيوانيِّ، فتَكونُ الآيةُ مُشتمِلةً على دَليلَين: أحدُهما بحاقِّ التَّركيبِ، والآخَرُ بمُستَتبعاتِه الَّتي أَومَأَ إليها قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾، والغرَضُ الأوَّلُ هو الَّذي ذُيِّلَ بقولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

- وقولُه: ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ سَدَّ مَسدَّ الأجوبةِ والبَياناتِ الَّتي يَقْتضيها التَّحْضيضاتُ، و(إذا) مِن قولِه: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ﴾، و(إنْ) المُتكرِّرةُ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وحمَل بعضُ القولِ بَعضًا، إيجازًا واقتضابًا[2].

- وجُملةُ ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾، وعلى أن معْنى ﴿مَدِينِينَ﴾ أي: مُجازَيْنَ على أعْمالِكم يكونُ وَجْهُ إعادةِ هذا الشَّرطِ مع أنَّه ممَّا استُفيدَ بقولِه: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ هو الإيماءَ إلى فرْضِ الشَّرطِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ بالنِّسبةِ لِما في نفْسِ الأمْرِ، وأنَّ الشَّرطَ في قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٤).

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ هو فرْضُ وتَقديرُ -لا وُقوعَ له- نفْيِ البعثِ، وعلى أن معْنى ﴿مَدِينِينَ﴾ أي: مَرْبوبينَ يَرجِعُ قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إلى ما أفادَه التَّحضيضُ، ومَوقعُ فاءِ التَّفريعِ مِن إرادةِ أنَّ قبْضَ الأرواحِ لتَأخيرِها إلى يومِ الجزاءِ، أي: إنْ كُنتم صادِقينَ في نفْيِ البَعثِ والجزاءِ[1].

- قولُه: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيه إشكالٌ في جَعْلِ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ مِن جُملةِ جَوابِ شَرطِ (إنْ)؛ إذ لا يَلزَمُ مِن عدَمِ قُدرتِهم على صَدِّ الأرواحِ عن الخروجِ أنْ يكونَ خُروجُها لإجراءِ الحسابِ. ودفْعُ هذا الإشكالِ: وُجوبُ تأْويلِ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ بمعْنى: تُحاوِلون إرجاعَها، أي: عدَمُ مُحاولتِكم إرجاعَها منذُ العصورِ الأُولى دليلٌ على تَسليمِكم بعدَمِ إمكانِ إرجاعِها، وما ذلك إلَّا لوجوبِ خُروجِها مِن حياةِ الأعمالِ إلى حَياةِ الجزاءِ، وأصلُ تَركيبِ هذه الجُملةِ: فإذا كُنتم صادقينَ في أنَّكم غيرُ مَدينِين، فلولا حاوَلْتُم عندَ كلِّ مُحتضَرٍ إذا بلَغَت الرُّوحُ الحُلْقومَ أنْ تَرجِعوها إلى مَواقعِها مِن أجزاءِ جَسَدِه، فما صَرَفَكم عن مُحاولةِ ذلك إلَّا العلمُ الضَّروريُّ بأنَّ الرُّوحَ ذاهبةٌ لا مَحالةَ. فإذا علِمْتَ هذا اتَّضَحَ لك انتظامُ الآيةِ الَّتي نُظِمَت نظْمًا بَديعًا مِن الإيجازِ، وأُدمِجَ في دَليلِها ما هو تَكملةٌ للإعجازِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾، لَمَّا اقْتَضى الكلامُ بحَذافِرِه أنَّ الإنسانَ صاحبَ الرُّوحِ صائرٌ إلى الجزاءِ، فُرِّعَ عليه إجمالُ أحوالِ الجزاءِ في مَراتبِ النَّاسِ، إجمالًا لِما سبَقَ تَفصيلُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٤٣).

بقولِه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ إلى قولِه: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٧- ٤٤]؛ لِيَكونَ هذا فَذْلَكةً[١] للسُّورةِ، ورَدًّا لعَجُزِها على صَدْرِها؛ فضَميرُ ﴿إِن كَانَ﴾ عائدٌ إلى ما عاد إليه ضَميرُ ﴿إِلَيْهِ﴾ مِن قولِه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾[٢] [الواقعة: ٨٥].

- وجَوابُ (إنْ) مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ جَوابِ (أمَّا) المذكورِ عليه، وحذْفُ جَوابِ (إنْ) شائعٌ كثيرًا[٣].

- وقد ذُكِرَ لكلِّ صِنفٍ جَزاءٌ لم يُذكَرْ له فيما تَقدَّمَ؛ ليُضَمَّ إلى ما أُعِدَّ له فيما تقدَّمَ على طَريقةِ القرآنِ في توزيعِ القصَّةِ[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ فيه تَخصيصُ الرَّيحانِ بالذِّكرِ قبْلَ ذِكرِ الجنَّةِ الَّتي تَحْتوي عليه؛ للإيماءِ إلى كَرامتِهم عِندَ اللهِ سُبحانَه[٥].

- ولَمَّا كانت جِنانُ الدُّنيا قد يكونُ فيها نَكَدٌ، أضاف هذه الجَنَّةَ إلى المرادِ بهذه الجِنانِ؛ إعلامًا بأنَّها لا تَنفَكُّ عنه، فقال: ﴿نَعِيمٍ﴾، أي: ليس فيها غيرُه، بل هي مقصورةٌ عليه[٦].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ الكلامُ إجمالٌ للتَّنويهِ بهم، وعُلوِّ مَرتبتِهم، وخَلاصِهم مِن المُكدِّراتِ؛ لتَذهَبَ نفْسُ السَّامعِ كلَّ مَذهبٍ[٧].

---

(١) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٤٨).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٨).

- قولُه: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ﴾ الخطابُ لكلِّ مَن هو مِن هذا الضَّرْبِ، فهو خطابٌ للجنسِ، أي: فسلامٌ لك يا مَن هو مِن أصحابِ اليمينِ، ولهذا أَتى بحرف «مِن» في قَولِه: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، والجارُّ والمجرورُ في موضعِ حالٍ؛ أي: سلامٌ لك كائنًا مِن أصحابِ اليمينِ(١).

وقيل: كافُ الخِطابِ في قولِه: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ﴾ مُوجَّهةٌ لغيرِ مُعيَّنٍ، أي: لكلِّ مَن يَسمَعُ هذا الخبرَ، والمعْنى: أنَّ السَّلامةَ الحاصِلةَ لأصحابِ اليَمينِ تَسُرُّ مَن يَبلُغُه أمْرُها، وهذا كما يُقالُ: ناهيكَ به، وحسْبُك به. و(مِن) ابتدائيَّةٌ، واللَّفظُ جَرى مَجرَى المثَلِ؛ فطُوِيَ منه بَعضُه، وأصْلُه: فلهمُ السَّلامةُ؛ سَلامةٌ تَسُرُّ مَن بلَغَه حَديثُها.

وقيل: الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُسَرُّ بما يَنالُه أهلُ الإسلامِ مِن الكرامةِ عندَ اللهِ، وهم ممَّن شَمِلَهم لفظُ ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.

وقيل: الكلامُ على تَقديرِ القَولِ، أي: فيُقالُ له: سلامٌ لك، أي: تقولُ له الملائكةُ، و﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ خَبرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: أنت مِن أصحابِ اليمينِ، و(مِن) على هذا تَبعيضيَّةٌ؛ فهي بِشارةٌ للمُخاطَبِ عندَ البعثِ.

وقيل: الكافُ خِطابٌ لِمَن كان مِن أصحابِ اليمينِ على طَريقةِ الالتِفاتِ، ومُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقال: فسلامٌ له؛ فعُدِلَ إلى الخِطابِ لاستِحضارِ تلك الحالةِ الشَّريفةِ، أي: فيُسلِّمُ عليه أصحابُ اليمينِ، على نحْوِ قولِه تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٞ﴾ [يونس: ١٠]، أي: يُبادِرونَه بالسَّلامِ، وهذا كِنايةٌ عن كَونِه مِن أهلِ مَنزلتِهم، و(مِن) على هذا ابتدائيَّةٌ. فهذه مَحامِلُ لهذه الآيةِ يُستخلَصُ مِن

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤٦).

مَجموعِها معْنى الرِّفعةِ والكَرامةِ[١].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾

- فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هنا: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ فقدَّمَ هنا (الْمُكَذِّبِينَ) على (الضَّالِّينَ)، وقال في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾؛ فقدَّمَ (الضَّالُّونَ) على (الْمُكَذِّبُونَ)؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّهم في أوَّلِ السُّورةِ أصَرُّوا على الحِنْثِ العظيمِ، فضَلُّوا عن السَّبيلِ، ثمَّ كذَّبوا الرَّسولَ، وقالوا: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا﴾؛ فقُدِّمَ وصْفُ ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ على وصْفِ ﴿ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾؛ مُراعاةً لتَرتيبِ الحُصولِ؛ لأنَّهم ضلُّوا عن الحقِّ فكذَّبوا بالبَعثِ؛ ليَحذَروا مِن الضَّلالِ، ويَتدبَّروا في دَلائلِ البعثِ، وذلك مُقْتضى خِطابِهم بهذا الإنذارِ بالعذابِ المُتوقَّعِ.

وأمَّا هنا في آخِرِ السُّورةِ فقدَّمَ «المكذِّبينَ» بالحَشرِ على «الضَّالِّينَ» عن طَريقِ الخَلاصِ.

أو يُقالُ: إنَّ الكلامَ في الأوَّلِ معَ الكُفَّارِ، وهم ضلُّوا أوَّلًا، وكذَّبوا ثانيًا، وفي آخِرِ السُّورةِ الكَلامُ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فقدَّمَ التَّكذيبَ به إظهارًا للعِنايةِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

وقيل: قُدِّمَ هنا وَصْفُ التَّكذيبِ على وصْفِ الضَّلالِ، عكْسَ ما تَقدَّمَ في قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٥١]؛ لِمُراعاةِ سَببِ ما نالَهم مِن العذابِ، وهو التَّكذيبُ؛ لأنَّ الكَلامَ هنا على عَذابٍ قد حانَ حِينُه، وفات وقْتُ الحَذَرِ منه؛ فبُيِّنَ سبَبُ عَذابِهم، وذُكِّروا بالَّذي أوْقَعَهم في سَببِه؛ ليَحصُلَ لهم ألَمُ التَّندُّمِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٨، ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن =

٨- قولُه تعالَى: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ النُّزُلُ: هو ما يُقدَّمُ للضَّيفِ مِن القِرَى، وإطلاقُه هنا تَهكُّمٌ. والتَّصليةُ: مَصدرُ الفِعلِ (صلَّاهُ) المُشدَّدِ، إذا أحْرَقَه وشَواهُ، وهو هنا مِن الكَلامِ المُوجَّهِ (أي: يصلحُ لاحتِمالِ معنيَينِ)؛ لإيهامِه أنَّه يُصلَّى له الشِّواءُ في نُزُلِه على طَريقةِ التَّهكُّمِ، أي: يُحرَّقُ بها[١].

٩- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ تَذييلٌ لجَميعِ ما اشتَمَلَت عليه السُّورةُ مِن المعاني المُثبَتةِ، والإشارةُ إلى ذلك بتأويلِ المذكورِ مِن تَحقيقِ حقٍّ، وإبطالِ باطلٍ[٢].

- وأيضًا قدِ اشتَمَلَ هذا التَّذييلُ على أربعةِ مُؤكِّداتٍ؛ وهي: (إنَّ)، ولامُ الابتداءِ، وضَميرُ الفصْلِ، وإضافةُ شِبهِ المُترادِفَينِ[٣].

- وإضافةُ ﴿حَقُّ﴾ إلى ﴿ٱلْيَقِينِ﴾ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: لَهو اليقينُ الحقُّ؛ وذلك أنَّ الشَّيءَ إذا كان كاملًا في نَوعِه، وُصِفَ بأنَّه حقُّ ذلك الجنسِ، ومآلُ هذا الوصفِ إلى تَوكيدِ اليقينِ؛ فهو بمَنزلةِ ذِكرِ مُرادفِ الشَّيءِ، وإضافةُ المُترادفَينِ تُفيدُ معْنى التَّوكيدِ والمُبالَغةِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الإضافةُ بَيانيَّةً على معْنى (مِن)، وحَقيقتُه على معْنى اللَّامِ، بتَقديرِ: لهو حقُّ الأمْرِ اليقينِ. وقيل: هو مِن إضافةِ الموصوفِ إلى صِفَتِه؛ جُعِلَ الحقُّ مُبايِنًا لليقينِ، أي: الثَّابتُ المُتيقَّنُ[٤].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾

= عاشور)) (٢٧/ ٣٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٠).

- هو تَفريعٌ على تَحقيقِ أنَّ ما ذُكِرَ هو اليقينُ حقًّا؛ فإنَّ ما ذُكِرَ يَشتمِلُ على عَظيمِ صِفاتِ اللهِ، وبَديعِ صُنْعِه وحِكمتِه وعدْلِه، ويُبشِّرُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأُمَّتَه بمَراتبَ مِن الشَّرفِ والسَّلامةِ على مَقاديرِ دَرجاتِهم، وبنِعمةِ النَّجاةِ ممَّا يَصيرُ إليه المُشركون مِن سُوءِ العاقبةِ؛ فلا جَرَمَ كان حَقيقًا بأنْ يُؤمَرَ بتَسبيحِ اللهِ تَسبيحًا استَحقَّه لعَظَمتِه، والتَّسبيحُ ثَناءٌ؛ فهو يَتضمَّنُ حمْدًا لنِعمتِه، وما هَدَى إليه مِن طُرقِ الخَيرِ[1].

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ السَّادِسُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ السَّابعُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الحَديدِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥١).

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سُورةُ القَمَرِ

أسماءُ السُّورةِ: ٧
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ٧
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٨
الآيات (١-٨) ٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٠
المعنى الإجماليُّ: ١١
تَفسيرُ الآياتِ: ١٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٤
بلاغةُ الآياتِ: ٢٧
الآيات (٩-١٧) ٣٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٨
المعنى الإجماليُّ: ٣٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥١
بلاغةُ الآياتِ: ٥٦
الآيات (١٨-٢٢) ٦٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٨
المعنى الإجماليُّ: ٦٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٣
بلاغةُ الآياتِ: ٧٥
الآيات (٢٣-٣٢) ٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٨٣
المعنى الإجماليُّ: ٨٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٩٤
بلاغةُ الآياتِ: ٩٨
الآيات (٣٣-٤٠) ١٠٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٠٨
المعنى الإجماليُّ: ١٠٩
تَفسيرُ الآياتِ: ١١٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١١٦

بلاغةُ الآياتِ: ١١٧
الآيات (٤١-٤٦) ١٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٢٣
المعنى الإجماليُّ: ١٢٤
تَفسيرُ الآياتِ: ١٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٣٠
بلاغةُ الآياتِ: ١٣٣
الآيات (٤٧-٥٥) ١٤١
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٤١
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٤٢
المعنى الإجماليُّ: ١٤٣
تَفسيرُ الآياتِ: ١٤٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٥٣
بلاغةُ الآياتِ: ١٥٧
سورةُ الرَّحْمنِ
أسماءُ السُّورةِ: ١٦٩
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ١٦٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ١٦٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ١٧٠
الآيات (١-٩) ١٧١
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٧١
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٧٢
المعنى الإجماليُّ: ١٧٢
تَفسيرُ الآياتِ: ١٧٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٨٣
بلاغةُ الآياتِ: ١٨٩
الآيات (١٠-١٣) ٢٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٠٣
المعنى الإجماليُّ: ٢٠٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٠٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢١١
بلاغةُ الآياتِ: ٢١٤
الآيات (١٤-١٨) ٢٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٢٠
المعنى الإجماليُّ: ٢٢١
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٢١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢٢٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٢٦
بلاغةُ الآياتِ: ٢٢٨
الآيات (١٩-٢٥) ٢٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٣٣

المعنى الإجماليُّ: ٢٣٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٤٢
بلاغةُ الآياتِ: ٢٤٥
الآيات (٢٦-٣٠) ٢٤٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٤٩
المعنى الإجماليُّ: ٢٤٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٥٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢٥٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٥٥
بلاغةُ الآياتِ: ٢٦٠
الآيات (٣١-٣٦) ٢٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٦٥
المعنى الإجماليُّ: ٢٦٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٦٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٧٣
بلاغةُ الآياتِ: ٢٧٧
الآيات (٣٧-٤٥) ٢٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٨٣
المعنى الإجماليُّ: ٢٨٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٩٢
بلاغةُ الآياتِ: ٢٩٤
الآيات (٤٦-٦١) ٢٩٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٩٨
المعنى الإجماليُّ: ٢٩٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣١٠
بلاغةُ الآياتِ: ٣١٨
الآيات (٦٢-٧٨) ٣٢٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٢٦
المعنى الإجماليُّ: ٣٢٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٢٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٤٠
بلاغةُ الآياتِ: ٣٤٤

سورةُ الواقِعةِ

أسماءُ السُّورةِ: ٣٥٥
بيانُ المكِّيِّ والمدَنيِّ: ٣٥٥
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٣٥٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٣٥٥
الآيات (١-٩) ٣٥٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٥٧

المعنى الإجماليُّ: ٣٥٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٥٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٦٤
بلاغةُ الآياتِ: ٣٦٦
الآيات (١٠-٢٦) ٣٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٧٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٧٥
المعنى الإجماليُّ: ٣٧٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٧٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٩٢
بلاغةُ الآياتِ: ٣٩٦
الآيات (٢٧-٤٠) ٤٠٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٠٧
المعنى الإجماليُّ: ٤٠٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤١٨
بلاغةُ الآياتِ: ٤٢٠
الآيات (٤١-٥٦) ٤٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٢٤
المعنى الإجماليُّ: ٤٢٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٤٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٣٥
بلاغةُ الآياتِ: ٤٣٨
الآيات (٥٧-٦٢) ٤٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٤٦
المعنى الإجماليُّ: ٤٤٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٤٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٤٥٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٥٥
بلاغةُ الآياتِ: ٤٥٦
الآيات (٦٣-٧٤) ٤٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٦٥
المعنى الإجماليُّ: ٤٦٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٤٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٧٧
بلاغةُ الآياتِ: ٤٨٢
الآيات (٧٥-٨٢) ٤٩٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٩٦
المعنى الإجماليُّ: ٤٩٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٥٠٨

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥١٠
بلاغةُ الآياتِ: ٥١٧
الآيات (٨٣-٩٦) ٥٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٢٣
المعنى الإجماليُّ: ٥٢٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٢٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٥٤٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥٤٠
بلاغةُ الآياتِ: ٥٤٥
الفهرس ٥٥٥

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الحديد وسورة المجادلة وسورة الحشر

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بغزة

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السابع والثلاثون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الحديد وسورة المجادلة وسورة الحشر)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد السابع والثلاثون - سورة الحديد وسورة المجادلة وسورة الحشر/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٥٧٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٣-٠٢-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧ ١٤٤٣/٨٠٥٥

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٨٠٥٥

ردمك: ٣-٠٢-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الحديد وسورة المجادلة و سورة الحشر)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السابع والثلاثون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ الحَديدِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الحَديدِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحديدِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الحديدِ مَدَنيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ عن بعضِ المفسِّرينَ الإجماعُ على ذلك[٣].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ الحديدِ؛ لِقَولِه تعالى فيها: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥].
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٣).
قال ابنُ عاشور: (وهذا اللَّفظُ وإنْ ذُكِر فِي سورةِ الكَهفِ [٩٦] في قَولِه تعالى: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ وهي سابقةٌ في النُّزولِ على سورةِ الحديدِ على المختارِ، فلم تُسَمَّ به؛ لأنَّها سُمِّيَت باسمِ الكَهفِ؛ للاعتناءِ بقصَّةِ أهلِ الكَهفِ، ولأنَّ الحديدَ الَّذي ذُكِرَ هنا مرادٌ به حديدُ السِّلاحِ؛ مِن سُيوفٍ ودُروعٍ وخُوَذٍ، تنويهًا به؛ إذ هو أثَرٌ من آثارِ حِكمةِ الله في خَلْقِ مادَّتِه، وإلهامِ النَّاسِ صُنْعَه لتحصُلَ به منافِعُ لتأييدِ الدِّينِ، ودِفاعِ المعتدِينَ، كما قال تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٣).

(٢) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤١).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: النَّحَّاسُ -كما حكاه عنه ابنُ عطيَّةَ-، والقرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٥)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٨٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٥٧).
ونسَب ابنُ الفَرَسِ وابنُ عاشور هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٣).
واستظهر ابن عاشور أنَّ صدرَ هذه السُّورةِ مكِّيٌّ، وأنَّ ذلك يَنتهي إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩]، وأنَّ ما بعدَ ذلك بعضُه نزَل بالمدينةِ كما تقتضيه معانيه، مِثلُ حكايةِ أقوالِ المنافِقين، وبعضُه نزَل بمكَّةَ، مِثلُ آيةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحديد: ١٦] الآيةَ.
قال: (ويُشبِهُ أن يكونَ آخرُ السُّورةِ [إلى] قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] نزَل بالمدينةِ، أُلْحِق بهذه السُّورةِ بتوقيفٍ مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في خِلالِها أو في آخِرِها. =

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

١- الحَديثُ عن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وعن صِفاتِه الجليلةِ[(١)].

٢- دعوةُ المؤمِنينَ إلى التَّمَسُّكِ بتعاليمِ دينِهم[(٢)].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- افتتاحُ السُّورةِ ببَيانِ تَسبيحِ جميعِ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ للهِ، والثَّناءُ عليه سُبحانَه بذِكرِ بَعضِ أسمائِه الحُسْنى وصِفاتِه.

٢- ذِكرُ بَعضِ مظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وسَعةِ مُلْكِه، وشُمولِ عِلْمِه.

٣- حَضُّ المؤمنينَ على الثَّباتِ على إيمانِهم، وعلى الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ.

٤- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ المؤمِنينَ والمؤمناتِ يومَ القيامةِ، وسُوءِ عاقِبةِ المنافِقينَ، وما يجري بيْن الفريقَينِ مِن محاوراتٍ.

٥- حثُّ المؤمنينَ على الخُشوعِ لله وخَشْيتِه، وتحذيرُ المسلِمينَ مِن الوُقوعِ في أسبابِ قَساوةِ القُلوبِ الَّتي وَقَع فيها أهلُ الكِتابِ.

٦- ذِكرُ ثوابِ المتصَدِّقينَ الَّذين أقرَضوا اللهَ قَرضًا حَسَنًا.

= قلتُ: وفيها آيةُ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾ [الحديد: ١٠] الآيةَ، وسواءٌ كان المرادُ بالفتحِ في تلك الآيةِ فتْحَ مكَّةَ أو فتْحَ الحُدَيْبِيَةِ، فإنَّه أُطلِق عليه اسمُ الفتحِ، وبه سُمِّيَتْ «سورةُ الفتحِ»، فهي متعيِّنةٌ لأن تكونَ مدَنيَّةً، فلا يَنبغي الاختِلافُ في أنَّ مُعظَمَ السُّورةِ مدَنيٌّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- بيانُ مَصيرِ الحياةِ الدُّنيا، والدَّعوةُ إلى إيثارِ الآجِلةِ على العاجِلةِ، والباقيةِ على الفانيةِ.

٨- تقريرُ أنَّ كُلَّ شَيءٍ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه.

٩- بيانُ وَحدةِ الرِّسالاتِ السَّماويَّةِ، والتَّنويهُ بحِكمةِ إرسالِ الرُّسُلِ والكُتُبِ.

الآيات (١-٦)

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾: أي: الغالِبُ، العالي بذاتِه على كُلِّ شَيءٍ مِن خَلْقِه، فلا شَيءَ فَوقَه؛ مِنَ الظُّهورِ بمعنى القَهرِ والغَلَبَةِ وكَمالِ القُدرةِ، ومعنى الظُّهورِ يَقتَضي العُلُوَّ، ومنه: ظَهَر فلانٌ على فلانٍ: إذا علاه وغَلَبَه. وظاهِرُ الشَّيءِ: هو ما علا منه وأحاط بباطِنِه، وأصلُ (ظهر) يدلُّ على قوَّةٍ وبروزٍ[(١)].

﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾: أي: العالِمُ بما بَطَن، مِن قَولِهم: فُلانٌ يَبطُنُ أمرَ فُلانٍ، أي: يَعلَمُ داخِلةَ أمْرِه، وبُطونُه سُبحانَه: إحاطتُه بكُلِّ شَيءٍ، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: المُحتَجِبُ عن الأبصارِ والعُقولِ، وأصلُ (بطن): يدُلُّ على خِلافِ الظَّهرِ[(٢)].

﴿يَلِجُ﴾: أي: يَدخُلُ، ﴿يُولِجُ﴾: أي: يُدخِلُ، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٤)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٨/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٩).

شَيءٍ[١].

﴿يَعۡرُجُ﴾: أي: يَصعَدُ ويَرقَى، وأصلُ (عرج): يدُلُّ على ارتِقاءٍ[٢].

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: بما تُكِنُّه الضَّمائِرُ، وقيل: حاجةِ الصُّدورِ، وقيل: بخَفِيَّاتِ القلوبِ، وقيل: بحقيقةِ ما في الصُّدورِ، وذاتُ الشَّيءِ: نَفْسُه وحَقيقتُه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكَريمةَ بالإخبارِ بأنَّه نزَّهَه -تعالى- عن النَّقائِصِ والعُيوبِ كُلُّ مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ، وأنَّه هو الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، ولا يَمتَنِعُ عليه شَيءٌ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به، وأنَّ له وَحْدَه سُلطانَ السَّمَواتِ والأرضِ، يُحيي ويُميتُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ ذكَر سبحانَه مِن صفاتِه أيضًا أنَّه هو وَحْدَه الموَجودُ أزَلًا قبْلَ كُلِّ شَيءٍ، بلا بدايةٍ، والباقي دائِمًا بعْدَ كُلِّ شَيءٍ بلا نِهايةٍ، وهو وَحْدَه العالي بذاتِه على كُلِّ شَيءٍ، والباطِنُ الَّذي لا شَيءَ دُونَه، وهو بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣، ٤٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠،١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠، ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٥).

ثمَّ ذكَر تعالى مِن الأدلَّةِ على وحدانيَّتِه وقدرتِه أنَّه هو الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّامٍ، ثمَّ علا على العَرشِ عُلُوًّا يَليقُ بجَلالِه، يَعلَمُ سُبحانَه ما يَدخُلُ في الأرضِ وما يَخرُجُ مِنها، وما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ، وما يَصعَدُ إليها، واللهُ معكم أينما كُنتُم بعِلْمِه وإحاطتِه، وهو سُبحانَه بَصيرٌ بما تَعمَلونَ.

له وَحْدَه سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ، وإليه وَحْدَه تَرجِعُ الأُمورُ.

يُدخِلُ سُبحانَه ظُلْمةَ اللَّيلِ في ضَوءِ النَّهارِ، وضَوءَ النَّهارِ في ظُلمةِ اللَّيلِ، وهو وَحْدَه عليمٌ بضَمائِرِ القُلوبِ وأسرارِها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: نَزَّهَ اللهَ تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ كُلُّ مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٦)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٧، ٣٥٨).
قال ابن جُزَي: (هذا التَّسبيحُ المذكورُ هنا وفي أوائلِ سائرِ السُّوَرِ المُسَبِّحاتِ يحتمِلُ أن يكونَ حقيقةً، أو أن يكونَ بلِسانِ الحالِ؛ لأنَّ كلَّ ما في السَّمواتِ والأرضِ دليلٌ على وُجودِ الله وقُدرتِه وحِكمتِه). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ٢٣١٣).
وممَّن اختار أنَّه تسبيحٌ حقيقيٌّ: الزَّجَّاجُ، والسمعانيُّ، والرَّسْعَني، والقرطبي، وابنُ جُزَي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره العُلَيمي، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٤)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٧٥) و(٧/ ٦٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (ص: ٢٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤١). =

كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: ١].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، ولا يَمتَنِعُ عليه شَيءٌ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به[1].

﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢﴾.

﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

= قال ابن جرير: (يعني تعالى ذِكرُه بقولِه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أنَّ كلَّ ما دُونَه مِن خَلْقِه يُسَبِّحُه تعظيمًا له، وإقرارًا برُبوبيَّتِه، وإذعانًا لطاعتِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤).

قال الشوكاني: (والمرادُ بالتَّسبيحِ المُسنَدِ إلى ما في السَّمواتِ والأرضِ مِن العُقلاءِ وغيرِهم، والحيواناتِ والجماداتِ هو ما يَعُمُّ التَّسبيحَ بلِسانِ المَقالِ كتسبيحِ الملائكةِ والإنسِ والجنِّ، وبلِسانِ الحالِ كتسبيحِ غيرِهم؛ فإنَّ كلَّ موجودٍ يدُلُّ على الصَّانعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٨).

وقال ابن عثيمين: (كلُّ ما في السَّمواتِ والأرضِ يُسَبِّحُ الله... بلِسانِ الحالِ وبلِسانِ المقالِ، إلَّا الكافرَ؛ فإنَّه يُسبِّحُ اللهَ بلِسانِ الحالِ لا بلِسانِ المقالِ؛ لأنَّ الكافرَ يَصِفُ اللهَ بكلِّ نقصٍ، يقولُ: اتَّخَذ اللهُ ولدًا، ويقولُ: إنَّ معه إلهًا، ورُبَّما يُنكِرُ الخالقَ أصلًا، لكنْ حالُه وخلقتُه وتصرُّفُه تسبيحٌ لله عزَّ وجلَّ. والحشراتُ والحيَواناتُ تُسَبِّحُ اللهَ بلِسانِ المقالِ، والحصى يُسَبِّحُ اللهَ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧). ويُنظر أيضًا ما تقدَّم في تفسير سورة الإسراء الآية (٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤١، ٥٤٢).

أي: لله وَحْدَه سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ فلا شَريكَ له في خَلْقِهما، ولا في تَدبيرِهما والتَّصَرُّفِ فيهما[١].

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ بأنَّه له المُلْكُ؛ أخبَرَ عن ذاتِه بهذَينِ الوصفَينِ العَظيمَينِ اللَّذَينِ بهما تَمامُ التَّصرُّفِ في المُلكِ، وهو إيجادُ ما شاءَ، وإعدامُ ما شاءَ؛ ولذلك أُعقِبَ بالقُدرةِ الَّتي بها الإحياءُ والإماتةُ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر سُبحانَه مِن دَلائِلِ الآفاقِ مُلْكَ السَّمَواتِ والأرضِ؛ ذَكَر بعْدَه دَلائِلَ الأنفُسِ؛ فقال[٣]:

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾.

أي: يُحيي ما يَشاءُ، ويُميتُ ما يَشاءُ مِن خَلْقِه[٤].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى دَلائِلَ الآفاقِ أوَّلًا، ودَلائِلَ الأنفُسِ ثانيًا؛ ذَكَر لَفظًا يَتناوَلُ الكُلَّ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦١).

فقال[١]:

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: وهو ذو قُدرةٍ بالِغةٍ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ، سُبحانَه[٢].

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَر بتمامِ القدرةِ، دلَّ على ذلك بقولِه[٣]:

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾.

أي: هو وَحْدَه الموَجودُ أزَلًا قبْلَ كُلِّ شَيءٍ، بلا بِدايةٍ مُفتَتَحةٍ، والباقي دائِمًا بعْدَ كُلِّ شَيءٍ بلا نِهايةٍ مُنقَضِيةٍ[٤].

﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾.

أي: وهو وَحْدَه العالي بذاتِه على كُلِّ شَيءٍ مِن خَلْقِه؛ فلا شَيءَ فَوقَه، وهو وَحْدَه الباطِنُ الَّذي لا شَيءَ دُونَه، قد أحاط بكُلِّ شَيءٍ، بحيثُ يكونُ أقرَبَ إليه مِن نَفْسِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٥)، ((التوحيد)) لابن منده (٢/ ٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٥)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦١، ٣٦٢). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمُرُنا إذا أخَذْنا مَضجَعَنا أن نَقولَ: اللَّهمَّ رَبَّ السَّمَواتِ ورَبَّ الأرضِ ورَبَّ العَرشِ العَظيمِ، رَبَّنا ورَبَّ كُلِّ شَيءٍ، فالِقَ الحَبِّ والنَّوى، ومُنزِلَ التَّوراةِ والإنجيلِ والفُرقانِ، أعوذُ بك مِن شَرِّ كُلِّ شَيءٍ أنت آخِذٌ بناصيتِه، اللَّهمَّ أنت الأوَّلُ فليس قَبْلَك شَيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بَعْدَك شَيءٌ، وأنت الظَّاهِرُ فليس فَوقَك شَيءٌ، وأنت الباطِنُ فليس دُونَك شَيءٌ، اقْضِ عنَّا الدَّينَ، وأغْنِنا مِن الفَقرِ))[1].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مَن ظَهَر لِشَيءٍ بَطَن عن غَيرِه، ومَن بَطَن لشَيءٍ غاب عنه عِلمُه، وكان سُبحانَه في ظُهورِه على ذلك بمعنى أنَّه ليس فَوقَه شَيءٌ، وفي بُطونِه بحيثُ ليس دُونَه شَيءٌ؛ فقد جَمَعت الأوصافُ إحاطةَ العِلمِ والقُدرةِ- أعلَمَ نَتيجةَ ذلك، فقال[2]:

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: وهو ذو عِلمٍ بالِغٍ تامٍّ بكُلِّ شَيءٍ، فلا يَخفَى عليه شَيءٌ[3].

= قال الزجاج: (الباطنُ؛ لأنَّه غيرُ مدركٍ بالحواسِّ كالأشياءِ المخلوقاتِ التي تُدرَكُ بالحواسِّ نحو اللمسِ، والحسِّ، والباطنُ خلافُ الظَّاهرِ، والباطنُ أيضًا في كلامِ العربِ: الخبيرُ العالمُ بما بطَن مِن أمورِ بعضِ مَن يصحبُه، ويداخِلُه). ((اشتقاق أسماء الله)) (ص: ٢٠٩).

وقال ابنُ منده: (ومعنَى الباطِنِ: المُحْتَجِبُ عن ذَوي الألبابِ كُنْهُ ذاتِه وكيفِيَّةُ صفاتِه عزَّ وجَلَّ). ((التوحيد)) (٢/ ٨٢).

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٣).

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: هو وَحْدَه الَّذي أوجَدَ السَّمَواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّامٍ[١].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

أي: ثمَّ علا على عَرشِه بعْدَ خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ عُلُوًّا يَليقُ بجَلالِه[٢].

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾.

أي: يَعلَمُ اللهُ ما يَدخُلُ في الأرضِ فيَغيبُ فيها مِن ماءٍ وبُذورٍ وحَيَواناتٍ، وأَمواتٍ وكُنوزٍ وغَيرِها، ويَعلَمُ ما يَخرُجُ مِن الأرضِ مِن نَباتٍ وحَيوانٍ، ومَعادِنَ وغَيرِها[٣].

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ تعالى ما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ مِن الملائِكةِ، والأمطارِ والبَرَدِ والثُّلوجِ والصَّواعِقِ، والأرزاقِ والوَحيِ وغَيرِ ذلك، ويَعلَمُ ما يَصعَدُ في السَّماءِ مِنَ الملائِكةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٥، ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٦٧).

والأرواحِ والأعمالِ، والأبخِرةِ وغَيرِها[١].

قال سُبحانَه: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: ٤].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام فينا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بخَمسِ كَلِماتٍ، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لا يَنامُ، ولا يَنبغي له أن يَنامَ، يَخفِضُ القِسطَ ويَرفَعُه، يُرفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيلِ قبْلَ عَمَلِ النَّهارِ، وعَمَلُ النَّهارِ قبْلَ عَمَلِ اللَّيلِ...))[٢] الحديثَ.

﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾.

أي: واللهُ معَكم بعِلمِه وإحاطتِه، رَقِيبٌ عليكم، شَهيدٌ على أعمالِكم في أيِّ مَوضِعٍ كُنتُم فيه مِن بَرٍّ أو بحرٍ، في لَيلٍ أو نهارٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧).

(٢) رواه مسلم (١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٤٢) و(٥/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات-الحديد)) (ص: ٣٦٩).

قال ابن جُزَي: (يعني أنه حاضرٌ مع كلِّ أحدٍ بعِلمِه وإحاطتِه. وأجمَعَ العلماءُ على تأويلِ هذه الآيةِ بذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٣).

أي: ولا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها[١].

﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان صانِعُ الشَّيءِ قد لا يَكونُ مَلِكًا، وكان المَلِكُ لا يَكمُلُ مُلكُه إلَّا بعِلمِ جَميعِ ما يكونُ في مَملكتِه، والقُدرةِ عليه، وكان إنكارُهم للبَعثِ إنكارًا لأن يكونَ مَلِكًا؛ أكَّدَ ذلك بتَكريرِ الإخبارِ به، فقال[٢]:

﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: لله وَحْدَه سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ، فلا شَريكَ له في خَلْقِهما، ولا في تَدبيرِهما والتَّصَرُّفِ فيهما[٣].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى دَلَّ على دوامِ مُلكِه وإحاطتِه، عاطِفًا على ما تَقديرُه: «فمِنَ اللهِ المَبدَأُ»، مُعَبِّرًا بالاسمِ الأعظَمِ الجامِعِ؛ لئَلَّا يُظَنَّ الخُصوصُ بأمورِ ما تقَدَّمَ، فقال تعالى[٤]:

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦١).

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه لا إلى غَيرِه مَرجِعُ جَميعِ الأُمورِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ ذِكرِه هذه الجُملةَ ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أنَّ تَقديرَ اللَّيلِ والنَّهارِ وتَعاقُبَهما مِن التَّصرُّفاتِ الإلهيَّةِ المُشاهَدةِ في أحوالِ السَّمواتِ والأرضِ، ومُلابساتِ أحوالِ الإنسانِ؛ فهذه الجُملةُ بدَلُ اشتمالٍ مِن جُملةِ ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٥]، وهو أيضًا مُناسِبٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥]؛ تذكيرًا للمُشركين بأنَّ المُتصرِّفَ في سَببِ الفناءِ هو اللهُ تعالى؛ فإنَّهم يَعتقِدون أنَّ اللَّيلَ والنَّهارَ هما اللَّذانِ يُفنيانِ النَّاسَ، وحَكَى اللهُ عنهم قولَهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فلمَّا قال: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥]، أبطَلَ بعْدَه اعتقادَ أهلِ الشِّركِ أنَّ للزَّمانِ -الَّذي هو تَعاقُبُ اللَّيلِ والنَّهارِ، والمُعبَّرُ عنه بالدَّهرِ- تَصرُّفًا فيهم[(٢)].

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾.

أي: يُدخِلُ اللهُ ظُلْمةَ اللَّيلِ في ضَوءِ النَّهارِ، فيَغيبُ فيه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

قال ابنُ عثيمين: (كُلُّ الأُمورِ -أي: الشُّؤونِ العامَّةِ والخاصَّةِ، الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ- كُلُّها تَرجِعُ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، يتصَرَّفُ كما شاء، يحكُمُ بما شاء، ولا مُعَقِّبَ لحُكمِه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٦، ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠)، =

﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾.

أي: ويُدخِلُ اللهُ ضَوءَ النَّهارِ في ظُلمةِ اللَّيلِ، فيَغيبُ فيه[١].

﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تصَرُّفَ اللهِ في اللَّيلِ -وكان اللَّيلُ وَقتَ إخفاءِ الأشياءِ- أعقَبَ ذِكرَه بأنَّ اللهَ عَليمٌ بأخفى الخفايا -وهي النِّيَّاتُ-؛ فإنَّها مع كَونِها معانيَ غائِبةً عن الحواسِّ كانت مَكنونةً في ظُلمةِ باطِنِ الإنسانِ؛ فلا يَطَّلِعُ عليها عالِمٌ إلَّا اللهُ تعالى[٢].

﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: وهو وَحْدَه البالِغُ العِلمِ بضَمائِرِ عِبادِه وسَرائِرِهم، لا يخفَى عليه شَيءٌ منها[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ مَعرِفةُ هذه الأسماءِ

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٢).

قال ابنُ عثيمين: (هذا الإيلاجُ لا يأتي دَفعةً واحِدةً، ولكِنَّه يأتي تدريجيًّا شَيئًا فشَيئًا). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٧).

الأربَعةِ -وهي: الأوَّلُ، والآخِرُ، والظَّاهِرُ، والباطِنُ- هي أركانُ العِلمِ والمَعرِفةِ؛ فحَقيقٌ بالعَبدِ أن يَبلُغَ في مَعرفتِها إلى حيثُ ينتهي به قُواه وفَهمُه، واعلَمْ أنَّ لك أنت أوَّلًا وآخِرًا، وظاهِرًا وباطِنًا، بل كلُّ شَيءٍ فله أوَّلٌ وآخِرٌ، وظاهِرٌ وباطِنٌ، حتَّى الخَطرةُ واللَّحظةُ والنَّفَسُ، وأدنى مِن ذلك وأكثَرُ؛ فأوَّلِيَّةُ اللهِ عزَّ وجَلَّ سابِقةٌ على أوَّليَّةِ كُلِّ ما سِواه، وآخِريَّتُه ثابِتةٌ بعْدَ آخِريَّةِ كُلِّ ما سِواه؛ فأوَّلِيَّتُه سَبْقُه لكُلِّ شَيءٍ، وآخِريَّتُه بقاؤُه بعدَ كُلِّ شَيءٍ، وظاهِريَّتُه -سُبحانَه- فَوقيَّتُه وعُلُوُّه على كُلِّ شَيءٍ، ومعنى الظُّهورِ يَقتَضي العُلُوَّ، وظاهِرُ الشَّيءِ: هو ما علا منه وأحاط بباطِنِه. وبُطونُه سُبحانَه: إحاطتُه بكُلِّ شَيءٍ، بحيثُ يكونُ أقرَبَ إليه مِن نَفسِه، وهذا قُربٌ غَيرُ قُربِ المحِبِّ مِن حَبيبِه؛ هذا لَونٌ، وهذا لَونٌ؛ فمَدارُ هذه الأسماءِ الأربَعةِ على الإحاطةِ، وهي إحاطتانِ: زمانيَّةٌ ومَكانيَّةٌ؛ فأحاطت أوَّلِيَّتُه وآخِريَّتُه بالقَبلِ والبَعدِ، فكُلُّ سابِقٍ انتهى إلى أوَّلِيَّتِه، وكُلُّ آخِرٍ انتهى إلى آخِريَّتِه، فأحاطت أوَّلِيَّتُه وآخِريَّتُه بالأوائِلِ والأواخِرِ، وأحاطت ظاهِريَّتُه وباطِنيَّتُه بكُلِّ ظاهِرٍ وباطِنٍ؛ فما مِن ظاهِرٍ إلَّا واللهُ فَوقَه، وما مِن باطِنٍ إلَّا واللهُ دُونَه، وما مِن أوَّلٍ إلَّا واللهُ قَبْلَه، وما مِن آخِرٍ إلَّا واللهُ بَعْدَه؛ فالأوَّلُ قِدَمُه، والآخِرُ دوامُه وبَقاؤُه، والظَّاهِرُ عُلُوُّه وعَظَمتُه، والباطِنُ قُربُه ودُنُوُّه، فسَبَقَ كُلَّ شَيءٍ بأوَّلِيَّتِه، وبَقِيَ بعدَ كُلِّ شَيءٍ بآخِريَّتِه، وعلا على كُلِّ شَيءٍ بظُهورِه، ودنا مِن كُلِّ شَيءٍ ببُطونِه، فلا تُواري منه سَماءٌ سَماءً، ولا أرضٌ أرضًا، ولا يَحجُبُ عنه ظاهِرٌ باطِنًا، بل الباطِنُ له ظاهِرٌ، والغَيبُ عِندَه شَهادةٌ، والبَعيدُ منه قَريبٌ، والسِّرُّ عِندَه عَلانيَةٌ؛ فهذه الأسماءُ الأربَعةُ تَشتَمِلُ على أركانِ التَّوحيدِ؛ فهو الأوَّلُ في آخِريَّتِه، والآخِرُ في أوَّلِيَّتِه، والظَّاهِرُ في بُطونِه، والباطِنُ في ظُهورِه، لم يَزَلْ أوَّلًا وآخِرًا، وظاهِرًا

وباطِنًا -سُبحانَه وبِحَمدِه[١]!

٢- يُستفادُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كمالُ مُراقَبةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وخَشيتِه؛ بحيث لا يَفْقِدُه حيثُ أمَرَه، ولا يَراه حيثُ نَهاه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ تحذيرُ المرءِ مِن المُخالَفةِ، فإذا سَوَّلَت لك نفْسُك مَعصيةً للهِ عزَّ وجلَّ فاعرِضْ عليها مِثْلَ هذه الآيةِ وأشباهَ ذلك مِن الأشياءِ الَّتي يَجِبُ على المرءِ إذا هَمَّ بسَيِّئةٍ أنْ يَستعرِضَها؛ حتَّى تَمنَعَه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ رَدٌّ على «أهلِ الوَحْدةِ» الَّذين يَحتجُّون بنُصوصِ «المَعِيَّةِ» و«القُرْبِ» على أنَّ الوُجودَ واحِدٌ، ويَتأوَّلونَ نُصوصَ العُلُوِّ والاستِواءِ، وكلُّ نَصٍّ يَحتجُّون به حُجَّةٌ عليهم؛ فإنَّ «المَعِيَّةَ» أكثرُها خاصَّةٌ بأنبيائِه وأوليائِه، وعِندَهم أنَّه -تعالى وتَقَدَّس- في كلِّ مَكانٍ، وفي نُصوصِهم ما يُبَيِّنُ نَقيضَ قَولِهم؛ ففي قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أنَّ كلَّ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ يُسَبِّحُ، والمُسَبِّحُ غيرُ المُسَبَّحِ[٤]!

٢- قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ افتتاحُ هذه السُّورةِ بذِكرِ تَسبيحِ اللهِ وتَنزيهِه مُؤْذِنٌ بأنَّ أهمَّ ما اشتَمَلَت عليه إثباتُ وصْفِ اللهِ بالصِّفاتِ الجليلةِ المُقتضيةِ أنَّه مُنزَّهٌ عمَّا ضلَّ في شأْنِه أهلُ الضَّلالِ مِن وصْفِه بما لا يَليقُ

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٤).
(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٤).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٢٣).

بجَلالِه، وأوَّلُ التَّنزيهِ هو نفْيُ الشَّريكِ له في الإلهيَّةِ؛ فإنَّ الوَحدانيَّةَ هي أكبرُ صِفةٍ ضلَّ في كُنْهِها المُشرِكون والمانويَّةُ[١] ونحْوُهم مِن أهلِ التَّثنيةِ، وأصحابِ التَّثليثِ والبَراهمةِ[٢]، وهي الصِّفةُ الَّتي يُنبِئُ عنها اسمُه العَلَمُ (الله)؛ لأنَّ أصْلَه الإلهُ، أي: المُنفرِدُ بالإلهيَّةِ، وأُتبِعَ هذا الاسمُ بصِفاتٍ رَبَّانيَّةٍ تدُلُّ على كَمالِ اللهِ تعالى وتَنزُّهِه عن النَّقصِ، فكانتْ هذه الفاتحةُ بَراعةَ استِهلالٍ لهذه السُّورةِ؛ ولذلك أُتبِعَ اسْمُه العَلَمُ بعَشْرِ صِفاتٍ هي جامِعةٌ لصِفاتِ الكمالِ؛ وهي: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾، ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾، ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أنَّ جَميعَ ما في السَّمَواتِ والأرضِ مِنَ الحَيواناتِ النَّاطِقةِ والصَّامِتةِ وغَيرِها، والجوامِدِ: تُسَبِّحُ بحَمدِ رَبِّها، وتُنَزِّهُه عمَّا لا يَليقُ بجَلالِه، وأنَّها قانِتةٌ لرَبِّها، مُنقادةٌ لعِزَّتِه، قد ظهَرَت فيها آثارُ حِكمتِه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فهذا فيه بَيانُ عُمومِ افتِقارِ المَخلوقاتِ العُلويَّةِ والسُّفْليَّةِ لرَبِّها في جَميعِ أحوالِها، وعُمومِ

---

(١) المانويَّة: فرقةٌ مِن الثَّنويَّةِ [الَّذين يَزعمون أنَّ النُّورَ والظُّلمةَ أزَليَّانِ قديمانِ، بخِلافِ المجوسِ؛ فإنَّهم قالوا بحدوثِ الظَّلامِ]، وهم أصحابُ ماني بنِ فاتك، الَّذي أحدَث دينًا بيْنَ المجوسيَّةِ والنَّصرانيَّةِ، وكان يقولُ بنُبُوَّةِ المسيحِ عليه السَّلامُ، ولا يقولُ بنُبوَّةِ موسى عليه السَّلامُ، ويزعمُ أنَّ العالَمَ مصنوعٌ مركَّبٌ مِن أصلَينِ قديمَينِ: أحدُهما نورٌ، والآخَرُ ظُلْمةٌ، وأنَّهما أزَليَّانِ لم يَزالا، ولن يَزالا. يُنظر: ((المِلَل والنِّحَل)) للشَّهْرَسْتاني (٢/ ٤٩).

(٢) البَراهمة: قومٌ مِن الهندِ، يقولونُ بنفيِ النُّبوَّاتِ أصلًا ورأسًا، يَنتسِبون إلى رجُلٍ منهم يُقالُ له: بَراهِمُ، ثمَّ إنَّ البَراهمةَ تفرَّقوا أصنافًا، ومنهم أصحابُ التَّناسُخِ. يُنظر: ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (١/ ٦٣)، ((الملل والنحل)) للشَّهْرَسْتاني (٣/ ٩٥-٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٦، ٣٥٧).

عِزَّتِه وقَهرِه للأشياءِ كُلِّها، وعُمومِ حِكمتِه في خَلْقِه وأمْرِه[١]!

٤- قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ فَسَّرَه النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه الَّذي ليس قَبْلَه شيءٌ، ففَسَّرَ الإثباتَ بالنَّفيِ؛ فجَعَل هذه الصِّفةَ الثُّبوتيَّةَ صِفةً سَلبيَّةً، مع أنَّ الصِّفاتِ الثُّبوتيَّةَ أكمَلُ وأكثَرُ؛ وذلك لتوكيدِ الأوَّليَّةِ، يعني أنَّها مُطلَقةٌ، أوَّليَّةٌ ليست أوَّليَّةً إضافيَّةً؛ فيُقالُ: هذا أوَّلٌ باعتِبارِ ما بَعْدَه، وهناك شَيءٌ آخَرُ قَبْلَه، فصار تَفسيرُها بأمرٍ سَلبيٍّ أدَلَّ على العُمومِ باعتبارِ التَّقَدُّمِ الزَّمَنيِّ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ حَسَّنَ العطفَ هنا التَّغايرُ الظَّاهرُ، وكلَّما كان التَّغايُرُ أبْيَنَ كان العطفُ أحسَنَ، فإنَّ الأوَّليَّةَ لا تُجامِعُ الآخِريَّةَ! ولهذا فَسَّرَها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقولِه: ((أنت الأوَّلُ؛ فليس قَبْلَك شَيءٌ، وأنت الآخِرُ؛ فليس بَعْدَك شَيءٌ))[٣]، فأوَّليَّتُه أزَليَّتُه، وآخِريَّتُه أبَديَّتُه.

فإنْ قيلَ: فما تَصنَعُ بقولِه: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾؛ فإنَّ ظُهورَه تعالى ثابتٌ مع بُطونِه، فيَجتمِعُ في حقِّه الظُّهورُ والبُطونُ، والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم فَسَّر «الظَّاهرَ» بأنَّه الَّذي ليس فوقَه شَيءٌ، و«الباطنَ» بأنَّه الَّذي ليس دونَه شيءٌ، وهذا العُلُوُّ والفوقيَّةُ مجامِعٌ لهذا القُرْبِ والدُّنُوِّ والإحاطةِ؟

والجوابُ: الَّذي حَسَّنَ دخولَ «الواوِ» هاهنا أنَّ هذه الصِّفاتِ مُتقابِلةٌ مُتضادَّةٌ؛ وقد عُطِفَ الثَّاني منها على الأوَّلِ للمُقابَلةِ الَّتي بيْنَهما، والصِّفتانِ الأُخْرَيانِ كالأُولَيَيْنِ في المُقابَلةِ، ونِسبةُ الباطنِ إلى الظَّاهرِ كنِسبةِ الآخِرِ إلى الأوَّلِ؛ فكما حَسُنَ العطفُ بيْنَ الأُولَيَيْنِ حَسُنَ بيْنَ الأُخْرَيَيْنِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨١).

(٣) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ هذا الوَصفُ يَستلزِمُ صِفةَ الغِنى المُطلَقِ؛ لأنَّ الأوَّلَ هنا معناه الموجودُ لِذَاتِه دون سَبْقِ عَدَمٍ، ثمَّ هذه الأوَّلِيَّةُ في الوُجودِ تقتَضي أن تَثبُتَ لله جميعُ صِفاتِ الكَمالِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ المُتقابِلَ مِن هذه الأسماءِ مُتلازِمٌ؛ فإذا قلتَ: «الأوَّلُ» فقُلِ: «الآخِرُ»، وإذا قُلتَ: «الظَّاهِرُ» فقُلِ: «الباطِنُ»؛ لِئلَّا تَفوتَ صِفةُ المقابَلةِ الدَّالَّةِ على الإحاطةِ[٢].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ قَولُه: ﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ اشتَمَلا على عُمومِ الزَّمانِ، وقَولُه: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ على عُمومِ المَكانِ[٣].

٩- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ إثباتُ أربعةِ أسماءٍ للهِ تعالى، وهي: الأوَّلُ، والآخِرُ، والظَّاهِرُ، والباطِنُ، واستفَدْنا منها خَمسَ صِفاتٍ: الأوَّلِيَّةُ، والآخِرِيَّةُ، والظَّاهِرِيَّةُ، والباطِنيَّةُ، وعُمومُ العِلمِ، واستَفَدْنا مِن مَجموعِ الأسماءِ: إحاطةَ اللهِ تعالى بكلِّ شَيءٍ زَمانًا ومَكانًا؛ لأنَّه قد يَحصُلُ مِن اجتِماعِ الأوصافِ زيادةُ صِفةٍ[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ إرشادٌ إلى بُطلانِ التَّسَلسُلِ الباطِلِ ببَديهةِ العَقلِ، وأنَّ سِلسِلةَ المخلوقاتِ في ابتِدائِها تَنتَهي إلى أوَّلٍ ليس قَبْلَه شَيءٌ، كما تَنتَهي في آخِرِها إلى آخِرٍ ليس بعدَه شَيءٌ، كما أنَّ ظُهورَه هو العُلوُّ الَّذي ليس فَوقَه شَيءٌ، وبُطونَه هو الإحاطةُ الَّتي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٣).

لا يكونُ دُونَه فيها شَيءٌ، ولو كان قَبْلَه شيءٌ يكونُ مُؤثِّرًا فيه لَكان ذلك هو الرَّبَّ الخَلَّاقَ! ولا بُدَّ أنْ يَنتهيَ الأمرُ إلى خالقٍ غَيرِ مَخلوقٍ، وغَنيٍّ عن غَيرِه، وكلُّ شَيءٍ فقيرٌ إليه، قائِمٍ بنَفْسِه وكُلُّ شَيءٍ قائِمٌ به، مَوجودٍ بذاتِه وكلُّ شَيءٍ مَوجودٌ به، قَديم لا أوَّلَ له، وكُلُّ ما سِواه فوُجودُه بَعْدَ عَدَمِه، باقٍ بذاتِه وبَقاءُ كلِّ شيءٍ به؛ فهو الأوَّلُ الَّذي ليس قَبْلَه شَيءٌ، والآخِرُ الَّذي ليس بَعْدَه شَيءٌ، الظَّاهِرُ الَّذي ليس فَوقَه شَيءٌ، الباطِنُ الَّذي ليس دُونَه شَيءٌ[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ فَسَّرَه النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه الَّذي ليس بَعْدَه شَيءٌ[٢]، ولا يُتوهَّمُ أنَّ هذا يدُلُّ على غايةٍ لآخِريَّتِه؛ لأنَّ هناك أشياءَ أبَديَّةً وهي مِن المَخلوقاتِ،كالجَنَّةِ والنَّارِ، وعليه فيَكونُ معنى: ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ أنَّه مُحيطٌ بكُلِّ شَيءٍ، حتَّى الَّذي لا نِهايةَ له[٣].

١٢- يُستفادُ مِن اسمِ اللهِ «الظَّاهِرُ» عُلُوُّ اللهِ تعالى[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ فَسَّرَه النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه الَّذي ليس دُونَه شَيءٌ[٥]، وهذا كِنايةٌ عن إحاطتِه بكُلِّ شَيءٍ، ولكِنَّ المعنى أنَّه مع عُلُوِّه -عزَّ وجلَّ- فهو باطِنٌ؛ فعُلُوُّه لا يُنافي قُرْبَه عزَّ وجلَّ، فـ «الباطِنُ» قَريبٌ مِن معنى «القَريبِ»[٦].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذا يدُلُّ على أنَّه تعالى

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٢/ ٤٢٢).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٦).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((شرح الكافية الشافية)) لابن عثيمين (٢/ ١١٦).

(٥) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٦).

(٦) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٢).

مُستوٍ على عَرْشِه، عالٍ على جَميعِ خَلْقِه، وقَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ يُوهِمُ خِلافَ ذلك! فما الجَوابُ؟

الجَوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّه تعالى مُستوٍ على عَرشِه -كما قال، بلا كَيفٍ ولا تَشبيهٍ- استِواءً لائِقًا بكَمالِه وجَلالِه، وجميعُ الخلائِقِ في يَدِه أصغَرُ مِن حَبَّةِ خَردَلٍ! فهو مع جَميعِهم بالإحاطةِ الكامِلةِ، والعِلمِ التَّامِّ، ونُفوذِ القُدرةِ -سُبحانَه وتعالى عُلُوًّا كَبيرًا؛ فلا مُنافاةَ بيْنَ عُلُوِّه على عَرشِه ومَعِيَّتِه لجَميعِ الخَلائِقِ؛ ألَا تَرى -ولله المَثَلُ الأَعلى- أنَّ أحَدَنا لو جَعَل في يَدِه حَبَّةً مِن خَردَلٍ، أنَّه ليس داخِلًا في شَيءٍ مِن أجزاءِ تلك الحَبَّةِ، معَ أنَّه مُحيطٌ بجَميعِ أجزائِها، ومع جَميعِ أجزائِها، والسَّمَواتُ والأرضُ ومَن فيهما في يَدِه تعالى أصغَرُ مِن حَبَّةِ خَردَلٍ في يَدِ أحَدِنا -وله المَثَلُ الأعلى سُبحانَه وتعالى عُلُوًّا كَبيرًا-؛ فمعَ أنَّه مُستوٍ على عَرشِه، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن عَمَلِ خَلْقِه جَلَّ وعلا[1]!

الثَّاني: أنَّه ذَكَرَ استِواءَه على العَرشِ، ثمَّ قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، وإذا جَمَع اللهُ لنَفْسِه بيْن وَصْفَينِ فإنَّنا نَعلَمُ عِلْمَ اليَقينِ أنَّهما لا يَتناقَضانِ؛ لأنَّهما لو تناقَضَا لاستَحالَ اجتِماعُهما؛ إذِ المُتناقِضانِ لا يَجتَمِعانِ ولا يَرتَفِعانِ؛ فلا بُدَّ مِن وُجودِ أحدِهما وانتِفاءِ الثَّاني، ولو كان هناك تَناقُضٌ لَزِمَ أنْ يكونَ أوَّلُ الآيةِ مُكَذِّبًا لآخِرِها، أو بالعكسِ!

الثَّالثُ: أنَّه قد يَجتَمِعُ العُلُوُّ والمَعيَّةُ في المخلوقاتِ، كما في قَولِ النَّاسِ: «ما زِلْنا نَسيرُ والقَمَرُ مَعَنا».

الرَّابعُ: لو فُرِضَ تعارُضُهما بالنِّسبةِ للمَخلوقِ لم يَلزَمْ ذلك بالنِّسبةِ للخالِقِ؛

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٣٠).

لأنَّ اللهَ ليس كمِثْلِه شَيءٌ سُبحانَه[١].

١٥- قَولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ مِن أدَلِّ شَيءٍ على مُبايَنةِ الرَّبِّ تعالى لِخَلْقِه؛ فإنَّه لم يَخلُقْهم في ذاتِه، بل خَلَقَهم خارِجًا عن ذاتِه، ثمَّ بانَ عنهم باستِوائِه على عَرْشِه، وهو يَعلَمُ ما هم عليه، فيَراهم، ويَنْفُذُهم بَصَرُه، ويُحيطُ بهم عِلمًا وقُدرةً وإرادةً، وسَمعًا وبَصَرًا، فهذا معنى كَونِه سُبحانَه «معهم أينَما كانوا»[٢]!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ خَلْقَ العَرشِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فإنَّه يَقتَضي أنَّه استوى على العَرشِ بعدَ خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ، ولم يَذْكُرْ أنَّه خَلَقَه حينَئذٍ، ولو كان خَلَقَه حينَئذٍ لَكان قد ذَكَر خَلْقَه ثُمَّ استِواءَه عليه، ولأنَّ ذِكْرَه للاستِواءِ عليه دونَ خَلْقِه دَليلٌ على أنَّه كان مخلوقًا قبْلَ ذلك[٣].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أنَّ الاستِواءَ مِن الصِّفاتِ الفِعليَّةِ، وليس مِن الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ؛ لأنَّه مُرتَّبٌ بعدَ خَلْقِ السَّمَواتِ -يعني: حادِثًا[٤]- ولا شَكَّ أنَّ قيامَ الأفعالِ الاختياريَّةِ باللهِ عزَّ وجلَّ مِن كَمالِ اللهِ، فمِن كَمالِه أنْ يكونَ فاعِلًا؛ متى شاء فَعَل، ومتى شاء لم يَفْعَلْ. وأمَّا مَن قال: إنَّه يَلْزَمُ مِن قيامِ الحوادِثِ به أنْ يكونَ حادِثًا، فهذه قَضيَّةٌ غَيرُ مُسَلَّمةٍ ولا صَحيحةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيميَّة (٣/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ سُؤالٌ: كيف الجَمعُ بيْنَ هذه الآيةِ وبيْنَ قَولِه سُبحانَه وتعالى في آيةِ الكُرسيِّ: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؟

الجوابُ: لا يُوجَدُ خِلافٌ بَيْنَهما؛ فالكُرسيُّ شامِلٌ للسَّمَواتِ والأرضِ، يعني لِعظَمِه وكِبَرِه يكونُ واسِعًا لهما جَميعًا، أي لكلِّ السَّمَواتِ والأرضِ، والعَرشُ فَوْقَه[1].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ تعالى، والعَرشُ أعلى المخلوقاتِ[2].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أنَّه إذا قُلْنا: استوى على العَرشِ -بمعنى: علا- فهاهنا سُؤالٌ: وهو: أنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَواتِ ثمَّ استوى على العَرشِ، فهل يَستلزِمُ أنَّه قبْلَ ذلك ليس عاليًا؟

فالجوابُ: لا يَستلزِمُ ذلك؛ لأنَّ الاستواءَ على العَرشِ أخَصُّ مِن مُطلَقِ العُلُوِّ؛ لأنَّ الاستِواءَ على العَرشِ عُلُوٌّ خاصٌّ به، والعُلُوُّ شامِلٌ على جَميعِ المخلوقاتِ؛ فعُلُوُّه عزَّ وجلَّ ثابِتٌ له أزَلًا وأبَدًا، لم يَزَلْ عاليًا على كُلِّ شَيءٍ قبْلَ أنْ يَخلُقَ العَرشَ، ولا يَلزَمُ مِن عَدَمِ استِوائِه على العَرشِ عَدَمُ عُلُوِّه، بل هو عالٍ، ثمَّ بعْدَ خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ عَلَا عُلُوًّا خاصًّا على العَرشِ[3].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ إبطالُ قَولِ المُعَطِّلةِ والجَهْميَّةِ الَّذين يَقولونَ: ليس على العَرشِ شَيءٌ سِوى العَدَمِ! وأنَّ اللهَ ليس مُستويًا على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٢).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٨٥).

عرْشِه! ولا تُرفَعُ إليه الأيدي! ولا يَصْعَدُ إليه الكَلِمُ الطَّيِّبُ! ولا رَفَعَ المسيحَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- إليه! ولا عُرِجَ برَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم إليه! ولا تَعرُجُ الملائِكةُ والرُّوحُ إليه! ولا يَنْزِلُ مِن عندِه جِبريلُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ولا غيرُه! ولا يَنْزِلُ هو كُلَّ لَيلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا! ولا يخافُه عبادُه مِن الملائِكةِ وغَيرِهم مِن فَوقِهم! ولا يَراه المؤمِنونَ في الدَّارِ الآخِرةِ عِيانًا بأبصارِهم مِن فَوقِهم! ولا تجوزُ الإشارةُ إليه بالأصابِعِ إلى فَوقٍ كما أشار إليه النَّبيُّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- في أعظَمِ مَجامِعِه؛ في حَجَّةِ الوداعِ، ((وجَعَلَ يَرفعُ إصْبَعَه إلى السَّماءِ ويَنْكُتُها إلى النَّاسِ[(١)]، ويقولُ: اللَّهُمَّ اشهَدْ))[(٢)]!

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أنَّه سُبحانَه على العَرشِ بذاتِه، فإنْ قالوا: فإنَّ العَرَبَ يقولونَ: «استوى فُلانٌ على بَلَدِ كذا وكذا»: إذا استولى عليه وقَهَرَ.

فالجوابُ مِن أوجهٍ:

أحدُها: أنَّه لو كان «استوى» بمعنى «استولى» لم يكُنْ لتَخصيصِه العَرشَ بالاستواءِ مَعنًى؛ لأنَّه مُسْتَولٍ على كُلِّ شَيءٍ غَيرِه، فكان يجوزُ أنْ يقالَ: الرَّحمنُ على الجَبَلِ استَوى! وهذا باطلٌ.

الثَّاني: أنَّ العربَ لا تُدْخِلُ «ثُمَّ» إلَّا لأمرٍ مُستقبَلٍ سيكونُ، واللهُ تعالى لم يَزَلْ قاهِرًا قادِرًا مُستَولِيًا على الأشياءِ؛ فلم يكُنْ -بزَعمِهم- لِقَولِه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ مَعنًى.

---

(١) يَنْكُتُها إلى النَّاسِ: أي: يشيرُ بها إليهم، كالَّذي يَضرِبُ بها الأرضَ. يُنظر: ((مِرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٥/ ١٧٧٣).

(٢) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٩٥).

والحديث أخرجه مسلمٌ (١٢١٨) مِن حديثِ جابرِ بنِ عبدِ الله رضيَ الله عنهما.

الثَّالِثُ: أنَّ «الاستواءَ» بمعنى «الاستيلاءِ» لا يكونُ عندَ العربِ إلَّا بعدَ أنْ يكونَ ثَمَّ مُغَالِبٌ يُغالِبُه، فإذا غَلَبَه وقَهَرَه قيل: قد استَولى عليه، فلمَّا لم يكُنْ مع اللهِ مُغالِبٌ لم يكُنْ معنى استِوائِه على عَرْشِه استيلاءَه عليه وغَلَبَتَه، وصَحَّ أنَّ استواءَه عليه هو عُلُوُّه وارتِفاعُه عليه بلا حَدٍّ ولا كَيفٍ ولا تَشبيهٍ.

الرَّابعُ -وهو قولُ أئمَّةِ اللُّغَةِ-: أنَّ الاستواءَ في اللُّغةِ: هو العُلُوُّ والرِّفْعةُ؛ لأنَّهم يقولونَ: «استَوَتِ الشَّمسُ»: إذا تعالتْ، و«استوى الرَّجُلُ على ظَهرِ دابَّتِه»: إذا علاها، وقولُه تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، أي: ارتفَعتْ عليه، وقولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] أي: ارتفَعَ عن حالِ النُّقصانِ إلى حالِ الكَمالِ، ويقالُ: استوى أَمْرُ فلانٍ، أي: ارتفعَ وعلا عنِ الحالِ الَّتي كان عليها مِن الضَّعْفِ وسُوءِ الحالِ[(١)].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ دَلالةٌ على بُطلانِ تأويلِ «الاستواءِ» بمعنى «المُلْكِ»؛ لأنَّه سُبحانَه أخبَرَ أنَّه خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ، ثمَّ استوى على العَرشِ، وقد أخبَرَ أنَّ العَرشَ كان مَوجودًا قبْلَ خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ -كما دلَّ على ذلك الكِتابُ والسُّنَّةُ-، وحينَئذٍ فهو مِن حِينِ خلَقَ العَرشَ مالِكٌ له مُسْتَولٍ عليه؛ فكيف يكونُ الاستواءُ عليه مُؤخَّرًا عن خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؟! وأيضًا فاللهُ مالِكٌ لكُلِّ شَيءٍ، مُستَولٍ عليه؛ فكيف يُخصُّ العَرشُ بالاستِواءِ[(٢)]؟!

٢٤- قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ وهذه المَعِيَّةُ مَعِيَّةُ العِلمِ والاطِّلاعِ؛ ولهذا تَوعَّد ووَعَد على المُجازاةِ بالأعمالِ، بقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، أي:

(١) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٣٠٣)، ونقله عن صاحب ((الجامع الصغير في أصول الدين)) الحسين بن أحمد الأشعري المتكلم.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٧٦).

هو تعالى بصيرٌ بما يَصدُرُ منكم مِنَ الأعمالِ، وما صدَرَت عنه تلك الأعمالُ مِن بِرٍّ وفُجورٍ، فمُجازيكم عليها، وحافِظُها عليكم[١].

٢٥- قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]، وقد فسَّر السَّلفُ مَعيَّةَ اللهِ تعالى لِخَلقِه في الآيتَينِ بالعِلمِ، وهم بذلك لم يُؤَوِّلوها تأويلَ أهلِ التَّعطيلِ، ولم يَصرِفوا الكلامَ عن ظاهِرِه؛ وذلك مِن وُجوهٍ ثلاثةٍ:

الأوَّل: أنَّ اللهَ تعالى ذكَرها في سورةِ (المجادلةِ) بيْنَ عِلمَينِ، فقال في أوَّلِ الآيةِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقال في آخِرِها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ فدلَّ ذلك على أنَّ المرادَ أنَّه يَعلَمُهم، ولا يخفَى عليه شيءٌ مِن أحوالِهم.

الثَّاني: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَها مَقرونةً باستِوائِه على عَرْشِه -الَّذي هو أعلى المخلوقاتِ-؛ فدَلَّ على أنَّ المرادَ مَعِيَّةُ الإحاطةِ بهم عِلمًا وبَصَرًا، لا أنَّه معهم بذاتِه في كلِّ مَكانٍ، وإلَّا لَكان أوَّلُ الآيةِ وآخِرُها مُتناقِضًا.

الثَّالِثُ: أنَّ العِلمَ مِن لوازمِ المَعِيَّةِ[٢].

٢٦- قَولُه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: إلى حيثُ لا مالِكَ سِواه، ودَلَّ بهذا القَولِ على إثباتِ المَعادِ[٣].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ تمامُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وسُلطانِه في كَونِه يُولِجُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٧).

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ إثباتُ حِكمةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ هذا الإيلاجَ له حِكمةٌ عَظيمةٌ لا تقومُ مَصالِحُ الخَلْقِ إلَّا بها؛ لأنَّه يَترتَّبُ على هذا الإيلاجِ اختِلافُ فُصولِ السَّنةِ الَّتي يَترتَّبُ على اختِلافِها نُمُوُّ الأجسادِ والنَّباتِ؛ فمِن النَّباتِ ما يكونُ شَتْويًّا، ومِن النَّباتِ ما يكونُ صَيفيًّا[١].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أنَّ الإنسانَ يَعرِفُ به ضَعْفَه وافتِقارَه إلى ربِّه؛ إنْ جاء البَرْدُ صار يَتَطَلَّبُ ما يُدفِّئُه، وإنْ جاء الحَرُّ صار يَتَطَلَّبُ ما يُبَرِّدُه؛ فهو محتاجٌ إلى ربِّه في الحالَينِ، وهذا مِن فوائدِ اختِلافِ الحَرِّ والبَرْدِ[٢].

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ دَليلٌ على رَحمةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ تناوُبَ اللَّيلِ والنَّهارِ بالزِّيادةِ والنَّقصِ فيه مَصلحةٌ عَظيمةٌ جِدًّا؛ لأنَّ اللَّيلَ إذا طال حَصَلَ البَرْدُ والشِّتاءُ، وظَهَرتْ أشجارُ الشِّتاءِ، وماتتِ الحَشَراتُ الَّتي قد يكونُ بقاؤها ضارًّا بالإنسانِ والنَّباتِ، وكذلك إذا ازدادَ النَّهارُ ازدادَ الحَرُّ فنَضِجَتِ الثِّمارُ، وزال البُخارُ مِن الأرضِ، وماتتْ بذلك حَشَراتٌ كثيرةٌ مِن أجْلِ الحَرِّ، لو أنَّها بَقِيَتْ وتنامَتْ لأَضَرَّتْ بالنَّاسِ، فيكونُ هذا أيضًا فيه دَليلٌ على كَمالِ الحِكمةِ والرَّحمةِ مع القُدرةِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- عُبِّر هنا وفي سُورتَي (الحَشْرِ) و(الصَّفِّ) بالمُضِيِّ: ﴿سَبَّحَ﴾، وفي سُورتَي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٧٢).

(الجُمُعةِ) و(التَّغابُنِ) بالمُضارِعِ: ﴿يُسَبِّحُ﴾، وفي سُورةِ (الأعْلى) بالأمْرِ: ﴿سَبِّحِ﴾، وفي سُورةِ (الإسراءِ) بالمصدَرِ: ﴿سُبْحَٰنَ﴾؛ استيعابًا للجِهاتِ المشهورةِ لهذه الكَلِمةِ، وللإيذانِ بتَحقُّقِه في جَميعِ الأوقاتِ. وأنَّ هذه الأشياءَ مسبِّحةٌ في كلِّ الأوقاتِ، لا يختصُّ بوقتٍ دونَ وقتٍ؛ بل هي مسبِّحةٌ أبدًا في الماضي، وستكونُ مسبِّحةً أبدًا في المستقبَلِ. وبدَأَ بالمَصدرِ في (الإسراءِ)؛ لأنَّه الأصلُ، ولأنَّه أبلَغُ مِن حيثُ إنَّه يُشعِرُ بإطلاقِه على استِحقاقِ التَّسبيحِ مِن كلِّ شَيءٍ وفي كلِّ حالٍ، ثم بالمُضِيِّ لسَبْقِ زَمَنِه، ثمَّ بالمضارِعِ؛ لشُمولِه الحالَ والمستقبَلَ، ثمَّ بالأمرِ؛ لخُصوصِه بالحالِ، مع تأخُّرِه في النُّطقِ به في قولِهم: فَعلَ، يَفْعلُ، افْعلْ[1]. وقيل: جاء في بَعضِ الفواتحِ (سبَّح) على لَفظِ الماضي، وفي بَعضِها على لَفظِ المضارِعِ، وكلُّ واحدٍ منهما معناهُ: أنَّ مِن شأْنِ مَن أُسنِدَ إليه التَّسبيحُ أنْ يُسبِّحَه، وذلك هِجِّيراهُ ودَيدنُه[2].

- وصِيغَ فِعلُ التَّسبيحِ هنا بصِيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّ تَنزيهَه تعالى أمْرٌ مُقرَّرٌ، أمَرَ اللهُ به عِبادَه مِن قبْلُ، وألْهَمَه النَّاسَ، وأودَعَ دَلائلَه في أحوالِ ما لا اختيارَ له، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقولُه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ ففي قولِه: ﴿سَبَّحَ﴾ تَعريضٌ بالمُشرِكين الَّذين أهْمَلوا أهمَّ التَّسبيحِ، وهو تَسبيحُه عن الشَّريكِ والنِّدِّ[3].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٧).

- واللَّامُ في ﴿لِلَّهِ﴾ إمَّا أنْ تكونَ بمَنزلةِ اللَّامِ في: نصَحْتُ لِزَيدٍ، يُقالُ: سبَّحَ اللهَ، كما يُقالُ: نصَحْتُ زَيدًا؛ فجِيءَ باللَّامِ لتَقويةِ وُصولِ الفِعلِ إلى المفعولِ. وإمَّا أنْ تكونَ لامَ التَّعليلِ، أي: أحدَثَ التَّسبيحَ مِن أجْلِ اللهِ، أي: لوَجْهِه خالِصًا[1]. وقيل: دخلتِ «اللَّامُ» هنا؛ لأنَّ المرادَ هو التَّسبيحُ الَّذي هو السُّجودُ والخُضوعُ والطَّاعةُ، وليس التَّنزيهَ والذِّكْرَ المُجَرَّدَ[2]!

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بحذْفِ (ما) بيْنَ السَّمواتِ والأرضِ؛ مُوافَقةً لقولِه بعْدُ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢]، و﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الحديد: ٤]، ولأنَّ التَّقديرَ في هذه السُّورةِ: «سبَّحَ للهِ خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ»، وكذلك قال في آخِرِ (الحشرِ) بعْدَ قولِه: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ٢٤]، أي: خلْقُهما، وقاله في سُوَرِ (الحَشْرِ)، و(الصَّفِّ)، و(الجُمعةِ)، و(التَّغابُنِ) بإثباتِها؛ عمَلًا بالأصْلِ[3].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ حالٌ، أو اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه، مُشعِرٌ بعِلَّةِ الحكمِ[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

- هو استِئنافٌ ابتدائيٌّ بذِكرِ صِفةٍ عَظيمةٍ مِن صِفاتِ اللهِ الَّتي مُتعلَّقُها أحوالُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٣).

الكائناتِ في السَّمواتِ والأرضِ، وخاصَّةً أهلَ الإدراكِ منهم، ومَضمونُ هذه الجُملةِ يُؤْذِنُ بتَعليلِ تَسبيحِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ مَن له مُلكُ العوالِمِ العُليا والعالَمِ الدُّنيويِّ حَقيقٌ بأنْ يَعرِفَ النَّاسُ صِفاتِ كَمالِه[١].

- وأفاد تَعريفُ المُسنَدِ قصْرَ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٢] لعدَمِ الاعتِدادِ بمُلكِ غَيرِه في الأرضِ؛ إذ هو مُلكٌ ناقصٌ؛ فإنَّ المُلوكَ مُفتقِرونَ إلى مَن يَدفَعُ عنهم العواديَ بالأحلافِ والجُندِ، وإلى مَن يُدبِّرُ لهم نِظامَ المملَكةِ مِن وُزراءَ وقُوَّادٍ، وإلى أخْذِ الجِبايةِ والجِزيةِ، ونحوِ ذلك، أو هو قَصْرٌ حَقيقيٌّ، إذا اعتُبِرَتْ إضافةُ (مُلْك) إلى مَجموعِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فإنَّه لا مُلكَ لمالكٍ على الأرضِ كلِّها بَلْهَ السَّمواتِ معه سبحانه[٣].

- وقولُه: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[٤] مِن مَضمونِ ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٨).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ: في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مَبنيًّا على الادِّعاءِ والمُبالَغةِ، بتنزيلِ غَيرِ المذكورِ مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مِفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٨).

(٤) البَدَلُ: هو التَّابعُ المقصودُ بحُكمٍ بلا واسِطةٍ، وهو أقسامٌ: بدَلُ كُلٍّ مِن كُلٍّ بأنِ اتَّحَدَا معنًى، نحو: ﴿صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]. وبدَلُ بعضٍ إن دلَّ على بعضِ ما دلَّ =

وَٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ فإنَّ الإحياءَ والإماتةَ ممَّا يَشتمِلُ عليه معْنى مُلكِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لأنَّهما مِن أحوالِ ما عليهما. وتَخصيصُ صِفتَيِ الإحياءِ والإماتةِ بالذِّكرِ للاهتِمامِ بهما؛ لدَلالتِهما على دَقيقِ الحِكمةِ في التَّصرُّفِ في السَّماءِ والأرضِ، ولظُهورِ أنَّ هذَينِ الفِعلَينِ لا يَستطيعُ المخلوقُ ادِّعاءَ أنَّ له عمَلًا فيهما، وللتَّذكيرِ بدَليلِ إمكانِ البعثِ الَّذي جحَدَه المشرِكون، وللتَّعريضِ بإبطالِ زَعْمِهم إلهيَّةَ أصنامِهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴾[1] [الفرقان: ٣]. وقيل: قولُه: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لبَعضِ أحكامِ المُلكِ والتَّصرُّفِ[2].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ تُفيدُ مُفادَ التَّذييلِ لجُملةِ ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾؛ لتَعميمِ ما دلَّ عليه قولُه: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ مِن بَيانِ جُملةِ ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾. وإنَّما عُطِفَت بالواوِ، وكان حقُّ التَّذييلِ أنْ يكونَ مَفصولًا؛ لقصْدِ إيثارِ الإخبارِ عن اللهِ تعالى بعُمومِ القدرةِ على كلِّ مَوجودٍ، وذلك لا يُفِيتُ قصْدَ التَّذييلِ؛ لأنَّ التَّذييلَ يَحصُلُ بالمعْنى[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ استِئنافٌ في سِياقِ تَبْيينِ أنَّ للهِ مُلكَ السَّمواتِ والأرضِ، وبأنَّ مُلكَه دائمٌ في عُمومِ الأزمانِ، وتصرُّفَه فيهما في كلِّ الأحوالِ[4].

= عليه الأوَّلُ، نحو: مرَرْتُ بقَومِك ناسٍ منهم. وبدَلُ اشتِمالٍ إن دلَّ على معنًى في الأوَّلِ أو استَلْزَمَه فيه، كعَجِبتُ مِن زَيدٍ عِلمِه أو قراءتِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٧]. يُنظر: ((همع الهوامع)) للسيوطي (٣/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٨، ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾ ولم يُذكَرْ لهذا الوصْفِ هنا مُتعلِّقٌ -بكسْرِ اللَّامِ-، ولا ما يدُلُّ على مُتعلِّقٍ؛ لأنَّ المقصودَ أنَّه الأوَّلُ بدونِ تَقييدٍ(١).

- قولُه: ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾، أي: هو الآخِرُ بعدَ جَميعِ مَوجوداتِ السَّماءِ والأرضِ، وهو معْنى قولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]، وقولِه: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]؛ فتَقديرُ المعْنى: والآخِرُ في ذلك، أي: في استِمرارِ الوُجودِ الَّذي تَقرَّرَ بوَصْفِه بأنَّه الأوَّلُ، فآلَ معْنى (الآخِر) إلى معْنى (الباقي)، وإنَّما أُوثِرَ وصْفُ (الآخِرِ) بالذِّكرِ مع وَصْفِ (الأوَّل)؛ لأنَّه مُقْتضَى البَلاغةِ؛ ليَتِمَّ الطِّباقُ(٢) بيْنَ الوصْفينِ المُتضادَّينِ(٣).

- وفي قولِه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ دَلالةُ قصْرٍ مِن طَريقِ تَعريفِ جُزْأيِ الجُملةِ؛ فأمَّا قصْرُ الأوَّليَّةِ على اللهِ تعالى في صِفةِ الوُجودِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٠).

(٢) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ معَ مُراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبَياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِن الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَقَ بيْنَ الضَّحكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادقونَ. ومنه: طِباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متَوهَّمةً، فتَبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لتعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ، كقولِه تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ، ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أملَحِ الطِّباقِ وأخفاه. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦١).

فظاهرٌ، وأمَّا قصْرُ الآخِريَّةِ عليه في ذلك، وهو معْنى البَقاءِ، فإنْ أُرِيدَ به البقاءُ في العالَمِ الدُّنيويِّ، عرَضَ إشكالُ المُتعارِضِ بما ورَدَ مِن بَقاءِ الأرواحِ، وحديثِ أنَّ عجْبَ الذَّنَبِ لا يَفْنى، وأنَّ الإنسانَ منه يُعادُ[١]. ورفْعُ هذا الإشكالِ أنْ يُجعَلَ القَصْرُ ادِّعائيًّا[٢]؛ لعدَمِ الاعتِدادِ ببقاءِ غيرِه تعالى؛ لأنَّه بقاءٌ غيرُ واجبٍ، بلْ هو بجَعْلِ اللهِ تعالَى[٣].

- وفائدةُ إجراءِ الوَصفَينِ المُتضادَّينِ على اسمِ اللهِ تعالَى هنا: التَّنبيهُ على عِظَمِ شأْنِ اللهِ تعالى؛ ليَتدبَّرَ العالِمون في مَواقِعِها[٤].

- قَولُه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ هذه الأسماءُ الأربعةُ متقابِلةٌ؛ وكلُّها خبرٌ عن مبتدأٍ واحدٍ لكنْ بواسطةِ حرفِ العطفِ، والإخبارُ بواسطةِ حرفِ العطفِ أقوى مِن الإخبارِ بدونِ واسطةِ حرفِ العطفِ، وفائدتُها: أوَّلًا: توكيدُ السَّابقِ؛ لأنَّك إذا عَطَفْتَ عليه جَعَلْتَه أصلًا، والأصلُ ثابتٌ، ثانيًا: إفادةُ الجمعِ، ولا يَستَلْزِمُ ذلك تعدُّدَ الموصوفَ، فإذا قيل: المعروفُ أنَّ العطفَ يَقتضي المُغايَرةَ! فالجوابُ: نعمْ، لكنَّ المغايرةَ تارةً تكونُ بالأعيانِ، وتارةً تكونُ بالأوصافِ؛ وهذا تغايُرُ أوصافٍ[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦١- ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٦٣).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٢).

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ استِئنافٌ ثانٍ مُفيدٌ الاستِدلالَ على انفِرادِه تعالَى بالإلهيَّةِ؛ ليُقلِعوا عن الإشراكِ به. ويُفيدُ أيضًا بيانًا لمَضمونِ جُملةِ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢]، وجُملةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢]؛ فإنَّ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ قادرٌ على عَظيمِ الإبداعِ(١).

- وبَدَأَ سُبحانَه بالسَّمَواتِ، مع أنَّ الأرضَ سابِقةٌ على السَّماءِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال في سُورةِ «فُصِّلَت» لَمَّا ذَكَر خَلْقَ الأرضِ؛ قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]؛ لأنَّها أشرَفُ وأعلى مِن الأرضِ(٢).

- ولعلَّ تَقديمَ الخَلْقِ على العِلمِ؛ لأنَّه دَليلٌ عليه(٣).

- قولُه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ استِئنافٌ لتَقريرِ عُمومِ عِلمِه تعالَى بكلِّ شَيءٍ؛ فكان بيانَ جُملةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢] وجُملةِ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] جاريًا على طَريقةِ النَّشرِ لِلَّفِّ على التَّرتيبِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٣، ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٤).

اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: =

- وقولُه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ بدأ بما يُمَاسُّ الإنسانَ -وإنْ كان غيرُه أشرَفَ منه-؛ لأنَّه تَحَدَّثَ عمَّا يَلِجُ في الأرضِ وما يَخْرُجُ منها قبْلَ التحدُّثِ عمَّا يَنْزِلُ مِن السماءِ وما يَعْرُجُ فيها[1].

- والتَّعبيرُ بالمضارعِ (يَلِجُ، يَخْرُجُ، يَنْزِلُ، يَعْرُجُ) فيه دَلالةٌ على ما أُودِعَ في الخافِقَينِ مِنَ القُوى؛ فصارَا بحيث يتجَدَّدُ منهما ذلك بخَلْقِه تجَدُّدَ استِمرارٍ إلى حينِ خَرابِهما[2].

- وقَولُه: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ جاءتْ بلفظِ «فيها» بدلَ «إليها»؛ لنستفيدَ فائدتَينِ:

الفائِدةُ الأُولى: العُروجُ، يعني: الصُّعودَ.

الفائدةُ الثَّانيةُ: الدُّخولُ؛ لأنَّ «في» يُناسِبُها مِن الأفعالِ الدُّخولُ، تقولُ: «دَخَلَ في المكانِ»، أمَّا «عَرَجَ» و «يَعْرُجُ» فالَّذي يُناسِبُها «إلى»، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عَدَلَ عن قولِه: «يَعْرُجُ إليها» إلى قوله: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ ليُفيدَ الصُّعودَ والدُّخولَ[3].

- وقولُه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هو عطْفُ معنًى خاصٍّ

= ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ«اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس».

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٨).

على معْنًى شَمِلَه وغيرَه؛ لقَصْدِ الاهتِمامِ بالمعطوفِ[١].

- و﴿أَيْنَ مَا﴾ ظَرفٌ للدَّلالةِ على تَعميمِ الأمْكِنةِ[٢].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تَكملةٌ لمَضمونِ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، وكان حقُّها ألَّا تُعطَفَ، وإنَّما عُطِفَت تَرجيحًا لجانِبِ ما تَحْتوي عليه مِن الخبَرِ عن هذه الصِّفةِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾

- قولُه: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تأْكيدٌ لنَظيرِه الَّذي في أوَّلِ هذه السُّورةِ؛ كُرِّر ليُبْنى عليه قولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ فكان ذِكرُه في أوَّلِ السُّورةِ مَبنيًّا عليه التَّصرُّفُ في الموجوداتِ القابِلةِ للحَياةِ والموتِ في الدُّنيا، وكان ذِكرُه هنا مَبنيًّا عليه أنَّ أُمورَ الموجوداتِ كلِّها تَرجِعُ إلى تَصرُّفِه[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، وقال قبْلَها بآيتَينِ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فأعاد لَفظةَ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ووُصِلَت الأُولَى بقولِه: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، ووُصِلَتْ الأُخرى بقولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ المعنَى له المُلْكُ أوَّلًا وآخِرًا؛ فالأوَّلُ في الدُّنيا، وهو وقْتُ الإحياءِ والإماتةِ، والآخَرُ في الآخِرةِ حِينَ تَرجِعُ الأمورُ إليه؛ فقَرَنَ بالأوَّلِ: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٥).

لأنَّهما مِن أماراتِ المُلْكِ، وقَرَنَ بالآخَرِ ما يكونُ في الآخِرةِ مِن مَرجِعِ الخَلْقِ وجَزائِهم بالثَّوابِ والعِقابِ إليه؛ فجاء في كلِّ مكانٍ ما اقتضاهُ وما شاكَلَ معْناه[١].

- وتَقديمُ المُسنَدِ ﴿لَهُۥ﴾؛ لقَصْرِ الإلهيَّةِ عليه تعالى؛ فيُفيدُ صِفةَ الواحدِ[٢].

- وعطَفَ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ على ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عطْفَ الخاصِّ مِن وجهٍ على العامِّ منه فيما يَتعلَّقُ بالأمورِ الجاريةِ في الدُّنيا، وعطْفَ المُغايرِ فيما يَتعلَّقُ بالأمورِ التي تَجري يومَ القِيامةِ، فإذا كان المعْنى: تَرجِعُ أفعالُ النَّاسِ إلى اللهِ -أي: تَرجِعُ في الحشرِ-؛ فالمرادُ: رُجوعُ أهلِها للجزاءِ على أعمالِهم؛ إذ لا يَتعلَّقُ الرُّجوعُ بحَقائقِها، فعطْفُ قولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ تَتميمٌ لجُملةِ ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: له مُلكُ العوالمِ في الدُّنيا، وله التَّصرُّفُ في أعمالِ العُقلاءِ مِن أهلِها في الآخرةِ. وإنْ أخَذْنا بشُمولِ اسمِ الأمورِ للذَّواتِ، كان مُفيدًا لإثباتِ البعثِ، أي: الذَّواتُ الَّتي كانتْ في الدُّنيا تَصيرُ إلى اللهِ يومَ القيامةِ، فيُجازِيها على أعمالِها[٣].

- وتَعريفُ الجمْعِ في ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ مِن صِيَغِ العُمومِ[٤].

- وتَقديمُ المُجرورِ على مُتعلَّقِه في قولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ للاهتِمامِ لا للقَصْرِ؛ إذ لا مُقْتضَى للقصْرِ الحَقيقيِّ، ولا داعيَ للقَصْرِ الإضافيِّ؛ إذ لا يُوجَدُ مِن الكفَّارِ مَن يُثبِتُ البَعثَ، ولا مَن زَعَموا أنَّ الناسَ يَصيرونَ في

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٦٦).

تَصرُّفِ غيرِ اللهِ سُبحانَه[١].

- وإظهارُ اسمِ الجلالةِ دونَ أنْ يقولَ: (وإليه تُرجَعُ الأمورُ)؛ لتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بما دلَّتْ عليه، فتَكونَ كالمَثَلِ صالحةً للتَّسييرِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧-١١)

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّسۡتَخۡلَفِينَ﴾: أي: مُمَلَّكِينَ، فجعَل المالَ في أيديكم خَلَفًا لِمَن قبلَكم، فكان لغيرِكم فملَكْتموه، وأصلُ (خلف): يدُلُّ على مَجيءِ شَيءٍ بعدَ شيءٍ(١).

﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾: المِيثاقُ: عَقدٌ مُؤكَّدٌ بيَمينٍ، وهو مِفعالٌ مِنَ الوَثيقةِ، وأصلُ (وثق): يدُلُّ على عَقْدٍ وإحْكامٍ(٢).

﴿لَرَءُوفٞ﴾: أي: شديدُ الرَّحمةِ، أو ذو رحمةٍ واسعةٍ، والرَّأفةُ أعلَى معاني الرَّحمةِ، وأبلغُها وأرَقُّها، وأصلُ (رأف): يدُلُّ على رِقَّةٍ ورَحمةٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٤) و(٣/ ٥٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((التبيان)) =

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: أي: الجَنَّةَ، وأصلُ الحسنِ ضِدُّ القُبحِ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى داعيًا عبادَه إلى الإيمانِ والثَّباتِ عليه، وإلى الإنفاقِ في سبيلِه: آمِنوا باللهِ تعالى فوَحِّدوه، وبرَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فصَدِّقوه واتَّبِعوه، وأنفِقوا مِن مالِ اللهِ الَّذي استَخلَفَكم فيه.

ثمَّ يُبيِّنُ ما لهم إذا فعَلوا ذلك، فيقولُ: فالَّذينَ آمَنوا باللهِ ورَسولِه مِنكم، وأنفَقوا في سَبيلِه؛ لهم ثوابٌ عَظيمٌ.

ثمَّ يُرغِّبُهم سبحانَه في الثَّباتِ على الإيمانِ، فيقولُ: وما لَكم لا تُؤْمِنونَ باللهِ، ورَسولُه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدعوكم إلى الإيمانِ برَبِّكم، وقد أخَذَ اللهُ منكم العَهدَ بالإيمانِ إنْ كُنتُم مُؤمِنينَ؟!

ثمَّ يقولُ سبحانَه مبينًا جانبًا مِن مظاهرِ فضلِه: اللهُ تعالى هو الَّذي يُنَزِّلُ على عَبدِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم آياتِ القُرآنِ الواضِحاتِ؛ لِيُخرِجَكم بها مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وإنَّ اللهَ بكم -أيُّها النَّاسُ- لَرَؤوفٌ رَحيمٌ.

ثمَّ يحُضُّ على الإنفاقِ مرَّةً أخرَى، فيقولُ: وما الَّذي يَمنَعُكم مِنَ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ مِمَّا رَزَقكم، وللهِ مِيراثُ السَّمَواتِ والأرضِ؟!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى تفاوُتَ الدَّرَجاتِ، على حسَبِ تفاوُتِ الأحوالِ والأعمالِ، فيقولُ: لا يَستَوي في الفَضلِ والأجْرِ مَن أنفَقَ مِنْكم -أيُّها المُؤمِنونَ- في سَبيلِ اللهِ قبْلَ الفَتحِ وقاتَلَ، مع مَنْ أنفَقَ بَعْدَ الفَتحِ وقاتَلَ؛ أولئك -الَّذين أنفَقوا قبْلَ

= لابن الهائم (ص: ١١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٣١١).

الفَتحِ وقاتَلوا- أفضَلُ دَرَجةً عندَ اللهِ مِن الَّذين أنفَقوا مِن بَعدِ الفَتحِ وقاتَلوا.

ثمَّ يمدحُ الله تعالى كِلا الفريقَينِ، فيقولُ: وكُلًّا مِنهما وعَدَ اللهُ الفَوزَ بالجَنَّةِ، واللهُ بما تَعمَلونَ خَبيرٌ.

ثمَّ يحُثُّ الله سبحانَه على الإنفاقِ في وُجوهِ الخَيرِ، فيقولُ: مَن هذا الَّذي يُنفِقُ في سَبيلِ اللهِ مُبتَغِيًا به ما عِندَ رَبِّه بلا مَنٍّ ولا أذًى، فيُثيبَه اللهُ على ذلك الإنفاقِ أُجورًا كَثيرةً، وله ثوابٌ حَسَنٌ وجزاءٌ جَميلٌ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى تَسبيحَ العالَمِ له، وما احْتَوى عليه مِن المُلكِ والتَّصرُّفِ، وما وصَفَ به نفْسَه مِن الصِّفاتِ العُلا، وخَتَمها بالعالِمِ بخَفيَّاتِ الصُّدورِ- أمَرَ تعالى عِبادَه المؤمنينَ بالثَّباتِ على الإيمانِ وإدامتِه، والنَّفقةِ في سَبيلِ اللهِ تعالى[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى أنواعًا مِنَ الدَّلائِلِ على التَّوحيدِ والعِلمِ والقُدرةِ؛ أتْبَعَها بالتَّكاليفِ، وبدأ بالأمرِ بالإيمانِ باللهِ ورَسولِه[2].

وأيضًا لَمَّا قامت الأدِلَّةُ على تنزيهِه سُبحانَه؛ قال تعالى آمِرًا بالإذعانِ له ولرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3]:

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٠٣).

أي: آمِنوا باللهِ تعالى[١] فوَحِّدوه، وآمِنوا برَسولِه مُحمَّدٍ فصَدِّقوه وأقِرُّوا برسالتِه وما جاء به واتَّبِعوه، وداوِموا على ذلك الإيمانِ واثبُتوا عليه[٢].

﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾.

أي: وأنفِقوا مِن مالِ اللهِ الَّذي استَخلَفَكم فيه وجعَلَه عِندَكم عارِيَّةً، فتصَدَّقوا منه في سَبيلِه[٣].

---

(١) قال ابن الجوزي: (﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قال المفسِّرونَ: هذا الخِطابُ لكفَّارِ قُرَيشٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٢).

وقال الشوكاني: (وهذا خِطابٌ لكفَّارِ العرَبِ، ويجوزُ أن يكونَ خِطابًا للجميعِ، ويكونَ المرادُ بالأمرِ بالإيمانِ في حقِّ المسلمينَ الاستِمرارَ عليه، أو الازديادَ منه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٠).

وممَّن اختار أنَّه خِطابٌ للنَّاسِ وجميعِ العِبادِ: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

قوله: ﴿مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ المرادُ: المالُ الَّذي أورثَكم عمَّن كان قبْلَكم، فخَلَفْتُموهم فيه وملكتُموه.

وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٣٠).

وقيل: المرادُ: أنَّ الأموالَ الَّتي بأيديكم إنَّما هي أموالُ الله، ولَسْتُم بأربابِها المالِكينَ لها على الحقيقةِ؛ لأنَّه خلَقها، وأباح لكم الانتِفاعَ بها، والاستِمتاعَ بمَنافِعِها، وجعَلَكم خُلَفاءَ بالتَّصرُّفِ فيها، فأنتم فيها بمَنزِلةِ الوُكَلاءِ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الرَّسْعَنيُّ، وابنُ جُزَي، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٠).

قال الماوَرْدي: (في «ما جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» قَولانِ؛ أحدُهما: يعني: ممَّا جعلَكم مُعَمَّرينَ =

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ تعالى بالإنفاقِ، ووَصَفه بما سَهَّله؛ سَبَّب عنه ما يُرَغِّبُ فيه، فقال تعالى[1]:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

أي: فالَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه مِنكم، وأنفَقوا في سَبيلِه مِن أموالِهم الَّتي استَخلَفَهم فيها: لهم ثوابٌ عَظيمٌ[2].

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه ذَكَر السَّبَبَ الدَّاعيَ لهم إلى الإيمانِ، وعَدَمَ المانعِ منه[3]، فقال:

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾.

أي: وما الَّذي يَحمِلُكم على عَدَمِ الإيمانِ باللهِ، والحالُ أنَّ رَسولَه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدْعوكم إلى الإيمانِ برَبِّكم المُحسِنِ إليكم[4]؟!

= فيه بالرِّزقِ، قاله مجاهِدٌ. الثَّاني: ممَّا جعَلَكم مُستَخلَفينَ فيه بوِراثَتِكم له عمَّن قبْلَكم، قاله الحسَنُ. ويحتمِلُ ثالثًا: ممَّا جعَلَكم مُستَخلَفينَ على القيامِ بأداءِ حُقوقِه). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

قال القُرطبي في قولِه: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾: (هو الجنَّةُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن =

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: والحالُ أنَّ اللهَ قد أخَذَ منكم العَهدَ بالإيمانِ[1]، .....

= كثير)) (٨/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

قال القرطبي: (أيْ: أخَذ اللهُ ميثاقَكم. قال مجاهِدٌ: هو الميثاقُ الأوَّلُ الَّذي كان وهم في ظَهرِ آدَمَ بأنَّ اللهَ رَبَّكم لا إلَهَ لكم سِواه. وقيل: أخَذ مِيثاقَكم بأنْ رَكَّب فيكم العقولَ، وأقام عليكم الدَّلائلَ والحُجَجَ الَّتي تَدْعو إلى مُتابَعةِ الرَّسولِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٣١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وعَطاءٌ، والكلبيُّ، ومقاتلُ بنُ حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٧٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أي أنَّ ذلك الميثاقَ بنَصبِ الأدِلَّةِ، والتَّمكينِ مِن النَّظرِ-: الرازيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥١). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٥).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابِقَينِ: البِقاعي، فقال: (﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي: وَقَع أخْذُه، فصار في غايةِ القباحةِ تَركُ ما وقع التَّوثُّقُ بسَبَبِه بنَصبِ الأدِلَّةِ، والتَّمكينِ مِن النَّظَرِ بإبداعِ العُقولِ، وذلك كُلُّه منضَمٌّ إلى أخذِ الذُّرِّيَّةِ مِن ظَهرِ آدَمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإشهادِهم على أنفُسِهم، وإشهادِ الملائكةِ عليهم). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٦٤).

وقال ابن عثيمين: (ما أعطانا عزَّ وجَلَّ مِنَ الفِطرةِ والعَقلِ والفَهمِ الَّذي نُدرِكُ به ما يَنفَعُنا ويَضُرُّنا، هذا هو الصَّحيحُ في معنى الميثاقِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٧٨).

وقال القاسمي: (﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي: بالإيمانِ؛ إذ ركَّبَ فيكم العُقولَ، ونَصَب الأدِلَّةَ، =

إنْ كُنتُم مُؤمِنينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۞

= ومكَّنَكم مِنَ النَّظَرِ، بل أودَعَ في فِطَرِكم ما يَضطرُّكم لذلك إذا نُبِّهْتُم، وقد حصَل ذلك بتذكيرِ الرَّسولِ، فما عليكم إلَّا أن تأخُذوا في سَبيلِه). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٢).

وقيل: إنَّ ذلك ببَيعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وممَّن اختاره: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثير. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١).

قال ابن تيميَّة: (وإنَّما أَخَذ مِيثاقَ المؤمِنينَ ببَيعتِهم له؛ فإنَّ كُلَّ مَن كان مُسلِمًا مُهاجِرًا كان يُبايِعُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما بايَعه الأنصارُ لَيلةَ العَقَبةِ، وإنَّما دعاهم إلى تحقيقِ الإيمانِ وتكميلِه بأداءِ ما يجِبُ مِن تمامِه باطِنًا وظاهِرًا). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٧٨).

قال ابن عطية: (وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قال الطَّبَريُّ: المعنى: إنْ كنتُم مؤمِنينَ في حالٍ مِن الأحوالِ فالآنَ.

وهذا معنًى ليس في ألفاظِ الآيةِ، وفيه إضمارٌ كثيرٌ، وإنَّما المعنى عندي أنَّ قولَه: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، يَقتَضي أن يُقدَّرَ بأثَرِه: فأنتم في رُتَبٍ شريفةٍ وأقدارٍ رفيعةٍ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: إنْ دُمْتُم على ما بدَأْتُم به). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٨).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٠).

وقال الشوكاني: (﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بما أخَذ عليكم مِن الميثاقِ، أو بالحُجَجِ والدَّلائلِ، أو ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بسببٍ مِن الأسبابِ، فهذا مِن أعظَمِ أسبابِه، وأوضَحِ مُوجِباتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠١).

وقيل: إنْ كنتُم مؤمنينَ باللهِ خالِقِكم. وكانوا يَعترِفون بهذا. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٩).

وقيل: إنْ كنتُم مؤمنينَ فالْزَموا الإيمانَ باللهِ ورسولِه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٧٨).

أَوۡ نَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تَوطِئةَ ما يُوجِبُ الإيمانَ، وذكَرَ دُعاءَ الرَّسولِ إيَّاهم للإيمانِ- ذكَرَ أنَّه تعالى هو المُنَزِّلُ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما دعا به إلى الإيمانِ[١]، فقال:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.

أي: اللهُ تعالى هو الَّذي يُنَزِّلُ على عَبدِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم آياتِ القُرآنِ الواضِحةَ الدَّلالةِ على الحَقِّ؛ لِيُخرِجَكم بها مِن ظُلُماتِ الكُفرِ والشِّركِ والضَّلالِ والجَهلِ إلى نورِ الإيمانِ والتَّوحيدِ والهُدى واليَقينِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١، ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٩).

قال ابن عثيمين: (قَولُه: ﴿لِّيُخۡرِجَكُم﴾ يَحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ بذلك الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: يكونُ سَببًا في إخراجِكم مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، ويحتمِلُ أن يعودَ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، أي: لِيُخرِجَكم اللهُ تعالى بهذه الآياتِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وكِلا المعنَيَينِ حَقٌّ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال الله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]؛ فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَبَبٌ في إخراجِ النَّاسِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وأمَّا المُخرِجُ حَقيقةً فهو اللهُ عزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٩). =

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَبالِغُ الرَّأفةِ والرَّحمةِ بكم؛ حيثُ أنزَلَ كُتُبَه، وأرسَلَ رُسُلَه لِهدايتِكم[1].

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ أوَّلًا بالإيمانِ وبالإنفاقِ، ثمَّ أكَّد في الآيةِ المتقَدِّمةِ إيجابَ الإيمانِ؛ أتْبَعَه في هذه الآيةِ بتأكيدِ إيجابِ الإنفاقِ، والمعنى: أنَّكم ستَموتونَ فتُورَثونَ؛

= وقال البِقاعي: (﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الَّتي أنتم مُنغَمِسونَ فيها؛ مِنَ الحُظوظِ والنَّقائِصِ الَّتي جُبِلَ عليها الإنسانُ، والغَفلةِ والنِّسيانِ- الحامِلةِ على تَراكُمِ الجَهلِ؛ فمَن آتاه سُبحانَه العِلمَ والإيمانَ فقد أخرجه مِن هذه الظُّلُماتِ الَّتي طرَأَت عليه ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الَّذي كان وَصفًا لِرُوحِه وفِطرتِه الأُولى السَّليمةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٦٥).

وقال ابن عثيمين: (المرادُ بالظُّلُماتِ: ظُلُماتُ الجَهلِ، وظُلُماتُ الشِّركِ، وظُلُماتُ العُدوانِ، وظُلُماتُ العِصيانِ، وكُلُّ ما خالف الحَقَّ فهو ظُلمةٌ، وكلُّ ما وافقَه فهو نُورٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠١).

فهلَّا قَدَّمْتُموه في الإنفاقِ في طاعةِ اللهِ تعالى[١]؟!

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: وما الَّذي يَمنَعُكم مِنَ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ مِمَّا رَزَقكم، والحالُ أنَّ كلَّ أملاكِ الخَلقِ صائرةٌ بعدَ مَوتِهم إلى اللهِ تعالى وَحْدَه؟! فلا معنى للبُخلِ بشَيءٍ لا تَملِكونَه حَقيقةً، وأنتم عنه زائلونَ[٢]!

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ تعالى أنَّ الإنفاقَ فَضيلةٌ؛ بيَّنَ أنَّ المُسابَقةَ في الإنفاقِ تَمامُ الفَضيلةِ[٣].

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾.

أي: لا يَتَساوى في الفَضلِ والأجْرِ مَن أنفَقَ منكم -أيُّها المُؤمِنونَ- في سَبيلِ اللهِ قبْلَ الفَتحِ[٤] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجُملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن كثير: (أي: أنفِقوا ولا تَخشَوا فَقرًا وإقلالًا؛ فإنَّ الَّذي أنفَقتُم في سَبيلِه هو مالِكُ السَّمَواتِ والأرضِ، وبيَدِه مَقاليدُهما، وعندَه خَزائِنُهما، وهو مالِكُ العَرشِ بما حوى). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٢).

(٤) قيل: المرادُ بالفَتحِ هنا: صُلحُ الحُدَيْبِيَةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ، ومالَ إليه ابنُ عاشور، وذهب إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، =

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الشَّعبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢).

قال السعدي: (المرادُ بالفَتحِ هنا: هو فَتحُ الحُدَيبيَةِ، حينَ جرى مِنَ الصُّلحِ بيْنَ الرَّسولِ وبيْنَ قُرَيشٍ مِمَّا هو أعظَمُ الفُتوحاتِ الَّتي حَصَل بها نَشرُ الإسلامِ، واختِلاطُ المُسلِمينَ بالكافِرين، والدَّعوةُ إلى الدِّينِ مِن غيرِ مُعارِضٍ؛ فدَخَل النَّاسُ مِن ذلك الوَقتِ في دينِ اللهِ أفواجًا، واعتَزَّ الإسلامُ عِزًّا عَظيمًا، وكان المسلِمونَ قبْلَ هذا الفَتحِ لا يَقدِرونَ على الدَّعوةِ إلى الدِّينِ في غيرِ البُقعةِ الَّتي أسلَمَ أهلُها، كالمدينةِ وتوابِعِها، وكان مَن أسلَمَ مِن أهلِ مَكَّةَ وغَيرِها مِن ديارِ المُشرِكينَ يُؤذَى ويُخافُ؛ فلذلك كان مَن أسلَمَ قبْلَ الفَتحِ وأنفَقَ وقاتَلَ أعظَمَ دَرَجةً وأجرًا وثَوابًا مِمَّن لم يُسلِمْ ويُقاتِلْ ويُنفِقْ إلَّا بعدَ ذلك، كما هو مُقتضى الحِكمةِ؛ ولذلك كان السَّابِقونَ وفُضَلاءُ الصَّحابةِ غالِبُهم أسلَمَ قبْلَ الفَتحِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩). ويُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٢٥، ٢٦).

وقال ابن تيميَّةَ: (قال صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديثِ الصَّحيحِ: «لا تَسُبُّوا أصحابي؛ فوالَّذي نفْسي بيَدِه، لو أنفَقَ أحَدُكم مِثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بلَغ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصيفَه» [البخاري «٣٦٧٣»، ومسلم «٢٥٤٠»]. وهذا قاله لخالدِ بنِ الوليدِ لَمَّا تشاجَر هو وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ؛ لأنَّ عبدَ الرَّحمنِ بنَ عَوفٍ كان مِن السَّابِقينَ الأوَّلينَ، وهم الَّذين أنفَقوا مِن قبْلِ الفتحِ وقاتَلوا، وهو فتحُ الحُدَيبيَةِ، وخالدٌ هو وعَمرُو بنُ العاصِ وعُثمانُ بنُ طَلحةَ أسلَموا في مدَّةِ الهُدنةِ بعدَ الحُدَيبيَةِ وقبْلَ فتحِ مكَّةَ، فكانوا مِن المُهاجِرينَ التَّابِعينَ، لا مِن المهاجِرينَ الأوَّلينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٣٨٩). ويُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢).

وقيل: المرادُ بالفَتحِ هنا: فَتحُ مَكَّةَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: الواحديُّ -ونسَبَه إلى جميعِ المفَسِّرينَ-، والزمخشريُّ، وابنُ جُزَي -وقال: (هو الأظهَرُ والأشهَرُ)-، وابنُ كثير -ونسَبَه إلى الجُمهورِ-، وذهب إليه البِقاعي.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٨). =

وقاتَلَ أعداءَ الدِّينِ، مع مَنْ أنفَقَ بعْدَ الفَتحِ وقاتَلَ[١]!

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾.

أي: أولئك -الَّذين أنفَقوا قبْلَ الفَتحِ وقاتَلوا- أفضَلُ دَرَجةً عندَ اللهِ مِن الَّذين أنفَقوا مِن بَعدِ الفَتحِ وقاتَلوا[٢].

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّفضيلُ مُفهِمًا اشتِراكَ الكُلِّ في الفَضلِ؛ صَرَّح به ترغيبًا في الإنفاقِ على كُلِّ حالٍ[٣].

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وزيدُ بنُ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٠).

قيل: المُرادُ بهذا الفتحِ فتحُ مَكَّةَ؛ لأنَّ إطلاقَ لفظِ الفتحِ فِي المتعارَفِ يَنْصَرِفُ إليه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٥)، ((الاستذكار)) لابن عبد البَرِّ (٥/ ١٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٥)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٢٥، ٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٩).

وأيضًا لَمَّا كان التَّفضيلُ بيْن الأمورِ قد يُتوَهَّمُ منه نَقصٌ وقَدحٌ في المفضولِ؛ احترَز تعالى مِن هذا بقَولِه[١]:

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: وكُلٌّ مِنَ القِسمَينِ قد وعَدَه اللهُ الفَوزَ بالجَنَّةِ، وإن كان السَّابِقونَ أفضَلَ مِن اللَّاحِقينَ[٢].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان زَكاءُ الأعمالِ إنَّما هو بالنِّيَّاتِ، وكان التَّفضيلُ مَناطَ العِلمِ؛ قال مُرَغِّبًا في إحسانِ النِّيَّاتِ، مُرَهِّبًا مِنَ التَّقصيرِ فيها[٣]:

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على أعمالِكم ونيَّاتِكم فيها، وسيُجازيكم عليها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٩، ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

قال ابنُ كثير: (أي: فلِخبرتِه فاوَتَ بيْنَ ثَوابِ مَن أنفَقَ مِن قَبلِ الفَتحِ وقاتَلَ، ومَن فَعَل ذلك بعدَ ذلك؛ وما ذلك إلَّا لعِلْمِه بقَصدِ الأوَّلِ وإخلاصِه التَّامِّ، وإنفاقِه في حالِ الجَهدِ والقِلَّةِ والضِّيقِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ اللهَ يَعلَمُ أسبابَ الإنفاقِ وأوقاتَه وأعذارَه، ويَعلَمُ أحوالَ الجِهادِ ونَوايا المجاهِدينَ، فيُعطي كُلَّ عامِلٍ على نِيَّةِ عَمَلِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٦).

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى حَثَّ على النَّفَقةِ في سَبيلِه؛ لأنَّ الجِهادَ مُتوَقِّفٌ على النَّفَقةِ فيه، وبَذْلِ الأموالِ في التَّجَهُّزِ له، فقال تعالى[1]:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١﴾.

أي: مَن هذا الَّذي يُنفِقُ في سَبيلِ اللهِ مِن طَيِّبِ مالِه مُحتَسِبًا في نَفَقتِه، مُبتَغِيًا ما عِندَ رَبِّه بلا مَنٍّ ولا أذًى، فيُثيبَه اللهُ على ذلك الإنفاقِ أُجورًا كَثيرةً، قد تَبلُغُ سَبْعَمِئةِ ضِعْفٍ أو أكثَرَ، وله ثَوابٌ حَسَنٌ، وجزاءٌ جَميلٌ[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٦، ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٥).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ قال عمرُ بنُ الخطَّابِ: هو الإنفاقُ في سبيلِ اللهِ. وقيل: هو النَّفَقةُ على العيالِ. والصَّحيحُ أنَّه أعَمُّ مِنْ ذلك، فكلُّ مَن أنْفَق في سبيلِ اللهِ بنِيَّةٍ خالِصةٍ وعزيمةٍ صادِقةٍ دَخَل في عُمومِ هذه الآيةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤).

قيل: المرادُ بالأجرِ الكريمِ: الجنَّةُ، وممَّن اختاره: ابنُ جرير، وابن الجوزي، والقرطبيُّ، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٢).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني: جزاءً حسَنًا في الجنَّةِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣٩).

ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٥).

سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما تَصَدَّقَ أحَدٌ بصَدَقةٍ مِن طَيِّبٍ -ولا يَقبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ- إلَّا أخَذَها الرَّحمنُ بيَمينِه، وإنْ كانت تَمْرةً، فتَربو في كَفِّ الرَّحمنِ حتَّى تكونَ أعظَمَ مِنَ الجَبَلِ، كما يُرَبِّي أحَدُكم فَلُوَّه أو فَصِيلَه[(١)]))[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ ﴾ دَليلٌ على أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يُحقِّقَ إيمانَه ويُثَبِّتَه، وكُلَّما رأَى فيه تَزعزُعًا استعاذ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، ومضَى إلى سبيلِه، وأنْ يُنْفِقَ مِن المالِ، والمالُ محبوبٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴾[الفجر: ٢٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾[العاديات: ٨]، ولا يمكِنُ أنْ يَبْذُلَ الإنسانُ شيئًا محبوبًا إليه إلَّا لِمَا هو أحَبُّ، فإذا بَذَلَ الإنسانُ المحبوبَ إليه ابتِغاءَ لِرضوانِ اللهِ، عَلِمْنا أنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ رِضوانَ اللهِ أكثرَ مِن المالِ، وبذلك يَتَحَقَّقُ الإيمانُ[(٣)].

٢- قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ ﴾، قَولُه: ﴿مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ ﴾: أي: ليسَت لكم بالحَقيقةِ، وإنَّما انتَقَلتْ إليكم مِن غَيرِكم، وكما وصَلَتْ إليكم تَترُكونَها لغَيرِكم! وفيه تزهيدٌ فيما بيَدِ النَّاسِ؛ إذ مَصيرُه إلى غَيرِه، وليس له مِنه

(١) الفَلُوُّ: المُهْرُ (وهو الصَّغيرُ مِن أولادِ الفَرَسِ)؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّه فليَ عن أُمِّه، أي: فُصِلَ وعُزِلَ. والفصيلُ: ولَدُ النَّاقةِ إذا فُصِل من إرضاعِ أمِّه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).

(٢) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٧).

إلَّا ما جاء في الحَديثِ: ((يقولُ ابنُ آدَمَ: مالي مالي! وهل لك يا ابنَ آدَمَ مِن مالِك إلَّا ما أكَلْتَ فأفنَيتَ، أو لَبِسْتَ فأبلَيتَ، أو تصَدَّقْتَ فأمضَيتَ؟!))[١]، وقيل لأعرابيٍّ: لِمَن هذه الإبِلُ؟ فقال: هي للهِ تعالى، عندي[٢]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ دَليلٌ على أنَّ كُلَّ عَمَلٍ صالحٍ يُسبَقُ إليه أفضَلُ مِمَّا يُؤَخَّرُ، مِن غيرِ أنْ نُلْحِقَ بالمتأخِّرِ تَقصيرًا[٣].

٤- يَجِبُ أنْ نَكُفَّ عن مَساوِئِ الصَّحابةِ، فلا نَذكُرَهم إلَّا بما يَستَحِقُّونَه مِن الثَّناءِ الجَميلِ، وأنْ نُطَهِّرَ قُلوبَنا مِن الغِلِّ والحِقدِ على أحَدٍ منهم؛ لقَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾، وقولِه فينا: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤] [الحشر: ١٠].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ فَضيلةَ العَمَلِ على قَدْرِ رُجوعِ مَنفَعتِه إلى الإسلامِ والمُسلِمينَ، أو لكَثرةِ المِحْنةِ به؛ لقِلَّةِ المُسلِمينَ وكَثرةِ الكُفَّارِ، وهو مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾[٥] [التوبة: ١١٧]. فالنَّفَقةُ قبْلَ الفَتحِ كانت أعظَمَ؛ لأنَّ حاجةَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٨) من حديث عبدِ الله بنِ الشِّخِّيرِ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٠١)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٥).

النَّاسِ كانت أكثَرَ لضَعفِ الإسلامِ، وفِعْلَ ذلك كان على المُنفِقينَ حينَئذٍ أشَقَّ. واللهُ أعلَمُ[١]. ويُؤخَذُ مِن الآيةِ أنَّ مَن أنفَقَ في شِدَّةٍ أعظَمُ أجرًا مِمَّن أنفَقَ في حالِ الرَّخاءِ[٢].

٦- قال الإمامُ مالِكٌ: (يَنبغي أن يُقَدَّمَ أهلُ الفَضلِ والعَزمِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾)[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ نَدْبٌ بَليغٌ مِن اللهِ تعالى إلى الإنفاقِ في سَبيلِه -بعْدَ الأمرِ به، والتَّوبيخِ على تَرْكِه، وبَيانِ دَرجاتِ المُنفِقينَ[٤]-، وترغيبُ النَّاسِ في أن يُنفِقوا أموالَهم في نُصرةِ المُسلِمينَ، وقِتالِ الكافِرينَ، ومُواساةِ فُقَراءِ المُسلِمينَ[٥]، وسمَّى ذلك الإنفاقَ قرضًا حسنًا؛ حَثًّا للنُّفوسِ وبَعثًا لها على البَذلِ؛ لأنَّ الباذِلَ متى عَلِمَ أنَّ عَينَ مالِه يعودُ إليه -ولا بُدَّ- طَوَّعَت له نَفْسُه بَذْلَه، وسَهُلَ عليه إخراجُه، فإنْ عَلِمَ أنَّ المُستَقرِضَ مَلِيءٌ وَفِيٌّ مُحسِنٌ كان أبلَغَ في طِيبِ قَلبِه وسَماحةِ نَفْسِه، فإنْ عَلِمَ أنَّ المُستَقرِضَ يَتَّجِرُ له بما اقتَرَضه ويُنَمِّيه له ويُثَمِّرُه حتَّى يَصيرَ أضعافَ ما بَذَله، كان بالقَرضِ أسمَحَ وأسمَحَ، فإنْ عَلِمَ أنَّه مع ذلك كُلِّه يَزيدُه مِن فَضلِه وعَطائِه أجرًا آخَرَ مِن غَيرِ جِنسِ القَرضِ، وأنَّ ذلك الأجرَ حَظٌّ عَظيمٌ وعَطاءٌ كَريمٌ؛ فإنَّه لا يتخَلَّفُ عن قَرضِه إلَّا لآفةٍ في نَفْسِه مِنَ البُخلِ والشُّحِّ، أو عَدَمِ الثِّقةِ بالضَّمانِ! وذلك مِن ضَعفِ إيمانِه؛ ولهذا كانت الصَّدَقةُ بُرهانًا لصاحِبِها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٤).

وهذه الأمورُ كُلُّها تحتَ هذه الألفاظِ الَّتى تضَمَّنَتْها الآيةُ؛ فإنَّه سُبحانَه سَمَّاه قَرضًا، وأخبَرَ أنَّه هو المُقتَرِضُ لا قَرْضَ حاجةٍ، ولكِنْ قَرْضَ إحسانٍ إلى المُقرِضِ، استدعاه لمُعامَلتِه، ولِيَعرِفَ مِقدارَ الرِّبحِ فهو الَّذي أعطاه مالَه، واستدعَى منه مُعامَلتَه به، ثمَّ أخبَرَ عمَّا يَرجِعُ إليه بالقَرْضِ، وهو الأضعافُ المُضاعَفةُ، ثمَّ أخبَرَ عَمَّا يُعطيه فَوقَ ذلك مِنَ الزِّيادةِ، وهو الأجرُ الكريمُ، وحيث جاء هذا القَرضُ في القُرآنِ قَيَّده بكَونِه حَسَنًا، وذلك يَجمَعُ أُمورًا ثلاثةً:

أحدُها: أن يكونَ مِن طَيِّبِ مالِه، لا مِن رَديئِه وخَبيثِه.

الثَّاني: أن يُخرِجَه طَيِّبةً به نَفْسُه، ثابتةً عندَ بَذلِه؛ ابتغاءَ مَرضاةِ اللهِ.

الثَّالِثُ: ألَّا يَمُنَّ به ولا يُؤذِيَ.

فالأوَّلُ: يَتعَلَّقُ بالمالِ، والثَّاني: يتعَلَّقُ بالمُنفِقِ بَيْنَه وبيْنَ اللهِ، والثَّالِثُ: بَيْنَه وبيْنَ الآخِذِ[1].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ * وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾ لَمَّا حثَّهم على تجديدِ الإيمانِ على سبيلِ الاستِمرارِ بالتَّعجُّبِ مِن تركِ ذلك، وكان كلُّ واحدٍ يدَّعي العراقةَ في الخَيرِ؛ هيَّجهم وألهبَهم بقولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ أنَّ مِن لُطفِه سُبحانَه وعِنايتِه بكم أنَّه لم يَكتَفِ بمُجَرَّدِ دَعوةِ الرَّسولِ الَّذي هو أشرَفُ العالَمِ، بل أيَّده

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٥).

بالمُعجزاتِ، ودَلَّكم على صِدقِ ما جاء به بالآياتِ البَيِّناتِ[١].

٣- قال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إثباتُ العِلَلِ والحِكَمِ لأفعالِ اللهِ تعالى[٢].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ هذا المعنى الَّذي تضَمَّنَتْه هذه الآيةُ الكريمةُ جاء مُبَيَّنًا في قَولِه تعالى في (الطَّلاقِ): ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا * رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[الطلاق: ١٠، ١١]، وآيةُ (الطَّلاقِ) هذه بَيَّنَت أنَّ آيةَ (الحَديدِ) مِن العامِّ المخصوصِ، وأنَّه لا يُخرَجُ بهذا القُرآنِ العَظيمِ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ إلَّا مَن وَفَّقَهم اللهُ تعالى للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ فقَولُه تعالى في (الحَديدِ): ﴿لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، أي: بشَرطِ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[الطلاق: ١١]؛ فالدَّعوةُ إلى الإيمانِ بالقُرآنِ، والخُروجِ بنُورِه مِن ظُلُماتِ الكُفرِ: عامَّةٌ، ولكِنَّ التَّوفيقَ إلى الخُروجِ به مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ خاصٌّ بمَن وَفَّقَهم اللهُ تعالى[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أنَّ الرَّحمةَ بالمعنى الخاصِّ: للمُؤمِنينَ فقط[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تنبيهٌ على مُوجِبِ الإنفاقِ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٠).

وهذا مِن أبلَغِ البَعثِ على الإنفاقِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الإشارةُ إلى اسمِ اللهِ «الآخِرِ»؛ فإنَّ اللهَ تعالى هو الأوَّلُ والآخِرُ، فإذا ثَبَتَ إرْثُه لهما لَزِمَ منه أنْ يكونَ هو الآخِرَ عزَّ وجلَّ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أنَّ الصَّحابةَ مَراتِبُ، وأنَّ الفَضلَ للسَّابِقِ، وفيه دليلٌ على تَنزيلِ النَّاسِ مَنازِلَهم[٣]، وأنَّ الأعمالَ تَتفاوَتُ، والعُمَّالَ يَتفاوتونَ أيضًا؛ فَهُم كلُّهم صَحابةٌ، لكنْ لا يَستَوونَ[٤]. فهذه الآيةُ أصلٌ في تفاضُلِ أهلِ الفَضلِ فيما فُضِّلوا فيه، وأنَّ الفَضلَ ثابِتٌ للَّذين أسلَموا بعْدَ الفَتحِ مِن أهلِ مَكَّةَ وغَيرِهم[٥].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أنَّ السَّبْقَ إلى الإيمانِ وإلى العَمَلِ الصَّالحِ مَنقَبةٌ، ومِن أسبابِ الرُّتَبِ العاليةِ[٦].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ نفْيُ التَّساوي بيْنَ النَّاسِ، والعَجَبُ أنَّنا نَسمَعُ مَن يُدَندِنُ كثيرًا فيقولُ: «إنَّ دِيْنَ الإسلامِ دِينُ المُساواةِ»! وهذا غلَطٌ على دِينِ الإسلامِ؛ فدِينُ الإسلامِ ليس دِينَ المُساواةِ، ولكِنَّه دِينُ العَدْلِ، والعَدْلُ هو: إعطاءُ كلِّ أحَدٍ ما يَستَحِقُّه؛ ولذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٧٨)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١١٤).

تَجِدُ أكثرَ ما في القرآنِ نَفيَ المُساواةِ، وليس إثباتَها! كقَولِه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وكقَولِه: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١] [الزمر: ٩].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أنَّ السَّابِقينَ الأوَّلينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ أفضَلُ مِن سائرِ الصَّحابةِ، والسَّابِقونَ الأوَّلُون هم الَّذين أنفَقوا مِن قبْلِ الفَتحِ وقاتَلوا، والمرادُ بالفَتحِ صُلْحُ الحُدَيبيَةِ؛ فإنَّه كان أوَّلَ فَتْحِ مَكَّةَ[٢]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ دليلٌ على فَضيلةِ أبي بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه؛ لإنفاقِه مالَه على رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قبْلَ الفَتحِ[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ أنَّه ليس كلُّ مَن لم يَكفُرْ أو مَن لم يأتِ بكَبيرةٍ أفضَلَ ممَّن تاب عنها مُطلَقًا، بل قد يكونُ التَّائِبُ مِن الكُفرِ والفُسوقِ أفضَلَ مِمَّن لم يَكفُرْ ولم يَفْسُقْ؛ فإنَّ اللهَ تعالى فضَّلَ الَّذين أنفَقوا مِن قبْلِ الفَتحِ وقاتَلوا على الَّذين أنفَقوا مِن بَعْدُ وقاتَلوا، وأولئك كلُّهم أسلَموا بعدَ الكُفرِ، وهؤلاء فيهم مَن وُلِدَ على الإسلامِ! وفَضَّلَ السَّابِقينَ الأوَّلينَ على التَّابعينَ لهم بإحسانٍ، وأولئك آمَنوا بعدَ الكُفرِ، وأكثرُ التَّابعينَ وُلِدوا على الإسلامِ[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ دَلالةٌ على فَضلِ الصَّحابةِ كُلِّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ١٣٤).

رَضِيَ الله عنهم؛ حيث شَهِدَ اللهُ لهم بالإيمانِ، ووعَدَهم الجَنَّةَ[١].

١٥- قَولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إنَّما نبَّه بهذا؛ لئلَّا يُهدَرَ جانِبُ الآخَرِ بمَدحِ الأوَّلِ دونَ الآخَرِ، فيَتوَهَّمَ مُتوَهِّمٌ ذَمَّه؛ فلهذا عَطَفَ بمَدحِ الآخَرِ والثَّناءِ عليه، مع تَفضيلِ الأوَّلِ عليه[٢]، فمِن بلاغةِ الكلامِ الاحتِراسُ بدَفعِ ما يُتَوَهَّمُ وُقوعُه[٣]، فلمَّا كان تفضيلُ السَّابِقينَ قد يُفهَمُ منه أنْ لا فَضْلَ للَّاحِقينَ قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي: كلٌّ مِن الَّذين أنفَقوا مِن قَبْلِ الفَتحِ وقاتَلوا، والَّذين أنفَقوا مِن بعدُ وقاتَلوا: وَعَدَهم اللهُ الحُسنى، يعني: الجَنَّةَ[٤].

١٦- المُبهَمُ[٥] لا يُقبَلُ حديثُه حتَّى يُعْلَمَ مَن هو؛ وذلك لِجَهالَتِنا بحالِه، إلَّا المُبهَمَ مِن الصَّحابةِ؛ فإنَّ إبهامَه لا يَضُرُّ حَديثَه؛ لأنَّ الصَّحابةَ كلَّهم عُدُولٌ ثِقاتٌ بشَهادةِ اللهِ تعالى لهم في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، ولِتَزكيتِه إيَّاهم في قَولِه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٦] [الفتح: ٢٩].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أنَّ كلَّ مَن لم يكُنْ -مِن الصَّحابةِ- مِن المنافقِينَ فهو مِن أهلِ الجَنَّةِ يَقينًا؛ لأنَّه قد وَعَدَهم اللهُ تعالى الحُسنى كلَّهم، وأخبَرَ أنَّه لا يُخلِفُ وَعْدَه، وأنَّ مَن سَبَقَتْ له الحُسنى فهو مُبعَدٌ مِن النَّارِ، لا يَسمَعُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

(٥) المبهمُ: هو الرَّاوي الَّذي لم يُسَمَّ، أو مَن سُمِّيَ ولا تُعرَفُ عينُه. يُنظر: ((اختصار علوم الحديث)) لابن كثير (ص: ٢١٨).

(٦) يُنظر: ((شرح المنظومة البيقونية)) لابن عثيمين (ص: ٧٣).

حَسيسَها، ولا يَحزُنُه الفَزَعُ الأكبَرُ، وهو فيما اشتَهَى خالِدٌ[١].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ يُؤَيِّدُ حديثَ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ -جلَّ جلالُه- يُرَبِّي صَدَقةَ المتصدِّقِ كما يُرَبِّي أحَدُكم فَلُوَّه، أو فَصيلَه))[٢]؛ فقد ذَكَر مُضاعَفتَها قبْلَ أجْرِها؛ لِيَكونَ الأجرُ على ما ربَّاه وأعظَمَه، لا على صَغيرِ ما أقرَضَه؛ جُودًا منه وكَرَمًا، وهو أعلَمُ[٣].

١٩- قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ في تسميةِ الصَّدقةِ بالقَرضِ، وإضافتِها إلى نفْسِه، وهي واصِلةٌ إلى غيرِه: إفادتُنا أنَّ المُتَقَرِّبَ إلى اللهِ بإعطاءِ الفَقيرِ مُعَظِّمٌ حَقَّه، فيَخْرُجُ مِنه: أنَّ المُتحَرِّيَ مَسَرَّةَ رَجُلٍ بإرفادِ مَن يُحِبُّه هو مُكرِمُه بذلك الرِّفْدِ، ومُستَوجِبٌ مِن عِندِه المكافأةَ على فِعْلِه[٤].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ كَرَمُ اللهِ تعالى؛ حيثُ سَمَّاه قَرضًا، والمالُ مالُه، والعَبدُ عَبدُه، ووَعَد بالمُضاعَفةِ عليه أضعافًا كَثيرةً، وهو الكَريمُ الوَهَّابُ[٥].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ إشارةٌ إلى شَيئَينِ: إلى الإخلاصِ، في قَولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ يعني: لا

---

(١) يُنظر: ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (٤/ ١١٧)، ((الإصابة)) لابن حجر (١/ ١٦٣).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٦٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩).

يَرى سِوى اللهِ عزَّ وجلَّ. وإلى المُتابَعةِ، في قَولِه تعالى: ﴿حَسَنًا﴾؛ لأنَّ العَمَلَ الحَسَنَ ما كان مُوافِقًا للشَّريعةِ الإسلاميَّةِ.

والإخلاصُ والمُتابَعةُ هما شَرطانِ في كلِّ عَمَلٍ: الإخلاصُ لله سبحانَه وتعالى، والمتابعةُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

٢٢- القَرضُ الحَسَنُ في قَولِه تعالى: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: هو القَرضُ المُستَكمِلُ مَحاسِنَ نَوعِه؛ مِن كَونِه عن طِيبِ نَفسٍ، وبَشاشةٍ في وَجهِ المُستَقرِضِ، وخُلُوٍّ عن كُلِّ ما يُعَرِّضُ بالمِنَّةِ، أو بتَضييقِ أجَلِ القَضاءِ[٢].

٢٣- قال عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿أَجْرٌ﴾ سَمَّى اللهُ عزَّ وجلَّ الثَّوابَ أجرًا؛ لأنَّه لا بُدَّ أنْ يَنالَه العامِلُ، فهو كأُجرةِ الأجيرِ؛ فلا بُدَّ أنْ يَنالَها العامِلُ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

- هو استِئنافٌ وقَعَ مَوقعَ النَّتيجةِ بعْدَ الاستدلالِ؛ فإنَّ أوَّلَ السُّورةِ قرَّرَ خُضوعَ الكائناتِ إلى اللهِ تعالى، وأنَّه تعالى المُتصرِّفُ فيها بالإيجادِ والإعدامِ وغيرِ ذلك؛ فهو القديرُ عليها، وأنَّه عليمٌ بأحوالِهم، مُطَّلِعٌ على ما تُضمِرُه ضَمائرُهم، وأنَّهم صائرونَ إليه فمُحاسِبُهم؛ فلا جَرَمَ تَهيَّأَ المقامُ لإبلاغِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٧).

التَّذكيرَ بالإيمانِ به إيمانًا لا يَشوبُه إشراكٌ، والإيمانِ برسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ قد تَبيَّن صِدقُه بالدَّلائلِ الماضيةِ الَّتي دلَّت على صِحَّةِ ما أخبَرَهم به ممَّا كان مَحلَّ ارتيابِهم وتَكذيبِهم، كما أشار إليه قولُه: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٨]، فذلك وجْهُ عَطفِ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ على مُتعلَّقِ الإيمانِ، مع أنَّ الآياتِ السَّابقةَ ما ذَكَرَت إلَّا دَلائلَ صِفاتِ اللهِ دونِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فالخِطابُ بـ﴿ءَامِنُواْ﴾ للمُشرِكين[١].

- قولُه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ فيه تَخصيصُ الإنفاقِ بالذِّكرِ؛ للتَنويهِ بشأْنِه هنا[٢].

- وجِيءَ بالمَوصولِ في قولِه: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (وأنْفِقوا مِن أموالِكم)، أو (ممَّا رزَقَكم اللهُ)؛ لِمَا في صِلةِ الموصولِ مِن التَّنبيهِ على غفْلةِ السَّامِعينَ عن كَونِ المالِ للهِ، فلمَّا أمَرَهم بالإنفاقِ منه على عِبادِه، كان حقًّا عليهم أنْ يَمتثِلوا لذلك، كما يَمتثِلُ الخازنُ أمْرَ صاحبِ المالِ إذا أمَرَه بإنفاذِ شَيءٍ منه إلى مَن يُعَيِّنُه. وأيضًا وُضِعَ قولُه: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ مَوضِعَ (ممَّا رزَقْناكم) -كما في سائرِ المواضِعِ- تَسهيلًا على بَذْلِها، وإيذانًا بأنَّ الأموالَ عَواريُّ ودُوَلٌ[٣].

- والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿مُّسۡتَخۡلَفِينَ﴾ للمُبالَغةِ في حُصولِ الفِعلِ، لا للطَّلَبِ؛ لاستِفادةِ الطلَبِ مِن فِعلِ ﴿جَعَلَكُم﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ لتَأكيدِ الطَّلَبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٩).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ تفريعٌ وتَسبُّبٌ على الأمرِ بالإيمانِ والإنفاقِ؛ لإفادةِ تَعليلِه، كأنَّه قِيل: لأنَّ الَّذين آمَنوا وأنْفَقوا أعدَدْنا لهم أجْرًا كَبيرًا[١].

- وقولُه: ﴿مِنكُمۡ﴾ (مِن) للتَّبعيضِ، أي: الَّذين آمَنوا، وهم بَعضُ قومِكم، وفي هذا إغراءٌ لهم بأنْ يُماثِلوهم[٢].

- ويجوزُ أنْ يكونَ فِعلَا المُضِيِّ (آمَنوا - أنفَقوا) في قولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ﴾ مُستعمَلَينِ في معْنى المضارعِ؛ للتَّنبيهِ على إيقاعِ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ وعْدٌ بالأجرِ، وفيه مُبالَغاتٌ؛ بجَعْلِ الجُملةِ اسميَّةً، وإعادةِ ذِكرِ الإيمانِ والإنفاقِ، وبِناءِ الحكْمِ على الضَّميرِ، وتَنكيرِ الأجْرِ، ووصْفِه بالكُبْرِ[٤].

- وحُذِفَ مَفعولُ (أَنْفَقُوا)؛ للمُبالَغةِ في الحَثِّ على الإنفاقِ، وعدَمِ البُخلِ بالمالِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ...﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتَوبيخِهم على ترْكِ الإيمانِ حسَبَما أُمِروا به، بإنكارِ أنْ يكونَ لهم في ذلك عُذرٌ ما في الجُملةِ، على أنَّ ﴿لَا تُؤۡمِنُونَ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿لَكُمۡ﴾، والعاملُ ما فيه مِن مَعْنى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥٦).

الاستِقرارِ، أيْ: أيُّ شَيءٍ حصَلَ لكُم غيرَ مؤمنينَ؟! على تَوجيهِ الإنكارِ والنَّفيِ إلى السَّببِ فقطْ مع تَحقُّقِ المسبَّبِ، لا إلى السَّببِ والمسبَّبِ جميعًا، فيَكونُ مَضمونُ الجُملةِ الحاليةِ مُحقَّقًا؛ فإنَّ كُلًّا مِن عدَمِ الإيمانِ وعدَمِ الرَّجاءِ أمرٌ مُحقَّقٌ قد أُنكِرَ ونُفِيَ سَببُه[1].

- قولُه: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿لَا تُؤۡمِنُونَ﴾، وهي مُفيدةٌ لتَوبيخِهم على الكُفرِ معَ تَحقُّقِ ما يُوجِبُ عدَمَه، بعْدَ تَوبيخِهم عليهِ مع عدَمِ ما يُوجِبُه، أيْ: وأيُّ عذْرٍ في ترْكِ الإيمانِ والرَّسولُ يَدعُوكم إليهِ، ويُنبِّهُكم عليه[2]؟!

- وجُملةُ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ مُستأنَفةٌ، وجَوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾[3].

- واسمُ الفاعلِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ مُستعمَلٌ في المُستقبَلِ، بقَرينةِ وُقوعِه في سِياقِ الشَّرطِ، أي: فقدْ حصَلَ ما يَقتضي أنْ تُؤمِنوا مِن السَّببِ الظَّاهرِ، والسَّببِ الخفيِّ المُرتكِزِ في الجِبِلَّةِ[4]. وذلك على قولٍ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ استِئنافٌ ثالثٌ انتقَلَ به الخِطابُ إلى المؤمنينَ، والخطابُ هنا وإنْ كان صالحًا لتَقريرِ ما أفادَتْه جُملةُ ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۙ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٨]، ولكنَّ أُسلوبَ النَّظمِ وما عُطِفَ على

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٩، ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذه الجُملةِ يَقتضيانِ أنْ تكونَ استئنافًا انتقاليًّا، هو مِن حُسْنِ التَّخلُّصِ[١] إلى خِطابِ المسلِمينَ، مع الدَّلالةِ على تَقريرِ ما قبْلَه، ولا تَفوتُه الدَّلالةُ على تَقريرِ ما قبْلَه؛ لأنَّ التَّقريرَ يَحصُلُ مِن انتِسابِ المعْنيَينِ: معنى الجُملةِ السَّابقةِ، ومعْنى هذه الجُملةِ الموالِيةِ؛ فهذه الجُملةُ بمَوقعِها ومعْناها وعِلَّتِها وما عُطِفَ عليها؛ أفادتْ بَيانًا، وتأْكيدًا، وتَعليلًا، وتَذييلًا[٢]، وتَخلُّصًا لغرَضٍ جديدٍ، وهي أغراضٌ جمَعَتْها جمْعًا بلَغَ حدَّ الإعجازِ في الإيجازِ، مع أنَّ كلَّ جُملةٍ منها مُستقِلَّةٌ بمعنًى عظيمٍ مِن الاستدلالِ والتَّذكيرِ والإرشادِ والامتنانِ[٣].

-وفي قَولِه: ﴿يُنَزِّلُ﴾ خُصوصيَّتَينِ؛ إحداهُما: التَّعبيرُ بصيغةِ (فعَّل) الدَّالَّةِ على التَّكريرِ، والثَّانيةُ: التَّعبيرُ بصيغةِ المُضارِعِ الدَّالَّةِ على التَّجدُّدِ والاستِمرارِ؛ لأنَّ المَقامَ للتَّبشيرِ بزيادةِ الإخراجِ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ يَومًا فيَومًا، وفي كلِّ

---

(١) حُسنُ التَّخَلُّصِ: هو الانتِقالُ ممَّا ابتُدِئَ به الكلامُ إلى المقصودِ، أو مِن مَوضوعٍ إلى موضوعٍ آخَرَ بأسلوبٍ حَسَنٍ مُستطابٍ، على وَجهٍ سَهلٍ دَقيقِ المعنى، بحيث لا يَشعُرُ السَّامِعُ بالانتقالِ مِن المعنى الأوَّلِ إلَّا وقد وقعَ عليه الثَّاني؛ لشِدَّةِ الالتِئامِ بيْنَهما. وحُسنُ التَّخَلُّصِ مُتشابِهٌ جِدًّا مع الاستِطرادِ، إلَّا أنَّ بيْنَهما فَرقًا دقيقًا، بيانُه: أنَّ التَّخَلُّصَ تَركُ ما كان الكلامُ فيه بالكُلِّيَّةِ، والإقبالُ على ما تُخُلِّصَ إليه. والاستِطرادُ: مُرورٌ بذِكرِ الأمرِ الَّذي استُطرِدَ إليه مُرورًا كالبَرقِ الخاطِفِ، ثمَّ تَرْكُه والعودةُ إلى ما كان فيه، كأنَّ المتكَلِّمَ لم يَقصِدْه، وإنَّما عرَضَ عُروضًا. يُنظر: ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ٣٢٩)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٧٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥٦١).

(٢) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمامِ معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَينِ: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ السَّائرِ؛ ليشتهرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانِه على الألسِنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧١).

حالٍ. وانظُرْ قَولَه في الآيةِ الأُخرى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣]، فلا تَجِدُ في ﴿نَزَّلَ﴾ إلَّا خُصوصيَّةً واحِدةً، وهي: التَّعبيرُ بصيغةِ (فعَّل)؛ لأنَّ المَقامَ للامتِنانِ، والامتِنانُ يَكونُ بما وقَعَ، لا بما سيَقَعُ[(١)].

- وتأْكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) واللَّامِ في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأنَّ المُشرِكين في إعراضِهم عن دَعوةِ الإسلامِ قد حَسِبوها إساءةً لهم ولآبائِهم وآلِهَتِهم؛ فقد قالوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۞ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾[(٢)] [الفرقان: ٤١، ٤٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ الآيةَ، الخِطابُ مُوجَّهٌ للمؤمنينَ، فقد أُعِيدَ الخِطابُ بلَونٍ غيرِ الَّذي ابتُدِئَ به في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، ومِن لَطائِفِه أنَّه مُوجَّهٌ إلى المنافِقين الَّذين ظاهِرُهم أنَّهم مُسلِمونَ وهمْ في الباطنِ مُشرِكون، فهمُ الذين شَحُّوا بالإنفاقِ، ووَجْهُ إلحاقِ هذه الآيةِ وهي مَدنيَّةٌ بالمكِّيِّ مِن السُّورةِ -على قولٍ-: مُناسَبةُ استيعابِ أحوالِ المُمسِكينَ عن الإنفاقِ مِن الكُفَّارِ والمؤمنينَ؛ تَعريضًا بالتَّحذيرِ مِن خِصالِ أهلِ الكفْرِ؛ إذ قد سبَقَها قولُه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[(٣)] [الحديد: ٧].

---

(١) يُنظر: ((موجز البلاغة)) ابن عاشور (ص: ٩، ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وهو تَوبيخٌ لهم على تَرْكِ الإنفاقِ المأمورِ به بعدَ تَوبيخِهم على ترْكِ الإيمانِ بإنكارِ أنْ يكونَ لهم في ذلكَ أيضًا عُذْرٌ مِن الأعذارِ[١].

- و(ما) استفهاميَّةٌ، مُستعمَلةٌ في اللَّومِ والتَّوبيخِ على عدَمِ إنفاقِهم في سَبيلِ اللهِ، و(أنْ) مَصدريَّةٌ، والمَصدرُ المُنسبِكُ منها والفِعلِ المنصوبِ بها في مَحلِّ جَرٍّ باللَّامِ، أو بـ(في) مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: ما حصَلَ لكمْ في عدَمِ إنفاقِكم؟! أي: ذلك الحاصلُ أمرٌ مُنكَرٌ[٢].

- وحُذِفَ مفعولُ ﴿نُنفِقُواْ﴾؛ لظُهورِ أنَّه الَّذي بُيِّنَ حالُه فيما سبَقَ، وللمُبالَغةِ في الحثِّ على الإنفاقِ، وعدَمِ البُخلِ بالمالِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ حالٌ مِن فاعلِ (لَا تُنْفِقُوا) ومَفعولِه، مُؤكِّدةٌ للتَّوبيخِ؛ فإنَّ ترْكَ الإنفاقِ بغيرِ سَببٍ قَبيحٌ مُنكَرٌ، ومع تَحقُّقِ ما يُوجِبُ الإنفاقَ أشدُّ في القبْحِ، وأدخَلُ في الإنكارِ؛ فإنَّ بَيانَ بَقاءِ جَميعِ ما في السَّمواتِ والأرضِ مِن الأموالِ بالآخِرةِ للهِ عزَّ وجلَّ مِن غيرِ أنْ يَبقَى مِن أصحابِها أحدٌ؛ أقْوى في إيجابِ الإنفاقِ عليهم مِن بَيانِ أنَّها للهِ تعالى في الحقيقةِ، أو أنَّها انتقَلت إليهم مِن غيرِهم، كأنَّه قيلَ: وما لَكم في ترْكِ إنفاقِها في سَبيلِ الله والحالُ أنَّه لا يَبقَى لكُم منها شَيءٌ، بل تَبقى كلُّها للهِ تعالَى[٤]؟!

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجَليلِ في مَوقِعِ الإضمارِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٧١).

لِزيادةِ التَّقريرِ، وتَربيةِ المَهابةِ[١].

- وإضافةُ ﴿مِيرَٰثُ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن إضافةِ المصدَرِ إلى المفعولِ، وهو على حذْفِ مُضافٍ، تَقديرُه: أهْلِها، وليس المُرادُ مِيراثَ ذاتِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لأنَّ ذلك إنَّما يَحصُلُ بعْدَ انقراضِ النَّاسِ، فلا يُؤثِّرُ في المقصودِ مِن حثِّهم على الإنفاقِ[٢].

- قولُه: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ تَفاوُتِ درَجاتِ المُنفِقينَ حسَبَ تَفاوتِ أحوالِهم في الإنفاقِ، بعْدَ بَيانِ أنَّ لهم أجرًا كَبيرًا على الإطلاقِ؛ حثًّا لهم على تَحرِّي الأفْضلِ[٣].

- وهو استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عمَّا يَجولُ في خَواطرِ كثيرٍ مِن السَّامعينَ مِن أنَّهم تأخَّروا عن الإنفاقِ غيرَ ناوينَ تَرْكَه، ولكنَّهم سيَتدارَكونه. وأُدمِجَ[٤] فيه تَفضيلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥٥).

(٤) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفِرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

جِهادِ بَعضِ المجاهِدينَ على بَعضٍ؛ لِمُناسَبةِ كَونِ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ يَشمَلُ إنفاقَ المجاهِدِ على نفْسِه في العُدَّةِ والزَّادِ، وإنفاقَه على غيرِه ممَّن لم يَستكمِلْ عُدَّتَه ولا زادَهُ؛ ولأنَّ مِن المسلمينَ مَن يَستطيعُ الجهادَ ولا يَستطيعُ الإنفاقَ، فأُرِيدَ ألَّا يُغفَلَ ذِكْرُه في عِدادِ هذه الفضيلةِ؛ إذ الإنفاقُ فيها وَسيلةٌ لها[١].

- وعطْفُ القِتالِ على الإنفاقِ للاستِطرادِ[٢]، أو للإيذانِ بأنَّه مِن أهمِّ مَوادِّ الإنفاقِ مع كَونِه في نفْسِه مِن أفضَلِ العباداتِ، وأنَّه لا يَخلُو مِن الإنفاقِ أصلًا[٣].

- ونفْيُ التَّسويةِ مُرادٌ به نفْيُها في الفَضيلةِ والثَّوابِ؛ فإنَّ نفْيَ التَّسويةِ في وصْفٍ يَقْتضي ثُبوتَ أصلِ ذلك الوصْفِ لجَميعِ مَن نُفِيَت عنهم التَّسويةُ، فنفْيُ التَّسويةِ كِنايةٌ عن تَفضيلِ أحدِ جانبَينِ، وتَنقيصِ الجانبِ الآخَرِ نقْصًا مُتفاوِتًا[٤].

- وحُذِفَ ثاني الاستِواءَينِ -وهو قَسيمُ مَن أنفَقَ مِن قبْلِ الفتْحِ- إيجازًا؛ لأنَّ الاستِواءَ لا يتِمُّ إلَّا بعدَ شَيئينِ مُقدَّرينِ، وتَقديرُهما: لا يَستوي منكم مَن أنفَقَ مِن قبْلِ فتْحِ مكَّةَ وقوَّةِ الإسلامِ، ومَن أنفَقَ مِن بعْدِ الفتْحِ، فحُذِفَ؛ لوُضوحِ الدَّلالةِ عليه فيما بعْدَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٤).

(٢) الاستطراد: خروجُ المتكلِّمِ مِن الغرضِ الَّذي كان يتكلَّمُ فيه إلى غيرِه لِمُناسَبةٍ بيْنَهما، ثمَّ يرجِعُ إلى الأوَّلِ. ويكونُ المرورُ بذكرِ الأمرِ الَّذي استطرد إليه مرورًا كالبَرقِ الخاطِفِ ثمَّ تركه والعودة إلى ما كان فيه، كأنَّ المتكلِّمَ لم يَقصِدْه، وإنَّما عرَض عروضًا. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٧٣، ٣٧٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦)، =

- وقولُه: ﴿مِنكُم﴾ حالٌ مِن ﴿مَّنْ أَنفَقَ﴾ أصْلُه نعْتٌ، قُدِّمَ للاهتِمامِ؛ تَعجيلًا بهذا الوصْفِ[١].

- وجِيءَ باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ﴾ دونَ الضَّميرِ؛ لِما تُؤْذِنُ به الإشارةُ مِن التَّنويهِ والتَّعظيمِ، والإشعارِ ببُعدِ مَنزلتِهم، وعُلوِّ طَبقتِهم في الفضلِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم جَديرونَ بما يُذكَرُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ؛ مِن أجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَه مِن الإخبارِ[٢].

- قولُه: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ احتِراسٌ مِن أنْ يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ اسمَ التَّفضيلِ مَسلوبُ المُفاضَلةِ للمُبالَغةِ، وعُبِّرَ بلَفظِ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ لبَيانِ أنَّ الدَّرجةَ هي دَرجةُ الحُسنَى؛ ليَكونَ للاحتِراسِ معْنًى زائدٌ على التَّأكيدِ، وهو ما فيه مِن البَيانِ[٣].

- جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ تَذييلٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾، مَوقعُ هذه الجُملةِ مَوقعُ التَّعليلِ والبَيانِ لجُملةِ ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ[٥].

- و(مَن) استِفهاميَّةٌ، و﴿ٱلَّذِي يُقۡرِضُ﴾ خبَرُها، و﴿ذَا﴾ مُعترِضةٌ لاستِحضارِ حالِ المُقترِضِ بمَنزلةِ الشَّخصِ الحاضرِ القريبِ. أو ﴿ذَا﴾ صِلةٌ، أي: زائدةٌ

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٥، ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٧٧).

لمُجرَّدِ التأْكيدِ[١].

- والفاءُ في جُملةِ ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ فاءُ السَّببيَّةِ؛ لأنَّ المُضاعَفةَ مُسبَّبةٌ على القرْضِ، والمعْنى التَّحريضُ على الإقراضِ، وتَحصيلِ المُضاعَفةِ؛ لأنَّ الإقراضَ سَببُ المضاعَفةِ، فالعملُ لحُصولِ الإقراضِ كأنَّه عمَلٌ لحُصولِ المُضاعفةِ. أو على اعتبارِ مُبتدأٍ مَحذوفٍ؛ لِتَكونَ الجُملةُ اسميَّةً في التَّقديرِ، فيَقَعَ الخبرُ الفِعليُّ بعْدَ المبتدأِ مُفيدًا تَقويةَ الخبَرِ، وتأْكيدَ حُصولِه، واعتبارِ هذه الجُملةِ جوابًا لـ (مَن) المَوصولةِ بإشرابِ الموصولِ معْنى الشَّرطِ، وهو إشرابٌ كثيرٌ في القرآنِ[٢].

- وضَميرُ النَّصبِ في ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ عائدٌ إلى القرْضِ الحسَنِ، والكلامُ على حذْفِ مُضافٍ، تَقديرُه: فيُضاعِفَ جَزاءَه له[٣].

- وجُعِلَ الأجْرُ الكَريمُ مُقابِلَ القَرْضِ الحسَنِ؛ فقُوبِلَ بهذا مَوصوفٌ وصِفتُه بمِثْلِهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٢-١٥)

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ۖ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بُشْرَىٰكُمُ﴾: أي: بِشارَتُكم الَّتي تُبَشَّرون بها، والبُشرى تُطلَقُ على الإخبارِ بما يَسُرُّ، وما يُعطَى للمُبشِّرِ، وأصلُ (بشر): ظهورُ الشَّيءِ مع حُسْنٍ وجَمالٍ[١].

﴿ٱنظُرُونَا﴾: أي: انتَظِرُونا، مِنَ النَّظَرِ بمعنى الانتِظارِ، ومِنْه النَّظِرةُ: وهي التَّأخيرُ، وأصلُ (نظر): يدُلُّ على تأمُّلِ الشَّيءِ ومُعايَنتِه، ومنه الانتظارُ، كأنَّه يَنظُرُ إلى الوقتِ الَّذي يَأتي فيه[٢].

﴿نَقْتَبِسْ﴾: أي: نَستَضِئْ، والقَبَسُ: شُعْلَةُ النَّارِ، وأصلُ (قبس): يدُلُّ على صِفةٍ مِن صِفاتِ النَّارِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٥).

﴿مِن قِبَلِهِ﴾: أي: مِنْ جِهَتِه، وقِبَلُ: أي: الجهةُ المقابِلةُ، ويُقالُ: فَعَل ذلك قِبَلًا، أيْ: مُواجَهةً. وهذا مِن قِبَلِ فُلانٍ، أيْ: مِن عِنْدِه، كأنَّه هو الَّذي أقْبَل به عليكَ، وأصلُ (قبل): يدُلُّ على مُواجَهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[١].

﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: أي: أهْلَكْتُموها وأضْلَلْتُموها بالنِّفاقِ، أو: أوقَعْتُموها في بَليَّةٍ وعذابٍ. وفِتنتُهم أنفُسَهم في هذا الموضعِ كانت النِّفاقَ، والفِتنةُ في الأصلِ: الاختِبارُ والابتلاءُ والامتِحانُ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رَداءتِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥).

قال الشنقيطي: (الفِتنة أُطْلِقَتْ في القرآنِ ثلاثةَ إطلاقاتٍ، وبعضُهم يقولُ: أربعةُ إطلاقاتٍ. أمَّا الإطلاقاتُ الثَّلاثُ الَّتي لم يُخالِفْ فيها أحَدٌ:

فمنها إطلاقُ الفِتنةِ على الاختبارِ، وهو أشهَرُها في القرآنِ.

ومنها إطلاقُ الفتنةِ على الإحراقِ بالنَّارِ؛ لأنَّ العربَ تقولُ: فَتَنْتُ الذَّهبَ، إذا سَبَكْتَه في النَّارِ وأذَبْتَه، أي: لِيَتَبَيَّنَ أخالِصٌ هو أم زائِفٌ. ومِن إطلاقِ الفِتنةِ على مُطْلَقِ الوضعِ في النَّارِ قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣]، أي: يُحْرَقون بالنَّارِ، والعياذُ بالله...

وكذلك تُطْلَقُ الفِتنةُ على نتيجةِ الاختبارِ إن كانت سيِّئةً خاصَّةً؛ كالمعاصي والكفرِ، فإنَّ الكفَّارَ والعُصاةَ اختَبَرَهم اللهُ بالأوامرِ والنَّواهي، فكانت نتيجةُ الاختبارِ فيهم غيرَ محمودةٍ، حيث كفَروا وعَصَوْا؛ ولِذا يُطْلَقُ اسمُ الفِتنةِ على الكفرِ والمعاصي، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، أي: حتَّى لا يَبقى شِرْكٌ.

الرَّابعُ: إطلاقُ الفتنةِ بمعنَى الحُجَّةِ، كما قاله بعضُ العلماءِ في قولِه...: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣]، أي: حُجَّتُهم). ((العذب النمير)) (١/ ٣٢٥). =

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾: أي: انتَظَرْتُم بالمُؤمِنينَ حُلولَ الهلاكِ بهم، أو: تأخَّرْتُم بالتَّوبةِ، وأصلُ (ربص): يدُلُّ على الانتِظارِ[١].

﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾: أي: شَكَكْتُم، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[٢].

﴿ٱلْغَرُورُ﴾: أي: الشَّديدُ التَّغريرِ والخِداعِ، والمرادُ به الشَّيطانُ، يقالُ: غَرَرتُ فُلانًا: إذا أصبْتَ غِرَّتَه ونِلتَ منه ما تُريدُه، مِنَ الغِرَّةِ: وهي الغَفلةُ[٣].

﴿فِدْيَةٌ﴾: أي: عِوَضٌ وبَدَلٌ، وأصلُ (فدي): يدُلُّ على جَعْلِ شَيءٍ مكانَ شَيءٍ حِمًى له[٤].

﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾: أي: مَثْواكم ومَسكَنُكم، والمأوى: مكانُ كُلِّ شَيءٍ يَأْوِي إليه،

= وذكر ابنُ قُتَيْبَةَ مِن معاني الفِتنةِ أيضًا: الصَّدَّ والاستِزلالَ، واستشهَد بقولِه تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩] أي: يَصُدُّوك ويَستَزِلُّوك. وقولِه: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣]، وقولِه: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٢، ١٦٣] أي: صادِّينَ.

وذكر مِن معانيها: العِبْرةَ، واستشهَد بقولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]، وقولِه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الممتحنة: ٥]، قال: (أي: يَعتَبِرونَ أمْرَهم بأمْرِنا، فإذا رأَوْنا في ضرٍّ وبلاءٍ، ورأَوْا أنفُسَهم في غِبْطةٍ ورَخاءٍ؛ ظنُّوا أنَّهم على حقٍّ، ونحن على باطلٍ). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٣١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣، ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧).

وأصلُ (أوى): يدُلُّ على التَّجَمُّعِ[١].

﴿مَوْلَـٰكُمْ﴾: أي: مَصيرُكم، وأولَى بكم، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا فضلَ الإيمانِ واغتِباطَ أهلِه به يومَ القيامةِ: يومَ ترى المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ يَومَ القيامةِ يَسْعى نُورُهم مِن أمامِهم، وبأيمانِهم، يُقالُ لهم: بِشارتُكم العَظيمةُ اليَومَ جَنَّاتٌ لكم، تجري مِن تَحتِها الأنهارُ، ماكِثينَ فيها أبَدًا، ذلك هو الفَوزُ العَظيمُ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى سوءَ عاقِبةِ المنافِقين، ويَذكُرُ جانبًا ممَّا يَدورُ بيْنَهم وبيْنَ المؤمنينَ مِن مُحاوَراتٍ، فيقول: يَومَ يَقولُ المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ للَّذين آمَنوا: انتَظِرونا نَنَلْ قَبَسًا مِن نُورِكم، فيُقالُ لهم: ارجِعوا خَلْفَكم، فاطلُبوا مِن هُنالك نُورًا لأنفُسِكم! فضُرِبَ بيْنَهم وبيْنَ المُؤمِنينَ حاجِزٌ يَفصِلُ بيْنَهم، له بابٌ باطِنُه مِن جِهةِ المُؤمِنينَ فيه الجنَّةُ، وظاهِرُه مِن جِهةِ المُنافِقينَ يأتِيهم مِن قِبَلِه العَذابُ.

يُنادي المُنافِقونَ المُؤمِنينَ مِن وَراءِ السُّورِ الحاجِزِ بَيْنَهم: ألَمْ نَكُنْ مَعَكم في الدُّنيا نُصَلِّي ونَصومُ، ونَفعَلُ ما تَفعَلونَ؟! قالوا لهم: بلَى قد كُنتُم معنا في الدُّنيا في الظَّاهِرِ، ولكِنْ بلا إيمانٍ صادِقٍ؛ فأهلَكْتُم أنفُسَكم، وانتَظَرْتُم بالمُؤمِنينَ حُلولَ الهلاكِ بهم، وشَكَكْتُم في الحَقِّ، وخَدَعَتْكم أمانيُّكم الباطِلةُ، وخدَعكم باللهِ -تعالى- الشَّيطانُ!

فاليَومَ لا يُؤخَذُ مِنكم عِوَضٌ يُخَلِّصُكم مِن العَذابِ، ولا مِنَ الَّذين كَفَروا،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٠).

مَنزِلُكم النَّارُ، هي مَوضِعُ قُربِكم، ومَصيرُكم، وبِئسَ المَصيرُ هي!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أن أمَرَ اللهُ تعالى بالإيمانِ والإنفاقِ في سبيلِه، وحَثَّ على كُلٍّ منهما بوُجودِ مُوجِباتِه؛ فحَثَّ على الإيمانِ بوُجودِ الأسبابِ الَّتي تُساعِدُ عليه، وهي وُجودُ الرَّسولِ بيْنَ أظهُرِهم، وكتابِه الَّذي يُتلَى بيْنَ أيديهم، وحَثَّ على الإنفاقِ فأبان أنَّ المالَ مالُ اللهِ، وهو عارِيَّةٌ بيْنَ أيديهم ثمَّ يُرَدُّ إليه، وأنَّهم يَنالونَ على إنفاقِه الأجرَ العظيمَ في جنَّاتِ النَّعيمِ، ثمَّ ذَكَر أنَّ المنفِقينَ أوَّلَ الإسلامِ لهم مِن الأجرِ أكثَرُ مِمَّن أنفَقوا مِن بَعْدُ حِينَ كَثُرَ النَّصيرُ والمُعِينُ- ذكَرَ هنا حالَ المؤمِنينَ المنفِقينَ يومَ القيامةِ[1].

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي: يومَ[2] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١٦٨).

(٢) قال الزمخشري: (﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ظَرفٌ لِقَولِه: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾. أو مَنصوبٌ بإضمارِ «اذْكُرْ»؛ تعظيمًا لذلك اليَومِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٥). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٥).
ممَّن قال: إنَّ ﴿يَوْمَ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بقَولِه تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ -أي: وله أجرٌ كَريمٌ في اليَومِ الَّذي ترى فيه المؤمِنينَ والمُؤمِناتِ يَسعى نُورُهم-: الزَّجَّاجُ، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والبِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٣٤).
وممَّن قال بأنَّ ﴿يَوْمَ﴾ مَنصوبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ: جلالُ الدين المحلي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩)، =

ترَى[(١)] المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ يومَ القيامةِ يَمضي نُورُهم معهم مِن أمامِهم، وبأيْمانِهم[(٢)].

= ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٥).

وقيل: هذه الآيةُ تَتعَلَّقُ بقَولِه تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾... وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٩).

(١) قال ابن عاشور: (الخِطابُ في ﴿تَرَى﴾ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ؛ لِيَكونَ على مِنْوالِ المُخاطَباتِ الَّتي قَبْلَه، أي: يومَ يَرى الرَّائي، والرُّؤيةُ بَصَريَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩).

وقال الألوسي: (الخِطابُ لكلِّ مَن تتأتَّى منه، أو لسيِّدِ المُخاطَبينَ صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٧٤). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥، ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩، ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٥، ٣٨٦).

قيل: ذلك يكونُ على الصِّراطِ. وممَّن نصَّ على هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٣).

وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ مسعود، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (ثمَّ يَنتهي النَّاسُ بعدَ مفارقتِهم مكانَ الموقفِ إلى الظُّلمةِ التي دونَ الصِّراطِ، وهي على جسرِ جهنَّمَ، كما تقدَّم عن عائشةَ: أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم سُئِل أينَ النَّاسُ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ فقال: «هم في الظُّلمةِ دونَ الجسرِ» [مسلم «٣١٥»]. وفي هذا الموضعِ يفترقُ المنافقونَ عن المؤمنينَ، ويتخلَّفونَ عنهم، ويسبِقُهم المؤمنونَ، ويُحالُ بينَهم وبينَهم بسورٍ يمنعُهم مِن الوصولِ إليهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾). ((البداية والنهاية)) (٢٠/ ٨٠).

وقال ابنُ عاشور: (النُّورُ المذكورُ هنا نورٌ حَقيقيٌّ يَجعَلُه اللهُ للمُؤمِنينَ في مَسيرِهم مِن مَكانِ الحَشرِ؛ إكرامًا لهم، وتنويهًا بهم في ذلك المَحشَرِ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠).

واختُلِف في قولِه: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾؛ فقيل: المعنى: وعن أيمانِهم، والمرادُ: في جميعِ جِهاتِهم، وعَبَّرَ عن ذلك بالأيْمانِ؛ تشريفًا لها، فأقامَ الباءَ مُقامَ (عن)، واكتفى بالأيمانِ عن ذِكرِ الشَّمائلِ.

وقيل: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾: كُتُبِهم الَّتي أُعطوها، فكُتُبُهم بأيْمانِهم، ونُورُهم بيْنَ أيديهم، فحذَفَ الكُتُبَ =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى نُفوذَهم فيما يُحِبُّونَ مِنَ الجِهاتِ، وتَيسيرَه لهم؛ أَتْبَعَه ما يُقالُ لهم مِنَ المحبوبِ في سُلوكِهم لذلك المحبوبِ، فقال[1]:

= لدَلالةِ قولِه: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ عليها. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٥).

وممَّن قال في الجملة بأنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ يعني: مِن الجِهةِ اليُمنى: البغويُّ، والخازن، والبِقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: كُتُبُ أعمالِهم: ابنُ جرير، وابن أبي زَمَنين، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٥).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦).

قال ابن عطية: (وقال جمهورُ المفسِّرينَ: المعنى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، يُريدُ: الضَّوءَ المُنبسِطَ مِن أصلِ النُّورِ. ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ أصْلُه، والشَّيءُ الَّذي هو مُتَّقَدٌ فيه. قال القاضي أبو محمَّدٍ [ابن عطية]: فمُضَمَّنُ هذا القَولِ أنَّهم يَحمِلونَ الأنوارَ، وكونُهم غيرَ حامِلينَ أكرَمُ، ألَا ترى أنَّ فَضيلةَ عَبَّادِ بنِ بِشرٍ وأُسَيدِ بنِ حُضَيرٍ إنَّما كانت بنُورٍ لا يَحمِلانِه [يُنظر: «صحيح البخاري» «٤٦٥، ٣٨٠٥»]. هذا في الدُّنيا، فكيف في الآخِرةِ؟!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦١). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٢).

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: يُقالُ للمُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ: بِشارتُكم العَظيمةُ هذا اليَومَ -أي: يومَ القيامةِ- جَنَّاتٌ لكم تَدخُلونَها، تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ؛ مِن الماءِ أو اللَّبَنِ، أو الخَمرِ أو العَسَلِ[١].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ماكِثينَ في تلك الجَنَّاتِ، لا تَخرُجونَ منها أبَدًا[٢].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: دُخولُ تلك الجَنَّاتِ في الآخِرةِ والخُلودُ فيها: هو الرِّبحُ والنَّجاحُ العَظيمُ[٣].

قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح تعالى حالَ المُؤمِنينَ في مَوقِفِ القيامةِ؛ أتْبَعَ ذلك بشَرحِ حالِ المُنافِقينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٧).

قال ابنُ عاشور: (جملةُ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِن بَقِيَّةِ الكَلامِ المَحكيِّ بالقَولِ المُبَشَّرِ به، ويحتَمِلُ أن يكونَ مِن الحِكايةِ الَّتي حُكِيَت في القُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١).

فقال تعالى[١]:

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

أي: يومَ[٢] يَقولُ المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ لأولئك المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ: انتَظِرونا وأمْهِلونا؛ حتَّى نَلحَقَ بكم، ونَنالَ شُعْلةً مِن نُورِكم[٣]!

عن أبي هُرَيرةَ وأبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسَلَّم قال: ((يَجمَعُ اللهُ النَّاسَ يومَ القيامةِ فيَقولُ: مَن كان يَعبُدُ شَيئًا فلْيَتْبَعْه، فيَتْبَعُ مَن كان يَعبُدُ الشَّمسَ الشَّمسَ، ويَتْبَعُ مَن كان يَعبُدُ القَمَرَ القَمَرَ، ويَتْبَعُ مَن كان يَعبُدُ الطَّواغيتَ الطَّواغيتَ، وتَبقى هذه الأُمَّةُ فيها مُنافِقوها))[٤].

﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾.

أي: يُقالُ لأولئك المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ؛ تَهكُّمًا بهم: ارجِعوا خَلْفَكم، فاطلُبوا مِن هُنالِك نُورًا لأنفُسِكم[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٦).

(٢) قال ابنُ عاشور: (﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ بدَلًا مُطابِقًا؛ إذِ اليَومُ هو عَينُ اليَومِ المُعَرَّفِ في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ [الحديد: ١٢]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٧).

قال ابنُ عاشور: (ذلك يَقتَضي أنَّ اللهَ يأذَنُ للمُؤمِنينَ الأوَّلينَ بالسَّيرِ إلى الجنَّةِ فَوجًا، ويَجعَلُ المُنافِقينَ -الَّذين كانوا بَيْنَهم في المدينةِ- سائِرينَ وَراءَهم، كما وَرَد في حديثِ الشَّفاعةِ: «وتَبقى هذه الأُمَّةُ فيها مُنافِقوها»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٢).

(٤) رواه البخاريُّ (٨٠٦)، ومسلمٌ (١٨٢) واللَّفظُ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٢، ٣٨٣). =

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾.

أي: فضَرَب اللهُ بيْنَ المُؤمِنينَ والمُنافِقينَ حاجِزًا يَفصِلُ بيْنَهم[(١)].

﴿لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

أي: لذلك السُّورِ الحاجِزِ بينَ المُؤمِنينَ والمنافِقينَ بابٌ يَدخُلُ منه المؤمِنونَ، داخلُ ذلك السُّورِ مِن جِهةِ المُؤمِنينَ: فيه الجنَّةُ، وخارِجُ السُّورِ مِن الجِهةِ الَّتي تَلي المُنافِقينَ وتَبدو لهم: يأتِيهم مِن قِبَلِه عَذابُ جهنَّمَ[(٢)].

= قال ابن عثيمين: (﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ والقِيلُ هذا: إمَّا مِن المُؤمِنينَ، أو مِنَ الملائِكةِ. فاللهُ أعلَمُ، لا ندري). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٨).

وقال أبو السعود: (﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ أي: إلى الموقفِ ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ فإنَّه مِن ثَمَّ يُقتبَسُ، أو إلى الدُّنيا). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧، ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٨).

قيل: المرادُ بالسُّورِ: الحِجابُ المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والزمخشري، وابن الجوزي، والرازي، والرَّسْعَني، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني، ومحمد رشيد رضا، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٨) و(٢٢/ ٤٠١)، ((تفسير الثعلبي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٢٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٨)، ((تفسير الرسعني)) (٢/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٤). =

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

أي: يُنادي المُنافِقونَ المُؤمِنينَ مِن وَراءِ السُّورِ الحاجِزِ بَيْنَهم، وهم في الظُّلْمةِ والعَذابِ: ألَمْ نَكُنْ مَعَكم في الدُّنيا نُصَلِّي ونَصومُ ونَذكُرُ اللهَ، ونَدِينُ بالإسلامِ، ونَفعَلُ مِثلَ ما تَفعَلونَ[1]؟!

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

أي: قال المؤمِنونَ لهم: قد كُنتُم معنا في الدُّنيا في الظَّاهِرِ، ولكِنْ بلا نِيَّةٍ صَحيحةٍ، ولا إيمانٍ صادِقٍ؛ فأهلَكْتُم أنفُسَكم بالنِّفاقِ الَّذي هو كُفرٌ باطِنٌ[2]!

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾.

= قال الواحدي: (الرَّحمةُ قال ابنُ عبَّاسٍ والمفسِّرونَ: يعني الجنَّةَ الَّتي فيها المؤمنونَ). ((البسيط)) (٢١/ ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩).

أي: وانتَظَرْتُم بالمُؤمِنينَ حوادثَ الدَّهرِ ونوائبَه أن تُهلِكَهم[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ [التوبة: ٩٨].

﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾.

أي: وشَكَكْتُم في الحَقِّ الَّذي جاءَ مِن عِندِ اللهِ تعالى[٢].

قال تعالى: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾.

أي: وخَدَعَتْكم أمانيُّ نُفوسِكم الباطِلةُ، فصَرَفَتْكم عن اتِّباعِ الحَقِّ، حتَّى جاءَكم الموتُ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المرادَ: تربَّصْتُم بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو بالمُؤمِنينَ الدَّوائرَ والهلاكَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: تربَّصْتُم بالإيمانِ والتَّوبةِ. وممَّن قال بهذا في الجملةِ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، وابن جُزَي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٩).

قال ابن كثير: (﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: أخَّرْتُم التَّوبةَ مِن وقتٍ إلى وقتٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨).

وقال الشربيني: (﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: بالإيمانِ والتَّوبةِ، وبمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

أي: وخدَعكم باللهِ -تعالى- الشَّيطانُ[1].

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: يَقولُ المُؤمِنونَ للمُنافِقينَ الَّذين سَتَروا كُفْرَهم: ففي هذا اليَومِ -يومِ القيامةِ- لا يُؤخَذُ مِنكم عِوَضٌ مِنَ المالِ بَدَلًا مِن عَذابِ اللهِ؛ فيُخَلِّصَكم منه،

= (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٦، ٣٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥).

قال الشوكاني: (﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ الباطِلةُ الَّتي مِن جُملتِها ما كُنتُم فيه مِنَ التَّرَبُّصِ. وقيل: هو طُولُ الأمَلِ. وقيل: ما كانوا يَتمَنَّونَه مِن ضَعفِ المُؤمِنينَ. وقال قَتادةُ: الأمانيُّ هنا: غُرورُ الشَّيطانِ. وقيلَ: الدُّنيا. وقيل: هو طَمَعُهم في المَغفِرةِ. وكُلُّ هذه الأشياءِ تَدخُلُ في مُسمَّى الأمانيِّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩).

قال ابنُ جرير: (يقولُ: وخَدَعَكم باللهِ الشَّيطانُ، فأطمَعَكم بالنَّجاةِ مِن عُقوبتِه، والسَّلامةِ مِن عَذابِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٦).

وقال البِقاعي: (فإنَّه يُنوِّعُ لكم بغُرورِه التَّسويفَ، ويقولُ: إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ، وعَفُوٌّ كريمٌ، وماذا عسى أن تكونَ ذُنوبُكم عندَه وهو عظيمٌ ومُحسِنٌ وحليمٌ ونحو هذا، فلا يَزالُ حتَّى يوقِعَ الإنسانَ، فإذا أوقَع واصَل عليه مِثلَ ذلك حتَّى يَتمادَى، فإذا تَمادَى صار الباعثُ له حينَئذٍ مِن قِبَلِ نفْسِه، فصار طَوْعَ يَدِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٧٧).

وقال ابن عاشور: (أي: جعَلَ الشَّيطانُ شأنَ الله سببًا لِغُرورِكم، بأنْ خَيَّل إليكم أنَّ الحِفاظَ على الكفرِ مَرْضيٌّ لله تعالى، وأنَّ النِّفاقَ حافَظْتُم به على دينِكم، وحَفِظْتُم به نُفوسَكم، وكرامةَ قَومِكم، واطَّلَعْتُم به على أحوالِ عدوِّكم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٧).

ولا يُؤخَذُ أيضًا عِوَضٌ مِنَ الَّذين أظهَروا كُفْرَهم؛ فلا خَلاصَ لكم مِنَ النَّارِ، فأنتم جميعًا مُشتَرِكونَ في الكُفرِ(١)!

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: مَنزِلُكم ومُقامُكم الَّذي تَصيرونَ إليه وتَسكُنونَ فيه: النَّارُ(٢).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

﴿هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾.

أي: وتلك النَّارُ هي قَرينتُكم الَّتي تُلازِمُكم وتَضُمُّكم إليها، ومَوضِعُ قُربِكم، ومَصيرُكم؛ فلا قُربَ لكم إلى غَيرِها، ولا مَصيرَ إلى سِواها(٣)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٧، ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩).

قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يكونَ هذا الكلامُ مِن تَتِمَّةِ خِطابِ المُؤمِنينَ للمُنافِقينَ استِمرارًا في التَّوبيخِ والتَّنديم، وهذا ما جرى عليه المفَسِّرون... ويجوزُ أن يكونَ كَلامًا صادِرًا مِن جانِبِ اللهِ تعالى للمُنافِقينَ؛ تأييسًا لهم مِنَ الطَّمَعِ في نَوالِ حَظٍّ مِن نُورِ المؤمِنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وبِئسَ المَرجِعُ النَّارُ[١]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ مِن حَقِّ المؤمِنِ أن يَعتَبِرَ بما تضَمَّنَه قَولُه تعالى: ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ، فلا يُماطِلَ التَّوبةَ، ولا يَقولَ: غَدًا غَدًا[٢]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ إلى قَولِه في المُنافِقينَ: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أخبَرَ سُبحانَه أنَّ المُنافِقينَ يَفقِدونَ النُّورَ الَّذي كان المُؤمِنونَ يَمشُونَ به، ويَطلُبونَ الاقتِباسَ مِن نُورِهم، فيُحجَبونَ عن ذلك بحِجابٍ يُضرَبُ بيْنَهم وبيْن المؤمِنينَ، كما أنَّ المنافِقينَ لَمَّا فَقَدوا النُّورَ في الدُّنيا كان ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾[٣] [البقرة: ١٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ عَطفُ المُؤمِناتِ على المُؤمِنينَ، وكذا في نظائِرِه مِنَ القُرآنِ المَدَنيِّ. ووَجهُ ذلك: التَّنبيهُ على أنَّ حُظوظَ النِّساءِ في هذا الدِّينِ مُساويةٌ حُظوظَ الرِّجالِ، إلَّا فيما خُصِصْنَ به مِن أحكامٍ قَليلةٍ لها أدِلَّتُها الخاصَّةُ؛ وذلك لإبطالِ ما عندَ اليَهودِ مِن وَضعِ النِّساءِ في حالةِ مَلعوناتٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨٥).

ومَحرومات مِن مُعظَمِ الطَّاعاتِ[١]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ أنَّ هذا النُّورَ على حَسَبِ الإيمانِ؛ لأنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ كان قَويًّا بقُوَّةِ ذلك الوَصفِ، وضَعيفًا بضَعْفِه، إذَنْ نُورُهم على حَسَبِ إيمانِهم؛ الذَّكَرِ والأُنثى[٢].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ في قَولِه: ﴿نُورُهُم﴾ غَلَبَةُ المُذَكَّرِ على المؤنَّثِ، فلم يَقُلْ: «نُورُهُنَّ»[٣].

٥- قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ وَجْهُ عطْفِ المنافِقاتِ على المنافِقينَ هنا كعَطفِ المؤمناتِ على المُؤمنينَ في الآيةِ السَّابقةِ قبْلَ هذِه، وهو التَّنبيهُ على أنَّ حُظوظَ النِّساءِ في هذا الدِّينِ مُساويةٌ حُظوظَ الرِّجالِ إلَّا فيما خُصِّصْنَ به مِن أحكامٍ قليلةٍ لها أدِلَّتُها الخاصَّةُ[٤].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ لعَلَّ جَعْلَ البابِ في سُورٍ واحِدٍ فيه ليمُرَّ منه أفواجُ المؤمِنينَ الخالِصينَ مِن وُجودِ منافِقينَ بيْنَهم بمرأًى مِن المنافِقينَ المحبوسين وراءَ ذلك السُّورِ؛ تنكيلًا بهم وحَسرةً حينَ يُشاهِدونَ أفواجَ المؤمِنينَ يُفتَحُ لهم البابُ الَّذي في السُّورِ؛ لِيَجتازُوا منه إلى النَّعيمِ الَّذي بباطِنِ السُّورِ[٥].

٧- المنافقونَ هم أشقَى الأشقياءِ، ولهذا يُستهزأُ بهم فى الآخرةِ، ويُعطَوْنَ نورًا يَتوسَّطون به على الصِّراطِ، ثمَّ يُطفئُ اللهُ نورَهم، ويُقالُ لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩، ٣٨١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٤).

فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ﴾ [الحديد: ١٣]، ويُضرَبُ بيْنَهم وبيْنَ المؤمنينَ: ﴿بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٣]، وهذا أشدُّ ما يكونُ مِن الحسرةِ والبَلاءِ: أن يُفتَحَ للعبدِ طريقُ النَّجاةِ والفَلاحِ، حتَّى إذا ظنَّ أنَّه ناجٍ ورأى مَنازِلَ السُّعداءِ اقتُطِع عنهم، وضُرِبَتْ عليه الشِّقْوةُ، ونعوذُ باللهِ مِن غضَبِه وعِقابِه(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ ذِكْرُ أربعةِ أُصولٍ لهم، هي أسبابُ الخُسْرانِ؛ وهي: فِتنةُ أنفُسِهم، والتَّرَبُّصُ بالمُؤمِنينَ، والارتيابُ في صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والاغترارُ بما تُمَوِّهُ إليهم أنفُسُهم. وهذه الأربعةُ هي أصولُ الخِصالِ المتفرِّعةِ على النِّفاقِ(٢).

٩- قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ذكَر الله الكفَّار والمنافقينَ هنا وفي غيرِ موضعٍ مِن القرآنِ، كقولِه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١، ٤٨]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]؛ لِيُمَيِّزَهم عنهم بإظهارِ الإسلامِ، وإلَّا فَهُم في الباطِنِ شَرٌّ مِن الكُفَّارِ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(٣) [النساء: ١٤٥].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ إجازةُ تَسميةِ المخلوقِ باسمِ الخالِقِ -وذلك فيما يكونُ له معنًى كُلِّيٌّ تَتفاوَتُ فيه أفرادُه مِن الأسماءِ

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٥٣).

والصِّفاتِ-[١]؛ إذْ قد دَلَّ على تَسميةِ النَّاسِ به، ثمَّ أجاز هاهنا تَسميةَ النَّارِ أيضًا به[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ...﴾ مَنصوبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: (اذكُرْ) تَعظيمًا لذلك اليَومِ، وتَنويهًا بما يَحصُلُ في ذلك اليومِ مِن ثَوابٍ للمؤمنينَ والمؤمناتِ، ومِن حِرمانٍ للمنافِقينَ والمنافِقاتِ؛ ولذلك كُرِّر (يَوم) -﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾-؛ ليَختَصَّ كلُّ فريقٍ بذِكرِ ما هو مِن شُؤونِه في ذلك اليَومِ. وعلى هذا فالجُملةُ مُتَّصِلةٌ بالَّتي قبْلَها بسَببِ هذا التَّعلُّقِ، على أنَّه في نظْمِ الكلامِ يصِحُّ جَعْلُه ظرْفًا مُتعلِّقًا بـ ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]، على طَريقةِ التَّخلُّصِ لِذكرِ ما يَجْري في ذلك اليَومِ مِن الخَيراتِ لأهْلِها، ومِن الشَّرِّ لأهْلِه. وعلى الوجْهِ الأوَّلِ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا لِمُناسَبةِ ذِكرِ أجْرِ المُنفِقينَ، فعُقِّبَ ببَيانِ بَعضِ مَزايا المؤمنينَ، وعلى الوجْهِ الثَّاني فهي مُتَّصلةٌ بالَّتي قبْلَها بسَببِ التَّعلُّقِ[٣].

---

(١) جاء في ((فتاوى اللَّجنةِ الدَّائمةِ)) -بعدَ تقريرِ منْعِ تسميةِ غيرِ الله بهذا الاسمِ (الله)؛ لأنَّ مُسمَّاه مُعيَّنٌ لا يَقبَلُ الشَّرِكةَ، وكذا ما كان مِن الأسماءِ في معناه في عدَمِ قَبولِ الشَّرِكةِ، كالخالقِ والبارئِ-: (أمَّا ما كان له معنًى كُلِّيٌّ تتفاوَتُ فيه أفرادُه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، كالملِكِ، والعزيزِ، والجبَّارِ، والمُتكبِّرِ؛ فيجوزُ تسميةُ غيرِه بها؛ فقد سمَّى الله نفْسَه بهذه الأسماءِ، وسمَّى بعضَ عبادِه بها). ((فتاوى اللجنة الدائمة- المجموعة الثانية)) (٢/ ٣٦٨). ويُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٩، ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي =

- ومعنَى قولِه: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾: يَسْعى نُورُهم حينَ يَسعَون؛ فحُذِفَ ذلك لأنَّ النُّورَ إنَّما يَسْعى إذا سَعى صاحبُه، وإلَّا لانْفصَلَ عنه وترَكَه، وإضافةُ (نُور) إلى ضَميرِهم، وجَعْلُ مَكانِه ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ يُبيِّنُ أنَّه نُورٌ لِذَواتِهم أُكرِموا به[١].

- وإنَّما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾؛ لأنَّ السُّعداءَ يُؤتَون صَحائفَ أعمالِهم مِن هاتَينِ الجِهتَينِ، كما أنَّ الأشقياءَ يُؤتَونَها مِن شَمائلِهم ومِن وراءِ ظُهورِهم، فجُعِلَ النُّورُ في الجِهتَينِ شِعارًا لهم وآيةً[٢]. أو اقتُصِرَ على ذِكرِ الأيمانِ تَشريفًا لها، وهو مِن الاكتفاءِ[٣]، أي: وبجانِبَيْهم[٤].

- قولُه تَعالَى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، وفي سُورةِ (التَّحريم): ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ [التحريم: ٨]؛ فقُدِّمَ الفعلُ في الأُولى ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾، وأُخِّرَ في الثَّانيةِ ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾! ووَجْهُ ذلك -واللهُ أعلَمُ-: أنَّ قولَه في سُورةِ (التَّحريم): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ يُفهِمُ -مِن حيث المعيَّةُ- قُرْبَ المَنزِلةِ، وعُلوَّ الحالِ، فتَقدَّمَ ثُبوتُه، فناسَبَ

= حيان)) (١٠/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٥).

(٣) الاكتفاء: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، على سَبيلِ الاكتِفاءِ؛ إذِ التَّقْديرُ: تقيكُمُ الحرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠).

ذلك وُرودُ الجُملةِ الاسميَّةِ هنا؛ لِما تَقْتضيه مِن الثَّباتِ وتَقدُّمه واستحكامه، أمَّا قولُه في سُورةِ (الحديدِ): ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ فبشارةٌ للمؤمنينَ، ولم يأْتِ هنا كونُهم مع نَبيِّهم، فلمْ يَتحصَّلْ ما يُفهِمُ تَمكُّنَ المنزلةِ وثُبوتَها ما تَحصَّلَ في آيةِ التَّحريمِ، إنَّما هذه بِشارةٌ؛ فناسَبَها التَّجدُّدُ والحدوثُ، فناسَبَ ذلك الفعلُ بما يُعطِيه مِن المعْنى، فقيلَ: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ ليُفهَمَ التَّكرُّرُ وحُدوثُ الشَّيءِ بعْدَ الشَّيءِ، فوَرَدَ كلٌّ على ما يُناسِبُ[١].

- قولُه: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ مُقدَّرٌ بقَولٍ هو حالٌ أو استِئنافٌ، أيْ: يُقالُ لهم: بُشراكُم، أي: ما تُبشَّرونَ بِه جنَّاتٌ، أو بُشراكم دُخولُ الجنَّةِ. والكلامُ على حذْفِ مُضافَينِ تَقديرُهما: إعلامٌ بدُخولِ جنَّاتٍ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾[٢].

- وقولُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ بعْدَ قولِه: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ الْتِفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، ولو جَرى على الخِطابِ لَكان التَّركيبُ: (خالدًا أنتُم فيها)[٣].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ تَذييلٌ يدُلُّ على مَجموعِ مَحاسِنِ ما وقَعَتْ به البُشرَى، واسمُ الإشارةِ للتَّعظيمِ والتَّنبيهِ، وضَميرُ الفَصْلِ لتَقويةِ الخبَرِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١).

- قولُه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تَغليبٌ للذُّكورِ؛ لأنَّ المخاطَبِينَ هم أصحابُ النُّورِ، وهو للمُؤمنينَ والمؤمناتِ(١).

- والأمرُ في قولِه: ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ أمْرُ تَوبيخٍ وطرْدٍ، أي: ارْجِعوا إلى الموقفِ حيثُ أُعطِينا الفوزَ فالْتَمِسوه هناك، فمِن ثَمَّ يُقتبَسُ. أو ارْجِعوا إلى الدُّنيا والْتَمِسوا نُورًا، أي: بتَحصيلِ سَببِه، وهو الإيمانُ، أو ارْجِعوا خائبينَ وتَنحَّوا عنَّا، فالْتمِسوا نُورًا غيرَ هذا؛ فلا سَبيلَ لكم إلى الاقتباسِ منه. وقد عَلِموا أنْ لا نُورَ وراءَهم، وإنَّما هو تَخييبٌ وإقناطٌ لهم(٢).

- قولُه: ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ على القَولِ بأنَّه مِن كَلامِ الملائكةِ السَّائقينَ للمُنافِقين؛ فمَقالةُ الملائكةِ للمنافِقِينَ تَهكُّمٌ؛ إذ لا نُورَ وَراءهم، وإنَّما أرادوا إطْماعَهم، ثم تَخييبَهم بضرْبِ السُّورِ بيْنَهم وبيْنَ المؤمنينَ؛ لأنَّ الخَيبةَ بعْدَ الطَّمعِ أشدُّ حَسرةً(٣).

- ولفْظُ ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ تأْكيدٌ لمعْنى ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾؛ إذِ الرُّجوعُ يَستلزمُ الوراءَ، وهذا كما يُقالُ: رجَعَ القَهْقرَى. ويَجوزُ أنْ يكونَ ظرْفًا لفِعلِ ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ﴾، أي: في المكانِ الَّذي خلْفَكم، وتَقديمُه على عامِلِه للاهتِمام؛ فيَكونُ فيه معْنى الإغراءِ بالْتماسِ النُّورِ هناك، وهو أشدُّ في الإطماعِ؛ لأنَّه يُوهِمُ أنَّ النُّورَ يُتناوَلُ مِن ذلك المكانِ الَّذي صدَرَ منْه المؤمنونَ، وبذلك الإيهامِ لا يكونُ الكلامُ كذِبًا؛ لأنَّه مِن المَعاريضِ، لا سيَّما مع احتمالِ أنْ يكونَ ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٥، ٤٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٢، ٢٨٣).

تأْكيدًا لمعْنى ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾[١].

- وضُمِّن قولُه: ﴿فَضُرِبَ﴾ في الآيةِ معْنى الحَجْزِ؛ فعُدِّيَ بالباءِ، أي: ضُرِبَ بيْنهم سُورٌ للحجْزِ به بيْنَ المنافِقينَ والمؤمنينَ[٢].

- وضَمائرُ ﴿لَّهُۥ بَابُۢ﴾ و﴿بَاطِنُهُۥ﴾ و(ظَاهِرُهُ) عائِدةٌ إلى السُّورِ، والجُملتانِ صِفتانِ لـ(سُورٍ)، وإنَّما عُطِفَت الجُملةُ الثَّالثةُ بالواوِ ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾؛ لأنَّ المقصودَ مِن الصِّفةِ مَجموعُ الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ تَقريريٌّ، استُعمِلَ كِنايةً عن طلَبِ اللَّحاقِ بهم، والانضمامِ إليهم كما كانوا معَهم في الدُّنيا يَعمَلون أعمالَ الإسلامِ مع المُسلِمينَ[٤].

- قولُه: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾، هذا الجوابُ إقرارٌ بأنَّ المنافِقِين كانوا يَعمَلون أعمالَهم معهم، ولَمَّا كان هذا الإقرارُ يُوهِمُ أنَّه قولٌ بمُوجَبِ الاستِفهامِ التَّقريريِّ ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾، أعْقَبوا جَوابَهم الإقراريَّ بالاستِدراكِ الرَّافعِ لِما تَوهَّمَه المنافِقون مِن أنَّ الموافقةَ للمؤمنِينَ في أعمالِ الإسلامِ تَكفِي في الْتِحاقِهم بهم في نَعيمِ الجنَّةِ، فبيَّنوا لهم أسبابَ التَّباعُدِ بيْنَهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والتَّربُّصُ: انتظارُ شَيءٍ، ويَتعدَّى فِعلُه إلى المفعولِ بنَفْسِه، ويَتعلَّقُ به ما زادَ على المفعولِ بالباءِ، وحُذِفَ هنا مَفعولُه ومُتعلَّقُه؛ ليَشملَ عِدَّةَ الأمورِ الَّتي يَنتظِرُها المنافِقون في شأْنِ المؤمنينَ، وهي كثيرةٌ، مَرجِعُها إلى أذى المسلمينَ والإضرارِ بهم، فيَتربَّصون هَزيمةَ المسلمينَ في الغزَواتِ ونحْوِها مِن الأحداثِ؛ قال تعالى في بعضِهم: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ [التوبة: ٩٨]، ويَتربَّصون انقِسامَ المؤمنينَ؛ فقدْ قالوا لفَريقٍ مِنَ الأنصارِ يُندِّمونهم على مَن قُتِلَ مِن قَومِهم في بعضِ الغزَواتِ: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾[1] [آل عمران: ١٦٨].

- والمَقصودُ مِن الغايةِ بقولِه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ التَّنديدُ عليهم بأنَّهم لم يَرْعَوُوا عن غَيِّهم معَ طُولِ مُدَّةِ أعمارِهم، وتَعاقُبِ السِّنينَ عليهم وهم لم يَتدبَّروا في العواقِبِ، كما قال تعالَى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[2] [فاطر: ٣٧].

- وجُملةُ ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾؛ تَحقيرًا لغُرورِهم وأمانِيِّهم بأنَّها مِن كَيدِ الشَّيطانِ؛ ليَزدادوا حَسرةً حينَئذٍ[3].

- والغَرورُ -بفتْحِ الغَينِ-: مُبالَغةٌ في المُتَّصِفِ بالتَّغريرِ، والمرادُ به الشَّيطانُ، أي: بإلقائِه خَواطرَ النِّفاقِ في نُفوسِهم بتَلوينِه في لَونِ الحقِّ، وإرضاءِ دِينِ الكفْرِ. أو عُبِّرَ عَنِ الشَّيطانِ بصِيغةِ المبالَغةِ ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الَّتي هي المفعولُ؛ لكَثرةِ غُرورِه لبني آدَمَ، كما قال تَعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، ويَجوزُ أنْ يُرادَ جِنسُ الغارِّينَ، أي: وغرَّكم باللهِ أئمَّةُ الكفْرِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٦، ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٧).

وقادةُ النِّفاقِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لَمَّا كان قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ معلومًا عندَهم قد شاهَدوا دَلائلَه، فرَّعوا لهم عليه قولَهم: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾؛ قَطعًا لطَمَعِهم أنْ يَكونوا مع المؤمنينَ يومَئذٍ كما كانوا معَهم في الحياةِ[٢].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ هذا الكلامُ مِن تَتِمَّةِ خِطابِ المؤمنينَ للمنافِقين؛ استِمرارًا في التَّوبيخِ والتَّنديمِ، فمَوقعُ فاءِ التَّفريعِ بيِّنٌ، والعِلمُ للمؤمنينَ بأنْ لا تُؤخَذُ فِديةٌ مِن المنافِقينَ والَّذين كَفَروا حاصِلٌ ممَّا يَسمَعون في ذلك اليَومِ مِن الأقضيةِ الإلهيَّةِ بيْنَ الخلْقِ بحيث صار مَعلومًا لأهلِ المحشَرِ، أو هو عِلمٌ مُتقرِّرٌ في نُفوسِهم ممَّا عَلِموه في الدُّنيا مِن أخبارِ القُرآنِ وكلامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وذلك مُوجِبُ عطْفِ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تَعبيرًا عمَّا عَلِموه بأسْرِه، وهو عطْفٌ مُعترِضٌ جرَّتْه المناسَبةُ. ويجوزُ أنْ يكونَ كلامًا صادرًا مِن جانبِ اللهِ تعالى للمنافِقين؛ تأْييسًا لهم مِن الطَّمَعِ في نَوالِ حظٍّ مِن نُورِ المؤمنينَ، فيَكونَ الفاءُ مِن عطْفِ التَّلقينِ عاطِفةً كلامَ أحدٍ على كَلامِ غيرِه؛ مِن أجْلِ اتِّحادِ مكانِ المُخاطَبةِ، ويكونَ عطْفُ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جمْعًا للفريقَينِ في تَوبيخٍ وتَنديمٍ واحدٍ؛ لاتِّحادِهما في الكُفْرِ[٣].

- وإقحامُ كَلمةِ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾؛ لتَذكيرِهم بما كانوا يُضمِرونه في الدُّنيا حِينَ يُنفِقونَ معَ المؤمنينَ رِياءً وتَقيَّةً، وهو ما حَكاهُ اللهُ عنهم بقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥، ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٨).

مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾[١] [التوبة: ٩٨].

- وفي قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾ كُنِّيَ بنَفْيِ أخْذِ الفِديةِ عن تَحقُّقِ جَزائِهم على الكُفرِ؛ وإلَّا فإنَّهم لم يَبذُلوا فِدْيةً، ولا كان النِّفاقُ مِن أنواعِ الفِدْيةِ، ولكنَّ الكلامَ جرى على الكِنايةِ؛ لِما هو مَشهورٌ مِن أنَّ الأسيرَ والجانيَ قد يَتخلَّصانِ مِن المؤاخَذةِ بفِديةٍ تُبذَلُ عنهما؛ فعَطْفُ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قُصِدَ منه تَعليلُ أنْ لا مَحيصَ لهم مِن عَذابِ الكُفْرِ مِثلَ الَّذين كَفَروا، أي: الَّذين أعْلَنوا الكُفْرَ حتَّى كان حالةً يُعرَفون بها، وهذا يَقْتضي أنَّ المنافقينَ كانوا هم والكافِرونَ في صَعيدٍ واحدٍ عندَ أبوابِ جَهنَّمَ؛ ففيه احتِراسٌ مِن أنْ يَتوهَّمَ الكافرونَ الصُّرحاءُ مِن ضَميرِ ﴿لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾ أنَّ ذلك حُكْمٌ خاصٌّ بالمنافِقينَ تَعلُّقًا بأقلِّ طمَعٍ؛ فليس ذِكرُ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مُجرَّدَ استطرادٍ[٢].

- والمأْوى: هو المكانُ الَّذي يُؤْوَى إليه، أي: يُصارُ إليه ويُرجَعُ، وكُنِّيَ به عن الاستِمرارِ والخُلودِ، وأُكِّدَ ذلك بالصَّريحِ بجُملةِ ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾، أي: تَرجِعون إليها كما يَرجِعُ المُستنصِرُ إلى مَولاهُ لِيَنصُرَه أو يُفادِيَ عنه، فعُبِّرَ بالمَولى عن المَقرِّ على طَريقةِ التَّهكُّمِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تَذييلٌ يَشملُ جَميعَ ما يَصِيرون إليه مِن العذابِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٦-١٩)

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْأَمَدُ﴾: أي: الزَّمانُ والغايةُ[١].

﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾: أي: الَّذين كثُر صِدقُهم وتصديقُهم، وأصلُ (صدق): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيرَه[٢].

﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: النَّارِ، والجُحْمَةُ: شدَّةُ تأجُّجِ النَّارِ، ومنه: الجحيمُ، وأصْلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى معاتبًا المؤمنينَ: ألم يَحِنْ للمُؤمِنينَ أن تَلِينَ قُلوبُهم وتَخضَعَ لذِكرِ اللهِ وما نَزَل مِن القُرآنِ، ثمَّ يُحذِّرُهم مِن مُشابَهةِ أهلِ الكِتابِ، فيقولُ: ولا يَكونوا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٣٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

كاليَهودِ والنَّصارى الَّذين أنزَلَ اللهُ عليهم الكِتابَ مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ، فطالَ عليهم الزَّمانُ، فقَسَت قُلوبُهم، وكَثيرٌ منهم خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ؟!

ثمَّ يقولُ تعالى: اعلَموا أنَّ اللهَ تعالى يُحْيي الأرضَ بالماءِ بعْدَ يُبسِها، فكذلك يُحْيي القَلْبَ بعْدَ قَسْوتِه بالوَحيِ المُنَزَّلِ مِنَ السَّماءِ. قد أوضَحْنا لكم الآياتِ الدَّالَّةَ على الحَقِّ؛ لِتَعقِلوا.

ثمَّ يقولُ تعالى مُبينًا ما أعدَّه للمؤمنينَ الَّذين يَبذُلونَ أموالَهم في سبيلِه: إنَّ المُتصَدِّقينَ والمُتصَدِّقاتِ والمُنفِقينَ في سَبيلِ اللهِ مُبتَغِينَ ما عِندَ رَبِّهم بلا مَنٍّ ولا أذًى: يُثيبُهم اللهُ على ذلك الإنفاقِ أُجورًا كَثيرةً، ولهم ثَوابٌ حَسَنٌ، وجَزاءٌ جَميلٌ.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى السُّعداءَ ومآلَهم، ويَعطِفُ بذكرِ الأشقياءِ، ويُبينُ حالَهم، فيقولُ: والَّذين آمَنوا باللهِ وبرُسُلِه هم الصِّدِّيقونَ، والشُّهَداءُ لهم ثَوابُ اللهِ في الآخِرةِ، ولهم نُورُهم. والَّذين كَفَروا باللهِ ورُسُلِه وكَذَّبوا: أولئك أصحابُ النَّارِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر حالَ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ والمُنافِقينَ والمُنافِقاتِ في الدَّارِ الآخِرةِ، كان ذلك مِمَّا يدعو القُلوبَ إلى الخُشوعِ لِرَبِّها، والاستِكانةِ لعَظَمتِه؛ فعاتَبَ اللهُ المُؤمِنينَ على عَدَمِ ذلك، فقال تعالى[1]:

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أُنزِلَ القُرآنُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتلا عليهم زَمانًا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، لو قصَصْتَ علينا! فأنزَلَ اللهُ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ١ - ٣]، فتلاها عليهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زمانًا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ لو حدَّثْتَنا! فأنزَلَ اللهُ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] الآيةَ، كُلُّ ذلك يُؤمَرونَ بالقُرآنِ. قال خَلَّادٌ[١]: وزاد فيه حِينَ قالوا: يا رَسولَ اللهِ ذَكِّرْنا، فأنزَلَ اللهُ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾))[٢].

عن ابنِ مَسعودٍ رَضِي اللهُ عنه، قال: (ما كان بيْنَ إسلامِنا وبيْنَ أنْ عاتَبَنا اللهُ بهذه الآيةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلَّا أربَعُ سِنينَ)[٣].

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: أمَا حانَ للمُؤمِنينَ أن تَلِينَ قُلوبُهم وتَرِقَّ وتَخضَعَ وتَذِلَّ لذِكرِ اللهِ وما نَزَل

(١) هو أحدُ رواةِ الحديثِ.

(٢) أخرجه الطَّحاويُّ في ((شرح مشكل الآثار)) (١١٥٧)، وابنُ حِبَّانَ (٦٢٠٩) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٣٣١٩).

صحَّحه ابنُ حِبَّان، والألبانيُّ في ((صحيح الموارد)) (١٤٦٢)، وصَحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحسَّن إسنادَه ابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٠)، وحَسَّنَ الحديثَ ابنُ حجر في ((المطالب العالية)) (٤/ ١٢٦)، وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٦٢٠٩).

(٣) رواه مسلم (٣٠٢٧).

مِن القُرآنِ[١]؟!

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان للمُسابَقةِ والمُنافَسةِ أثرٌ عَظيمٌ في تحريكِ الهِمَمِ لأهلِ الأَنَفةِ وأُولي المَعالي؛ قال[٢]:

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾.

أي: وأمَا حانَ للمُؤمِنينَ ألَّا يَكونوا كاليَهودِ والنَّصارى الَّذين أنزَلَ اللهُ عليهم الكِتابَ -التَّوراةَ والإنجيلَ- المُوجِبَ لخُشوعِ القَلبِ والانقيادِ التَّامِّ، مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ الكريمِ عليكم[٣]؟

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٩)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٨، ٢٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩، ٣٩٠).

قال الشنقيطي: (قَولُه: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الأظهَرُ منه: أنَّ المرادَ خُشوعُ قُلوبِهم لأجْلِ ذِكرِ اللهِ، وهذا المعنى دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، أي: خافت عِندَ ذِكرِ اللهِ، فالوَجَلُ المذكورُ في آيةِ الأنفالِ هذه والخَشيةُ المذكورةُ هنا: مَعناهما واحِدٌ. وقال بَعضُ العُلَماءِ: المرادُ بذِكرِ اللهِ: القُرآنُ، وعليه فقَولُه: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ مِن عَطفِ الشَّيءِ على نَفْسِه مع اختِلافِ اللَّفظَينِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٤٧).

وقيل: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ حقوقُ الله، وقيل: ما يُذَكِّرُهم به النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وقيل: هو الصَّلاةُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٩، ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

أي: فطالَ على أهلِ الكِتابِ الزَّمانُ[(١)].

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: فقَسَت بسَبَبِ طُولِ الزَّمانِ قُلوبُهم، فصارت غَليظةً لا تَلِينُ لِذِكرٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٠).

قيل: طال الزَّمانُ بَيْنَهم وبيْنَ موسى عليه السَّلامُ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٢٢).

وقيل: طال الزَّمانُ بَيْنَهم وبيْنَ أنبيائِهم. ومِمَّن قال بهذا: الثعلبيُّ، والواحدي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٧).

قال ابن الجوزي: (المعنى: أنَّه بَعُدَ عَهدُهم بالأنبياءِ والصَّالِحينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٥).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ يعني: طولَ الأجَلِ، وخُروجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٢).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: طُولُ الزَّمانِ بَيْنَهم وبيْنَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

قال ابنُ عاشور: (الأَمَدُ: الغايةُ مِن مَكانٍ أو زَمانٍ، والمرادُ به هنا: المُدَّةُ الَّتي أُوصُوا بأن يُحافِظوا على اتِّباعِ شَرائِعِهم فيها، المُغَيَّاةُ بمَجيءِ الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- المُبَشَّرِ في الشَّرائِعِ، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

وقيل: المرادُ: طُولُ الأجَلِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: السمرقنديُّ، والزمخشري، والنسفي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٧).

وقال ابنُ عطية: (الأَمَدُ: قيل: معناه: أَمَدُ انتِظارِ الفَتحِ. وقيل: أَمَدُ انتِظارِ القيامةِ. وقيل: أَمَدُ الحَياةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٤). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦١).

ولا تَرِقُّ لِمَوعِظةٍ[١].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣].

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

أي: وكَثيرٌ منهم خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، ضالُّونَ عن الحَقِّ والهُدى[٢].

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

أي: اعلَموا أنَّ اللهَ تعالى يُحْيي الأرضَ بعْدَ يُبسِها وجَدْبِها، بالماءِ المُنزَّلِ مِنَ السَّماءِ، فكذلك يُحْيي اللهُ القَلْبَ بعْدَ قَسْوتِه وصَلابتِه، بالوَحيِ المُنَزَّلِ مِنَ السَّماءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن =

عن أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((إنَّ مَثَلَ ما بعَثَني اللهُ به عزَّ وجلَّ مِنَ الهُدى والعِلمِ؛ كَمَثلِ غَيثٍ أصاب أرضًا، فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنبَتَتِ الكَلَأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكان منها أجادِبُ[١] أمسَكَتِ الماءَ، فنَفَعَ اللهُ بها النَّاسَ، فشَرِبوا منها وسَقَوْا ورَعَوْا، وأصابَ طائفةً منها أخرى، إنَّما هي قِيعانٌ[٢]؛ لا تُمسِكُ ماءً، ولا تُنبِتُ كَلأً، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُه في دِينِ اللهِ، ونَفَعَه بما بعَثَني اللهُ به، فعَلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ مَن لم يَرفَعْ بذلك رأسًا، ولم يَقْبَلْ هُدى اللهِ الَّذي أُرسِلْتُ به))[٣].

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

أي: قد أوضَحْنا وأظهَرْنا لكم الآياتِ الدَّالَّةَ على الحَقِّ؛ لِتَعقِلوا وتتَّعِظوا وتَعمَلوا بمُوجَبِ ذلك[٤].

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

= كثير)) (٨/ ٢١)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٣، ٣٩٤).

(١) الأجادِبُ: الأرضُ الصُّلبةُ الَّتي تُمسِكُ الماءَ؛ مِنَ الجَدْبِ، وهو القَحْطُ، سَمَّاها أجادِبَ؛ لأنَّها لِصَلابَتِها لا تُنبِتُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٤٢)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٧).

(٢) القِيعانُ: جمعُ قاعٍ، وهي الأرضُ المُستَوِيةُ الَّتي لا نَباتَ فيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٢٣٥).

(٣) رواه البخاريُّ (٧٩)، ومسلمٌ (٢٢٨٢) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ أن وازَنَ بيْنَ المؤمنينَ والمنافِقِين فيما مضى، وأبان ما يكونُ بيْنَهما مِن فارِقٍ يومَ القيامةِ؛ ذكَرَ هنا التَّفاوُتَ بيْنَ حالِ المؤمنينَ وحالِ الكافِرين[١].

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ بتَخفيفِ الصَّادِ، أي: إنَّ الَّذين صدَّقوا اللهَ ورَسولَه[٢]. مِن الصِّدقِ، الَّذي هو خِلافُ الكذبِ.

٢- قِراءةُ: ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ بتَشديدِ الصَّادِ، أي: إنَّ المُتصَدِّقينَ والمُتصَدِّقاتِ[٣]. مِن التَّصدُّقِ.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾.

أي: إنَّ المُتصَدِّقينَ والمُتصَدِّقاتِ في سَبيلِ اللهِ مِن طَيِّبِ أموالِهم مُحتَسِبينَ في إنفاقِها، مُبتَغِينَ ما عِندَ رَبِّهم بلا مَنٍّ ولا أذًى- يُثيبُهم اللهُ على ذلك الإنفاقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١٧٤).

وذكَر ابنُ عاشورٍ أنَّ هذه الآيةَ يُشبِهُ أنْ تكونَ متَّصلةَ المعنَى بقولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]، وأنَّ آيةَ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحديد: ١٦] وما بعدَها معترضٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٥).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وشُعبةُ عن عاصِمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٥٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٠١).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٥٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٠١).

أُجورًا كَثيرةً، قد تَبلُغُ سَبْعَمِئةِ ضِعفٍ أو أكثَرَ[١]!

﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: ولهم ثَوابٌ حَسَنٌ، وجَزاءٌ جَميلٌ[٢].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

ذكَرَ تعالى -قبْلَ هذه الآيةِ- حالَ المؤمِنينَ والمنافِقِين، وذكَرَ الآنَ حالَ المؤمنينَ وحالَ الكافِرين[٣].

وأيضًا لَمَّا ذُكِرَ فَضْلُ المُتصدِّقينَ، وكان مِن المُؤمنينَ مَن لا مالَ له لِيَتصدَّقَ منه؛ أُعقِبَ ذِكرُ المُتصدِّقينَ ببَيانِ فضْلِ المؤمنينَ مُطلقًا، وهو شاملٌ لِمَن يَستطيعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١، ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٢، ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالأجرِ الكريم: الجنَّةُ: ابنُ جرير، والبغويُّ، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٨).

قال ابن عثيمين: (﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: ثوابٌ كريمٌ، والكريمُ هو الحسَنُ الطَّيِّبُ؛ وذلك أنَّ الجنَّةَ فيها ما لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٤).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني: جزاءً حسَنًا في الجنَّةِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٣). ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٢).

أنْ يَتصدَّقَ ومَن لا يَستطيعُ، على نحْوِ التَّذكيرِ المُتقدِّمِ آنِفًا في قولِه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[1] [الحديد: ١٠].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا باللهِ وبرُسُلِه هم الصِّدِّيقونَ الَّذين هم في غايةِ الصِّدقِ وكَثرةِ التَّصديقِ لِما وَجَب التَّصديقُ به، فليس في قُلوبِهم أدنَى شَكٍّ[2].

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ لَيَتراءَوْنَ أهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهم، كما تَتراءَونَ الكوكَبَ الدُّرِّيَّ[3] الغابِرَ مِن الأُفُقِ[4]، مِن المَشرِقِ أو المَغرِبِ؛ لِتَفاضُلِ ما بيْنَهم. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، تلك مَنازِلُ الأنبياءِ لا يَبلُغُها غَيرُهم؟! قال: بلى، والَّذي نفْسي بيَدِه، رِجالٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٩).

قال ابن جزي: (الصِّدِّيقُونَ مبالغةٌ مِن الصِّدقِ أو مِن التَّصديقِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٧).

وقال ابن عثيمين: (﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ أي: البالِغونَ في الصِّدقِ مبلغًا كبيرًا؛ لأنَّ الصِّدِّيقَ صيغةُ مبالغةٍ، والصِّدقُ يكونُ بالقصدِ وبالقولِ وبالفعلِ). ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٩).

وقال السعدي: (الصِّدِّيقونَ هم الذين كمَّلوا مراتِبَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ، والعلمِ النَّافعِ، واليقينِ الصَّادقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)

(٣) الدُّرِّيَّ: الشَّديدَ الإضاءةِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥).

(٤) الغابِرَ: أي: الباقِيَ في الأُفُقِ بعدَ انتِشارِ ضَوءِ الفَجرِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥).

آمَنوا باللهِ، وصَدَّقوا المُرسَلينَ))[١].

﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾.

أي: والشُّهَداءُ: لهم ثَوابُ اللهِ في الآخِرةِ، ولهم نُورُهم[٢].

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٥٦)، ومسلمٌ (٢٨٣١) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٥١، ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٠).

قال ابن جُزَي: (﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ يحتملُ أن يكونَ الشُّهداءُ مُبتدَأً وخبرُه ما بعدَه، أو يكونَ معطوفًا على الصِّدِّيقينَ. فإنْ كان مُبتدَأً ففي المعنى قَولانِ:

أحدُهما: أنَّه جمْعُ شهيدٍ في سبيلِ الله، فأخبَر أنَّهم عندَ ربِّهم لهم أجرُهم ونورُهم.

والآخَرُ: أنَّه جمعُ شاهِدٍ، ويُرادُ به الأنبياءُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّهم يَشهَدونَ على قَومِهم.

وإن كان معطوفًا ففي المعنى قَولانِ:

أحدُهما: أنَّه جمْعُ شهيدٍ، فوصَفَ اللهُ المؤمنينَ بأنَّهم صِدِّيقونَ وشُهَداءُ، أي: جمَعوا الوصفَينِ،...

والآخَرُ: أنَّه جمعُ شاهِدٍ؛ لأنَّ المؤمنينَ يَشهَدون على النَّاسِ، كقولِه: ﴿لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ هذا خبَرٌ عن الشُّهداءِ خاصَّةً إن كان مُبتدَأً، أو خبرٌ عن المؤمنينَ إن كان الشُّهداءُ مَعطوفًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٧). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٧٩).

ممَّن اختار أنَّ الجُملةَ مُستأنَفةٌ، وأنَّ الشُّهداءَ مُبتدَأٌ وخبَره ما بعدَه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والرَّسْعَنيُّ، وأبو حيان، وابن كثير، والنيسابوري، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٣)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٣)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومَسروقٌ، وأبو الضُّحى، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢).

وممَّن اختار أنَّها معطوفةٌ: الزمخشريُّ، والنسفي، والبِقاعي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٢). =

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مَسعودٍ، ومجاهِدٌ، وزَيدُ بنُ أسلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٦).

قال أبو السعود: (أي: أُولئكَ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ بمنزلةِ الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ المشهورينَ بعلوِّ الرُّتبةِ، ورفعةِ المحلِّ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٢).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالشُّهداءِ: الأنبياءُ: الفرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالشُّهداءِ: الَّذين استُشْهِدوا في سبيلِ الله: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٨).

قال ابن رجب: (قد يُطلَقُ الشَّهيدُ على مَن حقَّق الإيمانَ وشَهِد بصِحَّته؛ لقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾). ((أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور)) (ص: ١٠١).

وقال ابن القيِّم: (قيل: إنَّ الوقفَ على قولِه تعالى: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، ثمَّ يبتدئُ: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، فيَكونُ الكلامُ جُملتَينِ أخبر في إحداهما عن المؤمنينَ باللهِ ورُسلِه أنَّهم هم الصِّدِّيقونَ، والإيمانُ التَّامُّ يَستلزِمُ العِلمَ والعمَلَ والدَّعوةَ إلى الله بالتَّعليم والصَّبرِ عليه، وأخبر في الثَّانيةِ أنَّ الشُّهداءَ عندَ ربِّهم لهم أجرُهم ونورُهم، ومرتبةُ الصِّدِّيقينَ فوقَ مرتبةِ الشُّهداءِ؛ ولهذا قدَّمَهم عليهم...

وقيل: إنَّ الكلامَ كلَّه جملةٌ واحدةٌ، وأخبر عن المؤمنينَ بأنَّهم هم الصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ عندَ ربِّهم، وعلى هذا فالشُّهداءُ هم الَّذين يَستَشْهِدُهم اللهُ على النَّاسِ يومَ القيامةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهم المؤمنونَ، فوصَفَهم بأنَّهم صِدِّيقونَ في الدُّنيا وشُهداءُ على النَّاسِ يومَ القيامةِ، ويكونُ الشُّهداءُ وصْفًا لجملةِ المؤمنينَ الصِّدِّيقينَ. وقيل: الشُّهداءُ هم الَّذين قُتِلوا في سبيلِ الله، وعلى هذا القولِ يَترجَّحُ أن يكونَ الكلامُ جُملتَينِ، ويكونَ قولُه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مُبتدَأً خبرُه ما بعْدَه؛ لأنَّه ليس كلُّ مؤمنٍ صِدِّيقٍ شهيدًا في سبيلِ الله. ويُرجِّحُه أيضًا أنَّه لو كان الشُّهداءُ داخلًا في جملةِ الخبَرِ عن المؤمنينَ لَكان قولُه تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ داخلًا أيضًا في جملةِ الخبرِ عنهم، ويكونُ قد أخبر عنهم بثلاثةِ أشياءَ؛ أحدُها: أنَّهم هم الصِّدِّيقونَ، والثَّاني: أنَّهم هم الشُّهداءُ، والثَّالثُ: أنَّ لهم أجْرَهم ونورَهم، وذلك يَتضَمَّنُ =

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه حالَ المُؤمِنينَ؛ أتْبَعَه بذِكرِ حالِ الكافِرينَ[1].

= عطفَ الخبَرِ الثَّاني على الأوَّلِ، ثمَّ ذِكْرَ الخبرِ الثَّالثِ مجرَّدًا عن العطفِ، وهذا كما تقولُ: زَيدٌ كريمٌ وعالِمٌ له مالٌ. والأحسَنُ في هذا تَناسُبُ الأخبارِ بأنْ تُجَرِّدَها كلَّها مِن العطفِ، أو تَعطِفَها جميعًا فتقولُ: زَيدٌ كريمٌ عالِمٌ له مالٌ، أو كريمٌ وعالِمٌ وله مالٌ، فتأمَّلْهُ.

ويُرجِّحُه أيضًا أنَّ الكلامَ يَصيرُ جُمَلًا مُستقِلَّةً قد ذُكِر فيها أصنافُ خلْقِه السُّعداءُ، وهم الصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ والصَّالِحونَ، وهم المَذكورونَ في الآيةِ، وهم المُتصَدِّقونَ الَّذين أقرَضوا اللهَ قرضًا حسَنًا، فهؤلاء ثلاثةُ أصنافٍ، ثمَّ ذكَر الرُّسلَ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥]). ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: ٣٥١، ٣٥٢).

وجوَّز ابنُ عاشور أن يكونَ قولُه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ عَطفًا على ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، أي: وهم الشُّهَداءُ، قال: (قيل: معنى كَونِهم شُهَداءَ: أنَّهم شُهَداءُ على الأُمَمِ يَومَ الجزاءِ؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فالشَّهادةُ تكونُ بمعنى الخبَرِ بما يُثبِتُ حَقًّا يُجازَى عليه بخَيرٍ أو شَرٍّ ...)، وجوَّز أيضًا أن يكونَ قَولُه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مُبتدَأً، وجُملةُ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ خبرًا عن المبتدَأِ، ويكونَ المرادُ الشُّهداءَ في سبيلِ الله.

ثمَّ قال: (والمَعْنَيانِ مِن الشُّهداءِ ممكنٌ الجمْعُ بيْنَهما، فتُحمَلُ الآيةُ على إرادتِهما على طريقةِ استعمالِ المُشتركِ في مَعنيَيْه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٧، ٣٩٨). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٣، ١٨٤).

قال ابنُ جزي: (﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ هذا خبرٌ عن الشهداءِ خاصَّةً إنْ كان مبتدأً، أو خبرٌ عن المؤمنينَ إنْ كان الشهداءُ معطوفًا، ونورُهم هو النُّورُ الذي يكونُ لهم يومَ القيامةِ، حسَبَما ذكَره في هذه السُّورةِ، وقيل: هو عبارةٌ عن الهدَى والإيمانِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٧).

ونسَب ابنُ عطيةَ كونَ هذا النُّورِ حقيقةً إلى جمهورِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٦).

وقال الزمخشري بناءً على أنَّ الشهداءَ معطوفٌ: (﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ أي: مثلُ أجرِ الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ، ومثلُ نورِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٣).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا باللهِ ورُسُلِه، وكَذَّبوا بآياتِ القُرآنِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ: أولئك مُلازِمونَ للنَّارِ الشَّديدةِ التَّوَقُّدِ(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مِن آياتِ القرآنِ تأثيرُه على القَلبِ؛ فإنَّ الإنسانَ إذا قَرَأَه بتدبُّرٍ فإنَّه يُلَيِّنُ القَلبَ، ويُوَجِّهُ الإنسانَ إلى ربِّه، ويُوجِدُ طَعمًا عَجيبًا للإيمانِ؛ قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾(٢) [الزمر: ٢٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ توبيخٌ وعِتابٌ لِمَن سَمِعَ هذا السَّماعَ ولم يُحْدِثْ له في قَلبِه صَلاحًا ورِقَّةً وخُشوعًا(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ أنَّ قَسْوةَ القَلبِ، وطُولَ الأَمَدِ، والتَّسويفَ: هي العوامِلُ الأساسيَّةُ للغَفلةِ وإيثارِ الدُّنيا، وأنَّ الخَشْيةَ والذِّكْرَ: هي العوامِلُ الأساسيَّةُ لإيثارِ الآخِرةِ(٤).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٥٠٦).

﴿ٱلۡحَقِّ﴾ الحَثُّ على الاجتِهادِ على خُشوعِ القَلبِ لله تعالى ولِما أنزَلَه مِنَ الكِتابِ والحِكْمةِ، وأنْ يتذَكَّرَ المُؤمِنونَ المواعِظَ الإلهيَّةَ والأحكامَ الشَّرعيَّةَ كُلَّ وَقتٍ، ويُحاسِبوا أنفُسَهم على ذلك(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ الإرشادُ إلى وَسيلةِ الإنابةِ إلى اللهِ تعالى، والحَثُّ على تعَهُّدِ النَّفْسِ بالمَوعِظةِ، والتَّذكيرُ بالإقبالِ على القُرآنِ وتدَبُّرِه، وكَلامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ في اللَّجَأِ إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نجاةً، وفي المَفزَعِ إليهما عِصْمةً، وقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ به مِنَ الهُدى والعِلمِ كمَثَلِ الغَيثِ الكَثيرِ أصاب أرضًا، فكان منها نَقِيَّةٌ قَبِلَت الماءَ، فأنبَتَت الكَلأَ والعُشْبَ، وكانت منها أجادِبُ أمسَكَت الماءَ، فنَفَع اللهُ بها النَّاسَ، فشَربوا وسَقَوا وزَرَعوا، وأصاب منها طائِفةً أُخرى إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كَلأً؛ فذلك مَثَلُ مَن فَقُه في دِينِ اللهِ، ونَفَعَه ما بعَثَني اللهُ به، فعَلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ مَن لم يَرفَعْ بذلك رأسًا، ولم يقبَلْ هُدى اللهِ الَّذي أُرسِلْتُ به))(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ﴾ دليلٌ على أنَّ المرءَ مَمنوعٌ مِن التَّشَبُّهِ والاقتِداءِ بمَن لا يَكونُ مَرضِيَّ الفِعَالِ، وأنَّه إنِ اقتدى به في فِعلٍ بعَينِه لم يَصِرْ بجَميعِ الصِّفاتِ مِثلَه؛ فليَعتبِرِ المُنْكِرُ على مَن شَبَّهَ المُشْمَئِزِّينَ مِن دَعوةِ الدَّاعي في الأحكامِ إلى القُرآنِ، بالمُنافِقينَ والكافِرينَ، وإنْ لم يكُنْ مُنافِقًا ولا كافِرًا بهذا؛ لِيَردَعَه عنِ استِعظامِ ما ليس بعَظيمٍ مِن المُشَبِّهِ، بل فِعْلُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٤).

والحديثُ الأخيرُ تقدَّم تخريجُه (ص: ١١١).

المُشْمَئِزِّ بالتَّشبيهِ بالقَومِ عظيمٌ لو عَقَله[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ النَّهيُ عن التَّشبُّهِ بالَّذين أُوتوا الكتابَ في عدَمِ خشوعِ قُلوبِهم، والتَّحذيرُ للمؤمنينَ -بعدَ أن يَطولَ الزَّمانُ- مِن أنْ يَقعوا فيما وقَع فيه أهلُ الكِتابِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أنَّ الإنسانَ يَنبغي له أنْ يُحافِظَ على العَمَلِ، وألَّا يَتكاسَلَ، وألَّا يَدَعَه، بل يَستَمِرَّ على ما هو عليه[٣].

٩- قسوةُ القلوبِ: شِدَّتُها وصلابتُها حتَّى لا يَدخُلَ فيها خَيرٌ؛ لأنَّ ذا الشَّيءَ القاسيَ ليس بقابِلٍ لِدُخولِ شيءٍ فيه، فقلوبُهم صُلْبةٌ شديدةٌ نابيةٌ عن الخَيرِ، لا يَدخُلُها وَعْظٌ، ولا يَنْجِعُ فيها خَيرٌ، والسَّبَبَ الَّذي قَسَت به قُلوبُ أهلِ الكِتابِ نَهى اللهُ عن ارتِكابِه المُسلِمينَ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أنَّ قَسوةَ القَلبِ وطُولَ الأَمَلِ يُساعِدُ على الكُفرِ والتَّمادي في الباطِلِ[٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أنَّه يَتَولَّدُ مِن طُولِ الأمَلِ الكَسَلُ عنِ الطَّاعةِ، والتَّسويفُ بالتَّوبةِ، والرَّغبةُ في الدُّنيا، والنِّسيانُ للآخِرةِ،

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ٩٣).

والقَسوةُ في القَلبِ؛ لأنَّ رِقَّتَه وصَفاءَه إنَّما يَقَعُ بتَذكيرِ الموتِ والقَبرِ، والثَّوابِ والعِقابِ، وأهوالِ القيامةِ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ إهمالَ الرِّعايةِ مُبْلٍ للادِّكارِ في قُلوبِ المُؤمنينَ، وتَعاهُدَها مُجَدِّدٌ له؛ والقَسوةَ مُتوَلِّدةٌ مِن طولِ الأملِ، وإدمانِ الزَّلَلِ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أنَّ القُلوبَ تَحتاجُ في كُلِّ وَقتٍ إلى أن تُذَكَّرَ بما أنزَلَه اللهُ، وتُناطَقَ بالحِكْمةِ، ولا يَنبغي الغَفلةُ عن ذلك؛ فإنَّ ذلك سَبَبٌ لِقَسوةِ القَلبِ، وجُمودِ العَينِ[٣].

١٤- أسبابُ القَسوةِ كَثيرةٌ؛ منها: كثرةُ الكلامِ بغيرِ ذِكرِ اللهِ، ونَقضُ العَهدِ مع اللهِ تعالى، وكثرةُ الضَّحِكِ، وكَثرةُ الأكلِ ولا سيَّما إن كان مِنَ الشُّبُهاتِ أو الحرامِ، وكثرةُ الذُّنوبِ.

وأمَّا مُزيلاتُ القَسوةِ فمُتعَدِّدةٌ أيضًا؛ فمنها: كثرةُ ذِكرِ اللهِ الَّذي يَتَواطأُ عليه القَلبُ واللِّسانُ، والأصلُ في إزالةِ قَسوةِ القُلوبِ بالذِّكرِ قَولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقَولُه تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾. ومنها: الإحسانُ إلى اليَتامى والمساكينِ. ومنها: كثرةُ ذِكرِ الموتِ. ومنها: زيارةُ القُبورِ بالتَّفكُّرِ في

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

حالِ أهلِها ومَصيرِهم. ومنها: النَّظَرُ في ديارِ الهالِكينَ، والاعتِبارُ بمَنازِلِ الغابِرينَ. ومنها: أكلُ الحلالِ[١].

١٥- قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، قولُه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: في الأعمالِ؛ فقُلوبُهم فاسِدةٌ، وأعمالُهم باطِلةٌ، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، أي: فَسَدتْ قُلوبُهم فقَسَتْ، وصار مِن سَجيَّتِهم تحريفُ الكَلِمِ عن مَواضِعِه، وتَرَكوا الأعمالَ الَّتي أُمِروا بها، وارتَكَبوا ما نُهُوا عنه؛ ولهذا نَهى اللهُ تعالى المُؤمنينَ أن يَتشَبَّهوا بهم في شَيءٍ مِنَ الأُمورِ الأصليَّةِ والفَرعيَّةِ[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ العدالةُ التَّامَّةُ في حُكْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ لم يُعَمِّمْ، وهذا هو الواجِبُ على مَن تَحَدَّثَ عن قَومٍ؛ أنْ يُبَيِّنَ الواقِعَ؛ لأنَّ بَعضَ النَّاسِ إذا رأى مِن قومٍ زَيغًا في بَعضِهم عَمَّمَ الحُكْمَ على الجَميعِ، والواجِبُ العَدْلُ، فإنْ كان الأكثَرُ هم الفاسِقينَ، فقُلْ: «أكثَرُهم»، وإنْ كان كثيرٌ منهم فاسِقينَ فعَبِّرْ بالكَثيرِ، على حَسَبِ ما تَقتَضيه الحالُ؛ لأنَّ الواجِبَ أنْ يَقومَ الإنسانُ بالعَدلِ ولو على نَفْسِه أو والِدَيه والأقرَبينَ[٣].

١٧- بعدَ ذِكْرِ أصنافِ السُّعَداءِ ذَكَرَ -سُبحانَه- الأشقياءَ، وهم نَوعانِ: كُفَّارٌ، ومُنافِقونَ؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾،

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٦١) فما بعدها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٠).

وذَكَرَ المُنافِقينَ في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، فهؤلاء أصنافُ العالَمِ كلُّهم، وتَرَكَ سُبحانَه وتعالى ذِكْرَ المُخَلِّطِ صاحِبِ الشَّائِبَتينِ، على طريقةِ القُرآنِ في ذِكْرِ السُّعَداءِ والأشقياءِ دونَ المُخَلِّطِينَ غالِبًا؛ لِسِرٍّ اقتَضَتْه حِكْمتُه سُبحانَه وتعالى؛ فلْيَحْذَرْ صاحِبُ التَّخليطِ؛ فإنَّه لا ضَمانَ له على اللهِ، ولا هو مِن أهلِ وَعْدِه المُطْلَقِ، ولا يَيأسْ مِن رَوْحِ اللهِ؛ فإنه ليس مِن الكُفَّارِ الَّذين قُطِعَ لهم بالعَذابِ، ولكِنَّه بيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ، واقفٌ بيْن الوَعدِ والوَعيدِ؛ كلٌّ مِنهما يَدْعُوه إلى مُوجبِه؛ لأنَّه أَتَى بسَبَبِه[1]!

١٨- مِن وُجوهِ الاعتِبارِ في النَّظَرِ إلى الأرضِ الَّتي أحياها اللهُ بَعْدَ مَوتِها في فَصلِ الرَّبيعِ بما ساق إليها مِن قَطْرِ السَّماءِ: أنَّه يُرجَى مِن كَرَمِه أنْ يُحْيِيَ القُلوبَ المَيِّتةَ بالذُّنوبِ وطُولِ الغَفلةِ، بسَماعِ الذِّكرِ النَّازِلِ مِنَ السَّماءِ، وإلى ذلك الإشارةُ بقَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن قَدَر على إحياءِ الأرضِ بعْدَ مَوتِها بوابِلِ القَطْرِ فهو قادِرٌ على إحياءِ القُلوبِ المَيِّتةِ القاسيةِ، بالذِّكرِ؛ عسى لمحةٌ مِن لَمَحاتِ عَطْفِه ونَفحةٌ مِن نَفَحاتِ لُطفِه، وقد صَلَحَ مِنَ القُلوبِ كُلُّ ما فَسَد[2]!

فمَن أحسَّ بقسوةٍ في قلبِه فليُهْرَعْ إلى ذكرِ الله تعالى وتلاوةِ كتابِه يَرجِعْ إليه حالُه، كما أشار إليه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فهو تمثيلٌ لإحياءِ القلوبِ القاسيةِ بالذِّكرِ والتِّلاوةِ بإحياءِ الأرضِ الميتةِ بالغيثِ؛

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣١٧).

للتَّرغيبِ في الخشوعِ، والتَّحذيرِ عن القساوةِ[١]. ففي ذِكْرِه تعالى لهذه الآيةِ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ بعْدَ الَّتي قبْلَها تنبيهٌ على أنَّه تعالى كما يُحيي الأرضَ بعْدَ مَوتِها، كذلك يُلينُ القلوبَ بالإيمانِ بعْدَ قَسوتِها مِن الذُّنوبِ والمعاصي[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ رَدٌّ على المُرْجِئةِ؛ إذِ المُخاطَبون المُوَبَّخونَ بهذا قد كان لهم -لا مَحالةَ- حَظٌّ في الخُشوعِ قبْلَ استِبطائِهم وتَقريعِهم؛ إذْ لو لم يَكُنْ لهم حَظٌّ فيه -وإنْ قَلَّ- ما كانوا مُؤمِنينَ، فهُم ما التُمِس مِنهم إلَّا زيادةٌ في خُشوعِهم الَّذي بقَليلِه استَحقُّوا اسمَ الإيمانِ قبْلَ أنْ يُطالَبوا بكَثيرِه[٣].

٢- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ غَيرَ هذا الذِّكرِ دَخَله الدَّخيلُ، وأمَّا هذا فثابِتٌ ثباتًا لا يَقدِرُ أحَدٌ على إزالتِه[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ المقصودُ التَّحذيرُ، لا أنَّهم تلبَّسوا بذلك ولم يأْنِ لهم الإقلاعُ عنه. والتَّحذيرُ مُنصَبٌّ إلى ما حدث لأهلِ الكتابِ مِن قَسوةِ القُلوبِ بَعْدَ طُولِ الأمَدِ

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٩).

عليهم في مُزاوَلةِ دِينِهم، أي: فلْيَحذَرِ الَّذين آمَنوا مِن أن يكونوا مِثْلَهم على حِدْثانِ عَهْدِهم بالدِّينِ. وليس المقصودُ عُذْرَ الَّذين أُوتوا الكِتابَ بطُولِ الأمَدِ عليهم؛ لأنَّ طُولَ الأمَدِ لا يكونُ سَبَبًا في التَّفريطِ فيما طال فيه الأمَدُ، بل الأمرُ بالعَكسِ، ولا قُصِد تَهوينُ حُصولِه للَّذين آمَنوا بعدَ أن يَطُولَ الأمَدُ؛ لأنَّ ذلك لا يتعَلَّقُ به الغَرَضُ قبْلَ طُولِ الأمَدِ، وإنَّما المقصودُ النَّهيُ عن التَّشبُّهِ بالَّذين أُوتوا الكتابَ في عدَمِ خُشوعِ قُلوبِهم، ولكنَّه يُفيدُ تَحذيرَ المؤمِنينَ بعْدَ أنْ يَطولَ الزَّمانُ مِن أنْ يَقَعوا فيما وقَعَ فيه أهلُ الكِتابِ، ويَستتبِعُ ذلك الإنباءَ بأنَّ مُدَّةَ المسلِمينَ تَطولُ قريبًا أو أكثَرَ مِن مدَّةِ أهلِ الكتابِ الَّذين كانوا قبْلَ البَعثةِ؛ فإنَّ القُرآنَ مَوعِظةٌ للعُصورِ والأجيالِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ التَّنديدُ التَّامُّ باليَهودِ والنَّصارى؛ لأنَّها قَسَتْ قُلوبُهم لَمَّا طال عليهم الأمَدُ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أوَّلَ الأُمَّةِ خَيرٌ مِن آخِرِها، وأخشَعُ قُلوبًا؛ وذلك لقُرْبِهم مِن عَهْدِ الرِّسالةِ، وقد صَحَّ بذلك الحديثُ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ((خَيْرُ النَّاسِ قَرْني، ثُمَّ الَّذين يَلُونَهم، ثُمَّ الَّذين يَلُونَهم))(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩١، ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٢٦٥٢)، ومسلمٌ (٢٥٣٣) من حديثِ عبدِالله بنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه.

ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ عَدَمَ الخُشوعِ في أوَّلِ الأمرِ يُفضي إلى الفِسقِ في آخِرِ الأمرِ[١]!

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فإنَّ الآياتِ تدُلُّ العُقولَ على العِلمِ بالمَطالِبِ الإلهيَّةِ، والَّذي أحيا الأرضَ بعْدَ مَوتِها قادِرٌ على أن يُحييَ الأمواتَ بعدَ مَوتِهم، فيُجازيَهم بأعمالِهم، والَّذي أحيا الأرضَ بعْدَ مَوتِها بماءِ المطَرِ قادِرٌ على أنْ يُحييَ القُلوبَ المَيِّتةَ بما أنزَلَه مِنَ الحَقِّ على رَسولِه، وهذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّه لا عَقْلَ لِمَن لم يَهْتَدِ بآياتِ اللهِ، ولم يَنْقَدْ لشَرائِعِ اللهِ تعالى[٢].

٨- عُمَّالُ الآخرةِ على قِسْمَينِ: منهم مَن يَعمَلُ على الأجرِ والثَّوابِ، ومنهم مَن يَعمَلُ على المَنزلةِ والدَّرَجةِ، فهو يُنافِسُ غيْرَه في الوَسيلةِ والمنزلةِ عندَ اللهِ تعالى، ويُسابِقُ إلى القُرْبِ منه، وقد ذَكَرَ اللهُ تعالى النَّوعَينِ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، فهؤلاء أصحابُ الأُجورِ والثَّوابِ، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ فهؤلاء أصحابُ المَنزلةِ والقُرْبِ[٣].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ؛ هذه الآياتُ جَمَعَت أصنافَ الخَلْقِ: المتصَدِّقينَ، والصِّدِّيقينَ، والشُّهداءَ، وأصحابَ الجَحيمِ؛ فالمُتصَدِّقونَ: الَّذين كان جُلُّ عَمَلِهم الإحسانَ إلى الخَلْقِ، وبَذْلَ النَّفعِ إليهم بغايةِ ما يُمكِنُهم، خُصوصًا بالنَّفعِ بالمالِ في سَبيلِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

(٣) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٦٩).

اللهِ. والصِّدِّيقونَ: هم الَّذين كَمَّلوا مَراتِبَ الإيمانِ، والعَمَلِ الصَّالحِ، والعِلمِ النَّافعِ، واليَقينِ الصَّادِقِ. والشُّهَداءُ: هم الَّذين قاتَلوا في سَبيلِ اللهِ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، وبَذَلوا أنفُسَهم وأموالَهم فقُتِلوا. وأصحابُ الجَحيمِ: هم الكُفَّارُ الَّذين كَذَّبوا بآياتِ اللهِ. وبَقِيَ قِسمٌ ذَكَرَهم اللهُ تعالى في سورةِ فاطِرٍ -في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [فاطر: ٣٢]- وهم المُقتَصِدونَ الَّذين أدَّوُا الواجِباتِ، وتَرَكوا المُحَرَّماتِ إلَّا أنَّهم حَصَل منهم تقصيرٌ بَبعضِ حُقوقِ اللهِ وحُقوقِ عِبادِه؛ فهؤلاء مآلُهم الجنَّةُ، وإن حَصَلَ لهم عُقوبةٌ ببَعضِ ما فَعَلوا[(١)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ سُؤالٌ: لِماذا عَبَّرَ اللهُ تعالى بالقَرضِ، وهو الغَنيُّ سُبحانَه وتعالى؟

الجوابُ: يقولُ هذا جلَّ وعلا؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ أجْرَهم مَضمونٌ كما أنَّ القرضَ مَضمونٌ، وسَيَرُدُّ عليه الحَسَنةَ بعَشْرِ أمثالِها إلى سَبْعِمئةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، لكنْ كيف تكونُ الواحِدةُ بعَشَرةٍ وهي رِبًا في القَرْضِ؟

الجوابُ: أوَّلًا: لا رِبَا بيْنَ العَبدِ وبيْنَ رَبِّه.

ثانيًا: القَرْضُ إذا أعطاك المقترِضُ شيئًا بدونِ شرْطٍ فهو حَلالٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم استَقرَضَ بَكْرًا -والبَكْرُ يعني بَعيرًا صغيرًا- وردَّ خَيرًا منه، وقال: ((إنَّ خَيْرَكم أحسَنُكم قَضاءً))[(٢)]؛ ولهذا عبارةُ الفُقَهاءِ: «كلُّ شَرطٍ جَرَّ نَفعًا للمُقْرِضِ فهو رِبًا»، ولم يقولوا: كلُّ زيادةٍ[(٣)]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٣٩٠)، ومسلمٌ (١٦٠١) من حديث أبي هريرةَ رضيَ الله عنه.
وأخرجه مسلم (١٦٠٠) من حديث أبي رافع رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٣).

دليلٌ على أنَّ الخُلودَ في النَّارِ مَخصوصٌ بالكُفَّارِ؛ مِن حيثُ إنَّ التَّركيبَ يُشعِرُ بالاختِصاصِ، والصُّحبةَ تدُلُّ على المُلازَمةِ عُرفًا، وأمَّا غَيرُهم مِنَ العُصاةِ فدُخولُهم فيها ليس على وَجهِ الصُّحبةِ الدَّالَّةِ على المُلازَمةِ(١).

١٢- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أنَّ الكُفْرَ قد يَصحَبُه التَّكذيبُ، وقد لا يَصحَبُه؛ ولهذا أحيانًا يَذكُرُ اللهُ الكُفرَ فقط؛ مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وأحيانًا يَذكُرُ التَّكذيبَ فقط؛ قال تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢]، وأحيانًا يَقرِنُ بَيْنَهما؛ وذلك لأنَّ كُلًّا منهما قد يكونُ وَحْدَه مُوجِبًا للخُلُودِ في النَّارِ، فإذا اجتَمَعا جميعًا صار ذلك أشدَّ وأعظَمَ. والعياذُ باللهِ(٢).

١٣- قَولُه: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: المرادُ بالآياتِ هنا الآياتُ الشَّرعيَّةُ، والكونيَّةُ؛ فمَن أنكَرَ رُبوبيَّةَ اللهِ تعالى وخَلْقَه للمَخلوقاتِ، وتصرُّفَه في الكَونِ؛ فهذا مكذِّبٌ بالآياتِ الكَونيَّةِ، وقد يُقِرُّ بذلك، لكنَّه يَكْفُرُ ويُكَذِّبُ بالآياتِ الشَّرعيَّةِ، ويُعرِضُ عن طاعةِ اللهِ تعالى(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ استِئنافٌ ناعٍ عليهم تَثاقُلَهم في أُمورِ الدِّينِ، ورَخاوةَ عَقدِهم فيها، واستِبطاءٌ لانتِدابِهم لِما نُدِبوا إليهِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٨).

- قولُه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في الإنكارِ، أي: إنكارِ نفْيِ اقترابِ وقْتِ فِعْلِ الفعلِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ للتَّقريرِ على النفْيِ[(١)].

- والمقصودُ مِن قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إمَّا بعضٌ منهم رُبَّما كانوا مُقصِّرينَ عن جُمهورِ المؤمنينَ يومَئذٍ بمكَّةَ، فأراد اللهُ إيقاظَ قُلوبِهم بهذا الكلامِ المُجمَلِ، على عادةِ القرآنِ وأقوالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في التَّعريضِ، وإمَّا أنْ يكونَ تَحريضًا للمؤمنينَ على مُراقَبةِ ذلك، والحذَرِ مِن التَّقصيرِ[(٢)].

- وقَدَّم الخُشوعَ بالذِّكْرِ على الخُشوعِ بما نَزَل مِنَ القُرآنِ؛ لأنَّ الخُشوعَ والخَوفَ والخَشْيةَ لا تَحصُلُ إلَّا عِندَ ذِكرِ اللهِ تعالى، فأمَّا حُصولُها عِندَ سَماعِ القُرآنِ فذلك مِن أجْلِ اشتِمالِ القُرآنِ على ذِكرِ اللهِ تعالى[(٣)].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ الوَصْفانِ في قولِه: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ للقرآنِ؛ تَشريفًا له بأنَّه ذِكرُ اللهِ، وتَعريفًا لنفْعِه بأنَّه نزَلَ مِن عندِ اللهِ، وأنَّه الحقُّ[(٤)].

- ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ (لا) في قولِه: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ حرْفَ نَهْيٍ، ويُعلَّقَ النَّهيُ بالغائبِ التِفاتًا[(٥)]، .....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩١).

(٥) الالتفاتُ: هو نقْلُ الكلامِ مِن أُسلوبٍ إلى أُسلوبٍ آخَرَ؛ استِدرارًا للسَّامعِ، وتَجديدًا لنشاطِه، وصِيانةً لخاطِرِه مِن الملالِ والضَّجرِ بدوامِ الأُسلوبِ الواحدِ على سمْعِه؛ كالانتِقالِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، أو تَغييرِ ضَميرِ المُتكلِّمِ نفْسِه: تارةً يَجعلُه تاءً على جِهةِ الإخبارِ عن نفْسِه، وتارةً =

أو المرادُ: أبْلِغْهم ألَّا يَكونوا[١].

- وفاءُ ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ لتَفريعِ طُولِ الأمَدِ على قَسْوةِ القلوبِ مِن عدَمِ الخُشوعِ، فهذا التَّفريعُ خارجٌ عن التَّشبيهِ الَّذي في قولِه: ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾، ولكنَّه تَنبيهٌ على عاقِبةِ ذلك التَّشبيهِ؛ تَحذيرًا مِن أنْ يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَ الَّذين أُوتوا الكتابَ مِن قبْلُ[٢].

- وجُملةُ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ اعتِراضٌ في آخِرِ الكلامِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، افتِتاحُ الكلامِ بفِعلِ الأمْرِ ﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾ يُؤْذِنُ بأنَّ ما سيُلْقى جَديرٌ بتوجُّهِ الذِّهنِ بكُلِّيَّتِه إليه، وهو هنا يُشيرُ إلى أنَّ الكلامَ الَّذي بعْدَه له مَغزًى عَظيمٌ غيرُ ظاهرٍ؛ وذلك أنَّه أُرِيدَ به تَمثيلُ حالِ احتِياجِ القُلوبِ المُؤمِنةِ إلى ذِكرِ اللهِ بحالِ الأرضِ المَيتةِ في الحاجةِ إلى المطَرِ، وحالِ الذِّكرِ في تَزكيةِ النُّفوسِ واستِنارتِها بحالِ الغَيثِ في إحياءِ الأرضِ الجَدْبةِ، ودلَّ على ذلك قولُه بعْدَه: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ

= يجَعلُه كافًا، فيَجعَلُ نفْسَه مُخاطَبًا، وتارةً يَجعلُه هاءً، فيُقيمُ نفْسَه مُقامَ الغائبِ. وشرْطُه أنْ يكونَ الضَّميرُ في المتنقَّلِ إليه عائدًا في نفْسِ الأمرِ إلى المُلتَفَتِ عنه. وللمُتَكلِّمِ والخِطابِ والغَيبةِ مَقاماتٌ، والمشهورُ: أنَّ الالتفاتَ هو الانتقالُ مِن أحدِها إلى الآخَرِ بعدَ التَّعبيرِ بالأوَّلِ. وهذا النَّوعُ قد يختصُّ مواقعُه بلطائفِ مَعانٍ قَلَّما تتَّضِحُ إلَّا لأفرادِ البُلغاءِ، أو للحُذَّاقِ المَهرَةِ في هذا الفنِّ والعُلماءِ النَّحاريرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٠٠، ٢٠١)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ وإلَّا فإنَّ إحياءَ اللهِ الأرضَ بعْدَ مَوتِها بما يُصيبُها مِن المطَرِ لا خَفاءَ فيه؛ فلا يَقْتضي أنْ يُفتتَحَ الإخبارُ عنه بمِثلِ ﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾ إلَّا لأنَّ فيه دَلالةً غيرَ مألوفةٍ، وهي دَلالةُ التَّمثيلِ؛ فالجُملةُ بمَنزِلةِ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]؛ لِما تَتضمَّنُه تلك مِن التَّحريضِ على الخُشوعِ لِذِكرِ اللهِ، ولكنَّ هذه بمَنزلةِ العِلَّةِ؛ ففُصِلَت ولم تُعطَفْ(١).

- والخِطابُ في قولِه: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾ للمُؤمنِينَ، على طَريقةِ الالْتِفاتِ، إقْبالًا عليهم؛ للاهتِمامِ(٢).

- وقولُه: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لجُملةِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ لأنَّ السَّامعَ قولَه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يَتطلَّبُ مَعرفةَ الغرَضِ مِن هذا الإعلامِ، فيكونُ قولُه: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ جَوابًا عن تَطلُّبِه، أي: أعلَمْناكم بهذا تَبْيينًا للآياتِ(٣).

- وأيضًا قولُه: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يُفيدُ بعُمومِه مُفادَ التَّذييلِ للآياتِ السَّابقةِ مِن أوَّلِ السُّورةِ؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ للاستِغراقِ(٤).

- وقولُه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ رَجاءٌ وتَعليلٌ، أي: بيَّنَّا لكم لأنَّكم حالُكم كحالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٣، ٣٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٦٩، ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٩٤، ٣٩٥).

مَن يُرْجى فَهْمُه، والبَيانُ عِلَّةٌ لفَهمِه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ مِن عَطْفِ المرادِفِ في المعْنى؛ لِمَا في المعطوفِ مِن تَشبيهِ فِعْلِهم بقرْضٍ للهِ؛ تَنويهًا بالصَّدقاتِ[٢].

- وعُطِفَ ﴿وَأَقْرَضُوا۟﴾ -وهو جُملةٌ- على ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ -وهو مُفرَدٌ-؛ لأنَّ المفردَ في حُكْمِ الفعلِ؛ حيثُ كانتِ اللَّامُ في معْنى الموصولِ؛ فقُوَّةُ الكلامِ: إنَّ الَّذين اصَّدَّقوا واللَّائي تَصدَّقْنَ وأقْرَضوا على التَّغليبِ، ووَجْهُ العُدولِ عن تَماثُلِ الصِّلتَينِ فلم يَقُلْ: (إنَّ المُصَّدِّقينَ والمُقرِضينَ)؛ هو تَصويرُ معْنى كَونِ التَّصدُّقِ إقراضًا للهِ. وقيل: ﴿وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ اعتراضٌ على سَبيلِ الاستِطرادِ؛ فإنَّ المُصَّدِّقاتِ لو لمْ تُذكَرْ لَكانتْ مُندرِجةً تحتَ ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ على سَبيلِ التَّغليبِ، كما أنَّ قولَه: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عامٌّ في الرِّجالِ والنِّساءِ؛ فذِكرُ ﴿وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ لِمَزيدِ التَّقريرِ. وقيل: إنَّ (المُصَّدِّقاتِ) ليسَ بعطفٍ على ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾، بل هُو مَنصوبٌ على الاختِصاصِ، كأنَّه قيلَ: إنَّ المُصَّدِّقينَ على العُموم تَغليبًا، وأخصُّ المُصَّدِّقاتِ مِن بيْنِهم، كما تقولُ: إنَّ الَّذين آمنوا -ولا سيَّما العلماءِ منهم- وعمِلُوا الصَّالِحاتِ لهم كذا، لكنْ لا على أنَّ مَدارَ التَّخصيصِ مَزيدُ استِحقاقِهنَّ لمُضاعَفةِ الأجْرِ، كما في المثالِ المذكورِ، بل زِيادةُ احتياجِهنَّ إلى التَّصدُّقِ، الدَّاعيةُ إلى الاعتِناءِ بِحَثِّهنَّ على التَّصدُّقِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٧)، =

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾

- في جمْعِ لَفظِ ﴿وَرُسُلِهِۦٓ﴾ تَعريضٌ بأهلِ الكتابِ الَّذين قالوا: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ [النساء: ١٥٠]، فاليهودُ آمَنوا باللهِ وبمُوسى، وكَفَروا بعِيسى وبمحمَّدٍ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، والنَّصارى آمَنوا باللهِ وبعِيسَى، ثُمَّ كفَروا فعَبدوه، وكفَروا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمُؤمِنونَ آمَنوا برُسلِ اللهِ كلِّهم؛ ولذلك وُصِفوا بأنَّهم الصِّدِّيقونَ(١).

- وأيضًا جمَعَ الرُّسلَ؛ لأنَّ مَن آمَن باللهِ، وبجَميعِ ما يجِبُ أنْ يُؤمِنَ به مِن صِفاتِه وأفعالِه، وبجَميعِ ما يُضافُ ويُنسَبُ إليهم؛ يكونُ مُفرِطًا في الصِّدْقِ؛ لكَثرةِ ما صدَّقَ به(٢).

- وفي قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليهم استَحَقُّوا ما يَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ الصِّفاتِ الَّتي قبْلَ اسمِ الإشارةِ. وما فيهِ مِن معْنى البُعدِ معَ قُربِ العَهدِ بالمشارِ إليه؛ للتَّنويهِ بشأْنِهم(٣).

- وضَميرُ الفصْلِ (هُم) للقَصْرِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ(٤)، أي: همُ الصِّدِّيقونَ

= ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٧).

(٤) القصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره =

لا الَّذين كذَّبوا بعضَ الرُّسلِ، وهذا إبطالٌ لأنْ يكونَ أهلُ الكتابِ صِدِّيقينَ؛ لأنَّ تَصديقَهم رسولَهم لا جَدْوى له؛ إذ لم يُصدِّقوا برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

- و(الصِّدِّيقُ) -بتَشديدِ الدَّالِ- مُبالَغةٌ في المُصَدِّقِ(٢).

- قولُه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ عطْفًا على ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ عطْفَ المفرَدِ على المفرَدِ؛ فهو عطْفٌ على الخبَرِ، أي: وهم الشُّهداءُ، فتَكونَ جُملةُ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ استِئنافًا بَيانيًّا نشَأَ عن وصْفِهم بتَينِكَ الصِّفتَينِ؛ فإنَّ السَّامعَ يَترقَّبُ ما هو نَوالُهم مِن هذَينِ الفضْلَينِ. وقيل: معنَى كونِهم شُهداءَ: أنَّهم شهداءُ على الأُممِ يومَ الجزاءِ. ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مُبتدأً، وجُملةُ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ خبرًا عن المُبتدأِ، ويكونَ العطْفُ مِن عطْفِ الجُمَلِ، فيُوقَفَ على قولِه: ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، فيكونَ انتِقالًا مِن وصْفِ مَزيَّةِ الإيمانِ باللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى وَصْفِ مَزيَّةِ فَريقٍ منهم استَأْثروا بفَضيلةِ الشَّهادةِ في سَبيلِ اللهِ، وهذا مِن تَتمَّةِ قولِه: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [الحديد: ١٠]؛ فإنَّه لَمَّا نوَّه بوعْدِ المُؤمنينَ

= بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ يدورُ حولَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويستدلُّ عليها بالقرائنِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٧).

المُصَدِّقينَ المَعْفِيينَ مِن قولِه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ ...﴾ [الحديد: ٨] إلخ، فأَوفاهم حقَّهم بقولِه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾؛ أقبَلَ على وعْدِ الشُّهداءِ في سَبيلِ الله، الَّذين تَضمَّنَ ذِكرَهم قولُه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٠] الآياتِ، فالشُّهداءُ إذنْ هم المَقتولونَ في الجهادِ في سَبيلِ اللهِ، ويمكِنُ الجمْعُ بيْن معْنيي الشُّهداءِ، على طَريقةِ استِعمالِ المُشتركِ في مَعْنيَيه[١].

- قيل: سمَّاهم شُهداءَ تَغليبًا، أو المرادُ لهم أجْرُ الشُّهداءِ، وإلَّا فبَعضُهم لم يُقتَلْ حتَّى يكونَ شَهيدًا[٢]. وذلك على أنَّ ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ معطوفٌ.

- ومعْنى إضافةِ أجْرٍ ونُورٍ إلى ضَميرِهم في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أنَّه أجْرٌ يُعرَّفُ بهم، ونُورٌ يُعرَّفُ بهم، وإذ قد كان مُقْتَضَى الإضافةِ أنْ تُفيدَ تَعريفَ المضافِ بنِسبتِه إلى المضافِ إليه، وكان الأجرُ والنُّورُ غيرَ مَعلومَينِ للسَّامعِ؛ كان في الكلامِ إبهامٌ يُكنَّى به عن أجْرٍ ونُورٍ عَظيمَين، فهو كِنايةٌ عن التَّنويهِ بذلك الأجْرِ وذلك النُّورِ، أي: أجرٌ ونُورٌ لا يُوصَفانِ إلَّا بأجْرِهم ونُورِهم، أي: أجرٌ ونورٌ لائقانِ بمقامِهم، مع ضَميمةِ ما أفادَتْه العِنْديَّةُ الَّتي في قولِه: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مِن معْنى الزُّلْفى والعِنايةِ بهم، المُفيدِ عَظيمَ الأجْرِ والنُّورِ[٣].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ ضَميرَا ﴿أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ عائدَينِ إلى لَفظَي ﴿الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ﴾، أو إلى لَفظِ (الشُّهَدَاءُ) خاصَّةً، بمعْنى الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ ممَّن كانوا قبْلَهم مِن الأُمَمِ، ومعْنى الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ حينَئذٍ مُغايرٌ للمعْنى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٨، ٣٩٩).

السَّابقِ بالعمومِ والخُصوصِ على طَريقةِ الاستِخدامِ في الضَّميرِ، وطَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ في حمْلِ الخبرِ على المُبتدَأِ في قولِه: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾، بتَقديرِ: لهم مِثْلُ أجْرِهم ونُورِهم، ولا تأْويلَ في إضافةِ الأجرِ والنُّورِ إلى الضَّميرَينِ بهذا المَحملِ؛ فإنَّ تَعريفَ المضافِ بيِّنٌ؛ لأنَّه قد تَقرَّر في عِلمِ النَّاسِ ما وُعِدَ به الصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ مِن الأمَمِ الماضيةِ، وفائدةُ التَّشبيهِ على هذا الوجْهِ تَصويرُ قوَّةِ المُشبَّهِ وإنْ كان أقوى مِن المُشبَّهِ به؛ لأنَّ للأحوالِ السَّالفةِ مِن الشُّهرةِ والتَّحقُّقِ ما يُقرِّبُ صُورةَ المُشبَّهِ عندَ المخاطَبِ[(١)].

- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ تَتميمٌ[(٢)] اقتَضاهُ ذِكرُ أهلِ مَراتبِ الإيمانِ والتَّنويهُ بهم، فأُتْبِعَ ذلك بوَصْفِ أضْدادِهم؛ لأنَّ ذلك يَزيدُ التَّنويهَ بهم بأنَّ إيمانَهم أنْجاهم مِن الجَحيمِ[(٣)].

- ولَفظُ ﴿بِآيَاتِنَا﴾ جمْعٌ مُضافٌ يُفيدُ الاستِغراقَ، فيَتناوَلُ جَميعَ آياتِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٩).

(٢) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ. ومِن أمثلةِ التَّتميم قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العزةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٢٧)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٩، ٤٠٠).

المُختلِفةِ الأنواعِ، ومُكذِّبُها يكونُ مُفْرِطًا في الكذِبِ؛ لكثرةِ ما كذَّبَ به[١].

- والمُرادُ بالَّذين كَفَروا باللهِ وكذَّبوا بالقُرآنِ: ما يَشمَلُ المُشرِكينَ واليهودَ والنَّصارَى، على تَفاوُتٍ بيْنَهم في درَكاتِ الجحيمِ. وفي استِحضارِهم بتَعريفِ اسمِ الإشارةِ مِن التَّنبيهِ على أنَّهم جَديرون بذلك مِن أجْلِ الكفْرِ والتَّكذيبِ، ولم يُؤْتَ في خبَرِهم بضَميرِ الفَصلِ؛ إذ لا يُظَنُّ أنَّ غيرَهم أصحابُ الجحيمِ[٢].

- وفي التَّعبيرِ عنهم بـ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ مُضافٍ إلى ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: دَلالةٌ على شِدَّةِ مُلازمتِهم للجحيمِ[٣].

- وفي الآيةِ احتباكٌ[٤]؛ ذكَرَ الصِّدِّيقيَّةَ -وما معها- أوَّلًا دليلًا على أضْدادِها ثانيًا، والجحيمَ ثانيًا دليلًا على النَّعيمِ أولًا. وسرُّه أنَّ الأوَّلَ أعظمُ في الكرامةِ، والثَّانيَ أعظمُ في الإهانةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٦).

الآيتان (٢٠-٢١)

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَلَهۡوٞ﴾: اللَّهْوُ: ما يَشغَلُ الإنسانَ عمَّا يَعْنيه ويُهِمُّه، وكُلُّ باطِلٍ ألهَى عن الخَيرِ، وأصلُ (لهو): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بِشَيءٍ(١).

﴿وَتَفَاخُرُۢ﴾: أي: يَفخَرُ بَعضُكم على بعضٍ بما أُعطِيَ مِن مَتاعِ الدُّنيا؛ مِنَ الفَخْرِ: وهو المُباهاةُ في الأشياءِ الخارجةِ عن الإنسانِ، كالمالِ والجاهِ، وأصلُ (فخر): يدُلُّ على تعاظُمٍ(٢).

﴿وَتَكَاثُرٞ﴾: التَّكاثُرُ: التَّباهي والتَّباري بكَثرةِ المالِ والعزِّ، وأصلُ (كثر): يدُلُّ على خِلافِ القِلَّةِ(٣).

﴿غَيۡثٍ﴾: أي: مطَرٍ، وسُمِّيَ المطرُ غَيْثًا؛ لأنَّه يُغيثُ الخلْقَ، وقيل: الغَيثُ هو

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

مطرٌ في إبَّانِه، وإلَّا فمطرٌ[١].

﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾: أي: الزُّرَّاعَ؛ لأنَّ الكُفْرَ هو التَّغطيةُ، والزَّارِعُ يُغَطِّي البَذْرَ أو الحَبَّةَ، ويَستُرُها في التُّرابِ. وقيل: الكُفَّارُ هنا هم الكُفَّارُ باللهِ، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ[٢].

﴿يَهِيجُ﴾: أي: يَيبَسُ بعدَ أنْ كان أخضَرَ نَضِرًا، وأصلُ (هيج) هنا: يدُلُّ على يُبْسِ نَباتٍ[٣].

﴿حُطَٰمٗا﴾: أي: فُتاتًا، والحُطامُ: ما تحطَّمَ مِن عِيدانِ الزَّرْعِ إذا يَبِسَ، وأصلُ (حطم): يدُلُّ على كَسْرِ شَيْءٍ[٤].

﴿مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾: أي: مَتاعٌ زائِلٌ باطِلٌ يَخدَعُ مَن يَركَنُ إليه، ومَتاعُ الغُرورِ: الشَّيءُ الَّذي لا يُعظِّمُ الاستِمتاعَ به إلا مُغْتَرٌّ، وهو كُلُّ ما يُلْهِي عن طَلَبِ الآخرةِ، وأصلُ (متع): المنفعةُ، وامتِدادُ مدَّةٍ في خَيرٍ، وأصلُ (غرر) هنا: يدُلُّ على نُقْصانٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٢).
قال القرطبي: (والغَيثُ ما كان نافعًا في وقتِه، والمطرُ قد يكونُ نافعًا وضارًّا، في وقتِه وغيرِ وقتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠) و(٥/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٧).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ الدُّنيا: اعلَموا أنَّ الحياةَ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ زائِلٌ، وزِينةٌ تَتزَيَّنونَ بها، وتفاخُرٌ بَيْنَكم، وتكاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ، ومُباهاةٌ بكَثرةِ ذلك بَيْنَكم؛ مَثَلُها كمَثَلِ مَطَرٍ أنبَتَتْ به الأرضُ زُروعًا أعجَبَت الكُفَّارَ، ثمَّ تيبَسُ تلك الزُّروعُ، فتُرَى بعدَ تَمامِ خُضرتِها ونَضْرتِها ذابِلةً مُصْفَرَّةَ اللَّونِ، ثمَّ تَصيرُ فُتاتًا مُتَكَسِّرًا!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى عِظَمَ الآخرةِ، فيقولُ: وفي الآخِرةِ عذابٌ شَديدٌ للكافِرينَ الَّذين اغتَرُّوا بالدُّنيا، وأعرَضوا عن الآخِرةِ، ومَغفِرةٌ مِنَ اللهِ لعِبادِه المؤمِنينَ، ورِضوانٌ، وما الحَياةُ الدُّنيا إلَّا مَتاعٌ زائِلٌ باطِلٌ يَخدَعُ مَن يَركَنُ إليه.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى عبادَه بالمُسابَقةِ إلى ما فيه سعادتُهم، فيقولُ: سابِقُوا إلى مَغفِرةٍ مِن رَبِّكم وجَنَّةٍ عَرْضُها كعَرْضِ السَّماءِ والأرضِ، أُعِدَّت للَّذين آمَنوا باللهِ -تعالى- ورُسُلِه؛ ذلك فَضلُ اللهِ -تعالى- يُؤتيه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، واللهُ ذو الفَضلِ العَظيمِ الواسِعِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أعقَبَ التَّحريضَ على الصَّدَقاتِ والإنفاقِ بالإشارةِ إلى دَحْضِ سَببِ الشُّحِّ أنَّه الحِرْصُ على استِبقاءِ المالِ لإنفاقِه في لَذائذِ الحَياةِ الدُّنيا، فضرَبَ لهم مَثَلَ

الحياةِ الدُّنيا بحالٍ مُحقَّرةٍ على أنَّها زائلةٌ؛ تَحقيرًا لحاصِلِها، وتَزهيدًا فيها؛ لأنَّ التَّعلُّقَ بها يَعوقُ عن الفَلَاحِ[١].

وأيضًا وَجْهُ الاتِّصالِ أنَّ الإنسانَ قد يَترُكُ الجِهادَ؛ خَوفًا على نَفْسِه مِن القَتلِ، وخَوفًا مِن لُزومِ الموتِ، فبَيَّن أنَّ الحياةَ الدُّنيا مُنقَضِيةٌ؛ فلا يَنبغي أن يُترَكَ أمرُ اللهِ محافظةً على ما لا يَبقَى[٢].

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ ﴾.

أي: اعلَموا أنَّ حَقيقةَ الحياةِ الدُّنيا أنَّها لَعِبٌ وهَزْلٌ باطِلٌ مُنقَطِعٌ لا دوامَ له، ولهوٌ يُلْهِي ويَفرَحُ النَّاسُ ويَتلَذَّذونَ به، ثمَّ يَنقَضي[٣]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

﴿وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾.

أي: والحياةُ الدُّنيا زِينةٌ تَتزَيَّنونَ بها، وتَستَطِيبونَ شَهَواتِها، وتَستَحسِنونَ مَنظَرَها وزُخْرُفَها، وهي تفاخُرٌ بَيْنَكم؛ فيَفخَرُ بَعضُكم على بَعضٍ بما حَصَّله منها[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٢).
وللفرقِ بينَ اللَّعبِ واللَّهوِ يُنظر ما تقدَّم في هذا التَّفسيرِ المحررِ (٣٣/ ٥٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٥)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٠٣).

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وعن أبي مالِكٍ الأَشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أربَعٌ في أُمَّتي مِن أمرِ الجاهِليَّةِ لا يَترُكونَهنَّ: الفَخرُ في الأحسابِ[١]، والطَّعنُ في الأنسابِ، والاستِسقاءُ بالنُّجومِ، والنِّياحةُ!))[٢].

﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾.

أي: وهي تكاثُرٌ؛ تَتكَثَّرونَ فيها مِنَ الأموالِ والأولادِ، وتَتباهَونَ فيها بكَثرةِ ذلك بَيْنَكم[٣]!

قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١].

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَرَّر سُبحانَه أنَّها ظِلٌّ زائِلٌ، وعَرَضٌ هائِلٌ، وكان بعضُ النَّاسِ يَتنَبَّهُ فيَشكُرُ، وبعضُهم يَعمَى فيَكفُرُ، وكان القِسمُ الثَّاني أكثَرَ؛ لأنَّ وُجودَها وإقبالَها يُعمِي

(١) الفَخرُ في الأحسابِ أي: التَّفاخُرُ والتَّكبُّرُ والتَّعظيمُ بعَدِّ الرَّجُلِ مَناقِبَه، ومآثِرَ آبائِه، وتفضيلِه نفْسَه على غيرِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا علي القاري (٣/ ١٢٣٤).

(٢) رواه مسلم (٩٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١).

أكثَرَ القُلوبِ عن حقارتِها- ضرب لذلك مثلًا مُقَرِّرًا لِما مضَى من وَصْفِها؛ لأنَّ للأمثالِ في تقريرِ الأشياءِ وتَصويرِها ما ليس لغَيرِها[١].

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾.

أي: كمَثَلِ مَطَرٍ جاءَ بعْدَ قُنوطِ النَّاسِ، فأنبَتَت به الأرضُ المُجدِبةُ زُروعًا استَحسَنَها الكُفَّارُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢١٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧١)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٦٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٥).

قيل: الكُفَّارُ هنا: الزُّرَّاعُ؛ لأنَّ الكُفْرَ هو التَّغطيةُ، والزَّارِعُ يُغَطِّي البَذْرَ أو الحَبَّةَ ويَستُرُها في التُّرابِ. ومِمَّن قال بأنَّ الكُفَّارَ هنا هم الزُّرَّاعُ: الواحديُّ، والقرطبي، وابن كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٨).

وقيل: المرادُ: الكُفَّارُ باللهِ تعالى؛ فهم أشَدُّ إعجابًا بزينةِ الدُّنيا مِنَ المؤمِنينَ. وممَّن ذَهَب إلى هذا القولِ: الزمخشريُّ، وابن القيم، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ١٧١)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٦٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٥).

قال ابن القيم: (الصَّحيحُ -إنْ شاء اللهُ- أنَّ الكُفَّارَ هم الكُفَّارُ باللهِ تعالى، وذلك عُرْفُ القُرآنِ حيثُ ذُكِروا بهذا النَّعْتِ في كلِّ مَوضِعٍ، ولو أراد الزُّرَّاعَ لَذَكَرَهم باسمِهم الَّذي يُعرَفونَ به، كما ذَكَرَهم به في قَولِه: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩]). ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ١٧١).

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾.

أي: ثمَّ يَبتَدِئُ ذلك الزَّرعُ بالجَفافِ واليُبْسِ، فيُرَى بعْدَ تَمامِ خُضرتِه ونَضْرتِه ذابِلًا مُصْفَرَّ اللَّونِ[(١)]!

﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾.

أي: ثمَّ يَصيرُ بعدَ تَناهي جَفافِه ويُبْسِه فُتاتًا مُتَكَسِّرًا[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان هذا المثَلُ دالًّا على زَوالِ الدُّنيا وانقِضائِها وفراغِها لا محالةَ، وأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٥).

قال ابنُ كثير: (هكذا الحياةُ الدُّنيا؛ تكونُ أوَّلًا شابَّةً، ثمَّ تَكتَهِلُ، ثمَّ تكونُ عَجوزًا شَوْهاءَ، والإنسانُ كذلك؛ في أوَّلِ عُمُرِه وعُنْفوانِ شبابِه يكونُ غَضًّا طَرِيًّا لَيِّنَ الأعطافِ، بَهِيَّ المَنظَرِ، ثمَّ إنَّه يَشرَعُ في الكُهولةِ، فتَتغَيَّرُ طِباعُه، ويَنفَدُ بَعضُ قُواه، ثمَّ يَكبَرُ فيَصيرُ شَيخًا كبيرًا، ضَعيفَ القُوى، قليلَ الحَرَكةِ، يُعجِزُه الشَّيءُ اليَسيرُ!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٠٥).

الآخِرةَ كائِنةٌ لا محالةَ؛ حَذَّر مِن أمْرِها، ورَغَّب فيما فيها مِن الخَيرِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر ما يَؤُولُ إليه أمرُ الدُّنيا مِن الفَناءِ؛ ذكَرَ ما هو ثابِتٌ دائِمٌ مِن أمرِ الآخِرةِ مِن العَذابِ الشَّديدِ، ومِن رِضاه الَّذي هو سَبَبُ النَّعيمِ[٢].

وأيضًا بعدَما بُيِّن حَقارةُ أمْرِ الدُّنيا؛ تَزهيدًا فيها، وتَنفيرًا عن العكوفِ عليها، أُشيرَ إلى فَخامةِ شأْنِ الآخرةِ، وعِظَمِ ما فيها مِنَ اللَّذَّاتِ والآلامِ؛ تَرغيبًا في تَحصيلِ نَعيمِها المُقيمِ، وتَحذيرًا مِن عذابِها الأليمِ، وقد ذُكِرَ العذابُ فقِيلَ: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾؛ لأنَّه مِن نَتائجِ الانهماكِ فيما فُصِّلَ مِن أحوالِ الحياةِ الدُّنيا[٣].

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

أي: وفي الآخِرةِ يَقَعُ عذابٌ شَديدٌ على الكافِرينَ باللهِ -تعالى- وبرُسُلِه، الَّذين اغتَرُّوا بالدُّنيا الزَّائِلةِ، وأعرَضوا عن الآخِرةِ الباقِيةِ[٤].

﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞ﴾.

أي: وفي الآخِرةِ تَكونُ مَغفِرةٌ مِنَ اللهِ لذُنوبِ عِبادِه الَّذين سَعَوا للآخِرةِ سَعْيَها، ورِضوانٌ مِن اللهِ تعالى يُحِلُّه على أهلِ جَنَّتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠، ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٦).

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

أي: وما الحَياةُ الدُّنيا إلَّا مَتاعٌ يَتمَتَّعُ به النَّاسُ زَمَنًا قَليلًا، يَغُرُّ النَّاظِرينَ إليه، وهو زائِلٌ، ويَخدَعُ مَن يَركَنُ إليه، وهو باطِلٌ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[التوبة: ٣٨].

وعن المُستَورِدِ بنِ شَدَّادٍ الفِهْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثلُ ما يَجعَلُ أحَدُكم إِصْبَعَه هذه -وأشار يحيى[(٢)] بالسَّبَّابةِ- في اليَمِّ، فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟!))[(٣)].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعِديِّ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَوضِعُ سَوطٍ في الجنَّةِ خَيرٌ مِنَ الدُّنيا وما فيها))[(٤)].

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى ما في الآخِرةِ مِنَ المغفِرةِ؛ أمَرَ بالمسابَقةِ إليها[(٥)].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن حالَ الدُّنيا لِيَصرِفَ الكمَلةَ مِنَ العِبادِ عنها؛ لسُفولِها وحقارتِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤، ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٠٦).

(٢) وهو يحيى بنُ يحيى التَّميمي، أبو زكريَّا النَّيسابوري، أحدُ رواةِ الحديثِ.

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٤) رواه البخاري (٣٢٥٠، ٦٤١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٠).

وأنَّ الآخِرةَ بَقاءٌ وكَمالٌ؛ لِيَرغَبوا غايةَ الرَّغبةِ فيها، ولِيَشتاقوا كلَّ الاشتياقِ لكَمالِها وشَرَفِها وجَلالِها؛ أنتَجَ ذلك قَولَه تعالى[١]:

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

أي: سابِقُوا غَيرَكم وبادِروا إلى عَمَلِ ما يُوجِبُ لكم تحقيقَ المَغفِرةِ مِن رَبِّكم لذُنوبِكم، فيَستُرُها عليكم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِكم[٢].

قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: وسابِقوا إلى جَنَّةٍ عَرْضُها كعَرْضِ السَّمواتِ والأرضِ، لو بُسِطَت ووُصِلَ بَعضُها ببَعضٍ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٥)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٧).

قال الرازي: (سارِعوا مُسارَعةَ المُسابِقِينَ لأقرانِهم في المِضْمارِ، وقَولُه: ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾... لا شَكَّ أنَّ المرادَ منه المُسارَعةُ إلى ما يُوجِبُ المَغفِرةَ؛ فقال قومٌ: المرادُ: سابِقوا إلى التَّوبةِ. وقال آخَرونَ: المرادُ: سابِقوا إلى سائِرِ ما كُلِّفْتُم به، فدَخَل فيه التَّوبةُ. وهذا أصَحُّ؛ لأنَّ المَغفِرةَ والجَنَّةَ لا يُنالانِ إلَّا بالانتِهاءِ عن جميعِ المعاصي، والاشتِغالِ بكُلِّ الطَّاعاتِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٥).

وقال ابنُ عاشور: (أي: أكثِروا مِن أسبابِها ووسائِلِها؛ فالمُسابَقةُ إلى المَغفِرةِ هي المُسابَقةُ في تحصيلِ أسبابِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٢، ٢٩٣).

قال الرازي: (أمَّا قولُه تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وقال في «آلِ عِمْرانَ»: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فذكروا فيه وُجوهًا: =

كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

أي: أُعِدَّت تلك الجَنَّةُ وهُيِّئَتْ للَّذين آمَنوا باللهِ تعالى، وآمَنوا برُسُلِه عليهم

= أحدُها: أنَّ السَّمواتِ السَّبْعَ والأرَضينَ السَّبْعَ لو جُعِلَتْ صفائحَ وأُلزِقَ بعضُها ببعضٍ لَكانت الجنَّةُ في عَرضِها، هذا قولُ مُقاتِلٍ.

وثانيها: قال عَطاءٌ [عن] ابنِ عبَّاسٍ: يريدُ أنَّ لكلِّ واحدٍ مِن المُطيعينَ جنَّةً بهذه الصِّفةِ.

وثالثُها: قال السُّدِّيُّ: إنَّ اللهَ تعالى شبَّه عَرْضَ الجنَّةِ بعَرضِ السَّمواتِ السَّبْعِ والأرَضينَ السَّبْعِ، ولا شكَّ أنَّ طُولَها أزْيَدُ مِن عَرضِها، فذكَرَ العَرضَ تنبيهًا على أنَّ طولَها أضعافُ ذلك.

ورابعُها: أنَّ هذا تمثيلٌ للعِبادِ بما يَعقِلونه، ويقَعُ في نُفوسِهم وأفكارِهم، وأكثَرُ ما يقعُ في نُفوسِهم مِقدارُ السَّمواتِ والأرضِ، وهذا قولُ الزَّجَّاجِ.

وخامِسُها، وهو اختيارُ ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ الجِنانَ أربعةٌ، قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، فالمرادُ هاهنا تشبيهُ واحدةٍ مِن تلك الجِنانِ في العَرضِ بالسَّمواتِ السَّبْعِ والأرَضينَ السَّبْعِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٥).

ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢٨).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٢).

ونسَبَ القُرطبيُّ هذا القولَ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ آلِ عِمْرانَ الآية (١٣٣) إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٠٤).

وقال النَّيْسابوريُّ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ آلِ عِمْرانَ: (المرادُ المُبالَغةُ في وصْفِ سَعةِ الجنَّةِ، فشُبِّهَتْ بأوسَعِ ما عَلِمَه النَّاسُ مِن خَلقِه وأبسَطِه). ((تفسير النيسابوري)) (٢/ ٢٥٨).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٨).

السَّلامُ[١].

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: دُخولُ تلك الجَنَّةِ فَضلٌ مِنَ اللهِ تعالى تَفَضَّلَ به عليهم، واللهُ يُعطي فَضْلَه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه بحَسَبِ ما تَقتَضيه حِكْمتُه[٢].

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا * ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

أي: واللهُ صاحِبُ الفَضلِ العَظيمِ والثَّوابِ الكَبيرِ، فلا يَبعُدُ منه عزَّ وجلَّ التَّفضُّلُ بذلك على مَن يَشاءُ وإنْ عَظُمَ قَدْرُه[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ إلى آخرِ السِّياقِ: إشارةٌ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٩، ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١١).

أنَّ الحياةَ ينبغي أن تُتَّخَذَ وَسيلةً للنَّعيمِ الدَّائِمِ في الآخِرةِ، ووِقايةً مِنَ العذابِ الشَّديدِ، وما عدا ذلك مِن أحوالِ الحياةِ فهو مَتاعٌ قَليلٌ؛ ولذلك أعقَبَ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا بالإخبارِ عن الآخِرةِ، بقَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ﴾... إلخ[١].

٢- إنَّ ذَمَّ الدُّنيا ليس راجِعًا إلى مَكانِ الدُّنيا الَّذي هو الأرضُ الَّتي جَعَلَها اللهُ لبني آدَمَ مِهادًا وسَكَنًا، ولا إلى ما أودَعَ اللهُ فيها مِن الجِبالِ والبِحارِ والأنهارِ والمعادِنِ، ولا إلى ما أنبَتَه فيها مِن الشَّجَرِ والزَّرْعِ، ولا إلى ما بَثَّ فيها مِن الحيَواناتِ وغَيرِ ذلك؛ فإنَّ ذلك كلَّه مِن نعمةِ اللهِ على عِبادِه بما لهم فيه مِن المنافِعِ، ولهم به مِن الاعتِبارِ والاستِدلالِ على وحدانيَّةِ صانِعِه وقُدرتِه وعَظَمتِه، وإنَّما الذَّمُّ راجِعٌ إلى أفعالِ بني آدمَ الواقِعةِ في الدُّنيا؛ لأنَّ غالبَها واقِعٌ على غيرِ الوجهِ الَّذي تُحمَدُ عاقِبتُه، بل يَقَعُ على ما تَضُرُّ عاقِبتُه، أو لا تَنفَعُ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ دليلٌ على أنَّ اللَّعِبَ واللَّهوَ والزِّينةَ وكُلَّ ما ذُكِرَ معها: مَذمومٌ جُملةً، إلَّا ما رُخِّصَ فيه مِن مُلاعبةِ الرَّجُلِ امرأتَه وجاريتَه، ولَهْوِ النِّضالِ وما ذُكِرَ معه، وما استُثنِيَ مِن الزِّينةِ في سورةِ (الأعرافِ) مِن أَخْذِ الزِّينةِ عندَ المساجِدِ، وما لم يكُنْ منها سَرَفًا[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ التَّزهيدُ في الدُّنيا[٤].

٥- قد نَجِدُ الإنسانَ أحيانًا يكونُ في حالِ الضِّيقِ أو الوَسَطِ خَيرًا منه في حالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٥).

الغِنى؛ لأنَّه يَغُرُّه الغِنى ويُطْغِيه والعِياذُ باللهِ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، يعنى: فلا تغتَرُّوا بها، وعليكم بالآخِرةِ الَّتي إذا زُحزِحَ فيها الإنسانُ عن النَّارِ وأُدخِلَ الجنَّةَ، فإنَّه بذلك يفوزُ فَوزًا لا فَوزَ مِثلُه. نسألُ اللهَ تعالى أن يَجعَلَنا وإيَّاكم مِمَّن أُوتِيَ في الدُّنيا حَسَنةً، وفي الآخِرةِ حَسَنةً، ووقاه اللهُ عذابَ النَّارِ[(١)].

٦- لَمَّا سَمِعَ الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم قَولَ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فَهِموا أنَّ المرادَ مِن ذلك أن يجتهِدَ كُلُّ واحدٍ منهم أن يكونَ هو السَّابِقَ لغَيرِه إلى هذه الكرامةِ، والمسارِعَ إلى بلوغِ هذه الدَّرَجةِ العاليةِ؛ فكان أحَدُهم إذا رأى مَن يعمَلُ عَمَلًا يَعجِزُ عنه خَشِيَ أن يكون صاحِبُ ذلك العمَلِ هو السَّابِقَ له، فيَحزَنُ لفَواتِ سَبْقِه، فكان تنافُسُهم في دَرَجاتِ الآخرةِ، واستباقُهم إليها، كما قال تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، ثمَّ جاء مَن بَعْدَهم فعَكَسَ الأمرَ، فصار تنافُسُهم في الدُّنيا الدَّنِيَّةِ وحُظوظِها الفانيةِ[(٢)]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ فاللَّعبُ طَورُ سِنِّ الطُّفولةِ والصِّبا، واللَّهوُ طَورُ الشَّبابِ، والزِّينةُ طَورُ الفُتُوَّةِ، والتَّفاخُرُ طَورُ الكُهولةِ، والتَّكاثُرُ طَورُ الشَّيخوخةِ[(٣)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ إخبارٌ بأنَّ في الآخِرةِ عَذابًا شَديدًا، ومَغفِرةً منه تعالى ورِضوانًا، وهذا مَعنًى حَسَنٌ،

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠١).

وهو أنَّه قابَلَ العَذابَ بشَيئَينِ: بالمَغفِرةِ والرِّضوانِ؛ فهو من بابِ: (لن يَغلِبَ عُسرٌ يُسرَينِ)[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ * سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وَصْفُ الدَّاءِ والدَّواءِ معًا؛ فالدَّاءُ: هو الغُرورُ. والدَّواءُ: هو المُسابَقةُ إلى مَغفِرةٍ مِنَ اللهِ ورِضوانِه[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ دَلالةٌ على المُبادَرةِ فَورًا لامتِثالِ أوامِرِ اللهِ تعالى[٣]، وقد احتَجَّ القائِلونَ بأنَّ الأمرَ يُفيدُ الفَورَ بهذه الآيةِ، فقالوا: هذه الآيةُ دَلَّت على وُجوبِ المُسارَعةِ؛ فوجب أن يكونَ التَّراخي مَحظورًا[٤].

٥- قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هذه الآيةُ حُجَّةٌ عندَ جميعِ العلماءِ في النَّدبِ إلى الطَّاعاتِ، وقد استدَلَّ بها بعضُهم على أنَّ أوَّلَ أوقاتِ الصَّلَواتِ أفضلُ؛ لأنَّه يَقْتضي المسارعةَ والمسابقةَ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أَمْرٌ بالمُسابَقةِ، وقد جاء الأمرُ في آيةٍ أُخرى بالمُسارَعةِ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٨٨).

(لن يَغلِبَ عُسرٌ يُسرَينِ) لفظُ أثرٍ أخرجه مالكٌ (٢/ ٤٤٦)، والحاكمُ (٣١٧٦)، والبيهقيُّ (١٠٠١٠) موقوفًا عن عُمَرَ رضيَ الله عنه.

صحَّحه الحاكمُ على شرطِ مسلمٍ، ووافقه الذهبيُّ في ((التلخيص)) (٢/ ٣٢٩)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((تغليق التعليق)) (٤/ ٣٧٢)، وقوَّى إسنادَه ووثَّق رجالَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سير أعلام النبلاء)) (١٥/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١١).

ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]؛ ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ وذلك بفِعلِ أسبابِ المغفرةِ، ومِن أسبابِ المغفرةِ: أنْ تسألَ اللهَ المَغفِرةَ، تقولُ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي، أو تَقولُ: أستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه، ومِن أسبابِ المغفرةِ: فِعْلُ ما تكونُ به المَغفِرةُ، كقَولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن صام رَمَضانَ إيمانًا واحتِسابًا غُفِرَ له ما تقدَّمَ مِن ذَنْبِه))[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أنَّ مُحْسِني الجِنِّ في الجَنَّةِ، كما أنَّ مُسيئَهم في النَّارِ؛ لأنَّ مُؤمِنَهم ممَّنْ آمَنَ باللهِ ورُسُلِه، فيَدْخُلُ في المبشَّرينَ، ويَستحِقُّ البِشارةَ[٢].

٨- قال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الجَنَّةَ مَخلوقةٌ، وتَكَرُّرُ ذلك في القُرآنِ يُقَوِّي ذلك، والسُّنَّةُ ناصَّةٌ على ذلك، وذلك يَرُدُّ على المُعتَزِلةِ في قَولِهم: «إنَّها الآنَ غَيرُ مَخلوقةٍ وستُخْلَقُ»[٣]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ في بابِ الوَعيدِ -حيثُ يُخَلِّدون عُصاةَ الموحِّدينَ في النَّارِ- وقد أخْبَرَ اللهُ جلَّ جلالُه عن نَفْسِه بإعدادِ الجَنَّةِ للمُؤمِنينَ به وبرُسُلِه في هذه الآيةِ بلا شَرْطٍ[٤].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾، وفي سورةِ (آلِ عِمرانَ) قال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٧).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٣٨)، ومسلمٌ (٧٦٠) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٧).

ولا مُنافاةَ؛ لأنَّ الأوَّلَ: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تَشبيهٌ، والثَّانيَ: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] أيضًا تَشبيهٌ، لكِنْ يُسَمِّيه أهلُ البَلاغةِ: «تشبيهٌ بَليغٌ»(١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أنَّ غَيْرَهم لا حَظَّ لهم في الجنَّةِ؛ لأنَّ مَعنى إعدادِ شَيءٍ لِشَيءٍ قَصْرُه عليه(٢).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ سؤالٌ: أنَّه يَلزَمُ على هذا أن يُقطَعَ بحُصولِ الجنَّةِ لجَميعِ العُصاةِ، وأنْ يُقطَعَ بأنَّه لا عِقابَ عليهم!

الجوابُ: أنَّا نَقطَعُ بحُصولِ الجنَّةِ، ولا نَقطَعُ بنَفيِ العِقابِ عنهم؛ لأنَّهم إذا عُذِّبوا مُدَّةً ثمَّ نُقِلوا إلى الجنَّةِ بَقُوا فيها أبَدَ الآبادِ، فكانت مُعَدَّةً لهم(٣).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ بيانُ أنَّه لا يَدخُلُ أحَدٌ الجَنَّةَ إلَّا بفَضلِ اللهِ تعالى لا بمُجَرَّدِ عَمَلِه، كما ثبَت عن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لن يُدخِلَ أحدًا مِنكم عَمَلُه الجنَّةَ، قالوا: ولا أنت يا رَسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا، إلَّا أن يَتغَمَّدَنيَ اللهُ منه بفَضلٍ ورَحمةٍ))(٤).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أنَّ الفَضائِلَ لا يُسأَلُ عنها(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٦٧٣)، ومسلمٌ (٢٨١٦) واللَّفظُ له.

(٥) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٠٧).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تنبيهٌ على عِظَمِ حالِ الجنَّةِ؛ وذلك لأنَّ ذا الفَضلِ العَظيمِ إذا أَعطَى عَطاءً مَدَح به نَفْسَه وأثنَى بسَبَبِه على نفْسِه؛ فإنَّه لا بُدَّ أن يكونَ ذلك العَطاءُ عَظيمًا[١]!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ جوازُ وَصْفِ غيرِ اللهِ تعالى بالعِظَمِ؛ لأنَّ الفَضلَ هنا يَحتَمِلُ: أنْ يُرادَ به الفَضلُ الَّذي هو فَضلُ اللهِ -أي: عَطاؤُه-، أو أنَّ المرادَ به المُتفضَّلُ به، وهو المُعطَى؛ فعلى الثَّاني لا إشكالَ في استِنباطِ تلك الفائدةِ: أنَّ العِظَمَ يُوصَفُ به غيرُ اللهِ. وعلى الأوَّلِ إذا قُلْنا: إنَّ الفَضلَ هو نفْسُ فِعْلِ اللهِ، فوَصْفُه بالعِظَمِ لا إشكالَ فيه؛ لأنَّه مِن صِفاتِ اللهِ تعالى، وصِفاتُ اللهِ كذاتِه عَظيمةٌ، فإنْ قال قائلٌ: ما دام الاحتِمالانِ قائِمَينِ فلا دَلالةَ على أنه يُوصَفُ بالعِظَمِ مَن سِوَى اللهِ ما دُمْنا نَقولُ: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ الفَضلُ هنا صِفةً للهِ تعالى، وصِفةُ اللهِ عَظيمةٌ كذاتِ اللهِ!

فالجوابُ عن هذا أنْ يُقالَ: اقرأْ قَولَ اللهِ تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، فوَصَفَ العَرْشَ بالعِظَمِ مع أنَّ عَرشَها مخلوقٌ، إذنْ يَصِحُّ أنْ نقولَ: هذا الفِعلُ عَظيمٌ، وهذا رَجُلٌ عَظيمٌ، هذه سَيَّارةٌ عَظيمةٌ، هذا بَيتٌ عظيمٌ، وما أَشْبَهَ ذلك، ولا يَضُرُّ، كما أنَّه يَصِحُّ أنْ نقولَ: فلانٌ عزيزٌ، فلانٌ قَويٌّ؛ ولا حَرَجَ في ذلك، ولكنْ يجبُ أنْ نَعلَمَ أنَّ ما نَصِفُ به المَخلوقَ مِن صفاتِ اللهِ لا يُماثِلُ صِفاتِ اللهِ تعالى، ولا يُدانيها أيضًا؛ لأنَّ الصِّفةَ تكونُ لِمَوصوفٍ تُناسِبُه[٢].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٢٢).

فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾ افتِتاحُ الكَلامِ بفِعلِ الأمْرِ ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ ﴾ يُؤْذِنُ بأنَّ ما سيُلْقَى جَديرٌ بتَوجُّهِ الذِّهنِ بكُلِّيَّتِه إليه[1].

- و(أنَّما) المفتوحةُ الهَمزةِ أخْتُ (إنَّما) المكسورةِ الهَمزةِ في إفادةِ الحصرِ، وحصْرُ الحياةِ الدُّنيا في الأخبارِ الجاريةِ عليها هو قصْرُ أحوالِ النَّاسِ في الحياةِ على هذه الأمورِ السِّتَّةِ ﴿لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾ باعتبارِ غالبِ النَّاسِ؛ فهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[2] بالنَّظرِ إلى ما تَنصرِفُ إليه هِمَمُ غالبِ النَّاسِ مِن شُؤونِ الحياةِ الدُّنيا، الَّتي إنْ سَلِمَ بعضُهم مِن بعضِها لا يَخْلو مِن مُلابَسةِ بعضٍ آخَرَ، إلَّا الَّذين عصَمَهم اللهُ تعالَى؛ وإلَّا فإنَّ الحياةَ قد يكونُ فيها أعمالُ التُّقى، والمنافعِ، والإحسانِ، والتأْييدِ للحقِّ، وتَعليمِ الفضائلِ، وتَشريعِ القوانينِ[3].

- والتَّكاثُرُ: تَفاعُلٌ مِن الكثرةِ، وصِيغةُ التَّفاعُلِ هنا للمُبالَغةِ في الفِعلِ، بحيثُ يُنزَّلُ مَنزِلةَ مَن يُغالِبُ غيرَه في كثْرةِ شَيءٍ، فإنَّه يكونُ أحرَصَ على أنْ يكونَ الأكثرُ منه عندَه[4].

- و﴿فِي﴾ مِن قولِه: ﴿فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾ إمَّا مُستعمَلةٌ في التَّعليلِ، وإمَّا في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٠، ٤٠١).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٠٣).

الظَّرفيَّةِ، فإنْ جُعِلَت الأموالُ كالظَّرفِ يَحصُلُ تَكاثُرُ النَّاسِ عندَه كمَن يَنزِعُ مِن بِئرٍ[١].

- وقولُه: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ في مَوضعِ خَبرٍ مِن مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: هي كمَثَلِ غَيثٍ؛ فتَكونَ الجُملةُ استِئنافًا، وحذْفُ المُسنَدِ إليه مِن النَّوعِ الَّذي يُسمَّى مُتابعةَ الاستعمالِ[٢].

ويجوزُ أنْ يكونَ الكافُ في مَوضعِ الحالِ، و﴿كَمَثَلِ﴾ معْناه: كحالِ، أي: حالُ الحياةِ الدُّنيا كحالِ غَيثٍ... إلخ، فشُبِّهَت هَيئةُ أهلِ الدُّنيا في أحوالِهم الغالبةِ عليهم -والمُشارُ إلى تَنويعِها بقولِه: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ إلى آخِرِه-، بهَيئةِ غَيثٍ أنبَتَ زرْعًا فأينَعَ، ثمَّ اصفرَّ، ثمَّ اضمَحلَّ وتَحطَّمَ، أي: تَشبيهُ هَيئةِ هذه الأحوالِ الغالبةِ على النَّاسِ في الحياةِ في كَونِها مَحبوبةً للنَّاسِ مُزهيةً لهم وفي سُرعةِ تَقضِّيها، بهَيئةِ نباتٍ جديدٍ أنْبَتَه غَيثٌ فاسْتوَى واكتمَلَ وأُعجِبَ به مَن رآهُ، فمَضَت عليه مدَّةٌ فيَبِسَ وتَحطَّمَ، والمقصودُ بالتَّمثيلِ هو النَّباتُ، وإنَّما ابتُدِئَ بغَيثٍ تَصويرًا للهيئةِ مِن مَبادئِها؛ لإظهارِ مَواقعِ الحُسنِ فيها؛ لأنَّ ذلك يَكتسِبُ منه المُشبَّهُ حُسنًا[٣].

- قيل: المرادُ بالكُفَّارِ هنا: الزُّرَّاعُ، جمْعُ كافِرٍ، وهو الزَّارعُ؛ لأنَّه يَكفُرُ الزَّريعةَ[٤]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٣).

(٢) وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٧٠).

(٤) الزَّريعةُ: ما يُزْرَعُ مِن الحَبِّ. يُنظر: ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (١/ ٥١٨)، ((غلط الفقهاء)) لابن بَرِّي (ص: ٢١).

بتُرابِ الأرضِ، أي: يَستُرُها بالتُّراب، وإنَّما أُوثِرَ هذا الاسمُ هنا -وقدْ قال تعالَى في سُورةِ (الفتحِ): ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩]-؛ قصْدًا هنا للتَّوريةِ بالكُفَّارِ الَّذين هم الكافِرونَ باللهِ؛ لأنَّهم أشدُّ إعجابًا بمَتاعِ الدُّنيا؛ إذ لا أمَلَ لهم في شَيءٍ بعْدَه. وقيل: المرادُ الكُفَّارُ جمْعُ الكافرِ باللهِ؛ لأنَّهم قَصَروا إعجابَهم على الأعمالِ ذاتِ الغاياتِ الدُّنيا دونَ الأعمالِ الدِّينيَّةِ؛ فذِكرُ الكُفَّارِ تَلويحٌ إلى أنَّ المَثَلَ مَسوقٌ إلى جانِبِهم أوَّلًا[١]. وقيل: وإنَّما خَصَّ الكُفَّارَ به؛ لأنَّهم أشَدُّ إعجابًا بالدُّنيا؛ فإنَّها دارُهم الَّتي لها يَعمَلونَ ويَكدَحونَ، فهم أشدُّ إعجابًا بزينتِها وما فيها؛ مِن المؤمِنينَ[٢].

- وعُطِفَتْ جُملةُ ﴿يَهِيجُ﴾ بحرْفِ (ثُمَّ)؛ لإفادةِ التَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ اصفِرارَ النَّباتِ أعظمُ دَلالةً على التَّهيُّؤِ للزَّوالِ، وهذا هو الأهمُّ في مَقامِ التَّزهيدِ في مَتاعِ الدُّنيا[٣].

- وعُطِفَ ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ بالفاءِ؛ لأنَّ اصفرارَ النبْتِ مُقارِبٌ ليُبْسِه[٤].

- وإنَّما لم يقُلْ: (فيَصْفَرُّ)؛ إيذانًا بأنَّ اصفِرارَه غيرُ مُقارِنٍ لهَيَجانِه وجَفافِه، وإنَّما المُترتِّبُ عليه رُؤيتُه كذلكَ[٥].

- وعُطِفَ ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾ بـ (ثمَّ) كعَطفِ ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾؛ لإفادةِ التَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّه أعظمُ دَلالةً على التَّهيُّؤِ للزَّوالِ، وهذا هو الأهمُّ في مَقامِ التَّزهيدِ في مَتاعِ الدُّنيا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٤، ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٥).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾، وقال في سُورةِ (الزُّمَر): ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ [الزمر: ٢١]؛ ووجْهُه: أنَّ الأفعالَ الَّتي نُسِقَ -أي: عُطِفَ- هذا الفِعلُ عليها في سُورةِ (الزُّمَر) هي أفعالُ اللهِ تَعالى؛ لأنَّه قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ [الزمر: ٢١]، فهو مَعطوفٌ على قولِه: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾، والَّذي في سُورةِ (الحديدِ) لم يُسنَدِ الفِعلُ المتقدِّمُ فيه إلى اللهِ تَعالى فيُسنَدَ إليه ما بعْدَه؛ وإنَّما هو: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ﴾، فلم يَصلُحْ في كلِّ مكانٍ إلَّا ما جاء فيه مِن اختيارِ الكلامِ[(١)].

- وقدْ ضرَبَ اللهُ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا لأطوارِ ما فيها مِن شَبابٍ وكُهولةٍ وهَرَمٍ ففَناءٍ، ومِن جِدَّةٍ وتَبذُّلٍ وبِلًى، ومِن إقبالِ الأمورِ في زمَنِ إقبالِها، ثمَّ إدْبارِها بعْدَ ذلك؛ بأطوارِ الزَّرعِ. وكلُّها أعراضٌ زائلةٌ، وآخِرُها فَناءٌ، وتَندرِجُ فيها أطوارُ المرْءِ في الحياةِ المذكورةِ في قولِه: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ إلى ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾، كما يَظهَرُ بالتَّأمُّلِ. وهذا التَّمثيلُ مع كَونِه تَشبيهَ هَيئةٍ مُرَكَّبةٍ بهَيئةٍ مِثلِها، هو صالحٌ للتَّفريقِ ومُقابَلةِ أجزاءِ الهَيئةِ المُشبَّهةِ بأجزاءِ الهَيئةِ المُشبَّهِ بها؛ فيُشبَّهُ أوَّلُ أطوارِ الحياةِ وإقْبالُها بالنَّباتِ عقِبَ المطَرِ، ويُشبَّهُ النَّاسُ المُنتفِعون بإقبالِ الدُّنيا بناسٍ زُرَّاعٍ، ويُشبَّهُ اكتِمالُ أحوالِ الحياةِ وقوَّةِ الكُهولةِ بهِياجِ الزَّرعِ، ويُشبَّهُ ابتداءُ الشَّيخوخةِ، ثمَّ الهرَمُ وابتداءُ ضَعفِ عمَلِ العامِلِ، وتِجارةِ التَّاجرِ، وفِلاحةِ الفلَّاحِ؛ باصفِرارِ الزَّرعِ وتَهيُّئِه للفَناءِ، ويُشبَّهُ زَوالُ ما كان للمرْءِ مِن قوَّةٍ ومالٍ بتَحطُّمِ الزَّرعِ، ويُفهَمُ مِن هذا أنَّ ما كان مِن

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٥٥، ١٢٥٦).

أحوالِ الحياةِ مَقصودًا لوجْهِ اللهِ؛ فإنَّه مِن شُؤونِ الآخِرةِ، فلا يَدخُلُ تحتَ هذا التَّمثيلِ إلَّا ظاهرًا[١].

- قولُه: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ كان ذِكرُ حالِ الحياةِ الدُّنيا مُقتَضيًا ذِكرَ مُقابِلِه على عادةِ القرآنِ، والخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّحذيرِ والتَّحريضِ بقَرينةِ السِّياقِ؛ ولذلك لم يُبيَّنْ أصحابُ العذابِ وأصحابُ المغفرةِ والرِّضوانِ؛ لظُهورِ ذلك[٢].

- وكُنِّيَ عن النَّعيمِ بـ(مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ)؛ لأنَّ النَّعيمَ قِسمانِ: ماديٌّ، ورُوحانيٌّ؛ فالمَغفرةُ والرِّضوانُ أصلُ النَّعيمِ الرُّوحانيِّ، كما قال تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾[التوبة: ٧٢]، وهما يَقتضيانِ النَّعيمَ الجُسمانيَّ؛ لأنَّ أهلَ الجنةِ لَمَّا رُكِّبَت ذَواتُهم مِن أجسامٍ، وأُودِعَت فيها الأرواحُ، كان النَّعيمانِ مُناسبَينِ لهم تَكثيرًا للَّذَّاتِ، وما لذَّةُ الأجسامِ إلَّا صائرةٌ إلى الأرواحِ؛ لأنَّها المُدرِكةُ اللَّذَّاتِ، وكان رِضوانُ اللهِ يَقتضي إعطاءَهُم مُنتهى ما به الْتِذاذُهم، ومَغفرتُه مُقتضيةً الصَّفْحَ عمَّا قد يَعوقُ عن بعضِ ذلك[٣].

- وعطْفُ ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ على ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ للمُقابَلةِ بيْن الحالَينِ؛ زِيادةً في التَّرغيبِ والتَّنفيرِ، والكلامُ على تَقديرِ مُضافٍ، أي: وما أحوالُ الحياةِ الدُّنيا إلَّا مَتاعُ الغُرورِ[٤].

- والحصْرُ في قولِه: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ ادِّعائيٌّ[٥] باعتِبارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٥، ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

غالبِ أحوالِ الدُّنيا بالنِّسبةِ إلى غالبِ طالِبيها، فكونُها مَتاعًا أمرٌ مُطَّرِدٌ، وكَونُ المتاعِ مُضافًا إلى الغُرورِ أمرٌ غالبٌ بالنِّسبةِ لِما عدا الأعمالَ العائدةَ على المرْءِ بالفوزِ في الآخرةِ(١).

- وإضافةُ ﴿مَتَٰعُ﴾ إلى ﴿ٱلْغُرُورِ﴾ على مَعْنى لامِ العاقِبةِ، أي: مَتاعٌ صائرٌ لأجْلِ الغُرورِ به، أي: آيلٌ إلى أنَّه يَغُرُّ النَّاظِرينَ إليه، فيُسرِعون في التَّعلُّقِ به(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فَذْلَكَةٌ(٣) لِمَا تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ [الحديد: ١٢] إلى هنا، فذلِكَ مَسوقٌ مَساقَ التَّرغيبِ فيما به تَحصيلُ نَعيمِ الآخرةِ، والتَّحذيرِ مِن فَواتِه، وما يَصرِفُ عنه مِن إيثارِ زِينةِ الدُّنيا؛ ولذلك فُصِلَت الجُملةُ ولم تُعطَفْ، واقتُصِرَ في الفَذْلَكةِ على الجانبِ المَقصودِ تَرغيبُه دونَ التَّعرُّضِ إلى المُحذَّرِ منه؛ لأنَّه المقصودُ(٤).

- والبِشارةُ هاهنا أعمُّ ممَّا في سُورةِ (آلِ عِمرانَ)؛ لأنَّه قال هناك: ﴿... أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ ...﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤] إلى آخِرِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٧).

وهاهنا قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، ولأنَّ هؤلاءِ أدْوَنُ حالًا مِن أولئك جَعَل عرْضَ الجنَّةِ هنا أقلَّ؛ فقال: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فلمْ يَجمَعِ السَّماءَ، وأدْخَلَ حرْفَ التَّشبيهِ الدَّالَّ على أنَّ المشبَّهَ أدونُ حالًا مِن المشبَّهِ به. وفي لفظِ ﴿سَابِقُوٓا۟﴾ هاهنا إشارةٌ إلى أنَّ مَراتبَ هؤلاء مُختلِفةٌ بَعضُها أسبَقُ مِن بَعضٍ، كالمسابَقةِ في الخَيلِ، وفي لَفظِ (سَارِعُوا) هُنالِكَ رمْزٌ إلى أنَّ كلَّهم مُسْتوونَ في القُرْبِ أو مُتقارِبون؛ لأنَّ المرتبةَ العُليا واحِدةٌ، وهي مَرتبةُ السَّابِقينَ المقرَّبينَ، وإنَّها غايةُ الرُّتبِ الإنسانيَّةِ، فافْهَمْ هذه الأسرارَ؛ فإنَّ ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤتِيه مَن يَشاءُ[(١)].

- قولُه: ﴿سَابِقُوٓا۟﴾، أي: افْعَلوا في السَّعيِ لها بالأعمالِ الصَّالِحةِ حَقَّ السَّعيِ فِعلَ مَن يُسابِقُ شَخصًا، فهو يَسْعى ويَجتهِدُ غايةَ الاجتهادِ في سَبْقِه، ولكنْ رُبَّما كان قَرينُه بَطيئًا فسار هُوينى، وأمَّا المُسارَعةُ فلا تكونُ إلَّا بجَهدِ النَّفْسِ مِن الجانبَينِ مع السُّرعةِ في العُرفِ؛ فآيةُ آلِ عمرانَ[(٢)] الآمِرةُ بالمسارَعةِ الأخصِّ مِن المسابَقةِ أبلَغُ؛ لأنَّها للحثِّ على التَّجرُّدِ عن النَّفْسِ والمالِ وجميعِ الحُظوظِ أصْلًا ورأْسًا، ولذلك كانت جنَّتُها للمتَّقينَ الموصوفينَ، وأمَّا هذه ففي سِياقِ التَّصديقِ الَّذي هو تَجرُّدٌ عن فُضولِ الأموالِ؛ ولذلك كانت جنَّتُها للَّذين آمَنوا[(٣)].

- وتَنكيرُ ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ لقصْدِ تَعظيمِها، ولتكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بنفْسِها، وإلَّا فإنَّ المَغفرةَ سبَقَ ذِكرُها في قولِه: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٠]، فكان

(١) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٥٨).

(٢) في قولِه تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩١، ٢٩٢).

مُقتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: سابِقوا إلى المغفرةِ، أي: أكْثِروا مِن أسبابِها ووَسائلِها؛ فالمُسابَقةُ إلى المغفرةِ هي المسابَقةُ في تَحصيلِ أسبابِها[١].

- وذِكرُ العَرْضِ دُونَ الطُّولِ في قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ كلَّ ما لَه عَرْضٌ وطولٌ، فإنَّ عَرْضَه أقلُّ مِن طُولِه، فإذا وُصِفَ عرْضُه بالبَسطةِ عُرِفَ أنَّ طُولَه أبسَطُ وأمَدُّ[٢]. أو العَرْضُ مُستعمَلٌ في السَّعةِ، وتَشبيهُ عَرْضِ الجنَّةِ بعرْضِ السَّماءِ والأرضِ -أي: مَجموعِ عَرْضَيْهما- لقصْدِ تَقريبِ المُشبَّهِ بأقْصى ما يَتصوَّرُه النَّاسُ في الاتِّساعِ، وليس المُرادُ تحديدَ ذلك العَرْضِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٨).

الآيات (٢٢-٢٤)

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾: المصيبةُ: الأمرُ المكروهُ يَنزِلُ بالإنسانِ، يُقالُ: أصابَ السَّهمُ: إذا وصل إلى المرمى بالصَّوابِ، والمُصيبَةُ أصلُها في الرَّميةِ، ثمَّ اختصَّتْ بالنَّائبةِ، و(أصاب) جاء في الخَيرِ والشَّرِّ؛ قيل: الإصابةُ في الخَيرِ اعتِبارًا بالصَّوْبِ، أي: المطرِ، وفي الشَّرِّ اعتبارًا بإصابةِ السَّهمِ، وكِلاهما يَرجِعُ إلى أصلٍ واحدٍ، وأصلُ (صوب): يدُلُّ على نُزولِ شَيءٍ واستِقرارِه قَرارَه[1].

﴿نَّبۡرَأَهَآ﴾: أي: نَخلُقَها، وأصلُ (برأ): يدُلُّ على الخَلْقِ[2].

﴿تَأۡسَوۡاْ﴾: أي: تَحْزَنوا، يُقالُ: أَسِيتُ على الشَّيءِ أَسًى، أي: حَزِنتُ عليه[3].

﴿مُخۡتَالٖ﴾: أي: مُتكَبِّرٍ ذي خُيَلاءَ، وأصلُ (خيل): يدُلُّ على حَرَكةٍ في تَلَوُّنٍ؛

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٥٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٥٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٦).

لأنَّ المُخْتالَ في مِشْيَتِه يتَلَوَّنُ في حَرَكتِه ألوانًا[١].

﴿فَخُورٍ﴾: أي: كثيرِ الخُيَلاءِ والفَخرِ، وأصلُ (فخر): يدُلُّ على عِظَمٍ وقِدَمٍ[٢].

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: أي: المحمودُ على كلِّ حالٍ، وفي جميعِ أفعالِه وأقوالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والمحمودُ على ما لَه مِن الكَمالِ، وعلى نِعَمِه الَّتي أنْعَمها على خلْقِه، المستحِقُّ لكلِّ حمْدٍ، والحمدُ إخبارٌ عن مَحاسنِ المحمودِ معَ حُبِّه وإجلالِه وتَعظيمِه، وقيل: هو أيضًا بمعنى حامِدٍ، يَحمَدُ كُلَّ مَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه، وأصلُ (حمد): يدُلُّ على خِلافِ الذَّمِّ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مخبرًا عن عمومِ قضائِه وقدَرِه: ما وَقَع في الأرضِ أو في أنفُسِكم مِن مُصيبةٍ إلَّا وهي مَكتوبةٌ في اللَّوحِ المحفوظِ مِن قَبلِ أن نَخلُقَها، إنَّ ذلك أمرٌ سَهلٌ وهَيِّنٌ على اللهِ تعالى، أخْبَرْناكم بذلك؛ لِكَيْلا تَحزَنوا على شَيءٍ فاتَكم مِن الدُّنيا، ولا تَفرَحوا فَرَحَ بَطَرٍ بما نِلْتُم مِن مَتاعِها، واللهُ لا يُحِبُّ كلَّ مُتكَبِّرٍ فَخورٍ؛ الَّذين يَبخَلونَ بما أُوتُوه مِن نِعَمٍ، ويأمُرونَ غَيرَهم بالبُخْلِ. ومَن يُعْرِضْ فإنَّ اللهَ هو الغَنيُّ الحَميدُ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨، ٧٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جرى ذِكرُ الجِهادِ آنِفًا، وجرى ذِكرُ الدُّنيا، وكان ذلك كُلُّه مِمَّا تَحدُثُ فيه المصائِبُ؛ مِن قَتلٍ وقَطعٍ وأسْرٍ في الجِهادِ، ومِن كوارِثَ تَعرِضُ في الحياةِ؛ مِن فَقْدٍ وألمٍ واحتياجٍ، وجرى مَثَلُ الحياةِ الدُّنيا بالنَّباتِ، وكان ذلك ممَّا يَعرِضُ له القَحطُ والجوائِحُ- أُتْبِع ذلك بتسليةِ المسلمينَ على ما يُصيبُهم[1].

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾.

أي: ما وَقَع في الأرضِ مِن مُصيبةٍ، كقَحْطِها وهَلاكِ زَرْعِها وثَمَرِها، أو في أنفُسِكم، كالأمراضِ والأوجاعِ، والفَقرِ والمَوتِ- إلَّا وهي مكتوبةٌ في اللَّوحِ المحفوظِ مِن قَبلِ أن نَخلُقَ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤١٢، ٤١٣).

قال الماوَرْدي: (﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه وجهانِ:

أحدُهما: الجوائِحُ في الزَّرعِ والثِّمارِ. الثَّاني: القَحطُ والغَلاءُ.

﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ فيه أربعةُ أوجُهٍ:

أحدُها: في الدِّينِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: الأمراضُ والأوصابُ. قاله قَتادةُ. الثالثُ: إقامةُ الحُدودِ. قاله ابنُ حَيَّانَ. الرَّابعُ: ضِيقُ المعاشِ، وهذا معنى روايةِ ابنِ جُرَيجٍ). ((تفسير الماوردى)) (٥/ ٤٨١، ٤٨٢).

وقال السعدي: (وهذا شامِلٌ لعُمومِ المصائبِ الَّتي تُصيبُ الخَلْقَ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، فكُلُّها قد =

كما قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [التغابن: ١١].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

أي: إنَّ ذلك[1] أمرٌ سَهلٌ وهَيِّنٌ على اللهِ تعالى، لا يَتعَذَّرُ عليه سُبحانَه؛ لإحاطَةِ

= كُتِبَت في اللَّوحِ المحفوظِ؛ صغيرُها وكبيرُها، وهذا أمرٌ عَظيمٌ لا تحيطُ به العقولُ، بل تَذهَلُ عندَه أفئدةُ أُولي الألبابِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

والضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿نَّبۡرَأَهَآ﴾ قيل: عائِدٌ على المُصيبةِ. وقيل: عائدٌ على الأرضِ. وقيل: عائدٌ على الأنفُسِ. وقيل: عائدٌ إلى جميع ذلك. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١١).

والقَولُ بأنَّه يعودُ على المُصيبةِ: مالَ إليه الرازيُّ، واستظهره أبو حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٨٢).

وممَّن قال بعَودِ الضَّميرِ على الأنفُسِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ، وأبو العاليةِ، والكلبيُّ، ومقاتلُ بنُ حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٠٥).

وقال ابنُ عاشور: (وضَميرُ النَّصبِ في ﴿نَّبۡرَأَهَآ﴾ عائِدٌ إلى الأرضِ، أو إلى الأنفُسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١).

وممَّن قال بعَودِ الضَّميرِ على جَميعِ ذلك: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٣).

قال ابن عطيَّة: (الضَّميرُ عائِدٌ على المصيبةِ. وقيل: على الأرضِ. وقيل: على الأنفُسِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، وجماعةٌ. وذكَرَ المَهْدويُّ جَوازَ عَودِ الضَّميرِ على جميعِ ما ذُكِرَ، وهي كُلُّها مَعانٍ صِحاحٌ؛ لأنَّ الكتابَ السَّابقَ أَزَليٌّ قبْلَ هذه كُلِّها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٨)، ويُنظر: ((التحصيل لفوائد كتاب التفصيل)) للمهدوي (٦/ ٣٤٠).

(١) قال الرازي: (﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ وفيه قَولانِ؛ أحدُهما: إنَّ حِفظَ ذلك على اللهِ هَيِّنٌ. والثَّاني: إنَّ إثباتَ ذلك على كثرتِه في الكتابِ يسيرٌ على الله، وإن كان عسيرًا على العبادِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٧). =

عِلمِه، وكمالِ قُدْرَتِه[١].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن ذلك الأمرَ العَظيمَ الدَّالَّ على ما لَه سُبحانَه مِنَ الكِبرياءِ والعَظَمةِ؛ بَيَّنَ ثَمَرةَ إعلامِه، بقَولِه تعالى[٢]:

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾.

أي: أخبَرْناكم بأنَّ كلَّ مصيبةٍ تقعُ فهي في كتابٍ[٣]؛ لِكَيْلا يَشتَدَّ حُزنُكم على

= ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أي: خَلْقَ ذلك وحِفْظَه-: الثعلبيُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٧).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: البغويُّ، وابن الجوزي، والبيضاوي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١١).

وقال ابن كثير: (أي: أنَّ عِلمَه تعالَى الأشياءَ قبْلَ كَونِها، وكتابَتَه لها طِبقَ ما يُوجَدُ في حِينِها سهلٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه يَعلَمُ ما كان وما يكونُ وما لم يَكُنْ لو كان كيفَ كان يكونُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤١٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١١). =

شَيءٍ فاتَكم مِن مَتاعِ الدُّنيا[١].

﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾.

أي: ولِكَيلا تَفرَحوا فَرَحَ بَطَرٍ وفَخْرٍ على غَيرِكم بما أعطاكم اللهُ مِن مَتاعِ الدُّنيا[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾.

أي: واللهُ لا يُحِبُّ كلَّ مُتكَبِّرٍ في نَفْسِه بما أُوتِيَ مِنَ الدُّنيا، فَخورٍ به على النَّاسِ[٣].

= وقال ابنُ جرير: (يعني تعالى ذِكرُه: ما أصابكم -أيُّها النَّاسُ- مِن مُصيبةٍ في أموالِكم ولا في أنفُسِكم إلَّا في كتابٍ قد كُتِبَ ذلك فيه مِن قَبلِ أن نخلُقَ نُفوسَكم؛ ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٠).

وقال العُلَيمي: (فَعَل اللهُ هذا كُلَّه، وأعلَمَكم به). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤١٣).

قال ابنُ كثير: (لِتَعلَموا أنَّ ما أصابكم لم يكُنْ لِيُخطِئَكم، وما أخطأَكم لم يكُنْ لِيُصيبَكم، فلا تأسَوا على ما فاتَكم؛ فإنَّه لو قُدِّرَ شَيءٌ لَكانَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧).

وقال البِقاعي: (أي: أعلَمْناكم بأنَّا -على ما لَنا مِنَ العَظَمةِ- قد فرَغْنا مِن التَّقديرِ، فلا يُتصَوَّرُ فيه تقديمٌ ولا تأخيرٌ، ولا تبديلٌ ولا تغييرٌ؛ لأنَّ الحُزنَ لا يَدفَعُه، ولا السُّرورُ يَجلِبُه ويَجمَعُه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٩٥).

وقال ابنُ عاشور: (فلا تَجزَعوا للمصائِبِ؛ لأنَّ مَن أيقَنَ أنَّ ما عِندَه مِن نِعمةٍ دُنيويَّةٍ مَفقودٌ يومًا لا محالةَ، لم يَتفاقَمْ جَزَعُه عِندَ فَقْدِه؛ لأنَّه قد وطَّنَ نَفْسَه على ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٠-٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- الحديد)) (ص: ٤١٤).

قال ابن جزي: (النَّهي عن الفَرحِ إنَّما هو عن الذي يقودُ إلى الكِبرِ والطُّغيانِ، وعن الحُزنِ الذي يُخرِجُ عن الصَّبرِ والتَّسليمِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن =

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن جملةِ صِفاتِ المختالِ المكاثِرِ بالمالِ البُخلُ، وكان قد تقدَّم الحَثُّ على الإنفاقِ، وكان ما يُوجِبُه لذَّةُ الفَخارِ والاختيالِ الَّتي أوصَلَ إليها المالُ حامِلةً على البُخلِ خَوفًا من الإقتارِ الموجِبِ عندَ أهلِ الدُّنيا للصَّغارِ؛ قال تعالى[1]:

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ﴾.

أي: وهم مع اختيالِهم وفَخْرِهم هذا يَبخَلونَ بما أُوتُوه مِن نِعَمٍ، فيَمتَنِعونَ عن إخراجِ ما وَجَب عليهم بَذْلُه منها، ويأمُرونَ غَيْرَهم بذلك[2].

= كثير)) (٨/ ٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (المُختالُ: الَّذي يتخَيَّلُ في نَفْسِه أنَّه عَظيمٌ، فيَعتَقِدُ في نَفْسِه أكثَرَ مِمَّا يَستَحِقُّه). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٦/ ١٧).

وقال ابنُ عثيمين: (مُختالٌ في فِعْلِه، فَخورٌ في قَولِه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٥، ٤١٦).

قال القرطبي: (أي: لا يُحِبُّ المُختالينَ الَّذين يَبخَلُونَ. فـ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ في مَوضِعِ خَفضٍ نَعتًا للمُختالِ. وقيل: رَفعٌ بالابتِداءِ، أي: الَّذين يَبخَلونَ فاللهُ غَنيٌّ عنهم). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٩). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٧٦، ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٣).

قال ابن تيميَّةَ في هذه الآيةِ وآيةِ النساء (٣٧): (قد تُؤُوِّلَتْ في البُخلِ بالمالِ، والمَنعِ، والبُخلِ بالعِلمِ ونحوِه، وهي تَعُمُّ البُخلَ بكُلِّ ما يَنفَعُ في الدِّينِ والدُّنيا مِن عِلْمٍ ومالٍ وغَيرِ ذلك). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢١٢).

كما قال الله تبارك وتعالى عن المُنافِقينَ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّقديرُ: «فمَنْ أقبَلَ على ما نُدِبَ إليه مِنَ الإقراضِ الحَسَنِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ؛ فإنَّ اللهَ شَكورٌ حَليمٌ»- عَطَف عليه قَولَه ذامًّا للبُخلِ، مُحَذِّرًا منه[١]:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

أي: ومَن يُعْرِضْ فإنَّ اللهَ هو الغَنيُّ عن خَلْقِه غِنًى تامًّا مُطلَقًا؛ المحمودُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه، وأفعالِه وأقوالِه، كثيرُ الحَمدِ لِمَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

قيل: ﴿يَتَوَلَّ﴾ أي: يُعرِضْ عن الإنفاقِ. وممَّن اختار هذا القولَ: السمرقنديُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٢).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: ومَن يُدْبِرْ مُعرِضًا عن عِظَةِ الله، تاركًا العملَ بما دعاه إليه مِن الإنفاقِ في سبيلِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٣).

وقيل: يُعرِضْ عن الإيمانِ. وممَّن اختار هذا القولَ: الواحديُّ، وابن الجوزي، والقرطبي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٩). =

= وقيل: يُعرِضْ عن أمرِ اللهِ وطاعتِه. وممَّن اختار هذا القولَ في الجملةِ: الزمخشريُّ، والرَّسْعَني، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٦).

وقال ابن عاشور: («مَن يَتَوَلَّ» يَعُمُّ الَّذين يَبخَلون وغيرَهم؛ فإنَّ الَّذين يَبخَلون ويأمُرون النَّاس بالبُخلِ -أي: في سبيلِ الله، وفي النَّفَقاتِ الواجِبةِ- قد تَوَلَّوْا عن أمرِ الله). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٣).

وقال مكِّي: (قولُه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: يُعرِضْ عن قَبولِ ما أمَر اللهُ عزَّ وجلَّ به مِن الإنفاقِ في سبيلِ الله، وإخراجِ الزَّكاةِ، والإيمانِ بالله وبرسولِه). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١١/ ٧٣٣١).

قولُه: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ الأكثَرُ على أنَّه فَعيلٌ بمعنَى مَفعولٍ، أي: مَحمودٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٨) و(٢٢/ ٤٢٣)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٥٥)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٨)، ((المقصد الأسنى)) للغزالي (ص: ١٣٠)، ((جامع الأصول)) لابن الأثير (٤/ ١٨٠)، ((تفسير الرسعني)) (٢/ ٣٢١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ١٥٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨) و(ص: ٨٥٦).

قال ابنُ القيِّم: (الحَميدُ فَعيلٌ مِن الحَمْدِ، وهو بمعنى مَحمودٍ، وأكثرُ ما يأتي فَعيلًا في أسمائِه تعالَى، بمعنى فاعِلٍ، كـ: سَميع، وبَصير، وعَليم، وقَدير، وعَليٍّ، وحَكيم، وحَليم، وهو كثيرٌ ... وأمَّا الحميدُ فلمْ يأتِ إلَّا بمعنى المحمودِ، وهو أبلغُ مِن المحمودِ؛ فإنَّ فَعيلًا إذا عُدِلَ به عن مَفعولٍ، دلَّ على أنَّ تِلك الصِّفةَ قد صارتْ مِثلَ السَّجيَّةِ والغَريزةِ والخُلُقِ اللَّازمِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٣١٥).

وذهب الرَّاغبُ وابنُ عاشور وابنُ عثيمين إلى أنَّه يصحُّ أيضًا أن يكونَ اسمَ فاعِلٍ بمعنى الحامدِ، كما يصحُّ أن يكونَ اسمَ مفعولٍ بمعنى المحمودِ. يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

قال ابن عاشور: (اسمه «الحميد» صالحٌ لمعنى المحمودِ، فيكونُ فَعيلًا بمعنَى مفعولٍ، وصالحٌ لمعنَى كثيرِ الحمدِ، فيكونُ مِن أمثلةِ المُبالَغةِ؛ لأنَّ اللهَ يُثيبُ على فِعلِ الخَيرِ ثوابًا جزيلًا، ويُثْني على فاعِلِه ثناءً جميلًا، فكان بذلك كثيرَ الحمدِ. وقد حمَلَه على كِلا المعنيَين ابنُ بَرَّجَانَ الإشبيليُّ في شرحِه لأسماءِ الله الحُسْنى، ووافقه كلامُ ابنِ العربي في «أحكام القرآن» في =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

عن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روَى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّه قال: ((يا عبادي إنَّكم لن تَبلُغوا ضَرِّي فتَضُرُّوني، ولن تَبلُغوا نَفعي فتَنفَعوني، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أتقَى قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شَيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجَرِ قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ، ما نقَص ذلك مِن مُلكي شَيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسألتَه، ما نقَصَ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يَنقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البَحرَ، يا عبادي إنَّما هي أعمالُكم أُحصيها لكم، ثمَّ أُوَفِّيكم إيَّاها، فمَن وَجَد خَيرًا فلْيَحمَدِ اللهَ، ومَن وَجَد غَيرَ ذلك فلا يَلومَنَّ إلَّا نَفْسَه))[(١)].

الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ

= سورةِ الأعرافِ، وهو الحقُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤). ويُنظر: ((شرح أسماء الله الحسنى)) لابن برجان (١/ ١٤٧)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٤٧).

وقال ابنُ عُثَيمين: (كَلِمةُ «حميد» يَصِحُّ أن تكونَ اسمَ فاعلٍ، ويصِحُّ أنْ تكونَ بمعنى اسم المفعولِ؛ اسمُ الفاعِلِ: لأنَّه سُبحانَه وتعالَى حامِدٌ يَحمَدُ كُلَّ مَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه؛ ولهذا يُثني على رُسُلِه وأنبيائِه وعِبادِه الصَّالحينَ، والثَّناءُ عليهم هو الحَمدُ. وهو أيضًا المحمودُ على أمْرينِ: على ما لَه مِن كَمالِ الصِّفاتِ، وعلى ما له مِن كَمالِ الإنعامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

ءَاتَىٰكُمۡ﴾ أنَّه لَمَّا كانتِ المُصيبةُ تتضَمَّنُ فَواتَ مَحبوبٍ أو خَوفَ فَواتِه، أو حُصولَ مَكروهٍ أو خَوفَ حُصولِه؛ نَبَّهَ بالأَسى على الفائتِ على مُفارَقةِ المحبوبِ بعدَ حصولِه، وعلى فَوتِه حيثُ لم يَحْصُلْ، ونَبَّهَ بعَدَمِ الفرحِ به -إذا وُجِدَ- على تَوطينِ النَّفْسِ لِمُفارَقتِه قبْلَ وُقوعِها، وعلى الصَّبرِ على مَرارتِها بعدَ الوُقوعِ، وهذه هي أنواعُ المصائبِ، فإذا تَيَقَّنَ العبدُ أنَّها مَكتوبةٌ مُقَدَّرةٌ، وأنَّ ما أصابه منها لم يكُنْ لِيُخْطِئَه، وما أخطَأَه لَمْ يكن لِيُصيبَه؛ هانتْ عليه، وخَفَّ حَمْلُها، وأنزَلَها مَنزِلةَ الحَرِّ والبَرْدِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ أخبَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عِبادَه بذلك مِن أجْلِ أن تتقرَّرَ هذه القاعدةُ عندَهم، ويَبنوا عليها ما أصابهم مِن الخَيرِ والشَّرِّ، فلا يَأْسَوا ويَحزَنوا على ما فاتهم ممَّا طَمَحتْ له أنفُسُهم وتشَوَّفوا إليه؛ لِعِلْمِهم أنَّ ذلك مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، لا بُدَّ مِن نُفوذِه ووُقوعِه، فلا سبيلَ إلى دَفعِه، ولا يَفرَحوا بما آتاهم اللهُ فرَحَ بَطَرٍ وأشَرٍ؛ لعِلْمِهم أنَّهم ما أدرَكوه بحَولِهم وقُوَّتِهم، وإنَّما أدرَكوه بفَضلِ اللهِ ومَنِّه، فيَشتَغِلون بشُكرِ مَن أَولى النِّعَمَ، ودَفَع النِّقَمَ(٢).

٣- قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ فالعبدُ مأمورٌ بالصَّبرِ عندَ المصائبِ نظرًا إلى القَدَرِ، وأمَّا عندَ الذُّنوبِ فمأمورٌ بالاستِغفارِ؛ قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، أمَرَه أن يَصبِرَ على المصائبِ المُقَدَّرةِ ويَستغفِرَ من الذَّنْبِ، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

عمران: ١٨٦]، وقال يوسفُ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، فذكَر الصَّبرَ على المصائبِ، والتَّقْوى بتَرْكِ المعايبِ، فالنَّظَرُ إلى القَدَرِ عندَ المصائبِ، والاستِغفارُ عندَ المعايبِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ تنبيهٌ على أنَّ المُفرِحاتِ صائرةٌ إلى زَوالٍ، وأنَّ زَوالَها مُصيبةٌ، واعلَمْ أنَّ هذا مَقامُ المُؤمِنِ مِن الأدَبِ بعْدَ حُلولِ المُصيبةِ، وعِندَ نَوالِ الرَّغيبةِ[٢]. قال يحيى بنُ مُعاذٍ الرَّازيُّ: (يا ابنَ آدَمَ، لا تأسَفْ على مَفقودٍ لا يَرُدُّه عليك الفَوتُ، ولا تَفرَحْ بموجودٍ لا يَترُكُه في يديك الموتُ)[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ مَنْعُ إعجابِ المرءِ بعَمَلِه إذا عَمِلَ عَمَلًا يُشْكَرُ عليه؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي مَنَّ عليه، وقَدَّرَه له[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ الطُّمَأنينةُ والرَّاحةُ النَّفْسيَّةُ بما يَجري على العَبدِ مِن أقدارِ اللهِ تعالى، فلا يَقْلَقُ بفَواتِ محبوبٍ، أو حُصولِ مَكروهٍ؛ لأنَّ ذلك بقَدَرِ اللهِ الَّذي له مُلْكُ السَّمَواتِ والأرضِ، وهو كائِنٌ لا محالةَ[٥].

٧- قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: (ليس أحدٌ إلَّا وهو يَحزَنُ ويَفرَحُ، ولكنْ

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((شُعَب الإيمان)) للبيهقي (١/ ٣٩٧).
ونُسِب إلى جعفرٍ الصَّادقِ في ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٤٠٨).

(٥) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١١٥).

إذا أصابَتْه مصيبةٌ جعَلَها صبرًا، فإن أصابه خيرٌ جعَلَه شُكرًا)[١].

٨- قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ متى آمَنَ العبدُ بالقَدَرِ وعَلِمَ أنَّ المصيبةَ مُقَدَّرةٌ في الحاضرِ والغائبِ لم يَجزَعْ ولم يَفرَحْ، ولا يُنافي هذا رقَّةَ القلبِ؛ فإنَّها ناشئةٌ مِن صِفةِ الرَّحمةِ الَّتي هي كمالٌ، والله سُبحانَه إنَّما يَرحَمُ مِن عِبادِه الرُّحماءَ، وقد كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أرَقَّ النَّاسِ قلبًا، وأبْعَدَهم مِن الجَزَعِ، فرِقَّةُ القلبِ رأفةٌ ورحمةٌ، وجَزَعُه مرَضٌ وضَعفٌ[٢].

٩- لقد عزَّى اللهُ المؤمنينَ رحمةً لهم في مصائبِهِم، وزهَّدَهم في رغائبِهم، بأنَّ أسَفَهم على فَوتِ المطلوبِ لا يُعيدُه، وفرَحَهم بحُصولِ المحبوبِ لا يُفيدُهم، ولأنَّ ذلك لا مَطمَعَ في بقائِه إلَّا بادِّخارِه عندَ الله، فلا يزالُ العبدُ خائفًا عندَ النِّقمةِ، راجيًا أثَرَ النِّعمةِ، قائلًا في الحالَين: ما شاء اللهُ كان، وما لم يَشَأْ لم يكُنْ، وأكمَلُ مِن هذا أن يكونَ مسرورًا بذِكرِ رَبِّه له في كِلْتا الحالتَين، وقيمةُ الرِّجالِ إنَّما تُعرَفُ بالوارداتِ المغيِّرةِ، ومَن لم تُغَيِّرْه المَضارُّ ولم يَتأثَّرْ بالمَسارِّ فهو سَيِّدُ وَقْتِه[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ تحذيرٌ مِنَ الفَرَحِ، وفيه بيانٌ للمُرادِ مِنَ الفَرَحِ أنَّه الفَرَحُ المُفرِطُ البالِغُ بصاحِبِه إلى الاختيالِ والفَخْرِ[٤].

---

(١) أخرجه ابنُ أبي شَيْبةَ في ((المصنف)) (٧/ ١٣٧)، وابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢٢/ ٤٢١) والحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٢١) وقال: (صحيحُ الإسنادِ)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٦، ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ البُخلَ صِفةُ ذَمٍّ؛ حيثُ قَرَنَ البُخْلَ بالاختيالِ والفَخرِ والأمرِ بالبُخلِ، وذَمَّ على المجموعِ[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أنَّ اللهَ تعالى كَتَب في اللَّوحِ المحفوظِ مَقاديرَ كُلِّ شَيءٍ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ حُجَّةٌ على القَدَريَّةِ والمُعتزِلةِ واضِحةٌ؛ إذْ قد أخبَر سُبحانَه نصًّا بإيداعِ المصائبِ كتابَه السَّابِقَ قبْلَ وُقوعِها، والهاءُ في ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ لا تَخْلو مِن أنْ تكونَ راجِعةً على الأنْفُسِ، أو على الأرضِ؛ فإنْ كانت على الأرضِ فالأنفُسُ مَخلوقةٌ بَعْدَها، وإنْ كانت على الأنفُسِ فمَصائِبُها مَكتوبةٌ عليها قبْلَ خَلْقِها، وهي على كُلِّ الأحوالِ قبْلَ الأنفُسِ، والمعاصي أكبَرُ المصائبِ، والجِناياتُ مِن جانبِها، ومَن كُتِب عليه فِعلٌ يَفعَلُه أو يُفعَلُ به فلا بُدَّ مِن كَونِه[٣]. وهذه الآيةُ الكريمةُ مِن أدَلِّ دليلٍ على القَدَريَّةِ نُفاةِ العِلمِ السَّابِقِ[٤]، فقد استُدِلَّ بها على أنَّه تعالى عالِمٌ بالأشياءِ قبْلَ وُقوعِها. ووَجهُ الاستِدلالِ: أنَّه تعالى لَمَّا كَتَبَها في الكِتابِ قبْلَ وُقوعِها، وجاءت مُطابِقةً لذلك الكِتابِ؛ عَلِمْنا أنَّه تعالى عالِمٌ بها بأَسْرِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٣٦، ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٧).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أنَّ المرادَ ذَمُّ الفَرَحِ الَّذي يَختالُ فيه صاحِبُه ويَبطَرُ، وأمَّا الفَرَحُ بنِعمةِ اللهِ والشُّكرُ عليها فغَيرُ مَذمومٍ[١]؛ فليس المرادُ به الانتِهاءَ عن الحُزنِ والفَرَحِ -اللَّذَينِ لا ينفَكُّ عنهما الإنسانُ بطَبْعِه-، بل المرادُ الحُزنُ المُخرِجُ لصاحِبِه إلى الذُّهولِ عن الصَّبرِ والتَّسليمِ لأمرِ اللهِ تعالى، والفَرَحِ المُلْهي عن الشُّكرِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا آتَاكُمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ النِّعَمَ لا بُدَّ في إيجادِها وإبقائِها مِن حافِظٍ، ثُمَّ إنَّها لو خُلِّيَت ونَفْسَها فاتَت؛ لأنَّ الأشياء ليس مِن ذاتِها إلَّا العَدَمُ[٣]. فالفواتُ والعَدمُ ذاتيٌّ للأشياءِ، فلو خُلِّيتْ ونفسَها لم تَبْقَ، بخلافِ حصولِها وبقائِها؛ فإنَّه لا بدَّ مِن استنادِهما إليه عز وجل[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ دليلٌ على أنَّ الإنسانَ الَّذي يَتولَّى عن طاعةِ اللهِ إنَّما يَضُرُّ نفْسَه، ولا يَضُرُّ اللهَ شيئًا؛ فإنَّ اللهَ غنيٌّ، وفي الحَديثِ القُدُسيِّ: ((يا عِبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أفْجَرِ قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ، ما نَقَصَ ذلك مِن مُلكي شَيئًا))[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٢، ٥٥٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٧). ويُنظر أيضًا: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٧).
والحديثُ المذكورُ تقدَّم تخريجُه (ص: ١٧٣).

مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾

- قولُه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ (ما) نافيةٌ، و(مِن) صِلةٌ في النفْيِ؛ للدَّلالةِ على نفْيِ الجِنسِ؛ قَصْدًا للعُمومِ[١].

- ومَفعولُ ﴿أَصَابَ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: ما أصابَكُم، أو ما أصابَ أحَدًا[٢].

- وتَكريرُ حرْفِ النَّفيِ (لا) في المَعطوفِ على المنْفيِّ في قولِه: ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ لقَصْدِ الاهتِمامِ بذلك المذكورِ بخُصوصِه؛ فإنَّ المصائبَ الخاصَّةَ بالنَّفْسِ أشدُّ وقْعًا على المُصابِ؛ فإنَّ المصائِبَ العامَّةَ إذا أخطَأَتْه فإنَّما يَتأثَّرُ لها تأثُّرًا بالتَّعقُّلِ لا بالحِسِّ، فلا تَدومُ مُلاحظةُ النَّفْسِ إيَّاها[٣].

- والاستِثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ استِثناءٌ مِن أحوالٍ مَنفيَّةٍ بـ (ما)؛ إذ التَّقديرُ: ما أصابَ مِن مُصيبةٍ في الأرضِ كائنةٍ في حالٍ إلَّا في حالِ كَونِها مَكتوبةً في كتابٍ، أي: مُثبَتةً فيه. والقصْرُ المُفادُ بـ (إلَّا) قصْرُ مَوصوفٍ على صِفةٍ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ[٤]، أي: إلَّا في حالِ كَونِها في كتابٍ دونَ عدَمِ سبْقِ تَقديرِها في عِلمِ اللهِ، ردًّا على اعتقادِ المُشركين والمنافقينَ المذكورِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، وقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾[٥] [آل عمران: ١٦٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٠).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ردٌّ على أهْلِ الضَّلالِ مِن المشركين وبَعضِ أهلِ الكتابِ الَّذين لا يُثبِتون للهِ عُمومَ العِلمِ، ويُجوِّزون عليه البَداءَ(١) وتَمشِّي الحِيَلِ، ومِن أجْلِ قصْدِ الرَّدِّ على المُنكِرين أُكِّدَ الخبَرُ بـ(إنَّ)(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، فقد قال سُبحانه هنا: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، وقال في (التَّغابُن): ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]، ففصَّل هنا، وأَجمَلَ ثَمَّ؛ مُوافَقةً لِما قبْلَهما؛ لأنَّه فصَّلَ هنا بقولِه: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ...﴾ الآيةَ [الحديد: ٢٠]، بخلافِه ثَمَّ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

- قولُه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ التَّعليلُ بلامِ العِلَّةِ و(كَي) مُتعلِّقٌ بمُقدَّرٍ دلَّ عليه هذا الإخبارُ الحكيمُ، أي: أعلَمْناكم بذلك لكَي لا تَأْسَوا على ما فاتَكُم... إلخ(٤).

- وقولُه: ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ تَتميمٌ لقولِه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾؛ فإنَّ المقصودَ مِن الكلامِ ألَّا يَأْسَوا عندَ حُلولِ المصائبِ؛ لأنَّ

---

(١) البَداءُ له مَعانٍ؛ منها: البَداءُ في العِلمِ، وهو أن يَظهَرَ له خِلافُ ما عَلِم. والبَداءُ في الإرادةِ، وهو أن يَظهَرَ له صوابٌ على خِلافِ ما أراد وحكَمَ. والبَداءُ في الأمرِ: وهو أن يأمُرَ بشَيءٍ، ثمَّ يأمُرَ بشَيءٍ آخَرَ بَعْدَه بخِلافِ ذلك. يُنظر: ((المِلَل والنِّحَل)) للشَّهْرَسْتاني (١/ ١٤٨، ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١).

المقصودَ هو قولُه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾، ثمَّ يُعلَمُ أنَّ المَسرَّاتِ كذلك بطَريقِ الاكتفاءِ[١].

- وقُرِئَ قولُه: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ بمَدٍّ بعْدَ الهَمزةِ مُحوَّلٍ عن هَمزةٍ ثانيةٍ، هي فاءُ الكَلمةِ، أي: ما جعَلَه آتيًا لكم، أي: حاصِلًا عِندَكم؛ فالهمزةُ الأُولى للتَّعديةِ إلى مَفعولٍ ثانٍ، والتَّقديرُ: بما آتاكُمُوه. وعلى هذه القِراءةِ فعائدُ الموصولِ مَحذوفٌ؛ لأنَّه ضَميرٌ مُتَّصلٌ مَنصوبٌ بفِعلٍ، وفيه إدماجُ[٢] المِنَّةِ مع الموعظةِ؛ تَذكيرًا بأنَّ الخَيراتِ مِن فَضلِ اللهِ. وقُرِئَ ﴿بِمَا أَتَاكُمْ﴾ بهمْزةٍ واحدةٍ[٣]، على أنَّه مِن (أتى)؛ إذا حصَلَ، فعائدُ الموصولِ هو الضَّميرُ المستترُ المرفوعُ بـ (أتى)، وفي هذه القراءةِ مُقابَلةُ ﴿أَتَاكُمْ﴾ بـ ﴿فَاتَكُمْ﴾، وهو مُحسِّنُ الطِّباقِ[٤]، ففي كِلْتا القراءتينِ مُحسِّنٌ[٥].

- وفي تَخصيصِ التَّذييلِ بالنَّهيِ عن الفرَحِ المذكورِ: إيذانٌ بأنَّه أقبَحُ مِن الأَسَى[٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١). ويُنظر أيضًا: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٧).

والاكتفاءُ تقدم تعريفه (ص: ٩٨).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٦).

(٣) وهي قراءةُ أبي عَمرٍو، وقرأ الباقون بمدِّ الهمزةِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٤).

والقِراءتانِ مُتلازِمتانِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٢، ٤١٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١١).

ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

- يَجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ ابتِداءَ كلام على الاستِئناف؛ لأنَّ الكلامَ الَّذي قبْلَه خُتِمَ بالتَّذييلِ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]؛ فيكونَ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ مُبتدأً، وخبَرُه مَحذوفًا يدُلُّ عليه جَوابُ الشَّرطِ، وهو ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، والتَّقديرُ: فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنهم، وحامدٌ للمُنفِقينَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ مُتَّصِلًا بما قبْلَه على طَريقةِ التَّخلُّصِ؛ فيكونَ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بدَلًا مِن ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، أو خبَرًا لِمُبتدَأٍ مَحذوفٍ هو ضَميرُ ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، تَقديرُه: هم الَّذين يَبخَلون، وعلى هذا الاحتِمالِ الأخيرِ فهو مِن حذْفِ المُسنَدِ إليه اتِّباعًا للاستِعمالِ[١].

- وجُملةُ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّ (مَن يَتولَّ) يَعُمُّ الَّذين يَبخَلون وغيرَهم -على قولٍ-؛ فإنَّ الَّذين يَبخَلون ويأْمُرون بالبُخلِ قد تَولَّوا عن أمْرِ اللهِ، و(مَنْ) شَرطيَّةٌ عامَّةٌ[٢].

- وجُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ قائِمةٌ مَقامَ جَوابِ الشَّرطِ؛ لأنَّ مَضمونَها عِلَّةٌ للجوابِ، فالتَّقديرُ: ومَن يَتولَّ فلا يَضُرُّ اللهَ شيئًا، ولا يَضُرُّ الفقيرَ؛ لأنَّ اللهَ غنِيٌّ عن مالِ المُتولِّينَ، ولأنَّ له عِبادًا يُطيعون أمْرَه فيَحمَدُهم[٣].

- وجُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ تهديدٌ وإشعارٌ بأنَّ الأمرَ بالإنفاقِ إنَّما هو لمصلحةِ المُنفِقِ فقط[٤]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٣).
وتقدَّم الكلامُ على متابعة الاستعمال (ص: ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٢).

وقولُه: ﴿هُوَ﴾ تنصيصٌ على الحصرِ والتَّأكيدِ[١].

- والغَنِيُّ: الموصوفُ بالغِنَى، أي: عدَمِ الاحتِياجِ. ولَمَّا لم يُذكَرْ له مُتعلِّقٌ كان مُفيدًا الغِنى العامَّ[٢].

- والحميدُ: وصْفُ مُبالَغةٍ، أي: كثيرُ الحمْدِ للمُنفِقينَ؛ لأنَّ اللهَ يُثِيبُ على فِعلِ الخَيرِ ثَوابًا جَزيلًا، ويُثْني على فاعِلِه ثَناءً جَميلًا؛ فكان بذلك كَثيرَ الحمْدِ[٣]. وذلك على قولٍ في معناه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٣٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤، ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٦٥، ١٧٢).

الآيات (٢٥-٢٧)

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِالْقِسْطِ﴾: أي: بالعدلِ، وأصلُ القِسطِ يدُلُّ على مَعنيَينِ مُتضادَّيْنِ: العَدلِ، والجَوْرِ؛ يُقالُ: أَقْسَطَ: إذا عدَل، وقَسَط: إذا جارَ[(١)].

﴿بَأْسٌ﴾: أي: قُوَّةٌ وشِدَّةٌ، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضارَعَها[(٢)].

﴿قَفَّيْنَا﴾: أي: أتْبَعْنا، تَقولُ: قَفَوْتُ الرَّجُلَ: إذا تَبِعْتَه وسِرْتَ في أثَرِه، وأصلُ (قفو): يدُلُّ على إتباعِ شَيءٍ لِشَيءٍ[(٣)].

﴿رَأْفَةً﴾: الرَّأفةُ: أشَدُّ الرَّحمةِ، وأعلَى معانيها، وأبلغُها وأرَقُّها، وأصلُ (رأف):

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

يدُلُّ على رقَّةٍ ورحمةٍ[١].

﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾: الرَّهْبانيَّةُ: الغُلُوُّ في التَّعَبُّدِ، بالانفِرادِ في الجِبالِ، والانقِطاعِ عن النَّاسِ في الصَّوامِعِ، ورَفْضِ النِّساءِ، وتَرْكِ الدُّنيا، وهي اسمٌ مَبنيٌّ مِنَ «الرَّهبةِ» بمعنى الخَوفِ، وأصلُ (رهب): يدُلُّ على الخَوفِ[٢].

﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾: أي: أحْدَثوها واختَرَعوها، وأصلُ (بدع): يدُلُّ على ابتِداءِ شَيءٍ وصُنْعِه لا عن مِثالٍ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾

قَولُه تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ في نَصبِ «رَهبانيَّةً» وَجهانِ:

أحَدُهما: أنَّها مَنصوبةٌ على الاشتِغالِ بفِعلٍ مَحذوفٍ يُفَسِّرُه الفِعلُ المذكورُ بَعْدَها، أي: وابتَدَعوا رَهبانيَّةً ابتَدَعوها. فالوَقفُ تامٌّ عِندَ قَولِه: ﴿وَرَحْمَةً﴾، ثمَّ يَبتَدِئُ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾، أي: لم نَشْرَعْها لهم، بل هم ابتَدَعوها مِن عندِ أنفُسِهم، ولم نَكتُبْها عليهم، وجُملةُ ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ مُفَسِّرةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ.

والوَجهُ الثَّاني: أنَّها مَعطوفةٌ على ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، و«جَعَلَ» على هذا بمعنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٤) و(٣/ ٥٩٥) و(٢٢/ ٤٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٢).

«خَلَقَ»؛ فالجَعْلُ هنا جَعلٌ كَونيٌّ قَدَريٌّ، وليس جَعْلًا شَرعيًّا دِينيًّا، و﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ صِفةٌ لـ (رَهْبَانِيَّةً)، أي: جَعَل اللهُ في قُلوبِهم الرَّأفةَ والرَّحمةَ والرَّهبانيَّةَ المُبتَدَعةَ[1].

قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ مَنصوبٌ على الاستِثناءِ المُنقَطِعِ، أي: لم نَفْرِضْها عليهم، ولكِنَّهم ابتَدَعوها ابتِغاءَ رِضوانِ اللهِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: لقد أرسَلْنا رُسُلَنا بالحُجَجِ والبَراهينِ الواضِحةِ، وأنزَلْنا معهم الكِتابَ والميزانَ؛ لِيَقُومَ النَّاسُ بالعَدْلِ، وأنزَلْنا الحديدَ فيه قُوَّةٌ وصَلابةٌ، ومنه تُصنَعُ آلاتُ الحربِ، وفيه مَنافِعُ للنَّاسِ في مَعايِشِهم، ولِيَعلَمَ اللهُ مَن يَستَعمِلُ السِّلاحَ المُتَّخَذَ مِنَ الحَديدِ في نَصرِ اللهِ ورُسُلِه بالغَيبِ، إنَّ اللهَ قَويٌّ فلا يُعجِزُه شَيءٌ، عزيزٌ لا يُغلَبُ ولا يُقهَرُ سُبحانَه.

ثمَّ يقولُ تعالى: ولقد أرسَلْنا نُوحًا وإبراهيمَ، وجعَلْنا في نَسْلِهما الأنبياءَ والكُتُبَ؛ فمِنهم مُهْتَدٍ إلى الحَقِّ، وكثيرٌ مِنهم خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، ثمَّ أتْبَعْنا على آثارِهم رُسُلَنا واحِدًا تِلْوَ الآخَرِ، وأرسَلْنا مِن بَعْدِهم عيسى ابنَ مَريَمَ، وآتَيْناه الإنجيلَ، وجعَلْنا في قُلوبِ الَّذين اتَّبَعوه رِقَّةً ورَحمةً. ورَهبانيَّةً ابتَدَعوها مِن عِندِ أنفُسِهم، لم نَفرِضْها عليهم، بل ابتَدَعوها طَلَبًا لِرِضا اللهِ تعالى، فما رَعَوا تلك الرَّهبانيَّةَ

(١) قال ابن عطيَّة: (والمعتزلةُ تُعرِبُ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ أنَّها نصبٌ بإضمارِ فِعلٍ يُفَسِّرُه ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾، وليست بمعطوفةٍ على الرَّأفةِ والرَّحمةِ، ويَذهَبون في ذلك إلى أنَّ الإنسانَ يَخلُقُ أفعالَه، فيُعرِبون الآيةَ على مَذهَبِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٢/ ١٨٩-١٩٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٥٤- ٢٥٧)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٧٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٣).

الَّتي ابتَدَعوها الرِّعايةَ الواجِبةَ، فآتَيْنا المؤمِنينَ مِنهم أجْرَهم، وكثيرٌ مِنهم خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

أي: لقد أرسَلْنا رُسُلَنا بالحُجَجِ والبَراهينِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على صِدْقِهم[1].

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

أي: وأنزَلْنا مع رُسُلِنا الكِتابَ بالحَقِّ، وأنزَلْنا معهم العَدْلَ[2]؛ لِيَتعامَلَ النَّاسُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٠)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

(٢) قال ابنُ عطيَّة: (﴿وَالْمِيزَانَ﴾: العَدْلَ في تأويلِ أكثَرِ المُتأوِّلينَ. وقال ابنُ زَيدٍ وغَيرُه مِن المتأوِّلينَ: أراد الموازينَ المُصَرَّفةَ بيْنَ النَّاسِ. وهذا جزءٌ مِنَ القَولِ الأوَّلِ. وقَولُه: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ يُقَوِّي القَولَ الأوَّلَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٩).

وقال ابنُ تيميَّة: (والميزانُ يُفَسِّرُه السَّلَفُ بالعَدلِ، ويُفَسِّرُه بَعضُهم بما يُوزَنُ به، وهما مُتلازِمانِ). ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٣٧١).

وقال ابن كثير: (﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو: العدلُ. قاله مُجاهِدٌ، وقَتادةُ، وغيرُهما. وهو الحقُّ الَّذي تَشهَدُ به العقولُ الصَّحيحةُ المُستقيمةُ، المُخالِفةُ للآراءِ السَّقيمةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧).

قيل: المعنَى: وأمَرْنا بالعَدْلِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٢).

وقال ابن كثير: (﴿... بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحقِّ والعدلِ، وهو: اتِّباعُ الرُّسُلِ فيما أخبَروا به، وطاعتُهم فيما أمَروا به؛ فإنَّ الَّذي جاؤُوا به هو الحقُّ الَّذي ليس وراءَه حقٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧).

بَيْنَهم بالعَدلِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإعراضُ بعدَ الإبلاغِ في الإيضاحِ مُوجِبًا للرَّدِّ على الفَسادِ بأنواعِ الجِهادِ؛ قال مُهَدِّدًا ومُمْتَنًّا، ترغيبًا وترهيبًا[٢]:

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.

أي: وخَلَقْنا الحديدَ، فيه قُوَّةٌ وصَلابةٌ شَديدةٌ، ومنه تُصنَعُ آلاتُ الحربِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٦، ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٢).

قال السعدي: (الكِتابُ هو اسمُ جِنسٍ يَشملُ سائِرَ الكُتُبِ الَّتي أنزَلَها اللهُ لهدايةِ الخَلقِ، وإرشادِهم إلى ما يَنفَعُهم في دينِهم ودُنياهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

وقال الواحدي: (﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ لِيَتعامَلَ النَّاسُ بَيْنَهم بالعَدلِ). ((الوجيز)) (ص: ١٠٧١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٤). =

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾.

أي: وفي الحَديدِ مَنافِعُ كَثيرةٌ للنَّاسِ في مَعايِشِهم وحاجاتِهم المُتنوِّعةِ[(١)].

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

أي: ولِيَعلَمَ اللهُ -عِلمَ رُؤيةٍ وظُهورٍ للوُجودِ يَترَتَّبُ عليه الثَّوابُ والعِقابُ- مَن يَنصرُ دينَ الله، ويَنصرُ رُسُلَه، بالغَيبِ[(٢)].

= قال الشوكاني: (﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ أي: خلَقْناه، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ [الزمر: ٦] والمعنى: أنَّه خلَقَه مِن المعادِنِ، وعَلَّم النَّاسَ صَنْعَتَه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٤).

قال الرَّسْعَني: (﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ في مَعايِشهم ومصالحِهم وصنائِعِهم. فقَلَّ أن تَرى صنعةً إلَّا والحديدُ قِوامُها، أو له فيها مَدخَلٌ بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٤-٤٢٦).

قال البقاعي: (﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ﴾... عِلمَ شَهادةٍ؛ لأجْلِ إقامةِ الحُجَّةِ بما يَليقُ بعُقولِ الخَلقِ، فيكَونَ الجَزاءُ على العَمَلِ لا على العِلمِ). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠١).

وقال ابن عثيمين: (المرادُ عِلْمُ الظُّهورِ الَّذي يترتَّبُ عليه الثَّوابُ أو العِقابُ...؛ لأنَّه سُبحانَه لم يَزَلْ ولا يَزالُ عالِمًا بكُلِّ شَيءٍ، ولكن لا يُشْكِلْ عليك الأمرُ، لا تَقُلْ: إنَّ اللهَ لا يَعلَمُ إلَّا بعدَ هذا! فالعِلمُ عِلْمانِ: عِلْمٌ بالشَّيءِ قبْلَ وُجودِه، وعِلْمٌ بالشَّيءِ بعدَ وُجودِه، والعِلمُ السَّابقُ لا يَترتَّبُ عليه ثَوابٌ ولا عِقابٌ حتَّى يُمتحَنَ النَّاسُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٤).

وقولُه ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾: قيل: بالغَيبِ منه عنهم، أو غائبًا عنهم، أو غائبينَ عنه، أو وهم لم يَرَوُا اللهَ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والرازيُّ، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢١٢)، ((تفسير الجلالين)) (١١/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان طَلَبُ النُّصْرةِ مَظِنَّةً لتَوَهُّمِ الضَّعفِ، نفى ذلك[١]، وذَكَر أنَّه غَنِيٌّ عن نُصرتِه بقُدرتِه وعِزَّتِه، وأنَّه إنَّما كَلَّفَهم الجِهادَ لِمَنفعةِ أنفُسِهم، وتحصيلِ ما يترَتَّبُ لهم مِن الثَّوابِ[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو القُوَّةِ البالغةِ فلا يُعجِزُه شَيءٌ، وذو العِزَّةِ التَّامَّةِ فيَمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ وسُوءٍ ونَقصٍ؛ فهو الغالِبُ القاهِرُ الَّذي لا يُغلَبُ ولا يُقهَرُ[٣]!

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

= الحديد)) (ص: ٤٢٦).

وقيل: المرادُ: ولم يرَ الله ولا الآخرةَ. وممَّن اختاره: البغويُّ، وابن الجوزي، والخازن. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٥٢).

قال القرطبي: (﴿وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: يَنصُرونَهم لا يُكَذِّبونهم، ويؤمِنون بهم ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وهم لا يَرَوْنَهم). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦١).

وقيل: أي: بما سمِع مِن الأوصافِ الغائبةِ عنه، فآمَن بها؛ لقيامِ الأدِلَّةِ عليها. وممَّن اختاره: ابنُ عطية، وأبو حيَّان، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٥).

وقال البِقاعي: (كائنًا ذلك النَّصرُ بالغَيبِ مِن الوعدِ والوعيدِ، أي: بسببِ تصديقِ النَّاصِرِ لِما غاب عنه مِن ذلك. أو: غائبًا عن كلِّ ما أوجَب له النُّصرةَ). ((نظم الدرر)) (٧/ ٤٥٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر نبُوَّةَ الأنبياءِ عُمومًا؛ ذكَرَ مِن خَواصِّهم النَّبِيَّيْنِ الكريمَينِ نُوحًا وإبراهيمَ اللَّذَينِ جَعَل اللهُ النُّبُوَّةَ والكتابَ في ذُرِّيَّتِهما[1].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا نُوحًا وإبراهيمَ إلى قَومِهما[2].

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾.

أي: وجعَلْنا في نَسْلِ نُوحٍ وإبراهيمَ جَميعَ الأنبياءِ والكُتُبِ الإلهيَّةِ مِن بَعْدِهما؛ كالتَّوراةِ، والزَّبُورِ، والإنجيلِ، والقُرآنِ[3].

كما قال تعالى عن نُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧ - ٧٩].

وقال سُبحانَه عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقال الله تبارك وتعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ ﴾: ما كان بيَدِ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ وذُرِّيَّةِ إبراهيمَ مِن الكُتُبِ الَّتي فيها أصولُ ديانتِهم مِن صُحُفِ إبراهيمَ، وما حَفِظوه مِن وَصاياه ووصايا إسماعيلَ وإسحاقَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٩).

[الصافات: ١١٢، ١١٣].

﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾.

أي: فمِن ذُرِّيَّةِ نُوحٍ وإبراهيمَ مَن هو مُهْتَدٍ إلى الحَقِّ(١).

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

أي: وكثيرٌ مِن ذُرِّيَّتِهما خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، ضالُّونَ عن طَريقِ الحَقِّ والهُدى(٢).

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾.

أي: ثمَّ أتْبَعْنا على آثارِهم رُسُلَنا إلى أقوامِهم، فأرسَلْناهم واحِدًا تِلْوَ آخَرَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٧).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ يعودُ إلى الذُّرِّيَّةِ، أي: على آثارِ الذُّرِّيَّةِ. وممَّن ذهب إلى هذا: مكِّي، والقرطبي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٢).

وقيل: على آثارِ نُوحٍ وإبراهيمَ عليهما السَّلامُ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢٩). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان عيسى عليه السَّلامُ أعظَمَ مَن جاء بعْدَ مُوسى عليه السَّلامُ مِن بني إسرائيلَ؛ وهو المُؤَيَّدُ به هذا النَّبيُّ الخاتَمُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في تجديدِ دِينِه، وتقريرِ شَريعتِه، وكان الزُّهْدُ والرَّأفةُ والرَّحمةُ في تابِعِيه في غايةِ الظُّهورِ، مع أنَّ ذلك لم يَمنَعْهم مِن القَسوةِ المُنَبِّهةِ سابِقًا على أنَّ المُوجِبَ لها طُولُ الأمَدِ، النَّاشِئِ عنها الإعراضُ عن الآياتِ الحاضِرةِ معه، والكِتابِ الباقي بَعْدَه- خَصَّه بالذِّكرِ، فقال تعالى[1]:

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾.

أي: وأرسَلْنا مِن بَعْدِهم عيسى ابنَ مَريَمَ، وآتَيْناه الكِتابَ المُسَمَّى بالإنجيلِ[2].

= وقيل: مِن بَعدِ نُوحٍ وإبراهيمَ وذُرِّيَّتِهما. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٨).
وقال النسفي: (﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ أي: نوحٍ وإبراهيمَ ومَن مضى مِن الأنبياءِ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٤٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٧).
وقال البيضاوي: (أي: أرسَلْنا رَسولًا بعْدَ رَسولٍ، حتَّى انتهى إلى عيسى عليه السَّلامُ، والضَّميرُ لنُوحٍ وإبراهيمَ ومَن أُرسِلَا إليهم، أو مَن عاصَرَهما مِنَ الرُّسُلِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٠).
وقال البِقاعي: (﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ أي: الأبوَينِ المَذكورَينِ ومَن مضى قَبْلَهما مِنَ الرُّسُلِ، ولا يعودُ الضَّميرُ على الذُّرِّيَّةِ؛ لأنَّها باقيةٌ مع الرُّسُلِ وبَعْدَهم). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٠٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

كما قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

أي: وجعَلْنا في قُلوبِ الَّذين اتَّبَعوا عِيسى على دِينِه رِقَّةً ولِينًا ورَحمةً[1].

كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٤].

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ورَهبانيَّةً ابتَدَعوها مِن عِندِ أنفُسِهم، ولم نَفرِضْها عليهم؛ فاعتَزَلوا النَّاسَ، ورَفَضوا الزَّواجَ، وتَرَكوا الدُّنيا، وآثَروا العُكوفَ والتَّفرُّغَ للعبادةِ في الصَّوامِعِ أو الجِبالِ أو غَيرِها[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٢٨).

والفرقُ بيْنَ الرَّأفةِ والرَّحمةِ أنَّ الرَّأفةَ أبْلَغُ مِن الرَّحمةِ، فهي أشَدُّ الرَّحمةِ وأرَقُّها. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٥٩)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ١٩٦).

وقيل: الرَّأفةُ: الرَّحمةُ المُتعلِّقةُ بدَفْعِ الأذَى والضُّرِّ، والرَّحمةُ: العطْفُ والمُلايَنةُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ما ابتَدَعوها إلَّا طَلَبًا لِرِضا اللهِ تعالى[(١)].

= (١٧/ ٢٦٣)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (للنَّاسِ في قَولِه: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً﴾ قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّها مَنصوبةٌ -يعني: ابتَدَعوها- إمَّا بفِعلٍ مُضمَرٍ يُفَسِّرُه ما بَعْدَه، أو يُقالُ: هذا الفِعلُ عَمِلَ في المُضمَرِ والمُظهَرِ، كما هو قَولُ الكوفيِّينَ. حكاه عنهم ابنُ جَريرٍ، وثَعلَبٌ وغَيرُهما... وعلى هذا القَولِ فلا تكونُ الرَّهبانيَّةُ مَعطوفةً على الرَّأفةِ والرَّحمةِ.

والقَولُ الثَّاني: أنَّها مَعطوفةٌ عليها، فيكونُ اللهُ قد جَعَل في قُلوبِهم الرَّأفةَ والرَّحمةَ والرَّهبانيَّةَ المُبتدَعةَ، ويكونُ هذا جعلًا خَلْقِيًّا كَونيًّا، والجَعْلُ الكَونيُّ يَتناوَلُ الخَيرَ والشَّرَّ، كقَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، وعلى هذا القَولِ فلا مَدْحَ للرَّهبانيَّةِ بجَعْلِها في القُلوبِ، فثَبَت على التَّقديرَينِ أنَّه ليس في القُرآنِ مَدحٌ للرَّهبانيَّةِ). ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) (٢/ ١٨٩-١٩١).

وقال البِقاعي: (ولَمَّا قَدَّم المعمولَ لِفعلٍ غَيرِ مَذكورٍ؛ لِيَدُلَّ عليه بما يُفَسِّرُه، لِيَكونَ مَذكورًا مرَّتينِ تأكيدًا له، وإفهامًا لذَمِّ نَفْسِ الابتِداعِ- أتْبَعَه المُفَسِّرَ لعامِلِه، فقال: ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾... وفي التَّقديمِ على العامِلِ سِرٌّ آخَرُ، وهو الصَّلاحيةُ للعَطفِ على ما قَبْلَها؛ لئَلَّا يُتوهَّمَ في لَفظِ الابتِداعِ أنْ لا صُنْعَ للهِ فيها). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٠٦، ٣٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٦٠، ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٨).

قال القرطبي: (وقَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أمَرْناهم إلَّا بما يُرضي اللهَ. قاله ابنُ مسلم. وقال الزَّجَّاجُ: ﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ معناه: لم نَكتُبْ عليهم شيئًا البتَّةَ، ويكونُ ﴿ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ بدلًا مِنَ الهاءِ والألِفِ في ﴿كَتَبۡنَٰهَا﴾، والمعنى: ما كتَبْنا عليهم إلَّا ابتغاءَ رِضوانِ اللهِ. وقيل: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ﴾ الاستِثناءُ مُنقَطِعٌ، والتَّقديرُ: ما كتَبْناها عليهم لَكِنِ ابتَدَعوها ابتِغاءَ رِضوانِ اللهِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٣). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٣٠).

وقال ابن كثير: (وقولُه: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّهم قصَدوا بذلك =

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

أي: فما رَعَوا تلك الرَّهبانيَّةَ الَّتي ابتَدَعوها الرِّعايةَ الواجِبةَ، وما قاموا بها حَقَّ القيامِ[1].

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾.

أي: فآتَيْنا المؤمِنينَ مِنهم ثوابَ إيمانِهم[2].

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت مُتابَعةُ الأهواءِ تَكسِبُ صِفاتٍ ذَميمةً تَصيرُ مَلَكاتٍ راسِخةً للأنفُسِ،

= رِضوانَ الله، قاله سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ. والآخَرُ: ما كتَبْنا عليهم ذلك، إنَّما كتَبْنا عليهم ابتِغاءَ رِضوانِ الله). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٨).

قال ابنُ جرير: (الَّذين لم يَرعَوها حَقَّ رِعايتِها مُمكِنٌ أن يكونَوا كانوا على عَهدِ الَّذين ابتَدَعوها، وممكِنٌ أن يكونوا كانوا بَعْدَهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٣).

وقال ابنُ كثير: (أي: فما قاموا بما التَزَموه حَقَّ القيامِ، وهذا ذمٌّ لهم مِن وَجهَينِ؛ أحَدُهما: في الابتِداعِ في دينِ اللهِ ما لم يأمُرْ به اللهُ. والثَّاني: في عدَمِ قيامِهم بما التَزَموه مِمَّا زَعَموا أنَّه قُربةٌ يُقَرِّبُهم إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩). ويُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١٦٩).

وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ الآيةِ أنَّ جَميعَهم قَصَّروا تقصيرًا مُتفاوِتًا، قَصَّروا في أداءِ حقِّها... والمعنى: ما حَفِظوا شؤونَ الرَّهبانيَّةِ حِفظًا كاملًا، فمَصَبُّ النَّفيِ هو القَيدُ بوَصفِ ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، وهذا الانتفاء لهُ مراتِبُ كثيرةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٥، ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٨).

أشار إلى ذلك بالعُدولِ عن النَّهْجِ الأوَّلِ، فقال[١]:

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

أي: وكثيرٌ مِن أولئك خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، ضالُّونَ عن طَريقِ الحَقِّ والهُدى[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ على اعتبارِ أنَّ المرادَ بالحَديدِ السِّلاحُ: حَضٌّ على القِتالِ، وتَرغيبٌ فيه[٣].

٢- اعلَمْ أنَّ الدَّعوةَ إلى الله تعالى بطَريقَينِ: طَريقِ لِينٍ، وطَريقِ قَسْوةٍ؛ أمَّا طَريقُ اللِّينِ: فهي الدَّعوةُ إلى اللهِ تعالى بالحِكمةِ والمَوعِظةِ الحَسَنةِ، وإيضاحِ الأدِلَّةِ في أحسَنِ أُسلوبٍ وألطَفِه، فإنْ نجَحَت هذه الطَّريقُ فبها ونِعْمَتْ، وهو المطلوبُ، وإنْ لم تَنجَحْ تَعَيَّنَت طَريقُ القَسوةِ بالسَّيفِ حتَّى يُعبَدَ اللهُ وَحْدَه، وتُقامَ حُدودُه، وتُمتَثَلَ أوامِرُه، وتُجتَنَبَ نَواهيه، وإلى هذه الإشارةُ بقَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٦، ٤٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾؛ ففيه الإشارةُ إلى إعمالِ السَّيفِ بَعْدَ إقامةِ الحُجَّةِ؛ فإنْ لم تَنفَعِ الكُتُبُ تعيَّنَت الكَتائِبُ، واللهُ تعالى قد يَزَعُ بالسُّلطانِ ما لا يَزَعُ بالقُرآنِ[١]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ لَفتُ بَصائِرِ السَّامِعينَ إلى الاعتِبارِ بحِكمةِ اللهِ تعالى مِن خَلقِ الحَديدِ وإلهامِ صُنْعِه، والتَّنبيهِ على أنَّ ما فيه مِن نَفْعٍ وبأسٍ إنَّما أُريدَ به أن يُوضَعَ بأسُه حيثُ يَستَحِقُّ، ويُوضَعَ نَفْعُه حيثُ يَليقُ به، لا لِتُجعَلَ مَنافِعُه لِمَن لا يَستَحِقُّها، مِثلُ قُطَّاعِ الطَّريقِ، والثُّوَّارِ على أهلِ العَدْلِ؛ ولِتَجهيزِ الجُيوشِ لحِمايةِ الأوطانِ مِن أهلِ العُدوانِ، وللادِّخارِ في البُيوتِ لِدَفعِ الضَّارياتِ والعادياتِ على الحُرَمِ والأموالِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أنَّه لَمَّا كانت النُّصْرةُ قد تكونُ ظاهِرةً، كما يقَعُ مِن مُنافِقٍ، أو ممَّن مُرادُه المنافِعُ في الدُّنيا؛ بَيَّنَ تعالى أنَّ الَّذي أراده: النُّصرةُ بالغَيبِ، ومعناه: أن تَقَعَ عن إخلاصٍ بالقَلبِ[٣]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ يَدخُلُ في هذا النَّصرِ نَصرُ شَرائِعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعْدَه، ونَصرُ وُلاةِ أُمورِ المُسلِمينَ القائِمينَ بالحَقِّ[٤].

٦- ذُكِرَ عِندَ عبدِ الرَّحمنِ بنِ مَهْديٍّ قَومٌ مِن أهلِ البِدَعِ، واجتِهادُهم في العِبادةِ، فقال: (لا يَقبَلُ اللهُ إلَّا ما كان على الأمرِ والسُّنَّةِ، ثمَّ قرَأَ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٨).

عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الحديد: ٢٧]، فلم يَقبَلْ ذلك منهم، ووبَّخَهم عليه. ثمَّ قال: الزَمِ الطَّريقَ والسُّنَّةَ)[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ تنفيرٌ عَظيمٌ عن البِدَعِ، وحَثٌّ شَديدٌ على لُزومِ ما سَنَّه اللهُ وشَرَعَ، وتحذيرٌ مِن التَّشديدِ؛ فإنَّه لن يُشادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلَّا غَلَبَه. وفيه أيضًا حَثٌّ عَظيمٌ على المُداوَمةِ على ما اعْتِيدَ مِن الأعمالِ الصَّالِحةِ، خُصوصًا أنَّه ما عَمِلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَمَلًا إلَّا داوَمَ عليه، وكان يَنهى عن التَّعَمُّقِ في الدِّينِ، ويأمُرُ بالرِّفْقِ والقَصْدِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ هذه جملةٌ مؤكَّدةٌ بـ «اللَّامِ»، و«قد»، و«القَسَمِ المُقَدَّرِ»، والتَّقديرُ: واللهِ لقد أرسَلْنا رُسُلَنا بالبيِّناتِ، ولعَلَّ قائلًا يقولُ: كيف يُقْسِمُ اللهُ؟ وكيف يُؤَكِّدُ اللهُ خَبَرَه بالقَسَمِ، وهو الصَّادِقُ بدونِ ذلك؟!

الجوابُ: أنَّ القرآنَ الكريمَ نَزَلَ بلِسانٍ عَرَبيٍّ مُبينٍ، واللِّسانُ العَربيُّ المُبينُ يُؤَكِّدُ الأشياءَ الهامَّةَ، أو الأشياءَ المُنْكَرةَ بأنواعِ المؤكِّداتِ حتَّى يَطْمَئِنَّ المُخاطَبُ، ولا يَرتابَ المُرتابُ، وهذا يُذكَرُ في القُرآنِ كثيرًا[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أنَّ الكتابَ أعَمُّ مِن القُرآنِ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أنَّ

(١) يُنظر: ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦٥).

كلَّ رسولٍ معه كتابٌ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه إذا كان هذا الميزانُ مِمَّا يُعرَفُ بالعَقلِ فكيف جَعَلَه اللهُ تعالى مما أُرسِلَتْ به الرُّسُلُ؟

الجَوابُ: أنَّ الرُّسُلَ ضَرَبَتْ للنَّاسِ الأمثالَ العَقليَّةَ الَّتي يَعرِفونَ بها التَّماثُلَ والاختِلافَ؛ فإنَّ الرُّسُلَ دَلَّتِ النَّاسَ وأرشَدَتْهم إلى ما به يَعرِفونَ العَدْلَ، ويَعرِفونَ الأقيسةَ العَقليَّةَ الصَّحيحةَ الَّتي يُستَدَلُّ بها على المطالِبِ الدِّينيَّةِ؛ فليستِ العُلومُ النَّبَويَّةُ مَقصورةً على مجرَّدِ الخبَرِ -كما يَظُنُّ ذلك مَن يَظُنُّه مِن أهلِ الكلامِ، ويَجعلون ما يُعْلَمُ بالعَقلِ قَسيمًا للعُلومِ النَّبَويَّةِ-، بلِ الرُّسُلُ صلواتُ اللهِ عليهم بَيَّنَتِ العُلومَ العَقليَّةَ الَّتي بها يَتِمُّ دينُ النَّاسِ عِلمًا وعَمَلًا، وضربتِ الأمثالَ، فَكَمَلَت الفِطرةُ بما نَبَّهَتْها عليه وأرشَدَتْها؛ مِمَّا كانتِ الفِطرةُ مُعرِضةً عنه، أو كانتِ الفِطرةُ قد فَسَدَتْ بما حَصَلَ لها مِنَ الآراءِ والأهواءِ الفاسِدةِ، فأزالتْ ذلك الفَسادَ، وبَيَّنَتْ ما كانتِ الفِطرةُ مُعرِضةً عنه، حتَّى صار عندَ الفِطرةِ مَعرِفةُ الموازينِ الَّتي أَنزَلها اللهُ وبَيَّنَتْها رُسُلُه، والقُرآنُ والحديثُ مملوءٌ مِن هذا؛ يُبَيِّنُ اللهُ الحقائقَ بالمقاييسِ العَقليَّةِ والأمثالِ المضروبةِ، ويُبَيِّنُ طُرُقَ التَّسويةِ بيْنَ المُتماثِلَينِ، والفَرْقَ بيْنَ المُختَلِفَينِ، ويُنكِرُ على مَن يَخرُجُ عن ذلك؛ كقَولِه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقَولِه تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، أي: هذا حُكْمٌ جائِرٌ لا عادِلٌ؛ فإنَّ فيه تَسويةً بيْنَ المختلفَينِ، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٨).

[ص: ٢٨]، ومِن التَّسويةِ بيْن المتماثلَين قَولُه تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣]. فجِنْسُ الميزانِ العَقليِّ حقٌّ كما ذَكَرَ اللهُ في كتابِه، وليس هو مُختَصًّا بمَنطِقِ اليونانِ -وإنْ كان فيه قِسْطٌ منها-، بل هي الأقيسةُ الصَّحيحةُ المتضمِّنةُ التَّسويةَ بيْن المتماثلَين، والفَرْقَ بيْن المختلفَين، سواءٌ صِيغَ ذلك بصيغةِ قياسِ الشُّمولِ[١]، أو بصيغةِ قياسِ التَّمثيلِ[٢]. وصِيَغُ التَّمثيلِ هي الأصلُ، وهي أكمَلُ، والميزانُ هو القَدْرُ المُشترَكُ، وهو الجامِعُ، وهو الحدُّ الأوسَطُ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أنَّ الأصلَ في العُقودِ كلِّها إنَّما هو العَدْلُ الَّذي بُعِثَتْ به الرُّسُلُ، وأُنزِلَتْ به الكُتُبُ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ

---

(١) قياس الشُّمولِ: هو انتِقالُ الذِّهنِ مِن المُعَيَّنِ إلى المعنى العامِّ المُشترَكِ الكُلِّيِّ المُتناوِلِ له ولغيرِه، والحُكمُ عليه بما يلزمُ المُشترَكَ الكُلِّيَّ، بأن ينتقلَ مِن ذلك الكُلِّيِّ اللَّازِمِ إلى الملزومِ الأوَّلِ وهو المُعَيَّنُ، فهو انتِقالٌ مِن خاصٍّ إلى عامٍّ، ثمَّ انتِقالٌ مِن ذلك العامِّ إلى الخاصِّ؛ مِن جُزئيٍّ إلى كُلِّيٍّ، ثمَّ مِن ذلك الكُلِّيِّ إلى الجُزئيِّ الأوَّلِ، فيُحكَمُ عليه بذلك الكُلِّيِّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١١٩).

(٢) قياس التَّمثيلِ: هو حمْلُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ، أو إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما، مثل: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ هو القياسُ الأُصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (ص: ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣٨٢).
والحدُّ الأوسطُ: هو ما يكونُ مكرَّرًا بيْن القضيَّتَينِ الصُّغرى والكبرى. يُنظر: ((معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم)) للسيوطي (ص: ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٢٩٢).

لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أنَّ الشَّريعةَ مَبْناها على العَدْلِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أنَّ المقصودَ مِن إرسالِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ أنْ يقومَ النَّاسُ بالقِسْطِ في حُقوقِ اللهِ وحُقوقِ خَلْقِه[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أَخْبَرَ الله سُبحانَه وتعالى أنَّه أَرْسَلَ رُسُلَه وأَنْزَلَ كُتُبَه؛ لِيَقومَ النَّاسُ بالقِسطِ، وهو العَدلُ، ومِن أعظَمِ القِسطِ التَّوحيدُ، وهو رأسُ العَدلِ وقِوامُه، وإنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظيمٌ؛ فالشِّرْكُ أظلَمُ الظُّلْمِ، والتَّوحيدُ أعدَلُ العَدلِ، فما كان أشَدَّ مُنافاةً لهذا المقصودِ فهو أكبَرُ الكبائرِ، وتفاوتُها في دَرَجاتِها بحَسَبِ مُنافاتِها له، وما كان أشدَّ مُوافَقةً لهذا المقصودِ فهو أوجَبُ الواجِباتِ، وأفرَضُ الطَّاعاتِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أنَّ الدِّينَ لن يقومَ إلَّا بالكِتابِ، والميزانِ، والحَديدِ؛ كِتابٌ يَهدي به، وحَديدٌ يَنْصُرُه، فالكِتابُ به يقومُ العِلمُ والدِّينُ، والميزانُ به تقومُ الحُقوقُ في العقودِ الماليةِ والقُبوضِ، والحَديدُ به تقومُ الحدودُ على الكافِرينَ والمنافِقينَ، ولهذا كان في الأزمانِ المتأخِّرةِ الكتابُ للعُلَماءِ والعُبَّادِ، والميزانُ للوزراءِ والكُتَّابِ وأهلِ الدِّيوانِ، والحديدُ للأمراءِ والأَجْنَادِ، والكِتابُ له الصَّلاةُ، والحديدُ له الجِهادُ؛ ولهذا كان أكثرُ الآياتِ والأحاديثِ النَّبويَّةِ في الصَّلاةِ والجِهادِ، ولهذا جَمَعَ الله تعالى

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢٨).

بيْنَهما في مَواضِعَ مِن القُرآنِ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الميزانَ هو مِمَّا جاءتْ به الرُّسُلُ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ دَلالةٌ واضِحةٌ على أنَّ القياسَ الصَّحيحَ هو مِمَّا بُعِثَ به الرُّسُلُ؛ لأنَّ القياسَ تَسويةُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكْمٍ لِعِلَّةٍ جامِعةٍ، وقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العَدْلَ والمُقايَسةَ بيْنَ الأُمورِ؛ ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: لِيَقُومَ النَّاسُ في الدِّينِ والدُّنيا بالقِسْطِ؛ بالعَدْلِ في حَقِّ اللهِ، وفي حَقِّ العِبادِ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ دَليلٌ على أنَّ الرُّسُلَ مُتَّفِقونَ في قاعِدةِ الشَّرعِ، وهي القيامُ بالقِسْطِ، وإن اختَلَفت أنواعُ العَدلِ بحَسَبِ الأزمِنةِ والأحوالِ[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ اللَّامُ في قَولِه ﴿لِيَقُومَ﴾ للتَّعليلِ، يعني: أَرْسَلْنا الرُّسُلَ وأنزَلْنا معهم الكتابَ، وأنزَلْنا معهم الميزانَ لهذه الحكمةِ؛ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسطِ، ولهذا لا تَجِدُ أَعْدَلَ مِن دِينِ اللهِ عزَّ وجلَّ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وكلُّ ما خالَفَ دِينَ اللهِ عزَّ وجلَّ فهو جَوْرٌ وظُلْمٌ[٥].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٢/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٣).

وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ سؤالٌ: هل كلُّ مُنَزَّلٍ غيرُ مخلوقٍ؟

الجوابُ: لا، لكنْ كلُّ مُنَزَّلٍ يكونُ وَصفًا مُضافًا إلى اللهِ، فهو غيرُ مخلوقٍ -كالكلام-، وإلَّا فإنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِن السَّماءِ ماءً، وهو مخلوقٌ، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ وهو مَخلوقٌ، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ [الزمر: ٦] والأنعامُ مَخلوقةٌ، فإذا كان المُنَزَّلُ مِن عندِ اللهِ صفةً لا تقومُ بذاتِها وإنَّما تقومُ بغَيرِها، لَزِمَ أنْ يكونَ غيرَ مخلوقٍ؛ لأنَّه مِن صِفاتِ اللهِ تعالى[١].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أصلٌ في جميعِ ما يُتَّخَذُ مِنه؛ مِن سِلاحٍ وغَيرِه[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ وقَبْلَها: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أنَّ قُوَّةَ الحَديدِ لحِفظِ الكِتابِ والمِيزانِ، وحَملِ النَّاسِ عليهما[٣].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ نَصْرُ الرُّسُلِ؛ فإذا كان الرَّسولُ حيًّا فالمرادُ: يَنْصُرُ الرَّسولَ نَفْسَه وشَريعتَه، وبَعْدَ مَوتِه يَنصُرُ شَريعتَه، وفي هذا دليلٌ على أنَّ نَصْرَ الشَّريعةِ نَصْرٌ لِمَن جاء بها، فلا يُشْكِلُ على هذا أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قد يُمِيتُ الرَّسولَ قبْلَ أنْ يرى النَّصرَ الواسِعَ له؛ لأنَّنا نقولُ: نَصْرُ شَريعتِه نَصْرٌ له[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٦١٨). ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٥ - ١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١١٧، ١١٨)، ((مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية)) (٣/ ٨٩)، ((شرح الطحاوية)) (١/ ١٩٦، ١٩٧) و(٢/ ٥٦٣، ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٥).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ دَليلٌ على أنَّ آدَمَ ليس برَسولٍ، وأنَّ إدريسَ ليس قَبْلَ نُوحٍ -كما ذَكَرَه بعضُ المؤرِّخينَ-، وهو خَطَأٌ مُخالِفٌ للقُرآنِ الكريمِ، فليس قَبْلَ نُوحٍ رَسولٌ، وآدمُ نبيٌّ مُكَلَّمٌ كَلَّمَه اللهُ عزَّ وجلَّ بما شاء مِن وَحْيِه، ثمَّ سار على نَهْجِه بَنُوه مِن بَعْدِه، فلمَّا انتشرَ النَّاسُ وكَثُروا صار بيْنَهم اختِلافٌ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[1] [البقرة: ٢١٣].

١٩- قال الله تعالى في سُورةِ (العنكبوتِ): ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وفيه دَلالةٌ على أنَّ النُّبوَّةَ والكتابَ في خُصوصِ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وذكر هنا في سُورةِ (الحديد) ما يدُلُّ على اشتِراكِ نوحٍ عليه السَّلامُ معه في ذلك في قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ وَجْهَ الاقتِصارِ على إبراهيمَ في سُورةِ (العنكبوتِ) أنَّ جَميعَ الرُّسلِ بعْدَه مِن ذُرِّيَّتِه، وذُكِرَ نوحٌ معه لأمْرينِ:

أحدُهما: أنَّ كلَّ مَن كان مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ فهو مِن ذُرِّيَّةِ نُوحٍ.

الثَّاني: أنَّ بعضَ الأنبياءِ مِن ذُرِّيَّةِ نُوحٍ، ولم يكُنْ مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ؛ كهودٍ، وصالحٍ، ولوطٍ، ويُونسَ -على خِلافٍ فيه-، ولا يُنافي ذلك الاقتِصارَ على إبراهيمَ؛ لأنَّ المرادَ مَن كان بعْدَ إبراهيمَ لا مَن كان قبْلَه أو في عصْرِه، كلُوطٍ عليهما وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ[2].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ هذا هو الواقعُ؛ أنَّ بني آدمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٩).

أكثَرُهم ضالٌّ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[١] [الأنعام: ١١٦].

٢١- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ نُصَّ على عيسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّه ليس بَيْنَه وبيْنَ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وآلِهِ وسلَّمَ رَسولٌ، بل ولا نبيٌّ أيضًا، ليس بَيْنَهما رَسولٌ ولا نَبيٌّ، وما يُقالُ: إنَّ خالِدَ بنَ سنانٍ وغَيرَه له نُبُوَّةٌ، فكلُّه كَذِبٌ[٢].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ قيل: هذا إشارةٌ إلى أنَّهم أُمِروا في الإنجيلِ بالصَّفحِ، وتَرْكِ إيذاءِ النَّاسِ، وألانَ اللهُ قُلوبَهم لذلك، بخِلافِ اليَهودِ الَّذين قَسَت قُلوبُهم، وحَرَّفوا الكَلِمَ عن مَواضِعِه[٣].

٢٣- قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ الرَّأفةُ والرَّحمةُ مِن أفعالِهم، واللهُ جاعِلُهما، فهو الجاعلُ لِلذَّواتِ وصِفاتِها وأفعالِها وإراداتِها واعتِقاداتِها، فذلك كلُّه مَجعولٌ مخلوقٌ له، وإن كان العبدُ فاعلًا له باختيارِه وإرادتِه[٤].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةًا۟بۡتَدَعُوهَا﴾ الآيَةَ: ذمٌّ لهم؛ لابتِداعِ ما لم يأمُرْ به اللهُ في الدِّينِ، ولعَدَمِ القيامِ بما التَزَموه على أنَّه قُرْبةٌ، فيُستَدَلُّ به على كراهةِ النَّذرِ، مع وُجوبِ الوَفاءِ به، وعلى أنَّ أحَبَّ الأعمالِ إلى اللهِ أدْوَمُها، وأنَّ مَن اعتاد تطَوُّعًا كُرِهَ له تَرْكُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢٧، ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٠٣).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٦).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٥).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ إشعارٌ بأنَّ ما يَكتُبُه اللهُ على العِبادِ مِنَ التَّكاليفِ لا يَشُقُّ على النَّاسِ العَمَلُ به[١].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى ذَمَّ مَن لم يَرْعَ قُرْبةً ابتَدَعَها للهِ تعالى حَقَّ رعايتِها، فكيف بمَن لم يَرْعَ قُرْبةً شَرَعَها اللهُ لعبادِه، وأَذِنَ بها، وحَثَّ عليها[٢]؟!

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ثَناءٌ على المُؤمِنينَ الصَّادِقينَ مِمَّن مَضَوا مِنَ النَّصارى قبْلَ البَعثةِ المُحَمَّديَّةِ، وبُلوغِ دَعوتِها إلى النَّصارى[٣].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ رَدٌّ على المُعتَزِلةِ -فيما يَجعلون الفِسْقَ دَرَجةً بيْنَ دَرَجتَينِ مِن الإيمانِ والكُفرِ-؛ إذِ الفِسْقُ في جميعِ هذه الأمكِنةِ كُفْرٌ لا شَكَّ فيه؛ لِمَا دلَّ عليه سِياقُ الكَلامِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ ناشئٌ عمَّا تقدَّمَ مِن التَّحريضِ على الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ، وعن ذِكرِ الفتْحِ، وعن تَذييلِ ذلك بقولِه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤]، وهو إعذارٌ للمُتولِّينَ مِن المنافِقين؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٣٩).

ليَتدارَكوا صَلاحَهم باتِّباعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والتَّدبُّرِ في هدْيِ القرآنِ، وإنذارٌ لهم أنْ يَرْعَوُوا ويَنْصاعوا إلى الحُجَّةِ السَّاطعةِ بأنَّه يكونُ تَقويمُ عِوَجِهم بالسُّيوفِ القاطعةِ، وهو ما صرَّحَ لهم به في قولِه في سُورةِ (الأحزابِ) [٦٠، ٦١]: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾، وقولِه في سُورةِ (التَّحريمِ) [٩]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾؛ لئلَّا يَحسَبوا أنَّ قولَه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤] مُجرَّدُ مُتارَكةٍ، فيَطمَئِنُّوا لذلك[(١)].

- قولُه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ فيه تأْكيدُ الخبَرِ بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قد)، وهو راجِعٌ إلى ما تَضمَّنَه الخبرُ مِن ذِكرِ ما في إرسالِ رُسلِ اللهِ وكُتبِه مِن إقامةِ القسْطِ للنَّاسِ، ومِن التَّعريضِ بحمْلِ المُعرِضينَ على السَّيفِ إنِ استَمرُّوا على غُلَوائِهم[(٢)].

- وجمْعُ (الرُّسلِ) هنا لإفادةِ أنَّ ما جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليس بِدْعًا مِن الرُّسلِ، وأنَّ مُكابَرةَ المنافِقينَ عَمايةٌ عن سُنَّةِ اللهِ في خلْقِه، فتأْكيدُ ذلك مَبنيٌّ على تَنزيلِ السَّامعينَ مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ أرسَلَ رسُلًا قبْلَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ حالَهم في التَّعجُّبِ مِن دَعواهُ الرِّسالةَ كحالِ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ أرسَلَ رُسلًا مِن قبْلُ[(٣)].

- والمِيزانُ: مُعبَّرٌ به عن العدْلِ بيْنَ الناسِ في إعطاءِ حُقوقِهم -على قولٍ-؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ممَّا يَقتضيهِ الميزانُ وُجودَ طرَفَينِ يُرادُ مُعرفةُ تَكافئِهما؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وهذا الميزانُ تُبيِّنُه كُتبُ الرُّسلِ، فذِكرُه بخُصوصِه للاهتمامِ بأمْرِه؛ لأنَّه وَسيلةُ انتِظامِ أُمورِ البشَرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وليس المرادُ أنَّ اللهَ أَلْهَمَهم وضْعَ آلاتِ الوزْنِ؛ لأنَّ هذا ليس مِن المُهِمِّ، وهو ممَّا يَشملُه معْنى العدْلِ؛ فلا حاجةَ إلى التَّنبيهِ عليه بخُصوصِه[(١)].

- قَولُه: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ جَمَعَ المنافِعَ؛ لأنَّها لا تُحصى أجناسُها، فَضْلًا عن أنواعِها وأفرادِها، فمَن يُحصي المنافِعَ الَّتي تَحصُلُ بالحَديدِ؟ ولهذا جاءتْ بالجَمعِ المعروفِ بـ «صيغةِ مُنتهى الجُموعِ»[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إلى آخِرِها، أي: لأنَّ اللهَ قويٌّ عزيزٌ في شُؤونِه القُدسيَّةِ، فكذلك يجِبُ أنْ تكونَ رُسلُه أقوياءَ أعِزَّةً، وأنْ تكونَ كُتبُه مُعظَّمةً مُوقَّرةً، وإنَّما يَحصُلُ ذلك في هذا العالَمِ المَنوطةِ أحداثُه بالأسبابِ المَجعولةِ بأنْ يَنصُرَه الرُّسلُ وأقوامٌ مُخلِصون للهِ، ويُعِينوا على نشْرِ دِينِه وشَرائعِه[(٣)].

- وأيضًا قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ؛ جِيءَ به تَحقيقًا للحقِّ، وتَنبيهًا على أنَّ تَكليفَهم الجهادَ وتَعريضَهم للقِتالِ ليس لحاجتِه في إعلاءِ كَلمتِه وإظهارِ دِينِه إلى نُصرتِهم، بلْ إنَّما هُو ليَنتَفِعوا بهِ، ويَصِلُوا بامتثالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٨).

الأمْرِ فيه إلى الثَّوابِ؛ وإلَّا فهُو غَنِيٌّ بقُدرتِه وعِزَّتِه عنهم في كلِّ ما يُريدُه[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥] عطْفَ الخاصِّ على العامِّ؛ لمَّا أُرِيدَ تَفصيلٌ لإجْمالِه تَفصيلًا يُسجَّلُ به انحرافُ المُشرِكين مِن العرَبِ والضَّالِّين مِن اليهودِ عن مَناهجِ أبوَيْهما: نوحٍ، وإبراهيمَ[٢].

- ولَمَّا ذكَرَ تعالى إرسالَ الرُّسلِ جُملةً؛ أفرَدَ منهم في هذه الآيةِ نُوحًا وإبراهيمَ عليهما السَّلامُ؛ تَشريفًا لهما بالذِّكرِ؛ أمَّا نوحٌ فلأنَّه أوَّلُ الرُّسلِ إلى مَن في الأرضِ، وأمَّا إبراهيمُ فلأنَّه انتسَبَ إليه أكثرُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وهو مُعظَّمٌ في كلِّ الشَّرائعِ، ثمَّ ذكَرَ أشرَفَ ما حصَلَ لذُرِّيَّتِهما، وذلك النُّبوَّةُ -وهي الَّتي بها هَدْيُ النَّاسِ مِن الضَّلالِ- والكتابُ، كالتَّوراةِ، والزَّبورِ، والإنجيلِ، والقرآنِ، وهي جَميعُها في ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وإبراهيمُ مِن ذُرِّيَّةِ نُوحٍ؛ فصدَقَ أنَّها في ذُرِّيَّتِهما[٣].

- وتَكريرُ القَسَمِ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾؛ لإظهارِ مَزيدِ الاعتناءِ بالأمْرِ، أيْ: وباللهِ لَقدْ أرسَلْناهُما[٤].

- والعُدولُ عن سَنَنِ المُقابَلةِ في قولِه: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤، ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٣).

للمُبالَغةِ في الذَّمِّ، والإيذانِ بغَلَبةِ الضُّلَّالِ وكَثرتِهم[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾، (ثمَّ) للتَّراخِي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ بَعثةَ رُسلِ الله الَّذين جاؤوا بعْدَ نوحٍ وإبراهيمَ، ومَن سبَقَ مِن ذُرِّيَّتِهما، أعظَمُ ممَّا كان لدى ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ قبْلَ إرسالِ الرُّسلِ الَّذين قفَّى اللهُ بهم؛ إذ أُرسِلوا إلى أُمَمٍ كَثيرةٍ، مِثْلِ عادٍ وثَمودَ، وبني إسرائيلَ، وفيهم شَريعةٌ عظيمةٌ، وهي شَريعةُ التَّوراةِ[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ هذا تَعريفٌ للأمَّةِ بأنَّ اللهَ أرسَلَ رُسلًا كثيرينَ على وجْهِ الإجمالِ، وهو تَمهيدٌ للمقصودِ مِن ذِكرِ الرَّسولِ الأخيرِ الَّذي جاء قبْلَ الإسلامِ، وهو عِيسى عليه السَّلامُ[٣].

- وفي إعادةِ فعلِ ﴿قَفَّيْنَا﴾ وعدَمِ إعادةِ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ قيل: إنَّ ذلك إشارةٌ إلى بُعدِ المدَّةِ بيْنَ آخرِ رُسلِ إسرائيلَ وبيْنَ عيسَى عليه السَّلامُ[٤].

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ عطْفُ الرَّحمةِ على الرَّأفةِ مِن عطْفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لاستِيعابِ أنواعِه بعْدَ أنْ اهتُمَّ ببَعضِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٢٠، ٤٢١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٢١).

- والإتيانُ بالموصولِ وصِلتِه في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ إشعارٌ بأنَّ جعْلَ الرَّأفةِ والرَّحمةِ في قُلوبِهم مُتسبَّبٌ عن اتِّباعِهم سِيرتَه، وانقطاعِهم إليه[١].

- وجُملةُ ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾، وقولُه: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ احتِراسٌ[٢]، ومَجموعُ الجُمَلِ الثَّلاثِ استِطرادٌ واعتِراضٌ[٣].

- والاستِثناءُ بقولِه: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ مُعترِضٌ بيْن جُملةِ ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ وجُملةِ ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾، وهو استِثناءٌ مُنقطِعٌ؛ فالاستِثناءُ يَقْتضي أنْ يكونَ قولُه: ﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ مَعمولًا في المعْنى لِفعلِ ﴿كَتَبْنَٰهَا﴾؛ فالمعْنى: لكنْ كتَبْنا عليهم ابتِغاءَ رِضوانِ اللهِ -وذلك على قولٍ- أي: أنْ يَبتَغوا رِضوانَ اللهِ بكلِّ عمَلٍ، لا خُصوصَ الرَّهبانيَّةِ الَّتي ابتَدَعوها، أي: إنَّ اللهَ لم يُكلِّفْهم بها بعَينِها[٤].

- وقد فُرِّع على قولِه: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ وما بَعْدَه، قولُه: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، أي: فَترتَّبَ على الْتِزامِهم الرَّهبانيَّةَ أنَّهم -أي: المُلتزِمين للرَّهبانيةِ- ما رَعَوها حقَّ رِعايتِها[٥].

- والكلامُ مَسوقٌ مَساقَ اللَّومِ على تَقصيرِهم فيما الْتَزَموه أو نَذَرُوه، وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٣).

(٢) الاحتراس: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدْفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه بعضُهم: التَّكميلَ. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢٠٨)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٣، ٤٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٢٥).

تَقهقُرٌ عن مَراتبِ الكمالِ، وإنَّما يَنْبغي للمُتَّقي أنْ يَكونَ مُزدادًا مِن الكَمالِ[١].

- وقولُه: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ إلى آخِرِه، وما بيْنَهما استِطرادٌ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٢٨-٢٩)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ كِفۡلَيۡنِ ﴾: أي: ضِعْفَينِ ونَصيبَينِ وحَظَّينِ، ويُستَعمَلُ الكِفلُ في النَّصيبِ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ، وأصلُ (كفل): يدُلُّ على تضَمُّنِ شَيءٍ لِشَيءٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اتَّقُوا اللهَ وآمِنوا برَسولِه مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، يُؤتِكم اللهُ نَصيبَينِ عَظيمَينِ مِن رَحمتِه، ويَجْعَلْ لكم نُورًا تَهتَدونَ به في الحياةِ الدُّنيا، ويَغفِرْ لكم، واللهُ غَفورٌ رَحيمٌ.

يُؤتِكم اللهُ تعالى هذا الثَّوابَ؛ لِكَي يَعلَمَ اليَهودُ والنَّصارى أنَّهم لا يَقدِرونَ على شَيءٍ مِن فَضلِ اللهِ الَّذي يُريدُه لكم -أيها المُسلِمونَ-، ولِكَي يَعلَمُوا أنَّ الفَضلَ بيَدِ اللهِ يُعطيه مَن يَشاءُ، واللهُ ذو الفَضلِ العَظيمِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٦).

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اتَّقُوا اللهَ بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه، وحَقِّقوا الإيمانَ برَسولِه مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، واثبُتوا عليه(١).

---

(١) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١، ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٩).

قيل: الخِطابُ هنا لليَهودِ والنَّصارى، وأنَّ المعنى: يا أيُّها الَّذين آمَنوا بموسى وعيسى، اتَّقوا اللهَ وآمَنوا برَسولِه مُحمَّدٍ. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جرير، والماوَرْديُّ، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٨).

ونقَلَ ابنُ الجوزيِّ هذا القولَ عن عامَّةِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ، وعُتْبةُ بنُ أبي حَكِيمٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢).

قال ابن جُزَي: (يؤيِّدُ هذا [أي أنَّ الخِطابَ لأهلِ الكتابِ] قولُه: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: نَصيبَينِ، وقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم: «ثلاثةٌ يُؤْتَوْنَ أجرَهم مرَّتَينِ: رجُلٌ مِن أهلِ الكتابِ آمَنَ بنَبيِّه وآمَنَ بي...»). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٩).

قال الرَّسْعَني: (المعنى: يؤتِكم كِفْلَينِ بسببِ إيمانِكم الأوَّلِ والثَّاني. ومنه الحديثُ الصَّحيحُ: «أيُّما رجُلٍ مِن أهلِ الكتابِ آمَنَ بنَبيِّه وآمَنَ بمحمَّدٍ فله أجْرانِ». أخرجه مسلمٌ مِن حديثِ أبي موسى الأشعريِّ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٥٨).

وضعَّف هذا القَولَ ابنُ تيميَّةَ، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٢٩).

وذلك لأنَّه لا يُمكِنُ أن يُناديَ اللهُ عزَّ وجلَّ أهلَ الكتابِ وهم كَفَرةٌ بوصفِ الإيمانِ أبدًا؛ فإنَّ اللهَ لم يقُلْ قَطُّ للكفَّارِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فسياقُ الآيةِ في المؤمنينَ مِن هذه الأمَّةِ، وهو ظاهرُ القرآنِ المُتبادرُ الَّذي لم يَصرِفْ عنه صارِفٌ. يُنظر المصادر السَّابقة. ويُنظر أيضًا: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٦٣). =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ ...﴾ [النساء: ١٣٦].

﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾.

أي: يُؤتِكم اللهُ نَصيبَينِ كَبيرَينِ مِن رحمتِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤].

وعن أبي موسى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ثَلاثةٌ يُؤتَونَ أجْرَهم مَرَّتَين: رجُلٌ مِن أهلِ الكِتابِ آمَنَ بنَبيِّه، وأدرَكَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فآمَنَ به واتَّبَعَه وصَدَّقَه؛ فله أجْرانِ ...))[(٢)].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((مَثَلُ المُسلِمينَ واليَهودِ والنَّصارى كَمَثَلِ رَجُلٍ استأجَرَ قَومًا يَعمَلونَ له

= وذكر السعديُّ أنَّ الظَّاهرَ أنَّ الأمرَ عامٌّ، يَدخُلُ فيه أهلُ الكتابِ وغيرُهم، وأنَّ اللهَ أمَرَهم بالإيمانِ والتَّقْوى الَّذي يَدخُلُ فيه جميعُ الدِّينِ، ظاهرِه وباطنِه، أُصولِه وفُروعِه. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

وقال ابنُ عاشور: (الأظهَرُ أنَّ هَذينِ الاحتِمالَينِ مَقصودانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣٠).

قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بالكِفْلَينِ هاهنا قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّ أحَدَهما لإيمانِهم بمَن تقدَّم مِن الأنبياءِ، والآخَرَ لإيمانِهم بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قاله ابنُ عبَّاسٍ [وهذا على أنَّ الخِطابَ لأهلِ الكِتابِ]. والثَّاني: أنَّ أحدَهما أجرُ الدُّنيا، والثَّاني أجرُ الآخرةِ. قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٩).

(٢) رواه البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤) واللَّفظُ له.

عَمَلًا يومًا إلى اللَّيلِ، على أجرٍ مَعلومٍ، فعَمِلوا له إلى نِصفِ النَّهارِ، فقالوا: لا حاجةَ لنا إلى أجْرِكَ الَّذي شرَطْتَ لنا، وما عَمِلْنا باطِلٌ! فقال لهم: لا تَفعَلوا، أكمِلوا بَقيَّةَ عَمَلِكم، وخُذوا أجْرَكم كامِلًا، فأَبَوا، وتَرَكوا! واستأجَرَ أجيرَينِ بَعْدَهم، فقال لهما: أكمِلا بَقيَّةَ يَومِكما هذا، ولَكما الَّذي شرَطْتُ لهم مِنَ الأجرِ، فعَمِلوا حتَّى إذا كان حينُ صَلاةِ العَصرِ، قالا: لك ما عَمِلْنا باطِلٌ! ولك الأجرُ الَّذي جعَلْتَ لنا فيه، فقال لهما: أكمِلا بَقيَّةَ عَمَلِكما، ما بَقِيَ مِنَ النَّهارِ شَيءٌ يَسيرٌ، فأبَيَا! واستأجَرَ قَومًا أن يَعمَلوا له بَقيَّةَ يَومِهم، فعَمِلوا بَقيَّةَ يَومِهم حتَّى غابت الشَّمسُ، واستَكمَلوا أجرَ الفَريقَينِ كِلَيهما! فذلك مَثَلُهم ومَثَلُ ما قَبِلوا مِن هذا النُّورِ!))[1].

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾.

أي: ويَجْعَلِ اللهُ لكم نُورًا بالقُرآنِ واتِّباعِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، تَهتَدونَ به في الحياةِ الدُّنيا[2].

---

(١) رواه البخاري (٢٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

قال الواحدي: (﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ يعني: الصِّراطَ، كما قال: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨]، فهذا علامةُ المُؤمِنينَ في القيامةِ، وهذا قَولُ ابنِ عَبَّاسٍ ومُقاتِلٍ. ويجوزُ أن يكونَ المعنى: ويجعَلْ لكم سَبيلًا واضِحًا في الدِّينِ تَهتَدونَ به، وهذا معنى قَولِ مجاهِدٍ، يعني: الهُدى والبَيانَ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٥٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧١).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٨٠).

والمعنى الثَّاني: هو في الجُملةِ ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، وذهب إليه القرطبيُّ، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن =

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإنسانُ لا يخلو مِن نُقصانٍ، فلا يَبلُغُ جَميعَ ما يَحِقُّ للرَّحمنِ؛ قال[1]:

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

أي: ويَستُرِ اللهُ لكم ذُنوبَكم، ويَتجاوَزْ عن مُؤاخَذتِكم[2].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ هو البالِغُ المَغفِرةِ والرَّحمةِ لعِبادِه[3].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: يُؤتِكم اللهُ تعالى هذا الثَّوابَ إنِ اتَّقَيتُموه وآمَنتُم برَسولِه؛ لِكَي يَعلَمَ اليَهودُ والنَّصارى أنَّهم لا يَقدِرونَ على شَيءٍ مِن فَضلِ اللهِ الَّذي يُريدُه للمُسلِمينَ؛ مِن

= عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣٠، ٤٣١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ إيتاؤُهم نُورًا مَعنويًّا في الدُّنيا، وحَقيقيًّا في الآخِرةِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣١).

تَضعيفِ الأجْرِ، والنُّورِ، والمَغفِرةِ، فلا يَملِكونَ مَنْعَه أو إعطاءَه[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣١).

قال ابنُ جرير: (قِيلَ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ إنَّما هو: لِيَعلَمَ، وذُكِرَ أنَّ ذلك في قراءةِ عبدِ اللهِ: «لِكَيْ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ»؛ لأنَّ العَرَب تَجعَلُ «لا» صِلةً في كُلِّ كَلامٍ دخَلَ في أوَّلِه أو آخِرِه جَحدٌ غَيرُ مُصرَّحٍ، كقَولِه في الجَحدِ السَّابِقِ الَّذي لم يُصَرَّحْ به: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقَولِه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقَولِه: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ [الأنبياء: ٩٥] الآيةَ، ومعنى ذلك: أهلَكْناها أنَّهم يرجِعون). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٤).

وقال البِقاعي: (﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ أي: لِيَعلَمَ عِلمًا عَظيمًا يَثبُتُ مَضمونُ خَبَرِه ويَنتَفي ضِدُّه، بما أفاده زيادةُ النَّافي). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٢٦).

وقال ابنُ عاشور: (أرى أنَّ دعوى زيادةِ «لا» لا داعيَ إليها، وأنَّ بقاءَها على أصلِ معناها -وهو النَّفيُ- مُتعَيِّنٌ، وتُجعَلُ اللَّامُ للعاقبةِ، أي: أعطَيْناكم هذا الفَضلَ وحُرِمَ منه أهلُ الكتابِ، فبَقِيَ أهلُ الكتابِ في جَهْلِهم وغُرورِهم بأنَّ لهم الفَضلَ المستمِرَّ، ولا يحصُلُ لهم عِلمٌ بانتِفاءِ أن يكونوا يَملِكونَ فَضْلَ اللهِ، ولا أنَّ اللهَ قد أعطى الفضلَ قَومًا آخَرينَ وحَرَمَهم إيَّاه، فيَنسَونَ أنَّ الفَضلَ بيَدِ اللهِ، وليس أحدٌ يَستَحِقُّه بالذَّاتِ. وبهذا الغرورِ استمَرُّوا على التَّمَسُّكِ بدينِهم القديمِ... والمعنى: لا تَكتَرِثوا بعَدَمِ عِلمِ أهلِ الكتابِ بأنَّهم لا يَقدِرونَ على شَيءٍ مِن فَضلِ اللهِ، وبأنَّ الفَضلَ بيَدِ اللهِ يؤتيه مَن يشاءُ، أي: لا تَكتَرِثوا بجَهْلِهم المركَّبِ في استِمرارِهم على الاغترارِ بأنَّ لهم مَنزِلةً عندَ اللهِ تعالى؛ فإنَّ اللهَ عالمٌ بذلك، وهو خلَقَهم، فهم لا يُقلِعونَ عنه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣٢).

وقيل -بناءً على أنَّ (لا) غيرُ مزيدةٍ-: الضَّمِيرُ فِي قولِه: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ عائدٌ إلى الرَّسولِ وأصحابِه، والتَّقديرُ: لِئلَّا يَعْلَمَ أهلُ الكتابِ أنَّ النَّبيَّ والمؤمِنينَ لا يَقْدِرونَ على شيءٍ مِن فضلِ اللَّه، وأنَّهم إذا لم يَعْلَموا أنَّهم لا يَقْدِرونَ عليه فقد عَلِموا أنَّهم يَقْدِرونَ عليه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٦).

وقال السمين الحلبي: (وفي «لا» هذه وجهانِ؛ أحدهما: وهو المشهورُ عندَ النُّحاةِ والمفسِّرينَ والمُعْرِبين: أنَّها مَزيدةٌ... والتَّقديرُ: أَعْلَمَكم اللهُ بذا؛ لِيَعلمَ أهلُ الكتابِ عدمَ قُدرتِهم على شيءٍ مِنْ فضلِ اللهِ، وثبوتَ أنَّ الفَضْل بيدِ اللهِ. وهذا واضِحٌ بَيِّنٌ... =

﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: ولِكَي يَعلَمَ أهلُ الكِتابِ أنَّ كُلَّ الفَضلِ بيَدِ اللهِ وَحْدَه، فيُعطي فَضلَه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه وَفْقَ حِكمتِه سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه سَمِع رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّما بقاؤُكم فيما سَلَف قَبْلَكم مِن الأُمَمِ كما بيْنَ صَلاةِ العَصرِ إلى غُروبِ الشَّمسِ، أُوتيَ أهلُ التَّوراةِ التَّوراةَ، فعَمِلوا حتَّى إذا انتَصَف النَّهارُ عَجَزوا، فأُعطُوا قِيراطًا قِيراطًا[2]، ثمَّ أُوتيَ أهلُ الإنجيلِ الإنجيلَ، فعَمِلوا إلى صَلاةِ العَصرِ، ثمَّ عَجَزوا، فأُعطُوا قِيراطًا قِيراطًا، ثمَّ أُوتِينا القُرآنَ، فعَمِلْنا إلى غُروبِ الشَّمسِ، فأُعطِينا قِيراطَينِ قِيراطَينِ، فقال أهلُ الكِتابَينِ: أيْ رَبَّنا أعطَيتَ هؤلاءِ قيراطَينِ قيراطَينِ، وأَعطَيتَنا قيراطًا قيراطًا، ونحنُ كُنَّا أكثَرَ عَمَلًا! قال: قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: هل ظَلَمْتُكم مِن أَجرِكم مِن شَيءٍ؟ قالوا: لا، قال: فهو فَضْلي أُوتِيه مَن أشاءُ!))[3].

= والثَّاني: أنَّها غيرُ مَزيدةٍ. والمعنى: لئلَّا يَعلَمَ أهلُ الكتابِ عَجْزَ المؤمنينَ. ((الدر المصون)) (١٠/ ٢٥٨).

وقال الرازي: (أكثر المفسِّرينَ على أنَّ «لا» هاهنا صِلةٌ زائدةٌ، والتَّقديرُ: لِيَعلَمَ أهلُ الكتابِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٤، ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

(٢) القيراط: المرادُ به النَّصيبُ، وهو في الأصل نِصفُ دانقٍ، والدَّانِقُ سدسُ درهمٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٤٤٦)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١/ ٤٩٨).

(٣) رواه البخاري (٥٥٧).

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان رُبَّما ظَنَّ ظانٌّ أنَّه لا يَخُصُّ بالفضلِ إلَّا لأنَّه لا يَسَعُ جَميعَ النَّاسِ، دَفَع ذلك بقَولِه تعالى[1]:

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

أي: واللهُ صاحِبُ الفَضلِ العَظيمِ، فيَتفَضَّلُ على مَن يَشاءُ بما يَشاءُ مِن نِعَمِه الكثيرةِ العَظيمةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ۞ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٣، ٧٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ أنَّ التَّقْوى هي مِن أسبابِ حُصولِ العِلمِ، وما أكثَرَ الَّذين يَنْشُدُون العِلمَ، ويَنْشُدُون الحِفظَ، ويَطلُبونَ الفَهمَ، فنقولُ: إنَّ تحصيلَه يَسيرٌ، وذلك بتقوى اللهِ عزَّ وجلَّ، وتحقيقِ الإيمانِ -الَّذي هو مُوجَبُ العِلمِ-؛ فاعمَلْ بما عَلِمتَ يَحصُلْ لك عِلْمُ ما لم تَعلَمْ، فتَقْوى اللهِ عزَّ وجلَّ مِن أسبابِ زيادةِ العِلمِ ولا شَكَّ؛ ولهذا قال: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ أي: تَسيرونَ بسَبَبِه سَيرًا صَحيحًا يُوصِلُكم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[3]، فمَن عَمِلَ بما عَلِمَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣٠).

أورَثَه اللهُ عِلْمَ ما لم يَعْلَمْ[١]، فهذه التَّقوَى الَّتي يُعلِّمُ الله صاحبَها بسببِها ما لم يكُنْ يَعلَمُ: هي عمَلُه بما عَلِم مِن أمرِ الله، لا تَزيدُ على ذلك[٢].

٢- النُّورُ هو مادَّةُ كلِّ خَيرٍ، وصلاحِ كلِّ شيءٍ، وهو يَنشأُ عن امتثالِ أمرِ الله واجتِنابِ نَهْيِه، وعن الصَّبرِ على ذلك؛ فإنَّه ضياءٌ، فإنَّ حِفْظَ الحُدودِ بتَقوى اللهِ يَجعَلُ اللهُ به لصاحِبِه نورًا، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ أنَّ العَمَلَ بالعِلْمِ هو مِن أعظمِ أسبابِ حِفْظِه وثباتِه، وتَرْكَ العَمَلِ به إضاعةٌ له، فما استُدِرَّ العِلْمُ ولا استُجْلِبَ بمِثْلِ العَمَلِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ سُؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّ المُؤمِنينَ مُؤمِنونَ برَسولِه؟!

الجوابُ: أنَّ المُرادَ طَلَبُ الدَّوامِ على الإيمانِ. أو معناه: يا أيُّها الَّذين آمَنوا يومَ الميثاقِ، آمِنوا باللهِ ورَسولِه اليَومَ. أو: يا أيُّها الَّذين آمَنوا في العَلانِيَةِ باللِّسانِ، اتَّقُوا اللهَ وآمِنوا برَسولِه في السِّرِّ بتَصديقِ القَلبِ[٥]. وقيل: معناه: يا أيُّها الَّذين آمَنوا بموسى وعيسى، آمِنوا بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيَكونُ خِطابًا لأهلِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٣).

الكِتابِ خاصَّةً[١].

٢- لَفْظُ «الإيمانِ» أكثرُ ما يُذكَرُ في القُرآنِ مُقيَّدًا؛ فلا يكونُ ذلك اللَّفظُ مُتناوِلًا لجَميعِ ما أمَرَ اللهُ به، بل يُجعَلُ مُوجِبًا لِلَوازِمِه وتَمامِ ما أُمِرَ به، وحينَئذٍ يَتناوَلُه الاسمُ المطلَقُ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ أنَّ اللهَ تعالى قد كَفَلَ لِمَنْ آمَنَ به أنْ يَجعَلَ له نُورًا يَمشي به[٣].

٤- مَنْ آمَنَ بربِّه وأطاعه زاده رَبُّه هُدًى؛ لأنَّ الطَّاعةَ سَبَبٌ للمَزيدِ مِنَ الهُدى والإيمانِ كما بيَّن الله تعالى ذلك في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾، وفيه أنَّ الإيمانَ يَزيدُ، ومَفهومٌ مِنها أنَّه يَنقُصُ أيضًا[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ أنَّ الحَسَنةَ الثَّانيةَ قد تكونُ مِن ثَوابِ الأُولى، وكذلك السَّيِّئةُ الثَّانيةُ قد تكونُ مِن عُقوبةِ الأُولى[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ أنَّ مَن قام بما جاء به الكِتابُ والسُّنَّةُ أشْرَفَ على عِلْمِ الأوَّلِينَ والآخِرينَ، وأغناه اللهُ بالنُّورِ الَّذي بَعَثَ به محمَّدًا -صلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٣، ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٤٠).

عليه وسلَّم- عمَّا سِواه[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ضَمِنَ لهم سُبحانَه بالتَّقْوى ثلاثةَ أُمورٍ:

أحدُها: أعطاهم نَصيبَينِ مِن رَحمتِه؛ نصيبًا في الدُّنيا، ونَصيبًا في الآخِرةِ، وقد يُضاعَفُ لهم نَصيبُ الآخِرةِ فيَصيرُ نَصيبَينِ.

الثَّاني: أعطاهم نورًا يَمشُونَ به في الظُّلُماتِ.

الثَّالِثُ: مَغفِرةُ ذُنوبِهم، وهذا غايةُ التَّيسيرِ؛ فقد جَعَلَ سُبحانَه التَّقوى سَبَبًا لكُلِّ يُسْرٍ، وتَرْكَ التَّقوى سَبَبًا لكلِّ عُسْرٍ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أنَّ اللهَ تعالى ضاعَفَ لهذه الأُمَّةِ -لِكَونِها خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ- أَجْرَها مرَّتَينِ[٣]، ومِن ذلك كَونُ صَومِ يومِ عَرَفةَ بسَنَتَينِ؛ فإنَّها قد وُعِدَتْ في العَمَلِ بأجْرَينِ، وأمَّا عاشوراءُ فقد كانتِ الأُمَمُ قبْلَ هذه الأُمَّةِ تَصومُه، ففُضِّلَ ما خُصَّتْ به هذه الأُمَّةُ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ أنَّ ما وَعَدَ اللهُ به المؤمِنينَ مِن هذه الأُمَّةِ أعظَمُ مِمَّا وَعَدَ به مُؤمِني أهلِ الكِتابِ، وإيتاؤُهم أجْرَهم مرَّتَينِ هو كما قال تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤]، وكَونُ ما وَعَدَ به المؤمِنينَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٦٣).

(٤) الفائدةُ لابنِ هُبَيرةَ في كتابِه ((الإفصاح))، نقَلها عنه ابنُ رجب. يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) (٢/ ١٦٤).

مِن هذه الأُمَّةِ أعظَمَ: أنَّ إيتاءَ أهلِ الكِتابِ أجْرَهم مَرَّتَين، أعطى المؤمِنينَ مِن هذه الأُمَّةِ مِثْلَه، كما بَيَّنَه بقَولِه تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾، وزادهم بقَولِه: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ نُكتةٌ بَديعةٌ: وهي: أنَّهم يَمشُونَ على الصِّراطِ بأنوارِهم كما يَمشُونَ بها بيْنَ النَّاسِ في الدُّنيا، ومَن لا نورَ له فإنَّه لا يَستطيعُ أنْ يَنقُلَ قَدَمًا عن قَدَمٍ على الصِّراطِ، فلا يَستطيعُ المشيَ أحْوَجَ ما يكونُ إليه[2]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أنَّه سُبحانَه حَكيمٌ؛ لا يَفعَلُ شَيئًا عَبَثًا ولا لغَيرِ مَعنًى ومَصلَحةٍ[3]!

١٢- لَمَّا نهى اللهُ عن التَّشَبُّهِ بهؤلاء الَّذين قَسَت قلوبُهم، ذكَرَ أيضًا في آخِرِ السُّورةِ حالَ الَّذين ابتَدَعوا الرَّهبانيَّةَ، فما رعَوْها حَقَّ رعايتِها، فعَقَّبَها بقَولِه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨، ٢٩]؛ فإنَّ الإيمانَ بالرَّسولِ: تصديقُه وطاعتُه، واتِّباعُ شريعتِه، وفي ذلك مُخالَفةٌ للرَّهبانيَّةِ؛ لأنَّه لم يُبعَثْ بها، بل نهَى عنها، وأخبَرَ أنَّ مَنِ اتَّبَعه كان له أجْرانِ، وبذلك جاءت الأحاديثُ الصَّحيحةُ[4].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الغالبُ في القُرآنِ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٢٩٥).

العَظيمِ أنَّ الَّذين آمَنوا لقَبٌ للمُؤمنينَ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولكنْ لَمَّا وقَعَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هنا عقِبَ قولِه: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡ﴾ [الحديد: ٢٧] -أي: مِنَ الَّذين اتَّبعوا عِيسى عليه السَّلامُ- احتمَلَ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أنْ يكونَ مُستعمَلًا استِعمالَه اللَّقَبِيَّ -أي: كونَه كالعَلَمِ- بالغَلَبةِ على مُؤمِني مِلَّةِ الإسلامِ. واحتمَلَ أنْ يكونَ قد استُعمِلَ استِعمالَه اللُّغويَّ الأعمَّ، أي: مَن حصَلَ منه إيمانٌ، وهو هنا مَن آمَنَ بعِيسى. أو يكونَ هذانِ الاحتِمالانِ مَقصودينِ؛ ليأخُذَ خُلَّصُ النَّصارَى مِن هذا الكلامِ حَظَّهم، وهو دَعوتُهم إلى الإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ليَستَكمِلوا ما سبَقَ مِن اتِّباعِهم عِيسى؛ فيكون الخِطابُ مُوجَّهًا إلى الموجودينَ ممَّن آمَنوا بعِيسى، أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إيمانًا خالِصًا بشَريعةِ عِيسى، اتَّقوا اللهَ، واخْشَوا عِقابَه، واتْرُكوا العَصبيَّةَ والحَسَدَ وسُوءَ النَّظرِ، وآمِنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وأمَّا احتمالُ أنْ يُرادَ بالَّذين آمَنوا الإطلاقُ اللَّقَبيُّ، فيَأخُذَ منه المؤمِنونَ مِن أهلِ المِلَّةِ الإسلاميَّةِ بِشارةً بأنَّهم لا يَقِلُّ أجْرُهم عن أجْرِ مُؤْمِني أهلِ الكتابِ؛ لأنَّهم لَمَّا آمَنوا بالرُّسلِ السَّابقينَ أعْطاهم اللهُ أجْرَ مُؤْمِني أهلِ مِلَلِهم، ويكون قولُه: ﴿وَءَامِنُواْ﴾ مُستعمَلًا في الدَّوامِ على الإيمانِ؛ كقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في سُورةِ (النِّساءِ) [١٣٦]، ويكون إقحامُ الأمْرِ بالتَّقوى في هذا الاحتمالِ قصْدًا لأنْ يَحصُلَ في الكلامِ أمْرٌ بشَيءٍ يَتجدَّدُ ثمَّ يُردَفَ عليه أمْرٌ يُفهَمُ منه أنَّ المرادَ به طلَبُ الدَّوامِ، وهذا مِن بَديعِ نظْمِ القرآنِ[1].

- قولُه: ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ أي: بمحمَّدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي إطلاقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٧).

لَفظِ ﴿بِرَسُولِهِۦ﴾ إيذانٌ بأنَّه عَلَمٌ فَردٌ في الرِّسالةِ، لا يَذهَبُ الوهمُ إلى غَيرِه[١].

- وقولُه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أمْرٌ لهم بما هو وَسيلةٌ ومُقدِّمةٌ للمَقصودِ، وهو الأمْرُ بقولِه: ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾، ورُتِّبَ على هذا الأمرِ ما هو جَوابُ شَرْطٍ مَحذوفٍ، وهو جُملةُ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ...﴾ إلخ، المجزومُ في جَوابِ الأمرِ، أي: يُؤتِكُم جَزاءً في الآخِرةِ، وجَزاءً في الدُّنيا[٢]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ويَتعلَّقُ ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ بـ﴿يُؤْتِكُمْ﴾، و(مِن) ابتدائيَّةٌ، أي: ذلك مِن رَحمةِ اللهِ بكم. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ صِفةً لـ﴿كِفْلَيْنِ﴾، وتكونَ (مِن) بَيانيَّةً[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

- قولُه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تَحتمِلُ أنْ تكونَ تعليليَّةً، فيَكونَ ما بعْدَها مَعلولًا بما قبْلَها، وحرْفُ (لا) يكون زائدًا للتَّأكيدِ والتَّقويةِ، والمُعلَّلُ هو ما يَرجِعُ إلى فضْلِ اللهِ لا مَحالةَ. وقيل: تَحتمِلُ أنْ تكونَ (لا) نافيةً، وضَميرُ ﴿يَقْدِرُونَ﴾ عائدًا إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والَّذين آمَنوا به -على قولٍ في التفسيرِ- على طريقِ الالْتفاتِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، وأصْلُه: ألَّا تَقدِروا، وإذا انتَفَى عِلمُ أهلِ الكتابِ بأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلمينَ لا يَقدِرون على شَيءٍ مِن فضْلِ اللهِ، ثبَتَ ضِدُّ ذلك في عِلْمِهم، أي: كيف أنَّ الرسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٢٨، ٤٢٩).

والمسلمينَ يَقدِرون على فضْلِ اللهِ، ويكون ﴿يَقْدِرُونَ﴾ مُعبَّرًا به عن معْنى: يَنالُون، وأنَّ الفضلَ بيَدِ اللهِ، فهو الَّذي فضَّلَهم، ويكون ذلك كِنايةً عن انتفاءِ الفضلِ عن أهلِ الكتابِ الَّذين لم يُؤمِنوا بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وتَحتمِلُ أنْ تكونَ (لا) نافيةً، وليستْ زائدةً، واللَّامُ للعاقِبةِ[(١)].

- قوله: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ لعلَّ التَّعبيرَ بالمضارعِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ هذا خاصٌّ بهذه الأمَّةِ الَّتي هي أقَلُّ عمَلًا وأكثرُ أجرًا[(٢)].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تَذييلٌ، يَعُمُّ الفَضلَ الَّذي آتاهُ اللهُ أهْلَ الكِتابِ المُؤمنينَ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وغيرَه مِن الفضْلِ[(٣)].

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣٠ - ٤٣٢). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣٣).

تَفْسيرُ

سُورَةِ المُجادلةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ المُجادلةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المجادلةِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ المجادلةِ مَدَنيَّةٌ[٢]، وحكى الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

١- بيانُ حُكمِ الظِّهارِ، وإبْطالُ ما كان في الجاهِلِيَّةِ[٤].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ المجادلةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾، وقد افتُتِحَت بقَضيَّةِ مجادَلةِ امرأةِ أَوسِ بنِ الصَّامِتِ لدى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في شأنِ مُظاهَرةِ زَوجِها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥).

قال الشهاب الخفاجي: (المجادلة: بفَتحِ الدَّالِ وكَسْرِها، والثَّاني هو المعروفُ... وتُسمَّى سورةَ ﴿قَدۡ سَمِعَ﴾). ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٦٤).

واختار ابن عاشور أنَّ كَسرَ الدَّالِ أظهَرُ، قال: (لأنَّ السُّورةَ افتُتِحت بذِكرِ الَّتي تجادِلُ في زوجِها، فحقيقةٌ أن تُضافَ إلى صاحبةِ الجدالِ، وهي الَّتي ذكرها اللهُ بقَولِه: ﴿ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة: ١]... وأمَّا فَتحُ الدَّالِ فهو مصدَرٌ مأخوذٌ مِن فِعلِ ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾ كما عَبَّرَ عنها بالتَّحاوُرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥).

(٢) وقيل: قَولُه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ نزل بمكَّةَ، وقيل: العَشرُ الأُوَلُ منها مدنيَّةٌ، والباقي مكِّيٌّ. ولا دليلَ على ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٨٧)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٢١).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، والقرطبيُّ، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٢٤٢).

٢- فَضحُ المنافِقينَ، وبَيانُ ضَلالاتِهم، وأقوالِهم الباطِلةِ، وأفعالِهم الذَّميمةِ[١].

٣- ذِكرُ بَعضِ الآدابِ الَّتي يجِبُ على المؤمِنينَ أن يَتحَلَّوا بها[٢].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- الحديثُ عن المرأةِ الَّتي جادَلَت النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في شأنِ زَوْجِها، وبيانُ حُكمِ الظِّهارِ وكَفَّارتِه.

٢- ذِكرُ الَّذين يُحادُّونَ اللهَ ورَسولَه، وبيانُ سُوءِ عاقبتِهم.

٣- تقريرُ سَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يخفَى عليه شَيءٌ.

٤- الكلامُ عن التَّناجي وما كان يَتناجى به أعداءُ الإسلامِ ويُحَيُّونَ به الرَّسولَ، وما يَنبغي أن يكونَ عليه تناجي المؤمِنينَ، وذِكرُ ما كان اللهُ تعالى شَرَعه للمؤمِنينَ قبْلَ مناجاتِهم للرَّسولِ.

٥- بيانُ بَعضِ آدابِ المجالِسِ.

٦- ذِكرُ بَعضِ صِفاتِ المنافِقينَ، ومُوالاتِهم لليَهودِ، وحَلِفِهم على الكَذِبِ، ونِسْيانِهم ذِكرَ اللهِ، وبيانُ سُوءِ عاقبتِهم.

٧- خُتِمَت السُّورةُ بالثَّناءِ على المؤمِنينَ، وبيانِ صِفاتِهم الكريمةِ، وحُسْنِ عاقبتِهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٢٤٢).

الآيات (١-٤)

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُجَٰدِلُكَ﴾: أي: تُحاجِجُك وتُراجِعُك، والجِدالُ: المُفاوَضةُ على سَبيلِ المُنازَعةِ والمُغالَبةِ، وهو مِن بابِ استِحكامِ الشَّيءِ في استِرسالٍ يكونُ فيه، وامتِدادِ الخصومةِ، ومراجعةِ الكلامِ، وأصلُه مِن: جَدَلْتُ الحَبْلَ، أي: أحكَمْتُ فَتْلَه[1].

﴿تَحَاوُرَكُمَآ﴾: أي: مُحاوَرتَكما ومُراجَعتَكما القَولَ، وأصلُ (حور) هنا: يدُلُّ على رُجوعٍ[2].

﴿وَزُورٗا﴾: أي: كَذِبًا ومَيلًا عن طريقِ الحَقِّ، وأصلُ (زور): يدُلُّ على المَيلِ والعُدولِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦)، ((المفردات)) =

﴿يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾: الظِّهارُ: قَولُ الرَّجُلِ لامرأتِه: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي، وهي كَلِمةٌ كانوا يقولونَها يُريدونَ بها الفِراقَ، يُقالُ: ظاهَر الرَّجُلُ مِن امرأتِه ظِهارًا، وتَظَهَّر، وتَظاهَر، إذا قال لها ذلك. وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ[1].

﴿يَتَمَآسَّا﴾: كنايةٌ عن الجِماعِ، وأصلُ (مسس): يدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: قد سَمِعَ اللهُ قَولَ المرأةِ الَّتي تُحاوِرُك وتُراجِعُك -يا محمَّدُ- في شأنِ زَوجِها الَّذي ظاهَرَ منها قائِلًا لها: أنتِ عَلَيَّ كظَهرِ أُمِّي، وتَشتَكي إلى اللهِ تعالى مِمَّا لَحِقَ بها بظِهارِ زَوجِها منها، واللهُ يَسمَعُ تَخاطُبَكما، إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُبيِّنًا حقيقةَ الظِّهارِ: الَّذين يُحرِّمونَ منكم زَوجاتِهم تحريمَ اللهِ

= للراغب (ص: ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٠).

قيل: الظِّهارُ مُشتَقٌّ مِن الظَّهرِ، ويُنظر في سببِ اختِصاصِ الظَّهرِ بذلك: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ١٦٥)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٨٨).

وقيل: ليس مأخوذًا مِن الظَّهرِ الَّذي هو عُضوٌ مِن الجسدِ؛ لأنَّه ليس الظَّهرُ أولى بالذِّكرِ في هذا الموضعِ مِن سائرِ الأعضاءِ الَّتي هي مَواضِعُ المُباضَعةِ والتَّلذُّذِ، بل الظَّهرُ هاهنا مأخوذٌ مِن العُلوِّ، وكلُّ مَن علا شيئًا فقد ظهَره، ومنه سُمِّيَ المركوبُ ظَهرًا؛ لأنَّ راكبَه يعلوه، وكذلك امرأةُ الرَّجُلِ ظَهْرُه؛ لأنَّه يعلوها بمِلكِ البُضْعِ، وإن لم يكُنْ مِن ناحيةِ الظَّهرِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٠).

عليهم ظُهورَ أمَّهاتِهم، لا يَصِرْنَ زوجاتُهم أمَّهاتٍ لهم في الحقيقةِ بهذا الظِّهارِ، ما أُمَّهاتُهم في الحقيقةِ إلَّا اللَّاتي ولَدْنَهم، وإنَّ أولئك المُظاهِرينَ لَيَقولونَ قولًا شَنيعًا، وكَذِبًا لا حقيقةَ له، وإنَّ اللهَ لعَفُوٌّ غَفورٌ.

ويُبيِّنُ الله تعالى تفصيلَ الأحكامِ المترتِّبةِ على الظِّهارِ شرعًا، فيقولُ: والَّذين يُحرِّمونَ نِساءَهم على أنفُسِهم بالظِّهارِ، ثمَّ يَعزِمونَ على جِماعِهنَّ ثانيةً؛ فعلى الرَّجُلِ عِتقُ رَقبةٍ مِن قَبلِ أن يَقَع بيْنَهما جِماعٌ، وذلكم مَوعِظةٌ مِن ربِّكم، واللهُ خبيرٌ بجَميعِ ما تَعمَلونَه. فمَن لم يجِدْ رَقَبةً يُحَرِّرُها وَجَبَ عليه صيامُ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ مِن قَبلِ أن يَقَعَ بيْنَ الزَّوجينِ جِماعٌ، فمَن لم يَستَطِعْ صِيامَ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ وَجَبَ عليه إطعامُ سِتِّينَ مِسكينًا. فُرِضَ هذا عليكم؛ لِتُؤمِنوا باللهِ وبرَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتلك حدودُ الله حدَّها لكم. وللكافِرينَ باللهِ وبرَسولِه عذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ١﴾.

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((الحَمدُ لله الَّذي وَسِعَ سَمعُه الأصواتَ، لقد جاءت خَوْلةُ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَشكو زَوجَها، فكان يَخفَى علَيَّ كلامُها، فأنزَل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ الآية))[1].

(١) أخرجه البخاريُّ مُعَلَّقًا بصيغةِ الجزمِ مختصَرًا قبل حديث (٧٣٨٦)، وأخرجه موصولًا =

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾.

أي: قد سَمِعَ اللهُ قَولَ المرأةِ[١] الَّتي تُحاوِرُك وتُراجِعُك -يا محمَّدُ- في شأنِ[٢] زَوجِها الَّذي ظاهَرَ منها قائِلًا لها: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أُمِّي[٣]، فتُجادِلُك خَوفًا مِن وُقوعِ الطَّلاقِ عليها، وخَشيةً مِن فِراقِ زَوجِها بذلك الظِّهارِ[٤].

= النسائيُّ (٣٤٦٠) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (١٨٨)، وأحمدُ (٢٤١٩٥).

صحَّحه ابنُ عساكر في ((معجم الشيوخ)) (١/ ١٦٣)، وابنُ حجر في ((تغليق التعليق)) (٥/ ٣٣٩)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٤٦٠)، وقال ابنُ تيميَّةَ في ((تلبيس الجهمية)) (١/ ٢٨٠): (إسناده ثابتٌ). وصحَّح إسنادَه على شرطِ مسلمٍ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٠/ ٢٢٨).

(١) قال ابنُ كثير: (خَولةُ بِنتُ ثَعْلبةَ، ويُقالُ فيها: خَولةُ بنتُ مالكِ بنِ ثَعلبةَ، وقد تُصَغَّرُ فيُقالُ: خُوَيلةُ، ولا مُنافاةَ بيْنَ هذه الأقوالِ، فالأمرُ فيها قريبٌ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦). وقيل في اسمِها غيرُ ذلك، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٩٨).

(٢) قال ابنُ عاشور: (وتعَلُّقُ فِعلِ التَّجادُلِ بالكَونِ في زَوجِها على نيَّةِ مُضافٍ معلومٍ مِن المقامِ في مِثلِ هذا، أي: في شأنِ زَوجِها وقَضيَّتِه، كقَولِه تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، وقَولِه: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وهو مِن المسألةِ الملَقَّبةِ في أصولِ الفقهِ بإضافةِ التَّحليلِ والتَّحريمِ إلى الأعيانِ [وهي دلالةُ الاقتِضاءِ]، في نحوِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: تُجادِلُك في شأنِ زَوْجِها: الرازيُّ، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٧).

وقال الواحدي: (تُجادِلُك في قَولِ زَوجِها وكَلامِه). ((البسيط)) (٢١/ ٣٢٦).

(٣) قال الزَّجَّاجُ: (كانت هذه الكَلِمةُ مِمَّا يُطَلِّقُ بها أهلُ الجاهِليَّةِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٧).

قال ابنُ جرير: (كانت مُجادَلتُها رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في زَوجِها -وزوجُها أوسُ بنُ الصَّامِتِ- مُراجَعَتَها إيَّاه في أمرِه، وما كان مِن قَولِه لها: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أُمِّي، ومُحاوَرَتَها إيَّاه في ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٦).

﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: وتَشتَكي تلك المُجادِلةُ إلى اللهِ تعالى ما لَدَيها مِنَ الهَمِّ والضُّرِّ بظِهارِ زَوجِها منها، وتَسألُه الفَرَجَ[١].

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾.

أي: واللهُ يَسمَعُ تَخاطُبَكما ومُراجَعتَكما الكلامَ فيما بَيْنَكما[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ له كَمالُ السَّمعِ والبَصَرِ، فأحاط سَمْعُه وبَصَرُه بكُلِّ شَيءٍ، فلا تخفَى عليه خافيةٌ[٣].

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أتَمَّ اللهُ تعالى الخبَرَ عن إحاطةِ العِلمِ؛ استأنَفَ الإخبارَ عن حُكمِ الأمرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

قال الواحدي: (هو قولُها: أشكو إلى اللهِ فاقَتي ووَحْدتي، وإنَّ لي صِبيةً صِغارًا، إنْ ضَمَمْتُهم إليه ضاعوا، وإن ضَمَمْتُهم إلَيَّ جاعُوا، وجعَلَتْ تَرفَعُ رأسَها إلى السَّماءِ، وتقولُ: اللَّهمَّ إنِّي أشكو إليك). ((الوسيط)) (٤/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

قال السعدي: (في ضِمنِ ذلك الإشارةُ بأنَّ اللهَ تعالى سيُزيلُ شَكْواها، ويَرفَعُ بَلْواها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

المجادَلِ بسَبَبِه، فقال ذامًّا للظِّهارِ[(١)]:

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾.

أي: الَّذين يُحرِّمونَ منكم زَوجاتِهم على أنفُسِهم بتَشبيهِهنَّ بظُهورِ أُمَّهاتِهم، فيقولونَ لهنَّ: أنتُنَّ علينا كظُهورِ أمَّهاتِنا؛ ما نِساؤُهم اللَّائي يُظاهِرونَ منهنَّ بأمَّهاتِهم؛ فيقولوا لهنَّ: أنتُنَّ علينا كظَهرِ أمَّهاتِنا، بل هنَّ لهم حلالٌ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

قال القرطبي: (أجمَع الفُقَهاءُ على أنَّ مَن قال لزَوجتِه: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي، أنَّه مُظاهِرٌ، وأكثَرُهم على أنَّه إن قال لها: أنتِ علَيَّ كظَهرِ ابنتي أو أختي أو غيرِ ذلك مِن ذواتِ المَحارِمِ؛ أنَّه مُظاهِرٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧٣).

وممَّن نقَل الإجماعَ أيضًا على أنَّه إن قال لزَوجتِه: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي، كان مُظاهِرًا: ابنُ المنذِرِ، وابنُ رُشْدٍ، وابنُ قُدامةَ. يُنظر: ((الإجماع)) لابن المنذر (ص: ١١٨)، ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ١٠٥)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٥).

وكذلك يكونُ مُظاهِرًا مَن شَبَّه زَوجتَه بمَن تَحرُمُ عليه على التَّأبيدِ مِن أقارِبِه غَيرِ الأمِّ؛ كجَدَّتِه، وعَمَّتِه، وخالتِه، وأُختِه، وهذا باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق للزَّيْلَعي وحاشية الشِّلْبي)) (٣/ ٤)، ((منح الجليل)) لعُلَيْش (٤/ ٢٢٧)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٤٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٦٩).

وإذا قال الرَّجُلُ لِزَوجتِه: أنتِ أمِّي، ونوى الظِّهارَ؛ كان مُظاهِرًا، وإن لم يَنوِ به ظِهارًا فليس بظِهارٍ، وهذا مَذهَبُ الجُمهورِ: المالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((حاشية الصاوي على الشرح الصغير)) (٢/ ٦٣٨)، ((تحفة المحتاج)) لابن حجر الهيتمي (٨/ ١٧٨)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ١٦٦).

قال ابن كثير: (أصلُ الظِّهارِ مُشتَقٌّ مِنَ الظَّهرِ، وذلك أنَّ الجاهِلِيَّةَ كانوا إذا تظاهَرَ أحدٌ مِن امرأتِه قال لها: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي، ثمَّ في الشَّرعِ كان الظِّهارُ في سائرِ الأعضاءِ قياسًا على الظَّهرِ، وكان الظِّهارُ عندَ الجاهليَّةِ طلاقًا، فأرخَصَ اللهُ لهذه الأمَّةِ وجعل فيه كفَّارةً، ولم يَجعَلْه طلاقًا =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾.

أي: ما أُمَّهاتُهم في الحقيقةِ إلَّا اللَّاتي ولَدْنَهم، لا زَوجاتُهم اللَّاتي ظاهَروا مِنهُنَّ[(١)].

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾.

أي: وإنَّ المُظاهِرينَ مِن نِسائِهم لَيَقولونَ بظِهارِهم هذا قولًا شَنيعًا لا يُعرَفُ في الشَّرعِ، وكَذِبًا لا حقيقةَ له، ولا وجودَ له في الواقِعِ[(٢)]!

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَبالِغُ العَفوِ عن ذُنوبِ عِبادِه -فيَتجاوَزُ عنها، ولا يُعاقِبُهم بها-،

= كما كانوا يعتَمِدونَه في جاهِلِيَّتِهم. هكذا قال غيرُ واحِدٍ مِنَ السَّلَفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧).

إذا شَبَّه زَوجتَه بعُضوٍ مِن أعضاءِ أمِّه غيرِ الظَّهرِ، كان ظِهارًا، وهذا باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ في الجُملةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ، على تفصيلٍ عندَهم واختلافٍ في بعضِ الأعضاءِ. يُنظر: ((البناية)) للعَيْني (٥/ ٥٣٥)، ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٥/ ٤٢٥)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٦٣)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٦٩).

وقوله: ﴿مِنكُم﴾ قيل: خِطابٌ للمؤمنينَ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ٣٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧٦).

وقيل: الخِطابُ للعربِ خاصَّةً، وكان طلاقُهم في الجاهليَّةِ الظِّهارَ. يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٤٥).

بالِغُ المَغفرةِ لهم فيَمحو عَيْنَها وأثَرَها، ويَسترُها عليهم[١].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا هَجَّن اللهُ سُبحانَه الظِّهارَ، وأثبَتَ تَحريمَه على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه، وكان ما مَضَت عليه العوائِدُ لا بُدَّ أن يبقَى منه بقايا؛ أتْبَعَ ذلك بيانَ حُكمِ هذه الواقِعةِ، وما لعَلَّه يَقَعُ مِن نظائِرِها[٢].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾.

أي: والَّذين يُحرِّمونَ نِساءَهم على أنفُسِهم بالظِّهارِ، ثمَّ يَعودونَ لِما قالوا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤).

قال ابن كثير: (﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ أي: عمَّا كان منكم في حالِ الجاهليَّةِ، وهكذا أيضًا عمَّا خرج مِن سَبْقِ اللِّسانِ، ولم يَقصِدْ إليه المتكَلِّمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩).

وقال ابن عثيمين: (العفوُ هو التَّجاوُزُ عن عبادِه في تركِ الواجبِ وفِعلِ المحرَّم، وعفْوُ الله عزَّ وجلَّ عفْوٌ كاملٌ مقرونٌ بالقُدرةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرٗا﴾ [النساء: ١٤٩]، بخِلافِ عفوِ غيرِه؛ فقد يكونُ للعَجْزِ؛ أي: العجْزِ عن الأخْذِ بالثَّأرِ...

الغفورُ: هو السَّاتِرُ للذُّنوبِ، المُتجاوِزُ عنها، فإذا أُضيفَ العفوُ إلى المغفرةِ حصَل الكمالُ، وهو أنَّ العفْوَ لتَرْكِ الواجبِ، والمغفرةَ لِفعلِ المحرَّم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٦، ٤٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٨-٤٦٠)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٩٢، ١٩٣).

اختلَف أهلُ العِلمِ في تفسيرِ العَودِ المذكورِ؛ على أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّ المُرادَ بالعَودِ: العزمُ على الوطءِ. وممَّن ذهب إليه: الحنفيَّةُ، والمالكيَّةُ -(وزادوا =

= في قولٍ آخَرَ لهم مع هذا العزم: نِيَّةَ الإمساكِ في العصمةِ)- وهو اختيارُ ابنِ عثيمين. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٣/ ٢٣٦)، ((الشرح الكبير للدردير وحاشية الدسوقي)) (٢/ ٤٤٦)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٥١).

الثَّاني: أنَّ المرادَ بالعَودِ: الوطءُ نفْسُه. وهو مذهبُ الحنابلةِ، واختاره ابنُ القيِّم. يُنظر: ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٧٤)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٣٠٤).

الثَّالثُ: أنَّ معناه: أن يُمسِكَها زوجةً بعدَ الظِّهارِ، معَ القُدرةِ على الطَّلاقِ. وهذا مذهبُ الشَّافعيَّةُ. يُنظر: ((تحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والعبادي)) (٨/ ١٨٣)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (٣/ ٣٥٦).

قال الشوكاني: (وقيل: هو الكفَّارةُ، والمعنى: أنَّه لا يَستبيحُ وطْأَها إلَّا بكفَّارةٍ، وبه قال اللَّيثُ ابنُ سعدٍ، ورُويَ عن أبي حَنيفةَ. وقيل: هو تكريرُ الظِّهارِ بلَفظِه، وبه قال أهلُ الظَّاهرِ، ورُويَ عن بُكَيرِ بنِ الأشَجِّ وأبي العاليةِ والفرَّاءِ، والمعنى: ثمَّ يَعودون إلى قَولِ ما قالوا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٩). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩).

وقال ابنُ قُتَيْبَةَ: (يَتوهَّمُ قَومٌ: أنَّ الظِّهارَ لا يُحسَبُ ولا يقَعُ حتَّى يتكرَّرَ اللَّفظُ به؛ لقولِ الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾! وقد أجمَع النَّاسُ على أنَّ الظِّهارَ يقعُ بلَفظٍ واحدٍ، فأمَّا تأويلُ قولِه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ فإنَّ أهلَ الجاهليَّةِ كانوا يُطلِّقون بالظِّهارِ؛ فجعَل اللهُ حُكمَ الظِّهارِ في الإسلامِ خِلافَ حُكمِه عندَهم في الجاهليَّةِ؛ وأنزَل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ في الجاهليَّةِ ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ لما كانوا يَقولونه مِن هذا الكلامِ). ((غريب القرآن)) (ص: ٤٥٦، ٤٥٧).

وقال ابن العربي: (إذا عَزَم على خِلافِ ما قال، ورآها خِلافَ الأُمِّ كَفَّر، وعاد إلى أهلِه. وتحقيقُ هذا القولِ أنَّ العزمَ قولٌ نفْسيٌّ، وهذا رجُلٌ قال قولًا يَقتضي التَّحليلَ وهو النِّكاحُ، وقال قولًا يَقتضي التَّحريمَ وهو الظِّهارُ، ثمَّ عاد لِما قال، وهو قولُ التَّحليلِ؛ فلا يَصِحُّ أنْ يكونَ منه ابتداءَ عقدٍ؛ لأنَّ العقدَ باقٍ، فلم يَبْقَ إلَّا أنَّه قَولُ عزمٍ يُخالِفُ ما اعتَقَده، وقاله في نفْسِه مِن الظِّهارِ الَّذي أخبَر عنه بقولِه: أنتِ علَيَّ كظهرِ أُمِّي. وإذا كان ذلك كَفَّر، وعادَ إلى أهلِه؛ لقولِه: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: ٣]، وهذا تفسيرٌ بالغٌ في فَنِّه). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٩٣).

وقال الشنقيطي: (الَّذي يَظهَرُ -واللهُ تعالى أعلَمُ- أنَّ العَودَ له مَبدَأٌ ومُنتهى، فمَبدؤُه العزمُ على الوطءِ، ومُنتهاه الوطءُ بالفعلِ، فمَن عزَم على الوطءِ فقد عاد بالنِّيَّةِ؛ فتَلزَمُه الكفَّارةُ لإباحةِ الوطءِ، ومَن وطِئَ بالفعلِ تحَتَّمَ في حقِّه اللُّزومُ، وخالف بالإقدامِ على الوطءِ قبْلَ التَّكفيرِ). =

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾.

أي: فعليهم عِتقُ رَقبةٍ كامِلةٍ مِن قَبلِ أن يَقَعَ بيْنَ الزَّوجَينِ جِماعٌ(١).

= ((أضواء البيان)) (٦/ ١٩٢).

قال ابن الفَرَس: (وقد اختُلِف في هذه الآيةِ: هل هي على نَظْمِها، أم فيها تقديمٌ وتأخيرٌ؟ فالمشهورُ أنَّه لا تقديمَ فيها ولا تأخيرَ، وهو الصَّحيحُ. وذهب بعضُهم إلى أنَّ فيها تقديمًا وتأخيرًا، وذُكِر عن الأخفَشِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٢٦).

وقال الواحدي: (قال الأخفشُ: تقديرُ الآيةِ: والَّذين يُظاهِرون مِن نسائِهم، فتحريرُ رقَبةٍ لِما قالوا، ثمَّ يَعودون إلى نسائِهم، أي: فعليهم تحريرُ رقبةٍ لِما نطَقوا به مِن ذلك التَّحريم. والتَّقديمُ والتَّأخيرُ كثيرٌ في التَّنزيلِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٦١). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٣٧).

قال ابن الفَرَس: (وهذا قولٌ ضعيفٌ، يَفسُدُ به نظْمُ الآيةِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٢٦).

وقال أيضًا: (واختُلِف في معنى اللَّامِ في قولِه: ﴿لِمَا قَالُواْ﴾؛ فيحتملُ أن يكونَ بمعنَى: في أيِّ فيما قالوا. وقيل: المعنى: مِن أجْلِ ما قالوا. وقال الفرَّاءُ: معناه: عن ما قالوا، قال: والمعنى: ثمَّ يَرجِعون عن ما قالوا ويُريدون الوطءَ. وقيل: هي على بابِها، والمعنى: ثمَّ يَعودون لِقَولِهم، والقولُ بمعنى المَقولِ، فالمعنى: ثمَّ يَعودونَ لِوَطْءِ المَقولِ فيها الظِّهارُ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٢٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

قال القرطبي: (لا يجوزُ للمُظاهِرِ الوَطءُ قبْلَ التَّكفيرِ، فإنْ جامَعَها قبْلَ التَّكفيرِ أَثِمَ وعَصى، ولا يَسقُطُ عنه التَّكفيرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٣). ويُنظر: ((اختلاف الأئمة العلماء)) لابن هُبَيْرة (٢/ ١٨٨).

وقال ابنُ هُبَيرةَ: (اختَلَفوا في اشتراطِ الإيمانِ في الرَّقَبةِ الَّتي يُكَفِّرُ بها المُظاهِرُ؛ فقال أبو حَنيفةَ وأحمَدُ في إحدى روايتَيه: ليس بشَرطٍ فيه. وقال مالكٌ والشَّافِعيُّ وأحمدُ في الرِّوايةِ الأُخرى عنه: هو شَرطٌ). ((اختلاف الأئمة العلماء)) (٢/ ١٨٩).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فإعتاقُ رقَبةٍ كاملةٍ مِن قبْلِ أن يَتماسَّا، فهاهنا الرَّقبةُ مُطْلَقةٌ غيرُ مُقيَّدةٍ بالإيمانِ، وفي كفَّارةِ القتلِ مُقيَّدةٌ بالإيمانِ؛ فحمَلَ الشَّافعيُّ رحمه الله ما أُطلِق هاهنا على ما قُيِّد هناك لاتِّحاد المُوجب، وهو عِتقُ الرَّقبةِ، واعتضَد في ذلك بما رواه عن مالكٍ بسنَدِه، عن مُعاويةَ بنِ الحَكَمِ السُّلَميِّ، في قصَّةِ الجاريةِ السَّوْداءِ، وأنَّ رسولَ الله صلَّى الله =

﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾.

أي: وَجَب عليكم ذلك العِتقُ؛ مَوعِظةً لكم؛ لِتَنتَهوا عن الظِّهارِ، وتَنزَجِروا عن الوُقوعِ فيه ثانيةً[١].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

أي: واللهُ بجَميعِ ما تَعمَلونَه مِن هذا التَّكفيرِ وغيرِه ذو خِبرةٍ بالِغةٍ تامَّةٍ، فلا يَخفَى عليه شيءٌ، ويُجازي كلَّ عامِلٍ بعمَلِه[٢].

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤﴾.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾.

أي: فمَن لم يجِدْ رَقَبةً يُحَرِّرُها -إمَّا لعَدَمِ وُجودِها، أو لعَدَمِ القُدرةِ على دَفعِ ثَمَنِها- وَجَبَ عليه صيامُ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ بلا إفطارٍ بَيْنَهما، مِن قَبلِ أن يَقَعَ بيْنَ الزَّوجينِ جِماعٌ[٣].

﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗا﴾.

= عليه وسلَّم قال: «أعتِقْها فإنَّها مؤمنةٌ». وقد رواه أحمدُ في مُسنَدِه [٢٣٧٦٢]، ومسلمٌ في صحيحه [٥٣٧]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠). ويُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩).

قال البِقاعي: (﴿خَبِيرٞ﴾ أي: عالِمٌ بظاهِرِه وباطِنِه، فهو عالِمٌ بما يُكَفِّرُه؛ فافعَلوا ما أمَرَ اللهُ به، وقِفوا عندَ حُدودِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٢-٤٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

أي: فمَن لم يَستَطِعْ صِيامَ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ -لِمَرضٍ، أو لغيرِه مِنَ الأعذارِ- وَجَبَ عليه إطعامُ سِتِّينَ مِسكِينًا[١].

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: هذا المفروضُ عليكم في كَفَّارةِ الظِّهارِ قد شَرَعْناه لكم؛ لِتُؤمِنوا باللهِ وبرَسولِه مُحمَّدٍ، فتَعمَلوا بحُكمِ اللهِ، وتَنتَهوا عمَّا حرَّم اللهُ[٢].

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾.

أي: وتلك الحدودُ الَّتي حدَّها اللهُ لكم، والفُروضُ الَّتي بيَّنها لكم: هي حُدودُ اللهِ؛ فلا تَتعَدَّوها ولا تَنتَهِكوها[٣].

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: وللكافِرينَ باللهِ وبرَسولِه، التَّارِكينَ العَمَلَ بأحكامِ شَرعِه، والوُقوفَ عندَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١).

قال السعدي: (﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾ الصِّيامَ ﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينًا﴾ إمَّا بأنْ يُطعِمَهم مِن قوتِ بلدِه ما يَكْفيهم، كما هو قولُ كثيرٍ مِن المفسِّرينَ، وإمَّا بأن يُطعِمَ كلَّ مسكينٍ مُدَّ بُرٍّ أو نِصفَ صاعٍ مِن غيرِه ممَّا يجزي في الفِطرةِ، كما هو قولُ طائفةٍ أخرَى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

وقال الشوكاني: (الظَّاهرُ مِن الآيةِ أن يُطعِمَهم حتَّى يَشبَعوا مرَّةً واحدةً، أو يَدفَعَ إليهم ما يُشبِعُهم، ولا يَلزَمُه أن يَجمَعَهم مرَّةً واحدةً، بل يجوزُ له أن يُطعِمَ بعضَ السِّتِّينَ في يومٍ، وبعضَهم في يومٍ آخَرَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١).

حُدودِه: عذابٌ مُؤلمٌ مُوجِعٌ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذه الواقِعةُ تدُلُّ على أنَّ مَن انقَطَع رَجاؤُه عن الخَلقِ، ولم يَبقَ له في مُهِمِّه أحدٌ سِوى الخالقِ، كفاه اللهُ ذلك المُهِمَّ[٢].

٢- عن ثُمامةَ بنِ حَزْنٍ، قال: (بَيْنَما عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يَسيرُ على حِمارِه لَقِيَتْه امرأةٌ، فقالت: قِفْ يا عُمَرُ، فوقف، فأغلَظَت له القَولَ، فقال رجُلٌ: يا أميرَ المؤمِنينَ، ما رأيتُ كاليَومِ! فقال: وما يَمنَعُني أن أستَمِعَ إليها وهي الَّتي استَمَع اللهُ لها؟! أنزَلَ فيها ما نَزَل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾)[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ التَّحذيرُ مِن قَولِ الإنسانِ ما لا يُرضي ربَّه عزَّ وجلَّ، وأنَّه مهما أخفى القولَ فإنَّ اللهَ تعالى يَسمَعُه؛ قال اللهُ تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[٤] [الزخرف: ٨٠].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه بيانُ لُطفِ اللهِ تعالى بعِبادِه، واعتنائِه بهم؛ حيثُ ذكَرَ شَكوى هذه المرأةِ المُصابةِ، وأزالها ورفَعَ عنها البَلوَى، بل رفَع البلوى بحُكمِه العامِّ لكُلِّ مَن ابتُلِيَ بمِثلِ هذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٨).

(٣) أخرجه البخاريُّ في ((التاريخ الكبير)) (٧/ ٢٤٥)، وابنُ مَرْدويه كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٧٠).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣١).

القَضيَّةِ[١].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ افتُتِحَت آياتُ أحكامِ الظِّهارِ بذِكرِ سَبَبِ نُزولِها؛ تنويهًا بالمرأةِ الَّتي وجَّهَت شَكواها إلى اللهِ تعالى، بأنَّها لم تُقَصِّرْ في طَلَبِ العَدلِ في حَقِّها وحَقِّ بَنيها، ولم تَرضَ بفِعلِ زَوجِها، وابتِدارِه إلى ما يَنثُرُ عِقْدَ عائلتِه، وتعليمًا لنِساءِ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ ورِجالِها واجِبَ الذَّودِ عن مَصالِحِها[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ترغيبٌ في التَّوبةِ ودعوةٌ إليها، فمِن صفاتِه تعالى أنْ يَترُكَ عِقابَ مَن شاء، ومِن صفاتِه أنْ يَمحوَ عينَ الذَّنْبِ وأثَرَه حتَّى إنَّه كما لا يعاقبُ عليه لا يُعاتبُ؛ فهل مِن تائبٍ طلبًا للعفوِ عن الزَّللِ، والإصلاحِ لما كان مِن خلَلٍ[٣]؟

٧- قول الله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فيه أنَّ التِزامَ أحكامِ اللهِ والعَمَلَ بها: مِن الإيمانِ، بل هي المقصودةُ، ومِمَّا يَزيدُ به الإيمانُ ويَكمُلُ ويَنمو[٤].

٨- جعَل الله تعالى الصِّيامَ معادِلًا لتحريرِ الرَّقبةِ في ثلاثةِ أحكامٍ مِن كتابِه؛ إذ جعَل على مَن قتَل مؤمنًا خطأً: تحريرَ رقبةٍ مؤمنةٍ، ودِيةً مسلَّمةً إلى أهلِه ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٢]. وجعَل على الذين يُظاهِرونَ مِن نسائِهم ثمَّ يَعودونَ لما قالوا تحريرَ رقبةٍ مِن قبلِ أنْ يتماسَّا ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾. وجعَل كفَّارةَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٨٢)
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

اليمينِ تحريرَ رقبةٍ ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، فانظُرْ لم كتَب الله على مَن ارتكَب شيئًا مِن هذه الخطايا الثلاثَ: أنْ يُحرِّرَ رقبةً مؤمنةً مِن رقِّ الاستعبادِ، فإنْ لم يجِدْها فعليه أنْ يعمَلَ على تحريرِ نفسِه مِن رقِّ مطالبِ الحياةِ، ورقِّ ضروراتِ البدنِ، ورقِّ شهواتِ النَّفسِ، فالصيامُ هو عتقُ النَّفسِ الإنسانيةِ مِن كلِّ رقٍّ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: أوجَبْنا ذلك لِيتحَقَّقَ لكم الإيمانُ؛ فإنَّه كُلَّما كان الإنسانُ مُمتَثِلًا لأمرِ اللهِ مع المشَقَّةِ ازداد إيمانُه ورَغبتُه فيما عندَ اللهِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ يدُلُّ على أنَّ هذا الكلامَ كان بعدَ وُقوعِ الحادثةِ، وأنَّ اللهَ تكلَّمَ بالقرآنِ حديثًا[٣]؛ فإنَّ «قد» للتَّحقيقِ، و«سَمِعَ» فعلٌ ماضٍ يَقتضي أنْ يكونَ المسموعُ سابقًا للخَبَرِ عنه، وأنَّ الخَبَرَ عنه لاحِقٌ، ومعلومٌ أنَّ المرأةَ إنَّما شَكَتْ إلى النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في أمرٍ حادثٍ[٤]؛ فالكلامُ صِفةٌ فعليَّةٌ باعتبارِ آحادِه، لكن باعتبارِ أصْلِه صِفةٌ ذاتيَّةٌ، لأنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ ولا يَزالُ مُتكلِّمًا، لكنَّه يَتكلَّمُ بما شاء متى شاء[٥].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للرَّبِّ سُبحانَه، وقيامِها به[٦].

---

(١) يُنظر: ((جمهرة مقالات محمود شاكر)) (٢/ ٩٣٨).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٧٩).

(٦) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ إثباتُ صِفةِ السَّمعِ للرَّبِّ تعالى حقيقةً، وأنَّه بنَفْسِه سَمِعَ[١]، وأنَّه يَسْمَعُ الأصواتَ مهما بَعُدَتْ ومهما خَفِيَتْ[٢]، والآيةُ الكريمةُ أصرَحُ ما يكونُ في إثباتِ صفةِ السَّمْعِ؛ فقد ذَكَر الماضيَ والمُضارِعَ واسمَ الفاعلِ؛ فقال: «سَمِعَ»، و «يَسْمَعُ»، وهو «سميعٌ»، وله السَّمْعُ[٣]. فنؤمنُ بأنَّ مِن أسماءِ الله تعالى السَّميعَ، وأنَّه دالٌّ على صِفةِ السَّمعِ، وأنَّ لهذا السَّمعِ حُكمًا وأثَرًا وهو أنَّه يَسمَعُ به[٤]، وأنَّ سَمْعَ الله يَنقسِمُ إلى قِسمَينِ: سمْعِ إدراكٍ، كما في هذه الآيةِ -وهو مِن الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ-، وسمعِ استِجابةٍ، وهو مِن الصِّفاتِ الفِعليَّةِ، كما في قولِه تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] أي: مُجيبُ الدُّعاءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٨٧).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٤).

قال ابن عثيمين: (سمْعُ الإدراكِ قد يُرادُ به بيانُ الإحاطةِ والشُّمولِ، وقد يُرادُ به التَّهديدُ، وقد يُرادُ به التَّأييدُ، فهذه ثلاثةُ أنواعٍ:

الأوَّلُ: يُرادُ به بيانُ الإحاطةِ والشُّمولِ، مِثلُ هذه الآيةِ [﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾].

الثَّاني: يُرادُ به التَّهديدُ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]. وانظُرْ كيف قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ حينَ وصَفوا اللهَ تعالى بالنَّقصِ، قبْلَ أن يقولَ: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّ وصْفَ الله بالنَّقصِ أعظَمُ مِن قتلِ الأنبياءِ.

الثَّالثُ: سمْعٌ يُرادُ به التَّأييدُ، ومنه قولُه تبارك وتعالى لموسى وهارونَ: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، فالمرادُ بالسَّمعِ هنا التَّأييدُ، يعني: أسمَعُك وأؤيِّدُك، يعني: أسمَعُ =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ دَلالةٌ على القاعدةِ المُقَرَّرةِ: أنَّ «العِبرةَ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبَبِ»؛ فالسَّبَبُ خاصٌّ، ولكنَّ الحُكْمَ عامٌّ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ والمُتعارَفُ في صِيغةِ الظِّهارِ أنْ تَشتمِلَ على ما يدُلُّ على الزَّوجةِ والظَّهرِ والأُمِّ، ولم يُشِرِ القرآنُ إلى اسمِ الظَّهرِ ولا إلى اسمِ الأُمِّ إلَّا مُراعاةً للصِّيغةِ المُتعارَفةِ بيْن النَّاسِ يومَئذٍ، بحيث لا يَنتقِلُ الحُكْمُ مِن الظِّهارِ إلى صِيغةِ الطَّلاقِ إلَّا إذا تَجرَّدَ عن تلك الكلماتِ الثَّلاثِ تَجرُّدًا واضحًا[٢].

٦- قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ استَدَلَّ به مَن قال: لا حُكمَ لظِهارِ الزَّوجةِ مِن زَوجِها؛ لأنَّه تعالى خَصَّ الظِّهارَ بالرَّجُلِ[٣]، فالمرأةُ إنْ قالتْه لزَوجِها فليس بظِهارٍ، فكما أنَّها لا تُطَلِّقُ نفْسَها؛ فلا تُظاهِرُ مِن زوجِها[٤].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾ استدَلَّ مالكٌ بقَولِه: ﴿مِنكُم﴾ أنَّ الكافرَ لا يَدخُلُ في هذا الحُكمِ[٥]؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿مِنكُم﴾ كنايةٌ عن

= ما تَقولانِ، وما يُقالُ لكما). ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٤٣).
وذلك باتِّفاقِ المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ. يُنظر: ((البناية)) للعيني (٥/ ٥٤١)، ((مواهب الجليل)) للحطاب (٥/ ٤٢٤)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٦٥)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٩/ ١٤٥).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).
وهذا القولُ هو مذهبُ الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ، وروايةٌ عن أحمدَ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزيلعي (٣/ ٢)، ((مواهب الجليل)) للحطاب (٥/ ٤٢٤)، ((المبدع شرح المقنع)) لابن مفلح (٨/ ٣٢). =

المُسلِمينَ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قال في آخِرِ الآيةِ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، والكافِرُ غيرُ جائزِ المغفِرةِ، وقَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ بِناءٌ على الأوَّلِ[1].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ فيه أنَّه لا يَصِحُّ الظِّهارُ مِن امْرأةٍ قبْلَ أن يَتزَوَّجَها؛ لأنَّها لا تَدخُلُ في نِسائِه وقْتَ الظِّهارِ، كما لا يَصِحُّ طَلاقُها، سواءٌ نَجَز ذلك أو عَلَّقَه[2]، فالظِّهارُ خاصٌّ للزَّوجاتِ، دون الأجنبيَّاتِ[3].

٩- قول الله تعالى: ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡ﴾ فيه سُؤالٌ: ظاهِرُ الآيةِ يقتضي أنَّه لا أمَّ إلَّا الوالِدةُ، وهذا مُشكِلٌ؛ لأنَّه قال في آيةٍ أخرى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣]، وفي آيةٍ أخرى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ [الأحزاب: ٦]، ولا يمكِنُ أن يُدفَعَ هذا السُّؤالُ بأنَّ المَعنيَّ مِن كَونِ المرضِعةِ أُمًّا، وزَوجةِ

= قال الشنقيطي: (لأنَّ الظِّهارَ منكَرٌ مِن القولِ وَزُورٌ يُكَفِّرُه اللهُ بالعِتقِ، أو الصَّومِ، أو الإطعامِ، ... والكافرُ لا يُكَفِّرُ عنه العِتقُ أو الصَّومُ أو الإطعامُ ما ارْتَكَبه مِن المُنكَرِ والزُّورِ لكفرِه؛ لأنَّ الكفرَ سَيِّئةٌ لا تَنفَعُ معها حسَنةٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٠٩).

(١) يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٣/ ٢٣٠).

قال الجَصَّاصُ: (وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ وذلك خِطابٌ للمؤمنينَ يدُلُّ على أنَّ الظِّهارَ مخصوصٌ به المؤمنونَ دونَ أهلِ الذِّمَّةِ. فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ ولم يَخصُصِ المَذكورينَ في الثَّانيةِ؟ قيل له: المَذكورونَ في الآيةِ الثَّانيةِ هم المذكورونَ في الآيةِ الأولى؛ فوجب أن يكونَ خاصًّا في المُسلمينَ دونَ غيرِهم). ((أحكام القرآن)) (٥/ ٣٠٢). ويُنظر ما أُجيبَ به عن ذلك في: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

وهذا القولُ هو مذهبُ الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والظَّاهريَّةِ وروايةٌ عن أحمدَ. يُنظر: ((الدر المختار وحاشية ابن عابدين)) (٣/ ٤٦٦)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٦١)، ((المحلى)) لابن حزم (٩/ ١٩٩)، ((الفروع)) لابن مفلح (٩/ ١٨٢).

الرَّسولِ أُمًّا: حُرمةُ النِّكاحِ، وذلك لأنَّا نقولُ: إنَّ بهذا الطَّريقِ ظَهَر أنَّه لا يلزَمُ مِن عدَمِ الأُمومةِ الحقيقيَّةِ عَدَمُ الحُرمةِ، فإذَنْ لا يلزَمُ مِن عَدَمِ كَونِ الزَّوجةِ أُمًّا عَدَمُ الحُرمةِ، وظاهِرُ الآيةِ يُوهِمُ أنَّه تعالى استدَلَّ بعَدَمِ الأمومةِ على عدَمِ الحُرمةِ، وحينَئذٍ يتوَجَّهُ السُّؤالُ؟

الجوابُ: أنَّه ليس المرادُ مِن ظاهِرِ الآيةِ ما ذُكِرَ في السُّؤالِ، بل تقديرُ الآيةِ كأنَّه قيل: الزَّوجةُ ليست بأمٍّ حتَّى تَحصُلَ الحُرمةُ بسَبَبِ الأُمومةِ، ولم يَرِدِ الشَّرعُ بجَعْلِ هذا اللَّفظِ سَبَبًا لوُقوعِ الحُرمةِ حتَّى تحصُلَ الحُرمةُ، فإذَنْ لا تحصُلُ الحُرمةُ هناك البتَّةَ، فكان وصْفُهم لها بالحُرمةِ كَذِبًا وزُورًا[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾، وكذا في الآيةِ الأخرى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤] سؤالٌ: وهو أنَّ المتظاهِرَ ما قال: إنَّ زوجتَه أُمُّه، لكِنَّه شَبَّهَها بها، وهو لَمْ يَقُلْ: «ما هُنَّ مِثْلَ أُمَّهاتِهم»؛ بل قال: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾!

والجواب: أنَّ المُتظاهِرَ مقصودُه تحريمُ الوطءِ، وقولُه «أنتِ عليَّ كظَهرِ أمِّي» معناه: وَطْؤُكِ مِثْلُ وَطْءِ أمِّي، فمقصودُه تشبيهُ الوطءِ بالوطءِ؛ وأنْ يكونَ وَطْؤُها مِثلَ وَطْءِ أُمِّه، وذلك يقتضي أنْ تكونَ حرامًا، ووَطْؤُها لا يكونُ مِثْلَ وَطْءِ أُمِّه إلَّا إذا كانت مِن جِنْسِ أُمِّه، وإلَّا فإذا تباينَتِ الحقائقُ تباينتْ أحكامُها، فكان مُوجَبُ قولِهم أنْ تكونَ الأزواجُ مِن جنسِ الأمَّهاتِ، كما تكونُ أُمُّ الأبِ والأمِّ مِن جنسِ الأمِّ في التَّحريمِ والمَحْرَمِيَّةِ، فبَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ هذا الجِنسَ ما هو هذا الجِنسُ، بل جنسٌ آخَرُ، فقال: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤]، كما قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٢).

أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، وهم لَمْ يكونوا يَقولونَ: هو مولودٌ منه، بل جَعلوه مِن جنسِ المولودِ، فجَعلوا حُكْمَه حُكْمَ المولودِ منه الَّذي هو الابنُ، فقال تعالى: هذا ما هو مِن جِنْسِ الابنِ، فلا يكونُ حالُه حالَه(١).

وأمَّا قولُه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ فالجوابُ عنه أنَّ الكَذِبَ إنَّما لزِمَ لأنَّ قَولَه: (أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي) إمَّا أنْ يَجعَلَه إخبارًا أو إنشاءً، وعلى التَّقديرِ الأوَّلِ: أنَّه كَذِبٌ؛ لأنَّ الزَّوجةَ مُحلَّلةٌ والأمَّ مُحرَّمةٌ، وتشبيهُ المحلَّلةِ بالمحَرَّمةِ في وَصفِ الحِلِّ والحُرمةِ كَذِبٌ، وإنْ جعَلْناه إنشاءً(٢) كان ذلك أيضًا كَذِبًا؛ لأنَّ كَونَه إنشاءً معناه: أنَّ الشَّرعَ جعَلَه سَببًا في حُصولِ الحُرمةِ، فلمَّا لم يَرِدِ الشَّرعُ بهذا التَّشبيهِ كان جَعْلُه إنشاءً في وُقوعِ هذا الحُكمِ يكونُ كَذِبًا وزُورًا(٣).

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾، وذِكْرُ الآياتِ لمَن ظاهَرَ بأُمِّه فهذا بِناءً على أنَّه الغالبُ: أنَّ الإنسانَ يُظاهِرُ بأُمِّه، لكنْ لو قال الإنسانُ: «أنتِ علَيَّ كظَهرِ أختي» أو: «كظَهرِ عَمَّتي» فهو كقَولِه: «كظَهرِ أُمِّي»؛ لأنَّه لا فَرْقَ، والضَّابِطُ في هذا: أنْ يُشَبِّهَ زوجتَه بمَن تَحرُمُ عليه تَحريمًا مؤبَّدًا(٤).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ تأكيدُ ميراثِ وَلَدِ الملاعَنةِ، ووَلَدِ الزِّنا؛ لشُمولِ اسمِ الأُمومةِ لِمَن وُلِدَ بهما، وهو نظيرُ قولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٣٩٣).

(٢) أي: إنشاء الزَّوجِ حُكمًا، وهو تحريمُ زوجتِه، بتنزيلِها مَنزِلةَ الأمِّ.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨١، ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣١).

ويُعَدُّ مظاهِرًا مَن شبَّه زوجتَه بمَن تحرُمُ عليه تحريمًا مؤبَّدًا، وذلك باتِّفاقِ المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ: الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشافعيَّةِ، والحنابلةِ. ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٣٨).

﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾[١] [النجم: ٣٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أنَّ الظِّهارَ حرامٌ[٢] لا يجوزُ الإقدامُ عليه؛ لأنَّه -كما أخْبَرَ اللهُ عنه- مُنكَرٌ مِن القَولِ وزُورٌ، وكِلاهما حرامٌ، والفرقُ بيْنَ جِهةِ كَونِه مُنكَرًا وجِهةِ كَونِه زُورًا: أنَّ قولَه: «أنتِ عليَّ كظَهرِ أمِّي» يتضمَّنُ إخبارَه عنها بذلك، وإنشاءَه تحريمَها، فهو يتضمَّنُ إخبارًا وإنشاءً، فهو خَبَرٌ زورٌ، وإنشاءٌ مُنكَرٌ؛ فإنَّ الزُّورَ هو الباطلُ، خِلافُ الحقِّ الثَّابتِ، والمُنكَرُ خِلافُ المعروفِ، وخَتَم سُبحانَه الآيةَ بقَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، وفيه إشعارٌ بقيامِ سَبَبِ الإثمِ الَّذي لولا عَفوُ اللهِ ومَغفِرتُه لآخَذَ به[٣].

١٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ فيه أنَّه يُكرَهُ للرَّجُلِ أن يُناديَ زوجتَه ويُسَمِّيَها باسمِ مَحارِمِه، كقَولِه: (يا أُمِّي) (يا أُختي)

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٤٧).

وولدُ الملاعنةِ وأمُّه يتوارثانِ تَوارُثَ سائرِ الأولادِ والأمَّهاتِ، وذكرَ ابْن قُدامةَ أنَّه لا يعلمُ خِلافًا في أنَّ أمَّ ولدِ المُلاعَنةِ تَرِثُ هذا الولدَ، ويرثُ ذَوو الفروضِ منه فروضَهم. يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٦/ ٣٤٠)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٦/ ٤٣).

واتَّفق الفقهاءُ على استِحقاقِ ولدِ الزِّنا الإرثَ مِن أمِّه وأقاربِها، وعلى أنَّهم يَرِثونه أيضًا بالفرضِ والتَّعصيبِ، وعصَبَتُه عصَبةُ أمِّه. يُنظر: ((المحلى بالآثار)) لابن حزم (٨/ ٣٣٤)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٤٥/ ٢٢٣).

(٢) قال برهانُ الدِّينِ ابنُ مُفلِحٍ: (وهو محرَّمٌ إجماعًا، حكاه ابنُ المُنذِرِ). ((المبدع)) (٧/ ٣).

ومِن أهلِ العِلمِ مَن جعَلَ الظِّهارَ كبيرةً مِن الكبائرِ، قال الهَيْتَميُّ: (الظِّهار كبيرةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى سمَّاه زُورًا، والزُّورُ كبيرةٌ... ويُوافِقُ ذلك ما نُقِل عن ابنِ عبَّاسٍ مِن أنَّ الظِّهارَ مِن الكبائِرِ). ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) (٢/ ٨٥). ويُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

ومنهم مَن لم يَعُدَّه مِن الكبائرِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٢٩٦).

ونحوَه؛ لأنَّ ذلك يُشبِهُ المحرَّمَ[١].

١٥- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوّٞ غَفُورٞ﴾ أوْمَأَ قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوّٞ غَفُورٞ﴾ إلى أنَّ مُرادَ اللهِ مِن هذا الحُكمِ التَّوسِعةُ على النَّاسِ، فعَلِمْنا أنَّ مَقصَدَ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ أن تدورَ أحكامُ الظِّهارِ على مِحوَرِ التَّخفيفِ والتَّوسِعةِ، فعلى هذا الاعتبارِ يَجِبُ أن يَجريَ الفُقَهاءُ فيما يُفتُونَ؛ ولذلك لا ينبغي أن تلاحَظَ فيه قاعِدةُ الأخذِ بالأحوَطِ، ولا قاعِدةُ سَدِّ الذَّريعةِ، بل يجبُ أن نسيرَ وَراءَ ما أضاء لنا قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوّٞ غَفُورٞ﴾[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ دليلٌ على أنَّ التَّحريمَ لا يكونُ طَلاقًا؛ إذْ لو كان الحرامُ طَلاقًا بوَجهٍ مِن الوُجوهِ ما جاز وَطْءُ المُظاهَرِ منها بعدَ الكَفَّارةِ؛ لأنَّ الطَّلاقَ حَلٌّ لا تَعقِدُه الكَفَّارةُ، والبَيْنونةُ لا تَعودُ وَصْلًا بها، والمُحَرَّمةُ بالظِّهارِ إنْ لم تكُنْ أغلَظَ تحريمًا مِن المُحَرَّمةِ بغيرِ الظِّهارِ فهي مِثلُها[٣].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ إبطالُ ما كانوا عليه في الجاهِليَّةِ وفي صَدرِ الإسلامِ مِن كَونِ الظِّهارِ طَلاقًا، ولو

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤، ١٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٤٨).

يُنظر للخِلافِ في حُكمِ ما إذا قال لزَوجتِه: أنتِ عليَّ حرام: ((المغني)) لابن قدامة (٧/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٠).

وقال ابنُ قُدامةَ: (وأكثرُ الفُقهاءِ على أنَّ التَّحريمَ إذا لم يَنوِ به الظِّهارَ، ليس بظِهارٍ، وهو قولُ مالكٍ، وأبي حنيفةَ، والشَّافعيِّ). ((المغني)) (٨/ ٨).

صَرَّح بنِيَّتِه له، فقال: أنتِ عليَّ كظَهرِ أُمِّي، أعني به الطَّلاقَ؛ لم يكُنْ طَلاقًا، وكان ظِهارًا، وهذا بالاتِّفاقِ، إلَّا ما عَساه مِن خِلافٍ شاذٍّ؛ وهذا لأنَّ الظِّهارَ كان طَلاقًا في الجاهِليَّةِ فنُسِخَ، فلم يَجُزْ أنْ يُعادَ إلى الحُكْمِ المنسوخِ[١].

١٨- قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ فيه أنَّ الكفَّارةَ إنَّما تجِبُ بالعَودِ لِما قال المُظاهِرُ، لا بمُجَرَّدِ الظِّهارِ[٢]، وفيه ردٌّ على مَن أوجَبَ الكَفَّارةَ بمُجَرَّدِ لَفظِ الظِّهارِ، ولم يَعتَبِرِ العَودَ[٣].

١٩- قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ لعَلَّ الحِكمةَ في وُجوبِ الكَفَّارةِ قبْلَ المَسيسِ: أنَّ ذلك أدعَى لإخراجِها؛ فإنَّه إذا اشتاقَ إلى الجِماعِ، وعَلِمَ أنَّه لا يُمكِّنُ مِن ذلك إلَّا بعْدَ الكَفَّارةِ، بادَرَ لإخراجِها[٤]. أو لأنَّ ذلك أبلغُ في النِّكايةِ.

٢٠- قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ فيه أنَّه يُجزِئُ في كَفَّارةِ الرَّقَبةِ الصَّغيرُ والكَبيرُ، والذَّكَرُ والأُنثى؛ لإطلاقِ الآيةِ في ذلك[٥].

٢١- قَولُه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ استدَلَّ به مَن قال بإباحةِ الاستِمتاعاتِ بالمُظاهَرِ منها، بِناءً على عَدَمِ دُخولِها في لَفظِ المُماسَّةِ[٦]، وعلى هذا فيَجوزُ

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٢٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٤٣).
(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).
وهو مذهبُ الشَّافعيَّةِ في الأظهَرِ، وقولٌ للمالكيَّةِ، وروايةٌ عن أحمدَ، واختاره ابنُ عثيمين. =

له أنْ يُقبِّلَها ويَضُمَّها، ويَخلُوَ بها، ويُكَرِّرَ نَظَرَه إليها، إلَّا إذا كان لا يأمَنُ على نَفْسِه، فحينَئذٍ تكونُ له فَتوى خاصَّةٌ بالمَنعِ، وإلَّا فالأصلُ الجوازُ؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى حَرَّمَ التَّماسَّ وهو الجِماعُ، فأباح ما سِواه بالمفهومِ، لكنْ لو كان الرَّجُلُ يَعلَمُ مِن نفْسِه -لقُوَّةِ شَهوتِه- أنَّه لو فَعَل هذه المقَدِّماتِ لَجامَعَ، فحينَئذٍ نَمنَعُه، ونَظيرُه الصَّائِمُ يَحرُمُ أنْ يُجامعَ، ويجوزُ أنْ يُباشِرَ، والحائِضُ يَحرُمُ وَطْؤُها، وتجوزُ مُباشَرتُها، فالمُهِمُّ أنَّه ليس هناك دليلٌ أنَّه متى حُرِّمَ الجِماعُ في عبادةٍ حُرِّمَ دواعيه(١).

٢٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ يدُلُّ على إيجابِ الكَفَّارةِ قبْلَ المُماسَّةِ؛ فإنْ جامَعَ قبْلَ أن يُكَفِّرَ لم يَجِبْ عليه إلَّا كَفَّارةٌ واحِدةٌ، وهو قَولُ أكثَرِ أهلِ العِلمِ(٢).

= يُنظر: ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٦٩)، ((حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير)) (٢/ ٤٤٥)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٩/ ١٤٨)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٤٩).

وذلك خلافًا للجمهورِ مِن الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ والحنابلةِ. يُنظر: ((الهداية)) للمَرْغِيناني (٤/ ٣٧٤)، ((حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير)) (٢/ ٤٤٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٧٤).

قال الشنقيطي: (التَّحقيقُ: عدمُ جوازِ الاستِمتاعِ بوطءٍ أو غيرِه قبْلَ التَّكفيرِ؛ لعمومِ قولِه: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾). ((أضواء البيان)) (٦/ ١٩٢).

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٥).

نقل ابنُ قُدامةَ أنَّه لا اختلافَ أنَّ المُظاهِرَ يَحرُمُ عليه وَطءُ امرأتِه قبْلَ أن يُكَفِّرَ، إذا كانت الكفَّارةُ عِتقًا أو صَومًا. يُنظر: ((المغني)) (٨/ ١١).

أمَّا إذا كانت الكفَّارةُ إطعامًا فيَحرُمُ على المُظاهِرِ الوَطءُ أيضًا قبْلَ أدائِها باتِّفاقِ المذاهبِ الأربعةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (٣/ ١٣)، ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٥/ ٤٣٩)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٦٨)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٩/ ١٤٨). =

٢٣- القَيدُ في قَولِه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ لم يَذْكُرْه سُبحانَه في الإطعامِ؛ لأنَّ فيما تَقَدَّمَ بيانًا له، كما أنَّه لم يَقُلْ في الصِّيامِ: ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾؛ لأنَّ فيما تَقَدَّمَ بيانًا له، ولكِنْ ذَكَرَ التَّماسَّ في الصِّيامِ ولم يَكْتَفِ بذِكْرِه في العِتْقِ؛ لأنَّ في الصِّيامِ يصومُ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ قبْلَ التَّماسِّ، فيَتَأَخَّرُ التَّماسُّ هذه المدَّةَ الطَّويلةَ، فلو لم يَذْكُرْه لَظَنَّ الظَّانُّ أنَّه في العِتْقِ وَجَبَ التَّقديمُ؛ لأنَّ الزَّمانَ يَسيرٌ، فيُمكِنُه أنْ يُعتِقَ ثُمَّ يَطَأَ تلك اللَّيلةَ، وأمَّا الصِّيامُ فيَتأَخَّرُ الوَطْءُ شَهرينِ مُتتابِعَينِ، وفي هذا مَشَقَّةٌ عَظيمةٌ، فلا يُفهَمُ هذا مِن مجَرَّدِ تَقييدِه في العِتْقِ؛ فلهذا أُعِيدَ ذلك في الصِّيامِ، وأمَّا الإطعامُ فمعلومٌ أنَّه دونَ الإعتاقِ ودونَ الصِّيامِ، وقد جُعِلَ بَدَلًا عنه، فإذا كانتِ الكَفَّارةُ المتقدِّمةُ الفاضِلةُ يجبُ عليه أنْ يُقَدِّمَها على الوَطْءِ، والمرأةُ مُحَرَّمةٌ قبْلَ التَّكفيرِ، فلأَنْ تكونَ الكفَّارةُ المؤخَّرةُ المفضولةُ كذلك بطَريقِ الأَولى؛ فإنَّ الظِّهارَ أَوْجَبَ تحريمَها إلى التَّكفيرِ بالكَفَّارةِ المقَدَّمةِ؛ فكيف يُبيحُها قبْلَ التَّكفيرِ إذا كَفَّرَ بالكَفَّارةِ المفضولةِ المؤخَّرةِ؟! هذا ممَّا يُعْلَمُ مِن تنبيهِ الخِطابِ وفَحواه[1] أنَّ الشَّارعَ لا يَشْرَعُ مِثلَه، فكان إعادةُ ذِكْرِه ممَّا لا

= وقال ابنُ قُدامةَ: (وذهبَ أبو ثورٍ إلى إباحةِ الجِماعِ قبْلَ التَّكفيرِ بالإطعامِ. وعن أحمدَ ما يَقتضي ذلك؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يَمنَعِ المَسيسَ قبْلَه، كما في العِتقِ والصِّيامِ). ((المغني)) (٨/ ١٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

ومَن جامَعَ قبْلَ أن يُكَفِّرَ لم تَلزَمْه إلَّا كفَّارةٌ واحِدةٌ، وذلك باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: يُنظر: ((مختصر القُدُوري)) (ص: ١٦٥)، ((شرح الزرقاني على مختصر خليل)) (٤/ ٢٩٩)، ((تحفة المحتاج)) لابن حجر الهيتمي (٨/ ١٨٥)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ١٦٩).

(١) فَحوى الخِطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخِطابِ، ومفهومَ الموافَقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمسكوتِ عنه بطريقِ الأولَى، وهو نَوعانِ: تنبيهٌ بالأقلِّ على الأكثرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فإنَّه نبَّه بالنَّهيِ عن قولِ أفٍّ على النَّهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك. وتنبيهٌ بالأكثرِ على الأقلِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

يَليقُ ببلاغةِ القرآنِ وفصاحتِه وحُسْنِ بيانِه، بل نَفْسُ تحريمِها قبْلَ صيامِ الشَّهرينِ -وهو الأصلُ المُبْدَلُ منه- يُوْجِبُ تحريمَها قبْلَ البَدَلِ -وهو الإطعامُ- بطَريقِ الأَولى، وتقديمُ الإطعامِ على التَّماسِّ أسهَلُ مِن تقديمِ الصِّيامِ، وهو في الإعتاقِ قال: ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ ولم يَقُلْ مِثلَ ذلك في الصِّيامِ والإطعامِ، وقد عُلِمَ أنَّهما كذلك، وأنَّهم يُوعَظونَ بالصِّيامِ والإطعامِ كما يُوعَظونَ بالإعتاقِ[(١)].

٢٤- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى الحُكمِ المذكورِ، أي: تُزْجَرون به عن ارتكابِ المنكَرِ المذكورِ؛ فإنَّ الغَراماتِ مَزاجِرُ عن تَعاطِي الجِناياتِ، والمرادُ بذِكرِه بَيانُ أنَّ المقصودَ مِن شَرعِ هذا الحُكمِ ليس تَعويضَكم للثَّوابِ بمُباشرتِكُم لتَحريرِ الرَّقبةِ الَّذي هو عَلَمٌ في استِتباعِ الثَّوابِ العظيمِ، بلْ هو رَدْعُكم وزجْرُكم عن مُباشَرةِ ما يُوجِبُه[(٢)].

٢٥- قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ * فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗا﴾ فيه أنَّ الكَفَّارةَ مُرَتَّبةٌ: العِتقُ، ثمَّ صَومُ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ، ثمَّ إطعامُ سِتِّينَ مِسكينًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٤٠٩).

قال البِقاعي: (حُذِفَ قَيدُ المُماسَّةِ لذِكْرِه في الأوَّلَينِ، ولَعلَّ الحِكمةَ في تخصيصِ هذا به أنَّ ذِكرَه في أوَّلِ الخِصالِ لا بُدَّ منه، وإعادتَه في الثَّاني لطُولِ مُدَّتِه؛ فالصَّبرُ فيها عنه فيه مَشقَّةٌ، وهذا يمكِنُ أن يُفعَلَ في لحظةٍ لَطيفةٍ لا مَشَقَّةَ للصَّبرِ فيها عن المُماسَّةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

وممَّن نقل الإجماعَ على أنَّ الكفَّارةَ على التَّرتيبِ: ابنُ رُشْدٍ، والرَّمْليُّ، والصَّنْعانيُّ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ١١١)، ((نهاية المحتاج)) للرملي (٣/ ٢٠٤)، ((سبل السلام)) =

٢٦- قولُه تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فيه تشوُّفُ الشَّارعِ إلى تحريرِ الرِّقاب من الرِّقِّ، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة الرَّدُّ على من أنكر على المسلمين الاسْتِرْقاقَ، فيُقالُ: إنَّ الاسترقاقَ جاء نتيجةً لأمرٍ ضروريٍّ، ومع ذلك فإنَّ هناك مُشَجِّعَاتٍ كثيرةً على التَّحْريرِ[(١)].

٢٧- قول الله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ يدُلُّ على أنَّ التَّتابُعَ شَرطٌ[(٢)]، فيجبُ ألَّا يُفطِرَ بَيْنَهما إلَّا لعُذرٍ كالسَّفَرِ والمرَضِ، فإنْ لَمْ يُتابِعْ -بأنْ أَفْطَرَ يومًا في أثناءِ الشَّهرَينِ بدُونِ عُذرٍ- فعليه أنْ يَستَأنِفَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى اشتَرَطَ أنْ يكونَ الشَّهرانِ مُتتابِعَينِ، فلا بُدَّ أنْ يَستَأنِفَ[(٣)].

= للصنعاني (٣/ ١٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٧).

نقَل ابنُ قُدامةَ الإجماعَ على وُجوبِ التَّتابُعِ. يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٦).

قال ابن عاشور: (ولا يَمَسُّ امرأتَه حتَّى يَتِمَّ الشَّهرانِ مُتتابِعَين، فإنْ مسَّها في خلالِ الشَّهرينِ أثِم، ووجَب عليه إعادةُ الشَّهرينِ. وقال الشَّافعيُّ: إذا كان الوطءُ لَيلًا لم يَبطُلِ التَّتابُعُ؛ لأنَّ اللَّيلَ ليس محلًّا للصَّومِ، وهذا هو الجاري على القياسِ، وعلى مقتضى حديثِ سلَمةَ بنِ صخرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١).

اتَّفَق الفقهاءُ على أنَّ المُظاهِرَ إذا وطِئَ مَن ظاهَرَ منها في النَّهارِ عامدًا، فإنَّ فِعلَه هذا يَقطَعُ التَّتابُعَ.

واختلَفوا فيما إذا وَطِئها في اللَّيلِ عامدًا أو ناسيًا، أو وطِئها في النَّهارِ ناسيًا؛ فذهب أبو حنيفةَ ومحمَّدٌ إلى أنَّ المُظاهِرَ إذا جامَع الَّتي ظاهَر منها باللَّيلِ عامدًا أو بالنَّهارِ ناسيًا، فإنَّ ذلك يَقطَعُ التَّتابُعَ. وقال أبو يوسفَ: إنَّ التَّتابُعَ لا يُقطَعُ بذلك.

وذهب المالكيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّ وطْءَ المُظاهَرِ منها يَقطَعُ التَّتابُعَ مطلقًا؛ سواءٌ أكان باللَّيلِ أم بالنَّهارِ، وسواءٌ أكان عالِمًا أو ناسيًا أم جاهلًا أم غالطًا، أو بعُذرٍ يُبيحُ الفِطرَ كسَفَرٍ.

وذهب الشَّافعيَّةُ إلى أنَّ وطْأَه باللَّيلِ لا يَقطعُ التَّتابُعَ، ويُعتبَرُ عاصيًا. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٠/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣١). =

٢٨- قال اللهُ تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ أُعيدَ قَيدُ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه لا يكونُ المَسُّ إلَّا بعْدَ انقِضاءِ الصِّيامِ، فلا يُظَنُّ أنَّ مجَرَّدَ شُروعِه في الصِّيامِ كافٍ في العَودِ إلى الاستِمتاعِ[1].

= ونقَل ابنُ المُنذِرِ وابنُ قُدامةَ الإجماعَ على أنَّ مَن صام بعضَ الشَّهرَينِ، ثمَّ قَطَعَه مِن غيرِ عُذرٍ: أنَّ عليه أن يَستأنِفَ الشَّهرَينِ. ((الإجماع)) لابن المنذر (ص: ١١٩)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٦).

وقال ابن عطيَّة: (ولا خِلافَ أحفَظُه مِن أهلِ العِلمِ أنَّ الصَّائِمَ في الظِّهارِ إنْ أفسَدَ التَّتابُعَ باختيارِه أنَّه يَبتَدِئُ صَومَها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٥).

وقال الشنقيطيُّ بعدَ أن ذكر الخِلافَ في قطعِ تَتابُعِ الصَّومِ لِعُذرٍ كمرَضٍ ونحوِه، وأنَّ مِن أهلِ العِلمِ مَن قال: إن كان قطعُ التَّتابُعِ لعُذرٍ، فإنَّه لا يَقطَعُ حُكمَ التَّتابُعِ، وله أن يَبنيَ على ما صام قبْلَ حُصولِ العُذرِ. ومنهم مَن قال: يَنقطِعُ التَّتابُعُ؛ لأنَّه أفطَرَ بفِعلِه، فلَزِمَه الاستئنافُ.

قال: (الأظهَرُ عندي في هذا الفرعِ أنَّ قطْعَ تَتابُعِ صَومِ كفَّارةِ الظِّهارِ بالإفطارِ في أثناءِ الشَّهرَينِ إن كان لسببٍ لا قُدرةَ له على التَّحرُّزِ عنه، كالمرضِ الشَّديدِ الَّذي لا يَقدِرُ معه على الصَّومِ: أنَّه يُعذَرُ في ذلك، ولا يَنقطِعُ حُكمُ التَّتابُعِ؛ لأنَّه لا قُدرةَ له على التَّحرُّزِ عن ذلك، واللهُ جلَّ وعلا يقولُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ويقولُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يقولُ: «إذا أمَرْتُكم بشَيءٍ فأْتُوا منه ما استَطَعْتُم» [البخاري «٧٢٨٨» ومسلم «١٣٣٧»]، وإن كان يُمكِنُه التَّحرُّزُ عن الإفطارِ الَّذي قطَع به التَّتابُعَ كالإفطارِ للسَّفرِ في أثناءِ صَومِ الكفَّارةِ، وكما لو كان ابتِداءُ صَومِه الكفَّارةَ مِن شعبانَ؛ لأنَّ شَهرَه الثَّانيَ رمضانُ، وهو لا يُمكِنُ صَومُه عن الكفَّارةِ، وكما لو ابتدَأ الصَّومَ في مدَّةٍ يَدخُلُ فيها يومُ النَّحرِ أو يومُ الفِطرِ أو أيَّامُ التَّشريقِ: فإنَّ التَّتابُعَ يَنقطِعُ بذلك؛ لأنَّه قادرٌ على التَّحرُّزِ عن قَطعِه بما ذُكِر؛ لقُدرتِه على تأخيرِ السَّفرِ عن الصَّومِ كعَكسِه، ولقُدرتِه أيضًا على الصَّومِ في مدَّةٍ لا يَتخلَّلُها رمضانُ، ولا العيدانِ، ولا أيَّامُ التَّشريقِ، كما لا يَخفى. وإذا قطَع التَّتابُعَ بإفطارٍ هو قادرٌ على التَّحرُّزِ عنه بما ذُكِر، فكَونُه يَستأنِفُ صَومَ الشَّهرَينِ مِن جديدٍ ظاهرٌ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾، وقد ترَك التَّتابُعَ مع قُدرتِه عليه. هذا هو الأظهَرُ عندَنا، والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٢١، ٢٢١). ويُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٧)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٠/ ١٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠).

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ ثمَّ قَولِه: ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗا﴾ أنَّ عَدْلَ الصِّيامِ مِنَ الصَّدَقةِ أنْ يُطْعِمَ عن كلِّ يومٍ مِسكينًا، وكقَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ﴾ [البقرة: ١٨٤]؛ وذلك لأنَّ طَعامَ يومٍ كصَومِ يومٍ[١].

٣٠- قال تعالى: ﴿شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾، والشَّهرانِ هما الهِلالانِ، وليس السِّتينَ يَومًا، فلو قُدِّرَ أنَّ الشَّهرَ الأوَّلَ ناقِصٌ والثَّانيَ ناقِصٌ، فستكونُ الأيامُ ثمانيةً وخمسينَ يومًا، ولا حَرَجَ؛ لأنَّ اللهَ لَمْ يَقُلْ: «ستِّينَ يَومًا»، إنَّما قال: ﴿شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾[٢]. وجائِزٌ أن يَصومَهما الرَّجُلُ بالعَدَدِ، فيَصومُ سِتِّينَ يَومًا تِباعًا، وجائِزٌ أن يَصومَهما بالأهِلَّةِ، يَبدأُ مع الهِلالِ، ويُفطِرُ مع الهِلالِ، وإن جاء أحَدُ شَهرَيه ناقِصًا فذلك مُجزِئٌ عنه، وجائِزٌ إن بدأ صَومَه في وَسَطِ الشَّهرِ أنْ يُبعِّضَ الشَّهرَ الأوَّلَ، فيَصومَ إلى الهِلالِ، ثمَّ يَصومَ شَهرًا بالهِلالِ، ثمَّ يُتِمَّ الشَّهرَ الأوَّلَ بالعَدَدِ[٣].

٣١- قولُه تعالى: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ فيه مَجيءُ الصَّومِ دَرجةً ثانيةً قَريبةً مِن دَرجةِ تَحريرِ الرَّقَبةِ في المُناسَبةِ؛ وذلك رُخصةٌ لِمَن لم يَجِدْ عِتْقَ رَقبةٍ أنْ يَنتقِلَ إلى صِيامِ شَهرينِ مُتتابعينِ؛ لأنَّه لَمَّا لم يَجِدْ رَقبةً يَعتاضُ بفَكِّها عن فَكِّ عِصمةِ الزَّوجةِ، نُقِلَ إلى كَفَّارةٍ فيها مَشقَّةُ النَّفْسِ بالصَّبرِ على لذَّةِ الطَّعامِ والشَّرابِ؛ ليَدفَعَ ما الْتَزَمَه بالظِّهارِ مِن مَشقَّةِ الصَّبرِ على ابتعادِ حَليلتِه[٤].

٣٢- قول الله تعالى: ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فيه أنَّه لا بُدَّ مِن إطعامِ سِتِّينَ مِسكينًا، فلو جَمَع طَعامَ سِتِّينَ مِسكينًا

(١) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيميَّة - كتاب الحج)) (٢/ ٣٢٣).
(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٤، ٢٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩، ٢٠).

ودفَعَها لواحِدٍ أو أكثَرَ مِن ذلك دونَ السِّتِّينَ، لم يَجُزْ ذلك؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾[١]. فالواجبُ إطعامُ سِتِّينَ مِسكينًا، لا طَعامُ سِتِّينَ مِسكينًا، فبَيْنَهما فَرْقٌ؛ إذا قُلْنا: إطعامُ ستِّينَ مِسكينًا فلا بُدَّ مِن هذا العَدَدِ، وإذا قُلْنا: طعامُ سِتِّينَ مِسكينًا فإنَّه يجوزُ أنْ تُعطيَه واحِدًا[٢].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ أنَّه لا يُجْزِئُه دَفْعُ الكَفَّارةِ إلَّا إلى المساكينِ، ويَدخُلُ فيهم الفُقَراءُ، كما يَدخُلُ المساكينُ في لَفظِ الفُقَراءِ عندَ الإطلاقِ[٣].

٣٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ أنَّ الواجِبَ الإطعامُ؛ أنْ تُطْعِمَ سِتِّينَ مِسكينًا، لا أنْ تُمَلِّكَ السِّتِّينَ مِسكينًا، فلو غَدَّى المساكينَ أو عَشَّاهم فإنه يُجْزِئُه؛ لأنَّه يَصْدُقُ عليه أنَّه أَطْعَمَ سِتِّينَ مِسكينًا، أمَّا ما قَدَّرَه الشَّرعُ فإنَّه لا بُدَّ فيه مِن التَّمليكِ، ولا بُدَّ فيه مِن التَّقديرِ الَّذي قَدَّرَه الشَّرعُ، مثالُه: صَدَقةُ الفِطرِ، وفِديةُ الأذى[٤].

٣٥- قول الله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: بالتِزامِ هذا الحُكمِ وغيرِه مِن الأحكامِ، والعملِ به؛ فإنَّ التِزامَ أحكامِ الله، والعملَ بها مِن الإيمانِ، وممَّا يَزيدُ به الإيمانُ ويكملُ ويَنْمو[٥]، ففيه دليلٌ على أنَّ العَمَلَ يَدخُلُ في مُسَمَّى الإيمانِ؛ فقد أمَرَهم بهذه الأعمالِ، وبَيَّنَ أنَّه أمَرَهم بها لِيَصيروا بعَمَلِها مُؤمِنينَ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).
(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٥/ ٨٢).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٣٠٧).
(٤) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٥/ ٨٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

فدَلَّت الآيةُ على أنَّ العَمَلَ مِنَ الإيمانِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾

- حرْفُ (قَدْ) للتَّحقيقِ، ففي هذه الآيةِ تحقيقُ الفعلِ بـ (قد)[٢].

- وقد استُحضِرَت المرأةُ بعُنوانِ الصِّلةِ ﴿ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ تَنويهًا بمُجادَلتِها وشَكواها؛ لأنَّها دلَّت على تَوكُّلِها الصَّادقِ على رَحمةِ ربِّها بها وبأبْنائِها وبزَوجِها[٣].

- والاشتِكاءُ: مُبالَغةٌ في الشَّكوَى، وهي ذِكرُ الإنسانِ ما آذاهُ، يُقال: شَكا، وتَشكَّى، واشْتَكى، وأكثَرُها مُبالَغةً (اشْتَكى)[٤].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ استِئنافٌ جارٍ مَجْرَى التَّعليلِ لِما قبْلَه؛ فإنَّ إلْحافَها في المسألةِ، ومُبالَغتَها في التَّضرُّعِ إلى اللهِ تعالى، ومُدافَعتَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاها بجَوابٍ مُنبئٍ عن التَّوقُّفِ، وتَرقُّبِ الوحْيِ، وعِلْمَه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠).

وقال الرَّسْعَني: («قَدْ» هاهنا على أصلِها للتَّوقُّع؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم والمُجادِلةَ توَقَّعا أن يَسمَعَ اللهُ مُجادَلتَهما وشَكْواهما، ويُنزِلَ فيهما ما عَساه يكونُ راحةً لها). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣).

وقال ابن عاشور: (ومعنى التَّوقُّعِ الَّذي يُؤذِنُ به حرْفُ «قدْ» في مِثلِ هذا يُؤَوَّلُ إلى تَنزيلِ الَّذي يَتوقَّعُ حُصولَ أمْرٍ -لشِدَّةِ استِشرافِه له- مَنزِلةَ المُتردِّدِ الطَّالبِ؛ فتَحقيقُ الخبَرِ مِن تَخريجِ الكلامِ على خِلافِ مُقْتضَى الظَّاهرِ لنُكتةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٩).

تعالى بحالِها؛ مِنْ دَواعي الإجابةِ[١].

- وجِيءَ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يَسْمَعُ﴾؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ السَّمعِ حسَبَ استِمرارِ التَّحاوُرِ وتجدُّدِه[٢]، ولاستِحضارِ حالةِ مُقارَنةِ سَمْعِ اللهِ تعالَى لتَحاوُرِهما؛ زِيادةً في التَّنويهِ بشأْنِ ذلك التَّحاوُرِ[٣]. فكَونُ اللهِ تَعالى سامِعًا ما جَرى مِن المُحاوَرةِ مَعلومٌ لا يُرادُ مِن الإخبارِ به إفادةُ الحكْمِ، فتَعيَّنَ صَرْفُ الخبَرِ إلى إرادةِ الاعتناءِ بذلك التَّحاوُرِ، والتَّنويهِ به وبعَظيمِ مَنزلتِه؛ لاشتمالِه على تَرقُّبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يُنزِلُه عليه مِن وحْيٍ، وتَرقُّبِ المرأةِ الرَّحمةَ[٤].

- وفي نَظْمِ المُجادِلةِ في سِلْكِ الخِطابِ تَغليبًا: تَشريفٌ لها مِن جِهتَينِ[٥]: تَوجيهِ الخِطابِ لها، وجَعْلِها في ضَميرٍ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ تَعليلٌ لِمَا قبْلَه بطَريقِ التَّحقيقِ[٦]، أو تَذييلٌ[٧] لجُملةِ ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾[٨].

- وكُرِّرَ اسمُ الجَلالةِ (الله) في مَوضعِ إضمارِه ثَلاثَ مرَّاتٍ في قولِه: ﴿وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾؛ لتَربيةِ المَهابةِ، وإثارةِ تَعظيمِ مِنَّتِه تعالَى ودَواعي شُكْرِه، ولتَعليلِ الحُكمِ بوَصْفِ الأُلوهيَّةِ، وتأكُّدِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢١٦).

(٧) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٣).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩).

استِقلالِ كلِّ جُملةٍ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾

- جُملةُ ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ وما يُتِمُّ أحكامَها تَتنزَّلُ مَنزلةَ البَيانِ لجُملةِ ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا ...﴾ [المجادلة: ١] الآيةَ؛ لأنَّ فيها مَخرَجًا ممَّا لَحِقَ بالمُجادِلةِ مِن ضُرٍّ بظِهارِ زَوجِها، وإبطالًا له، ولها أيضًا مَوقعُ الاستِئنافِ البَيانيِّ لجُملةِ ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ يُثيرُ سُؤالًا في النَّفْسِ أنْ تقولَ: فماذا نشَأَ عن استِجابةِ اللهِ لشَكوى المُجادِلةِ؟ فيُجابُ بما فيه المَخرَجُ لها منه[٢].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ كان الظَّاهِرُ أنْ يُقالَ هنا: (الَّذين يُظاهِرون مِن نِسائِهم)، ولكِنْ زِيدَ هنا ﴿مِنكُم﴾؛ قيل: ليُدمَجَ فيه تَوبيخُ العرَبِ، وتَهجينًا لعادَتِهم في الظِّهارِ؛ لأنَّه كان مِن أَيْمانِ أهلِ جاهليَّتِهم خاصَّةً دونَ سائرِ الأُمَمِ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾، وبعْدَه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ [المجادلة: ٣]؛ وذلك أنَّ الأوَّلَ خِطابٌ للعربِ -على قولٍ-، وكان طَلاقُهم في الجاهليَّةِ الظِّهارَ، فقيَّده بقولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٦).

﴿مِنكُم﴾، وبقولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾، ثمَّ بيَّن أحكامَ الظِّهارِ للنَّاسِ عامَّةً، فعطَفَ عليه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾؛ فجاء في كلِّ آيةٍ ما اقتضاهُ معناهُ[1]. أو أنَّ قولَه: ﴿مِنكُم﴾ خِطابٌ للمؤمنينَ، والمذكورون في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [المجادلة:٣] هم المذكورونَ في الآيةِ الأولى[2].

- وعلى أنَّ الخِطابَ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾ للمسلمينَ، فيَكونُ ذِكرُ هذا الوَصْفِ للتَّعميمِ؛ بَيانًا لمَدلولِ الصِّلةِ مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾؛ لئلَّا يُتوهَّمَ إرادةُ مُعيَّنٍ بالصِّلةِ[3].

- قولُه: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾، أي: ليس أزواجُهم أُمَّهاتٍ لهم بقولِ أحَدِهم: أنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمِّي، أي: لا تَصيرُ الزَّوجُ بذلك أُمًّا لقائلِ تلك المقالةِ. وهذا تَمهيدٌ لإبطالِ أثَرِ صِيغةِ الظِّهارِ في تَحريمِ الزَّوجةِ، بما يُشيرُ إلى أنَّ الأُمومةَ حَقيقةٌ ثابتةٌ لا تُصنَعُ بالقولِ؛ إذ القولُ لا يُبدِّلُ حَقائقَ الأشياءِ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾[الأحزاب: ٤]؛ ولذلك أُعقِبَ هنا بقولِه: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾، أي: فليستِ الزَّوجاتُ المُظاهَرُ منهنَّ بصائراتٍ أُمَّهاتٍ بذلك الظِّهارِ؛ لانعدامِ حَقيقةِ الأُمومةِ منْهنَّ؛ إذ هنَّ لم يَلِدْنَ القائلينَ: أنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمِّي، فلا يَحرُمْنَ عليهم؛ فالقَصْرُ في الآيةِ حَقيقيٌّ[4]، أي:

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصَّاص (٥/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

فالتَّحريمُ بالظِّهارِ أمْرٌ باطلٌ لا يَقْتضيهِ سَببٌ يُؤثِّرُ إيجادَه[١].

- وجُملةُ ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ واقعةٌ موقعَ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾، وهو تَعليلٌ للمَقصودِ مِن هذا الكلامِ، أي: إبطالِ التَّحريمِ بلَفظِ الظِّهارِ؛ إذ كَونُهنَّ غيرَ أُمَّهاتِهم ضَروريٌّ لا يَحتاجُ إلى التَّعليلِ[٢].

- وفي الآيةِ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالسَّلبِ والإيجابِ[٣]؛ ففي قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ نفْيٌ لصَيرورةِ المرأةِ أُمًّا بالظِّهارِ، وإثباتُ الأُمومةِ لِلَّتي وَلَدَتِ الولَدَ[٤].

- وزِيدَ صَنيعُهم ذمًّا بقولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾؛ تَوبيخًا لهم على صَنيعِهم، أي: هو مع كَونِه لا يُوجِبُ تَحريمَ المرأةِ هو قولٌ مُنكَرٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٣).

(٣) السَّلْبُ والإيجابُ: هو بِناءُ الكلامِ على نفْيِ الشَّيءِ من جِهةٍ، وإثباتِه مِن جِهةٍ أخرى، أو الأمْرِ به في جِهةٍ، والنَّهي عنه في جِهةٍ، وما يَجري مَجرَى ذلك، كأنْ يَقصِدَ المادِحُ أنْ يُفرِدَ ممدوحَه بصِفةِ مدحٍ لا يَشرَكُه فيها غيرُه، فيَنفيها في أوَّلِ كلامِه عن جميعِ النَّاسِ، ويُثبتُها لممدوحِه بعدَ ذلك، وهو يَجري في الأفعالِ والأسماءِ على حدٍّ سواءٍ، فمِن أمثلةِ الأفعالِ: الأمرُ والنَّهيُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، والإثباتُ والنَّفيُ في قولِه سبحانَه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم ٦، ٧]. وجرَيانُه في الأسماءِ مثل قولِه تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ [الرعد: ٤]، وقولِه تعالى: ﴿مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]. يُنظر: ((الصناعتين: الكتابة والشعر)) للعسكري (ص: ٤٠٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٩٣)، ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ١٥٤)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ تأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ) واللَّام؛ للاهتمام بإيقاظِ النَّاسِ لشَناعةِ الظِّهار؛ إذ كانوا قد اعْتادُوه، فنُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَتردَّدُ في كَونِه مُنكَرًا أو زُورًا[1]. ومَناطُ التأْكيدِ ليس صُدورَ القولِ عنهم؛ فإنَّه أمرٌ مُحقَّقٌ، بلْ كونُه مُنكَرًا عندَ الشَّرعِ وعندَ العقلِ والطَّبْعِ، كما يُشعِرُ بهِ تَنكيرُ كَلمةِ ﴿مُنكَرًا﴾[2].

- وبعْدَ التَّوبيخِ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ عُطِفَ عليه جُملةُ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ كِنايةً عن عدَمِ مُؤاخَذتِهم بما صدَرَ منهم مِن الظِّهارِ قبْلَ هذه الآيةِ؛ إذ كان عُذْرُهم أنَّ ذلك قَولٌ تابَعوا فيه أسْلافَهم، وجَرى على ألْسنتِهم دونَ تَفكُّرٍ في مَدلولاتِه[3].

- وتأْكيدُ الخبَرِ في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ لمُشاكَلةِ تأْكيدِ مُقابِلِه في قولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾[4].

- وأَعْقَبَ ﴿لَعَفُوٌّ﴾ بقولِه: ﴿غَفُورٌ﴾؛ فقولُه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ في معنى: إنَّ اللهَ عفَا عنهم، وغفَر لهم؛ لأنَّه عفوٌّ غفورٌ، يَغفِرُ هذا وما هو أشدُّ. والعفوُّ: الكثيرُ العَفوِ، والعفْوُ عدَمُ المؤاخَذةِ بالفِعلِ، أي: عفُوٌّ عن قولِهم الَّذي هو مُنكَرٌ وزُورٌ. والغَفورُ: الكَثيرُ الغُفرانِ، والغُفرانُ: الصَّفحُ عن فاعلِ فِعلٍ مِن شأْنِه أنْ يُعاقِبَه عليه؛ فذِكرُ وصْفِ (غَفُورٍ) بعْدَ وصْفِ (عَفُوٍّ) تَتميمٌ[5]؛ لتَمجيدِ اللهِ؛ إذ لا ذنْبَ في المُظاهَرةِ حيثُ لم يَسبِقْ فيها نهْيٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٤).
(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٣٦).

ومع ما فيه مِن مُقابَلةِ شَيئينِ -وهما: (مُنكَرًا وزُورًا)- بشَيئينِ هما: (عفُوٌّ غَفورٌ)[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ [المجادلة: ٢]؛ أُعيدَ المُبتدأُ -﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾- فيها للاهتِمامِ بالحُكْمِ والتَّصريحِ بأصحابِه، وكان مُقتضَى الكلامِ أنْ يُقالَ: (فإنْ يَعودوا لِما قالوا فتَحريرُ رَقبةٍ)؛ فيَكونَ عطْفًا على جُملةِ الخبَرِ مِن قولِه: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾[٢] [المجادلة: ٢].

- وقيل: هو كَلامٌ مُستأنَفٌ؛ مَسوقٌ لتَفصيلِ حُكْمِ الظِّهارِ بعْدَ بَيانِ كَونِه أمرًا مُنكَرًا[٣].

- و(ثُم) في قولِه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ عاطفةٌ جُملةَ ﴿يَعُودُونَ﴾ على جُملةِ ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾، وهي للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ تَعريضًا بالتَّخطئةِ لهم بأنَّهم عادُوا إلى ما كانوا يَفعَلونه في الجاهليَّةِ بعْدَ أنِ انقطَعَ ذلك بالإسلامِ؛ ولذلك عُلِّقَ بفِعلِ ﴿يَعُودُونَ﴾ ما يدُلُّ على قَولِهم لفظَ الظِّهارِ[٤].

- والمُرادُ بـ (ما قالوا): ما قالوا بلَفظِ الظِّهارِ، وهو ما حرَّموه على أنفُسِهم مِنَ الاستِمتاعِ المُفادِ مِن لَفظِ: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أُمِّي؛ فِفعلُ القولِ في هذا وأمثالِه ناصبٌ لمُفرَدٍ؛ لوُقوعِه في خِلالِ جُملةٍ مَقولةٍ، وإيثارُ التَّعبيرِ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥، ١٦).

المعْنى الَّذي وقَعَ التَّحريمُ له بلَفظِ الظِّهارِ بالمَوصولِ وصِلتِه هذه؛ إيجازٌ وتَنزيهٌ للكلامِ عن التَّصريحِ به، فالمعْنى: ثمَّ يَرُومون أن يَرجِعوا للاستِمتاعِ بأزواجِهم بعْدَ أنْ حرَّموه على أنفُسِهم(١).

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ للتَّعليلِ؛ فيَكونَ التَّقديرُ على هذا الوجْهِ: ثمَّ يُريدونَ العَودَ لأجْلِ ما قالوا، أي: لأجْلِ رَغبتِهم في أزواجِهم، فيَصيرَ مُتعلَّقُ فِعلِ ﴿يَعُودُونَ﴾ مُقدَّرًا يدُلُّ عليه الكلامُ، أي: يَعودون لِما تَرَكوه مِن العِصمةِ، ويَصيرَ الفِعلُ في معْنى: يَندَمون على الفِراقِ(٢).

- قولُه: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ عبَّر بالرقبةِ عن الذَّاتِ؛ فإنَّ الإنسانَ لا يُحَرِّرُ الرَّقَبةَ وحْدَها، بل يُحَرِّرُ كُلَّ العَبدِ، ففيه صِحَّةُ إضافةِ الشَّيءِ إلى بعضِه، وهذا كثيرٌ في القرآنِ(٣).

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾، أي: واللهُ عليمٌ بجَميعِ ما تَعمَلونه مِن هذا التَّكفيرِ وغيرِه(٤).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ فيه مَجيءُ الكَفَّارةِ مُتناسِبةً مع

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٨، ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩).

المُكفَّرِ عنه مُرتَّبةً تَرتيبًا مُناسِبًا؛ وتَوضيحُ ذلك أنَّه مَن لم يَستطِعْ -لعَجْزِه أو ضَعْفِه- رخَّصَ اللهُ له أنْ يَنتقِلَ إلى إطعامِ سِتِّينَ مِسكينًا عِوَضًا عن الصِّيامِ؛ فالإطعامُ دَرجةٌ ثالثةٌ يَدفَعُ عن سِتِّينَ مِسكينًا أَلَمَ الجوعِ عِوَضًا عمَّا كان الْتزَمَه على نفْسِه مِن مَشقَّةِ الابتعادِ عن لَذَّاتِه[١].

- وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى ما مرَّ مِن البيانِ والتَّعليمِ للأحكامِ، والتَّنبيهِ عليها، وإلى ما ذُكِرَ مِن الأحكامِ، أي: ذلك المَذكورُ لتُؤمِنوا باللهِ ورَسولِه، أي: لتُؤمِنوا إيمانًا كاملًا بالامتثالِ لِما أمَرَكم اللهُ ورسولُه، فلا تَشُوبوا أعمالَ الإيمانِ بأعمالِ أهلِ الجاهليَّةِ، وهذا زِيادةٌ في تَشنيعِ الظِّهارِ، وتَحذيرٌ للمسلمينَ مِن إيقاعِه فيما بعْدُ. وما في اسمِ الإشارةِ (ذَلِكَ) مِن معْنى البُعدِ؛ للتَّنبيهِ على عُلوِّ شأْنِ المُشارِ إليه، وبُعْدِه في الفضْلِ[٢].

- ولَمَّا كان المشارُ إليه -وهو صِيامُ شَهرينِ أو إطعامُ ستِّينَ مسكينًا- عِوَضًا عن تَحريرِ رَقبةٍ، كان ما عُلِّلَ به تَحريرُ رَقبةٍ مُنسَحِبًا على الصِّيامِ والإطعامِ، وما عُلِّلَ به الصِّيامُ والإطعامُ مُنسحِبًا على تَحريرِ رقبةٍ، فأفاد أنَّ كلًّا مِن تَحريرِ رَقبةٍ وصِيامِ شَهرينِ وإطعامِ سِتِّينَ مِسكينًا؛ مُشتمِلٌ على كِلْتا العِلَّتينِ، وهما: الموعظةُ، والإيمانُ باللهِ ورَسولِه[٣].

- قولُه: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى الأحكامِ المذكورةِ. وما في اسمِ الإشارةِ (تِلْكَ) مِن معْنى البُعدِ؛ لتَعظيمِها، والتَّنبيهِ على عُلوِّ شأْنِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٧).

- وقولُه: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تَتْميمٌ لجُملةِ ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: ذلك الحُكمُ -وهو إبطالُ التَّحريمِ بالظِّهارِ- حكْمُ الإسلامِ، وأمَّا ما كانوا عليه فهو مِن آثارِ الجاهليَّةِ، وهو سُنَّةُ قومٍ لهم عَذابٌ أليمٌ على الكفْرِ وما تولَّدَ منه مِن الأباطيلِ، فالظِّهارُ شرْعُ الجاهليَّةِ؛ لأنَّه وضَعَه المشرِكون، ولم يَكنْ مِن الحَنيفيَّةِ[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث خُتِمَ قولُه هنا: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بـ﴿أَلِيمٌ﴾، وبعْدَه ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ٥] بـ﴿مُّهِينٌ﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصِلٌ بضِدِّه، وهو الإيمانُ، فتَوعَّدَهم على الكفْرِ بالعذابِ الأليمِ، الَّذي هو جَزاءُ الكافرينَ، والثَّانيَ مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿كُبِتُواْ﴾، وهو الإذلالُ والإهانةُ، فوصَفَ العذابَ بمِثلِ ذلك، فقال: ﴿مُّهِينٌ﴾[2]، فهذه الآيةُ خُتِمتْ بقولِه: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لأنَّه قال: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: يبيِّنُ لكم ذلك لتُؤْمِنوا بالله ورسولِه، وذكَرَ الحدودَ الَّتي حدَّها لعِبادِه، ثمَّ سمَّى مَن لم يُؤمِنْ كافرًا باسمِه، وتوعَّدَه بالعَذابِ الموجِعِ المبالَغِ فيه، وهو ما يُخَوِّفُ اللهُ تعالَى به عِبادَه. وأمَّا قولُه: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ فلأنَّ قبْلَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ﴾؛ فضمَّنَ معنَى الفِعلَينِ الشَّرطَ والجزاءَ، فجعَل الكبْتَ جَزاءَ مَن آثَرَ حِزبًا غَيرَ حِزبِ اللهِ ورسولِه، وحدًّا غَيرَ حَدِّهما، والكَبْتُ: الإذلالُ، وقيل: الغَلَبُ والقهرُ والتَّخييبُ، وكلُّ ذلك مُتقارِبٌ، فلمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى بالكَبتِ عمَّن حادَّ اللهَ ورسولَه وجانَبَهما، وصارَ في حدٍّ غَيرِ حَدِّهما؛ وصَفَ العذابَ الَّذي ينزِلُ به بالإذلالِ والإهانةِ، وإنْ كان كلُّ مؤْلِمٍ مُهينًا، وكلُّ مُهينٍ مؤْلِمًا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٤).

وممَّا يَشهَدُ لذلك قولُه تعالى في آخرِ السُّورةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠]؛ فقولُه هنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ كقولِه في الأوَّلِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾[1].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل)) للإسكافي (ص: ١٢٥٧، ١٢٥٨).

الآيات (٥-٧)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُحَآدُّونَ﴾: أَي: يُخالِفونَ ويُحارِبونَ ويُعادُونَ، يُقالُ: حادَّ فُلانٌ فُلانًا، أي: صار في حَدٍّ غَيرِ حَدِّه. وأصلُ (حدد): يدُلُّ على طَرَفِ الشَّيءِ؛ وذلك لأنَّ المُحادَّ يكونُ فِي حَدٍّ، وَاللهُ ورَسولُه فِي حَدٍّ[(١)].

﴿كُبِتُوا۟﴾: أي: أُذِلُّوا وأُخْزُوا، يُقالُ: كَبَتَ اللهُ فُلانًا: إذا صَرَفَه وأذَلَّه. والمردودُ بالذُّلِّ يُقالُ له: مَكْبوتٌ، وأصلُ (كبت): يدُلُّ على الإذلالِ والصَّرفِ عن الشَّيءِ[(٢)].

﴿أَحْصَىٰهُ﴾: أي: عدَّه عليهم، وأثبَتَه وحَفِظَه، وأصلُ (حصي): يدُلُّ على عَدٍّ وإطاقةٍ[(٣)].

﴿نَّجْوَىٰ﴾: أي: سِرَارٍ ومُناجاةٍ، وأصلُ (نجو): يدُلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٢)، ((مقاييس =

﴿أَدْنَىٰ﴾: أي: أقَلَّ، وأصل الدُّنوِّ: القُرْبُ بالذَّاتِ أو بالحُكمِ، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمَنزِلةِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾

قَولُه تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾: ﴿مَا﴾: نافيةٌ. ﴿يَكُونُ﴾: فِعلٌ مُضارِعٌ تامٌّ مَرفوعٌ، أي: ما يَقَعُ أو يَحدُثُ. ﴿مِن نَّجْوَىٰ﴾: مِن: حرفُ جَرٍّ زائدٌ. نَجْوَى: فاعِلٌ مجرورٌ لَفظًا، مرفوعٌ محَلًّا. ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾: مضافٌ إليه مجرورٌ. ﴿إِلَّا﴾: أداةُ حَصرٍ، والاستِثناءُ مفرَّغٌ مِن أعمِّ الأحوالِ. ﴿هُوَ﴾: ضميرٌ مَبنيٌّ في محَلِّ رَفعٍ مُبتدَأٌ. ﴿رَابِعُهُمْ﴾: خبَرُ المُبتدَأِ مَرفوعٌ، والجُملةُ الاسميَّةُ في محَلِّ نَصبٍ، حالٌ.

﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾: الواو: حرفُ عَطفٍ. (لَا): زائدةٌ لتوكيدِ النَّفيِ. ﴿أَدْنَىٰ﴾: معطوفٌ على لَفظِ ﴿نَّجْوَىٰ﴾ مجرورٌ مِثلُه، وعَلامةُ جرِّه الفَتحةُ المقدَّرةُ؛ لأنَّه ممنوعٌ مِن الصَّرفِ، ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾: معطوفٌ على لَفظِ «نَجْوَى» مجرورٌ مِثلُه، وعَلامةُ جرِّه الفَتحةُ المقدَّرةُ؛ لأنَّه ممنوعٌ مِن الصَّرفِ، ﴿إِلَّا﴾: أداةُ حَصرٍ. ﴿هُوَ﴾: ضميرٌ مَبنيٌّ في محَلِّ رَفعٍ مُبتدَأٌ. ﴿مَعَهُمْ﴾: ظرفٌ مَنصوبٌ متعلِّقٌ بمَحذوفٍ خَبَرٌ، والجملةُ في محلِّ نَصبٍ، حالٌ[2].

= اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٧).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢١٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٨/ ١٧٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مُبيِّنًا سوءَ عاقِبةِ الَّذين يُعادون ويحارِبونَ اللهَ ورسولَه: إنَّ الَّذين يُخالِفونَ اللهَ ورَسولَه، ويُعادونَهما ويُحارِبونَهما أُذِلُّوا وأُخْزُوا كما وقَع للمُخالِفينَ مِن قَبْلِهم، وقد أنزَلْنا في القُرآنِ آياتٍ واضِحاتٍ، وللكافِرينَ عَذابٌ مُخْزٍ مُذِلٌّ يومَ يَبعَثُهم اللهُ، فيُخبِرُهم بما عَمِلوه في الدُّنيا، عَدَّ اللهُ عليهم ما عَمِلوه، وأثبَتَه وحَفِظَه، ونَسِيَه عامِلوه، واللهُ شهيدٌ رَقيبٌ على كُلِّ شَيءٍ.

ثمَّ يخبرُ تعالى عن شمولِ عِلمِه وإحاطتِه بخَلقِه، فيقولُ: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- أنَّ اللهَ يَعلَمُ ما في السَّمَواتِ، وما في الأرضِ، لا يتحَدَّثُ ثَلاثةٌ مِنَ النَّاسِ سِرًّا فيما بَيْنَهم إلَّا واللهُ تعالى رابِعُهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم، ولا خَمسةٌ إلَّا واللهُ تعالى سادِسُهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم، ولا أقَلُّ مِن ذلك ولا أكثَرُ إلَّا واللهُ تعالى معهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم في أيِّ مَوضِعٍ كانوا فيه، ثمَّ يُخبِرُ اللهُ يومَ القيامةِ أولئك المُتناجِينَ بما عَمِلوه في الدُّنيا، إنَّ اللهَ عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى المؤمِنينَ الواقِفينَ عندَ حُدودِه؛ ذَكَر المحادِّينَ المخالِفينَ لها[1].

وأيضًا لَمَّا جَرى ذِكرُ الكافرينَ، وجَرى ذِكرُ حُدودِ اللهِ، وكان في المدينةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٤).

مُنافِقون مِن المشركين؛ نُقِل الكلامُ إلى تَهديدِهم، وإيقاظِ المسلمينَ للاحترازِ منْهم[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يُخالِفونَ ويُعادُونَ اللهَ ورَسولَه، ويجعلون حدودًا غيرَ حدودِه؛ فإنَّهم يُرَدُّونَ عن مُبتَغاهم هذا بعُنفٍ وإذلالٍ وإغاظةٍ لهم، كما وقع للمُخالِفينَ اللهَ ورُسُلَه مِن قَبْلِهم[٢].

﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

أي: وقد أنزَلْنا آياتٍ واضِحاتٍ، ليس لأحَدٍ حُجَّةٌ أو عُذرٌ في مُخالفتِها، ولا يخالِفُها مِن بَعدِ ذلك سِوى مُكابِرٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٨)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٣/ ١٣٩٢، ١٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤).

قال الشوكاني: (والحالُ أنَّا قد أنزَلْنا آياتٍ واضحاتٍ فيمَن حادَّ الله ورسلَه مِن الأُمَم المتقدِّمَة، وقيل: المرادُ الفرائِضُ التي أنزَلها الله سبحانَه، وقيل: هي المُعجِزاتُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٢).

أي: وللكافِرينَ عَذابٌ يُهينُهم ويُذِلُّهم في الآخِرةِ مُقابِلَ استِكبارِهم عن اتِّباعِ الحَقِّ، وتَرْكِ الخُضوعِ والانقيادِ إليه[١].

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ سُبحانَه بيَّنَ أنَّ عَذابَ هؤلاء المحادِّينَ في الدُّنيا: الذُّلُّ والهوانُ، وفي الآخِرةِ العَذابُ الشَّديدُ، ثمَّ ذَكَر تعالى ما به يتكامَلُ هذا الوَعيدُ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عذابَه، ذكَرَ وَقْتَه على وَجهٍ مُقَرِّرٍ لِما مضَى من شُمولِ عِلْمِه وكَمالِ قُدرتِه، فقال[٣]:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾.

أي: للكافِرينَ عَذابٌ مُهينٌ في اليَومِ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه الكافِرينَ جَميعًا، فيُخبِرُهم بما عَمِلوه في الدُّنيا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ نُصِب بـ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أو بفِعلٍ مُضمَرٍ تقديرُه: «واذكُرْ»؛ تعظيمًا لليومِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وابنُ عطيَّة، والرَّسْعَني، والبِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير =

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

أي: أحصى اللهُ عليهم ما عَمِلوه، فعَدَّه وأثبَتَه وحَفِظَه، ونَسِيَه عامِلوه[١].

كما قال الله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على كُلِّ شَيءٍ ممَّا عمِلوه وغيرِه، ولا يخفَى عليه شَيءٌ، فهو سُبحانَه حاضِرٌ لا يَغيبُ، وحَفيظٌ رَقيبٌ[٢].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ

= الرسعني)) (٨/ ٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٥٨).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: مكِّيٌّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٦٧).

قال الرَّازي: (في قولِه: ﴿جَمِيعًا﴾ قَولانِ:

أحدُهما: كلَّهم، لا يُترَكُ منهم أحدٌ غيرَ مَبعوثٍ.

والثَّاني: مُجتمِعينَ في حالٍ واحدةٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الرَّسْعَنيُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٣٦).

وقال البِقاعي: (﴿جَمِيعًا﴾ في حالِ كَونِهم مُجتمِعينَ في البعثِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

﴿يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه على كلِّ شيءٍ شهيدٌ، لا يخفَى عليه شيءٌ؛ أكَّد سبحانَه بيانَ كَونِه عالِمًا بكلِّ شيءٍ، فقال[1]:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- أنَّ اللهَ يَعلَمُ جَميعَ ما في السَّمَواتِ، وجميعَ ما في الأرضِ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أقوالِ عِبادِه وأعمالِهم وسرائرِهم[2]؟

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾.

أي: لا يَتحَدَّثُ ثَلاثةٌ مِنَ النَّاسِ سِرًّا فيما بَيْنَهم إلَّا واللهُ تعالى رابِعُهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

قال ابن عاشور: (﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مِن الرُّؤيةِ العِلميَّةِ؛ لأنَّ عِلمَ الله لا يُرى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١، ٤٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

قال الآجُرِّي: (ابتدأ اللهُ عزَّ وجَلَّ الآيةَ بالعِلمِ، وختَمَها بالعِلمِ؛ فعِلمُه عزَّ وجَلَّ مُحيطٌ بجَميعِ خَلْقِه، وهو على عَرشِه، وهذا قَولُ المُسلِمينَ). ((الشريعة)) (٣/ ١٠٧٦). ويُنظر: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ١٥٤)، ((الإبانة الكبرى)) لابن بطة (٧/ ١٤٤).

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: (عُلماءُ الصَّحابةِ والتَّابِعينَ الَّذين حُمِلَ عنهم التَّأويلُ في القُرآنِ قالوا في =

﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾.

أي: ولا يَتحَدَّثُ خَمسةٌ مِنَ النَّاسِ سِرًّا فيما بَيْنَهم إلَّا واللهُ تعالى سادِسُهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾.

أي: ولا يَتحدَّثُ سِرًّا أقَلُّ مِن ثلاثةٍ أو أكثَرُ مِن خَمسةٍ إلَّا واللهُ تعالى معهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم في أيِّ مَوضِعٍ كانوا فيه[(٢)].

عن أبي موسى الأَشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكُنَّا إذا أشرَفْنا[(٣)] على وادٍ هَلَّلْنا وكَبَّرْنا، ارتَفَعَت أصواتُنا، فقال

= تأويلِ هذه الآية: هو على العَرشِ، وعِلمُه في كُلِّ مَكانٍ، وما خالفَهم في ذلك أحدٌ يُحتَجُّ بقَولِه)). ((التمهيد)) (٧/ ١٣٨، ١٣٩).

وقال ابنُ كثيرٍ: (حكى غيرُ واحِدٍ الإجماعَ على أنَّ المرادَ بهذه الآيةِ مَعِيَّةُ عِلمِ اللهِ تعالى، ولا شَكَّ في إرادةِ ذلك، ولكِنَّ سَمْعَه أيضًا مع عِلْمِه مُحيطٌ بهم، وبَصَرَه نافِذٌ فيهم، فهو سُبحانَه مُطَّلِعٌ على خَلْقِه، لا يَغيبُ عنه مِن أمورِهم شَيءٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١، ٤٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١، ٤٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٣) أشرَفْنا: أي اطَّلعنا. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٥/ ١٣٥).

النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا أيُّها النَّاسُ، ارْبَعُوا[١] على أنفُسِكم؛ فإنَّكم لا تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائِبًا، إنَّه معكم، إنَّه سَميعٌ قَريبٌ))[٢].

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

أي: ثمَّ يُخبِرُ اللهُ يومَ القيامةِ أولئك المُتناجِينَ بما عَمِلوه في الدُّنيا[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو عِلمٍ بالِغٍ تامٍّ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه الكامِلُ بأقوالِ خَلْقِه وأفعالِهم، وضَمائِرِهم وأحوالِهم، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن ذلك سُبحانَه[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ هذه

---

(١) ارْبَعُوا: أي: ارفُقُوا بأنفُسِكم، واخفِضُوا أصواتَكم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٢٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٢٩٩٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٦٦).

الجُملةُ تأكيدٌ لِمَا سَبَقَ مِن حيثُ المعنى، يعني أنَّ اللهَ شهيدٌ على كلِّ شيءٍ، سواءٌ كان فِعلًا أو قَولًا أو إضمارًا في القَلبِ،كلُّ ذلك فاللهُ شَهيدٌ عليه، والمقصودُ مِن هذا بيانُ إحاطةِ عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ثمَّ التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ بأنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ فإنَّه يَحْذَرُ ويَكُفُّ عن المعاصي، ويقومُ بالواجِباتِ(١).

٢- مَن كثُرتْ ذُنوبُه وسيِّئاتُه حتَّى فاتت العَدَّ والإحصاءَ، فلْيَستَغفِرِ اللهَ ممَّا عَلِم اللهُ؛ فإنَّ اللهَ قد عَلِم كلَّ شَيءٍ وأحصاه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾، فالعبدُ يحتاجُ إلى استغفارٍ عامٍّ مِن جميعِ ذُنوبِه، ما عَلِم منها وما لم يَعلَمْ، ما ذكره منها وما نَسِيَه، فكلُّ ذلك قد عَلِمَه اللهُ وأحصاه(٢).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه تحذيرٌ مِن المعاصي، وترغيبٌ في الطَّاعاتِ(٣)، فهو يَستوجِبُ أنْ يخافَ العبدُ اللهَ عزَّ وجلَّ، وأنْ يقومَ بطاعتِه، وأنْ يَدَعَ معصيتَه؛ لأنَّه يَعلَمُ أنَّ اللهَ تعالى عالِمٌ به، حتَّى وإنْ خَفِيْتَ على النَّاسِ؛ فإنَّك لن تَخفى على اللهِ، بل إنَّ اللهَ يَعلَمُ مِن نفْسِك ما لا تَعلَمُه أنت؛ فأنت تَعلَمُ مِن نفْسِك ما يمكنُ أن تُحيطَ به، لكنَّ اللهَ يَعلَمُ مِن نفْسِك ما لا تحيطُ به، فيَعلَمُ مُستقبَلَك، ومآلَك، وحالَك، وأنت لا تَعلَمُ، وهذا يُوجِبُ

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤١٦)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩١).

للعبدِ المؤمنِ بذلك: أنْ يخافَ ربَّه في السِّرِّ والعَلَنِ، حتَّى لو كنتَ بحُجرةٍ مُظلِمةٍ ليس عندَك أحَدٌ، وأردتَ أنْ تُغضِبَ اللهَ، فاعلَمْ أنَّ اللهَ تعالى يَراك[١].

٤- مِمَّا يُوجِبُ خَشيةَ اللهِ تعالى في السِّرِّ والعَلانيةِ قُوَّةُ المُراقَبةِ له، والعِلمُ بأنَّه شاهِدٌ ورقيبٌ على قُلوبِ عبادِه وأعمالِهم، وأنَّه مع عبادِه حيثُ كانوا، كما دَلَّ على ذلك القُرآنُ في مواضِعَ؛ كقَولِه تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، وقَولِه: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾[٢]، ومَعِيَّةُ اللهِ مَعِيَّتانِ: مَعِيَّةٌ عامَّةٌ، وهي مَعِيَّتُه لجميعِ عِبادِه حتَّى مَن عصاه؛ قالَ تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨]، ومَعِيَّةٌ خاصَّةٌ وهي مَعِيَّتُه لأهلِ طاعتِه، فهوَ سبحانه مع الَّذين اتَّقَوا ومع الَّذين هم مُحسِنون. وقال لِموسى وهارونَ عليهما السَّلامُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقال موسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وقال في حَقِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وصاحِبِه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. والمَعِيَّةُ الخاصَّةُ تَقتضي حُسْنَ الظَّنِّ بإجابتِه ورِضاه، وحِفْظِه وصِيانتِه، والمَعِيَّةُ العامَّةُ تقتضي التَّحذيرَ مِن عِلْمِه واطِّلاعِه، وقُدرتِه وبَطْشِه وانتِقامِه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ لَمَّا ذَكَر إحصاءَه له في قَولِه: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ فكان رُبَّما ظُنَّ أنَّه ممَّا يُمكِنُ في العادةِ إحصاؤُه، نفَى ذلك بقَولِه: ﴿وَنَسُوهُ﴾ أي:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٣٣).

كُلُّهم مجتَمِعينَ؛ لخُروجِه عن الحَدِّ في الكثرةِ، فكيف بكُلِّ واحدٍ على انفِرادِه، ونَسُوا ما فيه مِنَ المعاصي تهاوُنًا بها، وذلك عَينُ التَّهاوُنِ باللهِ تعالى، والاجتراءِ عليه[١].

٢- ذَكَرَ أهلُ اللُّغةِ أنَّه إذا كان اسمُ «فاعل» على العَدَدِ مِن غيرِ جنسِ المفعولِ فإنَّه يُجعَلُ زائِدًا، كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، وإنْ كان مِن جِنْسِه فيُجعَلُ أحدَهم[٢]، فلو قيل: «فلانٌ رابعُ أربعةٍ» فإنه يكونُ مِن جِنْسِه، ولو قيل: «رابعُ ثلاثةٍ» صار مِن غيرِ جِنْسِه؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ ولَمْ يَقُلْ: «إلَّا هو ثالثُهم»، وقال عن النَّصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] ولَمْ يَقُلْ: «ثالثُ اثنينِ»؛ لأنَّهم يَجعلون اللهَ ومريمَ وعيسى سواءً! يَجعلون الكلَّ جِنسًا واحدًا، وقال تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠]؛ قال ذلك لأنَّهما مِن جِنسٍ واحِدٍ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ ليس مُقتضاها أنْ تكونَ ذاتُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ مُختَلِطةً بالخَلْقِ. ويدُلُّ على ذلك: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَها في آيةِ المجادَلةِ بيْنَ ذِكْرِ عمومِ عِلْمِه في أولِ الآيةِ وآخِرِها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، فيكونُ ظاهِرُ الآيةِ: أنَّ مُقتَضى هذه المَعِيَّةِ عِلْمُه بعبادِه، وأنَّه لا يَخفى

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيمية - كتاب الطهارة)) (ص: ٨٦).

(٣) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٤/ ١٧٠).

عليه شيءٌ مِن أعمالِهم، لا أنَّه سُبحانَه مُختلِطٌ بهم، ولا أنَّه معهم في الأرضِ[١]!

٤- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ لا يُنافي ما ذَكَرَه تعالى عن نفْسِه مِن العُلُوِّ، لأنَّه سُبحانَه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولا يُقاسُ بخَلْقِه؛ فمَعِيَّتُه ثابتةٌ مع عُلُوِّهِ تبارك وتعالى، وإذا كان العُلُوُّ والمَعِيَّةُ لا يَتناقَضانِ في حقِّ المخلوقِ -فإنَّهم يقولونَ: «ما زِلْنا نسيرُ والقَمَرُ معنا» ولا يَعُدُّون ذلك تناقُضًا مع أنَّ القمرَ في السَّماءِ- فثُبُوتُ ذلك في حقِّ الخالقِ مِن بابِ أَولى، وبهذا يَبطُلُ قولُ مَن زَعَمَ أنَّ مَعِيَّةَ اللهِ تَستَلزِمُ أنْ يكونَ في الأرضِ مُختَلِطًا بالخَلْقِ! فإنَّ هذا قَولٌ باطلٌ باتِّفاقِ السَّلَفِ، المُستنِدِ على الكتابِ والسُّنَّةِ في إثباتِ عُلُوِّ اللهِ فوقَ خَلْقِه[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هذه المَعِيَّةُ تقتضي إحصاءَ ما عَمِلُوه، فإذا كان يومُ القيامةِ نَبَّأهم بما عَمِلوا، يعني: أخْبَرهم به، وحاسَبَهم عليه؛ لأنَّ المرادَ بالإنباءِ لازِمُه، وهو المحاسَبةُ، لكنْ إنْ كانوا مؤمِنينَ فإنَّ اللهَ تعالى يُحصي أعمالَهم، ثمَّ يقولُ سُبحانَه وتعالى: ((ستَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليومَ!))[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

(١) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٤٩).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٢٤٤١)، ومسلمٌ (٢٧٦٨) مطوَّلًا من حديث عبدِالله بنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما.

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أُوثِرَ الفِعلُ ﴿يُحَآدُّونَ﴾ هنا؛ لوُقوعِ الكلامِ عقِبَ ذِكرِ حُدودِ اللهِ؛ فإنَّ المُحادَّةَ مُشتقَّةٌ مِن الحدِّ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِن المُتعادِيَينِ كأنَّه في حدٍّ مُخالِفٍ لحَدِّ الآخَرِ. وفِعلُ ﴿كُبِتُوا۟﴾ مُستعمَلٌ في الوعيدِ، أي: سيُكْبَتون، فعُبِّر عنه بالمُضِيِّ تَنبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه؛ لصُدورِه عمَّن لا خِلافَ في خبَرِه، مِثل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، ولأنَّه مُؤيَّدٌ بتَنظيرِه بما وقَعَ لأمثالِهم، وقَرينةُ ذلك تأْكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ)؛ لأنَّ الكلامَ لو كان إخبارًا عن كبْتٍ وقَعَ، لم يكُنْ ثَمَّ مُقْتضًى لتأْكيدِ الخبَرِ؛ إذ لا يُنازِعُ أحدٌ فيما وقَعَ، ويَزيدُ ذلك وُضوحًا قولُه: ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[١].

- وجُملةُ ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وجُملةِ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أي: لا عُذْرَ لهم في مُحادَّةِ اللهِ ورسولِه؛ فإنَّ مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم آياتِ القرآنِ بيِّنةً على صِدْقِه[٢]. أو حالٌ مِن واوِ ﴿كُبِتُوا۟﴾، أيْ: كُبِتوا لمُحادَّتِهم، والحالُ أنْ قدْ أنزَلْنا آياتٍ واضحاتٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ إمَّا تَتميمٌ[٤]؛ فتَكونُ اللَّامُ للعهْدِ، والتَّقديرُ: ولهم عَذابٌ مُهينٌ، ويكونُ قولُه: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ وضْعًا للمُظهَرِ مَوضعَ المُضمَرِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ اللَّعنةَ لَحِقَتْهم لكُفْرِهم، وللإشارةِ إلى أنَّ هؤلاء الَّذين حَادُّوا اللهَ ورسولَه كفَّارٌ، ولِيَعُمَّ هؤلاء وغيرَهم -وإنْ كان كلُّ مَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨).
(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٣٦).

كَفَر فهو مُحادٌّ للهِ ورسولِه-؛ لكنَّ ذِكْرَ الوصفِ أَبْلَغُ. وإمَّا تَذييلٌ[١]، فتَكونُ اللَّامُ للجنْسِ؛ ليَستغرِقَ كلَّ الكافرينَ، فيَدخل الكافِرون بالآياتِ فيه دُخولًا أوَّليًّا[٢].

- ووُصِفَ عَذابُهم بالمُهينِ؛ لمُناسَبةِ وَعيدِهم بالكبْتِ الَّذي هو الذُّلُّ والإهانةُ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ...﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ لَفظُ ﴿يَوْمَ﴾ مَنصوبًا على المفعولِ به لفِعلٍ تَقديرُه: اذكُرْ؛ تَنويهًا بذلك اليوم، وتَهويلًا عليهم، أو يكونَ على أنَّه جَوابٌ لِمَن سأَلَ: متى يكونُ عَذابُ هؤلاء؟ فقيل له: يومَ يَبعَثُهم اللهُ، أي: يكونُ يومَ يَبعَثُهم اللهُ[٤].

- وقولُه: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ تَهديدٌ بفضْحِ نِفاقِهم يومَ البعثِ، وفيه كِنايةٌ عن الجزاءِ على أعمالِهم[٥].

- وجُملةُ ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن (مَا عَمِلُوا)، والمقصودُ مِن الحالِ هو ما عُطِفَ عليها مِن قولِه: ﴿وَنَسُوهُ﴾؛ لأنَّ ذلك مَحلُّ العِبرةِ. وبه تَكونُ الحالُ مُؤسِّسةً لا مُؤكِّدةً لعامِلِها[٦]، وهو ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾، أي: عَلِمَه

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٧٨، ٢٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤)، ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤).

(٦) الحالُ في اصطلاحِ النُّحاةِ: إمَّا مُؤسِّسةٌ، وإمَّا مؤكِّدةٌ؛ فالمؤسِّسةُ -وتُسمَّى المبيِّنةَ أيضًا؛ لأنها =

اللهُ عِلمًا مُفصَّلًا مِن الآنَ، وهم نَسُوه، وذلك تَسجيلٌ عليهم بأنَّهم مُتهاوِنون بعَظيمِ الأمرِ، وذلك مِن الغُرورِ[(١)].

وقيل: قولُه: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جَوابًا عمَّا نشَأَ ممَّا قبْلَه مِنَ السُّؤالِ؛ إمَّا عنْ كَيفيَّةِ التَّنبئةِ، أو عنْ سَببِها، كأنَّه قيلَ: كيفَ يُنبِّئُهم بأعمالِهم وهيَ أعراضٌ مُنْقضيةٌ مُتلاشيةٌ؟ فقيلَ: أحصاهُ اللهُ عَددًا، لمْ يَفُتْه منه شَيءٌ، فقولُه تعالَى: ﴿وَنَسُوهُ﴾ حينَئذٍ حالٌ مِن مَفعولِ (أحْصَى). أو قِيل: لِمَ يُنبِّئُهم بذلك؟ فقِيل: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾، فيُنبِّئُهمْ به؛ ليَعرِفُوا أنَّ ما عايَنُوه مِن العذابِ إنَّما حاقَ بهم مِن أجْلِه، وفيه مَزيدُ تَوبيخٍ وتَنديمٍ لهُم غَيرِ التَّخجيلِ والتَّشهيرِ[(٢)].

- جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لإحصائِهِ تعالى[(٣)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن

= تُذكَرُ للتَّبيينِ والتَّوضيحِ- هي الَّتي لا يُستفادُ معناها بدُونِها، نحو: جاء خالدٌ راكبًا. وأكثَرُ ما تأتي الحالُ مِن هذا النَّوعِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨] و [الكهف: ٥٦]. والمؤكِّدةُ هي الَّتي يُستفادُ معناها بدُونِها، وإنَّما يُؤتَى بها للتَّوكيدِ، وهي ثلاثةٌ؛ الأُولَى: ما يُؤتَى بها لتَوكيدِ عامِلِها، وهي الَّتي تُوافِقُه معنًى فقط، أو معنًى ولفظًا. فالأوَّلُ نحو: تَبسَّمَ ضاحِكًا، ومنه قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]. والثَّاني كقولِه تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩]. الثَّانيةُ: ما يُؤتَى بها لتوكيدِ صاحِبِها، نحو: جاء التَّلاميذُ كلُّهم جميعًا. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. الثَّالثةُ: ما يُؤتَى بها لتَوكيدِ مَضمونِ جُملةٍ مَعقودةٍ مِن اسمَينِ مَعرفتَينِ جامدَينِ، نحو: هو الحقُّ بَيِّنًا، أو صريحًا، ونحو: نحن الإخوةُ مُتعاونينَ. يُنظر: ((أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك)) لابن هشام (٢/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((شرح الأشمونى لألفية ابن مالك)) (٢/ ٢٧، ٢٨)، ((جامع الدروس العربية)) للغلاييني (٣/ ٩٩، ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥).

نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ استِشهادٌ على شُمولِ شَهادتِه تعالى، أي: ألمْ تَعلَمْ عِلمًا يَقينًا مُتاخِمًا للمُشاهَدةِ بأنَّه تعالى يَعلَمُ ما فيهما مِن الموجوداتِ[1]؟

- وهو استِئنافٌ ابتدائيٌّ هو تَخلُّصٌ مِن قولِه تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] إلى ذِكرِ عِلمِ اللهِ بأحوالِ المنافِقينَ وأحلافِهم اليهودِ، فكان المنافِقون يُناجي بعضُهم بَعضًا ليُرِيَ للمسلمينَ مَوَدَّةَ بَعضِ المنافقينَ لبَعضٍ؛ فإنَّ المنافِقين بتَناجِيهم يُظهِرون أنَّهم طائفةٌ أمْرُها واحدٌ، وكلمتُها واحدةٌ، وهم وإنْ كانوا يُظهِرون الإسلامَ يُحِبُّون أنْ تكونَ لهم هيْبةٌ في قُلوبِ المسلمينَ يتَّقون بها بأْسَهم إنِ اتَّهَموا بَعضَهم بالنِّفاقِ، أو بدَرَت مِن أحَدِهم بادِرةٌ تَنُمُّ بنِفاقِه، فلا يُقْدِمُ المؤمنون على أذاهُ؛ لعِلمِهم بأنَّ له بِطانةً تُدافِعُ عنه. وكانوا إذا مرَّ بهم المسلِمون نَظَروا إليهم، فحَسِبَ المارُّونَ لعلَّ حدَثًا حدَثَ مِن مُصيبةٍ، وكان المسلمونَ يَومَئذٍ على تَوقُّعِ حرْبٍ مع المشرِكين في كلِّ حِينٍ، فيَتوهَّمونَ أنَّ مُناجاةَ المُتناجِينَ حديثٌ عن قُرْبِ العدُوِّ، أو عن هَزيمةٍ للمُسلمينَ في السَّرايا الَّتي يَخرُجون فيها؛ فنَزَلَتْ هذه الآياتُ لإشعارِ المنافقين بعِلمِ اللهِ بماذا يَتناجَون، وأنَّه مُطْلِعٌ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على دَخيلتِهم؛ ليَكُفُّوا عن الكَيدِ للمُسلمينَ؛ فهذه الآيةُ تَمهيدٌ لقولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ الآيةَ[2] [المجادلة: ٨].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥، ٢٦).

- قولُه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِما قبْلَه مِن سَعةِ عِلمِه تَعالى، ومُبَيِّنٌ لكَيفيَّتِه[١]. وقيل: جملةُ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ إلى آخرِها بدَلُ البعضِ مِن الكلِّ؛ فإنَّ معْنى قولِه: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، وقولِه: ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾، وقولِه: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾: أنَّه مُطَّلِعٌ على ما يَتناجَون فيه، فكأنَّه تعالى نَجِيٌّ معهم، والمقصودُ مِن هذا الخبرِ الإنذارُ والوعيدُ[٢].

- وحرْفُ (مِن) في قولِه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ...﴾ صِلةٌ في النَّفيِ؛ لقَصْدِ العُمومِ[٣].

- والنَّجوى: التَّناجي، فلا تَخْلو إمَّا أنْ تكونَ مُضافةً إلى ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾، أي: مِن نَجْوى ثلاثةِ نفَرٍ، أو مَوصوفةً بها، أي: مِن أهْلِ نَجوى ثلاثةٍ، فحُذِفَ الأهْلُ، أو جُعِلوا نَجْوى في أنفُسِهم مُبالَغةً[٤].

- ولَمَّا عُلِمَ بالتَّكريرِ أنَّ ما ذُكِرَ على سَبيلِ المثالِ لا لمعْنًى يَخُصُّه مِن جِهةٍ بالعلمِ، عمَّ بقولِه: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ﴾، فَبدَأَ بالقليلِ؛ لأنَّه قبْلَ الكثيرِ، وهو أخْفى منه. ولَمَّا كان العِلمُ بالكثيرِ أعسَرَ مِن أجْلِ انتشارِهِ قال: ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾[٥].

- وخُصَّ الثلاثةُ والخَمسةُ بالذِّكرِ؛ قيل: لِبناءِ الكلامِ على أغلبِ عاداتِ المُتناجِينَ. أو لأنَّ العدَدَ المفردَ أشرَفُ مِن الزَّوجِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وتْرٌ يُحِبُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٦٣).

الوِترَ؛ فخُصَّ العَددانِ المذكورانِ بالذِّكرِ؛ تَنبيهًا على أنَّه لا بُدَّ مِن رِعايةِ الأمورِ الإلهيَّةِ في جَميعِ الأمورِ، ثمَّ بعْدَ ذِكرِهما زِيدَ عليهما ما يَعُمُّ غيرَهما مِن المُتناجِينَ. أو خُصَّ الثَّلاثةُ والخمسةُ؛ لأنَّ أقلَّ ما يَكْفي في المُشاوَرةِ ثلاثةٌ حتَّى يَتِمَّ الغرَضُ، فيَكونُ الاثنانِ كالمُتنازِعَينِ في النَّفيِ والإثباتِ، والثَّالثُ كالمُتوسِّطِ الحاكمِ بيْنَهما، فحينَئذٍ تُحمَدُ المُشاوَرةُ، ويتِمُّ الغرَضُ، وكذا كلُّ جمْعٍ يَجتمِعُ للمُشاوَرةِ لا بُدَّ مِن واحدٍ يكونُ حَكَمًا بيْنَهم مَقبولَ القولِ[1]. وقيلَ: العددُ غيرُ مقصودٍ؛ لأنَّه تعالى إنَّما قصَد -وهو أعلَمُ- أنَّه مع كلِّ عدَدٍ قَلَّ أو كَثُر، يَعلَمُ ما يَقولون سرًّا وجهرًا، ولا تَخفى عليه خافيةٌ، فمِنْ أجْلِ ذلك اكتفى بذِكرِ بعضِ العددِ دونَ بعضٍ[2]. وقيل غيرُ ذلك[3].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حرْفُ (ثُمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ إنْباءَهم بما تَكلَّموا وما عَمِلوه في الدُّنيا في يومِ القيامةِ، أدَلُّ على سَعةِ عِلمِ اللهِ مِن عِلمِه بحَديثِهم في الدُّنيا؛ لأنَّ مُعظَمَ عِلمِ العالِمينَ يَعْتريهِ النِّسيانُ في مِثلِ ذلك الزَّمانِ مِن الطُّولِ، وكَثرةِ تَدبيرِ الأمورِ في الدُّنيا والآخِرةِ. وفي هذا وَعيدٌ لهم بأنَّ نَجْواهم إثمٌ عَظيمٌ، فنُهِيَ عنها، ويَشملُ هذا تَحذيرَ مَن يُشارِكُهم[4].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾، فأغنَتْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٢٦/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢ - ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧).

(إنَّ) غَناءَ فاءِ السَّببيَّةِ[١].

- وفيه تأْكيدُ الجُملةِ بحرْفِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ به، وإلَّا فإنَّ المخاطَبَ لا يَتردَّدُ في ذلك[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨-١٠)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: أي: يَدخُلونَها ويُقاسُونَ حَرَّها وشِدَّتَها، وأصلُ (صلي): يدُلُّ على الإيقادِ بالنَّارِ[(١)].

﴿بِٱلْإِثْمِ﴾: الإثمُ والأثامُ: اسمٌ للأفعالِ المُبَطِّئةِ عن الثَّوابِ، أو الذَّنْبُ الَّذي يَستحِقُّ العقوبةَ عليه، أو الفعلُ الَّذي يستحقُّ عليه اللَّومَ، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، والإثمُ مُشتَقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه[(٢)].

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: أي: التَّعدِّي والظُّلْمِ، والعُدوانُ أصْلُه الظُّلْمُ، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٣٣٤، ٧٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦، ٧١٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، =

﴿بِٱلۡبِرِّ﴾: البِرُّ هو اسمٌ جامعٌ لكلِّ خَيرٍ وطاعةٍ، وقيامٍ بحقٍّ لله ولعِبادِه، وأصلُ (برر) هنا: الصِّدْقُ، ومِن ذلك قولُهم: يَبَرُّ رَبَّه، أيْ: يُطيعُه، وهو مِن الصِّدْقِ[1].

﴿وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾: أي: أداءِ مَا كَلَّفكم مِن فَرائِضِه واجْتِنابِ مَعاصيه، أو: التَّقْوى هنا: اسمٌ جامعٌ لتركِ جميعِ المَحارِمِ والمآثِمِ، وأصل (وقى): يدُلُّ على دَفْعِ شَيءٍ عن شيءٍ بغيرِه[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- إلى الَّذين نهاهم اللهُ تعالى عن إسرارِ الحديثِ فيما بَيْنَهم بالشَّرِّ، ثمَّ يَرجِعون إلى ما نَهاهم اللهُ عنه مِنَ ذلك الإسرارِ، ويَتسارُّونَ بيْنَهم بالإثمِ والعُدوانِ ومَعصيتِك، وإذا جاءك هؤلاء القَومُ -يا محمَّدُ- حيَّوكَ

= ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

قال ابن رجب: (البِرُّ يُطلَقُ باعتبارِ مَعنيَين:

أحدُهما: باعتبارِ مُعامَلةِ الخَلقِ بالإحسانِ إليهم، ورُبَّما خُصَّ بالإحسانِ إلى الوالدَين، فيُقالُ: برُّ الوالدين، ويُطلَقُ كثيرًا على الإحسانِ إلى الخَلقِ عمومًا... وإذا قُرِن البِرُّ بالتَّقْوى -كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]- فقد يكونُ المرادُ بالبِرِّ: مُعامَلةَ الخَلقِ بالإحسانِ، وبالتَّقْوى: معاملةَ الحقِّ بفِعلِ طاعتِه، واجتِنابِ مُحرَّماتِه، وقد يكونُ أُريدَ بالبِرِّ: فِعلُ الواجباتِ، وبالتَّقْوى: اجتِنابُ المحرَّماتِ...

والمعنى الثَّاني مِن معنى البِرِّ: أن يُرادَ به فِعلُ جميعِ الطَّاعاتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، كقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]). ((جامع العلوم والحكم)) (٢/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

بغَيرِ السَّلامِ الَّذي حَيَّاك به اللهُ تعالى، ويقولونَ سِرًّا: هلَّا يُعَذِّبُنا اللهُ، فيُعَجِّلَ لنا العُقوبةَ في الدُّنيا بما نَقولُه لمحمَّدٍ؟ كافِيَتُهم جَهنَّمُ يَدخُلونَها في الآخِرةِ، ويُقاسُونَ عَذابَها، فبِئسَ المرجِعُ هي!

ثمَّ يقولُ تعالى مخاطبًا المؤمنينَ، ومؤدِّبًا وموجِّهًا لهم: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا تسارَرْتُم بيْنَكم، فلا تتحَدَّثوا بالإثمِ والعُدوانِ ومُخالَفةِ الرَّسولِ، وتَسارُّوا بيْنَكم بفِعلِ الخَيراتِ واجتِنابِ المحَرَّماتِ، واتَّقوا اللهَ الَّذي إليه تُجمَعونَ.

إنَّما المُناجاةُ مِن تزيينِ الشَّيطانِ؛ ليوقِعَ الحُزنَ في قُلوبِ المؤمِنينَ، وليس الشَّيطانُ بضَارِّ المؤمِنينَ شيئًا إلَّا بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وعلى اللهِ وَحْدَه فلْيَعتَمِدِ المؤمِنونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾.

أي: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- إلى الَّذين نهاهم اللهُ تعالى عن إسرارِ الحديثِ فيما بَيْنَهم بالشَّرِّ، ثمَّ يَرجِعون إلى ما نهاهم اللهُ عنه مِنَ التَّناجي بالشَّرِّ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠).
قيل: نزَلَت هذه الآيةُ في اليهودِ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ عطيَّة، والرازيُّ ونسَبَه للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩١).
وممَّن رُويَ عنه هذا القَولُ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩). =

﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

أي: ويُوصي بَعضُهم بعضًا سرًّا فيما بيْنَهم بالإثمِ والعُدوانِ[1] ومَعصيةِ الرَّسولِ

= وقيل: هي في المنافِقين. وممَّن ذهب إلى ذلك: السَّمعانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠، ٣١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة)) لخالد المزيني (٢/ ٩٦٦-٩٦٩).

قال ابن عطية: (وقال ابنُ عبَّاسٍ: هذه الآيةُ كُلُّها في منافِقينَ. ويُشبِهُ أنَّ مِن المنافِقينَ مَن تخَلَّق في هذا كُلِّه بصِفةِ اليهودِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٧).

وقيل: هي في المنافِقينَ واليهودِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والزمخشري. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩١).

(١) الإثم قيل: هو المعصيةُ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٥٩).

وقال ابن عاشور: (الإثمُ: المعصيةُ، وهو ما يَشتَمِلُ عليه تناجيهم مِن كلامِ الكُفرِ وذَمِّ المُسلِمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠).

وقيل: المرادُ به الكَذِبُ. وممَّن ذهب إلى هذا: السمرقنديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي))، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩١).

وقيل: هو الفواحِشُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٠).

والعدوان قيل: هو الظُّلمُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، والقرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٥٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠).

قال ابنُ عاشور: (العُدوانُ -بضَمِّ العَينِ: الظُّلمُ، وهو ما يُدَبِّرونَه مِن الكَيدِ للمُسلِمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠).

وقيل: هو النِّهايةُ في قَصدِ الشَّرِّ بالإفراطِ في مجاوَزةِ الحُدودِ. وممَّن قال بهذا: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٦٨).

وقيل: معنى الإثمِ ما هو إثمٌ في نفْسِه، والعدوانُ ما فيه تَعَدٍّ على المؤمنينَ. وممَّن اختار هذا =

محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومخالَفتِه[١]؟

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنْ ذكَرَ حالَهم في اختلاءِ بَعضِهم ببَعضٍ؛ ذكَرَ حالَ نِيَّاتِهم الخبيثةِ عندَ الحضورِ في مَجلِسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((أتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُناسٌ مِنَ اليهودِ، فقالوا: السَّامُ عليك يا أبا القاسِمِ. قال: وعَلَيكم، قالت عائِشةُ: قُلْتُ: بل عليكم السَّامُ والذَّامُ[٣]! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا عائِشةُ، لا

= المعنى: أبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٠).

وقريبٌ منه قولُ ابنِ كثير: (﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ وهو ما يختَصُّ بهم، ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ وهو ما يتعلَّقُ بغَيرِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣).

وقيل: الإثمُ هو تناجيهم في حالةِ نصرةِ المؤمنينَ وأمْنِهم، والعُدوانُ هو تناجيهم حالةَ خَوفِ المؤمنينَ وقتالِهم؛ لكنْ في غَيبةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٨١).

وقال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ يحتمِلُ وجهَين:

أحدُهما: أنَّ الإثمَ والعُدوانَ مُخالَفتُهم الرَّسولَ في النَّهيِ عن النَّجوى، فلمَّا عادوا إلى ما نَهاهم عنه لَزِمَهم الإثمُ والعُدوانُ، وصاروا آثِمينَ ظالِمينَ.

والثَّاني: أنَّ الإثمَ والعدوانَ ذلك السِّرُّ الَّذي يجري بيْنَهم؛ لأنَّه إمَّا مكرٌ وكَيدٌ بالمسلمينَ، أو شيءٌ يَسوؤُهم، فهو إثمٌ وعُدوانٌ). ((البسيط)) (٢١/ ٣٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١).

(٣) السَّامُ: المَوتُ. والذَّامُ: العَيبُ والذَّمُّ. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١١٤، ١٥٨).

تَكوني فاحِشةً، فقالت: ما سَمِعْتَ ما قالوا؟! فقال: أوَلَيس قد ردَدْتُ عليهم الَّذي قالوا، قُلْتُ: وعليكم؟ فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ))[١].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو رَضِي اللهُ عنهما: (أنَّ اليهودَ كانوا يقولونَ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: سامٌ عليك! ثمَّ يقولونَ في أنفُسِهم: لولا يُعَذِّبُنا اللهُ بما نَقولُ! فنزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ)[٢].

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

أي: وإذا جاءك هؤلاء القَومُ -يا محمَّدُ- حيَّوكَ بغَيرِ السَّلامِ الَّذي حَيَّاك به اللهُ تعالى[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢١٦٥).

(٢) أخرجه أحمدُ (٦٥٨٩) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ (١٣/ ٥٦٤) (١٤٤٦٢)، والبيهقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٨٦٧٩).

حسَّن إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٨/ ٦٩)، وجوَّد إسنادَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٢٤)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ٩٥)، وصحَّح الحديثَ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١١/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٧).

قال ابن العربي: (لا خِلافَ بيْنَ النَّقَلةِ أنَّ المرادَ بهم اليهودُ، كانوا يأتون النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيقولونَ: السَّامُ عليك، يُريدونَ بذلك السَّلامَ ظاهِرًا، وهم يَعنون الموتَ باطِنًا). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٩٨). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٢).

وقال السعدي: (هؤلاء المذكورونَ إمَّا أُناسٌ مِن المنافقين يُظهِرونَ الإيمانَ، ويُخاطِبونَ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذا الخِطابِ الَّذي يوهِمون أنَّهم أرادوا به خَيرًا، وهم كَذَبةٌ في ذلك، وإمَّا أُناسٌ مِن أهلِ الكِتابِ، الَّذين إذا سلَّموا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قالوا: السَّامُ عليك يا محمَّدُ، يَعنون بذلك الموتَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ هذه الآيةَ كُلَّها في المنافِقينَ لا في اليهودِ، وأنَّ المرادَ تحيَّتُهم بتحيَّةٍ =

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((أَتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُناسٌ مِنَ اليهودِ، فقالوا: السَّامُ عليك يا أبا القاسِمِ. قال: وعَلَيكم، قالت عائشةُ: قُلْتُ: بل عليكم السَّامُ والذَّامُ! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا عائشةُ، لا تَكوني فاحِشةً، فقالت: ما سَمِعْتَ ما قالوا؟! فقال: أوَلَيس قد ردَدْتُ عليهم الَّذي قالوا، قُلْتُ: وعليكم؟))[(١)].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((مرَّ يهوديٌّ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: السَّامُ عليك، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وعليكَ. فقال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أتدرونَ ما يقولُ؟ قال: السَّامُ عليك. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، ألا نَقتُلُه؟ قال: لا، إذا سلَّم عليكم أهلُ الكِتابِ فقولوا: وعليكم))[(٢)].

﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾.

أي: ويقولون سِرًّا[(٣)]: هلَّا يُعَذِّبُنا اللهُ فيُعَجِّلَ لنا العُقوبةَ في الدُّنيا؛ بسَبَبِ ما

= الجاهليَّةِ، كأَنعِمْ صَباحًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١). ويُنظر أيضًا: ((المحرر في أسباب نزول القرآن)) لخالد المزيني (٢/ ٩٦٦-٩٦٩).

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٢٤)، ومسلمٌ (٢١٦٥) واللَّفظُ له.

(٢) رواه البخاري (٦٩٢٦) واللفظ له، ومسلم (٢١٦٣).

(٣) قال ابن عثيمين: (﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: يُحدِّثُ شخصٌ منهم نفْسَه، أو المعنى: يقولون فيما بيْنَهم). ((لقاء الباب المفتوح)) (اللقاء رقم: ٤).

ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: فيما بيْنَهم: السمرقنديُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٩)، ((تفسير =

نَقولُه لمحمَّدٍ[١]؟

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾.

أي: يكفي هؤلاء عِقابًا لهم على ما يقولونَه: جَهنَّمُ، يَدخُلونَها في الآخِرةِ، ويُقاسُونَ عَذابَها[٢].

= الشوكاني)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢).

قال ابن تيميَّةَ: (المراد أنَّهم قالوه بألسنتِهم سرًّا... وهذا هو الَّذي ذكره المفسِّرونَ، قالوا: كانوا يقولون: سامٌ عليك، فإذا خرَجوا يَقولون في أنفُسِهم، أي: يقولُ بعضُهم لبعضٍ: لو كان نبيًّا عُذِّبْنا بقولِنا له ما نقولُ. وإن قُدِّر أنَّه أُريدَ بذلك أنَّهم قالوه في قُلوبِهم فهذا قولٌ مُقيَّدٌ بالنَّفْسِ، مِثلُ قولِه: «عمَّا حدَّثَتْ به أنفُسَها»؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾، فأطلَقوا لفظَ القَولِ هنا والمرادُ به ما قالوه بألسنتِهم؛ لأنَّه النَّجوى والتَّحيَّةُ الَّتي نُهوا عنها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٣٥).

وقال السعدي: (﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: يُسِرُّون في أنفُسِهم ما ذكره عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ عنهم، وهو قولُهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

وقال ابن عثيمين: (أصلُ القولِ لا بُدَّ أن يكونَ بصَوتٍ، ولو كان قولًا بالنَّفْسِ لَقَيَّده اللهُ، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣، ٤٤)، ((التفسير المظهري)) (٩/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

قال القرطبي: (قالوا: لو كان محمَّدٌ نبيًّا لعَذَّبَنا اللهُ بما نقولُ، فهلَّا يُعَذِّبُنا اللهُ! وقيل: قالوا إنَّه يَرُدُّ علينا ويقولُ: وعليكم السَّامُ، والسَّامُ: الموتُ، فلو كان نبيًّا لاستُجيبَ له فينا ومُتْنا. وهذا موضِعُ تَعجُّبٍ منهم؛ فإنَّهم كانوا أهلَ كتابٍ، وكانوا يَعلَمونَ أنَّ الأنبياءَ قد يَغضَبونَ فلا يُعاجَلُ مَن يُغضِبُهم بالعذابِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢).

﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: فبِئسَ المرجِعُ والمُنقَلَبُ جَهنَّمُ[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَمَّ اليهودَ والمنافِقينَ على التَّناجي بالإثمِ والعُدوانِ ومَعصيةِ الرَّسولِ؛ أتْبَعَه بأنْ نهَى أصحابَه المؤمِنينَ أن يَسلُكوا مِثلَ طَريقتِهم[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا تسارَرْتُم فيما بيْنَكم، فلا تَتحَدَّثوا بالإثمِ والعُدوانِ ومُخالَفةِ الرَّسولِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤)، ((التفسير المظهري)) (٩/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

وفي المخاطَبينَ بهذه الآيةِ قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه خِطابٌ للمؤمنينَ، والثَّاني: أنَّه خِطابٌ للمنافِقين، والمعنى: يا أيُّها الَّذين آمَنوا بألسِنَتِهم، وقيل: آمَنوا بزَعمِهم. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦١).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكي، والبغوي، وابن عطية، والقرطبي، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤)، =

﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾.

أي: وتَسارُّوا الحديثَ فيما بيْنَكم بفِعلِ الخَيراتِ، واجتِنابِ المحَرَّماتِ[1].

كما قال تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٤].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

أي: واجعَلوا بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعذابِه وقايةً بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه؛ فهو الَّذي إليه تُجمَعونَ فيُجازيكم على أقوالِكم وأعمالِكم[2].

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا شدَّد اللهُ سُبحانَه في أمرِ النَّجوى المذمومةِ، وكان لا يَفعَلُها إلَّا أهلُ النِّفاقِ، فكان رُبَّما ظَنَّ ظانٌّ أنَّه يَحدُثُ عنها ضَرَرٌ لأهلِ الدِّينِ؛ بيَّنَ أنَّ ضَرَرَها

= ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٤).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، والزمخشري، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٢).

إنَّما يعودُ عليهم[١].

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: إنَّما المُناجاةُ الَّتي نهَى الله عنها مِن تزيينِ الشَّيطانِ للمُتناجِينَ مِن أجْلِ أن يُوقِعَ الحُزنَ في قُلوبِ المؤمِنينَ[٢].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٢، ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤، ٤٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤).

قال الماوَرْدي: (وفي قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وجْهانِ:

أحدُهما: ما كان يَتناجى به اليهودُ والمنافقون مِن الأراجيفِ بالمسلمينَ.

الثَّاني: أنَّها الأحلامُ الَّتي يَراها الإنسانُ في مَنامِه فتَحزُنُه). ((تفسير الماوردى)) (٥/ ٤٩١).

وقال ابن عطية: (واختلَف النَّاسُ في النَّجْوى الَّتي هي مِنَ الشَّيطانِ الَّتي أخبر عنها في هذه الآيةِ؛ فقال جماعةٌ مِن المفسِّرينَ: أراد: إنَّما النَّجْوى في الإثمِ والعُدوانِ ومَعصيةِ الرَّسولِ مِن الشَّيطانِ. وقال قَتادةُ وغيرُه: الإشارةُ إلى نَجوى المنافِقينَ واليهودِ. وقال عبدُ الله بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ: الإشارةُ إلى نجوى قومٍ مِن المسلمينَ كانوا يَقصدون مُناجاةَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، وليس لهم حاجةٌ ولا ضرورةٌ إلى ذلك، وإنَّما كانوا يُريدون التَّبجُّحَ بذلك، وكان المسلمون يَظُنُّون أنَّ تلك النَّجوى في إخبارِ بعَدُوٍّ قاصِدٍ أو نحوِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ مُناجاةُ المنافِقين بعضِهم بعضًا بالإثمِ والعُدوانِ -وزاد بعضُ المفسِّرينَ اليهودَ أيضًا-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٨٧).

قال السعدي: (أي: تناجي أعداءِ المؤمنينَ بالمؤمنينَ، بالمَكرِ والخديعةِ، وطَلَبِ السُّوءِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

وقال الزَّجَّاجُ: (أي: النَّجوى بالإثمِ والعُدوانِ مِن الشَّيطانِ؛ لِيَحزُنَ الَّذين آمنوا). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٣٨).

وسلَّم: ((إذا كُنتُم ثلاثةً، فلا يَتناجى اثنانِ دونَ صاحِبِهما؛ فإنَّ ذلك يَحزُنُه))[١].

﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وليس الشَّيطانُ بضَارٍّ المؤمِنينَ بأيِّ ضَرَرٍ إلَّا بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه؛ فإنَّ اللهَ يَكفيهم شَرَّ أعدائِهم ومَكْرِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ وَحْدَه فلْيَعتَمِدِ المؤمِنونَ ويَثِقوا به؛ فإنَّ مَن توكَّلَ على اللهِ كفاه[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥١، ٥٢].

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٢٩٠)، ومسلمٌ (٢١٨٤) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٣، ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥، ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

قال ابن عطية: (أمَرَ بتوكُّلِ المؤمنينَ عليه تبارَك وتعالى، وهذا كلُّه يقوِّي أنَّ التَّناجيَ الَّذي مِن الشَّيطانِ إنَّما هو الَّذي وقَعَ منه للمؤمِنينَ خَوفٌ؛ وللخَوفِ اللَّاحِقِ للقُلوبِ في هذا قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «لا يَتناجى اثنانِ دونَ الثَّالِثِ»). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٨).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قول الله تعالى: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ أمَرَ اللهُ تعالى المؤمِنينَ أن يَتناجَوا بالبِرِّ -وهو اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ خَيرٍ وطاعةٍ، وقيامٍ بحَقِّ لله ولعبادِه- والتَّقوى؛ فالمؤمِنُ يمتَثِلُ هذا الأمرَ الإلهيَّ، فلا تجِدُه مُناجيًا ومتحَدِّثًا إلَّا بما يُقَرِّبُه مِن الله، ويُباعِدُه مِن سَخَطِه، والفاجِرُ يتهاوَنُ بأمرِ اللهِ، ويُناجي بالإثمِ والعُدوانِ ومعصيةِ الرَّسولِ، كالمنافِقينَ الَّذين هذا دأْبُهم وحالُهم مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(١)].

٢- الحُزنُ يُضعِفُ القَلبَ، ويُوهِنُ العَزْمَ، ويَضُرُّ الإرادةَ، ولا شَيءَ أحَبُّ إلى الشَّيطانِ مِن حُزنِ المؤمِنِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فالحُزنُ مَرَضٌ مِن أمراضِ القَلبِ يَمنَعُه مِن نُهوضِه وسَيرِه وتَشميرِه[(٢)]، ولم يأتِ الحُزنُ في القرآنِ إلَّا منهيًّا عنه، أو منفيًّا؛ فالمنهيُّ عنه كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقولِه: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحجر: ٨٨] في غيرِ موضعٍ، وقولِه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. والمنفيُّ كقولِه: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[(٣)] [البقرة: ٣٨].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ الله تعالى وَعَد المؤمنينَ بالكفايةِ والنَّصرِ على الأعداءِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠٠).

قال ابن تيمية: (لم يأمُرِ الله به [أي: الحزنِ] ولا رسولُه، بل قد نهَى عنه في مواضعَ، وإنْ تعلَّق بأمرِ الدِّينِ... وذلك لأنَّه لا يجلِبُ منفعةً، ولا يدفعُ مضرَّةً، فلا فائدةَ فيه، وما لا فائدةَ فيه لا يأمُرُ الله به، نَعَمْ لا يأثمُ صاحبُه إذا لم يقترِنْ بحزنِه محرَّمٌ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ١٦).

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، فأعداءُ اللهِ ورَسولِه والمؤمِنينَ مهما تناجَوا ومَكَروا، فإنَّ ضَرَرَ ذلك عائدٌ إلى أنفُسِهم، ولا يضُرُّ المؤمنينَ إلَّا شَيءٌ قَدَّرَه اللهُ وقَضاه، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: ليَعتَمِدوا عليه، ويَثِقوا بوَعدِه؛ فإنَّ مَن توكَّلَ على الله كفاه، وتولَّى أمرَ دينِه ودُنياه[١].

٤- قَولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيه: تنبيهٌ وتهديدٌ جاءَ عَقِيبَ تحليلٍ وتحريمٍ، وناسَب ذِكرُ الحشْرِ؛ إذ فيه يَظهَرُ مَن أطاع وعصَى[٢]. وفي إجراءِ الوَصفِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ وتِلك الصِّلةِ ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تذكيرٌ بأنَّ المرجِعَ إلى الله؛ ليُعِدَّ النَّاسُ ما استطاعوا مِن الطَّاعةِ لذلك اللِّقاءِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ فيه تحريمُ النَّجوى، وهو تَحَدُّثُ الاثنَينِ سِرًّا بحَضْرةِ ثالثٍ[٤]؛ لأنَّها توجِبُ إيحاشًا، وكَسْرَ القلبِ[٥]، وقد قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا كانوا ثلاثةٌ، فلا يَتناجى اثْنانِ دونَ الثَّالثِ))[٦]، وقال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا كنتُم ثلاثةً فلا يَتناجى اثْنانِ دونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

قال العراقي: (مَحَلُّ النَّهْيِ عن تَناجي اثنيْنِ دونَ ثالثٍ إذا كان ذلك الثَّالثُ معَهما في ابتداءِ النَّجْوَى، فأمَّا إذا انْفَرَد اثنانِ فتَناجَيا ثمَّ جاء ثالثٌ في أثناءِ تناجيهما فليس عليهما قَطْعُ التَّناجي). ((طرح التثريب)) (٨/ ١٤٣).

قال الزرقاني: (وفي معنَى التَّناجي ما لو تَحدَّثا بلِسانٍ لا يُفْهَمُ). ((شرح الزرقاني على الموطأ)) (٤/ ٦٤٧).

(٥) يُنظر: ((فصول الآداب ومكارم الأخلاق المشروعة)) لابن عَقِيل الحنبلي (ص: ٤٦).

(٦) رواه البخاري (٦٢٨٨)، ومسلم (٢١٨٣) من حديث عبدِ الله بن عُمرَ رضيَ الله عنهما.

الآخَرِ حتَّى تَختَلِطوا بالنَّاسِ مِن أجْلِ أن يُحزِنَه))[١]، ففي هذا النَّهيُ عن تَناجي اثنَينِ بحضَرةِ ثالثٍ، وكذا ثلاثةٍ وأكثَرَ بحَضرةِ واحدٍ، وهو نهيُ تحريمٍ، فيَحرُمُ على الجماعةِ المُناجاةُ دونَ واحدٍ منهم إلَّا أن يَأذَنَ، أمَّا اذا كانوا أربعةً فتَناجى اثنانِ دونَ اثنَينِ فلا بأسَ بالإجماعِ[٢]، فإذا كثُر النَّاسُ فلا بأسِ أن يَتناجى منهم اثنانِ وأكثَرُ[٣].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يَدخُلُ فيه قَولُ بَعضِ النَّاسِ لبَعضٍ: (صباحُ الخَيرِ)، ونحوَه، مُعرِضًا عن السَّلامِ[٤]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أنَّه إذا زال هذا السَّبَبُ، وقال الكِتابيُّ: «سلامٌ عليكمْ ورَحمةُ اللهِ» فالعَدلُ في التَّحيةِ يَقتضي أنْ يُرَدَّ عليه نَظيرُ سَلامِه[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أنَّ الشَّيطانَ يُريدُ مِن بني آدمَ أنْ يكونوا دائمًا على قَلقٍ وعلى حُزْنٍ[٦]، وأنَّ كلَّ مَن حاول إدخالَ الحُزْنِ على أخيه المُسلمِ فإنَّه شَبيهٌ بالشَّيطانِ الَّذي يريدُ إدخالَ الأحزانِ

---

(١) رواه البخاري (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤) من حديث عبدِ الله بن مسعودٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ١٦٧، ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٨/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٦٩).

(٥) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٤٢٦).

قال القرطبي: (وقد اختُلِف في ردِّ السَّلام على أهلِ الذِّمَّةِ هل هو واجبٌ كالرَّدِّ على المسلمينَ، وإليه ذَهَب ابنُ عبَّاسٍ والشَّعبيُّ وقَتادةُ؛ لَلأمرِ بذلك. وذَهَب مالكٌ فيما روى عنه أشهَبُ وابنُ وهبٍ إلى أنَّ ذلك ليس بواجبٍ، فإنْ رَدَدْت فقُلْ: عليك). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٣).

وكلامُ ابنِ القيِّمِ إذا قال الكِتابيُّ: «سلامٌ عليكمْ ورَحمةُ اللهِ» فالعَدلُ في التَّحيةِ يَقتضي أنْ يُرَدَّ عليه نَظيرُ سَلامِه: أوفَقُ لمعنى الآيةِ.

(٦) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٥/ ١٠٤).

على المؤمنينَ[١].

٥- قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيه سؤالٌ: كيف لا يَضُرُّهم ذلك ولا يَحْزُنُهم إلَّا بإذنِ اللهِ؟

الجوابُ: أنَّهم كانوا يُوهِمونَ المؤمنينَ في نَجواهم وتفاخُرِهم أنَّ غُزاتَهم غُلِبوا، وأنَّ أقارِبَهم قُتِلوا، فقال تعالى: لا يَضُرُّهم الشَّيطانُ والحُزنُ بذلك الموهِمِ إلَّا بإذنِ الله تعالى، أي: بمشيئتِه، وهو أن يَقضِيَ الموتَ على أقارِبِهم، والغَلَبَةَ على الغُزاةِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَرِيَّةِ في إخبارِه عنِ الشَّيطانِ بإدخالِه الحُزنَ والضَّرَرَ على المؤمِنينَ، وزوالِ ضَرَرِه عنهم إلَّا بإذنِ اللهِ[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه وُجوبُ التَّوكُّلِ على اللهِ وحْدَه، وإفرادُ الله بالتَّوكُّلِ يُؤخَذُ مِن تقديمِ المعمولِ على عامِلِه؛ لأنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحصرَ، وهذه قاعِدةٌ[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ التَّوكُّلَ مِن مُقتَضياتِ الإيمانِ؛ لأنَّه عَلَّقَ الحُكمَ على وَصفٍ -وهو الإيمانُ-، فدلَّ ذلك على أنَّه كُلَّما قَوِيَ الإيمانُ قَوِيَ التَّوكُّلُ على اللهِ، وكُلَّما ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَ التَّوكُّلُ على اللهِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٢).

(٥) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ الاستِفهامُ تَعجيبيٌّ، مُرادٌ به تَوبيخُهم حينَ يَسمَعونه[1].

- والتَّعريفُ في (النَّجوى) تَعريفُ العَهدِ؛ لأنَّ سِياقَ الكلامِ في نوعٍ خاصٍّ مِن النَّجوى، وهي النَّجوى الَّتي تَحزُنُ الَّذين آمَنوا، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة: ١٠]. ويجوزُ أنْ يكونَ النَّهيُ عن جِنسِ النَّجوى في أوَّلِ الأمرِ يعُمُّ كلَّ نَجوى بمَرأًى مِن النَّاسِ؛ سدًّا للذَّريعةِ[2].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ مَعطوفٌ على ﴿نُهُوا۟﴾، وعُدِلَ عن صِيغةِ الماضي المُناسِبةِ للعطْفِ؛ لسِرٍّ لطيفٍ، وهو استحضارُ صُورةِ العَودِ وتَجدُّده وتَجْسيده، فصِيغةُ المُضارعِ في ﴿يَعُودُونَ﴾ دالَّةٌ على التَّجدُّدِ، أي: يُكرِّرونَ العَودَ بحيثُ يُريدونَ بذلك العِصيانَ، وقِلَّةَ الاكتِراثِ بالنَّهيِ؛ فإنَّهم لو عادوا إلى النَّجوى مرَّةً أو مرَّتينِ لاحتَمَلَ حالُهم أنَّهم نَسُوا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨).

- وحرْفُ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ عَودتَهم إلى النَّجوى بعْدَ أنْ نُهُوا عنها أعظَمُ مِن ابتداءِ النَّجوى؛ لأنَّ ابتداءَها كان إثمًا لِمَا اشتَمَلَتْ عليه نَجْواهم مِن نيَّاتٍ سَيِّئةٍ نحْوَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُسلِمينَ، فأمَّا عَودتُهم إلى النَّجوى بعْدَ أنْ نُهُوا عنها، فقد زادوا بها تَمرُّدًا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومُشاقَّةً للمسلمينَ؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا اقتَضاهُ استمرارُ المنافقين على نَجْواهم[١].

- و﴿لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ هو النَّجوَى؛ فعُدِلَ عن الإتيانِ بضَميرِ النَّجوى إلى الموصولِ وصِلتِه؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن التَّعليلِ لِما بعْدَها مِن الوعيدِ بقولِه: ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾، على ما في الصِّلةِ مِن التَّسجيلِ على سَفَهِهم[٢].

- والباءُ في ﴿بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ للمُلابَسةِ، أي: يَتناجَون مُلابِسينَ الإثمَ والعُدوانَ ومَعصيةَ الرَّسولِ[٣].

- وجاء قولُه: ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ بعُنوانِ الرِّسالةِ بيْنَ الخِطابَينِ المُتوجِّهينِ إليهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ -﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾، ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾-؛ لزِيادةِ تَشنيعِهم، واستعظامِ مَعصيتِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (لولا) للتَّحضيضِ، أي: هلَّا يُعذِّبُنا اللهُ بسَببِ كَلامِنا الَّذي نَتناجى به مِن ذَمِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونحْوِ ذلك! أي: يَقولون ما معناهُ: لو كان محمَّدٌ نَبيًّا لَعذَّبَنا اللهُ بما نَقولُه مِن السُّوءِ فيه ومِن الذَّمِّ، وهو ما لخَّصَه اللهُ مِن قولِهم بكلمةِ ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٩).

فإنَّ (لولا) للتَّحضيضِ مُستعمَلةٌ كِنايةً عن جَحْدِ نُبوَّةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: لو كان نَبيًّا لغَضِبَ اللهُ علينا، فلَعذَّبَنا الآنَ بسَببِ قَولِنا له[١].

- قولُه: ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَا﴾ ردٌّ على كَلامِهم، أي: كافِيهم مِن العذابِ جهنَّمُ؛ فإنَّه عذابٌ. وأصلُ ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ يَصْلَون بها، فضُمِّن معْنى يَذوقُونها أو يُحِسُّونها، وقد تَكرَّرَ هذا الاستِعمالُ في القرآنِ الكريم[٢].

- وقولُه: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تَفريعٌ على الوعيدِ بشأْنِ ذمِّ جهنَّمَ[٣].

- وأتى بالفاءِ في قوله: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لِما فيه مِن معنَى التَّعقيبِ، أي: بئسَ المصيرُ ما صاروا إليه، وهو جَهنَّمُ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ قيل: هو خِطابٌ للمنافِقين الَّذين يُظهِرونَ الإيمانَ، فعامَلَهم اللهُ بما أظْهَروه، وناداهم بوصْفِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، كما قال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ [المائدة: ٤١]، ومنه ما حكاهُ اللهُ عن المشرِكين: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، أي: يا أيُّها الَّذي نُزِّلَ عليه الذِّكرُ بزعْمِه، ونبَّهَهم إلى تَدارُكِ حالِهم بالإقلاعِ عن آثارِ النِّفاقِ، على عادةِ القرآنِ مِن تَعقيبِ التَّخويفِ بالتَّرغيبِ، فالجُملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ ذلك أنَّ المنافِقينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٧).

كانوا يَعمَلون بعمَلِ أهلِ الإيمانِ إذا لَقُوا الَّذين آمَنوا، فإذا رَجَعوا إلى قَومِهم غلَبَ عليهم الكفرُ، فكانوا في بَعضِ أحوالِهم مُقاربينَ الإيمانَ بسَببِ مُخالطتِهم للمؤمنينَ، ويَكونُ قولُه: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ تَنبيهًا على ما يجبُ عليهم إنْ كانوا مُتناجينَ لا مَحالةَ. ويجوزُ أنْ تكونَ خِطابًا للمؤمنينَ الخُلَّصِ؛ بأنْ وجَّهَ اللهُ الخطابَ إليهم تَعليمًا لهم بما يَحسُنُ مِن التَّناجي، وما يَقبُحُ منه بمُناسَبةِ ذَمِّ تَناجي المنافِقين؛ فلذلك ابتُدِئَ بالنَّهيِ عن مِثلِ تَناجي المنافِقين، وإنْ كان لا يَصدُرُ مِثلُه مِن المؤمنينَ؛ تَعريضًا بالمنافِقين، مِثل قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزًّى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةً فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، ويَكونَ المَقصودُ مِن الكلامِ هو قولَه: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾؛ تَعليمًا للمؤمنينَ[(١)].

- وفيه ترتيبٌ حسَنٌ بديعٌ، حيثُ نَهَى المؤمنينَ أنْ يكونَ تَناجِيهم مِثلَ تَناجي الكُفَّارِ، وبدَأَ بالإثمِ؛ لعُمومِه، ثمَّ بالعُدوانِ؛ لعَظَمتِه في النُّفوسِ؛ إذ هي ظُلاماتُ العِبادِ، ثمَّ تَرقَّى إلى ما هو أعظَمُ، وهو مَعصيةُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي هذا طعْنٌ على المنافِقين؛ إذ كان تَناجيهم في ذلك[(٢)].

- والتَّقييدُ بـ ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾ يُشيرُ إلى أنَّه لا يَنْبغي التَّناجي مُطلقًا، ولكنَّهم لَمَّا اعْتادوا التَّناجيَ حُذِّروا مِن غَوائلِه، وإلَّا فإنَّ التَّقييدَ مُستغنًى عنه بقولِه: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾[(٣)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢، ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣).

شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ تَسليةٌ للمؤمنينَ، وتأنيسٌ لنُفوسِهم يُزالُ به ما يَلحَقُهم مِن الحُزْنِ لمُشاهَدةِ نَجْوى المنافِقين لاختلافِ مَذاهبِ نُفوسِهم إذا رَأَوُا المُتناجِينَ في عَديدِ الظُّنونِ والتَّخوُّفاتِ؛ فالجُملةُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ اقتَضَتْه مُناسَبةُ النَّهيِ عن النَّجوى، على أنَّها قدْ تكونُ تَعليلًا لتأْكيدِ النَّهيِ عن النَّجوى(١).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ تَعريفُ العهْدِ، أي: نَجْوى المنافِقين الَّذين يَتناجَون بالإثمِ والعُدوانِ ومَعصيةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٢).

- والحصْرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) قصْرُ مَوصوفٍ على صِفةٍ، و(مِن) ابتدائيَّةٌ، أي: قصْرُ النَّجوى على الكَونِ مِن الشَّيطانِ، أي: جائيةٌ؛ لأنَّ الأغراضَ الَّتي يَتناجَون فيها مِن أكبَرِ ما يُوَسوِسُ الشَّيطانُ لأهلِ الضَّلالةِ بأنْ يَفعَلوه؛ ليَحزُنَ الَّذين آمَنوا بما يَتطرَّقُهم مِن خَواطرِ الشَّرِّ بالنَّجوى، وهذه العِلَّةُ ليستْ قَيدًا في الحصْرِ؛ فإنَّ للشَّيطانِ عِللًا أُخرى؛ مِثْلَ إلْقاءِ المُتناجِينَ في الضَّلالةِ، والاستِعانةِ بهم على إلْقاءِ الفِتنةِ، وغيرِ ذلك مِن الأغراضِ الشَّيطانيَّةِ. وقدْ خُصَّت هذه العِلَّةُ بالذِّكرِ؛ لأنَّ المَقصودَ تَسليةُ المؤمِنينَ وتَصبيرُهم على أذَى المنافِقينَ؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا﴾؛ ليَطمئِنَّ المؤمِنونَ بحِفْظِ اللهِ إيَّاهم مِن ضُرِّ الشَّيطانِ، وهذا نحوٌ مِن قولِه تعالَى: ﴿لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾(٣) [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥].

- ووُقوعُ ﴿شَيۡـًٔا﴾ وهو نَكِرةٌ في سِياقِ النَّفيِ يُفيدُ عُمومَ نفْيِ كلِّ ضُرٍّ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤).

الشَّيطانِ، أي: انْتَفى كلُّ شَيءٍ مِن ضُرِّ الشَّيطانِ عن المؤمنينَ؛ فيَشملُ ضُرَّ النَّجوى وضُرَّ غيرِها[١].

- والاستِثناءُ في قولِه تعالَى: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ مِن عُمومِ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ الواقعِ في سِياقِ النَّفيِ، أي: إلَّا ضُرًّا مُلابِسًا لإذْنِ اللهِ في أنْ يُسلِّطَ عليهم الشَّيطانُ ضُرَّه فيهم، أي: ضُرَّ وَسوستِه؛ ولهذا ذُيِّلَ بقولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّهم إذا تَوكَّلوا على اللهِ توكُّلًا حقًّا بأنِ استَفْرَغوا وُسْعَهم في التَّحرُّزِ مِن كَيدِ الشَّيطانِ، واستَعانوا باللهِ على تَيسيرِ ذلك لهم، فإنَّ اللهَ يَحفَظُهم مِن كَيدِ الشيطانِ؛ قال تَعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. ويَجوزُ أنْ يكونَ عُمومُ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ مُرادًا به الخُصوصُ، أي: ليس بضارِّهم شَيئًا ممَّا يُوهِمُه تَناجي المنافِقين مِن هَزيمةٍ أو قتْلٍ، إلَّا بتَقديرِ اللهِ حُصولَ هَزيمةٍ أو قتْلٍ، والمعْنى: أنَّ التَّناجيَ يُوهِمُ الَّذين آمَنوا ما ليس واقعًا، فأعْلَمَهم اللهُ ألَّا يَحزَنوا بالنَّجوى؛ لأنَّ الأُمورَ تَجْري على ما قدَّرَه اللهُ في نفْسِ الأمْرِ حتَّى تَأتيَهم الأخبارُ الصَّادقةُ[٢].

- وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ في قولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بمَدلولِ هذا المُتعلَّقِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥، ٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٦).

الآيات (١١-١٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَفَسَّحُواْ﴾: أي: تَوسَّعُوا، وأصلُ (فسح): يدُلُّ على سَعةٍ واتِّساعٍ[١].

﴿ٱنشُزُواْ﴾: أي: قُومُوا وارتَفِعوا عن أماكِنِكم، وأصلُ (نشز): يدُلُّ على ارتِفاعٍ وعُلُوٍّ[٢].

﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾: أي: أخِفتُم وخَشِيتُم، والإشْفاقُ: الخَوفُ والحَذَرُ مِن وُقوعِ المكروهِ، والشَّفَقةُ: رِقَّةُ القَلبِ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن الفارس (٥/ ٤٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٢) و(٢٣/ ٣٦٤).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مرشدًا عبادَه إلى بعضِ آدابِ المجالسِ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا قِيلَ لكم: توسَّعوا في المجالِسِ لِيَجلِسَ آخَرون معكم، فوَسِّعوا لهم، يُوسِّعِ اللهُ عليكم في الدُّنيا والآخِرةِ، وإذا قيل لكم: قُوموا وانهَضوا مِن المجلِسِ، فافعَلوا ذلك؛ يَرفَعِ اللهُ المؤمِنينَ منكم والعُلَماءَ العامِلينَ بعِلْمِهم دَرَجاتٍ عاليةً، واللهُ بما تَعملونَ خَبيرٌ.

ثمَّ يأمُرُ تعالى المؤمنينَ بالصَّدقةِ أمامَ مُناجاةِ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم تأديبًا لهم، وتعظيمًا للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ تعالى: يا أيُّها المؤمِنونَ إذا أردتُم أن تُسارُّوا الرَّسولَ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بكلامٍ بَيْنَكم وبيْنَه، فتصَدَّقوا قبْلَ ذلك؛ ذلك خَيرٌ لكم -أيُّها المؤمِنونَ- وأطهَرُ، فإنْ لم تَجِدوا صَدَقةً تُقَدِّمونَها قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ، فلا حَرَجَ عليكم؛ لأنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ بكم.

ثمَّ يقولُ تعالى: أخِفْتُم الفَقْرَ؛ مِن تقديمِ الصَّدَقاتِ قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ؟ فإذْ لم تُقَدِّموا تلك الصَّدَقاتِ، وتاب اللهُ عليكم مِن تَرْكِكم لها؛ فحافِظوا على الصَّلَواتِ، وأعطُوا الزَّكاةَ، وأطيعوا اللهَ ورَسولَه، واللهُ خبيرٌ بجَميعِ أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا نهَى عبادَه المؤمِنينَ عَمَّا يكونُ سَبَبًا للتَّباغُضِ والتَّنافُرِ؛ أمَرَهم

الآنَ بما يَصيرُ سببًا لزيادةِ المحبَّةِ والمودَّةِ[١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّ اليهودَ يحيُّونَه بما لم يحَيِّه به اللهُ، وذمَّهم على ذلك؛ وَصَل به الأمرَ بتحسينِ الأدَبِ في مجالَسةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حتَّى لا يُضَيِّقوا عليه المجلِسَ، وأمَرَ المسلِمينَ بالتَّعاطُفِ والتَّآلُفِ حتَّى يَفسَحَ بَعضُهم لبعضٍ، حتَّى يتمَكَّنوا مِن الاستماعِ مِن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والنَّظَرِ إليه[٢].

وأيضًا لَمَّا نهى سُبحانَه عن التَّناجي والسِّرارِ، عُلِم منه الجلوسُ مع الملأِ؛ فذكَرَ جلَّ وعلا آدابَه بعْدَه، بقولِه عزَّ مِن قائلٍ[٣]:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا قيلَ لكم: توَسَّعوا في المجالِسِ لِيَجلِسَ آخَرون معكم، فوَسِّعوا لهم؛ فإنَّكم إن فعَلْتُم ذلك يُوسِّعِ اللهُ عليكم في الدُّنيا والآخِرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٨).

قال ابن الجوزي: (في المرادِ بالمجلسِ هاهنا ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه مجلسُ الحربِ ومقاعدُ القتالِ، كان الرَّجُلُ يأتي القَومَ في الصَّفِّ، فيقولُ لهم: توَسَّعوا، فيأبَوْن عليه؛ لحِرصِهم على القتالِ. وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ، والحسَنِ، وأبي العاليةِ، والقُرَظيِّ.

والثَّاني: أنَّه مَجلِسُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم، قاله مجاهدٌ. وقال قَتادةُ: كان هذا للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ومَن حَوْلَه خاصَّةً.

والثَّالثُ: مجالِسُ الذِّكرِ كلُّها). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٤٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ مجلِسُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: الزمخشريُّ، والنسفي، والخازن، =

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أنَّه نهَى أن يُقامَ الرَّجُلُ مِن مَجلِسِه، ويَجلِسَ فيه آخَرُ، ولكِنْ تَفَسَّحوا وتوسَّعوا))، وكان ابنُ عُمَرَ يَكرَهُ أن يقومَ الرَّجُلُ مِن مجلِسِه ثمَّ يَجلِسَ مَكانَه[(١)].

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾.

أي: وإذا قيل لكم: قُوموا وانهَضوا مِن المجلِسِ، فافعَلوا ذلك[(٢)].

= والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٦٢).

وقال ابن جرير: (الصَّوابُ مِن القولِ في ذلك أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أمَر المؤمنينَ أن يَتفَسَّحوا في المَجلِسِ، ولم يَخْصُصْ بذلك مَجلِسَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم دونَ مَجلِسِ القِتالِ، وكِلا المَوضعَينِ يُقالُ له مَجلِسٌ، فذلك على جميعِ المَجالِسِ مِن مَجالِسِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ومَجالِسِ القِتالِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٨).

وقال ابن جُزَي: (اختلَفوا هل هي مَقصورةٌ على مَجلسِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّمَ أو هي عامَّةٌ في جميعِ المَجالِسِ؟ فقال قَومٌ: إنَّها مخصوصةٌ، ويدُلُّ على ذلك قِراءةُ ﴿المَجلِسِ﴾ بالإفرادِ [قرأ عاصمٌ بألفٍ على الجمعِ، والباقونَ بغيرِ ألفٍ. «النشر» لابن الجزري «٢/ ٣٨٥»]، وذهَب الجمهورُ إلى أنَّها عامَّةٌ، ويدُلُّ على ذلك قراءةُ ﴿ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ بالجَمعِ، وهذا هو الأصَحُّ، ويكونُ المجلِسُ بالإفرادِ على هذا للجنسِ، والتَّفسيحُ المأمورُ به هو التَّوسُّعُ دونَ القيامِ؛ ولذلك قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «لا يُقِمْ أحدٌ [أحدًا] مِن مَجلِسِه ثمَّ يَجلِس الرَّجُلُ فيه، ولكنْ تَفسَّحوا وتَوسَّعوا»). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٣).

وقال القرطبي: (الصَّحيحُ في الآيةِ أنَّها عامَّةٌ في كلِّ مَجلِسٍ اجتمَع المُسلِمونَ فيه للخَيرِ والأجرِ؛ سواءٌ كان مَجلِسَ حربٍ، أو ذِكْرٍ، أو مَجلِسَ يومِ الجُمُعةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٧).

وقال ابن عطيَّة: (قال جمهورُ أهلِ العِلمِ: السَّببُ مَجلِسُ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، والحُكمُ في سائرِ المجالسِ الَّتي هي للطَّاعاتِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٨).

(١) رواه البخاريُّ (٦٢٧٠) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢١٧٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

قال الماوَرْدي: (﴿... وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ فيه أربعةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: معناه: وإذا قيل لكم: انهَضوا إلى القتالِ فانهَضوا، قاله الحسَنُ. الثَّاني: إذا دُعيتُم إلى الخَيرِ فأجِيبوا، قاله =

﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾.

أي: يَرفَعِ اللهُ المؤمِنينَ منكم والعُلَماءَ العامِلينَ بعِلْمِهم دَرَجاتٍ عاليةً(١).

= قَتادةُ. الثَّالثُ: إذا نُوديَ للصَّلاةِ فاسعَوْا إليها، قاله مُقاتِلُ بنُ حَيَّانَ. الرَّابعُ: أنَّهم كانوا إذا جلَسوا في بيتِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أطالوا؛ لِيَكونَ كلُّ واحدٍ منهم هو الآخِرَ عهدًا به، فأمَرَهم اللهُ أن يَنشُزوا إذا قيل لهم: انشُزوا، قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٩٢).

قال القاسمي: (ولا تَنافيَ بيْن هذه الأقوالِ؛ لأنَّ كُلًّا منها تفسيرٌ لِلَّفظِ العامِّ ببعضِ أفرادِه وما يَصدُقُ عليه؛ إشارةً إلى تَناوُلِه لذلك، لا أنَّ أحَدَها هو المرادُ دونَ غيرِه، فذلك ما لا يُتَوهَّمُ. وقد كثُر مِثلُ ذلك في تفاسيرِ السَّلفِ لكثيرٍ مِن الآيِ، وكلُّه ممَّا لا اختِلافَ فيه). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٧٣).

وقال الثعلبي: (قال أكثرُ المفسِّرينَ: معناه: وإذا قيل لكم: انهضَوا إلى الصَّلاةِ والجِهادِ والذِّكرِ وعمَلِ الخَيرِ -أيَّ حقٍّ كان- فانشُزُوا ولا تُقَصِّروا). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٠).

وممَّن اختار العُمومَ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٨، ٤٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٦).

قال البقاعي: (لَمَّا كانت التَّوسِعةُ يَكفي فيها التَّزَحزُحُ مع دوامِ الجلوسِ تارةً، وأُخرى تدعو الحاجةُ فيها إلى القيامِ للتَّحَوُّلِ مِن مكانٍ إلى آخَرَ؛ قال:... ﴿ٱنشُزُواْ﴾ أي: ارتَفِعوا وانهَضوا إلى الموضِعِ الَّذي تُؤمَرونَ به أو يقتضيه الحالُ للتَّوسعةِ أو غيرِها مِن الأوامِرِ، كالصَّلاةِ، أو الجهادِ، وغَيرِهما؛ ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ أي: فارتَفِعوا وانهَضوا). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٧٥، ٣٧٦).

وقال ابن عاشور: (ذُكِرَ النُّشوزُ لئلَّا يُتوَهَّمَ أنَّ التَّفسيحَ المأمورَ به تفسيحٌ مِن قُعودٍ... وهذا الحُكمُ إذا عَسُرَ التَّفسيحُ واشتَدَّ الزِّحامُ والتَّراصُّ؛ فإنَّ لأصحابِ المقاعِدِ الحَقَّ المستقِرَّ في أن يَستَمِرُّوا قاعِدينَ لا يُقامُ أحدٌ لغَيرِه، وذلك إذا كان المَقومُ لأجْلِه أَولى بالمكانِ مِن الَّذي أُقيمَ له؛ بسَبَبٍ مِن أسبابِ الأوَّليَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٩)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

قال ابن رجب: (قال: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ يعني: على الَّذين آمَنوا ولم يُؤْتَوُا العِلمَ، كذا قال ابنُ مَسعودٍ وغيرُه مِن السَّلَفِ). ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٤). =

كما قال تبارك وتعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ يَرفَعُ بهذا الكِتابِ أقوامًا، ويَضَعُ به آخَرينَ))(١).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أي: واللهُ ذو خِبرةٍ بالِغةٍ تامَّةٍ، فلا تَخفَى عليه أعمالُ العِبادِ ونيَّاتُهم، فيَعلَمُ المُطيعَ مِن العاصي، ويَعلَمُ مَن يَستَحِقُّ رفْعَ الدَّرَجاتِ ومَن لا يَستَحِقُّ ذلك(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾.

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

اتَّفَق العُلَماءُ على أنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ بالآيةِ الَّتي تَليها(٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾.

= وقال ابنُ كثير: (أي: لا تَعتَقِدوا أنَّه إذا فَسَح أحدٌ منكم لأخيه إذا أقبَلَ، أو إذا أُمِرَ بالخُروجِ فخرَج؛ أن يكونَ ذلك نقصًا في حقِّه، بل هو رفعةٌ ومَزيَّةٌ عندَ اللهِ، واللهُ تعالى لا يُضيعُ ذلك له، بل يَجزيه بها في الدُّنيا والآخرةِ؛ فإنَّ مَن تواضَعَ لأمرِ اللهِ رَفَع اللهُ قَدْرَه، ونَشَر ذِكْرَه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨).

(١) رواه مسلم (٨١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٥٣)، ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٦).

أي: يا أيُّها المؤمِنونَ إذا أردتُم أن تُسارُّوا محمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بكلامٍ بَيْنَكم وبيْنَه، فتصَدَّقوا قبْلَ ذلك(١).

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾.

أي: تقديمُ الصَّدَقةِ قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ خَيرٌ لكم -أيُّها المؤمِنونَ- مِن تَرْكِها، وأطهَرُ لقُلوبِكم(٢).

﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

أي: فإنْ لم تَجِدوا صَدَقةً تُقَدِّمونَها قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ، فلا حَرَجَ عليكم؛ لأنَّ اللهَ غَفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، رَحيمٌ بهم؛ فلا يَشُقُّ عليهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٣).
قال الواحدي: (قال المفَسِّرون: إنَّهم نُهُوا عن المُناجاةِ حتَّى يتصَدَّقوا، فلم يُناجِهِ أحدٌ إلَّا عليُّ ابنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه؛ تصَدَّقَ بدينارٍ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٥).
قال القاسمي: (﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي: لأنفُسِكم؛ لِما فيه مِن مُضاعَفةِ الأجرِ والثَّوابِ، والقيامِ بحقِّ الإخاءِ، بالعَودِ على ذَوي المَسْكنةِ بالمواساةِ والإغناءِ. ﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾ أي: لأنفُسِكم مِن رَذيلةِ البخلِ والشُّحِّ، ومِن حُبِّ المالِ وإيثارِه). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).
قال السعدي: (يأمُرُ تعالى المؤمنينَ بالصَّدقةِ أمامَ مُناجاةِ رسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تأديبًا لهم وتعليمًا، وتعظيمًا للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّ هذا التَّعظيمَ ﴿خَيۡرٞ﴾ للمؤمنينَ ﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾، أي: بذلك يَكثُرُ خيرُكم وأجرُكم، وتحصُلُ لكم الطَّهارةُ مِن الأدناسِ، الَّتي مِن جملتِها ترْكُ احترامِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم والأدبِ معه بكثرةِ المُناجاةِ الَّتي لا ثمرةَ تحتَها، فإنَّه إذا أمر بالصَّدقةِ بيْن يدَيْ مُناجاتِه صار هذا ميزانًا لِمَن كان حريصًا على الخَيرِ والعِلمِ، فلا يُبالي بالصَّدقةِ، ومن لم يكُنْ له حِرصٌ ولا رَغبةٌ في الخَيرِ، وإنَّما مقصودُه مجرَّدُ =

﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا دَلَّ خَتمُ الآيةِ على التَّخفيفِ، وكان قد يَدَّعي مُدَّعُونَ عَدَمَ الوِجدانِ كَذِبًا، فيَحصُلُ لهم حَرَجٌ، وكان اللهُ تعالى شديدَ العنايةِ بنَجاةِ هذه الأُمَّةِ؛ دَلَّ على لُطفِه بهم بنَسْخِه بعد فَرْضِه[1].

﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ ﴾.

أي: أخِفْتُم وخَشِيتُم الفَقْرَ؛ مِن تقديمِ الصَّدَقاتِ قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ[2]؟

﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

= كثرةِ الكلامِ؛ فيَنكَفُّ بذلك عن الَّذي يشُقُّ على الرَّسولِ، هذا في الواجدِ للصَّدقةِ، وأمَّا الَّذي لا يجِدُ الصَّدقةَ فإنَّ اللهَ لم يُضيِّقْ عليه الأمرَ، بل عفا عنه وسامَحه، وأباح له المُناجاةَ بدونِ تقديمِ صدقةٍ لا يَقدِرُ عليها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال القرطبي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ ﴾ أيْ: أبَخِلْتُم بالصَّدقةِ؟ وقيل: خِفْتُم، والإشفاقُ: الخوفُ مِن المكروهِ. أيْ: خِفْتُم وبَخِلْتُم بالصَّدقةِ وشقَّ عليكم ﴿أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ﴾) ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٣).

وقال ابن جرير: (أصلُ الإشفاقِ في كلامِ العَرَبِ: الخوفُ والحَذَرُ، ومعناه في هذا الموضِعِ: أخَشِيتُم بتقديمِ الصَّدَقةِ الفاقةَ والفَقرَ؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٦).

وقال ابنُ كثير: (أي: أخِفْتُم مِن استمرارِ هذا الحُكمِ عليكم مِن وُجوبِ الصَّدَقةِ قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ؟). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩).

وقال أبو السعود: (أيْ: أخِفْتُم الفقرَ مِن تقديمِ الصَّدقاتِ؟ أو: أخِفْتُم التَّقديمَ لِما يَعِدُكُم الشَّيطانُ عليهِ مِن الفَقرِ؟). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢١).

أي: فإذْ لم تُقَدِّموا تلك الصَّدَقاتِ، وتاب اللهُ عليكم مِن تَرْكِكم لها؛ فحافِظوا على الصَّلَواتِ الواجِبةِ، بأركانِها وشُروطِها وواجباتِها، وأعطُوا الزَّكاةَ المفروضةَ في أموالِكم إلى مُستَحِقِّيها[١].

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: وأطيعوا اللهَ ورَسولَه في أمْرِهما ونَهْيِهما[٢].

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ ذو خِبرةٍ بجَميعِ أعمالِكم، فيَعلَمُ بواطِنَها كما يَعلَمُ ظواهِرَها، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن ذلك، وسيُجازيكم عليها[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ يدُلُّ على أنَّ كُلَّ مَن وَسَّع على عبادِ اللهِ أبوابَ الخَيرِ والرَّاحةِ، وَسَّع اللهُ عليه خَيراتِ الدُّنيا والآخرةِ، ولا يَنبغي للعاقِلِ أن يُقَيِّدَ الآيةَ بالتَّفَسُّحِ في المجلِسِ، بل المرادُ منه إيصالُ الخَيرِ إلى المسلِمِ، وإدخالُ السُّرورِ في قَلْبِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: نَسَخَ اللهُ ذلك الحُكمَ، وهذا خِطابٌ لِمَن وَجَد ما يتصَدَّقُ به). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٣، ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

ولذلك قال عليه السَّلامُ: ((واللهُ في عَونِ العبدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيه))[١].

٢- قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ هذا تأديبٌ مِن اللهِ لعبادِه المؤمنينَ إذا اجتَمَعوا في مجلِسٍ مِن مجالِسِ مُجتَمَعاتِهم، واحتاج بَعضُهم أو بَعضُ القادمينَ عليهم للتَّفَسُّحِ له في المجلِسِ؛ فإنَّ مِن الأدَبِ أن يَفسَحوا له؛ تحصيلًا لهذا المقصودِ[٢]. فالآيةُ فيها استِحبابُ التَّفَسُّحِ في مجالسِ العِلمِ والذِّكرِ والحَربِ، وكُلِّ مَجلِسِ طاعةٍ، والنَّهيُ عن إقامةِ شَخصٍ ويجلِسَ مكانَه، ولكِنْ يَتفَسَّحُ[٣].

٣- قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ مَن عَمِل بهذا القُرآنِ تَصديقًا بأخبارِه، وتنفيذًا لأوامِرِه، واجتِنابًا لِنواهيه، واهتِداءً بهَدْيِه، وتخَلُّقًا بما جاء به مِن أخلاقٍ، وكُلُّها أخلاقٌ فاضِلةٌ؛ فإنَّ الله تعالى يَرفَعُه به في الدُّنيا والآخِرةِ؛ وذلك لأنَّ هذا القُرآنَ هو أصلُ العِلمِ، ومَنبَعُ العِلمِ، وكُلُّ العِلمِ[٤].

٤- قول الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ يُبَيِّنُ أنَّ الرِّفعةَ عندَ اللهِ تعالى بالعِلمِ والإيمانِ، لا بالسَّبْقِ إلى صدورِ المجالِسِ[٥].

٥- قول الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى رَفَع المؤمِنَ على مَن ليس بمؤمِنٍ، والعالِمَ على مَن ليس بعالِمٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٤).
والحديث أخرجه مسلم (٢٦٩٩) مطوَّلًا مِن حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٦٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٤٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٦- قول الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ فيه فَضيلةُ العِلمِ، وأنَّ زِينتَه وثَمَرتَه التَّأدُّبُ بآدابِه، والعَمَلُ بمُقتَضاه[١].

٧- قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ في إدْخالِ الَّذين أُوتوا العِلمَ في حُكمِ رفْعِ المَنزِلةِ بسَببِ امتثالِ الأوامرِ مع الَّذين آمَنوا، ثمَّ في إخْراجِهم عنهم والعطْفِ عليهم- إيذانٌ بأنَّ العمَلَ الواحدَ تَتفاوَتُ دَرجةُ فاعِلِه بحسَبِ التَّخلِّي عن العِلمِ والتَّحلِّي به إلى غاياتٍ بَعيدةٍ، وأنَّ العمَلَ مع عُلوِّ رُتبتِه يَكتسِبُ مِن العِلمِ المقرونِ به مِن الرِّفعةِ ما لا يَكتسِبُه إذا انفرَدَ عنه[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ حَثٌّ على تحقيقِ الإيمانِ، وعلى طَلَبِ العلمِ؛ لأنَّ اللهَ يَرْفَعُ أهلَ العلمِ، وفي هذا يقولُ الشَّاعرُ:

العِلمُ يَرْفَعُ بَيتًا لا عِمادَ لَه ... والجَهلُ يَهْدِمُ بيتَ العِزِّ والشَّرَفِ[٣]

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تحذيرُ الإنسانِ أنْ يَعمَلَ بما يُسخِطُ اللهَ تعالى، فلا تَعمَلْ بما يُسْخِطُ اللهَ، لا بالقَولِ، ولا بالفِعلِ، ولا بالاعتِقادِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عليمٌ به، واحذرْ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[٤] [آل عمران: ٢٨].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾ دليلٌ على أنَّه لا حَرَجَ على الإنسانِ أنْ يقولَ للجماعةِ الَّذين عنده «انْشُزُوا، اخرُجوا بارَكَ اللهُ فيكم، انتهى

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

شغلُكم» ونحوَ ذلك، ولا حياءَ في ذلك ولا غَضاضةَ عليه، وينبغي للإنسانِ أنْ يُخَفِّفَ الجلوسَ عندَ النَّاسِ ما استطاعَ، إلَّا إذا عَلِمَ مِن صاحبِه أنَّه يُحِبُّ أنْ تبقى عندَه، فلا بأسَ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ يُستَفادُ منه أنَّ تَفَسُّحَ المسلمينَ بَعضِهم لبَعضٍ في المجالِسِ مَحمودٌ مأمورٌ به وُجوبًا أو نَدْبًا؛ لأنَّه مِن المكارَمةِ والإرفاقِ، فهو مِن مُكَمِّلاتِ واجِبِ التَّحابِّ بيْن المسلِمينَ، وإن كان فيه كُلفةٌ على صاحِبِ البُقعةِ يُضايِقُه فيها غَيرُه، فهي كُلفةٌ غيرُ مُعتبَرةٍ إذا قُوبِلَت بمَصلحةِ التَّحابِّ وفوائِدِه، وذلك ما لم يُفْضِ إلى شِدَّةِ مُضايَقةٍ ومَضَرَّةٍ، أو إلى تفويتِ مَصلَحةٍ مِن سَماعٍ أو نحوِه، مِثلُ مجالِسِ العِلمِ والحديثِ، وصُفوفِ الصَّلاةِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ أفهَمَ لَفظُ التَّفَسُّحِ أنَّه تجنُّبٌ للمُضايَقةِ والمُراصَّةِ، بحيثُ يَفُوتُ المقصودُ مِن حُضورِ ذلك المجلِسِ، أو يَحصُلُ ألمٌ للجالِسينَ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ وعْدٌ بالجزاءِ على الامتِثالِ لأمْرِ التَّفسُّحِ مِن جِنسِ الفِعلِ؛ إذ جُعِلَت تَوسعةُ اللهِ على المُمتثِلِ جَزاءً على امتثالِه الَّذي هو إفساحُه لغيرِه، فضَميرُ ﴿لَكُمۡ﴾ عائدٌ على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ باعتِبارِ أنَّ الَّذين يَفسَحون همْ مِن جُملةِ المؤمنينَ؛ لأنَّ الحُكمَ مُشاعٌ بيْن جَميعِ الأُمَّةِ، وإنَّما

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الجزاءُ للَّذين تَعلَّقَ بهم الأمْرُ تعلُّقًا إلْزاميًّا[١].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾. قَولُه: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ ﴾ يَشملُ ما إذا قاله الدَّاخِلُ، أو قاله مَن يُدِيرُ المجلِسَ؛ ولهذا تَجِدُ أنَّ الفِعلَ هو «قيل»، ولم يُذْكَرِ القائلُ؛ لِيَشملَ هذا وهذا، فمثلًا: إذا كان المجلسُ له مديرٌ يُجَلِّسُ النَّاسَ وقال لبَعضِهم: تَوَسَّعوا لفُلانٍ يَجْلِسْ، فلْيَتَوَسَّعوا، أو أنَّ رجُلًا دَخَلَ والمجلسُ مُكْتَظٌّ بالجالِسينَ، فقال: تَوَسَّعوا؛ فلْيَتَوَسَّعوا[٢].

٥- قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ ﴾ لَمَّا كان النُّشوزُ ارتفاعًا عن المكانِ الَّذي كان به، كان جَزاؤهُ مِن جِنسِه[٣].

٦- أفضَلُ ما اكتسَبَتْه النُّفوسُ وحَصَّلَته القُلوبُ، ونال به العَبدُ الرِّفعةَ في الدُّنيا والآخِرةِ: هو العِلمُ والإيمانُ؛ ولهذا قَرَن بيْنَهما سُبحانَه في قَولِه: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾، وقَولِه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِ ﴾[الروم: ٥٦]، وهؤلاء هم خُلاصةُ الوُجودِ ولُبُّه، والمؤهَّلونَ للمراتِبِ العاليةِ[٤].

٧- قول الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ قال قومٌ: معناه: يَرفَعِ اللهُ المؤمِنينَ العُلَماءَ منكم دَرَجاتٍ على غَيرِهم؛ فلذلك أَمَر بالتَّفَسُّحِ من أجْلِهم، ففيه دليلٌ على رفْعِ العُلَماءِ في المجالِسِ، والتَّفَسُّحِ لهم عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠٣).

المجالِسِ الرَّفيعةِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ خَصَّ سُبحانَه رفْعَه بالأقدارِ والدَّرَجاتِ الَّذين أُوتوا العِلمَ والإيمانَ، وهم الَّذين استَشهدَ بهم في قَولِه تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وأَخْبَرَ أنَّهم هم الَّذين يَرون ما أُنْزِلَ إلى الرَّسولِ هو الحقَّ، بقَولِه تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، فدلَّ على أنَّ تَعَلُّمَ الحُجَّةِ والقيامَ بها يَرفَعُ دَرَجاتِ مَن يَرْفَعُها، كما قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]. قال زَيدُ بنُ أَسلَمَ: بالعِلمِ. فرَفْعُ الدَّرَجاتِ والأقدارِ على قَدْرِ مُعامَلةِ القُلوبِ بالعِلمِ والإيمانِ، فكم ممَّن يَختِمُ القرآنَ في اليومِ مرَّةً أو مرَّتَينِ، وآخَرَ لا ينامُ اللَّيلَ، وآخرَ لا يُفْطِرُ، وغيرُهم أقلُّ عبادةً منهم، وأَرْفَعُ قَدْرًا في قُلوبِ الأُمَّةِ[٢]؟!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ لم يُعَيِّنْ عزَّ وجلَّ الدَّرَجاتِ؛ لأنَّ هذه الدَّرَجاتِ بحَسَبِ ما مع الإنسانِ مِن الإيمانِ والعِلمِ، كلَّما قَوِيَ الإيمانُ وكُلَّما كَثُرَ العِلمُ، وانتَفَعَ الإنسانُ به، ونَفَعَ غيرَه- كان أكثرَ درَجاتٍ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ أنَّ الإنسانَ كُلَّما ازداد طاعةً للهِ وانقيادًا لِأَمْرِه، ازداد رِفعةً[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٦/ ٤٤٠).

أنَّ الجزاءَ على قَدْرِ قيمةِ المَجْزِيِّ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ تفضيلُ العِلمِ على العبادةِ؛ فقولُه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ يعني: على الَّذين آمَنوا ولم يُؤْتَوُا العِلمَ، كذا قال ابنُ مسعودٍ وغيرُه مِن السَّلَفِ[٢].

١٣- قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ مَنسوخٌ بالآيةِ الَّتي بَعْدَها؛ ففيه دليلٌ على جوازِ النَّسخِ بلا بَدَلٍ، ووُقوعِه، خلافًا لِمَن أبى ذلك[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ تنبيهٌ وإشارةٌ أنه إذا استُحِبَّتِ الصَّدقةُ بيْن يَدَيْ مُناجاةِ المخلوقِ، فاستِحبابُها بيْن يَدَيْ

---

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٢/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٧). ويُنظر أيضًا: ((الفروق)) للقرافي (١/ ٦)، ((شرح العضد على مختصر المنتهى الأصولي ومعه حاشية السعد والجرجاني)) (٣/ ٢٣٢)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ٥٨).

وقال ابنُ القيِّم -بعد أن ذكر أنَّ الأحكامَ المنسوخةَ لم تبطُلْ بالكُلِّيَّةِ، بل لها بقاءٌ بوجْهٍ-: (نَسخُ وُجوبِ الصَّدَقةِ بيْنَ يَدَيْ مُناجاةِ الرَّسولِ لم يَبطُلْ حُكمُه بالكُلِّيَّةِ، بل نُسِخَ وُجوبُه، وبَقِيَ استِحبابُه والنَّدبُ إليه). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٣٣).

وقال أبو يعلى الفرَّاءُ: (الصَّدقةُ عندَ مُناجاةِ الرَّسولِ كانت واجبةً بقولِه تعالى: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾، فنُسِخ ذلك الوُجوبُ إلى جَوازِ تَركِها وجوازِ فِعلِها بقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾). ((العدة في أصول الفقه)) (٣/ ٧٨٤).

وقال الشنقيطي: (وُجوب تقديمِ الصَّدقةِ أمامَ المُناجاةِ لَمَّا نُسِخ بقيَ استِحبابُ الصَّدقةِ ونَدْبُها، بدلًا مِن الوُجوبِ المنسوخِ كما هو ظاهرٌ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤٤٨).

مُناجاةِ اللهِ عندَ الصَّلَواتِ والدُّعاءِ: أَولى[١].

١٥- قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ التَّعبيرُ بأفعَلَ؛ لأنَّهم مُطَهَّرونَ قَبْلَه بالإيمانِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فُصِلَ بيْنَ آياتِ الأحكامِ المُتعلِّقةِ بالنَّجوى بهذه الآيةِ؛ مُراعاةً لاتِّحادِ الموضوعِ بيْنَ مَضمونِ هذه الآيةِ ومَضمونِ الَّتي بعْدَها في أنَّهما يَجمَعُهما غرَضُ التَّأدُّبِ مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتلك المُراعاةُ أَولى مِن مُراعاةِ اتِّحادِ سِياقِ الأحكامِ؛ ففي هذه الآيةِ أدَبٌ في مَجلسِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والآيةُ الَّتي بعْدَها تَتعلَّقُ بالأدَبِ في مُناجاةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأُخِّرت تلك عن آياتِ النَّجوى العامَّةِ؛ إيذانًا بفضْلِها دونَ النَّجوى الَّتي تَضمَّنَتها الآياتُ السَّابقةُ، فاتِّحادُ الجِنسِ في النَّجوى هو مُسوِّغُ الانتِقالِ مِن النَّوعِ الأوَّلِ إلى النَّوعِ الثَّاني، والإيماءُ إلى تَميُّزِها بالفضْلِ هو الَّذي اقْتَضى الفصلَ بيْن النَّوعَينِ بآيةِ أدَبِ المجلسِ النَّبويِّ، وأيضًا قد كان للمنافِقين نِيَّةُ مَكْرٍ في قَضيَّةِ المجلِسِ كما كان لهم نِيَّةُ مَكرٍ في النَّجوى، وهذا ممَّا أنشَأَ مُناسَبةَ الانتِقالِ مِن الكلامِ على النَّجوى إلى ذِكرِ التَّفسُّحِ في المجلسِ النَّبويِّ

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٣٣).

وقال ابن القيِّم: (كان بَعضُ السَّلَفِ الصَّالحِ يتصَدَّقُ بيْن يدَيِ الصَّلاةِ والدُّعاءِ إذا أمكَنَه، ويَتأوَّلُ هذه الأولويَّةَ، ورأيتُ شَيخَ الإسلامِ ابنَ تَيميَّةَ يَفعَلُه ويَتحرَّاه ما أمكَنَه، وفاوَضْتُه فيه، فذكَرَ لي هذا التَّنبيهَ والإشارةَ). ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨١).

الشَّريفِ[١].

- قولُه: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ حُذِفَ فاعلُ القولِ؛ لظُهورِه، أي: إذا قال لكم الرَّسولُ: تفسَّحوا، فافْسَحوا؛ فإنَّ اللهَ يُثيبُكم على ذلك[٢]. أو: إذا قال لكم قائلٌ كائنًا مَن كان[٣].

- وابتُدِئت الآيةُ بالأمْرِ بالتَّفسُّحِ؛ لأنَّ إقامةَ النَّاسِ مِن المجالسِ يكونُ لطلَبِ التَّفسيحِ، فإناطةُ الحكْمِ إيماءٌ إلى عِلةِ الحكْمِ[٤].

- والتَّفسُّحُ: التَّوسُّعُ، ومادَّةُ التَّفعُّلِ هنا للتَّكَلُّفِ، أي: يُكلَّفُ أنْ يَجعَلَ فُسحةً في المكانِ[٥].

- وتَعريفُ (المَجالسِ) يَجوزُ أنْ يكونَ تَعريفَ العهْدِ، وهو مَجلسُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: إذا قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لكم ذلك؛ لأنَّ أمْرَه لا يكونُ إلَّا لمُراعاةِ حقٍّ راجحٍ على غيرِه، ويجوزُ أنْ يكونَ تَعريفُ المجالسِ تَعريفَ الجِنسِ[٦].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ ليَعُمَّ كلَّ ما يَتطلَّبُ النَّاسُ الإفساحَ فيه في الدُّنيا والآخِرةِ؛ مِن مَكانٍ ورِزقٍ، أو جنَّةٍ عرْضُها السَّمواتُ والأرضُ على حسَبِ النِّيَّاتِ، وتَقديرُ الجزاءِ مَوكولٌ إلى إرادةِ اللهِ تعالَى[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦، ٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٣).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٨).

- وقولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ عطْفٌ على ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾، و﴿ٱنشُزُواْ﴾ أمْرٌ مِن: نَشَزَ؛ إذا نهَضَ مِن مكانِه، والنُّشوزُ: أخَصُّ مِن التَّفسيحِ مِن وجْهٍ؛ فهو مِن عطْفِ الأخَصِّ مِن وجْهٍ على الأعمِّ منه للاهتمامِ بالمعطوفِ؛ لأنَّ القِيامَ مِن المجلسِ أقْوى مِن التَّفسيحِ مِن قُعودٍ؛ فذُكِرَ النُّشوزُ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ التَّفسيحَ المأمورَ به تَفسيحٌ مِن قُعودٍ[1].

- قولُه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ الجَزاءُ برفْعِ الدَّرجاتِ هنا مُناسِبٌ للعمَلِ؛ لأنَّ المأمورَ به تَفسيحُ المجالِسِ؛ كيْلَا يَتنافَسوا في القُرْبِ مِن المكانِ الرَّفيعِ حوْلَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيَتضايَقوا، وذلك لا يَليقُ بآدابِ المجلسِ الَّتي مِن أوَّلِها تَفادي إزعاجِ المُجالِسينَ وتَضييقِ صُفوفِهم، واجتنابُ ما يُكدِّرُ صَفاءَهم، ويُنغِّصُ بالَهُم. ولَمَّا كان المُمتثِلُ لذلك الأمْرِ يَخفِضُ نفْسَه عمَّا يُتنافَسُ فيه مِن الرِّفعةِ امتثالًا وتَواضُعًا؛ جُوزِيَ على تَواضُعِه برفْعِ الدَّرجاتِ، ثمَّ لَمَّا علِمَ أنَّ أهلَ العِلمِ بحيث يَسْتوجبونَ عِندَ أنفُسِهم وعِندَ النَّاسِ ارتفاعَ مَجالِسِهم، خصَّهم بالذِّكرِ عندَ الجَزاءِ؛ لِيَسهُلَ عليهم ترْكُ ما لهم مِن الرِّفعةِ في المجلِسِ تَواضعًا للهِ تعالَى، وفي هذا التَّخصيصِ إلْماعٌ إلى فضْلِ العِلمِ[2].

- وعطْفُ (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) عطْفُ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ غِشْيانَ مَجلسِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنَّما هو لطلَبِ العِلمِ مِن مَواعظِه وتَعليمِه، أي: والَّذين أُوتوا العِلمَ منكم أيُّها المؤمِنون؛ لأنَّ الَّذين أُوتوا العِلمَ قد يكونُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٤٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٤).

الأمرُ لأحدٍ بالقِيامِ مِن المَجلِسِ مِن أجْلِهم، أي: مِن أجْلِ إجْلاسِهم، وذلك رفْعٌ لدَرَجاتِهم في الدُّنيا، ولأنَّهم إذا تَمكَّنوا مِن مَجلِسِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان تَمكُّنُهم أجمَعَ للفَهمِ، وأنْفى للمَلَلِ، وذلك أدْعى لإطالتِهم الجلوسَ، وازديادِهم التَّلقِّيَ، وتَوفيرِ مُستنبَطاتِ أفْهامِهم فيما يُلْقى إليهم مِن العِلمِ؛ فإقامةُ الجالسينَ في المَجلِسِ مِن أجْلِ إجلاسِ الَّذين أُوتوا العِلمَ مِن رفْعِ دَرَجاتِهم في الدُّنيا. ويَجوزُ أنَّ بعضًا مِن الَّذين أُمِروا بالقِيامِ كان مِن أهلِ العِلمِ؛ فأُقِيمَ مِن أجلِ رُجْحانِ فَضيلةِ البَدْريِّينَ عليه، فيَكونُ في الوعْدِ للَّذي أُقِيمَ مِن مَكانِه برفْعِ الدَّرَجاتِ استئناسٌ له بأنَّ اللهَ رافعٌ دَرجتَه[1].

وقيل: رُوعِيَ في هذا التَّركيبِ لَطيفةٌ؛ وهي أنَّ مَن يَشهَدُ مَجلِسَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن المؤمنينَ أحدُ رجُلَينِ: عامِلٌ يَسمَعُ للعمَلِ، وعالِمٌ عامِلٌ يَسمَعُ للعمَلِ والاستِنباطِ والتَّعليمِ، فأراد اللهُ سُبحانَه وتعالَى مدْحَ الفريقَينِ، وتَفضيلَ أحدِهما على الآخَرِ مِن حيث لا يَلزَمُ منه نقْصُه، أتى بالعامِّ وعطَفَ عليه الخاصَّ، وأبرَزَهما في مَعرِضِ الجُملتَينِ، فيَكونُ مِن بابِ عطفِ التَّقديرِ لا الانسحابِ؛ فالدَّرجاتُ ظرْفٌ للفعلِ المُقدَّرِ، ويُضمَرُ للمذكورِ أحطُّ منه ممَّا ناسَبَ المقامَ، مثل: يَرفَعِ اللهُ الَّذينَ آمَنوا مِنكم بالنَّصرِ وحُسْنِ الذِّكرِ في الدُّنيا، وإيوائِهم غُرَفَ الجِنانِ في الآخرةِ، ويَرفَعِ العُلماءَ منهم خاصَّةً دَرَجاتٍ؛ بما جَمَعوا بيْن العِلمِ والعمَلِ[2].

- وضَميرُ ﴿مِنكُمْ﴾ خِطابٌ للَّذين نُودوا بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، و(مِن) تَبعيضيَّةٌ، أي: يَرفَعِ اللهُ دَرَجاتِ الَّذين امْتَثَلوا، وقَرينةُ هذا التَّقديرِ هي جَعلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٨٧، ٢٨٨).

الفِعلِ ﴿يَرۡفَعِ﴾ جَزاءً للأمرِ ﴿فَٱنشُزُواْ﴾؛ فإنَّ الجزاءَ مُسبَّبٌ عمَّا رُتِّبَ عليه بقولِه: ﴿مِنكُمۡ﴾ صفة لـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: الَّذين آمَنوا مِن المؤمنينَ، والتَّغايُرُ بيْن معْنى الوصفِ ومعْنى الموصوفِ بتَغايُرِ المُقدَّرِ، وإن كان لَفظُ الوصْفِ ولَفظُ الموصوفِ مُترادفَينِ في الظَّاهرِ، فآلَ الكلامُ إلى تَقديرِ: يَرفَعِ اللهُ الَّذين اسْتَجابوا للأمْرِ بالنُّشوزِ إذا كانوا مِن المؤمنينَ، أي: دونَ مَن يضُمُّه المجلسُ مِن المنافقين، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: يَرفَعِ اللهُ النَّاشِزينَ منكم، فاستُحْضِروا بالمَوصولِ بصِلةِ الإيمانِ؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن الإيماءِ إلى عِلَّةِ رفْعِ الدَّرجاتِ مِن أجْلِ امتثالِهم أمْرَ القائلِ ﴿ٱنشُزُواْ﴾، وهو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنْ كان لإيمانِهم، وأنَّ ذلك الامتثالَ مِن إيمانِهم ليس لنفاقٍ، أو لصاحبِه امتعاضٌ[(١)].

- وتَنكيرُ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾؛ للإشارةِ إلى أنْواعِها مِن درَجاتِ الدُّنيا ودرَجاتِ الآخِرةِ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ تَذييلٌ، أي: اللهُ عليمٌ بأعمالِكم، ومُختلِفِ نِيَّاتِكم مِن الامتثالِ، كقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يُكْلَمُ[(٣)] أحدٌ في سَبيلِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ بمَن يُكلَمُ في سَبيلِه ...))[(٤)] الحديثَ[(٥)].

- وقُدِّم الجارُّ ومَدخولُه وإنْ كان عِلمُه سُبحانَه بالأشياءِ كلِّها على حدٍّ سواءٍ؛ تنبيهًا على مَزيدِ الاعتِناءِ بالأعمالِ، لا سيَّما الباطنةِ مِن الإيمانِ والعِلمِ اللَّذَينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٠، ٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٤٠).

(٣) أي: يُجْرَحُ؛ مِنَ الكَلْمِ: وهو الجُرْحُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٤٦٢).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٢٨٠٣)، ومسلمٌ (١٨٧٦) من حديث أبي هريرةَ رضيَ الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٢).

هُما الرُّوحُ الأعظَمُ؛ لأنَّ المَقامَ لنُزولِ الإنسانِ عن مكانِه بالتَّفسُّحِ والانخفاضِ والارتفاعِ، ولا يَخفَى ما في ذلك مِن حَظِّ النفْسِ الحامِلِ على الجريِ مع الدَّسائسِ؛ فكان جديرًا بمَزيدِ التَّرهيبِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ عاد به إلى ذِكرِ بَعضِ أحوالِ النَّجوى، وهو مِن أحوالِها المحمودةِ، والمُناسَبةُ هي قولُه تعالى: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المجادلة: ٩]؛ فهذه الصَّدقةُ شرَعَها اللهُ تعالى وجعَلَ سبَبَها مُناجاةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فذُكِرَت عقِبَ آيِ النَّجوى؛ لاستِيفاءِ أنواعِ النَّجوى مِن مَحمودٍ ومَذمومٍ(٢).

- وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ تَعريفٌ بحِكمةِ الأمْرِ بالصَّدقةِ قبْلَ نَجوى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَرغَبَ فيها الرَّاغِبون(٣).

- واستِفادةُ أنَّ غيرَ الواجدِ لا حرَجَ عليه في النَّجوى بدونِ صَدقةٍ، حاصلةٌ بدَلالةِ الفَحْوى؛ لأنَّه لا يَترُكُ مُناجاةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ إرادةَ مُناجاتِه الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَيست عبَثًا، بلْ لتَحصيلِ عِلمٍ مِن أُمورِ الدِّينِ. وأمَّا قولُه: ﴿رَّحِيمٞ﴾ فهو في مُقابَلةِ ما فات غيرَ الواجدِ ما يَتصدَّقُ به

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٤٥).

مِن تَزكيةِ النَّفْسِ؛ إشعارًا له بأنَّ رَحمةَ اللهِ تَنفَعُه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ﴾ الاستِفهامُ تَوبيخيٌّ، مُستعمَلٌ في اللَّومِ على تَجهُّمِ تلك الصَّدقةِ مع ما فيها مِن فَوائدَ لنفْعِ الفُقراءِ[٢]. أو الهمزةُ للاستِفهامِ التَّقريريِّ[٣].

- و(إذ) ظَرفيَّةٌ مُفيدةٌ للتَّعليلِ، أي: فحِينَ لم تَفعَلوا فأقِيموا الصَّلاةَ، و(فاءُ) ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ لتَفريعِ ما بعْدَها على الاستِفهامِ التَّوبيخيِّ[٤].

- وما تَتعلَّقُ به (إذ) مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾، تَقديرُه: خفَّفْنا عنكم، وأعفَيْناكم مِن أنْ تُقدِّموا صَدقةً قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٥].

- و(الفاءُ) في ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عاطِفةٌ على الكلامِ المُقدَّرِ: وحافِظوا على التَّكاليفِ الأُخرى، وإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وطاعةِ اللهِ ورسولِه، أي: فذلك لا تَسامُحَ فيه؛ قِيل لهم ذلك لئلَّا يَحسَبوا أنَّهم كلَّما ثَقُلَ عليهم فِعلٌ ممَّا كُلِّفوا به يُعْفَون منه. وفِعلُ ﴿فَأَقِيمُواْ﴾ مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٥، ٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٤٦، ٤٧).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فِعلُ ﴿وَءَاتُواْ﴾ مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ[١].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وهو كِنايةٌ عن التَّحذيرِ مِن التَّفريطِ في طاعةِ اللهِ ورَسولِه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٤-١٩)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿تَوَلَّوْا﴾: أصلُ (ولي) يدُلُّ على القُرْبِ، سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[١].

﴿أَيْمَٰنَهُمْ﴾: أي: حَلِفَهم، واليَمينُ: القَسَمُ، وسُمِّيَ الحَلِفُ يَمينًا -وهو اسمُ اليَدِ-؛ لأنَّهم كانوا يَبْسُطونَ أيْمانَهم إذا حَلَفوا أوْ تحالَفوا، ثمَّ كثُر ذلك حتَّى سُمِّيَ الحلفُ والعهدُ نفْسُه يمينًا، وقِيل: يَمينٌ فَعيلٌ مِن اليُمنِ، وهو البَرَكةُ، سَمَّاها اللهُ تعالَى بذلك؛ لأنَّها تحفَظُ الحُقوقَ[٢].

﴿جُنَّةً﴾: أي: تَقِيَّةً وسُترةً، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَترٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥).

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ﴾: أي: غَلَب واستَولَى، وأصلُ (حوذ): يدُلُّ على الخِفَّةِ والسُّرعةِ[١].

﴿حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: أي: جُنْدُه وأتْباعُه وطائِفَتُه، والحزبُ: الجماعةُ مِن النَّاسِ، أو: جماعةٌ فيها غِلَظٌ، والطَّائفةُ مِن كلِّ شيءٍ حزبٌ، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا شناعةَ حالِ المنافِقين، وسوءَ عاقبتِهم: ألَمْ تَرَ -يا محمَّدُ- إلى المنافِقينَ الَّذين تولَّوُا اليَهودَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم، وما هؤلاء المنافِقونَ مِن أهلِ دينِكم، ولا هم أيضًا على مِلَّةِ اليهودِ، ويَحلِفونَ لكم كَاذِبينَ وهم يَعلَمونَ كَذِبَهم، هيَّأَ اللهُ لأولئك المنافِقينَ عَذابًا شديدًا؛ لأنَّهم عَمِلوا أعمالًا سَيِّئةً.

اتَّخَذ المنافقونَ حَلِفَهم الكاذِبَ للمُؤمِنينَ وِقايةً لهم مِن كَشْفِ أمْرِهم، فصَدُّوا عن اتِّباعِ الحَقِّ؛ فلهم عَذابٌ مُذِلٌّ لهم. لن تُغْنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم شيئًا مِن عذابِ اللهِ، أولئك أهلُ النَّارِ هم فيها ماكِثونَ أبدًا، يومَ يَبعَثُهم اللهُ فيَحلِفونَ له كَذِبًا أنَّهم مُؤمِنونَ مُهتَدونَ كما كانوا يَحلِفونَ لكم في الدُّنيا كَذِبًا، ويَظُنُّونَ أنَّهم في حَلِفِهم باللهِ كَذِبًا على شَيءٍ يَنفَعُهم عندَ اللهِ تعالى، ألَا إنَّ المنافِقينَ هم الكاذِبونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى سببَ انغماسِ المنافِقينَ في نِفاقِهم، فيقولُ: استولَى عليهم الشَّيطانُ حتَّى غَفَلوا عن ذِكرِ اللهِ، ولم يَعمَلوا بطاعَتِه، ولم يَنتَهوا عن معصيتِه،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦).

أولئك أتْباعُ الشَّيطانِ وجُندُه، ألَا إنَّ أتْباعَ الشَّيطانِ وجُندَه هم الخاسِرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ الله تعالى بإحاطةِ عِلمِه؛ ردعًا لِمَن يَغتَرُّ بطولِ حِلمِه- دلَّ على ذلك باطِّلاعِه على نِفاقِ المنافِقِين، الَّذي هو أبطنُ الأشياءِ[(١)].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾.

أي: ألمْ تَرَ -يا محمَّدُ- إلى المنافِقينَ الَّذين توَلَّوُا اليَهودَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم، فيَنصَحونَ لهم ويُناصِرونَهم[(٢)]؟

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١، ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٢، ٥٥٣).

قال ابن تيميَّة: (هم المنافِقونَ الَّذين توَلَّوُا اليهودَ، باتِّفاقِ أهلِ التَّفسيرِ، وسياقُ الآيةِ يدُلُّ عليه). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٧٧، ٧٨).

وقال السعدي: (يخبِرُ تعالى عن شَناعةِ حالِ المنافِقِينَ الَّذين يَتَولَّون الكافِرين مِن اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم ممَّن غَضِبَ اللهُ عليهم، ونالوا مِن لَعنةِ الله أوفى نصيبٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

وقال الشنقيطي: (المراد إنكارُ الله على المنافِقينَ تَوَلِّيَهم القَومَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم، وهم اليهودُ والكفَّارُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٥٣).

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾.

أي: ليس المنافِقونَ في الحقيقةِ مِن أهلِ دينِكم -أيُّها المؤمِنونَ-، ولا هم أيضًا على مِلَّةِ اليهودِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال السعدي: (ليسوا مِن المؤمِنينَ ولا مِن الكافِرينَ، فليسوا مؤمنينَ ظاهِرًا وباطِنًا؛ لأنَّ باطِنَهم مع الكُفَّارِ، ولا مع الكُفَّارِ ظاهِرًا وباطِنًا؛ لأنَّ ظاهِرَهم مع المؤمنينَ، وهذا وصْفُهم الَّذي نعَتَهم اللهُ به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿مَّا هُم﴾ يعودُ على المنافِقين: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، وابن جُزَي، وأبو حيان، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال أبو حيَّان: (الضَّمير في ﴿مَّا هُم﴾ عائدٌ على الَّذين تولَّوْا، وهم المنافِقون، أي: ليسوا منكم أيُّها المؤمنونَ، ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: ليسوا مِن الَّذين تولَّوْهم، وهم اليهودُ. و﴿مَّا هُم﴾ استئنافُ إخبارٍ بأنَّهم مُذَبْذَبون، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء... وقال ابنُ عطيَّة: يحتملُ تأويلًا آخَرَ، وهو أن يكونَ قولُه: ﴿مَّا هُم﴾ يريدُ به اليهودَ، وقولُه: ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ يريدُ به المنافِقين، فيَجيءُ فِعلُ المنافِقينَ على هذا التَّأويلِ أخَسَّ؛ لأنَّهم تولَّوْا مغضوبًا عليهم، ليسوا مِن أنفُسِهم فيَلزَمَهم ذِمامُهم، ولا مِن القَومِ المُحِقِّينَ فتكونَ الموالاةُ صوابًا. انتهى. والظَّاهرُ التَّأويلُ الأوَّلُ؛ لأنَّ الَّذين تولَّوْا هم المُحَدَّثُ عنهم، والضَّميرُ في ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ عائدٌ عليهم، فتَتَناسَقُ الضَّمائرُ لهم ولا تختلِفُ. وعلى هذا التَّأويلِ يكونُ ﴿مَّا هُم﴾ استئنافًا، وجاز أن يكونَ حالًا مِن ضميرِ ﴿تَوَلَّوْا﴾. وعلى احتمالِ ابنِ عطيَّةَ يكونُ ﴿مَّا هُم﴾ صِفةً لقَومٍ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٠).

وقال السمين الحلبي عن الاحتمالِ الَّذي ذكره ابنُ عطيَّة: (فيه تنافُرُ الضَّمائرِ؛ فإنَّ الضَّميرَ في =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨ - ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣].

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يَدخُلُ عليكم رجُلٌ يَنظُرُ بعَينِ شَيطانٍ، أو بعينَيْ شَيطانٍ. قال: فدخَلَ رجُلٌ أزرَقُ، فقال له[1]: عَلامَ تَسُبُّني أوْ تَشْتُمُني؟ قال: فجَعَل يَحْلِفُ، قال: فنزَلَت هذه الآيةُ الَّتي في المجادَلةِ: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤] والآيةُ الأُخرى))[2].

= ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ عائدٌ على ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ﴾). ((الدر المصون)) (١٠/ ٢٧٣).

(١) ورد في بعضِ الرِّواياتِ: ((فقال: يا محمَّدُ، عَلامَ سبَبْتَني -أو شتَمْتَني)) قال أحمد شاكر: («محمَّد» خطأٌ ينافي السِّياقَ؛ فإنَّ الَّذي نُسِب إليه السَّبُّ والشَّتمُ هو هذا المنافِقُ الأزرقُ، ورسولُ الله يَسألُه ويَتَّهِمُه، وهو يَحلِفُ كاذبًا يَتبرَّأُ مِن التُّهمةِ..، فالظَّاهرُ أنَّ الخطأَ بهذه الزِّيادةِ مِن بعضِ رُواةِ المُسنَدِ أو ناسخيه). ((مسند أحمد)) بتحقيق أحمد شاكر (٢/ ٥٤٣). ويُنظر: ((مسند أحمد)) بتحقق شعيب الأرناؤوط (٤/ ٤٨).

(٢) أخرجه أحمدُ (٢١٤٧)، والبَزَّارُ (٥٠١٠)، وابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢٢/ ٤٨٩) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ (١٢/ ٨) (١٢٣٠٩).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٢٥): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ١٨)، وحَسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج =

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: وهم يَحلِفونَ للمُؤمِنينَ على الكَذِبِ في دعوى الإيمانِ، أو غيرِ ذلك، وهم يَعلَمونَ أنَّهم كاذِبونَ فيما حَلَفوا عليه[1]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ * ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١، ٢].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن حالِ المنافِقينَ؛ أتْبَعَه الإخبارَ عن مآلِهم[2].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

أي: هيَّأَ اللهُ لأولئك المنافِقينَ عَذابًا شديدًا[3].

= ((مسند أحمد)) (٤/ ٤٨). ويُنظر: ((الصحيح المسند من أسباب النزول)) للوادعي (ص: ٢٠٥).

ويُنظر روايةٌ أخرى لهذا الحديثِ (ص: ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٦، ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال السعدي: (جزاءُ هؤلاء الخَوَنةِ الفَجَرةِ الكَذَبةِ: أنَّ اللهَ أعَدَّ لهم عذابًا شديدًا، لا يُقادَرُ قَدرُه، ولا يُعلَمُ وَصفُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ بعَذابِهم علَّله بما دَلَّ على أنَّه واقِعٌ في أتَمِّ مواقِعِه، فقال مؤكِّدًا؛ تقبيحًا على مَن كان يَستَحسِنُ أفعالَهم[١]:

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: قد أعدَّ اللهُ لهم عذابًا شديدًا؛ لأنَّهم عَمِلوا أعمالًا سَيِّئةً مُتكَرِّرةً أصَرُّوا عليها، حتَّى صارت دَيدَنًا لهم وطَبعًا وجِبِلَّةً[٢].

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: جَعَل المنافِقونَ حَلِفَهم الكاذِبَ للمُؤمِنينَ وِقايةً لهم مِن كَشْفِ أمْرِهم، وافتِضاحِ نِفاقِهم، فيتَّقونَ بذلك القَتلَ، ويَدفَعونَ عن أنفُسِهم وأموالِهم وذرارِيِّهم، فصَدُّوا أنفُسَهم وغيرَهم عن اتِّباعِ الحَقِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩، ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٣).

قال ابن جرير: (فالمنافِقونَ يَصُدُّونَ المؤمنينَ عن سبيلِ اللهِ فيهم بأيْمانِهم إنَّهم مؤمنونَ، =

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

أي: فلهؤلاء المنافِقينَ عَذابٌ مُذِلٌّ لهم[(١)].

= وإنَّهم منهم، فيَحولونَ بذلك بيْنَهم وبيْنَ قَتْلِهم، ويَمتَنِعونَ به ممَّا يَمتَنِعُ منه أهلُ الإيمانِ باللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠).

وقال ابن كثير: (اتَّقَوا بالأيْمانِ الكاذبةِ، فظَنَّ كثيرٌ ممَّن لا يَعرِفُ حقيقةَ أمْرِهم صِدْقَهم، فاغتَرَّ بهم، فحَصَل بهذا صَدٌّ عن سبيلِ اللهِ لبَعضِ النَّاسِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢).

وقال ابن عاشور في قولِه ﴿جُنَّةً﴾: (أي: وقايةً مِن شُعورِ المسلمينَ بهم؛ لِيَتمَكَّنوا مِن صَدِّ كثيرٍ ممَّن يريدُ الدُّخولَ في الإسلامِ عن الدُّخولِ فيه؛ لأنَّهم يختَلِقونَ أُكذوباتٍ يَنسُبونَها إلى الإسلامِ والمسلمينَ... و«صَدُّوا» يجوزُ أن يكونَ مُتعَدِّيًا، وحُذِفَ مفعولُه؛ لظُهورِه، أي: فصَدُّوا النَّاسَ عن سبيلِ اللهِ، أي: الإسلامِ، بالتَّثبيطِ، وإلصاقِ التُّهَمِ والنَّقائصِ بالدِّينِ. ويجوزُ أن يكونَ الفِعلُ قاصِرًا، أي: فصَدُّوا هم عن سَبيلِ اللهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٩، ٥٠).

وذهب السَّعدي إلى حملِ الآيةِ على كِلا المعنيَينِ، أي: صَدُّوا أنفُسَهم، وصَدُّوا غيرَهم عن سبيلِ اللهِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

واستظهر الشنقيطي أنَّ المرادَ أنَّهم صَدُّوا غَيرَهم ممَّن أطاعَهم؛ لأنَّ صُدودَهم في أنفُسِهم دَلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾، والحَملُ على التَّأسيسِ أَولى مِن الحَملِ على التَّأكيدِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٥٣).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّهم صدُّوا غَيْرَهم: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٤).

قال القرطبي: (﴿فَلَهُمۡ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ في الدُّنيا بالقَتلِ، وفي الآخِرةِ بالنَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤).

قيل: لهم عذابٌ مُهينٌ في مُقابَلةِ ما امتَهَنوا مِن الحَلِفِ باسمِ اللهِ العظيمِ في الأيْمانِ الكاذِبةِ الحانثةِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢).

وقيل: جزاءً بما طلبوا بذلك الصَّدِّ إعزازَ أنفُسِهم، وإهانةَ أهلِ الإسلامِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٩).

وقيل: لأنَّهم استكبَروا عن الإيمانِ باللهِ، والانقيادِ لآياتِه. ومِمَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ. =

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها مناسبةٌ لقولِ الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة: ١٦]، فكما لمْ تَقِهم أيمانُهم العذابَ، لم تُغْنِ عنهم أموالُهم ولا أنصارُهم شَيئًا يومَ القيامةِ[١]، فأرشد اللهُ تعالى إلى أنَّ ما ظنُّوه مُنجيًا لهم مِن عذابِه مِن المالِ والأولادِ ليس بنافِعٍ لهم حينَئذٍ، فقال[٢]:

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

أي: لن تُغنيَ عن المنافِقينَ بأيِّ وجهٍ مِن الوُجوهِ أموالُهم، فيَفتَدوا بها مِن عذابِ اللهِ، ولا أولادُهم، فيُنقِذوهم منه[٣].

= يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٠، ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ٢٣). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٠، ٥١).

قال السعدي: (فلا تَدفَعُ عنهم شيئًا مِن العذابِ، ولا تُحصِّلُ لهم قِسطًا مِن الثَّوابِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

وقال ابن عاشور: (كان المنافِقونَ مِن أهلِ الثَّراءِ بالمدينةِ، وكان ثراؤُهم مِن أسبابِ إعراضِهم عن قَبولِ الإسلامِ؛ لأنَّهم كانوا أهلَ سيادةٍ، فلم يَرضَوا أن يَصيروا في طَبَقةِ عُمومِ النَّاسِ. وكان عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ مُهَيَّأً لأن يُملِّكوه على المدينةِ قُبَيلَ إسلامِ الأنصارِ، فكانوا يَفخَرونَ على المسلمينَ بوَفرةِ الأموالِ، وكثرةِ العَشائِرِ، وذلك في السَّنةِ الأولى من الهِجرةِ، ومِن ذلك قولُ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلُولَ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، يريد بالأعَزِّ فَريقَه، وبالأذَلِّ فَريقَ المسلمينَ، فآذنَهم اللهُ بأنَّ أموالَهم وأولادَهم لا تُغْني =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: أولئك أهلُ النَّارِ الَّذين هم لها مُلازِمونَ، وفيها ماكِثونَ، ومنها لا يُخرَجونَ[(١)].

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ١٨﴾.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جالِسًا في ظِلِّ حُجرتِه، قد كاد يَقلِصُ[(٢)] عنه، فقال لأصحابِه: يجيئُكم رجُلٌ يَنظُرُ إليكم بعَينِ شَيطانٍ، فإذا رأيتُموه فلا تكَلِّموه، فجاء رجُلٌ أزرَقُ، فلمَّا رآه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دعاه، فقال: عَلامَ تَشتُمني أنت وأصحابُك؟! قال: كما أنتَ حتَّى آتيَك بهم، فذهب فجاءَ بهم، فجعلوا يَحلِفونَ باللهِ ما قالوا، وما فَعَلوا، وأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ))[(٣)].

= عنهم ممَّا توعَّدَهم اللهُ به من المذَلَّةِ في الدُّنيا، والعذابِ في الآخِرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٠، ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(٢) يَقلِصُ أي: يرتَفِعُ ويَذهَبُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (٣٢٧٧) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ (١٢/ ٧) (١٢٣٠٧)، والحاكمُ (٣٧٩٥).
صحَّحه الحاكِمُ على شرطِ مسلمٍ، وصحَّح إسنادَه ابنُ تيميَّةَ في ((الصارم المسلول)) =

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾.

أي: يومَ يَبعَثُ اللهُ أولئك المنافِقينَ مِن قُبورِهم أحياءً، فيَحلِفونَ لله كَذِبًا أنَّهم مُؤمِنونَ مُهتَدونَ كما يَحلِفونَ لكم -أيُّها المؤمِنونَ- في الدُّنيا كَذِبًا[1]!

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

أي: ويَظُنُّ المنافِقونَ يومَ القيامةِ أنَّهم في حَلِفِهم باللهِ كَذِبًا على شَيءٍ يُعتدُّ به فيَنفَعُهم عندَ اللهِ تعالى[2].

= (٢/ ٤٨)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٦/ ٢٨٤)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ٩٥)، وجوَّد إسنادَه الزَّيْلَعيُّ في ((تخريج الكشاف)) (٣/ ٤٣٢)، وابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٨/ ٧٨)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٢٥): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وحَسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ٣١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قيل: قولُه: ﴿يَوْمَ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ. وممَّن اختاره: جلالُ الدين المحلي، والشربيني، والقِنَّوْجي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير القنوجي)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢).

وقيل: الآيةُ مُتعلِّقةٌ بما قبْلَها، أي: هم أصحابُ النَّارِ أو ماكِثونَ فيها وخالِدونَ يومَ يَبعَثُهم اللهُ، أو ﴿يَوْمَ﴾ ظرفٌ لإظهارِ التَّعذيبِ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن عطية، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢).

قال ابن جرير: (يظنُّونَ أنَّهم في أيْمانِهم وحَلِفِهم باللهِ كاذِبينَ: على شَيءٍ مِن الحَقِّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١).

وقال ابن كثير: (أي: يَحلِفونَ باللهِ عزَّ وجلَّ أنَّهم كانوا على الهدى والاستقامةِ، كما كانوا يحلِفونَ للنَّاسِ في الدُّنيا؛ لأنَّ مَن عاش على شَيءٍ مات عليه وبُعِثَ عليه، ويَعتَقِدونَ أنَّ =

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾.

أي: ألَا إنَّ المنافِقينَ هم الكاذِبونَ حَقًّا؛ فقد بَلَغوا في الكَذِبِ حَدًّا لم يَبلُغْه غَيرُهم[(١)].

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان هذا الانهماكُ فيما لا يُغْني ممَّا يَحصُلُ لسامِعِه غايةُ العَجَبِ مِن وُقوعِ عاقِلٍ فيه مرَّةً مِنَ الدَّهرِ، فَضلًا عن مُلازَمتِه؛ أخبَرَ عن الحامِلِ لهم عليه، فقال[(٢)]:

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾.

أي: غَلَب عليهم الشَّيطانُ فتمَلَّكهم واستولى على قُلوبِهم حتَّى غَفَلوا عن ذِكرِ اللهِ، فلم يَعمَلوا بطاعتِه، ولم يَنتَهوا عن معصيتِه، ويَقِفوا عندَ حُدودِه[(٣)].

= ذلك يَنفَعُهم عندَ الله كما كان ينفَعُهم عندَ النَّاسِ!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢).

وقال السعدي: (ويحسَبونَ في حَلِفِهم هذا أنَّهم على شيءٍ؛ لأنَّ كُفرَهم ونِفاقَهم وعقائِدَهم الباطِلةَ لم تَزَل تَرسَخُ في أذهانِهم شيئًا فشيئًا، حتَّى غرَّتْهم وظنُّوا أنَّهم على شَيءٍ يُعتَدُّ به، ويُعلَّقُ عليه الثَّوابُ، وهم كاذِبون في ذلك، ومِن المعلومِ أن الكَذِبَ لا يَروجُ على عالِمِ الغَيبِ والشَّهادةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٤، ٥٥).

قال الشوكاني: (﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾ أي: أوامِرَه والعَمَلَ بطاعَتِه، فلم يَذْكُروا شَيئًا مِن ذلك. =

عن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((ما مِن ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بَدوٍ لا تُقامُ فيهم الصَّلاةُ إلَّا قد استَحوذَ عليهم الشَّيطانُ، فعليك بالجماعةِ؛ فإنَّما يأكُلُ الذِّئبُ القاصيةَ))[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

أي: أولئك أتْباعُ الشَّيطانِ وأنصارُه وجُندُه وطائِفتُه[٢].

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

أي: ألَا إنَّ أتْباعَ الشَّيطانِ وأنصارَه وجُندَه هم الهالِكونَ، الَّذين خَسِروا دينَهم ودُنياهم وأنفُسَهم وأهْلِيهم[٣].

= وقيل: زَواجِرَه في النَّهْيِ عن معاصيه، وقيل: لم يَذْكُروه بقُلوبِهم ولا بألسِنَتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٠).

وقال ابن أبي زَمَنين: (﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾ أن يَذكُروه بالإخلاصِ له). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٦٣).

وقال ابن كثير: (استَحوذَ على قلوبِهم الشَّيطانُ حتَّى أنْساهم أن يَذكُروا اللهَ عزَّ وجلَّ، وكذلك يَصنَعُ بمَنِ استَحوَذَ عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣).

وقال ابن عاشور: (المعنى: أنَّه أنساهم توحيدَ الله بكلمةِ الشَّهادةِ، والتَّوجُّه إليه بالعبادةِ. والَّذي لا يَتذَكَّرُ شيئًا لا يَتَوجَّهُ إلى واجِباتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٥).

(١) أخرجه أبو داودَ (٥٤٧) واللَّفظُ له، والنسائيُّ (٨٤٧)، وأحمدُ (٢١٧١٠).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٢١٠١)، وابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (٤/ ٣٨٦)، وصحَّح إسنادَه الحاكِمُ في ((المستدرك)) (٣٧٩٦)، والنوويُّ في ((المجموع)) (٤/ ١٨٢)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٤٧)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قولُ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ المرادُ إنكارُ اللهِ على المنافِقينَ توَلِّيَهم القومَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم، وهذا الإنكارُ يدُلُّ على شِدَّةِ مَنعِ ذلك التَّوَلِّي[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أنَّ مِن علاماتِ النِّفاقِ محبَّةَ أعداءِ الإسلامِ وأئمَّةِ الكُفرِ، ومَدْحَهم، ونَشْرَ آرائِهم المخالفةِ للإسلامِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المنافِقينَ كانوا يُرضُونَ المؤمِنينَ بالأَيْمانِ الكاذبةِ، ويُنكِرونَ أنَّهم كَفَروا، ويَحلِفونَ أنَّهم لَمْ يتكَلَّموا بكَلِمةِ الكُفرِ، وذلك دليلٌ على أنَّهم يُقتَلونَ إذا ثَبَتَ ذلك عليهم بالبيِّنَةِ؛ لِوُجوهٍ:

أحدُها: أنَّهم لو كانوا إذا أَظهروا التَّوبةَ قُبِلَ ذلك منهم لَمْ يَحتاجوا إلى الحَلِفِ والإنكارِ، ولَكانوا يقولونَ: قُلْنا وقد تُبْنا، فعُلِمَ أنَّهم كانوا يَخافُونَ إذا ظَهَرَ ذلك عليهم أنَّهم يُعاقَبونَ مِن غيرِ استتابةٍ.

الثَّاني: أنَّه قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾، واليَمينُ إنَّما تكونُ جُنَّةً إذا لَمْ نأتِ ببَيِّنَةٍ عادِلةٍ تُكَذِّبُها، فإذا كَذَّبَتْها بَيِّنَةٌ عادلةٌ انخرقتِ الجُنَّةُ، فجاز قَتْلُهم، ولا

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٣٨٠).

يمكِنُه أنْ يَجْتَنَّ بعدَ ذلك إلَّا بجُنَّةٍ مِن جنسِ الأُولى، وتلك جُنَّةٌ مخروقةٌ.

الثَّالثُ: أنَّ الآياتِ دليلٌ على أنَّ المنافِقينَ إنَّما عَصَمَ دماءَهم الكذبُ والإنكارُ، ومعلومٌ أنَّ ذلك إنَّما يَعصِمُ إذا لم تَقُمِ البيِّنةُ بخِلافِه؛ ولذلك لم يَقتُلْهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(١)].

٣- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ في قَولِه: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ دَلالةٌ على إبطالِ قَولِ الجاحِظِ: إنَّ الخَبَرَ الكَذِبَ هو الَّذي يكونُ مخالِفًا للمُخبَرِ عنه مع أنَّ المُخبِرَ يَعلَمُ المخالَفةَ؛ وذلك أنَّه لو كان كما زَعَم لم يكُنْ لِقَولِه: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فائدةٌ، بل يكونُ تَكرارًا صِرْفًا[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والجَهميَّةِ؛ مُنْكِري صفاتِ اللهِ، في إخبارِه عن نفْسِه بالغَضَبِ[(٣)]، فالغضبُ صفةٌ فِعليَّةٌ خَبَريَّةٌ

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٦).
وقال ابن حجر بعدَ أن ذكَرَ الخِلافَ في قَبولِ تَوبةِ الزِّنديقِ -وهو الَّذي يُظهِرُ الإسلامَ ويُبطِنُ غيرَه-: (ومِن حُجَّةِ مَنِ اسْتَتابهم قولُه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾؛ فدَلَّ على أنَّ إظهارَ الأيْمانِ يُحَصِّنُ مِن القَتلِ، وكلُّهم أجْمَعوا على أنَّ أحكامَ الدُّنيا على الظَّاهِرِ، واللهُ يَتولَّى السَّرائرَ). ((فتح الباري)) (١٢/ ٢٧٣). ويُنظر: ((المغني)) لابن قُدامة (٩/ ٦)، ((الإيمان الأوسط)) لابن تيميَّة (ص: ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٧).
قال ابنُ عاشور: (توهَّمَ الجاحِظُ أنَّ ماهيَّةَ الكَذِبِ تتقَوَّمُ مِن عَدَمِ مطابقةِ الخبَرِ للواقِعِ وللاعتقادِ معًا، وسرى هذا التَّقَوُّمُ إلى ماهيَّةِ الصِّدقِ، فجَعَل قِوامَها المطابَقةَ للخارجِ والاعتقادِ معًا، ومِن هنا أثبت الواسِطةَ بيْنَ الصِّدقِ والكَذِبِ، وقريبٌ منه قولُ الرَّاغِبِ، ويُشبِهُ أن يكونَ الخِلافُ لَفظِيًّا، ومحَلُّ بَسْطِه في عِلْمَيِ الأصولِ والبلاغةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٤١). ويُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٧٨)، ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (١/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٤).

ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ بالكتابِ والسُّنَّةِ[١].

٥- قول الله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فيه سؤالٌ: ما فائِدةُ الإخبارِ عنهم بذلك؟

الجَوابُ: فائدتُه بيانُ ذَمِّهم بارتِكابِهم اليَمينَ الغَمُوسَ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أنَّ مِن شأنِ النَّفْسِ المجادَلةَ بالباطِلِ، حتَّى إنَّه يومَ القيامةِ تريدُ أنْ تدفَعَ عن نفْسِها وتجادِلَ اللهَ بالباطِلِ[٣]!

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ هذا يقتَضي توَغُّلَهم في النِّفاقِ ومُرونتَهم عليه، وأنَّه باقٍ في أرواحِهم بعد بَعْثِهم؛ لأنَّ نُفوسَهم خرَجَت مِن عالَمِ الدُّنيا متخَلِّقةً به؛ فإنَّ النُّفوسَ إنَّما تَكتسِبُ تَزكيةً أو خُبْثًا في عالَمِ التَّكليفِ، وحِكمةُ إيجادِ النُّفوسِ في الدُّنيا هي تَزكيتُها وتَصفيةُ أكْدارِها؛ لتَخلُصَ إلى عالَمِ الخُلودِ طاهرةً، فإنْ هي سَلَكَت مَسلكَ التَّزكيةِ تَخلَّصَت إلى عالَمِ الخُلودِ زَكيَّةً، ويَزيدُها اللهُ زَكاءً وارْتياضًا يومَ البعثِ، وإنِ انغمَسَت مدَّةَ الحياةِ في حَمْأةِ النَّقائصِ وصَلْصالِ الرَّذائلِ، جاءت يومَ القيامةِ على ما كانتْ عليه تَشويهًا لحالِها؛ لتَكونِ مَهزلةً لأهْلِ المَحشرِ[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أنَّ

(١) يُنظر: ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢، ٥٣).

كلَّ كافرٍ مُلْحِدٍ فاجرٍ، فهو مِن أولياءِ الشَّيطانِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هذه حالةٌ أُخرى مِن أحوالِ أهلِ النِّفاقِ؛ هي تَولِّيهم اليهودَ مع أنَّهم لَيسوا مِن أهلِ مِلَّتِهم؛ لأنَّ المنافِقِينَ مِن أهلِ الشِّركِ. والجُملةُ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا ابتِدائيًّا؛ لأنَّها عَودٌ إلى الغرَضِ الَّذي سِيقتْ فيه آياتُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ كُبِتُوا۟﴾ [المجادلة: ٥] بعْدَ أنْ فُصِلَ بمُستطْرَداتٍ كَثيرةٍ بعْدَه[٢].

- وهو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّعجيبِ مِن حالِ المنافِقِينَ الَّذين كانوا يَتَّخِذون اليهودَ أولياءَ، ويُناصِحونهم، ويُفْشُون إليهم بأسرارِ المؤمنينَ[٣].

- والهمزةُ في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للاستِفهامِ التَّعجُّبيِّ، ووجْهُ التَّعجيبِ مِن حالِهم أنَّهم تَولَّوا قومًا مِن غيرِ جِنسِهم، ولَيسوا في دِينِهم، ما حمَلَهم على تَولِّيهم إلَّا اشتراكُ الفريقَينِ في عَداوةِ الإسلامِ والمسلمينَ[٤]. وقيل: الهمزةُ للاستِفهامِ التَّقريريِّ[٥].

- وضَميرُ ﴿مَّا هُم﴾ يَعودُ إلى ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾، وهمُ المنافِقون؛ وجُملةُ ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾، أي: ما هم مُسلِمون ولا يَهودُ. وقيل: يَعودُ الضَّميرُ إلى ﴿قَوْمًا﴾، وهم اليَهودُ؛ فتكونَ جُملةُ ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ صفةَ ﴿قَوْمًا﴾، أي: قومًا لَيسوا مُسلِمينَ ولا مُشرِكين، بلْ هم يَهودُ. وكذلك ضَميرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٥، ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٦).

﴿وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ يَحتمِلُ الأمْرَينِ على التَّعاكُسِ، وقيل: كِلا الاحتِمالينِ واقعٌ ومُرادٌ على طَريقةِ الكلامِ المُوجَّهِ (أي: الَّذي يَصلُحُ لاحتِمالِ معنيَينِ)؛ تَكثيرًا للمَعاني مع الإيجازِ، فيُفيدُ التَّعجيبَ مِن حالِ المنافِقينَ أنْ يَتولَّوا قَومًا أجانبَ عنهم على قَومٍ همْ أيضًا أجانبُ عنهم، على أنَّهم إنْ كان يُفرِّقُ بيْنَهم وبيْن المسلمينَ اختِلافُ الدِّينِ، فإنَّ الَّذي يُفرِّقُ بيْنهم وبيْن اليهودِ اختلافُ الدِّينِ واختلافُ النَّسَبِ؛ لأنَّ المنافِقين مِن أهلِ يَثرِبَ عرَبٌ، ويُفيدُ بالاحتِمالِ الآخَرِ الإخبارَ عن المنافِقين بأنَّ إسلامَهم ليس صادقًا، أي: ما همْ منكم أيُّها المسلِمونَ، وهو المقصودُ، ويكونُ قولُه: ﴿وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ على هذا الاحتِمالِ احتِراسًا[1] وتتْميمًا[2] لحِكايةِ حالِهم، وعلى هذا الاحتِمالِ يَكونُ ذمُّ المنافقين أشَدَّ؛ لأنَّه يدُلُّ على حَماقتِهم؛ إذ جَعَلوا لهم أولياءَ مَن لَيسوا على دِينِهم، فهمْ لا يُوثَقُ بولايتِهم، وأضْمَروا بُغضَ المسلمينَ، فلم يُصادِفوا الدِّينَ الحقَّ[3].

- وقولُه: ﴿وَيَحۡلِفُونَ﴾ عطْفٌ على ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾، وجِيءَ به مُضارِعًا؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِه، ولاستِحضارِ الحالةِ العَجيبةِ في حِينِ حَلِفِهم على الكذِبِ؛ للتَّنصُّلِ ممَّا فَعَلوه[4].

- وقولُه: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ حالٌ مِن فاعلِ ﴿وَيَحۡلِفُونَ﴾، مُفيدةٌ لكَمالِ شَناعةِ ما فَعَلُوا[5].

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٢١٢).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير أبي =

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ تَعليلٌ لإعدادِ العذابِ الشَّديدِ لهم، أي: إنَّهم عَمِلوا فيما مَضَى أعمالًا سيِّئةً مُتطاوِلةً مُتكرِّرةً، كما يُؤذِنُ به المضارعُ مِن قولِه: ﴿يَعْمَلُونَ﴾[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا عن جُملةِ ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[المجادلة: ١٤]؛ لأنَّ ذلك يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ أنْ يَقولَ: ما أَلْجَأَهم إلى الحَلِفِ على الكذِبِ؟ فأُجِيبَ بأنَّ ذلك لقَضاءِ مآرِبِهم، وزِيادةِ مَكْرِهم. ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ الجُملةُ خبرًا ثانيًا لـ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[المجادلة: ١٥]، وتكونَ داخلةً في التَّعليلِ[2].

- وفِعلُ (صَدُّوا) يَجوزُ أنْ يكونَ مُتعدِّيًا، وحُذِفَ مَفعولُه لظُهورِه، أي: فصَدُّوا النَّاسَ عن سَبيلِ اللهِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الفِعلُ قاصِرًا (لازمًا)، أي: فصَدُّوا هم عن سَبيلِ اللهِ. ومَجيءُ فِعلِ ﴿فَصَدُّواْ﴾ ماضيًا مُفرَّعًا على ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾، مع أنَّ أيْمانَهم حصَلَت بعْدَ أنْ صَدُّوا عن سَبيلِ اللهِ على كِلا المعنيَينِ؛ مُراعًى فيه التَّفريعُ في قولِه: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3].

- وفُرِّعَ ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ على قولِه: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّ ما

= حيان)) (١٠/ ١٢٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٥٠).

اتَّخذوا مِن أيْمانِهم جُنَّةً سَببٌ مِن أسبابِ العَذابِ يَقْتضي مُضاعَفةَ العذابِ[١].

- وقد وُصِفَ العذابُ أوَّلَ مرَّةٍ بشَديدٍ -في قولِه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [المجادلة: ١٥]-، وهو الَّذي يُجازَون به على تَولِّيهم قومًا غضِبَ اللهُ عليهم وحَلِفِهم على الكذِبِ. ووُصِفَ عَذابُهم ثانيًا بأنَّه ﴿مُّهِينٌ﴾؛ لأنَّه جَزاءٌ على صدِّهم النَّاسَ عن سَبيلِ الله، وهذا معْنَى شَديدِ العذابِ مِن أجْلِ عَظيمِ الجُرْمِ، وإنَّما وعدَهم اللهُ العذابَ المُهينَ المُخزيَ؛ لكُفرِهم وصَدِّهم، كقولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، فهو وَعيدٌ ثانٍ بوَصفٍ آخَرَ لعذابِهم، فكان العَذابُ مُناسِبًا للمَقصدَينِ في كفْرِهم، وهو عَذابٌ واحدٌ فيه الوصْفانِ. وكُرِّرَ ذِكرُه إبلاغًا في الإنذارِ والوعيدِ؛ فإنَّه مَقامُ تَكريرٍ، مع تَحسينِه باختِلافِ الوصْفَينِ، وقيلَ: الأوَّلُ عذابُ القبرِ، وهذا عذابُ الآخِرةِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فيه إقحامُ حرْفِ النَّفيِ (لا) في المعطوفِ ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ على المَنفيِّ؛ لتَوكيدِ انتفاءِ الإغناءِ[٣].

- وجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ في مَوضعِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، أي: لأنَّهم أصحابُ النارِ، أي: حقَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥١).

عليهم أنَّهم أصحابُ النَّارِ، أيْ: مُلازِمُوها ومُقارِنُوها؛ إذ قد تقرَّرَ مِن قولِه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [المجادلة: ١٥] ومِن قولِه: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ١٦] أنَّهم لا مَحيصَ لهم عن النَّارِ، فكيف تُغْني عنهم أموالُهم وأولادُهم شيئًا مِن عذابِ النَّارِ؟! فاسمُ الإشارةِ في مِثلِ هذا الموقعِ يُنبِّهُ على أنَّ المشارَ إليه صار جديرًا بما يَرِدُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ الأخبارِ الَّتي أُخبِرَ بها عنه قبْلَ اسمِ الإشارةِ(١).

- وجاء قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بغيرِ فاءٍ، موافَقةً للجُمَلِ الَّتي قبْلَها، وموافقةً لقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾(٢) [المجادلة: ٢٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ هذا مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾(٣).

- ويَجوزُ أنْ يكونَ لَفظُ ﴿يَوْمَ﴾ مَنصوبًا على المفعولِ به لفِعلٍ تَقديرُه: اذكُرْ؛ تَنويهًا بذلك اليومِ، وتَهويلًا عليهم(٤).

- وحَلِفُهم للهِ في الآخِرةِ إشارةٌ إلى ما حكاهُ اللهُ عنْهم في قولِه: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في صِفةِ الحَلِفِ، وهي قولُهم: إنَّهم غيرُ مشرِكين، وفي كَونِه حَلِفًا على الكذِبِ وهم يَعلَمون؛ ولذلك سمَّاه تعالى فِتنةً في قولِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥١، ٥٢).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٤، ٥٢).

تعالَى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾[1] [الأنعام: ٢٣].

- وحُذِفَت صِفةُ ﴿شَيۡءٍ﴾؛ لظُهورِ معْناها مِن المَقامِ، أي: على شَيءٍ نافعٍ[2].

- وخُتِمَ الكلامُ بقولِه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾، وهو تَذييلٌ جامعٌ لحالِ كَذِبِهم الَّذي ذكَرَه اللهُ بقولِه: ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾ [المجادلة: ١٤]، فالمرادُ أنَّ كذِبَهم عليكم لا يُماثِلُه كذِبٌ، حتَّى قُصِرَت صِفةُ الكاذبِ عليهم بضَميرِ الفصْلِ في قولِه: ﴿إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[3] للمُبالَغةِ؛ لعدَمِ الاعتِدادِ بكذِبِ غَيرِهم، وأُكِّدَ ذلك بحرْفِ التَّوكيدِ تَوكيدًا لمُفادِ الحصْرِ الادِّعائيِّ، وهو أنَّ كذِبَ غَيرِهم كَلا كَذِبٍ في جانبِ كَذِبِهم، وبأداةِ الاستِفتاحِ المُقتضيةِ استِمالةَ السَّمْعِ لخبَرِهم؛ لتَحقيقِ تَمكُّنِ صِفةِ الكذِبِ منهم، حتَّى إنَّه يُلازِمُهم يومَ البعثِ[4].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ما سِيقَ مِن وصْفِهم بانحصارِ صِفةِ الكذِبِ فيهم، يُثيرُ سُؤالَ السَّامعِ أنْ يَطلُبَ السَّببَ الَّذي بلَغَ بهم إلى هذا الحالِ الفظيعِ، فيُجابُ بأنَّه استِحواذُ الشَّيطانِ عليهم، وامتلاكُه زِمامَ أنفُسِهم يُصرِّفُها كيف يُريدُ، وهل يَرْضى الشَّيطانُ إلَّا بأشَدِّ الفسادِ والغَوايةِ[5]؟!

- والاستِحواذُ: الاستِيلاءُ والغلَبُ، وهو استِفعالٌ مِن حاذَ حَوذًا؛ إذا حاطَ شَيئًا وصرَّفَه كيف يُريدُ. يقال: حاذَ العِيرَ؛ إذا جمَعَها وساقَها غالِبًا لها، فاشتَقُّوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٥٤).

منه (استَفعَلَ) للَّذي يَسْتولي بتَدبيرٍ ومُعالَجةٍ؛ ولذلك لا يُقال: (استَحْوذَ) إلَّا في استيلاءِ العاقلِ؛ لأنَّه يَتطلَّبُ وَسائلَ استيلاءٍ. والسِّينُ والتاءُ للمُبالَغةِ في الغلَبِ، مِثْلها في (استجابَ)[١].

- والذِّكرُ يُطلَقُ على نُطقِ اللِّسانِ باسمٍ أو كَلامٍ، وهو هنا مُستعمَلٌ في صَريحِه وكِنايتِه، أي: مُستعمَلٌ في لازِمِه، وهو العِبادةُ والطاعةُ؛ لأنَّ المعْنى: أنَّه أنْساهم تَوحيدَ اللهِ بكَلمةِ الشَّهادةِ، والتَّوجُّهِ إليه بالعِبادةِ، والَّذي لا يَتذكَّرُ شَيئًا لا يَتوجَّهُ إلى واجباتِه[٢].

- جُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ نَتيجةٌ وفَذْلَكةٌ[٣] لقولِ: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ فإنَّ الاستِحواذَ يَقْتضي أنَّه صيَّرَهم مِن أتْباعِه[٤].

- وجِيءَ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لزِيادةِ تَمييزِهم؛ لئلَّا يُتردَّدَ في أنَّهم حِزبُ الشَّيطانِ[٥].

- وجُملةُ ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ واقِعةٌ مَوقعَ التَّفرُّعِ والتَّسبُّبِ على جُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: فإنَّ حِزبَ الشَّيطانِ هم الخاسِرون؛ ولذلك عُدِلَ عن ذلك إلى حرْفِ الاستِفتاحِ تَنبيهًا على أهمِّيَّةِ مَضمونِها، وأنَّه ممَّا يَحِقُّ العِنايةُ باستِحضارِه في الأذهانِ؛ مُبالَغةً في التَّحذيرِ مِن الاندماجِ فيهم، والتَّلبُّسِ بمِثلِ أحوالِهم المذكورةِ آنفًا. وزِيدَ هذا التَّحذيرُ اهتمامًا بتأْكيدِ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ) وبصِيغةِ القصْرِ؛ إذ لا يَتردَّدُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٥٥).

(٣) تقدَّم تعريفُها (ص: ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أحدٌ في أنَّ حِزبَ الشَّيطانِ خاسِرون؛ فإنَّ ذلك مِن القَضايا المُسلَّمةِ بيْن البشَرِ؛ فلذلك لم تكُنْ هذه المُؤكِّداتُ لرَدِّ الإنكارِ، بلْ لتَحذيرِ المسلِمينَ أنْ تَغُرَّهم حَبائلُ الشَّيطانِ، وتَرُوقَ في أنظارِهم بَزَّةُ المنافِقين، وتَخدَعَهم أيْمانُهم الكاذبةُ[١].

- وإظهارُ كَلمةِ ﴿حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ دونَ ضَميرِ (همْ)؛ لزِيادةِ التَّصريحِ، ولِتَكونَ الجُملةُ صالحةً للتَّمثُّلِ بها، مُستقِلَّةً بدَلالتِها[٢].

- وضَميرُ الفصْلِ (هم) أفاد القصْرَ، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٣]؛ للمُبالَغةِ في مِقدارِ خُسرانِهم، وأنَّه لا خُسرانَ أشَدُّ منه، فكأنَّ كلَّ خُسرانٍ غَيرِه عدَمٌ، فيُدَّعى أنَّ وصْفَ الخاسرِ مَقصورٌ عليهم[٤].

- في تَصديرِ جُملةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ بحرْفَيِ التَّنبيهِ والتَّحقيقِ، وإظهارِ المُضافَينِ معًا في مَوقعِ الإضمارِ، وتَوسيطِ ضَميرِ الفصلِ مِنْ فُنونِ التَّأكيدِ ما لا يَخْفَى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٣).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡأَذَلِّينَ﴾: أي: الأذِلَّاءِ الصَّاغِرِينَ، وأصلُ (ذلل): يدُلُّ على الخُضوعِ والاستِكانةِ[(١)].

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾: أي: قضَى اللهُ وخَطَّ في أمِّ الكِتابِ، وأصل (كتب): يدُلُّ على جمْعِ شَيءٍ إلى شيءٍ[(٢)].

﴿عَشِيرَتَهُمۡ﴾: العَشِيرةُ: أهلُ الرَّجُلِ الَّذين يَتكَثَّرُ بهم، وأصلُ (عشر): يدُلُّ على مُدَاخَلةٍ ومُخالَطةٍ[(٣)].

﴿حِزۡبُ ٱللَّهِ﴾: أي: أنصارُ اللهِ وجُنُده، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تجَمُّعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧).

شَيءٍ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبينًا سُنَّةً مِن سُنَنِه في خَلقِه: إنَّ الَّذين يُعادونَ ويُشاقُّونَ اللهَ ورَسولَه أولئك مِن جملةِ أهلِ الذِّلَّةِ، قضى اللهُ بأنَّ له ولرُسُلِه النَّصرَ والغَلَبَةَ في الدُّنيا والآخِرةِ، إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عزيزٌ.

ثمَّ يخبرُ تعالى عن صفةِ المؤمنينَ الصَّادقينَ مبيِّنًا حُسنَ عاقبتِهم: لا تَجِدُ -يا محمَّدُ- قَومًا يُؤمِنونَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ يُحِبُّونَ ويُوالُونَ مَن خالَفَ حُدودَ اللهِ ورَسولِه، ولو كان هؤلاء المحادُّون آباءَ أولئك المؤمِنينَ، أو أبناءَهم، أو إخوانَهم، أو أقارِبَهم وجماعتَهم، أولئك أثبَتَ اللهُ في قُلوبِهم الإيمانَ، وقوَّاهم بوَحْيِه، ومَعونتِه، ونصرِه، ومَددِه، وإحسانِه، ويُدخِلُهم اللهُ في الآخِرةِ جنَّاتٍ تَجري مِن تحتِها الأنهارُ ماكِثينَ فيها أبدًا، رَضِيَ اللهُ عنهم، ورَضُوا عنه، أولئك أولياءُ اللهِ وأنصارُه، ألَا إنَّ أولياءَ اللهِ وأنصارَه هم الفائِزونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠﴾.

أي: إنَّ الَّذين يُخالِفونَ ويُعادونَ اللهَ ورَسولَه أولئك مِن جملةِ أهلِ الذِّلَّةِ الشَّديدةِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٥).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٤).

كما قال الله تبارك وتعالى عن اليَهود: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾.

أي: قضى اللهُ وقدَّر تقديرًا ثابتًا لا يتخَلَّفُ ولا يتبدَّلُ بأنَّ له ولرُسُلِه النَّصرَ والغَلَبةَ في الدُّنيا والآخِرةِ على مَن خالَفَ الحَقَّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).
قال ابن تيميَّة: (الغَلَبةُ للرُّسُلِ بالحُجَّةِ والقَهرِ، فمَن أُمِرَ منهم بالحَربِ نُصِرَ على عدُوِّه، ومَن لم يُؤمَرْ بالحربِ أُهلِكَ عَدُوُّه. وهذا أحسَنُ مِن قَولِ مَن قال: إنَّ الغَلَبةَ للمحارِبِ بالنَّصرِ، ولغيرِ المحارِبِ بالحُجَّةِ، فعُلِمَ أنَّ هؤلاء المحادِّينَ مُحارَبونَ مغلوبونَ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٢٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٥).
وقال ابن كثير: (أي: قد حَكَم وكَتَب في كتابِه الأوَّلِ وقدَرِه الَّذي لا يُخالَفُ، ولا يُمانَعُ، ولا يُبدَّلُ: بأنَّ النُّصرةَ له ولكتابِه ورُسُلِه، وعبادِه المؤمنينَ؛ في الدُّنيا والآخرةِ، وأنَّ العاقِبةَ للمُتَّقينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣). ويُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٧٦-١٩٣).

ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ قَوِيٌّ فلا يُعجِزُه الانتِصارُ مِمَّن حادَّه ورُسُلَه، عزيزٌ لا يمتَنِعُ عليه شَيءٌ؛ فهو الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ(١).

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: لا يُمكِنُ أن تَجِدَ -يا محمَّدُ- قَومًا يُؤمِنونَ باللهِ، ويُؤمِنونَ باليَومِ الآخِرِ، ومع ذلك يُحِبُّونَ ويُوالُونَ مَن خالَفَ وعادَى اللهَ ورَسولَه(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٦).

ذكر ابن عاشور أنَّ هذه الآيةَ رُويَ فيها أقوالٌ في سببِ نُزولِها، ثمَّ قال: (وليس يَلزَمُ أن يكونَ للآيةِ سببُ نُزولٍ؛ فإنَّ ظاهرَها أنَّها مُتَّصِلةُ المعنى بما قبْلَها وما بَعْدَها مِن ذمِّ المنافِقِينَ وموالاتِهم اليهودَ، فما ذُكِر فيها مِن قصصٍ لسببِ نُزولِها فإنَّما هو أمثلةٌ لِمُقتضى حكمِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٧، ٥٨). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٧).

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ * وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ * وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠، ٨١].

وقال جلَّ شأنُه: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

أي: لا يَجتَمِعُ الإيمانُ باللهِ وباليَومِ الآخِرِ مع موادَّةِ مَن حادَّ اللهَ ورَسولَه، ولو كان هؤلاء المحادُّون آباءَ أولئك المؤمِنينَ أو أبناءَهم أو إخوانَهم، أو أقارِبَهم وجماعتَهم(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[التوبة: ٢٤].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم حتَّى أكونَ أحَبَّ إليه مِن والِدِه ووَلَدِه والنَّاسِ أجمَعينَ))(٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

أي: أولئك قرَّر وأثبَتَ اللهُ في قُلوبِهم الإيمانَ، فلا يَشُكُّونَ ولا يَرتَدُّونَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).
قال الرازي: (المرادُ أنَّ المَيلَ إلى هؤلاء أعظَمُ أنواعِ الميلِ، ومع هذا فيَجِبُ أن يكونَ هذا الميلُ مَغلوبًا مطروحًا بسَبَبِ الدِّينِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٩).
وقال البِقاعي: (مدارُ ذلك على أنَّ الإنسانَ يَقطَعُ رَجاءَه مِن غيرِ اللهِ، وإنْ لم يكُنْ كذلك لم يكُنْ مُخلِصًا في إيمانِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٩٨).

(٢) رواه البخاريُّ (١٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٧).
قال ابن عاشور: (كتابةُ الإيمانِ في القلوبِ نَظيرُ قَولِه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]. وهي التَّقديرُ الثَّابتُ الَّذي لا تتخَلَّفُ آثارُه، أي: هم المؤمنونَ حَقًّا، الَّذين =

كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ * فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَد بهِنَّ حلاوةَ الإيمانِ: مَن كان اللهُ ورَسولُه أحَبَّ إليه ممَّا سِواهما، وأن يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلَّا للهِ، وأن يَكرَهَ أن يعودَ في الكُفرِ بعدَ أن أنقَذَه اللهُ منه، كما يَكرَهُ أن يُقذَفَ في النَّارِ))[(١)].

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾.

أي: وقَوَّاهم اللهُ بوَحْيِه، ومَعونتِه، ونصرِه، ومَددِه، وإحسانِه سُبحانَه[(٢)].

= زَيَّن اللهُ الإيمانَ في قُلوبهم، فاتَّبَعوا كمالَه، وسَلَكوا شُعَبَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

(١) رواه البخاريُّ (١٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٣).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾: برحمةٍ منه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وقال: (كذلك قال المفسِّرونَ). يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٦)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ في روايةٍ عنه، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٥٩).

وقيل: المرادُ: بنُورِ الإيمانِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٠).

وقيل: معناه: بهُدًى ولُطفٍ ونورٍ وتوفيقٍ إلهيٍّ ينقَدِحُ من القُرآنِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن عطية، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٢)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وعن أبي سَلَمةَ بنِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوفٍ: ((أنَّه سَمِعَ حَسَّانَ بنَ ثابتٍ الأنصاريَّ يَستَشهِدُ أبا هُرَيرةَ: أَنشُدُكَ اللهَ[1]، هل سَمِعتَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: يا حسَّانُ، أَجِبْ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، اللَّهُمَّ أيِّدْه برُوحِ القُدُسِ[2]؟ .....

= ابن جزي)) (٢/ ٣٥٦).

قال البقاعي: (﴿وَأَيَّدَهُم﴾ أي: قوَّاهم وشَدَّدَهم، وأعانهم وشَجَّعهم، وعَظَّمَهم وشَرَّفَهم ﴿بِرُوحٍ﴾ أي: نُورٍ شَريفٍ جِدًّا يَفهَمونَ به ما أُودِعَ في كتابِه وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن كُنوزِ العِلمِ والعَمَلِ، فهو لقُلوبِهم كالرُّوحِ للأبدانِ، فلا يَفعَلونَ شَيئًا مِن أحوالِ أهلِ الجاهليَّةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٩٩).

وقيل: أيَّدَهم بنَصرٍ منه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: السَّمْعانيُّ، والبغوي، والخازن، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٠٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٥٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٠).

وذكَرَ ابنُ القيِّم أنَّ الرُّوحَ هنا هي القُوَّةُ والثَّباتُ والنُّصرةُ الَّتي يُؤَيِّدُ بها مَن شاءَ مِن عبادِه المُؤمنينَ. يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٣).

وقال السعدي: (قوَّاهم اللهُ برُوحٍ منه، أي: بوَحْيِه، ومَعونتِه، ومَدَدِه الإلهيِّ، وإحسانِه الرَّبَّانيِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٩٦).

وقيل: المرادُ بالرُّوحِ هنا: بكتابٍ أنزَله فيه حياةٌ لهم. وممَّن اختاره: النَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥٣).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّه القرآنُ وحُجَجُه: الربيعُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٠).

وقيل: المعنى: أيَّدَهم بجِبريلَ عليه السَّلامُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(١) أَنشُدُكَ اللهَ أي: أسألُك باللهِ، وأُقسِمُ عليك به. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٥٣).

(٢) برُوحِ القُدُسِ: أي: بجِبْريلَ، سُمِّيَ به؛ لأنَّه كان يأتي الأنبياءَ بما فيه حياةُ القُلوبِ، فهو =

قال أبو هُريرةَ: نَعَمْ))[١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اهجُوا[٢] قُرَيشًا؛ فإنَّه أشَدُّ عليها مِن رَشْقٍ بالنَّبْلِ. قالت عائِشةُ: فسَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ لحسَّانٍ: إنَّ رُوحَ القُدُسِ لا يَزالُ يؤيِّدُك ما نافَحْتَ[٣] عن اللهِ ورَسولِه))[٤].

﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾.

أي: ويُدخِلُهم اللهُ في الآخِرةِ جنَّاتٍ تَجري مِن تحتِها الأنهارُ، وهم ماكِثونَ في تلك الجنَّاتِ أبدًا[٥].

﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾.

أي: رَضِيَ اللهُ عنهم فلا يَسخَطُ عليهم أبَدًا، ورَضُوا هم عن اللهِ بما أعطاهم مِن الكراماتِ، وإجزالِ المثوباتِ، وإدخالِ الجنَّاتِ[٦].

= كالمبدأِ لحياةِ القَلْبِ، كما أنَّ الرُّوحَ مَبدَأٌ لحياةِ الجَسدِ، والقُدُس: صِفةٌ للرُّوحِ، وإنَّما أُضيفَ إليه؛ لأنَّه مجبولٌ على الطَّهارةِ والنَّزاهةِ عن العيوبِ. وقيل: القُدُسُ بمعنى: المقَدَّسِ، وهو اللهُ، وإضافةُ الرُّوحُ إليه للتَّشريفِ. ثمَّ تأييدُه: إمدادُه له بالجواب، وإلهامُه لِما هو الحَقُّ والصَّوابُ. يُنظَر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٣٠١٥).

(١) رواه البخاري (٦١٥٢)، ومسلم (٢٤٨٥).

(٢) اهجُوا أي: اشتِمْهم، يقال: هَجاهُ هِجاءً: إذا شتَمَه بالشِّعْرِ، وعَدَّدَ فيه مَعايِبَه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٤٠/ ٢٧٩).

(٣) نَافَحْتَ: أي: دافَعْتَ، يُريدُ بِمُنافَحتِه هِجاءَ المشْرِكين، ومُجاوَبَتَهم على أشْعارِهم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٨٩).

(٤) رواه مسلم (٢٤٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨)، ((تفسير ابن =

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِ﴾.

أي: أولئك أولياءُ اللهِ وأنصارُه، وجُندُه وطائِفتُه(١).

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

أي: ألَا(٢) إنَّ أولياءَ اللهِ وأنصارَه وجُندَه وطائفتَه: هم وَحْدَهم دونَ غَيرِهم الفائِزونَ الظَّافِرونَ، وهم في النَّعيمِ باقُونَ ماكِثونَ(٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ زَجْرٌ عن التَّوَدُّدِ إلى مَن كان على غيرِ دِينِ الإسلامِ، والتَّحَبُّبِ إليه، والموالاةِ له؛ إذْ في ذلك ذَهابُ العَداوةِ، وانغِراسُ المحبَّةِ لِمَن يُعادي اللهَ جلَّ جلالُه، أَلَا ترى أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه سمَّاهم أعداءَه؟! حيثُ يقولُ: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩]، وكقولِه: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] إلى آخرِ الآيةِ(٤).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيه أنَّه لا يكونُ العَبدُ مُؤمِنًا باللهِ واليومِ الآخِرِ حَقيقةً إلَّا كان عامِلًا على مُقتَضى الإيمانِ ولَوازِمِه؛ مِن محبَّةِ مَن قام بالإيمانِ ومُوالاتِه، وبُغْضِ مَن

= عاشور)) (٢٨/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٥).

(٢) قال الزجاج: (﴿أَلَآ﴾ كَلِمةُ تنبيهٍ وتوكيدٍ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٠، ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٥).

لم يَقُمْ به ومُعاداتِه، ولو كان أقرَبَ النَّاسِ إليه، وأمَّا مَن يَزعُمُ أنَّه يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ، وهو مع ذلك مُوادٌّ لأعداءِ الله، مُحِبٌّ لِمَن ترَكَ الإيمانَ وراءَ ظَهرِه؛ فإنَّ هذا إيمانٌ زَعْميٌّ لا حقيقةَ له، فإنَّ كُلَّ أمرٍ لا بدَّ له مِن بُرهانٍ يُصَدِّقُه، فمُجَرَّدُ الدَّعوى لا تُفيدُ شَيئًا، ولا يُصَدِّقُ صاحِبُها[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أخَذَ العُلَماءُ منه أنَّ أهلَ الإيمانِ الكامِلِ لا يُوادُّونَ مَن فيه معنًى مِن محادَّةِ اللهِ ورَسولِه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بخَرقِ سِياجِ شَريعتِه عَمدًا، والاستِخفافِ بحُرُماتِ الإسلامِ، وهؤلاء مِثلُ أهلِ الظُّلمِ والعُدوانِ في الأعمالِ مِن كُلِّ ما يُؤذِنُ بقِلَّةِ اكتِراثِ مُرتَكِبِه بالدِّينِ، ويُنبِئُ عن ضَعفِ احترامِه للدِّينِ، مِثلُ المتجاهِرينَ بالكبائِرِ والفواحِشِ، السَّاخِرينَ مِن الزَّواجِرِ والمواعِظِ، ومِثلُ أهلِ الزَّيغِ والضَّلالِ في الاعتقادِ، ممَّن يُؤذِنُ حالُهم بالإعراضِ عن أدِلَّةِ الاعتِقادِ الحَقِّ، وإيثارِ الهوى النَّفسيِّ والعَصَبيَّةِ على أدِلَّةِ الاعتقادِ الإسلاميِّ الحَقِّ[2].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ عن سَهلِ بنِ عبدِ الله التُّسْتَري أنَّه قال: (مَن صَحَّح إيمانَه وأخلَصَ توحيدَه، فإنَّه لا يأنَسُ إلى مُبتَدِعٍ ولا يُجالِسُه، ولا يُؤاكِلُه ولا يُشارِبُه، ولا يُصاحِبُه، ويُظهِرُ له مِن نَفْسِه العداوةَ والبَغضاءَ، ومَن داهَنَ مُبتَدِعًا سَلبَه اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٩، ٦٠).

والعبدُ يجتمعُ فيه سببُ الولايةِ وسَبَبُ العداوةِ، والحبُّ والبغضُ؛ فيكونُ مَحْبوبًا مِن وجهٍ مَبْغوضًا مِن وجهٍ، فالحبُّ والبغضُ بحَسَبِ ما فيه مِن خِصالِ الخَيرِ والشَّرِّ؛ فمَن كان مؤمنًا وجبَتْ مُوالاتُه مِن أيِّ صنفٍ كان، ومَن كان كافرًا وجبتْ مُعاداتُه مِن أيِّ صنفٍ كان، ومَن كان فيه إيمانٌ وفيه فُجورٌ أُعطيَ مِن الموالاةِ بحسَبِ إيمانِه، ومِن البُغضِ بحسَبِ فُجورِه. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٨/ ٢٢٨)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٥٤٧).

تعالى حلاوةَ السُّنَنِ، ومَن تحَبَّب إلى مُبتَدِعٍ يَطلُبُ عِزَّ الدُّنيا أو عَرَضًا منها، أذَلَّه اللهُ تعالى بذلك العِزِّ، وأفقَرَه بذلك الغِنى، ومَن ضَحِكَ إلى مُبتَدِعٍ نَزَع اللهُ تعالى نورَ الإيمانِ مِن قَلْبِه، ومَن لم يُصَدِّقْ فلْيُجَرِّبْ). انتهى[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۞ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ هذا وعدٌ ووَعيدٌ؛ وعيدٌ لِمَن حادَّ اللهَ ورَسولَه بالكُفرِ والمعاصي، أنَّه مَخذولٌ مذلولٌ، لا عاقِبةَ له حميدةٌ، ولا رايةَ له منصورةٌ. ووَعدٌ لِمَن آمَنَ به، وبرُسُلِه، واتَّبَع ما جاء به المُرسَلونَ، فصار مِن حِزبِ اللهِ المُفلِحينَ، أنَّ لهم الفَتحَ والنَّصرَ والغَلَبةَ في الدُّنيا والآخِرةِ، وهذا وَعدٌ لا يُخلَفُ ولا يُغَيَّرُ؛ فإنَّه مِن الصَّادِقِ القويِّ العزيزِ الَّذي لا يُعجِزُه شَيءٌ يُريدُه[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ أنَّه ما مِن إنسانٍ يُحَادُّ اللهَ ورسولَه إلَّا أذَلَّه اللهُ عزَّ وجلَّ، ويكونُ إذلالُه بقَدْرِ ما حَصَلَ منه مِن المُحَادَّةِ؛ جزاءً وِفاقًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٩).

ويُشرعُ الهَجرُ وفي دائرةِ ضوابطِه الشَّرعيَّةِ المَبنيَّةِ على رعايةِ المصالحِ ودَرْءِ المَفاسِدِ، وهذا ممَّا يَختلِفُ باختلافِ البدعةِ نفْسِها، واختلافِ مُبتَدِعِها، واختلافِ أحوالِ الهاجرينَ، واختلافِ المكانِ والقوَّةِ والضَّعفِ، والقِلَّةِ والكَثرةِ إلى غيرِ ذلك مِن وُجوهِ الاختلافِ والاعتبارِ الَّتي يَرعاها الشَّرعُ، وميزانُها للمُسلِمِ الَّذي به تَنضبِطُ المَشروعيَّةُ هو: مدى تحقُّقِ المَقاصِدِ الشَّرعيَّةِ مِن الهَجرِ: مِن الزَّجْرِ، والتَّأديبِ، ورجوعِ العامَّةِ، وتحجيمِ المُبتدِعِ وبدعتِه. يُنظر: ((هجر المبتدع)) لبكر أبو زيد (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٢).

قال ابن عاشور: (الَّذي يحادُّ الله ورسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إن كان مُتجاهِرًا بذلك مُعلِنًا به، أو متجاهرًا بسوءِ معاملةِ المسلمينَ لأجْلِ إسلامِهم، لا لِمُوجبِ عداوةٍ دنيويَّةٍ؛ فالواجبُ =

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ الأذلُّ أبلغُ مِن الذَّليلِ، ولا يكونُ أذلَّ حتَّى يخافَ على نفْسِه ومالِه إن أظهَر المحادَّةَ؛ لأنَّه إن كان دمُه ومالُه معصومًا لا يُستباحُ، فليس بأذَلَّ، وقد جعَل المحادِّينَ في الأذَلِّينَ، فلا يكونُ لهم عهدٌ؛ إذ العهدُ يُنافي الذِّلَّةَ، والأذلُّ هو الَّذي ليس له قوَّةٌ يمتنعُ بها ممَّن أراده بسوءٍ، فإذا كان له مِن المسلمينَ عهدٌ يجبُ عليهم به نصرُه ومنعُه فليس بأذلَّ؛ فثبَت أنَّ المحادَّ لله ولرسولِه لا يكونُ له عهدٌ يعصِمُه، والمؤذِي للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُحادٌّ، فالمؤذِي للنَّبيِّ ليس له عهدٌ يعصمُ دمَه[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ أنَّ المؤذيَ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كافرٌ حلالُ الدَّم، ولو كان مُؤمنًا معصومًا لَمْ يكن أَذَلَّ! لقَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقَولِه: ﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [المجادلة: ٥]، والمؤمنُ لا يُكْبَتُ كما كُبِتَ مُكَذِّبُو الرُّسُلِ قَطُّ، ولأنَّه قد قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآيةَ، فإذا كان مَن يُوَادُّ المُحَادَّ ليس بمؤمنٍ، فكيف بالمُحَادِّ نَفْسِه[2]؟!

= على المسلمينَ إظهارُ عداوتِه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩]، ولم يُرَخَّصْ في معاملتِهم بالحسنى إلَّا لاتِّقاءِ شرِّهم إن كان لهم بأسٌ، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وأمَّا مَن عدا هذا الصنفَ فهو الكافرُ الممسكُ شرَّه عن المسلمينَ، قال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، ومِن هذا الصنفِ أهلُ الذِّمَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٩).

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۞ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ أنَّ كلَّ حزبٍ يُحاربُ اللهَ، فاللهُ سُبحانَه وتعالى يَهْزِمُه[1].

٦- قول الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ دلَّت هذه الآيةُ الكريمةُ، وأمثالُها مِن الآيِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۞ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]؛ أنَّه لن يُقتَلَ نَبيٌّ في جِهادٍ قَطُّ؛ لأنَّ المقتولَ ليس بغالِبٍ؛ لأنَّ القَتلَ قِسمٌ مُقابِلٌ للغَلَبةِ، كما بَيَّنَه تعالى في قَولِه: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾ [النساء: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، وقد نفَى عن المنصورِ كَونَه مَغلوبًا نَفيًا باتًّا في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، فالرُّسُلُ الَّذينَ جاء في القُرآنِ أنَّهم قُتِلوا، كقَولِه تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٨٣]، ليسوا مقتولينَ في جِهادٍ.

فالرُّسلُ قِسْمانِ: قِسمٌ أُمِروا بالقتالِ في سبيلِ الله، وقِسمٌ أُمِروا بالصَّبرِ والكفِّ عن النَّاسِ، فالَّذين أُمِروا بالقتالِ وعَدَهم اللهُ بالنَّصرِ والغَلَبةِ في الآياتِ المذكورةِ، والَّذين أُمِروا بالكفِّ والصَّبرِ هم الَّذين قُتِلوا لِيَزيدَ اللهُ رفْعَ دَرَجاتِهم العَلِيَّةِ بقَتْلِهم مَظلومينَ، وهذا الجمعُ مفهومٌ مِن الآياتِ؛ لأنَّ النَّصرَ والغَلَبةَ فيه الدَّلالةُ بالالتِزامِ على جِهادٍ ومُقاتَلةٍ.

ولا يَرِدُ على هذا الجمعِ قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ [آل

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٣/ ٤٠٢).

عمران: ١٤٦]؛ أمَّا على قِراءةِ ﴿قَٰتَلَ﴾ بصيغةِ الماضي مِن (فاعَلَ) فالأمرُ واضحٌ، وأمَّا على قِراءةِ ﴿قُتِلَ﴾ بالبناءِ للمَفعولِ[١] فنائبُ الفاعلِ قولُه: ﴿رِبِّيُّونَ﴾، لا ضميرُ ﴿نَّبِيٍّ﴾، وتَطَرُّقُ الاحتِمالِ يَرُدُّ الاستِدلالَ، وأمَّا على القولِ بأنَّ غَلَبَةَ الرُّسلِ ونُصرتَهم بالحُجَّةِ والبُرهانِ، فلا إشكالَ في الآيةِ[٢].

٧- إنَّ لَفْظَ «الكتابةِ» يدُلُّ على اللُّزومِ والثُّبوتِ؛ إمَّا شَرْعًا، كقَولِه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، أو قَدَرًا، كقَولِه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[٣].

٨- الكتابةُ قِسمانِ: كتابةٌ شرعيَّةٌ، وهذه لا يَلْزَمُ منها وُقوعُ المكتوبِ -أي حصولُه في الواقعِ مِن كلِّ أحدٍ- مِثلُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]، وقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، والكتابةُ الثَّانيةُ: كتابةٌ كَونيَّةٌ، وهذه يَلزَمُ منها وُقوعُ المكتوبِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقَولِه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[٤]، فالكتابةُ الكونيَّةُ كتابةٌ بمعنى القدرِ، والكتابةُ الشَّرعيَّةُ كتابةٌ بمعنى الأمرِ[٥].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ في الكتابِ السَّابقِ الَّذي لا يُؤمِنونَ به أصلًا، ولا يُقِرُّون به بَتَّةً[٦]!

---

(١) قرأ بها نافعٌ وابنُ كثيرٍ والبصريَّانِ، وقرأ الباقونَ: ﴿قَٰتَلَ﴾. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥٩)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٥، ٥٥٦)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٣٩٩).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٨٤).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨١).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٥).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ عَقِبَ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ دليلٌ على أنَّ المُحَادَّةَ مغالَبَةٌ ومعاداةٌ حتَّى يكونَ أحدُ المُتَحادَّينِ غالبًا والآخرُ مَغلوبًا، وهذا إنَّما يكونُ بيْن أهلِ الحربِ لا أهلِ السِّلْمِ؛ فعُلِمَ أنَّ المُحَادَّ ليس بمُسالِمٍ، والغلبةَ للرُّسُلِ بالحُجَّةِ والقَهْرِ؛ فمَن أُمِرَ منهم بالحَربِ نُصِرَ على عَدُوِّه، ومَن لَمْ يُؤْمَرْ بالحربِ أُهْلِكَ عَدُوُّه[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّه لا يوجِدُ مؤمِنٌ يُوَادُّ كافِرًا؛ فمَن وَادَّ الكفَّارَ فليس بمؤمِنٍ، والمشابهةُ الظَّاهِرةُ مَظِنَّةُ المُوادَّةِ، فتكونُ مُحَرَّمةً[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّ مُوادَّةَ عَدُوِّ اللهِ تُنافي محبَّةَ الله، فأَخْبَرَ سُبحانَه أنَّ المؤمنَ الَّذي لا بُدَّ أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أَحَبَّ إليه ممَّا سِواهما -كما في الحَديثِ المتَّفَقِ عليه: ((لا يؤمِنُ أحدُكم حتَّى أكونَ أَحَبَّ إليه مِن وَلَدِه ووالِدِه والنَّاسِ أجمَعينَ))[٣]- لا تَجِدُه مُوادًّا لِمَن حادَّ اللهَ ورَسولَه؛ فإنَّ هذا جَمْعٌ بيْن ضِدَّيْنِ لا يجتَمِعانِ، ومحبوبُ اللهِ ومحبوبُ مُعاديه لا يجتَمِعانِ[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّه إذا كان بمُوادَّةِ المُحَادِّ لا يكونُ المرءُ مُؤمِنًا، فأَلَّا يكونَ مؤمنًا إذا حادَّ بطريقِ الأَولى والأَحرى[٥].

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٣).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٥٥١).

(٣) أخرجه البخاريُّ (١٥)، ومسلمٌ (٤٤) واللَّفظُ له مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٢٧٥).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٢٠٨).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّ ما يقومُ بالقَلبِ مِن تصديقٍ، وحُبٍّ للهِ ولرَسولِه، وتعظيمٍ: لا بُدَّ أنْ يَظْهَرَ على الجوارحِ، وكذلك بالعَكسِ؛ ولهذا يُستَدَلُّ بانتفاءِ اللَّازمِ الظَّاهرِ على انتفاءِ الملزومِ الباطنِ، كما في الحديثِ الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((ألَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه، ألَا وهي القلبُ))[١]، وكما قال مَن قال مِن السَّلفِ لِمَن رآه يَعبَثُ في الصَّلاةِ[٢]: «لو خَشَعَ قَلْبُ هذا لَخَشَعَتْ جوارحُه»[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّ الرَّجُلَ إذا كان يُوالي أعداءَ اللهِ بقَلبِه، كان ذلك دليلًا على أنَّ قلْبَه ليس فيه الإيمانُ الواجبُ[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّ شُعَبَ الإيمانِ قد تتلازَمُ عندَ القوَّةِ ولا تتلازمُ عندَ الضَّعفِ، فإذا قَوِيَ ما في القَلبِ مِن التَّصديقِ والمعرفةِ والمحَبَّةِ للهِ ورَسولِه، أوْجَبَ بُغْضَ أعداءِ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١]، وقد تحصُلُ للرَّجُلِ مُوادَّتُهم لِرَحِمٍ أو حاجةٍ، فتكونُ ذنْبًا يَنقُصُ به إيمانُه ولا يكونُ به كافرًا، كما

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٢)، ومسلمٌ (١٥٩٩) مطوَّلًا مِن حديثِ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضيَ الله عنهما.

(٢) وهو مرويٌّ عن حُذَيْفةَ وابنِ المُسيِّبِ، ورُويَ مرسَلًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٣٣٧).
وأثرُ (حذيفة) أخرجه المروزيُّ في ((تعظيم قدر الصلاة)) (١٥٠).
وأثرُ (ابن المسَيِّب) أخرجه ابن المبارك في ((الزهد)) (١١٨٨)، وعبدُ الرَّزَّاقِ (٣٣٠١)، وابنُ أبي شَيْبةَ (٦٨٥٤).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٨٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٧).

حَصَلَ مِن حاطبِ بنِ أبي بَلْتعةَ لَمَّا كاتَبَ المشركينَ ببَعضِ أخبارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنْزَلَ اللهُ تعالى فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[1] [الممتحنة: ١].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أنَّ المحبَّةَ الدِّينيَّةَ لا تجوزُ بيْن المؤمنِ والكافرِ[2].

١٨- قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ استدَلَّ مالِكٌ -رَحِمَه اللهُ- مِن هذه الآيةِ على مُعاداةِ القَدَريَّةِ وتَرْكِ مُجالَستِهم، وفي معنى أهلِ القَدَرِ جَميعُ أهلِ الظُّلمِ والعُدوانِ[3].

١٩- قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ استدَلَّ به مَن مَنَع تعزيةَ الكافرِ[4].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أنَّ مَن عَمِلَ بما عَلِمَ، أورَثَه اللهُ عِلْمَ ما لم يَعْلَمْ[5]، وأنَّ ما يَحصُلُ في القُلوبِ مِن الهُدى والنُّورِ والإيمانِ، هو مِن اللهِ تعالى بفَضْلِه ورَحمتِه[6].

٢١- إنَّ إضافةَ الرُّوحِ إلى اللهِ تعالى لا تدُلُّ على أنَّها صِفتُه، فَضلًا أنْ يكونَ هو اللهَ. وجبريلُ يُسمَّى رُوحَ اللهِ، والمسيحُ اسمُه رُوحُ اللهِ، والمضافُ إلى اللهِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٣٩).

(٦) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٤٥٩).

إذا كان ذاتًا قائِمةً بنَفْسِها فهو إضافةُ مملوكٍ إلى مالكٍ؛ كبَيْتِ اللهِ، وناقةِ اللهِ، ورُوحِ اللهِ، ليس المرادُ به بيتًا يَسكُنُه، ولا ناقةً يَركَبُها، ولا رُوحًا قائِمةً به، وقد قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢][١]، فما يُنزِلُه اللهُ في قُلوبِ أنبيائه ممَّا تحيا به قلوبُهم مِن الإيمانِ الخالصِ يُسَمِّيه رُوحًا، وهو ما يُؤيِّدُ اللهُ به المؤمِنينَ مِن عبادِه[٢].

٢٢- الرِّضا باللهِ هو أصلُ الرِّضا عنه، والرِّضا عنه هي ثمرةُ الرِّضا به، كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾، والسِّرُّ في ذلك أنَّ الرِّضا به مُتعَلِّقٌ بأسمائِه وصفاتِه، وأمَّا الرِّضا عنه فهو متعلِّقٌ بثَوابِه وجزائِه، فهو رضا العبدِ بما يَفعَلُه به ويُعطيه إيَّاه؛ ولهذا لم يَجِئْ إلَّا في الثَّوابِ والجزاءِ[٣].

٢٣- في قَولِه: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ سِرٌّ بديعٌ، وهو أنَّه لَمَّا سَخِطوا على القرائِبِ والعَشائِرِ في اللهِ، عَوَّضَهم اللهُ بالرِّضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم مِنَ النَّعيمِ المقيمِ، والفَوزِ العظيمِ، والفَضلِ العَميمِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتَعليلِ ما قبْلَه مِن خُسرانِ حزْبِ الشَّيطانِ[٥].

- ومَوقعُ هذه الآيةِ بعْدَ ما ذُكِرَ مِن أحوالِ المنافِقين يُشبِهُ مَوقعَ آيةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥١٥).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٨٤).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٣).

يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥]؛ فالَّذين يُحادُّون اللهَ ورسولَه المُتقدِّمُ ذِكرُهم هم المشرِكون المُعلِنون بالمُحادَّةِ، وأمَّا المُحادُّون المذكورونَ في هذه الآيةِ فهمُ المُسِرُّون للمُحادَّةِ المُتظاهِرون بالمُوالاةِ، وهم المنافِقون؛ فالجُملةُ استِئنافٌ بَيانيٌّ بيَّنَتْ شَيئًا مِن الخُسرانِ الَّذي قُضِيَ به على حزْبِ الشَّيطانِ الَّذي همْ في مُقدِّمتِه، وبهذا تَكتسِبُ هذه الجُملةُ معْنَى بدَلِ البعضِ مِن مَضمونِ جُملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]؛ لأنَّ الخُسرانَ يكونُ في الدُّنيا والآخرةِ، وخُسرانُ الدُّنيا أنواعٌ، أشَدُّها على النَّاسِ المَذَلَّةُ والهزيمةُ، والمعْنى: أنَّ حِزبَ الشَّيطانِ في الأذَلِّينَ والمَغلوبين[1].

- واستِحضارُ المنافِقين بصِلةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، فمُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقال: إنَّهم -أي: حِزبَ الشَّيطانِ- في الأذَلِّينَ؛ فأُخرِجَ الكلامُ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ إلى المَوصوليَّةِ؛ لإفادةِ مَدلولِ الصِّلةِ أنَّهم أعداءٌ للهِ تعالى ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإفادةِ المَوصولِ تَعليلَ الحكْمِ الواردِ بعْدَه، وهو كَونُهم أذَلِّينَ؛ لأنَّهم أعداءُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهمْ أعداءُ اللهِ القادرِ على كلِّ شَيءٍ، فعَدُوُّه لا يكونُ عزيزًا[2].

- قولُه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ في التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ (أُولَئِكَ): تَنبيهٌ على أنَّ المُشارَ إليهم جَديرونَ بما بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن الحكْمِ؛ بسَببِ الوَصْفِ الَّذي قبْلَ اسمِ الإشارةِ[3].

- ومُفادُ حرْفِ الظَّرفيَّةِ (في): أنَّهم كائِنون في زُمرةِ القومِ الموصوفينَ بأنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦).

أذَلُّونَ، أي: شَديدو المَذلَّةِ؛ ليَتصوَّرَهم السَّامعُ في كلِّ جَماعةٍ يَرى أنَّهم أذَلُّون، فيَكونُ هذا النَّظمُ أبلَغَ مِن أنْ يُقالَ: أولئك همُ الأذَلُّون(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ استئنافٌ واردٌ لتَعليلِ كونِهمْ في الأذلِّينَ، أي: لأنَّ اللهَ أراد أنْ يكونَ رسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غالبًا لأعدائِه، وذلك مِن آثارِ قُدرةِ الله الَّتي لا يَغلِبُها شَيءٌ، وقد كتَبَ لجَميعِ رُسلِه الغَلَبةَ على أعدائِهم، فغلَبَتُهم مِن غَلَبةِ اللهِ؛ إذ قُدرةُ اللهِ تَتعلَّقُ بالأشياءِ على وَفْقِ إرادتِه، وإرادةُ اللهِ لا يُغيِّرُها شَيءٌ(٢).

- والكلامُ مَسوقٌ مَساقَ التَّهديدِ، فالمُرادُ: الغَلَبةُ بالقوَّةِ، وأمَّا الغَلَبةُ بالحُجَّةِ فأمْرٌ مَعلومٌ(٣).

- وجُملةُ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ﴾ مُدْليةٌ بنَوعٍ مِن التَّوكيدِ، وبضَرْبٍ مِن التَّقريرِ؛ فهي مُؤكَّدةٌ بلامِ القسَمِ والنُّونِ وبالضَّميرِ(٤).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿لَأَغۡلِبَنَّ﴾؛ لأنَّ الَّذي يُغالِبُ الغالِبَ مَغلوبٌ(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦، ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٧).

هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

- افتِتاحُ الكلامِ بقولِه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾ يُثيرُ تَشويقًا إلى مَعرفةِ حالِ هؤلاء القومِ وما سيُساقُ في شأْنِهم مِن حُكْمٍ، والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمقصودُ منه أمْرُه بإبلاغِ المسلمينَ أنَّ مُوادَّةَ مَن يُعلَمُ أنَّه مُحادُّ اللهِ ورسولِه، هي ممَّا يُنافي الإيمانَ؛ ليَكُفَّ عنها مَن عَسى أنْ يكونَ مُتلبِّسًا بها، فالكلامُ مِن قِبَلِ الكِنايةِ عن السَّعي في نفْيِ وِجدانِ قومٍ هذه صِفتُهم، مِن قَبيلِ قولِهم: لا أرَيَنَّك هاهنا، أي: لا تَحضُرْ هنا[1].

وقيل: إنَّ هذا مِن بابِ تَنزيلِ الموجودِ الكائنِ مَنزِلةَ المَعدومِ الَّذي لا يُمكِنُ تَصوُّرُه إلَّا في خِزانةِ الخَيَالِ؛ فقد خُيِّلَ أنَّ مِن المُمتنِعِ المُحالِ أنْ تَجِدَ قَومًا مؤمنينَ يُوادُّون المشركين، والغرَضُ منه أنَّه لا يَنْبغي أنْ يكونَ ذلك، وحقُّه أنْ يَمتنعَ، ولا يُوجَدَ بحالٍ؛ مُبالَغةً في النَّهيِ عنه، والزَّجرِ عن مُلابَستِه، والتَّصلُّبِ في مُجانَبةِ أعداءِ اللهِ. وزاد ذلك تأكيدًا بقولِه: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾، وبقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾، وبمُقابَلةِ قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾، فلا تجدُ شيئًا أدخَلَ في الإخلاصِ مِن مُوالاةِ أولياءِ اللهِ ومُعاداةِ أعدائِه، بلْ هو الإخلاصُ بعَينِه[2].

- والمُوادَّةُ أصْلُها: حُصولُ المَوَدَّةِ في جانبَينِ، والنَّهيُ هنا إنَّما هو عن مَودَّةِ المؤمنِ الكافرينَ، لا عن مُقابَلةِ الكافرِ المؤمنينَ بالمَودَّةِ، وإنَّما جِيءَ بصِيغةِ المُفاعَلةِ هنا اعتبارًا بأنَّ شأْنَ الوُدِّ أنْ يَجلِبَ وُدًّا مِن المَودودِ للوادِّ، وإمَّا

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٩٦، ٢٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٠).

أنْ تكونَ المُفاعَلةُ كِنايةً عن كَونِ الوُدِّ صادقًا؛ لأنَّ الوادَّ الصَّادقَ يُقابِلُه المَودودُ بمِثلِه، ويُعرَفُ ذلك بشَواهدِ المُعامَلةِ، وقَرينةُ الكِنايةِ تَوجيهُ نفْيِ وِجدانِ الموصوفِ بذلك إلى القَومِ الَّذين يُؤمِنون باللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولذلك لم يَقُلِ اللهُ هنا: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: ٢٨]؛ لأنَّ المودَّةَ مِن أحوالِ القلْبِ، فلا تُتصوَّرُ معها التَّقيَّةُ، بخِلافِ قولِه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ إلى قولِه: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾[1] [آل عمران: ٢٨].

- قولُه: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ رُوعِيَ فيه تَرتيبٌ عَجيبٌ؛ فقد بدَأَ أوَّلًا بالآباءِ؛ لأنَّهم أدْعى إلى الاهتمامِ بهم؛ لوُجوبِ إخلاصِ الطَّاعةِ لهم، ومع ذلك نَهاهم عن مُوادَّتِهم؛ قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان: ١٥]، وثنَّى بالأبناءِ؛ لأنَّهم أعلَقُ بحَبَّاتِ القلوبِ، ثمَّ ثلَّثَ بالإخوانِ؛ لأنَّهم هم المَثابةُ عندَ الحاجةِ، والنَّاصرُ عندَ نُشوبِ الأزماتِ، ثمَّ ربَّعَ بالعشيرةِ؛ لأنَّها المُستغاثُ في الشَّدائدِ، وهي المَوئلُ والمَفزَعُ في النَّوائبِ، وهم المُسرِعون إلى النَّجدةِ[2].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ مُبالَغةٌ في نِهايةِ الأحوالِ الَّتي قد يُقدِمُ فيها المرْءُ على التَّرخُّصِ فيما نُهِيَ عنه بعِلَّةِ قُربِ القرابةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٩).

- وجُملةُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ الأوصافَ السَّابقةَ ووُقوعَها عقِبَ ما وُصِفَ به المنافِقون مِن مُحادَّةِ اللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سابقًا وآنِفًا، وما تَوعَّدَهم اللهُ به أنَّه أعَدَّ لهم عَذابًا شديدًا ولهم عَذابٌ مُهينٌ، وأنَّهم حِزبُ الشَّيطانِ، وأنَّهم الخاسِرون؛ ممَّا يَستشرِفُ بعْدَه السَّامعُ إلى ما سيُخبَرُ به عن المتَّصِفينَ بضِدِّ ذلك، وهم المؤمِنونَ الَّذين لا يُوادُّون مَن حادَّ اللهَ ورسولَه[1].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الَّذينَ لا يُوادُّونهم وإنْ كانوا أقرَبَ النَّاسِ إليهم وأمَسَّ رُحمًا، وما فيه مِن معْنى البُعدِ؛ لرِفعةِ دَرَجتِهم في الفضلِ[2].

- وجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ مُدْليةٌ بنَوعٍ مِن التَّوكيدِ، وبضرْبٍ مِن التَّقريرِ؛ وذلك بذِكْرِ القُلوبِ وإثباتِ الإيمانِ فيها، ثمَّ التَّوفيقِ بتأْييدِهم برُوحٍ مِن اللهِ، وإدخالِهم دارَ النَّعيمِ والخُلدِ المُقيمِ، ثم حُلولِ الرِّضوانِ، ورِضوانٌ مِن اللهِ أكبَرُ، وتَسميتِهم بحِزبِ اللهِ، ووَسْمِهم بسِمَةِ حَقيقةِ الفلاحِ والفوزِ بالمَباغي[3].

- قولُه: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾ التأْييدُ: التَّقويةُ والنَّصرُ، أي: إنَّ تأْييدَ اللهِ إيَّاهم قد حصَلَ وتقرَّرَ بالإتيانِ بفِعلِ المُضيِّ؛ للدَّلالةِ على الحصولِ وعلى التَّحقُّقِ والدَّوامِ، فهو مُستعمَلٌ في مَعنيَيْه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٠، ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

- قولُه: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ استِئنافٌ جارٍ مَجْرَى التَّعليلِ[١].

- وقولُه: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ بَيانٌ لابتِهاجِهم بما أُوتُوه عاجلًا وآجلًا[٢].

- ورِضا اللهِ عنهم حاصلٌ مِن الماضي ومُحقَّقُ الدَّوامِ؛ فهو مِثْلُ الماضي في قولِه: ﴿وَأَيَّدَهُم﴾، ورِضاهم عن ربِّهم كذلك حاصِلٌ في الدُّنيا بثَباتِهم على الدِّينِ ومُعاداةِ أعدائِه، وحاصلٌ في المُستقبَلِ بنَوالِ رِضا اللهِ عنهم ونَوالِ نَعيمِ الخُلودِ[٣].

- وتَحوَّلَ التَّعبيرُ مِن الماضي في قولِه: ﴿كَتَبَ﴾ ﴿وَأَيَّدَهُم﴾ إلى المضارِعِ في قولِه: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾؛ لأنَّه الأصلُ في الاستِقبالِ. وقد استُغنِيَ عن إفادةِ التَّحقيقِ بما تَقدَّمَه مِن قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾[٤].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِ﴾ تَشريفٌ لهُمْ ببَيانِ اختِصاصِهم بهِ عزَّ وجلَّ[٥].

- قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ بَيانٌ لاختِصاصِهم بالفوزِ بسَعادةِ الدَّارَينِ، والفوزِ بسَعادةِ النَّشأتَينِ. وحرْفُ التَّنبيهِ يَحصُلُ منه تَنبيهُ المسلمينَ إلى فضْلِهم، وتَنبيهُ مَن يَسمَعُ ذلك مِن المنافِقِين إلى ما حَبَا اللهُ به المسلمينَ مِن خَيرِ الدُّنيا والآخرةِ؛ لعلَّ المنافقين يَغبِطونهم فيُخلِصونَ الإسلامَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ الحَشْرِ

سورةُ الحَشْرِ

أسماءُ السُّورةِ:

١- سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحَشْرِ)[١].

فعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: (قُلْتُ لابنِ عبَّاسٍ: ... سورةُ الحَشْرِ، قال: نزَلتْ في بَني النَّضيرِ)[٢].

٢- سُمِّيتْ أيضًا بسورةِ بَني النَّضيرِ.

فعن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ أيضًا في روايةٍ، قال: (قلتُ لابنِ عبَّاسٍ: سورةُ الحَشْرِ. قال: قُلْ: سورةُ بني النَّضيرِ)[٣].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الحَشْرِ مَدَنيَّةٌ[٤]، .....

---

(١) سُمِّيَت سورةَ الحَشْرِ؛ لوُقوعِ لَفظِ الحَشْرِ فيها، ولكَونِها ذُكِرَ فيها حَشْرُ بَني النَّضيرِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٠٢٩)، ومسلمٌ (٣٠٣١).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٠٢٩).

قال ابنُ حَجَرٍ: (كأنَّه [أي: ابنَ عبَّاسٍ] كَرِه تسميتَها بالحَشْرِ؛ لِئلَّا يُظَنَّ أنَّ المرادَ يومُ القيامةِ، وإنَّما المرادُ به هنا إخراجُ بني النَّضيرِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٦٢٩).

وقال ابنُ عاشور: (ابنُ جُبَيرٍ سَمَّاها باسمِها المشهورِ، وابنُ عبَّاسٍ يُسَمِّيها سورةَ بني النَّضيرِ، ولعَلَّه لم يَبلُغْه تسميةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إيَّاها «سورةَ الحَشْرِ»؛ لأنَّ ظاهِرَ كَلامِه أنَّه يرى تسميتَها «سورةَ بني النَّضيرِ»؛ لِقَولِه لابنِ جُبَيرٍ: «قُلْ: بني النَّضيرِ»، وتأوَّلَ ابنُ حَجَرٍ كلامَ ابنِ عباسٍ على أنَّه كَرِهَ تَسميتَها بـ «الحَشْرِ»؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ المرادَ بالحَشْرِ يومُ القيامةِ. وهذا تأوُّلٌ بعيدٌ. وأحسَنُ مِن هذا أنَّ ابنَ عَبَّاسٍ أراد أنَّ لها اسمَينِ، وأنَّ الأمرَ في قَولِه: «قُلْ» للتَّخييرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير =

ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[١].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

١- الحديثُ عن غزوةِ بَني النَّضيرِ، ونصْرِ الله لعِبادِه المؤمنينَ، وخِذْلانِه للضَّالِّينَ[٢].

٢- ذِكرُ جانبٍ مِن أسماءِ الله تعالى الحسنى، وصِفاتِه العُلى[٣].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- افتُتِحَت سورةُ الحَشْرِ بتَنزيهِ اللهِ تعالى عمَّا لا يَليقُ به، وإظهارِ عِزَّتِه وحِكْمتِه في تَصريفِ الأُمورِ.

٢- الحديثُ عن غزوةِ بني النَّضيرِ، وما يَسَّرَ اللهُ تعالى مِن إجلائِهم، مع ما كانوا عليه مِن المَنَعةِ والحُصُونِ والعُدَّةِ.

٣- الحديثُ عن تقسيمِ أموالِ بني النَّضيرِ، وعن حِكمةِ اللهِ تعالى في إرشادِه النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى هذا التَّقسيمِ (أحكام الفيءِ).

٤- الثَّناءُ على المهاجِرينَ والأنصارِ.

= الزمخشري)) (٤/ ٤٩٨).

(١) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٣)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٢٨٠).

٥- كَشْفُ دخائِلِ المنافِقينَ الَّذين تحالَفوا مع اليَهودِ ضِدَّ المؤمِنينَ، وذِكْرُ جانبٍ مِن أقوالِهم الكاذِبةِ، ووُعودِهم الخادِعةِ.

٦- وَصفُ بني النَّضيرِ والمنافِقينَ بالجُبْنِ، وتفَرُّقِ الكَلِمةِ، وتنظيرُ حالِ تغريرِ المنافِقينَ لليَهودِ بتغريرِ الشَّيطانِ للَّذين يَكفُرونَ باللهِ، وتنَصُّلِه منهم يومَ القيامةِ.

٧- توجيهُ الأمرِ للمُؤمِنينَ بتَقْوى اللهِ، ونهيُهم عن التَّشَبُّهِ بالفاسِقينَ عن أمرِ اللهِ، والتَّذكيرُ بتفاوُتِ حالِ الفريقَينِ.

٨- بيانُ عَظَمةِ القُرآنِ وجلالَتِه، واقتضائِه خُشوعَ أهلِه.

٩- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بذِكرِ جانبٍ مِن أسماءِ اللهِ تعالى وصِفاتِه.

الآيات (١-٤)

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَبَّحَ﴾: أي: نَزَّهَ وبَرَّأَ مِن كلِّ عَيبٍ، وأصلُ (سبح) هنا: جِنسٌ مِن العِبادةِ[١].

﴿دِيَٰرِهِمْ﴾: أي: مَنازِلِهم، والدَّارُ: المَنزِلُ؛ اعتِبارًا بدوَرانِها الَّذي لها بالحائطِ، ثمَّ تُسمَّى البلدةُ دارًا، والدُّنيا كلُّها دارًا، والدَّارُ أيضًا: القبيلةُ، وأصلُ (دور): يدُلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِن حَوالَيْه[٢].

﴿ٱلْحَشْرِ﴾: أي: الجَمعِ والجلاءِ والإخراجِ، وأصلُ الحشرِ: الجمعُ مع سَوقٍ، وكلُّ جمْعٍ حشْرٌ، وقيل: الحَشْرُ: إخراجُ الجماعةِ عن مقرِّهم، وإزعاجُهم عنه إلى الحربِ ونحوِها، وأصلُ (حشر): السَّوقُ والبَعْثُ والانْبِعاثُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٤)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (١/ ٤١٣).

﴿حُصُونُهُم﴾: الحصونُ جمْعُ حِصْنٍ، وهو كلُّ مَوضِعٍ حَصينٍ لا يوصَلُ إلى جَوفِه، وأصلُ (حصن): الحِفظُ والحِياطةُ والحِرزُ[١].

﴿لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾: أي: لم يَظُنُّوا، ولم يَخطُرْ ببالِهم، ويَحتسِبُ مُبالَغةٌ في الحِسبانِ، أي: الظَّنِّ، يُقالُ: حَسِبتُ كذا حِسبانًا في معنى ظَنَنْت، وأصلُ (حسب) هنا: العَدُّ، ومنه الحِسْبانُ؛ لأنَّه إذا قال: حَسِبْتُه كذا، فكأنَّه قال: هو في الَّذي أعُدُّه مِن الأمورِ الكائِنَةِ[٢].

﴿وَقَذَفَ﴾: أي: ألْقى، وأصلُ (قذف): يدُلُّ على الرَّميِ والطَّرحِ[٣].

﴿ٱلرُّعْبَ﴾: أي: الخوفَ والهَلَع والجَزَعَ، وقيل: الرُّعب هو الخَوفُ الَّذي يَملأُ الصَّدرَ والقلبَ، وقيل: إنَّه أشدُّ الخوفِ، وأصلُ (رعب) هنا: الخَوفُ[٤].

﴿فَٱعْتَبِرُواْ﴾: أي: فاتَّعِظوا، والاعتِبارُ والعِبْرةُ: الدَّلالةُ بالشَّيءِ على مِثلِه، وحقيقتُها الحالةُ الَّتي يُتوصَّلُ بها مِن مَعرِفةِ المُشاهَدِ إلى ما ليس بمُشاهَدٍ، وأصلُ (عبر): يدُلُّ على النُّفوذِ والمُضِيِّ في الشَّيءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((روح المعاني)) للخلوتي (٩/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (١/ ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فاس (٢/ ٥٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٩)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢/ ٥٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٠٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٣/ ٢٣).

وقال ابن فارس: (كأنَّه قال: انظُروا إلى مَن فعَل ما فعَل، فعُوقِب بما عُوقِب به، فتجَنَّبوا مِثلَ صَنيعِهم؛ لئلَّا يَنزِلَ بكم مِثلُ ما نزَل بأولئك). ((مقاييس اللغة)) (٤/ ٢١٠).

﴿ٱلْجَلَآءَ﴾: أي: الإخلاءَ، والخُروجَ مِن الوَطنِ، وأصلُ (جلو): يدُلُّ على الكَشفِ الظَّاهِرِ[1].

﴿شَآقُّواْ﴾: أي: حَاربُوا وخَالَفُوا، وصارُوا فِي شِقٍّ غيرِ شِقِّه، وأصلُ (شقق): يدُلُّ على انصِداعٍ في الشَّيءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأت هذه السُّورةُ الكريمةُ بالإخبارِ بأنَّه نزَّه اللهَ تعالى عن العُيوبِ والنَّقائِصِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ والأرضِ مِن المخلوقاتِ، واللهُ هو العزيزُ الَّذي لا يَغلِبُه شَيءٌ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به.

ثمَّ بيَّن الله تعالى جانبًا مِن مَظاهرِ فضلِه على المؤمنينَ، حيثُ نصَرهم على أعدائِهم، فقال: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي أخرَجَ يَهودَ بَني النَّضيرِ مِن مَنازِلِهم حَولَ المدينةِ لأوَّلِ جَمعٍ لليَهودِ، وإجلاءٍ لهم مِن المدينةِ، ما ظَنَنْتُم -يا أصحابَ النَّبيِّ- أن يَخرُجَ يهودُ بَني النَّضيرِ مِن مَنازِلِهم، وظنَّ أولئك اليهودُ أنَّ حُصونَهم ستَمنَعُهم مِن بأسِ اللهِ، فأنزَلَ اللهُ بهم بأسَه وعذابَه مِن حيثُ لم يَخطُرْ ببالِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٢).

قال الماوَرْدي: (الفرقُ بيْنَ الجَلاءِ والإخراجِ -وإن كان معناهما في الإبعادِ واحدًا- مِن وجهَينِ؛ أحدُهما: أنَّ الجَلاءَ ما كان مع الأهلِ والولدِ، والإخراجَ قد يكونُ مع بقاءِ الأهلِ والولدِ. الثَّاني: أنَّ الجَلاءَ لا يكونُ إلَّا لجماعةٍ، والإخراجَ يكونُ لجماعةٍ ولواحدٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

وأَلْقَى في قُلوبِهم الخَوفَ، يُخْرِبونَ مَساكِنَهم بأيديهم، وهم الَّذين ألجؤُوا المؤمنينَ إلى تخريبِها؛ فاتَّعِظوا يا أصحابَ البصائِرِ والعقولِ والأفهامِ بعاقِبةِ أولئك اليَهودِ.

ولولا أنْ كَتَبَ اللهُ وقدَّرَ على يَهودِ بَني النَّضيرِ إخراجَهم مِن دِيارِهم، لَعذَّبَهم في الدُّنيا، ولهم عذابُ النَّارِ في الآخِرةِ، وإنَّما استَحَقُّوا الجَلاءَ في الدُّنيا، وعذابَ النَّارِ في الآخِرةِ؛ لأنَّهم خالَفوا اللهَ ورسولَه وعادَوهما، ومَن يُخالِفِ اللهَ ويُعادِه فإنَّ اللهَ يُعاقِبُه عِقابًا شَديدًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: نزَّه اللهَ عن العُيوبِ والنَّقائِصِ جَميعُ ما في السَّمَوَاتِ وجميعُ ما في الأرضِ مِن المخلوقاتِ[1].

كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٣، ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

قال ابن كثير: (يخبرُ تعالى أنَّ جميعَ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِن شَيءٍ يُسبِّحُ له ويُمَجِّدُه ويُقَدِّسُه، ويُصَلِّي له ويوَحِّدُه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٦).

وقال ابن جرير: (يَعْني بقولِه جَلَّ ثَناؤُه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾: صَلَّى لله، وسَجَد له). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٦).

ويُنظر ما تقدَّم في أوَّل سورة الحديد (ص: ١٢).

قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الجمعة: ١].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

أي: واللهُ هو العزيزُ الَّذي لا يمتَنِعُ عليه شَيءٌ، ولا يَغلِبُه شَيءٌ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به[١].

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ١] بيَّن بعضَ آثارِ عِزَّتِه، وأحكامِ حِكمتِه[٢]، ودلَّ عليهما بدَليلٍ شُهوديٍّ مِن أنَّه أنفَذَ ما كَتَب مِن أنَّه يَغلِبُ هو ورسُلُه، ومِن أنَّه كَبَت الَّذين حادُّوه، وخَيَّب ظَنَّ الَّذين نافَقوا، فتوَلَّوُا اليهودَ مِن أهلِ الكِتابِ؛ لِيَعتَزُّوا بهم، فأذَلَّ اليَهودَ وطَرَدَهم مِن مَهبِطِ الوَحيِ، وأخزَى المنافِقينَ الَّذين جَعَلوهم مَحَطَّ اعتمادِهم، ومَوضِعَ وَلايتِهم ووِدادِهم[٣].

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾.

أي: هو وَحْدَه الَّذي أخرَجَ يَهودَ بَني النَّضيرِ مِن مَنازِلِهم ودُورِهم حَولَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٦).

المدينةِ لأوَّلِ جَمعٍ لليَهودِ، وإجلاءٍ لهم مِن المدينةِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٦-٤٩٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٦-٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٦، ٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٦).

قال الرازي: (قولُ ابنِ عبَّاسٍ والأكثَرينَ أنَّ هذا أوَّلُ حشرِ أهلِ الكتابِ، أي: أوَّلُ مرَّةٍ حُشِروا وأُخرِجوا مِن جزيرةِ العرَبِ، لم يُصِبْهم هذا الذُّلُّ قبْلَ ذلك؛ لأنَّهم كانوا أهلَ مَنَعةٍ وعزٍّ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠١، ٥٠٢).

وقال السعدي: (وكان إخراجُهم منها [أي: المدينةِ] أوَّلَ حشرٍ وجَلاءٍ كتَبَه اللهُ عليهم على يدِ رسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فجُلوا إلى خَيْبَرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

وقال الشوكاني: (وقد أجمَع المفسِّرونَ على أنَّ هؤلاء المذكورينَ في الآيةِ هم بنو النَّضيرِ، ولم يخالِفْ في ذلك إلَّا الحسَنُ البصريُّ فقال: هم بنو قُرَيْظةَ، وهو غلَطٌ؛ فإنَّ بني قُرَيظةَ ما حُشِروا، بل قُتِلوا بحُكمِ سعدِ بنِ مُعاذٍ لَمَّا رضُوا بحُكمِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٢).

وقال ابنُ القيِّم: (زعَم محمَّدُ بنُ شِهابٍ الزُّهْريُّ أنَّ غزوةَ بني النَّضيرِ كانت بعدَ بدرٍ بستَّةِ أشهرٍ، وهذا وهمٌ منه أو غلَطٌ عليه، بل الَّذي لا شكَّ فيه أنَّها كانت بعدَ أُحُدٍ). ((زاد المعاد)) (٣/ ٢٢٣). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٠٧)، ((الروض الأُنُف)) للسهيلي (٦/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٤)، ((إمتاع الأسماع)) للمقريزي (٨/ ٣٥٩).

وقال البقاعي: (مَن زَعَم أنَّ شيئًا ممَّا في هذه السُّورةِ نُسِخَ بشَيءٍ مِمَّا في سورةِ الأنفالِ، فقد أخطَأَ؛ لأنَّ الأنفالَ نَزَلت في بَدْرٍ، وهي قبْلَ هذه بمدَّةٍ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٣٤).

ونقَلَ ابنُ عطيَّةَ الاتِّفاقَ على أنَّ الحشرَ: الجمْعُ والتَّوجيهُ إلى ناحيةٍ ما. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٣).

قال ابن جُزَي: (﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ في معناه أربعةُ أقوالٍ:

أحدها: أنَّه حشْرُ القيامةِ، أي: خُروجُهم مِن حُصونِهم أوَّلُ الحَشرِ، والقيامُ مِن القُبورِ آخِرُه...

الثَّاني: أنَّ المعنى: لأوَّلِ مَوضِعِ الحَشرِ، وهو الشَّامُ؛ وذلك أنَّ أكثَرَ بَني النَّضيرِ خرَجوا إلى الشَّامِ...

الثَّالثُ: أنَّ المرادَ: الحشرُ في الدُّنيا الَّذي هو الجَلاءُ والإخراجُ، فإخراجُهم مِن حُصونِهم أوَّلُ الحَشرِ، وإخراجُ أهلِ خَيْبَرَ آخِرُه.

الرَّابعُ: أنَّ معناه: إخراجُهم مِن ديارِهم لأوَّلِ ما حَشر لِقتالِهم؛ لأنَّه أوَّلُ قتالٍ قاتَلَهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٧). =

عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ أنَّه سألَ ابنَ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما عن سورةِ الحَشرِ، قال: (نزَلَت في بَني النَّضيرِ)[١].

﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ﴾.

أي: ما ظَنَنْتُم -يا أصحابَ النَّبيِّ- أن يَخرُجَ يهودُ بَني النَّضيرِ مِن مَنازِلِهم ودُورِهم، ويَترُكوا لكم أموالَهم حينَ حاصَرْتُم حُصونَهم المنيعةَ[٢].

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وظنَّ أولئك اليهودُ أنَّ حُصونَهم ستَحميهم مِن بأسِ اللهِ، فتتعَذَّرُ هزيمتُهم[٣].

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾.

أي: فأنزَلَ اللهُ بهم بأسَه وعذابَه مِن حيثُ لم يَخطُرْ ببالِهم[٤].

= فعلى اعتبارِ أنَّ المرادَ بالحشرِ أرضُ المَحشَرِ -وهي الشَّامُ- فتَكونُ الأوَّليَّةُ مَكانيَّةً، أي: لأوَّلِ مكانٍ مِن أرضِ المَحشَرِ، وهي أرضُ الشَّامِ، وأوائلُه خَيْبرُ وأَذْرِعاتٍ.

وعلى اعتبارِ أنَّ المرادَ بالحشرِ: الجمعُ، فقد حَشدَ الرَّسولُ لقتالِهم، وهو أوَّلُ قِتالٍ قاتَلَهم: فتكونُ الأوَّليَّةُ زمانيَّةً، وتَقتضي حشرًا بعْدَه. يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٥).

(١) رواه البخاريُّ (٤٠٢٩)، ومسلمٌ (٣٠٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٧، ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

قال الشوكاني: (﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ أي: أتاهم أمْرُ اللهِ مِن حيث لم يَخطُرْ ببالِهم أنَّه يأتيهم أمْرُه مِن تلك الجهةِ، وهو أنَّه سُبحانَه أمَر نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بقِتالِهم وإجلائِهم، وكانوا لا يَظُنُّون ذلك. وقيل: هو قتْلُ رئيسِهم كعبِ بنِ الأشرَفِ، قاله ابنُ جُرَيجٍ والسُّدِّيُّ وأبو صالحٍ؛ فإنَّ قتْلَه أضعَفَ شَوكَتَهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٣). =

كما قال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾.

أي: وأَلْقى اللهُ تعالى في قُلوبِهم الخَوفَ والهَلَعَ حينَ حاصَرَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابُه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

وعن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ[(٢)]))[(٣)].

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

= وقال السعدي: (قال: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ أي: مِن الأمرِ والبابِ الَّذي لم يَخطُرْ ببالِهم أن يُؤْتَوا منه، وهو أنَّه تعالى «قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ»). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

قال ابن عاشور: (حَصَل الرُّعبُ في قلوبِهم دَفعةً دونَ سابِقِ تأمُّلٍ، ولا حُصولِ سَبَبٍ للرُّعبِ... والمعنى: وجَعَل اللهُ الرُّعبَ في قلوبِهم، فأسرعوا بالاستِسلامِ. وقذْفُ الرُّعبِ في قلوبِهم هو مِن أحوالِ إتيانِ اللهِ إيَّاهم مِن حيثُ لم يحتَسِبوا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧١).

(٢) أي: نَصَرني اللهُ بإلقاءِ الخَوفِ في قُلوبِ أعدائي مِن مَسيرَةِ شَهرٍ، يَعْني: بيْني وبيْنَهم مِن سائرِ نواحي المَدينةِ وجَميعِ جِهاتِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٧٤)، ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمُناوي (١/ ١٧٢).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٣٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٥٢١).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿يُخَرِّبُونَ﴾ بالتَّشديدِ، أي: يُهَدِّمون(١).

٢- قراءة ﴿يُخْرِبُونَ﴾ بالتَّخفيفِ. قيل: بمعنَى التَّركِ والتَّعطيلِ، أي: يَترُكون بُيوتَهم ويُعطِّلونها، تقولُ: أخرَبْتُ المكانَ، إذا خرَجْتَ عنه وترَكْتَه. وقيل: بمعنى الهدمِ، فيَجري ذلك مَجرى أكرَمتُ وكرَّمْتُ، وكذلك خرَّبتُ وأخرَبتُ(٢).

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: هم جَعَلوا مَساكِنَهم خرابًا بأيديهم، وهم مَن ألجؤُوا المؤمنينَ إلى تخريبِها(٣).

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

---

(١) قرأ بها أبو عَمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٦٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٠٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٦٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٧، ٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).
قال ابنُ جُزَي: (أمَّا إخرابُ المؤمنينَ فهو هدمُ أسوارِ الحُصونِ لِيَدخُلوها، وأسنَدَ ذلك إلى الكُفَّارِ في قولِه: ﴿يُخْرِبُونَ﴾؛ لأنَّه كان بسَبَبِ كُفرِهم وغَدرِهم، وأمَّا إخرابُ الكُفَّارِ لِبُيوتِهم فلثلاثةِ مَقاصِدَ؛ أحدُها: حاجتُهم إلى الخَشَبِ والحِجارةِ؛ لِيَسُدُّوا بها أفواهَ الأزِقَّةِ، ويحَصِّنوا ما خَرَّبه المسلمون مِن الأسوارِ. والثَّاني: لِيَحمِلوا معهم ما أعجبَهم مِن الخَشَبِ والسَّواري وغيرِ ذلك. والثَّالثُ: ألَّا تَبقى مساكِنُهم مَبنيَّةً للمُسلِمينَ، فهَدَموها شُحًّا عليها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٧، ٣٥٨).

أي: فاتَّعِظوا يا أصحابَ البصائرِ والعقولِ والأفهامِ بما أحلَّ الله بهؤلاء اليَهودِ فلم تمنَعْهم قوَّتُهم، ولا حصَّنَتْهم حُصونُهم، وتفكَّروا في عاقِبةِ مَن خالَفَ أمْرَ الله، وخالَف رسولَه؛ فإنَّ في هذا مُعتبَرًا[١].

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾.

أي: ولولا أنَّ اللهَ قضى وقدَّرَ على يَهودِ بَني النَّضيرِ إخراجَهم مِن دِيارِهم إلى بلادٍ أُخرى لَعذَّبَهم في الدُّنيا[٢].

﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾.

أي: ولهم مع جَلائِهم في الدُّنيا عذابُ النَّارِ في الآخِرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

قال ابن عاشور: (الاعتبارُ: النَّظرُ في دَلالةِ الأشياءِ على لَوازِمِها وعواقِبِها وأسبابِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٢). ويُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيميَّة (٥/ ١٠٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (٥/ ٢٥٩)، ((البحر المحيط في أصول الفقه)) للزركشي (٧/ ٢٨-٣٠).

وقال القرطبي: (ومِن جملةِ الاعتبارِ هنا أنَّهم اعتصَموا بالحُصونِ مِن الله، فأنزَلهم اللهُ منها. ومِن وُجوهِه: أنَّه سلَّط عليهم مَن كان يَنصرُهم. ومِن وُجوهِه أيضًا: أنَّهم هدَموا أموالَهم بأيديهم). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥).

وقولُه: ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي: يا أصحابَ العقولِ والألبابِ. وقيل: يا مَن عايَنَ ذلك ببصَرِه، فهو جمْعٌ للبصرِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٤، ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٣).

قال ابن القيِّم: (التَّعذيبُ في الدُّنيا هو القِتالُ والإهلاكُ). ((أحكام أهل الذمة)) (٣/ ١٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن =

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى بما نالهم في الدُّنيا، ويَنالُهم في الآخِرةِ؛ عَلَّلَه بقَولِه[1]:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: إنَّما استَحَقَّ يَهودُ بَني النَّضيرِ الجَلاءَ في الدُّنيا، وعذابَ النَّارِ في الآخِرةِ؛ لأنَّهم خالَفوا اللهَ ورسولَه وعادَوهما[2].

﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: ومَن يُخالِفِ اللهَ في أمرِه ونَهْيِه ويُعادِه فإنَّ اللهَ يُعاقِبُه عِقابًا شَديدًا[3].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- افتِتاحُ السُّورةِ بالإخبارِ عن تَسبيحِ ما في السَّمواتِ والأرضِ للهِ تعالى، تَذكيرٌ للمؤمنينَ بتَسبيحِهم للهِ تَسبيحَ شُكْرٍ على ما أنالَهُم مِن فتْحِ بِلادِ بني النَّضيرِ، فكأنَّه قال: سبِّحوا للهِ كما سبَّح له ما في السَّمواتِ والأرضِ[4].

= كثير)) (٨/ ٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (جَعَل سَبَبَ استحقاقِهم العذابَ في الدُّنيا، وعذابَ النَّارِ في الآخرةِ: هو مُشاقَّةَ اللهِ ورسولِه، والمؤذي للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُشاقٌّ للهِ ورَسولِه...، والعذابُ هنا هو الإهلاكُ بعذابٍ مِن عندِه أو بأيدِينا، وإلَّا فقد أصابهم ما دونَ ذلك مِن ذَهابِ الأموالِ، وفِراقِ الأوطانِ). ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) (ص: ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٤).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ هو الخَوفُ الشَّديدُ الَّذي هو جُندُ اللهِ الأكبَرُ، الَّذي لا يَنفَعُ معه عَدَدٌ ولا عُدَّةٌ، ولا قوَّةٌ ولا شِدَّةٌ، فالأمرُ الَّذي يحتَسِبونَه ويَظنُّونَ أنَّ الخَلَل يَدخُلُ عليهم منه إن دخَل: هو الحُصونُ الَّتي تحصَّنوا بها، واطمأنَّت نُفوسُهم إليها، ومَن وَثِقَ بغيرِ اللهِ فهو مخذولٌ، ومَن رَكَن إلى غيرِ اللهِ فهو عليه وَبالٌ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ يدُلُّ على الأمرِ بالاعتِبارِ، وهو اعتِبارُ النَّظيرِ بنَظيرِه، وقياسُ الشَّيءِ على مِثْلِه، والتَّفَكُّرُ فيما تضَمَّنَتْه الأحكامُ مِن المعاني والحِكَمِ الَّتي هي محَلُّ العَقلِ والفِكرةِ، وبذلك يَزدادُ العَقلُ، وتتنوَّرُ البصيرةُ، ويَزدادُ الإيمانُ، ويَحصُلُ الفَهمُ الحقيقيُّ[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾ يدُلُّ على أنَّ لهم حَشرًا وجَلاءً غَيرَ هذا؛ فقد وقع حينَ أجلاهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن خَيبَرَ، ثمَّ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه أخرَجَ بَقيَّتَهم منها[٣]. وهذا بِناءً على أنَّ الأوَّليَّةَ زمانيَّةٌ، وأنَّه أوَّلُ حشرٍ وجَلاءٍ كتبه الله عليهم.

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ إنَّما ذَكَر اللهُ تعالى ذلك؛ تعظيمًا لهذه النِّعمةِ؛ فإنَّ النِّعمةَ إذا ورَدَت على المرءِ والظَّنُّ بخِلافِه، تكونُ أعظَمَ؛ فالمسلِمونَ ما ظَنُّوا أنَّهم يَصِلونَ إلى مُرادِهم في خروجِ هؤلاءِ اليَهودِ، فيَتخَلَّصونَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٩).

مِن ضَرَرِ مَكايِدِهم، فلمَّا تيسَّرَ لهم ذلك كان وَقْعُ هذه النِّعمةِ أعظَمَ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ يدُلُّ على أنَّ الأمورَ كُلَّها لله؛ وذلك لأنَّ الآيةَ دَلَّت على أنَّ وُقوعَ ذلك الرُّعبِ في قُلوبِهم كان مِنَ اللهِ، ودلَّت على أنَّ ذلك الرُّعبَ صار سَبَبًا في إقدامِهم على بعضِ الأفعالِ، وبالجُملةِ فالفِعلُ لا يحصُلُ إلَّا عندَ حُصولِ داعيةٍ مُتأكِّدةٍ في القَلبِ، وحُصولُ تلك الدَّاعيةِ لا يكونُ إلَّا مِنَ اللهِ؛ فكانت الأفعالُ بأسْرِها مُسنَدةً إلى اللهِ تعالى بهذا الطَّريقِ(٢).

٤- الإتيانُ والمجيءُ مِنَ اللهِ تعالى نوعانِ: مُطلَقٌ، ومُقيَّدٌ؛ فإذا كان مجيءَ رَحمتِه أو عذابِه كان مُقيَّدًا... النَّوعُ الثَّاني: المجيءُ والإتيانُ المُطلَقُ، كقَولِه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقَولِه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وهذا لا يكونُ إلَّا مجيئَه سُبحانَه... ومِنَ المجيءِ المقيَّدِ قَولُه: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، فلمَّا قَيَّده بالمفعولِ -وهو البُنيانُ- وبالمجرورِ -وهو القواعِدُ- دَلَّ ذلك على مجيءٍ ما بَيَّنَه، وهذا يُشبِهُ قَولَه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾، فهذا مجيءٌ مُقيَّدٌ لِقَومٍ مخصوصينَ قد أوقَعَ بهم بَأْسَه، وعَلِمَ السَّامِعون أنَّ جُنودَه مِنَ الملائكةِ والمسلِمينَ أَتَوهم، فكان في هذا السِّياقِ ما يدُلُّ على المرادِ، على أنَّه لا يمتَنِعُ في الآيتَينِ أن يكونَ الإتيانُ على حقيقتِه، ويكونَ ذلك دُنُوًّا ممَّن يريدُ إهلاكَهم بغَضَبِه وانتِقامِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٥٠٣).

كما يَدنو عَشِيَّةَ عَرَفةَ مِنَ الحُجَّاجِ برَحمتِه ومَغفرتِه[١]، ولا يَلزَمُ مِن هذا الدُّنُوِّ والإتيانِ المُلاصَقةُ والمُخالَطةُ، بل يأتي هؤلاءِ برَحمتِه وفَضْلِه، وهؤلاء بانتقامِه وعُقوبتِه، وهو فَوقَ عَرْشِه؛ إذ لا يكونُ الرَّبُّ إلَّا فوقَ كُلِّ شَيءٍ، ففَوقيَّتُه وعُلُوُّه مِن لَوازمِ ذاتِه، ولا تناقُضَ بيْن نُزولِه ودُنُوِّه، وهبوطِه ومجيئِه، وإتيانِه وعُلُوِّه؛ لإحاطتِه وسَعَتِه وعَظَمتِه، وأنَّ السَّمَواتِ والأرضَ في قَبْضَتِه، وأنَّه مع كَونِه الظَّاهِرَ الَّذي ليس فَوقَه شَيءٌ، فهو الباطِنُ الَّذي ليس دُونَه شَيءٌ[٢].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ مَنطوقُه أنَّ الرُّعبَ سَبَبٌ مِن أسبابِ هزيمةِ اليَهودِ، ومفهومُ المُخالَفةِ يدُلُّ على أنَّ العَكسَ بالعَكسِ، أي: أنَّ الطُّمَأنينةَ -وهي ضِدُّ الرُّعبِ- سَبَبٌ مِن أسبابِ النَّصرِ، وهو ضِدُّ الهزيمةِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ حُجَّةٌ في إخرابِ بلادِ العَدُوِّ للنِّكايةِ[٤] أثناءَ الحِصارِ.

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إن قيل: كيف قال:

---

(١) قال ابن تيميَّة: (الرَّبُّ سُبْحانَه إذا وَصَفَه رَسولُه صلَّى الله عليه وسَلَّم بأنَّه يَنزِلُ إلى سماءِ الدُّنْيا كُلَّ لَيلةٍ، وأنَّه يَدْنو عَشِيَّةَ عَرَفةَ إلى الحُجَّاجِ، وأنَّه كَلَّم موسَى في الوادي الأيمَنِ في البُقْعةِ المُبارَكةِ مِن الشَّجَرةِ، وأنَّه استَوَى إلى السَّماءِ وهي دُخَانٌ...: لم يَلْزَمْ مِن ذلك أن تكونَ هذه الأفعالُ مِن جِنْسِ ما نُشاهِدُه مِن نُزولِ هذه الأعيانِ المشهودةِ حتَّى يُقالَ: ذلك يَستَلزِمُ تَفريغَ مكانٍ وشَغْلَ آخَرَ! فإنَّ نُزولَ الرُّوحِ وصُعودَها لا يَستَلزِمُ ذلك، فكيف برَبِّ العالَمينَ؟! وكذلك الملائكةُ لهم صعودٌ ونُزولٌ مِن هذا الجنسِ. فلا يجوزُ نَفْيُ ما أثْبَتَه اللهُ ورَسولُه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، ولا يجوزُ تَمثيلُ ذلك بصِفاتِ المخلوقاتِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٤٤٨، ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٧).

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولا يُتصَوَّرُ أن يُخرِبوا بُيوتَهم بأيدي المؤمِنينَ؟

فالجوابُ: إنَّما أضاف إليهم؛ لأنَّهم هم الَّذين ألجؤُوا المؤمِنينَ إلى التَّخريبِ، وحَمَلوهم على ذلك؛ بسَبَبِ امتِناعِهم عن الإيمانِ وكُفرِهم، ونَقْضِهم العهدَ وغَدرِهم، فكأنَّهم كلَّفوهم إيَّاه، وأمَرُوهم به[١].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ فيه أنَّ الاعتبارَ أحدُ قوانينِ الشَّرعِ، ومَن لم يَعتَبِرْ بغَيرِه، اعتبَرَ به غيرُه[٢].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ استُدِلَّ به على حُجِّيَّةِ القياسِ، وأنَّه فَرضُ كفايةٍ على المجتَهِدينَ؛ لأنَّ الاعتبارَ: قياسُ الشَّيءِ بالشَّيءِ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أنَّه سُبحانَه كما يُنْكِرُ التَّسويةَ بيْنَ المُختَلِفاتِ، فهو يُسَوِّي بيْن المُتماثِلاتِ[٤]، فالشَّارعُ حكيمٌ لا يُفرِّقُ بيْنَ متماثِلَينِ إلَّا لاختِصاصِ أحدِهما بما يُوجِبُ الاختِصاصَ، ولا يُسوِّي بيْنَ مُختَلِفَينِ غيرِ مُتساوِيَينِ، فقال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾، والاعتبارُ إنَّما يكونُ إذا سَوَّى بيْن المتماثِلَينِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٧، ٣٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٥٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٨٩).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١٢٧).

١١- الاعتبارُ والقياسُ نَوعانِ: قياسُ الطَّردِ، وقياسُ العَكسِ؛ فقياسُ الطَّردِ: اعتِبارُ الشَّيءِ بنَظيرِه حتَّى يُجعَلَ حُكمُه مِثلَ حُكْمِه. وقياسُ العَكسِ: اعتِبارُ الشَّيءِ بنَقيضِه حتَّى يُعلَمَ أنَّ حُكمَه نَقيضُ حُكمِه. وقَولُه تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ يَتناوَلُ الأمْرَينِ؛ فيَعتَبِرُ العاقِلُ بتعذيبِ اللهِ لِمَن كَذَّب رُسُلَه، كما فَعَل ببَني النَّضيرِ؛ حتَّى يَرغَبَ في نقيضِ ذلك، ويَرهَبَ مِن نظيرِ ذلك، فيَستَعمِل قياسَ الطَّردِ في الرَّهبةِ، وقياسَ العَكسِ في الرَّغبةِ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ﴾ حُجَّةٌ في الكِتابةِ القَدَريَّةِ على مَن يُنْكِرُها[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وُجوبُ قَتلِ سابِّ اللهِ ورسولِه، وانتقاضُ عَهْدِه؛ لأنَّ التَّعذيبَ في الدُّنيا هو القتالُ والإهلاكُ، ثمَّ عَلَّلَ ذلك بالمُشَاقَّةِ، وأَخَّرَ عنهم ذلك التَّعذيبَ؛ لِمَا سَبَق مِن كتابةِ الجَلاءِ عليهم، فمَن وُجِدَتْ منه المُشَاقَّةُ مِن غَيرِهم ممَّن لَمْ يُكْتَبْ عليه الجَلاءُ، استحَقَّ عذابَ الدُّنيا الَّذي أَخَّرَه عن أولئك[٣].

١٤- إن قيل: إنَّ (لولا) تُفيدُ انتِفاءَ الشَّيءِ لِثُبوتِ غيرِه، فيَلزَمُ مِن ثُبوتِ الجَلاءِ عدَمُ التَّعذيبِ في الدُّنيا، لكنَّ الجَلاءَ نَوعٌ مِن أنواعِ التَّعذيبِ، فإذًا يَلزَمُ مِن ثُبوتِ الجَلاءِ عدَمُه، وهو محالٌ!

والجوابُ: أنَّ معناه: ولولا أن كتَبَ اللهُ عليهم الجَلاءَ لَعَذَّبهم في الدُّنيا بالقتلِ

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٣/ ١٣٩٤).

كما فعَل بإخوانِهم بَني قُرَيْظَةَ[١]. فـ(لولا) حرفُ امتِناعٍ لِوُجودٍ، تُفيدُ امتِناعَ جوابِها مِن أجْلِ وُجودِ شَرْطِها، أي: وُجودُ تقديرِ الله جَلاءَهم سببٌ لانتِفاءِ تعذيبِ الله إيَّاهم في الدُّنيا بعذابٍ آخَرَ، فلو لم يُعاقِبْهم اللهُ بالجَلاءِ لَعاقَبَهم بالقتلِ والأَسْرِ؛ لأنَّهم استَحَقُّوا العِقابَ، فالمُرادُ بالتَّعذيبِ: الألمُ المحسوسُ بالأبدانِ بالقتلِ والجرحِ والأسْرِ والإهانةِ، وإلَّا فإنَّ الإخراجَ مِن الدِّيارِ نَكْبَةٌ ومُصيبةٌ، لكنَّها لا تُدرَكُ بالحِسِّ، وإنَّما تُدرَكُ بالوِجْدانِ[٢].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى أوقَعَ ما أوقَعَه ببَني النَّضيرِ مِن إخراجِهم مِن ديارِهم، وتخريبِ بُيوتِهم؛ بسَبَبِ أنَّهم شاقُّوا اللهَ ورَسولَه، وأنَّ المُشاقَّةَ المذكورةَ هي عِلَّةُ العُقوبةِ الحاصِلةِ بهم، ولا شكَّ أنَّ مُشاقَّةَ اللهِ ورَسولِه مِن أعظَمِ أسبابِ الهَلاكِ[٣].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فيه سؤالٌ: لو كانت المُشاقَّةُ عِلَّةً لهذا التَّخريبِ لَوَجَب أن يُقالَ: أيْنَما حَصَلت هذه المُشاقَّةُ حَصَل التَّخريبُ، ومعلومٌ أنَّه ليس كذلك؟

الجوابُ: أنَّ هذا أحَدُ ما يدُلُّ على أنَّ تخصيصَ العِلَّةِ المنصوصةِ لا يَقدَحُ في صِحَّتِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية محمد سالم (٨/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٥).

قال الشنقيطي: (هذه الآيةُ الكريمةُ تؤيِّدُ قولَ مَن قال إنَّ النَّقضَ [أي: تخلُّفَ حُكمِ العلَّةِ عنها] في فنِّ الأصولِ تخصيصٌ للعلَّةِ مُطلَقًا، لا نقْضٌ لها، وعزاه في «مراقي السعود» للأكثَرينَ). =

١٧- شَرْعُ اللهِ وقَدَرُه ووَحْيُه وثوابُه وعِقابُه كلُّه قائمٌ على أصلِ إلحاقِ النَّظيرِ بالنَّظيرِ، واعتبارِ المِثْلِ بالمِثْلِ؛ ولهذا يَذْكُرُ الشَّارعُ العِلَلَ والأوصافَ المؤثِّرةَ، والمعانيَ المُعتبَرةَ في الأحكامِ القَدَريَّةِ والشَّرعيَّةِ والجَزائيَّةِ؛ لِيَدُلَّ بذلك على تَعَلُّقِ الحُكْمِ بها أين وُجِدَتْ، واقتِضائِها لأحكامِها، وعدَمِ تَخَلُّفِها عنها إلَّا لمانعٍ يُعارِضُ اقتِضاءَها، ويُوجِبُ تَخَلُّفَ أثَرِها عنها، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ﴾ [غافر: ١٢]، وقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ [الجاثية: ٣٥]، وقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]، وقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ [محمد: ٢٦]، وقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]، وقَولِه تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾[1] [فصلت: ٢٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالإخبارِ عن تَسبيحِ ما في السَّمواتِ والأرضِ للهِ تعالى تَعريضٌ بأولئك الَّذين نزَلَت السُّورةُ فيهم بأنَّهم أصابَهُم ما أصابَهُم لتكبُّرِهم عن تَسبيحِ اللهِ حقَّ تَسبيحِه بتَصديقِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ أعْرَضوا عن النَّظَرِ في دَلائلِ رِسالتِه، أو كابَروا في مَعرفتِها[2].

= ((آداب البحث والمناظرة)) (ص: ٢٩٩). ويُنظر: ((نثر الورود شرح مراقي السعود)) للشنقيطي (ص: ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٤).

- وأيضًا فافتِتاحُ السُّورةِ بذِكرِ تَسبيحِ اللهِ وتَنزيهِه مُؤذِنٌ بأنَّ أهمَّ ما اشتَمَلَت عليه إثباتُ وصْفِ اللهِ بالصِّفاتِ الجليلةِ المُقتَضيةِ أنَّه مُنزَّهٌ عمَّا ضلَّ في شأْنِه أهلُ الضَّلالِ مِن وصْفِه بما لا يَليقُ بجَلالِه، وأوَّلُ التَّنزيهِ هو نفْيُ الشَّريكِ له في الإلهيَّةِ؛ فإنَّ الوَحدانيَّةَ هي أكبرُ صِفةٍ ضلَّ في كُنْهِها المُشرِكون، وهي الصِّفةُ الَّتي يُنبِئُ عنها اسمُه العَلَمُ (الله)؛ لأنَّ أصْلَه الإلهُ، أي: المُنفرِدُ بالإلهيَّةِ، وأُتْبِعَ هذا الاسمُ بصِفاتٍ رَبَّانيَّةٍ تدُلُّ على كَمالِ اللهِ تعالى، وتَنزُّهِه عن النَّقصِ، فكانت هذه الفاتحةُ بَراعةَ استِهلالٍ لهذه السُّورةِ[(١)].

- قال تعالى في أوَّلِ سُورةِ (الحديدِ): ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وهاهنا قال: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّ فاتحةَ سُورةِ الحديدِ تَضمَّنَت الاستِدلالَ على عَظَمةِ اللهِ تعالى وصِفاتِه وانفرادِه بخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، فكان دَليلُ ذلك هو مَجموعَ ما احتَوَت عليه السَّمواتُ والأرضُ مِن أصنافِ الموجوداتِ، فجُمِعَ ذلك كلُّه في اسمٍ واحدٍ هو (ما) المَوصولةُ، الَّتي صِلَتُها قولُه: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾. وأمَّا فاتحةُ سُورةِ الحَشرِ فقدْ سِيقَت للتَّذكيرِ بمِنَّةِ اللهِ تعالى على المسلِمينَ في حادثةٍ أرْضيَّةٍ، وهي خِذلانُ بَني النَّضيرِ؛ فناسَبَ فيها أنْ يُخَصَّ أهلُ الأرضِ باسمٍ مَوصولٍ خاصٍّ بهم، وهي (ما) المَوصولةُ الثَّانيةُ الَّتي صِلَتُها ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[(٢)].

أو كُرِّرَ الموصولُ هاهنا؛ لزِيادةِ التَّقريرِ، والتَّنبيهِ على استِقلالِ كلٍّ مِن الفَريقينِ بالتَّسبيحِ[(٣)].

- وأُوثِرَ هنا الإخبارُ عن ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بفِعلِ المُضِيِّ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٦، ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٦٤، ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٤).

لأنَّ المُخبَرَ عنه تَسبيحُ شُكْرٍ عن نِعمةٍ مَضَت قبْلَ نُزولِ السُّورةِ، وهي نِعمةُ إخراجِ أهلِ النَّضيرِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾

- يَجوزُ أنْ تُجعَلَ جُملةُ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ إلى آخِرِها استِئنافًا ابتدائيًّا؛ لقَصْدِ إجراءِ هذا التَّمجيدِ على اسمِ الجَلالةِ؛ لِما يَتضمَّنُه مِن باهِرِ تَقديرِه، ولِما يُؤذِنُ به ذلك مِن التَّعريضِ بوُجوبِ شُكْرِه على ذلك الإخراجِ العجيبِ. ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ عِلَّةً لِما تَضمَّنَه الخبرُ عن تَسبيحِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِن التَّذكيرِ للمؤمنينَ، والتَّعريضِ بأهلِ الكِتابِ والمُنافِقين الَّذين همْ فَريقانِ ممَّا في الأرضِ؛ فإنَّ القصَّةَ الَّتي تَضمَّنَتها فاتحةُ السُّورةِ مِن أهمِّ أحوالِهما. ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ مُبيِّنةً لجُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١]؛ لأنَّ هذا التَّسخيرَ العظيمَ مِن آثارِ عِزِّه وحِكمتِه، وعلى كلِّ الوُجوهِ فهو تَذكيرٌ بنِعمةِ اللهِ على المسلمينَ، وإيماءٌ إلى أنْ يَشكُروا اللهَ على ذلك، وتَمهيدٌ للمقصودِ مِن السُّورةِ، وهو قِسمةُ أمْوالِ بني النَّضيرِ(٢).

- والضَّميرُ (هو) راجِعٌ إلى اللهِ تعالَى بذلك العُنوانِ؛ إمَّا بِناءً على كَمالِ ظُهورِ اتِّصافِه تَعالى بهما -﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾- مع مُساعدةٍ تامَّةٍ مِن المَقامِ، أو على جَعْلِ الضَّميرِ مُعبَّرًا به عن اسمِ الإشارةِ، كأنَّه قيلَ: ذلك المنْعوتُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٥).

بالعِزَّةِ والحِكمةِ الَّذي أخْرَجَ... إلخ؛ ففيهِ إشعارٌ بأنَّ في الإخراجِ حِكمةً باهرةً[١].

- وتَعريفُ جُزأَيِ الجُملةِ بالضَّميرِ والمَوصولِ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾ يُفيدُ قصْرَ صِفةِ إخراجِ الَّذين كَفَروا مِن دِيارِهم عليه تعالَى، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٢]؛ لعَدَمِ الاعتِدادِ بسَعْيِ المؤمنينَ في ذلك الإخراجِ، ومُعالجتِهم بَعضَ أسبابِه، كتَخريبِ دِيارِ بَني النَّضيرِ؛ ولذلك فجُملةُ ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ﴾ تَتنزَّلُ مَنزِلةَ التَّعليلِ لجُملةِ القصْرِ[٣].

- والمُرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بنو النَّضيرِ، ووُسِمُوا بالَّذين كَفَروا؛ لأنَّهم كَفَروا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -بالإضافةِ إلى أنواعِ الكفرِ الأُخرَى-؛ تَسجيلًا عليهم بهذا الوصْفِ الذَّميمِ[٤].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بَيانيَّةٌ؛ لأنَّ المُرادَ بأهلِ الكِتابِ هنا خُصوصُ اليهودِ، أي: الَّذين كَفَروا برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -بالإضافةِ إلى أنواعِ الكفرِ الأُخرَى-، وهمْ أهلُ الكِتابِ، وأراد بهم اليهودَ، فوُصِفوا بـ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ المُرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المُشركون بمكَّةَ، أو بَقيَّةُ المشركين بالمدينةِ، فيُظَنَّ أنَّ الكلامَ وَعيدٌ[٥].

- قولُه: ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ ﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ يتعلَّقُ بـ﴿أَخۡرَجَ﴾، و﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يَتعلَّقُ بمَحذوفٍ، أي: كائنِينَ مِن أهلِ الكتابِ، وصحَّتِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٥).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٥، ٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٦٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٦٧).

الإضافةُ إليهم؛ لأنَّهم كانوا ببَرِّيَّةٍ لا عُمْرانَ فيها، فبَنَوْا فيها وأنْشَؤوا[١].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ لامُ التَّوقيتِ، وهي الَّتي تَدخُلُ على أوَّلِ الزَّمانِ المَجعولِ ظَرْفًا لعَملٍ، وهي بمعْنى (عندَ)، فالمعْنى: أنَّه أخرَجَهم عِندَ مَبدَأِ الحشْرِ المُقدَّرِ لهم، وهذا إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ قدَّرَ أنْ يُخرَجوا مِن جَميعِ دِيارِهم في بلادِ العرَبِ؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلْحَشْرِ﴾ تَعريفُ العهْدِ[٢].

- ونظْمُ جُملةِ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ على هذا النَّظمِ دونَ أنْ يُقالَ: (وظَنُّوا أنَّ حُصونَهم مانِعتُهم)؛ لِيَكونَ الابتِداءُ بضَميرِهم؛ لأنَّه سيَعقُبُه إسنادُ ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ إليه، فيَكونُ الابتداءُ بضَميرِهم مُشيرًا إلى اغترارِهم بأنفُسِهم أنَّهم في عِزَّةٍ ومَنَعةٍ، وأنَّ مَنَعةَ حُصونِهم هي مِن شُؤونِ عِزَّتِهم، ففيه تقديمُ ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ -وهو وصْفٌ- على ﴿حُصُونُهُم﴾ وهو اسمٌ، والاسمُ -بحسَبِ الظَّاهرِ- أَوْلى بأنْ يُجعَلَ في مَرتبةِ المبتدأ، ويُجعَلَ الوصْفُ خَبَرًا عنه؛ فعُدِلَ عن ذلك، وقُدِّم الخبرُ على المُبتدَأِ دليلًا على فَرطِ وُثوقِهم بحصانتِها ومَنْعِها إيَّاهم، وفي تصييرِ ضميرِهم اسمًا لـ(أنَّ)، وإسنادِ الجملةِ إليه دليلٌ على اعتقادِهم في أنفُسِهم أنَّهم في عزَّةٍ ومَنَعةٍ، وليس ذلك في قولِك: (وظنُّوا أنَّ حُصونَهم تَمنَعُهم)[٣].

- قولُه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ الأصلُ: (ظَنُّوا ألَّا يُخرَجوا)؛ لقولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٩، ٧٠).

﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ﴾، بناءً على قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ليُطابِقَ ما قبْلَه بإيقاعِ النَّاصبةِ للفِعلِ بعْدَها، فخُولِفَ ليُؤذِنَ بأنَّ ظنَّ المؤمنينَ كان على الرَّجاءِ والطَّمَعِ، وظَنَّهم على العِلمِ واليقينِ، فعُلِمَ مِن التَّأسيسِ أنَّ بِناءَ أمْرِه على الجزْمِ والثُّبوتِ، ثمَّ في المَرتبةِ الثَّانيةِ (ظَنُّوا أنَّ حُصونَهم تَمنَعُهم) نظَرًا إلى كَلامِ أوساطِ النَّاسِ، ثمَّ لَمَّا أُرِيدَ مَزيدُ التَّوكيدِ قِيل: (ظَنُّوا أنَّ حُصونَهم مانِعَتُهم)؛ لإرادةِ الثُّبوتِ في الدَّرجةِ الثَّانيةِ، ثمَّ في المَرتبةِ الثَّالثةِ: (ظَنُّوا أنَّه مانِعَتُهم حُصونُهم)؛ لإفادةِ التَّخصيصِ، وأنْ ليس لحُصونِهم صِفةٌ سِوى المنْعِ، وأنَّه لا بُدَّ منه، ثمَّ في المَرتبةِ الرابعةِ: (ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ)؛ ليَتقوَّى الحُكمُ لإفادةِ تَكثيرِ الإسنادِ، وإنْ لم يُرَدْ ما ذُكِرَ فما بالُ التَّرتيبِ لم يُترَكْ على أصْلِه؛ وهو: (ظَنُّوا ألَّا يُخرَجوا)[1]؟!

- قولُه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ تفريعٌ على مَجموعِ جُملتَيْ ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ اللَّتينِ هما تَعليلٌ للقصْرِ في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[2].

- قولُه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ الاحتِسابُ: مُبالَغةٌ في الحِسبانِ -أي: الظَّنِّ- أي: مِن مَكانٍ لم يَظُنُّوه؛ لأنَّهم قَصَروا استِعدادَهم على التَّحصُّنِ والمَنَعةِ، ولم يَعلَموا أنَّ قُوَّةَ اللهِ فوقَ قُوَّتِهم[3].

- قولُه: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قذْفُ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٠٦، ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الرُّعبِ في قُلوبِهم هو مِن أحوالِ إتيانِ اللهِ إيَّاهم مِن حيثُ لم يَحتَسِبوا؛ فتَخصيصُه بالذِّكرِ للتَّعجيبِ مِن صُنْعِ اللهِ، وعطْفُه على ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ عطْفُ خاصٍّ على عامٍّ؛ للاهتِمامِ[(١)].

- والقذْفُ: الرَّميُ باليدِ بقُوَّةٍ، وهو مُعبَّرٌ به عن الحُصولِ العاجلِ، أي: حصَلَ الرُّعبُ في قُلوبِهم دَفْعةً دونَ سابقِ تأمُّلٍ ولا حُصولِ سَببٍ للرُّعبِ؛ ولذلك لم يُؤْتَ بفِعلِ القذْفِ في آيةِ (آلِ عمرانَ): ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾[(٢)] [آل عمران: ١٥١].

- وجُملةُ ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ المُضافِ إليه ﴿قُلُوبِهِمُ﴾؛ لأنَّ المُضافَ جُزْءٌ مِن المُضافِ إليه، فلا يَمنَعُ مَجيءَ الحالِ منه، والمَقصودُ التَّعجيبُ مِن اختلالِ أُمورِهم؛ فإنَّهم وإنْ خرَّبوا بُيوتَهم باختيارِهم، لكنْ داعي التَّخريبِ قَهْريٌّ[(٣)].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ مُوجَّهٌ إلى غيرِ مُعيَّنٍ، ونُودِيَ أُولو الأبصارِ بهذه الصِّلةِ؛ ليُشيرَ إلى أنَّ العِبرةَ بحالِ بَني النَّضيرِ واضحةٌ مَكشوفةٌ لكلِّ ذي بصَرٍ ممَّن شاهَدَ ذلك، ولكلِّ ذي بصَرٍ يَرى مَواقعَ دِيارِهم بعْدَهم -على قولٍ في التَّفسيرِ-، فتكونَ له عِبرةً قُدْرةُ اللهِ على إخْراجِهم، وتَسليطِ المسلِمينَ عليهم مِن غيرِ قِتالٍ، وفي انتصارِ الحقِّ على الباطلِ، وانتصارِ أهلِ اليَقينِ على المُذَبْذَبينَ[(٤)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٢).

عَذَابُ ٱلنَّارِ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

- جُملةُ ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ ناشِئةٌ عن جُملةِ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الحشر: ٢]؛ فالواوُ اعتراضيَّةٌ، أي: أخْرَجَهم اللهُ مِن قَريتِهم؛ عِقابًا لهم على كُفْرِهم وتَكذيبِهم للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾[(١)].

- قولُه: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ استِئنافٌ غيرُ مُتعلِّقٍ بجَوابِ (لولا)؛ جِيءَ به لبَيانِ أنَّهُم إنْ نَجَوا مِن عَذابِ الدُّنيا بكِتابةِ الجَلاءِ لا نَجاةَ لهم مِن عَذابِ الآخرةِ[(٢)]. وقيل: إنَّ قولَه: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ﴾ الآيةَ، أو على جُملةِ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الحشر: ٢]، وليس عطْفًا على جَوابِ (لولا)؛ فإنَّ عَذابَ النارِ حاقٌّ عليهم، وليس مُنتفيًا، والمَقصودُ الاحتراسُ مِن تَوهُّمِ أنَّ الجَلاءَ بدَلٌ مِن عَذابِ الدُّنيا ومِن عَذابِ الآخِرةِ[(٣)].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾ عُطِفَ اسمُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على اسمِ الجلالةِ؛ لقصْدِ تَعظيمِ شأْنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَعلَموا أنَّ طاعتَه طاعةُ اللهِ؛ لأنَّه إنَّما يَدْعو إلى ما أمَرَه اللهُ بتَبليغِه، ولم يُعطَفِ اسمُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الجُملةِ الثَّانيةِ ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ ﴾؛ استِغناءً بما عُلِمَ مِن الجُملةِ الأُولى[(٤)]، وأيضًا اقتُصِر على ذِكرِ مُشاقَّتِه تعالَى؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٥).

لتَضمُّنِها لمُشاقَّتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وليُوافِقَ قولَه تَعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ تُرِك الإدغامُ على حالِه؛ قيل: لأنَّهم ما أظهَروا مُعاداةً، وإنَّما كان ما فَعَلوا مكرًا ومُساتَرةً، وذلك أخَفُّ مِن المُجاهَرةِ، وأُظهِرَ في (الأنفالِ) -يعني في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الأنفال: ١٣]-؛ لقوَّةِ أمرِ المُجاهِرينَ. ولم يُعَدْ ذِكرُ الرَّسولِ؛ تفخيمًا له بإفهامِ أنَّ مُشاقَقتَه مُشاقَقةٌ للهِ مِن غَيرِ مَثْنويَّةٍ أصلًا، وإشارةً إلى أنَّهم بالَغوا في إخفاءِ مُشاقَقتِهم، فلم يَظهَرْ عليها غيرُ الله، فلمْ يَحصُلْ منهم في ذلك مُفاعَلةٌ بيْنَهم وبيْنَ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّه لم يَمكُرْ بهم، وإنَّما جاهَرَهم حينَ أَعلَمَه الله بمَكرِهم، بخِلافِ ما تقدَّمَ في (الأنفالِ)؛ فإنَّ المَقامَ اقتضَى هناك الذِّكرَ؛ لأنَّهم مَكَروا به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وهو صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أخفى أمرَ هِجرتِه، وأعمَلَ الحِيلةَ في الخلاصِ مِن مَكرِهم على حسَبِ ما أمَرَه الله به، فحصلَتِ المُفاعَلةُ في تَحيُّزِ كلٍّ مِن الفَريقَينِ إلى شِقٍّ غَيرِ شِقِّ الآخَرِ خُفْيَةً[2].

- وجُملةُ ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تَذْييلٌ، أي: شَديدُ العِقابِ لكلِّ مَن يُشاقِقُه مِن هؤلاء وغيرِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٤، ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٤).

- قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ إمَّا نفْسُ الجزاءِ قد حُذِفَ منه العائدُ إلى (مَنْ)، أي: شَديدُ العِقابِ له، أو تَعليلٌ للجزاءِ المحذوفِ، أي: وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ يُعاقِبْه اللهُ؛ فإنَّ اللهَ شَديدُ العقابِ، وأيًّا ما كانَ فالشَّرطيَّةُ تَكمِلةٌ لِما قبْلَها، وتَقريرٌ لمَضمونِه، وتَحقيقٌ للسَّببيَّةِ بالطَّريقِ البُرهانيِّ، كأنَّه قِيلَ: ذلك الَّذي حاقَ بهم مِن العِقابِ العاجِلِ والآجِلِ بسَببِ مُشاقَّتِهم للهِ تَعالى ورَسولِه، وكلُّ مَن يُشاقِّ اللهِ كائنًا مَن كان فلهُ بسَببِ ذلكَ عِقابٌ شديدٌ؛ فإذَنْ لهم عِقابٌ شديدٌ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٥).

الآيات (٥-٧)

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِّينَةٍ﴾: اللِّينةُ: النَّخلةُ ما لم تكُنْ عَجوةً أو بَرْنيَّةً[١]. وقيل: هي النَّخلةُ مِن غَيرِ استثناءٍ. وقيل غيرُ ذلك[٢].

﴿وَلِيُخْزِىَ﴾: أي: وليُذِلَّ، والخِزيُ: أن يَلحَقَ الرَّجُلَ انكسارٌ مِن غيرِه، وهو ضربٌ مِن الاستِخفافِ، وأصل (خزو) هنا: يدُلُّ على الإبعادِ[٣].

﴿أَفَآءَ﴾: أي: رجَعَه ورَدَّه مِن الكُفَّارِ. والفَيءُ هو: ما ناله المُسلِمونَ مِن العَدُوِّ بغيرِ قِتالٍ، وأصلُ (فيأ): يدُلُّ على الرُّجوعِ[٤].

﴿أَوْجَفْتُمْ﴾: أي: أسرَعْتُم، والإيجافُ: الإسراعُ في السَّيرِ، وقد أوجَفَ

---

(١) البَرْنِيُّ: نَوعٌ مِن أَجْوَدِ التَّمْرِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٠).

دابَّتَه يُوجِفُها إيجافًا: إذا حَثَّها على السُّرعةِ[١].

﴿رِكَابٍ﴾: أي: إبِلٍ، واحِدتُها راحِلةٌ، ولا واحِدَ لها مِن لَفظِها، وأصلُ (ركب): يدُلُّ على عُلُوِّ شَيءٍ شَيئًا[٢].

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: المُنقَطِعِ بالطَّريقِ يُريد بلدًا آخَرَ، والسَّبيلُ: الطَّريقُ، وسُمِّيَ الطَّريقُ بذلك؛ لامتِدادِه، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ[٣].

﴿دُولَةَۢ﴾: الدُّولَةُ: اسمٌ للشَّيءِ الَّذي يَتداوَلُه القَومُ بَيْنَهم، وأصلُ (دول): يدُلُّ على تحَوُّلِ شَيءٍ مِن مكانٍ إلى مكانٍ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مطمئِنًا المؤمنينَ الَّذين شاركوا في إجلاءِ بَني النَّضيرِ وقطْعِ نخيلِهم: ما قطَعْتُم -أيُّها المُسلِمونَ- مِن نخلةٍ في حِصارِكم لبَني النَّضيرِ، أو ترَكْتُموها قائِمةً على جُذوعِها: فإنَّما هو بإذنِ اللهِ تعالى؛ فلا لَومَ عليكم فيما قطَعْتُم أو ترَكْتُم، ولِيُذِلَّ اللهُ الخارِجينَ عن طاعتِه.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى مَن انتقَلَت إليه أموالُهم وأمتعتُهم، فيقولُ: وما ردَّه اللهُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٤)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٢).

رَسولِه مِن أموالِ يَهودِ بَني النَّضيرِ، فما أسرَعتُم -أيُّها المسلِمونَ- مِن أجْلِه خَيلًا ولا إبِلًا؛ إذ كانوا قريبينَ مِنكم، ولكِنَّ اللهَ سَلَّط رَسولَه عليهم، واللهُ على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه حُكمَ الفَيءِ الَّذي أفاءَه على المسلمينَ، فيقولُ: ما ردَّه اللهُ على رَسولِه مِن أموالِ مُشرِكي القُرى كبَني النَّضيرِ وغَيرِهم بلا قِتالٍ؛ فهو للهِ يَحكُمُ فيه بما يَشاءُ، ولِرَسولِه، ولقَرابةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولليتامى، ولأهلِ الحاجةِ، وللغَريبِ المسافِرِ المُحتاجِ للمالِ؛ كي لا يكونَ مالُ الفَيءِ للأغنياءِ يَتداوَلونَه بيْنَهم دونَ الفُقَراءِ.

وما آتاكم رَسولُ اللهِ فخُذوه، وما نهاكم عنه فانتَهوا، وخافُوا اللهَ، واحذَروا سَخَطَه بفِعلِ ما أمَرَكم به، وتَركِ ما نهاكم عنه، إنَّ اللهَ شديدُ العِقابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا دَلَّ اللهُ سُبحانَه على عِزَّتِه وحِكمتِه بما فَعَل ببَني النَّضيرِ الَّذين يقولونَ: إنَّهم أشجَعُ النَّاسِ، وأشَدُّهم شَكيمةً، بما لهم مِن الأصالةِ والاصطفاءِ على العالَمينَ، مع التَّأييدِ بالكِتابِ والحِكمةِ، وخَتَم بأنَّ مَن شاقَّ رَسولَه فقد شاقَّه، ومَن شاقَّه فقد شدَّدَ عِقابَه- أتْبَعَه ببيانِ ما عاقَبَهم به مِن قَطعِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم بأمرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِنَخْلِهم الَّذي هو أعزُّ عليهم مِن أبكارِهم،

وهم يَنظُرونَ إليه، لا يُغنُونَ شَيئًا، ولا مَنعةَ لَدَيهم[١].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((حرَّق رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نَخلَ بني النَّضيرِ وقَطَعَ، وهي البُوَيرةُ، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾))[٢].

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ما قطَعْتُم مِن نخلةٍ -أيُّها المُسلِمونَ- في حِصارِكم لبَني النَّضيرِ، أو ترَكْتُم قَطْعَها، فبَقِيَت قائِمةً على جُذوعِها: إنَّما هو بإذْنِ اللهِ تعالى، فلا لَومَ عليكم فيما قطَعْتُم أو ترَكْتُم[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٥).

(٢) رواه البخاري (٤٠٣١)، ومسلم (١٧٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٦، ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

قيل: اللِّينةُ تُطلَقُ على جميعِ أنواعِ النَّخلِ ما عدا العَجوةَ والبَرْنيَّ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: أبو عُبَيْدَة، وابنُ قُتَيْبَة، والواحديُّ، ونسَبَه ابنُ عاشور إلى جمهورِ أهلِ المدينةِ، وأئمَّةِ اللُّغةِ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عُبيدة (٢/ ٢٥٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٦، ٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الزُّهْريُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧١).

وقيل: اللِّينةُ تُطلَقُ على جميعِ أنواعِ النَّخلِ ما عدا العَجْوةَ. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جرير، وابنُ العربي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٧، ٥٠٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، ويَزيدُ بنُ رُومانَ، والزُّهْريُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧٠).

=

﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

أي: وليُذِلَّ اللهُ ويُهينَ الخارِجينَ عن طاعتِه، المخالِفينَ لأمْرِه ونَهْيِه مِن يهودِ بني النَّضيرِ، بما يَصنَعُه المُسلِمونَ في نَخْلِهم، وهم عاجِزونَ عن رَدِّهم واستِنقاذِه منهم[1].

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شُروعٌ في بَيانِ حالِ ما أُخِذَ مِن أموالِ بَني النَّضيرِ، بعْدَ بَيانِ ما حلَّ بأنفُسِهم مِن العذابِ العاجِلِ والآجِلِ، وما فُعِلَ بدِيارِهِم ونَخيلِهم مِن التَّخريبِ

= وقيل: اللِّينةُ اسمٌ للنَّخلةِ مِن غيرِ أن تختَصَّ بنَوعٍ دونَ آخَرَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الخليلُ بنُ أحمدَ الفَراهيديُّ، والرَّاغبُ -وزاد الراغِبُ أنَّها النَّخلةُ النَّاعِمةُ-، والسعديُّ، ونَسَب الشربيني هذا القَولَ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ٣٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ، وعَمرُو بنُ مَيمونٍ، وعطيَّةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧١).

وقيل في اللِّينةِ غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٦).

ذكر ابنُ القيِّمِ أنَّ الإذْنَ في هذه الآيةِ إذْنٌ دينيٌّ، فمعنى قولِه: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمْرِه ورِضاه. يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).

وقال السعدي: (أخبَر تعالى أنَّ قطْعَ النَّخيلِ إن قطَعوه، أو إبقاءَهم إيَّاه إن أبقَوْه؛ أنَّه بإذْنِه تعالى، وأمْرِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

وقال ابن عثيمين: (يعني: أنَّ اللهَ هو الَّذي أذِنَ لنا، وإذا أذِن اللهُ بشَيءٍ صار حلالًا، حتَّى وإن كان جِنسُه حرامًا فإنَّه يكونُ حلالًا). ((فتح ذي الجلال والإكرام)) (٥/ ٤٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٨).

والقطْعِ[(١)].

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾.

أي: والَّذي ردَّه اللهُ على رَسولِه مِن أموالِ يَهودِ بَني النَّضيرِ، فما حرَّكتُم وأسرَعتُم -أيُّها المسلِمونَ- مِن أجْلِه خَيلًا ولا إبلًا، ولا قَطَعْتُم مِن أجْلِه مَسافةً؛ إذ كانوا قريبينَ مِنكم، فلم يَحصُلْ لكم كبيرُ مَشَقَّةٍ في أخْذِ أموالِهم[(٢)].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢، ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠، ١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٠، ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٨، ٧٩).

قال السعدي: (تعريفُ الفَيءِ في اصطِلاحِ الفُقَهاءِ: هو ما أُخِذَ مِن مالِ الكُفَّارِ بحَقٍّ مِن غيرِ قِتالٍ، كهذا المالِ الَّذي فَرُّوا وترَكوه خَوفًا مِن المسلمينَ، وسُمِّيَ فَيئًا؛ لأنَّه رَجَع مِن الكُفَّارِ الَّذين هم غيرُ مُستحِقِّينَ له، إلى المسلمينَ الَّذين لهم الحَقُّ الأوفَرُ فيه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

ويُنظر: ((الإقناع)) لابن المنذر (٢/ ٥٠١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٥٦٣).

وقال ابنُ عاشور: (قال أبو بكرٍ ابنُ العربيِّ: لا خِلافَ بيْن العُلَماءِ أنَّ الآيةَ الأُولى خاصَّةٌ لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. أي: هذه الآيةُ الأُولى مِن الآيتَينِ المذكورتَينِ في هذه السُّورةِ خاصَّةٌ بأموالِ بَني النَّضيرِ، وعلى أنَّها خاصَّةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَضَعُها حيث يَشاءُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٠). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢١٣).

وقال ابنُ كثير: (كلُّ مالٍ أُخِذَ مِن الكُفَّارِ بغيرِ قِتالٍ ولا إيجافِ خَيلٍ ولا رِكابٍ، كأموالِ بَني النَّضيرِ هذه، فإنَّها ممَّا لم يُوجِفِ المسلمونَ عليه بخَيلٍ ولا رِكابٍ، أي: لم يُقاتِلوا الأعداءَ فيها بالمبارَزةِ والمُصاوَلةِ، بل نَزَل أولئك مِن الرُّعبِ الَّذي ألقى اللهُ في قُلوبِهم مِن هَيبةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأفاءه اللهُ على رَسولِه؛ ولهذا تصَرَّف فيه كما شاء، فرَدَّه على المسلمينَ في وُجوهِ البِرِّ والمصالحِ الَّتي ذكَرَها الله عزَّ وجلَّ في هذه الآياتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٥).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: فما هو مِن حَقِّكم، أو لا تَسألوا قِسْمَتَه؛ لأنَّكم لم تَنالوه بقِتالِكم، ولكِنَّ اللهَ أعطاه رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نِعمةً منه بلا مشَقَّةٍ ولا نَصَبٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩).

أي: إنَّ ما خَوَّلَه اللهُ لرَسولِه مِن أموالِ بَني النَّضيرِ شَيءٌ لم تَحصُلوا عليه بالقِتالِ والغَلَبةِ، ولكِنْ سَلَّط اللهُ رَسولَه عليهم وعلى ما في أيديهم، كما كان يُسَلِّطُ رُسُلَه على أعدائِهم؛ فالرَّسولُ أحَقُّ به، والأمرُ فيه مُفَوَّضٌ إليه[١].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

أي: واللهُ ذو قُدرةٍ بالغةٍ تامَّةٍ على فِعلِ كُلِّ شَيءٍ، كما سَلَّط رَسولَه على يَهودِ بَني النَّضيرِ؛ فلا يُعجِزُه أحدٌ، ولا يمتَنِعُ عليه شَيءٌ[٢].

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَزَع اللهُ سُبحانَه أموالَهم مِن أيدي الجَيشِ؛ بيَّنَ مَصرِفَ غَيرِها مِمَّا كان مِثْلَها، بأنْ فَتَح له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بغَيرِ قِتالٍ، فقال مستأنِفًا جوابًا لِمَن كأنَّه قال: هل يَعُمُّ هذا الحُكمُ كُلَّ فَيءٍ يكونُ بعدَ بني النَّضيرِ[٣]؟

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾.

أي: الَّذي ردَّه اللهُ على رَسولِه مِن أموالِ مُشرِكي القُرى كبَني النَّضيرِ وغَيرِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩، ٨٠).

قال البِقاعي: (﴿يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ﴾ أي: له هذه السُّنَّةُ في كُلِّ زَمَنٍ ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ بجَعلِ ما آتاهم سُبحانَه مِن الهَيبةِ رُعبًا في قُلوبِ أعدائِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٧).

بلا قِتالٍ؛ فهو للهِ يَحكُمُ فيه بما يَشاءُ، ولِرَسولِه محمَّدٍ يَصرِفُه ويُقَسِّمُه[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٧، ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

قولُه تعالَى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ...﴾ اشترَكَ معَ الآيةِ السَّابقةِ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ في أنَّ كلَّ واحدَةٍ منهما تَضَمَّنتْ شيئًا أفاءَه اللَّهُ على رسولِه، واقْتَضَتْ الآيةُ السابقةُ أنَّه حاصِلٌ بغيرِ قِتالٍ؛ لقولِه: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾، وعريَتْ هذه الآيةُ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ...﴾ عن ذِكْرِ حصولِه لقِتالٍ أو لغيرِ قِتالٍ؛ وقد قال تعالى في سورةِ الأنفالِ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ ...﴾ [الأنفال: ٤١]، فاقتضى أنَّه حاصِلٌ بقتالٍ، فنشأَ الخلافُ في هذه الآيةِ مِنْ هاهُنا، فمِنْ طائِفَةٍ قالَتْ: هي مُلْحَقَةٌ بالآيةِ التي سبقتها -وهو مالُ الصُّلْحِ كُلُّه ونحوُه-، ومِنْ طائِفَةٍ قالَتْ: هي مُلْحَقَةٌ بآيةِ الأنفالِ، والَّذينَ قالوا: إنَّها مُلْحَقَةٌ بآيةِ الأنفالِ اختلَفوا: هل هي مَنْسوخَةٌ أو مُحْكَمةٌ؟ يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢١٤).

قال ابن جُزَي: (الصَّحيحُ أنَّه لا تَعارُضَ بيْن هذه الآيةِ وبيْن آيةِ الأنفالِ؛ فإنَّ آيةَ الأنفالِ في حُكمِ الغنيمةِ الَّتي تؤخَذُ بالقتالِ وإيجافِ الخَيلِ والرِّكابِ، فهذا يُخرَجُ منه الخُمُسُ ويُقسَمُ باقيه على الغانِمينَ، وأمَّا هذه الآيةُ ففي حُكمِ الفَيءِ، وهو ما يؤخَذُ مِن أموالِ الكفَّارِ مِن غيرِ قتالٍ ولا إيجافِ خَيلٍ ولا رِكابٍ، وإذا كان كذلك فكلُّ واحدةٍ مِن الآيتَينِ في معنًى غيرِ معنَى الأخرى، ولها حُكمٌ غيرُ حُكمِ الأخرى، فلا تَعارُضَ بيْنَهما ولا نَسْخَ، وانظُرْ كيف ذُكِر هنا لفظُ الفَيءِ، وفي الأنفالِ لفظُ الغَنيمةِ، وقد تقرَّر في الفِقهِ الفرقُ بيْن الفَيءِ والغَنيمةِ، وأنَّ حُكْمَهما مُختلِفٌ. قال أبو محمَّدٍ، ابنُ الفَرَسِ: وهو قولُ الجمهورِ، وبه قال مالكٌ وجميعُ أصحابِه، وهو أظهرُ الأقوالِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٩). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٨٩).

وقال الشنقيطي: (بيَّن [الله تعالى] في سورةِ الحشرِ أنَّ ما أفاء الله على رسولِه مِن غيرِ إيجافِ المسلمينَ عليه الخيلَ والرِّكابَ، أنَّه لا يُخمَّسُ، ومصارفُه التي بيَّن أنَّه يُصرَفُ فيها كمصارفِ خُمسِ الغَنيمةِ...، وذلك في قولِه تعالى في فيءِ بني النَّضيرِ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ الآية [٦]، ثمَّ بيَّن شمولَ الحكمِ لكُلِّ ما أفاء الله على رسولِه مِن جميعِ القُرَى بقولِه: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية [٧]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٥٤).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (جُمهورُ العُلَماءِ على أنَّ الفَيءَ لا يُخمَسُ، كقَولِ مالِكٍ وأبي حنيفةَ وأحمدَ، وهذا قَولُ السَّلَفِ قاطبةً... والصَّوابُ قَولُ الجمهورِ؛ فإنَّ السُّنَنَ الثَّابتةَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ =

عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (كانت أموالُ بَني النَّضيرِ مِمَّا أفاء اللهُ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِمَّا لم يُوجِفِ المسلِمونَ عليه بخَيلٍ ولا رِكابٍ، فكانت لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خاصَّةً، وكان يُنفِقُ على أهلِه نَفَقةَ سَنَتِه، ثمَّ يَجعَلُ ما بَقِيَ في السِّلاحِ والكُراعِ[1] عُدَّةً في سَبيلِ اللهِ)[2].

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

أي: ولقَرابةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممَّن تَحرُمُ عليهم الصَّدقةُ[3].

= عليه وسلَّم وخُلَفائِه تَقتَضي أنَّهم لم يَخْمُسوا فَيئًا قطُّ ...). ((منهاج السنة النبوية)) (٦/ ١٠٧-١١١). ويُنظر: ((الإشراف على مذاهب العلماء)) لابن المنذر (٤/ ٨١، ٨٢، ١٦٨، ١٦٩)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٢١١-٢١٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٣).

وقد اختلَف العلماءُ في تخميسِ الفَيءِ؛ فذهبَتِ الحنَفيَّةُ والمالكيَّةُ والشَّافعيُّ في القديم وأحمدُ في روايةٍ إلى أنَّ الفَيءَ لا يُخمَسُ، وإنَّما كلُّه لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ومَن ذُكِروا معه. وذهب الشَّافعيُّ في الجديدِ ومحمَّدٌ مِن الحنفيَّةِ وهو روايةٌ عن أحمدَ إلى أنَّ الفَيءَ يُخمسُ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٣٢/ ٢٣٠).

(١) الكُراع: الخَيْل. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٢٧٦).

(٢) رواه البخاري (٢٩٠٤) واللفظ له، ومسلم (١٧٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

قال الزَّجَّاجُ: (﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعني: ذَوي قَراباتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّهم قد مُنِعوا الصَّدقةَ، فَجُعِلَ لهم حقٌّ في الفَيءِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٤٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بهم بَنو هاشم وبَنو المُطَّلِبِ: النَّحَّاسُ، والثعلبي، والواحدي، والخازن، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٦١)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

قال السعدي: (وإنَّما دخَل بَنو المُطَّلِبِ في خُمسِ الخُمسِ مع بَني هاشمٍ، ولم يَدخُلْ بقيَّةُ بَني عبدِ مَنافٍ؛ لأنَّهم شارَكوا بَني هاشمٍ في دُخولِهم الشِّعبَ، حينَ تعاقَدَتْ قُرَيشٌ على هَجرِهم =

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾.

أي: ولليَتامى الَّذين مات آباؤُهم وهم دونَ سِنِّ البُلوغِ[(١)].

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾.

أي: ولأهلِ الحاجةِ والفاقةِ[(٢)].

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وللغَريبِ المسافِرِ المُنقَطِعِ، المُحتاجِ للمالِ في غيرِ مَعصيةِ اللهِ[(٣)].

= وعداوتِهم، فنصَروا رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، بخِلافِ غيرِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

قال الشنقيطي: في قوله تعالى ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]: (أمَّا ذَوو القُربى: فهم بنو هاشم، وبنو المطَّلبِ على أظهرِ الأقوالِ دليلًا، وإليه ذهَب الشافعيُّ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ، وأبو ثورٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وابنُ جُريجٍ، ومسلمُ بنُ خالدٍ...

عن جُبيرِ بنِ مُطعِمٍ، قال: مشيتُ أنا وعثمانُ بنُ عفَّانَ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقُلْنا: يا رسولَ الله أعطيْتَ بني المطَّلبِ وتركْتَنا، ونحن وهم منكَ بمنزلةٍ واحدةٍ، فقال: رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّما بنو المطَّلبِ، وبنو هاشمٍ شيءٌ واحدٌ»... فبهذا الذي بيَّنَّا يتَّضِحُ أنَّ الصَّحيحَ أنَّ المرادَ بذي القُربَى في الآيةِ: بنو هاشمٍ، وبنو المطَّلبِ دونَ بني عبدِ شمسٍ، وبني نوفلٍ. ووجهُه أنَّ بني عبدِ شمسٍ، وبني نوفلٍ عادَوا الهاشميينَ، وظاهَروا عليهم قريشًا، فصاروا كالأباعدِ منهم؛ للعداوةِ، وعدمِ النُّصرةِ...

بهذا الحديثِ الصَّحيحِ الذي ذكَرنا: يتَّضِحُ عدمُ صحَّةِ قولِ مَن قال بأنَّهم بنو هاشمٍ فقط، وقولُ مَن قال: إنَّهم قريشٌ كلُّهم). ((أضواء البيان)) (٢/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٨، ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾.

أي: أَمَرْنا بصَرفِ مالِ الفَيءِ في هذه الأصنافِ السَّابِقةِ؛ كي لا يكونَ مالُ الفَيءِ خاصًّا للأغنياءِ يَتداوَلونَه بيْنَهم دونَ الفُقَراءِ والضُّعَفاءِ[١].

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾.

أي: وما أعطاكم رَسولُ اللهِ مِن أموالِ الفَيءِ أو غيرِ ذلك، فخُذوه[٢].

﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

أي: وما نهاكم رَسولُ اللهِ عنه، كأخْذِ الغُلولِ وغيرِ ذلك، فانتَهوا عنه[٣].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه كان يحَدِّثُ أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((ما نَهيتُكم عنه فاجتَنِبوه، وما أمَرتُكم به فافعَلوا منه ما استَطعتُم؛ فإنَّما أهلَكَ الَّذين مِن قَبْلِكم كَثرةُ مَسائِلِهم، واختِلافُهم على أنبيائِهم))[٤].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

أي: وخافُوا اللهَ واحذَروا سَخَطَه وعَذابَه، بفِعلِ ما أمَرَكم به ورَسولُه، وتَركِ ما نهاكم عنه ورَسولُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦، ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧).

(٤) رواه البخاريُّ (٧٢٨٨)، ومسلمٌ (١٣٣٧) واللَّفظُ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨).

كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ شديدٌ عِقابُه لِمَن يَعصي اللهَ ورَسولَه، ويخالِفُ أمْرَهما ونَهْيَهما[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أمَرَ اللهُ بالقاعِدةِ الكُلِّيَّةِ والأصلِ العامِّ، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، وهذا شامِلٌ لأُصولِ الدِّينِ وفُروعِه؛ ظاهِرِه وباطِنِه، وأنَّ ما جاء به الرَّسولُ يتعَيَّنُ على العِبادِ الأخْذُ به واتِّباعُه، ولا تَحِلُّ مُخالَفتُه، وأنَّ نَصَّ الرَّسولِ على حُكمِ الشَّيءِ كنَصِّ اللهِ تعالى، لا رُخصةَ لأحدٍ، ولا عُذرَ له في تَرْكِه، ولا يجوزُ تقديمُ قَولِ أحَدٍ على قَولِه، ثمَّ أمَرَ بتَقْواه الَّتي بها عِمارةُ القُلوبِ والأرواحِ، والدُّنيا والآخِرةِ، وبها السَّعادةُ الدَّائِمةُ والفَوزُ العظيمُ، وبإضاعتِها الشَّقاءُ الأبَديُّ، والعذابُ السَّرْمَديُّ، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على مَن تَرَكَ التَّقوى، وآثَرَ اتِّباعَ الهوى[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ خُصَّت اللِّينةُ بالقَطْعِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: واتَّقوا عِقابَ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ شَديدُ العِقابِ، أي: لِمَن خالَفَ أمْرَه، واقتَحَم نَهْيَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

الجوابُ: إن كانت مِنَ الألوانِ فلِيَستَبْقوا لأنفُسِهم العَجوةَ والبَرْنيَّةَ، وإن كانت من كِرامِ النَّخلِ فلِيَكونَ غَيظُ اليهودِ أشَدَّ وأشَقَّ(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ استَدَلَّ بعضُ الفقهاءِ بهذه الآيةِ على أنَّ كُلَّ مُجتَهِدٍ مُصيبٌ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠١).

وقال ابنُ حجر: (قال السُّهَيلي: في تخصيصِها بالذِّكرِ إيماءٌ إلى أنَّ الَّذي يجوزُ قَطْعُه مِن شَجَرِ العَدُوِّ ما لا يكونُ مُعَدًّا للاقتياتِ؛ لأنَّهم كانوا يَقتاتونَ العَجْوةَ والبَرْنِيَّ دونَ اللِّينةِ). ((فتح الباري)) (٧/ ٣٣٣). ويُنظر: ((الروض الأُنُف)) للسهيلي (٦/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٨).

قال ابنُ العربي: (ورُوِيَ أنَّه كان بعضُ النَّاسِ يَقطَعُ، وبَعضُهم لا يَقطَعُ، فصَوَّبَ اللهُ الفريقَينِ، وخَلَّص الطَّائفتَينِ، فظَنَّ عندَ ذلك بعضُ النَّاسِ أنَّ كُلَّ مجتهدٍ مُصيبٌ يخرجُ من ذلك، وهذا باطِلٌ؛ لأنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان معهم، ولا اجتهادَ مع حُضورِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنَّما يدُلُّ على اجتهادِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما لم ينزِلْ عليه؛ أخذًا بعُمومِ الإذايةِ للكُفَّارِ، ودُخولًا في الإذنِ للكُلِّ بما يقضي عليهم بالاجتياحِ والبَوارِ، وذلك قَولُه: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥]). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢١١).

وقال الشوكاني -بعدَ أن ذكَرَ قولَه صلَّى الله عليه وسلَّم: «إذا حَكَمَ الحاكمُ فاجتهَدَ ثمَّ أصاب فله أجْرانِ، وإذا حكَمَ فاجتهَدَ ثمَّ أخطأ فله أجرٌ» [البخاري (٧٣٥٢)]-: (فهذا الحديثُ يُفيدُك أنَّ الحقَّ واحدٌ، وأنَّ بعضَ المُجتَهِدينَ يُوافِقُه، فيُقالُ له: مُصِيبٌ، ويَستَحِقُّ أجرَينِ، وبعضَ المُجتَهِدينَ يُخالِفُه، ويُقالُ له: مُخْطِئٌ، واستِحقاقُه الأجرَ لا يَستلزِمُ كَوْنَه مُصيبًا، وإطلاقُ اسمِ الخَطأِ عليه لا يَستَلزِمُ ألَّا يَكونَ له أجرٌ، فمَنْ قال: كُلُّ مُجتَهِدٍ مُصِيبٌ، وجَعَل الحقَّ مُتَعدِّدًا بتَعَدُّدِ المُجتَهِدينَ، فقد أخطأ خطأً بَيِّنًا، وخالَفَ الصَّوابَ مُخالَفةً ظاهرةً).

ثمَّ قال: (وأمَّا استِدلالُهم بمِثلِ قَولِه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهو خارِجٌ عن محلِّ النِّزاعِ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحانَه قد صَرَّح في هذه الآيةِ بأنَّ ما وقَعَ منهم مِنَ القَطْعِ والتَّركِ هو بإذْنِه عزَّ وجَلَّ، فأفادَ ذلك أنَّ حُكْمَه في هذه الحادِثةِ بِخُصوصِها هو كلُّ واحِدٍ مِنَ الأمْرَينِ، وليس النِّزاعُ إلَّا فيما لم يَرِدِ النَّصُّ فيه «بأنَّه سُبْحانَه يُريدُ كُلَّ واحِدٍ مِنَ الأمْرَينِ، أو أنَّ حُكْمَه على التَّخْييرِ بيْنَ أُمُورٍ يَختارُ المُكَلَّفُ ما شاء منها، كالواجِبِ المُخَيَّرِ، =

٣- قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ دَلَّت الآيةُ على جوازِ إفسادِ أموالِ أهلِ الحَرْبِ على أيِّ حالٍ كان، مُثمِرًا كان أو لا، بالتَّحريقِ والتَّغريقِ والهَدْمِ وغَيْرِه[1] إذا دَعَت إليه المصلحةُ المتعَيِّنةُ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ حُجَّةٌ في قَطْعِ الشَّجَرِ المُثمِرِ وغيرِ المثمِرِ في بلادِ العَدُوِّ، ودليلٌ على أنَّ النَّاسَ فيه بالخِيارِ؛ إنْ شاؤُوا قَطَعوا، وإنْ شاؤُوا تَرَكوا، والاختيارُ القَطْعُ كما قَطَعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نَخْلَ بَني النَّضيرِ، والآيةُ نازِلةٌ فيهم[3]. وذلك حالَ الحِصارِ إذا اقتَضَتْه مصلحةُ القتالِ.

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ رَدٌّ على القَدَريَّةِ الَّذين يَجعلونَ الإذْنَ بمعنى العِلْمِ؛ إذْ لو لم يَكُنِ الإذْنُ إطلاقًا، ما عُلِمَ أنَّ قَطْعَ الشَّجَرةِ مُباحٌ أو غيرُ مباحٍ. أَلَا ترى أنَّ عِلْمَه سُبحانَه محيطٌ

= أو أنَّ حُكْمَه يَجِبُ على الكلِّ، حتَّى يَفعَلَه البعضُ فيَسقُطَ عن الباقِينَ، كفُرُوضِ الكفاياتِ، فتَدَبَّرْ هذا وافْهَمْهُ حقَّ فَهْمِه). ((إرشاد الفحول)) (٢/ ٢٣٢-٢٣٤).

وسُئل شيخُ الإسلامِ: هل كلُّ مُجتَهِدٍ مصيبٌ؟ أو المصيبُ واحدٌ والباقي مُخطِئون؟

فأجاب: (... لفظُ الخطأِ قد يُرادُ به الإثمُ، وقد يُرادُ به عدَمُ العِلمِ؛ فإن أُريدَ الأوَّلُ فكلُّ مُجتهِدٍ اتَّقى اللهَ ما استطاع فهو مصيبٌ؛ فإنَّه مطيعٌ لله، ليس بآثمٍ ولا مذمومٍ. وإن أُريدَ الثَّاني فقد يُخَصُّ بعضُ المُجتَهِدينَ بعِلمٍ خَفِيَ على غيرِه، ويكونُ ذلك عِلمًا بحقيقةِ الأمرِ لو اطَّلَع عليه الآخَرُ لَوَجَب عليه اتِّباعُهُ؛ لكنْ سقَط عنه وُجوبُ اتِّباعِه لعجزِه عنه، وله أجرٌ على اجتِهادِه، ولكنِ الواصلُ إلى الصَّوابِ له أجْرانِ...). ((مجموع الفتاوى)) (٢٠/ ١٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٥)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٧).

بالمحظورِ والمُباحِ معًا؟! وليس كلُّ ما أحاط بفِعلِه عِلْمُه جاز لِفاعِلِه فِعْلُه دونَ إطلاقِه؛ فقد دلَّ هذا بغيرِ إشكالٍ على أنَّ إعدادَ الإذْنِ عِلْمًا خَطَأٌ لا يُشَكُّ فيه[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ اللهَ إذا أَذِنَ بشَيءٍ صار حلالًا، وحتَّى وإنْ كان جِنْسُه حرامًا فإنَّه يكونُ حلالًا؛ فقَطْعُ النَّخيلِ أو إحراقُ النَّخيلِ إضاعةُ مالٍ لا شكَّ، لكنْ إذا أَذِنَ اللهُ به صار قُرْبَةً؛ فاللهُ تعالى أَذِنَ لنَبيِّه بأنْ يُحَرِّقَ النَّخيلَ ويَقطَعَه، ثمَّ قال: ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وهذه فائدةٌ عظيمةٌ؛ فخِزْيُ الفاسِقين أمرٌ مطلوبٌ للشَّرعِ حتَّى وإنْ ضاع به المالُ، فبَيَّنَ اللهُ سُبحانَه أنَّ اللهَ أباح له أنْ يَفْعَلَ، وأنَّ مِن فوائدِه إذلالَ الفاسِقين، يعني: الكافِرين[٢].

٧- الإذْنُ على قِسمَين: إذْنٍ كَونيٍّ -وهو ما يَتعلَّقُ بالمخلوقاتِ، والتَّقديراتِ-؛ وإذْنٍ شرعيٍّ -وهو ما يتعلَّقُ بالتَّشريعاتِ[٣]-، فمِنَ الإذْنِ الشَّرعيِّ الدِّينيِّ قَولُه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ومِن الإذنِ الكَونيِّ قولُه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٤] [البقرة: ١٠٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ سُمِّيَ الفَيءُ فَيئًا؛ لأنَّ اللهَ أفاءَه على المُسلِمينَ، أي: رَدَّه عليهم مِن الكُفَّارِ؛ فإنَّ الأصلَ أنَّ اللهَ تعالى إنَّما خَلَقَ الأموالَ إعانةً على عبادتِه؛ لأنَّه إنَّما خَلَقَ الخَلْقَ لعبادتِه، فالكافِرونَ به أباح أنفُسَهم الَّتي لَمْ يَعبُدوه بها، وأموالَهم الَّتي لم يَستَعينوا بها على عبادتِه؛ لعبادِه المؤمِنينَ الَّذين

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٥/ ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((أمراض القلوب وشفاؤها)) لابن تيمية (ص: ٤٧).

يَعبُدونَه، وأفاء إليهم ما يَستَحِقُّونَه، كما يُعادُ على الرَّجُلِ ما غُصِبَ مِن ميراثِه، وإنْ لم يكُنْ قَبَضَه قَبْلَ ذلك[١]. فالآيةُ فيها إشعارٌ بأنَّ الفَيءَ كان حَقيقًا بأنْ يكونَ له عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإنَّما وقَعَ في أيْديهِم بغَيرِ حقٍّ، فرَجَعَه اللهُ تَعالى إلى مُستحقِّهِ[٢].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الفَيءَ: ما أُخِذَ مِن الكُفَّارِ بلا قتالٍ وإيجافِ خَيلٍ ورِكابٍ، ومنه ما جَلَوا عنه خَوفًا. والغنيمةُ: ما أُخِذَ منهم بقِتالٍ، خِلافًا لِمَن زَعَم أنَّهما بمعنًى واحِدٍ، أو فرَّقَ بيْنَهما بغيرِ ذلك[٣].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ يدُلُّ على أنَّ إيجافَ الخَيلِ والرِّكابِ، وقَصْدَ العَدُوِّ إلى الأماكِنِ الشَّاسِعةِ: له وَقعٌ كَبيرٌ في النُّفوسِ، ورُعبٌ عَظيمٌ[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أضاف سُبحانَه الأرضَ إلى الرَّسولِ؛ إشارةً إلى أنَّ كلَّ قريةٍ يُفيئُها اللهُ على أُمَّتِه إلى يومِ القيامةِ فهي مُضافةٌ إلى الرَّسولِ غيرُ مختصَّةٍ بالغانمينَ، والإمامُ يقومُ مقامَ الرَّسولِ في قِسْمَتِها بالاجتِهادِ، يدُلُّ على ذلك أنَّه جَعَلَها لثلاثةِ أصنافٍ: المهاجرينَ، والأنصارِ، ومَن جاء بعدَهم مِن المسلِمينَ، وهذا لا يمكنُ في المنقولاتِ قَطعًا؛ لأنَّ المنقولاتِ تُستهلَكُ ويَختَصُّ بها مَن يأخُذُها؛ فلا يُمكِنُ اشتِراكُ جميعِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٧).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٨).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٧).

المسلمينَ فيه[١].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ﴾ بَدا مِن هذا التَّعليلِ: أنَّ مِن مَقاصِدِ الشَّريعةِ أن يكونَ المالُ دُولةً بيْن الأمَّةِ الإسلاميَّةِ، على نِظامٍ مُحكَمٍ في انتِقالِه مِن كُلِّ مالٍ لم يَسبِقْ عليه مِلكٌ لأحَدٍ؛ مِثلُ: المَواتِ، والفَيءِ، واللُّقَطاتِ، والرِّكازِ، أو كان جُزءًا مُعَيَّنًا؛ مِثلُ: الزَّكاةِ، والكفَّاراتِ، وتخميسِ المغانمِ، والخَراجِ، والمواريثِ، وعُقودِ المعامَلاتِ الَّتي بيْن جانِبَي مالٍ وعمَلٍ؛ مِثلُ: القِراضِ، والمُغارَسةِ، والمُساقاةِ، وفي الأموالِ الَّتي يَظفَرُ بها الظَّافِرُ بدُونِ عَمَلٍ وسَعيٍ، مِثلُ: الفَيءِ، والرِّكازِ، وما ألقاه البَحرُ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ إضافةُ الأموالِ الشَّرعيَّةِ إلى اللهِ والرَّسولِ؛ لأنَّ العبدَ الرَّسولَ لا يُعطي أحدًا إلَّا بأمرِ ربِّه، ولا يُعطي مَن يشاءُ ويَحرِمُ مَن يشاءُ، وأمَّا النَّبيُّ المَلِكُ فإنَّه يَفعَلُ ما فَرَضَ اللهُ عليه، ويَترُكُ ما حَرَّمَ اللهُ عليه، ويَتصَرَّفُ في الولايةِ والمالِ بما يُحِبُّه ويَختارُ مِن غيرِ إثمٍ عليه، كما في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[٣] [ص: ٣٩].

١٤- قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ [الحشر: ١٠] فأخبَرَ أنَّ ما أفاء اللهُ على رَسولِه بجُملتِه هو لِمَن ذُكِرَ في هذه الآياتِ، ولم يَخُصَّ منه خُمُسَه بالمذكورينَ في آيةِ الخُمسِ، بل عَمَّمَ وأَطْلَقَ واستَوعبَ، ويُصرَفُ على المصارفِ الخاصَّةِ، وهم أهلُ الخُمسِ، ثمَّ على

(١) يُنظر: ((الاستخراج لأحكام الخراج)) لابن رجب (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨١).

المصارفِ العامَّةِ، وهم المهاجِرون والأنصارُ، وأتْباعُهم إلى يومِ الدِّينِ[١]، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فتخصيصُ هؤلاء بالذِّكْرِ هو للاعتناءِ بهم، لا لاختصاصِهم بالمالِ؛ ولهذا قال: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أي: لا تتداوَلونَه وتَحرِمونَ الفُقراءَ، ولو كان مختصًّا بالفُقراءِ لم يكُنْ للأغنياءِ، فضلًا عن أنْ يكونَ دُولةً[٢]!

١٥- إنَّ اللهَ تعالى قال في الخُمُسِ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١] فاستفتَحَ الكلامَ بأنْ نَسَبَه إلى نَفْسِه، ثمَّ ذَكَر أهْلَه بَعْدُ، وكذلك قال في الفَيءِ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ﴾ [الحشر: ٧]، فنَسَبَه جَلَّ ثناؤُه إلى نَفْسِه، ثمَّ اقتَصَّ ذِكرَ أهلِه، فصار فيهما الخِيارُ إلى الإمامِ في كُلِّ شَيءٍ يُرادُ اللهُ به، فكان أقرَبَ إليه، ثمَّ ذَكَر الصَّدَقةَ، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] ولم يَقُلْ: لله، ولِكذا ولِكذا، فأوجَبَها لهم، ولم يجعَلْ لأحدٍ فيها خِيارًا أن يَصرِفَها عن أهلِها إلى مَن سِواهم، ومعنى هذا أنَّ الصَّدَقةَ إنَّما هي مِن أموالِ المُسلِمينَ خاصَّةً، فحُكمُها أن تُؤخَذَ مِن أغنيائِهم، فتُرَدَّ في فُقَرائِهم، فلا يجوزُ منها نَفلٌ ولا عَطاءٌ، فهذه مِن أموالِ المُسلِمينَ، وذاك مِن أموالِ أهلِ الكُفْرِ؛ فافتَرَق حُكمُ الخُمُسِ والصَّدَقةِ لِما ذَكَرْنا[٣].

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ١١٠).

قال السيوطي: (قولُه تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ استَدَلَّ بها مَن قال: إنَّ الفَيءَ لا يُصرَفُ منه شيءٌ للمُعَدينَ للقِتالِ، بل يُصرَفُ أربعةُ أخماسِ خُمُسِه إلى الأربعةِ: ذَوِي القُربى، واليتامى، والمساكينِ، وابنِ السَّبيلِ، ويُصرَفُ الخُمسُ والأخماسُ الأربعةُ الباقيةُ الَّتي كانت لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى مصالحِ المُسلِمينَ). ((الإكليل)) (ص: ٢٥٨).

وتقدَّم ذِكرُ الخلافِ في حُكمِ تخميسِ الفَيءِ (ص: ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((الأموال)) للقاسم بن سلام (ص: ٤١١).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أنَّ أحكامَ القُرآنِ يُرشِدُ سُبحانَه فيها إلى مَدارِكِها وعِلَلِها، وكقَولِه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فأَمَرَ سُبحانَه نَبيَّه أنْ يَذْكُرَ لهم عِلَّةَ الحُكْمِ قبْلَ الحُكْمِ(١).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أنَّ الوَقفَ على الأغنياءِ باطِلٌ(٢)؛ فقد أخْبَر سُبحانَه أنَّه شَرَعَ ما ذَكَرَه؛ لئلَّا يكونَ الفَيءُ مُتداوَلًا بيْن الأغنياءِ دونَ الفُقراءِ، فعُلِمَ أنَّه سُبحانَه يَكْرَهُ هذا ويَنهى عنه ويَذُمُّه، فمَن جَعَلَ الوقفَ للأغنياءِ فقط فقد جَعَلَ المالَ دُولةً بيْن الأغنياءِ، فيتداوَلونَه بطنًا بعدَ بطنٍ دونَ الفُقَراءِ، وهذا مُضادٌّ للهِ في أمْرِه ودِينِه؛ فلا يجوزُ ذلك(٣).

١٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ هذا عامٌّ يَدخُلُ فيه قِسمةُ ما أفاء اللهُ، والغنائِمِ، وغَيرِها، حتَّى إنَّه قد استُدِلَّ بهذا العُمومِ على تحريمِ الخَمرِ، وحُكمِ الواشِمةِ والمُستَوشِمةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٤).

(٢) وهو مذهبُ الحنفيَّةِ، والحنابلةِ، خلافًا للمالكيَّة والشافعيَّةِ، على تفصيلٍ لدى بعضِ هذه المذاهبِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٤٤/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣١/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤١).

أمَّا تحريمُ الخَمرِ فعن ابنِ عبَّاسٍ وابنِ عُمرَ رضيَ الله عنهما: ((أنَّهما شَهِدا على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه نهى عن الدُّبَّاءِ، والحَنْتَمِ، والمُزَفَّتِ، والنَّقِيرِ، ثمَّ تلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هذهِ الآيَةَ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾)). أخرجه النسائيُّ (٥٦٤٣)، وقال الألبانيُّ: (صحيحٌ دونَ تِلاوةِ الآيةِ، وكأنَّها مُدْرَجةٌ).

وأمَّا حُكمُ الواشِمةِ والمُستَوشِمةِ فعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضيَ الله عنه: ((لَعَنَ اللهُ الواشِماتِ والمُستَوشِماتِ، والمُتَنَمِّصاتِ، والمُتَفَلِّجاتِ للحُسنِ، المُغَيِّراتِ خَلْقَ اللهِ تعالى، ما لي لا ألعَنُ مَن لعَنَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! وهو في كتابِ اللهِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾)). =

١٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ يدُلُّ على أنَّ كُلَّ ما أَمَر به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمْرٌ مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّ الآيةَ وإن كانت في الغنائِمِ، فجَميعُ أوامِرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونواهيه داخِلٌ فيها[١].

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ فيه وُجوبُ امتِثالِ أوامِرِه ونواهيه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال العُلَماءُ: وكُلُّ ما ثبَتَ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَصِحُّ أن يُقالَ: إنَّه في القُرآنِ؛ مِن هذه الآيةِ[٢].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ أنَّ سُنَّةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَصدرُ تَشريعٍ[٣].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ أنَّ صِيغةَ النَّهيِ عندَ الإطلاقِ تَقتَضي تحريمَ المنهيِّ عنه وفَسادَه؛ فالأمرُ بالانتِهاءِ عمَّا نهى عنه يَقتَضي وُجوبَ الانتِهاءِ، ومِن لازِمِ ذلك تحريمُ الفِعلِ[٤]، ولأنَّ استِحبابَ الانتِهاءِ معلومٌ بنَفْسِ النَّهيِ، فلا بدَّ أنْ يُفيدَ هذا الخِطابُ فائدةً زائدةً على جميعِ أنواعِ الاستِحبابِ، وهي وجوبُ الانتهاءِ[٥].

٢٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ هذه الآيةُ جامِعةٌ للأمرِ باتِّباعِ ما يَصدُرُ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قَولٍ وفِعلٍ، فيَندَرِجُ فيها جميعُ أدِلَّةِ السُّنَّةِ[٦].

= أخرجه البُخاريُّ (٥٩٣١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢١٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٨٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((أصول في التفسير)) لابن عثيمين (ص: ٧).

(٤) يُنظر: ((الأصول من علم الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٢٩).

(٥) يُنظر: ((تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل)) لابن تيمية (٢/ ٥٢١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٧).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم هو القاسِمُ للفَيءِ والمَغانِمِ، ولو كانت مَقسومةً محدودةً كالفرائضِ لم يكُنْ للرَّسولِ أمرٌ فيها ولا نهيٌ[١].

٢٥- قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ عطْفُ الأمْرِ بالتَّقْوى على الأمْرِ بالأخْذِ بالأوامرِ وتَرْكِ المَنهيَّاتِ، يدُلُّ على أنَّ التَّقوى هي امتثالُ الأمْرِ واجتنابُ النَّهيِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ أُفْضِيَ به إلى المَقصدِ مِن السُّورةِ عن أحكامِ أمْوالِ بَني النَّضيرِ[٣].

- وإيثارُ (لِينةٍ) على (نَخلةٍ)؛ لأنَّه أخَفُّ؛ ولذلك لم يَرِدْ لَفظُ (نَخلةٍ) مُفرَدًا في القرآنِ، وإنَّما ورَدَ النَّخلُ اسمَ جمْعٍ[٤].

- قولُه: ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾ بَيانٌ لإبهامِ (ما) في قولِه: ﴿مَا قَطَعۡتُم﴾[٥].

- وجِيءَ بالحالِ في قولِه: ﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾؛ لتَصويرِ هَيئتِها وحُسْنِها، وتَعلَّقَ ﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ بـ ﴿قَآئِمَةً﴾، والمَقصودُ: زِيادةُ تَصويرِ حُسْنِها، ووَصْفُها بأنَّها قائمةٌ على أُصولِها هو بتَقديرِ: قائمةً فُروعُها على أُصولِها؛

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٦، ٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٦).

لظُهورِ أنَّ أصْلَ النَّخلةِ بَعضُها. وفيه إيماءٌ إلى أنَّ تَرْكَ القطْعِ أَولى[١].

- قولُه: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ عِلَّةٌ لمَحذوفٍ، أي: وفعَلْتُم، أو وأَذِنَ لكمْ في القطْعِ؛ ليَجْزِيَهم على فِسقِهم بما غاظَهَم منه[٢].

- وعطْفُ ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ مِن عطْفِ العِلَّةِ على السَّببِ، وهو ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ السَّببَ في معْنى العِلَّةِ[٣].

- والمرادُ بالفاسِقينَ في قولِه: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يَهودُ النَّضيرِ، وعُدِل عن الإتيانِ بضَميرِ أهلِ الكِتابِ كما أُتِيَ بضَمائرِهم مِن قبْلُ ومِن بَعْدُ إلى التَّعبيرِ عنهم بوَصْفِ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ لأنَّ الوصْفَ المُشتقَّ يُؤذِنُ بسَببِ ما اشتُقَّ منه في ثُبوتِ الحكْمِ، أي: ليَجْزِيَهم مِن أجْلِ الفِسقِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

- يَجوزُ أنْ تكونَ هذه الآيةُ عطْفًا على جُملةِ ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ [الحشر: ٥] الآيةَ؛ فتَكونَ امتِنانًا وتَكملةً لمَصارِفِ أموالِ بَني النَّضيرِ. ويجوزُ أنْ تكونَ عطْفًا على مَجموعِ ما تَقدَّمَ عطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، والغرَضِ على الغرَضِ؛ للانتِقالِ إلى التَّعريفِ بمَصيرِ أموالِ بَني النَّضيرِ؛ لئلَّا يَختلِفَ رِجالُ المسلِمينَ في قِسمتِها، ولبَيانِ أنَّ ما فَعَلَه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قِسمةِ أموالِ بَني النَّضيرِ هو عدْلٌ إنْ كانتِ الآيةُ نزَلَت بعْدَ القِسمةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قولِه: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَهُ هنا بواوِ العطفِ، وقاله بعْدُ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ...﴾ بحَذْفِها؛ لأنَّه مُستأنَفٌ عمَّا قبْلَه[١].

- قولُه: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ هو بصَريحِه امتِنانٌ على المسلمينَ بأنَّ اللهَ ساقَ لهم أموالَ بَني النَّضيرِ دونَ قِتالٍ، ويُفيدُ مع ذلك كِنايةً بأنْ يُقصَدَ بالإخبارِ عنه بأنَّهم لم يُوجِفوا عليه لازِمُ الخَبرِ؛ وهو أنَّه ليس لهم سَببُ حقٍّ فيه، والمعْنى: فما هو مِن حقِّكم، أو لا تَسْألوا قِسمتَه؛ لأنَّكم لم تَنالُوه بقِتالِكم، ولكنَّ اللهَ أعطاهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نِعمةً منه بلا مَشقَّةٍ ولا نصَبٍ[٢].

- وحرْفُ (على) في قولِه تعالَى: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ للتَّعليلِ، وليس لتَعديةِ ﴿أَوْجَفْتُمْ﴾؛ لأنَّ معْنى الإيجافِ لا يَتعدَّى إلى الفَيءِ بحرْفِ الجرِّ، أو مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ هو مَصدرُ ﴿أَوْجَفْتُمْ﴾، أي: إيجافًا لأجْلِه[٣].

- و(مِن) في ﴿مِنْ خَيْلٍ﴾ صِلةٌ داخلةٌ على النَّكرةِ في سِياقِ النَّفيِ؛ للاستِغراقِ، ومَدخولُ (مِنْ) في معْنى المفعولِ به لـ﴿أَوْجَفْتُمْ﴾، أي: ما سُقْتُم خَيلًا ولا رِكابًا[٤].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ استِدراكٌ على النَّفيِ الَّذي في قولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ لرفْعِ تَوهُّمِ أنَّه لا حقَّ فيه لأحدٍ، والمرادُ: أنَّ اللهَ سلَّطَ عليه رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فالرَّسولُ أحقُّ به. وهذا

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩).

التَّركيبُ يُفيدُ قصْرًا مَعنويًّا، كأنَّه قِيل: فما سلَّطَكم اللهُ عليهم، ولكنْ سلَّطَ عليهم رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(١)].

- وفيه إيجازُ حَذْفٍ؛ لأنَّ التَّقديرَ: ولكنَّ اللهَ سلَّطَ عليهم رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واللهُ يُسلِّطُ رُسلَه على مَن يَشاءُ، وكان هذا بمَنزلةِ التَّذييلِ لعُمومِه، وهو دالٌّ على المُقدَّرِ. وعُمومُ ﴿مَن يَشَآءُ﴾؛ لشُمولِ أنَّه يُسلِّطُ رُسلَه على المُقاتِلينَ، ويُسلِّطُهم على غيرِ المُقاتِلينَ، والمعْنى: وما أفاء اللهُ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنَّما هو بتَسليطِ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عليهم، وإلْقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهم، واللهُ يُسلِّطُ رُسلَه على مَن يَشاءُ؛ فأغْنى التَّذييلُ عن المَحذوفِ[(٢)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ هذه الآيةُ ابتداءُ كلامٍ، أي: على الاستِئنافِ الابتدائيِّ، وقُصِدَ منها حُكْمٌ غيرُ الحُكْمِ الَّذي تَضمَّنَتْه الآيةُ الَّتي قبْلَها؛ فمَضمونُ الآيةِ الَّتي قبْلَها أموالُ بَني النَّضيرِ خاصَّةً، ومَضمونُ هذه الآيةِ إخبارٌ عن حُكْمِ الأَفْياءِ الَّتي حصَلَت عندَ فتْحِ قُرًى أُخرى بعْدَ غَزوةِ بَني النَّضيرِ؛ مِثل قُرَيْظَةَ سَنةَ خمْسٍ، وفَدَكٍ سَنةَ سَبْعٍ، ونحوِهما، فعيَّنَتْه هذه الآيةُ للأصنافِ المذكورةِ فيها، ولا حقَّ في ذلك لأهلِ الجَيشِ أيضًا، وهو الَّذي يَقْتضيه تَغييرُ أُسلوبِ التَّعبيرِ بقولِه هنا: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ بعْدَ أنْ قال في الَّتي قبْلَها: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ [الحشر: ٦]؛ فإنَّ ضَميرَ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ راجعٌ لـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحشر: ٢]، وهم بَنو النَّضيرِ لا مَحالةَ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٩، ٨٠).

ويَجوزُ جَعْلُ هذه الآيةِ تَكملةً وبَيانًا للآيةِ الَّتي قبْلَها، أي: بَيانًا للإجمالِ الواقعِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ﴾ الآيةَ [الحشر: ٦]؛ لأنَّ الآيةَ الَّتي قبْلَها اقتَصَرَت على الإعلامِ بأنَّ أهلَ الجَيشِ لا حقَّ لهم فيه، ولم تُبيِّنْ مُستحِقَّه، وأشْعَرَ قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [الحشر: ٦] أنَّه مالٌ للهِ تَعالى يَضَعُه حيث شاءَ على يَدِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقدْ بيَّنَ اللهُ له مُستحقِّيه مِن غيرِ أهلِ الجيشِ، فمَوقعُ هذه الآيةِ مِن الَّتي قبْلَها مَوقعُ عطْفِ البَيانِ؛ ولذلك فُصِلَت[(١)].

- وعلى أنَّ هذه الآيةَ بَيانٌ للآيةِ الَّتي قبْلَها فإعادةُ عَينِ العبارةِ الأُولى لزِيادةِ التَّقريرِ، ووَضْعُ ﴿أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ مَوضعَ ضَميرِهم -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ للإشعارِ بشُمولِ ما -في قولِه ﴿مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾- لعِقاراتِهم[(٢)].

- وتَقييدُ الفَيءِ بفَيءِ القُرى جَرى على الغالِبِ؛ لأنَّ الغالبَ ألَّا تُفتَحَ إلَّا القُرى؛ لأنَّ أهلَها يُحاصَرون فيَسْتسلِمون ويُعطُون ما بأيْديهم إذا اشتدَّ عليهم الحصارُ، فأمَّا النَّازِلون بالبوادي فلا يُغلَبون إلَّا بعْدَ إيجافٍ وقتالٍ؛ فليس لقَيدِ ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ مَفهومٌ[(٣)].

- والتَّعريفُ في قولِه تعالى: ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ تَعريفُ العهدِ، وهي قُرًى مَعروفةٌ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٠، ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨، ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٢، ٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٨٢).

- وقولُه: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ...﴾ تَعليلٌ لِما اقتضاهُ لامُ التَّمليكِ مِن جَعْلِه مِلْكًا لأصنافٍ كثيرةِ الأفرادِ، أي: جَعَلْناه مَقسومًا على هؤلاء؛ مِن أجْلِ ألَّا يكونَ الفَيءُ دُولةً بيْن الأغنياءِ مِن المسلِمينَ، أي: لئلَّا يَتداوَلَه الأغنياءُ، ولا يَنالَ أهْلَ الحاجةِ نَصيبٌ منه[١].

- قولُه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ...﴾ اعتِراضٌ ذُيِّلَ به حُكْمُ فَيْءِ بَني النَّضيرِ؛ إذ هو أمْرٌ بالأخْذِ بكلِّ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والقصْدُ مِن هذا التَّذييلِ إزالةُ ما في نُفوسِ بَعضِ الجيشِ مِن حَزازةِ حِرمانِهم ممَّا أفاءَ اللهُ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أرضِ النَّضيرِ[٢].

- والإيتاءُ مُعبَّرٌ به هنا عن تَبليغِ الأمْرِ إليهم؛ جَعَلَ تَشريعَه وتَبليغَه كإيتاءِ شَيءٍ بأيْدِيهم، وعُبِّرَ بالأخْذِ عن قَبولِ الأمْرِ والرِّضا به والعمَلِ، وقَرينةُ ذلك مُقابَلتُه بقولِه تعالى: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، وهو تَتْميمٌ لنَوعَيِ التَّشريعِ[٣].

- وقد جاءَ هذا التَّذييلُ على هذه الآيةِ بقولِه تعالَى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ إيذانًا بأنَّ هذا التَّكليفَ لا هَوادةَ فيه، وأنَّه مُلزِمٌ للأُمَّةِ سرًّا وعلَنًا، وأنَّ مَن خالَفَ شَيئًا منه يَتوجَّهُ إليه هذا الإنذارُ الشَّديدُ؛ لأنَّ معصيتَه معصيةٌ لله، وطاعتَه مِن طاعةِ الله؛ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٤] [النساء: ٨٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٨٦، ٨٧).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٢).

الآيات (٨-١٠)

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾: أي: توَطَّنوا المدينةَ، واتَّخَذوها مَوطِنًا، والتَّبَوُّءُ: التَّمَكُّنُ والاستِقرارُ، وأصلُ (بوأ): يدُلُّ على رُجوعٍ، وأصلُ (دور): يدُلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِن حوالَيْه[١].

﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾: أي: يُقَدِّمونَ المحاويجَ على حاجةِ أنفُسِهم، وأصلُ (أثر) هنا: يدُلُّ على تقديمِ الشَّيءِ[٢].

﴿خَصَاصَةٌ﴾: أي: حاجةٌ وفَقرٌ، قيل: الخَصاصةُ مأخوذةٌ مِن خَصاصِ البَيتِ، وهي الفُرَجُ الَّتي تَكونُ فيه، وقيل: إنَّها مأخوذةٌ مِن الاختِصاصِ، وهو الانفرادُ بالأمرِ، فالخَصاصةُ: الانفرادُ بالحاجةِ، وأصلُ (خصص): يدُلُّ على فُرْجةٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢) و(٢/ ٣١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، =

﴿شُحَّ﴾: الشُّحُّ: بُخلٌ مع حِرصٍ، وقيل غيرُ ذلك، وأصلُ (شحح): يدُلُّ على مَنعٍ[(١)].

﴿غِلًّا﴾: أي: حِقدًا وحَسَدًا وبُغضًا، وأصلُ (غلل): يدُلُّ على تخَلُّلِ شَيءٍ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ...﴾

قَولُه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾: فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنَّه بدَلُ كُلٍّ مِن كُلٍّ مِنْ (لِذِي الْقُرْبَى) وما عُطِف عليه في قَولِه تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧]، فكأنَّه قيل: أعني بأولئك الأربعةِ هؤلاء الفُقراءَ المهاجِرينَ. الثَّاني: أنَّه في محَلِّ رَفعٍ خَبَرٌ لِمُبتدَأٍ محذوفٍ، أي: ولكِنِ الفَيْءُ للفُقَراءِ. الثَّالِثُ: أنَّه مُتعَلِّقٌ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ، تقديرُه: اعجَبوا للفُقراءِ.

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ فيه أوجُهٌ؛ أحدُها: مَعطوفٌ على ﴿ٱلدَّارَ﴾ مَنصوبٌ مِثله، على تضمينِ ﴿تَبَوَّءُو﴾ معنى «لَزِموا»؛ لأنَّ الإيمانَ لا يُتَبَوَّأُ. والثَّاني: أنَّه منصوبٌ على المفعوليَّةِ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ، أي: واعتَقَدوا أو أَلِفوا. الثَّالِثُ: أنْ يكونَ معطوفًا على ﴿ٱلدَّارَ﴾ على نِيَّةِ حَذفِ مُضافٍ، والأصلُ: دارَ الهجرةِ ودارَ الإيمانِ.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٦). ويُنظر ما سيأتي: (ص: ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٣).

الرَّابعُ: أنَّه منصوبٌ على المفعولِ معه، أي: معَ الإيمانِ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يُثْني الله تعالى على المهاجِرينَ الَّذينَ فارَقوا أموالَهم وديارَهم، مِن أجْلِ إعلاءِ كلمةِ الله، فيقولُ: لأصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الفُقراءِ المُهاجِرينَ مِن مكَّةَ إلى المدينةِ، الَّذين أخرَجَهم كُفَّارُ قُرَيشٍ مِن بُيوتِهم وأموالِهم: نَصيبٌ مِن الفَيءِ، يَطلُبونَ رِزقًا مِنَ اللهِ يأتيهم، ورِضًا منه، ويَنصُرونَ اللهَ ورسولَه، أولئك هم الصَّادِقونَ.

ثمَّ يُثْني سبحانَه على الأنصارِ ويُبيِّنُ فضائلَهم، فيقولُ: والصَّحابةُ الأنصارُ الَّذين سَكَنوا مَدينةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وآمَنوا باللهِ ورَسولِه مِن قَبْلِ هجرةِ المُهاجِرينَ إليهم: يُحِبُّونَ المُهاجِرينَ إليهم، ولا يَجِدُ أولئك الأنصارُ في صُدورِهم حَسَدًا مِمَّا أعطاه اللهُ ورَسولُه للمُهاجِرينَ مِن فَيْءِ بَني النَّضيرِ، ويتَصَدَّقُ الأنصارُ بأموالِهم وطعامِهم؛ إيثارًا للمُحتاجِينَ على أنفُسِهم، حتَّى لو كان بهم فَقرٌ وشدَّةُ حاجةٍ، ومَن وقاه اللهُ مِن شدَّةِ حِرصِ نفْسِه على جَمعِ المالِ، فأولئك هم الفائِزونَ.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى مِن اللَّاحِقينَ مَن هو مؤتمٌّ بهم، وسائرٌ على طريقِهم، فيقولُ: والمؤمِنونَ الَّذين جاؤُوا مِن بَعدِ المهاجِرينَ والأنصارِ يَقولونَ: رَبَّنا اغفِرْ لنا ولإخوانِنا في الدِّينِ، الَّذين تقَدَّمونا في الإيمانِ به، ولا تَجعَلْ في قُلوبِنا شَيئًا مِنَ البُغضِ أو الحِقدِ أو الحَسَدِ لأحَدٍ من أهلِ الإيمانِ بك، رَبَّنا إنَّك رؤوفٌ رَحيمٌ.

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٤، ٢٤٥).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَزَع اللهُ سُبحانَه أموالَ الفَيءِ وما كانت عليه في الجاهِليَّةِ، وبَيَّنَ مَصرِفَ الفَيءِ مِن القُرى، وتهَدَّدَ في المُخالَفةِ في ذلك لصعوبتِه على النُّفوسِ، فكان ذلك جديرًا بالتَّقَبُّلِ بعدَ أن أفهَمَ أنَّ أموالَ بني النَّضيرِ لِمَن سلَّطَه عليهم، وهو رَسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكان مِن المعلومِ مِن حالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الإيثارُ على نَفْسِه، والقناعةُ بما دونَ الكَفَافِ- بيَّنَ المَصرِفَ فيها بعدَ كفايتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ بَيانَ ذلك هو المقصودُ الأعظَمُ[1].

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾.

أي: لأصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الفُقراءِ المُهاجِرينَ مِن مَكَّةَ إلى المدينةِ، الَّذين أخرَجَهم كُفَّارُ قُرَيشٍ مِن بُيوتِهم وأموالِهم: نَصيبٌ مِن الفَيءِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

قال الشوكاني: (قَولُه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ قيل: هو بدَلٌ مِن «لِذِي الْقُرْبَى» وما عُطِفَ عليه، ولا يَصِحُّ أن يكونَ بدلًا مِنَ الرَّسولِ وما بَعْدَه؛ لئلَّا يَستَلزِمَ وصْفَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالفَقرِ.

وقيل: التَّقديرُ: كي لا يكونَ دُولةً، ولكِنْ يكونُ للفُقَراءِ.

وقيل: التَّقديرُ: اعجَبوا للفُقَراءِ.

وقيل: التَّقديرُ: واللهُ شديدُ العِقابِ؛ للفُقَراءِ، أي: شديدُ العِقابِ للكُفَّارِ؛ بسَبَبِ الفُقَراءِ.

وقيل: هو عَطفٌ على ما مضى بتقديرِ الواوِ، كما تقولُ: المالُ لزَيدٍ لِعَمرٍو لبَكرٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٨، ٢٣٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩). =

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾.

أي: وهم يَطلُبونَ رِزقًا مِنَ اللهِ يأتيهم، ورِضًا منه يَحُلُّ عليهم حينَ خَرَجوا إلى دارِ الهِجرةِ[1].

= قَولُه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ممَّن اختار أنَّه بيانٌ للمَساكينِ الَّذين تقدَّمَ ذِكرُهم: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٢).

وممَّن اختار أنَّه بيانٌ للمَساكِينِ وابنِ السَّبيلِ: ابنُ عطيَّة، وتبِعه الثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٤٠٨).

وممَّن اختار أنَّه بدَلٌ مِن الأصنافِ الأربعةِ: ذَوِي القُربى، واليتامى، والمساكينِ، وابنِ السَّبيلِ، يعني: كأنَّه قيل: أعني بأولئك الأربعةِ هؤلاءِ الفُقَراءَ والمهاجِرينَ الَّذين مِن صِفَتِهم كذا وكذا: الزمخشريُّ، والرازي، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٣، ٥٠٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٧).

وممَّن اختار أنَّه بَدَلٌ مِن (لِلَّهِ وللرَّسُولِ) وما عُطِفَ عليهما في قَولِه تعالى: ﴿... فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾ [الحشر: ٧] عدَا ذَوِي القُرْبى؛ لئلَّا يَختَصَّ بفَقيرِهم: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٤، ٤٣٥).

وقال ابنُ أبي زَمَنين: (قولُه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي: وللفُقراءِ، رجع إلى أوَّلِ الآيةِ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧]، وللفُقراءِ المُهاجِرينَ الَّذين أُخرِجوا مِن ديارِهم وأموالِهم). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٦٨).

وقيل: كيلا يكونَ ما أفاء اللهُ على رسولِه دُولةً بيْنَ الأغنياءِ منكم، ولكنْ يكونُ للفُقراءِ المُهاجِرينَ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٩).

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

أي: ويَنصُرونَ دينَ اللهِ الَّذي بَعَث به رَسولَه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

أي: أولئك العالُو الرُّتبةِ هم الصَّادِقونَ حقًّا في إيمانِهم باللهِ تعالى، وبرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2].

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا مَدَح اللهُ تعالى المهاجِرينَ، وأعطاهم فطابت نُفوسُ الأنصارِ بذلك، وكانوا في كُلِّ حالٍ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غايةِ الطَّاعةِ له، مهما شاء فَعَل، ومهما أراد منهم صار إليه ووَصَل؛ أتْبَعَه مَدْحَهم؛ جَبرًا لهم، وشُكرًا لصَنيعِهم[3].

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٥).

قال الألوسي: (﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ عَطفٌ على ﴿يَبْتَغُونَ﴾؛ فهي حالٌ مُقَدَّرةٌ، أي: ناوينَ لنُصرةِ اللهِ تعالى ورسولِه صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم، أو مُقارِنةٌ؛ فإنَّ خُروجَهم مِن بَينِ الكُفَّارِ مُراغِمينَ لهم مُهاجِرينَ إلى المدينةِ: نُصرةٌ، وأيُّ نُصرةٍ؟!). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٦، ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٧).

أي: والصَّحابةُ الأنصارُ الَّذين سَكَنوا مَدينةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وآمَنوا باللهِ ورَسولِه مِن قَبْلِ هجرةِ المُهاجِرينَ إليهم- يُحِبُّونَ الَّذين هاجَروا إليهم[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨، ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

قال السمعاني: (قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أجمَع أهلُ التَّفسيرِ على أنَّ المرادَ بهم الأنصارُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠٠).

وقال القرطبي: (لا خِلافَ أنَّ الَّذين تبَوَّؤوا الدَّارَ هم الأنصارُ الَّذين استوطَنوا المدينةَ قبْلَ المُهاجِرينَ إليها). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠).

واختلَف المفسِّرون في قولِه تعالى: ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ومعنى كَونِهم تبَوَّؤُوا الإيمانَ مِن قبْلِ المُهاجِرينَ.

قال ابن عادل: (وفي قولِه: ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ ستَّةُ أوجُهٍ:

أحدُها: أنَّه ضمَّن ﴿تَبَوَّءُو﴾ معنى لَزِموا، فيصحُّ عطفُ الإيمانِ عليه؛ إذ الإيمانُ لا يُتَبَوَّأُ.

الثَّاني: أنَّه منصوبٌ بمُقَدَّرٍ، أي: واعتقَدوا، أو وأَلِفوا، أو وأحَبُّوا، أو وأخلَصوا.

الثَّالثُ: أنَّه يُتجوَّزُ في الإيمانِ، فيُجعَلُ اختِلاطُه بهم وثَباتُهم عليه كالمكانِ المُحيطِ بهم، فكأنَّهم نزَلوه...

الرَّابعُ: أن يكونَ الأصلُ: دارَ الهجرةِ، ودارَ الإيمانِ، فأقامَ لام التَّعريفِ في الدَّارِ مُقامَ المُضافِ إليه، وحذَفَ المُضافَ مِن دارِ الإيمانِ، ووضَع المُضافَ إليه مَقامَه.

الخامسُ: أن يكونَ سمَّى المدينةَ؛ لأنَّها دارُ الهِجرةِ، ومكانُ ظُهورِ الإيمانِ.

السَّادسُ: أنَّه منصوبٌ على المفعولِ معه، أي: مع الإيمان معًا). ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٨٤). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٨٥).

ممَّن اختار الوجهَ الأوَّلَ -أي: أنَّه ضمَّن ﴿تَبَوَّءُو﴾ معنَى: لَزِموا، فقولُه: ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: ولابَسوه وصَحِبوه وخصُّوه بالصُّحبةِ، ولَزِموه لُزومًا هو كلُزومِ المَنزِلِ الَّذي لا غِنَى لِنازِلِه عنه-: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٨).

وممَّن اختار الوجهَ الثَّانيَ -أنَّه منصوبٌ بفِعلٍ تقديرُه: واعتقَدوا الايمانَ، أو أخلَصوه، أو آثَروه-: الواحديُّ، وابن الجوزي، والقرطبي، والعُلَيمي، ونسَبَه ابنُ عاشور إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٠). =

= قال الواحدي: (تقديرُ الآيةِ: والَّذين تبَوَّؤوا الدَّارَ مِن قَبْلِهم والإيمانَ؛ لأنَّ الأنصارَ لم يؤمِنوا قبْلَ المُهاجِرينَ، وعطفُ الإيمانِ على الدَّارِ في الظَّاهرِ لا في المعنى؛ لأنَّ الإيمانَ ليس بمكانٍ يُتَبَوَّأُ، والتَّقديرُ: وآثَروا الإيمانَ، أو اعتقَدوا الإيمانَ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٧٣).

وممَّن اختار معنَى الوجهِ الثَّالثِ في الجملةِ -أي: أنَّهم لَزِموا المدينةَ والإيمانَ، واتَّخَذوهما مَبَاءةً، وتمَكَّنوا فيهما أشدَّ تمكُّنٍ، على تنزيلِ الحالِ مَنزِلةَ المكانِ-: البيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٩).

قال ابن جُزَي: (المعنى: أنَّهم جعَلوا الإيمانَ كأنَّه مَوطِنٌ لهم؛ لِتَمكُّنِهم فيه، كما جعَلوا المدينةَ كذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٠).

أمَّا الوَجهانِ الرَّابعُ والخامسُ فقال فيهما السمينُ الحلبي: (قال هذَينِ الوجهَينِ الزَّمخشريُّ، وليس فيه إلَّا قيامُ «أل» مَقامَ المُضافِ إليه، وهو مَحَلُّ نَظَرٍ). ((الدر المصون)) (١٠/ ٢٨٥). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٤).

وقال الألوسي في الوجهِ الرَّابعِ: (ولا يخفى ما فيه مِن التَّكلُّفِ والتَّعسُّفِ)، وقال في الوجهِ الخامسِ: (وهو كما ترى). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٥).

وممَّن اختار الوجهَ السَّادسَ: -أي: أنَّهم تبَوَّؤوا الدَّارَ مع الإيمانِ، فجَمَعوا بيْن الحالتَينِ قبْلَ المهاجِرينَ، فبهذا الاقترانِ يَصِحُّ معنى قَولِه: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾-: ابنُ عطية، واستحسَنه ابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٠، ٩١).

قال ابنُ جُزَي معلِّلًا هذا الوجهَ: (لأنَّ المهاجِرينَ إنَّما سبَقوهم بالإيمانِ، لا بتَبَوُّءِ الدَّارِ، فيكونُ الإيمانُ على هذا مفعولًا معه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٠).

وقال ابن كثير: (﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: سكَنوا دارَ الهِجرةِ مِن قَبلِ المُهاجِرينَ، وآمَنوا قبْلَ إيمانِ كثيرٍ مِنهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨).

وقال الثعلبيُّ والبغويُّ والخازنُ: نظْمُ الآيةِ: والَّذين تبَوَّؤوا الدَّارَ مِن قبْلِهم، أي: مِن قبْلِ قُدومِ المُهاجِرينَ عليهم وقد آمَنوا. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧١).

وأمَّا قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ فقيل: معناه: مِن قبْلِ المُهاجِرينَ. وقيل: معناه: مِن قبْلِ هِجرتِهم. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٥).

ممَّن اختارَ الأوَّلَ: ابنُ جريرٍ، وابنُ الجوزي، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٤)، =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قالت الأنصارُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اقسِمْ بَيْنَنا وبيْنَ إخوانِنا النَّخيلَ، قال: لا. فقالوا: تَكفُونا المَؤُونةَ، ونَشْرَكُكم في الثَّمَرةِ، قالوا: سَمِعْنا وأطَعْنا))[١].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((دعا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الأنصارَ إلى أن يُقطِعَ[٢] لهم البَحْرينِ، فقالوا: لا، إلَّا أن تُقْطِعَ لإخوانِنا مِن المهاجِرينَ مِثْلَها، قال: إمَّا لا[٣]، فاصبِروا حتَّى تَلْقَوني؛ فإنَّه سيُصيبُكم بَعْدي أَثَرةٌ[٤]))[٥].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قال المهاجِرونَ: يا رَسولَ اللهِ، ما رَأَيْنا مِثلَ

= ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧١).

وممَّن اختارَ الثَّاني: مقاتل بن سليمان، والسمرقندي، ومكي، والسمعاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٨٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٩٢).

ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٨).

وقال الشوكاني: (ومعنى ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: مِن قبلِ هجرةِ المهاجرينَ، فلا بدَّ مِن تقديرِ مضافٍ؛ لأنَّ الأنصارَ إنَّما آمَنوا بعدَ إيمانِ المهاجِرينَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٩).

وقال الألوسي: (الكلامُ بتقديرِ مُضافٍ؛ أي: مِن قَبلِ هِجرتِهم، فنِهايةُ ما يلزَمُ سَبقُ إيمانِ الأنصارِ على هِجرةِ المُهاجرينَ، ولا يلزمُ منه سبقُ إيمانِهم على إيمانِهم ليُقالَ: إنَّ الأمرَ بالعكسِ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٥).

(١) رواه البخاري (٢٣٢٥).

(٢) يُقْطِعَ: أي: يُعْطِيَ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٦/ ١٥٤).

(٣) أي: إن كنتُم لا تُريدونَ أو لا تَقْبَلونَ إيثاري لكم، فأُدغِمَ النُّونُ في الميم، وحُذِف فِعلُ الشَّرطِ. يُنظر: ((الإفصاح عن معاني الصحاح)) لابن هُبَيْرة (٥/ ٢٨٠)، ((اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح)) للبرماوي (١٠/ ٣٥٨).

(٤) أَثَرةً: أي: استئثارًا لغَيرِكم عليكم. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ١٥٤).

(٥) رواه البخاري (٣٧٩٤).

قَومٍ قَدِمْنا عليهم أحسَنَ مُواساةً في قليلٍ، ولا أحسَنَ بَذْلًا في كثيرٍ، لقد كَفَونا المَؤُونةَ[(١)]، وأشرَكُونا في المَهْنَأِ[(٢)]، حتَّى لقد حَسِبْنا أن يَذهَبوا بالأجْرِ كُلِّه! قال: لا، ما أَثنيتُم عليهم، ودَعوتُم اللهَ لهم))[(٣)].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (قَدِمَ علينا عبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ، وآخَى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَيْنَه وبيْنَ سَعدِ بنِ الرَّبيعِ، وكان كثيرَ المالِ، فقال سَعدٌ: قد عَلِمَتِ الأنصارُ أنِّي مِن أكثَرِها مالًا، سأَقسِمُ مالي بيْني وبيْنَك شَطرَينِ، ولي امرأتانِ فانظُرْ أعجَبَهما إليك، فأُطَلِّقُها، حتَّى إذا حلَّت تزَوَّجْتَها! فقال عبدُ الرَّحمنِ: بارك اللهُ لك في أهلِك)[(٤)].

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾.

أي: ولا يَجِدُ أولئك الأنصارُ في صُدورِهم أيَّ حَسَدٍ مِمَّا أعطاه اللهُ ورَسولُه للمُهاجِرينَ مِن فَيْءِ بَني النَّضيرِ[(٥)].

---

(١) أي: تَحمَّلوا عنَّا مَشَقَّةَ الخِدمةِ في عِمارةِ الدُّورِ والنَّخيلِ مِن سَقيٍ وإصلاحٍ وغيرِ ذلك. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهري (٣/ ٥٢٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠١٢).

(٢) المَهْنَأ: كلُّ ما يأتيكَ مِنَ المالِ مِن غيرِ تَعَبٍ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهري (٣/ ٥٢٢).

(٣) أخرجه مِن طرقٍ: أبو داودَ (٤٨١٢) مختصَرًا، والترمذيُّ (٢٤٨٧)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠٠٠٩)، وأحمدُ (١٣٠٧٥) واللَّفظُ له.

قال الترمذي: (صحيحٌ حسَنٌ غريبٌ مِن هذا الوجهِ). وصَحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١١٧)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٨٧)، وقال ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (٣/ ٢٢٧): (على شرطِ الصَّحيحَينِ). وصَحَّح إسنادَه على شرطِ الشَّيخَينِ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٠/ ٣٦١).

(٤) رواه البخاري (٣٧٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١١٩، ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٩، ٤٤٠)، ((تفسير ابن =

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَجُلًا أتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فبَعَث إلى نسائِه فقُلْنَ: ما مَعَنا إلَّا الماءُ! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَن يَضُمُّ أو يُضيفُ هذا؟ فقال رجُلٌ مِن الأنصارِ: أنا، فانطلَقَ به إلى امرأتِه، فقال: أكرِمي ضَيفَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت: ما عِندَنا إلَّا قوتُ صِبياني، فقال: هَيِّئي طعامَكِ، وأَصْبِحي[1] سِراجَكِ، ونَوِّمي صِبيانَكِ إذا أرادوا عَشاءً، فهَيَّأَت طَعامَها، وأصبَحَت سِراجَها، ونوَّمَت صِبيانَها، ثمَّ قامت كأنَّها تُصلِحُ سِراجَها فأطفَأَتْه! فجعَلَا يُرِيانِه أنَّهما يأكُلانِ، فباتا طاوِيَينِ[2]! فلمَّا أصبَحَ غَدَا إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ضَحِكَ اللهُ اللَّيلةَ، أو عَجِبَ مِن فِعالِكما! فأنزَلَ اللهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ

= عاشور)) (٢٨/ ٩٣).

قال ابنُ تيميَّة: (أي: ممَّا أُوتيَ إخوانُهم المهاجِرونَ. قال المفسِّرونَ: لا يجِدونَ في صُدورِهم حاجةً، أي: حَسَدًا وغَيظًا مِمَّا أُوتيَ المُهاجِرونَ. ثمَّ قال بعضُهم: مِن مالِ الفَيءِ. وقيل: مِن الفَضلِ والتَّقَدُّمِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ١١٩).

وممَّن قال بالأوَّلِ -أي مِن مالِ الفيءِ-: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٣).

قال القرطبي: (يعني لا يحسُدونَ المهاجِرينَ على ما خُصُّوا به مِن مالِ الفيءِ وغيرِه، كذلك قال النَّاسُ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني -أي ما فضَّلهم الله به مِن المنزلةِ والشَّرفِ، وخصَّهم به مِن الفضائلِ والمناقبِ-: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

(١) أي: أوقِدِيه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ١٥٦).

(٢) طاوِيَينِ: أي: بغَيرِ عَشاءٍ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ١٥٦).

نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾))[١].

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

أي: ويتَصَدَّقُ الأنصارُ بأموالِهم وطعامِهم؛ إيثارًا للمُحتاجِينَ على أنفُسِهم، حتَّى لو كان بهم فَقرٌ وحاجةٌ شَديدةٌ لذلك[٢].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ الصَدَقةِ أفضَلُ؟ قال: ((جُهْدُ المُقِلِّ[٣]، وابدَأْ بمَنْ تَعُولُ[٤]))[٥].

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: ومَن سلَّمَه اللهُ مِن شِدَّةِ حِرصِ النَّفْسِ على جَمعِ المالِ، فأولئك هم الفائِزونَ

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٧٩٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٠٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٠، ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٤).
قال الشوكاني: (المعنى: ويُقَدِّمون المُهاجِرينَ على أنفُسِهم في حُظوظِ الدُّنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٩).
وقال البِقاعي: (يُوقِعونَ الأَثَرةَ -وهي اختيارُ الأشياءِ الحَسَنةِ- لِغَيرِهم؛ تخصيصًا لهم بها). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٤٠).

(٣) جُهْدُ المُقِلِّ: أي: بَذْلُ الفَقيرِ؛ لأنَّه يكونُ بجُهدٍ ومَشَقَّةٍ لِقِلَّةِ مالِه. يُنظر: ((تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة)) للبيضاوي (٢/ ٥٩٤).

(٤) بمَن تَعُولُ: أي: بمَن تَلزَمُك نَفَقتُه. يُنظر: ((السراج المنير شرح الجامع الصغير)) للعَزِيزي (١/ ٢٥٧).

(٥) أخرجه أبو داودَ (١٦٧٧)، وأحمدُ (٨٧٠٢).
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٣٣٤٦)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ٥٧٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٦٧٧)، وقال ابنُ حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (٢/ ٣٠٣): (أصلُه في الصَّحيحِ). وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦/ ٢٨٦)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٦٧٧).

الظَّافِرونَ[١].

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اتَّقوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قَبلَكم، حمَلَهم على أنْ سَفَكوا دِماءَهم، واستحَلُّوا محارِمَهم[٢])[٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: خَطَب رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ((إيَّاكم والشُّحَّ؛ فإنَّما هلَك مَن كان قَبْلَكم بالشُّحِّ، أمَرَهم بالبُخلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧١)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٤، ٩٥).

قال ابن سِيْدَه: (الشُّحُّ: حِرصُ النَّفْسِ على ما ملَكَت، وبُخْلُها به). ((المحكم)) (٢/ ٤٨٩).

وقال العُلَيمي: (شُحُّ النَّفْسِ: هو كثرةُ الطَّمَعِ، وضَبطُها على المالِ، والرَّغبةُ فيه، وامتِدادُ الأمَلِ، وهو فَقرٌ لا يُذهِبُه غِنى المالِ، بل يَزيدُه، وهو داعيةُ كُلِّ خُلُقِ سُوءٍ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣).

وقال ابنُ القيِّم: (الفَرقُ بيْنَ الشُّحِّ والبُخلِ: أنَّ الشُّحَّ هو شِدَّةُ الحِرصِ على الشَّيءِ، والإحفاءُ في طَلَبِه، والاستِقصاءُ في تحصيلِه، وجَشَعُ النَّفْسِ عليه، والبُخلُ مَنْعُ إنفاقِه بعدَ حُصولِه، وحُبُّه وإمساكُه؛ فهو شحيحٌ قبْلَ حُصولِه، بخيلٌ بعدَ حُصولِه، فالبُخلُ ثَمَرةُ الشُّحِّ، والشُّحُّ يدعو إلى البُخلِ، والشُّحُّ كامِنٌ في النَّفْسِ، فمَنْ بَخِلَ فقد أطاع شُحَّه، ومَن لم يَبخَلْ فقد عصى شُحَّه). ((الوابل الصيب)) (ص: ٣٣).

وقيل: إنَّ الشُّحَّ هو البُخلُ مع حِرصٍ. وقيل: البخلُ: هو المنعُ مِن مالِ نفْسِه، والشُّحُّ: هو بُخلُ الرَّجُلِ مِن مالِ غيرِه. وقيل: إنَّهما مُترادِفانِ. يُنظر: ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ١٧٦)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٩٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٣٠)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٧).

(٢) استحَلُّوا مَحارِمَهم: أي: جَعَلوا المُحرَّمَ عليهم مِن وَطْءِ نسائِهم حلالًا. يُنظر: ((شرح المصابيح)) لابن المَلَك (٥/ ٣٥٧).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٨).

فبَخِلوا، وأمَرَهم بالقَطيعةِ فقَطَعوا، وأمَرَهم بالفُجورِ ففَجَروا))[١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((لا يَجتَمِعُ الشُّحُّ والإيمانُ في قَلبِ عبدٍ أبدًا))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أتى رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلٌ، فقال: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ الصَّدَقةِ أعظَمُ؟ فقال: أنْ تَصَدَّقَ وأنت صَحيحٌ شَحيحٌ، تَخشى الفَقْرَ، وتأمُلُ الغِنى، ولا تُمهِلْ حتَّى إذا بلَغَتِ الحُلْقومَ قُلتَ: لِفُلانٍ كذا، ولفُلانٍ كذا، ألَا وقد كان لفُلانٍ))[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أثْنى اللهُ سُبحانَه وتعالى على المُهاجِرينَ والأنصارِ -رَضِيَ اللهُ عنهم- بما هم أهلُه؛ عقَّب التَّابِعينَ لهم بإحسانٍ ما يُوجِبُ لهم الثَّناءَ[٤].

---

(١) أخرجه مِن طُرقٍ: أبو داودَ (١٦٩٨) واللَّفظُ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٥٨٣)، وأحمدُ (٦٤٨٧)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٥١٧٦).
صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٦٩٨)، وصحَّح إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند عمر)) (١/ ١٠٦)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ٥٧٦)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٩/ ٢٠١)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٦٩٨).

(٢) أخرجه مطوَّلًا النسائيُّ (٣١١٠) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٩٦٩٣)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٣٢٥١).
صَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣١١٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط بطُرُقِه وشواهِدِه في تخريج ((مسند أحمد)) (١٥/ ٤٣٣)، وصحَّح إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند عمر)) (١/ ١٠٢).

(٣) رواه البخاريُّ (١٤١٩)، ومسلمٌ (١٠٣٢) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٣).

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

أي: والمؤمِنونَ الَّذين جاؤُوا مِن بَعدِ المهاجِرينَ والأنصارِ يَقولونَ: رَبَّنا اغفِرْ لنا ولإخوانِنا في دينِ اللهِ، الَّذين تقَدَّمونا في الإيمانِ به[1].

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٢، ٧٣).

قيل: المرادُ: عُمومُ المؤمِنينَ الَّذين يَجيئونَ مِن بَعدِ المهاجِرينَ والأنصارِ إلى يومِ القيامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ في الجُملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ تيميَّةَ، واختاره ابنُ كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، واستظهره الشَّوكانيُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ السعديِّ، وإليه ذهب ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٢، ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١، ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٦).

غيرَ أنَّ القُرطبيَّ وابنَ كثيرٍ نَصَّا على أنَّ المرادَ: التَّابِعونَ بإحسانٍ إلى يومِ القيامةِ. والبِقاعي والشوكانيُّ وابنُ عاشور أدخَلوا الصَّحابةَ المتأخِّرَ إسلامُهم، فآمَنوا بعدَ انقِطاعِ الهِجرةِ بالفَتحِ، وبعدَ إيمانِ الأنصارِ الَّذين أسلَموا بعدَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ بقيَّةَ المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٢، ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٦).

قال الثعالبي: (قال جمهورُ العُلماءِ: أراد مَنْ يجيءُ مِن التَّابعينَ وغيرِهم إلى يومِ القيامةِ). ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٤١١).

وقيل: الَّذين جاؤوا مِن بَعدِهم هم المهاجِرونَ يَستَغفِرونَ لإخوانِهم مِن الأنصارِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٢).

وقيل: المرادُ: مَن عدا المهاجِرينَ والأنصارَ مِنَ الصَّحابةِ، كالَّذين أسلَموا يومَ فَتحِ مكَّةَ. وممَّن ذهب إلى هذا القول: ابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦١).

أي: ولا تَجعَلْ في قُلوبِنا شَيئًا مِنَ البُغضِ أو الحِقدِ أو الحَسَدِ لأحَدٍ مِن أهلِ الإيمانِ بك[١].

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: رَبَّنا إنَّك ذو رأفةٍ ورَحمةٍ تامَّةٍ بالِغةٍ؛ فحقيقٌ أن تُجيبَ دُعاءَنا[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ دلَّ على كمالِ صدقِهم فيما ادَّعَوه مِن الإيمانِ بالله ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حيثُ نابَذوا مَن عاداهما، وهو القَريبُ الصَّافي نسبًا ودارًا، وأَوْلَوا أولياءَهما مَن كانوا، وإن بَعُدَت دارُهم، وشَطَّ مَزارُهم، وهذا يدُلُّ على أنَّ مبنى الدِّينِ على إقامةِ البَيِّناتِ بالثَّباتِ عندَ الابتلاءاتِ، على أنَّ العَونَ قد يأتي على قدرِ البلاءِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد خصَّ المهاجرينَ مما أذِن فيه مِن أموالِ بني النَّضيرِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ هذه الآيةُ مِن أعظَمِ حاثٍّ على حُسنِ الإخاءِ، مُحَذِّرٍ مِن الحَسَدِ والاستياءِ[٤].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فيه مَدحُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٤)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤٤٠).

الإيثارِ في حُظوظِ النَّفسِ والدُّنيا[١].

٤- الإيثارُ على النَّفْسِ مِن مَحامِدِ الأخلاقِ، وزَكِيَّاتِ الأعمالِ، وذلك أن يَترُكَ حظَّه لِحَظِّ غيرِه؛ اعتِمادًا على صحَّةِ اليقينِ، وإصابةً لِعَينِ التَّوكُّلِ، وتحمُّلًا للمَشَقَّةِ في عَونِ الأخِ في الله على المحبَّةِ مِن أجْلِه، وهو ثابتٌ مِن فِعلِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ومِن خُلُقِه المَرْضيِّ، وهكذا كان الصَّحابةُ، فمِنَ النَّاسِ مَن يَعمَلُ العملَ أو يَكتسِبُ الشَّيءَ فيكونُ فيه وكيلًا على التَّفرقةِ على خَلقِ الله بحسَبِ ما قدَر، ولا يَدَّخِرُ لِنَفْسِه مِن ذلك شيئًا، بل لا يجعلُ مِن ذلك حظًّا لنفْسِه مِن الحُظوظِ؛ إمَّا لعدَمِ تذَكُّرِه لنفْسِه؛ لِاطِّراحِ حظِّها حتَّى يَصيرَ مِن قَبيلِ ما يُنسى، وإمَّا قوَّة يقينٍ بالله؛ لأنَّه عالِمٌ به، وبيَدِه مَلَكوتُ السَّمواتِ والأرضِ، وهو حَسْبُه فلا يُخيبُه، أو عدم التِفاتٍ إلى حظِّه يقينًا بأنَّ رِزقَه على الله، فهو النَّاظرُ له بأحسَنَ ممَّا يَنظُرُ لِنَفْسِه، أو أنَفَة مِن الالتِفاتِ إلى حظِّه مع حقِّ الله تعالى، أو لغيرِ ذلك مِن المقاصِدِ الواردةِ على أصحابِ الأحوالِ، وفي مِثلِ هؤلاء جاء: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٢].

٥- مَن مَلَكَ نَفْسَه وقَهَرَها ودانَها، عَزَّ بذلك؛ لأنَّه انتصرَ على أشدِّ أعدائِه، وقَهَره وأسَرَه وكُفِيَ شَرَّه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فحَصَرَ سُبحانَه الفلاحَ في وقايةِ شُحِّ نَفْسِه، وتَطَلُّعِها إلى ما مُنِعَتْ منه، وحِرْصِها على ما يَضِيرُها ممَّا تَشتَهيه مِن عُلُوٍّ وتَرَفُّعٍ، ومالٍ وجاهٍ، وأهلٍ ومَسكَنٍ، ومأكلٍ ومَشرَبٍ ومَلْبَسٍ، وغيرِ ذلك؛ فإنَّها تَتَطَلَّعُ إلى ذلك كلِّه وتَشتَهيه، وهو عينُ هلاكِها، ومنه يَنشَأُ البَغيُ والحَسَدُ والحِقدُ، فمَن وُقِيَ شُحَّ

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٢/ ٣٢١) و (٣/ ٦٦).

نفْسِه فقد قَهَرها، وقَصَرها على ما أُبيحَ لها وأُذِنَ لها فيه، وذلك عينُ الفَلاحِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تحريمُ الشُّحِّ، فدَلَّتِ الآيةُ على أنَّ مَن لم يُوقَ شُحَّ نفْسِه فلا فَلاحَ له[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا مِن فضائِلِ الإيمانِ: أنَّ المؤمِنينَ يَنتَفِعُ بعضُهم ببَعضٍ، ويَدعو بعضُهم لبَعضٍ؛ بسبَبِ المُشارَكةِ في الإيمانِ المُقتَضي لعَقدِ الأُخُوَّةِ بيْنَ المُؤمِنينَ، الَّتي مِن فُروعِها أن يَدعوَ بَعضُهم لبَعضٍ، وأن يُحِبَّ بَعضُهم بعضًا[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ فمدَحَ اللهُ المُهاجرينَ والأنصارَ بستَّةِ أوصافٍ؛ الأوَّلُ: أنَّ هِجرةَ هؤلاء المُهاجِرينَ ما كانت مِن أجْلِ الدُّنيا، بل كانت مِن أجْلِ ابتِغاءِ مَرضاتِ الله. والثَّاني: أنَّهم كانوا ناصِرينَ لدينِ الله ورسولِه. والثَّالثُ: أنَّهم كانوا صادِقينَ قولًا وفِعلًا. والرَّابعُ: أنَّ الأنصارَ كانوا يُحِبُّون مَن هاجَرَ إليهم. والخامسُ: أنَّهم كانوا يُسَرُّون إذا حصَل شَيءٌ للمُهاجِرينَ. والسَّادسُ: أنَّهم كانوا يُقَدِّمونهم على أنفُسِهم مع احتياجِهم. وهذه الأوصافُ

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

السِّتَّةُ تدُلُّ على كمالِ الإيمانِ، ومَنِ اعتقَد في حقِّهم غيرَ هذا فهو مُخطئٌ[١]؛ ففي هذه الآياتِ ذَكَر اللهُ تعالى أصحابَ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأثْنى عليهم، فهذا الآنَ حُجَّةٌ على كلِّ مَن سَبَّ واحِدًا منهم أو تَنَقَّصَه، ودليلٌ على أنَّ مَن أتى في أصحابِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خلافَ الجَميلِ؛ أنَّه رادٌّ على اللهِ تعالى، وغيرُ راضٍ لدِينِه -جَلَّ وتعالى- بما رَضِيَه هو له بنَصِّ القرآنِ الَّذي لا يأتيه الباطِلُ مِن بيْنِ يَدَيه ولا مِن خَلْفِه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أنَّ الصَّحابةَ جميعَهم عُدولٌ، ولم يُخالِفْ في ذلك إلَّا شُذوذٌ مِن المُبتَدِعةِ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وصَفَهم بالفَقرِ؛ لأنَّهم كانوا عندَ نُزولِ السُّورةِ كذلك[٤].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ تمسَّك بَعضُ العُلَماءِ بهذه الآيةِ على إمامةِ أبي بكرٍ رَضِيَ الله عنه، فقال: هؤلاءِ الفُقَراءُ مِن المهاجرينَ والأنصارِ كانوا يقولونَ لأبي بَكرٍ: (يا خليفةَ رَسولِ اللهِ)، واللهُ يَشهَدُ على كَونِهم صادقينَ؛ فوَجَب أن يَكونوا صادِقينَ في قَولِهم: (يا خليفةَ رَسولِ اللهِ)، ومتى كان الأمرُ كذلك وجَبَ الجَزمُ بصِحَّةِ إمامتِه[٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ

---

(١) يُنظر: ((إظهار الحق)) لمحمد رحمت الله الهندي (٣/ ٩٣٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((الإصابة)) لابن حجر (١/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٧، ٥٠٨).

فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ أنَّ الحَربيَّ لو أَسْلَمَ وبيَدِه مالُ مُسلم قد أَخَذَه مِن المُسلِمينَ بطَريقِ الاغتنامِ ونحوِه ممَّا لا يَمْلِكُ به مُسلِمٌ مِن مُسلمٍ؛ لكَونِه مُحَرَّمًا في دِينِ الإسلامِ- كان له مِلْكًا، ولم يَرُدَّه إلى المُسلمِ الَّذي كانَ يَمْلِكُه. ووَجهُ الدَّلالةِ: أنَّه سُبحانَه بَيَّنَ أنَّ المُسلِمينَ أُخرِجوا مِن ديارِهم وأموالِهم بغيرِ حَقٍّ حتَّى صاروا فُقَراءَ بعدَ أنْ كانوا أغنياءَ، ثمَّ إنَّ المُشرِكينَ استَولَوا على تلك الدِّيارِ والأموالِ، وكانت باقيةً إلى حينِ الفَتحِ، وقد أسلَمَ مَن استَولى عليها في الجاهِليَّةِ، ثمَّ لم يَرُدَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أحَدٍ منهم أُخرِجَ مِن دارِه بعدَ الفَتحِ والإسلامِ دارًا ولا مالًا، بل قيلَ للنَّبيِّ يومَ الفتحِ: أينَ تَنزِلُ في دارِك بمكَّةَ؟ فقال: ((وهل تَرَكَ عَقيلٌ مِن رباعٍ أو دورٍ))[1]؟! وسأله المهاجِرونَ أنْ يَرُدَّ عليهم أموالَهم الَّتي استولى عليها أهلُ مكَّةَ، فأبى ذلك صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأقَرَّها بيَدِ مَنِ استولى عليها بعدَ إسلامِه[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ ثُبوتُ فَضْلِ المهاجِرينَ؛ لِمَا اشتملتْ عليه مِن أوصافِهم الجَميلةِ، وشهادةِ اللهِ تعالى لهم بالصِّدْقِ[3]، واعلَمْ أنَّه ليس في المهاجِرينَ مُنافِقٌ، وإنَّما كان النِّفاقُ في قبائلِ الأنصارِ؛ لأنَّ أحدًا لم يُهاجِرْ إلَّا باختيارِه، والكافِرُ بمكَّةَ لم يكُنْ يَختارُ الهِجرةَ ومُفارَقةَ وَطَنِه وأهلِه لِنَصْرِ عدوِّه، وإنَّما يَختارُها الَّذين وَصَفَهم اللهُ تعالى بقَولِه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا

(١) أخرجه البخاريُّ (١٥٨٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٣٥١) مِن حديثِ أُسامةَ بنِ زَيدٍ رضيَ الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٩).

وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ يدُلُّ على أنَّ المهاجِرينَ أفضَلُ مِن الأنصارِ؛ لأنَّ اللهَ قدَّمَهم بالذِّكرِ، وأخبَرَ أنَّ الأنصارَ لا يَجِدونَ في صُدورِهم حاجةً مِمَّا أُوتُوا؛ فدَلَّ على أنَّ اللهَ تعالى آتاهم ما لم يُؤتِ الأنصارَ ولا غَيرَهم، ولأنَّهم جَمَعوا بينَ النُّصْرةِ والهِجْرةِ[٢]؛ فقد هاجَروا أوطانَهم وأموالَهم وأهلِيهم إلى اللهِ ورَسولِه، ونَصَروا اللهَ ورَسولَه، قال اللهُ تعالى في وَصفِ المهاجِرينَ: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾، فنَصَّ على الهِجرةِ، ونَصَّ على النُّصرةِ؛ فهم رَضِيَ اللهُ عنهم أفضلُ مِن الأنصارِ، وهذا مِن حيثُ الجِنسُ[٣].

٨- إنْ قيلَ: كيف قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾، وإنَّما تُتَبَوَّأُ الدَّارُ، أي: تُسكَنُ، ولا يُتَبَوَّأُ الإيمانُ؟

فالجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ معناه: تبَوَّؤا الدَّارَ، وأخلَصوا الإيمانَ، فهو كقَولِك: عَلَفْتُها تِبنًا وماءً باردًا. تقديرُه: علَفْتُها تِبنًا، وسَقَيتُها ماءً باردًا.

الثَّاني: أنَّ المعنى: أنَّهم جَعَلوا الإيمانَ كأنَّه مَوطِنٌ لهم؛ لتمَكُّنِهم فيه، كما جَعَلوا المدينةَ كذلك.

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٥٨٢).

فإنْ قيل: قَولُه: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يَقتضي أنَّ الأنصارَ سَبَقوا المهاجِرينَ بنُزولِ المدينةِ وبالإيمانِ، فأمَّا سَبْقُهم لهم بنزولِ المدينةِ فلا شَكَّ فيه؛ لأنَّها كانت بلَدَهم، وأمَّا سَبْقُهم لهم بالإيمانِ فمُشكِلٌ؛ لأنَّ أكثَرَ المهاجِرينَ أسلَمَ قبْلَ الأنصارِ؟

فالجوابُ مِن وَجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّه أراد بقَولِه: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِن قَبلِ هِجْرَتِهم.

والآخَرُ: أنَّه أراد: تبَوَّؤا الدَّارَ مع الإيمانِ معًا، أي: جَمَعوا بيْن الحالتَينِ قبْلَ المهاجِرينَ؛ لأنَّ المهاجِرينَ إنَّما سَبَقوهم بالإيمانِ لا بتَبَوُّءِ الدَّارِ، فيكونُ الإيمانُ على هذا مفعولًا معه، وهذا الوَجهُ أحسَنُ؛ لأنَّه جوابٌ عن هذا السُّؤالِ، وعن السُّؤالِ الأوَّلِ؛ فإنَّه إذا كان الإيمانُ مفعولًا معه، لم يَلزَمِ السُّؤالُ الأوَّلُ؛ إذ لا يَلزَمُ إلَّا إذا كان الإيمانُ مَعطوفًا على الدَّارِ[1].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أخبَرَ عنهم بأنَّهم يَبذُلونَ ما عِندَهم مِنَ الخَيرِ مع الحاجةِ، وأنَّهم لا يَكرَهونَ ما أُنعِمَ به على إخوانِهم، وضِدُّ الأوَّلِ البُخلُ، وضِدُّ الثَّاني الحَسَدُ؛ ولهذا كان البُخلُ والحَسَدُ مِن نَوعٍ واحِدٍ؛ فإنَّ الحاسِدَ يَكرَهُ عَطاءَ غَيرِه، والباخِلَ لا يُحِبُّ عَطاءَ نَفْسِه[2].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ في ذِكرِ الدَّارِ -وهي المدينةُ-

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٠).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٣٣٤).

مع ذِكرِ الإيمانِ: إيماءٌ إلى فَضيلةِ المدينةِ، بحيث جَعَل تبَوُّءَهم المدينةَ قَرينَ الثَّناءِ عليهم بالإيمانِ(١).

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ هذا ثناءٌ عليهم بما تقرَّر في نُفوسِهم مِن أُخُوَّةِ الإسلامِ؛ إذ أحَبُّوا المهاجِرينَ، وشأنُ القبائِلِ أن يتحَرَّجوا مِن الَّذين يُهاجِرونَ إلى ديارِهم لِمُضايقتِهم(٢).

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وهذا المقامُ أعلى مِن حالِ الَّذين وَصَف اللهُ بقَولِه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، وقَولِه: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فإنَّ هؤلاءِ يتصَدَّقونَ وهم يُحِبُّونَ ما تصَدَّقوا به، وقد لا يكونُ لهم حاجةٌ إليه، ولا ضرورةٌ به، وهؤلاء آثَروا على أنفُسِهم مع خَصاصتِهم وحاجتِهم إلى ما أنفَقوه. ومِن هذا المقامِ تَصَدُّقُ الصِّدِّيقِ رضي اللهُ عنه بجَميعِ مالِه. وهكذا الماءُ الَّذي عُرِضَ على عِكْرِمةَ وأصحابِه يومَ اليَرموكِ، فكُلٌّ منهم يأمُرُ بدَفعِه إلى صاحِبِه، وهو جَريحٌ مُثقَلٌ أحوَجُ ما يكونُ إلى الماءِ، فرَدَّه الآخَرُ إلى الثَّالِثِ، فما وَصَل إلى الثَّالثِ حتَّى ماتوا عن آخِرِهم، ولم يَشرَبْه أحدٌ منهم، رَضِيَ اللهُ عنهم وأرضاهم(٣)!

١٣- التَّصَدُّقُ بجميعِ المالِ يختلِفُ باختلافِ الأحوالِ؛ فمَن كان قويًّا على ذلك يَعلَمُ مِن نَفْسِه الصَّبرَ لم يُمنَعْ، وعليه يَتنزَّلُ فِعْلُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضيَ الله عنه، وإيثارُ الأنصارِ على أنْفُسِهم المهاجِرينَ ولو كان بهم خَصاصةٌ؛ قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، ومَن لم يكُنْ كذلك فلا، وعليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٠، ٧١).

يَتَنَزَّلُ حَديثُ: ((لا صَدَقةَ إلَّا عن ظَهْرِ غِنًى))[١]. فالأنصارُ الَّذين أثْنى اللهُ تعالى عليهم بالإيثارِ على أنفُسِهم، فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فكان الإيثارُ فيهم أفضَلَ مِن الإمساكِ، والإمساكُ لِمن لا يَصبِرُ، ويتعَرَّضُ للمسألةِ: أَولى مِن الإيثارِ[٢].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ ذِكرُ النَّفْسِ دَليلٌ على أنَّهم في غايةِ النَّزاهةِ مِن الرَّذائِلِ؛ لأنَّ النَّفْسَ إذا طَهُرَت كان القَلبُ أطهَرَ[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ إضافةُ الشُّحِّ إلى النَّفْسِ؛ ففيه دَلالةٌ على أنَّه غريزةٌ فيها، وفي قَولِه: ﴿وَمَن يُوقَ﴾ إشارةٌ إلى إمكانِ إزالةِ ذلك[٤].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يُبَيِّنُ أنَّ مِن شأنِ مَن جاء مِن بَعدِ المهاجِرينَ والأنصارِ أن يَذكُرَ السَّابقينَ -وهم المهاجِرونَ والأنصارُ- بالدُّعاءِ والرَّحمةِ، فمَن لم يكُنْ كذلك، بل ذَكَرَهم بسُوءٍ؛ كان خارِجًا من جملةِ أقسامِ المؤمِنينَ بحَسَبِ نَصِّ هذه الآيةِ[٥]، ومَن كان في قَلْبِه غِلٌّ على

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٥٧٤).
والحديث أخرجه البخاريُّ معلَّقًا بصيغةِ الجزمِ قبْلَ حديث (٢٧٥٠)، وأخرجه موصولًا أحمدُ (٧١٥٥) مِن حديثِ أبي هُريرةَ رضيَ الله عنه.
صحَّح إسنادَه على شرطِ مسلمٍ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٢/ ٦٩).
(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجَصَّاص (٥/ ٣٢٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبِقاعي (١٩/ ٤٤٠).
(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٢٥٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٩).

أحَدٍ مِن الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم، فليس ممَّن عَنَى اللهُ تعالى بهذه الآيةِ[١].

١٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يدُلُّ على أنَّ حَقًّا على المسلِمينَ أن يَذكُروا سَلَفَهم بخَيرٍ، وأنَّ حَقًّا عليهم محبَّةُ المهاجِرينَ والأنصارِ، وتَعظيمُهم[٢].

١٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه دليلٌ على وُجوبِ محبَّةِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم؛ لأنَّه جَعَل لِمَن بَعْدَهم حَظًّا في الفَيءِ ما أقاموا على محَبَّتِهم ومُوالاتِهم والاستِغفارِ لهم، ومَن أبغَضَهم أو واحِدًا منهم، أو اعتَقَد فيه شَرًّا، أنَّه لا حَقَّ له في الفَيءِ[٣]، فالفَيءُ إنَّما حَصَلَ بجِهادِ المهاجِرينَ والأنصارِ وإيمانِهم وهِجرتِهم ونُصرتِهم؛ فالمتأخِّرونَ إنَّما يَتناوَلونَه مُخلَفًا عن أولئك، مُشَبَّهًا بتَناوُلِ الوارثِ ميراثَ أبيه، فإنْ لم يكُنْ مُواليًا له لَمْ يَسْتَحِقَّ الميراثَ، فلا يَرِثُ المسلمَ الكافِرُ، فمَن لَمْ يَستغفِرْ لأولئك بل كان

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٩٦). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٧).

عن مالِكِ بنِ أنَسٍ، قال: (مَن سَبَّ أصحابَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فليس له في الفَيءِ حَقٌّ؛ يقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ الآيةَ، هؤلاء أصحابُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذين هاجَروا معه، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ الآيةَ، هؤلاءِ الأنصارُ، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ قال مالِكٌ: فاستثنى اللهُ عزَّ وجَلَّ فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ الآيةَ، فالفَيءُ لهؤلاء الثَّلاثةِ؛ فمَن سَبَّ أصحابَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فليس هو مِن هؤلاء الثَّلاثةِ، ولا حَقَّ له في الفَيءِ). ((السنن الكبرى)) للبيهقي (١٣١١١).

مُبغِضًا لهم، خَرَجَ عن الوَصفِ الَّذي وَصَفَ اللهُ به أهلَ الفيءِ، حتَّى يكونَ قلْبُه مُسلِمًا لهم، ولِسانُه داعيًا لهم[١]، فمَن كان له في أحدٍ مِن الصَّحابةِ قولٌ سَيِّئٌ أو بُغْضٌ، فلا حَظَّ له في الفَيءِ أخْذًا مِن هذه الآيةِ[٢]، ولأنَّهم سألوا اللهَ أنْ يَتَخَلَّوا مِن هذا الغِلِّ الَّذي يكونُ في القلوبِ، وهذا يَقتَضي وُجوبَ المحبَّةِ[٣].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أنَّ الدُّعاءَ للغيرِ إذا كان المَدْعوُّ له مُسلِمًا فإنَّه يَنتَفِعُ به[٤]، وهذا هو المشروعُ في حقِّ الأمواتِ؛ أنْ نَدعوَ اللهَ لهم بالمَغفِرةِ والرَّحمةِ وما يَنفعُهم مِن الدُّعاءِ[٥]. والآيةُ فيها دَلالةٌ على انتِفاعِ الميِّتِ بدُعاءِ غَيرِ وَلَدِه له[٦].

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه الحَثُّ على الدُّعاءِ والتَّرَضِّي عن الصَّحابةِ، وتَصفيةِ القُلوبِ مِن بُغضِ أحَدٍ مِنهم[٧]، فالاستِغفارُ للمُهاجِرينَ والأنصارِ، وطهارةُ القَلبِ مِن الغِلِّ لهم: أمرٌ يُحِبُّه اللهُ ويَرضاه، ويُثني على فاعِلِه، كما أنَّه قد أَمَرَ بذلك رسولَه في قَولِه تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩][٨].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٦٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٩٩).

(٥) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٦/ ١٥٢).

(٦) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٥/ ٣٠).

(٧) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٩).

(٨) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٧٤).

٢١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ وصَف اللهُ مَنْ بَعْدَ الصَّحابةِ بالإيمانِ؛ لأنَّ قولَهم: ﴿سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ دليلٌ على المُشارَكةِ في الإيمانِ، وأنَّهم تابعونَ للصَّحابةِ في عقائدِ الإيمانِ وأُصولِه، وهم أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ، الَّذين لا يَصدُقُ هذا الوَصفُ التَّامُّ إلَّا عليهم، ووصَفَهم بالإقرارِ بالذُّنوبِ، والاستِغفارِ منها، واستِغفارِ بَعضِهم لبَعضٍ، واجتِهادِهم في إزالةِ الغِلِّ والحِقدِ عن قُلوبِهم لإخوانِهم المؤمِنينَ؛ لأنَّ دُعاءَهم بذلك مُستلزِمٌ لِما ذكَرْنا، ومتضَمِّنٌ لمحَبَّةِ بَعضِهم بَعضًا، وأن يُحِبَّ أحَدُهم لأخيه ما يُحِبُّ لِنَفسِه، وأن يَنصَحَ له حاضِرًا وغائِبًا، حيًّا ومَيِّتًا، ودَلَّت الآيةُ الكريمةُ على أنَّ هذا مِن جملةِ حُقوقِ المؤمنينَ بَعضِهم لبَعضٍ[(١)].

٢٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ الصَّحيحَ مِن أقوالِ العُلَماءِ قِسمةُ المنقولِ، وإبقاءُ العَقارِ والأرضِ شَملًا: -أي: عامَّةً شاملةً- بيْن المُسلِمينَ أجمَعينَ، كما فَعَل عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه، إلَّا أن يجتَهِدَ الوالي فيُنفِذَ أمرًا فيَمضي عَمَلُه فيه؛ لاختِلافِ النَّاسِ عليه- وأنَّ هذه الآيةَ قاضيةٌ بذلك؛ لأنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ عن الفَيءِ وجعَلَه لثَلاثِ طوائِفَ: المهاجِرينَ والأنصارِ-وهم معلومون-، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾؛ فهي عامَّةٌ في جميعِ التَّابعينَ والآتِينَ بَعْدَهم إلى يومِ الدِّينِ[(٢)].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ رَدٌّ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ في خَلقِ الأفعالِ؛ إذْ مُحالٌ أنْ يَدْعوه بما هو مُنكَرٌ عِندَه -على زعمِهم-

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٢).

في صِفاتِه، فيُثْنيَ به عليهم[١]!

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «للَّذين سَبَقونا بالإيمانِ»؛ لِيَشملَ هؤلاء السَّابقِين وغَيرَهم إلى يومِ القيامةِ[٢].

٢٥- إنْ قِيل: كيف وُصِفَ الأوَّلون بالمُهاجَرةِ وابتغاءِ الفضْلِ والنُّصرةِ والصِّدقِ، والأنصارُ بالرُّسوخِ في الإيمانِ ومَحبَّةِ الإيواءِ والسَّخاوةِ البالغةِ حدَّها، والفَلاحِ في الآجِلِ، واقتُصِرَ في مدْحِ هؤلاء على قولِه: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا﴾؟

فالجوابُ: كَفى بذلك بهم مَدْحًا؛ أنْ يُوفِّقَهم إلى الدُّعاءِ لأولئك السَّادةِ الكِرامِ، ويَمنَحَهم مَحبَّتَهم، ويُدخِلَهم في زُمْرتِهم بأُخوَّةِ الإسلامِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ بدَلٌ ممَّا يَصلُحُ أنْ يكونَ بَدلًا منه مِن أسماءِ الأصنافِ المُتقدِّمةِ الَّتي دخَلَت عليها اللَّامُ مُباشرةً وعطْفًا في قولِه: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧] بدَلَ بَعضٍ مِن كُلٍّ -على قولٍ-. وأوَّلُ فائدةٍ في هذا البدَلِ التَّنبيهُ على أنَّ ما أفاءَ اللهُ على المسلِمينَ مِن أهلِ القُرى المَعْنيَّةِ في الآيةِ لا يَجْري قَسْمُه على ما جَرى عليه قَسْمُ أموالِ بَني النَّضيرِ، فكأنَّه قِيل: ولِذي القُربى والْيَتامى والمساكينِ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦٠).

لأنَّ الجَعلَ عندَهم بمعنَى الخَلقِ، فإمَّا أن يَرجِعوا عن القولِ بخَلقِ القرآنِ، وإمَّا أن يُقِرُّوا بخَلقِ الأفعالِ. يُنظر: ((النكت)) للقصاب (١/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٣٢، ٣٣٣).

وابنِ السَّبيلِ، للفُقراءِ منهم لا مُطلقًا -على قولٍ-، يَدخُلُ في ذلك المهاجِرونَ والأنصارُ والَّذين آمَنوا بعْدَهم. وأُعيدَ اللامُ مع البدَلِ لرَبْطِه بالمُبدَلِ منه؛ لانفصالِ ما بيْنَهما بطُولِ الكلامِ مِن تَعليلٍ وتَذييلٍ وتَحذيرٍ، ولإفادةِ التَّأكيدِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ابتدائيَّةً، على حذْفِ المُبتدأِ، والتَّقديرُ: (ما أفاء اللهُ على رسولِه للمُهاجِرينَ الفُقراءِ ...) إلى آخِرِ ما عُطِفَ عليه، فتَكونَ هذه مَصارِفَ أُخرى للْفَيءِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ مَعطوفةً بحذْفِ حرْفِ العطْفِ على طَريقةِ التَّعدادِ، كأنَّه قِيل: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ...﴾ إلى آخِرِه، ثمَّ قيل: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾؛ فعلى هذَينِ القولَينِ يَنتفِي كونُها قَيْدًا للجُملةِ الَّتي قبْلَها[1].

- ووُصِفَ المهاجِرون بـ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّ إعطاءَهُم مُراعًى فيه جَبْرُ ما نُكِبوا به مِن ضَياعِ الأموالِ والدِّيارِ، ومُراعًى فيه إخلاصُهم الإيمانَ، وأنَّهم مُكرِّرُون نصْرَ دِينِ اللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذُيِّلَ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[2].

- قولُه: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ حالٌ مُقيِّدةٌ لإخراجِهم، وُصِفوا أوَّلًا بما يدُلُّ على استِحقاقِهم للْفَيءِ مِن الإخراجِ مِن الدِّيارِ والأموالِ، وقُيِّدَ ذلكَ ثانيًا بما يوُجِبُ تَفخيمَ شأْنِهم ويُؤكِّدُه[3].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لتَعظيمِ شأْنِ المهاجِرين، وللتَّنبيهِ على أنَّ استِحقاقَهم وصْفَ الصَّادِقينَ مِن أجْلِ ما سبَقَ اسمَ الإشارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٧ - ٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٨).

مِن الصِّفاتِ؛ وهي أنَّهم أُخرِجوا مِن دِيارِهم وأمْوالِهم، وابتِغاؤهم فضْلًا مِن اللهِ ورِضوانًا، ونصْرُهم اللهَ ورسولَه؛ فإنَّ الأعمالَ الخالصةَ فيما عُمِلَت مِن أجْلِه يَشهَدُ للإخلاصِ فيها ما يَلحَقُ عامِلَها مِن مَشاقَّ وأذًى وإضرارٍ، فيَستطيعُ أنْ يَخلُصَ منها لو تَرَكَ ما عَمِلَه مِن أجْلِها أو قصَّرَ فيه[١].

- وجُملةُ ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ مُفيدةٌ القصْرَ مِن أجْلِ ضَميرِ الفصْلِ، وهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ[٢]؛ للمُبالَغةِ في وصْفِ المهاجِرين بالصِّدقِ الكاملِ، كأنَّ صِدقَ غَيرِهم ليس صِدقًا في جانبِ صِدقِهم[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ تَعريفُ (الدَّارِ) هنا للعهْدِ؛ لأنَّ المُرادَ بالدَّارِ المدينةُ، والمعْنى: الَّذين همْ أصحابُ الدَّارِ، وهذا تَوطئةٌ لقولِه: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾[٤].

- وعلى القولِ بأنَّ الواوَ في ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ للمعيَّةِ، و(الإيمانَ) مَفعولٌ معه، فهو يُفيدُ الثَّناءَ عليهم بأنَّ دارَ الهجرةِ دارُهم آوَوا إليها المهاجِرينَ؛ لأنَّها دارُ مُؤمنينَ، لا يُماثِلُها يَومَئذٍ غيرُها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٩).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٩٠، ٩١).

- وقولُه: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أُرِيدَ بالوِجدانِ الإدراكُ العقليُّ، وكُنِّيَ بانتِفاءِ وِجدانِ الحاجةِ عن انتِفاءِ وُجودِها؛ لأنَّها لو كانت مَوجودةً لأدْرَكُوها في نُفوسِهم؛ فتَكونُ (مِن) في قولِه: ﴿مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ ابتدائيَّةً، أي: مأْرَبًا أو رَغبةً ناشئةً مِن فَيْءٍ أُعطِيَه المُهاجِرونَ. ويَجوزُ وجْهٌ آخَرُ بأنْ يُحمَلَ لَفظُ (حاجة) على أنَّه اسمُ مَصدرِ الاحتياجِ؛ فإنَّ الحاجةَ بهذا المعْنى يصِحُّ وُقوعُها في الصُّدورِ؛ لأنَّها مِن الوِجدانيَّاتِ والانفعالاتِ، ومعْنى نفْيِ وِجدانِ الاحتياجِ في صُدورِهم أنَّهم لفرْطِ حُبِّهم للمُهاجِرينَ صاروا لا يُخامِرُ نُفوسَهم أنَّهم مُفتقِرون إلى شَيءٍ ممَّا يُؤتاهُ المُهاجِرونَ، أي: فهُمْ أغنياءُ عمَّا يُؤتاهُ المهاجِرونَ، فلا تَستشرِفُ نُفوسُهم إلى شَيءٍ ممَّا يُؤتاهُ المُهاجِرون، بلْهَ أنْ يَتطلَّبُوه، وتَكونَ (مِن) في قولِه تَعالى: ﴿مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ للتَّعليلِ، أي: حاجةً لأجْلِ ما أُوتِيَه المهاجِرون، أو ابتدائيَّةً، أي: حاجةً ناشئةً عمَّا أُوتِيَه المهاجِرون؛ فيُفيدَ انتفاءَ وِجدانِ الحاجةِ في نُفوسِهم وانتفاءَ أسبابِ ذلك الوِجدانِ ومَناشِئِه المُعتادةِ في النَّاسِ تَبَعًا للمُنافَسةِ والغِبطةِ، وقد دلَّ انتفاءُ أسبابِ الحاجةِ على مُتعلَّقِ ﴿حَاجَةً﴾ المَحذوفِ؛ إذِ التَّقديرُ: ولا يَجِدون في نُفوسِهم حاجةً لشَيءٍ أُوتِيَه المهاجِرون[1].

- قولُه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الإيثارُ: تَرجيحُ شَيءٍ على غَيرِه بمَكرُمةٍ أو مَنفعةٍ، والمعْنى: يُؤثِرون على أنفُسِهم في ذلك اختيارًا منهم، وهذا أعْلى دَرَجةً ممَّا أفادَه قولُه: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾؛ فلذلك عُقِّبَ به، ولم يُذكَرْ مَفعولُ (يُؤْثِرُونَ)؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٢، ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٩٣).

- وقولُه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تَذييلٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، وتَذييلُ الكلامِ بذِكرِ فضْلِ مَن يُوقَونَ شُحَّ أنفُسِهم بعْدَ قولِه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾؛ يُشيرُ إلى أنَّ إيثارَهم على أنفُسِهم حتَّى في حالةِ الخَصاصةِ، هو سَلامةٌ مِن شُحِّ الأنفُسِ، فكأنَّه قِيل: لسَلامتِهم مِن شُحِّ الأنفُسِ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ اسمُ الإشارةِ لتَعظيمِ هذا الصِّنفِ مِن النَّاسِ[2].

- وصِيغةُ القصْرِ المُؤدَّاةُ بضَميرِ الفصْلِ (همْ) للمُبالَغةِ؛ لكثرةِ الفَلاحِ الَّذي يَترتَّبُ على وِقايةِ شُحِّ النَّفْسِ، حتَّى كأنَّ جِنسَ المُفلِحِ مَقصورٌ على ذلك المُوقَى[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ المَجيءُ مُستعمَلٌ للطُّروءِ والمَصيرِ إلى حالةٍ تُماثِلُ حالَ الأنصارِ والمهاجرينَ، وهي حالةُ الإسلامِ، فكأنَّهم أَتَوا إلى مَكانٍ لإقامتِهم. وإنَّما صِيغَ ﴿جَآءُو﴾ بصِيغةِ الماضي تَغليبًا؛ لأنَّ مِن العرَبِ وغيرِهم مَن أسْلَموا بعْدَ الهجرةِ، فكأنَّه قيل: الَّذين جاؤوا ويَجيئون، بدَلالةِ لَحْنِ الخِطابِ، والمقصودُ مِن هذا زِيادةُ دفْعِ إيهامِ أنْ يَختَصَّ المهاجِرون بما أفاء اللهُ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ القُرى كما اختَصَّهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بفَيءِ بني النَّضيرِ[١].

- قولُه: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ صِيغَتَا مُبالَغةٍ، أي: مُبالِغٌ في الرَّأفةِ والرَّحمةِ، فحَقيقٌ بأنْ تُجيبَ دُعاءَنا[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠).

الآيات (١١-١٢)

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾: أي: يَنهَزِمونَ، يُقالُ: ولَّاه دُبُرَه: إذا انهزَم. والتَّولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ. والإدبارُ: الذَّهابُ إلى جِهةِ الخَلفِ، وأصلُ (دبر): يدُلُّ على خِلافِ القُبُلِ[1].

﴿رَهْبَةً﴾: أي: خَوفًا وخَشيةً، وأصلُ (رهب): يدُلُّ على خَوفٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ تعالى عن المنافِقينَ، حينَ بعَثوا إلى يهودِ بَني النَّضيرِ يَعِدونهم النَّصرَ مِن أنفُسِهم، فيقولُ تعالى: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- إلى المنافِقينَ الَّذين يقولونَ لإخوانِهم في الكُفرِ مِن يَهودِ بني النَّضيرِ: لَئِنْ أخرَجَكم المُسلِمونَ مِن ديارِكم لَنَخرُجَنَّ معكم مِن المدينةِ، ولن نُطيعَ في شأنِكم مُحمَّدًا ولا غيرَه مِمَّن يَسألُنا خِذْلانَكم، ولَئِنْ قاتَلَكم محمَّدٌ ومَن مَعَه لَنَنصُرَنَّكم عليهم، واللهُ يَشهَدُ إنَّ هؤلاء المُنافِقينَ لَكاذِبونَ فيما قالوا!

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤).

لَئِنْ أُخرِجَ يهودُ بَني النَّضيرِ مِن ديارِهم لا يخرُجُ معهم أولئك المُنافِقونَ، ولَئِن قُوتِلوا لا يَنصُرونهم، ولَئِنْ نَصَروهم -على سَبيلِ الفَرضِ والتَّقديرِ- فقاتَلوا معهم عَدُوَّهم، لَيَفِرُّون ويَهرُبونَ مُنهَزِمينَ، ثمَّ لا يُنصَرونَ.

لَخَوفُهم منكم -أيُّها المؤمِنونَ- أشَدُّ مِن خَوفِهم مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنَّهم قَومٌ لا يَعلَمونَ قَدْرَ عَظَمةِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى حالَ المُؤمِنينَ؛ أتْبَعَه بذِكرِ حالِ المنافِقينَ[1].

وأيضًا لَمَّا ذُكِر ما حلَّ ببَني النَّضيرِ وما اتَّصَلَ به مِن بَيانِ أسبابِه، ثمَّ بَيانِ مَصارِفِ فَيئِهم وفَيءِ ما يُفتَحُ مِن القُرى بعْدَ ذلك؛ أُعقِبَ بذِكرِ أحوالِ المنافِقينَ مع بَني النَّضيرِ وتَغريرِهم بالوُعودِ الكاذبةِ؛ ليَعلَمَ المُسلِمون أنَّ النِّفاقَ سَجيَّةٌ في أولئك، لا يَتخلَّون عنه ولو في جانبِ قومٍ همُ الَّذين يَوَدُّون أنْ يَظهَروا على المسلِمينَ[2].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾.

أي: ألم يَنْتَهِ علمُك -يا محمَّدُ- إلى المنافِقينَ الَّذين يقولونَ لإخوانِهم في الكُفرِ مِن يَهودِ بني النَّضيرِ: نُقسِمُ باللهِ لَئِنْ أخرَجَكم المُسلِمونَ مِن ديارِكم

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٨).

لَنَخرُجَنَّ معكم مِن المدينةِ[١]؟

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾.

أي: ولن نُطيعَ في شأنِكم مُحمَّدًا ولا غيرَه مِمَّن يَسألُنا خِذْلانَكم، ويَدْعونا إلى تَركِ نُصرتِكم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٢/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٨، ٩٩).

قال الشوكاني: (الخِطابُ لرَسولِ اللهِ، أو لكُلِّ مَن يَصلُحُ له. والَّذين نافَقوا هم: عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ وأصحابُه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٢).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بأهلِ الكتابِ هنا: يهودُ بني النَّضيرِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١١٥).

وقيل: المرادُ: يَهودُ بَني قُرَيظةَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨٠).

وعلى هذا القولِ يكون المُنافِقونَ قد قالوا لهم ذلك بعدَ أن أُجليَ بَنو النَّضيرِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠٤).

قال مقاتل: (﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ لئن أخرَجكم محمَّدٌ مِن المدينةِ كما أخرَج أهلَ النَّضيرِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨٠).

وقيل: المرادُ: يهودُ بني قُرَيظةَ والنَّضيرِ. وممَّن ذهب إلى هذا: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زَمَنين)) (٤/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩).

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾.

أي: ولَئِنْ قاتَلَكم محمَّدٌ ومَن مَعَه لَنَنصُرَنَّكم عليهم، فنُعينُكم على قِتالِهم[١].

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

أي: واللهُ يَشهَدُ إنَّ هؤلاء المُنافِقينَ لَكاذِبونَ فيما وَعَدوا به يهودَ بَني النَّضيرِ[٢].

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا شَهِدَ اللهُ تعالى على كَذِبِ المنافِقينَ على سَبيلِ الإجمالِ؛ أتْبَعَه بالتَّفصيلِ[٣].

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾.

أي: لَئِنْ أُخرِجَ يَهودُ بني النَّضيرِ مِن ديارِهم لا يخرُجُ معهم أولئك المُنافِقونَ الَّذين وَعَدوهم الخُروجَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

قال ابنُ كثير: (أي: لَكاذِبونَ فيما وَعَدوهم به؛ إمَّا أنَّهم قالوا لهم قولًا مِن نِيَّتِهم ألَّا يَفُوا لهم به، وإمَّا أنَّهم لا يَقَعُ منهم الَّذي قالوه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

قال الشوكاني: (﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وقد كان الأمرُ كذلك؛ فإنَّ المنافِقينَ لم يَخرُجوا مع مَن أُخرِج مِن اليهودِ، وهم بَنو النَّضيرِ ومَن معهم، ولم يَنصُروا مَن قُوتِل مِن اليَهودِ، وهم بَنو قُرَيْظَةَ وأهلُ خَيْبَرَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٣). =

﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ﴾.

أي: ولَئِن قُوتِلوا لا يَنصُرُهم المنافِقونَ ولا يُقاتِلونَ معهم كما وَعَدوهم[(١)].

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾.

أي: ولَئِنْ نَصَرهم المُنافِقونَ -على سَبيلِ الفَرضِ والتَّقديرِ- فقاتَلوا معهم عَدُوَّهم، لَفَرَّ المنافِقونَ وهَرَبوا مُنهَزِمينَ[(٢)].

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

أي: ثمَّ لا يُنصَرُ الكفَّارُ مِن بَعدِ ذلك[(٣)].

= وقال ابنُ عاشور: (ضميرُ ﴿أُخۡرِجُواْ﴾ و﴿قُوتِلُواْ﴾ عائِدانِ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحشر: ١١]، أي: الَّذين لم يُخْرَجوا ولَمَّا يُقاتَلوا، وهم قُرَيظةُ وخَيبرُ، أمَّا بنو النَّضير فقد أُخرِجوا قبْلَ نُزولِ هذه السُّورةِ، فهم غيرُ مَعنيِّينَ بهذا الخبَرِ المستقبَلِ. والمعنى: لَئِنْ أُخرِجَ بَقيَّةُ اليهودِ في المستقبَلِ لا يَخرُجونَ معهم، ولَئِنْ قُوتِلوا في المستقبَلِ لا يَنصُرونَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٩، ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠١).

قيل: المرادُ: لا يُنصَرُ بنو النَّضيرِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والواحديُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠١).

وقيل: المرادُ: لا يُنصَرُ المنافِقونَ. وهذا المعنى جوَّزه الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٦).

وقيل: المرادُ: لا يُنصَرُ المنافِقونَ ولا اليهودُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: البِقاعي، والشربيني. =

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان المقصودُ مِن ذِكرِ وَهْنِ المنافِقينَ في القِتالِ تشديدَ نَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأنفُسِ المؤمِنينَ؛ حتَّى لا يَرهَبوهم، ولا يَخشَوا مُساندَتَهم لأهلِ حَربِ المُسلِمينَ؛ أحلافِ المنافِقينَ مِن اليهودِ- أعقَبَ ذلك بإعلامِ المؤمِنينَ بأنَّهم يَخشَونَ المُسلِمينَ خَشيةً شَديدةً، وُصِفت شِدَّتُها بأنَّها أشَدُّ مِن خَشيتِهم اللهَ تعالَى[1].

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الخَوفَ الكامِنَ في صُدورِهم منكم -أيُّها المؤمِنونَ- أشَدُّ مِن خَوفِهم مِنَ اللهِ تعالى[2]!

= يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٩)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٥٢).

قال البِقاعي: (لَمَّا كان مِن عادةِ العَرَبِ الكَرُّ بعدَ الفَرِّ، بَيَّنَ أنَّهم لا كَرَّةَ لهم بعدَ هذه الفَرَّةِ وإن طال المَدى، فقال: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يتجَدَّدُ لفريقَيهم ولا لواحدٍ منهما نُصرةٌ في وقتٍ مِن الأوقاتِ، وقد صَدَق سُبحانَه؛ لم يَزَلِ المنافِقونَ واليهودُ في الذُّلِّ، ولا يَزالونَ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤).

والضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿صُدُورِهِم﴾ قيل: عائدٌ إلى بني النَّضيرِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥).

وقيل: في صُدورِ المنافِقينَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمينُ الحلبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٨٨).

وقيل: في صُدورِ المنافِقينَ واليهودِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير =

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾.

أي: خَوفُهم مِن المسلِمينَ أعظَمُ مِن خَوفِهم مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنَّهم قَومٌ لا يَعلَمونَ قَدْرَ عَظَمةِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه؛ فيُدرِكوا أنَّه هو وَحْدَه مَنْ يَنبَغي أن يُخشَى(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دليلٌ على أنَّ سَجايا المنافِقينَ مَجبولةٌ على مُنافَقةِ أوليائِهم وأعدائِهم معًا! فهو تنبيهٌ بَيِّنٌ أنَّ الاستِنامةَ إلى وُدِّ مَن ليس يَتَّقي، والمُعَوَّلَ على وَلايتِه: ليس مِن فِعْلِ ذوي التَّحصيلِ، ولا يُغتَرُّ به مِن خليلٍ، ويؤيِّدُ هذا قولُه سُبحانَه: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فلو كانت خُلَّتُهم في الدُّنيا مُستقيمةً لَكانوا بها مُحسِنينَ، والإحسانُ لا يعودُ سَيِّئًا فيَضمَحِلَّ، كما لم تَضمَحِلَّ خُلَّةُ المتَّقينَ، وكانت في الدُّنيا والآخِرةِ مُتَّصِلةً لهم غيرَ مُنقَطِعةٍ بهم(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ إنَّما الفِقهُ كُلُّ الفِقهِ أن يكونَ خَوفُ الخالِقِ ورَجاؤُه ومحَبَّتُه مُقَدَّمةً

= ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠١، ١٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٤).

قال ابنُ عاشور: (الفِقهُ: فَهمُ المعاني الخفيَّة... ذلك أنَّهم تَبِعوا دواعيَ الخَوفِ المشاهَد، وذَهِلوا عن الخَوفِ المُغَيَّبِ عن أبصارِهم، وهو خَوفُ اللهِ؛ فكان ذلك من قِلَّةِ فَهمِهم للخَفيَّاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦٠).

على غَيرِها، وغَيرُها تبَعًا لها[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ حُجَّةٌ لِمَن يَقولُ: (خَوِّفِ المنافِقَ بالنَّاسِ، والمؤمِنَ باللهِ جلَّ وعزَّ)[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنَّه سُبحانَه يَشهَدُ على كَذِبِهم. ووَجهُه: أنَّ ما يُسِرُّونَه هو في قُلوبِهم، ولا يَعلَمُ ما في القُلوبِ إلَّا عَلَّامُ الغُيوبِ، فكأنَّ هذا المضمَرَ في قُلوبِهم بالنِّسبةِ إلى اللهِ أمرٌ مَشهودٌ يُرى بالعَينِ، كما قال اللهُ تبارك وتعالى في سورةِ (المنافِقونَ): ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[٣] [المنافقون: ١].

٢- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ لَمَّا كان قولُهم ﴿لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ كلامًا يَقضي عليه سامعُه بالصِّدقِ مِن حيثُ كَونُه مُؤكَّدًا مع كونِه مُبتدَأً من غيرِ سؤالٍ فيه؛ بيَّن حالَه سُبحانَه بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾، أي: يقولون ذلك والحالُ أنَّ المحيطَ بكلِّ شيءٍ قُدرةً وعِلمًا يَشهَدُ بما يَعلمُ مِن بواطنِهم في عالَمِ الغَيبِ. ولَمَّا كان بعضُ مَن يَسمَعُ قولَهم هذا يُنكِرُ أنْ لا يُطابِقَه الواقعُ، وكان إخلافُهم فيه مُتحقِّقًا في عِلمِ اللهِ؛ أطْلَق عليه ما لا يُطلَقُ إلَّا على ما كشَفَ الواقعُ عن أنَّه غيرُ مُطابِقٍ، فقال تَشجيعًا للمؤمنينَ على قِتالِهم مؤكِّدًا: ﴿إِنَّهُمْ﴾، أي: المنافِقون ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٧، ٤٤٨).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ * لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ ...﴾ هذا مِن أعظمِ دَلائلِ النُّبوَّةِ؛ لأنَّه إخبارٌ بمُغَيَّبٍ بعيدٍ عن العادةِ بشَهادةِ ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ﴾ [الحشر: ٢]، فحَقَّقه اللهُ عن قريبٍ[١]، ففيه دَليلٌ على صِحَّةِ النبُوَّةِ؛ لأنَّه إخبارٌ بالغَيبِ[٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قال: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ بعدَ قولِه: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمۡ﴾؟

الجوابُ: أنَّ المعنى على الفَرضِ والتَّقديرِ، أي: ولَئِنْ نَصَروهم فَرضًا وتقديرًا، كقَولِه تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٣] [الزمر: ٦٥].

وقيل: قَولُه: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمۡ﴾ أي: طائعينَ. وقَولُه: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ﴾ أي: مُكرَهينَ.

وقيل: قولُه: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمۡ﴾ أَي: لا يَدومون على نَصرِهم. وقولُه: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ﴾ أي: نصَروهم في الابتِداءِ. وقيل غيرُ ذلك[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا بِشارةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُسلِمينَ، بأنَّ اللهَ أوقَعَ الرُّعبَ منهم في نُفوسِ عَدُوِّهم، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((نُصِرْتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٧، ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٣).

والحديث أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٣٣٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٥٢١) مِن حديثِ جابرِ بنِ عبدِ الله رضيَ الله عنهما.

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه سُؤالٌ: إنْ عُلِّقَ قَولُه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بـ ﴿أَشَدُّ﴾ لَزِمَ ثُبوتُ الخَوفِ لله، وهو مُحالٌ، أو بـ (الرَّهبةِ)، لَزِمَ كَونُ المؤمنينَ أشَدَّ خَوفًا مِن المذكورينَ، وليس مُرادًا؟

الجوابُ: الرَّهبةُ مَصدَرُ (رُهِبَ) بالبناءِ للمفعولِ هنا -على مذهبِ مَن يُجيزُ جعْلَ المصدرِ مَبنيًّا للمفعولِ- فالمعنى: أشَدُّ مَرهوبيَّةً، يعني: أنَّكم في صُدورِهم أَهيَبُ مِن كَونِ اللهِ تعالى فيها، ونظيرُه قولُك: (زَيدٌ أشَدُّ ضَربًا في الدَّارِ مِن عَمرٍو)، يعني: مَضروبيَّةً[(١)].

فإنْ قيل: كيفَ يستقيمُ التَّفضيلُ وهم ما كانوا يَرهبونَ الله؛ لأنَّهم لو رهبوه لتركوا النِّفاقَ والكُفرَ؟

قيل: رَهبَتُهم في السِّرِّ منكم أشَدُّ مِن رَهبتِهم مِنَ اللهِ تعالى الَّتي يُظهِرونَها لكم، وكانوا يُظهِرونَ للمُؤمِنينَ رَهبةً شَديدةً مِنَ اللهِ تعالى[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ الجُملةُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ[(٣)].

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ...﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن حالِ المنافِقينَ الَّذين طمَّعوا إخوانَهم مِن أهلِ الكِتابِ في نُصرتِهم وموالاتِهم

(١) يُنظر: ((أنموذج جليل)) لزين الدين الرازي (ص: ٥١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧)، ((أنموذج جليل)) لزين الدين الرازي (ص: ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩).

على المؤمنينَ، فبُنِيَ على نفْيِ العِلمِ بحالِهم كِنايةً عن التَّحريضِ على إيقاعِ هذا العِلمِ، كأنَّه يقولُ: تأمَّلِ الَّذين نافَقوا في حالِ مَقالتِهم لإخوانِهم، ولا تَترُكِ النَّظرَ في ذلك؛ فإنَّه حالٌ عَجيبٌ[١]. وقيل: هو تعجُّبٌ مِن اغترارِ اليهودِ بما وعَدَهم المُنافِقونَ مِن النَّصرِ، مع عِلمِهم بأنَّهم لا يَعتقدون دِينًا ولا كِتابًا[٢].

- قولُه: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ...﴾ استئنافٌ لبَيانِ المُتعجَّبِ منهُ، وصِيغةُ المُضارِعِ ﴿يَقُولُونَ﴾ للدَّلالةِ على استِمرارِ قَولِهم، وتَكرُّرِ ذلك منهم، أي: يَقولون ذلك مُؤكِّدينه ومُكرِّرينَه لا على سَبيلِ البَداءِ أو الخاطرِ المَعدولِ عنه، أو لاستِحضارِ صُورتِه. وهذه الجُملةُ في مَوضعِ المفعولِ الثَّاني، والتَّقديرُ: ألمْ تَرَهُم قائِلينَ...[٣].

- والمرادُ بإخوانِهم بَنو النَّضيرِ، وإنَّما وصَفَهم بالإخُوَّةِ لهم؛ لأنَّهم كانوا مُتَّحدِين في الكُفْرِ برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤].

- وفي وصْفِ إخوانِهم بأنَّهم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إيماءٌ إلى أنَّ جانبَ الأُخوَّةِ بيْنَهم هو الكفْرُ، إلَّا أنَّ كُفرَ المنافِقينَ كُفْرُ الشِّركِ، وكُفْرَ إخوانِهم كُفْرُ أهلِ الكتابِ، وهو الكفْرُ برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٥].

- وإنَّما وَعَدوهم بالخُروجِ معهم بقولِه: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩).

نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾؛ ليَطْمَئِنُّوا لنُصرتِهم؛ فهو كِنايةٌ عن النَّصرِ، وإلَّا فإنَّهم لا يَرضَون أنْ يُفارِقوا بِلادَهم[١].

- وجُملةُ ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾؛ فهي مِن المَقولِ لا مِن المُقسَم عليه، وقد أُعرِيَت عن المُؤكِّدِ؛ لأنَّ بَني النَّضيرِ يَعلَمون أنَّ المنافِقين لا يُطِيعون الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلِمينَ؛ فكان المُنافِقون في غُنْيةٍ عن تَحقيقِ هذا الخبَرِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿فِيكُمْ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ، أي: في ضُرِّكم؛ إذ لا يَخطُرُ بالبالِ أنَّهم لا يُطِيعون مَن يَدْعُوهم إلى مُوالاةِ إخوانِهم[٣].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أعلَمَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّهم كاذِبونَ في ذلك بعدَما أعْلَمه بما أقْسَموا عليه؛ تطمينًا لخاطِرِه؛ لئلَّا يَتوجَّسَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خِيفةً مِن بأسِ المنافِقينَ، وسمَّى اللهُ الخبرَ شهادةً؛ لأنَّه خبرٌ عن يَقينٍ بمنزلةِ الشَّهادةِ الَّتي لا يَتجازَفُ المخبِرُ في شأنِها[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١]، واللَّامُ مُوطِّئةٌ للقسَمِ، وهذا تأْكيدٌ مِن اللهِ تعالَى لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّهم لنْ يَضُرُّوه شيئًا؛ لكَيْلَا يَعبَأَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠٠).

بما بَلَغَه مِن مَقالتِهم[١].

- وقد سُلِكَ في هذا البيانِ طَريقُ الإطنابِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١] جمَعَ ما في هاتَينِ الجُملتَينِ، فجاء بَيانُه بطَريقةِ الإطنابِ؛ لزِيادةِ تَقريرِ كَذِبِهم[٢].

- وقولُه: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ارتِقاءٌ في تَكذيبِهم على ما وَعَدوا به إخوانَهم، والواوُ واوُ الحالِ، وليست واوَ العطْفِ[٣].

- وحرْفُ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ فإنَّ انتِفاءَ النَّصرِ أعظَمُ رُتبةً في تأْييسِ أهلِ الكتابِ مِن الانتفاعِ بإعانةِ المنافِقِين، فهو أقْوى مِن انهزامِ المنافِقينَ إذا جاؤوا لإعانةِ أهْلِ الكتابِ في القتالِ، والمقصودُ تَثبيتُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمينَ، وتأْمينُهم مِن بأْسِ أعدائِهم[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ إنَّ خَشيةَ جَميعِ الخلْقِ مِن اللهِ أعظَمُ خَشيةً، فإذا بلَغَت الخشيةُ في قلْبِ أحدٍ أنْ تكونَ أعظَمَ مِن خَشيةِ اللهِ، فذلك مُنتهَى الخشيةِ. والمقصودُ تَشديدُ نُفوسِ المسلِمينَ؛ ليَعلَموا أنَّ عدُوَّهم مُرْهَبٌ منهم، وذلك ممَّا يَزيدُ المسلِمينَ إقدامًا في مُحاربتِهم؛ إذ ليس سِياقُ الكلامِ للتَّسجيلِ على المنافِقِين واليهودِ قِلَّةَ رَهْبَتِهم للهِ، بلْ إعلامُ المسلِمينَ بأنَّهم أرهَبُ لهم مِن كلِّ أعظَمِ الرَّهَباتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠١، ١٠٢).

- قولُه: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا تَركيبٌ غَريبُ النَّسْجِ بَديعُه! والمألوفُ في أداءِ مِثلِ هذا المعْنى أنْ يُقالَ: (لَرَهْبَتُهم منكم في صُدورِهم أشدُّ مِن رَهبتِهم مِن اللهِ)؛ فحُوِّلَ عن هذا النَّسجِ إلى النَّسجِ الَّذي حُبِكَ عليه في الآيةِ؛ لِيَتأتَّى الابتداءُ بضَميرِ المسلِمينَ اهتمامًا به، ولِيَكونَ مُتعلِّقُ الرَّهبةِ ذَواتِ المسلِمينَ؛ لتَوقُّعِ بَطْشِهم، وليأتِيَ التَّمييزُ المُحوَّلُ عن الفاعِلِ -على قولٍ-؛ لِما فيه مِن خُصوصيَّةِ الإجمالِ مع التَّفصيلِ، ولِيَتأتَّى حذْفُ المُضافِ في تَركيبِ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ إذ التَّقديرُ: مِن رَهبةِ اللهِ؛ لأنَّ حَذْفَه لا يَحسُنُ إلَّا إذا كان مَوقعُه مُتَّصلًا بلَفظِ (رَهْبة)؛ إذ لا يَحسُنُ أنْ يُقالَ: (لَرَهْبتُهم أشدُّ مِن اللهِ)؛ فاليهودُ والمنافِقون مِن شأْنِهم أنْ يَخشَوا اللهَ؛ أمَّا اليهودُ فلأنَّهم أهلُ دِينٍ، فهمْ يَخافون اللهَ ويَحذَرون عِقابَ الدُّنيا وعِقابَ الآخرةِ، وأمَّا المنافِقون فهُمْ مُشرِكون، وهم يَعترِفون بأنَّ اللهَ تعالَى هو الإلهُ الأعظَمُ، وأنَّه أَولى الموجوداتِ بأنْ يُخْشَى؛ لأنَّه ربُّ الجميعِ، وهمْ لا يُثبِتون البعثَ والجزاءَ، فخَشْيتُهم اللهَ قاصرةٌ على خَشيةِ عَذابِ الدُّنيا مِن خسْفٍ وقحْطٍ واستِئصالٍ، ونحوِ ذلك، وليس وراءَ ذلك خَشيةٌ[1].

- ووَجْهُ وَصْفِ الرَّهبةِ بأنَّها ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ الإشارةُ إلى أنَّها رهبةٌ جِدُّ خَفيَّةٍ، أي: إنَّهم يَتظاهَرون بالاستِعدادِ لحرْبِ المسلِمينَ، ويَتطاوَلون بالشَّجاعةِ ليَرهَبَهم المسلِمون، وما همْ بتلك المَثابةِ، فأطْلَعَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على دَخيلتِهم، فليس قولُه: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ وصْفًا كاشفًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٢، ١٠٣).

ويُنظر ما تقدم: (ص: ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٣). =

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لَمَّا حصَلَت البِشارةُ مِن الخبَرِ عن الرُّعبِ الَّذي في قُلوبِهم، ثُنِيَ عِنانُ الكلامِ إلى مَذمَّةِ هؤلاء الأعداءِ مِن جَرَّاءِ كَونِهم أخوفَ للنَّاسِ منهم للهِ تعالَى؛ بأنَّ ذلك مِن قِلَّةِ فِقهِ نُفوسِهم، ولو فَقِهُوا لَكانوا أخوفَ للهِ منهم للنَّاسِ، فنَظَروا فيما يُخلِّصُهم مِن عِقابِ التَّفريطِ في النَّظرِ في دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فعَلِموا صِدقَه، فنَجَوْا مِن عَواقبِ كُفْرِهم به في الدُّنيا والآخِرةِ، فكانت رَهبتُهم مِن المسلمينَ هذه الرَّهبةَ مُصيبةً عليهم، وفائدةً للمسلمينَ؛ فالجُملةُ مُعترِضةٌ بيْن البيانِ ومُبَيَّنِه(١).

- والإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المذكورِ مِن قولِه: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾، واجتلابُ اسمِ الإشارةِ ليَتميَّزَ الأمرُ المحكومُ عليه أتمَّ تَمييزٍ؛

= والصِّفةُ الكاشفةُ: هي الَّتي تُبيِّنُ الواقعَ، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ؛ لأنَّ الصِّفاتِ منها صِفةٌ مقيِّدةٌ تُخرِجُ ما سِواه، ومنها صفةٌ كاشِفةٌ تبيِّنُ حقيقةَ أمرِه، فهي خبرٌ عن المَوصوفِ عندَ التَّحقيقِ، تبيِّنُ ماهيَّةَ الشَّيءِ بأن تكونَ وصفًا لازمًا مختصًّا به. والصِّفةُ إذا كان لها مفهومٌ فهي مقيِّدةٌ، وإن لم يكن لها مفهومٌ فهي كاشِفةٌ، أي: مبيِّنةٌ للحقيقةِ، مثالُ ذلك: قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، ولا مفهومَ مخالفةٍ له، فلا يصحُّ لأحدٍ أن يقولَ: أمَّا مَن عبَدَ معه إلهًا آخَرَ له بُرهانٌ به فلا مانعَ مِن ذلك! لاستِحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وصفٌ مطابقٌ للواقعِ؛ لأنَّهم يَدْعون معه غيرَه بلا بُرهانٍ، فذِكْرُ الوصفِ لموافقتِه الواقعَ، لا لإخراجِ المفهومِ عن حُكمِ المنطوقِ، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٩٩، ٣١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٣).

لغَرابتِه[١].

- والإتيانُ بلَفظِ ﴿قَوۡمٌ﴾؛ لِما يُؤذِنُ به مِن أنَّ عَدَمَ فِقهِ أنفُسِهم أمْرٌ عُرِفوا به جميعًا، وصار مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم، لا يَخْلو عنه أحدٌ منهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٤-١٧)

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾: أي: مُحكَمةٍ مُمتَنِعةٍ بالأسوارِ والخنادقِ، وأصلُ (حصن): يدُلُّ على حِفظٍ وحِياطةٍ[(١)].

﴿جُدُرٍ﴾: أي: حيطانٍ وأسوارٍ، إلَّا أنَّ الحائِطَ يُقالُ اعتبارًا بالإحاطةِ بالمكانِ، والجِدارَ يُقالُ اعتبارًا بالنُّتوءِ والارتِفاعِ[(٢)].

﴿بَأۡسُهُم﴾: أي: عداوتُهم، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما شابَهَها[(٣)].

﴿شَتَّىٰ﴾: أي: مُختَلِفةٌ، وأصلُ (شتت): يدُلُّ على تفَرُّقٍ[(٤)].

﴿وَبَالَ﴾: الوبالُ: الجزاءُ والثِّقلُ والعاقِبةُ، وأيضًا: الوَخامةُ وسُوءُ العاقِبةِ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥).

وأصلُ (وبل): يدُلُّ على شِدَّةٍ فِي شَيءٍ وتجَمُّعٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: لا يُقاتِلُكم المنافِقونَ واليَهودُ -أيُّها المُسلِمونَ- وهم مجتَمِعونَ، إلَّا في مُدُنٍ آمِنةٍ مُحاطةٍ بالحُصونِ، أو مِن وراءِ جُدرانٍ وأسوارٍ، عداوتُهم بيْنَهم شَديدةٌ، تَظُنُّ أنَّهم مُجتَمِعونَ، والحَقُّ أنَّ قُلوبَهم مُختَلِفةٌ؛ بسَبَبِ أنَّهم قَومٌ لا عَقْلَ لهم!

ثمَّ يقولُ تعالى ضاربًا المثَلَ؛ تثبيتًا للمؤمنينَ، وتهوينًا مِن شأنِ أعدائِهم: مَثَلُ اليَهودِ والمنافِقينَ كمَثَلِ الَّذين مِن قَبلِهم مِن يَهودِ بني قَينُقاعَ وكُفَّارِ قُرَيشٍ، قبْلَ وُقوعِ جَلاءِ بني النَّضيرِ بزَمَنٍ يَسيرٍ، نالوا جزاءَ كُفرِهم، فعَذَّبَهم اللهُ في الدُّنيا، ولهم عَذابٌ شَديدٌ في الآخِرةِ.

ويَضرِبُ مثلًا آخَرَ فيقولُ: مَثَلُ أولئك المنافِقينَ الَّذين وَعَدوا يَهودَ بَني النَّضيرِ الخُروجَ معهم إن أُخرِجوا، والنُّصرةَ لهم إن قُوتِلوا، ثمَّ خَذَلوهم، ومثلُ اليهودِ في اغترارِهم بهم؛ كمَثَلِ الشَّيطانِ إذ قال للإنسان: اكفُرْ باللهِ، فلمَّا كَفَر الإنسانُ باللهِ تبَرَّأَ منه الشَّيطانُ وخَذَلَه، وقال له: إنِّي أخافُ اللهَ ربَّ العالَمينَ! فكان آخِرَ أمْرِهما أنَّهما في النَّارِ ماكِثَينِ فيها أبَدًا، وذلك جزاءُ الظَّالِمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ الله تعالى برَهْبَتِهم؛ دلَّ عليها بقولِه[(١)]:

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾.

أي: لا يُقاتِلُكم المنافِقونَ واليَهودُ -أيُّها المُسلِمونَ- وهم مجتَمِعونَ، إلَّا في مُدُنٍ آمِنةٍ مُمَنَّعةٍ بالحُصونِ، أو مِن وراءِ جُدرانٍ وأسوارٍ وحِيطانٍ، فلا يَبرُزونَ لِقتالِكم؛ مِن شِدَّةِ جُبنِهم، وخَوفِهم منكم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ عائِدٌ إلى يَهودِ بَني النَّضيرِ، وممَّن اختاره: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧).

وقيل: الضَّميرُ عائِدٌ إلى اليَهودِ، وممن اختاره: ابنُ أبي زَمَنين، والسمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، وأبو حيَّان، وجلال الدين المحلي، ونسَبَه ابنُ الجوزي للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦١).

قال ابنُ عطيَّةَ: (الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ لِبَني النَّضيرِ وجميعِ اليَهودِ، وهذا قَولُ جماعةِ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: اليهودُ والمنافِقونَ: الزمخشريُّ، والرازي، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنَّسَفي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٥١).

قال ابن عطية: (يحتَمِلُ أن يريدَ بذلك: اليهودَ والمنافِقينَ؛ لأنَّ دُخولَ المنافِقينَ في قَولِه =

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾.

أي: عداوةُ بَعضِهم لِبَعضٍ عَداوةٌ شَديدةٌ(١).

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

أي: تَظُنُّ أنَّهم مُجتَمِعونَ على كَلِمةٍ واحِدةٍ، والحَقيقةُ أنَّ قُلوبَهم مُختَلِفةٌ،

= تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متمكِّنٌ بيِّنٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٩).

وقال ابنُ عاشور: (قَولُه: ﴿جَمِيعًا﴾ يجوزُ أن يكونَ بمعنى «كُلُّهم»، كقَولِه تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾[المائدة: ٤٨]، فيكونَ للشُّمولِ، أي: كُلُّهم لا يُقاتِلونَكم -اليهودُ والمنافِقونَ- إلَّا في قُرًى مُحَصَّنةٍ... إلخ. ويجوزُ أن يكونَ بمعنى «مجتَمِعينَ»، أي: لا يقاتِلونَكم جُيوشًا كشأنِ جُيوشِ المتحالِفينَ؛ فإنَّ ذلك قتالُ مَن لا يَقبَعونَ في قُراهم، فيكونَ النَّفيُ مُنصَبًّا إلى هذا القَيدِ، أي: لا يَجتَمِعون على قِتالِكم اجتِماعَ الجُيوشِ، أي: لا يُهاجِمونَكم، ولكنْ يُقاتِلون قِتالَ دِفاعٍ في قُراهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٤، ١٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

قال الزمخشري: (يعني: أنَّ البأسَ الشَّديدَ الَّذي يُوصَفونَ به إنَّما هو بيْنَهم إذا اقتَتَلوا، ولو قاتَلوكم لم يَبْقَ لهم ذلك البأسُ والشِّدَّةُ؛ لأنَّ الشُّجاعَ يَجبُنُ، والعزيزَ يَذِلُّ، عندَ محاربةِ اللهِ ورَسولِه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧).

وقال الشوكاني: (﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: بعضُهم غليظٌ فظٌّ على بعضٍ، وقُلوبُهم مُختَلِفةٌ، ونيَّاتُهم مُتباينةٌ. قال السُّدِّيُّ: المرادُ اختِلافُ قُلوبِهم، حيث لا يَتَّفِقون على أمرٍ واحدٍ. وقال مجاهدٌ: بأسُهم بيْنَهم شديدٌ بالكلامِ والوعيدِ: لَيَفْعَلُنَّ كذا، والمعنى: أنَّهم إذا انفَرَدوا نَسَبوا أنفُسَهم إلى الشِّدَّةِ والبأسِ، وإذا لاقَوا عَدُوًّا ذَلُّوا وخَضَعوا وانهَزَموا. وقيل: المعنى: أنَّ بأْسَهم بالنِّسبةِ إلى أقرانِهم شديدٌ، وإنَّما ضَعفُهم بالنِّسبةِ إليكم؛ لِما قذَفَ اللهُ في قُلوبِهم مِن الرُّعبِ. والأوَّلُ أَوْلى؛ لقوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾؛ فإنَّه يدُلُّ على أنَّ اجتِماعَهم إنَّما هو في الظَّاهرِ، معَ تَخالُفِ قُلوبِهم في الباطنِ، وهذا التَّخالُفُ هو البأسُ الَّذي بيْنَهم، المَوصوفُ بالشِّدَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٣).

وفي غايةِ التَّفرُّقِ[١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾.

أي: وُقوعُ مُعاداةِ بَعضِهم لبَعضٍ، وتَشَتُّتُ آرائِهم، وتَفَرُّقُ أهوائِهم؛ بسَبَبِ أنَّهم قَومٌ لا عَقْلَ لهم؛ حيثُ وَقَعوا فيما يَعلَمونَ ضَرَرَه، وأهمَلوا النَّظَرَ في عواقبِ الأُمورِ[٢].

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان الإخبارُ بعَدَمِ عَقْلِهم دَعوى؛ دَلَّ عليها بأمرٍ مُشاهَدٍ، فقال[٣]:

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗا﴾.

أي: مَثَلُ اليَهودِ والمنافِقينَ كمَثَلِ يَهودِ بني قَينُقاعَ الَّذين عَذَّبَهم اللهُ بالجَلاءِ مِنَ المدينةِ، وكَمَثَلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ الَّذين هُزِموا في بَدرٍ، وذلك قبْلَ وُقوعِ جَلاءِ بَني النَّضيرِ بزَمَنٍ يَسيرٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

قال ابنُ عاشور: (لأنَّ مَعرِفةَ مآلِ التَّشَتُّتِ في الرَّأيِ وصَرفِ البأسِ إلى المُشارِكِ في المصلحةِ، مِنَ الوَهْنِ والفَتِّ في ساعدِ الأمَّةِ: مَعرِفةٌ مشهورةٌ بيْنَ العُقَلاءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٩، ٥٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣). =

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ: مَثَلُ المنافِقِينَ واليهودِ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: ابنُ جرير، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٤).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: مَثَلُ هؤلاء اليهودِ مِن بَني النَّضيرِ والمنافِقِينَ فيما اللهُ صانعٌ بهم، مِن إحلالِ عُقوبتِه بهم، ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، يقولُ: كشَبَهِهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٩).

وممَّن اختار أنَّ المثَلَ مَضروبٌ لليهودِ: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، والخازنُ، وجلال الدين المحلي، والشربيني، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

وقيل: أي: مَثَلُ هؤلاء المنافِقِينَ كمَثَلِ مُنافِقِي الأُمَمِ الماضيةِ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٥٢).

واختُلِف في قولِه: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ فقيل: المرادُ بالَّذينَ مِن قَبلِهم: يهودُ بَني قَينُقاعَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٩).

وقيل: المرادُ: كُفَّارُ قُرَيشٍ الَّذين هُزِموا في بَدرٍ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والزمخشري، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١١٦).

وذهب ابنُ جرير إلى العُموم، فقال: (أَولى الأقوالِ بالصَّوابِ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ مَثَّلَ هؤلاء الكُفَّارَ مِن أهلِ الكِتابِ مِمَّا هو مُذيقُهم مِن نَكالِه، بالَّذين مِن قَبْلِهم مِن مُكَذِّبي رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الَّذين أهلَكَهم بسَخَطِه، وأمْرُ بَني قَيْنُقاعَ ووَقْعةُ بَدرٍ كانا قبْلَ جلاءِ بني النَّضيرِ، وكُلُّ أولئك قد ذاقوا وَبالَ أَمْرِهم، ولم يَخْصُصِ اللهُ عزَّ وجَلَّ منهم بعضًا في تمثيلِ هؤلاء بهم =

﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾.

أي: نالوا جزاءَ كُفرِهم، فعَذَّبَهم اللهُ في الدُّنيا(١).

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: ولهم عَذابٌ شَديدُ الإيلامِ في الآخِرةِ(٢).

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذا المَثَلُ مُتَّصِلٌ بقَولِه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الحشر: ١٥] كما يُفصِحُ عنه قَولُه في آخِرِه: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ﴾ الآيةَ، أي: مَثَلُهم في تَسبيبِهم

= دونَ بَعضٍ، وكُلٌّ ذائِقٌ وَبالَ أمْرِه، فمَن قَرُبَت مُدَّتُه منهم قَبْلَهم، فهم مُمثَّلونَ بهم فيما عُنُوا به مِنَ المَثَلِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠).

وقيل: هم بنو النَّضيرِ الذين أُجلوا مِن الحِجازِ إلى الشَّامِ، وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٠٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١١٦).

قال ابنُ عاشور: (أي: حالُ أهلِ الكِتابِ الموعودِينَ بنَصرِ المنافقينَ كحالِ الَّذين مِن قَبلِهم قريبًا. والمرادُ: أنَّ حالَهم المركَّبةَ مِن التَّظاهُرِ بالبأسِ مع إضمارِ الخَوفِ مِن المسلمينَ، ومِن التَّفَرُّقِ بيْنَهم وبيْنَ إخوانِهم مِن أهلِ الكتابِ، ومِن خِذلانِ المنافِقينَ إيَّاهم عندَ الحاجةِ، ومِن أنَّهم لا يُقاتِلونَ المسلِمينَ إلَّا في قُرًى مُحَصَّنةٍ أو مِن وَراءِ جُدُرٍ- كحالِ الَّذين كانوا مِن قَبلِهم في زمَنٍ قَريبٍ، وهم بنو النَّضيرِ؛ فإنَّهم أظهَروا الاستِعدادَ للحَربِ وأَبَوُا الجَلاءَ، فلم يُحارِبوا إلَّا في قَريتِهم؛ إذ حَصَّنوها وقَبَعوا فيها حتَّى أعياهم الحِصارُ فاضطُرُّوا إلى الجَلاءِ، ولم يَنفَعْهم المنافِقونَ ولا إخوانُهم مِن أهلِ الكِتابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٨).

لأنفُسِهم عذابَ الآخِرةِ كمَثَلِ الشَّيطانِ إذ يُوَسْوِسُ للإنسانِ بأن يَكفُرَ، ثمَّ يَترُكُه ويَتبَرَّأُ منه، فلا ينتَفِعُ أحَدُهما بصاحِبِه، ويَقَعانِ معًا في النَّارِ؛ فجُملةُ ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الحشر: ١٥]، أي: في الآخِرةِ[١].

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ﴾.

أي: مَثَلُ أولئك المنافِقينَ الَّذين وَعَدوا يَهودَ بَني النَّضيرِ الخُروجَ معهم إن أُخرِجوا، والنُّصرةَ لهم إن قُوتِلوا، ثمَّ خَذَلوهم، فما مِن شَيءٍ مِن ذلك فَعَلوا، ومَثَلُ اليهودِ في اغترارِهم بهم- كمَثَلِ الشَّيطانِ حينَ سوَّل للإنسانِ الكُفرَ بالرَّحمنِ، وزَيَّنَه له، ووَعَده وَعدًا حَسَنًا بالنَّصرِ أو نَحوِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٨، ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٧، ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

ممَّن قال في الجملةِ إنَّ المرادَ أنَّ اللهَ تعالى ضرَبَ مثَلًا للمنافِقينَ واليهودِ في تَخاذُلِهم، وتخلِّي بعضِهم عن بعضٍ، وعدَمِ الوفاءِ في نُصرتِهم: الثعلبيُّ، والواحدي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠).

وممَّن قال: إنَّ المرادَ مثَلُ المنافِقين في غُرورِهم لبَني النَّضِيرِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، ومكِّي، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٤٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

وقيل: المرادُ: مثَلُ اليهودِ معَ المنافِقينَ، واغترارِهم بهم حينَ وعَدوهم النَّصرَ. وممَّن اختاره: =

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ﴾.

أي: فلمَّا كَفَر الإنسانُ باللهِ؛ اتِّباعًا للشَّيطانِ، وقَبولًا لتَزيينِه، واغترارًا بوَعدِه- تبَرَّأَ منه الشَّيطانُ وخَذَلَه[1]!

= أبو حيَّان، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٥٣).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: مَثَلُ هؤلاء المنافِقينَ الَّذين وعَدوا اليهودَ مِن النَّضيرِ النُّصْرةَ إن قُوتِلوا، أو الخروجَ معهم إنْ أُخرِجوا، ومَثَلُ النَّضيرِ في غُرورِهم إيَّاهم بإخلافِهم الوعدَ، وإسلامِهم إيَّاهم عندَ شدَّةِ حاجتِهم إليهم، وإلى نُصرتِهم إيَّاهم - كمَثَلِ الشَّيطانِ...). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠، ٥٤١). ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٩٣).

وقال ابن عاشور: (حكى ابنُ عبَّاسٍ وغَيرُهما مِن السَّلَفِ في هذه الآيةِ قِصَّةَ راهبٍ بحِكايةٍ مُختَلفةٍ، جُعِلَت كأنَّها المرادُ مِن الإنسانِ في هذه الآيةِ، ذكَرَها ابنُ جريرٍ، والقُرطبيُّ، وضَعَّفَ ابنُ عطيَّةَ أسانيدَها، فلئن كانوا ذكَروا القِصَّةَ فإنَّما أرادوا أنَّها تَصلُحُ مِثالًا لِما يقَعُ مِن الشَّيطانِ للإنسانِ، كما مالَ إليه ابنُ كثيرٍ، فالمعنى: إذ قال للإنسانِ في الدُّنيا: اكفُرْ، فلمَّا كَفَر ووافى القيامةَ على الكُفرِ، قال الشَّيطانُ يومَ القيامةِ: إنِّي بَريءٌ منك، أي: قال كُلُّ شَيطانٍ لقَرينِه مِنَ الإنسِ: إنِّي بريءٌ منك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

قال ابن عطية: (ذهَب مجاهدٌ وجمهورٌ مِن المتأوِّلينَ إلى أنَّ الشَّيطانَ والإنسانَ في هذه الآيةِ أسماءُ جِنسٍ؛ لأنَّ العُرفَ أن يَعمَلَ هذا شياطينُ بناسٍ، كما يُغْوي الشَّيطانُ الإنسانَ ثمَّ يَفِرُّ منه بعدَ أن يُوَرِّطَه، كذلك أغوى المنافِقونَ بَني النَّضيرِ، وحرَّضوهم على الثُّبوتِ، ووَعَدوهم النَّصرَ، فلمَّا نَشِبَ بَنو النَّضيرِ وكشَفوا عن وُجوهِهم ترَكَهم المُنافِقون في أسوأِ حالٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠).

وقال الألوسي: (الجُمهورُ على أنَّ المرادَ بالشَّيطانِ والإنسانِ الجِنسُ، فيكونُ التَّبَرِّي يومَ القيامةِ، وهو الأوفَقُ بظاهِرِ قَولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ...﴾ إلخ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٥٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٧).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: قال الشَّيطانُ مُبَيِّنًا سَبَبَ تَبَرُّئِه مِن الإنسانِ الَّذي أطاعه في الكُفرِ: إنِّي أخافُ اللهَ الَّذي أوجَدَ جميعَ الخلائِقِ، وربَّاهم بنِعَمِه، فلا يُغْني أحَدٌ مِن خَلْقِه عن أحَدٍ شَيئًا إلَّا بإذْنِه؛ فليس لي قُدرةٌ على دَفعِ العذابِ عنك، أو جَلْبِ النَّفعِ لك(١).

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

قال ابنُ عطية: (قولُ الشَّيطانِ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾، رياءٌ مِن قَولِه، وليست على ذلك عقيدتُه، ولا يَعرِفُ اللهَ حَقَّ مَعرفتِه، ولا يَحجُزُه خَوفُه عن سُوءٍ يُوقِعُ فيه ابنَ آدَمَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠).

وقال القرطبي: (ليس قَولُ الشَّيطانِ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، حَقيقةً، إنَّما هو على وَجهِ التَّبَرُّؤِ مِن الإنسانِ؛ فهو تأكيدٌ لِقَولِه تعالى: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٢).

وقال الشوكاني: (قال الشَّيطانُ: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾. وهذا يكونُ منه يومَ القيامةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٤).

أي: فكان آخِرَ أمْرِ ذلك الشَّيطانِ والإنسانِ أنَّهما في النَّارِ ماكِثَينِ فيها أبَدًا[١].

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: والعاقِبةُ السَّيِّئةُ بالخُلودِ في النَّارِ هي جزاءُ كُلِّ مَن ظَلَم نَفْسَه بالكُفرِ باللهِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ فيه تَربيةٌ للمُسلِمينَ؛ لِيَحذَروا مِن التَّخالُفِ والتَّدابُرِ، ويَعلَموا أنَّ الأُمَّةَ لا تكونُ ذاتَ بأسٍ على أعدائِها إلَّا إذا كانت متَّفِقةَ الضَّمائِرِ، يَرَونَ رأيًا مُتماثِلًا في أُصولِ مَصالِحِهما المُشتَرَكةِ، وإن اختَلَفت في خُصوصيَّاتِها الَّتي لا تَنقُضُ أُصولَ مَصالِحِها، ولا تُفَرِّقُ جامِعَتَها؛ وأنَّه لا يكفي في الاتِّحادِ تَوافُقُ الأقوالِ، ولا التَّوافُقُ على الأغراضِ، إلَّا أن تكونَ الضَّمائِرُ خالِصةً مِن الإحَنِ والعَداواتِ[٣]، فاجتِماعُ النُّفوسِ مع تنافُرِ القُلوبِ واختِلافِها: أصلُ كُلِّ فَسادٍ، ومُوجِبُ كُلِّ تَخاذُلٍ، ومُقتَضٍ لتجاسُرِ العَدُوِّ؛ واتِّفاقُ القُلوبِ، والاشتراكُ في الهِمَّةِ، والتَّساوي في القَصدِ: يُوجِبُ كُلَّ ظَفَرٍ، وكُلَّ سعادةٍ[٤].

٢- عَن قَتادةَ في قَولِه تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ قال: (كذلك أهلُ الباطِلِ؛ مُختَلِفةٌ شَهادتُهم، مُختَلِفةٌ أهواؤُهم، مُختَلِفةٌ أعمالُهم، وهم مُجتَمِعونَ في عَداوةِ أهلِ الحَقِّ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٥٦٣).

(٥) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١١٦).

٣- أعظَمُ الأسبابِ في القَضاءِ على كِيانِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ هو اختِلافُ القُلوبِ؛ وذلك لاستِلزامِه الفَشَلَ، وذَهابَ القُوَّةِ والدَّولةِ، وسبَبُ هذا الدَّاءِ الَّذي عَمَّت به البلوى إنَّما هو ضَعفُ العَقلِ؛ كما بيَّن الله تعالى ذلك في قولِه: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، ثمَّ ذَكَر العِلَّةَ لكَونِ قُلوبِهم شَتَّى بقَولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾، ولا شَكَّ أنَّ داءَ ضَعفِ العَقلِ الَّذي يُصيبُه فيُضعِفُه عن إدراكِ الحقائِقِ، وتمييزِ الحَقِّ مِن الباطِلِ، والنَّافِعِ مِن الضَّارِّ، والحَسَنِ مِن القَبيحِ: لا دواءَ له إلَّا إنارتُه بنُورِ الوَحيِ؛ لأنَّ نُورَ الوَحيِ يحيا به مَن كان مَيتًا، ويُضيءُ الطَّريقَ للمُتمَسِّكِ به[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أنَّه لا فائدةَ مِن اجتِماعِ الأبدانِ مع تَفَرُّقِ القلوبِ! الفائدةُ باجتماعِ القلوبِ وتآلُفِ القلوبِ ولو تباعدَتِ الأبدانُ، وكم مِن إنسانٍ يكونُ بيْنَك وبيْنَه مَوَدَّةٌ وصداقةٌ وهو بعيدٌ منك، وبعيدٌ عنك؟! وكم مِن إنسانٍ بالعكسِ؛ تَشعُرُ بأنَّه يُنافِقُك؛ وأنَّه لا يُكِنُّ لك المحَبَّةَ ولا الصَّداقةَ؛ ومع ذلك هو ملازِمٌ لك كمُلازَمةِ الظِّلِّ؟! فالشَّأنُ كلُّ الشَّأنِ بالقلوبِ[٢]. قال الإمامُ أحمدُ: (إنَّ لي إخوانًا لا ألْقاهم إلاَّ في كلِّ سنةٍ مرَّةً، أنا أوثقُ بمودَّتِهم ممَّن ألقَى كلَّ يومٍ)[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- القِتالُ على الخَيلِ بالسِّلاحِ هو أعلى وأفضلُ مِن القِتالِ في الحُصونِ بالسِّلاحِ، فالحِصانُ خَيرٌ مِن الحُصونِ، ومَن لم يكُنْ قِتالُه إلَّا في الحُصونِ والجُدُرِ فهو مَذمومٌ كما قال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٧).

(٣) يُنظر: ((مناقب الإمام أحمد)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢).

أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ لَمَّا كان رُبَّما ظُنَّ أنَّ هذا عن عَجزٍ منهم لازِمٍ لهم، دَفَعَه بقَولِه إعلامًا بأنَّه إنَّما هو مِن مُعجِزاتِ هذا الدِّينِ: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾، أي: إذا أدارُوا رأيًا، أو حاربَ بَعضُهم بَعضًا -على قولٍ-؛ فجَرَّأَ المؤمِنينَ عليهم بأنَّ ما يَنظُرونَه مِن شِدَّتِهم وشَجاعتِهم إذا حارَبوا المُشرِكينَ، لا يُذكَرُ عندَ مُحارَبةِ المؤمِنينَ؛ كرامةً أكرَمَ اللهُ بها المؤمِنينَ، تتضَمَّنُ عَلَمًا مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ، تقويةً لإيمانِهم، وإعلاءً لشَأنِهم[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف ذلك ونحنُ نراهم متَّفِقينَ؟

الجوابُ: أنَّ ظاهِرَ حالِهم حالُ اجتِماعٍ واتِّحادٍ، وهم في بواطِنِهم مُختَلِفونَ؛ فآراؤُهم غَيرُ مُتَّفِقةٍ، لا ألْفةَ بيْنَهم؛ لأنَّ بيْنَهم إحَنًا وعَداواتٍ، فلا يَتعاضَدونَ، وهذا تقويةٌ للمؤمنينَ، وتَشجيعٌ لقُلوبِهم على قِتالِهم، والاستِخفافِ بجَماعتِهم[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أنَّ اليهودَ ليسوا مجتَمِعينَ -وذلك على أنَّ الضَّميرَ يعودُ عليهم-؛ ولذلك هم أحزابٌ شتَّى، وحتَّى داخِلَ الحزبِ الواحدِ مُتفرِّقونَ؛ لأنَّهم لا يُمكِنُ أنْ يَجتَمِعوا وقد أَلْقَى اللهُ بيْنَهم العداوةَ والبَغضاءَ، لكنْ لاحِظْ أنَّ العَدُوَّينِ إذا كان لهما عدوٌّ ثالثٌ، اجتمَعا عليه لمقابلةِ العدوِّ الثَّالثِ؛ فاجتِماعُهم الآنَ ليس لأنَّهم مُتحابُّونَ مُتآلِفونَ أبدًا، ولا يمكِنُ

(١) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

أنْ نُصَدِّقَ، واللهُ يقولُ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ٦٤]، لكِنَّهم اجتَمَعوا لهَدَفٍ واحدٍ ومَصلَحةٍ واحِدةٍ ضِدَّ عَدُوٍّ واحدٍ للجَميعِ، وهذا الاجتِماعُ لا شَكَّ أنَّه اجتِماعٌ ظاهِريٌّ فقط، مَقصودٌ لغيرِه، وليس مَقصودًا لِذاتِه[١]، فقُلوبُهم ليست مُتوادَّةً مُتوالِيةً إلَّا ما دام الغَرَضُ الَّذي يَؤُمُّونَه مُشتَرِكًا بيْنَهم، ثمَّ يَتخَلَّى بَعضُهم عن بعضٍ، بخِلافِ المؤمِنِ؛ فإنَّه يُحِبُّ المؤمِنَ، ويَنصُرُه بظَهرِ الغَيبِ، وإن تناءَت بهم الدِّيارُ، وتباعدَ الزَّمانُ[٢].

٥- العقلُ الصَّريحُ يُوجِبُ الاجتماعَ؛ فإنَّ الحقَّ لا يَختلِفُ ولا يَتناقَضُ، وقد بَيَّنَ سُبحانَه وتعالى أنَّ تَشَتُّتَ اليهودِ هو بسَبَبِ عَدَمِ العَقلِ، قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[٣]، فالعَقلُ مدارُ الاجتماعِ، كما كان الصَّحابةُ رِضوانُ اللهِ عليهم أجمعينَ في زَمَنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما أنَّ الهوى مدارُ الاختِلافِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أنَّ الشَّيطانَ يَخذُلُ الإنسانَ في المواطِنِ التي يحتاجُ فيها إلى النَّصرِ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٠٣).

- قولُه: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ هذه الجُملةُ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣]؛ لأنَّ شِدَّةَ الرَّهبةِ مِن المسلمينَ تَشتمِلُ على شِدَّةِ التَّحصُّنِ لقِتالِهم إيَّاهم، أي: لا يَقدِرون على قِتالِكم إلَّا في هاتِه الأحوالِ[١].

- وهذا أيضًا كِنايةٌ عن مَصيرِهم إلى الهزيمةِ؛ إذ ما حُورِبَ قومٌ في عُقْرِ دارِهم إلَّا ذَلُّوا، كما قال عليٌّ رضِيَ اللهُ عنه، وهذا إطْلاعٌ لهم على تَطمينٍ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ، ودَخائلِ الأعداءِ[٢].

- قولُه: ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٌ﴾ استئنافٌ سِيقَ لبَيانِ أنَّ ما ذُكِرَ مِن رَهبتِهم ليسَ لضَعْفِهم وجُبْنِهم في أنفُسِهم؛ فإنَّ بأْسَهُم بالنِّسبةِ إلى أقرانِهم شديدٌ -على قولٍ-، وإنَّما ضَعْفُهم وجُبْنُهم بالنِّسبةِ إليكم بما قذَفَ اللهُ تَعالَى في قُلوبِهم مِن الرُّعبِ[٣]. وقيل: هو استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ الإخبارَ عن أهلِ الكِتابِ وأنصارِهم بأنَّهم لا يُقاتِلون المسلِمينَ إلَّا في قُرًى مُحصَّنةٍ المُفيدَ أنَّهم لا يتَّفِقون على جَيشٍ واحدٍ مُتساندين فيه؛ ممَّا يُثيرُ في نفْسِ السامعِ أنْ يَسأَلَ عن مُوجِبِ ذلك مع أنَّهم مُتَّفِقون على عَداوةِ المسلِمينَ، فيُجابُ بأنَّ بيْنهم بأسًا شديدًا وتَدابُرًا، فهمْ لا يَتَّفِقون[٤].

- وافتُتِحَ الكلامُ بكَلمةِ ﴿بَأۡسُهُم﴾؛ للاهتِمامِ بالإخبارِ عنه بأنَّه بيْنَهم، أي: مُتسلِّطٌ مِن بَعضِهم على بَعضٍ، وليس بأْسُهم على المسلمينَ، وفيه تَهكُّمٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٥، ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠٦).

- قولُه: ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ قيل: القلوبُ: العقولُ والأفكارُ، وإطلاقُ القلْبِ على العقلِ كَثيرٌ في اللُّغةِ؛ شُبِّهَت العقولُ المختلِفةُ مَقاصدُها بالجماعاتِ المُتفرِّقينَ في جِهاتٍ في أنَّها لا تَتلاقى في مَكانٍ واحدٍ[١].

- وأُتيَ بلَفظِ القومِ في قولِه: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾؛ إيماءً إلى أنَّ ذلك مِن آثارِ ضَعْفِ عُقولِهم حتَّى صارَتْ عُقولُهم كالمَعدومةِ؛ فالمُرادُ: أنَّهم لا يَعقِلون المَعقِلَ الصَّحيحَ، وإسنادُ الحُكْمِ إلى عُنوانِ (قَوم) يُؤذِنُ بأنَّ ذلك الحُكمَ كالجِبِلَّةِ المُقوِّمةِ للقوميَّةِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾، وفي الآيةِ الَّتي قبْلَها: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣]؛ ووَجْهُه: أنَّه لَمَّا قال: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾، أي: خَوفُهم منكم أشدُّ مِن خَوفِهم مِن اللهِ تَعالى؛ لأنَّهم يَعلَمون ظاهرًا، ولا يَعرِفون ما استَتَرَ عنْهم منه، والفَقيهُ: مَن يَستدرِكُ مِن الكلامِ ظاهرَه الجَليَّ، وغامِضَه الخَفيَّ، بسُرعةِ فِطنتِه، وجَودةِ قَريحتِه، فلمَّا رَهِبوا النَّبيَّ ما لم يَرهَبوا اللهَ عزَّ ذِكرُه، صاروا كمَن يَعرِفُ ما يَشهَدُه، ويَجهَلُ ما يَغيبُ عنْه، ولو فَقِهوا لَعَلِموا أنَّ لِما ظَهَرَ مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باطنًا، خَفِيَ عنهم مِن أمْرِ اللهِ تَعالى؛ فلذلك وَصَفَهم بأنَّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، وقال هنا: ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّ مَعرِفةَ مآلِ التَّشتُّتِ في الرَّأيِ، وصَرْفِ البأسِ إلى المُشاركِ في المصلحةِ مِن الوهْنِ والْفَتِّ في ساعدِ الأُمَّةِ؛ مَعرِفةٌ مَشهورةٌ بيْن العُقلاءِ، فإهْمالُهم سُلوكَ ذلك جَعَلَهم سواءً مع مَن لا عُقولَ لهم، فكانت هذه الحالةُ شِقْوةً لهم حصَلَت منها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠٧).

سَعادةٌ للمسلمينَ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: مَثَلُهم[٢].

- قولُه: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ حرْفُ (مِن) صِلةٌ؛ لتأْكيدِ ارتباطِ الظَّرفِ بعامِلِه[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ خَبرٌ ثانٍ للمُبتدأِ المُقدَّرِ مُبيِّنٌ لحالِهم، مُتضمِّنٌ لحالٍ أُخْرَى لليهودِ، وهي اغترارُهم بمُقابَلةِ المنافقينَ أوَّلًا وخَيبتُهُم آخِرًا، وقد أُجْمِلَ في النَّظمِ الكريمِ، حيث أُسنِدَ كلٌّ مِن الخَبَرينِ إلى المقدَّرِ المضافِ إلى ضَميرِ الفَريقَينِ مِن غيرِ تَعيينِ ما أُسْنِدَ إليه بخُصوصِه؛ ثقةً بأنَّ السَّامعَ يَرُدُّ كلًّا مِن المَثَلَينِ إلى ما يُماثِلُه، كأنَّهُ قيلَ: مَثَلُ اليهودِ في حُلولِ العذابِ بهم كمَثَلِ الَّذينَ مِن قبْلِهم... إلخ، ومَثَلُ المنافِقينَ في إغرائِهِم إيَّاهُم على القتالِ -حسَبَما نُقِلَ عنهُم- كمَثَلِ الشَّيطانِ...[٤]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وفي الآيةِ إيجازُ حذْفٍ، حُذِفَ فيها مَعطوفاتٌ مُقدَّرةٌ بعْدَ شرْطِ (لَمَّا) هي داخلةٌ في الشَّرطِ؛ إذ التَّقديرُ: فلمَّا كَفَرَ واستَمرَّ على الكفْرِ، وجاء يومَ الحشْرِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٦٤-١٢٦٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٧١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٨، ٤٥٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٧، ٥٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢).

واعتَذَرَ بأنَّ الشَّيطانَ أضَلَّه؛ قال الشَّيطانُ: إنِّي بَريءٌ منك... إلخ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تَعليلٌ كاذِبٌ مِن الشَّيطانِ لبَراءتِه مِن مُتَّبِعِه؛ وإلَّا فهو لا يَخافُ اللهَ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِن تَمامِ المَثَلِ، أي: كان عاقبةُ المُمثَّلِ بهما خُسرانَهما معًا، وكذلك تكونُ عاقبةُ الفريقَينِ المُمثَّلينِ أنَّهما خائبانِ فيما دبَّرَا وكادَا للمُسلِمينَ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَذييلٌ، والإشارةُ بـ (ذلِك) إلى ما يدُلُّ عليه ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾ مِن معْنى: فكانتْ عاقبتُهما سُوأَى، والعاقبةُ السُّوأى جَزاءُ جَميعِ الظَّالِمينَ المُعتدينَ على اللهِ والمسلِمينَ، فكما كانتْ عاقبةُ الكافرِ وشَيطانِه عاقبةَ سُوءٍ، كذلك تكونُ عاقبةُ المُمثَّلَينِ بهما وقدِ اشتَرَكَا في ظُلمِ أهلِ الخَيرِ والهُدى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٨-٢١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَٰشِعٗا﴾: أي: مُتذَلِّلًا مُتواضِعًا، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[1].

﴿مُّتَصَدِّعٗا﴾: أي: مُتَشَقِّقًا، وأصلُ (صدع): يدُلُّ على انفراجٍ في الشَّيءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى موجِّهًا نداءَه إلى المؤمنينَ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا، اتَّقُوا اللهَ، ولْيَنظُرْ كُلُّ أحدٍ فيما قدَّمَه مِن أعمالٍ لآخِرتِه، واتَّقُوا اللهَ؛ إنَّ اللهَ خَبيرٌ بما تَعمَلونَ، ولا تَكونوا كالَّذين غَفَلوا عن ذِكرِ اللهِ، والقيامِ بحَقِّه وطاعتِه، فأنساهم اللهُ أنفُسَهم؛ عُقوبةً لهم، أولئك هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، لا يَستوي أهلُ النَّارِ وأهلُ الجنَّةِ، أهلُ الجنَّةِ هم الفائِزونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى معظِّمًا لأمرِ القرآنِ، ومبيِّنًا عُلُوَّ قَدرِه: لو أنزَلْنا هذا القُرآنَ على جَبَلٍ لَرأيتَه خاضِعًا مُتذَلِّلًا مُتشَقِّقًا؛ لشِدَّةِ خَوفِه مِنَ اللهِ تعالى، وتلك الأمثالُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤).

نَذكُرُها للنَّاسِ؛ لعَلَّهم يَتفكَّرونَ فيها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا انْقَضى في هذه السُّورةِ وصْفُ المنافِقينَ واليهودِ، وَعَظَ المؤمنينَ بكلامٍ مُستأنَفٍ؛ لأنَّ الموعظةَ بعْدَ ذِكرِ المصيبةِ لها مَوقعٌ في النَّفْسِ لرِقَّةِ القلوبِ، والحذَرِ ممَّا يُوجِبُ العذابَ[1].

وأيضًا هو انتِقالٌ مِن الامتنانِ على المسلِمينَ بما يسَّرَ اللهُ مِن فتْحِ قَريةِ بَني النَّضيرِ بدونِ قِتالٍ، وما أفاء اللهُ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منهم- إلى الأمرِ بتَقوى اللهِ؛ شُكرًا له على ما مَنَحَ وما وعَدَ مِن صادقِ الوعدِ؛ فإنَّ الشُّكرَ جَزاءُ العبدِ عن نِعمةِ ربِّه؛ إذ لا يَستطيعُ جَزاءً غيرَ ذلك، فأقبَلَ على خِطابِ الَّذين آمَنوا بالأمرِ بتَقوى اللهِ. ولَمَّا كان ما تَضمَّنَته السُّورةُ مِن تأْييدِ اللهِ إيَّاهم وفَيضِ نِعَمِه عليهم، كان مِن مَنافعِ الدُّنيا؛ أعْقَبَه بتَذكيرِهم بالإعدادِ للآخرةِ بقولِه: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا، خافُوا اللهَ واحذَروا سَخَطَه وعَذابَه الدُّنيويَّ والأُخرويَّ، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾.

أي: ولْيتأمَّلْ كُلُّ أحدٍ فيما قدَّمَه مِن أعمالٍ لآخِرتِه؛ فيَزدادَ مِنَ الحَسَناتِ، ويَتوبَ مِن السَّيِّئاتِ، ويَستَعِدَّ لِلقاءِ رَبِّه، ويُحاسِبَ نفْسَه قبْلَ أن يُحاسِبَه ربُّه[1]!

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

أي: واجعَلوا بَيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه وِقايةً[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو خِبرةٍ بالِغةٍ تامَّةٍ بجَميعِ أعمالِكم؛ ظاهِرِها وباطِنِها، وسيُجازيكم عليها[3].

ثمَّ ضرَب لهم الأمثالَ تحذيرًا وإنذارًا، فقال[4]:

= (٨/ ٧٧)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٣٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٧)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٧٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٠، ١١١).

قال الرازي: (الغَدُ: يومُ القيامةِ، سمَّاه باليَومِ الَّذي يَلِي يَومَك؛ تقريبًا له). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١١).

وقال البِقاعي: (﴿لِغَدٍ﴾ أي: لأجْلِ العَرضِ بعدَ الموتِ، أو في يومِ القيامةِ الَّذي هو في غايةِ القُربِ؛ لأنَّ هذه الدُّنيا كُلَّها يومٌ واحِدٌ يَجيءُ فيه ناسٌ ويذهَبُ آخَرونَ، والموتُ أو الآخرةُ غَدُه، لا بدَّ مِن كُلٍّ منهما، وكُلُّ ما لا بُدَّ منه فهو في غايةِ القُربِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ٥٣).

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾.

أي: ولا تَكونوا كالَّذين غَفَلوا عن ذِكرِ اللهِ، والقيامِ بحَقِّه وطاعتِه؛ فأنساهم اللهُ أنفُسَهم؛ عُقوبةً لهم، فلم يُقَدِّموا لها خَيرًا يَنفَعُها، أو أمرًا يُصلِحُها، فضَيَّعوها[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٨-٣٥٣)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٠، ١٠٣، ١٠٤)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٨١)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٩، ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٢، ١١٣).

قال ابن القيِّم: (نهى أن يَتشَبَّهَ عِبادُه المؤمنونَ بمَن نَسِيَه بتَرْكِ تَقْواه، وأخبَر أنَّه عاقَب مَن ترَك التَّقْوى بأنْ أنساه نفْسَه، أي: أنساه مصالِحَها، وما يُنجيها مِن عذابِه، وما يوجِبُ له الحياةَ الأبَديَّةَ، وكمالَ لَذَّتِها وسُرورِها ونعيمِها، فأنساه اللهُ ذلك كلَّه جزاءً لِما نَسِيَه مِن عَظَمتِه وخَوفِه، والقيامِ بأمْرِه). ((الجواب الكافي)) (ص: ٧٠). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٨ - ٣٥٣).

وقال أيضًا: (هؤلاء نَسُوا نُفوسَهم لا مِن جميعِ الوُجوهِ، بل مِنَ الوَجهِ الَّذي به مَصالِحُها وكمالُها وسعادتُها، وإن لم يَنسَوها مِن الوَجهِ الَّذي منه شَهوتُها وحَظُّها وإرادتُها، فأنساهم مَصالِحَ نُفوسِهم أن يَفعَلوها ويَطلُبوها، وعُيوبَها ونقائِصَها أن يُزيلوها ويجتَنِبوها، وكمالَها الَّذي خُلِقَت له أن يَعرِفوه ويَطلُبوه؛ فهم جاهِلونَ بحقائِقِ أنفُسِهم مِن هذه الوُجوهِ، وإن كانوا عالِمينَ بها مِن وُجوهٍ أُخَرَ). ((الروح)) (ص: ٢١٢). ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣٥).

وقال ابن تيميَّة: (ونِسيانُهم أنفُسَهم يَتضَمَّنُ إعراضَهم وغفلتَهم، وعدَمَ مَعرفتِهم بما كانوا عارِفينَ به قبْلَ ذلك مِن حالِ أنفُسِهم، كما أنَّه يَقتضي تَرْكَهم لِمَصالِحِ أنفُسِهم؛ فهو يَقتضي أنَّهم لا يَذكُرون أنفُسَهم ذِكرًا يَنفَعُها ويُصلِحُها، وأنَّهم لو ذكَروا اللهَ لَذَكَروا أنفُسَهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣٤٨ - ٣٥٣).

وقال ابن جُزَي: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ يعني: الكُفَّارَ، والنِّسيانُ هنا يحتمِلُ أن يكونَ بمعنى التَّرْكِ أو الغَفْلةِ، أي: نَسُوا حقَّ اللهِ، فأنساهم حُقوقَ أنفُسِهم والنَّظَرَ لها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

أي: أولئك الَّذين نَسُوا اللهَ، فأنساهم أنفُسَهم: هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ إلى مَعصيتِه[1].

﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أرشَد المؤمنينَ إلى ما هو مَصلَحتُهم يومَ القيامةِ بقولِه: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: ١٨]، وهدَّد الكافِرين بقولِه: ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الحشر: ١٩]؛ بيَّن الفَرقَ بيْنَ الفَريقَينِ[2]، فقال:

﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾.

أي: لا يَستوي أهلُ النَّارِ وأهلُ الجنَّةِ في الفَضلِ والرُّتبةِ والجَزاءِ عِندَ اللهِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).

قال ابن عاشور: (فالفاسِقونَ هم الآتُونَ بفواحِشِ السَّيِّئاتِ ومَساوِئِ الأعمالِ، وأعظَمُها الإشراكُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١١، ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

قال البقاعي: (﴿لَا يَسۡتَوِيٓ﴾ أي: بوَجْهٍ مِن الوُجوهِ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الَّتي هي محلُّ الشَّقاءِ الأعظَمِ ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ الَّتي هي دارُ النَّعيمِ الأكبَرِ؛ لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٦١).

وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: في الفضلِ والرُّتبةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤).

وقال ابن كثير: (لا يَستوي هؤلاء وهؤلاء في حُكمِ الله يومَ القيامةِ، كما قال: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ =

كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۞ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ١٨ - ٢٠].

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾.

أي: أهلُ الجنَّةِ هم وَحْدَهم النَّاجُونَ مِن العَذابِ، الظَّافِرونَ بالثَّوابِ[(١)].

كما قال الله وتعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى لِعبادِه ما بَيَّنَ، وأمَرَهم ونهاهم في كتابِه العزيزِ؛ كان هذا مُوجِبًا لأنْ يُبادِروا إلى ما دعاهم إليه، وحَثَّهم عليه، ولو كانوا في القَسْوةِ وصَلابةِ القُلوبِ كالجِبالِ الرَّواسي؛ فإنَّ هذا القُرآنَ لو أنزَلَه على جَبَلٍ لَرأَيْتَه خاشِعًا متَصَدِّعًا مِن خَشيةِ اللهِ[(٢)].

= [الجاثية: ٢١]، ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ الآيةَ [غافر: ٥٨]، وقال: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨]، في آياتٍ أُخَرَ دالَّاتٍ على أنَّ اللهَ سُبحانَه يُكرِمُ الأبرارَ، ويُهينُ الفُجَّارَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

وأيضًا لَمَّا حذَّر المسلِمينَ مِن الوُقوعِ في مَهْواةِ نِسيانِ اللهِ الَّتي وقَعَ فيها الفاسِقون، وتوعَّد الَّذين نَسُوا اللهَ بالنَّارِ، وبيَّن حالَهم بأنَّ الشَّيطانَ سوَّلَ لهم الكفْرَ، وكان القرآنُ دالًّا على مَسالكِ الخَيرِ، ومُحذِّرًا مِن مَسالكِ الشَّرِّ، وما وقَعَ الفاسِقون في الهَلَكةِ إلَّا مِن جَرَّاءِ إهمالِهم التَّدبُّرَ فيه، وذلك مِن نِسيانِهم اللهَ تَعالى؛ انتقَلَ الكلامُ إلى التَّنويهِ بالقرآنِ وهَدْيِه البيِّنِ الَّذي لا يَصرِفُ النَّاسَ عنه إلَّا أهْواؤُهم ومُكابَرتُهم، وكان إعراضُهم عنه أصلَ استِمرارِ ضَلالِهم وشِركِهم- ضرَبَ لهم هذا المثَلَ تَعجيبًا مِن تَصلُّبِهم في الضَّلالِ[1].

﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾.

أي: لو أنزَلْنا هذا القُرآنَ على أيِّ جَبَلٍ مِن الجِبالِ، فسَمِعَ كَلامَ اللهِ وفَهِمَه؛ لَرأيتَه في حالِ خُضوعٍ وذُلٍّ، وفي غايةِ التَّشَقُّقِ؛ لشِدَّةِ خَوفِه مِنَ اللهِ تعالى، رَغْمَ قَساوتِه وصلابتِه؛ وذلك لكمالِ تأثيرِ معاني القرآنِ العَظيمِ[2].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٥، ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٨، ٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٦١، ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٦، ١١٧).

قال ابنُ كثير: (فكيف يَليقُ بكم -أيُّها البَشَرُ- ألَّا تَلينَ قُلوبُكم وتَخشَعَ، وتتصَدَّعَ مِن خَشيةِ اللهِ، وقد فَهِمتُم عن اللهِ أمْرَه، وتدبَّرتُم كِتابَه؟!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٨).

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: وتلك الأمثالُ المَضروبةُ في القُرآنِ نَذكُرُها للنَّاسِ؛ لعَلَّهم يَتفَكَّرونَ فيها، فيَعتَبِرونَ بها ويتَّعِظونَ[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيه حَثٌّ على تقوى اللهِ[٢]، ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ في مجيءِ ﴿قَدَّمَتْ﴾ بصِيغةِ الماضي حَثٌّ على الإسراعِ في العَملِ، وعدَمِ التَّأخيرِ؛ لأنَّه لم يَملِكْ إلَّا ما قدَّمَ في الماضي، والمُستقبَلُ ليس بيَدِه، ولا يَدري ما يكونُ فيه: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾[٣] [لقمان: ٣٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ وُجوبُ محاسَبةِ النَّفْسِ[٤]. والآيةُ أصلٌ في محاسَبةِ العَبدِ نَفْسَه، وأنَّه يَنبغي له أن يتفَقَّدَها؛ فإنْ رأى زَلَلًا تَدارَكَه بالإقلاعِ عنه، والتَّوبةِ النَّصوحِ، والإعراضِ عن الأسبابِ الموصِلةِ إليه، وإنْ رأى نَفْسَه مُقَصِّرًا في أمرٍ مِن أوامِرِ اللهِ، بَذَل جُهدَه واستعان برَبِّه في تكميلِه وتتميمِه وإتقانِه، ويقايِسُ بيْن مِنَنِ اللهِ عليه وإحسانِه، وبيْنَ تَقصيرِه؛ فإنَّ ذلك يُوجِبُ له الحَياءَ بلا مَحالةٍ.

والحِرمانُ كُلُّ الحِرمانِ أن يَغفُلَ العبدُ عن هذا الأمرِ، ويُشابِهَ قَومًا نَسُوا اللهَ، وغَفَلوا عن ذِكرِه والقيامِ بحَقِّه، وأقبَلوا على حُظوظِ أنفُسِهم وشَهَواتِها؛ فلم يَنجَحوا، ولم يَحصُلوا على طائِلٍ، بل أنساهم اللهُ مصالحَ أنفُسِهم، وأغفَلَهم عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٢)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٨٤).

منافِعِها وفوائِدِها، فصار أمرُهم فُرُطًا، فرَجَعوا بخَسارةِ الدَّارَين، وغُبِنوا غَبنًا لا يُمكِنُهم تَدارُكُه، ولا يُجبَرُ كَسرُه؛ لأنَّهم هم الفاسِقونَ الَّذين خرَجوا عن طاعةِ رَبِّهم، وأوضَعوا في معاصيه، فهل يَستوي مَن حافَظَ على تقوى اللهِ ونَظَر لِما قدَّم لغَدِه، فاستحَقَّ جَنَّاتِ النَّعيمِ والعَيشَ السَّليمَ مع الَّذين أنعَمَ اللهُ عليهم مِن النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالِحينَ، ومَن غفَل عن ذِكرِ اللهِ، ونَسِيَ حُقوقَه؛ فشَقِيَ في الدُّنيا، واستحَقَّ العذابَ في الآخِرةِ؛ فالأوَّلونَ هم الفائِزونَ، والآخِرونَ هم الخاسِرونَ[1]؟!

٣- قال تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ جعَلَ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ في القُربِ بمَنزِلةِ الغَدِ؛ تَهييجًا لِدَواعي العبادِ على الاستِعدادِ له، والعملِ مِن أجْلِه، كما قرَّب زمَنَ إهلاكِ القُرونِ الماضيةِ فقال: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]؛ لِيَكونَ ذلك في جهةِ الاعتِبارِ والادِّكارِ كأنَّه بالنِّسبةِ إلى يَومِهم الحاضِرِ أمْسِهم الذَّاهِبُ؛ فإنَّه أبْلَغُ في المَوعِظةِ والتَّخويفِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ تَنبيهٌ للنَّاسِ، وإيذانٌ لهم بأنَّهم لفَرْطِ غَفلتِهم وقِلَّةِ فِكرِهم في العاقِبةِ، وتَهالُكِهم على إيثارِ العاجِلةِ، واتِّباعِ الشَّهواتِ؛ كأنَّهم لا يَعرِفون الفرْقَ بيْن الجنَّةِ والنَّارِ، والبَونَ العظيمَ بيْن أصحابِهما، وأنَّ الفوزَ مع أصحابِ الجنَّةِ، فمِن حقِّهم أنْ يُعلَموا ذلك، ويُنبَّهوا عليه[3].

٥- قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ حثَّ على تأمُّلِ مَواعِظِ القُرآنِ، وبَيَّنَ أنَّه لا عُذْرَ في تَركِ التَّدَبُّرِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٨).

فإنَّه لو خُوطِبَ بهذا القُرآنِ الجِبالُ مع تركيبِ العَقلِ فيها، لَانقادت لِمَواعِظِه، ولَرأيتَها على صلابتِها ورزانتِها خاشِعةً متصَدِّعةً[١]! فالغرضُ تَوبيخُ الإنسانِ على قَسْوةِ قلْبِه، وقِلَّةِ خشوعِه عندَ تِلاوةِ القُرآنِ، وإعراضِه عن تَدبُّرِ آياتِه، والتَّفكُّرِ في عجائبِ ما صُرِّف فيه مِن الوعدِ والوعيدِ[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هذه الجِبالُ -وهي الحِجارةُ الصُّلبةُ- قد أخبَرَ عنها فاطِرُها وباريها أنَّه لو أنزَلَ عليها كلامَه لخَشَعت ولتصَدَّعَت من خَشيةِ اللهِ.

فيا عَجَبًا مِن مُضغةِ لَحمٍ أَقسى مِن هذه الجِبالِ! تَسمَعُ آياتِ اللهِ تُتلَى عليها، ويُذكَرُ الرَّبُّ تبارك وتعالى، فلا تَلينُ ولا تَخشَعُ ولا تُنيبُ؛ فليس بمُستَنكَرٍ على اللهِ عزَّ وجَلَّ، ولا يُخالِفُ حِكمتَه: أن يَخلُقَ لها نارًا تُذيبُها؛ إذ لم تَلِنْ بكلامِه وذِكْرِه، وزواجِرِه ومَواعِظِه، فمَن لم يَلِنْ لله في هذه الدَّارِ قَلْبُه، ولم يُنِبْ إليه، ولم يُذِبْه بحُبِّه والبكاءِ مِن خَشيتِه؛ فلْيَتمتَّعْ قليلًا؛ فإنَّ أمامَه المُلِيِّنَ الأعظَمَ، وسيُرَدُّ إلى عالِمِ الغَيبِ والشَّهادةِ، فيَرى ويَعلَمُ[٣]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ مِن أسبابِ لِينِ القَلبِ قراءةَ القُرآنِ الكريمِ؛ فإنَّه يُلَيِّنُ القَلبَ إذا قَرَأَه الإنسانُ بتدَبُّرٍ وتَمعُّنٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ١٩).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحَضُّ على تَدَبُّرِ القرآنِ وفِقْهِه وعَقْلِه، والتَّذَكُّرِ به والتَّفَكُّرِ فيه[١]. قال الحسَنُ: (يا ابْنَ آدَمَ، إذا وَسْوَسَ لك الشَّيطانُ بخطيئةٍ أو حدَّثتَ بها نفْسَك، فاذكُرْ عندَ ذلك ما حمَّلك اللهُ مِن كتابِه ممَّا لو حملَتْه الجبالُ الرَّواسي لَخَشعَتْ وتصَدَّعتْ، أمَا سمِعتَه يقولُ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فإنَّما ضرَب لك الأمثالَ لِتَتفكَّرَ فيها، وتَعتبِرَ بها، وتَزدَجِرَ عن معاصي الله عزَّ وجلَّ، وأنت يا ابْنَ آدَمَ أحقُّ أن تَخشَعَ لِذِكْرِ الله، وما حمَّلك مِن كتابِه، وآتاك مِن حِكمةٍ؛ لأنَّ عليك الحسابَ، ولك الجنَّةَ أو النَّارَ)[٢].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أخبَرَ تعالى أنَّه يَضرِبُ للنَّاسِ الأمثالَ، ويُوضِّحُ لعبادِه في كتابِه الحلالَ والحرامَ؛ مِن أجْلِ أن يتفكَّروا في آياتِه ويَتدَبَّروها؛ فإنَّ التَّفَكُّرَ فيها يَفتَحُ للعَبدِ خزائنَ العِلمِ، ويُبَيِّنُ له طرُقَ الخَيرِ والشَّرِّ، ويَحُثُّه على مَكارِمِ الأخلاقِ، ومحاسِنِ الشِّيَمِ، ويَزجُرُه عن مَساوي الأخلاقِ؛ فلا أنفَعَ للعَبدِ مِن التَّفَكُّرِ في القُرآنِ، والتَّدَبُّرِ لِمَعانيه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ فيه سؤالٌ: (الغَدُ): اليَومُ الَّذي يَعقُبُ لَيلتَك، فكيف أُطلِقَ على يومِ القيامةِ؟

أجابوا عن ذلك مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: لَمَّا كان أمرُ القيامةِ كائِنًا لا مَحالةَ، عَبَّرَ عنه بالغَدِ، وهو اليومُ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

الَّذي يَلِي يَومَك، على سَبيلِ التَّقريبِ.

الوَجهُ الثَّاني: عبَّرَ عن الآخِرةِ بالغَدِ، كأنَّ الدُّنيا والآخِرةَ نهارانِ: يومٌ، وغَدٌ[١].

الوَجهُ الثَّالِثُ: يحتَمِلُ أن يريدَ بقَولِه ﴿لِغَدٍ﴾: ليَومِ الموتِ؛ لأنَّه لكُلِّ إنسانٍ كغَدِه[٢].

الوَجهُ الرَّابعُ: الغَدُ له معنيانِ: اليومُ الَّذي يَعقُبُ ليلتَك، ومُطلَقُ الزَّمانِ المُستَقبَلُ[٣]، فاللُّغةُ العربيَّةُ واسِعةٌ، تقولُ: غدًا لليَومِ الَّذي يَلي يومَك، وتقولُ غدًا لليَومِ الَّذي بعدَ يَومِك بآلافِ السِّنينَ، فقولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ يعني بـ «غَدٍ» يومَ القيامةِ، وبَيْنَك وبيْنَه مَسافاتٌ اللهُ أعلمُ بها، كذلك الأمسُ؛ فإنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ واسعةٌ، قد يُرادُ بالأمسِ ما قَبْلَ يومِك المباشرِ، وقد يُرادُ به ما قبْلَ يومِك بزَمَنٍ بعيدٍ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ حُجَّةٌ واضحةٌ لِمَن أراد المُبالَغةَ في وَصْفِ شيءٍ أنْ يُبالِغَ فيه، ولا يكونُ كاذِبًا ولا آثمًا؛ لأنَّ اللهَ جلَّ جلالُه سمَّى الآخرةَ بـ «غَدٍ» كما ترى، وبَيْنَ نزولِ الآيةِ وبيْنَها دهرٌ طويلٌ[٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ أنَّ الاعترافَ بالخالقِ عِلمٌ ضَروريٌّ لازِمٌ للإنسانِ، لا يَغفُلُ عنه أحدٌ بحيثُ لا يَعرِفُه، بل لا بُدَّ أنْ يكونَ قد عَرَفَه وإنْ قُدِّرَ أنَّه نَسِيَه؛ ولهذا يُسمَّى التَّعريفُ بذلك تذكيرًا؛ فإنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٩).

(٤) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٢).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦١).

تذكيرٌ بعُلومٍ فِطريَّةٍ ضَروريَّةٍ قد يَنساها العَبدُ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ الجزاءُ بالمعاصي على المعاصي، وكقَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥][٢]. فقولُه: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ هذا مِن المُجازاةِ على الذَّنْبِ بالذَّنبِ؛ عُوقِبوا على نِسيانِ جِهةِ اللهِ تعالى، بأن أنساهم أنفُسَهم[٣]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أنَّ مَن عَرَفَ اللهَ عَرَفَ ما سِواه، ومَن جَهِلَ ربَّه فهو لِمَا سِواهُ أجهَلُ؛ فتأمَّلْ هذه الآيةَ تَجِدْ تَحتَها معنًى شَريفًا عَظيمًا، وهو أنَّ مَن نَسِيَ ربَّه أنساه ذاتَه ونفْسَه، فلم يَعرِفْ حقيقتَه ولا مَصالِحَه، بل نَسِيَ ما به صلاحُه وفَلاحُه في مَعاشِه ومَعادِه؛ فصار مُعَطَّلًا مُهمَلًا بمَنزِلةِ الأنعامِ السَّائمةِ، بل رُبَّما كانتِ الأنعامُ أَخْبَرَ بمَصالِحِها منه؛ لبَقائِها على هُداها التَّامِّ الَّذي أعطاها إيَّاه خالقُها، وأمَّا هذا فخَرَجَ عن فِطرتِه الَّتي خُلِقَ عليها، فنَسِيَ ربَّه، فأنساه نفْسَه وصِفاتِها وما تَكمُلُ به، وتَزكو به، وتَسْعَدُ به في مَعاشِها ومَعادِها[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أنَّ مَن أضاعَ اللهَ -أي: أضاع دِينَ اللهِ-، فإنَّ اللهَ يُضَيِّعُه ولا يَحفَظُه[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أنَّ مِن عُقوبةِ المعصيةِ أنَّها تُنسي العبدَ نفْسَه، وإذا نَسِيَ نفْسَه

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٢٠٤).

أهمَلَها وأفسَدَها وأهلَكَها[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أنَّ دوامَ ذِكرِ الرَّبِّ تبارك وتعالى يُوجِبُ الأمانَ مِن نِسيانِه الَّذي هو سَبَبُ شَقاءِ العَبدِ في مَعاشِه ومَعادِه[٢].

٩- قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ يَقتضي نَفْيَ مُطلَقِ المُساواةِ بيْنَ المُسلمِ والكافرِ، لا نفْيَ المُساواةِ المُطلَقةِ؛ فإنَّها مُنتَفيةٌ عن كلِّ شيئينِ وإنْ تماثَلَا، وبهذه الآيةِ احتجَّ مَن نفى القِصاصَ بيْنَ أهلِ الذِّمَّةِ وبيْنَ المسلِمينَ[٣]، ومَن قال: إنَّ المسلِمَ لا يُقتَلُ بالذِّمِّيِّ[٤].

١٠- نفْيُ التَّساوي في كتابِ الله تعالى قد يأتي بيْنَ الفِعلَينِ، كقولِه تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]، وقد يأتي بيْنَ الفاعِلَينِ، نحو: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٥]، وقد يأتي بيْن الجَزاءَينِ، كقولِه: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾، وقد جمَع اللهُ بيْن الثَّلاثةِ في موضعٍ واحدٍ، وهو قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢]؛ فالأعمى والبصيرُ: الجاهلُ والعالِمُ، والظُّلماتُ والنُّورُ: الكفرُ والإيمانُ، والظِّلُّ والحَرورُ: الجنَّةُ والنَّارُ، والأحياءُ والأمواتُ: المؤمنونَ

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٥٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٢).

وهو مذهبُ الشَّافعيَّةِ والحنابلةِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٧/ ١٣٦) و(٣١/ ٣٤٢).

والكفَّارُ[(١)].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يكونُ هذا تأثيرَ القُرآنِ لو أُنزِلَ على الجِبالِ، ولم تتأثَّرْ به القُلوبُ؟

الجوابُ: أجاب القُرآنُ عن ذلك في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وكذلك أَصَمُّوا آذانَهم عن سَماعِه، وغَلَّفوا قُلوبَهم بالكُفرِ عن فَهْمِه، وأَوْصَدوها بأقْفالِها، فقالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨]، وكذلك قَولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧]، أي: بسَبَبِ الإعراضِ، وعَدَمِ التَّدَبُّرِ، والنِّسيانِ[(٢)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ للجَبَلِ إحساسًا؛ لأنَّه يَخشَعُ ويَتصَدَّعُ، والأمرُ كذلك؛ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أُحُدٍ: ((هذا أُحُدٌ، جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه))[(٣)].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ضَربُ الأمثالِ في القرآنِ يُستفادُ منه أمورٌ: التَّذكيرُ والوَعظُ، والحَثُّ والزَّجرُ، والاعتبارُ والتَّقريرُ، وتقريبُ المرادِ للعَقلِ، وتَصويرُه في صورةِ المحسوسِ، بحيثُ يكونُ نِسبَتُه للعَقلِ كنِسبةِ المحسوسِ إلى الحِسِّ. وقد تأتي أمثالُ القُرآنِ مُشتَمِلةً على

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٨، ٩).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٧٣).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٤٤٢٢)، ومسلمٌ (١٣٩٢) مِن حديثِ أبي حُمَيدٍ السَّاعديِّ رضيَ الله عنه.

بيانِ تَفاوُتِ الأجرِ على المَدحِ والذَّمِّ، وعلى الثَّوابِ والعِقابِ، وعلى تفخيمِ الأمرِ أو تحقيرِه، وعلى تحقيقِ أمرٍ وإبطالِ أمرٍ. واللهُ أعلَمُ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ تَنكيرُ النَّفْسِ لاستِقلالِ -أي: لتَقليلِ- الأنفُسِ النَّواظِرِ فيما قدَّمْن للآخِرةِ، وتَنكيرُ (الغَدِ)؛ لتَعظيمِه وإبهامِ أمْرِه، كأنَّه قِيل: لغَدٍ لا يُعرَفُ كُنْهُه لِعِظَمِه، وأصلُ الكلامِ: يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ وانْظُروا ما تُقدِّموا لأنفُسِكم ليَومِ القِيامةِ؛ فوُضِعَ مَوضِعَ الضَّميرِ ﴿نَفۡسٞ﴾ مَنكورةً؛ تقليلًا لها، وتَقريعًا على قِلَّةِ نَظَرِها في العاقِبةِ، وأُقِيمَ مُقامَ يومِ القيامةِ (غَد) مَنْكورًا؛ تَهويلًا، كأنَّه قِيل: فلْتَنظُرْ نفْسٌ واحدةٌ لذلك اليَومِ الهَولِ(٢).

وقيل: ذِكرُ كَلمةِ ﴿نَفۡسٞ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ مُقْتضى الظَّاهرِ: وانْظُروا ما قدَّمْتُم؛ فعُدِلَ عن الإظهارِ لقَصْدِ العمومِ، أي: لِتَنْظُروا وتَنظُرْ كلُّ نفْسٍ. وتَنكيرُ ﴿نَفۡسٞ﴾ يُفيدُ العُمومَ في سِياقِ الأمرِ، أي: لِتَنظُرْ كلُّ نفْسٍ، وإنَّما لم يُعرَّفْ بلامِ التَّعريفِ تَنصيصًا على العُمومِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ نفْسٌ مَعهودةٌ(٣).

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع حاشية ابن المنير)) (١/ ٣٩٦)، (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٣٩، ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٠، ١١١).

- و(التَّقديمُ) مُعبَّرٌ به هنا عن العمَلِ الَّذي يُعمَلُ لتَحصيلِ فائدتِه في زمَنٍ آتٍ؛ شُبِّهَ قصْدُ الانتِفاعِ به في المُستقبَلِ بتَقديمِ مَن يَحُلُّ في المَنزِلِ قبْلَ وُرودِ السَّائرينَ إليه مِن جَيشٍ أو سَفَرٍ ليُهيِّئَ لهم ما يُصلِحُ أمْرَهم، ومنه مُقدِّمةُ الجَيشِ، وتَقديمُ الرَّائدِ قبْلَ القافلةِ[1].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ إعادةُ وتَكرُّرُ الأمرِ بالتَّقْوى في قولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ ليُبْنى عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، فيَحصُلَ الرَّبطُ بيْن التَّعليلِ والمُعلَّلِ؛ إذ وقَعَ بيْنَهما فصْلٌ بـ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾، وإنَّما أُعِيدَ بطَريقِ العطْفِ لزِيادةِ التَّأكيدِ؛ وذلك أنَّ في العطفِ إيهامَ أنْ يكونَ التَّوكيدُ يُجعَلُ كالتَّأسيسِ؛ لزِيادةِ الاهتمامِ بالمُؤكَّدِ. أو كُرِّرَ الأمرُ بالتَّقْوى لاختلافِ مُتعلَّقِ التَّقْوى؛ فالأُولى في أداءِ الفرائضِ؛ لأنَّه مُقترِنٌ بالعمَلِ، والثَّانيةُ في ترْكِ المعاصي؛ لأنَّه مُقترِنٌ بالتَّهديدِ والوعيدِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ المذكورُ أوَّلًا مُرادًا به التَّقوى بمعْنى الخَوفِ مِن اللهِ، وهي الباعثةُ على العملِ؛ ولذلك أُردِفَ بقولِه: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾، ويكونَ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ المذكورُ ثانيًا مُرادًا به الدَّوامُ على التَّقوى الأُولى، أي: ودُوموا على التَّقوى؛ ولذلك أُردِفَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، أي: بمِقدارِ اجتِهادِكم في التَّقوى، وأُردِفَ بقولِه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الحشر: ١٩]، أي: أهْمَلوا التَّقْوى بعْدَ أنْ تَقلَّدُوها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٢).

وقيل: التَّقْوى الأُولى لإيجادِ صُوَرِ الأعمالِ، والثَّانيةُ لتَصفيتِها وتزكيةِ أرواحِها؛ ولذلك عَلَّل بقَولِه مُرَغِّبًا مُرَهِّبًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[١].

وقيل: الأمرُ بتقوى اللهِ أوَّلًا بالنِّسبةِ لِما مضى وسبَقَ مِن عَمَلٍ تقَدَّمَ بالفِعْلِ، ويكونُ النَّظَرُ بمعنى المحاسَبةِ والتَّأَمُّلِ، فإذا ما نَظَر في الماضي وحاسَبَ نَفْسَه، وعَلِمَ ما كان مِن تقصيرٍ أو وُقوعٍ في محظورٍ، جاءه الأمرُ الثَّاني بتقوى اللهِ لِما يَستَقبِلُ مِن عَمَلٍ جديدٍ، ومُراقَبةِ اللهِ تعالى عليه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، فلا يكونُ هناك تَكرارٌ، ولا يكونُ تَوزيعٌ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تَعليلٌ للحثِّ على تَقْوى اللهِ، ومَوقعُ (إنَّ) فيها مَوقعُ التَّعليلِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ إظهارُ اسمِ الجَلالةِ في مَقامِ الإضمارِ، فتَكونُ الجُملةُ مُستقِلَّةً بدَلالتِها أتمَّ استقلالٍ، فتَجْري مَجْرى الأمثالِ، ولتَربيةِ المَهابةِ في نفْسِ المُخاطَبينَ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ جِيءَ في النَّهي بنَهْيِهم عن حالةِ قَومٍ تَحقَّقت فيهم هذه الصِّلةُ؛ ليَكونَ النَّهيُ عن إضاعةِ التَّقوى مُصَوَّرًا في صُورةٍ مَحسوسةٍ هي صُورةُ قَومٍ تَحقَّقت فيهم تلك الصِّلةُ، وهم الَّذين أعْرَضوا عن التَّقوى[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٢، ١١٣).

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ قيل: ظاهرُ الموصولِ أنَّه لطائفةٍ مَعهودةٍ، فيحتملُ أنْ يُرادَ بـ(الَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ) المنافِقون؛ لأنَّهم كانوا مُشرِكين ولم يَهتَدُوا للتَّوحيدِ بهُدى الإسلامِ، فعُبِّرَ عن النِّفاقِ بنِسيانِ اللهِ؛ لأنَّه جهْلٌ بصِفاتِ اللهِ مِن التَّوحيدِ والكمالِ، وعبَّرَ عنهم بالفاسِقِينَ قولُه تَعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]؛ فتَكونَ هذه الآيةُ ناظِرةً إلى تلك. ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بهم اليهودَ؛ لأنَّهم أضاعوا دِينَهم، ولم يَقبَلوا رِسالةَ عِيسى عليه السَّلامُ، وكَفَروا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فالمعْنى: نَسُوا دِينَ اللهِ ومِيثاقَه الَّذي واثَقَهم به، وقد أُطلِقَ نِسيانُهم على التَّرْكِ والإعراضِ عن عمْدٍ، أي: فنَسُوا دَلائلَ تَوحيدِ اللهِ، ودَلائلَ صِفاتِه، ودَلائلَ صِدقِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وفَهْمِ كِتابِه، فالكلامُ بتَقديرِ حذْفِ مُضافٍ أو مُضافَينِ(١).

- وإظهارُ اسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾، دونَ أنْ يُقالَ: نَسُوه؛ لاستِفظاعِ هذا النِّسيانِ، فعُلِّقَ باسمِ اللهِ الَّذي خَلَقَهم وأرْشَدَهم(٢).

- وأشعَرَ فاءُ التَّسبُّبِ في ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأنَّ إنساءَ اللهِ إيَّاهم أنفُسَهم مُسبَّبٌ على نِسيانِهم اللهَ(٣).

- وجُملةُ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا لبَيانِ الإبهامِ الَّذي أفادَهُ قولُه: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، كأنَّ السَّامعَ سأَلَ: ماذا كان إثرَ إنْساءِ اللهِ إيَّاهم أنفُسَهم؟ فأُجِيبَ بأنَّهم بَلَغوا بسَببِ ذلك مُنْتهى الفِسقِ في الأعمالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٣).

السَّيِّئةِ حتَّى حقَّ عليهم أنْ يُقالَ: إنَّه لا فِسقَ بعْدَ فِسقِهم[١].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن ضَميرِ الفصْلِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٢]؛ للمُبالَغةِ في وصْفِهم بشِدَّةِ الفِسقِ، حتَّى كأنَّ فِسقَ غَيرِهم ليس بفِسقٍ في جانبِ فِسقِهم[٣].

- وأيضًا يُستفادُ عِظَمُ الفِسقِ مِن تَعريفِ الخَبرِ بلامِ الجِنسِ، أي: همُ الكامِلون في الفِسقِ[٤].

- واسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للتَّشهيرِ بهم بهذا الوصْفِ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ تَذْييلٌ لجُملةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ...﴾ [الحشر: ١٨] إلخ؛ لأنَّه جامعٌ لخُلاصةِ عاقِبةِ الحالَين: حالِ التَّقْوى والاستِعدادِ للآخِرةِ، وحالِ نِسيانِ ذلك وإهمالِه، ولِكلَا الفَريقينِ عاقِبةُ عَمَلِه، ويَشمَلُ الفَريقينِ وأمثالَهم، والجُملةُ أيضًا فَذْلَكةٌ[٦] لِما قبْلَها مِن حالِ المُتَّقينَ والَّذين نَسُوا اللهَ ونَسُوا أنفُسَهم؛ لأنَّ ذِكرَ مِثلِ هذا الكلامِ بعْدَ ذِكرِ أحوالِ المُتحدَّثِ عنه يكونُ في الغالبِ للتَّعريضِ؛ فمعْنى الآيةِ كِنايةٌ عن كَونِ المؤمنينَ همْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).

(٦) تقدَّم تعريفُها (ص: ١٦١).

أصحابَ الجنَّةِ، وكَونِ الَّذين نَسُوا اللهَ همْ أهلَ النارِ، فتَضمَّنَت الآيةُ وعْدًا للمُتَّقينَ، ووَعيدًا للفاسِقين[١].

- وتَقديمُ أصحابِ النَّارِ في الذِّكرِ؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّ المقصورَ الَّذي يُنبِئُ عنه عدَمُ الاستِواءِ مِن جِهتِهِم لا مِن جِهةِ مُقابلِيهِم؛ فإنَّ مَفهومَ عدَمِ الاستواءِ بيْن الشَّيئينِ المُتفاوِتَينِ زِيادةً ونُقصانًا، وإنْ جازَ اعتِبارُه بحسَبِ زِيادةِ الزَّائدِ، لكنِ المُتبادِرُ اعتبارُه بحسَبِ نُقصانِ النَّاقصِ[٢]، وبيانُ ذلك أنَّ الفَرْقَ بيْن المتفاوتَينَ في الزِّيادةِ والنَّقصِ يمكنُ اعتبارُ التَّفاوُتِ بالنِّسبةِ إلى النَّقصِ في النَّاقصِ، ويمكن اعتبارُه بالنِّسبةِ إلى الزِّيادة في الزَّائدِ؛ فقدَّمَ الجانبَ النَّاقصَ ليُبيِّنَ أنَّ التَّفاوُتَ الَّذي حصَل بيْنَهما إنَّما هو بسَببِ النَّقصِ الَّذي جاء منهما، لا بسببِ الزِّيادةِ في الفريقِ الثَّاني، والنَّتيجةُ في ذلك عدمُ إمكانِ جانبِ النَّقصِ الاحتِجاجَ على جانبِ الزِّيادةِ. وفيه زيادةُ تأنيبٍ لجانبِ النَّقصِ[٣].

- وقيل: إنَّ الملوكَ إذا أرادُوا الجمْعَ بيْنَ الأشياءِ بالذِّكرِ قدَّموا الأدْنَى، والتَّقديمُ في الذِّكْرِ لا يَقتضي تشريفًا[٤].

- والمُرادُ مِن نفْيِ الاستِواءِ في مِثلِ هذا الكنايةُ عن البَونِ بيْن الشَّيئينِ[٥].

- قولُه: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ استِئنافٌ مُبَيِّنٌ لكَيفيَّةِ عدَمِ الاستِواءِ بيْنَ الفَريقَينِ، أي: هُمُ الفائزونَ بكلِّ مَطلوبٍ، النَّاجون مِن كلِّ مَكروهٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٣).

- والقصرُ المُستفادُ مِن ضَميرِ الفصْلِ في قولِه تَعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ قصْرٌ ادِّعائيٌّ[(١)]؛ لأنَّ فَوزَهم أبَديٌّ، فاعتُبِرَ فَوزُ غَيرِهم ببَعضِ أُمورِ الدُّنيا كالعدَمِ[(٢)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ انتقَلَ الكلامُ إلى التَّنويهِ بالقرآنِ وهَدْيِه البيِّنِ، وفي هذا الانتِقالِ إيذانٌ بانتهاءِ السُّورةِ؛ لأنَّه انتِقالٌ بعْدَ طُولِ الكلامِ في غرَضِ فتْحِ قُرى اليهودِ وما يَنالُ المنافِقين مِن جَرَّائِه مِن خُسرانٍ في الدُّنيا والآخرةِ[(٣)].

- فائدةُ الإتيانِ باسمِ إشارةِ القريبِ (هذا) في قولِه تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ...﴾ التَّعريضُ لهم بأنَّ القُرآنَ غيرُ بَعيدٍ عنْهم، وأنَّه في مُتناوَلِهم، ولا كُلْفةَ عليهم في تَدبُّرِه، ولكنَّهم قَصَدوا الإعراضَ عنه[(٤)].

- والخِطابُ في ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ لغَيرِ مُعيَّنٍ؛ فيَعُمُّ كلَّ مَن يَسمَعُ هذا الكلامَ، والرُّؤيةُ بَصريَّةٌ، وهي مَنْفيَّةٌ لوُقوعِها جَوابًا لحرْفِ (لو) الامتناعيَّةِ، والمعْنى: لو كان كذلك لَرَأيتَ الجَبَلَ في حالةِ الخُشوعِ والتَّصدُّعِ[(٥)].

- وجُملةُ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّ ما قبْلَها سِيقَ مَساقَ المَثَلِ، فذُيِّلَ بأنَّ الأمثالَ الَّتي يَضرِبُها اللهُ في كَلامِه -مِثلَ هذا المثَلِ- أراد

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٥، ١١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٧).

منها أنْ يَتفكَّروا، فإنْ لم يَتفكَّروا بها فقد سُجِّلَ عليهم عِنادُهم ومُكابرتُهم؛ فالإشارةُ بـ (تِلْكَ) إلى مَجموعِ ما مرَّ على أسْماعِهم مِن الأمثالِ الكثيرةِ، وتَقديرُ الكلامِ: ضَرَبْنا هذا مَثَلًا، وتلك الأمثالُ نَضرِبُها للنَّاسِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٧).

الآيات (٢٢-٢٤)

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: أي: الطَّاهرُ مِن كلِّ عيبٍ، المُنَزَّهُ عن كُلِّ نَقصٍ، مِن «القُدْس» وهو: الطَّهارةُ، وأصلُ (قدس): يدُلُّ على الطُّهرِ[(١)].

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾: أي: الَّذي سَلِمَ مِن كلِّ عَيبٍ، وبَرِئَ مِن كلِّ آفةٍ ونَقْصٍ يَلْحَقُ المَخْلوقينَ، وأصلُ (سلم): الصِّحَّةُ والعافِيةُ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((تفسير الرسعني)) (٢/ ٣٢٠).

قال ابن القيِّم: (أمَّا السَّلامُ الَّذي هو اسمٌ مِن أسماءِ الله، ففيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه... اسمُ مصدرٍ، وإطلاقُه عليه كإطلاقِ العدلِ عليه، والمعنى أنَّه ذو السَّلام وذو العدلِ، على حذفِ المُضافِ. والثَّاني: أنَّ المصدرَ بمعنى الفاعِلِ هنا، أي: السَّالم، كما سُمِّيَتْ لَيلةُ القَدْرِ سَلامًا، أي: سالِمةً مِن كلِّ شرٍّ، بل هي خَيرٌ لا شرَّ فيها. وأحسَنُ مِن القَولَينِ وأَقْيَسُ في العربيَّةِ أن يكونَ نفْسُ السَّلامِ مِن أسمائِه تعالى، كالعدلِ، وهو مِن بابِ إطلاقِ المصدرِ على الفاعِلِ لِكَونِه غالبًا عليه، مُكرَّرًا منه، كقولِهم: رجُلٌ صَومٌ وعدلٌ وزَورٌ، وبابه، وأمَّا السَّلامُ الَّذي هو بمعنى السَّلامةِ فهو مصدرٌ نفْسُه، وهو مِثلُ الجَلالِ والجَلالةِ، فإذا حذَفْتَ التَّاءَ كان المرادُ نفْسَ المصدرِ، وإذا أَتَيْتَ بالتَّاءِ كان فيه إيذانٌ بالتَّحديدِ بالمرَّةِ مِن المَصدرِ، كالحبِّ والحبَّةِ، فالسَّلامُ والجَمالُ والجَلالُ كالجِنسِ العامِّ مِن حيثُ لم يكُنْ فيه تاءُ التَّحديدِ، والسَّلامةُ والجَلالةُ والمَلاحةُ والفَصاحةُ =

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾: أي: الَّذي يُؤمِنُ عِبادَه المؤمنينَ مِن بأسِه وعَذابِه، فيَأْمَنون، أو الَّذي آمَنَ الخَلْقَ مِن ظُلمِه، مِن الأمانِ، أو المُصَدِّقُ لِرُسُلِه وأنبيائِه بما جاؤوا به، بالآياتِ والبَراهينِ والحُجَجِ، أو هو الَّذي يَصدُقُ ما وَعَدَ عِبادَه مِنَ الثَّوابِ، أو الَّذي يُصدقُ ظُنونَ عِبادِه المؤمنينَ، ولا يُخَيِّبُ آمالَهم، على أنَّ المؤمنَ: المُصَدِّقُ، مِن الإيمانِ، وهو التَّصديقُ(١).

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: أي: القائمُ على خَلقِه بأعمالِهم وأرزاقِهم وآجالِهم، باطِّلاعِه واستيلائه وحِفظِه، وكلُّ مُشرِفٍ على كُنهِ الأمرِ مُستَوْلٍ عليه حافِظٍ له فهو مُهَيمِنٌ عليه، وأصلُ الهيمَنةِ: الحِفظُ والارتِقابُ، يُقالُ إذا رقَبَ الرَّجُلُ الشَّيءَ وحَفِظَه وشَهِدَه: قد هَيمَنَ فُلانٌ عليه. وقيل: المُهَيمِنُ: الشَّاهِدُ على خَلْقِه بما يكونُ منهم

= كلُّها تدُلُّ على الخَصلةِ الواحدةِ، ألَا ترى أنَّ المَلاحةَ خَصلةٌ مِن خِصالِ الكمالِ، والجَلالةَ مِن خِصالِ الجَلالِ؛ ولهذا لم يَقولوا: كمالة، كما قالوا: ملاحة، وفصاحة؛ لأنَّ الكمالَ اسمٌ جامعٌ لِصِفاتِ الشَّرفِ والفضلِ، فلو قالوا: كمالة، لَنَقَضوا الغرضَ المقصودَ مِن اسمِ الكمالِ، فتأمَّلْه... فتأمَّلِ الآنَ كيف جاء السَّلامُ مجرَّدًا عن التَّاءِ؛ إيذانًا بحُصولِ المسمَّى التَّامِّ؛ إذ لا يَحصُلُ المقصودُ إلَّا به؛ فإنَّه لو سَلِم مِن آفةٍ ووقَع في آفةٍ لم يكُنْ قد حصَل له السَّلامُ، فوضَح أنَّ السَّلامَ لم يخرُجْ عن المَصدريَّةِ في جميعِ وُجوهِه). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ١٣٨).

وقال أيضًا: (لَمَّا كان السَّلامُ اسمًا مِن أسماءِ الرَّبِّ تبارك وتعالى، وهو اسمُ مصدرٍ في الأصلِ -كالكلامِ والعَطاءِ- بمعنَى السَّلامةِ؛ كان الرَّبُّ تعالى أحقَّ به مِن كلِّ ما سِواه؛ لأنَّه السَّالمُ مِن كلِّ آفةٍ وعَيبٍ ونقْصٍ وذمٍّ؛ فإنَّ له الكمالَ المُطلَقَ مِن جميعِ الوُجوهِ، وكمالُه مِن لَوازِمِ ذاتِه، فلا يكونُ إلَّا كذلك، والسَّلامُ يَتضمَّنُ سلامةَ أفعالِه مِن العبَثِ والظُّلْمِ وخِلافِ الحِكمةِ، وسلامةَ صِفاتِه مِن مُشابَهةِ صِفاتِ المخلوقينَ، وسلامةَ ذاتِه مِن كلِّ نقصٍ وعَيبٍ، وسلامةَ أسمائِه مِن كلِّ ذَمٍّ؛ فاسمُ السَّلامِ يَتضمَّنُ إثباتَ جميعِ الكمالاتِ له، وسَلْبَ جميعِ النَّقائصِ عنه). ((أحكام أهل الذمة)) (١/ ٤١٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٢٢١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

مِن قولٍ أو فعلٍ. وقيلَ: المُهَيمِنُ: الأمينُ[(١)].

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: الَّذي اتَّصَف بالعِزَّة التَّامَّة: عِزَّةِ القَدْرِ -فهو عظيمُ القَدرِ، لا يَبلُغُ أحدٌ قَدْرَه، فلا مِثلَ له، ولا نَظيرَ-، وعِزَّةِ القَهْرِ -فهو قاهرٌ غالبٌ لا يَغلِبُه شَيءٌ-، وعِزَّةِ الامتِناعِ، فهو مُمْتَنِعٌ عليه النَّقصُ بأيِّ وجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ وما ضاهاهما مِن غَلَبةٍ وقَهْرٍ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٦) و (٢٢/ ٥٥٢)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٩٥)، ((المقصد الأسنى)) للغزالي (ص: ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

(٢) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٢٣٩)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٦).

قال الخَطَّابي: (والعزُّ في كلامِ العَرَبِ على ثلاثةِ أوْجُهٍ:

أحَدُها: بمعنَى الغَلَبةِ، ومنه قولُهم: مَنْ عزَّ بزَّ، أي: مَنْ غَلَب سَلَبَ...

والثَّاني: بمعنَى الشِّدَّةِ والقوَّةِ...

والوجهُ الثَّالثُ: أنْ يكونَ بمعنَى نَفاسةِ القَدرِ... فيتأوَّلُ معنى العزيزِ على هذا؛ أنَّه الَّذي لا يُعادِلُه شَيءٌ، وأنَّه لا مِثلَ له ولا نَظيرَ). ((شأن الدعاء)) (١/ ٤٧).

وقال الزَّجَّاجي: (العزيزُ في كلامِ العربِ على أربعةِ أوجُهٍ:

العزيزُ: الغالبُ القاهرُ، والعِزَّةُ: الغَلَبةُ، والمُعازَّةُ: المُغالَبةُ، ومنه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، أي: غلَبَني في مُحاوَرةِ الكلامِ...

والعزيزُ: الجليلُ الشَّريفُ، ومنه قولُهم: إذا عَزَّ أخوك فهُنْ، وقولُهم: فُلانٌ يَعتَزُّ بفُلانٍ، أي: يَتجالَلُ به ويَتشرَّفُ ويَتكبَّرُ. وكذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، أي: لَيُخرِجَنَّ الجليلُ الشَّريفُ منها الذَّليلَ...

والوجهُ الثَّالثُ: أن يكونَ العزيزُ بمعنى القويِّ...

والوجهُ الرَّابعُ: أن يكونَ العزيزُ بمعنى الشَّيءِ القليلِ الوُجودِ، المُنقطِعِ النَّظيرِ، يُقالُ: عزَّ الشَّيءُ =

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: الجَبَّارُ بمعنى العَليِّ الأعلى، مِن قَولِهم: تَجَبَّرَ النَّباتُ: إذا عَلا، ويُقالُ للنَّخلةِ إذا طالتْ وارتفعتْ وفاتَتِ الأيديَ: جَبَّارةٌ. وبمعنَى القَهَّارِ، الَّذي جَبَر الخَلْقَ على ما أراد، ودانَ له كلُّ شَيءٍ وخضَعَ، يُقالُ: أجبَرْتُه على كذا وجبَرْتُه؛ إذا أكرَهْتَه وقهَرْتَه عليه. وبمعنى الرَّؤوفِ، الَّذي يَجبُرُ الضَّعيفَ بالغِنى والقوَّةِ، ويجبُرُ الكَسيرَ بالسَّلامةِ، ويجبُرُ المُنكَسِرةَ قُلوبُهم، يُقالُ: جَبَرتُ عَظْمَه مِن كَسرٍ، وهذا مِن الإصلاحِ، وقيل: أصلُ الجَبْرِ: إصلاحُ الشَّيءِ بضَربٍ مِن القَهرِ. والجبَّارُ: ذو الكبرياءِ والعَظَمةِ، يُقالُ: قَومٌ فيهم جَبريَّةٌ، أي: عَظَمةٌ وكِبرٌ، والجبَّارُ: الملِكُ، يُسمَّى بذلك؛ لِتَجَبُّرِه، وأصلُ (جبر): جِنْسٌ مِن العَظَمةِ والعُلوِّ والاستِقامةِ[1].

= عِزَّةً فهو عزيزٌ؛ غيرُ موجودٍ.

فهذه أربعةُ أوجُهٍ في العزيزِ، يجوزُ وصْفُ الله عزَّ وجلَّ بها؛ يُقالُ: «اللهُ العزيزُ» بمعنى الغالِبِ القاهِرِ، و«اللهُ العزيزُ» أي: هو الجليلُ العظيمُ، و«اللهُ العزيزُ» بمعنى القويِّ... و«اللهُ العزيزُ» أي: هو غيرُ مَوجودِ النَّظيرِ والمِثلِ جلَّ وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا). ((اشتقاق أسماء الله)) (ص: ٢٣٧).

وقال ابن القيِّم: (والعِزَّةُ يُرادُ بها ثلاثةُ مَعانٍ: عزَّةُ القوَّةِ، وعزَّةُ الامتِناعِ، وعزَّةُ القهرِ، والرَّبُّ تبارك وتعالى له العزَّةُ التَّامَّةُ بالاعتِباراتِ الثَّلاثِ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٩)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٢٤٠)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨١)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للسعدي (ص: ١٧٦)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٥٩) و(٦/ ١٧٥).

قال ابن القيِّم: (الجبَّارُ في صفةِ الرَّبِّ سُبحانَه تَرجِعُ إلى ثلاثةِ مَعانٍ: المُلْكُ، والقهرُ، والعُلُوُّ). ((شفاء العليل)) (ص: ١٢٠).

وقال السعدي بعدَ أنْ ذكَرَ أنَّ الجبَّارَ بمعنى العَليِّ الأعلى، وبمعنى القهَّارِ، وبمعنى الرَّؤوفِ: (وقد يُرادُ به معنًى رابعٌ، وهو المُتكَبِّرُ عن كلِّ سوءٍ ونَقصٍ، وعن مُماثَلةِ أحَدٍ، وعن أن يكونَ =

﴿ٱلْبَارِئُ﴾: أي: الخالِقُ المُنشِئُ مِنَ العَدَمِ، وأصلُ (برأ) هنا: يدُلُّ على الخَلقِ[١].

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾: المُوجِدُ لصُورِ الأشياءِ ومُرَكِّبُها على هَيئاتٍ مُختَلِفةٍ، والتَّصويرُ: التَّخطيطُ والتَّشكيلُ، وهو مُرتَّبٌ على الخَلقِ والبَرْأِ وتابِعٌ لهما[٢].

﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الحُسنى: تأنيثُ الأحسَنِ، كالكُبرى تأنيثُ الأكبَرِ، وهو صيغةُ تفضيلٍ، فالحُسنى أي: الَّتي هي أحسَنُ مِن غَيرِها؛ فهي أحسَنُ الأسماءِ لِدَلالتِها على أحسَنِ مُسَمًّى، وأشرَفِ مَدلولٍ. وقيل: هي مَصدرٌ وُصِف به، وحُسنُ أسماءِ الله هي أنَّها صِفةُ مَدحٍ وتعظيمٍ وتحميدٍ[٣].

= له كُفؤٌ أو ضِدٌّ أو سَمِيٌّ أو شَريكٌ في خصائصِه وحقوقِه). ((تفسير أسماء الله الحسنى)) (ص: ١٧٦).

وقال ابن عثيمين: (ومِن أسمائه تعالى «الجَبَّارُ»، وله ثلاثةُ مَعانٍ: جَبرُ القوَّةِ، وجبرُ الرَّحمةِ، وجبرُ العُلوِّ). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٦/ ١٧٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٥)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٤/ ٣٥١).

قال الشنقيطي: (وإنَّما وصَف أسماءَه جلَّ وعلا بلَفظِ المؤنَّثِ المُفرَدِ؛ لأنَّ جمْعَ التَّكسيرِ مُطلَقًا وجمْعَ المؤنَّثِ السَّالِمَ يَجريانِ مَجرَى المؤنَّثةِ الواحدةِ المَجازيَّةِ التَّأنيثِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٧).

وقال الواحدي: (لأنَّها مؤنَّثةٌ، والجماعةُ توصَفُ بصِفةِ المؤنَّثِ الواحدِ، كقولِه: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]، و﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، كأنَّها اسمٌ واحدٌ للجميعِ). ((البسيط)) (١٤/ ٣٦١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مُثنيًا على ذاتِه، ومبيِّنًا بعضَ أسمائِه الحسنَى: هو اللهُ الَّذي لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو سُبحانَه، عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ، هو الرَّحمنُ الرَّحيمُ، هو اللهُ الَّذي لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو سُبحانَه، المَلِكُ الحَقُّ، المتَّصِفُ بالطُّهرِ التَّامِّ، والنَّزاهةِ البالِغةِ، المتَّصِفُ بالسَّلامةِ مِن كُلِّ شَرٍّ وأذًى وسُوءٍ، واهِبُ الأمنِ، الَّذي يصدقُ رُسُلَه بالآياتِ، والمؤمنينَ ما وعَدَهم به مِن الثَّوابِ، والكافِرينَ ما أَوْعَدَهم مِن العِقابِ، الشَّاهِدُ الحافِظُ الرَّقيبُ على خَلْقِه، القائمُ عليهم باطِّلاعِه واستيلائه وحِفظِه، المُتَّصِفُ بالعِزَّةِ التَّامَّةِ: الَّذي قد عَظُمَ قَدْرُه، وامتنَع عليه النَّقصُ بأيِّ وجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وغلَب كلَّ شَيءٍ فلا يُغلَبُ سُبحانَه، العَظيمُ القاهِرُ الَّذي قهَرَ جميعَ العِبادِ، المُصْلِحُ أُمورَ خَلْقِه، والَّذي يُصَرِّفُهم فيما فيه صَلاحُهم، المُتعَظِّمُ على جَميعِ خَلْقِه، تنزَّهَ اللهُ عن كلِّ نَقصٍ وعَيبٍ وسُوءٍ، وعن أن يكونَ له شَريكٌ كما يَزعُمُ المُشرِكونَ!

هو اللهُ المعبودُ بحَقٍّ، المُتفَرِّدُ بتَقديرِ جَميعِ المخلوقاتِ وإنشائِها على غَيرِ مِثالٍ سَبَقَ، الَّذي أحيا وأوجَدَ مِنَ العَدَمِ، والَّذي يُصَوِّرُ كُلَّ مَخلوقٍ في أيِّ صُورةٍ شاءَها سُبحانَه، له وَحْدَه الأسماءُ الحُسنى، يُنَزِّهُه عن النَّقائِصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ والأرضِ، وهو العزيزُ الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَكرَّرَ في هذه السُّورةِ ذِكرُ اسمِ اللهِ وضَمائرِه وصِفاتِه أرْبعينَ مرَّةً، منها

أربعٌ وعِشرون بذِكرِ اسمِ الجلالةِ، وستَّ عَشْرةَ مرَّةً بذِكرِ ضَميرِه الظَّاهرِ، أو صِفاتِه العَلِيَّةِ، وكان ما تَضمَّنَتْه السُّورةُ دَلائلَ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وبَديعِ تَصرُّفِه وحِكمتِه، وكان ممَّا حَوَتْه السُّورةُ الاعتبارُ بعَظيمِ قُدرةِ اللهِ؛ إذ أيَّدَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمينَ ونَصَرَهم على بَني النَّضيرِ ذلك النَّصرَ الخارقَ للعادةِ، وذُكِرَ ما حلَّ بالمنافِقين أنْصارِهم، وأنَّ ذلك لأنَّهم شاقُّوا اللهَ ورسولَه، وقُوبِلَ ذلك بالثَّناءِ على المؤمنينَ باللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذين نَصَروا الدِّينَ، ثمَّ الأمرُ بطاعةِ اللهِ والاستِعدادِ ليَومِ الجزاءِ، والتَّحذيرُ مِن الَّذين أعْرَضوا عن كِتابِ اللهِ ومِن سُوءِ عاقِبتِهم، وخُتِمَ ذلك بالتَّذكيرِ بالقرآنِ الدَّالِّ على الخَيرِ، والمُعرِّفِ بعَظَمةِ اللهِ المُقتضيةِ شِدَّةَ خَشيتِه- عُقِّبَ ذلك بذِكرِ طائفةٍ مِن عَظيمِ صِفاتِ اللهِ ذاتِ الآثارِ العديدةِ في تَصرُّفاتِه المُناسِبةِ لغرَضِ السُّورةِ؛ زِيادةً في تَعريفِ المؤمنينَ بعَظَمتِه المُقتَضيةِ للمَزيدِ مِن خَشيتِه، وبالصِّفاتِ الحُسنى المُوجِبةِ لمَحبَّتِه، وزِيادةً في إرهابِ المُعانِدين المُعرِضين مِن صِفاتِ بَطْشِه وجَبروتِه؛ ولذلك ذُكِرَ في هذه الآياتِ الخواتمِ للسُّورةِ مِن صِفاتِه تَعالى ما هو مُختلِفُ التَّعلُّقِ والآثارِ للفريقَينِ حَظُّ ما يَليقُ به منها، وفي غُضونِ ذلك كلِّه دَلائلُ على بُطلانِ إشراكِهم به أصْنامَهم[1].

وأيضًا لَمَّا وَصَفَ اللهُ تعالى القُرآنَ بالعِظَمِ، ومَعلومٌ أنَّ عِظَمَ الصِّفةِ تابِعٌ لعِظَمِ الموصوفِ؛ أتْبَعَ ذلك بشَرحِ عَظَمةِ اللهِ، فقال تعالى[2]:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: هو اللهُ الَّذي لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو وَحْدَه سُبحانَه، وكلُّ ما عُبِدَ مِن دُونِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٧، ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٢).

فهو باطِلٌ[١].

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

أي: العالِمُ بكُلِّ شَيءٍ، سواءٌ ما يَغيبُ عن خَلْقِه، أو ما يُشاهِدونَه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: اللهُ ذو الرَّحمةِ الواسِعةِ العظيمةِ الَّتي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ. الموصِلُ رحمتَه إلى مَن يَشاءُ مِن عبادِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

قال ابن جرير: (الَّذي يَتصَدَّعُ مِن خَشيتِه الجَبَلُ -أيُّها النَّاسُ- هو المعبودُ الَّذي لا تَنبغي العِبادةُ والأُلوهةُ إلَّا له). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩)، ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١٨)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٨).

ممَّن اختار أنَّ الرَّحمنَ اسمٌ دلَّ على اتِّصافِه بالرَّحمةِ، والرَّحيمَ اسمٌ دلَّ على وُقوعِ الفِعلِ منه، وهو إيصالُ رحمتِه إلى خَلقِه: ابنُ القيِّم، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٣، ٢٤)، ((تعليق مختصر على لمعة الاعتقاد)) لابن عثيمين (ص: ٢٩). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٦٦، ٤٦٧).

قال ابن القيِّم: (قال السُّهَيلي: «... وفائدةُ الجَمعِ بيْن الصِّفَتينِ الرَّحمنِ والرَّحيمِ: الإنباءُ عن رحمةٍ عاجِلةٍ وآجِلةٍ، وخاصَّةٍ وعامَّةٍ». قلتُ:... وأمَّا الجمعُ بيْن الرَّحمنِ الرَّحيمِ ففيه معنًى هو أحسَنُ مِن المعنيَينِ اللَّذَينِ ذكرَهما، وهو أنَّ الرَّحمنَ دالٌّ على الصِّفةِ القائمةِ به سُبحانَه، =

كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((جَعَل اللهُ الرَّحمةَ مِئةَ جُزءٍ، فأمسَكَ عِندَه تِسعةً وتِسعينَ، وأنزَلَ في الأرضِ جُزءًا واحِدًا، فمِن ذلك الجزءِ تَتراحَمُ الخلائِقُ، حتَّى تَرفَعَ الدَّابَّةُ حافِرَها عن وَلَدِها؛ خَشْيةَ أن تُصيبَه))[1].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

= والرَّحيمَ دالٌّ على تعَلُّقِها بالمرحوم؛ فكان الأوَّلُ للوَصفِ، والثَّاني للفِعلِ، فالأوَّلُ دالٌّ أنَّ الرَّحمةَ صِفتُه، والثَّاني دالٌّ على أنَّه يَرحَمُ خَلْقَه برَحمتِه، وإذا أرَدْتَ فَهْمَ هذا فتأمَّلْ قَولَه: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يَجِيءْ قَطُّ رَحمنٌ بهم؛ فعُلِمَ أنَّ الرَّحمنَ هو المَوصوفُ بالرَّحمةِ، ورَحيمٌ هو الرَّاحِمُ برحمتِه، وهذه نُكتةٌ لا تَكادُ تَجِدُها في كتابٍ)). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٣، ٢٤). ويُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ٤٣).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ذو الرَّحمةِ الواسِعةِ، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الموصِلُ رحمتَه مَن شاء مِن خَلْقِه؛ فالفَرقُ بيْنَ الرَّحمنِ والرَّحيمِ أنَّ الأوَّلَ باعتِبارِ كَونِ الرَّحمةِ وَصْفًا له، والثَّانيَ باعتِبارِها فِعلًا له يُوصِلُها لِمَن شاء مِن خَلْقِه). ((تعليق مختصر على لمعة الاعتقاد)) (ص: ٢٩).

وقال الخَطَّابي: (الرَّحمنُ: ذو الرَّحمةِ الشَّاملةِ الَّتي وَسِعَتِ الخَلْقَ في أرزاقِهم وأسبابِ مَعاشِهم ومَصالِحِهم، وعَمَّتِ المؤمنَ والكافِرَ، والصَّالِحَ والطَّالِحَ، وأمَّا الرَّحيمُ فخاصٌّ للمؤمِنينَ). ((شأن الدعاء)) (ص: ٣٨).

وقال ابن جرير: (هو رحمنُ الدُّنيا والآخرةِ، رحيمٌ بأهلِ الإيمانِ به). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٠).

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٠٠)، ومسلمٌ (٢٧٥٢) واللَّفظُ له.

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ﴾.

أي: هو اللهُ الَّذي لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو وَحْدَه سُبحانَه، المَلِكُ الحَقُّ، المالِكُ لجَميعِ الأشياءِ، الكامِلُ التَّصَرُّفِ في جميعِ خَلْقِه بما يَشاءُ(١).

كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

﴿ ٱلْقُدُّوسُ ﴾.

أي: المتَّصِفُ بالطُّهرِ التَّامِّ، والنَّزاهةِ البالِغةِ(٢).

كما قال اللهُ تبارك وتعالى حاكيًا قَولَ الملائِكةِ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

وعن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا سلَّمَ منَ الوِتْرِ قال: ((سُبحانَ المَلِكِ القُدُّوسِ -ثَلاثَ مرَّاتٍ)). وفي روايةٍ: يُطيلُ في آخِرِهنَّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥١)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥١)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٠)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٦٨، ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٣٠)، والنسائي (١٦٩٩)، وأحمد (٢١١٨٠)، وابن حبان (٢٤٥٠). =

وعن عبدِ الرَّحمنِ بنِ أَبْزَى رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ إذا سلَّم -أي: مِن الوِتْرِ-: ((سُبحانَ المَلِكِ القُدُّوسِ -ثَلاثًا، ويَرفَعُ صَوتَه بالثَّالِثةِ))(١).

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ في رُكوعِه وسُجودِه: ((سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الملائِكةِ والرُّوحِ))(٢).

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾.

أي: المتَّصِفُ بالسَّلامةِ التَّامَّةِ مِن كُلِّ شَرٍّ وأذًى وسُوءٍ، في ذاتِه وصِفاتِه وأفعالِه(٣).

= صَحَّحه ابنُ القطان في ((بيان الوهم والإيهام)) (٥/ ٦١٤)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٢١)، والألبانيُّ في ((صحيح أبي داود)) (١٤٣٠)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (١٢٠)، وابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٢٦٧).

(١) أخرجه النسائي (١٧٣٢)، وأحمد (١٥٣٦١) مطوَّلًا.

صحَّح إسنادَه على شرطِ الشَّيخَينِ الحاكمُ في ((المستدرك)) (١٠٠٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٤/ ٧٨)، وجوَّد إسنادَه ابنُ الملقِّنِ في ((البدر المنير)) (٤/ ٣٣٩)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٧٣٢).

وذكر محمد بنُ عبدِ الهادي في ((تنقيح تحقيق التعليق)) (١/ ٥١٥) أنَّه رُوِيَ بطُرقٍ كثيرةٍ، وقد أرسله بعضُهم.

(٢) رواه مسلم (٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥١)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣١)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

قال القرطبي: (﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي: ذو السَّلامةِ مِن النَّقائِصِ. وقال ابنُ العربي: اتَّفَق العُلَماءُ -رحمةُ الله عليهم- على أنَّ معنى قولِنا في اللهِ: السَّلامُ: النِّسبةُ، تقديرُه: ذو السَّلامةِ. ثمَّ اختلَفوا في ترجمةِ النِّسبةِ على ثلاثةِ أقوالٍ؛ الأوَّلُ: معناه: الَّذي سَلِمَ مِن كُلِّ عَيبٍ، وبَرِئَ مِن كُلِّ نَقصٍ. الثَّاني: معناه: ذو السَّلامِ، أي: المُسَلِّمُ على عبادِه في الجنَّةِ، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

وعن ثَوبانَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا انصَرَفَ مِن صَلاتِه استَغفَرَ ثَلاثًا، وقال: اللَّهمَّ أنت السَّلامُ، ومنك السَّلامُ، تباركْتَ ذا الجَلالِ والإكرامِ))(١).

﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾.

أي: واهبُ الأمنِ، فلا يأمَنُ إلَّا مَن آمَنه اللهُ تعالى، الَّذي يصدقُ رُسُلَه بالآياتِ،

= ٥٨]. الثَّالثُ: أنَّ معناه: الَّذي سَلِمَ الخَلقُ مِن ظُلمِه. قلتُ: وهذا قَولُ الخَطَّابيِّ، وعليه والَّذي قَبْلَه يكونُ صِفةَ فِعلٍ. وعلى أنَّه البَريءُ مِن العيوبِ والنَّقائِصِ يكونُ صِفةَ ذاتٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦). ويُنظر: ((الأمد الأقصى)) لابن العربي (١/ ٣٤٨)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٤١).

وقال السعدي: («القُدُّوسُ، السَّلامُ» أي: المُعَظَّمُ المُنَزَّهُ عن صِفاتِ النَّقصِ كلِّها، وأن يُماثِلَه أحدٌ مِن الخَلقِ، فهو المُتنَزِّهُ عن جميعِ العُيوبِ، والمُتنَزِّهُ عن أن يُقارِبَه أو يُماثِلَه أحدٌ في شَيءٍ مِن الكمالِ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٤] ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥] ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة: ٢٢]، فالقُدُّوسُ كالسَّلامِ، يَنفيانِ كلَّ نقصٍ مِن جميعِ الوُجوهِ، ويَتَضمَّنانِ الكمالَ المُطلَقَ مِن جميعِ الوُجوهِ؛ لأنَّ النَّقصَ إذا انتفى ثبَت الكمالُ كلُّه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤٦).

وقال الهرَّاس: (القُدُّوسُ والسَّلامُ، ومعناهما مُتقارِبانِ؛ فانَّ القُدُّوسَ مأخوذٌ مِن قدَّس، بمعنى: نزَّهه وأبْعَدَه عن السُّوءِ، مع الإجلالِ والتَّعظيم. والسَّلامَ مأخوذٌ مِن السَّلامةِ، فهو سُبحانَه السَّالمُ مِن مُماثَلةِ أحدٍ مِن خَلْقِه، ومِن النُّقصانِ، ومِن كلِّ ما يُنافي كمالَه). ((شرح القصيدة النونية)) (٢/ ١٠٧).

(١) رواه مسلم (٥٩١).

والمؤمنينَ ما وعَدَهم به مِن الثَّوابِ، والكافِرِين ما أوعَدَهم مِن العِقابِ[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١).

قال الزَّجَّاجي: (المؤمنُ في صِفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ على وجهَينِ؛ أحدُهما: أن يكونَ مِن الأمانِ، أي: يُؤْمِنُ عِبادَه المؤمنينَ مِن بأسِه وعَذابِه فيَأْمَنون ذلك، كما تقولُ: آمنَ فُلانٌ فلانًا، أي: أعطاه أمانًا لِيَسكُنَ إليه ويَأمَنَ، فكذلك أيضًا يُقالُ: اللهُ المؤمِنُ، أي: يؤمِنُ عِبادَه المؤمِنينَ، فلا يَأمَنُ إلَّا مَن آمنَه... والوجهُ الآخَرُ: أن يكونَ المؤمِنُ مِن الإيمانِ، وهو التَّصديقُ، فيَكونَ ذلك على ضَربَينِ؛ أحدُهما: أن يُقالَ: «اللهُ المؤمِنُ» أي: مُصدِّقٌ عِبادَه المؤمنينَ، أي: يصدقُهم على إيمانِهم، فيكونُ تصديقُه إيَّاهم قَبولَ صِدقِهم وإيمانِهم، وإثابتَهم عليه. والآخَرُ: أن يكونَ «اللهُ المؤمنُ» أي: مُصدقٌ ما وعَدَه عبادَه، كما يقالُ: صدَق فُلانٌ في قولِه وصدَّق، إذا كرَّر وبالَغَ، يكونُ بمَنزِلةِ ضرَب وضرَّب؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ مُصدِّقٌ ما وعد به عِبادَه ومُحَقِّقُه. فهذه ثلاثةُ أوجُهٍ في المؤمنِ، سائغٌ إضافتُها إلى الله.

ولا يُصرفُ فِعلُ هذه الصِّفةِ مِن صِفاتِه عزَّ وجلَّ، فلا يُقالُ: آمَنَ اللهُ، كما يُقالُ: تقدَّسَ اللهُ، وتَبارَكَ اللهُ، ولا يُقالُ: اللهُ يؤمِنُ، كما يُقالُ: اللهُ يَحلُمُ ويَغفِرُ، ولم يُستعمَلْ ذلك). ((اشتقاق أسماء الله)) (ص: ٢٢١-٢٢٣).

وقال ابن جُزَي: (﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه مِنَ الأمْنِ؛ الَّذي أمَّن عِبادَه، والآخَرُ: أنَّه مِن الإيمانِ، أي: المُصَدِّقُ لعِبادِه في إيمانِهم، أو في شَهادتِهم على النَّاسِ يومَ القيامةِ، أو المصدِّقُ نفْسَه في أقوالِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٣).

ممَّن اختار أنَّه مِنَ الأمْنِ: ابنُ جرير، البغويُّ، والزمخشري، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٢/ ٣٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢١).

والمعنى على هذا القولِ: أنَّه واهِبُ الأمْنِ، أو أمَّن عِبادَه مِن العذابِ، أو أمَّن خَلْقَه مِن الظُّلْمِ.

قال البقاعي: (فهو الَّذي يُعزَى إليه الأمنُ والأمانُ بإفادتِه أسبابَه، ومَنْعِ أسبابِ المَخاوِفِ؛ فلا أَمْنَ في الوُجودِ ولا أمانَ إلَّا وهو مُستفادٌ مِن جِهتِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٧١).

وقال ابنُ عاشور: (المؤمِنُ اسمُ فاعِلٍ مِن آمَنَ الَّذي هَمزتُه للتَّعْديةِ، أي: جَعَل غَيرَه آمِنًا؛ فاللهُ هو الَّذي جَعَل الأمانَ في غالِبِ أحوالِ الموجوداتِ؛ إذ خَلَق نظامَ المخلوقاتِ بعيدًا عن الأخطارِ =

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾.

أي: الشَّاهِدُ الحافِظُ الرَّقيبُ على خَلْقِه، القائمُ عليهم بأعمالِهم وأرزاقِهم وآجالِهم، باطِّلاعه واستيلائِه وحِفظِه[1].

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾.

أي: المُتَّصِفُ بالعِزَّة التَّامَّة: الَّذي قد عَظُم قَدرُه، وامتنَع عليه النَّقصُ بأيِّ وجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وغلَب كلَّ شَيءٍ فلا يُغلَبُ سُبحانَه، ولا يُذِلُّه أحَدٌ[2].

= والمصائِب، وإنَّما تَعرِضُ للمخلوقاتِ المصائِبُ بعوارِضَ تترَكَّبُ مِن تقارُنٍ أو تَضادٍّ، أو تعارُضِ مَصالِحَ، فيَرجَحُ أقواها ويَدحَضُ أدناها، وقد تأتي مِن جرَّاءِ أفعالِ النَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢١).

وممَّن اختار أنَّه مِن الإيمانِ، أي: التَّصديقِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والقرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

والمعنى على ذلك: المصدِّقُ لِرُسُلِه بإظهارِ مُعجزاتِه عليهم، ومصدقُ المؤمنينَ ما وعَدَهم به مِن الثَّوابِ، ومصدقُ الكافرين ما أوْعَدَهم مِن العِقابِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦).

وقال الزَّجَّاجُ: (﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾: الَّذي وَحَّد نَفْسَه بقولِه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٥٠).

وهذا القولُ نسَبه القرطبي لمجاهدٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٦)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٧)، ((المقصد الأسنى)) للغزالي (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧١-٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢١).

وقال السجستاني: (المُهَيمِنُ في أسماءِ اللهِ جَلَّ وعَزَّ: القائِمُ على خَلْقِه بأعمالِهم وآجالِهم وأرزاقِهم). ((غريب القرآن)) (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠).

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾.

أي: العَظيمُ القاهِرُ -الَّذي قهَر جميعَ العبادِ-، المُصلِحُ أُمورَ خَلْقِه، والَّذي يُصَرِّفُهم فيما فيه صَلاحُهم[(١)].

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾.

أي: المُتعَظِّمُ على جَميعِ خَلْقِه، المُتعالي والمترَفِّعُ عن الانقيادِ لِغَيرِه[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: قال رَسولُ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٤)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٤، ٣٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٤، ١٨٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٤٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٢٠، ١٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٢).

قال ابن عاشور: (وإذا وُصِفَ الإنسانُ بالجَبَّارِ كان وَصْفَ ذَمٍّ؛ لأنَّه يُشعِرُ بأنَّه يَحمِلُ غَيرَه على هواه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّ المتكَبِّرَ في حَقِّ الخَلقِ اسمُ ذَمٍّ؛ لأنَّ المتكَبِّرَ هو الَّذي يُظهِرُ مِن نَفْسِه الكِبْرَ، وذلك نَقصٌ في حَقِّ الخَلْقِ؛ لأنَّه ليس له كِبرٌ ولا عُلُوٌّ، بل ليس معه إلَّا الحقارةُ والذِّلَّةُ والمَسْكنةُ، فإذا أظهَرَ العُلُوَّ كان كاذِبًا، فكان ذلك مذمومًا في حَقِّه، أمَّا الحَقُّ سُبحانَه فله جميعُ أنواعِ العُلُوِّ والكِبرياءِ، فإذا أظهَرَه فقد أرشَدَ العِبادَ إلى تعريفِ جَلالِه وعُلُوِّه، فكان ذلك في غايةِ المدحِ في حَقِّه سُبحانَه). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٤). ويُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٥).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((العِزُّ إزاري، والكِبرياءُ رِدائي، فمَنْ نازَعَني بشَيءٍ منهما عذَّبْتُه))(١).

وعن عَوفِ بنِ مالِكٍ الأشجَعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قُمتُ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَيلةً، فقام فقَرَأَ سُورةَ البَقَرةِ، لا يَمُرُّ بآيةِ رَحمةٍ إلَّا وَقَف فسَأَلَ، ولا يَمُرُّ بآيةِ عَذابٍ إلَّا وَقَف فتعَوَّذَ، ثمَّ ركَعَ بقَدْرِ قيامِه، يقولُ في رُكوعِه: سُبحانَ ذي الجَبَروتِ والمَلَكوتِ، والكِبْرِياءِ والعَظَمةِ، ثمَّ سَجَد بقَدْرِ قيامِه، ثمَّ قال في سُجودِه مِثْلَ ذلك، ثمَّ قام فقَرَأَ بآلِ عِمْرانَ، ثمَّ قرأَ سُورةً سُورةً))(٢).

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: تنزَّهَ اللهُ عن كلِّ نَقصٍ وعَيبٍ وسُوءٍ، وعن أن يكونَ له شَريكٌ كما يَزعُمُ المُشرِكونَ(٣).

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾.

أي: هو اللهُ المعبودُ بحَقٍّ، الَّذي تفرَّدَ بتَقديرِ وإنشاءِ جَميعِ المخلوقاتِ على غَيرِ مِثالٍ سَبَقَ(٤).

---

(١) رواه البخاريُّ في ((الأدب المفرد)) (٥٥٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٧٣) واللفظ له، والنسائي (١١٣٢)، وأحمد (٢٣٩٨٠).
صحَّحه النوويُّ في ((المجموع)) (٤/ ٦٧)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٨٧٣)، وحَسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٧٤)، ووثَّق رجالَ إسنادِه الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (٢/ ٣٧٥)، وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٨٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٥)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٥، =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقال سُبحانَه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١٠، ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

﴿ٱلْبَارِئُ﴾.

أي: الَّذي أحيا وأوجَدَ مِنَ العَدَمِ على مُقتَضى ما خلَقَ وقَدَّرَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢].

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾.

أي: الَّذي يُصَوِّرُ ويُشَكِّلُ كُلَّ مَخلوقٍ على الصِّفةِ واللَّونِ والصُّورةِ الَّتي يَختارُها سُبحانَه[(٢)].

= ٣٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٥-٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٤).

والخَلقُ في كلامِ العربِ على ضربَينِ؛ أحدُهما: ابتِداعُ الشَّيءِ وإنشاؤُه على مِثالٍ لم يُسبَقْ إليه. والثَّاني: التَّقديرُ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٧/ ١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٥)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠).

كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٨].

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: لله وَحْدَه الأسماءُ الكثيرةُ الكامِلةُ في حُسْنِها، والدَّالَّةُ على صِفاتِ كَمالِه سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ لله تِسعةً وتِسعينَ اسمًا؛ مِئةً إلَّا واحِدًا، مَن أحصاها دَخَل الجَنَّةَ))[2].

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: يُنَزِّهُ اللهَ وَحْدَه عن النَّقائِصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ والأرضِ[3].

كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

قال الشنقيطي: (أسماءُ الله حُسْنى، أي: هي أحسَنُ شَيءٍ؛ لأنَّ الحُسنى صيغةُ تفضيلٍ، هي أفضَلُ مِن كلِّ شَيءٍ في الحُسنِ والجَمالِ؛ لِما تدُلُّ عليه مِن صِفاتِ الكمالِ والجَلالِ المَوصوفِ بها خالِقُنا جلَّ وعَلا تقدَّسَ وتَعاظَمَ وتَنَزَّهَ؛ لأنَّ أسماءَه تدُلُّ على صِفاتِ كمالِه وجَلالِه جلَّ وعَلا). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٥٢).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٩، ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو العزيزُ الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، وهو الحَكيمُ في كلِّ ما خَلَقَه وشَرَعَه وقدَّرَه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلى قولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أنَّه سُبحانَه يَستَدِلُّ بأسمائِه وصفاتِه على وَحدانيَّتِه، وعلى بُطلانِ الشِّركِ[٢].

٢- القَولُ بأنَّ أسماءَ اللهِ أعلامٌ مَحضَةٌ مُترادِفةٌ لا تدُلُّ إلَّا على ذاتِ اللهِ فقط: قَولٌ باطِلٌ؛ فاللهُ تعالى يُسَمِّي نفْسَه باسمَينِ أو أكثَرَ في مَوضِعٍ واحدٍ، كقَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾، فلو كانتِ الأسماءُ مُترادِفةً ترادُفًا مَحْضًا لَكان ذِكرُها مُجتَمِعةً لَغْوًا مِن القَولِ؛ لعدَمِ الفائدةِ، فدَلالاتُ الكتابِ والسُّنَّةِ مُتضافِرةٌ على أنَّ كلَّ اسمٍ مِن أسماءِ الله دالٌّ على معناه المُختَصِّ به، مع اتِّفاقِها على مُسمًّى واحدٍ ومَوصوفٍ واحدٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٨٠، ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٢٨).

٣- قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ ليس بتَكرارٍ، بل هي مَعانٍ مُتغايِرةٌ، بَيْنَها قَدْرٌ مُشترَكٌ، وبَيانُه: أنَّ الإيجادَ يَتعلَّقُ بالمادَّةِ وبالصُّورةِ وبمَجموعِهما؛ فإنْ تَعَلَّقَ بالمادَّةِ فهو بَرْؤُه، ولا يُقالُ للمُصَوِّرِ: إنَّه بارئٌ باعتبارِ تَصويرِه، وإنَّما البارئُ مِن بَرَأَ الشَّيءَ مِن العَدَمِ إلى الوُجودِ، وإنْ تَعَلَّقَ بالصُّورةِ فهو تصويرٌ، ويُقالُ لفاعِلِه: المُصَوِّرُ. والخالِقُ يَنظِمُهما معًا؛ فالبارِئُ للمادَّةِ، والمُصَوِّرُ للصُّوَرِ، والخالِقُ لهما جَميعًا، فأينَ التَّكرارُ[(١)]؟!

وأيضًا: الخَلْقُ: التَّقديرُ، والبراءُ: هو الفَرْيُ، وهو التَّنفيذُ وإبرازُ ما قدَّره وقرَّره إلى الوجودِ، وليس كلُّ مَن قدَّر شيئًا ورتَّبه يقدِرُ على تنفيذِه وإيجادِه سوَى الله عزَّ وجلَّ، وقولُه تعالى: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي إذا أرادَ شيئًا قال له: كُنْ، فيكونُ على الصِّفةِ التي يريدُ، والصُّورةِ التي يختارُ، كقولِه: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] لهذا قال: ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي يُنفذُ ما يريدُ إيجادَه على الصِّفةِ التي يريدُها[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أنَّ أسماءَ اللهِ سُبحانَه وتعالى كلَّها حُسْنى، ليس فيها نَقصٌ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ ولا بحالٍ مِن الأحوالِ؛ ووَجهُه: أنَّه سُبحانَه وَصَفَها باسمِ التَّفضيلِ[(٣)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أنَّ أسماءَ اللهِ تعالى مُشتَقَّةٌ، أي: إنَّها تتضَمَّنُ معانيَ وأوصافًا؛ فكلُّ اسمٍ منها يتضَمَّنُ الصِّفةَ الَّتي اشتُقَّ منها، حتَّى اسمُ «اللهِ» يتضَمَّنُ صِفةً، وهي الألوهيَّةُ؛ فأسماءُ اللهِ تعالى إذَنْ أعلامٌ دالَّةٌ على صِفةٍ، ولولا ذلك ما كانت حُسنى؛ لأنَّها إذا لم تتضَمَّنْ معنًى صارتْ أسماءً جامدةً

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ١٦٢).

لا معنَى لها، وإذا كانت أسماءً جامدةً لا معنَى لها فلا تُوصَفُ بالحُسْنى، واللهُ عزَّ وجلَّ وَصَفَها بأنَّها حُسنى، أي: بالغةٌ في الحُسنِ كمالَه، وقد يتضَمَّنُ بعضُها صِفتَينِ أو أكثرَ عن طريقِ الالتزامِ، يعني: مِن بابِ دَلالةِ اللُّزومِ أو الالتزامِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ أسماءَ اللهِ تعالى مختصَّةٌ به، فكما اختَصَّ بالعبادةِ وبالألوهيَّةِ؛ فلا معبودَ بحقٍّ إلَّا الله، وبأنَّه يُسَبِّحُ له ما في السَّمَواتِ والأرضِ؛ فهو مُختَصٌّ بالأسماءِ الحُسنى، فتسميةُ غيرِه بها على الوَجهِ الَّذي يَختَصُّ باللهِ عزَّ وجلَّ مَيلٌ بها عمَّا يَجِبُ فيها[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ضَميرُ الغَيبةِ ﴿هُوَ﴾ مُبتدأٌ، وهو عائدٌ إلى اسمِ الجَلالةِ في قولِه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨]. واسمُ الجَلالةِ في ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى ...﴾ خبَرٌ عنه، و(الَّذي) صِفةٌ لاسمِ الجلالةِ، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ الاقتِصارَ على الضَّميرِ دونَ ذِكرِ اسمِ الجَلالةِ؛ لأنَّ المقصودَ الإخبارُ عن الضَّميرِ بـ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وبما بعْدَ ذلك مِن الصِّفاتِ العَلِيَّةِ، فالجمْعُ بيْن الضَّميرِ وما يُساوي مُعادَه اعتبارٌ بأنَّ اسمَ الجلالةِ يَجمَعُ صِفاتِ الكمالِ؛ لأنَّ أصْلَه الإلهُ، ومَدلولُ (الإلَه) يَقْتضي

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ١٦٣).
ودَلالةُ اللُّزومِ: هي دَلالةُ اللَّفظِ على لازِمِ مُسمَّاه؛ كدَلالةِ السَّقفِ على الجِدارِ، ودَلالةِ الأسدِ على الشَّجاعةِ. يُنظر: ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٤٥)، ((الإبهاج في شرح المنهاج)) للسبكي (١/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ١٧).

جَميعَ صِفاتِ الكَمالِ. ويَجوزُ أنْ يُجعَلَ الضَّميرُ ضَميرَ الشَّأنِ، واسمُ الجلالةِ مبتدَأً، و﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خَبرًا، والجُملةُ خبرًا عن ضَميرِ الشَّأنِ، ويكونَ الكلامُ استِئنافًا قُصِدَ منه تَعليمُ المسلِمينَ هذه الصِّفاتِ؛ ليَتبصَّروا فيها، وللرَّدِّ على المُشرِكين إشراكَهم بصاحبِ هذه الصِّفاتِ معه أصْنافًا ليس لواحدٍ منها شَيءٌ مِن مِثلِ هذه الصِّفاتِ؛ ولذلك خُتِمَت طائفةٌ منها بجُملةِ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]؛ لتَكونَ خِتامًا لهذه السُّورةِ الجليلةِ الَّتي تَضمَّنَت مِنَّةً عَظيمةً، وهي مِنَّةُ الفتْحِ الواقعِ والفتْحِ المُيسَّرِ في المُستقبَلِ، لا جَرَمَ أنَّه حَقيقٌ بأنْ يَعرِفوا جَلائلَ صِفاتِه الَّتي لِتَعلُّقاتِها آثارٌ في الأحوالِ الحاصلةِ والَّتي ستَحصُلُ مِن هذه الفُتوحِ، ولَمَّا كان شأْنُ هذه الصِّفاتِ عَظيمًا، ناسَبَ أنْ تُفتَتَحَ الجُملةُ بضَميرِ الشَّأنِ[1].

- وابتُدِئَ في هذه الصِّفاتِ العَلِيَّةِ بصِفةِ الوَحدانيَّةِ، وهي مَدلولُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهي الأصلُ فيما يَتبَعُها مِن الصِّفاتِ؛ ولذلك كَثُرَ في القُرآنِ ذِكرُها عَقِبَ اسمِ الجلالةِ، كما في آيةِ الكُرسيِّ وفاتحةِ (آلِ عِمرانَ)، وثُنِّيَ بصِفةِ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ لأنَّها الصِّفةُ الَّتي تَقتَضيها صِفةُ الإلهيَّةِ؛ إذ عِلمُ اللهِ هو العِلمُ الواجبُ، وهي تَقْتضي جَميعَ الصِّفاتِ، وإنَّما ذُكِرَ مِن مُتعلِّقاتِ عِلمِه أُمورُ الغَيبِ؛ لأنَّه الَّذي فارَقَ به عِلمُ اللهِ تَعالى عِلمَ غيرِه، وذُكِرَ معه عِلمُ الشَّهادةِ للاحتِراسِ[2] مِن تَوهُّمِ أنَّه يَعلَمُ الحقائقَ العاليةَ الكُلِّيَّةَ فقطْ، كما ذهَبَ إليه فريقٌ مِن الفلاسِفةِ الأقدمينَ؛ ولأنَّ التَّعريفَ في ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ للاستِغراقِ، أي: كلِّ غَيبٍ وشَهادةٍ، وذلك ممَّا لا يُشارِكُه فيه غيرُه.

وفي ذِكرِ الغَيبِ إيماءٌ إلى ضَلالِ الَّذين قَصَروا أنفُسَهم على المُشاهَداتِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٨).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢١٢).

وكَفَروا بالمُغيَّباتِ مِن البعثِ والجَزاءِ وإرسالِ الرُّسلِ، أمَّا ذِكرُ عِلمِ الشَّهادةِ فتَتميمٌ[١] على أنَّ المشركينَ يَتوهَّمون اللهَ لا يَطَّلِعُ على ما يُخْفُونه؛ قال تعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۞ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٢] [فصلت: ٢٢، ٢٣].

- وتَقديمُ ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ لتَقدُّمِه في الوُجودِ، وتَعلُّقِ العِلمِ الأزَليِّ به[٣].

- والضَميرُ (هو) في: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ضَميرُ فصْلٍ يُفيدُ قصْرَ الرَّحمةِ عليه تَعالى؛ لعدَمِ الاعتِدادِ برَحمةِ غَيرِه؛ لقُصورِها، قال تَعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾[٤] [الأعراف: ١٥٦].

- ووَجْهُ تَعقيبِ صِفةِ عُمومِ العِلمِ بصِفةِ الرَّحمةِ أنَّ عُمومَ العِلمِ يَقْتضي ألَّا يَغيبَ عن عِلمِه شَيءٌ مِن أحوالِ خلْقِه وحاجتِهم إليه، فهو يَرحَمُ المُحتاجينَ إلى رَحمتِه، ويُمهِلُ المعانِدينَ إلى عِقابِ الآخرةِ؛ فهو رحْمنٌ بهم في الدُّنيا[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تَكريرٌ للاستِئنافِ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تَعظيمٍ، وهو مِن مَقاماتِ التَّكريرِ، وفيه اهتمامٌ بصِفةِ الوَحدانيَّةِ[٦].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٩، ١٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

- وعُقِّبَ وَصْفَا الرَّحمةِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بوصْفِ ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ رَحمتَه فضْلٌ، وأنَّه مُطلَقُ التَّصرُّفِ[١].

- و﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾ وصْفُ مُبالَغةٍ[٢]. وعُقِّبَ بوَصْفِ ﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾ وصْفُ ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ للاحتِراسِ؛ إشارةً إلى أنَّه مُنزَّهٌ عن نَقائصِ المُلوكِ المعروفةِ، مِن الغُرورِ، والاسترسالِ في الشَّهواتِ، ونحْوِ ذلك مِن نَقائصِ النُّفوسِ[٣].

- و﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ وُصِفَ اللهُ تَعالى به على طَريقةِ الوَصْفِ بالمصدَرِ؛ للمُبالَغةِ في الوصْفِ، أي: ذو السَّلامِ والسَّلامةِ[٤].

- وعُقِّبَ وصْفُ المَلِكِ بوصْفِ السَّلامِ؛ للدَّلالةِ على العدْلِ في مُعامَلتِه الخلْقَ، وهذا احتراسٌ أيضًا[٥].

- وبَدَأَ بالقُدُّوسِ قبْلَ السَّلامِ؛ لأنَّ القُدُّوسَ مَحْوٌ للنَّقصِ في الماضي -إنْ قُدِّرَ-، والسَّلامَ مَنْعٌ للنَّقصِ المُستَقبَلِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠، ١٢١).

ويُنظر ما تقدم (ص: ٥٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢١).

(٦) يُنظر: ((شرح الكافية الشافية)) لابن عثيمين (٣/ ١٩٤).

قال السَّفَّاريني: (الفرقُ بيْن القُدُّوسِ والسَّلامِ أنَّ القُدُّوسَ فيه إشارةٌ إلى أنَّه بريءٌ مِن جميعِ

- وذِكرُ وصْفِ ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ عَقِبَ الأوصافِ الَّتي قبْلَه إتمامٌ للاحتِراسِ مِن تَوهُّمِ وَصْفِه تَعالى بالمَلِكِ؛ أنَّه كالمُلوكِ المَعروفين بالنَّقائصِ، فأُفِيدَ أوَّلًا نَزاهةُ ذاتِه بوصْفِ القدُّوسِ، ونَزاهةُ تَصرُّفاتِه المُغيَّبةِ عن الغدْرِ والكَيدِ بوصْفِ المؤمنِ، ونَزاهةُ تَصرُّفاتِه الظَّاهرةِ عن الجَورِ والظُّلمِ بوصْفِ السَّلامِ[1].

- وتَعقيبُ ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ بوَصْفِ ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾؛ لدفْعِ تَوهُّمِ أنَّ تَأْمينَه عن ضَعْفٍ أو عن مَخافةِ غَيرِه، فأُعْلِموا أنَّ تَأمينَه لحِكمتِه مع أنَّه رَقيبٌ مُطَّلِعٌ على أحوالِ خلْقِه، فتَأمينُه إيَّاهم رَحمةٌ بهم[2]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ووَجْهُ ذِكرِ الصِّفاتِ الثَّلاثِ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ عَقِبَ صِفةِ ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: أنَّ جَميعَ ما ذَكَرَه آنِفًا مِن الصِّفاتِ لا يُؤذِنُ إلَّا باطمئنانِ العِبادِ لِعنايةِ ربِّهم بهم، وإصلاحِ أُمورِهم، وأنَّ صِفةَ المُهيمِنِ تُؤذِنُ بأمْرٍ مُشتركٍ، فعُقِّبَت بصِفةِ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ ليَعلَمَ النَّاسُ أنَّ اللهَ غالبٌ لا يُعجِزُه شَيءٌ، وأُتْبِعَت بصِفةِ ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الدَّالَّةِ على أنَّه مُسخِّرُ المخلوقاتِ لإرادتِه، ثمَّ صِفةِ المُتكبِّرِ الدَّالَّةِ على أنَّه ذُو الكِبْرياءِ يَصغُرُ كلُّ شَيءٍ دونَ كِبريائِه؛ فكانت هذه الصِّفاتُ في جانبِ التَّخويفِ كما كانتِ الصِّفاتُ قبْلَها في جانبِ الإطماعِ[3].

العُيوبِ والنَّقائصِ في الماضي والحاضرِ، والسَّلامَ فيه إشارةٌ إلى أنَّه لا يَطرأُ عليه شَيءٌ مِن = = ذلك في المُستقبَلِ. ((لوامع الأنوار البهية)) (٢/ ٢٥٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٢). وقيل: القُدُّوسُ هو المُنَزَّهُ عن النَّقائصِ في ذاتِه وفي صِفاتِه. والسَّلامُ هو المُنزَّهُ عن النَّقائصِ في أفعالِه. يُنظر: ((المطالب العالية من العلم الإلهي)) للرازي (٣/ ٢٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٢٣).

- قولُه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ذُيِّلَت الصِّفاتُ المذكورةُ بتَنزيهِ اللهِ تَعالى عن أنْ يكونَ له شُركاءُ بأنْ أشْرَكَ به المُشرِكون؛ فضَميرُ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ عائدٌ إلى مَعلومٍ مِن المقامِ، وهم المُشرِكون الَّذين لم يَزَلِ القُرآنِ يَقْرَعُهم بالمواعظِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ إنْ كان ضَميرُ الغَيبةِ (هُوَ) ضَميرَ شأْنٍ فالجُملةُ بعْدَه خبَرٌ عنه، وجُملةُ ﴿ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾ تُفيدُ قصْرًا بطَريقِ تَعريفِ جُزأَيِ الجُملةِ؛ هو الخالقُ لا شُركاؤُهم، وهذا إبطالٌ لإلهيَّةِ ما لا يَخلُقُ؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، وقال: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2] [النحل: ١٧].

- قوله: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ ذُكِرَت هذه الصِّفاتُ مُتتابِعةً؛ لأنَّ كلَّ ما يخرجُ مِن العدمِ إلى الوُجودِ يَفتقِرُ إلى تقديرٍ أوَّلًا، وإلى الإيجادِ على وَفْقِ التَّقديرِ ثانيًا، وإلى التَّصويرِ بعدَ الإيجادِ ثالثًا، واللهُ سُبحانَه وتعالَى خالِقٌ مِن حيثُ إنَّه مُقَدِّرٌ، وبارئٌ مِن حيثُ إنَّه مُخترِعٌ موجِدٌ، ومُصَوِّرٌ مِن حيثُ إنَّه مُرَتِّبٌ صوَرِ المُخترَعاتِ أحسَنَ ترتيبٍ[3].

وقيل: الخالقُ: اسمُ فاعِلٍ مِن الخَلْقِ، وأصلُ الخلْقِ في اللُّغةِ إيجادُ شَيءٍ على صُورةٍ مَخصوصةٍ، ويُطلَقُ الخلْقُ على معنًى أخصَّ مِن إيجادِ الصُّوَرِ، وهو إيجادُ ما لم يكُنْ مَوجودًا، كقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ [ق: ٣٨]، وهذا هو المعْنى الغالبُ مِن إطلاقِ اسمِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المقصد الأسنى)) للغزالي (ص: ٧٥).

تَعالى (الخالِق)، وبهذا يكونُ الخلْقُ أعمَّ مِن التَّصويرِ، ويكونُ ذِكرُ (البارئِ والمُصوِّرِ) بعْدَ (الخالقِ) تَنبيهًا على أحوالٍ خاصَّةٍ في الخلْقِ[١].

وقيل: إنَّما ذُكِرَت هذه الصِّفاتُ مُتتابِعةً؛ لأنَّ مِن مَجموعِها يَحصُلُ تَصوُّرُ الإبداعِ الإلهيِّ للإنسانِ؛ فابتُدِئَ بالخلْقِ الَّذي هو الإيجادُ الأصليُّ، ثمَّ بالبَرْءِ الَّذي هو تَكوينُ جِسمِ الإنسانِ، ثمَّ بالتَّصويرِ الَّذي هو إعطاءُ الصُّورةِ الحَسَنةِ، كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ﴾ [الانفطار: ٧، ٨]، ﴿ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[٢] [آل عمران: ٦].

- ووجْهُ ذِكرِ هذه الصِّفاتِ ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ عقِبَ الصِّفاتِ المُتقدِّمةِ ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أنَّ هذه الصِّفاتِ الثَّلاثَ أُريدَ منها الإشارةُ إلى تَصرُّفِه في البشرِ بالإيجادِ على كَيفيَّتِه البديعةِ؛ ليُثيرَ داعيةَ شُكْرِهم على ذلك؛ ولذلك عُقِّبَ بجُملةِ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣].

- قيل: وَجْهُ إرجاعِ هذه الصِّفاتِ الحُسنى إلى ما يُناسِبُها ممَّا اشتَمَلَت عليه السُّورةُ يَنقسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ، ولكنَّها ذُكِرَت في الآيةِ بحسَبِ تَناسُبِ مَواقعِ بَعضِها عقِبَ بعضٍ مِن تَنظيرٍ، أو احتراسٍ[٤]، أو تَتميمٍ[٥]:

القِسمُ الأوَّلُ: يَتعلَّقُ بما يُناسِبُ أحوالَ المشركين وأحلافِهم اليهودِ المُتألِّبين على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعلى المسلمينَ بالحرْبِ والكَيدِ والأذى،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٥).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢١٢).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٣٦).

وأنصارِهم مِن المنافِقِين المُخادِعين للمُسلمينَ.

وإلى هذا القِسمِ تَنْضوي صِفةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر: ٢٣]، وهذه الصِّفةُ هي الأصلُ في التَّهيُّؤِ للتَّدبُّرِ والنَّظرِ في بَقيَّةِ الصِّفاتِ؛ فإنَّ الإشراكَ أصلُ الضَّلالاتِ، والمشرِكون همُ الَّذين يُغْرُون اليهودَ، والمنافِقونَ بيْن يَهودَ ومُشرِكين تَستَّروا بإظهارِ الإسلامِ، فالشِّركُ هو الَّذي صدَّ النَّاسَ عن الوصولِ إلى مَسالكِ الهُدى.

وصِفةُ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الحشر: ٢٢]؛ فإنَّ مِن أُصولِ الشِّركِ إنكارَ الغَيبِ الَّذي مِن آثارِه إنكارُ البعثِ والجزاءِ، والاسترسالُ في الغَيِّ وأعمالِ السَّيِّئاتِ، وإنكارُ الوحْيِ والرِّسالةِ، وهذا ناظرٌ إلى قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الحشر: ٤] الآيةَ.

وكذلك ذِكرُ صِفاتِ (المَلِك، والعَزيز، والجبَّار، والمُتكبِّر)؛ لأنَّها تُناسِبُ ما أنْزَلَه ببَني النَّضيرِ مِن الرُّعبِ والخِزْيِ والبطْشةِ.

القِسمُ الثَّاني: مُتعلِّقٌ بما اجْتَناهُ المؤمنون مِن ثَمَرةِ النَّصرِ في قصَّةِ بَني النَّضيرِ، وتلك صِفاتُ ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]؛ لقولِه: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦]، أي: لم يَتجشَّمِ المسلِمون للغِنى مَشقَّةً، ولا أذًى، ولا قِتالًا.

وكذلك صِفتَا ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢]؛ لِمُناسَبتِهما لإعطاءِ حظٍّ في الفَيءِ للضُّعفاءِ.

القسمُ الثالثُ: مُتعلِّقٌ بما يَشترِكُ فيه الفريقانِ المذكورانِ في هذه السُّورةِ، فيَأخُذُ كلُّ فريقٍ حظَّه منها، وهي صِفاتُ (القُدُّوس، المُهيمِن، الخالِق، البارِئ، المُصوِّر)[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٥، ١٢٦).

- قولُه: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تَذييلٌ لِما عُدِّدَ مِن صِفاتِ اللهِ تعالى، أي: له جَميعُ الأسماءِ الحُسنى الَّتي بَعضُها الصِّفاتُ المذكورةُ آنِفًا(١).

- وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ الحالِ، وأُوثِرَ هاتانِ الصِّفتانِ؛ لشِدَّةِ مُناسَبتِهما لنِظامِ الخلْقِ(٢).

- وفي هذه الآيةِ رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ(٣)؛ لأنَّ صَدْرَ السُّورةِ مُماثِلٌ لآخِرِها(٤).

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ السَّابعُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ الثَّامنُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ المُمْتحنةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٢٧).

(٣) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ، أو المُتجانِسَينِ، أو المُلحَقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلِمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلِماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٧).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ الحَديدِ

أسماءُ السُّورةِ ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ٨
موضوعاتُ السُّورةِ ٨
الآيات (١-٦) ١٠
غَريبُ الكَلِماتِ ١٠
المعنى الإجماليُّ ١١
تَفسيرُ الآياتِ ١٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٣
بلاغةُ الآياتِ ٣٤
الآيات (٧-١١) ٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٦
المعنى الإجماليُّ ٤٧
تَفسيرُ الآياتِ ٤٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٣
بلاغةُ الآياتِ ٦٩
الآيات (١٢-١٥) ٨٠

غَريبُ الكَلِماتِ ٨٠
المعنى الإجماليُّ ٨٣
تَفسيرُ الآياتِ ٨٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٩٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٩٤
بلاغةُ الآياتِ ٩٧
الآيات (١٦-١٩) ١٠٥
غَريبُ الكَلِماتِ ١٠٥
المعنى الإجماليُّ ١٠٥
تَفسيرُ الآياتِ ١٠٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٢٤
بلاغةُ الآياتِ ١٢٨
الآيتان (٢٠-٢١) ١٣٨
غَريبُ الكَلِماتِ ١٣٨
المعنى الإجماليُّ ١٤٠
تَفسيرُ الآيتَينِ ١٤٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥١
بلاغةُ الآيتَينِ ١٥٥
الآيات (٢٢-٢٤) ١٦٤
غَريبُ الكَلِماتِ ١٦٤

المعنى الإجماليُّ ١٦٥
تَفسيرُ الآياتِ ١٦٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٧٧
بلاغةُ الآياتِ ١٧٨
الآيات (٢٥-٢٧) ١٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ ١٨٤
مُشكِلُ الإعرابِ ١٨٥
المعنى الإجماليُّ ١٨٦
تَفسيرُ الآياتِ ١٨٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٩٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩٩
بلاغةُ الآياتِ ٢٠٧
الآيتان (٢٨-٢٩) ٢١٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٢١٤
المعنى الإجماليُّ ٢١٤
تَفسيرُ الآيتَينِ ٢١٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٢٢
بلاغةُ الآيتَينِ ٢٢٥

سورةُ المُجادلةِ

أسماءُ السُّورةِ ٢٣١

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٢٣١
مَقاصِدُ السُّورةِ ٢٣١
موضوعاتُ السُّورةِ ٢٣٢
الآيات (١-٤) ٢٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٣٣
المعنى الإجماليُّ ٢٣٤
تَفسيرُ الآياتِ ٢٣٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٤٧
بلاغةُ الآياتِ ٢٦٣
الآيات (٥-٧) ٢٧٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٧٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٧٥
المعنى الإجماليُّ ٢٧٦
تَفسيرُ الآياتِ ٢٧٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٨٤
بلاغةُ الآياتِ ٢٨٦
الآيات (٨-١٠) ٢٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٩٤
المعنى الإجماليُّ ٢٩٥
تَفسيرُ الآياتِ ٢٩٦

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٠٧
بلاغةُ الآياتِ ٣١٠
الآيات (١١-١٣) ٣١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٣١٦
المعنى الإجماليُّ ٣١٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣١٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٢٧
بلاغةُ الآياتِ ٣٣١
الآيات (١٤-١٩) ٣٣٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٣٩
المعنى الإجماليُّ ٣٤٠
تَفسيرُ الآياتِ ٣٤١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٥٢
بلاغةُ الآياتِ ٣٥٥
الآيات (٢٠-٢٢) ٣٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٦٣
المعنى الإجماليُّ ٣٦٤
تَفسيرُ الآياتِ ٣٦٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٧٢

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٧٤
بلاغةُ الآياتِ ٣٨١

سورةُ الحَشْرِ

أسماءُ السُّورةِ ٣٩١
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٣٩١
مَقاصِدُ السُّورةِ ٣٩٢
موضوعاتُ السُّورةِ ٣٩٢
الآيات (١-٤) ٣٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٩٤
المعنى الإجماليُّ ٣٩٦
تَفسيرُ الآياتِ ٣٩٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٠٥
بلاغةُ الآياتِ ٤١١
الآيات (٥-٧) ٤٢١
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٢١
المعنى الإجماليُّ ٤٢٢
تَفسيرُ الآياتِ ٤٢٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٣٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٣٢
بلاغةُ الآياتِ ٤٤١
الآيات (٨-١٠) ٤٤٧

غَريبُ الكَلِماتِ ٤٤٧
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٤٨
المعنى الإجماليُّ ٤٤٩
تَفسيرُ الآياتِ ٤٥٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٦٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٦٤
بلاغةُ الآياتِ ٤٧٤
الآيات (١١-١٣) ٤٨٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٨٠
المعنى الإجماليُّ ٤٨٠
تَفسيرُ الآياتِ ٤٨١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٨٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٨٧
بلاغةُ الآياتِ ٤٨٩
الآيات (١٤-١٧) ٤٩٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٩٦
المعنى الإجماليُّ ٤٩٧
تَفسيرُ الآياتِ ٤٩٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٠٧
بلاغةُ الآياتِ ٥٠٩
الآيات (١٨-٢١) ٥١٤

غَريبُ الكَلِماتِ ٥١٤
المعنى الإجماليُّ ٥١٤
تَفسيرُ الآياتِ ٥١٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٢٤
بلاغةُ الآياتِ ٥٢٩
الآيات (٢٢-٢٤) ٥٣٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٣٧
المعنى الإجماليُّ ٥٤٢
تَفسيرُ الآياتِ ٥٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٥٥
بلاغةُ الآياتِ ٥٥٧
الفهرس ٥٦٧

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر للقرآن الكريم

من سورة الممتحنة إلى سورة التغابن

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثامن والثلاثون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة الممتحنة إلى سورة التغابن)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثامن والثلاثون - من سورة الممتحنة إلى سورة التغابن/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٤٩٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٧-٠٤-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧ ١٤٤٣/٨٦٩٧

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٨٦٩٧

ردمك: ٧-٠٤-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الممتحنة إلى سورة التغابن)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثامن والثلاثون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ
سُورَةِ المُمْتَحَنةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ المُمْتَحَنةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المُمْتَحَنةِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمدَنِيِّ:

سورةُ المُمتَحَنةِ مَدَنِيَّةٌ[٢]، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

تحذيرُ المؤمِنينَ مِن اتِّخاذِ المُشرِكينَ أولياءَ[٤].

---

(١) وجْهُ التَّسْميةِ أنَّها جاءت فيها آيةُ امتحانِ إيمانِ النِّساءِ اللَّاتي يأتينَ مِن مكَّةَ مُهاجِراتٍ إلى المدينةِ، وهي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٩).

وقد عُرِفَت هذه السُّورةُ في كُتُبِ التفسيرِ وكُتُبِ السُّنَّةِ وفي المصاحِفِ بـ«سورة المُمتَحَنةِ». يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٥).

قال ابنُ حَجَرٍ: (والمشهورُ في هذه التسميةِ فَتحُ الحاءِ، وقد تُكسَرُ، وبه جزَم السُّهَيليُّ؛ فعلى الأوَّلِ هي صِفةُ المرأةِ الَّتي نزلت السُّورةُ بسَبَبِها، والمشهورُ فيها أنَّها أمُّ كلثومٍ بنتُ عُقْبَةَ بنِ أبي مُعَيطٍ. وقيل: سَعيدةُ بنتُ الحارثِ. وقيل: أُمَيمةُ بنتُ بِشرٍ. والأوَّلُ هو المعتَمَدُ... ومَن كَسَر جعَلَها صِفةً للسُّورةِ، كما قيل لـ ﴿بَرَآءَةٞ﴾ الفاضِحةُ). ((فتح الباري)) (٨/ ٦٣٣). ويُنظر: ((التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام)) للسهيلي (ص: ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٠).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣١).

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- نَهْيُ المؤمِنينَ عن اتِّخاذِ أعداءِ اللهِ وأعدائِهم أولياءَ، وبيانُ كراهيَةِ أعداءِ اللهِ للحَقِّ، وسوءِ عاقبةِ مَن يُوالِيهم.

٢- دعوةُ المؤمِنينَ إلى الاقتِداءِ بأبيهم إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- الَّذي قَطَع صِلَتَه بأبيه وقَومِه؛ لإصرارِهم على الكُفرِ.

٣- بِشارةُ اللهِ للمُؤمِنينَ بجَمْعِ شَمْلِهم بأقارِبِهم، وحُصولِ المَوَدَّةِ بيْنَهم، بِهدايةِ أقارِبِهم إلى الحَقِّ.

٤- بَيانُ الرُّخصةِ في حُسنِ مُعامَلةِ الكَفَرةِ الَّذين لم يُقاتِلوا المسلِمينَ قِتالَ عَداوةٍ في دينٍ، ولا أخرَجوهم مِن ديارِهم.

٥- تفصيلُ أحكامِ النِّساءِ اللَّائي أتَيْنَ مُؤمِناتٍ إليهم، بعد أن ترَكْنَ أزواجَهنَّ الكُفَّارَ.

٦- أمْرُ اللهِ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمُبايَعةِ النِّساءِ المؤمِناتِ، وأخْذِ العُهودِ عليهِنَّ بطاعةِ اللهِ، والبُعْدِ عن المحَرَّماتِ.

٧- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بنَهْيِ المؤمنين عن موالاةِ أعداءِ اللهِ وأعدائِهم.

الآيات (١-٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: أي: أنصارًا وأخِلَّاءَ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على القُرْبِ؛ سواءٌ مِن حيثُ المكانُ أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ أو الاعتِقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[1].

﴿بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾: المودَّةُ: المَحَبَّةُ، والوُدُّ: محبَّةُ الشَّيءِ، أو هو خالصُ الحُبِّ وألطفُه وأرَقُّه، يُقالُ: وَدِدْتُ الرَّجُلَ وُدًّا: أحببْتُه، وأصلُ (ودد): يدُلُّ على محبَّةٍ[2].

﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: قَصْدَ الطَّريقِ ووسَطَه، وأصلُ السَّواءِ: الوَسَطُ، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ وامتِدادِه، وسُمِّيَ الطَّريقُ بذلك لامْتِدادِه[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٣٥)، ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٤٦، ٤٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٥/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣).

﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾: أي: يَجِدُوكم ويَظفَروا بكم، وأصلُ (ثقف): يدُلُّ على الحِذْقِ في إدراكِ الشَّيءِ، ثمَّ يُتجَوَّزُ به فيُستعمَلُ في الظَّفَرِ والإدراكِ مطلقًا[١].

﴿وَيَبْسُطُوٓاْ ...﴾: أي: يُؤذوكُم بالمقالِ والفِعالِ، وبَسطُ اليدِ: مدُّها، ويُستعمَلُ تارةً للطَّلبِ، وتارةً للأخذِ، وتارةً للضَّربِ، وتارةً للبذلِ، وأصلُ (بسط): امْتِدادُ الشَّيءِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾

قَولُه: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ ضميرٌ مُنفَصِلٌ مَبنيٌّ في محلِّ نَصبٍ مَعطوفٌ على ﴿ٱلرَّسُولَ﴾، أي: ويُخرِجونَكم. ﴿أَن تُؤْمِنُواْ﴾ مَصدَرٌ مُؤَوَّلٌ في محَلِّ نَصبٍ مَفعولٌ لأجلِه، أي: يُخرجونَكم؛ لإيمانِكم، أو كَراهةَ إيمانِكم. ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾: شَرطٌ جَوابُه مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ ما تقدَّمَ عليه، وهو قَولُه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي﴾[٣].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بخِطابِ المؤمِنينَ قائِلًا: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تتَّخِذوا أعداءَكم أنصارًا تَتودَّدونَ إليهم، وقد كَفَروا بالحَقِّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٩٩).

الَّذي جاءَكم، يُخرِجونَ رَسولَ اللهِ، ويُخرِجونَكم مِن ديارِكم؛ بسَبَبِ إيمانِكم باللهِ رَبِّكم، إن كُنتُم هاجَرْتُم وخرَجْتُم مِن أوطانِكم جِهادًا في سَبيلِ اللهِ، وطَلَبًا لنَيلِ رِضوانِه فلا تتَّخِذوا الكُفَّارَ أولياءَ.

تَتودَّدونَ إليهم -أيُّها المؤمِنونَ- بمناصَحتِهم في السِّرِّ، والحالُ أنِّي أعلَمُ بما أضمَرْتُموه وما أظهَرْتُموه، ومَن يَفعَلْ ذلك منكم فقد حادَ عن طريقِ الحَقِّ.

ثمَّ بيَّن الله تعالى حالَ هؤلاءِ الأعداءِ عندَما يتمكَّنونَ مِن المؤمنينَ، فقال: إنْ يَظفَرْ بكم الكُفَّارُ يُظهِروا لكم العَداوةَ، ويَبسُطوا إليكم أيديَهم وألسِنَتَهم بما يَسوؤُكم، وتَمَنَّوا أن تَكفُروا برَبِّكم.

ثمَّ بيَّن الله تعالى عدمَ نفعِ الأرحامِ والأولادِ يومَ القيامةِ، فقال: لا تَحمِلَنَّكم قراباتُكم وأولادُكم على مَعصيةِ اللهِ مِن أجْلِهم؛ فلن يَنفَعوكم يومَ القيامةِ الَّذي يَفصِلُ اللهُ فيه بَيْنَكم وبيْنَهم، فيُدخِلُ المؤمِنينَ الجنَّةَ، ويُدخِلُ الكافِرينَ والعُصاةَ النَّارَ. واللهُ بصيرٌ بأعمالِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عَليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((بَعَثني رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

وسلَّم أنا والزُّبَيرُ والمِقدادُ، فقال: انطَلِقوا حتَّى تأتوا رَوضةَ خاخٍ[١]؛ فإنَّ بها ظَعينةً[٢] معها كتابٌ، فخُذوا منها، فانطلَقْنا تَعادَى[٣] بنا خَيلُنا حتَّى أتَيْنا الرَّوضةَ، فإذا نحن بالظَّعينةِ، قُلْنا لها: أخرِجي الكِتابَ، قالت: ما معي كِتابٌ، فقُلْنا: لَتُخرِجِنَّ الكتابَ، أو لَنُلْقِيَنَّ الثِّيابَ. فأخرَجَتْه مِن عِقاصِها[٤]، فأتَيْنا به رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإذا فيه: مِن حاطِبِ بنِ أبي بَلْتَعةَ إلى ناسٍ بمكَّةَ مِن المشرِكينَ، يُخبِرُهم ببَعضِ أمرِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا حاطِبُ، ما هذا؟! قال: يا رَسولَ اللهِ، لا تَعْجَلْ عليَّ، إنِّي كُنتُ امرَأً مُلصَقًا في قُرَيشٍ -يقولُ: كنتُ حَليفًا، ولم أكُنْ مِن أنفُسِها-، وكان مَن معَك مِن المهاجِرينَ مَنْ لهم قَراباتٌ يَحْمُونَ أهلِيهم وأموالَهم، فأحببتُ إذ فاتَني ذلك مِنَ النَّسَبِ فيهم أن أتَّخِذَ عِندَهم يدًا يَحمُونَ قَرابتي، ولم أفعَلْه ارتِدادًا عن ديني، ولا رِضًا بالكُفرِ بعدَ الإسلامِ. فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أمَا إنَّه قد صَدَقَكم! فقال عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، دَعْني أضرِبْ عُنُقَ هذا المنافِقِ! فقال: إنَّه قد شَهِدَ بَدْرًا، وما يُدريكَ لعَلَّ اللهَ اطَّلَع على مَن شَهِدَ بَدرًا، فقال: اعمَلوا ما شِئتُم؛ فقد غفرْتُ لكم. فأنزل اللهُ السُّورةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]))[٥].

---

(١) مَوضِعٌ بيْن مكَّةَ والمدينةِ بقُربِ المدينةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٤٠١٢).

(٢) الظَّعينةُ: المرأةُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٥١).

(٣) تَعادَى: أي: تَتَعادى، والمعنى: تَجْري وتتسابقُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٥/ ١٤١).

(٤) عِقاصِها: أي: الخَيطِ الَّذي يُعتقَصُ به أطرافُ الذَّوائبِ، أو الشَّعرِ المضفورِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ٣٨٧).

(٥) رواه البخاريُّ (٤٢٧٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٤٩٤). =

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا، اعمَلوا بمُقتَضى إيمانِكم، فلا تتَّخِذوا أعدائي وأعداءَكم مِن المشرِكينَ والكُفَّارِ أنصارًا وأخِلَّاءَ(١).

= قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: إنَّ الآيةَ نزلت في حاطِبٍ، حينَ كتَبَ إلى مُشركي قُرَيشٍ يُخبِرُهم بمَسيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم لَمَّا قصَد فتْحَ مكَّةَ، يَنهاه اللهُ عن موالاةِ الكفَّارِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٨٢).

وقال ابنُ عاشور: (اتَّفَقوا على أنَّ الآيةَ الأولى نزلت في شأنِ كتابِ حاطِبِ بنِ أبي بَلتَعةَ إلى المشركينَ مِن أهلِ مكَّةَ... واختَلَفوا في آنِ كتابِه إليهم: أكان عندَ تجهُّزِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للحُدَيبيَةِ؟ وهو قولُ قَتادةَ، ودَرَج عليه ابنُ عطيَّةَ، وهو مقتضى روايةِ الحارثِ عن عليٍّ ابنِ أبي طالبٍ عندَ الطَّبَريِّ... قال ابنُ عطيَّةَ: نزَلَت هذه السُّورةُ سَنةَ ستٍّ. وقال جماعةٌ: كان كِتابُ حاطِبٍ إلى أهلِ مكَّةَ عند تجهُّزِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لفَتحِ مكَّةَ. وهو ظاهِرُ صَنيعِ جمهورِ أهلِ السِّيَرِ، وصَنيعِ البُخاريِّ في كتابِ المغازي مِن صَحيحِه في ترتيبِه للغَزَواتِ، ودرَج عليه مُعظَمُ المفسِّرينَ. ومعظَمُ الرِّواياتِ ليس فيها تعيينُ ما قصَدَه رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن تجَهُّزِه إلى مكَّةَ: أهو لأجْلِ العُمرةِ أمْ لأجلِ الفَتحِ؟ فإن كان الأصَحُّ الأوَّلَ -وهو الَّذي نختارُه- كانت السُّورةُ جميعُها نازلةً في مدَّةٍ مُتقارِبةٍ؛ فإنَّ امتحانَ أمِّ كُلثومِ بنتِ عُقبةَ كان عَقِبَ صُلحِ الحُدَيبيَةِ، ويكونُ نزولُ السُّورةِ مُرَتَّبًا على ترتيبِ آياتِها، وهو الأصلُ في السُّوَرِ. وعلى القَولِ الثَّاني يكونُ صُدورُ السُّورةِ نازِلًا بعدَ آياتِ الامتحانِ وما بَعْدَها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٠، ١٣١). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٣). ويُنظر أيضًا: ((سيرة ابن هشام)) (٢/ ٣٩٨)، ((دلائل النبوة)) للبيهقي (٥/ ١٤)، ((تاريخ الإسلام)) للذهبي (٢/ ٥٢٥)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١٠/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٢-٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٨٤-٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥).

قال الألوسي: (الصَّحيحُ أنَّ كُلَّ ما عَدَّه العُرفُ تَعظيمًا وحَسِبَه المسلمون موالاةً، فهو مَنهيٌّ عنه، ولو مع أهلِ الذِّمَّةِ، لا سيَّما إذا أوقَعَ شَيئًا في قلوبِ ضُعَفاءِ المؤمنينَ). ((تفسير الألوسي)) (٢/ ١١٦).

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾.

أي: تُبادِرونَ إلى موَدَّتِهم والتَّودُّدِ إليهم، ومِن ذلك إيصالُ أسرارِ المُسلِمينَ إليهم، والنُّصحُ لهم(١)!

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: والحالُ أنَّ أولئك المُشرِكينَ الَّذين نُهيتُم عن اتِّخاذِهم أولياءَ: قد كَفَروا بالحَقِّ الَّذي جاءَكم مِن عِندِ اللهِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).
قال ابن جُزَي: (﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ عبارةٌ عن إيصالِ الموَدَّةِ إليهم، و«ألْقى» يَتعدَّى بحرفِ جرٍّ وبغيرِ حرفِ جرٍّ، كقولِه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٩]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٤).
وقال الشوكاني: (﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: توصِلون إليهم الموَدَّةَ، على أنَّ الباءَ زائدةٌ. أو هي سببيَّةٌ، والمعنى: تُلْقون إليهم أخبارَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلم بسببِ الموَدَّةِ الَّتي بيْنَكم وبيْنَهم. قال الزَّجَّاجُ: (تُلْقون إليهم أخبارَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وسِرَّه بالموَدَّةِ الَّتي بيْنَكم وبيْنَهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٠). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٥٥).
وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ يقولُ جلَّ ثَناؤُه: تُلْقون إليهم مَوَدَّتَكم إيَّاهم. ودُخولُ الباءِ في قولِه: ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ وسُقوطُها سَواءٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٧).
وقال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ يعني: بالظَّاهِرِ؛ لأنَّ قَلْبَ حاطِبٍ كان سليمًا، بدليلِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لهم: «أمَّا صاحِبُكم فقد صَدَق»، وهذا نَصٌّ في سلامةِ فُؤادِه، وخُلوصِ اعتِقادِه). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير =

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾.

أي: وهم يُخرِجونَ رَسولَ اللهِ ويُخرِجونَكم أيضًا -أيُّها المؤمِنونَ- مِن ديارِكم، ويَحمِلونَكم على فِراقِ أوطانِكم؛ بسَبَبِ إيمانِكم باللهِ وَحْدَه الَّذي أحسَنَ إليكم، وربَّاكم بنِعَمِه الظَّاهِرةِ والباطِنةِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾.

أي: لا تتَّخِذوا الكُفَّارَ أولياءَ، ولا تُلْقُوا إليهم بالمودَّةِ إن كُنتُم هاجَرْتُم وخرَجْتُم مِن أوطانِكم بقَصدِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ لإعلاءِ كَلِمتِه، وطَلَبًا لنَيلِ رِضوانِه[2].

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾.

أي: تَتودَّدونَ إليهم -أيُّها المؤمِنونَ- بمناصَحتِهم في السِّرِّ، والحالُ أنِّي أعلَمُ مِن كُلِّ أحَدٍ بالَّذي أضمَرْتُموه والَّذي أظهَرْتُموه، فكيفَ تَفعَلونَ ذلك[3]؟!

= القرطبي)) (١٨/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).
قال الواحدي: (﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: القرآنَ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٥).
قال ابنُ جرير: (ذلك إخراجُ مُشرِكي قُرَيشٍ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه مِن مكَّةَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٨٦، ٤٨٧).
وقال السمعاني: (معنى الإخراجِ هاهنا: هو الإلجاءُ إلى الخروجِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾

أي: ومَن يَفعَلْ ذلك منكم -أيُّها المؤمِنونَ- فقد حادَ عن طريقِ الحَقِّ، وأخطَأَ الصَّوابَ[١].

﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَهَى المؤمنينَ عن اتِّخاذِ الكفَّارِ أولياءَ، وشرَحَ ما به الولايةُ مِن الإلْقاءِ بالمَودَّةِ بيْنَهم، وذكَرَ ما صنَعَ الكُفَّارُ بهم أوَّلًا مِن إخراجِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ- ذكَرَ صَنيعَهم آخِرًا لو قَدَروا عليه؛ مِن أنَّه إنْ تَمكَّنوا منْكم تَظهَرْ عَداوتُهم لكم، ويَبسُطوا أيدِيَهم بالقتْلِ والتَّعذيبِ، وألْسنَتَهم بالسَّبِّ، ووَدُّوا لو ارْتدَدْتُم عن دِينِكم الَّذي هو أحبُّ الأشياءِ إليكم، وهو سَببُ إخراجِهم إيَّاكم[٢].

﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾.

أي: إنْ يَظفَرْ بكم الكُفَّارُ الَّذين توادُّونَهم -أيُّها المؤمِنونَ- يُظهِروا لكم العَداوةَ؛ فلا تَظُنُّوا أنَّ في التَّوَدُّدِ إليهم مَنفَعةً لكم[٣].

= (٨/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨، ٥٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٩).

قال ابن عطية: (السَّواءُ: الوَسَطُ؛ وذلك لأنَّه تتساوى نِسبَتُه إلى أطرافِ الشَّيءِ، والسَّبيلُ هنا: شَرعُ اللهِ، وطريقُ دِينِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير ابن =

كما قال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾.

أي: ولو ظَفِروا بكم لَبَسَطوا إليكم أيديَهم بفِعلٍ يُؤذِيكم، وألسِنَتَهم بكَلامٍ يَسوؤُكم[(١)].

﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أعدى الأعداءِ لك مَن تمَنَّى أن يَفوتَك أعزُّ الأشياءِ لديك، وكان أعزُّ الأشياءِ عندَ كلِّ أحدٍ دِينَه؛ قال مُتمِّمًا للبَيانِ[(٢)]:

﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

= عطية)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٩).

قال الرَّسْعَني: (أخبَرَهم بما في أنفُسِهم لهم مِن العداوةِ، فقال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي: يَظفَروا بكم ﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ ظاهِري العداوةِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٤).

أي: وتَمَنَّوا وأحَبُّوا لكم أن تَكفُروا برَبِّكم، فتَكونوا على مِثْلِ ما هم عليه مِنَ الكُفرِ[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان حاطِبٌ رضِيَ اللهُ عنه قدِ اعتذَرَ بأنَّ له بمكَّةَ قَرابةً، فكَتَبَ إلى أهْلِها بما كَتَبَ لِيَرْعَوه في قَرابتِه؛ قال تعالَى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡ﴾[٢].

وأيضًا لَمَّا كانت عداوتُهم معروفةً، وإنَّما غطَّاها محبَّةُ القَراباتِ؛ لأنَّ الحُبَّ للشَّيءِ يُعْمي ويُصِمُّ، فخَطَّأَ رأيَهم في موالاتِهم بما أعَلَمهم به مِن حالاتِه- زَهَّد فيها بما تُورِثُه مِن الشَّقاءِ الدَّائِمِ يومَ البَعْثِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٥).

قال مقاتل بن سليمان: (﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ إن ظَهَروا عليكم). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٠).

وقال ابن عاشور: (جملةُ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿يَكُونُواْ﴾، والواوُ: واوُ الحالِ، أي: وهم قد ودُّوا مِنَ الآنَ أن تَكفُروا، فكيف لو يأسِرونَكم؟ أليس أهمُّ شَيءٍ عندَهم حينَئذٍ أن يَرُدُّوكم كُفَّارًا؟). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٠).

وقال ابن كثير: (يحرِصونَ على ألَّا تَنالوا خَيرًا، فهم عداوتُهم لكم كامِنةٌ وظاهِرةٌ، فكيف توالُونَ مِثلَ هؤلاء؟ وهذا تهييجٌ على عداوتِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٤).

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾.

أي: لا تَحمِلَنَّكم قراباتُكم وأولادُكم على مَعصيةِ اللهِ مِن أجْلِهم؛ فإنَّكم إذا أرضَيْتُموهم بما يُسخِطُ اللهَ فلن يَنفَعوكم بأيِّ وَجهٍ مِن الوُجوهِ يومَ القيامةِ الَّذي يَفصِلُ اللهُ فيه بيْنَكم وبَيْنَهم، فيُدخِلُ المؤمِنينَ الجنَّةَ، ويُدخِلُ الكافِرينَ والعُصاةَ النَّارَ(١).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦، ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٤، ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال ابنُ جُزَي: (يَحتَمِلُ أن يكونَ مِن الفَصلِ بالحُكمِ بَيْنَهم، أو مِنَ الفَصلِ بمعنى التَّفريقِ، أي: يُفَرِّقُ بَيْنَكم وبيْنَ قرابتِكم يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٥).

وقال السمين الحلبي: (قولُه: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يجوزُ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: أنْ يَتعلَّقَ بما قبْلَه، أي: لن يَنفعَكم يومَ القيامةِ، فيُوقَفُ عليه، ويُبْتدأُ: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾. والثَّاني: أنْ يَتعلَّقَ بما بعْدَه، أي: يَفصِلُ بيْنَكم يومَ القيامةِ، فيُوقَفُ على ﴿أَوْلَٰدُكُمْ﴾ ويُبتدَأُ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾). ((الدر المصون)) (١٠/ ٣٠٢). ويُنظر: ((منار الهدى في بيان الوقف والابتدا)) للأشموني (٢/ ٣٣٢).

وقال ابنُ عاشور: (﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظَرفٌ يَتنازَعُه كُلٌّ مِن فِعلِ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾، وفِعلُ ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾؛ إذ لا يَلزَمُ تقَدُّمُ العامِلَينِ على المعمولِ المتنازَعِ فيه إذا كان ظرفًا؛ لأنَّ الظُّروفَ تتقَدَّمُ على عوامِلِها، وإن أبَيتَ هذا التَّنازُعَ فقُلْ: هو ظَرفُ ﴿تَنفَعَكُمْ﴾، واجعَلْ لـ ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ ظرفًا محذوفًا دَلَّ عليه المذكورُ. والفَصلُ هنا: التَّفريقُ، وليس المرادُ به القَضاءَ. والمعنى: يومَ القيامةِ يُفَرِّقُ بَيْنَكم وبَينَ ذَوي أرحامِكم وأولادِكم: فريقٌ في الجنَّةِ، وفَريقٌ في السَّعيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤١).

وممَّن اختار أنَّ الفصلَ بيْنَهم بإدخالِ المؤمنينَ الطَّائعينَ الجنَّةَ، والكافرين والعاصينَ النَّارَ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والرازي، والقرطبي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥١).

أي: واللهُ بصيرٌ بأعمالِكم، لا يخفَى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ بيانُ أنَّ خُلَّةَ غيرِ المتَّقينَ المؤمِنينَ لا مُعَوَّلَ عليها؛ ألَا ترَى أنَّ الموالِينَ المُلْقَى إليهم بالمودَّةِ -في أوَّلِ هذه السُّورةِ- لم يُراعُوا للمُسِرِّينَ إليهم بها، ولم يُحامُوا عليهم مِن أجْلِها[٢]؟!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ فيه بَيانٌ واضِحٌ في أنَّ روابِطَ الدِّينِ أقوى وألزَمُ مِن روابِطِ النَّسَبِ[٣].

٣- قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣]، وهذا كلُّه تكذيبٌ لأطماعِ المشركين الباطِلةِ أنَّ مَنْ تعلَّقوا به مِن دون اللهِ مِن قَرابةٍ أو صِهْرٍ أو نكاحٍ أو صُحْبةٍ يَنفَعُهم يومَ القيامةِ، أو يُجيرُهم مِن عذابِ الله، أو هو يَشفَعُ لهم عندَ اللهِ؛ فإنَّ الأسبابَ كلَّها تَنقَطِعُ يومَ القيامةِ إلَّا ما كان منها متَّصِلًا باللهِ وَحْدَه على أيدي رُسُلِه، فمَن رَكِبَ معصيةَ اللهِ وخالَفَ أمْرَه، فلنْ يَنفَعَه صلاحُ غيرِه مِن قريبٍ أو أجنبيٍّ، ولو كان بيْنَهما في الدُّنيا أشدُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥١).

قال السعدي: (فلذلك حَذَّركم مِن مُوالاةِ الكافِرينَ الَّذين تضُرُّكم مُوالاتُهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٨٤).

الاتِّصالِ؛ فلا اتِّصالَ فَوقَ اتِّصالِ البُنوَّةِ والأبُوَّةِ والزَّوجيَّةِ، ولم يُغْنِ نوحٌ عنِ ابنِه، ولا إبراهيمُ عن أبيه، ولا نوحٌ ولا لوطٌ عن امرأتَيهما مِن اللهِ شَيئًا[١]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ فيه النَّهيُ الشَّديدُ عن مُوالاةِ الكُفَّارِ مِن المُشرِكينَ وغَيرِهم، وإلقاءِ المودَّةِ إليهم، وأنَّ ذلك مُنافٍ للإيمانِ[٢]. والسُّورةُ أصلٌ في النَّهيِ عن مُوالاةِ الكُفَّارِ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ردَّ أهلُ السُّنَّةِ به وأمثالِه على المُعتَزِلةِ وأمثالِهم قَولَهم: (إنَّ المعصيةَ تُنافي الإيمانَ)؛ لأنَّ اللهَ ناداهم بوَصفِ الإيمانِ مع قَولِه: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، فلم يُخرِجْهم بضَلالِهم عن عُمومِ إيمانِهم، ويَشهَدُ لهذا أنَّ الضَّلالَ هنا عن سواءِ السَّبيلِ لا مُطلَقِ السَّبيلِ[٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذا كُلُّه مُعاتَبةٌ لحاطِبٍ، وهو يدُلُّ على فَضْلِه وكَرامتِه، ونَصيحتِه لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وصِدْقِ إيمانِه؛

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٨٢).

فإنَّ المُعاتَبةَ لا تكونُ إلَّا مِن مُحِبٍّ لحَبيبِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أنَّه قد تَحصُلُ للرَّجُلِ مُوادَّةُ أعداءِ اللهِ؛ لِرَحِمٍ أو حاجةٍ، فتكونُ ذنْبًا يَنقُصُ به إيمانُه ولا يكونُ به كافِرًا، كما حَصَلَ مِن حاطِبِ بنِ أبي بَلْتعةَ لَمَّا كاتَبَ المُشرِكينَ ببَعضِ أخبارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنزَلَ اللهُ فيه الآياتِ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ فيه سؤالٌ: اتِّخاذُ العَدُوِّ وليًّا كيف يُمكِنُ، وقد كانت العداوةُ مُنافِيةً للمَحَبَّةِ والموَدَّةِ، والمحبَّةُ والمودَّةُ مِن لوازمِ ذلك الاتِّخاذِ؟

الجوابُ: لا يَبعُدُ أن تكونَ العداوةُ بالنِّسبةِ إلى أمرٍ، والمحبَّةُ والمودَّةُ بالنِّسبةِ إلى أمرٍ آخَرَ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾[٣] [التغابن: ١٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أنَّ الكافرَ عدوٌّ للهِ ولنا[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ أنَّ موَدَّةَ أعداءِ اللهِ ومحبَّتَهم ومُوالاتَهم مُخالِفةٌ لِمَا يجِبُ على المُسلِمِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قد نهى عن ذلك[٥].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ نزَلَ فيما

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٣/ ١٦).

فعَلَه حاطِبٌ خَوفًا على مالِه ووَلَدِه؛ فيُؤخَذُ منه أنَّ الخَوفَ عليهما لا يُبيحُ التَّقِيَّةَ في دِينِ اللهِ[١]، ولا يُبيحُ التَّقِيَّةَ في إظهارِ الكُفْرِ، كما يُبيحُ في الخَوفِ على النَّفْسِ، ويُبَيِّنُ ذلك أنَّ اللهَ تعالى فَرَضَ الهِجْرةَ، ولم يَعْذِرْهم في التَّخَلُّفِ مِن أجْلِ أموالِهم وأولادِهم. وقيل: إنَّما ظَنَّ حاطِبٌ أنَّ ذلك يجوزُ له؛ ليَدفَعَ به عن وَلَدِه، كما يجوزُ له أن يَدفَعَ عن نَفْسِه بمِثْلِ ذلك عندَ التَّقِيَّةِ[٢].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ فيه سُؤالٌ: لَمَّا قال: ﴿عَدُوِّي﴾، فلِمَ لَمْ يكتَفِ به حتَّى قال: ﴿وَعَدُوَّكُمۡ﴾؛ لأنَّ عَدُوَّ اللهِ إنَّما هو عَدُوُّ المؤمنينَ؟

الجوابُ: الأمرُ لازِمٌ مِن هذا التَّلازُمِ، وإنَّما لا يَلزَمُ مِن كَونِه عَدُوًّا للمُؤمِنينَ أن يكونَ عَدُوًّا لله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾[٣] [التغابن: ١٤]. أو أنَّه ذكَرَ ذلك في مَقامِ التَّنفيرِ؛ إذ هو عدوٌّ لله وعدوٌّ لهم أيضًا.

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ ولم يقُلْ: (وَلِيًّا)، والعَدُوُّ والوَلِيُّ بلَفظٍ؟

الجوابُ: كما أنَّ المعرَّفَ بحَرفِ التَّعريفِ يتناوَلُ كُلَّ فَردٍ، فكذلك المُعَرَّفُ بالإضافةِ[٤]، وكذلك فإنَّ لفظ «العَدُوَّ» مَصدَرٌ يُطلَقُ على الواحِدِ والاثنينِ والجماعةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٠٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦٨) نقلًا عن القاضي أبي يعلى.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٠).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ سؤالٌ: لماذا لم يَكُنِ الكَلامُ: «يُخرِجونَكم والرَّسولَ»؛ لأنَّه لا فَصْلَ مع إمكانِ الوَصلِ، كما قال ابنُ مالكٍ في الألفيَّةِ:

«وفي اختيارٍ لا يَجيءُ المُنفَصِلْ إذا تأتَّى أنْ يجيءَ المتَّصِلْ»؟

الجوابُ: نعَمْ، هو في الإمكانِ أنْ يكونَ هذا، لكنْ يُفَوِّتُ الغايةَ؛ ففي قَولِه: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ تقديمُ الرُّتبةِ؛ فذُكِرَ الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لئلَّا يكونَ تابعًا لغَيرِه، فيُقالَ: «يُخرِجونَكم والرَّسولَ»[1]؛ لأنَّه الأصلُ للمؤمنينَ به[2]. وكذلك قُصِدَ فيها تقدُّمُ ذِكْرِ الرَّسولِ؛ تشريفًا له، وتشنيعًا على مَنْ تجاسَرَ على مثلِ ذلك الفِعلِ الفَظيعِ[3].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ فيه سؤالٌ: لمْ يقُلْ: (بما أسرَرْتُم وما أعلَنْتُم)، مع أنَّه أليقُ بما سبقَ، وهو ﴿تُسِرُّونَ﴾؟

الجوابُ: أنَّ فيه مِن المبالغةِ ما ليس في ذلك؛ فإنَّ الإخفاءَ أبلَغُ من الإسرارِ؛ دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، أي: أخفى مِنَ السِّرِّ[4].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أنَّ الخِلافَ الَّذي يَقَعُ بيْنَ أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطلِ لا يَنتَهي بالدُّنيا، وإنَّما سوف يَحكُمُ اللهُ بيْنَهم يومَ القيامةِ، ويَنصُرُ أهلَ الحقِّ[5]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ ﴿يَفْصِلُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٩١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾

- في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ...﴾ وُجِّهَ الخِطابُ بالنَّهيِ إلى جَميعِ المؤمنينَ؛ تَحذيرًا مِن إتيانِ مِثلِ فِعلِ حاطبٍ[١].

- والاتِّخاذُ: افتِعالٌ مِن الأخْذِ، صِيغَ الافتِعالُ للمُبالَغةِ في الأخذِ؛ فأُطلِقَ على التَّلبُّسِ والمُلازَمةِ[٢].

- وأضافَ العدُوَّ إليه سُبحانَه في قولِه: ﴿عَدُوِّى﴾؛ تَغليظًا لجُرْمِهم، وإعلامًا بحُلولِ عِقابِ اللهِ بهم[٣].

- قولُه: ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ قُدِّم ﴿عَدُوِّى﴾ على (عَدُوَّكُمْ)؛ قيل: لأنَّ الشَّيءَ إذا كان له نِسبةٌ إلى الطَّرَفَينِ، فالطَّرَفُ الأعلى مُقدَّمٌ على الطَّرفِ الأدنى. وقيل: لأنَّ عداوةَ العبدِ لله هي الأصلُ، وهي أشدُّ قُبحًا؛ فلذا قُدِّمَتْ، وقُبحُها في أنَّهم عبَدوا غيرَ خالِقِهم، وشكَروا غيرَ رازِقِهم، وكذَّبوا رُسُلَ ربِّهم وآذَوْهم. كذلك فتقديمُه يؤكِّدُ بأنَّه هو السَّببُ في العداوةِ بيْن المؤمنينَ والكافِرين، وما كان سببًا فحقُّه التَّقديمُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصر السابق)) (٢٨/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٦)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٨١).

- وقولُه: ﴿تُلْقُونَ﴾ بيانٌ لمُوالاتِهم، أو استئنافُ إخبارٍ، كأنَّه لَمَّا قِيل: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، قالوا: كيف نتَّخِذُهم أولياءَ؟ فقِيل: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿تُلْقُونَ ...﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾؛ لأنَّ جَعْلَها حالًا يُتوصَّلُ منه إلى التَّعجيبِ مِن إلْقائِهم إليهم بالمودَّةِ[(١)].

- والإلقاءُ مُعبَّرٌ به هنا عن إيقاعِ الشَّيءِ بدونِ تَدبُّرٍ في مَوقِعِه، أي: تَصرِفونَ إليهم مَودَّتَكم بغَيرِ تأمُّلٍ[(٢)].

- والباءُ في ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ لتأْكيدِ اتِّصالِ الفِعلِ بمَفعولِه، وأصلُ الكلامِ: تُلْقُون إليهم المَودَّةَ، وذلك تَصويرٌ لقُوَّةِ مَودَّتِهم لهم. أو سَببيَّةٌ، والمفعولُ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: تُلْقُون إليهم أخبارَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بسَببِ المودَّةِ الَّتي بيْنَكم وبيْنَهم[(٣)].

- وبدَأَ هنا في قولِه: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ بلَفظِ ﴿تُلْقُونَ﴾، وبعْدَه بلَفظِ ﴿تُسِرُّونَ﴾؛ تَنبيهًا بالأوَّلِ على ذمِّ مَودَّةِ الأعداءِ جَهرًا وسِرًّا، وبالثَّاني على تأْكيدِ ذَمِّها سِرًّا، وخَصَّ الأوَّلَ بالعُمومِ -أي: جَهرًا وسِرًّا-؛ لتَقدُّمِه[(٤)].

- وزِيدَ في تَصويرِ هذه الحالةِ بجُملةِ الحالِ الَّتي بعْدَها، وهي ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٠).

بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾، وهي حالٌ مِن ضَميرِ ﴿إِلَيْهِم﴾ أو مِن ﴿عَدُوِّى﴾. و(مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) هو القرآنُ والدِّينُ، وذُكِر بطَريقِ الموصوليَّةِ؛ لِيَشملَ كلَّ ما أتاهم به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على وجْهِ الإيجازِ، مع ما في الصِّلةِ مِن الإيذانِ بتَشنيعِ كُفْرِهم بأنَّه كُفْرٌ بما ليس مِن شأْنِه أنْ يَكفُرَ به طُلَّابُ الهُدى؛ فإنَّ الحقَّ مَحبوبٌ مَرغوبٌ[1].

- قولُه: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ فيه تَعديةُ (جَاءَ) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ -وهمُ الَّذين آمَنوا-؛ لأنَّهم الَّذين انتَفَعوا بذلك الحقِّ وتَقبَّلوه، فكأنَّه جاء إليهم لا إلى غَيرِهم، وإلَّا فإنَّه جاء لدَعوةِ الَّذين آمَنوا والمُشرِكين، فقَبِله الَّذين آمَنوا، ونَبَذَه المشرِكون، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ كُفْرَ الكافِرينَ به ناشئٌ عن حَسَدِهم الَّذين آمَنوا قبْلَهم، وفي ذلك أيضًا إلهابٌ لقُلوبِ المؤمنينَ؛ لِيَحذَروا مِن مُوالاةِ المشرِكين[2].

- وجُملةُ ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لكُفْرِهم، أو حالٌ مِن ضَميرِ ﴿كَفَرُواْ﴾، أي: لم يَكتَفُوا بكُفْرِهم بما جاء مِن الحقِّ، فتَلبَّسوا معه بإخراجِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإخراجِكم مِن بَلَدِكم؛ لأنْ تُؤمِنوا باللهِ ربِّكم، أي: هو اعتداءٌ حَمَلَهم عليه أنَّكم آمنْتُم باللهِ ربِّكم، وأنَّ ذلك لا عُذْرَ لهم فيه؛ لأنَّ إيمانَكم لا يَضِيرُهم؛ ولذلك أُجرِيَ على اسمِ الجلالةِ وصْفُ ﴿رَبِّكُمْ﴾. وحُكِيَت هذه الحالةُ بصِيغةِ المضارعِ لتَصويرِ الحالةِ؛ لأنَّ الجُملةَ لَمَّا وَقَعَت حالًا مِن ضَميرِ ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ﴾، كان إخراجُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ في تلك الحالةِ عَمَلًا فظيعًا؛ فأُرِيدَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٣٥).

استحضارُ صُورةِ ذلك الإخراجِ العَظيمِ[١].

- وأُسنِدَ الإخراجُ إلى ضَميرِ العدُوِّ كلِّهم في قولِه: ﴿يُخْرِجُونَ﴾؛ لأنَّ جَميعَهم كانوا راضِينَ بما يَصدُرُ مِن بَعضِهم مِن أذَى المسلمين، وربَّما أغْرَوا به سُفهاءَهُم[٢].

- وقولُه: ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ تَعليلٌ للإخراجِ، أي: يُخرِجونكم لإيمانِكم، وفيه تَغليبُ المُخاطَبِ، والْتِفاتٌ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ ﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على ما يُوجِبُ الإيمانَ مِن الأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ[٣].

- وجِيءَ بصِيغةِ المضارعِ في قولِه تعالَى: ﴿أَن تُؤْمِنُوا﴾؛ لإفادةِ استِمرارِ إيمانِ المؤمنينَ، وفيه إيماءٌ إلى الثَّناءِ على المؤمنينَ بثَباتِهم على دِينِهم، وأنَّهم لمْ يَصُدَّهم عنه ما سبَّبَ لهم الخُروجَ مِن بِلادِهم[٤].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ شرْطٌ ذُيِّل به النَّهيُ مِن قولِه: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، بمَنزلةِ التَّتميمِ لِما قبْلَه دونَ قصْدِ تَعليقِ ما قبْلَه بمَضمونِ فِعلِ الشَّرطِ، أي: لا يُقصَدُ أنَّه إذا انْتَفى فِعلُ الشَّرطِ انْتَفى ما عُلِّقَ عليه كما هو الشَّأنُ في الشُّروطِ، بلْ يُقصَدُ تأْكيدُ الكلامِ الَّذي قبْلَه بمَضمونِ فِعلِ الشَّرطِ، فيَكونُ كالتَّعليلِ لِما قبْلَه، وإنَّما يُؤتَى به في صُورةِ الشَّرطِ مع ثِقةِ المُتكلِّمِ بحُصولِ مَضمونِ فِعلِ الشَّرطِ بحيث لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٥).

يُتوقَّعُ مِن السَّامعِ أنْ يَحصُلَ منه غَيرُ مَضمونِ فِعلِ الشَّرطِ، فتَكونُ صِيغةُ الشَّرطِ مُرادًا بها التَّحذيرُ؛ لأنَّ معْنى الشَّرطِ يَلزَمُه التَّردُّدُ غالبًا؛ ولهذا يُؤتَى بمِثلِ هذا الشَّرطِ إذا كان المُتكلِّمُ واثقًا بحُصولِ مَضمونِه مُتحقِّقًا صِحةَ ما يقولُه قبْلَ الشَّرطِ، ويَغلِبُ أنْ يكونَ فِعلُ الشَّرطِ في مِثلِه فِعلَ كَونٍ إيذانًا بأنَّ الشَّرطَ مُحقَّقُ الحُصولِ، والمقصودُ استقرارُ النَّهيِ عن اتِّخاذِ عَدُوِّ اللهِ أولياءَ، وعُقِّبَ بفرْضٍ شَرْطُه مَوثوقٌ بأنَّ الَّذين نُهُوا مُتلبِّسونَ بمَضمونِ فِعلِ الشَّرطِ بلا رَيبٍ، فكان ذِكرُ الشَّرطِ ممَّا يَزيدُ تأْكيدَ الانكفافِ[(١)].

- والمرادُ بالخُروجِ الخروجُ مِن مكَّةَ مُهاجَرةً إلى المدينةِ، فالخِطابُ خاصٌّ بالمهاجرينَ، على طَريقةِ تَخصيصِ العُمومِ في قولِه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، رُوعِيَ في هذا التَّخصيصِ قَرينةُ سَببِ نُزولِ الآيةِ على حادثِ حاطبِ بنِ أبي بَلْتعةَ[(٢)].

- قولُه: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ بَيانًا لجُملةِ ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، أو استئنافٌ، أو بدَلُ اشتمالٍ منها؛ فإنَّ الإسرارَ إليهم بالموَدَّةِ ممَّا اشتَمَلَ عليه الإلقاءُ إليهم بالمَودَّةِ. والخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والتَّعجيبِ، فالتَّوبيخُ مُستفادٌ مِن إيقاعِ الخبَرِ عَقِبَ النَّهيِ المُتقدِّمِ، والتَّعجيبُ مُستفادٌ مِن تَعقيبِه بجُملةِ ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾، أي: كيف تَظُنُّون أنَّ إسرارَكم إليهم يَخْفَى علينا، ولا نُطلِعُ عليه رَسولَنا[(٣)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٨).

- ومَفعولُ ﴿تُسِرُّونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مَحذوفًا يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: تُخبِرُونهم أحوالَ المسلمينَ سِرًّا، وجِيءَ بصِيغةِ المُضارِعِ لتَصويرِ حالةِ الإسرارِ إليه؛ تَفظيعًا لها، والباءُ في ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: تُخبِرونهم سِرًّا بسَببِ المودَّةِ، أي: بسَببِ طَلَبِ المودَّةِ لهم، كما هو في قضيَّةِ كِتابِ حاطبٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ في مَحلِّ المفعولِ لفِعلِ ﴿تُسِرُّونَ﴾، والباءُ زائدةً لتَأكيدِ المَفعوليَّةِ[1].

- وجُملةُ ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿تُسِرُّونَ﴾، أو مُعترِضةٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، وهذا مَناطُ التَّعجيبِ مِن فِعلِ المُعرَّضِ به، وهو حاطبُ بنُ أبي بَلْتعةَ[2].

- وتَقديمُ الإخفاءِ على الإعلانِ؛ لأنَّه المناسِبُ لقولِه: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾، ولمُوافَقتِه للقصَّةِ، وللمُبالَغةِ في بَيانِ شُمولِ عِلمِه المحيطِ لجَميعِ المعلوماتِ، كأنَّ عِلمَه بما يُسِرُّونه أقدَمُ منه بما يُعْلِنونَه، مع كَونِهما في الحقيقةِ على السَّويَّةِ[3]. وأيضا قَدَّم العِلمَ بالإخفاءِ على الإعلانِ، مع أنَّ ذلك مُستَلزِمٌ لهذا مِن غيرِ عَكسٍ؛ إذ هما سِيَّانِ في عِلْمِ الله تعالى، ولأنَّ المقصودَ هو بيانُ ما هو الأخفى، فيكونُ مُقَدَّمًا[4].

- قولُه: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ النَّهيِ في قولِه تَعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، عُطِفَ على النَّهيِ التَّوعُّدُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١١٨) و(٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٧).

على عدَمِ الانتهاءِ بأنَّ مَن لم يَنتَهِ عمَّا نُهِيَ عنه هو ضالٌّ عن الهُدى. و(مَنْ) شَرطيَّةٌ، الفِعلُ بعْدَها مُستقبَلٌ، وهو وَعيدٌ للَّذين يَفعَلون مِثلَ ما فَعَلَ حاطِبٌ بعْدَ أنْ بَلَغَهم النَّهيُ والتَّحذيرُ والتَّوبيخُ والتَّفظيعُ لعَمَلِه[١].

- وقولُه: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ مُعبَّرٌ به هنا عن أعْمالِ الصَّلاحِ والهُدَى؛ لشَبَهِها بالطَّريقِ المُستوي الَّذي يَبلُغُ مَن سَلَكَه إلى بُغيتِه، ويَقَعُ مَنِ انحَرَفَ عنه في هَلَكةٍ، والمُرادُ به هنا: ضلَّ عن الإسلامِ، وضلَّ عن الرُّشدِ[٢].

- و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ مِن إضافةِ الصِّفةِ للمَوصوفِ، أي: الطَّريقَ المستويَ؛ لقصدِ المبالغةِ في بيانِ قوَّةِ الاتِّصافِ كأنَّه نفْسُ السَّواءِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾

- هذه الجُملةُ ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ...﴾ تُفيدُ معْنى التَّعليلِ لمُفادِ قولِه تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]، باعتبارِ بَعضِ ما أفادَتْه الجُملةُ، وهو الضَّلالُ عن الرُّشدِ؛ فإنَّه قد يَخفَى ويُظَنُّ أنَّ في تَطلُّبِ مَودَّةِ العدُوِّ فائدةً، كما هو حالُ المنافقينَ، فقد يُظَنُّ أنَّ مُوالاتَهم مِن الدَّهاءِ والحزْمِ رجاءَ نفْعِهم إنْ دالَتْ لهم الدَّولةُ؛ فبيَّنَ اللهُ لهم خطأَ هذا الظَّنِّ، وأنَّهم إنِ استَفادوا مِن مَودَّتِهم إيَّاهم اطِّلاعًا على قُوَّتِهم فتَأهَّبوا لهم وظَفِروا بهم، لم يَكونوا لِيَرْقُبوا فيهم إلًّا ولا ذِمَّةً، وأنَّهم لو أخَذُوهم وتَمكَّنوا منهم لَكانوا أعداءً لهم؛ لأنَّ الَّذي أضْمَرَ العداوةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٤٥)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٨٤).

زَمَنًا يَعسُرُ أنْ يَنقلِبَ وَدودًا؛ وذلك لشِدَّةِ الحَنَقِ على ما لَقُوا مِن المسلمينَ مِن إبطالِ دِينِ الشِّركِ، وتَحقيرِ أهْلِه وأصنامِهم[١].

- وفِعلُ ﴿يَكُونُواْ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ عَداوتَهم قَديمةٌ، وأنَّها تَستمِرُّ[٢].

- والبَسطُ: مُعبَّرٌ به هنا عن الإكثارِ؛ لِما شاعَ مِن تَشبيهِ الكثيرِ بالواسعِ والطَّويلِ، وتَشبيهِ ضِدِّه -وهو القبضُ- بضِدِّ ذلك، فبَسْطُ اليدِ الإكثارُ مِن عَمَلِها، والمرادُ به هنا: عمَلُ اليدِ الَّذي يضُرُّ، مثل الضَّربِ والتَّقييدِ والطَّعنِ، وعمَلُ اللِّسانِ الَّذي يُؤذِي، مثل الشَّتمِ والتَّهكُّمِ[٣].

- قولُه: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ قيل: إنَّه مَعطوفٌ على جَوابِ الشَّرطِ، وعُدِلَ عن المضارعِ المناسبِ لِمَا قبْلَه إلى الماضي، مع أنَّ السِّياقَ يَتطلَّبُ أنْ يكونَ مُضارعًا مُستقبَلًا؛ لاعتبارِه قدْ كان، أي: إنَّ وَدادتَهم كُفْرَكم هو المُهِمُّ لَديهم، ولا شَيءَ يَعدِلُه في الرُّجحانِ، يعْني أنَّهم يُريدون أنْ يُلْحِقوا بكم جَميعَ مَضارِّ الدُّنيا والدِّينِ، وارْتدادُكم كُفَّارًا أسبَقُ المَضارِّ لكم؛ لأنَّهم يَعلَمون أنَّ الدِّينَ أعزُّ عليكم مِن أرواحِكم، وهذا مِن بَديعِ التَّعبيرِ[٤]. فلأنَّ مُصيبةَ الدِّينِ أعظَمُ، فهُم إليها أسرَعُ؛ لأنَّ دأبَ العدُوِّ القَصدُ إلى أعظَمِ ضَررٍ يَراهُ لِعَدوِّه، وعُبِّر بما يُفهِمُ التَّمنِّيَ الَّذي يَكونُ في المُحالاتِ؛ لِيَكونَ المعنى أنَّهم أحَبُّوا ذلك غايةَ الحُبِّ وتَمَنَّوْهُ، وفيه بُشْرى بأنَّه مِن قَبيلِ المُحالِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٤).

وقيل: التَّعبيرُ بالماضي وإنْ كان المعنى على الاستِقبالِ؛ للإشعارِ بأنَّ وَدادَتَهم كُفْرَهم قبْلَ كلِّ شَيءٍ، وأنَّها حاصِلةٌ وإنْ لم يَثقَفوهم. وتحقيقُ ذلك أنَّ الوَدادةَ سابقةٌ بالنَّوعِ، مُتأخِّرةٌ باعتِبارِ بعضِ الأفرادِ؛ فعُبِّر بالماضي نظَرًا للأوَّلِ، وجُعِلَت جوابًا مُتأخِّرًا نظرًا للثَّاني[1].

- وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿يَكُونُواْ﴾، والواوُ واوُ الحالِ، أي: وهمْ قدْ ودُّوا مِن الآنَ أنْ تَكفُروا، فكيف لو يَأسِرُونكم؟! أليس أهمُّ شَيءٍ عِندَهم حينَئذٍ أنْ يَرُدُّوكم كُفَّارًا؟! فجُملةُ الحالِ دليلٌ على مَعطوفٍ مُقدَّرٍ على جَوابِ الشَّرطِ، كأنَّه قِيل: إنْ يَثقَفوكم يَكونوا لكمْ أعداءً... إلى آخِرِه، ويرُدُّوكم كُفَّارًا، وليستْ جُملةُ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ مَعطوفةً على جُملةِ الجوابِ؛ لأنَّ مَحبَّتَهم أنْ يَكفُرَ المسلمون مَحبَّةٌ غيرُ مُقيَّدةٍ بالشَّرطِ؛ ولذلك وقَعَ فِعلُ (ودُّوا) ماضيًا ولم يقَعْ مُضارِعًا مِثلَ الأفعالِ الثَّلاثةِ قبْلَه ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّه ليس مَعطوفًا على جَوابِ الشَّرطِ[2]؛ فليس قولُه: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ مَعطوفًا على جَوابِ الشَّرطِ؛ لأنَّ وَدادَتَهم كُفْرَهم ليست مُترتِّبةً على الظَّفرِ بهم، والتَّسلُّطِ عليهم، بلْ هم وادُّون كُفْرَهم على كلِّ حالٍ، سواءٌ أظفَروا بهمْ أمْ لم يَظْفَروا، وإنَّما هو مَعطوفٌ على جُملةِ الشَّرطِ والجزاءِ، أخبَرَ تَعالى بخَبَرَين؛ أحدُهما: اتِّضاحُ عَداوتِهم والبَسطُ إليهم ما ذُكِرَ على تَقديرِ الظَّفرِ بهم، والآخرُ: وَدادتُهم كُفْرَهم، لا على تَقديرِ الظَّفرِ بهم[3].

- وقُدِّمُ الأوَّلُ -وهو ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٤).

بِٱلسُّوٓءِ﴾-؛ لأنَّه أبيَنُ في العَداوةِ، وإنْ كان الثَّاني -وهو: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾- أنكَأَ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للإعلامِ بأنَّ أرحامَهم وأولادَهم لنْ يَنفَعُوهم[2]. وهو تَخلُّصٌ مِن تَبْيينِ سُوءِ عاقبةِ مُوالاةِ أعداءِ الدِّينِ في الحياةِ الدُّنيا، إلى بَيانِ سُوءِ عاقبةِ تلك المُوالاةِ في الآخِرةِ، ومُناسَبةُ حُسْنِ التَّخلُّصِ قولُه: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢] الدَّالُّ على معْنى: أنَّ وَدادتَهم كُفْرَكم مِن قبْلِ أنْ يَثقَفوكم تَنقلِبُ إلى أنْ يُكْرِهوكم على الكُفرِ حِينَ يَثقَفونَكم، فلا تَنفَعُكم ذَوُو أرحامِكم -مِثل الأُمهاتِ والإخوةِ الأشِقَّاءِ ولِلأُمِّ-، ولا أولادُكم، ولا تَدفَعُ عنكم عَذابَ الآخِرةِ إنْ كانوا قد نَفَعوكم في الدُّنيا بصِلةِ ذَوي الأرحامِ ونُصرةِ الأولادِ؛ فجُملةُ ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ إلى آخِرِها مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن سؤالٍ مَفروضٍ ممَّن يَسمَعُ جُملةَ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]، أي: مِن حقِّ ذلك أنْ يَسألَ عن آثارِه لخطَرِ أمْرِها، وإذا كان ناشئًا عن كَلامٍ جَرى مَجرى التَّعليلِ لجُملةِ ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]؛ فهو أيضًا مُفيدٌ تَعليلًا ثانيًا بحسَبِ المعْنى، ولولا إرادةُ الاستئنافِ البَيانيِّ لَجاءتْ هذه الجُملةُ مَعطوفةً بالواوِ على الَّتي قبْلَها، وزاد ذلك حُسْنًا أنَّ ما صدَرَ مِن حاطِبِ بنِ أبي بَلْتعةَ ممَّا عُدَّ عليه هو مُوالاةٌ للعَدُوِّ، وأنَّه اعتذَرَ بأنَّه أراد أنْ يتَّخِذَ عِندَ المشركين يدًا يَحْمُون بها قَرابتَه (أي: أُمَّه وإخوتَه)؛ ولذلك ابتُدِئَ في نفْيِ النَّفعِ بذِكرِ الأرحامِ؛ لمُوافَقةِ قِصَّةِ حاطبٍ؛ لأنَّ الأمَّ ذاتُ رَحِمٍ، والإخوةُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٨).

أبْناؤها همْ إخوتُه مِن رَحِمِه، وأمَّا عطْفُ ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ فتَتميمٌ[١]؛ لشُمولِ النَّهيِ قومًا لهم أبناءٌ في مكَّةَ[٢].

- قولُه: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡ﴾، أي: إنَّهم لا يَنفَعونكم يومَ القِيامةِ، فما لَكم تَرفُضون حقَّ اللهِ مُراعاةً لهم وهم يَفِرُّون منكم يومَ اشتِدادِ الهولِ؟! خطَّأَ رأْيَهم في مُوالاةِ الكفَّارِ أوَّلًا بما يَرجِعُ إلى حالِ مَن والَوهُ، ثمَّ خطَّأَهُ ثانيًا بما يَرجِعُ إلى حالِ مَنِ استَعْمَلوا المُوالاةَ مِن أجْلِهم، وهو تَقسيمٌ حاصرٌ؛ إشارةً إلى أنَّ ما أقدَمَ عليه حاطِبٌ مِن أيِّ جِهةٍ نُظِر إليه يكونُ خطأً وباطلًا[٣].

---

(١) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو: هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو: هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ. ومِن أمثلةِ التَّتميم قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾[النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((تحرير التَّحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٢٧)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و (٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدِّين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التَّفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٠، ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٢).

الآيات (٤-٦)

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أُسْوَةٌ﴾: أي: قُدوةٌ وائتِمامٌ واتِّباعٌ، وأصلُ (أسو): يدُلُّ على المُداواةِ والإصلاحِ[(١)].

﴿بُرَءَٰٓؤُاْ﴾: جَمعٌ على فُعلاءَ، مُفردُه بريءٌ، مِثلُ: شُركاءَ وشَريكٍ، مِن (برِئ)، بمعنى التَّفصِّي والتَّنزُّهِ ونفْيِ المُخالَطةِ، فالبريءُ: الخليُّ عن التَّلبُّسِ بشَيءٍ وعن مُخالَطتِه، وأصلُ (برأ) هنا: يدُلُّ على التَّباعُدِ مِن الشَّيءِ ومُزايَلتِه[(٢)].

﴿ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾: العَداوةُ: اختِلافُ القُلوبِ والنِّيَّاتِ والتَّباعُدُ بها، مأخوذةٌ مِن عَدْوَتَيِ الجَبلِ، وهما طَرَفاه؛ سُمِّيَا بذلك لبُعدِ ما بيْنَهما، وقيل: مِن عدا، أي: ظَلَم. والبُغضاءُ: البُغضُ، وهو نِفارُ النَّفْسِ عن الشَّيءِ الَّذي تَرغَبُ عنه، وأصلُ البُغضِ: خِلافُ الحبِّ. والعَداوةُ أخصُّ مِن البَغضاءِ؛ لأنَّ كلَّ عدُوٍّ مبغِضٌ، وقد

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٢) و (١١/ ١٧٦).

يُبغَضُ مَن ليس بعَدُوٍّ[١].

﴿أَنَبْنَا﴾: أي: رجَعْنا، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[٢].

﴿فِتْنَةً﴾: الفِتنةُ في الأصلِ: الاختِبارُ والابتلاءُ والامتِحانُ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه، وتُطلَقُ الفِتنةُ على الضَّلالِ والشِّرْكِ والكُفرِ والشَّرِّ والعَذابِ[٣].

﴿يَتَوَلَّ﴾: أي: يُعْرِضْ، وتولَّى إذا عُدِّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنى الإعراضِ، وإذا عُدِّي بنَفْسِه اقتَضَى مَعنى الوَلايةِ والقُرْبِ[٤].

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: أي: المحمودُ على كلِّ حالٍ، وفي جميعِ أفعالِه وأقوالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والمحمودُ على ما لَه مِن الكَمالِ، وعلى نِعَمِه الَّتي أنْعَمها على خلْقِه، المستحِقُّ لكلِّ حمْدٍ، والحمدُ إخبارٌ عن مَحاسنِ المحمودِ معَ حُبِّه وإجلالِه

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦، ٥٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٨، ١٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٤٤).
وقال العسكري: (الفرقُ بيْن العَداوةِ والبغضةِ: أنَّ العَداوةَ البعادُ مِن حالِ النُّصْرةِ، ونقيضُها الولايةُ، وهي الهرَبُ مِن حالِ النُّصْرةِ. والبغضةَ: إرادةُ الاستِحقارِ والإهانةِ، ونقيضُها المحبَّةُ، وهو إرادةُ الإعظامِ والإجلالِ). ((الفروق اللغوية)) (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩- ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥، ٨٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

وتَعظيمِه، وقيل: هو أيضًا بمعنى حامِدٍ، يَحمَدُ كُلَّ مَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه، وأصلُ (حمد): يدُلُّ على خِلافِ الذَّمِّ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- ويأمُرُ بالاقتِداءِ به، فيقولُ تعالى: قد كانت لكم -أيُّها المؤمِنونَ- قُدوةٌ صالِحةٌ في إبراهيمَ والَّذين معه مِن المُؤمِنينَ، حينَ قالوا لِقَومِهم المُشرِكينَ: إنَّا نتبَرَّأُ منكم ومِمَّا تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ، كفَرْنا بكم، وظهَرَ بيْنَنا وبيْنَكم العداوةُ والكراهيةُ أبدًا إلى أن تُؤمِنوا بالله وَحْدَه، إلَّا قَولَ إبراهيمَ لأبيه المُشرِكِ: لَأستَغفِرَنَّ لك اللهَ؛ فلا تتَأَسَّوا به في هذا القَولِ؛ إذ لا ينبغي لأحَدٍ أن يَستَغفِرَ للمُشرِكينَ ولو كانوا ذَوِي قُرْبَى. قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ لأبيه: والحالُ أنِّي لا أدفَعُ عنك عُقوبةَ اللهِ.

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن قولِ إبراهيمَ والَّذين معَه، حينَ فارَقوا قومَهم وتبرَّؤوا منهم، فلَجَؤوا إلى الله وتضرَّعوا إليه، فقالوا: رَبَّنا عليك وَحْدَك توَكَّلْنا، وإليك وَحْدَك تُبْنَا، وإليك مَرجِعُنا في الآخِرةِ، يا ربَّنا لا تُسلِّطْهم علينا فيَفْتِنونا، ويُميلونا عمَّا نحن عليه مِن الحقِّ، ويُفتَنونَ أيضًا بأنفُسِهم؛ فإنَّهم إذا رأوا لهم الغلَبَةَ ظنُّوا أنَّهم على الحقِّ وأنَّا على الباطلِ، فازدادوا كفرًا وطغيانًا، وامْحُ عنَّا ذُنوبَنا يا رَبَّنا؛ إنَّك أنت العزيزُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

ثمَّ يكرِّرُ الله تعالى الحثَّ لهم على الاقتداءِ بهم، فيقولُ: لقد كان لكم -أيُّها المؤمِنونَ- قُدوةٌ صالِحةٌ في إبراهيمَ ومَن معه مِن المؤمِنينَ؛ لِمَن يرجو رِضوانَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨، ٧٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

اللهِ والنَّجاةَ مِن عَذابِه، ومَن يُعرِضْ عن طاعةِ اللهِ والتَّأسِّي برُسُلِه، فإنَّ اللهَ هو الغَنيُّ المحمودُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعْدَ الفراغِ مِن بَيانِ خطَأِ مَن يُوالي عدُوَّ اللهِ بما يَجُرُّ إلى أصحابِه مِن مَضارَّ في الدُّنيا وفي الآخِرةِ؛ تَحذيرًا لهمْ مِن ذلك، انتُقِلَ إلى تَمثيلِ الحالةِ الصَّالحةِ بمِثالٍ مِن فِعلِ أهلِ الإيمانِ الصَّادقِ، والاستِقامةِ القويمةِ، وناهيكَ بها أُسوةً[1]، فلَمَّا نَهَى عن مُوالاةِ الكفَّارِ؛ ذكَرَ قصَّةَ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ مِن سِيرتِه التَّبرُّؤَ مِن الكفَّارِ؛ ليَقتدُوا به في ذلك ويَتأسَّوا[2].

وأيضًا لَمَّا أبلغَ اللهُ سُبحانَه في وَعْظِهم في ذلك، وكانت عادتُه التَّربيةَ بالماضِينَ؛ كان مَوضِعَ توَقُّعِ ذلك[3].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾.

أي: قد كانت لكم -أيُّها المؤمِنونَ- قُدوةٌ صالِحةٌ في إبراهيمَ والَّذين معه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٦).

المُؤمِنينَ[(١)].

﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: حينَ قال إبراهيمُ ومَن معه مِن المؤمِنينَ لِقَومِهم المُشرِكينَ الكافِرينَ: إنَّا نتبَرَّأُ منكم ومِمَّا تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ مِن الأصنامِ تبَرُّؤًا عظيمًا[(٢)].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ إبراهيمَ لأبيه وقَومِه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

ممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ(الَّذِينَ مَعَهُ): أتْباعُه المؤمنونَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ «الَّذِينَ مَعَهُ»: الَّذين آمَنوا به واتَّبَعوا هَدْيَه، وهم زَوجُه سارَةُ، وابنُ أخيه لوطٌ، ولم يكُنْ لإبراهيمَ أبناءٌ؛ فضميرُ «إِذْ قَالُوا» عائدٌ إلى إبراهيمَ والَّذين معه، فهم ثلاثةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥).

وقيل: المرادُ: الَّذين معه مِن أنبياءِ اللهِ تعالى. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٦).

قال ابن عطيَّة: (واختلَف النَّاسُ في الَّذين معه؛ فقال قومٌ مِن المتأوِّلينَ: أراد: مَنْ آمَنَ به مِنَ النَّاسِ. وقال الطَّبريُّ وغيرُه: أراد الأنبياءَ الَّذين كانوا في عصرِه وقريبًا مِن عصرِه، وهذا القولُ أرجَحُ؛ لأنَّه لم يُروَ أنَّ إبراهيمَ كان له أتْباعٌ مؤمنونَ في مكافحتِه نُمْرُودًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٦، ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ بقَولِهم هذا لقَومِهم أنَّهم قالوه مقالَ الصَّادقِ في قَولِه؛ فالائتِساءُ بهم في ذلك القَولِ، والعَمَلِ بما يُترجِمُ عليه القَولُ مِمَّا في النُّفوسِ، فالمؤتَسى به أنَّهم كاشَفُوا قَومَهم بالمنافَرةِ، وصَرَّحوا لهم بالبَغضاءِ؛ لأجْلِ كُفرِهم باللهِ، ولم يُصانِعوهم ويَغُضُّوا عن كُفرِهم لاكتسابِ مَوَدَّتِهم كما فَعَل الموبَّخُ بهذه الآيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٥).

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾.

أي: أنكَرْنا ما أنتم عليه مِن الكُفرِ، وجَحَدْنا أن تكونَ آلهتُكم حَقًّا، وظهَرَ بيْنَنا وبيْنَكم المُعاداةُ والكراهيةُ الدَّائِمةُ ما دُمتُم مُستَمِرِّينَ على كُفرِكم بالله تعالى[1].

﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾.

أي: إلى أن تُؤمِنوا بتوحيدِ اللهِ، فتَعبُدوه وَحْدَه لا شَريكَ له، فحينَئذٍ تَزولُ البَغضاءُ والعَداوةُ، وتَنقَلِبُ مودَّةً ووَلايةً[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٤، ١٤٥).

قال الماوَرْدي: (﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ يحتمِلُ وجهَينِ؛ أحدُهما: كفَرْنا بما آمَنْتُم به مِن الأوثانِ. الثَّاني: بأفعالِكم، وكذَّبْنا بها). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥١٨).

وقال البيضاوي: (﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: بدينِكم أو بمَعبودِكم، أو بكم وبه، فلا نَعتَدُّ بشأنِكم وآلهتِكم). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٥).

وقال ابن جرير: (﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾: أنكَرْنا ما كنتُم عليه مِن الكفرِ بالله، وجحَدْنا عِبادتَكم ما تَعبُدون مِن دونِ الله أن تكونَ حقًّا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٦).

وقال ابن عطيَّة: (قولُه: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: كذَّبْناكم في أقوالِكم، ولم نؤمنْ بشَيءٍ منها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٥).

وقال البِقاعي: (﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: أوجَدْنا السترَ لكلِّ ما يَنبغي سترُه حالَ كَونِنا مُكَذِّبينَ بكلِّ ما يكونُ مِن جِهتِكم مِن دينٍ وغيرِه الَّذي يَلزَمُ منه الإيمانُ، وهو إيقاعُ الأمانِ مِن التَّكذيبِ لِمَن يُخبِرُنا بسببِ كلِّ ما يُضادُّه، مُصَدِّقينَ بذلك). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾.

أي: لا تَتأَسَّوا -أيُّها المؤمنونَ- بقَولِ إبراهيمَ لأبيه المُشرِكِ: لَأستَغفِرَنَّ لك اللهَ؛ إذ لا ينبغي لأحَدٍ أن يَستَغفِرَ للمُشرِكينَ ولو كانوا ذَوِي قُرْبَى[1].

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَعَده بالاستِغفارِ تَرغيبًا له؛ رهَّبَه لئلَّا يَترُكَ السَّعيَ في النَّجاةِ، بما معناه أنَّه ليس في يَدِي غيرُ الاستِغفارِ، فقال[2]:

﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٧، ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٥).

قال الشوكاني: (﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ هو استِثناءٌ مُتَّصِلٌ مِن قولِه: ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بتقديرِ مُضافٍ مَحذوفٍ لِيَصِحَّ الاستِثناءُ، أي: قد كانت لكم أُسْوةٌ حسَنةٌ في مقالاتِ إبراهيمَ، إلَّا قولَه لأبيه. أو مِن ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، وصحَّ ذلك لأنَّ القولَ مِن جملةِ الأُسْوةِ، كأنَّه قيل: قد كانت أسوةٌ حسَنةٌ في إبراهيمَ في جميعِ أقوالِه وأفعالِه إلَّا قولَه لأبيه. أو مِن التَّبرِّي والقطيعةِ الَّتي ذُكِرَتْ، أي: لم يواصِلْه إلَّا قولَه، ذكر هذا ابنُ عطيَّة. أو هو منقطِعٌ، أي: لكنْ قولُ إبراهيمَ لأبيه لَأستَغفِرَنَّ لك، فلا تأتَسوا به، فتَستغفِرون للمشرِكين). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٣).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٥).

ونسَبَ الألوسي إلى الأكثَرِ أنَّه استِثناءٌ مُنقَطِعٌ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٠).

أي: قال إبراهيمُ لأبيه: والحالُ أنِّي لا أدفَعُ عنك عُقوبةَ اللهِ إنْ عاقَبَك على كُفْرِك به، ولا أقدِرُ أن أنفَعَك عندَ اللهِ بشَيءٍ[(١)].

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾.

أي: قال إبراهيمُ والَّذين معه مِن المؤمِنينَ: رَبَّنا عليك وَحْدَك توَكَّلْنا، ففَوَّضْنا جميعَ أُمورِنا إليك، واعتَمَدْنا عليك في إصلاحِ أُمورِنا، ودَفْعِ ما يَضُرُّنا[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

وممَّن قال بأنَّه مِن كلامِ إبراهيمَ والمؤمنينَ معه: ابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، والسعديُّ، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٦).

قال ابنُ جُزَي: (هذا مِن كلامِ سَيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ والَّذين معه، وهو متَّصِلٌ بما قبْلَ الاستِثناءِ، فهو مِن جملةِ ما أُمِروا أن يَقتَدوا به). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٦).

وقال ابنُ عاشور: (الأظهرُ أن يكونَ هذا مِن كلامِ إبراهيمَ وقَومِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٦).

وذكر ابنُ جرير أنَّه مِن كلامِ إبراهيمَ وأنبياءِ اللهِ عليهم السَّلامُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨).

وقيل: المرادُ: قولوا أنتم: ربَّنا عليك توَكَّلْنا...، وممَّن اختاره: الفرَّاءُ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٧).

قال ابنُ عاشور: (يحتَمِلُ أن يكونَ تعليمًا للمؤمِنينَ أن يقولوا هذا الكلامَ، ويَستَحضِروا معانيَه؛ لِيَجريَ عَمَلُهم بمُقتَضاه، فهو على تقديرِ أمرٍ بقَولٍ محذوفٍ، والمقصودُ مِن القَولِ العَمَلُ بالقولِ؛ فإنَّ الكلامَ يُجَدِّدُ المعنى في نفْسِ المتكَلِّمِ به، ويُذكِّرُ السَّامِعَ مِن غَفلتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٦). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٤).

﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾.

أي: وإليك وَحْدَك رجَعْنا بالتَّوبةِ مِمَّا تَكرَهُ مِن مَعصيتِك إلى ما تُحِبُّ مِن طاعتِك[(١)].

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: وإليك وَحْدَك -يا رَبَّنا- مَرجِعُنا في الآخِرةِ[(٢)].

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: يا ربَّنا لا تُسلِّطْهم علينا، فيَفْتِنونا، ويَمْنَعونا ممَّا يَقْدِرون عليه مِن أمورِ الإيمانِ، ويُميلونا عمَّا نحن عليه مِن الحقِّ، ويُفتنون أيضًا بأنفُسِهم؛ فإنَّهم إذا رأوا لهم الغلَبَةَ، ظنُّوا أنَّهم على الحقِّ وأنَّا على الباطلِ، فازدادوا كفرًا وطُغيانًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٧).

قال ابن عاشور: (فإنَّ المصيرَ مَصيرانِ: مَصيرٌ بعدَ الحياةِ، ومَصيرٌ بعدَ البَعثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠١، ٥٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال الماوَرْدي: (﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه تأويلانِ:

أحَدُهما: معناه: لا تُسَلِّطْهم علينا فيَفتِنونا. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: لا تُعَذِّبْنا بأيديهم ولا بعذابٍ مِن عِندِك، فنَصيرَ فِتنةً لهم، فيقولوا: لو كانوا على حَقٍّ ما عُذِّبوا. قاله مجاهِدٌ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥١٨). =

كما قال اللهُ حاكيًا قولَ قومِ موسى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥].

﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾.

= وممَّن جمَع بيْن المعنيَين: البِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠١، ٥٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن هُبَيرةَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٩)، ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٢٩).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تُقَتِّرْ علينا بالرِّزقِ، وتَبسُطْ لهم في الرِّزقِ؛ فنَحتاجَ إليهم، فيكونَ ذلك فِتنةً لنا). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠١).

وقال ابنُ عاشور: (معنى جَعْلِهم فِتنةً للَّذين كَفَروا: جَعْلُهم مَفتونينَ يَفتِنُهم الَّذين كَفَروا، فيَصدُقُ ذلك بأن يتسَلَّطَ عليهم الَّذين كَفَروا فيُفتَنونَ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البروج: ١٠] إلخ. ويَصدُقُ أيضًا بأن تختَلَّ أمورُ دينِهم بسَبَبِ الَّذين كَفَروا، أي: بمحَبَّتِهم والتَّقَرُّبِ منهم، كقَولِه تعالى حكايةً عن دُعاءِ موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وعلى الوَجهَينِ فالفِتنةُ مِن إطلاقِ المصدَرِ على اسمِ المفعولِ... واللَّامُ في ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على الوَجهَينِ للمِلْكِ، أي: مفتونينَ مُسَخَّرينَ لهم. ويجوزُ عندي أن تكونَ ﴿فِتْنَةً﴾ مصدرًا بمعنى اسمِ الفاعِلِ، أي: لا تجعَلْنا فاتِنينَ، أي: سَبَبَ فِتنةٍ للَّذينَ كفَروا، فيكونَ كنايةً عن معنى: لا تُغَلِّبِ الَّذين كفَروا علينا، واصرِفْ عنَّا ما يكونُ به اختِلالُ أمرِنا، وسوءُ الأحوالِ؛ كي لا يكونَ شَيءٌ مِن ذلك فاتِنًا الَّذين كَفَروا، أي: مُقَوِّيًا فِتنتَهم، فيُفتتَنوا في دينِهم، أي: يَزدادوا كُفرًا، وهو فِتنةٌ في الدِّينِ، أي: فيَظنُّوا أنَّا على الباطِلِ وأنَّهم على الحَقِّ، وقد تُطلَقُ الفِتنةُ على ما يُفضِي إلى غُرورٍ في الدِّينِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩]، وقَولِه: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١]. واللَّامُ على هذا الوَجهِ لامُ التَّبليغِ، وهذه مَعانٍ جَمَّةٌ أفادَتْها الآيةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٨).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان رأسُ مالِ المسلِمِ الأعظَمُ الاعترافَ بالتَّقصيرِ وإن بَلَغ النِّهايةَ في المجاهَدةِ؛ فإنَّ الإلهَ في غايةِ العظَمةِ، والعَبدَ في نهايةِ الضَّعفِ، فبُلوغُه ما يَحِقُّ له سُبحانَه لا يمكِنُ بوَجهٍ- قالوا[1]:

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآ﴾.

أي: وامْحُ عنَّا ذُنوبَنا؛ واستُرْها وأزِلْ آثارَها، وقِنَا واكْفِنا شَرَّها[2].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

أي: إنَّك أنت -يا رَبَّنا- العزيزُ الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، فلا يُضامُ مَن لاذ بجَنابِه، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به[3].

﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦﴾.

﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾.

أي: لقد كان لكم -أيُّها المؤمِنونَ- قُدوةٌ صالِحةٌ في إبراهيمَ ومَن معه مِن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٢، ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال السعدي: (فبعِزَّتِك وحِكمَتِك انصُرْنا على أعدائِنا، واغفِرْ لنا ذُنوبَنا، وأصلِحْ عُيوبَنا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال البقاعي: (مَن كان كذلك فهو حقيقٌ بأنْ يُعطِيَ مَن أمَّله فَوقَ ما طَلَب). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٥٠٣).

المؤمِنينَ؛ لِمَن يَطمَعُ في رِضوانِ اللهِ وثَوابِه، ويَرجو النَّجاةَ مِن عَذابِه[١].

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

أي: ومَن يُعرِضْ عن طاعةِ اللهِ والتَّأسِّي برُسُلِه، فيُوالِ أعداءَه؛ فإنَّ اللهَ ذو الغِنى التَّامِّ المُطلَقِ عن كُلِّ أحَدٍ؛ فليس به حاجةٌ إلى إيمانِه وطاعتِه، وهو المحمودُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه، وأفعالِه وأقوالِه؛ فلا يَضُرُّه كُفرُ أحَدٍ وعِصيانُه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ إلى قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٦، ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٣، ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال ابن عاشور: (فِعْلُ ﴿يَتَوَلَّ﴾ مضارِعُ تولَّى، فيجوزُ أن يكونَ ماضيه بمعنى الإعراضِ، أي: مَن لا يرجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ، ويُعرِضُ عن نَهْيِ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عن امتِثالِه. ويجوزُ عندي أن يكونَ ماضيه مِن التَّوَلِّي بمعنى اتِّخاذِ الوَليِّ، أي: مَن يتَّخِذ عَدُوَّ اللهِ أولياءَ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن وَلايتِه، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٠). ويُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٨٩).

وقال الرازي: (الحميدُ قد يكونُ بمعنى الحامِدِ، وبمعنى المحمودِ؛ فالمحمودُ أي: يَستحِقُّ الحمدَ مِن خَلقِه بما أنعَمَ عليهم، والحامدُ أي: يَحمَدُ الخَلقَ، ويَشكُرُهم حيث يَجزيهم بالكثيرِ مِن الثَّوابِ عن القليلِ مِن الأعمالِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٠). ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الحديد الآية (٢٤).

﴿حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ تحذيرُ وُلاةِ الأمورِ وعامَّةِ النَّاسِ مِن الكُفَّارِ ووَلايتِهم، ونُصْحُهم بأنْ يَتَّخِذوهم أعداءً حقيقيِّينَ، كما هو الواقعُ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ فيه أنَّه ليس كُلُّ أحدٍ تَسهُلُ عليه هذه الأُسوةُ، وإنَّما تَسهُلُ على مَن ﴿كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾؛ فإنَّ الإيمانَ واحتِسابَ الأجرِ والثَّوابِ يُسَهِّلُ على العَبدِ كُلَّ عَسيرٍ، ويُقَلِّلُ لَدَيه كُلَّ كثيرٍ، ويُوجِبُ له الإكثارَ مِن الاقتداءِ بعِبادِ اللهِ الصَّالِحينَ، والأنبياءِ والمُرسَلينَ؛ فإنَّه يرى نَفْسَه مُفتَقِرًا ومُضطرًّا إلى ذلك غايةَ الاضطرارِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ فيه وُجوبُ الاقتِداءِ بإبراهيمَ ومِلَّتِه إلَّا ما ثبت في شَرعِنا نَسْخُه(٣).

وقد استُدِلَّ به على أنَّ شَرْعَ مَن قَبْلَنا شَرْعٌ لنا ما لَمْ يأتِ شَرْعُنا بخِلافِه، ونحن نَتَّبِعُ شَرْعَ مَن قَبْلَنا؛ لا لأنَّه شَرْعُ مَن قَبْلَنا، ولكنْ لأنَّ شَرْعَنا دَلَّنا على العَمَلِ به(٤). فالآيةُ نصٌّ في الأمرِ بالاقتِداءِ بإبراهيمَ صلَّى الله عليه وسلَّم في فِعلِه، وذلك يُصحِّحُ أنَّ شرْعَ مَن قبْلَنا شرعٌ لنا فيما أخبَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ ورسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم(٥).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٦٠). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦).

﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إثباتُ العَداوةِ والوَلايةِ، وهو أصلٌ في الدِّينِ؛ فإنَّ وَلايةَ المؤمنينَ مِن واجبِ المؤمنِ، والبَراءةَ مِن الكُفَّارِ مِن واجبِ المؤمنِ[(١)]، فالمُسلِمُ يجبُ عليه أنْ يُبغِضَ أعداءَ اللهِ، ويَتَبرَّأَ منهم؛ لأنَّ هذه هي طريقةُ الرُّسُلِ وأتْباعِهم[(٢)]، وإبراهيمُ والَّذين آمَنوا معه تبَرَّؤُوا مِن قَومِهم المُشرِكينَ قبْلَ أنْ يَتبرَّؤوا مِن الأصنامِ[(٣)].

٣- قال الله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ في هذا دَلالةٌ على تفضيلِ نَبيِّنا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على سائِرِ الأنبياءِ؛ لأنَّا حينَ أُمِرْنا بالاقتداءِ به أُمِرْنا أمرًا مُطلَقًا في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، وحين أُمِرْنا بالاقتداءِ بإبراهيمَ عليه السَّلامُ استَثنى بَعْضَ أفعالِه[(٤)]. وذلك بِناءً على أنَّ الاستثناءَ مُتَّصِلٌ.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنَّه سُبحانَه يَحكُمُ في الأُمورِ المتماثِلةِ بأحكامٍ مُتماثِلةٍ[(٥)].

٥- أنَّ جمهورَ المُشرِكينَ كانوا مُقِرِّين بربِّ العالَمينَ، والمُنكِرُ له قليلٌ، مِثلُ فِرعَونَ ونحوِه؛ فقومُ إبراهيمَ كانوا مُقِرِّين بالصَّانعِ؛ ولهذا قال لهم إبراهيمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- القصص)) (ص: ٧٣).
(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٣).

الخليلُ: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قَولِه: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾، فيه سؤالٌ: إن كان قولُه: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾، مُستثنًى مِن القولِ الَّذي سبَق، وهو: ﴿أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، فما بالُ قولِه: ﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾، وهو غيرُ حقيقٍ بالاستثناءِ، ألا ترَى إلى قولِه تعالى: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [الفتح: ١١]؟

الجواب: أراد الله تعالى استثناءَ جملةِ قولِه لأبيه، والقصدَ إلى موعدِ الاستغفارِ له، وما بَعْدَه مبنيٌّ عليه، وتابعٌ له، كأنَّه قال: أنا أستغفِرُ لك، وما وُسعي إلَّا الاستِغفارُ[٢]، فمَوردُ الاستثناءِ نفْسُ الاستغفارِ لا قيدُه الَّذي هو في نفْسِه مِن خِصالِ الخَيرِ؛ لِكَونِه إظهارًا للعجزِ، وتفويضًا للأمرِ إلى الله تعالى[٣].

وقيل: قولُه: ﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ مِن تمامِ قولِه المُستثنَى، ولا يَلزَمُ مِن استِثناءِ المجموعِ استِثناءُ جميعِ أجزائِه[٤].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ إنَّما جرَى ذلك؛ لأنَّه ظَنَّ أنَّه أسلَمَ، فلمَّا بان أنَّه لم يُسلِمْ تبرَّأَ منه، وعلى هذا يجوزُ الاستغفارُ لِمَن يُظنُّ أنَّه أسلَمَ[٥]. أو أنَّه كان يَرْجو إيمانَه، فقال له: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ فمَنِ اسْتَغْفَر لحَيٍّ يَرْجو إيمانَه، يَقْصِدُ سُؤالَ اللهِ أنْ يَهْدِيَه لِمَا يكونُ به أهلًا للمغفرةِ فلا بأسَ. قال ابنُ عبَّاسٍ: لم يَزَلْ إبراهيمُ يَستَغفِرُ لأبيه

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ١٨).

حتَّى مات، فلَمَّا مات تَبَيَّن له أنَّه عدُوٌّ للهِ فتَبَرَّأ منه. وفي روايةٍ عنه: لَمَّا مات على كُفْرِه[١]. وقيل: إنَّه تَبَيَّن له ذلك بوَحْيٍ مِن اللهِ تعالَى، فحينَئِذٍ تَبَرَّأ منه ومِن قَرابَتِه، وتَرَك الاستغفارَ له كما هو مُقتضَى الإيمانِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ جلَّ وتعالى قد يَفتِنُ الكافِرينَ بما شاء، لولا ذلك ما كان لهذا الدُّعاءِ معنًى، فهو ردٌّ على المُعتزلةِ والقَدَريَّةِ[٣]. وذلك على أحدِ المعنَيَينِ في تفسيرِ الآيةِ.

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ دليلٌ على أنَّ الإنسانَ الَّذي يَتولَّى عن طاعةِ اللهِ إنَّما يَضُرُّ نفْسَه، ولا يَضُرُّ اللهَ شيئًا؛ فإنَّ اللهَ غنيٌّ. وفي الحديثِ القُدُسيِّ: ((يا عِبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أفْجَرِ قلبِ رجُلٍ واحدٍ منكم، ما نَقَصَ ذلك مِن مُلْكي شيئًا))[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لضرْبِ المِثالِ الجَديرِ بالاحتِذاءِ في النَّهيِ عن مُوالاةِ الكُفَّارِ، والرُّكونِ إلى الأعداءِ، وأنَّ الصُّدورَ المَطويَّةَ على الضِّغنِ يَجِبُ أنْ تَبقَى على عَدائِها حتَّى يَزولَ السَّببُ القائمُ، فإذا زال انقَلَبَت

(١) يُنظر: ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور)) للسيوطي (٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٧).
والحديث أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه.

العَداوةُ مَودَّةً، والبَغضاءُ مَحبَّةً[١].

- وصَدْرُ هذه الآيةِ -﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ...﴾- يُفيدُ تأْكيدًا لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ [الممتحنة: ٢]، وجُملةِ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]؛ لأنَّها بما تضمَّنَتْه مِن أنَّ المُوجَّهَ إليهم التَّوبيخُ خالَفوا الأُسوةَ الحَسَنةَ، تُقوِّي إثباتَ الخَطَأِ المُستوجِبِ للتَّوبيخِ[٢].

- وافتِتاحُ الكلامِ بكَلِمتَيْ ﴿قَدْ كَانَتْ﴾ لتَأْكيدِ الخبَرِ؛ فإنَّ (قَدْ) مع فِعلِ الكَونِ يُرادُ بهما التَّعريضُ بالإنكارِ على المُخاطَبِ، ولَومُه في الإعراضِ عن العمَلِ بما تَضمَّنَه الخبَرُ[٣].

- وعطْفُ ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾؛ ليَتِمَّ التَّمثيلُ لحالِ المسلمينَ مع رَسولِهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحالِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ والَّذين معه، أي: أنْ يكونَ المسلمونَ تابِعينَ لِرِضا رَسولِهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما كان الَّذين مع إبراهيمَ عليه السَّلامُ[٤].

- والأسوةُ: القُدوةُ الَّتي يُقتدَى بها في فِعلٍ ما؛ فوُصِفَت في الآيةِ بـ﴿حَسَنَةٌ﴾ وصْفًا للمدْحِ؛ لأنَّ كَونَها حَسَنةً قد عُلِمَ مِن سِياقِ ما قبْلَه وما بعْدَه[٥].

- وحرْفُ (فِي) مُعبَّرٌ به هنا عن قُوَّةِ الملابَسةِ؛ إذ جُعِلَ تَلبُّسُ إبراهيمَ والَّذين معه بكَونِهم أُسوةً حَسنةً، بمَنزِلةِ تَلبُّسِ الظَّرفِ بالمظروفِ في شِدَّةِ التَّمكُّنِ مِن الوصْفِ، ولذلك كان المعْنى: قدْ كان لكم إبراهيمُ والَّذين معه أسوةٌ في

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٤٢، ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حِينِ قَولِهم لقَومِهم؛ فليس قولُه: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ مِن قَبيلِ التَّجريدِ[(١)]؛ لأنَّ الأسوةَ هنا هي قولُ إبراهيمَ والَّذين معَه لا أنفُسُهم[(٢)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ بتَأنيثِ الفِعلِ (كانتْ) مع الفاصِلِ (لكُمْ)؛ لقُرْبِه وإنْ جاز التَّذكيرُ، وأعادَهُ في قولِه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: ٦]، بتَذكيرِه مع الفاصِلِ؛ لكَثرتِه وإنْ جاز التَّأنيثُ؛ فلم تتَّصِلْ بفِعلِ (كان) تاءُ تأْنيثٍ مع أنَّ اسْمَها مُؤنَّثُ اللَّفظِ؛ لأنَّ تأْنيثَ (أُسوة) غيرُ حَقيقيٍّ، ولوُقوعِ الفَصْلِ بيْن الفِعلِ ومَرفوعِه بالجارِّ والمجرورِ. وإنَّما كرَّر ذلك؛ لأنَّ الأوَّلَ في القولِ، والثَّانيَ في الفِعلِ. وقيل: الأوَّلُ في إبراهيمَ، والثَّاني في محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٣)].

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه أعادَ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ لأنَّ الإسلامَ بُنِيَ أوَّلُه على التَّبرُّؤِ مِن الآلهةِ ومِن عَبَدتِها، ومِن الأصنامِ وعَبَدتِها، فقولُ مَن يَشهَدُ بالتَّوحيدِ: إنَّه يَنْفي الآلهةَ أوَّلًا بقولِه: (لا إلهَ)، ويُثبِتُ ثانيًا بقولِه: (إلَّا اللهُ)

---

(١) التَّجريد: هو اعتقادُ أنَّ في الشَّيءِ مِن نفْسِه معنًى آخَرَ كأنَّه مباينٌ له، فيخرجُ ذلك إلى ألفاظِه بما اعتقَد ذلك؛ كقولِهم: لئن لَقيتَ زَيدًا لَتلقيَنَّ معه الأسدَ؛ فظاهرُ هذا أنَّ فيه مِن نفْسِه أسدًا، وهو عينُه هو الأسدُ، لا أنَّ هناك شيئًا منفصلًا. ويُطلقُ عندَ البعضِ على عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ كأنَّ الخاصَّ جُرِّد مِن العامِّ، وأُفرِد بالذِّكرِ؛ تفضيلًا. وله إطلاقاتٌ أخرى في البديعِ والمعاني. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٩).

الواحدُ الَّذي تَحِقُّ له العبادةُ، فقال في الأُسوةِ الأُولى المتعلِّقةِ بالبَراءةِ مِن الكُفَّارِ ومِن فِعْلِهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وإنَّهم يُعادُونَهم إلى أنْ يُؤمِنوا، فهذه الأُسوةُ تَفصِلُ المؤمنَ مِن الكافرِ؛ ليَتميَّزَ عنه في الظَّاهرِ، ويَتبرَّأَ مِن صَداقتِه، ويَتحقَّقَ بعَداوتِه. والثَّانيةُ معْناها: تَأسَّوا بهم لتَنالُوا مِثلَ ثَوابِهم، وتَنقلِبوا إلى الآخِرةِ كانْقِلابِهم مُبشَّرينَ بالجنَّةِ، غيرَ خائفينَ مِن العُقوبةِ[1].

وفيه وَجْهٌ آخَرُ: أنَّ هذا مِن دُعاءِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وإنَّما تَكرَّرت الأُسوةُ بهذا؛ إذ كان مِن إبراهيمَ فِعلٌ حسَنٌ، وهو التَّبرُّؤُ مِن أبيهِ وقومِه الكافرينَ، وقولٌ حسَنٌ، وهو هذا الدُّعاءُ[2].

- وجُملةُ ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ وما عُطِفَ عليها بَيانٌ لمعْنى جُملةِ ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ﴾[3].

- قولُه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ الأظهرُ أنْ يكونَ هذا مِن كَلامِ إبراهيمَ وقَومِه، وجُملةُ ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ إلى آخِرِها مُعترِضةً بيْنَ أجزاءِ القَولِ؛ فهو ممَّا أُمِرَ المسلِمونَ أنْ يأتَسُوا به، وبه يكونُ الكلامُ شَديدَ الاتِّصالِ معَ قولِه: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: ٦]. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ تَعليمًا للمؤمنينَ أنْ يَقولوا هذا الكلامَ ويَستحضِروا مَعانِيَه؛ ليَجريَ عَمَلُهم بمُقتضاهُ، فهو على تَقديرِ أمْرٍ بقَولٍ مَحذوفٍ، والمَقصودُ مِن القولِ العمَلُ بالقولِ؛ فإنَّ الكلامَ يُجدِّدُ المعْنى في نفْسِ المُتكلِّمِ به، ويُذكِّرُ السَّامعَ مِن غَفلَتِه. وهذا تَتميمٌ لِما أَوصاهم به مِن مُقاطَعةِ الكُفَّارِ بعْدَ التَّحريضِ على الائتساءِ بإبراهيمَ ومَن معه؛ فعلى المعْنى الأوَّلِ يكونُ حِكايةً لِما قاله إبراهيمُ وقومُه بما يُفيدُ حاصلَ مَعانِيه؛ فقدْ يكونُ هو معْنى ما حَكاهُ اللهُ عن إبراهيمَ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٦٧، ١٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٤).

مِن قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٢]؛ فإنَّ التَّوكُّلَ على اللهِ في أُمورِ الحياةِ بسُؤالِه النَّجاحَ فيما يُصلِحُ أعمالَ العبدِ في مَساعِيه، وأعظَمُه النَّجاحُ في دِينِه وما فيه قِوامُ عَيشِه، ثمَّ ما فيه دفْعُ الضُّرِّ، وقد جَمَعَها قولُ إبراهيمَ هناك: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وهذا جمَعَه قولُه هنا: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾، ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ جَمَعَه قولُه: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ فإنَّ المصيرَ مَصيرانِ: مَصيرٌ بعْدَ الحياةِ، ومَصيرٌ بعْدَ البعثِ، وقولُه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾؛ فإنَّ وَسيلةَ الطَّمعِ هي التَّوبةُ، وقد تَضمَّنَها قولُه: ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾، وعلى المعْنى الثَّاني هو تَعليمٌ للمُؤمنينَ أنْ يَصرِفوا توجُّهَهم إلى اللهِ بإرضائِه، ولا يَلتفِتوا إلى ما لا يَرْضاهُ وإنْ حَسِبوا أنَّهم يَنتفِعون به؛ فإنَّ رِضا اللهِ مُقدَّمٌ على ما دُونَه[1].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿عَلَيْكَ﴾ و(إِلَيْكَ) على هذه الأفعالِ ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ و﴿أَنَبْنَا﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ، وهو قصْرٌ بَعضُه ادِّعائيٌّ وبَعضُه حَقيقيٌّ[2]، كما تَصرِفُ إليه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٥، ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٦، ١٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٤).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ =

القَرينةُ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيه إعادةُ النِّداءِ بقولِهم: ﴿رَبَّنَا﴾؛ لتأْكيدِ إظهارِ التَّضرُّعِ والجُؤارِ مع كلِّ دَعوةٍ مِن الدَّعواتِ الثَّلاثِ[٢].

- وفي قولِهم: ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ أعْقَبوا دَعواتِهم الَّتي تَعودُ إلى إصلاحِ دِينِهم في الحياةِ الدُّنيا بطَلَبِ ما يُصلِحُ أُمورَهم في الحياةِ الآخِرةِ، وما يُوجِبُ رِضا اللهِ عنهم في الدُّنيا؛ فإنَّ رِضاهُ يُفْضي إلى عِنايتِه بهم بتَسييرِ أُمورِهم في الحياتَينِ. وللإشعارِ بالمُغايَرةِ بيْن الدَّعوتينِ عَطَفَتْ هذه الواوُ ولم تَعطِفِ الَّتي قبْلَها[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تَعليلٌ للدَّعواتِ كلِّها؛ فإنَّ التَّوكُّلَ والإنابةَ

= فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثْلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زَيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٨).

والمصيرَ تُناسِبُ صِفةَ العزيزِ؛ إذ مِثلُه يُعامِلُ بمِثلِ ذلك، وطلَبَ ألَّا يَجعَلَهم فِتنةً باختِلافِ مَعانيه يُناسِبُ صِفةَ الحكيمِ، وكذلك طَلَبُ المغفرةِ؛ لأنَّهم لَمَّا ابتَهَلوا إليه ألَّا يَجعَلَهم فِتنةً للكافِرين، وأنْ يَغفِرَ لهم؛ رَأَوا أنَّ حِكمتَه تُناسِبُها إجابةُ دُعائِهم؛ لِما فيه مِن صَلاحِهم وقدْ جاؤوا سائلِينَه[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ تكريرٌ لقولِه آنفًا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ ...﴾ [الممتحنة: ٤]؛ أُعِيدَ لتأْكيدِ التَّحريضِ والحثِّ على عدَمِ إضاعةِ الائتساءِ بإبراهيمَ ومَن معه، وليُبْنى عليه قولُه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ...﴾، وقُرِنَ هذا التَّأكيدُ بلامِ القسَمِ مُبالَغةً في التَّأكيدِ. وقولُه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ بدَلٌ مِن ضَميرِ الخِطابِ في قولِه: ﴿لَكُمْ﴾، وهو شاملٌ لجَميعِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ بضَميرِ ﴿لَكُمْ﴾ المؤمنونَ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]؛ فليس ذِكرُ ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ تَخصيصًا لبَعضِ المؤمنينَ، ولكنَّه ذُكِرَ للتَّذكيرِ بأنَّ الإيمانَ باللهِ واليومِ الآخِرِ يَقْتضي تأَسِّيَهم بالمؤمنينَ السَّابقينَ، وهمْ إبراهيمُ والَّذين معَه. وأُعِيدَ حرْفُ الجرِّ -وهو اللَّامُ- العاملُ في المُبدَلِ منه؛ لتَأكيدِ أنَّ الإيمانَ يَستلزِمُ ذلك، والقصْدُ هو زِيادةُ الحثِّ على الائتساءِ بإبراهيمَ ومَن معَه، وليُرتَّبَ عليه قولُه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، وهذا تَحذيرٌ مِن العَودِ لِما نُهُوا عنه[2].

- وقيل: لَمَّا سلَّى اللهُ تَعالى المسلِمينَ في قطْعِ مُوالاةِ أقْربائِهم الكُفَّارِ بالائتساءِ بإبراهيمَ والَّذين معَه، واستَثْنى منه استِغفارَه لأبيهِ لَمَّا لم يَظهَرْ له أمارةٌ أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٩).

نصٌّ مِن اللهِ بالبَراءةِ الكُلِّيَّةِ منه، كما ظَهَرَ للمسلمينَ بقولِه: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]؛ كرَّرَ الائتساءَ به، وتَرَكَه مُطلقًا لِيَكونَ صالحًا لجميعِ ما يَجِبُ أنْ يُؤتَسَى به، يَشهَدُ لذلك قولُه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾، بخِلافِه في الأوَّلِ، حيثُ أُبدِلَ مِن المُؤتَسى فيه قولُه: ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ ليَكونَ تَعميمًا بعْدَ تَخصيصٍ[١].

- وضَميرُ الفصْلِ (هو) في قولِه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ تَوكيدٌ للحَصْرِ الَّذي أفادَهُ تَعريفُ الجُزأينِ، وهو حصْرٌ ادِّعائيٌّ[٢] لعَدَمِ الاعتدادِ بغِنى غيرِه ولا بحمْدِه -على قولٍ في معنَى الحميدِ-، أي: هو الغنيُّ عن المُتولِّينَ؛ لأنَّ النَّهيَ عمَّا نُهُوا عنه إنَّما هو لفائدتِهم لا يُفيدُ اللهَ شيئًا؛ فهو الغنيُّ عن كلِّ شَيءٍ[٣].

- وإتْباعُ ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ بوَصْفِ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ تَتميمٌ[٤]، أي: الحميدُ لمَن يَمتثِلُ أمْرَه ولا يُعرِضُ عنه، أو الحَميدُ لِمَن لا يتَّخِذُ عدُوَّه وليًّا، على نحْوِ قولِه: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[٥] [الزمر: ٧]. على قولٍ في معنى الحميدِ.

أو المرادُ: المحمودُ على غِناه؛ لأنَّه ليس كلُّ غنيٍّ يكونُ محمودًا، فالغنيُّ البخيلُ غيرُ محمودٍ، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ غنيٌّ حميدٌ يُحمَدُ على غِناه؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٦٢).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٠).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٠).

واسعُ العَطاءِ كثيرُه[١].

- والآيةُ مِنَ الاحتباكِ[٢]: ذَكَرَ الرَّجاءَ أوَّلًا؛ دليلًا على ضِدِّه ثانيًا، والتَّوَلِّيَ ثانيًا؛ دليلًا على ضِدِّه أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّه ذَكَر سَبَبَ السَّعادةِ ترغيبًا، وسَبَبَ الشَّقاوةِ تَرهيبًا[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٧).

(٢) الاحتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصِر إعجازِه، وهو مِن أَلْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٥).

الآيات (٧-٩)

﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبَرُّوهُمۡ﴾: أي: تُحْسِنوا إليهم، والبرُّ: التوسُّعُ في فعلِ الخيرِ، والبَرُّ خلافُ البحرِ، وتُصوِّرَ منه التَّوسُّعُ فاشتُقَّ منه البِرُّ[(١)].

﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ﴾: أي: تَعْدِلوا، وأصلُ (قسط): يدُلُّ على العَدْلِ[(٢)].

﴿وَظَٰهَرُواْ﴾: أي: عاوَنوا، والظَّهيرُ: العَونُ، وأصلُ التَّظاهُرِ مِنَ الظَّهرِ، فكأنَّ التَّظاهُرَ: أن يَجعَلَ كُلُّ واحدٍ مِن الرَّجُلَينِ أو مِن القَومِ الآخَرَ له ظَهرًا يتقَوَّى به، ويَستَنِدُ إليه، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبشِّرًا بأنَّه يَهدي إلى الإسلامِ قومًا مِن الأعداءِ الَّذين تربطُهم بالمؤمنينَ رابطةُ الدَّمِ والقرابةِ: عسى اللهُ أن يَجعَلَ بيْنَكم -أيُّها المؤمِنونَ- وبيْنَ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٠).

الَّذين عادَيْتُم مِن المُشرِكينَ موَدَّةً بعدَ العداوةِ والبَغضاءِ الَّتي انعقَدَت بيْنَكم، واللهُ ذو قُدرةٍ تامَّةٍ على كُلِّ شَيءٍ، واللهُ غفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، رحَيمٌ بهم.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه للمؤمنينَ القاعدةَ الَّتي يَسيرونَ عليها في موَدَّتِهم وعداوتِهم، وصِلَتِهم ومقاطعتِهم، فيقولُ: لا يَنهاكم اللهُ -أيُّها المؤمِنونَ- عن الكافِرينَ الَّذين لم يُقاتِلوكم مِن أجْلِ دينِكم، ولم يُخرِجوكم مِن بلادِكم؛ أن تُحسِنوا إليهم وتُكرِموهم، وتَعدِلوا في تعامُلِكم معهم؛ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُنصِفينَ، إنَّما يَنهاكم اللهُ عن مُوالاةِ الكافِرينَ المحارِبينَ الَّذين قاتَلوكم بسبَبِ إيمانِكم، وأخرَجوكم مِن بلادِكم، وعاوَنوا غَيرَهم على إخراجِكم، ومَن يتَّخِذِ الكافِرينَ أولياءَ يُحِبُّهم ويُناصِرُهم فأولئك هم الظَّالِمونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَر الله المؤمنينَ بعداوةِ الكفَّارِ، عادى المؤمنونَ أقرباءَهم المشركين، وأظهَروا لهم العَداوةَ والبَراءةَ، وعَلِمَ اللهُ شدَّةَ ذلك على المؤمنينَ؛ فوعَدَ سُبحانَه المسلمينَ بإسلامِ أقارِبِهم الكفَّارِ[1].

وأيضًا لَمَّا أتَمَّ اللهُ تعالى وَعْظَهم بما هو الأنفَعُ والأقرَبُ إلى صَلاحِهم، ففَعَلوا، وكان ذلك شاقًّا؛ لِمَا جُبِلَ عليه البَشَرُ مِن حُبِّ ذَوي الأرحامِ والعَطْفِ عليهم، فتشَوَّفَت النُّفوسُ إلى تخفيفٍ بنَوعٍ مِنَ الأنواعِ- أتْبَعَه التَّرجيةَ فيما قَصَدَه حاطِبٌ -رَضِيَ اللهُ عنه- بغيرِ الطَّريقِ الَّذي يُتوصَّلُ به، فقال على عادةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٨١)، ((حاشية الجمل)) (٤/ ٣٤١).

الملوكِ في الرَّمزِ إلى ما يُريدونَه، فيَقنَعُ الموعودُ به، بل يكونُ ذلك الرَّمزُ عندَه أعظَمَ مِنَ البَتِّ مِن غَيرِهم[١]:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ﴾.

أي: عسى اللهُ أن يَجعَلَ بيْنَكم -أيُّها المؤمِنونَ- وبيْنَ الَّذين عاديتُم مِن المُشرِكينَ مودَّةً بعدَ النفرةِ والعداوةِ والبَغضاءِ الَّتي انعقَدَت بيْنَكم، وذلك بأن يَنتَقِلوا للإيمانِ؛ فلا تيأسُوا مِن إيمانِهم[٢].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((جاءت هندُ بنتُ عُتبةَ، قالت: يا رَسولَ اللهِ، ما كان على ظَهرِ الأرضِ مِن أهلِ خِباءٍ[٣] أحَبَّ إلَيَّ أن يَذِلُّوا مِن أهلِ خِبائِك، ثمَّ ما أصبَحَ اليَومَ على ظَهرِ الأرضِ أهلُ خِباءٍ أحَبَّ إلَيَّ أن يَعِزُّوا مِن

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٥، ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال ابنُ جرير: (ففَعَل اللهُ ذلك بهم، بأنْ أسلَمَ كثيرٌ منهم، فصاروا لهم أولياءَ وأصْرابًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٠).

وقال الزَّجَّاج: («عسى» واجِبةٌ مِن الله. جاء في التَّفسيرِ أنَّه يعني بهذا أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تزوَّجَ أمَّ حَبيبةَ بنتَ أبي سُفيانَ، فهذه هي المودَّةُ. وقيل: إنَّه يعني به مَن أسلَمَ منهم، فيكونُ بيْنَكم وبيْنَهم مودَّةٌ). ((معاني القرآن)) (٥/ ١٥٧).

وقال ابن تيميَّةَ: (نزلت في المُشرِكينَ الَّذين عادَوُا اللهَ ورَسولَه، مِثلُ أهلِ الأحزابِ، كأبي سُفيانَ ابنِ حَربٍ، وأبي سُفيانَ بنِ الحارِثِ، والحارِثِ بنِ هِشامٍ، وسُهَيلِ بنِ عَمرٍو، وعِكْرِمةَ بنِ أبي جَهلٍ، وصَفوانَ بنِ أُمَيَّةَ، وغَيرِهم؛ فإنَّهم بعدَ مُعاداتِهم لله ورَسولِه جَعَل اللهُ بيْنَهم وبيْنَ الرَّسولِ والمؤمِنينَ مودَّةً). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٣٠٥، ٣٠٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٠).

(٣) الخِباءُ: خَيمةٌ مِن وَبَرٍ أو صُوفٍ، ثمَّ أُطلِقَت على البَيتِ كيف كان. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ١٧١).

أهلِ خِبائِك، قال: وأيضًا والَّذي نَفْسي بيَدِه[١]))[٢].

وعن ابنِ شِهابٍ، قال: ((أعطى رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ حُنَينٍ صَفوانَ ابنَ أُمَيَّةَ مِئةً مِنَ النَّعَمِ، ثمَّ مِئةً، ثمَّ مِئةً، قال ابنُ شِهابٍ: حَدَّثني سعيدُ بنُ المسَيِّبِ أنَّ صَفوانَ قال: واللهِ لقد أعطاني رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما أعطاني، وإنَّه لَأبغَضُ النَّاسِ إلَيَّ، فما بَرِحَ يُعطيني حتَّى إنَّه لَأحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ))[٣].

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ ذو قُدرةٍ تامَّةٍ بالغةٍ على كُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك قُدرتُه على جَعْلِ العَداوةِ الَّتي بَيْنَكم وبيْنَ المُشرِكينَ مَودَّةً، فيَهديهم للإيمانِ، ويُؤَلِّفُ بيْنَ قُلوبِكم[٤].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ غفورٌ لذُنوبِ عِبادِه؛ فيَستُرُها ويَمحوها ويَقِي شَرَّها، رحيمٌ بهم؛ فيَغفِرُ للكافِرينَ كُفْرَهم إذا تابُوا، ويَرحَمُهم[٥].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) أي: ستَزيدين مِن ذلك، ويَتمَكَّنُ الإيمانُ مِن قَلبِكِ، ويَزيدُ حُبُّكِ لله ولرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، ويَقوى رُجوعُك عن بُغضِه. وأصلُ لفظةِ أيضًا: آضَ يَئيضُ أيضًا، إذا رجَع. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٩).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٨٢٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٧١٤).

(٣) رواه مسلم (٢٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧١)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧١)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٦، ٥٠٧).

﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بَعْدَ ما ذَكَر مِن تَرْكِ انقِطاعِ المؤمِنينَ بالكُلِّيَّةِ عن الكُفَّارِ؛ رخَّصَ في صِلةِ الَّذين لم يُقاتِلوهم مِنَ الكُفَّارِ[1].

وأيضًا لَمَّا نَزَلت هذه الآياتُ الكريماتُ المُهَيِّجةُ على عداوةِ الكافِرينَ، وقَعَتْ مِن المؤمِنينَ كُلَّ مَوقِعٍ، وقاموا بها أتمَّ القيامِ، وتأثَّموا مِن صِلةِ بَعضِ أقاربِهم المُشرِكينَ، وظَنُّوا أنَّ ذلك داخِلٌ فيما نهَى اللهُ عنه[2]؛ فقال الله تعالى:

﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾.

أي: لا يَنهاكم اللهُ -أيُّها المؤمِنونَ- عن الكافِرينَ الَّذين لم يُقاتِلوكم مِن أجْلِ دينِكم؛ مِن أقارِبِكم وغَيرِهم مِن الكُفَّارِ، ولم يُخرِجوكم مِن بلادِكم كما أخرَجَكم كُفَّارُ مَكَّةَ؛ أن تُحسِنوا إليهم وتُكرِموهم، وتَعدِلوا في تعامُلِكم معهم عدلًا تامًّا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧١، ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٣).

قال الشوكاني: (﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ يُقالُ: أقسَطْتُ إلى الرَّجُلِ، إذا عامَلْتَه بالعدلِ. قال الزَّجَّاجُ: المعنى: وتَعدِلوا فيما بيْنَكم وبيْنَهم مِن الوفاءِ بالعهدِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٤). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٥٨).

وقيل: معنى قَولِه تعالى: ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾: تُعطوهم قِسطًا مِن أموالِكم على وَجهِ الصِّلةِ، وليس المرادُ به العَدْلَ؛ فإنَّ العَدلَ واجِبٌ فيمَن قاتَلَ وفيمَن لم يُقاتِلْ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ العربي. يُنظر: ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٩).

كما قال تعالى في الوالِدَينِ الكافرَينِ: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥].

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان غُلامٌ يَهوديٌّ يَخدُمُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فمَرِضَ، فأتاه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعودُه، فقَعَد عندَ رأسِه، فقال له: أَسْلِمْ، فنظَرَ إلى أبيه وهو عندَه، فقال له: أطِعْ أبا القاسِمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأسْلَمَ، فخرجَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يقولُ: الحَمدُ للهِ الذي أنقَذَه مِنَ النَّارِ))[١].

وعن أسماءَ بنتِ أبي بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالت: ((قدِمَتْ عليَّ أمِّي وهي مُشرِكةٌ، في عَهدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاستَفتيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قُلتُ: وهي راغِبةٌ[٢]، أفأصِلُ أُمِّي؟ قال: نعمْ، صِلِي أُمَّكِ))[٣].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((رأى عُمَرُ حُلَّةً[٤] على رجُلٍ تُباعُ، فقال للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابتَعْ هذه الحُلَّةَ تَلبَسْها يومَ الجُمُعةِ، وإذا جاءك الوَفدُ. فقال: إنَّما يَلبَسُ هذا مَن لا خَلاقَ[٥] له في الآخِرةِ، فأُتِيَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منها بحُلَلٍ، فأرسَلَ إلى عُمَرَ منها بحُلَّةٍ، فقال عُمَرُ: كيف ألبَسُها وقد قُلتَ فيها ما قُلتَ؟! قال: إنِّي لم أَكْسُكَها لِتَلبَسَها، تبيعُها أو تَكسوها. فأرسَلَ

(١) رواه البخاري (١٣٥٦).

(٢) أي: راغِبةٌ في شيءٍ تأخُذُه، أو عن ديني، أو في القُربِ منِّي ومُجاوَرَتي والتَّودُّدِ إلَيَّ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٣٦٣).

(٣) رواه البخاري (٢٦٢٠) واللفظُ له، ومسلم (١٠٠٣).

(٤) الحُلَّةُ: إزارٌ ورِداءٌ، ولا تُسَمَّى حُلَّةً حتَّى تكونَ ثَوبَينِ. يُنظر: ((غريب الحديث)) لأبي عُبَيدٍ القاسم ابن سلَّام (١/ ٢٨٥).

(٥) لا خَلاقَ: أي: لا حَظَّ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٣٦٢).

بها عُمَرُ إلى أخٍ له مِن أهلِ مكَّةَ قبْلَ أن يُسْلِمَ))[١].

وعن عِمْرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللهُ عنهما في قِصَّةِ المرأةِ المُشرِكةِ صاحِبةِ المَزادتَينِ[٢] مِن الماءِ، الَّتي لَقُوها في سفَرٍ، وفي الحديثِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((هاتُوا ما كان عِندَكم، قال عِمرانُ: فجمَعْنا لها مِن كِسَرٍ وتَمرٍ، وصَرَّ لها صُرَّةً[٣]، فقال لها: اذهَبي فأطعِمي هذا عِيالَكِ، واعلَمِي أنَّا لم نرْزَأْ[٤] مِن مائِكِ))[٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُنصِفينَ الَّذين يُنصِفونَ النَّاسَ، ويُعطونَهم الحقَّ، ويَحكُمونَ بَيْنَهم بالعَدلِ التَّامِّ[٦].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

---

(١) رواه البخاري (٢٦١٩) واللفظُ له، ومسلم (٢٠٦٨).

(٢) المزادةُ: وِعاءٌ يُحمَلُ فيه الماءُ، أكبَرُ مِن القِرْبةِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ١٩٠).

(٣) وصَرَّ لها صُرَّةً: أي: شدَّ وربَط، والصُّرَّةُ: الربطةُ. يُنظر: ((شرح مسند الشافعي)) لأبي القاسم القزويني (٣/ ١٩٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٢٩٣).

(٤) نرْزَأْ أي: نَنْقُصْ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ١٩٢).

(٥) رواه البخاريُّ (٣٤٤)، ومسلمٌ (٦٨٢) واللَّفظُ له.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٣).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ المُقْسِطينَ عندَ اللهِ على مَنابرَ مِن نُورٍ عن يمينِ الرَّحمنِ عزَّ وجَلَّ، وكِلْتا يَدَيه يَمينٌ؛ الَّذين يَعدِلونَ في حُكمِهم وأهلِيهم وما وَلُوا))[١].

وعن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((ما منَعَني أن أشهَدَ بَدرًا إلَّا أنِّي خرَجْتُ أنا وأبي حُسَيلٌ، قال: فأخَذَنا كُفَّارُ قُرَيشٍ، قالوا: إنَّكم تُريدونَ مُحمَّدًا! فقُلْنا: ما نُريدُه، ما نُريدُ إلَّا المدينةَ، فأخَذوا مِنَّا عَهدَ اللهِ ومِيثاقَه لَنَنصَرِفَنَّ إلى المدينةِ، ولا نُقاتِلُ معه، فأتَيْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخبَرْناه الخبَرَ، فقال: انصَرِفا، نَفِي لهم بعَهْدِهم، ونَستعينُ اللهَ عليهم!))[٢].

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

أي: إنَّما يَنهاكم اللهُ -أيُّها المؤمِنونَ- عن الكافِرينَ المحارِبينَ الَّذين ناصَبوكم العَداوةَ، فقاتَلوكم بسبَبِ إيمانِكم برَبِّكم[٣].

﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾.

أي: وأخرَجوكم مِن بلادِكم، وعاوَنوا غَيرَهم على إخراجِكم[٤].

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٧).

(٢) رواه مسلم (١٧٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

قال السمرقندي: (هم أهلُ مكَّةَ ومَن كان في مِثلِ حالِهم مِن أهلِ الحَربِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾.

أي: أن تتولَّوهم، فتَكونوا لهم محِبِّينَ مُناصِرينَ[١].

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: ومَن يتَّخِذِ الكافِرينَ أولياءَ يُحِبُّهم ويُناصِرُهم، فأولئك هم الظَّالِمونَ الَّذين وَضَعوا المُوالاةَ في غيرِ مَوضِعِها، وعرَّضوا أنفُسَهم لعذابِ اللهِ تعالى[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى الاقتِصادِ في العَداوةِ والوَلايةِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أنَّ الشَّخصَ قد يكونُ عدوًّا للهِ، ثُمَّ يصيرُ وليًّا للهِ، مُواليًا للهِ ورَسولِه والمؤمِنينَ؛ فهو سُبحانَه يَتوبُ على مَن تاب، ومَن لم يَتُبْ فإلى اللهِ إيابُه، وعليه حِسابُه. وعلى المؤمِنينَ أنْ يَفعَلوا معه ومع غيرِه ما أمَرَ اللهُ به ورَسولُه؛ مِن قَصْدِ نصيحتِهم، وإخراجِهم مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وأمْرِهم بالمعروفِ، ونَهْيِهم عن

= (٨/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٦٤).

المُنكَرِ، كما أمَرَ اللهُ ورَسولُه، لا اتِّباعًا للظَّنِّ وما تَهوى الأنفُسُ، حتَّى يكونَ مِن خيرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ، يأمُرونَ بالمعروفِ، ويَنْهَونَ عنِ المُنكَرِ، ويُؤمِنونَ باللهِ، وهؤلاء يَعلَمونَ الحقَّ ويَقصِدونَه، ويَرحَمونَ الخَلْقَ، وهم أهلُ صِدْقٍ وعَدْلٍ، أعمالُهم خالِصةٌ للهِ، صوابٌ موافِقةٌ لأَمْرِ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفُضَيلُ بنُ عياضٍ وغيرُه: «أخلَصُه وأصْوَبُه؛ والخالصُ أنْ يكونَ للهِ، والصَّوابُ أنْ يكونَ على السُّنَّةِ»(١).

٣- متى عَلِمْتَ أنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ فإنَّه لن يَمنَعَك مانعٌ مِن أنْ تَلتجِئَ إليه سُبحانَه وتعالى بسُؤالِ ما تريدُ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى مُنَبِّهًا على هذا الأمرِ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾، ومَعلومٌ أنَّ العَداوةَ بيْنَ المؤمِنينَ والكافِرينَ أمرٌ ثابتٌ، وأنَّ الإنسانَ قد يَستبعِدُ أنْ يَجعَلَ اللهُ في قلْبِه مودَّةً لهذا الكافرِ، فقال اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿قَدِيرٌ﴾: بالنِّسبةِ لتقليبِ القُلوبِ، ﴿غَفُورٌ﴾: بأنْ يُيَسِّرَ هؤلاء الكفَّارَ إلى الإسلامِ، فيَغفِرَ لهم(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ حَثٌّ على العَدلِ في كلِّ شيءٍ(٣). وناهيكَ بتَوصيةِ اللهِ المؤمنينَ أنْ يَستعمِلوا القِسطَ مع المشرِكين به، ويَتحامَوا ظُلْمَهم، مُترجِمةً عن حالِ مُسلمٍ يَجترِئُ على ظُلمِ أخيهِ المسلمِ(٤)! فإذا نهَى عن الظُّلمِ في حقِّ المشرِكِ، فكيفَ في حقِّ المسلمِ(٥)؟! فحَسْبُك وكافيك تنبيهًا

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٤١٥). ويُنظر أيضًا: ((الإخلاص والنية)) لابن أبي الدنيا (٢٢)، ((حلية الأولياء وطبقات الأصفياء)) لأبي نعيم الأصبهاني (٨/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٦٩).

على قُبحِ صنيعِ مَن يَجترئُ على ظُلمِ أخيه المُسلِمِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فيه إشارةٌ وبِشارةٌ إلى إسلامِ بَعضِ المُشركينَ الَّذين كانوا إذ ذاك أعداءً للمؤمِنينَ، وقد وقَع ذلك[٢]، فقد أسلَمَ عامَ الفَتحِ وقبْلَ عامِ الفَتحِ أُمَّةٌ مِن الكفَّارِ، وصارتِ العَداوةُ في قلوبِ المؤمِنينَ لهم مودَّةً[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞ﴾ التَّذييلُ بأنَّ اللهَ قَديرٌ يُشعِرُ بأنَّ تأليفَ القُلوبِ ومَودَّتَها إنَّما هو مِن قُدرةِ اللهِ تعالى وَحْدَه، كما بَيَّنَه قَولُه تعالى: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[٤] [الأنفال: ٦٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ أخرَجَ ذلك القِتالَ بسَبَبِ حَقٍّ دُنيويٍّ لا تعَلُّقَ له بالدِّينِ، وأخرجَ مَن لم يقاتِلْ أصلًا، كخُزاعةَ والنِّساءِ، ومِن ذلك أهلُ الذِّمَّةِ، بل الإحسانُ إليهم مِن محاسِنِ الأخلاقِ، ومعالي الشِّيَمِ؛ لأنَّهم جِيرانٌ[٥].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ رُخصةٌ مِن اللهِ تعالى في صِلةِ الَّذين

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٨).

لم يُعادُوا المؤمِنينَ ولم يُقاتِلوهم[١]، يدُلُّ على جوازِ البرِّ بيْنَ المُشرِكينَ والمُسلِمينَ، وإن كانت المُوالاةُ مُنقَطِعةً[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فيه دليلٌ على جوازِ التَّصدُّقِ على أهلِ الذِّمَّةِ، دونَ أهلِ الحربِ، ووُجوبِ النَّفقةِ للأبِ الكافرِ الذِّمِّيِّ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه لَمَّا نهَى في أوَّلِ السُّورةِ عن اتِّخاذِ المُسلِمينَ الكُفَّارَ أولياءَ، وقَطَعَ المودَّةَ بَيْنَهم وبيْنَهم، تَوَهَّمَ بعضُهم أنَّ بِرَّهُم والإحسانَ إليهم مِن الموالاةِ والمودَّةِ؛ فبَيَّنَ اللهُ سُبحانَه أنَّ ذلك ليس مِن الموالاةِ المنهيِّ عنها، وأنَّه لم يَنْهَ عن ذلك، بل هو مِن الإحسانِ الَّذي يُحِبُّه ويَرضاه، وكتَبَه على كُلِّ شَيءٍ، وإنَّما المنهيُّ عنه تولِّي الكُفَّارِ، والإلقاءُ إليهم بالمودَّةِ[٤]. والكافرُ الَّذي لم يُنْهَ عن برِّه والإقساطِ إليه مَشروطٌ فيه عدَمُ القِتالِ في الدِّينِ، وعدمُ إخراجِ المؤمِنينَ مِن ديارِهم، والكافرُ المَنهيُّ عن ذلك فيه هو المقاتِلُ في الدِّينِ، المُخرِجُ للمؤمِنينَ مِن ديارِهم، المُظاهِرُ للعَدُوِّ على إخراجِهم[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٠٩). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) للجَصَّاص (٣/ ٥٨٣).

(٤) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٦٠٢).

(٥) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٣٦).

أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ بعدَ قولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] أنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ لا تُعَدُّ مُوالاةً، بلِ الموالاةُ شَيءٌ والصِّلَةُ شيءٌ آخَرُ؛ ولهذا جَمَعَ اللهُ تعالى بيْنَ الصِّلَةِ وبيْنَ النَّهيِ عن اتِّخاذِ الوَلايةِ في سُورةٍ واحدةٍ؛ فصِلَةُ الرَّحِمِ أمرٌ مُنفَصِلٌ عن الوَلايةِ، فعلى هذا يجبُ على الإنسانِ أنْ يَصِلَ رَحِمَه ولو كانوا كفَّارًا، لكنْ بدونِ مُوالاةٍ ومُناصَرةٍ ومُعاضَدةٍ على ما هم عليه مِن الكُفرِ، وكذلك يجوزُ أنْ يَدْعُوَهم إلى بَيتِه مثلًا، ولكنْ مع ذلك يَنبغي أن يَحرِصَ على عَرْضِ الإسلامِ عليهم ونُصْحِهم وإرشادِهم؛ لعلَّ اللهَ أنْ يَهديَهم بسَبَبِه[1]، وأيضًا فليس مِن موالاتِهم أنْ نُضيفَهم إذا استضافُونا، يعني: لو نَزَلَ بك كافرٌ وأكرَمْتَه إكرامَ ضَيفٍ لا يكونُ هذا مِن مُوالاتِهم؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾، وهذا إحسانٌ، ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ هذا عَدْلٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[2]، وكذلك فإنَّ الصُّلحَ والمُهادَنةَ لا يَلزَمُ منها محَبَّةٌ، ولا موالاةٌ، ولا موَدَّةٌ لأعداءِ الله[3].

٨- قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ لا يُمكِنُ لأمَّةٍ اليومَ أن تَعيشَ مُنعَزِلةً عن غيرِها مِن الدُّولِ؛ لِتَداخُلِ المصالحِ وتَشابُكِها، ولا سِيَّما في المجالِ الاقتصاديِّ عَصَبِ الحياةِ اليومَ؛ مِن إنتاجٍ، أو تصنيعٍ، أو تسويقٍ؛ فعلى هذا تكونُ الآيةُ مُساعِدةً على جوازِ التَّعامُلِ مع أولئك المسالِمينَ ومُبادَلتِهم مصلحةً بمَصلحةٍ، بشَرطِ عَدَمِ المَيلِ بالقَلْبِ، ولو قيل بشَرطٍ آخَرَ، وهو: مع عَدَمِ وُجودِ تلك المصلحةِ عندَ

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٨/ ٤٤٨).

المسلِمينَ أنفُسِهم، أي: إنَّ العالَمَ الإسلاميَّ يَتعاوَنُ أوَّلًا مع بَعْضِه، فإذا أعوَزَه أو بَعضَ دُوَلِه حاجةٌ عندَ غيرِ المسلمينَ مِمَّن لم يقاتِلوهم ولم يُظاهِروا عَدُوًّا على قِتالِهم؛ فلا مانِعَ مِن التَّعاوُنِ مع تلك الدَّولةِ في ذلك، وممَّا يؤَيِّدُ كُلَّ ما تقَدَّمَ عمَلِيًّا مُعامَلةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لليَهودِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أنَّ الحَربيَّ لو أسْلَمَ وبيَدِه مالُ مُسلمٍ قد أَخَذَه مِن المسلِمينَ بطَريقِ الاغتِنامِ ونحوِه ممَّا لا يَملِكُ به مُسلمٌ مِن مُسلمٍ؛ لكَونِه مُحَرَّمًا في دِيْنِ الإسلامِ- كان له مِلْكًا، ولم يَرُدَّه إلى المُسلمِ الَّذي كان يَملِكُه. ووجْهُ الدَّلالةِ: أنَّه سُبحانَه بيَّنَ أنَّ المسلِمينَ أُخرِجوا مِن ديارِهم وأموالِهم بغيرِ حَقٍّ حتَّى صاروا فُقَراءَ بعدَ أنْ كانوا أغنياءَ، ثمَّ إنَّ المُشرِكينَ استَولَوا على تلك الدِّيارِ والأموالِ، وكانت باقيةً إلى حينِ الفَتحِ، وقد أسلَمَ مَن استولى عليها في الجاهليَّةِ، ثمَّ لم يَرُدَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أحدٍ منهم أُخرِجَ مِن دارِه بعدَ الفَتحِ والإسلامِ دارًا ولا مالًا، بل قيل للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يومَ الفَتحِ: أين تَنزِلُ غدًا؟ فقال: ((وهل تَرَكَ لنا عَقِيلٌ مِن مَنزِلٍ؟!))[٢]، وسأله المهاجِرونَ أنْ يَرُدَّ عليهم أموالَهم الَّتي استولى عليها أهلُ مكَّةَ، فأبَى ذلك صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأقَرَّها بيَدِ مَنِ استَولى عليها بعدَ إسلامِه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ اعتِراضٌ، وهو استِئنافٌ مُتَّصِلٌ بما قبْلَه مِن أوَّلِ السُّورةِ، خُوطِبَ به

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٩٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٢٨٢)، ومسلمٌ (١٣٥١) مِن حديثِ أسامةَ بنِ زَيدٍ رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٥٤).

المؤمنونَ تَسليةً لهم على ما نُهُوا عنه مِن مُوالاةِ أقْربائِهم؛ بأنْ يَرْجُوا مِن اللهِ أنْ يَجعَلَ عداوتَهم آيلةً إلى مودَّةٍ بأنْ يُسْلِمَ المشركونَ مِن قَرابةِ المؤمنينَ(١).

- قولُه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ﴾ وعْدٌ مِن اللهِ على عاداتِ الملوكِ، حيث يَقولونَ في بَعضِ الحوائجِ: عَسى أو لعلَّ، فلا تَبْقَى شُبهةٌ للمُحتاجِ في تَمامِ ذلك، أو قَصَد به إطماعَ المؤمنينَ(٢).

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٞ﴾ تَذييلٌ(٣)، أي: مُبالغٌ في القُدرةِ، فَيقدِرُ على تَقليبِ القُلوبِ، وتَغييرِ الأحوالِ، وتَسهيلِ أسبابِ المودَّةِ(٤).

- وعُطِفَ على التَّذييلِ جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، أي: يَغفِرُ لِمَن أنابوا إليه ويَرحَمُهم؛ فلا عَجَبَ أنْ يَصيروا أوِدَّاءَ لكم كما تَصيرون أوِدَّاءَ لهم(٥).

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ استئنافٌ هو مَنطوقٌ لمَفهومِ الأوصافِ الَّتي وُصِفَ بها العدُوُّ في قولِه تَعالى: ﴿وَقَدۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥١).

(٣) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمامِ معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَينِ: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ السَّائرِ؛ ليشتهرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانِه على الألسِنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦ - ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥١).

كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١]، وقوله: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [الممتحنة: ٢]، المَسوقةِ مَساقَ التَّعليلِ للنَّهيِ عن اتِّخاذِ عدُوِّ اللهِ أولياءَ، اسْتَثْنى اللهُ أقوامًا مِن المشركين غيرَ مُضمِرينَ العداوةَ للمسلِمينَ، وكان دِينُهم شَديدَ المُنافَرةِ مع دِينِ الإسلامِ، وهذه الجُملةُ قد أَخرَجَتْ مِن حُكْمِ النَّهيِ القومَ الَّذين لم يُقاتِلوا في الدِّينِ ولم يُخرِجوا المسلِمينَ مِن دِيارِهم[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ تَذييلٌ، أي: يُحِبُّ كلَّ مُقسطٍ، فيَدخُلُ الَّذين يُقسِطون للَّذين حالَفُوهم في الدِّينِ إذ كانوا مع المُخالَفةِ مُحسِنينَ مُعاملتَهم[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فذْلَكةٌ[٣] لِما تَقدَّمَ، وحصْرٌ لحُكْمِ الآيةِ المُتقدِّمةِ، وهي تُؤذِنُ بانتهاءِ الغرَضِ المسوقِ له الكلامُ مِن أوَّلِه[٤].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن جُملةِ ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ...﴾ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥١، ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٥٣).

(٣) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و (الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٣).

آخِرِها، قصْرُ قلْبٍ[١]؛ لرَدِّ اعتقادِ مَن ظنَّ أو شكَّ في جَوازِ صِلةِ المشركين على الإطلاقِ[٢].

- والقصْرُ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٣]، فظُلْمُهم وقَع بعْدَ النَّهيِ الشَّديدِ، والتَّنبيهِ على الأخطاءِ والعِصيانِ؛ وهو اعتداءٌ على حُقوقِ اللهِ، وحُقوقِ المسلمينَ، وعلى حقِّ الظالِمِ نفْسِه، فجُعِلوا كمَن انْحَصَر الظُّلْمُ فيهم[٤].

- وأيضًا جِيءَ في جَوابِ الشَّرطِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ باسمِ الإشارةِ (أولئك)؛ لتَمييزِ المشارِ إليهم زِيادةً في إيضاحِ الحُكْمِ[٥].

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٣).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٦) و(٢٨/ ١٥٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٥٤).

الآيتان (١٠-١١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جُنَاحَ﴾: أي: إثْمٌ وحَرَجٌ، وسُمِّيَ بذلك؛ لِمَيلِه عن طَريقِ الحَقِّ، وأصلُ (جنح): يدُلُّ على مَيلٍ وتَعَدٍّ[1].

﴿بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾: أي: بعقدِ نكاحِ النِّساءِ الكوافِرِ، والكوافِرُ: جَمعُ كافِرةٍ، والعِصَمُ: جمعُ عِصْمةٍ، وهي ما اعتُصِمَ به مِنَ العَقدِ والسَّبَبِ، وأصلُ (عصم): يدُلُّ على إمساكٍ ومَنعٍ ومُلازَمةٍ[2].

﴿فَعَاقَبۡتُمۡ﴾: قيل: هو مِن العُقْبى، أي: أصَبْتُم عُقْبى، وهي الغنيمةُ. وقيل: مِن العُقْبةِ، وهي النَّوبةُ والتَّعاقُبُ على الشَّيءِ، أي: فجاءتْ عقبتُكم -أي: نَوبتُكم- مِن أداءِ المهرِ. وقيل: المعنى: فعَلْتُم ما فُعِل بكم، أي: ظَفِرتُم، وهو مِن قَولِك: العُقْبى لفُلانٍ، أي: العاقِبةُ بعدَ الأُولى. وقيل: غزَوْتُم مُعاقِبينَ غَزوًا بعدَ غَزوٍ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٨).

وقيل: المعنى: أصَبْتُموهم في القتالِ بعُقوبةٍ حتَّى غَنِمتُم، وأصل (عقب) هنا: يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ وإتيانِه بعدَ غَيْرِه[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا بعضَ الأحكامِ الَّتي تتعلَّقُ بالنِّساءِ المؤمناتِ، اللَّاتي ترَكْنَ أزواجَهنَّ الكفَّارَ، ورَغِبْنَ في الهجرةِ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا جاءَكم المُؤمِناتُ مُهاجِراتٍ إليكم فاختَبِروهنَّ، اللهُ أعلمُ بحَقيقةِ إيمانِهنَّ، فإنْ عَلِمْتُم بعدَ اختِبارِهنَّ أنَّهنَّ مُؤمِناتٌ فلا تَرُدُّوهنَّ إلى الكُفَّارِ؛ فليست المُؤمِناتُ بمُباحاتٍ للكافِرينَ بالنِّكاحِ، ولا الكُفَّارُ يَحِلُّونَ للمُؤمِناتِ بالنِّكاحِ، وأعطُوا أزواجَ مَن هاجَرْنَ إليكم ما دَفَعوا إليهنَّ مِن مُهورٍ، ولا إثمَ عليكم -أيُّها المؤمِنونَ- أن تتزَوَّجوا المؤمِناتِ المُهاجِراتِ إليكم إذا أعطيتُموهُنَّ مُهورَهنَّ.

ومَن كانت له منكم -أيُّها المؤمِنونَ- زوجةٌ مُشرِكةٌ فلْيُطلِّقْها ولا يُمسِكْها عندَه، واسألوا -أيُّها المؤمِنونَ- ما دفَعْتُم مِن المهورِ إلى أزواجِكم اللَّاتي فارَقْتُموهنَّ لكُفْرِهنَّ، ولْيَسألِ المُشرِكونَ ما دَفَعوا مِن المُهورِ إلى أزواجِهم المؤمِناتِ اللَّاتي هاجَرْنَ إليكم، وذلكم هو حُكمُ اللهِ الَّذي يَقضيه بيْنَكم وبيْنَ الكُفَّارِ، واللهُ عليمٌ حكيمٌ.

وإن فرَّ بعضُ أزواجِكم -أيُّها المؤمِنونَ- إلى الكُفَّارِ ولم يُعطوكم مُهورَهنَّ، فعاقَبْتُم، فأعطُوا المؤمِنينَ الَّذين فَرَّت أزواجُهم إلى الكُفَّارِ ما دَفَعوه إليهنَّ مِن مُهورٍ، وخافوا اللهَ الَّذي أنتم به مُؤمِنونَ.

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠).

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ وُرودِ هذه الآيةِ بعْدَ ما قبْلَها -أي: النَّهي عن مُوالاةِ المشركين- يَتطرَّقُ إلى ما بيْن المسلمينَ والمشركين مِن عُقودِ النِّكاحِ والمُصاهَرةِ؛ فقد يكونُ المسلمُ زَوجًا لمشركةٍ، وتكونُ المسلمةُ زَوجًا لمُشرِكٍ، فتَحدُثُ في ذلك حَوادثُ لا يَسْتغني المسلِمون عن مَعرفةِ حُكْمِ الشَّريعةِ في مِثلِها[1]؛ لذا بَيَّنَ أحكامَ مُهاجَرةِ النِّساءِ[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرمةَ ومَرْوانَ بنِ الحَكَمِ عن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قِصَّةِ الحُدَيبيَةِ: ((جاءت المُؤمناتُ مُهاجِراتٍ، وكانت أمُّ كُلثومٍ بنتُ عُقْبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ مِمَّن خَرَجَ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَومَئذٍ وهي عاتِقٌ[3]، فجاء أهلُها يَسألونَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَرجِعَها إليهم، فلم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦١).

(٣) العاتِقُ: الشَّابَّةُ أوَّلَ ما تُدْرِكُ. وقيل: هي الَّتي لم تَبِنْ مِنْ والِدَيها، ولم تُزَوَّجْ، وقد أدْرَكَت وشَبَّت. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٧٩).

يَرجِعْها إليهم؛ لِمَا أنزَلَ اللهُ فيهنَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾)). وفي رواية: ((ثُمَّ جاءَه نِسْوةٌ مُؤْمِناتٌ فأنْزَل اللَّهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ ...﴾))[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا جاءَكم النِّساءُ المُؤمِناتُ مُهاجِراتٍ مِن بِلادِ الكُفرِ إلى بِلادِ الإسلامِ، فاختَبِروهنَّ[2].

---

(١) رواه البخاري (٢٧١١) (٢٧٣١ و٢٧٣٢). ويُنظر ما يأتي (ص: ٨٤).

قال ابنُ تيميَّة: (نزَلَت باتِّفاقِ المُسلِمينَ في قَضيَّةِ الصُّلحِ الَّذي كان بيْن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبيْن أهلِ مكَّةَ؛ صُلحِ الحُدَيبيَةِ، لَمَّا شَرَط عليهم أن يَرُدَّ المسلمونَ مَن جاءَهم مُسلِمًا، وألَّا يَرُدَّ أهلُ مكَّةَ مَن ذهبَ إليهم مُرتَدًّا، فهاجَرَ نِسوةٌ كأمِّ كُلثومٍ بِنتِ عُقبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ، فنَسَخ اللهُ تعالى الرَّدَّ في النِّساءِ، وأمَرَ برَدِّ المهرِ عِوَضًا عن رَدِّ المرأةِ). ((مختصر الفتاوى المصرية)) للبعلي (ص: ٥٤٠). ويُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٦٧٨).

وقال ابن حجر: (اختُلِف في تَركِ ردِّ النِّساءِ إلى أهلِ مكَّةَ مع وُقوعِ الصُّلحِ بيْنَهم وبيْن المسلمينَ في الحُدَيبيَةِ على أنَّ مَن جاء منهم إلى المسلمينَ ردُّوه، ومَن جاء مِن المسلمينَ إليهم لم يَرُدُّوه: هل نُسِخ حُكمُ النِّساءَ مِن ذلك فمُنِع المُسلمونَ مِن رَدِّهِنَّ، أو لم يَدخُلْنَ في أصلِ الصُّلحِ، أو هو عامٌّ أُريدَ به الخُصوصُ وبُيِّن ذلك عندَ نُزولِ الآيةِ؟). ((فتح الباري)) (٩/ ٤١٩).

وقال القرطبي: (أكثَرُ العُلماءِ على أنَّ هذا ناسخٌ لِما كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عاهَد عليه قُرَيشًا، مِن أنَّه يَرُدُّ إليهم مَن جاءه منهم مُسلِمًا، فنُسِخ مِن ذلك النِّساءُ. وهذا مذهبُ مَن يَرى نَسْخَ السُّنَّةِ بالقرآنِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٣). ويُنظر: ((قواطع الأدلة في الأصول)) للسمعاني (١/ ٤٣٣)، ((كشف الأسرار شرح أصول البزدوي)) (٣/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٦).

قال الماوَرْدي: (لأنَّه يُعلَمُ بالامتحانِ ظاهِرُ إيمانِهنَّ، واللهُ يَعلَمُ باطِنَ إيمانِهنَّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٢٠).

قال القرطبي: (اختُلِفَ فيما كان يمتَحِنُهنَّ به؛ على ثلاثةِ أقوالٍ:

الأوَّلُ: قال ابنُ عبَّاسٍ: كانت المحنةُ أن تُستحلَفَ باللهِ أنَّها ما خرَجَت مِن بُغضِ زَوجِها، ولا =

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((إنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يمتَحِنُ مَن هاجَرَ مِن المؤمِناتِ بهذه الآيةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ [الممتحنة: ١٢]))[(١)].

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾.

أي: اللهُ أعلمُ بحَقيقةِ إيمانِ أولئك المهاجِراتِ، وما يُسْرِرْنَه في قُلوبِهنَّ؛ فاحكُموا لهنَّ بما يَظهَرُ لكم مِنَ الدَّلائِلِ[(٢)].

﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ﴾.

= رغبةً مِن أرضٍ إلى أرضٍ، ولا التِماسَ دُنيا، ولا عِشقًا لرجُلٍ مِنَّا، بل حُبًّا لله ولرَسولِه. فإذا حلَفَت باللهِ الَّذي لا إلهَ إلَّا هو على ذلك، أعطى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زَوْجَها مَهْرَها وما أنفَقَ عليها، ولم يَرُدَّها، فذلك قَولُه تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾.

الثَّاني: أنَّ المحنةَ كانت أن تَشهَدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ أيضًا.

الثَّالثُ: بما بَيَّنَه في السُّورةِ بَعْدُ مِن قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ [الممتحنة: ١٢]، قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها: ما كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يمتَحِنُ إلَّا بالآيةِ الَّتي قال اللهُ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾ [الممتحنة: ١٢]. رواه مَعمَرٌ عن الزُّهريِّ عن عائشةَ. خَرَّجه التِّرمذيُّ [٣٣٠٦]، وقال: هذا حديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٢).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: السمرقنديُّ، ومكِّي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٤٢٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

ومعنى ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ أي: اختَبِروهنَّ بما يَغلِبُ على ظنِّكم مُوافَقةُ قُلوبِهنَّ لألسِنَتِهنَّ في الإيمانِ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٠٨).

(١) رواه البخاريُّ (٤١٨٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٦).

أي: فإن عَلِمْتُم بعدَ اختبارِهنَّ أنَّهنَّ مُؤمِناتٌ، فلا تَرُدُّوهنَّ إلى الكُفَّارِ[١].

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

النَّاسِخُ والمنسوخُ:

هذه الآيةُ نَسَخَت ما كان في أوَّلِ الإسلامِ مِن إباحةِ نِكاحِ الكافِرِ للمُسلِمةِ[٢].

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

أي: ليست المُؤمِناتُ بمُباحاتٍ للكافِرينَ بالنِّكاحِ، ولا الكُفَّارُ بجَميعِ مِلَلِهم يَحِلُّونَ للمُؤمِناتِ بالنِّكاحِ؛ فقد حَرَّم اللهُ نِكاحَ الكافِرِ للمُؤمِنةِ تَحريمًا مُؤَكَّدًا في جميعِ الأحوالِ والأزمانِ[٣].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

---

(١) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٧)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٣).

قال ابنُ العربي: (قال أهلُ التَّفسيرِ: أمَرَ اللهُ تعالى مَن كان له زوجةٌ مُشرِكةٌ أن يُطَلِّقَها. وقد كان الكُفَّارُ يَتزَوَّجون المُسلِماتِ، والمسلِمونَ يتزَوَّجونَ المُشرِكاتِ، ثمَّ نَسَخ اللهُ ذلك في هذه الآيةِ وغَيرِها، وكان ذلك نَسْخَ الإقرارِ على الأفعالِ بالأقوالِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٣١). ويُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لأبي بكر بن العربي (٢/ ٣٨٥).

وقال ابن كثير: (هذه الآيةُ هي الَّتي حرَّمت المسلِماتِ على المُشرِكينَ، وقد كان جائِزًا في ابتداءِ الإسلامِ أن يتزوَّجَ المُشرِكُ المُؤمِنةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٦).

يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢١].

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾.

أي: وأعطُوا مَن كانوا أزواجًا للَّاتي أسلَمْنَ وهاجَرْنَ إليكم، ما دَفَعوا إليهنَّ مِن مُهورٍ[(١)].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

أي: ولا إثمَ عليكم -أيُّها المؤمِنونَ- أن تتزَوَّجوا المؤمِناتِ المُهاجِراتِ إليكم بعدَ انقِضاءِ عِدَّتِهنَّ، ولو كان لهنَّ أزواجٌ مِن الكُفَّارِ في دارِ الشِّركِ، بشَرطِ إعطائِهنَّ مُهورَهنَّ[(٢)].

﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾.

أي: ومَن كانت له منكم -أيُّها المؤمِنونَ- زوجةٌ مُشرِكةٌ فلْيُطلِّقْها[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

قال القرطبي: (أمَرَ اللهُ تعالى إذا أُمسِكَت المرأةُ المسلمةُ أن يُرَدَّ على زَوجِها ما أنفَقَ، وذلك مِن الوفاءِ بالعَهدِ؛ لأنَّه لَمَّا مُنِع مِن أهلِه بحُرمةِ الإسلامِ أُمِرَ برَدِّ المالِ إليه؛ حتَّى لا يَقَعَ عليهم خُسرانٌ مِن الوَجهَينِ: الزَّوجةِ، والمالِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٤). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤١٩).

وقال ابنُ عاشور: (المكلَّفُ بإرجاعِ مُهورِ الأزواجِ المُشرِكينَ إليهم هم وُلاةُ أُمورِ المُسلِمينَ مِمَّا بيْنَ أيديهم مِن أموالِ المُسلِمينَ العامَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٩). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٥)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٠)، =

عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمةَ ومَروانَ بنِ الحَكَمِ: (أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جاءه نِسْوةٌ مُؤمِناتٌ، فأنزَلَ اللَّهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] حتَّى بَلَغَ: ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، فطَلَّق عُمَرُ يومَئذٍ امرأتَينِ كانتا له في الشِّركِ، فتزوَّج إحداهما مُعاويةُ بنُ أبي سُفيانَ، والأُخرى صَفوانُ بنُ أُميَّةَ)[1].

﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾.

أي: وطالِبوا -أيُّها المؤمِنونَ- بما دفَعْتُم مِن المهورِ إلى أزواجِكم اللَّاتي فارقتُموهنَّ لكُفْرِهنَّ، ولْيُطالِبِ المُشرِكونَ بما دَفَعوا مِن المُهورِ إلى أزواجِهم المؤمِناتِ اللَّاتي هاجَرْنَ إليكم[2].

= ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٤)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٢٨).

(١) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٤، ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

قال الجصَّاص: (هذه الأحكامُ في رَدِّ المَهرِ وأخْذِه مِن الكُفَّارِ، وتَعويضِ الزَّوجِ مِن الغنيمةِ أو مِن صِداقٍ قد وَجَب رَدُّه على أهلِ الحَربِ: مَنسوخٌ عندَ جماعةِ أهلِ العِلمِ، غيرُ ثابتِ الحُكمِ إلَّا شَيئًا رُوِيَ عن عطاءٍ؛ فإنَّ عبدَ الرَّزَّاقِ روى عن ابنِ جُرَيجٍ قال: قُلتُ لعَطاءٍ: أرأيْتَ لو أنَّ امرأةً مِن أهلِ الشِّركِ جاءت المسلِمينَ فأسلَمَت، أيُعَوَّضُ زَوجُها منها شيئًا؛ لِقَولِه تعالى في المُمتَحَنةِ: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾؟ قال: إنَّما كان ذلك بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبيْنَ أهلِ عَهْدِه. قُلتُ: فجاءت امرأةٌ الآنَ مِن أهلِ عَهدٍ؟ قال: نعمْ، يُعاضُ. فهذا مَذهَبُ عَطاءٍ في ذلك، وهو خِلافُ الإجماعِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٨٩). ويُنظر: ((مصنَّف عبد الرزاق)) (١٢٧٠٧).

وقال ابن العربي: (قال المفَسِّرون: كُلُّ مَن ذَهَب مِن المسلِماتِ مُرتدَّاتٍ مِن أهلِ العَهدِ إلى الكُفَّارِ، يُقالُ للكُفَّارِ: هاتوا مَهْرَها، ويُقالُ للمُسلِمينَ إذا جاء أحدٌ مِن الكافِراتِ مُسلِمةً مُهاجِرةً: رُدُّوا إلى الكُفَّارِ مَهْرَها، وكان ذلك نَصَفًا وعَدلًا بيْنَ الحالتَينِ، وكان هذا حُكمَ اللهِ مَخصوصًا بذلك الزَّمانِ في تلك النَّازِلةِ خاصَّةً، بإجماعِ الأمَّةِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٣١). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٨). =

﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾.

أي: ما بيَّنه اللهُ تعالى لكم في هذه الآيةِ مِن إرجاعِ مُهورِ النِّساءِ اللَّاتي يَذهَبْنَ إلى الفَريقِ الآخَرِ: هو حُكمُ اللهِ الَّذي يَقضيه بيْنَكم وبيْنَ الكُفَّارِ بالعَدلِ التَّامِّ[(١)].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بما يُصلِحُ عِبادَه، حكيمٌ في تدبيرِهم بما يَشرَعُه لهم مِن الأحكامِ، فيُعطي كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه[(٢)].

﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ١١﴾.

﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾.

أي: وإن فرَّ بعضُ أزواجِكم -أيُّها المؤمِنونَ- إلى الكُفَّارِ ولم يُعطوكم مُهورَهنَّ، فعاقَبْتُم[(٣)]؛ فأعطُوا المؤمِنينَ الَّذين فَرَّت أزواجُهم إلى الكُفَّارِ ما دَفَعوه إليهنَّ مِن

= وقال ابنُ عاشور: (كانت هذه الأحكامُ الَّتي في هذه الآياتِ مِن التَّرادِّ في المهورِ شَرعًا في أحوالٍ مخصوصةٍ اقتضاها اختِلاطُ الأمرِ بيْنَ أهلِ الشِّركِ والمؤمِنينَ، وما كان مِن عَهدِ المُهادَنةِ بيْن المُسلِمينَ والمُشرِكينَ في أوائِلِ أمرِ الإسلامِ خاصًّا بذلك الزَّمانِ بإجماعِ أهلِ العِلمِ، قاله ابنُ العربي، والقرطبيُّ، وأبو بكرٍ الجصَّاصُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦١).

(٣) قيل: المعنى: فغَنِمْتُم مِن العدُوِّ شَيئًا بأن صارت العاقِبةُ في الظَّفَرِ لكم، فأعطُوا الأزواجَ مِن الغنيمةِ ما أنفَقوا عليهنَّ مِن المهرِ. وممَّن قال بهذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سليمان، والواحديُّ، =

مُهورٍ[(١)].

= والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٢، ١٦٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، ومسروقٌ، وإبراهيمُ، والضَّحَّاكُ، وسفيانُ بنُ حُسَينٍ، والزُّهريُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٥).

وقيل: هو مِن العُقْبةِ، وهي النَّوبةُ، والمعنى: فآتُوا مَن فاتَتْه امرأتُه إلى الكُفَّارِ مِثلَ مَهرِها مِن مَهرِ المهاجِرةِ، ولا تُؤتُوه زَوجَها الكافِرَ. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٨). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٣٣).

وذكَر ابنُ كثيرٍ أنَّه لا تنافيَ بينَ القولَينِ السَّابقَينِ، وأنَّه إذا أمكَنَ عَدَمُ إعطاءِ المهاجِرةِ شَيئًا في مقابِلِ فِرارِ زَوجةِ المؤمِنِ، فهو أولى، وإلَّا فمِن الغنائمِ اللَّاتي تؤخَذُ مِن أيدي الكُفَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٥).

وأيضًا ذهب ابنُ جريرٍ إلى عدمِ تخصيصِ إيتائِهم ذلك مِن مالٍ دونَ مالٍ؛ فعليهم أن يُعطوهم ذلك مِن كُلِّ تلك الأموالِ المذكورةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٣).

قال الرَّسْعَني: (وفي المالِ الَّذي يُرَدُّ منه هذا المهرُ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: مِن أموالِ غنائمِهم. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: مِن أموالِ الفَيءِ. قاله الزُّهْريُّ.

الثَّالثُ: مِن صَداقِ مَن أسلَمْنَ مِنهُنَّ عن زَوجٍ كافرٍ. وهذا مرويٌّ عن الزُّهْريِّ أيضًا). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٢، ١٦٣).

ذكر النَّحَّاسُ أنَّ هذه الآيةَ ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٌ ...﴾ مَنسوخةٌ عندَ أكثَرِ العُلَماءِ، وحكاه السمرقنديُّ إجماعًا. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٧٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٠).

وقال ابنُ عطيَّة: (هذه الآيةُ كُلُّها قد ارتفَعَ حُكمُها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٨). ويُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٦٠٨، ٦٠٩). =

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: وخافوا اللهَ واحذَروا سَخَطَه وعذابَه، بطاعتِه واجتنابِ مَعصيتِه؛ الَّذي أنتم مُؤمِنونَ بوحدانيَّتِه وصِفاتِه، وثوابِه وعِقابِه(١).

الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ أنَّ المؤمِنَ مُحتاجٌ إلى امتحانِ مَن يريدُ أنْ يُصاحِبَه ويُقارِنَه بنِكاحٍ وغَيرِه(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ في الجُملةِ: الامتِحانُ طَريقٌ إلى المعرفةِ، وجواهِرُ النَّاسِ تتبَيَّنُ بالتَّجرِبةِ، ومَن

= وقال الشوكاني: (هذه الآيةُ منسوخةٌ، قد انقطَع حُكمُها بعدَ الفتحِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٧).

وقال ابن العربي: (قولُه تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ قال بعضُهم: المرادُ بهذه الآيةِ: إنِ ارتدَّتِ امرأةٌ منكم فذهبتْ منكم إلى الكفَّارِ فأَعْطوا زوْجَها مِثلَ ما أنفَق عليها -يعني: مِن صَداقٍ-، ثمَّ نسَخ اللهُ ذلك. واختُلِف في نَسخِه على ثلاثةِ أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّه منسوخٌ بقولِه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ الآية [الأنفال: ٤١].

الثَّاني: أنَّه منسوخٌ بآيةِ القتالِ.

الثَّالثُ: أنَّ آيةَ «براءة» نسخَتْ أحكامَ هذه السُّورةِ). ((الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم)) (٢/ ٣٨٦).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (كلُّ هؤلاء الآياتِ نسَخَتْها في «براءة» آيةُ السَّيفِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٦).

وقال ابن عاشور: (عن ابنِ عبَّاسٍ والجمهورِ: الَّذين فاتَهم أزواجُهم إلى الكفَّارِ يُعطَوْنَ مُهورَ نسائِهم مِن مَغانمِ المسلمينَ. وهذا يَقتضي أن تكونَ الآيةُ منسوخةً بآيةِ سورةِ «براءة»: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٢٨).

أقدَمَ على شَيءٍ مِن غيرِ تجربةٍ تحسَّى كأسَ النَّدَمِ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ نَدَب تعالى إلى التَّقوى وأوجَبَها، وذَكَر العِلَّةَ الَّتي بها يجِبُ التَّقوى، وهي الإيمانُ باللهِ، والتَّصديقُ بوَحدانيَّتِه وصِفاتِه، وعِقابِه وإنعامِه[٢]، فالإيمانُ به عزَّ وجلَّ يقتضي التَّقوى منه سُبحانَه وتعالى[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ فيه تحريضٌ للمُسلِمينَ على الوَفاءِ بما أمَرَهم اللهُ، وألَّا يَصُدَّهم عن الوَفاءِ ببَعضِه مُعامَلةُ المُشرِكينَ لهم بالجَورِ، وقِلَّةِ النَّصَفةِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- المعانِدُ لا يخلو مِن أحَدِ أحوالٍ ثلاثةٍ: إمَّا أن يستَمِرَّ عِنادُه، أو يُرجَى منه أن يترُكَ العِنادَ، أو يترُكَ العِنادَ ويَستسلِمَ، وقد بَيَّن اللهُ تعالى في هذه الآياتِ أحوالَهم، وأمَرَ المسلِمينَ أن يُعامِلوهم في كُلِّ حالةٍ على ما يَقتَضيه الحالُ؛ أمَّا قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ﴾ [الممتحنة: ٤] فهو إشارةٌ إلى الحالةِ الأُولى، ثمَّ قَولُه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ﴾ [الممتحنة: ٧] إشارةٌ إلى الحالةِ الثَّانيةِ، ثمَّ قَولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ [الممتحنة: ١٠] إشارةٌ إلى الحالةِ الثَّالثةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ نَزَل في شَرطِ صُلحِ الحُدَيبيَةِ أن يُرَدَّ إلى المُشرِكينَ مَن جاء مُسلِمًا مِن أهلِ مَكَّةَ، فاستُدِلَّ به على أنَّه لا يجوزُ في الهُدنةِ شَرطُ رَدِّ مُسلِمةٍ تأتينا منهم، وأنَّه إن لم يُذكَرْ رَدٌّ أو شُرِطَ رَدُّ مَن جاءَنا منهم، فجاءت امرأةٌ؛ لا يجوزُ رَدُّها[١].

٣- إذا تعارضتْ سَيِّئتانِ لا يمكنُ الخُلُوُّ منهما، فإنَّه يُدفَعُ أسوأُهما باحتِمالِ أدناهما، كما في تقديمِ المرأةِ المهاجِرةِ لسَفَرِ الهِجرةِ بلا مَحْرَمٍ على بقائِها بدارِ الحَربِ، كما فعَلَت أمُّ كُلثومٍ الَّتي أنزَلَ اللهُ فيها آيةَ الامتِحانِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ﴾[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ دلَّ على أنَّ مجرَّدَ إظهارِ الإسلامِ لا يكونُ دليلًا على الإيمانِ في الباطنِ؛ إذْ لو كان كذلك لم تَحْتَجِ المهاجِراتُ اللَّاتي جِئْنَ مُسلِماتٍ إلى الامتِحانِ[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ مَفهومُه أنَّ الرِّجالَ المهاجِرينَ لا يُمتَحَنونَ، وفِعلًا لم يكنِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يمتَحِنُ مَن هاجَرَ إليه، والسَّبَبُ في امتِحانِهنَّ دونَ الرِّجالِ هو ما أشارت إليه هذه الآيةُ في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾، كأنَّ الهِجرةَ وَحْدَها لا تَكفي في حَقِّهنَّ بخِلافِ الرِّجالِ؛ فقد شَهِدَ اللهُ لهم بصِدقِ إيمانِهم بالهِجرةِ، في قَولِه تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٥٨١).

وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]؛ وذلك أنَّ الرَّجُلَ إذا خرجَ مُهاجِرًا يَعلَمُ أنَّ عليه تَبِعةَ الجِهادِ والنُّصرةِ، فلا يُهاجِرُ إلَّا وهو صادِقُ الإيمانِ، فلا يَحتاجُ إلى امتِحانٍ، بخِلافِ النِّساءِ؛ فليس عليهنَّ جِهادٌ، ولا يَلزَمُهنَّ بالهِجرةِ أيَّةُ تَبَعيَّةٍ، فأيُّ سَبَبٍ يواجِهُهنَّ في حياتِهنَّ سَواءٌ كان بسَبَبِ الزَّوجِ أو غَيرِه، فإنَّهنَّ يَخرُجنَ باسمِ الهِجرةِ؛ فكان ذلك مُوجِبًا للتَّوثُّقِ مِن هِجرتِهنَّ بامتِحانِهنَّ؛ لِيُعلَمَ إيمانُهنَّ، ويُرشِّحُ لهذا المعنى قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾، وفي حَقِّ الرِّجالِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وكذلك مِن جانبٍ آخَرَ، وهو أنَّ هِجرةَ المؤمِناتِ يَتعَلَّقُ عليها حَقٌّ مع طَرَفٍ آخَرَ، وهو الزَّوجُ، فيُفسَخُ نِكاحُها منه، ويُعَوَّضُ هو عمَّا أنفَقَ عليها، وإسقاطُ حَقِّه في النِّكاحِ، وإيجابُ حَقِّه في العِوَضِ قضايا حقوقيَّةٌ تتطَلَّبُ إثباتًا، بخِلافِ هِجرةِ الرِّجالِ. واللهُ تعالى أعلَمُ[(١)].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ فيه سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾، وذلك معلومٌ مِن غَيرِ شَكٍّ؟

الجوابُ: فائِدتُه بيانُ أنْ لا سَبيلَ إلى ما تَطمَئِنُّ به النَّفْسُ مِن الإحاطةِ بحَقيقةِ إيمانِهنَّ؛ فإنَّ ذلك ممَّا استأثَرَ به علَّامُ الغُيوبِ، وأنَّ ما يُؤدِّي إليه الامتحانُ مِن العِلمِ كافٍ في ذلك، وأنَّ تَكليفَكم لا يَعْدُوه[(٢)].

٧- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ لم يُرِدْ حَقيقةَ العِلْمِ بضَمائِرِهنَّ واعتقادِهنَّ، وإنَّما أراد ما ظَهَر مِن إيمانِهنَّ بالقَولِ، وجَعَل ذلك عِلْمًا؛ فدَلَّ على أنَّه لا اعتبارَ بالضَّميرِ في أحكامِ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٩٧، ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٢).

الدُّنيا، وإنَّما الاعتبارُ بما يَظهَرُ مِنَ القَولِ[١]؛ فقَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ يعني: بسرائِرهنَّ في إيمانِهنَّ، وهذا يدُلُّ على أنْ لم يُعْطَ أحَدٌ مِن بني آدَمَ أن يَحكُمَ على غيرِ ظاهِرٍ[٢].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف سُمِّيَ الظَّنُّ عِلْمًا؟

الجوابُ: أنَّه مِن بابِ أنَّ الظَّنَّ الغالِبَ، وما يُفضي إليه الاجتِهادُ والقياسُ: جارٍ مَجرى العِلمِ، وأنَّ صاحِبَه غَيرُ داخِلٍ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾[٣] [الإسراء: ٣٦].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. ما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، ويُمكِنُ أن يكونَ في أحَدِ الجانِبَينِ دونَ الآخَرِ؟

الجوابُ: هذا باعتِبارِ الإيمانِ مِن جانِبِهنَّ ومِن جانِبِهم؛ إذ الإيمانُ مِن الجانِبَينِ شَرطٌ للحِلِّ، ولأنَّ الذِّكْرَ مِن الجانِبَينِ مُؤَكِّدٌ لارتفاعِ الحِلِّ، وفيه مِن الإفادةِ ما لا يكونُ في غَيرِه[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ تخصيصُ السُّنَّةِ بالكِتابِ، وهو قليلٌ؛ فإنَّ مِن الشُّروطِ الَّتي بيْن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُشرِكينَ في الحُديبيَةِ: أنَّ مَن جاء مِن المُشرِكينَ مُسلِمًا يُرَدُّ إليهم، وهذا الشَّرطُ عامٌّ يَشمَلُ الذَّكَرَ والأُنثى؛ فأنزَلَ اللهُ تعالى الآيةَ[٥]. وهذا على قولٍ.

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٢/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٥٢٢).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٥٠٥). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٣٠)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٩٩). =

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أنَّ أنكِحةَ الكُفَّارِ لها حُكْمُ الصِّحَّةِ، لا يُحكَمُ عليها بالبُطلانِ[(١)].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذا أوَّلُ دَليلٍ على أنَّ الَّذي أوجَبَ فُرقةَ المُسلِمةِ مِن زَوجِها الكافِرِ إسلامُها لا هِجرتُها[(٢)]، .....

= قال البغوي: (واختلَف القولُ في أنَّ ردَّ مهرِ مَن أسلمَتْ مِن النِّساءِ إلى أزواجِهنَّ، كان واجبًا أو مندوبًا؟ وأصلُه أنَّ الصُّلحَ هل كان وقَع على ردِّ النِّساءِ؟ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّه وقَع على ردِّ الرِّجالِ والنِّساءِ جميعًا؛ لِما رُوِّينا: «أنَّه لا يَأتيك مِنَّا أحدٌ وإن كان على دينِك إلَّا ردَدْتَه إلينا»، ثمَّ صار الحُكمُ في ردِّ النِّساءِ منسوخًا بقولِه: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾. فعلى هذا كان ردُّ المهرِ واجبًا.

والقولُ الآخَرُ: أنَّ الصُّلحَ لم يقَعْ على ردِّ النِّساءِ؛ لأنَّه يُروى: «على أنَّه لا يأتيك مِنَّا رجُلٌ وإن كان على دينِك إلَّا ردَدْتَه إلينا»؛ وذلك لأنَّ الرَّجُلَ لا يُخشى عليه مِن الفِتنةِ في الرَّدِّ ما يُخشى على المرأةِ مِن إصابةِ المشركِ إيَّاها، وأنَّه لا يُؤْمَنُ عليها الرِّدَّةُ إذا خُوِّفَتْ وأُكرِهَتْ عليها؛ لِضَعفِ قلبِها، وقلَّةِ هدايتِها إلى المَخرَجِ منها بإظهارِ كلمةِ الكفرِ مع التَّوريةِ وإضمارِ الإيمانِ، ولا يُخشى ذلك على الرَّجُلِ؛ لقوَّتِه وهِدايتِه إلى التَّقيَّةِ. فعلى هذا كان ردُّ المهرِ مندوبًا.

واختلَفوا في أنَّه هل يجبُ العملُ به اليومَ في ردِّ المالِ إذا شُرِط في مُعاقَدةِ الكفَّارِ؟

فقال قَومٌ: لا يجِبُ، وزعَموا أنَّ الآيةَ منسوخةٌ، وهو قولُ عَطاءٍ ومجاهِدٍ وقَتادةَ. وقال قومٌ: هي غيرُ منسوخةٍ، ويُرَدُّ إليهم ما أنفَقوا). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧٥).

وقال ابنُ القَيِّمِ: (الصَّحيحُ أنَّ الصُّلحَ كان عامًّا على رَدِّ مَن جاء مُسلِمًا مُطلَقًا ولم يكُنْ فيه تخصيصٌ، بل وقع بصيغةِ «مَنْ» المتناوِلةِ للرِّجالِ والنِّساءِ، ثمَّ أبطل اللهُ منه رَدَّ النِّساءِ، وعَوَّض منه رَدَّ مُهورِهنَّ، وهذه شُبهةُ مَن قال: إنَّ حُكمَ هذه الآيةِ مَنسوخٌ، ولم يُنسَخْ منه إلَّا رَدُّ النِّساءِ خاصَّةً، وكان ردُّ المهورِ مأمورًا به، والظَّاهِرُ أنَّه كان واجِبًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]؛ فثبَت أنَّ رَدَّ المهورِ حَقٌّ لِمن يَسألُه، فيَجِبُ رَدُّه إليه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ١٦٦، ١٦٧).

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٢٥).

ففيه تحريمُ المؤمِناتِ على الكافِرينَ[١]، وأنَّ الكافِرَ لا يَحِلُّ له نِكاحُ المُسلِمةِ بحالٍ، وأنَّ إسلامَها تحتَه يَفسَخُ النِّكاحَ؛ لأنَّه جَعَل عَدَمَ الإرجاعِ مُرَتَّبًا على الإيمانِ، لا على اختِلافِ الدَّارِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٠).

قال ابنُ القَيِّمِ: (لا رَيْبَ أنَّ الإسلامَ لو كان بمُجَرَّدِه فُرقةً، لم تكُنْ فُرقةً رَجْعيَّةً، بل بائِنةٌ، فلا أَثَرَ للعِدَّةِ في بقاءِ النِّكاحِ، وإنَّما أَثَرُها في مَنْعِ نكاحِها للغَيرِ، فلو كان الإسلامُ قد نَجَز الفُرقةَ بيْنَهما، لم يكُنْ أحَقَّ بها في العِدَّةِ، ولكِنَّ الَّذي دلَّ عليه حُكمُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ النِّكاحَ موقوفٌ، فإنْ أسلَمَ قبل انقِضاءِ عِدَّتِها فهي زوجُته، وإن انقَضَت عِدَّتُها فلها أن تَنكِحَ مَن شاءت، وإن أحَبَّت انتظَرَتْه، فإن أسلَمَ كانت زوجتَه مِن غَيرِ حاجةٍ إلى تجديدِ النِّكاحِ. ولا نعلَمُ أحدًا جَدَّدَ للإسلامِ نِكاحَه البتَّةَ، بل كان الواقعُ أحدَ أمْرَينِ: إمَّا افتراقُهما ونِكاحُها غيرَه، وإمَّا بقاؤُها عليه وإن تأخَّرَ إسلامُها أو إسلامُه. وأمَّا تنجيزُ الفُرقةِ أو مُراعاةُ العِدَّةِ، فلا نَعلَمُ أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قضى بواحدةٍ منهما مع كثرةِ مَن أسلَمَ في عَهْدِه مِن الرِّجالِ وأزواجِهنَّ، وقُربِ إسلامِ أحدِ الزَّوجينِ مِن الآخَرِ وبُعْدِه منه، ولولا إقرارُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الزَّوجَينِ على نكاحِهما وإن تأخَّرَ إسلامُ أحَدِهما عن الآخَرِ بَعْدَ صُلحِ الحُدَيبيَةِ وزَمَنِ الفَتْحِ، لَقُلْنا بتَعجيلِ الفُرقةِ بالإسلامِ مِن غيرِ اعتبارِ عِدَّةٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقَولِه: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وأنَّ الإسلامَ سَبَّب الفُرقةَ، وكُلُّ ما كان سببًا للفُرقةِ تَعْقُبُه الفُرقةُ، كالرَّضاعِ، والخُلْعِ، والطَّلاقِ، وهذا اختيارُ الخَلَّالِ، وأبي بكرٍ صاحِبِه، وابنِ المنذِرِ، وابنِ حَزمٍ، وهو مَذهَبُ الحسَنِ، وطاووسٍ، وعِكْرِمةَ، وقَتادةَ، والحَكَمِ). ((زاد المعاد)) (٥/ ١٢٥، ١٢٦).

وقال أيضًا: (إذا أسلَمَت المرأةُ أوَّلًا فلها أن تتَربَّصَ بإسلامِ زَوْجِها، أيَّ وَقتٍ أسلَمَ فهي امرأتُه، وإذا أسلم الرَّجُلُ فليس له أن يحبِسَ المرأةَ على نَفْسِه، ويُمسِكَ بعِصْمَتِها، فلا يُكرِهْها على الإسلامِ، ولا يحبِسْها على نَفْسِه، فلا يَظلِمْها في الدِّينِ ولا في النِّكاحِ، بل إن اختارت هي أن تتَربَّصَ بإسلامِه تَرَبَّصَت، طالت المدَّةُ أو قَصُرت، وإن اختارت أن تتزوَّجَ غَيْرَه بَعْدَ انقضاءِ عِدَّتِها فلها ذلك، والعِدَّةُ هاهنا لحِفظِ ماءِ الزَّوجِ الأوَّلِ، وأيُّهما أسلَمَ في العِدَّةِ أو بَعْدَها فالنِّكاحُ بحالِه، إلَّا أن يختارَ الرَّجُلُ الطَّلاقَ، فيُطَلِّقُ، كما طَلَّق عُمَرُ رَضِيَ الله عنه امرأتينِ له مُشرِكتينِ لَمَّا أنزل اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، أو تختارَ المرأةُ أن تُزَوَّجَ بعدَ استبرائِها فلها ذلك، =

١٣- قَولُه تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ يدُلُّ على أنَّ الفُرقةَ إذا جاءت بسَبَبٍ مِن جِهةِ الزَّوجةِ أنَّ عليها ردَّ ما أنفَقَ الزَّوجُ عليها(١).

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ استَدَلَّ به من أوجَبَ رَدَّ مَهرِ المِثْلِ إلى زَوجِها(٢).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ أنَّ خروجَ البُضْعِ مُتَقَوَّمٌ؛ حيثُ أَمَرَ سُبحانَه بردِّ المَهرِ عِوَضًا عن ردِّ المرأةِ، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾، فأَمَرَ أنْ يُؤتَى الأزواجُ ما أَنفَقوا على المرأةِ المُمتحَنةِ الَّتي لا تُرَدُّ، والَّذي أَنفَقوا هو المسَمَّى ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾، فشَرَعَ للمؤمِنينَ أنْ يَسألوا الكُفَّارَ ما أَنفَقوا على النِّسوةِ اللَّاتي ارتَدَدْنَ إليهم، وأنْ يَسألَ الكُفَّارُ ما أَنفَقوا على النِّساءِ المهاجراتِ، فلمَّا حَكَمَ اللهُ سُبحانَه وتعالى بذلك دلَّ على أنَّ خروجَ البُضْعِ مُتَقَوَّمٌ، وأنَّه بالمَهرِ المُسَمَّى، ودَلَّتِ الآيةُ على أنَّ المرأةَ إذا أَفسدَتْ نكاحَها رَجَعَ عليها زوجُها بالمَهرِ(٣).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ المرادُ

= وأيضًا فإنَّ في هذا تنفيرًا عن الإسلامِ؛ فإنَّ المرأةَ إذا عَلِمَت أو الزَّوجَ أنَّه بمجَرَّدِ الإسلامِ يَزولُ النِّكاحُ، ويفارِقُ مَن يحِبُّ، ولم يَبْقَ له عليها سبيلٌ إلَّا برضاها ورضا وَلِيِّها، ومَهْرٍ جديدٍ؛ نَفَر عن الدُّخولِ في الإسلامِ، بخِلافِ ما إذا عَلِمَ كلٌّ منهما أنَّه متى أسلم فالنِّكاحُ بحالِه، ولا فِراقَ بيْنَهما إلَّا أن يختارَ هو المفارَقةَ، كان في ذلك مِن التَّرغيبِ في الإسلامِ ومحَبَّتِه ما هو أدعى إلى الدُّخولِ فيه). ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٦٩٤).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٥٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

بالأُجورِ هنا الصَّدَاقُ، وسمَّاه اللهُ أجرًا؛ لأنَّه عِوَضٌ عنِ استمتاعِ الرَّجُلِ بالمرأةِ، فكأنَّه عِوَضٌ في الإجارةِ(١).

١٧- قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ للتَّنبيهِ على خُصوصِ قولِه: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ ما دُفِعَ للزَّوجِ السَّابقِ مُسقِطٌ استِحقاقَ المرأةِ المهرَ ممَّن يَرُومُ تَزويجَها، ومَعلومٌ أنَّ نِكاحَها بعْدَ استبرائِها بثلاثةِ أقراءٍ(٢).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أنَّ النِّكاحَ بغيرِ صَداقٍ غيرُ جائزٍ؛ لأنَّ اللهَ تبارك وتعالى أباح النِّكاحَ في هذه الأمكِنةِ مَقرونًا بإيتاءِ الأُجورِ، وابتغائِه بالمالِ، وليس إفرادُ ذِكْرِه في أماكِنَ بمؤَثِّرٍ -واللهُ أعلمُ- في المواضِعِ المقرونةِ بما ذَكَرْنا، بلِ المفسَّرُ أَحرى أنْ يَحْكُمَ على المُجمَلِ(٣).

١٩- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ إذا نهَى عن الإمساكِ بعِصمتِها، فالنَّهيُ عن ابتداءِ تَزويجِها أَولى(٤).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ أنَّه لا يَحِلُّ لمسلمٍ وَطْءُ كافرةٍ إلَّا الكتابيَّةَ المُستثناةَ له بقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾(٥) [المائدة: ٥].

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٩).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ يعني: إذا أسلَمْنَ وانقضَتْ عدَّتُهنَّ؛ لِما ثبت مِن تحريمِ نكاحِ المشركةِ والمعتَدَّةِ. فإن أسلمَتْ قبْلَ الدُّخولِ ثبَتَ النِّكاحُ في الحالِ، ولها التَّزوُّجُ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٧٤).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أنَّه ما مِن حُكْمٍ مِن أحكامِ الشَّريعةِ إلَّا وله حِكمةٌ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، لكنْ قد تَظهَرُ لنا بالنَّصِّ أو بالإجماعِ أو بالاستِنباطِ، وقد لا تَظهَرُ؛ وذلك لقُصورِنا، أو لِتَقصيرِنا في طَلَبِ الحِكمةِ[1].

٢٢- إنَّ حُكْمَ اللهِ نوعانِ: حكمٌ كَونيٌّ، كقَولِه: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، أي: افعَلْ ما تَنْصُرُ به عبادَك، وتخذُلُ به أعداءَك. وحكمٌ دينيٌّ، كقَولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾، وقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، وقد يَرِدُ بالمعنيَينِ معًا، كقَولِه: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٦]، فهذا يتناولُ حُكْمَه الكونيَّ وحُكْمَه الشَّرعيَّ[2].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ أنَّ الضَّمانَ بيْنَ الطَّوائفِ المُقتَتِلةِ مِن المسلِمينَ يَقَعُ على مجموعِ الطَّائفةِ، يَستوي فيه الرِّدْءُ والمباشِرُ، لا يقالُ: انظُروا مَن قَتَل صاحِبَكم هذا فطالِبوه بدِيَتِه، بل يقالُ: دِيَتُه عليكم كلِّكم؛ فإنَّكم جميعًا قتَلْتُموه؛ لأنَّ المباشِرَ إنَّما تَمَكَّنَ بمعاونةِ الرِّدْءِ له.

ووجهُ الدَّلالةِ: أنَّ أولئك الكُفَّارَ كان عليهم مِثلُ صَداقِ هذه المرأةِ الَّتي ذَهبتْ إليهم، فإذا لم يُؤَدُّوه أُخِذَ مِن أموالِهم الَّتي يَقدِرُ المسلِمونَ عليها، مِثلُ امرأةٍ جاءتْ منهم يَستحِقُّونَ صَداقَها، فيُعطَى المسلمُ زَوْجُ تلك المرتَدَّةِ صَداقَها مِن صَداقِ هذه المُسلِمةِ المهاجرةِ الَّذي يَستَحِقُّه الكُفَّارُ؛ لكَونِها أَسْلَمَتْ وهاجَرتْ، وفَوَّتَتْ زوجَها بُضْعَها، كما فَوَّتَتْ المرتَدَّةُ بُضْعَها لزَوجِها، وإنْ كان

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٦/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٠).

زوجُ المهاجرةِ ليس هو الَّذي تزوَّجَ بالمرتَدَّةِ؛ لأنَّ الطَّائفةَ لَمَّا كانت ممتَنِعةً؛ يَمنَعُ بعضُها بعضًا، صارتْ كالشَّخصِ الواحِدِ(١).

٢٤- قال تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ...﴾ أشارت الآيةُ إلى نِسوةٍ مِن نِساءِ المهاجِرينَ لم يُسْلِمْنَ(٢).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ الإيمانَ باللهِ عزَّ وجلَّ مُستَلزِمٌ لِتَقواه، فِلإيمانكم يَلْزَمُكم التَّقوى، فمَن قال: إنَه مُؤمِنٌ ولكنْ لم يَتَّقِ اللهَ، فهو إمَّا فاقدٌ للإيمانِ بالكُلِّيَّةِ، وإمَّا ناقِصُ الإيمانِ(٣).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بيانٌ لحُكْمِ مَن

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٣).

قال ابن عاشور: (وهُنَّ ثماني نِساءٍ: أمُّ الحَكَم بنتُ أبي سفيانَ كانت تحتَ عِياضِ بنِ شَدَّادٍ، وفاطِمةُ بنتُ أبي أُمَيَّةَ -ويُقالُ: قُرَيبةُ، وهي أُختُ أمِّ سَلَمةَ- كانت تحتَ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ، وأمُّ كُلثومٍ بنتُ جَرْوَل كانت تحتَ عُمَرَ، وبَرْوَعُ -بفتح الباءِ على الأصَحِّ، والمحَدِّثون يَكسِرونَه- بنتُ عُقبةَ كانت تحتَ شَمَّاسِ بنِ عُثمانَ، وشَهبةُ بنتُ غَيْلانَ، وعَبدةُ بنتُ عبدِ العُزَّى كانت تحتَ هِشامِ بنِ العاصِ، وقيل: تحت عَمرِو بنِ عَبدٍ، وهِندُ بنتُ أبي جهلٍ كانت تحتَ هِشامِ ابنِ العاصِ، وأَرْوى بنتُ رَبيعةَ بنِ الحارثِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ كانت تحتَ طلحةَ بنِ عُبَيدِ اللهِ). ((المصدر السابق)). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠٧).

يُظهِرُ الإيمانَ بعْدَ بَيانِ حُكمِ فَريقَي الكافرينَ[١].

- وجُملةُ ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ مُعترِضةٌ، أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ سَرائرَهنَّ، ولكنْ عليكم أنْ تَختبِروا ذلك بما تَسْتطيعون مِن الدَّلائلِ؛ ولذلك فُرِّعَ على ما قبْلَ الاعتِراضِ قولُه: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ ...﴾ إلخ، أي: إنْ حَصَل لكم العِلمُ بأنَّهنَّ مُؤمناتٌ غيرُ كاذباتٍ في دَعواهنَّ[٢].

- ومَوقعُ قولِه: ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ مَوقعُ البيانِ والتَّفصيلِ للنَّهيِ في قولِه: ﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾؛ تَحقيقًا لوُجوبِ التَّفرقةِ بيْن المرأةِ المؤمنةِ وزَوجِها الكافرِ[٣]. أو تَعليلٌ للنَّهيِ عن رَجْعِهنَّ إلى الكفَّارِ[٤].

- فإنْ قِيل: ما وجْهُ الإتيانِ بالجُملتينِ ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، ووَجْه التَّعاكُسِ في تَرتيبِ أجْزائِهما؟

فالجوابُ: أنَّ رُجوعَ المرأةِ المؤمنةِ إلى الزَّوجِ الكافرِ يقَعُ على صُورتَينِ؛ إحداهما: أنْ تَرجِعَ المرأةُ المؤمنةُ إلى زَوجِها في بِلادِ الكفْرِ، وذلك هو ما ألحَّ الكفَّارُ في طَلَبِه لمَّا جاءت بَعضُ المؤمناتِ مُهاجِراتٍ. والثَّانيةُ: أنْ تَرجِعَ إلى زَوجِها في بلادِ الإسلامِ؛ بأنْ يُخلَّى بيْنها وبيْن زَوجِها الكافرِ يُقيمُ معها في بِلادِ الإسلامِ إذا جاء يَطلُبُها ومُنِعَ مِن تَسلُّمِها.

وكِلْتا الصُّورتينِ غيرُ حلالٍ للمرأةِ المسلمةِ، فلا يُجيزُها وُلاةُ الأمورِ، وقد عُبِّرَ عن الصُّورةِ الأُولى بجُملةِ ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ﴾؛ إذ جُعِلَ فيها وصْفُ ﴿حِلّٞ﴾ خبَرًا عن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩).

ضَميرِ النِّساءِ، وأُدخِلَت اللَّامُ على ضَميرِ الرِّجالِ، وهي لامُ تَعديةِ الحِلِّ، وأصْلُها لامُ المِلْكِ، فأفاد ألَّا يَملِكَ الرِّجالُ الكفَّارُ عِصمةَ أزواجِهم المؤمناتِ، وذلك يَستلزِمُ أنَّ بَقاءَ النِّساءِ المؤمناتِ في عِصمةِ أزواجِهنَّ الكافرينَ غيرُ حَلالٍ، أي: لم يُحْلِلْهنَّ الإسلامُ لهم. وقدَّم ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾؛ لأنَّه راجعٌ إلى الصُّورةِ الأكثرِ أهمِّيَّةً عندَ المشركينَ؛ إذ كانوا يَسألون إرجاعَ النِّساءِ إليهم، ويُرسِلونَ الوسائطَ في ذلك بقَصْدِ الرَّدِّ عليهم بهذا. وجِيءَ في الجُملةِ الأُولَى بالصِّفةِ المُشبَّهةِ -وهي ﴿حِلٌّ﴾- المُفيدةِ لثُبوتِ الوصْفِ؛ إذ كان الرِّجالُ الكافِرونَ يظُنُّونَ أنَّ العِصمةَ الَّتي لهم على أزواجِهم المؤمناتِ مُثبِتةٌ أنَّهم حِلٌّ لهم. وعُبِّرَ عن الثَّانيةِ بجُملةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، فعُكِسَ الإخبارُ بالحلِّ؛ إذ جُعِل خبَرًا عن ضَميرِ الرِّجالِ، وعُدِّيَ الفعلُ إلى المُحلَّلِ باللَّامِ داخلةً على ضَميرِ النِّساءِ، فأفاد أنَّهم لا يحِلُّ لهنَّ أزواجُهنَّ الكافِرون ولو بقِيَ الزَّوجُ في بلادِ الإسلامِ؛ ولهذا ذُكِرَت الجُملةُ الثَّانيةُ ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ كالتَّتِمَّةِ لحكْمِ الجُملةِ الأُولى، وجِيءَ في الجُملةِ الثَّانيةِ بالمُسنَدِ فِعلًا مُضارعًا لدَلالتِه على التَّجدُّدِ؛ لإفادةِ نفْيِ الطَّماعيةِ في التَّحليلِ، ولو بتَجدُّدِه في الحالِ بعقْدٍ جديدٍ أو اتِّفاقٍ جديدٍ على البقاءِ في دارِ الإسلامِ[(١)].

ويَجوزُ في الآيةِ وجْهٌ آخَرُ؛ وهو أنْ يكونَ المرادُ تأْكيدَ نفْيِ الحالِ؛ فبَعْدَ أنْ قال: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ -وهو الأصلُ- أكَّدَ بجُملةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، أي: إنَّ انتفاءَ الحلِّ حاصلٌ مِن كلِّ جِهةٍ، كما يُقالُ: لَسْتُ منك ولستَ منِّي، ونظيرُه قولُه تَعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ في سُورةِ البقرةِ [١٨٧]؛ تأْكيدًا لشِدَّةِ التَّلبُّسِ والاتِّصالِ مِن كلِّ جِهةٍ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٧، ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٨).

وقيل: جاء قولُه: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ على سَبيلِ التَّأكيدِ وتَشديدِ الحُرمةِ؛ لأنَّه إذا لم تَحِلَّ المؤمنةُ للكافرِ، عُلِمَ أنَّه لا حِلَّ بيْنَهما ألبتَّةَ. وقِيل: أفاد قولُه: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ استمرارَ الحُكمِ بيْنَهم فيما يُستقبَلُ، كما هو في الحالِ ما داموا على الإشراكِ وهنَّ على الإيمانِ. أو لأنَّ الأوَّلَ لبَيانِ زوالِ النِّكاحِ الأوَّلِ، والثَّانيَ لبَيانِ امتِناعِ النِّكاحِ الجديدِ(١).

- والمرادُ بـ ﴿مَّآ أَنفَقُواْ﴾ ما أعْطَوه مِن المُهورِ، والعُدولُ عن إطلاقِ اسمِ المُهورِ والأجورِ على ما دَفَعَه المشركون لنِسائِهم اللَّائي أسْلَمْنَ مِن لَطائفِ القرآنِ؛ لأنَّ أولئك النِّساءَ أصبَحْنَ غيرَ زَوجاتٍ، فأُلغِيَ إطلاقُ اسمِ المهورِ على ما يُدفَعُ لهم، وقد سمَّى اللهُ بعْدَ ذلك ما يُعطِيه المسلمون لهنَّ أُجورًا بقولِه تَعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾(٢).

- قولُه: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾، وهو تتْميمٌ لحُكْمِه، أي: كما تُعْطونَهم مُهورَ أزواجِهم اللَّائي فرَرْنَ منهم مُسلِماتٍ، فكذلك إذا فرَّتْ إليهم امرأةٌ مسلمٍ كافرةً ولا قُدْرةَ لكم على إرجاعِها إليكم؛ تَسْألون المشركين إرجاعَ مَهْرِها إلى زَوجِها المسلمِ الَّذي فرَّت منه، وهذا إنصافٌ بيْن الفريقَينِ(٣).

- وقولُه: ﴿وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ تَكملةٌ لقولِه: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾؛ لإفادةِ أنَّ معْنى واوِ العَطْفِ هنا على المَعيَّةِ بالقرينةِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ لو

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٨، ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٦٠).

أُرِيدَ حُكْمُه بمُفرَدِه لَكان مُغْنِيًا عنه قولُه: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾، فلمَّا كُرِّرَ عَقِبَ قولِه: ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾ عَلِمْنا أنَّ المرادَ جمْعُ مَضمونِ الجُملتينِ، أي: إذا أعْطَوا ما عليهم أَعْطُوهم ما عليكم، وإلَّا فلا؛ فالواوُ مُفيدةٌ معْنى المعيَّةِ هنا بالقرينةِ[١]. وقيل: أعاده توكيدًا؛ لئلَّا يُتهاوَنَ به مِن حيث إنَّهم مُشركون؛ ولذلك أمَرَهم بالسُّؤالِ؛ فإنَّه حقٌّ مِن حُقوقِهم[٢].

- وقولُه: ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، أو حالٌ مِن لفْظِ الجلالةِ، أو حالٌ مِن ﴿حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ على حذْفِ الضَّميرِ، أي: يَحكُمُه اللهُ، أو جُعِلَ الحكْمُ حاكمًا على المُبالَغةِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تَذييلٌ يُشيرُ إلى أنَّ هذا حُكْمٌ يَقتضيهِ عِلمُ اللهِ بحاجاتِ عِبادِه، وتَقتضيهِ حِكمتُه؛ إذْ أعْطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٌ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾

- فائدةُ إيقاعِ ﴿شَيۡءٌ﴾ في هذا الموضعِ التَّحقيرُ، والمُبالَغةُ في التَّعميمِ، أي: لا يُغادَرُ شَيءٌ مِن هذا الجنسِ، وإنْ قلَّ وحقُرَ، غيرُ مُعوَّضٍ منه؛ تَغليظًا في هذا الحُكمِ، وتَشديدًا فيه[٥]. وقيل: لفظُ ﴿شَيۡءٌ﴾ هنا مُرادٌ به: بعضٌ ﴿مِّنۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٨، ٥١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠).

أَزْوَٰجِكُمْ﴾ بيانٌ لـ ﴿شَيْءٌ﴾، وأُريدَ بـ ﴿شَيْءٌ﴾ تحقيرُ الزَّوْجاتِ اللَّائي أَبَيْنَ الإسلامَ؛ فإنَّ المرادَ قد فاتتْ ذاتُها عن زَوجِها، فلا انتِفاعَ له بها[١].

- والكلامُ إيجازُ حذْفٍ شَديدٍ دلَّ عليه مَجموعُ الألْفاظِ ومَوضِعُ الكلامِ عَقِبَ قولِه تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾، والمعْنى: إنْ فرَّتْ بَعضُ أزواجِكم، ولَحِقَت بالكُفَّارِ، وحصَلَ التَّعاقُبُ بيْنَكم وبيْنَ الكُفَّارِ، فعقَّبْتُم على أزواجِ الكُفَّارِ، وعقَّبَ الكُفَّارُ على أزواجِكم -وذلك على قولٍ-، وأبى الكُفَّارُ مِن دفْعِ مُهورِ بَعضِ النِّساءِ اللَّائي ذَهَبْنَ إليهم؛ فادْفَعوا أنتُم لِمَن حَرَمَه الكُفَّارُ مَهْرَ امرأتِه -أي: ما هو حقُّه- واحْجُزوا ذلك عن الكُفَّارِ[٢].

- وقولُه: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾، أي: جاءت عُقْبَتُكم، أي: نَوبتُكم مِن أداءِ المَهرِ، شبَّهَ الحُكْمَ بأداءِ هؤلاء مُهورَ نِساءِ أولئك تارةً، وأداءِ أولئك مُهورَ نِساءِ هؤلاء أُخرى؛ بأمْرٍ يَتعاقَبون فيه كما يُتعاقَبُ في الرُّكوبِ وغيرِه[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والتَّذييلُ بقولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ تَحريضٌ للمُسلِمينَ على الوفاءِ بما أمَرَهم اللهُ، وألَّا يَصُدَّهم عن الوفاءِ ببَعضِه مُعامَلةُ المشركين لهم بالجَورِ وقِلَّةِ الإنصافِ، فأمَرَ بأنْ يُؤدِّيَ المسلِمونَ لإخوانِهم مُهورَ النِّساءِ اللَّائي فارَقُوهنَّ ولم يَرْضَ المُشركونَ بإعطائِهم مُهورَهنَّ؛ ولذلك أُتبِعَ اسمُ الجلالةِ بوصْفِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ يَبعَثُ على التَّقوى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٣).

والمشركون لَمَّا لم يُؤمِنوا بما أَمَرَ اللهُ انْتَفى منهم وازِعُ الإنصافِ، أي: فلا تَكونوا مِثلَهم، والجُملةُ الاسميَّةُ في الصِّلةِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ للدَّلالةِ على ثَباتِ إيمانِهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٤).

الآيتان (١٢-١٣)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُبَايِعۡنَكَ﴾: البَيعةُ والمُبايَعةُ: العهدُ على الطَّاعةِ والنُّصْرةِ، وما يأخُذُه الإمامُ على رعيَّتِه مِن المَواثيقِ بالسَّمعِ والطَّاعةِ. يُقالُ: بايَعَ السُّلطانَ: إذا تضمَّنَ بَذْلَ الطَّاعةِ بما رضَخ له، والبَيعُ والمُبايَعةُ مأخوذانِ مِن مَدِّ الباعِ؛ لأنَّ المُتبايِعَينِ للسِّلعةِ كلٌّ منهما يمُدُّ باعَه للآخَرِ ويُعاقِدُه عليها، وكذلك مَن بايَع الإمامَ ونحوَه فإنَّه يمُدُّ باعَه إليه ويُعاهِدُه ويُعاقِدُه على ما يُبايِعُه عليه، وقيل: المُبايَعةُ مُفاعَلةٌ مِن البَيعِ؛ لأنَّ صاحِبَها باع نفْسَه لله[(١)].

﴿بِبُهۡتَٰنٖ﴾: أي: افتِراءٍ وكَذِبٍ يَبهَتُ سامِعَه لِفَظاعَتِه، يُقالُ: بَهَت فُلانٌ فُلانًا: إذا كَذَب عليه، وأصلُه مِن قولِهم: بُهِت الرَّجُلُ: إذا تحيَّرَ؛ فالبُهتانُ كَذِبٌ يُحيِّرُ الإنسانَ لعِظَمِه، ثمَّ جُعِل كلُّ باطلٍ يُتحيَّرُ مِن بطلانِه بُهتانًا، وكانت المرأةُ تلتَقِطُ الوَلَدَ فتَقولُ لزَوجِها: هذا وَلَدي منك، فذلك البُهتانُ المُفتَرَى هنا[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٩)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٢٤٨)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ض: ١٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠١).

﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾: أي: يَتعَمَّدْنَ كَذِبَه، يُقالُ: افتَرَى فُلانٌ على فُلانٍ: إذا قذَفَه بما ليس فيه، والافتِراءُ: اختِلاقُ الكَذِبِ، وأصلُه: مِنْ فَرْيِ الجِلْدِ، أي: قَطْعِه، فقِيلَ للكَذِبِ: افتِراءٌ؛ لأنَّ الكاذِبَ يَقطَعُ به على التَّقديرِ مِن غيرِ تحقيقٍ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بمبايعةِ المؤمناتِ، ويُبيِّنُ ما تمَّت عليه المبايعةُ، فيقولُ: يا أيُّها النَّبيُّ إذا جاءك المؤمِناتُ يُبايِعْنَك على ألَّا يَعبُدْنَ أحَدًا غيرَ اللهِ تعالى، ولا يَسرِقْنَ، ولا يَزنِينَ، ولا يَقتُلْنَ أولادَهنَّ خَوفًا مِنَ الفَقرِ أو غَيرِه، ولا يُلْحِقْنَ بأزواجِهنَّ أولادًا مِن غَيرِهم، ولا يَعصِينَك -يا محمَّدُ- فيما تأمُرُهنَّ به مِن طاعةِ اللهِ، وتَرْكِ مَعصيتِه؛ فبايِعْهنَّ على الوَفاءِ بتلك الشُّروطِ، واطلُبْ لهنَّ مِنَ اللهِ المغفرةَ؛ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

ثمَّ يَنهَى الله تعالى في خاتمةِ هذه السُّورةِ عن موالاةِ الكافرينَ، كما نهَى عنها في أوَّلِها، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَتوَلَّوُا الكافِرينَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم لكُفرِهم، وقد يَئِسوا مِن ثوابِ اللهِ ورَحمتِه في الآخِرةِ كما يَئِسَ الكُفَّارُ الموتَى في القُبورِ مِن ثوابِ الله ورحمتِه.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذه الآيةُ تَكملةٌ لامتحانِ النِّساءِ المُتقدِّمِ ذِكرُه في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ الآيةَ [الممتحنة: ١٠]، وبَيانٌ لتَفصيلِ آثارِه؛ فكأنَّه يقولُ: فإنْ عَلِمْتُموهنَّ مُؤمناتٍ فلا تَرجِعوهنَّ إلى الكُفَّارِ، وبيِّنوا لهنَّ شرائعَ الإسلامِ(١).

وأيضًا لَمَّا خاطَبَ اللهُ سُبحانَه المؤمِنينَ الَّذين لهم موضِعُ الذَّبِّ والحمايةِ والنُّصرةِ بما وطَّن به المؤمِناتِ في دارِ الهِجْرةِ، فوَقَع الامتحانُ وعُرِفَ الإيمانُ- أمَرَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ الحُكمِ بإيمانِهنَّ بمُبايعَتِهنَّ(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ إذا جاءك المؤمِناتُ يُبايِعْنَك على ألَّا يَعبُدْنَ أحَدًا غَيرَ اللهِ تعالى(٣).

عن أُمَيْمةَ بِنتِ رُقَيْقةَ التَّيْميَّةِ، قالت: ((أتَيْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في نِسوةٍ مِن المُسلِمينَ لِنُبايِعَه، فقُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، جِئْنا لِنُبايعَك على ألَّا نُشرِكَ باللهِ شَيئًا، ولا نَسرِقَ، ولا نَزنيَ، ولا نَقتُلَ أولادَنا، ولا نأتيَ ببُهتانٍ نَفتريه بيْنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

قال ابنُ عطيَّةَ: (سَمَّاهنَّ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ بحَسَبِ الظَّاهِرِ مِن أمْرِهنَّ، ورفضُ الإشراكِ هو محضُ الإيمانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩).

وقال الألوسي: (المبايعةُ وَقَعت غيرَ مَرَّةٍ؛ وقَعَت في مكَّةَ بعدَ الفَتحِ، وفي المدينةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٧٤).

أيدِينا وأرجُلِنا، ولا نَعصيَك في مَعروفٍ. فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فيما استطَعْتُنَّ وأطَقْتُنَّ. قالت: قُلْنا: اللهُ ورَسولُه أرحَمُ بنا مِن أنفُسِنا، بايِعْنا يا رَسولَ اللهِ. قال: اذهَبْنَ؛ فقد بايَعْتُكنَّ، إنَّما قولي لِمِئَةِ امرأةٍ كقَولي لامرأةٍ واحِدةٍ. قالت: ولم يُصافِحْ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَّا امرأةً))[١].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((شَهِدتُ الصَّلاةَ يومَ الفِطرِ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأبي بكرٍ، وعُمَرَ، وعُثمانَ، فكُلُّهم يُصَلِّيها قبْلَ الخُطبةِ، ثمَّ يَخطُبُ بَعْدُ، فنَزَل نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكأنِّي أنظُرُ إليه حينَ يُجلِّسُ الرِّجالَ بيَدِه[٢]، ثمَّ أقبَلَ يَشُقُّهم، حتَّى أتَى النِّساءَ معَ بلالٍ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ حتَّى فَرَغ من الآيةِ كُلِّها، ثمَّ قال حينَ فَرَغ: أنتُنَّ على ذلك؟ فقالت امرأةٌ واحدةٌ لم يُجِبْه غَيرُها: نَعَمْ يا رَسولَ اللهِ. قال: فتَصَدَّقْنَ، وبَسَطَ بِلالٌ ثَوبَه، فجَعَلْنَ يُلقِينَ الفَتَخَ[٣] والخواتيمَ في ثَوبِ بِلالٍ))[٤].

---

(١) أخرجه من طُرُقٍ: الترمذيُّ (١٥٩٧)، وابنُ ماجه (٢٨٧٤) مختصرًا، والنَّسائيُّ (٤١٨١)، وأحمدُ (٢٧٠٠٧) واللَّفظُ له.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٤٥٥٣)، وابنُ القطَّانِ في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٥١٦)، وابنُ حجر في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (١/ ٥٢٧)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٤١٨١)، وصَحَّح إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسيره)) (٨/ ١٢٢)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٤/ ٥٥٨).

قال ابنُ عطيَّة: (الإجماعُ على أنَّه لم تَمَسَّ يَدُه يَدَ امرأةٍ أجنبيَّةٍ قَطُّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩).

(٢) أي: يأمُرُهم بالجلوسِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٧٢).

(٣) الفَتَخُ: خَواتيمُ كِبارٌ تُلبَسُ في الأيدي، ورُبَّما وُضِعَت في أصابِعِ الأرْجُلِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٠٨).

(٤) رواه البخاري (٤٨٩٥) واللَّفظُ له، ومسلم (٨٨٤).

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال لنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونحن في مجلِسٍ: ((تُبايِعوني على ألَّا تُشرِكوا باللهِ شَيئًا، ولا تَسرِقوا، ولا تَزنُوا، ولا تَقتُلوا أولادَكم، ولا تأتوا ببُهتانٍ تَفتَرونَه بيْن أيديكم وأرجُلِكم، ولا تَعصُوا في معروفٍ، فمَنْ وفَى منكم فأجْرُه على اللهِ، ومَن أصاب مِن ذلك شيئًا فعُوقِبَ في الدُّنيا فهو كفَّارةٌ له، ومَن أصاب مِن ذلك شيئًا فستَرَه اللهُ فأمْرُه إلى اللهِ؛ إن شاء عاقَبَه، وإن شاء عفا عنه. فبايَعْناه على ذلك))[١].

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾.

أي: ولا يأخُذْنَ مالَ أحدٍ خُفيةً بغَيرِ استِحقاقٍ[٢].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((دخَلَتْ هِندُ بِنتُ عُتبةَ امرأةُ أبي سُفيانَ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ أبا سُفيانَ رَجُلٌ شَحيحٌ لا يُعطيني مِنَ النَّفَقةِ ما يَكفيني ويَكفي بَنيَّ إلَّا ما أخذْتُ مِن مالِه بغيرِ عِلْمِه، فهل علَيَّ في ذلك مِن جُناحٍ؟ فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: خُذي مِن مالِه بالمعروفِ ما يكفيكِ ويكفي بَنِيكِ))[٣].

﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾.

أي: ولا يقَعْنَ في الزِّنا بتَمكينِ أحَدٍ مِن وَطْئِهنَّ بغَيرِ عَقدٍ صَحيحٍ[٤].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

---

(١) رواه البخاري (٧٢١٣) واللَّفظُ له، ومسلم (١٧٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٢).

(٣) رواه البخاريُّ (٥٣٦٤)، ومسلمٌ (١٧١٤) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾.

أي: ولا يَقتُلْنَ أبناءَهنَّ وبَناتِهنَّ خَوفًا مِنَ الفَقرِ أو غَيرِه(١).

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾.

أي: ولا يُلْحِقْنَ بأزواجِهنَّ أولادًا مِن غَيرِهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٧٠).

قال ابنُ كثير: (هذا يَشملُ قَتْلَه بعدَ وُجودِه، كما كان أهلُ الجاهليَّةِ يَقتُلونَ أولادَهم خَشيةَ الإملاقِ، ويَعُمُّ قَتْلَه وهو جنينٌ، كما قد يفعَلُه بعضُ الجَهَلةِ مِن النِّساءِ، تَطرَحُ نَفْسَها لئلَّا تَحبَلَ؛ إمَّا لغَرَضٍ فاسِدٍ، أو ما أشبَهَه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٠).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزمخشريُّ، والبِقاعي، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٤١).

قال القرطبي: (هذا عامٌّ في الإتيانِ بولدٍ وإلحاقِه بالزَّوجِ وإن سبَق النَّهيُ عن الزِّنا). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٢).

وقال ابنُ عطية: (الإتيانُ بالبُهتانِ: قال أكثَرُ المفسِّرينَ: معناه أن تَنسُبَ إلى زَوجِها ولَدًا ليس هو له، واللَّفظُ أعَمُّ من هذا التَّخصيصِ؛ فإنَّ الفِريةَ بالقَولِ على أحدٍ مِن النَّاسِ بعظيمةٍ لَمِنْ هذا، وإنَّ الكَذِبَ فيما اؤتُمِنَّ فيه مِن الحَملِ والحَيضِ لَفِريةٌ وبُهتانٌ، وبَعضٌ أقوى مِن بعضٍ، وذلك أنَّ بَعضَ النَّاسِ قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾: يُرادُ به اللِّسانُ والفَمُ؛ في الكَلامِ والقُبلةِ ونَحوِه، وبيْنَ الأرجُلِ: يُرادُ به الفُروجُ، وولَدُ الإلحاقِ، ونحوُه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٤).

وقال الواحدي: (﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾؛ وذلك أنَّ المولودَ إذا وضَعَتْه الأمُّ، سقَط بيْن =

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾.

أي: ولا يَعصِينَك -يا محمَّدُ- فيما تأمُرُهنَّ به مِن طاعةِ اللهِ، وتَرْكِ مَعصيتِه؛ كأمْرِك لهنَّ بتَركِ النِّياحةِ وشَقِّ الجُيوبِ والتَّبرُّجِ ووَصلِ الشَّعرِ والخَلوةِ بالرِّجالِ الأجانِبِ، وغَيرِ ذلك[١].

قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وعن أمِّ عَطيَّةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((أخَذَ علينا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ البَيعةِ ألَّا نَنُوحَ))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((ليس مِنَّا مَن ضرَبَ الخُدودَ، وشَقَّ الجُيوبَ، ودَعا بدَعوى الجاهِليَّةِ[٣]))[٤].

﴿فَبَايِعۡهُنَّ﴾.

= يدَيْها ورِجليها، وليس المعنى نَهْيَهُنَّ مِن أنَّ يأتينَ بولدٍ مِن الزِّنا، فيَنسُبْنَه على الأزواجِ؛ لأنَّ الشَّرطَ بنَهيِ الزِّنا قد تقدَّم). ((الوسيط)) (٤/ ٢٨٧). ويُنظر ما يأتي (ص: ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

قال الْكِيَا الهَرَّاسي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ هو عُمومٌ في جميعِ طاعاتِ اللهِ تعالى). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٤١٠، ٤١١). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) للجَصَّاص (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٠)، ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٧٤).

وقال ابن رجب: (دخَل في قولِه: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ الانتهاءُ عن جميعِ المعاصي. ويَدخُلُ فيها أيضًا القيامُ بجميعِ الطَّاعاتِ، على رأيِ مَن يَرى أنَّ النَّهيَ عن شَيءٍ أمْرٌ بضِدِّه). ((فتح الباري)) (١/ ٧٧).

(٢) رواه البخاريُّ (١٣٠٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩٣٦).

(٣) دَعْوى الجاهِليَّةِ هي: النِّياحةُ ونَدْبُ الميِّتِ، والدُّعاءُ بالوَيلِ وشِبْهِه، والمرادُ بالجاهِليَّةِ: ما كان في الفَترةِ قبْلَ الإسلامِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١١٠).

(٤) رواه البخاريُّ (١٢٩٧)، ومسلمٌ (١٠٣).

أي: إذا جاءك -يا محمَّدُ- المؤمِناتُ يُبايِعْنَك، فبايِعْهنَّ على الوَفاءِ بتلك الشُّروطِ[١].

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإنسانُ محلَّ النُّقصانِ؛ رجَّاهنَّ سُبحانَه بقولِه[٢]:

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾.

أي: واطلُبْ -يا محمَّدُ- مِنَ اللهِ أن يَغفِرَ للمُؤمِناتِ المُبايِعاتِ ذُنوبَهنَّ وتَقصيرَهنَّ[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بالغُ المَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه، بالغُ الرَّحمةِ بهم[٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).
قال ابنُ جُزَي: (هذه المبايَعةُ للنِّساءِ غيرُ مَعمولٍ بها اليومَ؛ لأنَّه أجمَعَ العُلَماءُ على أنَّه ليس للإمامِ أن يَشتَرِطَ عليهنَّ هذا؛ فإمَّا أن تكونَ مَنسوخةً ولم يُذكَرِ النَّاسِخُ، أو يكونَ تَرْكُ هذه الشُّروطِ لأنَّها قد تقرَّرَتْ وعُلِمَت مِن الشَّرعِ بالضَّرورةِ؛ فلا حاجةَ إلى اشتِراطِها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما أَمَر به نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في المبايعاتِ، بعدَ أن عَدَّ الَّذين آمنوا أصلًا في امتحانِ المُهاجِراتِ، فعُلِمَ مِن ذلك أنَّ تولِّيَ النِّساءِ -مع أنَّه لا ضَرَرَ فيهِنَّ بقِتالٍ ونَحْوِه- لا يَسوغُ إلَّا بعدَ العِلمِ بإيمانِهنَّ، وكان الخَتمُ بصِفَتَي الغُفرانِ والرَّحمةِ رُبَّما جرَّأ على مُحاباةِ المؤمنينَ لبَعضِ الكُفَّارِ مِن أزواجٍ أو غَيرِهم؛ لقَرابةٍ أو غيرِها، لعِلَّةٍ يُبدِيها الزَّوجُ، أو غيرِ ذلك مِن الأمورِ- كرَّر سُبحانَه الأمرَ بالبَراءةِ مِن كلِّ عَدُوٍّ؛ ردًّا لآخِرِ السُّورةِ على أوَّلِها، تأكيدًا للإعراضِ عنهم، وتنفيرًا مِن تولِّيهم، كما أفهَمَتْه آيةُ المبايَعةِ، وآيةُ الامتحانِ[1].

وأيضًا بعدَ أن استقصَتِ السُّورةُ إرشادَ المُسلِمينَ إلى ما يَجِبُ في المعامَلةِ مع المُشرِكينَ، جاء في خاتِمَتِها الإرشادُ إلى المعامَلةِ مع قَومٍ لَيسُوا دونَ المُشرِكينَ في وُجوبِ الحَذَرِ منهم، وهم اليَهودُ[2]. وذلك على قولٍ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَتولَّوُا الكافِرينَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم بسَبَبِ كُفرِهم، فتَتَّخِذوهم أولياءَ لكم[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٦، ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

قيل: المرادُ بهم: اليهودُ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) =

﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾.

أي: قد يَئِسوا مِن ثوابِ اللهِ ورَحمتِه في الآخِرةِ[1] كما يَئِسَ الكُفَّارُ الموتى في قُبورِهم مِن ثَوابِ اللهِ ورَحمتِه؛ لأنَّهم وقفُوا على حقيقةِ الحالِ[2].

= (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن أبي زَمَنِين)) (٤/ ٣٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٩).

قال ابن جُزَي: (لأنَّ الغضَبَ قد صار عُرفًا لليهودِ؛ كقولِه: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٩).

وقيل: هم كُفَّارُ قُرَيش. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٠).

وقيل: المرادُ: جميعُ أصنافِ الكُفَّارِ وطوائفِهم. وممَّن ذهب إلى هذا العموم: ابنُ كثير، وأبو السعود، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

قال البقاعي: (عامٌّ في كُلِّ مَنِ اتَّصَف بذلك، يَتناوَلُ اليهودَ تناوُلًا أوَّلِيًّا). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٥٢٧).

(١) قال الرَّسْعَني: (﴿قَدۡ يَئِسُواْ﴾ يعني: القومَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم ﴿مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: مِن ثوابِ الآخرةِ بسَبَبِ كُفرِهم بمحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهم يَعرِفونَه كما يَعرِفونَ أبناءَهم، هذا قَولُ جمهورِ العُلَماءِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

ممَّن ذهب إلى القَولِ المذكور: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والبغويُّ، وأبو السعود، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والكلبيُّ، وابنُ زَيدٍ، ومنصور بن المعتمر. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٣).

وقوله تعالى: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ -على هذا القَولِ- بيانٌ للكُفَّارِ، فـ (مِنْ) بيانيَّةٌ، أي: كما يَئِسَ الكُفَّارُ الَّذين قُبِروا. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨).

وقيل: المعنى: كما يَئِس الكفَّارُ الأحياءُ مِن أمواتِهم الَّذين في القُبورِ أن يَرجِعوا أحياءً، وأن يُبعَثوا؛ لأنَّهم لا يُوقِنونَ بالبَعْثِ. وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والزمخشري، والرَّسْعَني، وأبو حيَّان، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يَدخُلُ أحدٌ الجنَّةَ إلَّا أُرِيَ مَقعَدَه مِن النَّارِ لو أساءَ؛ لِيَزدادَ شُكرًا، ولا يَدخُلُ النَّارَ أحدٌ إلَّا أُرِيَ مَقعَدَه مِنَ الجَنَّةِ لو أحسَنَ؛ لِيَكونَ عليه حَسرةً!))[١].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أحَدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقعَدُه بالغَداةِ والعَشِيِّ؛ إن كان مِن أهلِ الجنَّةِ فمِن أهلِ الجَنَّةِ، وإن كان مِن أهلِ النَّارِ فمِن أهلِ النَّارِ، يُقالُ: هذا مَقعَدُك حتَّى يَبعَثَك اللهُ إليه يومَ القيامةِ))[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ أي: قد حُرِموا مِن خَيرِ الآخِرةِ، فليس لهم منها نَصيبٌ؛ فاحذَروا أن تَوَلَّوهم، فتُوافِقُوهم على شَرِّهم وكُفرِهم، فتُحرَموا خيرَ الآخِرةِ كما حُرِموا[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ

= الرسعني)) (٨/ ١٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٣).

و﴿مِنۡ﴾ على هذا القَولِ لابتِداءِ الغايةِ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨).

(١) رواه البخاريُّ (٦٥٦٩).

(٢) رواه البخاريُّ (١٣٧٩)، ومسلمٌ (٢٨٦٦) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ ذَكَر اللهُ عزَّ وجَلَّ ورَسولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في صِفةِ البَيعةِ خِصالًا شَتَّى صَرَّح فيهنَّ بأركانِ النَّهيِ في الدِّينِ، ولم يَذكُرْ أركانَ الأمرِ، وهي سِتَّةٌ أيضًا: الشَّهادةُ، والصَّلاةُ، والزَّكاةُ، والصِّيامُ، والحَجُّ، والاغتِسالُ مِن الجنابةِ؛ وذلك لأنَّ النَّهيَ دائِمٌ في كُلِّ الأزمانِ وكُلِّ الأحوالِ، فكان التَّنبيهُ على اشتراطِ الدَّائِمِ آكَدَ.

وقيل: إنَّ هذه المناهِيَ كان في النِّساءِ كَثيرٌ مَن يَرتَكِبُها، ولا يَحجُزُهنَّ عنها شَرَفُ النَّسَبِ؛ فخُصَّت بالذِّكرِ لهذا[١].

وقيل: لم يَذكُرْ في بَيعتِهنَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ، والصِّيامَ والحَجَّ؛ لوُضوحِ كَونِ هذه الأمورِ ونَحوِها مِن أركانِ الدِّينِ وشَعائِرِ الإسلامِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ تَقييدُ مُبايَعتِهنَّ بِما ذُكِرَ مِن مَجيئِهنَّ؛ لحَثِّهنَّ على المُسارعةِ إليها مع كَمالِ الرَّغبةِ فيها مِن غَيرِ دَعوةٍ لهنَّ إليها[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ فيه سؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾، وما وَجهُه؟

الجوابُ: أنَّ بطنَها الَّذي تحملُه فيه بيْنَ يديها، ومَخرجُه بينَ رِجْلَيْها[٤].

وقيل: إنَّ المرأةَ إذا التقَطَت ولَدًا فإنَّما التقَطَت بيَدِها، ومَشَت إلى أخْذِه برِجْلِها، فإذا أضافَتْه إلى زوجِها فقد أتت ببُهتانٍ تَفتريه بينَ يَدَيها ورِجْلَيها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٠).

وقيل: الوَلَدُ إذا وضعَتْه أمُّه سَقَط بينَ يَدَيها ورِجْلَيها[١].

وقيل: لأنَّ الثَّدْيَ بينَ يدينِ، والفَرْجَ بينَ الرِّجلَيْنِ، والمرأةُ تَضَعُ وتُرضِعُ. وقيل غيرُ ذلك[٢].

٤- إنْ قِيل: لو اقتَصَرَ على قولِه: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ﴾؛ فقدْ عُلِمَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَأمُرُ إلَّا بمَعروفٍ؟

فالجوابُ: نبَّهَ بذلك على أنَّ طاعةَ المَخلوقِ في مَعصيةِ الخالقِ جَديرةٌ بغايةِ التَّوقِّي والاجتنابِ[٣]؛ لئلَّا يترخَّصَ أحدٌ في طاعةِ السَّلاطينِ إذا لم تكُنْ طاعةً لله تعالى؛ إذ شَرَطَ في طاعةِ خيرِ العالَمينَ أن يأمُرَ بالمعروفِ، وكذلك لا يجِبُ طاعةُ أئمَّةِ العِلمِ فيما يتعَلَّقُ بالأغراضِ المتأوَّلةِ، ولا يَسوغُ لِمُسلمٍ اتِّباعُهم[٤]، فالآيةُ فيها دَلالةٌ على أنَّ طاعةَ أُولي الأمرِ إنَّما تَلزَمُ في المعروفِ، كما ثَبَتَ في الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّما الطَّاعةُ في المعروفِ))[٥]، ونظيرُ هذا قولُه: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال: ٢٤]، وهو لا يدعو إلَّا إلى ذلك، والتَّقييدُ هنا لا مَفهومَ له؛ فإنَّه لا يَقَعُ دعاءٌ لغيرِ ذلك، ولا أَمرٌ بغَيرِ مَعروفٍ[٦]! وقيل: التَّقييدُ به لقصْدِ التَّوسعةِ عليهنَّ في أمْرٍ لا يَتعلَّقُ بالدِّينِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤١٠، ٤١١).

(٥) أخرجه البخاريُّ (٧١٤٥)، ومسلمٌ (١٨٤٠) مِن حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦١).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٧).

فقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الطَّاعةَ لا تكونُ إلَّا في معروفٍ، فلا يُطاعُ مخلوقٌ إلَّا في معروفٍ، ولا يُطاعُ في معصيةِ الخالقِ عزَّ وجلَّ. وقد استنبَط هذا المعنى مِن هذه الآيةِ طائفةٌ مِن السَّلفِ. فلو كان لأحدٍ مِن البشَرِ أن يُطاعَ بكلِّ حالٍ، لَكان ذلك للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فلمَّا خُصَّتْ طاعتُه بالمعروفِ، مع أنَّه لا يأمُرُ إلَّا بما هو معروفٌ؛ دل على أنَّ الطَّاعةَ في الأصلِ لله وحْدَه، والرَّسولُ مُبلِّغٌ عنه، وواسِطةٌ بيْنَه وبيْن عِبادِه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1] [النساء: ٨٠].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

- جُملةُ ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ حالًا مِن المؤمناتِ، على معْنى: يُرِدْنَ المُبايَعةَ، وهي المذكورةُ في هذه الآيةِ، وجوابُ (إذا) ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾ جَوابَ ﴿إِذَا﴾، ومعْنى ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾، أي: الدَّاخلاتُ في جَماعةِ المؤمنينَ على الجُملةِ والإجمالِ، لا يَعْلَمْنَ أُصولَ الإسلامِ، وبيَّنه بقَولِه: ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾، فهو خبَرٌ مُرادٌ به الأمرُ، أي: فلْيُبايِعْنَك، وتكونَ جُملةُ ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ تَفريعًا لجُملةِ ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾، ولْيُبْنى عليها قولُه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾[2].

- وقال هنا: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾، ولم يقُلْ: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة:

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٦).

١٠]، كما قال في المُهاجِراتِ؛ قيل: ذلك لأنَّ الامتحانَ حاصلٌ بقولِه تَعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ﴾ إلى آخِرِه. أو لأنَّ المُهاجِراتِ يأْتِين مِن دارِ الحرْبِ، فلا اطِّلاعَ لهُنَّ على الشَّرائعِ، فلا بُدَّ مِن الامتحانِ، وأمَّا المؤمناتُ فهُنَّ في دارِ الإسلامِ، وعُلِّمْنَ الشَّرائعَ، فلا حاجةَ إلى الامتحانِ[١].

أو لأنَّ المقصودَ بامتحانِ المُهاجِراتِ التَّحقُّقُ مِن أنَّ انتِقالَها إلى المدينةِ ليس لغرَضٍ دُنيويٍّ ويَنبني عليه عدمُ ردِّها إلى الكفَّارِ، بخِلافِ البَيعةِ هنا؛ فهي لا تختصُّ بالمُهاجِراتِ.

- قولُه: ﴿وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ أي: بعدَ وُجودِهم أو وهُم أجِنَّةٌ. وقيل: أراد وَأْدَ البناتِ الَّذي كان يَفعَلُه أهلُ الجاهليَّةِ، ثمَّ هو عامٌّ في كلِّ نوعٍ مِن قتلِ الولدِ وغيرِه[٢]، وأُسنِدَ القَتلُ إلى النِّساءِ وإنْ كان بَعضُه يَفعَلُه الرِّجالُ؛ لأنَّ النِّساءَ كنَّ يَرْضَينَ به، أو يَسكُتْنَ عليه[٣].

- وقولُه: ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ يَتعلَّقُ بقولِه: ﴿يَأۡتِينَ﴾، وهذا مِن الكلامِ الجامعِ لِمَعانٍ كثيرةٍ؛ فالبُهتانُ حَقيقتُه: الإخبارُ بالكذبِ، وهو مَصدرٌ، ويُطلَقُ المصدرُ على اسمِ المفعولِ، كالخلْقِ بمعْنى المخلوقِ، وحقيقةُ (بيْنَ الأيدي والأرْجُلِ): أنْ يكونَ الكذبُ حاصلًا في مَكانٍ يَتوسَّطُ الأيديَ والأرجُلَ، فإنْ كان البُهتانُ على حَقيقتِه -وهو الخبرُ الكاذبُ- كان افتِراؤُه بيْن أيدِيهنَّ وأرْجُلِهنَّ: أنَّه كذِبُ مُواجَهةٍ في وجْهِ المكذوبِ عليه، كقولِها: يا فُلانةُ، زَنَيتِ مع فُلانٍ، أو سرَقْتِ حَلْيَ فُلانةَ؛ لتَبْهَتَها في مَلأٍ مِن النَّاسِ، أو

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٦).

أنتِ بنتُ زِنًا، أو نحوِ ذلك. وإنْ كان البهتانُ بمعْنى المكذوبِ، كان معْنى افترائِه بيْن أيدِيهنَّ وأرجُلِهنَّ كِنايةً عن ادِّعاءِ الحمْلِ؛ بأنْ تَشرَبَ ما يَنفُخُ بَطْنَها، فتُوهِمَ زَوجَها أنَّها حاملٌ، ثمَّ تُظهِرَ الطَّلْقَ وتأْتيَ بولدٍ تَلتقِطُه وتَنسُبُه إلى زَوجِها؛ لئلَّا يُطلِّقَها، أو لئلَّا يَرِثَه عَصَبتُه، فهي تُعظِّمُ بطْنَها وهو بيْن يَدَيها، ثمَّ إذا وصَلَ إبَّانُ إظهارِ الطَّلْقِ وَضَعَت الطِّفلَ بيْن رِجْلَيْها وتَحدَّثت وتَحدَّثَ النَّاسُ بذلك؛ فهو مَبهوتٌ عليه، فالافتراءُ هو ادِّعاؤها ذلك تأكيدًا لمعْنى البُهتانِ.

وإنْ كان البُهتانُ مُعبَّرًا به عن الباطِلِ الشَّبيهِ بالخبَرِ البُهتانِ، كان ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ مُحتمِلًا للكِنايةِ عن تَمكينِ المرأةِ نفْسَها مِن غيرِ زَوجِها يُقبِّلُها أو يَجُسُّها، فذلك بيْن يَدَيْها، أو يَزْني بها، وذلك بيْن أرْجُلِها[1].

وقيل: إنَّ ذِكرَ اليدَيْنِ والرِّجلَيْنِ على طريقِ التَّأكيدِ، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] يعني: بما كسَبْتُم، وذِكرُ الأيدي على طَريقِ التَّأكيدِ[2].

- وتَخصيصُ الأُمورِ المَعدودةِ بالذِّكرِ في حَقِّهنَّ؛ لكَثرةِ وُقوعِها فيمَا بيْنَهنَّ، معَ اختصاصِ بَعضِها بهنَّ[3].

- ووَجهُ التَّرتيبِ في الأشياءِ المذكورةِ، وتقديمِ بعضِها على بعضٍ في الآيةِ؛ مِن وُجوهٍ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٦، ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٢١).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠٩، ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١). ويُنظر ما تقدم: (ص: ١١٤-١١٥).

منها: أنَّه قَدَّم الأقبَحَ على ما هو الأدنى منه في القُبحِ، ثمَّ كذلك إلى آخِرِه.

ومنها: أنَّه قدَّم مِن الأشياءِ المذكورةِ ما هو الأظهَرُ فيما بَيْنَهم[١].

وقيل: لَمَّا كان الشِّرْكُ بَذْلَ حَقِّ المَلِكِ لِمَن لا يستَحِقُّه؛ أتْبَعَه أخْذَ مالِ المالِكِ بغَيرِ حقٍّ؛ لاقتضاءِ الحالِ لذلك بتمَكُّنِ المرأةِ مِن اختلاسِ مالِ الزَّوجِ، وعُسْرِ تحَفُّظِه منها، فقال: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾، وأتبَعَ ذلك بَذْلَ حَقِّ الغَيرِ لغَيرِ أهْلِه، فقال: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾، أي: يمكِّنَّ أحدًا مِن وَطْئِهنَّ بغَيرِ عَقدٍ صَحيحٍ، ولَمَّا كان الزِّنا قد يكونُ سَبَبًا في إيجادِ أو إعدامِ نَسَمةٍ بغيرِ حَقِّها؛ أتبَعَه إعدامَ نَسَمةٍ بغيرِ حَقِّه، فقال: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾، ولَمَّا ذَكَر إعدامَ نَسَمةٍ بغيرِ حَقٍّ ولا وَجهٍ شَرْعيٍّ؛ أتبَعَه ما يَشملُ إيجادَ نَسَمةٍ بغيرِ حِلٍّ، فقال: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾، أي: وَلَدٍ مِن غيرِ الزَّوجِ، ﴿يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾ أي: بالحَمْلِ في البُطونِ ﴿وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي: بالوَضعِ مِن الفُروجِ -على قولٍ-، وهذا شامِلٌ لِما كان مِن شُبْهةٍ أو لُقَطةٍ، ولَمَّا حَقَّق هذه الكبائِرَ العظيمةَ؛ تعظيمًا لأَمْرِها لعُسْرِ الاحتِرازِ منها، وأكَّد النَّهيَ عن الزِّنا مُطابَقةً وإلزامًا لِما يَجُرُّ إليه مِن الشُّرورِ؛ القَتْلِ فما دُونَه، وغَلَّظ أمْرَ النَّسَبِ لِما يَتفرَّعُ عليه مِن إيقاعِ الشُّبُهاتِ، وانتِهاكِ الحُرُماتِ- عمَّ في النَّهيِ، فقال: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾[٢].

- قيل: قدَّمَ المنهيَّاتِ على المأموراتِ المستفادةِ مِن المعروفِ في قوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾؛ لأنَّ التخَلِّيَ عن الرَّذائِلِ مُقَدَّمٌ على التَّحلِّي بالفضائِلِ؛ لأنَّ دَرْءَ المَفاسِدِ أَولى مِن جَلبِ المصالحِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٢-٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٢٤).

- وقولُه: ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ جَوابُ (إذا) تَفريعٌ على ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾، أي: فاقْبَلْ مِنهنَّ ما بايَعْنَكَ عليه؛ لأنَّ البَيعةَ عِندَه مِن جانبينِ؛ ولذلك صِيغَت لها صِيغةُ المُفاعَلةِ[١].

- قولُه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾، أي: فيما فَرَطَ منْهنَّ في الجاهليةِ ممَّا خُصَّ بالنَّهيِ في شُروطِ البَيعةِ وغيرِ ذلك؛ ولذلك حُذِفَ المفعولُ الثَّاني لفِعلِ (اسْتَغْفِرْ)[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: مُبالِغٌ في المَغفرةِ والرَّحمةِ. وهو تَعليلٌ للأمرِ بالاستِغفارِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾

- هو كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لاختِتامِ السُّورةِ بمِثلِ ما ابتَدَأَها مِن النَّهيِ عن اتِّخاذِ الكفَّارِ أولياءَ[٤]؛ تأكيدًا لتَركِ مُوالاتِهم، وتنفيرًا للمُسلِمينَ عن تولِّيهم، وإلقاءِ المودَّةِ إليهم[٥].

- على القولِ بأنَّ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم هم اليهودُ، وإذ قد كانوا لا يُنكِرون الدَّارَ الآخرةَ؛ كان معْنى يأْسِهم مِن الآخِرةِ هو اليأسُ مِن خيرِ الآخرةِ وثَوابِها؛ لِعنادِهم الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم المَنعوتَ في كتابِهم، المؤيَّدَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦١).

بالآياتِ البيِّنات، والمُعجزاتِ الباهِراتِ. ويحتملُ أنْ يُرادَ به الإعراضُ عن العمَلِ للآخِرةِ، فكأنَّهم في إهمالِ الاستِعدادِ لها آيِسُون منها. ووجْهُ تَشبيهِ إعراضِهم هذا بيَأْسِ الكفَّارِ مِن أصحابِ القُبورِ: شِدَّةُ الإعراضِ، وعدَمُ التَّفكُّرِ في الأمْرِ؛ شُبِّهَ إعراضُهم عن العمَلِ لنفْعِ الآخِرةِ بيَأْسِ الكفَّارِ مِن حَياةِ المَوتى والبَعثِ، وفيه تَشنيعُ المُشبَّهِ. و﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ على هذا الوجْهِ مُتعلِّقٌ بـ﴿يَئِسُواْ﴾، والكفَّارُ: المشركون.

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ بَيانًا للكُفَّارِ، أي: الَّذين هم أصحابُ القبورِ، أي: الكفَّارُ الموتى، الَّذين هَلَكوا ورَأَوا أنْ لا حظَّ لهم في خَيرِ الآخرةِ؛ فشَبَّهَ إعراضَ اليهودِ عن الآخِرةِ بيَأْسِ الكُفَّارِ مِن نَعيمِ الآخرةِ، ووَجْهُ الشَّبَهِ: تَحقُّقُ عدَمِ الانتفاعِ بالآخرةِ، والمعْنى: كيَأْسِ الكُفَّارِ الأمواتِ، أي: يأسًا مِن الآخِرةِ، والمُشبَّهُ به مَعلومٌ للمُسلِمينَ بالاعتقادِ؛ فالكلامُ مِن تَشبيهِ المحسوسِ بالمعقولِ(١).

ويجوزُ أن تكونَ ﴿مِنْ﴾ لابتِداءِ الغايةِ، والمعنى: أنَّ هؤلاء القومَ المغضوبَ عليهم قد يَئِسوا مِن الآخرةِ كما يَئِسوا مِن مَوتاهم أن يُبعَثوا ويَلقوهم في دارِ الدُّنيا، فالمرادُ بالكفَّارِ أولئك القومُ، ووُضِع الظَّاهرُ مَوضِعَ ضَميرِهم؛ تسجيلًا لكفرِهم، وإشعارًا بعِلَّةِ يأسِهم(٢).

- وفي هذه الآيةِ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالاستِطرادِ(٣)؛ وهو فنٌّ رَفيعٌ مِن فُنونِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٩، ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧١).

(٣) الاستطراد: خروجُ المتكلِّمِ مِن الغرضِ الَّذي كان يتكلَّمُ فيه إلى غيرِه لِمُناسَبةٍ بيْنَهما، ثمَّ ترْكُه والعودةُ إلى ما كان فيه، كأنَّ المتكلِّمَ لم يَقصِدْه، وإنَّما عرَض عُروضًا. يُنظر: ((خزانة الأدب)) =

البَيانِ؛ فقدْ ذمَّ اليهودَ واستَطْرَدَ ذَمَّهم بذَمِّ المشركين على نَوعٍ حَسَنٍ مِن النِّسبةِ[١].

= لابن حِجَّة الحموي (١/ ١٠٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٧٣، ٣٧٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٥٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧١).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ الصَّفِّ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الصَّفِّ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الصَّفِّ)[١].

فعن عَبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ، قال: ((تذاكَرْنا أيُّكم يأتي رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيَسأَلُه: أيُّ الأعمالِ أحَبُّ إلى اللهِ؟ فلم يَقُمْ أحَدٌ مِنَّا، فأرسَلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلينا رجُلًا فجَمَعَنا، فقَرَأَ علينا هذه السُّورةَ، يعني: سُورةَ الصَّفِّ كُلَّها))[٢].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الصَّفِّ مَدَنيَّةٌ[٣]، .....

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ ذِكرُ لَفظِ الصَّفِّ فيها، في قَولِه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾ [الصف: ٤]، وهو صَفُّ القِتالِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧١).

قال ابنُ عاشور: (اشتَهَرت هذه السُّورةُ باسمِ «سورةِ الصَّفِّ»، وكذلك سُمِّيَت في عَصرِ الصَّحابةِ... وبذلك عُنْونَت في «صحيحِ البُخاريِّ» وفي «جامعِ التِّرمذيِّ»، وكذلك كُتِبَ اسمُها في المصاحِفِ، وفي كُتُبِ التَّفسيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧١). يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٨٨)، ((سنن الترمذي)) (٥/ ٤١٢).

وقال أبو الحسنِ السَّخاوي: (سورةُ الصفِّ، وتُسمَّى سورةَ الحواريِّينَ). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (١/ ٢٠١).

(٢) أخرجه مِن طُرقٍ الترمذيُّ (٣٣٠٩) بنحوه، وأحمدُ (٢٣٧٨٨) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٤٥٩٤).

صحَّحه الحاكمُ على شرطِ الشَّيخينِ في ((المستدرك)) (٢/ ٧٩)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٠٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٩/ ٢٠٥) وقال: (على شرطِ الشَّيخَينِ).

(٣) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ، قال ابنُ عطيَّةَ: (وهي مَدَنيَّةٌ في قَولِ الجُمهورِ، وقال مَكِّيٌّ عن ابنِ عَبَّاسٍ، =

وحُكيَ الإجماعُ على ذلك[١].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

التَّحريضُ على نُصرةِ الدِّينِ، والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، والاستِجابةِ لله ولرسولِه[٢].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- افتُتِحَت السُّورةُ بتَسبيحِ اللهِ تعالى، وتنزيهِه عن كُلِّ ما لا يليقُ به.

٢- النَّهيُ عن الأقوالِ الَّتي لا تُطابِقُها الأفعالُ.

٣- ذِكرُ جانبٍ مِمَّا قاله موسى عليه السَّلامُ لِقَومِه، وما لَقِيَه منهم مِن أذًى.

٤- ذِكرُ دَعوةِ عيسى عليه السَّلامُ لبني إسرائيلَ، وبِشارتِه بالنَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم.

٥- بيانُ ما جُبِلَ عليه الكافِرونَ مِن كَذِبٍ على الحَقِّ، ومِن كراهيةٍ لِظُهورِ نُورِه.

= والمَهْدويُّ عن عطاءٍ ومجاهِدٍ: إنَّها مَكِّيَّةٌ. والأوَّلُ أصَحُّ؛ لأنَّ معانيَ السُّورةِ تُعَضِّدُه، ويُشبِهُ أن يكونَ فيها المَكِّيُّ والمَدَنيُّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٦). ويُنظر: ((التحصيل لفوائد كتاب التفصيل)) للمهدوي (٦/ ٤٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٢).

وممَّن نَسَب القَولَ بكَونِها مَدَنيَّةً إلى الجُمهورِ أيضًا: ابنُ الفَرَسِ، وابن الجوزي، وابن عاشور. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٣).

(١) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٣).

٦- دَعوةُ المؤمِنينَ إلى الجِهادِ في سبيلِ اللهِ بالأنفُسِ والأموالِ، وحَضُّهم على أن يَقتَدُوا بالحَواريِّينَ.

٧- البِشارةُ بنَصرِ أهلِ الإيمانِ على أهلِ الكُفْرِ.

الآيات (١-٤)

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾: أي: عَظُمَ بُغضًا، والمَقْتُ: البُغضُ الشَّديدُ لِمَن تَراه تعاطَى القَبيحَ، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ، وأصلُ (مقت): يدُلُّ على شَناءةٍ وقُبحٍ[(١)].

﴿مَّرْصُوصٌ﴾: أي: مُلتَزِقٌ بَعضُه ببَعضٍ، والتَّراصُّ: التَّلاصُقُ؛ يُقالُ: رَصصتُ البِناءَ رَصًّا: إذا ضَمَمْتَ بَعْضَه إلى بَعضٍ، وأصلُ (رصص): يدُلُّ على انضِمامِ شَيءٍ إلى شَيءٍ بقُوَّةٍ وتَداخُلٍ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

ابتَدَأ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ بأنَّ جميعَ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ قد نَزَّه اللهَ تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ، وأخبَرَ أيضًا بأنَّه هو العزيزُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

ثمَّ وَجَّه سُبحانَه الخِطابَ إلى المؤمِنينَ، فقال تعالى: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لِمَ تَقولونَ ما لا تَفعَلونَ، عَظُم بُغْضًا عندَ اللهِ قولُكم ما لا تَفعَلونَه! إنَّ اللهَ يُحِبُّ

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣، ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٠٨).

الَّذين يُقاتِلونَ في سبيلِ اللهِ لإعلاءِ دِينِه مُنتَظِمينَ في صَفِّ القِتالِ كأنَّهم بِناءٌ عظيمُ الاتِّصالِ، لاصِقٌ بَعضُه ببَعضٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قعَدْنا نفرٌ مِن أصحابِ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتَذاكَرْنا، فقُلْنا: لو نَعلَمُ أيُّ الأعمالِ أحَبُّ إلى اللهِ لَعَمِلْناه، فأنزل اللهُ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. قالَ عبدُ اللَّهِ بنُ سَلَامٍ: فقَرَأَها علينا رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[1].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: نزَّه اللهَ تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ وجميعُ ما في الأرضِ[2].

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٠٩) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٢٣٧٨٨)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٤٥٩٤). صَحَّحه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٢٤٨) وقال: (على شرطِ الشَّيخينِ). وصَحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٠٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٩/ ٢٠٥)، وقال: (على شرطِ الشَّيخينِ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).
وتسبيحُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ تسبيحٌ حقيقيٌّ بلِسانِ المقالِ، وأيضًا بلِسانِ الحالِ. يُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الإسراء الآية (٤٤)، وأوَّل سورة الحديد.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو العزيزُ الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، فيَنتَقِمُ مِن أعدائِه، الحكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ ممَّا خلَقَه وشَرَعَه وقدَّرَه في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لِمَ تَقولونَ القَولَ الَّذي لا تُصَدِّقونَه بالعَمَلِ؛ فتكونَ أعمالُكم مُخالِفةً لأقوالِكم؟! ومِن ذلك تَركُ فِعلِ الخَيرِ لِمَن وَعَد بفِعْلِه، كالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الأحزاب: ١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۞ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [محمد: ٢٠، ٢١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٦، ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥، ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((آيةُ المنافِقِ ثَلاثٌ: إذا حدَّثَ كَذَب، وإذا وَعَد أخلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خان))[١].

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾.

أي: عَظُم واشتَدَّ بُغْضًا عندَ اللهِ قولُكم -أيُّها المؤمنونَ- شَيئًا، ثمَّ لا تَفعَلونَه[٢]!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ قَولَ اللهِ تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فيه مَذَمَّةُ المخالِفينَ في القِتالِ، وهم الَّذين وَعَدوا بالقِتالِ ولم يُقاتِلوا، وهذه الآيةُ مَحمَدةٌ لِلموافِقينَ في القِتالِ، وهم الَّذين قاتَلوا في سَبيلِ اللهِ وبالَغوا فيه[٣]، فبَعْدَ أنْ ذمَّ المخالِفينَ فى أمرِ القتالِ وهم الَّذين وعَدوا ولم يفْعَلوا؛ مدَح الَّذين قاتَلوا فى سبيلِه[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ المجاهِدينَ الَّذين يُقاتِلونَ أعداءَ اللهِ لإعلاءِ دِينِه حالَ كَونِهم مُنتَظِمينَ في صَفِّ القِتالِ[٥].

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩١)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦، ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٧، ٥٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٦).

=

﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الاصطِفافُ يَصْدُقُ مع التَّقَدُّمِ والتأخُّرِ اليسيرِ؛ نفى ذلك بقَولِه حالًا بعدَ حالٍ[١]:

﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

أي: كأنَّهم في اصطِفافِهم للقِتالِ -مِن شِدَّةِ التَّراصِّ والمُساواةِ والثَّباتِ في المراكِزِ- بِناءٌ واحِدٌ عظيمُ الاتِّصالِ، شَديدُ الاستِحكامِ، لاصِقٌ بَعضُه ببَعضٍ، بلا فُرجةٍ ولا خَلَلٍ[٢]!

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((إنَّ المؤمِنَ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا، وشَبَّك أصابِعَه))[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ استُدِلَّ بالآيةِ مِن عُمومِ لَفظِها على الإنكارِ على كُلِّ مَن خالَفَ قَولُه فِعْلَه، سواءٌ في عَهدٍ أو وَعدٍ، أو أمرٍ أو نَهيٍ[٤]. ففيها أنَّه

= قال البقاعي: (أي: مُصْطَفِّينَ حتَّى كأنَّهم في اتِّحادِ المرادِ على قَلبٍ واحِدٍ، كما كانوا في التَّساوي في الاصطِفافِ كالبَدَنِ الواحِدِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

(٣) رواه البخاري (٤٨١) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٥٨٥).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٠٥).

ينبغي للآمِرِ بالخَيرِ أن يكونَ أوَّلَ النَّاسِ إليه مُبادَرةً، ولِلنَّاهي عن الشَّرِّ أن يكونَ أبْعَدَ النَّاسِ منه[١]. فمِن آدابِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنْكَرِ -وليس مِن شُروطِه- أنْ يكونَ الإنسانُ أوَّلَ فاعلٍ للمَعروفِ، وأوَّلَ مُنْتَهٍ عنِ المنكَرِ، بمعنى أنَّه لا يأمرُ بالمعروفِ ثُمَّ لا يَفعَلُه، أو لا يَنهى عنِ المُنْكَرِ ثُمَّ يَقَعُ فيه[٢]، فإذا كنتَ تقولُ الشَّيءَ ولا تفعَلُه، فأنت بيْنَ أمْرَينِ: إمَّا أنَّك كاذِبٌ فيما تقولُ، ولكنْ تُخَوِّفُ النَّاسَ، فتقولُ لهم الشَّيءَ وليس بحقيقةٍ، وإمَّا أنَّك مُستَكبِرٌ عمَّا تقولُ؛ تأمرُ النَّاسَ به ولا تَفعَلُه، وتنهى النَّاسَ عنه وتَفعَلُه[٣]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ * كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ يُحتَجُّ به في وُجوبِ الوَفاءِ بالوُعودِ[٤]، والتَّحذيرِ مِن إخلافِها، وفيه الالتزامُ بواجِباتِ الدِّينِ[٥].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ حَثٌّ مِن اللهِ لِعبادِه على الجِهادِ في سَبيلِه، وتعليمٌ لهم كيف يَصنَعونَ، وأنَّه ينبغي لهم أن يَصُفُّوا في الجِهادِ صَفًّا مُتراصًّا مُتساويًا مِن غيرِ خَلَلٍ يَقَعُ في الصُّفوفِ، وتكونَ صُفوفُهم على نظامٍ وتَرتيبٍ به تحصُلُ المساواةُ بيْنَ المجاهِدينَ، والتَّعاضُدُ وإرهابُ العَدُوِّ، وتنشيطُ بَعضِهم بَعضًا[٦]. وفيه تحريضٌ على الثَّباتِ في الجهادِ، وصِدقِ الإيمانِ، والثَّباتِ في نُصرةِ الدِّينِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ استِحبابُ قيامِ المجاهدِينَ في القتالِ صُفوفًا كصُفوفِ الصَّلاةِ، وأنَّه يُستَحَبُّ سَدُّ الفُرَجِ والخَلَلِ في الصُّفوفِ، وإتمامُ الصَّفِّ الأوَّلِ فالأوَّلِ، وتسويةُ الصُّفوفِ بِعَدَمِ تَقَدُّمِ بَعضٍ على بَعضٍ فيها[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ عَلَّقَ سُبحانَه المحبَّةَ لهؤلاء بأعمالِهم، بعِدَّةِ صِفاتٍ:

أوَّلًا: يُقاتِلونَ فلا يَركَنونَ إلى الخُلودِ والخُمولِ والكَسَلِ والجُمودِ؛ الَّذي يُضعِفُ الدِّينَ والدُّنيا.

ثانيًا: الإخلاصُ؛ لِقَولِه: ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾.

ثالثًا: يَشُدُّ بعضُهم بعضًا؛ لِقَولِه: ﴿صَفّٗا﴾.

رابعًا: أنَّهم كالبُنيانِ، والبنيانُ حِصْنٌ مَنيعٌ.

خامسًا: لا يَتَخَلَّلُهم ما يُمَزِّقُهم؛ لِقَولِه: ﴿مَّرۡصُوصٞ﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في إجراءِ وَصفِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ عليه تعالى هنا إيماءٌ إلى أنَّه الغالِبُ لعَدُوِّه؛ فما كان لكم أن تَرهَبوا أعداءَه فتَفرُّوا منهم عندَ اللِّقاءِ؛ وإجراءِ صِفةِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ إنْ حُمِلَت على معنى المتَّصِفِ بالحِكمةِ: أنَّ الموصوفَ بالحِكمةِ لا يأمُرُكم بجِهادِ العَدُوِّ عَبَثًا، ولا يُخَلِّيهم يَغلِبونَكم، وإن حُمِلَت على معنى المُحكِمِ للأمورِ، فكذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٤).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ يُحتَجُّ به في وُجوبِ الوَفاءِ بالنَّذرِ في نَذْرِ اللَّجاجِ[(١)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ استُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّ مَن ألزَمَ نَفْسَه عَمَلًا فيه طاعةٌ لَزِمه أن يَفِيَ بها[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ إثباتُ صفةِ المَقْتِ للهِ تعالى، وأنَّه يَتفاوَتُ[(٣)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾ إثباتُ صفةِ المحبَّةِ للهِ تعالى[(٤)]، وكذلك قولُه: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقولُه:

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤١٣).
ونَذْرُ اللَّجَاجِ والغَضَبِ: هو أن يمنَعَ نَفْسَه مِن فِعلٍ، أو يَحُثَّها عليه، بتعليقِ التزامِ قُربةٍ بالفِعلِ أو بالتَّركِ. يُنظر: ((المجموع شرح المهذب)) للنووي (٨/ ٤٥٩).
وقد اتَّفقَتِ المذاهبُ الفقهيَّةُ الأربعةُ -الحنَفيَّةُ والمالِكيَّةُ والشَّافِعيَّةُ والحنابِلةُ- على أنَّ النَّذرَ على وجهِ اللَّجاجِ والغضبِ يَنعقِدُ، على خِلافٍ بيْنَهم: هل يجبُ عليه الوفاءُ بالنَّذرِ، أو تُجزئُه كفَّارةُ اليمينِ، أو يُخَيَّرُ بيْنَهما؟ يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (٣/ ١١٠)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ١٦١)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٣/ ٢٩٤)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (١١/ ٩٠).
والأقربُ هو التَّخييرُ بيْن الوَفاءِ بما التَزَم أو الكَفَّارةِ، وهو مَذهَبُ الشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ، واختاره ابنُ تيميَّةَ وابنُ القَيِّمِ وابنُ بازٍ وابنُ عُثيمينَ. يُنظر: ((مغني المحتاج)) للشربيني (٤/ ٣٥٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ٢٧٤)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٤/ ١١٠)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٨٧، ٨٨)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٢٢/ ٣٣، ٣٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفَرَس (٣/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٣٢١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]. وهذه الآياتُ وأشباهُها تَقتضي أنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ أصحابَ هذه الأعمالِ؛ فهو يُحِبُّ التَّوَّابينَ، ففي هذه الحالِ يُحِبُّهُم، وهذا مبنيٌّ على الصِّفاتِ الاختياريَّةِ، فمَن نفاها رَدَّ هذا كُلَّه(١)!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ دليلٌ على تَعبئةِ الحَربِ، والتَّظاهُرِ في القِتالِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مُناسَبةُ هذه الفاتحةِ لِما بعْدَها مِن السُّورةِ بَيانُ أنَّ الكافرينَ مَحقوقُون بأنْ تُقاتِلوهم؛ لأنَّهم شَذُّوا عن جَميعِ المخلوقاتِ فلمْ يُسبِّحوا اللهَ، ولم يَصِفُوه بصِفاتِ الكمالِ؛ إذ جَعَلوا له شُركاءَ في الإلهيَّةِ، وفيه تَعريضٌ بالَّذين أَخْلَفوا ما وَعَدوا بأنَّهم لم يُؤدُّوا حقَّ تَسبيحِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ مُستحِقٌّ لأنْ يُوفَى بعَهْدِه في الحياةِ الدُّنيا، وأنَّ اللهَ ناصرُ الَّذين آمَنوا على عَدُوِّهم(٣).

- قولُه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عبَّر هنا بالماضِي ﴿سَبَّحَ﴾ كما في سُورةِ (الحَديدِ) و(الحَشرِ)، وقال تعالَى في بعضِ السُّورِ: ﴿يُسَبِّحُ﴾ [الجمعة: ١، التَّغابُن: ١] بصِيغةِ المُضارِعِ، وفي البعضِ: ﴿سَبِّحِ﴾ [الأعلى: ١] بصِيغةِ الأمْرِ؛ ليُعلَمَ أنَّ تَسبيحَ اللهِ تَعالى دائمٌ غيرُ مُنقطِعٍ؛ لِما أنَّ الماضيَ يدُلُّ عليه في الماضي مِن الزَّمانِ، والمستقبَلَ يدُلُّ عليه في المستقبَلِ مِن الزَّمانِ، والأمْرَ يدُلُّ عليه في الحالِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٦).

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾

- النِّداءُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إنْ كان للمؤمنينَ حقيقةً -ويدُلُّ عليه سببُ النُّزولِ-، فالاستفهامُ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ يُرادُ به التَّلطُّفُ في العَتْبِ، وإنْ كان النِّداءُ للمُنافِقين؛ فالمعْنى: يا أيُّها الَّذين آمَنوا، أي: بألْسِنَتهم، والاستِفهامُ يُرادُ به الإنكارُ والتَّوبيخُ، وتَهكُّمٌ بهم في إسنادِ الإيمانِ إليهم[١].

- وناداهم بوَصْفِ الإيمانِ تَعريضًا بأنَّ الإيمانَ مِن شأْنِه أنْ يَزَعَ المؤمنَ عن أنْ يُخالِفَ فِعلُه قولَه في الوعْدِ بالخَيرِ[٢].

- قولُه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ اللَّامُ لتَعليلِ المُستفهَمِ عنه، وهو الشَّيءُ المُبهَمُ الَّذي هو مَدلولُ (ما) الاستفهاميَّةِ؛ لأنَّها تدُلُّ على أمْرٍ مُبهَمٍ يُطلَبُ تَعيينُه، والتَّقديرُ: تَقولون ما لا تَفعَلون لأيِّ سَببٍ أو لأيَّةِ عِلَّةٍ؟ وهذا كِنايةٌ عن تَحذيرِهم مِن الوُقوعِ في مِثلِ ما فَعَلوه يومَ أُحُدٍ بطَريقِ الرمْزِ، وكِنايةٌ عن اللَّومِ على ما فَعَلوه يومَ أُحُدٍ بطَريقِ التَّلويحِ[٣].

- قولُه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ معناه: لأيِّ شَيءٍ تَقولونَ: (نَفعَلُ) ما لا تَفعَلونَ مِن الخَيرِ والمعروفِ؟ على أنَّ مَدارَ التَّعييرِ والتَّوبيخِ في الحَقيقةِ عدَمُ فِعلِهم، وإنَّما وُجِّهَا إلى قَولِهم تَنبيهًا على تَضاعُفِ مَعصيتِهم، ببَيانِ أنَّ المُنكَرَ ليس تَرْكَ الخَيرِ الموعودِ فقطْ، بلِ الوعدُ به أيضًا، وقد كانوا يَحسَبونَهُ مَعروفًا، ولو قيلَ: (لِمَ لا تَفعلونَ ما تَقولونَ)، لَفُهِمَ منه أنَّ المُنكَرَ هُو ترْكُ الموعودِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٢، ٥٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٧٤، ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٢).

- وفيه تَعريضٌ بالمُنافِقين؛ إذ يُظهِرون الإيمانَ بأقوالِهم وهم لا يَعمَلون أعمالَ أهلِ الإيمانِ بالقلْبِ ولا بالجسَدِ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾؛ تَصريحًا بالمعْنى المُكنَّى عنه بها[٢].

- في قولِه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ المُبالَغةُ والتَّكريرُ؛ ولهذا اعتُبِرَتْ هذه الجُملةُ مِن أفصَحِ الكلامِ وأبلَغِه في معْناهُ؛ لأُمورٍ:

أ- قصَدَ إلى التَّعجُّبِ بغَيرِ صِيغةِ التَّعجُّبِ؛ لتَعظيمِ الأمْرِ في قُلوبِ السَّامعينَ؛ لأنَّ التَّعجُّبَ لا يكونُ إلَّا مِن شَيءٍ خارقٍ للعادةِ والنَّظائرِ.

ب- أسْنَدَ إلى ﴿أَن تَقُولُواْ﴾، ونصَبَ ﴿مَقْتًا﴾ على تَفسيرِه؛ دَلالةً على أنَّ قولَهم ما لا يَفعَلون مَقْتٌ خالصٌ لا شَوبَ فيه؛ لفَرْطِ تَمكُّنِ المَقتِ منه.

ج- اختيارُ لَفظِ المَقْتِ؛ لأنَّه أشدُّ البُغضِ وأبلَغُه.

د- ثُمَّ لمْ يَقتصِرْ على أنْ جَعَلَ البُغضَ كَبيرًا حتَّى جعَلَه أشدَّهُ وأفْحَشَه، وقولُه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أبلَغُ مِن ذلك؛ لأنَّه إذا ثبَتَ كِبَرُ مَقْتِه عندَ اللهِ، فقد تمَّ كِبَرُه وشِدَّتُه وانجابَتْ عنه الشُّكوكُ.

هـ- التَّكرارُ لقولِه: ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وهو لَفظٌ واحدٌ في كلامٍ واحدٍ، ومِن فَوائدِ التَّكرارِ التَّهويلُ والإعظامُ والتَّأكيدُ، وإلَّا فقدْ كان الكلامُ مُستقِلًّا لو قِيل: (كبُرَ مَقتًا عِندَ اللهِ ذلك)، فما إعادتُه إلَّا لمكانِ هذه الفائدةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي =

- وفيه أيضًا اندراجُ الخاصِّ بالعامِّ، وقد ورَدَ النَّهيُ العامُّ عن القولِ غيرِ المؤيَّدِ بالفِعلِ، والمقصودُ اندراجُ الأمْرِ الخاصِّ الَّذي ورَدَ عقِبَ ذلك، وهو قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾.

وفائدةُ مِثلِ هذا النَّظمِ النَّهيُ عن الشَّيءِ الواحدِ مرَّتينِ مُندرِجًا في العمومِ، ومُفرَدًا بالخُصوصِ، وهو أَوْلى مِن النَّهيِ عنه على الخُصوصِ مرَّتَينِ؛ فإنَّ ذلك مَعدودٌ في حَيِّزِ التَّكرارِ، وهذا لا يَتكرَّرُ، مع ما في التَّعميمِ مِن التَّعظيمِ والتَّهويلِ[(١)].

- وعدلَ عن جَعْلِ فاعِلِ ﴿كَبُرَ﴾ ضَميرَ القَولِ، بأن يَقتَصِرَ على ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾، أو يُقالَ: (كَبُرَ ذلك مَقْتًا)؛ لِقَصدِ زِيادةِ التَّهويلِ بإعادةِ لَفْظِه، ولإفادةِ التَّأكيدِ[(٢)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ بَيانٌ لِما هو مَرْضيٌّ عِندَه تعالَى بعْدَ بَيانِ ما هو مَمقوتٌ عِندَه[(٣)]. وهو أيضًا جوابٌ على تَمنِّيهم مَعرفةَ أحبِّ الأعمالِ إلى اللهِ، وما قبْلَه تَوطئةٌ له على أُسلوبِ الخُطَبِ ومُقدِّماتِها[(٤)].

- قولُه: ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ المرصوصُ: المتلاصِقُ بعْضُه ببَعضٍ،

= حيان)) (١٠/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٥، ١٧٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧٧، ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٥٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٦).

وهو تَشبيهٌ في الثَّباتِ وعدَمِ الانفلاتِ، وهو الَّذي اقتَضاهُ التَّوبيخُ السَّابقُ في قولِه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]. وقيل: المرادُ: استواءُ نِيَّاتِهم في الثَّباتِ حتَّى يَكونوا في اجتِماعِ الكلمةِ كالبُنيانِ المرصوصِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٦).

الآيتان (٥-٦)

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زَاغُوٓا۟﴾: أي: مالُوا وجارُوا، والزَّيغُ: المَيلُ عن الاستِقامةِ، وأصلُ (زيغ): يدُلُّ على مَيلٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ قال موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ: يا قَومِ، لِمَ تُؤذُونَني وأنتم تَعلَمونَ أنِّي رَسولُ اللهِ إليكم، فلمَّا مالُوا عن الحَقِّ أمالَ اللهُ قُلوبَهم عن الهُدى، واللهُ لا يَهدي القَومَ الخارِجينَ عن طاعتِه.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى جانبًا ممَّا قاله عيسَى عليه السَّلامُ لبني إسرائيلَ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ قال عيسى ابنُ مَريمَ: يا بني إسرائيلَ إنِّي رَسولُ اللهِ أرسَلَني إليكم مُصَدِّقًا للتَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت مِن قَبلُ على موسى، ومُبَشِّرًا برَسولٍ يأتي مِن بَعْدي اسمُه أحمَدُ، فلمَّا جاءهم بالمُعجِزاتِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ، قال الكافِرونَ: هذا الَّذي جاءَنا به سِحرٌ ظاهِرٌ!

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٥).

إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الجِهادَ، ذَكَر قِصَّةَ موسى وعيسى عليهما السَّلامُ؛ تسليةً لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليصبرَ على أذى قَومِه، مُبتَدِئًا بقِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ، لتقَدُّمِه[١].

وأيضًا لَمَّا كان في المؤمنينَ مَن يقولُ ما لا يَفعَلُ، وهو راجِعٌ إلى الكَذِبِ؛ فإنَّ ذلك في معْنى الإذايةِ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ إذ كان في أتْباعِه مَن عانَى الكَذِبَ، فناسَبَ ذِكرُ قصَّةِ مُوسى وقَولِه لقَومِه: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾، وإذايتُهم له كانتْ بانتِقاصِه في نفْسِه، وجُحودِ آياتِ اللهِ تعالَى، واقتِراحاتِهم عليه ما ليس لهم اقتِراحُه[٢].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر أمْرَ الجِهادِ؛ بَيَّنَ أنَّ موسى وعيسى عليهما السَّلامُ أَمَرَا بالتَّوحيدِ وجاهَدَا في سَبيلِ اللهِ، وحَلَّ العِقابُ بمَن خالَفَهما[٣].

وأيضًا لَمَّا كان التخَلُّفُ عن أمرِ اللهِ تعالى، والغَفلةُ عن شَيءٍ يُؤَدِّي تَرْكُه إلى التَّهاوُنِ به، والإخلالِ بأدَبٍ مِن آدابِه: مُوجِبًا للكَونِ في صَفِّ الشَّيطانِ، ومُفارَقةِ حِزبِ الرَّحمنِ، فيَكونُ آذى الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيُوجِبُ ذلك الشَّقاءَ كُلَّه؛ لأنَّه جَديرٌ بأن يَجُرَّ إلى أكبَرَ منه؛ إلى أن تُحيطَ الخَطايا فتُبيحَ الرَّزايا، وكان للتَّذكيرِ بالمُشاهَداتِ والأُمورِ الواقِعاتِ ما ليس لغَيرِه في التَّأديبِ، ومَرجِعِ التَّرهيبِ- ذكَّرَ بما كان لبني إسرائيلَ؛ ترهيبًا مِن مِثْلِ حالِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ قال موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ: يا قَومِ، لِمَ تُصيبونَني بما يُؤذِيني، والحالُ أنَّكم تَعلَمونَ عِلمًا يَقينيًّا أنِّي رَسولُ اللهِ إليكم، وأنَّه يَجِبُ عليكم تَعظيمي والانقيادُ لأَمْري[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ * قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠ - ٢٦].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قَسَم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَسْمًا، فقال رجُلٌ: إنَّ هذه لَقِسْمةٌ ما أُريدَ بها وَجهُ اللهِ! فأخبَرْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فغَضِبَ، حتَّى رأيتُ الغضَبَ في وَجْهِه، وقال: يَرحَمُ اللهُ

ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ١٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩). ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ (الأحزاب) آية رقم (٦٩).

موسى؛ لقد أُوذِيَ بأكثَرَ مِن هذا فصبَرَ!))[١].

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾.

أي: فلمَّا مالَ قَومُ موسى عن الحَقِّ عَمْدًا منهم، أمالَ اللهُ قُلوبَهم عن الهُدى إلى الضَّلالِ؛ عُقوبةً لهم على زَيغِهم عن الحَقِّ، مع تعَمُّدِهم وعِلْمِهم به[٢].

كما قال تعالى حِكايةً عن دُعاءِ الرَّاسِخينَ في العِلمِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ لاتِّباعِ الحقِّ القَومَ الَّذين آثَروا الخُروجَ عن طاعتِه، وأصَرُّوا على مَعصيتِه[٣].

﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٣٣٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٠٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٧، ١٠٠، ١٣٤، ١٣٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١، ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى شيئًا مِن قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ مع بني إسرائيلَ، ذَكَر أيضًا شيئًا مِن قِصَّةِ عيسى عليه السَّلامُ[(١)].

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ قال عيسى ابنُ مَريمَ: يا بني إسرائيلَ إنِّي رَسولُ اللهِ أرسَلَني إليكم؛ لأدعوَكم إلى الخَيرِ، وأنهاكم عن الشَّرِّ[(٢)].

﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

أي: مُصَدِّقًا للتَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت مِن قَبلُ على موسى[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

قيل: معنى تصديقِ عيسى للتَّوراةِ: تَصديقُه لها في التَّوحيدِ وجمهرةِ شرائِعِها. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجُملةِ: السمرقنديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٠، ١٨١).

وقيل: المرادُ: أنَّ في التَّوراةِ صِفتَه، وأنَّها بَشَّرَت به، وأنَّه لم يأتِ بما يُخالِفُها. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: القرطبيُّ، والشوكاني، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

أي: ومُبَشِّرًا لكم برَسولٍ يأتي مِن بَعْدي اسمُه أحمَدُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١، ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وعن أبي أُمامةَ رضي الله عنه، قال: ((قلْتُ: يا نبيَّ الله، ما كان أولُ بدءِ أمرِك؟ قال: دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبُشرَى عيسى، ورأتْ أمِّي أنَّه يخرجُ منها نورٌ أضاءَتْ منه قصورُ الشَّامِ))[(٢)].

وعن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لي خَمسةُ أسماءٍ: أنا محمَّدٌ، وأحمدُ، وأنا الماحي الَّذي يَمحو اللهُ بيَ الكُفرَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٣، ٨٤)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٩٠، ٩١)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (١/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤).

(٢) أخرجه الطيالسي (١٢٣٦) وأحمد (٢٢٢٦١) والطبراني (٧٧٢٩).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٢٥): (إسنادُه حسنٌ، وله شَواهدُ تقويه). وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيقِ ((مسند أحمد)) (٣٦/ ٥٩٦).

وأنا الحاشِرُ الَّذي يُحشَرُ النَّاسُ على قَدَمي، وأنا العاقِبُ[١]))[٢].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُسَمِّي لنا نَفْسَه أسماءً، فقال: أنا محمَّدٌ، وأحمَدُ، والمُقَفِّي[٣]، والحاشِرُ، ونَبيُّ التَّوبةِ، ونبيُّ الرَّحمةِ))[٤].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ: ﴿سَاحِرٌ﴾[٥].

٢- قِراءةُ: ﴿سِحْرٌ﴾[٦].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: فلمَّا جاءهم بالمُعجِزاتِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ، قال المعانِدونَ الكافِرونَ: هذا الَّذي جاءَنا به سِحرٌ ظاهِرٌ[٧].

---

(١) العاقِبُ: الَّذي ليس بَعْدَه نَبيٌّ، والَّذي يَخلُفُ في الخَيرِ مَن كان قَبْلَه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٩٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٥٣٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٣٥٤).

(٣) المُقَفِّي، أي: المُتَّبِعُ؛ مِن قَفَا أثَرَه: إذا تَبِعَه، يعني: أنَّه آخِرُ الأنبياءِ الآتي على أثَرِهم، ولا نَبيَّ بَعْدَه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٩٧).

(٤) رواه مسلم (٢٣٥٥).

(٥) قرأ بها: حمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).

(٦) قرأ بها: الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

قال ابن جُزَي: (﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ عيسى أو محمَّدًا عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ هذا مِن العُقوبةِ على الذَّنْبِ بالذَّنبِ[(١)]، والجزاءِ بالمعاصي على المعاصي[(٢)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تُفيدُ أنَّ إضلالَ اللهِ لعبادِه ليس ظُلمًا منه، ولا حُجَّةً لهم عليه، وإنَّما ذلك بسَبَبٍ منهم؛ فإنَّهم الَّذين أغلَقوا على أنفُسِهم بابَ الهُدى بعدَما عَرَفوه، فيُجازيهم بعدَ ذلك بالإضلالِ والزَّيغِ الَّذي لا حيلةَ لهم في دَفْعِه، وتقليبِ القُلوبِ؛ عُقوبةً لهم، وعدلًا منه بهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[(٣)] [الأنعام: ١١٠].

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير، ومكِّي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٤٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، وأبو حيان، والشوكاني، والعُلَيمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

٣- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ عاقَبَهم سُبحانَه بإزاغةِ قُلوبِهم عن الحَقِّ لَمَّا زاغوا عنه ابتداءً، ونَظيرُه قَولُه تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ ولهذا قيلَ: مَن عُرِضَ عليه حَقٌّ فرَدَّه فلم يَقبَلْه، عُوقِبَ بفَسادِ قَلْبِه وعَقْلِه ورَأْيِه، ومِن هنا قيلَ: لا رأيَ لصاحِبِ هَوًى؛ فإنَّ هَواه يَحمِلُه على رَدِّ الحَقِّ، فيُفسِدُ اللهُ عليه رأيَه وعَقْلَه[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ أنَّ الإنسانَ كُلَّما أوغَلَ في المعاصي ازداد بُعْدًا عن الإقبالِ على الحَقِّ؛ ولذلك يجبُ أنْ يُعلَمَ أنَّ مِن أشدِّ عُقوباتِ الذُّنوبِ أنْ يُعاقَبَ الإنسانُ بمَرَضِ القَلبِ، فالإنسانُ إذا عُوقِبَ بهَلاكِ حبيبٍ أو فَقْدِ مَحبوبٍ مِن المالِ، فهذه عقوبةٌ لا شكَّ، لكنْ إذا عُوقِبَ بانسلاخِ القَلبِ فهذه العقوبةُ أشدُّ ما يكونُ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ أنَّ مَن أعْرَضَ عن اتِّباعِ الحقِّ الَّذي يَعْلَمُه تَبَعًا لهواهُ، فإنَّ ذلك يُورِثُه الجَهلَ والضَّلالَ حتَّى يَعْمَى قلْبُه عن الحقِّ الواضِحِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ المُنكِرينَ أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ تعالى؛ حيثُ أخبَرَ سُبحانَه في كلامٍ واحدٍ عن زَيغِهم وإزاغتِهم[٤]، فجمَعَ سُبحانَه بيْنَ الأمْرينِ في قولِه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((التحفة العراقية)) لابن تيمية (ص: ٣٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٣).

ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾، فالإزاغةُ فِعلُه، والزَّيغُ فِعلُهم[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أنَّ إضلالَ مَن ضَلَّ ليس لمجَرَّدِ المشيئةِ، بل لوجودِ العِلَّةِ الَّتي كانت سَببًا في إضلالِ اللهِ العبدَ[٢]؛ فمَن زَاغَ عنِ الحقِّ فهو السَّبَبُ، ولا يمكنُ لأحدٍ أنْ يَزيغَ إلَّا وهو السَّبَبُ في زَيغِ نَفْسِه[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ بظاهِرِها على أنَّ الخارِجَ عن طاعةِ اللهِ لا يَهديه اللهُ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: ٩٤].

وأيضًا يُشْكِلُ على هذا أنَّ الواقعَ أنَّ اللهَ قد يَهدي الفاسِقينَ، وقد يَهدي الكافِرينَ، فكيف نَجْمَعُ بيْن الواقعِ وهذا الخبرِ الصَّادقِ؟

الجوابُ مِن عدَّةِ أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ الآيةَ مِن العامِّ المخصوصِ؛ فهي في خُصوصِ الأشقياءِ الَّذين أزاغ اللهُ قُلوبَهم عن الهُدى لشَقاوتِهم الأزَليَّةِ. فقولُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: الَّذين كَتَبَ اللهُ عليهم الفِسْقَ، وأمَّا مَن كَتَبَ عليه أنْ يُؤمِنَ، فيُؤمِنُ ولا بُدَّ، ولكنَّ الفائدةَ مِن هذا -أي: مِن إطلاقِ قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾- الإشارةُ إلى أنَّ عدمَ هِدايةِ اللهِ للقومِ الفاسِقينَ؛ لأنَّهم اختاروا الفِسْقَ، كما قال

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٢).

اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾. فالآيةُ عُمومٌ معناه الخُصوصُ فيمَن حتَمَ فِسقَه وموافاتَه عليه.

الثَّاني: أنَّ المعنى: لا يَهدِيهم ما داموا على فِسْقِهم، فإن تابُوا منه هَداهم.

الثَّالثُ: أنَّه يحتملُ أن يريدَ الإخبارَ عن أنَّ الفاسِقَ في فِسْقِه ليس على هُدًى مِن الله، فتَجيءَ الآيةُ عامَّةً تامَّةَ العُمومِ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ وعيدٌ شديدٌ، وأنَّ الفاسِقَ عُرْضةٌ لِئلَّا يَهديَه اللهُ عزَّ وجلَّ[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فيه تنبيهٌ على عَظيمِ إيذاءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حتَّى إنَّه يؤدِّي إلى الكُفرِ، وزَيغِ القُلوبِ عن الهُدى[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾. قال عيسى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ مِن حيثُ لم يكُنْ له فيهم أبٌ، وإن كانت أمُّه منهم؛ لأنَّ النَّسَبَ لا يكونُ إلَّا مِن جِهةِ الأبِ، وإنْ كانت أمُّه مَريمَ مِن أشرَفِهم نَسَبًا[٤].

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّ بني إسرائيلَ بَعْدَ موسى عليه السَّلامُ اشتُهِروا بعنوانِ (بني إسرائيلَ)، ولم يُطلَقْ عليهم عنوانُ: (قومُ موسى) إلَّا في مُدَّةِ حياةِ موسى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٥٨، ٤٦٨)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥).

خاصَّةً؛ فإنَّهم إنَّما صاروا أمَّةً وقومًا بسَبَبه وشَريعتِه، فأمَّا عيسى عليه السَّلامُ فإنَّما كان مُرسَلًا بتأييدِ شَريعةِ موسى، والتَّذكيرِ بها، وتغييرِ بَعضِ أحكامِها، ولأنَّ عيسى حينَ خاطَبَهم لم يكونوا قد اتَّبَعوه، ولا صَدَّقوه، فلم يكونوا قومًا له خالِصينَ[١]. أو ناداهُم بذلك استمالةً لقُلوبهم إلى تَصديقِه واستعطافًا، أي: إنِّي أُرسِلْتُ إليكم في حالِ تَصديقي لكتابٍ نَزَلَ إليكم يا بني إسرائيلَ خاصَّةً[٢].

٨- المقصودُ مِن تَنبيهِ عيسى عليه السَّلامُ لبني إسرائيلَ على هذا التَّصديقِ حِينَ ابتَدَأَهم بالدَّعوةِ في قولِه: ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ تَقريبُ إجابتِهم، واسْتِنزالُ طائرِهم؛ لشِدَّةِ تَمسُّكِهم بالتَّوراةِ، واعتقادِهم أنَّ أحكامَها لا تَقبَلُ النَّسخَ، وأنَّها دائمةٌ؛ ولذلك لَمَّا ابتَدَأَهم بهذه الدَّعوةِ لم يَزِدْ عليها ما حُكِيَ عنه في سُورةِ (آلِ عِمرانَ) مِن قولِه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فيُحمَلُ ما هنالك على أنَّه خِطابٌ واقعٌ بعْدَ أوَّلِ الدَّعوةِ؛ فإنَّ اللهَ لم يُوحِ إليه أوَّلَ مرَّةٍ بنسْخِ بَعضِ أحكامِ التَّوراةِ، ثمَّ أوحاهُ إليه بعْدَ ذلك، فحِينَئذٍ أخْبَرَهم بما أُوحِيَ إليه[٣].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ إنَّما أخْبَرَهم بمَجيءِ رَسولٍ مِن بعْدِه؛ لأنَّ بني إسرائيلَ لم يَزالُوا يَنتظِرون مَجيءَ رسولٍ مِن اللهِ يُخلِّصُهم مِن بَراثِنِ المُتسلِّطين عليهم، وهذا الانتظارُ دَيدَنُهم، وهم مَوعودون بهذا المُخلِّصِ لهم على لِسانِ أنْبيائهم بعْدَ مُوسى عليه السَّلامُ، فكان وَعدُ عِيسى به كوَعْدِ مَن سَبَقَه مِن أنبيائِهم، وفاتَحَهم به في أوَّلِ الدَّعوةِ اعتِناءً بهذه الوصيَّةِ، وفي الابتداءِ بها تَنْبيهٌ على أنْ ليس عِيسى عليه السَّلامُ هو المُخلِّصَ المُنتظَرَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٠).

وأنَّ المُنتظَرَ رسولٌ يأْتي مِن بعْدِه، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولعِظَمِ شأْنِ هذا الرَّسولِ الموعودِ به، أراد اللهُ أنْ يُقِيمَ للأُمَمِ الَّتي يَظهَرُ فيها عَلاماتٍ ودَلائلَ؛ ليَتبيَّنوا بها شَخْصَه، فيَكونَ انطباقُها فاتحةً لإقبالِهم على تَلقِّي دَعوتِه، وإنَّما يَعرِفُها حقَّ مَعرفتِها الرَّاسِخون في الدِّينِ مِن أهلِ الكتابِ؛ لأنَّهم الَّذين يَرجِعُ إليهم الدَّهْماءُ مِن أهْلِ مِلَّتِهم[(١)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ لم يَقُلْ: «ومُصَدِّقًا»، بل قال: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾، وهذا أبلَغُ؛ لأنَّ المُبَشَّرَ به يكونُ نِعمةً على مَن بُشِّرَ به، فيَكونُ تصديقُه مِن بابِ تصديقِ الخبرِ، وشُكْرِ النِّعَمِ، ومع ذلك رَفَضوا هذه البِشارةَ وأنكَروها، ولم يُؤمِنوا بمُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، إذَنْ فهم حقيقةً كافِرونَ بعِيسى، وعيسى خَصْمُهم يومَ القيامةِ؛ لأنَّ اللهَ سيَقولُ له: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦] الآياتِ[(٢)]، وحينَئذٍ؛ فلا يَصِحُّ أنْ يَنتسِبَ النَّصارى إلى عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فيقولوا: إنَّهم مَسيحيُّون؛ إذْ لو كانوا كذلك حقيقةً لَآمَنوا بما بَشَّرَ به المَسيحُ ابنُ مريمَ؛ لأنَّ عيسى ابنَ مريمَ وغيرَه مِن الرُّسُلِ قد أَخَذَ اللهُ عليهم العَهدَ والميثاقَ أنْ يُؤمِنوا بمُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾[(٣)] [آل عمران: ٨١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ سؤالٌ: كيف الجوابُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٥/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١٣٣، ١٣٤).

عن شُبهةِ: أنَّ اسمَ الرَّسولِ المُبَشَّرِ به هو «محمَّدٌ» وليس «أحمدَ»؟!

الجوابُ: أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ له أسماءٌ مُتعَدِّدةٌ: أحمدُ، محمَّدٌ، العاقِبُ، الحاشِرُ، أسماؤُه كثيرةٌ معروفةٌ، ولا مانعَ مِن أنْ يَتَسَمَّى الواحِدُ بعدةِ أسماءٍ؛ فهو أحمدُ، ومحمَّدٌ، ويدُلُّ على هذا قولُه عزَّ وجلَّ في السُّورةِ نفْسِها: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني: أحمدَ -على قولٍ- ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، و «جاء» فعلٌ ماضٍ يدُلُّ على أنَّ المجيءَ قد سَبَقَ بعدَ البِشارةِ، ولا نَعْلَمُ في التَّاريخِ أنَّ بيْنَ عيسى ومحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليهما وسلَّم- رَسولًا، وألْهَم اللهُ تعالى عيسى أنْ يقولَ: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾؛ لحِكمةٍ بالغةٍ عظيمةٍ؛ حيثُ جاء باسمِ التَّفضيلِ «أحمدَ» لِيُنَبِّهَ بني إسرائيلَ على أنَّ هذا الرَّسولَ -صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم- أحمدُ النَّاسِ للهِ عزَّ وجلَّ. والثَّاني: أنه أحمدُ مَن حُمِدَ؛ فالنَّاسُ يَحمَدونَ فُلانًا وفُلانًا وفُلانًا، وأحمدُ النَّاسِ، أي: أحقُّ مَن يُحمَدُ هو الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حتَّى لا يقولَ بنو إسرائيلَ: إنَّ هناك رَسولًا أفضلَ منه[1]!

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

- ومَوقعُ هذه الآيةِ هنا خَفِيُّ المُناسَبةِ؛ فيجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُعترِضةً استِئنافًا ابتدائيًّا، انتُقِلَ به مِن النَّهيِ عن عدَمِ الوفاءِ بما وَعَدوا اللهَ عليه إلى التَّعريضِ بقومٍ آذَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالقولِ أو بالعصيانِ أو نحْوِ ذلك، فيَكونَ الكلامُ مُوجَّهًا إلى المنافِقينَ؛ فقدْ وُسِموا بأذَى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٠).

وَٱلْأَخِرَةِ ﴾ [الأحزاب: ٥٧] الآيةَ، وقوله تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١]، وقوله: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة: ٦١]، وعلى هذا الوجْهِ فهو اقتِضابٌ[١] نُقِل به الكلامُ مِن الغرَضِ الَّذي قبْلَه لتَمامِه إلى هذا الغرَضِ[٢].

وقيل: الجملةُ كَلامٌ مُستأنَفٌ مُقرِّرٌ لِما قبْلَه مِن شَناعةِ ترْكِ القتالِ[٣].

أو تَكونَ مُناسَبةُ وَقْعِ هذا الكلامِ في هذا الموقعِ حُدوثَ سَببٍ اقْتَضى نُزولَه مِن أذًى قد حدَثَ، والواوُ على هذا الوجْهِ عطْفُ غرَضٍ على غرَضٍ، وهو المُسمَّى بعطْفِ قِصَّةٍ على قصَّةٍ.

ويجوزُ أنْ تكونَ مِن تَتمَّةِ الكلامِ الَّذي قبْلَها؛ ضرَبَ اللهُ مثلًا للمسلمينَ لتَحذيرِهم مِن إتيانِ ما يُؤذي رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ويَسوؤُه مِن الخُروجِ عن جادَّةِ الكَمالِ الدِّينيِّ، مِثلُ عدَمِ الوفاءِ بوَعْدِهم في الإتيانِ بأحبِّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالَى، وأشْفَقَهم مِن أنْ يكونَ ذلك سَببًا للزَّيغِ والضَّلالِ كما حدَثَ لقومِ مُوسى لَمَّا آذَوْهُ، وعلى هذا الوجْهِ فالمُرادُ بأذَى قومِ مُوسى إيَّاهُ: عدَمُ تَوخِّي طاعتِه ورِضاه، فيَكونُ ذلك مُشيرًا إلى ما حكاهُ اللهُ عنه مِن قولِه: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾، إلى قولِه: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢١- ٢٤]؛ فإنَّ قولَهم ذلك استِخفافٌ؛ يدُلُّ

---

(١) الاقتِضابُ: هو الانتِقالُ ممَّا افتُتِح به الكلامُ إلى المقصودِ مُباشَرةً بدونِ رابطةٍ بيْنَهما. يُنظر: ((المثل السائر)) لابن الأثير (٣/ ١٣٩)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد الخطيب (١/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٧، ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣).

لذلك قولُه عَقِبَه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، وقد يكونُ وَصْفُهم في هذه الآيةِ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ناظرًا إلى وَصْفِهم بذلك مرَّتينِ في آيةِ سُورةِ (المائدةِ) في قولِه: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، وقولِه: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]؛ فيَكونُ المقصودُ الأهمُّ مِن القصَّةِ هو ما تَفرَّعَ على ذِكرِها مِن قولِه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾. ويُناسِبُ أنْ تكونَ هذه الآيةُ تَحذيرًا مِن مُخالَفةِ أمْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعِبرةً بما عَرَضَ لهم مِن الهَزيمةِ يومَ أُحُدٍ لَمَّا خالَفوا أمْرَه مِن عدَمِ ثَباتِ الرُّماة في مَكانِهم، والواوُ على هذا الوجْهِ عطْفُ تَحذيرٍ مأخوذٍ مِن قولِه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ على النَّهيِ الَّذي في قولِه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] الآيةَ، ويَتبَعُ ذلك تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما حصَلَ مِن مُخالَفةِ الرُّماةِ حتَّى تَسبَّبوا في هَزيمةِ النَّاسِ[1].

- ولَمَّا وبَّخَ اللهُ تعالَى المؤمنينَ الَّذين ما وَفَّوا بما عاهَدوا، وأخْلَفوا المواعيدَ تَمهيدًا وبِساطًا لقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾ [الصف: ٤]، حتَّى يَكونوا في اجتِماعِ الكلمةِ كالبُنيانِ المرصوصِ في القِتالِ؛ حذَّرَهم ممَّا لَقِيَ قومُ مُوسى مِن إزاغةِ القُلوبِ، والحِرمانِ مِن التَّوفيقِ بسَببِ الأذى، وممَّا ارتَكَبَ قومُ عِيسى بعْدَ مَجيئِه بالبيِّناتِ، مِن تَكذيبِه وقولِهم فيه: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف: ٦]، ألَا تَرى كيف جمَعَ الكلَّ في قولِه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الصف: ٧]، أي: قَضيَّةُ الدَّعوى إلى الإسلامِ تَوقيرُ مَن يَدْعو إليه، وتوقيرُ حُرمتِه، وإجابةُ دَعوتِه، والتَّفادي عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٧، ١٧٨).

إخلافِ المواعيدِ، وعمَّا يُؤذِيه مِن القولِ والفعلِ[١]؟

- وابتداءُ كَلامِ مُوسى عليه السَّلامُ بقولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ تَعريضٌ بأنَّ شأْنَ قَومِ الرَّسولِ أنْ يُطِيعوه، بَلْهَ ألَّا يُؤذُوه؛ ففي النِّداءِ بوصْفِ (قَوْم) تَمهيدٌ للإنكارِ في قولِه: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾، والاستفهامُ للإنكارِ، أي: إنكارِ أنْ يكونَ للإذايةِ سَببٌ[٢].

- وقد جاءتْ جُملةُ الحالِ مِن قولِه: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ مُصادِفةً المحلَّ مِن التَّرقِّي في الإنكارِ، وحرْفُ (قَدْ) لتَحقيقِ معْنى الحاليَّةِ، أي: وعِلْمُكم برِسالتي عن اللهِ أمْرٌ مُحقَّقٌ لِمَا شاهَدْتموه مِن دَلائلِ رِسالتِي. وكما أكَّدَ عِلْمَهم بـ (قدْ) أكَّدَ حُصولَ المعلومِ بـ (أنَّ) المفتوحةِ؛ فحصَلَ تأْكيدانِ للرِّسالةِ، والمعْنى: فكيف لا يَجْري أمْرُكم على وَفْقِ هذا العِلمِ[٣]؟!

- والإتيانُ بعْدَ حرْفِ (قدْ) بالمُضارعِ ﴿تَّعۡلَمُونَ﴾ هنا؛ للدَّلالةِ على أنَّ عِلمَهم بذلك مُجدَّدٌ بتَجدُّدِ الآياتِ والوحْيِ، وذلك أجْدى بدَوامِ امتثالِه؛ لأنَّه لو جِيءَ بفِعلِ المُضِيِّ لَما دلَّ على أكثرَ مِن حُصولِ ذلك العِلمِ فيما مَضى[٤]. وقيل: المضارعُ هنا معْناه المُضِيُّ، أي: وقدْ عَلِمْتم، وعُبِّرَ عنه بالمضارعِ ليَدُلَّ على استِصحابِ الفعلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٤، ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٨، ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥).

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه مِن الإزاغةِ، ومُؤذِنٌ بعِلَّتِه، أيْ: لا يَهدِي القومَ الخارجينَ عن الطَّاعةِ ومِنهاجِ الحقِّ، المُصرِّينَ على الغَوايةِ؛ هِدايةً مُوصِلةً إلى البُغْيةِ، وإلَّا فالهدايةُ إلى ما يُوصِلُ إليها شاملةٌ للكُلِّ، والمُرادُ بهم إمَّا المذكورون خاصَّةً، والإظهارُ في مَوقعِ الإضمارِ لذَمِّهم بالفِسقِ، وتَعليلِ عدَمِ الهدايةِ به، أو المرادُ جِنسُ الفاسِقينَ، وهمْ داخلون في حُكمِه دُخولًا أوَّليًّا، وأيًّا ما كانَ فوَصْفُهم بالفِسقِ ناظرٌ إلى ما في قولِه: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[1] [المائدة: ٢٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾ [الصف: ٥]؛ فعلى الوجْهِ الأوَّلِ في مَوقعِ الَّتي قبْلَها -وهو أنْ تكونَ الجُملةُ مُعترِضةً استِئنافًا ابتدائيًّا، انتُقِلَ به مِن النَّهيِ عن عدَمِ الوفاءِ بما وَعَدوا اللهَ عليه إلى التَّعريضِ بقومٍ آذَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالقولِ أو بالعصيانِ أو نحْوِ ذلك، فيَكونَ الكلامُ مُوجَّهًا إلى المنافقينَ، والواوُ على هذا الوجْهِ عطْفُ غرَضٍ على غرَضٍ، وهو المُسمَّى بعطْفِ قصَّةٍ على قصَّةٍ -؛ فمَوقعُ هذه مُساوٍ له. وأمَّا على الوجْهِ الثَّاني في الآيةِ السَّابقةِ -وهو أنْ تكونَ مِن تَتمَّةِ الكلامِ الَّذي قبْلَها، بضربِ مثلٍ للمسلمينَ لتَحذيرِهم مِن إتيانِ ما يُؤذي رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ-؛ فإنَّ هذه مَسوقةٌ مَساقَ التَّتميمِ لقِصَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ، بذِكرِ مِثالٍ آخَرَ لقومٍ حادُوا عن طاعةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليهم، مِن غيرِ إفادةِ تَحذيرٍ للمُخاطَبينَ مِن المسلمينَ، وللتَّخلُّصِ إلى ذِكرِ أخبارِ عِيسى بالرَّسولِ الَّذي يَجيءُ بعْدَه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٩، ١٨٠).

- قولُه: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ التَّبشيرُ: الإخبارُ بحادثٍ يَسُرُّ، وأُطلِقَ هنا على الإخبارِ بأمْرٍ عَظيمِ النَّفعِ لهم؛ لأنَّه يَلزَمُه السُّرورُ الحقُّ؛ فإنَّ مَجيءَ الرَّسولِ إلى النَّاسِ نِعمةٌ عَظيمةٌ(١).

- ومَحمَلُ قولِه: ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ يَجري على جَميعِ ما يَحمِلُه جُزْءَا هذه الجُملةِ مِن المعاني، والأصلُ حمْلُ ألفاظِ القُرآنِ على جَميعِ المعاني الَّتي يَسمَحُ بها الاستعمالُ الفصيحُ؛ فيُحمَلُ الاسمُ في قولِه: ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ على ما يَجمَعُ بيْن هذه الاستِعمالاتِ الثَّلاثةِ؛ أي: مُسمَّاهُ أحمدُ، وذِكرُه أحمَدُ، وعَلَمُه أحمَدُ. ويُحمَلُ لفظُ (أحمد) على ما لا يَأباهُ واحدٌ مِن استعمالاتِ (اسمٍ) الثَّلاثةِ إذا قُرِنَ به؛ وهو أنَّ (أحمد) اسمُ تَفضيلٍ يَجوزُ أنْ يكونَ مَسلوبَ المفاضَلةِ مَعْنيًّا به القوَّةُ فيما هو مُشتقٌّ منه، أي: في الحمدِ، وهو الثَّناءُ؛ فيَكونَ (أحمد) هنا مُستعمَلًا في قوَّةِ مَفعوليَّةِ الحمْدِ، أي: حمْدِ النَّاسِ إيَّاه، وهذا مِثلُ قولِهم: «العَودُ أحمَدُ»، أي: محمودٌ كثيرًا.

فالوصْفُ بـ(أحمد) بالنِّسبةِ للمعْنى الأوَّلِ في (اسم) أنَّ مُسمَّى هذا الرَّسولِ ونفْسَه مَوصوفةٌ بأقْوى ما يُحمَدُ عليه مَحمودٌ، فيَشملُ ذلك جميعَ صِفاتِ الكمالِ النَّفسانيَّةِ والخِلْقيةِ، والخُلُقيَّةِ والنَّسَبيةِ، والقَوميَّةِ، وغير ذلك ممَّا هو مَعدودٌ مِن الكَمالاتِ الذَّاتيَّةِ والعرَضيَّةِ.

ويَصِحُّ اعتبارُ (أحمد) تَفضيلًا حقيقيًّا في كَلامِ عِيسى عليه السَّلامُ، أي: مُسمَّاهُ أحمَدُ منِّي، أي: أفضَلُ، أي: في رِسالتِه وشَريعتِه. وعباراتُ الإنجيلِ تُشعِرُ بهذا التَّفضيلِ، ففي إنجيلِ يُوحنَّا في الإصحاحِ الرَّابعَ عشَرَ: (... يُعطيكم «فارقليطَ»(٢)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨١).

(٢) لفظُ الفارقليط في لغتِهم قيل: إنَّه الحمَّادُ، وقيل: إنَّه الحامِدُ، وقيل: إنَّه الحمدُ، إلى غير ذلك. =

آخَرَ؛ ليَثبُتَ معكم إلى الأبَدِ، رُوح الحقِّ الَّذي لا يَستطيعُ العالَمُ أنْ يَقبَلَه؛ لأنَّه لا يَراهُ ولا يَعرِفُه). ثمَّ قال: (... يُعلِّمُكم كلَّ شَيءٍ، ويُذكِّرُكم بكلِّ ما قُلْتُه لكم)، أي: في جُملةِ ما يُعلِّمُكم أنْ يُذكِّرَكُم بكلِّ ما قُلْتُه لكم. وهذا يُفيدُ تَفضيلَه على عِيسى بفَضيلةِ دَوامِ شَريعتِه المعبَّرِ عنها بقَولِ الإنجيلِ: (ليَثبُتَ معكم إلى الأبَدِ)، وبفَضيلةِ عُمومِ شَرْعِه للأحكامِ المعبَّرِ عنه بقولِه: (يُعلِّمُكم كلَّ شَيءٍ).

والوصْفُ بـ (أحمد) على المعْنى الثَّاني في الاسمِ: أنَّ سُمْعتَه وذِكْرَه في جِيلِه والأجيالِ بعْدَه مَوصوفٌ بأنَّه أشدُّ ذِكرٍ مَحمودٍ وسُمعةٍ مَحمودةٍ، وأنَّ اللهَ يَبعَثُه مَقامًا مَحمودًا.

ووَصْفُ (أحمد) بالنِّسبةِ إلى المعنى الثَّالثِ في الاسمِ رمْزٌ إلى أنَّه اسْمُه العَلَمُ يكونُ بمعْنى (أحمدَ)؛ فإنَّ لفظَ (محمَّد) اسمُ مَفعولٍ مِن حمَّدَ -المضاعَفِ- الدَّالِّ على كَثرةِ حمْدِ الحامِدينَ إيَّاه، كما قالوا: فلانٌ مُمَدَّحٌ؛ إذا تَكرَّرَ مَدْحُه مِن مادِحينَ كَثيرينَ، فاسمُ (محمَّد) يُفيدُ معْنى المحمودِ حمْدًا كثيرًا، ورُمِزَ إليه بـ (أحمدَ).

وهذه الكلمةُ الجامِعةُ الَّتي أَوحى اللهُ بها إلى عِيسى عليه السَّلامُ، أراد اللهُ بها أنْ تكونَ شِعارًا لجِماعِ صِفاتِ الرَّسولِ الموعودِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، صِيغَت بأقْصى صِيغةٍ تدُلُّ على ذلك إجمالًا بحسَبِ ما تَسمَحُ اللُّغةُ بجَمْعِه مِن مَعانٍ، ووُكِلَ تَفصيلُها إلى ما يَظهَرُ مِن شَمائلِه قبْلَ بَعثَتِه وبعْدَها؛ ليَتوسَّمَها المُتوسِّمون، ويَتدبَّرَ مَطاوِيَها الرَّاسِخون عندَ المُشاهَدةِ والتَّجرِبةِ[1].

- وذِكرُ القُرآنِ تَبشيرَ عِيسى بمحمَّدٍ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، إدماجٌ[2] في

= يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٣- ١٨٥).

(٢) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ =

خِلالِ المقصودِ الَّذي هو تَنظيرُ ما أُوذِيَ به مُوسى مِن قومِه وما أُوذِيَ به عِيسى مِن قَومِه؛ إدماجًا يُؤيِّدُ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويُثبِّتُ فُؤادَه، ويَزيدُه تَسليةً. وفيها تَخلُّصٌ إلى أنَّ ما لَقِيَه مِن قَومِه نَظيرُ ما لَقِيَه عِيسى مِن بني إسرائيلَ[(١)].

- ولَمَّا فرَغَ مِن كَلامِ عِيسى عليه السَّلامُ، تَطرَّقَ إلى الإخبارِ عن أحمَدَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -على أحدِ الاحتمالينِ-، فقالَ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وذلك على سَبيلِ الإخبارِ للمُؤمنينَ، أي: فلمَّا جاء المبشَّرُ به هؤلاء الكفَّارَ بالمُعجزاتِ الواضحةِ، قالوا: هذا سِحرٌ مُبينٌ[(٢)]. وعلى هذا الاحتمالِ يكونُ ضَميرُ الرَّفعِ عائدًا إلى (رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي)، وضَميرُ النَّصبِ عائدًا إلى لَفظِ (بَنِي إِسْرَائِيلَ)، أي: بني إسرائيلَ غيرِ الَّذين دَعاهم عِيسى عليه السَّلامُ، مِن بابِ: عِندي دِرهمٌ ونِصفُه، أي: نِصفُ ما يُسمَّى بدِرهمٍ، أي: فلمَّا جاءَهم الرَّسولُ الَّذي دعاهُ عِيسى باسمِ أحمَدَ بالبيِّناتِ

= إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه تعالى بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٦).

-أي: دَلائلِ انطباقِ الصِّفاتِ الموعودِ بها- قالوا: هذا سِحرٌ مُبينٌ، ويحتمِلُ أنْ يَعودَ ضَميرُ الرَّفْعِ في قولِه: ﴿جَآءَهُم﴾ إلى عيسَى، وأنْ يعودَ ضميرُ النَّصْبِ إلى الَّذينَ خاطَبَهم عيسَى. والتَّقديرُ: فكَذَّبوه، فلَمَّا جاءَهم بالمُعجزاتِ قالوا: هذا سِحْرٌ مُبينٌ. فيكونَ هذا التَّركيبُ مِن قَبيلِ الكلامِ المُوجَّهِ (أي: يصلحُ لاحتِمالِ معنيَينِ)، وحصَلَ أذاهم بهذا القولِ لِكِلا الرَّسولينِ؛ فالجُملةُ على هذا الاحتِمالِ تُحمَلُ على أنَّها اعتراضٌ بيْن المُتعاطِفاتِ، ومُمهِّدةٌ للتَّخلُّصِ إلى مَذمَّةِ المشرِكين وغيرِهم ممَّن لم يَقبَلْ دَعوةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

- وتَسميةُ ما جاء به سِحرًا؛ للمُبالَغةِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٤).

الآيات (٧-٩)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

غريب الكلمات

﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: أي: اختلَق، والافتراءُ: الاختلاقُ، ومنه قيل: افترَى فُلانٌ على فُلانٍ، إذا قذَفه بما ليس فيه، وأصلُ (فري): قطْعُ الشَّيءِ؛ فالفَرْيُ: قطعُه لإصلاحِه، والإفراءُ: قطعُه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[1].

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾: أي: لِيُعليَه ويَنصُرَه؛ مِن المُعاوَنةِ والغَلَبةِ، يُقالُ: ظهَرَ على الشَّيءِ؛ إذا غلَبَه وعلاه، ويصحُّ أن يكونَ مِن البُروزِ، وظَهَر الشَّيءُ أصْلُه: أن يَحصُلَ شَيءٌ على ظَهْرِ الأرضِ فلا يخفى، ثمَّ صار مُستعمَلًا في كلِّ بارِزٍ مُبصَرٍ بالبصَرِ والبَصيرةِ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومَن أشَدُّ ظُلمًا ممَّن اختَلَق على اللهِ الكَذِبَ وهو يُدعَى إلى الدُّخولِ في دِينِ الإسلامِ؟! واللهُ لا يَهْدي القَومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى غرَضَ هؤلاءِ الظَّالِمينَ مِن وراءِ افترائِهم الكذبَ على الدِّينِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٢١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٤٠).

الحقِّ، فيقولُ: يُريدُ الكافِرونَ أن يُبْطِلوا الحَقَّ الَّذي جاءهم مِن عندِ اللهِ بما يَتفَوَّهونَ به مِن أكاذيبَ، واللهُ مُتِمُّ الحَقِّ، ولو كَرِهَ ذلك الكافِرونَ.

ثمَّ يُؤكِّدُ الله تعالى وعْدَه بإتمامِ نورِه، فيقولُ: اللهُ هو الَّذي بَعَث رَسولَه مُحمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بالعِلمِ النَّافِعِ وبدِينِ الإسلامِ؛ ليُعلِيَ اللهُ الإسلامَ على سائِرِ الأديانِ، ولو كَرِهَ المُشرِكونَ ذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه كانتْ دَعوةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُماثِلةً دَعوةَ عِيسى عليه السَّلامُ، وكان جَوابُ الَّذين دَعاهم إلى الإسلامِ مِن أهلِ الكتابَينِ والمشركينَ مُماثلًا لجَوابِ الَّذين دَعاهم عليه السَّلامُ، فلمَّا أُدمِجَ في حِكايةِ دَعوةِ عِيسى بِشارتُه برَسولٍ يَأْتي مِن بَعْدِه، ناسَبَ أنْ يُنقَلَ الكلامُ إلى ما قابَلَ به قومُ الرَّسولِ الموعودِ دَعوةَ رَسولِهم؛ فلذلك ذُكِرَ في دَعوةِ هذا الرَّسولِ دِينُ الإسلامِ[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ﴾.

أي: ولا أحَدَ أشَدُّ ظُلمًا ممَّن اختَلَق على اللهِ الكَذِبَ، والحالُ أنَّه يُدْعَى إلى الدُّخولِ في دِينِ الإسلامِ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٨، ١٨٩).

قال ابنُ جرير: (هو قَولُ قائِلِهم للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هو ساحِرٌ، وما جاء به سِحرٌ، فكذلك =

كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يُوَفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ القومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم، فاختَلَقوا على اللهِ الكَذِبَ، وأصَرُّوا على رَدِّ الحَقِّ مع وُضوحِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦].

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾.

أي: يُريدُ الكافِرونَ أن يُبْطِلوا الحَقَّ الَّذي جاء به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن عندِ اللهِ، بما يَتفَوَّهونَ به مِن أكاذيبَ وافتراءاتٍ لا بُرْهانَ عليها[2]!

= افتراؤُه على اللهِ الكَذِبَ ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾، يَقولُ: إذا دُعِيَ إلى الدُّخولِ في الإسلامِ قال على اللهِ الكَذِبَ، وافترى عليه الباطِلَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤).

وقال القرطبي: (هذا تعَجُّبٌ ممَّن كَفَر بعيسى ومحمَّدٍ بعدَ المُعجِزاتِ الَّتي ظهَرَت لهما). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٤).

وقال القاسمي: (هذه الآيةُ إمَّا مُستأنَفةٌ لتحقيقِ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، طليعةٌ للآياتِ بَعْدَها، وإمَّا مُتَمِّمةٌ لِما قبْلَها؛ لتقبيحِ ما بَهَت به الإسرائيليُّونَ عيسى عليه السَّلامُ، مع الإشارةِ بعُمومِها إلى ذمِّ كلِّ مَن كان على شاكِلَتِهم. ولا يُقالُ: الإسلامُ يؤيِّدُ الأوَّلَ لأنَّه عُنوانُ المِلَّةِ الحَنيفيَّةِ؛ لأنَّه قد يُرادُ به معناه اللُّغَويُّ، وقد كثُر ذلك في آياتٍ شَتَّى، نعمْ الأقرَبُ الأوَّلُ، واحتِمالُ مِثلِ الآيةِ لهذَينِ الوجهَينِ مِن بدائعِ التَّنزيلِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٩١)، ((تفسير =

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾.

أي: واللهُ قد تكفَّل بإتمامِ الحَقِّ، وإشاعةِ نُورِه في الآفاقِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢].

﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

أي: ولو كَرِهَ ذلك الكافِرونَ باللهِ مِن المُشرِكينَ أو اليَهودِ، أو النَّصارى أو غَيرِهم[٢].

ثمَّ ذكَرَ الله تعالى سببَ الظُّهورِ والانتِصارِ للدِّينِ الإسلاميِّ[٣]، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي بَعَث رَسولَه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعِلمِ النَّافِعِ المُشتَمِلِ على الإيمانِ الصَّحيحِ، ومَعرفةِ أحكامِ اللهِ، وبَعَثَه بدِينِ الإسلامِ المُشتَمِلِ على

= السعدي)) (ص: ٨٥٩).

قال ابنُ كثير: (أي: يحاوِلونَ أن يَرُدُّوا الحَقَّ بالباطِلِ، ومَثَلُهم في ذلك كمَثَلِ مَن يريدُ أن يُطفِئَ شُعاعَ الشَّمسِ بفِيه! وكما أنَّ هذا مُستحيلٌ، كذلك ذاك مُستحيلٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٩، ١٩٠).

وقال ابن جرير: (﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ يعني: بقَولِهم: إنَّه ساحِرٌ، وما جاء به سِحرٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

الأعمالِ الصَّالِحةِ النَّافِعةِ في الدُّنيا والآخِرةِ[١].

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

أي: ليُعلِيَ اللهُ الإسلامَ بالغَلَبةِ والانتِصارِ في قِتالِ الكُفَّارِ، ويُعلِيَه بالحُجَّةِ والبُرهانِ على سائِرِ الأديانِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

قال ابنُ جرير: (يقولُ: لِيُظهِرَ دِينَه الحَقَّ -الَّذي أرسَلَ به رَسولَه- على كُلِّ دينٍ سِواه، وذلك عندَ نُزولِ عيسى ابنِ مَريمَ، وحينَ تَصيرُ المِلَّةُ واحِدةً، فلا يكونُ دينٌ غيرُ الإسلامِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٥).

وقال ابنُ عاشور: (قد تمَّ وَعدُ اللهِ، وظَهَر هذا الدِّينُ، ومَلَك أهلُه أُممًا كثيرةً، ثمَّ عَرَضَت عوارِضُ مِن تفريطِ المسلمينَ في إقامةِ الدِّينِ على وَجهِه؛ فغلَبَت عليهم أُمَمٌ، فأمَّا الدِّينُ فلم يَزَلْ عاليًا مَشهودًا له مِن علماءِ الأُمَمِ المُنصِفينَ بأنَّه أفضَلُ دينٍ للبَشَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٢، ١٩٣).

وقال السَّمْعاني: (مِصداقُ هذه الآيةِ على الكمالِ إنَّما يكونُ عِندَ نُزولِ عيسى ابنِ مَريمَ، حَيثُ لا يَبقى إلَّا دينُ الإسلامِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٢٧).

قال ابن جُزَي: (﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ الضَّميرُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم، أو للدِّينِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٣٦).

وقال الشنقيطي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ التَّوبةِ (الآية ٣٣): (الضَّميرُ في قولِه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ فيه وجْهانِ للعُلماءِ:

قال بعضُهم -وهو مرويٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ-: الضَّميرُ عائدٌ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. أي: أرسلَه بهذا الهُدى ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لِيُطلِعَه على جميعِ الأديانِ؛ فيُبيِّنَ لأهلِها حقيقَها مِن باطِلِها، كما ... في قولِه: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، وغيرِ ذلك مِن الآياتِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عَلِم مِن كتابِ الله ما جاء في جميعِ الكُتبِ المُتقدِّمةِ. =

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَذهَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ حتَّى تُعبَدَ اللَّاتُ والعُزَّى! فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنْ كُنتُ لَأظُنُّ حينَ أنزَلَ اللهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ أنَّ ذلك تامًّا! قال: إنَّه سيَكونُ مِن ذلك ما شاء اللهُ))[(١)].

وعن ثَوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ زَوَى[(٢)] ليَ الأرضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سيَبلُغُ مُلكُها ما زُوِيَ لي مِنها))[(٣)].

وعن خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((شَكَوْنا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو مُتوَسِّدٌ بُرْدةً[(٤)] له في ظِلِّ الكعبةِ، قُلْنا له: ألا تَستَنصِرُ لنا، ألا تَدْعو اللهَ لنا؟! قال: كان الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه فيُشَقُّ باثنَتَينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه!

= القولُ الثَّاني: -وعليه الأكثرُ- أنَّ الضَّميرَ للدِّينِ ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ أي: لِيُظهِرَ دينَ الإسلامِ، أي: يُعلِيَه على جميعِ الأديانِ كلِّها. وهذا الإعلاءُ يَدخُلُ فيه إظهارُه بالحُجَّةِ والبُرهانِ؛ فبَراهينُه قاطِعةٌ، وحُجَجُه ساطِعةٌ لا شكَّ فيه، وكتابُه محفوظٌ، فلا شَيءَ يُوازيه ولا يُشابِهُه.

قال بعضُ العُلماءِ: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ أي: يَنصُرَه ويُغَلِّبَه على جميعِ الأديانِ، وقد وفَى اللهُ بهذا فيما مضى، وسيَفِي به أيضًا في المُستقبَلِ. ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ٤٥١).

(١) رواه مسلم (٢٩٠٧).

(٢) زَوَى: أي: طَوى له -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- الأرضَ، وجعَلَها مَجموعةً كهَيئةِ كَفٍّ في مِرآةِ نَظَرِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٧٦).

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٤) أي: كِساءً مُخَطَّطًا، والمعنى: جاعِلٌ البُرْدةَ وِسادةً له، مِن تَوسَّدَ الشَّيءَ: جعَلَه تحتَ رأسِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٤٧).

ويُمْشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لَحْمِه[١] مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ[٢]، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه! واللهِ لَيُتِمَّنَّ[٣] هذا الأمرَ حتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ، لا يخافُ إلَّا اللهَ أو الذِّئبَ على غَنَمِه، ولكِنَّكم تَستَعجِلونَ!))[٤].

وعن تميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بَلَغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ[٥] إلَّا أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ بعِزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ))[٦].

﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

أي: سيُظهِرُ اللهُ تعالى دِينَه على جميعِ الأديانِ، ولو كَرِهَ المُشرِكونَ ذلك[٧].

---

(١) ما دُونَ لَحمِه، أي: تحتَ لَحمِه، أو عندَ لَحمِه. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٦/ ١٤٤).

(٢) فيه مِن المُبالَغةِ أنَّ الأمشاطَ تَنفُذُ مِن اللَّحمِ إلى العَظمِ والعَصَبِ؛ لِحِدَّتِها وقوَّتِها. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (١٢/ ٣٧٣٤).

(٣) لَيُتِمَّنَّ: بضَمِّ حرفِ المُضارَعةِ وكسرِ التَّاءِ، على أنَّ الفاعلَ هو الله، أي: لَيُكمِلَنَّ. وفي نسخةٍ بفتحِ الياءِ وكسرِ التَّاءِ وتشديدِ الميمِ، وفي أخرى بصيغةِ المجهولِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٤٧).

(٤) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٥) بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ: المَدَرُ: جَمْعُ مَدَرةٍ، وهي: اللَّبِنةُ، والمرادُ به هنا: البُيوتُ المُحكَمةُ المَبنيَّةُ مِن الأحجارِ والطُّوبِ واللَّبِنِ، كبُيوتِ المُدُنِ والقُرى. والوَبَرُ: شَعرُ الإبلِ، والمرادُ به هنا: البُيوتُ غيرُ المُحكَمةِ، كبُيوتِ البوادي وأهلِ الخِيامِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١١٦)، ((الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم)) لمحمد الأمين الهَرري (٢٦/ ٢٥٩).

(٦) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧) واللَّفظُ له، والحاكم (٨٣٢٦)، والبيهقي (١٩٠٩٠).

صحَّحه الحاكِمُ على شرطِ الشَّيخينِ، وقال الألبانيُّ في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): (على شرطِ مُسلمٍ). وصَحَّح إسنادَه على شرط مسلمٍ: شُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨/ ١٥٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢)، ((تفسير الجلالين)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ التَّحذيرُ مِن الظُّلمِ، وأنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أظْلَمَ كان عن الهدايةِ أبْعَدَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عَلَّقَ نفْيَ الهدايةِ بالظُّلْمِ، وتعليقُ الحُكْمِ بالظُّلمِ يدُلُّ على عِلِّيَّتِه، وكلَّما قَوِيَت العِلَّةُ قَوِيَ الحُكْمُ المُعَلَّقُ عليها[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾، أي: لِيُعْلِيَه على سائِرِ الأديانِ بالحُجَّةِ والبُرهانِ، ويُظهِرَ أهْلَه القائِمينَ به بالسَّيفِ والسِّنانِ، فأمَّا نَفْسُ الدِّينِ فهذا الوَصفُ مُلازِمٌ له في كُلِّ وَقتٍ، فلا يُمكِنُ أن يُغالِبَه مغالبٌ، أو يُخاصِمَه مُخاصِمٌ إلَّا فَلَجَه وبَلسَه[٢]، وصار له الظُّهورُ والقَهرُ، وأمَّا المُنتَسِبونَ إليه فإنَّهم إذا قاموا به، واستناروا بنُورِه، واهتَدَوا بهَدْيِه في مصالحِ دِينِهم ودُنياهم؛ فكذلك لا يقومُ لهم أحدٌ، ولا بدَّ أن يَظهَروا على أهلِ الأديانِ، وإذا ضَيَّعوه واكتَفَوا منه بمُجَرَّدِ الانتِسابِ إليه، لم يَنفَعْهم ذلك، وصار إهمالُهم له سَبَبَ تَسليطِ الأعداءِ عليهم[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أنَّه سُبحانَه تَكَفَّلَ لهذا الأمرِ بالتَّمامِ والإظهارِ على جميعِ أديانِ أهلِ الأرضِ؛ ففي هذا تَقويةٌ لقُلوبِ أهلِ الإسلامِ، وبِشارةٌ لهم وتَثبيتٌ، وأنَّه لا بُدَّ أنْ يكونوا على ثِقةٍ مِن هذا الوَعدِ الَّذي لا بُدَّ أنْ يُنْجِزَه سُبحانَه[٤].

= (ص: ٧٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٥).

(٢) وبَلسَه: أي: ظَفِرَ وفاز عليه وكَسَرَه. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٩، ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

(٤) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ما الجمعُ بَينَ هذه الآيةِ الكريمةِ وبينَ نُصوصٍ أخرى يَرِدُ فيها مِثلُ هذه العبارةِ في ذَنبٍ آخَرَ غيرِ هذا، وتدلُّ أيضًا على أنَّ هذا الفِعلَ أظلمُ شيءٍ؛ مثل قولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: آية ٥٧]؛ فكيفَ نَجمعُ بين هذه النُّصوصِ؟

والجوابُ مِن أحدِ وجهينِ:

الأول: أنَّ هذه الأشياءَ جميعَها اشتركَتْ في المرتبةِ العُليا من الظُّلمِ؛ فكلُّها في مقامِ الأظلميَّةِ، فأفعلُ التفضيلِ لا تمنعُ التَّساوي ولكنَّها تمنعُ الزِّيادةَ. وعلى ذلك فلا مُعارَضَةَ البتَّةَ بينَ الآياتِ، فهؤلاءِ المذكورونَ لا يُوجَدُ أحدٌ أظلَمُ منهم، وهم متساوونَ في مرتبةِ الظُّلْمِ.

الوجه الثاني: أنَّ هذه المواضعَ تَتخصَّصُ بصِلاتِها. ومعنَى (تتخصصُ بصِلاتِها): أَنَّ كُلَّ واحدٍ منها تُفَسِّرُه صلةُ موصُولِه، أي أنَّ كلَّ واحدةٍ تختصُّ ببابِها، فيكونُ المعنَى: لا أحدَ مِنَ المفْتَرِينَ أظلمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللَّهِ كَذِبًا، ولا أحدَ مِنَ المانِعِينَ أظلمُ مِمَّنْ مَنَعَ مساجدَ اللَّهِ، ولاَ أحدَ مِنَ المعْرِضِينَ أظلمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّه فأعْرَضَ عنها... إلخ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ مَن أَضَلَّه اللهُ فإنَّما ذلك لظُلمٍ منه، وأمَّا مَن طَلَبوا الحقَّ وتَحَرَّوه وتَشَوَّفوا له، فإنَّهم جَديرونَ بالهِدايةِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢-٥١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٢- ١٢٣). والوجهُ الأوَّل مخرجٌ على قاعدةِ: (نفيُ التفضيلِ لا يستلزمُ نفيَ المساواةِ). يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٧).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والقَدَرِيَّةِ؛ إذْ لو كان كلُّ مَبعوثٍ إليه رَسولًا، وكلُّ مدلولٍ على طريقِ الهدايةِ: يَقْدِرُ بنَفْسِه أنْ يهتديَ مِن غيرِ أنْ يهديَه اللهُ؛ ما كان في ذلك فائِدةٌ، ولا كان ذلك عليهم عُقوبةً[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ اللهَ لا يَمْنَعُ فَضْلَه عن أحدٍ إلَّا إذا كان هذا الممنوعُ هو السَّبَبَ؛ فلِظُلْمِهم لم يَهْدِهم اللهُ، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[٢] [الصف: ٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ مَن أخَذَ بالعَدْلِ كان حَرِيًّا بالهدايةِ؛ لمفهومِ المخالفةِ في الآيةِ، فإذا كان الظَّالمُ لا يَهديه اللهُ، فصاحِبُ العَدْلِ حَرِيٌّ بأنْ يَهديَه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ الإنسانَ الَّذي يريدُ الحقَّ ويَتَّبِعُ الحقَّ -والحقُّ هو العَدْلُ- غالبًا يُهْدَى ويُوَفَّقُ للهدايةِ؛ ولهذا قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ في ((العقيدةِ الواسِطيَّةِ))[٣] عبارةً مِن أحسَنِ العباراتِ؛ قال: (مَن تَدَبَّرَ القرآنَ طالبًا الهُدى منه تَبَيَّنَ له طريقُ الحَقِّ)، وهذه كَلِمةٌ مأخوذةٌ مِن القُرآنِ مَنطوقًا ومَفهومًا[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فيه سؤالٌ: التَّمامُ لا يكونُ إلَّا عندَ النُّقصانِ، فكيفَ نُقصانُ هذا النُّورِ؟

الجوابُ: إتمامُه بحَسَبِ النُّقصانِ في الأَثَرِ، وهو الظُّهورُ في سائِرِ البِلادِ مِن المشارِقِ إلى المغارِبِ؛ إذ الظُّهورُ لا يَظهَرُ إلَّا بالإظهارِ، وهو الإتمامُ، يُؤَيِّدُه قَولُه

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٦).

تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[١] [المائدة: ٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أنَّ رسالةَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم تتضَمَّنُ شيئينِ؛ هما: العِلمُ النَّافِعُ، والعَمَلُ الصَّالحُ؛ فالهُدى هو: العِلمُ النَّافعُ، ودِينُ الحَقِّ هو: العَمَلُ الصَّالحُ الَّذي اشتَمَل على الإخلاصِ للهِ، والمتابعةِ لِرَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أنَّه لا هُدَى إلَّا فيما جاء به رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولا يَقْبَلُ اللهُ مِن أحدٍ دينًا يَدينُه به إلَّا أنْ يكونَ مُوافِقًا لدِينِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد نزَّه سُبحانَه وتعالى نفْسَه عمَّا يَصِفُه به العِبادُ إلَّا ما وصَفَه به المُرسَلونَ، فقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨١]، وسلَّمَ على المُرسَلينَ؛ لِسَلامةِ ما وصَفُوه به مِن النَّقائِصِ والعُيوبِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أنَّ مَنِ اتَّبَعَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فإنَّه غالِبٌ، ومعنى «يُظْهِرُه» يُعْلِيه؛ لأنَّ الظَّهْرَ والظُّهُورَ كلَّه يدُلُّ على الغَلَبةِ[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أنَّ الإسلامَ سيَعْلُو على جميعِ الأديانِ[٥]، فتَعليلُ قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ بقولِه: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ إعلامٌ بأنَّ اللهَ أراد ظُهورَ هذا الدِّينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٩٤).

وانتشارَه؛ كيْلَا يَطمَعوا أنْ يَنالَه ما نال دِينَ عِيسى عليه السَّلامُ مِن القمْعِ والخَفْتِ في أوَّلِ أمْرِه، واستمرَّ زَمانًا طويلًا، فلمَّا أخبَرَ اللهُ بأنَّه أراد إظهارَ دِينِ الإسلامِ على جَميعِ الأديانِ، عُلِمَ أنَّ أمْرَه لا يَزالُ في ازديادٍ حتَّى يَتِمَّ المرادُ[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ حُجَّةٌ لأهلِ السُّنَّةِ على كلِّ مَن أسَرَّ دِينًا مِن أهلِ البِدعةِ؛ فإنَّ كلَّ مَن كان على شَيءٍ يَزْعُمُ أنَّه مِن الدِّينِ، وهو يَسْتُرُه ولا يُظْهِرُه خَشيةَ إنكارِه؛ فقد عُرِفَ بُطلانُه قبْلَ أنْ يُسْأَلَ بُرهانَه، واستوى في معرفةِ تزييفِه العالِمُ والجاهِلُ؛ إذْ مِن شَرْطِ الآيةِ أنْ يكونَ بعدَ نزولِها دِينُ الحَقِّ ظاهِرًا، فإنْ كُتِمَ عُدِمَ شَرْطُه المشروطُ فيه، وفي عَدَمِ شَرْطِه دُخولُ الخَلَلِ عليه، وزوالُ الحقِّ عنه[٢].

١٢- كثيرًا ما يجمَعُ سُبحانَه بيْنَ هذينِ الأصلَينِ: (الْهُدَى، ودِينِ الْحَقِّ)؛ لأنَّ بهما تمامَ الدَّعوةِ، وظهورَ دِينِه على الدِّينِ كُلِّه[٣]، وقد بعَثَ اللهُ تعالى مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ﴿بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ إلى النَّاسِ؛ فبالهُدى يُعرَفُ الحقُّ، وبدِيْنِ الحَقِّ يُقصَدُ الخَيرُ ويُعمَلُ به، فلا بُدَّ مِن عِلْمٍ بالحَقِّ، وقَصْدٍ له، وقُدرةٍ عليه، والفِتنةُ تُضادُّ ذلك؛ فإنَّها تمنعُ معرفةَ الحَقِّ؛ لِمَا فيها مِن الشُّبُهاتِ الَّتي تَلبِسُ الحقَّ بالباطِلِ، أو تمنَعُ قصدَ الحَقِّ؛ لِمَا فيها مِن الأهواءِ والشَّهواتِ، أو تمنعُ القُدرةَ على الخَيرِ؛ لِمَا فيها مِن ظُهورِ قُوَّةِ الشَّرِّ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٥٢١-٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٥٤٧).

لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وُصِفوا بأنَّهم أظلَمُ النَّاسِ تَشنيعًا لحالِهم؛ فالمرادُ مِن هذا الاستِفهامِ هم الَّذين كذَّبوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ولذلك عُطِفَ هذا الكلامُ بالواوِ ودونَ الفاءِ؛ لأنَّه ليس مُفرَّعًا على دَعوةِ عِيسى عليه السَّلامُ، وقد شَمِلَ هذا التَّشنيعُ جميعَ الَّذين كذَّبوا دَعوةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أهلِ الكتابَينِ والمشركينَ[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ إنكارٌ، أي: لا أحَدَ أظلَمُ مِن هؤلاء؛ فالمُكذِّبون مِن قبْلِهم إمَّا أنْ يَكونوا أظلَمَ منهم، وإمَّا أنْ يُساوُوهم على كلِّ حالٍ، فالكلامُ مُبالَغةٌ. وإنَّما كانوا أظلَمَ الناسِ؛ لأنَّهم ظَلَموا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بنِسبتِه إلى ما ليس فيه إذْ قالوا: هو ساحرٌ. وظَلَموا أنفُسَهم إذْ لم يَتوخَّوا لها النَّجاةَ، فيَعرِضوا دَعوةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على النَّظَرِ الصَّحيحِ حتَّى يَعلَموا صِدقَه. وظَلَموا النَّاسَ بحَمْلِهم على التَّكذيبِ، وظَلَموهم بإخفاءِ الأخبارِ الَّتي جاءتْ في التَّوراةِ والإنجيلِ مُثبِتةً صِدقَ رسولِ الإسلامِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكَمَلَ لهم هذا الظُّلمُ بقولِه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فيُعلَمُ أنَّه ظُلمٌ مُستمِرٌّ[2].

- قولُه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾ كان لجُملةِ الحالِ ﴿وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾ موقعٌ متينٌ هنا، أي: فعَلوا ذلك في حِينِ أنَّ الرسولَ يدْعوهم إلى ما فيه خيرُهم، فعاضُوا الشُّكرَ بالكُفرِ. وإنَّما جُعِلَ افتِراؤهم الكذِبَ على اللهِ؛ لأنَّهم كذَّبوا رَسولًا يُخبِرُهم أنَّه مُرسَلٌ مِن اللهِ، فكانت حُرمةُ هذه النِّسبةِ تَقْتضي أنْ يُقبِلوا على التَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ فيما دَعاهم إليه؛ ليَصِلوا إلى التَّصديقِ، فلمَّا بادَرُوها بالإعراضِ وانتَحَلوا للدَّاعي صِفاتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٧، ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٨٨).

النَّقصِ، كانوا قد نَسَبوا ذلك إلى اللهِ دونَ تَوقيرٍ؛ فأمَّا أهلُ الكتابِ فجَحَدوا الصِّفاتِ الموصوفةَ في كِتابِهم، كما قال تَعالى فيهم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وذلك افتراءٌ، وأمَّا المشركون فإنَّهم افتَرَوا على اللهِ؛ إذْ قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[1] [الأنعام: ٩١].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هنا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾، وقال في سُورةِ (الأنعام): ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، وقال فيها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال في آخِرِ سُورةِ (العَنكبوتِ): ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨]، وقال في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وقال في سُورةِ (يُونسَ): ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧]؛ فاختُصَّ هذا الموضعُ هنا بلَفظِ التَّعريفِ في (الكذِب)، مع أنَّ نَظائرَه في الآيِ المذكورةِ بلَفظِ التَّنكيرِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الكذِبَ مَصدرٌ يُسمَّى به الكلامُ المكذوبُ فيه، وهو في قولِه تَعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ على أصْلِه، مَصدرٌ غيرُ مَنقولٍ، والمصدرُ إذا عُرِّفَ قُصِدَ به الجِنسُ. ولأنَّ ﴿كَذِبًا﴾ بالنَّكرةِ أكثرُ استعمالًا معَ المصدرِ مِن المعرفةِ. وخُصَّت هذه السُّورةُ بالمعرفةِ؛ لأنَّه إشارةٌ إلى ما تقدَّم مِن قولِ اليهودِ والنَّصارى[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٦٩-١٢٧٤)، ((أسرار التكرار في =

- قولُه: ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ، واسمُ (الإسلام) عَلَمٌ للدِّينِ الذي جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -على قولٍ-، وهو جامِعٌ لِما فيه خَيرُ الدُّنيا والآخرةِ؛ فكان ذِكرُ هذا الاسمِ في الجُملةِ الحاليَّةِ زِيادةً في تَشنيعِ حالِ الَّذين أعْرَضوا عنه، أي: وهو يُدْعى إلى ما فيه خَيرُه، وبذلك حقَّ عليه وَصْفُ (أظْلَم)[1].

- وإيقاعُ الإسلامِ مُقابلًا لافتِراءِ الكذبِ إيذانٌ باتِّصالِ قِصَّةِ عِيسى عليه السَّلامُ بقصَّةِ محمَّدٍ صَلواتُ اللهِ عليه، وأنَّ ذِكرَ الإسلامِ كالتَّخلُّصِ مِن القِصَّةِ إلى القِصَّةِ؛ ولذلك ذُيِّلت الآيةُ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، كأنَّه قيل: قد عُلِمَ ظُلْمُ أولئك الكفرةِ برُوحِ اللهِ، وما أرادوا به مِن المكْرِ والكَيدِ، وعُرِفَ أنَّ اللهَ ما هَداهم إلى ما أرادوا، بلْ خَذَلَهم اللهُ ونَصَرَ أولياءَه، كما قال تَعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، فما ظُلْمُ هؤلاء الكفرةِ لحَبيبِ اللهِ؟ وما مَكْرُهم به؟ وكيف يَفعَلُ اللهُ به وبهم؟ قِيل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ إلى آخِرِ الآيتينِ[2].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَذييلٌ للآيةِ، وهو تَقريرٌ لقولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾؛ لأنَّ الظُّلمَ وضْعُ الشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه، فالمعْنى: وأيُّ النَّاسِ أشدُّ ظُلمًا ممَّن يَدْعوه ربُّه على لِسانِ نَبيِّه إلى الإسلامِ، فيَجعَلُ إجابتَه افتراءَ الكذبِ على اللهِ؟! يعْني: كان جَزاءُ الدَّاعي القَبولَ والتَّصديقَ، فوَضَعوا مَوضِعَه أنْ كذَّبوه، وسمَّوا ما جاء به سِحرًا[3]!

= القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٢، ٤٦٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٨٥).

وهذه الجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تأْييسٌ لهم مِن الإقلاعِ عن هذا الظُّلم، أي: إنَّ الَّذين بَلَغوا هذا المَبلَغَ مِن الظُّلمِ لا طَمَعَ في صَلاحِهم؛ لتَمكُّنِ الكفْرِ منهم حتَّى خالَطَ سَجاياهم، وتقوَّمَ مع قَوميَّتِهم؛ ولذلك أُقحِمَ لَفظُ (القوم)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الظُّلمَ بلَغَ حدَّ أنْ صار مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم، وهذا يَعُمُّ المُخبَرَ عنهم وأمثالَهم الَّذين افترَوا على عِيسى؛ ففيها معْنى التَّذييلِ[(١)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن الإخبارِ عنهم بأنَّهم افترَوا على اللهِ الكذِبَ في حالِ أنَّهم يُدْعَون إلى الإسلامِ؛ لأنَّه يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عمَّا دَعاهم إلى هذا الافتراءِ، فأُجيبَ بأنَّهم يُريدونَ أنْ يُخْفُوا الإسلامَ عن النَّاسِ، ويَعُوقوا انتشارَه[(٢)].

- ومُثِّلَت حالتُهم بحالةِ نَفَرٍ يَبتَغون الظَّلامَ للتَّلصُّصِ أو غيرِه ممَّا يُرادُ فيه الاختفاءُ، فلاحَتْ لهم ذُبالةٌ[(٣)] مِصباحٍ تُضِيءُ للنَّاسِ، فكَرِهوا ذلك وخَشُوا أنْ يُشَعَّ نُورُه على النَّاسِ فتَفْتضِحَ تُرَّهاتُهم، فعَمَدوا إلى إطفائِه بالنَّفخِ عليه فلمْ يَنطفِئْ، فالكلامُ تَمثيلٌ دالٌّ على حالةِ المُمثَّلِ لهم، والتَّقديرُ: يُريدون عَوقَ ظُهورِ الإسلامِ كمَثَلِ قَومٍ يُريدون إطفاءَ النُّورِ، فهذا تَشبيهُ الهيئةِ بالهيئةِ تَشبيهَ المَعقولِ بالمحسوسِ. ثمَّ إنَّ ما تَضمَّنَه مِن المحاسنِ أنَّه قابلٌ لِتَفرقةِ التَّشبيهِ على أجزاءِ الهَيئةِ؛ فاليهودُ في حالِ إرادتِهم عَوقَ الإسلامِ عن الظُّهورِ مُشبَّهون بقَومٍ يُريدون إطفاءَ نُورِ الإسلامِ، فشُبِّهَ بمِصباحٍ، والمشركون مِثلُهم، ووَصْفهم القرآنَ بأنَّه سِحرٌ ونحْوِ ذلك مِن تَمْويهاتِهم، فشُبِّهَ بنفْخِ النَّافِخينَ على المِصباحِ؛ فكان لذِكرِ ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ وقْعٌ عَظيمٌ في هذا التَّمثيلِ؛ لأنَّ الإطفاءَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الذُّبَالةُ: الفَتيلةُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١١٢).

قدْ يكونُ بغَيرِ الأفواهِ مِثل المروحةِ والكِيرِ، وهمْ أرادوا إبطالَ آياتِ القرآنِ بزعْمِ أنَّها مِن أقوالِ السِّحرِ[١].

- قولُه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ اللَّامُ مِن قولِه: ﴿لِيُطْفِـُٔواْ﴾ تُسمَّى اللَّامَ الزائدةَ، وتُفيدُ التَّأكيدَ، وأصْلُها لامُ التَّعليلِ، ذُكِرَت عِلَّةُ فِعلِ الإرادةِ عِوَضًا عن مَفعولِه بتَنزيلِ المفعولِ مَنزلةَ العِلَّةِ، والتَّقديرُ: يُريدون إطفاءَ نُورِ اللهِ ليُطْفِئوا. ويَكثُرُ وُقوعُ هذه اللَّامِ بعْدَ مادَّةِ الإرادةِ ومادَّةِ الأمْرِ[٢].

- وإضافةُ ﴿نُورَ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ (الله) إضافةُ تَشريفٍ[٣].

- وإطفاءُ نُورِ اللهِ بأفواهِهم تَهكُّمٌ بهم في إرادتِهم إبطالَ الإسلامِ بقولِهم في القُرآنِ: هذا سِحرٌ، مُثِّلَت حالُهم بحالِ مَن يَنفُخُ في نُورِ الشَّمسِ بفِيهِ ليُطفِئَه[٤].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿يُرِيدُونَ﴾، وهي إخبارٌ بأنَّهم لا يَبلُغون مُرادَهم، وأنَّ هذا الدِّينَ سيَتِمُّ، أي: يَبلُغُ تَمامَ الانتشارِ. والجُملةُ الاسميَّةُ تُفيدُ ثُبوتَ هذا الإتمامِ[٥].

- وجُملةُ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ حاليَّةٌ، و(لو) وصْليَّةٌ، وهي تدُلُّ على أنَّ مَضمونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٩، ١٩٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٠).

شَرْطِها أجدَرُ ما يُظَنُّ ألَّا يَحصُلَ عندَ حُصولِه مَضمونُ الجوابِ، والمعْنى: واللهُ مُتِمُّ نُورِه على فرْضِ كَراهةِ الكافِرينَ، ولَمَّا كانت كَراهةُ الكافِرينَ إتمامَ هذا النُّورِ مُحقَّقةً، كان سِياقُها في صُورةِ الأمْرِ المفروضِ تَهكُّمًا(١).

- وشَمِل لَفظُ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ جَميعَ الكافِرينَ بالإسلامِ مِن المشركينَ وأهلِ الكتابِ وغَيرِهم، ولكنْ غلَبَ اصطلاحُ القُرآنِ على تَخصيصِ وصْفِ الكافرينَ بأهلِ الكِتابِ ومُقابَلتِهم بالمشركينَ أو الظَّالِمين، ويتَّجِهُ على هذا أنْ يكونَ الاهتمامُ بذِكرِ الكافرينَ بعْدَ (لو) الوصْليَّةِ؛ لأنَّ المقامَ لإبطالِ مُرادِهم إطفاءَ نُورِ اللهِ، فإتمامُ اللهِ نُورَه إبطالٌ لمُرادِهم إطفاءَهُ، وسيَرِدُ بعْدَ هذا ما يُبطِلُ مُرادَ غَيرِهم مِن المُعانِدين، وهم المشرِكون(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قالَ هنا: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقال بعْدَه: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾؛ وذلك لأنَّهم أنْكَروا الرَّسولَ، وما أُنزِلَ إليه -وهو الكِتابُ-، وذلك مِن نِعَمِ اللهِ، والكافِرون كلُّهم في كُفرانِ النِّعَمِ سواءٌ، فلهذا قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ولأنَّ لَفظَ (الكافر) أعمُّ مِن لَفظِ (المشرك)، والمرادُ مِن الكافرينَ هاهنا: اليهودُ والنَّصارى والمشركون، وهنا ذَكَر النُّورَ وإطفاءَه، واللَّائقُ به الكُفْرُ؛ لأنَّه السَّترُ والتَّغطيةُ؛ لأنَّ مَن يُحاوِلُ الإطفاءَ إنَّما يُريدُ الزَّوالَ. وفي الآيةِ الثَّانيةِ ذَكَرَ الرَّسولَ والإرسالَ ودِينَ الحقِّ، وذلك مَنزلةٌ عَظيمةٌ للرَّسولِ عليه السَّلامُ، وهي اعتراضٌ على اللهِ تَعالى، والاعتراضُ قَريبٌ مِن الشِّركِ، ولأنَّ الحاسِدينَ للرَّسولِ عليه السَّلامُ كان أكثَرُهم مِن قُريشٍ، وهم المشرِكون، ولَمَّا كان النُّورُ أعمَّ مِن الدِّينِ والرَّسولِ، لا جَرَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قابَلَه بالكافِرين الَّذين همْ جَميعُ مُخالِفي الإسلامِ، ولَمَّا كان الرَّسولُ والدِّينُ أخصَّ مِن النُّورِ، قابَلَه بالمشْركين الَّذين همْ أخصُّ مِن الكافرينَ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ زيادةُ تَحدٍّ للمشركين وأحلافِهم مِن أهلِ الكِتابِ، فيه تَقويةٌ لمَضمونِ قولِه: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، وفيه معْنى التَّعليلِ للجُملةِ الَّتي قبْلَه؛ فقدْ أفاد تَعريفُ الجُزأينِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ قصْرًا إضافيًّا[٢]؛ لقلْبِ زعْمِ الكافِرين أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أتى مِن قِبَلِ نفْسِه، أي: اللهُ لا غَيرُه أرسَلَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالهُدى ودِينِ الحقِّ، وإنَّ شيئًا تَولَّى اللهُ فِعلَه لا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يُزيلَه[٣].

- والتَّعريفُ في قولِه: ﴿ٱلدِّينِ﴾ تَعريفُ الجنسِ المُفيدُ للاستِغراقِ، أي: ليُعلِيَ هذا الدِّينَ الحقَّ على جَميعِ الأديانِ، ويَنصُرَ أهْلَه على أهلِ الأديانِ الأُخرَى الَّذين يَتعرَّضون لأهلِ الإسلامِ[٤].

- وخُصَّ المُشركون بالذِّكرِ هنا؛ إتمامًا للَّذين يَكرَهون إتمامَ هذا النُّورِ، وظُهورَ هذا الدِّينِ على جَميعِ الأديانِ، وليُعلَمَ أنَّ غيرَ المشركين يَكرَهون ظُهورَ هذا الدِّينِ؛ لأنَّهم أرادوا إطفاءَ نُورِ الدِّينِ؛ لأنَّهم يَكرَهون ظُهورَ هذا الدِّينِ، فحصَلَ في الكلامِ احتِباكٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٣٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٩٣).
وتقدَّم تعريفُ الاحتباك (ص: ٥٩).

الآيات (١٠-١٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَدۡنٖ﴾: أي: إقامَةٍ وخُلدٍ، واستقرارٍ وثَباتٍ، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ * تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾

قَولُه ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾: جملةٌ تَفسيريَّةٌ لـ ﴿تِجَٰرَةٖ﴾ فلا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ. أو استِئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: ما هذه التِّجارةُ؟ فقيل: تُؤْمِنُونَ ...، والمُضارِعُ هنا خبَرٌ بمعنى الأمرِ، أي: آمِنوا وجاهِدوا، ويُؤَيِّدُه قِراءةُ عبدِ اللهِ «آمِنُوا ... وجاهِدُوا» بالأمرِ فيهما.

﴿يَغۡفِرۡ﴾: فِعلٌ مُضارِعٌ مَجزومٌ في جوابِ الأمرِ المدلولِ عليه بلَفظِ الخَبرِ ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾. وقيل: جوابٌ لشَرطٍ أو استفهامٍ مُقَدَّرٍ دَلَّ عليه الكلامُ، والتَّقديرُ: إنْ تُؤمِنوا وتجاهِدوا يَغْفِرْ لكم. أو هل تَقبَلونَ أن أَدُلَّكم؟ أو هل تتَّجِرونَ بالإيمانِ والجهادِ؟ يَغْفِرْ لكم. وقيل: هو جوابٌ للاستِفهامِ المذكورِ، أي: هل أدُلُّكم...

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

يَغْفِرْ، وتُعُقِّبَ بأنَّ مُجَرَّدَ الدَّلالةِ لا يُوجِبُ المَغفِرةَ، وأُجيبَ بأنَّه لَمَّا كانت الدَّلالةُ مَظِنَّةً لذلك نُزِّلَت مَنزِلةَ المحَقَّقِ، أو لأنَّ مُتعَلَّقَ ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ هو التِّجارةُ المُفَسَّرةُ بالإيمانِ والجِهادِ، فكأنَّه قيل: هل تتَّجِرونَ بالإيمانِ والجِهادِ يَغْفِرْ لكم ذُنوبَكم[1]؟

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُرشدًا المؤمنينَ إلى ما فيه سعادتُهم ونجاتُهم مِن العذابِ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا هل أُرشِدُكم إلى تجارةٍ عَظيمةٍ تُخَلِّصُكم مِن عَذابٍ مُؤلِمٍ؟ تلك التِّجارةُ هي تحقيقُ الإيمانِ باللهِ تعالى وبرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجهادُ أعدائِه ببَذْلِ الأموالِ والأنفُسِ لإعلاءِ كَلِمتِه ودِينِه، ذلك الأمرُ خيرٌ لكم إنْ كُنتُم تَعْلَمونَ.

ثمَّ يبيِّنُ سبحانَه جزاءَهم وحُسنَ عاقبتِهم، فيقولُ: فإنْ فعَلْتُم ذلك يَغْفِرِ اللهُ ذُنوبَكم، ويُدْخِلْكم جنَّاتٍ تَجْري مِن تَحْتِها الأنهارُ، وقُصورًا حَسَنةً في جناتِ إقامةٍ دائِمةٍ، ذلك الأجرُ هو الفَوزُ العَظيمُ، ولكم في الجِهادِ خَصلةٌ أُخرى محبوبةٌ إليكم؛ حُصولُ نَصرٍ من اللهِ، وفَتحٍ عاجِلٍ، وبَشِّرْ -يا محمَّدُ- المؤمِنينَ بهذا الثَّوابِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أنتَج كلُّ ما مضَى نصْرَ رسولِ الله -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- على كلِّ

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٢١)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٤، ١٩٥).

حالٍ، ودمارَ مَن يخالفُ أمرَه؛ أنتَج قطعًا أنَّ الجهادَ معه متجرٌ رابحٌ؛ لأنَّ النَّصرَ مضمونٌ، والموتَ منهلٌ لا بدَّ مِن وُرودِه(١).

وأيضًا فالآيةُ نتيجةُ ما مضَى باعتبارِ أنَّه لَمَّا وبَّخ الله -تعالى- على انحلالِ العزائمِ، وأخبَر بما يجبُ مِن القتالِ، وبكَّت على أذَى الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بالمُخالَفةِ، وأخبَر أنَّ مَن خالَفه لا يضُرُّ إلَّا نفْسَه؛ كان موضعَ الاستباقِ في طاعتِه، فرتَّب عليه الاشتياقَ إلى ذِكرِ ثمرتِه، فذَكَرها(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا هل أُرشِدُكم إلى تجارةٍ عَظيمةٍ نافِعةٍ، تُخَلِّصُكم مِن عذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ(٣)؟

﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١﴾.

﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾.

أي: تلك التِّجارةُ العَظيمةُ هي أنْ تُؤْمِنوا باللهِ تعالى وبرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إيمانًا تامًّا مستلزمًا لأعمالِ الجوارحِ، الَّتي مِن أجَلِّها أنْ تُجاهِدوا أعداءَ الإسلامِ ببَذْلِ الأموالِ والأنفُسِ لإعلاءِ كَلِمةِ الله ونصرِ دِينِه(٤).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٣، ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٦، ٦١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٥، ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٣، ١٩٤).

ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سألتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ العَمَلِ أفضَلُ؟ قال: إيمانٌ باللهِ، وجِهادٌ في سَبيلِه))(١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُئِلَ: أيُّ العَمَلِ أفضَلُ؟ فقال: إيمانٌ باللهِ ورَسولِه. قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ. قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: حَجٌّ مَبرورٌ))(٢).

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سألتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ الأعمالِ أحَبُّ إلى اللهِ؟ قال: الصَّلاةُ على وَقتِها. قُلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ثمَّ بِرُّ الوالِدَينِ. قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ثمَّ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ))(٣).

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: ذلك الأمرُ العَظيمُ مِن الإيمانِ باللهِ ورَسولِه، وتَصديقِه بالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ بأموالِكم وأنفُسِكم: خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخِرةِ إنْ كُنتُم تَعْلَمونَ(٤).

---

(١) رواه البخاري (٢٥١٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٨٤).

(٢) رواه البخاري (٢٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٨٣).

(٣) رواه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٦، ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

قال ابنُ عطية: (﴿خَيْرٌ﴾ هنا يحتَمِلُ أن يكونَ للتَّفضيلِ، فالمعنى: مِن كُلِّ عَمَلٍ. ويحتَمِلُ أن يكونَ إخبارًا أنَّ هذا خيرٌ في ذاتِه ونَفْسِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٥). =

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

أي: إنْ آمَنتُم باللهِ ورَسولِه وجاهَدْتُم في سَبيلِ اللهِ بأموالِكم وأنفُسِكم، فإنَّ اللهَ يَمْحو عنكم ذُنوبَكم ويَسترُها ويَقيكم شرَّها؛ فلا يُعَذِّبُكم بها[1].

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: ويُدْخِلْكُم اللهُ جناتٍ تَجْري الأنهارُ مِن تَحْتِ أشجارِها وقصورِها[2].

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

أي: ويُدخِلْكُم اللهُ مَنازِلَ جمَعتْ كلَّ طيبٍ في بنائِها وسَعتِها وعُلوِّها وبهجةِ

= وقال السعدي: (فإنَّ فيه الخيرَ الدُّنيويَّ؛ مِن النَّصرِ على الأعداءِ، والعِزِّ المنافي للذُّلِّ، والرِّزقِ الواسِعِ، وسَعةِ الصَّدرِ وانشِراحِه. وفي الآخرةِ الفَوزُ بثوابِ اللهِ، والنَّجاةُ مِن عِقابِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

وقال الشوكاني: (﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنْ كنتُم ممَّن يعلمُ فإنَّكم تَعلمونَ أنَّه خيرٌ لكم، لا إذا كنتُم مِن أهلِ الجهلِ، فإنَّكم لا تعلمونَ ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٥).

وقال ابن جرير: (﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مضارَّ الأشياءِ ومنافعَها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٧).

وقال ابن عثيمين: (كأنَّه يقولُ: فاعلَموا ذلك إنْ كنتم أهلًا للعلمِ). ((شرح رياض الصالحين)) (٥/ ٣٤٩).

وقال ابن المُنَيِّر: (المقصودُ بهذا الشَّرطِ: التَّنبيهُ على المعنى الَّذي يَقتضي الامتِثالَ وإلهابَ الحَميَّةِ للطَّاعةِ، كما تقولُ لِمَن تأمُرُه بالانتِصافِ مِن عدُوِّه: إنْ كنتَ حُرًّا فانتَصِرْ؛ تُريدُ أن تُثيرَ منه حميَّةَ الانتِصارِ لا غيرُ). ((الانتصاف فيما تضمنه الكشاف)) (٤/ ٥٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (١/ ٢٧٥)،((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

مَناظِرِها ودوامِها إلى غيرِ ذلك، في جَنَّاتِ إقامةٍ دائِمةٍ؛ فلا خُروجَ منها، ولا انتِقالَ عنها[١].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧، ٣٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٥).

قال ابن عطية: (طِيبُ المساكِنِ: سَعَتُها وجمالُها. وقيل: طِيبُها: المَعرِفةُ بدوامِ أمْرِها. وهذا هو الصَّحيحُ، وأيُّ طِيبٍ مع الفَناءِ والموتِ؟!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٤).

وقال العُلَيمي: (طيبتُها بسَعتِها، ودوامِ أمرِها). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٥).

وقال البقاعي: (﴿طَيِّبَةً﴾ أي: في الاتِّساعِ، واختِلافِ أنواعِ المَلاذِّ، وعُلوِّ الأبْنيةِ والأَسِرَّةِ، مع سُهولةِ الوُصولِ إليها، وفي بهجةِ المَناظِرِ، وتيسُّرِ مَجاري الرِّيحِ بانفِساحِ الأبنيةِ، مع طِيبِ الغُرَفِ، لم يُفسِدِ الماءُ الجاري تحتَها شيئًا مِن ريحِها ولا في اعتِدالِها في شيءٍ ممَّا يُرادُ منها). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٧، ٣٨).

وقال السعدي: (﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ أي: جمعَتْ كلَّ طَيِّبٍ؛ مِن علوٍ وارتفاعٍ، وحُسنِ بِناءٍ وزَخرفةٍ، ...، وفيها مِن الطِّيبِ والحُسنِ ما لا يأتي عليه وصفُ الواصِفينَ، ولا خطَرَ على قلبِ أحدٍ مِن العالَمينَ، لا يمكنُ أن يُدرِكوه حتَّى يَرَوْه، ويَتمتَّعوا بحُسنِه، وتَقَرَّ أعيُنُهم به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠، ٨٦١).

وجناتُ عَدْنٍ: قيل: هي جنَّاتٌ مَخصوصةٌ، وهي أشرَفُ الجِنانِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣١٧).

وقيل: هي اسمٌ لجُملةِ الجنَّاتِ عُمومًا. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ القَيِّم. يُنظر: ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٨).

قال ابن القيِّم في أسماءِ الجنَّةِ: (ولها عِدَّةُ أسماءٍ باعتبارِ صِفاتِها، ومُسمَّاها واحدٌ باعتبارِ الذَّاتِ، فهي مُترادِفةٌ مِن هذا الوجهِ، وتختلِفُ باعتبارِ الصِّفاتِ، فهي مُتباينةٌ مِن هذا الوجهِ) ثمَّ ذكر منها (الاسم السَّادس: جنَّاتُ عَدْنٍ، فقيل: هو اسمُ جَنَّةٍ مِن جملةِ الجنَّاتِ، والصَّحيحُ أنَّه اسمٌ لجملةِ الجِنانِ، وكلُّها جنَّاتُ عَدْنٍ، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [مريم: ٦١]، وقال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [فاطر: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾، والاشتِقاقُ يدُلُّ على أنَّ جميعَها جنَّاتُ عَدْنٍ؛ فإنَّه مِن الإقامةِ والدَّوامِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٤، ٩٨).

كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: ذلك الأجرُ والثَّوابُ الجَزيلُ هو وَحْدَه الظَّفَرُ العَظيمُ بالخَيرِ، وحُصولُ النَّجاةِ العَظيمةِ مِن الشَّرِّ[١].

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما يَمنَحُهم مِن الثَّوابِ في الآخِرةِ؛ ذكَرَ ما يَسُرُّهم في العاجِلةِ، وهي ما يفتَحُ عليهم مِنَ البِلادِ[٢]، فقال تعالى:

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾.

أي: ولكم في الجِهادِ خَصلةٌ أُخرى محبوبةٌ إليكم، تَظفَرونَ بها في الدُّنيا، وهي حُصولُ نَصرٍ مِن اللهِ لكم على أعدائِكم، وحُصولُ فَتحٍ عاجِلٍ تتَّسِعُ به بلادُ الإسلامِ، ويَحصُلُ به خيرٌ لكم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١).
قيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: فَتحُ مَكَّةَ. وممَّن اختار هذا القَولَ: ابنُ أبي زَمَنِين، والسمعانيُّ، والزمخشري، والرازي، والرَّسْعَني، والعُلَيمي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٧)، =

كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: وبَشِّرْ -يا محمَّدُ- المؤمِنينَ بالجَزاءِ والثَّوابِ في العاجِلِ والآجِلِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ اعلَمْ أنَّ اللهَ تعالى إذا صَدَّرَ الكلامَ بقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فإنَّه ينبغي لك أنْ تَستَمِعَ إلى هذا النِّداءِ الموجَّهِ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ إليك؛ لأنَّه إذا ناداك فإمَّا خيرٌ تُؤمَرُ به، وإمَّا شَرٌّ تُنهى عنه، وإمَّا خيرٌ تنتَفِعُ به[(٢)]. عن ابنِ مسعود رضيَ الله عنه، قال: (إذا

= ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٣٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٧٩).

وقيل: هو فتحُ فارِسَ والرُّومِ. وممَّن قال بهذا مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، والحسَنُ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٣٢). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٣٩٦).

سَمِعتَ اللهَ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأَرْعِها سَمْعَك؛ فإنَّه خيرٌ يأمرُ به، أو شرٌّ ينهى عنه)[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ أنَّه ليس لنا طريقٌ إلى هذه التِّجارةِ إلَّا الطَّريق الذي شَرَعه اللهُ عزَّ وجلَّ، فهو الدَّالُّ على ذلك[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾ دليلٌ على أنَّ الطَّاعةَ تُثمِرُ للمَرءِ مَحابَّ الدُّنيا والآخِرةِ، وأنَّ طَلَبَ الأرباحِ في الدُّنيا والآخِرةِ بالطَّاعةِ أسرَعُ إدراكًا لطالِبِه منه بغَيرِها[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ جُعِل ذلك بمنزلةِ التِّجارةِ؛ لأنَّهم يَربَحونَ فيها رِضا اللهِ، ونَيلَ جَنَّتِه، والنَّجاةَ مِن النَّارِ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ دليلٌ على أنَّ التِّجارةَ اسمٌ واقِعٌ على طَلَبِ الأرباحِ، ونَماءِ الأموالِ، ومَحَابِّ النُّفوسِ معًا[٥].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فيه سؤالٌ: الأمرُ بالإيمانِ كيف هو بَعْدَ قَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؟

الجوابُ: أنَّ الخِطابَ إذا كان للمؤمنينَ الخُلَّصِ فالمرادُ: تَثبُتون وتَدومون

---

(١) أخرجه ابنُ المبارك في ((الزهد والرقائق)) (١/ ١٢)، والقاسم بن سلام في ((فضائل القرآن)) (ص: ٧٤، ٧٥)، وابنُ أبي حاتم في ((تفسيره)) (١/ ١٩٦)، وأبو نُعَيم في ((حلية الأولياء)) (١/ ١٣٠)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨٠).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٤).

على الإيمانِ، أو تَجمَعون بيْن الإيمانِ والجهادِ، أي: بيْن تكميلِ النَّفْسِ وتكميلِ الغيرِ، وإن كان للمؤمنينَ ظاهرًا فالمرادُ: تُخلِصون الإيمانَ(١).

ويُمكِنُ أن يكونَ الخِطابُ لأهلِ الكِتابِ، وهم اليَهودُ والنَّصارى؛ فإنَّهم آمَنوا بالكُتُبِ المتقَدِّمةِ، فكأنَّه قال: يا أيُّها الَّذين آمَنوا بالكُتُبِ المتقَدِّمةِ آمِنوا باللهِ وبمُحَمَّدٍ رَسولِ اللهِ(٢).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فيه أنَّ الإيمانَ باللهِ والجِهادَ في سَبيلِه مُكَفِّرانِ للذُّنوبِ ولو كانت كبائِرَ(٣).

٥- قُطْبُ هذه السُّورةِ الكريمةِ يَدورُ على أمرِ الجِهادِ، ألَا ترَى كيفَ أُعيدَ قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وخُتِمَت بقَولِه تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٣١).

قال ابنُ جريرٍ في تفسيرِ الآيةِ (١٣٦) من سورةِ النِّساءِ: (فإنْ قال قائلٌ: وما وجْهُ دُعاءِ هؤلاء إلى الإيمانِ باللهِ ورسولِه وكُتبِه وقد سمَّاهم مؤمنينَ؟ قيل: إنَّه جلَّ ثناؤُه لم يُسَمِّهم مؤمنينَ، وإنَّما وصَفَهم بأنَّهم آمَنوا، وذلك وصْفٌ لهم بخُصوصٍ مِن التَّصديقِ؛ وذلك أنَّهم كانوا صِنفَين: أهلُ تَوراةٍ مُصَدِّقينَ بها وبمَن جاء بها، وهم مُكذِّبون بالإنجيلِ والقرآنِ وعيسى ومحمَّدٍ صلَواتُ اللهِ عليهما؛ وصنفٌ أهلُ إنجيلٍ، وهم مُصَدِّقون به وبالتَّوراةِ وسائرِ الكتبِ، مُكذِّبون بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والفُرقانِ، فقال جلَّ ثناؤُه لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، يعني: بما هم به مؤمِنون مِن الكُتبِ والرُّسلِ، ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمَّدٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٥) و(٢٢/ ٦١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

ظَٰهِرِينَ﴾، وفيه دليلٌ ظاهِرٌ على عُلُوِّ شَأنِ الجِهادِ ورِفعةِ مَنزِلتِه عندَ اللهِ تعالى؛ لأنَّه ذُرْوةُ سَنامِ الأمرِ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ تقديمُ المالِ على النَّفْسِ في الجِهادِ، وكذا في غالبِ المواضِعِ، وهذا دليلٌ على وُجوبِ الجِهادِ بالمالِ كما يجِبُ بالنَّفْسِ، فإذا دَهَمَ العَدُوُّ وَجَبَ على القادرِ الخروجُ بنَفْسِه؛ فإنْ كان عاجزًا وَجَبَ عليه أنْ يَكتريَ بمالِه، فتقديمُ المالِ في الذِّكْرِ مُشْعِرٌ بإنكارِ وَهْمِ مَن يَتَوَهَّمُ أنَّ العاجِزَ بنَفْسِه إذا كان قادِرًا على أنْ يَغْزُوَ بمالِه لا يَجِبُ عليه شيءٌ.

وفائدةٌ ثانيةٌ على تقديرِ عدمِ الوُجوبِ، وهي: أنَّ المالَ محبوبُ النَّفْسِ ومَعشوقُها الَّتي تَبذُلُ ذاتَها في تَحصيلِه، وتَرتَكِبُ الأخطارَ وتتعَرَّضُ للمَوتِ في طَلَبِه؛ فنَدَبَ اللهُ تعالى مُحِبِّيه المجاهِدينَ في سَبيلِه إلى بَذْلِ مَعشوقِهم ومَحبوبِهم في مَرْضاتِه، فإنَّ المقصودَ أنْ يكونَ اللهُ هو أَحَبَّ شَيءٍ إليهم، ولا يكونَ في الوُجودِ شيءٌ أحبَّ إليهم منه، فإذا بَذَلوا محبوبَهم في حُبِّه نَقَلَهم إلى مَرتبةٍ أُخرى أَكْمَلَ منها، وهي بَذْلُ نُفوسِهم له، فهذا غايةُ الحُبِّ(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الخَيريَّةَ قد تكونُ في الواجِباتِ، بل قد تكونُ في أصلِ الإيمانِ؛ فالإشارةُ في قولِه: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلى الإيمانِ باللهِ ورَسولِه، والجهادِ في سبيلِه، وهذا أصلُ الإيمانِ، وقال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩]، ومعلومٌ أنَّ الذَّهابَ إلى صَلاةِ الجُمُعةِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٧).

ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ١٩٩).

بعدَ الأذانِ الثَّاني واجِبٌ، وقال اللهُ فيه: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، فالخيريَّةُ لا تَختَصُّ بما كان نافِلةً، بل تكونُ بما كان نافِلةً، وبما كان فَريضةً، وتكونُ حتَّى في أصلِ الإيمانِ(١).

٨- عَمَلُ الإنسانِ لا يُنجيه مِن النَّارِ، ولا يُدْخِلُه الجنَّةَ، وإنَّما يَحصُلُ ذلك كلُّه بمَغفِرةِ اللهِ ورَحمتِه، وقد دلَّ القرآنُ العزيزُ على هذا المعنَى في مواضعَ كثيرةٍ، منها قَولُه تعالى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وقولُه: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾[التوبة: ٢١]، فقَرَن بيْنَ دُخولِ الجنَّةِ والنَّجاةِ مِن النَّارِ وبينَ المَغفِرةِ والرَّحمةِ؛ فدلَّ على أنَّه لا يُنالُ شَيءٌ مِن ذلك بدُونِ مَغفِرةِ اللهِ ورَحمتِه، والعملُ وإنْ كان سببًا لدُخولِ الجنَّةِ، فإنَّما هو مِن فضلِ الله ورحمتِه(٢).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾ هذه الآيةُ مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ الرَّاجِعةِ إلى الإخبارِ بالغَيبِ(٣). وذلك على أنَّ المرادَ نصْرُ فتْحِ مكَّةَ؛ فإنَّه كان نصرًا على أشدِّ أعدائِهم.

١٠- الإيمانُ إذا ذُكِرَ وَحْدَه دَخَلَ فيه الإسلامُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بعدَ أنْ ذَكَرَ ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾، وأمَّا إذا ذُكِرا جَميعًا فيَفتَرِقانِ، ويكونُ الإسلامُ بالأعمالِ الظَّاهرةِ مِن أقوالِ اللِّسانِ وعَمَلِ الجَوارحِ، والإيمانُ بالأعمالِ الباطِنةِ مِن اعتِقاداتِ القُلوبِ وأعمالِها(٤).

١١- تَظاهَرَت آياتُ الكِتابِ وتواتَرت نُصوصُ السُّنَّةِ على التَّرغيبِ في

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٤/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٩٢، ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٦٠).

الجِهادِ والحَضِّ عليه، ومَدْحِ أهْلِه، والإخبارِ عَمَّا لهم عندَ رَبِّهم مِن أنواعِ الكَراماتِ والعَطايا الجَزيلاتِ، ويَكْفي في ذلك قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، فتشوَّفت النُّفوسُ إلى هذه التِّجارةِ الرَّابحةِ الدَّالِّ عليها رَبُّ العالَمينَ العَليمُ الحكيمُ، فقال: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾، فكأنَّ النُّفوسَ ضَنَّت بحَياتِها وبَقائِها، فقال: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ يعني: أنَّ الجِهادَ خَيرٌ لكم مِن قُعودِكم للحياةِ والسَّلامةِ، فكأنَّها قالت: فما لَنا في الجهادِ مِنَ الحَظِّ؟ فقال: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾، مع المغفرةِ ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، فكأنَّها قالت: هذا في الآخرةِ، فما لَنا في الدُّنيا؟ فقال: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. فلِلَّه ما أحلى هذه الألفاظَ، وما ألصَقَها بالقُلوبِ! وما أعظَمَها جذبًا لها، وتَسييرًا إلى رَبِّها! وما ألطَفَ مَوقِعَها مِن قَلبِ كُلِّ مُحبٍّ! وما أعظَمَ غِنى القَلبِ وأطيَبَ عَيْشَه حينَ تُباشِرُه معانيها[1]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ * تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ هذا تَخلُّصٌ إلى الغرَضِ الَّذي افتُتِحت به السُّورةُ مِن قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٢- ٤]؛ فبعْدَ أنْ ضُرِبَت لهمُ الأمثالُ، وانتَقَل الكلامُ مِن مَجالٍ إلى مَجالٍ، أُعِيدَ خِطابُهم هنا بمِثلِ ما خُوطِبوا به بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، أي: هلْ أدُلُّكم على أحبِّ العملِ إلى اللهِ لتَعمَلوا به كما طلَبْتُم؛ إذ قُلْتُم:

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٣٥٥).

لو نَعلَمُ أيُّ الأعمالِ أحَبُّ إلى اللهِ لَعَمِلْنا به[١]؟ فجاءت السُّورةُ في أُسلوبِ الخَطابةِ[٢].

- وجاء قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ...﴾ الآيةَ، في أُسلوبِ النِّداءِ والاستِفهامِ؛ لأنَّه أفخَمُ وأشَدُّ تَشويقًا بالأداةِ الَّتي لا يَكونُ ما بعْدَها إلَّا بالِغًا في العِظَمِ إلى النِّهايةِ[٣].

- والاستِفهامُ هنا مُستعمَلٌ في العرْضِ؛ لأنَّ العارضَ قد يَسأَلُ المعروضَ عليه ليَعلَمَ رَغبتَه في الأمرِ المعروضِ، كما يُقالُ: هلْ لك في كذا؟ أو هلْ لك إلى كذا؟ والعرْضُ هنا كِنايةٌ عن التَّشويقِ إلى الأمرِ المعروضِ، وهو دَلالتُه إيَّاهم على تِجارةٍ نافعةٍ[٤]. وقيل: (هَلْ) حرْفُ استِفهامٍ معْناه الإخبارُ والإيجابُ، أي: سأدُلُّكم، وإنَّما أورَدَهُ في صِيغةِ الاستفهامِ؛ تَشويقًا وإلْهابًا للرَّغبةِ[٥].

- وجِيءَ بفِعلِ ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾؛ لإفادةِ ما يُذكَرُ بعْدَه مِن الأشياءِ الَّتي لا يُهْتدى إليها بسُهولةٍ[٦].

- وأُطلِقَ على العَملِ الصَّالحِ لفظُ التِّجارةِ؛ لِمُشابَهةِ العملِ الصَّالحِ التِّجارةَ في طلَبِ النَّفعِ مِن ذلك العملِ ومُزاوَلَتِه والكَدِّ فيه. ووصْفُ التِّجارةِ بأنَّها تُنجِي مِن عَذابٍ أليمٍ لقَصْدِ الصَّراحةِ بهذه الفائدةِ لأهمِّيَّتِها[٧].

---

(١) يُنظر ما تقدم في سبب النزول (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٣، ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٨٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجُملةُ ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ ذِكرَ الدَّلالةِ مُجمَلٌ، والتَّشويقَ الَّذي سَبَقَها ممَّا يُثيرُ في أنفُسِ السَّامِعينَ التَّساؤُلَ عن هذا الَّذي تَدُلُّنا عليه، وعن هذه التِّجارةِ[١].

- وقولُه: ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾، ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ خبَرٌ في معْنى الأمرِ، جِيءَ به على لَفظِ الخبرِ؛ للإيذانِ بوُجوبِ الامتثالِ وكأنَّه امتُثِلَ، فهو يُخبِرُ عن إيمانٍ وجِهادٍ مَوجودَينِ، ونَظيرُه قولُ الدَّاعي: غفَرَ اللهُ لك، ويَغفِرُ اللهُ لك؛ جُعِلَت المغفرةُ -لقوَّةِ الرَّجاءِ- كأنَّها كانت ووُجِدَت[٢].

- وفي التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ إفادةُ الأمرِ بالدَّوامِ على الإيمانِ وتَجديدِه في كلِّ آنٍ، وذلك تَعريضٌ بالمنافِقينَ، وتَحذيرٌ مِن التَّغافُلِ عن مُلازَمةِ الإيمانِ وشُؤونِه، وأمَّا ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ فإنَّه لإرادةِ تَجدُّدِ الجهادِ إذا استُنْفِروا إليه، ومَجِيءُ ﴿يَغْفِرْ﴾ مَجزومًا تَنبيهٌ على أنَّ ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾، ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ وإنْ جاءَا في صِيغةِ الخَبرِ فالمُرادُ الأمْرُ؛ لأنَّ الجزْمَ إنَّما يكونُ في جَوابِ الطَّلبِ، لا في جَوابِ الخبَرِ[٣].

- وإذ قدْ كان الخِطابُ لقَومٍ مُؤمنينَ، فإنَّ فِعلَ ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ مع قولِه: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ مُرادٌ به: تَجمَعونَ بيْنَ الإيمانِ باللهِ ورسولِه وبيْنَ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ بأمْوالِكم وأنفُسِكم؛ تَنويهًا بشأْنِ الجِهادِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾؛ فقدَّمَ في هذه الآيةِ الكريمةِ الجِهادَ بالمالِ على الجِهادِ بالنَّفْسِ، وفي قولِه تعالَى: ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١]؛ فقدَّمَ النَّفْسَ على المالِ، وفي ذلك سِرٌّ لَطيفٌ؛ أمَّا في آيةِ (الصَّفِّ) فإنَّ المقامَ مَقامُ تَفسيرٍ وبَيانٍ لمعْنى التِّجارةِ الرَّابحةِ بالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، وحَقيقةُ الجهادِ بذْلُ الجَهدِ والطاقةِ، والمالُ هو عصَبُ الحرْبِ، وهو مَدَدُ الجيشِ، وهو أهمُّ مِن الجِهادِ بالسِّلاحِ؛ فبالمالِ يُشْترى السِّلاحُ، وقدْ تُستأجَرُ الرِّجالُ، كما في الجُيوشِ الحديثةِ مِن الفِرَقِ الأجنبيَّةِ، وبالمالِ يُجهَّزُ الجيشُ، ولذا لَمَّا جاء الإذنُ بالجِهادِ أعذَرَ اللهُ المَرْضى والضُّعفاءَ، وأعذَرَ معهم الفُقراءَ الَّذين لا يَستطيعونَ تَجهيزَ أنفُسِهم، وأعذَرَ معهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ لم يُوجَدْ عندَه ما يُجهِّزُهم به، كما في قولِه تَعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾، إلى قولِه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩١-٩٢]، وكذلك مِن جانبٍ آخَرَ: قدْ يُجاهِدُ بالمالِ مَن لا يَستطيعُ بالسِّلاحِ، كالنِّساءِ والضُّعفاءِ، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن جهَّزَ غازيًا فقدْ غَزا))[1].

أمَّا الآيةُ الثَّانيةُ: فهي في مَعرِضِ الاستبدالِ والعرْضِ والطَّلبِ، أو ما يُسمَّى بالمساوَمةِ، فقدَّمَ النَّفْسَ؛ لأنَّها أعزُّ ما يَملِكُ الحيُّ، وجَعَلَ في مُقابِلِها الجنَّةَ، وهي أعزُّ ما يُوهَبُ، فالتِّجارةُ هنا مُعامَلةٌ مع اللهِ إيمانًا باللهِ وبرَسولِه، وجِهادًا

(١) أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٢٨٤٣)، ومسلمٌ (١٨٩٥) واللَّفظُ له مِن حديثِ زَيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ رضيَ الله عنه.

بالمالِ والنَّفْسِ، والعمَلِ الصَّالحِ[١].

وقيل: ذكَرَ الأموالَ أوَّلًا؛ لأنَّها الَّتي يُبدأُ بها في الإنفاقِ[٢]. وقيل: لَمَّا كان الجَمعُ بيْن الرُّوحِ وعديلِها المالِ على وَجهِ الرِّضا والرَّغبةِ أدَلَّ على صِحَّةِ الإيمانِ، قال: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾، وقَدَّمَها؛ لعِزَّتِها في ذلك الزَّمانِ، ولأنَّها قِوامُ الأنفُسِ والأبدانِ، فمَن بذَلَ مالَه كلَّه لم يَبخَلْ بنفْسِه؛ لأنَّ المالَ قِوامُها. ولَمَّا قدَّمَ القِوامَ أتْبَعَه القائمَ به، فقال: ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾[٣].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ وما فيه مِن معْنى البُعدِ مع قُربِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ بعُلوِّ شأْنِه، وكَونِه في الغايةِ القاصيةِ مِن الفضْلِ والشَّرَفِ[٤].

- وقولُه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تَعريضٌ لهم بالعِتابِ على تَولِّيهم يومَ أُحُدٍ بعْدَ أنْ قالوا: لو نَعلَمُ أيَّ الأعمالِ أحبُّ إلى اللهِ لَعَمِلْناه، فنُدِبوا إلى الجِهادِ، فكان ما كان منهم يومَ أُحُدٍ، فنُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يُشَكُّ في عَمَلِهم بأنَّه خيرٌ؛ لعَدَمِ جَرْيِهم على مُوجَبِ العِلمِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

- قيل: جوابُ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ ﴿يَغْفِرْ﴾؛ لذا جُزِمَ، أي: لأنَّ مُتعلَّقَ ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ هو

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١١٣، ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٥).

التِّجارةُ المُفسَّرةُ بالإيمانِ والجهادِ، فكأنَّه قِيل: هل تتَّجِرون بالإيمانِ والجهادِ يَغفِرْ لكم ذُنوبَكم[١]؟

- قولُه: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ إنَّما خُصَّت المساكنُ بالذِّكرِ هنا؛ لأنَّ في الجِهادِ مُفارَقةَ مَساكِنِهم، فوُعِدوا على تلك المُفارَقةِ المُوقَّتةِ بمَساكنَ أبَدِيَّةٍ؛ قال تَعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤] الآيةَ[٢].

- قولُه: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عُطِفَ على جُملةِ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾ [الصف: ١٢] عطْفَ الاسميَّةِ على الفِعليَّةِ، وجِيءَ بالاسميَّةِ لإفادةِ الثُّبوتِ والتَّحقُّقِ[٣].

- وفي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ تَعريضٌ وتَوبيخٌ على مَحبَّةِ العاجلِ؛ وذلك أنَّه تَعالى عطَفَ (أُخرى) مِن حيثُ المعْنى على النِّعمةِ المذكورةِ مِن المغفرةِ والثَّوابِ، وقيَّدَها بقولِه: ﴿تُحِبُّونَهَا﴾، وفيه إشارةٌ إلى هذا المعْنى؛ لأنَّ الفتْحَ والنُّصرةَ وإنْ كانَا مِن الأُمورِ الدِّينيَّةِ، لكنَّ فيهما حظَّ النفْسِ؛ لأنَّهما بظاهِرِهما ممَّا تَشتهيهِ النَّفْسُ[٤].

أو وُصِفَ لَفظُ ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ بجُملةِ ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ إشارةً إلى الامتِنانِ عليهم بإعطائِهِم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٥).

ما يُحِبُّون في الحياةِ الدُّنيا قبْلَ إعطاءِ نَعيمِ الآخِرةِ[١]. وقيل: وصَفَها تعالى بأنَّ النُّفوسَ تُحِبُّها من حيثُ هي عاجلةٌ في الدُّنيا، وقد وُكلَتِ النَّفْسُ لحُبِّ العاجِلِ؛ ففي هذا تحريضٌ[٢].

- قولُه: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ذِكرُ اسمِ الجَلالةِ يَجوزُ أنْ يكونَ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ، على احتِمالِ أنْ يكونَ ضَميرُ التَّكلُّمِ في قولِه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ [الصف: ١٠] كَلامًا مِن اللهِ تعالى. ويَجوزُ أنْ يكونَ جاريًا على مُقْتضى الظَّاهرِ، إنْ كان الخِطابُ أُمِرَ به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَقديرِ (قُل)[٣].

- ووَصْفُ الفتْحِ بـ﴿قَرِيبٌ﴾ تَعجيلٌ بالمَسرَّةِ[٤].

- وجُملةُ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ عطْفًا على مَجموعِ الكلامِ الَّذي قبْلَها، ابتداءً مِن قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ [الصف: ١٠]، على احتِمالِ أنَّ ما قبْلَها كَلامٌ صادرٌ مِن جانبِ اللهِ تعالَى، عطْفَ غرَضٍ على غرَضٍ؛ فيَكونَ الأمرُ مِن اللهِ لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُبشِّرَ المؤمنينَ. وأمَّا على احتِمالِ أنْ يكونَ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ إلى آخِرِه مَسوقًا لأمْرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَ: هلْ أدُلُّكم على تِجارةٍ؟ بتَقديرِ قولٍ مَحذوفٍ، أي: قُلْ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا، هلْ أدُلُّكم... إلى آخِرِه، فيَكونَ الأمرُ في ﴿وَبَشِّرِ﴾ الْتِفاتًا مِن قَبيلِ التَّجريدِ[٥]، والمعْنى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٣).

وأُبَشِّرُ المؤمنينَ[١]. وقيل: قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مَعطوفٌ على ﴿تُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّه في معْنى الأمْرِ، كأنَّه قيل: آمِنوا وجاهِدوا يُثِبْكم اللهُ ويَنصُرْكم، وبشِّرْ يا رسولَ اللهِ المؤمنينَ بذلك، وقولُه: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ مُتضمِّنٌ معْنى الأمرِ؛ لقولِه: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾، ولأنَّ سِياقَ الكلامِ عليه؛ فإنَّه تعالَى لَمَّا نَبَّه عِبادَه على ما يُخلِّصُهم ممَّا يُؤذِيهم بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، اتَّجَه لهم أنْ يَتضرَّعوا إليه: نعمْ يا مَولانا وربَّنا، أرْشِدْنا إلى هذه البُغيةِ، فقِيل لهم: آمِنوا باللهِ ورسولِه وجاهِدوا، ثمَّ أمَرَ حَبيبَه بأنْ يُبشِّرَهم بأنَّ اللهَ سيُنجِزُ ما وعَدَ مِن الثَّوابِ العظيمِ في الآخِرةِ، والنَّصرِ القريبِ في الدُّنيا، تَقريرًا أو تَشريفًا؛ ولذلك أُتِيَ بما يدُلُّ على التَّجدُّدِ، ووُضِعَ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مَوضعَ الضَّميرِ؛ للإشعارِ بأنَّ صِفةَ الإيمانِ هي الَّتي تَقْتضي هذه البِشارةَ. ويُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّه تعالَى لَمَّا أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُخاطِبَ النَّاسَ بقولِه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أرشَدَه إلى ما يَقْتضيهِ مِن الجوابِ، أنَّه اتَّجَه لسائلٍ أنْ يقولَ: بَلى دُلَّنا؟ أي: قُلْ: آمِنوا باللهِ... الآيةَ، وبشِّرْهم بعْدَ ذلك بما لا يُكْتنَهُ كُنْهُه ممَّا يصِحُّ أنْ تُبشِّرَ به؛ لإطلاقِ (بشِّر)؛ فعلى هذه (بشِّر) مَعطوفٌ على (قُلْ) مُرادًا عندَ قولِه: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٩٥، ٣٩٦).

الآية (١٤)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾: همْ أصفياءُ عِيسى عليه السَّلامُ وشِيعتُه وناصِرُوه، وخُلاصةُ أصحابِه، وقيل: الحواريُّونَ: صَفوةُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، الَّذين خلَصوا وأخلَصوا في التَّصديقِ بهم ونُصرتِهم، قيل: سُمِّيَ أصحابُ عيسى بذلك؛ لأنَّهم كانوا يُحوِّرونَ الثِّيابَ، أي: يُبيِّضونَها، مِن: حُرْتُ الثَّوبَ، أي: أخْلَصْتُ بَياضَه بالغَسْلِ، والحَوَرُ: شِدَّةُ البَياضِ[1]، ثُمَّ قيل لخاصَّةِ الرَّجُلِ مِن أصحابِه وأنصارِه: حَوارِيٌّ. وقيل: هم الَّذين أُخلِصُوا ونُقُّوا مِن كلِّ عَيبٍ[2]، وقيل: اشتِقاقُ الحَواريِّ مِن حارَ يَحورُ إذا رجَع، فكأنَّهم الرَّاجِعونَ إلى الله، أو الحَواريُّ مِن النَّاسِ هو الَّذي إذا رُجِعَ في اختيارِه مرَّةً بعدَ مرَّةٍ وُجِدَ نقيًّا مِنَ العُيُوب. وأصلُ (حور) هنا: لَونٌ، والأصلُ الثَّاني: الرُّجوعُ[3].

﴿فَأَيَّدۡنَا﴾: أي: قَوَّيْنا وأعَنَّا، وأصلُ (أيد): يدُلُّ على القُوَّةِ والحِفظِ[4].

---

(١) ولذلك سُمِّيَ «الحُوَّارَى» مِن الطَّعامِ بذلك؛ لشدَّةِ بَياضِه.

(٢) وسُمِّيَ الدَّقيقُ الحُوَّارَى بذلك لأنَّه يُنَقَّى مِن لُبابِ البُرِّ وخالِصِه.

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥، ١١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٣)، ((مقاييس =

﴿ظَٰهِرِينَ﴾: أي: غالِبينَ عالِينَ عليهم، مِن قَولِك: ظَهرْتُ على فُلانٍ: إذا عَلَوتَه، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يَدعو الله تعالى المؤمنينَ إلى التَّشبُّهِ بمَنْ قَبْلَهم مِن الصَّالِحينَ الصَّادقينَ، والاقتِداءِ بهم، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا كونوا أنصارَ اللهِ تعالى، كما قال عيسى ابنُ مَريمَ لِخُلَّصِ أصحابِه وخاصَّتِهم: مَن يُعِينُني في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وإقامةِ دِينِه ونُصرتِه؟ قال الحَوارِيُّونَ له: نحنُ أعوانُك على إقامةِ ما أرسَلَك اللهُ به؛ فآمنَت جماعةٌ مِن بني إسرائيلَ بنُبُوَّةِ عيسى، وكفَرَت به طائِفةٌ أُخرى، فقَوَّيْنا المؤمِنينَ مِن بني إسرائيلَ على عَدُوِّهم مِن الكافِرينَ، فأصبَحوا عالِينَ غالِبينَ.

تَفسيرُ الآيةِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا هزَّ الله سُبحانَه إلى الجهادِ، وشوَّق إليه بأنَّه متجرٌ رابحٌ، ولَوَّح إلى النِّذارةِ بالتَّنشيطِ بالبِشارةِ، فتهيَّأت النُّفوسُ إلى الإقبالِ عليه، وانبعثَتْ أيَّ انبعاثٍ؛ حضَّ عليه بالإيجابِ المقتضي للثَّوابِ أو العِقابِ[٢].

= اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا كونوا أنصارَ الله، بالأقوالِ والأفعالِ، ونصرِ دينِه والاستجابةِ لله ورسولِه[(١)].

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾.

أي: كما قال عيسى ابنُ مَريمَ لخُلَّصِ أصحابِه المؤمِنينَ به، وخاصَّتِهم: مَن يُعِينُني في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وإقامةِ دِينِه ونُصرتِه[(٢)]؟

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢][(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠، ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٨، ١٩٩).
قال ابنُ عاشور: (النَّصرُ المأمورُ به هنا نَصرُ دينِ اللهِ الَّذي آمَنوا به بأن يَبُثُّوه ويَثْبُتوا على الأخذِ به دونَ اكتراثٍ بما يلاقونَه مِن أذًى مِن المشركينَ وأهلِ الكِتابِ... وهذا هو الَّذي شُبِّه بنَصرِ الحواريِّينَ دينَ اللهِ الَّذي جاء به عيسى عليه السَّلامُ؛ فإنَّ عيسى لم يجاهِدْ مَن عانَدوه، ولا كان الحواريُّونَ مِمَّن جاهَدوا، ولكِنَّه صَبَر وصَبَروا حتَّى أظهَرَ اللهُ دينَ النَّصرانيَّةِ، وانتَشَر في الأرضِ، ثمَّ دبَّ إليه التَّغييرُ، حتَّى جاء الإسلامُ فنسَخَه مِن أصْلِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٨، ١٩٩).
وقال السعدي: (قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، أي: بالأقوالِ والأفعالِ، وذلك بالقيامِ بدِينِ اللهِ، والحِرصِ على إقامتِه على الغَيرِ، وجِهادِ مَن عانَدَه ونابَذَه؛ بالأبدانِ والأموالِ، ومَن نَصَر الباطِلَ بما يَزعُمُه مِن العِلمِ، ورَدَّ الحَقَّ، بدَحضِ حُجَّتِه، وإقامةِ الحُجَّةِ عليه، والتَّحذيرِ منه. ومِن نَصْرِ دينِ اللهِ: تَعَلُّمُ كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه، والحَثُّ على ذلك، والأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المُنكَرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١).

(٣) يُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ٢١٥).

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

وعن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن يأتيني بخبَرِ القَومِ، يومَ الأحزابِ؟ قال الزُّبَيرُ: أنا. ثمَّ قال: مَن يأتيني بخبَرِ القَومِ؟ قال الزُّبَيرُ: أنا. فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ لكُلِّ نَبيٍّ حَوَاريًّا[١]، وحَوارِيَّ الزُّبَيرُ))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن نَبيٍّ بعَثَه اللهُ في أُمَّةٍ قَبْلي إلَّا كان له مِن أُمَّتِه حَواريُّونَ وأصحابٌ، يأخُذونَ بسُنَّتِه، ويَقتَدونَ بأمْرِه، ثمَّ إنَّها تَخلُفُ مِن بَعْدِهم خُلوفٌ[٣] يَقولونَ ما لا يَفعَلونَ، ويَفعَلونَ ما لا يُؤمَرونَ، فمَن جاهَدَهم بيَدِه فهو مُؤمِنٌ، ومَن جاهَدَهم بلِسانِه فهو مُؤمِنٌ، ومَن جاهَدَهم بقَلْبِه فهو مُؤمِنٌ، وليس وراءَ ذلك من الإيمانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ[٤]))[٥].

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

أي: قال حَوارِيُّو عيسى له: نحنُ أعوانُك على إقامةِ ونَصرِ ما أرسَلَك اللهُ به مِنَ

---

(١) الحَوارِيُّ: ناصِرُ الأنبياءِ وصَفوةُ أَتْباعِهم. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١١/ ١٠٣).

(٢) رواه البخاري (٢٨٤٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٤١٥).

(٣) الخُلُوفُ: الخالِفونَ بعدَ السَّالِفينَ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٣٢٠).

قال النوويُّ: (أمَّا الخُلوفُ فبضَمِّ الخاءِ، وهو جمعُ «خلْف» بإسكانِ اللَّام، وهو الخالفُ بشَرٍّ، وأمَّا بفتحِ اللَّام فهو الخالفُ بخَيرٍ، هذا هو الأشهرُ). ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٢٨).

(٤) الخَردَلُ: نباتٌ يُضرَبُ المثَلُ بحُبوبِه في الشَّيءِ القليلِ البَليغِ في القِلَّةِ والصِّغَرِ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١/ ١٧٠)، ((الكوثر الجاري)) للكوراني (١/ ٧٥).

(٥) رواه مسلم (٥٠).

الحَقِّ[١].

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞ﴾.

أي: فآمنَت جماعةٌ مِن بني إسرائيلَ بنُبُوَّةِ عيسى وما جاءَهم به مِنَ الحَقِّ، وكفَرَت به طائِفةٌ أُخرى فافتَرَوا عليه كَذِبًا[٢].

﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾.

أي: فقَوَّيْنا المؤمِنينَ مِن بني إسرائيلَ على عَدُوِّهم مِن الكافِرينَ، فأصبَحوا عالِينَ غالِبينَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣).

قال ابنُ كثيرٍ: (لهذا بعَثَهم دُعاةً إلى النَّاسِ في بلادِ الشَّامِ في الإسرائيليِّينَ واليُونانيِّينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١).

قال ابنُ كثير: (قوله: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞ﴾، أي: لَمَّا بلَّغَ عيسى ابنُ مَريمَ عليه السَّلامُ رِسالةَ رَبِّه إلى قَومِه، ووازَره مَن وازَرَه مِن الحَواريِّينَ، اهتَدَت طائفةٌ مِن بني إسرائيلَ بما جاءَهم به، وضَلَّت طائفةٌ فخرَجَت عمَّا جاءهم به، وجَحَدوا نبُوَّتَه، ورَمَوه وأمَّه بالعظائِمِ، وهم اليهودُ -عليهم لعائِنُ اللهِ المُتتابِعةُ إلى يومِ القيامةِ- وغَلَت فيه طائِفةٌ مِمَّن اتَّبَعه، حتَّى رَفَعوه فوقَ ما أعطاه اللهُ مِن النُّبُوَّةِ، وافتَرَقوا فِرَقًا وشِيَعًا؛ فمِن قائِلٍ منهم: إنَّه ابنُ اللهِ، وقائِلٍ: إنَّه ثالِثُ ثلاثةٍ: الأبُ، والابنُ، ورُوحُ القُدُسِ، ومِن قائلٍ: إنَّه اللهُ!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١).

قال ابنُ عطية: (قولُه تعالى: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ قيل: ذلك قبْلَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبعدَ فَترةٍ مِن رَفعِ عيسى عليه السَّلامُ، رَدَّ اللهُ تعالى الكَرَّةَ لِمَن آمَنَ به، فغَلَبوا الكافرينَ الَّذين قَتَلوا صاحِبَه الَّذي أُلقِيَ عليه الشَّبَهُ. وقيل: ذلك بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أصبح =

= المؤمِنُ بعيسى ظاهِرًا لإيمانِه بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ وذلك أنَّه لا يُؤمِنُ أحدٌ حَقَّ الإيمانِ بعيسى إلَّا وفي ضِمنِ ذلك الإيمانُ بمحمَّدٍ؛ لأنَّه بَشَّرَ به، وحَرَّض عليه. وقيل: كان المؤمِنونَ به قديمًا ظاهِرينَ بالحُجَّةِ، وإن كانوا مُفَرَّقينَ في البلادِ، مغلوبينَ في ظاهرِ الحياةِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٥).

وممَّن ذهب في الجُملةِ إلى أنَّ المرادَ: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بعيسى ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ وهم مُخالِفُو عيسى: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والبِقاعي، وابنُ عاشور. ونسَبَه ابنُ الجوزي إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٧٩).

قال الماتُريدي: (هذا يحتملُ أن يكونَ في حياةِ عيسى عليه السَّلامُ حينَ اتَّبَعه الحَواريُّونَ، ثمَّ دعا بعدَ ذلك قومَه إلى دينِه، فآمنتْ طائفةٌ، وكفرتْ طائفةٌ، ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ بالبَراهينِ والحُجَجِ على الطَّائفةِ الَّذين كفروا؛ ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ على أعدائِهم بالحُجَجِ والبَراهينِ. ويجوزُ أن يكونَ بعدَ وفاةِ عيسى عليه السَّلامُ حينَ اختلَفوا في ماهيَّتِه: فمِنهم مَن قال: هو الله، ومنهم مَن قال: هو ابنُ الله؛ فكفرتْ به هذه الطَّائفةُ، وآمنتْ به طائفةٌ أخرى، ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ حينَ وقَع لهم قِتالٌ؛ فنُصِروا عليهم وظَفِروا، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٦٣٧).

وقال ابن عرفة: (لعلَّ المرادَ الحَواريُّونَ بالنَّوعِ لا بالشَّخصِ، بأولادِهم أو مَن ينتمي لهم، نُصِروا فانتصَروا). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٢٨).

وقال البِقاعي: (الظَّاهرُ كما هو ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] وغيرِها أنَّ تأييدَ المؤمنينَ به كان بَعْدَ رفْعِه بيَسيرٍ حينَ ظهَر الحَواريُّونَ وانبثُّوا في البلادِ يَدْعون إلى اللهِ بما آتاهم مِن الآياتِ، فاتَّبَعهم النَّاسُ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٢، ٤٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: قوَّيْنا الَّذين آمَنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على عَدُوِّهم فأصبَحوا ظاهِرينَ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أهلِ الأديانِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣١٨).

وقيل: المعنى: لَمَّا بَعَث اللهُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونَزَل تصديقُ مَن آمَنَ بعيسى؛ أصبَحَت حُجَّةُ مَن آمَنَ به ظاهِرةً بتَصديقِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ عيسى كَلِمةُ اللهِ ورُوحُه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جرير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٣-٦٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٧). =

كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ أنَّ النَّصرَ والتَّأييدَ الكامِلَ إنَّما هو لأهلِ الإيمانِ الكامِلِ، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، فمَن نَقَصَ إيمانُه نَقَصَ نصيبُه مِن النَّصرِ والتَّأييدِ؛ ولهذا إذا أُصِيبَ العَبدُ بمُصيبةٍ في نفْسِه أو مالِه، أو بإدالةِ عَدُوِّه عليه، فإنَّما هي بذُنوبِه؛ إمَّا بتَركِ واجبٍ، أو فِعْلِ مُحرَّمٍ، وهو مِن نَقْصِ إيمانِه، وبهذا يزولُ الإشكالُ الَّذي يُورِدُه كثيرٌ مِن النَّاسِ على قَولِه تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، ويُجيبُ عنه كثيرٌ منهم بأنَّه لن يَجعَلَ لهم عليهم سَبيلًا في الآخرةِ، ويُجيبُ آخَرونَ بأنَّه لن يَجعَلَ لهم عليهم سَبيلًا في الحُجَّةِ. والتَّحقيقُ: أنَّها مِثلُ هذه الآياتِ، وأنَّ انتفاءَ السَّبيلِ هو عن أهلِ الإيمانِ الكامِلِ، فإذا ضَعُفَ الإيمانُ صار لِعَدُوِّهم عليهم مِن

= وقال ابن كثير: (قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي: نصَرْناهم على مَن عاداهم مِن فِرَقِ النَّصارى، ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ أي: عليهم، وذلك ببَعثةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣).

وقال الألوسي: (قيل: اقتتَل المؤمنونَ والكفَرةُ بعدَ رفْعِه عليه السَّلامُ، فظهَرَ المؤمنونَ على الكفَرةِ بالسَّيفِ، والمشهورُ أنَّ القتالَ ليس مِن شريعتِه عليه السَّلامُ. وقيل: المرادُ: فآمنتْ طائفةٌ مِن بني إسرائيلَ بمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكفرتْ أخرى به صلَّى الله تعالى عليه وسلَّمَ، فأيَّدْنا المؤمنينَ على الكفَرةِ، فصاروا غالِبينَ. وهو خِلافُ الظَّاهرِ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٨٦).

السَّبيلِ بحَسَبِ ما نَقَص مِن إيمانِهم، فهم جَعَلوا لهم عليهمُ السَّبيلَ بما تَرَكوا مِن طاعةِ اللهِ تعالى؛ فالمؤمِنُ عزيزٌ غالِبٌ، مُؤَيَّدٌ مَنصورٌ، مُكْفًى مدفوعٌ عنه بالذَّاتِ أين كان، ولو اجتمعَ عليه مَن بأقطارِها، إذا قام بحقيقةِ الإيمانِ وواجباتِه ظاهِرًا وباطِنًا[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ حُجَّةٌ واضِحةٌ في وُجوبِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنكَرِ؛ إذْ لا يَشُكُّ أحَدٌ أنَّ نَصْرَ اللهِ إنَّما هو نَصْرُ دِينِه، ولا يكونُ نَصْرُه إلَّا بالمعونةِ على إقامةِ أمْرِه ونَهْيِه وعُلُوِّهما، والأخذِ على يَدَيْ مَن يريدُ ذُلَّه وإهانتَه، ولا يكونُ ذُلُّه وإهانتُه إلَّا في تَضييعِ أمْرِه ونَهْيِه اللَّذَينِ قِوامُ الدِّينِ بهما[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ فيه بِشارةٌ للمُؤمِنينَ بالتَّأييدِ الرَّبَّانيِّ لهم ما داموا مُتناصِرينَ على الحَقِّ، مجتَمِعينَ عليه، غيرَ مُتفرِّقينَ عنه، ولا مُتخاذِلينَ، كما وقَعَ لسَلَفِهم؛ اتَّفَقوا فمَلَكوا، وإلَّا فإذا تفرَّقوا هَلَكوا[٣].

بلاغةُ الآيةِ:

- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ...﴾ خِطابٌ آخَرُ

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٥).

للمؤمنينَ تَكملةً لِما تَضمَّنَه الخِطابُ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ﴾ إلى قولِه: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٠، ١١] الآيةَ، الَّذي هو المقصودُ مِن ذلك الخِطابِ، فجاء هذا الخِطابُ الثَّاني تَذكيرًا بأُسوةٍ عَظيمةٍ مِن أحوالِ المُخلِصينَ مِن المؤمنينَ السَّابقينَ -وهم أصحابُ عِيسى عليه السَّلامُ- مع قِلَّةِ عَدَدِهم وضَعْفِهم[١].

- والتَّشبيهُ بدَعوةِ عيسى ابنِ مَريمَ للحواريِّينَ وجَوابِ الحواريِّينَ تَشبيهُ تَمثيلٍ[٢]، أي: كُونوا عندَما يَدْعوكم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى نصْرِ اللهِ كحالةِ قَولِ عيسى ابنِ مَريمَ للحواريِّينَ واستِجابتِهم له. والتَّشبيهُ لقصْدِ التَّنظيرِ والتَّأسِّي؛ فقدْ صَدَقَ الحواريُّون وَعْدَهم وثَبَتوا على الدِّينِ، ولم تُزَعْزِعْهمُ الفِتَنُ والتَّعذيبُ[٣].

- و(ما) في قولِه: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مَصدريَّةٌ، أي: كَقولِ عيسى وقولِ الحواريِّين. وفيه حذْفُ مُضافٍ تَقديرُه: لكَونِ قولِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٨).

(٢) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: إثباتُ حُكمٍ للمُشَبَّهِ مِن أحكامِ المُشبَّهِ به. وقد اتَّفق الأدباءُ على شَرفِه في أنواعِ البلاغةِ، وأنَّه إذا جاء في أعقابِ المعاني أفادَها كمالًا، وكساها حُلَّةً وجَمالًا، وهو جارٍ في كلامِ العربِ، بل هو أكثرُ كلامِهم. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ عِدَّةَ تقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّةٍ؛ فمنه: التَّشبيهُ المُفرَدُ. ومنه: التَّشبيهُ المركَّبُ: وهو الَّذي يكونُ وجْهُ الشَّبَهِ فيه مُنتزَعًا مِن متعدِّدٍ، أو مِن أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتَّشبيهُ مُركَّبٌ مِن أحوالِ الحِمارِ. وخصَّ البَيانيُّونَ لفظَ «التَّمثيلِ» بالتَّشبيهِ المركَّبِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي، (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٩، ٢٠٠).

عيسى وقولِ الحواريِّينَ؛ فالتَّشبيهُ بمَجموعِ الأمْرَينِ: قولِ عيسى وجوابِ الحواريِّينَ؛ لأنَّ جَوابَ الحواريِّينَ بمَنزلةِ الكلامِ المُفرَّعِ على دَعوةِ عيسى، وإنَّما تُحذَفُ الفاءُ في مِثلِه مِن المُقاوَلاتِ والمُحاوَراتِ للاختصارِ[١].

- وقولُ عيسى عليه السَّلامُ: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ استِفهامٌ؛ لاختبارِ انتِدابِهم إلى نصْرِ دِينِ اللهِ معه[٢]. وإضافةُ (أنصار) إلى ياءِ المُتكلِّمِ -وهو عيسى- مِن إضافةِ أحدِ المُتشاركَينِ إلى الآخَرِ؛ لِما بيْنَهما مِن الاختصاصِ، أي: باعتبارِهم أنصارَ دَعوتِه[٣].

- وإضافةُ ﴿أَنصَارِيٓ﴾ خِلافُ إضافةِ ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾؛ فالإضافةُ الأُولى مَحْضةٌ، والثَّانيةُ غيْرُ مَحْضةٍ، وفائدةُ هذا الاختلافِ: الإيذانُ بأنَّ الَّذي يُطلَبُ منهمْ هو النُّصرةُ المُعتبَرةُ، وهو اختصاصُهم به وما أخْبَروا به عن أنفُسِهم ليس إنشاءً للنُّصرةِ، بل ادِّعاءً منهم أنَّهم الَّذين يَنصُرون اللهَ، ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾[٤].

- ووُصِلَ وصْفُ ﴿أَنصَارِيٓ﴾ بـ(إلى)؛ إمَّا على تَضمينِ صِفةِ (أنْصار) مَعنى الضَّمِّ، أي: مَن ضامُّون نصْرَهم إيَّايَ إلى نصْرِ اللهِ إيَّايَ الَّذي وَعَدني به؛ إذْ لا بُدَّ لحُصولِ النَّصرِ مِن تَحصيلِ سَببِه، كما هي سُنَّةُ اللهِ؛ قال تعالَى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، على نحْوِ قولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ [النساء: ٢]، أي: ضامِّينَها، فهو ظَرْفُ لَغوٍ، فالمَعنى: مَن أنْصاري

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٩٧).

مع اللهِ، و(إلى) إنَّما قارَبَت مَعنى (مع)؛ لأنَّها إذا عُبِّرَ عنها بها أفادَت مَعناها، لا أنَّ (إلى) بمَعنى (مع)؛ لأنَّ (إلى) لانتهاءِ الغايةِ، و(مع) لضَمِّ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ، فالمعنى: مَن يُضِيفُ نُصْرتَه إيَّايَ إلى نُصرَتِه تعالى، ولِما أنَّ الحُروفَ قدْ تَتقارَبُ في الفائدةِ رُبَّما يُظَنُّ أنَّ مَعناها واحدٌ.

وإمَّا على جَعلِه حالًا مِن ياءِ المتكلِّمِ، والمعنى: في حالِ ذَهابي إلى اللهِ، أي: إلى تَبليغِ شَريعتِه، فيكونُ المجرورُ ظَرْفًا مُستقَرًّا[1]. وعلى كِلا الوجْهينِ فالكونُ الَّذي اقتَضاهُ المجرورُ هو كَونٌ مِن أحوالِ عيسى عليه السَّلامُ، ولذلك لم يَأْتِ الحواريُّونَ بمِثلِه في قولِهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

أو يَتعلَّقُ بمَحذوفٍ حالًا مِن الياءِ، أي: مَن أنْصاري ذاهبًا إلى اللهِ مُلتجِئًا إليه، ومعنى ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ﴾: مَن الأنصارُ الَّذين يَختصُّون بي، ويكونونَ معي في نُصرةِ اللهِ[2]؟ وقيل: (إلَى) هاهنا بمَعنى (في) أو اللَّامِ[3].

---

(١) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّي ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٢١٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤١٦)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٦٥) و(٤/ ٥٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٤/ ١١٧)، ((إعراب القرآن)) لمحيي الدين درويش (١٠/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٩).

- قيل: شُبِّهَ دُعاؤهم إلى الدِّينِ وتَعليمُهم النَّاسَ ما يَرْضاهُ اللهُ لهم؛ بسَعيِ ساعِينَ إلى اللهِ ليَنصُروه، كما يَسْعى المُستنْجَدُ بهمْ إلى مَكانِ مُستنْجِدِهم لِيَنصُروه على مَن غَلَبَه؛ ولذلك كان الجوابُ المحْكيُّ عن الحواريِّينَ مُطابِقًا للاستفهامِ؛ إذ قالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، أي: نحْنُ نَنصُرُ اللهَ على مَن حادَّه وشاقَّه، أي: نَنصُرُ دِينَه[1].

- ومَقالةُ عيسى عليه السَّلامُ المَحكيَّةُ في هذه الآيةِ ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ غيرُ مَقالتِه المَحكيَّةِ في آيةِ (آلِ عِمرانَ): ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]؛ فإنَّ تلك مُوجَّهةٌ إلى جَماعةِ بَني إسرائيلَ الَّذين أحَسَّ منهم الكفْرَ لَمَّا دَعاهم إلى الإيمانِ به. أمَّا مَقالتُه المَحكيَّةُ هنا فهي مُوجَّهةٌ للَّذين آمَنوا به طالبًا منهم نُصرَتَه؛ لقولِه تعالَى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الآيةَ؛ فلذلك تَعيَّنَ اختلافُ مُقْتضى الكلامَينِ المُتماثلَينِ. وعلى حسَبِ اختِلافِ المَقامَينِ يَجْري اختِلافُ اعتِبارِ الخُصوصيَّاتِ في الكلامينِ وإنْ كانَا مُتشابهَينِ؛ فإضافةُ ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] هناك إضافةٌ لَفظيَّةٌ، وبذلك لم يكُنْ قولُهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] مُفيدًا للقَصْرِ؛ لانعدامِ تَعريفِ المُسنَدِ، فأمَّا هنا فالأظهَرُ أنَّ كلمةَ ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ اعتُبِرَت لَقبًا للحواريِّينَ، عرَّفوا أنفُسَهم به، وخَلَعوه على أنفُسِهم؛ فلذلك أرادوا الاستِدلالَ به على أنَّهم أحقُّ النَّاسِ بتَحقيقِ مَعْناه؛ ولذلك تكونُ إضافةُ (أنصار) إلى اسمِ الجلالةِ هنا إضافةً مَعنويَّةً مُفيدةً تَعريفًا، فصارت جُملةُ ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ هنا مُشتملةً على صِيغةِ قصْرٍ، على خِلافِ نَظيرتِها التي

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٠).

في سُورةِ (آلِ عمرانِ)، ففي حِكايةِ جَوابِ الحواريِّينَ هنا خُصوصيَّةُ صِيغةِ القصْرِ بتَعريفِ المُسنَدِ إليه والمُسنَدِ، وخُصوصيَّةُ التَّعريفِ بالإضافةِ، فكان إيجازًا في حِكايةِ جَوابِهم بأنَّهم أجابوا بالانتدابِ إلى نصْرِ الرَّسولِ، وبجَعْلِ أنفُسِهم مَحقوقينَ بهذا النَّصرِ؛ لأنَّهم مَحَّضوا أنفُسَهم لنصْرِ الدِّينِ، وعُرِفوا بذلك، وبحصْرِ نَصْرِ الدِّينِ فيهم حصْرًا يُفيدُ المُبالَغةَ في تَمحُّضِهم له، حتَّى كأنَّه لا ناصَرَ للدِّينِ غيرُهم مع قِلَّتِهم، وإفادته التَّعريضَ بكُفْرِ بَقيَّةِ قَومِهم مِن بني إسرائيلَ[(١)].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ على قولِ الحواريِّينَ: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ بأنَّ بني إسرائيلَ افترَقوا طائفتَينِ: طائفةٌ آمَنَتْ بعيسى وما جاء به، وطائفةٌ كَفَرَتْ بذلك، وهذا التَّفريعُ يَقْتضي كلامًا مُقدَّرًا، وهو: فَنَصَروا اللهَ بالدَّعوةِ والمُصابَرةِ عليها، فاستجابَ بعضُ بني إسرائيلَ وكفَرَ بعْضٌ، والمَقصودُ مِن قولِه: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ التَّوطئةُ لقولِه: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾[(٢)].

- وإنَّما قال: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولم يَقُلْ: (فأيَّدْناهم)؛ لأنَّ التَّأييدَ كان لمَجموعِ المؤمنينَ بعيسى، لا لكلِّ فرْدٍ منهم؛ إذ قد قُتِلَ مِن أتْباعِه خلْقٌ كثيرٌ، ومُثِّلَ بهم[(٣)].

- والمَقصودُ مِن هذا الخبرِ: وَعْدُ المسلِمينَ الَّذين أُمِروا أنْ يَكونوا أنصارًا للهِ بأنَّ اللهَ مُؤيِّدُهم على عَدُوِّهم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٠٢، ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَفْسيرُ

سُورَةِ الجُمُعةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الجُمُعةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الجُمُعةِ)[١]، ويدُلُّ لذلك ما يلي:

١- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرَأُ في صَلاةِ الفَجْرِ يومَ الجُمُعةِ: ﴿الٓمٓ ۞ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدةَ، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾، وأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرَأُ في صلاةِ الجُمُعةِ سُورةَ الجُمُعةِ، والمنافِقينَ))[٢].

٢- وعن الضَّحَّاكِ بنِ قَيسٍ أنَّه كَتَب إلى النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ يَسألُه: ((أيَّ شَيءٍ قَرَأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ الجُمُعةِ سِوى سُورةِ الجُمُعةِ؟ فقال: كان يَقرَأُ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾))[٣].

٣- عن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا جُلوسًا عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأُنزِلَت عليه سورةُ الجُمُعةِ))[٤].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

تُسَنُّ قراءتُها في الرَّكعةِ الأُولى مِن صلاةِ الجُمُعةِ:

عن ابنِ أبي رافعٍ، قال: ((استخلَفَ مَروانُ أبا هُرَيرةَ على المدينةِ، وخرج إلى

---

(١) وَجهُ التَّسْميةِ ذِكرُ لَفظِ الجُمُعةِ فيها؛ في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (٨٧٩).

(٣) أخرجه مسلم (٨٧٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٩٧) مطوَّلًا ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١).

مكَّةَ، فصلَّى لنا أبو هُرَيرةَ الجُمُعةَ، فقرأ بعدَ سُورةِ الجُمُعةِ في الرَّكعةِ الآخِرةِ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١]، قال: فأدركتُ أبا هُريرةَ حينَ انصرَفَ، فقلتُ له: إنَّك قرأتَ بسُورتَينِ كان عليُّ بنُ أبي طالبٍ يَقرأُ بهما بالكُوفةِ، فقال أبو هُرَيرةَ: إنِّي سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرأُ بهما يومَ الجُمُعةِ))[١].

وتقدَّم حَديثُ ابنِ عَبَّاسٍ وحَديثُ النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهم: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرأُ بها في صلاةِ الجُمُعةِ.

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الجُمُعةِ مَدَنيَّةٌ[٢]، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

ذِكرُ ما اصطفَى اللهُ به هذه الأُمَّةَ، ومِن ذلك صلاةُ الجُمُعةِ، مع بَيانِ بَعضِ أحكامِها[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- الثَّناءُ على اللهِ عزَّ وجَلَّ، وذِكرُ مَظاهِرِ نِعَمِه على عِبادِه؛ حيثُ أرسَلَ فيهم

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٩).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٥).

رَسُولًا؛ لِيُزَكِّيَهم ويُعَلِّمَهم الكِتابَ والحِكْمةَ.

٢- تَوبيخُ اليَهودِ وذَمُّهم؛ لعَدَمِ عَمَلِهم بالكتابِ الَّذي أنزَلَه سُبحانَه لهِدايتِهم، وإصلاحِ حالِهم، وإلزامُ الحُجَّةِ عليهم، وإبطالُ زَعْمِهم أنَّهم أولياءُ اللهِ.

٣- دَعوةُ المؤمِنينَ إلى المحافَظةِ على صلاةِ الجُمُعةِ، والتَّحذيرُ مِنَ التَّخَلُّفِ عنها، والأمرُ بتَرْكِ ما يَشغَلُ عنها في وَقتِ أدائِها، وتوبيخُ قَومٍ انصَرَفوا عنها.

الآيات (١-٤)

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمَلِكِ﴾: أي: المالِكِ للأشياءِ كلِّها، المُصَرِّفِ لها على إرادتِه، لا يَمتنِعُ عليه منها شَيءٌ، وأصلُ (ملك): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ وصحَّةٍ[١].

﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾: أي: الطَّاهرِ مِن كلِّ عيبٍ، المُنَزَّهِ عن كُلِّ نَقصٍ، مِن «القُدْس» وهو: الطَّهارةُ، وأصلُ (قدس): يدُلُّ على الطُّهرِ[٢].

﴿الْعَزِيزِ﴾: أي: الَّذي اتَّصَف بالعِزَّة التَّامَّة: عِزَّةِ القَدْرِ -فهو عظيمُ القَدرِ، لا يَبلُغُ أحدٌ قَدْرَه، فلا مِثلَ له، ولا نَظيرَ-، وعِزَّةِ القَهْرِ -فهو قاهرٌ غالبٌ لا يَغلِبُه شَيءٌ-، وعِزَّةِ الامتِناعِ، فهو مُمْتَنِعٌ عليه النَّقصُ بأيِّ وجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ وما ضاهاهما مِن غَلَبةٍ وقَهْرٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٠)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٤٣-٤٦)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١، ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٢٣٩)، ((شأن الدعاء)) للخَطَّابي (ص: ٤٧)، =

﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾: أي: الموصوفِ بكمالِ الحكمةِ، وهي كمالُ العِلمِ والإرادةِ المُتضَمِّنَينِ اتِّساقَ صُنعِه، وجَرَيانَه على أحسَنِ الوُجوهِ وأكمَلِها، ووَضْعَه الأشياءَ مَواضِعَها، فالحكيمُ فَعيلٌ بمعنَى مُفعِلٍ، مِن الإحكامِ، فهو المُحكِمُ الَّذي يُحكِمُ الأشياءَ كَونًا وشرعًا، ويحكِمُها عمَلًا وصُنعًا، ومنه قيل: بِناءٌ مُحكَمٌ، أي: قد أُتقِنَ وأُحكِمَ.

والحكيمُ الموصوفُ بكمالِ الحُكمِ -فَعيلٌ بمعنَى فاعِلٍ- مِن الحُكمِ، وهو الفصلُ والأمرُ، فهو الحاكمُ الَّذي له الحُكمُ، وأصلُ (حكم): هو المنعُ، مِن حَكَمةِ اللِّجامِ، وهي الحديدةُ الَّتي تَمنَعُ الفَرَسَ وتَرُدُّه إلى مَقصدِ الرَّاكبِ، والحِكمةُ هذا قِياسُها؛ لأنَّها تمنَعُ مِن الجهلِ، وكذلك الحاكمُ بيْن النَّاسِ إنَّما هو الفاصلُ بيْنَهم بعِلمِه، والمُلزِمُ لهم ما لا يُمكِنُهم مُخالَفَتُه، ويَمنعُ المحكومَ عليه الخُروجَ عن حُكمِه[1].

﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾: أي: العربِ، الَّذين لم يكُنْ لهم كتابٌ، والأُمِّيُّ هو الَّذي لا يَكتُبُ ولا يَقرَأُ المكتوبَ، وكان أغلَبُ العرَبِ كذلك، قيل: سُمِّيَ الأُمِّيُّ بذلك نِسبةً إلى ما ولَدَتْه عليه أُمُّه، أو نِسبةً إلى أُمِّه؛ لأنَّ الكتابَ كان في الرِّجالِ دونَ النِّساءِ، وقيل: نِسبةً إلى الأُمَّةِ؛ لأنَّه الأصلُ في جِبِلَّةِ الأمَّةِ، والكِتابةُ لا تكونُ إلَّا

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٦).

ويُنظر ما تقدَّم في سورة (الحشر) (٣٧/ ٥٣٩).

(١) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ٦٠)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٦٧)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للسعدي (ص: ١٨٦)، ((شرح العقيدة الواسطية)) للعثيمين (١/ ١٨٨)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٢٢٣).

بتَعَلُّمٍ[(١)].

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي: يُنمِّيهم بالخَيرِ والتَّربيةِ على الأعمالِ الصَّالحةِ، وحثِّهم على الأخلاقِ الجميلةِ، ويُطهِّرُهم مِن الكُفرِ والمَعاصي والرَّذائلِ وسائرِ الخِصالِ الذَّميمةِ، والتَّزكيةُ: التَّطهيرُ، والزَّكاةُ: النَّماءُ والزِّيادةُ، وأصلُ (زكو): يدُلُّ على النَّماءِ والزِّيادةِ والطَّهارةِ[(٢)].

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الحِكمةُ هنا: هي السُّنَّةُ، والحِكمةُ: معرفةُ الحقِّ والعملُ به، والإصابةُ في القولِ والعملِ، وأصلُ (حكم): هو المنعُ، والحِكمةُ هذا قِياسُها؛ لأنَّها تمنَعُ مِن الجهلِ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ بأنَّه يُنزِّهُه تعالى عن النَّقائصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، وهو سُبحانَه المَلِكُ الحَقُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦)، ((تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن)) للسعدي (١/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٤٨).

قال ابنُ القيِّم: (الحِكمةُ هي سُنَّةُ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم، وهي تتضمَّنُ العِلمَ بالحقِّ، والعملَ به، والخبرَ عنه، والأمرَ به). ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: ٩٣).

المتَّصِفُ بالطُّهرِ التَّامِّ، العَزيزُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ.

ثمَّ يذكرُ تعالى جانبًا مِن مَظاهِرِ فضْلِه على خَلقِه، فيقولُ: هو الَّذي أرسَلَ في العَرَبِ رَسولًا أُمِّيًّا مِنهم، يَقرَأُ عليهم آياتِ القُرآنِ، ويُطَهِّرُهم مِن الأخلاقِ الرَّذيلةِ والعقائِدِ المُنحَرِفةِ، ويُعَلِّمُهم القُرآنَ الكريمَ والسُّنَّةَ النَّبَويَّةَ، وقد كانوا قبْلَ إرسالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم في انحرافٍ ظاهرٍ عن الحَقِّ، وكذلك بَعَث اللهُ الرَّسولَ في آخَرينَ مِنهم يأتُونَ بَعْدَهم، واللهُ هو العَزيزُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ. وذلك فَضلٌ مِنَ اللهِ يُعطيه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، واللهُ صاحِبُ الفَضلِ العَظيمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: يُنزِّهُ اللهَ تعالى وَحْدَه عن النَّقائصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ وجَميعُ ما في الأرضِ[1].

﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ﴾.

أي: المَلِكِ الحَقِّ، المالِكِ لجَميعِ الأشياءِ، الكاملِ التَّصَرُّفِ في جميعِ خَلْقِه بما يَشاءُ، المتَّصِفِ بالطُّهرِ التَّامِّ والنَّزاهةِ البالِغةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٥).
وتسبيحُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ تسبيحٌ حقيقيٌّ بلِسانِ المقالِ، وأيضًا بلِسانِ الحالِ.
يُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة (الإسراء) الآية (٤٤)، وأوَّل سورة (الحديد).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٥)، ((نظم الدرر)) =

كما قال اللهُ تعالى حاكيًا قولَ الملائِكةِ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

وعن أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا سلَّمَ مِنَ الوِتْرِ قال: سُبحانَ المَلِكِ القُدُّوسِ -ثلاثَ مرَّاتٍ-، وفي روايةٍ: يُطيلُ في آخِرِهنَّ))[1].

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

أي: العَزيزِ الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، فيَنتَقِمُ مِن أعدائِه ويُذِلُّهم، الحَكيمِ فيما خَلَق وشَرَع وقدَّرَ، فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به[2].

﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾.

= للبقاعي (٢٠/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

(١) أخرجه أبو داودَ (١٤٣٠)، والنسائيُّ (١٦٩٩)، وأحمدُ (٢١١٤٢)، وابنُ حِبَّانَ (٢٤٥٠).
صَحَّحه ابنُ القطَّانِ في ((بيان الوهم والإيهام)) (٥/ ٦١٤)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٢١)، والألبانيُّ في ((صحيح أبي داود)) (١٤٣٠).
وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (١٢٠)، وابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦، ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بعدَما فرَغ مِن التَّوحيدِ والتَّنزيهِ؛ شرَع في النُّبوَّةِ[١].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي أرسَلَ في العَرَبِ رَسولًا أُمِّيًّا مِن جملةِ العَرَبِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥، ٦٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٧٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٥/ ١٦٧-١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٨).

قال الشنقيطي: (﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: العَرَبُ، بالإجماعِ، والرَّسولُ المذكورُ: نَبيُّنا محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إجماعًا). ((أضواء البيان)) (١/ ٤٤).

وقال الماوَرْدي: (وفي تسميتِهم أُمِّيِّينَ قَولانِ؛ أحدُهما: لأنَّه لم يَنزِلْ عليهم كتابٌ، قاله ابنُ زَيدٍ. الثَّاني: لأنَّهم لم يَكونوا يَكتُبون، ولا كان فيهم كاتبٌ، قاله قَتادةُ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ تيميَّةَ، والفيروزابادي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٣٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

قال ابن تيميَّةَ: (الصَّوابُ: أنَّه نِسبةٌ إلى الأُمَّةِ، كما يُقالُ: عامِّيٌّ، نِسبةً إلى العامَّةِ الَّتي لم تَتميَّزْ عن العامَّةِ بما تَمتازُ به الخاصَّةُ، وكذلك هذا لم يتميَّزْ عن الأمَّةِ بما يمتازُ به الخاصَّةُ مِن الكتابةِ والقِراءةِ، ويُقالُ الأُمِّيُّ لِمَن لا يَقرَأُ ولا يَكتُبُ كِتابًا، ثمَّ يُقالُ لِمَن ليس لهم كتابٌ مُنزَّلٌ مِن الله يَقرَؤُونه وإن كان قد يكتبُ ويقرأُ ما لم يُنزَّلْ، وبهذا المعنى كان العربُ كلُّهم أُمِّيِّينَ؛ فإنَّه لم يكُنْ عندَهم كتابٌ مُنزلٌ مِن الله، قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا﴾، وقد كان في العربِ كثيرٌ ممَّن يَكتُبُ ويَقرَأُ المكتوبَ، وكلُّهم أُمِّيُّون، فلمَّا نزَل القرآنُ عليهم لم يَبقوا أُمِّيِّينَ باعتبارِ أنَّهم لا يَقرَؤُون كتابًا مِن حِفظِهم، بل هم يَقرَؤُون القرآنَ مِن حِفظِهم، وأناجيلُهم في صُدورِهم، لكنْ بقُوا أُمِّيِّينَ باعتبارِ أنَّهم لا يَحتاجون إلى كتابةِ دينِهم، بل قرآنُهم محفوظٌ في قُلوبِهم... وبهذا الاعتبارِ فالمسلمونَ أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ بعدَ نُزولِ القرآنِ وحِفظِه...). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٣٥).=

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

أي: يَقرأُ مُحمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- على الأُمِّيِّينَ آياتِ القُرآنِ الَّتي أنزَلَها اللهُ عليه، مع كَونِه أُمِّيًّا مِثْلَهم، ويُطَهِّرُهم مِن الأخلاقِ الرَّذيلةِ والعقائِدِ المُنحَرِفةِ، ويُنَمِّيهم بالإيمانِ والأعمالِ الصَّالِحةِ(١).

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

أي: ويُعَلِّمُهم القُرآنَ الكريمَ والسُّنَّةَ النَّبَويَّةَ، فيَفقَهونَ معانيَ كِتابِ اللهِ، وأحكامَ شَرْعِه(٢).

= وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: أبو عُبَيدةَ، والبغويُّ، والرَّسْعَني، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٨).

قال السمعاني: (فإن قال قائلٌ: لم يكُنْ كلُّ قُرَيشٍ أُمِّيًّا، وقد قال: ﴿فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾؟ والجوابُ: أنَّ اللهَ تعالَى سمَّاهم أُمِّيِّينَ باعتِبارِ غالِبِ أمْرِهم، وقد كانت الكِتابةُ نادِرةً فيهم). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣٠).

وقال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: كانت العربُ أمَّةً لا كِتابَ لهم، ولا يَقرَؤُون كتابًا ولا يَكتُبون). ((البسيط)) (٢١/ ٤٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

قال ابن تيميَّة: (﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: هو الكلامُ المُنزَّلُ الَّذي يُكتبُ، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: هي السُّنَّةُ؛ وهي معرفةُ الدِّينِ والعملُ به). ((النبوات)) (٢/ ٦٧٢). =

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: وقد كان العَرَبُ الأُمِّيُّونَ مِن قَبلِ إرسالِ مُحمَّدٍ إليهم، وإنزالِ القُرآنِ

= وقال ابنُ القيِّم: (﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: هو القُرآنُ، ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: هي السُّنَّةُ، باتِّفاقِ السَّلَفِ، وما أخبَرَ به الرَّسولُ عن اللهِ فهو في وُجوبِ تَصديقِه والإيمانِ به كما أخبَرَ به الرَّبُّ تعالى على لسانِ رَسولِه، هذا أصلٌ مُتَّفَقٌ عليه بيْن أهلِ الإسلامِ، لا يُنكِرُه إلَّا مَن ليس منهم، وقد قال النَّبيُّ: «إنِّي أُوتيتُ الكِتابَ ومِثْلَه معه» [أبو داود «٤٦٠٤»، والترمذي «٢٦٦٤»، وابن ماجه «١٢»، وأحمد «١٧٢١٣» وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» «٤٦٠٤»]). ((الروح)) (ص: ٧٥).

وقال ابنُ رجب: (قَولُه: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: يعني بالكِتابِ: القُرآنَ، والمرادُ: ويُعَلِّمُهم تلاوةَ ألفاظِه، ويعني بالحِكمةِ: فَهْمَ معاني القرآنِ، والعَمَلَ بما فيه، فالحِكمةُ هي: فَهمُ القُرآنِ، والعَمَلُ به، فلا يَكفي تلاوةُ ألفاظِ الكِتابِ حتَّى يُعلَمَ مَعناه، ويُعمَلَ بمُقتَضاه، فمَن جُمِع له ذلك كُلُّه فقد أُوتيَ الحِكمةَ؛ قال تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [البقرة: ٢٦٩]... ومَن قال: «الْحِكْمَةَ»: السُّنَّةُ، فقَولُه الحَقُّ؛ لأنَّ السُّنَّةَ تُفَسِّرُ القُرآنَ، وتُبَيِّنُ مَعانيَه، وتَحُضُّ على اتِّباعِه والعَمَلِ به، فالحكيمُ هو العالمُ المُستنبِطُ لدقائِقِ العِلمِ، المنتَفِعُ بعِلمِه بالعَمَلِ به). ((لطائف المعارف)) (ص: ٨٤، ٨٥).

وممَّن اختار أيضًا أنَّ المرادَ بالكتابِ: القرآنُ، وبالحِكمةِ: السُّنَّةُ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والزمخشري، وابن عطية، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

قال الماوَرْدي: (﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فيه ثلاثةُ تلأويلاتٍ؛ أحدُها: أنَّه القرآنُ، قاله الحسَنُ. الثَّاني: أنَّه الخطُّ بالقلَمِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ؛ لأنَّ الخطَّ إنَّما فشَا في العربِ بالشَّرعِ لما أُمِروا بتقييدِه بالخطِّ. الثَّالثُ: معرفةُ الخَيرِ والشَّرِّ كما يَعرِفونه بالكتابِ؛ لِيَفعَلوا الخَيرَ، ويَكُفُّوا عن الشَّرِّ، وهذا معنى قولِ محمدِ بنِ إسحاقَ.

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ فيه ثلاثةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: أنَّ الحِكمةَ السُّنَّةُ، قاله الحسَنُ. الثَّاني: أنَّه الفِقهُ في الدِّينِ، وهو قولُ مالكِ بنِ أنَسٍ. الثَّالثُ: أنَّه الفَهمُ والاتِّعاظُ، قاله الأعمشُ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦).

واختار الرَّازيُّ أنَّ الحِكمةَ: هي الفرائضُ، واختار السَّمَرْقَنْديُّ أنَّها الحلالُ والحرامُ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧).

عليهم: في انحرافٍ ظاهرٍ عن الحَقِّ[(١)].

﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾.

أي: وبَعَث اللهُ الرَّسولَ في آخَرينَ مِنهم يأتُونَ بَعْدَهم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥١، ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٠).

قال البيضاوي: (هو بيانٌ لشِدَّةِ احتياجِهم إلى نبيٍّ يُرشِدُهم، وإزاحةٌ لِما يُتوهَّمُ أنَّ الرَّسولَ تَعلَّمَ ذلك مِن مُعلِّمٍ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٨، ٦٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٨).

قال السمين الحلبي: (قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ فيه وجهان:

أحدُهما: أنَّه مجرورٌ عطفًا على ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، أي: وبَعَثَ في آخَرينَ مِن الأمِّيِّينَ. و ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ صفةٌ لـ «آخَرينَ» قبْلُ.

والثَّاني: أنَّه منصوبٌ عَطْفًا على الضَّميرِ المنصوبِ في «يُعَلِّمُهم»، أي: ويُعَلِّمُ آخَرينَ لم يَلْحقوا بهم وسيَلْحقون، وكلُّ مَنْ يَعْلَمُ شريعةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى آخِرِ الزَّمانِ فرسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مُعَلِّمُه بالقوَّةِ؛ لأنَّه أصْلُ ذلك الخَيرِ العظيمِ، والفَضلِ الجَسيمِ). ((الدر المصون)) (١٠/ ٣٢٥).

واختلَف المفسِّرونَ في المرادِ بالآخَرينَ؛ على أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّهم العَجَمُ.

الثَّاني: أنَّهم التَّابعون مِن أبناءِ العَرَبِ.

الثَّالثُ: أنَّهم جميعُ مَن دخَل في الإسلامِ إلى يومِ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨١).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ المرادَ بالآخَرينَ: الأعاجِمُ، ومَن لم يَتكَلَّمْ بلُغةِ العَرَبِ-: الواحديُّ ونسَبَه إلى قولِ المفسِّرينَ، وهو ظاهرُ اختيارِ الرَّازيِّ، واختاره القُرطبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) =

= للواحدي (٤/ ٢٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عُمرَ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨١).

قال الواحدي: (قولُه: ﴿مِنْهُمْ﴾؛ لأنَّهم إذا أسلَموا صاروا منهم، والمُسلِمونَ كُلُّهم يدٌ واحِدةٌ، وأمَّةٌ واحدةٌ، وإن اختَلَفَت أجناسُهم). ((الوسيط)) (٤/ ٢٩٤).

وقال الواحديُّ أيضًا: (وقولُ المفسِّرينَ: هم الأعاجمُ، يَعنون بالأعاجِمِ مَن ليس مِن العربِ، والعربُ تُسمِّي مَن لا يَتكلَّمُ بلُغَتِهم عجَميًّا، مِن أيِّ جنسٍ كان). ((البسيط)) (٢١/ ٤٤٦).

وخصَّهم ابنُ جُزَي بفارِسَ؛ لِوُرودِ ذلك في الحديثِ الصَّحيحِ: ((أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم سُئل: مَن هؤلاء الآخَرونَ؟ فأخَذ بيَدِ سَلْمانَ الفارِسيِّ، وقال: لو كان العِلمُ بالثُّرَيَّا، لَنالَه رِجالٌ مِن هؤلاء، يعني: فارِسَ)). يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٣).

وقال ابن رجب: (الأُمِّيُّون هم العربُ، والآخَرونَ الَّذين لم يَلحَقوا بهم هم أهلُ فارِسَ والرُّومُ، فكانت أهلُ فارِسَ مجوسًا، والرُّومُ نصارى، فهدى الله تعالى جميعَ هؤلاء برسالةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى التَّوحيدِ). ((لطائف المعارف)) (ص: ٨٥).

واختار البِقاعي أنَّ المعنى: بَعَثَه في آخَرينَ ﴿مِنْهُمْ﴾ في الأُمِّيَّةِ لا في العَرَبيَّةِ، كعَوامِّ المَجوسِ واليهودِ والنَّصارى والبَرابِرِ، ونحوِهم مِن طوائِفِ العَجَمِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٣).

وذكر ابنُ عطيَّةَ أنَّ قَولَه تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ بِناءً على القولِ بأنَّهم الأعاجمُ: إنَّما يريدُ في البَشَريَّةِ والإيمانِ، كأنَّه قال: وفي آخَرينَ مِنَ النَّاسِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٧).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أنَّهم التَّابِعونَ مِن هذه الأمَّةِ مِن العربِ ممَّن بَقيَ منهم-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧).

قال ابن عطيَّة: (قال مجاهِدٌ وعِكْرِمةُ ومُقاتِلٌ: أراد التَّابِعينَ مِن أبناءِ العَرَبِ، فقَولُه: ﴿مِنْهُمْ﴾ يريدُ به النَّسَبَ والإيمانَ). يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٧).

وقال الشَّوكاني: (الضَّميرُ في ﴿مِنْهُمْ﴾ و﴿بِهِمْ﴾ راجعٌ إلى الأُمِّيِّينَ، وهذا يؤيِّدُ أنَّ المرادَ بالآخَرينَ: هم مَن يأتي بعدَ الصَّحابةِ مِن العربِ خاصَّةً إلى يومِ القيامةِ، وهو صلَّى اللهُ عليه =

= وسلَّم وإن كان مُرسَلًا إلى جميعِ الثَّقَلَينِ، فتَخصيصُ العرَبِ هاهنا؛ لقَصدِ الامتنانِ عليهم، وذلك لا يُنافي عُمومَ الرِّسالةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٨).

وممَّن ذهب إلى القولِ الثَّالثِ وقال بالعُمومِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وهو ظاهرُ اختيارِ الزمخشري، والبيضاوي، وأبي السعود، واختاره القاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٦٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ، والضَّحَّاكُ، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٠٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٥٣).

قال ابنُ جرير: (عُنيَ بذلك كلُّ لاحِقٍ لَحِقَ بالَّذين كانوا صَحِبوا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم في إسلامِهم مِن أيِّ الأجناسِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عمَّ بقولِه: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ كلَّ لاحِقٍ بهم مِن آخَرينَ، ولم يَخْصُصْ منهم نَوعًا دونَ نَوعٍ، فكلُّ لاحِقٍ بهم فهو مِن الآخَرينَ الَّذي لم يَكونوا في عِدادِ الأوَّلِينَ الَّذين كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَتلو عليهم آياتِ الله). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣١).

وقال الزَّجَّاجُ: (وبَعَثَ في الَّذين لم يَلحَقوا بهم، أي: في آخَرينَ منهم لَمَّا يَلْحَقوا بهم، فالنَّبيُّ عليه السَّلامُ مَبعوثٌ إلى مَن شاهَدَه، وإلى كلِّ مَن كان بَعْدَهم مِن العربِ والعجَمِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٦٩).

وقال البيضاوي: (وهم الَّذين جاؤُوا بعدَ الصَّحابةِ إلى يومِ الدِّينِ؛ فإنَّ دَعوتَه وتعليمَه يَعُمُّ الجميعَ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١).

وقال ابن عطيَّةَ بِناءً على هذا القولِ: (ويكونُ ﴿مِنْهُمْ﴾ في البَشَريَّةِ والإيمانِ). يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٧).

وقال أبو حيَّانَ بعدَ أن ذكر عددًا مِن الأقوالِ في معنى الآيةِ: (ويَنبغي أن تُحملَ هذه الأقوالُ على التَّمثيلِ، كما حمَلوا قولَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ في فارِسَ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧١).

قال الواحدي: (جميعُ الأقوالِ في هذا معناها أنَّ المرادَ بالآخَرينَ: كُلُّ مَن دخل في الإسلامِ بعدَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى يومِ القيامةِ). ((البسيط)) (٢١/ ٤٤٦).

واختُلِف في قولِه تعالى: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾، قال الرَّسْعَني: (قولُه تعالى: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ أي: لم =

= يَلحَقوا بهم بعدُ، أو لم يَلحَقوا بهم في الفضيلةِ والسَّبقِ؛ لأنَّ التَّابعينَ إلى يوم القيامةِ لم يُدرِكوا فضلَ الصَّحابةِ رضيَ الله عنهم أجمعينَ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٢٠).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أي: لم يَكونوا في زمانِهم ولم يُدرِكوهم، وسيَجيئون بعدَهم وسيَلْحَقون بهم-: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، والخازن، وابن جُزَي، وأبو حيان، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٤٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٨٩).

قال ابن جُزَي: (﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ بالنَّفي، وسيَلحَقون؛ وذلك أنَّ «لَمَّا» لِذِكْرِ الماضي القريبِ مِن الحالِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٣)

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الواحديُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٩).

قال الواحدي: (قولُه: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ أي: في الفضلِ والسَّابقةِ؛ لأنَّ التَّابعينَ لا يُدرِكون شأْوَ الصَّحابةِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٩٤).

وقال ابن القيِّم: (الأوَّلونَ: هم الَّذين أدرَكوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصَحِبوه، والآخَرون: هم الَّذين لَمْ يَلحَقوهم، وهم كلُّ مَن بَعْدَهم على مِنهاجِهم إلى يومِ القيامةِ؛ فيكونُ التَّأخُّرُ وعَدَمُ اللَّحاقِ في الزَّمانِ.

وفي الآيةِ قَولٌ آخَرُ: أنَّ المعنى: لَمْ يَلحَقوا بهم في الفَضلِ والمرتَبةِ، بل هم دونَهم؛ فيكونُ عدمُ اللَّحاقِ في الرُّتبةِ، والقَولانِ كالمتلازِمَينِ؛ فإنَّ مَن بَعْدَهم لا يَلحَقونَ بهم لا في الفَضلِ ولا في الزَّمانِ، فهؤلاء الصِّنفانِ هم السُّعَداءُ، وأمَّا مَن لم يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذي بَعَثَ به رَسولَه، ولم يَرْفَعْ به رَأسًا؛ فهو مِن الصِّنفِ الثَّالِثِ، وهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾). ((الرسالة التبوكية)) (ص: ٥٤).

وقال السعدي: (﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ أي: وامتَنَّ على آخَرينَ مِن غيرِهم، أي: مِن غيرِ الأُمِّيِّينَ، ممَّن يأتي بعدَهم، ومِن أهلِ الكتابِ، ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾، أي: فيمَن باشَرَ دَعوةَ الرَّسولِ. ويحتملُ أنَّهم لَمَّا يَلحَقوا بهم في الفضلِ، ويحتملُ أن يَكونوا لَمَّا يَلحَقوا بهم في الزَّمانِ، وعلى =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا جُلوسًا عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذ نزَلَت عليه سُورةُ الجُمُعةِ، فلمَّا قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ قال رجُلٌ: مَنْ هؤلاء يا رَسولَ اللهِ؟ فلم يُراجِعْه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى سأله مرَّةً أو مرَّتَينِ أو ثلاثًا، قال: وفينا سَلْمانُ الفارِسيُّ، فوَضَع النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدَه على سَلْمانَ، ثمَّ قال: لو كان الإيمانُ عِندَ الثُّرَيَّا[1] لَناله رِجالٌ مِن هؤلاء!))[2].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو العَزيزُ الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، وهو الحكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[3].

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤﴾.

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: ذلك فَضلٌ مِنَ اللهِ تَفَضَّل به، واللهُ يُعطي فَضْلَه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه بحَسَبِ

= كلٍّ، فكِلا المعنيَينِ صحيحٌ؛ فإنَّ الَّذين بعَثَ الله فيهم رسولَه وشاهَدوه وباشَروا دَعوتَه، حصَل لهم مِن الخصائصِ والفضائلِ ما لا يُمكِنُ أحدًا أن يَلحَقَهم فيها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

(١) الثُّرَيَّا: نَجمٌ معروفٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٤٢).

(٢) رواه البخاري (٤٨٩٧) واللفظُ له، ومسلم (٢٥٤٦).

قال ابنُ عاشور: (اعلَمْ أنَّ قَولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «لو كان الإيمانُ بالثُّرَيَّا لَناله رجالٌ مِن هؤلاء»: إيماءٌ إلى مِثالٍ مِمَّا يَشملُه قَولُه تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ﴾؛ لأنَّه لم يُصَرِّحْ في جوابِ سؤالِ السَّائِلِ بلَفظٍ يَقتضي انحصارَ المرادِ بـ «آخَرينَ» في قَومِ سَلْمانَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

ما تَقتَضيه حِكمَتُه سُبحانَه[١].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٣)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١١٦، ١١٧).

قيل: الإشارةُ إلى ما تقدَّم مِن إرسالِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالآياتِ إلى العربِ ومَن بَعْدَهم، والتَّزكيةِ وتَعليمِ الكِتابِ والحِكمةِ؛ فالإشارةُ إلى جميعِ المذكورِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٣).

وقيل: فَضْلُ اللهِ هنا هو: الإسلامُ، يُعطيه اللهُ تعالى لِمَن يشاءُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٩٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٥٣).

وقيل: المرادُ: النُّبُوَّةُ، أي: ذلك الفَضلُ الَّذي أعطاه محمَّدًا، وهو أن يكونَ نبيَّ أبناءِ عَصرِه وأبناءِ العُصورِ التَّاليةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: السمعانيُّ، والزمخشري، والنسفي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٢).

قال ابن كثير: (قوله: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ يعني: ما أعطاه الله محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن النُّبوَّةِ العظيمةِ، وما خصَّ به أُمَّتَه مِن بَعثتِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ إليهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٧).

وقال البِقاعي: (﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: الأمرُ العظيمُ الرُّتبةِ مِن تَفضيلِ الرَّسولِ وقَومِه، وجَعْلِهم مَتبوعينَ بعدَ أن كان العرَبُ أتْباعًا لا وَزْنَ لهم عندَ غَيرِهم مِن الطَّوائِفِ ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ ﴾). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٥٤).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٣).

بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ۞ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [آل عمران: ٧٢ - ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾.

أي: واللهُ صاحِبُ الفَضلِ العَظيمِ الَّذي يَقِلُّ معه كُلُّ فَضلٍ مِن غَيرِه، فلا يُساويه ولا يُدانيه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ أنَّ مَن حَصَل له نصيبٌ مِن دِينِ الإسلامِ فقد حَصَل له الفَضلُ العَظيمُ، وقد عَظُمَتْ عليه نِعمةُ اللهِ، فما أحْوَجَه إلى القيامِ بشُكرِ هذه النِّعمةِ، وسؤالِه دوامَها، والثَّباتَ عليها إلى المماتِ، والموتَ عليها؛ فبذلك تَتِمُّ النِّعمةُ[٢]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فيه سؤالٌ: لم يَقُلْ: (يُسَبِّحُ اللهَ)، فما الفائِدةُ؟

الجوابُ: هذا مِن جملةِ ما يَجْري فيه اللَّفظانِ: كشَكَرَه وشكَرَ له، ونصَحَه ونصَحَ له[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٣٧).

٢- إنْ قيل: لمَ جاز ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، و﴿مَا﴾ إنَّما يقَعُ على ما لا يعقِلُ، والتَّسبيحُ إنَّما هو لمَن يعقِلُ؟

وعن هذا جوابانِ:

أحدُهما: أنَّ ﴿مَا﴾ هاهنا بمعنى (مَن) فهما يتناوبانِ، بمعنَى أنَّ أحدَهما يقعُ مكانَ الآخَرِ، يدلُّ على ذلك قولُه تعالى هنا: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفي آيةٍ أُخرَى ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النور: ٤١]، وإن كان الأكثرُ استعمالًا أنَّ (ما) لغيرِ العاقِلِ، و (مَنْ) للعاقلِ.

والثاني: أنَّ (ما) أعمُّ مِن (مَن)، وذلك أنَّها تقعُ على ما لا يعقِلُ وعلى صفاتِ مَن يعقِلُ، فقد شاركت (من) فيمَن يعقِلُ، وزادت عليها بكونِها لما لا يعقِلُ، فصارت أعمَّ منها، فجاءَتْ لتدلَّ على أنَّ التَّسبيحَ عامٌّ مِن العاقلِ وغيرِ العاقلِ، ويدلُّ على هذا قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[1] [الإسراء: ٤٤].

وأيضًا فمجيئُها هنا لغيرِ العاقلِ تغليبًا له؛ لكثرتِه، فتكونُ شاملةً للعاقلِ مِن بابِ أولَى[2].

٣- حيث وقَع في القرآنِ ذِكرُ الأرضِ فإنَّها مُفرَدةٌ ولم تُجمَعْ؛ لِثِقَلِ جَمعِها، وهو أرَضونَ، ولهذا لَمَّا أُريدَ ذِكرُ جميعِ الأرَضينَ قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وأمَّا السَّماءُ فذُكِرتْ تارةً بصيغةِ الجَمعِ -الدَّالَّةِ على سَعةِ العظَمةِ والكثرةِ- وتارةً بصيغةِ الإفرادِ، وذلك إذا أُريدَ الجهةُ؛ لِنُكَتٍ تليقُ بذلك المحلِّ[3]،

(١) يُنظر: ((النكت في القرآن الكريم)) لأبي الحسن القيرواني (ص: ٤٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤).

(٣) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٣٥٥).

فانظُرْ كيف جاءت مجموعةً في قولِه تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في جميعِ السُّوَرِ، لَمَّا كان المرادُ الإخبارَ عن تَسبيحِ سُكَّانِها -على كَثرتِهم، وتبايُنِ مَراتبِهم- لم يَكُنْ بُدٌّ مِن جَمْعِ مَحَلِّهم، ونظيرُ هذا جَمْعُها في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾[1] [الأنبياء: ١٩].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: ما وَجهُ الامتنانِ بأنْ بَعَث نَبيًّا أُمِّيًّا؟

الجوابُ عنه مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: لِمُوافَقتِه ما تقَدَّمَت بِشارةُ الأنبياءِ به.

الوجهُ الثَّاني: لمُشاكلةِ حالِه لأحوالِهم، فيكونُ أقرَبَ إلى موافقتِهم.

الوجهُ الثَّالثُ: لِيَنتفيَ عنه سوءُ الظَّنِّ في تعَلُّمِه ما دعا إليه مِنَ الكتُبِ الَّتي قرَأَها، والحِكَمِ الَّتي تلاها[2].

٥- الأُمِّيُّونَ هم العَرَبُ، وتخصيصُ ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ بالذِّكْرِ لا يَنفي مَن عَدَاهم، ولكِنَّ المِنَّةَ عليهم أبلَغُ وآكَدُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وهو ذِكرٌ لِغَيرِهم يتَذَكَّرونَ به، وكذا قَولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وهذا وأمثالُه لا يُنافي قَولَه تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقَولَه تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقولَه تعالى إخبارًا عن القُرآنِ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦).

الدَّالَّةِ على عُمومِ بَعْثَتِه -صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه- إلى جميعِ الخَلْقِ؛ أحمَرِهم وأسْوَدِهم[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ ذِكْرُ الآياتِ الشَّرعيَّةِ -وهي: ما أنْزَلَه اللهُ تعالى على رُسُلِه مِن الشَّرائعِ-، ويقابِلُها الآياتُ الكَونيَّةُ -وهي: مخلوقاتُه، كالشَّمسِ، والقَمَرِ، والنُّجومِ، والإنسانِ، وغيرِ ذلك-، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[٢] [فصلت: ٣٧].

٧- البَعثُ بَعثانِ: كَوْنيٌّ، ودينيٌّ؛ ففي قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ذِكْرُ البَعثِ الدِّينيِّ، وفي قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥] ذِكرُ البعثِ الكَونيِّ[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هذه الآيةُ نَصٌّ في أنَّ اللهَ تعالى استجابَ دَعوةَ نَبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ فيهم[٤]، وهي قولُه: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

٩- التَّزَكِّي يَحصُلُ بامتِثالِ أمرِ الرَّسولِ، وإن كان صاحِبُه لا يتذكَّرُ عُلومًا عنه، كما قال تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ فالتِّلاوةُ عليهم والتَّزكيةُ عامٌّ لجميعِ المؤمنينَ، وتعليمُ الكِتابِ والحِكمةِ خاصٌّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١١٥).

بِبَعْضِهم، وكذلك التزكِّي عامٌّ لكلِّ مَنْ آمَنَ بالرَّسولِ، وأمَّا التَّذَكُّرُ فهو مختَصٌّ لِمَن له عُلومٌ يُذَكَّرُها، فعَرَفَ بتَذَكُّرِه ما لم يَعلَمْه غَيرُه مِن تِلْقاءِ نَفْسِه(١).

١٠- قولُه تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ في وَصْفِ الرَّسولِ الأُمِّيِّ بأنَّه يتْلو على الأُمِّيِّينَ آياتِ اللهِ، أي: وحْيَه، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: يُلقِّنُهم إيَّاه كما كانَتِ الرُّسلُ تُلقِّنُ الأُمَمَ الكتابَ بالكِتابةِ، ويُعلِّمُهُم الحِكمةَ الَّتي علَّمَتْها الرُّسلُ السَّابقونَ أُمَمَهُم -في كلِّ هذِه الأوصافِ تَحَدٍّ بمُعجزةِ الأُمِّيَّةِ في هذا الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: هو مع كَونِه أُمِّيًّا قد أتى أُمَّتَه بجميعِ الفوائدِ الَّتي أتى بها الرُّسُلُ غيرُ الأُمِّيِّينَ أُمَمَهم، ولم يَنقُصْ عنهم شيئًا، فتمَحَّضَتِ الأُمِّيَّةُ للكَونِ مُعجزةً حصَلَ مِن صاحبِها أفضلُ ممَّا حصَلَ مِنَ الرُّسلِ الكاتِبينَ مِثْلِ موسى عليه السَّلامُ(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الرَّدُّ على قَولِ القائلِ: «إنَّه لا يُتَعَرَّضُ لأحاديثِ الصِّفاتِ وآياتِها عندَ العَوامِّ؛ ولا يُكتَبُ بها إلى البلادِ ولا في الفَتاوى المتعَلِّقةِ بها»؛ فإنَّ ذلك يَتضمَّنُ إبطالَ أعظمِ أصولِ الدِّينِ ودَعائمِ التَّوحيدِ، وإنَّ أسوأَ أحوالِ العامَّةِ أنْ يكونوا أُمِّيِّينَ، فهل يجوزُ أنْ يُنهَى أنْ يُتلى على الأُمِّيِّينَ آياتُ اللهِ، أو عن أنْ يُعَلَّمَ الكِتابُ والحِكمةُ؟! ومَعلومٌ أنَّ جميعَ مَن أُرسِلَ إليه الرَّسولُ مِن العَرَبِ كانوا قبْلَ مَعرفةِ الرِّسالةِ أجهَلَ مِن عامَّةِ المؤمِنينَ اليومَ، فهل كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممنوعًا مِن تلاوةِ ذلك عليهم وتعليمِهم إيَّاه، أو مأمورًا به؟! أَوَليس هذا مِن أعظَمِ الصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ؟! وقد قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٩).

ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ ﴾ [آل عمران: ٩٩] الآيةَ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ تَنبيهٌ للعَرَبِ على قَدْرِ هذه النِّعمةِ وعِظَمِها؛ حيثُ كانوا أُمِّيِّينَ لا كِتابَ لهم، وليس عِندَهم شَيءٌ مِن آثارِ النُّبُوَّاتِ كما كان عندَ أهلِ الكِتابِ، فمَنَّ اللهُ عليهم بهذا الرَّسولِ وبهذا الكِتابِ حتَّى صاروا أفضَلَ الأُمَمِ وأعْلَمَهم، وعَرَفوا ضَلالةَ مَن ضَلَّ مِن الأُمَمِ قَبْلَهم، وفي كَونِه منهم فائِدتانِ:

إحداهما: أنَّ هذا الرَّسولَ كان أيضًا أُمِّيًّا كأُمَّتِه المبعوثِ إليهم، لم يَقرأْ كتابًا قَطُّ، ولم يَخُطَّه بيَمينِه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] الآياتِ، ولا خَرَجَ عن ديارِ قَومِه فأقام عندَ غيرِهم حتَّى تَعَلَّمَ منهم شَيئًا، بل لم يَزَلْ أُمِّيًّا بيْنَ أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ لا يَكتُبُ ولا يَقرأُ، ثُمَّ جاء بعدَ ذلك بهذا الكتابِ المبينِ، وهذه الشَّريعةِ الباهِرةِ، وهذا الدِّينِ القَيِّمِ الَّذي اعترفَ حُذَّاقُ أهلِ الأرضِ ونُظَّارُهم أنه لم يَقْرَعِ العالَمَ ناموسٌ أعظَمُ منه، وفي هذا برهانٌ ظاهرٌ على صِدْقِه.

والفائدةُ الثَّانيةُ: التَّنبيهُ على أنَّ المبعوثَ منهم -وهم الأُمِّيُّون خُصوصًا أهلَ مكَّةَ- يَعرِفونَ نَسَبَه وشَرَفَه، وصِدْقَه وأمانتَه وعِفَّتَه، وأنَّه نَشَأَ بيْنَهم مَعروفًا بذلك كُلِّه؛ وأنَّه لم يَكذِبْ قَطُّ؛ فكيف كان يَدَعُ الكَذِبَ على النَّاسِ ثُمَّ يَفتَري الكَذِبَ على اللهِ عزَّ وجلَّ؟! فهذا هو الباطِلُ، ولذلك سألَ هِرَقْلُ عن هذه الأوصافِ، واستَدلَّ بها على صِدْقِه فيما ادَّعاه مِن النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أنَّه إذا قُرِنَتِ الحِكمةُ بالكتابِ،

---

(١) يُنظر: ((التسعينية)) لابن تيمية (١/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٨٣). ويُنظر البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

فالمرادُ بها السُّنَّةُ، لأنَّ السُّنَّةَ أيضًا تتضمَّنُ الحِكمةَ، واللهُ عزَّ وجلَّ لَمْ يَصِفِ السُّنَّةَ بالحِكمةِ لأنَّ القرآنَ ليس فيه حكمةٌ! ولكنْ لَمَّا كان القرآنُ مِن عندِ اللهِ، وكلامَ اللهِ؛ فإنَّ احتمالَ ألَّا يَتضمَّنَ الحِكمةَ بعيدٌ جدًّا، إلَّا أنَّه لَمَّا كانتِ السُّنَّةُ مِن كلامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فإنَّ كلامَ البشرِ قد يَرِدُ عليه احتمالُ ألَّا يكونَ مُشتَمِلًا على الحِكمةِ؛ فبَيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ السُّنَّةَ حِكمةٌ وإنْ كانت مِن كلامِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أو مِن فِعْلِه؛ فإنَّها حِكمةٌ لأنَّها مُوافِقةٌ للصَّوابِ[1].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ إشارةٌ إلى ما كان النَّاسُ عليه قبْلَ إنزالِ هذا الكِتابِ مِن الضَّلالِ؛ فإنَّ اللهَ نَظَرَ حينَئذٍ إلى أهلِ الأرضِ فمَقَتَهم، عَرَبَهم وعَجَمَهم، إلَّا بقايا مِن أهلِ الكتابِ[2] تمسَّكوا بدينِهم الَّذي لم يُبَدَّلْ ولم يُغَيَّرْ، وكانوا قليلًا جدًّا، فأمَّا عامَّةُ أهلِ الكِتابِ فكانوا قد بَدَّلُوا كُتُبَهم وغَيَّروها وحَرَّفوها، وأدْخَلوا في دينِهم ما ليس منه، فضَلُّوا وأضَلُّوا، وأمَّا غيرُ أهلِ الكتابِ فكانوا على ضَلالٍ بَيِّنٍ؛ فالأُمِّيُّون أهلُ شِرْكٍ يَعبدونَ الأوثانَ، والمجوسُ يَعبُدونَ النِّيرانَ، ويقولونَ بإلهَينِ اثنَينِ! وكذلك غَيْرُهم مِن أهلِ الأرضِ؛ منهم مَن كان يَعبُدُ النُّجومَ، ومنهم مَن كان يَعبُدُ الشَّمسَ أو القَمَرَ؛ فهدى اللهُ المؤمِنينَ بإرسالِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى ما جاء به مِن الهُدى والدِّينِ الحَقِّ، وأظهَرَ اللهُ دينَه حتَّى بَلَغَ مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها؛ فظَهَرتْ فيها كَلِمةُ التَّوحيدِ والعَمَلُ بالعَدلِ بعدَ أنْ كانتِ الأرضُ كلُّها ممتلئةً مِن الشِّركِ والظُّلمِ، فالأُمِّيُّون همُ العَرَبُ، والآخَرونَ الَّذين لم يَلْحَقوا بهم هم أهلُ فارِسَ والرُّومُ -وذلك على قولٍ-، فكانت أهلُ فارِسَ مجوسًا، والرُّومُ نصارى؛ فهدى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر الحديثُ الَّذي رواه مسلم (٢٨٦٥) عن عِيَاضٍ المُجاشِعيِّ رضيَ الله عنه.

اللهُ جميعَ هؤلاء برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى التَّوحيدِ[١].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ فيه تفضيلُ الصَّحابةِ على مَن سِواهم[٢]. على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ قال بعضُ المحَقِّقينَ: (في الآيةِ مُعجِزةٌ مِن مُعجزاتِ النُّبُوَّةِ، وذلك في الإخبارِ عن غَيبٍ وَقَع، والبِشارةِ بدُخولِ أُمَمٍ غيرِ العَرَبِ -على قولٍ- في الإسلامِ قد حصل، فقد صارت تلك الأُمَمُ الَّتي أسلَمَت: مِنَ العَرَبِ؛ لأنَّ بلادَهم صارت بلادَ العَرَبِ، ولُغتُهم لغةَ العَرَبِ، وكذلك دينُهم وعاداتُهم، حتَّى أصبَحوا مِن العَرَبِ جنسًا ودِينًا ولُغةً، وحتَّى صار لفظُ العَرَبِ يُطلَقُ على كلِّ المسلِمينَ مِن جَميعِ الأجناسِ؛ لأنَّهم أمَّةٌ واحِدةٌ ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، فصَدَق اللهُ العظيمُ)[٣].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ فيه دَلالةٌ على عُمومِ رِسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لجَميعِ الأُمَمِ[٤]، وأنَّه مَبعوثٌ إلى جميعِ الخَلْقِ[٥]، وفي ذلك رَدٌّ على شُبهةِ عَوَامِّ بني إسرائيلَ، وهي أنَّ علماءَهم يقولونَ: «إنَّ محمَّدًا عَرَبيٌّ، واللهُ جلَّ وعلا يقولُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾»، ثُمَّ لا يَذْكرونَ قولَه تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، فيُشَبِّهُونَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٧).

١٨- قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ لذلك فالفَضائِلُ لا يُسْأَلُ عنها؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَصِلُ فيها إلى نتيجةٍ، وقد لا يَصِلُ، فكما أنَّ اللهَ تعالى فَضَّل بني آدَمَ بَعْضَهم على بَعضٍ في الرِّزقِ، وفي كمالِ الأخلاقِ والآدابِ، وكذلك فَضَّل بَعْضَهم على بَعضٍ في العِلْمِ، وكذلك في البَدَنِ والفِكْرِ وغَيرِ ذلك؛ فاللهُ تعالى يُؤتي فَضْلَه مَن يَشاءُ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالإخبارِ عن تَسبيحِ أهلِ السَّمواتِ والأرضِ للهِ تعالَى بَراعةُ استِهلالٍ[(٢)]؛ لأنَّ الغرضَ الأوَّلَ مِنَ السُّورةِ التَّحريضُ على شُهودِ الجُمُعةِ، والنَّهيُ عن الأشغالِ الَّتي تَشغَلُ عن شُهودِها، وزَجْرُ فَريقٍ مِنَ المُسلِمينَ انصَرَفوا عن صَلاةِ الجُمُعةِ؛ حِرصًا على الابتياعِ مِن عِيرٍ وردَتِ المدينةَ في وقتِ حُضورِهِم لصلاةِ الجُمُعةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٠٧).

(٢) براعةُ الاستِهلالِ: هي كَونُ ابتداءِ الكلامِ مُناسِبًا للمقصودِ، وأنْ يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على ما يُناسِبُ حالَ المتكلِّمِ، مُتضمِّنًا لِمَا سِيقَ الكلامُ مِن أجْلِه مِن غيرِ تصريحٍ، بلْ بأَلْطَفِ إشارةٍ يُدرِكُها الذَّوقُ السَّليمُ، ومِن أحسَنِ صُوَرِ براعةِ الاستِهلالِ مَوقِعًا، وأبلَغِها معنًى: فواتحُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، ومنها الحُروفُ المقطَّعةُ؛ فإنَّها تُوقِظُ السَّامِعينَ للإصغاءِ إلى ما يَرِدُ بعدَها؛ لأنَّهم إذا سمِعوها مِن النَّبيِّ الأُمِّيِّ عَلِموا أنَّها والمَتْلُوَّ بعْدَها مِن جِهةِ الوحيِ، وفيها تنبيهٌ على أنَّ المتلوَّ عليهم مِن جِنسِ ما يَنظِمونَ منه كلامَهم، مع عجْزِهم عن أنْ يأتوا بمِثلِه. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٥)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم (١/ ٥٣)، ((علوم البلاغة)) لأحمد المراغي (ص: ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٦).

- وأُوثِرَ المضارعُ في قولِه: ﴿يُسَبِّحُ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ أهلَ السَّمواتِ والأرضِ يُجدِّدونَ تَسبيحَ اللهِ، ولا يَفْتُرونَ عنه[١].

- وقيل: جاءَ فِعلُ التَّسبيحِ في هذه السُّورةِ مضارعًا، وجِيءَ به في سِواها -سُورة الحديدِ والحَشرِ والصَّفِّ- ماضيًا؛ لمُناسَبةٍ فيها، وهي: أنَّ الغرَضَ منها التَّنويهُ بصلاةِ الجُمُعةِ، والتَّنديدُ على نَفَرٍ قُطِعوا عن صَلاتِهم وخرَجوا لتجارةٍ أو لَهْوٍ؛ فمُناسِبٌ أنْ يُحكَى تسبيحُ أهلِ السَّمواتِ والأرضِ بما فيه دَلالةٌ على استِمرارِ تسبيحِهم وتجَدُّدِه؛ تَعريضًا بالَّذينَ لم يُتِمُّوا صلاةَ الجُمُعةِ[٢].

- قولُه: ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ وصْفُ مُبالَغةٍ. وعُقِّبَ بوَصْفِ ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ وصْفُ ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ للاحتِراسِ؛ إشارةً إلى أنَّه مُنزَّهٌ عن نَقائصِ المُلوكِ المعروفةِ، مِن الغُرورِ، والاسترسالِ في الشَّهواتِ، ونحْوِ ذلك مِن نَقائصِ النُّفوسِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ...﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشِئٌ عن إجراءِ الصِّفاتِ المذكورةِ آنِفًا على اسمِ الجلالةِ؛ إذْ يَتساءَلُ السَّامِعُ عن وجهِ تخصيصِ تلك الصِّفاتِ بالذِّكْرِ مِن بَينِ صِفاتِ اللهِ تعالَى، فكان الحالُ مُقتضِيًا أنْ يُبيَّنَ شَيءٌ عظيمٌ مِن تعلُّقِ تلك الصِّفاتِ بأحوالِ خَلْقِه تعالَى؛ إذْ بعَثَ فيهم رسولًا يُطهِّرُ نُفوسَهم ويُزكِّيهم ويُعلِّمُهم، فصِفةُ ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ تعلَّقَتْ بأنْ يُدبِّرَ أمْرَ عِبادِه ويُصلِحَ شُؤونَهم، وصِفةُ ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ تعلَّقَتْ بأنْ يُزكِّيَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٢٠).

نُفوسَهم، وصفةُ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ اقتضَتْ أنْ يُلحِقَ الأُمِّيِّينَ مِن عبادِه بمراتبِ أهلِ العِلمِ، ويُخرِجَهُم مِن ذِلَّةِ الضَّلالِ؛ فيَنالوا عِزَّةَ العِلمِ وشرَفَه، وصِفةُ ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ اقتضَتْ أنْ يُعلِّمَهمُ الحِكمةَ والشَّريعةَ[١].

- وابتداءُ الجُملةِ بضميرِ اسمِ الجَلالةِ؛ لتكونَ جُملةً اسميَّةً، فتُفيدَ تقويةَ هذا الحُكمِ وتأكيدَه، أي: إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مبعوثٌ مِنَ اللهِ لا مَحالةَ[٢].

- حرْفُ (فِي) مِن قولِه: ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ للظَّرفيَّةِ، أي: ظرفيَّةِ الجماعةِ ولأحَدِ أفرادِها، ويُفهَمُ مِنَ الظَّرفيَّةِ معنى الملازمةِ، أي: رسولًا لا يُفارِقُهم، فليس مارًّا بهم كما يمُرُّ المُرسَلُ بمقالةٍ أو برِسالةٍ يُبلِّغُها إلى القومِ ويُغادِرُهم[٣].

- والمرادُ بـ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ العربُ؛ لأنَّ وصْفَ الأُمِّيَّةِ غالبٌ على الأُمَّةِ العربيَّةِ يومَئذٍ. و﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ صِفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ دلَّ عليه صيغةُ جمْعِ العقلاءِ، أي: في النَّاسِ الأُمِّيِّينَ، وصِيغةُ جمْعِ الذُّكورِ في كلامِ الشَّارِعِ تَشملُ النِّساءَ بطريقةِ التَّغليبِ الاصطلاحيِّ، أي: في الأُمِّيِّينَ والأُمِّيَّاتِ؛ فإنَّ أدِلَّةَ الشَّريعةِ قائمةٌ على أنَّها تعُمُّ الرِّجالَ والنِّساءَ إلَّا في أحكامٍ معلومةٍ[٤].

- وأُوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ هُنا تورُّكًا على اليهودِ؛ لأنَّهم كانوا يَقصِدونَ به الغضَّ مِنَ العربِ، ومِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ جهلًا منهم، فيقولونَ: هو رسولُ الأُمِّيِّينَ، وليس رسولًا إلينا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٠٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ووصَفَ الرَّسولَ بأنَّه منهم، أي: لم يكُنْ غريبًا عنهم، وهذه مِنَّةٌ مُوجَّهةٌ للعربِ لِيَشكُروا نعمةَ اللهِ على لُطفِه بهم؛ فإنَّ كَوْنَ رسولِ القومِ منهم نِعمةٌ زائدةٌ على نِعمةِ الإرشادِ والهَدْيِ، وهذا استِجابةٌ لدَعوةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ إذ قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة: ١٢٩]؛ فتذكيرُهم بهذه النِّعمةِ استِنزالٌ لطائرِ نُفوسِهم وعنادِهم. وفيه تورُّكٌ عليهم إذْ أعرَضوا عن سَماعِ القُرآنِ؛ فإنَّ كَونَ الرَّسولِ منهم وكِتابَه بلُغَتِهم، هو أعوَنُ على تلَقِّي الإرشادِ منه؛ إذْ يَنطِقُ بلِسانِهم، ويَحمِلُهم على ما يُصلِحُ أخلاقَهُم؛ لِيَكونوا حمَلةَ هذا الدِّينِ إلى غيرِهم[(١)].

- ووَصْفُ الرَّسولِ بأنَّه منهم -أيْ: مِنَ الأُمِّيِّينَ- شاملٌ لمُماثَلتِه لهم في الأُمِّيَّةِ وفي القَوميَّةِ، وهذا مِن إيجازِ القرآنِ البديعِ[(٢)].

- وابتُدِئَ بالتِّلاوةِ؛ لأنَّ أوَّلَ تبليغِ الدَّعوةِ بإبلاغِ الوحْيِ، وثُنِّيَ بالتَّزكيةِ؛ لأنَّ ابتداءَ الدَّعوةِ بالتَّطهيرِ مِنَ الرِّجْسِ المعنويِّ، وهو الشِّرْكُ وما يَعْلَقُ به مِن مَساوِي الأعمالِ والطِّباعِ، وعُقِّبَ بذِكْرِ تعليمِهِمُ الكتابَ؛ لأنَّ الكِتابَ بعْدَ إبلاغِه إليهم تُبيِّنُ لهم مَقاصِدُه ومعانيه، وتعليمُ الحِكمةِ هو غايةُ ذلك كلِّه؛ لأنَّ مَنْ تدبَّرَ القُرآنَ وعمِلَ به وفَهِمَ خفاياهُ نالَ الحِكمةَ[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ وَسَّطَ بيْنَ التِّلاوةِ وتعليمِهم الكتابَ التَّزكيةَ الَّتي هي عبارةٌ عن تَكميلِ النَّفْسِ بحسَبِ قوَّتِها العمَليَّةِ وتَهذيبِها المُتفرِّعِ على تَكميلِها بحسَبِ القوَّةِ النَّظريَّةِ الحاصلِ بالتَّعليمِ المُترتِّبِ على التِّلاوةِ؛ للإيذانِ بأنَّ كلًّا مِنَ الأمورِ المُترتِّبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نِعمةٌ جليلةٌ على حِيالِها مُستوجِبةٌ للشُّكرِ، فلو رُوعيَ ترتيبُ الوجودِ لَتَبادَرَ إلى الفَهْمِ كَونُ الكلِّ نعمةً واحدةً، وهو السِّرُّ في التَّعبيرِ عن القرآنِ تارةً بالآياتِ، وأخرى بالكتابِ والحِكمةِ؛ رمْزًا إلى أنَّه باعتبارِ كلِّ عُنوانٍ نعمةٌ على حِدَةٍ، ولا يَقدَحُ فيه شُمولُ الحِكمةِ لِما في تضاعيفِ الأحاديثِ النَّبويَّةِ مِنَ الأحكامِ والشَّرائعِ[(١)].

- قولُه: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ بَيانٌ لشِدَّةِ احتياجِهم إلى نبيٍّ يُرشِدُهم، وإزاحةٌ لِمَا يُتَوَهَّمُ أنَّ الرَّسولَ تعلَّمَ ذلك مِن مُعلِّمٍ[(٢)]. وهو في موضِعِ الحالِ مِنَ ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، أي: ليسَتْ نِعمةُ إرسالِ هذا الرَّسولِ إليهم قاصِرةً على رفْعِ النَّقائِصِ عنهم، وعلى تحلِيَتِهم بكمالِ عِلمِ آياتِ اللهِ تعالَى، وزكاةِ أنفُسِهم، وتعليمِهِمُ الكتابَ والحِكمةَ، بل هي أجَلُّ مِن ذلك؛ إذْ كانت مُنقِذةً لهم مِن ضلالٍ مُبينٍ كانوا فيه، وهو ضلالُ الإشراكِ باللهِ، وإنَّما كان ضلالًا مُبينًا؛ لأنَّه أفحَشُ ضلالٍ، وقد قامَتْ على شَناعتِه الدَّلائلُ القاطعةُ[(٣)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ قيل: مجرورٌ عطفًا على ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، يعنى: أنَّه بعَثَه في الأُمِّيِّينَ الَّذين على عهدِه، وفي آخَرِينَ مِنَ الأُمِّيِّينَ لم يَلْحَقوا بهم بَعْدُ، وسيَلْحَقونَ بهم -على قولٍ-، وهُمُ الَّذين بَعْدَ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهم. ويجوزُ أنْ ينتصِبَ عطفًا على المنصوبِ في ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾، أي: يُعلِّمُهم ويُعلِّمُ آخَرِينَ؛ فأُسنِدَ تعليمُ الآخَرينَ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ التَّعليمَ إذا تناسَقَ إلى آخِرِ الزَّمانِ كان كلُّه مُستنِدًا إلى أوَّلِه، فكأنَّه هو الَّذي تولَّى كلَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٠).

ما وُجِدَ منه؛ فصحَّ إسنادُ التَّعليمِ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للأُمَمِ الفائتةِ للحَصْرِ إلى انقراضِ العالَمِ؛ لأنَّه إذا تَناسَقَت العَنْعنةُ مِن الثِّقاتِ المُتْقنينَ الَّذين حَمَوُا المُتونَ مِن تَحريفِ الزَّائغينَ، والإسنادَ مِن توَلِّي الكاذبينَ؛ صحَّ أنْ يُقالَ: هو الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رسولًا منهم يُعلِّمُهم الكِتابَ والحِكمةَ، ويُعلِّمُ آخَرَين منهم لَمَّا يَلحَقوا بهم، وهذا يدُلُّ على جَلالةِ قدْرِ المُحدِّثينَ، وعُلوِّ مَرتبتِهم[1].

وقيل: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ إمَّا معطوفٌ على الضَّميرِ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مِن قولِه: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾ [الجمعة: ٢]، والتَّقديرُ: ويَتْلُو على آخَرينَ، وإذا كان يَتْلُو عليهم فقَدْ عُلِمَ أنَّه مُرسَلٌ إليهم؛ لأنَّ تِلاوةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا تكونُ إلَّا تلاوةَ تبليغٍ لِمَا أُوحِيَ به إليه. وإمَّا أنْ يُجعَلَ ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ مفعولًا معه، والواوُ للمَعيَّةِ، ويَتنازَعه الأفعالُ الثَّلاثةُ، وهي: (يَتْلُو، ويُزكِّي، ويُعلِّمُ)، والتَّقديرُ: يَتْلُو على الأُمِّيِّينَ آياتِنا ويُزكِّيهِمْ ويُعلِّمُهمُ الكتابَ والحِكمةَ مع آخَرينَ، وجُملةُ ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] مُعترِضةٌ بيْنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليها، أو بيْنَ الضَّمائرِ والمفعولِ معه[2].

- قولُه: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ يجوزُ جعْلُ (مِن) تَبعيضيَّةً، كما هو المُتبادَرُ مِن مَعانيها، فيكونُ الضَّميرُ المجرورُ بـ (مِن) عائدًا إلى ما عاد إليه ضميرُ ﴿كَانُواْ﴾ مِن قولِه: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]؛ فالمعنى: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ مِنَ الضَّالِّينَ يَتْلُو عليهم آياتِ اللَّهِ ويُزكِّيهم ويُعلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكمةَ. ويجوزُ جعْلُ (مِن) اتِّصاليَّةً، والمعنى: وآخَرينَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٠، ٢١١).

يتَّصِلونَ بهِم، ويَصيرونَ في جملتِهِم، ويكونُ قولُه: ﴿مِنْهُمْ﴾ في مَوضعِ الحالِ، وهذا الوجهُ يُناسِبُ قولَه تعالَى: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾؛ لأنَّ اللُّحوقَ هو معنى الاتِّصالِ، وموضِعُ جُملةِ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ مَوضِعُ الحالِ، ويَنشأُ عن هذا المعنى إيماءٌ إلى أنَّ الأممَ الَّتي تَدخُلُ في الإسلامِ بعْدَ المُسلِمينَ الأوَّلينَ يَصيرونَ مِثلَهُم، ويَنشأُ منه أيضًا رمْزٌ إلى أنَّهم يَتعرَّبونَ لفَهْمِ الدِّينِ، والنُّطقِ بالقرآنِ[1].

- والنَّفيُ بـ﴿لَمَّا﴾ يَقتضي أنَّ المنفيَّ بها مُستمرُّ الانتفاءِ إلى زمَنِ التَّكلُّمِ، فيُشعِرُ بأنَّه مُترقَّبُ الثُّبوتِ، أي: وسَيَلْحَقون، والمعْنى: أنَّ آخَرينَ هُمْ في وقتِ نُزولِ هذه الآيةِ لم يَدخُلوا في الإسلامِ، ولم يَلتحِقوا بمَنْ أسلَمَ مِنَ العَربِ، وسيَدخُلونَ في أزمانٍ أُخرَى[2]. وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: المبالِغُ في العِزَّةِ والحِكمةِ، وهو تَذييلٌ للتَّعجيبِ مِن هذا التَّقديرِ الإلهيِّ لانتشارِ هذا الدِّينِ في جَميعِ الأممِ؛ فإنَّ العزيزَ لا يَغلِبُ قدرتَهُ شيءٌ، والحكيمَ تأتي أفعالُه عن قدَرٍ مُحكَمٍ[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

- الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى جَميعِ المذكورِ -على قولٍ-؛ مِن إرسالِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالآياتِ والتَّزكيةِ، وتعليمِ الكِتابِ والحِكمةِ، والإنقاذِ مِنَ الضَّلالِ، ومِن إفاضةِ هذه الكمالاتِ على الأُمِّيِّينَ الَّذين لم تكُنْ لهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧، ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٢).

سابقةُ عِلمٍ ولا كِتابٍ، ومِن لَحاقِ أُمَمٍ آخَرِينَ في هذا الخبرِ، فزال اختِصاصُ اليهودِ بالكِتابِ والشَّريعةِ، وهذا أجدَعُ لأَنْفِهِم؛ إذْ حالوا أنْ يجيءَ رسولٌ أُمِّيٌّ بشريعةٍ إلى أمَّةٍ أُمِّيَّةٍ، فضلًا عن أنْ يَلتحِقَ بها أُممٌ عظيمةٌ كانوا أمكَنَ في المعارفِ والسُّلطانِ، وهذا تَمهيدٌ ومُقدِّمةٌ لقولِه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة: ٥] الآياتِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٣). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٣٥).

الآيات (٥-٨)

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ مَثَلُ ﴾: أي: صِفةُ، وشبَهُ، والمَثَلُ عبارةٌ عن تَشبيهِ شَيءٍ بشَيءٍ في حُكمِه، وتقريبِ المعقولِ مِن المحسوسِ، أو أحدِ المحسوسَينِ مِن الآخَرِ، واعتبارِ أحَدِهما بالآخَرِ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[1].

﴿أَسۡفَارَۢا ﴾: أي: كُتُبًا، واحِدُها: سِفْرٌ، وهو: الكِتابُ الكَبيرُ؛ لأنَّه يُسفِرُ عن المعنى إذا قُرِئَ، وأصلُ (سفر): يدُلُّ على الانكِشافِ والجَلاءِ[2].

﴿ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ ﴾: أي: اليهودُ، والهَودُ: الرُّجوعُ برِفقٍ، قيل: سُمِّيَ اليهودُ مِن: هادَ يَهودُ، إذا تابَ؛ لأنَّهم تابوا عن عِبادةِ العِجلِ، وقالوا: ﴿هُدۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، أي: تُبْنَا، وكان اسمَ مَدحٍ، ثمَّ صارَ بعدَ نَسْخِ شَريعتِهم لازمًا لهم، وإنْ لم يكُنْ فيه معنَى المدحِ، وقيل: كانَتِ اليَهُود تُنسَبُ إلى يَهوذا بنِ

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٩)، ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٢/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٤).

يَعقوبَ، فسُمُّوا اليَهودَ، وعُربتْ بالدَّالِ، ويُقالُ: هادَوا: تهَوَّدوا، أي: صاروا يهودًا، وهادَ فُلانٌ: إذا تحرَّى طَريقةَ اليَهودِ في الدِّينِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا بعضَ رذائلِ اليهودِ: مَثَلُ عُلَماءِ اليَهودِ الَّذين كلَّفَهم اللهُ العَمَلَ بالتَّوراةِ، ثمَّ لم يَعمَلوا بها كمَثَلِ الحِمارِ الَّذي يَحمِلُ على ظَهْرِه كُتُبًا لا يَعقِلُ ما فيها، بِئسَ مَثَلًا هذا المَثَلُ المَضروبُ للقَومِ الَّذين كَذَّبوا بآياتِ اللهِ، واللهُ لا يَهْدي القَومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والتَّكذيبِ.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يرُدَّ على مَزاعِمِ اليهودِ الباطِلةِ، وأنْ يتحدَّاهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك اليَهودِ: يا أيُّها اليَهودُ، إنْ كُنتُم صادِقينَ في زَعْمِكم أنَّكم أحبابُ اللهِ مِن دُونِ النَّاسِ فتَمَنَّوُا الموتَ؛ لِتَستريحوا مِن تَعَبِ الدُّنيا، وتَنتَقِلوا إلى الجنَّةِ ونَعيمِها!

ولا يَتمَنَّى اليهودُ الموتَ أبَدًا؛ بما قدَّمَتْه أيديهم في الدُّنيا مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ، واللهُ عَليمٌ بالظَّالِمينَ.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يُخبِرَهم بأنَّهم لا مفَرَّ لهم مِن الموتِ، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك اليَهودِ: إنَّ الموتَ الَّذي تَهرُبونَ منه فإنَّه مُدرِكُكم لا مَحالةَ، ثمَّ تُرجَعونَ بعْدَ مَوتِكم إلى اللهِ عالِمِ ما غاب عن خَلْقِه، وما هو مُشاهَدٌ لهم، فيُخبِرُكم بما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا، ويُجازيكم عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٨٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى مِنَّتَه على هذه الأُمَّةِ الَّذين ابتُعِثَ فيهم النَّبيُّ الأُمِّيُّ، وما خَصَّهم اللهُ به مِن المزايا والمَناقِبِ الَّتي لا يَلحَقُهم فيها أحَدٌ، وهم الأُمَّةُ الأُمِّيَّةُ الَّذين فاقُوا الأوَّلِينَ والآخِرِينَ. حتَّى أهلُ الكِتابِ الَّذين يَزعُمونَ أنَّهم العُلَماءُ الرَّبَّانيُّونَ والأحبارُ المتقَدِّمونَ: ذكَرَ أنَّ الَّذين حَمَّلَهم اللهُ التَّوراةَ مِنَ اليَهودِ وكذا النَّصارى، وأمَرَهم أن يَتعَلَّموها ويَعمَلوا بما فيها، وأنَّهم لم يَحْمِلوها ولم يَقوموا بما حُمِّلوا به: أنَّهم لا فضيلَةَ لهم، وأنَّ مَثَلَهم كمَثَلِ الحِمارِ الَّذي يَحمِلُ فَوقَ ظَهْرِه أسفارًا مِن كُتُبِ العِلمِ، فهل يَستفيدُ ذلك الحِمارُ مِن تلك الكُتُبِ الَّتي فوقَ ظَهْرِه؟! وهل يَلحَقُ به فضيلةٌ بسَبَبِ ذلك؟! أو حَظُّه منها حَمْلُها فقط؟ فهذا مَثَلُ عُلَماءِ اليَهودِ الَّذين لم يَعمَلوا بما في التَّوراةِ؛ الَّذي مِن أجَلِّه وأعظَمِه الأمرُ باتِّباعِ محمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- والبِشارةُ به، والإيمانُ بما جاء به مِنَ القُرآنِ[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أثبَتَ التَّوحيدَ والنُّبُوَّةَ، وبيَّنَ في النُّبوَّةِ أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بُعِث إلى الأُمِّيِّينَ، واليَهودُ لَمَّا أوردوا تلك الشُّبهةَ -وهي أنَّه عليه الصَّلاةُ السَّلامُ بُعِثَ إلى العَرَبِ خاصَّةً، ولم يُبعَثْ إليهم، بمفهومِ الآيةِ- أتْبَعَه اللهُ تعالى بضَربِ المثَلِ للَّذين أعرَضُوا عن العَمَلِ بالتَّوراةِ، والإيمانِ بالنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والمقصودُ منه أنَّهم لَمَّا لم يَعمَلوا بما في التَّوراةِ شُبِّهوا بالحِمارِ؛ لأنَّهم لو عَمِلوا بمُقْتَضاها لَانتَفَعوا بها، ولم يُوردوا تلك الشُّبهةَ؛ وذلك لأنَّ فيها نَعْتَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والبِشارةَ بمَقْدَمِه، والدُّخولَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

في دِينِه[١].

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾.

أي: مَثَلُ عُلَماءِ اليَهودِ الَّذين كلَّفَهم اللهُ تعالى العَمَلَ بالتَّوراةِ، ثمَّ لم يَعمَلوا بها، وكَذَّبوا بمُحَمَّدٍ الَّذي أُمِروا في التَّوراةِ بالإيمانِ به واتِّباعِه: كمَثَلِ الحِمارِ الَّذي يَحمِلُ على ظَهْرِه كُتُبًا لا يَعقِلُ ما فيها، ولا ينتَفِعُ بما تَحْويه[٢]!

﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾.

أي: بِئسَ هذا المَثَلُ المَضروبُ للقَومِ الَّذين كَذَّبوا بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على صِدقِ رُسُلِه، وما جاؤُوا به مِنَ الحَقِّ؛ فأولئك الأحبارُ مِن اليَهودِ قد ضَمُّوا إلى جَهْلِهم بمعاني التَّوراةِ تَكذيبَهم بالقُرآنِ[٣]!

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يُوَفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ القَومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ بآياتِه، وتكذيبِ رُسُلِه، وأصَرُّوا على إنكارِ الحَقِّ مع وُضوحِه[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى أعقَبَ تمثيلَ حالِ جَهْلِهم بالتَّوراةِ بذِكرِ زَعمٍ مِن آثارِ جَهْلِهم بها؛ إبطالًا لِمَفخرةٍ مَزعومةٍ عِندَهم؛ أنَّهم أولياءُ اللهِ، وبَقيَّةُ النَّاسِ لَيسُوا مِثْلَهم! وذلك أصلٌ كانوا يَجعَلونَه حُجَّةً على أنَّ شُؤونَهم أفضَلُ مِن شُؤونِ غَيرِهم[1].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك اليَهودِ: يا مَن تَدَيَّنوا باليَهوديَّةِ، إنْ كُنتُم صادِقينَ في زَعْمِكم أنَّكم أحبابُ اللهِ مِن دُونِ النَّاسِ، فإنَّ اللهَ يُكرِمُ أحبابَه ولا يُعَذِّبُهم، فتَمَنَّوُا الموتَ لِتَستريحوا مِن تَعَبِ الدُّنيا وهمومِها، وتَنتَقِلوا إلى الجِنانِ ونَعيمِها[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٧، ٥٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩٠، ٢٩١).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبِقاعي، والألوسي. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال الشنقيطي كما في ((تتمة أضواء البيان)) (٨/ ١٢٠): (لا يَتَمنَّونَه لشِدَّةِ حِرصِهم على الحياةِ، كما بيَّنه تعالى بقولِه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، فشِدَّةُ حرصِهم على الحياةِ؛ لِعِلْمِهم أنَّهم إذا ماتوا دخلوا النَّارَ، ولو تَمَنَّوْا لَماتوا مِن حِينِهم).

وقال السعدي: (﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ وهذا أمرٌ خفيفٌ؛ فإنَّهم لو عَلِموا أنَّهم على حقٍّ لَما توَقَّفوا عن هذا التَّحدِّي الَّذي جعله اللهُ دليلًا على صِدقِهم إن تَمَنَّوْه، وكَذِبِهم إن لم يَتَمَنَّوْه، ولَمَّا لم =

= يقَعْ منهم مع الإعلانِ لهم بذلك، عُلِم أنَّهم عالِمون ببُطلانِ ما هم عليه وفَسادِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

وقيل: المرادُ: إنْ كُنتُم تَزعُمونَ أنَّكم على هُدًى، وأنَّ مُحمَّدًا وأصحابَه على ضَلالةٍ؛ فادْعُوا بالموتِ على الضَّالِّ مِن الفِئتَينِ إن كنتم صادِقينَ فيما تَزعُمونَه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٨).

وقال ابن كثير عندَ تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥]: (ونظيرُ هذه الآيةِ قولُه تعالى في سورةِ الجُمُعة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ * قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فهم -عليهم لعائنُ الله- لَمَّا زعَموا أنَّهم أبناءُ الله وأحِبَّاؤُه، وقالوا: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا مَن كان هُودًا أو نَصارى، دُعُوا إلى المُباهَلةِ والدُّعاءِ على أكذَبِ الطَّائفتَينِ منهم، أو مِن المسلمينَ. فلمَّا نَكَلوا عن ذلك عَلِمَ كلُّ أحدٍ أنَّهم ظالِمون؛ لأنَّهم لو كانوا جازمينَ بما هم فيه لَكانوا أقْدَموا على ذلك، فلمَّا تأخَّروا عُلِم كَذِبُهم. وهذا كما دعا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ وَفْدَ نَجْرانَ مِن النَّصارى بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليهم في المُناظَرةِ، وعُتُوِّهم وعنادهم إلى المباهلة). ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٣٢).

وذكَر أنَّ المرادَ الدُّعاءُ على أيِّ الفريقَينِ أكذَبُ منهم أو مِن المسلمينَ على وجْهِ المُباهَلةِ، وأنَّ هذا هو الَّذي فسَّر به ابنُ عبَّاسٍ الآيةَ، وأنَّه ثبَت عنه بأسانيدَ صحيحةٍ. يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣١، ٣٣٢).

وقال ابن عثيمين في آيةِ البقرة: (ذهب بعضُ العلماءِ إلى أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ [البقرة: ٩٤] أي: فباهِلونا، وتمَنَّوُا الموتَ لِمَن هو كاذبٌ مِنَّا؛ فتكونُ هذه مِثلَ قولِه تعالى في سورةِ آلِ عِمْرانَ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]؛ فيكونُ المعنى: تمَنَّوُا الموتَ عن طريقِ المُباهَلةِ؛ ورجَّح هذا ابنُ كثير؛ وضعَّف الأوَّلَ بأنَّه لو كان المرادُ: تمَنَّوْا حُصولَ الموتِ لَكانوا يَحتَجُّون أيضًا علينا نحن، ويَقولونَ: أنتم أيضًا إن كنتم تَقولون: إنَّ الدَّارَ الآخرةَ لكم فتمَنَّوُا الموتَ؛ لأنَّ تَحَدِّيَكم إيَّانا بذلك ليس بأَولى مِن تحَدِّينا إيَّاكم به؛ لأنَّكم أنتم أيضًا تقولون: إنَّ الدَّارَ الآخرةَ لكم، وأنَّ اليهودَ بعدَ بَعثةِ الرَّسولِ صلَّى الله =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨].

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي: ولا يَتمَنَّى اليهودُ الموتَ أبَدًا؛ بسَبَبِ ما قدَّمَتْه أيديهم في الدُّنيا مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ، وتحريفِ الحَقِّ، واقترافِ المعاصي[(١)].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤ - ٩٦].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: واللهُ ذو عِلمٍ بالِغٍ تامٍّ بمَن يَظلِمُ نَفْسَه بالكُفرِ والمعاصي مِنَ اليَهودِ وغَيرِهم، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أَمْرِهم، وسيُجازيهم على أعمالِهم[(٢)].

= عليه وسلَّمَ في النَّارِ؛ فتمَنَّوُا الموتَ أنتم أيضًا، والجوابُ عن ذلك: أنَّا لم نَدَّعِ أنَّ الدَّارَ الآخرةَ خالِصةٌ لنا مِن دونِ النَّاسِ؛ بل نؤمِنُ بأنَّ الدَّارَ الآخرةَ لكلِّ مَن آمَنَ وعَمِل صالحًا، سواءٌ كان مِن هذه الأمَّةِ أم مِن غيرِها؛ وهذا المعنى الَّذي نحا إليه ابنُ كثير رحمه الله مخالِفٌ لظاهرِ السِّياقِ؛ فلا يُعوَّلُ عليه؛ وقد عرَفْتَ الانفِكاكَ منه). ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال الزَّجَّاج: (أعلَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّهم لا يتمَنَّونَه؛ لأنَّهم قد عَلِموا أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ حَقٌّ، وأنَّهم إن تمَنَّوه ماتوا؛ فلم يتمَنَّوه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير الشوكاني)) =

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان عَدَمُ تَمَنِّيهم عَلَمًا مِن أعلامِ نبُوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِمُوافَقتِه ما أخبَرَ به، وكان ذلك فِعلَ مَن يَعتَقِدُ أنَّ التَّمنِّيَ يُقَدِّمُه عن أجَلِه، وعَدَمَه يُؤَخِّرُه؛ فصاروا بيْنَ التَّكذيبِ بما عِندَهم ونهايةِ البَلادةِ- أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتَنبيهِهم على بَلادتِهم؛ تَبكيتًا لهم، فقال[1]:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك اليَهودِ: إنَّ الموتَ الَّذي تَهرُبونَ منه فتَكرَهونَه وتَأبَونَ تَمنِّيَه: لا بدَّ أن يُدرِكَكم ويَنزِلَ بكم[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

= (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٠، ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال الواحدي: (اليهودُ عَلِموا أنَّهم أفسَدوا على أنفُسِهم أمرَ الآخرةِ بتَكذيبِهم مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكانوا يَكرَهونَ الموتَ أشَدَّ الكراهةِ، فقال اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قُلْ لهم: إنَّكم وإن فرَرْتُم مِن الموتِ وكَرِهتُموه، فإنَّه لا بُدَّ يَنزِلُ بكم ويَلْقاكم). ((الوسيط)) (٤/ ٢٩٦).

أي: ثمَّ تُرجَعونَ -أيُّها اليَهودُ- بعدَ مَوتِكم إلى اللهِ الَّذي يَعلَمُ كُلَّ شَيءٍ، سَواءٌ ما غاب عن خَلْقِه، أو ما هو مُشاهَدٌ لهم، لا يخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن أعمالِكم[1].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: فيُخبِرُكم اللهُ بما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا، ويُجازيكم عليه[2].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ قاسَ مَن حَمَّله سُبحانَه كِتابَه؛ لِيُؤمِنَ به ويتدَبَّرَه ويَعمَلَ به ويَدعوَ إليه، ثمَّ خالف ذلك ولم يَحمِلْه إلَّا على ظَهرِ قَلبٍ؛ فقِراءتُه بغيرِ تدَبُّرٍ ولا تفَهُّمٍ ولا اتِّباعٍ ولا تحكيمٍ له وعَمَلٍ بمُوجَبِه: كحِمارٍ على ظَهرِه زامِلةُ أسفارٍ لا يدري ما فيها، وحَظُّه منها حَمْلُها على ظَهرِه ليس إلَّا! فحَظُّه مِن كتابِ اللهِ كحَظِّ هذا الحِمارِ مِن الكُتبِ الَّتي على ظَهْرِه؛ فهذا المَثَلُ وإن كان قد ضُرِبَ لليَهودِ فهو مُتناوِلٌ مِن حيث المعنى لِمَن حُمِّلَ القُرآنَ فتَرَكَ العَمَلَ به، ولم يؤَدِّ حَقَّه، ولم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

يَرْعَه حقَّ رعايتِه[١]! ففي هذا تنبيهٌ مِنَ الله تعالى لِمَن حُمِّلَ الكِتابَ أن يَتعلَّمَ مَعانيَه، ويَعلَمَ ما فيه، ويَعمَلَ به؛ لئلَّا يَلحَقَه مِنَ الذَّمِّ ما لَحِقَ هؤلاء[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ أنَّ الإنسانَ لا ينبغي أنْ يَتَشَبَّهَ بالحيوانِ؛ فإنَّ اللهَ لم يَذْكُرْ تشبيهَ الإنسانِ بالحيوانِ إلَّا في مقامِ الذَّمِّ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ التَّحذيرُ مِن الظُّلمِ، وأنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أظْلَمَ كان عن الهدايةِ أبْعَدَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عَلَّقَ نفْيَ الهدايةِ بالظُّلمِ، وتعليقُ الحُكْمِ بالظُّلمِ يدُلُّ على عِلِّيَّتِه، وكُلَّما قَويتِ العلَّةُ قَويَ الحُكْمُ المُعَلَّقُ عليها[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ مَن أخَذ بالعَدلِ كان حَرِيًّا بالهدايةِ؛ لمفهومِ المخالفةِ في الآيةِ، فإذا كان الظَّالمُ لا يَهديه اللهُ، فصاحِبُ العدلِ حَرِيٌّ بأنْ يَهديَه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ الإنسانَ الَّذي يريدُ الحقَّ ويَتَّبِعُ الحقَّ -والحقُّ هو العدلُ- غالبًا يُهْدَى ويُوَفَّقُ للهدايةِ؛ ولهذا قال ابنُ تيميةَ: (مَن تَدَبَّرَ القرآنَ طالبًا الهدى منه تَبَيَّنَ له طريقُ الحقِّ)[٥]، وهذه كَلِمةٌ مأخوذةٌ مِن القُرآنِ مَنطوقًا ومَفهومًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٣/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٥).

(٥) يُنظر: ((العقيدة الواسطية)) لابن تيمية (ص: ١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ فيه سؤالٌ: ما الحِكمةُ في تعيينِ الحِمارِ مِن بَينِ سائِرِ الحيواناتِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ اللهَ تعالى خَلَق الخَيلَ والبِغالَ والحَميرَ للرُّكوبِ والزِّينةِ، والزِّينةُ في الخَيلِ أكثَرُ وأظهَرُ بالنِّسبةِ إلى الرُّكوبِ، وحَملِ الشَّيءِ عليه، وفي البِغالِ دونَ الخَيلِ، وفي الحِمارِ دونَ البِغالِ؛ فالبِغالُ كالمتوسِّطِ في المعاني الثَّلاثةِ، وحينَئذٍ يلزَمُ أن يكونَ الحِمارُ في معنى الحَملِ أظهَرُ وأغلَبُ بالنِّسبةِ إلى الخَيلِ والبِغالِ وغَيرِهما من الحيواناتِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ هذا التَّمثيلَ لإظهارِ الجَهلِ والبَلادةِ، وذلك في الحِمارِ أظهَرُ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ في الحِمارِ مِن الذُّلِّ والحَقارةِ ما ليس في غيرِه مِن الحيواناتِ، والغَرَضُ مِن الكلامِ في هذا المقامِ تعييرُ القَومِ بذلك وتحقيرُهم، فيكونُ تعيينُ الحِمارِ أليقَ وأَولى.

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّ حَملَ الأسفارِ على الحِمارِ أتَمُّ وأعَمُّ وأسهَلُ وأسلَمُ؛ لِكَونِه ذَلُولًا سَلِسَ القِيادِ، لَيِّنَ الانقيادِ، يتصَرَّفُ فيه الصَّبيُّ الغَبيُّ مِن غَيرِ كُلْفةٍ ومَشَقَّةٍ، وهذا مِن جُملةِ ما يُوجِبُ حُسنَ الذِّكرِ بالنِّسبةِ إلى غيرِه.

الوجهُ الخامسُ: أنَّ رعايةَ الألفاظِ والمناسَبةَ بيْنَها مِنَ اللَّوازمِ في الكَلامِ، وبيْنَ لَفظَي الأسفارِ والحِمارِ مُناسَبةٌ لَفظيَّةٌ لا تُوجَدُ في الغيرِ مِن الحيواناتِ؛ فيَكونُ ذِكرُه أَولى[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٠).

٢- قَولُه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ أنَّ مِن جَهْلِ اليهودِ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى شَبَّهَهم في حَمْلِهم التَّوراةَ، وعدَمِ الفِقهِ فيها والعَمَلِ بها: بالحِمارِ يَحمِلُ أسفارًا، وفي هذا التَّشبيهِ مِن النِّداءِ على جَهالتِهم وُجوهٌ متعدِّدةٌ:

منها: أنَّ الحِمارَ مِن أَبْلَدِ الحيواناتِ الَّتي يُضرَبُ بها المَثَلُ في البَلادةِ.

ومنها: أنَّه لو حُمِّلَ غيرَ الأسفارِ مِن طعامٍ أو عَلَفٍ أو ماءٍ لَكان له به شُعورٌ، بخِلافِ الأسفارِ.

ومنها: أنَّهم حُمِّلُوها لا أنَّهم حَمَلُوها طَوعًا واختيارًا، بل كانوا كالمكلَّفِينَ لَمَّا حُمِّلُوه، فلَمْ يَرفعوا به رأسًا!

ومنها: أنَّهم حيثُ حُمِّلُوها تكليفًا وقَهرًا لم يَرضَوا بها، ولم يَحْمِلوها رِضاءً واختيارًا، وقد عَلِموا أنَّهم لا بُدَّ لهم منها، وأنَّهم إنْ حَمَلُوها اختيارًا كانت لهم العاقِبةُ في الدُّنيا والآخِرةِ.

ومنها: أنَّها مُشتَمِلةٌ على مصالحِ معاشِهم ومَعادِهم، وسَعادتِهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ فإعراضُهم عن التزامِ ما فيه سَعادتُهم وفلاحُهم إلى ضِدِّه هو مِن غايةِ الجَهلِ والغَباوةِ وعَدمِ الفَطانةِ[1]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ مَن أَضَلَّه اللهُ فإنَّما ذلك لظُلمٍ منه، وأمَّا مَن طَلَبوا الحقَّ وتَحَرَّوه وتشَوَّفوا له فإنَّهم جَديرونَ بالهِدايةِ[2]. فاللهُ سبحانَه لا يَمْنَعُ فَضْلَه عن أحدٍ إلَّا إذا كان هذا الممنوعُ هو السَّبَبَ؛ فلِظُلْمِهم

(١) يُنظر: ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٧).

لم يَهْدِهم اللهُ، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[١] [الصف: ٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ -المُنْكِرينَ أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ-؛ إذْ لو كان كلُّ مَبعوثٍ إليه رَسولًا وكلُّ مَدلولٍ على طريقِ الهدايةِ: يَقدِرُ بنَفْسِه أنْ يَهتديَ مِن غيرِ أنْ يَهديَه اللهُ- ما كان في ذلك فائدةٌ، ولا كان ذلك عليهم عُقوبةً، وهذا لا محالةَ إخبارٌ عن قومٍ حُمِّلُوا التَّوراةَ وبُعِثَ إليهم[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۞ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا﴾ الإخبارُ عن المُستَقبَلاتِ -وهو شَيءٌ كثيرٌ في القرآنِ-، فأَخبرَ سُبحانَه عنِ اليهودِ أنَّهم لن يتمَنَّوُا الموتَ أبدًا، وكان كما أخبَرَ، فلا يتمَنَّى اليهودُ الموتَ أبدًا، وهذا دليلٌ مِن وجهينِ: مِن جِهةِ إخبارِه بأنَّه لا يكونُ أبدًا، ومِن جِهةِ صَرْفِ اللهِ لدواعي اليَهودِ عن تمنِّي الموتِ، مع أنَّ ذلك مَقدورٌ لهم، وهذا مِن أَعْجَبِ الأمورِ الخارقةِ للعادةِ، وهم مع حِرْصِهم على تكذيبِه لم تَنْبَعِثْ دواعيهم لإظهارِ تَكذيبِه بإظهارِ تمنِّي الموتِ[٣]! وهذا عَلَمٌ مِن أعلامِ نُبُوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذْ لا يمكنُ الاطِّلاعُ على بواطنِهم إلَّا بأخبارِ الغَيبِ، ولم يُنْطِقِ اللهُ ألسنتَهم بتمَنِّيه أبدًا[٤].

٦- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ اسْتدلَّ به مَن جوَّز الدُّعاءَ بالموتِ وتمنِّيَه، فمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٦٤).

كانَ له عملٌ صَالحٌ فإنَّه يتَمَنَّى القدومَ عليه، وكذلك مَن غلَب عليه الشَّوقُ الى لقاءِ الله، وأمَّا مَن تمنَّى الموتَ خوفَ فتنتِه في الدِّينِ فإنَّه يجوزُ بغيرِ خلافٍ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «فإنَّه يُدرِكُكم»، وما ظَنُّك بشَيءٍ تَفِرُّ منه وهو يُلاقيك؟! إنَّ فِرارَك منه يعني دُنُوَّك منه في الواقِعِ، فلو كنتَ فارًّا مِن شيءٍ وهو يُقابِلُك، فكلمَّا أسرعتَ في الجريِ أسرَعتَ في مُلاقاتِه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾[٢]!

٨- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ استَشْعَرَ غَيرُ واحِدٍ مِنَ الآيةِ ذَمَّ الفِرارِ مِنَ الطَّاعونِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لضربِ المثَلِ لليهودِ عِندَما ترَكوا العملَ بالتَّوراةِ ولم

---

(١) ينظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١١٢).

قال ابن رجب: (تمنِّي الموتِ يقعُ على وجوهٍ:

منها: تمنِّيه لضُرٍّ دنيويٍّ ينزِلُ بالعبدِ، فيُنهَى حينئذٍ عن تمنِّي الموتِ.

ومنها: تمنِّيه خوفَ الفتنةِ في الدِّينِ فيجوزُ حينئذٍ.

ومنها: تمنِّي الموتِ عندَ حضورِ أسبابِ الشَّهادةِ اغتنامًا لحضورِها، فيجوزُ ذلك أيضًا.

ومنها: تمنِّي الموتِ لمَن وثِق بعملِه؛ شوقًا إلى لقاءِ الله عزَّ وجلَّ فهذا يجوزُ أيضًا.

ومنها: تمنِّي الموتِ على غيرِ الوجوهِ المتقدِّمةِ، فقد اختَلف العلماءُ في كراهيتِه واستحبابِه، وقد رخَّص فيه جماعةٌ مِن السَّلفِ، وكرِهه آخرونَ). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٩٥) بتصرف.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩٢).

يُؤمِنوا بمُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتْبي؛ فإنَّ عدَمَ وفائِهم بما عُهِدَ إليهم أعجَبُ مِن تحمُّلِهم إيَّاه[٢].

- قولُه: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ فيه تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ فقَدْ شبَّهَ اليهودَ بالحِمارِ الَّذي يَحمِلُ الكُتُبَ ولا يَدْري ما فيها، ووجْهُ الشَّبَهِ عدَمُ الانتفاعِ بما هو حاصلٌ وكائنٌ، فالحِمارُ يمشي في طريقِه وهو لا يُحِسُّ بشيءٍ ممَّا يَحمِلُه على ظَهرِه إلَّا بالكَدِّ والتَّعبِ، وكذلك اليهودُ قَرَؤوا التَّوراةَ وحَفِظوها، ولم يَنتفِعوا بها، ومِن ذلك أنَّهم أشاحوا عمَّا انطَوَتْ عليه مِن دلائلَ وإرهاصاتٍ على نبوَّةِ مُحمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم[٣].

- وهذا التَّمثيلُ مَقصودٌ مِنه تشنيعُ حالِهم؛ ولذلك ذُيِّلَ بذَمِّ حالِهم: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾[٤].

- قولُه: ﴿مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ فاعِلُ ﴿بِئۡسَ﴾، وأغنى هذا الفاعلُ عن ذِكْرِ المخصوصِ بالذَّمِّ؛ لحُصولِ العِلمِ بأنَّ المذمومَ هو حالُ القومِ المُكذِّبينَ، فلَمْ يُسْلَكْ في هذا التَّركيبِ طريقُ الإبهامِ على شرطِ التَّفسيرِ؛ لأنَّه قد سبَقَه ما بَيَّنَه بالمَثَلِ المذكورِ قَبْلَه في قولِه: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾، فصارَ إعادةُ لَفظِ المثَلِ ثَقيلًا في الكلامِ أكثَرَ مِن ثلاثِ مرَّاتٍ، وهذا مِن تفنُّناتِ القُرآنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٣، ٢١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٣)، ((تفسير أبي =

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَذييلٌ؛ إخبارًا عنهم بأنَّ سوءَ حالِهم لا يُرْجى لهم منه انفكاكٌ؛ لأنَّ اللهَ حرَمَهم اللُّطفَ والعِنايةَ بإنقاذِهم لِظُلمِهم بالاعتداءِ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّكذيبِ دونَ نظَرٍ، وعلى آياتِ اللهِ بالجَحْدِ دونَ تدبُّرٍ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

- افتُتِحَ الكلامُ بفِعلِ ﴿قُلۡ﴾؛ للاهتِمامِ[٢].

- ولم يُضِفْ ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾ إلى الله، كما أضافَ في قولِه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]؛ ليُؤْذِنَ بالفَرقِ بيْنَ مَن يَدَّعي أنَّه مِن أولياءِ اللهِ، وبيْنَ مَن يخُصُّه اللهُ بالولايةِ[٣].

- والأمرُ في قولِه: ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ؛ كِنايةً عن التَّكذيبِ[٤].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ جوابُه مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَه عليه، أي: إنْ كنتُمْ صادِقينَ في زَعْمِكم واثِقينَ بأنَّه حقٌّ؛ فتَمَنَّوُا الموتَ؛ فإنَّ مَنْ أيقَنَ بأنَّه مِن أهلِ الجنَّةِ أحَبَّ أنْ يَتخلَّصَ إليها مِن هذه الدَّارِ الَّتي هي قَرارةُ الأكدارِ[٥].

- قولُه: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ جِيءَ بـ (إن) الشَّرطيَّةِ الَّتي الأصلُ

= السعود)) (٨/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٤، ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٢).

فيها عدَمُ الجزم بوُقوعِ الشَّرطِ مع أنَّ الشَّرطَ هُنا مُحقَّقُ الوُقوعِ -إذْ قدِ اشْتُهِروا بهذا الزَّعمِ-؛ للإشارةِ إلى أنَّ زعْمَهم هذا لَمَّا كان باطلًا بالدَّلائلِ كان بمَنزِلةِ الشَّيءِ الَّذي يُفرَضُ وُقوعُه كما يُفرَضُ المُستبعَدُ وكأنَّه ليس واقعًا، ويُفيدُ ذلك تَوبيخًا بطريقِ الكِنايةِ، وهذا إلجاءٌ لهم حتَّى يَلْزَمَهم ثُبوتُ شكِّهم فيما زعَموه[1].

- ووَجْهُ الملازمةِ بيْنَ الشَّرطِ وجوابِه أنَّ الموتَ رُجوعُ الإنسانِ برُوحِه إلى حياةٍ أبَديَّةٍ تَظهَرُ فيها آثارُ رِضا اللهِ عن العبدِ أو غضَبِه لِيَجزيَه على حسَبِ فِعلِه، والنَّتيجةُ الحاصلةُ مِن هذا الشَّرطِ تُحصِّلُ أنَّهم مِثلُ جميعِ النَّاسِ في الحياتَينِ الدُّنيا والآخِرةِ وآثارِهما، واختلافِ أحوالِ أهلِهما، فيُعلَمُ مِن ذلك أنَّهم ليسوا أفضَلَ مِنَ النَّاسِ، وبهذا يَندفِعُ ما قد يَعرِضُ للنَّاظِرِ في هذه الآيةِ مِنَ المعارضةِ بيْنَها وبيْنَ ما جاء في الأخبارِ الصَّحيحةِ مِنَ النَّهيِ عن تَمنِّي الموتِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جملتَيِ القولَينِ قُصِدَ به تحدِّيهم لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم أنَّهم ليسوا أولياءَ للهِ، وليس المقصودُ مِن هذا مَعذرةً لهم مِن عدَمِ تمنِّيهم الموتَ، وإنَّما المقصودُ زيادةُ الكَشفِ عن بُطلانِ قولِهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، وإثباتُ أنَّهم في شكٍّ مِن ذلك[3].

- قولُه: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ جاء التَّعبيرُ هنا بحرفِ النَّفيِ (لا)، بيْنَما في سورةِ (البقرةِ) جاء التَّعبيرُ بحرفِ النَّفيِ (لن) في قولِه: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا﴾ [البقرة:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٥، ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢١٧).

٩٥]، وهذا مِن المُناسَباتِ اللَّطيفةِ، ومِن مَحاسِنِ المعاني؛ لأنَّهم في سورةِ (البقرةِ) ادَّعَوْا أنَّ الدَّارَ الآخرةَ خالِصةٌ لهم مِن دونَ النَّاسِ، وهنا في سورةِ (الجمعةِ) ادَّعَوْا أنَّهم أولياءُ لله تعالى مِن دونِ النَّاسِ، والدَّعوى الأُولى أعظَمُ مِن الثَّانيةِ، لأنَّ السَّعادةَ القصوى فوقَ مرتبةِ الولايةِ؛ لأنَّ الثَّانيةَ تُرادُ لحصولِ الأُولى، فبيَّن سبحانَه فسادَ قولِهم بلفظِ: (لن)؛ لأنَّه أقوى الألفاظِ النَّافيةِ، واكتفَى في إبطالِ الثَّانيةِ بلفظِ (لا)؛ لأنَّه ليس في نهايةِ القوَّةِ في إفادةِ معنَى النَّفيِ[(١)].

وأيضًا لأنَّ آيةَ (البقرةِ) ورَدتْ بعدَ ما تقدَّم منهم مِن الكفرِ والعصيانِ وقتْلِ الأنبياءِ، فناسَب حرفُ المبالَغةِ فى النَّفيِ لتَمنِّيهم الموتَ؛ لِمَا يَعلمونَ ما لَهم بعْدَه مِن العذابِ[(٢)].

وأيضًا في (البقرةِ) لَمَّا كان الشَّرطُ في المغفرةِ مُستقبَلًا، وهو قولُه: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً﴾ جاء جوابُه بـ(لن) الَّتي تخصُّ الاستقبالَ، ولَمَّا كان الشَّرطُ في (الجمعةِ) حالًّا، وهو قولُه: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ جاء جوابُه بـ(لا) الَّتي تدخلُ على الحالِ، أو تدخلُ على المُستقبَلِ[(٣)].

- والباءُ في قولِه تعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ سَببيَّةٌ مُتعلِّقةٌ بفعلِ ﴿يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ المَنفيِّ، فما قدَّمَتْ أيديهم هو سبَبُ انتفاءِ تَمنِّيهِمُ الموتَ، ألْقى في نُفوسِهمُ الخَوفَ ممَّا قدَّمَتْ أيديهم؛ فكان سبَبَ صَرْفِهم عن تَمنِّي الموتِ لتقدُّمِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((كشف المعانى)) لابن جَمَاعة (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٩١). ويُنظر أيضًا: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (١/ ٤٧).

الحُجَّةِ عليهم[١].

- وفيه نِسبةُ ما قدَّموه مِن المعاصي القَوليَّةِ والفِعليَّةِ والاعتقاديَّةِ إلى الأيدي، على سبيلِ التَّغليب؛ لأنَّ الأيديَ تُزاوِلُ أكثرَ الأعمالِ؛ فكأنَّ كلَّ عمَلٍ واقعٌ بها[٢].

- قولُه: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ التَّقديمُ: أصلُه جعْلُ الشَّيءِ مُقدَّمًا، أي: سابقًا غيرَه في مكانٍ يَقْفُوهُ فيه غَيرُه، وهو مُعبَّرٌ به هُنا عمَّا سلَفَ مِنَ العملِ؛ تَشبيهًا له بشَيءٍ يُسَبِّقُه المرءُ إلى مكانٍ قبْلَ وُصولِه إليه[٣].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: بهِم، وإيثارُ الإظهارِ على الإضمارِ لذمِّهم، والتَّسجيلِ عليهم بأنَّهم ظالِمونَ في كلِّ ما يأتونَ وما يَذَرونَ مِنَ الأمورِ الَّتي مِن جُملتِها ادِّعاءُ ما هُم عنه بمَعْزِلٍ[٤].

وقيل: قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: عليمٌ بأحوالِهم وبأحوالِ أمثالِهم مِنَ الظَّالِمينَ، فشَمِلَ لفظُ الظَّالِمينَ اليهودَ؛ فإنَّهم مِنَ الظَّالِمينَ، والمقصودُ أنَّ إحجامَهم عن تمنِّي الموتِ لِما في نفوسِهم مِن خَوفِ العِقابِ على ما فعَلوه في الدُّنيا، فكُنِّيَ بعِلمِ اللهِ بأحوالِهم عن عدمِ انفلاتِهم مِنَ الجزاءِ عليها؛ ففي هذا وعيدٌ لهم[٥].

- والجُملةُ تذييلٌ لِمَا قبْلَها مُقرِّرةٌ لمضمونِه، أي: عليمٌ بهم وبما صدَرَ عنهم مِن فُنونِ الظُّلمِ والمعاصي المُفْضِيَةِ إلى أفانينِ العذابِ، وبما سيَكونُ منهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٨، ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٨).

مِنَ الاحترازِ عمَّا يؤدِّي إلى ذلك[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- هو تَصريحٌ بما اقتضاهُ التَّذييلُ مِنَ الوعيدِ وعدمِ الانفلاتِ مِنَ الجزاءِ عن أعمالِهم ولو بعْدَ زمانِ وُقوعِها؛ لأنَّ طولَ الزَّمانِ لا يُؤثِّرُ في عِلمِ اللهِ نسيانًا؛ إذْ هو عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ[٢].

- ووصَفَ الموتَ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ هلَعَهم مِنَ الموتِ خطأٌ[٣].

- قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ أي: لاحِقٌ بكم لا تَفوتونَه البتَّةَ مِن غَيرِ صارِفٍ يَلويهِ، ولا عاطفٍ يَثنيهِ، والفاءُ لتضمُّنِ الاسمِ معنى الشَّرطِ باعتبارِ الوصفِ، وكأنَّ فِرارَهم يُسرِّعُ لُحوقَه بهِم[٤].

- وقال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ لأنَّ النَّبأَ خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، ويُطلَقُ على الخبرِ الخطيرِ والأمرِ العظيمِ، فالنَّبأُ أخصُّ مِن الخبرِ، فكلُّ نبأٍ خبرٌ، وليس كلُّ خبرٍ نبأً؛ لأنَّ النَّبأَ لا يُطلَقُ إلَّا على الخبرِ الَّذي له خَطبٌ وشأنٌ[٥]. والإنباءُ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كِنايةٌ عن الحسابِ عليه، وهو تَعريضٌ بالوعيدِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٨٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٩).

الآيات (٩-١١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَذَرُواْ﴾: أي: اتْرُكوا، ودَعُوا، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه لقِلَّةِ اعتِدادِه به[١].

﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾: أي: فتفرَّقوا لإقامةِ مَصالِحِكم، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه[٢].

﴿وَٱبۡتَغُواْ﴾: أي: اطْلُبوا، مِن بغَى الشَّيءَ، أي: طَلَبَه[٣].

﴿تُفۡلِحُونَ﴾: أي: تَفوزون بالمطلوبِ، وتَنجون مِن المرهوبِ، وأصلُ الفلاحِ: البقاءُ والفوزُ والظَّفَرُ، وإدراكُ البُغيةِ، ثمَّ قيل لكلِّ مَن عقَل وحزُمَ وتكاملتْ فيه خِلالُ الخَيرِ، والعربُ تقولُ لكلِّ مَن أصاب خيرًا: مُفلِحٌ، وأصلُ (فلح) هنا: يدُلُّ على فَوزٍ وبَقاءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥، ٨٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٠)، ((الغريبين =

﴿لَهۡوًا﴾: اللَّهْوُ: ما يَشغَلُ الإنسانَ عمَّا يَعْنيه ويُهِمُّه، وأصلُ (لهو): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بشَيءٍ[(١)].

﴿ٱنفَضُّوٓاْ﴾: أي: تَفرَّقوا، والفضُّ: كَسْرُ الشَّيءِ، والتَّفريقُ بيْنَ بَعضِه وبَعضِه، وأصلُ (فضض): يدُلُّ على التَّفريقِ والتَّجزئةِ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى المؤمنينَ بالمسارعةِ إلى أداءِ فرائضِه، وألَّا تَشغلَهم الدُّنيا عن ذِكْرِه وطاعتِه، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا نُودِيَ للصَّلاةِ مِن يَومِ الجُمُعةِ فامضوا إلى الخُطبةِ والصَّلاةِ، واتْرُكوا البَيعَ؛ ذلكم خَيرٌ لكم إنْ كنتُم تَعلَمونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى جانبًا مِن مَظاهِرِ التَّيسيرِ في شَرعِه، ومُراعاةِ أحوالِ عبادِه، فيقولُ: فإذا فَرَغْتُم مِن صَلاةِ الجُمُعةِ فتفرَّقوا في الأرضِ، واطْلُبوا مِن رِزقِ اللهِ إنْ شِئتُم؛ فلا حَرَجَ عليكم، واذكُروا اللهَ ذِكرًا كَثيرًا؛ لعَلَّكم تُفلِحونَ.

ثمَّ يعاتِبُ اللهُ تعالى بعضَ أصحابِ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فيَقولُ: وإذا رَأَوا تجارةً أو لَهْوًا وَقْتَ خُطبةِ الجُمُعةِ، انصَرَفوا إليها، وتَرَكوك -يا محمَّدُ- قائمًا على المِنبَرِ تَخطُبُ. قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: ما عِندَ اللهِ خَيرٌ مِن لذَّةِ اللَّهوِ ومِن رِبحِ التِّجارةِ، واللهُ خيرُ الرَّازِقِينَ.

= في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَبَّح اللهُ سُبحانَه المُخالَفةَ بيْن القَولِ والفِعلِ، وصوَّرَ صاحِبَها بصُورةِ الحِمارِ على الهيئةِ السَّابقةِ، وحذَّرَ مِن ذلك بما هيَّأَ به العاقِلَ للإجابةِ إلى دوامِ الطَّاعةِ بعْدَ أن بيَّنَ أنَّ جَميعَ الكائِناتِ تُسبِّحُه، وخَتَم بالتَّحذيرِ مِنَ الإخبارِ يومَ الجَمْعِ الأعظَمِ بجَميعِ الأعمالِ؛ قال على طريقِ الاستنتاجِ مِمَّا مضى مِن التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، نادبًا لهم -لِيَكونوا أولياءَ اللهِ- إلى التَّزكيةِ المذكورةِ الَّتي هي ثَمرةُ الرِّسالةِ بما حاصِلُه الإقبالُ بالكُلِّيَّةِ على اللهِ، والإعراضُ بالكُلِّيَّةِ عن الدُّنيا؛ لِيَجمَعَ المكَلَّفُ بيْن التَّحَلِّي بالمزايا، والتَّخَلِّي عن الدَّنايا، فخَصَّ مِن المزايا أعظَمَ تَسبيحٍ يَفعَلُه العاقِلُ في أيَّامِ الأُسبوعِ، وهو الإسراعُ بالاجتِماعِ العَظيمِ في يومِ الجُمُعةِ الَّذي يُناظِرُ الاجتماعَ لإجابةِ المُنادي في يومِ الجَمعِ الأكبَرِ، ثمَّ الإقبالُ الأعظَمُ بفِعْلِ صَلاةِ الجُمُعةِ الَّتي هي سِرُّ اليومِ الَّذي ضَيَّعَه اليَهودُ، واستَبدَلوا به ما كان سَبَبَ تَعذيبِهم بعذابٍ لم يُعَذَّبْ به أحدٌ مِنَ العالَمينَ[1].

وأيضًا بعدَ أنْ نعَى على اليهودِ فِرارَهم مِن الموتِ حبًّا في الدُّنيا والتَّمتُّعِ بطَيِّباتِها- ذكَرَ هنا أنَّ المؤمنَ لا يُمنَعُ مِن اجتناءِ ثمارِ الدُّنيا وخَيراتِها مع السَّعيِ لِما يَنفَعُه في الآخرةِ، كالصَّلاةِ يومَ الجُمُعةِ في المسجدِ مع الجماعةِ[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٢، ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ١٠١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا[1] إذا أذَّن المؤذِّنُ داعيًا إلى الصَّلاةِ في يَومِ الجُمُعةِ[2] -وذلك عندَ قُعودِ الإمامِ على المِنبَرِ للخُطبةِ-؛ فامضوا إلى خُطبة الجمعةِ وصَلاتِها مُبادِرينَ مُهْتمِّينَ، واتْرُكوا البَيعَ[3].

---

(١) قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خِطابٌ للمُكَلَّفينَ بإجماعٍ، ويَخرُجُ منه المَرْضى والزَّمْنى والمسافِرونَ والعَبيدُ والنِّساءُ؛ بالدَّليلِ، والعُمْيانُ والشَّيخُ الَّذي لا يَمشي إلَّا بقائدٍ عندَ أبي حنيفةَ. ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠٣).

(٢) قال الجَصَّاصُ: (قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ...﴾ الآيةَ... اتَّفَق المسلمونَ على أنَّ المرادَ الصَّلاةُ الَّتي إذا فعَلَها مع الإمامِ جُمُعةً لم يَلزَمْه فِعلُ الظُّهرِ معها، وهي ركعتانِ بعدَ الزَّوالِ على شرائطِ الجُمُعةِ، واتَّفَق الجميعُ أيضًا على أنَّ المرادَ بهذا النِّداءِ هو الأذانُ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٩٤).

وقال الواحدي: (يعني: النِّداءَ إذا جلس الإمامُ على المِنبَرِ يومَ الجُمُعةِ؛ لأنَّه لم يكُنْ على عهدِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نداءٌ سِواه). ((الوسيط)) (٤/ ٢٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٧، ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٧، ١٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٢-٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال ابن عطية: (السَّعيُ في الآيةِ ليس الإسراعَ في المشيِ كالسَّعيِ بيْنَ الصَّفا والمروةِ، وإنَّما هو بمعنى قَولِه: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، فالقيامُ والوُضوءُ ولُبسُ الثَّوبِ والمَشيُ: سَعيٌ كُلُّه إلى ذِكرِ اللهِ تعالى، قال الحسَنُ وقَتادةُ ومالِكٌ وغيرُهم: إنَّما تُؤتَى الصَّلاةُ بالسَّكينةِ. فالسَّعيُ هو بالنِّيَّةِ والإرادةِ والعمَلِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٩).

وقال ابن رجب: (المرادُ بالسَّعيِ: شِدَّةُ الاهتمامِ بإتيانِها، والمُبادَرةُ إليها؛ فهو مِن سَعيِ القُلوبِ، لا مِن سعيِ الأبدانِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٥٩).

وقال ابن تيميَّةَ: (ليس المرادُ بالسَّعيِ المأمورِ به العَدْوَ؛ فإنَّه قد ثبَتَ في الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: «إذا أُقيمَتِ الصَّلاةُ فلا تَأتوها وأنتم تَسعَونَ، وأْتُوها وأنتم =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((نحن الآخِرونَ السَّابِقونَ يومَ القيامةِ، بَيْدَ[١] أنَّهم أُوتُوا الكِتابَ مِن قَبْلِنا، وأُوتِيناهُ مِن بَعْدِهم، وهذا يَومُهم الَّذي فُرِضَ عليهم، فاختَلَفوا فيه، فهَدانا اللهُ له، فهُمْ لنا فيه تَبَعٌ، فاليَهودُ غَدًا، والنَّصارى بعدَ غَدٍ))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَنِ اغتَسَل يومَ الجُمُعةِ غُسْلَ الجَنابةِ ثمَّ راح فكأنَّما قَرَّب بَدَنةً[٣]، ومَن راح في

= تَمشُونَ وعليكم السَّكِينةُ؛ فما أدرَكْتُم فصَلُّوا، وما فاتكم فأَتِمُّوا»[البخاري «٩٠٨»، ومسلم «٦٠٢»]، ورُوِيَ: «فاقْضُوا»[أحمد «٧٢٥٠»، النسائي«٨٦١»]، ولكنْ قال الأئمَّةُ: السَّعْيُ في كتابِ اللهِ هو العمَلُ والفِعلُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]). ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ٢٥٩).

وأمَّا سببُ تسميةِ هذا اليَومِ بالجُمُعةِ فقد قال فيه البَغَويُّ: (واختلَفوا في تسميةِ هذا اليَومِ جُمُعةً؛ منهم مَن قال: لأنَّ اللهَ تعالَى جمَع فيه خَلْقَ آدَمَ عليه السَّلامُ. وقيل: لأنَّ اللهَ تعالى فرَغَ فيه مِن خَلقِ الأشياءِ، فاجتمعتْ فيه المخلوقاتُ. وقيل: لاجتماعِ الجماعاتِ فيها. وقيل: لاجتماعِ النَّاسِ فيها للصَّلاةِ.

وقيل: أوَّلُ مَن سَمَّاها جُمُعةً كعبُ بنُ لُؤَيٍّ...، وكان يُقالُ له: يومُ العَرُوبةِ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨٤). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٠٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٣٥٣).

وقال ابن رجب: (أوَّلُ جُمُعةٍ جُمِّعتْ بالمدينةِ في نَقِيعِ الخَضِماتِ، قبْلَ أن يَقْدَمَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ المدينةَ، وقبْلَ أن يَبنيَ مَسجِدَه. يدُلُّ على ذلك: حديثُ كعبِ بنِ مالكٍ، أنَّه كان كلَّما سمِع أذانَ الجُمعةِ استغفَرَ لِأَسْعَدَ بنِ زُرارةَ، فسأله ابنُه عن ذلك، فقال: كان أوَّلَ مَن صلَّى بنا صلاةَ الجُمعةِ قبْلَ مَقدَمِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن مكَّةَ في نَقيعِ الخَضِماتِ، في هَزْمِ النَّبيتِ، مِن حَرَّةِ بَني بَياضةَ. قيل له: كم كنتُم يومَئذٍ؟ قال: أربعين رجُلًا. خرَّجه... أبو داودَ [١٠٦٩] وابنُ ماجَة مُطوَّلًا [١٠٨٢]). ((فتح الباري)) (٨/ ٦٣).

(١) بَيْدَ: أي: غَيْرَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١٠٠٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٨٧٦)، ومسلمٌ (٨٥٥) واللَّفظُ له.

(٣) البَدَنةُ هنا: مِن الإبلِ، ذكرًا أمْ أنثى، والتَّاءُ للوحدةِ لا للتَّأنيثِ، والمرادُ: تصَدَّقُ بها مُتقَرِّبًا إلى الله =

السَّاعةِ الثَّانيةِ فكأنَّما قَرَّب بَقَرةً، ومَن راح في السَّاعةِ الثَّالثةِ فكأنَّما قَرَّب كَبشًا أقرَنَ[١]، ومَن راح في السَّاعةِ الرَّابعةِ فكأنَّما قَرَّب دجاجةً، ومَن راح في السَّاعةِ الخامسةِ فكأنَّما قَرَّب بَيضةً، فإذا خرجَ الإمامُ حَضَرت الملائِكةُ يَستَمِعونَ الذِّكْرَ))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهم، أنَّهما سَمِعا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ على أعوادِ مِنبَرِه: ((لَيَنتَهِيَنَّ أقوامٌ عن وَدْعِهِمُ[٣] الجُمُعاتِ، أو لَيَختِمَنَّ اللهُ على قُلوبِهم، ثمَّ لَيَكُونُنَّ مِن الغافِلينَ))[٤].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: السَّعيُ إلى الخُطبةِ والصَّلاةِ يَومَ الجُمُعةِ، وتَركُ البَيعِ: خَيرٌ لكم مِنَ البَيعِ والشِّراءِ في ذلك الوَقتِ إنْ كُنتُم تَعلَمونَ[٥].

= تعالى. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٢/ ١٥٩).

(١) الأقرَن مِن الكِباشِ: الَّذي له قَرْنٌ، ووصَفَه بالأقرَنِ؛ لأنَّه أكمَلُ وأحسَنُ صورةً، ولأنَّ قَرنَه يُنتفَعُ به. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٣٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٧٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٨٨١)، ومسلمٌ (٨٥٠).

(٣) وَدْعِهِم: أي: تَرْكِهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٥٢).

(٤) رواه مسلم (٨٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال ابنُ جرير: (﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مَصالِحَ أنفُسِكم ومَضارَّها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٣).

وقال البِقاعي: (أي: يتجَدَّدُ لكم عِلْمٌ في يومٍ مِنَ الأيامِ، فأنتم تَرَونَ ذلك خيرًا، فإذا عَلِمتُموه خيرًا أقبَلْتُم عليه، فكان ذلك لكم خيرًا... وإنَّما عَبَّرَ عنها بهذا؛ إشارةً إلى أنَّ عاقِلًا لا يَسَعُه أن يَترُكَ ما يَعلَمُ أنَّه أعلى وُجوهِ الخَيرِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٦٦).

وقال السعدي: (﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ ما عِندَ اللهِ خَيرٌ وأبقى، وأنَّ مَن آثَرَ الدُّنيا على الدِّينِ فقدْ خَسِرَ الخَسارةَ الحقيقيَّةَ؛ مِن حيثُ ظَنَّ أنَّه يَربَحُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا حَثَّ اللهُ تعالى على الصَّلاةِ، وأرشَدَ إلى أنَّ وَقتَها لا يَصلُحُ لطَلَبِ شَيءٍ غَيرِها، وأنَّه متى طُلِبَ فيه شَيءٌ مِن الدُّنيا، مُحِقَت بَرَكتُه، مع ما اكتُسِب مِن الإثمِ- بيَّن وَقْتَ المَعاشِ، فقال مُبيحًا لهم ما كان حُظِرَ عليهم[1]:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: فإذا فَرَغْتُم مِن صَلاةِ الجُمُعةِ فتفرَّقوا في الأرضِ، واطْلُبوا مِن رِزقِ اللهِ إنْ شِئتُم؛ فلا حَرَجَ عليكم في ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٣، ٦٤٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال ابنُ عطية: (قوله: ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ أجمَعَ النَّاسُ على أنَّ مُقتضى هذا الأمرِ الإباحةُ، وكذلك قَولُه تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ أنَّه الإباحةُ في طَلَبِ المَعاشِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٩).

وقال ابن الفَرَسِ: (أمْرُ إباحةٍ باتِّفاقٍ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٦٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٥).

وقال ابن حجر -بعدَ أن ذكَرَ الإجماعَ على أنَّ الأمرَ المذكورَ للإباحةِ-: (وقد جنَح الدَّاوديُّ إلى أنَّه على الوُجوبِ في حقِّ مَن يَقدِرُ على الكسبِ، وهو قولٌ شاذٌّ نُقِل عن بعضِ الظَّاهريَّةِ). ((فتح الباري)) (٢/ ٤٢٧).

وذكَرَ ابنُ رجب أنَّ بعضَهم قد ذهب إلى أنَّ الأمرَ بالانتشارِ بعدَ الصَّلاةِ للاستِحبابِ، وذكر منهم عِرَاكَ بنَ مالكٍ، وعِمْرانَ بنَ قَيسٍ. ونسَبَ إلى الأكثَرينَ أنَّه ليس بأمرٍ حقيقةً، وإنَّما هو إذْنٌ وإباحةٌ، وذكَرَ منهم عَطاءً، ومُجاهِدًا، والضَّحَّاكَ، ومُقاتِلَ بنَ حَيَّانَ، وابنَ زيدٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٨/ ٣٣٧). =

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الاشتِغالُ في التِّجارةِ مَظِنَّةَ الغَفْلةِ عن ذِكرِ اللهِ؛ أمرَ اللهُ بالإكثارِ مِن ذِكْرِه[١].

وأيضًا لَمَّا كان السَّعيُ في طَلَبِ الرِّزقِ مُلْهيًا عن الذِّكْرِ؛ بَيَّن أنَّه أعظَمُ السَّعيِ في المعاشِ، وأنَّ مَن غَفَل عنه لم يَنجَحْ له مَقصَدٌ، وإن تحايَلَ له بكُلِّ الحِيَلِ وغَيرِ ذلك[٢].

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

أي: واذكُروا اللهَ ذِكرًا كَثيرًا في جميعِ أحوالِكم، فلا تُلْهِيَنَّكم تجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذِكرِ اللهِ؛ لعَلَّكم تَظفَرونَ بما تَطلُبونَه مِن الخَيرِ، وتَنجون ممَّا تَرهبون[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾ [النساء: ١٠٣].

= وقيل: قولُه: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليس لطلَبِ الدُّنيا، ولكنْ لعيادةِ مريضٍ، وحُضورِ جنازةٍ، وزيارةِ أخٍ في الله. وممَّن رُويَ عنه هذا القولُ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٦٥).

وقال الحسَنُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومكحولٌ: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾: هو طلَبُ العِلمِ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٧، ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣)، ((تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن)) للسعدي (١/ ٨٧).

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَخطُبُ قائِمًا يومَ الجُمُعةِ، فجاءت عِيرٌ[١] مِن الشَّامِ، فانفتَلَ[٢] النَّاسُ إليها، حتَّى لم يَبْقَ إلَّا اثنا عَشَرَ رَجُلًا؛ فأُنزِلَت هذه الآيةُ الَّتي في الجُمُعةِ: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾))[٣].

﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾.

---

(١) العِيرُ: الإبلُ بأحْمالِها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٢٩).

(٢) انفتَل: أي: انصَرَف. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٧٧٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٩٣٦)، ومسلمٌ (٨٦٣) واللَّفظُ له.

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرونَ: كان الَّذي قَدِم بالتِّجارةِ دِحْيةَ بنَ خَليفةَ الكَلْبيَّ، قال مقاتلٌ: وذلك قبْلَ أن يُسْلِمَ. قالوا: قَدِمَ بها مِن الشَّامِ، وضُرِب لها طبلٌ يُؤْذِنُ النَّاسَ بقُدومِها. وهذه كانت عادتُهم إذا قَدِمَتْ عِيرٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٢٨).

وقال العُلَيمي: (كان قد أصاب المدينةَ قَحطٌ شديدٌ، وكان دِحْيةُ بنُ خليفةَ الكَلبيُّ يأتيهم بكلِّ ما يَحتاجون إليه مِن بُرٍّ وشَعيرٍ وغيرِهما مِن الشَّامِ، وكان إذا قَدِمَ ضُرِب الطَّبلُ؛ لِيُعلَمَ به، فقَدِمَ يومَ الجُمعةِ -وذلك قبْلَ إسلامِه- والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَخطُبُ، فضُرِب الطَّبلُ، فخرَجَ النَّاسُ إليه ومَن في المسجدِ؛ خوفًا أن يُسبَقوا، ولم يَبْقَ عِندَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ غيرُ اثنَيْ عَشَرَ رجُلًا وامرأةً). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٥٤).

أي: يقولُ اللهُ تعالى مُعاتِبًا بعضَ أصحابِ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: وإذا رَأَوا تجارةً أو لَهْوًا وَقْتَ خُطبةِ الجُمُعةِ الَّتي هي جَديرةٌ بشِدَّةِ الإصغاءِ إليها، والاتِّعاظِ بها في صَرْفِ النَّفْسِ عن الدُّنيا، والإقبالِ على الآخِرةِ؛ انصَرَفوا إلى تلك التِّجارةِ مُسرِعينَ، وتَرَكوك -يا محمَّدُ- قائمًا على المِنبَرِ تَخطُبُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قيل: المرادُ باللَّهوِ: الطَّبلُ. وممَّن اختاره: الفَرَّاءُ، والواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرازي، والبيضاوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٥٤).

قال ابن عثيمين: (اللَّهوُ: هو الَّذي كان يَصحَبُ التِّجارةَ، وهو أنَّه جرَتِ العادةُ أنَّ الرَّكْبَ إذا جاؤوا وأقْبَلوا إلى المدينةِ جعَلوا يَضرِبون بالدُّفِّ؛ لأجْلِ أن يُفزعوا النَّاسَ ويُنَبِّهوهم على أنَّه قد جاءت عِيرٌ، فلمَّا سمِعوا هذا خرَجوا؛ لأنَّهم في حاجةٍ شديدةٍ، خرَجوا يُريدونَ التِّجارةَ). ((فتح ذي الجلال والإكرام)) (٢/ ٨٦) بتصرُّف.

وممَّن قال: هو الطَّبلُ، وزاد معه التَّصفيقَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والنسفي، والخازن، والنيسابوري، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٦)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٠).

قال الزمخشري: (وكانوا إذا أقبلَتِ العِيرُ استَقبَلوها بالطَّبلِ والتَّصفيقِ، فهو المرادُ باللَّهوِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٦).

وقال الزَّجَّاجُ: (واللَّهوُ هاهنا قيل: الطَّبلُ، وهو -واللهُ أعلَمُ- كلُّ ما يُلْهَى به). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٧٣).

وقال القاسمي: (﴿أَوْ لَهْوًا﴾ أي: ما تَلهو به النَّفْسُ عن الحقِّ والجِدِّ والنَّافعِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٣١).

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ فقد قال فيه الواحديُّ: (أجمَعوا على أنَّ هذا القيامَ كان في الخُطبةِ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٠١).

﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك المُنصَرِفينَ إلى التِّجارةِ أو اللَّهوِ: ما عِندَ اللهِ مِن الأجرِ والثَّوابِ خَيرٌ لِمَن يَسمَعُ خُطبةَ الجُمُعةِ، ويَحضُرُ صَلاتَها، مِن لذَّةِ اللَّهوِ، ومِن رِبحِ التِّجارةِ(١)!

كما قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

أي: واللهُ خيرُ مَن رزَق وأعطَى في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فليس الصَّبرُ على طاعةِ اللهِ مُفَوِّتًا للرِّزقِ، ومَن اتَّقى اللهَ رَزَقَه مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٤).

وممَّن ذهب في الجُملةِ إلى أنَّ المراد به الثَّوابُ: ابنُ جرير، وابن كثير، والعُلَيمي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال القاسمي: (﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن الثَّوابِ المَرجُوِّ بسَماعِ الخُطبةِ، والعِظَةِ بها). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٣١).

وقال الرَّسْعَني: (﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن ثَوابِ الصَّلاةِ، والثَّباتِ مع نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٣٦). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٥).

وقال السعدي: (﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن الأجرِ والثَّوابِ، لِمَن لازَمَ الخيرَ، وصبر نفْسَه على عبادةِ الله). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

وقال السمعاني: (أي: ذِكرُ اللهِ تعالى والاشتِغالُ في الصَّلاةِ خيرٌ مِن اللَّهوِ والتِّجارةِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ فيه أنَّه ينبغي للعَبدِ المُقبِلِ على عِبادةِ اللهِ، وَقتَ دَواعي النَّفْسِ لحُضورِ اللَّهوِ والتِّجاراتِ والشَّهَواتِ: أن يُذَكِّرَها بما عندَ اللهِ مِن الخَيراتِ، وما لِمُؤْثِرِ رِضاه على هَواه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ يَنبغي له إذا قَضى مِن العبادةِ ألَّا يَغْفُلَ بَعْدَها عن ذِكْرِ اللهِ[٢]؛ فلا تظُنُّوا أنَّكم إذا فَرَغْتُم مِن ذِكْرِ اللهِ في الخُطبةِ والصَّلاةِ أنَّكم انتَهَيتُم مِن ذِكْرِ اللهِ. لا؛ ذِكْرُ اللهِ في كلِّ حالٍ، وفي كلِّ وقتٍ، وفي كلِّ مَكانٍ[٣]، فسائرُ العباداتِ تَنقضي ويُفرَغُ منها، وذِكرُ الله باقٍ لا يَنقضي ولا يُفرَغُ منه، بل هو مُستمِرٌّ للمؤمنينَ في الدُّنيا والآخرةِ[٤].

٣- تحقيقُ التَّوكُّلِ لا يُنافي السَّعْيَ في الأسبابِ الَّتي قَدَّر اللهُ سُبحانَه المَقْدوراتِ بها، وجَرَتْ سُنَّتُه في خَلْقِه بذلك؛ فإنَّ اللهَ تعالَى أمَر بتعاطي الأسبابِ معَ أمْرِه بالتَّوكُّلِ، فالسَّعيُ في الأسبابِ بالجَوارحِ طاعةٌ له، والتَّوكُّلُ بالقلبِ عليه إيمانٌ به، كما قال تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النِّسَاء: ٧١]، وقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا

= (ص: ٨٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٩٠).

ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ ﴾[١] [الأنفال: ٦٠].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فيه أنَّ الإكثارَ مِن ذِكرِ اللهِ أكبَرُ أسبابِ الفَلاحِ[٢]؛ فقد علَّق الفَلاحَ بالإكثارِ مِن ذِكْرِ اللهِ تعالى[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ ...﴾ إنَّما سُمِّيَت الجُمُعةُ جُمعةً؛ لأنَّها مُشتقَّةٌ مِنَ الجَمعِ؛ فإنَّ أهلَ الإسلامِ يجتَمِعونَ فيه في كلِّ أُسبوعٍ مَرَّةً بالمعابدِ الكِبارِ، وفيه كَمَل جميعُ الخلائِقِ؛ فإنَّه اليَومُ السَّادِسُ مِن السِّتَّةِ الَّتي خَلَق اللهُ فيها السَّمَواتِ والأرضَ، وفيه خُلِقَ آدَمُ، وفيه أُدخِلَ الجنَّةَ، وفيه أُخرِجَ منها، وفيه تقومُ السَّاعةُ[٤]، وفيه ساعةٌ لا يُوافِقُها عبدٌ مُؤمِنٌ يَسألُ اللهَ فيها خيرًا إلَّا أعطاه إيَّاه[٥]، كما ثَبَتَت بذلك الأحاديثُ الصِّحَاحُ... وثَبَت أنَّ الأُمَمَ قَبْلَنا أُمِروا به فَضَلُّوا عنه، واختار اليهودُ يومَ السَّبتِ الَّذي لم يقَعْ فيه خَلقٌ، واختار النَّصارى يومَ الأحَدِ الَّذي ابتُدِئَ فيه الخَلْقُ، واختار اللهُ لهذه الأمَّةِ يومَ الجُمُعةِ الَّذي أكمَلَ اللهُ فيه الخليقةَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٩٧).

(٤) عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((خَيْرُ يَومٍ طَلَعَتْ عليه الشَّمسُ يَومُ الجُمُعةِ، فيه خُلِقَ آدَمُ، وفيه أُدخِلَ الجَنَّةَ، وفيه أُخرِجَ منها، ولا تَقومُ السَّاعةُ إلَّا في يَومِ الجُمُعةِ)). رواه مسلم (٨٥٤).

(٥) عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذَكَرَ يومَ الجُمُعةِ، فقال: فيه ساعةٌ لا يُوافِقُها عبدٌ مسلمٌ وهو قائمٌ يُصلِّي يَسألُ اللهَ شيئًا إلَّا أعطاه إيَّاه، وأشار بيدِه يُقلِّلُها)). رواه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٩).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ خِطابُ الآيةِ لجَميعِ المؤمِنينَ؛ فدَلَّ على أنَّ الجُمُعةَ واجِبةٌ على الأعيانِ[١] ممَّن تتحقَّقُ فيهم شُروطُها.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ يدُلُّ على أنَّ الجُمُعةَ لا تَجِبُ إلَّا بالنِّداءِ، والنِّداءُ لا يكونُ إلَّا بدُخولِ الوَقتِ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ فيه مَشروعيَّةُ الأذانِ لصَلاةِ الجُمُعةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٦).

وممَّن حكى الإجماعَ على فرضيَّةِ الجُمُعةِ: الكاساني، وابن قدامة، وابن تيميَّة. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (١/ ٢٥٦)، ((المغني)) لابن قدامة (٢/ ٢١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٣٣٩).

قال ابنُ القيِّم: (أجمَعَ المسلمونَ على أنَّ الجمعةَ فرضُ عَينٍ، إلَّا قولًا يُحكَى عن الشَّافعيِّ أنَّها فرضُ كفايةٍ، وهذا غلَطٌ عليه). ((زاد المعاد)) (١/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٨٨).

مذهبُ الجمهورِ مِن الحَنَفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ: أنَّ وقتَ صلاةِ الجُمعةِ هو وقتُ صلاةِ الظُّهرِ، ولا تصحُّ قبْلَ الزَّوالِ، واختارَه ابنُ حزمٍ، وبه قال أكثرُ العلماءِ. يُنظر: ((مختصر القدوري)) (ص: ٣٩)، ((الكافي)) لابن عبد البر (١/ ٢٥٠)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥١١)، ((المحلى)) لابن حزم (٣/ ٢٤٤)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٨/ ١٧٠).

وذهب الحنابلةُ إلى جوازِ صلاةِ الجُمُعةِ قبْلَ الزَّوالِ، واختاره الشَّوكانيُّ، وابنُ باز. يُنظر: ((الإنصاف)) للمرداوي (٢/ ٢٦٣)، ((نيل الأوطار)) للشوكاني (٣/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٢/ ٣٩١، ٣٩٢).

قال الزَّرْكَشيُّ: (قال أحمدُ: رُوِيَ عن ابنِ مسعودٍ، وجابرٍ، وسعدٍ، ومُعاويةَ: أنَّهم صلَّوْا قبْلَ الزَّوالِ، وإذا صلَّى هؤلاء مع مَن يَحضُرُهم مِن الصَّحابةِ ولم يُنكَرْ، فهو إجماعٌ). ((شرح الزركشي على مختصر الخرقي)) (٢/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣). =

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ فيه مَشروعيَّةُ صَلاةِ الجُمُعةِ[1].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ استَدَلَّ به مَن قال: إنَّه يَجِبُ إتيانُ مَن هو في مكانٍ يَسمَعُ فيه النِّداءَ[2].

= وممَّن نقَل الإجماعَ على مشروعيَّةِ الأذانِ عَقِيبَ صعودِ الإمامِ على المِنبَرِ: ابنُ قُدامةَ. يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٢/ ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

قال ابن جُزَي: (حضورُ الجُمعةِ واجبٌ؛ لِحَملِ الأمرِ الَّذي في الآيةِ على الوُجوبِ باتِّفاقٍ، إلَّا أنَّها لا تجبُ على المرأةِ ولا على الصَّبيِّ ولا على المريضِ باتِّفاقٍ، ولا على العبدِ والمسافرِ عندَ مالكٍ والجمهورِ، خِلافًا للظَّاهريَّةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٤).

وممَّن نقَل الإجماعَ على عدَمِ وُجوبِ الجُمعةِ على المرأةِ: ابنُ المُنذِرِ، والخَطَّابي، وابن قُدامة. يُنظر: ((الإجماع)) لابن المنذر (ص: ٤٠)، ((معالم السنن)) للخطابي (١/ ٢٤٣)، ((المغني)) لابن قدامة (٢/ ٢٥٠).

وممَّن نقَل الإجماعَ على عدمِ وُجوبِ الجُمعةِ على الصَّبيِّ: ابنُ المنذِر، وابنُ بَطَّال. يُنظر: ((الإجماع)) لابن المنذر (ص: ٤٠)، ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٢/ ٤٧٨).

لكن قال ابنُ قُدامةَ: (أمَّا البُلوغُ فهو شرطٌ أيضًا لوُجوبِ الجُمعةِ وانعِقادِها، في الصَّحيحِ مِن المذهَبِ، وقولِ أكثَرِ أهلِ العِلمِ؛ لأنَّه مِن شرائطِ التَّكليفِ...، وذكَرَ بعضُ أصحابِنا في الصَّبيِّ المُميِّزِ روايةً أخرى: أنَّها واجبةٌ عليه؛ بِناءً على تكليفِه، ولا مُعوَّلَ عليه). ((المغني)) (٢/ ٢٤٣).

وأمَّا المريضُ فقال ابنُ قُدامةَ: (ويُعذَرُ في تَركِهما [أي: الجُمعةِ والجَماعةِ] المريضُ في قولِ عامَّةِ أهلِ العِلمِ). ((المغني)) (١/ ٤٥١).

وقال ابن المنذر: (لا أعلَمُ اختلافًا بيْن أهلِ العِلمِ على أنَّ للمريضِ أن يَتخلَّفَ عن الجَماعاتِ مِن أجْلِ المرَضِ). ((الإشراف على مذاهب العلماء)) (٢/ ١٢٦).

ولا تجبُ الجُمعةُ على المسافرِ باتِّفاقِ المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (١/ ٢٢١)، ((التاج والإكليل)) للمَوَّاق (٢/ ١٦٦)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٤٨٥)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (١/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣). =

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ استَدَلَّ به مَن قال: لا يُحتاجُ إلى إذْنِ السُّلطانِ؛ لأنَّه تعالى أوجَبَ السَّعيَ، ولم يَشترِطْ إذْنَ أحَدٍ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ دَلالةٌ على اشتِراطِ تَقَدُّمِ الخُطبتَينِ على الصَّلاةِ؛ فقد أَمَرَ سُبحانَه بالسَّعيِ إلى ذِكْرِ اللهِ مِن حينِ النِّداءِ، وبالتَّواتُرِ القَطْعيِّ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا أَذَّنَ المؤذِّنُ يومَ الجُمُعةِ خَطَبَ؛ إذَنْ فالسَّعيُ إلى الخُطبةِ واجِبٌ، وما كان السَّعيُ إليه واجِبًا فهو واجِبٌ؛ لأنَّ السَّعيَ وسيلةٌ إلى إدراكِه وتحصيلِه، فإذا وجبتِ الوَسيلةُ وَجَبتِ الغايةُ(٢).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ

= ووُجوبُ الجُمُعةِ على مَن يَسمَعُ النِّداءَ ولو كان خارجَ البَلدِ هو مذهبُ الجمهورِ؛ مِن المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ، لكنْ حدَّه المالكيَّةُ والحنابلةُ بمسافةِ فَرسَخٍ [ثلاثةِ أميالٍ، قرابة خمسة كيلو متر]. يُنظر: ((الكافي في فقه أهل المدينة)) لابن عبد البَرِّ (١/ ٢٤٨)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٤٨٨)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٢/ ٢٢).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

وصِحَّةُ الجُمعةِ بغيرِ إذْنِ السُّلطانِ وحُضورِه، سواءٌ أكان السُّلطانُ في البَلدِ أم لا، هو مذهبُ الجمهورِ؛ مِن المالِكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحَنابِلَةِ. يُنظر: ((الكافي)) لابن عبد البر (١/ ٢٤٩)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٠٩)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٢/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٥/ ٥١).

واشتراطُ تَقَدُّمِ الخُطبتَينِ على الصَّلاةِ متَّفَقٌ عليه بيْن المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ: الحنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحَنابلةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي مع ((حاشية الشِّلْبِي)) (١/ ٢١٩)، ((الشرح الكبير)) للدَّرْدِير، مع ((حاشية الدسوقي)) (١/ ٣٧٨)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥١٤)، ((الإنصاف)) للمَرْادوي (٢/ ٢٧٣).

قال الشربينيُّ: (كَوْنُهما قبْلَ الصَّلاةِ بالإجماعِ، إلَّا مَن شَذَّ). ((مغني المحتاج)) (١/ ٢٨٥).

إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ فيه أنَّ الخُطبَتَينِ يومَ الجُمُعةِ فَريضتانِ يَجبُ حُضورُهما؛ لأنَّه فُسِّرَ (الذِّكرُ) هنا بالخُطبتَينِ -مع الصَّلاةِ-، فأمَرَ اللهُ بالمُضِيِّ إليه، والسَّعْيِ له(١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ خُطْبَةَ الجُمُعةِ هي مِن ذِكْرِ اللهِ تعالى(٢).

١١- أنَّه يَكفي في عَدَدِ الجُمُعةِ ثلاثةٌ؛ فلو فُرِضَ أنَّ قريةً ليس فيها سِوى ثلاثةِ نَفَرٍ فإنَّها تُقامُ الجُمُعةُ؛ لأنَّه يَحصُلُ بهم الجَمعُ: إمامٌ يَخطبُ، ومؤذِّنٌ يَدعو، ومأمومٌ يُجيبُ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، المنادي: المؤذِّنُ، ولا بُدَّ مِن خَطيبٍ، ولا بُدَّ مَن مَدْعُوٍّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٦).
وكون الخُطبة شرطًا في الجُمُعةِ لا تصحُّ بدونِها فذلك باتِّفاقِ المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ: الحنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (١/ ٢١٩)، ((التاج والإكليل)) للمَوَّاق (٢/ ١٥٧)، ((المجموع)) للنَّووي (٤/ ٥١٤)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٢/ ٣١).
وأمَّا اشتراطُ كَونِهما خُطبتَينِ فهو مذهبُ الجمهورِ من المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير (١/ ٣٧٨)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥١٣)، ((المغني)) لابن قدامة (٢/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٦/ ١٣).
وهذا القولُ هو روايةٌ عن أحمدَ، وبه قال أبو يُوسُفَ وطائفةٌ مِن السَّلَفِ، واختارَه ابنُ تيميَّةَ وابنُ باز. يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٢/ ٢٤٣)، ((المبسوط)) للسرخسي (٢/ ٤٣)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٠٤)، ((الاختيارات الفقهية)) لابن تيمية (ص: ٤٣٩)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣٠/ ٣٣٢).
ومذهبُ أبي حنيفةَ ومحمَّدٍ أنَّ أقَلَّ الجماعةِ فيها ثلاثةٌ سِوى الإمامِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشِّلْبي)) (١/ ٢٢٠). =

١٢- إنْ قيل: كيف يُفسَّرُ ذِكرُ اللهِ بالخُطْبةِ -مع الصَّلاةِ-، وفي الخُطبةِ ذِكرُ غيرِ اللهِ؟

فالجوابُ: أنَّ ما كان مِن ذِكرِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والثَّناءِ عليه وعلى خُلَفائِه الرَّاشِدينَ وأتْقياءِ المؤمِنينَ، والموعِظةِ والتَّذكيرِ: فهو في حُكْمِ ذِكرِ اللهِ[(١)].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ فيه النَّهيُ عن البَيعِ والشِّراءِ بعدَ نداءِ الجُمُعةِ، وتحريمُ ذلك؛ وما ذاك إلَّا لأنَّه يفوِّتُ الواجِبَ، ويَشغَلُ عنه، فدَلَّ ذلك على أنَّ كُلَّ أمرٍ ولو كان مُباحًا في الأصلِ، إذا كان يَنشَأُ عنه تفويتُ واجِبٍ؛ فإنَّه لا يجوزُ في تلك الحالِ[(٢)]، وكذلك جميعُ العُقودِ، لا يُستَثنَى مِن ذلك النِّكاحُ ولا القَرْضُ ولا الرَّهنُ، ولا غيرُها، نعم، رُبَّما يقولُ قائلٌ: إنَّ عقودَ التَّبرُّعاتِ -كالهِبَةِ- لا تَضُرُّ؛ لأنَّها لا تُلْهي ولا تُشْغِلُ، فمَثَلًا لو أنَّ رجُلَينِ أقبَلَا على المسجِدِ، وفي حال إقبالِهما أُذِّنَ لصَلاةِ الجُمُعةِ، فوَهَبَ أحدُهما الآخَرَ شيئًا، فهنا قد يُقالُ: إنَّه يَصِحُّ؛ لأنَّه لَمْ يَحصُلْ بذلك إشغالٌ ولا إلْهاءٌ، لكنَّ شيئًا يحتاجُ إلى معالجةٍ، ونقولُ: إنَّه يصحُّ مع أنَّ اللهَ نهى عن البَيعِ! هذا فيه نظرٌ[(٣)].

= ومذهبُ الشَّافعيَّةِ والحنابلةِ أنَّه يُشترَطُ أن يكونَ العددُ أربعينَ. يُنظر: ((مغني المحتاج)) للخطيب الشربيني (١/ ٢٨٢)، ((شرح منتهي الإرادات)) للبُهُوتي (١/ ٣١٣).

ومذهَبُ المالكيَّةِ أنَّه يشترطُ حُضورُ اثنَيْ عشَرَ رجُلًا. يُنظر: ((حاشية الصاوي على الشرح الصغير)) (١/ ٤٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٨/ ١٩٢).

قال ابنُ كثير: (اتَّفَق العُلَماءُ رَضِيَ اللهُ عنهم على تحريمِ البَيعِ بعدَ النِّداءِ الثَّاني. واختلَفوا: هل =

١٤- إنَّ المعاملاتِ الَّتي يُكتسَبُ بها المالُ لا يُنهى عنها مُطلقًا لِكَونِها تَصُدُّ عن ذِكْرِ اللهِ وعنِ الصَّلاةِ، بل يُنهى منها عمَّا يَصُدُّ عن الواجِبِ، كما قال تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾، فمَا كانَ مُلْهِيًا وشاغِلًا عمَّا أمَر اللَّهُ تعالَى به مِن ذِكْرِه والصَّلاةِ له فهو مَنْهِيٌّ عنه، وإنْ لم يَكُنْ جِنسُه مُحَرَّمًا كالبيعِ والعملِ في التِّجارةِ وغيرِ ذلك[1].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أنَّ التَّفضيلَ لا يدُلُّ على أنَّ المفضولَ جائزٌ؛ فقد جَعَلَ سُبحانَه السَّعيَ إلى الجُمُعةِ خَيرًا مِن البَيعِ. والسَّعيُ واجِبٌ، والبَيعُ حَرامٌ[2].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۞ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ فيه سُؤالٌ: ما الفَرقُ بيْنَ ذِكرِ اللهِ أوَّلًا، وذِكرِ اللهِ ثانيًا؟

= يَصِحُّ إذا تعاطاه مُتعاطٍ أم لا؟ على قولَينِ، وظاهِرُ الآيةِ عدَمُ الصِّحَّةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٢).

ممَّن نقَل الإجماعَ على تحريمِ البَيعِ بعدَ النِّداءِ: إسحاقُ بنُ راهَوَيْهِ، وابنُ حزم، وابنُ العربي، وابنُ رُشْد. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٨/ ١٩٤)، ((المحلى)) لابن حزم (٧/ ٥١٩)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٤٩)، ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٣/ ١٨٦).

وأمَّا انعقادُ البيعِ فذهَبَ الحَنَفيَّةُ، والشَّافعيَّةُ، -وهو قولٌ للمالكيَّةِ- إلى أنَّ البيعَ يَنعقِدُ مع كَونِه يَحرُمُ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٥/ ٤٩)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٠١)، ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ١٦٩).

وذهَب المالكيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّه يَحرُمُ، ولا يَنعقِدُ البيعُ. يُنظر: ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٢/ ٥٥٣)، ((الإقناع)) للحَجَّاوي (٢/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٤/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧٤).

الجوابُ: الأوَّلُ مِن جُملةِ ما لا يَجتَمِعُ مع التِّجارةِ أصلًا؛ إذ المرادُ منه الخُطبةُ والصَّلاةُ. والثَّاني: ما يجتَمِعُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1] [النور: ٣٧].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الخَيريَّةَ تكونُ في الواجبِ وتكونُ في المستحَبِّ[2].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا خُطبةَ بعدَ صلاةِ الجُمُعةَ، فليس هناك خُطبةٌ ولا كلامٌ ولا مَوعِظةٌ، فإنَّه تَكفي المواعِظُ الَّتي في الخُطبةِ الَّتي قبْلَ الصَّلاةِ، والَّتي كانت مَشروعةً في هَدْيِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أباح الانتِشارَ عَقِبَ الصَّلاةِ، فيُستفادُ منه تقديمُ الخُطبةِ عليها[4].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ الفرقَ بينَ لَفْظَي «القَضاءِ» أوِ «الأداءِ» فَرقٌ اصطلاحيٌّ[5] لا أصلَ له في كلامِ اللهِ ورَسولِه؛ فإنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٢/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

(٥) قال ابن تيميَّةَ: (لفظُ «القضاءِ» فإنَّه في كلام الله وكلام الرَّسولِ المرادُ به إتمامُ العبادةِ وإن كان ذلك في وقتِها، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، ثمَّ اصطَلَح طائفةٌ مِن الفُقهاءِ فجعَلوا لفظَ القضاءِ مُختَصًّا بفِعلِها في غيرِ وقتِها، ولَفْظَ الأداءِ مُختصًّا بما يُفعلُ في الوقتِ، وهذا التَّفريقُ لا يُعرَفُ قَطُّ في كلامِ الرَّسولِ، ثمَّ يَقولون: قد يُستعمَلُ لفظُ القضاءِ في الأداءِ، فيَجعلون اللُّغةَ الَّتي نزَل القرآنُ بها مِن النَّادِرِ!). ((مجموعة الرسائل والمسائل)) (٣/ ٨٢). =

اللهَ تعالى سمَّى فِعْلَ العبادةِ في وَقتِها قَضاءً، وكما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، مع أنَّ هذَينِ يُفعَلانِ في الوَقتِ، فـ «القَضاءُ» في لغةِ العربِ: هو إكمالُ الشَّيءِ وإتمامُه، كما قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]، أي: أكمَلَهنَّ وأتَمَّهنَّ، فمَن فَعَلَ العبادةَ كاملةً فقد قضاها وإنْ فَعَلَها في وَقْتِها(١).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أنَّه إذا قُضيتِ الصَّلاةُ فلا جلوسَ بعدَها مُلْزِمٌ؛ فاخرُجْ، وابتَغِ الرِّزقَ، وابتَغِ مِن فَضْلِ اللهِ(٢).

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ سؤالٌ: أنَّه في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٠٣] أَمَر بذِكْرِ اللهِ بعدَ انتِهاءِ الصَّلاةِ مُباشَرةً، وهنا جَعَلَها بعدَ الانتِشارِ وابتِغاءِ الفَضلِ.

الجوابُ: هو أنَّ لكلِّ مَقامٍ مقالًا؛ ففي سورةِ «الجُمُعةِ» مَنَعَهم اللهُ مِن البَيعِ بعدَ نداءِ الجُمُعةِ حتَّى يُصَلُّوا، فكأنَّ النَّاسَ محبوسون عن البَيعِ والشِّراءِ مُدَّةَ الصَّلاةِ، فكان مِن أهمِّ ما يكونُ عندَهم أنْ يُطْلَقَ حَبْسُهم؛ ولهذا قال: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، والأمرُ في قَولِه: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ليس للوُجوبِ ولا للاستِحبابِ، ولكنَّه للإباحةِ، وأمَّا الَّذي في سورةِ «النِّساءِ» فليس

= يُنظر: ((قواعد الأصول ومعاقد الفصول)) للقَطِيعي (ص: ٦١)، ((تحفة المسؤول)) للرُّهُوني (٢/ ٢٦).

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ١٦١).

هناك أمرٌ بالحُضورِ إلى الصَّلاةِ، وتَرْكِ البَيعِ والشِّراءِ؛ فلهذا بَدَأ بالذِّكْرِ[١].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أنَّه لا يُشترَطُ في الذِّكْرِ خَلْفَ الصَّلَواتِ أنْ يكونَ في المكانِ، لكِنْ أهمُّ شيءٍ أنْ يكونَ القَلبُ حاضِرًا عندَ الذِّكْرِ[٢].

٢٤- قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، وهذا وإن كان في الجُمُعةِ فمَعناه قائِمٌ في جميعِ الصَّلَواتِ؛ ولهذا -واللهُ أعلَمُ- أمَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذي يَدخُلُ المسجِدَ أن يقولَ: ((اللهُمَّ افتَحْ لي أبوابَ رَحمتِك))، وإذا خرَجَ أن يقولَ: ((اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك مِن فَضْلِك))[٣].

٢٥- قَولُه تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ ليس بأمرٍ حقيقةً، وإنَّما هو إذْنٌ وإباحةٌ؛ حيثُ كان بعدَ النَّهيِ عن البَيعِ، فهو إطلاقٌ مِن محظورٍ؛ فيفيدُ الإباحةَ خاصَّةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٤/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٦٢).

والحديث أخرجه مسلم (٧١٣).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٨/ ٣٣٧).

قال الشنقيطي: (الَّذي يَظهَرُ لي في هذه المسألةِ هو ما يَشهَدُ له القرآنُ العظيمُ، وهو أنَّ الأمرَ بعدَ الحَظرِ يدُلُّ على رُجوعِ الفِعلِ إلى ما كان عليه قبْلَ الحَظرِ؛ فإن كان قبْلَه جائزًا رجَع إلى الجَوازِ، وإن كان قبْلَه واجبًا رجَع إلى الوُجوبِ). ((مذكرة في أصول الفقه)) (ص: ٢٣١).

وقال ابن كثير: (والَّذي يَنهضُ عليه الدَّليلُ أنَّه يُرَدُّ الحُكمُ إلى ما كان عليه الأمرُ قبْلَ النَّهيِ؛ فإن كان واجبًا فواجبٌ، كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، أو مُباحًا فمُباحٌ، كقولِه تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وعلى هذا القولِ تجتمِعُ الأدِلَّةُ، وقد حكاه الغزاليُّ وغيرُه، واختاره بعضُ أئمَّةِ =

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ إجازةُ الحرَكاتِ في التِّجارةِ ولو كانت بعيدةً، خِلافًا لِمَن يَتَنَطَّعُ ولا يَحضُرُ السُّوقَ[١]!

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ إذا قَدَّمَ الصَّلاةَ على البَيعِ والشِّراءِ، ثُمَّ اشترى وباع بعدَ ذلك؛ فإنَّه يُرْزَقُ[٢]، ويُبارِكُ الله له في بَيعِه، ويُوَسِّعُ له، والعَكسُ بالعَكسِ[٣].

٢٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾ يدُلُّ على وُجوبِ حُضورِ الخُطبةِ في صلاةِ الجُمُعةِ؛ إذْ لم يقلْ: وتَرَكوا الصَّلاةَ[٤]. ففيه الأمرُ بحُضورِ الخُطبتَينِ يومَ الجُمُعةِ، وذَمُّ مَن لم يحضُرْهما، ومِن لازِمِ ذلك: الإنصاتُ لهما[٥]؛ لأنَّ الحضورَ إنَّما هو للاستِماعِ[٦].

٢٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾ يدُلُّ على مَشروعيَّةِ القيامِ في الخُطبتَينِ[٧]، وأنَّ الإمامَ يَخطُبُ يومَ الجُمُعةِ قائِمًا[٨].

= المتأخِّرينَ، وهو الصَّحيحُ). ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٧).

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

(٦) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٢/ ٣٢٨).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٠)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٩١).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٤). ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٠١).

اختُلِف في حُكمِ خُطبةِ الإمامِ قائمًا؛ على أقوالٍ:

منها: أنَّ قِيامَ الخطيبِ حالَ الخُطبةِ شَرطٌ مع القُدرةِ عليه، وهو مذهبُ الشَّافعيَّةِ، وقولُ الأكثَرِ مِن المالكيَّةِ، وهو روايةٌ عن الإمامِ أحمدَ. يُنظر: ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥١٤، ٥١٥)، =

٣٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ فيه مَشروعيَّةُ الخُطبةِ[١].

٣١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ فيه اشتِراطُ الجَماعةِ في صلاةِ الجُمعةِ[٢].

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أنَّ التِّجارةَ وإنْ كانت ممدوحةً باعتبارِ كَونِها مِن المكاسِبِ الحلالِ، فإنها قد تُذَمُّ إذا قُدِّمَتْ على ما يَجِبُ تقديمُه عليها[٣].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ توبيخٌ لِمَن تَرَكَ الجُمُعةَ أو اشتغلَ عنها بالتِّجارةِ أو باللَّهْوِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا

= ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٢/ ٥٣١)، ((المبدع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٢/ ١٤٨).
ومنها: أنَّه يُسنُّ أن يَخطُبَ قائمًا، وهو مذهبُ الحَنفيَّةِ، والحَنابِلَةِ، وقولٌ للمالِكيَّةِ. يُنظر: ((البناية)) للعَيْني (٣/ ٥٦)، ((المبدع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٢/ ١٤٨)، ((شرح مختصر خليل)) للخرَشي (٢/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
وقد نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحد؛ منهم: ابنُ رُشْدٍ، والكاسانيُّ، والنوويُّ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (١/ ١٥٨)، ((بدائع الصنائع)) للكاساني (١/ ٢٦٦)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٠٨). ويُنظر الخلافُ في العددِ المجزئِ (ص: ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ٤٥٣).

إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

- قيل: هذه الآياتُ هي المقصودُ مِنَ السُّورةِ، وما قبْلَها مُقدِّماتٌ وتَوطِئاتٌ لها، ووَجْهُ اتِّصالِ هذه الآيةِ بالآياتِ الأربعِ الَّتي قبْلَها، فكُنَّ لهذه الآيةِ تمهيدًا وتوطِئةً: أنَّ اليهودَ افتخَروا على المُسلِمينَ بالسَّبتِ، فشرَعَ اللهُ للمُسلِمينَ الجُمُعةَ[1].

- والتَّعريفُ في الصَّلاةِ تَعريفُ العهدِ، وهي الصَّلاةُ المعروفةُ الخاصَّةُ بيومِ الجُمُعةِ[2].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ تبعيضيَّةٌ؛ فإنَّ يومَ الجُمُعةِ زمانٌ تقَعُ فيه أعمالٌ؛ مِنْها الصَّلاةُ المعهودةُ فيه، فنُزِّلَ ما يقَعُ في الزَّمانِ بمنزلةِ أجزاءِ الشَّيءِ، ويجوزُ كَونُ (مِنْ) للظَّرفيَّةِ[3].

- وإيثارُ ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ هُنا دونَ أنْ يقولَ: (إلى الصَّلاةِ)، كما قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾؛ لِتَتأتَّى إرادةُ الأمْرَينِ: الخُطبةِ، والصَّلاةِ[4].

- والمرادُ الأمرُ بتَرْكِ ما يُذهِلُ عن ذِكْرِ اللهِ مِن شَواغلِ الدُّنيا، وكلِّ ما يَشْغَلُ عن السَّعيِ إلى الجُمُعةِ، وإنَّما خَصَّ البيعَ مِن بَيْنِها؛ لأنَّ يومَ الجُمُعةِ يومٌ يَهبِطُ النَّاسُ فيه مِن قُراهُم وبَواديهِم، ويَنصبُّونَ إلى المِصْرِ مِن كلِّ أَوْبٍ، ووقتُ هبوطِهم واجتماعِهم واغتِصاصِ الأسواقِ بهم إذا انتفَخَ النَّهارُ، وتعالى الضُّحى، ودَنا وقتُ الظَّهيرةِ، وحينَئذٍ تَشتَدُّ التِّجارةُ، ويتكاثَرُ البيعُ والشِّراءُ، فلمَّا كان ذلك الوقتُ مَظِنَّةَ الذُّهولِ بالبَيعِ عن ذِكْرِ اللهِ، والمُضِيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٢٥، ٢٢٦).

إلى المسجِدِ، قيل لهم: بادِروا تجارةَ الآخِرةِ، واترُكوا تجارةَ الدُّنيا، واسعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ الَّذي لا شيءَ أنفَعُ منه وأربَحُ، ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ الَّذي نفعُه يَسيرٌ، وربحُه مُقارِبٌ[١].

وقيل: خُصَّ البَيعُ مِن جَميعِ الأفعالِ؛ لأنَّه مِن أهَمِّ ما يَشتَغِلُ به المرءُ في النَّهارِ مِن أسبابِ المَعاشِ[٢]، ولأنَّه أكثرُ ما يَقَعُ حينَئذٍ ممَّا يُلهي عن السَّعيِ، فيُشارِكُه في المعنى كلُّ شاغِلٍ[٣]، ولأنَّ سَببَ نُزولِ الآيةِ كان لتَرْكِ فريقٍ منهم الجُمعةَ إقبالًا على عِيرِ تِجارةٍ[٤]، ولأنَّ البيعَ والشِّراءَ في الأسواقِ غالبًا، والغفلةُ على أهلِ السُّوقِ أغلَبُ[٥].

- ولم يَذكُرِ الشِّراءَ؛ لأنَّه لَمَّا ذكَرَ البيعَ فقد دلَّ على الشِّراءِ[٦].

- والإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى المذكورِ، أي: ما ذُكِرَ مِن أمرٍ بالسَّعيِ إليها، وأمرٍ بتَرْكِ البيعِ حينَئذٍ، أي: ذلك خَيرٌ لكم ممَّا يَحصُلُ لكم مِنَ البُيوعاتِ؛ فلَفظُ ﴿خَيۡرٞ﴾ اسمُ تفضيلٍ أصلُه: أخيَرُ، حُذِفَتْ همزتُه لكثرةِ الاستِعمالِ، والمُفضَّلُ عليه مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليهِ، والمُفضَّلُ: الصَّلاةُ، أي: ثوابُها، والمُفضَّلُ عليه: منافِعُ البَيعِ للبائعِ والمُشتري[٧].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ جوابُ ﴿إِن﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قبْلَه، والتَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٥، ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٨/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٧).

إنْ كُنتُم تَعلَمونَ الخَيرَ والشَّرَّ الحقيقيَّيْنِ، أو إنْ كنتُم مِن أهلِ العِلمِ[١].

- وفي هذه السُّورةِ مَعانٍ لَطيفةٌ؛ حيثُ أبطَلَ اللهُ قولَ اليهودِ في ثلاثِ آياتٍ مِن هذه السُّورةِ: افتخَروا بأنَّهم أولياءُ اللهِ وأحِبَّاؤُه، فكذَّبَهم في قولِه: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]، وبأنَّهم أهلُ الكتابِ والعربُ لا كتابَ لهم، فشبَّهَهُمْ بالحِمارِ يَحمِلُ أسفارًا، وبالسَّبْتِ وأنَّه ليس للمُسلِمينَ مِثلُه، فشرَعَ اللهُ لهم الجُمُعةَ؛ فعلى هذا يكونُ في قولِه: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ تَعريضٌ باليهودِ، وأنَّهم ما وُفِّقوا لِمَا سُعِدَ به المؤمنونَ، ومِنْ ثَمَّ جُعِلَتِ الصِّلةُ -الَّتي هي ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾- عِلَّةً للسَّعيِ إلى ذِكْرِ اللهِ، كما جُعِلَتِ الصِّلةُ في قولِه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ لأهلِ الكتابِ مُقرِّرًا للتَّمثيلِ في قولِه: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾، وكذا الصِّلةُ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ عُدِلَ فيها مِن لفظِ (اليهودِ) إلى المَوصولِ والصِّلةِ؛ لِيَكونَ ذَريعةً إلى التَّعرُّضِ بدعواهم الكاذبةِ؛ حيثُ سَمَّوْا أنفُسَهم يَهودًا، وهُوَ مِن هادَ، أي: رجَعَ إلى اللهِ تعالَى وتابَ، وإلى تَقريرِ معنى قولِه: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾، كأنَّه قيل: يا أيُّها الَّذينَ ادَّعَوْا أنَّهم رجَعوا إلى اللهِ وتابوا إليهِ، إنْ زعَمْتُم أنَّكم أولياءُ اللهِ؛ لأنَّ التَّائبَ إلى اللهِ وليُّ اللهِ، فتمَنَّوْا لقاءَ اللهِ؛ فإنَّ الحبيبَ لا يَكرَهُ لقاءَ حبيبِه، ففي كلٍّ مِنَ الأحاديثِ الثَّلاثةِ تعريضٌ في غايةِ اللُّطفِ والدِّقَّةِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤١١، ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٥).

وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾

- أُعْقِبَ قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ بقوله: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّ لهم سَعةً مِنَ النَّهارِ يَجعَلونَها للبَيعِ ونَحْوِه مِنِ ابْتِغاءِ أسبابِ المَعاشِ، فلا يأخُذوا ذلك مِن وقتِ الصَّلاةِ، وذِكْرِ اللهِ[١].

- وقولُه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ احتِراسٌ مِنَ الانصبابِ في أشغالِ الدُّنيا انصبابًا يُنسِي ذِكْرَ اللهِ، أو يَشغَلُ عن الصَّلَواتِ؛ فإنَّ الفَلاحَ في الإقبالِ على مَرضاةِ اللهِ تعالَى[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

- عطفٌ على جُملةِ ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩] الآيةَ، عُطِفَ التَّوبيخُ على تَرْكِ المأمورِ به بعْدَ ذِكْرِ الأمرِ، وسُلِكَتْ في المعطوفةِ طَريقةُ الالتِفاتِ لخِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إيذانًا بأنَّهم أحرياءُ أنْ يُصْرَفَ الخِطابُ عنهم، فحُرِموا مِن عِزِّ الحُضورِ، وأُخْبِرَ عنهم بحالِ الغائبينَ، وفيه تَعريضٌ بالتَّوبيخِ[٣].

- قيل: لعلَّ التَّقسيمَ الَّذي أفادَتْه (أَو) في قولِه: ﴿أَوۡ لَهۡوًا﴾ تقسيمٌ لأحوالِ المُنفضِّينَ، أي: مِنهم مَنِ انفَضَّ مِن أجْلِ التِّجارةِ، ومنهم مَنِ انفضَّ مِن أجْلِ اللَّهوِ[٤]. وقيل: التَّرديدُ بـ (أو)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الانفضاضَ إلى التِّجارةِ مع

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٢٩).

الحاجةِ إليها والانتِفاعِ بها إذا كان مذمومًا، كان الانفضاضُ إلى اللَّهوِ أَوْلَى بذلك[١].

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ قال: ﴿إِلَيْهَا﴾ وقد ذكَرَ شيئَيْنِ: ﴿تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا﴾؛ لأنَّ فيه حَذفًا تقديرُه: وإذا رَأَوْا تجارةً انفضُّوا إليها، أو لَهوًا انفضُّوا إليه؛ فحذَفَ الثَّانيَ لدَلالةِ الأوَّلِ عليه[٢]. أو قال: ﴿إِلَيْهَا﴾ ولم يقُلْ: (إلَيهما) تَهمُّمًا بالأهَمِّ؛ إذ كانت سَببَ اللَّهوِ، ولم يكُنِ اللَّهوُ سَببَها؛ فالضَّميرُ لِلتِّجارةِ، وخُصَّتْ بردِّ الضَّميرِ إليها لأنَّها كانت أهَمَّ إليهم؛ فتأنيثُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿إِلَيْهَا﴾ تغليبٌ لِلَفْظِ ﴿تِجَٰرَةً﴾؛ لأنَّ التِّجارةَ كانت الدَّاعيَ الأقوى لانفِضاضِهم، أو لأنَّ التِّجارةَ أجذَبُ لقُلوبِ العِبادِ عن طاعةِ الله تعالى مِن اللَّهوِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٢، ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٠)، ((أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل)) لزين الدين الرازي (ص: ١٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٨، ٢٢٩).

قال الشنقيطي: (اللُّغة العرَبيَّة يجوزُ فيها رُجوعُ الضَّميرِ لأحدِ المذكورَينِ قَبْلَه. أمَّا في العَطفِ بـ «أو» فواضِحٌ؛ لأنَّ الضَّميرَ في الحقيقةِ راجِعٌ إلى الحَدِّ الدَّائرِ الَّذي هو واحِدٌ لا بعَينِه، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ١١٢]، وأمَّا الواوُ فهو فيها كثيرٌ، ومِن أمثلتِه في القرآنِ قَولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا﴾ الآيةَ [البقرة: ٤٥]، وقَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ [التوبة: ٣٤]، وقَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ [الأنفال: ٢٠]). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ٢٣٨).

- وكان مُقتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (وإذا رأَيْتُم تِجارةً أو لَهْوًا فلا تَنفَضُّوا إليها)، ومِن مُقتَضياتِ تَخريجِ الكلامِ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ هُنا: أنْ يكونَ هذا التَّوبيخُ غَيرَ شاملٍ لجميعِ المؤمنينَ؛ فإنَّ نفَرًا منهم بَقُوا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ خُطبتِه، ولم يَخرُجوا للتِّجارةِ ولا لِلَّهوِ[(١)].

- جُملةُ ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ تفظيعٌ لفِعلِهم؛ إذْ فرَّطوا في سماعِ وعْظِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٢)].

- قولُه: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ أرشَدَهم بعْدَ التَّوبيخِ والتَّعييرِ إلى تحرِّي الأصوبِ، وتوَخِّي المنهجِ الأقْوَمِ على سبيلِ العُمومِ، قائلًا: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾، وقدَّمَ ما كان مؤخَّرًا وكرَّرَ الجارَّةَ لإرادةِ الإطلاقِ في كلِّ واحدٍ واستِقلالِه فيما قُصِدَ مِنه التَّخالُفُ السَّابقُ في اتِّحادِ المعنى؛ لأنَّ ذلك في قصَّةٍ مَخصوصةٍ[(٣)].

- إن قيل: لِمَ قدَّم اللَّهوَ هنا على التِّجارةِ، وقدَّم التِّجارةَ قبْلَ هذا على اللَّهوِ؟

فالجوابُ: أنَّ كلَّ واحدٍ مِن الموضعَينِ جاء على ما يَنبغي فيه؛ وذلك أنَّ العربَ تارةً يَبتَدِئون بالأكثَرِ ثمَّ يَنزِلون إلى الأقَلِّ، كقَولِك: فُلانٌ يَخونُ في الكثيرِ والقليلِ، فبدَأْتَ بالكثيرِ ثمَّ أردَفْتَ عليه الخيانةَ فيما دُونَه، وتارةً يَبتَدِئون بالأقَلِّ ثمَّ يَرتَقونَ إلى الأكثَرِ، كقَولِك: فُلانٌ أمينٌ على القليلِ والكثيرِ، فبدأْتَ بالقليلِ ثمَّ أردَفْتَ عليه الأمانةَ فيما هو أكثَرُ منه، ولو عكَسْتَ في كلِّ واحدٍ مِن المِثالَينِ لم يكُنْ حسَنًا؛ فإنَّك لو قدَّمْتَ في الخيانةِ القليلَ لَعُلِم أنَّه يَخونُ في الكثيرِ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٢١).

بابِ أَوْلى وأَحْرَى، ولو قدَّمْتَ في الأمانةِ ذِكرَ الكثيرِ لَعُلِم أنَّه أمينٌ في القليلِ مِن بابِ أَولى وأحرى، فلم يكُنْ لِذِكْرِه بعدَ ذلك فائدةٌ، وكذلك قولُه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾؛ قدَّم التِّجارةَ هنا لِيُبيِّنَ أنَّهم يَنفَضُّون إليها، وأنَّهم مع ذلك يَنفَضُّون إلى اللَّهوِ الَّذي هو دُونَها، وقولُه: ﴿خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ قدَّمَ اللَّهْوَ؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ ما عندَ الله خيرٌ مِن اللَّهوِ، وأنَّه أيضًا خيرٌ مِن التِّجارةِ الَّتي هي أعظَمُ منه، ولو عُكِس كلُّ واحدٍ مِن المَوضِعَينِ لم يَحسُنْ[1].

وقيل: إنَّ سببَ تقديمِ التِّجارةِ على اللَّهوِ في قولِه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾ أنَّها كانت سببَ ذلك الانفِضاضِ، وليس اللَّهوَ، وإنَّما كان اللَّهوُ والضَّربُ بالدُّفوفِ بسَبَبِها؛ فقدَّمها لذلك.

وأمَّا تقديمُ اللَّهْوِ عليها فيما بَعْدُ في قولِه: ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ فذلك لأنَّ اللَّهوَ أعَمُّ مِن التِّجارةِ، فليس كلُّ النَّاسِ يَشتَغِلونَ في التِّجارةِ، ولكنَّ أكثَرَهم يَلْهُون، فالفقراءُ والأغنياءُ يَلْهون، فكان اللَّهوُ أعَمَّ؛ فقدَّمه لذلك إذ كان حُكمًا عامًّا، فقدَّم التِّجارةَ في الحُكمِ الخاصِّ لأنَّها في حادثةٍ مُعَيَّنةٍ، وقدَّم اللَّهوَ في الحُكمِ العامِّ لأنَّه أعَمُّ، ولأنَّها مُناسِبةٌ لقولِه: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، فالتِّجارةُ مِن أسبابِ الرِّزقِ، وليس اللَّهو؛ فوضَعَها بجَنبِه[2].

وقيل: قُدِّمَت التِّجارةُ على اللَّهوِ في الرُّؤيةِ؛ لأنَّها أهمُّ، وأُخِّرَت مع التَّفضيلِ؛ لتَقَعَ النَّفْسُ أوَّلًا على الأبيَنِ[3].

- وذُيِّلَ الكلامُ بقولِه: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾؛ لأنَّ اللهَ يَرزُقُ الرِّزقَ لِمَن يَرضى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((لمسات بيانية في نصوص من التنزيل)) للسامرائي (ص: ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٦).

عنه سليمًا مِنَ الأكدارِ والآثامِ، ولأنَّه يَرزُقُ خَيرَ الدُّنيا وخَيرَ الآخِرةِ، وليس غَيرُ اللهِ قادرًا على ذلك، والنَّاسُ في هذا المَقامِ درَجاتٌ لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ، وهو العالِمُ بالسَّرائِرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٠).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ
سُورَةِ المُنافِقونَ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ المُنافِقونَ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المُنافِقونَ)[١].

فعن زَيدِ بنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((... فلمَّا أصبَحْنا قرأ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سورةَ المُنافِقينَ))[٢].

فضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

تسنُّ قراءتُها في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن صَلاةِ الجُمُعةِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في صلاةِ الجُمُعةِ سورةَ الجُمُعةِ، والمُنافِقينَ))[٣].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ (المُنافِقونَ) مَدَنيَّةٌ[٤]، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٥].

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بهذا الاسمِ؛ اعتبارًا بذِكرِ أحوالِ المنافِقينَ وصِفاتِهم فيها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣١).

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٣٣١٣)، والطَّبَرانيُّ (٥/ ١٨٧) (٥٠٤١)، والحاكمُ (٣٨١٢) مطوَّلًا.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣١٣).

(٣) أخرجه مسلم (٨٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٨).

(٥) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٥)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٨٦).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

فَضحُ أحوالِ المُنافِقينَ، والكَشْفُ عن دخائِلِهم، وعن خِسَّةِ نُفوسِهم[(١)].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- وَصفُ المنافِقينَ وبَيانُ سَيِّئِ خِصالِهم؛ مِنَ الكَذِبِ، والأيْمانِ الفاجِرةِ، والجُبْنِ.

٢- النَّهيُ عن نِسيانِ ذِكرِ اللهِ تعالى، والغَفلةِ عنه.

٣- حَثُّ المؤمِنينَ على الطَّاعةِ وإنفاقِ المالِ قبْلَ انقِضاءِ الأجَلِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٣)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٣٩٨).

الآيات (١-٢)

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: المنافِقُ هو مَن يُظهِرُ الإسلامَ ويُبطِنُ الكفرَ، قيل: سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ كُفْرَه، فأشْبَهَ الدَّاخِلَ للنَّفقِ يَستَتِرُ فيه. وقيل: شُبِّهَ باليَرْبُوعِ الَّذي له جُحْرٌ يُقالُ له: النَّافِقاءُ، وآخَرُ يُقالُ له: القاصِعاءُ، فإذا طُلِب مِن القاصِعاءِ خرَج مِن النَّافِقاءِ، وكذلك المنافِقُ يَخرُجُ مِن الإيمانِ مِن غيرِ الوجهِ الَّذي يَدخُلُ فيه. وقيل: شُبِّه باليَربُوعِ مِن جِهةِ أنَّ اليَربُوعَ يَخرِقُ الأرضَ حتَّى إذا كاد يَبلُغُ ظاهِرَها أرَقَّ التُّرابَ، فإذا رابه رَيبٌ دفَع ذلك التُّرابَ برأسِه فخرَج، وأصلُ (نفق) هنا: يدُلُّ على إخفاءِ شَيءٍ وإغْماضِه، ويُمكِنُ أن يكونَ الأصلُ هو الخُروجَ[١].

﴿أَيْمَٰنَهُمْ﴾: أي: حَلِفَهم، واليَمينُ: القَسَمُ، وسُمِّيَ الحَلِفُ يَمينًا -وهو اسمُ اليَدِ-؛ لأنَّهم كانوا يَبْسُطونَ أيْمانَهم إذا حَلَفوا أوْ تحالَفوا، ثمَّ كثُر ذلك حتَّى سُمِّيَ الحلفُ والعهدُ نفْسُه يمينًا، وقِيل: يَمينٌ فَعيلٌ مِن اليُمنِ، وهو البَرَكةُ، سَمَّاها اللهُ تعالَى بذلك؛ لأنَّها تحفَظُ الحُقوقَ[٢].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨١٩)، ((المُعْلِم بفوائد مسلم)) للمازَري (١/ ٢٩٥)، ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٠٢).

﴿جُنَّةً﴾: أي: تَقِيَّةً وسُترةً، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَترٍ[١].

﴿فَطُبِعَ﴾: أي: خُتِمَ ورُبِطَ، أي: فلا يَعي وَعظًا، ولا يُوَفَّقُ لخَيرٍ، وأصلُه يدُلُّ على التَّغطيةِ على الشَّيءِ والاستيثاقِ منه، بألَّا يَدخُلَه شَيءٌ، ولا يَخرُجَ منه شَيءٌ[٢].

﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾: أي: لا يَفهمونَ، والفِقهُ هو مُطلَقُ الفَهمِ، أو: فَهْمُ الأشياءِ الدَّقيقةِ، يُقالُ: فَقِهتُ الكلامَ: إذا فَهِمْتَه حقَّ الفَهمِ، والفِقهُ: التَّوصُّلُ إلى عِلمٍ غائبٍ بعِلمٍ شاهِدٍ، فهو أخصُّ مِن العِلمِ، وأصلُ (فقه): يدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ، والعِلمِ به[٣].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بإخبارِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بشأنِ المنافِقينَ قائِلًا: إذا جاءك -يا محمَّدُ- المنافِقونَ الَّذين يُظهِرونَ الإسلامَ ويُبطِنونَ الكُفرَ، قالوا كَذِبًا بألسِنَتِهم: نَشهَدُ إنَّك لَرَسولُ اللهِ. واللهُ يَعلَمُ أنَّك رَسولُه حَقًّا، واللهُ يَشهَدُ إنَّ المنافِقينَ لَكاذِبونَ في دَعْواهمُ الإيمانَ بك رَسولًا.

اتَّخَذوا حَلِفَهم الكاذِبَ سَترًا ووِقايةً لهم مِن القَتْلِ على كُفْرِهم؛ إنَّهم بِئسَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ١١٢) و (٧/ ١٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٣١).

ما كانوا يَعمَلونَ. ذلك أنَّهم آمَنوا ثمَّ كَفَروا؛ فختَم اللهُ على قُلوبِهم، فصارت لا تَعِي ولا تَهتَدي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن زَيدِ بنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنتُ مع عَمِّي فسَمِعتُ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلولَ يقولُ: لا تُنفِقوا على مَن عِندَ رَسولِ اللهِ حتَّى يَنفَضُّوا، ولَئِنْ رجَعْنا إلى المدينةِ لَيُخرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ! فذكرتُ ذلك لعَمِّي، فذكَرَ عَمِّي للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فدعاني فحدَّثْتُه، فأرسَلَ إلى عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ وأصحابِه، فحَلَفوا ما قالوا، وكذَّبَني النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصدَّقَهم، فأصابني غَمٌّ لم يُصِبْني مِثْلُه قَطُّ، فجَلَسْتُ في بيتي، وقال عَمِّي: ما أردْتَ إلى أن كذَّبَك النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَقَتَك! فأنزل اللهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وأرسل إلَيَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقَرَأَها، وقال: إنَّ اللهَ قد صدَّقَك!))[1].

وفي روايةٍ: ((فأنزَل الله عزَّ وجلَّ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾))[2].

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ

(١) رواه البخاريُّ (٤٩٠٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٧٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩٠١).

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

أي: إذا حَضَر عِندَك -يا محمَّدُ- المنافِقونَ الَّذين يُظهِرونَ الإسلامَ ويُبطِنونَ الكُفرَ، قالوا على وَجهِ التَّأكيدِ والجَزمِ كَذِبًا بألسِنَتِهم: نَشهَدُ إنَّك لَرَسولُ اللهِ[1].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت الشَّهادةُ الإخبارَ عن عِلمِ اليَقينِ؛ لأنَّها مِنَ الشُّهودِ، وهو كمالُ الحُضورِ، وتَمامُ الاطِّلاعِ، ومُواطَأةُ القُلوبِ للألسِنةِ؛ صَدَّقَ سبحانَه المشهودَ به، وكَذَّبَهم في الإقسامِ بالشَّهادةِ، ومُواطأةِ ألسِنَتِهم لقُلوبِهم؛ فقال تعالى[2]:

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى: واللهُ الَّذي أرسَلَك -يا محمَّدُ- يَعلَمُ أنَّك رَسولُه حَقًّا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤).

قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يكونَ قَولُهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ مَحكيًّا بالمعنى؛ لأنَّهم يقولونَ عِباراتٍ كثيرةً تُفيدُ معنى أنَّهم يَشهَدونَ بأنَّه رَسولُ اللهِ، مِثلُ نُطقِهم بكَلِمةِ الشَّهادةِ، ويجوزُ أن يكونوا تواطَؤُوا على هذه الكَلِمةِ كُلَّما أعلَنَ أحَدُهم الإسلامَ، وهذا أليَقُ بحكايةِ كَلامِهم بكَلِمةِ ﴿قَالُوا۟﴾ دونَ نَحوِ: زَعَموا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤).

قال ابنُ جُزَي: (قَولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ ليس مِن كلامِ المنافِقينَ، وإنَّما هو مِن كلامِ اللهِ تعالى، ولو لم يَذكُرْه لَكان يُوهِمُ أنَّ قَولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ إبطالٌ للرِّسالةِ، فوَسَّطه بيْنَ حكايةِ المنافِقينَ وبيْن تكذيبِهم؛ ليُزيلَ هذا الوَهْمَ، ولِيُحَقِّقَ الرِّسالةَ). ((تفسير ابن =

كما قال سُبحانَه: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان رُبَّما ظُنَّ أنَّ هذا تأكيدٌ لكَلامِ المُنافِقينَ، دَلَّ على أنَّه تَحقيقٌ لِمَضمونِ كَلامِهم دونَ شَهادتِهم، فقال[1]:

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

أي: واللهُ يَشهَدُ إنَّ المنافِقينَ لَكاذِبونَ في دَعْواهمُ الإيمانَ برَسولِ اللهِ؛ فهم يقولونَ ما لا يَعتَقِدونَ صِحَّتَه في قُلوبِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨، ٩].

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان المعنى أنَّهم لم يَعتَقِدوا ما شَهِدوا به، وكان كأنَّه قيل: فما الحامِلُ لهم على هذا الكلامِ المؤكَّدِ، والكَذِبُ في غايةِ القباحةِ لا سيَّما عندَ العَرَبِ؟ عَلَّلَه بقَولِه مُسَمِّيًا شَهادتَهم أَيْمانًا؛ لأنَّ الشَّهادةَ تَجري مَجرى القَسَمِ في إرادةِ

= جزي)) (٢/ ٣٧٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٥).

قال السمعاني: (هو تطييبٌ لقَلبِ النَّبيِّ وتَسليةٌ له، ومعناه: أنَّ عِلْمي أنَّك رَسولُ اللهِ وشَهادتي لك بذلك: خَيرٌ مِن شَهادتِهم). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٥، ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٥).

التَّوكيدِ؛ ولذلك تُتلقَّى بما يُتلَقَّى به القَسَمُ[(١)]، وذلك على قولٍ:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: جَعَل المُنافِقونَ حَلِفَهم الكاذِبَ للمُؤمِنينَ سَترًا ووِقايةً لهم؛ فيَستُرونَ به نِفاقَهم، ويتَّقونَ القَتْلَ أو العُقوبةَ على كُفْرِهم، ويَصونونَ أنفُسَهم وذَراريَّهم وأموالَهم، فصَدُّوا بذلك عن طَريقِ الحَقِّ والهُدى[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٠، ٦٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٣، ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٥).

قال القُرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرَضوا، وهو مِن الصُّدودِ، أو صَرَفوا المؤمِنينَ عن إقامةِ حُكمِ اللهِ عليهم مِن القَتلِ والسَّبْيِ وأخْذِ الأموالِ، فهو مِن الصَّدِّ، أو مَنَعوا النَّاسَ عن الجِهادِ بأن يتخَلَّفوا ويَقتَدِيَ بهم غيرُهم. وقيل: فصَدُّوا اليهودَ والمُشرِكينَ عن الدُّخولِ في الإسلامِ بأن يَقولوا: ها نحن كافِرون بهم، ولو كان محمَّدٌ حَقًّا لَعَرَف هذا مِنَّا، ولَجعَلَنا نَكالًا). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٤).

وقال الشنقيطي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ المُجادلةِ الآية (١٦): (قولُه تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الظَّاهرُ أنَّه مِن «صَدَّ» المُتعدِّيةِ، وأنَّ المفعولَ محذوفٌ، أي: فصَدُّوا غيرَهم ممَّن أطاعهم؛ لأنَّ صُدودَهم في أنفُسِهم دل عليه قولُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾، والحملُ على التَّأسيسِ أَولى مِن الحملِ على التَّأكيدِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٥٣).

وقال ابن عثيمين: (مَن صَدَّ غيرَه فهو عن الحقِّ أصَدُّ، لكنْ مَن صَدَّ بنفْسِه فقد لا يَصُدُّ غيرَه. فالأَولى أن نَحمِلَ ما جاء في القرآنِ مِن ذِكرِ الصَّدِّ على الشَّيءِ المُتعدِّي، لا على اللَّازِمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩٨).

وقال ابنُ كثيرٍ: (قَولُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: اتَّقَوُا النَّاسَ بالأيْمانِ الكاذِبةِ، والحَلَفاتِ الآثِمةِ؛ لِيُصَدَّقوا فيما يَقولونَ، فاغتَرَّ بهم مَن لا يَعرِفُ جَلِيَّةَ أمرِهم، فاعتَقَد أنَّهم مُسلِمونَ، فرُبَّما اقتدى بهم فيما يَفعَلونَ، وصَدَّقَهم فيما يقولونَ، وهم مِن شأنِهم أنَّهم كانوا في الباطِنِ لا يَألُونَ الإسلامَ وأهلَه خَبالًا، فحَصَل بهذا القَدْرِ ضَرَرٌ كَبيرٌ على كثيرٍ مِن النَّاسِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥).

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: بِئسَ ما كان يَعمَلُه المنافِقونَ مِن اتِّخاذِهم أيْمانَهم جُنَّةً، فصار ذلك دَيدنًا لهم وطَبْعًا وجِبِلَّةً[١]!

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾.

أي: الَّذي سبَّب جُرْأتَهم على اللهِ ورَسولِه باتِّخاذِهم أيْمانَهم جُنَّةً: أنَّهم عَرَفوا الحَقَّ ثمَّ تَرَكوه، واستَبدلوا الضَّلالةَ بالهُدَى فلم يتَّبِعوه؛ فختَم اللهُ على قُلوبِهم، فصارت لا تَعِي ولا تَهتَدي[٢]!

كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنَّ الكَذِبَ ليس مِن خُلُقِ المؤمِنِ، بل هو مِن آياتِ المُنافِقينَ وعلاماتِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٢)، ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٢)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٧).

قال الشوكاني: (﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ أي: بسببِ أنَّهم آمَنوا في الظَّاهرِ نِفاقًا، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ في الباطِنِ، أو أظهَروا الإيمانَ للمؤمنينَ، وأظهَروا الكفرَ للكافِرين). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٤٦٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا الَّذي شَهِدوا عليه حَقٌّ؛ لأنَّ رسالةَ نَبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حقٌّ لا شَكَّ فيها، وقد كذَّبَهم اللهُ بقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، مع أنَّ قَولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ كأنَّه تَصديقٌ لهم؟

الجوابُ: أنَّ تَكذيبَه تعالى لهم مُنصَبٌّ على إسنادِهم الشَّهادةَ إلى أنفُسِهم في قَولِهم: ﴿نَشْهَدُ﴾، وهم في باطِنِ الأمرِ لا يَشهَدونَ برِسالتِه، بل يَعتَقِدونَ عَدَمَها، أو يَشُكُّونَ فيه، كما يدُلُّ للأوَّلِ قَولُه تعالى عنهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، ويدُلُّ للثَّاني قَولُه تعالى: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[1] [التوبة: ٤٥].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ قولَ: «أَشْهَدُ» يَمينٌ؛ لأنَّ القومَ قالوا: «نَشْهَدُ»، فجَعَله اللهُ يَمينًا بقولِه: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾[2].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص:٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجَصَّاص (٣/ ٦٠٣).

قال ابن حجر: (ليس صريحًا؛ لاحتِمالِ أن يكونَ حلَفوا مع ذلك). ((فتح الباري)) (١١/ ٥٤٤).

والقولُ المذكورُ هو مذهبُ الحنَفيَّةِ. يُنظر: ((الهداية شرح البداية)) للمَرْغِيناني (٢/ ٧٣)، ((فتح القدير)) للكمال ابن الهمام (٥/ ٧٢).

ومذهبُ المالكيَّةِ والحنابلةِ أنَّه ليس بيمينٍ، إلَّا إنْ نوى يمينًا فيكونُ يمينًا. يُنظر: ((الكافي في فقه أهل المدينة)) لابن عبد البر (١/ ٤٤٨)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ٢٣٢).

وقال الشَّافعيَّةُ: إن لم يقُلْ: (بالله)، فليس يمينًا، ولو نوى اليمينَ. يُنظر: ((روضة الطالبين)) للنووي (١١/ ١٥). =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنَّه ليس كلُّ مَن أظْهَر الإسلامَ يكونُ مؤمنًا في الباطنِ؛ فقد عُرِفَ في المُظْهِرينَ للإسلامِ المؤمنُ والمُنافقُ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنَّه سُبحانَه يَشهَدُ على كَذِبِهم، ووجهُه: أنَّ ما يُسِرُّونَه هو في قُلوبِهم، ولا يَعلَمُ ما في القلوبِ إلَّا عَلَّامُ الغُيوبِ؛ فكأنَّ هذا المُضمَرَ في قُلوبِهم بالنِّسبةِ إلى اللهِ أمرٌ مَشهودٌ يُرى بالعَينِ[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ دَلالةٌ على أنَّ أحكامَ الإسلامِ تجري على الظَّاهرِ؛ فلَمْ يَجعلِ اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَقضيَ عليهم في الدُّنيا بخِلافِ ما أظهَروا، وقد جَعَل اللهُ حُكْمَه عليهم على سرائِرِهم؛ فأعْلَمَ نبيَّه أنَّهم في الدَّرْكِ الأسفَلِ مِن النَّارِ، وجَعَل حُكْمَ نبيِّه عليهم في الدُّنيا على علانيَتِهم بإظهارِ التَّوبةِ وما قامتْ عليه بيِّنَةٌ مِن المُسلِمينَ، وبما أَقَرُّوا بقَولِه، وبما جَحَدوا به[(٣)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المُنافِقينَ كانوا يُرضُونَ المؤمنينَ بالأيْمانِ الكاذِبةِ، ويُنكِرونَ أنَّهم كَفروا، ويَحلِفونَ أنَّهم لم يَتكَلَّموا بكَلِمةِ الكُفْرِ، وذلك دَليلٌ على أنَّ الحاكمَ يَقتُلُهم إذا ثَبَت ذلك

= أمَّا إذا قال: (أشهَدُ بالله) فهو يمينٌ، وهو قولُ عامَّةِ أهلِ العِلمِ. يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٣).

وذهب الشَّافعيَّةُ إلى أنَّه ليس بيَمينٍ إلَّا بنِيَّةٍ. يُنظر: ((نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج)) للرملي (٨/ ١٧٨).

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٧/ ٣١٠)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٨٣).

عليهم بالبيِّنَةِ؛ لوُجوهٍ:

أحدُها: أنَّهم لو كانوا إذا أَظهَروا التَّوبةَ قُبِلَ ذلك منهم، لَمْ يَحتاجوا إلى الحَلِفِ والإنكارِ، ولَكانوا يقولونَ: قُلْنا وقد تُبْنا؛ فعُلِمَ أنَّهم كانوا يَخافُونَ إذا ظَهَرَ ذلك عليهم أنَّهم يُعاقَبونَ مِن غيرِ استِتابةٍ.

الثَّاني: أنَّه قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ واليَمينُ إنَّما تكونُ جُنَّةً إذا لَمْ نأتِ ببَيِّنَةٍ عادلةٍ تُكَذِّبُها، فإذا كَذَّبَتْها بَيِّنةٌ عادِلةٌ انخرقتِ الجُنَّةُ، فجاز قَتْلُهم، ولا يُمكِنُه أنْ يَجتَنَّ بعدَ ذلك إلَّا بجُنَّةٍ مِن جِنسِ الأُولى، وتلك جُنَّةٌ مَخروقةٌ.

الثَّالثُ: أنَّ الآياتِ دليلٌ على أنَّ المُنافِقينَ إنَّما عَصَمَ دماءَهم الكَذِبُ والإنكارُ، ومَعلومٌ أنَّ ذلك إنَّما يَعصِمُ إذا لَمْ تَقُمِ البيِّنَةُ بخِلافِه؛ ولذلك لَمْ يَقتُلْهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ فيه سؤالٌ: المُنافِقونَ لم يَكونوا إلَّا على الكُفرِ الثَّابتِ الدَّائِمِ، فما معنى قَولِه: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾؟

الجوابُ في ذلك مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ قَولَه: ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: نَطَقوا بكَلِمةِ الشَّهادةِ، وفَعَلوا كما يَفعَلُ مَن يدخُلُ في الإسلامِ، وقَولَه: ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ أي: ثمَّ ظَهَر كُفرُهم بعدَ ذلك وتبيَّنَ بما اطُّلِع عليه مِن قَولِهم: (إن كان ما يقولُه محمَّدٌ حَقًّا فنحن حميرٌ!)، وقولِهم في غزوةِ تَبُوكَ: (أيَطمَعُ هذا الرَّجُلُ أن تُفتَحَ له قُصورُ كِسرى وقَيصَرَ؟ هَيْهاتَ!)، ونحوُه قَولُه تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٦).

وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ [التوبة: ٧٤]، أي: وظَهَر كُفرُهم بعدَ أن أسلَموا، ونحوُه قَولُه تعالى: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [التوبة: ٦٦].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ قَولَه ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: نَطَقوا بالإيمانِ عندَ المؤمِنينَ، ثمَّ نَطَقوا بالكُفرِ عِندَ شياطينِهم؛ استِهزاءً بالإسلامِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

الوَجهُ الثَّالِثُ: أن يُرادَ أهلُ الرِّدَّةِ منهم[١]، فالمُنافِقُ قبْلَ أنْ يُنافِقَ يُمكِنُ أنْ يكونَ قد آمَنَ ثُمَّ كَفَرَ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا لم يكُنْ له إقبالٌ على الحَقِّ، وكان قلْبُه مَريضًا؛ فإنَّه يُعاقَبُ بزيادةِ المَرَضِ[٣].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ فيه سؤالٌ: الطَّبعُ على القُلوبِ لا يكونُ إلَّا مِن اللهِ تعالى، ولَمَّا طَبَعَ اللهُ على قُلوبِهم فلا يُمكِنُهم أن يَتدَبَّروا ويَستَدِلُّوا بالدَّلائِلِ، ولو كان كذلك لَكان هذا حُجَّةً لهم على اللهِ تعالى، فيَقولونَ: إعراضُنا عن الحَقِّ لغَفْلَتِنا، وغَفْلَتُنا بسَبَبِ أنَّه تعالى طَبَعَ على قُلوبِنا؟

الجوابُ: هذا الطَّبعُ مِن اللهِ تعالى لسُوءِ أفعالِهم، وقَصْدِهم الإعراضَ عن الحَقِّ، فكأنَّه تعالى ترَكَهم في أنفُسِهم الجاهِلةِ، وأهوائِهم الباطِلةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾

- الغرَضُ مِن هذه الآيةِ التَّعريضُ بكذِبِ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ وبنِفاقِه؛ فصِيغَ الكلامُ بصيغةٍ تعُمُّ المُنافِقينَ لتجنُّبِ التَّصريحِ بالمقصودِ، على طريقةِ قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ((ما بالُ أقوامٍ يَشترِطونَ شروطًا ليستْ في كتابِ اللهِ؟!))[١] ومُرادُه مَولى بَريرةَ لَمَّا أراد أنْ يَبيعَها لعائشةَ أمِّ المؤمنينَ، واشتَرَطَ أنْ يكونَ الولاءُ له. وابتُدِئَ بتكذيبِ مَن أُرِيدَ تكذيبُه في ادِّعائِه الإيمانَ بصِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنْ لم يكُنْ ذلك هو المقصودَ؛ إشعارًا بأنَّ اللهَ أطْلَعَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على دخائِلِهم، وهو تَمهيدٌ لِمَا بَعْدَه مِن قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ لأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعلَمُ أنَّ المُنافِقينَ قالوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾[٢].

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أكَّدَ المُنافِقونَ كلامَهم بحرفَيْ (إنَّ) واللَّامِ؛ للإيذانِ بأنَّ شهادتَهم هذه صادرةٌ عن صميمِ قلوبِهم، وخُلوصِ اعتقادِهم، ووُفورِ رغبتِهم ونشاطِهم[٣].

- و﴿نَشْهَدُ﴾ خبرٌ مؤكَّدٌ؛ لأنَّ الشَّهادةَ الإخبارُ عن أمْرٍ مقطوعٍ به؛ إذْ هي مُشتقَّةٌ مِنَ المُشاهَدةِ، أي: المُعايَنةِ، والمُعايَنةُ أقوى طُرقِ العِلمِ[٤].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ مُعترِضةٌ بَينَ الجملتَيْنِ المُتعاطِفتَيْنِ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٧٣٥)، ومسلمٌ (١٥٠٤) مطوَّلًا من حديث عائشةَ رضيَ الله عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٤).

مُقرِّرةٌ لمنطوقِ كلامِهم، وهذا الاعتراضُ لدَفْعِ إيهامِ مَن يسمَعُ جُملةَ ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنَّه تكذيبٌ لجُملةِ ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، فلَوْ قال: (قالوا: نَشهَدُ إنَّكَ لَرسولُ اللهِ، واللهُ يَشهَدُ إنَّهم لكاذِبونَ) لَكان يُوهِمُ أنَّ قولَهم هذا كذِبٌ، فوسَّطَ بَيْنَهما قولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾؛ ليُمِيطَ هذا الإيهامَ، فإنَّ المُسلِمينَ كانوا يَومَئذٍ محفوفِينَ بفِئامٍ مِنَ المُنافِقينَ مبثوثِينَ بَيْنَهم، هِجِّيراهم فِتنةُ المُسلِمينَ؛ فكان المَقامُ مُقتضِيًا دفْعَ الإيهامِ، وهذا مِنَ الاحتراسِ[1].

- وفيه تقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يَشۡهَدُ﴾؛ لتَقَوِّي الحُكمِ[2].

- وجِيءَ بفِعلِ ﴿يَشۡهَدُ﴾ في الإخبارِ عن تكذيبِ اللهِ تعالَى إيَّاهُم ليُطابِقَ الصِّيغةَ الَّتي عبَّروا بها؛ حتَّى يكونَ إبطالُ خبرِهم مُساوِيًا لإخبارِهم[3].

- وإظهارُ لفظِ (المُنافِقينَ) في موقعِ الإضمارِ -حيثُ قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، ولم يقُلْ: (... إنَّهم لَكاذِبونَ)-؛ لذَمِّهم، والإشعارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٥).
والاحتراس: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه بعضُهم: التَّكميلَ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٤٥)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢٠٨)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعِلَّةِ الحُكمِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ تكذيبَ اللهِ تعالَى إيَّاهُم في قولِهم للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] يُثِيرُ في أنفُسِ السَّامِعينَ سؤالًا عن أيْمانِهم لدَى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّهم مُؤمِنونَ به، وأنَّهم لا يُضمِرونَ بُغْضَه؛ فأخبَرَ اللهُ عنهم بأنَّهُمُ اتَّخَذوا أيْمانَهم تَقِيَّةً يَتَّقونَ بها[٢].

- قولُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ يجوزُ أنْ يُرادَ أنَّ قولَهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] يَمينٌ مِن أيمانِهِمُ الكاذِبةِ؛ لأنَّ الشَّهادةَ تَجْري مَجْرَى الحَلِفِ فيما يُرادُ به مِنَ التَّوكيدِ، يقولُ الرَّجُلُ: أشهَدُ وأشهَدُ باللهِ، وأعزِمُ وأعزِمُ باللهِ في موضِعِ: أُقسِمُ وأُولِي، فيكونَ قوله: ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ مَوضوعًا مَوضِعَ المُضمَرِ، أي: اتَّخَذوا شَهادتَهم تلك سُترةً. ويجوزُ أنْ يكونَ وصفًا للمُنافِقينَ في استِجنانِهِم بالأيْمانِ؛ فعلى هذا تكونُ هذه الآيةُ مُستطرِدةً تَعدادًا لقبائِحِهِمْ[٣].

- والجُنَّةُ: ما يُستتَرُ به ويُتَّقى، ومِنهُ سُمِّيَتِ الدِّرعُ جُنَّةً، والمعنى: جعَلوا أيْمانَهُم كالجُنَّةِ يُتَّقى بها ما يَلْحَقُ مِن أذًى، فلمَّا شُبِّهَتِ الأيمانُ بالجُنَّةِ على طريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أُتْبِعَ ذلك بتَشبيهِ الحَلِفِ باتِّخاذِ الجُنَّةِ، أي: اسْتِعمالِها[٤].

- قولُه: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تفريعٌ لصدِّهِمْ عن سبيلِ اللهِ على الحَلِفِ الكاذِبِ؛ لأنَّ اليمينَ الفاجِرةَ مِن كبائِرِ الإثمِ؛ لِمَا فيها مِنَ الاسْتِخفافِ بجانِبِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٦).

اللهِ تعالَى، ولأنَّهم لَمَّا حَلَفوا على الكذِبِ ظنُّوا أنَّهم قد أَمِنوا اتِّهامَ المُسلِمينَ إيَّاهُم بالنِّفاقِ، فاستمَرُّوا على الكُفرِ والمكرِ بالمُسلِمينَ، وذلك صدٌّ عن سبيلِ اللهِ، أي: إعراضٌ عن الأعمالِ الَّتي أمَرَ اللهُ بسُلوكِها[١]. وهذا باعتبارِ أنَّ (صد) لازِمةٌ.

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تذييلٌ[٢]؛ لتفظيعِ حالِهم عِندَ السَّامِعِ[٣].

- وفي ﴿سَآءَ﴾ معنى التَّعجُّبِ الَّذي هو تَعظيمُ أمْرِهِم عِندَ السَّامِعينَ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ جُملةٌ في مَوضعِ العِلَّةِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾[٥].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن معنى البُعْدِ مع قُربِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛ لِلإشعارِ ببُعْدِ منزلتِه في الشَّرِّ[٦].

- وحرفُ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ للتَّرتيبِ الإخباريِّ لا الإيجاديِّ، أي: إنَّ المُنافِقينَ آمَنوا، ثُمَّ كفَروا، أي: آمَنوا بألسنتِهم، وكفَروا بقلوبِهم[٧]، وذلك على قولٍ. أو هي للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ فإنَّ إبطانَ الكفرِ مع إظهارِ الإيمانِ أعظَمُ مِن الكفرِ الصَّريحِ، وأنَّ كُفْرَهم أرسَخُ فيهم مِن إظهارِ إيمانِهم. ويجوزُ أن يُرادَ مع ذلك التَّراخي في الزَّمنِ، وهو المُهلةُ[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٢).

(٧) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٥).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٧).

- وتفريعُ ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ على قولِه: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾، فصار كفرُهم بعْدَ الإيمانِ سببًا في سُوءِ أعمالِهم بمُقْتضى باءِ السَّببيَّةِ، وسببًا في انتفاءِ إدراكِهِمُ الحقائقَ النَّظريَّةَ بمُقْتضى فاءِ التَّفريعِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٨).

الآيات (٤-٦)

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾: أي: مَنصوبةٌ، مُمالةٌ إلى الجِدارِ، يُقالُ: أسنَدْتُ الشَّيءَ، أي: أمَلْتُه، وأصلُ (سند): يدُلُّ على انضِمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ[١].

﴿صَيْحَةٍ﴾: الصَّيحةُ: المَرَّةُ مِن الصِّياحِ، وهو: رَفعُ الصَّوتِ، وأصلُ (صيح): يدُلُّ على الصَّوتِ العالي[٢].

﴿يُؤْفَكُونَ﴾: أي: يُصرَفونَ عن الحَقِّ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[٣].

﴿لَوَّوْا﴾: أي: أمالوا؛ إعراضًا واستِكبارًا، وأصلُ (لوي): يدُلُّ على إمالةِ شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٥)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨)، =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

﴿عَلَيْهِمْ﴾: شِبهُ جُملةٍ جارٌّ ومَجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ هو المفعولُ الثَّاني لـ ﴿يَحْسَبُونَ﴾، أي: واقِعةً وكائِنةً عليهم، والوَقفُ على ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وَقفٌ تامٌّ. وقَولُه: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾: جُملةٌ مُستأنَفةٌ. وقَولُه: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: ﴿أَنَّىٰ﴾: بمعنى «كيف» فهي اسمُ استِفهامٍ في مَحَلِّ نَصبٍ حالٌ، أو بمعنى «مِن أينَ»: فهي اسمُ استفهامٍ في مَحَلِّ نَصبٍ ظَرفُ مكانٍ، وعلى كلِّ تقديرٍ فهي مُتعَلِّقةٌ بـ ﴿يُؤْفَكُونَ﴾، فلا يَعمَلُ فيها ما قبْلَها[1].

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى مِن أوصافِ المنافقينَ ما به يُعرَفونَ، فيقولُ تعالى: وإذا رأيتَ هؤلاء المُنافِقينَ -يا محمَّدُ- تُعجِبُك أبدانُهم، وحُسْنُ هَيئَتِهم، وإن يَتكَلَّموا تُصْغِ لكلامِهم؛ لفَصاحَتِهم وبلاغتِهم، كأنَّهم أخشابٌ أُسنِدَت إلى الجُدُرِ لا مَنفعةَ فيها، يَظُنُّ المُنافِقونَ -مِن جُبنِهم وخَوَرِهم- أنَّ كُلَّ صَيحةٍ واقِعةٌ عليهم.

والمُنافِقونَ هم أعداءُ المُسلِمينَ على الحقيقةِ؛ فاحذَرْهم -يا محمَّدُ- فهم أشَدُّ ضَرَرًا عليكم مِن الكُفَّارِ المجاهِرينَ بالعَداوةِ. لَعَنَهم اللهُ وأخزاهم، كيف يُصرَفونَ عن الحَقِّ مع وُضوحِ دَلائِلِه؟!

وإذا قيل للمُنافِقينَ: تَعالَوا إلى رَسولِ اللهِ؛ لِيَستغفِرَ لكم، أمالوا رُؤوسَهم امتِناعًا مِن ذلك، ورأيتَهم يُعرِضونَ؛ أَنَفةً واستِكبارًا عمَّا دُعُوا إليه.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٢).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٠٦).

سواءٌ أَسْتَغفَرْتَ لهؤلاء المُنافِقينَ -يا محمَّدُ- أم لم تَستَغفِرْ لهم؛ فإنَّ اللهَ لن يَغفِرَ لهم، إنَّ اللهَ لا يَهدِي القَومَ الخارِجينَ عن طاعتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَفَ اللهُ سُبحانَه بواطِنَ المُنافِقينَ بما زهَّدَ فيهم، وكانت لهم أشكالٌ تَغُرُّ ناظِرَها؛ لأنَّ العَرَبَ كانت تقولُ: (جمالُ المنظَرِ يدُلُّ غالبًا على حُسْنِ المَخْبَرِ)، قال تعالى[1]:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾.

أي: وإذا رأيتَ هؤلاء المُنافِقينَ -يا محمَّدُ- تُعجِبُك أبدانُهم؛ لاستواءِ خَلْقِهم، وحُسْنِ هَيئَتِهم، وجمالِ صُوَرِهم[2]!

﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾.

أي: وإن يَتكَلَّموا تُصْغِ لكلامِهم، وتَستَمِعْ إليه؛ لفصاحَتِهم وبلاغتِهم، وحُسنِ مَنطِقِهم، وحلاوةِ مَعانيه[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٩).

قال القرطبي: (﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ للتَّكثيرِ، أي: استَنَدوا إلى الأيمانِ بحَقنِ دِمائِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٥).

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦].

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾.

أي: مَثَلُهم كأخشابٍ قد قُطِعَت من مَغارِسِها، وقُشِرَت وأُسنِدَت إلى الجُدُرِ، فهي تَنالُ إعجابَ ناظِرِها، ولكِنَّها جامِدةٌ لا ثباتَ لها ولا ثَمرةَ، ولا تُسقَى بماءٍ، ولا منفعةَ فيها، وهكذا المُنافِقونَ مجرَّدُ صُوَرٍ لا رُوحَ فيها، وأجسادٍ لا عَقْلَ لها، ولا فِقْهَ، ولا عِلْمَ[(١)]!

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: يَظُنُّ المُنافِقونَ كلَّ صَيحةٍ يَسمَعونَها -كنِداءِ مُنادٍ أو إنشادِ ضالَّةٍ، ونحوِ ذلك- أنَّها نازِلةٌ بهم، وواقِعةٌ عليهم، وأنَّهم يُرادونَ بذلك؛ لِجُبنِهم، وخَوَرِهم، وسوءِ ظنِّهم، وخوفِهم أنْ يَكْشِفَ اللهُ أسرارَهم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٩٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٠).

قال ابنُ القَيِّم: (الصَّوابُ: أنَّ اللَّفظَ عامٌّ فيمَن اتَّصَف بهذه الصِّفاتِ، وهي صِحَّةُ الجِسمِ وتمامُه، وحُسنُ الكلامِ، وخُلُوُّه مِن رُوحِ الإيمانِ، ومحَبَّةِ الهُدى وإيثارِه، كخُلُوِّ الخُشُبِ المقطوعةِ -الَّتي قد تَسانَدَ بَعضُها إلى بَعضٍ- مِن رُوحِ الحياةِ الَّتي يُعطيها النُّمُوَّ أو الزِّيادةَ والثَّمَرةَ؛ واتصافُهم بالجُبنِ والخَوَرِ الَّذي يَحسَبُ صاحِبُه أنَّ كُلَّ صَيحةٍ عليه؛ فمِن التَّقصيرِ الزَّائدِ أن يُقالَ: إنَّ المرادَ بهذا اللَّفظِ هو عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ). ((الصواعق المرسلة)) (٢/ ٧٠٢، ٧٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩٩)، ((منهاج السنة =

كما قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾.

أي: المُنافِقونَ هم أعداءُ المُسلِمينَ على الحقيقةِ؛ فاحذَرْهم -يا محمَّدُ-، فلا تَثِقْ بأقوالِهم، ولا تَغتَرَّ بصُوَرِهم، ولا تَركَنْ إليهم، ولا تَستَودِعْهم أسرارَكم؛ فهم يُظهِرونَ غيرَ ما يُبطِنونَ، ويُعِينُونَ الكُفَّارَ عليكم سِرًّا، ويَتَرَبَّصونَ بكم الدَّوائِرَ، وهم أشَدُّ ضَرَرًا عليكم مِن الكُفَّارِ المجاهِرينَ بالعَداوةِ(١).

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

أي: لَعَنَ اللهُ المُنافِقينَ وأخزاهم، كيف يُصرَفونَ عن الحَقِّ مع وُضوحِ دَلائِلِه(٢)؟!

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾.

= النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨١، ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٠، ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٦)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٢).

قال ابن عاشور: (والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لِيُبلِّغَه المسلمينَ فيَحذَروهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٢، ٢٤٣).

قال الواحدي: (قال ابن الأنباري: المُقاتَلةُ أصلُها مِن القَتلِ، فإذا أُخبِرَ عن اللهِ بها، كانت بمعنى اللَّعنةِ؛ لأنَّ مَن لَعَنَه اللهُ، فهو بمنزلةِ المَقتولِ الهالِكِ). ((الوسيط)) (٢/ ٤٩٠).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾.

أي: وإذا قال المُسلِمونَ للمُنافِقينَ: تَعالَوا إلى رَسولِ اللهِ؛ لِيَطلُبَ مِنَ اللهِ مَغفِرةَ ذُنوبِكم، أمالوا رُؤوسَهم وصَرَفوها إلى جهةٍ أُخرى؛ امتِناعًا مِن ذلك(١).

عن زَيدِ بنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خرَجْنا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَفَرٍ أصاب النَّاسَ فيه شِدَّةٌ، فقال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ لأصحابِه: لا تُنفِقوا على مَن عِندَ رَسولِ اللهِ حتَّى يَنفَضُّوا مِن حَولِه، وقال: لَئِنْ رجَعْنا إلى المدينةِ لَيُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ! فأتَيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأخبَرْتُه، فأرسَلَ إلى عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ فسأَلَه، فاجتَهَد يَمينَه ما فَعَل! قالوا: كَذَبَ زَيدٌ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! فوقَعَ في نَفْسي ممَّا قالوا شِدَّةٌ، حتَّى أنزل اللهُ عَزَّ وجَلَّ تصديقي في: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المُنافِقونَ: ١]، فدعاهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِيَستَغفِرَ لهم، فلَوَّوا رُؤُوسَهم))(٢).

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: ورأيتَهم يُعرِضونَ؛ أَنَفةً واستِكبارًا عمَّا دُعُوا إليه مِنَ المجيءِ لِرَسولِ اللهِ؛ كي يَستَغفِرَ لهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٣، ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٣، ٢٤٤).

قال ابن عاشور: (وَلَيُّ الرُّؤوسِ: إمالتُها إلى جانبٍ غَيرِ وُجاهِ المُتكلِّمِ؛ إعراضًا عن كلامِه، على سَبيلِ الاستِهزاءِ، أي: أَبَوْا أنْ يَستغفِروا؛ لأنَّهم ثابتونَ على النِّفاقَ، أو لأنَّهم غَيرُ راجِعينَ فيما قالوهُ مِن كلامٍ بذيءٍ في جانبِ المُسلِمينَ، أو لِئَلَّا يُلْزَموا بالاعترافِ بما نُسِبَ إليهم مِنَ النِّفاقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩٠٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٤، ٦٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٧)، ((تفسير =

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

أي: سواءٌ أَسْتَغفَرْتَ لهؤلاء المُنافِقينَ ذُنوبَهم -يا محمَّدُ- أم لم تَستَغفِرْ لهم؛ فإنَّ اللهَ لن يَغفِرَ لهم ذُنوبَهم، ولن يَترُكَ مُعاقَبتَهم عليها(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُوفِّقُ للإيمانِ به وبرَسولِه القَومَ الخارِجينَ عن طاعتِه، المُصِرِّينَ على الكُفرِ به ومَعصِيَتِه(٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- الإنسانُ مَدارُ صَلاحِه وفَسادِه على القَلْبِ؛ ولهذا ينبغي للمُسلِمِ أنْ يَعتنيَ بصَلاحِ قَلْبِه؛ فاللهُ تعالى يقولُ عن المُنافِقينَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ مِن الهيئةِ الحَسَنةِ، وحُسْنِ عمَلِ الجوارحِ، ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ وإذا قالوا قولًا تَسْمَعُ له مِن حُسْنِه وزَخرفتِه، لكِنَّ قُلوبَهم خَربةٌ -والعياذُ باللهِ- ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ ليس فيها خيرٌ، فعلى المسلمِ أن يَعتنيَ بصَلاحِ قلبِه، وأن يَنظُرَ

= ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

هل فيه شيءٌ مِن الأمراضِ كالشِّركِ، وكراهةِ ما أنْزَل اللهُ، والمَيلِ إلى الكُفَّارِ ومُوالاتِهم إلى غيرِ ذلك؟ هل فيه شَيءٌ مِن الحَسَدِ أو الغِلِّ أو الحِقدِ؟ فيُطَهِّرَ قلْبَه منه ويُصلِحَه؛ فإنَّ المدارَ عليه[1].

٢- قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ الجَمالُ في الصُّورةِ واللِّباسِ والهيئةِ ثلاثةُ أنواعٍ: منه ما يُحمَدُ، ومنه ما يُذَمُّ، ومنه ما لا يتعَلَّقُ به مَدحٌ ولا ذَمٌّ:

فالمحمودُ منه: ما كان لله، وأعان على طاعةِ اللهِ، وتنفيذِ أوامِرِه، والاستِجابةِ له، كما كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يتجَمَّلُ للوُفودِ، وهو نظيرُ لِباسِ آلةِ الحَربِ للقِتالِ، ولِباسِ الحَريرِ في الحَربِ والخُيَلاءِ فيه؛ فإنَّ ذلك محمودٌ إذا تضَمَّن إعلاءَ كَلِمةِ اللهِ، ونَصْرَ دينِه، وغَيْظَ عَدُوِّه.

والمذمومُ منه: ما كان للدُّنيا والرِّياسةِ والفَخْرِ والخُيَلاءِ، والتَّوَسُّلِ إلى الشَّهَواتِ، وأن يكونَ هو غايةَ العَبدِ وأقصى مَطلَبِه؛ فإنَّ كثيرًا مِن النُّفوسِ ليس لها هِمَّةٌ في سِوى ذلك.

وأمَّا ما لا يُحمَدُ ولا يُذَمُّ: فهو ما خلا عن هذَينِ القَصدَينِ، وتجَرَّدَ عن الوصفَينِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى عن المُنافِقينَ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أنَّهم لَمَّا أضْمَروا خِلافَ ما أظهَروا خافوا الاطِّلاعَ عليهم؛ فكُلَّما سَمِعوا صَيحةً ظَنُّوا أنَّها عليهم، وهكذا كلُّ مُريبٍ يُظْهِرُ خِلافَ ما يُضْمِرُ؛ فإنَّه يَخافُ مِن أَدنى شَيءٍ ويَحسَبُه عليه[3].

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨٥، ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢١٧).

ومنه أخَذ جريرٌ قولَه يُخاطِبُ الأخطَلَ:

ما زِلْتَ تَحسَبُ كلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُم ... خَيْلًا تَكُرُّ عَلَيْكُمُ ورِجالَا[(١)]

وكذا المتنبي قولَه:

وضاقَتِ الأرضُ حتَّى كان هارِبُهُم ... إذا رأى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلَا[(٢)]

ومنه قولُ الشَّاعرِ[(٣)]:

يُرَوِّعُهُ السِّرارُ بكُلِّ أرضٍ ... مَخافَةَ أن يَكونَ به السِّرارُ[(٤)]

٢- قال الله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾، فالكافرُ المُصَرِّحُ بالكُفرِ أهوَنُ مِن الكافِرِ المُخْفِي للكُفرِ -وهو المُنافِقُ-؛ فقَولُه: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ جملةٌ تفيدُ الحصرَ؛ لتعريفِ طَرَفَيها، كأنَّه لا عَدُوَّ للمُسلِمينَ إلَّا المُنافِقُ؛ لأنَّ عداوتَه -والعياذُ باللهِ- لا يمكِنُ أنْ يُطَّلَعَ عليها، ولا يُمكِنُ التَّحَرُّزُ منها[(٥)]، فهم أهلُ مَكْرٍ وخديعةٍ، وكما في قَولِه تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩][(٦)]، فكانوا أَولى بالتَّحذيرِ؛ لشِدَّةِ عَداوتِهم، ولِقُوَّةِ مُداخَلتِهم مع المُسلِمينَ؛ مِمَّا يُمكِّنُهم مِن الاطِّلاعِ على جميعِ شُؤونِهم[(٧)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ

---

(١) يُنظر: ((ديوان جرير)) (١/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((العَرْف الطَّيِّب)) للبازجي (ص: ١٤).

(٣) هو بشَّارُ بنُ بُرْدٍ. يُنظر: ((الشعر والشعراء)) لابن قتيبة (٢/ ٧٦٠)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (٣/ ٣٧)، ((الأغاني)) للأصفهاني (٣/ ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((الحيوان)) للجاحظ (٥/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤١).

(٧) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٩٢).

يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أنَّ مِن عَلاماتِ النِّفاقِ الاستِكبارَ عن دُعاءِ المؤمِنينَ؛ احتِقارًا وشَكًّا[١]!

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فيه سؤالٌ: ظاهِرُ هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّه لا يُغفَرُ للمُنافِقينَ مُطلَقًا، وقد جاءت آيةٌ تُوهِمُ الطَّمَعَ في غُفرانِه لهم إذا استَغفَرَ لهم رَسولُه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أكثَرَ مِن سَبعينَ مَرَّةً، وهي قَولُه تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

الجوابُ: أنَّ هذه الآيةَ هي الأخيرةُ، بيَّنَت أنَّه لا يُغفَرُ لهم على كُلِّ حالٍ؛ لأنَّهم كُفَّارٌ في الباطِنِ[٢].

وأيضًا ذكرَ عدَد السبعينَ قَطْعًا لأطماعِهم عن المغفرةِ على عادةِ العربِ؛ لأنها عندَهم مَثَلٌ لغايةِ الاستِقصاء في العدد[٣]. والتَّقديرُ إذا قُصِد به المُبالَغةُ فلا مَفهومَ له، سَواءٌ كان في الكَثْرةِ أو في القِلَّةِ، ومِثالُ الكَثْرةِ: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، ولو أكثَرَ مِن سَبعينَ ما يَغفِرُ الله تعالى لهم؛ ولهذا قال تعالى في آية المُنافِقين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، فإذا جاء القَيْدُ للمُبالَغةِ قِلَّةً أو كَثرةً فليس له مَفهومٌ.

ومِثالُ القِلَّةِ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢]، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني:

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص:٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٣/ ٢٢١).

ولا ما دُونَها[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ أنَّ دعاءَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، واستغفارَهم وشفاعتَهم: سببٌ يَنفعُ إذا جَعَلَ اللهُ تعالى المَحَلَّ قابلًا له، وإلَّا فلوِ استغفرَ النَّبيُّ للكُفَّارِ والمُنافِقينَ لم يُغفَرْ لهم[٢].

٦- مَن عُلِمَ منه النِّفاقُ والزَّنْدقةُ فإنَّه لا يجوزُ لِمَن عَلِمَ ذلك منه الصَّلاةُ عليه، وإنْ كان مُظْهِرًا للإسلامِ؛ فإنَّ اللهَ نهى نبيَّه عن الصَّلاةِ على المُنافِقينَ فقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ لم يَقُلِ: (القَومَ الكافِرينَ) أو (المُنافِقينَ) أو (المُستَكبِرينَ)، مع أنَّ كُلَّ واحدٍ مِنهم مِن جملةِ ما سَبَق ذِكرُه؟

الجوابُ: كُلُّ أحدٍ مِن تلك الأقوامِ داخِلٌ تحتَ قَولِه: ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، أي: الَّذين سَبَق ذِكرُهم، وهم الكافِرونَ والمُنافِقونَ والمُستَكبِرونَ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٨).

انتقالٌ إلى توضيحِ بَعضِ أحوالِ المنافِقينَ الَّتي لا يُبرِزونها إذا جاؤوا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولكنَّها تَبرُزُ مِن مُشاهَدتِهم؛ وجُملةُ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، واقِعةٌ موقِعَ الاحتراسِ والتَّتميمِ[(١)]؛ لدَفْعِ إيهامِ مَن يَغُرُّه ظاهرُ صُوَرِهم، وأُتْبِعَ انتفاءُ فِقهِ عقولِهم بالتَّنبيهِ على عدمِ الاغترارِ بحُسنِ صوَرِهم؛ فإنَّها أجسامٌ خاليةٌ عن كمالِ الأنفُسِ، وتُفيدُ مع الاحتِراسِ تنبيهًا على دخائلِهم، بحيث لو حُذِفَ حرْفُ العطفِ مِن الجُملتَينِ، لَصَحَّ وُقوعُهما مَوقِعَ الاستئنافِ الابتدائيِّ، ولكن أُوثِرَ العطفُ للتَّنبيهِ على أنَّ هاتَيْنِ صِفتانِ تُحسَبانِ كمالًا وهُما نَقيصتانِ؛ لعدمِ تناسُقِهما مع ما شأنُه أنْ يكونَ كمالًا؛ فإنَّ جمالَ النَّفْسِ كجمالِ الخِلقةِ إنَّما يحصُلُ بالتَّناسُبِ بيْنَ المَحاسِنِ، وإلَّا فرُبَّما انقلَبَ الحَسنُ مُوجِبَ نَقْصٍ[(٢)].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِقَوْلِهِمْ﴾ لتَضمينِ ﴿تَسْمَعْ﴾ معْنى: تُصِغْ أيُّها السَّامعُ؛ إذ ليس في الإخبارِ بالسَّماعِ للقولِ فائدةٌ لولا أنَّه ضُمِّن معْنى الإصغاءِ لوعْيِ كَلامِهم[(٣)].

- وجُملةُ ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا جَوابًا عن سُؤالٍ يَنشأُ عن وصْفِ حُسنِ أجسامِهم وذَلاقةِ كَلامِهم؛ فإنَّه في صُورةِ مدْحٍ، فلا يُناسِبُ ما قبْلَه مِن ذمِّهم، فيَترقَّبُ السَّامعُ ما يَرِدُ بعْدَ هذا الوصفِ. ويجوزُ أنْ تكونَ

---

(١) تقدَّم تعريفُ الاحتراسِ (ص: ٣٢١)، وتعريفُ التَّتميمِ (ص: ٣٥).
والفَرقُ بيْنَ الاحتِراسِ والتَّتميمِ: أنَّ الاحتِراسَ يجبُ أنْ يكونَ لرَفْعِ إيهامِ خِلافِ المقصودِ، وأمَّا التَّتميمُ فإنَّه يكونُ في كلامٍ لا يُوهِمُ خِلافَ المقصودِ؛ فالنِّسبةُ بيْنَهما إذَنْ هي التَّبايُنُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٤٥)، ((خِزانة الأدب)) لابن حِجَّة الحَمَوي (٢/ ٤٨٦)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٣٩).

الجُملةُ حالًا مِن ضَميرَي الغَيبةِ في قولِه: ﴿رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾[١].

- قولُه: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ، والمُشبَّهُ به هو الخُشُبُ المنصوبةُ المُسنَدةُ إلى الحائطِ، ووجْهُ الشَّبهِ كَونُ الجانبَيْنِ أشباحًا خاليةً عن العِلمِ والنَّظرِ، ولم يَكتفِ بالتَّشبيهِ بالخُشبِ، بلْ جعَلَها مُسنَدةً إلى الحائطِ، لا انتِفاعَ بها؛ لأنَّها إذا كانت في سقفٍ أو مكانٍ يُنتفَعُ بها، وأمَّا إذا كانت غيرَ مُنتفَعٍ بها فإنَّها تكونُ مُهمَلةً مُسنَدةً إلى الحيطانِ أو مُلقاةً على الأرضِ قد صُفِفَتْ. أو شُبِّهوا بالخُشُبِ الَّتي هي الأصنامُ وقد أُسنِدَتْ إلى الحيطانِ، أو شُبِّهوا بالخُشبِ المُسنَّدةِ في حُسنِ المرْأى وعدَمِ الجَدْوى، أُفيدَ بها أنَّ أجسامَهم المُعجَبَ بها ومَقالَهم المُصغَى إليه خاليانِ عن النَّفعِ كخُلوِّ الخُشبِ المُسنَّدةِ عن الفائدةِ. وقيل: الجملةُ التَّشبيهيَّةُ وصْفٌ لهُمْ بالجُبنِ والخَوَرِ، ويدُلُّ عليه قولُه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾. ويُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّ وجْهَ الشَّبهِ هو عُزوبُ أحلامِهم، وفراغُ قلوبِهم مِنَ الإيمانِ[٢]. وقيل غيرُ ذلك[٣].

- وفي قولِه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ تَشبيهٌ تَمثيليٌّ أيضًا، أي: أنَّهم -لجُبنِهم وهَلَعِ نُفوسِهم واضطرابِ قلوبِهم- إذا نادى مُنادٍ في المُعسكَرِ أو انْفلَتَتْ دابَّةٌ أو أُنْشِدَتْ ضالَّةٌ وَجَفَتْ قلوبُهم، وزايَلَهم رُشدُهم، وحَسِبوا أنَّ هناك شرًّا يتربَّصُ بهم، وكيدًا ينتظرُ الإيقاعَ بأرواحِهم[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٩، ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٨).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٠).

- قولُه: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ لَمَّا أخبرَه تعالَى بعداوتِهم، أمَرَه بحَذَرِهم، فلا يَثِقُ بإظهارِ موَدَّتِهم، ولا بلِينِ كلامِهم[(١)].

- يجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ استِئنافًا بيانيًّا ناشِئًا عن جُملةِ ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لأنَّ تلك الجملةَ لغرابةِ معناها تُثيرُ سؤالًا عن سبَبِ هلَعِهم، وتخوُّفِهم مِن كلِّ ما يُتخيَّلُ منه بأسُ المُسلِمينَ، فيُجابُ بأنَّ ذلك لأنَّهم أعداءٌ أَلِدَّاءُ للمُسلِمينَ، يَنظُرونَ للمُسلِمينَ بمِرآةِ نُفوسِهم، فكما هُمْ يَتربَّصونَ بالمُسلِمينَ الدَّوائرَ، ويَتمنَّوْنَ الوقيعةَ بهم، في حِينِ يُظهِرونَ لهمُ الموَدَّةَ، كذلك يَظنُّونَ بالمُسلِمينَ التَّربُّصَ بهم، وإضمارَ البَطشِ بهم، ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ بمَنزلةِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ على هذا المعنى أيضًا. ويجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا ابتدائيًّا لذِكرِ حالةٍ مِن أحوالِهم تَهُمُّ المسلمينَ مَعرفتُها؛ ليَترتَّبَ عليها تَفريعُ ﴿فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾، وعلى كلِّ التَّقاديرِ فنَظْمُ الكلامِ وافٍ بالغرَضِ مِن فَضْحِ دخائلِهم[(٢)].

- قولُه: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلۡعَدُوُّ﴾ تعريفُ الجِنسِ الدَّالُّ على معْنى كَمالِ حقيقةِ العدُوِّ فيهم؛ فهمُ الكامِلونَ المُبالِغونَ في العَداوةِ، والرَّاسِخونَ فيها؛ لأنَّ أَعْدَى الأعادي العدُوُّ المُتظاهِرُ بالموالاةِ، وهو مدَّاحٌ وتحتَ ضُلوعِه الدَّاءُ الدَّوِيُّ، وعلى هذا المعنى رُتِّبَ عليه الأمْرُ بالحَذَرِ منهم[(٣)].

- قولُه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ تَذييلٌ؛ فإنَّه جمَعَ على الإجمالِ ما يُغْني عن تَعدادِ مَذامِّهم، مَسوقٌ للتَّعجيبِ مِن حالِ تَوغُّلِهم في الضَّلالةِ والجهالةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

بعُدولِهم عن الحقِّ، فافتُتِحَ التَّعجيبُ منهم بجُملةٍ أصْلُها دُعاءٌ بالإهلاكِ والاستئصالِ، ولكنَّها غَلَبَ استعمالُها في التَّعجُّبِ أو التَّعجيبِ مِن سُوءِ الحالِ الَّذي جرَّه صاحبُه لنفْسِه؛ فإنَّ كثيرًا مِن الكَلِمِ الَّتي هي دُعاءٌ بسُوءٍ تُستعمَلُ في التَّعجيبِ مِن فِعلٍ أو قولٍ مَكروهٍ، مِثلُ قولِهم: ثَكِلَتْه أُمُّه، ووَيْلُ أُمِّه، وتربَتْ يَمينُه. واستعمالُ ذلك في التَّعجُّبِ للمُلازَمةِ بيْن بُلوغِ الحالِ في السُّوءِ وبيْن الدُّعاءِ على صاحبِه بالهلاكِ؛ إذ لا نفْعَ له ولا للنَّاسِ في بَقائِه، ثمَّ الملازمةِ بيْن الدُّعاءِ بالهلاكِ وبيْن التَّعجُّبِ مِن سُوءِ الحالِ، فهي مُلازَمةٌ بمَرتبتَينِ كِنايةٌ رَمزيَّةٌ. و(أنَّى) هنا اسمُ استفهامٍ، والاستفهامُ هنا مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ؛ لأنَّ الأمرَ العجيبَ مِن شأْنِه أنْ يُستفهَمَ عن حالِ حُصولِه، فالاستفهامُ عنه مِن لَوازمِ أُعجوبتِه؛ فجُملةُ ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ بَيانٌ للتَّعجيبِ الإجماليِّ المُفادِ بجُملةِ ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ فهو تعجيبٌ مِن حالِهم، أي: كيف يُصرَفونَ عن الحقِّ إلى ما هُمْ عليه مِنَ الكفرِ والضَّلالِ[1]؟!

- و﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ كَلمةُ ذمٍّ وتوبيخٍ، وهو دعاءٌ عليهم وطلَبٌ مِن ذاتِه تعالَى أنْ يَلعنَهُم ويُخزيَهُم، أو تَعليمٌ للمُؤمِنينَ أنْ يَدعُوا عليهم بذلك، ومَن قاتَلَه اللهُ فهو مغلوبٌ؛ لأنَّه تعالَى هو القاهِرُ لكلِّ مُعانِدٍ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ هذا حالُ المنافقينَ في العِنادِ، ومُجافاةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والإعراضِ عن التَّفكُّرِ في الآخِرةِ، بَلْهَ الاستِعدادَ للفوزِ فيها،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤١).

و﴿تَعَالَوْاْ﴾ طلَبٌ مِنَ المُخاطَبِ بالحضورِ عِندَ الطَّالِبِ، وأصلُه فِعلُ أمْرٍ مِنَ التَّعالي، وهو تكلُّفُ العُلُوِّ، أي: الصُّعودِ، وتُنُوسِيَ ذلك، وصار لِمُجرَّدِ طلَبِ الحضورِ. وهذا الطَّلَبُ يجعَلُ ﴿تَعَالَوْاْ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ هذه حالةٌ مِن أحوالِ انفرادِهم في جماعتِهم، فهي ثالثُ الأغراضِ مِن بيانِ مُختلِفِ أنواعِ تلك الأحوالِ، وقدِ ابتُدِئَتْ بـ﴿إِذَا﴾ كما ابتُدِئَ الغرَضانِ السَّابِقانِ بـ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١]، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾[1] [المنافقون: ٤].

- قولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، أي: اذهَبوا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وسَلُوهُ الاستِغفارَ لكم، وهذا يدُلُّ دَلالةَ اقتِضاءٍ[2] على أنَّ المرادَ: تُوبوا مِنَ النِّفاقِ، وأَخْلِصوا الإيمانَ، وسَلُوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِيَستغفِرَ لكم ما فَرَطَ منكم، فكانَ الَّذي قال لهم ذلك مُطَّلِعًا على نِفاقِهم[3].

- قولُه: ﴿لَوَّوْاْ﴾ قُرِئَ بتَشديدِ الواوِ الأولى مُضاعَف (لَوَى)؛ للدَّلالةِ على الكثرةِ؛ فيَقْتَضي كثرةَ اللَّيِّ منهم، أي: لَوَّى جمعٌ كثيرٌ منهم رُؤوسَهم، وقُرِئَ بتَخفيفِ الواوِ الأولى اكتِفاءً بإسنادِ الفِعلِ إلى ضميرِ الجماعةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٣).

(٢) دلالةُ الاقتضاءِ: هي دلالةُ اللفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصدقِ أو الصحةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٤).
قرأ نافعٌ، ورَوْحٌ عن يعقوبَ بتخفيفِ الواوِ الأُولى، وقرأ الباقونَ بتشديدِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٨).

- وجُملةُ ﴿يَصُدُّونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ، وأُتِيَ بالمضارعِ ليَدُلَّ على استِمرارِهم[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ حِكايةِ أحوالِهم، نشأَتْ لِمُناسَبةِ قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾ [المنافقون: ٥] إلخ[٢].

- وتركيبُ: (سواءٌ عليه أكذا أمْ كذا)، ونَحْوِه ممَّا جَرَى مَجْرَى المَثَلِ، فيَلزَمُ هذه الكلماتِ مع ما يُناسِبُها مِن ضمائرِ المُخبَرِ عنه. ومدلولُه استِواءُ الأمْرَينِ لدَى المجرورِ بحرفِ (على)؛ ولذلك يُعقَبُ بجُملةٍ تُبيِّنُ جِهةَ الاستواءِ؛ كجُملةِ ﴿لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾[٣].

- و(على) مِن قولِه: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ بمعنى تمكُّنِ الوصفِ؛ فالمعنى: سواءٌ فيهم[٤].

- وهمزةُ ﴿أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ﴾ أصلُها همزةُ استفهامٍ، وهو استفهامٌ مُستعمَلٌ كِنايةً عن قِلَّةِ الاعتناءِ بكِلا الحالَيْنِ بقرينةِ لفظِ ﴿سَوَآءٌ﴾، أي: سواءٌ عِندَهمُ استغفارُكَ لهم وعدَمُه، فـ(على) للاستِعلاءِ الَّذي هو التَّمكُّنُ والتَّلبُّسُ؛ فتَؤُولُ إلى معنى (عِندَ)[٥].

- وجُملةُ ﴿لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

استِئنافًا ابتدائيًّا عن حالٍ مِن أحوالِهم[١].

- وجُملةُ ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ وجُملةِ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟﴾ [المنافقون: ٧]، وهي وعيدٌ لهم، وجزاءٌ على استخفافِهم بالاستغفارِ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تعليلٌ لانتفاءِ مغفرةِ اللهِ لهم بأنَّ اللهَ غضِبَ عليهم، فحرَمَهمُ اللُّطْفَ والعِنايةَ[٣].

- قولُه: ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: الكامِلينَ في الفِسقِ، الخارجينَ عن دائرةِ الاستصلاحِ، المُنهمِكينَ في الكفرِ والنِّفاقِ، والمرادُ: إمَّا هُم بأعيانِهم، والإظهارُ في موقعِ الإضمارِ لبيانِ غُلُوِّهم في الفِسقِ. أوِ الجِنسُ، وهم داخِلونَ في زُمْرَتِهم دُخولًا أوَّليًّا[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٣).

الآيتان (٧-٨)

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَنفَضُّواْ﴾: أي: يَتفرَّقوا، وأصلُ (فضض): يدُلُّ على تفريقٍ وتَجزِئةٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله سبحانَه عن جانبٍ مِن أقوالِ المنافِقينَ القبيحةِ، فيقولُ: همُ الَّذين يَقولونَ: لا تُنفِقوا على أصحابِ رَسولِ اللهِ حتَّى يَتفرَّقوا عنه. وللهِ خزائِنُ السَّمَواتِ والأرضِ، ولكِنَّ المُنافِقينَ لا يَعلَمونَ ذلك. يقولُ المُنافِقونَ: لَئِنْ رَجَعْنا مِن غَزوةِ بَني المُصْطَلِقِ إلى المدينةِ، لَيُخرِجَنَّ الأقوى منها الضَّعيفَ الأذَلَّ. وقد أخطَؤوا مصداقَ الوصفِ، فلِلَّهِ القُوَّةُ والغَلَبةُ ولِرَسولِه وللمُؤمِنينَ، وليست لهم، ولكنَّ المُنافِقينَ لا يَعلَمونَ ذلك، فيَظنُّونَ أنَّ العِزَّةَ لهم!

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٣٣).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن زَيدِ بنِ أرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا قال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ: لا تُنفِقُوا على مَن عِندَ رَسولِ اللهِ، وقال أيضًا: لَئِنْ رجَعْنا إلى المدينةِ؛ أخبَرَتُ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلامني الأنصارُ، وحَلَفُ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ما قال ذلك، فرجَعْتُ إلى المنزِلِ فنِمْتُ، فدعاني رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأتَيْتُه، فقال: إنَّ اللهَ قد صَدَّقَك، ونَزَل: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ ...﴾ الآيةَ))[1].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه انتِقالٌ مِن وَصفِ إعراضِهم عن التَّقَرُّبِ مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إلى وَصفِ لَونٍ آخَرَ مِن كُفرِهم، وهو الكَيدُ للدِّينِ في صورةِ النَّصيحةِ[2].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾.

أي: المُنافِقونَ هم الَّذين يَقولونَ[3]: لا تُنفِقوا على أصحابِ رَسولِ اللهِ حتَّى

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦).

(٣) قيل: يقولونَ لأصحابِهم وقَومِهم مِن المُنافِقينَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٩، ٦٦٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦).

قال ابن عاشور: (هذا أيضًا مِن مقالاتِهم في مَجامِعِهم وجماعتِهم، يَقولونَها لإخوانِهم الَّذين كانوا يُنفِقون على فُقراءِ المسلِمينَ تَظاهُرًا بالإسلامِ، كأنَّهم يقولُ بعضُهم لبعضٍ: تظاهَرْ بالإسلامِ بغيرِ الإنفاقِ، مثل قولِهم لِمَن يقولُ لهم: ﴿تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٥]؛ ولذلك عُقِّبَتْ بها. وقد جاء في الأحاديثِ الصَّحيحةِ أنَّ قائلَ هذه المقالةِ عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ =

يَتفرَّقوا عنه[١].

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولله جَميعُ ما في السَّمَواتِ والأرضِ مِن الأرزاقِ وغَيرِها، وهو وَحْدَه المتصَرِّفُ في أسبابِ حُصولِ الأرزاقِ بمَشيئتِه؛ فيُعطي مَن يَشاءُ بفَضْلِه، ويَمنَعُ مَن يَشاءُ بحِكْمتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

= سَلولَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٦٠).

وقيل: يقولونَ للأنصارِ مِن أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: البيضاويُّ، والمراغي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ١١٣). ويُنظر أيضًا: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ فُقَراءُ المهاجِرينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البيضاوي، والبِقاعي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٣٦).

قال ابنُ عاشور: (هذا كلامُ مَكرٍ؛ لأنَّ ظاهِرَه قَصدُ الرِّفقِ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن كُلْفةِ إنفاقِ الأعرابِ الَّذين أَلَمُّوا به في غَزوةِ بني المُصْطَلِقِ، وباطِنَه إرادةُ إبعادِ الأعرابِ عن تلَقِّي الهَدْيِ النَّبَويِّ، وعن أن يَتقَوَّى بهم المُسلِمونَ، أو تفَرُّقُ فُقَراءِ المهاجِرينَ لتَضعُفَ بتَفَرُّقِهم بعضُ قُوَّةِ المسلِمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٨).

أي: ولكِنَّ المُنافِقينَ لا يُدرِكونَ ذلك، فلا يَعلَمونَ كَمالَ قُدرةِ اللهِ، وأنَّ ما شاء حُصولَه يَسَّرَه، وأنَّه المتصَرِّفُ في الكَونِ بمَشيئتِه، وبيَدِه الأرزاقُ يُقَسِّمُها بيْنَ عِبادِه بحِكْمَتِه(١).

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٣٧].

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر في الآيةِ السَّابِقةِ أنَّهم لا يَفقَهونَ؛ دَلَّ على عَدَمِ فِقْهِهم بقَولِه تعالى(٢): ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾.

أي: يقولُ المُنافِقونَ: لَئِنْ رَجَعْنا مِن غَزوةِ بَني المُصطَلِقِ إلى المدينةِ الَّتي هي بَلدَتُنا، لَيُخرِجَنَّ الأقوى والأشَدُّ فيها الضَّعيفَ الأذَلَّ الَّذي جاء إلى مدينتِنا وسَكَن فيها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٩).

قال ابنُ القيِّمِ: (غزوةُ بني المُصطَلِقِ هي غَزوةُ المُرَيْسِيعِ، والجُمهورُ أنَّها كانت بعدَ الخَندَقِ سنةَ سِتٍّ). ((زاد المعاد)) (٣/ ٢٣٧).

قيل: يعني بالأعزِّ نَفْسَه، أي: عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلولَ، وبالأذَلِّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) =

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كُنَّا في غَزاةٍ، فكَسَعَ[١] رَجُلٌ مِن المهاجِرينَ رَجُلًا من الأنصارِ، فقال الأنصاريُّ: يا لَلأنصارِ! وقال المُهاجِريُّ: يا لَلمُهاجِرينَ! فسَمَّعها اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ما هذا؟! فقالوا: كَسَع رَجُلٌ مِن المهاجِرينَ رَجُلًا مِن الأنصارِ، فقال الأنصاريُّ: يا لَلأنصارِ، وقال المهاجِريُّ: يا لَلمُهاجِرينَ! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعُوها؛ فإنَّها مُنْتِنةٌ. قال جابرٌ: وكانت الأنصارُ حينَ قَدِمَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أكثَرَ، ثمَّ كَثُرَ المهاجِرونَ بَعْدُ، فقال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ: أوَقَد فَعَلوا؟! واللهِ لَئِنْ رجَعْنا إلى المدينةِ لَيُخرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ. فقال عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه: دَعْني يا رَسولَ اللهِ أضرِبْ عُنُقَ هذا المُنافِقِ. قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعْه، لا يَتحدَّثُ النَّاسُ أنَّ محمَّدًا يقتُلُ أصحابَه))[٢].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

= للزجاج (٥/ ١٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٠٠).

وقيل: أراد أنَّه هو وإخوانَه مِن المُنافِقينَ الأعَزُّونَ، وأراد أنَّ رَسول اللهِ ومَن معه هم الأذَلُّونَ! وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: أبو حيَّان، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

قال الشوكاني: (إنَّما أُسنِدَ القَولُ إلى المُنافِقينَ مع كَونِ القائِلِ هو فَردٌ مِن أفرادِهم، وهو عبدُ اللهِ ابنُ أُبَيٍّ؛ لكَونِه كان رئيسَهم، وصاحِبَ أمْرِهم، وهم راضُونَ بما يقولُه، سامِعونَ له مُطيعونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧).

وقال ابنُ عاشور: (أراد بالأعَزِّ فريقَ الأنصارِ؛ فإنَّهم أهلُ المدينةِ وأهلُ الأموالِ، وهم أكثَرُ عَدَدًا مِن المهاجِرينَ، فأراد: لَيُخرِجَنَّ الأنصارُ مِن مَدينتِهم مَن جاءَها مِنَ المُهاجِرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٩).

(١) كَسَعَ: أي: ضَرَب دُبُرَه وعَجيزتَه بيَدٍ أو رِجلٍ أو سَيفٍ وغَيرِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٣٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩٠٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٥٨٤).

أي: ولله القُوَّةُ والغَلَبةُ والـمَنَعةُ ولِرَسولِه وللمُؤمِنينَ، أمَّا المُنافِقونَ فهم الأذِلَّاءُ المهانُونَ حقًّا[١].

كما قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٨٠].

وعن تميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ: ((لَيَبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بَلَغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ[٢] إلَّا أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفْرَ))[٣].

وعن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بَشِّرْ هذه الأُمَّةَ بالسَّناءِ والرِّفْعةِ، والنَّصرِ والتَّمكينِ في الأرضِ، فمَن عَمِلَ منهم عَمَلَ الآخِرةِ للدُّنيا، لم يَكُنْ له في الآخِرةِ نَصيبٌ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٠٠)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٧٦-١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧).

(٢) بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ: المَدَرُ: جَمعُ مَدَرةٍ، وهي: اللَّبِنةُ، والمرادُ به هنا البُيوتُ المُحكَمةُ المَبنيَّةُ مِن الأحجارِ والطُّوبِ واللَّبِنِ، كبُيوتِ المُدُنِ والقُرى. والوَبَرُ: شَعرُ الإبلِ، والمرادُ به هنا البُيوتُ غيرُ المُحكَمةِ، كبُيوتِ البوادي وأهلِ الخِيامِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١١٦)، ((الكوكب الوهاج)) لمحمد الأمين الهَرري (٢٦/ ٢٥٩).

(٣) أخرجه أحمدُ (١٦٩٥٧) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٨٣٢٦)، والبيهقيُّ (١٩٠٩٠).
صحَّحه الحاكمُ على شرطِ الشَّيخَينِ، وقال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وقال الألبانيُّ في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): (على شرطِ مُسلمٍ). وصَحَّح إسنادَه على شرط مسلمٍ: شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨/ ١٥٥).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٢٢٠) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٤٠٥)، والحاكمُ (٧٨٦٢).
قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٢٢٣): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). ووثَّق رواتَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٣٤٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٢٨٢٥).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ المُنافِقينَ لا يَعلَمونَ ذلك، فيَظنُّونَ أنَّ العِزَّةَ لهم؛ اغترارًا بباطِلِهم[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

يُوجَدُ في المتَّبِعِ هواه مِن ذُلِّ النَّفسِ وضَعْفِها ومَهانتِها ما جعَلَه اللهُ لِمَن عَصاه؛ فإنَّ اللهَ تعالى جَعَل العِزَّةَ لِمَن أطاعَه، والذِّلَّةَ لِمَن عَصاه؛ قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، فجَعَل اللهُ سُبحانَه العِزَّ قَرينَ طاعتِه، والذُّلَّ قَرينَ مَعصِيتِه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لا ريبَ أنَّ المُنافِقينَ كانوا مَغمورينَ أذِلَّاءَ مَقهورينَ، لا سيَّما في آخرِ أيَّامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفي غَزوةِ تَبُوكَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فأَخبرَ أنَّ العِزَّةَ للمُؤمنينَ لا للمُنافِقينَ، فعُلِمَ أنَّ العِزَّةَ والقُوَّةَ كانت في المؤمِنينَ، وأنَّ المُنافِقينَ كانوا أذِلَّاءَ بيْنَهم، فيَمْتَنِعُ أنْ يكونَ الصَّحابةُ -الَّذين كانوا أَعَزَّ المُسلِمينَ- مِن المُنافِقينَ، بل ذلك يَقتَضي أنَّ مَن كان أَعَزَّ كان أعظمَ إيمانًا، ومِن المعلومِ أنَّ السَّابِقينَ الأَوَّلينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ؛ الخُلفاءَ الرَّاشِدينَ وغَيرَهم، كانوا أعَزَّ النَّاسِ، وهذا كلُّه ممَّا يُبَيِّنُ أنَّ المُنافِقينَ كانوا ذَليلينَ في المؤمِنينَ؛ فلا يجوزُ أنْ يكونَ الأعِزَّاءُ مِن الصَّحابةِ منهم، ولكنَّ هذا الوَصفَ مطابِقٌ للمُتَّصِفين به مِن الرَّافضةِ وغيرِهم، والنِّفاقُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٩).

والزَّنْدقةُ في الرَّافضةِ أكثرُ منه في سائرِ الطَّوائفِ، بل لا بُدَّ لكلٍّ منهم مِن شُعْبةِ نِفاقٍ؛ فإنَّ أساسَ النِّفاقِ الَّذي بُنيَ عليه: الكذبُ، وأنْ يقولَ الرَّجُلُ بلِسانِه ما ليس في قَلْبِه، كما أَخبرَ اللهُ تعالى عن المُنافِقينَ أنَّهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[1] [الفتح: ١١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كان المتوقَّعُ أنْ يكونَ الجوابُ: «واللهُ هو الأَعَزُّ ورسولُه والمؤمِنونَ»، لكنْ لو كانتِ العِبارةُ هكذا لَصار للمُنافِقينَ عِزَّةٌ لكنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه أَعَزُّ، لكنْ نفى عنهم العِزَّةَ مُطلقًا، وللهِ العِزَّةُ وَحْدَه ولِرَسولِه وللمُؤمِنينَ، وهذا نظيرُ قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ [غافر: ٢٠] لا حقَّ ولا باطِلَ[2].

٣- لا مُنافاةَ بيْن قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وبيْن قَولِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]؛ فإنَّ العِزَّةَ للهِ أصلًا، ولرَسولِه مِن اللهِ، وللمُؤمِنينَ مِن اللهِ؛ فحينَئذٍ فالعِزَّةُ كلُّها للهِ، كما قال اللهُ تعالى في سورةِ آلِ عِمْرانَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فكلُّ مَن عِندَه عِزَّةٌ فإنَّها ليست عِزَّةً ذاتيَّةً له مِن ذاتِ نفْسِه، ولكِنَّها مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وبماذا تكونُ العِزَّةُ الَّتي يَكتسبُها الإنسانُ، وهي مِن اللهِ؟ تكونُ بما عَلَّقَ اللهُ العِزَّةَ عليه، وهو الإيمانُ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فمتى أراد الإنسانُ العِزَّةَ فلْيَكُنْ مُؤمِنًا، وكلَّما كان أكثرَ إيمانًا باللهِ وأقوى إيمانًا باللهِ كان أكثَرَ عِزَّةً

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٢/ ١٣٩).

وأقوى عِزَّةً[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إنَّما نُفِيَ عنهُم هنا العِلمُ تجهيلًا بسُوءِ التَّأمُّلِ في أماراتِ الظُّهورِ والانحطاطِ، فلَمْ يَفْطَنُوا للإقبالِ الَّذي في أحوالِ المُسلِمينَ، وازديادِ سُلطانِهم يومًا فيومًا، وتناقُصٍ مِن أعدائِهم؛ فإنَّ ذلك أمْرٌ مُشاهَدٌ، فكيف يظُنُّ المُنافِقونَ أنَّ عزَّتَهُم أقوَى مِن عزَّةِ قبائلِ العربِ الَّذينَ يَسقُطونَ بأيدي المُسلِمينَ كلَّما غَزَوْهم مِن يومِ بدرٍ فما بَعْدَه[٢]؟!

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ جارٍ مَجْرَى التَّعليلِ لفِسقِهِم، أو لعدَمِ مَغفرتِه تعالَى لَهُم[٣].

- وقد ثبَت أنَّ قائِلَ هذه المقالةِ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ؛ فإسنادُ هذا القَولِ إلى ضَميرِ المُنافِقينَ لأنَّهم تَقبَّلوهَ مِنه؛ إذْ هو رأسُ المُنافِقينَ، أو فَشَا هذا القولُ بيْنَ المُنافِقينَ فأخَذوا يَبُثُّونَه في المُسلِمينَ[٤].

- وافتُتِحَتِ الجُملةُ بضميرِهمُ الظَّاهِرِ دونَ الاكتِفاءِ بالمُسْتَتِرِ في ﴿يَقُولُونَ﴾؛ مُعامَلةً لهم بنقيضِ مَقصودِهم؛ فإنَّهم ستَروا كيدَهم بإظهارِ قصْدِ النَّصيحةِ، ففضَحَ اللهُ أمْرَهم بمَزيدِ التَّصريحِ، أي: قد علِمْتُ أنَّكُم تقولونَ هذا. وفي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦).

إظهارِ الضَّميرِ أيضًا تعريضٌ بالتَّوبيخِ، ولِيَكونَ للجملةِ الاسميَّةِ إفادةُ ثباتِ الخبرِ، وليكونَ الإتيانُ بالموصولِ مُشعِرًا بأنَّهم عُرِفوا بهذه الصِّلةِ[١].

- قولُه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ صِيغةُ المضارِعِ في ﴿يَقُولُونَ﴾ تُشعِرُ بأنَّ هذه المَقالةَ تتكرَّرُ مِنْهم لقَصْدِ إفشائِها[٢].

- قولُه: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إنْ كان اللهُ تعالَى حكَى نصَّ كَلامِهم، فقولُهم: ﴿عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ هو على سَبيلِ الهُزءِ، أو لِكَونِه جَرَى عِندَهم مَجْرَى اللَّعِبِ، أي: هو معروفٌ بإطلاقِ هذا اللَّفظِ عليه؛ إذْ لو كانوا مُقِرِّينَ برسالتِه ما صدَرَ منهم ما صدَرَ، فالظَّاهرُ أنَّهم لم يَنطِقوا بنَفْسِ ذلك اللَّفظِ، ولكنَّه تعالَى عبَّرَ بذلك عن رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إكرامًا له وإجلالًا[٣]. وقيل: إنَّه صَدَر مِن عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ومَن معه مِن المُنافِقين بهذا اللَّفظِ؛ إذا كانوا قالوا ذلك جَهرًا في ملأِ المسلِمينَ؛ إذ هم يَتظاهَرونَ ساعتَئِذٍ بالإسلامِ[٤].

- وحرفُ (حَتَّى) مُستعمَلٌ في التَّعليلِ؛ لأنَّ معنى (حَتَّى) انتهاءُ الفِعلِ المذكورِ قبْلَها، وغايةُ الفِعلِ يَنتهي الفاعِلُ عن الفِعلِ إذا بلَغَها؛ فهي سبَبٌ للانتهاءِ وعِلَّةٌ له، وليس المرادُ: فإذا انفَضُّوا فأنفِقوا عليهِم[٥].

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، وفيه إبطالٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠١).

لِمَكْرِ المُنافِقينَ، وردٌّ وإبطالٌ لِمَا زعَمُوا مِن أنَّ عدمَ إنفاقِهم يُؤدِّي إلى انفضاضِ الفقراءِ مِن حَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ببيانِ أنَّ خزائنَ الأرزاقِ بيَدِ اللهِ تعالَى خاصَّةً، يُعطِي مَن يشاءُ، ويمنعُ مَن يشاءُ، وهذا جوابٌ مِن بابِ طريقةِ النَّقْضِ لكلامِهم[١].

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اللَّامُ في (لِلَّهِ) للمِلْكِ، أي: التَّصرُّفُ في ذلك مِلْكٌ للَّهِ تعالى[٢].

- ولَمَّا كان الإنفاقُ على فُقراءِ المُسلِمينَ ممَّا يُعِينُ على ظُهورِ الدِّينِ الَّذي أرسَلَ اللهُ به رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، كان الإخبارُ بأنَّ الخزائنَ للَّهِ كِنايةً عن تيسيرِ اللهِ تعالَى لرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم حصولَ ما يُنفِقُ منه، وذلك بما يسَّره اللهُ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن زَكَواتِ المُسلِمينَ وغنائمِ الغزَواتِ، وما فتَحَ اللهُ عليه مِنَ البلادِ بخَيْراتِها، وما أفاءَ اللهُ عليه بغَيرِ قتالٍ[٣].

- وتَقديمُ المجرورِ مِن قولِه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لإفادةِ قصْرِ القَلبِ[٤]، وهو قلبٌ للازمِ قولِهم لا لصريحِه؛ لأنَّ المُنافِقينَ لَمَّا قالوا: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٧]، حسِبوا أنَّهم إذا قطَعوا الإنفاقَ على مَن عِندَ رسولِ اللهِ لا يَجِدُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يُنفِقُ مِنه عليهم، فأعلَمَ اللهُ رسولَه مُباشَرةً، وأعلَمَهم تَبَعًا بأنَّ ما عِندَ اللهِ مِنَ الرِّزقِ أعظَمُ وأوسَعُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٨).

- واستِدراكُ قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لرفْعِ ما يُتَوهَّمُ مِن أنَّهم حِينَ قالوا: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ كانوا قالوهُ عن بصيرةٍ ويقينٍ بأنَّ انقطاعَ إنفاقِهم على الَّذينَ يَلُوذونَ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقطَعُ رِزقَهُم، فيَنفضُّونَ عنه بِناءً على أنَّ القُدرةَ على الإنفاقِ مُنحصِرةٌ فيهم؛ لأنَّهم أهلُ الأحوالِ -وهذا بِناءً على أنَّ الخِطابَ لأصحابِهم مِن المنافِقينَ-، وقد غفَلوا عن تعدُّدِ أسبابِ الغِنى وأسبابِ الفقرِ، والمعنى: أنَّهم لا يُدرِكونَ دقائقَ المُدرَكاتِ وخَفاياها[1].

- ومَفعولُ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ مَحذوفٌ، أي: لا يَفقَهونَ ذلك، وهو مضمونُ (لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)، أو نُزِّلَ الفِعلُ مَنزِلةَ اللَّازِمِ؛ مُبالَغةً في انتفاءِ فِقهِ الأشياءِ عنهم في كلِّ حالٍ[2].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث ختَمَه هنا بـ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، وبَعْدَه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي مَعرفتِها غُموضٌ يَحتاجُ إلى فِطْنةٍ وفِقهٍ؛ فناسَبَ نَفْيُ الفِقهِ عنهم، والثَّانيَ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي مَعرفتِها غُموضٌ زائدٌ يَحتاجُ إلى عِلمٍ؛ فناسَبَ نَفْيُ العِلمِ عنهم، فالمعْنى: لا يَعلَمونَ أنَّ اللهَ مُعِزٌّ أولياءَهُ ومُذِلٌّ أعداءَهُ[3]. وقيل: خُصَّ الأوَّلُ بـ﴿لَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٧٥-١٢٧٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٦، ٢٣٧)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٦).

ويُنظر أيضًا: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٧٤).

يَفْقَهُونَ﴾، والثَّاني بـ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّ إثباتَ الفقهِ للإنسانِ أبلَغُ مِن إثباتِ العِلمِ له، فيَكونُ نَفْيُ العِلمِ أبلَغَ مِن نَفْيِ الفِقهِ، فأُوثِرَ ما هو أبلَغُ لِمَا هو أَدْعى له[١]. أو نفيُ العِلمِ فيما ظهرتْ أعلامُه، والفِقهِ فيما خَفيَ أمرُه[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ استئنافٌ على أُسلوبِ التَّعدادِ والتَّكريرِ؛ ولذلك لم يُعطَفْ، ومِثلُه يَكثُرُ في مَقامِ التَّوبيخِ، وهذا وصْفٌ لخُبثِ نيَّاتِهم؛ إذْ أرادوا التَّهديدَ وإفسادَ إخلاصِ الأنصارِ وأُخُوَّتِهم مع المُهاجِرينَ بإلْقاءِ هذا الخاطِرِ في نفوسِ الأنصارِ؛ بَذْرًا للفتنةِ والتَّفرقةِ، وانتهازًا لخصومةٍ طفيفةٍ حدَثَتْ بيْنَ شخصَيْنِ مِن موالي الفريقَيْنِ[٣].

- وصِيغةُ المضارِعِ في حِكايةِ هذه المقالةِ ﴿يَقُولُونَ﴾؛ لاستِحضارِ الحالةِ العجيبةِ[٤].

- وقد أبطَلَ اللهُ كلامَهم بقولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو جوابٌ بالطَّريقةِ الَّتي تُسمَّى القولَ بالموجَبِ في عِلمِ الجدَلِ، وهي ممَّا يُسمَّى بالتَّسليمِ الجدَلِيِّ في عِلمِ آدابِ البحثِ[٥]، والمعنى: إنْ كان الأعزُّ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) القولُ بالموجَبِ: هو عبارةٌ عن تسليمِ مقتضَى ما جعَله المستدِلُّ دليلًا لحُكمٍ، مع بقاءِ الخلافِ بيْنَهما فيه. أو: تسليمُ الدَّليلِ معَ بقاءِ النِّزاعِ، ومعنى ذلك: أن يُسلِّمَ الخَصمُ الدَّليلَ الَّذى استدَلَّ به المُستدِلُّ، إلَّا أنَّه يقولُ: هذا الدَّليلُ ليس فى محلِّ النِّزاعِ، إنَّما هو في غيرِه؛ فيبقَى الخلافُ =

يُخرِجُ الأذلَّ، فإنَّ المُؤمِنينَ هُمُ الفريقُ الأعزُّ، وعزَّتُهم بكَونِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم، وبتأييدِ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأولياءَه؛ لأنَّ عزَّةَ اللهِ هي العزَّةُ الحقُّ المُطلَقةُ، وعزَّةَ غَيرِه ناقِصةٌ، فلا جَرَمَ أنَّ أولياءَ اللهِ هُمُ الَّذينَ لا يُقهَرونَ إذا أراد اللهُ نصرَهُم ووعَدَهُم به؛ فإنْ كان إخراجٌ مِنَ المدينةِ فإنَّما يخرُجُ منها أنتُم يا أهلَ النِّفاقِ[١].

- وتقديمُ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه في ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ﴾ لقَصْدِ القصْرِ، وهو قصْرُ قلبٍ[٢]، أي: العزَّةُ للَّهِ ولرسولِه وللمُؤمِنينَ، لا لكُمْ كما تَحسَبونَ[٣].

- وإعادةُ اللَّامِ في قولِه: ﴿وَلِرَسُولِهِۦ﴾ مع أنَّ حرفَ العطفِ مُغْنٍ عنها؛ لتأكيدِ عزَّةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّها بسببِ عزَّةِ اللهِ، ووَعْدِه إيَّاه[٤].

- وإعادةُ اللَّامِ أيضًا في قولِه: ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ للتَّأكيدِ أيضًا؛ إذْ قد تَخْفى عزَّتُهم، وأكثرُهم في حالِ قِلَّةٍ وحاجةٍ[٥].

- وعُدِلَ عن الإضمارِ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وقد سبَقَ اسمُهم في نظيرِها قبْلَها؛ لتكونَ الجملةُ مُستقِلَّةَ الدَّلالةِ بذاتِها، فتسيرَ سَيْرَ المثَلِ[٦].

= بيْنَهما. يُنظر: ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٨٩)، ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) للإسنوي (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق))).

الآيات (٩-١١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُلۡهِكُمۡ﴾: أي: تَشْغَلْكم، واللَّهْوُ: ما يَشغَلُ الإنسانَ عمَّا يَعْنيه ويُهِمُّه، وأصلُ (لهو): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بشَيءٍ[(١)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

﴿لَوۡلَآ﴾ هي في الأصلِ حَرفُ تَحضيضٍ بمعنى «هَلَّا»، وهي هنا بمعنى التَّمنِّي. ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾: الفاءُ: سببيَّةٌ. (أَصَّدَّقَ): فِعلٌ مُضارِعٌ مَنصوبٌ بـ«أن» مُضمَرةً بعدَ فاءِ السَّببيَّةِ في جوابِ التَّمَنِّي. ﴿وَأَكُن﴾ مجزومٌ بالعَطفِ على مَوضِعِ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ حملًا على المعنى، كأنَّه قال: إنْ أخَّرْتَني أصَدَّقْ وأكنْ مِن الصَّالحينَ؛ لأنَّه لو لم تَدخُلِ الفاءُ لَكان مجزومًا في جوابِ التَّمَنِّي، فعَطَف حملًا على هذا المعنى، واعتقادِ سُقوطِ الفاءِ، ويُقالُ له في غيرِ القُرآنِ: العَطفُ على التَّوَهُّمِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (٣/ ١٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٧٨)، ((شرح المفصل)) =

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى المؤمنينَ بالمواظَبةِ على طاعتِه، ويَنهاهم عن أنْ يَشغلَهم عن ذلك شيءٌ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَشْغَلْكم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذِكرِ اللهِ تعالى، ومَن يُشْغَلْ بأموالِه وأولادِه عن ذِكرِ اللهِ تعالى فأولئك هم الخاسِرونَ حَقًّا.

ثمَّ يَحُضُّهم الله سبحانَه على الإنفاقِ قبْلَ فَواتِ الأوانِ، فيقولُ: وتَصَدَّقوا -أيُّها المؤمِنونَ- مِمَّا رَزَقْناكم مِن الأموالِ مِن قَبلِ أن يأتيَ أحَدَكم الموتُ، فيَقولَ عِندَ احتِضارِه: يا رَبِّ هلَّا أمهَلْتَني إلى وَقتٍ قَصيرٍ؛ فأتصدَّقَ وأكونَ مِنَ الصَّالِحينَ! ولن يُؤَخِّرَ اللهُ أحدًا إذا جاء أجَلُه، واللهُ ذو خِبرةٍ تامَّةٍ بجَميعِ أعمالِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان ما حكاه اللهُ سُبحانَه وتعالى عن المُنافِقينَ بحيثُ يُعجَبُ غايةَ العَجَبِ مِن تصَوُّرِ قائِلِه له، فضلًا عن أن يَتفَوَّه به، فكيفَ بأنْ يَعتَقِدَه- نبَّهَ على أنَّ العِلَّةَ المُوجِبةَ له طَمْسُ البصيرةِ، وأنَّ العِلَّةَ في طَمْسِ البصيرةِ الإقبالُ بجَميعِ القَلْبِ على الدُّنيا[1].

وأيضًا فهذا انتِقالٌ مِن كشْفِ أحوالِ المُنافِقينَ المَسوقِ للحذَرِ منهم، والتَّحذيرِ

= لابن يعيش (٢/ ١٠٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٤٤)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٥٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣١٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩١).

مِن صِفاتِهم، إلى الإقبالِ على خِطابِ المُؤمِنينَ بنَهيِهم عمَّا شأنُه أنْ يَشْغَلَ عن التَّذكُّرِ لِمَا أمَرَ اللهُ ونَهَى، ثُمَّ الأمْرِ بالإنفاقِ في سُبُلِ الخَيرِ في سبيلِ اللهِ، ومَصالِحِ المُسلِمينَ وجماعتِهم، وإسعافِ آحادِهم؛ لِئَلَّا يَستهويَهُم قولُ المُنافِقينَ: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المُنافِقينَ: ٧]، والمُبادَرةِ إلى ذلك قبْلَ إتيانِ الموتِ[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَشْغَلْكم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذِكرِ اللهِ تعالى، كما يَفعَلُ المُنافِقونَ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٩، ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١).

قال القرطبي: (﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الحَجِّ والزَّكاةِ. وقيل: عن قِراءةِ القُرآنِ. وقيل: عن إدامةِ الذِّكرِ. وقيل: عن الصَّلَواتِ الخَمسِ. قاله الضَّحَّاكُ. وقال الحَسَنُ: جميعُ الفرائِضِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالذِّكرِ: الصَّلَواتُ المكتوباتُ: مَكِّيُّ بنُ أبي طالب، والواحديُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٤٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٨٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الذِّكرَ عامٌّ في جميعِ الطَّاعاتِ: ابنُ عطيَّة، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٢).

وقال أبو حيَّان: (هو عامٌّ في الصَّلاةِ، والثَّناءِ على اللهِ تعالى بالتَّسبيحِ والتَّحميدِ وغيرِ ذلك، والدُّعاءِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٤).

وقال ابنُ عاشور: (ذِكرُ اللهِ ... يَشملُ الذِّكرَ باللِّسانِ؛ كالصَّلاةِ وتِلاوةِ القُرآنِ، والتَّذَكُّرَ بالعَقلِ؛ كالتَّدَبُّرِ في صِفاتِه، واستِحضارِ امتِثالِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١).

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الَّذي يَتلَهَّى بذلك عن ذِكرِ اللهِ يَظُنُّ أنَّه يَربَحُ؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، يعني: ولو رَبِحوا في دُنياهم[١].

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

أي: ومَن يُشْغَلْ بأموالِه وأولادِه عن ذِكرِ اللهِ تعالى فأولئك هم الخاسِرونَ حَقًّا[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [التغابن: ١٥].

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا حَذَّرَ مِنَ الإقبالِ على الدُّنيا؛ رغَّبَ في بَذْلِها؛ مُخالَفةً للمُنافِقينَ[٣].

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾.

أي: وتَصَدَّقوا -أيُّها المؤمِنونَ- مِمَّا رَزَقْناكم مِن الأموالِ، سواءٌ بالزَّكاةِ المفروضةِ، والنَّفَقاتِ الواجِبةِ، أو بالصَّدَقاتِ المُستَحَبَّةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٩)، ((الصلاة)) لابن القيم (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن =

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: أَنفِقُوا مِن قَبلِ أن يَنزِلَ بأحَدِكم أسبابُ الموتِ، ويُشاهِدَ حُضورَ عَلاماتِه، فيَقولَ عِندَ احتِضارِه: يا رَبِّ هلَّا أمهَلْتَني فتُؤخِّرَ مَوتي إلى وَقتٍ قَصيرٍ، فأتصدَّقَ وأكونَ مِنَ العامِلينَ بطاعتِك[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ * وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤، ٤٥].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى زاد في الحَثِّ على المُبادَرةِ بالطَّاعاتِ قبْلَ الفَواتِ، فقال[2]:

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾.

= عطية)) (٥/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٧).

أي: ولن يُؤَخِّرَ اللهُ أجَلَ أيِّ أحَدٍ، فيَزيدَ في عُمُرِه إذا حَضَرَ وَقتُ مَوتِه[١].

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ ذو خِبرةٍ تامَّةٍ بالِغةٍ بجَميعِ أعمالِكم؛ خَيرِها وشَرِّها، ظاهِرِها وباطِنِها، ونيَّاتِكم بها، ومَقاصِدِكم منها، لا يَخْفى عليه شَيءٌ مِن ذلك، وسيُجازيكم عليه[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ مُقتضى الإيمانِ ألَّا يُباليَ المؤمِنُ بعِزَّةِ المالِ والوَلَدِ مع عِزَّةِ اللهِ[٣].

٢- ذَمَّ اللهُ تعالى مَن ألهاه مالُه وولدُه عن ذِكْرِه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ فيه تَنبيهٌ على المحافظةِ على الذِّكرِ قبْلَ الموتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٦).

قال الرازي: (المفسِّرون على أنَّ هذا خِطابٌ جامِعٌ لكُلِّ عَمَلٍ خَيرًا أو شَرًّا). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٠).

٤- قال أبو حازمٍ: (كلُّ ما شغلَكَ عن اللهِ من مالٍ أو وَلَدٍ، فهو عليك شُؤمٌ)[١].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ يأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه المُؤمِنينَ بالإكثارِ مِن ذِكْرِه؛ فإنَّ في ذلك الرِّبحَ والفَلاحَ، والخَيراتِ الكَثيرةَ، ويَنهاهم أن تَشغَلَهم أموالُهم وأولادُهم عن ذِكْرِه؛ فإنَّ محبَّةَ المالِ والأولادِ مَجبولٌ عليها أكثَرُ النُّفوسِ، فتُقَدِّمُها على محبَّةِ اللهِ، وفي ذلك الخَسارةُ العظيمةُ[٢].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ فيه أنَّ الاشتِغالَ بالأموالِ والأولادِ الَّذي لا يُلْهي عن ذِكرِ اللهِ: ليس بمذمومٍ، وله مَراتِبُ[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: العَريقونَ في الخَسارةِ، حتَّى كأنَّهم كانوا مختَصِّينَ بها دونَ النَّاسِ، وذلك ضِدُّ ما أرادوا بتوفيرِ النَّظَرِ إليهم، والإقبالِ عليهم مِن السَّعيِ للتَّكثيرِ والزِّيادةِ والتَّوفيرِ، وفي إفهامِه أنَّ مَن شغَلَه ما يُهِمُّه مِن أمرِ دِينِه الَّذي أمَرَه سبحانه به، ونهاه عن إضاعتِه، وتوَعَّدَه عليها: كفاه سبحانَه أمْرَ دُنياه الَّذي ضَمِنَه له، ونهاه أن يجعَلَه أكبَرَ هَمِّه، وتوعَّدَه على ذلك[٤].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هذا إرشادٌ مِنَ اللهِ

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٧٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٨٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٣).

تعالى للمُؤمِنينَ لِيَكونوا على استِعدادٍ للمَوتِ في كُلِّ وَقتٍ، فلا يُؤَخِّروا ما يُهِمُّهم عمَلُه ونَيلُ ثَوابِه؛ فما مِن أحَدٍ يُؤَخِّرُ العَمَلَ الَّذي يَسُرُّه أن يَعمَلَه ويَنالَ ثَوابَه إلَّا وهو مُعَرَّضٌ لأن يأتيَه الموتُ عن قَريبٍ أو يفاجِئَه؛ فعليه بالتَّحَرُّزِ الشَّديدِ مِن هذا التَّفريطِ في كُلِّ وَقتٍ وحالٍ، فرُبَّما تعَذَّرَ عليه التَّدارُكُ بفجأةِ الفَواتِ، أو وَهْنِ المقدِرةِ؛ فإنَّه إن كان لم تُطاوِعْه نفْسُه على العَمَلِ الصَّالحِ قبْلَ الفَواتِ، فكيف يتمَنَّى تأخيرَ الأجَلِ المحتومِ[1]؟!

٩- قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ذكَّرَ اللهُ تعالى المُؤمِنينَ بما في الإنفاقِ مِنَ الخَيرِ بأنَّ عليهِم أنْ يُكثِروا مِنه ما داموا مُقتدِرينَ قبْلَ الفَوْتِ، أي: قبْلَ تعذُّرِ الإنفاقِ والإتيانِ بالأعمالِ الصَّالحةِ، وذلك حِينَ يُحِسُّ المرءُ بحالةٍ تُؤذِنُ بقُرْبِ الموتِ، ويُغلَبُ على قُواهُ، فيَسألُ اللهَ أنْ يؤخِّرَ موتَه ويَشفيَه؛ ليأتيَ بكثيرٍ ممَّا فرَّطَ فيه مِنَ الحسناتِ؛ طمَعًا أنْ يُستجابَ له، فإنْ كان في أجَلِه تأخيرٌ فلعلَّ اللهَ أنْ يستجيبَ له، فإنْ لم يكُنْ في الأجَلِ تأخيرٌ أو لم يُقدِّرِ اللهُ له الاستجابةَ، فاته خَيرٌ كثيرٌ[2].

١٠- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ في قَولِه تعالى: ﴿مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنفاقَ المأمورَ به شُكرٌ للهِ على ما رَزَقَ المُنفِقَ؛ فإنَّ الشُّكرَ صَرفُ العَبدِ ما أنعَمَ اللهُ به عليه فيما خُلِقَ مِن أجْلِه، ويُعرَفُ ذلك مِن تِلقاءِ الشَّريعةِ[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ حَضٌّ على المبادَرةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٥٢).

ومسابَقةِ الأجَلِ بالعَمَلِ الصَّالحِ[١]؛ حِذارًا أن يجيءَ الأجلُ وقد فرَّط ولم يَستعِدَّ للقاءِ الله[٢].

١٢- قال الله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كُلُّ مُفَرِّطٍ يَندَمُ عندَ الاحتِضارِ، ويَسألُ طُولَ المُدَّةِ ولو شيئًا يسيرًا؛ يَستَعتِبُ ويَستَدرِكُ ما فاته، وهيهاتَ! كان ما كان، وأتَى ما هو آتٍ، وكُلٌّ بحَسَبِ تفريطِه[٣]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ إنْ قِيلَ: لِماذا لم يَقُلْ: (لا تَشغَلْكم)؟

فالجوابُ: أنَّ مِن الشُّغلِ ما هو محمودٌ؛ فقد يكونُ شُغلًا في حَقٍّ، كما جاء في الحديثِ: ((إنَّ في الصَّلاةِ لَشُغْلًا))[٤]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥]، أمَّا الإلهاءُ فمِمَّا لا خيرَ فيه، وهو مَذمومٌ على وَجهِ العُمومِ، فاختار ما هو أحَقُّ بالنَّهيِ[٥].

٢- المحبَّةُ الطَّبيعيَّةُ وهي: مَيلُ الإنسانِ إلى ما يُلائِمُ طَبْعَه؛ كمَحَبَّةِ العَطشانِ للماءِ، والجائعِ للطَّعامِ، ومحبَّةِ النَّومِ والزَّوجةِ والوَلَدِ؛ فتلك لا تُذَمُّ إلَّا إذا أَلْهَتْ عن ذِكْرِ اللهِ تعالى، وشَغلَتْ عن مَحَبَّتِه، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٣).

(٤) أخرجه البخاريُّ (١٢١٦)، ومسلمٌ (٥٣٨) من حديث عبدِ الله بنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه.

(٥) يُنظر: ((لمسات بيانية)) فاضل السامرائي (ص: ١٧٩).

ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[(١)].

٣- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، قولُه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فيه دليلٌ على قَولِ عُلَماءِ أُصولِ الفِقهِ: (النَّهيُ: اقتِضاءُ كَفٍّ عن فِعلٍ)[(٢)].

٤- إنَّ كثرةَ ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ أمانٌ مِن النِّفاقِ؛ فإنَّ المُنافِقينَ قليلو الذِّكْرِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ في المُنافِقينَ: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال كعبٌ: (مَن أكثَرَ ذِكرَ اللهِ عزَّ وجَلَّ بَرِئَ مِنَ النِّفاقِ)؛ ولهذا -واللهُ أعلمُ- خَتَمَ اللهُ تعالى سورةَ (المُنافِقونَ) بقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ فإنَّ في ذلك تحذيرًا مِن فِتنةِ المُنافِقينَ الَّذين غَفَلوا عن ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فوَقَعوا في النِّفاقِ. وسُئِلَ بعضُ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهم عن الخَوارجِ: (مُنافِقونَ هم؟ قال: لا، المُنافِقونَ لا يَذكُرونَ اللهَ إلَّا قليلًا!)، فهذا مِن علامةِ النِّفاقِ؛ قِلَّةُ ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ. وكثرةُ ذِكْرِه أمانٌ مِن النِّفاقِ، واللهُ عزَّ وجلَّ أكرَمُ مِن أنْ يَبتليَ قلبًا ذاكرًا بالنِّفاقِ، وإنَّما ذلك لقُلوبٍ غَفَلَتْ عن ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ[(٣)].

٥- أنَّ دَوامَ الذِّكْرِ لَمَّا كان سببًا لدَوامِ المحبَّةِ، وكان اللهُ سُبحانَه أحقَّ بكمالِ الحُبِّ والعُبوديَّةِ والتَّعظيمِ والإجلالِ؛ كان كثرةُ ذِكْرِه مِن أنْفَعِ ما للعَبدِ، وكان عَدُوُّه حقًّا هو الصَّادَّ له عن ذِكْرِ ربِّه وعبوديَّتِه؛ ولهذا أمَرَ اللهُ سُبحانَه بكَثرةِ ذِكْرِه في القُرآنِ، وجَعَله سببًا للفَلاحِ، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٨٠).

نُفۡلِحُونَ ﴾[الأنفال: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾، وقال تعالى ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾[1] [البقرة: ١٥٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ -على القولِ بأنَّ المرادَ بـ ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾: الصَّلاةُ- فيه دَلالةٌ على كُفرِ تاركِ الصَّلاةِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى حَكَمَ بالخُسرانِ المُطْلَقِ لِمَن ألهاه مالُه وولدُه عن الصَّلاةِ، والخُسرانُ المُطْلَقُ لا يَحصُلُ إلَّا للكُفَّارِ؛ فإنَّ المُسلِمَ ولو خَسِرَ بذُنوبِه ومَعاصيه فآخِرُ أمْرِه إلى الرِّبحِ، يُوضِّحُه أنَّه سُبحانَه وتعالى أَكَّدَ خُسرانَ تاركِ الصَّلاةِ في هذه الآيةِ بأنواعٍ مِن التأكيدِ:

أحدُها: إتيانُه بلَفظِ الاسمِ الدَّالِّ على ثُبوتِ الخُسرانِ ولُزومِه، دونَ الفِعلِ الدَّالِّ على التَّجَدُّدِ والحُدوثِ.

الثَّاني: تصديرُ الاسمِ بالألفِ واللَّامِ المؤدِّيةِ لحصولِ كَمالِ المُسمَّى لهم؛ فإنَّك إذا قُلْتَ: «زيدٌ العالِمُ الصَّالحُ» أفاد ذلك إثباتَ كمالِ ذلك له، بخلافِ قولِك: «عالِمٌ صالحٌ».

الثالثُ: إتيانُه سُبحانَه بالمُبتدَأِ والخبرِ مَعْرِفتَينِ، وذلك مِن علاماتِ انحصارِ الخبَرِ في المُبتدَأِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[البقرة: ٥]، وقَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا ﴾ [الأنفال: ٤] ونظائِرِه.

---

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٠).

الرَّابعُ: إدخالُ ضَميرِ الفَصلِ بيْنَ المُبتدَأِ والخبَرِ، وهو يفيدُ مع الفَصلِ فائدتَينِ أُخْرَيَينِ: قُوَّةَ الإسنادِ، واختِصاصَ المسنَدِ إليه بالمُسنَدِ، كقَولِه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤]، وقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]، وقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]، ونظائرِ ذلك الدَّليلِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ بيانُ أنَّ مَن ألهَتْه هذه الأشياءُ عن ذِكْرِ اللهِ فهو خاسِرٌ مهما رَبِحَ[٢].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى لم يُكَلِّفِ العبادَ مِنَ النَّفَقةِ ما يُعنِتُهم ويَشُقُّ عليهم، بل أمَرَهم بإخراجِ جُزءٍ مِمَّا رزَقَهم اللهُ الَّذي يَسَّرَه لهم، ويَسَّرَ لهم أسبابَه[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ سُؤالٌ: أنَّه يُشْكِلُ على هذا قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن أحبَّ أنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِه، ويُنْسَأَ له في أَثَرِه؛ فلْيَصِلْ رَحِمَه))[٤]؛ فإنَّ هذا يُفيدُ بأنَّ الإنسانَ إذا وَصَلَ رَحِمَه زِيدَ في عُمُرِه!

والجواب: أنَّ الَّذي سبَقَ في عِلمِ الله لا يَتغيَّرُ ولا يتبدَّلُ، ومِن ذلك العُمُرُ، فالَّذي في علمِ الله لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ، ويُقالُ له: القضاءُ المبرَمُ، والَّذي في علمِ المَلَكِ هو الَّذي يُمكنُ فيه الزِّيادةُ والنَّقصُ، ويُقالُ له القضاءُ المُعلَّقُ، كأن يُقالَ للمَلَكِ مثلًا: إنَّ عُمرَ فُلانٍ مِئةٌ مثلًا إن وصَل رحِمَه، وسِتُّون إن قطَعها، وقد سبَق في عِلمِ الله أنَّه يصِلُ أو يَقْطعُ. فالزِّيادةُ في العُمُرِ والنَّقصِ تتعلَّقُ بما في

(١) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٥٩٨٦)، ومسلمٌ (٢٥٥٧) من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

عِلمِ الحَفَظةِ والمُوكَّلينَ بالآدَميِّ، كأعمالِ اليَومِ واللَّيلةِ الَّتي تَكتُبُها الملائِكةُ، ويجعَلُ اللهُ لثُبوتِها أسبابًا ولِمَحوِها أسبابًا، لا تتعَدَّى تلك الأسبابُ ما رُسِمَ في اللَّوحِ المحفوظِ، كما جعَلَ اللهُ البِرَّ والصِّلةَ والإحسانَ مِن أسبابِ طُولِ العُمُرِ وسَعةِ الرِّزقِ، وكما جعَلَ المعاصيَ سَببًا لِمَحقِ بَرَكةِ الرِّزقِ والعُمُرِ، وكما جعَلَ أسبابَ النَّجاةِ مِن المهالِكِ والمعاطِبِ سَببًا للسَّلامةِ، وجعَلَ التَّعَرُّضَ لذلك سببًا للعَطَبِ؛ فهو الَّذي يدَبِّرُ الأمورَ بحَسَبِ قُدرتِه وإرادتِه، وما يُدَبِّرُه منها لا يخالِفُ ما قد عَلِمَه وكتَبَه في اللَّوحِ المحفوظِ[(١)].

وقيل: الحديثُ لا يَعدُو أنْ يكونَ بيانًا لسَبَبِ طولِ العُمُرِ، وليس معناه أنَّ الإنسانَ له عُمرانِ: عُمُرٌ عندَ قطيعةِ الرَّحِمِ، وعُمُرٌ عندَ صِلَةِ الرَّحِمِ؛ لأنَّ المعلومَ عندَ اللهِ والمكتوبَ عندَه عُمُرٌ واحدٌ مَقْرونٌ بسَبَبٍ، وهو صِلَةُ الرَّحِمِ، فإذا وَصَلَ الإنسانُ رَحِمَه عَلِمْنا أنَّ له عُمُرًا واحدًا زائدًا مقرونًا بالسَّبَبِ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾

- لَمَّا نَهَى المُنافِقونَ عن الإنفاقِ على مَن عِندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأُريدَ الحثُّ على الإنفاقِ بقولِه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [المنافقون: ١٠] رغمًا لأنوفِهم، وتحرِّيًا لِمَا هو الأصوَبُ والأصلَحُ؛ جُعِلَ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ ...﴾ تَمهيدًا وتوطِئةً

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٥٤٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤١٦) و(١١/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٥٠).

للأمْرِ بالإنفاقِ، وعَمَّ العِلَّةَ والحُكمَ[١].

- ونُودِيَ المُخاطَبونَ بطريقِ الموصولِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِنَ التَّهَمُّمِ لامتثالِ النَّهيِ[٢].

- وصِيغَ الكلامُ في قالَبِ توجيهِ النَّهيِ عن الإلهاءِ عن الذِّكْرِ، إلى الأموالِ والأولادِ، والمرادُ نهْيُ أصحابِها، وهو استِعمالٌ معروفٌ، وقرينتُه هُنا قولُه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وهو مُبالَغةٌ في نهْيِ أصحابِها عن الاشتِغالِ بسببِها عن ذِكْرِ اللهِ؛ فنُزِّلَ سَببُ الإلهاءِ مَنزِلةَ اللَّاهي للمُلابَسةِ بيْنَهما[٣].

- وخُصَّ الأموالُ والأولادُ بتوجُّهِ النَّهيِ عن الاشتِغالِ بها اشتغالًا يُلْهي عن ذِكْرِ اللهِ؛ لأنَّ الأموالَ ممَّا يكثُرُ إقبالُ النَّاسِ على إنمائِها، والتَّفكيرِ في اكتِسابِها؛ بحيثُ تكونُ أوقاتُ الشُّغلِ بها أكثَرَ مِن أوقاتِ الشُّغلِ بالأولادِ، ولأنَّها كما تَشْغَلُ عن ذِكْرِ اللهِ بصَرْفِ الوقتِ في كَسْبِها ونمائِها، تَشْغَلُ عن ذِكْرِه أيضًا بكَنْزِها؛ بحيثُ يُنسَى ذِكْرُ ما دعا اللهُ إليه مِن إنفاقِها. وأمَّا ذِكْرُ الأولادِ فهو إدماجٌ[٤]؛ لأنَّ الاشتِغالَ بالأولادِ، والشَّفقةَ عليهم، وتدبيرَ شُؤونِهم، وقَضاءَ الأوقاتِ في التَّأنُّسِ بهم؛ مِن شأنِه أنْ يُنسِيَ عن تذكُّرِ أمْرِ اللهِ ونهيِه في أوقاتٍ كثيرةٍ؛ فالشُّغلُ بهذَيْنِ أكثَرُ مِنَ الشُّغلِ بغَيرِهما. ومتى كان اللَّهوُ عن ذِكْرِ اللَّهِ بالاشتِغالِ بغَيرِ الأموالِ وغَيرِ الأولادِ، كان أَوْلَى بحُكمِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٦٢).

النَّهيِ، والوعيدِ عليهِ[١].

- و(لا) في قولِه: ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ نافيةٌ عاطفةٌ ﴿أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ على ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾، والمعطوفُ عليه مدخولُ (لا) النَّاهيةِ؛ لأنَّ النَّهيَ يتضمَّنُ النَّفيَ؛ إذْ هو طلَبُ عدمِ الفِعلِ، فـ(لا) النَّاهيةُ أصلُها (لا) النَّافيةُ أُشْرِبَتْ معنى النَّهيِ عِندَ قصدِ النَّهيِ، فجزَمَتِ الفِعلَ حملًا على مُضادَّةِ معنى لامِ الأمْرِ، فأُكِّدَ النَّهيُ عن الاشتغالِ بالأولادِ بحرفِ النَّفيِ؛ ليكونَ للاشتغالِ بالأولادِ حظٌّ مِثلُ حظِّ الأموالِ[٢].

- قَولُه تعالى: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ وكذلك في قَولِه: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ﴾ [سبأ: ٣٧] وقولِه: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: ٢٨] تقديمُ المالِ على الولدِ؛ وجاء ذِكْرُ البَنينَ مقدَّمًا في غيرِها كما في قَولِه: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾ [التوبة: ٢٤]، وقولِه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤]؛ ووجهُ ذلك: أنَّ تقديمَ الأموالِ في تلك المواضعِ الثَّلاثةِ لِأنَّه يَنْتَظِمُها معنًى واحدٌ وهو التَّحذيرُ مِن الاشتغالِ بها، والحرصِ على تحصيلِها حتَّى يَفُوتَه حَظُّه مِن اللهِ والدَّارِ الآخرةِ! فنَهَى في موضعٍ عنِ الالتهاءِ بها، وأخبرَ في موضعٍ أنَّها فِتنةٌ، وأخبرَ في موضعٍ آخَرَ أنَّ الَّذي يُقَرِّبُ عبادَه إليه إيمانُهم وعمَلُهم الصَّالحُ، لا أموالُهم ولا أولادُهم، ففي ضِمْنِ هذا النَّهيُ عن الاشتغالِ بها عمَّا يُقَرِّبُ إليه، ومعلومٌ أنَّ اشتغالَ النَّاسِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٥١).

بأموالِهم والتَّلاهيَ بها أعظمُ مِن اشتغالِهم بأولادِهم، وهذا هو الواقعُ، حتَّى إنَّ الرَّجُلَ لَيستغرقُه اشتغالُه بمالِه عن مصلحةِ وَلَدِه وعن معاشرتِه وقُرْبِه، وأمَّا تقديمُهم على الأموالِ في تَيْنك الآيتَين فلِحكمةٍ باهرةٍ؛ وهي أنَّ آيةَ «براءة» متضمِّنةٌ لوعيدِ مَن كانت تلك الأشياءُ المذكورةُ فيها أحَبَّ إليه مِن الجهادِ في سبيلِ اللهِ، ومعلومٌ أنَّ تَصَوُّرَ المجاهدِ فِرَاقَ أهلِه وأولادِه وآبائه وإخوانِه وعشيرتِه تمنعُه مِن الخروجِ عنهم أكثرَ ممَّا يمنعُه مفارقتُه مالَه؛ فإنْ تَصَوَّرَ معَ هذا أنْ يُقتَلَ فيُفَارِقَهم فِراقَ الدَّهرِ؛ نَفَرَتْ نفْسُه عن هذه أكثرَ وأكثرَ، ولا يكادُ عندَ هذا التَّصوُّرِ يَخْطُرُ له مُفارَقةُ مالِه! بل يغيبُ بمُفارَقةِ الأحبابِ عن مفارقةِ المالِ؛ فكان تقديمُ هذا الجنسِ أَولى مِن تقديمِ المالِ.

وأمَّا آيةُ (آل عمران)؛ فإنَّها لما كانت في سياقِ الإخبارِ بما زُيِّن للنَّاسِ مِن الشَّهواتِ التي آثَروها على ما عندَ الله واستَغْنَوا بها، قدَّم ما تَعَلُّقُ الشَّهوةِ به أقوَى، وهو النِّساءُ، التي فتنتُهنَّ أعظمُ فِتنِ الدُّنيا، ثمَّ ذكَر البنينَ المتولِّدينَ منهنَّ، فالإنسانُ يشتهي المرأةَ للَّذةِ والولدِ، وكلاهما مقصودٌ له لذاتِه، ثمَّ ذكَر شهوةَ الأموالِ؛ لأنَّها تُقْصَدُ لغيرِها، فشهوتُها شهوةُ الوسائلِ[(١)].

وقيل: قدَّمَ ذِكْرَ الأموالِ على ذِكْرِ الأولادِ هنا؛ لأنَّها أهمُّ بحسَبِ السِّياقِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في تَخصيصِ ذِكرِ ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ ذلك الإيثارَ في معْنى الاستِبدالِ، الَّذي هو بمَنزلةِ البيعِ والشِّراءِ. وفي التَّعريفِ الجنسيِّ في ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وتَوسيطِ ضَميرِ الفصلِ بيْنَه وبيْنَ المبتدأِ؛ إشعارٌ بأنَّ الكاملينَ في الخسارةِ هؤلاء، وأنَّ خَسارَهم

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٠).

فوقَ كلِّ خُسرانٍ؛ حيثُ باعوا العظيمَ الباقيَ بالحقيرِ الفاني، وإنْ رَبِحوا في تجارتِهمُ الظَّاهرةِ، ودخَلَ في هذا العمومِ وعيدُ كلِّ مَن ذَهَلَ عن الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وشُغِلَ عن الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، وعن طلَبِ العِلمِ، وعن النَّصيحةِ للمُسلِمينَ؛ بسببِ مُراعاةِ شأنِ الأموالِ والأولادِ[١].

- وأفاد ضميرُ الفَصلِ (هم) في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ قَصْرَ صفةِ الخاسرِ على الَّذينَ يَفعلونَ الَّذي نُهُوا عنه، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٢] للمُبالَغةِ في اتِّصافِهِم بالخُسرانِ، كأنَّ خُسرانَ غَيرِهم لا يُعَدُّ خُسرانًا بالنِّسبةِ إلى خُسرانِهم[٣].

- والإشارةُ إليهم بقولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ للتَّنبيهِ على أنَّهُمُ اسْتحَقُّوا ما بعْدَ اسمِ الإشارةِ؛ بسببِ ما ذُكِرَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ، أَعْني: اللَّهوَ عن ذِكْرِ اللهِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هذا إبطالٌ ونقضٌ لكَيدِ المُنافِقينَ حِينَ قالوا: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٧]، وهو يَعُمُّ الإنفاقَ على المُلتفِّينَ حولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والإنفاقَ على غَيرِهِم؛ فكانت الجملةُ كالتَّذييلِ[٥].

- و(مِن) للتَّبعيضِ، أي: وأنفِقوا بعضَ ما رزَقْناكم، وهذه تَوسعةٌ مِنَ اللهِ على عبادِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٤١).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق))

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٥٣).

- قولُه: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ فيه تقديمُ المفعولِ ﴿أَحَدَكُمُ﴾ على الفاعلِ ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾؛ لِلاهتمامِ بما قُدِّمَ، والتَّشويقِ إلى ما أُخِّرَ[١].

- قولُه: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (لولا) حرفُ تَحضيضٍ، والتَّحضيضُ الطَّلَبُ الحَثِيثُ المُضْطَرُّ إليه[٢].

- وحقُّ الفِعلِ بعدَ (لولا) أنْ يكونَ مُضارِعًا، وإنَّما جاء ماضيًا هنا ﴿أَخَّرۡتَنِيٓ﴾؛ لتأكيدِ إيقاعِه في دُعاءِ الدَّاعي حتَّى كأنَّه قد تحقَّقَ، وقرينةُ ذلك ترتيبُ فِعْلَيْ ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ عليه[٣].

- ووصْفُ الأجَلِ بـ﴿قَرِيبٖ﴾ تَمهيدٌ لتحصيلِ الاستجابةِ، بِناءً على مُتعارَفِ النَّاسِ أنَّ الأمرَ اليسيرَ أرْجَى لِأنْ يَستجيبَه المسؤولُ، فيغلِبَ ذلك على شعورِهم حِينَ يَسألونَ اللهَ فتَنساقُ بذلك نفوسُهم إلى ما عرَفوا[٤].

- قولُه: ﴿وَأَكُن﴾ مَجزومٌ بسكونِ آخِرِه، على اعتبارِه جوابًا للطَّلَبِ مُباشَرةً؛ لعدمِ وجودِ فاءِ السَّببيَّةِ فيه، واعتبارِ الواوِ عاطفةً جملةً على جملةٍ، وليستْ عاطفةً مفردًا على مفردٍ؛ وذلك لقَصْدِ تَضمينِ الكلامِ معنى الشَّرطِ زِيادةً على معنى التَّسبُّبِ، فيُغْنِي الجزمُ عن فِعلِ شرطٍ، فتقديرُهُ: إنْ تؤخِّرْني إلى أجَلٍ قريبٍ أكُنْ مِنَ الصَّالِحينَ؛ جمعًا بيْنَ التَّسبُّبِ المُفادِ بالفاءِ، والتَّعليقِ الشَّرطيِّ المُفادِ بجزمِ الفِعلِ. وإذْ قد كان الفِعلُ الأوَّلُ هو المُؤثِّرَ في الفِعلَيْنِ الواقِعِ أحَدُهُما بعْدَ فاءِ السَّببيَّةِ، والآخَرُ بعدَ الواوِ العاطفةِ عليه؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فقَدْ أفاد الكلامُ التَّسبُّبَ والتَّعليقَ في كِلا الفِعلَين، وذلك يرجِعُ إلى مُحسِّنِ الاحتباكِ[١]، فكأنَّه قيل: لولا أخَّرْتني إلى أجَلٍ قريبٍ فأصَّدَّقَ وأكونَ مِن الصَّالحينَ، إنْ تؤخِّرْني إلى أجَلٍ قريبٍ أصَّدَّقْ وأكُنْ مِنَ الصَّالِحينَ. ومِن لطائفِ هذا الاستعمالِ أنَّ هذا السَّائلَ بعْدَ أنْ بثَّ سؤالَه أعقَبَه بأنَّ الأمْرَ مُمكِنٌ، فقال: إنْ تؤخِّرْني إلى أجَلٍ قريبٍ أصَّدَّقْ وأكُنْ مِنَ الصَّالِحينَ، وهو مِن بَدائعِ الاستِعمالِ القرآنيِّ لقَصْدِ الإيجازِ وتوفيرِ المعاني[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ اعتِراضٌ في آخِرِ الكلامِ؛ فالواوُ اعتراضيَّةٌ تذكيرًا للمُؤمِنينَ بالأجَلِ لكلِّ رُوحٍ عندَ حُلولِها في جسدِها حينَ يُؤمَرُ المَلَكُ الَّذي يَنفُخُ الرُّوحَ بكَتْبِ أجَلِه وعمَلِه ورزقِه، وشقِيٌّ أو سعيدٌ؛ فالأجَلُ هو المُدَّةُ المُعيَّنةُ لحياتِه، لا يُؤَخَّرُ عن أمَدِه، فإذا حضَرَ الموتُ كان دعاءُ المُؤمِنِ اللهَ بتأخيرِ أجَلِه مِنَ الدُّعاءِ الَّذي لا يُستجابُ؛ لأنَّ اللهَ قدَّرَ الآجالَ[٣].

- ﴿وَلَن﴾ لتأكيدِ نفيِ التَّأخيرِ. وعمومُ ﴿نَفۡسًا﴾ في سِياقِ النَّفيِ يَعُمُّ نفوسَ المُؤمِنينَ وغَيرِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾[المنافقون: ٩]، أو تذييلٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، ويُفيدُ بِناءُ الخبرِ على

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٥).

الجملةِ الاسميَّةِ تحقيقَ عِلمِ اللهِ بما يعمَلُه المُؤمِنونَ. ولَمَّا كان المُؤمِنونَ لا يُخامِرُهم شكٌّ في ذلك، كان التَّحقيقُ والتَّقَوِّي راجعًا إلى لازمِ الخبرِ، وهو الوعدُ والوعيدُ، والمقامُ هُنا مقامُهما؛ لأنَّ الإنفاقَ المأمورَ به مِنه الواجبُ والمندوبُ، وفِعلُهما يَستحِقُّ الوعْدَ، وترْكُ أوَّلِهما يَستحِقُّ الوعيدَ[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ إيثارُ وصْفِ ﴿خَبِيرُۢ﴾ دونَ (عليمٍ)؛ لِمَا تُؤْذِنُ به مادَّةُ خَبيرٍ مِنَ العِلمِ بالأمورِ الخفيَّةِ؛ ليُفِيدَ أنَّه تعالَى عليمٌ بما ظهَرَ مِنَ الأعمالِ وما بَطَنَ؛ مِثلَ أعمالِ القلبِ الَّتي هي العزائمُ والنِّيَّاتُ، وإيقاعُ هذه الجملةِ بعْدَ ذِكْرِ ما يقطَعُه الموتُ مِن ازْديادِ الأعمالِ الصَّالحةِ إيماءٌ إلى أنَّ ما عسى أنْ يقطَعَه الموتُ مِنَ العزمِ على العملِ إذا كان وقتُه المُعيَّنُ له شرعًا مُمْتَدًّا، كالعُمرِ للحجِّ على المُستطيعِ لِمَن لم يتوقَّعْ طُرُوَّ مانعٍ، وكالوقتِ المختارِ للصَّلواتِ؛ أنَّ حَيلولةَ الموتِ دونَ إتْمامِه لا يُرزِئُ المؤمنَ ثَوابَه؛ لأنَّ المؤمنَ إذا اعتادَ حِزبًا، أو عزَمَ على عملٍ صالحٍ، ثمَّ عرَضَ له ما مَنَعَه منه؛ أنَّ اللهَ يُعطِيه أجْرَه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَفْسيرُ
سُورَةِ التَّغابُنِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ التَّغابُنِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (التَّغابُنِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ التَّغابُنِ مُختَلَفٌ في كَونِها مَدَنيَّةً، أو مَكِّيَّةً، أو مكِّيَّةً مدَنيَّةً[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

بَيانُ حَقيقةِ التَّغابُنِ وأسبابِه وعَواقِبِه، كما تُرشِدُ إلى طريقِ الفَوزِ والفَلاحِ[٣].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ التَّغابُنِ؛ لوُقوعِ لَفظِ التَّغابُنِ فيها -ولم يَقَعْ في غيرِها مِنَ القُرآنِ- في قَولِه فيها: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، ولا تُعرَفُ بغيرِ هذا الاسمِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٨).

قال ابن كثير: (هذه السُّورةُ هي آخرُ المُسبِّحاتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥).

(٢) قال السمعاني: (هي مَدَنيَّةٌ في قولِ الأكْثَرينَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٤٨).

وكذا قال القرطبيُّ، ونسبَ ابنُ الجَوزيِّ وابنُ عاشورٍ هذا القولَ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٨).

وممَّن اختار أنَّها مكِّيَّةٌ: الرَّازيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٢).

وقيل: مِن قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ [التغابن: ١٤] إلى آخِرِ السُّورةِ مَدَنيٌّ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والثعلبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٢٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٧).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (مدَنيَّةٌ، وفيها مكِّيٌّ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم)) (٧/ ١٨٦، ١٨٩).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- تسبيحُ المخلوقاتِ للهِ تعالى، وأنَّ المُلْكَ للهِ وَحْدَه، وأنَّه الحقيقُ بإفرادِه بالحَمْدِ، وبيانُ ألوانٍ مِن مَظاهِرِ قُدرتِه، وسَعةِ عِلمِه، ومِنَنِه على خَلْقِه.

٢- إنذارُ المُشرِكينَ بذِكرِ ما حَلَّ بمَن قَبْلَهم مِن الأُمَمِ، مع بيانِ السَّبَبِ فيما نالهم مِن ذلك.

٣- الرَّدُّ على المشركينَ الَّذين زَعَموا أنَّهم لن يُبعَثوا.

٤- المقابَلَةُ بيْنَ حُسنِ عاقبةِ المؤمنينَ، وسُوءِ عاقبةِ الكافِرينَ.

٥- بيانُ أنَّ كُلَّ شَيءٍ يَقَعُ في هذا الكَونِ هو بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه.

٦- تحريضُ المؤمنينَ على طاعةِ اللهِ تعالى ورَسولِه.

٧- الإخبارُ بأنَّ مِن الأزواجِ والأولادِ أعداءً للمَرءِ، وأنَّ الأموالَ والأولادَ فِتنةٌ.

٨- الحَثُّ على التَّقْوى والإنفاقِ في سبيلِ اللهِ تعالى.

الآيات (١-٤)

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: بالضَّمائِرِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ؛ خَيرِها وشَرِّها؛ لأنَّها في الصُّدورِ، تَحُلُّها وتُصاحِبُها، وذاتُ: صاحبةُ، مؤنَّثُ (ذو) بمعنى صاحبٍ، وقيل: بحقيقةِ ما في الصُّدورِ، وذاتُ الشَّيءِ: نفْسُه وحَقيقتُه[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ بأنَّه يُنزِّهُه تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، وله وَحْدَه المُلْكُ التَّامُّ، وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أقسامَ خَلْقِه في هذه الحياةِ، فيقولُ: هو الَّذي أوجَدَكم مِنَ

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٦/ ١٠٠)، ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٨٣، ١٣٨٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥) و(٢٣/ ٣٤٢).

قال ابنُ القَيِّم: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ليس المرادُ به عليمًا بمُجَرَّدِ الصُّدورِ؛ فإنَّ هذا ليس فيه كَبيرُ أمرٍ، وهو بمنزلةِ أن يُقالَ: عَليمٌ بالرُّؤوسِ والظُّهورِ والأيدي والأرجُلِ، وإنَّما المرادُ به: عليمٌ بما تُضمِرُه الصُّدورُ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، أي: بالأسرارِ الَّتي في الصُّدورِ، وصاحِبةِ الصُّدورِ؛ فأضافها إليها بلَفظٍ يَعُمُّ جميعَ ما في الصُّدورِ مِن خَيرٍ وشَرٍّ). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٨٤).

العَدَمِ -أيُّها النَّاسُ- فمِنكم كافِرٌ، ومنكم مؤمِنٌ، واللهُ بَصيرٌ بجميعِ أعمالِكم.

ثمَّ يقولُ تعالى: خَلَق اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ بالعَدلِ والحِكمةِ، وصوَّركم فأحسَنَ صُوَرَكم وأشكالَكم، وإليه مَرجِعُ جَميعِ العِبادِ.

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى شُمولَ عِلمِه لكلِّ شيءٍ، فيقولُ: يَعلَمُ سُبحانَه جميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، ويَعلَمُ ما تُسِرُّونَه مِنَ الأقوالِ والأعمالِ، وما تُظهِرونَه، واللهُ عليمٌ بما في قُلوبِ عِبادِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ١﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: يُنزِّهُ اللهَ تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ، وجَميعُ ما في الأرضِ مِن مخلوقاتِه[1].

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾.

أي: للهِ وَحْدَه المُلْكُ التَّامُّ المُطلَقُ في الدُّنيا والآخِرةِ، فهو مُتصَرِّفٌ في جميعِ خَلْقِه، ماضٍ فيهم حُكْمُه، نافِذٌ فيهم أمْرُه[2].

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾.

أي: هو وَحْدَه المحيطُ بصِفاتِ الكَمالِ، وهو المُستَحِقُّ دونَ غَيرِه للثَّناءِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٩).

وتسبيحُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ تسبيحٌ حقيقيٌّ بلِسانِ المقالِ، وأيضًا بلِسانِ الحالِ. يُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة (الإسراء) الآية (٤٤)، وأوَّل سورة (الحديد).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

كَمالِ صِفاتِه وأفعالِه، وما يَخلُقُه ويُقَدِّرُه ويَحكُمُ به سُبحانَه[١].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ ذو قُدرةٍ تامَّةٍ شامِلةٍ على فِعلِ ما يشاءُ، بلا مُمانَعةٍ ولا مُدافَعةٍ، لا يُعجِزُه شَيءٌ سُبحانَه[٢].

ثمَّ ذكَر الله تعالى بعضَ مقدوراتِه، فقال[٣]:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي أوجَدَكم مِنَ العَدَمِ -أيُّها النَّاسُ- فمِنكم الكافِرُ الجاحِدُ، ومنكم المؤمِنُ المصَدِّقُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٧٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٩٦).

قال السمعاني: (قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ قال عليُّ بنُ أبي طَلْحةَ الوالِبيُّ: خلَقَكم كفَّارًا وخلَقَكم مُؤمنينَ، قاله ابنُ عبَّاسٍ...

والقولُ الثَّاني في الآيةِ أنَّ مَعناها: فمِنكم كافرٌ بأنَّ اللهَ خلَقَه، ومنكم مؤمنٌ ومنكم فاسقٌ. والمعروفُ هو القولُ الأوَّلُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٤٨، ٤٤٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ المعنى: خَلَقكم كُفَّارًا ومُؤمِنينَ-: الزَّجَّاجُ، والواحدي، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، =

= ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٩٥). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٠٣-١٠٥).

قال ابن جُزَي: (فالإيمانُ والكفرُ على هذا هو ما قضى اللهُ على كلِّ واحدٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٠).

وقال ابنُ كثير: (أي: هو الخالِقُ لكم على هذه الصِّفةِ، وأراد منكم ذلك، فلا بُدَّ مِن وُجودِ مُؤمِنٍ وكافِرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

قيل: الفاء في ﴿فَمِنكُمْ﴾ تفصيليَّةٌ؛ فما بعدَ الفاءِ تفصيلٌ لقولِه: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، حيث قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، ثمَّ شرَع في البيانِ وقال: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ أي: مُقَدَّرٌ كُفرُه، ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ مُقدَّرٌ إيمانُه. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٨/ ٥٤٩) و(١٥/ ٤٤٧).

قال الألوسي: (لأنَّ كَوْنَ بعضِهم أو بعضٍ منهم كافرًا، وكونَ بعضِهم أو بعضٍ منهم مؤمنًا مرادٌ منه، فالفاءُ مِثلُها في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥] إلخ، فيكونُ الكفرُ والإيمانُ في ضِمنِ الخَلقِ، وهو الَّذي تؤيِّدُه الأخبارُ الصَّحيحةُ، كخبَرِ البُخاريِّ «٣٢٠٨» ومسلمٍ «٢٦٤٣» والتِّرمذيِّ «٢١٣٧» وأبي داودَ «٤٧٠٨» عن ابنِ مسعودٍ قال: حدَّثَنا رسولُ الله صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم -وهو الصَّادقُ المصدوقُ-: «إنَّ خَلْقَ أحَدِكم يُجمَعُ في بَطنِ أُمِّه أربعينَ يومًا...» الحديثَ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣١٥).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ في الجملةِ: ابنُ جرير، وابنُ جُزَي، وجوَّزه الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٧٩).

قال ابن جرير: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ يقولُ: فمنكم كافرٌ بخالِقه وأنَّه خلَقه. ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ يقولُ: ومنكم مُصَدِّقٌ به، موقنٌ أنَّه خالقُه وبارئُه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥).

وقال ابن جزي: (﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ فكان يجبُ على كلِّ واحدٍ منكم الإيمانُ به، لكنْ مِنكم مَن كفَر ومِنكم مَن آمَنَ، فالكفرُ والإيمانُ على هذا هو مِن اكتسابِ العبدِ...؛ لأنَّ عطْفَه على ﴿خَلَقَكُمْ﴾ بالفاءِ يَقتضي أنَّ الكفرَ والإيمانَ واقِعانِ بعدَ الخِلْقةِ، لا في أصلِ الخِلقةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٠).

قيل: الفاءُ على هذا للتَّرتيبِ، كاللَّامِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، وهي كالفاءِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ =

كما قال تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حدَّثَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -وهو الصَّادِقُ المصدوقُ-: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أمِّه أربعينَ يَومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا فيُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقيٌّ أو سعيدٌ، ثمَّ يَنفُخُ فيه الرُّوحَ؛ فإنَّ الرَّجُلَ منكم لَيَعمَلُ حتَّى ما يكونُ بيْنَه وبيْنَ الجنَّةِ إلَّا ذِراعٌ، فيَسبِقُ عليه كِتابُه، فيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ النَّارِ، ويَعمَلُ حتَّى ما يكونُ بيْنَه وبيْنَ النَّارِ إلَّا ذِراعٌ، فيَسبِقُ عليه الكِتابُ، فيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ))[(١)].

وعن عَليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كُنَّا في جِنازةٍ في بَقيعِ الغَرْقَدِ، فأتانا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقَعَد وقعَدْنا حَوْلَه، ومعه مِخْصَرةٌ[(٢)]، فنَكَّسَ[(٣)] فجَعَلَ يَنكُتُ[(٤)] بمِخْصَرتِه، ثمَّ قال: ما مِنْكم مِن أحدٍ، ما مِن نَفْسٍ مَنفُوسةٍ إلَّا وقد كَتَبَ اللهُ مَكانَها مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ، وإلَّا وقد كُتِبَت شَقيَّةً أو سعيدةً! فقال رجُلٌ: يا رَسولَ اللهِ، أفلا نَمكُثُ على كِتابِنا، ونَدَعُ العَمَلَ؟! فقال: مَن كان مِن أهلِ السَّعادةِ فسيَصيرُ إلى عَمَلِ أهلِ السَّعادةِ، ومَن كان مِن أهلِ الشَّقاوةِ فسيَصيرُ إلى

= فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٦]، وليست للتَّفصيلِ. يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٤٦)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣١٥).

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٠٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٤٣).

(٢) المِخْصَرةُ: ما يَختَصِرُه الإنسانُ بيَدِه فيُمسِكُه مِن عَصًا، أو عُكَّازةٍ، أو مِقْرَعةٍ، أو قَضيبٍ، وقد يَتَّكِئُ عليه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٦).

(٣) نَكَّسَ: أي: خَفَض رأسَه وطأطأ إلى الأرضِ على هيئةِ المهمومِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٩٥).

(٤) يَنكُتُ: أي: يَخُطُّ بها خَطًّا يَسيرًا مرَّةً بعدَ مرَّةٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٩٥).

عَمَلِ أهلِ الشَّقاوةِ، اعمَلوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ؛ أمَّا أهلُ السَّعادةِ فيُيَسَّرونَ لعَمَلِ أهلِ السَّعادةِ، وأمَّا أهلُ الشَّقاوةِ فيُيَسَّرونَ لعمَلِ أهلِ الشَّقاوةِ، ثمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠]))[١].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: واللهُ الَّذي خلَقَكم بَصيرٌ بجميعِ أعمالِكم؛ خَيرِها وشَرِّها، يَراها ويَعلَمُها، لا يَخْفى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها[٢].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى خَلْقَ الإنسانِ المكَلَّفِ المأمورِ المنْهيِّ؛ ذكَرَ خَلْقَ باقي المخلوقاتِ[٣].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: خَلَق اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ بالعَدلِ والحِكمةِ، ولم يَخلُقْهما باطِلًا ولا عَبَثًا[٤].

---

(١) رواه البخاريُّ (١٣٦٢)، ومسلمٌ (٢٦٤٧) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١).

قال ابنُ كثير: (هو البَصيرُ بمَن يَستَحِقُّ الهِدايةَ مِمَّن يَستَحِقُّ الضَّلالَ، وهو شَهيدٌ على أعمالِ عِبادِه، وسيَجزيهم بها أتمَّ الجَزاءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٤، ٢٦٥).

قيل: المعنى: خلَقَهما بالعَدلِ والإنصافِ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعاني. =

كما قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

أي: وصوَّركم اللهُ فأحسَنَ أشكالَكم، وتخطيطَ خِلقَتِكم، فصِرْتُم ذَوِي شَكلٍ

= يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٤٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٤٩).

وقيل: المعنى: خلَقَهما بالحِكمةِ. وممَّن ذهب إليه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، والبيضاوي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيينِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥).

وقيل: المعنى: خلَقَهما حقًّا يَقينًا لا رَيبَ فيه. وممَّن ذهب إليه: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤).

وقيل: معنى ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالأمرِ الَّذي يُطابِقُه الواقِعُ لا زائِدًا عنه ولا ناقِصًا، بل جاء الواقِعُ منها مُطابِقًا لِما أراد سواءً، لا كما يريدُ أحَدُنا الشَّيءَ فإذا أوجَدَه لم يكُنْ على وَفْقِ مُرادِه. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٠٦، ١٠٧).

والباءُ قيل: هي بمعنى اللَّامِ، أي: خلَق ذلك لإظهارِ الحقِّ، وهو أن يَجزيَ المُحسِنَ بإحسانِه، والمُسيءَ بإساءتِه. وقيل: الباءُ للمُلابَسةِ، أي: خلَق ذلك خلْقًا مُلابِسًا للحقِّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٤).

جَميلٍ، ومَنظَرٍ بَهِيٍّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤].

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُ جَميعِ عِبادِه بعْدَ مَوتِهم[(٢)].

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقرَّر بما مضى إحاطةُ قُدرةِ اللهِ تعالى بما دَلَّ على ذلك مِن إبداعِه للخَلْقِ على هذا الوَجهِ المُحكَمِ، وشَهِدَ البُرهانُ القاطِعُ بأنَّ ذلك صُنعُه وَحْدَه، لا فِعْلَ فيه لطبيعةٍ ولا غَيرِها- دَلَّ على أنَّ ذلك بسَبَبِ شُمولِ عِلْمِه؛ إشارةً إلى أنَّ مَن لم يكُنْ تامَّ العِلمِ فهو ناقِصُ القُدرةِ، فقال[(٣)]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٥).

قيل: المرادُ: عُمومُ النَّاسِ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جريرٍ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كَثيرٍ، واستَظهَرَه الشَّوكانيُّ، وذهب إليه السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وقيل المرادُ: آدَمُ عليه السَّلامُ؛ حيث خلقَه اللهُ تعالى بيَدِه كرامةً له. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٠٩).

﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: يَعلَمُ اللهُ جميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، فلا يَخفَى عليه شَيءٌ مِن خَلْقِه[١].

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ ما تُسِرُّونَه فيما بَيْنَكم مِنَ الأقوالِ والأعمالِ، وما تُظهِرونَه منها[٢].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: واللهُ بالِغُ العِلمِ بما في قُلوبِ عِبادِه مِن نيَّاتٍ ومَقاصِدَ، وخَبايا وأسرارٍ، لا يَخفَى عليه شيءٌ مِن ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

قال الألوسي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ هودٍ [آية: ٥]: (والمرادُ بذاتِ الصُّدورِ: الأسرارُ المُستَكِنَّةُ فيها، أو القلوبُ الَّتي في الصُّدورِ، ... أي إنَّه تعالى مُبالِغٌ في الإحاطةِ بمُضمَراتِ جميعِ النَّاسِ وأسرارِهم، أو بالقلوبِ وأحوالِها، فلا يَخفى عليه سِرٌّ مِن أسرارِها، فكيف يَخفى عليه ما يُسِرُّونَ وما يُعلِنونَ؟!). ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٩٨).

وقال الرازي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ آلِ عِمْرانَ [آية: ١٥٤]: (ذاتُ الصُّدورِ هي الأشياءُ الموجودةُ في الصُّدورِ، وهي الأسرارُ والضَّمائرُ، وهي ذاتُ الصُّدورِ؛ لأنَّها حالَّةٌ فيها، مُصاحِبةٌ لها، وصاحبُ الشَّيءِ ذُوه، وصاحِبَتُه ذاتُه). ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٧).

وقال ابن جرير: (يقولُ جلَّ ثناؤُه: واللهُ ذو عِلمٍ بضمائرِ صُدورِ عِبادِه، وما تَنطوي عليه نُفوسُهم الَّذي هو أخفى مِن السِّرِّ، لا يَعزُبُ عنه شَيءٌ مِن ذلك. يقولُ تعالى ذِكْرُه لِعِبادِه: احذَروا أن تُسِرُّوا غيرَ الَّذي تُعلِنون، أو تُضْمِروا في أنفُسِكم غيرَ ما تُبْدُونه؛ فإنَّ ربَّكم لا يَخفى عليه مِن ذلك شيءٌ، وهو مُحْصٍ جميعَه، وحافِظٌ عليكم كلَّه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ نَبَّه بعِلْمِه ما في السَّمَواتِ والأرضِ، ثمَّ بعِلْمِه ما يُسِرُّه العِبادُ ويُعلِنونَه، ثمَّ بعِلْمِه ذواتِ الصُّدورِ: أنَّ شَيئًا مِنَ الكُلِّيَّاتِ والجُزئيَّاتِ غَيرُ خافٍ عليه، ولا عازِبٍ عنه؛ فحَقُّه أن يُتَّقى ويُحذَرَ، ولا يُجتَرَأَ على شَيءٍ مِمَّا يُخالِفُ رِضاه[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها مِنَ الأسرارِ الطَّيِّبةِ، والخبايا الخَبيثةِ، والنِّيَّاتِ الصَّالِحةِ، والمقاصِدِ الفاسِدةِ، فإذا كان عليمًا بذاتِ الصُّدورِ تَعَيَّنَ على العاقِلِ البَصيرِ أن يَحرِصَ على حِفظِ باطِنِه مِنَ الأخلاقِ الرَّذيلةِ، ويَجتَهِدَ في اتِّصافِه بالأخلاقِ الجَميلةِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إثباتُ عِلْمِ اللهِ بما في القُلوبِ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: التَّحذيرُ مِن إضمارِ ما لا يَرضى به اللهُ؛ لأنَّك إذا أَضْمَرْتَ ما لم يَرْضَ به اللهُ فسوف يُحاسِبُك عليه، وإنْ كان لا يبدو للنَّاسِ. فعلى المرءِ أنْ يُحاسِبَ نفْسَه دائمًا، ويَنظُرَ ما في قلْبِه: هل في قلْبِه الخيرُ، وإرادةُ ما يُرضي اللهَ، أو غيرُ ذلك، فعليه أنْ يُطهِّرَ قلبَه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾، وإنَّ كثيرًا ممَّن يكونُ له المُلكُ والغِنَى لا يكونُ محمودًا، بل يكونُ مذمومًا؛ إذِ الحمدُ يتضمَّنُ الإخبارَ عن المحمودِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٤٠).

بمَحاسنِه المحبوبةِ، فيتضَمَّنُ إخبارًا بمَحاسِنِ المحبوبِ محبَّةً له، وكثيرٌ ممَّن له نصيبٌ مِن الحَمدِ والمحبَّةِ يكونُ فيه عَجزٌ وضَعْفٌ وذُلٌّ يُنافي العظَمةَ والغِنى والمُلْكَ؛ فالأوَّلُ يُهابُ ويُخافُ ولا يُحَبُّ، وهذا يُحَبُّ ويُحْمَدُ، ولا يُهابُ ولا يُخافُ! والكمالُ اجتِماعُ الوَصفَينِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يدُلُّ على أنَّه خَلَق الكافِرَ كافِرًا، والمؤمِنَ مُؤمِنًا، وهذا مُتَّفَقٌ عليه بيْنَ الصَّحابةِ، وجميعِ أهلِ السُّنَّةِ[٢]، فالله تعالى ذَكَر أنَّه خَلَق العِبادَ، وجَعَل منهم المؤمِنَ والكافِرَ، فإيمانُهم وكُفرُهم كُلُّه بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وهو الَّذي شاء ذلك منهم، بأنْ جَعَل لهم قُدرةً وإرادةً، بها يتمَكَّنونَ مِن كُلِّ ما يُريدونَ مِن الأمرِ والنَّهيِ[٣].

٣- أنَّه لا بُدَّ لبني آدَمَ مِن الاختِلافِ، وهذا هو الواقِعُ، وقد دَلَّت عليه آياتٌ كَثيرةٌ، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[٤]، وفيه حِكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في جَعْلِ الخلْقِ يَنقَسِمونَ إلى قِسمَينِ؛ فلولا هذا الانقِسامُ ما ظَهَر فَضْلُ الإيمانِ، ولا شُرِعَ الجهادُ ولا الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكرِ، ولا أُرسِلَتِ الرُّسُلُ، لكنَّ حِكمةَ اللهِ اقتَضَتْ أنْ يكونَ النَّاسُ قِسمَينِ[٥].

٤- قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ وقال: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، فقسمَ الله سبحانَه النَّاسَ قِسمَينِ،

---

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ١٠٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٦٤).

ولم يَذكُرْ قِسمًا ثالثًا، وليس فيه دليلٌ على مَذهَبِ الخوارجِ الَّذين يقولونَ: إنَّ النَّاسَ إمَّا مُؤمِنٌ أو كافِرٌ، ولا يمكنُ لأحدٍ أن يَجمَعَ بيْن الإيمانِ والكفرِ؛ لأنَّ المؤمنَ إذا لم يَفعَلْ ما يَخرُجُ به مِن الإيمانِ فإنَّه لا يَصدُقُ عليه وَصفُ الخبيثِ على سَبيلِ الإطلاقِ، بل هو مِن قِسْمِ الطَّيِّبِ، لكِنَّ فيه خُبثًا، وهذا الطِّيبُ غَلَبَ على خُبْثِه، كما أنَّ الكافرَ وإنْ فَعَلَ ما يُحمَدُ عليه كالبِرِّ والجُودِ، والشَّجاعةِ وطَلاقةِ الوَجهِ، وما أَشْبَهَ ذلك، هذه خِصالُ إيمانٍ، لكِنَّ خُبْثَه أعظمُ مِن هذه الخِصالِ، فهو مِن قِسْمِ الخُبَثاءِ وليس مِن قِسْمِ الطَّيِّبينَ. إذَن نقولُ: هؤلاء المؤمِنونَ الَّذين عِندَهم صفاتُ كُفْرٍ: مِن قِسْمِ الطَّيِّبِ الَّذي فيه خُبْثٌ، لكِنَّ طِيبَه يَغلِبُ على خُبْثِه، والكُفَّارُ الَّذين فيهم خِصالٌ مِن الطِّيبِ: مِن قِسْمِ الخَبيثِ، لكنَّ الطِّيبَ الَّذي فيهم قدِ انْغَمَرَ في جانبِ الخُبثِ، وعلى هذا فليس هناك قِسْمٌ ثالثٌ، بل هما قِسمانِ[1].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: قد كان مِن أفرادِ هذا النَّوعِ مَن كان مُشَوَّهَ الصُّورةِ، سَمِجَ الخِلْقةِ، فكيف أحسَنَ صُوَرَهم؟

الجوابُ: أنَّ الحُسنَ كغَيرِه مِن المعاني؛ على طَبَقاتٍ ومراتِبَ؛ فلانحطاطِ بَعضِ الصُّوَرِ عن مراتِبِ ما فَوقَها انحِطاطًا بَيِّنًا، وإضافتِها إلى المُوفي عليها لا تُستملَحُ، وإلَّا فهي داخِلٌ في حَيِّزِ الحُسنِ غَيرُ خارجٍ عن حَدِّه[2]. وقد جعَلَهم أحسَنَ الحيوانِ كُلِّه وأبهاه، بدليلِ أنَّ الإنسانَ لا يتمَنَّى أن تكونَ صُورتُه على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧٦، ٤٧٧).
مِن أُصولِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّه قد يَجتمِعُ في العبدِ بعضُ شُعَبِ الإيمانِ، وبعضُ شُعَبِ الكفرِ أو النِّفاقِ الَّتي لا تُنافي أصْلَ الإيمانِ وحقيقتَه، خِلافًا لِطَوائفِ أهلِ الأهواءِ مِن الخَوارجِ والمُعتزِلةِ والجَهميَّةِ والمُرجئةِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٥٣)، ((الإيمان الأوسط)) لابن تيمية (ص: ٣٩٨)، ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٣).

خِلافِ ما يرَى من سائِرِ الصُّوَرِ، ومِن حُسْنِ صُورتِه أنَّه خُلِقَ مُنتَصِبًا غيرَ مُنكَبٍّ، كما قال عزَّ وجَلَّ: ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤][١]، فصُورةُ الإنسانِ مُستوفيةً الحُسنَ مُتماثِلةً فيه، لا يَعتورُها مِن فَظاعةِ بَعضِ أجزائِها ونُقصانِ الانتفاعِ بها ما يُناكِدُ مَحاسِنَ سائرِها، بخِلافِ مَحاسِنِ أحاسِنِ الحيوانِ مِن الدَّوابِّ والطَّيرِ والحِيتانِ؛ مِن مشْيٍ على أربعٍ، مع انتكاسِ الرَّأسِ غالبًا، أو زحْفٍ، أو وَثْبٍ في المشْيِ في البعضِ، ولا تَعْتَورُ الإنسانَ نقائصُ في صُورتِه إلَّا مِن عوارِضَ تَعْرِضُ في مُدَّةِ تكوينِه، أو مِن عوارِضَ تَعْرِضُ له في مُدَّةِ حياتِه، فتُشوِّهُ بعضَ محاسِنِ الصُّوَرِ، فلا يُعَدُّ ذلك مِن أصلِ تصويرِ الإنسانِ، على أنَّ ذلكَ مع نُدرتِه لا يُعَدُّ فظاعةً، ولكنَّه نَقْصٌ نِسبيٌّ في المحاسنِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ تحريمُ التَّصويرِ؛ فإنَّ مَن صَوَّرَ فقد نازعَ اللهَ تعالى فيما هو مِن اختِصاصِه -وهو الخَلْقُ-؛ ولهذا جاء في الحَديثِ أنه يُقالُ للمُصَوِّرينَ يومَ القيامةِ: ((أَحيُوا ما خَلَقْتُم))[٣]، وهذا هو الصَّحيحُ: أنَّ التَّصويرَ حرامٌ، بل هو مِن كبائرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لَعَنَ فاعِلَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧، ٥٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٦، ١٠٧).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٢١٠٥)، ومسلمٌ (٢١٠٧) مِن حديثِ عائشةَ رضيَ الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٠).

وحديثُ لعنِ النبيِّ لفاعِلِ التَّصويرِ أخرجه البخاريُّ (٥٣٤٧) مِن حديثِ أبي جُحَيْفَةَ وَهْبِ بنِ عبدِ الله السُّوَائيِّ رضيَ الله عنه.

أمَّا صُوَرُ غَيرِ ذاتِ الأرْواحِ -كالشَّجَرِ ونَحوِه- فهي مباحةٌ، وذلك باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((البناية)) للعيني (٢/ ٤٥٨)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٣٣٧)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٧/ ٣٣٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٢٨٠). =

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ذَكَر تعالى عِلْمَه بما في السَّمَواتِ والأرضِ، فعَمَّ عِظامَ المخلوقاتِ، ثمَّ تدَرَّجَ القَولُ إلى أخفَى مِن ذلك، وهو جميعُ ما يَقولُه النَّاسُ في سِرٍّ وفي عَلَنٍ، ثمَّ تدَرَّج إلى ما هو أخفَى، وهو ما يَهجِسُ بالخواطِرِ[(١)].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّه تعالى يَعلَمُ الأشياءَ قبْلَ وُجودِها الخارجيِّ، وهذا ممَّا لا يُنكِرُه أحدٌ سِوى شِرْذِمةٍ مِن المُعتزِلةِ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

- لَمَّا كان جُلُّ ما اشتمَلَتْ عليه هذِه السُّورةُ الكريمةُ إبطالَ إشراكِ المُشرِكينَ وزجْرَهُم عن دِينِ الإشراكِ بأَسْرِه، وعن تَفاريعِه، الَّتي أعظَمُها إنكارُهمُ البعثَ، وتكذيبُهمُ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتكذيبُ القرآنِ، وتلك

= وأمَّا الصُّوَرُ المُجَسِّمةُ لذواتِ الأرواحِ (التماثيل) فهي محرَّمةٌ بالإجماعِ، وممن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ العربيِّ. يُنظر: ((المسالك في شرح موطأ مالك)) لابن العربي (٧/ ٥٢٢)، ويُنظر: ((عارضة الأحوذي)) (٧/ ٢٥٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٣٨٨)، ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٢/ ٢٦٤).

أمَّا الصُّوَرُ التي ليس لها ظِلٌّ -إذا كانت ذاتَ رُوحٍ، كصورِ الحَيوانِ- فهي محرَّمةٌ، وهذا مذهَبُ الجُمهورِ: الحَنَفيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((البحر الرائق)) لابن نُجيم (٢/ ٢٩)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (٣/ ٢٤٧)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٢٨٠).

أمَّا التَّصويرُ بالآلةِ (الكاميرا)، فهذا موضعُ خلافٍ بينَ المتأخرينَ؛ فمِنهم مَن منَعه، ومنهم مَن أجازه. يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٩٨).

أصولُ ضَلالِهم؛ ابتُدِئَتِ السُّورةُ بالإعلانِ بضلالِهِمْ وكُفرانِهمُ المُنعِمَ عليهم؛ فإنَّ ما في السَّمواتِ والأرضِ يُسبِّحُ للهِ تعالَى عن النَّقائصِ، فالمعنى: يُسبِّحُ للهِ ما في السَّمواتِ والأرضِ وأنتم بخِلافِ ذلك، وهذا يُفيدُ ابتِداءً تقريرَ تَنزيهِ اللهِ تعالَى وقوَّةِ سُلطانِه؛ لِيَزدادَ الَّذينَ آمَنوا إيمانًا، ويكونَ لهم تعليمًا وامتِنانًا، ويُفِيدُ ثانيًا بطريقِ الكِنايةِ تعريضًا بالمُشرِكينَ الَّذينَ لم يُنزِّهوهُ ولا وقَّروهُ، فنسَبوا إليه شُركاءَ[1].

- وجِيءَ بفِعلِ التَّسبيحِ مُضارِعًا ﴿يُسَبِّحُ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ ذلك التَّسبيحِ ودوامِه، وجِيءَ بفِعلِ التَّسبيحِ في فواتِحِ سُوَرِ (الحديدِ) و(الحشرِ) و(الصَّفِّ) بصِيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّ التَّسبيحَ قد استقرَّ في قديمِ الأزمانِ، فحصَلَ مِن هذا التَّفنُّنِ في فَواتحِ هذه السُّوَرِ كِلا المَعنيَينِ. وما في هاتِهِ السُّورةِ مِنَ المُناسَبةِ بيْنَ تجدُّدِ التَّسبيحِ، والأمْرِ بالعفوِ عن ذَوِي القُرْبى، والأمْرِ بالتَّقْوَى بقَدْرِ الاستِطاعةِ، والسَّمعِ والطاعةِ؛ لكَيْ لا يَكتفيَ المُؤمِنونَ بحُصولِ إيمانِهم، لِيَجتَهِدوا في تعزيزِه بالأعمالِ الصَّالحةِ[2].

- وإعادةُ (ما) الموصولةِ في قولِه: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لقَصْدِ التَّوكيدِ اللَّفظيِّ[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ كرَّرَ (ما) في افتتاحِ السُّورةِ في قولِه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وترَكَ ذلك في قولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ثمَّ كرَّر (ما) في قولِه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا كان تَسبيحُ ما في السَّمواتِ على خِلافِ تَسبيحِ ما في الأرضِ كَثرةً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر وجْهُ جمْعِ السَّمواتِ وإفرادِ الأرضِ في تفسيرِ سورةِ الجمعةِ (ص: ٢٣٩).

وقِلَّةً، وبُعدًا وقُربًا مِن المعصيةِ والطَّاعةِ؛ أُعيدَت لَفظةُ (ما) لهذا الاختِلافِ. وكذلك لَفظُ ﴿مَا تُسِرُّونَ﴾ فإنَّه مُخالِفٌ لـ ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ غايةَ المخالَفةِ، فلمْ يَصلُحْ إلَّا بإعادةِ (ما). ولم تكرَّرْ (ما) معَ ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ الكلَّ بالإضافةِ إلى عِلمِ الله سبحانَه جِنسٌ واحدٌ، لا يخفَى عليه شيءٌ[1].

- وجُملةُ ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ استِئنافٌ واقعٌ موقِعَ التَّعليلِ والتَّسبُّبِ لمضمونِ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ فإنَّ مُلابَسةَ جميعِ الموجوداتِ لدَلائلِ تَنزيهِ اللهِ تعالَى عن الشُّركاءِ وعن النَّقائصِ لا مُقْتضى لها إلَّا انفرادُه بتَملُّكِها وإيجادِها وما فيها مِنَ الاحتياجِ إليه، وتصَرُّفِه فيها تصرُّفَ المالِكِ المُتفرِّدِ في مُلكِه[2].

- وفي قولِه: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ قُدِّمَ الخبرُ في الجُملتَينِ -الَّذي هو الجارُّ والمجرورُ (له)- لإفادةِ تَخصيصِه بالمُسنَدِ إليه؛ لِيَدُلَّ بتَقدُّمِهما على معنَى اختِصاصِ المُلكِ والحَمدِ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ وذلك لأنَّ المُلكَ على الحَقيقةِ له؛ لأنَّه مُبدئُ كلِّ شيءٍ ومُبدِعُه، والقائمُ به المُهيمِنُ عليه، وكذلك الحمدُ؛ لأنَّ أصولَ النِّعمِ وفُروعَها منه، وأمَّا مُلكُ غيرِه فتسليطٌ منه، وحمدُه اعتدادٌ بأنَّ نِعمةَ اللهِ تعالَى جرَتْ على يدِه، وهو قَصْرٌ ادِّعائيٌّ[3] مبنيٌّ على عدمِ الاعتِدادِ بما

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٧٨-١٢٨٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٧)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٧٥)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٧، ٤٦٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٧).

ويُنظر وجْهُ التَّعبيرِ بـ (ما) دونَ (مَن) في تفسيرِ سورةِ الجمعةِ (ص: ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

لغَيرِ اللهِ مِن مُلْكٍ؛ لنَقصِه، بخِلافِ مُلْكِه تعالَى؛ فهو المَلِكُ المُطلَقُ الدَّاخلُ في سُلطانِه كلُّ ذي مُلْكٍ(١).

- ومضمونُ جُملةِ ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ سَببٌ لتسبيحِ اللهِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ؛ إذِ التَّسبيحُ مِنَ الحمدِ، فلا جَرَمَ أنْ كانَ حَمْدُ ذَوِي الإدراكِ مُختصًّا به تعالَى؛ إذْ هو الموصوفُ بالجَميلِ الاختياريِّ المُطلَقِ، فهو الحقيقُ بالحَمدِ والتَّسبيحِ، فهذا القَصْرُ ادِّعائيٌّ؛ لعدمِ الاعتدادِ بحَمْدِ غَيرِه؛ لنُقصانِ كمالاتِهِم، وإذا أُرِيدَ بالحمدِ ما يَشملُ الشُّكرَ أو يُفْضِي إليه -وهو مُقْتضى المقامِ مِن تَسفيهِ أحلامِ المُشرِكينَ في عبادتِهم غَيرَه- فالشُّكرُ أيضًا مقصورٌ عليه تعالَى؛ لأنَّه المُنعِمُ الحقُّ بنِعَمٍ لا قِبَلَ لغَيرِه بإسدائِها، وهو المُفيضُ على المُنعِمينَ ما يُنعِمونَ به في الظَّاهِرِ(٢).

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ معطوفةٌ على اللَّتَيْنِ قَبْلَها، وهي بمنزلةِ التَّذييلِ لهُما، والتَّبيينِ لوجْهِ القَصرَيْنِ فيهما؛ فإنَّ القَديرَ على كلِّ شيءٍ هو صاحِبُ المُلْكِ الحقِّ، وهو المُختَصُّ بالحمدِ الحقِّ(٣).

- وهو تَذييلٌ فيه وعدٌ للشَّاكرينَ، ووعيدٌ وترهيبٌ للمُشرِكينَ(٤).

- والاقتِصارُ على ذِكْرِ وصْفِ ﴿قَدِيرٌ﴾ هنا؛ لأنَّ المخلوقاتِ الَّتي تُسبِّحُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهَ دالَّةٌ على صِفةِ القُدرةِ أوَّلًا؛ لأنَّ مَن يُشاهِدُ المخلوقاتِ يَعلَمُ أنَّ خالقَها قادرٌ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا تقريرٌ لِمَا أفادَهُ قولُه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [التغابن: ١]، وتخلُّصٌ للمَقصودِ منه على وجهِ التَّصريحِ بأنَّ الَّذينَ أشرَكوا باللهِ قد كفَروا بنعمتِه وبخَلْقِهم، زيادةً على جَحْدِهم دَلائلَ تنزُّهِه تعالَى عن النَّقصِ الَّذي اعتقَدوهُ له؛ ولذلك قدَّمَ ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ على ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾؛ لأنَّ الشِّقَّ الأوَّلَ هو المقصودُ بهذا الكلامِ تعريضًا وتصريحًا، وهو الأهمُّ في هذا المقامِ، كما يُشيرُ إليه قولُه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التغابن: ٥]. وقيل: قُدِّمَ ذِكْرُ الكافرِ؛ لأنَّه الأغلَبُ عليهم، والأكثرُ فيهم، ومعَ كثرتِه هو الأضعَفُ؛ لأنَّ الله تعالى ليس معه بمعونتِه، وإلَّا لأعدَمَ الصِّنفَ الآخَرَ. وقيل: قُدِّم العدوُّ إشارةً إلى أنَّه عالمٌ به، وقادرٌ عليه، وما كان منه شيءٌ إلَّا بإرادتِه(٢).

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ أفادَ تَعريفُ الجزأَيْنِ مِن جُملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ قَصْرَ صِفةِ الخالقيَّةِ على اللهِ تعالَى، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ(٣) قُصِدَ به الإشارةُ بالكِنايةِ بالرَّدِّ على المُشرِكينَ؛ إذْ عَمَدوا إلى عبادةِ أصنامٍ يَعلمونَ أنَّها لم تَخلُقْهم، فما كانتْ مُستحِقَّةً لأنْ تُعبَدَ؛ لأنَّ العبادةَ شُكرٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٢).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٢).

- والفاءُ في ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ عاطفةٌ على جملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، وليستْ عاطفةً على فعلِ ﴿خَلَقَكُمْ﴾، وهي للتَّفريعُ في الوُقوعِ دونَ تسبُّبٍ، ومِثلُ هذا التفريعُ يَستَتبِعُ التَّعجيبَ مِن جَرْيِ أحوالِ بعضِ النَّاسِ على غَيرِ ما يَقتضيهِ الطَّبعُ، فجُملةُ ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ هي المقصودُ مِنَ التَّفريعِ، وهو تَفريعٌ في الحصولِ[١].

- وجُملةُ ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ تَتميمٌ[٢] وتَنويهٌ بشأنِ أهلِ الإيمانِ، ومُضادَّةِ حالِهم لحالِ أهلِ الكُفرِ، ومُقابَلةِ الحالِ بالحالِ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تَتميمٌ، واحتِراسٌ[٤]، واستطرادٌ[٥]؛ فهو تَتميمٌ لِمَا يُكمِلُ المقصودَ مِن تَقسيمِهم إلى فريقَينِ لإبداءِ الفرْقِ بيْنَ الفريقَينِ في الخَيرِ والشَّرِّ، وهو عليمٌ بذلك، وعليمٌ بأنَّه يقَعُ- وليس اللهُ مغلوبًا على وُقوعِه، ولكنَّ حِكمتَه وعِلمَه اقتضَيَا ذلك، وهو احتراسٌ مِن أنْ يُتَوَهَّمَ مِن تقسيمِهم إلى فريقَينِ أنَّ ذلك رِضًا بالحالَينِ، كما حُكِيَ عن المُشركينَ: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، وهو استِطرادٌ بطريقِ الكِنايةِ به عن الوعدِ والوَعيدِ[٦].

- والآياتُ واردةٌ لبَيانِ عَظَمةِ اللهِ في مُلكِه ومَلكوتِه؛ فلمَّا أثبَتَ تعالَى لِذاتِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٢).
ويُنظر ما تقدَّم مِن الكلامِ عن الفاءِ (ص: ٣٨٤).
(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٢).
(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٢١). وتقدَّم بيانُ الفرقِ بيْن التَّتميمِ والاحتراسِ (ص: ٣٣٦).
(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٢٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٢، ٢٦٣).

الأقدسِ التَّنزيهَ، وأنَّ كلَّ شَيءٍ يُنزِّهُه ويُقدِّسُه عمَّا لا يَليقُ بجَلالِه، ثمَّ خصَّ لها صِفةَ المالكيَّةِ على الإطلاقِ، وخصَّ أنَّ لها كلَّ كمالٍ وجَمالٍ، ومنه كلُّ نِعمةٍ وإفضالٍ، وهو خالقُ كلِّ مُهتدٍ وضالٍّ، ونظَمَ دليلَ الآفاقِ مع دَليلِ الأنفُسِ، وبيَّن أنَّ إليه المصيرَ والمآلَ؛ خَتَمَها بإثباتِ عِلمِ اللهِ الشَّاملِ للكلِّيَّاتِ والجزئيَّاتِ، وكرَّرَه تكريرًا، وأكَّدَه توكيدًا، وكان ذِكْرُ العِلمِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ استطرادًا لذِكْرِ الخَلْقِ وتفصيلِه، ولإثباتِ القضاءِ والقدَرِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾ [التغابن: ٢]، يُبيِّنُ أنَّ انقِسامَهم إلى قِسمَي الكافِرينَ والمُؤمِنينَ نشَأَ عن حيادِ فريقٍ مِنَ النَّاسِ عن الحقِّ الَّذي أُقِيمَ عليه خَلْقُ السَّمواتِ والأرضِ؛ لأنَّ الحقَّ أنْ يُؤمِنَ النَّاسُ بوُجودِ خالِقِهم، وبأنَّه واحدٌ، وأنْ يُفرِدوهُ بالعبادةِ، فذلك الَّذي أرادَهُ اللهُ مِن خَلْقِهم؛ فمَن حادَ عن الإيمانِ، ومالَ إلى الكفرِ فقدْ حادَ عن الحقِّ والفِطرةِ[2].

- وقولُه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُعترِضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وجُملةِ ﴿وَصَوَّرَكُمۡ﴾، وفيه إيماءٌ إلى إثباتِ البعثِ والجزاءِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُتعلِّقٌ بفِعلِ ﴿خَلَقَ﴾ تعلُّقَ المُلابَسةِ المُفادَ بالباءِ، أي: خَلقًا مُلابِسًا للحقِّ، والحقُّ ضدُّ الباطلِ، ألَا تَرَى إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، إلى قولِه: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ [آل عمران: ١٩١]؟

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٥١، ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٤).

والباطلُ ما صَدَقه هُنالِكَ هو العبَثُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]، فتعيَّنَ أنَّ ما صَدَق الحقِّ في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أنَّه ضِدُّ العبَثِ والإهمالِ. ومُلابَسةُ الحقِّ لخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ يَلزَمُ أنْ تكونَ مُلابَسةً عامَّةً مُطَّرِدةً؛ لأنَّه لو اختَلَّتْ مُلابَسةُ حالٍ مِن أحوالِ مخلوقاتِ السَّمواتِ للحقِّ، لَكانَ ناقضًا لمعنى مُلابَسةِ خَلْقِها للحقِّ، فكان نفْيُ البعثِ للجزاءِ على أعمالِ المخلوقاتِ مُوجِبًا اختلالَ تلك المُلابَسةِ في بعضِ الأحوالِ. وتخلُّفُ الجزاءِ عن الأعمالِ في الدُّنيا مُشاهَدٌ؛ إذْ كثيرًا ما نَرى الصَّالِحينَ في كَرْبٍ، ونَرى أهلَ الفسادِ في نِعمةٍ، فلَوْ كانت هذه الحياةُ الدُّنيا قُصارى حياةِ المُكلَّفينَ، لَكانَ كثيرٌ مِن أهلِ الصَّلاحِ غَيرَ لاقٍ جزاءً على صلاحِه، وانقلَبَ أكثرُ أهلِ الفسادِ مُتمتِّعًا بإرضاءِ خَباثةِ نفْسِه ونَوالِ مُشتهَياتِه، فكان خَلْقُ كِلا هذَينِ الفريقَينِ غَيرَ مُلابِسٍ للحقِّ بالمعنى المُرادِ! ولزِيادةِ الإيقاظِ لهذا الإيمانِ عُطِفَ عليه قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣]، وكلُّ ذلك توطِئةٌ لما سيردُ بعدَه مِن قولِه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ [التغابن: ٧] الآيةَ[(١)].

- وفي قولِه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ رمْزٌ إلى الجزاءِ، وهو وعيدٌ ووعدٌ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلى آخِرِه إظهارٌ أيضًا لعَظَمةِ اللهِ في مَلَكوتِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ إدماجُ[١] امتنانٍ على النَّاسِ، وتَعديدٌ للنِّعمةِ في حُسْنِ الخِلقةِ، وبأنَّهم معَ ما خُلِقوا عليه مِن مُلابَسةِ الحقِّ على وجْهِ الإجمالِ، وذلك مِنَ الكمالِ، وهو ما اقتضَتْه الحِكمةُ الإلهيَّةُ، فقَدْ خُلِقوا في أحسَنِ تقويمٍ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ عُطِفَ على جُملةِ ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾؛ لأنَّ التَّصويرَ يَقْتَضي الإيجادَ؛ فأُعْقِبَ بالتَّذكيرِ بأنَّ بَعْدَ هذا الإيجادِ فَناءً، ثمَّ بَعْثًا للجزاءِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ لا إلى غيرِه استِقْلالًا أو اشتِراكًا، وقيل: تَقديمُ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ، مع إفادةِ الاهتمامِ بتَعلُّقِ ذلك المصيرِ بتَصرُّفِ اللهِ المحضِ، وليس مُرادًا بالتَّقديمِ قَصْرٌ؛ لأنَّ المُشرِكينَ لا يُصدِّقونَ بهذا المصيرِ مِن أصلِه، بَلْهَ أنْ يَدَّعُوا أنَّه مَصيرٌ إلى غَيرِه حتَّى يُرَدَّ عليهم بالقَصْرِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

- كانوا يَنفُونَ الحشرَ بعِلَّةِ أنَّه إذا تفرَّقَتْ أجزاءُ الجسدِ لا يُمكِنُ جمْعُها، ولا يُحاطُ بها؛ فكان قولُه: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ دحْضًا لشُبهتِهم، أي: إنَّ الَّذي يَعلَمُ ما في السَّمواتِ والأرضِ لا يُعجِزُه تفرُّقُ أجزاءِ البدنِ إذا أراد جمْعَها، والَّذي يَعلَمُ السِّرَّ في نفْسِ الإنسانِ -والسِّرُّ أدقُّ وأخْفَى مِن ذرَّاتِ الأجسادِ المُتفرِّقةِ- لا تَخْفى عليه مَواقِعُ تلك الأجزاءِ

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٦، ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٦).

الدَّقيقةِ، فالمقصودُ هو قولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ كما يَقتضيهِ الاقتصارُ عليه في تَذييلِه بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، ولم يَذكُرْ أنَّه عليمٌ بأعمالِ الجوارحِ؛ لأنَّ الخِطابَ للمُشركينَ في مكَّةَ على الرَّاجحِ، وذلك قبْلَ ظهورِ المُنافقينَ؛ فلَمْ يكُنْ قولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ تهديدًا على ما يُبطِنُه النَّاسُ مِنَ الكفرِ. وأمَّا عطْفُ ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فتتميمٌ للتَّذكيرِ بعُمومِ تعلُّقِ عِلمِه تعالَى بالأعمالِ. وتضمَّنَ قولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وَعيدًا ووعدًا ناظِرَيْنِ إلى قولِه: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، فكانت الجُملةُ لذلك شَديدةَ الاتِّصالِ بجُملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[1] [التغابن: ٢].

- وإعادةُ فِعلِ (يَعْلَمُ)؛ للتَّنبيهِ على العنايةِ بهذا التَّعلُّقِ الخاصِّ للعِلمِ الإلهيِّ بعْدَ ذِكْرِ تَعلُّقِه العامِّ في قولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ تَنبيهًا على الوعيدِ والوعدِ بوَجْهٍ خاصٍّ[2].

- قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، أي: ما تُسِرُّونَه في أنفُسِكم وفيما بَيْنَكم، وما تُظهِرونَه مِنَ الأمورِ، والتَّصريحُ به مع اندراجِه فيما قَبْلَه؛ لأنَّه الَّذي يَدورُ عليه الجزاءُ؛ ففيهِ تأكيدٌ للوعدِ والوعيدِ، وتَشديدٌ لهما[3].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ اعتِراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لِمَا قَبْلَه مِن شُمولِ عِلمِه تعالَى لسِرِّهم وعلَنِهم، أي: هو محيطٌ بجميعِ المُضمَراتِ المُستكِنَّةِ في صُدورِ النَّاسِ؛ بحيثُ لا تُفارِقُها أصلًا، فكيفَ يَخْفَى عليه ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦).

يُسِرُّونَه وما يُعلِنونَه[١]؟!

- وإظهارُ الجَلالةِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ، وتأكيدِ استِقلالِ الجُملةِ[٢].

- وتَقديمُ تَقريرِ القُدرةِ في قولِه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١] على العِلمِ؛ لأنَّ دَلالةَ المخلوقاتِ على قدرتِه بالذَّاتِ، وعلى عِلمِه بما فيها مِنَ الإتقانِ والاختصاصِ ببعضِ الأنحاءِ[٣].

- و(ذاتِ الصُّدورِ) قيل: هي صِفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، نُزِّلَتْ مَنزِلةَ مَوصوفِها، أي: صاحباتِ الصُّدورِ، أي: المكتومةِ فيها، والتَّقديرُ: بالنِّيَّاتِ والخواطرِ ذاتِ الصُّدورِ[٤].

وقيل: قولُه: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما في القلوبِ الَّتي في الصُّدورِ مِن الضَّمائرِ الخفيَّةِ، ووُصِفَت بذلك؛ لأنَّها لتمكُّنِها مِن الصُّدورِ جُعِلت كأنَّها مالِكةٌ لها، فـ(ذاتُ) بمعنى صاحبة، لا بمعنى ذاتِ الشَّيءِ ونفْسِه، وعُبِّر بذاتِ الصُّدورِ دونَ ذاتِ القُلوبِ مع أنَّ التَّعبيرَ الثَّانيَ أَولى بها؛ لأنَّ القلوبَ محلُّها بلا واسِطةٍ، ومَحَلِّيَّةُ الصُّدورِ لها بحسَبِ الظَّاهِرِ بواسِطةِ القلوبِ؛ لأنَّ (ذاتَ الصُّدورِ) بمعنى الأشياءِ الَّتي لا تَكادُ تُفارِقُ الصُّدورَ لِكَونِها حالَّةً فيها بل تُلازِمُها وتُصاحِبُها أشملُ مِن (ذاتِ القلوبِ)؛ لِصِدْقِ الأُولى على الأسرارِ الَّتي في القلوبِ، وعلى القلوبِ أنفُسِها؛ لأنَّ كُلًّا مِن هذَينِ الأمْرَينِ مُلازِمٌ للصُّدورِ باعتِبارِ كَونِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٧).

حالًّا فيها دونَ الثَّانيةِ؛ لأنَّها لا تَصدُقُ إلَّا على الأسرارِ؛ لأنَّها الحالَّةُ فيها دونَ الصُّدورِ، فحينَئذٍ يُمكِنُ أن يُرادَ مِن ذاتِ الصُّدورِ هذا المعنى الشَّاملُ، ويكونُ التَّعبيرُ بها لذلك. والتَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه سُبحانَه لم يَزَلْ عالِمًا بذلك[١].

- وقد ابتَدَأَ الله تعالى بالعِلمِ الشَّاملِ للعالَمِ كلِّه، ثُمَّ بخاصِّ العِبادِ مِن سِرِّهم وإعلانِهم، ثُمَّ ما خَصَّ مِنه، وهو ما تَنْطوي عليه صُدورُهم مِن خَفِيِّ الأشياءِ وكامِنِها، وهذا كلُّه في معنى الوعيدِ؛ إذْ هو تعالَى المُجازِي على جميعِ ذلكَ بالثَّوابِ والعِقابِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٩).

الآيات (٥-٨)

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾: أي: جزاءَ ذنْبِهم، وعاقِبةَ أمرِهم مِن الشَّرِّ، والوَبالُ: الوَخامةُ وسُوءُ العاقِبةِ، وأصلُ (وبل): يدُلُّ على شِدَّةٍ فِي شَيءٍ، وتجَمُّعٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ اللهُ تعالى عن الأممِ السَّابقةِ، وما نزَل بهم مِن العذابِ؛ لمخالفتِهم الرُّسلَ وتكذيبِهم بالحقِّ، فيقولُ تعالى: ألم يأتِكم خبَرُ الَّذين كفَروا مِن قَبْلِكم مِنَ الأقوامِ السَّابِقةِ، فذاقَوا عُقوبةَ كُفرِهم، فأهلَكَهم اللهُ في الدُّنيا، ولهم عَذابٌ مُؤلِمٌ في الآخِرةِ؟

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه الأسبابَ الَّتي أدَّتْ إلى سوءِ عاقِبةِ هذه الأُممِ، فيقولُ: وقَعَ بهم العذابُ بسَبَبِ أنَّه كانت تأتيهم رُسُلُهم بالحُجَجِ الواضِحةِ فكَذَّبوهم بدَعْوى أنَّهم بشَرٌ مِثلُهم، واستبعَدوا أن يَكونوا هُداةً لهم! فكَفَروا، وأعرَضوا عن اتِّباعِ الحَقِّ، واستَغْنى اللهُ عنهم وعن إيمانِهم، واللهُ غنيٌّ عن جميعِ خَلْقِه، محمودٌ في أقوالِه وأفعالِه وصِفاتِه، حامِدٌ لِمَن يَستحِقُّ الحمدَ مِن عبادِه.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

ثمَّ يخبرُ تعالى عن عِنادِ الكافِرين، وتكذيبِهم بالبعثِ، فيقولُ: زَعَم الكُفَّارُ كَذِبًا أنَّ اللهَ لن يَبعَثَهم! قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: بلى، ورَبِّي لَتُبعَثُنَّ، ثمَّ لَتُخبَرُنَّ يومَ القيامةِ بما عَمِلتُم، وذلك أمرٌ سَهلٌ على الله.

ثمَّ يقولُ تعالى آمِرًا عِبادَه بما يَنفَعُهم يومَ القيامةِ: فآمِنوا باللهِ ورَسولِه والقُرآنِ الَّذي أنزَلْناه، واللهُ خَبيرٌ بجَميعِ أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى مِن أوصافِه الكامِلةِ العَظيمةِ ما به يُعرَفُ ويُعبَدُ، ويُبذَلُ الجُهدُ في مَرضاتِه، وتُجتَنَبُ مَساخِطُه؛ أخبَرَ بما فَعَل بالأُمَمِ السَّابِقينَ، والقُرونِ الماضينَ الَّذين لم تزَلْ أنباؤُهم يَتحَدَّثُ بها المتأخِّرونَ، ويُخبِرُ بها الصَّادِقونَ، وأنَّهم حينَ جاءتهم الرُّسُلُ بالحَقِّ كَذَّبوهم وعانَدوهم؛ فأذاقَهم اللهُ وَبالَ أمْرِهم في الدُّنيا، وأخزاهم فيها[1].

وأيضًا لَمَّا فرَغَ مِن ذِكرِ بَيانِ العَظَمةِ له سُبحانه؛ جاء بالتَّهديدِ والوعيدِ، وقال[2]:

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ﴾.

أي: ألم يَأتِكم خَبَرُ الكافِرينَ مِن قَبْلِكم، كقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ وغَيرِهم[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

قيل: الخِطابُ هنا لمُشرِكي قُرَيشٍ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير =

﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾.

أي: فذاقَ كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ عُقوبةَ كُفرِهم، فأهلَكَهم اللهُ في الدُّنيا[1].

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أي: ولهم عَذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ في الآخِرةِ[2].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما أحَلَّه بالَّذين كَفَروا مِن قَبلُ، وأشار إلى القَطْعِ بأنَّه مِن عِندِه باتِّساقِه في خَرْقِه العوائِدَ بالاستئصالِ لِمَن كَذَّب الرُّسُلَ، والتَّنجيةِ لِمَن صَدَّقهم؛ عَلَّله بقَولِه[3]:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾.

أي: ذلك الوَبالُ في الدُّنيا والعذابُ في الآخِرةِ لكُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ واقِعٌ بسَبَبِ أنَّه كانت تأتيهم رُسُلُهم بالحُجَجِ الواضِحةِ والدَّلائِلِ الباهِرةِ، فكَذَّبوهم واستَكبَروا

= ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤).

وممَّن جعَلَه لعُمومِ النَّاسِ: البِقاعي، فقال: (﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ أي: أيُّها النَّاس، ولا سِيَّما الكُفَّار). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٢).

عن اتِّباعِهم بدَعْوَى أنَّهم بشَرٌ مِثلُهم، واسْتَبْعدوا أنْ يَكونوا هُداةً لهم[١]!

كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ * قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١، ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾.

أي: فكَفَروا باللهِ ورُسُلِه، وأعرَضوا عن اتِّباعِ الحَقِّ[٢].

﴿وَٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُ﴾.

أي: واستَغنى اللهُ عنهم وعن إيمانِهم به وبرُسُلِه؛ فليس له حاجةٌ إليهم، ولا يُبالي بهم، ولا يَضُرُّه سُبحانَه كُفرُهم[٣]!

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

أي: واللهُ غنيٌّ عن جميعِ خَلْقِه، وغيرُ مُحتاجٍ إليهم ولا إلى عِبادتِهم، وهو محمودٌ في أقوالِه وأفعالِه وأوصافِه، ومحمودٌ مِن كلِّ مخلوقاتِه بلِسانِ المقالِ والحالِ، فله الحَمدُ، وهو أيضًا حامِدٌ لِمَن يَستحِقُّ الحمدَ مِن عبادِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٢، ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٥٠)، ((تفسير الرازي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا ضَربٌ ثالِثٌ مِن ضُروبِ كُفرِ المُشرِكينَ المُخاطَبينَ بقَولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ [التغابن: ٥] الآيةَ، وهو كُفرُهم بإنكارِهم البَعثَ والجَزاءَ(١).

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾.

أي: ادَّعى الكُفَّارُ كَذِبًا أنَّ اللهَ لن يَبعَثَهم بعدَ مَوتِهم للحِسابِ والجَزاءِ(٢).

= (٣٠/ ٥٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٠).

قال الرازي: (الحميدُ بمعنى المحمودِ، أي: المُستَحِقِّ للحَمدِ بذاتِه، ويكونُ بمعنى الحامِدِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٣).

وقال ابن عثيمين: («فَعيل» تأتي بمَعنَى «مفعول»، ومنه قَولُهم: قَتيلٌ بمعنى مقتول، وجَريحٌ بمعنى مجروح، لكنَّها تأتي بمَعنَى «الفاعِلِ» أيضًا؛ مِثلُ عَليمٍ بمَعنى عالِمٍ، عَزيزٍ بمعنى عازٍّ، حكيمٍ بمعنى محُكِمٍ، وهكذا تأتي بهذا المعنى.

فإذا كانت تأتي بالوجهَينِ جميعًا، أي: بالفاعِلِ والمَفعولِ؛ فهل الأَوْلى أن نَجعَلَها مَقصورةً على المَفعولِ، أو نَجعَلَها شامِلةً؟ الجوابُ: الأَوْلى أن نَجعلَها شامِلةً؛ فهو عزَّ وجلَّ حميدٌ بمعنى حامدٍ، وبمعنى محمودٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦٢).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الحديد (٣٤/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ أي: ظَنُّوا. الزَّعمُ هو القولُ بالظَّنِّ. وقال شُرَيحٌ: لكلِّ شَيءٍ كُنيةٌ، وكنيةُ الكذبِ زعَموا). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٥). =

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُنكِرينَ للبَعثِ: بلى، أُقسِمُ برَبِّي لَتُخرَجُنَّ مِن قُبورِكم أحياءً[١].

﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾.

أي: ثمَّ لَتُخبَرُنَّ يومَ القيامةِ بجَميعِ ما عَمِلتُموه في الدُّنيا، وتُجازَونَ عليه[٢].

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

أي: وبَعْثُ اللهِ عِبادَه مِن قُبورِهم أحياءً بعْدَ مَوتِهم للحِسابِ والجَزاءِ أمرٌ سَهلٌ عليه[٣].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

= وقال الراغب: (الزَّعْمُ: حكايةُ قولٍ يكونُ مَظِنَّةً للكذِبِ؛ ولهذا جاء في القرآنِ في كلِّ موضِعٍ ذُمَّ القائلونَ به). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٣٨٠).

وقال محمد رشيد رضا: (الزَّعْمُ في أصلِ اللُّغةِ القولُ والدَّعوَى، سواءٌ أكانَ ذلك حَقًّا أمْ باطلًا... لُغَةُ القرآنِ أنَّ الزَّعْمَ يُستعمَلُ في الباطلِ والكذِبِ، وهو يَرُدُّ على الزَّاعِمينَ، ولا يُقِرُّهم على شيءٍ). ((تفسير المنار)) (٥/ ١٨٢).

وقال النووي: (الزَّعمُ يُطلَقُ على القولِ المُحقَّقِ والكذبِ وعلى المشكوكِ فيه، ويُنزَّلُ في كلِّ موضعٍ على ما يَليقُ به). ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقرَّر الإيمانُ باللهِ تعالى مِن أنَّه الملِكُ الَّذي له وَحْدَه المُلْكُ، وأشار بما يُشاهَدُ مِن انقِسامِ عَبيدِه إلى مؤمِنٍ وكافرٍ إلى أنَّه لا بُدَّ مِن الأخذِ على يدِ الظَّالمِ منهما، كما هي عادةُ الملوكِ، لا يَسوغُ في الحِكمةِ ولا في العادةِ غَيرُ ذلك، وأخبَرَ أنَّ عِلْمَه محيطٌ لِنسبتِه إلى العُلويَّاتِ والسُّفْليَّاتِ والظَّواهِرِ والبواطِنِ على حَدٍّ سواءٍ- أتْبَعَ ذلك وُجوبَ الإيمانِ برُسُلِه؛ لجَمعِ الكَلِمةِ عليه سُبحانَه، لِنُكمِلَ الحياةَ بإصلاحِ ذاتِ البَينِ؛ لئلَّا يقَعَ الخِلافُ فتَفسُدَ الحياةُ، ووُجوبَ الاعتبارِ بمَن مضَى مِن أُمَمِهم[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إنكارَ مَن أنكَرَ البَعثَ، وأنَّ ذلك منهم مُوجِبٌ كُفْرَهم باللهِ وآياتِه؛ أمَرَ بما يَعصِمُ مِن الهَلَكةِ والشَّقاءِ، وهو الإيمانُ باللهِ ورَسولِه وكِتابِه[٢].

وأيضًا لَمَّا بالَغَ في الإخبارِ عن البَعثِ -والاعترافُ بالبَعثِ مِن لوازمِ الإيمانِ-؛ قال[٣]:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾.

أي: فآمِنوا باللهِ ورَسولِه، وآمِنوا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلْناه؛ تَهتَدوا به مِن ظُلُماتِ الضَّلالِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

قال ابنُ عاشور: (الفاءُ فَصيحةٌ تُفصِحُ عن شَرطٍ مُقَدَّرٍ، والتَّقديرُ: فإذا عَلِمتُم هذه الحُجَجَ، =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

أي: واللهُ ذو خِبرةٍ بالِغةٍ تامَّةٍ بجَميعِ أعمالِكم، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن ظَواهِرِها وبَواطِنِها، ونيَّاتِكم فيها، وسيُجازيكم عليها[(١)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ سَمَّاه اللهُ تعالى نورًا؛ فإنَّ النُّورَ ضِدُّ الظُّلمةِ، وما في الكِتابِ الَّذي أنزَلَه اللهُ مِن الأحكامِ والشَّرائِعِ والأخبارِ أنوارٌ يُهتَدى بها في ظُلُماتِ الجَهلِ المُدْلَهِمَّةِ، ويُمشَى بها في ظُلُماتِ اللَّيلِ البَهيمِ، وما سِوى الاهتداءِ بكِتابِ اللهِ فهي علومٌ ضَرَرُها أكثَرُ مِن نَفعِها، وشَرُّها أكثَرُ مِن خَيرِها، بل لا خَيرَ فيها ولا نَفْعَ، إلَّا ما وافَقَ ما جاءت به الرُّسُلُ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ تحذيرُ الإنسانِ مِن المُخالَفةِ؛

= وتذَكَّرتُم ما حَلَّ بنُظَرائِكم مِن العِقابِ، وما ستُنَبَّؤونَ به مِن أعمالِكم؛ فآمِنوا باللهِ ورَسولِه والقُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

لأنَّ هذا يُوجِبُ ألَّا نُخالِفَ اللهَ تعالى، ما دُمْنا نَعلَمُ أنَّه خَبيرٌ بما نَعمَلُ فإنَّه لا يُمكِنُ أنْ نخالِفَ اللهَ عزَّ وجلَّ، مِثلَما لو قال رجلٌ لآخرَ: اذهبْ وأنا أعلَمُ ما تَفعَلُ، فالمرادُ: التَّهديدُ والتَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ؛ فكلُّ نَصٍّ يُبَيِّنُ اللهُ تعالى فيه أنَّه يَعلَمُ ما نَعمَلُ، فهو تحذيرٌ لنا مِن مُخالفتِه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ هذه هِدايةُ الدَّلالةِ والإرشادِ بكَلامِه وبعِلمِه، وأمْرِه ونَهيِه، وتَرغيبِه وتَرهيبِه، وأمَّا حُصولُ الهُدى في القَلبِ فهذا لا يَقدِرُ عليه إلَّا اللهُ، باتِّفاقِ المسلمينَ؛ سُنِّيِّهم وقَدَرِيِّهم[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾ فيه سُؤالٌ: قَولُه تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ﴾ تعميمٌ يُفهَمُ منه التَّوَلِّي، فما الحاجةُ إلى ذِكْرِه؟

الجوابُ: أنَّهم كَفَروا وقالوا: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾، وهذا في معنى الإنكارِ والإعراضِ بالكُلِّيَّةِ، وهذا هو التَّوَلِّي، فكأنَّهم كَفَروا وقالوا قولًا يدُلُّ على التَّوَلِّي؛ فلهذا قال: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾. وقيل: إنَّهم كَفَروا بالرُّسُلِ، وتَوَلَّوا عن البُرهانِ، وأعرَضوا عن الإيمانِ والمَوعِظةِ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذو الغِنى الواسِعِ، ومع ذلك فإنَّ غِناه مَقرونٌ بحَمدِه؛ ولهذا قال: ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وقال: ﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فهو غنيٌّ يُحمَدُ على غِناه؛ لأنَّه يَجُودُ به على غَيرِه، لكِنَّ بني آدمَ قد يكونُ الإنسانُ منهم غنيًّا ولكِنْ ليس حميدًا، فإذا كان غنيًّا وتَسَلَّطَ بغِناه على غَيرِه، وفَخَر به على النَّاسِ، ولم يَقُمْ بما يَجِبُ عليه؛ صار غنيًّا غيرَ حميدٍ، لكنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥).

(٢) يُنظر: ((الاستغاثة في الرد على البكري)) لابن تيمية (ص: ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ١٢٨).

اللهَ عزَّ وجلَّ غَنيٌّ حَميدٌ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ أنَّ مُنكِرَ البَعثِ كافِرٌ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ أنَّ الحَلِفَ إذا دَعَتِ الحاجةُ إليه أوِ اقتَضَتْه المصلحةُ، فإنَّه جائزٌ، بل قد يكونُ مَندوبًا إليه[٣].

٦- أمَرَ اللهُ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُقسِمَ على الجَزاءِ والمَعادِ في ثلاثِ آياتٍ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾.

والثانية: قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ: ٣].

والثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]؛ وهذا لأنَّ المَعادَ إنَّما يَعلَمُه عامَّةُ النَّاسِ بإخبارِ الأنبياءِ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ أنَّه يجوزُ للمُفتي والمُناظِرِ أنْ يَحلِفَ على ثُبوتِ الحُكمِ عندَه، وإنْ لم يكُنْ حَلِفُه مُوجِبًا لثُبوتِه عندَ السَّائلِ والمُنازِعِ؛ لِيُشْعِرَ السَّائلَ والمُنازِعَ له أنَّه على ثِقةٍ ويَقينٍ ممَّا قال له، وأنَّه غيرُ شاكٍّ فيه[٥].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يُفيدُ القسَمُ في إخبارِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٤٧٢).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٦).

عن البَعثِ، وهم قد أنكَروا رِسالتَه؟

الجوابُ: أنَّهم وإن أنكَروا الرِّسالةَ، لكِنَّهم يَعلَمونَ أنَّه لا يُقدِمُ على القَسَم برَبِّه إلَّا أن يكونَ صِدقُ هذا الإخبارِ أظهَرَ مِن الشَّمسِ عِندَه وفي اعتِقادِه، والفائِدةُ في الإخبارِ مع القَسَمِ ليست إلَّا هذا، ثمَّ إنَّه أكَّدَ الخَبرَ باللَّامِ والنُّونِ، فكأنَّه قَسَمٌ بعْدَ قَسَمٍ[(١)].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾، قال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بطَريقِ الإضافةِ، ولم يَقُلْ: (ونُورِه الَّذي أنزَلْنا) بطَريقِ الإضافةِ، مع أنَّ النُّورَ هاهنا هو القُرآنُ، والقُرآنُ كَلامُه ومُضافٌ إليه؟

الجوابُ: الألِفُ واللَّامُ في النُّورِ بمعنى الإضافةِ، كأنَّه قال: (ورَسولِه ونُورِه الَّذي أنزَلْنا)[(٢)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾ رَدٌّ على المُعتَزِلةِ فيما يَزعُمونَ أنَّ الشَّيءَ إذا سُمِّيَ باسمٍ، ثُمَّ سُمِّيَ به غيرُه؛ لَزِمَ أنْ يُشبِهَه بجَميعِ جِهاتِه! وقد سمَّى اللهُ جلَّ جلالُه القُرآنَ هاهنا نورًا، كما سمَّى نفْسَه نورًا[(٣)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ إثباتُ عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالظَّاهرِ والخَفيِّ؛ فالخبيرُ هو العَليمُ ببَواطنِ الأمورِ، ومَن كان عليمًا ببَواطنِ الأمورِ كان عليمًا بظَواهِرِها مِن بابِ أَولى[(٤)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٥٨).

- هو انتقالٌ مِنَ التَّعريضِ الرَّمزيِّ بالوعيدِ الأخرويِّ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢]، إلى قولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣]، وقولِه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [التغابن: ٤]؛ إلى تَعريضٍ أوضَحَ مِنه بطريقِ الإيماءِ إلى وَعيدٍ لعذابٍ دُنيويٍّ وأخرويٍّ معًا؛ فإنَّ ما يُسمَّى في بابِ الكِنايةِ بالإيماءِ أقلُّ لوازِمَ مِنَ التَّعريضِ والرَّمزِ، فهو أقرَبُ إلى التَّصريحِ. وهذا الإيماءُ بضربِ المَثَلِ بحالِ أُمَمٍ تَلَقَّوْا رُسلَهم بمِثْلِ ما تلقَّى به المُشرِكونَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَحذيرًا لهم مِن أنْ يحُلَّ بهم مِثْلُ ما حلَّ بأولئك، فالجُملةُ ابتدائيَّةٌ؛ لأنَّها عَدٌّ لصِنْفٍ ثانٍ مِن أصنافِ كفرِهم، وهو إنكارُ الرِّسالةِ؛ فالخِطابُ لخُصوصِ الفريقِ الكافرِ، بقَرينةِ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾؛ فهذا الخِطابُ مُوجَّهٌ للمشركينَ الَّذين حالُهم كحالِ مَن لم يَبلُغْهم نَبأُ الَّذين كَفَروا مِثلَ كُفْرِهم، مِثْلُ عادٍ وثمودَ ومَدْينَ وقومِ إبراهيمَ[(١)].

- قولُه: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾ الاستِفهامُ تَقريريٌّ توبيخيٌّ، وأُتِيَ معه بالجُملةِ مَنفيَّةً؛ تَوسِعةً على المُقرَّرِ إنْ كان يُريدُ الإنكارَ، حتَّى إذا أقرَّ لم يَستطِعْ بَعْدَ إقرارِه إنكارًا؛ لأنَّه قد أُعْذِر له مِن قَبْلُ بتَلْقينِه النَّفيَ[(٢)].

- وحُذِفَ ما أُضِيفَ إليه ﴿قَبۡلُ﴾ ونُوِيَ معناهُ، والتَّقديرُ: مِن قَبْلِكم، أي: في الكفرِ، بقرينةِ قولِه: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ﴾ [التغابن: ٢]، والكافِرونَ يَعلَمونَ أنَّهمُ المقصودُ؛ لأنَّهم مُقدِمونَ على الكفرِ، ومُستمِرُّونَ عليهِ[(٣)].

- والذَّوقُ مُعبَّرٌ به عن مُطلَقِ الإحساسِ والوِجدانِ، شُبِّهَ ما حلَّ بهم مِنَ العذابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٧، ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٨).

بشَيءٍ ذي طعْمٍ كَريهٍ يَذوقُه مَن حلَّ به ويبتلِعُه؛ لأنَّ الذَّوقَ باللِّسانِ أشدُّ مِنَ اللَّمسِ باليَدِ أو بالجِلدِ، والمعنى: أحَسُّوا العذابَ في الدُّنيا إحساسًا مَكينًا(١).

- قولُه: ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿أَمْرِهِمْ﴾ هو كفرُهُم، وعُبِّرَ عنه بذلكَ؛ للإيذانِ بأنَّه أمْرٌ هائلٌ، وجنايةٌ عظيمةٌ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ...﴾ ارتقاءٌ في التَّعريضِ إلى ضرْبٍ مِنه قريبٍ مِنَ الصَّريحِ، وهو المسمَّى في الكنايةِ بالإشارةِ؛ كانت مَقالةُ الَّذينَ مِن قبْلُ مُماثِلةً لمَقالةِ المُخاطَبينَ، فإذا كانت هي سبَبَ ما ذاقوهُ مِنَ الوَبالِ، فيُوشِكُ أنْ يَذوقَ مُماثِلوهم في المقالةِ مِثلَ ذلكَ الوَبالِ، فاسمُ الإشارةِ عائدٌ إلى المذكورِ مِن الوَبالِ والعذابِ الأليمِ، فهذا عَدٌّ لكفْرٍ آخَرَ مِن وُجوهِ كفْرِهم، وهو تَكذيبُهمُ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتكذيبُهم بالقرآنِ؛ فإنَّ القرآنَ بيِّنةٌ مِنَ البيِّناتِ؛ لأنَّه مُعجزةٌ(٣).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الباءُ للسَّببيَّةِ؛ فالجُملةُ في مَوقعِ العِلَّةِ، أي: ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ بسبَبِ أنَّ الشَّأنَ ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمُعجزاتِ(٤).

- والضَّميرُ في ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ ضَميرُ الشَّأنِ؛ لقصْدِ تَهويلِ ما يُفسِّرُ الضَّميرَ، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩).

جُملةُ ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إلى آخرِها[١].

- والاستِفهامُ في ﴿أَبَشَرٌ﴾ استِفهامُ إنكارٍ وتَعجُّبٍ وإبطالٍ، فهُمْ أحالوا أنْ يكونَ بشَرٌ مِثلُهم يَهْدُونَ بشَرًا أمثالَهُم، فقالوا على سبيلِ الاستِغرابِ: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؛ وذلكَ أنَّهم يقولونَ: نحنُ مُتساوُونَ في البشَريَّةِ، فأنَّى يكونُ لهؤلاءِ تَمييزٌ علينا بحيثُ يَصيرونَ هُداةً لنا؟! وهذا مِن جَهلِهم بمَراتبِ النُّفوسِ البشريَّةِ ومَن يَصطفيهِ اللهُ منها، ويَخلُقُه مُضْطَلِعًا بتبليغِ رسالتِه إلى عِبادِه، وجَهِلوا أنَّه لا يَصلُحُ لإرشادِ النَّاسِ إلَّا مَن هو مِن نَوعِهم، ومِن جَهلِهم أنَّهم أنكَروا أنْ تكونَ الرُّسلُ بشَرًا، ولم يُنكِروا أنْ يكونَ اللهُ حجَرًا! ولَمَّا أحالوا أنْ يكونَ البشَرُ أهلًا لهدايةِ بشَرٍ مِثلِه، جعَلوا ذلكَ كافيًا في إعراضِهم عن قَبولِ القرآنِ والتَّدبُّرِ فيه[٢].

- قولُه: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾، أي: قال كلُّ قومٍ مِن المذكورينَ في حقِّ رسولِهم، وقد أُجمِلَ في الحكايةِ، فأُسنِدَ القولُ إلى جميعِ الأقوامِ[٣]. وأُريدَ بالبشَرِ الجِنسُ؛ فوُصِفَ بالجَمعِ[٤].

- وتَنكيرُ (بشَرٌ) للنَّوعيَّةِ؛ لأنَّ مَحَطَّ الإنكارِ على كَونِهم يَهدونَهم هو نَوعُ البشريَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩).

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿أَبَشَرٌ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يَهۡدُونَنَا﴾؛ لقَصْدِ تَقَوِّي حُكمِ الإنكارِ، وما قالوا ذلك حتَّى اعتقَدوهُ؛ فلذلك أقدَموا على الكفرِ برُسلِهم؛ إذْ قدِ اعتَقَدوا استِحالةَ إرسالِ اللهِ إيَّاهُم، فجَزَموا بكَذِبهم في دَعوى الرِّسالةِ؛ فلذلك فُرِّعَ عليهِ: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾[1].

- قولُه: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾ العطفُ بالفاءِ يدُلُّ على تعقُّبِ كفرِهم مَجيءَ الرُّسلِ بالبيِّناتِ، أي: لم يَنظُروا في تلك البيِّناتِ ولا تأمَّلوها، بل عقَّبوا مَجيئَها بالكفرِ[2].

- وقيلَ: الفاءُ في قولِه: ﴿فَكَفَرُواْ﴾ عاطِفةٌ، وتُفيدُ السَّببيَّةَ لا التَّعقيبَ، أي: فكفَروا بسبَبِ هذا القَولِ[3].

- وقولُه: ﴿وَٱسۡتَغۡنَى﴾ السِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، والمعنى: غَنِيَ اللهُ عن إيمانِهم. والواوُ واوُ الحالِ، أي: والحالُ أنَّ اللهَ غنيٌّ عنهم مِن زمنٍ مَضَى؛ فإنَّ غِنَى اللهِ عن إيمانِهم مُقرَّرٌ في الأزَلِ. ويجوزُ أنْ يُرادَ: واستَغْنى اللهُ عن إعادةِ دَعوتِهم؛ لأنَّ فيما أظهَرَ لهم مِنَ البيِّناتِ على أيدي رُسلِهم ما هو كافٍ لحُصولِ التَّصديقِ بدَعوةِ رُسلِهم لولا المُكابَرةُ؛ فلذلك عجَّلَ لهم بالعذابِ، وعلى الوجهَينِ فمُتعلَّقُ (اسْتَغْنَى) مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿فَكَفَرُواْ﴾، وقولُهُ: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، والتَّقديرُ: واستَغْنى اللهُ عن إيمانِهم[4]. وقيل: أُطلِقَ الاستغناءُ ليَتناولَ كلَّ شيءٍ، ومِن جملتِه إيمانُهم وطاعتُهم[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧).

- جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ تَذييلٌ، أي: غنيٌّ عن كلِّ شَيءٍ فيما طلَبَ منهم، حَميدٌ لِمَنِ امْتَثَل وشكَر[(١)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ هذا ضَرْبٌ ثالثٌ مِن ضُروبِ كفْرِ المُشرِكينَ المُخاطَبينَ بقولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ [التغابن: ٥] إلخ، وهو كفرُهم بإنكارِهمُ البعثَ والجزاءَ، والجملةُ ابتدائيَّةٌ، وهذا الكلامُ مُوجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بقرينةِ قولِه: ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾، وليس هذا مِنَ الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ، ولا مِنَ الالتفاتِ، بل هو ابتداءُ غرَضٍ مُخاطَبٍ به غَيرُ مَن كانَ الخطابُ جاريًا معهم[(٢)].

- واجتلابُ حرفِ ﴿لَّن﴾ لتأكيدِ النَّفيِ، فكانوا مُوقِنينَ بانتفاءِ البعثِ؛ ولذلك جِيءَ إبطالُ زعمِهم مؤكَّدًا بالقسَمِ؛ لِيَنْقُضَ نفيَهم بأشَدَّ منه، فأُمِر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُبلِّغَهم عن اللهِ أنَّ البعثَ واقعٌ، وخاطَبَهم بذلك تسجيلًا عليهم ألَّا يقولوا ما بُلِّغْنا ذلكَ[(٣)].

- وحرفُ ﴿بَلَىٰ﴾ حرفُ جوابٍ للإبطالِ، خاصٌّ بجوابِ الكلامِ المنفيِّ لإبطالِه[(٤)].

- قولُه: ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ جملةٌ مُستقِلَّةٌ داخلةٌ تحتَ الأمرِ، واردةٌ لتأكيدِ ما أفادَته كلمةُ (بَلَى) مِن إثباتِ البعثِ، وبيانِ تحقُّقِ أمْرٍ آخَرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُتفرِّعٍ عليه، مَنُوطٍ به؛ ففيه تأكيدٌ لتحقُّقِ البعثِ بوجهَيْنِ[١].

- وجملة ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ ارتقاءٌ في الإبطالِ. و(ثُمَّ) للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ فإنَّ إنباءَهم بما عمِلوا أهَمُّ مِن إثباتِ البعثِ؛ إذْ هو العِلَّةُ للبعثِ[٢].

- والإنباءُ: الإخبارُ، وإنباؤُهم بما عمِلوا كنايةٌ عن مُحاسَبتِهم عليه، وجزائِهم عمَّا عمِلوه؛ فإنَّ الجزاءَ يَستلزِمُ عِلمَ المُجازَى بعمِلِه الَّذي جُوزِيَ عليه، فكان حُصولُ الجزاءِ بمَنزلةِ إخبارِه بما عمِلَه؛ كقولِه تعالى: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ [لقمان: ٢٣]. وهذا وعيدٌ وتهديدٌ بجزاءٍ سيِّئٍ؛ لأنَّ المَقامَ دليلٌ على أنَّ عملَهم سيِّئٌ، وهو تكذيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنكارُ ما دعاهُمْ إليه[٣].

- وجُملةُ ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ تَذييلٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ[٤].

- واسمُ الإشارةِ: إمَّا عائدٌ إلى البعثِ المفهومِ مِن ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾، وإمَّا عائدٌ إلى معنى المذكورِ مِن مَجموعِ ﴿لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾، وأُخبِرَ عنه بـ﴿يَسِيرٌ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (واقعٌ)؛ لأنَّ الكلامَ لردِّ إحالتِهم البعثَ بعِلَّةِ أنَّ أجزاءَ الجسدِ تفرَّقَتْ، فيَتعذَّرُ جَمْعُها، فذُكِّروا بأنَّ العسيرَ في مُتعارَفِ النَّاسِ لا يَعْسُرُ على اللهِ، وقد قال في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[٥] [الروم: ٢٧].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- الفاءُ فصيحةٌ مُفصِحةٌ عن شرْطٍ قد حُذِفَ؛ ثِقةً في ظُهورِه، أي: إذا كان الأمْرُ كذلكَ، أو إذا علِمْتُم هذِه الحُجَجَ، وتذكَّرْتُم ما حَلَّ بنُظرائِكم مِنَ العِقابِ وما ستُنبَّؤونَ به مِن أعمالِكم، ﴿فَـَٔامِنُواْ ...﴾[1].

- والمرادُ بالنُّورِ الَّذي أنزَلَ اللهُ: القرآنُ، وُصِفَ بأنَّه نُورٌ؛ لأنَّه أشبَهَ النُّورَ في إيضاحِ المطلوبِ باستقامةِ حُجَّتِه، وبلاغةِ كلامِه، وأشبَهَ النُّورَ في الإرشادِ إلى السُّلوكِ القويمِ، وفي هذا الشَّبهِ الثَّاني تُشارِكُه الكتبُ السَّماويَّةُ[2].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾ الْتفاتٌ مِنَ الغَيْبةِ إلى التَّكلُّمِ؛ لزِيادةِ التَّرغيبِ في الإيمانِ بالقُرآنِ؛ تَذكيرًا بأنَّه مُنزَّلٌ مِنَ اللهِ؛ لأنَّ ضَميرَ التَّكلُّمِ أشَدُّ دَلالةً على مَعادِه مِن ضَميرِ الغائبِ، ولتقويةِ داعي المأمورِ، كما أنَّ الالتفاتَ إلى نونِ العظَمةِ لإبرازِ كمالِ العِنايةِ بأمْرِ الإنزالِ[3].

- وإنَّما جُعِلَ الإيمانُ بصِدقِ القُرآنِ داخلًا في حَيِّزِ فاءِ التَّفريعِ؛ لأنَّ ما قبْلَ الفاءِ تضمَّنَ أنَّهم كذَّبوا بالقُرآنِ مِن قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، كما قال المُشرِكونَ مِن أهلِ مكَّةَ، والإيمانُ بالقُرآنِ يَشمَلُ الإيمانَ بالبعثِ، فكان قولُه تعالى: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾ شاملًا لِمَا سبَقَ الفاءَ مِن قولِه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾ [التغابن: ٧] إلخ[4].

- جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ لجُملةِ ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣).

مُقرِّرٌ لِما قَبْلَه مِنَ الأمرِ، ويَقتضي وعْدًا إنْ آمَنوا، ووعيدًا إنْ لم يؤمِنوا[١].

- وفي ذِكْرِ اسمِ الجَلالةِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لتكونَ الجملةُ مُستقِلَّةً جاريةً مَجْرَى المَثَلِ والكَلِمِ الجوامعِ، ولأنَّ الاسمَ الظَّاهرَ أقوى دَلالةً مِنَ الضميرِ؛ لاستِغنائِه عن تطلُّبِ المَعادِ، وفيه مِن تربيةِ المَهابةِ ما في قولِ الخليفةِ: (أميرُ المُؤمِنينَ يأمُرُكُم بكذا)[٢].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ جِيءَ بصفةِ (الخَبيرِ) دونَ (البصيرِ)؛ لأنَّ ما يَعمَلونَه منه مَحسوساتٌ ومنه غَيرُ محسوساتٍ، كالمُعتقَداتِ، ومِنها الإيمانُ بالبعثِ، فعُلِّقَ بالوَصفِ الدَّالِّ على تعلُّقِ العِلمِ الإلهيِّ بالموجوداتِ كلِّها، بخِلافِ قولِه فيما تقدَّمَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢]؛ فإنَّ لكُفرِ الكافِرينَ وإيمانِ المُؤمِنينَ آثارًا ظاهرةً محسوسةً؛ فعُلِّقَتْ بالوصفِ الدَّالِّ على تعلُّقِ العِلمِ الإلهيِّ بالمحسوساتِ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أصْلُه: (والله خبيرٌ بما تعملون)، وقَدَّمَ المعمولَ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، وهذا الحصرُ إضافيٌّ[٤]، والغرضُ منه التَّحذيرُ، فإفادةُ الحصرِ هنا لتمامِ التَّحذيرِ، يعني: كأنْ يُقالَ: لو لَمْ يكُنْ خبيرًا بشيءٍ؛ لَكان خبيرًا بأعمالِكم؛ فاحذَروا المُخالَفةَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣، ٢٧٤).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٧٧).

الآيتانِ (٩-١٠)

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾: أي: يومُ القيامةِ الَّذي يَربَحُ فيه المُؤمِنونَ ويَخسَرُ الكافِرونَ، والغَبْنُ: أن يُعطَى البائعُ ثَمَنًا لِمَبيعِه دونَ حَقِّ قِيمتِه الَّتي يُعَوَّضُ بها مِثلُه، ويُطلَقُ على مُطلَقِ الخُسرانِ، وأصلُ (غبن): يدُلُّ على الخَفاءِ، ومنه مَغابِنُ الجَسَدِ، وهي: ما يَخفى عن العَينِ، وسُمِّيَ الغَبْنُ في البَيعِ؛ لخَفائِه عن صاحِبِه[1].

﴿يُكَفِّرْ﴾: أي: يَمحُ ويَستُرْ، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى محذِّرًا عبادَه مِن أهوالِ يومِ القيامةِ: يَومَ يَجمَعُكم اللهُ جميعًا ليَومِ القيامةِ، ذلك اليَومُ هو اليَومُ يَغبِنُ فيه بعضُ أهلِ المَحشَرِ بعضًا؛ فيَغبِنُ فيه أهلُ الحقِّ أهلَ الباطِلِ، ويَغبِنُ فيه أهلُ الإيمانِ أهلَ الكفرِ، وأهلُ الطَّاعةِ أهلَ المعصيةِ، وأهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ.

ثمَّ يُفصِّلُ الله تعالى أحوالَ النَّاسِ في هذا اليومِ، فيقولُ: ومَن يُؤمِنْ باللهِ ويَعمَلْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٤، ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

بطاعتِه يَمْحُ اللهُ عنه ذُنوبَه، ويُدخِلْه جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ، خالدينَ فيها أبَدًا، ذلك هو الفَوزُ العَظيمُ.

والَّذين كَفَروا باللهِ وكَذَّبوا بآياتِه أولئك أصحابُ النَّارِ، خالدينَ فيها أبَدًا، وبِئْسَ المَرجِعُ هيَ!

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى بالبَعثِ، وأقسَمَ عليه، وأشار إلى دليلِه السَّابِقِ، وسَبَّب عنه ما يُنَجِّي في يَومِه؛ ذكَرَ يَومَه وما يكونُ فيه؛ ليُحذَرَ، فقال تعالى[1]:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾.

أي: يَومَ يَجمَعُكم اللهُ جميعًا؛ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإنْسَكم وجِنَّكم- ليَومِ القيامةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

قيلَ: ﴿يَوْمَ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بـ﴿خَبِيرٌ﴾ في قَولِه تعالى السَّابِقِ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: هو بما تَعملونَ خَبيرٌ يَومَ يَجمَعُكم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٠٥).

وقيلَ: ﴿يَوْمَ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾. أي: لَتُنَبَّؤُنَّ يومَ القيامةِ. وممَّن ذهب إليه: الزَّجَّاجُ، والنَّحَّاسُ، والعُلَيمي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٨٠)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٤).

وقيلَ: ﴿يَوْمَ﴾ مُتعَلِّقٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُروا. وممَّن قال بذلك: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٨). =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال الله سُبحانَه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَجمَعُ

= قال الرازي: (وفي تسميتِه بيومِ الجَمعِ وُجوهٌ:

الأوَّلُ: أنَّ الخلائقَ يُجمَعون فيه، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ﴾، فيَجتمِعُ فيه أهلُ السَّمواتِ مع أهلِ الأرضِ.

الثَّاني: أنَّه يجمَعُ بيْن الأرواحِ والأجسادِ.

الثَّالثُ: يجمعُ بيْنَ كلِّ عاملٍ وعمَلِه.

الرَّابعُ: يجمعُ بيْنَ الظَّالمِ والمظلومِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٢).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ الجمعَ للخلائقِ؛ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وأهلِ السَّمَواتِ وأهلِ الأرضِ-: السَّمْعانيُّ، والبَغَوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠).

وممَّن اقتصَر على أنَّ المرادَ جمْعُ الأوَّلينَ والآخِرينَ: ابنُ كثير، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

قال ابن كثير: (قولُه: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ﴾ وهو يومُ القيامةِ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يُجمَعُ فيه الأوَّلونَ والآخِرونَ في صعيدٍ واحدٍ، يُسْمِعُهم الدَّاعي، ويَنْفُذُهم البصرُ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧).

وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يُرادَ الجَمعُ الَّذي في قَولِه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، وهذا زيادةُ تحقيقٍ للبَعثِ الَّذي أنكَروه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٤).

وجمَع الشَّوكانيُّ بيْن بعضِ الأوجُهِ، فقال: (ومعنى ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ﴾ ليومِ القيامةِ؛ فإنَّه يُجمَعُ فيه أهلُ المَحشَرِ للجزاءِ، ويُجمَعُ فيه بيْنَ كلِّ عامِلٍ وعمَلِه، وبيْن كلِّ نبيٍّ وأمَّتِه، وبيْن كلِّ مَظلومٍ وظالِمِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٣).

اللهُ يومَ القيامةِ الأوَّلِينَ والآخِرينَ في صَعيدٍ واحِدٍ))[١].

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾.

أي: ذلك اليَومُ هو اليَومُ الَّذي يَغبِنُ فيه بعضُ أهلِ المَحشَرِ بعضًا؛ فيَغبِنُ فيه أهلُ الحقِّ أهلَ الباطلِ، ويَغبِنُ فيه أهلُ الإيمانِ أهلَ الكفرِ، وأهلُ الطَّاعةِ أهلَ المعصيةِ، وأهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ[٢].

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٧١٢)، ومسلمٌ (١٩٤) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٣).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بيومِ التَّغابُنِ: يوم يَغبِنُ فيه أهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ، والمؤمنونَ الفاسِقين، وأهلُ الهدى أهلَ الضَّلالةِ، ومَن ارتفعتْ مَنزِلَتُه في الجنَّةِ مَن كان في دُونِ مَنزِلَتِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكِّي، وابن عطية، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٨٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

قال الواحدي: (قال المُقاتِلانِ: هو يوم يَغبِنُ فيه أهلُ الحقِّ أهلَ الباطلِ، وأهلُ الهدى أهلَ الضَّلالةِ، وأهلُ الإيمانِ أهلَ الكفرِ، فلا غَبْنَ أبْيَنُ منه، هؤلاء يَدخُلونَ الجنَّةَ، وهؤلاء يدخلون النَّارَ، وهذا معنى قولِ جماعةِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (٢١/ ٤٨٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٥٢).

وقال ابن عطيَّة: (وهو يَومُ التَّغابُنِ؛ وذلك أنَّ كلَّ واحدٍ يَنبعِثُ مِن قبرِه وهو يَرجو حظًّا ومَنزِلةً، فإذا وقَع الجزاءُ غبَنَ المؤمنونَ الكافِرين؛ لأنَّهم يَحوزونَ الجنَّةَ، ويَحصُلُ الكفَّارُ في النَّارِ. نحا هذا المنحى مجاهدٌ وغيرُه، وليس هذا الفِعلُ مِنَ التَّغابُنِ مِن اثنَينِ، بل كتَواضَعَ وتَحامَلَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٩).

وقيل: إنَّ المرادَ: يَغبِنُ بعضُهم بعضًا؛ لِنُزولِ السُّعداءِ مَنازِلَ الأشقياءِ الَّتي كانوا يَنزِلونها لو كانوا سُعداءَ، ونُزولِ الأشقياءِ مَنازِلَ السُّعداءِ الَّتي كانوا يَنزِلونها لو كانوا أشقياءَ. وفيه تهكُّمٌ =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

وقال الله سُبحانَه: ﴿... أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الحاقة: ٤٩، ٥٠].

وعَن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ما مِنكُم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومنزلٌ في النَّارِ، فإذا ماتَ

= بالأشقياءِ؛ لأنَّ نُزولَهم ليس بغَبْنٍ. وممَّن اختار هذا القولَ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو حيان، وأبو السعود، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٠٣).

وقيل: يَظهَرُ يومَئذٍ غَبْنُ كلِّ كافرٍ بتَركِه الإيمانَ، ويَظهَرُ غَبْنُ كلِّ مؤمنٍ بتقصيرِه في الإحسانِ. وممَّن اختاره: البغويُّ، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٧٦).

وقال السمرقندي: (يَغبنُ فيه الكافرُ نفْسَه وأهْلَه ومَنازِلَه في الجنَّةِ، يعني: يكونُ له النَّارُ مكانَ الجنَّةِ، وذلك هو الغَبنُ والخُسرانُ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٦).

وقال القرطبي: (أي: أنَّ أهلَ الجنَّةِ أخَذوا الجنَّةَ، وأخَذَ أهلُ النَّارِ النَّارَ على طريقِ المُبادَلةِ؛ فوَقَع الغَبنُ لأجْلِ مُبادَلتِهم الخَيرَ بالشَّرِّ، والجَيِّدَ بالرَّديءِ، والنَّعيمَ بالعَذابِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٦).

وقال ابنُ عاشور: (وأمَّا صِيغةُ التَّفاعُلِ فحَمَلَها جُمهورُ المفَسِّرينَ على حقيقتِها مِن حُصولِ الفِعلِ مِن جانِبَينِ، ففَسَّروها بأنَّ أهلَ الجنَّةِ غَبَنوا أهلَ النَّارِ؛ إذ أهلُ الجنَّةِ أخَذوا الجنَّةَ، وأهلُ جَهنَّمَ أخَذوا جَهنَّمَ. قاله مجاهدٌ، وقتادةُ، والحَسَنُ. فحَمَل القُرطبيُّ وغَيرُه كلامَ هؤلاء الأئمَّةِ على أنَّ التَّغابُنَ تَمثيلٌ لحالِ الفريقَينِ بحالِ مُتبايعَينِ أخَذ أحدُهما الثَّمَنَ الوافيَ، وأخَذَ الآخَرُ الثَّمَنَ المَغبونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٧).

فدَخَل النَّارَ، وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذلك قولُه تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]))[١].

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ الَّذي يَظهَرُ فيه التَّغابُنُ والتَّفاوُتُ بيْن الخلائقِ، ويَغبِنُ المؤمنونَ الفاسِقين، ويَعرِفُ المجرمون أنَّهم هم الخاسِرون؛ فكأنَّه قيل: بأيِّ شَيءٍ يَحصُلُ الفَلاحُ والشَّقاءُ، والنَّعيمُ والعذابُ؟ فذكر تعالى أسبابَ ذلك بقولِه[٢]:

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾.

أي: ومَن يؤمِنْ باللهِ ويَعمَلْ بطاعتِه، يَمْحُ اللهُ عنه ذُنوبَه[٣].

﴿وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: ويُدخِلْه اللهُ جناتٍ تَجري أنهارُها فيها مِن تَحتِ قصورِها وأشجارِها[٤].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾.

---

(١) أخرجه ابنُ ماجه (٤٣٤١)، والبَيْهَقيُّ في ((البعث والنشور)) (٢٤١).
صحَّح إسنادَه القُرطبيُّ في ((التذكرة)) (ص: ٤٣٥)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٤٥١)، وقال البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٢٦٦): (إسنادُه صحيحٌ على شرطِ الشَّيخَينِ)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٥٧٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

أي: لابِثينَ في تلك الجَنَّاتِ أبَدًا، فلا يَموتونَ فيها، ولا يُخرَجونَ منها[١].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾

أي: تكفيرُ السَّيِّئاتِ والخُلودُ في الجنَّاتِ: هو الظَّفَرُ العَظيمُ الجالِبُ للمَسارِّ، والمُنجي مِن المَضارِّ[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الفائِزَ بلُزومِه التَّقوى؛ ترغيبًا- أتْبَعَه الخائِبَ بسَبَبِ إفسادِ القُوَّتَينِ الحاملتَينِ على التَّقْوى: العِلميَّةِ والعَمَليَّةِ؛ تَرهيبًا[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: والَّذين كَفَروا باللهِ وكَذَّبوا بآياتِه أولئك أصحابُ النَّارِ الملازِمونَ لها دَومًا، الماكِثونَ فيها أبَدًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [الروم: ١٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٧٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢١، ١٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وبِئسَ المَرجِعُ والمُنقلَبُ الَّذي يَصيرُ إليه الكفَّارُ في الآخِرةِ: النَّارُ[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

اشتَرِ نفْسَك اليَومَ؛ فإنَّ السُّوقَ قائمةٌ، والثَّمنَ موجودٌ، والبضائعَ رخيصةٌ، وسيأتي على تلك السُّوقِ والبضائعِ يومٌ لا تصِلُ فيها إلى قليلٍ ولا كثيرٍ، ذلك يَومُ التَّغابُنِ، يومَ يَعَضُّ الظَّالمُ على يدَيه[٢]. وقد أعطى اللهُ تعالى كلَّ إنسانٍ رأسَ مالٍ، وأمَرَه بالتِّجارةِ فيه مع خالِقِه، ورأسُ هذا المالِ هو ساعاتُ العُمُرِ ودقائقُه وثَوانيه، فلا مثيلَ لها في الدُّنيا، ولا يوجَدُ شَيءٌ أكبَرُ منها فائدةً إذا أُعمِلَتْ على الوجهِ الأتَمِّ، هذا رأسُ مالِك أيُّها الإنسانُ، وأنت مأمورٌ بتحريكِه والتِّجارةِ فيه مع الله، فإن كنتَ رجُلًا عاقلًا يُقدِّرُ الأمورَ ويَخافُ العَواقِبَ السَّيِّئةَ حرَّكْتَ عُمُرَك، وتاجَرْتَ فيه مع خالِقِ السَّمواتِ والأرضِ تجارةً، وذلك أن تَصرِفَ ساعاتِ العُمُرَ وأوقاتَه ودقائقَه وثوانيَه فيما يُرضيه، وتَحذَرَ أن تَصرِفَ شيئًا منه فيما يُسخِطُه، فتَنظُرَ في أوقاتِ عُمُرِك الوقتَ الَّذي يَتوجَّهُ إليك فيه أمرٌ مِن السَّماءِ -كأوقاتِ الصَّلَواتِ، وأوقاتِ الصَّومِ، وأوقاتِ الحجِّ، وما جرى مَجرى ذلك- فتُبادِرَ إلى امتِثالِ أمْرِك بنفْسٍ طَيِّبةٍ مُسارِعةٍ راغِبةٍ فيما عندَ الله، والأوقاتُ الَّتي لم يتَوجَّهْ عليك طلبٌ مخصوصٌ فيها تَستزيدُ مِن الخَيرِ، وتَحذَرُ كلَّ الحذَرِ مِن أن تَرتَكِبَ شيئًا يُغضِبُ خالِقَك ويُسخِطُه، فإذا اتَّجَرْتَ مع الله هذه التِّجارةَ رَبِحْتَ رِبحًا عظيمًا؛ رَبِحتَ مُجاوَرةَ ربٍّ غيرِ غَضْبانَ، والنَّظرَ إلى وجْهِه الكريمِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٤٩).

وسُكْنى الجنَّةِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ إنْ قيلَ: فأيُّ مُعامَلةٍ وقَعَت بيْنَهما حتَّى يقَعَ الغَبْنُ فيها؟!

فالجوابُ: هو تمثيلُ الغَبْنِ في الشِّراءِ والبَيعِ -على قولٍ-، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦]، ولَمَّا ذَكَر أنَّ الكُفَّارَ اشتَرَوُا الضَّلالةَ بالهُدى وما رَبِحوا في تجارتِهم بل خَسِروا، وذكَرَ أيضًا أنَّهم غُبِنوا؛ وذلك أنَّ أهلَ الجنَّةِ اشتَرَوُا الآخِرةَ بتَرْكِ الدُّنيا، واشترى أهلُ النَّارِ الدُّنيا بتَرْكِ الآخِرةِ، وهذا نوعُ مُبادَلةٍ، وقد فَرَّق اللهُ سُبحانَه وتعالى الخَلْقَ فَريقَين: فريقًا للجَنَّةِ، وفريقًا للنَّارِ، ومَنازِلُ الكُلِّ مَوضوعةٌ في الجنَّةِ والنَّارِ، فقد يَسبِقُ الخِذْلانُ على العَبدِ فيَكونُ مِن أهلِ النَّارِ، فيَحصُلُ الموفَّقُ على مَنزِلِ المخذولِ، ومَنزِلُ الموفَّقِ في النَّارِ للمَخذولِ، فكأنَّه وقَعَ التَّبادُلُ؛ فحَصَل التَّغابُنُ، والأمثالُ موضوعةٌ للبيانِ في حُكمِ اللُّغةِ والقُرآنِ[٢]، وأيضًا فأهلُ الجنَّةِ بايَعوا على الإسلامِ بالجنَّةِ فرَبِحوا، وأهلُ النَّارِ امْتَنَعوا مِن الإسلامِ فخَسِروا؛ فشُبِّهوا بالمُتبايعَينِ يَغْبِنُ أحدُهما الآخَرَ في بَيعِه، ويُؤَيِّدُ ذلك قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لا يَدخُلُ أحدٌ الجنَّةَ إلَّا أُرِيَ مَقْعَدَه مِن النَّارِ لو أساءَ؛ لِيَزدادَ شُكرًا، ولا يَدخُلُ أحدٌ النَّارَ إلَّا أُرِيَ مَقْعَدَه مِن الجنَّةِ لو أَحْسَنَ؛ لِيَكونَ عليه حَسْرةً))[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ استُدِلَّ بقَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٤/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٥٣).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٦٥٦٩) مِن حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ على أنَّه لا يجوزُ الغَبْنُ في مُعاملةِ الدُّنيا؛ لأنَّ اللهَ تعالى خَصَّص التَّغابُنَ بيومِ القيامةِ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾، وهذا الاختِصاصُ يُفيدُ أنَّه لا غَبْنَ في الدُّنيا؛ فكُلُّ مَنِ اطَّلَع على غَبْنٍ في مَبيعٍ فإنَّه مردودٌ[1] على خِلافٍ بيْنَ الفُقهاءِ في ذلك[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ فيه سُؤالٌ: قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ﴾ بلَفظِ الواحِدِ، و﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ بلَفظِ الجَمعِ؟

الجوابُ: أنَّ ذلك بحَسَبِ اللَّفظِ، وهذا بحَسَبِ المعنى[3].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بلَفظِ المُستَقبَلِ، وفي الكُفْرِ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بلَفظِ الماضي؛ وذلك أنَّ تقديرَ الكَلامِ: ومَن يؤمِنْ باللهِ مِن الَّذين كَفَروا وكَذَّبوا بآياتِنا، يُدخِلْه جنَّاتٍ، ومَن لم يؤمِنْ منهم فأولئك أصحابُ النَّارِ[4].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ هذان هما الأساسانِ للكُفرِ؛ لأنَّ الكُفرَ يَدورُ على شيئينِ: إمَّا استِكبارٍ، وإمَّا جُحودٍ، فكُفْرُ إبليسَ: كُفْرُ استكبارٍ؛ لأنه مُقِرٌّ باللهِ، لكنَّه استكبَرَ، وكُفْرُ فِرعَونَ وقَومِه: كُفْرُ جُحودٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ [النمل: ١٤]، فَهُمْ في ألْسِنَتِهم

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٦١).

(٢) اتَّفَق الأئمَّةُ الأربعةُ: أبو حنيفةَ ومالكٌ والشَّافعيُّ وأحمدُ على أنَّ الغَبْنَ في البَيعِ بما لا يَفحُشُ لا يؤثِّرُ في صِحَّتِه، ثمَّ اختلَفوا إذا كان الغَبْنُ فيه بما لا يَتغابَنُ النَّاسُ بمِثلِه في العادةِ؛ فقال مالكٌ وأحمدُ: يَثبُتُ الفَسخُ، وقدَّره مالكٌ بالثُّلُثِ ولم يُقَدِّرْه أحمدُ، وقال أبو حَنيفةَ والشَّافِعيُّ: ليس له الفَسخُ. يُنظر: ((اختلاف الأئمة العلماء)) لابن هُبَيْرةَ (١/ ٣٥٦)، ((المغني)) لابن قدامة (٣/ ٤٩٨)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٠/ ١٤٩، ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُكَذِّبُون، لكنَّهم في نُفوسِهم مُصَدِّقُون؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[(١)] [النمل: ١٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيه سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، بعدَ قَولِه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وذلك بِئسَ المصيرُ؟

الجوابُ: ذلك وإن كان في معناه فلا يدُلُّ عليه بطَريقِ التَّصريحِ؛ فالتَّصريحُ مِمَّا يؤَكِّدُه[(٢)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: الملازِمون لها؛ ولهذا لا تأتي «أصحابُ النَّارِ» إلَّا في الكُفَّارِ، لا تأتي في المؤمِنينَ أبدًا! لأنَّ المرادَ الَّذين هم مُصاحِبون لها، والمصاحِبُ لا بُدَّ أنْ يُلازِمَ مَن صاحَبَه[(٣)].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ١٠] تَفصيلٌ لِما أُجمِلَ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨] الَّذي هو تَذييلٌ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٧).

- وانتصَبَ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ [التغابن: ٩] بقولِه: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، أو بـ﴿خَيْرٌ﴾ [التغابن: ٨]، بما فيه مِن معنى الوَعيدِ والجزاءِ، أو بمحذوفٍ دلَّ عليه سِياقُ الكلامِ، أي: تَتفاوَتونَ يومَ يَجْمَعُكُم. وقيلَ: هو مفعولٌ به لِفعلٍ محذوفٍ، أي: اذْكُروا[1].

وعلى القولِ بأنَّ قولَه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ مُتعلِّقٌ بفعلِ ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن: ٧]، الَّذي هو كِنايةٌ عن «تُجازَوْنَ» على تَكذيبِكُم بالبعثِ، فيكونُ مِن تمامِ ما أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَه لهمُ ابتِداءً مِن قولِه تعالَى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾[2] [التغابن: ٧].

- واللَّامُ في ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ للتَّعليلِ، أي: يَجمَعُكم مِن أجْلِ اليَومِ المعروفِ بالجمعِ المخصوصِ، وهو الَّذي مِن أجْلِ جمْعِ النَّاسِ، أي: يَبعَثُكم مِن أجْلِ أنْ يَجمَعَ النَّاسَ كلَّهم للحسابِ، فمعنى الجمعِ هذا غَيرُ معنى الَّذي في: ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ [التغابن: ٩]، فليس هذا مِن تعليلِ الشَّيءِ بنفْسِه، بل هو مِن قَبيلِ التَّجنيسِ، ويجوزُ أنْ يكونَ اللَّامُ بمعنى (في)، والأحسَنُ أنْ يكونَ اللَّامُ للتَّوقيتِ، وهي الَّتي بمعنى (عِندَ)؛ كالَّتي في قولِهم: كُتِبَ لِكَذا مَضَيْنَ مثلًا، وهو استِعمالٌ يدُلُّ على شدَّةِ الاقترابِ؛ ولذلك فسَّروهُ بمعنى (عِندَ)، ويُفيدُ هُنا أنَّهم مَجموعونَ في الأجَلِ المُعيَّنِ دونَ تأخيرٍ؛ ردًّا على قولِهم: ﴿لَّن يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧]، فيَتعلَّقُ قولُه: ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ بفِعلِ ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾، فيومُ الجَمعِ هو يومُ الحشرِ، جُعِلَ هذا المُركَّبُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١١).
ويُنظر ما تقدَّم في حاشية التَّفسير (ص: ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٤).

الإضافيُّ لقبًا ليومِ الحشرِ[١].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۚ﴾ اعتراضٌ بيْن جُملةِ ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ [التغابن: ٧] بمُتعلَّقِها وبيْن جُملةِ ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ اعتراضًا يُفيدُ تَهويلَ هذا اليَومِ؛ تَعريضًا بوَعيدِ المُشرِكينَ بالخَسارةِ في ذلك اليومِ، أي: بسُوءِ المُنقلَبِ[٢].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۚ﴾ الإتيانُ باسمِ الإشارةِ في مَقامِ الضَّميرِ؛ لقَصْدِ الاهتمامِ بهذا اليَومِ بتَمييزِه أكمَلَ تمييزٍ، مع ما يُفيدُه اسمُ إشارةِ البعيدِ مِن عُلُوِّ المرتبةِ[٣].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۚ﴾ أفادَ تَعريفُ جُزأَيِ الجُملةِ قصرَ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليهِ، أي: قصرَ جنسِ يومِ التَّغابُنِ على يومِ الجَمْعِ المُشارِ إليه باسمِ الإشارةِ، وهو مِن قَبيلِ قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ قصرًا ادِّعائيًّا[٤]، أي: ذلك يومُ الغَبْنِ، لا أيَّامُ أسواقِكم ولا غَيرُها؛ فإنَّ عدمَ أهمِّيَّةِ غَبْنِ النَّاسِ في الدُّنيا جعَلَ غَبْنَ الدُّنيا كالعدمِ، وجعَلَ يومَ القيامةِ مُنحصِرًا فيه جنسُ الغَبْنِ[٥].

- قولُه: ﴿يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۚ﴾ قيل: التَّغابُنُ تَمثيلٌ لحالِ الفريقَينِ بحالِ مُتبايعَيْنِ أخَذَ أحَدُهُما الثَّمَنَ الوافيَ، وأخَذَ الآخَرُ الثَّمَنَ المغبونَ، وأنَّ قولَه عَقِبَه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٧).

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، إلى قولِه: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ قَرينةٌ على المرادِ مِنَ الجانبَين، ويكونُ قولُه: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، إلى قولِه: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تفصيلًا للفريقَيْنِ؛ فيكونُ في الآيةِ تَشبيهٌ وتمثيلٌ؛ فالتَّمثيلُ في صِيغةِ التَّغابُنِ، وهو تَشبيهٌ مُركَّبٌ بمنزلةِ التَّشبيهِ البليغِ؛ إذِ التَّقديرُ: ذلكَ يومٌ مِثْلُ التَّغابُنِ[١].

والكلامُ تَهديدٌ للمُشركينَ بسُوءِ حالتِهم في يومِ الجَمعِ؛ إذِ المعنى: ذلك يومُ غَبْنِكم الكثيرِ الشَّديدِ، بقَرينةِ قولِه قَبْلَه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن: ٨]، والغابِنُ لهم هو اللهُ تعالَى، ولولا قَصْدُ ذلك لَمَا اقتُصِرَ على أنَّ ذلكَ يومُ تغابُنٍ؛ فإنَّ فيه ربحًا عظيمًا للمُؤمنينَ باللهِ ورسولِه والقرآنِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الواوُ استئنافيَّةٌ، والجُملةُ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لبيانِ التَّغابُنِ وتفصيلِه[٣].

- قولُه: ﴿يُكَفِّرۡ﴾ ﴿وَيُدۡخِلۡهُ﴾ قُرِئَ بياءِ الغَيْبةِ على مُقْتَضى الظَّاهِرِ؛ لأنَّ ضَميرَ الجَلالةِ يُؤْذِنُ بعِنايةِ اللهِ بهذا الفريقِ، وعلى قِراءةِ ﴿نُكَفِّرۡ﴾ ﴿وَنُدۡخِلۡهُ﴾ -بنونِ العظَمةِ[٤]- فيَكونُ فيه الْتفاتٌ مِنَ الغَيْبةِ إلى التَّكلُّمِ؛ لأنَّ مَقامَ الوعدِ مَقامُ إقبالٍ، فناسَبَه ضَميرُ التَّكلُّمِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١١).

(٤) قرأهما المَدَنيَّانِ -نافعٌ وأبو جعفرٍ-، وابنُ عامرٍ بالنُّونِ، وقرأهما الباقونَ بالياءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٧).

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ تَذييلٌ[١]. والإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى مَجموعِ الأمْرَينِ -تَكفيرِ السَّيِّئاتِ، وإدْخالِ الجَنَّاتِ-؛ ولذلك جعَلَه الفَوزَ العظيمَ؛ لأنَّه جامعٌ للمَصالحِ: مِن دَفعِ المَضارِّ، وجَلبِ المَنافعِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وقال في سُورةِ (الطَّلاق): ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]؛ فخصَّصَ الآيةَ الأُولى بقولِه: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، وخَلَت الآيةُ الثَّانيةُ منه؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الآيةَ الأُولى جاءتْ بعْدَ قولِه مُخبرًا عن الكفَّارِ: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ * زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٦، ٧]، فهذه سيِّئاتٌ تَحتاجُ إلى تَكفيرٍ إذا آمَنَ باللهِ بعْدَها، فقال: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ في مُستقبَلِ عُمُرِه، يَمسَحْ عنه ما سبَقَ مِن كُفرِه، ثمَّ يُوجِبْ له جنَّاتٍ، والآيةُ الثَّانيةُ لم يَتقدَّمْها خبَرٌ عن كُفَّارٍ بسيِّئاتٍ فيُوعَدوا بتَكفيرِها إذا أقْلَعوا عنها وتابوا منها وعَمِلوا الصَّالحاتِ مَكانَها، وكان مَضمونًا تَكفيرُ السَّيِّئاتِ عندَ الإيمانِ، وعمَلِ الصَّالحاتِ؛ فلم يُحتَجْ إلى ذِكرِه كما كان الأمرُ في غيرِه[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٨١، ١٢٨٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٧)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٧٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٨).

فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أي: كفَروا وكذَّبوا مِنْ قَبْلُ، واستمَرُّوا على كفرِهم وتكذيبِهم، فلم يَسْتَجيبوا لهذه الدَّعوةِ، ثَبَت لهم أنَّهم أصحابُ النَّارِ؛ ولذلك جِيءَ في جانبِ الخَبرِ عنهم بالجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ لعَراقتِهم في الكفرِ والتَّكذيبِ[1].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لتَمييزِهم تمييزًا لا يَلتبِسُ معه غيرُهم بهم، مع ما يُفيدُه اسمُ الإشارةِ مِن أنَّ استِحقاقَهم لِمُلازَمةِ النَّارِ ناشئٌ عن الكُفرِ والتَّكذيبِ بآياتِ اللهِ، وهذا وعيدٌ[2].

- وجُملةُ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ اعتِراضٌ تذييليٌّ؛ لزيادةِ تَهويلِ الوعيدِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١-١٢)

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا أنَّ كلَّ شيءٍ بقضائه وقدَرِه: ما أُصيبَ أحدٌ بمُصيبةٍ إلَّا بقَضاءِ اللهِ تعالى ومَشيئتِه، ومَن يُؤمِنْ باللهِ وبأنَّ المصائبَ بإذْنِه وقَدَرِه، يَهْدِ اللهُ قَلْبَه للحَقِّ، واللهُ بكُلِّ شَيءٍ عليمٌ.

ثمَّ يَحُضُّ الله تعالى عبادَه على طاعتِه والتَّوكُّلِ عليه، فيقولُ: وأطيعوا اللهَ وأطيعوا رَسولَه، فإنْ أعرَضْتُم فإنَّما على رَسولِنا البلاغُ الواضِحُ الَّذي تُقامُ به الحُجَّةُ عليكم، اللهُ لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو، وعلى اللهِ وَحْدَه فلْيَعتَمِدِ المؤمِنونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذه الآيةُ تتعَلَّقُ بقَولِه تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التغابن: ٨]؛ لِما أنَّ مَن يُؤمِنُ باللهِ فيُصَدِّقُه يَعلَمُ أنَّه لا تُصيبُه مُصيبةٌ إلَّا بإذنِ اللهِ[١].

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ما أُصيبَ أحدٌ بأيِّ مُصيبةٍ كانت إلَّا بقَضاءِ اللهِ تعالى وتَقديرِه ومَشيئتِه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٩)، ((مجموع الفتاوى)) =

كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

أي: ومَن يُؤمِنْ باللهِ ويَعلَمْ أنَّ المصائِبَ بإذْنِه وقَدَرِه، يُوَفِّقِ اللهُ قَلْبَه للحَقِّ؛ فيُسلِّمَ لأمْرِه، ويَرْضَى بقَضائِه، فتَهُونَ عليه مُصيبتُه[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((عَجَبًا لأمرِ المُؤمِنِ! إنَّ أمْرَه كُلَّه خَيرٌ، وليس ذاك لأحَدٍ إلَّا للمُؤمِنِ؛ إن أصابَتْه سَرَّاءُ شَكَر فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبَر فكان خيرًا له))[2].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ ذو عِلمٍ تامٍّ بكُلِّ شَيءٍ، فيَعلَمُ أقوالَ خَلْقِه وأفعالَهم، وضَمائِرَهم وأحوالَهم، لا يَخْفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه[3].

= لابن تيمية (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨).

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان تقديرُ ما سَبَق: فاصبِروا عندَ هُجومِ المصائبِ، عَطَف عليه قَولَه؛ تحذيرًا مِن أن يُشتغَلَ بها، فتُوقِعَ في الهلاكِ، وتَقطَعَ عن أسبابِ النَّجاةِ، دالًّا على تعَلُّمِ أُمورِ الدِّينِ، مُشيرًا إلى أنَّ العبادةَ لا تُقبَلُ إلَّا بالاتِّباعِ لا بالابتِداعِ: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾ الآيةَ[1].

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾.

أي: وأطيعوا اللهَ وأطيعوا رَسولَه، بامتِثالِ ما أمَر الله به ورسولُه، واجتنابِ ما نهَى الله عنه ورسولُه[2].

﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾.

أي: فإنْ أعرَضْتُم عن طاعةِ اللهِ وطاعةِ رَسولِه، فإنَّما على رَسولِنا محمَّدٍ إبلاغُ ما أرسَلَه اللهُ به إبلاغًا واضِحًا تُقامُ به الحُجَّةُ، ويَنقَطِعُ به العُذرُ، وليس عليه حِسابُكم، بل اللهُ تعالى هو الَّذي يتَولَّى ذلك، ويُعاقِبُكم على تولِّيكم[3].

كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤].

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: اللهُ لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو وَحْدَه؛ فلا تَصلُحُ العِبادةُ لِغَيرِه[1].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ وَحْدَه فلْيَعتَمِدِ المؤمِنونَ، ويُفَوِّضوا جميعَ أُمورِهم إليه[2].

كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ هذا عامٌّ لجَميعِ المصائِبِ؛ في النَّفْسِ والمالِ، والولَدِ والأحبابِ ونَحوِهم، فجميعُ ما أصاب العبادَ فبِقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، قد سَبَق بذلك عِلمُ اللهِ تعالى، وجرى به قَلَمُه، ونَفَذَت به مَشيئتُه، واقتَضَتْه حِكمتُه، والشَّأنُ كُلُّ الشَّأنِ: هل يقومُ العَبدُ بالوظيفةِ الَّتي عليه في هذا المقامِ أو لا يقومُ بها؟ فإنْ قام بها فله الثَّوابُ الجَزيلُ، والأجرُ الجَميلُ في الدُّنيا والآخِرةِ، فإذا آمَنَ أنَّها مِن عندِ اللهِ، فرَضِيَ بذلك، وسَلَّم لأمْرِه؛ هدى اللهُ قَلْبَه، فاطمأَنَّ ولم يَنزعِجْ عندَ المصائبِ كما يَجري لِمَن لم يَهْدِ اللهُ قَلْبَه، بل يَرزُقُه الثَّباتَ عندَ وُرودِها، والقيامَ بمُوجَبِ الصَّبرِ؛ فيَحصُلُ له بذلك ثَوابٌ عاجِلٌ، مع ما يَدَّخِرُ اللهُ له يومَ الجَزاءِ مِن الثَّوابِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠]، وعُلِم مِن هذا أنَّ مَن لم يُؤمِنْ باللهِ عِندَ وُرودِ المصائِبِ بأنْ لم يَلحَظْ قَضاءَ اللهِ وقَدَرَه، بل وَقَف مع مجرَّدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

الأسبابِ: أنَّه يُخذَلُ، ويَكِلُه اللهُ إلى نفْسِه، وإذا وُكِلَ العَبدُ إلى نفْسِه فالنَّفسُ ليس عِندَها إلَّا الجَزَعُ والهَلَعُ، الَّذي هو عُقوبةٌ عاجِلةٌ على العبدِ قبْلَ عُقوبةِ الآخِرةِ، على ما فَرَّط في واجِبِ الصَّبرِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أنَّ مِن الإيمانِ باللهِ الصَّبرَ على أقدارِ اللهِ[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ القَصدُ مِن هذا تعليمُ المُسلِمينَ الصَّبرَ على ما يَغلِبُهم مِن مصائِبِ الحوادِثِ؛ لكي لا تُفَلَّ عزائِمُهم، ولا يَهِنوا، ولا يُلهيَهم الحُزنُ عن مُهِمَّاتِ أُمورِهم، وتدبيرِ شُؤونِهم، كما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾[٣] [الحديد: ٢٣].

٤- مِن فوائِدِ الإيمانِ بالقَدَرِ هَونُ المصائبِ على العَبدِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ أنَّها مِن عندِ اللهِ هانتْ عليه المُصيبةُ، كما قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ فيه أنَّ كُلَّ مَنْ آمَنَ الإيمانَ المأمورَ به؛ مِن الإيمانِ باللهِ، ومَلائِكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليَومِ الآخِرِ، والقَدَرِ؛ خَيرِه وشَرِّه، وصَدَّق إيمانَه بما يَقتَضيه الإيمانُ مِن القيامِ بلَوازِمِه وواجباتِه: أنَّ هذا السَّبَبَ الَّذي قام به العَبدُ أكبَرُ سَبَبٍ لهدايةِ اللهِ له في أحوالِه وأقوالِه وأفعالِه، وفي عِلمِه وعمَلِه. وهذا أفضَلُ جَزاءٍ يُعطيه اللهُ لأهلِ الإيمانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٥٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه عُمومُ عِلم اللهِ سُبحانَه، وفائدةُ ذِكْرِ عُمومِ العِلمِ: التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ؛ لأنَّ مَن عَلِم بك مُمتثِلًا أو مخالِفًا فسوف يُجازيك على ذلك، فإنْ كان الأمرُ هكذا ففي كلِّ آيةٍ فيها إثباتُ العِلمِ تحذيرٌ مِن مُخالَفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لئلَّا يَقَعَ الإنسانُ فيما يُسخِطُ اللهَ سُبحانَه وتعالى عليه[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ وُجوبُ طاعةِ اللهِ ورَسولِه[٢]، وفيه تحذيرٌ مِن عِصيانِ اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فيه أنَّه بحَسَبِ إيمانِ العَبدِ يكونُ توَكُّلُه؛ فكُلَّما قَوِيَ الإيمانُ قَوِيَ التَّوَكُّلُ[٤]، فقد ذَكَر سُبحانَه اسمَ الإيمانِ هاهنا دونَ سائرِ أسمائِهم؛ دَلالةً على استدعاءِ الإيمانِ للتَّوَكُّلِ، وأنَّ قُوَّةَ التَّوَكُّلِ وضَعْفَه بحَسَبِ قُوَّةِ الإيمانِ وضَعْفِه، وكُلَّما قَوِيَ إيمانُ العبدِ كان توكُّلُه أقوى، وإذا ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَ التَّوكُّلُ، وإذا كان التَّوكُّلُ ضعيفًا فهو دليلٌ على ضَعْفِ الإيمانِ ولا بُدَّ[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ ذِكْرُ الإذْنِ الكَونيِّ -وهو المتعلِّقُ بالخَلْقِ والتَّكوينِ- وهذا لا بُدَّ مِن وُقوعِه، ويُقابِلُه الإذْنُ الشَّرعيُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٥) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٥).

-وهو ما يَتعَلَّقُ بالشَّرعِ والعِبادةِ-، مثالُه: قولُه تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، وقولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، والفرقُ بيْنَهما أنَّ المأذونَ به شرعًا قد يقَعُ وقد لا يقعُ، وأمَّا المأذونُ به قَدَرًا فواقِعٌ لا مَحالةَ، ومِن جهةٍ أُخرى: أنَّ المأذونَ به شرعًا محبوبٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، والمأذونَ به قَدَرًا قد يكونُ محبوبًا، وقد يكونُ غيرَ محبوبٍ[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ التَّنصيصُ على المُصيبةِ هنا؛ ليَدُلَّ أنَّ كُلَّ شَيءٍ يَنالُ العَبدَ إنَّما هو بإذنِ اللهِ؛ لأنَّ الجِبِلَّةَ تأبَى المصائِبَ وتتَوَقَّاها، ومع ذلك تُصيبُه، وليس في مَقدورِه دَفْعُها، بخِلافِ الخَيرِ؛ قد يدَّعي أنَّه حَصَّله باجتِهادٍ منه، كما قال قارونُ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[٢] [القصص: ٧٨].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيه رَدٌّ على القَدَريَّةِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أنَّ أسماءَ اللهِ دالَّةٌ على مَعانٍ هي صِفاتُه، فاللهُ تعالى يُعَلِّقُ بأسمائِه المعمولاتِ مِن الظُّروفِ والجارِّ والمجرورِ وغَيرِهما، ولو كانت أعلامًا مَحْضَةً لم يَصِحَّ فيها ذلك[٤]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أنَّ طاعةَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مستقلَّةٌ، بمعنى: أنه إذا أمَرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بشَيءٍ، لا نقولُ: هل يوجَدُ في القرآنِ هذا الأمرُ أو لا يوجدُ؟ بل طاعتُه مستقلَّةٌ؛ وجْهُ ذلك: أنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٦).

أعاد فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وإعادةُ الفعلِ تدُلُّ على أنَّ طاعةَ الرَّسولِ مستقلَّةٌ، بمعنى أنَّنا لا نحتاجُ إلى شاهدٍ مِن القرآنِ فيما أمَرَ به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم. لكنْ هل يمكنُ أنْ يكونَ أَمْرُ اللهِ وأمْرُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُتناقِضَينِ؟

الجوابُ: لا يقَعُ التَّناقضُ؛ لأنَّه لو وقَعَ لَكانت طاعةُ الرَّسولِ مَعصيةً للهِ، وطاعةُ اللهِ معصيةً للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم! وهذا تناقُضٌ؛ لأنَّ التَّناقضَ يكونُ النَّقيضُ حُكْمُه ضد حُكْمِ نقيضِه، فلو قُلْنا: إنَّه يَقَعُ التَّناقضُ لَزِمَ مِن ذلك ما تقَدَّمَ مِن أنَّ طاعةَ اللهِ تكونُ معصيةً للرَّسولِ، وطاعةَ الرَّسولِ تكونُ معصيةً للهِ[(١)]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أنَّ الكتابَ والسُّنَّةَ أصلٌ يُرجَعُ إليه[(٢)].

٧- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾. في قَولِه تعالى: ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ أنَّ الرِّسالةَ مِن أَفْخَرِ الأوصافِ الَّتي يَتَّصِفُ بها العبدُ، ولا شكَّ أنَّ الرَّسولَ يَفْضُلُ ويَشرُفُ بحَسَبِ مَنزِلةِ مُرْسِلِه، لو جاء رسولٌ مِن عندِ رجُلٍ شريفٍ عالي المنزلةِ، فهل يكونُ في نُفوسِنا كرَسولٍ جاء مِن عامَّةِ النَّاسِ؟ الجوابُ: لا، بل يكونُ في نُفوسِنا لهذا الرَّسولِ بمِقدارِ ما يَستَحِقُّه مِن مَنزلةِ مَن أَرْسَله؛ فعليه تكونُ الرِّسالةُ فخرًا لِمَن أُرْسِلَ[(٣)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ تحريضٌ للمُؤمِنينَ على مُكافَحةِ الكُفَّارِ، والصَّبرِ على دينِ اللهِ[(٤)].

٩- قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فجِيءَ في ذلك بصيغةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٠).

أمْرِ المُؤمِنينَ بالتَّوكُّلِ على اللهِ دونَ غَيرِه؛ ربطًا على قلوبِهِم، وتثبيتًا لنُفوسِهِم؛ كَيْ لا يأسَفوا مِن إعراضِ المُشرِكينَ وما يُصيبُهم منهم، وأنَّ ذلك لنْ يَضُرَّهم، فإنَّ المُؤمِنينَ لا يَعتزُّونَ بهم، ولا يتَقوَّوْنَ بأمثالِهِم؛ لأنَّ اللهَ أمَرَهُم ألَّا يَتوكَّلوا إلَّا عليه، وفيه إيذانٌ بأنَّهم لا يُخالِفونَ أمْرَ اللهِ، وذلك يَغيظُ الكافِرين[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ استِئنافٌ انتُقِلَ إليه بعدَ أنْ تُوُعِّدَ المُشرِكونَ بما يَحصُلُ لهم مِن التَّغابُنِ يومَ يَجمَعُ اللهُ النَّاسَ يومَ الحسابِ. ويُشبِهُ أنْ يكونَ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ تَهديدَ المُشرِكينَ بيومِ الحسابِ يُثيرُ في نُفوسِ المُؤمِنينَ التَّساؤُلَ عن الانتصافِ مِنَ المُشرِكينَ في الدُّنيا على ما يَلْقاهُ المُسلِمونَ مِن إضرارِهم بمكَّةَ؛ فإنَّهم لم يَكُفُّوا عن أذى المُسلِمينَ وإصابتِهم في أبدانِهم وأموالِهم، والفِتنةِ بيْنَهم وبيْنَ أزواجِهم وأبنائِهم[٢]. أو هو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للرَّدِّ على الكفَّارِ الَّذينَ قالوا: لو كانَ المُسلِمونَ على حقٍّ لَصانَهمُ اللهُ مِنَ المصائِبِ في الدُّنيا[٣].

- قولُه: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾، أي: يَهْدِ قلبَه عِندَما تُصيبُه مُصيبةٌ؛ فحَذَف هذا المُتعلَّقَ لظُهورِه مِن السِّياقِ[٤].

- ومفعولُ ﴿أَصَابَ﴾ محذوفٌ، أي: ما أصابَ أحدًا، والفاعلُ ﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾، و(مِنْ) زائدةٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٠).

- قولُه: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾، قال ذلك مع أنَّ الهدايةَ سابقةٌ على الإيمانِ؛ لأنَّه ليس المُرادُ ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ للإيمانِ، بل المرادُ: يَهْدِه لليقينِ عِندَ نُزولِ المصائبِ؛ فيَعلَمْ أنَّ ما أخطأَهُ لم يكُنْ لِيُصيبَه، وما أصابَه لم يكُنْ لِيُخْطِئَه، أو يَهْدِه للرِّضا والتَّسليمِ عندَ وُجودِ المصائبِ، أو للاسترجاعِ عندَ نزولِها بأنْ يقولَ: إنَّا لِلهِ وإنَّا إليه راجِعونَ[1].

- والخبرُ في قولِه: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ إيماءٌ إلى الأمرِ بالثَّباتِ والصَّبرِ عِندَ حلولِ المصائبِ؛ لأنَّه يَلْزَمُ مِن هَدْيِ اللهِ قلْبَ المؤمنِ عندَ المصيبةِ تَرغيبُ المُؤمِنينَ في الثَّباتِ والتَّصبُّرِ عِندَ حلولِ المصائبِ؛ فلذلك ذُيِّلَ بجُملةِ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، فهو تَذييلٌ للجملةِ الَّتي قَبْلَها، واردٌ على مُراعاةِ جميعِ ما تضَمَّنَتْه؛ مِن أنَّ المصائبَ بإذْنِ اللهِ، ومِن أنَّ اللهَ يَهْدي قلوبَ المُؤمِنينَ للثَّباتِ عندَ حُلولِ المصائبِ، ومِنَ الأمرِ بالثَّباتِ والصَّبرِ عندَ المصائبِ، أي: يَعلَمُ جميعَ ذلك[2].

- وفي قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ كِنايةٌ عن مُجازاةِ الصَّابرينَ بالثَّوابِ؛ لأنَّ فائدةَ عِلمِ اللهِ الَّتي تُهِمُّ النَّاسَ هي التَّخلُّقُ، ورجاءُ الثَّوابِ ورفْعِ الدَّرَجاتِ[3].

٢- قولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]؛ لأنَّها تضمَّنَتْ أنَّ المُؤمِنينَ مُتهيِّئونَ لطاعةِ اللهِ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٨، ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما يَدْعُوانِهم إليه مِن مصالحِ الأعمالِ، كما يدُلُّ عليه تذييلُ الكلامِ بقولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٣]، ولأنَّ طلَبَ الطَّاعةِ فرْعٌ عن تحقُّقِ الإيمانِ(١).

- قولُه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ كرَّر الأمْرَ بالطَّاعةِ للتَّأكيدِ، والإيذانِ بالفَرقِ بيْنَ الطاعتَيْنِ في الكَيفيَّةِ(٢).

- وتَفريعُ قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ تَحذيرٌ مِن عِصيانِ اللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٣).

- والتَّعريفُ في قولِه: ﴿رَسُولِنَا﴾ بالإضافةِ؛ لقَصْدِ تعظيمِ شأنِه بأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رسولُ ربِّ العالَمينَ. وهذا الضَّميرُ الْتفاتٌ مِنَ الغَيْبةِ إلى التَّكلُّمِ يُفيدُ تشريفَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعِزِّ الإضافةِ إلى المُتكلِّمِ(٤).

- وأيضًا إظهارُ الرَّسولِ مُضافًا إلى نونِ العظَمةِ في مَقامِ إضمارِه؛ لتشريفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والإشعارِ بمَدارِ الحُكْمِ الَّذي هو كَونُ وَظيفتِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَحضَ البلاغِ، ولزيادةِ تَشنيعِ التَّولِّي عنه(٥).

- ومعْنى الحَصرِ في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ قصرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على كَونِ واجبِه البلاغَ، قصْرَ مَوصوفٍ على صفةٍ؛ فالرّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَقصورٌ على لُزومِ البلاغِ له، لا يَعْدُو ذلكَ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٨).

لزومِ شَيءٍ آخَرَ، وهو قصرُ قلبٍ[١]؛ تَنزيلًا لهم في حالةِ العِصيانِ المفروضِ مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ اللهَ لو شاءَ لَألجأهم إلى العَملِ بما أمَرَهم به؛ إلْهابًا لنُفوسِهم بالحثِّ على الطَّاعةِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢] وجُملةِ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، واسمُ الجَلالةِ مُبتدَأٌ، وجُملةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خَبرٌ، وهذا تَذكيرٌ للمُؤمِنينَ بما يَعلمونَه، أي: مَنْ آمَنَ بأنَّ اللهَ لا إلهَ إلَّا هو، كان حقًّا عليه أنْ يُطِيعَه، وألَّا يَعبَأَ بما يُصيبُه في جانِبِ طاعةِ اللهِ مِن مصائِبَ وأذًى. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في مَوقعِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ [التغابن: ١٢]، وتُفيدُ أيضًا تَعليلَ جُملةِ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢]؛ لأنَّ طاعةَ الرَّسولِ ترجِعُ إلى طاعةِ اللهِ؛ قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٣] [النساء: ٨٠].

- وافتتاحُ الجُملةِ باسمِ الجَلالةِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ -إذْ لم يقُلْ: (هُوَ لا إلهَ إلَّا هُوَ)-؛ لاستِحضارِ عَظَمةِ اللهِ تعالَى بما يَحْويهِ اسمُ الجَلالةِ مِن معاني الكَمالِ، ولِتَكونَ الجملةُ مُستقِلَّةً بنَفْسِها، فتكونَ جاريةً مَجْرى الأمثالِ والكَلِمِ الجوامِعِ[٤].

- قولُه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ عطفٌ على ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨١، ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٢).

[التغابن: ١٢]، فهو في معنى: وتوَكَّلوا على الله؛ فإنَّ المُؤمِنينَ يَتوكَّلونَ على اللهِ لا على غَيرِه، وأنتُم مُؤمِنونَ؛ فتَوَكَّلوا عليه[١].

- وتقدُّمُ المجرورِ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: إنَّ المُؤمِنينَ لا يَتوكَّلونَ إلَّا على اللهِ، أي: عليه تعالَى خاصَّةً دُونَ غَيرِه، لا استقلالًا ولا اشتراكًا[٢].

- والإتيانُ باسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إظهارٌ في موقعِ الإضمارِ؛ لتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً، فتَسيرَ مَسْرى المثَلِ؛ ولذلكَ كان إظهارُ لفظِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، ولم يَقُلْ: وعلى اللهِ فَلْيَتوكَّلوا، ولِمَا في ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ مِنَ العُمومِ الشَّاملِ للمُخاطَبينَ وغَيرِهم؛ لِيَكونَ معنى التَّمثيلِ[٣]. وأيضًا إظهارُ الجلالةِ في مَوضعِ الإضمارِ؛ للإشعارِ بعِلَّةِ التَّوكُّلِ والأمرِ به؛ فإنَّ الألوهيَّةَ مُقتضيةٌ للتَّبتُّلِ إليه تعالَى بالكلِّيَّةِ، وقطْعِ التَّعلُّقِ عمَّا سِواهُ بالمرَّةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٨).

الآيات (١٤-١٨)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾: أي: تُعرِضوا، وتَترُكوا التَّثريبَ، يُقالُ: صَفحتُ عنه: إذا أعرضْتَ عنه، وأصلُ (صفح): يدُلُّ على الإعراضِ؛ لأنَّ مَن أعرَضَ عن صاحِبِه ولَّاه صَفحةَ عُنُقِه، وصرَفَ عنه وجْهَه[١].

﴿فِتۡنَةٞ﴾: أي: بلاءٌ واختِبارٌ وامتحانٌ، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على اختِبارٍ وابتِلاءٍ[٢].

﴿شُحَّ﴾: الشُّحُّ: بُخلٌ مع حِرصٍ، وأصلُ (شحح): يدُلُّ على مَنعٍ[٣].

﴿شَكُورٌ﴾: أي: يَرضى بيَسيرِ الطَّاعةِ، ويَقْبَلُ القليلَ مِن العملِ، ويُثيبُ عليه الكثيرَ مِنَ الثَّوابِ، ويُقالُ: إنَّ حَقيقةَ الشُّكْرِ الرِّضا باليَسيرِ، والشَّكورُ مِن الدَّوابِّ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٦).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الحشر (٣٧/ ٤٥٩).

ما يَكفيه العلَفُ القليلُ لِسِمَنِه، فيُظهِرُ مِنَ السمَنِ فوقَ ما يُعطَى مِن العلَفِ، وأصلُ الشُّكْرِ في الكلامِ: الظُّهورُ، يُقالُ: شكَرَ الضَّرعُ: إذا امْتَلأ، وامتِلاؤُه ظُهورُه، وأصلُ (شكر) هنا: الامْتِلاءُ والغُزْرُ في الشَّيءِ[١].

﴿حَلِيمٌ﴾: أي: لا يُعاجِلُ بالعُقوبةِ، فهو ذو الصَّفحِ والأنَاةِ، الَّذي لا يَستَفِزُّه غضَبٌ، ولا يَستَخِفُّه جَهْلُ جاهِلٍ، ولا عِصيانُ عَاصٍ، يُقالُ: حَلُمَ فُلانٌ عن فُلانٍ: إذا لم يُقابِلْه على إساءتِه ولم يُجازِه عليها، والحِلمُ: الأناةُ والسُّكونُ مع القُدرةِ والقُوَّةِ، وأصلُ (حلم) هنا: يدُلُّ على تَرْكِ العَجَلةِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾

في نَصبِ ﴿خَيْرًا﴾ وُجوهٌ مِنَ الإعرابِ:

أحَدُها: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بفِعلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: وأْتُوا خيرًا لأنفُسِكم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٤٧)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ٨٧)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٦)، ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ١٤٨).

قال ابن القيِّم بعدَ أن ذكَرَ اشتِقاقَ كلمةِ الشُّكرِ وحقيقتَها في اللُّغةِ: (تأمَّلْ هذا الاشتِقاقَ وطابِقْ بيْنَه وبيْنَ الشُّكرِ المأمورِ به، وبيْنَ الشُّكرِ الَّذي هو جزاءُ الرَّبِّ الشَّكورِ، كيف تجدُ في الجميعِ معنَى الزِّيادةِ والنَّماءِ). ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٤٥)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ٩٦)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٤).

الثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بـ(أنفِقُوا)، على أن يكونَ المرادُ بالخَيرِ المالَ، كقَولِه تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠].

الثَّالِثُ: أنَّه خَبَرُ (يكن) محذوفًا مع اسمِه، أي: أنفِقوا يَكُنِ الإنفاقُ خَيرًا لأنفُسِكم.

الرَّابعُ: أنَّه مَفعولٌ مُطلَقٌ نائِبٌ عن المَصدَرِ لأنَّه صِفتُه، أي: وأنفِقوا إنفاقًا خَيرًا.

الخامِسُ: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ مِن ضَميرِ مَصدَرِ الفِعلِ. أي: أنفِقوا الإنفاقَ خيرًا[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى محذِّرًا مِن فِتنةِ الأزواجِ والأولادِ والأموالِ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إنَّ بَعضَ أزواجِكم وأولادِكم أعداءٌ لكم؛ إذ يُثبِّطونَكم عن طاعةِ اللهِ، أو يَحْمِلونَكم على مَعصيتِه؛ فاحذَروا الوُقوعَ في ذلك، وإنْ تَعْفُوا -أيُّها المؤمِنونَ- عنهم، وتَترُكوا عُقوبتَهم وتأنيبَهم، وتَستُروا عليهم ذُنوبَهم، فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

إنَّما أموالُكم وأولادُكم بِلاءٌ واختِبارٌ لكم، واللهُ عِندَه ثَوابٌ عظيمٌ لِمَن لم تَشغَلْه أموالُه وأولادُه وأزواجُه عن طاعةِ اللهِ تعالى.

ثمَّ يحضُّ الله تعالى عبادَه على تَقْواه، ويحذِّرُهم مِن البخلِ والشُّحِّ، فيقولُ: فاتَّقوا اللهَ -أيُّها المُؤمِنونَ- قَدْرَ استِطاعتِكم، واسمَعوا ما يأمُرُكم به اللهُ ورَسولُه، وأطيعُوا، وابذُلوا مِن أموالِكم في الزَّكَواتِ والنَّفَقاتِ الواجِبةِ والمُستَحَبَّةِ؛ هو خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخِرةِ. ومَن يَقِهِ اللهُ شِدَّةَ حِرصِ نفْسِه على جَمعِ المالِ،

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٩٤)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي بن أبي طالب (٢/ ٧٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٥٠)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٨٢٧).

فأولئك هم الفائِزونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مرغِّبًا في النَّفقةِ: إنْ تُنفِقوا مِن طَيِّبِ أموالِكم بلا مَنٍّ ولا أذًى محتَسبينَ للأجرِ عِندَ رَبِّكم، يُضاعِفِ اللهُ لكم الأجرَ، ويَغفِرْ لكم ذُنوبَكم، واللهُ شَكورٌ يجزي بالجزاءِ الكثيرِ على العملِ القليلِ، حَليمٌ على عبادِه؛ فلا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ على ذُنوبِهم، عالمُ ما يَغيبُ عن عِبادِه وما يُشاهِدونَه؛ فلا يَخفى عليه شَيءٌ، وهو تعالى العَزيزُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾، ثمَّ أمرَ بطاعةِ اللهِ وطاعةِ رَسولِه؛ حَذَّر مِمَّا يَلحَقُ الرَّجُلَ مِن امرأتِه ووَلَدِه، بسبَبِ ما يَصدُرُ مِن بَعضِهم مِن العَداوةِ[1].

وأيضًا فالمُناسَبةُ بيْنَها وبيْن الآيةِ الَّتي قَبْلَها أنَّ كِلْتَيْهما تسليةٌ على ما أصاب المؤمِنينَ مِن غَمٍّ مِن مُعاملةِ أعدائِهم إيَّاهم، ومِن انحرافِ بعضِ أزواجِهم وأولادِهم عليهم[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إنَّ بعضَ أزواجِكم وأولادِكم أعداءٌ لكم؛ إذ يُثَبِّطونَكم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٣).

عن طاعةِ اللهِ، أو يَشغَلونَكم عنها، أو يَحْمِلونَكم على مَعصيتِه؛ فاحذَروا الوُقوعَ في ذلك[(١)].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٨، ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

قال ابن تيميَّة: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ مِنْ: للتَّبعيضِ بالاتِّفاقِ). ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ١٤٧).

وقال ابن العربي: (العَدُوُّ لم يكُنْ عَدُوًّا لِذَاتِه، وإنَّما كان عدُوًّا لفِعْلِه؛ فإذا فَعَل الزَّوجُ والوَلَدُ فِعلَ العَدُوِّ كان عَدُوًّا، ولا فِعلَ أقبَحُ مِن الحَيلولةِ بيْن العبدِ وبيْن الطَّاعةِ... عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: «إنَّ الشَّيطانَ قَعَد لابنِ آدَمَ في طريقِ الإيمانِ، فقال له: أتؤمِنُ وتَذَرُ دِينَك ودينَ آبائِك؟ فخالَفَه فآمَنَ. ثمَّ قَعَد له على طريقِ الهِجرةِ، فقال له: أتُهاجِرُ وتَترُكُ أهْلَك ومالَك؟ فخالَفَه فهاجَرَ. فقَعَد له في طريقِ الجِهادِ، فقال: أتُجاهِدُ فتُقْتَلَ نفْسُك وتُنكَحَ نِساؤُك ويُقسَمُ مالُك؟ فخالفه فجاهَدَ فقُتِلَ، فحَقٌّ على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ» [النسائي «٣١٣٤»، وأحمد «١٥٩٥٨»]. وقُعودُ الشَّيطانِ يكونُ بوجهَينِ؛ أحَدُهما: يكونُ بالوَسوَسةِ. والثَّاني: بأن يَحمِلَ على ما يُريدُ مِن ذلك الزَّوجَ والوَلَدَ والصَّاحِبَ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٦٤).

وقال ابنُ القَيِّم: (ليس المرادُ مِن هذه العَداوةِ ما يَفهَمُه كثيرٌ مِن النَّاسِ أنَّها عداوةُ البَغضاءِ والمُحادَّةِ، بل إنَّما هي عداوةُ المحبَّةِ الصَّادَّةِ للآباءِ عن الهِجرةِ والجِهادِ، وتَعَلُّمِ العِلمِ والصَّدَقةِ، وغَيرِ ذلك مِن أمورِ الدِّينِ وأعمالِ البِرِّ... وما أكثَرَ ما فات العَبدَ مِن الكمالِ والفلاحِ بسَبَبِ زَوجتِه ووَلَدِه!). ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ٦٤).

وقال ابن عاشور: (الإخبارُ عن بعضِ الأزواجِ والأولادِ بأنَّهم عدُوٌّ يجوزُ أن يُحمَلَ على الحقيقةِ؛ فإنَّ بعضَهم قد يُضمِرُ عداوةً لِزَوجِه، وبعضَهم لأبوَيه مِن جَرَّاءِ المُعامَلةِ بما لا يَروقُ عِندَه، مع خَباثةٍ في النَّفْسِ، وسوءِ تفكيرٍ، فيصيرُ عدوًّا لِمَن حقُّه أن يكونَ له صديقًا، ويَكثُرُ أن تأتيَ هذه العداوةُ مِن اختلافِ الدِّينِ، ومِن الانتماءِ إلى الأعداءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٤). وأجاز أيضًا أن يكون المعنى على التشبيه أي: أنهم كالعدو. يُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٤٧٦، ٤٧٧).

﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان النَّهيُ عن طاعةِ الأزواجِ والأولادِ فيما هو ضَرَرٌ على العَبدِ، والتَّحذيرُ مِن ذلك: قد يُوهِمُ الغِلْظةَ عليهم وعِقابَهم- أمَرَ تعالى بالحَذَرِ منهم، والصَّفحِ عنهم والعَفوِ؛ فإنَّ في ذلك مِن المصالحِ ما لا يُمكِنُ حَصْرُه، فقال[1]:

﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

أي: وإنْ تَعْفوا -أيُّها المؤمِنونَ- عن أزواجِكم وأولادِكم، وتَترُكوا عُقوبتَهم وتأنيبَهم، وتَستُروا عليهم ذُنوبَهم؛ فإنَّ اللهَ غفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، رحيمٌ بهم، ويَغفِرُ للَّذينَ يَغفِرونَ، ويَرحَمُ الَّذين يَرحَمونَ[2].

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾.

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾.

أي: إنَّما أموالُكم وأولادُكم بلاءٌ واختِبارٌ لكم؛ فاحذَروا أن تَقَعوا -بسَبَبِ الشُّغلِ بهم- في المَنهيَّاتِ، أو تَترُكوا امتِثالَ المأموراتِ، أو تُقَصِّروا في أداءِ الطَّاعاتِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥).

قال البقاعي: (لَمَّا كان التَّقديرُ: يَغفِرِ اللهُ لكم؛ سَبَّبَ عنه قَولَه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾... ﴿غَفُورٞ﴾... جزاءً لكم على غُفرانِكم لهم، وهو جديرٌ بأن يُصلِحَهم لكم بسَبَبِ غُفرانِكم لهم؛ فإنَّه ﴿رَّحِيمٌ﴾ يَزيدُكم بعدَ ذلك السَّترِ الإكرامَ بالإنعامِ إن أكرَمْتُموهم). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٣٠، ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٩)، ((فتح الباري)) =

كما قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وعن بُرَيدةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَخطُبُ، فجاء الحَسَنُ والحُسَينُ رَضِيَ اللهُ عنهما، وعليهما قَميصانِ أحمرانِ يَعْثُرانِ[١] فيهما، فنَزَل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقَطَع كَلامَه، فحَمَلَهما ثمَّ عاد إلى المِنبَرِ، ثمَّ قال: صَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، رأيْتُ هذَينِ يَعثُرانِ في قَميصَيْهما، فلم أَصبِرْ حتَّى قَطعْتُ كَلامي فحَمَلْتُهما!))[٢].

وعن كَعبِ بنِ عِياضٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ لِكُلِّ أمَّةٍ فِتنةً، وفِتنةُ أُمَّتي المالُ))[٣].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الدُّنيا حُلْوةٌ خَضِرَةٌ[٤]، وإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكم فيها، فيَنظُرُ كيف تَعمَلونَ؛ فاتَّقوا

= لابن رجب (٤/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٦).

(١) يَعثُرانِ: أي: يَسقُطانِ على الأرضِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٩٨١).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١١٠٩)، والترمذيُّ (٣٧٧٤)، والنسائيُّ (١٤١٣) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (٣٦٠٠)، وأحمدُ (٢٢٩٩٥).

صَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٦٠٣٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ٤٢٤) -وقال: (على شرطِ مسلمٍ)-، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٤١٣)، وصحَّح إسنادَه على شرطِ مُسلِمٍ: الضِّياءُ المَقدِسيُّ في ((السنن والأحكام)) (٢/ ٣٧٥)، والنَّوويُّ في ((الخلاصة)) (٢/ ٨٠٣)، وابنُ عبد الهادي في ((تنقيح تحقيق التعليق)) (٢/ ٨١).

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٢٣٣٦) واللَّفظُ له، وأحمدُ (١٧٤٧١).

صحَّحه ابنُ حِبَّان في ((الصحيح)) (٣٢٢٣)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستيعاب)) (٣/ ٣٨١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٣٣٦)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٩/ ١٥).

(٤) حُلْوةٌ خَضِرةٌ: أي: غَضَّةٌ ناعِمةٌ طيِّبةٌ، مُزَيَّنةٌ في عُيونِكم وقُلوبِكم، وإنَّما وَصَفها بالخَضِرةِ؛ لأنَّ العربَ تُسَمِّي الشَّيءَ النَّاعِمَ خَضِرًا، أو لتَشَبُّهِها بالخَضْراواتِ في سُرعةِ زَوالِها. يُنظر: =

الدُّنيا، واتَّقوا النِّساءَ؛ فإنَّ أوَّلَ فِتنةِ بَني إسرائيلَ كانت في النِّساءِ))[١].

وعن يَعْلَى العامِريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((جاء الحَسَنُ والحُسَينُ يَسعَيانِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فضَمَّهما إليه، وقال: إنَّ الوَلَدَ مَبْخَلةٌ مَجْبَنةٌ[٢]))[٣].

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

أي: واللهُ عِندَه ثوابٌ عَظيمٌ لِمَن لم تَشغَلْه أموالُه وأولادُه وأزواجُه عن طاعةِ اللهِ تعالى؛ فلا تُؤْثِروهم على ما عِندَه سُبحانَه[٤].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾.

= ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازَري (٢/ ٣٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠٤٤).

(١) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٢) مَبخَلةٌ مَجْبنةٌ: أي: يَحمِلُ أبَويهِ على البُخلِ والجُبْنِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٠٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٩٧٠).

(٣) أخرجه ابنُ ماجه (٣٦٦٦) واللَّفظُ له، وأحمدُ (١٧٥٦٢) مطوَّلًا.

صحَّحه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٣/ ١٧٩) -وقال: (على شرطِ مسلمٍ)-، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٦٦٦)، وقوَّى إسنادَه الذهبيُّ في ((المهذب)) (٨/ ٤٢١٠)، وصحَّح إسنادَه البوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٩٩)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في الشَّواهد في تخريج ((شرح السُّنَّة)) (١٣/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٦).

قيل: المرادُ بالأجرِ العَظيمِ: الجنَّةُ. وممَّن نصَّ على ذلك: ابنُ جرير، وابنُ العربي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٦٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٨٥).

أي: فاتَّقوا اللهَ -أيُّها المُؤمِنونَ- بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه، بقَدْرِ طاقتِكم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((دَعُوني ما ترَكْتُكم، إنَّما هَلَك مَن كان قَبْلَكم بسُؤالِهم واختِلافِهم على أنبيائِهم، فإذا نَهَيْتُكم عن شَيءٍ فاجتَنِبوه، وإذا أمَرْتُكم بأمرٍ فأْتُوا منه ما استَطَعْتُم))[(٢)].

﴿وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾.

أي: واسمَعوا ما يأمُرُكم به اللهُ ورَسولُه، وكونوا مُنقادِينَ له، فلا تَترُكوا ما أُمِرْتُم به، ولا تأتُوا ما نُهيتُم عنه[(٣)].

﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾.

أي: وابذلُوا مِن أموالِكم بإخراجِ الزَّكَواتِ المفروضةِ، والنَّفَقاتِ الواجِبةِ والمُستَحَبَّةِ؛ فذلك خيرٌ لأنفُسِكم في الدُّنيا والآخِرةِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٧٢٨٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٨).

قال ابنُ عاشور: (الأمرُ بالسَّمعِ أمرٌ بتلَقِّي الشَّريعةِ، والإقبالِ على سماعِ مَواعِظِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك وسيلةُ التَّقْوى؛ قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٠٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير =

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: ومَن سلَّمه اللهُ مِن شِدَّةِ حِرصِ النَّفْسِ على جَمعِ المالِ، فخالَفَ هواها في إمساكِ المالِ فأنفَقَ؛ فأولئك هم الفائِزونَ الذينَ أدْرَكوا المطلوبَ، ونَجَوا مِن المَرْهوبِ[١].

عن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اتَّقُوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قَبْلَكم؛ حمَلَهم على أن سَفَكوا دِماءَهم، واستحَلُّوا مَحارِمَهم[٢]))[٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: خَطَب رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: ((إيَّاكم والشُّحَّ؛ فإنَّما هَلَك مَن كان قَبْلَكم بالشُّحِّ؛ أمَرَهم بالبُخلِ فبَخِلوا، وأمَرَهم بالقَطيعةِ فقَطَعوا، وأمَرَهم بالفُجورِ ففَجَروا))[٤].

= ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٨).
قيل: المرادُ بالخَيرِ هنا: المالُ، فالمعنى: أنفِقوا مالًا مِن أموالِكم لأنفُسِكم تَستَنْقِذوها مِن عذابِ اللهِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥١٤).
وقيل: الخَيرُ هنا مَنصوبةٌ على الخَبَريَّةِ بـ (كان) المحذوفةِ، فيكونُ المعنى: أنفِقوا فيكونَ ذلك خيرًا لكم، وإن لم تَفعَلوا يكُنِ امتِناعُكم شَرًّا لكم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الثعلبيُّ، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨). ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ٤٥٥، ٤٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٤، ٩٥).

(٢) أي: استباحوا نساءَهم، أو ما حرَّم اللهُ مِن أموالِهم وغيرِها، وهذا على سبيلِ الاستئنافِ؛ فإنَّ استِحلالَ المَحارِمِ جامعٌ لجميعِ أنواعِ الظُّلْمِ، وعَطْفُه على سَفكِ الدِّماءِ عطفُ عامٍّ على خاصٍّ. يُنظر: ((فيض القدير)) للمُناوي (١/ ١٣٤).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٨).

(٤) أخرجه من طُرُقٍ: أبو داودَ (١٦٩٨) واللَّفظُ له، والنَّسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٥٨٣)، وأحمدُ (٦٤٨٧). =

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يَجتَمِعُ الشُّحُّ والإيمانُ في قَلبِ عَبدٍ أبَدًا))[١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلٌ، فقال: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الصَّدَقةِ أعظَمُ؟ فقال: أن تَصَدَّقَ وأنت صَحيحٌ شَحيحٌ، تَخشى الفَقرَ، وتأمُلُ الغِنى، ولا تُمهِلُ[٢] حتَّى إذا بلَغَت الحُلْقُومَ قُلتَ: لِفُلانٍ كذا، ولِفُلانٍ كذا[٣]، ألَا وقد كان لِفُلانٍ[٤]!))[٥].

= صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصَّحيح)) (٥١٧٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٦٩٨)، وصحَّح إسنادَه الطَّبَريُّ في ((مسند عمر)) (١/ ١٠٦)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ٥٧٦)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٩/ ٢٠١)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٦٩٨).

(١) أخرجه مُطَوَّلًا النَّسائيُّ (٣١١٠) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٩٦٩٣).
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصَّحيح)) (٣٢٥١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النَّسائي)) (٣١١٠)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ بطُرُقِه وشَواهِدِه في تخريج ((مسند أحمد)) (١٥/ ٤٣٣)، وصحَّح إسنادَه الطَّبَريُّ في ((مسند عمر)) (١/ ١٠٢).

(٢) مِن الإمهالِ، وهو بالرَّفعِ على أنَّه خبرٌ، ويجوزُ بالنَّصبِ عطفًا على (تَصَدَّقَ)، أو بالجزمِ على النَّهي، أي: ولا تؤخِّرِ الصَّدقةَ، أي: ولا تُمهِلْ نفْسَك. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٦/ ٢٩١).

(٣) لِفُلانٍ: كِنايةٌ عن الموصَى له (كذا) كِنايةٌ عن الموصَى به. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٦/ ٢٩١).

(٤) وقد كان لِفُلانٍ: أي: الوارِث، قيل: جملةٌ حاليَّةٌ، أي: وقد صار المالُ الَّذي تتصرَّفُ فيه في هذه الحالةِ ثُلُثاهُ حقًّا للوارِث وأنت تتصَدَّقُ بجميعِه، فكيف يُقْبَلُ منك؟! وقيل: أي: وقد صار ما أَوصى به للوارِث، فيُبطِلُه إن شاء إذا زاد على الثُّلث، أو أوصى به لوارِثٍ آخَرَ. وقيل: المعنى: أنَّه قد خرَج عن تصَرُّفِه وكمالِ ملكِه واستِقلالِه بما شاء مِن التَّصرُّفِ، فليس له في وصيَّتِه كبيرُ ثَوابٍ وكثيرُ فضلٍ بالنِّسبةِ إلى صدقةِ الصَّحيحِ الشَّحيحِ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٦/ ٢٩١).

(٥) رواه البخاريُّ (١٤١٩)، ومسلمٌ (١٠٣٢) واللَّفظُ له.

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالإنفاقِ، ورهَّبَ مِن ضِدِّه على وَجْهٍ أعَمَّ، رَغَّب فيه؛ تأكيدًا لأمْرِه لِما فيه مِن الصُّعوبةِ، لا سِيَّما في زمانِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ المالَ فيه كان في غايةِ العِزَّةِ[(١)].

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾.

أي: إنْ تُنفِقوا مِن طَيِّبِ أموالِكم احتِسابًا للأجرِ عِندَ رَبِّكم بلا مَنٍّ ولا أذًى، فاللهُ يُثيبُكم على إنفاقِكم هذا بأُجورٍ كَثيرةٍ، قد تَبلُغُ سَبْعَمِئَةِ ضِعفٍ أو أكثَرَ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما تَصَدَّقَ أحَدٌ بصَدَقةٍ مِن طَيِّبٍ -ولا يَقْبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ- إلَّا أخَذَها الرَّحمنُ بيَمينِه، وإن كانت تَمْرةً، فتَربُو في كَفِّ الرَّحمنِ حتَّى تَكونَ أعظَمَ مِن الجَبَلِ، كما يُرَبِّي أحَدُكم فَلُوَّه أو فَصِيلَه[(٣)]))[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٥، ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

(٣) الفَلُوُّ: المُهْرُ الصَّغيرُ، وهو ولَدُ الفَرَسِ؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّه فُلِيَ عن أمِّه، أي: فُصِلَ وعُزِلَ. والفَصيلُ: ولَدُ النَّاقةِ إذا فُصِل مِن إرضاعِ أُمِّه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).

(٤) رواه البخاريُّ (١٤١٠)، ومسلمٌ (١٠١٤) واللَّفظُ له.

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّك لن تُنفِقَ نَفَقةً تَبتَغي بها وَجْهَ اللهِ إلَّا أُجِرْتَ عليها، حتَّى ما تَجعَلُ في فَمِ امْرأتِك))[١].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

أي: ويَغفِرِ اللهُ لكم ذُنوبَكم، بسَترِها عليكم، ووقايتِكم مِن شرِّها؛ جزاءً لكم على إنفاقِكم[٢].

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ ذو شُكرٍ بالِغٍ وكثيرٍ للمُنفِقينَ في سَبيلِه، ويَجزيهم على القَليلِ بالكثيرِ، حَليمٌ على عبادِه؛ فلا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ على ذُنوبِهم، بل يُمهِلُهم[٣].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

أي: عالمُ كُلِّ ما يَغيبُ عن عِبادِه، وجَميعِ ما يُشاهِدونَه؛ فلا يَخفى عليه شَيءٌ[٤].

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: العَزيزُ الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

اللَّائِقِ به[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ هذا تحذيرٌ مِنَ اللهِ تعالى للمُؤمِنينَ مِن الاغترارِ بالأزواجِ والأولادِ؛ فإنَّ بَعضَهم عدُوٌّ لكم، والعَدُوُّ هو الَّذي يُريدُ لك الشَّرَّ، ووظيفتُك الحَذَرُ مِمَّن هذا وَصْفُه، والنَّفسُ مَجبولةٌ على محبَّةِ الأزواجِ والأولادِ؛ فنَصَح اللهُ تعالى عِبادَه أن تُوجِبَ لهم هذه المحبَّةُ الانقيادَ لمطالِبِ الأزواجِ والأولادِ ولو كان فيها ما فيها مِن المحذورِ الشَّرعيِّ، ورَغَّبَهم في امتِثالِ أوامِرِه، وتقديمِ مَرضاتِه بما عِندَه مِن الأجرِ العَظيمِ المُشتَمِلِ على المطالِبِ العاليةِ، والمَحابِّ الغاليةِ، وأن يُؤثِروا الآخِرةَ على الدُّنيا الفانيةِ المُنقَضِيةِ[٢].

٢- علَّم اللهُ تعالى الإنسانَ كيف يُعاشِرُ أقرَبَ النَّاسِ إليه؛ زوجتَه وأبناءَه وأُسرتَه الأدنَيْنَ، أمَرَه أن يَتحفَّظَ منهم غايةَ التَّحفُّظِ لدينِه ودُنياه؛ لأنَّهم رُبَّما أوقعوه فيما لا يَنبغي، ثمَّ أمَرَه إذا وجَد منهم ما لا يُحِبُّ أن يُعامِلَهم باللِّينِ والصَّفحِ والمَغفرةِ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾، فمِن شدَّةِ حِكمتِه يُعَلِّمُ الإنسانَ كيف يُعاشِرُ أُسرتَه الأدنَينَ، وأن يَحذَرَ مِن شرِّ امرأتِه وأولادِه؛ لئلَّا يُضَيِّعوا عليه دينَه أو دُنياه، ثمَّ إذا عثَر منهم على ما لا يَنبغي أمَرَه ألَّا يُعامِلَهم بالشِّدَّةِ والمكروهِ؛ ولذا قال في هذه الآيةِ: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ ثمَّ قال -إذا رأى منهم ما يَكرَهُ-: ﴿وَإِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٧، ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾ دليلٌ على تثبيتِ الاحترازاتِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ عزاءٌ لِمَن بُلِيَ بزَوجةٍ مُؤذيَةٍ، أو وَلَدٍ عاقٍّ، فَصَبَرَ على أذاهما، وعفا وصَفَحَ عن زلَّاتِهما، ومكروهٍ يكونُ منهما، وفيما وَعَدَ اللهُ جلَّ جلالُه مِن الغُفرانِ مَن فَعَل ذلك: ما يُهَوِّنُ عليه، ويُعَظِّمُ بِشارتَه إذا احتملَ مَضَضَ غوائلِهما؛ طمَعًا في إنجازِ ما وَعَدَه اللهُ عليه[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾، لأنَّ الجَزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فمَن عفا عفا اللهُ عنه، ومَن صَفَح صَفَح اللهُ عنه، ومَن غَفَر غَفَر اللهُ له، ومَن عامَلَ اللهَ فيما يحِبُّ، وعامَلَ عِبادَه كما يُحِبُّونَ ويَنفَعُهم؛ نال محبَّةَ اللهِ ومحبَّةَ عِبادِه، واستَوثَقَ له أمْرُه[٤].

٦- قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾، قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ تزهيدٌ في الدُّنيا، وترغيبٌ في الآخِرةِ[٥].

٧- النَّاسُ مِنهم مَن يكونُ العِلمُ أيسَرَ عليه مِنَ الزُّهدِ، ومِنهم مَن يكونُ الزُّهدُ أيسَرَ عليه، ومِنهم مَن تكونُ العِبادةُ أيسَرَ عليه منهما؛ فالمشروعُ لكُلِّ إنسانٍ أن يَفعَلَ ما يَقدِرُ عليه مِنَ الخَيرِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾، وإذا

(١) يُنظر: ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٢/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٢).

ازدحمَت شُعَبُ الإيمانِ قَدَّمَ ما كان أرضى لله، وهو عليه أقدَرُ؛ فقد يكونُ على المفضولِ أقدَرَ منه على الفاضِلِ، ويَحصُلُ له أفضَلُ مِمَّا يَحصُلُ مِن الفاضِلِ؛ فالأفضَلُ لهذا أن يَطلُبَ ما هو أنفَعُ له، وهو في حَقِّه أفضَلُ، ولا يَطلُبَ ما هو أفضَلُ مُطلَقًا إذا كان مُتعَذِّرًا في حَقِّه، أو مُتعَسِّرًا يَفوتُه ما هو أفضَلُ له وأنفَعُ[١].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ فيه التَّحريضُ على الإنفاقِ بمَرتبَتَيه: الواجِبِ والمندوبِ، وهذا مِن الاهتمام بالنَّزاهةِ عن فِتنةِ المالِ الَّتي ذُكِرَت في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٢].

٩- قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ هذا الوَصفُ داعٍ إلى الإحسانِ؛ مِن حيثُ إنَّه يُوجِبُ للمُؤمِنِ تَرْكَ ظاهِرِ الإثمِ وباطِنِه، وكُلِّ قُصورٍ وفُتورٍ وغَفلةٍ وتَهاوُنٍ، فيَعبُدُ اللهَ كأنَّه يَراه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ والمعنى: أنَّ مِن الأزواجِ والأولادِ عدوًّا، وليس المرادُ أنَّ كلَّ زوجٍ وولدٍ عدوٌّ؛ فإنَّ هذا ليس هو مدلولَ اللَّفظِ، وهو باطلٌ في نفْسِه؛ فإنَّه سُبحانَه قد قال عن عِبادِ الرَّحمنِ: إنَّهم يقولونَ: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، فسَأَلوا اللهَ أنْ يَهَبَ لهم مِن أزواجِهم وأولادِهم قُرَّةَ أعيُنٍ، فلو كان كلُّ زوجٍ وولدٍ عدوًّا، لم يكُنْ فيهم قُرَّةُ أعيُنٍ؛ فإنَّ العدوَّ لا يكونُ قُرَّةَ عَينٍ، بل سُخْنَةُ عَينٍ، وأيضًا فإنَّه مِن المعلومِ أنَّ مِثلَ إسماعيلَ وإسحاقَ ابنَيْ إبراهيمَ،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٧).

ومِثلَ يحيى بنِ زكريَّا، وأمثالَهم: ليسوا أعداءً[١]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ كما أنَّ الرَّجُلَ يَكونُ له وَلَدُه وزَوجُه عَدُوًّا، كذلك المرأةُ يكونُ لها وَلَدُها وزَوجُها عَدُوًّا بهذا المعنى بعَينِه، وعُمومُ قَولِه: ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ يَدخُلُ فيه الذَّكَرُ والأُنثى كدُخولِهما في كُلِّ آيةٍ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾، لَمَّا أخبَر عن العداوةِ، عبَّر بما قد يُفهِمُ الواحدَ فقط تخفيفًا، ولَمَّا أمَر بالحذرِ جمَع؛ إشارةً إلى زيادةِ التَّحذيرِ والخَوفِ في كلِّ أحدٍ، ولو كان أقربَ الأقرباءِ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ معناه: على أنفُسِكم. والحذَرُ على النَّفْسِ يكونُ بوجهَينِ: إمَّا لضرَرٍ في البدنِ، وإمَّا لضررٍ في الدِّينِ، وضررُ البدنِ يَتعلَّقُ بالدُّنيا، وضررُ الدِّينِ يتعلَّقُ بالآخرةِ، فحذَّر اللهُ سُبحانَه العبدَ مِن ذلك وأنْذَرَه به[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أنَّه سُبحانَه لم يَجعَلْ على أُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم في دينِهم مِن حَرَجٍ، بل أراد بهمُ اليُسْرَ، ولم يُرِدْ بهم العُسْرَ؛ ولهذا فإنَّ ما أوجَبَه على عبادِه شَرَطَه بالاستِطاعةِ[٥].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ كُلَّ واجِبٍ عَجَز عنه العَبدُ: أنَّه يَسقُطُ عنه،

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((العقود)) لابن تيمية (١/ ٣٧).

وأنَّه إذا قَدَر على بَعضِ المأمورِ، وعَجَز عن بَعضِه؛ فإنَّه يأتي بما يَقدِرُ عليه، ويَسقُطُ عنه ما يَعجِزُ عنه، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا أمَرْتُكم بأمرٍ فأْتُوا منه ما استَطَعتُم))[١]. ويَدخُلُ تحتَ هذه القاعِدةِ الشَّرعيَّةِ مِن الفُروعِ ما لا يَدخُلُ تحتَ الحَصرِ[٢]، فالإنسانُ إذا لم يَستَطِعِ القيامَ بأمرِ اللهِ على وجهِ الكَمالِ، فإنَّه يأتي منه بما قَدَرَ عليه، ومِن ذلك قولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لعِمْرانَ ابنِ حُصَينٍ رضيَ الله عنه: ((صَلِّ قائمًا، فإنْ لم تَستَطِعْ فقاعِدًا، فإنْ لم تَستطِعْ فعلى جَنْبٍ))[٣]؛ فرَتَّبَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم الصَّلاةَ بحسَبِ الاستِطاعةِ بأنْ يُصلِّيَ قائمًا، فإنْ لم يَستطِعْ فقاعدًا، فإنْ لم يَستطعْ فعلى جَنْبٍ، وهكذا أيضًا بقيَّةُ الأوامرِ[٤].

٧- قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ فأمَر بتقواه بقَدرِ الاستطاعةِ، فالمجتَهِدُ المُستَدِلُّ؛ مِن إمامٍ وحاكِمٍ، وعالِمٍ وناظِرٍ، ومُفْتٍ وغَيرِ ذلك: إذا اجتَهَد واستَدَلَّ فاتَّقى اللهَ ما استطاعَ؛ كان هذا هو الَّذي كَلَّفَه اللهُ إيَّاه، وهو مُطيعٌ لله مُستَحِقٌّ للثَّوابِ إذا اتَّقاه ما استطاعَ، ولا يُعاقِبُه اللهُ البتَّةَ -خِلافًا للجَهميَّةِ المُجْبِرةِ-، وهو مُصيبٌ، بمعنى: أنَّه مُطيعٌ للهِ، لكِنْ قد يَعلَمُ الحَقَّ في نفْسِ الأمرِ، وقد لا يَعلَمُه، خِلافًا للقَدَريَّةِ والمُعتَزِلةِ في قَولِهم: كُلُّ مَن استَفرَغَ وُسْعَه عَلِمَ الحَقَّ؛ فإنَّ هذا باطِلٌ، بل كُلُّ مَن استَفرَغَ وُسْعَه استَحَقَّ الثَّوابَ، وكذلك الكُفَّارُ؛ مَن بَلَغَه دَعوةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في دارِ الكُفرِ، وعَلِمَ أنَّه رَسولُ اللهِ، فآمَنَ به وآمَنَ بما

(١) أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٧٢٨٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٣٣٧) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (١١١٧).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٥١٤).

أُنزِلَ عليه، واتَّقى اللهَ ما استطاع، كما فَعَل النَّجاشيُّ وغَيرُه، ولم تُمكِنْه الهِجرةُ إلى دارِ الإسلامِ، ولا التِزامُ جَميعِ شَرائعِ الإسلامِ؛ لِكَونِه مَمنوعًا مِنَ الهِجرةِ ومَمنوعًا مِن إظهارِ دينِه، وليس عِندَه مَن يُعَلِّمُه جميعَ شَرائِعِ الإسلامِ- فهذا مُؤمِنٌ مِن أهلِ الجنَّةِ، كما كان مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ مع قَومِ فِرعَونَ، وكما كانت امرأةُ فِرعَونَ، بل وكما كان يوسُفُ الصِّدِّيقُ عليه السَّلامُ مع أهلِ مِصرَ؛ فإنَّهم كانوا كُفَّارًا، ولم يُمكِنْه أن يَفعَلَ معهم كلَّ ما يَعرِفُه مِن دينِ الإسلامِ، وكذلك النَّجاشيُّ هو وإن كان مَلِكَ النَّصارى، فلم يُطِعْه قَومُه في الدُّخولِ في الإسلامِ، بل إنَّما دَخَل معه نَفَرٌ منهم. وكثيرًا ما يَتولَّى الرَّجُلُ بيْن المُسلِمينَ والتَّتارِ قاضِيًا، بل وإمامًا، وفي نفْسِه أمورٌ مِن العَدلِ يُريدُ أن يَعمَلَ بها فلا يُمكِنُه ذلك، بل هناك مَن يَمنَعُه ذلك، ولا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَها. وعُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ عُودِيَ وأُوذِيَ على بعضِ ما أقامَه مِنَ العَدلِ، وقيل: إنَّه سُمَّ على ذلك؛ فالنَّجاشيُّ وأمثالُه سُعَداءُ في الجنَّةِ وإن كانوا لم يَلتَزِموا مِن شرائِعِ الإسلامِ ما لا يَقدِرونَ على التِزامِه، بل كانوا يَحكُمونَ بالأحكامِ الَّتي يُمكِنُهم الحُكمُ بها[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ وقَولِه: ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٣] أنَّه سُبحانَه أثْبَت للعَبدِ مَشيئةً واستِطاعةً -وهي القُدرةُ-؛ إلَّا أنَّهما تابِعتانِ لِمَشيئةِ اللهِ تعالى[2].

٩- قَولُه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ مُفَسِّرٌ لِقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ورافِعٌ لظَنِّ مَن يظُنُّ أنَّ اللهَ أمرَ النَّاسَ بحَقِّ تُقاتِه الَّذي لا يَستطيعونَه، وهذا هو الَّذي أراده مَن قال مِن المتقَدِّمينَ: إنَّ هذه ناسِخةٌ لتلك، أرادوا أنَّها ناسِخةٌ للظَّنِّ الفاسِدِ مِن معناها، ولم يُريدوا أنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٢١٦-٢١٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٣٠١).

أَمَرَ النَّاسَ بما لا يَستطيعونَه مِن تَقْواه، ثمَّ نَسَخ ذلك[١]!

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ إضافةُ الشُّحِّ إلى النَّفْسِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الشُّحَّ مِن طِباعِ النفْسِ؛ فإنَّ النُّفوسَ شَحيحةٌ بالأشياءِ المُحبَّبةِ إليها[٢]، وأنَّه شَديدُ التَّمكُّنِ منها.

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. (مَنْ) اسمُ شَرطٍ، وهي مِن صِيَغِ العُمومِ، أي: كُلُّ مَن يُوقَ شُحَّ نفْسِه، والعُمومُ يدُلُّ على أنَّ (مَن) مُرادٌ بها جِنسٌ لا شَخصٌ مُعَيَّنٌ ولا طائِفةٌ، وهذا حُبُّ اقتضاه حِرصُ أكثَرِ النَّاسِ على حِفظِ المالِ وادِّخارِه، والإقلالِ مِن نَفعِ الغَيرِ به، وذلك الحِرصُ يُسَمَّى الشُّحَّ. والمعنى: أنَّ الإنفاقَ يَقِي صاحِبَه مِن الشُّحِّ المنهيِّ عنه، فإذا يُسِّرَ على المرءِ الإنفاقُ فيما أَمَر اللهُ به، فقد وُقِيَ شُحَّ نَفْسِه، وذلك مِن الفلاحِ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ تنبيهٌ للمُعتَزلةِ والقَدَرِيَّةِ -المُنْكِرين أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ-؛ فالفَلاحُ شَيءٌ مفعولٌ بهم، وتعقيبُه ذلك بفِعلٍ مُضافٍ إليهم مِن إقراضِ القَرْضِ الحَسَنِ، وجَعْلُه كِلَيْهِما في مَدْحِ الموصوفينَ بفِعلينِ مُختَلِفَي اللَّفظِ مُتَّفِقَي المعنى، وهذا نظيرُ الإضلالِ الَّذي يُخْبِرُ به مَرَّةً عن نفْسِه أنَّه فاعِلٌ بهم، ومَرَّةً عنهم أنَّهم يَفعَلونَه بأنفُسِهم[٤].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فيه

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيميَّة (٨/ ٤٥٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣١٩، ٣٢٠).

أنَّ الذُّنوبَ يُكَفِّرُها اللهُ بالصَّدَقاتِ والحَسَناتِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ إقبالٌ على خِطابِ المُؤمِنينَ بما يُفيدُهم كمالًا، ويُجنِّبُهم ما يَفتِنُهم؛ فهذه الآيةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتِدائيًّا[٢].

- وإذا كانَتِ السُّورةُ كلُّها مكِّيَّةً كانت الآيةُ ابتِداءَ إقبالٍ على تخصيصِ المُؤمِنينَ بالخِطابِ بعْدَ قَضاءِ حقِّ الغرضِ الَّذي ابتُدِئَتْ به السُّورةُ على عادةِ القُرآنِ في تعقيبِ الأغراضِ بأضْدادِها مِن ترغيبٍ أو ترهيبٍ، وثناءٍ أو مَلامٍ، أو نحوِ ذلك؛ لِيُوفَّى الطَّرَفانِ حَقَّيْهما[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ فيه تَقديمُ خبرِ (إنَّ) على اسمِها؛ للاهتِمامِ بهذا الخبرِ، ولِمَا فيه مِن تَشويقٍ إلى الاسمِ؛ لِيَتمكَّنَ مَضمونُ هذا الخبَرِ في الذِّهنِ أتمَّ تمكُّنٍ؛ لِما فيه مِنَ الغرابةِ والأهمِّيَّةِ[٤].

- ولَمَّا كان الأزواجُ أقرَبَ عَداوةً مِنَ الأولادِ، قَدَّمَهنَّ[٥]. وقيل: قدَّمَهنَّ لِكَونِ العداوةِ تأتي مِن الأزواجِ قبْلَ الأولادِ غالبًا، ثمَّ يتأثَّرُ بهِنَّ الأولادُ[٦].

- والإخبارُ عن بعضِ الأزواجِ والأولادِ بأنَّهم عدُوٌّ يجوزُ أن يُحمَلَ على

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٣، ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الشعراوي)) (٨/ ٤٦٧٢).

الحقيقةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ على معنى التَّشبيهِ البليغِ، أي: كالعدُوِّ في المُعامَلةِ بما هو مِن شأنِ مُعامَلةِ الأعداءِ، كما قيلَ في المثَلِ: يفعَلُ الجاهلُ بنفْسِه ما يفعَلُ العدُوُّ بعدُوِّهِ[١].

- وعُطِفَ على قولِه: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ جُملةُ ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ﴾ إلى آخِرِها عَطْفَ الاحتِراسِ؛ لأنَّه إذا كان العفوُ مطلوبًا محبوبًا إلى اللهِ تعالَى -وهو لا يكونُ إلَّا بعْدَ حصولِ الذَّنْبِ-، فإنَّ عدمَ المؤاخَذةِ على مُجرَّدِ ظنِّ العداوةِ أجدَرُ بالطَّلَبِ، ففُهِمَ النَّهيُ عن مُعامَلةِ الأزواجِ والأبناءِ مُعامَلةَ الأعداءِ مِن أجْلِ إيجاسِ العداوةِ، بلِ المقصودُ مِنَ التَّحذيرِ التَّوقِّي، وأخْذُ الحَيْطةِ، لا ابتِداءُ المؤاخَذةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ﴾ العفوُ: ترْكُ المُعاقَبةِ على الذَّنْبِ بعْدَ الاستِعدادِ لها، ولو مع توبيخٍ، والصَّفحُ: الإعراضُ عن المذنِبِ، أي: ترْكُ عِقابِه على ذنْبِه دونَ التَّوبيخِ، والغَفْرُ: سترُ الذَّنْبِ، وعدَمُ إشاعتِه، والجمعُ بَيْنَها هنا إيماءٌ إلى تراتُبِ آثارِ هذِه العداوةِ، وما تَقتضيه آثارُها مِن هذِه المعامَلاتِ الثَّلاثِ[٣]. وقيل: يريدُ بالعفوِ عن الظَّالمِ، وبالصَّفحِ عن الجاهلِ، وبالغُفرانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٩).

قال البِقاعي: (﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ أي: تُوقِعوا المُجاوَزةَ عن ذُنوبِهم بعدمِ العِقابِ عليها؛ فإنَّه لا فائدةَ في ذلك؛ لأنَّ مَن طُبِع على شيءٍ لا يَرجِعُ، وإنَّما النَّافعُ الحذَرُ الَّذي أرشد إليه سُبحانَه لئلَّا يكونَ سببًا لـ «لو» المَنهيِّ عنه. ولَمَّا كان الرُّجوعُ عن الحُظوظِ صعبًا جدًّا، أكَّد سُبحانَه فقال: ﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾ أي: بالإعراضِ عن المُقابَلةِ بالتَّثريبِ باللِّسانِ ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾ أي: بأن تَستُروا ذُنوبَهم سترًا تامًّا شاملًا للعَينِ والأثَرِ، بالتَّجاوُزِ بعْدَ تركِ العِقابِ عن العِتابِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٣٠).

قال الفيروزابادي: (وصَفَحْتُ عنه: أعرَضْتُ عن ذنْبِه وعن تثريبِه، وهو أبلَغُ مِن العفوِ، وقد =

للمُسيءِ[١].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ الأفعالِ الثَّلاثةِ (تعفوا- تصفحوا- تغفروا)؛ لِظُهورِ أنَّ المرادَ مِن أولادِكُم وأزواجِكُم فيما يَصْدُرُ منهم ممَّا يُؤذيكُم. ويجوزُ أنْ يكونَ حذْفُ المتعلَّقِ لإرادةِ عُمومِ التَّرغيبِ في العَفوِ[٢].

- وجُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دليلُ جَوابِ الشَّرطِ المحذوفِ المُؤذِنُ بالتَّرغيبِ في العفوِ والصَّفحِ والغَفْرِ؛ فالتَّقديرُ: وإنْ تَعْفوا وتَصْفَحوا وتَغْفِروا يُحِبَّ اللهُ ذلك منكم؛ لأنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ، أي: للَّذينَ يَغفِرونَ ويَرحمونَ، وجمَعَ وَصْفُ ﴿رَّحِيمٌ﴾ الخِصالَ الثَّلاثَ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّ فيه تَعميمَ أحوالِ الأولادِ بعْدَ أنْ ذُكِرَ حالٌ خاصٌّ ببعضِهم. وأُدْمِجَ في هذا التَّذييلِ الأموالُ؛ لأنَّها لم يَشمَلْها طلَبُ الحذَرِ، ولا وصْفُ العداوةِ. ووَجْهُ إدماجِ الأموالِ هنا أنَّ المُسلِمينَ كانوا قد أُصِيبوا في أموالِهم مِن المُشركينَ، فغلَبوهُم على أموالِهم، ولم تُذْكَرِ الأموالُ في الآيةِ السَّابقةِ؛ لأنَّ الغرَضَ هو التَّحذيرُ مِن أشدِّ الأشياءِ اتِّصالًا بهم، وهي أزواجُهم وأولادُهم، ولأنَّ فِتنةَ هؤلاءِ مُضاعَفةٌ؛ لأنَّ الدَّاعيَ إليها يكونُ مِن أنفُسِهم، ومِن مَساعي الآخَرينَ وتسويلِهم[٤].

= يعفوُ الإنسانُ ولا يَصفَحُ). ((بصائر ذوي التمييز)) (٣/ ٤٢١). ويُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٨٦).

وقال القرطبي: (العفوُ: ترْكُ المؤاخَذةِ بالذَّنْبِ. والصَّفحُ: إزالةُ أثَرِه مِن النَّفْسِ). ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥، ٢٨٦).

- وجُرِّدَ التَّذييلُ عن ذِكْرِ الأزواجِ هنا اكتِفاءً[١]؛ لدَلالةِ فِتنةِ الأولادِ عليهنَّ بدَلالةِ فَحْوى الخِطابِ[٢]؛ فإنَّ فِتنتَهنَّ أشدُّ مِن فتنةِ الأولادِ؛ لأنَّ جُرأتَهنَّ على التَّسويلِ لأزواجِهنَّ ما يُحاوِلْنَه منهم أشدُّ مِن جرأةِ الأولادِ[٣]. وقيل: كأنَّه سُبحانَه تَرَكَ ذِكْرَ الأزواجِ في الفِتنةِ؛ لأنَّ مِنهم مَن يكونُ صَلاحًا وعَونًا على الآخِرةِ[٤].

- والقصرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) قصْرُ مَوصوفٍ على صفةٍ، أي: ليستْ أموالُكم وأولادُكم إلَّا فِتنةً، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ[٥]؛ للمُبالَغةِ في كثرةِ مُلازَمةِ هذه الصِّفةِ للموصوفِ؛ إذْ يَنْدُرُ أنْ تخلُوَ أفرادُ هذَيْنِ النَّوعَينِ -وهُما أموالُ المُسلِمينَ وأولادُهم- عن الاتِّصافِ بالفِتنةِ لِمَن يتلبَّسُ بهما[٦].

---

(١) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتِفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٢) فحْوَى الخطابِ: ويسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ، وهو إثباتُ حكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولى؛ كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظمُ مِن التَّأْفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كان دونَ القنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٢).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٦).

- وقُدِّمَ ذِكْرُ الأموالِ على الأولادِ؛ لأنَّ الأموالَ لم يتقدَّمْ ذِكْرُها، بخِلافِ الأولادِ. أو قُدِّمَت الأموالُ على الأولادِ لأنَّها أعظمُ فِتنةً[١]. أو: لأنَّ الأموالَ لا تكادُ تُفارِقُها الفِتنةُ، وليسَتِ الأولادُ في اسْتِلزامِ الفِتنةِ مِثْلَها؛ فكانَ تقديمُها أولى[٢].

- والإخبارُ بـ﴿فِتْنَةٌ﴾ للمُبالَغةِ، والمرادُ: أنَّهم سبَبُ فتنةٍ، سواءً أسَعَوْا في فِعلِ الفَتْنِ أم لم يَسْعَوْا؛ فإنَّ الشُّغلَ بالمالِ والعنايةِ بالأولادِ فيه فِتنةٌ[٣].

- وجاءَ في بابِ العَداوةِ ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ بحَرْفِ (مِنْ) الَّتي تَقْتَضي التَّبعيضَ، وفي الفِتنةِ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ حكَمَ بها على الأموالِ والأولادِ؛ وذلكَ لِغَلَبةِ الفِتنةِ بهما[٤]. فلمَّا ذكَرَ اللهُ العداوةَ أدخَلَ فيه (مِن) للتَّبعيضِ؛ لأنَّ كلَّهم ليسوا بأعداءٍ، ولم يَذكُرْ (مِن) في قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ لأنَّها لا تخلو عن الفِتنةِ واشتِغالِ القلبِ[٥].

- وفي هذِه الآيةِ مِن خُصوصيَّاتِ عِلمِ المعاني التَّذييلُ والإدماجُ[٦]، وكِلاهُما مِنَ الإطنابِ[٧]. .....

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٢٦١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٠٥).

(٦) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٦٢).

(٧) الإطنابُ: هو زيادةُ اللَّفظِ على المعنى لفائدةٍ، أو هو تأديةُ المعنى بعبارةٍ زائدةٍ عن مُتعارَفِ أوساطِ البُلغاءِ؛ لفائدةِ تقويتِه وتوكيدِه. ويَنقسِمُ إلى: إطنابٍ بالبَسطِ، وإطنابٍ بالزِّيادةِ. يُنظر: ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٠١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٦٢).

والاكتفاءُ، وهو مِنَ الإيجازِ. وفيها الإخبارُ بالمصدرِ، وهو فِتنةٌ، والإخبارُ به مِنَ المبالَغةِ؛ فهذِه أربعةٌ مِنَ المُحسِّناتِ البديعيَّةِ. وفيها القَصرُ[١]، وفيها التَّعليلُ، وهو مِن خُصوصيَّاتِ الفصلِ، وقد يُعَدُّ مِن مُحسِّناتِ البَديعِ أيضًا؛ فتلكَ سِتُّ خصوصيَّاتٍ[٢]، على ما سبَق بيانُه.

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ كِنايةٌ عن الجزاءِ عن تلكَ الفِتنةِ لِمَن يُصابِرُ نفْسَه على مُراجَعةِ ما تُسوِّلُه مِن الانحِرافِ عن مَرضاةِ اللهِ إنْ كانَ في ذلك تسويلٌ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ الفاءُ فصيحةٌ وتفريعٌ على ما تقدَّمَ، أي: إذا علِمْتُم هذا فاتَّقُوا اللهَ فيما يجِبُ مِنَ التَّقْوى في مُعامَلةِ الأولادِ والأزواجِ، ومصارِفِ الأموالِ، فلا يصُدَّكُم حُبُّ ذلكَ والشغلُ به عن الواجباتِ، ولا يُخرِجْكُم الغضبُ ونَحْوُه عن حدِّ العدلِ المأمورِ به، ولا حُبُّ المالِ عن أداءِ حُقوقِ الأموالِ، وعن طلَبِها مِن وُجوهِ الحلالِ؛ فالأمرُ بالتَّقْوى شامِلٌ للتَّحذيرِ، وللتَّرغيبِ في العفْوِ، ولِما عَدا ذلك[٤].

- وحذْفُ مُتعلَّقِ (اتَّقُوا)؛ لقَصدِ تَعميمِ ما يتعلَّقُ بالتَّقوى مِن جميعِ الأحوالِ،

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وبذلكَ يكونُ هذا الكلامُ كالتَّذييلِ؛ لأنَّ مضمونَه أعمُّ مِن مضمونِ ما قَبْلَه[١].

- و(مَا) في قولِه: ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ مَصدريَّةٌ ظرفيَّةٌ، أي: مُدَّةَ استِطاعتِكُم؛ لِيَعُمَّ الأزمانَ كلَّها، ويعُمَّ الأحوالَ تبعًا لعُمومِ الأزمانِ، ويعُمَّ الاستِطاعاتِ، فلا يَتخَلَّوْا عن التَّقوى في شيءٍ مِنَ الأزمانِ، وجُعِلَتِ الأزمانُ ظرفًا للاستِطاعةِ؛ لئَلَّا يُقصِّروا بالتَّفريطِ في شَيءٍ يَستطيعونَه فيما أُمِروا بالتَّقوى في شأنِه ما لم يَخرُجْ عن حدِّ الاستطاعةِ إلى حدِّ المشَقَّةِ، فليس في قولِه: ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ تَخفيفٌ ولا تشديدٌ، ولكنَّهُ عدلٌ وإنصافٌ، ففيه ما عليهم، وفيه ما لَهم[٢].

- وعطْفُ ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ على قولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتِمامِ به، ولأنَّ التَّقْوى تَتبادرُ في ترْكِ المنهيَّاتِ؛ فإنَّها مُشتقَّةٌ مِن (وَقَى)، فتَقْوى اللهِ أنْ يَقيَ المرءُ نفْسَه ممَّا نهاهُ اللهُ عنه، ولَمَّا كان ترْكُ المأموراتِ يَؤُولُ إلى إتيانِ المَنهيَّاتِ -لأنَّ ترْكَ الأمرِ منهيٌّ عنه-؛ كان التَّصريحُ به بخُصوصِه اهتمامًا بكِلا الأمْرَينِ لِتَحصُلَ حقيقةُ التَّقوى الشَّرعيَّةِ، وهي اجتِنابُ المنهيَّاتِ، وامتثالُ المأموراتِ[٣].

- وعطْفُ ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ تخصيصٌ بَعْدَ تخصيصٍ؛ فإنَّ الإنفاقَ ممَّا أمَرَ اللهُ به، فهو مِنَ المأموراتِ، وصيغةُ الأمرِ تشمَلُ واجبَ الإنفاقِ والمندوبَ، فلَمَّا كان الإنفاقُ شَديدًا، أكَّدَ أمْرَه بتَخصيصِه بالذِّكرِ[٤].

- و﴿خَيۡرٗا﴾ مَنصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: وأْتُوا خيرًا لأنفُسِكُم، أو على إضمارِ (يَكُنْ) فيكونُ خبرًا، أو على أنَّه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ دلَّ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٣).

(أَنْفِقُوا)، والتَّقديرُ: إنفاقًا خيرًا لأنفُسِكُم، وافعَلوا ما هو خيرٌ لها وأنفَعُ، وهذا تأكيدٌ للحثِّ على امتِثالِ هذِه الأوامِرِ، وبيانٌ لأنَّ هذه الأمورَ خيرٌ لأنفُسِكُم مِن الأموالِ والأولادِ، وما أنتُم عاكِفونَ عليه مِن حُبِّ الشَّهواتِ وزخارِفِ الدُّنيا؛ فيكونُ كالخاتمةِ لسائرِ الأوامرِ السَّابقةِ، وكالبيانِ للتَّرجيحِ على ما اعتقَدوا فيه الخيرَ مِنَ الأموالِ والأولادِ[١].

- وجُملةُ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تَذييلٌ[٢].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ لَمَّا كانَ وِقايةُ النَّفْسِ مِن الشُّحِّ فلاحًا عظيمًا، جِيءَ في جانبِه بصيغةِ الحَصرِ بطريقةِ تَعريفِ المسنَدِ، وهو قَصرُ جِنسِ المُفلِحينَ على جِنسِ الَّذينَ وُقُوا شُحَّ أنفُسِهِم، وهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ[٣]؛ للمُبالَغةِ في تَحقيقِ وَصْفِ المُفلِحينَ الَّذينَ وُقُوا شُحَّ أنفُسِهم، نُزِّلَ فلاحُ غيرِهم بمَنزِلةِ العدمِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ [التغابن: ١٦]؛ فإنَّ مُضاعَفةَ الجزاءِ على الإنفاقِ مع المغفرةِ خَيرٌ عظيمٌ، وبهذا الموقعِ يعلَمُ السَّامعُ أنَّ القرضِ أُطْلِقَ على الإنفاقِ المأمورِ به، والمقصودُ الاعتناءُ بفَضلِ الإنفاقِ المأمورِ به اهتمامًا مُكرَّرًا، فبَعْدَ أنْ جُعِل خيرًا جُعِل سببَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٩).

ويُنظر ما تقدَّم في مُشْكِلِ الإعرابِ (ص: ٤٥٥، ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٩).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٩).

الفلاحِ، وعُرِّفَ بأنَّه قرْضٌ مِنَ العبدِ لربِّه، وكفَى بهذا ترغيبًا وتلَطُّفًا في الطَّلبِ والاستِدعاءِ إلى القرضِ؛ إذْ جُعِلَ المُنفِقُ كأنَّه يُعطِي اللهَ تعالَى مالًا، وذلك مِن معنى الإحسانِ في مُعامَلةِ العبدِ ربَّه(١).

- ولَمَّا أمَرَ بالإنفاقِ أكَّدَه بقولِه: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، ورتَّبَ عليه تضعيفَ القَرضِ، وغُفرانَ الذُّنوبِ، وفي لفظِ المُضاعَفةِ تأكيدٌ للبَذْلِ لوجهِ اللهِ تعالَى(٢).

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ الشَّكورُ: فَعولٌ بمعنى فاعِلٍ مُبالَغةً، أي: كثيرُ الشُّكرِ، وأُطْلِقَ الشُّكرُ فيه على الجزاءِ بالخَيرِ على فِعلِ الصَّالحاتِ؛ تشبيهًا لفِعلِ المتفضِّلِ بالجزاءِ بشُكرِ المُنعَمِ عليه على نِعمةٍ، ولا نِعمةَ على اللهِ فيما يفعَلُه عِبادُه مِن الصَّالحاتِ؛ فإنَّما نَفْعُها لأنفُسِهم، ولكنَّ اللهَ تفضَّلَ بذلكَ حثًّا على صلاحِهم، فرتَّبَ لهُمُ الثَّوابَ بالنَّعيمِ على تزكيةِ أنفُسِهم، وتلطَّفَ لهم فسمَّى ذلكَ الثَّوابَ شُكرًا، وجعَلَ نفْسَه شاكرًا، وقد أومَأَ إلى هذا المَقصدِ إتْباعُ صِفةِ ﴿شَكُورٌ﴾ بصِفةِ ﴿حَلِيمٌ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ ذلك مِن حِلْمِه بعبادِه دونَ حقٍّ لهم عليه سُبحانَه(٣).

- وأيضًا أتْبَعَ جوابَي الشَّرطِ بوصفَينِ: ﴿شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾، أحَدُهما عائدٌ إلى المُضاعَفةِ؛ إذْ شُكرُه تعالَى مُقابِلٌ للمُضاعَفةِ، وحِلْمُه مُقابِلٌ للغُفرانِ(٤).

٥- قولُه تعالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٠، ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٣).

- وَصْفُ اللهِ بأنَّه ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تَتميمٌ للتَّذكيرِ بعَظَمةِ اللهِ تعالَى، مع مُناسَبتِها للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ اللَّذَيْنِ اشتمَلَتْ عليهما الآياتُ السَّابقةُ كلُّها؛ لأنَّ العالِمَ بالأفعالِ ظاهِرِها وخَفِيِّها لا يُفِيتُ شيئًا مِنَ الجزاءِ عليها بما رتَّبَ لها، ولأنَّ العزيزَ لا يُعجِزُه شيءٌ[١].

- وقولُه: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صِفَتا مُبالَغةٍ، أي: المُبالغُ في القُدرةِ والحِكمةِ[٢]؛ فالحَكيمُ: الموصوفُ بالحِكمةِ، لا يَدَعُ مُعامَلةَ النَّاسِ بما تَقتضيهِ الحِكمةُ مِن وَضْعِ الأشياءِ مَواضِعَها، ونَوْطِ الأمورِ بما يُناسِبُ حَقائقَها، والحكيمُ فَعيلٌ بمعنى المُحكِمِ، أي: المُتقِنِ في صُنْعِه ومُعامَلتِه، وهما معًا مِن صِفاتِه تعالَى؛ فهو وصْفٌ جامعٌ للمعنيَيْنِ[٣].

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الثَّامِنُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الطَّلاقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩١).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ المُمْتَحَنةِ

أسماءُ السُّورةِ ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمدَنِيِّ ٧
مقاصِدُ السُّورةِ ٧
موضوعاتُ السُّورةِ ٨
الآيات (١-٣) ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٩
مُشكِلُ الإعرابِ ١٠
المعنى الإجماليُّ ١٠
تَفسيرُ الآياتِ ١١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢١
بلاغةُ الآياتِ ٢٥
الآيات (٤-٦) ٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٦
المعنى الإجماليُّ ٣٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٨
بلاغةُ الآياتِ ٥١
الآيات (٧-٩) ٦٠

غَريبُ الكَلِماتِ ٦٠
المعنى الإجماليُّ ٦٠
تَفسيرُ الآياتِ ٦١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٠
بلاغةُ الآياتِ ٧٣
الآيتان (١٠-١١) ٧٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٧٧
المعنى الإجماليُّ ٧٨
تَفسيرُ الآيتَينِ ٧٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٨٨
بلاغةُ الآيتَينِ ٩٧
الآيتان (١٢-١٣) ١٠٤
غَريبُ الكَلِماتِ ١٠٤
المعنى الإجماليُّ ١٠٥
تَفسيرُ الآيتَينِ ١٠٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١١٤
بلاغةُ الآيتَينِ ١١٧

سُورةُ الصَّفِّ

أسماءُ السُّورةِ ١٢٧

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ١٢٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ١٢٨
موضوعاتُ السُّورةِ ١٢٨
الآيات (١-٤) ١٣٠
غَريبُ الكَلِماتِ ١٣٠
المعنى الإجماليُّ ١٣٠
تَفسيرُ الآياتِ ١٣١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٣٦
بلاغةُ الآياتِ ١٣٨
الآيتان (٥-٦) ١٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ ١٤٣
المعنى الإجماليُّ ١٤٣
تَفسيرُ الآيتَينِ ١٤٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥١
بلاغةُ الآيتَينِ ١٥٦
الآيات (٧-٩) ١٦٥
غريب الكلمات ١٦٥
المعنى الإجماليُّ ١٦٥
تَفسيرُ الآياتِ ١٦٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٧٢

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٧٣
بلاغةُ الآياتِ ١٧٦
الآيات (١٠-١٣) ١٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ ١٨٤
مُشكِلُ الإعرابِ ١٨٤
المعنى الإجماليُّ ١٨٥
تَفسيرُ الآياتِ ١٨٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩٢
بلاغةُ الآياتِ ١٩٦
الآية (١٤) ٢٠٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٠٤
المعنى الإجماليُّ ٢٠٥
تَفسيرُ الآيةِ ٢٠٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢١١
بلاغةُ الآيةِ ٢١١

سُورةُ الجُمُعةِ

أسماءُ السُّورةِ ٢١٩
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ٢١٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٢٢٠
مَقاصِدُ السُّورةِ ٢٢٠

مَوضوعاتُ السُّورةِ ٢٢٠
الآيات (١-٤) ٢٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٢٢
المعنى الإجماليُّ ٢٢٤
تَفسيرُ الآياتِ ٢٢٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٣٦
بلاغةُ الآياتِ ٢٤٤
الآيات (٥-٨) ٢٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٥٢
المعنى الإجماليُّ ٢٥٣
تَفسيرُ الآياتِ ٢٥٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٦٢
بلاغةُ الآياتِ ٢٦٥
الآيات (٩-١١) ٢٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٧٢
المعنى الإجماليُّ ٢٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ٢٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٨٤
بلاغةُ الآياتِ ٢٩٥

سُورةُ المُنافِقونَ

أسماءُ السُّورةِ ٣٠٧
فضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ٣٠٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٣٠٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ٣٠٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٣٠٨
الآيات (١-٣) ٣٠٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٠٩
المعنى الإجماليُّ ٣١٠
تَفسيرُ الآياتِ ٣١١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣١٦
بلاغةُ الآياتِ ٣٢٠
الآيات (٤-٦) ٣٢٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٢٥
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٢٦
المعنى الإجماليُّ ٣٢٦
تَفسيرُ الآياتِ ٣٢٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٣٢
بلاغةُ الآياتِ ٣٣٥
الآيتان (٧-٨) ٣٤٣

غَريبُ الكَلِماتِ ٣٤٣
المعنى الإجماليُّ ٣٤٣
تَفسيرُ الآيتَينِ ٣٤٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٤٩
بلاغةُ الآيتَينِ ٣٥١
الآيات (٩-١١) ٣٥٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٥٧
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٥٧
المعنى الإجماليُّ ٣٥٨
تَفسيرُ الآياتِ ٣٥٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٦٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٦٥
بلاغةُ الآياتِ ٣٦٩

سورةُ التَّغابُنِ

أسماءُ السُّورةِ ٣٧٩
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٣٧٩
مَقاصِدُ السُّورةِ ٣٧٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٣٨٠
الآيات (١-٤) ٣٨١
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٨١
المعنى الإجماليُّ ٣٨١

تَفسيرُ الآياتِ ٣٨٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٩٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٩٠
بلاغةُ الآياتِ ٣٩٤
الآيات (٥-٨) ٤٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٠٦
المعنى الإجماليُّ ٤٠٦
تَفسيرُ الآياتِ ٤٠٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤١٤
بلاغةُ الآياتِ ٤١٦
الآيتانِ (٩-١٠) ٤٢٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٢٥
المعنى الإجماليُّ ٤٢٥
تَفسيرُ الآيتَينِ ٤٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٣٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٣٣
بلاغةُ الآيتَينِ ٤٣٥
الآيات (١١-١٣) ٤٤١
المعنى الإجماليُّ ٤٤١
تَفسيرُ الآياتِ ٤٤١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٤٤

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٤٦
بلاغةُ الآياتِ ٤٤٩
الآيات (١٤-١٨) ٤٥٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٥٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٥٥
المعنى الإجماليُّ ٤٥٦
تَفسيرُ الآياتِ ٤٥٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٦٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٦٩
بلاغةُ الآياتِ ٤٧٤
الفهرس ٤٨٥

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر للقرآن الكريم

من سورة الطلاق إلى سورة القلم

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد التاسع والثلاثون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة الطلاق إلى سورة القلم)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد التاسع والثلاثون – من سورة الطلاق إلى سورة القلم/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٣ هـ

٥٢٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٤-٠٥-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٣/٩١٤٨

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٩١٤٨

ردمك: ٤-٠٥-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة الطلاق إلى سورة القلم)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد التاسع والثلاثون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ
سُورَةِ الطَّلاقِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الطَّلاقِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الطَّلاقِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الطَّلاقِ مَدَنيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

من أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

بيانُ الأحكامِ المتعلِّقةِ بالطَّلاقِ، وما يترتَّبُ عليه[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- ذِكرُ الطَّلاقِ المشروعِ، وما يَعقُبُه مِن العِدَّةِ والإرضاعِ، والإنفاقِ والإسكانِ.

٢- الإشهادُ على الطَّلاقِ، وعلى المراجَعةِ.

٣- النَّهيُ عن الإضرارِ بالمطَلَّقاتِ، والتَّضييقِ عليهنَّ.

---

(١) سُمِّيت بذلك لبيانِها كيفيَّةَ الطَّلاقِ الشَّرعيِّ، وما يترتَّبُ على الطَّلاقِ مِن العِدَّةِ والنَّفَقةِ والسُّكنى. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٩).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابن الجوزي، والقرطبيُّ، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٩)، ((مصاعد النظر)) للبِقاعي (٣/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٣)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٤٣٩).

٤- التَّذكيرُ المتكَرِّرُ بوُجوبِ تقوى اللهِ تعالى، والمحافظةِ على أداءِ تكاليفِه.

٥- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ التَّوكُّلِ على اللهِ.

٦- ذِكرُ سُوءِ عاقبةِ الَّذين فَسَقوا عن أمرِ رَبِّهم، وخالَفوا رُسُلَه.

٧- تذكيرُ الأمَّةِ برحمةِ اللهِ بهم؛ حيثُ أرسلَ إليهم رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم.

٨- بيانُ حُسنِ عاقبةِ المؤمِنينَ الصَّادِقينَ.

٩- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بما يدُلُّ على كَمالِ قُدرةِ الله، وسَعةِ عِلمِه.

الآيات (١-٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾: عِدَّةُ المرأةِ: هي الأيَّامُ الَّتي بانقِضائِها يحلُّ لها التَّزوُّجُ، وأصلُ (عَدد): يدُلُّ على إحصاءٍ[١].

﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾: أي: احفَظوها واضبِطوها، واعرِفوا ابتِداءَها وانتِهاءَها، وأصلُ (حصي): يدُلُّ على عَدٍّ[٢].

﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾: الفاحِشةُ: الزِّنا، وتُطلَقُ الفاحشةُ أيضًا على كلِّ شَيءٍ مُستقبَحٍ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ وشَناعةٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٠).

﴿يَتَعَدَّ﴾: أي: يَتجاوَزْ، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تجاوُزٍ في الشَّيءِ[١].

﴿حَسْبُهُۥٓ﴾: أي: كافِيه، وأصلُ (حسب) هنا: يدُلُّ على كِفايةٍ[٢].

﴿قَدْرًا﴾: أي: حَدًّا مَعلومًا، وأجَلًا مُعَيَّنًا، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

ابتدَأَ اللهُ تعالى تلك السُّورةَ الكريمةَ بخِطابِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائِلًا: يا أيُّها النَّبيُّ، ثمَّ خاطَب أُمَّتَه تبَعًا، فقال: إذا أردْتُم طَلاقَ زَوجاتِكم فطَلِّقوهنَّ لوَقتِ عِدَّتِهنَّ؛ وذلك بأنْ تُطلِّقوهُنَّ في طُهرٍ لم تُجامِعوهنَّ فيه، واحفَظوا -أيُّها الأزواجُ- عِدَّةَ المُطَلَّقاتِ، واضبِطوها، واتَّقوا اللهَ رَبَّكم.

ثمَّ بيَّن الله تعالى حُكمًا آخَرَ يَتعلَّقُ بالأزواجِ والزَّوجاتِ، فقال: لا تُخرِجوا المُطَلَّقاتِ الرَّجْعيَّاتِ مِنَ البُيوتِ، ولا يَخرُجْنَ هُنَّ أنفُسُهنَّ حتَّى تَنقَضِيَ عِدَّتُهنَّ، إلَّا أن يَرتَكِبْنَ فاحِشةً واضِحةً قَبيحةً؛ كالزِّنا، أو أذيَّةِ أقارِبِ الزَّوجِ، وتلك الأحكامُ المذكورةُ حدودُ اللهِ؛ فلا تَعْتَدُوها، ومَن يَتجاوَزْ أحكامَ اللهِ فقد ظَلَم نَفْسَه، لا تَدْري؛ فلَعَلَّ اللهَ يُحدِثُ بعْدَ فِراقِ الزَّوجَينِ أمرًا نافِعًا لهما، ويُصلِحُ ذاتَ بَيْنِهما، فيُراجِعُ الزَّوجُ مَن طلَّقها.

ثمَّ بيَّن الله تعالى حُكمًا يتعلَّقُ بالعِدَّةِ، فقال: فإذا قارَبَ المُطَلَّقاتُ الرَّجْعيَّاتُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

انتِهاءَ عِدَّتِهنَّ، فارْجِعوهنَّ بالمعروفِ إن شِئتُم، أو فارِقوهنَّ بمَعروفٍ، وأَشهِدوا -أيُّها الأزواجُ- على رَدِّ زَوجاتِكم رَجُلَينِ مِن عُدولِ المُسلِمينَ، وأدُّوا -أيُّها الشُّهَداءُ- الشَّهادةَ على وَجْهِها إذا طُلِبَ منكم أداؤُها؛ إخلاصًا للهِ تعالى، ذلك يتَّعِظُ به مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ.

ثمَّ بشَّر الله تعالى عبادَه الَّذين يتَّقونَه، فقال: ومَنْ يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه؛ يَجعَلْ له مَخرَجًا مِن كُلِّ شِدَّةٍ، ويَرزُقْه مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، ومَن يَعتَمِدْ على اللهِ فهو كافِيه ما أهَمَّه، إنَّ اللهَ مُنفِذٌ أمْرَه، قد جَعَل اللهُ لكُلِّ شَيءٍ حَدًّا ومِقدارًا ووَقتًا مُعَيَّنًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ -وأمَّتُه تبَعٌ له- إذا أردْتُم طَلاقَ زَوجاتِكم فلْيَكُنْ تَطليقُكم لهنَّ مُراعًى فيه زَمَنُ عِدَّتِهنَّ؛ لئلَّا تَطُولَ عليهنَّ، وذلك بأن تُطلِّقوهُنَّ وَقْتَ طُهرِهنَّ الَّذي لم تُجامِعوهنَّ فيه، فلا تُطَلِّقوهنَّ حالَ حَيضِهنَّ، ولا في زَمَنِ طُهرٍ قد جامَعْتُموهنَّ فيه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٠)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٧٠)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٤، ٢٩٥).
قال الرازي: (قَولُه تعالى: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: لِزَمانِ عِدَّتِهنَّ، وهو الطُّهرُ بإجماعِ الأُمَّةِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٩).
=

= وقال الواحدي: (الآيةُ دَلَّت على إيقاعِ الطَّلاقِ في الطُّهرِ، ودلَّت السُّنَّةُ على أنَّ ذلك الطُّهرَ يَجِبُ أن يكونَ غيرَ مُجامَعٍ فيه، حتَّى يكونَ الطَّلاقُ سُنِّيًّا). ((التفسير الوسيط)) (٤/ ٣١٠).

وقال ابن العربي: (المعنى فيه: فطَلِّقوهنَّ لعِدَّتِهنَّ الَّتي تُعتَبَرُ. واللَّامُ على أصْلِها، كما تقولُ: افعَلْ كذا لِكَذا، ويكونُ مقصودُ الطَّلاقِ والاعتِدادِ مآلَه الَّذي يَنتهي إليه). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٧٠).

وقال البِقاعي: (هذه اللَّامُ للوَقتِ، مِثلُها في: «كُتِبَ هذا لِخَمسٍ بَقِينَ مِن شَهرِ كذا»). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٤١).

قال السعدي: (فهذا الطَّلاقُ هو الَّذي تكونُ العِدَّةُ فيه واضِحةً بَيِّنةً، بخِلافِ ما لو طلَّقها وهي حائضٌ؛ فإنَّها لا تحتسبُ تلك الحيضةَ الَّتي وقَع فيها الطَّلاقُ، وتَطولُ عليها العِدَّةُ بسببِ ذلك، وكذلك لو طلَّقها في طُهرٍ وَطِئ فيه؛ فإنَّه لا يُؤمَنُ حمْلُها، فلا يتبيَّنُ ولا يتَّضحُ بأيِّ عدَّةٍ تعتَدُّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

وقال الرَّسْعَني: (الطَّلاقُ على ضَربَينِ: طلاقُ السُّنَّةِ، وطلاقُ البِدْعةِ. فأمَّا طَلاقُ السُّنَّةِ: فهو أن يُطَلِّقَها في طُهْرٍ لم يُجامِعْها فيه. وأمَّا طلاقُ البدعةِ: فهو أن يُطَلِّقَها في زمَنِ الحَيضِ، أو في طُهرٍ جامَعها فيه، ويقَعُ الطَّلاقُ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمَرَ ابنَ عُمَرَ بمُراجَعةِ زَوجتِه، ويأثَمُ؛ لارتِكابِه ما نُهيَ عنه). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٦٠).

وقال ابنُ المُنذِرِ: (أجمَعَ أهلُ العِلمِ على أنَّ مَن طَلَّق زَوجتَه طَلقةً واحِدةً، وهي طاهِرٌ مِن حَيضةٍ لم يُطَلِّقْها فيها، ولم يكُنْ جامَعَها في ذلك الطُّهرِ: أنَّه مُصيبٌ للسُّنَّةِ). ((الإشراف على مذاهب العلماء)) (٥/ ١٨٤). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٣٣).

أمَّا كَوْنُه طَلْقةً واحدةً فقد وقع فيه اختِلافٌ؛ قال أبو حيَّانَ: (قال مالكٌ: لا أعرِفُ طلاقَ السُّنَّةِ إلَّا واحدةً، وكَرِهَ الثَّلاثَ مجموعةً أو مُفَرَّقةً. وأبو حنيفةَ كَرِهَ ما زاد على الواحدةِ في طُهرٍ واحدٍ، فأمَّا مُفَرَّقًا في الأطهارِ فلا. وقال الشَّافِعيُّ: لا بأسَ بإرسالِ الطَّلاقِ الثَّلاثِ، ولا أعرفُ في عدَدِ الطَّلاقِ سُنَّةً ولا بدعةً، وهو مباحٌ. راعى في السُّنَّةِ الوقتَ فقطْ، وأبو حنيفةَ التَّفريقَ والوقتَ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٦). ويُنظر: ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) لابن عبد البَرِّ (١٥/ ٦٩).

والطَّلاقُ في زمَنِ الحَيضِ، أو في طُهرٍ جامَعها فيه يقعُ باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((شرح مختصر الطَّحاوي)) للجَصَّاص (٥/ ٢٧)، =

عن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّه طَلَّق امرأتَه وهي حائِضٌ، فذَكَر عُمَرُ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتغَيَّظَ فيه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ قال: لِيُراجِعْها، ثمَّ يُمْسِكْها حتَّى تَطهُرَ، ثمَّ تَحيضَ فتَطهُرَ، فإنْ بدا له أن يُطَلِّقَها فلْيُطَلِّقْها طاهِرًا قبْلَ أن يَمَسَّها؛ فتلك العِدَّةُ كما أمَرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ))(١).

وعن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طلَّقَ حَفْصةَ، ثمَّ راجَعَها))(٢).

﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان نَظَرُ الشَّارِعِ إلى العِدَّةِ شَديدًا؛ لِما فيها مِن الحُكمِ بالتَّأنِّي لاحتِمالِ النَّدَمِ، وبالظَّنِّ لبراءةِ الرَّحِمِ احتياطًا للأنسابِ، وبقَطعِ المنازَعاتِ والمُشاجَراتِ المُفْضِيةِ إلى ذَهابِ الأموالِ والأرواحِ، وقد أفهَمَه التَّعبيرُ باللَّامِ- صَرَّح به

= ((الكافي)) لابن عبد البَرِّ (٢/ ٥٧٢)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٣٦)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٨/ ٣٣٠).

(١) رواه البخاريُّ (٤٩٠٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٤٧١).

قال القرطبي: (قال عُلماؤنا: طلاقُ السُّنَّةِ ما جمَع شُروطًا سبعةً: وهو أن يُطَلِّقَها واحدةً، وهي ممَّن تَحيضُ، طاهرًا، لم يَمَسَّها في ذلك الطُّهرِ، ولا تَقَدَّمَه طلاقٌ في حَيضٍ، ولا تَبِعَه طلاقٌ في طُهرٍ يَتْلوه، وخلا عن العِوَضِ. وهذه الشُّروطُ السَّبعةُ مِن حديثِ ابنِ عُمَرَ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥١). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (١/ ٢٥٨).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٢٢٨٣)، والنَّسائيُّ (٣٥٦٠)، وابنُ ماجه (٢٠١٦) واللَّفظُ له.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصَّحيح)) (٤٢٧٥)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢/ ٢١٥) -وقال: (على شرط الشَّيخينِ)-، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٠١٦)، وقال ابن كثير في ((مسند الفاروق)) (١/ ٤٢١): (إسنادُه جَيِّدٌ قَوِيٌّ ثابت). وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٩/ ١٩٧)، وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٢٢٨٣).

بصيغةِ الأمرِ؛ فقال[١]:

﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾.

أي: واحفَظوا -أيُّها الأزواجُ- عِدَّةَ المُطَلَّقاتِ، فلا تَتهاوَنوا في ضَبطِ أيَّامِها، ومَعرفةِ بدايتِها ونهايتِها[٢].

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الطَّلاقُ على غَيرِ هذا الوَجهِ حَرامًا؛ للضِّرارِ ومُخالَفةِ الأمرِ، وكذا التَّهاوُنُ في الضَّبطِ؛ حتَّى يَحتَمِلَ أن تَنكِحَ المرأةُ قبْلَ الانقِضاءِ- أمَرَ بمُجانَبةِ ذلك كُلِّه بقَولِه[٣]:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾.

أي: واتَّقوا اللهَ الَّذي أحسَنَ إليكم -أيُّها الأزواجُ- فاحذَروا عِصْيانَ أمْرِه، وتَعَدِّيَ حُدودِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ يعني في المَدخولِ بها؛ لأنَّ غَيرَ المدخولِ بها لا عِدَّةَ عليها). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٣).

وقال الشنقيطي: (﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ وهي زَمَنُ التَّربُّصِ إجماعًا، وذلك هو المعبَّرُ عنه بثلاثةِ قُروءٍ). ((أضواء البيان)) (١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير =

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَر بالتَّقْوى، وناطَ بعضَها بصِفةِ الإحسانِ بقولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾؛ فسَّره بقولِه[1]:

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾.

أي: لا تُخرِجوا مَن طلَّقتُم مِن نِسائِكم مِنَ البُيوتِ الَّتي كُنَّ يَسكُنَّ فيها قبْلَ طَلاقِهِنَّ، بل أبقوهنَّ فيها حتَّى تَنتهيَ عِدَّتُهنَّ، ولا يَخرُجْنَ هُنَّ أنفُسُهنَّ حتَّى تَنقَضيَ عِدَّتُهنَّ كذلك[2].

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾.

أي: إلَّا أن يَرتَكِبْنَ فاحِشةً واضِحةً، وشَديدةَ القُبحِ، كبَذاءةِ اللِّسانِ، أو أذيَّةِ أقارِبِ الزَّوجِ، أو الوُقوعِ في مَعصيةٍ عَظيمةٍ كالزِّنا[3].

= السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٤)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٩).

ذكَر ابنُ القيِّم أنَّ الضَّميرَ في قولِه تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ يحتمِلُ أنْ يكونَ للبائِنِ، وأنْ يكونَ للرجعيَّةِ، وأنْ يكونَ لهما، ورجَّح حملَه على الرجعيَّةِ. يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٤٨٢).

وقال القاسمي: (هذا إنَّما هو في الطَّلاقِ الرَّجْعيِّ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٥٣). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

ويُنظر تفصيلُ الكلامِ في مسألةِ النَّفقةِ والسُّكنى للمطلَّقاتِ (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢، ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣، ١٤٤)، ((نظم =

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

أي: وتلك الأحكامُ المذكورةُ للطَّلاقِ والعِدَّةِ، والأمرِ ببَقاءِ المُطَلَّقةِ في بَيتِ زَوجِها حتَّى تَنتهيَ عِدَّتُها: قد حدَّدها اللهُ وبيَّنها لكم؛ فَقِفُوا عِندَها، ولا تَعْتَدُوها(١).

= الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٠).

قال الواحدي: (أكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالفاحِشةِ هاهنا: الزِّنا، وهو أن تَزنيَ، فتُخرَجَ لإقامةِ الحَدِّ عليها). ((الوسيط)) (٤/ ٣١٢).

واختار السَّمْعانيُّ أنَّ المرادَ بالفاحشةِ هنا الزِّنا، وأنَّه أَولى الأقوالِ، وعلَّل ذلك بقولِه: (لكَثرةِ مَن قال به، ولأنَّه مُوافِقٌ لِقَولِه: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ [النساء: ١٥]، وأجمَعوا على أنَّ المرادَ به الزِّنا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٥٩، ٤٦٠).

وقال موفَّقُ الدِّينِ ابنُ قُدامةَ: (﴿...بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ وهي أن يَطولَ لِسانُها على أحمائِها، وتُؤذيَهم بالسَّبِّ ونحوِه، رُويَ ذلك عن ابنِ عبَّاسٍ، وهو قولُ الأكثَرينَ). ((المغني)) (٨/ ١٦٠).

وقيل: المرادُ بالفاحشةِ في هذا الموضعِ: كلُّ معصيةٍ لله. وقيل: هي نُشوزُها على زَوجِها. وقيل: هي خُروجُها مِن بَيتِها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ الفاحِشةَ تَشملُ الزِّنا وغَيرَه: ابنُ جرير، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢، ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣، ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٠).

قال ابنُ عاشور: (الاستِثناءُ في قَولِه: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ يحتَمِلُ أن يَرجِعَ إلى الجُملَتَينِ اللَّتَينِ قبْلَه، كما هو الشَّأنُ فيه إذا ورَدَ بعْدَ جُمَلٍ على أصَحِّ الأقوالِ لعُلَماءِ الأُصولِ. ويحتمِلُ أن يَرجِعَ إلى الأخيرةِ مِنهما). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٠).

وممَّن قال بأنَّ الاستثناءَ عائِدٌ إلى كِلا النَّهيَينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٣).

وقيل: الاستثناءُ عائِدٌ إلى قَولِه تعالى: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.

أي: ومَن يَتجاوَزْ أحكامَ اللهِ الَّتي شَرَعَها لِعبادِه في الطَّلاقِ وغَيرِه، فقد أضَرَّ نَفْسَه بتَضييعِ مَصلَحتِها في الدُّنيا والآخِرةِ، واكتِسابِها الآثامَ[1].

﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

أي: لا تَدْري ما يَحدُثُ في مُستَقبَلِ الأيَّامِ؛ فلَعَلَّ اللهَ يُحدِثُ بعدَ طَلاقِ الرَّجُلِ لزَوجتِه أمرًا نافِعًا لهما، وذلك بأن يُصلِحَ ذاتَ بَيْنِهما، ويُغَيِّرَ ما في قُلوبِهما مِنَ البُغضِ والعَداوةِ إلى المودَّةِ والمحَبَّةِ؛ فيُراجِعَها[2].

= (٨/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٥، ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٦).

قال البقاعي: (﴿لَا تَدْرِى﴾ -أي: يا أيُّها النَّبيُّ الكريمُ- ما يكونُ عن ذلك مِن الأمورِ الَّتي يُحدِثُها اللهُ؛ لِتُشيرَ على المُطَلِّقِ بشَيءٍ مِمَّا يُصلِحُه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٤٥).

وممَّن اختار أيضًا أنَّ الخِطابَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٧/ ٨٣).

وقيل: الخِطابُ للمُتَعدِّي لحدودِ الله. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦١).

وقال النَّسَفي: (﴿لَا تَدْرِى﴾ أيُّها المُخاطَبُ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٩٧).

واختار ابنُ عاشور أنَّ الخِطابَ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٧).

قال ابن العربي: (قال جميعُ المفَسِّرينَ: أراد بالأمرِ هاهنا الرَّغبةَ في الرَّجعةِ، ومعنى القَولِ: التَّحريضُ على طلاقِ الواحِدةِ، والنَّهيُ عن الثَّلاثِ؛ فإنَّه إذا طَلَّق ثلاثًا أضَرَّ بنَفْسِه عندَ النَّدمِ على الفِراقِ، والرَّغبةِ في الارتجاعِ، ولا يجِدُ عندَ إرادةِ الرَّجْعةِ سَبيلًا). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٧٨). ويُنظر الخلافُ فيمَن طلَّق ثلاثًا (ص: ٣٨).

وقال ابنُ جُزي: (﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ المرادُ به الرَّجعةُ عندَ الجمهورِ). =

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَدَّ سُبحانَه ما يُفعَلُ في العِدَّةِ؛ أَتْبَعَه ما يُفعَلُ عندَ انقِضائِها[١].

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾.

أي: فإذا قارَبَ المُطَلَّقاتُ الرَّجْعيَّاتُ انتِهاءَ عِدَّتِهنَّ فارْجِعوهنَّ إن شِئتُم، بشَرطِ إعطائِهنَّ جَميعَ حُقوقِهنَّ؛ كالنَّفَقةِ، والكِسوةِ، والمَسكَنِ، وحُسنِ الصُّحبةِ، مِن غَيرِ قَصدِ الإضرارِ بهِنَّ وحَبْسِهنَّ، أو اترُكوهنَّ حتَّى تَنقَضِيَ عِدَّتُهنَّ فيَصِرْنَ بائِناتٍ مِنكم، بلا تعنيفٍ ولا مُشاتَمةٍ ولا مُخاصَمةٍ، مع إعطائِهنَّ جَميعَ حُقوقِهنَّ أيضًا؛ كبَقيَّةِ المَهرِ، ومُتعةِ الطَّلاقِ، وغَيرِ ذلك[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾[البقرة: ٢٣١].

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾.

أي: وأَشهِدوا -أيُّها الأزواجُ- على رَدِّ زَوجاتِكم المطلَّقاتِ قبْلَ انتِهاءِ عِدَّتِهنَّ،

= ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٧، ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٦).

قال ابنُ القيم: (الإمساكُ هنا: الرَّجْعةُ. والمُفارَقةُ: تَركُ الرَّجْعةِ، لا إنشاءُ طَلقةٍ ثانيةٍ. هذا ممَّا لا خِلافَ فيه البتَّةَ). ((زاد المعاد)) (٥/ ٢٩٢).

رَجُلَينِ مِن عُدولِ المُسلِمينَ، ممَّن تَرضَونَ دِينَهما وأمانتَهما[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

ممَّن قال بأنَّ المرادَ: الإشهادُ على الرَّجْعةِ: ابنُ جرير، والماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّة، واستظهره القرطبيُّ، واختاره ابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٣/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥).

قال القرطبي: (فائدةُ الإشهادِ ألَّا يقَعَ بيْنَهما التَّجاحُدُ، وألَّا يُتَّهَمَ في إمساكِها، ولئلَّا يموتَ أحدُهما فيَدَّعيَ الباقي ثُبوتَ الزَّوجيَّةِ لِيَرِثَ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٧).

وقال ابنُ تيميَّة: (قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ فأمَرَ بالإشهادِ على الرَّجعةِ. والإشهادُ عليها مأمورٌ به باتِّفاقِ الأمَّةِ. قيل: أمرُ إيجابٍ. وقيل: أمرُ استِحبابٍ ... ومِن حكمةِ ذلك: أنَّه قد يُطَلِّقُها ويَرتَجِعُها، فيُزَيِّنُ له الشَّيطانُ كِتمانَ ذلك حتَّى يُطَلِّقَها بعدَ ذلك طلاقًا مُحرِّمًا ولا يَدري أحدٌ، فتَكونُ معه حرامًا؛ فأمَرَ اللهُ أن يُشهدَ على الرَّجعةِ لِيَظهَرَ أنَّه قد وقعتْ به طَلْقةٌ، كما أمَر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مَن وجَدَ اللُّقَطةَ أن يُشهِدَ عليها [أحمد «١٧٤٨١»، وأبو داود «١٧٠٩»]؛ لئلَّا يُزيِّنَ الشَّيطانُ كِتمانَ اللُّقطةِ؛ وهذا بخِلافِ الطَّلاقِ؛ فإنَّه إذا طلَّقها ولم يُراجِعْها بل خلَّى سبيلَها فإنَّه يَظهَرُ للنَّاسِ أنَّها ليست امرأتَه، بل هي مُطَلَّقةٌ، بخِلافِ ما إذا بَقيَتْ زوجةً عِندَه؛ فإنَّه لا يَدري النَّاسُ أطَلَّقَها أمْ لم يُطَلِّقْها). ((مجموع الفتاوى)) (٣٣/ ٣٣، ٣٤).

وممَّن قال: المرادُ: الإشهادُ على الرَّجْعةِ والفِراقِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، وابن جُزَي، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ الإشهادَ على الطَّلاقِ والرَّجعةِ: ابنُ عبَّاسٍ، والسُّدِّيُّ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥).

قال ابن جُزَي: (هذا أظهَرُ؛ لأنَّ الإشهادَ به يُرفَعُ الإشكالُ والنِّزاعُ، ولا فرقَ في هذا بيْنَ الرَّجعةِ والطَّلاقِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٥).

قال ابنُ عطية: (وتقييدُ تاريخِ الإشهادِ: مِنَ الإشهادِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤).

واستحبابُ الإشهادِ على الرَّجعةِ هو باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، =

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾.

أي: وأدُّوا -أيُّها الشُّهَداءُ- الشَّهادةَ صَحيحةً على وَجْهِها إذا طُلِبَ منكم أداؤُها، بلا زِيادةٍ ولا نُقصانٍ، ولا تبديلٍ ولا تغييرٍ؛ إخلاصًا للهِ تعالى، وامتِثالًا لأمْرِه[1].

﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

أي: ذلك الَّذي بيَّنَّاه لكم، وأمَرْناكم به مِن الأحكامِ: إنَّما يتَّعِظُ ويَعمَلُ به مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ؛ فهو الَّذي يخافُ عِقابَ اللهِ إن خالَفَ شَرْعَه[2].

= والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (٢/ ٢٥٢)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٤٢٤)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢١٦)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٤٢، ٣٤٣).
وحُكيَ الإجماعُ على أنَّ الطَّلاقَ بدونِ إشهادٍ جائزٌ. ((تيسير البيان لأحكام القرآن)) لابن نور الدين (٤/ ٢٦٥)، ((سبل السلام)) للصنعاني (٢/ ٢٦٧)، ((نيل الأوطار)) للشوكاني (٦/ ٣٠٠).
قال ابنُ عبدِ البَرِّ: (والاشهادُ على الطَّلاقِ ليس بواجبٍ فرضًا عندَ جمهورِ أهلِ العِلمِ، ولكنَّه نَدبٌ وإرشادٌ واحتياطٌ للمُطلِّقِ). ((الكافي في فقه أهل المدينة)) (٢/ ٥٧٤).
وقال ابنُ تيميَّةَ: (ظَنَّ بعضُ النَّاسِ... أنَّ الطَّلاقَ الَّذي لا يُشهَدُ عليه لا يَقَعُ! وهذا خِلافُ الإجماعِ، وخِلافُ الكتابِ والسُّنَّةِ، ولم يَقُلْ أحَدٌ مِن العلماءِ المشهورينَ به). ((الفتاوى الكبرى)) (٣/ ٢٩٦).
وقال ابن جرير: (﴿ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ وهما اللَّذانِ يُرْضَى دينُهما وأمانتُهُما). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠، ٤١).
وقال ابنُ عطيَّة: (قال النَّخَعيُّ: العَدلُ: مَن لم تَظهَرْ منه رِيبةٌ، وهذا قَولُ الفُقَهاءِ، والعَدلُ حقيقةً الَّذي لا يَخافُ إلَّا اللهَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٩، ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).
قيل: المرادُ بـ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الإشارةُ إلى إقامةِ الشَّهادةِ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عطية، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥). =

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾.

أي: ومَنْ يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ ما أمَرَ به، واجتِنابِ ما نهى عنه؛ في شأنِ الطَّلاقِ وغَيرِه، يَجعَلِ اللهُ له مَخرَجًا ممَّا وَقَع فيه مِن شِدَّةٍ، فيَدفَعْ عنه ضُرَّه، ويُسَهِّلْ له أمْرَه[1].

﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن دَواعي الفِراقِ والخِلافِ بيْنَ الزَّوجَينِ ما هو مِنَ التَّقتيرِ في الإنفاقِ؛ لِضيقِ ذاتِ اليَدِ، فكان الإحجامُ عن المراجَعةِ عارِضًا كثيرًا للنَّاسِ بعْدَ التَّطليقِ- أتْبَعَ الوَعدَ بجَعلِ المَخرَجِ للمُتَّقينَ بالوَعدِ بمَخرَجٍ خاصٍّ، وهو مَخرَجُ التَّوسِعةِ في الرِّزقِ[2].

﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾.

أي: ومَن يتَّقِ اللهَ يُسَهِّلْ له أسبابَ الرِّزقِ مِن خَيرِ الدُّنيا والآخِرةِ؛ مِن جِهةٍ

= قال ابنُ عطيَّة: (ذلك أنَّ جميعَ فُصولِ الأحكامِ والأمورِ فإنَّما تدورُ على إقامةِ الشَّهادةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤).

وقال البِقاعي: (﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: الَّذي ذكَرْتُ لكم -أيَّتُها الأُمَّةُ- مِن هذه الأُمورِ البَديعةِ النِّظامِ، العاليةِ المَرامِ، وأَوْلاها بذلك هنا الإشهادُ وإقامةُ الشَّهادةِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٤٩، ١٥٠).

وقيل: المرادُ: ما ذُكِرَ مِن أمرِ الطَّلاقِ، والواجِبِ لبَعضِ الأزواجِ على بعضٍ عندَ الفِراقِ والإمساكِ. وممَّن ذهب إلى هذا في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٢).

لا تَخطُرُ ببالِه، وعلى وَجهٍ لا يَشعُرُ به[١]!

كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾ [الزمر: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾.

أي: ومَن يَعتَمِدْ على اللهِ وَحْدَه، ويُفَوِّضْ جميعَ أمرِه إليه في طَلَبِ الخَيرِ أو دَفعِ الشَّرِّ؛ فاللهُ كافِيه ما أهَمَّه مِن أمرِ دِينِه ودُنياه وآخِرتِه[٢].

عن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لو أنَّكم توَكَّلْتُم على اللهِ حَقَّ توَكُّلِه، لَرزَقَكم كما يَرزُقُ الطَّيرَ؛ تَغْدو خِماصًا، وتَرُوحُ بِطانًا[٣]))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

(٣) أي: تَغْدو بُكرةً وهي جِياعٌ، وتَروحُ عِشاءً وهي مُمتَلِئةُ الأجوافِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٨٠).

(٤) أخرجه من طُرُقٍ: الترمذيُّ (٢٣٤٤) باختلافٍ يسيرٍ، وابنُ ماجه (٤١٦٤)، وأحمدُ (٣٧٠) =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾.

أي: إنَّ اللهَ مُمْضٍ أمْرَه، فلا بُدَّ مِن نُفوذِ أمْرِ اللهِ وقَضائِه في خَلْقِه بما يَشاؤُه، وإن تأخَّرَ وَقتُه بحَسَبِ ما تَقتَضيه حِكمتُه سُبحانَه[١].

قال تعالى: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الله كِفايتَه للمُتوَكِّلِ عليه، فرُبَّما أوهَمَ ذلك تعجيلَ الكِفايةِ وَقتَ التَّوَكُّلِ؛ فعَقَّبَه بقَولِه: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾، أي: وَقتًا لا يتعَدَّاه، فهو يَسوقُه إلى وَقتِه الَّذي قَدَّرَه له؛ فلا يَستَعجِلِ المتوكِّلُ ويقولُ: قد توكَّلتُ ودَعَوتُ فلم أرَ شَيئًا، ولم تحصُلْ لي الكفايةُ؛ فاللهُ بالِغُ أمْرِه في وَقتِه الَّذي قَدَّرَه له[٢].

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾.

= واللَّفظُ لهما.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ لا نعرِفُه إلَّا مِن هذا الوجهِ). وصحَّحه ابنُ حِبَّان في ((الصَّحيح)) (٧٣٠)، وابنُ العربي في ((أحكام القرآن)) (٢/ ٤٧١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤١٦٤)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١/ ٤٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

قال العليمي: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ قرأ حفصٌ عن عاصمٍ: ﴿بَٰلِغُ﴾ بغيرِ تنوينٍ ﴿أَمۡرِهِۦ﴾ بالخَفضِ، بإضافةِ ﴿بَٰلِغُ﴾ إليه، وقرأ الباقونَ: بالتَّنوينِ، ونَصبِ ﴿أَمۡرِهِۦ﴾، والمعنى على القِراءتَينِ: مُنفِذٌ حُكمَه). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٨٥). ويُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٨).

وقال ابن عاشور: (ومعنَى ﴿بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾: واصلٌ إلى مُرادِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٣).

أي: قد جَعَل اللهُ لكُلِّ شَيءٍ ممَّا شَرَعَه وخَلَقَه وقدَّرَه حَدًّا مَعلومًا، ومِقدارًا مُعَيَّنًا، ووقتًا مَضروبًا؛ كالطَّلاقِ والعِدَّةِ، وحالِ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وغيرِ ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٦)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: قد جعَل اللهُ لكلِّ شَيءٍ مِن الطَّلاقِ والعِدَّةِ وغيرِ ذلك حدًّا وأجَلًا وقَدْرًا يُنتهَى إليه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨).

وقيل: المعنى: جعَل لكلِّ شَيءٍ مِن الشِّدَّةِ والرَّخاءِ. وممَّن قاله: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩).

قال الشوكاني: (قد جعَل سُبحانَه للشِّدَّةِ أجَلًا تَنتهي إليه، وللرَّخاءِ أجَلًا يَنتهي إليه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني متى يكونُ هذا الغنيُّ فقيرًا؟ ومتى يكونُ هذا الفقيرُ غنيًّا؟ فقدَّر اللهُ ذلك كلَّه، لا يُقدَّمُ ولا يؤخَّرُ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٤).

وقال أبو السعود: (﴿... قَدْرًا﴾ أي: تقديرًا وتوقيتًا، أو مِقدارًا). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٢).

وقال السعدي: (﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: وقتًا ومِقدارًا، لا يَتعدَّاه، ولا يَقصُرُ عنه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

وقال البِقاعي: (﴿لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: تقديرًا لا يَتعدَّاه في مِقدارِه وزَمانِه ومَكانِه، وجميعِ عَوارِضِه وأحوالِه، وإن اجتهَد جميعُ الخلائقِ في أن يَتعدَّاه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٥٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾. قَولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ تحذيرٌ مِن التَّساهُلِ في أحكامِ الطَّلاقِ والعِدَّةِ، ذلك أنَّ أهلَ الجاهليَّةِ لم يَكونوا يُقيمونَ للنِّساءِ وَزنًا، وكان قَرابةُ المُطَلَّقاتِ قَلَّما يُدافِعونَ عَنهنَّ، فتناسى النَّاسُ تلك الحُقوقَ وغَمِصوها[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ أنَّ مسائلَ الطَّلاقِ يَجبُ على الإنسانِ أنْ يَعتنِيَ بها ويَعرِفَها؛ وألَّا يَخرُجَ مِن النِّكاحِ إلَّا بحَسَبِ الحُدودِ الشَّرعيَّةِ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ فيه أنَّ الزَّوجَ له حَقٌّ في بدَنِ الزَّوجةِ، ولها حقٌّ في بَدَنِه وذِمَّتِه، فكُلُّ مَن له دَيْنٌ في ذِمَّةِ غَيرِه، سواءٌ كان مالًا، أو مَنفعةً مِن ثَمَنٍ أو مُثَمَّنٍ أو أُجرةً، أو صَداقًا أو نَفَقةً، أو بَدَلَ مُتلَفٍ، أو ضَمانَ مَغصوبٍ- فعليه أن يؤدِّيَ ذلك الحَقَّ الواجِبَ بإحسانٍ، وعلى صاحِبِ الحَقِّ أن يَتْبَعَ بإحسانٍ، كما قال تعالى في آيةِ القِصاصِ: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وكذلك الحَقُّ الثَّابِتُ في بَدَنِه، مِثلُ حَقِّ الاستِمتاعِ، والإجارةِ على عَينِه، ونحوِ ذلك، فالطَّالِبُ يَطلُبُ بمَعروفٍ، والمطلوبُ يُؤدِّي بإحسانٍ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ فيه حَثٌّ على أداءِ الشَّهادةِ؛ لِما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ١٥٤)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣١٣).

فيه مِنَ العُسرِ على الشَّاهِدِ بتَركِ مُهِمَّاتِه، وعُسرِ لقاءِ الحاكِمِ الَّذي يؤدِّي عِندَه، ورُبَّما بَعُدَ مَكانُه، وكان للعَدلِ في الأداءِ عوائِقُ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ فيه أنَّ مَن يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ يُوجِبُ له ذلك أن يتَّعِظَ بمَواعِظِ اللهِ، وأن يُقَدِّمَ لآخِرتِه مِن الأعمالِ الصَّالِحةِ ما تمكَّنَ منها، بخِلافِ مَن تَرحَّلَ الإيمانُ عن قَلبِه؛ فإنَّه لا يُبالي بما أقدَمَ عليه مِن الشَّرِّ، ولا يُعَظِّمُ مَواعِظَ اللهِ؛ لعَدَمِ المُوجِبِ لذلك[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾، وقَولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤] دَلالةٌ على أنَّ الإنسانَ كلَّما اتَّقى اللهَ زالتْ عنه الهُمومُ، وفُرِّجَتْ عنه[٣].

٧- عن عَونِ بنِ عبدِ الله، قال: قيل لرجُلٍ مِن الفُقَهاءِ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾، فقال الفقيهُ: واللهِ إنَّه لَيَجعَلُ لنا المَخرجَ وما بلَغْنا مِن التَّقْوى ما هو أهلُه، وإنَّه لَيَرزُقُنا وما اتَّقَيْناه كما يَنبغي، وإنَّه لَيَجعَلُ لنا مِن أمْرِنا يُسرًا وما اتَّقَيناه، وإنَّا لنرجو الثَّالثةَ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾[٤] [الطلاق: ٥].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ يُفهِمُ أنَّ مَن لم يتَّقِ اللهَ يُقَتَّرُ عليه[٥].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ فيه أنَّ كُلَّ مَن اتَّقى اللهَ تعالى،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٩)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (٤/ ٢٤٨، ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٤).

ولازَمَ مَرضاةَ اللهِ في جميعِ أحوالِه؛ فإنَّ اللهَ يُثيبُه في الدُّنيا والآخِرةِ، ومِن جُملةِ ثَوابِه أن يَجعَلَ له فَرَجًا ومَخرَجًا مِن كُلِّ شِدَّةٍ ومَشَقَّةٍ، وكما أنَّ مَن اتَّقى اللهَ جَعَل له فَرَجًا ومَخرَجًا، فمَن لم يتَّقِ اللهَ وَقَع في الشَّدائِدِ والآصارِ والأغلالِ الَّتي لا يَقدِرُ على التَّخَلُّصِ منها، والخُروجِ مِن تَبِعَتِها[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ فيه أنَّ تقوى اللهِ سَبَبُ تَفريجِ الكُرَبِ، والخَلاصِ مِن المَضايِقِ. ومُلاحَظةُ المُسلِمِ ذلك ويَقينُه بأنَّ اللهَ يَدفَعُ عنه ما يَخطُرُ ببالِه مِن الخواطِرِ الشَّيطانيَّةِ الَّتي تُثَبِّطُه عن التَّقوى: يُحَقِّقُ وَعْدَ اللهِ إيَّاه بأن يَجعَلَ له مَخرَجًا، ويَرزُقَه مِن حَيثُ لا يَحتَسِبُ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا أراد بعَمَلِه الحُسْنَيَينِ؛ حُسْنَى الدُّنيا، وحُسْنَى الآخِرةِ، فلا شَيءَ عليه؛ لأنَّ اللهَ رَغَّبَه في التَّقْوى بذِكْرِ المَخْرَجِ مِن كلِّ ضيقٍ، والرِّزقِ مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ[٣].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ هذا بَيانٌ لوُجوبِ التَّوَكُّلِ على اللهِ تعالى، وتفويضِ الأمرِ إليه؛ لأنَّه إذا عُلِمَ أنَّ كلَّ شيءٍ مِنَ الرِّزقِ ونَحْوِه لا يكونُ إلَّا بتَقديرِه وتَوقيتِه، لم يَبْقَ إلَّا التَّسليمُ للقَدَرِ، والتَّوكُّلُ[٤].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ يُفهِمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٢).

أنَّ مَن لم يتوكَّلْ لم يُكْفَ شَيئًا مِنَ الأشياءِ[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أنَّه يَجبُ على كلِّ مؤمنٍ إذا أراد أنْ تُقْضى أمورُه وتُسَهَّلَ أنْ يُفَوِّضَ أمْرَه إلى اللهِ[٢].

١٥- قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ والتَّوَكُّلُ على اللهِ هو مِن أقوى الأسبابِ الَّتي يَدْفَعُ بها العَبدُ ما لا يُطيقُ مِن أذى الخَلْقِ وظُلْمِهم وعُدوانِهم؛ فإنَّ اللهَ حَسْبُه، أي: كافيه، ومَن كان اللهُ كافيَه وواقيَه فلا مَطْمَعَ فيه لِعَدُوِّه، ولا يَضُرُّه إلَّا أذًى لا بُدَّ منه؛ كالحَرِّ، والبَرْدِ، والجُوعِ، والعَطَشِ، وأمَّا أنْ يَضُرَّه بما يَبْلُغُ منه مُرادَه فلا يكونُ أبدًا[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أنَّه إذا صَدَقَ العَبدُ في اعتمادِه على اللهِ تعالى، كفاه اللهُ تعالى ما أهَمَّه، ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: كافيه، ثُمَّ طَمْأَنَ المتوكِّلَ بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ فلا يُعْجِزُه شَيءٌ أرادَه[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ دَلالةٌ -بمفهومِ الآيةِ- أنَّ مَن تَوَكَّلَ على غيرِ اللهِ خُذِلَ؛ لأنَّ غيرَ اللهِ لا يكونُ حَسْبًا، فمَن تَوَكَّلَ على غَيرِ اللهِ تَخَلَّى اللهُ عنه، وصار موكولًا إلى هذا الشَّيءِ، ولم يَحْصُلْ له مَقصودُه، وابتعدَ عنِ اللهِ بمقدارِ توكُّلِه على غَيرِ اللهِ[٥].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أنَّه يَنبغي للعَبدِ ألَّا يَستَبطِئَ نَصْرَه ورِزْقَه وعافيتَه؛ فإنَّ اللهَ تعالى بالِغُ أمْرِه، وقد جَعَل لكلِّ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٥٨).

(٥) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٩٥).

شَيءٍ قَدْرًا لا يَتقَدَّمُ عنه ولا يَتأخَّرُ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾ أنَّ الخِطابَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم خِطابٌ له ولأُمَّتِه؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ يُوَجِّهُ خِطابَه للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ هو والأُمَّةُ، فالخِطابُ مُفْرَدٌ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ وبَعْدَه ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾ ليس النَّبيَّ وحْدَه، بل كلُّ الأُمَّةِ[٢]، فلو لم يكُنْ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ يُقصَدُ منه شُمولُ الحُكمِ لجميعِ الأمَّةِ لَأفرَدَ الخِطاباتِ بعْدَه، ولَقال: (إذا طلَّقْتَ النِّساءَ فطَلِّقْهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وأحْصِ) (واتَّقِ اللهَ) (لا تُخرِجْ)، فلمَّا جاء بها مجموعةً تبيَّن أنَّه أراد إدخالَ الأمَّةِ تحتَ خِطابِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾[٣].

٢- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾، تَعليقُ ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾ بـ (إِذَا) الشَّرطيَّةِ مُشعِرٌ بأنَّ الطَّلاقَ خِلافُ الأصلِ في عَلاقةِ الزَّوجَينِ الَّتي قال اللهُ فيها: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾[٤] [الروم: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الروم)) (ص: ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (١/ ٤٨٦).

قال ابن عاشور: (تَوجيهُ الخِطابِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُسلوبٌ مِن أساليبِ آياتِ التَّشريعِ المُهتَمِّ به، فلا يَقْتضي ذلك تَخصيصَ ما يُذكَرُ بعْدَه بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مِثلُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الَّذي يَتولَّى تَنفيذَ الشَّريعةِ في أُمَّتِه، وتَبْيينَ أحْوالِها، فإنْ كان التَّشريعُ الواردُ يَشملُه ويَشملُ الأُمَّةَ، جاء الخِطابُ مُشتمِلًا على ما يُفيدُ ذلك، مِثلُ صِيغةِ الجمْعِ في قولِه هنا: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، وإنْ كان التَّشريعُ خاصًّا بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جاء بما يَقْتَضي ذلك، نحْوُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[المائدة: ٦٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٦).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا عامٌّ يَتناوَلُ المدخولَ بهِنَّ وغَيرَ المدخولِ بهِنَّ مِن ذواتِ الأقراءِ والآيساتِ والصَّغيراتِ والحوامِلِ، فكيف صَحَّ تَخصيصُه بذواتِ الأقراءِ المدخولِ بهِنَّ؟

الجوابُ: لا عُمومَ ثَمَّ ولا خُصوصَ، لكِنَّ النِّساءَ اسمُ جِنسٍ للإناثِ مِن الإنسِ، وهذه الجِنسيَّةُ مَعنًى قائِمٌ في كُلِّهنَّ وفي بَعضِهنَّ؛ فجاز أن يُرادَ بالنِّساءِ هذا وذاك، فلمَّا قيل: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ عُلِمَ أنَّه أُطلِقَ على بَعضِهنَّ، وهنَّ المدخولُ بهِنَّ مِن المُعتَدَّاتِ بالحَيضِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أنَّ الطَّلاقَ لا يكونُ بيَدِ المرأةِ[2].

٥- قَولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ إلى قَولِه: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لا نَفَقةَ للمَبتُوتَةِ ولا سُكْنى؛ ووَجْهُه: أنَّ اللهَ سبحانه أمَرَ الأزواجَ الَّذين لهم عندَ بُلوغِ الأجَلِ الإمساكُ والتَّسريحُ بألَّا يُخرِجوا أزواجَهم مِن بُيوتِهم، وأَمَرَ أزواجَهنَّ ألَّا يَخْرُجْنَ؛ فدلَّ على جَوازِ إخراجِ مَن ليس لزَوجِها إمساكُها بعدَ الطَّلاقِ؛ فإنَّه سبحانه ذَكَر لهؤلاءِ المطلَّقاتِ أحكامًا مُتلازِمةً لا يَنْفَكُّ بعضُها عن بعضٍ:

أحدُها: أنَّ الأزواجَ لا يُخرِجوهنَّ مِن بُيوتِهنَّ.

والثَّاني: أنَّهنَّ لا يَخْرُجْنَ مِن بُيوتِ أزواجِهنَّ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٧٢).

لا يصحُّ الطَّلاقُ إلَّا مِن زَوجٍ، وذلك باتِّفاقِ المذاهبِ الفِقهيَّةِ الأربعةِ: الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((الهداية)) للمَرْغِيناني (١/ ٢٢٤)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٣٦٥)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٢)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٧٤).

والثَّالثُ: أنَّ لأزواجِهنَّ إمساكَهنَّ بالمعروفِ قبْلَ انقِضاءِ الأجَلِ، وتَرْكَ الإمساكِ، فيُسَرِّحونَهنَّ بإحسانٍ.

والرَّابعُ: إشهادُ ذَوَيْ عَدْلٍ، وهو إشهادٌ على الرَّجْعةِ، وأشار سُبحانَه إلى حِكمةِ ذلك، وأنَّه في الرَّجْعِيَّاتِ خاصَّةً، بقَولِه: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، والأمرُ الَّذي يُرجَى إحداثُه هاهنا هو المُراجَعةُ، هكذا قال السَّلَفُ ومَن بعدَهم. فهذا يدُلُّ على أنَّ الطَّلاقَ المذكورَ هو الرَّجْعِيُّ الَّذي ثَبَتَتْ فيه هذه الأحكامُ، وأنَّ حِكمةَ أَحكَمِ الحاكِمينَ وأرحمِ الرَّاحِمينَ اقْتَضَتْه؛ لعلَّ الزَّوجَ أنْ يَنْدَمَ ويَزولَ الشَّرُّ الَّذي نَزَغَه الشَّيطانُ بيْنَهما، فتَتْبَعَها نفْسُه فيُرَاجِعَها، ثُمَّ ذَكَر سبحانَه الأمرَ بإسكانِ هؤلاء المطلَّقاتِ، فقال: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦]؛ فالضَّمائرُ كلُّها يَتَّحِدُ مُفَسِّرُها، وأحكامُها كلُّها مُتلازِمةٌ[١].

٦- الخُلْعُ يجوزُ في حالِ الحَيضِ؛ لأنَّه ليس بطَلاقٍ، واللهُ إنَّما أمَرَ بالطَّلاقِ للعِدَّةِ؛ قال تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، ويجوزُ أنْ يُخالِعَها ولو كان قد جامعَها في الحالِ؛ لأنَّه ليس بطَلاقٍ، بل هو فِداءٌ، ولأنَّ أصلَ مَنْعِ الزَّوجِ مِن التَّطليقِ في حالِ الحَيضِ، أو في حالِ الطُّهْرِ الذي جامعَها فيه: أنَّ فيه إضرارًا بها؛ لتطويلِ العِدَّةِ عليها، فإذا رضيتْ بذلك فقد أسقَطَتْ حقَّها[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٤٦٩). ويُنظر الخلافُ في هذه المسألةِ (ص: ٨٠).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٢/ ٤٦٩).

وجوازُ الخُلعِ في الحَيضِ، والطُّهرِ الَّذي أصابَها فيه هو مَذهَبُ الجُمهورِ: الحَنَفيَّةِ والشَّافِعيَّةِ والحَنابِلةِ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٣/ ٤٤١)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٣٦)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٢١٣).

إباحةِ التَّطليقِ بدَلالةِ الإشارةِ[١]؛ لأنَّ القُرآنَ لا يُقَدِّرُ حُصولَ فِعلٍ مُحَرَّمٍ مِن دُونِ أن يُبَيِّنَ مَنْعَه[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ استدَلَّ بهذه الآيةِ مَن ذهَب إلى أنَّ العِدَّةَ بالأطهارِ لا بالحِيَضِ[٣]؛ ووجْهُ الدَّلالةِ أنَّ الآيةَ دَلَّت على أن يكونَ إيقاعُ الطَّلاقِ عِندَ مَبدَأِ الاعتِدادِ، فلو كان مَبدَأُ الاعتِدادِ هو الحَيضَ، لَكانت الآيةُ أمرًا بإيقاعِ الطَّلاقِ في الحَيضِ، ولا خِلافَ في أنَّ ذلك مَنهيٌّ عنه؛ لحديثِ عُمَرَ[٤] في قَضِيَّةِ طَلاقِ ابنِه عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ زَوْجَه وهي حائِضٌ[٥].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فسَّرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن تُطَلَّقَ في طُهرٍ لم يُجامِعْ فيه[٦]. وفي لفظٍ عندَ مُسلِمٍ أنَّه قرأ: ((فطَلِّقوهنَّ في قُبُلِ عِدَّتِهنَّ))[٧]، فاستدَلَّ الفُقَهاءُ بذلك على أنَّ طَلاقَ السُّنَّةِ ما

---

(١) دَلالةُ الإشارةِ: مِن أنواعِ دَلالةِ المنطوقِ، وهي دَلالةُ اللَّفظِ على معنًى ليس مقصودًا باللَّفظِ في الأصلِ، ولكنَّه لازِمٌ للمَقصودِ، فكأنَّه مقصودٌ بالتَّبَعِ لا بالأصلِ. يُنظر: ((المستصفى)) للغزالي (ص: ٢٦٣، ٢٦٤)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٤) و (٧/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٥).

(٣) وهذا مذهبُ المالكيَّةِ والشَّافِعيَّةِ، وهو روايةٌ عن أحمدَ، واختيارُ ابنِ حَزْم. يُنظر: ((حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير)) (٢/ ٤٦٩)، ((تحفة المحتاج)) لابن حجر الهيتمي (٨/ ٢٣٢)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٩/ ٢٠٥)، ((المحلى)) لابن حزم (١٠/ ٢٨، ٢٩).
وذهَبَ الحَنَفيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّ العدَّةَ بالحيضِ، وهو اختيارُ ابنِ تيميَّةَ، وابنِ القيِّم. يُنظر: ((المبسوط)) للسرخسي (٦/ ١٢)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٩/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٧٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٥٨، ٥٥٩).

(٤) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٧).

(٦) أخرجه البخاريُّ (٥٢٥١)، ومسلمٌ (١٤٧١).

(٧) أخرجه مسلم (١٤٧١) (١٤).

ذُكِرَ[١]، وأنَّ الطَّلاقَ في الحَيضِ، أو طُهرٍ جُومِعَت فيه: بِدْعِيٌّ حَرامٌ[٢]، فالحَيضَ يَمنَعُ سُنَّةَ الطَّلاقِ، فإذا طَلَّقَها في حالةِ الحَيْضِ كان مُبتَدِعًا بذلك؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ يعني: طاهِرًا مِن غَيرِ جِماعٍ[٣]. ووَجهُ الدَّلالةِ على أنَّ الطَّلاقَ يَحرُمُ مع الحَيضِ، أو الطُّهْرِ الَّذي جامَعَها فيه: هو الأمرُ في قَولِه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، والأمرُ للوُجوبِ، لا سِيَّما أنَّه أعْقَبَه بقَولِه: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾، وقال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾، كلُّ هذا مِمَّا يُؤَكِّدُ أنَّ الأمرَ للوُجوبِ[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا يجوزُ إرداف الطَّلاقِ للطَّلاقِ حتَّى تَنقضيَ العِدَّةُ أو يُراجِعَها؛ لأنَّه إنَّما أباح الطَّلاقَ للعِدَّةِ -أي: لاستِقبالِ العِدَّةِ-؛ فمتى طَلَّقَها الثَّانيةَ والثَّالثةَ قبْلَ الرَّجْعةِ بَنَتْ على العِدَّةِ، ولم تَستأنِفْها باتِّفاقِ جماهيرِ المُسلمينَ[٥].

١١- قَولُه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ المطلَّقَةَ حائضًا لا تَعْتَدُّ في عِدَّتِها بالحَيضةِ الَّتي طُلِّقَتْ فيها؛ إذْ لو كانت في كلِّ حالةٍ طُلِّقَتْ فيها دَخَلَتْ في عِدَّتِها مِن فَوْرِ الطَّلاقِ، ما كان في اشتِراطِه وقتًا مَوصوفًا فائدةٌ[٦].

---

(١) وقد نقَل الإجماعَ على أن الطَّلاقَ إذا وقَع في طُهرٍ لم يُجامِعْها فيه، فهو طَلاقٌ مُوافِقٌ للسُّنَّةِ: ابنُ نصرٍ المَرْوَزيُّ، وابنُ المُنْذِرِ، وابنُ عبدِ البَرِّ. يُنظر: ((اختلاف الفقهاء)) لابن نصر المروزي (ص: ٢٣٦)، ((الإشراف على مذاهب العلماء)) لابن المنذر (٥/ ١٨٤)، ((التمهيد)) لابن عبد البر (١٥/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيمية- كتاب الطهارة)) (ص: ٤٧١).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٤٤).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٣/ ٧٩).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٢١). =

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أنَّ الصَّغيرةَ والآيسةَ يُطَلِّقُهما في الحالِ ولو كان قد أصابَهما؛ فعِدَّةُ الآيسةِ والصَّغيرةِ ثلاثةُ أشهُرٍ تَبدأُ مِنَ الطَّلاقِ؛ فيكونُ قد طَلَّقَهما للعِدَّةِ(١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أنَّه يُستَثنى مِن مَنْعِ طَلاقِ الحائِضِ إذا كان الحَيضُ في حالِ الحَمْلِ؛ لأنَّه لا عِدَّةَ عليها حينَئذٍ(٢). وذلك على القولِ بأنَّ الحاملَ تحيضُ(٣).

١٤- مَن لم يَدخُلْ بزَوجتِه فيَجوزُ له طَلاقُها حائِضًا وطاهرًا، كما قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وقد دَلَّ على هذا قَولُه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، وهذه لا عِدَّةَ لها(٤).

١٥- الأمرُ في قولِه: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ لضبْطِ أيَّامِ العِدَّةِ، والإتيانِ على جَميعِها، وعدمِ التَّساهُلِ فيها؛ لأنَّ التَّساهُلَ فيها ذَريعةٌ إلى أحَدِ أمْرَينِ: إمَّا التَّزويجِ قبْلَ انتهائِها، فرُبَّما اختلَطَ النَّسَبُ، وإمَّا تَطويلِ المُدَّةِ على المُطَلَّقةِ في أيَّامِ مَنْعِها مِنَ التَّزوُّجِ، ففي الإحصاءِ فوائدُ مُراعاةِ الرَّجعةِ، وزمانِ النَّفَقةِ والسُّكنى، وتوزيعِ الطَّلاقِ على الأقراءِ، وإذا أراد أنْ يُطلِّقَ ثلاثًا، والعِلمُ بأنَّها قدْ بانَتْ فيَتزوَّجَ بأختِها،

= وذلك بناءً على أنَّ القَرْءَ هو الحَيضُ، وأنَّ العِدَّةَ تكونُ به، وهو مذهبُ الحنَفيَّةِ والحنابلةِ، وسبَقَ ذِكرُ الخِلافِ في ذلك (ص: ٣٢). ويُنظر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٦/ ١٥٣)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣١١).

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١١/ ٣١٥).

(٣) وسيأتي ذِكرُ الخِلافِ في ذلك (ص: ٦٤).

(٤) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٢٠٠).

وبأربعٍ سِواها[١].

١٦- إنَّ مِن الرِّجال مَن إذا طَلَّقَ زوجتَه طَرَدَها مِن البَيتِ، وهذا محرَّمٌ، إلَّا أنْ تأتيَ بفاحشةٍ مُبَيِّنَةٍ، وإنَّ مِن النِّساءِ مَن إذا طُلِّقَتْ ذَهبتْ إلى أهلِها، وهذا محرَّمٌ؛ قال تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، فالمطلَّقةُ الرَّجعيَّةُ تبقَى في بَيتِ زَوجِها[٢].

١٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ فيه سُؤالٌ: ما معنى الجَمعِ بيْن إخراجِهم وخُروجِهنَّ؟

الجوابُ: معنى الإخراجِ ألَّا يُخرِجَهنَّ البُعولةُ غَضَبًا عليهنَّ، وكَراهةً لِمُساكَنتِهنَّ، أو لحاجةٍ لهم إلى المساكِنِ، وألَّا تَأذَنوا لهنَّ في الخُروجِ إذا طَلَبْنَ ذلك؛ إيذانًا بأنَّ إذْنَهم لا أثَرَ له في رَفعِ الحَظرِ، ولا يَخرُجْنَ بأنفُسِهنَّ إن أرَدْنَ ذلك[٣].

١٨- قال اللهُ تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ في إضافةِ البُيوتِ إلى ضَميرِ النِّساءِ إيماءٌ إلى أنَّهنَّ مُستَحِقَّاتٌ المُكثَ في البُيوتِ مُدَّةَ العِدَّةِ بمَنزِلةِ مالِكِ الشَّيءِ، وهذا ما يُسَمَّى في الفِقهِ مِلْكَ الانتِفاعِ دونَ العَينِ، ولأنَّ بَقاءَ المُطَلَّقاتِ في البُيوتِ اللَّاتي كُنَّ فيها أزواجًا استِصحابٌ لحالِ الزَّوجيَّةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٩).

(٢) يجبُ على المُعتَدَّةِ مِن طلاقٍ رَجعيٍّ أن تبيتَ في بيتِ الزَّوجيَّةِ، وذلك باتِّفاقِ المذاهبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((الهداية)) للمَرْغِيناني (٢/ ٢٧٩)، ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٥/ ٥١٠)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٥٧)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٢٠٦). ويُنظر تفصيلُ حكمِ خروجِها (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦١).

إذ الزَّوجةُ هي المتصَرِّفةُ في بَيتِ زَوجِها؛ ولذلك يَدعوها العَرَبُ: رَبَّةَ البَيتِ[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ دَليلٌ على أنَّ مَن سَكَنَ دارًا جاز أنْ تُضافَ إليه وإنْ كان مِلْكُها لغَيرِه، ولا يكونُ كَذِبًا؛ إذِ البُيوتُ المضافاتُ إلى الزَّوجاتِ في هذه الآيةِ مِلْكُها لا محالةَ لأزواجِهنَّ؛ إذْ لو كان مِلْكُها لَهُنَّ ما كان لأزواجِهنَّ سَبيلٌ عليهنَّ قبْلَ الطَّلاقِ وبَعْدَه؛ لأنهنَّ أحَقُّ بأملاكِهنَّ ممَّن لا مِلْكَ له، فإنَّما خاطَبَ المطلِّقينَ بفَرضِ سُكْنى مَن طَلَّقوا مِن الزَّوجاتِ دونَ الثَّلاثِ؛ إذْ هُنَّ في معاني الزَّوجاتِ -كما كُنَّ قبْلَ الطَّلاقِ- مِن وُجوبِ السُّكْنى والنَّفَقةِ كما كُنَّ. واستُدِلَّ بجوازِ إضافةِ البُيوتِ إلى مَن مِلْكُها لغَيرِه على أنَّ مَن حَلَفَ مِن السُّكَّانِ ألَّا يَسْكُنَ دارَه، ولا يَدْخُلَ دارَه فلانٌ: حَنَثَ بالسُّكْنى ودُخولِ فُلانٍ الدَّارَ الَّتي هو فيها بكِراءٍ؛ لأنَّها دارُه بالتَّوَطُّنِ والحُلولِ وإنْ كان مِلْكُها لغَيرِه، إلَّا أنْ تكونَ له دارٌ يَمْلِكُها مِلْكَ الرَّقَبةِ، فيَقْصِدُها بيَمينِه، فلا يَحْنُثُ حينَئذٍ في المُكْتَراةِ[٢].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ وُجوبُ السُّكْنَى للمطلَّقةِ ما دامتْ في العِدَّةِ، وتحريمُ إخراجِها وخُروجِها إلَّا أنْ تأتيَ بفاحِشةٍ مُبَيِّنَةٍ، فتُنْقَلَ[٣].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أنَّ مُطَلِّقَ الرَّجْعِيَّةِ بَعْلٌ وزَوجٌ حقيقةً؛ فقد أَمَرَ سبحانه بإبقاءِ المطلَّقةِ عندَ الزَّوجِ، ونَسَبَ بَيتَ زوجِها إليها، ولو كانت تَبينُ منه وتَنفَصِلُ ويَنفَصِلُ منها، ما كان بيتُ زَوجِها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٢١-٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

وسيأتي تفصيلُ الكلامِ عن حُكمِ السُّكنى للمطلَّقاتِ (ص: ٨٠).

بيتًا لها. إذَنْ هي زَوجةٌ، فتَجِبُ لها النَّفَقةُ، ويَلْزَمُها طاعتُه، ويجوزُ أنْ تَكْشِفَ له، وأنْ يَنْفَرِدَ بها، وأنْ تَتَطَيَّبَ له، وأنْ تُمازِحَه وتَضحَكَ إليه، وأنْ يُسافِرَ بها؛ فكلُّ ما يجوزُ للزَّوجةِ مع الزَّوجِ يجوزُ لها مع زَوجِها، إلَّا في مَسائِلَ قليلةٍ(١).

٢٢- قال اللهُ تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ نهى عن إخراجِهنَّ وعن خُروجِهنَّ، وسُنَّةُ ذلك ألَّا تَبيتَ المرأةُ المُطَلَّقةُ بَعيدًا عن بَيتِها، ولا تَغيبَ عنه نهارًا إلَّا في ضَرورةٍ وممَّا لا خَطْبَ له مِن جائِزِ التَّصَرُّفِ؛ وذلك لحِفظِ النَّسَبِ، والتَّحَرُّزِ بالنِّساءِ(٢).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أنَّ اللهَ تعالى قد سمَّى أحكامَه حُدودًا(٣).

---

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ١٨٦).
مذهبُ الحنفيَّةِ، وظاهرُ مذهبِ الحنابلةِ أنَّه يجوزُ الاستمتاعُ بالرجعيَّةِ، والخلوةُ بها، ولمسُها، والنَّظرُ إليها بنيةِ المراجعةِ، وكذلك بدونِها معَ الكراهةِ التنزيهيَّةِ عندَ الحنفيةِ.
وذهَبَ المالكيَّةُ والشافعيَّةُ -وهو روايةٌ للحنابلةِ- إلى أنَّه لا يجوزُ للمطلِّقِ لزوجتِه طلاقًا رجعيًّا معاشرتُها ومساكنتُها في الدَّارِ التي تعتدُّ فيها. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٣).
ذهَبَ الحنَفيَّةُ والشَّافعيَّةُ إلى أنَّ المُطلَّقةَ الرَّجعيَّةَ لا يجوزُ لها الخروجُ مِن مَسكَنِ العِدَّةِ لا لَيلًا ولا نَهارًا.
وذهب المالكيَّةُ والحنابلةُ إلى جوازِ خروجِ المطلَّقةِ الرَّجعيَّةِ نَهارًا لقضاءِ حوائجِها، وتَلزَمُ مَنزِلَها باللَّيلِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣٤٨).
أمَّا المُعتدَّةُ مِن طلاقٍ بائنٍ فأجاز المالكيَّةُ والشَّافعيَّةُ والحنابلةُ خُروجَها نهارًا لقضاءِ حوائجِها، وشراءِ ما يَلزَمُها، إلى غيرِ ذلك، خِلافًا للحنَفيَّةِ الَّذين منَعوا خُروجَها لَيلًا أو نهارًا. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣٤٩).
والمتوفَّى عنها زَوجُها لا تَخرُجُ لَيلًا، ولها أن تَخرُجَ نهارًا لقضاءِ حوائجِها. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٥/ ٤٢٥).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ أنَّ كُلَّ مَن خالَفَ أمْرَ اللهِ بفِعلِ مُحَرَّمٍ أو تَرْكِ واجِبٍ، فقد ظَلَمَ نفْسَه؛ فإنَّ النَّفْسَ عندَك أمانةٌ تجِبُ عليك رِعايتُها، وقد أوصاك اللهُ بها فقال: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التوبة: ٣٦]، فنهى عن قَتْلِ النَّفْسِ وعن ظُلْمِ النَّفْسِ؛ لأنَّها أمانةٌ عندَك(١).

٢٥- قال الله تعالى: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ وقدْ سُلِكَ في هذِه الآيةِ مَسلَكُ التَّرغيبِ في امتثالِ الأحكامِ المُتقدِّمةِ بعْدَ أنْ سُلِكَ في شأنِها مَسلكُ التَّرهيبِ مِن مُخالَفتِها، فمِن مَصالحِ الاعتدادِ ما في مُدَّةِ الاعتِدادِ مِنَ التَّوسيعِ على الزَّوجَيْنِ في مُهلةِ النَّظَرِ في مَصيرِ شأنِهما بعْدَ الطَّلاقِ، والمقصودُ الإشارةُ إلى أهمِّ ما في العِدَّةِ مِنَ المصالحِ، وهو ما يُحْدِثُه اللهُ مِن أمْرٍ بعْدَ الطَّلاقِ(٢).

٢٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ أي: بعْدَ الطَّلاقِ مُراجَعةً، واستُدِلَّ به على كراهيةِ التَّطليقِ ثلاثاً بمرَّةٍ واحدةٍ؛ لأنَّ إحداثَ الرَّجعةِ لا يكونُ بعدَ الثَّلاثِ(٣) -وذلك على القولِ بأنَّ الطَّلاقَ الثَّلاثَ مجموعًا يقَعُ(٤)-،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٠٦).

(٤) وذلك باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحَنابلةِ. يُنظر: ((مختصر القدوري)) (ص: ١٥٤)، ((مواهب الجليل)) للحطاب (٥/ ٣٠١)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٨٢)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٨/ ٣٣٤).

واختار ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّمِ، والشَّوْكانيُّ، وابنُ باز، وابنُ عثيمينَ أنَّه يقعُ طلقةً واحدةً، وهو مذهبُ طائفةٍ مِن السَّلفِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٣/ ٧)، ((إعلام الموقعين)) =

وإنْ طلَّقَها واحدةً يُمكِنُه أن يُراجِعَها[١].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ جوازُ السَّماحةِ في الكَلامِ على مَذهَبِ العَرَبِ فيه، وتَرْكُ التَّنطُّعِ بما يَحسَبُه جُهَّالُ المتنسِّكِين كَذِبًا؛ فإنَّ بُلوغَ الأجَلِ في هذا الموضعِ هو مُقارَبةُ خُلُوِّه لا خُلُوُّه؛ إذْ لو كان خُلُوَّه ما أمكَنَه الإمساكُ بالرَّجْعةِ، ولَاحتاجَ إلى تزوُّجِها، ولا يُقالُ أيضًا للمُتزوِّجِ مُمسِكٌ[٢]!

٢٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فيه أنَّ الإمساكَ مِن صَرائِحِ الرَّجْعةِ، والفِراقَ مِن صَرائِحِ الطَّلاقِ[٣].

٢٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ استَدَلَّ بظاهِرِ الآيةِ مَن أوجَبَ

= لابن القيم (٣/ ٣٤)، ((نيل الأوطار)) للشوكاني (٦/ ٢٩٠)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن باز (٢١/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٠).

قال القرطبي: (... قولُه بعد ذلك: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. وهذا يُبطِلُ دُخولَ الثَّلاثِ تحتَ الآيةِ. وكذلك قال أكثرُ العُلَماءِ، وهو بديعٌ لهم). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٢٧، ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

قال ابنُ قدامةَ: (أمَّا القولُ فتحصُلُ به الرَّجعةُ بغيرِ خلافٍ، وألفاظُه: راجعْتُك، وارتجَعْتُك، وردَدْتُك، وأمسَكْتُك؛ لأنَّ هذه الألفاظَ ورَد بها الكتابُ والسُّنَّةُ). ((المغني)) (٧/ ٥٢٤). ويُنظر الخلافُ في الإمساكِ؛ هل هو من الصَّريحِ أو الكنايةِ في: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٢/ ١١٠).

أمَّا كونُ الفِراقِ، وما يُشتَقُّ منه: مِن ألفاظِ الطَّلاقِ الصَّريحِ، فهو المَشهورُ عند الشَّافِعيَّةِ، وقَولٌ للمالِكيَّةِ، وقَولٌ عند الحَنابِلةِ. ينظر: ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٣)، ((الكافي)) لابن عبد البر (٢/ ٥٧٢)، ((المبدع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٧/ ٢٤٨).

وذهَب الجمهورُ مِن الحَنَفيَّةِ، والمَالِكيَّةِ -على المَشهورِ-، والحَنابِلةِ -وهو قَولٌ عند الشَّافِعيَّةِ- إلى أنَّ لَفظةَ الفِراقِ لا تُعتَبَرُ مِن ألفاظِ الطَّلاقِ الصَّريحِ. ينظر: ((المبسوط)) للسرخسي (٦/ ٦٤)، ((الكافي)) لابن عبد البر (٢/ ٥٧٢)، ((كشاف القناع)) للبهوتي (٥/ ٢٤٥)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٣).

الإشهادَ على الرَّجعةِ، وإذا وَجَب فيها ففي أصلِ النِّكاحِ أَولى[١].

٣٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ فيه أنَّه لا يُقبَلُ في الشَّهادةِ في النِّكاحِ والطَّلاقِ إلَّا الرِّجالُ المَحضُ[٢].

٣١- قَولُه تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ فيه أنَّه لا يُقبَلُ في الشَّهادةِ إلَّا العَدْلُ[٣].

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ لم يَصِفِ الرَّجُلَينِ نفْسَيهما بأنَّهما عَدْلٌ، بل وَصَفَهما بأنَّهما ذَوَا عَدْلٍ؛ أي: صاحِبا عَدْلٍ، والعَدلُ في المقالِ هو الصِّدقُ والبَيانُ الَّذي هو ضِدُّ الكَذِبِ والكِتمانِ، كما بَيَّنَه تعالى في قَولِه: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، والعدلُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ وفي كلِّ طائفةٍ بحَسَبِه؛ فيكونُ الشَّهيدُ في كلِّ قومٍ مَن كان ذا عَدْلٍ فيهم، وإنْ كان لو كان في غَيرِهم لَكان عَدْلُه على وَجهٍ آخَرَ، وبهذا يُمكِنُ الحُكْمُ بيْنَ النَّاسِ، وإلَّا فلوِ اعْتُبِرَ في شُهودِ كلِّ طائفةٍ ألَّا يَشْهَدَ عليهم إلَّا

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

قال ابن عاشور: (ظاهرُ وُقوعِ هذا الأمرِ بعْدَ ذِكْرِ الإمساكِ أوِ الفِراقِ أنَّه راجعٌ إلى كِلَيْهما؛ لأنَّ الإشْهادَ جُعِلَ تتِمَّةً للمأْمورِ به في معْنى الشَّرطِ للإمساكِ أو الفِراقِ؛ لأنَّ هذا العطفَ يُشبِهُ القَيدَ وإنْ لم يكُنْ قَيدًا، وشأنُ الشُّروطِ الواردةِ بعْدَ جُمَلٍ أنْ تعودَ إلى جَميعِها، وظاهرُ صِيغةِ الأمرِ الدَّلالةُ على الوُجوبِ؛ فيَترَكَّبُ مِن هذَيْنِ أنْ يكونَ الإشهادُ على المراجَعةِ وعلى بَتِّ الطَّلاقِ واجبًا على الأزواجِ؛ لأنَّ الإشهادَ يَرفَعُ أشكالًا مِنَ النَّوازِلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٩).

بيْنَما ذهَب أصحابُ المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ إلى استِحبابِ الإشهادِ على الرَّجعةِ. يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَن يكونُ قائمًا بأداءِ الواجباتِ وتَرْكِ المحَرَّماتِ -كما كان الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم- لَبَطَلَتِ الشَّهاداتُ كُلُّها أو غالِبُها[١].

٣٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ فيه أمرُ الشُّهودِ بتَحريمِ الكِتمانِ[٢].

٣٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ وُجوبُ الإخلاصِ للهِ عزَّ وجلَّ في الشَّهادةِ[٣].

٣٥- قولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ يَقتضي أنَّه يأتي بها تامَّةً مُستقيمةً؛ فإنَّ الشَّاهِدَ قد يَضْعُفُ عن أدائِها وقد يُحَرِّفُها، فإذا أقامَها كان ذلك لِقُوَّتِه واستِقامتِه[٤].

٣٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ في هذه الآيةِ لَطيفةٌ: وهي أنَّ التَّقْوى في رعايةِ أحوالِ النِّساءِ مُفتَقِرةٌ إلى المالِ، وقريبٌ مِن هذا قولُه: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[٥] [النور: ٣٢].

٣٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ سُؤالٌ: أنَّه قد نرى مَن يتَّقي وهو محرومٌ، ومَن هو بخِلافِ ذلك وهو مَرزوقٌ!

والجَوابُ: أنَّ الآيةَ اقتَضَتْ أنَّ المتَّقيَ يُرزَقُ مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، ولم تَدُلَّ على أنَّ غيرَ المتَّقي لا يُرزَقُ، بل لا بُدَّ لكلِّ مخلوقٍ مِن الرِّزقِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]، حتَّى إنَّ ما يَتناوَلُه العبدُ مِن

---

(١) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٥/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٢).

الحرام هو داخِلٌ في هذا الرِّزق؛ فالكُفَّارُ قد يُرزقَونَ بأسبابٍ مُحَرَّمةٍ، ويُرزَقونَ رِزقًا حَسَنًا، وقد لا يُرزَقونَ إلَّا بتكَلُّفٍ، وأهلُ التَّقوى يَرْزُقُهم اللهُ مِن حيثُ لا يَحتَسِبونَ، ولا يكونُ رزْقُهم بأسبابٍ مُحَرَّمةٍ، ولا يكونُ خَبيثًا، والتَّقيُّ لا يُحرَمُ ما يَحتاجُ إليه مِن الرِّزقِ، وإنَّما يُحْمَى مِن فُضولِ الدُّنيا رَحمةً به، وإحسانًا إليه؛ فإنَّ توسيعَ الرِّزقِ قد يكونُ مَضَرَّةً على صاحِبِه، وتقديرَه يكونُ رَحمةً لصاحِبِه؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]، أي: ليس الأمرُ كذلك، فليس كلُّ مَن وُسِّعَ عليه رِزْقُه يكونُ مُكْرَمًا، ولا كلُّ مَن قُدِرَ عليه رِزْقُه يكونُ مُهانًا، بل قد يُوَسَّعُ عليه رِزْقُه إملاءً واستِدراجًا، وقد يُقْدَرُ عليه رِزْقُه حمايةً وصيانةً له، وضِيقُ الرِّزقِ على عَبدٍ مِن أهلِ الدِّينِ قد يكونُ لِمَا له مِن ذُنوبٍ وخَطايا[(١)].

٣٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ بيانُ أنَّ المتَّقيَ يَدفَعُ عنه سبحانه المَضَرَّةَ، وهو أنْ يَجعَلَ له مَخْرَجًا ممَّا ضاق على النَّاسِ، ويَجلِبَ له المنفعةَ، ويَرزُقَه مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، وكلُّ ما يَتَغَذَّى به الحَيُّ ممَّا تَستريحُ به النُّفوسُ وتَحتاجُ إليه في طِيبِها وانشِراحِها فهو مِن الرِّزقِ، واللهُ تعالى يَرزُقُ ذلك مَن اتَّقَاه بفِعلِ المأمورِ، وتَرْكِ المحظورِ[(٢)].

٣٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أنَّ الدِّينَ عِلْمًا وعَمَلًا إذا صَحَّ، فلا بُدَّ أنْ يُوجِبَ خَرْقَ العادةِ إذا احتاج إلى ذلك صاحِبُه[(٣)].

٤٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٤/ ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٤).

جَعَل سُبحانَه للتَّقوى فائِدَتَين: أنْ يَجعلَ له مَخرَجًا، وأنْ يَرزُقَه مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، والمَخْرَجُ هو مَوضِعُ الخُروجِ، وهو الخُروجُ، وإنَّما يُطلَبُ الخُروجُ مِن الضِّيقِ والشِّدَّةِ، وهذا هو الفَرَجُ والنَّصرُ والرِّزقُ؛ فبَيَّنَ أنَّ فيها النَّصرَ والرِّزقَ، كما قال: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]؛ ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((وهل تُنصَرونَ وتُرزَقونَ إلَّا بضُعَفائِكم؟!))[١]: بدُعائِهم وصَلاتِهم واستِغفارِهم. فهذا لِجَلْبِ المنفعةِ، وهذا لِدَفْعِ المَضَرَّةِ[٢].

٤١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ ذكَرَ بعضُ أهلِ العِلمِ أنَّ فيه تأكيدًا على أنَّ المُطَلِّقَ ثَلاثًا بكَلِمةٍ واحدةٍ -وإنْ عُدَّ أيضًا عاصيًا- أَشَدُّ ما قيلَ فيه: إنَّ الطَّلاقَ يَقَعُ عليه، وقد فاتَه المَخْرَجُ بالرَّجْعةِ[٣]!

٤٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ بيانُ التَّوكُّلِ على اللهِ؛ مِن حيثُ إنَّ اللهَ يَكفي المتوكِّلَ عليه، كما قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، خِلافًا لِمَن قال: ليس في التَّوكُّلِ إلَّا التَّفويضُ والرِّضا[٤]!

٤٣- قال بعضُ السَّلفِ: (جَعَل اللهُ تعالى لكلِّ عَمَلٍ جَزاءً مِن جِنْسِه، وجَعَل جزاءَ التَّوكُّلِ عليه نَفْسَ كفايتِه لعَبْدِه)، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، ولم يَقُلْ: نُؤْتِه كذا وكذا مِن الأجرِ،كما قال في الأعمالِ، بل جَعَل نفْسَه سُبحانَه كافيَ عَبدِه المتوكِّلِ عليه، وحَسْبَه وواقيَه، فلو تَوَكَّلَ العبدُ على اللهِ تعالى حَقَّ تَوَكُّلِه وكادَتْه السَّمَواتُ والأرضُ ومَن فيهنَّ، لَجَعَل له مَخرَجًا مِن ذلك، وكَفاه

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٨٩٦) من حديثِ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٣٠).

وتقدَّم ذِكرُ الخِلافِ في المسألة (ص: ٣٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٦).

ونَصَره[١].

٤٤- عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (إنَّ أكبَرَ آيةٍ في القُرآنِ تَفويضًا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾)[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾

- تَخصيصُ النِّداءِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع عُمومِ الخِطابِ لأُمَّتِه أيضًا؛ لتَشريفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإظهارِ جَلالةِ مَنصبِه، وتَحقيقِ أنَّه المُخاطَبُ حقيقةً، ودُخولُهم في الخِطابِ بطَريقِ استِتْباعِه عليه الصَّلاةُ والسلامُ إيَّاهُم، وتَغليبِه عليهم، كما يُقالُ لرَئيسِ القومِ وكَبيرِهم: يا فُلانُ، افعَلوا كَيْتَ وكَيْتَ؛ إظهارًا لتَقدُّمِه، واعتبارًا لِتَرَؤُّسِه، وأنَّه الَّذي يَصْدُرونَ عن رأيِه، ولا يَستبِدُّونَ بأمْرٍ دونَه، فكانَ هو وَحْدَه في حُكْمِ كلِّهم، وسادًّا مَسدَّ جميعِهم، لا لأنَّ نِداءَه كنِدائِهم؛ فإنَّ ذلكَ الاعتبارَ لو كانَ في حيِّزِ الرِّعايةِ لَكانَ الخِطابُ هو الأحقَّ به؛ لشُمولِ حُكمِه للكلِّ قطْعًا. أو معْناه: يا أيُّها النَّبيُّ قلْ لأُمَّتِك: إذا طلَّقْتُم النِّساءَ -أي: أردتُمْ طَلاقَ نِسائِكم- فطلِّقوهن... إلخ[٣]. وقيل: أفرَدَه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٨).

به أوَّلًا؛ لأنَّه إمامُ أُمَّتِه، وسادٌّ مَسَدَّهم[١]. وقيل: الخطابُ للنبيِّ عليه السلامُ بلفظِ الإفرادِ على الحقيقةِ له، وقولُه: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ خبرٌ عنه على جهةِ التَّعظيمِ بلفظِ الجمعِ[٢].

- ومعْنى ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: إذا أردْتُمْ تَطليقَهنَّ، وهمَمْتُم به، على تَنزيلِ المُقبِلِ على الأمرِ المُشارِفِ له مَنزِلةَ الشَّارعِ فيه[٣].

- وتَكريرُ فِعلِ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾؛ لمَزيدِ الاهتمامِ به[٤].

- قولُه: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ دَلَّ عليه معنى الكلامِ، أي: مُسْتَقْبِلاتٍ لعِدَّتِهنَّ، يُقالُ: أتَيْتُه لِلَيلةٍ بَقِيَتْ مِن المحرَّمِ، أي: مُسْتقبِلًا لها. وقيل: اللَّامُ في ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ لامُ التَّوقيتِ، وهي بمعْنى (عِندَ)، ولَمَّا كان مَدخولُ اللَّامِ هنا غيرَ زَمانٍ، عُلِمَ أنَّ المرادَ الوقتُ المُضافُ إلى عِدَّتِهنَّ، أي: وقْتُ الطُّهرِ[٥]. قيل: اختيرَ التَّعبيرُ بلامِ التَّوقيتِ؛ لأنَّها تُفهِمُ أنَّ ما دخَلَت عليه كالعِلَّةِ الحامِلةِ على مُتعَلَّقِها، فصار كأنَّه قيل: طَلِّقوا لأجْلِ العِدَّةِ، وإذا كان لأجْلِها عُلِمَ أنَّ المرادَ تَخفيفُها على المرأةِ بحَسَبِ الطَّاقةِ؛ لأنَّ مبنى الدِّينِ على اليُسرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٨، ١١٩).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤١).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡعِدَّةَ﴾ للعهدِ؛ فإنَّ الاعتِدادَ مَشروعٌ مِنْ قَبْلُ، والكلامُ على تَقديرِ مُضافٍ؛ لأنَّ المُحصَى أيَّامُ العِدَّةِ(١).

- قولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ في وَصْفِه تعالَى برُبوبيَّتِه لهم تأكيدٌ للأمرِ؛ لزِيادةِ الحِرصِ على التَّقْوى، وللتَّذكيرِ بأنَّه حَقيقٌ بأنْ يُتَّقَى غَضبُه(٢).

- قولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ اعتِراضٌ بَيْنَ جُملةِ ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ وجُملةِ ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾، وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ ليَعُمَّ جميعَ ما يُتَّقى اللهُ فيه، فيَكونَ هذا مِن قَبيلِ الاعتِراضِ التَّذييليِّ، وأوَّلُ ما يُقصَدُ بأنْ يُتَّقَى اللهُ فيه ما سِيقَ الكلامُ مِن أجْلِه من أحكامِ الطَّلاقِ والعِدَّةِ، فقولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ تَحذيرٌ مِنَ التَّساهُلِ فيها(٣).

- وجُملةُ ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾، وهو نهْيٌ لهُنَّ عن الخُروجِ؛ فإنَّ المُطلِّقَ قد يُخرِجُها فتَرغَبُ المُطلَّقةُ في الخروجِ؛ لأنَّها تَستثقِلُ البَقاءَ في بَيتٍ زالَتْ عنه سِيادتُها، فنَهاهُنَّ اللهُ عن الخُروجِ. وهذا التَّرتُّبُ بيْن الجُملتَيْنِ يُشعِرُ بالسَّببيَّةِ، وأنَّ لكلِّ امرأةٍ مُعتدَّةٍ حقَّ السُّكْنى في بَيتِ زَوجِها مُدَّةَ العِدَّةِ -على قولٍ-؛ لأنَّها مُعتدَّةٌ مِن أجْلِه، أي: مِن أجْلِ حِفظِ نسَبِه وعِرضِه(٤).

- قولُه: ﴿بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾، قُرِئَ ﴿مُبَيِّنَةٍ﴾ بكَسرِ الياءِ التَّحتيَّةِ، أي: هيَ تُبيِّنُ لِمَن تَبلُغُه أنَّها فاحشةٌ عظيمةٌ؛ فيَكونُ التَّبيينُ مُعبَّرًا به عن الوُضوحِ، أو تُبيِّنُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١٠/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٩).

لوُلاةِ الأُمورِ صُدورَها مِنَ المرأةِ؛ فيكونُ المُبيِّنُ هو مُلابِسَ الفاحِشةِ، وهو الإقرارُ والشَّهادةُ، فيُحمَلُ في كلِّ حالةٍ على ما يُناسِبُ معْنى التَّبيينِ. وقُرِئَ ﴿مُبَيَّنَةٍ﴾ بفتْحِ التَّحتيَّةِ[١]، أي: كانتْ فاحشةً بيَّنَتْها الحُجَّةُ، أو بيَّنَها الخارجُ، ومَحْمَلُ القراءتَيْنِ واحدٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الواوُ اعتِراضيَّةٌ، والجُملةُ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ وجُملةِ ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، أُريدَ بهذا الاعتِراضِ المبادَرةُ بالتَّنبيهِ إلى إقامةِ الأحكامِ المذكورةِ مِن أوَّلِ السُّورةِ إقامةً لا تَقصيرَ فيها، ولا خِيَرةَ لأحَدٍ في التَّسامُحِ بها، وخاصَّةً المُطلَّقةَ والمُطلِّقَ أنْ يَحسَبا أنَّ ذلكَ مِن حقِّهِما انفرادًا أو اشتراكًا[٣].

- قولُه: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الإشارةُ بـ (تِلْكَ) إلى ما ذُكِرَ مِنَ الأحكامِ، وما في اسمِ الإشارةِ مِن مَعْنَى البُعْدِ مع قُرْبِ العَهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ بعُلُوِّ دَرَجتِها، وبُعْدِ مَنزلتِها[٤].

- ووُقوعُ ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ خبرًا عن اسْمِ الإشارةِ الَّذي أُشِيرَ به إلى أشياءَ مُعيَّنةٍ يَجعَلُ إضافةَ ﴿حُدُودَ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ مُرادًا منها تَشريفُ المضافِ وتَعظيمُه، والمعنى: وتلكَ ممَّا حدَّ اللهُ، فلا تُفيدُ تَعريفَ الجمْعِ بالإضافةِ عُمومًا؛ لصرْفِ القَرينةِ عن إفادةِ ذلكَ؛ لظُهورِ أنَّ تلكَ الأشياءَ المُعيَّنةَ ليستْ جميعَ حُدودِ اللهِ[٥].

---

(١) قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو بكرٍ بفتحِ الياءِ المُشَدَّدةِ، والباقونَ بكَسْرِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٠، ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٥).

- قولُه: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، فهو تَتميمٌ[١]، وهو المقصودُ مِنَ التَّذييلِ[٢]، وإذْ قدْ كانَ ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ جمْعًا مُعرَّفًا بالإضافةِ كان مُفيدًا للعُموم؛ إذْ لا صارفَ عن إرادةِ العُمومِ، بخِلافِ إضافةِ ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ السَّابقِ، والمعنى: مَنْ يَتعدَّ شيئًا مِن حُدودِ اللهِ فقَدْ ظلَمَ نفْسَه[٣].

- قولُه: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لاختِلافِ هذَيْنِ المُركَّبَيْنِ بالعُمومِ والخُصوصِ، وجِيءَ بهذا الإطنابِ لتَهويلِ أمْرِ هذا التَّعدِّي[٤]، والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكْمِ في قولِه تعالى: ﴿فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾، أي: أضَرَّ بها[٥].

- وأُخْبِرَ عن مُتعدِّي حُدودِ اللهِ بأنَّه ظلَمَ نفْسَه للتَّخويفِ؛ تَحذيرًا مِن تَعدِّي هذه الحُدودِ؛ فإنَّ ظُلْمَ النَّفْسِ هو الجَريرةُ عليها بما يَعودُ بالإضرارِ، وذلك مِنه ظُلمٌ لها في الدُّنيا بتَعريضِ النَّفْسِ لعَواقِبَ سيِّئةٍ تَنجَرُّ مِن مُخالَفةِ أحكامِ

---

(١) التَّتميم: هو أن يُؤتى في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المراد بفضلةٍ تُفيد نكتةً. أو بعبارةٍ أخرى هو: الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصودِ؛ لرَفْعِ اللبسِ عنه، وتقريبِه للفَهم، أو لزيادةٍ حسنة، بحيث إذا طُرِح من الكلام نقَص معناه في ذاتِه، أو في صِفاته. يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ١٢٠)، (٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠).

(٢) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمامِ معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَين: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ السَّائرِ؛ ليشتهرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانِه على الألسِنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠).

الدِّينِ؛ لأنَّ أحكامَه صَلاحٌ للنَّاسِ، فمَنْ فرَّطَ فيها فاتَتْه المصالحُ المَنطويةُ هي عليها، ومنه ظُلْمٌ للنَّفْسِ في الآخِرةِ بتَعريضِها للعِقابِ المُتوعَّدِ به على الإخلالِ بأحكامِ الدِّينِ؛ فإنَّ للمؤمنينَ حَظًّا مِن هذا الوَعيدِ بمِقدارِ تَفاوُتِ ما بيْنَ الكفْرِ ومُجرَّدِ العِصيانِ[١].

- وجِيءَ في هذا التَّحذيرِ بـ (مَنْ) الشَّرطيَّةِ؛ لإفادةِ عُمومِ كلِّ مَن تعدَّى حُدودَ اللهِ، فيَدخُلُ الَّذين يَتعَدَّونَ أحكامَ الطَّلاقِ وأحكامَ العِدَّةِ في هذا العمومِ[٢].

- وهذه الجُملةُ ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وما أُلْحِقَ بها ممَّا هو إيضاحٌ لها، وتَفصيلٌ لأحوالِها؛ ولذلكَ جاءَتْ مَفصولةً عن الجُمَلِ الَّتي قَبْلَها[٣]. ويَجوزُ كَونُها بدَلًا مِن جُملةِ ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، بدَلَ اشتِمالٍ؛ لأنَّ ظُلْمَ النَّفْسِ بَعضُه حاصلٌ في الدُّنيا، وهو مُشتمِلٌ على إضاعةِ مصالحِ النَّفْسِ عنها[٤].

- وتَنكيرُ كَلمةِ ﴿أَمۡرٗا﴾ للتَّنويعِ، أي: أمرًا مَوصوفًا بصِفةٍ مَحذوفةٍ، أي: أمرًا نافعًا لهُما[٥].

- قولُه: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ الخِطابُ لغَيرِ مُعيَّنٍ جارٍ على طَريقةِ القصدِ بالخِطابِ إلى كلِّ مَن يَصلُحُ للخِطابِ، ويُهِمُّه أمرُ الشَّيءِ المُخاطَبِ به مِن كلِّ مَن قصُرَ بصَرُه إلى حالةِ الكراهيةِ الَّتي نشَأَ عليها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الطَّلاقُ، ولم يَتدبَّرْ في عَواقبِ الأمورِ، ولا أحاطَ فِكْرُه بصُوَرِ الأحوالِ المُختلِفةِ المُتقلِّبةِ، ولعلَّ كَلمةَ ﴿لَا تَدْرِى﴾ تَجْري مَجْرى المثَلِ، فلا يُرادُ ممَّا فيها مِن عَلامةِ الخِطابِ ولا مِن صِيغةِ الإفرادِ إلَّا الجرْيُ على الغالبِ في الخِطابِ، وهو مَبنيٌّ على تَوجيهِ الخِطابِ لغَيرِ مُعيَّنٍ(١).

وقيل: قولُه: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ خِطابٌ للمُتعدِّي بطَريقِ الالْتفاتِ؛ لمَزيدِ الاهتمامِ بالزَّجرِ عن التَّعدِّي(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ...﴾ تَفريعٌ على جميعِ ما تقدَّمَ مِن أحكامِ العِدَّةِ، مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]؛ لأنَّ إحصاءَها بحفْظِ مُدَّتِها، واستيعابِ أيَّامِها، فإذا انتهَتِ المدَّةُ فقَدْ أعذَرَ اللهُ لهُما، والزِّيادةُ عليها إضرارٌ بأحَدِهما أو بكِلَيْهما، وفائدةُ الآجالِ الوُقوفُ عِندَ انتهائِها(٣).

- والإمساكُ: اعتزامُ المراجَعةِ، وعُبِّرَ عنه بالإمساكِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ المُطلَّقةَ الرَّجعيَّةَ لها حُكمُ الزَّوجةِ فيما عدا الاستِمتاعَ -على قولٍ(٤)-، فكأنَّه لَمَّا راجَعَها قدْ أمسَكَها ألَّا تُفارِقَه، فكأنَّه لم يُفارِقْها؛ لأنَّ الإمساكَ هو الضَّنُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٧).

(٤) ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٧).

بالشَّيءِ وعدَمُ التَّفريطِ فيه، وأنَّه إذا لم يُراجِعْها فكأنَّه قد أعادَ فِراقَها وقَسَا قلْبُه، ومِن أجْلِ هذه النُّكْتةِ جُعِلَ عدَمُ الإمساكِ فِراقًا جَديدًا في قولِه: ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[١].

- والأمرُ في ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾ للإباحةِ، و(أَوْ) فيه للتَّخييرِ، والباءُ في ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ للمُلابَسةِ، أي: مُلابَسةِ كلٍّ مِنَ الإمساكِ والفِراقِ للمعروفِ[٢].

- وتَقديمُ الإمساكِ -وهو المراجَعةُ- على إمْضاءِ المفارَقةِ، إيماءٌ إلى أنَّه أرضى للهِ تعالَى، وأوفَقُ بمَقاصِدِ الشَّريعةِ؛ ففُهِمَ أنَّ المراجَعةَ مَندوبٌ إليها[٣].

- ولَمَّا قُيِّدَ أمْرُ الإباحةِ مِن قولِه: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾ بقَيْدِ (بالمعروفِ)، فُهِمَ مِنه أنَّه إنْ كانَ إمساكٌ دونَ المعروفِ فهو غَيرُ مأْذونٍ فيه[٤].

- وقولُه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ عطفٌ على ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، والخِطابُ مُوجَّهٌ لكلِّ مَن تَتعلَّقُ به الشَّهادةُ مِنَ المشهودِ عليهم والشُّهودِ، كلٌّ يَأْخُذُ بما هو حظُّهُ مِن هذَينِ الخِطابَينِ، وتَعريفُ الشَّهادةِ للاستِغراقِ، أي: كلَّ شَهادةٍ، وهو استِغراقٌ عُرفيٌّ؛ لأنَّ المأمورَ به الشَّهادةُ الشرعيَّةُ[٥].

- ومعْنى إقامةِ الشَّهادةِ: إيقاعُها مُستقيمةً لا عِوَجَ فيها؛ فالإقامةُ مُعبَّرٌ بها عن إيقاعِ الشَّهادةِ على مُسْتَوْفِيها ما يجِبُ فيها شرْعًا ممَّا دلَّتْ عليه أدلَّةُ الشَّريعةِ[٦].

- وفي قولِه: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ خصَّ بالذِّكرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣١٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ؛ إذْ هو المُنتفِعُ به، والمَقصودُ تَذكيرُه[١].

- وقولُه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ اعتراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ وجُملةِ ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ﴾ [الطلاق: ٤] الآيةَ؛ فإنَّ تلكَ الأحكامَ لَمَّا اعْتُبِرَتْ مَوعِظةً بقولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، أُعقِبَ ذلكَ بقَضيَّةٍ عامَّةٍ؛ وهي أنَّ تلكَ مِن تَقوى اللهِ تعالَى، وبِما لِتَقوى اللهِ مِن خَيرٍ في الدُّنيا والآخِرةِ، على عادةِ القُرآنِ مِن تَعقيبِ الموعظةِ والتَّرهيبِ بالبِشارةِ والتَّرغيبِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ جُملةٌ اعتراضيَّةٌ مُؤكِّدةٌ لِمَا سبَقَ بالوعدِ على الاتِّقاءِ عمَّا نُهِيَ عنه صَريحًا أو ضِمْنًا مِنَ الطَّلاقِ في الحَيضِ، والإضرارِ بالمعتَدَّةِ، وإخراجِها مِنَ المسكنِ، وتَعدِّي حُدودِ اللهِ، وكِتمانِ الشَّهادةِ، وتَوقُّعِ جُعْلٍ على إقامتِها بأنْ يَجعَلَ اللهُ له مَخرَجًا ممَّا في شأنِ الأزواجِ مِنَ المَضايقِ والغُمومِ، ويَرزُقَه فرَجًا وخلفًا مِن وجْهٍ لم يَخطُرْ ببالِه. أو بالوعدِ لعامَّةِ المتَّقينَ بالخَلاصِ عن مَضارِّ الدَّارَيْنِ، والفوزِ بخَيرِهما مِن حيثُ لا يَحتَسِبونَ. ويَجوزُ أنْ يُجاءَ بهذه الجُملةِ على سَبيلِ الاستِطرادِ عِندَ ذِكرِ قولِه -قبْلَها-: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، يعني: لَمَّا أمَرَ المُؤمِنينَ بأُمورٍ تَتعلَّقُ بالنِّساءِ مِنَ المُجامَلةِ معهُنَّ في الفِراقِ والطَّلاقِ والإمساكِ، وأتَى باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ فَذْلَكةً[٣]، وأنَّ المذكورَ تَذكيرٌ مِنَ اللهِ ومَوعظةٌ للمتَّقينَ مِنَ المُؤمِنينَ؛ أتَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١١).

(٣) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ =

بكلامٍ جامعٍ مَنوطٍ به أمورُ الدِّينِ ظاهِرِه وباطنِه. وفائدةُ الإشارةِ إلى أنَّ أُمورَ النِّساءِ مِن عَظائمِ الشُّؤونِ في الدِّينِ، لا سِيَّما المُفارَقةِ بعْدَ العُلْقَةِ التَّامَّةِ، فيَجِبُ على المُتَّقي أنْ يكونَ على حذَرٍ مِن جانبِهِنَّ، وألَّا يُقصِّرَ في المجامَلةِ معهُنَّ، ومَعْنى الكلامِ: ومَن يتَّقِ اللهَ في كلِّ ما يأتي وما يَذَرُ، يَجعَلْ له مَخرَجًا ومَخْلَصًا مِن غُمومِ الدُّنيا والآخِرةِ[1].

- ولَمَّا كان أمرُ الطَّلاقِ غَيرَ خالٍ مِن حرَجٍ وغَمٍّ يَعرِضُ للزَّوجَيْنِ، وأمْرُ المراجعةِ لا يَخلو في بعضِ أحوالِه مِن تَحمُّلِ أحَدِهما لبَعضِ الكُرهِ مِنَ الأحوالِ الَّتي سبَّبَتِ الطَّلاقَ؛ أعلَمَهُما اللهُ بأنَّه وعَدَ المتَّقينَ الواقِفينَ عِندَ حُدودِه بأنْ يَجعَلَ لهم مَخرجًا مِنَ الضَّائقاتِ، شبَّهَ ما هم فيه مِنَ الحرَجِ بالمكانِ المُغلَقِ على الحالِّ فيه، وشبَّهَ ما يَمنَحُهمُ اللهُ به مِنَ اللُّطفِ، وإجراءِ الأُمورِ على ما يُلائِمُ أحوالَهم بجَعْلِ مَنْفَذٍ في المكانِ المُغلَقِ يَتخلَّصُ مِنه المُتضائقُ فيه، وشَمِلَ المَخرَجُ ما يحُفُّ مِنَ اللُّطفِ بالمتَّقينَ في الآخِرةِ أيضًا بتَخليصِهِم مِن أهوالِ الحسابِ والانتِظارِ، فالمَخرَجُ لهم في الآخِرةِ هو الإسراعُ بهم إلى النَّعيمِ[2].

= بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١١).

- قولُه: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ احتِراسٌ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ أحَدٌ أنَّ طُرقَ الرِّزقِ مُعطَّلةٌ عليه، فيَستبعِدَ ذلكَ فيُمسِكَ عن مُراجَعةِ المُطلَّقةِ؛ لأنَّه لا يَستقبِلُ مالًا يُنفِقُ مِنه، فأعْلمَه اللهُ أنَّ هذا الرِّزقَ لُطْفٌ مِنَ اللهِ، واللهُ أعلَمُ كيفَ يُهيِّئُ له أسبابًا غيرَ مُرتقَبةٍ؛ فمعْنى ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾: مِن مَكانٍ لا يَحتسِبُ مِنه الرِّزقَ، أي: لا يظُنُّ أنَّه يُرزَقُ مِنه[1].

- وقد ذُكِرَ قولُه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ، وختَمَ الأوَّلَ بقولِه: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، والثَّانيَ بقولِه: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾، والثَّالثَ بقولِه: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾؛ إشارةً إلى تَعدادِ النِّعَمِ المُترتِّبةِ على التَّقوى، مِن أنَّ اللهَ يَجعَلُ لِمَنِ اتَّقاهُ في دُنياهُ مَخرَجًا مِن كُرَبِ الدُّنيا والآخِرةِ، ويَرزُقُه مِن حيثُ لا يَخطُرُ بباله، ويَجعَلُ له في دُنياهُ وآخِرتِه مِن أمرِه يُسْرًا، ويُكفِّرُ عنه في آخِرتِه سيِّئاتِه، ويُعظِمُ له أجْرًا[2].

أو إنَّما اقتَرَنَ بالطَّلاقِ والعِدَّةِ هذا الوعظُ؛ لأنَّ الطَّلاقَ رفْضُ حالٍ مُتمهِّدةٍ، وقطْعُ آمالٍ مُتأكِّدةٍ، والعِدَّةُ باستيفائِها يَخلُصُ النَّسبُ، ويَصِحُّ للزَّوجِ الثَّاني الولدُ، ولو لم يكُنْ هذا الحدُّ الَّذي حدَّه اللهُ تَعالى، لَكان الفسادُ مُتَّصلًا في انقضاءِ الدُّنيا، فهو أحقُّ الأشياءِ بالمُراعاةِ، وتَأكيدِ المَقالِ فيه والوَصاةِ. وأمَّا قولُه بعْدَ ذِكرِ عِدَّةِ الحاملِ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾، أي: مَن لَزِمَ التُّقى، سهَّلَ اللهُ عليه الصَّعبَ مِن أمْرِه، كما يَجعَلُ أمْرَ الولادةِ سهْلًا إذا قامتِ الأُمُّ عن وَلَدِها سُرُحًا[3]، ثمَّ عقَّبَ حالَ الدُّنيا بذِكرِ ما يَفعَلُه في الآخرةِ؛ مِن تَكفيرِ سيِّئاتِه، وإعظامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٧، ٢٣٨)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٩، ٥٧٠).

(٣) السُّرُحُ: السَّهلُ السَّريعُ؛ يُقالُ: ناقةٌ سُرُحٌ، ومِشيةٌ سُرُحٌ، أي: سَهلةٌ، وإذا سهُلتْ وِلادةُ المَرأةِ =

أجْرِه. فكلُّ شَرْطٍ مِن (تُقى اللهِ) قُرِنَ إليه مِن الجزاءِ ما لاقَ بمَكانِه الَّذي ذُكِرَ فيه. والأخيرُ لَمَّا كان مُقدَّمًا على أحوالٍ احتاجَتْ إلى غايةِ التَّرغيبِ، وإلى المبالَغةِ في التَّرهيبِ، وُعِدَ عليه أفضلُ الجزاءِ، وهو ما يكونُ في الآخرةِ مِن النَّعماءِ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ في مَوضعِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾، أي: لا تَستَبعِدوا وُقوعَ ما وعَدَكم اللهُ حِينَ تَرَوْنَ أسبابَ ذلكَ مَفقودةً؛ فإنَّ اللهَ إذا وعَدَ وعْدًا فقَدْ أرادَه، وإذا أرادَ اللهُ أمرًا يسَّرَ أسبابَه، ولعلَّ قولَه: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ إشارةٌ إلى هذا المعنى، أي: عَلِمَ اللهُ أنْ يَكفيَ مَن يَتوكَّلُ عليه مُهمَّه، فقدَّرَ لذلكَ أسبابَه، كما قدَّرَ أسبابَ الأشياءِ كلِّها، فلا تشُكُّوا في إنْجازِ وَعْدِه؛ فإنَّه إذا أرادَ أمرًا يسَّرَ أسبابَه مِن حيثُ لا يَحتسِبُ النَّاسُ، وتَصاريفُ اللهِ تعالَى خفِيَّةٌ عَجيبةٌ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ هو تَقريرٌ لِمَا تقدَّمَ مِن تأْقيتِ الطَّلاقِ بزَمانِ العِدَّةِ والأمرِ بإحصائِها، وتَمهيدٌ لِمَا سيأتي مِن مَقاديرِها[٣].

- ولهذِه الجُملةِ ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ مَوقعٌ تَتجلَّى فيه صُورةٌ مِن صُوَرِ إعجازِ القُرآنِ في تَرتيبِ مَواقعِ الجُمَلِ بَعضِها بعْدَ بَعضٍ؛ فهذه الجُملةُ لها مَوقعُ الاستِئنافِ البيانيِّ النَّاشِئِ عمَّا اشتمَلَتْ عليه جُمَلُ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾، إلى قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾؛ لأنَّ استِعدادَ السَّامِعينَ لليقينِ بما تَضمَّنَتْه تلكَ الجُمَلُ مُتفاوِتٌ، فقَدْ يَستبعِدُ بَعضُ السَّامعينَ تحقُّقَ الوعدِ

= قِيل: ولَدَت سُرُحًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٨٣-١٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٢، ٣١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٢).

لأمثالِه بما تَضمَّنَتْه تلكَ الجُمَلُ بعرْضِها على ارتباكِ أحوالِه، أو يَتردَّدُ يَقينُه فيَقولُ: أينَ أنا مِن تَحصيلِ هذا؟! حينَ يُتبِعُ نَظرَه فيَرى بَوْنًا عن حُصولِ الموعودِ بسَببِ انعدامِ وَسائلِه لَديه، فيَتملَّكُه اليأسُ، فهذا الاستئنافُ البَيانيُّ وقَعَ عَقِبَ الوعدِ تَذكيرًا بأنَّ اللهَ عَلِم مَواعيدَه وهيَّأ لها مَقاديرَ حُصولِها؛ لأنَّه جعَلَ لكلِّ شَيءٍ قَدْرًا. ولها مَوقعُ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]؛ فإنَّ العِدَّةَ مِنَ الأشياءِ، فلمَّا أمَرَ اللهُ بإحصاءِ أمْرِها علَّلَ ذلكَ بأنَّ تقديرَ مُدَّةِ العِدَّةِ جعَلَهُ اللهُ، فلا يَسُوغُ التَّهاوُنُ فيه. ولها مَوقعُ التَّذييلِ لجُملةِ ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، أي: الَّذي وضَعَ تلكَ الحدودَ قدْ جعَلَ لكلِّ شَيءٍ قدْرًا لا يَعْدُوهُ كما جعَلَ الحُدودَ. ولها مَوقعُ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ لأنَّ المعنى: إذا بلَغْنَ القَدْرَ الَّذي جعَلَه اللهُ لِمُدَّةِ العِدَّةِ، فقدْ حصَلَ المَقصدُ الشَّرعيُّ الَّذي أشار إليه قولُه: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]؛ فالمعْنى: فإنْ لم يُحدِثِ اللهُ أمْرَ المراجَعةِ فقَدْ رفَقَ بكُمْ، وحطَّ عنكُمُ امتِدادَ العِدَّةِ. ولها مَوقعُ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]؛ فإنَّ اللهَ جعَلَ الشَّهادةَ قدْرًا لرفْعِ النِّزاعِ. فهذِه الجملةُ جُزءُ آيةٍ، وهي تَحتوي على حقائقَ مِنَ الحِكمةِ[1]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٣، ٣١٤).

الآيتان (٤-٥)

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿أَجَلُهُنَّ﴾: أي: عِدَّتُهنَّ. والأجَلُ: غايةُ الوَقتِ في الموتِ وغَيرِه، والمُدَّةُ المَضروبةُ للشَّيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى أحكامًا أخرى تتعلَّقُ بعِدَّةِ النِّساءِ على اختِلافِ أحوالِهنَّ، فيقولُ: والمُطَلَّقاتُ اللَّائي انقَطَع حَيضُهنَّ انقِطاعًا لا يُرجَى رُجوعُه إنْ شكَكْتُم في عِدَّتِهنَّ فلم تَدْرُوا ما هي؛ فاعلَموا أنَّها ثلاثةُ أشهُرٍ، والمُطَلَّقاتُ اللَّائي لم يَحِضْنَ مِن قَبْلُ؛ لِصِغَرِ سِنِّهنَّ أو لِغَيرِه، فعِدَّتُهنَّ ثلاثةُ أشهُرٍ كذلك، والمُطَلَّقاتُ الحوامِلُ عِدَّتُهنَّ تَنقَضِي بوضعِ ما في بُطونِهنَّ مِن حَملٍ.

ثمَّ كرَّر الله تعالى الأمرَ بتَقْواه، وبشَّر المتَّقينَ، فقال: ومَن يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه، يُسَهِّلْ عليه جميعَ أُمورِه.

ذلك الَّذي بَيَّنَّاه لكم أمْرُ اللهِ أنزَلَه إليكم؛ لتَعمَلوا به، ومَن يتَّقِ اللهَ يَمْحُ عنه سيِّئاتِه، ويُكَثِّرْ له ثَوابَ أعمالِه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أمْرَ الطَّلاقِ والرَّجعةِ في الَّتي تَحيضُ، وكانوا قد عَرَفوا عِدَّةَ ذواتِ الأقراءِ؛ عرَّفَهم في هذه السُّورةِ عِدَّةَ الَّتي لا ترى الدَّمَ[1].

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ ﴾.

أي: إنْ شكَكْتُم في عِدَّةِ أزواجِكم المُطَلَّقاتِ اللَّاتي انقَطَع حَيضُهنَّ انقِطاعًا لا يُرجَى رُجوعُه، فلم تَدْرُوا ما هي؛ فاعلَموا أنَّها ثلاثةُ أشهُرٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩، ٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

ذهب بعضُ المفَسِّرينَ إلى أنَّ المرادَ بـ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ ﴾: اللَّاتي انقَطَع حَيضُهنَّ؛ لكِبَرِ سِنِّهنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٠٢).

وقيل: هُنَّ اللَّاتي انقَطَع حَيضُهنَّ عُمومًا؛ سواءٌ لكِبَرِ سِنٍّ أو لغيرِه مِن الأسبابِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

قال ابنُ القيِّم: (قال آخَرونَ؛ منهم شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ: اليأسُ يختلِفُ باختِلافِ النِّساءِ، وليس له حدٌّ يتَّفِقُ فيه النِّساءُ. والمرادُ بالآيةِ أنَّ يأسَ كُلِّ امرأةٍ مِن نَفسِها؛ لأنَّ اليأسَ ضِدُّ الرَّجاءِ، فإذا كانت المرأةُ قد يَئِسَت مِن الحَيضِ ولم تَرْجُه فهي آيِسةٌ وإن كان لها أربعونَ أو نحوُها، وغيرُها لا تيأسُ منه وإن كان لها خمسونَ). ((زاد المعاد)) (٥/ ٥٨٤). =

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾.

أي: والمُطَلَّقاتُ اللَّاتي لم يَحِضْنَ مِن قَبْلُ؛ لِصِغَرِ سِنِّهنَّ أو لِغَيرِه كمرضٍ ونحوِه، فعِدَّتُهنَّ أيضًا ثلاثةُ أشهُرٍ(١).

= قال الزَّجَّاجُ: (الَّذي يَذهَبُ إليه مالِكٌ، واللُّغةُ تدُلُّ عليه: أنَّ معناه: إن ارتَبْتُم في حَيضِها وقد انقَطَع عنها الحَيضُ، وكانت ممَّن يَحيضُ مِثلُها، فعِدَّتُها ثلاثةُ أشهُرٍ، وذلك بعدَ أن تُترَكَ تِسعةَ أشهُرٍ بمِقْدارِ الحَملِ، ثمَّ تعتَدَّ بعدَ ذلك ثلاثةَ أشهُرٍ، فإن حاضتْ في هذه الثَّلاثةِ الأشهُرِ تمَّت ثلاث حِيَضٍ. وجائزٌ أن يتأخَّرَ هذا الحَيضُ فيكونَ كلَّما قاربت أن تخرُجَ مِن الثَّلاثةِ حاضت، فهذا مَذهَبُ مالكٍ، وهو الَّذي يُروَى عن عُمَرَ رحمه اللهُ.

وقال أهلُ العِراقِ: تُترَكُ ولو بلَغَت في ذلك أكثَرَ مِن ثلاثينَ سَنةً، ولو بلَغَت إلى السَّبعينَ، يَعْنُون حتَّى تبلُغَ مَبلَغَ مَن لا يَحيضُ، وقالوا: ولو شاء اللهُ لَابتلاها بأكثَرَ مِن ذلك). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٨٥).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ في تفسيرِ قَولِه تعالى: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾: ابنُ جرير، ونسَبَه الواحديُّ إلى الأكثرينَ، واختاره ابنُ جُزَي، وابنُ القيِّم، واستظهره ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩، ٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩).

وقال البِقاعي: (لَمَّا كان المُوجِبُ للعِدَّةِ إنَّما هو الدُّخولُ لا مُجَرَّدُ الطَّلاقِ، قال: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ بأن أجَلْتُم النَّظَرَ في أمْرِهنَّ، فأدَّاكم إلى رَيبٍ في: هل هنَّ حامِلاتٌ أم لا، وذلك بالدُّخولِ عليهِنَّ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٥٥).

وقيل: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾: أي: إن رأَيْنَ دمًا وشكَكْتُم في كَونِه حَيضًا أو استِحاضةً، وارتبتُم فيه. وهو قولُ طائفةٍ مِن السَّلفِ؛ كمُجاهِدٍ، والزُّهْريِّ، وابنِ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهرُ أنَّ قَولَه: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ يَشمَلُ مَن لم يَحِضْنَ لِصِغَرٍ، ومَن لا يكونُ لها حَيضٌ البتَّةَ، وهو موجودٌ في النِّساءِ، وهو أنَّها تعيشُ إلى أن تموتَ ولا تحيضُ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٠).

وقال الشَّوكاني: (هذه الَّتي انقَطَع حَيضُها قبْلَ عِدَّتِها أو حالَ عِدَّتِها مُندَرِجةٌ تحتَ قَولِه: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾؛ فإنَّها يَصدُقُ عليها عندَ هذا الانقِطاعِ أنَّها مِن اللَّائي لم يحِضْنَ، فتكونُ عِدَّتُها =

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾.

أي: وأمَّا المُطَلَّقاتُ الحوامِلُ فإنَّ عِدَّتَهنَّ تَنقَضِي بوضعِ ما في بُطونِهنَّ مِن حَملٍ(١).

= كعِدَّتِهنَّ، وليس في الآيةِ ما يدُلُّ على أنَّ المرادَ أنَّهنَّ لم يَحِضْنَ أصلًا، بل المرادُ عدَمُ وُجودِ الحَيضِ عندَ العِدَّةِ... وقد وقع الاتِّفاقُ على أنَّ الصَّغيرةَ الَّتي لم تَبلُغِ التَّكليفَ هي مِنَ اللَّائي لم يحِضْنَ، ومعلومٌ أنَّه لا يُرادُ عَدَمُ حَيضِها في جميعِ الأزمِنةِ ماضيها ومُستَقبَلِها؛ للقَطعِ بأنَّها إذا بلَغَت وحاضت لم يكُنْ ذلك مُبطِلًا لعِدَّتِها الَّتي اعتَدَّتْها حالَ صِغَرِها بالأشهُرِ، ومعلومٌ أيضًا أنَّ المرأةَ إذا حاضت مرَّةً واحدةً صَدَق عليها أنَّها حاضت، فإذا تخَلَّف عنها الحَيضُ يَصدُقُ عليها أنَّها لم تَحِضْ، وإذا عَرَفْتَ هذا عَلِمْتَ أنَّ المرأةَ إذا وَجَبَت عليها العِدَّةُ وحَيضُها مُنقَطِعٌ لعارِضٍ، فهي مِن اللَّائي لم يَحِضْنَ، وهكذا إذا انقَطَع عنها وهي في وَسَطِ عِدَّتِها فهي مِن اللَّائي لم يحِضْنَ، فعِدَّتُها ثلاثةُ أشهُرٍ كعِدَّةِ اللَّائي لم يحِضْنَ). ((السيل الجرار)) (ص: ٤٢٤، ٤٢٥).
ويُنظر: ((الإشراف على مذاهب العلماء)) لابن المنذر (٥/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ١١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤، ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٢٧، ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩)، ((السيل الجرار)) للشوكاني (ص: ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).
قال ابنُ القيِّم: (كان بيْنَ السَّلَفِ نِزاعٌ في المتوفَّى عنها أنَّها تتربَّصُ أبْعَدَ الأجَلَينِ، ثمَّ حَصَل الاتِّفاقُ على انقِضائِها بوَضعِ الحَملِ). ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) (٢/ ٥١).
وقال ابنُ كثيرٍ: (قَولُه: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ يقولُ تعالى: ومَن كانت حامِلًا فعِدَّتُها بوَضعِه، ولو كان بعدَ الطَّلاقِ أو الموتِ بفُواقِ ناقةٍ [ما بيْنَ الحَلْبَتينِ مِن الوَقتِ؛ لأنَّ النَّاقةَ تُحلَبُ ثمَّ تُترَكُ سُويعةً يَرضَعُها الفَصيلُ]، في قَولِ جُمهورِ العُلَماءِ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ، كما هو نَصُّ هذه الآيةِ الكريمةِ، وكما ورَدَت به السُّنَّةُ النَّبَويَّةُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩).
قال السعدي: (﴿يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ أي: جميعَ ما في بُطونِهنَّ، مِن واحدٍ ومُتعَدِّدٍ، ولا عِبرةَ حينَئذٍ بالأشهُرِ ولا غيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).
وقال النَّيسابوري: (ووضْعُ الحَملِ لا يَتفاوَتُ بكَونِه حيًّا أو مَيتًا أو سِقْطًا أو مُضْغةً لا صورةَ فيها). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣١٥).
وسيأتي تفصيلُ الكلامِ في السِّقْطِ والعَلَقةِ، والخِلافُ في بعضِ الصُّورِ (ص: ٦٦).

عن سُبَيعةَ الأسلَمِيَّةِ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّها كانت تحتَ سَعدِ بنِ خَولةَ، وهو في بَني عامِرِ بنِ لُؤَيٍّ، وكان ممَّن شَهِدَ بَدرًا، فتُوفِّيَ عنها في حَجَّةِ الوداعِ وهي حامِلٌ، فلم تَنشَبْ[١] أن وَضَعت حَمْلَها بعدَ وَفاتِه، فلمَّا تَعَلَّتْ[٢] مِن نِفاسِها تجمَّلَت[٣] للخُطَّابِ، فدَخَل عليها أبو السَّنابِلِ بنُ بَعْكَكٍ -رجُلٌ مِن بني عبدِ الدَّارِ- فقال لها: ما لي أَراكِ مُتجَمِّلةً؟! لعلَّكِ تُرَجِّينَ النِّكاحَ! إنَّكِ -واللهِ- ما أنتِ بناكِحٍ حتَّى تَمُرَّ عليكِ أربَعةُ أشهُرٍ وعَشرٌ! قالت سُبَيعةُ: فلمَّا قال لي ذلك جَمَعْتُ علَيَّ ثيابي حينَ أمسَيْتُ، فأتَيْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فسألْتُه عن ذلك، فأفتاني بأنِّي قد حلَلْتُ حينَ وَضَعْتُ حَملي، وأمَرَني بالتَّزَوُّجِ إنْ بدا لي))[٤].

وعن سُلَيمانَ بنِ يَسارٍ أنَّ أبا سَلَمةَ بنَ عبدِ الرَّحمنِ وابنَ عبَّاسٍ اجتَمَعا عندَ أبي هُرَيرةَ، وهما يَذكُرانِ المرأةَ تُنفَسُ[٥] بعدَ وَفاةِ زَوجِها بلَيالٍ، فقال ابنُ عبَّاسٍ: عِدَّتُها آخِرُ الأجَلَينِ، وقال أبو سَلَمةَ: قد حلَّتَ، فجَعَلا يَتنازَعانِ ذلك، فقال أبو هُرَيرةَ: أنا مع ابنِ أخي -يعني: أبا سَلَمةَ- فبَعَثوا كُرَيبًا مَولَى ابنِ عبَّاسٍ إلى أمِّ سَلَمةَ يَسألُها عن ذلك، فجاءَهم فأخبَرَهم أنَّ أمَّ سَلَمةَ قالت: ((إنَّ سُبَيعةَ الأسلَمِيَّةَ نُفِسَت بعدَ وَفاةِ زَوجِها بلَيالٍ، وإنَّها ذَكَرَت ذلك لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأمَرَها أن تتَزَوَّجَ))[٦].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾.

---

(١) لم تَنشَبْ: أي: لم تمكُثْ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١١٠).

(٢) تعَلَّتْ: أي: طَهُرَت. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١٠٩).

(٣) تجَمَّلت: أي: تزَيَّنَت وتحَسَّنَت. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١١٠).

(٤) رواه البخاريُّ (٣٩٩١)، ومسلمٌ (١٤٨٤) واللَّفظُ له.

(٥) تُنفَسُ: أي: تَلِدُ وتضَعُ حَمْلَها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٩٥)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١١١).

(٦) رواه البخاريُّ (٤٩٠٩)، ومسلمٌ (١٤٨٥) واللَّفظُ له.

أي: ومَن يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه، يُسَهِّلْ عليه جميعَ أُمورِ دِينِه ودُنياه وآخِرَتِه[1].

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾.

أي: ذلك الَّذي بَيَّنَّاه لكم وأمَرْناكم به مِنَ الأحكامِ السَّابِقةِ: أمْرُ اللهِ أنزَلَه اللهُ إليكم؛ لتَعمَلوا به، وتُعَظِّموه ولا تُخالِفوه[2].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾.

أي: ومَن يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه، يَمْحُ اللهُ عنه سيِّئاتِه، ويُكَثِّرْ له ثوابَ أعمالِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

وقال الشوكاني: (﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرًا﴾ أي: مَن يتَّقه في امتثالِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه يُسهِّلْ عليه أمرَه في الدُّنيا والآخرةِ. وقال الضحَّاكُ: مَن يتَّقِ الله فليُطلِّقْ للسُّنةِ يجعَلْ له مِن أمرِه يسرًا في الرَّجعةِ. وقال مقاتلٌ: مَن يتَّقِ الله في اجتنابِ معاصيه يجعلْ له مِن أمرِه يسرًا في توفيقِه للطَّاعةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٥، ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٢)، =

كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ: ((الصَّلَواتُ الخَمْسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورَمَضانُ إلى رَمَضانَ: مُكَفِّراتٌ ما بيْنَهنَّ إذا اجْتَنَبَ الكبائِرَ))(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- لَمَّا كانت أمورُ النِّساءِ في المعاشَرةِ والمُفارَقةِ مِنَ المعاسَرةِ والمُياسَرةِ في غايةِ المشَقَّةِ، فلا يَحمِلُ على العَدلِ فيها والعِفَّةِ إلَّا خَوفُ اللهِ؛ كرَّر بالحثِّ على التَّقْوى إشارةً إلى ذلك، وترغيبًا في لُزومِ ما حدَّه سُبحانَه، فقال عاطفًا على ما تقديرُه: فمَن لم يحفَظْ هذه الحدودَ عسَّرَ الله عليه أمورَه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ دليلٌ على أنَّ كلَّ عسيرٍ مِن الأمورِ يَتيَسَّرُ بالتَّقوى، حتَّى عُسْرُ تقتيرِ الرِّزقِ، وشِفاءُ الدَّاءِ العَسِرِ العِلاجِ،

= ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٣٤).
قال ابن القيِّم: (الذُّنوبُ: المرادُ بها الكبائرُ، والمرادُ بالسَّيِّئاتِ: الصَّغائرُ، وهي ما تَعمَلُ فيه الكفَّارةُ مِن الخَطأِ وما جَرى مَجراه، ولهذا جُعِل لها التَّكفيرُ... والدَّليلُ على أنَّ السَّيِّئاتِ هي الصَّغائرُ والتَّكفيرَ لها قولُه تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣١٨).

(١) رواه مسلم (٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣١٧).

والخَلاصُ مِن المَحْبِسِ؛ مِن الفِكاكِ مِن الأَسْرِ، وأشباهِ ذلك(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ ﴾ أنَّ اليأسَ مَنُوطٌ بالحالِ لا بالزَّمَنِ، وأنَّ ذلك يَختَلِفُ باختِلافِ النِّساءِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ما قَيَّدَها بالسِّنِّ(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الأقراءَ الحِيَضُ؛ لِذِكْرِه المَحِيضَ بلَفْظِه، وجَعْلِه الأشهُرَ الثَّلاثَ عِوَضًا منه(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾، استُدِلَّ به على أنَّ الحامِلَ لا تحيضُ؛ إذ لو حاضت لَكانت عِدَّتُها ثلاثَ حِيَضٍ -على قولٍ-، وهذه عِدَّةُ المطَلَّقةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ٣٦٢).

ولاختلافِ الفُقهاءِ في تقديرِ سنِّ الإياسِ يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٣٣).

وقيل أيضًا في وجهِ الدَّلالةِ: إنَّ الأصلَ أنَّ الشَّيءَ متى ذُكِر باسمٍ مُشتركٍ، ثمَّ جرى البيانُ له عندَ ذِكرِ البدَلِ باسمٍ خاصٍّ؛ دل على أنَّ المرادَ مِن الاسمِ المشتركِ هذا الاسمُ الخاصُّ المذكورُ عندَ البدَلِ؛ ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ ﴾ [المائدة: ٦]، فاسمُ الغسلِ مشتركٌ يَتناوَلُ الماءَ وكلَّ مائعٍ، فلمَّا قال عندَ ذِكرِ البَدَلِ: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ ﴾ [المائدة: ٦]؛ تبيَّن أنَّ المرادَ مِن ذلك الاسمِ المشتركِ هو هذا الاسمُ الخاصُّ المذكورُ عندَ البدَلِ، فكذلك الأوَّلُ. ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٥٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٢).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١/ ٤٦٩).

القولُ بأنَّ الحاملَ لا تَحيضُ هو مذهبُ الحنفيَّةِ والحنابلةِ، وهو قولُ ابنِ حزم. يُنظر: ((البحر الرائق)) لابن نُجَيم (١/ ٢٠١)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (١/ ١١٠)، ((المحلى)) =

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ دليلٌ واضِحٌ على أنَّ طَلاقَ الحامِلِ واقِعٌ، وهو أوسَعُ ما يكونُ مِن الطَّلاقِ؛ ولهذا يَحِلُّ للإنسانِ أنْ يُطَلِّقَ الحامِلَ وإنْ كان قد جامَعَها قريبًا، بخلافِ غيرِ الحامِلِ؛ فإنَّه إذا جامعَها يجبُ عليه أنْ يَنتَظِرَ حتَّى تَحيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ، أو يَتبَيَّنَ حَمْلُها[١].

٥- العِدَّةُ واجبةٌ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقولِه: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾. قال أهلُ العِلمِ: إنَّ هذا خبَرٌ بمعنى الأمرِ، وإنَّما جاء بصِيغةِ الخَبَرِ؛ لإقرارِه وتثبيتِه، كأنَّه أمرٌ مَفروغٌ منه[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ أنَّ عِدَّةَ الحامِلِ لا تنقضي إلَّا بوَضعِ الحَملِ، سَواءٌ أكانت تحيضُ أمْ لا[٣]، بائنةً كانت أو رَجْعيَّةً، مُفارِقةً في الحياةِ أو مُتَوَفًّى عنها، ففي الآيةِ الكريمةِ عمومٌ مِن ثلاثِ جهاتٍ:

أحدُها: عمومُ المُخْبَرِ عنه، وهو أولاتُ الأحمالِ؛ فإنَّه يَتناوَلُ جميعَهنَّ.

الثَّاني: عُمومُ الأجَلِ؛ فإنَّه أضافَه إليهنَّ، وإضافةُ اسمِ الجَمعِ إلى المعرفةِ يَعُمُّ،

= لابن حزم (١/ ٤٠٤).

وذهَبَ المالكيَّةُ والشَّافعيَّةُ إلى أنَّ الحاملَ يُمكِنُ أن تَحيضَ، وهو اختيارُ ابنِ تيميَّةَ، وابنِ عُثيمينَ. يُنظر: ((الشرح الكبير للدردير وحاشية الدسوقي)) (٢/ ٤٥٩)، ((المجموع)) للنووي (٢/ ٣٤٧)، ((الاختيارات الفقهية)) (ص: ٣٠)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١١/ ٢٧٠، ٢٧١).

وذكَرَ ابنُ عثيمينَ أنَّ إلغاءَ الاعتدادِ بالحَيضِ بالنِّسبةِ للحاملِ ليس مِن أجْلِ أنَّ ما يُصيبُ المرأةَ مِن الدَّمِ ليس حيضًا، ولكن لأنَّ الحَيضَ لا يصِحُّ أن يكونَ عِدَّةً مع الحملِ؛ لأنَّ الحملَ يَقضي على ما عَداه. يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) (١/ ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١١/ ٣٠٤).

فجَعَلَ وَضْعَ الحَمْلِ جميعَ أجَلِهنَّ، فلو كان لبَعضِهنَّ أجلٌ غَيرُه لم يكُنْ جميعَ أجَلِهنَّ.

الثَّالثُ: أنَّ المبتدأَ والخبرَ مَعرِفتانِ؛ أمَّا المبتدأُ فظاهِرٌ، وأمَّا الخَبرُ وهو قولُه تعالى: ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ففي تأويلِ مَصدَرٍ مُضافٍ، أي: أجَلُهنَّ وَضْعُ حمْلِهنَّ، والمبتدأُ والخبرُ إذا كانا مَعرِفَتَينِ اقتضى ذلك حَصْرَ الثَّاني في الأوَّلِ، كقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]. وبهذا احتَجَّ جمهورُ الصَّحابةِ على أنَّ الحامِلَ المتوفَّى عنها زَوجُها عِدَّتُها وَضْعُ حمْلِها، ولو وضعَتْه والزَّوجُ على المُغتَسَلِ، كما أفتى به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لِسُبَيعَةَ الأسْلَمِيَّةِ، وكان هذا الحُكْمُ والفَتوى منه مُشتَقًّا مِن كتابِ اللهِ، مُطابِقًا له[(١)].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾ دليلٌ على أنَّ للمَرءِ أن يُنكِحَ وَلَدَه الصِّغارَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَل عِدَّةَ مَن لم يَحِضْ مِنَ النِّساءِ ثلاثةَ أشهُرٍ، ولا تكونُ عليها عِدَّةٌ إلَّا أن يكونَ لها نِكاحٌ؛ فدَلَّ ذلك على هذا الغَرَضِ، وهو بديعٌ في فَنِّه[(٢)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ شامِلٌ للوَلَدِ، والعَلَقةِ، والمُضْغَةِ[(٣)]، ومفيدٌ أنَّ العِدَّةَ لا تَنقَضي بأوَّلِ التَّوْءَمَينِ؛ لأنَّه بَعضُ حَمْلِهنَّ

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٨٥).

(٣) تنقَضي العِدَّةُ بوَضعِ الحَملِ الَّذي تبَيَّنَ فيه خَلقُ إنسانٍ، وإن كان سِقْطًا. نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ المنذِرِ، وابنُ قُدامةَ. يُنظر: ((الإشراف)) لابن المنذر (٥/ ٣٥٢)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ١١٩).

أمَّا إذا ألقَتِ المرأةُ نُطفةً أو عَلَقةً أو دمًا، أو وضعتْ مُضْغةً لا صورةَ فيها؛ فلا تَنقضي العدَّةُ بالوضعِ عندَ جمهورِ الفُقهاءِ مِن الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ.

وصرَّح المالكيَّةُ بأنَّه إن كان الحملُ دمًا اجتمَع تَنقضي به العدَّةُ، وعلامةُ كَونِه حملًا أنَّه إذا صُبَّ عليه الماءُ الحارُّ لم يَذُبْ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣١٨). =

لا حَمْلُهُنَّ[١]. وقولُه: ﴿حَمْلَهُنَّ﴾ مُفرَدٌ مضافٌ؛ فيَشملُ كلَّ حَمْلِها، وعلى هذا فلا بُدَّ أنْ تَضَعَ جميعَ الحَمْلِ، ولو فُرِضَ أنَّ المرأةَ مات زوجُها وهي تُطْلَقُ وقد ظَهَرَ رأسُ الحَملِ، ثُمَّ خَرَجَ بقيَّتُه، فتَنقَضي العِدَّةُ؛ لأنَّه قبْلَ أنْ يَخْرُجَ كامِلًا لم تكُنْ وَضَعَتْ حَمْلَها[٢].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ استَدَلَّ بعُمومِه مَن قال: إنَّ الحامِلَ مِنَ الزِّنا تَعتَدُّ به[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ حُجَّةٌ في أنَّ القرآنَ غيرُ مخلوقٍ؛ لأنَّ اللهَ سمَّاه بالأمرِ، والأمرُ لا يكونُ إلَّا كلامًا مُتكَلَّمًا به، وكلامُ الآمِرِ نَعْتٌ مِن نَعْتِه، ونُعُوتُ الخالقِ غيرُ مخلوقةٍ، وهو مِثْلُ قَولِه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[٤] [الأعراف: ٥٤].

= قال الشنقيطي: (إذا كانت المرأةُ مُعتدَّةً مِن طلاقٍ أو وفاةٍ، وكانت حاملًا، فألقَتْ حَمْلَها عَلَقةً، هل تَنقضي بذلك عِدَّتُها أو لا؟

فمذهبُ مالكٍ رحمه الله: أنَّها تَنقضي عِدَّتُها بإسقاطِ العَلَقةِ المذكورةِ. واحتجَّ المالكيَّةُ: بأنَّ العَلَقةَ المذكورةَ يَصدُقُ عليها أنَّها حملٌ، فتَدخُلُ في عُمومِ قولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. وقال ابنُ العربيِّ المالكيُّ: لا يَرتبطُ بالجنينِ شَيءٌ مِن هذه الأحكامِ إلَّا أن يكونَ مُخَلَّقًا -يعني: مُصَوَّرًا-. وذهب جمهورُ أهلِ العِلمِ -منهم الأئمَّةُ الثَّلاثةُ وغيرُهم- إلى أنَّ وضْعَ العَلَقةِ لا تَنقضي به العدَّةُ، قالوا: لأنَّها دمٌ جامدٌ، ولا يُتحقَّقُ كَوْنُه جَنينًا). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٧٥). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٧٤) و(٤/ ٢٨٦).

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

واعتدادُ المَزنيِّ بها عدَّةَ المطلَّقةِ هو المعتمدُ لدى المالكيَّةِ، ومذهبُ الحنابلةِ، خِلافًا للحنَفيَّةِ والشَّافعيَّةِ؛ فمذهبُهم أنَّ الزَّانيةَ لا عدَّةَ عليها، حاملًا كانت أو غيرَ حامِلٍ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤٠).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾ رَدٌّ على مَن لا يُقِرُّ أنَّ اللهَ سبحانَه بنَفْسِه في السَّماءِ[١]؛ فإنَّ النُّزولَ والتَّنزيلَ الَّذي تَعقِلُه العُقولُ وتَعرِفُه الفِطرُ هو وُصولُ الشَّيءِ مِن أعلَى إلى أسفلَ، والرَّبُّ تعالى إنَّما يُخاطِبُ عِبادَه بما تَعرِفُه فِطَرُهم، وتَشهَدُ به عُقولُهم[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ دَليلٌ على أنَّ التَّوبةَ مع ما تَحُطُّ مِن السَّيِّئاتِ تُنْمِي له أجرًا برَأسِه، وهو مِثلُ قولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وهذه الغَنيمةُ الباردةُ لِمَن عَقَلَها، وتَيَقَّظَ لها[٣].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]؛ فإنَّ العِدَّةَ هنالكَ أُرِيدَ بها الأقراءُ، فأشعَرَ ذلكَ أنَّ تلكَ المُعتدَّةَ ممَّنْ لها أقراءٌ، فبقِيَ بَيانُ اعتدادِ المرأةِ الَّتي تَجاوَزَتْ سِنَّ المَحِيضِ، أو الَّتي لم تَبلُغْ سِنَّ مَن تَحيضُ، وهيَ الصَّغيرةُ. والآيةُ مُخصِّصةٌ لعُمومِ قولِه: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقد نزلَتْ سورةُ (الطَّلاقِ)

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤١).

بعدَ سورةِ (البقرةِ)[١].

- وجُملةُ ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۖ﴾؛ فهي إتمامٌ لأحوالِ العِدَّةِ المُجمَلِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، وتقديرُ الكلامِ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾ مِنْهنَّ، أي: مِنَ المُطلَّقاتِ، ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾، فحصَلَ بهذِه الآيةِ مع الَّتي قَبْلَها تَفصيلٌ لأحوالِ المُطلَّقاتِ، وحصَلَ أيضًا منها بيانٌ لإجمالِ الآيةِ الَّتي في سُورةِ (البقرةِ)[٢].

- قولُه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۞ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ تكريرٌ للمَوعظةِ، وهو اعتراضٌ، والمقصودُ مَوعظةُ الرِّجالِ والنِّساءِ على الأخْذِ بما في هذِه الأحكامِ ممَّا عسى أنْ يكونَ فيه مشقَّةٌ على أحَدٍ بأنَّ على كلٍّ أنْ يَصبرَ لذلكَ امتثالًا لأمرِ اللهِ؛ فإنَّ المُمتثِلَ -وهو مُسمَّى المُتَّقيَ- يَجعَلُ اللهُ له يُسْرًا فيما لَحِقَه مِن عُسْرٍ، والمقصودُ: يَجعَلْ له مِن أمْرِه العَسيرِ في نظرِه يُسْرًا؛ بقرينةِ جَعْلِ اليُسْرِ لأمرِه، والمقصودُ مِن هذا تَحقيقُ الوعدِ باليُسرِ فيما شأنُه العُسرُ؛ لِحَثِّ الأزواجِ على امتثالِ ما أمَرَ اللهُ به الزَّوجَ مِنَ الإنفاقِ في مُدَّةِ العِدَّةِ، ومِنَ المراجَعةِ، وترْكِ مَنزلِه مِن أجْلِ سُكْناها إذا كانَ لا يَسَعُهما، وما أمَرَ به المرأةَ مِن تَربُّصِ أمَدِ العِدَّةِ، وعدَمِ الخروجِ، ونحوِ ذلك[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٥، ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٢٤).

لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾

- قولُه: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِنَ الأحكامِ، وما فيه مِن معْنى البُعْدِ مع قُرْبِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ ببُعْدِ مَنزلتِه في الفَضلِ. وإفرادُ الكافِ مع أنَّ الخِطابَ للجمْعِ كما يُفصِحُ عنه قولُه: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾؛ لِما أنَّها لمُجرَّدِ الفَرْقِ بيْنَ الحاضرِ والمُنْقَضِي، لا لتَعيُّنِ خُصوصيَّةِ المُخاطَبينَ[1].

- قولُه: ﴿ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾ كِنايةٌ عن الحثِّ على التَّهَمُّمِ برِعايةِ حُكْمِ اللهِ وما شرَعَه، والعَملِ به، وبَعْثِ النَّاسِ على التَّنافُسِ في العِلمِ به؛ إذْ قَدِ اعْتَنى اللهُ بالنَّاسِ؛ حيثُ أنزَلَ إليهم ما فيه صلاحُهم[2].

- وفي قولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ أُعِيدَ التَّحريضُ على العَملِ بما أمَرَ اللهُ بالوعدِ بما هو أعظَمُ مِنَ الأرزاقِ، وتَفريجِ الكُرَبِ، وتَيسيرِ الصُّعوباتِ في الدُّنيا، وذلك هو تَكفيرٌ للسَّيِّئاتِ، وتَوفيرٌ للأُجورِ، والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُملةِ المُعترِضةِ؛ فلها حكْمُ الاعتراضِ[3].

- لَمَّا كانَ الكلامُ في أمْرِ المُطلَّقاتِ وأحكامِهنَّ مِنَ العِدَدِ وغيرِها، وكُنَّ لا يُطلِّقُهنَّ أزواجُهنَّ إلَّا عن بُغضٍ لهُنَّ وكَراهةٍ؛ جاءَ عَقيبَ بَعضِ الجُمَلِ الأمرُ بالتَّقوى مِن حيثُ المعنى، مُبرَزًا في صُورةِ شَرْطٍ وجَزاءٍ في قولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾؛ إذِ الزَّوجُ المُطلِّقُ قد يَنسُبُ إلى مُطلَّقتِه بعضَ ما يَشِينُها به، ويُنفِّرُ الخُطَّابَ عنها، ويُوهِمُ أنَّه إنَّما فارَقَها لأمرٍ ظهَرَ له منها؛ فلذلكَ تَكرَّرَ قولُه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ في العمَلِ بما أنْزَلَه مِن هذِه الأحكامِ، وحافَظَ على الحُقوقِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٢٤، ٣٢٥).

الواجبةِ عليه مِن ترْكِ الضِّرارِ والنَّفقةِ على المُعتدَّاتِ، وغيرِ ذلكَ ممَّا يلزمُه؛ يُرتِّبْ له تَكفيرَ السَّيِّئاتِ، وإعظامَ الأجرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠١).

الآيتان (٦-٧)

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وُجْدِكُمْ﴾: أي: سَعَتِكم ومَقدِرَتِكم، والوُجْدُ: المَقدِرةُ والسَّعَةُ[١].

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾: أي: ولا تُؤذُوهنَّ، وأصلُ (ضرر) هنا: يدُلُّ على خِلافِ النَّفعِ[٢].

﴿وَأْتَمِرُوا۟﴾: أي: لِيَأمُرْ كُلُّ واحِدٍ صاحِبَه بخَيرٍ، أو: تَشاوَرُوا، والائتِمارُ: التَّشاوُرُ والتَّداوُلُ في النَّظَرِ، وأصلُه مُطاوِعُ: أَمَرَه؛ لأنَّ المُتشاوِرَينِ يأمُرُ أحَدُهما الآخَرَ، فيَأْتَمِرُ الآخَرُ بما أمَرَه[٣].

﴿تَعَاسَرْتُمْ﴾: أي: اشتَدَّ الخِلافُ بَيْنَكم، ولم تَرجِعوا إلى وِفاقٍ، والتَّعاسُرُ: صُدورُ العُسرِ مِن الجانِبَينِ، وهو تَفاعُلٌ، مِن قَولِهم: عَسَرْتُ فُلانًا: إذا أخَذْتَه على عُسْرِه، ويُقالُ: تعاسَرَ البَيِّعانِ: إذا لم يتَّفِقا، وأصلُ (عسر): يدُلُّ على صُعوبةٍ وشِدَّةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٠).

﴿سَعَةٍ﴾: أي: طاقةٍ وقُدرةٍ وغِنًى، والسَّعَةُ: هي الجِدَةُ مِنَ المالِ أو الرِّزقِ، وأصلُ (وسع): يدُلُّ على خِلافِ الضِّيقِ والعُسرِ[(١)].

﴿قُدِرَ﴾: أي: ضُيِّق وقُتِّر، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايتِه[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى الرِّجالَ بإسكانِ المطلَّقاتِ، وأن يُحسِنوا معامَلتَهنَّ، ويَنهاهم عن الإساءةِ إليهنَّ، فيقول: أسْكِنوا -أيُّها الأزواجُ- نِساءَكم المُطَلَّقاتِ مِمَّا توفَّرَ لَدَيكم وتيسَّرَ وُجودُه مِن مَساكِنِكم، إلى أن تَنتَهيَ عِدَّتُهنَّ، ولا تَضُرُّوهنَّ لتُضَيِّقوا عَليهِنَّ فتَضطرُّوهنَّ للخُروجِ من السَّكَنِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى أحكامَ المطلَّقاتِ الحواملِ، وما يجِبُ لهنَّ بعْدَ الوضعِ، فيقولُ: وإنْ كانت المُطلَّقاتُ حواملَ فأنفِقوا عليهِنَّ إلى أن تَنتهِيَ عِدَّتُهنَّ بولادتِهنَّ، فإنْ أرضَعْنَ لكم أولادَكم فأعطوهنَّ أُجرةَ الرَّضاعةِ، وتَشاوَروا فيما بيْنَكم بالمعروفِ وبما هو خيرٌ للطِّفلِ الرَّضيعِ، وإن اختَلَفتُم في شأنِ الرَّضاعِ فلْيَستأجِرِ الأبُ لوَلَدِه مُرضِعةً أُخرى.

ثمَّ يُقدِّرُ الله تعالى النَّفقةَ، بحسَبِ حالِ الزَّوجِ، فيقولُ: لِيُنفِقْ مَن وَسَّعَ اللهُ عليه على مُطَلَّقتِه ووَلَدِه الرَّضيعِ، ويُوَسِّعْ عليهم في النَّفَقةِ، ومَن كان فقيرًا قد ضُيِّقَ عليه رِزقُه فلْيُنفِقْ مِمَّا أعطاه اللهُ على قَدْرِ سَعَتِه، لا يُكَلِّفُ اللهُ أحَدًا إلَّا بقَدْرِ ما أعطاه، بحَسَبِ حالِه مِن الغِنى والفَقرِ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى الآيةَ ببشارةٍ لِمَن يتَّبِعُ أمْرَه، فيقولُ: سيَجعَلُ اللهُ بعْدَ الفَقرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٠، ٨٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢، ٦٣).

والشِّدَّةِ والضِّيقِ غِنًى ورَخاءً وسَعَةً.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

تقدَّم أنَّ اللهَ نهى عن إخراجِ المطَلَّقاتِ مِن البُيوتِ، وهنا أمَرَ بإسكانِهنَّ[(١)].

وأيضًا فإنَّ قولَه تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وما بَعْدَه بيانٌ لِما شُرِطَ مِن التَّقوى في قَولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الطلاق: ٤]، كأنَّه قيل: كيف تكونُ التَّقوَى في شأنِ المعتَدَّاتِ؟ فقيل[(٢)]:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾.

أي: أسْكِنوا -أيُّها الأزواجُ- نِساءَكم المُطَلَّقاتِ في المكانِ الَّذي تَسكُنونَ فيه مِمَّا توفَّرَ لَدَيكم، وتيسَّرَ وُجودُه لكم إلى أن تَنتَهيَ عِدَّتُهنَّ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠١)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٧٥٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٨١، ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

ذكَر ابنُ القيِّم أنَّ الضَّميرَ في قولِه تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ يحتمِلُ أنْ يكونَ للبائنِ، وأنْ يكونَ للرجعيَّةِ، وأنْ يكونَ لهما، ورجَّح حملَه على الرجعيَّةِ، فقال: (حملُه على الرجعيَّةِ هو المتعيِّنُ لتتَّحِدَ الضَّمائرُ ومفسِّرُها، فلو حُمِل على غيرِها لزِم اختلافُ الضَّمائرِ ومفسِّرُها وهو خلافُ الأصلِ، والحملُ على الأصلِ أولَى). ((زاد المعاد)) (٥/ ٤٨٢). =

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّ﴾.

أي: ولا تَضُرُّوهنَّ -أيُّها الأزواجُ- بأيِّ ضَرَرٍ؛ مِن أجْلِ أن تُضَيِّقوا عَليهِنَّ في مَسكَنِكم، فتَضطرُّوهنَّ للخُروجِ منه قبْلَ انتِهاءِ عِدَّتِهنَّ(١).

﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾.

أي: وإنْ كانت المُطلَّقاتُ حوامِلَ فأنفِقوا عليهِنَّ إلى أن تَنتهِيَ عِدَّتُهنَّ بوِلادتِهنَّ(٢).

= وقيل: الضَّميرُ في قوله: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ﴾ يَعودُ إلى النِّساءِ المُطَلَّقاتِ كُلِّهنَّ، فيَشملُ المُطَلَّقةَ الرَّجعيَّةَ والبائِنَ والحامِلَ، وانعقَد الإجماعُ على وُجوبِ السُّكْنى للمطلَّقةِ الرَّجعيَّةِ والحامِلِ، وذهَبَ جمهورُ أهلِ العِلمِ إلى وُجوبِ السُّكنى حتَّى للبائِنِ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٥، ٣٢٦).

وسيأتي تفصيلُ الكلامِ عن هذه المسألةِ (ص: ٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٩، ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

قال القرطبي: (لا خِلافَ بيْن العُلَماءِ في وُجوبِ النَّفَقةِ والسُّكنى للحامِلِ المُطَلَّقةِ ثلاثًا أو أقلَّ مِنهنَّ حتَّى تَضَعَ حَمْلَها). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٨).

قال الشوكاني: (فأمَّا الحامِلُ المُتوَفَّى عنها زَوجُها؛ فقال عليٌّ، وابنُ عُمَرَ، وابنُ مَسعودٍ، وشُرَيحٌ، والنَّخَعيُّ، والشَّعْبيُّ، وحمَّادٌ، وابنُ أبي لَيلى، وسُفيانُ وأصحابُه: يُنفَقُ عليها مِن جميعِ المالِ حتَّى تَضَعَ. وقال ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ الزُّبَيرِ، وجابِرُ بنُ عبدِ اللهِ، ومالِكٌ، والشَّافِعيُّ، وأبو حَنيفةَ وأصحابُه: لا يُنفَقُ عليها إلَّا مِن نَصيبِها. وهذا هو الحَقُّ؛ للأدِلَّةِ الواردةِ في ذلك مِنَ السُّنَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٣). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٨٢).

وقال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ قال كثيرٌ مِن العلماءِ -منهم ابنُ عبَّاسٍ، وطائفةٌ مِن السَّلفِ، وجماعاتٌ مِن الخلَفِ-: هذه في البائنِ، إن كانت حاملًا أنفَق عليها حتَّى تَضَعَ حمْلَها، قالوا: بدليلِ أنَّ الرَّجعيَّةَ تجبُ نفقتُها، سواءٌ كانت حاملًا أو حائلًا. وقال آخَرون: بل السِّياقُ كلُّه في الرَّجعيَّاتِ، وإنَّما نصَّ على الإنفاقِ على الحامِلِ وإن كانت =

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانَ الحَمْلُ يَنْتهي بالوَضْعِ، انتُقِلَ إلى بَيانِ ما يجِبُ لهُنَّ بعْدَ الوضْعِ؛ فإنَّهُنَّ بالوضْعِ يَصِرْنَ بائناتٍ، فتَنقطِعُ أحكامُ الزَّوجيَّةِ، فكان السَّامعُ بحيثُ لا يَدْري هلْ يكونُ إرضاعُها ولَدَها حقًّا عليها كما كان في زمَنِ العِصمةِ، أو حقًّا على أبيهِ فيُعْطِيها أجْرَ إرْضاعِها كما كان يُعْطيها النَّفقةَ مِن أجْلِ ذلك الولَدِ حينَ كان حَمْلًا[1]؟

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

أي: فإنْ أرضَعَ نِساؤُكم المطلَّقاتُ أولادَكم فأعطوهنَّ أُجرةَ الرَّضاعةِ[2].

﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾.

أي: ولْيَتَشاوَرْ كلٌّ مِنَ الزَّوجِ ومُطلَّقتِه، ويأمُرْ بَعضُهم بعضًا بما هو خيرٌ للطِّفلِ الرَّضيعِ، بلا ضررٍ ولا ضِرارٍ، ويَقبَلوا ذلك، ويَعمَلوا به، فلا يُقَصِّرُ الوالِدُ في النَّفَقةِ، ولا تُقَصِّرُ المُرضِعةُ في القيامِ بشَأنِ الرَّضيعِ[3].

= رجعيَّةً؛ لأنَّ الحملَ تطولُ مدَّتُه غالبًا، فاحتيج إلى النَّصِّ على وُجوبِ الإنفاقِ إلى الوضعِ؛ لئلَّا يتوهَّمَ أنَّه إنَّما تجبُ النَّفقةُ بمِقدارِ مدَّةِ العدَّةِ.

واختلَف العُلماءُ: هل النَّفقةُ لها بواسِطةِ الحملِ، أم للحملِ وحْدَه؟ على قولَينِ مَنصوصَينِ عن الشَّافعيِّ وغيرِه، ويتفرَّع عليها مسائلُ مذكورةٌ في علمِ الفروعِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٨)، ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٦)، =

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾.

أي: وإن اختَلَف الزَّوجُ ومُطَلَّقتُه في شأنِ رَضاعِ وَلَدِها منه، فلم يتَّفِقَا على الأُجرةِ أو امتَنَعَت الأمُّ عنَ الرَّضاعِ، فلا تُكرَهُ على إرضاعِه، ولْيَستأجِرِ الأبُ لوَلَدِه مُرضِعةً أُخرى[1].

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت المُعاسَرةُ في الغالِبِ في تَركِ السَّماحِ، وكان تَركُ السَّماحِ مِن خَوفِ الإعدامِ؛ نَبَّه اللهُ سبحانه على أنَّ ذلك ليس بعُذرٍ، بتَقسيمِ النَّاسِ إلى مُوَسَّعٍ عليه وغَيرِه، ولأنَّ الأليَقَ بالمُوَسَّعِ عليه أن يُوَسِّعَ ولا يُسيءَ الظَّنَّ برَبِّه وقد جَرَّبَ رِفْدَه، وأنَّ المُقَتَّرَ عليه لا ينبغي أن يَفعَلَ فِعلَ مَن يخافُ أن يُخلِفَ وَعْدَه[2].

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾.

أي: على مَن وَسَّعَ اللهُ عليه أن يُوَسِّعَ في النَّفَقةِ على مُطَلَّقتِه ووَلَدِه الرَّضيعِ[3].

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾.

= ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

أي: ومَن كان فقيرًا قد ضُيِّقَ عليه رِزقُه فلْيُنفِقْ مِمَّا أعطاه اللهُ مِنَ الرِّزقِ، على قَدْرِ مالِه[1].

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾.

أي: لا يُكَلِّفُ اللهُ أحَدًا مِن النَّفَقةِ الواجِبةِ عليه إلَّا بقَدْرِ ما أعطاه مِنَ الرِّزقِ؛ كُلٌّ بحَسَبِ حالِه مِن الغِنى والفَقرِ، فلا يُكَلِّفُ اللهُ الفَقيرَ أن يُنفِقَ مِثلَ نَفَقةِ الغَنيِّ[2].

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾

أي: سيَجعَلُ اللهُ للفَقيرِ بعدَ الفَقرِ والشِّدَّةِ والضِّيقِ غِنًى ورَخاءً وسَعَةً[3].

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ولْيَأمُرْ كُلُّ واحِدٍ مِنَ الزَّوجَينِ

---

(١) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣١).
قال القرطبي: (تُقَدَّرُ النَّفَقةُ بحَسَبِ الحالةِ مِن المُنفِقِ، والحاجةِ مِن المنفَقِ عليه، بالاجتهادِ على مَجرى العادةِ، فيَنظُرُ المُفتي إلى قَدرِ حاجةِ المنفَقِ عليه، ثمَّ يَنظُرُ إلى حالةِ المُنفِقِ؛ فإن احتَمَلَت الحالةُ [الحاجةَ] أمْضاها عليه، فإن قصَّرتْ حالتُه عن حاجةِ المنفَقِ عليه رَدَّها إلى قَدْرِ احتِمالِه). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

ومن غَيرِهما الآخَرَ بالمَعروفِ، وهو كُلُّ ما فيه مَنفعةٌ ومَصلحةٌ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فإنَّ الغَفلةَ عن الائتِمارِ بالمَعروفِ يَحصُلُ بها مِن الشَّرِّ والضَّرَرِ ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، وفي الائتِمارِ تعاوُنٌ على البِرِّ والتَّقْوى[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ فيه تنبيهٌ صَريحٌ بألَّا يُضارَّ أحَدُ الوالِدَينِ بوَلَدِه، وأن تكونَ المفاهمةُ بيْن الزَّوجَينِ بعْدَ الفُرقةِ في جميعِ الأُمورِ -سواءٌ في خُصوصِ الرَّضاعِ أو غَيرِه- مَبناها على المعروفِ والتَّسامُحِ والإحسانِ؛ وفاءً لحَقِّ العِشْرةِ السَّابِقةِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ استِحبابُ مُراعاةِ الإنسانِ حالَ نفْسِه في النَّفَقةِ والصَّدَقةِ[٣].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾. قَولُه ﴿قُدِرَ﴾ بناه للمَفعولِ؛ تعليمًا للأدَبِ معه سُبحانَه وتعالى[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ استُدِلَّ به على وُجوبِ السُّكْنى للمُطَلَّقاتِ كُلِّهنَّ، وللبَوائِنِ؛ لتَقَدُّمِ سُكْنى الرَّجْعيَّاتِ، ولِقَولِه بَعْدُ: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾؛ فإنَّه خاصٌّ بالبوائِنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٣).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧). =

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ تعميمُ المُطَلَّقاتِ بالسُّكْنى، وتخصيصُ أُولاتِ الأحمالِ بالنَّفَقةِ: استُدِلَّ به على أنَّ غيرَها مِنَ المُطَلَّقاتِ لا يُشارِكُها في النَّفَقةِ، وتُشارِكُهنَّ في السُّكْنى[1]. فقولُه: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟

= ويُنظر تفصيلُ مسألةِ النَّفقةِ والسُّكْنى في حاشيةِ الفائدةِ التَّاليةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٢).

قال ابن عاشور: (ظاهِرُ نَظْمِ الآيةِ يَقْتضي أنَّ الحواملَ مستحِقَّاتُ الإنفاقِ دونَ بعضِ المطلَّقاتِ؛ أخْذًا بمفهومِ الشَّرطِ، وقد أخَذ بذلك الشَّافعيُّ والأوزاعيُّ وابنُ أبي ليلَى. ولكنَّ المفهومَ مُعَطَّلٌ في المطَلَّقاتِ الرَّجعيَّاتِ؛ لأنَّ إنفاقَهنَّ ثابتٌ بأنَّهنَّ زوجاتٌ. ولذلك قال مالكٌ: إنَّ ضميرَ ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ للمطلَّقاتِ البوائِنِ... ومَن لم يأخُذْ بالمفهومِ قالوا: الآيةَ تعرَّضَتْ للحواملِ تأكيدًا للنَّفقةِ عليهنَّ؛ لأنَّ مُدَّةَ الحملِ طويلةٌ، فرُبَّما سَئِم المطَلِّقُ الإنفاقَ، فالمقصودُ مِن هذه الجملةِ هو الغايةُ الَّتي بقولِه: ﴿حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، وجعلوا للمطلَّقةِ غيرِ ذاتِ الحملِ الإنفاقَ. وبه أخذ أبو حنيفةَ والثَّوريُّ. ونُسِب إلى عُمَرَ بنِ الخطَّابِ وعبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهما). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٨).

أمَّا نَفَقةُ المُطَلَّقةِ الرَّجعيَّةِ وسُكْناها في العِدَّةِ فهو واجبٌ بالإجماعِ، وممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الشَّافعيُّ، وابنُ حَزمٍ، وابنُ قُدامةَ. يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٢٥٣)، ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٧٨)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٣٣).

أمَّا المُعتَدَّةُ البائِنُ الحائِلُ (غيرُ الحامِلِ) ففيها خِلافٌ: فمَذهَبُ الحَنابِلةِ والظَّاهريَّةِ أنَّه لا يَجِبُ لها السُّكْنى ولا النَّفَقةُ، واختاره ابنُ القيِّمِ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٤٦٥)، ((المحلى)) لابن حزم (١٠/ ٧٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٤٦٦)، ((نيل الأوطار)) للشوكاني (٦/ ٣٥٧-٣٥٩).

قال القاسمي: (أمَّا البائِنُ فلا سُكنى لها ولا نَفَقةَ؛ لِسُنَّةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصَّحيحةِ الَّتي لا يُطعَنُ في صِحَّتِها الصَّريحةِ الَّتي لا شُبهةَ في دَلالتِها). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٥٣).

وقال السعدي: (أمَّا البائِنُ فليس لها سُكنى واجبةٌ؛ لأنَّ السَّكَنَ تَبَعٌ للنَّفَقةِ، والنَّفَقةُ تَجِبُ للرَّجعيَّةِ دونَ البائِنِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

ومذهبُ الحنَفيَّةِ أنَّ لها النَّفَقةَ والسُّكْنى. يُنظر: ((الهداية شرح البداية)) للمَرْغِيناني (٢/ ٤٤).=

عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ استُدِلَّ بمَفهومِه على أنَّ غيرَ الحامِلِ لا نَفَقةَ لها[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيه أنَّ الإسكانَ يُعتَبَرُ بحالِ الزَّوجِ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ فيه تحريمُ المُضارَّةِ بها، وإلجائِها إلى الخُروجِ[٣].

٥- (مِنْ) الواقعةُ في قولِه: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ للتَّبعيضِ، أي: في بعضِ ما سكَنْتُم. ويُؤخَذُ منه أنَّ المسكنَ صالحٌ للتَّبعيضِ بحسَبِ عُرْفِ السُّكنى، مع تَجنُّبِ التَّقارُبِ في المَبيتِ إنْ كانتْ غيرَ رَجعيَّةٍ، فيُؤخَذُ منه أنَّه إنْ لم يَسَعْهُما خرَجَ الزَّوجُ المُطلِّقُ، كأنَّه قيلَ: أسكِنوهُنَّ مكانًا مِنْ مَسكنِكم ممَّا تُطيقونَه[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيه وُجوبُ الإنفاقِ على البائِنِ الحامِلِ حتَّى تَنقَضِيَ عِدَّتُها[٥].

٧- إنْ قيل: فما الفائدةُ في تخصيصِ نفَقةِ الرَّجعيَّةِ بكونِها حاملًا؟

= ومَذهَبُ المالِكيَّةِ والشَّافِعيَّةِ أنَّه يجبُ لها السُّكْنى، لا النَّفَقةُ. يُنظر: ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٥/ ٥٥٣)، ((العزيز شرح الوجيز)) للرافعي (١٠/ ٤٠).

وأمَّا البائنُ الحاملُ فلها النَّفَقةُ والسُّكْنى بالإجماعِ، وممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الكاساني، وابنُ قدامة، والقرطبي. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٣/ ٢٠٩)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٨).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧). وذلك بالإجماعِ كما تقدَّم.

قيل: ليس في الآيةِ ما يقتضي أنَّه لا نفقةَ للرَّجعيَّةِ الحائلِ، بل الرَّجعيَّةُ نَوعانِ قد بيَّن الله حُكمَهما في كتابِه: حائلٌ: فلها النَّفقةُ بعَقدِ الزَّوجيَّةِ؛ إذ حُكمُها حُكمُ الأزواجِ، أو حاملٌ: فلها النَّفقةُ بهذه الآيةِ إلى أنْ تضَع حملَها، فتصيرَ النَّفقةُ بعدَ الوضعِ نفقةَ قريبٍ لا نفقةَ زوجٍ، فيُخالِفَ حالُها قبْلَ الوضعِ حالَها بعْدَه؛ فإنَّ الزَّوجَ يُنفِقُ عليها وحْدَه إذا كانت حاملًا، فإذا وضَعت صارتْ نفقتُها على مَن تجبُ عليه نفقةُ الطِّفلِ، ولا يكونُ حالُها في حالِ حملِها كذلك، بحيث تجبُ نفقتُها على مَن تجبُ عليه نفقةُ الطِّفلِ؛ فإنَّه في حالِ حملِها جزءٌ مِن أجزائِها، فإذا انفَصل كان له حُكمٌ آخَرُ، وانتقلت النَّفقةُ مِن حُكمٍ إلى حكمٍ، فظهَرت فائدةُ التَّقييدِ، وسرُّ الاشتراطِ، واللهُ أعلمُ بما أراد مِن كلامِه[1].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ استَدَلَّ بعُمومِه مَن أوجَبَ النَّفَقةَ للحامِلِ المُتوفَّى عنها[2].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ فائِدةُ ذِكرِ الغايةِ فيه: رَفْعُ توَهُّمِ أنَّ النَّفَقةَ تَتقيَّدُ بمُضِيِّ مِقدارِ عِدَّةِ الأقراءِ، أو أنَّه إذا طالت

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

وهو قولُ شُرَيحٍ، وابنِ سِيرينَ، والشَّعْبي، وأبي العاليةِ، والنَّخَعيِّ، وجُلاس بن عَمرٍو، وحمَّادِ ابنِ أبي سُلَيمانَ، وأيُّوبَ السَّخْتِيانيِّ، وسُفْيانَ الثَّوريِّ، وأبي عُبَيدٍ، ورُوِيَ عن عليٍّ، وعبدِ الله بن مسعود، وابنِ عُمَرَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٨٥).

واتَّفقَتِ المَذاهِبُ الفقهيَّةُ الأربَعةُ على أنَّ المُعتَدَّةَ مِن وَفاةِ زَوجِها لا نَفَقةَ لها حتَّى لو كانت حامِلًا. يُنظر: ((البحر الرائق)) لابن نُجَيم (٤/ ٢١٧)، ((منح الجليل)) لِعُلَيْش (٤/ ٣١٩)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٩/ ٦٨)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٢٣٢).

وهو قولُ سعيدِ بنِ المُسَيِّبِ، وعَطاءٍ، والحسَنِ، وعِكْرِمةَ، وعبدِ الملكِ بنِ يَعْلَى، ويحيى الأنصاريِّ، ورَبيعةَ، وإسحاقَ، ورُوِيَ عن جابرِ بنِ عبدِ الله، وابنِ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٨٥).

مُدَّةُ الحَملِ لا تَجِبُ النَّفَقةُ؛ مِن الإطالةِ[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يَعني حَقَّ الرَّضاعِ وأُجرتَه، واستُدِلَّ به على أنَّ اللَّبَنَ وإنْ خُلِقَ لمَكانِ الوَلَدِ فهو مِلْكٌ لها، وإلَّا لم يكُنْ لها أن تأخُذَ الأجْرَ[٢].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ حَقَّ الرَّضاعِ والنَّفَقةِ: على الأزواجِ في حَقِّ الأولادِ[٣]. فقد أوْجَب الله تعالى نَفَقةَ الولدِ حَملًا ورَضيعًا بواسِطةِ الإنفاقِ على الحاملِ والمُرْضِعِ؛ فإنَّه لا يُمكِنُ رَزْقُه بدونِ رَزْقِ حامِلِه ومُرْضِعِه، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ نفقةَ الوَلَدِ على أبيه أيضًا بعدَ فِطامِه؛ فإنَّه إذا كان في حالِ اختِفائِه وارتضاعِه أوجَبَ نفقةَ مَن تَحمِلُه وتُرضِعُه -إذْ لا يُمكِنُ الإنفاقُ عليه إلَّا بذلك- فالإنفاقُ عليه بعدَ فِصالِه إذا كان يُباشِرُ الارتِزاقَ بنَفْسِه: أَولى وأَحرى. وهذا مِن حُسْنِ الاستِدلالِ؛ فقد تَضَمَّنَ الخِطابُ التَّنبيهَ بأنَّ الحُكْمَ في المسكوتِ أَولى منه في المنطوقِ، وتَضَمَّنَ تعليلَ الحُكْمِ بكَونِ النَّفَقةِ إنَّما وَجَبَتْ على الأبِ لأنَّه هو الَّذي له الوَلَدُ دونَ الأمِّ، ومَن كان الشَّيءُ له كانت نَفَقتُه عليه؛ ولذا سُمِّيَ الوَلَدُ كَسْبًا في قَولِه: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ٢]، وفي قَولِه: ((إنَّ أطْيَبَ ما أكَلَ الرَّجُلُ مِن كَسْبِه، وإنَّ ولدَه مِن كَسْبِه))[٤].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٤/ ١٠٦).

والحديث أخرجه مِن طُرقٍ: أبو داودَ (٣٥٢٨) باختلافٍ يسيرٍ، والنَّسائيُّ (٤٤٥٢)، وابنُ ماجه (٢١٣٧)، وأحمدُ (٢٤٠٣٢) واللَّفظُ لهم مِن حديثِ عائشةَ رضيَ الله عنها.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٤٢٦٠)، وابنُ حزم في ((المحلى)) (٨/ ١٠٢)، وابن =

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فيه أنَّ الأُمَّ إذا طَلَبَت إرضاعَه بأُجرةِ مِثْلٍ، وَجَب على الأبِ دَفْعُها إليها، وليس له أن يَستَرضِعَ غَيْرَها[١].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ الأُمَّ أَولى بالحَضانةِ[٢].

١٤- قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ بيَّن أنَّ النَّسَبَ للرِّجالِ، بقَولِه تعالى: ﴿لَكُمْ﴾[٣].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يدُلُّ على أنَّ الأُجرةَ إنَّما تُستَحَقُّ بالفَراغِ مِن العَمَلِ[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أنَّ ما لا يُمكِنُ تَعريتُه مِن المجهولِ، ولا يُضْبَطُ بالتَّسميةِ في الإجاراتِ: جائزٌ[٥].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ثُبوتُ عِوَضِ الإجارةِ بالمَعروفِ؛ فقد أمَرَ بإيتائِهنَّ أجورَهنَّ بمُجَرَّدِ الإرضاعِ[٦].

١٨- مَذهَبُ مالِكٍ وأحمَدَ بنِ حَنبَلٍ المشهورُ عنه، وغَيرِهما: أنَّ كُلَّ مَن

= الملقِّن في ((البدر المنير)) (٨/ ٣٠٨)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٣٧)، وحسَّنه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٠/ ٣٤).

وقال ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ٤١٩): (له طُرقٌ مُتعدِّدةٌ، بعضُها على شرطِ الصَّحيحَينِ).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٢٣).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٤/ ٣٤٦).

(٦) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ١٦٤).

أدَّى عن غَيرِه واجِبًا فله أن يَرجِعَ به عليه إذا لم يكُنْ مُتبَرِّعًا بذلك، وإن أدَّاه بغيرِ إذْنِه؛ مِثلُ مَن قَضى دَيْنَ غَيرِه بغَيرِ إذْنِه، سواءٌ كان قد ضَمِنَه بغَيرِ إذنِه وأدَّاه بغَيرِ إذنِه، أو أدَّاه عنه بلا ضَمانٍ، وكذلك مَن افْتَكَّ أسيرًا مِن الأَسْرِ بغيرِ إذْنِه يَرْجِعُ عليه بما افْتَكَّه به، وكذلك مَن أدَّى عن غَيرِه نَفَقةً واجِبةً عليه، مِثلُ أنْ يُنفِقَ على ابنِه أو زَوجتِه أو بهائِمِه، لا سيَّما إذا كان للمُنفِقِ فيها حقٌّ، مِثلُ أنْ يكونَ مُرتَهِنًا أو مُستأجِرًا، أو كان مُؤتَمَنًا عليها، مِثلُ المُودِعِ، ومِثلُ رادِّ العَبدِ الآبِقِ، ومِثلُ إنفاقِ أحدِ الشَّريكَينِ على البهائِمِ المُشتَرَكةِ، وقد دلَّ على هذا الأصلِ قَولُه تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، فأمَرَ سُبحانَه بإيتاءِ الأجرِ بمُجَرَّدِ إرضاعِهنَّ، ولم يَشتَرِطْ عَقْدَ استِئجارٍ، ولا إذْنَ الأبِ لها في أنْ تُرْضِعَ بالأجرِ، بل لَمَّا كان إرضاعُ الطِّفلِ واجِبًا على أبيه فإنْ أرضَعَتْه المرأةُ استحَقَّتِ الأجرَ بمُجَرَّدِ إرضاعِها[(١)].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أنَّ الإجارةَ تكونُ على كلِّ ما يُستوفَى مع بقاءِ أصْلِه، سواءٌ كانت عَينًا أو مَنفَعةً، فلمَّا كان لَبَنُ المُرضِعِ يُستوفَى مع بَقاءِ الأصلِ، ونَقْعُ البِئرِ[(٢)] يُستوفَى مع بقاءِ الأصلِ؛ جازتِ الإجارةُ عليه كما جازتْ على المنفعةِ؛ فإنَّ هذه الأعيانَ يُحْدِثُها اللهُ شيئًا بعدَ شيءٍ وأصلُها باقٍ، كما يُحْدِثُ اللهُ المنافعَ شيئًا بعدَ شيءٍ وأَصْلُها باقٍ؛ ولهذا جاز وَقْفُ هذه الأصولِ لاستِمرارِ هذه الفوائدِ؛ أعيانِها ومَنافِعِها[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٣٤٩). ويُنظر أيضًا: ((الذخيرة)) للقرافي (٩/ ٢٠٣)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٢٢٨).

(٢) نَقْعُ البِئْرِ: ما اجتَمَع في البِئرِ مِن الماءِ، أو فَضلُ مائِها. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٢٣٠).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ صِحَّةُ المعاوَضةِ بثَمَنِ المِثْلِ[١].

٢١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ الائتِمارُ بمَعروفٍ يُشعِرُ بأنَّ للعُرفِ دَخلًا في ذلك[٢].

٢٢- قولُه تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ قيَّدَ الائتمارَ بالمعروفِ، أي: ائتمارًا مُلابِسًا لِمَا هو المعروفُ في مِثْلِ حالِهِمْ وقَومِهم، أي: مُعتادٌ مَقبولٌ، فلا يَشتَطُّ الأبُ في الشُّحِّ، ولا تَشتَطُّ الأمُّ في الحِرصِ[٣].

٢٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّ الأُمَّ لا تُجبَرُ على الرَّضاعِ حيثُ يُوجَدُ غَيرُها، وقَبِلَ الصَّبيُّ ثَدْيَها، وإلَّا أُجبِرَت عليه[٤].

٢٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أصلٌ في وُجوبِ النَّفَقةِ للوَلَدِ على الوالِدِ دونَ الأُمِّ[٥].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أنَّ الأمَّ إذا أرادتِ الإجحافَ بالأبِ في إغلاءِ أُجرةِ الرَّضاعِ كان للأَبِ دَفْعُه إلى أجنبيَّةٍ، ولم يُجبَرِ الأبُ على أكثَرَ مِن أُجرةِ مِثْلِها في إرضاعِها[٦].

٢٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ فيه أنَّ النَّفَقةَ يُراعَى فيها حالُ المُنفِقِ يَسارًا وإعسارًا، وأنَّ نَفَقةَ المُعسِرِ

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٩١).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤٦).

أَقَلُّ مِن نَفَقةِ المُوسِرِ[١].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أنَّ الزَّوجَ يَجِبُ عليه أنْ يُنْفِقَ على زَوجتِه ولو كانت غَنيَّةً، ولِقَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: ((لَهُنَّ عليكم رِزْقُهنَّ وكِسْوَتُهنَّ بالمعروفِ))[٢]، لكنْ ينبغي للزَّوجةِ إذا كان زوجُها فقيرًا وليس ذا سَعَةٍ مِن المالِ؛ ينبغي لها أنْ تُساعِدَه على مَؤونةِ البيتِ، ومَؤونةِ العيالِ، ومَؤونةِ نَفْسِها أيضًا[٣].

٢٨- قولُه تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ هو حَثٌّ على التَّوسُّعِ في النَّفَقةِ لِمَن وَسَّع اللهُ عليه[٤]، فالمؤمِنُ في حالِ غِناه يَزيدُ على نَفَقتِه في حالِ فَقْرِه، كما قال بَعضُ السَّلَفِ: (إنَّ المؤمِنَ يأخُذُ عن اللهِ أدَبًا حَسَنًا؛ إذا وسَّعَ اللهُ عليه وسَّع على نَفْسِه، وإذا ضَيَّقَ عليه ضَيَّق على نَفْسِه)، ثمَّ تلا قَولَه تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، لكِنْ يَكونُ في حالِ غِناه مُقتَصِدًا غَيرَ مُسرِفٍ[٥].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أنَّ نَفْسَ المالِ يُسَمَّى رِزْقًا، لا أنَّ اسمَ الرِّزقِ لا يقعُ إلَّا على ما استُهْلِك بالأكلِ واللِّباسِ وما أشبَهَهما[٦].

٣٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ استَدَلَّ به مَن قال: لا فَسْخَ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٨).

(٢) أخرجه مسلمٌ (١٢١٨) مطوَّلًا مِن حديثِ جابرٍ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٦).

(٥) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٨).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤٧).

بالعَجزِ عن الإنفاقِ للزَّوجةِ[١].

٣١- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ أنَّ مَن وَجَبَ عليه نَفَقةُ قَوم فلَمْ يَقْدِرْ على تمامِها، لم يَلْزَمْه الإقحامُ على ما لا يَحِلُّ له، ووَجَبَ عليه الاقتِصارُ على ما أُوتيَ مِن الرِّزقِ، وعلى مَن يَعولُهم الصَّبرُ معه على انتِقالِ حالِه مِن العُسْرِ إلى اليُسْرِ الَّذي وَعَدَه اللهُ في هذه الآيةِ[٢].

٣٢- قال اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ هذا مُناسِبٌ للحِكمةِ والرَّحمةِ الإلهيَّةِ؛ حيثُ جَعَل كُلًّا بحَسَبِه، وخَفَّف عن المُعسِرِ، وأنَّه لا يُكَلِّفُه إلَّا ما آتاه، فلا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَها في بابِ النَّفَقةِ وغَيرِها[٣].

٣٣- قولُه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ فيه تطييبٌ لقلْبِ المُعسِرِ، وتَرغيبٌ له في بذْلِ مجهودِه[٤].

٣٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ هذه بِشارةٌ للمُعسِرينَ أنَّ اللهَ تعالى سيُزيلُ عنهم الشِّدَّةَ، ويَرفَعُ عنهم المَشقَّةَ[٥].

٣٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ لا يُنافي قَولَه تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٨).

مذهبُ الحنفيَّةِ أنَّ مَن أعسَر بنفقةِ امرأةٍ لم يُفرَّقْ بيْنَهما. يُنظر: ((العناية شرح الهداية)) للبابَرْتي (٤/ ٣٨٩).

ومذهبُ الجمهورِ مِن المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ -في الأظهرِ-، والحنابلةِ أنَّه إذا أعسَرَ الزَّوجُ بالنَّفَقةِ ولم تَصبِرِ الزَّوجةُ، فلها الفَسخُ. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٥١٨)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٦٥)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ [الشرح: ٦]؛ لأنَّ (مع) بمعنى (بَعْدَ)، وإلَّا فيَلزَمُ اجتِماعُ الضِّدَّينِ، وهو مُحالٌ[١].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۖ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾

- قولُه: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ ممَّا قَبْلَه مِنَ الحثِّ على التَّقوى؛ كأنَّه قيلَ: كيفَ نَعمَلُ بالتَّقْوى في شأنِ المُعتدَّاتِ؟ فقيلَ: أسكِنوهُنَّ مَسْكنًا مِن حيثُ سكَنْتُم، أي: بعضَ مكانِ سُكْناكُم[٢].

- وهذِه الجملةُ وما أُلْحِقَ بها مِنَ الجُمَلِ إلى قولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ ...﴾ [الطلاق: ٨] إلخ؛ تَشريعٌ مُستأنَفٌ، فيه بَيانٌ لِما أُجْمِلَ في الآياتِ السَّابقةِ مِن قولِه: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، وقولِه: ﴿أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ [الطلاق: ٢]، وقولِه: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]؛ فتَتنزَّلُ هذِه الجُمَلُ مِنَ اللَّاتي قَبْلَها مَنزِلةَ البَيانِ لبَعضٍ، وبدَلِ الاشتِمالِ لبَعضٍ، وكلُّ ذلكَ مُقتضًى للفَصْلِ -أي: عدمِ العَطفِ بالواوِ-، وابْتُدِئَ ببَيانِ ما في ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] مِن إجمالٍ[٣].

- وقولُه: ﴿مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾، أي: في البُيوتِ الَّتي تَسكُنونَها، أي: لا يُكلَّفُ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٥).

المُطلِّقُ بمَكانٍ للمُطلَّقةِ غيرَ بَيتِه، ولا يَمنَعُها السُّكنى ببَيتِه، وهذا تأْكيدٌ لقولِه: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾[1] [الطلاق: ١].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ بدَلٌ مُطابِقٌ، وهو بَيانٌ لقولِه: ﴿مِّنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾؛ فإنَّ مَسكَنَ المرْءِ هو وُجْدُه الَّذي وجَدَهُ غالبًا لِمَن لم يكُنْ مُقتِّرًا على نفْسِه[2].

- قولُه: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ المُضارَّةُ: الإضرارُ القويُّ، فكأنَّ المُبالَغةَ راجعةٌ إلى النَّهيِ، لا إلى المَنهيِّ عنه، أي: هو نهْيٌ شديدٌ[3].

- واللَّامُ في ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ لتَعليلِ الإضرارِ، وهو قَيْدٌ جَرَى على غالِبِ ما يَعرِضُ للمُطلِّقينَ مِن مَقاصِدِ أهلِ الجاهليَّةِ، والإضرارُ بالمُطلَّقاتِ مَنْهيٌّ عنه، وإنْ لم يكُنْ لقصْدِ التَّضييقِ عليهِنَّ[4].

- وقولُه: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ خصَّ الأُمَّ بالمُعاتَبةِ؛ لأنَّ المَبذولَ مِن جِهَتِها هو لَبَنُها لوَلَدِها، وهو غيرُ مُتموَّلٍ ولا مَضْنونٍ به في العُرفِ، وخُصوصًا في الأُمِّ على الولَدِ، ولا كذلك المَبذولُ مِن جِهَةِ الأبِ؛ فإنَّه المالُ المَضنونُ به عادةً، فالأُمُّ إذَنْ أجْدرُ باللَّومِ، وأحقُّ بالعَتْبِ[5].

- وقولُه: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ عِتابٌ ومَوعظةٌ للأبِ والأمِّ بأنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٥٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣).

يُنزِلَ كلٌّ مِنْهُما نفْسَه مَنزلةَ ما لَو اجْتُلِبَتْ للطِّفلِ ظِئْرٌ[١]، فلا تَسألُ الأمُّ أكثرَ مِن أجْرِ أمثالِها، ولا يَشِحُّ الأبُ عمَّا يَبلُغُ أجرَ أمثالِ أمِّ الطِّفلِ. وسِينُ الاستِقبالِ مُستعمَلٌ في معْنى التَّأكيدِ، وهذا المعنى ناشئٌ عن جَعْلِ علامةِ الاستِقبالِ كِنايةً عن تجدُّدِ ذلك الفِعلِ في أزمنةِ المُستقبَلِ تَحقيقًا لتحصيلِه، وهذا الخبرُ مُستعمَلٌ كِنايةً أيضًا عن أمرِ الأبِ باستئجارِ ظِئْرٍ للطِّفلِ، بقَرينةِ تعليقِ ﴿لَهُۥ﴾ بقولِه: ﴿فَسَتُرۡضِعُ﴾، فاجتمَعَ فيه ثلاثُ كِناياتٍ: كِنايةٌ عن مَوعظةِ الأبِ، وكِنايةٌ عن مَوعظةِ الأمِّ، وكِنايةٌ عن أمْرِ الأبِ بالاسترضاعِ لولَدِه[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ تَذييلٌ لِمَا سبَقَ مِن أحكامِ الإنفاقِ على المُعتدَّاتِ والمُرضِعاتِ بما يَعُمُّ ذلك، ويعُمُّ كلَّ إنفاقٍ يُطالَبُ به المسلِمُ مِن مَفروضٍ ومَندوبٍ، أي: الإنفاقُ على قدْرِ السَّعَةِ[٣].

- ومعنى ﴿قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ جُعِلَ رِزقُه مقدورًا، أي: محدودًا بقدْرٍ مُعيَّنٍ، وذلك كنايةٌ عن التَّضييقِ، أي: مَن كانَ في ضيقٍ مِنَ المالِ فَلْيُنْفِقْ بما يَسمَحُ به رِزقُه بالنَّظرِ إلى الوفاءِ بالإنفاقِ، ومَراتبِه في التَّقديمِ[٤].

- قولُه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ تَعليلٌ لقولِه: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، والمقصودُ مِنه إقناعُ المُنفَقِ عليه بألَّا يَطلُبَ مِنَ المُنفِقِ أكثرَ مِن مَقدرتِه[٥].

---

(١) هي المُرْضِعةُ غَيرَ ولَدِها. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٣١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَأكيدِ الوَعدِ للفُقراءِ بفتحِ أبوابِ الرِّزقِ، عاجِلًا أو آجِلًا، وهو وعْدٌ مِن اللهِ تعالَى للمُنفِقِ بعْدَ أنْ أمَرَه بالإنفاقِ في قولِه: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾، فإذا قُيِّدَ مُطلَقُ الأمْرِ بما سبَقَ، وأنَّه حديثٌ مِن شأْنِ المُطلَّقاتِ والمُرضِعاتِ، يُقال: إنَّه لفُقراءِ الأزواجِ، وإذا تُرِكَ على إطلاقِه -ليكونَ استطرادًا في الكلامِ، على منوالِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]-؛ يُقال: إنَّه موعدٌ لفُقراءِ ذلك الوقتِ، فيَدخُلُ فيه فُقراءُ الأزواجِ دُخولًا أوَّليًّا، وهذا أوفَقُ لتأليفِ النَّظمِ؛ ليَكونَ تخلُّصًا إلى قولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: ٨]؛ لأنَّها كالخاتمةِ للتَّحريضِ على تَقوى اللهِ، وحِفظِ حُدودِه، والتَّفادي عن التَّجاوُزِ عنها. وقيل: لا يختصُّ هذا الوعدُ بفقراءِ ذلكَ الوقتِ، ولا بفقراءِ الأزواجِ مُطلَقًا، بل مَنْ أنفَقَ ما قَدَرَ عليه ولم يُقصِّرْ[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ تكملةٌ للتَّذييلِ؛ فإنَّ قولَهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ يُناسِبُ مضمونَ جُملةِ ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾، وقولَه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ يُناسِبُ مضمونَ: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ...﴾ إلخ، وهذا الكلامُ خبرٌ مُستعمَلٌ في بعثِ التَّرجِّي، وطرْحِ اليأسِ عن المُعسِرِ مِن ذَوي العِيَالِ، ومعناهُ: عسى أنْ يجعَلَ اللهُ بعدَ عُسْرِكم يُسْرًا لكم؛ فإنَّ اللهَ يجعَلُ بعدَ عُسرٍ يُسرًا، وهذا الخبرُ لا يَقْتَضي إلَّا أنَّ مِن تصرُّفاتِ اللهِ أنْ يجعَلَ بَعْدَ عُسرِ قومٍ يُسرًا لهم، فمَن كان في عُسرٍ رجَا أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٨٢، ٤٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٥).

يكونَ ممَّن يَشملُه فضلُ اللهِ، فيُبدِّلُ عُسرَه باليُسرِ[١].

- والإتيانُ بكلمتَيْ ﴿عُسْرٍ﴾ و﴿يُسْرًا﴾ نكرتَيْنِ غيرَ مُعرَّفتَيْنِ باللَّامِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ مِنَ التَّعريفِ معنى الاستِغراقِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٣٣).

الآيات (٨-١٢)

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَكَأَيِّن ﴾: بمعنى كَمْ، ويُرادُ بها التَّكثيرُ، وهي لَفْظةٌ مرَكَّبةٌ مِن كافِ التَّشبيهِ، و(أيٍّ)، والنُّونُ هي التَّنوينُ، أُثْبِتتْ في الخطِّ على غيرِ القياسِ[(١)].

﴿عَتَتْ ﴾: أي: تكَبَّرَت، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على الاستِكبارِ[(٢)].

﴿نُّكْرًا ﴾: أي: مُنكَرًا فَظيعًا، وأصْلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ الَّتي يَسكُنُ إليها القَلبُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٩)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٦، ١١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾: أي: جزاءَ ذَنْبِها، وعاقِبةَ ما عمِلتْ، أو ثقلَ عاقبةِ أمرِها، والوَبالُ: الوخامةُ، وسوءُ العاقبةِ، وأصلُ (وبل): يدُلُّ على شِدَّةٍ في شيءٍ، وتجمُّعٍ[١].

﴿عَقِبَةً﴾: عاقبةُ كلِّ شيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطْلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ -كما هنا-، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شيءٍ، وإتيانُه بعدَ غيرِه[٢].

﴿خُسْرًا﴾: أي: هَلاكًا وخُسْرانًا، وأصلُ (خسر): يدُلُّ على النَّقصِ[٣].

﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي: العُقولِ، وأصْلُ (لبب) هنا: يدُلُّ على الخُلُوصِ والجَودةِ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾

قَولُه: ﴿رَّسُولًا﴾ في نَصبِه أوجُهٌ مِنَ الإعرابِ:

أحَدُها: أنَّه بَدَلٌ مِن ﴿ذِكْرًا﴾ بدَلَ اشتِمالٍ؛ لأنَّ بيْنَ القُرآنِ والرَّسولِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُلازَمةً ومُلابَسةً؛ فإنَّ الرِّسالةَ تحَقَّقَت له عندَ نُزولِ القُرآنِ عليه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

الثَّاني: أنَّه بدَلُ كُلٍّ مِن كُلٍّ؛ جُعِلَ الرَّسولُ نَفْسَ الذِّكرِ مُبالَغةً فأُبدِلَ منه، أو يكونُ التَّقديرُ: ذِكرًا شَرَفَ رَسولٍ، أو ذِكرًا ذِكْرَ رَسولٍ، ويكونُ المرادُ بالذِّكرِ الشَّرفَ، وقد أقام المُضافَ إليه مُقامَ المُضافِ.

الثالِثُ: أنَّه مَفعولٌ به لفِعلٍ محذوفٍ، أي: أرسَلَ أو بَعَث رَسولًا، ودلَّ عليه ما تقدَّمَ مِن الكَلامِ.

الرَّابِعُ: أنَّه مَنصوبٌ على الإغراءِ، أي: اتَّبِعوا أو الْزَموا رَسولًا.

الخامِسُ: أنَّه مَفعولٌ به مَنصوبٌ بالمَصدَرِ ﴿ذِكْرًا﴾ في الآيةِ السَّابِقةِ. وقيلَ غَيرُ ذلك[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى متوعِّدًا مَنْ خالَفَ أمْرَه، وكذَّب رُسلَه، ومخبِرًا عمَّا حلَّ بالأُممِ السَّالفةِ بسببِ ذلك: وكَثيرٌ مِن القُرى الَّتي طغى أهلُها وتَكَبَّروا عن أمْرِ اللهِ ورُسُلِه، فحاسَبَهم اللهُ حِسابًا شَديدًا، وعذَّبَهم عَذابًا عَظيمًا مُنكَرًا، فذاقوا بذلك العَذابِ العاقِبةَ الوَخيمةَ، وكان آخِرُ أمْرِهم خُسْرانًا.

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى ما أعدَّه لهم في الآخرةِ مِن عذابٍ، فيقولُ: هَيَّأَ اللهُ تعالى لهم عَذابًا شَديدًا في الآخِرةِ، فخافُوا اللهَ واحذَروا سَخَطَه وعَذابَه، يا أصحابَ العُقولِ، الَّذين آمَنوا.

ثمَّ يُذكِّرُ المؤمنينَ بكتابِه الَّذي أنزَله عليهم، ورسولِه الَّذي أرسَله إليهم، فيقولُ: قد أنزَلَ اللهُ إليكم -أيُّها المؤمِنونَ- القُرآنَ العَظيمَ، وأرسَلَ رَسولَه

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).

مُحمَّدًا يتلو عليكم آياتِ القُرآنِ المُوضِّحاتِ للهُدى والحَقِّ؛ ليُخرِجَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ الصَّادقينَ، فيقولُ: ومَن يُؤمِنْ باللهِ ويَعمَلْ عَمَلًا صالِحًا يُدخِلْه اللهُ جنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ، ماكِثينَ فيها أبَدًا، قد وسَّع الله لِمَنْ آمَنَ به وعمِل صالحًا في الجنَّةِ رِزقَه مِن المَطاعِمِ والمَشارِبِ، وسائرِ ما أعدَّه لأوليائِه فيها.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى ما يدُلُّ على كمالِ قدرتِه، وسَعةِ عِلمِه، فيقولُ: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي خَلَق سَبْعَ سَمواتٍ، وخَلَق مِنَ الأرضِ مِثلَ عدَدِ السَّمَواتِ؛ سَبْعَ أَرَضينَ، يَتَنزَّلُ أمْرُ اللهِ لخَلْقِه بيْن السَّمَواتِ والأرَضينَ؛ لِيَعلَمَ العِبادُ كَمالَ قُدرةِ اللهِ تعالى، وكَمالَ عِلْمِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الأحكامَ والمواعِظَ، والتَّرغيبَ لِمن أطاع؛ حذَّر مَن خالَفَ، فقال تعالى[1]:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾.

أي: وما أكثَرَ القُرى الَّتي طغى أهلُها، فتَجاوَزوا أمْرَ اللهِ ورُسُلِه، وخالَفوا شَرْعَه، وتعَدَّوا حُدودَه، وبالَغوا في مَعصيتِه؛ فحاسَبَهم اللهُ حِسابًا أحصى عليهم فيه جميعَ ذُنوبِهم، فلم يَعْفُ لهم عن شَيءٍ منها[2]!

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣١٩). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٤، ١٦٥).
(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧١، ٧٢)، =

كما قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٧].

= ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٤-١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٣، ٣٣٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالحِسابِ الشَّديدِ: الَّذي ليس فيه عَفوٌ ولا تجاوُزٌ عن الذُّنوبِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، وابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٧).

وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٢).

وقيل: المرادُ بالحِسابِ: العذابُ في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٤).

قال أبو حيَّان: (والظَّاهرُ في ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ الجُمَلُ الأربعةُ، أنَّ ذلك في الدُّنيا؛ لقولِه بعدَها: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وظاهرُه أنَّ المُعَدَّ عذابُ الآخرةِ، والحسابُ الشَّديدُ هو الاستِقصاءُ والمُناقَشةُ، فلم تُغتفَرْ لهم زَلَّةٌ، بل أُخِذوا بالدَّقائقِ مِن الذُّنوبِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٣).

وقيل: المرادُ بالحِسابِ: الاستِقصاءُ والمناقَشةُ في الآخِرةِ. وممَّن قال بهذا: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٥، ١٦٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ قال بعضُ المتأوِّلينَ: الآيةُ في الآخِرةِ، أي: ثَمَّ هو الحِسابُ والتَّعذيبُ والذَّوقُ وخَسارُ العاقِبةِ. وقال آخَرونَ: ذلك في الدُّنيا، ومعنى: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾، أي: لم نَغتفِرْ لها زَلَّةً، بل أُخِذَت بالدَّقائِقِ مِنَ الذُّنوبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٧).

وقال البِقاعي: (﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ أي: فتسَبَّبَ عن عَدَمِ شُكرِهم للإحسانِ أنْ أحصَيْنا أعمالَها. ولَمَّا كان ذلك على وَجهِ المُناقَشةِ على النَّقيرِ والقِطْميرِ بالمُجازاةِ على كُلِّ فِعلٍ بما يَليقُ به، قال: ﴿حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بمعناه المُطابقيِّ مِن ذِكرِ الأعمالِ كُلِّها، والمجازاةِ عليها، وهذا هو المناقَشةُ، وهي أنَّ العامِلَ إذا أثَّرَ أثرًا بعَمَلِه هو كالنَّقشِ في الجامِدِ أثَّرَ المجازي له فيه أثَرًا بحَسَبِ عَمَلِه على سَبيلِ الاستِقصاءِ، وأمَّا الحِسابُ اليسيرُ فهو عَرْضُ الأعمالِ فقط من غيرِ جَزاءٍ على قَبيحِها، فهو دَلالةُ تَضَمُّنٍ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٦٥، ١٦٦).

وقال سبحانه: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٨، ٥٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٣].

﴿ وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾.

أي: وعذَّبْناهم عَذابًا عَظيمًا فَظيعًا مُنكَرًا[(١)].

قال تعالى حكايةً عن ذي القَرنَين: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٧].

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾.

أي: فذاقوا بذلك العَذابِ العاقِبةَ الوَخيمةَ؛ لِعُتُوِّهم عن أمرِ اللهِ ورُسُلِه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٤، ٣٣٥).
قيل: المرادُ: عذابُ الآخِرةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣).
وقيل: المرادُ: الإهلاكُ في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥).

﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرٗا﴾.

أي: وكان آخِرُ أمْرِهم الخَسارةَ في الدُّنيا والآخِرةِ[١].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠﴾.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾.

أي: هَيَّأَ اللهُ تعالى لهم عَذابًا شَديدًا في الآخِرةِ[٢].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ ما حَلَّ بهذِه القريةِ العاتيةِ؛ أمَرَ المُؤمِنينَ بتَقْوى اللهِ تَحذيرًا مِن عِقابِه، ونبَّهَ على ما يحُضُّ على التَّقوى، وهو إنزالُ الذِّكْرِ؛ فقال[٣]:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: فخافُوا اللهَ واحذَروا سَخَطَه وعَذابَه، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه -يا أصحابَ العُقولِ الصَّافيةِ والأفهامِ المُستَقيمةِ، الَّذين آمَنوا باللهِ ورُسُلِه-، ولا تكونُوا مِثلَ كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ؛ فيُهلِكَكم اللهُ كما أهلَكَهم[٤].

﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

أي: قد أنزَلَ اللهُ إليكم -أيُّها المؤمِنونَ- القُرآنَ الَّذي يُذَكِّرُكم اللهُ به، ويُنَبِّهُكم على الإيمانِ باللهِ، والقيامِ بطاعتِه[١].

﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾.

أي: أرسَلَ اللهُ رَسولَه مُحمَّدًا يَتلو عليكم -أيُّها المؤمِنونَ- آياتِ القُرآنِ المُوضِّحاتِ للهُدى والحَقِّ على نحوٍ لا لَبْسَ فيه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٥، ٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).
وممَّن قال بأنَّ الذِّكرَ هنا بمعنى التَّذكيرِ: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).
وقال البِقاعي: (﴿ ذِكْرًا ﴾ أي: كاملًا، مذكورًا فيه غايةُ الشَّرفِ لكلِّ مَن يَقْبَلُه، بل تشرَّفت الأرضُ كلُّها بنُزولِه، ورُفع عنها العذابُ، وعمَّها النُّورُ والصَّوابُ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣، ١٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).
قال ابن جُزَي: (الذِّكرُ هنا هو القرآنُ، والرَّسولُ هو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإعرابُ ﴿ رَّسُولًا ﴾ مفعولٌ بفِعلٍ مُضمَرٍ تقديرُه: أرسَل رسولًا. وهذا الَّذي اختاره ابنُ عطيَّةَ، وهو أظهَرُ الأقوالِ. وقيل: إنَّ الذِّكْرَ والرَّسولَ معًا يُرادُ بهما القرآنُ، والرَّسولُ على هذا بمعنى الرِّسالةِ. وقيل: إنَّهما يُرادُ بهما القرآنُ على حذفِ مُضافٍ، تقديرُه: ذِكْرًا ذا رسولٍ. وقيل: ﴿ رَّسُولًا ﴾ مفعولٌ بالمصدرِ الَّذي هو الذِّكْرُ. وقال الزمخشريُّ: الرَّسولُ هو جبريلُ، بدَلٌ مِن الذِّكْرِ؛ لأنَّه نزَل به، أو سُمِّيَ ذِكْرًا لكثرةِ ذِكْرِه لله. وهذا كلُّه بعيدٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٧). ويُنظر أيضًا ما تقدَّم في مُشكِلِ الإعرابِ (ص: ٩٥).

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

أي: ليُخرِجَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا بطاعةِ اللهِ مِن ظُلُماتِ الكُفرِ والجَهلِ والمعصيةِ إلى نورِ الإيمانِ والعِلمِ والطَّاعةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: ومَن يُؤمِنْ باللهِ ويَعمَلْ عَمَلًا صالِحًا بإخلاصٍ لله تعالى ووَفْقًا لشَرعِه، فإنَّ اللهَ يُدخِلُه في الآخِرةِ جَنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ أشجارِها، وقُصورِها(٢).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

قال البِقاعي: (ذلك بأنْ يُصيِّرَهم مُتخَلِّقينَ بالقُرآنِ؛ لِيَكونوا مَظهَرًا له في حَرَكاتِهم وسَكَناتِهم، وأقوالِهم وأفعالِهم). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩١).

أي: ماكِثينَ في تلك الجنَّاتِ أبَدًا، فلا يموتونَ فيها، ولا يُخرَجونَ منها[١].

﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾.

أي: قد وسَّع الله لِمَنْ آمَنَ به وعمِل صالحًا في الجنَّةِ رِزقَه مِن المَطاعِمِ والمَشارِبِ، وسائرِ ما أعدَّه لأوليائِه فيها، وطيَّبه لهم[٢].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي أوجَدَ مِنَ العَدَمِ بقُدْرتِه التَّامَّةِ سَبْعَ سَمواتٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

أي: وخَلَق اللهُ مِنَ الأرضِ مِثلَ عَدَدِ السَّمَواتِ، فجَعَلَهنَّ سَبْعَ أَرَضينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٦). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يأخُذُ أحَدٌ شِبرًا مِن الأرضِ بغَيرِ حَقِّه إلَّا طَوَّقَه اللهُ إلى سَبْعِ أرَضِينَ يومَ القيامةِ))[(١)].

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾.

أي: يتنزَّلُ أمرُ اللهِ بيْن السَّمَواتِ والأَرَضِينَ[(٢)].

= قال ابنُ عطية: (لا خلافَ بينَ العلماءِ أنَّ السَّمواتِ سبعٌ...، وأمَّا الأرضُ فالجمهورُ على أنَّها سبعُ أرَضينَ، وهو ظاهرُ هذه الآيةِ، وأنَّ المماثلةَ إنَّما هي في العددِ، ويُستدلُّ بقولِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: «مَن غصَب شبرًا مِن أرضٍ طُوِّقه مِن سبعِ أرَضينَ»، إلى غير هذا ممَّا ورَدت به روايات، ورُوي عن قومٍ مِن العلماءِ أنَّهم قالوا: الأرضُ واحدةٌ، وهي مماثِلةٌ لكلِّ سماءٍ بانفرادِها في ارتفاعِ جرمِها، وفي أنَّ فيها عالَمًا يَعبُدُ كما في كلِّ سماءٍ عالَمٌ يَعبُدُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٧).

قيل: هي سَبعُ أَرَضِينَ طِباقٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، وممن اختاره: القرطبيُّ -ونسَبَه للجُمهورِ-، وابنُ كثير، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٤، ١٧٥)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٥).

قال ابنُ كثير: (واختَلَفوا هل هنَّ مُتراكِماتٌ بلا تفاصُلٍ، أو بيْن كُلِّ واحدةٍ والَّتي تليها خَلاءٌ؟ على قولَينِ. وهذا الخِلافُ جارٍ في الأفلاكِ أيضًا، والظَّاهِرُ أنَّ بيْن كُلِّ واحدةٍ مِنهنَّ وبيْن الأخرى مسافةً). ((البداية والنهاية)) (١/ ٣٩). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧٢).

وقيل: هي سَبعُ أرَضِينَ مُطبَقةٌ بَعضُها على بَعضٍ مِن غَيرِ فُتوقٍ، بخِلافِ السَّمواتِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٥). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٦).

(١) رواه مسلم (١٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤١).

ممَّن قال في الجملةِ: إنَّ المعنى: يَتنزَّلُ أمرُ الله بيْنَ السَّماءِ السَّابعةِ والأرضِ السَّابعةِ. أو: مِن السَّماءِ العُلْيا إلى الأرضِ السُّفْلى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والبَغَويُّ، والخازنُ. يُنظر: =

﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾.

أي: إنَّ الغايةَ المقصودةَ مِن الخَلقِ والأمرِ هي أن يَعلَمَ العِبادُ كَمالَ قُدرةِ اللهِ تعالى، وكَمالَ عِلْمِه؛ فهو بالِغُ القُدرةِ على فِعْلِ كُلِّ شَيءٍ، مُحيطٌ عِلمًا بكُلِّ شَيءٍ؛ فيَعبُدوه العِبادةَ الجامِعةَ لخَشيتِه ورَجائِه، والذُّلِّ والإخلاصِ له، وتَعظيمِه ومحَبَّتِه(١).

= ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣١٠).

قال ابن جزي: (﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يحتملُ أن يريدَ بالأمرِ الوحيُ، أو أحكامُ الله وتقديرُه لخلقِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٨).

ممَّن اختار أنَّه الوحيُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثَّعْلَبي، والبَغَوي، والعُلَيمي، والشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٥).

قال القصَّاب: (والأمرُ في هذا الموضِعِ -واللهُ أعلَمُ- إخبارٌ عن كلامِه جلَّ وعلا في كلِّ ما يُنزِلُه ممَّا يَتعبَّدُهم به مِن أمرٍ ونهْيٍ). ((النكت الدالة على البيان)) (٤/ ٣٥١).

ونسَبَ الماوَرْديُّ وابنُ الجَوزيِّ والقُرطبيُّ إلى الأكثَرينَ القولَ بأنَّ الأمرَ قضاءُ الله وقَدَرُه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٦).

قال أبو السُّعود والألوسيُّ: يَجْري أمْرُه وقضاؤُه بيْنَهنَّ، ويَنفُذُ ملكُه فيهنَّ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٨٣).

وقال السعدي: (أُنزِلَ الأمرُ، وهو الشَّرائِعُ والأحكامُ الدِّينيَّةُ الَّتي أوحاها إلى رُسُلِه؛ لتذكيرِ العِبادِ ووَعظِهم، وكذلك الأوامِرُ الكَونيَّةُ والقَدَريَّةُ الَّتي يُدَبِّرُ بها الخَلقُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((الجواب =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ بيانٌ لأصحابِ الرِّئاسةِ ورِجالِ السِّياسةِ: أنَّ هَلاكَ الدُّنيا بفَسادِ الدِّينِ، وأنَّ أمْنَ القُرى وطُمأنينةَ العالَمِ بالحِفاظِ على الدِّينِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في نِداءِ المُؤمِنينَ بوصْفِ (أُولِي الْأَلْبَابِ) إيماءٌ إلى أنَّ العقولَ الرَّاجحةَ تَدْعو إلى تَقْوى اللهِ؛ لأنَّها كَمالٌ نَفْسانيٌّ، ولأنَّ فَوائِدَها حَقيقيَّةٌ دائمةٌ، ولأنَّ بها اجتِنابَ المَضارِّ في الدُّنيا والآخِرةِ، وهذا الاتِّباعُ يُومِئُ إلى أنَّ قَبولَهمُ الإيمانَ عُنوانٌ على رَجاحةِ عُقولِهم(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ فممَّا أرادَه اللهُ مِن خَلْقِه السَّمواتِ والأرضَ أنْ يَعْلَمَ النَّاسُ قُدرةَ اللهِ على كلِّ شيءٍ، وإحاطةَ عِلْمِه بكلِّ شيءٍ؛ لأنَّ خَلْقَ تلكَ المخلوقاتِ العظيمةِ، وتَسخيرَها، وتَدبيرَ نِظامِها في طُولِ الدَّهرِ؛ يدُلُّ أفكارَ المتأمِّلينَ على أنَّ مُبدِعَها يَقدِرُ على أمثالِها، فيَستَدِلُّوا بذلك على أنَّه قديرٌ على كلِّ شيءٍ؛ لأنَّ دَلالتَها على إبداعِ ما

= الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٤٢٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٨)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧٦-١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤١، ٣٤٢).

قال الطوفي: (هذا تعليلٌ لخلقِ السَّمواتِ والأرضِ بعِلمِ المكلَّفينَ كمالَ قُدرةِ الله عزَّ وجلَّ وعِلمِه، أي: خلق ذلك لِتَعلَموا، فإن يكُنِ الأمرُ كذلك فتَحْتَه سرٌّ عجيبٌ، وإلَّا فاللَّامُ للعاقِبةِ، أو للأمرِ، أي: اعلَموا ذلك، أو خلقهُنَّ لِتَكونَ عاقبتُكم العِلمَ بكمالِ القُدرةِ بواسطةِ النَّظرِ، والأشْبَهُ الأوَّلُ). ((الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية)) (ص: ٦٤٥).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٦).

هو دونَها ظاهِرةٌ، ودَلالتَها على ما هو أعظمُ منها وإنْ كانت غيرَ مُشاهَدةٍ؛ فقياسُ الغائِبِ على الشَّاهِدِ يدُلُّ على أنَّ خالِقَ أمثالِها قادِرٌ على ما هو أعظَمُ، وأيضًا فإنَّ تدبيرَ تلكَ المخلوقاتِ بمِثْلِ ذلكَ الإتقانِ المُشاهَدِ في نظامِها، دليلٌ على سَعةِ عِلْمِ مُبدِعِها، وإحاطتِه بدقائقِ ما هو دونَها، وأنَّ مَن كان عِلْمُه بتلكَ المثابةِ لا يُظَنُّ بعِلْمِه إلَّا الإحاطةُ بجميعِ الأشياءِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ فيه تَذكيرٌ للمُسلِمينَ بوعْدِ اللهِ بنَصرِهم، ومَحْقِ عدُوِّهم[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه سؤالٌ: الإيمانُ هو التَّقوى في الحقيقةِ، وأُولو الألبابِ الَّذين آمَنوا كانوا مِن المتَّقينَ بالضَّرورةِ، فكيف يُقالُ لهم: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؟

الجوابُ: للتَّقوى دَرَجاتٌ ومَراتِبُ؛ فالدَّرَجةُ الأُولى هي التَّقوى مِنَ الشِّركِ، والبَواقي هي التَّقوى مِنَ المعاصي الَّتي هي غيرُ الشِّركِ، فأهلُ الإيمانِ إذا أُمِروا بالتَّقوى كان ذلك الأمرُ بالنِّسبةِ إلى الكبائِرِ والصَّغائِرِ، لا بالنِّسبةِ إلى الشِّركِ[٣]. وكذلك التَّقوى بفِعلِ الطَّاعاتِ، مِن الواجباتِ والمُستحبَّاتِ، وقد يكونُ المرادُ طلبَ المداومةِ.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ حُجَّةٌ في أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى بنَفْسِه في السَّماءِ[٤]، ففيه دَلالةٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى؛ مِن جهةِ ذِكْرِ نزولِ الأشياءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤١، ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٥٠).

مِن عِندِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا * رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ معلومٌ أنَّ الرَّسولَ نفْسَه لم يُنْزَلْ، بل أُبدِلَ الرَّسولُ مِن الذِّكْرِ؛ لأنَّ الرَّسولَ جاء بالذِّكْرِ، ولَمَّا كان الرَّسولُ المَلَكيُّ والرَّسولُ البَشَريُّ والذِّكْرُ المُنْزَلُ أُمورًا متلازِمةً يَلْزمُ مِن ثُبوتِ واحدٍ ثُبوتُ الآخَرَينِ، ومِن الإيمانِ بواحدٍ الإيمانُ بالآخَرَينِ؛ فيَلْزَمُ مِن كَونِ القرآنِ حقًّا كونُ جبريلَ ومحمَّدٍ حقًّا، وكذلك يَلْزَمُ مِن كونِ محمَّدٍ حقًّا كونُ جبريلَ والقُرآنِ حقًّا، ويَلْزَمُ مِن كونِ جبريلَ حقًّا كونُ القرآنِ ومحمَّدٍ حقًّا؛ ولهذا جَمَعَ اللهُ بيْنَ الإيمانِ بالملائكةِ والكُتُبِ والرُّسُلِ في مِثلِ قولِه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[٢] [البقرة: ٢٨٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فيه سؤالٌ: كُلُّ مَنْ آمَنَ باللهِ فقد خَرَج مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وإذا كان كذلك فحَقُّ هذا الكلامِ -وهو قَولُه تعالى: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾- أن يُقالَ: (لِيُخْرِجَ الَّذينَ كَفَروا)؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: يمكِنُ أن يكونَ المرادُ: لِيُخرِجَ الَّذين يُؤمِنونَ، على ما جاز أن يُرادَ مِن الماضي المُستَقبَلُ، كما في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ﴾ [آل عمران: ٥٥]، أي: وإذ يقولُ اللهُ.

الوَجهُ الثَّاني: يُمكِنُ أن يكونَ المرادُ: لِيُخرِجَ الَّذين آمَنوا مِن ظُلُماتٍ تَحدُثُ

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٣١٣).

لهم بعْدَ إيمانِهم[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ فيه سُؤالٌ: أفردَ الضَّميرَ في هذه الآيةِ في قَولِه: ﴿يُؤْمِنۢ﴾، وقَولِه: (يَعْمَلْ)، وقَولِه: ﴿يُدْخِلْهُ﴾، وقَولِه: ﴿لَهُۥ﴾، وجمعَ في قَولِه: ﴿خَٰلِدِينَ﴾.

والجوابُ: أنَّ الإفرادَ باعتبارِ لَفظِ: (مَن)، والجَمْعَ باعتبارِ مَعناها، وهو كثيرٌ في القُرآنِ العَظيمِ. وفي هذه الآيةِ الكريمةِ رَدٌّ على مَن زَعَم أنَّ مُراعاةَ المعنى لا تجوزُ بَعْدَها مُراعاةُ اللَّفظِ؛ لأنَّه في هذه الآيةِ راعى المعنى في قَولِه: ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ثمَّ راعى اللَّفظَ في قَولِه: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾[٢]. فاللُّغةُ العَربيَّةُ يجوزُ فيها أنْ يَتعدَّدَ مَرجِعُ الضَّميرِ؛ فمَرَّةً يعودُ بالإفرادِ، ومَرَّةً يعودُ بالجَمعِ، بشَرطِ أنْ يكونَ مَرْجِعُ الضَّميرِ صالِحًا للإفرادِ والجَمعِ؛ ففي الآيةِ هنا عاد الضَّميرُ أوَّلًا باعتِبارِ اللَّفظِ، ثُمَّ باعتبارِ المعنى، ثُمَّ باعتبارِ اللَّفظِ[٣].

٧- الجَنَّةُ والنَّارُ موجودتانِ الآنَ؛ ولن تَفْنَيا أبَدَ الآبِدِينَ؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾[٤] [الأحزاب: ٦٤ - ٦٦].

٨- إنْ قلتَ: لِمَ جمَعوا السَّماءَ، فقالوا: (سمواتٍ)، وهلَّا راعَوْا فيها ما راعَوْا في الأرضِ، فإنَّها مقابلةٌ، فما الفرقُ بيْنَهما؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢١).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٥٣).

والجوابُ: بيْنَهما فرقانِ: فرقٌ لفظيٌّ، وفرقٌ معنويٌّ؛ أمَّا اللَّفظيُّ فإنَّهم لو جمَعوا أرضًا على قياسِ جموعِ التَّكسيرِ لقالوا: آرُضٌ كأفلُسٍ، أو: آراضٌ كأجمالٍ، أو: أُرُوضٌ كفُلوسٍ، فاستَثقَلوا هذا اللَّفظَ؛ إذ ليس فيه مِن الفصاحةِ والحُسنِ والعُذُوبةِ ما في لفظِ السَّمواتِ، وأنت تجدُ السَّمعَ يَنبو عنه بقَدرِ ما يُستحسَنُ لفظُ السَّمواتِ، ولفظُ السَّمواتِ يَلِجُ في السَّمعِ بغيرِ استئذانٍ؛ لنصاعتِه وعذوبتِه، ولفظُ الأراضي لا يأذنُ له السَّمعُ إلَّا على كُرهٍ، ولهذا تفادَوْا مِن جمعِه إذا أرادوه بثلاثةِ ألفاظٍ تدُلُّ على التَّعدُّدِ، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، كلُّ هذا تفاديًا مِن أن يُقالَ: أراض وآرُض.

وأمَّا الفرقُ المعنويُّ فإنَّ الكلامَ متى اعتمد به على السَّماءِ المحسوسةِ الَّتي هي السَّقفُ، وقُصِد به إلى ذاتِها دونَ معنى الوصفِ صحَّ جمعُها جمعَ السَّلامةِ؛ لأنَّ العددَ قليلٌ، وجمْعَ السَّلامةِ بالقليلِ أَولى؛ لقُربِه مِن التَّثنيةِ القريبةِ مِن الواحدِ، ومتى اعتَمد الكلامُ على الوصفِ ومعنى العُلا والرِّفعةِ جرَى اللَّفظُ مجرَى المصدرِ الموصوفِ به في قولِك: قَومٌ عَدْلٌ وزَورٌ، وأمَّا الأرضُ فأكثرُ ما تجيءُ مقصودًا بها معنَى التَّحتِ والسُّفلِ دونَ أن يُقصَدَ ذواتُها وأعدادُها، وحيثُ جاءت مقصودًا بها الذَّاتُ والعددُ أُتيَ بلفظٍ يدُلُّ على العددِ، كقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾. وفرقٌ ثانٍ وهو أنَّ الأرضَ لها نسبةٌ لا إلى السَّمواتِ وسَعتِها، بل هي بالنِّسبةِ إليها كحَصاةٍ في صَحْراءَ، فهي وإنْ تعدَّدتْ فهي بالنِّسبةِ إلى السَّماءِ كالواحدِ القليلِ؛ فاختير لها اسمُ الجنسِ[1]. وقيل: في إفرادِ لَفظِ (الأرضِ) دونَ أنْ يُؤْتَى به جمعًا كما أُتِيَ بلَفظِ السَّمواتِ؛ إيذانٌ بالاختلافِ بيْنَ حالَيْهِما[2].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٤، ١١٥). ويُنظر أيضًا: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ١٢١، ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٠). =

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ليس في القُرآنِ آيةٌ تدُلُّ على عَدَدِ الأرَضينَ بسَبعٍ مِثلِ عَدَدِ السَّمَواتِ سِوى هذه الآيةِ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الأرضَ سَبْعٌ؛ فإنَّ المِثْليَّةَ هنا بالكيفيَّةِ مُتعذِّرةٌ، وإذا تَعَذَّرَت المِثْليَّةُ في الكيفيَّةِ لَزِمَ أنْ تكونَ المِثْليَّةُ في العَدَدِ، كما نقولُ: «سبحانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِه، والحَمدُ للهِ مِثْلَ ذلك» يعني: عَدَدَ خلْقِه[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ أنَّ صفةَ الخَلْقِ تدُلُّ على صِفاتٍ أُخرى لازِماتٍ لذلك، وهي: العِلمُ والقُدرةُ[٣]، فلا يمكنُ أن يكونَ خالقًا إلَّا أن يكونَ عالمًا قادرًا؛ لأنَّه لا يَخلُقُ مَن لا يَقدِرُ، ولا يَخلُقُ مَن لا يَعلَمُ، فلا بُدَّ أن يكونَ عالمًا قادرًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾؛ فذكَرَ العِلمَ والقُدرةَ بعْدَ أنْ ذكَرَ أنَّه خلَقَ، ولا يُمكِنُ أن يكونَ هناك خلْقٌ إلَّا أن يَعلَمَ كيف يَخلُقُ، ويَقدِرُ على ذلك[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ دَليلٌ على أنَّه سُبحانَه في السَّماءِ بنَفْسِه، وأنَّ الأمرَ يَنزِلُ منه إلى الأرَضينَ؛ فلولا ذلك ما كان لِلَفْظِ «التَّنزيلِ» مَعنًى[٥]!

= ويُنظر ما تقدَّم (٣٨/ ٢٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٥٢).

١٣- قولُه تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ فيه تَنويهٌ بالقُرآنِ؛ لأنَّه مِن جُملةِ الأمرِ الَّذي يَتنزَّلُ بيْن السَّماءِ والأرضِ(١).

١٤- العِلمُ باللهِ وأسمائِه وصِفاتِه هو أشرَفُ العُلومِ على الإطلاقِ، وهو مَطلوبٌ لِنَفسِه، مُرادٌ لذاتِه؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾؛ فقد أخبرَ سُبحانَه أنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ، ونزَّل الأمرَ بيْنَهنَّ؛ لِيَعلَمَ عِبادُه أنَّه بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ، وعلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، فهذا العِلمُ هو غايةُ الخَلقِ المَطلوبةُ(٢).

١٥- اللهُ تعالى خَلَق الخَلْقَ وأوجَدَهم لعِبادتِه الجامعةِ لخَشيتِه ورَجائِه ومحَبَّتِه، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وإنَّما يُعبَدُ اللهُ سُبحانَه بعْدَ العِلْمِ به ومَعرفتِه، فبذلك خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ وما فيهما؛ للاستِدلالِ بهما على توحيدِه وعَظَمتِه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾(٣).

١٦- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فأخبرَ عن قُدرتِه التَّامَّةِ؛ وسُلطانِه العظيمِ؛ لِيَكونَ ذلك باعثًا على تعظيمِ ما شرَعَ مِن الدِّينِ القَويمِ، كقولِه تعالى إخبارًا عن نوحٍ عليه السَّلامُ أنَّه قال لقَومِه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾(٤) [نوح: ١٥].

١٧- كثيرًا ما يَقرنُ اللهُ تعالى بيْن الخَلقِ والأمرِ، كما في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٦).

سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾، وكما في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ وذلك أنَّه الخالقُ الآمِرُ النَّاهي، فكما أنَّه لا خالقَ سِواه، فليس على الخَلقِ إلزامٌ ولا أمرٌ ولا نهْيٌ إلَّا مِن خالِقِهم، وأيضًا فإنَّ خَلْقَه للخَلقِ فيه التَّدبيرُ القَدَريُّ الكَونيُّ، وأمْرَه فيه التَّدبيرُ الشَّرعيُّ الدِّينيُّ، فكما أنَّ الخلقَ لا يَخرُجُ عن الحِكمةِ، فلم يَخلُقْ شيئًا عبَثًا؛ فكذلك لا يأمُرُ ولا يَنهى إلَّا بما هو عدلٌ وحِكمةٌ وإحسانٌ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾

- لَمَّا شُرِعَتْ للمُسلِمينَ أحكامٌ كثيرةٌ مِنَ الطلاقِ ولَواحِقِه، وكانتْ كلُّها تَكاليفَ قدْ تُحجِمُ بعضُ الأنفُسِ عن إيفاءِ حقِّ الامتثالِ لها تَكاسُلًا أو تَقصيرًا؛ رغَّبَ في الامتثالِ لها بقولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢]، وقولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]، وقولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥]، وقولِه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧]، وحذَّرَ اللهُ النَّاسَ في خِلالِ ذلك مِن مُخالَفتِها بقولِه: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ [الطلاق: ١]، وقولِه: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [الطلاق: ٢]؛ أعْقَبها بتَحذيرٍ عَظيمٍ مِنَ الوُقوعِ في مُخالَفةِ أحكامِ اللهِ ورُسلِه؛ لأنَّ الصَّغيرَ يُثيرُ الجليلَ، فذكَّرَ المُسلِمينَ -وليسوا ممَّنْ يَعْتُوا على أمرِ ربِّهم- بما حلَّ بأقوامٍ مِن عِقابٍ عَظيمٍ على قِلَّةِ اكتراثِهم بأمْرِ اللهِ ورُسلِه؛ لئلَّا يَسلُكوا سَبيلَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

التَّهاوُنِ بإقامةِ الشَّريعةِ، فيُلْقي بهم ذلك في مَهْواةِ الضَّلالِ، وهذا الكلامُ مُقدِّمةٌ لِمَا يأتي مِن قولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ الآياتِ؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على مَجموعِ الجُمَلِ السَّابقةِ عطْفَ غرَضٍ على غرَضٍ[١].

- (كَأَيِّنْ) اسمٌ لعددٍ كثيرٍ مُبهَمٍ يُفسِّرُه ما يُميِّزُه بَعْدَه مِن اسمٍ مَجرورٍ بـ(مِنْ)، و(كَأَيِّنْ) بمعْنى (كم) الخبريَّةِ، والمقصودُ مِن إفادةِ التَّكثيرِ هنا تَحقيقُ أنَّ العذابَ الَّذي نالَ أهلَ تلكَ القُرى شَيءٌ مُلازِمٌ لجَزائِهم على عُتُوِّهم عن أمْرِ ربِّهم ورُسلِه، فلا يَتوهَّمُ مُتوهِّمٌ أنَّ ذلكَ مُصادَفةٌ في بَعضِ القُرى، وأنَّها غَيرُ مُطَّرِدةٍ في جَميعِهم، والمعنى: الإخبارُ بكَثرةِ ذلكَ باعتبارِ ما فُرِّعَ عليه مِن قولِه: ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا﴾؛ فالمُفرَّعُ هو المقصودُ مِنَ الخبرِ[٢].

- وإنَّما أُوثِرَ لفظُ (القريةِ) هنا دونَ الأُمَّةِ ونَحْوِها؛ لأنَّ في اجتِلابِ هذا اللَّفظِ تَعريضًا بالمُشرِكينَ مِن أهلِ مكَّةَ، ومُشايَعةً لهم بالنِّذارةِ؛ ولذلكَ كثُرَ في القرآنِ ذِكْرُ أهلِ القُرَى في التَّذكيرِ بعَذابِ اللهِ[٣].

- قولُه: ﴿عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا﴾ ضُمِّن معنى أعرَضَ، كأنَّه قيل: أعْرَضَتْ بسببِ عُتُوِّها[٤].

- والمُحاسَبةُ مُستعمَلةٌ في الجَزاءِ على الفِعلِ بما يُناسِبُ شِدَّتَه مِن شَديدِ العِقابِ؛ تَشبيهًا لتَقديرِ الجَزاءِ بإجراءِ الحِسابِ بيْن المُتعامِلينَ، قيل: هو الحِسابُ في الدُّنيا؛ ولذلكَ جاءَ ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا﴾ ﴿وَعَذَّبۡنَٰهَا﴾ بصِيغةِ الماضي،

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٣، ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٤). ويُنظر أيضًا: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٥٨).

والمعنى: فجازَيْناها على عُتُوِّها جزاءً يُكافِئُ طُغيانَها[١]. وقيل: الحِسابُ والعذابُ في قولِه: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ في الآخِرةِ، وأتَى بذلك على لَفظِ الماضي تَحقيقًا له وتَقريرًا؛ لأنَّ المُنتظَرَ مِن وَعْدِ اللهِ ووَعيدِه آتٍ لا مَحالةَ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾

- قولُه: ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ إضافةُ الوبالِ إلى الأمرِ مِن إضافةِ المُسبَّبِ إلى السَّببِ، أي: ذاقوا الوبالَ الَّذي تسبَّبَ لهم فيه أمرُهم وشأنُهمُ الَّذي كانوا عليهِ[٣].

- وجِيءَ بفِعلِ (كانِ) بصِيغةِ المُضِيِّ؛ لأنَّ الحديثَ عن عاقبتِها في الدُّنيا تَغليبًا[٤].

- وفيه تَفظيعٌ لِمَا لَحِقَهم؛ مُبالَغةً في التَّحذيرِ ممَّا وقَعوا فيهِ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾

- جُملةُ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بدَلُ اشتمالٍ مِن جُملةِ ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

خُسْرًا ﴾، أو بدَلُ بعضٍ مِن كُلٍّ، والمرادُ عذابُ الآخِرةِ؛ لأنَّ الإعدادَ التَّهيئةُ، وإنَّما يُهَيَّأُ الشَّيءُ الَّذي لم يَحصُلْ، وإنْ جعَلْتَ الحسابَ والعذابَ المذكورَيْنِ آنِفًا حِسابَ الآخِرةِ وعذابَها، فجُملةُ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ استِئنافٌ لبَيانِ أنَّ ذلكَ مُتزايدٌ غَيرُ مُخفَّفٍ مِنه؛ كقولِه: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾[1] [النبأ: ٣٠].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ تَكريرٌ للوعيدِ، وبيانٌ لكَونِه مُترقَّبًا، كأنَّه قال: أعَدَّ اللهُ لهم هذا العذابَ؛ فلْيَكُنْ لكم ذلكَ يا أُولِي الألْبابِ مِنَ المُؤمِنينَ لُطْفًا في تَقْوى اللهِ وحَذَرِ عقابِه[2].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ هي الفصيحةُ، أي: إنْ عرَفْتُم ذلكَ فاتَّقوا اللهَ، وهذا التَّفريعُ المقصودُ على التَّكاليفِ السَّابقةِ، وخاصَّةً على قولِه: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ [الطلاق: ١]، وهو نَتيجةُ ما مُهِّدَ له به مِن قولِه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾[3].

- والإتيانُ بصِلةِ المَوصولِ ﴿ءَامَنُواْ ﴾ إشعارٌ بأنَّ الإيمانَ سَببٌ للتَّقوى، وجامِعٌ لمُعظمِها، ولكنَّ للتَّقوى دَرجاتٍ هي التي أُمِروا بأنْ يُحيطوا بها[4].

- وفي هذه الجُملةِ ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ معْنى العِلَّةِ للأمرِ بالتَّقوى؛ لأنَّ إنزالَ الكِتابِ نَفْعٌ عظيمٌ لهم، مُستحِقٌّ شُكرَهُم عليه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥، ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٦، ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وتأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (قَدْ)؛ للاهتِمامِ به، وبَعْثِ النُّفوسِ على تَصفُّحِ هذا الكتابِ، ومُتابَعةِ إرشادِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- قولُه: : ﴿ذِكْرًا﴾ الذِّكْرُ هنا: هو القُرآنُ، وقد سُمِّيَ بالذِّكْرِ في آياتٍ كثيرةٍ؛ لأنَّه يَتضمَّنُ تَذكيرَ الناسِ بما هُمْ في غفْلةٍ عنه مِن دَلائلِ التوحيدِ وما يتفرَّعُ عنها مِن حُسْنِ السُّلوكِ، ثُمَّ تَذكيرَهم بما تَضمَّنَه مِنَ التَّكاليفِ. وقيل: قولُه: ﴿ذِكْرًا﴾ المرادُ به النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فعُبِّرَ عنه بالذِّكرِ؛ لمُواظَبتِه على تِلاوةِ القُرآنِ، أو تَبليغِه والتَّذكيرِ به، وعُبِّرَ عن إرسالِه بالإنزالِ؛ لأنَّه مُسبَّبٌ عن إنزالِ الوَحيِ إليه، وأُبدلَ منهُ ﴿رَّسُولًا﴾ للبيانِ. وقيل: ﴿ذِكْرًا﴾ المرادُ به جبريلُ سمِّي به لكثرةِ ذكرِه، أو لنزولِه بالذِّكرِ الذي هو القرآنُ، كما يُنبئُ عنه إبدالُ قولِه تعالَى ﴿رَّسُولًا﴾ منْهُ، أو لأنَّه مذكورٌ في السَّمواتِ وفي الأممِ. وقد يُفسَّرُ الذِّكرُ حينئذٍ بالشَّرفِ كأنَّ جبريلَ في نفسِه شرفٌ، إمَّا لأنَّه شرفٌ للمنزَلِ عليه، وإما لأنَّه ذو مجدٍ وشرفٍ عند الله، كقولِه تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[٢] [التكوير: ٢٠].

- وجُعِلَ إنزالُ الذِّكْرِ إلى المُؤمِنينَ؛ لأنَّهُمُ الَّذينَ انتفَعوا بهَ، وعمِلوا بما فيه، فخُصِّصوا هنا مِن بيْنِ جَميعِ الأُمَمِ؛ لأنَّ القُرآنَ أُنزِلَ إلى النَّاسِ كلِّهِم[٣].

- قولُه: ﴿رَّسُولًا﴾ مَفعولٌ لفِعلٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وتَقديرُه: وأرسَلَ إليكم رَسولًا، ويكونَ حذْفُه إيجازًا. وقيل: هو بدَلٌ مِن ﴿ذِكْرًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠، ٥٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).

بدَلَ اشتمالٍ؛ لأنَّ بَيْنَ القُرآنِ والرسولِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُلازَمةً ومُلابَسةً؛ فإنَّ الرِّسالةَ تحقَّقَتْ له عِندَ نُزولِ القرآنِ عليهِ، فقَدْ أُعْمِلَ فِعلُ ﴿أَنزَلَ﴾ في ﴿رَّسُولًا﴾ تبَعًا لإعمالِه في المُبدَلِ مِنه باعتبارِ هذِه المقارَنةِ، واشتمالِ مَفهومِ أحَدِ الاسمَيْنِ على مَفهومِ الآخَرِ[١].

- وفي قولِه: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ جُعِلَتْ عِلَّةُ إنزالِ الذِّكْرِ إخراجَ المُؤمِنينَ الصَّالِحينَ مِنَ الظلماتِ إلى النُّورِ، وإنْ كانتْ عِلَّةُ إنزالِه إخراجَ جَميعِ النَّاسِ مِن ظُلماتِ الكفْرِ وفَسادِ الأعمالِ إلى نُورِ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحاتِ؛ نظَرًا لخُصوصِ الفريقِ الَّذي انتفَعَ بهذا الذِّكْرِ اهتمامًا بشَأنِهم، وليس ذلك بِدالٍّ على أنَّ العِلَّةَ مَقصورةٌ على هذا الفريقِ، ولكنَّه مُجرَّدُ تَخصيصٍ بالذِّكْرِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ عُطِفَ على الأمرِ بالتَّقوى والتَّنويهِ بالمتَّقينَ والعِنايةِ بهم هذا الوعدُ على امتثالِهم بالنَّعيمِ الخالدِ بصِيغةِ الشَّرطِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلكَ نَعيمٌ مُقيَّدٌ حُصولُه لراغبيه بأنْ يُؤمِنوا ويَعمَلوا الصَّالحاتِ[٣].

- قولُه: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ عائدٌ إلى اسمِ الجَلالةِ مِن قولِه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، وعلى قِراءةِ ﴿نُدْخِلْهُ﴾[٤] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).
ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧، ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٣٨).

(٤) قرأ المَدَنيَّانِ نافعٌ وأبو جعفرٍ، وابنُ عامرٍ: بالنُّونِ، وقرأ الباقونَ بالياءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

- بنُونِ العظَمةِ- فيَكونُ فيه الْتفاتٌ[١].

- وجُملةُ ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ حالٌ مِنَ الضَّميرِ المنصوبِ في ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾؛ ولذلكَ فذِكرُ اسمِ الجَلالةِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بنفْسِها[٢].

- وتَنكيرُ ﴿رِزۡقًا﴾ فيه معْنى التَّعجُّبِ والتَّعظيمِ لِمَا رُزِقَ المؤمِنُ مِنَ الثَّوابِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ اسمُ الجَلالةِ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: هُوَ اللهُ، وهذا مِن حذْفِ المُسنَدِ إليه لمُتابَعةِ الاستِعمالِ[٤]؛ فإنَّه بعْدَ أنْ جَرَى ذِكْرُ شؤونٍ مِن عَظيمِ شُؤونِ اللهِ تعالَى ابتِداءً مِن قولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۚ﴾ [الطلاق: ١] إلى هُنا، فقَدْ تكرَّرَ اسمُ الجلالةِ وضميرُه والإسنادُ إليه زُهاءَ ثلاثينَ مرَّةً؛ فاقْتَضى المَقامُ عَقِبَ ذلكَ أنْ يُزادَ تَعريفُ النَّاسِ بهذا العَظيمِ، ولَمَّا صارَ البِساطُ مَليئًا بذِكْرِ اسمِه، صَحَّ حذْفُه عِندَ الإخبارِ عنه إيجازًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٨).

(٤) وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٩).

- والموصولُ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ صِفةٌ لاسمِ الجلالةِ، وقدْ ذُكِرَتْ هذِه الصِّلةُ لِمَا فيها مِنَ الدَّلالةِ على عَظيمِ قُدرتِه تعالَى، وعلى أنَّ النَّاسَ -وهُمْ مِن جُملةِ ما في الأرضِ- عَبيدُه؛ فعَليهم أنْ يتَّقُوه، ولا يَتعدَّوْا حُدودَه، ويُحاسِبوا أنفُسَهم على مَدى طاعتِهِمْ إيَّاه؛ فإنَّه لا تَخْفَى عليه خافيةٌ، وأنَّه قديرٌ على إيصالِ الخَيرِ إليهم إنْ أطاعوهُ، وعِقابِهم إنْ عَصَوْه[1].

- قولُه: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿خَلَقَ﴾ أو بـ﴿يَتَنَزَّلُ﴾، أو بمُضْمَرٍ يَعُمُّهما؛ فإنَّ كُلًّا مِنهما يدُلُّ على كَمالِ قُدرتِه وعِلْمِه، أي: فعَلَ ذلكَ لتعلَمُوا أنَّ مَن قَدَرَ على ما ذُكِرَ قادرٌ على كلِّ شيءٍ. ويجوزُ أن يكونَ العاملُ في اللَّامِ بيانَ ما ذُكِرَ مِنَ الخَلْقِ وتنزُّلِ الأمرِ، أي: أوْحَى ذلكَ وبيَّنَه لتعلَمُوا بما ذكرَ مِنَ الأمورِ الَّتي تُشاهِدونَها والَّتي تتَلقَّوْنَها مِنَ الوحيِ مِن عَجائبِ المصنوعاتِ أنَّه لا يَخرُجُ عن قُدرتِه وعِلْمِه شيءٌ ما أصلًا[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٥).

تَفْسيرُ

سُورَةِ التَّحريمِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ التَّحريمِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (التَّحريمِ)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ التَّحريمِ مَدَنيَّةٌ[٢]، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

بَيانُ مَعالِمَ وهداياتٍ تتعلَّقُ بالأُسرةِ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- حِكايةُ جانبٍ مِمَّا دار بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبَعضِ زَوجاتِه، وعتابُ اللهِ تعالى له، وعِتابُ الأزواجِ الطَّاهِراتِ، ودفاعُ اللهِ عن نبيِّه.

٢- توجيهُ النِّداءِ إلى المؤمِنينَ، وأمْرُهم بوقايةِ أنفُسِهم وأهليهم مِن جَهنَّمَ.

---

(١) سُمِّيَتِ السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بقَولِه تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٢).

(٣) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم)) (٨/ ٢٤٥).

٣- الأمرُ بالتَّوبةِ النَّصوحِ، وبَيانُ آثارِها الحَسَنةِ مِن تكفيرِ السَّيِّئاتِ، ودُخولِ الجنَّاتِ.

٤- الأمرُ بجِهادِ الكُفَّارِ والمُنافِقينَ.

٥- خُتِمت السُّورةُ بضَربِ مَثَلينِ؛ أحَدُهما للَّذين آمنوا، ويَتمَثَّلُ في امرأةِ فِرعَونَ وفي مَريمَ ابنةِ عِمْرانَ، والآخَرُ للَّذين كَفَروا، ويتمثَّلُ في امرأةِ نُوحٍ وامرأةِ لُوطٍ عليهما السَّلامُ.

الآيات (١-٥)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَرَضَ﴾: أي: بيَّن وشَرَع، وقيل: أوجَبَ، والفَرضُ: قَطعُ الشَّيءِ الصُّلبِ، والتَّأثيرُ فيه، والفَرضُ كالإيجابِ، لكِنَّ الإيجابَ يُقالُ اعتِبارًا بوُقوعِه وثباتِه، والفَرضَ بقَطعِ الحُكمِ فيه[1].

﴿تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾: أي: كفَّارتَها؛ لأنَّ عُقدةَ اليمينِ تنحَلُّ بها، أو لأنَّه يتَحَلَّلُ بها عن اليمينِ أي: يخرجُ، وأصلُ (حلل): يدُلُّ على فَتحِ الشَّيءِ، والأيْمانُ جمْعُ يمينٍ، وهو: القَسَمُ، وسُمِّيَ الحَلِفُ يَمينًا -وهو اسمُ اليَدِ-؛ لأنَّهم كانوا يَبْسُطونَ أيْمانَهم إذا حَلَفوا أو تحالَفوا، ثمَّ كثُر ذلك حتَّى سُمِّيَ الحلفُ والعهدُ نفْسُه يمينًا، وقِيل: يَمينٌ فَعيلٌ مِن اليُمنِ، وهو البَرَكةُ، سَمَّاها اللهُ تعالَى بذلك؛ لأنَّها

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٤٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠).

تحفَظُ الحُقوقَ[١].

﴿مَوْلَىٰكُمَا﴾: أي: ناصِرُكم، وأصلُ هذه المادَّةِ يدُلُّ على القُرْبِ؛ سواءٌ مِن حيثُ المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتِقادُ[٢].

﴿صَغَتْ﴾: أي: مالت عن الحَقِّ، وأصلُ (صغو): يدُلُّ على المَيلِ[٣].

﴿تَظَٰهَرَا﴾: أي: تَعاوَنَا، والظَّهيرُ: العَونُ، وأصلُ التَّظاهُرِ مِنَ الظَّهرِ، فكأنَّ التَّظاهُرَ: أن يَجعَلَ كُلُّ واحدٍ مِن الرَّجُلَينِ أو مِن القَومِ الآخَرَ له ظَهرًا يتقَوَّى به، ويَستَنِدُ إليه، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[٤].

﴿ظَهِيرٌ﴾: أي: مُساعِدون ومُعينونَ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠) و (٦/ ١٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٣) و (١٠/ ٣١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٠٢) و(١٨/ ١٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠).

قال الواحدي: (﴿تَحِلَّةَ﴾ على وزنِ تَفعِلةٍ، وأصلُه تَحْلِلةٌ، فأُدغِمَتْ، وتَفعِلةٌ مِن مَصادِرِ فعَّلَ، كالتَّوصيةِ، والتَّسميةِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠).

﴿قَٰنِتَٰتٖ﴾: أي: مُطيعاتٍ خاضِعاتٍ، والقُنوتُ: لُزومُ الطَّاعةِ مع الخُضوعِ، أو الطَّاعةُ الدَّائِمةُ، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دِينٍ[١].

﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾: أي: صائِماتٍ أو مُهاجِراتٍ، قيل: سُمِّيَ الصِّيامُ سياحةً؛ تشبيهًا بالسَّائحِ الَّذي لا زاد معه، وأصلُ (سيح): يدُلُّ على استِمرارِ شَيءٍ وذَهابِه[٢].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحرِّمُ على نَفْسِك ما أحلَّه اللهُ لك مُبتَغيًا بتَحريمِه رِضا بَعضِ أزواجِك، واللهُ غَفورٌ رَحيمٌ؟!

ثم بيَّن سبحانَه جانبًا مِن مَظاهِرِ رحمتِه، فقال: قد شرَعَ اللهُ لكم تحليلَ أيْمانِكم بكَفَّارةِ اليَمينِ، واللهُ وَلِيُّكم وناصِرُكم -أيُّها المؤمِنونَ- وهو العَليمُ الحَكيمُ.

واذكُرْ حينَ أسَرَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى زَوجتِه حَفْصةَ حَديثًا، فلمَّا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٠، ٤٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٨).
قال ابن القيِّم: (القُنوتُ يُفسَّرُ بأشياءَ كلُّها تَرجِعُ الى دَوامِ الطَّاعةِ). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٩، ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١).
قال الفرَّاءُ: (نرى أنَّ الصَّائمَ إنَّما سُمِّيَ سائحًا لأنَّ السَّائحَ لا زادَ معه، وإنَّما يأكُلُ حيثُ يَجِدُ [الطَّعامَ]، فكأنَّه أُخِذَ مِن ذلك. واللهُ أعلَمُ). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٢).

أخبَرَت به حَفْصةُ عائِشةَ، وأطْلَعَ اللهُ نبيَّه على إفشائِها سِرَّه؛ أخبَرَها الرَّسولُ ببَعضِ ما أفشَتْه مُؤَنِّبًا لها، وتَرَك إخبارَها ببَقيَّةِ كَلامِها؛ كَرَمًا منه وحِلْمًا، فلمَّا أخبَرَها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإفشائِها سِرَّه إلى عائِشةَ، قالت له حَفصةُ: مَنْ أخبَرَك بذلك؟! قال لها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أخبَرَني بذلك العَليمُ الخَبيرُ.

ثمَّ وجَّهَ اللهُ تعالى خِطابَه إلى حفصةَ وعائشةَ، فأمَرهما بالتَّوبةِ، فقال: إنْ تَتُوبَا -يا حَفْصةُ وعائِشةُ- إلى اللهِ، فقد صدَر منكما ما يُوجِبُ التَّوبةَ؛ فقد مالَت قُلوبُكما عمَّا يَنبغي عليكُما مِن الأدَبِ مع النَّبيِّ.

ثمَّ قال محذِّرًا لهما: وإنْ تَتعاوَنا على إيذاءِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّ اللهَ ناصِرُه عليكما، وجِبريلُ وخِيارُ المؤمِنينَ -كأبي بَكرٍ وعُمَرَ-، والمَلائِكةُ مع ذلك أعوانٌ له أيضًا.

ثمَّ خوَّفهما أيضًا بحالةٍ تشُقُّ على النِّساءِ غايةَ المشَقَّةِ، وهي الطَّلاقُ، فقال: عسى ربُّه إنْ طَلَّقَكنَّ -يا نِساءَ النَّبيِّ- أن يُبدِلَه أزواجًا خيرًا مِنكُنَّ مُسلِماتٍ مُؤمِناتٍ، مُطيعاتٍ للهِ على الدَّوامِ، تائِباتٍ، عابداتٍ للهِ، صائِماتٍ، ثَيِّباتٍ وأبكارًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَمكُثُ عندَ زَينبَ بنتِ جَحشٍ فيَشرَبُ عِندَها عَسَلًا، فتواطَأتُ أنا وحَفصةُ أنَّ أيَّتَنا ما دَخَل

عليها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلْتَقُلْ: إنِّي أَجِدُ منك رِيحَ مَغافيرَ[(١)]، أكَلْتَ مَغافيرَ؟! فدَخَل على إحداهما فقالت ذلك له، فقال: بل شَرِبتُ عَسَلًا عندَ زَينبَ بنتِ جَحشٍ، ولن أعودَ له، فنَزَل: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ لعائِشةَ وحَفْصةَ ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣]؛ لِقَولِه: بل شَرِبتُ عَسَلًا))[(٢)].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كانت له أَمَةٌ يَطَؤُها، فلم تَزَلْ به عائِشةُ وحَفصةُ حتَّى حَرَّمَها على نَفْسِه، فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ))[(٣)].

---

(١) مَغافير: جمعُ مُغْفورٍ، وهو صَمْغٌ حُلْوٌ له رائِحةٌ كَريهةٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٣٧٧).
قال الألوسي: (وكان صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم يحِبُّ الطِّيبَ جدًّا، ويكرهُ الرَّائحةَ الكريهةَ؛ للطافةِ نفسِه الشَّريفةَ، ولأنَّ الملَكَ يأتيه وهو يكرهُها، فشقَّ عليه صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم ما قيل، فجرَى ما جرَى). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٤٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩١٢)، ومسلمٌ (١٤٧٤) واللَّفظُ له.

(٣) أخرجه النسائيُّ (٣٩٥٩) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٣٨٢٤)، والبيهقيُّ (١٥٤٧٢).
صحَّحه الحاكِمُ، وقال: (على شرطِ مُسلمٍ)، والوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (٢٥٣)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٩/ ٢٨٨)، والصنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٣/ ٢٧٨)، والشوكاني في ((الدراري المضية)) (٢٢٥)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٩٥٩).
ممَّن رجَّح أنَّ سَبَبَ النُّزولِ هو قِصَّةُ الجاريةِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ حجر، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٢٩٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٦٨).
ويُنظر أيضًا: ((المحرر في أسباب نزول القرآن)) للمزيني (٢/ ١٠٣٨).
قال ابن عطية: (القولُ الأوَّلُ أنَّ الآيةَ نَزَلت بسَبَبِ ماريةَ: أصَحُّ وأوضَحُ، وعليه تفقَّهَ النَّاسُ في الآيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٠).
وقال ابن حجر: (الرَّاجِحُ مِن الأقوالِ كُلِّها قِصَّةُ ماريةَ؛ لاختِصاصِ عائِشةَ وحَفصةَ بها، بخِلافِ العَسَلِ؛ فإنَّه اجتَمَع فيه جماعةٌ مِنهنَّ، ويحتَمِلُ أن تكونَ الأسبابُ جميعُها اجتمعت، فأُشيرَ =

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحرِّمُ على نَفْسِك ما أحلَّه اللهُ لك مُلتَمِسًا بتَحريمِه رِضا بَعضِ أزواجِك[1]؟

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: واللهُ غَفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، رَحيمٌ بهم، وقد غَفَر لك -يا محمَّدُ- تحريمَك على نَفْسِك ما أحلَّه اللهُ لك، ورَحِمَك[2].

= إلى أهمِّها، ويؤيِّدُه شُمولُ الحَلِفِ للجَميعِ). ((فتح الباري)) (٩/ ٢٩٠).

وقال القاسمي: (الَّذي يَظهَرُ لي هو ترجيحُ رواياتِ تحريمِ الجاريةِ في سَبَبِ نُزولِها). ثمَّ ذكر وُجوهَ ترجيحِ هذا القولِ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٦٨).

ورجَّح ابنُ العَرَبي، والقرطبيُّ، والنوويُّ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور أنَّ الآيةَ نَزَلت بسَبَبِ قِصَّةِ العَسَلِ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٩)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٤).

قال ابنُ كثير: (قد يُقالُ: إنَّهما واقِعتانِ، ولا بُعْدَ في ذلك، إلَّا أنَّ كَونَهما سببًا لنُزولِ هذه الآيةِ فيه نَظَرٌ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٢).

وقال الشوكاني: (هذان سَبَبانِ صَحيحانِ لِنُزولِ الآيةِ، والجَمعُ مُمكِنٌ بوُقوعِ القِصَّتَينِ: قِصَّةِ العَسَلِ، وقِصَّةِ ماريةَ، وأنَّ القُرآنَ نَزَل فيهما جميعًا، وفي كُلِّ واحدٍ منهما أنَّه أسَرَّ الحَديثَ إلى بَعضِ أزواجِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٠٠). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨٣، ٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠٤-٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٧).

قال البِقاعي: (قد جَعَل مِن رَحمتِه لعبادِه لأَيْمانِهم كفَّارةً). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٨٢). =

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

أي: قد بيَّن اللهُ لكم تحليلَ جَميعِ أيْمانِكم -إذا أحبَبْتُم استِباحةَ المحلوفِ عليه- بالكَفَّارةِ الَّتي شَرَعها وبَيَّنَها لكم مِن قَبْلُ في سورةِ المائِدةِ[1].

= وقال السعدي: (صار ذلك التَّحريمُ الصَّادِرُ منه سَبَبًا لشَرعِ حُكمٍ عامٍّ لجَميعِ الأمَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٣/ ٥٠، ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

قال السمعاني: (والفرْضُ هاهنا بمعنى البيانِ والتَّسميةِ، ويُقالُ: بمعنى التَّقديرِ؛ لأنَّ الكفَّاراتِ مقدَّرةٌ مَعْدودَةٌ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧١).

وقال ابن عاشور: (تَحِلَّةُ اليَمينِ هي الكَفَّارةُ عندَ الجَميعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٨).

وقال السمعاني: (وعن بعضِهم: أن تَحِلَّةَ اليمينِ هو الاستِثناءُ؛ لأنَّه يخرجُ به عن اليمينِ. والأوَّلُ هو المعروفُ [أي: أنَّه الكفَّارةُ]). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧١).

وقال ابن جُزَي: (التَّحِلَّةُ هي الكفَّارةُ، وأحال تعالى هنا على ما ذكر في سورةِ المائدةِ [٨٩] مِن صِفَتِها. واختُلِف في المرادِ بها هنا؛ فأمَّا على قولِ مَن قال: إنَّ الآيةَ نزلتْ في تحريمِ الجاريةِ فاختُلِف في ذلك؛ فمَن قال: إنَّ التَّحريمَ يَلزَمُ فيه كفَّارةُ يمينٍ استدَلَّ بها، ومَن قال: إنَّ التَّحريمَ يَلزَمُ فيه طلاقٌ قال: إنَّ الكفَّارةَ هنا إنَّما هي لأنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّمَ حلَفَ، وقال: واللهِ لا أطَؤُها أبدًا.

وأمَّا على القولِ بأنَّ الآيةَ نزلتْ في تحريمِ العسلِ فاختُلِف أيضًا؛ فمَن أوجَبَ في تحريمِ الطَّعامِ كفَّارةً قال: هذه الكفَّارةُ للتَّحريمِ، ومَن قال: لا كفَّارةَ فيه قال: إنَّما هذه الكفَّارةُ لأنَّه حلَف ألَّا يَشرَبَه، وقيل: هي في يمينِه عليه السَّلامُ ألَّا يَدخُلَ على نسائِه شهرًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٠).

وقال الشوكاني: (واختلَف العُلماءُ: هل مجرَّدُ التَّحريمِ يمينٌ يوجِبُ الكفَّارةَ أم لا؟ وفي ذلك خِلافٌ، وليس في الآيةِ ما يدُلُّ على أنَّه يمينٌ؛ لأنَّ اللهَ سبحانه عاتَبَه على تحريمِ ما أحلَّه له، ثمَّ قال: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، وقد ورد في القصَّةِ الَّتي ذهب أكثَرُ المفسِّرينَ إلى أنَّها سببُ نُزولِ الآيةِ أنَّه حرَّم أوَّلًا، ثمَّ حلَف ثانيًا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٨). =

كما قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وعن أبي موسى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنِّي واللهِ -إن شاء اللهُ- لا أحلِفُ على يمينٍ، فأرى غَيرَها خَيرًا منها، إلَّا أتيتُ الَّذي هو خيرٌ وتحَلَّلْتُها))[(١)].

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾.

أي: واللهُ وَلِيُّكم وناصِرُكم -أيُّها المؤمِنونَ- ويتولَّى أُمورَكم بما فيه صَلاحُكم[(٢)].

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو البالِغُ العِلمِ بمَصالِحِ عِبادِه وغَيرِها، الحَكيمُ في خَلْقِه وشَرْعِه، وقَدَرِه وتَدبيرِ عِبادِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به؛ فلذلك شَرَع لكم مِنَ الأحكامِ ما هو مُوافِقٌ لمصالِحِكم، ومُناسِبٌ لأحوالِكم[(٣)].

= وقال البِقاعي: (قد قيل: إنَّ تحريمَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هنا كان بيَمينٍ حَلَفَها، وحينَئذٍ لا يكونُ فيه حُجَّةٌ لِمَن رأى أنَّ «أنتِ عليَّ حرامٌ» يمينٌ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٨٤).

وقد ورد في روايةٍ عندَ البخاري (٤٩١٢) عن عائشةَ، قالت: كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يشربُ عسلًا عندَ زينبَ... قال: ((لا، ولكنِّي كنتُ أشربُ عسلًا عندَ زينبَ بنتِ جحشٍ، فلنْ أعودَ له، وقد حلفْتُ، لا تُخبري بذلك أحدًا)).

(١) رواه البخاريُّ (٧٥٥٥)، ومسلمٌ (١٦٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، =

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ ساقَ ما هو كالدَّليلِ على عِلمِه، فقال[١]:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾.

أي: واذكُرْ[٢] حينَ أخفى النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى زَوجتِه حَفْصةَ كلامًا -وهو تحريمُ ما حرَّمه على نفْسِه- وأمَرها ألَّا تُخبِرَ به أحدًا[٣].

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ١٥٧).

(٢) قيل: المعنى: واذكُرْ إذ أسرَّ النَّبيُّ... وممَّن نصَّ عليه: الزَّجَّاجُ، والقرطبي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٤٥).

وقيل: المعنى: اذكُرْ -يا محمَّدُ- ذلك على وَجهِ التَّأنيبِ والعَتبِ لزَوجاتِك. وممَّن قال بهذا: ابنُ عطيَّة، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٩٦).

وقيل: المعنى: واذكروا أيُّها المؤمنونَ إذ أسرَّ النَّبيُّ. وممَّن اختاره: مكِّي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٦٥).

وقيل: المعنى: اذكُروا كريمَ أخلاقِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وطاهِرَ شمائِلِه في عِشرتِهنَّ حينَ أسَرَّ إلى بَعضِ أزواجِه حديثًا. قالَه البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

ذكر ابنُ الجوزي وابنُ عاشور: أنه لم يختَلِفْ أهلُ العِلمِ في أنَّ الَّتي أسَرَّ إليها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الحَديثَ هي حَفصةُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥١).

قال ابنُ عطية: (قال الجُمهورُ: الحَديثُ: هو قَولُه في أمرِ مارِيةَ، وقال آخَرونَ: بل هو قَولُه: «إنَّما شَرِبتُ عَسَلًا»). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٠). =

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾.

أي: فلمَّا أخبَرَت حَفْصةُ عائِشةَ بما أسَرَّ إليها النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن تَحريمِه ما حرَّم على نَفْسِه، وأطْلَعَ اللهُ نبيَّه على إفشائِها سِرَّه؛ أخبَرَها الرَّسولُ ببَعضِ ما أفشَتْه مُؤَنِّبًا لها، وتَرَك إخبارَها ببَقيَّةِ كَلامِها؛ كَرَمًا منه وحِلْمًا[1].

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾.

أي: فلمَّا أخبَرَ نَبيُّ اللهِ حَفْصةَ بإفشائِها سِرَّه إلى عائِشةَ، قالت له حَفصةُ مُتعَجِّبةً مِن مَعرِفتِه: مَنْ أخبَرَك بذلك[2]؟!

﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

= وممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ -المنسوبِ إلى الجُمهورِ-: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥١).

قال ابن الجوزي: (وفي هذا السِّرِّ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه قال لها: إنِّي مُسِرٌّ إليك سِرًّا فاحفظيه، سُرِّيَّتي هذه علَيَّ حرامٌ. رواه العَوْفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال عَطاءٌ، والشَّعبيُّ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُه، والسُّدِّيُّ.

والثَّاني: أنَّه قال لها: أبوكِ، وأبو عائشةَ، واليا النَّاسِ مِن بَعدي، فإيَّاكِ أن تُخبِري أحدًا. ورواه سعيدُ بنُ جُبَيرٍ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثَّالثُ: أنَّه أسَرَّ إليها أنَّ أبا بكرٍ خليفتي مِن بَعدي. قاله ميمونُ بنُ مِهْرانَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠٧).

وقال الواحديُّ: (قال جماعةٌ مِن المفسِّرينَ: إنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ لَمَّا رأى الغَيرةَ والكراهيةَ في وجْهِ حفصةَ أراد أن يَترضَّاها، فأسَرَّ إليها بشيئينِ: تحريمِ الأمَةِ على نفْسِه، وبشَّرها بأنَّ الخِلافةَ بعْدَه في أبي بكرٍ وأبيها عُمَرَ. وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عَطاءٍ، والكلبيِّ، وسعيدِ ابنِ جُبَيرٍ، ومقاتلٍ). ((البسيط)) (٢٢/ ١٢، ١٣). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٨/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩١، ٩٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١١٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٤).

أي: قال لها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أخبَرَني بذلك العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ، الخَبيرُ الَّذي لا تَخفى عليه خافِيةٌ(١).

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾.

أي: إنْ تَتُوبَا إلى اللهِ -يا حَفْصةُ وعائِشةُ- فقد صدَر منكما ما يُوجِبُ التَّوبةَ؛ فقد مالَت قُلوبُكما عن الحقِّ والصَّوابِ، وعمَّا يَنبغي عليكُما مِن الأدَبِ مع النَّبيِّ، وحُبِّ ما يُحبُّه، وكراهةِ ما يَكرَهُه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

قيل: جوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ، على تقديرِ: فقد وُجِد مِنكما ما يُوجِبُ التَّوبةَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الزمخشريُّ، وابنُ عطية، والبَيضاوي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٨).

وقيل: تقديرُه: كان خيرًا لكما. أي: إنْ تَتوبَا إلى اللهِ كان خيرًا لكما. وممَّن ذهب إلى هذا القول: الواحديُّ، والرَّازيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٠).

قال الألوسي: (التَّقديرُ: إنْ تَتوبا فلِتَوبَتِكما موجبٌ وسببٌ ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾، أو فحقَّ لكما ذلك فقد صدَر ما يَقْتضيها، وهو على معنى: فقد ظهَر أنَّ ذلك حقٌّ... وقيل: الجوابُ محذوفٌ، تقديرُه: يَمْحُ إثمَكما، وقَولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ﴾ إلخ: بيانٌ لسَبَبِ التَّوبةِ. وقيل: التَّقديرُ: فقد أدَّيتُما ما يجبُ عليكما، أو أتَيتُما بما يَحِقُّ لكما، وما ذُكِرَ دَليلٌ على ذلك. قيل: وإنَّما لم يُفَسِّروا: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ بـ «مالَتْ إلى الواجِبِ أو الحَقِّ أو الخَيرِ»؛ حتَّى يَصِحَّ جَعْلُه جوابًا مِن =

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: وإنْ تَتعاوَنا -يا حَفصةُ وعائِشةُ- على إيذاءِ رَسولِ اللهِ، فإنَّ اللهَ ناصِرُه عليكما، وجِبريلُ وخِيارُ المؤمِنينَ -كأبي بَكرٍ وعُمَرَ- أولياءُ له أيضًا يَتوَلَّونَه ويَنصُرونَه؛ فلا يَضُرُّ الرَّسولَ تعاوُنُكما عليه[1]!

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (مَكَثْتُ سَنةً أُريدُ أن أسأَلَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ عن آيةٍ، فما أستطيعُ أن أسألَه؛ هَيْبةً له، حتَّى خَرَج حاجًّا فخَرَجتُ معه، فلمَّا رَجَعْنا وكُنَّا ببَعضِ الطَّريقِ عَدَل إلى الأراكِ[2] لحاجةٍ له، فوقَفْتُ له حتَّى فَرَغ، ثمَّ سِرتُ معه، فقُلتُ: يا أميرَ المؤمِنينَ، مَنِ اللَّتانِ تَظاهرَتَا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أزواجِه؟ فقال: تلك حَفصةُ وعائِشةُ)[3].

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

أي: والمَلائِكةُ مع نَصرِ اللهِ وجِبريلَ وصالِحِ المُؤمِنينَ أعوانٌ أيضًا لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مَن يُريدُ أذاه ومَساءتَه[4].

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٖ

= غَيرِ احتياجٍ إلى نحوِ ما تقدَّمَ؛ لأنَّ صيغةَ الماضي و«قَدْ»، وقراءةَ ابنِ مَسعودٍ: «فَقَدْ زَاغَتْ قُلُوبُكُمَا»، وتكثيرَ المعنى مع تقليلِ اللَّفظِ: تقتضي ما سَلَف). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٤، ٩٧، ٩٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٧، ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(٢) أي: مالَ عن الطَّريقِ إلى شَجَرِ الأَراكِ الَّتي يُتَّخَذُ منها المَساويكُ، وهي كثيرةُ الوَرَقِ والأغصانِ؛ مال لقضاءِ الحاجةِ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٩/ ٢٥١).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٩١٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٤٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٩).

عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حذَّر اللهُ تعالى بما تقدَّمَ، زاد في التَّحذيرِ ما يُقَطِّعُ القُلوبَ؛ لأنَّ أشَدَّ ما على المرأةِ أن تُطَلَّقَ، ثمَّ إذا طُلِّقَت أن يُستبدَلَ بها، ثمَّ أن يكونَ البَدَلُ خيرًا منها[1].

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾.

أي: عسى ربُّ محمَّدٍ إنْ طَلَّقَكنَّ -يا نِساءَ النَّبيِّ- أن يُبدِلَه أزواجًا أفضَلَ مِنكُنَّ[2].

عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (اجتَمَع نِساءُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الغَيرةِ عليه، فقُلتُ لهُنَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾، فنزَلَت هذه الآيةُ)[3].

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال عُمَرُ: (وافَقتُ اللهَ في ثلاثٍ، أو وافَقَني رَبِّي في ثلاثٍ؛ قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، لو اتَّخَذتَ مَقامَ إبراهيمَ مُصَلًّى. وقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، يَدخُلُ عليك البَرُّ والفاجِرُ؛ فلو أمَرْتَ أمَّهاتِ المؤمِنينَ بالحِجابِ، فأنزل اللهُ آيةَ الحِجابِ. قال: وبلَغَني مُعاتَبةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعضَ نِسائِه، فدَخَلْتُ عليهنَّ، قُلتُ: إنِ انتَهَيتُنَّ أو لَيُبدِّلَنَّ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خيرًا مِنكنَّ! حتَّى أتيتُ إحدى نِسائِه، قالت: يا عُمَرُ، أمَا في رَسولِ اللهِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٠).

(٣) رواه البخاري (٤٠٢).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يَعِظُ نِساءَه حتَّى تَعِظَهنَّ أنت؟! فأنزل اللهُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ﴾ الآيةَ)[١].

﴿مُسۡلِمَٰتٖ﴾.

أي: مُخلِصاتٍ للهِ، خاضِعاتٍ لطاعتِه، قائماتٍ بالشَّرائعِ الظَّاهرةِ[٢].

﴿مُّؤۡمِنَٰتٖ﴾.

أي: قائِماتٍ بالشَّرائعِ الباطنةِ مِنَ العَقائِدِ الصَّحيحةِ وأعمالِ القُلوبِ[٣].

﴿قَٰنِتَٰتٖ﴾.

أي: مُطيعاتٍ للهِ ورَسولِه على الدَّوامِ، قائِماتٍ بها أحسَنَ قِيامٍ[٤].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤].

﴿تَٰٓئِبَٰتٖ﴾.

أي: مُقلِعاتٍ عن الذُّنوبِ إذا وقَعْنَ فيها[٥].

﴿عَٰبِدَٰتٖ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦١).

أي: مُتذَلِّلاتٍ للهِ بعِبادتِه[١].

﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾.

أي: صائِماتٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٥، ١٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩).

قال ابنُ الجوزي: (﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ فيه قَولانِ؛ أحَدُهما: صائِماتٍ. قاله ابنُ عبَّاسٍ والجمهورُ... والثَّاني: مُهاجِراتٍ. قاله زَيدُ بنُ أسْلَمَ وابنُه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٠).

ممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالسَّائِحاتِ: الصَّائِماتُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابن عطية، والرَّسْعَني، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٥، ١٦٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو هُرَيرةَ، وعائشةُ، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومُجاهِدٌ، وسعيدُ ابنُ جُبَيرٍ، وعَطاءٌ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، وأبو عبدِ الرَّحمنِ السُّلَميُّ، وأبو مالكٍ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والرَّبيعُ بنُ أنَسٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٥).

ويُنظر ما تقدَّم في سببِ تسميةِ الصَّائمِ سائحًا (ص: ١٢٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ السَّائِحاتِ هُنَّ: المهاجِراتُ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦١).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: زَيدُ بنُ أسلَمَ، وابنُه، ويَمَان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٥).

وقال القاسمي: (معنى قَولِه تعالى: ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ مُسافِراتٌ؛ سواءٌ كان السَّفَرُ لهِجرةٍ، أو اطِّلاعٍ على آثارِ الأُمَمِ البائدةِ، وقد خَصَّصَت السُّنَّةُ عُمومَ سَفَرِهنَّ بكَونِه مع زَوجٍ أو مَحرَمٍ لهنَّ؛ حِفظًا لهنَّ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٧٦).

وقال الثعلبي: (﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ يَسِحْنَ معه حيثُ ما ساحَ). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٤٩). =

﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾.

أي: بَعضُهنَّ ثَيِّباتٌ قد تزَوَّجْنَ مِن قَبلُ، وبَعضُهنَّ أبكارٌ عَذارَى لم يتزوَّجْنَ مِن قَبلُ(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فيه أنَّ أحَدًا لا يُحَرِّمُ على نَفْسِه ما أحَلَّ اللهُ له؛ لإرضاءِ أحَدٍ؛ إذ ليس

= وقال ابنُ القيِّم في قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾[التوبة: ١١٢]: (فُسِّرَت السِّياحةُ بالصِّيام، وفُسِّرَت بالسَّفَرِ في طَلَبِ العِلم، وفُسِّرَت بالجِهادِ، وفُسِّرَت بدوامِ الطَّاعة. والتَّحقيقُ فيها: أنَّها سياحةُ القَلبِ في ذِكرِ اللهِ ومَحبَّتِه، والإنابةِ إليه والشَّوقِ إلى لقائِه، ويترتَّبُ عليها كُلُّ ما ذُكِرَ مِن الأفعالِ؛ ولذلك وَصَفَ اللهُ سُبحانَه نِساءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم اللَّاتي لو طَلَّق أزواجَه بَدَّلَه بهنَّ: بأنَّهنَّ سائِحاتٌ، وليست سياحتُهنَّ جِهادًا، ولا سَفَرًا في طَلَبِ عِلمٍ، ولا إدامةَ صِيامٍ، وإنَّما هي سياحةُ قُلوبِهنَّ في محبَّةِ اللهِ تعالى وخشيتِه، والإنابةِ إليه وذِكرِه. وتأمَّلْ كيف جَعَلَ اللهُ سُبحانَه التَّوبةَ والعبادةَ قرينتَين: هذه تَرْكُ ما يَكرَهُ، وهذه فِعلُ ما يُحِبُّ؛ والحَمدَ والسِّياحةَ قرينَين: هذا الثَّناءُ عليه بأوصافِ كَمالِه، وسياحةُ اللِّسانِ في أفضَلِ ذِكرِه، وهذه سِياحةُ القَلبِ في حُبِّه وذِكرِه وإجلالِه، كما جَعَلَ سُبحانَه العبادةَ والسِّياحةَ قَرينتَينِ في صِفةِ الأزواجِ؛ فهذه عبادةُ البَدَنِ، وهذه عبادةُ القَلبِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٨٥).

وذهب البِقاعي إلى أنَّ معنى ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾: متَّصِفاتٌ بصِفاتِ الملائكةِ؛ مِنَ التخَلِّي عن الدُّنيا، والاستغراقِ في الآخِرةِ بما أدناه الصِّيامُ، ماضياتٌ في ذلك غايةَ المَضاءِ؛ لِيَتِمَّ الانقيادُ لله ولرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ مَن كان هكذا لم يكُنْ له مرادٌ، فكان تابِعًا لرَبِّه في أمرِه دائمًا، ويَصيرُ لَطيفَ الذَّاتِ حُلوَ الشَّمائِلِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

قال الماوَرْدي: (أمَّا الثَّيِّبُ فإنَّما سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها راجِعةٌ إلى زَوْجِها إن أقام معها، أو إلى غيرِه إن فارَقَها. وقيل: لأنَّها ثابَتْ إلى بَيتِ أبَوَيها، وهذا أصَحُّ؛ لأنَّه ليس كلُّ ثيِّبٍ تعودُ إلى زَوجٍ. وأمَّا البِكرُ فهي العَذراءُ، سُمِّيَت بِكْرًا؛ لأنَّها على أوَّلِ حالتِها الَّتي خُلِقَت بها). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٤٢).

ذلك بمَصلحةٍ له ولا للَّذي يَستَرضيه، وإنَّما صَلاحُ كُلِّ جانِبٍ فيما يعودُ بنَفعٍ على نَفْسِه، أو بنَفعٍ على غَيرِه نفعًا مَرْضِيًّا عندَ اللهِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾، أي: ليسَتْ غَيرتُهنَّ ممَّا تجِبُ مُراعاتُه في المعاشَرةِ إنْ كانتْ فيما لا هَضْمَ فيه لحُقوقِهنَّ، ولا هي مِن إكرامِ إحداهنَّ لزَوجِها إن كانتِ الأخرى لم تتمكَّنْ مِن إكرامِه بمِثلِ ذلكَ الإكرامِ في بعضِ الأيامِ، وهذا يُومِئُ إلى ضبْطِ ما يُراعَى مِنَ الغَيرةِ وما لا يُراعَى[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾ فيه أنَّه لا بأسَ بإسرارِ الحَديثِ إلى مَن يُركَنُ إليه مِن زَوجةٍ أو صَديقٍ، وأنَّه يَلزَمُه كَتمُه[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾ فيه حُسنُ العِشرةِ مع الزَّوجاتِ، والتَّلَطُّفُ في العَتْبِ، والإعراضُ عن استِقصاءِ الذَّنْبِ. قال الحَسَنُ: (ما استَقصى كَريمٌ قَطُّ)[٤]، وإنَّ مِن عادةِ الفُضلاءِ التَّغافُلَ عن الزَّلَّاتِ[٥]. وقيل: (ما زال التَّغافُلُ مِن فِعلِ الكِرامِ)[٦].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١١٨)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٥).

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ فيه تعليمُ الأزواجِ ألَّا يُكثِرْنَ مِن مُضايَقةِ أزواجِهنَّ؛ فإنَّه رُبَّما أدَّت إلى المَلالِ، فالكَراهيةِ، فالفِراقِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ والمرادُ به الرَّسولُ، واللهُ تعالى يُخاطِبُ رسولَه بوَصفِ النُّبوَّةِ أحيانًا، وبوَصفِ الرِّسالةِ أحيانًا، فحينَما يأمرُه أنْ يُبَلِّغَ يُناديه بوَصفِ الرِّسالةِ، وأمَّا في الأحكامِ الخاصَّةِ فالغالبُ أنْ يناديَه بوَصفِ النُّبُوَّةِ، كالآيةِ هنا[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ إلى قَولِه: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أنَّ المؤمِنَ ليس له أنْ يُحَرِّمَ الحَلالَ بيَمينٍ ولا غَيرِها[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ إلى قَولِه: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الشَّيءَ إذا حُرِّمَ، وقَصَد به الإنسانُ الامتِناعَ عنه؛ صار بمنزلةِ اليَمينِ، فجَعَلَ اللهُ تعالى هذا التَّحريمَ يمينًا، وقال: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾[٤]. فقد نَزَلت الآيةُ في تَحريمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُرِّيَّتَه ماريةَ، أو شُربَ العَسَلِ، فاستُدِلَّ به على أنَّ مَن حرَّمَ على نَفْسِه أَمَةً أو طعامًا أو زَوجةً، لم تَحرُمْ عليه، وتَلزَمُه كَفَّارةُ يَمينٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٢٢٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٩).

قال ابن جُزَي: (ولْنَتكلَّمْ على فِقهِ التَّحريمِ: فأمَّا تحريمُ الطَّعامِ والمالِ وسائرِ الأشياءِ ما عدا =

= النِّساءَ، فلا يَلزَمُ، ولا شَيءَ عليه عندَ مالكٍ، وأوجَبَ عليه أبو حنيفةَ الكفَّارةَ. وأمَّا تحريمُ الأمَةِ فإنْ نوى به العِتقَ لَزِمَ، وإن لم يَنوِ به ذلك لم يَلزَمْ، وكان حُكمُه ما ذكَرْنا في الطَّعامِ)). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٩).

اختلف العلماءُ فيمن حرَّم على نفْسِه شيئًا ممَّا أحلَّ اللهُ -ما عدا النِّساءَ- فذهب الحَنفيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّه تَلزَمُه كفَّارةُ يمينٍ. يُنظر: ((تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشِّلْبي)) (٣/ ١١٤)، ((شرح منتهي الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٤٤٥).

وذهب المالكيَّةُ والشَّافعيَّةُ إلى أنَّه لا تَلزَمُه كفَّارةٌ. يُنظر: ((الكافي في فقه أهل المدينة)) لابن عبدِ البَرِّ (١/ ٤٥٠)، ((مغني المحتاج)) للخطيب الشربيني (٣/ ٢٨٣).

قال ابن جُزَي: (وأمَّا تحريمُ الزَّوجةِ فاختلَف النَّاسُ فيه على أقوالٍ كثيرةٍ؛ فقال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ وعمرُ بنُ الخطَّابِ وابنُ عبَّاسٍ وعائشةُ وغيرُهم: إنَّما يَلزَمُ فيه كفَّارةُ يمينٍ. وقال مالكٌ في المشهورِ عنه: ثلاثُ تطليقاتٍ في المدخولِ بها، ويُنَوَّى في غيرِ المدخولِ بها، فيُحكَمُ بما نَوى مِن طَلْقةٍ أو اثنتَينِ أو ثلاثٍ. وقال ابنُ الماجِشونِ: هي ثلاثٌ في الوجهَينِ. ورُوِيَ عن مالكٍ أنَّها طلقةٌ بائنةٌ، وقيل: طلقةٌ رجعيَّةٌ)). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٩). ويُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٧/ ٢٦١) و(١٠/ ٢٠٧).

وقد بلغتِ الأقوالُ في تحريمِ الزَّوجةِ خمسةَ عشَرَ قولًا، وأوصَلها بعضُهم إلى ثمانيةَ عشَرَ قولًا. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٠)، ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٤/ ٤٥١).

قال ابن حجر: (قال القرطبيُّ: قال بعضُ علمائِنا: سببُ الاختلافِ أنَّه لم يقَعْ في القرآنِ صريحًا ولا في السُّنَّةِ نصٌّ ظاهرٌ صحيحٌ يُعتمَدُ عليه في حُكمِ هذه المسألةِ، فتَجاذَبَها العلماءُ؛ فمَن تمسَّكَ بالبراءةِ الأصليَّةِ قال: لا يَلزَمُه شيءٌ. ومَن قال: إنَّها يمينٌ، أخَذَ بظاهِرِ قولِه تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ بعْدَ قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾. ومَن قال: تجبُ الكفَّارةُ وليستْ بيَمينٍ، بَناهُ على أنَّ معنى اليمينِ التَّحريمُ، فوقعَتِ الكفَّارةُ على المعنى. ومَن قال: تقَعُ به طَلْقةٌ رجعيَّةٌ، حمَلَ اللَّفظَ على أقلِّ وُجوهِه الظَّاهِرةِ، وأقلُّ ما تُحرَّمُ به المرأةُ طَلْقةٌ تُحرِّمُ الوَطْءَ ما لم يَرتَجِعْها. ومَن قال: بائنةٌ؛ فلاستِمرارِ التَّحريمِ بها ما لم يُجدِّدِ العقدَ. ومَن قال: ثلاثٌ، حمَل اللَّفظَ على مُنتهى وُجوهِه. ومَن قال: ظِهارٌ، نظَر إلى معنى التَّحريمِ، وقطَعَ النَّظرَ عن الطَّلاقِ، فانحصَر الأمرُ عندَه في الظِّهارِ، واللهُ أعلَمُ)). ((فتح الباري)) (٩/ ٣٧٢). ويُنظر: ((المفهم لِما أَشْكَلَ من تلخيص كتاب مسلم)) للقرطبي (٤/ ٢٥٠). =

٤- لو قال قائلٌ: هل الأنبياءُ مَعصومونَ مُطلَقًا؟

فالجوابُ: لا شَكَّ أنَّ الأنبياءَ لا يُعصَمونَ مِمَّا لا يُخِلُّ بالرِّسالةِ مِنَ الذُّنوبِ؛ فالَّذي لا يُخِلُّ بالرِّسالةِ والشَّرَفِ والمُروءةِ لا يُعصَمونَ منه، لكِنَّهم يُعصَمونَ مِنَ الإقرارِ عليه، فلا بُدَّ أن يُوَفَّقوا للتَّوبةِ. وهذا هو الفَرقُ بيْنَهم وبيْن غَيرِهم؛ فإنَّه يُفَرَّقُ بيْنهم وبيْن غَيرِهم مِن وَجهَينِ، في مَسألةِ الذُّنوبِ والمعاصي:

أوَّلًا: أنَّه لا يُمكِنُ أن يَصدُرَ منهم ما يُخِلُّ بالرِّسالةِ، مِثلُ: الكَذِبِ، والخيانةِ، ولا بالشَّرَفِ والمروءةِ، كالزِّنا وما أشبَهَه.

ثانيًا: أنَّه إذا وَقَع منهم ما يُمكِنُ وُقوعُه مِن المعاصي أو الخطأِ فإنَّهم لا يُقَرُّونَ عليه، لا بُدَّ أن يَحصُلَ لهم ما يُوجِبُ تَركَهم لهذا الشَّيءِ؛ لأنَّهم رُسُلٌ قُدوةٌ، ولو أُقِرُّوا على ما وقَع منهم مِن ذلك لَكان مِن شَرائِعِهم، فقَولُه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ

= أمَّا تحريمُ الزَّوجةِ فمذهبُ الحنفيَّةِ أنَّه إن أراد بالتَّحريمِ الطَّلاقَ فيقَعُ عليه واحدةٌ بائنةٌ، لا يَملِكُ رَجعتَها، وإن نوى طلاقَ الثَّلاثِ فثلاثٌ، وإن أراد الظِّهارَ فظِهارٌ، وإن أراد الكذبَ فباطلٌ، وإن أراد مجرَّدَ التَّحريمِ أو لم يُرِدْ شيئًا فإيلاءٌ. يُنظر: ((الدر المختار وحاشية ابن عابدين)) (٣/ ٤٣٣)، ((العناية شرح الهداية)) للبابَرْتي (٤/ ٢٠٧).

وذهب المالكيَّةُ إلى أنَّه طلاقٌ ثلاثٌ في المدخولِ بها، وغيرِ المدخولِ بها إلَّا إن نوى أقلَّ فحسَب نيَّتِه. ((حاشية الصاوي على الشرح الصغير)) (٢/ ٥٦٢).

وذهب الشَّافعيَّةُ إلى أنَّه إن نوى طلاقًا فعلى ما نوى مِن العدَدِ، وإن نوى ظِهارًا كان ظِهارًا، وإن نوى الطَّلاقَ والظِّهارَ معًا أو مُتعاقِبَينِ بأنْ نوى أحدَهما في أوَّلِ اللَّفظِ والآخَرَ في آخِرِه؛ تخيَّر أحدَهما، وإن نوى التَّحريمَ أو أطلَق ففيه كفَّارةُ يمينٍ على الأظهَرِ. يُنظر: ((أسنى المطالب)) لزكريا الأنصاري (٣/ ٢٧٢).

وذهب الحنابلةُ إلى أنَّه ظِهارٌ ولو نوى طلاقًا أو يمينًا. يُنظر: ((شرح منتهي الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٨٨).

وذهب الظَّاهريَّةُ إلى أنَّه لَغوٌ باطلٌ، لا يترتَّبُ عليه شيءٌ. يُنظر: ((المحلى بالآثار)) لابن حزم (٩/ ٣٠٢)، ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٣/ ٨١).

عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم: ١] هذا ممَّا يدُلُّ على أنَّ الأمرَ قد وَقَع مِنَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، لكِنَّه غُفِرَ له، وما أُقِرَّ عليه(١).

٥- في قَولِه: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ عُذرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما فعَلَه مِن أنَّه أراد به خَيرًا، وهو جَلبُ رِضا الأزواجِ؛ لأنَّه أعوَنُ على مُعاشَرتِه، مع الإشعارِ بأنَّ مِثلَ هذه المرضاةِ لا يُعبَأُ بها؛ لأنَّ الغَيرةَ نشَأَت عن مجَرَّدِ مُعاكَسةِ بَعضِهنَّ بَعضًا، وذلك ممَّا يَختَلُّ به حُسنُ المعاشَرةِ بيْنَهنَّ؛ فأنبأه اللهُ أنَّ هذا الاجتهادَ مُعارَضٌ بأنَّ تَحريمَ ما أحَلَّ اللهُ له يُفضي إلى قَطعِ كَثيرٍ مِن أسبابِ شُكرِ اللهِ عِندَ تَناوُلِ نِعَمِه، وأنَّ ذلك ينبغي إبطالُه في سِيرةِ الأُمَّةِ(٢).

٦- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ إلى قَولِه: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ اليَمينَ بالعِتْقِ والطَّلاقِ في اللَّجاجِ والغضَبِ: مثل أن يقصِدَ بها حضًّا أو منعًا أو تصديقًا أو تكذيبًا، كقولِه: الطَّلاقُ يلزمُني لأفعلَنَّ كذا، أو: لا فعلتُ كذا، و: إنْ فعلْتُ كذا فعبيدي أحرارٌ، أو: إن لم أفعلْه فعبيدي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٩).

قال ابن عثيمين عن الأنبياءِ عليهم السَّلامُ: (إنَّهم ليسوا معصومينَ مِن صغائرِ الإثمِ، لكنَّهم معصومونَ مِن إرادةِ المخالفةِ، ومِن الإصرارِ على المعصيةِ...؛ لأنَّ الذي يقعُ منهم يكونُ عن قصدٍ أخطؤوا فيه الصوابَ، فمثلًا:... قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، فالنبيُّ صلى الله عليه وسلم حرَّم ما أحلَّ الله له طلبًا لمرضاةِ زوجاتِه، وتأليفِ قلوبِهنَّ، ولكنَّه لم يحرِّمْه حكمًا شرعيًّا، إنَّما حرَّمه امتناعًا، يعني حرَّمه على نفسِه... فالحاصلُ أنَّهم عليهم الصلاةُ والسَّلامُ لا يُمنعونَ مِن وقوعِ صغائرِ الذنوبِ، لكنَّهم لا يفعلونَها كما يفعلُها غيرُهم تعمدًا للمخالفةِ، ولا يُقرُّونَ عليها أيضًا، بل لابدَّ أنْ يُنبَّهوا عليها حتَّى يرجِعوا إلى الصوابِ). ((شرح العقيدة السفارينية)) (ص: ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٧).

أحرارٌ- يُشْرَعُ فيها التَّحَلُّلُ بالكفَّارةِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ قولَه تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ نصٌّ عامٌّ في كلِّ يمينٍ يَحلِفُ بها المُسلِمونَ؛ فإنَّ اللهَ قد فَرَضَ لها تَحِلَّةً، وذَكَره سُبحانَه بصِيغةِ الخِطابِ للأُمَّةِ بعدَ تَقَدُّمِ الخِطابِ بصيغةِ الإفرادِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع عِلْمِه سُبحانَه بأنَّ الأُمَّةَ يَحلِفونَ بأيمانٍ شَتَّى؛ فلو فُرِضَ يمينٌ واحدةٌ ليس لها تَحِلَّةٌ لَكان مخالِفًا للآيةِ، كيف وهذا عامٌّ لم تُخَصَّ فيه صورةٌ واحدةٌ لا بنَصٍّ ولا بإجماعٍ، بل هو عامٌّ عُمومًا مَعنويًّا مع عُمومِه اللَّفظيِّ؟! فإنَّ اليَمينَ معقودٌ يُوجِبُ مَنْعَ المكلَّفِ مِن الفِعلِ، فشَرْعُ التَّحِلَّةِ لهذه العُقدةِ مُناسِبٌ لِمَا فيه مِن التَّخفيفِ والتَّوسعةِ، وهذا موجودٌ في اليَمينِ بالعِتْقِ والطَّلاقِ أكثرَ منه في غَيرِهما مِن أيْمانِ نَذْرِ اللَّجاجِ والغَضَبِ، وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وذلك يقتَضي أنَّه ما مِن تحريمٍ لِمَا أَحَلَّ اللهُ إلَّا واللهُ غَفورٌ لفاعِلِه رحيمٌ به، وأنَّه لا عِلَّةَ تقتضي ثُبوتَ ذلك التَّحريمِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿لِمَ﴾ لأيِّ شَيءٍ؟ استفهامٌ في معنى النَّفيِ والإنكارِ، والتَّقديرُ: «لا سببَ لتحريمِك ما أَحَلَّ اللهُ لك، واللهُ غفورٌ رحيمٌ»، فلو كان الحالِفُ بالنَّذرِ والعِتاقِ والطَّلاقِ على أنَّه لا يَفعلُ شَيئًا: لا رخصةَ له، لَكان هنا سَبَبٌ يقتضي تحريمَ الحَلالِ؛ ولا يبقى مُوجَبُ المَغفرةِ والرَّحمةِ على هذا الفاعِلِ[1]!

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ عبَّرَ بالفَرضِ؛ حَثًّا على قَبولِ الرُّخصةِ؛ إشارةً إلى أنَّ ذلك لا يَقدَحُ في الوَرَعِ، ولا يُخِلُّ بحُرمةِ اسمِ اللهِ؛ لأنَّ أهلَ الهِمَمِ العَوالي لا يُحِبُّونَ النُّقْلَةَ مِن عَزيمةٍ إلى رُخصةٍ، بل مِن رُخصةٍ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٢٦٨، ٢٦٩).

إلى عزيمةٍ، أو عزيمةٍ إلى مِثلِها[١].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ فيه أنَّ مَن حَلَف على يمينٍ، فرأى حِنْثَها خيرًا مِن بِرِّها: أن يُكَفِّرَ عنها، ويَفعَلَ الَّذي هو خَيرٌ[٢].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ ذُكِرَت حَفْصةُ بعُنوانِ بَعضِ أزواجِه؛ للإشارةِ إلى أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَضَع سِرَّه في مَوضِعِه؛ لأنَّ أَولى النَّاسِ بمَعرفةِ سِرِّ الرَّجُلِ زَوْجُه، وفي ذلك تَعريضٌ بمَلامِها على إفشاءِ سِرِّه؛ لأنَّ واجِبَ المرأةِ أن تحفَظَ سِرَّ زَوجِها إذا أمَرَها بحِفْظِه، أو كان مِثْلُه ممَّا يَجِبُ حِفْظُه[٣].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ جعَلَه في سِياقِ حِكايةٍ؛ لأنَّه أستَرُ لحَرَمِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيثُ لم يَقُلْ: (فنَبَّأَت به)، ولا قال: (أساءَت بالإنباءِ به)، ونحوَ ذلك ممَّا يُفهِمُ أنَّه مَقصودٌ بالذَّاتِ[٤].

١١- قال تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ إنَّما عرَّفها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلكَ لِيُوقِفَها على مُخالَفتِها واجبَ الأدبِ مِن حِفظِ سِرِّ زَوجِها، وإعراضُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن تعريفِ زَوجِه ببعضِ الحديثِ الَّذي أفشَتْه مِن كرَمِ خُلُقِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مُعاتَبةِ المُفْشِيَةِ وتأديبِها؛ إذْ يحصُلُ المقصودُ بأنْ يُعلِمَ بعضَ ما أفشَتْه، فتُوقِنَ أنَّ اللهَ يَغارُ عليه[٥].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أنَّ الأنبياءَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٣).

لا يَعلَمونَ الغَيبَ، إلَّا ما أطلَعَهم اللهُ عليه[١].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ هذا تنبيهٌ إلى عنايةِ اللهِ برَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وانتِصارِه له؛ لأنَّ إطْلاعَه على ما لا عِلْمَ له به ممَّا يُهِمُّه: عنايةٌ ونُصحٌ له[٢]، وقد حصَلَ مِن هذا الجوابِ تَعليمُها بأنَّ اللهَ يُطْلِعُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ما غابَ إنْ شاءَ، وتَنبيهُها على ما أبطَنَتْه مِنَ الأمرِ[٣].

١٤- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ إنَّما نبَّأَها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه عَلِمَ إفشاءَها الحديثَ بأمْرٍ مِنَ اللهِ لِيَبْنِيَ عليه الموعظةَ والتَّأديبَ؛ فإنَّ اللهَ ما أطْلَعَه على إفشائِها إلَّا لغرَضٍ جليلٍ[٤].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ذُكِرَتِ «القلوبُ» بالجمعِ مع أنَّ الواحدةَ لها قلبٌ واحدٌ؛ لأنَّ الأفصحَ في اللُّغةِ العربيَّةِ أنَّه إذا أُضِيفَ المُثَنَّى إلى ما يُفيدُ التَّعدُّدَ فإنَّه يُجْمَعُ؛ لأنَّ التَّثنيةَ جَمعٌ في المعنى؛ كراهةَ أنْ تجتمِعَ تَثْنِيَتانِ فيما هو كالكلمةِ الواحدةِ؛ لأنَّ المضافَ والمضافَ إليه كأنَّهما كلمةٌ واحدةٌ، فيُجمَعُ؛ طلَبًا لخِفَّةِ اللَّفظِ عِندَ إضافتِه إلى ضَميرِ المُثَنَّى؛ فإنَّ صِيغةَ التَّثنيةِ ثَقيلةٌ؛ لقِلَّةِ دَورانِها في الكلامِ، فلمَّا أُمِنَ اللَّبْسُ ساغَ التَّعبيرُ بصِيغةِ الجمعِ عن التَّثنيةِ، وهذا استعمالٌ للعربِ غيرُ جارٍ على القياسِ، وذلك في كلِّ اسمٍ مُثَنًّى أُضيفَ إلى اسمٍ مُثنى فإنَّ المضافَ يَصيرُ جمعًا كما في هذه الآيةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٧). =

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ دَليلٌ على أنَّ إفشاءَ السِّرِّ ذَنبٌ مِن مُفْشِيه، لولا ذلك ما دُلَّتا -واللهُ أعلَمُ- على التَّوبةِ منه، وهما وإنْ كانتا أفْشَتا سِرَّ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعْدَ ما أُمِرَتا بالتَّحَفُّظِ به، وكِتمانِه، وطاعتُه فرضٌ في حالٍ، ونَدْبٌ في أخرى، لا يُشارِكُه فيهما أحدٌ مِن أُمَّتِه؛ فمَن دونَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أيضًا مِن المؤمِنينَ إذا ائْتَمَنَ إنسانًا بوَضعِ سِرِّه عندَه، فخانَه بإفْشَائِه عليه، فهو لا مَحالةَ آثِمٌ؛ إذ لو لم يَكُنْ آثِمًا إلَّا بإبدائِه لَكفاه عمَّا سِواه[1].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ بعدَ ذِكْرِ التَّظاهُرِ دَليلٌ واضِحٌ على أنَّ المولَى هو النَّاصِرُ لا المالِكُ؛ إذْ لو كان مالِكًا لَمَا شارَكَه فيه جِبريلُ وصالِحُ المؤمِنينَ؛ فهو الآنَ ردٌّ على الرَّافضةِ فيما يَحْمِلونَ عليه قَولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

= قال الشنقيطي: (المثنَّى إذا أُضِيف إليه شيئانِ هما جزآه جاز في ذلك المضافِ -الذي هو شيئانِ- الجمعُ، والتثنيةُ، والإفرادُ، وأفصحُها الجمعُ، فالإفرادُ، فالتثنيةُ على الأصحِّ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١١٥).

وقال الفرَّاءُ: (إنَّما اختير الجمعُ على التَّثنيةِ؛ لأنَّ أكثرَ ما تكونُ عليه الجوارحُ اثنينِ في الانسانِ: اليدينِ والرِّجلينِ والعَينينِ، فلمَّا جرَى أكثرُه على هذا ذهب بالواحدِ منه إذا أُضيفَ إلى اثنينِ مذهبَ التثنيةِ). ((معاني القرآن)) (١/ ٣٠٦). ويُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (٣/ ٦٢١، ٦٢٢)، ((المفصل في صنعة الإعراب)) للزمخشري (ص: ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٦٤).

قال ابن حجر: (قال ابنُ بطَّالٍ: الَّذي عليه أهلُ العِلمِ أنَّ السِّرَّ لا يُباحُ به إذا كان على صاحبِه منه مَضَرَّةٌ، وأكثرُهم يقولُ: إنَّه إذا مات لا يَلزَمُ مِن كِتمانِه ما كان يَلزَمُ في حياتِه، إلَّا أن يكونَ عليه فيه غَضاضةٌ. قلتُ: الَّذي يَظهَرُ انقِسامُ ذلك بعدَ الموتِ إلى ما يُباحُ وقد يُستحَبُّ ذِكرُه ولو كَرِهَه صاحبُ السِّرِّ، كأن يكونَ فيه تزكيةٌ له مِن كرامةٍ أو مَنقبةٍ أو نحوِ ذلك، وإلى ما يُكرَهُ مُطلقًا وقد يَحرُمُ، وهو الَّذي أشار إليه ابنُ بطَّالٍ، وقد يجبُ كأن يكونَ فيه ما يجبُ ذِكرُه، كحقٍّ عليه كان يُعذَرُ بتركِ القيامِ به، فيُرجى بعدَه إذا ذُكِرَ لِمَن يقومُ به عنه أن يفعلَ ذلك). ((فتح الباري)) (١١/ ٨٢). ويُنظر: ((شرح صحيح البخارى)) لابن بطال (٩/ ٦٤).

وسلَّم: ((مَن كُنْتُ مَوْلاه فعَليٌّ مَولاه))[١] وأنَّها وِلايةُ التَّمليكِ، لا وَلايةُ النُّصرةِ، وهذا مِن حَماقاتِ الرَّافِضةِ الَّتي لا تُشْكِلُ على عالِمٍ ولا جاهِلٍ؛ فلِمَ ابتاعَ إذَنْ -ليتَ شِعْري- الجواريَ والمماليكَ بالأثمانِ الغاليةِ إنْ كان -على زعْمِهم- مالِكَهم ومالِكَ ساداتِهم؟! بل لِمَ أصدَقَ حرائرَه إنْ كُنَّ بالمِلْكِ جواريَه؟! أمْ لِمَ فَعلَه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَبْلَه، الَّذي وَرِثَ الوَلايةَ عنه، واستحَقَّها به؟! إنَّ هذا لأقبَحُ مَقالٍ، وأجدَرُه بطُرُقِ المُحالِ. نعوذُ باللهِ مِن الضَّلالِ[٢].

١٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فيه سؤالٌ: إن كان المرادُ بـ (صَالِحُ) الفَردَ، فأيُّ فَردٍ هو؟ مع أنَّه لا يُناسِبُ جَمْعَ الملائِكةِ بَعْدَه؟ أو الجَمْعَ، فهلا كُتِبَ في المُصحَفِ بالواوِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: هو فَردٌ أُريدَ به الجَمعُ، كقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧].

الوَجهُ الثَّاني: هو جَمعٌ، لكِنَّه كُتِبَ في المُصحَفِ بغَيرِ (واوٍ) على اللَّفظِ[٣]، أي: حُذِفَتْ منه الواوُ خطًّا؛ لحذْفِها لَفظًا.

---

(١) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٨١٤٥)، وأحمدُ (٢٢٩٤٥) مِن حديثِ بُرَيدةَ الأسْلَميِّ رضيَ الله عنه.

جوَّد إسنادَه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (٥/ ٦٧٦)، وصحَّح إسنادَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٢١١)، والألبانيُّ على شرطِ الشَّيخَينِ أو مسلمٍ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٤/ ٣٣٦)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ على شرطِ الشَّيخَينِ في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٨/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٢).

١٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ في هذا أكبَرُ فَضيلةٍ وشَرَفٍ لسيِّدِ المُرسَلينَ؛ حيثُ جَعَل الباري نَفْسَه الكريمةَ وخواصَّ خَلْقِه أعوانًا لهذا الرَّسولِ الكَريمِ(١).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جوازُ إطلاقِ المَولَى على بني آدمَ، وأنْ تقولَ: «هذا فُلانٌ مَولايَ» وما أشْبَهَ ذلك، لكنَّ إطلاقَها على المخلوقِ ليس كإطلاقِها على اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى له الوَلايةُ المُطلَقةُ، وأمَّا الإنسانُ فوَلايتُه مُقيَّدةٌ(٢).

٢١- مَن نَصَرَ رسولَ اللهِ، وذَبَّ عنه أعداءَه، ونافَحَ عنه؛ كان جبريلُ معه ومؤيِّدًا له كما قال الله تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ أفضلَ الأولياءِ مِن هذه الأُمَّةِ هم صالِحو المؤمِنينَ الَّذين صَحِبوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٤).

٢٣- قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ...﴾ لَمَّا سمِعْنَ -رضيَ اللهُ عنهنَّ- هذا التَّخويفَ والتَّأديبَ، بادَرْنَ إلى رضا رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكان هذا الوصفُ منطبقًا عليهنَّ، فصِرْنَ أفضلَ نساءِ المؤمنينَ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الله لا يختارُ لرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا أكملَ الأحوالِ، وأعلى الأمورِ، فلَمَّا اختار اللهُ تعالى لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٣/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ٢٤٧).

وسلَّم بَقاءَ نِسائِه المذكوراتِ معه، دَلَّ على أنَّهنَّ خَيرُ النِّساءِ وأكمَلُهنَّ[١].

٢٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يكونُ المُبدَلاتُ خَيرًا مِنهنَّ، ولم يكُنْ على وَجهِ الأرضِ نِساءٌ خَيرٌ مِن أمَّهاتِ المؤمِنينَ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: إذا طلَّقَهنَّ الرَّسولُ لعِصيانِهنَّ له، وإيذائِهنَّ إيَّاه، لم يَبقَينَ على تلك الصِّفةِ، وكان غيرُهنَّ مِن الموصوفاتِ بهذه الأوصافِ مع الطَّاعةِ لرَسولِ اللهِ خيرًا مِنهنَّ[٢].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ اللهَ تعالى كان عالِمًا بأنَّه لا يُطَلِّقُهنَّ، ولكِنْ أخبَرَ عن قُدرتِه على أنَّه إن طلَّقَهنَّ أبدَلَه خيرًا مِنهنَّ؛ تخويفًا لهنَّ، كقَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٨]، وهو إخبارٌ عن القُدرةِ وتخويفٌ لهم، لا أنَّ في الوُجودِ مَن هو خيرٌ مِن أصحابِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

الوَجهُ الثَّالثُ: هذا على سَبيلِ الفَرْضِ، وعامٌّ في الدُّنيا والآخِرةِ، فلا يَقتضي وُجودَ مَن هو خيرٌ منهنَّ مُطلَقًا، وإنْ قيل بوُجودِه في خديجةَ رَضِيَ اللهُ عنها؛ لِمَا جَرَّب مِن تحامُلِها على نَفْسِها في حَقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبُلوغِها في حُبِّه والأدَبِ معه ظاهِرًا وباطِنًا النِّهايةَ القُصوى، ومَريمَ عليها السَّلامُ الَّتي أحصَنَت فَرْجَها حتَّى كانت مِن القانِتينَ، وذلك في الآخِرةِ، والكَلامُ خارِجٌ مَخرَجَ الشَّرطِ بالطَّلاقِ، وقد عَلِمَ سُبحانَه أنَّه لا يَقَعُ، لكِنَّه سُبحانَه عَلِمَ أنَّه لو وَقَع أبدَلَه صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٢٠٢).

عليه وسلَّم مَن هو بالصِّفاتِ المذكورةِ المقتَضِيةِ للإخلاصِ[١].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ﴾ دليلٌ على المُرجئةِ -فيما يَزعُمونَ أنَّ الإيمانَ لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ-؛ إذ لا يَشُكُّ أحَدٌ أنَّ نِساءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كُنَّ لا محالةَ مُسلِماتٍ مُؤمِناتٍ، ولم يَكُنَّ كوافِرَ، فهل تكونُ المفضَّلاتُ عليهنَّ بالإسلامِ والإيمانِ -إنْ طُلِّقْنَ- خَيرًا مِنهنَّ إلَّا بزيادةٍ في الإيمانِ والإسلامِ[٢]؟!

٢٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا﴾ سَوقُ هذه الأوصافِ هذا السِّياقَ في عِتابِ مَن هو متَّصِفٌ بها: مُعَرِّفٌ أنَّ المرادَ منها التَّمامُ، لا سِيَّما وهي لا يُوجَدُ وَصفٌ منها على سَبيلِ الرُّسوخِ إلَّا كان مُستلزِمًا لسائِرِها؛ فلذلك لم يُحتَجْ في تَعدادِها إلى العَطفِ بالواوِ، والتَّجريدُ عنه أقعَدُ في الدَّلالةِ على إرادةِ اجتِماعِها كُلِّها[٣].

٢٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا﴾ تَذكيرٌ لهنَّ بأنَّهنَّ ما اكْتَسَبْنَ التَّفضيلَ على النِّساءِ إلَّا مِن فضْلِ زَوجِهنَّ عِندَ اللهِ[٤].

٢٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٣).

قال السعدي: (وهذا مِن بابِ التَّعليقِ الَّذي لم يُوجَدْ، ولا يَلزمُ وُجودُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٠).

قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ فيه بيانُ أنَّ الخَيريَّةَ الَّتي يَختارُها اللهُ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النِّساءِ: هي تلك الصِّفاتُ مِن الإيمانِ والصَّلاحِ[١].

٢٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٖ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ فيه سُؤالٌ: كيف أثبَتَ الخَيريَّةَ لهُنَّ بالصِّفاتِ المذكورةِ بقَولِه ﴿مُسۡلِمَٰتٖ﴾ إلى آخِرِه، مع اتِّصافِ أزواجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بها أيضًا؟

الجوابُ: المرادُ ﴿خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾ في حِفظِ قَلْبِه، ومُتابَعةِ رِضاه، مع اتِّصافِهنَّ بهذه الصِّفاتِ المُشتَرَكةِ بيْنَكنَّ وبيْنَهنَّ[٢]. أو لزيادتهنَّ عليهنَّ في بعضِها كما تقدَّم.

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ إدخالُ الثَّيِّبِ مع البِكْرِ في مَوضعِ المدحِ مِمَّا يدُلُّ على أنَّها ممدوحةٌ أيضًا، وإنْ كانتِ البِكرُ أفضَلَ منها[٣].

٣١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ فيه سُؤالٌ: ذِكرُ الثَّيِّباتِ في مَقامِ المدحِ، وهنَّ مِن جُملةِ ما يقِلُّ رَغبةُ الرِّجالِ فيهنَّ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: يُمكِنُ أن يكونَ البَعضُ مِنَ الثَّيِّبِ خَيرًا بالنِّسبةِ إلى البَعضِ مِنَ الأبكارِ؛ لاختِصاصِهنَّ بالمالِ والجَمالِ أو النَّسَبِ، أو المجموعِ مَثَلًا، وإذا كان كذلك فلا يَقدَحُ ذِكرُ الثَّيِّبِ في المدحِ؛ لجوازِ أن يكونَ المرادُ مِثلَ ما ذكَرْناه مِن الثَّيِّبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٢، ٥٧٣). ويُنظر الفائدةُ (٢٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧١، ٥٧٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٣٠).

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ الثَّيِّبَ تُمدَحُ مِن جِهةِ أنَّها أكثَرُ تَجرِبةً وعَقلًا، وأسرَعُ حَبَلًا غالِبًا، وأرْعى لواجباتِ الزَّوجِ، وأميَلُ مع أهوائِه، وأقوَمُ على بَيتِه، والبِكرُ تُمدَحُ مِن جِهةِ أنَّها أطهَرُ وأطيَبُ، وأكثَرُ مُداعَبةً ومُلاعَبةً غالِبًا، وأشدُّ حَياءً، وأكثرُ غَرارةً ودَلًّا؛ فوَجْهُ التَّفصيلِ في الزَّوجاتِ المقدَّراتِ أنَّ لِكِلْتا الصِّفتينِ مَحاسِنَها عِندَ الرِّجالِ[١].

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّه جمَع بيْنَهما في مَوضِعِ الامتِنانِ على الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لئلَّا تُصرَفَ كلُّ الرَّغبةِ إلى الأبكارِ، بل يَتزَوَّجونَ الثَّيِّباتِ كما يَتزَوَّجونَ الأبكارَ[٢].

٣٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ تَزَوُّجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس على حسَبِ الشَّهوةِ والرَّغبةِ، بل على حسَبِ ابتِغاءِ مَرضاتِ اللهِ تعالى[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ افتِتاحُ السُّورةِ بخِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنِّداءِ تَنبيهٌ على أنَّ ما سيُذْكَرُ بَعْدَه ممَّا يَهتَمُّ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والأُمَّةُ، ولأنَّ سبَبَ النُّزولِ كان مِن عَلائقِه[٤].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ نِداءُ إقبالٍ وتَشريفٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٧).

- قولُه: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ سُؤالُ تَلطُّفٍ؛ ولذلكَ قُدِّمَ قَبْلَه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾[١]. وهذا الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في معْنى النَّفي، أي: لا يُوجدُ ما يَدْعو إلى أنْ تُحرِّمَ على نفْسِكَ ما أحلَّ اللهُ لكَ؛ ذلك أنَّه لَمَّا الْتزَمَ عدَمَ العَودِ إلى ما صدَرَ مِنه الْتزامًا بيَمينٍ أو بدونِ يمينٍ، أرادَ الامتناعَ مِنه في المستقبَلِ، قاصدًا بذلكَ تَطمينَ أزواجِه اللَّائي تَمالَأْنَ عليه لفَرْطِ غَيرَتِهنَّ[٢].

- وجاءَ قولُه: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ بصِيغةِ المُضارعِ؛ لأنَّه أوقَعَ تَحريمًا مُتجدِّدًا[٣].

- وفي الإتيانِ بالموصولِ في قولِه: ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإيماءِ إلى تَعليلِ الحُكْمِ هو أنَّ ما أحلَّه اللهُ لعبْدِه يَنْبَغي له أنْ يتمتَّعَ به ما لم يَعرِضْ له ما يُوجِبُ قطْعَه مِن ضُرٍّ أو مرَضٍ؛ لأنَّ تَناولَه شُكرٌ للهِ، واعتِرافٌ بنِعمتِه، والحاجةِ إليه[٤].

- وجُملةُ ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ إمَّا تَفسيرٌ لـ ﴿تُحَرِّمُ﴾، أو حالٌ مِن فاعلِه، أو استِئنافٌ ببَيانِ ما دَعاه إليه، مُؤْذِنٌ بعدَمِ صَلاحيتِكَ لذلكَ[٥].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَذييلٌ، وفيه استِئناسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن وَحشةِ هذا المَلامِ، أي: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لكَ[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ، بيَّنَ اللهُ به لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما شرَعَه مِن كفَّارةِ اليمينِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٤٦، ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٧).

وأفْتاهُ بأنْ يأخُذَ برُخصتِه في كفَّارةِ اليمينِ المشروعةِ للأمَّةِ كلِّها[١].

- وافتتاحُ الخبرِ بحرْفِ التَّحقيقِ (قدْ)؛ لتَنزيلِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَنزلةَ مَن لا يعلَمُ أنَّ اللهَ فرَضَ تَحِلَّةَ الأيْمانِ بآيةِ الكفَّارةِ، بناءً على أنَّه لم يأخُذْ بالرُّخصةِ تَعظيمًا للقسَمِ، فأعلَمَه اللهُ أنَّ الأخْذَ بالكفَّارةِ لا تَقصيرَ عليه فيه؛ فإنَّ في الكَفَّارةِ ما يَكفي للوَفاءِ بتَعظيمِ اليمينِ باللهِ تعالَى[٢].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾، والمولى: الوليُّ، وهو النَّاصرُ ومُتولِّي تَدبيرِ ما أُضيفَ إليه، وهو هُنا كِنايةٌ عن الرَّؤوفِ والمُيسِّرِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ هذا تَذكيرٌ ومَوعظةٌ بما جَرَى في خِلالِ تَيْنِكَ الحادثتَيْنِ -أنَّه الْتزَم ألَّا يعودَ لشُربِ ما شَربه، أو كان وعَدَ أنْ يُحرِّمَ ماريةَ على نفْسِه-، ثُنِيَ إليه عِنانُ الكلامِ بعْدَ أنْ قُضِيَ ما يُهِمُّ مِنَ التَّشريعِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما حرَّمَ على نفْسِه مِن جرَّائِهما[٤]. وذُكِرَ ذلكَ على سَبيلِ التَّأنيبِ لِمَن أسَرَّ له فأفشاهُ[٥].

- وقد أُعيدَ ما دلَّتْ عليه الآيةُ السَّابقةُ ضِمْنًا بما تَضمَّنَتْه هذه الآيةُ بأُسلوبٍ آخَرَ؛ لِيُبْنَى عليه ما فيه مِن عِبَرٍ ومَواعِظَ، وأدَبٍ ومكارِمَ، وتَنبيهٍ وتحذيرٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٠).

- قولُه: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ المقصودُ ببعضِ أزواجِه هي حَفصةُ بنتُ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضيَ اللهُ عنهما، وعُدِلَ عن ذِكْرِ اسمِها؛ تَرفُّعًا عن أنْ يكونَ القصدُ مَعرفةَ الأعيانِ، وإنَّما المرادُ العِلمُ بمَغزى القِصَّةِ، وما فيها ممَّا يُجتنَبُ مِثْلُه أو يُقْتدَى به، وكذلكَ طَيُّ تَعيينِ المُنبَّأةِ بالحديثِ، وهي عائشةُ رَضيَ اللهُ عنها[1]. وقيل: أبهَمَ الزَّوجةَ ولم يُعَيِّنْها سُبحانَه؛ تشريفًا له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولها رَضِيَ اللهُ عنهنَّ[2].

- وكان القياسُ أنْ يُقالَ: (نبَّأَتْ به بعضَهُنَّ) بدَلَ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾؛ لأنَّ حَفصةَ نبَّأَتْ بالحديثِ الَّذي أسرَّها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعضَ أزواجِه، يعني: عائشةَ، وأنْ يُقالَ: (عرَّفَها بَعضَه)؛ لأنَّه عرَّفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعضَ الحديثِ لحَفصةَ، وعُدِلَ عن ذلك؛ لأنَّ سِياقَ الكلامِ ليس في شأنِ المُذاعِ إليه -أيْ: عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها- وفي شأنِ المُعرِّفِ -أي: حفصةَ رَضِيَ اللهُ عنها- ليَذْكُرَهما، بلْ في مُعاتَبةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وابتغائِه مَرْضاةَ أزواجِه، وفي شأنِ جِنايةِ حَفصةَ، ثُمَّ في حُكْمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وإعراضِه عن بَعضِ جِنايتِها، فلمَّا دلَّ قولُه: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ على الجنايةِ، وقولُه: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ على الإعراضِ عن البعضِ؛ أتَى بهما، وترَكَ ذِكْرَهما، ويَعْضُدُه إتيانُ ضَميرِ المُنبَّأِ به في قولِه: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾، مع الاستِغناءِ عنه بقَرينةِ الأحوالِ؛ لأنَّه هو المقصودُ في الذِّكْرِ[3].

- وضَميرُ ﴿عَلَيْهِ﴾ عائدٌ إلى الإنباءِ المأخوذِ مِن ﴿نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾، أو على الحديثِ، بتَقديرِ مُضافٍ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾، تَقديرُه: أظْهَرَه اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٩٩).

على إفشائِه[١].

- ومَفعولُ ﴿عَرَّفَ﴾ الأوَّلُ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه، أي: عرَّفَها بَعضَه، أي: بعضَ ما أطْلَعَه اللهُ عليه، وأعرَضَ عن تَعريفِها ببَعضِه[٢].

- قولُه: ﴿عَرَّفَ﴾ قُرِئ ﴿عَرَفَ﴾ -بتَخفيفِ الرَّاءِ[٣]، أي: عَلِمَ بعضَه-؛ فذلك كِنايةٌ عن المُجازاةِ، أي: جازَى عن بعضِه الَّتي أفشَتْه باللَّومِ والعَتْبِ، وقدْ يُكنَّى عن التَّوعُّدِ بفِعلِ العِلمِ[٤].

- قولُه: ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا﴾ الاستِفهامُ هنا حَقيقيٌّ. ويجوزُ جعْلُه للتَّعجُّبِ مِن عِلمِه بذلكَ، وفي هذا كِنايةٌ عن تَيقُّظِ حَفصةَ بأنَّ إفشاءَها سِرَّ زَوجِها زلَّةٌ خُلقيَّةٌ عظيمةٌ حجَبَها عن مُراعاتِها شِدَّةُ الصَّفاءِ لعائشةِ، وفرْطُ إعجابِها بتَحريمِ ماريةَ مِن أجْلِها -على أحدِ القولَينِ-، فلَمْ تَتمالَكْ عن أنْ تُبشِّرَ به خليلتَها ونصيرتَها، ولو تَذكَّرَتْ لتَبيَّنَ لها أنْ مُقتضَى كتْمِ سِرِّ زَوجِها أقوى مِن مُقتضى إعلامِها خليلتَها؛ فإنَّ أواصِرَ الزَّوجيَّةِ أقْوى مِن أواصِرِ الخُلَّةِ، وواجبَ الإخلاصِ لرَسولِ اللهِ أعْلى مِن فَضيلةِ الإخلاصِ للخلائلِ[٥].

- وإيثارُ وصْفَي ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ في قولِه: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ دونَ الاسمِ العَلَمِ (الله)؛ لِمَا فيهما مِنَ التَّذكيرِ بما يجبُ أنْ يَعْلَمَه النَّاسُ مِن إحاطةِ اللهِ تعالَى عِلْمًا وخُبْرًا بكلِّ شَيءٍ. وفي إتْباعِ وصْفِ العليمِ بوَصْفِ الخَبيرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٢).

(٣) قرأ الكِسائيُّ: ﴿عَرَفَ﴾ بتخفيفِ الرَّاءِ، وقرأ الباقونَ بتشديدِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٤).

إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ عَلِمَ دَخيلةَ المُخاطَبةِ وما قصَدَتْه مِن إفشاءِ السِّرِّ للأُخرَى[١]، ولِما في اسمِ الله (الخبيرِ) مِن المُبالَغةِ ما ليس في (العليم)[٢].

- فإنْ قِيل: لِمَ تُرِكَ الضَّميرُ في قولِه: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾؟

فالجوابُ: لكونِه جوابًا عن قولِها: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾، وقد اعتُمِدَ في السُّؤالِ عن المُنْبِئِ، وأُوقِعَ المنبَّأُ به فضْلةً في الكلامِ، ولأنَّ في تَرْكِه إفادةَ الشُّمولِ والتَّفخيمِ؛ لذلك أُردِفَ بالعليمِ الخَبيرِ، أي: العليمُ بكُلِّيَّاتِ الأحوالِ، والخبيرُ بجُزئيَّاتِها[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الْتِفاتٌ مِن ذِكْرِ القصَّتَيْنِ إلى مَوعظةِ مَن تعلَّقَتْ بهما؛ فهو استِئنافُ خِطابٍ وجَّهَه اللهُ إلى حَفصةَ وعائشةَ رَضيَ اللهُ عنهما؛ لأنَّ إنباءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعِلْمِه بما أفشَتْه، القصدُ منه المُبالَغةُ في المُعاتَبةِ، مع المَوعظةِ والتَّحذيرِ والإرشادِ إلى رَأْبِ ما انْثَلَمَ مِن واجبِها نحوَ زَوجِها، وإذْ قدْ كانَ ذلكَ إثمًا -لأنَّه إضاعةٌ لحُقوقِ الزَّوجِ، وخاصَّةً بإفشاءِ سرِّه- ذكَّرَها بواجبِ التَّوبةِ منه[٤].

- وجُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ قائمةٌ مِن مَقامِ جوابِ الشَّرطِ معنًى؛ لأنَّها تُفيدُ معْنى: يَتولَّى جَزاءَكُما على المُظاهَرةِ عليه؛ لأنَّ اللهَ مَولاهُ، وفي هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٦).

الحَذفِ مَجالٌ تَذهَبُ فيه نفْسُ السامعِ كلَّ مَذهبٍ مِنَ التَّهويلِ[١].

- وضَميرُ الفصلِ (هُوَ) في جُملةِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ يُفيدُ القَصرَ على تَقديرِ حُصولِ الشَّرطِ، أي: إنْ تظاهَرْتُما مُتناصِرَتَيْنِ عليه فإنَّ اللهَ هو ناصرُه لا أنتُما، أي: وبطَلَ نصْرُكما الَّذي هو واجبُكما؛ إذ أخلَلْتُما به على هذا التَّقديرِ، وفي هذا تَعريفٌ بأنَّ اللهَ ناصرٌ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لئلَّا يقَعَ أحَدٌ مِن بعْدُ في مُحاولةِ التَّقصيرِ مِن نَصرِه[٢].

- وبُدِئَ بجِبريلَ عليه السَّلامُ، وأُفرِدَ بالذِّكْرِ؛ تَعظيمًا له، وإظهارًا لمَكانتِه عِندَ اللهِ، ويكونُ قدْ ذُكِرَ مرَّتَينِ: مرَّةً بالنَّصِّ، ومرَّةً في العمومِ في قولِه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[٣].

- واكتَنَفَ صالِحَ المُؤمِنينَ جِبريلُ والملائكةُ؛ تَشريفًا لهُم، واعتِناءً بهِم؛ إذْ جعلَهم بيْنَ الَّذينَ يُسبِّحونَ اللَّيلَ والنَّهارَ لا يَفْتُرونَ[٤].

- وقولُه: ﴿وَصَٰلِحُ﴾ مُفرَدٌ أُريدَ به معْنى الفَريقِ الصَّالحِ، أو الجِنسِ الصَّالحِ مِنَ المُؤمِنينَ؛ ولذلكَ عُمِّمَ بالإضافةِ[٥]. وقيل: أرادَ بصالحِ المُؤمِنينَ أبا بَكْرٍ وعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، وهو اللَّائقُ بتَوسُّطِه بيْنَ جِبريلَ والملائكةِ عليهِمُ السَّلامُ؛ فإنَّه جمْعٌ بيْنَ الظَّهيرِ المعنويِّ والظَّهيرِ الصُّوريِّ، كيفَ لا وإنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٨).

جبريلَ ظَهيرٌ له، يُؤيِّدُه بالتَّأييداتِ الإلهيَّةِ، وهُما وَزيراه وظَهيراه في تَدبيرِ أُمورِ الرِّسالةِ، وتمشيةِ أحكامِها الظَّاهرةِ، ولأنَّ بَيانَ مُظاهَرتِهما له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أشدُّ تأثيرًا في قُلوبِ بنتَيْهِما، وتَوهينًا لأمرِهما؛ فكان حقيقًا بالتَّقديمِ، بخِلافِ ما إذا أُريدَ به جِنسُ الصَّالِحينَ كما هو المشهورُ[١].

- قولُه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ عطفُ جملةٍ على الَّتي قبْلَها، والمقصودُ منه تَعظيمُ هذا النَّصرِ بوَفرةِ النَّاصرينَ؛ تَنويهًا بمَحبَّةِ أهلِ السَّماءِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحُسْنِ ذِكْرِه بيْنَهُم؛ فإنَّ ذلكَ ممَّا يَزيدُ نصْرَ اللهِ إيَّاهُ شأنًا[٢].

وفائدةُ ذِكْرِ الملائكةِ بعْدَ ذِكْرِ تأْييدِ اللهِ وجِبريلَ وصالحِ المُؤمنينَ: أنَّ المذكورينَ قَبْلَهم ظاهرةٌ آثارُ تأْييدِهم بوحْيِ اللهِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بواسطةِ جِبريلَ، ونصْرِه إيَّاه بواسِطةِ المُؤمنينَ؛ فنبَّهَ اللهُ المرأتَيْنِ على تأْييدٍ آخَرَ غيرِ ظاهرةٍ آثارُه، وهو تأْييدُ الملائكةِ بالنَّصرِ في يومِ بدْرٍ، وغيرِ النَّصرِ مِنَ الاستِغفارِ في السَّمواتِ، فلا يَتوهَّمْ أحَدٌ أنَّ هذا يَقتضي تَفضيلَ نُصرةِ الملائكةِ على نُصرةِ جِبريلَ، بَلْهَ نُصرةَ اللهِ تعالى[٣].

- قولُه: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: أي: بعدَ نُصرةِ الله عزَّ وجلَّ وجبريلَ وصالحِ المؤمنينَ، ومظاهرةُ الملائكةِ مِن جملةِ نصرةِ الله، قيل: فكأنَّه فضَّل نصرتَه تعالى بهم وبمظاهرتِهم على غيرِها مِن وجوهِ نصرتِه تعالى؛ لفضلِهم على جميعِ خلقِه، وقيل: الأنسَبُ أنْ يُجعَلَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى مُظاهَرةِ صالحِ المُؤمنينَ خاصَّةً، ويكونَ بيانُ بَعْديَّةِ مُظاهَرةِ الملائكةِ تَدارُكًا لِمَا يُوهِمُه التَّرتيبُ الذِّكْريُّ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥٨، ٣٥٩).

أفضليَّةِ المُقدَّم، فكأنَّه قيلَ بعْدَ ذِكْرِ مُظاهَرةِ صالحِ المُؤمنينَ: وسائرُ الملائكةِ بَعْدَ ذلكَ ظَهيرٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ إيذانًا بعُلُوِّ رُتبةِ مُظاهَرتِهم، وبُعْدِ مَنزلتِها، وجبْرًا لفصْلِها عن مُظاهَرةِ جبريلَ عليه السَّلامُ[(١)].

- وأُفْرِدَ الظَّهيرُ؛ لأنَّ المُرادَ فَوجٌ ظهيرٌ، وكثيرًا ما يأتي فَعيلٌ نَحْوُ هذا للمُفرَدِ والمُثنَّى والمجموعِ بلَفظِ المفرَدِ، كأنَّهم في المُظاهَرةِ يَدٌ واحدةٌ على مَن يُعاديهِ، فما قَدْرُ تظاهُرِ امرأتَيْنِ على مَن هؤلاءِ ظُهراؤُه[(٢)]؟!

٥- قولُه تعالَى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا﴾

- قولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ عُدِلَ به إلى تَذكيرِ جَميعِ أزواجِه عليه السَّلامُ بالحذَرِ مِن أنْ يَضيقَ صَدْرُه عن تحمُّلِ أمثالِ هذا الصَّنيعِ، فيُفارِقَهنَّ؛ لتُقلِعَ المُتلبِّسةُ، وتَحذَرَ غيرُها مِن مِثلِ فِعلِها، فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا عُقِّبَتْ بها جُملةُ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، الَّتي أفادَتِ التَّحذيرَ مِن عِقابٍ في الآخِرةِ إنْ لم يَتُوبَا ممَّا جَرَى مِنهما في شأْنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أفادَ هذا الإيماءُ إلى التَّحذيرِ مِن عُقوبةٍ دُنيويَّةٍ لهُنَّ يأمُرُ اللهُ فيها نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهي عُقوبةُ الطَّلاقِ، على ما يَحصُلُ مِنَ المؤاخَذةِ في الآخِرةِ إنْ لم يَتُوبا؛ ولذلكَ فُصِلتْ عن الَّتي قَبْلَها -أي: لم تُعطَفْ عليها- لاختِلافِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦، ٥٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧).

الغرَضَيْنِ[١].

- قولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ ...﴾ ﴿عَسَىٰ﴾ هُنا مُستعمَلةٌ في التَّحقيقِ، وإيثارُها هنا؛ لأنَّ هذا التَّبديلَ مُجرَّدُ فرْضٍ، وليس بالواقِعِ؛ لأنَّهنَّ لا يُظَنُّ بهِنَّ عدَمُ الارْعِواءِ عمَّا حُذِّرْنَ منه[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ فيه إيجازٌ بحذْفِ ما يَترتَّبُ عليه إبدالُهنَّ مِن تَقديرِ: إنْ فارَقكنَّ، فالتَّقديرُ: عسى أنْ يُطلِّقَكنَّ هو -وإنَّما يُطَلِّقُ بإذنِ ربِّه- أنْ يُبدِلَه ربُّه بأزواجٍ خيرٍ مِنكُنَّ[٣].

- قولُه: ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ إجراءُ الأوصافِ المُفصَّلةِ بعْدَ الوصفِ المُجمَلِ -وهو ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾-؛ للتَّنبيهِ على أنَّ أصولَ التَّفضيلِ مَوجودةٌ فيهِنَّ، فيَكمُلُ للَّائي يَتزوَّجُهنَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فضْلٌ على بَقيَّةِ النِّساءِ بأنَّهنَّ صِرْنَ أزواجًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤].

- وفي هذا الوصفِ ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ إشعارٌ بأنَّهنَّ مُديماتٌ لطاعةِ اللهِ ورسولِه؛ ففيه تعريضٌ لِمَا وقَعَ مِن تقصيرِ إحداهُنَّ في ذلكَ، فعاتَبَها اللهُ وأيقَظَها للتَّوبةِ[٥].

- قولُه: ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ التَّائباتُ: المُقلِعاتُ عن الذَّنْبِ إذا وقَعْنَ فيه، وفيه تَعريضٌ بإعادةِ التَّحريضِ على التَّوبةِ مِن ذنْبِهما الَّتي أُمِرتَا بها بقولِه: ﴿إِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٦١).

نَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[١] [التحريم: ٤].

- وانتَصَبَتْ هذه الصِّفاتُ على أنَّها نُعوتٌ لـ ﴿أَزْوَٰجًا﴾، ولم يُعطَفْ بعضُها على بعضٍ بالواوِ؛ مِن أجْلِ التَّنصيصِ على ثُبوتِ جَميعِ تلكَ الصِّفاتِ لكلِّ واحدةٍ مِنهُنَّ، ولو عُطِفَت بالواوِ لاحتَمَلَ أنْ تكونَ الواوُ للتَّقسيمِ، أي: تَقسيمِ الأزواجِ إلى مَن يَثبُتُ لهُنَّ بعضُ تلك الصِّفاتِ دونَ بعضٍ، ألَا تَرى أنَّه لَمَّا أُريدَتْ إفادةُ ثُبوتِ إحْدى صِفتَينِ دونَ أُخرى مِن النَّعتَينِ الواقعَينِ بعْدَ ذلك، كيف عُطِفَ بالواوِ قولُه: ﴿وَأَبْكَارًا﴾؛ لأنَّ الثَّيِّباتِ لا يُوصَفْنَ بأبكارٍ، والأبكارَ لا يُوصَفْنَ بالثَّيِّباتِ[٢]، فالثُّيُوبةُ والبَكارةُ لا يَجتمعانِ، فلذلكَ عطَفَ أحَدَهما على الآخَرِ، ولو لم يأْتِ بالواوِ لاختلَّ المعنى، وذكَرَ الجِنسَيْنِ؛ لأنَّ في أزواجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَن تزوَّجَها بِكرًا، ومَن تزوَّجَها ثيِّبًا، فدخولُ الواوِ هاهنا مُتعيِّنٌ. وقيل: وُسِّط العاطفُ بين الصِّفتينِ ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ لأنَّهما في حُكمِ صِفةٍ واحدةٍ؛ إذِ المعنى: مُشتمِلاتٌ على الثَّيِّباتِ والأبكارِ، فالمقصودُ أنَّه يُزوِّجُه بالنَّوعَينِ: الثَّيِّباتِ والأبكارِ[٣].

- وتَقديمُ وصْفِ ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾؛ لأنَّ أكثَرَ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا تزوَّجَهُنَّ كُنَّ ثيِّباتٍ، ولعلَّه إشارةٌ إلى أنَّ المَلامَ الأشدَّ مُوَجَّهٌ إلى حَفصةَ قبْلَ عائشةَ، وكانتْ حَفصةُ ممَّن تزوَّجَهُنَّ ثيِّباتٍ، وعائشةُ هي الَّتي تزوَّجَها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٧، ٥٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦١، ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٤).

بِكرًا، وهذا التَّعريضُ أُسلوبٌ مِن أساليبِ التَّأديبِ، كما قيل: الحُرُّ تكفيه الإشارةُ[١]. وقيل: إنَّ هذا للتَّنويعِ فقط. وقيل: إنَّه قَدَّم الثَّيِّباتِ؛ ليُبَيِّنَ أنَّ الخَيريَّةَ فيهنَّ بحسَبِ العِشرةِ ومحاسِنِ الأخلاقِ[٢]. وقيل: بَدَأَ بالثَّيِّباتِ؛ لِيُشيرَ إلى أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَتزوَّجُ المرأةَ لِبَكارَتِها، ولكنْ للمعاني الجليلةِ ولو كانت ثَيِّبًا[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((جلسات رمضانية)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٣).

الآيات (٦-٩)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَّصُوحًا﴾: أي صادِقةً بالِغةً في النُّصحِ، خالِصةً، عامَّةً مِن جميعِ الذُّنوبِ، يَنوي التَّائبُ فيها عَدَمَ مُعاوَدةِ المعصيةِ، وأصلُ (نصح): يدُلُّ على مُلاءَمةٍ بيْن شَيئَينِ وإصلاحٍ لهما[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُوجِّهُ اللهُ تعالى النِّداءَ للمؤمنينَ، آمِرًا لهم أن يُؤَدُّوا واجبَهم نحوَ أنفُسِهم ونحوَ أهليهم، حتَّى يَنجوا مِن عذابِ النَّارِ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا قُوا أنفُسَكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٨).

قال ابن القيم: (أصلُ مادَّةِ «ن ص ح» لِخَلاصِ الشَّيءِ مِن الغِشِّ والشَّوائبِ الغريبةِ، وهو مُلاقٍ في الاشتِقاقِ الأكبَرِ لِنَصَحَ إذا خلَصَ، فالنُّصحُ في التَّوبةِ والعبادةِ والمَشورةِ: تخليصُها مِن كلِّ غِشٍّ ونَقصٍ وفَسادٍ، وإيقاعُها على أكملِ الوُجوهِ، والنُّصحُ ضِدُّ الغِشِّ). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣١٦).

-بالعِلمِ النَّافِعِ، والعَمَلِ الصَّالحِ-، وأهلِيكم -بتعليمِهم وتأديبِهم- نارًا حَطَبُها الَّذي تُوقَدُ به الكُفَّارُ والحِجارةُ، عليها مَلائِكةٌ وكَّلَهم اللهُ بها، غِلاظٌ شِدادٌ، لا يُخالِفونَ أمْرَ اللهِ، ويَفعَلونَ ما يُؤمَرونَ بفِعْلِه.

ثمَّ يَذكرُ الله تعالى ما يُقالُ للكافرينَ في الآخرةِ توبيخًا لهم، وبيانًا لسوءِ عاقبتِهم، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين كَفَروا لا تَعتَذِروا اليَومَ عن كُفرِكم؛ إنَّما تَنالونَ جَزاءَ ما كُنتُم تَعمَلونَ في الدُّنيا.

ثمَّ يُوجِّهُ النِّداءَ إلى المؤمنينَ آمِرًا لهم بالتَّوبةِ، ومبيِّنًا حُسنَ عاقبتِها، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا تُوبوا مِن ذُنوبِكم تَوبةً صادِقةً خالِصةً؛ عسى اللهُ أن يَمحوَ عنكم ذُنوبَكم، ويُدخِلَكم جنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ يومَ لا يُهينُ اللهُ النَّبيَّ والمُؤمِنينَ معه ولا يَفضَحُهم، نُورُهم يَمضي معهم يومَ القيامةِ؛ مِن أمامِهم وبأيْمانِهم، يقولونَ: ربَّنا زِدْ لنا نُورَنا وأتِمَّه، وامْحُ عنَّا ذُنوبَنا، وقِنا شرَّها؛ إنَّك على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ.

ثمَّ يوجِّهُ اللهُ سُبحانَه النِّداءَ إلى نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ والمُنافِقينَ، واغلُظْ عليهم بالقَولِ والفِعلِ، ومَأْواهم في الآخِرةِ نارُ جَهنَّمَ، وبِئسَ المَرجِعُ هي!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وعَظَ اللهُ عزَّ وجلَّ أزواجَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَوعظةً خاصَّةً،

أتْبَعَ ذلكَ بمَوعظةٍ عامَّةٍ للمُؤمِنينَ وأهليهِم؛ إذْ كانَتْ موعظةُ نِساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُناسِبةً لتَنبيهِ المُؤمِنينَ لعَدَمِ الغفلةِ عن مَوعظةِ أنفُسِهم، ومَوعظةِ أهليهِم، وألَّا يَصُدَّهم اسْتِبقاءُ الوُدِّ بيْنَهم عن إسداءِ النُّصحِ لهم، وإنْ كانَ في ذلك بَعضُ الأذى[١].

وأيضًا لَمَّا أبلَغَ اللهُ سُبحانَه في عِتابِ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعَلِمَ اتِّصافَهنَّ بهذه الصِّفاتِ العظيمةِ على سَبيلِ الرُّسوخِ؛ مِن دَوامِ صُحبتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهنَّ، وكان اتِّصافُهنَّ بذلك الَّذي أدَّاهنَّ إلى السَّعادةِ العُظمى إنَّما هو بحُسْنِ تأديبِ أوليائِهنَّ لهُنَّ، وإكمالِ ذلك الأدَبِ بحُسنِ عِشرتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتأدُّبِهنَّ بكريمِ أخلاقِه- أثمَرَ ذلك أمْرَ الأُمَّةِ بالتَّأسِّي به في هذه الأخلاقِ الكامِلةِ، والتَّأسِّي بأوليائِهنَّ في ذلك؛ لِيَعرِفْنَ حَقَّ اللهِ وحَقَّ الأزواجِ، فيَحصُلَ بذلك صلاحُ ذاتِ البَينِ، المثْمِرُ للخَيرِ كُلِّه[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اجعَلوا بيْن أنفُسِكم وأهليكم وبيْن النَّارِ حاجِزًا يَقيكم منها؛ بتَعليمِ أنفُسِكم العِلمَ النَّافِعَ، وقيامِكم بالعَمَلِ الصَّالحِ، وتعليمِ أهليكم وتأديبِهم، وأمْرِهم بالمعروفِ، ونَهْيِهم عن المُنكَرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٣)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٤، ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

قال السعدي: (وقايةُ الأنفُسِ بإلزامِها أمْرَ الله، والقيامِ بأمْرِه امتثالًا، ونَهْيِه اجتنابًا، والتَّوبةِ عمَّا يُسخِطُ اللهَ ويوجِبُ العذابَ، ووقايةُ الأهلِ [والأولادِ] بتأديبِهم وتعليمِهم، وإجبارِهم على أمرِ الله، فلا يَسْلَمُ العبدُ إلَّا إذا قام بما أمَرَ اللهُ به في نفْسِه، وفيمَنْ يَدخُلُ تحتَ ولايتِه مِن =

كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وعنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((ألَا كُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مَسؤولٌ عن رعيَّتِه؛ فالأميرُ الَّذي على النَّاسِ راعٍ، وهو مَسؤولٌ عن رعيَّتِه، والرَّجُلُ راعٍ على أهلِ بَيتِه، وهو مَسؤولٌ عنهم، والمرأةُ راعيةٌ على بَيتِ بَعْلِها ووَلَدِه، وهي مَسؤولةٌ عنهم، والعَبدُ راعٍ على مالِ سَيِّدِه، وهو مَسؤولٌ عنه، ألَا فكُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه))[١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((دخَلَ علَيَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وفي البَيتِ قِرامٌ[٢] فيه صُوَرٌ، فتلَوَّنَ وَجْهُه، ثمَّ تناوَلَ السِّتْرَ فهتَكَه[٣]! وقالت: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ مِن أشَدِّ النَّاسِ عذابًا يومَ القيامةِ الَّذين يُصوِّرونَ هذه الصُّوَرَ))[٤].

= الزَّوجاتِ والأولادِ وغيرِهم ممَّن هو تحتَ ولايتِه وتصَرُّفِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

قال الألوسي: (المرادُ بالأهلِ على ما قيل: ما يَشملُ الزَّوجةَ والولدَ، والعبدَ والأمَةَ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٥١).

وقيل: أهلُ الرَّجُلِ في الأصلِ: مَن يَجمَعُه وإيَّاهم مسكنٌ واحدٌ، فأهلُ الرَّجُلِ امرأتُه وولدُه والَّذين في عيالِه ونفَقَتِه، وكذا كلُّ أَخٍ وأُختٍ أو عمٍّ أو ابنِ عمٍّ أو صبيٍّ أجنبيٍّ يَقوتُه في مَنزِلِه. يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٩٦)، ((المغرب في ترتيب المعرب)) للمُطَرِّزي (ص: ٣١).

(١) رواه البخاريُّ (٧١٣٨)، ومسلمٌ (١٨٢٩) واللَّفظُ له.

(٢) قِرامٌ: أي: سِتْرٌ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٩/ ٦٧).

(٣) فهَتَكه: أي: جَذَبه فقَطَعَه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٩/ ٦٧).

(٤) رواه البخاريُّ (٦١٠٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢١٠٧).

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾.

أي: حَطَبُ النَّارِ الَّذي يُلقَى فيها فتُوقَدُ به: هو الكُفَّارُ والحِجارةُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (١/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٧).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَٱلۡحِجَارَةُ﴾: حِجارةُ الكِبْريتِ. وممَّن قال بهذا القَولِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والخازنُ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٧٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٠٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ، ومجاهِدٌ، وأبو جعفرٍ الباقِرُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٧).

قال ابن رجب: (وأكثرُ المفسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالحِجارةِ... حِجارةُ الكِبْريتِ توقدُ بها النَّارُ، ويقالُ: إنَّ فيها خمسةَ أنواعٍ مِن العذابِ ليس في غيرِها مِن الحِجارةِ: سرعةُ الإيقادِ، ونتنُ الرَّائحةِ، وكثرةُ الدُّخَانِ، وشدَّةُ الالتِصاقِ بالأبدانِ، وقوَّةُ حرِّهَا إذا أُحمِيَتْ). ((التخويف من النار)) (ص: ١٣٦).

وقال الشربيني والقِنَّوْجي: ﴿وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ كأصنامِهم منها. يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير القنوجي)) (١٤/ ٢١٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٤٤).

قال ابن كثير: (قيل: المرادُ بها الأصنامُ الَّتي تُعبَدُ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٧).

﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾.

أي: على النَّارِ مَلائِكةٌ وكَّلَهم اللهُ بالعَذابِ، غِلاظٌ لا يَرحَمونَ، شِدادٌ أقوياءُ[١]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۞ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣٠، ٣١].

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾.

أي: لا يُخالِفونَ أمْرَ اللهِ الَّذي يأمُرُهم به، ولا يَمتَنِعونَ عن طاعتِه[٢].

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

أي: ويَفعَلونَ كُلَّ ما يُؤمَرونَ بفِعْلِه؛ فهم قادِرونَ على تَنفيذِه[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

ذِكرُ هذه المقالةِ هنا استِطرادٌ يُفيدُ التَّنفيرَ مِن جَهنَّمَ بأنَّها دارُ أهلِ الكُفرِ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وإلَّا فإنَّ سِياقَ الآيةِ تَحذيرٌ للمُؤمِنينَ مِن المُوبِقاتِ في النَّارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٦١) و(٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٧٤) و(١٣/ ٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٦، ٣٦٧).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾.

أي: يُقالُ لأهلِ النَّارِ في الآخِرةِ[1]: يا أيُّها الَّذين كَفَروا لا تَعتَذِروا في هذا اليَومِ -يومِ القيامةِ- عن كُفرِكم؛ فقد فات وقتُ قَبولِ الاعتِذارِ، وزالَ نَفعُه[2]!

قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: إنَّما تَنالونَ اليَومَ جَزاءَ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي، وقد نُهيتُم عنها؛ فلا تَعتَذِروا عن أعمالِكم[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ

---

(١) قال ابنُ جزي: (يحتمِلُ أن يكونَ هذا خِطابًا مِنَ اللهِ للكُفَّارِ، أو خِطابًا مِنَ الملائِكةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٦).

قال البيضاوي: (النَّهيُ عن الاعتذارِ؛ لأنَّه لا عُذْرَ لهم، أو العُذرُ لا يَنفَعُهم). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

قال السعدي: (أي: يُوَبَّخُ أهلُ النَّارِ يومَ القيامةِ بهذا التَّوبيخِ، فيُقالُ لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: فإنَّه ذَهَب وقتُ الاعتذارِ، وزال نَفعُه، فلم يَبْقَ الآنَ إلَّا الجزاءُ على الأعمالِ، وأنتم لم تُقَدِّموا إلَّا الكُفرَ باللهِ، والتَّكذيبَ بآياتِه، ومحاربةَ رُسُلِه وأوليائِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى نبَّهَهم على دَفعِ العَذابِ يومَ القيامةِ بالتَّوبةِ في الدنيا؛ إذ في ذلك اليَومِ لا تُفيدُ[١].

وأيضًا لَمَّا أفهَمَ الأمرُ بالوِقايةِ والمَدْحُ للمَلائكةِ أنَّ المأمورينَ بالوِقايةِ مُقَصِّرونَ، قال مُرشِدًا إلى دواءِ التَّقصيرِ[٢]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا تُوبوا مِن جميعِ ذُنوبِكم تَوبةً صادِقةً بنِيَّةٍ خالِصةٍ، مع إقلاعٍ عنها، ونَدَمٍ عليها، وعَزمٍ على عَدَمِ العَودةِ إليها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

قال ابنُ كثيرٍ: (قال العُلَماءُ: التَّوبةُ النَّصوحُ هو أن يُقلِعَ عن الذَّنْبِ في الحاضِرِ، ويَندَمَ على ما سَلَف منه في الماضي، ويَعزِمَ على ألَّا يَفعَلَ في المُستقبَلِ، ثمَّ إنْ كان الحَقُّ لآدَميٍّ رَدَّه إليه بطريقِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٩).

وقال ابن القيِّم: (نُصْحُ التَّوبةِ الصِّدقُ فيها، والإخلاصُ، وتعميمُ الذُّنوبِ بها). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣١٧).

وقال السعدي: (المرادُ بها: التَّوبةُ العامَّةُ الشَّاملةُ للذُّنوبِ كلِّها، الَّتي عقَدها العبدُ لله، لا يُريدُ بها إلَّا وجْهَه والقُربَ منه، ويَستمِرُّ عليها في جميعِ أحوالِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

أي: عسى اللهُ إنْ تُبتُم توبةً نَصوحًا أن يَمحوَ عنكم ذُنوبَكم، ويَقيَكم سُوءَها[1].

كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: ويُدخِلَكم اللهُ في الآخِرةِ جنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ قُصورِها وأشجارِها[2].

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾.

أي: يومَ[3] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠١).

عن ابنِ عبَّاسٍ قال: (عسى مِن الله واجبٌ). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥١).

قال الرازي: (اتَّفق المفسِّرونَ على أنَّ كلمةَ عَسَى مِن الله واجبٌ، قال أهلُ المعاني: لأنَّ لفظةَ «عسى» تُفيدُ الإطماعَ، ومَن أطمَع إنسانًا في شيءٍ ثمَّ حرَمه كان عارًا، والله تعالى أكرَمُ مِن أن يُطمعَ أحدًا في شيءٍ ثمَّ لا يُعطيه ذلك). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٧).

وقال الشنقيطي: (جماهيرُ العُلماءِ يقولون: «عسى» مِن اللهِ واجبةٌ؛ لأنَّ اللهَ كريمٌ، لا يُطمِعُ في شيءٍ إلَّا هو فاعِلُه؛ لشِدَّةِ كرَمِه جلَّ وعلا وفَضْلِه). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

(٣) قال ابن جُزَي: (﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ العامِلُ في ﴿يَوْمَ﴾ يَحتمِلُ أن يكونَ ما قَبْلَه، أو ما بَعْدَه، أو محذوفٌ تَقديرُه: اذكُرْ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٢).

وممَّن قال بأنَّ العامِلَ هو قَولُه تعالى: (يُدْخِلَكم) أي: يُدخِلَكم جنَّاتٍ تَجري مِن تحتِها الأنهارُ في اليَومِ الَّذي لا يُخزي فيه اللهُ النَّبيَّ والَّذين آمَنوا معه: الزمخشريُّ، وابنُ عطيَّة، وابنُ عاشور. =

لا يُعَذِّبُ اللهُ مُحمَّدًا والمُؤمِنينَ معه، ولا يُهينُهم ولا يَفضَحُهم[(١)].

قال تعالى حكايةً عن قَولِ المؤمِنينَ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ * رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ * رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٢ - ١٩٤].

وقال سُبحانَه وتعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧].

= يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

قال الزَّجَّاجُ: (﴿يَوۡمَ﴾ مَنصوبٌ بقَولِه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾، أي: في هذا اليَومِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٩٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠١).

وممَّن قال بأنَّ العامِلَ مَحذوفٌ تَقديرُه: اذكُرْ: ابنُ عرفة. يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

قال ابنُ عطية: (قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ مَعطوفًا على ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾، فيَخرجُ المؤمنونَ مِن الخِزْيِ. ويحتمِلُ أن يكونَ ابتِداءً و﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ﴾ جملةٌ هي خبرُه، ويَبقى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مخصوصًا مُفَضَّلًا بأنَّه لا يُخزَى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٤).

وقال البِقاعي: (ولا يُخْزي الَّذين ﴿ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ وهم الصَّحابةُ رَضِيَ الله تعالى عنهم إن كان المرادُ المَعِيَّةَ في مُطلَقِ الزَّمانِ، وسابِقوهم إن كان المرادُ في الوصفِ أو زمانٍ مخصوصٍ كبَدْرٍ وبَيعةِ الرِّضوانِ... ونساؤُه رضيَ الله عنهُنَّ أحَقُّ بأن يَكُنَّ أوَّلَ راغبٍ في الكَونِ معه في الإيمانِ لِيبعدْنَ عن النِّيرانِ... ويجوزُ أن يكونَ «الَّذين» مُبتدَأً خبرُه ﴿نُورُهُمۡ﴾، أو يكونَ الخبرُ ﴿مَعَهُۥ﴾ إشارةً إلى أنَّ جميعَ الأنبياءِ وصالِحي أُمَمِهم مِن أمَّتِه، وتحتَ لِوائِه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾.

أي: نُورُهم يَمضي معهم يومَ القيامةِ؛ مِن أمامِهم وبأيْمانِهم[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۞ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٢، ١٣].

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧١).

قيل: ذلك يكونُ على الصِّراطِ. وممَّن نصَّ على هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٨، ٢٥٦، ٣٢٢).

قال الواحديُّ: (يعني: على الصِّراطِ يومَ القيامةِ، وهو دليلُهم إلى الجنَّةِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٤٨).

وممَّن رُويَ عنه هذا القولُ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعود، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥).

وقال ابن عاشور: (النُّورُ المذكورُ هنا نورٌ حقيقيٌّ، يَجعَلُه اللهُ للمؤمنينَ في مَسيرِهم مِن مكانِ الحَشرِ؛ إكرامًا لهم، وتنويهًا بهم في ذلك المَحشَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠) و(٢٨/ ٣٧١).

والمرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ قيل: أي: مِن الجِهةِ اليُمنى. وممَّن قال به: البِقاعي، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٢) و(٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠) و(٢٨/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الحديد)) (ص: ٣٨٦).

وقيل: المرادُ: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ كُتُبُ أعمالِهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٨، ٣٩٩) و(٢٣/ ١٠٩).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩).

ونسَبَ ابنُ عطيَّةَ إلى جمهورِ المفسِّرينَ أنَّ المرادَ: وبأيْمانِهم أصلُ النُّورِ، أي: يكونُ النُّورُ بأيْمانِهم، ومنه يَنبسِطُ نورٌ مِن أمامِهم. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦١، ٣٣٤).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ الحديدِ، الآية (١٢).

أي: يقولونَ: ربَّنا زِدْ لنا نُورَنا حتَّى يكونَ في غايةِ التَّمامِ[١].

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآ﴾.

أي: وامْحُ ذُنوبَنا، وقِنا شرَّها، وأزِلْ أثرَها[٢].

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

أي: إنَّك وَحْدَك بالِغُ القُدرةِ على فِعْلِ كُلِّ شَيءٍ، فلا يُعجِزُك شَيءٌ[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما تقدَّمَ مِن لِينِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأضعَفِ النَّاسِ؛ النِّساءِ، وحُسْنِ أدَبِه وكَريمِ عِشْرتِه؛ لأنَّه مَجبولٌ على الشَّفَقةِ على عِبادِ اللهِ، والرَّحمةِ لهم، وخَتَم بما للمؤمِنينَ مِنَ الشَّرَفِ، ولله مِن تمامِ القُدرةِ؛ أنتَجَ ذلك القَطْعَ بإذلالِ أعدائِهم، وإخزائِهم[٤].

وأيضًا لَمَّا أبلَغَ الكفَّارَ ما سيَحُلُّ بهِم في الآخِرةِ تَصريحًا بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧١).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قال المفسِّرون: إذا رأى المؤمِنونَ نورَ المنافِقينَ يُطفَأُ سألوا اللهَ أن يُتِمَّ لهم نُورَهم، ويُبَلِّغَهم به الجنَّةَ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٥).

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [التحريم: ٧]، وتَعريضًا بقولِه: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨]؛ أمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمَسْمَعٍ مِنْهم بأنْ يُجاهِدَهم، ويُجاهِدَ المُسْتَتِرينَ لكفرِهم بظاهرِ الإيمانِ نِفاقًا، حتَّى إذا لم تُؤثِّرْ فيهِمُ الموعظةُ بعِقابِ الآخِرةِ يَخْشَوْنَ أنْ يُسلِّطَ عليهم عذابَ السَّيفِ في العاجِلةِ، فيُقلِعونَ عن الكُفرِ، فيُصلِحُ نُفوسَهم، وإنَّما أمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلكَ؛ لأنَّ الكفَّارَ تألَّبُوا مع المُنافِقينَ بعْدَ هِجرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاتَّخَذوهُم عُيونًا لهُم وأيديَ يَدُسُّونَ بها الأذى للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُؤمِنينَ، فهذا نِداءٌ ثانٍ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمُرُه بإقامةِ صلاحِ عُمومِ الأمَّةِ بتَطهيرِها مِنَ الخُبَثاءِ، بَعْدَ أنْ أمَره بإفاقةِ مَنْ عليهما الغفلةُ عن شَيءٍ مِن واجبِ حُسْنِ المُعاشَرةِ مع الزَّوجِ[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ المحارِبينَ بالسَّيفِ، وغيرَ المحارِبينَ منهم بالحُجَّةِ والمَوعِظةِ، وجاهِدِ المُنافِقينَ بالسَّيفِ إن أظهَروا كُفْرَهم، وبالحُجَّةِ لرَدِّ شُبُهاتِهم، أو بإقامةِ الحُدودِ على مَن يقَعُ فيها منهم، وكُنْ غليظًا على الكافِرينَ والمنافِقينَ بالقَولِ والفِعلِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧١، ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠١)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٧، ٣٤٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٠، ١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٢).

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا * مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١].

وقال جلَّ شأنُه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن نَبيٍّ بعَثَه اللهُ في أُمَّةٍ قَبْلي إلَّا كان له مِن أمَّتِه حَواريُّونَ[١] وأصحابٌ، يأخُذونَ بسُنَّتِه، ويَقتَدونَ بأمْرِه، ثمَّ إنَّها تَخلُفُ مِن بَعْدِهم خُلوفٌ[٢]، يَقولونَ ما لا يَفعَلونَ، ويَفعَلونَ ما لا يُؤْمَرونَ؛ فمَنْ جاهَدَهم بيَدِه فهو مُؤمِنٌ، ومَن جاهَدَهم بلِسانِه فهو مُؤمِنٌ، ومَن جاهَدَهم بقَلْبِه فهو مُؤمِنٌ، وليس وراءَ ذلك

(١) الحواريُّونَ: الخواصُّ الأصفِياءُ. وقيل: هم النَّاصِرونَ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٣٢٠).

(٢) الخُلُوفُ: الخالِفونَ بعدَ السَّالِفينَ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٣٢٠). قال النوويُّ: (أمَّا الخُلوفُ فبضَمِّ الخاءِ، وهو جمعُ «خَلْف» باسكانِ اللَّامِ، وهو الخالفُ بشَرٍّ، وأمَّا بفتحِ اللَّامِ فهو الخالفُ بخيرٍ، هذا هو الأشهرُ). ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٢٨).

مِن الإيمانِ حَبَّةُ خَردلٍ))[١].

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: ومَساكِنُ الكُفَّارِ والمنافِقينَ في الآخِرةِ نارُ جَهنَّمَ، وهي مَثْواهم، وبِئسَ المرجِعُ الَّذي يَصيرونَ إليه جَهنَّمُ[٢]!

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[النساء: ١٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[التوبة: ٦٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ على الرَّجُلِ أن يُصلِحَ نَفْسَه بالطَّاعةِ، ويُصلِحَ أهْلَه إصلاحَ الرَّاعي للرَّعيَّةِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فيه أنَّ الرَّجُلَ يَجِبُ عليه تَعلُّمُ ما يجِبُ عليه مِنَ الفرائضِ، وتعليمُه زَوجَه ووَلدَه، وعَبْدَه وأمَتَه[٤]، فالآيةُ دلَّت على أنَّ علينا تعليمَهم الدِّينَ والخَيرَ، وما لا يُستغنَى عنه مِنَ الأدَبِ[٥]؛ إذْ لا يَقْدِرُ أحدٌ يَقي غيرَه النَّارَ -وهو لا يَمْلِكُها-

---

(١) رواه مسلم (٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٢٦).

إلَّا بما يدُلُّه على ما يُباعِدُه منها مِن العَمَلِ الصَّالحِ، واجتِنابِ الطَّالحِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ وَجَّهَ اللهُ تعالى الخِطابَ إلى المؤمِنينَ باسمِ الإيمانِ؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّ مُقتَضى إيمانِهم أنْ يَقوموا بهذه المَسؤوليَّةِ العظيمةِ، وأنَّ عدَمَ قيامِهم بها نَقْصٌ في إيمانِهم؛ فتوجيهُ الخِطابِ بوَصفِ الإيمانِ يقتَضي مع ذلك الحَثَّ والإغراءَ على القيامِ بما وُجِّهَ إليه المرءُ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ فيه أنَّه لا يَسْلَمُ العَبدُ إلَّا إذا قام بما أَمَر اللهُ به في نَفْسِه وفيما يَدخُلُ تحتَ وِلايتِه مِن الزَّوجاتِ والأولادِ، وغَيرِهم ممَّن هو تحت وِلايتِه وتصَرُّفِه[٣].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ مَنْ أَهملَ تَعليمَ وَلَدِه ما يَنفَعُه وتَرَكَه سُدًى، فقد أساء إليه غايةَ الإساءةِ، وأكثَرُ الأولادِ إنَّما جاء فَسادُهم مِن قِبَلِ الآباءِ، وإهمالِهم لهم، وتَرْكِ تَعليمِهم فرائِضَ الدِّينِ وسُنَنَه؛ فأضاعوهم صِغارًا، فلم يَنتَفِعوا بأنفُسِهم، ولم يَنفَعوا آباءَهم كِبارًا[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ دليلٌ على وُجوبِ التَّوبةِ[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ النُّصحُ في التَّوبةِ يتضمَّنُ ثلاثةَ أشياءَ:

الأوَّلُ: تعميمُ جميعِ الذُّنوبِ واستِغراقُها بها، بحيثُ لا تَدَعُ ذَنْبًا إلَّا تناولَتْه.

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

(٤) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (ص: ٣٧٩).

والثَّاني: إجماعُ العَزمِ والصِّدقِ بكُلِّيَّتِه عليها، بحيثُ لا يَبقى عندَه تَرَدُّدٌ ولا تَلَوُّمٌ ولا انتِظارٌ، بل يَجمَعُ عليها كُلَّ إرادتِه وعزيمتِه مُبادِرًا بها.

الثَّالثُ: تخليصُها مِن الشَّوائبِ والعِلَلِ القادِحةِ في إخلاصِها، ووُقوعُها لِمَحْضِ الخَوفِ مِن اللهِ وخَشيتِه والرَّغبةِ فيما لديه، والرَّهبةِ ممَّا عِندَه، لا كَمَن يَتوبُ لحِفْظِ جاهِهِ وحُرمَتِه، ومَنصِبِه ورياستِه، ولحِفْظِ حالِه، أو لحِفْظِ قوَّتِه ومالِه، أو لاستِدعاءِ حَمْدِ النَّاسِ، أو الهَربِ مِن ذَمِّهم، أو لِئَلَّا يَتسَلَّطَ عليه السُّفَهاءُ، أو لقَضاءِ نَهمتِه مِن الدُّنيا، أو لإفلاسِه وعَجْزِه، ونحوِ ذلك مِن العِلَلِ الَّتي تَقدَحُ في صحَّتِها وخُلوصِها للهِ عزَّ وجلَّ؛ فالأوَّلُ يَتعلَّقُ بما يَتوبُ منه، والثَّالثُ يَتعلَّقُ بمَن يتوبُ إليه، والأوسَطُ يَتعلَّقُ بذاتِ التَّائبِ ونَفْسِه. ولا رَيبَ أنَّ هذه التَّوبةَ تَستَلزِمُ الاستِغفارَ وتتضَمَّنُه، وتَمْحو جميعَ الذُّنوبِ، وهي أكمَلُ ما يكونُ مِن التَّوبةِ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الملائِكةَ مُكَلَّفونَ في الآخِرةِ بما أمَرَهم اللهُ تعالى به وبما يَنهاهم عنه، والعِصيانُ منهم مخالَفةٌ للأمرِ والنَّهيِ[(٢)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فيه مَدحٌ للمَلائِكةِ الكِرامِ، وانقيادِهم لأمرِ اللهِ، وطاعتِهم له في كُلِّ ما أمَرَهم به[(٣)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ليس توكيدًا لقولِه: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

أَمَرَهُمْ ﴾، وإنَّما فيه بيانُ أنَّهم قادِرونَ على فِعْلِ ما أُمِروا به، فهُم لا يَتركُونَه لا عَجزًا ولا مَعصيةً. والمأمورُ إنَّما يَترُكُ ما أُمِرَ به لأحدِ هذَينِ؛ إمَّا ألَّا يكونَ قادِرًا، وإمَّا أنْ يكونَ عاصيًا لا يريدُ الطَّاعةَ، فإذا كان مطيعًا يريدُ طاعةَ الآمِرِ -وهو قادِرٌ- وَجَبَ وُجودُ فِعْلِ ما أُمِرَ به؛ فكذلك الملائكةُ المذكورونَ لا يَعصُونَ اللهَ ما أَمَرَهم، ويَفعَلونَ ما يُؤْمَرونَ[1]. وقيل: معنى الأُولى: أنَّهم يَتقبَّلونَ أوامِرَه ويَلتَزِمونَها، ولا يأبَونَها، ولا يُنكِرونَها. ومعنى الثَّانيةِ: أنَّهم يُؤَدُّونَ ما يُؤمَرونَ به، لا يَتثاقَلونَ عنه، ولا يَتوانَونَ فيه[2]. وقيل: يجوزُ جعْلُ مَرجِعِ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ أنَّهم لا يَعْصُونَ فيما يُكلَّفونَ به مِن أعمالِهمُ الخاصَّةِ بهم، ومَرجِعِ ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ إلى ما كُلِّفوا بعمَلِه في العُصاةِ في جَهَنَّمَ. وقيل: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ فيما مَضَى، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ فيما يُستقبَلُ[3]. وقيل: فائِدةُ ذِكْرِ قولِه: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ بعْدَ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ التَّأكيدُ؛ لاتِّحادِهما صِدْقًا[4].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾، لم يَقُلْ: (نَصُوحةً)؛ لأنَّ (فَعولًا) يَستوي فيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ، كقَولِهم: (امرأةٌ صَبورٌ وشَكورٌ)[5].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ فيه سؤالٌ: اللهُ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٨، ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٨، ٥٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٣، ٥٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٧٤).

تعالى لا يُخزي النَّبيَّ في ذلك اليَومِ، ولا الَّذين آمَنوا، فما الحاجةُ إلى قَولِه: ﴿مَعَهُۥ﴾؟

الجوابُ: هي إفادةُ الاجتِماعِ، يعني: لا يُخزي اللهُ المجموعَ الَّذي يَسعى نُورُهم، وهذه فائِدةٌ عظيمةٌ؛ إذ الاجتِماعُ بيْن الَّذين آمَنوا وبيْن نَبيِّهم تشريفٌ في حَقِّهم وتعظيمٌ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ يَدخُلُ في ظاهِرِ الكلامِ الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم، ويَستَوجِبونَ ما وَعَدَهم اللهُ جلَّ جلالُه في الآيةِ؛ فمَن تَنَقَّصَ واحِدًا منهم، أو أَخْرَجَه ممَّا وَعَدَه اللهُ، فقد رَدَّ على اللهِ! ويُرجَى أنْ يكونَ سائِرُ المؤمِنينَ داخِلينَ معهم في ذلك؛ لأنَّ مَنْ آمَنَ بعدَه فقد دَخَل في الاسمِ معه، وإنْ لم يكُنْ في الرُّؤيةِ والفَضيلةِ أُسوةَ الصَّحابةِ[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على المَغفِرةِ لجَميعِ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

٨- النُّورُ الَّذي يكونُ للمُؤمِنِ في الدُّنيا على حُسْنِ عَمَلِه واعتِقادِه يَظهَرُ في الآخِرةِ، كما قال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ فذَكَرَ سُبحانَه النُّورَ هنا عَقِيبَ أَمْرِه بالتَّوبةِ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أنَّ تقييدَ القُدرةِ بالمَشيئةِ هو خِلافُ ما كان عليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأتْباعُه؛ فهُم لم يقولوا: «إنَّك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٤).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٧٦).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧٢، ٣٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨٥).

على ما تَشاءُ قديرٌ». وخيرُ الطَّريقِ طريقُ الأنبياءِ وأتْباعِهم؛ فإنَّهم أهدى عِلْمًا، وأقوَمُ عَمَلًا. فالآيةُ عامَّةٌ؛ فهو قديرٌ على كلِّ شيءٍ، على ما شاءَه وما لم يَشَأْهُ. فتقييدُ بعضِ النَّاسِ القُدرةَ بالمشيئةِ خطأٌ؛ لأنَّ اللهَ قادرٌ على ما يَشاءُ وعلى ما لا يَشاءُ. وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] فالمشيئةُ هنا ليست عائدةً على القُدرةِ، ولكنَّها عائدةٌ على الجَمعِ؛ يعني: إذا أراد جَمْعَهم، وشاء جَمْعَهم، فهو قديرٌ عليه، لا يَعجِزُ عنه[١].

١٠- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فخاطَبه هنا بوَصْفِه، وهو (النَّبيُّ)، كما في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: ١]، لا باسْمِه، كقَولِه لآدَمَ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٣]، ولِموسى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [البقرة: ٥٥]، ولعيسى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ [آل عمران: ٥٥]؛ وذلك ليَدُلَّ على فَضْلِه عليهم[٢].

١١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ لا يُعارِضُ قولَه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ لأنَّ النَّفيَ محمولٌ على طَبْعِه الَّذي جُبِلَ عليه، والأمرَ مَحمولٌ على المعالَجةِ، أو أنَّ النَّفيَ هو بالنِّسبةِ للمُؤمِنينَ، والأمرَ هو بالنِّسبةِ للكُفَّارِ والمنافِقينَ، كما هو مُصَرَّحٌ به في الآيِ نفْسِها[٣].

١٢- اللهُ سُبحانَه يُحِبُّ صِفاتِ الكَمالِ، مِثلُ: العِلمِ والقُدرةِ والرَّحمةِ، ونَحوِ ذلك؛ فعن أبي هُرَيرةَ رضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٦).

((المؤمِنُ القَويُّ خَيرٌ وأحَبُّ إلى اللهِ مِن المؤمِنِ الضَّعيفِ، وفي كُلٍّ خَيرٌ))[١]، وفي الصَّحيحِ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لا يَرحَمُ اللهُ مَن لا يَرحَمُ النَّاسَ))[٢]، وفي الصَّحيحِ أيضًا قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّما يَرحَمُ اللهُ مِن عِبادِه الرُّحَماءَ))[٣]، وفي السُّنَنِ حَديثٌ ثابتٌ عنه: ((الرَّاحِمونَ يَرحَمُهم الرَّحمنُ، ارحَموا مَن في الأرضِ يَرحَمْكم مَن في السَّماءِ))[٤]، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، وقال تعالى في حَدِّ الزَّاني والزَّانيةِ: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النور: ٢]، وهذا في الحَقيقةِ مِن رَحمةِ اللهِ بعِبادِه؛ فإنَّ اللهَ إنَّما أرسَلَ مُحمَّدًا رَحمةً للعالَمينَ، وهو سُبحانَه أرحَمُ بعِبادِه مِن الوالِدةِ بوَلَدِها، لكِنْ قد تكونُ الرَّحمةُ المطلوبةُ لا تَحصُلُ إلَّا بنَوعٍ مِن ألَمٍ وشِدَّةٍ تَلحَقُ بَعضَ النُّفوسِ[٥].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: فيه الأمرُ بقِتالِ الكُفَّارِ والمُنافِقينَ، والغِلظةِ عليهم، ومعلومٌ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قاتَلَ الكُفَّارَ، ولم يُعلَمْ أنَّه قاتَلَ المُنافِقينَ قِتالَه للكُفَّارِ، فما نوعُ قِتالِه

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٧٣٧٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٣١٩) مِن حديثِ جَريرِ بنِ عبدِ الله رضيَ الله عنه.

(٣) أخرجه البخاريُّ (٧٤٤٨)، ومسلمٌ (٩٢٣) مِن حديثِ أُسامةَ بنِ زَيدٍ رضيَ الله عنهما.

(٤) أخرجه أبو داودَ (٤٩٤١) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (١٩٢٤)، وأحمدُ (٦٤٩٤) مطوَّلًا مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عَمرٍو رضيَ الله عنهما.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١٢٧)، والعراقيُّ في ((الأربعون العشارية)) (١٢٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٩٤١)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((الإمتاع)) (١/ ٦٢)، وقال السخاويُّ في ((البلدانيات)) (٤٧): (حسَنٌ، بل صحَّحه غيرُ واحدٍ).

(٥) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٤٤٠).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للمُنافِقينَ؟

الجوابُ: قَولُه تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢]، أي: بالقُرآنِ؛ لِقَولِه تعالى قَبْلَه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا * وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا * فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٠ - ٥٢]. ومعلومٌ أنَّ المنافِقينَ كافِرونَ، فكان جِهادُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للكُفَّارِ بالسَّيفِ، ومع المنافِقينَ بالقُرآنِ، كما جاء عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في عَدَمِ قَتْلِهم؛ لئلَّا يتحَدَّثَ النَّاسُ أنَّ مُحمَّدًا يَقتُلُ أصحابَه[1]، ولكِنْ كان جِهادُهم بالقُرآنِ لا يَقِلُّ شِدَّةً عليهم مِنَ السَّيفِ؛ لأنَّهم أصبَحوا في خَوفٍ وذُعرٍ، يَحسَبونَ كُلَّ صَيحةٍ عليهم، وأصبَحَت قلوبُهم خاويةً كأنَّهم خُشُبٌ مُسَنَّدةٌ، وهذا أشَدُّ عليهم مِنَ المُلاقاةِ بالسَّيفِ[2].

وقيل: جِهادُ الكفَّارِ ظاهرٌ، وأمَّا عطفُ (المُنافِقينَ) على (الكُفَّارِ) المفعولِ لـ﴿جَٰهِدِ﴾، فيَقْتضي أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مأمورٌ بجهادِ المُنافِقينَ، وكان حالُ المُنافِقينَ مُلتبِسًا؛ إذْ لم يكُنْ أحَدٌ مِنَ المُنافِقينَ مُعلِنًا بالكفرِ، ولا شُهِدَ على أحَدٍ منهم بذلكَ، ولم يُعيِّنِ اللهُ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنافِقًا يُوقِنُ بنِفاقِه وكفْرِه، أو أطْلَعَه إطْلاعًا خاصًّا، ولم يَأمُرْه بإعلانِه بيْنَ المُسلِمينَ، كما يُؤخَذُ ذلكَ مِن أخبارٍ كثيرةٍ في الآثارِ، فتَعيَّنَ تأْويلُ عطفِ المُنافِقينَ على الكُفَّارِ إمَّا بأنْ يكونَ فِعلُ ﴿جَٰهِدِ﴾ مُستعمَلًا في الجِهادِ بالسَّيفِ، والجِهادِ بإقامةِ الحُجَّةِ، والتَّعريضِ للمُنافِقِ بنِفاقِه. وقيل: الأقرَبُ في تأْويلِ هذا العَطفِ أنْ يكونَ المرادُ مِنه إلْقاءَ الرُّعبِ في قُلوبِ المُنافِقينَ؛ ليَشعُروا بأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

(١) الحديث أخرجه البخاريُّ (٣٥١٨)، ومسلمٌ (٢٥٨٤) مِن حديثِ جابرِ بنِ عبدِ الله رضيَ الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٢٣، ٢٢٤).

والمُؤمِنينَ بالمِرْصادِ بهم، فلوْ بَدَتْ مِن أحَدِهم بادِرةٌ يُعلَمُ منها نِفاقُه، عُومِلَ مُعامَلةَ الكافرِ في الجِهادِ بالقَتلِ والأسْرِ، فيَحْذَروا ويَكُفُّوا عن الكَيدِ للمُسلِمينَ؛ خشيةَ الافتِضاحِ، فتكُونُ هذِه الآيةُ مِن قَبيلِ قَولِه تبارك وتعالَى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾[1] [الأحزاب: ٦٠، ٦١].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيه سُؤالٌ: قَولُه: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يدُلُّ على أنَّ مَصيرَهم بِئسَ المصيرُ، فما فائِدةُ التَّصريحِ بذلك؟

الجوابُ: أنَّ مَصيرَهم بِئسَ المصيرُ مُطلَقًا، والمُطلَقُ يَدُلُّ على الدَّوامِ، وغَيرُ المُطلَقِ لا يدُلُّ على الدَّوامِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

- هذا نِداءٌ ثانٍ مُوجَّهٌ إلى المُؤمِنينَ بعْدَ اسْتِيفاءِ المقصودِ مِن النِّداءِ الأوَّلِ؛ نِداءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، ووُجِّهَ الخِطابُ إلى المُؤمِنينَ ليأتَسوا بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مَوعظةِ أهليهم[3].

- وعُبِّرَ عن الموعظةِ والتَّحذيرِ بالوِقايةِ مِنَ النارِ؛ لأنَّ الموعظةَ سببٌ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٥).

تَجنُّبِ ما يُفْضِي إلى عَذابِ النَّارِ، أو على تَشبيهِ المَوعظةِ بالوِقايةِ مِنَ النارِ على وجْهِ المُبالَغةِ في الموعظةِ[١].

- وعُطِفَ ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ على ﴿أَنفُسَكُمْ﴾؛ لأنَّ رَبَّ المنزلِ راعٍ، وهو مَسؤولٌ عن أهلِه، ودخلَ الأولادُ في ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾، وقيلَ: دخَلوا في ﴿أَنفُسَكُمْ﴾؛ لأنَّ الولَدَ بعضٌ مِن أبيهِ، فيُعلِّمُه الحَلالَ والحرامَ، ويُجنِّبُه المعاصي[٢].

- وتَنكيرُ ﴿نَارًا﴾ للتَّعظيمِ. وأُجْرِيَ عليها وصْفٌ بجُملةِ ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ زِيادةً في التَّحذيرِ؛ لئلَّا يَكونوا مِن وَقودِ النَّارِ، وتَذكيرًا بحالِ المُشرِكينَ، وتَفظيعًا للنَّارِ؛ إذْ يكونُ الحجَرُ عِوَضًا لها عن الحطَبِ[٣].

- ومعنى ﴿عَلَيْهَا﴾ أنَّهم مُوَكَّلونَ بها؛ فالاستِعلاءُ المُفادُ مِن حرْفِ (على) مُعبَّرٌ به عن التَّمكُّنِ[٤].

- قولُه: ﴿غِلَاظٌ﴾ صِفةٌ مُشبَّهةٌ مُعبَّرٌ بها عن قَساوةِ المُعامَلةِ[٥].

- وجُملةُ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ ثَناءٌ عليهِم أُعْقِبَ به وصْفُهم بأنَّهم ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾؛ تَعديلًا لِمَا تَقتَضِيانِه مِن كَراهيةِ نُفوسِ النَّاسِ إيَّاهُم، وهذا مُؤْذِنٌ بأنَّهم مأْمورونَ بالغِلظةِ والشِّدَّةِ في تَعذيبِ أهلِ النَّارِ، هذا زِيادةٌ في تَهويلِ النَّارِ بأنَّ عليها ملائكةً غِلاظًا شِدادًا[٦].

- على القولِ بأنَّ فائِدةَ ذِكْرِ قولِه: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ بَعْدَ ﴿لَّا يَعْصُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٦٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ التَّأكيدُ[١]، فقولُه: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ تَصريحٌ بمَفهومِ ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ دعا إليه مَقامُ الإطنابِ في الثَّناءِ عليهم، معَ ما في هذا التَّصريحِ مِن استحضارِ الصُّورةِ البديعةِ في امتثالِهم لِما يُؤمَرون به. وقد عُطِفَ هذا التَّأكيدُ عطفًا يَقْتضي المُغايَرةَ تَنويهًا بهذِه الفضيلةِ؛ لأنَّ فِعلَ المأمورِ أوضَحُ في الطَّاعةِ مِن عدَمِ العِصيانِ، واعتبارٌ لِمُغايَرةِ المعنيَيْنِ وإنْ كانَ قالَهُما واحدٌ[٢].

- وفي قولِه: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالسَّلْبِ والإيجابِ، وهو فنٌّ عجيبٌ[٣]، وهو في الآيةِ ظاهرٌ؛ فقَدْ سلَبَ عزَّ وجلَّ عن هؤلاءِ الموصوفينَ العِصيانَ، وأوجَبَ لهمُ الطَّاعةَ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ مَقولٌ لقولٍ قد حُذِفَ؛ ثِقةً بدَلالةِ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٣، ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٨، ٥٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٣، ٥٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٦).

(٣) السَّلْب والإيجاب: هو بِناءُ الكلام على نفْيِ الشَّيءِ مِن جِهةٍ، وإثباتِه مِن جِهةٍ أخرى، أو الأمْرِ به في جِهةٍ، والنَّهيِ عنه في جِهةٍ، وما يَجري مَجرَى ذلك، كأنْ يَقصِدَ المادِحُ أنْ يُفرِدَ ممدوحَه بصِفةِ مدحٍ لا يَشرَكُه فيها غيرُه، فيَنفيها في أوَّلِ كلامِه عن جميعِ النَّاسِ، ويُثبتُها لِمَمْدوحِه بعدَ ذلك، ومثالُ ذلك قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡ﴾ [المجادلة: ٢]؛ فهو نفْيٌ لصيرورةِ المرأةِ أُمًّا بالظِّهارِ، وإثباتُ الأمومةِ للَّتي ولدَتِ الولدَ. يُنظر: ((الصناعتين: الكتابة والشعر)) للعسكري (ص: ٤٠٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٩٣)، ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ١٥٤)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٩).

الحالِ عليه، أي: يُقالُ لهم ذلكَ عِندَ إدْخالِ الملائكةِ إيَّاهمُ النَّارَ حَسبَما أُمِروا به[(١)].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ الاعتِذارُ: افتِعالٌ مُشتَقٌّ مِنَ العُذْرِ، ومادَّةُ الافتِعالِ فيه دالَّةٌ على تَكلُّفِ الفِعلِ؛ مِثلَ الاكتِسابِ والاختِلاقِ[(٢)].

- وأفادَتْ (إنَّما) في قولِه: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ قصْرَ الجَزاءِ على مُماثَلةِ العملِ المُجْزَى عليه قصْرَ قلْبٍ[(٣)]؛ لتَنزيلِهِم مَنزِلةَ مَنِ اعتَذَرَ وطلَبَ أنْ يكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٧).

(٣) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

جَزاؤُه أهْوَنَ ممَّا شاهَدَه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أُعيدَ خِطابُ المُؤمنينَ، وأُعِيدَ نِداؤُهُم، وهو نِداءٌ ثالثٌ في هذه السُّورةِ، والَّذي قَبْلَه نِداءٌ للواعِظينَ، وهذا نِداءٌ للمَوعوظينَ، أُمِرَ المُؤمِنونَ بالتَّوبةِ مِن الذُّنوبِ إذا تَلبَّسوا بها؛ لأنَّ ذلكَ مِن إصلاحِ أنفُسِهم، بعْدَ أنْ أُمِروا بأنْ يُجَنِّبوا أنفُسَهم وأهلِيهم ما يَزُجُّ بهم في عذابِ النَّارِ؛ لأنَّ اتِّقاءَ النَّارِ يَتحقَّقُ باجتِنابِ ما يَرْمي بهم فيها، وقدْ يَذْهَلُونَ عمَّا فَرَطَ مِن سيِّئاتِهم، فهُدُوا إلى سَبيلِ التَّوبةِ الَّتي يَمْحُونَ بها ما فَرَطَ مِن سيِّئاتِهم، وهذا ناظِرٌ إلى ما ذُكِرَ مِن مَوعظةِ امْرأتَيِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقولِه عز وجل: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢] [التحريم: ٤].

- قولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ...﴾ وُرودُ صِيغةِ الإطماعِ ﴿عَسَىٰ﴾؛ للجَري على سَنَنِ الكِبرياءِ، والإشعارِ بأنَّه تَفضُّلٌ، والتَّوبةُ غيرُ مُوجِبةٍ له، وأنَّ العبْدَ يَنْبغي أنْ يكونَ بيْنَ خوفٍ ورجاءٍ، وإنْ بالَغَ في إقامةِ وظائفِ العِبادةِ؛ فالرَّجاءُ المُستفادُ مِن فِعلِ (عَسَى) مُستعمَلٌ في الوعدِ الصَّادرِ عن المُتفضِّلِ، وذلكَ التَّائبُ لا حقَّ له في أنْ يُعفَى عنه ما اقترفَه؛ لأنَّ العصيانَ قد حصَلَ، وإنَّما التَّوبةُ عزْمٌ على عدَمِ العَودةِ إلى الذَّنْبِ، ولكنْ ما لصاحبِها مِنَ النَّدمِ والخَوفِ الَّذي بعَثَ على العزْمِ دلَّ على زَكاءِ النَّفْسِ؛ فجعَلَ اللهُ جزاءَهُ أنْ يَمحوَ عنه ما سلَفَ مِنَ الذُّنوبِ تفضُّلًا مِنَ اللهِ، فذلكَ معنى الرَّجاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المُستفادِ مِن (عَسَى)[١].

- قولُه: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾: ﴿يَوْمَ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ -على قولٍ-، وهو تَعليقُ تخلُّصٍ إلى الثَّناءِ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُؤمِنينَ معه، وهو يومُ القِيامةِ، وهذا الثَّناءُ عليهم بانتفاءِ خِزْيِ اللهِ عنهم تَعريضٌ بأنَّ الَّذينَ لم يُؤمِنوا معه يُخْزيهمُ اللهُ يومَ القِيامةِ. وفيه استحمادٌ إلى المُؤمِنينَ على أنَّه عصَمَهم مِن مِثلِ حالِهم، وذِكْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع الَّذينَ آمَنوا لتَشريفِ المُؤمِنينَ، ولا عَلاقةَ له بالتَّعريضِ[٢].

- وفي صِلةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ إيذانٌ بأنَّ سبَبَ انتفاءِ الخزيِ عنهم هو إيمانُهم[٣].

- و(مَعَ) في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ يَجوزُ تعلُّقُها بمَحذوفٍ حالٍ مِنَ (الَّذينَ آمَنوا)، أي: حالَ كَونِهم مع النَّبيِّ في انتفاءِ خزيِ اللهِ عنهم؛ فيَكونُ عُمومُ (الَّذينَ آمَنوا) مَخصوصًا بغيرِ الَّذينَ يَتحقَّقُ فيهم خزْيُ الكفرِ، وهمُ الَّذينَ ارتدُّوا وماتوا على الكفْرِ. ويَجوزُ تعلُّقُ (مَعَ) بفِعلِ (آمَنوا)، أي: الَّذينَ آمَنوا به وصَحِبوه؛ فيكونُ مُرادًا به أصحابُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذينَ آمَنوا به ولم يَرتَدُّوا بَعْدَه، فتكونُ الآيةُ مُؤْذِنةً بفضيلةٍ للصَّحابةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)). =

- قولُه: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ إضافةُ (نُور) إلى ضَميرِ (هم) مع أنَّه لم يَسبِقْ إخبارٌ عنهم بنُورٍ لهم ليسَتْ إضافةَ تَعريفٍ؛ إذْ ليس المقصودُ تعريفَ النُّورِ وتَعيينَه، ولكنَّ الإضافةَ مُستعمَلةٌ هنا في لازمِ مَعناها، وهو اختِصاصُ النُّورِ بهم في ذلكَ اليومِ؛ بحيثُ يُميِّزُه النَّاسُ مِن بيْنِ الأنوارِ يومَئِذٍ[(١)].

- وقدَّمَ النُّورَ هنا في قولِه تعالَى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لأنَّ السِّياقَ لتَعظيمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بخِلافِ ما في سُورةِ (الحديدِ): ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾[(٢)] [الحديد: ١٢]. وقيل: أُخِّرَ الفعلُ في قولِه: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾، وقُدِّمَ في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾؛ لأنَّ قولَه في سُورةِ (التَّحريم): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يُفهِمُ -مِن حيث المعيَّةُ- قُرْبَ المَنزلةِ، وعُلوَّ الحالِ، فتَقدَّمَ ثُبوتُه، فناسَبَ ذلك وُرودُ الجُملةِ الاسميَّةِ هنا؛ لِما تَقْتضيه مِن الثَّباتِ وتَقدُّمِه واستحكامِه، أمَّا قولُه في سُورةِ (الحديدِ): ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ فبِشارةٌ للمؤمنينَ، ولم يأْتِ هنا كونُهم مع نَبيِّهم، فلمْ يَتحصَّلْ ما يُفهِمُ تَمكُّنَ المنزلةِ وثُبوتَها ما تَحصَّلَ في آيةِ (التَّحريمِ)، إنَّما هذه بِشارةٌ؛ فناسَبَها التَّجدُّدُ والحدوثُ، فناسَبَ ذلك الفعلُ بما يُعطِيه مِن المعْنى، فقيلَ: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ ليُفهَمَ التَّكرُّرُ وحُدوثُ الشَّيءِ بعْدَ الشَّيءِ، فوَرَدَ كلٌّ على ما يُناسِبُ[(٣)].

- وسَعْيُ النُّورِ: امتِدادُه وانتِشارُه، شُبِّهَ ذلكَ باشتِدادِ مَشْيِ الماشي، وذلك أنَّه يَحُفُّ بهم حيثُما انتقَلوا؛ تَنويهًا بشَأنِهم، كما تُنشَرُ الأعلامُ بيْنَ يَدَيِ

= ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٧٦ و١٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل) للغرناطي (٢/ ٤٦٨).

الأميرِ والقائدِ، وكما تُساقُ الجِيادُ بيْنَ يَدَيِ الخَليفةِ[١].

- وإنَّما خُصَّ بالذِّكْرِ مِنَ الجِهاتِ: الأمامُ واليمينُ؛ لأنَّ النُّورَ إذا كان بيْنَ أيديهم تَمتَّعوا بمُشاهَدتِه، وشعَروا بأنَّه كَرامةٌ لهم، ولأنَّ الأيديَ هي الَّتي تُمسَكُ بها الأمورُ النَّفيسةُ، وبها بايَعوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الإيمانِ والنَّصرِ[٢]، والتَّقييدُ بالأيْمانِ؛ لأنَّهم إمَّا مِنَ السَّابِقينَ، وإمَّا مِن أهلِ اليَمينِ؛ فهم يَمشُونَ في هاتَينِ الجِهتَينِ، ويُؤتَونَ صَحائِفَ أعمالِهم منهما[٣].

- قولُه: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ إتمامُ النُّورِ إدامتُه أو الزِّيادةُ منه، وكذلك الدُّعاءُ بطلَبِ المغفرةِ لهُم هو لطلَبِ دَوامِ المغفرةِ، وذلك كلُّهُ أدبٌ مع اللهِ وتَواضُعٌ له، مِثلَ ما قيلَ في استِغفارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في اليومِ سَبعينَ مرَّةً[٤]، ويَظهَرُ بذلكَ وجْهُ التَّذييلِ بقولِهم: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ المُشعِرِ بتَعليلِ الدُّعاءِ كِنايةً عن رَجاءِ إجابتِه لهُم[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ الغِلْظةُ: صَلابةُ الشَّيءِ، وهي مُعبَّرٌ بها هنا عن المُعامَلةِ بالشِّدَّةِ بدونِ عَفوٍ ولا تَسامُحٍ، أي: كُنْ غليظًا، أي: شَديدًا في إقامةِ ما أمَرَ اللهُ به معَ أمثالِهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٣٣).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٦٣٠٧) من حديثِ أبي هريرةَ رضِي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٣).

الآيات (١٠-١٢)

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَحْصَنَتْ﴾: أي: حَفِظَت، وأصلُ (حصن): يدُلُّ على حِفظٍ وحِياطةٍ[١].

﴿ٱلْقَٰنِتِينَ﴾: أي: المُطيعينَ الخاضِعينَ، والقُنوتُ: لُزومُ الطَّاعةِ مع الخُضوعِ، أو الطَّاعةُ الدَّائمةُ، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دِينٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يَضرِبُ الله تعالى المثَلَ مبيِّنًا أنَّ اتِّصالَ الكافرِ بالمؤمنِ وقُرْبَه منه لا يُفيدُه شيئًا، فيقولُ: ضَرَب اللهُ مَثَلًا للَّذين كفَروا امرأةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ كانَتا زَوجتَينِ لعَبدَينِ صالِحَينِ مِن عِبادِ اللهِ تعالى، فخانَتاهما ولم يُؤْمِنا برِسالَتِهما؛ فلم يَدفَعْا عن امرأتَيهما شَيئًا مِن عَذابِ اللهِ، وقيل لامرأتَيْ نُوحٍ ولُوطٍ: ادخُلا النَّارَ مع غَيرِكما مِنَ الدَّاخِلينَ فيها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٤)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥، ٧).

ثمَّ يضربُ الله تعالى مثَلًا آخَرَ مبيِّنًا أنَّ اتِّصالَ المؤمنِ بالكافرِ لا يَضُرُّه شيئًا معَ قيامِه بالواجبِ عليه، فيقولُ: وضَرَب اللهُ مثَلًا للَّذين آمَنوا امرأةَ فِرعَونَ حينَ قالت: يا ربِّ ابنِ لي في جِوارِك بَيتًا في الجنَّةِ، وخَلِّصْني مِن فِرعَونَ وتَسَلُّطِه وكُفْرِه، وخَلِّصْني مِن قَومِ فِرعَونَ المُشرِكينَ، ومريمَ بِنتَ عِمْرانَ الَّتي حَفِظَت فَرْجَها، فنفَخَ جِبريلُ بأَمْرِنا في فَرْجِها، فحَمَلَت بابنِها عيسى عليه السَّلامُ، وآمَنَت بكَلِماتِ اللهِ وكُتُبِه، وكانت مِنَ المُطيعينَ للهِ، المواظِبينَ على طاعتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أمْرُ الاستِئصالِ في الإنجاءِ والإهلاكِ أشْبَهَ شَيءٍ بحالِ أهلِ الآخِرةِ في الدَّينونةِ بالعَدْلِ والفَضْلِ، وكان المفتَتَحُ به السُّورةُ عِتابَ النِّساءِ، ثمَّ أُتْبِعَ بالأمْرِ بالتَّأديبِ لجَميعِ الأمَّةِ، إلى أنْ خُتِم بهلاكِ المخالِفِ في الدَّارَينِ، وكان للكُفَّارِ قَراباتٌ بالمُسلِمينَ، وكانوا يَظُنُّونَ أنَّها رُبَّما تَنفَعُهم، وللمُسلِمينَ قَراباتٌ بالكُفَّارِ، وكانوا رُبَّما توَهَّموا أنَّها تضُرُّهم- قال مُجيبًا لِما يُتخَيَّلُ مِن ذلك؛ تأديبًا لِمَن يُنكِرُ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ النِّساءِ وغَيرِهنَّ[1]:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖ﴾.

أي: جَعَل اللهُ مَثَلًا للَّذين كَفَروا امرأةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ، مبيِّنًا أنَّ اتِّصالَ الكافرِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٧، ٢٠٨).

بالمؤمنِ، ومعاشرتَه له، وقُربَه منه؛ لا يُفيدُه شيئًا، ولا يَنفَعُه عندَ الله[١]!

﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾.

أي: كانت امرأةُ نُوحٍ وامرأةُ لُوطٍ زَوجتَينِ لعَبدَينِ صالِحَينِ مِن عِبادِ اللهِ تعالى، وهما نوحٌ ولُوطٌ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، فخانتاهما ولم يُؤْمِنا برِسالَتِهما، ويَتْبَعاهما على دينِهما[٢]!

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

أي: فلم يَدفَعْ نُوحٌ ولوطٌ عن امرأتَيْهما شَيئًا مِن عَذابِ اللهِ، ولم يَنفَعاهما؛ لكُفْرِهما[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٣، ٣٧٤).

قال الواحدي: (خوَّفَ عائِشةَ وحَفْصةَ في تظاهُرِهما على الرَّسولِ، وذكَرَ أنَّهما إن عَصَتا ربَّهما لم يُغْنِ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عنهما شيئًا، وضرَبَ لهما امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لُوطٍ مَثَلًا!). ((الوسيط)) (٤/ ٣٢٢).

وقال القرطبي: (ضرَبَ اللهُ تعالى هذا المثَلَ تنبيهًا على أنَّه لا يُغْني أحدٌ في الآخرةِ عن قريبٍ ولا نَسيبٍ إذا فرَّق بيْنَهما الدِّينُ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

قال ابن كثير: (خانَتاهما في الدِّين فلمْ تَتْبَعاهما فيه، وليس المرادُ أنَّهما كانتَا على فاحشةٍ -حاشا وكلَّا-؛ فإنَّ اللهَ لا يُقَدِّرُ على نبيِّه أن تَبغيَ امرأتُه، كما قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه مِن أئمَّةِ السَّلفِ والخلَفِ: «ما بَغَتِ امرأةُ نبيٍّ قَطُّ». ومَن قال خِلافَ هذا فقد أخطأ خطأً كبيرًا). ((البداية والنهاية)) (١/ ٤٢٢).

وقال ابنُ تيميةَ عن امرأةِ لوطٍ عليه السلامُ: (كانت في الظَّاهرِ مسلمةً على دينِ زوجِها لوطٍ، وفي الباطنِ منافقةً على دينِ قومِها لا تقلي عملَهم كما قلاه لوطٌ؛ فإنَّه أنكَره ونهاهم عنه وأبغَضه). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ أُنزِلَ عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]: ((يا مَعشَرَ قُرَيشٍ اشتَرُوا أنفُسَكم مِنَ اللهِ لا أُغْني عنكم مِنَ اللهِ شَيئًا، يا بَني عبدِ المُطَّلِبِ لا أُغْني عنكم مِنَ اللهِ شَيئًا، يا عبَّاسُ بنَ عبدِ المطَّلِبِ لا أُغْني عنكَ مِنَ اللهِ شَيئًا، يا صَفيَّةُ عَمَّةَ رَسولِ اللهِ لا أُغني عنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا، يا فاطِمةُ بِنتَ رَسولِ اللهِ سَلِيني بما شِئْتِ، لا أُغني عنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا!))[1].

﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

أي: وقيل لامرأتَيْ نُوحٍ ولُوطٍ: ادخُلا النَّارَ مع غَيرِكما مِنَ الدَّاخِلينَ فيها[2].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ مَثَلَ النِّذارةِ بأنَّ طاعةَ المُطيعِ لا تَنفَعُ العاصيَ، وإنْ كان أقرَبَ النَّاسِ إلى المُطيعِ، إلَّا إن كان له أساسٌ يَصِحُّ البِناءُ عليه، ويجوزُ الاعتدادُ به والنَّظَرُ

= كثير)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٦).

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٥٣)، ومسلمٌ (٢٠٦) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧١).

قال البيضاوي: (﴿وَقِيلَ﴾ أي: لهما عندَ مَوتِهما، أو يومَ القيامةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٠٤).

إليه؛ أتْبَعَه مَثَلَ البِشارةِ، بأنَّ عِصيانَ العاصي لا يَضُرُّ المُطيعَ[١].

وأيضًا لَمَّا ضُرِبَ المثَلُ للَّذينَ كفَروا، أُعْقِبَ بضَرْبِ مَثَلٍ للَّذينَ آمَنوا؛ لتَحصُلَ المُقابَلةُ، فيتَّضِحَ مَقصودُ المثَلَيْنِ معًا، وجَرْيًا على عادةِ القُرآنِ في إتْباعِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ[٢].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾.

أي: وجَعَل اللهُ مَثَلًا للَّذين آمَنوا امرأةَ فِرعَونَ، مبيِّنًا أنَّ اتِّصالَ المؤمنِ بالكافرِ لا يَضُرُّه شيئًا معَ قيامِه بالواجبِ عليه[٣].

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾.

أي: حينَ قالت امرأةُ فِرعَونَ: يا ربِّ ابنِ لي في جِوارِك بَيتًا في الجنَّةِ[٤].

عن سَلْمانَ الفارسيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (كانت امرأةُ فِرعَونَ تُعذَّبُ بالشَّمسِ، فإذا انصَرَفوا عنها أظلَّتْها الملائكةُ بأجنِحَتِها، وكانت ترى بَيْتَها في الجنَّةِ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٣-٣٧٧).

قال السمعاني: (هي آسيةُ بِنتُ مُزاحِمٍ، وكانت آمَنَت باللهِ وبموسى عليه السَّلامُ سِرًّا ثمَّ أظهَرَت). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧٩).

وقال القرطبي: (قال يحيى بنُ سلامٍ: قَولُه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مثَلٌ ضرَبَه اللهُ يحَذِّرُ به عائشةَ وحَفصةَ في المخالفةِ حينَ تَظاهرَتَا على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ ضَرَب لهما مَثَلًا بامرأةِ فِرعَونَ، ومريمَ بنتِ عِمرانَ؛ ترغيبًا في التَّمَسُّكِ بالطَّاعةِ، والثَّباتِ على الدِّينِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٥) أخرجه الحاكمُ (٣٨٣٤)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١٦٣٧). =

﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾.

أي: وخَلِّصْني مِن صُحْبةِ فِرعَونَ وتَسَلُّطِه، ومِن كُفْرِه وضَلالِه[1].

﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: وخَلِّصْني مِن قَومِ فِرعَونَ المُشرِكينَ[2].

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ المثَلَ بمَن أساءَتا الأدَبَ، فلم تَنفَعْهما الوُصلةُ بالأولياءِ، بل زادَتْهما ضَرَرًا؛ للإعراضِ عن الخَيرِ مع قُرْبِه وتَيسُّرِه، وبمَنْ أحسَنَت الأدَبَ فلم تَضُرَّها الوُصلةُ بأعدى الأعداءِ، بل زادَتْها خَيرًا- ضَرَب مثَلًا بقَرينتِها، ومع مُقارَنتِها لها في الكَمالِ فبيْنَ حالَيهما في الثُّيوبةِ والبُكورةِ طِباقٌ، فلم يَبْتَلِها سُبحانَه بخُلْطةِ زَوجٍ؛ جمعًا بيْن ما تقدَّمَ مِن صِنْفَي الثَّيِّباتِ والأبكارِ، اللَّاتي يُعْطيهما لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأحسَنَت الأدَبَ في نَفْسِها مع اللهِ، ومع سائِرِ مَن لَزِمَها الأدَبُ

= صحَّحه على شَرطِ الشَّيخَينِ: الحاكمُ، والألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦/ ٣٦)، ووثَّق رُواتَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٧).

قال ابن عطية: (قولُها: ﴿وَعَمَلِهِۦ﴾ معناه: وكُفْره، وما هو عليه مِن الضَّلالةِ، وهذا قولُ كافَّةِ المفسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٥).

وقال القرطبي: (وقيل: مِن عمَلِه: مِن عذابِه وظُلمِه وشماتتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٧).

معه مِن عِبادِه؛ فأحسَنَ إليها رعايةً لها[١].

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

أي: وضرَب اللهُ مَثَلًا للَّذين آمَنوا مريمَ بِنتَ عِمْرانَ الَّتي حَفِظَت فَرْجَها وصانَته مِنَ الفاحِشةِ؛ لكَمالِ عِفَّتِها وصَلاحِها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وعن أبي مُوسى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لم يَكمُلْ مِنَ النِّساءِ إلَّا مَريمُ بِنتُ عِمرانَ، وآسيةُ امرأةُ فِرعَونَ))[٣].

وعن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عنها ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دعا فاطِمةَ عامَ الفَتحِ فناجاها فبَكَت، ثمَّ حَدَّثَها فضَحِكَت! قالت: فلمَّا تُوُفِّيَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سألْتُها عن بُكائِها وضَحِكِها. قالت: أخبَرَني رَسولُ اللهِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٨).

قال السمعاني في قولِه تعالى: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: (أشهَرُ القَولَينِ أنَّه الفَرْجُ بعَينِه. والعَرَبُ تَقولُ: أحصَنَت فُلانةُ فَرْجَها: إذا عَفَّت عن الزِّنا. والقَولُ الثَّاني: أنَّ الفَرْجَ هاهنا: هو الجَيبُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧٩).

والقَولُ الأوَّلُ: استظهره أبو حيَّانَ، وذهب إليه ابنُ جُزَي، والألوسيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٥٨، ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٨).

وممَّن ذهب إلى القولِ الثَّاني: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٥).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٤٣٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٤٣١).

صلَّى اللهُ عليه سلَّم أنَّه يَموتُ، فبَكَيتُ، ثمَّ أخبَرَني أنِّي سَيِّدةُ أهلِ الجنَّةِ إلَّا مَريمَ بِنتَ عِمرانَ، فضَحِكتُ))[(١)].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أفضَلُ نِساءِ أهلِ الجنَّةِ: خَديجةُ بِنتُ خُوَيلدٍ، وفاطِمةُ بِنتُ مُحمَّدٍ، وآسِيةُ بِنتُ مُزاحِمٍ؛ امرأةُ فِرعَونَ، ومَريمُ ابنةُ عِمرانَ))[(٢)].

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾.

أي: فنفَخَ جِبريلُ بأَمْرِنا في فَرْجِها، فحَمَلَت بابنِها عيسى عليه السَّلامُ[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٦، ١٧].

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٨٩٣) واللَّفظُ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٨٥١٣).
قال الترمذي: (حسَنٌ غَريبٌ مِن هذا الوَجهِ). وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٨٩٣).

(٢) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٨٣٥٥)، وأحمدُ (٢٦٦٨) واللَّفظُ له.
صحَّحه ابنُ حبَّانَ في ((الصحيح)) (٧٠١٠)، والألباني فيُّ ((صحيح الجامع)) (١١٣٥)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٣٩)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٣٢)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٤٠٩)، وحسَّن إسنادَه النَّوويُّ في ((تهذيب الأسماء واللغات)) (٢/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٣)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٥، ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).
قال ابن كثير: (﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي: بواسِطةَ الملَكِ، وهو جبريلُ؛ فإنَّ اللهَ بَعَثه إليها فتمثَّلَ لها في صُورةِ بَشَرٍ سَوِيٍّ، وأمَرَه اللهُ تعالى أن يَنفُخَ بفِيه في جَيبِ دِرعِها، فنزلت النَّفخةُ فوَلَجت في فَرْجِها؛ فكان منه الحَملُ بعيسى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٣).

أي: وآمَنَت مَريمُ بكَلِماتِ اللهِ، وآمَنَت بكُتُبِه، كالتَّوراةِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٣).

قيل: المرادُ بالكَلِماتِ هنا: عيسى عليه السَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٢).

وقيل: المرادُ بالكَلِماتِ: الشَّرائِعُ الَّتي شرَعَها اللهُ للعبادِ بكَلِماتِه المُنزَّلةِ في كُتُبِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٠٥).

وقيل: الكَلِماتُ هي قَولُ جِبريلَ لمَريمَ عليهما السَّلامُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٤).

وقيل: الكَلِماتُ تَشملُ كَلِماتِ اللهِ الشَّرعيَّةَ والقَدَريَّةَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

وقال ابن كثير: (...﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ أي: بقَدَرِه وشَرعِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٣).

وأمَّا قَولُه تعالى: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ فقيل: المرادُ: الإنجيلُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٨٠).

وقيل: المرادُ: التَّوراةُ والإنجيلُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٦).

وقيل: المرادُ: التَّوراةُ والزَّبورُ والإنجيلُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: السَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٨٠).

وقال ابنُ عاشور: (آمَنَت بالكتُبِ الَّتي أُنزِلَت قبْلَ عيسى، وهي «التَّوراةُ» و«الزَّبُورُ»، وكُتبُ الأنبياءِ مِن بني إسرائيلَ، و«الإنجيلُ» إن كان قد كَتَبه الحَواريُّونَ في حَياتِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٩).

وقال ابن جُزَي: (﴿وكِتَابِهِ﴾ بالإفرادِ يحتملُ أن يُريدَ به التَّوراةَ أو الإنجيلَ أو جِنسَ الكُتبِ، وقرأ أبو عَمرٍو وحفصٌ [ويعقوبُ] بالجمعِ يعني: جميعَ كُتبِ الله). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٣). =

كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥].

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾.

أي: وكانت مَريمُ مِن جُملةِ القَومِ المُطيعينَ للهِ، المواظِبينَ على طاعتِه(١).

قال تعالى: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣].

الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ فيه أنَّ الرَّجُلَ وإن كان في غايةِ الصَّلاحِ فلا يَأمَنُ المرأةَ، ولا يأمَنُ نَفْسَه، كالصَّادِرِ مِن امرأتَيْ نُوحٍ ولُوطٍ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ أنَّ الكافِرَ يُعاقَبُ على كُفْرِه وعداوتِه للهِ ورَسولِه وأوليائِه، ولا يَنفَعُه مع كُفْرِه ما كان بيْنه وبيْن المؤمنينَ مِن لُحْمَةِ نَسَبٍ، أو صِلَةِ صِهْرٍ، أو سَبَبٍ مِن أسبابِ الاتِّصالِ؛ فإنَّ الأسبابَ كلَّها تَنقَطِعُ يومَ القيامةِ إلَّا ما كان منها مُتَّصِلًا باللهِ وَحْدَه على أيدي رُسُلِه، فلو نَفَعَتْ وُصلةُ القَرابةِ والمُصاهَرةِ أو النِّكاحِ مع عَدَمِ الإيمانِ، لنَفَعَتِ

= وقراءةُ الإفرادِ قرأ بها الباقونَ. يُنظر: ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص: ٥٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٨).

قال الواحدي: (يجوزُ أن يُريدَ بالقانِتينَ: رَهطَها وعَشيرتَها الَّذين كانت منهم مَريمُ، وكانوا مُطيعينَ لله، أهلَ بَيتِ صلاحٍ وطاعةٍ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٢٤).

وقال ابن عاشور: (المرادُ بالقانِتينَ: المُكثِرونَ مِن العبادةِ، والمعنى أنَّها كانت سليلةَ قَومٍ صالحينَ، أي: فجاءت على طريقةِ أُصولِها في الخَيرِ والعَفافِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٦).

الوُصلةُ الَّتي كانت بيْن لُوطٍ ونُوحٍ وامرأتَيْهما! فلمَّا لم يُغْنيا عنهما مِن اللهِ شيئًا ﴿وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ قَطَعَتِ الآيةُ حينَئذٍ طَمَعَ مَن رَكِبَ معصيةَ اللهِ، وخالَفَ أمْرَه، ورجا أنْ يَنفعَه صلاحُ غيرِه مِن قريبٍ أو أجنبيٍّ، ولو كان بيْنَهما في الدُّنيا أشدُّ الاتِّصالِ، وهذا أصلُ ضَلالِ بني آدمَ وشِرْكِهم، وهو الشِّركُ الَّذي لا يَغفِرُه اللهُ، وهو الَّذي بَعَثَ اللهُ جميعَ رُسُلِه وأنزَلَ جميعَ كُتُبِه بإبطالِه، ومُحارَبةِ أهْلِه ومُعاداتِهم[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ أنَّ اتِّصالَ المؤمِنِ بالكافِرِ لا يَضُرُّه شَيئًا إذا فارَقَه في كُفْرِه وعَمَلِه؛ فمَعصيةُ الغيرِ لا تَضُرُّ المؤمِنَ المطيعَ شيئًا في الآخِرةِ، وإنْ تَضَرَّرَ بها في الدُّنيا بسَبَبِ العُقوبةِ الَّتي تَحُلُّ بأهلِ الأرضِ إذا أضاعوا أَمْرَ اللهِ، فتأتي عامَّةً؛ فلَمْ يَضُرَّ امرأةَ فِرعونَ اتِّصالُها به وهو مِن أكْفَرِ الكافِرينَ، ولم يَنفَعِ امرأةَ نوحٍ ولوطٍ اتِّصالُهما بهما وهما رَسُولا ربِّ العالَمينَ[٢]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ طلَبَتْ كَوْنَ البَيتِ عندَه قبْلَ طَلَبِها أنْ يكونَ في الجنَّةِ؛ فإنَّ «الجارَ قبْلَ الدَّارِ»[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه دَليلٌ على الالتِجاءِ إلى اللهِ تعالى عندَ المِحَنِ، وسؤالِ الخَلاصِ منها، وأنَّ ذلك مِن سُنَنِ الصَّالِحينَ والأنبياءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٩٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ذَكَر سُبحانَه ثلاثةَ أصنافٍ مِن النِّساءِ: المرأةِ الكافرةِ الَّتي لها وُصلةٌ بالرَّجُلِ الصَّالحِ، والمرأةِ الصَّالحةِ الَّتي لها وُصلةٌ بالرَّجُلِ الكافِرِ، والمرأةِ العَزَبِ الَّتي لا وُصلةَ بيْنَها وبيْنَ أحَدٍ؛ فالأُولى لا تَنفَعُها وُصْلتُها وسَبَبُها، والثَّانيةُ لا تَضُرُّها وُصْلتُها وسَبَبُها، والثَّالِثةُ لا يَضُرُّها عدَمُ الوُصلةِ شَيئًا[1].

٢- في قَولِه تعالى ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ في هذه الأمثالِ مِن الأسرارِ البَديعةِ ما يُناسِبُ سِياقَ السُّورةِ؛ فإنَّها سِيقَت في ذِكرِ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّحذيرِ مِن تَظاهُرِهنَّ عليه، وأنَّهن إنْ لم يُطِعْنَ اللهَ ورَسولَه ويُرِدْنَ الدَّارَ الآخِرةَ، لم يَنفَعْهنَّ اتِّصالُهنَّ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما لم يَنفَعِ امرأةَ نُوحٍ ولوطٍ اتِّصالُهما بهما؛ ولهذا إنَّما ضُرِبَ في هذه السُّورةِ مَثَلُ اتِّصالِ النِّكاحِ دونَ القَرابةِ.

وفي ضَرْبِ المَثَلِ للمُؤمِنينَ بمريمَ -باعتِبارٍ آخَرَ- وهو أنَّها لم يَضُرَّها عندَ اللهِ شيئًا قَذْفُ أعداءِ اللهِ اليهودِ لها، ونِسبَتُهم إيَّاها وابنَها إلى ما بَرَّأَهما اللهُ عنه، مع كَونِها الصِّدِّيقةَ الكُبرى المُصطفاةَ على نساءِ العالَمينَ! فلا يَضُرُّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ قَدْحُ الفُجَّارِ والفُسَّاقِ فيه، وفي هذا تَسليةٌ لعائِشةَ أمِّ المؤمِنينَ، إنْ كانتِ السُّورةُ نَزَلَتْ بعدَ قِصَّةِ الإفكِ، وتوطينُ نَفْسِها على ما قال فيها الكاذِبونَ، إنْ كانت قَبْلَها، كما في ذِكْرِ التَّمثيلِ بامرأةِ نُوحٍ ولوطٍ تحذيرٌ لها ولحَفصةَ ممَّا تعَمَّدَتاه في حَقِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فتَضمَّنَتْ هذه الأمثالُ التَّحذيرَ لهنَّ

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٥).

والتَّخويفَ، والتَّحريضَ لهنَّ على الطَّاعةِ والتَّوحيدِ، والتَّسليةَ وتوطينَ النَّفْسِ لِمَن أُوذِيَ مِنهنَّ وكُذِبَ عليه، وأسرارُ التَّنزيلِ فوقَ هذا وأَجَلُّ منه، ولا سيَّما أسرارِ الأمثالِ الَّتي لا يَعْقِلُها إلَّا العالِمونَ[1]!

٣- قد وقَع في القرآنِ الإخبارُ عن أهلِ الإيمانِ بلَفظِ الزَّوْجِ مُفرَدًا وجَمعًا، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٥٩]، وقال في حقِّ آدَمَ: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] [الأعراف: ١٩]، ووقَع الإخبارُ عن أهلِ الشِّركِ بلَفظِ المَرأةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾، فلَمَّا كانَتا مُشرِكتَينِ أوقَع عليهما اسمَ المرأةِ، وقال في فِرعونَ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ لَمَّا كان هو المُشرِكَ وهي مؤمنةٌ لم يُسَمِّها زَوجًا له، وقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ١ - ٤].

والسِّرُّ في ذِكْرِ المؤمنينَ ونِسائِهم بلَفظِ «الأزواجِ» أنَّ هذا اللَّفظَ مُشْعِرٌ بالمُشاكَلةِ والمجانَسةِ والاقترانِ -كما هو المفهومُ مِن لَفظِه-؛ فإنَّ الزَّوجَينِ هما الشَّيئانِ المُتشابِهانِ المُتشاكِلانِ أو المتَساويانِ، ولا ريبَ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قَطَع المُشابَهةَ والمُشاكَلةَ بيْنَ الكافِرِ والمؤمنِ؛ قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقَطَع المُقارَنةَ سُبحانَه بيْنَهما في أحكامِ الدُّنيا، فلا يَتوارَثانِ ولا يَتناكَحانِ، ولا يتَولَّى أحدُهما صاحبَه، فكما انقَطَعتِ الوُصلةُ بيْنَهما في المعنى انقطَعتْ في الاسمِ، فأضاف فيها «المرأةَ» بلَفظِ الأنوثةِ المجرَّدِ دونَ لفظِ المشاكَلةِ والمشابَهةِ، وهذا المعنى أشدُّ مُطابَقةً

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٥).

لألفاظِ القُرآنِ ومعانيه؛ ولهذا وَقَع على المُسلِمةِ امرأةِ الكافرِ، وعلى الكافرةِ امرأةِ المؤمِنِ لفظُ «المرأةِ» دونَ «الزَّوجةِ»؛ تحقيقًا لهذا المعنى، واللهُ أعلمُ.

وتأمَّلْ في هذا المعنى في آيةِ المواريثِ وتعليقِه سُبحانَه التَّوارُثَ بلَفظِ الزَّوجةِ دونَ المرأةِ -كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢]- إيذانًا بأنَّ هذا التَّوارثَ إنَّما وَقَعَ بالزَّوجيَّةِ المقتَضِيةِ للتَّشاكُلِ والتَّناسُبِ، والمؤمنُ والكافرُ لا تَشاكُلَ بيْنَهما ولا تَناسُبَ؛ فلا يَقَعُ بيْنَهما التَّوارُثُ، وأسرارُ مُفرَداتِ القرآنِ ومُرَكَّباتِه فوقَ عُقولِ العالَمِينَ.

وأمَّا قولُ زكريَّا عليه السَّلامُ: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥]، وقولُه تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩]، فجَوابُه: أنَّ ذِكْرَ «المرأةِ» أَلْيَقُ في هذه المواضعِ؛ لأنَّه في سياقِ ذِكْرِ الحَمْلِ والولادةِ، فذِكْرُ «المرأةِ» أَولى به؛ لأنَّ الصِّفةَ -الَّتي هي الأُنوثةُ- هي المقتَضِيةُ للحَمْلِ والوَضعِ لا مِن حيثُ كانت زَوْجًا[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ أنَّ أنكِحةَ الكُفَّارِ صَحيحةٌ؛ حيثُ سمَّاها سُبحانَه «امرأتَه»، والصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم غالبُهم إنَّما وُلِدوا مِن نكاحٍ كان قبْلَ الإسلامِ في حالِ الشِّركِ، وهم يُنسَبون إلى آبائِهم انتِسابًا لا رَيْبَ فيه عندَ أحدٍ مِن أهلِ الإسلامِ، وقد أسْلَمَ الجَمُّ الغفيرُ في عَهدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلَمْ يأمُرْ أحدًا منهم أنْ يُجَدِّدَ عقْدَه على امرأتِه، فلو كانت أنكِحةُ الكُفَّارِ باطِلةً لأمَرَهم بتَجديدِ أنكحتِهم[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ شَهادةُ اللهِ لها

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٦١٤).

بإحصانِ الفَرْجِ، وعليه فمَنْ رماها بما رماها به اليهودُ؛ حيث قالوا: إنَّها زانيةٌ! فإنَّه كافِرٌ مُكَذِّبٌ للهِ عزَّ وجلَّ[(١)].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ عطفٌ على ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾، فجمَعَ في التَّمثيلِ بيْنَ الَّتي لها زَوجٌ، والَّتي لا زَوجَ لها؛ تَسليةً للأراملِ، وتطْييبًا لأنفُسِهنَّ[(٢)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ دَليلٌ على أنَّ اسمَ الإحصانِ يقَعُ على العَفافِ، وأنَّ المرأةَ إذا صانتْ فَرْجَها عن الفاحِشةِ فهي مُحصَنةٌ؛ فالإحصانُ اسمٌ جامِعٌ يَقعُ على هذا، وعلى الإسلامِ والتَّزويجِ، وجِماعُه الحَبْسُ عن الشَّيءِ بالحائلِ دُونَه، فكأنَّها تَحْبِسُ نَفْسَها عن الفاحِشةِ بحاجِزِ الإسلامِ، والتَّعَفُّفِ بالزَّواجِ[(٣)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أنَّ الرُّوحَ في الجَسَدِ تُنفَخُ نفخًا، ولكِنْ لا نَعلَمُ الكيفيَّةَ[(٤)].

٩- قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ الروحُ المضافةُ إلى الربِّ هي روحٌ مخلوقةٌ أضافَها إلى نفسِه إضافةَ تخصيصٍ وتشريفٍ. والمضافُ إلى الله سبحانَه نوعانِ:

الأول: صفاتٌ لا تقومُ بأنفسِها، كالعِلمِ والقُدرةِ والكلامِ والسَّمعِ والبصرِ، فهذه إضافةُ صفةٍ إلى الموصوفِ بها، فعلمُه وكلامُه وإرادتُه وقدرتُه وحياتُه صفاتٌ له

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٩٢).

غيرُ مخلوقةٍ، وكذلك وجهُه ويدُه سبحانَه.

والثاني: إضافةُ أعيانٍ منفصلةٍ عنه، كالبيتِ والنَّاقةِ والعبدِ والرَّسولِ والرُّوحِ، فهذه إضافةُ مخلوقٍ إلى خالقِه، ومصنوعٍ إلى صانعِه، لكنَّها إضافةٌ تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميَّزُ به المضافُ عن غيرِه، كبيتِ الله، وإن كانت البيوتُ كلُّها مِلكًا له، وكذلك ناقةُ الله، والنُّوقُ كلُّها مِلكُه وخلقُه، لكنْ هذه إضافةٌ إلى إلهيتِه تقتضي محبتَه لها وتكريمَه وتشريفَه، بخلافِ الإضافةِ العامَّةِ إلى ربوبيتِه حيثُ تقتضي خلقَه وإيجادَه[(١)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ اجتَمَع نَوعا كَلِماتِ اللهِ الدِّينيَّةِ والكَونيَّةِ؛ فـ «كُتُبُه» كلماتُه الَّتي يأمُرُ بها ويَنهى، ويُحِلُّ ويُحَرِّمُ، و«كَلِماتُه» هي الَّتي يَخْلُقُ بها ويُكَوِّنُ -وذلك على قولٍ-؛ فأَخبرَ أنَّ مَرْيَمَ ليست جَهميَّةً تُنْكِرُ كَلِماتِ دِينِه وكَلِماتِ تكوينِه، وتجعلُها خَلْقًا مِن جملةِ مَخلوقاتِه[(٢)]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ وكذلك قوله: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠] أنَّ الإيمانَ والكَمالَ في الرِّجالِ أكثرُ، لأنَّه لم يَقُلْ: مِن القانتاتِ. ولا: مِن المؤمِناتِ، ولهذا جاء في الحديثِ: ((كَمَلَ مِن الرِّجالِ كثيرٌ، ولم يَكمُلْ مِن النِّساءِ إلا آسيةُ امرأةُ فِرعونَ، ومريمُ بنتُ عِمْرانَ))[(٣)]!

١٢- في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ إيماءٌ إلى تَبْرئةِ مريمَ ممَّا رَماها به

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٤- ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٩).
والحديث رواه البخاريُّ (٣٤٣٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٤٣١).
ويُنظر الأوجهُ الأخرى في البلاغة (ص: ٢١٨).

القومُ البُهْتُ[١].

١٣- قال تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾، في ذِكْرِ القانتينَ إيماءٌ إلى ما أوصَى اللهُ به أُمَّهاتِ المُؤمِنينَ بقولِه تعالَى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١] الآيةَ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أُعْقِبَتْ جُملةُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التحريم: ٩] الآيةَ -المقصودُ منها تَهديدُهم بعَذابِ السَّيفِ في الدُّنيا، وإنذارُهم بعَذابِ الآخِرةِ، وما قارَنَ ذلكَ مِن مُقابَلةِ حالِهم بحالِ المُؤمِنينَ-؛ بأنْ ضرَبَ مَثلَيْنِ للفريقَيْنِ بنظيرَيْنِ في حالَيْهما؛ لتَزدادَ الموعظةُ وُضوحًا، ويَزدادَ التَّنويهُ بالمُؤمِنينَ استِنارةً؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا[٣].

- قولُه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه تَقديمُ المجرورِ باللَّامِ على المفعولِ؛ للاهتمامِ بإيقاظِ الَّذينَ كفَروا[٤].

- ومِن لَطائفِ التَّقييدِ بقولِه تعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أنَّ المقصدَ الأصليَّ هو ضَرْبُ المثَلِ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وذلكَ مِنَ الاحتراسِ مِن أنْ يُحمَلَ التَّمثيلُ على المُشابَهةِ مِن جَميعِ الوُجوهِ، والاحتراسُ بكَثرةِ التَّشبيهاتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ﴾ مُناسَبةُ ضَرْبِ المثَلِ بامرأةِ نوحٍ وامرأةِ لوطٍ دونَ غيرِهما مِن قَرابةِ الأنبياءِ، نَحْو أبي إبراهيمَ وابنِ نوحٍ عليهما السَّلامُ؛ لأنَّ ذِكْرَ هاتَينِ المرأتَينِ لم يَتقدَّمْ، وقد تَقدَّمَ ذِكْرُ أبي إبراهيمَ وابنِ نوحٍ؛ لتَكونَ في ذِكْرِهما فائدةٌ مُستجَدَّةٌ، ولِيَكونَ في ذِكْرِهما عَقِبَ ما سبَقَ مِن تَمالُؤِ أُمَّي المُؤمِنينَ على زَوجِهما صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَعريضٌ لَطيفٌ بالتَّحذيرِ مِن خاطرِ الاعتزازِ بغَناءِ الصِّلةِ الشَّريفةِ عنهما في الوَفاءِ بحقِّ ما يجِبُ مِنَ الإخلاصِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَكونَ الشَّبهُ في التَّمثيلِ أقوى؛ ففي ضَرْبِ هذا المثَلِ: تَعريضٌ بحَفصةَ وعائشةَ رَضيَ اللهُ عنهما المذكورتَينِ في أوَّلِ السُّورةِ، وما فَرَطَ مِنهما مِنَ التَّظاهُرِ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما كَرِهَه، وتَحذيرٌ لهما على أغلَظِ وَجْهٍ وأشَدِّه؛ لِمَا في التَّمثيلِ مِن ذِكْرِ الكُفرِ ونَحْوِه، وإشارةٌ إلى أنَّ مِن حقِّهما أنْ تَكونَا في الإخلاصِ والكِتمانِ فيه كمِثْلِ هاتَينِ المؤمنتَيْنِ، وألَّا تتَّكِلَا على أنَّهما زَوْجَتا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ ذلكَ الفضلَ لا يَنفَعُهما إلَّا مع كَونِهما مُخلِصتَينِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٣، ٣٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٣).

قال ابنُ عطيَّة: (وقال بعضُ النَّاسِ: إنَّ في المثَلَينِ عِبرةً لزَوجاتِ النَّبيِّ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ تقَدَّم عِتابُهنَّ، وفي هذا بُعْدٌ؛ لأنَّ النَّصَّ أنَّه للكُفَّارِ يُبعِدُ هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٥).

وقال ابنُ عاشور مُعَقِّبًا: (ويَدفَعُ اسْتِبعادَه أنَّ دَلالةَ التَّعريضِ لا تُنافي اللَّفظَ الصَّريحَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٤).

وقال السعدي: (فكأنَّ في ذلك إشارةً وتحذيرًا لزَوجاتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن =

- وفي قولِه: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ فائدةُ قولِه: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ بعْدَ ﴿عَبْدَيْنِ﴾ مَدْحُهما والثَّناءُ عليهما، بإضافتِهما إليه إضافةَ التَّشريفِ والتَّخصيصِ والتَّعظيمِ، وفي ذلكَ مُبالَغةٌ في المعْنى المقصودِ، وهو أنَّ الإنسانَ لا يَنْفَعُه عادةً إلَّا صلاحُ نفْسِه، لا صَلاحُ غَيرِه، وإنْ كانَ ذلكَ الغَيرُ في أعلى المراتِبِ[1].

- وجاءتِ الكِنايةُ عن اسْمِهما العَلَمينِ بقولِه: ﴿عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا﴾؛ لِما في ذلك مِن التَّشريفِ بالإضافةِ إليه تَعالى، ولم يأْتِ التَّركيبُ بالضَّميرِ عنهما، فيَكون (تحْتَهما)؛ لِما قُصِدَ مِن ذِكرِ وصْفِهما بقولِه: ﴿صَالِحَيْنِ﴾؛ لأنَّ الصَّلاحَ هو الوصفُ الَّذي يَمتازُ به مَن اصطفاهُ اللهُ تعالَى، كقولِه في حقِّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وفي قولِ يوسفَ عليه السَّلامُ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقولِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩][2]، ولأنَّ ذلك أفخَمُ، فيكونُ أشَدَّ تأثيرًا للمَوعوظِ وأعظَمَ، ودَفعًا لأن يَتوهَّمَ أحَدٌ بشَيءٍ لا يَليقُ بمَقامِهما عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ[3].

- وأيضًا خَصَّ نوحًا ولُوطًا بوَصْفِ عبدَيْنِ صالحَينِ، مع أنَّ وصْفَ النُّبوَّةِ أخصُّ مِن وصْفِ الصَّلاحِ؛ تَنويهًا بوصْفِ الصَّلاحِ، وإيماءً إلى أنَّ النُّبوَّةَ صَلاحٌ؛ ليَعْظُمَ بذلكَ شأنُ الصَّالِحينَ، ولتَكونَ المَوعظةُ ساريةً إلى نِساءِ

= المعصيةِ، وأنَّ اتِّصالَهنَّ به صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَنفَعُهنَّ شيئًا مع الإساءةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥١٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٨).

المُسلِمينَ في مُعامَلتِهنَّ أزواجَهنَّ؛ فإنَّ وصْفَ النُّبوَّةِ قد انْتهَى بالنِّسبةِ للأمَّةِ الإسلاميَّةِ، مع ما في ذلكَ مِن تَهويلِ الأذى لعبادِ اللهِ الصَّالِحينَ، وعِنايةِ ربِّهم بهم، ومُدافَعتِه عنهم(١).

- قولُه: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بَيانٌ لِما صدَرَ عنهُما مِن الجِنايةِ العَظيمةِ مع تَحقيقِ ما يَنْفِيها مِن صُحبةِ النَّبيِّ، أي: خانَتاهُما بالكُفْرِ والنِّفاقِ، وهذا تَصويرٌ لحالِهما المُحاكيةِ لحالِ هؤلاءِ الكَفرةِ في خِيانتِهم لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالكفْرِ والعِصيانِ، مع تَمكُّنِهمُ التَّامِّ مِنَ الإيمانِ والطَّاعةِ(٢). وليست هي الخيانةَ بمعنى الزِّنا؛ فإنَّ اللهَ تعالى قد صان أنبياءَه وعصَمَهم عن تلبُّسِ زَوجاتِهم بالزِّنا.

- قولُه: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فيه تَنكيرُ ﴿شَيْـًٔا﴾ للتَّحقيرِ، أي: أقلَّ غِنًى وأجحَفَه، بَلْهَ الغِنَى المُهِمَّ(٣).

- قولُه: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ زِيادةُ ﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ لإفادةِ مُساواتِهما في العذابِ لغيرِهما مِنَ الكَفرةِ الخوَنةِ، وذلكَ تأْييسٌ لهُما مِن أنْ تَنْتَفِعا بشَيءٍ مِن حُظوةِ زَوجَيْهما(٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جُعِلَ المثَلُ للَّذينَ آمَنوا بحالِ امرأتَيْنِ لتَحصُلَ المُقابَلةُ للمَثلَينِ السَّابقَينِ؛ فهذا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن مُراعاةِ النَّظيرِ في المثلَيْنِ. وجاءَ أحَدُ المَثلَيْنِ للَّذينَ آمَنوا مَثَلًا لإخلاصِ الإيمانِ، والمَثَلُ الثَّاني لشِدَّةِ التَّقْوى؛ فكانَتِ امْرأةُ فِرعونَ مَثَلًا لِمَتانةِ إيمانِ المُؤمِنينَ، ومَريمُ مَثَلًا للقانتِينَ؛ لأنَّ المُؤمِنينَ تَبرَّؤُوا مِن ذَوِي قَرابتِهِمُ الَّذينَ بَقُوا على الكفرِ بمَكَّةَ[١].

- وأرادَتْ بعمَلِ فِرعونَ ظُلْمَه -على قولٍ في التَّفسيرِ-، أي: نجِّني مِن تَبِعَةِ أعمالِه؛ فيكونُ معنى (نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ) مِن صُحبتِه، طلَبَتْ لنفْسِها فرَجًا، وهو مِن عطفِ الخاصِّ على العامِّ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾

- وُصِفَتْ مريمُ بالمَوصولِ وصِلتِه ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ لأنَّها عُرِفَتْ بتلكَ الصِّلةِ مِن قصَّتِها المعروفةِ مِن تَكرُّرِ ذِكْرِها فيما نزَلَ مِنَ القرآنِ قبْلَ هذه السُّورةِ[٣].

- وتَفريعُ ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ تَفريعُ العَطيَّةِ على العَملِ لأجْلِه، أي: جَزَيْناها على إحصانِ فرْجِها، أي: بأنْ كوَّنَ اللهُ فيه نبيًّا بصِفةٍ خارقةٍ للعادةِ؛ فخلَّدَ بذلكَ ذِكْرَها في الصَّالِحاتِ[٤].

- قَولُه: ﴿فَنَفَخْنَا﴾ أضاف اللهُ النَّفخَ إليه؛ لأنَّه فِعْلُ رَسولِه الَّذي أرسَلَه لِيَنفُخَ في فَرْجِها، وإضافةُ النَّفخِ إلى اللهِ مع أنَّه كان مِن جبريلَ: كإضافةِ القِراءةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٨).

إلى اللهِ مع أنَّه كان مِن جِبريلَ في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]؛ فالَّذي يقرأُ جبريلُ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتَّبِعُه[١].

- قولُه: ﴿رُّوحِنَا﴾ أضاف اللهُ تعالى الرُّوحَ إلى نَفْسِه إضافةَ مخلوقٍ إلى خالِقِه، وفي ذلك تَشريفٌ له[٢].

وقيل: إضافةُ الرُّوحِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ لأنَّ تكوينَ المخلوقِ الحيِّ في رَحِمِها كان دونَ الأسبابِ المعتادةِ، أو أُرِيدَ بالرُّوحِ المَلَكُ الَّذي يُؤْمَرُ بنَفخِ الأرواحِ في الأجِنَّةِ؛ فعلى الأوَّلِ تكونُ ﴿مِن﴾ تَبعيضيَّةً، وعلى الثَّاني تكونُ ابتدائيَّةً[٣].

- قولُه: ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ عطفٌ على مَحذوفٍ مُقدَّرٍ مُناسِبٍ للسِّياقِ، أي: فحمَلَتْ بعيسى وصدَّقَتْ[٤].

- قولُه: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ (مِن) للابتِداءِ، والمعْنى: أنَّها كانت سَليلةَ قومٍ صالحينَ، أي: فجاءتْ على طَريقةِ أُصولِها في الخيرِ والعَفافِ. ويجوزُ جعْلُ (مِن) للتَّبعيضِ، أي: هي بَعضُ مَن قَنَتَ للهِ. وغُلِّبَت صِيغةُ جمْعِ الذُّكورِ، ولم يُقَلْ: مِن القانتاتِ، جرْيًا على طَريقةِ التَّغليبِ، لإطباقِ أهلِ اللِّسانِ العَربيِّ على تغليبِ الذَّكَرِ على الأُنثى في الجَمعِ، وهو مِن تَخريجِ الكلامِ على خِلافِ مُقتضَى الظَّاهِرِ، ونُكْتَتُه هنا الإشارةُ إلى أنَّها في عِدادِ أهلِ الإكثارِ مِنَ العبادةِ، وأنَّ طاعتَها لم تَقْصُرْ عن طاعةِ الرِّجالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٣).

الكامِلينَ حتَّى عُدَّتْ مِن جملتِهِم، وأنَّ شأنَ ذلكَ أنْ يكونَ للرِّجالِ؛ لأنَّ نساءَ بَنِي إسرائيلَ كُنَّ مَعْفِيَّاتٍ مِن عِباداتٍ كثيرةٍ، وأيضًا لرِعايةِ الفواصلِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٤، ٥٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٦١)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٣).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ المُلْكِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ المُلْكِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بعِدَّةِ أسماءٍ؛ منها:

١- سُورةُ المُلْكِ[(١)]: فعن ابنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه، قال: (يُؤتَى الرَّجُلُ في قبرِه فتُؤتَى رِجْلاه فتقولُ رِجْلاه: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ؛ كان يقومُ يقرأُ بي سورةَ المُلْكِ...)[(٢)].

٢- سُورةُ ﴿تَبَٰرَكَ﴾: فعن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((سورةُ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ هي المانِعةُ مِن عذابِ القَبْرِ))[(٣)].

---

(١) سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بذلك؛ لِمُفتَتَحِها به في قَولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧٣).

قال ابن عاشور: (الشَّائِعُ في كُتُبِ السُّنَّةِ وكُتُبِ التَّفسيرِ وفي أكثرِ المصاحفِ تَسْميةُ هذه السُّورةِ «سورةَ المُلْكِ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦).

(٢) أخرجه الطَّبَرانيُّ (٩/ ١٤١) (٨٦٥١)، والحاكمُ (٣٨٣٩) واللَّفظُ له، وأبو نُعَيمٍ في ((حلية الأولياء)) (٧/ ٢٤٨).

صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحسَّن الأثرَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (١٤٧٥)، وحسَّن سندَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٣/ ٣٥٤)، وفي تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (٣/ ٦٨).

قال شعيبٌ الأرناؤوط: (مِثلُ هذا لا يُقالُ مِن قِبَلِ الرَّأيِ، فيَكونُ له حُكمُ الرَّفعِ). تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (٣/ ٦٨).

(٣) أخرجه أبو الشَّيخِ في ((طبقات المحَدِّثين)) (٤/ ١١)، والشَّجَريُّ، كما في ((ترتيب الأمالي)) (٥٦٩).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٣٦٤٣)، وحسَّن سندَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٣/ ٦٨).

٣- سُورةُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[١]: فعن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ سورةً مِن القُرآنِ ثلاثونَ آيةً، شفعتْ لرجُلٍ حتَّى غُفِر له، وهي سورةُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾))[٢].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

عن ابنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه، قال: (يُؤْتَى الرَّجُلُ في قبرِه، فتُؤتى رِجْلاه فتقولُ رِجْلاه: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ؛ كان يقومُ يقرأُ بي سورةَ المُلكِ، ثمَّ يُؤتَى مِن قِبَلِ صدرِه أو قال بَطنِه، فيقولُ: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ؛ كان يقرأُ بي سورةَ الملكِ، ثمَّ يؤتَى رأسُه فيقولُ: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ؛ كان يقرأُ بي سورةَ الملكِ، قال: فهي المانِعةُ؛ تمنعُ مِن عذابِ القبرِ، وهي في التَّوراةِ سورةُ الملكِ، ومَن قرأها في ليلةٍ فقد أكثَرَ وأطنَبَ)[٣].

وعن ابنِ مَسعودٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((سورةُ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ هي المانِعةُ مِن عذابِ القَبرِ))[٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ

---

(١) قال ابن عاشور: (فهذا تسميةٌ للسُّورةِ بأوَّلِ جُمْلةٍ وَقَعتْ فيها، فتكونُ تَسْميةً بجُملةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥).

وسُمِّيَتِ السُّورةُ بغيرِ ذلك. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لأبي الحسن السخاوي (ص: ٩٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١٤٠٠)، والترمذيُّ (٢٨٩١)، وأحمدُ (٧٩٧٥).

قال الترمذي: (حسَنٌ)، وحسَّنه لغيرِه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (١٤٧٤)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٣/ ٣٥٣).

(٣) تقدَّم تخريجُه (ص: ٢٢٣).

(٤) تقدَّم تخريجُه (ص: ٢٢٣).

سورةً مِن القُرآنِ ثلاثونَ آيةً شفعتْ لِرَجُلٍ حتَّى غُفِر له، وهي سورةُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾))[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ المُلْكِ مَكِّيَّةٌ[٢]، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

بيانُ عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ مُلْكِه الدَّالِّ على وَحدانيَّتِه[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- التَّعريفُ بعَظَمةِ اللهِ تعالى، وانفِرادِه بالمُلْكِ، وقُدرتِه على كُلِّ شَيءٍ.

٢- بيانُ الحِكمةِ مِن خَلْقِ الموتِ والحياةِ.

٣- ذِكرُ بَعضِ مَظاهِرِ قُدرتِه سُبحانَه، وانفِرادِه بخَلْقِ العوالِمِ العُلْيا خَلْقًا بالِغًا غايةَ الإتقانِ.

٤- بيانُ سُوءِ عاقِبةِ الكافِرينَ وما أعَدَّه اللهُ لهم مِن عذابٍ، وبيانُ حُسنِ عاقبةِ

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٨)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٤٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٤).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبِقاعي (٣/ ١٠٣)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٦).

المؤمِنينَ.

٥- بيانُ سَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى وأنَّه لا يخفى عليه شَيءٌ، سواءٌ كان سرًّا أو علانيةً.

٦- التَّذكيرُ بمِنَّةِ خَلْقِ هذه الأرضِ، وجَعْلِها مُلائِمةً لحياةِ النَّاسِ، وأمْرُهم بالسَّعيِ فيها، والانتِفاعِ بما فيها مِن وُجوهِ النِّعَمِ.

٧- التَّحذيرُ مِن بَطشِ اللهِ وعِقابِه، والتَّذكيرُ بما جرى للكافِرينَ السَّابِقينَ.

٨- الدَّعوةُ إلى التَّأمُّلِ والتَّفَكُّرِ في مَشهدِ الطَّيرِ صافَّاتٍ في الجَوِّ، وفي أحوالِ أنفُسِهم، وأنَّه لا ناصِرَ مِن دونِ اللهِ، وأنَّه إنْ أمْسَكَ رِزقَه فلا رازِقَ لهم غَيرُه سُبحانَه وتعالى.

٩- ضَربُ المثَلِ لأهلِ الإيمانِ وأهلِ الكُفرِ، وأهلِ الحَقِّ وأهلِ الباطِلِ.

١٠- توبيخُ المُشرِكينَ على كُفْرِهم نِعمةَ اللهِ تعالى، واستِخفافِهم بوَعيدِه، وأمْرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُذَكِّرَهم بنِعَمِ اللهِ عليهم، وأن يَرُدَّ على شُبُهاتِهم وأكاذيبِهم بما يَدحَضُها، وأن يَكِلَ أمْرَه وأمْرَهم إليه وَحْدَه.

الآيات (١-٥)

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبَٰرَكَ﴾: أي: تعاظَمَ وتقَدَّسَ، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثَباتُ الشَّيءِ[(١)].

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: أي: لِيَختَبِرَكم ويَمتحِنَكم، وأصلُه: يدُلُّ على الامتِحانِ والاختِبارِ[(٢)].

﴿طِبَاقًا﴾: أي: مُتَطابِقةً بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، والمُطابَقةُ: أن تَجعَلَ الشَّيءَ فَوقَ آخَرَ بقَدْرِه، وأصلُ (طبق): يدُلُّ على وَضعِ شَيءٍ مَبسوطٍ على مِثْلِه حتَّى يُغَطِّيَه[(٣)].

﴿تَفَٰوُتٍ﴾: أي: اضْطِرابٍ واختِلافٍ أو عَيبٍ، وتفاوَتَ الشَّيئانِ: تباعَدَ ما

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣١)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٨).

بيْنَهما، وأصلُه مِنَ «الفَوتِ» وهو: أن يَفوتَ شَيءٌ شيئًا، فيقَعَ الخَلَلُ[١].

﴿فُطُورٍ﴾: أي: صُدوعٍ وشُقوقٍ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[٢].

﴿كَرَّتَيْنِ﴾: أي: رَجْعتَينِ؛ مرَّةً بعدَ أُخرى، وأصلُ (كرر): يدُلُّ على تَرديدٍ[٣].

﴿يَنقَلِبْ﴾: أي: يرجِعْ، وأصْلُ (قلب) هنا: صرْفُ الشَّيءِ عن وجْهٍ إلى وجْهٍ، أو ردُّه مِن جِهةٍ إلى جهةٍ[٤].

﴿خَاسِئًا﴾: أي: صاغِرًا، ذَليلًا، مُبْعَدًا، لم يَرَ ما يَهْوَى، وأصلُ (خسأ): يدُلُّ على الطَّردِ والإبعادِ[٥].

﴿حَسِيرٌ﴾: أي: كَليلٌ، مُعْيٍ، مُنقَطِعٌ، لم يُدرِكْ ما طَلَب، وهو فَعيلٌ بمعنى فاعِلٍ، مِنَ الحُسورِ الَّذي هو الإعياءُ، يُقالُ: حَسَرَ بَصَرُه: إذا كَلَّ وانقَطَع، وذلك انْكِشافُ حالِه في قِلَّةِ بَصَرِه وضَعْفِه، وأصلُ (حسر): كَشْفُ الشيءِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٧)، ((مقاييس اللغة)) (٤/ ٤٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((البسيط)) =

﴿رُجُومًا﴾: أي: يُرْجَمُ بها، والرُّجومُ جمعُ رَجْمٍ، وهو مصدرٌ سُمِّيَ به ما يُرجَمُ به، وأصلُ (رجم): يدُلُّ على رَميٍ بالحِجارةِ[١].

﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: هو اسْمٌ مِن أسماءِ جَهنَّمَ، يُقالُ: سَعرْتُ النَّارَ، إذا ألهَبْتَها، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه وارتِفاعِه[٢].

المعنى الإجماليُّ:

افتتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالثَّناءِ على ذاتِه قائِلًا: تعاظَمَ الله وكثُرَ خَيرُه الَّذي بيَدِه المُلْكُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ ذكر الله تعالى ما يدُلُّ على حِكمتِه، وشُمولِ قُدرتِه، فقال: الَّذي خَلَق الموتَ والحياةَ؛ لِيَختَبِرَكم -أيُّها النَّاسُ- فيَنظُرَ أيُّكم خَيرٌ وأفضَلُ عَمَلًا، وهو الغالِبُ القاهِرُ، الغَفورُ لذُنوبِ عبادِه.

ثمَّ بيَّن سبحانَه مَظهَرًا آخَرَ مِن مَظاهِرِ قُدرتِه، فقال: هو الَّذي خَلَق سَبْعَ سَمَواتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ، لا تَرى في خَلْقِ السَّمَواتِ الَّتي أبدَعَها الرَّحمنُ مِن اختِلافٍ أو خَلَلٍ، فأعِدْ بَصَرَك إلى السَّماءِ مُتأمِّلًا فيها، فهل ترى فيها مِن شُقوقٍ أو صُدوعٍ؟! ثمَّ كرِّرِ النَّظَرَ إلى السَّماءِ مَرَّةً بَعْدَ أُخرى، يَرجِعْ إليك بَصَرُك صاغِرًا ذليلًا قد بلَغَ الغايةَ في التَّعَبِ والإعياءِ.

ثمَّ ذكَر تعالى أدِلَّةً أخرَى على وحدانيَّتِه وقُدرتِه، فقال: ولقد زَيَّنَّا السَّماءَ

= للواحدي (٢٢/ ٤٥)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧٢).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

القَريبةَ للأرضِ بنُجومٍ مُضيئةٍ، وجعَلْنا تلك النُّجومَ رُجومًا للشَّياطينِ الَّتي تَستَرِقُ السَّمْعَ، وأعدَدْنا لهم في الآخِرةِ أشَدَّ الحَريقِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾.

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

أي: تعاظَمَ وكثُرَ خَيرُ اللهِ الَّذي بيَدِه مُلْكُ العالَمِ أجمَعَ؛ فهو وَحْدَه مَن يتصَرَّفُ فيه كيفَ يَشاءُ بما يَشاءُ[١].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الزخرف: ٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَدُ اللهِ مَلْأَى لا تَغيضُها[٢] نَفَقةٌ، سَحَّاءُ[٣] اللَّيلَ والنَّهارَ، أرَأَيْتُم ما أنفَقَ مُنذُ خَلَقَ السَّماءَ والأرضَ؟! فإنَّه لم يَغِضْ ما في يَدِه، وكان عَرشُه على الماءِ، وبيَدِه الميزانُ، يَخفِضُ ويَرفَعُ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٢) لا تَغيضُها: أي: لا تَنقُصُها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١٦٦).

(٣) سَحَّاءُ: أي: دائِمةُ الصَّبِّ والهَطْلِ بالعَطاءِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١٠/ ٣٨٦).

(٤) رواه البخاريُّ (٤٦٨٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩٩٣).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه ذو القُدرةِ التَّامَّةِ البالِغةِ على فِعلِ كُلِّ شَيءٍ، فلا يَمنَعُه أو يُعجِزُه شَيءٌ(١).

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شُروعٌ في تَفصيلِ بَعضِ أحكامِ المُلكِ وآثارِ القُدرةِ، وبَيانِ ابتنائِهما على قَوانينِ الحِكَمِ والمَصالحِ، واستِتباعِهما لغاياتٍ جَليلةٍ(٢).

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾.

أي: هو الَّذي خلَقَ موتَ الخَلْقِ وحياتَهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٤).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (فيُميتُ الأحياءَ، ويُحيي المَوتى مِن نُطْفةٍ، ثمَّ عَلَقةٍ، ثمَّ يَنفُخُ فيه الرُّوحَ فيَصيرُ حيًّا). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٨٩).

وقال ابن جرير: (فأماتَ مَن شاء وما شاء، وأحْيا مَنْ أراد وما أراد إلى أجَلٍ معلومٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٨).

وقال ابن كثير: (معنى الآيةِ: أنَّه أوجَد الخلائقَ مِن العدَمِ؛ لِيَبلُوَهم ويَختَبِرَهم أيُّهم أحسَنُ عمَلًا؟ كما قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، فسَمَّى الحالَ الأوَّلَ -وهو العدَمُ- مَوتًا، وسمَّى هذه النَّشأةَ حياةً؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦).

وقال الزمخشريُّ، والنَّسَفيُّ، وأبو حيَّانَ، والألوسيُّ: خَلَق مَوْتَكم وحَياتَكم أيُّها المكَلَّفونَ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٦). =

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

أي: لِيَختَبِرَكم -أيُّها النَّاسُ- بالأوامِرِ والنَّواهي والشَّهَواتِ والمصائِبِ، فيَنظُرَ أيُّكم خَيرٌ وأفضَلُ عَمَلًا -وذلك أخْلَصُه للهِ تعالى، وأصْوَبُه بأدائِه وَفْقَ شَرْعِه-، ثمَّ يُجازيَكم على أعمالِكم[1].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧، ٨].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾.

أي: وهو الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، المَنيعُ الجَنابِ، القاهِرُ لجَميعِ المخلوقاتِ، الغَفورُ لذُنوبِ عبادِه، فيَستُرُها عليهم، ويَقيهم عُقوبتَها[2].

= وقال السعدي: (و﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أي: قدَّر لعِبادِه أن يُحيِيَهم ثمَّ يُميتَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

وقال البيضاوي: (﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ قدَّرَهما، أو أوجَد الحياةَ وأزالَها حسبَما قدَّره). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨).

وقال البِقاعي: (﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أي: قدَّر وأوجَد). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢١٩).

وقال القرطبي: (قال العُلَماءُ: الموتُ ليس بعَدَمٍ مَحضٍ، ولا فَناءٍ صِرفٍ، وإنَّما هو انقِطاعُ تعَلُّقِ الرُّوحِ بالبَدَنِ، ومُفارقتُه، وحَيلولةٌ بيْنَهما، وتبَدُّلُ حالٍ، وانتِقالٌ مِن دارٍ إلى دارٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير))

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ كَوْنَ اللهِ عَزيزًا غَفورًا لا يَتِمُّ إلَّا بَعْدَ كَونِه قادِرًا على كُلِّ المقدوراتِ، عالِمًا بكُلِّ المعلوماتِ، أمَّا أنَّه لا بُدَّ مِن القُدرةِ التَّامَّةِ؛ فمِن أجْلِ أن يتمكَّنَ مِن إيصالِ جزاءِ كُلِّ أحدٍ بتَمامِه إليه، سواءٌ كان عِقابًا أو ثوابًا، وأمَّا أنَّه لا بُدَّ مِن العِلمِ التَّامِّ؛ فمِن أجْلِ أن يَعلَمَ أنَّ المطيعَ مَن هو، والعاصيَ مَن هو، فلا يقَعَ الخطَأُ في إيصالِ الحَقِّ إلى مُستحِقِّه، فثَبَت أنَّ كَونَه عزيزًا غَفورًا لا يمكِنُ ثُبوتُها إلَّا بعْدَ ثُبوتِ القُدرةِ التَّامَّةِ والعِلمِ التَّامِّ؛ فلهذا السَّبَبِ ذَكَر اللهُ الدَّليلَ على ثُبوتِ هاتَينِ الصِّفَتينِ في هذا المقامِ، ولَمَّا كان العِلمُ بكَونِه تعالى قادِرًا: متقَدِّمًا على العِلمِ بكَونِه عالِمًا؛ لا جَرَمَ ذَكَر أوَّلًا دلائِلَ القُدرةِ، وثانيًا دلائِلَ العِلمِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا أثبَتَ اللهُ سُبحانَه لنَفْسِه صِفتَيِ العِزِّ والغَفْرِ على أبلَغِ ما يكونُ؛ دَلَّ على ذلك بقَولِه[(٢)]:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾.

أي: هو الَّذي خَلَق سَبْعَ سَمَواتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ[(٣)].

(٨/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥، ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

قال الماوَرْدي: (﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ فيه وَجهانِ: =

كما قال تعالى حِكايةً عن قَولِ نُوحٍ عليه السَّلامُ لِقَومِه المُشرِكينَ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥].

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾.

= أحَدُهما: أي: مُتَّفِقٌ مُتشابِهٌ، مأخوذٌ مِن قَولِهم: هذا مُطابِقٌ لهذا، أي: شَبيهٌ له. قاله ابنُ بحرٍ. الثَّاني: يعني: بَعضُهنَّ فَوقَ بَعضٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥٠، ٥١).

قال ابن جُزَي: (الطِّباقُ مصدرٌ وُصِفَتْ به السَّمواتُ، أو على حذفِ مُضافٍ تقديرُه: ذواتِ طِباقٍ. وقيل: إنَّه جمعُ طبقةٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٤).

وقال ابنُ عاشور: (الطِّباقُ يجوزُ أن يكونَ مَصدَرَ «طابَقَ»، وُصِفَت به السَّمَواتُ للمُبالغةِ، أي: شديدةَ المطابقةِ، أي: مُناسَبة بَعضِها لبعضٍ في النِّظام. ويجوزُ أن تكونَ ﴿طِبَاقًا﴾ جمْعَ طَبَقٍ، والطَّبَقُ: المُساوي في حالةٍ ما، ومنه قَولُهم في المثَلِ: «وافَقَ شَنٌّ طَبَقَه». والمعنى: أنَّها مُرتفِعٌ بَعضُها فوقَ بعضٍ في الفَضاءِ السَّحيقِ، أو المعنى: أنَّها مُتماثِلةٌ في بعضِ الصِّفاتِ...، وليس في قَولِه: ﴿طِبَاقًا﴾ ما يقتضي أنَّ بَعضَها مظروفٌ لبعضٍ؛ لأنَّ ذلك ليس مِن مُفادِ مادَّةِ الطِّباقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦، ١٧).

وقال ابن جرير: (﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ طَبَقًا فوقَ طبَقٍ، بعضُها فوقَ بعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩).

وقال ابن كثير: (قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: طبَقةً بعْدَ طبَقةٍ، وهل هنَّ مُتَواصِلاتٌ -بمعنى: أنَّهُنَّ علويَّاتٌ بَعضُهُنَّ على بعضٍ- أو مُتفاصِلاتٌ بيْنَهنَّ خَلاءٌ؟ فيه قَولانِ، أصَحُّهما الثَّاني، كما دلَّ على ذلك حديثُ الإسراءِ وغيرُه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦). ويُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٣٩).

وقال أبو السعود: (مُتطابِقةٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٩).

وقال البِقاعي: (كُلُّ واحِدةٍ مِنها كأنَّها لشِدَّةِ مُطابَقتِها للأُخرى طالِبةٌ مُطابَقتَها بحيثُ يكونُ كُلُّ جزءٍ منها مُطابِقًا لجُزءٍ مِن الأخرى، ولا يكونُ جُزءٌ منها خارِجًا عن ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٢٣).

وقال ابن عادل: (لا خِلافَ في أنَّ السَّمَواتِ سَبْعٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، بدليلِ حديثِ الإسراءِ وغَيرِه). ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ١٨٠).

أي: لا ترى[١] في خَلْقِ السَّمَواتِ الَّتي أبدَعَها الرَّحمنُ مِن اختِلافٍ أو خَلَلٍ[٢]!

قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾.

أي: فأعِدْ بَصَرَك إلى السَّماءِ مُتأمِّلًا فيها، فهل ترى فيها أيَّ شُقوقٍ أو صُدوعٍ[٣]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾.

أي: ثمَّ كرِّرِ النَّظَرَ إلى السَّماءِ مَرَّةً بَعْدَ أُخرى[٤].

---

(١) قال الرازي: (الخِطابُ في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ إمَّا للرَّسولِ، أو لكلِّ مُخاطَبٍ، وكذا القولُ في قولِه: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧).
قال ابنُ جُزَي: (المعنى: أنَّ خِلقةَ السَّمَواتِ في غايةِ الإتقانِ... ولا شَكَّ أنَّ جَميعَ المخلوقاتِ مُتقَنةٌ، ولكِنْ تخصيصُ الآيةِ بخِلْقةِ السَّمَواتِ أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٤). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) =

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

أي: يَرجِعْ إليك بَصَرُك صاغِرًا ذليلًا؛ لعَجْزِه عن العُثورِ على أيِّ شُقوقٍ في السَّماءِ، والحالُ أنَّ بَصَرَك قد بلَغَ الغايةَ في التَّعَبِ، وانقطَعَ مِن الإعياءِ مِن كثرةِ تَكرارِ النَّظَرِ للبَحثِ عن أيِّ تصَدُّعاتٍ فيها[1]!

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا هو الدَّليلُ الثَّاني على كَونِ اللهِ تعالى قادِرًا عالِمًا؛ وذلك لأنَّ هذه الكواكِبَ -نَظَرًا إلى أنَّها مُحْدَثةٌ ومختصَّةٌ بمِقدارٍ خاصٍّ، ومَوضِعٍ مُعَيَّنٍ، وسَيرٍ مُعَيَّنٍ- تدُلُّ على أنَّ صانِعَها قادِرٌ، ونظرًا إلى كَونِها مُحكَمةً مُتقَنةً مُوافِقةً لِمَصالِحِ العبادِ

= (٢٩/ ١٩، ٢٠).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: كَثرةُ التَّكريرِ، أي: مرَّةً بعدَ أُخرى: الرَّازيُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ جُزَي، وابن القيم، والبِقاعي، وأبو السعود، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٤٢) و(٣٠/ ٥٨٢) و(٣٢/ ٢٧٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩).

وقيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾: أي: مرَّتَينِ. وممَّن قال بهذا: الواحديُّ، وابنُ عطية، والنسفي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

مِن كَونِها زينةً لأهلِ الدُّنيا، وسببًا لانتفاعِهم بها، تدُلُّ على أنَّ صانِعَها عالِمٌ[١].

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى عن بديعِ هذا الخَلْقِ، ونَبَّه على بعضِ دقائِقِه، وأمَرَ بالإبصارِ وتكريرِه، وكان السَّامعُ أوَّلَ ما يُصَوِّبُ نَظَرَه إلى السَّماءِ؛ لشَرَفِها، وغَريبِ صُنْعِها، وبديعِ وَضْعِها، ومَنيعِ رَفْعِها، فكان بحيثُ يُتوقَّعُ الإخبارُ عن هذه الزِّينةِ الَّتي رُصِّعَت بها- قال في جوابِ مَن توقَّعَه، مؤكِّدًا بالقَسَمِ، إعلامًا بأنَّه ينبغي أن يَبعُدَ العاقِلُ عن إنكارِ شَيءٍ ممَّا يُنسَبُ إلى صاحِبِ هذا الخَلْقِ من الكَمالِ، عاطِفًا على ما تقديرُه: لقد كفى هذا القَدْرُ في الدَّلالةِ على عَظَمةِ مُبدِعِ هذا الصُّنعِ وتمامِ قُدْرتِه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ﴾ الآيةَ[٢].

وأيضًا فقد انتقَلَ مِن دَلائلِ انتفاءِ الخَلَلِ عن خِلقةِ السَّمواتِ، إلى بَيانِ ما في إحدى السَّمواتِ مِن إتقانِ الصُّنعِ[٣]، فلَمَّا نفى عنها في خَلْقِها النَّقصَ، بيَّن كمالَها وزينتَها، فقال[٤]:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾.

أي: ولقد جمَّلْنا السَّماءَ القَريبةَ للأرضِ بنُجومٍ مُضيئةٍ[٥].

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾.

أي: ورجَمْنا بتلك النُّجومِ الشَّياطينَ الَّتي تَستَرِقُ السَّمْعَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠].

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

= (٤/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قال الشوكاني: (الرُّجومُ: جمعُ رَجْم بالفتحِ، وهو في الأصلِ مصدرٌ أُطلِقَ على المَرجومِ به، كما في قولِهم: الدِّرهمُ ضَربُ الأميرِ، أي: مَضروبُه. ويجوزُ أن يكونَ باقيًا على مَصدريَّتِه، ويُقدَّرَ مُضافٌ محذوفٌ، أي: ذاتَ رَجم، وجُمِع المصدرُ باعتبارِ أنواعِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٠).

وقال ابنُ كثير: (عاد الضَّميرُ في قَولِه: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ على جِنسِ المصابيحِ لا على عَينِها؛ لأنَّه لا يُرمى بالكواكِبِ الَّتي في السَّماءِ، بل بشُهُبٍ مِن دُونِها، وقد تكونُ مُستمَدَّةً منها. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧)، ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٧).

وقال الشوكاني: (﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: وجَعَلْنا المصابيحَ رُجومًا يُرْجَمُ بها الشَّياطينُ، وهذه فائدةٌ أخرَى غيرُ الفائدةِ الأولَى وهي كَونُها زينةً لِلسَّماءِ الدُّنيا... وقيل: إنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ راجعٌ إلى المصابيحِ على حذفِ مُضافٍ، أي: شُهُبَها، وهي نارُها المُقتبَسةُ منها، لا هي أنفُسُها؛ لقولِه: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]، ووجْهُ هذا أنَّ المصابيحَ الَّتي زَيَّن اللهُ بها السَّماءَ الدُّنيا لا تَزولُ ولا يُرْجَمُ بها، كذا قال أبو عليٍّ الفارسيُّ جوابًا لِمَن سأله: كيفَ تكونُ المصابيحُ زينةً وهي رُجومٌ؟...). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٠).

ويُنظر: ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي عليٍّ الفارسي (٥/ ٣٤٧).

وقال ابن عطيَّة: (﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ معناه: وجعَلْنا منها، وهذا كما تقولُ: أكرمْتُ بني فُلانٍ، وصنعتُ بهم، وأنتَ إنَّما فعلتَ ذلك ببعضِهم دونَ بعضٍ، ويُوجِبُ هذا التَّأويلَ في الآيةِ أنَّ الكواكبَ الثَّابتةَ والبُروجَ، وكلَّ ما يُهتدى به في البَرِّ والبحرِ فليست بِرَواجِمَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ الصَّافاتِ؛ الآياتِ (٧- ٩).

أي: وهيَّأْنا للشَّياطينِ في الآخِرةِ عذابَ النَّارِ، وأشَدَّ الحَريقِ[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ مَن تأمَّلَ الآيةَ عَرَف أنَّ الدُّنيا مزرعةٌ، وأنَّ الآخِرةَ مَحصَدةٌ، فيَصيرُ مِن نَفْسِه على بصيرةٍ، وثارت إرادتُه لِمَا خُلِقَ له؛ تارةً بالنَّظَرِ إلى جمالِ رَبِّه مِن حُسنٍ وإحسانٍ، وأُخرى إلى جلالِه مِن قُدرةٍ وإمكانٍ، وتارةً بالنَّظَرِ لنَفْسِه بالشَّفَقةِ عليها مِن خِزْيِ الحِرْمانِ، فيَجتَهِدُ في رِضا رَبِّه، وصَلاحِ نَفْسِه؛ خوفًا مِن عاقبةِ هذه البَلوى[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أنَّ تَرَقُّبَ الموتِ أكبرُ مَواعِظِ اللهِ جلَّ جلالُه، وأجدَرُ بالمعونةِ على العَمَلِ الصَّالحِ؛ إذ تَرَقُّبُه مُقَصِّرٌ للأمَلِ، ومُهَوِّنٌ مَضَضَ المصائبِ، ويُزَهِّدُ في شَهَواتِ النَّفْسِ إذا اتَّصَلَ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلَصُه وأصوَبُه؛ فإنَّ اللهَ خَلَق عِبادَه، وأخرَجَهم لهذه الدَّارِ، وأخبَرَهم أنَّهم سيُنقَلونَ منها، وأمَرَهم ونَهاهم، وابتلاهم بالشَّهَواتِ المعارِضةِ لأمْرِه؛ فمَن انقاد لأمرِ اللهِ وأحسَنَ العَمَلَ، أحسَنَ اللهُ له الجزاءَ في الدَّارَينِ، ومَن مال مع شَهَواتِ النَّفْسِ ونَبَذ أمْرَ اللهِ، فله شَرُّ الجزاءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٢، ٢٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

٤- إنَّ جِماعَ الدِّينِ: ألَّا يَعبُدَ النَّاسُ إلَّا اللهَ، وأنْ يَعبُدوه بما شَرَع، لا يَعبُدوه بالبِدَعِ، كما قال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: (أخلَصُه وأصوَبُه)، قالوا: يا أبا عَليٍّ، ما أخلَصُه، وما أصوَبُه؟ قال: (إنَّ العَمَلَ إذا كان خالِصًا ولم يكُنْ صَوابًا لم يُقبَلْ، وإذا كان صَوابًا ولم يكُنْ خالِصًا لم يُقبَلْ، حتَّى يكونَ خالِصًا صَوابًا، والخالِصُ: أنْ يكونَ للهِ، والصَّوابُ: أنْ يكونَ على السُّنَّةِ)[1]، فالعَمَلُ الأحسَنُ هو الأخلَصُ والأصوَبُ، وهو الموافِقُ لِمَرضاتِه تعالى ومحبَّتِه، دونَ الأكثَرِ الخالي مِن ذلك؛ فهو سُبحانَه وتعالى يحِبُّ أن يُتعَبَّدَ له بالأرضَى له وإن كان قليلًا، دونَ الأكثَرِ الَّذي لا يُرضِيه، والأكثَرِ الَّذي غيرُه أَرضَى له منه؛ ولهذا يكونُ العَمَلانِ في الصُّورةِ واحِدًا، وبيْنَهما في الفَضلِ، بل بيْنَ قليلِ أحَدِهما وكثيرِ الآخَرِ في الفَضلِ: أعظَمُ مِمَّا بيْنَ السَّماءِ والأرضِ، ولهذا قال اللهُ تبارك وتعالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، فهو سُبحانَه وتعالى إنَّما خلَق السَّمواتِ والأرضَ والموتَ والحياةَ، وزيَّن الأرضَ بما عليها؛ لِيَبْلُوَ عبادَه أيُّهم أحسَنُ عملًا، لا أكثرُ عملًا[2]، فالعِبرةُ بالأحسَنِ لا بالأكثَرِ[3]. ولَمَّا كان الإحسانُ هو الَّذي خُلِقْنا مِن أجْلِه، أراد جِبريلُ أن يُنَبِّهَ الصَّحابةَ على الطَّريقِ إليه، فقال:

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٧/ ٤٣٠، ٤٣١).

وكلامُ الفُضَيلِ بنِ عياضٍ رواه ابن أبي الدُّنيا في ((الإخلاص والنية)) (٢٢)، وأبو نُعَيم في ((حلية الأولياء وطبقات الأصفياء)) (٨/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((المنار المُنيف)) لابن القيم (ص: ٣٠، ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٩).

((يا محمَّدُ، أخبِرْني عن الإحسانِ))، فبَيَّن له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ طريقَ الإحسانِ محصورةٌ في هذا الزَّاجِرِ الأكبَرِ، والواعِظِ الأعظَمِ، وهو أن يَعلَمَ العَبدُ الضَّعيفُ الذَّليلُ المِسكينُ أنَّ جَبَّارِ السَّمَواتِ والأرضِ مُطَّلِعٌ عليه، حاضِرٌ لا يَغيبُ عن شَيءٍ مِن فِعْلِه، يَعلَمُ كُلَّ ما يَفعَلُ؛ ولذا قال: ((الإحسانُ أنْ تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه، فإنْ لم تَكُنْ تَراه فإنَّه يَراكَ))(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيه مِن التَّرغيبِ في التَّرقِّي إلى مَعارجِ العلومِ ومَدارِجِ الطَّاعاتِ، والزَّجرِ عن مُباشَرةِ نَقائِضِها؛ ما لا يَخْفى(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ كلمةُ: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ لاستِقلالِها بالدَّلالةِ على غايةِ الكمالِ، وإنبائِها عن نِهايةِ التَّعظيمِ، لم يَجُزِ استِعمالُها في حقِّ غَيرِه سُبحانَه(٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ سُؤالٌ: أنَّ صِفةَ اليَدينِ للهِ سُبحانَه جاءتْ هنا على الإفرادِ، وجاءتْ أيضًا على التَّثنيةِ، كقَولِه تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وجاءتْ على الجَمعِ، كقَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس: ٧١]، فما التَّوفيقُ بيْنَها؟

الجوابُ: أنَّ الوَجهَ الأوَّلَ مُفرَدٌ مُضافٌ، فيَشمَلُ كلَّ ما ثَبَتَ للهِ مِن يدٍ، ولا يُنافي الثِّنْتَينِ، وأمَّا الجَمْعُ فهو للتَّعظيمِ لا لحقيقةِ العَدَدِ الَّذي هو ثلاثةٌ فأكثَرُ،

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٣/ ٦٦).
والحديث أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٤٧٧٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢).

وحينَئذٍ لا يُنافي التَّثنيةَ.

على أنَّه قد قيل: إنَّ أقلَّ الجَمْعِ اثنانِ، فإذا حُمِلَ الجَمْعُ على أَقَلِّه فلا مُعارَضةَ بيْنَه وبيْنَ التَّثنيةِ أصلًا[1]. ثمَّ إنَّ المرادَ باليَدِ في قَولِه: ﴿عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ نفْسُ الذَّاتِ الَّتي لها يَدٌ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] أي: بما كَسَبوا، سواءٌ كان مِن كَسْبِ اليَدِ أو الرِّجْلِ أو اللِّسانِ أو غَيرِها مِن أجزاءِ البَدَنِ، لكِنْ يُعَبَّرُ بمِثلِ هذا التَّعبيرِ عن الفاعِلِ نفْسِه؛ ولهذا نقولُ: إنَّ الأنعامَ الَّتي هي الإبلُ لم يخلُقْها اللهُ تعالى بيَدِه، وفَرْقٌ بيْن قَولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ وبيْن قَولِه: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]؛ فـ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ كأنَّه قال: مِمَّا عَمِلْنا؛ لأنَّ المرادَ باليَدِ ذاتُ اللهِ الَّتي لها يدٌ، والمرادُ بـ ﴿بِيَدَيَّ﴾: اليدانِ دونَ الذَّاتِ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ إفرادُ اللهِ تعالى بالمُلْكِ، فالمالِكُ المُلْكَ المُطلَقَ العامَّ الشَّامِلَ هو اللهُ سُبحانَه وتعالى وَحْدَه، وإنَّ نِسبةَ المُلْكِ إلى غَيرِه هي نِسبةٌ إضافيَّةٌ؛ فقد أثبَتَ اللهُ عزَّ وجلَّ لغيرِه المُلْكَ، كما في قَولِه تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]، وقولِه: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ [المؤمنون: ٦] إلى غيرِ ذلك مِن النُّصوصِ الدَّالَّةِ على أنَّ لغيرِ اللهِ تعالى مُلْكًا، لكنَّ هذا المُلْكَ ليس كمُلْكِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فهو مُلْكٌ قاصِرٌ لا يَشْمَلُ؛ فالبَيتُ الَّذي لِزَيدٍ لا يَملِكُه عَمرٌو، والبَيتُ الَّذي لعمرٍو لا يَملِكُه زَيدٌ، ثُمَّ هذا المُلْكُ مُقَيَّدٌ بحيثُ لا يَتصَرَّفُ الإنسانُ فيما مَلَكَ إلَّا على الوجهِ الَّذي أَذِنَ اللهُ فيه؛ ولهذا نهى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن إضاعةِ المالِ[3]، وقال اللهُ

(١) يُنظر: ((تعليق مختصر على لمعة الاعتقاد)) لابن عثيمين (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٥٤).

(٣) أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٦٤٧٣)، ومسلمٌ (٥٩٣) مِن حديثِ المغيرةِ بنِ شُعبةَ رضيَ الله عنه.

تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]، أمَّا مُلْكُ اللهِ سُبحانَه وتعالى فهو مُلْكٌ عامٌّ شامِلٌ ومُلْكٌ مُطْلَقٌ، يَفعلُ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما يَشاءُ، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[١] [الأنبياء: ٢٣].

٤- الموتُ صِفةٌ وُجوديَّةٌ، خِلافًا للفلاسِفةِ ومَن وافَقَهم؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فأخبَر أنَّه خَلَق الموتَ كما خَلَق الحياةَ، والعدَمُ لا يُوصَفُ بكَونِه مَخلوقًا[٢]، فمُفارَقةُ الرُّوحِ الجَسَدَ مَوتٌ، وليس عَدَمًا، بل مُفارَقةٌ تُفقَدُ بها الحياةُ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أنَّ شرائِعَ اللهِ وأحكامَ اللهِ القَدَرِيَّةَ كلَّها: ابتِلاءٌ، أي: اختبارٌ، وليستِ ابتلاءً مِن البَلاءِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ «أحسَنُ»: اسمُ تفضيلٍ، وهذا دليلٌ على أنَّ الأعمالَ تتفاضَلُ بالحُسْنِ[٥].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يَنقَلِبُ البَصَرُ خاسِئًا حَسيرًا برَجْعِه كرَّتَينِ اثنتَينِ؟

الجوابُ: التَّثنيةُ للتَّكرارِ بكَثرةٍ، كقَولِهم: (لبَّيك وسَعْدَيك)، يريدُ: إجاباتٍ مُتواليةً[٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ٩٣). ويُنظر أيضًا: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٣).

٨- عن قَتادةَ، قال: (إنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤه إنَّما خَلَق هذه النُّجومَ لثلاثِ خِصالٍ: خلَقَها زينةً للسَّماءِ الدُّنيا، ورُجومًا للشَّياطينِ، وعلاماتٍ يُهتدَى بها، فمَن يتأوَّلْ منها غيرَ ذلك فقد قال برأيِه، وأخطأَ حَظَّه، وأضاع نَصيبَه، وتكَلَّف ما لا عِلْمَ له به)[1].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ فيه سؤالٌ: إذا كان الجِنُّ مِن نارٍ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]، فكيف تُحرِقُه النَّارُ؟

الجوابُ مِن وجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ اللهَ تعالى أضاف الشَّياطينَ والجنَّ إلى النَّارِ حسَبَ ما أضاف الإنسانَ إلى التُّرابِ والطِّينِ والفَخَّارِ، والمرادُ به في حقِّ الانسانِ أنَّ أصْلَه الطِّينُ، وليس الآدميُّ طينًا حقيقةً، لكنَّه كان طينًا، كذلك الجانُّ كان نارًا في الأصلِ[2].

الثَّاني: أنَّ النَّارَ يكونُ بَعضُها أقوى مِن بَعضٍ، فالأقوى يُؤثِّرُ على الأضعَفِ، وممَّا يَشهَدُ له قَولُه تعالى بَعْدَه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، والسَّعيرُ: أشَدُّ النَّارِ. ومعلومٌ أنَّ النَّارَ طَبَقاتٌ بَعضُها أشَدُّ مِن بَعضٍ، وهذا أمرٌ مَلموسٌ؛ فقد تكونُ الآلةُ مَصنوعةً مِن حَديدٍ، وتُسَلَّطُ عليها آلةٌ مِن حديدٍ أيضًا أقوى منها فتَكسِرُها. كما قيل: (لا يَفُلُّ الحديدَ إلَّا الحديدُ)، فلا يَمنَعُ كَونُ أصْلِه مِن نارٍ ألَّا يَتعذَّبَ بالنَّارِ، كما أنَّ أصلَ الإنسانِ مِن طِينٍ مِن حَمَأٍ مَسنونٍ، ومِن صَلصالٍ كالفَخَّارِ، وبَعْدَ خَلْقِه فإنَّه لا يَحتَمِلُ التعذيبَ بالصَّلصالِ ولا بالفخَّارِ؛

---

(١) علَّقه البخاريُّ في ((صحيحه)) (٤/ ١٠٧) بصيغةِ الجَزمِ، ورواه ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((آكام المرجان في أحكام الجان)) للشبلي (ص: ٣١).

فقد يُقضَى عليه بضَربةٍ مِن قِطعةٍ مِن فَخَّارٍ[١]!

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ احتُجَّ به على أنَّ النَّارَ مَخلوقةٌ الآنَ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ إخبارٌ عن الماضي[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ابتُدِئَت السُّورةُ بتَعريفِ المؤمنينَ مَعانيَ مِن العِلمِ بعَظَمةِ اللهِ تعالَى، وتَفرُّدِه بالملْكِ الحقِّ، والنَّظَرِ في إتقانِ صُنعِه الدَّالِّ على تَفرُّدِه بالإلهيَّةِ، فبذلك يكونُ في تلك الآياتِ حَظٌّ لعِظَةِ المشرِكين[٣].

- وفي افتتاحِ السُّورةِ بما افتُتِحتْ به بَراعةُ الاستهلالِ[٤]، فقد افتُتِحَت بما يدُلُّ على مُنْتهى كَمالِ اللهِ تَعالى، افتتاحًا يُؤْذِنُ بأنَّ ما حَوَتْه يَحومُ حولَ تَنزيهِ اللهِ تعالَى عن النَّقصِ الَّذي افتراهُ المشرِكون لَمَّا نَسَبوا إليه شُركاءَ في الرُّبوبيَّةِ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣١، ٢٣٢). وينظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧).

(٤) براعةُ الاستِهلالِ: هي كَونُ ابتداءِ الكلامِ مُناسِبًا للمقصودِ، وأنْ يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على ما يُناسِبُ حالَ المتكلِّمِ، مُتضمِّنًا لِمَا سِيقَ الكلامُ مِن أجْلِه مِن غيرِ تصريحٍ، بلْ بألْطَفِ إشارةٍ يُدرِكُها الذَّوقُ السَّليمُ، ومِن أحسَنِ صُوَرِ براعةِ الاستِهلالِ مَوقِعًا، وأبلَغِها معنًى: فواتحُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، ومنها الحُروفُ المقطَّعةُ؛ فإنَّها تُوقِظُ السَّامِعينَ للإصغاءِ إلى ما يَرِدُ بعدَها؛ لأنَّهم إذا سمِعوها مِن النَّبيِّ الأُمِّيِّ علِموا أنَّها والمَتْلوَّ بعدَها مِن جِهةِ الوحيِ، وفيها تنبيهٌ على أنَّ المتلوَّ عليهم مِن جِنسِ ما يَنظِمونَ منه كلامَهم، مع عجْزِهم عن أنْ يأتوا بمِثلِه. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٥)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم (١/ ٥٣)، ((علوم البلاغة)) لأحمد المراغي (ص: ٣٧٨).

والتَّصرُّفِ معه، والتَّعطيلِ لبَعضِ مُرادِه[١].

- وهذا الكلامُ يَجوزُ أنْ يكونَ مُرادًا به مُجرَّدُ الإخبارِ عن عَظَمةِ اللهِ تعالَى وكَمالِه، ويَجوزُ أنْ يكونَ مع ذلك إنشاءُ ثَناءٍ على اللهِ أثناهُ على نفْسِه، وتَعليمًا للنَّاسِ كيف يُثْنون على اللهِ ويَحمَدونه؛ إمَّا على وَجْهِ الكِنايةِ بالجُملةِ عن إنشاءِ الثَّناءِ، وإمَّا باستعمالِ الصِّيغةِ المشتركةِ بيْن الإخبارِ والإنشاءِ في مَعنيَيها، ولو صِيغَ بغَيرِ هذا الأُسلوبِ لَما احتَمَلَ هذَينِ المعْنيَينِ[٢].

- قولُه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ - وإسنادُ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ إلى المَوصولِ؛ للاستِشهادِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ على تَحقُّقِ مَضمونِها[٣].

وجُعِلَ المسنَدُ إليه اسمَ مَوصولٍ؛ للإيذانِ بأنَّ معْنى الصِّلةِ ممَّا اشتُهِرَ به -كما هو غالبُ أحوالِ الموصولِ-، فصارتِ الصِّلةُ مُغْنيةً عن الاسمِ العَلَمِ؛ لاستِوائِهما في الاختِصاصِ به؛ إذ يَعلَمُ كلُّ أحدٍ أنَّ الاختِصاصَ بالمُلْكِ الكاملِ المطلَقِ ليس إلَّا للهِ[٤].

- وتَقديمُ المسنَدِ -وهو ﴿بِيَدِهِ﴾- على المسنَدِ إليه ﴿ٱلْمُلْكُ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: المُلْكُ بيَدِه لا بيَدِ غيرِه. وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٥] مَبنيٌّ على عدَمِ الاعتدادِ بمُلْكِ غيرِه، ولا بما يَتراءى مِن إعطاءِ الخلفاءِ والملوكِ الأصقاعَ للأمراءِ والسَّلاطينِ ووُلاةِ العهدِ؛ لأنَّ كلَّ ذلك مُلكٌ غيرُ تامٍّ؛ لأنَّه لا يَعُمُّ المملوكاتِ كلَّها، ولأنَّه مُعرَّضٌ للزَّوالِ، ومُلكُ اللهِ هو الملكُ الحقيقيُّ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

قال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤]، فالنَّاسُ يَتوهَّمون أمثالَ ذلك مُلْكًا، وليس كما يَتوهَّمون(١).

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ الَّتي هي صِلةُ الموصولِ، وهي تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ؛ لتَكميلِ المقصودِ مِن الصِّلةِ؛ إذ أفادتِ الصِّلةُ عُمومَ تَصرُّفِه في الموجوداتِ، وأفادتْ هذه عُمومَ تَصرُّفِه في الموجوداتِ والمعدوماتِ؛ بالإعدامِ للموجوداتِ، والإيجادِ للمعدوماتِ، فيكونُ قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مُفيدًا مَعنًى آخَرَ غيرَ ما أفادَهُ قولُه: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، تَفاديًا مِن أنْ يكونَ معْناه تأْكيدًا لمعْنى ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، وتكونُ هذه الجُملةُ تَتميمًا للصِّلةِ وفي معْنى صِلةٍ ثانيةٍ، ثمَّ عُطِفَت ولم يُكرَّرْ فيها اسمُ مَوصولٍ، بخِلافِ قولِه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ [الملك: ٢]، وقولِه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾(٢) [الملك: ٣].

- وتَقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ للاهتمامِ بما فيه مِن التَّعميمِ، ولإبطالِ دَعوى المشركين نِسبَتَهم الإلهيَّةَ لأصنامِهم مع اعترافِهم بأنَّها لا تَقدِرُ على خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، ولا على الإحياءِ والإماتةِ(٣).

٢- قوله تعالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ صِفةٌ لقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠).
ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١).

[الملك: ١]، فلمَّا شَمِلَ قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] تَعلُّقَ القُدرةِ بالموجودِ والمعدومِ؛ أُتبِعَ بوَصْفِه تعالَى بالتَّصرُّفِ الَّذي منه خلْقُ المخلوقاتِ وأعراضِها؛ لأنَّ الخلْقَ أعظَمُ تَعلُّقِ القدرةِ بالمَقدورِ؛ لدَلالتِه على صِفةِ القدْرةِ وعلى صِفةِ العِلمِ(١).

- وأُوثِرَ بالذِّكرِ مِن المخلوقاتِ الموتُ والحياةُ؛ لأنَّهما أعظَمُ العوارضِ لجِنسِ الحيوانِ الَّذي هو أعجَبُ الموجودِ على الأرضِ، والَّذي الإنسانُ نوعٌ منه، وهو المقصودُ بالمخاطَبةِ بالشَّرائعِ والمواعظِ، فالإماتةُ تَصرُّفٌ في الموجودِ بإعدادِه للفَناءِ، والإحياءُ تَصرُّفٌ في المعدومِ بإيجادِه، ثمَّ إعطائِه الحياةَ ليَستكمِلَ وُجودَ نَوعِه، فليس ذِكرُ خلْقِ الموتِ والحياةِ تَفصيلًا لمعْنى الملْكِ، بلْ هو وصْفٌ مُستقِلٌّ. والاقتصارُ على خلْقِ الموتِ والحياةِ؛ لأنَّهما حالتانِ هما مَظهَرَا تَعلُّقِ القدرةِ بالمقدورِ في الذَّاتِ والعرَضِ؛ لأنَّ الموتَ والحياةَ عرَضانِ، والإنسانُ مَعروضٌ لهما، والعرَضُ لا يَقومُ بنفْسِه، فلمَّا ذُكِرَ خلْقُ العرَضِ عُلِمَ مِن ذِكرِه خلْقُ مَعروضِه بدَلالةِ الاقتضاءِ(٢).

- وأُوثِرَ ذِكرُ الموتِ والحياةِ لِما يَدُلَّانِ عليه مِن العِبرةِ بتَداوُلِ العرَضينِ المُتضادَّينِ على مَعروضٍ واحدٍ، وللدَّلالةِ على كَمالِ صُنْعِ الصَّانعِ؛ فالموتُ والحياةُ عرَضانِ يَعرِضانِ للموجودِ مِن الحيوانِ، والموتُ يُعِدُّ الموجودَ للفناءِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ودَلالةُ الاقتِضاءِ: هي دَلالةُ اللَّفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصِّدقِ أو الصِّحَّةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

والحياةُ تُعِدُّ الموجودَ للعمَلِ للبقاءِ مُدَّةً[١].

- وفي ذِكرِ الموتِ والحياةِ تَخلُّصٌ إلى ما يَترتَّبُ عليهما مِن الآثارِ، الَّتي أعظَمُها العملُ في الحياةِ، والجزاءُ عليه بعْدَ الموتِ، وذلك ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ فإنَّ معْنى الابتلاءِ مُشعِرٌ بتَرتُّبِ أثَرٍ له، وهو الجزاءُ على العمَلِ؛ للتَّذكيرِ بحِكمةِ جَعْلِ هذَينِ النَّاموسَينِ البَديعَينِ في الحيوانِ؛ لتَظهَرَ حِكمةُ خلْقِ الإنسانِ، ويُفْضِيَا به إلى الوجودِ الخالدِ[٢].

- وقُدِّمَ الموتُ على الحياةِ؛ لأنَّ الموتَ أقْوى الدَّواعي إلى العمَلِ، فقُدِّمَ ليَتبيَّنَ أنَّ الَّذي سِيقَ له الآيةُ البعثُ على العمَلِ، والإخلاصُ فيه، وتَحرِّي الصَّوابِ له[٣]. أو قُدِّمَ الموتُ؛ لأنَّه هو المخلوقُ أوَّلًا؛ لقولِه تعالَى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨][٤]. أو قُدِّمَ الموتُ؛ لأنَّه أهيَبُ في النُّفوسِ[٥]. أو: قدَّم الموتَ على الحياةِ؛ لأنَّ الموتَ إلى القَهرِ أقرَبُ[٦].

- قولُه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ هذا التَّعليلُ مِن قَبيلِ الإدماجِ[٧]، وفيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢، ٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٦).

(٧) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ =

استدلالٌ على الوَحدانيَّةِ بدَلالةٍ في أنفُسِهم، قال تعالَى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، والمعْنى: أنَّه خلَقَ الموتَ والحياةَ؛ ليكونَ منكم أحياءٌ يَعمَلونَ الصَّالحاتِ والسَّيِّئاتِ، ثمَّ أمواتًا يَخلُصونَ إلى يومِ الجزاءِ، فيُجْزَونَ على أعمالِهم بما يُناسِبُها؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ تَعريفُ الجنسِ، وفي الكلامِ تَقديرٌ: هو الَّذي خلَقَ الموتَ والحياةَ لتَحْيَوا، فيَبْلُوَكم أيُّكم أحسَنُ عملًا، وتَموتوا فتُجْزَوا على حسَبِ تلك البَلْوى، ولِكَونِ هذا هو المقصودَ الأهمَّ مِن هذا الكلامِ قُدِّمَ الموتُ على الحياةِ[1].

- قولُه: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ اللَّامُ مُتعلِّقةٌ بـ﴿خَلَقَ﴾، أي: خَلَق مَوتَكم وحياتَكم... على أنَّ الألِفَ واللَّامَ -في ﴿ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾- عِوَضٌ عن المضافِ إليه[2].

- وجُملةُ ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ إلى آخِرِها، مُعترِضةٌ بيْن الموصولَينِ، واللَّامُ في ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ لامُ التَّعليلِ، أي: في خلْقِ الموتِ والحياةِ حِكمةُ أنْ يَبْلوَكم، فقولُه تعالَى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ تَعليلٌ لفِعلِ ﴿خَلَقَ﴾ باعتبارِ المعطوفِ على

= بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه تعالى بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٤٩)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٤٨٤)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣).

مَفعولِه، وهو ﴿وَٱلْحَيَوٰةَ﴾؛ لأنَّ حياةَ الإنسانِ حياةٌ خاصَّةٌ تُصحِّحُ للمَوصوفِ بمَن قامتْ به الإدراكَ الخاصَّ الَّذي يَندفِعُ به إلى العمَلِ باختيارِه، وذلك العمَلُ هو الَّذي يُوصَفُ بالحُسنِ والقبْحِ، وهو ما دلَّ عليه بالمنطوقِ والمفهومِ قولُه تعالَى: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: وأيُّكم أقبَحُ عمَلًا، ولذلك فذِكْرُ خلْقِ الموتِ إتمامٌ للاستدلالِ على دَقيقِ الصُّنعِ الإلهيِّ، وهو المسوقُ له الكلامُ، وذِكرُ خلْقِ الحياةِ إدماجٌ للتَّذكيرِ[(١)].

- وجُملةُ ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مُستأنَفةً، فيُوقَفَ على قولِه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، ويكونَ الاستفهامُ مُستعمَلًا في التَّحضيضِ على حُسْنِ العمَلِ[(٢)].

- قولُه: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ إيرادُ صِيغةِ التَّفضيلِ معَ أنَّ الابتلاءَ شاملٌ لهم باعتبارِ أعمالِهم المنقسمةِ إلى الحسَنِ والأحسنِ فقطْ؛ للإيذانِ بأنَّ المرادَ بالذَّاتِ والمَقصدَ الأصليَّ مِن الابتلاءِ هو ظُهورُ كَمالِ إحسانِ المحسنينَ[(٣)].

- وقولُه: ﴿أَحْسَنُ﴾ تَفضيلٌ، أي: أحسَنُ عمَلًا مِن غيرِه، فالأعمالُ الحَسَنةُ مُتفاوِتةٌ في الحُسنِ إلى أدْناها، فأمَّا الأعمالُ السَّيِّئةُ فإنَّها مَفهومةٌ بدَلالةِ الفحْوى[(٤)]؛ لأنَّ البَلوى في أحسَنِ الأعمالِ تَقْتضي البَلْوى في السَّيِّئاتِ بالأَولى؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٩٨).

(٤) فحْوَى الخطابِ: ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ، وهو إثباتُ حكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولى، كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظمُ مِن التَّأْفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كانَ دونَ القنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم =

لأنَّ إحْصاءَها والإحاطةَ بها أَولى في الجزاءِ؛ لِما يَترتَّبُ عليها مِن الاجتراءِ على الشَّارعِ، ومِن الفسادِ في النَّفْسِ، وفي نِظامِ العالَمِ، وذلك أَولى بالعِقابِ عليه؛ ففي قولِه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ إيجازٌ(١).

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّ صِفاتِه تعالَى تَقْتضي تَعلُّقًا بمُتعلَّقاتِها؛ لئلَّا تكونَ مُعطَّلةً في بعضِ الأحوالِ والأزمانِ فيُفْضيَ ذلك إلى نَقائضِها، فأمَّا العزيزُ فهو الغالبُ الَّذي لا يَعجزُ عن شَيءٍ، وذِكرُه مُناسِبٌ للجزاءِ المستفادِ مِن قولِه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: ليَجزِيَكم جَزاءَ العزيزِ، فعُلِمَ أنَّ المرادَ الجزاءُ على المُخالفاتِ والنُّكولِ عن الطَّاعةِ، وهذا حظُّ المشرِكينَ الَّذين شَمِلَهم ضَميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، وأمَّا الغفورُ فهو الَّذي يُكرِمُ أولياءَهُ، ويَصْفَحُ عن فَلتاتِهم، فهو مُناسِبٌ للجزاءِ على الطَّاعاتِ وكِنايةٌ عنه؛ قال تعالَى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، فهو إشارةٌ إلى حظِّ أهلِ الصَّلاحِ مِن المُخاطَبينَ(٢).

٣- قوله تعالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ صِفةٌ ثانيةٌ لـ ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، أُعقِبَ التَّذكيرُ بتَصرُّفِ اللهِ بخلْقِ الإنسانِ وأهمِّ أعراضِه بذِكرِ خلْقِ أعظَمِ الموجوداتِ

= الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٥، ١٦).

غيرِ الإنسانِ، وهي السَّمواتُ، ومُفيدةٌ وصْفًا مِن عَظيمِ صِفاتِ الأفعالِ الإلهيَّةِ، ولذلك أُعِيدَ فيها اسمُ الموصولِ؛ لتَكونَ الجُمَلُ الثَّلاثُ جاريةً على طَريقةٍ واحدةٍ[١].

وقيلَ: هو نعتٌ لـ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، أو بَيانٌ، أو بدَلٌ، أو أنَّه نُصِب أو رُفِع على المدحِ، مُتعلِّقٌ بالموصولَينِ السَّابقَينِ مَعْنًى وإنْ كانَ مُنقطِعًا عنهما إعرابًا، مُنتظِمٌ معهما في سلكِ الشَّهادةِ بتَعالِيه سُبحانَه، ومع الموصولِ الثَّاني في كَونِه مَدارًا للْبَلوى، كما نطَقَ به قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٢] [هود: ٧].

- وانتصَبَ ﴿طِبَاقًا﴾ على الوصْفِ لـ﴿سَبْعَ﴾؛ فإمَّا أنْ يكونَ مَصدَرَ: طابَقَ مُطابَقةً وطِباقًا، كقولِهم: طابَقَ النَّعلَ: خَصَفَها طبَقًا على طَبَقٍ، وُصِفَ به على سَبيلِ المُبالَغةِ، أو على حذْفِ مُضافٍ، أي: ذاتَ طِباقٍ، أو مَصدرُه مُؤكِّدٌ لمَحذوفٍ هو صِفتُها، أي: طُوبِقتْ طباقًا[٣].

- قولُه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ قيل: كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَوكيدِ استقامةِ خَلْقِه تَعالى[٤].

وقيل: هو صِفةٌ أُخرى لـ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، وُضِعَ فيها ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مَوضوعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٧).

وقال السمينُ الحلبي عن القولِ بأنَّه استئنافٌ: (وليس بظاهرٍ؛ لانفلاتِ الكلامِ بعضِه مِن بعضٍ). ((الدر المصون)) (١٠/ ٣٧٩).

الضَّميرِ؛ للتَّعظيمِ، والإشعارِ بعِلةِ الحُكْمِ، وبأنَّه تعالَى خلَقَها بقُدرتِه القاهرةِ رَحمةً وتَفضُّلًا، وبأنَّ في إبداعِها نِعَمًا جَليلةً(١).

- وجاءتْ جُملةُ ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ تقريرًا لقولِه: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾؛ فإنَّ نفْيَ التَّفاوُتِ يُحقِّقُ معْنى التَّطابُقِ، أي: التَّماثُلِ، والمعْنى: ما تَرَى في خلْقِ اللهِ السَّمواتِ تَفاوُتًا، وأصلُ الكلامِ: ما تَرى فِيهنَّ ولا في خلْقِ الرَّحمنِ مِن تَفاوُتٍ؛ فعُبِّرَ بخلْقِ الرَّحمنِ لتَكونَ الجُملةُ تَذْييلًا لمَضمونِ جُملةِ ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾؛ لأنَّ انتفاءَ التَّفاوُتِ عمَّا خَلَقه اللهُ مُتحقِّقٌ في خلْقِ السَّمواتِ وغَيرِها، أي: كانت السَّمواتُ طِباقًا؛ لأنَّها مِن خلْقِ الرَّحمنِ، وليس فيما خلَق الرَّحمنُ مِن تَفاوُتٍ، ومِن ذلك نِظامُ السَّمواتِ(٢).

- قولُه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ الخِطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ -على قولٍ-، أي: لا تَرى أيُّها الرَّائي تَفاوُتًا، والمقصودُ منه التَّعريضُ بأهلِ الشِّركِ؛ إذ أضاعوا النَّظرَ والاستدلالَ بما يدُلُّ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالَى بما تُشاهِدُه أبصارُهم مِن نِظامِ الكواكبِ، وذلك مُمكنٌ لكلِّ مَن يُبصِرُ؛ قال تعالَى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، فكأنَّه قال: ما تَرَون في خلْقِ الرَّحمنِ مِن تَفاوُتٍ، فيَجوزُ أنْ يكونَ ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بمعْنى المفعولِ، ويُرادَ منه السَّمواتُ، والمعنى: ما تَرى في السَّمواتِ مِن تَفاوُتٍ؛ فيَكونَ العُدولُ عن الضَّميرِ لتَتأتَّى الإضافةُ إلى اسمِه الرَّحمنِ المُشعِرِ بأنَّ تلك المخلوقاتِ فيها رحمةٌ بالنَّاسِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿خَلْقِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣، ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧).

مَصدرًا، فيَشملَ خلْقَ السَّمواتِ وخلْقَ غيرِها؛ فإنَّ صُنْعَ اللهِ رحمةٌ للنَّاسِ لو استَقاموا كما صَنَعَ لهم وأوصاهم، فتُفيدُ هذه الجُملةُ مُفادَ التَّذييلِ في أثناءِ الكلامِ على وجْهِ الاعتراضِ، ولا يكونُ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ[١].

- والتَّعبيرُ بوصْفِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دونَ اسمِ الجلالةِ إيماءٌ إلى أنَّ هذا النِّظامَ ممَّا اقتَضَتْه رَحمتُه تعالى بالناسِ؛ لتَجرِيَ أُمورُهم على حالةٍ تُلائِمُ نِظامَ عَيشِهم؛ لأنَّه لو كان فيما خلَقَ اللهُ تَفاوُتٌ لَكان ذلك التَّفاوُتُ سَببًا لاختلالِ النِّظامِ، فيَتعرَّضُ النَّاسُ بذلك لأهوالٍ ومَشاقَّ؛ قال تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [يونس: ٥]. وأيضًا في ذلك الوصْفِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تورُّكٌ على المشركين؛ إذ أنْكروا اسْمَه تعالَى الرَّحمنَ؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾[٢] [الفرقان: ٦٠].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِن تَفَٰوُتٖ﴾ لتأْكيدِ النَّفيِ[٣].

- والتَّفاوُتُ بوزْنِ التَّفاعُلِ: شدَّةُ الفَوتِ، والفَوتُ: البُعدُ، وليستْ صِيغةُ التَّفاعُلِ فيه لحُصولِ فِعلٍ مِن جانبينِ، ولكنَّها مُفيدةٌ للمُبالَغةِ[٤].

- والتَّفاوتُ مُعبَّرٌ به عن التَّخالُفِ وانعدامِ التَّناسُقِ؛ لأنَّ عدَمَ المُناسَبةِ يُشبِهُ البُعدَ بيْن الشَّيئينِ تَشبيهَ مَعقولٍ بمَحسوسٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧، ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ مُفرَّعٌ على قولِه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾، والتَّفريعُ للتَّسبُّبِ، أي: انتفاءُ رُؤيةِ التَّفاوُتِ جُعِلَ سببًا للأمْرِ بالنَّظرِ؛ ليَكونَ نفْيُ التَّفاوُتِ مَعلومًا عن يقينٍ[(١)].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ تَقريريٌّ، ووقَعَ بحرْفِ (هل)؛ لأنَّ (هل) تُفيدُ تأكيدَ الاستفهامِ؛ إذ هي بمعْنى (قد) في الاستفهامِ[(٢)]، وفي ذلك تأكيدٌ وحثٌّ على التَّبصُّرِ والتَّأمُّلِ، أي: لا تَقتنِعْ بنَظْرةٍ ونَظرتَينِ، فتقولَ: لمْ أجِدْ فُطورًا، بلْ كرِّرِ النَّظَرَ وعاوِدْه باحثًا عن مُصادَفةِ فُطورٍ؛ لعلَّك تَجِدُه، أي: لا يَسَعُك إلَّا أنْ تَعترِفَ بانتفاءِ الفُطورِ في نِظامِ السَّمواتِ فتَراها مُلتئمةً مَحبوكةً، لا تَرى في خِلالِها انشقاقًا، ولذلك كان انفطارُ السَّماءِ وانشقاقُها علامةً على انقراضِ هذا العالَمِ ونِظامِه الشَّمسيِّ؛ قال تعالَى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ: ١٩]، وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾[(٣)] [الانفطار: ١].

- وعطْفُ ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ دالٌّ على التَّراخي الرُّتبيِّ، كما هو شأْنُ (ثُمَّ) في عطْفِ الجُمَلِ؛ فإنَّ مَضمونَ الجُملةِ المعطوفةِ بحرْفِ (ثُمَّ) هنا أهَمُّ وأدخَلُ في الغرَضِ مِن مَضمونِ الجُملةِ المعطوفِ عليها؛ لأنَّ إعادةَ النَّظَرِ تَزيدُ العِلمَ بانتفاءِ التَّفاوُتِ في الخلْقِ رُسوخًا ويَقينًا[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (١/ ١٠٠) و(٣/ ١٨٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٢) و(٤/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- و﴿كَرَّتَيْنِ﴾ تَثنيةُ كرَّةٍ، وهي المرَّةُ، وعُبِّرَ عنها هنا بالكَرَّةِ -مُشتقَّةٌ مِن الكَرِّ، وهو العَودُ-؛ لأنَّها عَودٌ إلى شَيءٍ بعدَ الانفصالِ عنه، ككَرَّةِ المقاتلِ يَحمِلُ على العدوِّ بعدَ أنْ يَفِرَّ فرارًا مَصنوعًا. وإيثارُ لَفظِ ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ في هذهِ الآيةِ دونَ مُرادِفِه، نحْو مرَّتَين وتارَتَين؛ لأنَّ كَلمةَ (كرَّة) لم يَغلِبْ إطلاقُها على عدَدِ الاثنينِ، فكان إيثارُها في مَقامٍ لا يُرادُ فيه (اثنين) أظهَرَ في أنَّها مُستعمَلةٌ في مُطلَقِ التَّكريرِ دونَ عدَدِ اثنينِ أو زَوجٍ، وهذا مِن خَصائصِ الإعجازِ؛ ألَا تَرى أنَّ مَقامَ إرادةِ عدَدِ الزَّوجِ كان مُقتضيًا تَثنيةَ مرَّةٍ في قولِه تعالَى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]؛ لأنَّه أظهَرُ في إرادةِ العدَدِ؛ إذ لَفظُ (مرَّة) أكثَرُ تَداوُلًا[١].

فـ﴿كَرَّتَيْنِ﴾، أي: كرَّةً بعدَ كرَّةٍ، لا كرَّتَينِ اثنتينِ؛ فالتَّثنيةُ فيها بمعنى التَّكريرِ بكَثرةٍ أو مُطلَقِ التَّكريرِ؛ فإنَّ مِن استِعمالاتِ صِيغةِ التَّثنيةِ في الكلامِ أنْ يُرادَ بها التَّكريرُ، وذلك كما في قولِهم: لبَّيك وسَعدَيك، يُريدون تَلبياتٍ كثيرةً، وإسعادًا كثيرًا، وقولِهم: دَواليك[٢].

- قولُه: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ الانقلابُ: الرُّجوعُ، يُقالُ: انقلَبَ إلى أهْلِه، أي: رجَعَ إلى مَنزلِه، وإيثارُ فِعلِ ﴿يَنقَلِبْ﴾ هنا دونَ (يَرجِعُ)؛ لئلَّا يَلتبِسَ بفِعلِ ﴿ٱرْجِعِ﴾ المذكورِ قبْلَه، وهذا مِن خَصائصِ الإعجازِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ﴾ وضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ، وفيه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩، ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠).

الفائدةِ التَّنبيهُ على أنَّ الَّذي يَرجِعُ خاسئًا حسيرًا غيرُ مُدرِكٍ الفُطورَ، هو الآلةُ الَّتي يُلتمَسُ بها إدراكُ ما هو كائنٌ، فإذا لم يُدرَكْ شَيءٌ دلَّ على أنَّه لا شَيءَ[١].

٤- قوله تعالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ...﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في ذِكرِ دَلائلَ أُخرى على تَمامِ قُدرتِه سُبحانه[٢]. وهو بَيانٌ لكَونِ خلْقِ السَّمواتِ في غايةِ الحُسنِ والبهاءِ، إثْرَ بَيانِ خُلوِّها عن شائبةِ القُصورِ[٣].

- بيَّن ما في إحدى السَّمواتِ مِن إتقانِ الصُّنعِ، وهو ممَّا شَمِلَه عُمومُ الإتقانِ في خلْقِ السَّمواتِ السَّبعِ، وذِكْرُه مِن ذِكرِ بَعضِ أفرادِ العامِّ، كذِكرِ المثالِ بعْدَ القاعدةِ الكُلِّيَّةِ، فدَقائقُ السَّماءِ الدُّنيا أوضَحُ دَلالةً على إتقانِ الصُّنعِ؛ لكَونِها نُصْبَ أعيُنِ المخاطَبين، ولأنَّ مِن بَعضِها يَحصُلُ تَخلُّصٌ إلى التَّحذيرِ مِن حِيَلِ الشَّياطينِ، وسُوءِ عَواقبِ أتْباعِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ فيه تَصديرُ الجُملةِ بالقَسَمِ؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بمَضمونِها[٥].

- وتأْكيدُ الخبَرِ بـ(قدْ)؛ لأنَّه نَتيجةُ الاستِفهامِ التَّقريريِّ المؤكَّدِ بـ(هل) أُخْتِ (قدْ) في الاستفهامِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٥٧٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١). =

- وسُمِّيَت النُّجومُ هنا مَصابيحَ على التَّشبيهِ في حُسنِ المنظَرِ؛ فهو تَشبيهٌ بَليغٌ[١].

- وعُدِلَ عن تَعريفِ (مَصابيح) باللَّامِ إلى تَنكيرِه؛ لِما يُفيدُه التَّنكيرُ مِن التَّعظيمِ[٢].

- وذِكرُ التَّزيينِ إدماجٌ[٣] للامتِنانِ في أثناءِ الاستدلالِ، أي: زيَّنَّاها لكم، مِثل الامتنانِ في قولِه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النحل: ٦]، والمَقصدُ: التَّخلُّصُ إلى ذِكرِ رَجْمِ الشَّياطينِ؛ ليُتخلَّصَ منه إلى وَعيدِهم، ووَعيدِ مُتَّبِعيهم[٤].

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ ضَميرُ الغائبةِ في (جَعَلْنَاهَا) المتبادِرُ أنَّه عائدٌ إلى المصابيحِ، أي: أنَّ المصابيحَ رُجومٌ للشَّياطينِ. ومعْنى جَعْلِ المصابيحِ رُجومًا جارٍ على طَريقةِ إسنادِ عمَلِ بَعضِ الشَّيءِ إلى جَميعِه، مِثل إسنادِ الأعمالِ إلى القبائلِ؛ لأنَّ العاملينَ مِن أفرادِ القبيلةِ[٥]. أو نُسِبَ الرَّجْمُ إلى المصابيحِ؛ لأنَّ الشِّهابَ المُتَّبِعَ للمُسْتَرِقِ مُنفصِلٌ مِن نارِها، والكوكبُ قارٌّ في فَلَكِه على حالِه، فالشِّهابُ كقبَسٍ يُؤخَذُ مِن النَّارِ، والنَّارُ

= قال ابن عاشور: («هَلْ»... بمعنَى «قَدْ»، فلَمَّا كَثُرَ دُخولُ همزةِ الاستفهامِ عليه حَذَفوا الهمزةَ لكثرةِ الاستعمالِ، فأصْلُ هَلْ فَعَلْتَ: أَهَلْ فعلتَ؟). ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٩٦). ويُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (١/ ١٠٠) و(٣/ ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

باقيةٌ لا تَنقُصُ[١]. أو الضَّميرُ المنصوبُ في ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ عائدٌ إلى السَّماءِ الدُّنيا، على تَقديرِ: وجَعَلْنا منها رُجومًا؛ إمَّا على حذْفِ حرْفِ الجرِّ، وإمَّا على تَنزيلِ المكانِ الَّذي صدَرَ منه الرُّجومُ مَنزلةَ نفْسِ الرُّجومِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٣٨).

الآيات (٦-١١)

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شَهِيقًا﴾: الشَّهيقُ: أقبحُ ما يكونُ مِن صَوتِ الحِمارِ، قيل: هو أوَّلُ نَهيقِ الحِمارِ، وقيل: هو آخِرُه، أو هو الصَّوتُ الَّذي يَخرُجُ مِن الجَوفِ بشِدَّةٍ كصَوتِ الحِمارِ، والشَّهيقُ: رَدُّ النَّفَسِ، ضِدُّ الزَّفيرِ وهو إخراجُ النَّفَسِ، وأصلُ (شهق): يدُلُّ على عُلُوٍّ[١].

﴿تَفُورُ﴾: أي: تَغْلي، وأصلُ (فور): يدُلُّ على غَلَيانٍ[٢].

﴿تَمَيَّزُ﴾: أي: تتقَطَّعُ وتتفرَّقُ، وأصلُ (ميز): يدُلُّ على انفِصالِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[٣].

﴿فَوْجٌ﴾: أي: فِرقةٌ وجماعةٌ، وأصلُ (فوج): يدُلُّ على تجمُّعٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ١٠٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

﴿خَزَنَتُهَآ﴾: أي: الملائكةُ الموكَلُ إليهم أمرُ جهنَّمَ، والخازنُ: الموكَلُ بالحفظِ، والخَزْنُ: حِفظُ الشَّيء في الخِزانةِ، ثمَّ يُعبَّرُ به عن كلِّ حِفْظٍ، وأصلُ (خزن): يدلُّ على صيانةِ الشَّيءِ[1].

﴿فَسُحْقًا﴾: أي: بُعْدًا، وأصلُ (سحق): يدُلُّ على بُعدٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا ما أعدَّه لكلِّ كافرٍ: وللَّذين كَفَروا برَبِّهم عذابُ جَهنَّمَ في الآخِرةِ، وبِئسَ المُنقَلَبُ والمَرجِعُ: جَهنَّمُ!

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه حالَهم حينَما يُلْقَونَ جميعًا في النَّارِ، فيقولُ: إذا أُلقِيَ فيها الكُفَّارُ سَمِعوا لها صَوتًا فَظيعًا كأقبَحِ ما يكونُ مِن صوتِ الحميرِ، وهي تَغْلي؛ مِن شِدَّةِ لهيبِها. تُوشِكُ أن تَتقَطَّعَ؛ مِن غَيظِها على أهلِها! كُلَّما أُلقِيَ فيها جماعةٌ مِن الكافِرينَ قال لهم خَزنَتُها: ألَمْ يَأتِكم في الدُّنيا نذيرٌ يُنذِرُكم عَذابَ اللهِ تعالى؟! قالوا: بلى، قد جاءَنا نذيرٌ فكذَّبْنا، وقُلْنا: ما نزَّلَ اللهُ على أحدٍ مِن شَيءٍ مِنَ الوَحيِ، ما أنتُم إلَّا في ذَهابٍ بَعيدٍ عن الحَقِّ والصَّوابِ!

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى حسرتَهم في هذا اليومِ، فيقولُ: وقال الكافِرونَ: لو كُنَّا في الدُّنيا نَسمَعُ أو نَعقِلُ سَمعًا أو عَقلًا يُنتفَعُ به، ما كنَّا اليَومَ في جُملةِ المُخَلَّدينَ في النَّارِ، فأقَرُّوا بذَنْبِهم، فبُعْدًا لهم مِن رَحمةِ اللهِ تعالى!

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ سُبحانَه عن تهيئتِه العذابَ للشَّياطينِ بالخُصوصِ؛ أخبَرَ أيضًا عن تهيئتِه لكُلِّ عامِلٍ بأعمالِهم، على وَجهٍ اندَرَجوا هم فيه[١].

وأيضًا أنَّ اللهَ تعالى بيَّن في أوَّلِ السُّورةِ أنَّه قادِرٌ على جميعِ المُمكِناتِ، ثمَّ ذَكَر بَعْدَه أنَّه وإن كان قادِرًا على الكُلِّ، فإنَّما خَلَق ما خَلَق لا للعَبَثِ والباطِلِ، بل مِن أجْلِ الابتلاءِ والامتحانِ، وبيَّن أنَّ المقصودَ مِن ذلك الابتلاءِ أن يكونَ عزيزًا في حَقِّ المصِرِّينَ على الإساءةِ، غَفورًا في حَقِّ التَّائبينَ، ومِن ذلك كان كونُه عزيزًا وغفورًا لا يَثْبُتانِ إلَّا إذا ثبت كَونُه تعالى كامِلًا في القُدرةِ والعِلمِ- بيَّن ذلك بالدَّلائِلِ المذكورةِ، وحينَئذٍ ثَبت كَونُه قادِرًا على تعذيبِ العُصاةِ، فقال[٢]:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾.

أي: ولِجَميعِ الَّذين كَفَروا برَبِّهم عذابُ جَهنَّمَ في الآخِرةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣).

أي: وبِئسَ المُنقَلَبُ والمَرجِعُ: جَهنَّمُ[١]!

﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾؛ وصَفَ ذلك العذابَ، فقال[٢]:

﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧﴾.

أي: إذا أُلقِيَ فيها الكُفَّارُ سَمِعوا لها صَوتًا عاليًا فَظيعًا كأقبَحِ ما يكونُ مِن صوتِ الحميرِ، وهي تَغْلي؛ مِن شِدَّةِ تلَهُّبِها وتوَقُّدِها[٣]!

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨﴾.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾.

أي: تُوشِكُ جَهنَّمُ أن تَتقَطَّعَ وتَنفَصِلَ بَعضُ أجزائِها عن بَعضٍ؛ لشِدَّةِ غَيظِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٣، ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قال البِقاعي: (فهم لا يَزالونَ فيها صاعِدينَ هابِطينَ كالحُبِّ [وعاءِ الماءِ] إذا كان الماءُ يَغْلي به، لا قرارَ لهم أصلًا). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٣٤).

وقال ابن جُزَي: (يعني به هنا: ما يُسمَعُ مِن صوتِ جهنَّمَ لشِدَّةِ غَلَيانِها وهولِها، أو شهيق أهلِها، والأوَّلُ أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥).

وقال الواحدي: (قال عَطاءٌ: يريدُ: سمِعوا لأهلِها شهيقًا، فجعَل الشَّهيقَ لأهلِ جهنَّمَ دونَها. والقولُ هو الأوَّلُ [أي: أنَّ الصوتَ لجهنَّمَ]). ((البسيط)) (٢٢/ ٤٧).

على أهلِها[١]!

كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

أي: كُلَّما أُلقِيَ في جَهنَّمَ جماعةٌ مِن الكافِرينَ، قال لهم خَزنَتُها مِن الملائِكةِ مُوَبِّخينَ: ألمْ يَأتِكم في الدُّنيا نذيرٌ يُنذِرُكم عَذابَ اللهِ تعالى[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾.

أي: قال الكافِرونَ لخَزَنةِ جَهنَّمَ: بلى، قد جاءَنا نذيرٌ يُنذِرُنا عذابَ اللهِ، ولكِنَّنا كذَّبْنا[٣].

﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٦، ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١١).

أي: وقُلْنا للمُنذِرينَ: ما نزَّل اللهُ على أحدٍ مِن الخَلْقِ أيَّ شَيءٍ مِنَ الوَحيِ[١]!

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

أي وقال الكافِرونَ أيضًا لِمَن أنذَروهم: ما أنتُم إلَّا في ذَهابٍ بَعيدٍ عن الحَقِّ والصَّوابِ[٢]!

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ سُبحانَه ما قاله أهلُ النَّارِ للخَزَنةِ تحَسُّرًا على أنفُسِهم، حكى ما قالوه بَعْدَ ذلك فيما بيْنَهم -على قول-؛ زيادةً في التَّحَزُّنِ، ومَقتًا لأنفُسِهم بأنفُسِهم[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١١).

قال ابنُ عطية: (﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِن قَولِ الملائكةِ للكُفَّارِ حينَ أخبَروا عن أنفُسِهم أنَّهم كذَّبوا النُّذُرَ، ويحتمِلُ أن يكونَ مِن كَلامِ الكُفَّارِ للنُّذُرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨).

ممَّن ذهَب إلى الاحتمالِ الأوَّلِ: المهدوي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((التحصيل لفوائد كتاب التفصيل)) للمهدوي (٦/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦).

قال ابنُ عاشور: (الأظهَرُ أنَّها بَقيَّةُ كَلامِ خَزَنةِ جَهنَّمَ... ويجوزُ أن تكونَ جُملةُ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ مِن تمامِ كَلامِ كُلِّ فَوجٍ لنذيرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦).

وممَّن ذهب إلى الاحتِمالِ الثَّاني: الزَّمخشريُّ، واستظهره الرَّازيُّ، وذهب إليه القُرطبيُّ، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٧).

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾.

أي: وقال الكافِرونَ: لو كُنَّا في الدُّنيا نَسمَعُ أو نَعقِلُ سَمعًا أو عَقلًا يُنتفَعُ به، ما كنَّا اليَومَ في عِدادِ أهلِ النَّارِ، ومِن جُملةِ المُخَلَّدينَ في عَذابِها(١).

كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

وممَّن قال بأنَّ هذا مِن قَولِ الكُفَّارِ للخَزَنةِ: ابنُ جرير، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠).

وقيل: هو مِن قَولِ الكُفَّارِ فيما بيْنَهم في النَّارِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧).

قال ابنُ عاشور: (أُعيدَ فِعلُ القَولِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ هذا كلامٌ آخَرُ غَيرُ الَّذي وقع جوابًا عن سُؤالِ خَزَنةِ جَهنَّمَ، وإنَّما هذا قَولٌ قالوه في مَجامِعِهم في النَّارِ؛ تحَسُّرًا وتنَدُّمًا، أي: وقال بَعضُهم لبعضٍ في النَّارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧).

قولُه تعالى: ﴿أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: قال الألوسي: (المرادُ بهم قيل: الشَّياطينُ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]. وقيل: الكفَّارُ مُطلقًا). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٣).

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾.

أي: فأقَرُّوا بذَنْبِهم الَّذي استَوجَبَ لهم الخُلودَ في السَّعيرِ[1].

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

أي: فبُعْدًا لأهلِ النَّارِ الملازِمينَ لها مِن رَحمةِ اللهِ تعالى[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٠).

قيل: المرادُ بالذَّنْبِ هنا: الشِّركُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٥).

وقيل: هو تكذيبُهم للرُّسُلِ عليهم السَّلامُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الواحديُّ، والقرطبي، وابنُ جُزَي، والقاسمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٠).

وقيل: هو الكفرُ وتكذيبُ الأنبياءِ. وممَّن اختار هذا القولَ: أبو السعود، والشوكانيُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قال الرازي: (قال المفسِّرون: فبُعدًا لهم اعترَفوا أو جَحَدوا؛ فإنَّ ذلك لا يَنفَعُهم). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يُرادَ مِن هذا الدُّعاءِ التَّعجيبُ مِن حالِهم... أي: فهم جَديرون بالدُّعاءِ عليهم بالإبعادِ، أو جديرونَ بالتَّعجيبِ مِن بُعْدِهم عن الحَقِّ، أو عن رحمةِ اللهِ تعالى. ويحتَمِلُ أيضًا أن يُقالَ لهم يومَ الحِسابِ عَقِبَ اعترافِهم؛ تنديمًا يَزيدُهم ألَمًا في نفوسِهم، فوقَ ألمِ الحَريقِ في جُلودِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فيه أعظَمُ فضيلةٍ للعَقلِ[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ نَفَوا عن أنفُسِهم طُرُقَ الهُدى، وهي السَّمعُ لِما أنزَلَ اللهُ وجاءت به الرُّسُلُ، والعَقلُ الَّذي يَنفَعُ صاحِبَه، ويَقِفُه على حقائِقِ الأشياءِ، وإيثارِ الخَيرِ، والانزِجارِ عن كُلِّ ما عاقِبتُه ذَميمةٌ؛ فلا سَمْعَ لهم ولا عَقْلَ. وهذا بِخِلافِ أهلِ اليَقينِ والعِرفانِ، وأربابِ الصِّدقِ والإيمانِ؛ فإنَّهم أيَّدوا إيمانَهم بالأدِلَّةِ السَّمْعيَّةِ، فسَمِعوا ما جاء مِن عندِ اللهِ وجاء به رَسولُ اللهِ، عِلمًا ومَعرِفةً وعَمَلًا؛ والأدِلَّةِ العَقليَّةِ المُعَرِّفةِ للهُدى مِن الضَّلالِ، والحسنِ مِن القَبيحِ، والخَيرِ مِنَ الشَّرِّ، وهم في الإيمانِ بحَسَبِ ما مَنَّ اللهُ عليهم به مِن الاقتِداءِ بالمَعقولِ والمنقولِ؛ فسُبحانَ مَن يختَصُّ بفَضلِه مَن يَشاءُ، ويَمُنُّ على مَن يَشاءُ مِن عبادِه، ويَخذُلُ مَن لا يَصلُحُ للخَيرِ[(٢)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يُؤخَذُ مِن هذه الآيةِ أنَّ قِوامَ الصَّلاحِ في حُسنِ التَّلَقِّي وحُسنِ النَّظَرِ، وأنَّ الأثَرَ والنَّظَرَ -أي: القياسَ- هما أصلَا الهُدى[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ذكَر الله تعالى عن أهلِ النَّارِ في عددٍ مِن الآياتِ ما يدُلُّ على أنَّهم يَسمعونَ ويُبصِرونَ ويَتكلَّمونَ؛ كقَولِه: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾، وقولِه: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: ٣٨]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾[السجدة: ١٢]، وقوله: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ ﴾[الكهف: ٥٣]. مع أنَّه جلَّ وعلا ذكَر في قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾[الأنبياء: ١٠٠] أنَّ أهلَ النَّارِ لا يَسمَعونَ فيها، وبيَّن أنَّهم لا يَتكلَّمونَ، ولا يُبصِرونَ في مواضعَ أخرى؛ كقولِه تبارك وتعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]، وقوله: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [النمل: ٨٥]؟

والجوابُ عن هذا مِنْ أوجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يكونَ المرادُ مِمَّا ذُكِر -مِن العمَى، والصَّممِ، والبَكَمِ- حقيقتَه، ويكونُ ذلك في مبدَأِ الأمرِ، ثُمَّ يَرُدُّ اللهُ تعالَى إليهم أبصارَهم ونُطْقَهم وسَمْعَهم، فيَرَونَ النَّارَ، ويَسمَعونَ زَفيرَها، ويَنطِقُونَ بما حَكَى اللهُ تعالى عنهم في غيرِ مَوضِعٍ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّهم لا يَرَونَ شيئًا يَسُرُّهم، ولا يَسمَعونَ كذلك، ولا يَنطِقونَ بحُجَّةٍ، كما أنَّهم كانوا في الدُّنيا لا يَسْتَبْصِرونَ، ولا يَنطِقونَ بالحقِّ، ولا يَسْمَعونَه، فنُزِّلَ ما يَقولونَه ويَسْمَعونَه ويُبْصِرونَه مَنزِلةَ العَدَمِ؛ لعَدَمِ الانتِفاعِ به، والعربُ في كلامِها تُطلِقُ الصَّمَمَ على السَّماعِ الَّذي لا فائدةَ فيه. وكذلك الكلامُ الَّذي لا فائدةَ فيه، والرُّؤيةُ الَّتي لا فائدةَ فيها.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ اللهَ تعالى إذا قال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون: ١٠٨]، وَقَع بهم ذاك العمَى والصَّمَمُ والبَكَمُ مِن شِدَّةِ الكربِ واليأْسِ مِنَ الفَرَجِ، قال تعالَى: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾[1] [النمل: ٨٥].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٨، ٢٤٧)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات =

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ فيه إثباتُ أنَّ للنَّارِ حِسًّا وإدراكًا وإرادةً، وقد أثبَتَ القرآنُ للنَّارِ أنَّها تَغتاظُ وتُبصِرُ، وتتكَلَّمُ وتَطلُبُ المزيدَ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا﴾ أنَّ اللهَ تعالى لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بعدَ بُلوغِ الرِّسالةِ؛ فقد أَخبرَ أنَّه كُلَّما أُلقِيَ في النَّارِ فوجٌ، أَقَرُّوا بأنَّهم جاءَهم النَّذيرُ فكذَّبوه؛ فدلَّ ذلك على أنَّه لا يُلقَى فيها فَوجٌ إلَّا مَن كذَّبَ النَّذيرَ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ يدُلُّ على أنَّ أهلَ النَّارِ يَدخُلونَها جماعةً بعْدَ جَماعةٍ، كما في قَولِه تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾[٣] [الأعراف: ٣٨].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾، وقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تزالُ جهَنَّمُ يُلْقى فيها، وتَقولُ: هَلْ مِنْ مَزيدٍ ...))[٤] دليلٌ على أنَّ أهلَ النَّارِ -والعياذُ باللهِ- يُلْقَون فيها إلقاءً؛ لا يَدخلون مُكَرَّمينَ! بل يُدَعُّون إلى نارِ جهنَّمَ دَعًّا[٥].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا﴾ فيه دَليلٌ على جوازِ الجَمعِ بيْن حَرفِ الجَوابِ ونَفْسِ الجُملةِ المُجابِ بها؛ إذ لو قالوا: (بلى)، لَفُهِمَ المعنى[٦].

= الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٤٣).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣٢).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٧٣٨٤)، ومسلمٌ (٢٨٤٨) -واللَّفظُ له- مِن حديثِ أنسٍ رضيَ الله عنه.

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٣٠).

(٦) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٢٣٩).

ويُنظر ما سيأتي في البلاغة (ص: ٢٧٦، ٢٧٧).

٧- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ جَمعٌ بيْن السَّمعِ والعَقلِ؛ لأنَّ مَدارَ التَّكليفِ على أدِلَّةِ السَّمعِ والعَقلِ[١].

٨- السَّمعُ والعَقلُ هما أصلُ العِلمِ، وبهما يُنالُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٢].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هم يَسمَعونَ، ولكن لا يَسمَعونَ ما يَنفَعُهم في الآخرةِ، ويَعقِلونَ، ولكن لا يَعقِلونَ ما يَنفَعُهم في الآخرةِ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾ [البقرة: ٧]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾[الكهف: ٥٧][٣]. فأهلُ النَّارِ ذَكَروا ما يدُلُّ على انتفاءِ السَّمعِ والعقلِ عنهم في الدُّنيا، وهم يُريدون سمعًا خاصًّا وعقلًا خاصًّا؛ فانتفاءُ السَّمعِ بإعراضِهم عن تَلقِّي دَعوةِ الرُّسلِ، وانتفاءُ العقلِ بتَرْكِ التَّدبُّرِ في آياتِ الرُّسلِ ودَلائلِ صِدقِهم فيما يَدْعون إليه[٤].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ احتَجَّ به مَن فَضَّل السَّمعَ على البصَرِ؛ فقد دَلَّت الآيةُ على أنَّ للسَّمعِ مَدْخلًا في الخَلاصِ مِن النَّارِ والفَوزِ بالجنَّةِ، والبصَرُ ليس كذلك؛ فوَجَب أن يكونَ السَّمعُ أفضَلَ[٥].

١١- العقلُ يدُلُّ على صِحَّةِ السَّمعِ، والسَّمعُ يُبيِّنُ صِحَّةَ العقلِ، وأنَّ مَن سلَك أحدَهما أفْضَى به إلى الآخرِ، وأنَّ الَّذين يَستحِقُّونَ العَذابَ هم الَّذين لا يَسمَعونَ ولا يَعقِلونَ، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٨).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣٣)، وهذه الفائدة من إملاء الشنقيطي.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٨). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٠).

وقال تعالَى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقالَ تعالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. فقد بَيَّنَ القرآنُ أنَّ مَن كان يَعقِلُ أو كان يَسمَعُ فإنَّه يكونُ ناجيًا وسعيدًا، ويكونُ مُؤمِنًا بما جاءتْ به الرُّسُلُ[(١)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أنَّ عَلامةَ العَقلِ الصَّريحِ مُتابَعةُ ما جاءتْ به الرُّسُلُ عنِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ العَقلَ الصَّريحَ لا يُخالِفُ ذلك قَطُّ، بل لو وُجِدَ لَوُجِدَ الإيمانُ؛ ففي الآياتِ أنَّهم أخبَروا أنَّه أيُّ الأمْرَينِ وُجِدَ منَعَهم العَذابَ، وقد قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[(٢)] [الحج: ٤٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالَى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ تَتميمٌ[(٣)]؛ لئلَّا

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ١٥٩).

(٣) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةِ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ. ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثِّمُ صاحِبُها. يُنظر: =

يُتوهَّمَ أنَّ العذابَ أُعِدَّ للشَّياطينِ خاصَّةً، والمعْنى: ولجَميعِ الَّذين كَفَروا باللهِ عَذابُ جهنَّمَ، فالمرادُ عامَّةُ المشركين، ومِن أجْلِ ما في الجُملةِ مِن زِيادةِ الفائدةِ غايَرَت الجُملةَ الَّتي قبْلَها؛ فلذلك عُطِفَت عليها[١].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ للاهتمامِ بتَعلُّقِه بالمسنَدِ إليه، والمبادَرةِ به[٢].

- وجُملةُ ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ حالٌ أو مُعترِضةٌ لإنشاءِ الذَّمِّ، وحُذِفَ المخصوصُ بالذَّمِّ؛ لدَلالةِ ما قبْلَ (بِئس) عليه، والتَّقديرُ: وبِئسَ المصيرُ عَذابُ جهنَّمَ[٣].

٢- قوله تعالَى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ مُستأنَفٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لبَيانِ ذمِّ مَصيرِهم في جهنَّمَ، أي: مِن جُملةِ مَذامِّ مَصيرِهم مَذمَّةُ ما يَسمَعونه فيها مِن أصواتٍ مُؤلمةٍ مُخيفةٍ[٤].

- و(إذا) ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿سَمِعُوا﴾، يدُلُّ على الاقترانِ بيْن زمَنِ الإلقاءِ وزمَنِ سَماعِ الشَّهيقِ[٥].

وجملةُ ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ حاليَّةٌ، أي: والحالُ أنَّها تَغلي بهم غَلَيانَ المِرْجَلِ بما فيه، وترتفعُ ألْسِنةُ لَهيبِها[٦].

= ((تحرير التَّحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٢٧)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدِّين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التَّفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣).

٣- قوله تعالَى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ قيل: الجُملةُ مُستأنَفةٌ، كأنَّها وَقَعَت جَوابًا لسُؤالِ سائلٍ[(١)].

- قولُه: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أُتبِعَ وصْفُ ما يَجِدُه أهلُ النَّارِ عندَ إلْقائِهم فيها مِن فَظائعِ أهْوالِها، بوصْفِ ما يَتلقَّاهم به خَزَنةُ النَّارِ، فالجُملةُ استئنافٌ بَيانيٌّ، أثارَه وصْفُ النَّارِ عندَ إلقاءِ أهلِ النَّارِ فيها؛ إذ يَتساءَلُ السَّامعُ عن سَببِ وُقوعِ أهلِ النَّارِ فيها، فجاء بَيانُه بأنَّه تَكذيبُهم رُسلَ اللهِ الَّذين أُرسِلوا إليهم، مع ما انضمَّ إلى ذلك مِن وصْفِ نَدامةِ أهلِ النَّارِ على ما فرَطَ منهم مِن تَكذيبِ رُسلِ اللهِ، وعلى إهمالِهم النَّظَرَ في دَعوةِ الرُّسلِ والتَّدبُّرَ فيما جاؤوهم به[(٢)].

- واكتسَبَ التَّركيبُ معْنى الشَّرطِ باتِّصالِ (كلّ) بحرْفِ (ما) المصدريَّةِ الظَّرفيَّةِ، وشابَهَ أدواتِ الشَّرطِ في الاحتياجِ إلى جُملتَينِ مُرتَّبةٍ إحْداهما على الأُخرى. وجِيءَ بفِعلَيْ ﴿أُلْقِىَ﴾ و﴿سَأَلَهُمْ﴾ ماضيَينِ؛ لأنَّ أكثَرَ ما يقَعُ الفِعلُ بعْدَ (كُلَّما) أنْ يكونَ بصِيغةِ المُضيِّ؛ لأنَّها لَمَّا شابَهَت الشَّرطَ اسْتَوى الماضي والمضارعُ معها؛ لظُهورِ أنَّه للزَّمنِ المُستقبَلِ، فأُوثِرَ فِعلُ المُضيِّ؛ لأنَّه أخفُّ[(٣)].

- والفَوجُ: الجماعةُ، أي: جَماعةٌ ممَّن حقَّ عليهم الخُلودُ، وجِيءَ بالضَّمائرِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٥).

العائدةِ إلى الفَوجِ ضَمائرَ جمْعٍ في قولِه: ﴿سَأَلَهُمْ﴾ إلخ؛ لتَأويلِ الفَوجِ بجَماعةِ أفرادِه[١].

- والمرادُ أفواجُ أهلِ النَّارِ مِن جَميعِ الأُمَمِ الَّتي أُرسِلَت إليهم الرُّسلُ، فتكونُ جُملةُ ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ ...﴾ إلخ بمعْنى التَّذييلِ[٢].

- والاستفهامُ في ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ استفهامٌ تَقريريٌّ للتَّوبيخِ والتَّنديمِ والتَّقريعِ؛ ليَزْدادوا به عذابًا إلى عَذابِهم، وحسْرةً إلى حسْرتِهم[٣].

- جُملةُ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ قيل: هي مُعترضةٌ بيْنَ كَلامِ خَزَنةِ جهنَّمَ اعتراضًا يُشيرُ إلى أنَّ الفَوجَ قاطَعَ كلامَ الخَزَنةِ بتَعجيلِ الاعترافِ بما وبَّخوهم عليه؛ وذلك مِن شِدَّةِ الخوفِ، وفُصِلَت الجُملةُ لوَجْهَين: لأنَّها اعتِراضٌ، ولوُقوعِها في سِياقِ المحاوَرةِ[٤]. وذلك على القولِ بأنَّ جُمْلَةَ: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ مِن بَقيَّةِ كلامِ خَزَنَةِ جَهنَّمَ.

أو الجُملةُ مُستأنَفةٌ جَوابُ سُؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه قِيل: فماذا قالوا بعْدَ السُّؤالِ؟ فقال: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾[٥].

- قولُه: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ قاله الكُفَّارُ اعترافًا بأنَّه تعالَى قد أزاحَ عِلَلَهم بالكُلِّيَّةِ، جامِعينَ بيْنَ حرفِ الجوابِ ونفْسِ الجُملةِ المُجابِ بها؛ مُبالَغةً في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٩).

الاعترافِ بمَجيءِ النَّذيرِ، وتحسُّرًا على ما فاتَهم مِن السَّعادةِ في تَصديقِهم، وتَمهيدًا لبَيانِ ما وقَعَ منهم مِن التَّفريطِ تَندُّمًا واغتمامًا على ذلك[١]. فجاء جوابُهم جَوابَ المُتحسِّرِ المُتندِّمِ؛ فابْتَدؤوا الجوابَ دَفْعةً بحرْفِ (بلى) المُفيدِ نَقيضَ النَّفيِ في الاستفهامِ، فهو مُفيدُ معْنى: جاءنا نَذيرٌ؛ ولذلك كان قولُهم: ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ مُوكِّدًا لِما دلَّت عليه ﴿بَلَىٰ﴾، فلو قالوا: (بلى)، لَفُهِمَ المعنى، ولكِنَّهم أظهَروه تحَسُّرًا، وزيادةً في تغميمِهم على تفريطِهم في قَبولِ قَولِ النَّذيرِ، فهو مِن تَكريرِ الكلامِ عندَ التَّحسُّرِ، مع زِيادةِ التَّحقيقِ بحرْفِ (قدْ)، وذلك التَّأكيدُ هو مَناطُ النَّدامةِ والاعترافِ بالخطَأِ[٢].

- والنَّذيرُ إمَّا بمعْنى الجمْعِ؛ لأنَّه فَعيلٌ، أو مَصدرٌ مُقدَّرٌ بمُضافٍ، أي: أهلُ إنذارٍ، أو مَنعوتٌ به للمُبالَغةِ، كأنَّ الرُّسلَ عَينُ الإنذارِ، أو المرادُ الواحدُ، والخِطابُ له ولأمثالِه على التَّغليبِ، أو إقامةُ تَكذيبِ الواحدِ مُقامَ تَكذيبِ الكلِّ[٣].

- جُملةُ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ مِن تَمامِ كَلامِ كلِّ فَوجٍ لنَذيرِهم. وأُتِيَ بضَميرِ جمْعِ المُخاطَبينَ معَ أنَّ لكلِّ قومٍ رسولًا واحدًا في الغالبِ -باستثناءِ مُوسى وهارونَ، وباستثناءِ رُسلِ أصحابِ القريةِ المذكورةِ في سُورةِ (يس)- إمَّا على اعتبارِ الحِكايةِ بالمعنى؛ بأنْ جُمِعَ كلامُ جَميعِ الأفواجِ في عبارةٍ واحدةٍ، فجِيءَ بضَميرِ الجمْعِ، والمرادُ التَّوزيعُ على الأفواجِ، أي: قال

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥، ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٤٥).

جَميعُ الأفواجِ: بلى قدْ جاءنا نَذيرٌ إلى قولِه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾، على طَريقةِ المثالِ المشهورِ: (رَكِبَ القومُ دَوابَّهم)، وإمَّا على إرادةِ شُمولِ الضَّميرِ للنَّذيرِ وأتْباعِه الَّذين يُؤمِنون بما جاء به. وعُمومُ (شَيء) في قولِه: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ المرادُ منه شَيءٌ مِن التَّنزيلِ، يدُلُّ على أنَّهم كانوا يُحيلون أنْ يُنزِّلَ اللهُ وحْيًا على بشَرٍ، وهذه عادةُ أهلِ الكفرِ؛ قال تعالَى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، أو جُمِعَ ضَميرُ الخِطابِ مع أنَّ مُخاطَبَ كلِّ فَوجٍ نَذيرُه؛ لتَغليبِه على أمثالِه مُبالَغةً في التَّكذيبِ، وتَماديًا في التَّضليلِ، كما يُنبِئُ عنهُ تَعميمُ المُنزَّلِ مع تَرْكِ ذِكرِ المُنزَّلِ عليهِ؛ فإنَّه مُلوِّحٌ بعُمومِه حتْمًا. وقيل: جُملةُ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ هي بَقيَّةُ كَلامِ خَزَنةِ جهنَّمَ، فَصَلَ بيْنهما وبيْن ما سَبَقَها مِن كَلامِهم اعتراضُ جَوابِ الفَوجِ المُوجَّهِ إليهم الاستفهامُ التَّوبيخيُّ، أرادوا حِكايةَ ما كانوا عليه مِن ضَلالِهم في الدُّنيا، إخبارًا لهم وتَقريعًا، أو أرادوا بالضَّلالِ: الهلاكَ الَّذي همْ فيه، أو سَمَّوا عِقابَ الضَّلالِ باسمِه ضَلالًا لمَّا كان ناشئًا عن الضَّلالِ تَسميةً لهُ باسمِ سَببِه، ويُؤيِّدُ هذا إعادةُ فِعلِ القولِ في حِكايةِ بَقيَّةِ كَلامِ الفوجِ في قولِه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ...﴾ [الملك: ١٠] إلخ؛ لانقطاعِه بالاعتراضِ الواقعِ خِلالَ حِكايتِه[١].

- قولُه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ وصْفُ الضَّلالِ بالكبيرِ معْناه شَديدٌ بالغٌ غايةَ ما يَبلُغُ إليه جِنسُه، ومعْنى القصْرِ المُستفادِ مِن النَّفيِ والاستثناءِ قصْرُ قلْبٍ[٢]، أي: ما حالُكم الَّتي أنتم مُتلبِّسون بها إلَّا الضَّلالُ، وليس الوحْيَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨، ٥٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

الإلهيَّ والهُدى كما تَزعُمون[١].

- والظَّرفيَّةُ ﴿فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ لتَشبيهِهم تَمحُّضَهم للضَّلالِ بإحاطةِ الظَّرفِ بالمظروفِ[٢].

٤- قوله تعالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ قيل: أُعِيدَ فِعلُ القولِ للإشارةِ إلى أنَّ هذا كلامٌ آخَرُ غيرُ الَّذي وقَعَ جوابًا عن سُؤالِ خَزنةِ جهنَّمَ، وإنَّما هذا قولٌ قالُوه في مَجامعِهم في النَّارِ تحسُّرًا وتَندُّمًا، أي: وقال بَعضُهم لبَعضٍ في النَّارِ، فهو مِن قَبيلِ قولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا ...﴾ إلخ [الأعراف: ٣٨]؛ لتَأكيدِ الإخبارِ على حسَبِ الوجْهَين المتقدِّمينِ في مَوقعِ جُملةِ ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾[٣].

وقيل: كأنَّ الخزَنةَ قالوا لهم في تَضاعيفِ التَّوبيخِ: ألَمْ تَسمَعوا آياتِ ربِّكم ولم تَعقِلوا مَعانيَها حتَّى لا تُكذِّبوا بها؟ فأجابوا بذلك[٤].

- وحرْفُ (أو) للتَّقسيمِ، وهو تَقسيمٌ باعتبارِ نَوعَيِ الأحوالِ الَّتي تَقْتضي حُسنَ الاستماعِ تارةً إذا أُلْقِيَ إليها إرشادٌ، وحُسْنَ التَّفهُّمِ والنَّظرِ تارةً إذا دُعِيَت إلى النَّظرِ مِن داعٍ غيرِ أنفُسِها، أو مِن دَواعي أنفُسِها[٥].

- ووَجْهُ تَقديمِ السَّمعِ على العقلِ أنَّ العقلَ بمَنزلةِ الكُلِّيِّ، والسَّمعَ بمَنزلةِ الجُزئيِّ، ورَعْيًا للتَّرتيبِ الطَّبيعيِّ؛ لأنَّ سمْعَ دَعوةِ النَّذيرِ هو أوَّلُ ما يَتلقَّاهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

المُنذَرون، ثمَّ يُعمِلون عُقولَهم في التَّدبُّرِ فيها[١]، فالمدعوُّ إذا لَقِيَ الرَّسولَ فأوَّلُ المراتبِ أنَّه يَسمَعُ كلامَه، ثمَّ إنَّه يَتفكَّرُ فيه، فلمَّا كان السَّمعُ مُقدَّمًا بهذا السَّببِ على التَّعقُّلِ والتَّفهُّمِ لا جَرَمَ قُدِّم عليه في الذِّكْرِ[٢].

٥- قوله تعالَى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ﴾ فَصيحةٌ تُفصِحُ عن كلامٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إذ قالوا بذلك فقدْ تبيَّنَ أنَّهم اعترَفوا هنالك بذَنْبِهم، أي: فهمْ مَحقوقون بما هم فيه مِن العذابِ[٣].

- ولم يُجمَعِ الذَّنْبُ؛ لأنَّه في الأصلِ مَصدرٌ، أو المرادُ به الكُفرُ[٤].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَسُحۡقٗا﴾ للتَّسبُّبِ[٥]، والسُّحقُ: اسمُ مَصدرٍ معْناه البُعدُ، أي: أسْحَقَهم اللهُ إسحاقًا؛ أبْعَدَهم مِن رَحمتِه. ويَجوزُ أنْ يُرادَ مِن هذا الدُّعاءِ التَّعجيبُ مِن حالِهم، كما يُقال: قاتَلَه اللهُ، ووَيلٌ له، في مَقامِ التَّعجُّبِ. وقِيل: هو مَفعولٌ به لفِعلٍ مَحذوفٍ، أي: ألْزَمَهم اللهُ سُحقًا[٦].

- واللَّامُ الدَّاخلةُ على (أصحابِ) لامُ التَّقويةِ إنْ جُعِلَ (سُحقًا) دُعاءً عليهم بالإبعادِ؛ لأنَّ المصدَرَ فرْعٌ في العملِ عن الفِعلِ. ويجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ لامَ التَّبيينِ لتأْكيدِ تَعلُّقِ العاملِ بمَعمولِه، كقولِهم: شُكرًا لك، فكلٌّ مِن (سُحقًا)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٠).

واللَّامِ المُتعلِّقةِ به مُستعمَلٌ في مَعنيَيْه[١].

- و﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يَعُمُّ المُخاطَبينَ بالقرآنِ وغيرَهم، فكان هذا الدُّعاءُ بمَنزلةِ التَّذييلِ؛ لِما فيه مِن العُمومِ تَبَعًا للجُمَلِ الَّتي قبْلَه[٢]. وقيل: قولُه: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ المرادُ بهم الشَّياطينُ والدَّاخِلونَ في عِدادِهم بطَريقِ التَّغليبِ[٣]. والتَّغليبُ في قولِه: ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ للإيجازِ والمُبالَغةِ والتَّعليلِ؛ فأصحابُ السَّعيرِ -وهم الشَّياطينُ- غُلِّبوا على الكفَرةِ؛ إذ الظَّاهرُ أنْ يُقال: فسُحْقًا لهم، أي: للقائلينَ: بلى قدْ جاءَنا... إلخ، ولأصحابِ السَّعيرِ الَّذين هم الشَّياطينُ، فغُلِّبَ للإيجازِ، والمُبالَغةِ في إبعادِ الأوَّلينَ؛ إذ لو أُفرِدَ كلٌّ مِن الفريقَينِ بالذِّكْرِ لَأمكَنَ أن يُتَوهَّمَ تَفاوُتُ الإبعادِ بأنْ يكونَ إبعادُ الكفَرةِ دونَ إبعادِ الشَّياطينِ؛ لجَعْلِهم الشَّياطينَ أصلًا، وأنفُسَهم مُلحقةً بهم في ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، فلمَّا ضُمُّوا إليهم في الحُكمِ دلَّ على أنَّ إبعادَهم لا يَقصُرُ عن إبعادِ أولئك. وأيضًا لَمَّا غُلِّب أصحابُ السَّعيرِ -وهم الشَّياطينُ- على الكفَّارِ، فقد جُعِل الكفَّارُ مِن قَبيلِ الشَّياطينِ، فكأنَّهم هُم بأعيانِهم، وفيه مِن المُبالَغةِ ما لا يَخفى. وأمَّا التَّعليلُ فإنَّ ترَقُّبَ الحُكمِ على الوصفِ -وكذا تَعَلُّقَه به- يُشعِرُ بعِلِّيَّتِه له، فيُشعِرُ ذلك بأنَّ الإبعادَ حصَل لهم مِن أجْلِ كَونِهم أصحابَ السَّعيرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨، ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٢٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤).

الآيات (١٢-١٥)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَخۡشَوۡنَ﴾: الخَشيةُ: خَوفٌ يَشوبُه تَعظيمٌ، وهي: أشدُّ مِن الخَوفِ وأَخَصُّ منه؛ فهي خَوفٌ مَقرونٌ بمعرفةٍ، وأكثرُ ما تكونُ الخَشيةُ عن عِلمٍ بالمَخوفِ منه، وأصلُ (خشِي): يدُلُّ على خَوفٍ وذُعْرٍ[1].

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: بالضَّمائِرِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ؛ خَيرِها وشَرِّها؛ لأنَّها في الصُّدورِ، تَحُلُّها وتُصاحِبُها، وذاتُ: صاحبةُ، مؤنَّثُ (ذو) بمعنى صاحبٍ، وقيل: حاجةِ الصُّدورِ، وقيل: بخَفِيَّاتِ القلوبِ، وقيل: بحقيقةِ ما في الصُّدورِ، وذاتُ الشَّيءِ: نفْسُه وحَقيقتُه[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٦/ ١٠٠)، ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٨٣، ١٣٨٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥) و (٢٣/ ٣٤٢).

قال ابنُ القَيِّم: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ليس المرادُ به عليمًا بمُجَرَّدِ الصُّدورِ؛ فإنَّ هذا ليس فيه كَبيرُ أمرٍ، وهو بمنزلةِ أن يُقالَ: عَليمٌ بالرُّؤوسِ والظُّهورِ والأيدي والأرجُلِ، وإنَّما المرادُ به: عليمٌ بما تُضمِرُه الصُّدورُ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، أي: بالأسرارِ الَّتي في الصُّدورِ، وصاحِبةِ =

﴿ٱللَّطِيفُ﴾: أي: العالِمُ بدقائقِ الأمورِ، الَّذي أحاط عِلمُه بالسَّرائرِ والخفايا، الرَّفيقُ بالعبادِ، اللَّطيفُ بهم في مَعايِشِهم، وأرزاقِهم، وهدايتِهم، الموصلُ إليهم مَصالِحَهم بلُطفِه وإحسانِه مِن طُرقٍ خفيَّةٍ لا يَشعُرون بها، وأصل (لطف): يدُلُّ على رِفْقٍ، وعلى صِغَرٍ في الشَّيء[١].

﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: أي: الَّذي انتهَى عِلمُه إلى الإحاطةِ ببَواطِنِ الأشياءِ وخَفاياها، كما أحاطَ بظَواهِرِها، والخُبْرُ: العِلمُ بالشَّيءِ، أو: هو العِلمُ بكُنْهِ المَعلوماتِ على حقائقِها، وأصلُ (خبر) هنا: يدُلُّ على عِلمٍ[٢].

﴿ذَلُولًا﴾: أي: سَهلةً لَيِّنةً لا يَمتَنِعُ المَشيُ عليها؛ مِنَ الذِّلِّ: وهو اللِّينُ والانقيادُ، وأصلُ (ذلل): يدُلُّ على الخُضوعِ واللِّينِ[٣].

﴿مَنَاكِبِهَا﴾: أي: أطرافِها ونواحيها وطُرُقِها وفِجاجِها، وأصلُ (نكب): يدُلُّ على مَيلٍ في شَيءٍ[٤].

= الصُّدورِ؛ فأضافها إليها بلَفظٍ يَعُمُّ جميعَ ما في الصُّدورِ مِن خَيرٍ وشَرٍّ). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٤٤)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ١٣٨)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٩)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٩٣)، ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٢/ ٤٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((غريب =

﴿ٱلنُّشُورُ﴾: أي: البَعثُ والمَرجِعُ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ: إنَّ الَّذين يَخافونَ رَبَّهم، والحالُ أنَّهم لم يَرَوه، ويُطيعونَه، ويَترُكونَ مَعصيتَه حتَّى في خَلَواتِهم: لهم مَغفِرةٌ وثوابٌ عَظيمٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُنَبِّهًا على أنَّه مُطَّلِعٌ على الضَّمائرِ والسَّرائرِ: وأخْفُوا كَلامَكم -أيُّها النَّاسُ- أو أظْهِروه؛ إنَّ اللهَ عليمٌ بما في قُلوبِ العِبادِ.

ثمَّ يَستَدِلُّ تعالى على عِلمِه بدليلٍ عقليٍّ، فيقولُ: مَن خلَق الخَلْقَ، كيفَ لا يَعلَمُه، وكيف يَخفى عليه سبحانَه، وهو العالِمُ بدقائِقِ الأشياءِ وخَباياها، فلا تخفى عليه خافِيةٌ؟!

ثُمَّ يذكرُ تعالى نِعمتَه على خَلقِه في تسخيرِه لهم الأرضَ، فيقولُ: هو الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مُذَلَّلةً مُوطَّأةً؛ فامشُوا في جوانبِها ونواحيها، وكُلُوا مِن رِزقِ اللهِ، وإليه تعالى وَحْدَه المرجِعُ والبَعثُ بعْدَ المَوتِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ وَعيَد الكُفَّارِ؛ أتْبَعَه بوَعدِ المؤمِنينَ[٢]، ولَمَّا ذكَرَ حالةَ

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٨).

الأشقياءِ الفُجَّارِ؛ ذكَرَ حالةَ السُّعَداءِ الأبرارِ[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾.

أي: إنَّ الَّذين يخافُونَ اللهَ وهم لم يَرَوه في الدُّنيا، ولم يَرَوا عذابَه، فيُطيعونَه ويَترُكونَ مَعصيتَه حتَّى في خَلَواتِهم حيثُ لا يَراهم النَّاسُ: لهم مَغفِرةٌ مِنَ اللهِ لِذُنُوبِهم، وثوابٌ عَظيمٌ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٠ - ٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قيل: معنى قولِه: ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: في خَلَواتهم إذا غابوا عن النَّاسِ، حيث لا يَطَّلِعُ عليهم ولا يَراهم إلَّا اللهُ. وممَّن اختاره في الجملةِ: ابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

وقيل: المعنى: يَخافون ربَّهم وهم لم يَرَوْه. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، والخازنُ، ونسَبه ابنُ الجوزيِّ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٣).

قال الشوكاني: (﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حالٌ مِن الفاعلِ أو المفعولِ، أي: غائبينَ عنه، أو غائبًا عنهم، والمعنى: أنَّهم يَخْشَون عذابَه ولم يَرَوه، فيُؤمِنونَ به خَوفًا مِن عذابِه. ويجوزُ أن يكونَ المعنى: يَخشون ربَّهم حالَ كَونِهم غائبينَ عن أعيُنِ النَّاسِ، وذلك في خَلَواتِهم. أو المرادُ بالغَيبِ كَوْنُ العذابِ غائبًا عنهم؛ لأنَّهم في الدُّنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢).

وقال البِقاعي جامعًا بيْن معاني هذه الآيةِ: (﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: حالَ كَونِهم غائبينَ عنه سُبحانَه، ووعيده غائبًا عنهم، وهم غائبونَ عن أعيُنِ النَّاسِ، وقد ملأ الخَوفُ ما غاب منهم عن النَّاسِ وهي قُلوبُهم، فهم مع النَّاسِ يَتكلَّمونَ، وقُلوبُهم تَتلَظَّى بنيرانِ الخَوفِ، وتُكلَمُ بسيوفِ الهَيبةِ، فيَترُكونَ المعصيةَ حيث لا يَراهم أحدٌ مِن النَّاسِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٤٠).

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت الخَشيةُ مِن الأفعالِ الباطنةِ، وكان كلُّ أحدٍ يَدَّعي أنَّه يَخشى اللهَ؛ قال مخوِّفًا لهم بعِلمِه، نادبًا إلى مُراقَبتِه لئلَّا يَغتَرُّوا بحِلمِه، عاطفًا على ما تقديرُه لإيجابِ المراقبةِ: فأبطَنوا أفعالَهم وأظْهَروها[1]:

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓ﴾.

أي: وأخفُوا كَلامَكم -أيُّها النَّاسُ- أو أظْهِروه؛ فكِلا الأمْرَينِ سَواءٌ عِندَ اللهِ، فلا يَخفى عليه شَيءٌ ممَّا تُسِرُّونَه أو تَجهَرونَ به مِن أقوالٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو عِلمٍ بالِغٍ تامٍّ بما في قُلوبِ العِبادِ مِن العقائِدِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ والخواطِرِ الَّتي لم يُتكلَّمْ بها، فما تكَلَّم به الإنسانُ سِرًّا أو نطَقَ به جهرًا أَولى وأحرى أن يَعلَمَه اللهُ سُبحانَه[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

وقيل: هذه الآيةُ خِطابٌ للكفَّارِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢).

والمعنَى: إنْ أخفَيْتُم كلامَكم أو جهَرْتُم به في أمرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، فكلُّ ذلك يَعلَمُه اللهُ، لا تَخفَى عليه منه خافِيةٌ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠)، ((شفاء العليل)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر كَونَه عالِمًا بالجَهرِ وبالسِّرِّ، وبما في الصُّدورِ؛ ذكَرَ الدَّليلَ على كَونِه عالِمًا بهذه الأشياءِ[(١)].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وكيف يَخفى عليه سبحانَه ما في الصُّدورِ مِنْ أسرارٍ هو خلَقها، وهو العالِمُ بدقائِقِ الأشياءِ، فيُدَبِّرُها ويَسوقُها لعبادِه برِفقٍ وخَفاءٍ مِن حيثُ لا يَشعُرونَ؛ فهو سُبحانَه عالِمٌ بما بَثَّه في القُلوبِ، وهو العالِمُ ببواطِنِ الأشياءِ وخباياها، فلا تخفَى عليه خافيةٌ[(٢)]؟!

= لابن القيم (ص: ٥٥، ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قال ابن القيِّم: (ذاتُ الصُّدورِ كلمةٌ جامعةٌ لِما يَشتمِلُ عليه الصَّدرُ مِن الاعتقاداتِ والإراداتِ، والحُبِّ والبُغضِ، أي: صاحبةُ الصُّدورِ؛ فإنَّها لَمَّا كانت فيها قائمةً بها نُسِبَتْ إليها نِسبةَ الصُّحبةِ والمُلازَمةِ). ((شفاء العليل)) (ص: ٥٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه بعْدَ ذلك: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ مِن بابِ التَّنبيهِ بالأدنى على الأعلى؛ فإنَّه إذا كان عليمًا بذاتِ الصُّدورِ، فعِلْمُه بالقَولِ المُسَرِّ والمَجهورِ به أَولى). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٤)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١٠/ ١١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢١١) و(١٦/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير =

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

= السعدي)) (ص: ٨٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١).

قال ابن جُزَي: (يحتمِلُ أن يكونَ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ فاعلًا يُرادُ به الخالقُ، والمفعولُ محذوفٌ تقديرُه: ألَا يعلمُ الخالقُ خَلْقَه؟! أو يكونَ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ مفعولًا، والفاعلُ مُضمَرٌ تقديرُه: ألَا يَعلَمُ اللهُ مَن خَلَق؟!). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٦).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ قولَه: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ فاعِلٌ يُرادُ به الخالِقُ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والسمعاني، والبغوي، والرازي، والرَّسْعَني، والقرطبي، وابن جُزَي، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قال ابن جُزَي: (لأنَّ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ إذا كان مفعولًا اختصَّ بمَن يعقِلُ، والمعنى الأوَّلُ يَعُمُّ مَن يَعقِلُ ومَن لا يعقِلُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٦).

وقال الرَّسْعَني: (﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي: ألَا يَعلَمُ ما في الصُّدورِ مَنْ خَلَقَها، و﴿مَنْ خَلَقَ﴾ في محلِّ الرَّفعِ بإسنادِ الفِعلِ إليه). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٠٥).

وقال الشَّوْكاني: (المعنى: ألَا يَعلَمُ السِّرَّ ومُضْمَراتِ القُلوبِ مَن خلَقَ ذلك وأوجَده، فالمَوصولُ عِبارةٌ عن الخالق). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أنَّ قوله: ﴿مَنْ﴾ مفعولٌ-: ابنُ جرير، واستظهره أبو حيَّان، واستَحسَنه البِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٣).

قال ابن القيِّم: (وقد اختُلِف في إعرابِ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ هل هو النَّصبُ أو الرَّفعُ؟ فإن كان مرفوعًا فهو استِدلالٌ على عِلمِه بذلك لِخَلْقِه له، والتَّقديرُ: أنَّه يَعلَمُ ما تَضَمَّنَتْه الصُّدورُ، وكيف لا يَعلَمُ الخالقُ ما خلَقَه؟! وهذا الاستِدلالُ في غايةِ الظُّهورِ والصِّحَّةِ؛ فإنَّ الخَلقَ يَستلزِمُ حياةَ الخالقِ وقُدرتَه، وعِلمَه ومَشيئتَه. وإن كان منصوبًا فالمعنى: ألَا يَعلَمُ مَخلوقَه؟! وذكَر لَفظةَ «مَنْ» تغليبًا؛ لِيَتناوَلَ العِلمُ العاقلَ وصِفاتِه). ((شفاء العليل)) (ص: ٥٦).

لمَّا ضرَبَ الله سبحانَه لهم بخلْقِ أنفُسِهم دَليلًا على عِلمِه الدَّالِّ على وَحدانيَّتِه؛ شَفَعَه بدَليلِ خلْقِ الأرضِ الَّتي همْ عليها، مع المِنَّةِ بأنَّه خَلَقَها هيِّنةً لهم، صالحةً للسَّيرِ فيها، مُخرِجةً لأرزاقِهم[١]، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾.

أي: هو الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مُذَلَّلةً مُوطَّأةً بحيثُ تَتمكَّنونَ مِن الانتفاعِ بها، بالوطْءِ عليها، والمشْيِ فَوقَها إلى غيرِ ذلك، ولم يَجعَلْها مُستصعَبةً ومُمتَنِعةً على مَن أراد ذلك منها[٢]!

﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾.

أي: فامشُوا في جوانبِها ونواحيها، وسافِروا حيثُ شئتُم مِن أقطارِها لطلبِ الرِّزقِ والمَكاسِبِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٤، ٢١٥)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

قال القرطبي: (هو أمرُ إباحةٍ، وفيه إظهارُ الامتِنانِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥).

واختلف المفسِّرون في معنى ﴿مَنَاكِبِهَا﴾؛ على أقوالٍ:

فقيل: المرادُ: طُرُقاتُها وفِجاجُها. وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٥٩).

قال ابن عطيَّة: (قال مجاهِدٌ: هي الطُّرُقُ والفِجاجُ. وهذا قَولٌ جارٍ مع اللُّغةِ؛ لأنَّها تُنكَبُ يَمنةً ويَسرةً، ويَنكُبُ الماشي فيها في مَناكِبَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤١). ويُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨).

وقال ابنُ القيِّم: (حسُنَ التَّعبيرُ بمَناكِبِها عن طُرُقِها وفِجاجِها؛ لِما تقَدَّم مِن وَصفِها بكَونِها =

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾.

أي: وكُلُوا مِن رِزقِ اللهِ الحَلالِ الَّذي أودَعَه فيها، وأقْدَرَكم على إخراجِه منها[1].

= ذَلولًا؛ فالماشي عليها يطَأُ على مَناكِبِها، وهو أعلى شَيءٍ فيها؛ ولهذا فُسِّرَت المَناكِبُ بالجبالِ، كمَناكِبِ الإنسانِ، وهي أعاليه. قالوا: وذلك تنبيهٌ على أنَّ المَشيَ في سُهولِها أيسَرُ. وقالت طائفةٌ: بل المناكِبُ الجوانِبُ والنَّواحي، ومنه مَناكِبُ الإنسانِ لِجَوانبه. والَّذي يَظهَرُ أنَّ المُرادَ بالمناكِبِ الأعالي، وهذا الوَجهُ الَّذي يَمشي عليه الحيوانُ هو العالي مِن الأرضِ دونَ الوَجهِ المقابِلِ له؛ فإنَّ سَطحَ الكُرةِ أعلاها، والمَشيُ إنَّما يقعُ في سَطحِها، وحَسُنَ التَّعبيرُ عنه بالمَناكِبِ؛ لِما تقدَّمَ مِن وَصفِها بأنَّها ذَلولٌ). ((الفوائد)) (ص: ١٨).

وقيل: المرادُ: جِبالُها. ومِمَّن ذهب إلى هذا: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠).

وقيل: المرادُ: جوانِبُها ونواحيها. ومِمَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وأبو عُبَيدةَ، وابنُ قُتَيبةَ، وابن جرير، والسمعاني، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧١)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٥).

ونسَبَ ابنُ كثيرٍ إلى ابنِ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٍ، وقَتادةَ، والسُّدِّيِّ أنَّ معنى ﴿مَنَاكِبِهَا﴾: أطرافُها وفِجاجُها ونواحيها. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠).

وقال الزمخشري: (المشيُ في مَناكِبِها: مَثَلٌ لِفَرطِ التَّذليلِ ومُجاوَزَتِه الغايةَ؛ لأنَّ المَنكِبَينِ ومُلتقاهما مِن الغارِبِ أرَقُّ شَيءٍ مِن البعيرِ، وأنباه عن أن يَطأَه الرَّاكِبُ بقَدَمِه ويعتَمِدَ عليه، فإذا جعَلَها في الذِّلِّ بحيثُ يُمشى في مَناكِبِها لم يَترُكْ [شَيئًا منها إلَّا قد ذَلَّلَه]). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٠).

وقيل المرادُ: أطرافُها ونواحيها وجبالُها. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٦).

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه لا إلى غَيرِه المرجِعُ بعْدَ مَوتِكم، فتُبعَثونَ مِن قُبورِكم يومَ القيامةِ للجَزاءِ على أعمالِكم[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- خَشيةُ اللهِ تعالى في الغَيبِ والشَّهادةِ المعنيُّ بها أنَّ العَبدَ يَخشى اللهَ سِرًّا وإعلانًا، وظاهِرًا وباطِنًا؛ فإنَّ أكثَرَ النَّاسِ يرى أنَّه يخشى اللهَ في العَلانيةِ وفي الشَّهادةِ، ولكِنَّ الشَّأنَ في خشيتِه اللهَ في الغَيبِ إذا غاب عن أعيُنِ النَّاسِ، وقد مدَحَ اللهُ مَن يَخافُه بالغَيبِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[٢] [المائدة: ٩٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ خِطابٌ عامٌّ لجميعِ الخَلقِ في جميعِ الأعمالِ، والمرادُ أنَّ قَولَكم وعمَلَكم على أيِّ سَبيلٍ وُجِدَ، فالحالُ واحِدٌ في عِلْمِه تعالى بهذا؛ فاحذَروا من المعاصي سِرًّا كما تحتَرِزونَ عنها جَهرًا؛ فإنَّه لا يتفاوَتُ ذلك بالنِّسبةِ إلى عِلمِ اللهِ تعالى[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ تحذيرٌ للإنسانِ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

قال القُرطبيُّ: (قيل: معناه: أنَّ الَّذي خلَقَ السَّماءَ لا تَفاوُتَ فيها، والأرضَ ذَلولًا: قادِرٌ على أن يَنشُرَكم). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٩).

يَعمَلَ بما يُسْخِطُ اللهَ تعالى؛ لا تَعمَلْ بما يُسْخِطُ اللهَ لا بالقَولِ ولا بالفِعلِ ولا بالاعتِقادِ؛ لأنَّ اللهَ عليمٌ به، احْذَرْ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾[1] [آل عمران: ٢٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يأكُلَ مِن عَمَلِ يدِه، ويَتعفَّفَ عن السُّؤالِ، وأنْ يَكتَسِبَ ويَتَّجِرَ[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ الأمرُ للإباحةِ، ولكِنَّ التَّقديمَ لهذا الأمرِ بقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾ فيه امتِنانٌ مِنَ اللهِ تعالى على خَلْقِه، مِمَّا يُشعِرُ أنَّ في هذا الأمرِ مع الإباحةِ توجيهًا وحَثًّا للأمَّةِ على السَّعيِ، والعَمَلِ والجِدِّ، والمَشيِ في مَناكِبِ الأرضِ مِن كُلِّ جانِبٍ؛ لِتَسخيرِها وتَذليلِها؛ ممَّا يَجعَلُ الأمَّةَ أحَقَّ بها مِن غيرِها، وعليه فقد وَضَع القُرآنُ الأمَّةَ الإسلاميَّةَ في أعزِّ مَواضِعِ الغِنى والاستِغناءِ والاستِثمارِ والإنتاجِ، فما نَقَص عليها مِن أمورِ دُنياها إلَّا بقَدْرِ ما قصَّرَت هي في القيامِ بهذا العَمَلِ، وأضاعت مِن حَقِّها في هذا الوُجودِ[3]. فما حَصَلَ في الدُّولِ الغربيَّةِ الكافِرةِ المُلْحِدةِ مِن التَّقَدُّمِ في الصِّناعاتِ وغَيرِها؛ فإنَّ دِينَنا لا يَمنَعُ منه -لو أنَّنا التفَتْنا إليه- لكنْ مع الأسفِ ضَيَّعْنا هذا وهذا؛ ضَيَّعْنا دِينَنا، وضَيَّعْنا دُنْيانا، وإلَّا فإنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ لا يُعارِضُ هذا التَّقدُّمَ، بل قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾[4] [الأنفال: ٦٠].

---

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٤٩).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أنَّ الإسلامَ يأمُرُ بكلِّ تَقدُّمٍ نافعٍ؛ فقد أُمِرْنا بالمشيِ في مناكِبِ الأرضِ -أي: جِهاتِها- ثُمَّ أُمِرْنا بالأكلِ مِن رِزْقِه، ومعنى ذلك أنْ نسعَى بطَلَبِ هذا الرِّزقِ؛ إذْ لا يُمكِنُ تحصيلُه إلَّا بأسبابِه، والنَّاسُ يَختَلِفونَ في سُلوكِ ما يُلائِمُهم مِن أسبابِ الرِّزقِ؛ فمِنهم مَن يُحَصِّلُه بالتِّجارةِ، ومِنهم مَن يُحَصِّلُه بالصِّناعةِ، ومِنهم مَن يُحَصِّلُه بالزِّراعةِ، ومِنهم مَن يُحَصِّلُه بالعَمَلِ، إلى غيرِ ذلك مِن أسبابِ الرِّزقِ[(١)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ حُجَّةٌ في السَّعيِ والحَركةِ في طَلَبِ الرِّزقِ، والتِماسِه بالمكاسِبِ في الأسفارِ والحَضَرِ[(٢)].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، يعني: يَنبغي أن يكونَ مُكْثُكم في الأرضِ، وأكْلُكم مِن رِزقِ اللهِ: مُكْثَ مَن يَعلَمُ أنَّ مَرجِعَه إلى اللهِ، وأكْلَ مَن يتيَقَّنُ أنَّ مَصيرَه إلى اللهِ، والمرادُ تحذيرُهم عن الكُفرِ والمعاصي في السِّرِّ والجَهرِ[(٣)].

وأيضًا فقولُه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّا في هذا المسكَنِ غيرُ مُستَوطِنينَ ولا مُقيمينَ، بل دخَلْناه عابِري سَبيلٍ؛ فلا يَحسُنُ أنْ نَتَّخِذَه وطَنًا ومُستقَرًّا، وإنَّما دخَلْناه لِنَتزَوَّدَ منه إلى دارِ القَرارِ، فهو مَنزِلُ عُبورٍ، لا مُستقَرُّ حُبُورٍ، ومَعْبَرٌ ومَمَرٌّ، لا وطَنٌ ومُستَقَرٌّ.

فتضمَّنَتِ الآيةُ التَّحذيرَ مِن الرُّكونِ إلى الدُّنيا، واتِّخاذِها وطَنًا ومُستقَرًّا، بل نُسرِعُ فيها السَّيرَ إلى الجَنَّةِ ودارِ القرارِ. فلِلَّهِ ما في ضِمنِ هذه الآيةِ مِن معرفتِه

(١) يُنظر: ((الضياء اللامع من الخطب الجوامع)) لابن عثيمين (١/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩١).

وتوحيدِه، والتَّذكيرِ بنِعَمِه، والحثِّ على السَّيرِ إليه، والاستِعدادِ لِلِقائِه والقُدومِ عليه، والإعلامِ بأنَّه سُبحانَه يَطوي هذه الدَّارَ كأنْ لم تكُنْ، وأنَّه يُحْيي أهْلَها بعدَ ما أماتَهم وإليه النُّشورُ[١]!

وأيضًا فقولُه: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ فيه تحذيرٌ مِن اللهِ لعبادِه أنْ يَسْلُكوا في تحصيلِ رِزْقِهم سُبُلًا حَرَّمَها اللهُ عليهم؛ فإنَّهم راجِعونَ إليه، ومُحاسِبُهم عليها[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ السِّرَّ والجَهرَ عندَ الله وفي عِلمِ اللهِ على حَدٍّ سَواءٍ؛ لأنَّه عَليمٌ بذاتِ الصُّدورِ، يَعلَمُ خائِنةَ الأعيُنِ وما تُخفِي الصُّدورُ[٣].

٢- مِن صِفاتِ اللهِ تعالى ما قد يُعلَمُ بالعَقلِ، كما يُعْلَمُ أنَّه عالِمٌ، وأنَّه قادرٌ، وأنَّه حيٌّ؛ كما أرْشَد إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّه سُبحانَه خالِقُ أقوالِ العِبادِ وما في صُدورِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨).

(٢) يُنظر: ((الضياء اللامع من الخطب الجوامع)) لابن عثيمين (١/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١٠/ ١١٧).

قال ابن القيِّم: (على التَّقديرَين [أي: كونِ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ فاعلًا أو مفعولًا] فالآيةُ دالَّةٌ على خَلقِ ما في الصُّدورِ كما هي دالَّةٌ على عِلْمِه سُبحانَه به...، فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي: كيف يَخفى عليه ما في الصُّدورِ وهو الَّذي خلَقه، فلو كان ذلك غيرَ مخلوقٍ له لَبَطَلَ الاستِدلالُ به على العِلمِ، فخَلْقُه سُبحانَه للشَّيءِ مِن أعظَمِ الأدِلَّةِ على عِلمِه به، فإذا انتفَى الخَلقُ انتفى دليلُ العِلمِ، فلم يَبْقَ ما يدُلُّ على عِلمِه بما يَنطوي عليه الصَّدرُ إذا كان غيرَ خالِقٍ لذلك، وهذا مِن أعظَمِ =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أنَّ كُلَّ مخلوقٍ للهِ فهو مَعلومٌ له[١].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ له سُبحانه صِفَتا اللُّطفِ والخُبْرِ اللَّتانِ شَأنُهما إدراكُ البواطِنِ إدراكًا لا يكونُ مِثلُه؛ لأنَّ الغَرَضَ إثباتُ العِلمِ لِما أخفَوه؛ لظَنِّهم أنَّهم إذا أسَرُّوا يَخفى، لا إثباتُ مُطلَقِ العِلمِ؛ فإنَّهم لم يُنكِروه[٢]. على القولِ بأنَّ الخطابَ للكفَّارِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أنَّه سُبحانَه عالِمٌ بالجُزئيَّاتِ، وذلك مِن طُرُقٍ؛ أحَدُها: مِن جهةِ كَونِ الخَلْقِ يَستَلزِمُ العِلمَ بالمخلوقِ. والثَّاني: مِن جهةِ كَونِه في نفْسِه «لطيفًا خبيرًا»، وذلك يُوجِبُ عِلْمَه بدقيقِ الأشياءِ وخَفِيِّها. ثُمَّ يُقالُ: ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ عِلْمُه بنَفْسِه أَولى مِن عِلْمِه بغَيرِه، وعِلْمُه بنَفْسِه مُستَلزِمٌ لعِلْمِه بلَوازِمِ ذاتِه[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أنَّه سُبحانَه يَجعَلُ أسماءَه دليلًا على ما يُنكِرُه الجاحِدونَ مِن صِفاتِ كَمالِه[٤].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ

= الكفرِ برَبِّ العالَمينَ، وجَحْدٌ لِما اتَّفقَتْ عليه الرُّسلُ مِن أوَّلِهم إلى آخِرِهم، وعُلِم بالضَّرورةِ أنَّهم ألْقَوْه إلى الأُمَمِ كما ألْقَوْا إليهم أنَّه إلهٌ واحدٌ لا شريكَ له). ((شفاء العليل)) (ص: ٥٦).
لكِنْ قال ابنُ عاشور: (الآيةُ دليلٌ على عُمومِ عِلْمِه تعالى، ولا دَلالةَ فيها على أنَّه تعالى خالِقُ أفعالِ العبادِ؛ للانفِكاكِ الظَّاهرِ بيْن تعَلُّقِ العِلمِ وتعَلُّقِ القُدرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١٠/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٦).

وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ فيه الأمرُ بالتَّسَبُّبِ والكَسبِ[١].

٩- قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أخبَر سُبحانَه أنَّه جعَل الأرضَ ذَلولًا مُنقادةً لِلْوَطْءِ عليها وحَفرِها وشَقِّها والبناءِ عليها، ولم يَجعَلْها مُستصعَبةً مُمتَنِعةً على مَن أراد ذلك منها، والمقصودُ أنَّه سُبحانَه جعَل لنا الأرضَ كالجَمَلِ الذَّلولِ، الَّذي كَيْفَما يُقادُ يَنقادُ، ثمَّ أمَرَهم أن يأكُلوا مِن رِزقِه الَّذي أودعه فيها، فذَلَّلها لهم ووَطَّأها، وفَتَقَ فيها السُّبُلَ والطُّرُقَ الَّتي يَمشون فيها، وأودعها رِزقَهم، فذكَرَ تهيئةَ المَسكَنَ للانتِفاعِ والتَّقلُّبِ فيه بالذَّهابِ والمجيءِ، والأكلِ ممَّا أودع فيها للسَّاكنِ؛ فتضَمَّنَتِ الآيةُ الدَّلالةَ على رُبوبيَّتِه ووحدانيَّتِه وقُدرتِه وحِكمتِه ولُطفِه، والتَّذكيرَ بنِعَمِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ اعتِراضٌ -وذلك على القولِ بأنَّ الخطابَ في قولِه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ ...﴾ للكفَّارِ- يُفيدُ استئنافًا بيانيًّا جاء على سَنَنِ أساليبِ القرآنِ مِن تَعقيبِ الرَّهبةِ بالرَّغبةِ، فلمَّا ذَكَر ما أعدَّ للكافِرين المعرِضينَ عن خَشيةِ اللهِ، أعقَبَه بما أعدَّ للَّذين يَخشَون ربَّهم بالغَيبِ مِن المغفرةِ والثَّوابِ؛ للعِلمِ بأنَّهم يَترقَّبون ما يُميِّزُهم عن أحوالِ المشرِكين[٣].

- وفي قولِه: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ قدَّمَ المغفرةَ تَطمينًا لقُلوبِ الَّذين يَخشَون ربَّهم بالغَيبِ؛ لأنَّهم يَخشَون المؤاخَذةَ على ما فرَطَ منهم مِن الكفْرِ قبْلَ الإسلامِ، ومِن اللَّمَمِ ونحْوِه، ثمَّ أُعقِبَت بالبِشارةِ بالأجْرِ العظيمِ، فكان الكلامُ جاريًا

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩).

على قانونِ تَقديمِ التَّخليةِ على التَّحليةِ، أو تَقديمِ دفْعِ الضُّرِّ على جلْبِ النَّفْعِ[١].

- وتَنكيرُ ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ للتَّعظيمِ؛ بقَرينةِ مُقارَنتِه بـ(أَجْرٌ كَبِيرٌ)، وبقَرينةِ التَّقديمِ[٢].

- وتَقديمُ المسنَدِ ﴿لَهُم﴾ على المسنَدِ إليه ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾؛ لإفادةِ الاهتمامِ، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عطْفٌ على الجُمَلِ السَّابقةِ عطْفَ غرَضٍ على غرَضٍ، وهو انتقالٌ إلى غرَضٍ آخَرَ لمُناسَبةِ حِكايةِ أقوالِهم في الآخرةِ بذِكرِ أقوالِهم في الدُّنيا، وهي الأقوالُ الَّتي كانت تَصدُرُ منهم بالنَّيلِ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤]. وذلك على القولِ بأنَّ الخطابَ للكفَّارِ.

- وصِيغةُ الأمرِ في ﴿وَأَسِرُّواْ﴾ و﴿ٱجْهَرُواْ﴾ مُستعمَلةٌ في التَّسويةِ بيْن السِّرِّ والجَهرِ بالنِّسبةِ إلى عِلمِه تَعالى[٥].

- وتَقديمُ السِّرِّ على الجَهرِ؛ للإيذانِ بافتضاحِهم، ووُقوعِ ما يَحذَرونه مِن أوَّلِ الأمرِ، والمُبالَغةِ في بَيانِ شُمولِ عِلمِه عزَّ وجلَّ المحيطِ لجَميعِ المعلوماتِ، كأنَّ عِلمَه تعالَى بما يُسِرُّونه أقدَرُ منهُ بما يَجهَرونَ به، مع كَونِهما في الحقيقةِ على السَّويَّةِ؛ فإنَّ عِلمَه تعالَى بمَعلوماتِه ليس بطريقِ حُصولِ صُوَرِها، بلْ وُجودُ كلِّ شَيءٍ في نفْسِه عِلْمٌ بالنِّسبةِ إليه تعالَى. أو لأنَّ مَرتبةَ السِّرِّ مُتقدِّمةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٩، ٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠).

على مَرتبةِ الجَهرِ؛ إذْ ما مِن شَيءٍ يُجهَرُ به إلَّا وهو أو مَباديهِ مُضْمَرٌ في القلبِ يَتعلَّقُ بهِ الإسرارُ غالبًا، فتَعلُّقُ عِلمِه تعالَى بحالَتِه الأُولى مُتقدِّمٌ على تَعلُّقِهِ بحالتِه الثَّانيةِ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تَعليلٌ لِما قبْلَه، وتَقريرٌ لهُ. وفي صِيغةِ الفَعيلِ، وتَحليةِ الصُّدورِ بلامِ الاستِغراقِ، ووصْفِ الضَّمائرِ بصاحِبيَّتِها؛ مِن الجَزالةِ ما لا غايةَ وَراءَه، كأنَّه قيلَ: إنَّه عزَّ وجلَّ مُبالِغٌ في الإحاطةِ بمُضْمَراتِ جَميعِ النَّاسِ وأسرارِهم الخفيَّةِ المُستكِنَّةِ في صُدورِهم، بحيثُ لا تَكادُ تُفارِقُها أصلًا، فكيفَ يَخْفَى عليه ما تُسِرُّونَه وتَجْهرونَ به(٢)؟!

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]؛ بأنْ يَسأَلَ سائلٌ منهم: كيف يَعلَمُ ذاتَ الصُّدورِ، والمعروفُ أنَّ ما في نفْسِ المرءِ لا يَعلَمُه غيرُ نفْسِه؟ فأُجِيبوا بإنكارِ انتفاءِ عِلمِه تعالَى بما في الصُّدورِ؛ فإنَّه خالِقُ أصحابِ تلك الصُّدورِ، فكما خَلَقَهم وخلَقَ نُفوسَهم، جعَلَ اتِّصالًا لتَعلُّقِ عِلمِه بما يَختلِجُ فيها، وليس ذلك بأعجَبَ مِن عِلمِ أصحابِ الصُّدورِ بما يَدورُ في خَلَدِها؛ فالإتيانُ بـ(مَن) الموصولةِ لإفادةِ التَّعليلِ بالصِّلةِ(٣).

- يَجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ مَفعولَ ﴿يَعْلَمُ﴾، فيكونَ ﴿يَعْلَمُ﴾ و﴿خَلَقَ﴾ رافعَينِ ضَميرينِ عائدينِ إلى ما عاد إليه ضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠).

فيكونَ (مَن) الموصولةُ صادقةً على المخلوقينَ، وحُذِفَ العائدُ مِن الصِّلةِ؛ لأنَّه ضَميرُ نصْبٍ يَكثُرُ حذْفُه، والتَّقديرُ: مَن خَلَقَهم. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ فاعلَ ﴿يَعْلَمُ﴾، والمرادُ اللهُ تَعالى، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَعْلَمُ﴾؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾، والتَّقديرُ: ألَا يَعلَمُ خالِقُكم سِرَّكم وجَهْرَكم، وهو الموصوفُ بلطيفٍ خبيرٍ[1]؟!

- وتَخصيصُ ذِكرِ الخالِقِ دونَ سائرِ الأسماءِ في مَقامِ إثباتِ العِلمِ، إشعارٌ بأنَّ الخالقَ يَنْبغي أنْ يكونَ عالِمًا بما يَخلُقُه وبتَفاصيلِه. وفيه إدماجٌ لمعْنى أنَّ العبْدَ غيرُ خالقٍ لأفعالِه؛ لأنَّه لا يَعلَمُها في الأزَلِ[2].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الأحسَنُ أنْ تُجعَلَ عطْفًا على جُملةِ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؛ لتُفيدَ تَعليمًا للنَّاسِ بأنَّ عِلمَ اللهِ تعالى مُحيطٌ بذَواتِ الكائناتِ وأحوالِها؛ فبَعْدَ أنْ أنكرَ ظنَّهم انتفاءَ عِلمِ اللهِ بما يُسِرُّون، أعلَمَهم أنَّه يَعلَمُ ما هو أعمُّ مِن ذلك، وما هو أخْفَى مِن الإسرارِ مِن الأحوالِ[3].

- أو هي حالٌ مِن فاعلِ ﴿يَعْلَمُ﴾ مُؤكِّدةٌ للإنكارِ والنَّفي، أي: ألَا يَعلَمُ ذلكَ والحالُ أنَّه المُتوصِّلُ عِلمُه إلى ما ظهَرَ مِن خلْقِه وما بطَنَ؟! أو المعنَى: ألَا يَعلَمُ اللهُ مَنْ خلَقَه؛ والحالُ أنَّه بهذه المثابةِ مِن شُمولِ العلمِ، على القولِ بأنَّ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ مَنصوبًا، وقيل: هي حالٌ مِن فاعلِ ﴿خَلَقَ﴾[4]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠، ٣١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٥٠، ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٩، ٥٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٠)، ((حاشية الطيبي)) (١٥/ ٥٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٥).

٤- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ استئنافٌ فيه عَودٌ إلى الاستِدلالِ، وإدماجٌ[1] للامتنانِ؛ فإنَّ خلْقَ الأرضِ الَّتي تَحْوي النَّاسَ على وَجْهِها أدلُّ على قُدرةِ اللهِ تعالَى وعِلمِه مِن خلْقِ الإنسانِ؛ إذ ما الإنسانُ إلَّا جُزءٌ مِن الأرضِ، أو كجُزْءٍ منها، قال تعالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [طه: ٥٥]، وامتنَّ عليهم بأنَّه خَلَقَ الأرضَ هيِّنةً لهم، صالحةً للسَّيرِ فيها، مُخرِجةً لأرزاقِهم، وذيَّلَ ذلك بأنَّ النُّشورَ منها، وأنَّ النُّشورَ إليه لا إلى غيرِه[2].

- والقصْرُ المستفادُ مِن تَعريفِ جُزأي ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ قصْرُ قلْبٍ[3] بتَنزيلِ المخاطَبين مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ الأصنامَ خَلَقَت الأرضَ؛ لأنَّ اعتقادَهم إلهيَّتَها يَقْتضي إلزامَهم بهذا الظَّنِّ الفاسدِ وإنْ لم يَقولوه[4].

- وتَقديمُ ﴿لَكُمُ﴾ على مَفعُولَي الجَعْلِ مع أنَّ حقَّه التَّأخُّرُ عنهُما؛ للاهتمامِ بما قُدِّمَ، والتَّشويقِ إلى ما أُخِّرَ؛ فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّرَ -لا سيَّما عندَ كَونِ المقدَّمِ ممَّا يدُلُّ على كَونِ المؤخَّرِ مِن مَنافعِ المخاطَبينَ- تَبقَى النَّفْسُ مُترقِّبةً لِوُرودِه، فيَتمكَّنُ لَدَيها عِندَ ذِكرِه فضْلَ تَمكُّنٍ[5].

- والذَّلولُ فَعولٌ للمُبالَغةِ، مِن ذلك تقولُ: دابَّةٌ ذَلولٌ: بيِّنةُ الذِّلِّ، ورجُلٌ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧).

ذَليلٌ: بيِّنُ الذُّلِّ[١].

- قولُه: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ الفاءُ الفصيحةُ لتَرتيبِ الأمْرِ على الجَعْلِ المذكورِ، أي: إنْ عرَفْتُم ذلك فامْشُوا في...[٢].

- قولُه: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أمرُ إباحةٍ. وقيل: هو خبرٌ بلَفظِ الأمرِ[٣]. وقيل: صِيغةُ الأمرِ ﴿فَٱمۡشُواْ﴾ مُستعمَلةٌ في معْنى الإدامةِ؛ تَذكيرًا بما سخَّرَ اللهُ لهم مِن المشْيِ في الأرضِ امتنانًا بذلك[٤].

- ومُناسَبةُ قولِه: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ أنَّ الرِّزقَ مِن الأرضِ، والأمْرُ قيل: هو مُستعمَلٌ في الإدامةِ أيضًا؛ للامتنانِ[٥].

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ تَذكيرٌ بشَواهدِ الرُّبوبيَّةِ والإنعامِ؛ ليَتدبَّروا فيَترُكوا العِنادَ[٦].

- وعطْفُ جُملةِ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ على ما قبْلَها تَتميمٌ[٧] واستِطرادٌ لمُناسَبةِ ذِكرِ الأرضِ؛ فإنَّها مَثوى النَّاسِ بعْدَ الموتِ، والمعْنى: إليه النُّشورُ منها، وذلك يَقْتضي حذْفًا، أي: وفيها تَعودون[٨]. أو مُناسَبةُ ذِكرِ النُّشورِ هو ذِكرُ خلْقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٨).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢).

الأرضِ؛ فإنَّ البعثَ يكونُ مِن الأرضِ[١].

- وتَعريفُ النُّشورِ تَعريفُ الجِنسِ؛ فيَعُمُّ، أي: كلُّ نُشورٍ، ومنه نُشورُ المخاطَبينَ، فكان قولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ بمَنزلةِ التَّذييلِ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: المرجِعُ بعدَ البعثِ لا إلى غيرِه، فبالِغُوا في شُكرِ نِعَمِه وآلائِه[٣]. وقيل: تَقديمُ المجرورِ في جُملةِ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ للاهتمامِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢).

الآيات (١٦-١٩)

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾: أي: يُغَيِّبَكم فيها، يُقالُ: خسَفَ اللهُ به الأرضَ، أي: غيَّبَه فيها، وأصلُ (خسف): يدُلُّ على ذَهابٍ وغُؤورٍ[١].

﴿تَمُورُ﴾: أي: تَدورُ وتتحَرَّكُ وتَضطَرِبُ، وأصلُ (مور): يدُلُّ على تَرَدُّدٍ[٢].

﴿حَاصِبٗا﴾: أي: حِجارةً أو ريحًا عاصِفًا تَرمي بالحَصْباءِ، وهي الحَصَى الصِّغارُ، وأصلُ (حصب): يدُلُّ على الرَّميِ[٣].

﴿نَكِيرِ﴾: أي: إنكاري، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ[٤].

﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾: أي: باسِطاتٍ أجنِحتَها، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استِواءٍ في

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

شَيءٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مهدِّدًا مَن استمرَّ في طغيانِه وكفرِه، ومحذِّرًا مِن عِقابِه: أأَمِنتُم -أيُّها الكافِرونَ- اللهَ الَّذي في العُلُوِّ فوقَ سَمواتِه؛ أن يَخسِفَ بكم الأرضَ عُقوبةً لكم على كُفرِكم به، فإذا بها تَضطَرِبُ بكم، أمْ أَمِنتُم اللهَ الَّذي في العُلُوِّ فوقَ السَّماءِ؛ أن يُرسِلَ عليكم حِجارةً يَرميكم بها؟! فستَعلَمونَ حينَها كيف يكونُ إنذاري وعاقِبةُ مَن كذَّبَ به!

ثمَّ يُذكِّرُهم سبحانَه بما جرَى للكافِرينَ السَّابقينَ، فيقولُ: ولقد كذَّب الكُفَّارُ الَّذين مِن قَبلِكم -يا مُشرِكي قُرَيشٍ- رُسُلَهم، فكيف كان إنكاري عليهم!

ثمَّ يَدْعوهم الله تعالى إلى التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ بعدَ هذا التَّهديدِ والإنذارِ، فيقولُ: أوَلَم يَرَ هؤلاء المُشرِكون المكَذِّبونَ إلى الطَّيرِ فوقَهم ناشِراتٍ أجنِحتَهنَّ، ويَجمَعْنَها أحيانًا، ما يُمسِكُ تلك الطُّيورَ عن السُّقوطِ مِنَ السَّماءِ إلَّا الرَّحمنُ سُبحانَه؛ إنَّه بكُلِّ شَيءٍ بَصيرٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بيَّن أنَّ بقاءَ الخَلْقِ مع هذه السَّلامةِ في الأرضِ إنَّما كان بفَضْلِه ورَحمتِه، وأنَّه لو شاء لقَلَب الأمرَ عليهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩١).

وأيضًا لَمَّا لم يكُنْ بعدَ ما ذكَر الله تعالى إلَّا الإنذارُ؛ هدَّد اللهُ تعالى المكَذِّبينَ بعذابٍ دونَ عذابِ جَهنَّمَ، مُنكِرًا عليهم الأمانَ بعدَ إقامةِ الدَّليلِ على أنَّ بيَدِه المُلْكَ، وأنَّه قادِرٌ على ما يُريدُ منه بأسبابِ جُنودِه وبغيرِ سَبَبٍ، مقَرِّرًا بَعْدَ تقريرِ حاجةِ الإنسانِ وعَجْزِه أنَّه لا حِصْنَ له ولا مانِعَ له بوَجهٍ مِن عذابِ اللهِ؛ فهو دائِمُ الافتقارِ، ملازِمٌ للصَّغارِ[1]. فهو انتقالٌ مِن الاستدلالِ إلى التَّخويفِ؛ لأنَّه لَمَّا تَقرَّرَ أنَّه سُبحانَه خالقُ الأرضِ ومُذلِّلُها للنَّاسِ، وتَقرَّر أنَّهم ما رَعَوا خالِقَها حقَّ رِعايتِه؛ فقدِ استَحقُّوا غَضَبَه وتَسليطَ عِقابِه، بأنْ يَصيرَ مَشْيُهم في مَناكِبِ الأرضِ إلى تَجلجُلٍ في طَبَقاتِ الأرضِ[2].

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾.

أي: أأَمِنتُم -أيُّها الكافِرونَ- اللهَ الَّذي هو في العُلُوِّ مُستَوٍ على عَرشِه فوقَ سَمواتِه؛ أن يَخسِفَ بكم الأرضَ عُقوبةً لكم على كُفرِكم به، فإذا بها تَضطَرِبُ بكم ذَهابًا وإيابًا[3]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ [الأنعام: ٦٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٧٦٠٠)، ((الأسماء والصفات)) للبيهقي (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير القِنَّوْجي)) (١٤/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

قال ابنُ قُدامةَ: (اللهُ تعالى وَصَف نَفْسَه بالعلُوِّ في السَّماءِ، ووصَفَه بذلك محمَّدٌ خاتَمُ الأنبياءِ، وأجمَعَ على ذلك جميعُ العُلَماءِ مِن الصَّحابةِ الأتقياءِ، والأئمَّةِ مِن الفُقَهاءِ، وتواتَرَت الأخبارُ بذلك على وَجهٍ حَصَل به اليقينُ، وجمَعَ اللهُ تعالى عليه قلوبَ المسلمينَ، وجعَلَه مغروزًا في طِباعِ الخَلقِ أجمَعينَ). ((إثبات صفة العلو)) (ص: ٦٣).

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النحل: ٤٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٨].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ألَا تَأْمَنوني وأنا أمينُ مَن في السَّماءِ؟!))[1].

وعن مُعاويةَ بنِ الحَكَمِ السُّلَميِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه لطَم جارِيةً له، وأتَى بها النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُريدُ عِتقَها، فسألَها النبيُّ: ((أينَ اللهُ؟ قالت: في السَّماءِ. قال: مَن أنا؟ قالت: أنت رَسولُ اللهِ. قال: أَعْتِقْها؛ فإنَّها مُؤمِنةٌ))[2].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((الرَّاحِمونَ يَرحَمُهمُ الرَّحمنُ، ارحَموا مَن في الأرضِ يَرحَمْكم مَن في السَّماءِ))[3].

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾.

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾.

أي: أمْ أَمِنتُم اللهَ الَّذي هو في العُلُوِّ فوقَ السَّماءِ؛ أن يُرسِلَ عليكم حِجارةً

---

(١) رواه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢) رواه مسلم (٥٣٧).

(٣) أخرجه أبو داودَ (٤٩٤١) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (١٩٢٤)، وأحمدُ (٦٤٩٤) مُطوَّلًا.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١٢٧)، والعراقيُّ في ((الأربعون العشارية)) (١٢٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٩٤١)، وحَسَّنه ابنُ حجر في ((الإمتاع)) (١/ ٦٢)، وقال السخاوي في ((البلدانيات)) (٤٧): (حسَنٌ، بل صحَّحه غيرُ واحدٍ).

يَرميكم بها[١]؟!

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

أي: فستَعلَمونَ حينَ يَحُلُّ العذابُ كيف يكونُ إنذاري، وعاقِبةُ مَن كذَّبَ به[٢]!

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: ولقد كذَّب الكُفَّارُ الَّذين مِن قَبلِ مُشركي قُرَيشٍ رُسُلَهم؛ كقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ، وقَومِ لُوطٍ، وقَومِ شُعَيبٍ، وقَومِ فِرعَونَ، وغَيرِهم مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٤)، ((الأسماء والصفات)) للبيهقي (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

قيل: الحاصِبُ: حِجارةٌ مِنَ السَّماءِ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧).

وقيل: الحاصِبُ هو التُّرابُ فيه الحَصباءُ الصِّغارُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، ومكِّي، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩، ١٣٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٢).

وقيل: المرادُ: ريحٌ ذاتُ حجارةٍ. وممن اختاره: الثعلبيُّ، والسمعاني، والبغوي، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

أهلكَها اللهُ بعَذابِه في الدُّنيا[١].

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

أي: فكيف كان إنكاري عليهم تَكذيبَهم حينَ عَذَّبْتُهم[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٤].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٢ - ١٤].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه انتُقِلَ مِن دَلالةِ أحوالِ البشَرِ وعالَمِهم إلى دَلالةِ أعجَبِ أحوالِ العَجْماواتِ، وهي أحوالُ الطَّيرِ في نِظامِ حَرَكاتِها في حالِ طَيَرانِها؛ إذ لا تَمْشي على الأرضِ كما هو في حَرَكاتِ غَيرِها على الأرضِ، فحالُها أقوى دَلالةً على عَجيبِ صُنْعِ اللهِ المنفرِدِ به[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧).

وأيضًا لَمَّا حذَّرَهم ما يُمكِنُ إحلالُه بهم مِن الخَسْفِ وإرسالِ الحاصِبِ؛ نبَّهَهم على الاعتبارِ بالطَّيرِ وما أُحكِمَ مِن خَلْقِها، وعلى عَجْزِ آلهتِهم عن شَيءٍ مِن ذلك، وناسَبَ ذلك الاعتبارُ بالطَّيرِ؛ إذ قدْ تَقدَّمَه ذِكرُ الحاصِبِ، وقد أهلَكَ اللهُ أصحابَ الفيلِ بالطَّيرِ والحاصِبِ الَّذي رمَتْهم به، ففيهِ إذكارُ قُرَيشٍ بهذه القصَّةِ، وأنَّه تعالَى لو شاءَ لأَهْلَكَهم بحاصِبٍ تَرْمي به الطَّيرُ، كما فَعَلَ بأصحابِ الفيلِ[1].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾.

أي: أوَلَم يَرَ هؤلاء المُشرِكون المكَذِّبونَ إلى الطَّيرِ وهي تطيرُ فَوقَهم في الجَوِّ ناشِراتٍ أجنِحتَهنَّ غالِبًا، ويَجمَعْنها أحيانًا حينَ يُدنينَها مِن جُنوبِهنَّ؛ للازديادِ مِن تَحريكِ الهواءِ للاستِمرارِ في الطَّيرانِ[2]؟

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩].

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

أي: ما يُمسِكُ تلك الطُّيورَ عن السُّقوطِ مِنَ السَّماءِ إلَّا الرَّحمنُ سُبحانَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩).

قال القرطبي: (﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي: باسِطاتٍ أجنِحَتَهُنَّ في الجوِّ عندَ طَيَرانِها؛ لأنَّهنَّ إذا بَسَطْنَها صَفَفْنَ قَوادِمَها صفًّا. و﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: يَضرِبْنَ بها جُنوبَهُنَّ... وقيل: ويَقبِضْنَ أجنِحَتَهُنَّ بعْدَ بَسْطِها إذا وَقَفْنَ مِن الطَّيَرانِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧).

وقال أيضًا: (كما ذَلَّل الأرضَ للآدميِّ، ذلَّل الهواءَ للطُّيورِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير =

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بكُلِّ شَيءٍ مِن مخلوقاتِه بَصيرٌ، وكُلُّها تحتَ تَدبيرِه بما تَقتَضيه حِكمتُه(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا عَلِم بأنَّ اللهَ تعالى فوقَ كلِّ شيءٍ، فإنَّه يَعْرِفُ مِقدارَ سُلطانِه، وسيطرتِه على خَلْقِه، وحينَئذٍ يَخافُه ويُعَظِّمُه، وإذا خاف الإنسانُ ربَّه وعَظَّمَه فإنَّه يتَّقيه، ويقومُ بالواجِبِ، ويَدَعُ المُحَرَّمَ(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ هذا عِتابٌ وحَثٌّ على النَّظَرِ إلى حالةِ الطَّيرِ الَّتي سَخَّرَها اللهُ، وسَخَّر لها الجَوَّ والهواءَ، تَصُفُّ فيه أجنِحتَها، وتَقبِضُها، فتظَلُّ سابِحةً في الجَوِّ، مُترَدِّدةً فيه بحَسَبِ إرادتِها وحاجتِها؛ فمَن نَظَر في حالةِ الطَّيرِ واعتبَرَ فيها، دلَّتْه على قُدرةِ

= القرطبي)) (١٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

قال السعدي: (﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فإنَّه الَّذي سخَّر لهنَّ الجَوَّ، وجعَلَ أجسادَهنَّ وخِلقتَهنَّ في حالةٍ مُستعِدَّةٍ للطَّيرانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

وقال ابنُ عاشور: (معنى إمساكِ اللهِ إيَّاها: حِفظُها مِن السُّقوطِ على الأرضِ بما أودع في خِلقَتِها مِن الخصائصِ في خِفَّةِ عِظامِها، وقوَّةِ حركةِ الجَوانحِ، وما جعل لهنَّ مِن القَوادِمِ، وهي ريشاتٌ عَشْرٌ هي مَقاديمُ ريشِ الجَناحِ، ومِن الخَوافي، وهي ما دُونَها مِن الجَناحِ إلى منتهى ريشِه، وما خلَقَه مِن شكلِ أجسادِها المُعينِ على نُفوذِها في الهواءِ؛ فإنَّ ذلك كلَّه بخَلقِ اللهِ إيَّاها مانعًا لها مِن السُّقوطِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩، ٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٤٠).

الباري، وعنايتِه الرَّبَّانيَّةِ، وأنَّه الواحِدُ الأحَدُ الَّذي لا تَنبغي العِبادةُ إلَّا له[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ دَلالةٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى بذاتِه فوقَ خَلْقِه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ كَنَّى سُبحانَه عن نفْسِه بهذا؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ إظهارِ عَظَمتِه، وأنَّه فَوقَكم، قادِرٌ عليكم، مُسيطِرٌ عليكم، مُهيمِنٌ عليكم؛ لأنَّ العاليَ له سُلطةٌ على مَن تحْتَه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ سؤالٌ: أنَّ «في» للظَّرفيَّةِ، فإذا كان اللهُ تعالى في السَّماءِ، و«في» للظَّرفيَّةِ؛ فإنَّ الظَّرفَ مُحيطٌ بالمَظروفِ! أرأَيْتَ لو قُلتَ: «الماءُ في الكأسِ»، فالكأسُ مُحيطٌ بالماءِ، وأوسَعُ مِن الماءِ، فإذا كان اللهُ يقولُ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فهذا ظاهرُه أنَّ السَّماءَ محيطةٌ باللهِ تعالى. وهذا الظَّاهِرُ باطِلٌ، وإذا كان الظَّاهِرُ باطِلًا فإنَّنا نَعلَمُ عِلمَ اليقينِ أنَّه غيرُ مرادٍ للهِ؛ لأنَّه لا يمكنُ أنْ يكونَ ظاهِرُ الكِتابِ والسُّنَّةِ باطِلًا.

الجوابُ: أنْ نَسْلُكَ أحدَ طريقَينِ: فإمَّا أنْ نَجعَلَ السَّماءَ بمعنى العُلُوِّ، والسَّماءُ بمعنى العُلُوِّ: واردٌ في اللُّغةِ، بل في القُرآنِ؛ قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، والمرادُ بالسَّماءِ العُلُوُّ؛ لأنَّ الماءَ يَنزِلُ مِن السَّحابِ لا مِن السَّماءِ الَّتي هي السَّقفُ المحفوظُ، والسَّحابُ في العُلُوِّ بيْن السَّماءِ والأرضِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٩٦).

فيكونَ معنى: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مَن في العُلُوِّ، ولا يُوجَدُ إشكالٌ بعْدَ هذا، فهو في العُلُوِّ، ليس يُحاذيه شَيءٌ، ولا يكونُ فَوقَه سُبحانَه شَيءٌ!

الطَّريقُ الثَّاني: أنْ نَجعَلَ «في» بمعنى «على»، ونَجعَلَ السَّماءَ هي السَّقفَ المحفوظَ المرفوعَ، يعني: الأجرامَ السَّماويَّةَ، وتأتي «في» بمعنى «على» في اللُّغةِ العربيَّةِ، بل في القُرآنِ الكريمِ؛ قال فِرعَونُ لقَومِه السَّحَرةِ الَّذين آمَنوا: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، أي: على جُذوعِ النَّخلِ، فيكونَ معنى ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مَن على السَّماءِ، ولا إشكالَ بعْدَ هذا(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ سُؤالٌ: كيف الجَمعُ بيْن هذه الآيةِ وبيْن قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقَولِه: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]؟

الجوابُ: أمَّا الآيةُ الأُولى فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ فالظَّرفُ هنا لألوهيَّتِه، يعني: أنَّ ألوهيَّتَه ثابتةٌ في السَّماءِ وفي الأرضِ، كما تقولُ: فلانٌ أميرٌ في المدينةِ ومكَّةَ، فهو نفْسُه في واحِدةٍ منهما، وفيهما

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٣٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (مَن توهَّم أنَّ مُقتضى هذه الآيةِ أن يكونَ اللهُ في داخِلِ السَّمَواتِ، فهو جاهِلٌ ضالٌّ بالاتِّفاقِ، وإن كنَّا إذا قُلْنا: إنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ في السَّماءِ يَقتضي ذلك؛ فإنَّ حرف «في» متعلِّقٌ بما قبْلَه وما بعْدَه، فهو بحَسَبِ المضافِ والمضافِ إليه؛ ولهذا يُفرَّقُ بيْن كَونِ الشَّيءِ في المكانِ، وكَونِ الجِسمِ في الحَيِّزِ، وكونِ العَرَضِ في الجِسمِ، وكونِ الوَجهِ في المرآةِ، وكونِ الكلامِ في الورَقِ، فإنَّ لكُلِّ نَوعٍ مِن هذه الأنواعِ خاصِّيَّةً يتميَّزُ بها عن غيرِه، وإن كان حرفُ «في» مُستعمَلًا في ذلك كُلِّه؛ فلو قال قائِلٌ: العَرشُ في السَّماءِ أم في الأرضِ؟ لقيل: في السَّماءِ. ولو قيل: الجنَّةُ في السَّماءِ أم في الأرضِ؟ لقيل: الجنَّةُ في السَّماءِ، ولا يلزَمُ مِن ذلك أن يكونَ العَرشُ داخِلَ السَّمَواتِ، بل ولا الجنَّةُ). ((التدمرية)) (ص: ٨٥، ٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦، ٤٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨-٣٢).

جميعًا بإمارتِه وسُلطتِه؛ فاللهُ تعالى ألوهيَّتُه في السَّماءِ وفي الأرضِ، وأمَّا هو عزَّ وجلَّ ففي السَّماءِ.

أمَّا الآيةُ الثَّانيةُ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ فنَقولُ فيها كما قُلْنا في الَّتي قَبْلَها: وهو اللهُ، أي: وهو الإلهُ الَّذي ألوهيَّتُه في السَّمَواتِ وفي الأرضِ، أمَّا هو نفْسُه ففي السَّماءِ، فيكونُ المعنى: هو المألوهُ في السَّمَواتِ، المألوهُ في الأرضِ، فألوهيَّتُه في السَّمَواتِ وفي الأرضِ، فتُخَرَّجُ هذه الآيةُ كتَخريجِ الَّتي قَبْلَها[١]، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فقد ذَكَر سُبحانَه السَّماءَ دونَ الأرضِ، ولم يُعَلِّقْ بذلك ألوهيَّةً أو غيرَها كما ذَكَرَ في الآيتينِ السَّابقَتَينِ[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فيه سُؤالٌ: هل تدُلُّ هذه الآيةُ على أنَّ الأفعالَ الاختياريَّةَ للعَبدِ مخلوقةٌ للهِ؟

الجوابُ: نعم؛ وذلك لأنَّ استِمساكَ الطَّيرِ في الهواءِ فِعلٌ اختياريٌّ للطَّيرِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ حُجَّةٌ على المعتَزِلةِ في بابِ الاستِطاعةِ؛ إذ قد أخبَرَ بإمساكِهنَّ عن نَفْسِه، ولم يَقُلْ: «يَسْتَمْسِكْنَ بالَّذي جَعَلَه في استِطاعَتِهنَّ مِن سُلطانِ الطَّيرانِ بالأجنحةِ والقَبضِ والبَسْطِ بهنَّ»، كما جَعَل للنَّاس سُلطانَ الحرَكاتِ والأعمالِ بالجَوارحِ الَّتي في أدواتِ الأفعالِ، وهم لا يَستطيعونَها إلَّا به سُبحانَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ الجُملةُ مُعترِضةٌ، والاستفهامُ إنكارٌ وتَوبيخٌ وتَحذيرٌ[١].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِكُمُ﴾ للمُصاحَبةِ، أي: يَخسِفَ الأرضَ مُصاحِبةً لذَواتِكم[٢].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ فُرِّعَ على الخسْفِ المُتوقَّعِ المهدَّدِ به أنْ تَمورَ الأرضُ تَفريعَ الأثرِ على المؤثِّرِ؛ لأنَّ الخسْفَ يُحدِثُ المَورَ، فإذا خُسِفَت الأرضُ فاجَأَها المَورُ لا مَحالةَ، لكنَّ نظْمَ الكلامِ جَرى على ما يُناسِبُ جَعْلَ التَّهديدِ بمَنزلةِ حادثٍ وقَعَ؛ فلذلك جِيءَ بعْدَه بالحرفِ الدَّالِّ على المفاجأةِ؛ لأنَّ حقَّ المفاجأةِ أنْ تكونَ حاصِلةً زمَنَ الحالِ لا الاستقبالِ، فإذا أُريدَ تَحقيقُ حُصولِ الفِعلِ المستقبَلِ نُزِّلَ مَنزلةَ الواقعِ في الحالِ، فكان قولُه: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ مُؤذِنًا بتَشبيهِ حالةِ الخسْفِ المتوقَّعِ المهدَّدِ به بحالةِ خسْفٍ حصَلَ بجامعِ التَّحقُّقِ، وحُذِفَ المركَّبُ الدَّالُّ على الحالةِ المشبَّهِ بها، ورُمِزَ إليه بما هو مِن آثارِه ويَتفرَّعُ عنه[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾

- (أم) لإضرابِ الانتِقالِ مِن غرَضٍ إلى غرَضٍ، وهو انتِقالٌ مِن الاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّعجيبيِّ إلى آخَرَ مِثلِه، باعتبارِ اختلافِ الأثَرَين الصَّادِرَين عن مَفعولِ الفعلِ المُستفهَمِ عنه اختلافًا يُوجِبُ تَفاوُتًا بيْن كُنْهَي الفِعلَين، وإنْ كانَا مُتَّحِدَين في الغايةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٤، ٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٥).

- وهو إضرابٌ عن التَّهديدِ بما ذُكِرَ، وانتقالٌ إلى التَّهديدِ بوجْهٍ آخرَ[١].

- وتَفريعُ جُملةِ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ على الاستفهامِ الإنكاريِّ كتَفريعِ جُملةِ ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]، أي: فحِينَ يُخسَفُ بكم أو يُرسَلُ عليكم حاصِبٌ تَعلَمون كيف نَذِيري، وحرْفُ التَّنفيسِ حقُّه الدُّخولُ على الأخبارِ الَّتي ستَقَعُ في المستقبَلِ، وإرسالُ الحاصِبِ غيرُ مُخبَرٍ بحُصولِه، وإلَّا لَما تَخلَّفَ؛ لأنَّ خبَرَ اللهِ لا يَتخلَّفُ، وإنَّما هو تَهديدٌ وتَحذيرٌ؛ فإنَّهم ربَّما آمَنوا وأقْلَعوا فسَلِموا مِن إرسالِ الحاصبِ عليهم، ولكنْ لَمَّا أُريدَ تَحقيقُ هذا التَّهديدِ، شُبِّهَ بالأمْرِ الَّذي وَقَعَ، فكان تَفريعُ صِيغةِ الإخبارِ على هذا مُؤذِنًا بتَشبيهِ المهدَّدِ به بالأمْرِ الواقعِ، و﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ استفهامٌ مُعلِّقٌ فِعلَ (تَعلَمون) عن العملِ، وهو استفهامٌ للتَّهديدِ والتَّهويلِ، والجُملةُ مُستأنَفةٌ[٢].

- قولُه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦] ليس بتَكرارٍ مع قولِه تعالَى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ في تَخويفِهم بخسْفِ الأرضِ بهم، والثَّانيَ في تَخويفِهم بالحصْبِ مِن السَّماءِ. وقُدِّمَ الأوَّلُ؛ لأنَّه لَمَّا كانت الأرضُ الَّتي خَلَقَها اللهُ تعالَى لهم ومهَّدَها لاستِقرارِهم، يَعبُدون عليها غيرَ خالقِها، ويُعظِّمون فيها الأصنامَ الَّتي هي مِن شَجَرِها وحَجَرِها -خوَّفهم بما هو أقرَبُ إليهم مِن الأشياءِ الَّتي أهلَكَ بها مَن كان قبْلَهم. والآيةُ الثَّانيةُ تَخويفٌ بالحاصِبِ مِن السَّماءِ، وهي الَّتي لا يَصعَدُ إليها الطَّيِّبُ مِن كَلامِهم، ولا الحسَنُ مِن عَمَلِهم، إلَّا سيِّئاتِ أفعالِهم، ونَتائجَ ما كُتِبَ عليهم، وتلك حالٌ ثانيةٌ، فذُكِرَ في الثَّانيةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٨٨، ١٢٨٩)، ((حاشية الطيبي على =

أو قُدِّمَ التَّهديدُ بالخسْفِ على التَّهديدِ بالحاصبِ؛ لأنَّ الخسْفَ مِن أحوالِ الأرضِ، والكلامُ على أحوالِها أقرَبُ هنا، فسُلِكَ شِبْهُ طَريقِ النَّشرِ المعكوسِ[(١)]، ولأنَّ إرسالَ الحاصبِ عليهم جَزاءٌ على كُفْرِهم بنِعمةِ اللهِ، الَّتي منها رِزْقُهم في الأرضِ المشارُ إليه بقولِه: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]؛ فإنَّ مَنشأَ الأرزاقِ الأرضيَّةِ مِن غُيوثِ السَّماءِ[(٢)].

= الكشاف)) (١٥/ ٥٥٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٦).

(١) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو أن يُذكَرَ شَيئانِ أو أشياءُ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكَرَ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضَ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلِّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كقولِه تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارةِ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفْقَ توزيعٍ مُرتَّبٍ؛ فقولُه: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيلِ، وقولُه: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهارِ.

وغيرُ المرتَّبِ -وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوسِ»- هو: أن يأتيَ النَّشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفصَّلٌ، وجاء بعدَها نَشْرٌ غيرُ مُرتَّبٍ؛ فجُملةُ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى، ومتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ، ومُتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ، ومتعلِّقةٌ بها.

يُنظر في تفصيلِ أقسامِه وأمثلةٍ على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣ - ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦).

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّه لَمَّا تَقدَّمَ ما اتَّصلَ به التَّوعُّدُ مِن قولِه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، فحضَرَ في النُّفوسِ عندَ ذلك، وتَقرَّرَ تَذكرةُ هذه النِّعمةِ، وجَليلُ الامتِنانِ بها، شاهدًا حاضرًا للمُتذكِّرِ، وعليها قَرارُه حالَ تَذكُّرِه وتَنعُّمِه بالتَّقلُّبِ فيها حِين خِطابِه، متَّصلًا غيرَ مُنفصِلٍ، ومُلتصِقًا غيرَ مُتباعِدٍ -كان أنسَبُ شَيءٍ لهذه في الموعظةِ تَذكيرَه؛ اتِّعاظًا بخَسْفِها مِن تَحتِه، حتَّى كأنَّ ذلك الأمرَ جاء منه، لا مِن خارجٍ عنه[1].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا قولُه تعالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾، ووَرَدَ في سُورةِ (الأنعام): ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]؛ وذلك لأنَّ آيةَ (الأنعام) تَقدَّمَها قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، فصَرَف هذا الخِطابُ تَفكُّرَ النَّفْسِ في عَينِ الجِهةِ الَّتي ذُكِرَ منها القهْرُ، فكان أنسَبُ شَيءٍ ذِكرَ التَّخويفِ مِن تلك الجِهةِ، بخِلافِ آيةِ (الملْكِ)، فكلُّ آيةٍ مِن هاتَينِ الآيتَينِ تُبيِّنُ حالَ الأُخرى، وإنَّ التَّناسُبَ إنَّما هو فيما وَرَدَت عليه كلُّ آيةٍ منهما[2].

- وحُذِفَت ياءُ المتكلِّمِ مِن (نَذيري)؛ تَخفيفًا، وللرَّعْيِ على الفاصِلةِ[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فيهِ مِن المبالَغةِ في

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦).

تَسليةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَشديدِ التَّهديدِ لقَومِه ما لا يَخْفَى[١].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: مِن قبْلِ كفَّارِ مكَّةَ مِن كفَّارِ الأُمَمِ السَّالفةِ، كقومِ نوحٍ وعادٍ وأضرابِهم، والالتفاتُ إلى الغَيبةِ لإبرازِ الإعراضِ عنهم[٢].

- بعْدَ أنْ وجَّهَ اللهُ إليهم الخِطابَ تَذكيرًا واستدلالًا وامتنانًا وتَهديدًا وتَهويلًا، ابتداءً مِن قولِه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ [الملك: ١٣]؛ الْتَفَتَ عن خِطابِهم إلى الإخبارِ عنهم بحالةِ الغَيبةِ؛ تَعريضًا بالغضَبِ عليهم بما أَتَوه مِن كلِّ تَكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكانوا جَديرين بإبعادِهم عن الحُضورِ للخِطابِ، فلذلك لم يَقُلْ: ولقد كذَّب الَّذين مِن قبْلِكم، ولم يَقطَعْ تَوجيهَ التَّذكيرِ إليهم والوعيدِ؛ لعلَّهم يَتدبَّرون في أنَّ اللهَ لم يَدَّخِرْهم نُصحًا، فالجُملةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٧]؛ لِمُناسَبةِ أنَّ ممَّا عُوقِبَ به بعضُ الأُمَمِ المكذِّبينَ الخسْفَ، وإرسالَ حِجارةٍ مِن السماءِ. ولك أنْ تَجعَلَ الواوَ للحالِ، أي: كيف تَأْمَنون ذلك عندَما تُكذِّبون الرَّسولَ في حالِ أنَّه قدْ كذَّبَ الَّذين مِن قبْلِكم، فهل عَلِمْتم ما أصابَهم على تَكذيبِهم الرُّسلَ؟! ضَرَب اللهُ لهم مَثَلًا بأُمَمٍ مِن قبْلِهم؛ كذَّبوا الرُّسلَ، فأصابَهم مِن الاستئصالِ ما قد عَلِموا أخبارَه؛ لعلَّهم أنْ يتَّعِظوا بقِياسِ التَّمثيلِ إنْ كانت عُقولُهم لم تَبلُغْ دَرجةَ الانتفاعِ بأقيسةِ الاستنتاجِ؛ فإنَّ المشركين مِن العرَبِ عَرَفوا آثارَ عادٍ وثَمودَ، وتَناقَلوا أخبارَ قومِ نُوحٍ وقومِ لُوطٍ[٣].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استِفهامًا تَقريريًّا، وهو كِنايةٌ عن تَحقيقِ وُقوعِه،

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧، ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦).

وأنَّه وَقَع في حالِ فَظاعةٍ[١].

- وقد أُكِّدَ الخبَرُ بـ(اللَّام) و(قدْ)؛ لتَنزيلِ المُعرَّضِ بهم مَنزِلةَ مَن يظُنُّ أنَّ اللهَ عاقَبَ الَّذين مِن قبْلِهم لغيرِ جُرمٍ، أو لجُرمٍ غيرِ التَّكذيبِ، فهو مُفرَّغٌ على المؤكَّدِ، فالمعْنى: لقد كذَّبَ الَّذين مِن قبْلِهم، ولقد كان نَكيري عليهم بتلك الكيفيَّةِ[٢].

- و﴿نَكِيرِ﴾ أصْلُه نَكيري، بالإضافةِ إلى ياءِ المتكلِّمِ المحذوفةِ تَخفيفًا[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك: ١٥]؛ استِرسالًا في الدَّلائلِ على انفرادِ اللهِ تعالَى بالتَّصرُّفِ في الموجوداتِ[٤].

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ ...﴾ الهمزةُ للاستِفهامِ، والواوُ للعطفِ على مُقدَّرٍ، أي: أغفَلوا ولم يَنظُروا[٥]. والاستِفهامُ إنكاريٌّ، ونُزِّلوا مَنزِلةَ مَن لم يَرَ هاتِه الأحوالَ في الطَّيرِ؛ لأنَّهم لم يَعتبِروا بها، ولم يَهتَدوا إلى دَلالتِها على انفرادِ خالِقِها بالإلهيَّةِ[٦].

- واشتَمَلَ التَّذكيرُ بعَجيبِ خِلقةِ الطَّيرِ في طَيرانِها على ضَرْبٍ مِن الإطنابِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٧).

لأنَّ الأوصافَ الثَّلاثةَ المُستفادةَ مِن قولِه: ﴿فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ تُصَوِّرُ صُورةَ حَرَكاتِ الطَّيَرانِ للسَّامِعينَ، فتُنبِّهُهم لدَقائقَ رُبَّما أغفَلَهم عن تَدقيقِ النَّظَرِ فيها نَشأتُهم بيْنَها مِن وَقتِ ذُهولِ الإدراكِ في زمَنِ الصِّبا، وكمْ غَفَلَ النَّاسُ عن دَقائقَ في المخلوقاتِ مِن الحيوانِ والجَمادِ ما لو تَتبَّعوه لتَجلَّى لهم منها ما يَملأُ وَصْفُه الصُّحفَ!

وهذا الإطنابُ في هذه السُّورةِ مُخالِفٌ لِما في نَظيرِ هذه الآيةِ مِن سُورةِ (النَّحلِ) في قولِه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩]، وذلك بحسَبِ ما اقتضاهُ اختلافُ المَقامَينِ؛ فسُورةُ (النَّحلِ) واقعةٌ قبْلَ سُورةِ (المُلْكِ)، فلمَّا أوقَظَت عُقولَهم فيها للنَّظَرِ إلى ما في خِلقةِ الطَّيرِ مِن الدَّلائلِ فلم يَتفطَّنوا، سُلِكَ في هذه السُّورةِ مَسلَكُ الإطنابِ بزيادةِ ذِكرِ أوصافٍ ثلاثةٍ: فالوصفُ الأوَّلُ: ما أفادَهُ قولُه: ﴿فَوْقَهُمْ﴾؛ فإنَّ جَميعَ الدَّوابِّ تَمْشي على الأرضِ، والطَّيرُ كذلك، فإذا طار الطَّائرُ انتَقَلَ إلى حالةٍ عَجيبةٍ مُخالِفةٍ لبَقيَّةِ المخلوقاتِ، وهي السَّيرُ في الجوِّ بواسطةِ تَحريكِ جَناحيْه، وذلك سِرُّ قولِه تعالَى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ لقصْدِ تَصويرِ تلك الحالةِ.

والوصْفُ الثَّاني: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾، وهو وصْفٌ بوزْنِ اسمِ الفاعلِ مُشتقٌّ مِن الصَّفِّ، وهو كَونُ أشياءَ مُتعدِّدةٍ مُتقاربةَ الأمكنةِ وباستواءٍ، وهو قاصرٌ ومُتعدٍّ، والمرادُ هنا أنَّ الطَّيرَ صافَّةٌ أجْنحتَها، فحُذِفَ المفعولُ لعِلمِه مِن الوصفِ الجاري على الطَّيرِ؛ إذ لا تَجعَلُ الطَّيرُ أشياءَ مَصفوفةً إلَّا رِيشَ أجْنحتِها عندَ الطَّيَرانِ، فالطَّائرُ إذا طار بَسَطَ جَناحَيْه -أي: مدَّهما- فصَفَّ رِيشَ الجَناحِ، فإذا تَمدَّدَ الجَناحُ ظَهَر رِيشُه مُصطفًّا، فكان ذلك الاصطفافُ مِن أثَرِ فِعلِ الطَّيرِ، فوُصِفَت به، وبَسْطُ

الجَناحَينِ يُمكِّنُ الطَّائرَ مِن الطَّيَرانِ، فهو كمَدِّ اليَدينِ للسَّابحِ في الماءِ.

والوصْفُ الثَّالثُ: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾، وهو عطْفٌ على ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ مِن عطْفِ الفِعلِ على الاسمِ الشَّبيهِ بالفِعلِ في الاشتقاقِ، وإفادةِ الاتِّصافِ بحُدوثِ المصدَرِ في فاعِلِه، فلم يَفُتْ بعَطْفِه تَماثُلُ المعْطوفينِ في الاسميَّةِ والفِعليةِ الذي هو مِن مُحسِّناتِ الوصْلِ[١].

- والقبْضُ: ضِدُّ البَسطِ، والمرادُ به هنا ضِدُّ الصَّفِّ المذكورِ قبْلَه؛ إذ كان ذلك الصَّفُّ صادقًا على معْنى البَسطِ، ومَفعولُه المحذوفُ هنا هو عَينُ المحذوفِ في المعطْوفِ عليه، أي: قابضاتٍ أجْنِحتَهنَّ حينَ يُدْنِينَها مِن جُنوبِهنَّ للازديادِ مِن تَحريكِ الهواءِ للاستِمرارِ في الطَّيَرانِ[٢].

- وأُوثِرَ الفعلُ المضارعُ في ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾؛ لاستحضارِ تلك الحالةِ العجيبةِ، وهي حالةُ عكْسِ بَسْطِ الجناحَينِ؛ إذ بذلك العكْسِ يَزدادُ الطَّيَرانُ قوَّةَ امتدادِ زَمانٍ[٣].

- وجِيءَ في وصْفِ الطَّيرِ بـ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ بصِيغةِ الاسمِ؛ لأنَّ الصَّفَّ هو أكثرُ أحوالِها عِندَ الطَّيَرانِ، فناسَبَه الاسمُ الدَّالُّ على الثَّباتِ، وجِيءَ في وصْفِهنَّ بالقبْضِ بصِيغةِ المضارعِ؛ لدَلالةِ الفِعلِ على التَّجدُّدِ، أي: ويُجدِّدْنَ قبْضَ أجْنِحَتِهنَّ في خِلالِ الطَّيَرانِ للاستِعانةِ بقبْضِ الأجنحةِ على زِيادةِ التَّحرُّكِ عندَما يَحْسُسْنَ بتَغلُّبِ جاذبيَّةِ الأرضِ على حَرَكاتِ الطَّيرانِ[٤]. فالطَّيَرانُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩)، =

الهواءِ كالسِّباحةِ في الماءِ، والأصلُ في السِّباحةِ مَدُّ الأطرافِ وبَسْطُها، وأمَّا القَبضُ فطارِئٌ على البَسطِ للاستِظهارِ به على التَّحَرُّكِ؛ فجِيءَ بما هو طارِئٌ غيرُ أصليٍّ بلَفظِ الفِعلِ، على معنى: أنَّهنَّ صافَّاتٌ، ويكونُ مِنهنَّ القَبضُ تارةً بعدَ تارةٍ، كما يكونُ مِن السَّابحِ[١].

- جُملةُ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾، وما فيها مِن استفهامِ إنكارٍ، أي: كان حقُّهم أنْ يَعلَموا أنَّهنَّ ما يُمسِكُهنَّ إلَّا الرَّحمنُ؛ إذ لا مُمسِكَ لها تَرَونَه، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ الَّذي أمسَكَ الطَّيرَ عن الهُوِيِّ المُفْضي إلى الهلاكِ هو الَّذي أهْلَكَ الأُمَمَ الَّذين مِن قبْلِ هؤلاء، فلو لم يُشْرِكوا به ولو استَعْصَموا بطاعتِه، لَأنْجاهم مِن الهلاكِ كما أنْجى الطَّيرَ مِن الهُوِيِّ[٢]. وقيل: هذه الجملةُ مستأنَفةٌ أو حالٌ من الضميرِ في (يقبضنَ)[٣].

- قولُه: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لعلَّ إيثارَ اسمِ الرَّحمنِ هنا دونَ الاسمِ العَلَمِ (الله)؛ لأنَّ مِن جُملةِ عِنادِهم إنكارَهم اسمَ (الرَّحمن)، فلمَّا لم يَرْعَوُوا عمَّا هم عليه ذُكِرَ وصْفُ الرَّحمنِ في هذه السُّورةِ أربَعَ مرَّاتٍ[٤].

وقيل: ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ حيثُ برَأَهنَّ عزَّ وجلَّ على أشكالٍ وخصائصَ، وألهمَهنَّ حركاتٍ قد تأتَّى منها الجريُ في الهواءِ[٥].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ تَعليلٌ لمَضمونِ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[٦].

= ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠).

- وتَقديمُ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ على مُتعلَّقِه لإفادةِ القَصرِ الإضافيِّ، وهو قصْرُ قلْبٍ[١] ردًّا على مَن يَزعُمون أنَّه لا يَعلَمُ كلَّ شَيءٍ[٢]! وكذلك للرِّعايةِ على الفاصلةِ.

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غُرُورٍ﴾: أي: باطِلٍ، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، يقال: غَرَرْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَهُ ونِلتُ منه ما أُريدُه، وأصلُ ذلك مِن الغَرِّ، وهو الأثَرُ الظَّاهرُ مِن الشَّيءِ، والغَرورُ: كلُّ ما يَغُرُّ الإنسانَ مِن مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطانٍ[(١)].

﴿لَّجُّوا۟﴾: أي: تَمادَوْا واستمَرُّوا، واللَّجاجُ: التَّمادي والعِنادُ في تعاطي الفِعلِ المَزجورِ عنه، وأصلُ (لجج): يدُلُّ على تردُّدِ الشَّيءِ بَعضِه على بَعضٍ[(٢)].

﴿عُتُوٍّ﴾: أي: طُغيانٍ ومُعانَدةٍ واستِكبارٍ، والعُتُوُّ: الخُروجُ عن الطَّاعةِ، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على استِكبارٍ[(٣)].

﴿وَنُفُورٍ﴾: أي: ذَهابٍ، وبُعدٍ عن الحَقِّ، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣، ٦٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾: أي: لا يُبصِرُ يمينًا ولا شمالًا، ولا ما بيْنَ يدَيْه، والكَبُّ: إسقاطُ الشَّيءِ على وجهِه، وأصلُ (كبب): يدُلُّ على جمعٍ وتجَمُّعٍ[(١)].

﴿سَوِيًّا﴾: أي: مُنتصبَ القامةِ، مُعتدلًا، ناظرًا إلى ما بيْنَ يدَيْه، سالمًا مِن العُثُورِ والخُرورِ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بيْنَ شَيئيْنِ[(٢)].

﴿صِرَٰطٍ﴾: أي: طريقٍ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى للمشركينَ الَّذينَ عَبَدوا غيرَه، يَبْتَغونَ عندَهم نصرًا ورزقًا، مُنكِرًا عليهم: أمْ مَن هذا الَّذي هو عَونٌ وناصِرٌ لكم -أيُّها الكافِرونَ- يَدفَعُ عنكم العذابَ مِن دُونِ الرَّحمنِ؟! ما الكافِرونَ باللهِ إلَّا في غُرورٍ!

أمْ مَن هذا الَّذي يأتيكم بالرِّزقِ إنْ منَعَه اللهُ عنكم؟! بل استَمَرَّ -هؤلاء الكافِرون- وتمادَوا في طُغيانِهم وتكَبُّرِهم، ونُفورِهم عن الحَقِّ!

ثمَّ يضربُ الله تعالى المثَلَ للمؤمنِ والكافرِ، فيقولُ: أفمَن يَمشي مُنكِّسًا رأسَه لا يُبصِرُ طَريقَه، فيَخِرُّ على وَجهِه: أهدَى أمِ الَّذي يَمشي مُعتَدِلًا سالِمًا مِن التَّعثُّرِ مُبصِرًا طَريقَه؟!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الكُفَّارُ يمتَنِعونَ عن الإيمانِ ويُنكِرونَ التَّوحيدَ مع وُضوحِ الأدِلَّةِ، صاروا كأنَّهم يمتَنِعونَ مِن عذابِ اللهِ بجُندٍ، وأشبَهَت حالُهم مَن يملِكُ دَفْعَ العذابِ إن أتاه؛ فقال اللهُ تعالى مُنكِرًا عليهم أن يكونَ لهم امتناعٌ مِن عَذابِه[1]:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

أي: أم مَن هذا الَّذي هو عَونٌ وناصِرٌ لكم -أيُّها الكافِرونَ- يَدفَعُ عنكم العذابَ غَيرُ الرَّحمنِ[2]؟!

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢، ٤٣].

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾.

أي: ما الكافِرونَ باللهِ إلَّا في غُرورٍ عَظيمٍ قد أحاط بهم، فلا خَلاصَ لهم منه، وذلك باستِمرارِهم على كُفرِهم الَّذي يتَوهَّمونَه صَوابًا، وتوَهُّمِهم أنَّ آلهتَهم تَنفَعُهم[3].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٥٨، ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) =

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قدَّم أعظَمَ الرَّحمةِ بالحِياطةِ والنُّصرةِ المُوجِبةِ للبقاءِ؛ أتْبَعَه ما يَتِمُّ به البقاءُ[(١)].

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾.

أي: أم مَن هذا الَّذي يأتيكم بالرِّزقِ -أيُّها الكافِرونَ- إنْ منَعَه اللهُ عنكم[(٢)]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣].

﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾.

أي: لم يَرجِعوا عن تكذيبِهم وكُفْرِهم مع ما ذُكِرَ مِن دلائِلَ وحُجَجٍ، بل استَمَرُّوا وتمادَوا في طُغيانِهم وعِنادِهم وتكَبُّرِهم، ونُفورِهم عن الحَقِّ، وهُروبِهم منه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

= للبقاعي (٢٠/ ٢٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢، ٤٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤).

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١].

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وصَفَهم بالعُتُوِّ والنُّفورِ؛ نبَّه على ما يدُلُّ على قُبحِ هذَينِ الوَصفَينِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان ذلك فِعلَ مَن لا بَصَرَ له ولا بصيرةَ؛ سَبَّبَ عنه قَولَه مُمثِّلًا للمُوَحِّدِ والمُشرِكِ بسالكَينِ، ولدِينَيْهما بمَسْلَكينِ[(٢)].

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: أفمَن يَمشي مُنكِّسًا رأسَه لا يُبصِرُ طَريقَه، فيَسقُطُ مُتعَثِّرًا ويَخِرُّ على وَجهِه: أهْدَى أمِ الَّذي يَمشي مُعتَدِلًا قائمًا، رافِعًا رأسَه ناصِبًا وَجْهَه، سالِمًا مِن التَّعثُّرِ مُبصِرًا طَريقَه، سائِرًا على دَربٍ مُستَوٍ واضِحٍ لا اعوِجاجَ فيه[(٣)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٧).

قال ابنُ عاشور: (هذا مَثَلٌ ضرَبه اللهُ للكافِرينَ والمؤمِنينَ، أو لِرَجُلَينِ: كافرٍ ومُؤمِنٍ... وذلك ممَّا اتَّفَق عليه المفسِّرونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤).

وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ ضرَبَ الله مثَلًا للمؤمنِ والكافرِ ﴿مُكِبًّا﴾ أي: مُنكِّسًا رأسَه، لا يَنظُرُ أمامَه ولا يمينَه ولا شِمالَه، فهو لا يأمَنُ مِن العُثورِ والانكبابِ على وجْهِه؛ كمَنْ يَمشي سَويًّا مُعتَدِلًا ناظِرًا ما بيْنَ يدَيْه وعن يمينِه وعن شِمالِه؟!). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٩). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ * أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ جَمَعَ سُبحانَه بيْن النَّصرِ والرِّزقِ؛ فإنَّ العَبدَ مُضطَرٌّ إلى مَن يَدفَعُ عنه عَدُوَّه بنَصرِه، ويَجلِبُ له مَنافِعَه برِزقِه؛ فلا بُدَّ له مِن ناصرٍ ورازقٍ، واللهُ وحْدَه هو الَّذي يَنصُرُ ويَرزُقُ، فهو الرَّزَّاقُ ذو القُوَّةِ المتينُ[(١)]، فالنَّصرُ يتضمَّنُ دفْعَ الضَّررِ؛ والرِّزقُ يتضمَّنُ حُصولَ المنفعةِ[(٢)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ مَثَلُ الكافِرِ؛ حالُه في سَيرِه إلى اللهِ حالُ المُكِبِّ، أي: الَّذي كَبَّ نَفْسَه بغايةِ الشَّهوةِ على وَجْهِه، لا يرى ما حَوْلَه، ولا يَشعُرُ بما أحاط به، ولا يَنظُرُ في الآياتِ، ولا يَعتَبِرُ بالمسموعاتِ، فهو اليَومَ شَيءٌ باطِنٌ يظهرُ يومَ القيامةِ، فيُحشَرُ على وَجْهِه إلى النَّارِ؛ جزاءً لرِضاه بحالتِه هذه في هذه الدَّارِ، فيُظهِرُ له سُبحانَه ما أبطَنَ له اليومَ، والمؤمِنُ بخِلافِ ذلك، فقَولُه تعالى: ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هذا مَثَلُ مَن رَضِيَ باللهِ رَبًّا، وبالإسلامِ دِينًا، فإنَّه يَتبَعُ الفِطرةَ الأُولى، السَّليمةَ عن شَهوةٍ أو غَضَبٍ

= وقال الشوكاني: (قيل: هو الَّذي يَكُبُّ رأسَه فلا يَنظُرُ يمينًا ولا شِمالًا ولا أمامًا،... وقيل: أرادَ به الأعمَى الَّذي لا يَهتدي إلى الطَّريقِ، فلا يَزالُ مَشْيُه يُنَكِّسُه على وجهِه. قال قَتادةُ: هو الكافرُ يَكُبُّ على معاصي اللهِ في الدُّنيا، فيَحشُرُه اللهُ يومَ القيامةِ على وجْهِه... وقيل: أراد بمَنْ يَمشي مُكِبًّا على وجْهِه: مَن يُحشَرُ على وجْهِه إلى النَّارِ، ومَن يَمشي سَوِيًّا: مَن يُحشَرُ على قدَمَيْه إلى الجنَّةِ، وهو كقَولِ قَتادةَ الَّذي ذَكَرْناه، ومِثلُه قولُه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣١).

أو شائبةِ حَظٍّ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّ المخلوقَ ليس عندَه للعبدِ نفعٌ ولا ضرٌّ، ولا عطاءٌ ولا منْعٌ، ولا هُدًى ولا ضلالٌ، ولا نصرٌ ولا خِذلانٌ، ولا خَفضٌ ولا رفعٌ، ولا عِزٌّ ولا ذُلٌّ، بلِ اللهُ وحْدَه هو الَّذي يَملِكُ له ذلك كلَّه؛ قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ * أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾، وقال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، إلى غيرِ ذلك[٢].

٢- مِن القواعدِ الَّتي يَكثُرُ ذِكرُها في القرآنِ في المقاماتِ المُهِمَّةِ -كالمُقابَلةِ بيْنَ الإيمانِ والكفرِ، والتَّوحيدِ والشِّركِ- قاعدةُ: (ذِكْر الأوصافِ المُتقابِلاتِ يُغْني عن التَّصريحِ بالمُفاضَلةِ إذا كان الفرقُ معلومًا). فيَذكُرُ تَبايُنَ الأوصافِ الَّتي يَعرِفُ العقلاءُ بالبداهةِ التَّفاوُتَ بيْنَها، ويَدَعُ التَّصريحَ بالمُفاضَلةِ للعقلاءِ، وهو مِن بلاغةِ القرآنِ وأسلوبِه العجيبِ، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣].

٣- الكُفرُ هو التَّأخُّرُ والرَّجعيَّةُ والانقِلابُ على العَقِبِ، وأمَّا الإسلامُ فإنَّه التَّقدُّمُ والمُضيُّ إلى الأمامِ فيما يَنفَعُ الإنسانَ في دِينِه ودُنياه، يَشهَدُ لهذا قَولُه

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ١٦٢، ١٦٣).

تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عَديلٌ لقولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ على معْنى: أوَلَمْ تَنظُروا في أمثالِ هذه الصَّنائعِ، فلم تَعلَموا قُدرتَنا على تَعذيبِهم بنحْوِ خَسفٍ وإرسالِ حاصبٍ، أمْ لكم جُندٌ يَنصُرُكم مِن دونِ اللهِ إنْ أرسَلَ عليكم عَذابَه، فهو كقولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣]، إلَّا أنَّه أُخرِجَ مُخرَجَ الاستِفهامِ لنُكتةٍ؛ وهو أنَّهم لاعتِقادِهم نصْرَ آلهتِهم لهم أتى باسمِ الاستفهامِ بعْدَها تهكُّمًا بهم، كأنَّ النُّصرةَ مُقرَّرةٌ، وإنَّما الكلامُ في تَعيينِ النَّاصرِ لهم[2].

- وقيل: مَساقُ هذه الآيةِ إمَّا لإنكارِ أنْ يكونَ للمُخاطَبينَ ناصرٌ ورازقٌ سِوى الرَّحمنِ، وإمَّا لإنكارِ كَونِ الأصنامِ تَنصُرُهم وتَرزُقُهم، وعلى الأوَّلِ الاستِفهامُ للإنكارِ، ويُقدَّرُ بعْدَه: يُقالُ:...، وعلى الثَّاني للتَّحقيرِ[3].

- وقيل: إنَّ قولَه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تَبْكيتٌ لهم بنفْيِ أنْ يكونَ لهم ناصرٌ غيرُ الله تعالَى كما يُلوِّحُ به التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرَّحمانيَّةِ، ويَعضُدُه قولُه تعالَى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، أو ناصرٌ مِن عَذابِه تعالَى،

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣١)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٢٣).

كما هو الأنسَبُ بما سَيأتي مِن قولِه تعالَى: ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾، كقولِه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣] في المعنيينِ معًا، خَلا أنَّ الاستفهامَ هُناكَ مُتوجِّهٌ إلى نفْسِ المانعِ وتَحقُّقِه، وهاهُنا إلى تَعيينِ النَّاصرِ؛ لتَبكيتِهم بإظهارِ عَجزِهم عن تَعيينِه له[1]. فالاستفهامُ هنا مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ عن التَّعيينِ، فيَؤولُ إلى الانتفاءِ، والإشارةُ مُشارٌ بها إلى مَفهومِ جُندٍ مَفروضٍ في الأذهانِ استُحضِرَ للمُخاطَبينَ، فجُعِلَ كأنَّه حاضرٌ في الخارجِ يُشاهِدُه المخاطَبونَ، فيَطلُبُ المُتكلِّمُ منهم تَعيينَ قَبيلةٍ بأنْ يَقولوا: بنو فُلانٍ، ولَمَّا كان الاستفهامُ مُستعمَلًا في التَّعجيزِ استَلزَمَ ذلك أنَّ هذا الجندَ المفروضَ غيرُ كائنٍ[2]. ويَجوزُ أنْ يكونَ اسمُ الإشارةِ مُشارًا به إلى جَماعةِ الأصنامِ المعروفةِ عِندَهم الموضوعةِ في الكعبةِ وحوْلَها الَّذي اتَّخذْتُموه جُندًا، فمَن هو حتَّى يَنصُرَكم مِن دونِ اللهِ؟! فتَكونَ (مَن) استفهاميَّةً مُستعمَلةً في التَّحقيرِ والتَّقريعِ والتَّوبيخِ، أي: مَن هذا الجندُ؟! فإنَّه أحقَرُ مِن أنْ يُعرَفَ، واسمُ الإشارةِ صِفةٌ لاسمِ الاستفهامِ مُبيِّنةٌ له، و﴿ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ صِفةٌ لاسمِ الإشارةِ، وجُملةُ ﴿يَنصُرُكُم﴾ خبَرٌ عن اسمِ الاستفهامِ، أي: هو أقَلُّ مِن أنْ يَنصُرَكم مِن دونِ الرَّحمنِ[3]. وإيثارُ (هذا) لتَحقيرِ المُشارِ إليه[4].

- و(أم) في ﴿أَمَّنْ﴾ مُنقطِعةٌ، وهي للإضرابِ الانتقاليِّ مِن غرَضٍ إلى غرَضٍ، مُقدَّرةٌ بـ (بل) المُفيدةِ للانتقالِ مِن تَوبيخِهم على ترْكِ التَّأمُّلِ فيما يُشاهِدونَه مِن أحوالِ الطَّيرِ المُنبئةِ عن تَعاجيبِ آثارِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١، ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١).

إلى التَّبكيتِ بما ذُكِرَ؛ فبَعْدَ استيفاءِ غرَضِ إثباتِ الإلهيَّةِ الحقِّ للهِ تعالَى بالوَحدانيَّةِ وتَذكيرِهم بأنَّهم مُفتقِرونَ إليه، انتُقِلَ إلى إبطالِ أنْ يكونَ أحدٌ يَدفَعُ عنهم العذابَ الَّذي تَوعَّدَهم اللهُ به، فوُجِّهَ إليهم استفهامٌ أنْ يَدُلُّوا على أحدٍ مِن أصنامِهم أو غيرِها يُقالُ فيه: هذا هو الَّذي يَنصُرُ مِن دونِ اللهِ؛ فإنَّهم غيرُ مُستطيعينَ تَعيينَ أحدٍ لذلك إلَّا إذا سَلَكوا طَريقَ البُهتانِ، وما هم بسالِكيه في مِثلِ هذا؛ لافتِضاحِ أمْرِه، وهذا الكلامُ ناشئٌ عن قولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] الآيةَ، فهو مِثلُه مُعترِضٌ بيْنَ حُجَجِ الاستِدلالِ[(١)].

- وقولُه: ﴿هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ فيه الْتِفاتٌ، ونُكتَتُه المُبالَغةُ في التَّهديدِ، والتَّشديدُ في التَّبكيتِ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ جيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾؛ لدَلالتِها على الدَّوامِ والثُّبوتِ؛ لأنَّ الجُندَ يكونُ على استعدادٍ للنَّصرِ إذا دُعِيَ إليه، سواءٌ أقاتَلَ أمْ لم يُقاتِلْ؛ لأنَّ النَّصرَ يَحتاجُ إلى استعدادٍ وتَهيُّؤٍ؛ فالمعنى: يَنصرُكم عِندَ احتياجِكم إلى نَصرِه؛ فهذا وجْهُ الجمْعِ بيْنَ جُملةِ ﴿هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ وجُملةِ ﴿يَنصُرُكُم﴾، ولم يَستغنِ بالثَّانيةِ عن الأُولَى[(٣)].

- قولُه: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِما قبلَه، ناعٍ عليهم ما هُم فيه مِن غايةِ الضَّلالِ، أي: ما هُم في زعْمِهم أنَّهم مَحفوظونَ مِن النَّوائبِ بحِفظِ آلهتِهم لا بحِفظِه تعالَى فقطْ، أو أنَّ آلهتَهم تَحفَظُهم مِن بأْسِ اللهِ؛ إلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠، ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢).

في غُرورٍ عَظيمٍ وضَلالٍ فاحشٍ مِن جِهةِ الشَّيطانِ، ليس لهم في ذلك شَيءٌ يُعتَدُّ به في الجُملةِ، والالتفاتُ إلى الغَيبةِ؛ للإيذانِ باقتضاءِ حالِهم للإعراضِ عنهم، وبَيانِ قَبائحِهم لغيرِهم، والإظهارُ في مَوقعِ الإضمارِ لذَمِّهم بالكُفرِ، وتَعليلِ غُرورِهم به[1].

وقيل: قولُه: ﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٖ﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ، أي: ذلك شأْنُ الكافرينَ كلِّهم، وهم أهلُ الشِّركِ مِن المخاطَبينَ وغيرِهم، فتَعريفُ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ للاستِغراقِ، وليس المرادُ به كافِرينَ معهودينَ حتَّى يكونَ مِن وضْعِ المظهَرِ مَوضعَ الضَّميرِ[2].

- والظَّرفيَّةُ في قولِه: ﴿فِي غُرُورٖ﴾ مُستعمَلةٌ في شِدَّةِ التَّلبُّسِ بالغُرورِ، حتَّى كأنَّ الغُرورَ مُحيطٌ بهم إحاطةَ الظَّرفِ، والمعْنى: ما الكافِرونَ في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالِ الغرورِ، وهذا قصْرٌ إضافيٌّ[3] لقلْبِ اعتقادِهم أنَّهم في مأْمنٍ مِن الكوارثِ بحِمايةِ آلهتِهم[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ﴾ انتقالٌ آخَرُ، وهذا الكلامُ ناظِرٌ إلى قولِه: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المعكوسِ[5].

- وجِيءَ بالصِّلةِ فِعلًا مُضارعًا ﴿يَرۡزُقُكُمۡ﴾؛ لدَلالتِه على التَّجدُّدِ؛ لأنَّ الرِّزقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
واللَّف والنَّشْر تقدَّم تعريفُه (ص: ٣١٦).

يَقْتضي التَّكرارَ؛ إذ حاجةُ البشرِ إليه مُستمرَّةٌ[١].

- قولُه: ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ ناشئٍ عن الدَّلائلِ والقَوارعِ، والزَّواجرِ والعِظاتِ، والعِبَرِ المتقدِّمةِ، فيَتَّجِهُ للسَّائلِ أنْ يقولَ: لعلَّهم نفَعَتَ عِندَهم الآياتُ والنُّذُرُ، واعتَبَروا بالآياتِ والعِبَرِ، فأُجيبَ بإبطالِ ظنِّه بأنَّهم لَجُّوا في عُتوٍّ ونُفورٍ[٢].

أو: أنَّ قولَه: ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ﴾ مُنبئٌ عن مُقدَّرٍ يَستدعيهِ المقامُ، كأنَّه قيلَ: إثرَ تَمامِ التَّبكيتِ والتَّعجيزِ لمْ يَتأثَّروا بذلكَ، ولم يُذعنُوا للحقِّ، بلْ لجُّوا وتَمادَوا في عُتوٍّ ونُفورٍ[٣].

- وحرْفُ (بَل) للإضرابِ أو الإبطالِ عمَّا تَضمَّنه الاستِفهامانِ السَّابقانِ، أو للانتقالِ مِن غرَضِ التَّعجيزِ إلى الإخبارِ عن عِنادِهم[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبّٗا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

- الفاءُ الَّتي في صدْرِ الجُملةِ للتَّفريعِ على جميعِ ما تَقدَّمَ مِن الدَّلائلِ والعِبَرِ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا، والاستفهامُ تَقريريٌّ تَوبيخيٌّ[٥].

- وهذا مَثَلٌ للمُؤمنِ والكافرِ؛ فالكافرُ في اضطرابِه وتَعسُّفِه في عَقيدتِه، وتَشابُهِ الأمرِ عليه، كالماضي في انخفاضٍ وارتفاعٍ، كالأعمى يَتعثَّرُ كلَّ ساعةٍ فيَخِرُّ لوَجْهِه، وأمَّا المؤمنُ فإنَّه لطُمأنينةِ قلْبِه بالإيمانِ، وكَونِه قد وَضَحَ له الحقُّ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٨).

كالماشي صَحيحَ البصرِ، مُستويًا، لا يَنحرِفُ، على طَريقٍ واضحِ الاستِقامةِ، لا حُزونَ[(١)] فيها؛ فآلةُ نَظَرِه صَحيحةٌ، ومَسلكُه لا صُعوبةَ فيه[(٢)]؛ فهذا مَثَلٌ ضَرَبَه اللهُ للكافرين والمؤمنينَ، أو لرُجَلينِ: كافرٍ ومؤمنٍ؛ لأنَّه جاء مُفرَّعًا على قولِه: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠]، وقولِه: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١]، وما اتَّصَلَ ذلك به مِن الكلامِ الَّذي سِيقَ مَساقَ الحُجَّةِ عليهم بقولِه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ [الملك: ٢٠] ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١]. والتَّمثيلُ جَرى على تَشبيهِ حالِ الكافرِ والمؤمنِ بحالةِ مَشْيِ إنسانٍ مُختلفةٍ، وعلى تَشبيهِ الدِّينِ بالطَّريقِ المَسلوكةِ، كما يَقْتضيه قولُه: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فلا بُدَّ مِن اعتبارِ مشْيِ المُكِبِّ على وَجْهِه مَشيًا على صِراطٍ مُعْوجٍّ، وتَعيَّنَ أنْ يكونَ في قولِه: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ تَشبيهُ حالِ السَّالكِ صِراطًا مُعْوجًّا في تَأمُّلِه وتَرسُّمِه آثارَ السَّيرِ في الطَّريقِ غيرِ المستقيمِ خَشيةَ أنْ يَضِلَّ فيه؛ بحالِ المُكِبِّ على وَجْهِه يَتوسَّمُ حالَ الطَّريقِ، وقَرينةُ ذلك مُقابَلتُه بقولِه: ﴿سَوِيًّا﴾ المُشعِرِ بأنَّ ﴿مُكِبًّا﴾ أُطلِقَ على غيرِ السَّويِّ، وهو المُنْحني المُطأْطِئُ يَتوسَّمُ الآثارَ اللَّائحةَ مِن آثارِ السَّائرينَ؛ لعلَّه يَعرِفُ الطَّريقَ المُوصِلةَ إلى المقصودِ، فالمُشرِكُ يَتوجَّهُ بعِبادتِه إلى آلهةٍ كَثيرةٍ لا يَدْري لعلَّ بَعضَها أقْوى مِن بَعضٍ، وأعطَفُ على بَعضِ القبائلِ مِن بَعضٍ؛ فقد كانت ثَقيفٌ يَعْبُدون اللَّاتَ، وكان الأوسُ والخزرجُ يَعبُدون مَناةَ، ولكلِّ قَبيلةٍ إلهٌ أو آلهةٌ، فتَقسَّموا الحاجاتِ عِندَها، واستَنصَرَ كلُّ قومٍ

(١) الحُزُون: جمعُ الحَزْنِ، وهو ما غَلُظ مِن الأرضِ، وهو خِلافُ السَّهلِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٩).

بآلهتِهم، وطَمِعوا في غَنائها عنهم، وهذه حالةٌ يَعرِفونَها، فلا يَمتَرُون في أنَّهم مَضربُ المَثَلِ الأوَّلِ، وكذلك حالُ أهلِ الإشراكِ في كلِّ زَمانٍ؛ ألَا تَسمَعُ ما حَكاهُ اللهُ عن يُوسُفَ عليه السَّلامُ مِن قولِه: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

وقولُه: ﴿أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا﴾ تَشبيهٌ لحالِ الَّذي آمَنَ بربٍّ واحدٍ، الواثقِ بنصْرِ ربِّه وتأْييدِه، وبأنَّه مُصادِفٌ للحقِّ؛ بحالِ الماشي في طَريقٍ جادَّةٍ واضحةٍ، لا يَنظُرُ إلَّا إلى اتِّجاهِ وَجْهِه، فهو مُستوٍ في سَيرِه. وقد حصَلَ في الآيةِ إيجازُ حذْفٍ؛ إذ استُغْنِيَ عن وصْفِ الطَّريقِ بالالتواءِ في التَّمثيلِ الأوَّلِ؛ لدَلالةِ مُقابَلتِه بالاستِقامةِ في التَّمثيلِ الثَّاني[(١)].

- و﴿أَهۡدَىٰٓ﴾ مُشتَقٌّ مِن الهُدى، وهو مَعرفةُ الطَّريقِ، وهو اسمُ تَفضيلٍ مَسلوبُ المُفاضَلةِ؛ لأنَّ الَّذي يَمْشي مُكِبًّا على وَجْهِه لا شَيءَ عندَه مِن الاهتداءِ، ومِثلُ هذا لا يَخلُو مِن تَهكُّمٍ أو تَمْليحٍ بحسَبِ المقامِ[(٢)].

- والآيةُ فيها احتِباكٌ[(٣)]؛ فذَكَر (الكَبَّ) أوَّلًا دليلًا على ضِدِّه ثانيًا، و(المستقيمَ) ثانيًا دليلًا على المُعوَجِّ أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذَكَر أنكَأَ ما للمُجرِمِ، وأسَرَّ ما للمُسلِمِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤ - ٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٦).

(٣) الاحْتِبَاك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن أَلْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٨).

الآيات (٢٢-٢٧)

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: جمْعُ فؤادٍ، وهو القلبُ؛ سمِّيَ بذلك لحرارَتِه، أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[١].

﴿ذَرَأَكُمْ﴾: أي: خلَقَكم وكَثَّرَكم، والذَّرْءُ: بَثُّ الخَلقِ وتَكثيرُه، وأصلُ (ذرأ) هنا: يدُلُّ على بَذْرٍ وزَرعٍ[٢].

﴿زُلْفَةً﴾: أي: قَريبًا، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تَقدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[٣].

﴿سِيٓـَٔتْ﴾: أي: ظهَر فيها السُّوءُ لما حلَّ بها، وقبُحَتْ بالسَّوادِ وأثرِ الكآبةِ، يُقالُ: ساء الشيءُ يسوءُ، فهو سيِّئٌ: إذا قبُح، وسِيء يُساءُ: إذا قبُح، والسُّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ مِن الأمورِ الدُّنيويَّةِ، والأُخرويةِ، وأصلُ السُّوءِ: القُبحُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٦٢)، ((المفردات =

﴿تَدَّعُونَ﴾: أي: تَطلُبونَ وتَستعجِلونَ؛ (تفتعلونَ) مِن الدُّعاءِ، أو تَدَّعونَ أن لا بعثَ، فهو مِن الدَّعوَى، وأصلُ (دعو) أنْ تُميلَ الشَّيءَ إليكَ بصَوتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنكَ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذكِّرًا بنِعَمِه، ومبيِّنًا أنَّه المعبودُ وحْدَه، وداعيًا عِبادَه إلى شُكرِه، وإفرادِه بالعبادةِ: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ المكَذِّبينَ: اللهُ وَحْدَه هو مَنْ أوجَدَكم مِنَ العَدَمِ، وجعَلَ لكم السَّمعَ والأبصارَ والأفئِدةَ، قليلًا ما تَشكُرونَ اللهَ تعالى على ما آتاكم!

قُلْ -يا محمَّدُ-: اللهُ هو الَّذي نشَرَكم في أقطارِ الأرضِ وأرجائِها، وإليه وَحْدَه تُجمَعونَ.

ثُمَّ يخبِرُ الله تعالى عن الكفَّارِ المُنكِرينَ للمَعادِ، المُستبعِدينَ وُقوعَه، فيقولُ: ويقولُ المُشرِكونَ تكذيبًا واستِهزاءً: متى يكونُ ما تَعِدُونَنا به مِنَ الحَشرِ إلى اللهِ إنْ كُنتُم صادِقينَ؟ قُلْ لهم: إنَّما عِلْمُ ذلك عِندَ اللهِ وَحْدَه، وما أنا إلَّا مُنذِرٌ لكم عَذابَ اللهِ!

ثمَّ يذكرُ حالَهم عندَما يرَونَ العذابَ، فيقولُ: فلمَّا رأى أولئك الكافِرونَ ما وُعِدُوا به قريبًا منهم وعايَنوه، ساءهم وأفزَعَهم؛ فتغيَّرَت وُجوهُهم وقَبُحَت، وقِيلَ لهم يومَ القيامةِ تَوبيخًا: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَطلُبونَه وتَسألُونَ تَعجيلَه في الدُّنيا!

= في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٧).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أورد البُرهانَ أوَّلًا مِن حالِ سائرِ الحيواناتِ، وهو وُقوفُ الطَّيرِ في الهواءِ؛ أورد البُرهانَ بَعْدَه مِن أحوالِ النَّاسِ، وهو هذه الآيةُ، وذكَرَ مِن عجائِبِ ما فيه حالَ السَّمعِ والبَصَرِ والفُؤادِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان العرَبُ المَوعوظونَ بهذا الذِّكْرِ يَتغالَونَ في التَّفاخُرِ بالهدايةِ في الطُّرُقِ المحسوسةِ، وعدَمِ الإخلالِ بشُكرِ المعروفِ لِمُسْديه ولو قَلَّ، فنفَى عنهم الأوَّلَ بقِيامِ الأدِلَّةِ على خَطَئِهم الفاحِشِ في كُلِّ ما خالَفوا فيه الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن طريقِهم المعنويِّ الَّذي اتَّخَذوه دِينًا؛ فهو أشرَفُ مِن الطَّريقِ المحسوسِ- أتْبَعَه بيانَ انسِلاخِهم مِنَ الثَّاني مع التأكيدِ؛ لانسلاخِهم مِنَ الأوَّلِ[2].

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ المكَذِّبينَ: اللهُ وَحْدَه هو مَنْ أوجَدكم مِنَ العَدَمِ[3].

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾.

أي: وهو الَّذي جعَلَ لكم السَّمعَ لِتَسمَعوا آياتِ اللهِ تعالى، والأبصارَ لِتَنظُروا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

خَلْقَ اللهِ عزَّ وجلَّ، والأفئِدةَ لِتتفكَّروا وتَعتَبِروا فيما سَمِعتُم وشاهَدتُم[١].

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

أي: قليلًا ما تَشكُرونَ اللهَ تعالى على ما آتاكم مِنَ السَّمعِ والأبصارِ والأفئِدةِ[٢].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى استدَلَّ بأحوالِ الحيَواناتِ أوَّلًا، ثمَّ بصِفاتِ الإنسانِ ثانيًا، وهي السَّمعُ والبصَرُ والعَقلُ، ثمَّ بحُدوثِ ذاتِ هذا الإنسانِ ثالثًا، وهو قَولُه[٣]:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ-: اللهُ هو الَّذي نشَرَكم في أقطارِ الأرضِ وأرجائِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢).

قال النسفي: (﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذه النِّعَمَ؛ لأنَّكم تُشرِكونَ باللهِ، ولا تُخلِصونَ له العِبادةَ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٦).

وقال ابنُ كثير: (﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ما أقَلَّ ما تَستَعمِلونَ هذه القُوى الَّتي أنعَمَ اللهُ بها عليكم في طاعتِه، وامتِثالِ أوامِرِه وتَركِ زَواجِرِه!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ تُجمَعونَ بعْدَ هذا التَّفرُّقِ والشَّتاتِ، فيَبعَثُكم مِن قُبورِكم للحِسابِ والجَزاءِ[1].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٥﴾.

أي ويقولُ المُشرِكونَ: متى يكونُ ما تَعِدُونَنا مِنَ الحَشرِ إلى اللهِ إنْ كُنتُم صادِقينَ في وَعْدِكم هذا[2]؟

﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٢٦﴾.

﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاءِ السَّائِلينَ: إنَّما عِلْمُ وقتِ مجيءِ القيامةِ عِندَ اللهِ وَحْدَه، لا يَعلَمُه أحدٌ سِواه[3].

كما قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾.

أي: وما أنا إلَّا مُنذِرٌ لكم عَذابَ اللهِ إنْ كفَرْتُم إنذارًا بيِّنًا واضِحًا تُقامُ به الحُجَّةُ عليكم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: فلمَّا رأى أولئك الكافِرونَ ما وُعِدُوا به شَديدَ القُربِ منهم وعايَنوه، ساءهم وأفزَعَهم، وأقلَقَ أفئِدتَهم؛ فتغيَّرَت وُجوهُهم وقَبُحَت، وعَلَتْها الكآبةُ[(١)]!

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ * وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى: ٤٤، ٤٥].

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿تَدْعُونَ﴾ أي: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَدْعُون اللهَ لِيَأتيَكم به[(٢)].

٢- قِراءةُ ﴿تَدَّعُونَ﴾: أي: تَطلبونَ، وقيل: المعنى: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم به تُكَذِّبونَ، فتَدَّعونَ أنَّكم إذا مُتُّم لا تُبعَثونَ. وقيل: معنى ﴿تَدَّعُونَ﴾:

= (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٠، ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠).

قال البغوي: (﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يعني: العذابَ في الآخرةِ، على قولِ أكثرِ المفسِّرينَ. وقال مجاهدٌ: يعني: العذابَ ببَدرٍ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٧).

(٢) قرأ بها يعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨١).

تَمْتَرونَ. وقيل: المعنى: تتَمَنَّونَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ، وهو الدُّعاءُ[١].

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾.

أي: وقِيلَ لهم يومَ القيامةِ تَقريعًا وتَوبيخًا: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَطلُبونَه وتَسألُونَ تَعجيلَه؛ تكذيبًا واستِبعادًا لوُقوعِه[٢]!

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨١)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٥، ٢٦٦).

قال الماوَرْدي: (في قَولِه: ﴿كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أربعةُ أوجُهٍ:

أحَدُها: تَمترونَ فيه وتختَلِفونَ. قاله مقاتِلٌ.

الثَّاني: تَشُكُّونَ في الدُّنيا وتَزعمونَ أنَّه لا يكونُ. قاله الكَلْبيُّ.

الثَّالثُ: تَستَعجلونَ مِن العَذابِ. قاله زيدُ بنُ أسْلَمَ.

الرَّابعُ: أنَّه دُعاؤُهم بذلك على أنفُسِهم، وهو افتِعالٌ مِن الدُّعاءِ. قاله ابنُ قُتيبةَ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥٧). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: تَطلُبون وتَستعجِلونَ به: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، وأبو السعود، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٦).

قال القرطبي: (قال الفرَّاءُ: «﴿تَدَّعُونَ﴾ تَفْتَعِلونَ مِن الدُّعاءِ». وهو قولُ أكثرِ العُلماءِ، أي: تَتمَنَّونَ وتَسألونَ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ١٧١).

وقال الزجاج: (أمَّا ﴿تَدَّعُونَ﴾ فجاء في التَّفسيرِ: تُكَذِّبونَ. وتأويلُه في اللُّغةِ: هذا الَّذي كنتم مِن أجْلِه تَدَّعُونَ الأباطيلَ والأكاذيبَ، أي: تَدَّعونَ أنَّكم إذا مِتُّم وكنتُم تُرابًا وعِظامًا أنَّكُم لا تُخرَجُونَ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٠١).

قال البِقاعي: (﴿تَدَّعُونَ﴾ أي: تَطلُبون وتُوقِعونَ الطَّلَبَ له طلبًا شديدًا، تَبلُغون فيه غايةَ =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يكونَ شُكرُه على حَسَبِ النِّعمةِ؛ ففي السَّمعِ: يَستعمِلُ السَّمعَ فيما يُقَرِّبُ إلى اللهِ، ويَمنَعُه عمَّا حَرَّمَ اللهُ، وكذلك في البَصَرِ، أمَّا القَلبُ: فيَجِبُ عليه أنْ يُعرِضَ بقَلبِه عن كُلِّ ما حَرَّمَ اللهُ، وأنْ يُقْبِلَ بقَلبِه على كُلِّ ما أَمَرَ اللهُ به[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ في ذِكرِ السَّمعِ والبَصَرِ والفُؤادِ هاهنا تَنبيهٌ على دقيقةٍ لَطيفةٍ، كأنَّه تعالى قال: أعطيتُكم هذه الإعطاءاتِ الثَّلاثةَ، معَ ما فيها مِن القُوى الشَّريفةِ، لكِنَّكم ضيَّعتُموها، فلم تَقبَلوا ما سَمِعتُموه، ولا اعتبَرْتُم بما أبصَرْتُموه، ولا تأمَّلْتُم في

= الجهدِ على وجهِ الاستعجالِ أن يَستنزِلَ بكم مَكروهَه فِعلَ مَن لا يبالي به بوجهٍ، وتُكرِّرون ذلك الطَّلَبَ، وتَعودون إليه في كلِّ وقتٍ مُعرِضينَ عن السَّعيِ في الخلاصِ فيه مِن عدوانِ العذابِ، ونَيلِ الوعدِ الحسَنِ بجزيلِ الثَّوابِ؛ لبيانِ قوَّةِ طلَبِهم له، وتَداعيهم إليه استِهزاءً به، حتَّى كأنَّهم لا مطلوبَ لهم غيرُه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٦٦).

وقال الواحديُّ: (معناه: كنتُم به تستعجلونَ، وتَدْعونَ الله بتعجيلِه). ((البسيط)) (٢٢/ ٦٣).

وممَّن قال بأنَّ المعنى: تُكَذِّبونَ: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠).

قيل: قائِلُ هذا هو اللهُ سبحانَه. ومِمَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٠٦).

وقيل: القائِلُ هم خَزَنَةُ جَهنَّمَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والماوَرْدي، والبَغَوي، والزمخشري، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٦١)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٧).

وقال ابنُ عاشور: (القائِلُ لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾: ملائِكةُ المحشَرِ، أو خَزَنَةُ جَهنَّمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠، ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٥٠).

عاقبةِ ما عَقَلْتُموه، فكأنَّكم ضيَّعتُم هذه النِّعَمَ، وأفسَدْتُم هذه المَواهِبَ؛ فلهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ شُكرَ نِعمةِ اللهِ تعالى هو أن يَصرِفَ تلك النِّعمةَ إلى وَجهِ رِضاه، وأنتم لَمَّا صَرَفتُم السَّمعَ والبَصَرَ والعَقلَ لا إلى طَلَبِ مَرضاتِه، فأنتم ما شكَرْتُم نِعمتَه البتَّةَ[١]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ذَمُّ مَن لا يَشكُرُ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ بيانُ نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى على الإنسانِ بجَعلِ السَّمعِ والأبصارِ والأفئدةِ الَّتي بها إدراكُ المعقولِ وعَقْلُه؛ فإدراكُ المعقولِ بالسَّمعِ والبَصَرِ، وعقْلُه بالقَلبِ ووَعيُه[٣].

٢- قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ الأفئدةُ: القُلوبُ، وقد ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ طريقَ الفَهْمِ ومكانَ الفَهمِ؛ فطريقُ الفَهمِ هو السَّمعُ والبَصَرُ، ومَحَلُّ الفَهمِ والوَعيِ هو القلبُ؛ ولهذا يكونُ السَّمعُ والبصَرُ كقَناتَينِ تَصُبَّانِ في القَلبِ، فيَتلقَّى ما يُسمَعُ أو يُبصَرُ، ثمَّ يَصُبَّانِ في القَلبِ، وهو محلُّ الوَعيِ والإدراكِ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بيانُ الأساليبِ الَّتي يقومُ بها دُعاةُ الباطلِ؛ حيثُ يَتَحَدَّونَ أهلَ الحقِّ بمِثْلِ هذا التَّحَدِّي، مع العِلمِ بأنَّ الوَعيدَ بالعَذابِ أو نَحوِه هو كالآياتِ تمامًا، والآياتُ عندَ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧).

٥٠]، وكذلك العَذابُ الَّذي وَعَدَتْ به الرُّسُلُ ليس هو بأيديهم حتَّى يقولوا: أرُونا العَذابَ! وإنَّما العَذابُ عندَ اللهِ تعالى؛ ولهذا كان جوابُ الرُّسُلِ بأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]، فالأمرُ ليس كُلَّما طلَبْتُم أعطَيْناكم، وإنَّما اللهُ عزَّ وجلَّ هو الَّذي يُقَدِّرُ هذه الأشياءَ، فكما أنَّ المشركينَ إذا طَلَبوا آياتٍ يُقالُ لهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، فإذا طلبوا نُزولَ العَذابِ نقولُ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]، وليس الأمرُ إلينا، وهم لا يقولون ذلك إلَّا تمويهًا على النَّاسِ وتغريرًا بالعامَّة، فيقولون: انظرْ هؤلاء يتَوعَّدونَنا إذا كَفَرنا بهم بالعَذابِ، فأين العذابُ؟! فيُؤخَذُ مِن ذلك: بيانُ أساليبِ دُعاةِ الضَّلالِ حيث يُنَوِّعونَها بكلِّ ما يستطيعونَ مِن الشِّدَّةِ لإضلالِ الخَلْقِ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّه لا يَجِبُ على مَن بَلَّغَ عنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا الإنذارُ؛ فأهلُ العِلمِ الَّذين هم وَرَثةُ الأنبياءِ لا يَملِكونَ هدايةَ الخَلْقِ، لكنْ عليهم الإنذارُ والتَّبليغُ[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وظيفتُه الإنذارُ لا الهِدايةُ[(٣)]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ المنْقَبةُ للمُنْذِرِ إذا كان مُبينًا في إنذارِه، فيَكونُ فيه مَدْحٌ للفَصاحةِ والبلاغةِ، وقد قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ مِن البَيانِ لَسِحْرًا))[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٠). =

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذا انتِقالٌ مِن تَوجيهِ اللهِ تعالَى الخِطابَ إلى المشرِكينَ للتَّبصيرِ بالحُجَجِ والدَّلائلِ، وما تَخلَّلَ ذلك مِن الوعيدِ أو التَّهديدِ؛ إلى خِطابِهم على لِسانِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يقولَ لهم ما سيُذكَرُ؛ تَفنُّنًا في البَيانِ، وتَنشيطًا للأذهانِ، حتَّى كأنَّ الكلامَ صَدَرَ مِن قائلَينِ، وتَرفيعًا لقدْرِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإعطائِه حظًّا مِن التَّذكيرِ مَعه. والانتقالُ هنا إلى الاستِدلالِ بفُروعِ المخلوقاتِ بعْدَ الاستدلالِ بأُصولِها، ومِن الاستِدلالِ بفُروعِ أعراضِ الإنسانِ بعْدَ أصْلِها، ومِن الاستِدلالِ بخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ والموتِ والحياةِ إلى الاستِدلالِ بخلْقِ الإنسانِ ومَداركِه، وقد أُتبِعَ الأمرُ بالقولِ بخَمْسةٍ مِثلِه بطَريقةِ التَّكريرِ بدُونِ عاطفٍ؛ اهتِمامًا بما بعْدَ كلِّ أمْرٍ مِن مَقالةٍ يُبلِّغُها إليهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

- وإنَّما أُفرِدَ السَّمعُ ولم يُجمَعْ كما جُمِعَ الأفئدةُ والأبصارُ؛ إمَّا لأنَّه أُريدَ منه المَصدرُ الدَّالُّ على الجِنسِ؛ إذ لا يُطلَقُ على الآذانِ سمْعٌ؛ ألَا تَرى أنَّه جَمَعَ لَمَّا ذَكَرَ الآذانَ في قولِه: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة: ١٩] وقولِه: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]، فلمَّا عبَّرَ بالسَّمعِ أُفرِدَ؛ لأنَّه مَصدرٌ، بخِلافِ الأفئدةِ والأبصارِ؛ فإنَّ الأفئدةَ مُتعدِّدةٌ، والأبصارَ جمْعُ بَصَرٍ الَّذي هو اسمٌ لا مَصدرٌ، وإمَّا لتَقديرِ مَحذوفٍ، أي: حواسَّ سَمْعِهم أو جَوارحَ

= والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٧٦٧) من حديثِ عبدِ الله بنِ عُمرَ رضيَ الله عنهما.
وأخرجه مسلمٌ (٨٦٩) مطوَّلًا من حديثِ عمَّارِ بنِ ياسرٍ رضيَ الله عنهما.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٦، ٤٧).

سَمْعِهم. وقد تكونُ في إفرادِ السَّمعِ لَطيفةٌ رُوعِيَت مِن جُملةِ بَلاغةِ القرآنِ؛ هي أنَّ الأفئدةَ كانت مُتفاوِتةً، واشتِغالَها بالتَّفكُّرِ في أمْرِ الإيمانِ والدِّينِ مُختلِفٌ باختلافِ وُضوحِ الأدِلَّةِ، وبالكثرةِ والقِلَّةِ، وتَتلقَّى أنواعًا كثيرةً مِن الآياتِ، فلِكُلِّ عقْلٍ حظُّه مِن الإدراكِ، وكانت الأبصارُ أيضًا مُتفاوِتةَ التَّعلُّقِ بالمَرئيَّاتِ الَّتي فيها دَلائلُ الوَحدانيَّةِ في الآفاقِ، وفي الأنفُسِ الَّتي فيها دَلالةٌ، فلِكُلِّ بصَرٍ حَظُّه مِن الالتِفاتِ إلى الآياتِ المُعجزاتِ والعِبَرِ والمواعظِ، فلمَّا اختَلَفَت أنواعُ ما تَتعلَّقانِ به جُمِعَت. وأمَّا الأسماعُ فإنَّما كانت تَتعلَّقُ بسَماعِ ما يُلْقى إليها مِن القرآنِ، فالجماعاتُ إذا سَمِعوا القرآنَ سَمِعوه سَماعًا مُتساويًا، وإنَّما يَتفاوَتون في تَدبُّرِه، والتَّدبُّرُ مِن عمَلِ العقولِ، فلمَّا اتَّحَدَ تَعلُّقُها بالمسموعاتِ جُعِلَت سَمْعًا واحدًا[1]. فوحَّدَ السَّمْعَ لِقلَّةِ التَّفاوُتِ فيه؛ لِيَظهَرَ سِرُّ تصَرُّفِه سُبحانَه في القُلوبِ بغايةِ المُفاوَتةِ، مع أنَّه أعظَمُ الطُّرُقِ المُوصِلةِ للمَعاني إليها، وجمَعَ الأبصارَ والأفئِدةَ لكَثرةِ التَّفاوُتِ في نُورِ الأبصارِ، وإدراكِ الأفكارِ[2].

- قَولُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ بَدَأَ بالسَّمعِ لأنَّه أشمَلُ وأعمُّ؛ لأنَّك تَسمَعُ ما لا تَراه، ولَمَّا كان أشمَلَ وأعمَّ كان الابتِلاءُ به -والحمدُ للهِ- أقلَّ، لو نَسَبْتَ الصُّمَّ إلى العُمْيِ لَوجدْتَ النِّسبةَ قليلةً؛ لأنَّ الصَّمَمَ أشدُّ، فوُجودُ السَّمعِ أهمُّ. ولم يَذْكُرْ سُبحانَه «الشَّمَّ والذَّوقَ واللَّمْسَ»؛ لأنَّ الاتِّعاظَ بالآياتِ يكونُ بالسَّمعِ والبَصَرِ[3].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ المسنَدِ إليه والمسنَدِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٥٥، ٢٥٦) و (٢٩/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٧).

أَنشَأَكُمْ﴾ إلى آخِرِه قصْرُ إفرادٍ[١]؛ بتَنزيلِ المخاطَبين -لشِرْكِهم- مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ الأصنامَ شارَكَت اللهَ في الإنشاءِ، وإعطاءِ الإحساسِ والإدراكِ[٢].

- قولُه: ﴿قَلِيلًا﴾ نَعتٌ لمحذوفٍ، و(ما) مَزيدةٌ لتأْكيدِ القِلَّةِ، أي: شُكرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا تَشْكرونَ. أو استُعمِلَ ﴿قَلِيلًا﴾ في معْنى النَّفيِ والعدَمِ، وهذا الإطلاقُ مِن ضُروبِ الكِنايةِ والاقتصادِ في الحكْمِ على طَريقةِ التَّمليحِ القَريبِ مِن التَّهكُّمِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

- إعادةُ فِعلِ ﴿قُلْ﴾ مِن قَبيلِ التَّكريرِ المُشعِرِ بالاهتمامِ بالغرَضِ المَسوقةِ فيه تلك الأقوالُ[٤].

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ. ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ الشَّرِكةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقدُ اشتراكَ اللهِ والأصنامِ في الأُلوهيَّةِ. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ إثباتَ الحُكمِ لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نَمرودُ، الَّذي اعتَقد أنَّه هو المحيي المميتُ دون اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْران، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٨).

- والقصْرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ المسنَدِ إليه والمسنَدِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قصْرُ إفرادٍ بتَنزيلِ المخاطَبين -لشِرْكِهم- مَنزلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ الأصنامَ شارَكَتَ اللهَ في ذَرْءِ الخَلْقِ في الأرضِ[١].

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، قيل: المعنى: بعْدَ أنْ أكثَرَكم في الأرضِ، فهو يُزيلُكم بمَوتِ الأجيالِ، فكُنِّيَ عن الموتِ بالحشرِ؛ لأنَّهم قد عَلِموا أنَّ الحشرَ الَّذي أُنذِروا به لا يكونُ إلَّا بعْدَ البعثِ، والبعثُ بعدَ الموتِ، فالكِنايةُ عن الموتِ بالحشْرِ بمَرتبتَينِ مِن الملازَمةِ، وقد أُدمِجَ في ذلك تَذكيرُهم بالموتِ الَّذي قدْ عَلِموا أنَّه لا بُدَّ منه، وإنذارُهم بالبعثِ والحشْرِ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على عامِلِه للحصرِ[٣]. وقيل: تَقديمُ المعمولِ في ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للاهتِمامِ، والرِّعايةِ على الفاصلةِ، وليس للاختِصاصِ؛ لأنَّهم لم يَكونوا يَدَّعون الحشْرَ أصلًا، فضْلًا عن أنْ يَدَّعوه لغيرِ اللهِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لَمَّا لم تكُنْ لهم مُعارَضةٌ للحُجَّةِ الَّتي في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ [الملك: ٢٣] إلى ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الملك: ٢٤]؛ انحصَرَ عِنادُهم في مَضمونِ قولِه: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: ٢٤]؛ فإنَّهم قدْ جَحَدوا البعثَ وأعْلَنوا بجَحْدِه، وتَعجَّبوا مِن إنذارِ القرآنِ به، وقال بَعضُهم لبعضٍ: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٧، ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٨).

يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٧، ٨]، وكانوا يَقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، واستَمرُّوا على قولِه؛ فلذلك حكاهُ اللهُ عنهم بصِيغةِ المضارعِ المُقتضيةِ للتَّكريرِ(١).

- والاستِفهامُ بقولِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ؛ لأنَّ مِن عادتِهم أنْ يَستهزِئوا بذلك، وأَتَوا بلَفظِ ﴿الْوَعْدُ﴾ استنجازًا له؛ لأنَّ شأْنَ الوعدِ الوفاءُ(٢).

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ جَوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ، أي: إنْ كنتُم صادِقينَ فيما تُخبِرونَه مِن مَجيءِ السَّاعةِ والحشرِ، فبيِّنُوا وقتَهُ(٣).

- قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أمَرَ اللهُ رسولَه بأنْ يُجيبَ سُؤالَهم بجُملةٍ على خِلافِ مُرادِهم، بلْ على ظاهرِ الاستِفهامِ عن وقْتِ الوعدِ على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ(٤)؛ بأنَّ وقْتَ هذا الوعدِ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، فقولُه: ﴿قُلْ﴾ هنا أمْرٌ بقولٍ يَختَصُّ بجَوابِ كَلامِهم، وفُصِلَ دونَ عطْفٍ لجريانِ المَقولِ في سِياقِ المُحاوَرةِ، فلم يُعطَفْ فِعلُ (قُل) بالفاءِ جرْيًا على سَننِ أمثالِه الواقعةِ في المُجاوَبةِ والمحاوَرةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦١).

(٤) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأَولى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مقتضَى الظَّاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٩).

- ولامُ التَّعريفِ في ﴿ٱلْعِلْمُ﴾ للعهْدِ، أي: العِلمُ بوقْتِ هذا الوعدِ، وهذه هي اللَّامُ الَّتي تُسمَّى عِوَضًا عن المُضافِ إليه، وهذا قصْرٌ حَقيقيٌّ[١].

- والقصْرُ في قولِه: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قصْرٌ إضافيٌّ[٢]، أي: ما أنا إلَّا نَذيرٌ بوُقوعِ هذا الوعدِ، لا أتجاوَزُ ذلك إلى كَوني عالِمًا بوقْتِه[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ الفاءُ فَصيحةٌ؛ لأنَّها اقتَضَت جُملةً مَحذوفةً تَقديرُها: فحلَّ بهم الوعدُ، فلمَّا رَأَوه... إلخ. أو جُملتَينِ مُقدَّرتينِ، كأنَّه قِيل: وقدْ أتاهم ما وُعِدوا به، فرَأَوه، فلمَّا رَأَوه...[٤].

- وفِعلُ ﴿رَأَوْهُ﴾ مُستعمَلٌ في المُستقبَلِ، وجِيءَ به بصِيغةِ الماضي لشَبَهِه بالماضي في تَحقُّقِ الوُقوعِ؛ لأنَّه صادرٌ عمَّن لا إخلافَ في أخبارِه، وأصلُ المعْنى: فإذا يَرَونه تُساءُ وُجوهُ الَّذين كَفَروا... إلخ، فعُدِلَ عن ذلك إلى صَوغِ الوعيدِ في صُورةِ الإخبارِ عن أمْرٍ وقَعَ، فجِيءَ بالأفعالِ الماضيةِ[٥].

- وقولُه: ﴿زُلْفَةً﴾ حالٌ مِن مَفعولِ ﴿رَأَوْهُ﴾؛ إمَّا بتَقديرِ المُضافِ، أيْ: ذا زُلفةٍ وقُرْبٍ، أو على أنَّه مَصدرٌ بمعْنى الفاعلِ، أي: مُزدَلِفًا، أو على أنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٩).
والقصر تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٩، ٥٠).

مَصدرٌ نُعِتَ بهِ مُبالَغةً، أي: رَأَوه شَديدَ القُربِ منهم، أي: أخَذَ يَنالُهم، أو ظَرْفٌ، أيْ: رَأَوهُ في مكانٍ ذِي زُلفةٍ(١).

- قولُه: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أُسنِدَ حُصولُ السُّوءِ إلى الوُجوهِ؛ لتَضمينِه معْنى (كَلَحَت)، أي: لأنَّه سُوءٌ شديدٌ تَظهَرُ آثارُ الانفعالِ منه على الوُجوهِ(٢).

- قولُه: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: سِيئَتْ وُجوهُهم، ووُضِعَ الموصولُ مَوضعَ ضَميرِهم؛ لذمِّهم بالكُفرِ، وتَعليلِ المَساءةِ بهِ(٣).

- وقد حُذِفَ مَفعولُ ﴿تَدَّعُونَ﴾؛ لظُهورِه مِن قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥]، أي: تَدَّعون أنَّه لا يكونُ، وذلك على قولٍ. والجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِۦ﴾ مُتعلِّقٌ بفِعلِ ﴿تَدَّعُونَ﴾؛ لأنَّه ضُمِّن معْنى (تُكذِّبون)؛ فإنَّه إذا ضُمِّن عاملٌ معْنَى عاملٍ آخَرَ يُحذَفُ مَعمولُ العاملِ المذكورِ، ويُذكَرُ مَعمولُ ضِمْنِه؛ لِيَدُلَّ المذكورُ على المحذوفِ، وذلك ضرْبٌ مِن الإيجازِ(٤).

- وتَقديمُ المجرورِ على العاملِ؛ للاهتمامِ بإخطارِه، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ(٥).

- قولُه: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ عُدِلَ عن تَعيينِ القائلِ؛ إذ المقصودُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المقولُ دونَ القائلِ، فحذْفُ القائلِ مِن الإيجازِ[١].

- والقصْرُ المستفادُ مِن تَعريفِ جُزأيِ الإسنادِ ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى﴾ تَعريضٌ بهم بأنَّهم مِن شِدَّةِ جُحودِهم بمَنزِلةِ مَن إذا رَأَوُا الوعدَ حَسِبوه شيئًا آخَرَ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٨-٣٠)

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُجِيرُ﴾: أي: يَمنَعُ ويُغيثُ، يُقالُ: أجَرْتُ فُلانًا: أي: حَميتُه ومنَعْتُه[١].

﴿غَوْرًا﴾: أي: غائِرًا ذاهِبًا في الأرضِ لا تَنالُه الدِّلاءُ، وأصلُ (غور): يدُلُّ على خُفوضٍ في الشَّيءِ وانحِطاطٍ[٢].

﴿مَّعِينٍ﴾: أي: جارٍ ظاهِرٍ على وَجهِ الأرضِ، يُقالُ: مَعَنَ الماءُ: إذا جرى. والمَعينُ: السَّهلُ الَّذي يَنقادُ ولا يَعتاصُ (يصعبُ إخراجُه)، ومُعنانُ الماءِ: مَسايِلُه ومَجاريه، وأصلُ (معن): يدُلُّ على سُهولةٍ في جَرَيانٍ، وقيل: هو مشتقٌّ مِن العينِ، ووزنُه مفعولٌ، فالميمُ زائدةٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٩٩، ٦٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

وقال النَّحَّاس: (﴿مَّعِينٍ﴾ يكونُ فَعيلًا مِن مَعَنَ الماءُ إذا كثُر، ويجوزُ أن يكونَ مفعولًا، ويكونَ الأصل فيه مَعْيونًا، مثل مَبيعٍ، ويكونَ معناه على هذا: الماءُ يُرى بالأعيُنِ). ((إعراب القرآن)) (٤/ ٣١١). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٩٩). =

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يرُدَّ على ما كان المشركونَ يَتمَنَّوْنَه بالنِّسبةِ له ولأصحابِه، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الكافِرينَ: أرأَيْتُم إن أماتَنيَ اللهُ ومَن مَعيَ مِن المؤمِنينَ بعذابٍ أو بغيرِه أو رَحِمَنا؛ فمَن يُجيرُكم أنتم مِن عَذابِه الأليمِ ما دُمتُم مُصِرِّينَ على الكُفرِ به؟!

قُلْ لهم: هو ربُّنا الرَّحمنُ آمَنَّا به، وعليه وَحْدَه اعتمَدْنا، فستَعلَمونَ عِندَ مَجيءِ العَذابِ مَن هو في ذَهابٍ بيِّنٍ عن الحَقِّ!

ثمَّ يخبرُ تعالى عن انفِرادِه بالنِّعَمِ، ومنها نِعمةُ الماءِ الَّذي يَشرَبونَه، فيقولُ: وقُلْ لهم: أَرأيتُم إن أصبَحَ ماؤُكم غائِرًا في الأرضِ، فمَن يأتيكم بماءٍ ظاهرٍ جارٍ على وَجْهِ الأرضِ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن بَذاءةِ المشرِكين أنْ يَجهَروا بتَمنِّي هَلاكِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهلاكِ مَن معه مِن المسلمينَ، وكانوا يَتآمَرون على قتْلِه؛ أمَرَه اللهُ بأنْ

= وقال ابن عطية: (المَعِين: فَعيلٌ مِن مَعَنَ الماءُ إذا كثُر، أو مفعولٌ من العَينِ، أي: جارٍ كالعَينِ، أصلُه مَعْيونٌ، وقيل هو مِن العَينِ، لكنْ مِن حيثُ يُرى بعينِ الإنسانِ، لا مِن حيثُ يُشبَّهُ بالعَينِ الجاريةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٤).

وقال الأصبهاني: (المَعِينُ: الَّذي تَراه العُيونُ، وقيل المَعِينُ: الجاري، وهو قولُ قَتادةَ والضَّحَّاكِ؛ فعلى القولِ الأوَّلِ يكونُ مفعولًا مِن العَينِ، كمَبيعٍ مِن البَيعِ ومَكيلٍ مِن الكَيلِ، وعلى القولِ الثَّاني يكونُ في تقديرِ الفاعلِ، وتكونُ ميمُه أصليَّةً، ويكونُ مِن الإمعانِ في الجَري. ويجوزُ أن يكونَ في معنَى مفعولٍ، فتكونَ الميمُ زائدةً، كأنّه قد أُجريَ عُيونًا). ((إعراب القرآن)) (ص: ٤٥٨).

يُعرِّفَهم حَقيقةً تَدحَضُ أمانِيَّهم، وهي أنَّ موتَ أحدٍ أو حياتَه لا يُغْني عن غيرِه ما جرَّه إليه عمَلُه، وقد جرَّت إليهم أعمالُهم غضَبَ اللهِ ووَعيدَه، فهو نائلُهم حَيِيَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو بادَرَه المَنونُ[1]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الَّذين يتضَجَّرونَ مِنك، ويَتمَنَّونَ هَلاكَك والمؤمِنينَ معك: أرأيتُم إن أماتَنيَ اللهُ ومَن معيَ مِن المؤمِنينَ بعَذابٍ أو غيرِه، أو رَحِمَنا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٢).

قال ابن جُزَي: (الهلاكُ هنا يحتملُ أن يُرادَ به الموتُ أو غيرُه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٧).

وقال الشَّوكاني: (أخبِروني إن أهلَكنيَ الله بموتٍ أو قتلٍ، ومَن مَعيَ مِن المؤمنينَ، أو رَحِمَنا بتأخيرِ ذلك إلى أجَلٍ. وقيل: المعنى: إنْ أهلَكنيَ اللهُ ومَن معي بالعذابِ، أو رَحِمَنا فلمْ يُعَذِّبْنا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإهلاكِ: الإماتةُ، وبالرَّحمةِ: التَّأخيرُ في الأجَلِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والقرطبي، والبيضاوي، والنَّسَفي، والعُلَيمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإهلاكِ: العذابُ، وبالرَّحمةِ: عدمُ العذابِ -وبعضُهم قال: المغفرةُ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، وابن الجوزي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٦١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٧).

وقال البِقاعي: (﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ﴾ أي: أماتَني بعذابٍ أو غيرِه، ... ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بالنُّصرةِ وإظهارِ الإسلامِ كما نرجو، فأنجانا بذلك مِن كلِّ سوءٍ، ووَقانا كلَّ مَحذورٍ، وأنالَنا كلَّ سرورٍ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٦٨).

﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: لا يَنفَعُكم وُقوعُ ما تَتمَنَّونَ لنا مِنَ الهَلاكِ؛ فسَواءٌ أهلَكَنا اللهُ أو رَحِمَنا، فلا نجاةَ لكم مِن عَذابِه الأليمِ ما دُمتُم مُصِرِّينَ على الكُفرِ به[١].

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

أي: قُلْ لهم -يا محمَّدُ-: هو ربُّنا الرَّحمنُ آمَنَّا به، وعليه وَحْدَه اعتمَدْنا[٢].

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: فستَعلَمونَ عِندَ مَجيءِ العَذابِ مَن هو في خَطَأٍ واضِحٍ وذَهابٍ بيِّنٍ عن الحَقِّ: أنحن أم أنتم[٣]؟!

قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه يَجِبُ أن يُتوكَّلَ عليه لا على غَيرِه؛ ذكَرَ الدَّليلَ عليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢، ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٧).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى العَذابَ، وهو مُطلَقٌ؛ ذكَرَ فَقْدَ ما به حياةُ النُّفوسِ، وهو الماءُ، وهو عذابٌ مَخصوصٌ(١).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾.

أي: قُلْ لهم -يا محمَّدُ-: أَرأيتُم إن أصبَحَ ماؤُكم غائِرًا في الأرضِ بحيثُ لا تَقدِرونَ على تناوُلِه أو استِخراجِه(٢).

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾.

أي: فمَن يأتيكم إذَنْ بماءٍ ظاهرٍ جارٍ على وَجْهِ الأرضِ تراه العُيونُ؟! لا يَقدِرُ على ذلك أحدٌ غيرُ اللهِ عزَّ وجلَّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مَّعِينٍ﴾ أي: ظاهِرٍ تَراه العُيونُ، وتَنالُه الأيدي والدِّلاءُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والواحديُّ -ونسَبَه لقولِ المفسِّرينَ-، والبَغَويُّ، وابن الجوزي، والرازي، والرَّسْعَني، والخازن، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٦). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، فإذا كانت هذه حالَ الرَّسولِ وحالَ مَنِ اتَّبعَه، وهي الحالُ الَّتي تتعيَّنُ للفلاحِ، وتتوقَّفُ عليها السَّعادةُ، وحالةُ أعدائِه بضِدِّها، فلا إيمانَ لهم ولا توَكُّلَ؛ عُلِم بذلك مَن هو على هدًى، ومَن هو في ضلالٍ مبينٍ[(١)].

٢- عن صالحِ بنِ أحمَدَ، قال: (كان أبي لا يَدَعُ أحدًا يَستقي له الماءَ لِوُضوئِه إلَّا هو، وكان إذا خَرجَت الدَّلوُ مَلْأَى، قال: الحمدُ لله! قُلتُ: يا أبَتِ، أيُّ شَيءٍ الفائِدةُ في هذا؟! فقال: يا بُنيَّ، أمَا سَمِعتَ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾؟!)[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فيه إفرادُ الله تعالى بالتَّوكُّلِ، ويُؤخَذُ مِن تقديمِ المعمولِ على عامِلِه؛ لأنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحصرَ، وهذه قاعِدةٌ، فلا يجوزُ التَّوكُّلُ إلَّا على اللهِ، كما قال تعالى أيضًا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

= وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ معنى ﴿مَّعِينٍ﴾: ظاهرٌ: سعيدُ بنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٩).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مَّعِينٍ﴾ جارٍ: النَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٧).

وممَّن قال به مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٩).

وقال جلال الدين المحلِّي: (جارٍ تَنالُه الأيدي والدِّلاءُ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٧).

وقال ابن كثير: (﴿مَّعِينٍ﴾ أي: نابعٌ سائحٌ جارٍ على وجهِ الأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٣).

وقال العُلَيمي: (﴿مَّعِينٍ﴾ جارٍ ظاهرٍ تَراه العُيونُ، وتَنالُه الأيدي). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

(٢) يُنظر: ((مناقب الإمام أحمد)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٢).

ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[١] [آل عمران: ١٢٢، ١٦٠].

٢- قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ التَّوكُّلُ هو الحامِلُ للأعمالِ كُلِّها، فلا تُوجَدُ ولا تَكمُلُ إلَّا به، قال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: (التَّوكُّلُ على اللهِ جِماعُ الإيمانِ)[٢].

٣- قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ إنَّ التَّوكُّلَ مِن لوازِمِ الإيمانِ ومُقتَضياتِه، وإنَّ قوَّةَ التَّوكُّلِ وضَعْفَه بحسَبِ قوَّةِ الإيمانِ وضَعفِه، وكلَّما قَوِيَ إيمانُ العبدِ كان تَوكُّلُه أقوى، وإذا ضَعُفَ الإيمانُ ضعُف التَّوكُّلُ، وإذا كان التَّوكُّلُ ضعيفًا فهو دليلٌ على ضَعفِ الإيمانِ ولا بُدَّ، واللهُ تعالى يَجمَعُ بيْنَ التَّوكُّلِ والإيمانِ، كما في قولِه أيضًا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٣] [آل عمران: ١٢٢، ١٦٠].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾، لَمَّا افتتَح -سُبحانَه- السُّورةَ بعظيمِ بَرَكَتِه، وتمامِ قُدرتِه، وتفرُّدِه في مملكتِه، ودلَّ على ذلك بتفرُّدِه بالإماتةِ والإحياءِ، ختَم بمثلِ ذلك: بالماءِ الَّذي وُجودُه هو سببٌ للحياةِ، وعدمُه سببٌ للموتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

وأثرُ سعيدِ بنِ جُبيرٍ أخرجه ابنُ أبي شيبةَ في ((المصنف)) (٣٦٤٩٠)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٤/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٧١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

- الاستِفهامُ في ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ إنكاريٌّ؛ أنكَرَ اندفاعَهم إلى أُمنيَّاتٍ ورغائبَ لا يَجتَنون منها نفْعًا، ولكنَّها ممَّا تُمْليه عليهم النُّفوسُ الخبيثةُ مِن الحقدِ والحسَدِ. والرُّؤيةُ عِلميَّةٌ، وفِعلُها مُعلَّقٌ عن العملِ؛ فلذلك لم يَرِدْ بعْدَه مَفعولاهُ، وهو مُعلَّقٌ بالاستِفهامِ الَّذي في جُملةِ جَوابِ الشَّرطِ، فتَقديرُ الكلامِ: أرأَيْتُم أنفُسَكم ناجينَ مِن عذابٍ أليمٍ إنْ هلَكْتُ وهلَكَ مَن معي؟! فهَلاكُنا لا يَدفَعُ عنكمُ العذابَ المُعَدَّ للكافِرين، وأُقحِمَ الشَّرطُ بيْن فِعلِ الرُّؤيةِ وما سدَّ مَسدَّ مَفعولَيْه[1].

- قولُه: ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾، قيل: أي: أماتَني، والإهلاكُ: الإماتةُ، والتَّعبيرُ عنه بالإهلاكِ لِما كانُوا يَدْعون عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعلى المؤمنينَ بالهلاكِ، وعلى هذا القولِ فمُقابَلةُ ﴿أَهْلَكَنِيَ﴾ بـ ﴿رَحِمَنَا﴾ يدُلُّ على أنَّ المرادَ: أو رَحِمَنا بالحياةِ، فيُفيدُ أنَّ الحياةَ رحمةٌ، وأنَّ تأْخيرَ الأجَلِ مِن النِّعَمِ[2]. وأيضًا على هذا القولِ إنَّما سمَّى الحياةَ رحمةً للرَّسولِ ولِمَن معه؛ لأنَّ في حَياتِه نِعمةً له وللنَّاسِ ما دام اللهُ مُقدِّرًا حياتَه، وحياةُ المؤمنِ رحمةٌ؛ لأنَّه تَكثُرُ له فيها بَرَكةُ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ[3].

- والاستفهامُ بقولِه: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إنكاريٌّ، أي: لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٢).

يُجيرُهم منه مُجيرٌ، أي: أظنَنْتُم أنْ تَجِدوا مُجيرًا لكم إذا هَلَكْنا؟! فذلك مُتعذِّرٌ، فماذا يَنفَعُكم هَلاكُنا[١]؟!

- والمرادُ بالكافِرين جميعُ الكافرينَ، فيَشملُ المُخاطَبينَ. والكلامُ بمَنزِلةِ التَّذييلِ، وفيه حذْفٌ، تَقديرُه: مَن يُجيرُكم مِن عذابٍ؛ فإنَّكم كافِرون، ولا مُجيرَ للكافِرين. وذُكِرَ وصْفُ الكافرين؛ لِما فيه مِن الإيماءِ إلى عِلَّةِ الحكْمِ؛ لأنَّه وصْفٌ إذا عُلِّقَ به حكْمٌ أفاد تَعليلَ ما منه اشتقاقُ الوصْفِ[٢].

وقيل: قولُه: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: فمَن يُجيرُكم، ووُضِعَ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مَوضِعَ ضَميرِهم؛ للتَّسجيلِ عليهم بالكفرِ، وتَعليلِ نَفيِ الإنجاءِ به[٣].

- وتَنكيرُ ﴿عَذَابٍ﴾ للتَّهويلِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ جاء الأمرُ بقولٍ يَقولُه لهم بمُناسَبةِ قولِه: ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ [الملك: ٢٨]؛ فإنَّه بعْدَ أنْ سوَّى بيْن فرْضِ إهلاكِ المسلمينَ وإحيائِهم في أنَّ أيَّ الحالينِ فُرِضَ لا يُجيرُهم معه أحدٌ مِن العذابِ؛ أعقَبَهُ بأنَّ المسلمينَ آمَنوا بالرَّحمنِ، فهم مَظِنَّةُ أنْ تَتعلَّقَ بهم هذه الصِّفةُ، فيَرحَمَهم اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ، فيَعلَمَ المشرِكون عِلمَ اليقينِ أيُّ الفريقينِ في ضَلالٍ حينَ يَرَون أثَرَ الرَّحمةِ على المسلمينَ، وانتِفاءَه عن المشرِكين في الدُّنيا، وخاصةً في الآخرةِ، وضَميرُ ﴿هُوَ﴾ عائدٌ إلى اللهِ تعالَى الواقعِ في الجُملةِ قبْلَه، أي: اللهُ هو الَّذي وَصْفُه الرَّحمنُ فهو يَرحَمُنا، وإنَّكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٣).

أنْكَرْتُم هذا الاسمَ، فأنتم أحرياءُ بأنْ تُحرَموا آثارَ رَحمتِه، ونحن تَوكَّلْنا عليه دونَ غيرِه، وأنتم غَرَّكم عِزُّكم، وجعَلْتُم الأصنامَ مُعتمَدَكم ووُكلاءَكم. وبهذه التَّوطئةِ يقَعُ الإيماءُ إلى الجانبِ المهْتدي والجانبِ الضَّالِّ مِن قولِه: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ لأنَّه يَظهرُ بَداءَ تأمُّلٍ أنَّ الَّذين في ضَلالٍ مُبينٍ هم الَّذين جَحَدوا وصْفَ الرَّحمنِ، وتَوكَّلوا على الأوثانِ[1].

- وخَصَّ اللهُ التَّوكُّلَ مِن بيْنِ سائرِ الأعمالِ، معَ أنَّه داخِلٌ في الإيمانِ، ومِن جُملةِ لَوازِمِه؛ لأنَّ وُجودَ الأعمالِ وكَمالَها مُتوَقِّفٌ على التَّوكُّلِ[2].

- وتَقديمُ مَعمولِ ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ عليه؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: تَوكَّلْنا عليه دونَ غيرِه؛ تَعريضًا بمُخالَفةِ حالِ المشركينَ؛ إذ تَوكَّلوا على أصنامِهم، وأشْرَكوها في التَّوكُّلِ مع اللهِ، أو نَسُوا التَّوكُّلَ على اللهِ باشتغالِ فِكرتِهم بالتَّوجُّهِ إلى الأصنامِ. وإنَّما لم يُقدَّمْ مَعمولُ ﴿ءَامَنَّا﴾ عليه، فلم يُقَلْ: (به آمَنَّا)؛ لمُجرَّدِ الاهتمامِ إلى الإخبارِ عن إيمانِهم باللهِ؛ لوُقوعِه عقِبَ وصْفِ الآخَرينَ بالكفْرِ في قولِه: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨]؛ فإنَّ هذا جوابٌ آخَرُ عن تَمنِّيهم له الهلاكَ سُلِكَ به طَريقُ التَّبكيتِ، أي: هو الرَّحمنُ يُجيرُنا مِن سُوءٍ تَرُومُونه لنا؛ لأنَّنا آمَنَّا به، ولم نَكفُرْ به كما كفَرْتُم، فلمْ يكُنِ المقصودُ في إيرادِه نفْيَ الإشراكِ وإثباتَ التَّوحيدِ؛ إذ الكلامُ في الإهلاكِ والإنجاءِ المعبَّرِ عنه بـ﴿رَحِمَنَا﴾ [الملك: ٢٨]، فجِيءَ بجُملةِ ﴿ءَامَنَّا﴾ على أصلِ مُجَرَّدِ معْناها دونَ قصْدِ الاختصاصِ، بخِلافِ قولِه: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ لأنَّ التَّوكُّلَ يَقْتضي مُنجيًا وناصرًا، والمشركون مُتوكِّلون على أصنامِهم وقوَّتِهم وأموالِهم، فقيل: نحنُ لا نَتَّكِلُ على ما أنتُم مُتَّكِلون عليه، بلْ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

الرَّحمنِ وحْدَه تَوكَّلْنا[١].

- قولُه: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (مَن) مَوصولةٌ، وماصَدَقَ[٢] (مَن) فريقٌ مُبهَمٌ مُتردِّدٌ بيْن فَريقَينِ تَضمَّنَهما قولُه: ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ [الملك: ٢٨]، وقولُه: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الملك: ٢٨]؛ فأحدُ الفريقَينِ فريقُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَن معه، والآخرُ فريقُ الكافِرين، أي: فسَتعْلَمون اتِّضاحَ الفريقِ الَّذي هو في ضَلالٍ مُبينٍ[٣].

- قولُه: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ قُرِئَ بياءِ الغائبِ[٤]، على أنْ يكونَ إخبارًا مِن اللهِ لرسولِه بأنَّه سيُعاقِبُهم عِقابَ الضَّالِّينَ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ هذا إيماءٌ إلى أنَّهم يَترقَّبُهم عَذابُ الجُوعِ بالقحْطِ والجَفافِ؛ فإنَّ مكَّةَ قَليلةُ المياهِ، ولم تكُنْ بها عُيونٌ ولا آبارٌ قبْلَ زَمزمَ[٦].

- وأصْلُ الغَورِ: ذَهابُ الماءِ في الأرضِ، مَصدرُ: غار الماءُ؛ إذا ذهَبَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٤، ٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٢).

(٢) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو الموصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يُقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٤).

(٤) وهي قِراءةُ الكِسائيِّ، وقرأها الباقونَ بالتَّاءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأرضِ، والإخبارُ به عن الماءِ مِن بابِ الوصْفِ بالمصدَرِ للمُبالَغةِ[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: لا يأْتِيكم أحدٌ بماءٍ مَعينٍ، أي: غيرُ اللهِ، واكْتُفِيَ عن ذِكرِه؛ لظُهورِه مِن سِياقِ الكلامِ، ومِن قولِه قبْلَه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك: ٢٠] الآيتَينِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ القَلَمِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ القَلَمِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ (القَلَم)[١].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

سُورةُ القَلَمِ مِن أوائلِ ما نزَلَ مِن القرآنِ الكريمِ[٢].

وهي آخِرُ سورةٍ في ترتيبِ المُصحَفِ افتُتِحَتْ بواحدٍ مِن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ[٣].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ القَلَمِ مكِّيَّةٌ[٤]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٥].

---

(١) اشتُهِرت تَسميةُ هذه السُّورةِ بسُورةِ (القَلَم)؛ لافتتاحِها بما أقسَمَ اللهُ به، وهو قولُه: ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾، وتُسمَّى سُورةَ ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ﴾ على حِكايةِ اللَّفظَينِ الواقِعَينِ في أوَّلِها، وتُسمَّى سُورةَ (ن) اقتِصارًا على الحرفِ المفردِ. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (ص: ٩٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٦).

(٤) وقيل: مِن قولِه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ ...﴾ آية (١٧) إلى قولِه: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ آية (٣٣)، ومِن قولِه: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ آية (٤٨) إلى قولِه: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ آية (٥٠) مَدَنيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١).

(٥) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١١٠).

وقال السمعاني: (هي مكِّيَّةٌ في قولِ الأكثَرينَ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

١- إبطالُ مَطاعِنِ المشركينَ في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبَيانُ ضَلالِهم[١].

٢- إثباتُ كَمالاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الدُّنيا والآخِرةِ، وتَثبيتُه[٢].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- تَحدِّي المشركينَ بهذا القُرآنِ الكريمِ.

٢- الثَّناءُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأفضَلِ أنواعِ الثَّناءِ، وتَسليتُه عمَّا أصابَه مِن أعدائِه.

٣- نهْيُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن مُداهَنةِ المشركينَ، أو مُلاينَتِهم، أو مُوافَقتِهم على مُقترَحاتِهم الماكرةِ.

٤- بَيانُ سُوءِ أخلاقِ بَعضِ الكُفَّارِ وجَزائِهم.

٥- ضَرْبُ المثَلِ لأهلِ مكَّةَ بأصحابِ الجنَّةِ؛ لَعلَّهم يَعتبِرونَ.

٦- الموازنةُ بيْن عاقِبةِ الأخيارِ والأشرارِ.

٧- تَسفيهُ المشركينَ وتَوبيخُهم، وإقامةُ الحُجَجِ عليهم، وتَهديدُهم.

٨- تُختَتَمُ السُّورةُ بتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأمْرِه بالصَّبرِ على أذى أعدائِه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١-٧)

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَسۡطُرُونَ﴾: أي: يَكتُبونَ ويَخُطُّونَ، والسَّطرُ: الصَّفُّ مِن الكِتابةِ، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ شَيءٍ[١].

﴿مَمۡنُونٖ﴾: أي: مَقطوعٍ مَنقوصٍ، وأصلُ (منن): يدُلُّ على قَطعٍ[٢].

﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾: أي: الَّذي فُتِنَ بالجُنونِ، وقيل: مَفتونٌ: بمعنى فِتنةٍ، كما يُقالُ: ليس له معقولٌ، أي: عقلٌ، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على اختبارٍ وامتحانٍ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾

قَولُه تعالى: ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾: في تعَلُّقِه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أَنْ تكونَ الباءُ سَببيَّةً،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤).

وتتعلَّقُ حينَئذٍ بمَضمونِ الجُملةِ المنفيَّةِ، والمعنى: انتفَى عنك الجُنونُ؛ بسَبَبِ نِعمةِ اللهِ عليك. الثَّاني: أنَّ الباءَ للمُلابَسةِ، تتعَلَّقُ بمحذوفٍ في مَوضِعِ نَصبٍ على الحالِ اللَّازِمةِ، والتَّقديرُ: ما أنت مجنونًا مُتلبِّسًا بنِعمةِ ربِّك الَّتي هي النُّبوَّةُ. الثَّالثُ: أنَّه مُقْسَمٌ به متوسِّطٌ بيْن اسمِ (ما) وخبَرِها، وجَوابُ القَسَمِ مَحذوفٌ لِدَلالةِ هذا المذكورِ عليه، والتَّقديرُ: ونِعمةِ ربِّك ما أنتَ بمجنونٍ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾

فيه أوجُهٌ مِنَ الإعرابِ: الأوَّلُ: ﴿بِأَيِّيكُمُ﴾: شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمحذوفٍ خَبَرٌ مقدَّمٌ. ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾: مبتدَأٌ مُؤخَّرٌ. والباءُ: ظَرفيَّةٌ بمعنى «في»، والمعنى: في أيِّ فِرقةٍ وطائفةٍ منكم المفتونُ، والمَفْتونُ: مصدرٌ جاء على مَفْعولٍ، بمعنى الفِتنةِ، أي: بأيِّكم الفِتنةُ والفَسادُ. الثَّاني: ﴿بِأَيِّيكُمُ﴾: الباءُ: حرفُ جَرٍّ زائدٌ. و«أَيِّكُم»: مبتدأٌ مجرورٌ لَفظًا مرفوعٌ محَلًّا. ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾: خبَرٌ مرفوعٌ، والمعنى: أيُّكم المفتونُ. وزِيدَت الباءُ في المُبتدَأِ كما زِيدَت في قَولِه: «بحَسْبِك دِرهَمٌ». والجملةُ كلُّها في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ لـ «يُبْصِرُون»، ولا يُوقَفُ على (يُبْصِرونَ). أو الكَلامُ تمَّ عندَ «يُبْصِرُونَ»، ثمَّ استأنفَ: ﴿بِأَيِّيكُمُ﴾. والجُملةُ استئنافيَّةٌ لا محَلَّ لها مِن الإعرابِ. الثَّالثُ: أن تكونَ «أيُّكم» مَوصولةً لا استِفهاميَّةً، وتكونَ مَفعولًا به للفِعلِ قَبْلَها، والباءُ زائِدةٌ في المفعولِ، وصدرُ الصِّلةِ محذوفٌ، والتَّقديرُ: فستُبصِرُ ويُبصِرونَ الَّذي هو المفتونُ منكم[2].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٥، ٣٩٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٩/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٧)، ((التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل)) لأبي حيان (٦/ ٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٠١)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ١٤٨).

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بأحَدِ الحُروفِ المُقَطَّعةِ ﴿نٓ﴾، ثمَّ أقسَمَ اللهُ سبحانَه بالقَلَمِ وما يَكتُبونَ على نَفيِ الجُنونِ عن نَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لتَلَبُّسِه بنِعمةِ رَبِّه عليه مِنَ الهُدى والوَحيِ، ثمَّ أخبَرَ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ له ثَوابًا عظيمًا غيرَ مَقطوعٍ أو مَنقوصٍ، وأثنَى عليه بأجمَلِ ثَناءٍ وأطْيَبِه بأنَّه على خُلُقٍ كَريمٍ، وأدَبٍ عَظيمٍ.

ثمَّ خاطَبَه تعالى قائلًا: فستَرى وتَعلَمُ -يا محمَّدُ- ويَرى كُفَّارُ قُرَيشٍ ويَعلَمونَ: أيُّكم المَفتونُ بالجُنونِ، والضَّلالِ عن الحَقِّ؟! إنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- هو أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن طريقِ الحَقِّ، وهو أعلَمُ بالمهتَدينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾.

﴿نٓ﴾.

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بهَذا الحرْفِ مِن الحُروفِ المقطَّعةِ التي تُستفتَحُ بها كَثيرٌ مِن سُوَرِ القرآنِ؛ لبَيانِ إعجازِه، حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثونَ بها[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

قال ابنُ عطية: (﴿نٓ﴾ حرفٌ مُقَطَّعٌ في قولِ الجُمهورِ مِن المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٥).

وقال ابنُ القيِّمِ: (الصَّحيحُ أنَّ «ن» و«ق» و«ص» مِن حروف الهجاءِ الَّتي يَفتتِحُ بها الرَّبُّ سُبحانَه بعضَ السُّوَرِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٠٣). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٤).

﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

أي: أُقسِمُ بالقَلَمِ وما يَكتُبونَ[(١)].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤، ٥].

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

أي: لستَ -يا محمَّدُ- بسَبَبِ ما أنعَمَ اللهُ به عليك مِنَ الهُدى والوَحيِ والنُّبوَّةِ؛ بمَجنونٍ كما يَزعُمُ المُشرِكونَ[(٢)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٥-١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٤، ٢٢٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٦-٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٠).

والقَلَمُ المذكورُ هنا: قيل: هو الَّذي خلَقَه اللهُ تعالى فأمَرَه فجرى بكتابةِ جميعِ ما هو كائِنٌ إلى يومِ القيامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٥).

قالَ الواحديُّ: (... جميع المفسِّرينَ قالوا: هو القلمُ الَّذي كُتِب به اللَّوحُ المحفوظُ). ((البسيط)) (٢٢/ ٧٣).

وقيل: المرادُ: جِنسُ القلمِ الَّذي يُكتَبُ به، فهو عامٌّ في كُلِّ قَلَمٍ مِمَّا يَكتُبُ به مَن في السَّماءِ ومَن في الأرضِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٧).

قال الماوَرْدي: (أمَّا ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ ففيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه القَلَمُ الَّذي يَكتُبونَ به؛ لأنَّه نِعمةٌ عليهم، ومَنفعةٌ لهم، فأقسَمَ بما أنعَمَ. قاله ابنُ بحر. الثَّاني: أنَّه القَلَمُ الَّذي يُكتَبُ به الذِّكرُ على اللَّوحِ المحفوظِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦٠).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: ما تَكتُبُ الملائكةُ الحَفَظةُ مِن أعمالِ بني آدمَ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: =

كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثبَّتَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فدفَعَ بُهتانَ أعدائِه؛ أعقَبَه بإكرامِه بأجْرٍ عظيمٍ على ما لَقِيَه مِن المشرِكينَ مِن أذًى بقولِه[1]:

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾.

أي: وإنَّ لك -يا محمَّدُ- لَثَوابًا عظيمًا غيرَ مَقطوعٍ أو مَنقوصٍ[2].

= ٢١٣-٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

قال الواحديُّ: (هذا جوابٌ لِقَولِهم: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، فأقسَمَ اللهُ بنُون، وبالقَلَم، وبأعمالِ بني آدمَ، فقال: ما أنت -يا محمَّدُ- بنِعمةِ رَبِّك، أي: بإنعامِه عليك بالإيمانِ والنُّبُوَّة؛ بمَجنونٍ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٣٣). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦١).

وقال ابنُ القيِّم: (المُقسَمُ عليه بالقَلَم والكتابةِ في هذه السُّورةِ تنزيهُ نَبيِّه ورَسولِه عمَّا يقولُ فيه أعداؤُه، وهو قَولُه تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، وأنت إذا طابَقْتَ بيْنَ هذا القسَم والمقسَم به وجَدْتَه دالًّا عليه أظهَرَ دَلالةٍ وأبيَنَها؛ فإنَّ ما سَطَر الكاتِبُ بالقلَمِ مِن أنواعِ العُلومِ الَّتي يتلقَّاها البشَرُ بَعضُهم عن بعضٍ لا تَصدُرُ مِن مجنونٍ، ولا تَصدُرُ إلَّا مِن عَقلٍ وافرٍ، فكيف يَصدُرُ ما جاء به الرَّسولُ مِن هذا الكتابِ الَّذي هو في أعلى دَرَجاتِ العُلومِ، بل العلومُ الَّتي تضمَّنَها ليس في قُوى البشَرِ الإتيانُ بها، ولا سيَّما مِن أُمِّيٍّ لا يقرأُ كِتابًا ولا يخُطُّ بيَمينِه؟! مع كَونِه في أعلى أنواعِ الفصاحةِ، سليمًا مِن الاختلافِ، بَريًّا مِن التَّناقُضِ، يَستحيلُ مِن العقلاءِ كلِّهم لو اجتمَعوا في صعيدٍ واحدٍ أنْ يأتوا بمِثْلِه ولو كانوا في عَقلِ رجُلٍ واحدٍ منهم، فكيف يَتأتَّى ذلك مِن مجنونٍ لا عَقْلَ له يُمَيِّزُ به ما عسى كثيرٌ مِن الحيوانِ أنْ يُمَيِّزَه؟! وهل هذا إلَّا مِن أقْبَحِ البُهتانِ، وأظْهَرِ الإفكِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير =

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا كالتَّفسيرِ لِما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ [القلم: ٢]، وتَعريفٌ لِمَن رماهُ بالجنونِ بأنَّ ذلك كذِبٌ وخطأٌ؛ وذلك لأنَّ الأخلاقَ الحميدةَ، والأفعالَ المَرْضيَّةَ كانت ظاهرةً منه، ومَن كان موصوفًا بتلك الأخلاقِ والأفعالِ لم يَجُزْ إضافةُ الجنونِ إليه؛ لأنَّ أخلاقَ المجانينِ سيِّئةٌ[١].

فبَعْدَ أنْ آنَسَ اللهُ سُبحانَه نفْسَ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالوعْدِ، عاد إلى تَسفيهِ قولِ الأعداءِ، فحقَّقَ أنَّه مُتلبِّسٌ بخُلقٍ عَظيمٍ، وذلك ضِدُّ الجُنونِ[٢].

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

أي: وإنَّك -يا محمَّدُ- لَعلى طَبعٍ كَريمٍ، وأدَبٍ عَظيمٍ بهذا الدِّينِ القويمِ، والقُرآنِ الكَريمِ[٣].

= القرطبي)) (١٨/ ٢٢٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

قال الشوكاني: (﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غيرَ مَقطوعٍ، يُقالُ: مَنَنْتُ الحبْلَ: إذا قطَعْتَه. وقال مجاهدٌ: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: غيرَ محسوبٍ. وقال الحسَنُ: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: غيرَ مُكَدَّرٍ بالمَنِّ. وقال الضَّحَّاكُ: أجرًا بغيرِ عمَلٍ. وقيل: غيرَ مُقَدَّرٍ. وقيل: غيرَ مَمنونٍ به عليك مِن جِهةِ النَّاسِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦١).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: وإنَّك يا محمَّدُ لَعلَى أدبٍ عظيمٍ، وذلك أدبُ القرآنِ الَّذي أدَّبه اللهُ به، وهو الإسلامُ وشرائعُه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٠). =

كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعن سَعدِ بنِ هِشامِ بنِ عامِرٍ، أنَّه قال لعائشةَ رضيَ الله عنها: ((يا أمَّ المؤمنينَ، أنبئِيني عن خُلُقِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قالت: ألَسْتَ تَقرَأُ القُرآنَ؟ قُلتُ: بلى. قالت: فإنَّ خُلُقَ نَبيِّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان القُرآنَ))[(١)].

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خدَمْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَشْرَ سِنينَ، واللهِ ما قال لي أُفًّا قَطُّ، ولا قال لي لشَيءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كذا؟ وهلَّا فعَلْتَ كذا!))[(٢)].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((ما ضرَبَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

= قال الشوكاني: (﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قيل: هو الإسلامُ والدِّينُ، حكى هذا الواحديُّ عن الأكثَرينَ. وقيل: هو القرآنُ، رُويَ هذا عن الحسَنِ والعَوْفيِّ. وقال قَتادةُ: هو ما كان يأتَمِرُ به مِن أمرِ اللهِ، ويَنْتَهي عنه مِن نَهيِ اللهِ. قال الزَّجَّاجُ: المعنَى: إنَّك على الخُلُقِ الَّذي أمَرَكَ اللهُ به في القُرآنِ. وقيل: هو رِفْقُه بأُمَّتِه، وإكرامُه إيَّاهم. وقيل: المعنَى: إنَّك على طبعٍ كريمٍ. قال الماوَرْديُّ: وهذا هو الظَّاهرُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٤).

قال الرَّسْعَني: (أقوالُ المفسِّرينَ فيه [أي: الخُلُقِ] تَرجِعُ إلى معنًى واحدٍ، وهو: الأخْذُ بما أُمِر به). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢١٨).

وقال الماوَرْدي: (حقيقةُ الخُلُقِ في اللُّغةِ هو ما يأخُذُ به الإنسانُ نفْسَه مِن الآدابِ، سُمِّيَ خُلُقًا؛ لأنَّه يَصيرُ كالخِلقةِ فيه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦١).

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٨)، ومسلم (٢٣٠٩) واللَّفظُ له.

وسلَّم شيئًا قَطُّ بيَدِه، ولا امرأةً، ولا خادِمًا، إلَّا أن يُجاهِدَ في سَبيلِ اللهِ))[١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((لم يكُنْ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فاحِشًا ولا مُتفَحِّشًا، وإنَّه كان يقولُ: إنَّ خيارَكم أحاسِنُكم أخلاقًا))[٢].

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

أي: فستَرى وتَعلَمُ -يا محمَّدُ-، ويرى كُفَّارُ قُرَيشٍ ويَعلَمونَ يَقينًا: مَن مِنكم المفتونُ بالجُنونِ، والضَّلالِ عن الحَقِّ[٣]؟!

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٢٨).

(٢) رواه البخاري (٦٠٣٥) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٣٢١).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٥-٦٧).

قال الرَّسْعَني: (﴿بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ قال الحسَنُ: المفتونُ: الضَّالُّ. وقال مجاهدٌ: الشَّيطانُ. وقال الضَّحَّاكُ: المجنونُ.

والباءُ زائدةٌ في قول أبي [عُبَيدةَ] وابنِ قُتَيْبَةَ... وأصليَّةٌ في قولِ الفرَّاءِ والزَّجَّاجِ، وقولِ الضَّحَّاكِ... فإن قُلْنا: الباءُ زائدةٌ، فيكونُ التَّقديرُ: أيُّكم المجنونُ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه مُجِنَ بالجنونِ، أو لِكَونِه مِن تخييلِ الجِنِّ، وهم الفُتَّانُ.

وإن قُلْنا: الباءُ أصليَّةٌ، كان «المَفْتونُ» مصدرًا، [كمَعْقُودٍ] ومَعْقُولٍ... فيكونُ التَّقديرُ: بأيِّكم الفُتُونُ، أي: الجنونُ.

وقيل: الباءُ بمعنى «في»، تقديرُه: في أيِّكم، أي: في [أيِّ] الفريقَينِ المجنونُ؛ في [فريقِك]، أو في فريقِهم؟ ومَن يَستحِقُّ هذا الاسمَ، أنتم أم هم؟). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢١٩). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٢).

ممَّن اختار أنَّ الباءَ زائدةٌ: أبو عُبَيْدةَ، والأخفشُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والواحديُّ -ونسَبَه إلى أكثَرِ المفسِّرينَ وأهلِ المعاني-، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٤)، ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٤٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((الوسيط)) =

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قولُه تعالى: ﴿بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ إخبارًا بجُنونِهم المُستلزِمِ لضَلالِهم على هذا الوجْهِ المتَّصفِ، وكان مِثلُ هذا قدْ يَقَعُ في مُحاوَراتِ النَّاسِ بضَرْبٍ مِن الظَّنِّ؛ استأنَفَ تعالَى ما هو كالتَّعليلِ لِما أفادَه السِّياقُ مِن هذا الحُكمِ عليهم، إعلامًا بأنَّه ناشئٌ عن عِلمٍ قَطعيٍّ لا مِرْيَةَ فيه بوَجْهٍ، فقال مُؤكِّدًا مِن أجْلِ إنكارِهم

= للواحدي (٤/ ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٩).

وممَّن اختار أنَّ الباءَ ليست زائدةً وأنَّها أصليَّةٌ: الفرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٤).

وقيل: في الكلامِ تقديرُ حذفِ مضافٍ، والمعنى: بأيِّكم فتنةُ المفتونِ. وقيل: فيه تقديرُ حذفِ فعلٍ، والمعنى: بأيِّكم فُتِن المفتونُ. يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٤٥١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمَفْتونِ المجنونُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨١).

وممَّن اختار أنَّ المفتونَ مصدرٌ، أي الجنونُ: الفرَّاءُ، وابنُ جرير، وجلال الدين المحلِّي، والعُلَيمي. ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٤).

وقال ابن كثير: (معنى المَفْتونِ ظاهرٌ، أي: الَّذي قد افتُتِنَ عن الحقِّ وضلَّ عنه، وإنَّما دخلَتِ الباءُ في قولِه: ﴿بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ لتدُلَّ على تضمينِ الفعلِ في قولِه: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾، وتقديرُه: فسَتَعلَمُ ويَعلَمونَ، أو: فسَتُخبَرُ ويُخبَرونَ بأيِّكم المَفْتونُ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٠).

وقال ابنُ عاشور: (المفتونُ: ... يجوزُ أن يرادَ بها هنا الجنونُ...، ويجوزُ أن يرادَ ما يَصدُقُ على المضطربِ في أمرِه، المفتونِ في عَقْلِه حَيرةً وتقلقلًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٦).

وقال البِقاعي: (﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي: بالضَّلالِ والجُنونِ، حتَّى صدَّ عن الهُدى ودينِ الحقِّ، أو بأيِّكم الفِتنةُ بالجُنونِ وغيرِه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٩٥).

لأنْ يكونَ الأمْرُ على ما أفادَهَ ما تَقدَّمَ[١]:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

أي: إنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- هو أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن طريقِ الحَقِّ، فلم يتَّبِعْ دِينَ اللهِ تعالى[٢].

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

أي: واللهُ أعلَمُ بالَّذين اهتَدَوا، فأقَرُّوا بالحَقِّ واتَّبَعوه[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قد أُمِرْنا بالتَّأسِّي بالنَّبيِّ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه، فكان مِن أهَمِّ ما يجِبُ على الأُمَّةِ مَعرفةُ تَفصيلِ إجمالِ هذه الآيةِ؛ ليَتِمَّ التَّأسِّي المطلوبُ[٤].

٢- حُسنُ الخُلُقِ قد يُرادُ به التَّخَلُّقُ بأخلاقِ الشَّريعةِ، والتَّأدُّبُ بآدابِ اللهِ الَّتي أدَّبَ بها عبادَه في كتابِه، كما قال تعالى لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وقالت عائِشةُ رضيَ الله عنها: ((كان خُلُقُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القُرآنَ))[٥]، يعني: أنَّه يتأدَّبُ بآدابِه، فيَفعَلُ أوامِرَه، ويتجَنَّبُ نواهيَه،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٠).

قال الزمخشري: (إنَّ رَبَّك هو أعلَمُ بالمجانينِ على الحقيقةِ، وهم الَّذين ضلُّوا عن سبيلِه، وهو أعلَمُ بالعُقلاءِ، وهم المهتَدونَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٤٨).

(٥) تقدَّم تخريجُه (ص: ٣٧٩).

فصار العَمَلُ بالقرآنِ له خُلُقًا كالجِبِلَّةِ والطَّبيعةِ لا يُفارِقُه، وهذا أحسَنُ الأخلاقِ وأشرَفُها وأجمَلُها. وقد قيل: إنَّ الدِّينَ كُلَّه خُلُقٌ[١].

٣- ينبغي لطالبِ العِلمِ أن يحرِصَ كلَّ الحرصِ على حُسنِ الخُلقِ، وأن يتخلَّقَ بالأخلاقِ الفاضلةِ؛ لأنَّه لا فائدةَ للعلمِ إلَّا أنْ يعمَلَ به، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾، وهذا العلم: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۞ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾[٢].

٤- حُسنُ الخُلقِ لا تخفَى في الدِّين فضيلتُه، وهو الذي مدَح الله سبحانَه به نبيَّه عليه السَّلامُ، إذ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾[٣]. والله لا يمدحُ إلَّا على الشيءِ العظيمِ[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ فيه تهديدٌ للضَّالِّينَ، ووعدٌ للمُهتَدينَ، وبيانٌ لحِكمةِ اللهِ تعالى؛ حيثُ كان يَهدي مَن يَصلُحُ للهِدايةِ دونَ غَيرِه[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿نٓ﴾ وغيرِها مِن حروفِ الهجاءِ الَّتي يَفتَتِحُ بها الرَّبُّ سُبحانَه بعضَ السُّوَرِ: تنبيهٌ على شَرَفِ هذه الحُروفِ، وعِظَمِ قَدْرِها وجلالتِها؛ إذْ هي مباني كلامِه وكُتُبِه الَّتي تَكَلَّمَ سُبحانَه بها، وأنزَلَها على رُسُلِه، وهَدَى بها عبادَه، وعَرَّفَهم بواسِطتِها نفْسَه، وأسماءَه وصِفاتِه، وأفعالَه، وأَمْرَه ونهيَه،

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (رقم اللقاء: ٦٧).

(٣) يُنظر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (٢/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار)) لعبد العزيز السلمان (٢/ ٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

ووعيدَه ووعْدَه، وعَرَّفَهم بها الخيرَ والشَّرَّ، والحَسَنَ والقَبيحَ، وأقْدَرَهم على التَّكلُّمِ بها بحيثُ يَبلُغونَ بها أقصى ما في أنفُسِهم بأسهَلِ طريقٍ، وقِلَّةِ كُلْفَةٍ ومَشَقَّةٍ، وأوصَلِه إلى المقصودِ، وأدَلِّه عليه، وهذا مِن أعظَمِ نِعَمِه عليهم، كما هو مِن أعظَمِ آياتِه؛ ولهذا عاب سُبحانَه على مَن عَبَدَ إلهًا لا يَتكلَّمُ، وامْتَنَّ على عبادِه بأنْ أقدَرَهم على البيانِ بها بالتَّكَلُّمِ، فكان في ذِكْرِ هذه الحُروفِ التَّنبيهُ على كَمالِ ربوبيَّتِه، وكمالِ إحسانِه وإنعامِه، وهي دالَّةٌ أظْهَرَ دَلالةٍ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه، وحِكمتِه وكَمالِه، وكَلامِه وصِدْقِ رُسُلِه[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ مِن فوائدِ هذا القَسَمِ أنَّ هذا القُرآنَ كِتابُ الإسلامِ، وأنَّه سيكونُ مَكتوبًا مقروءًا بيْنَ المسلمينَ؛ ولهذا كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمُرُ أصحابَه بكتابةِ ما يُوحَى به إليه[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ أُوثِرَ القَسَمُ بالقَلَمِ والكتابةِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ باعِثَ الطَّاعنينَ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واللَّامِزينَ له بالمجنونِ: إنَّما هو ما أتاهم به مِن الكتابِ[3]!

٤- حُروفُ الهِجاءِ الَّتي يَفتَتِحُ بها الرَّبُّ سُبحانه بعضَ السُّوَرِ، وهي أُحاديَّةٌ وثُنائيَّةٌ، وثُلاثيَّةٌ ورُباعيَّةٌ، وخُماسيَّةٌ، ولم تُجاوِزِ الخَمْسةَ، ولم تُذكَرُ قَطُّ في أوَّلِ سُورةٍ إلَّا وعقَّبَها بذِكرِ القرآنِ؛ إمَّا مُقسَمًا به، وإمَّا مُخبَرًا عنه، ما خَلا سُورتَينِ: سُورةَ (مريم) و(القلم)[4]، أمَّا غيرُ ذلك فلا تُذكَرُ الحروفُ المقطَّعةُ إلَّا ذُكِرَ بعْدَها التَّنويهُ بشَأنِ القُرآنِ، والرَّفعُ مِن أمْرِه؛ قال في (البقرةِ): ﴿الٓمٓ﴾ فأتْبَعَه

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٣).

بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقال في (آل عِمران): ﴿الٓمٓ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ فأتْبَعه بقولِه: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١ - ٣]، وقال في الأعرافِ: ﴿الٓمٓصٓ﴾ ثمَّ أتْبَعَه بقولِه: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، وقال في سُورةِ (يُونَس): ﴿الٓر﴾، ثمَّ أتْبَعَه بقولِه: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وقال في سُورةِ (يُوسف): ﴿الٓر﴾ ثمَّ قال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، وقال في (الرَّعد): ﴿الٓمٓر﴾ ثمَّ قال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ الآيةَ [الرعد: ١]، وقال في سُورةِ (إبراهيم): ﴿الٓر﴾ ثمَّ قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال في سُورةِ (الحِجْر): ﴿الٓر﴾ ثمَّ قال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الحجر: ١]، وهكذا في سائرِ القُرآنِ، إلَّا في سُورةِ (مَريمَ) و(القَلَم)، حيث أُتبِعَ الحروفُ المقطَّعةُ في سُورةِ (مريم) في قولِه: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ بقولِه: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ١، ٢]، وقال في (القَلَم): ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾، مع أنَّ هذه يَحتمِلُ أنَّ المرادَ بـ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ هو هذا القرآنُ العظيمُ؛ لأنَّه أعظَمُ ما يُسطَرُ، فيكونُ في (مَريم) فقطْ[1].

٥- قال تعالى: ﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾، فأقسَمَ بالقلم في كتابِه المنزَّل، على نبيِّه المرسَلِ، ووضَعه في المكانِ الرَّفيعِ، ونوَّه بذكرِه في المنصبِ الشَّريفِ، أقسَم بالقلمِ كما أقسَم بما يخطُّ بالقلمِ، وقد ذكَر الله عزَّ وجلَّ في كتابِه مِن فضيلةِ الخطِّ والإنعامِ بمنافعِ الكتابِ، ومِن ذلك قولُه لنبيِّه عليه السَّلامُ: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۞ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٣ - ٥] ولذلك قالوا:

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧، ٨).

القلمُ أحدُ اللسانين. وقالوا: القلمُ أبقَى أثرًا، واللِّسانُ أكثرُ هذرًا[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فيه تنزيهُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن رذائِلِ المُشرِكينَ ونقائِصِهم، وبيانُ الفَرقِ والبَونِ الشَّاسِعِ بيْنَه وبيْنَهم؛ ففي الوَقتِ الَّذي وصَفَه بأنَّه على خُلُقٍ عَظيمٍ، وصَفَهم بعكسِ ذلك؛ مِن كَذِبٍ، ومُداهَنةٍ، وكَثرةِ حَلِفٍ ومَهانةٍ، وهَمزٍ، ومَشْيٍ بنَميمةٍ، ومَنعٍ للخَيرِ، وعَتْلٍ، وتجبُّرٍ، واعتداءٍ وظُلمٍ، وانقِطاعِ زَنيمٍ؛ عَشرُ خِصالٍ ذَميمةٌ[٢]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ سُؤالٌ: أنَّه إذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على خُلُقٍ عظيمٍ، فما الفائِدةُ مِن قَولِه في الحَديثِ الشَّريفِ: ((اهْدِني لأحسَنِ الأخلاقِ))[٣]؟

الجوابُ مِن وجهَينِ:

أوَّلًا: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذا الحَديثِ دعا إلى ما هو أكمَلُ ممَّا أخْبَرَ اللهُ به عنه: «لأحسَنِ الأخلاقِ».

ثانيًا: أنَّ الدُّعاءَ قد يكونُ المرادُ به الثَّباتَ على أحسَنِ الأخلاقِ، وإنْ كان في الدَّاعي أصْلُ الخُلُقِ الحَسَنِ، لكنْ يَسأَلُ اللهَ أنْ يُثبِّتَه[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إثباتُ صيغةِ «أفضَل» في عِلْمِ اللهِ تعالى، ومِن الخطأِ تفسيرُ بعضِهم لـ «أعلَم»

---

(١) يُنظر: ((البيان والتبين)) للجاحظ (١/ ٨٥)، ((الحيوان)) للجاحظ (١/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٥٣).

(٣) أخرجه مسلم (٧٧١) مطوَّلًا من حديث عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٢/ ٣٨).

في القرآنِ بـ «عالِم». والرَّدُّ عليهم مِن جهتَين:

الجهةُ الأُولى: أنَّ هذا إبطالٌ لِمَا دلَّ عليه القرآنُ، والقرآنُ نزَلَ باللُّغةِ العربيَّةِ، واللُّغةُ العربيَّةُ تُفرِّقُ بيْن «أعلَم» و «عالِم».

الجهةُ الثَّانيةُ: أنَّك إذا جاءتك آيةٌ بمعنى «عالِم» فقد أثْبَتَّ العِلمَ للهِ ولغيرِه على حدٍّ سواءٍ؛ لأنَّ اللهَ عالِمٌ، ونحن أيضًا عالِمون؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، لكنْ إذا قلتَ: اللهُ أعلَمُ، فحينَئذٍ تَمَيَّزَ الخالِقُ مِن المخلوقِ، وأنَّه أعلَمُ -عزَّ وجلَّ- وهذا هو الأكمَلُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]؛ ولهذا نقولُ: اللهُ أعلَمُ وأقدَرُ وأبصَرُ وأقوى... إلى آخِرِه في الصِّفاتِ الَّتي يَشترِكُ في أصْلِها الخالِقُ والمخلوقُ، فله منها أكمَلُها وأعلاها. هذه قاعِدةٌ معروفةٌ عندَ الَّذين يَتكلَّمونَ في أسماءِ اللهِ وصِفاتِه[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ جاء في هذه السُّورةِ الإيماءُ بالحَرفِ الَّذي في أوَّلِها إلى تَحدِّي المُعانِدينَ بالتَّعجيزِ عن الإتيانِ بمِثلِ سُوَرِ القرآنِ، وهذا أوَّلُ التَّحدِّي الواقعِ في القُرآنِ نُزولًا؛ إذ ليس في سُورةِ (العلَقِ)، ولا في (المُزَّمِّلِ)، ولا في (المُدَّثِّرِ) إشارةٌ إلى التَّحدِّي ولا تَصريحٌ[(٢)].

- وقدْ أقسَمَ اللهُ تعالَى بالقلَمِ تَعظيمًا له؛ لِما في خلْقِه وتَسويتِه مِن الدَّلالةِ على الحِكمةِ العظيمةِ، ولِما فيه مِن المنافعِ والفوائدِ الَّتي لا يُحيطُ بها الوصْفُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٦/ ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٤).

- قولُه: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الضَّميرُ لأصحابِ القَلمِ المدلولِ عليهم بذِكرِه. وقيل: للقلَمِ على أنَّ المُرادَ به أصحابُه، كأنَّه قيلَ: وأصحابِ القلَمِ ومَسْطوراتِهم، على أنَّ (ما) مَوصولةٌ، أو وسَطْرِهم، على أنَّها مَصدريَّةٌ. وقيل: للقَلَم نفْسِه بإسنادِ الفعلِ إلى الآلةِ، وإجرائِه مُجْرَى العُقلاءِ؛ لإقامتِه مُقامَهم. وقيل: المُرادُ بالقلَمِ ما خَطَّ اللَّوحَ خاصَّةً، والجمْعُ للتَّعظيمِ[(١)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ أُجيبَ قولُهم وتأْكيدُهم ذلك بحرْفِ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ [القلم: ٥١]؛ بمُؤكِّداتٍ أقْوى ممَّا في كَلامِهم؛ إذ أُقسِمَ عليه، وجِيءَ بعْدَ النَّفيِ بالباءِ الَّتي تُزادُ بعْدَ النَّفيِ لتَأكيدِه، وبالجُملةِ الاسميَّةِ مَنفيَّةً؛ لدَلالةِ الجُملةِ الاسميَّةِ على ثَباتِ الخبَرِ، أي: تَحقُّقِه، فهذه ثلاثةُ مُؤكِّداتٍ[(٢)].

- قولُه: ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ قيل: هو قسَمٌ اعتُرِضَ به بيْن المحكومِ عليه والحُكْمِ على سَبيلِ التَّوكيدِ والتَّشديدِ والمُبالَغةِ في انتفاءِ الوصْفِ الذَّميمِ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٣)].

- والتَّعرُّضُ لوصْفِ الرُّبوبيَّةِ المُنبئةِ عن التَّبليغِ إلى مَعارجِ الكَمالِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لتَشريفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والإيذانِ بأنَّه تعالَى يُتِمُّ نِعمتَه عليه، ويُبلِّغُه مِن العُلوِّ إلى غايةٍ لا غايةَ وَراءَها[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٥).
ويُنظر ما تقدَّم (ص ٣٧٣ و٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١).

- والمُقسَمُ عليه نفْيُ أنْ يكونَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَجنونًا، والخِطابُ له بهذا تَسليةٌ له؛ لئلَّا يَحزُنَه قولُ المشركين لَمَّا دَعاهم إلى الإسلامِ: هو مَجنونٌ، وذلك ما شافَهُوا به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحَكاهُ اللهُ عنهم في آخِرِ السُّورةِ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ [القلم: ٥١]، وهكذا كلُّ ما ورَدَ فيه نفْيُ صِفةِ الجُنونِ عنه، فإنَّما هو ردٌّ على أقوالِ المشركين، كقولِه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ [التكوير: ٢٢]، والمقصودُ مِن نفْيِ الجُنونِ عنه إثباتُ ما قصَدَ المشركون نفْيَه؛ وهو أنْ يكونَ رسولًا مِن اللهِ؛ لأنَّهم لَمَّا نَفَوا عنه صِفةَ الرِّسالةِ وَضَعوا مَوضعَها صِفةَ الجنونِ، فإذا نُفِيَ ما زَعَموه فقدْ ثَبَتَ ما ادَّعاهُ[(١)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾

- أكَّد ذلك بحرْفِ (إنَّ)، وبلامِ الابتِداءِ، وبتَقديم المجرورِ، وهو في قولِه: ﴿لَكَ﴾[(٢)].

- قولُه: ﴿مَمۡنُونٖ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مُشتقًّا مِن: مَنِّ المُعطِي على المُعطَى: إذا عَدَّ عليه عَطاءَه وذكَرَه له، أو افتَخَرَ عليه به؛ فإنَّ ذلك يَسوءُ المُعطَى. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَمۡنُونٖ﴾ مُشتقًّا مِن قولِهم: مَنَّ الحبْلَ؛ إذا قَطَعَه، أي: أجْرًا غيرَ مَقطوعٍ عنك، وهو الثَّوابُ المُتزايدُ كلَّ يومٍ، أو أجْرًا أبدِيًّا في الآخرةِ، ولهذا كان لإيثارِ كَلمةِ ﴿مَمۡنُونٖ﴾ هنا مِن الإيجازِ بجمْعِ مَعنيينِ، بخِلافِ قولِه: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ في سُورةِ (هودٍ) [١٠٨]؛ لأنَّ ما هنا تَكرِمةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦١، ٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٦٣).

- في قولِه: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ فَنُّ المُناسَبةِ اللَّفظيَّةِ، وهي عبارةٌ عن الإتيانِ بلَفظاتٍ مُتَّزِناتٍ مُقفَّاتٍ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾

- أكَّد ذلك بثَلاثةِ مُؤكِّداتٍ -القَسَم، و(إنَّ)، واللَّام- مِثلَ ما في الجُملةِ قبْلَه[٢].

- و(على) للاستعلاءِ المُرادِ به التَّمكُّنُ، فالرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُتمكِّنٌ منه الخُلقُ العظيمُ في نفْسِه، ومُتمكِّنٌ منه في دَعوتِه الدِّينيَّةِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۞ بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾

- قولُه: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾ الفاءُ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم: ٢] باعتبارِ ما اقتَضاهُ قولُه: ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ [القلم: ٢] مِن إبطالِ مَقالةٍ قِيلَت في شأْنِه قالَها أعداؤُه في الدِّينِ؛ ابتَدَأَ بإبطالِ بُهتانِهم، وفرَّعَ عليه أنَّهم إذا نَظَروا الدَّلائلَ، وتَوسَّموا الشَّمائلَ، عَلِموا أيُّ الفريقَينِ المَفْتونُ؛ أهمْ مَفْتونون بالانصِرافِ عن الحقِّ والرُّشدِ، أمْ هو باختلالِ العقْلِ كما اختَلَقوا! والمقصودُ هو ما في قولِه: ﴿وَيُبۡصِرُونَ﴾، ولكنْ أُدمِجَ فيه قولُه: ﴿فَسَتُبۡصِرُ﴾؛ ليَتأتَّى بذِكرِ الجانبَينِ إيقاعُ كَلامٍ مُنصِفٍ -أي: داعٍ إلى الإنصافِ- على طَريقةِ قولِه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]؛ لأنَّ القرآنَ يَبلُغُ مَسامِعَهم، ويُتْلَى عليهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ١٥٩)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ٣٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٦٣، ٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٦٥).

- إنْ كان البصَرُ هنا بمعْنى العِلم، فالسِّينُ في قولِه: ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ للتَّأكيدِ، وأمَّا المشرِكون فسَيَرَوْن ذلك، أي: يَعلَمون آثارَ فُتونِهم، وذلك فيما يَرَونَه يومَ بدْرٍ ويومَ الفتحِ، وإنْ كان بمعْنى البصَرِ الحسِّيِّ، فالسِّينُ والتَّاءُ في كِلا الفِعلينِ للاستِقبالِ[١].

- وضَميرُ ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ عائدٌ إلى مَعلومٍ مُقدَّرٍ عندَ السَّامعِ، وهم المشرِكون القائلون: هو مَجْنونٌ[٢].

- قيل: تمَّ الكلامُ في قولِه: ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾، ثمَّ استأْنَفَ قوله: ﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾، فالاستفهامُ في قولِه: ﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ استفهامٌ يُرادُ به التَّردادُ بيْنَ أمْرَينِ، ومَعلومٌ نفْيُ الحكْمِ عن أحَدِهما، ويُعيِّنُه الوجودُ، وهو المؤمنُ، ليس بمَفتونٍ ولا به فُتونٌ[٣].

- والمفتونُ: اسمُ مَفعولٍ، وهو الَّذي أصابَتْه فِتنةٌ، فيَجوزُ أنْ يُرادَ بها هنا الجنونُ؛ فإنَّ الجُنونَ يُعَدُّ في كَلامِ العربِ مِن قَبيلِ الفِتنةِ؛ يَقولونَ للمَجنونِ: فتَنَتْه الجِنُّ، ويَجوزُ أنْ يُرادَ ما يَصدُقُ على المُضطربِ في أمْرِه المَفتونِ في عَقْلِه حَيرةً وتَقلقلًا، وإيثارُ هذا اللَّفظِ دونَ لَفظِ (المَجنونِ) مِن الكلامِ المُوجَّهِ (الصالح لاحتمال معنيين) أو التَّوريةِ؛ ليَصِحَّ فَرْضُه للجانبَينِ، فإنْ لم يكُنْ بَعضُ المشرِكينَ بمَنزلةِ المجانينِ الَّذين يَندفِعون إلى مُقاوَمةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بدُونِ تَبصُّرٍ يَكُنْ في فِتنةِ واضطرابِ أقوالِه وأفعالِه، كأبي جَهلٍ والوليدِ بنِ المُغيرةِ وأضْرابِهما الَّذين أغْرَوُا العامَّةَ بالطَّعنِ في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأقوالٍ مُختلِفةٍ. والباءُ على هذا الوجْهِ مَزيدةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٧).

لتَأكيدِ تَعلُّقِ الفِعلِ بمَفعولِه، والأصلُ: أيُّكم المفتونُ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الباءُ للظَّرفيَّةِ، والمعْنى: في أيِّ الفريقينِ منكم يُوجَدُ المَجنونُ، أي: مَن يَصدُقُ عليه هذا الوصفُ؟ فيَكونَ تَعريضًا بأبي جَهلِ بنِ هشامٍ والوليدِ بنِ المُغيرةِ وأضرابِهما مِن مُدَبِّري السُّوءِ على دَهْماءِ قُريشٍ بهذه الأقوالِ الشَّبيهةِ بأقوالِ المجانينِ؛ ذلك أنَّهم وَصَفوا رجُلًا مَعروفًا بيْن العقلاءِ، مَذكورًا برَجاحةِ العقلِ والأمانةِ في الجاهليَّةِ، فوَصَفُوه بأنَّه مَجنونٌ، فكانوا كمَن زعَمَ أنَّ النَّهارَ لَيلٌ، ومَن وصَفَ اليومَ الشَّديدَ البرْدِ بالحرارةِ، فهذا أشبهُ بالمجنونِ، ولذلك يُجعَلُ المَفتونُ في الآيةِ وصْفًا ادِّعائيًّا على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ مَصدرًا على وزْنِ المفعولِ، مِثل المعقولِ بمعْنى العقلِ، والمَجلودِ بمعْنى الجَلْدِ، والميسورِ لليُسْرِ، والمعسورِ لضِدِّه، وفي المَثَلِ (خُذْ مِن مَيسورِه، ودَعْ مَعسورَه). والباءُ على هذا للمُلابَسةِ في مَحلِّ خبَرٍ مُقدَّمٍ على ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾، وهو مُبتدَأٌ. ويُضمَّنُ فِعلُ (تُبصِر ويُبصِرون) معْنى: تُوقِنُ ويُوقِنونَ، على طَريقِ الكِنايةِ بفِعلِ الإبصارِ عن التَّحقُّقِ؛ لأنَّ أقْوى طُرقِ الحِسِّ البصَرُ، ويكون الإتيانُ بالباءِ للإشارةِ إلى هذا التَّضمينِ، والمعْنى: فسَتعلَمُ يَقينًا ويَعلَمون يَقينًا بأيِّكم المفتونُ، فالباءُ على أصْلِها مِن التَّعديةِ مُتعلِّقةٌ بـ (تُبصِر ويُبصِرون)[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾

- تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦]، باعتبارِ ما تَضمَّنَتْه مِن التَّعريضِ بأنَّ الجانبَ المفتونَ هو الجانبُ القائلُ له: ﴿إِنَّكَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٥، ٥٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٦، ٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٥).

لَمَجۡنُونٌ ﴾[الحجر: ٦]، وأنَّ ضِدَّه بضِدِّه هو الرَّاجحُ العقلِ، أي: الَّذي أخْبَرَك بما كنَّى عنه قولُه: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾ [القلم: ٥] مِن أنَّهم المجانينُ، هو الأعلَمُ بالفريقَين، وهو الَّذي أنْبَأَك بأنْ سيَتَّضِحُ الحقُّ لأبصارِهم، فتَعيَّنَ أنَّ المفتونَ هو الفريقُ الَّذين وَسَمُوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه مَجنونٌ، المَردودُ عليهم بقولِه تعالَى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم: ٢]؛ إذ همُ الضَّالُّون عن سَبيلِ ربِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا مَحالةَ، ويَنتظِمُ بالتَّدرُّجِ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا أقْيسةُ مُساواةٍ مُندرِجٌ بَعضُها في بَعضٍ، تَقْتضي مُساواةَ حَقيقةِ مَن ضلَّ عن سبيلِ ربِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحَقيقةِ المَفتونِ، ومُساواةَ حَقيقةِ المَفتونِ بحَقيقةِ المَجنونِ، فتُنتِجُ أنَّ فَريقَ المشرِكين هم المتَّصِفون بالجُنونِ، بقاعدةِ قِياسِ المُساواةِ: أنَّ مُساويَ المُساوي لشَيءٍ مُساوٍ لذلك الشَّيءِ. وهذا الانتقالُ تَضمَّنَ وعْدًا ووَعيدًا؛ بإضافةِ السَّبيلِ إلى اللهِ، ومُقابَلةِ مَن ضلَّ عنه بالمُهتدِينَ(١).

- وقولُه: ﴿أَعۡلَمُ﴾ قيل: هو كِنايةٌ عن جَزاءِ الفريقَينِ(٢).

- وإعادةُ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ لزِيادةِ التَّقريرِ(٣).

- وعُمومُ (مَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) وعُمومُ (الْمُهْتَدِينَ) يَجعَلُ هذه الجُملةَ مع كَونِها كالدَّليلِ هي أيضًا مِن التَّذييلِ، وهو بعْدَ هذا كلِّه تَمهيدٌ وتَوطئةٌ لقولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾(٤) [القلم: ٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٨).

الآيات (٨-١٦)

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَدُّوا۟﴾: أي: تَمَنَّوا، وأصلُ (ودد): يدُلُّ على محبَّةِ الشَّيءِ، وتمنِّي كَونِه[١].

﴿تُدْهِنُ﴾: أي: تَلينُ لهم، وتوافِقُهم، وتُصانِعُهم على باطِلِهم، والإدهانُ: اللِّينُ والمُصانَعةُ. والمُداهَنةُ: عِبارةٌ عن المُداراةِ والمُلايَنةِ، مَأخوذةٌ مِنَ الدُّهنِ؛ لِلِينِه وإملاسِه، وأصلُ (دهن): يدُلُّ على لِينٍ وسُهولةٍ[٢].

﴿هَمَّازٍ﴾: أي: عَيَّابٍ، مُغتابٍ للنَّاسِ، وهمزُ الإنسانِ: اغتيابُه، وأصلُ (همز): يدُلُّ على ضَغطٍ وعَصرٍ[٣].

﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾: أي: كثيرِ المَشيِ بالنَّميمةِ، نقَّالٍ للحَديثِ على وَجهِ الإفسادِ، والنَّمُّ: إظهارُ الحَديثِ بالوِشايةِ، ونميمٌ ونميمةٌ بمعنًى واحدٍ، وقيل: النَّميمُ جمعُ نميمةٍ، وأصلُ (مشي) هنا: يدُلُّ على حركةِ الإنسانِ وغيرِه، وأصلُ (نمم): يدُلُّ على الهَمسِ والحَركةِ الخفيفةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٦، ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن =

﴿أَثِيمٍ﴾: أي: فاجرٍ كثيرِ الإثمِ، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، واشتُقَّ الإثمُ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بطيءٌ عن الخَيرِ، مُتأخِّرٌ عنه[١].

﴿عُتُلٍّ﴾: أي: فَظٍّ، غليظٍ، جافي الخُلُقِ، وأصلُ (عتل): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ في شَيءٍ[٢].

﴿زَنِيمٍ﴾: أي: دَعِيٍّ مُلصَقٍ بالقَومِ، وليس منهم، وأصلُ (زنم): يدُلُّ على تعليقِ شَيءٍ بشَيءٍ[٣].

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: أي: أباطيلُ، جمعُ أُسطُورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلِينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ الشَّيءِ[٤].

﴿سَنَسِمُهُۥ﴾: أي: نُعَلِّمُه بعَلامةٍ يُعرَفُ بها، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على أثَرٍ ومَعْلَمٍ[٥].

= جزي)) (٢/ ٣٩٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠، ٣٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢١).

﴿ٱلْخُرْطُومِ﴾: أي: الأنْف. والرَّاءُ فيه زائِدةٌ، والأصلُ فيه الخَطْمُ، وأصلُ (خطم): يدُلُّ على تقَدُّمِ شَيءٍ في نُتُوٍّ يكونُ فيه[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

في المصدَرِ المؤَوَّلِ ﴿أَن كَانَ﴾ أوجُهٌ:

أحَدُها: أنَّه مَفعولٌ مِن أجْلِه مجرورٌ بلامٍ مُقَدَّرةٍ، واللَّامُ متعلِّقةٌ بفِعلِ النَّهيِ: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ في الآياتِ السَّابِقةِ، أي: ولا تُطِعْ مَنْ هذه صِفاتُه؛ لأَنْ كان ذا مالٍ وبَنينَ.

الثَّاني: أنَّها مُتعَلِّقةٌ بـ﴿عُتُلٍّ﴾.

الثَّالِثُ: أنَّها مُتعَلِّقةٌ بـ﴿زَنِيمٍ﴾.

الرَّابعُ: أنَّها مُتعَلِّقةٌ بمحذوفٍ يدُلُّ عليه ما بعْدَه مِنَ الجُملةِ الشَّرطيَّةِ الدَّالَّةِ على معنى التَّكذيبِ، تقديرُه: لِكَونِه مُتمَوِّلًا مُستَظْهِرًا بالبنينَ كَذَّبَ بآياتِنا[2].

المعنى الإجماليُّ:

يحذِّرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن طاعةِ المشركينَ، مبيِّنًا بعضَ صِفاتِهم القبيحةِ، فيقولُ: فلا تُطِعِ المكذِّبينَ -يا محمَّدُ- لقد تَمَنَّوا لو تَلينُ لهم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨، ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٠٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢).

قال الألوسي: (ولم يُجوَّزْ تعَلُّقُه بـ﴿قَالَ﴾ المذكورِ بَعْدُ؛ لأنَّ ما بعْدَ الشَّرطِ لا يَعمَلُ فيما قَبْلَه، ولعَلَّ مَن يقولُ باطِّرادِ التَّوَسُّعِ في الظَّرفِ يُجَوِّزُ ذلك، وكذا مَن يَجعَلُ ﴿إِذَا﴾ هنا ظَرفيَّةً). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢).

في الدِّينِ وتُوافِقُهم وتُصانِعُهم على باطِلِهم، فيَلِينونَ لك، ويُصانِعونَك، ولا تُطِعْ -يا مُحمَّدُ- كلَّ حلَّافٍ ضَعيفٍ حَقيرٍ، عيَّابٍ للنَّاسِ طَعَّانٍ فيهم، نقَّالٍ للكَلامِ السَّيِّئِ للإفسادِ بيْنَ النَّاسِ، مَنَّاعٍ لكلِّ خَيرٍ وللمالِ عن إنفاقِه في الخَيرِ، مُتَجاوزٍ للحَدِّ، كَثيرِ الإثمِ، فَظٍّ، غَليظٍ في خَلقِه وخُلُقِه، جافٍ شَديدٍ، بعْدَ ذلك الَّذي وصَفْناه به، دَعِيٍّ مُلصَقٍ في قَومٍ ليس منهم، مِن أجْلِ أنَّه كان صاحِبَ مالٍ كثيرٍ وأبناءٍ، إذا تُتلَى عليه آياتُ القُرآنِ قال مُكذِّبًا: تلك أكاذيبُ الأوَّلينَ وخُرافاتُهم!

ثمَّ توعَّد الله تعالى مَن هذه صِفاتُه، فقال: سنَجعَلُ له على أنْفِه علامةً يُعرَفُ بها بيْنَ النَّاسِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ ما عليه الكفَّارُ في أمرِ الرَّسولِ، ونِسبته إلى الجنونِ، مع الَّذي أنعَمَ الله به عليه مِن الكمالِ في أمرِ الدِّينِ والخُلقِ؛ أتْبَعه بما يَدْعوه إلى التَّشدُّدِ مع قَومِه، وقوَّى قلبَه بذلك، مع قلَّةِ العددِ، وكثرةِ الكفَّارِ، وذلك أنَّهم دَعَوْه إلى دينِ آبائِه، فنَهاه الله أن يُطيعَهم، وهذا مِن الله إلهابٌ وتهييجٌ للتَّشدُّدِ في مُخالَفَتِهم[1].

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

أي: فكما أنعَمْنا عليك -يا مُحمَّدُ- بالدِّينِ المستقيمِ والخُلُقِ العَظيمِ، لا تُطِعِ المكذِّبينَ بالحَقِّ؛ فليسُوا أهلًا لأن يُطاعوا؛ إذ لا يَأمُرونَ إلَّا بما يُوافِقُ أهواءَهم،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٣).

ولا يُريدونَ سِوى الباطِلِ[(١)].

كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾.

أي: أحَبَّ مُشرِكو قُرَيشٍ -يا مُحمَّدُ- وتَمَنَّوا لو تَلينُ لهم في الدِّينِ وتُوافِقُهم وتُصانِعُهم على باطِلِهم؛ كتَرْكِ النَّهيِ عن الشِّركِ، أو السُّكوتِ عن عَيبِ آلهتِهم، وتَسفيهِ آبائِهم، أو الرُّكونِ إلى آلهتِهم، فيَلينونَ لك أيضًا، ويُصانِعونَك فيما تَدْعوهم إليه مِنَ الحَقِّ؛ كتَركِ الطَّعنِ فيه، أو موافقَتِه، وامتِثالِ بَعْضِه[(٢)].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

قال القرطبي: (نَهاه عن مُمايَلةِ المشرِكينَ، وكانوا يَدْعونَه إلى أن يَكُفَّ عنهم لِيَكُفُّوا عنه، فبَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ مُمايلتَهم كُفرٌ!). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩٧، ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٩).

قال ابنُ جرير: (شبَّه التَّليينَ في القَولِ بتَليينِ الدُّهنِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٧).

وقال الواحديُّ: (قال الكلبيُّ: لو تُصانِعُهم في الدِّينِ فيُصانِعونَك. والمعنى: تَترُكُ بعضَ ما أنت عليه ممَّا لا يَرضَونَه؛ مُصانَعةً لهم، فيَفعَلوا مِثلَ ذلك، ويَترُكوا بعضَ ما لا تَرضى، فتَلينُ لهم ويَلينونَ. وهذا قولُ مجاهدٍ: تَركَنُ إليهم وتَترُكُ ما أنت عليه مِن الحَقِّ، فيُمالِئونَك. وهذا قولُ أكثَرِ المفَسِّرينَ، ومعنى روايةِ الوالبي عن ابنِ عبَّاسٍ). ((البسيط)) (٢٢/ ٨٠).

وقال البِقاعي: (قال ابن بَرَّجان: «والإدهانُ: مُلايَنةٌ وانجِرارٌ بالباطِلِ، وإغماضٌ عن الحَقِّ مع المعرفةِ بذلك»). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٩٨).

[الإسراء: ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١].

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نهَى اللهُ تعالى رَسولَه عن طاعةِ المكَذِّبِ وعَلَّلَه، وكان مِن النَّاسِ مَن يُخفي تكذيبَه؛ أظهَر علاماتِ المكَذِّبِ، فقال تعالى[1]:

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠﴾

أي: ولا تُطِعْ -يا مُحمَّدُ- كلَّ مُكثِرٍ للحَلِفِ، ضَعيفٍ حَقيرٍ، خَسيسِ النَّفْسِ، ناقِصِ الهِمَّةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٢).

قال ابن جرير: (ولا تُطِعْ -يا محمَّدُ- كُلَّ ذي إكثارٍ للحَلِفِ بالباطِلِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٧).

وقال الزمخشري: (﴿حَلَّافٖ﴾ كثيرِ الحَلِفِ في الحَقِّ والباطِلِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (مَن كان كثيرَ الحَلِفِ كان كثيرَ الكَذِبِ في العَهدِ، مُحتاجًا إلى النَّاسِ؛ فهو مِن أذَلِّ النَّاسِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٦٦).

وقال ابن عاشور: (قال جمْعٌ مِن المفسِّرينَ: المرادُ بالحلَّافِ المَهينِ: الوليدُ بنُ المُغيرةِ. وقال بعضُهم: الأخنسُ بنُ شَريقٍ. وقال آخَرونَ: الأسودُ بنُ عبدِ يَغوثَ. ومِن المفسِّرينَ مَن قال: المرادُ: أبو جهلٍ. وإنَّما عَنَوْا أنَّ المرادَ التَّعريضُ بواحدٍ مِن هؤلاءِ، وإلَّا فإنَّ لفظَ ﴿كُلَّ﴾ المفيدَ للعمومِ لا يَسمَحُ بأنْ يُرادَ النَّهيُ عن واحدٍ مُعَيَّنٍ، أمَّا هؤلاء فلعلَّ أربعتَهم اشترَكوا في مُعظَمِ هذه الأوصافِ، فهم ممَّن أُريدَ بالنَّهيِ عن إطاعتِه، ومَن كان على شاكلتِهم مِن أمثالِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧١). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢).

﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ١١﴾.

﴿هَمَّازٍ﴾.

أي: كَثيرِ العَيبِ للنَّاسِ، والطَّعنِ فيهم حالَ غَيبتِهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ * ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ * يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ١ - ٣].

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾.

أي: نقَّالٍ للكَلامِ السَّيِّئِ مِن بَعضِ النَّاسِ إلى بَعضٍ، بغَرَضِ الإفسادِ بيْنَهم[٢].

عن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ نمَّامٌ))[٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((مرَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحائطٍ[٤] مِن حيطانِ المدينةِ أو مكَّةَ، فسَمِعَ صَوتَ إنسانَينِ يُعذَّبانِ في قُبورِهما، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يُعَذَّبانِ، وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ! ثمَّ قال: بلى؛ كان أحدُهما لا يَستَتِرُ مِن بَولِه، وكان الآخَرُ يمشي بالنَّميمةِ. ثمَّ دعا بجَريدةٍ، فكسَرَها كِسرَتينِ، فوضَعَ على كُلِّ قبرٍ منهما كِسْرةً، فقيل له: يا رَسولَ اللهِ، لِمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

(٣) رواه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) واللَّفظُ له.

(٤) بحائطٍ: أي: بُستانٍ مِن النَّخلِ عليه جِدارٌ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١/ ٢٨٦).

فَعلْتَ هذا؟ قال: لعَلَّه أن يُخَفِّفَ عنهما ما لم تَيْبَسا، أو إلى أن يَيْبَسا))[(١)].

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾.

أي: شَديدِ المَنعِ لكلِّ خَيرٍ، بخيلٍ بالمالِ عن إنفاقِه في وُجوهِه المطلوبةِ[(٢)].

(١) رواه البخاري (٢١٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٣).

قال الرَّازيُّ في قولِه تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: (فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّ المرادَ أنَّه بخيلٌ، والخَيرُ المالُ. والثَّاني: كان يَمنعُ أهْلَه مِن الخَيرِ، وهو الإسلامُ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ المرادَ: بخيلٌ بالمالِ-: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أي: أنَّه كان يَمنعُ أهْلَه مِن الخَيرِ وهو الإسلامُ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٥).

وقال البيضاوي: (﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يَمنَعُ النَّاسَ عن الخَيرِ مِن الإيمانِ والإيقانِ والعمَلِ الصَّالحِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤).

وقال ابن عطيَّة: (وقال آخَرون: بل هو على عُمومِه في المالِ والأفعالِ الصَّالحةِ، ومَن يَمنع إيمانَه وطاعتَه لله تعالى فقد منَع الخيرَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٧).

وقال العُلَيمي: (﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ شَحيحٍ بالمالِ، والأفعالِ الصَّالحةِ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٦).

وممَّن جمَع بيْن المعاني السَّابقةِ: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٠). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١].

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾.

أي: مُتَجاوزٍ للحُدودِ[(١)]، كثيرِ الإثمِ والذُّنوبِ[(٢)].

= قال البِقاعي: (﴿مَّنَّاعٍ﴾ أي: كثيرِ المَنْعِ شَديدِه ﴿لِّلْخَيْرِ﴾ أي: كلِّ خَيرٍ؛ مِن المالِ والإيمانِ وغيرِهما، مِن نفْسِه ومِن غيرِه، مِن الدِّينِ والدُّنيا، إلى غيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠١).

وذكر ابنُ عثيمين في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ (ق) الآية (٢٥) أنَّ قولَه: ﴿لِّلْخَيْرِ﴾ لفظٌ يَشملَ كلَّ خيرٍ؛ فيَمنعُ الدَّعوةَ إلى الله، ويمنعُ بَذْلَ أموالِه فيما يُرضي اللهَ، ويَمنعُ كلَّ خَيرٍ، وكأنَّه يَلتَمِسُ كلَّ خيرٍ فيَمْنَعُه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٠).

(١) مِن المفسِّرينَ مَن قال: ﴿مُعْتَدٍ﴾: أي: مُتجاوِزٍ في الظُّلْمِ. ومنهم: الزَّجَّاجُ، والسَّمْعانيُّ، والشَّوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١).

ومنهم مَن قال: المعتدي: المُتجاوِزُ لحدودِ الأشياءِ. ومنهم: ابنُ عطيَّة، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٦).

ومنهم مَن قال: المرادُ: مُعتَدٍ على النَّاسِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

ممَّن قال: إنَّ معنى الأثيم: كثير الإثمِ: السَّمْعانيُّ، والرَّسْعَني، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٤).

وقريبٌ مِن القولِ السَّابقِ قولُ مَن قال مِن المفسِّرينَ: إنَّ الأثيمَ: الفاجرُ. وممَّن قال بهذا: السمرقنديُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٥).

وقال ابن كثير: (﴿مُعْتَدٍ﴾ في تَناوُلِ ما أحلَّ اللهُ له، يَتجاوَزُ فيه الحدَّ المشروعَ. ﴿أَثِيمٍ﴾: =

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

﴿عُتُلٍّ﴾.

أي: فَظٍّ غَليظٍ في خَلقِه وخُلُقِه، شديدِ الخصومةِ، جافٍ شَديدٍ[1].

= يَتناوَلُ المُحرَّماتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٤).

قال الرازي: (الصِّفةُ الثَّامِنةُ: العُتُلُّ. وأقوالُ المفسِّرينَ فيه كثيرةٌ، وهي محصورةٌ في أمْرَينِ: أحدُهما: أنَّه ذمٌّ في الخَلْقِ. والثَّاني: أنَّه ذَمٌّ في الخُلُقِ، وهو مأخوذٌ مِن قَولِك: عتَلَه: إذا قاده بعُنفٍ وغِلظةٍ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ [الدخان: ٤٧].

أمَّا الَّذين حَمَلوه على ذَمِّ الخَلْقِ، فقال ابنُ عبَّاسٍ في روايةِ عَطاءٍ: يُريدُ: قَويٌّ ضَخمٌ. وقال مقاتِلٌ: واسِعُ البَطنِ، وثيقُ الحلقِ. وقال الحسَنُ: الفاحِشُ الخَلْقِ، اللَّئيمُ النَّفْسِ. وقال عُبَيْدُ بنُ عُمَيرٍ: هو الأكولُ الشَّروبُ، القَويُّ الشَّديدُ. وقال الزَّجَّاج: هو الغليظُ الجافي.

أمَّا الَّذين حمَلوه على ذمِّ الأخلاقِ، فقالوا: إنَّه الشَّديدُ الخُصومةِ، الفَظُّ العَنيفُ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٨٤).

قال الواحدي: (المفسِّرون يقولونَ: هو الشَّديدُ الخَلْقِ، الفاحِشُ الخُلُقِ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٣٥).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى أنَّ قوله: ﴿عُتُلٍّ﴾ أي: جافٍ غليظٌ قاسٍ سيِّئُ الخُلقِ: الزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والعُلَيمي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

قال ابنُ تيمية: (أمَّا العُتُلُّ...: فهو الجبَّارُ الفَظُّ الغليظُ، الَّذي قد صار مِن شِدَّةِ تجَبُّرِه وغِلظِه معروفًا بالشَّرِّ، مَشهورًا به). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٦٧).

وذهب ابنُ جريرٍ والقرطبيُّ إلى أنَّه هو الجافي الشَّديدُ في كُفرِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢). =

عن حارِثةَ بنِ وَهبٍ الخُزاعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((ألَا أُخبِرُكم بأهلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ[١] مُسْتَكْبِرٍ))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال عندَ ذِكرِ أهلِ النَّارِ: ((كُلُّ جَعْظَرِيٍّ[٣] جَوَّاظٍ، مُستَكْبِرٍ، جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ))[٤].

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾.

= قال الزَّجاجُ: (جاء في التَّفسيرِ أنَّ العُتُلَّ هاهنا الشَّديدُ الخُصومةِ، وجاء في التَّفسيرِ أنَّه الجافي الخُلقِ اللَّئيمُ الضَّريبةِ، وهو في اللُّغةِ الغَليظُ الجافي). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٠٦).

وقال البِقاعي: (﴿عُتُلٍّ﴾ أي: أَكُولٍ، شديدِ الخُصومةِ، جافٍ غليظٍ في خَلْقِه وخُلُقِه، ثقيلٍ مرٍّ، كأنَّه قِطعةُ جبَلٍ قد انقطَع عن سائرِه، لا يَنجَرُّ إلى خيرٍ إلا بعُسرٍ وصُعوبةٍ وعُنفٍ، مِن عَتَلَه: إذا قاده بغِلظةٍ، فهو في غايةِ ما يكونُ مِن يبسِ الطِّباعِ، وعدَمِ الطَّواعيةِ في الخيرِ والانطباعِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠٢).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (العُتلُّ: القَويُّ البِنيةِ، الغليظُ الأعضاءِ، المُصَحَّحُ، القاسي القلْبِ، البَعيدُ الفَهمِ، الأَكُولُ الشَّروبُ، الَّذي هو باللَّيلِ جيفةٌ، وبالنَّهارِ حِمارٌ؛ فكلُّ ما عبَّر به المفسِّرون عنه مِن خِلالِ النَّقصِ، فعنْ هذه الَّتي ذَكَرْتُ تَصدُرُ، وقد ذكَرَ النَّقَّاشُ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فسَّر العُتُلَّ بنحْوِ هذا، وهذه الصِّفاتُ كثيرةُ التَّلازُمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٧).

(١) الجَوَّاظُ: قيل: هو الكثيرُ اللَّحمِ المختالُ في مَشْيِه. وقيل: هو الأكولُ. وقيل: الفاجرُ. وقيل: الجَوَّاظُ: الفَظُّ الغليظُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٦٣).

(٢) رواه البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣).

(٣) الجَعْظَريُّ: قيل: هو الفَظُّ الغليظُ. وقيل: الذي لا يَمرَضُ. وقيل: الذي يُتمدَحُ بما ليس فيه أو عندَه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٦٣).

(٤) أخرجه أحمد (٦٥٨٠) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٣٨٤٤)، والبَيْهَقيُّ في ((شعب الإيمان)) (٨١٧٢). صحَّحه الحاكمُ، وقال: (على شرطِ مُسلمٍ). وصحَّح إسنادَه ابنُ القيِّم في ((حادي الأرواح)) (١١٢)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ٨٦)، والألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٤/ ٣٢١).

أي: بعدَ ذلك الَّذي وصَفْناه به: دَعِيٍّ، مُلصَقٍ في قَومٍ ليس منهم[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩، ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٥).

قيل: معنى ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: مع ذلك. وممن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٥).

وقيل: المعنى: بعْدَ ما عُدَّ له مِن المَعايبِ والنَّقائصِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنَّسَفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١).

قال الشوكاني: (﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي: هو بعدَ ما عُدَّ مِن معايبِه زَنِيم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١).

وقال الكوراني: (﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ بعدَ ما ذُكر مِن المثالبِ دعيٌّ، لا نسبَ له، وهذا كما إذا عدَّدتَ مثالبَ إنسانٍ، ثمَّ تقولُ: وبعدَ ذلك لا يحبُّ أبا بكرٍ وعمرَ رضِي اللَّه عنهما). ((تفسير الكوراني (ص: ٢٠٨).

وقال الرازي: (قول: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ معناه: أنَّه بعْدَ ما عدَّ له مِن المَثالِبِ والنَّقائصِ فهو عُتُلٌّ زَنيمٌ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٥). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦٤).

وممَّن قال بالمعنى المذكور للزَّنيمِ في الجُملةِ: الفرَّاءُ، والزمخشريُّ، والقرطبي، والبيضاوي، وأبو حيَّان، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩، ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ المُسَيِّبِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣). =

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: مِن أجْلِ أنَّه صاحِبُ مالٍ كثيرٍ وأبناءٍ، فيَتقَوَّى بهم ويتجَبَّرُ ويتكَبَّرُ(١)!

= قال ابنُ تيميَّةَ: (له زَنَمةٌ مِن الشرِّ أي: علامةٌ يُعرفُ بها). ((الجواب الصحيح)) (٦/ ٤٨٦).

وقال ابنُ كثير: (الزَّنيمُ هو: المشهورُ بالشَّرِّ، الَّذي يُعرَفُ به مِن بيْنِ النَّاسِ، وغالِبًا يكونُ دَعِيًّا ولَدَ زِنًا؛ فإنَّه في الغالبِ يَتسَلَّطُ الشَّيطانُ عليه ما لا يتسَلَّطُ على غيرِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٤).

وقال البِقاعيُّ: (﴿زَنِيمٍ﴾ أي: صارتْ له عَلامةُ سُوءٍ وشَرٍّ، وثَناءٌ قَبيحٌ، ولَأْمةٌ بيِّنةٌ، ومَعرِفةٌ يُعرَفُ بها كما تُعرَفُ الشَّاةُ بزَنَمتِها -وهي الجِلدةُ الَّتي تكونُ تحتَ حَلْقِها مُدلاةً تَنوسُ [أي: تتحرَّكُ]-، والعبدُ بمَعايبِه وسَفسافِ أخْلاقِه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠٢، ٣٠٣).

وقال القرطبي: (مُعظَمُ المفسِّرينَ على أنَّ هذا نزل في الوليدِ بنِ المُغيرةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٥).

وقال ابنُ عاشور: (قيل: أُريدَ بالزَّنيمِ الوَليدُ بنُ المغيرةِ؛ لأنَّه ادَّعاه أبوه بعدَ ثمانِي عَشْرةَ سَنةً مِن مَولِدِه. وقيل: أُريدَ الأخنَسُ بنُ شَريقٍ؛ لأنَّه كان مِن ثَقيفٍ، فحالَفَ قُرَيشًا وحَلَّ بيْنَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٩)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٧٦٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

قال ابنُ جُزَي: (﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ في موضِعِ مَفعولٍ مِن أجْلِه يتعَلَّقُ بقَولِه: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾، أي: لا تُطِعْه بسَبَبِ كَثرةِ مالِه وبَنِيه. ويجوزُ أن يتعَلَّقَ بما بَعْدَه، والمعنى على هذا أنَّه قال في القرآنِ: أساطيرُ الأوَّلينَ؛ لأنَّه ذو مالٍ وبَنينَ، يتكبَّرُ بمالِه وبَنِيه... والأوَّلُ أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٩، ٤٠٠).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ في الجملةِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: الزَّجَّاجُ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٦، ٧٩).

قال السعدي: (هذه الآياتُ وإن كانت نزَلَت في بعضِ المشركينَ، كالوليدِ بنِ المُغيرةِ أو غيرِه؛ لِقَولِه عنه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۞ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: لأجْلِ كَثرةِ مالِه ووَلَدِه، طغى واستكبَرَ عن الحَقِّ، ودفَعَه حين جاءَه، وجعَلَه مِن جملةِ أساطيرِ الأوَّلينَ- =

كما قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١١ - ١٦].

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: إذا تُتلَى على هذا الكافِرِ آياتُ القُرآنِ قال مُكذِّبًا: تلك أكاذيبُ الأوَّلينَ وخُرافاتُهم الَّتي سَطَروها في كُتُبِهم[(١)].

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

لَمَّا ذَكَر قَبائحَ أفعالِه وأقوالِه؛ ذَكَر ما يُفعَلُ به على سَبيلِ التَّوعُّدِ، فقال[(٢)]:

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: سنَجعَلُ له على أنْفِه علامةً يُعرَفُ بها بيْن النَّاسِ[(٣)]!

= فإنَّها عامَّةٌ في كُلِّ مَن اتَّصَف بهذا الوَصفِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

وقال ابنُ عطية: (العامِلُ في ﴿أَن كَانَ﴾ فِعلٌ مُضمَرٌ تَقديرُه: كفَرَ أو جَحَد أو عَنَدَ، وتفسيرُ هذا الفِعلِ قولُه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ...﴾ الآيةَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٨).

وقال القرطبي: (قال ابنُ الأنباري: ومَن قرَأَ بلا استِفهامٍ لم يحسُنْ أن يَقِفَ على ﴿زَنِيمٍ﴾؛ لأنَّ المعنى: لِأَنْ كان وبأنْ كان، فـ﴿أَن﴾ مُتعَلِّقةٌ بما قَبْلَها. قال غيرُه: يجوزُ أن يتعلَّقَ بقَولِه: ﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾، والتَّقديرُ: يَمشي بنَميمٍ لأنْ كان ذا مالٍ وبنينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٦).

ويُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) لابن الأنباري (٢/ ٩٤٤).

وقولُه ﴿أَن﴾ قرأَه بهمزةٍ واحدةٍ على الخبرِ نافعٌ، وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو والكِسائيُّ وخَلَفٌ، وحفصٌ، وقرأه الباقونَ (ابنُ عامِرٍ وحمزةُ وأبو جَعفرٍ، ويعقوبُ، وأبو بكرٍ) بهمزتيْنِ على الاستفهامِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٣٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٠، ١٧١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٦)، ((الوجيز)) =

= للواحدي (ص: ١١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٥، ٣٠٦).

قال أبو السعود: (﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ بالْكَيِّ على أكرمِ مَواضِعِه؛ لغايةِ إهانتِه وإذلالِه، قيلَ: أصابَ أنْفَ الوليدِ جراحةٌ يومَ بدرٍ فبقيتْ علامتُها، وقيلَ: معناهُ: سنعلِّمُه يومَ القيامةِ بعلامةٍ مشوِّهةٍ يُعلَمُ بها عن سائرِ الكفرةِ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤)، ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١).

قيل: المراد: نُسَوِّدُ وجْهَه يومَ القيامةِ، فعبَّر عن الوجهِ بالأنفِ؛ لأنَّه منه. وممَّن قال بهذا في الجملة: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، والخازن، ونسَبَه الواحديُّ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو العاليةِ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٧).

قال السمرقندي: (﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ يعني: سنَضربُه على الوجهِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٢).

وقيل: سنَجعَلُ على أنفِه علامةً باقيةً في الدُّنيا بأن نَخطِمَ أنْفَه بالسَّيفِ يومَ بَدرٍ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الواحديُّ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٠).

وقال ابن قُتَيْبَةَ: (أُلحِقُ به عارًا لا يُفارِقُه في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ كالوسمِ على الخُرطومِ، وأبْيَنُ ما يكونُ الوَسمُ في الوجهِ). ((تأويل مُشْكِل القرآن)) (ص: ١٠٢)، ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٨).

وقال ابن جرير: (معنى ذلك: سنُبَيِّنُ أمْرَه بيانًا واضِحًا حتَّى يَعرِفوه، فلا يَخفى عليهم، كما لا تَخفى السِّمةُ على الخُرطومِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٠، ١٧١).

وقال ابنُ عاشور: (الوَسْمُ للإبلِ ونَحوِها: جَعلُ سِمةٍ لها أنهَّا مِن مملوكاتِ القَبيلةِ أو المالِكِ المعَيَّنِ؛ فالمعنى: سنُعامِلُه مُعامَلةً يُعرَفُ بها أنَّه عَبدُنا، وأنَّه لا يُغْني عنه مالُه وولدُه مِنَّا شَيئًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٧).

وقال البِقاعي: (لَمَّا كان هذا المذكورُ قد أغرَقَ في الشَّرِّ، فتَوقَّعَ السَّامعُ جَزاءَه؛ قال مُعلِمًا =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ أنَّه لا يجوزُ للمُؤمنِ أنْ يُداهِنَ، والمُدَاهَنةُ في الحقيقةِ أشْبَهُ ما تكونُ في وقتِنا الحاضرِ بما يُسمُّونَه بالعَلمَنةِ؛ فإنَّ العَلمانيِّينَ يقولونَ: دَعْ كلَّ إنسانٍ وشأنَه؛ الدَّولةُ دولةٌ، والدِّينُ دِينٌ؛ فالدَّولةُ لا بُدَّ أنْ تَتَّحِدَ، وأمَّا الدِّينُ فلكُلٍّ دِينُه، فلا تُنْكِرْ على الكافرِ ولا على الفاسِقِ! دَعْ كلَّ إنسانٍ يَعْمَلُ ما شاء! وهذه الآيةُ صريحةٌ في وُجوبِ الإنكارِ على الكافِرينَ كُفْرَهم، وألَّا نُداهِنَهم[1].

= أنَّه يَجعَلُ له مِن الخزْيِ والفضائحِ ما يَصيرُ به شُهرةً بيْنَ الخلائقِ في الدُّنيا والآخرةِ: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾، أي: نَجعَلُ ما يَلحَقُ به مِن العارِ في الدَّارَينِ كالوسْمِ الَّذي لا يَنْمحي أثَرُه... وَسْمًا مُستعليًا عليه بوُضوحٍ جدًّا؛ لِيَكونَ هُتْكةً بيْنَ النَّاسِ، وفَضيحةً لقَومِه وذُلًّا وعارًا، وكذا كان -لَعَمْري- له بهذا الذِّكرِ الشَّنيعِ والذَّنْبِ القبيحِ مِن الكفْرِ وما معه، وسيَكونُ له يومَ الجَمْعِ الأعظَمِ ما هو أشنَعُ مِن هذا، على أنَّه قد حُقِّقَ في الدُّنيا هذا الخَطْمُ حِسًّا بأنَّه ضُرِبَ يومَ بدْرٍ ضَربةً خَطَمَتْ أنْفَه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠٥، ٣٠٦).

وقال ابن تيمية: (وقولُه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ فيه إطلاقٌ يتضمَّنُ الوسمَ في الآخرةِ وفي الدُّنيا أيضًا). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٨).

قال ابن القيِّم: (المُداراةُ صِفةُ مدحٍ، والمُداهَنةُ صِفةُ ذمٍّ، والفرقُ بيْنَهما أنَّ المُداريَ يَتلطَّفُ بصاحِبِه حتَّى يَستَخرِجَ منه الحقَّ، أو يَرُدَّه عن الباطِلِ، والمُداهِنَ يَتلطَّفُ به لِيُقِرَّه على باطِلِه، ويَترُكَه على هَواه، فالمُداراةُ لأهلِ الإيمانِ، والمُداهَنةُ لأهلِ النِّفاقِ، وقد ضُرِبَ لذلك مثَلٌ مُطابِقٌ، وهو حالُ رجُلٍ به قَرْحةٌ قد آلَمَتْه، فجاءه الطَّبيبُ المداوي الرَّفيقُ فتعرَّفَ حالَها، ثمَّ أخَذَ في تليينِها، حتَّى إذا نَضِجَتْ أخَذَ في بَطِّها بِرِفْقٍ وسُهولةٍ حتَّى أخرَجَ ما فيها، ثمَّ وضع على مكانِها مِن الدَّواءِ والمرهمِ ما يَمنَعُ فَسادَها، ويَقطَعُ مادَّتَها، ثمَّ تابَع عليها بالمراهِمِ الَّتي تُنبِتُ اللَّحمَ، ثمَّ يَذُرُّ عليها بعْدَ نباتِ اللَّحمِ ما يُنشفُ رُطوبتَها، ثمَّ يَشُدُّ عليها الرِّباطَ، ولم يَزَلْ يُتابِعُ ذلك حتَّى صلَحَتْ. والمُداهنُ قال لصاحِبِها: لا بأْسَ عليك منها، وهذه لا شيء، فاستُرْها عن العُيوبِ بخِرقةٍ ثمَّ الْهُ عنها، فلا تَزالُ مِدَّتُها تَقْوى وتَستَحْكِمُ حتَّى عَظُمَ فَسادُها). ((الروح)) (ص: ٢٣١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ الحَلَّافُ مَن كان كثيرَ الحَلِفِ في الحَقِّ والباطِلِ -على قولٍ-، وكفى به مَزجَرةً لِمَن اعتاد الحَلِفَ[١]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ أنَّ مَن أكثَرَ الأيْمانَ، هان على الرَّحمنِ، واتَّضَعتْ مرتبتُه عندَ النَّاسِ[٢]. فلا يَنبغي للإنسانِ أنْ يُكثِرَ مِن الأيْمانِ؛ فإنَّ اللهَ ذَكَر الإكثارَ مِن الأيْمانِ بصيغةِ الذَّمِّ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۞ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۞ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۞ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ حاصِلُه أنَّ اللهَ تعالى نهى عن طاعةِ كُلِّ حَلَّافٍ كَذَّابٍ، خَسيسِ النَّفْسِ، سَيِّئِ الأخلاقِ، خُصوصًا الأخلاقَ المُتضَمِّنةَ للإعجابِ بالنَّفْسِ، والتَّكبُّرِ على الحَقِّ وعلى الخَلْقِ، والاحتِقارِ للنَّاسِ؛ كالغِيبةِ والنَّميمةِ، والطَّعنِ فيهم، وكثرةِ المعاصي، وهذه الآياتُ وإن كانت نزَلَت في بعضِ المُشرِكينَ فإنَّها عامَّةٌ في كُلِّ مَنِ اتَّصَف بهذا الوَصفِ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۞ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ التَّحذيرُ مِن النَّمَّامِ وإنْ حَلَفَ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وقَولِه: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ نَهاه عن طاعةِ هذَينِ الضَّربينِ، فكان فيه فوائِدُ:

منها: أنَّ النَّهيَ عن طاعةِ المرءِ نهيٌ عنِ التَّشَبُّهِ به بالأَولى، فلا يُطاعُ المُكَذِّبُ والحَلَّافُ، ولا يُعْمَلُ بمِثْلِ عَمَلِهما، كقَولِه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٣، ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

(٥) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٦٨٠).

[الأحزاب: ١] وأمثالِه؛ فإنَّ النَّهيَ عن قَبولِ قولِ مَن يأمُرُ بالخُلُقِ النَّاقِصِ أبلَغُ في الزَّجرِ مِن النَّهيِ عن التَّخَلُّقِ به.

ومنها: أنَّ ذلك أبلغُ في الإكرامِ والاحترامِ؛ فإنَّ قولَه: «لا تَكْذِبْ، ولا تَحْلِفْ، ولا تَشْتِمْ، ولا تَهْمِزْ» ليس هو مِثلَ قَولِه: «لا تُطِعْ مَن يكونُ مُتَلَبِّسًا بهذه الأخلاقِ»؛ لِمَا فيه مِن تشريفِه وبراءتِه.

ومنها: أنَّ الأخلاقَ مُكتَسَبةٌ بالمعاشَرةِ؛ ففيه تحذيرٌ عنِ اكتسابِ شيءٍ مِن أخلاقِهم بالمُخالَطةِ لهم، فلْيأخُذْ حِذْرَه؛ فإنَّه مُحتاجٌ إلى مُخالَطَتِهم مِن أجْلِ دَعوتِهم إلى اللهِ تعالى.

ومنها: أنَّهم يُبدونَ مَصالحَ فيما يأمُرونَ به؛ فلا تُطِعْ مَن كان هكذا ولو أَبْداها؛ فإنَّ الباعثَ لهم على ما يأمُرونَ به هو ما في نُفوسِهم مِن الجَهلِ والظُّلمِ، وإذا كان الأصلُ المقتضي للأمرِ فاسِدًا لم يُقبَلْ مِن الآمِرِ؛ فإنَّ الأمرَ مَدَارُه على العِلمِ بالمصلحةِ وإرادتِها، فإذا كان جاهِلًا لم يَعلَمِ المصلحةَ، وإذا كان الخُلُقُ فاسِدًا لم يُرِدْها، وهذا مَعنًى بليغٌ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عُتُلٍّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾، أي: بعَدْ ما عُدَّ له مِن المَثالِبِ والنَّقائِصِ؛ فهو عُتُلٌّ زَنيمٌ -على قولٍ-، وهذا يدُلُّ على أنَّ هذَينِ الوصفَينِ -وهو كَونُه عُتُلًّا زَنيمًا- أشَدُّ مَعايبِه؛ لأنَّه إذا كان جافيًا غليظَ الطَّبعِ، قَسا قَلْبُه، واجترَأَ على كُلِّ مَعصيةٍ، ولأنَّ الغالبَ أنَّ النُّطفةَ إذا خبُثَتْ خبُثَ الولدُ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ أنَّه سبحانَه لا بُدَّ أنْ يَسِمَ صاحِبَ هذه

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٥).

الأخلاقِ الخَبيثةِ على خُرطومِه -وهو أنْفُه الَّذي هو عُضوه البارزُ الَّذي يَسبقُ البصرُ إليه عندَ مُشاهَدتِه-؛ لِتَكونَ السِّيما ظاهِرةً مِن أوَّلِ ما يُرَى، وهذا ظاهِرٌ في الفَجَرةِ الظَّلَمةِ الَّذين وَدَعَهم النَّاسُ اتِّقاءَ شَرِّهم وفُحْشِهم؛ فإنَّ لهم سِيما مِن شَرٍّ يُعرَفونَ بها، وكذلك الفَسَقةُ وأهلُ الرِّيبِ[1].

٣- قال الله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ لَمَّا كان الوَسمُ مُنكِئًا، وكان جَعْلُه في موضِعٍ لا يُستَرُ أنكأَ، وكان الوَجهُ أشرَفَ ما في الإنسانِ، وكان أظهَرُ ما فيه وأكرَمُه الأنفَ؛ ولذلك جَعَلوه مكانَ العِزِّ والحَمِيَّةِ، واشتَقُّوا منه الأَنَفةَ- قال: ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ الخُرْطومُ: الأنفُ، وإنَّما ذُكِرَ هذا اللَّفظُ على سَبيلِ الاستِخفافِ به؛ لأنَّ التَّعبيرَ عن أعضاءِ النَّاسِ بالأسماءِ الموضوعةِ لأشباهِ تلك الأعضاءِ مِن الحيواناتِ: يكونُ استِخفافًا! كما يُعبَّرُ عن شِفاه النَّاسِ بالمشافِرِ، وعن أيديهم وأرجُلِهم بالأظلافِ والحوافِرِ[3].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾، استُدِلَّ به على ضَعفِ القَولِ بـ(واوِ الثَّمانيةِ)، فقد وصَفَه بأوصافٍ تِسعةٍ، ولم يُدخِلْ بيْنَها واوَ العَطفِ، ولا بعْدَ السَّابعِ[4].

٦- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ فذكَرَ أرْبَعَ آياتٍ، كُلُّ آيَتيْنِ جَمَعَت نَوعًا مِن

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٩).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٠٧-٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٦).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٩). ويُنظر أيضًا: ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام (ص: ٤٧٤-٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٢) و(٢٨/ ٣٦٢-٣٦٤).

الأخْلاقِ الفاسِدةِ المَذمُومةِ، وجَمَعَ في كُلِّ آيةٍ بيْنَ النَّوعِ المُتَشابِه خَبرًا وطَلبًا؛ فالحَلَّافُ مَقْرونٌ بالمَهينِ؛ لأنَّ الحَلَّافَ هو كثيرُ الحَلِفِ، وإنَّما يكونُ على الخَبَرِ أو الطَّلَبِ، فهو إمَّا تَصْديقٌ أو تَكْذيبٌ، أو حَضٌّ أو مَنْعٌ، وإنَّما يُكثِرُ الرَّجلُ ذلك في خَبَرِه إذا احتاج أنْ يُصَدَّقَ ويُوثَقَ بخَبَرِه. ومَن كان كثيرَ الحَلِفِ كان كثيرَ الكذِبِ في العَهدِ مُحتاجًا إلى النَّاسِ؛ فهو مِن أذَلِّ النَّاسِ ﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾؛ حَلَّافٌ في أقْوالِه، مَهينٌ في أفْعالِه. وأمَّا الهَمَّازُ المَشَّاءُ بِنَمِيمٍ: فالهَمْزُ أقْوَى مِن اللَّمْزِ وأشدُّ -سَواءٌ كان هَمْزَ الصَّوتِ أو هَمْزَ حَرَكةٍ-. فالهَمَّازُ المُبالِغُ في العَيبِ نَوعًا وقَدْرًا. والمَشَّاءُ بِنَمِيمٍ هو مِن العَيبِ، ولكنَّه عَيبٌ في القَفَا، فهو عَيبُ الضَّعيفِ العاجِزِ؛ فذَكَر العَيَّابَ بالقُوَّةِ، والعَيَّابَ بالضَّعْفِ، والعَيَّابَ في مَشهَدٍ، والعَيَّابَ في مَغيبٍ.

وأمَّا ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ فإنَّ الظُّلْمَ نَوعانِ: تَرْكُ الواجِبِ، وهو مَنْعُ الخَيرِ وتَعَدٍّ على الغَيرِ، وهو المُعْتَدِي. وأمَّا الأثيمُ مع المُعْتَدِي فكقَولِه: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

وأمَّا العُتُلُّ الزَّنيمُ: فهو الجَبَّارُ الفَظُّ الغَليظُ الَّذي قدْ صار مِن شِدَّةِ تجَبُّرِه وغِلَظِهِ مَعْروفًا بالشَّرِّ مَشهُورًا به لهُ زَنَمةٌ كزَنَمةِ الشَّاةِ. ويُشْبِهُ -واللهُ أعلَمُ- أنْ يكونَ الحَلَّافُ المَهينُ الهَمَّازُ المَشَّاءُ بِنَميمٍ مِن جِنْسٍ واحدٍ، وهو في الأقوالِ وما يَتْبَعُها مِن الأفْعالِ، والمَنَّاعُ المُعْتَدِي الأثيمُ العُتُلُّ الزَّنيمُ مِن جِنْسٍ، وهو في الأفعالِ وما يَتبَعُها مِن الأقوالِ. فالأوَّلُ الغالِبُ على جانِبِ الأعْراضِ، والثَّاني الغالِبُ على جانِبِ الحُقُوقِ في الأحوالِ والمَنافِعِ، ونَحوِ ذلك. ووَصَفَه بالظُّلْمِ والبُخلِ والكِبْرِ كما في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ﴿ٱلَّذِينَ

يَبۡخَلُونَ﴾ الآيةَ[١] [النساء: ٣٦، ٣٧].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۞ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ لتَرتيبِ النَّهْيِ على جَميعِ ما فُصِّلَ مِن أوَّلِ السُّورةِ، أو على ما يُنبِئُ عنه ما قبْلَه مِن اهتدائِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وضَلالِهم[٢]. فهو تَفريعٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القلم: ٧] إلى آخِرِها، باعتبارِ ما تَضمَّنَتْه مِن أنَّه على الهُدى، وأنَّ الجانبَ الآخَرَ في ضَلالِ السَّبيلِ؛ فإنَّ ذلك يَقْتضي المُشادَّةَ معهم، وألَّا يَلينَ لهم في شَيءٍ؛ فإنَّ أذاهُم إيَّاه آلَ إلى مُحارَبةِ الحقِّ والهُدى، وتَصلُّبٍ فيما همْ عليه مِن الضَّلالِ عن سَبيلِ اللهِ، فلا يَستأهِلونَ به لِينًا، ولكنْ يَستأهِلون إغلاظًا، وليس المرادُ أنَّهم وَدُّوا ذلك في نُفوسِهم فأطْلَعَ اللهُ عليه رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لعدَمِ مُناسَبتِه لقولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وقد ورَدَ أنَّ المشركينَ تقدَّموا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمِثلِ هذا العرْضِ، ووسَّطوا في ذلك عمَّه أبا طالبٍ وعُتبةَ بنَ رَبيعةَ، فيَنتظِمُ مِن هذا أنَّ قولَه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ نهْيٌ عن إجابتِهم إلى شَيءٍ عَرَضُوه عليه عندَ ما قَرَعَهم بأوَّلِ هذه السُّورةِ، وبخاصَّةٍ مِن وقْعِ معْنى التَّعريضِ البديعِ المَمزوجِ بالوعيدِ بسُوءِ المُستقبَلِ مِن قولِه: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۞ بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ إلى قولِه: ﴿بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[٣] [القلم: ٥- ٧].

- وهو تَهييجٌ وإلهابٌ للتَّصميمِ على مُعاصاتِهم، أيْ: دُمْ على ما أنت عليه

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٨).

مِن عدَمِ طاعتِهم وتَصلَّبْ في ذلك، أو نهْيٌ عن مُداهنَتِهم ومُداراتِهم بإظهارِ خِلافِ ما في ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم استجلابًا لقُلوبِهم لا عن طاعتِهم، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالَى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ﴾؛ فإنَّه تَعليلٌ للنَّهي أو الانتهاءِ، وإنَّما عبَّر عنها بالطَّاعةِ؛ للمُبالَغةِ في الزَّجرِ والتَّنفيرِ، أيْ: أحَبُّوا لو تُلاينُهم وتُسامِحُهم في بَعضِ الأمورِ فيُدهِنون[١].

- ووُقوعُ فِعلِ ﴿تُطِعِ﴾ في حيِّزِ النَّهيِ يَقْتضي النَّهيَ عن جِنسِ الطَّاعةِ لهم، فيَعُمُّ كلَّ إجابةٍ لطَلَبٍ منهم[٢].

- واختِيرَ تَعريفُهم بوصْفِ ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ دونَ غيرِه مِن طُرقِ التَّعريفِ؛ لأنَّه بمَنزلةِ الموصولِ في الإيماءِ إلى وجْهِ بِناءِ الحُكمِ، وهو حُكمُ النَّهيِ عن طاعتِهم؛ فإنَّ النَّهيَ عن طاعتِهم لأنَّهم كذَّبوا رِسالتَه، ومِن هنا يتَّضِحُ أنَّ جُملةَ ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ بَيانٌ لمُتعلَّقِ الطَّاعةِ المَنهيِّ عنها؛ ولذلك فُصِلَت ولم تُعطَفْ[٣].

- وحرْفُ (لو) يَحتمِلُ أنْ يكونَ شَرطيًّا، ومَفعولُ (وَدَّ) مَحذوفًا، ويكونَ فِعلُ ﴿تُدۡهِنُ﴾ شَرْطًا، وأنْ يكونَ جَوابُ الشَّرطِ مَحذوفًا، ويكونَ التَّقديرُ: ودُّوا إدْهانَكَ، لو تُدهِنُ لحَصَل لهم ما يَوَدُّون، أو لَسُرُّوا بذلك. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ (لوْ) حَرفًا مَصدريًّا مِثلَ (أنْ)، فيكونَ التَّقديرُ: وَدُّوا إدهانَك، فهم الآنَ يُدهِنونَ لطمعِهم في إدهانِك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢، ١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير =

- والفاءُ في ﴿فَيُدۡهِنُونَ﴾ للعطْفِ والتَّسبُّبِ عن جُملةِ ﴿لَوۡ تُدۡهِنُ﴾ جَوابًا لمعْنى التَّمنِّي المدلولِ عليه بفِعلِ ﴿وَدُّواْ﴾، لقَصدِ بَيانِ سَببِ وَدادتِهم ذلك، فلذلك لم يُنصَبِ الفعلُ بعْدَ الفاءِ بإضمارِ (أنْ)؛ لأنَّ فاءَ السَّببيَّةِ كافيةٌ في إفادةِ ذلك، فالكلامُ بتَقديرِ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: فهمْ يُدهِنونَ، وسُلِكَ هذا الأسلوبُ ليَكونَ الاسمُ المقدَّرُ مُقدَّمًا على الخبرِ الفِعليِّ، فيُفيدَ معْنى الاختصاصِ، أي: فالإدهانُ منهم لا منك، أي: فاتْرُكِ الإدهانَ لهم، ولا تَتخلَّقْ أنت به، وهذه طَريقةٌ في الاستِعمالِ إذا أُريدَ بالتَّرتُّباتِ أنَّه ليس تَعليقَ جَوابٍ، وقدْ يُفيدُ مَوقعُ الفاءِ تَعليلًا لمَودَّتِهم منه أنْ يُدهِنَ، أي: وَدُّوا ذلك منك لأنَّهم مُدهِنون، وصاحبُ النِّيَّةِ السَّيِّئةِ يَوَدُّ أنْ يكونَ النَّاسُ مِثلَه[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۞ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۞ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۞ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ إعادةُ فِعلِ النَّهيِ عن الطَّاعةِ لِمَن هذه صِفاتُهم؛ للاهتمامِ بهذا الأدَبِ، فلم يُكتَفَ بدُخولِ أصحابِ هذه الأوصافِ في عُمومِ المكذِّبين، ولا بتَخصيصِهم بالذِّكرِ بمُجرَّدِ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ، بأنْ يُقالَ: ولا كلَّ حلَّافٍ، بل جِيءَ في جانبِهم بصِيغةِ نهْيٍ أُخرى مُماثِلةٍ للأُولى، وليُفيدَ تَسليطَ الوعيدِ الخاصِّ -وهو في مَضمونِ قولِه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ [القلم: ١٦]- على أصحابِ هذه الصِّفاتِ الخاصَّةِ

= أبي السعود)) (٩/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٩، ٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٩، ٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧١).

زِيادةً على وَعيدِ المُكذِّبين[١].

- وكَلمةُ (كُلّ) مَوضوعةٌ لإفادةِ الشُّمولِ والإحاطةِ لأفرادِ الاسمِ الَّذي تُضافُ هي إليه، فهي هنا تُفيدُ النَّهيَ العامَّ عن طاعةِ كلِّ فرْدٍ مِن أفرادِ أصحابِ هذه الصِّفاتِ الَّتي أُضِيفَ إليها (كُلّ) بالمباشَرةِ وبالنُّعوتِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ تَقديمُ هذا الوصْفِ على سائرِ الأوصافِ الزَّاجرةِ عن الطاعةِ؛ لِكَونِه أدخلَ في الزَّجرِ[٣]، وكَفى بكَثرةِ الحلِفِ سُوءَ خُلقٍ وعَيبًا أنَّه قدَّمَه على جَميعِ العيوبِ، وفيه تَعظيمٌ للحَلِفِ، وبيانُ أنَّها أقبَحُ مَعايِبِه وأعظَمُها[٤].

- وقيل: أُريدَ بقولِه: ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾ الكِنايةُ عن عَدَمِ المُبالاةِ بالكذِبِ وبالأيْمانِ الفاجرةِ، فجُعِلَت صِيغةُ المُبالَغةِ كِنايةً عن تَعمُّدِ الحِنثِ، وإلَّا لم يكُنْ ذَمُّه بهذه المَثابةِ[٥].

- والهمَّازُ كثيرُ الهمْزِ. وصِيغةُ المُبالَغةِ راجعةٌ إلى قوَّةِ الصِّفةِ، فإذا كان أذًى شَديدًا فصاحِبُه همَّازٌ، وإذا تَكرَّرَ الأذى فصاحِبُه همَّازٌ[٦].

- المشَّاءُ بالنَّميمِ: الَّذي يَنُمُّ بيْن النَّاسِ، ووَصْفُه بالمشَّاءِ للمُبالَغةِ[٧].

- وذِكرُ المشْيِ لتَشويهِ حالِه بأنَّه يَتجشَّمُ المَشقَّةَ مِن أجْلِ النَّميمةِ، مِثلُ ذِكرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السَّعي في قولِه تعالَى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٦٤]؛ ذلك أنَّ أسماءَ الأشياءِ المحسوسةِ أشدُّ وقْعًا في تَصوُّرِ السَّامعِ مِن أسماءِ المعقولاتِ، فذِكرُ المشْيِ بالنَّميمةِ فيه تَصويرٌ لحالِ النَّمَّامِ(١).

- قولُه: ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ مَذمَّتانِ قُرِنَ بيْنَهما لمُناسَبةِ الخُصوصِ والعُمومِ. والاعتِداءُ: مُبالَغةٌ في العُدوانِ، فالافتِعالُ فيه للدَّلالةِ على الشِّدَّةِ، والأثيمُ: كثيرُ الإثمِ، وهو فَعيلٌ مِن أمثلةِ المُبالَغةِ(٢).

- على تَفسيرِ العُتُلِّ بالشَّديدِ الخِلقةِ والرَّحيبِ الجَوفِ، يكونُ وجْهُ ذِكرِه أنَّ قَباحةَ ذاتِه مُكمِّلةٌ لِمَعايبِه؛ لأنَّ العَيبَ المُشاهَدَ أجلَبُ إلى الاشمئزازِ، وأوغَلُ في النَّفرةِ مِن صاحِبِه(٣).

- ومَوقعُ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ مَوقعُ الجُملةِ المُعترِضةِ، والظَّرفُ خبَرٌ لمَحذوفٍ تَقديرُه: هو بعْدَ ذلك. ويجوزُ اتِّصالُ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بقولِه: ﴿زَنِيمٍ﴾، على أنَّه حالٌ مِن ﴿زَنِيمٍ﴾(٤).

- وقيل: قولُه: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: عِلاوةً على ما عُدِّدَ له مِن الأوصافِ هو سَيِّئُ الخِلقةِ، سَيِّئُ المُعامَلةِ، فالبَعديَّةُ هنا بَعديَّةٌ في الارتقاءِ في دَرَجاتِ التَّوصيفِ المذكورِ، فمُفادُها مُفادُ التَّراخي الرُّتبيِّ(٥).

- والزَّنيمُ: اللَّصيقُ، وهو مَن يكونُ دَعيًّا في قَومِه ليس مِن صَريحِ نَسَبِهم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٧٣، ٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٧٤، ٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧١).

إمَّا بمَغمزٍ في نَسَبه، وإمَّا بكونِه حليفًا في قومٍ أو مَولًى، وأيًّا ما كان المرادُ به فإنَّ المرادَ به خاصٌّ، فدُخولُه في المعطوفِ على ما أُضِيفَ إليه ﴿كُلَّ﴾ إنَّما هو على فرْضِ وُجودِ أمثالِ هذا الخاصِّ، وهو ضرْبٌ مِن الرَّمزِ، كما يُقالُ: ما بالُ أقوامٍ يَعمَلونَ كذا، ويُرادُ واحدٌ مُعيَّنٌ[(١)].

- قولُه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ في مَجيءِ هذه الصِّفاتِ مَسرودةً على نَمَطٍ عَجيبٍ خلَّابٍ فنُّ المُناسَبةِ؛ فجاء ﴿حَلَّافٍ﴾ وبعْدَه ﴿مَّهِينٍ﴾؛ لأنَّ النُّونَ فيها مع الميم تَراخٍ، ثمَّ جاء ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ بصِفتَي المُبالَغةِ، ثمَّ جاء ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾، وبعْدَ ما عَدَّ له مِن المَثالبِ والنَّقائصِ أتى بصِفتَينِ مِن أشدِّ مَعايِبه، وقد جاءتِ البَعديَّةُ لتَدُلَّ على ذلك[(٢)]. وذلك على قولٍ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ المرادُ: كلُّ مَن كان ذا مالٍ وبَنينَ مِن كُبراءِ المشركين، كقولِه تعالَى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ [المزمل: ١١]. وقيل: أُريدَ به الوليدُ بنُ المغيرةِ؛ إذ هو الَّذي اختَلَقَ أنْ يقولَ في القرآنِ: أساطيرُ الأوَّلينَ. والوجهُ ألَّا يَختَصَّ هذا الوصْفُ به، وأنْ يكونَ تَعريضًا به[(٣)].

- قولُه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استِئنافٌ جارٍ مَجْرَى التَّعليلِ للنَّهي، وقيلَ: مُتعلِّقٌ بما دلَّ عليهِ الجُملةُ الشَّرطيَّةُ مِن معْنى الجُحودِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٦).

والتَّكذيبِ لا بجَوابِ الشَّرطِ، كأنَّه قيلَ: لِكَونِه مُستظهِرًا بالمالِ والبنينَ كذَّبَ بآياتِنا، وفيه أنَّه يدُلُّ أنَّ مَدارَ تَكذيبِه كونُه ذا مالٍ وبَنينَ، مِن غيرِ أنْ يكونَ لسائرِ قَبائِحِه دخْلٌ في ذلك(١).

- قولُه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ خُتِمَت الأوصافُ المُحذِّرُ عن إطاعةِ أصحابِها بوصْفِ التَّكذيبِ؛ ليَرجِعَ إلى صِفةِ التَّكذيبِ الَّتي انتَقَلَ الأُسلوبُ منها مِن قولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾(٢) [القلم: ٨].

٤- قولُه تعالَى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابًا لسُؤالٍ يَنشَأُ عن الصِّفاتِ الذَّميمةِ الَّتي وُصِفوا بها، أنْ يَسأَلَ السَّامعُ: ما جَزاءُ أصحابِ هذه الأوصافِ مِن اللهِ على ما أَتَوه مِن القبائحِ، والاجتراءِ على ربِّهم(٣)؟

- والوسْمُ: كِنايةٌ عن التَّمكُّنِ منه وتَمامِ الغَلَبةِ، وإظهارِ عَجْزِه عن المُقاوَمةِ، وذِكرُ الخُرطومِ والتَّعبيرُ به عن الأنفِ فيه جمْعٌ بيْن التَّشويهِ والإهانةِ؛ فإنَّ الوسْمَ يَقْتضي التَّمكُّنَ، وكَونُه في الوجْهِ إذلالٌ وإهانةٌ، وكونُه على الأنْفِ أشدُّ إذلالًا؛ لأنَّ الأنْفَ أبرَزُ ما في الوجْهِ، وهو مَجرى النَّفَسِ، ولذلك غَلَبَ ذِكرُ الأنفِ في التَّعبيرِ عن إظهارِ العِزَّةِ في قولِهم: شَمَخَ بأنْفِه، وهو أشَمُّ الأنْفِ، وهم شُمُّ العَرانينِ، وعُبِّرَ عن ظُهورِ الذِّلَّةِ والاستكانةِ بكسْرِ الأنْفِ، وجَدْعِه، ووُقوعِه في التُّرابِ في قولِهم: رَغِمَ أنْفُه، وعلى رَغْمِ أنْفِه(٤)، وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٧، ٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٢).

على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قيل: هذا وَعيدٌ بتَشويه أنْفِه يومَ القيامةِ، مِثل قولِه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وجُعِلَ تَشويهُه يومَئذٍ في أنْفِه؛ لأنَّه إنَّما بالَغَ في عَداوةِ الرَّسولِ والطَّعنِ في الدِّينِ بسَبَبِ الأنَفةِ والكِبرياءِ، وقد كان الأنْفُ مَظهَرَ الكِبرِ، فجُعِلَت شَوهَتُه في مَظهَرِ آثارِ كِبريائِه[1].

- وفي قولِه تعالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ إلى قولِه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال في سُورةِ (المُطفِّفينَ): ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٠ - ١٦]، فانقَطَعَت الآيةُ الأُولى إلى الجَزاءِ في الدُّنيا -وذلك على قولٍ- والآيةُ الثَّانيةُ إلى الجزاءِ في الآخِرةِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الموصوفَ في الآيةِ الأُولى مَوصوفٌ بجامعةٍ لخِصالِ الذَّمِّ، فاضحةٍ، وهي الحَلِفُ بالكذِبِ، والنَّميمةُ، والبُخلُ، والاعتداءُ؛ فلمَّا وَصَفَه بهذه الأشياءِ الظَّاهِرةِ القُبحِ، جَعَلَ في مُقابلتِها نَكالًا ظاهرًا يَبينُ على الوجْهِ، فقال: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾، أي: نُشهِّرُه بعلامةٍ تُنبئُ عن قَبائحِه وفَضائحِه. وأمَّا الآيةُ الأخيرةُ في (المُطفِّفين) فإنَّ قبْلَها: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: ١١-١٣]، فأخبَرَ عنهم أنَّهم لا يُؤمِنونَ بالبَعثِ، وأنَّ الذُّنوبَ الَّتي قارَفوها غَلَبَت على قُلوبِهم، حتَّى كأنَّها تَنكَّرَت لها؛ فلمَّا لم يَنعَتْهم إلَّا بالكُفْرِ، أخبَرَ عن جَزائِهم في الآخِرةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٨).

فأتْبَعَ كُلًّا مِن المكانَينِ ما لاقَ به، وصَلَحَ في مُقابِلِه ما تَقدَّمَ عليه[١].

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّ آيةَ (القلَمِ) نَزَلَتْ في شَخصٍ بعَينِه، قيل: هو الأخنسُ بنُ شَرِيقٍ، وقيل: الوليدُ بنُ المُغيرةِ، وكان مُظهِرًا لعَداوةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو القائلُ: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وكان مِن أكثَرِ قريشٍ مالًا ووَلدًا، فلهذا قِيل فيه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [القلم: ١٤]؛ ففي هذا نَزَلَت الآيةُ مِن قولِه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١٢] إلى آخِرِها، فأغْنى استيفاءُ صِفاتِه المذمومةِ عن تَعيينِ اسمِه بقولِه سُبحانَه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾، إخبارٌ منه تعالَى بأوَّلِ عِقابٍ يَنزِلُ بعدُوِّ اللهِ المذكورِ، فهذا وَعيدٌ لخاصٍّ مُعيَّنٍ أُنزِلَ به مُعجَّلًا، ولَعذابُ الآخِرةِ أكبَرُ. وأمَّا آيةُ (المُطفِّفينَ) فليستْ في مُعيَّنينَ بغيرِ مُرتكباتِهم؛ فقال تعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، أي: إنَّ المانعَ لهم مِن فَهمِ الوحْيِ بأنَّه مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ ما غطَّى قُلوبَهم مِن الرَّينِ، وهو ما يَغشى القلبَ، ويَمنَعُه مِن الوصولِ إلى ما يَنفَعُه، وأعاد الضَّميرَ في ﴿قُلُوبِهِم﴾ على المعْنى مِن حيثُ إنَّ المرادَ هنا جَميعُ مَن وَقَعَ عليهم (كلّ)، بخِلافِ آيةِ (القلَم)؛ فإنَّ (كلّ) فيها واقعةٌ على مُفرَدٍ، وعُبِّرَ بـ (كلّ) ليَعُمَّ المقصودُ بذلك المرادَ، ومَن كان على صِفتِه إبلاغًا في ذَمِّه، والضَّميرُ في ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ لمُفرَدٍ، ولَفظُ (كلّ) مُطابِقٌ بمعناه[٢].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٩٠-١٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٨٠، ٤٨١).

الآيات (١٧-٢٢)

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَلَوْنَٰهُمْ﴾: أي: امتَحَنَّاهم واختَبَرْناهم، والبلاءُ: الاختبارُ والامتحانُ، وأصلُ (بلو) هنا: نوعٌ مِن الاختبارِ[1].

﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾: أي: لَيَجتَنُونَها، ويَقطَعونَ ثَمَرَها، وأصلُ (صرم): يدُلُّ على قَطعٍ[2].

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾: أي: ولا يَقولونَ: إن شاء اللهُ. يُقالُ: حلَفَ فُلانٌ يمينًا ليس فيها ثُنْيا ولا ثَنْوَى ولا ثَنِيَّةٌ ولا مَثْنَوِيَّةٌ ولا استِثناءٌ، كلُّه واحدٌ، وأصلُ هذا كلِّه مِن الثَّنْيِ، وهو الكفُّ والرَّدُّ؛ وذلك أنَّ الحالِفَ إذا قال: واللهِ لَأفعَلَنَّ كذا إلَّا أن يَشاءَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٧).

قال الراغب: (يُقالُ: بَلِيَ الثَّوبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلَقَ، ومنه قيل لِمَن سافَر: بِلْوُ سَفَرٍ وبِلْيُ سفَرٍ، أي: أبلاه السَّفرُ، وبَلَوْتُه: اختَبَرْتُه، كأنِّي أخلَقْتُه مِن كثرةِ اختباري له). ((المفردات)) (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٠).

اللهُ غَيْرَه، فقد ردَّ ما قاله بمشيئةِ الله غيرَه[١].

﴿طَآئِفٌ﴾: أي نارٌ أو عَذابٌ، وأصلُ (طوف): يدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وإحاطتِه به[٢].

﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾: أي: كاللَّيلِ المُظلِمِ البَهيم، أو كالمَصرومةِ المقطوعةِ لهلاكِ ثَمَرِها. وكُلُّ شَيءٍ قُطِعَ فهو صَريمٌ، وأصلُ (صرم): يدُلُّ على قَطعٍ[٣].

﴿ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾: أي: أقبِلُوا على ثِمارِكم وزُروعِكم باكِرينَ، أو: اخرُجوا غُدوةً، يقالُ: غَدا يَغْدو غُدُوًّا، والغُدُوُّ: سيرُ أوَّلِ النَّهارِ، وأصلُ (غدو): يدُلُّ على زمانٍ، وأصلُ (حرث) هنا: يدُلُّ على الجمعِ والكسبِ[٤].

﴿صَٰرِمِينَ﴾: أي: حاصِدينَ زَرْعَكم أو عازِمينَ، وأصلُ (صرم): يدُلُّ على قَطعٍ[٥].

﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾: أي: يَتهامَسونَ بيْنَهم، ويُسِرُّ بَعضُهم إلى بعضٍ، وأصلُ (خفت):

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٠٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩) و(٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٨)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٤).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

يدُلُّ على إسرارٍ وكِتمانٍ[١].

﴿حَرْدٍ﴾: الحَرْدُ: المَنعُ مِن حِدَّةٍ وغَضَبٍ، ويُطلَقُ الحرْدُ على القَصدِ والغَضَبِ والمَنْعِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى ضاربًا المثَلَ للمشركينَ بقصَّةِ أصحابِ الجنَّةِ: إنَّا امتَحَنَّا أهلَ مكَّةَ كما امتحَنَّا أصحابَ البُستانِ حينَ حَلَفوا فيما بيْنَهم على قَطْعِ ثمارِ بُستانِهم أوَّلَ النَّهارِ قبْلَ مَجيءِ المساكينِ إليه؛ لِيَحرِموا المساكينَ مِن ثمارِ بُستانِهم، ولم يَسْتَثْنوا في قَسَمِهم بقَولِهم: إنْ شاء اللهُ. فنَزَل على بُستانِهم ليلًا وهم نائمونَ عَذابٌ مِن رَبِّك -يا مُحمَّدُ- فأهلَكَه وأباده، فصار مُحترقًا، أسْوَدَ كسَوادِ اللَّيلِ المُظلِمِ!

فنادى أصحابُ البُستانِ بَعضُهم بَعضًا في أوَّلِ الصَّباحِ؛ لِيَذهَبوا لقَطعِ ثَمَرِهم: بَكِّروا في الخُروجِ إلى بُستانِكم إنْ كُنتُم اليومَ عازِمينَ على قَطعِ ثَمَرِه قبْلَ مَجيءِ المساكينِ إليه! فانطَلَقوا إلى بُستانِهم وهم يُسِرُّونَ الحديثَ فيما بيْنَهم: لا يَدخُلَنَّ اليومَ بُستانَكم أحدٌ مِن المساكينِ. وخَرَجوا في أوَّلِ الصَّباحِ قاصِدينَ في غَضَبٍ مَنْعَ المساكينِ مِن ثمارِهم، قادِرينَ على ما عَزَموا عليه مِن قَطْعِ الثِّمارِ ومَنْعِ المساكينِ، فلمَّا رأَوا بُستانَهم أنكَروا أن يكونَ هو! وقال

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٠، ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٩٦).

بعضُهم لبَعضٍ: إنَّا قد ضلَلْنا الطَّريقَ إلى بُستانِنا! وقالوا: لا، لم نَضِلَّ الطَّريقَ، بل حُرِمْنا مِن ثَمَرِه!

قال أعدَلُهم وأعقَلُهم: ألمْ أقُلْ لكم ناصِحًا: هلا نزَّهتُم اللهَ عن السُّوءِ بقَولِكم: سُبْحانَ اللهِ؟! فقالوا مُعترِفينَ بخَطَئِهم: نُنَزِّهُ ربَّنا عن أن يكونَ ظالِمًا فيما فَعَل ببُسْتانِنا، بل كنَّا نحن الظَّالِمينَ. فأقْبَلَ بَعضُهم على بَعضٍ لائِمينَ أنفُسَهم، قالوا: يا حَسْرَتَنا وهَلاكَنا، إنَّا قد تجاوَزْنا حدودَ اللهِ تعالى، نَرجو مِن ربِّنا بَعْدَ أن تُبْنا إليه أن يُعوِّضَنا خيرًا مِن بُستانِنا الَّذي هلَك، إنَّا إلى رَبِّنا وَحْدَه راغِبونَ وراجُونَ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى قصَّتَهم بقولِه: مِثلَ هذا العذابِ الدُّنيويِّ الَّذي حَلَّ بأصحابِ البُستانِ يُعَذِّبُ اللهُ تعالى أيضًا كُلَّ مَن خالَفَ أمْرَه، فبَخِلَ بما أنعَمَ به عليه، ومَنَع المحتاجينَ، ولَعَذابُ اللهِ في الآخِرةِ لِمَن يَستَحِقُّه أكبَرُ مِن عذابِ الدُّنيا لو كان الكُفَّارُ يَعلَمونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا قال: مِن أجْلِ أنْ كان ذا مالٍ وبَنينَ جَحَد وكفَرَ وعَصى وتمرَّدَ؟! وكان هذا استِفهامًا على سَبيلِ الإنكارِ -على قولٍ-؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه تعالَى إنَّما أعطاهُ المالَ والبَنينَ على سَبيلِ الابتلاءِ والامتحانِ، وليَصرِفَه إلى طاعةِ اللهِ، وليُواظِبَ على شُكرِ نِعَمِ اللهِ، فإنْ لم يَفعَلْ ذلك فإنَّه تعالَى يَقطَعُ عنه تلك النِّعَمَ، ويَصُبُّ عليه أنواعَ البلاءِ والآفاتِ، فقال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: كلَّفْنا هؤلاء أنْ يَشكُروا على النِّعَمِ، كما كلَّفْنا أصحابَ الجنَّةِ ذاتِ

الثِّمارِ أنْ يَشكُروا ويُعطُوا الفُقراءَ حُقوقَهم[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانه المتَّصِفينَ بتِلك الأوصافِ الذَّميمةِ -وهم كُفَّارُ قُريشٍ- أخبَرَ تعالَى بما حلَّ بهم مِن الابتلاءِ بالقحْطِ والجُوعِ بدَعوةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((اللَّهُمَّ اشدُدْ وَطْأَتَك على مُضَرَ، واجْعَلَها عليهم سِنينَ كَسِنِي يُوسفَ))[٢].

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾.

أي: إنَّا امتحَنَّا أهلَ مَكَّةَ كما امتحَنَّا أصحابَ البُستانِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤١).

والحديث أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٨٠٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٦٧٥) من حديث أبي هريرةَ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٦، ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٩).

قيل: المرادُ أنَّ اللهَ تعالى أنعَمَ على أهلِ مكَّةَ كما أنعَمَ على أصحابِ الجنَّةِ بجَنَّتِهم، ثمَّ اختَلَفوا في النِّعَمِ الَّتي أُعطِيَها أهلُ مكَّةَ؛ فقيل: هي نُبُوَّةُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جُزَي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٥).

وقيل: هي الأموالُ. والمعنى: أعطَيْناهم أموالًا ليَشكُروا لا ليَبطَروا، فلمَّا بَطِروا وعادَوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ابتَلَيْناهم بالجُوعِ والقَحْطِ كما بَلَونا أهلَ الجنَّةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٣).

وقال السعدي: (يقولُ تعالى: إنَّا بَلَونا هؤلاء المكَذِّبينَ بالخَيرِ وأمهَلْناهم، وأمدَدْناهم بما شِئْنا مِن مالٍ ووَلَدٍ، وطولِ عُمُرٍ، ونحوِ ذلك ممَّا يُوافِقُ أهواءَهم، لا لكرامتِهم علينا، بل رُبَّما يكونُ استدراجًا لهم مِن حيثُ لا يَشعُرونَ؛ فاغترارُهم بذلك نظيرُ اغترارِ أصحابِ الجنَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ * فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٢ - ١١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠ - ١٧].

﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾.

= وذكَر ابنُ عاشور أنَّ البلوى هنا بالخيرِ، وأنَّ اللهَ أمدَّ أهلَ مكَّةَ بنعمةِ الأمنِ، والرِّزقِ الذي يأتيهم مِن كلِّ جهةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٩). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٦، ٣٠٧).

وقيل: المرادُ: إنَّا ابتَلَيْنا أهلَ مكَّةَ بالجُوعِ كما ابتَلَيْنا أصحابَ الجنَّةِ حينَ هلَكَت جَنَّتُهم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والزمخشريُّ، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن حيان)) (١٠/ ٢٤١).

قال ابنُ عطية: (قال كثيرٌ مِن المفسِّرينَ: السِّنُونَ السَّبْعُ التي أصابت قُرَيشًا هي بمثابةِ ما أصاب أولئك في جنَّتِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٩).

وقال البِقاعي: (﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ عرَّفَها؛ لأنَّها كانت شهيرةً عِندَهم... كان صاحِبُه يُنادي الفُقَراءَ وقْتَ الصِّرامِ، ويَترُكُ لهم ما أخطَأَ المِنجَلَ [ما يُحْصَدُ به]، أو ألقَتْه الرِّيحُ، أو بَعُدَ عن البِساطِ الَّذي يُبسَطُ تحت النَّخلةِ، فلمَّا مات شَحَّ بنوه بذلك، فحَلَفوا على أن يَجُذُّوها قبْلَ الشَّمسِ؛ حتَّى لا يأتيَ الفُقَراءُ إلَّا بعْدَ فَراغِهم!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠٧).

أي: حينَ حَلَف أصحابُ البُستانِ فيما بيْنَهم على جَذِّ ثِمارِ بُستانِهم في أوَّلِ الصَّباحِ قبْلَ مَجيءِ المساكينِ إليه؛ لئلَّا يَعلَموا بهم، فتتوفَّرَ ثمارُه عليهم بالكامِلِ، ولا يتصَدَّقوا منه بشَيءٍ[(١)]!

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ولم يَسْتَثْنِ أصحابُ الجَنَّةِ في قَسَمِهم، ولم يَقولوا: إنْ شاء اللهُ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٠، ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

قال الماوَرْدي: (﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: لا يَستَثنونَ حقَّ المساكينِ. قاله عِكْرِمةُ. الثَّاني: استثناؤُهم: قَولُ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾. قاله أبو صالحٍ. الثَّالثُ: قَولُ: إن شاء اللهُ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦٧).

وممَّن نَصَّ على أنَّ المرادَ أنَّهم لم يقولوا: إنْ شاء اللهُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، ونسَبَه الرَّازيُّ إلى الأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٧).

قال الرَّسْعَني: (وقال جمهورُ المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ: لا يَقولون: إن شاء اللهُ. وسُمِّيَ استثناءً؛ لأنَّه يؤدِّي مؤدَّى الاستثناءِ، مِن حيث إنَّ قولَك: لَأخرجَنَّ إن شاء الله، في معنى: لا أخرجُ إلَّا أن يشاءَ اللهُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٣١).

وقال البِقاعي: (والحالُ أنَّهم لا ﴿يَسْتَثْنُونَ﴾، أي: لا يَطلُبونَ ولا يُوجِدونُ ثُنْيَا -أي: عَودًا- إلى ما قبْلَ اليَمينِ بقَولِهم: «إنْ شاء اللهُ» أو غيرَ ذلك مِن الألفاظِ المُوجِبةِ لأنْ يكونَ شَيءٌ مِن جَنَّتِهم مُطلَقًا غيرَ ممنوعٍ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠٨).

وممَّن قال بأنَّهم لا يَستَثنُونَ مِن الثَّمَرةِ شَيئًا للمَساكينِ، أي: أقسَموا لَيَصرِمُنَّ جميعَ الثَّمَرِ، ولا يَترُكونَ منه شيئًا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٤).

قال ابن عطية: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ولا يَتوقَّفونَ في ذلك، أو ولا يَثنَونَ عن رأيِ مَنْعِ المساكينِ. وقال مجاهدٌ: معناه: لا يَقولونَ: إن شاء اللهُ، بل عَزَموا على ذلك عَزْمَ مَن يَملِكُ =

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: فوَقَع على بُستانِهم ليلًا عَذابٌ مِن رَبِّك -يا مُحمَّدُ- فأهلَكَه وأباده ودَمَّرَه كلَّه، وأصحابُه نائِمونَ، وعمَّا أصابه غافِلونَ[(١)]!

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: فصار ذلك البُستانُ مُحترقًا، أسْوَدَ كسَوادِ اللَّيلِ المظلمِ[(٢)]!

= أمْرَه!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

ممَّن قال: المرادُ بالطَّائفِ: العذابُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والبغوي، والرازي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

قيل: كان نارًا أحرَقتِ الجنَّةَ، وممن نصَّ على ذلك: الواحديُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٨).

قال القرطبي: (قيل: الطَّائِفُ جبريلُ عليه السَّلامُ...، وقال ابنُ عبَّاسٍ: أمرٌ مِن رَبِّك. وقال قتادةُ: عذابٌ مِن رَبِّك. [وقال] ابنُ جُرَيجٍ: عُنُقٌ مِن نارٍ خَرَج من وادي جهنَّمَ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤١).

وقال ابنُ عاشور: (لم يُعَيِّنْ جنسَ الطَّائِفِ؛ لظُهورِ أنَّه مِن جنسِ ما يُصيبُ الجنَّاتِ مِن الهلاكِ، ولا يتعلَّقُ غَرَضٌ بتَعيينِ نَوعِه؛ لأنَّ العِبرةَ في الحاصِلِ به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨١).

وقال ابن كثير: (أصابَتْها آفةٌ سماويَّةٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦).

وقال الفرَّاءُ، وابنُ جريرٍ: الطَّائِفُ لا يكونُ إلَّا باللَّيلِ، ولا يكونُ نَهارًا. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨١).

قال ابن جُزَي: (﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ فيه أربعةُ أقوالٍ: =

= الأوَّل: أصبحتْ كاللَّيلِ؛ لأنَّها اسوَدَّتْ لِما أصابها، والصَّريمُ في اللُّغةِ اللَّيلُ.
الثَّاني: أصبحتْ كالنَّهارِ؛ لأنَّها ابيضَّتْ كالحَصيدِ، ويُقالُ: «صَريمٌ» لِلَّيلِ والنَّهارِ.
الثَّالثُ: أنَّ الصَّريمَ: الرَّمادُ الأسْوَدُ بلُغةِ بعضِ العربِ.
الرَّابعُ: أصبحت كالمَصرومةِ، أي: المقطوعةِ. ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٠). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦٧، ٦٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٣).
وممَّن ذهب إلى القَولِ الأوَّلِ -أي: أنَّها أصبحتْ كاللَّيلِ سَوْداءَ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٦)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٩)، ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (٥/ ٢٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٥١).
قيل: سُمِّيَ اللَّيلُ صَريمًا؛ لأنَّه يَقطَعُ بظُلمتِه عن التَّصرُّفِ، وعلى هذا هو فَعِيلٌ بمعنى فاعِل. وقيل: سُمِّيَتِ اللَّيلةُ بالصَّريمِ؛ لأنَّها تَصرِمُ نورَ البصرِ وتَقطَعُه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٨).
وممَّن قال في الجُملةِ بالقَولِ الرَّابعِ -أي: أنَّها صارت كالمَصرومةِ، أي المقطوعةِ المَجذوذةِ، قد ذهَبَ ما فيها مِن الثَّمَرِ، فكأنَّه قد قُطِع لهَلاكِه-: ابنُ أبي زَمَنِين، والزمخشريُّ، والبِقاعي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٤). ويُنظر أيضًا: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٧).
وممَّن قال بنحوِ ذلك مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ، والثَّوريُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦).
وقال القرطبيُّ بعدَ أنْ ذكَر أنَّه يُقالُ أيضًا للنَّهارِ: صَرِيمٌ: (إنْ كان أراد بالصَّريمِ النَّهارَ فلِذَهابِ الشَّجرِ والزَّرعِ ونقاءِ الأرضِ منه. وكان الطَّائفُ الَّذي طاف عليها جبريلُ عليه السَّلامُ =

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: فنادى أصحابُ الجنَّةِ بَعضُهم بَعضًا في أوَّلِ الصَّباحِ؛ لِيَذهَبوا لجَذاذِ ثَمَرِهم[١].

﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: قالوا: بَكِّروا في الخُروجِ إلى بُستانِكم إنْ كُنتُم اليومَ عازِمينَ على قَطعِ ثَمَرِه قبْلَ مَجيءِ المساكينِ إليه[٢]!

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: فانطَلَق أصحابُ البُستانِ إلى بُستانِهم وهم يَتناجَونَ فيما بَيْنَهم بحيثُ لا يَسمَعُ حَديثَهم أحدٌ[٣].

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾.

= فاقتَلَعها). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٩).

وقال ابن قُتَيْبَةَ: (يُقالُ للصُّبحِ: صَريمٌ، ولِلَّيلِ: صَريمٌ...؛ لأنَّ اللَّيلَ يَنصَرِمُ عن النَّهارِ، والنَّهارَ يَنصرِمُ عن اللَّيلِ). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١١٩).

قال الرَّازيُّ: (وعلى هذا الصَّريمُ بمعنى الصَّارِمِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

أي: قال بَعضُهم لبَعضٍ سِرًّا: لا يَدخُلَنَّ بُستانَكم أحدٌ مِن المساكينِ في هذا اليَومِ[(١)]!

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: وخَرَجوا في أوَّلِ الصَّباحِ وهم قاصِدونَ بإرادةٍ جازِمةٍ وغَضَبٍ وحِدَّةٍ مَنْعَ المساكينِ مِن ثمارِهم، وقادِرونَ على ما عَزَموا عليه مِن قَطْعِ الثِّمارِ، ومَنْعِ المساكينِ[(٢)].

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: فلمَّا رأى أصحابُ البُستانِ بُستانَهم أنكَروا أن يكونَ هو! وقال بعضُهم لبَعضٍ: إنَّا قد ضلَلْنا وأخطَأْنا الطَّريقَ إلى بُستانِنا[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٧، ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٣-١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٤، ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٥٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ للضَّلالِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابنُ عاشورٍ: (معنى ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أنَّهم عَلِموا أنَّهم كانوا في ضَلالٍ، أي: عن طريقِ الشُّكرِ، أي: كانوا غيرَ مُهتَدينَ...، ويحتَمِلُ أن يكونَ الضَّلالُ حقيقيًّا، أي: ضلالُ طريقِ الجنَّةِ، أي: قالوا: إنَّا أخطَأْنا الطَّريقَ في السَّيرِ إلى جنَّتِنا؛ لأنَّهم توَهَّموا أنَّهم شاهَدوا جنَّةً أُخرى غيرَ جَنَّتِهم الَّتي عَهِدوها، قالوا ذلك تحيُّرًا في أمرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٥، ٨٦).

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: قالوا: كلَّا، لم نَضِلَّ الطَّريقَ إليه، وإنَّما حقيقةُ الأمرِ أنَّنا حُرِمْنا الانتِفاعَ به، فلا حظَّ لنا في شَيءٍ مِن ثمارِه[1]!

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: قال أعدَلُهم وأعقَلُهم وأفضَلُهم: ألم أقُلْ لكم ناصِحًا: هلا نزَّهتُم اللهَ عن السُّوءِ بقَولِكم: سبحانَ اللهِ[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٠-١٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٥، ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦).

قال الثعلبي: (﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلُهم وأعقلُهم وأفضلُهم). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٧).

قيل: المعنى: أنَّه أمَرَهم مِن قَبْلُ بذِكرِ اللهِ وتَنزيهِه عن السُّوءِ. وممَّن استظهر هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جُزَي، وذهب إليه أبو حيَّان، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦).

قال أبو حيان: (أنَّبَهم ووبَّخَهم على تَرْكِهم ما حَضَّهم عليه مِن تسبيحِ اللهِ، أي: ذِكْرِه وتنزيهِه عن السُّوءِ، ولو ذكَروا اللهَ وإحسانَه إليهم لَامتَثَلوا ما أَمَر به مِن مُواساةِ المساكينِ، واقتَفَوا سُنَّةَ أبيهم في ذلك. فلمَّا غَفَلوا عن ذِكرِ اللهِ تعالى وعَزَموا على مَنعِ المساكينِ، ابتلاهم اللهُ، وهذا يدُلُّ على أنَّ أوسَطَهم كان قد تقَدَّمَ إليهم وحرَّضَهم على ذِكرِ اللهِ تعالى). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٣).

وقال ابن عاشور: (المرادُ بـ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ تنزيهُ اللهِ عن أن يُعصى أمرُه في شأنِ إعطاءِ زكاةِ ثمارِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦).

وقيل: المرادُ: هلَّا قُلْتُم: إنْ شاء اللهُ، فأنكر عليهم تَرْكَ الاستِثناءِ في قَولِه: ﴿أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾، فسَمَّى الاستِثناءَ تَسبيحًا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والسعدي، ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ إلى =

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنَّبَهم، رَجَعوا إلى ذِكرِ اللهِ تَعالى، واعتَرَفوا على أنفُسِهم بالظُّلمِ، وبادَروا إلى تَسبيحِ اللهِ تعالَى[1].

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩﴾.

أي: قالوا مُعتَرِفينَ بخَطَئِهم: نُنَزِّهُ ربَّنا عن أن يَكونَ ظالِمًا فيما فَعَل ببُسْتانِنا، وإنَّما نحن الَّذين وقَعْنا في الظُّلمِ فجَنَيْنا على أنفُسِنا[2]!

= الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وأبو صالحٍ، والسُّدِّيُّ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦).

قيل: سُمِّيَ الاستثناءُ تسبيحًا؛ لأنَّه تعظيمٌ لله، وإقرارٌ بأنَّه لا يَقدِرُ أحدٌ أن يَفعلَ شيئًا إلَّا بمشيئةِ الله تعالى، وكلُّ تعظيمٍ لله فهو تسبيحٌ له. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨).

قال الشوكاني: (وهذا يدُلُّ على أنَّ أوْسَطَهم كان أمَرَهم بالاستثناءِ فلم يُطيعوه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٥).

وقال البِقاعي: (لَمَّا كان منْعُ الخَيرِ -ولا سيَّما في مِثلِ هذا- مُستلزِمًا لظنِّ النَّقصِ في اللهِ تعالى: إمَّا بأنَّه سُبحانَه لا يُخلِفُ ما حصَلَ التَّصدُّقُ به، وإمَّا أنَّه لا يَقدِرُ على إهلاكِ ما شحَّ الإنسانُ به؛ قال مُستأنِفًا: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هَلَّا ولِمَ لا ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تُوقِعونَ التَّنزيهَ لله سُبحانَه وتعالى عمَّا أوهَمَه فِعلُكم، وأقَلُّ التَّسبيحِ الاستِثْناءُ عندَ الإقسامِ شكًّا في قُدرةِ الإنسانِ، وإثباتًا لقدرةِ الملِكِ الدَّيَّانِ؛ استِحضارًا لعَظَمَتِه سُبحانَه وتعالى). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣١٢).

وقال الشوكاني: (قيل: المعنَى: هَلَّا تَستَغفِرونَ اللهَ مِن فِعْلِكم، وتَتوبونَ إليه مِن هذه النِّيَّةِ الَّتي عَزَمْتُم عليها). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير =

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: فأقبَلَ بَعضُهم على بَعضٍ لائِمينَ أنفُسَهم على ما وَقَع منهم مِن ظُلمٍ[١]!

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: قالوا: يا حَسْرَتَنا وهَلاكَنا، إنَّا قد اعتَدَيْنا وبَغَيْنا وتَجاوَزْنا حدودَ اللهِ تعالى حتَّى أصابَنا ما أصابَنا[٢].

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾.

أي: نَرجو مِن ربِّنا بَعْدَ أن تُبْنا إليه أن يُعوِّضَنا خيرًا مِن بُستانِنا الَّذي هلَك[٣].

= القرطبي)) (١٨/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٧).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: قال أصحابُ الجنَّة: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في تَرْكِنا الاستثناءَ في قَسَمِنا، وعَزْمِنا على تَركِ إطعامِ المساكينِ مِن ثَمَرِ جَنَّتِنا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٣).

قال ابنُ عاشور: (﴿يَتَلَاوَمُونَ﴾: أيْ: يَلومُ بعضُهم بعضًا... واللَّوْمُ: إنكارٌ مُتَوسِّطٌ على فِعلٍ أوْ قولٍ، وهو دونَ التَّوبيخِ، وفوقَ العِتابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٣، ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٨).

قال البِقاعي: (أي: هذا وَقتُ حُضورِك -أيُّها الوَيلُ- إيَّانا، ومُنادَمَتِك لنا؛ فإنَّه لا نديمَ لنا إلَّا أنت، والوَيلُ هو الهَلاكُ والإشرافُ عليه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٤، ٣١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾.

أي: إنَّا إلى رَبِّنا وَحْدَه راغِبونَ وراجُونَ؛ فلذا نَطمَعُ أن يُبْدِلَنا خيرًا مِن بُستانِنا[١].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾.

أي: مِثلَ هذا العذابِ الدُّنيويِّ الَّذي حَلَّ بأصحابِ البُستانِ يُعَذِّبُ اللهُ تعالى أيضًا كُلَّ مَن خالَفَ أمْرَه، فبَخِلَ بما أنعَمَ به عليه ومَنَع المحتاجينَ، فبَدَّلَ نِعمةَ اللهِ كُفرًا، وطغى وبغى وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَسلُبُه نِعمتَه ويُزيلُها عنه[٢].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولَعَذابُ اللهِ في الآخِرةِ لِمَن يَستَحِقُّه أكبَرُ مِن عذابِ الدُّنيا، فلو كان الكُفَّارُ يَعلَمونَ ذلك لَتابُوا، وانتَهَوا عن كُلِّ سَبَبٍ يُوجِبُ عَذابَهم، ولكِنَّهم لا يَعلَمونَ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٧).

قال الشوكاني: (﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي: طالِبونَ منه الخيرَ، راجُون لِعَفوِه، راجِعونَ إليه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٦).

وقال أبو السعود: (﴿إِلَىٰ﴾ لانتِهاءِ الرَّغبةِ، أو لتَضَمُّنِها معنى الرُّجوعِ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٠).

قال الواحدي: (تمَّت قِصَّةُ أصحابِ الجنَّةِ، ثمَّ قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ إلى آخرِ السِّياقِ: بَيانُ حالِ البُخَلاءِ وما يُعاقَبونَ به في الدُّنيا قبْلَ الآخرةِ مِن تَلَفِ الأموالِ؛ إمَّا إغراقًا وإمَّا إحراقًا، وإمَّا نهبًا وإمَّا مصادَرةً، وإمَّا في شَهواتِ الغَيِّ، وإمَّا في غيرِ ذلك ممَّا يُعاقَبُ به البُخلاءُ الَّذين يَمنعونَ الحَقَّ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ عِظَةٌ شديدةٌ، وتنبيهٌ لِمَن يُرسِلُ كلامَه ولا يُقَيِّدُه بالاستِثناءِ الَّذي هو سَبَبُ النَّجاحِ والظَّفَرِ بالحاجةِ، ومُخْرِجٌ مِن المآثمِ، ومُؤَمِّنٌ دَرَكَ العُقوبةِ، وقد عَلَّمَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأدَّبَه ألَّا يَقولَ لفِعلِ شَيءٍ: هو فاعِلُه، إلَّا مَقرونًا بالاستِثناءِ[(٢)]. فالآيةُ فيها حَثٌّ على الاستثناءِ في اليَمينِ، وذَمُّ تَرْكِه، وأنَّ تَرْكَه سبَبٌ للحِنْثِ[(٣)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ عَجَّل العِقابَ لهم قبْلَ التَّلَبُّسِ بمَنعِ الصَّدَقةِ؛ لأنَّ عَزْمَهم على المَنعِ، وتقاسُمَهم عليه حَقَّق أنَّهم مانِعونَ صَدَقاتِهم، فكانوا مانِعينَ. ويُؤخَذُ مِن الآيةِ مَوعِظةٌ للَّذين لا يُواسُونَ بأموالِهم[(٤)].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ أرسَلَ

= المُشرِكينَ). ((التفسير الوسيط)) (٤/ ٣٣٨).

وقال ابنُ عطية: (﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ ابتداءُ مُخاطَبةٍ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أمرِ قُريشٍ، والإشارةُ بذلك إلى العَذابِ الَّذي نَزَل بالجنَّةِ، أي: ذلك العذابُ هو العذابُ الَّذي يَنزِلُ بقُرَيشٍ بَغتةً، ثمَّ عَذابُ الآخرةِ بَعْدَ ذلك أشَدُّ عليهم مِن عذابِ الدُّنيا!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٢).

اللهُ على جنَّتِهم طائِفًا وهم نائِمونَ، فأصبَحَت كالصَّريم؛ عُقوبةً على احتيالِهم لِمَنعِ الحَقِّ الَّذي كان للمَساكينِ في أموالِهم، فكان في ذلك عِبرةٌ لكُلِّ مَن احتالَ لِمَنعِ حقٍّ لله أو لعِبادِه؛ مِن زَكاةٍ أو شُفعةٍ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ لَمَّا كان هذا مَقْتًا في الصُّورةِ أخبَرَ بأنَّه لُطفٌ وتربيةٌ في المعنى بقَولِه: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: المعروفِ بالعَظَمةِ الَّتي لا تُحَدُّ، وبالإحسانِ إليك؛ فهو جديرٌ بأن يؤدِّبَ قَومَك؛ ليَقبَلوا منك، كما أدَّبَ أصحابَ الجنَّةِ بما أوجَبَ تَوبتَهم، وهو الحَقيقُ بتربيةِ العِبادِ ليَعقِلوا عنك، ويكونوا خليقينَ بالتَّجنُّبِ للدُّنيا، والإقبالِ على المعالي[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ الشَّيءَ المُتَقَرَّبَ به إلى اللهِ -فرضًا كان أو نَدبًا- إذا فُرِّطَ فيه: تُلوفي؛ فنَفَعَ، إذْ تسبيحُ القومِ بعدَ وقتِه -الَّذي كان موضِعُه- نَفَعَهم تَدارُكُه[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ المذنِبَ الظَّالِمَ لنَفْسِه مُحتاجٌ مع ربِّه إلى الاعترافِ بذَنْبِه وسوءِ صَنيعِه بلِسانِه، وإنْ كان نادِمًا عليه بقَلْبِه، وكذا كان نبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ في دُعاءِ الاستِفتاحِ: ((ظَلَمْتُ نفْسي، واعترَفْتُ بذَنْبي))[٤] فكان هذا الاعترافُ مِن تمامِ التَّوبةِ، وتحقيقِ الاستكانةِ والتَّواضُعِ[٥].

٨- قال تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ تَضمَّنَ جَوابُهم إقرارًا بأنَّ

---

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٨٣).

(٤) أخرجه مسلم (٧٧١) مطوَّلًا من حديث عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٨٣).

أوسَطَهم وعَظَهم فعَصَوه، ودلُّوا على ذلك بالتَّسبيحِ حِين نَدَمِهم على عدَمِ الأخْذِ بنَصيحتِه فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ أرادوا إجابةَ تَقريرِه بإقرارٍ بتَسبيحِ اللهِ عن أنْ يُعصى أمْرُه في إعطاءِ حقِّ المساكينِ؛ فإنَّ مِن أُصولِ التَّوبةِ تَدارُكَ ما يُمكِنُ تَدارُكُه، واعترافُهُم بظُلمِ المساكينِ مِن أُصولِ التَّوبةِ؛ لأنَّ التَّسبيحَ مُقدِّمةُ الاستغفارِ مِن الذَّنْبِ؛ قال تعالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾[1] [النصر: ٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۞ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۞ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۞ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ مَن نَقَص مِن النِّصابِ قبْلَ الحَولِ قَصْدَ الفِرارِ مِن الزَّكاةِ، أو خالَطَ غَيرَه، أو فارَقَه بعْدَ الخُلْطةِ؛ فإنَّ ذلك لا يُسقِطُ الزَّكاةَ عنه[2]، خِلافًا للشَّافِعيِّ. ووَجْهُ الاستدلالِ بالآيةِ أنَّهم قَصَدوا بقَطعِ الثِّمارِ إسقاطَ حَقِّ المساكينِ، فعاقَبَهم اللهُ سُبحانه وتعالى بإتلافِ ثمارِهم[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ دلَّ القُرآنُ على أنَّ المقاصِدَ والنِّيَّاتِ مُعتبَرةٌ في التَّصَرُّفِ والعاداتِ، كما هي مُعتبَرةٌ في القُرُباتِ والعِباداتِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦، ٨٧).

(٢) وهذا مذهَبُ المالكيَّةِ والحنابلةِ. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير و((حاشية الدسوقي)) (١/ ٤٣٧)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٢/ ١٧٩).
وذهب الحنفيَّةُ والشَّافعيَّةُ إلى أنَّ المالكَ إنْ فعَلَ ما تَسقُطُ به الزَّكاةُ عنه -ولو بنيَّةِ الفِرارِ منها- سقطَتْ. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٢/ ١٥)، ((فتح القدير)) لابن الهُمَام (٢/ ١٦٢)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٢/ ١٩٠)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (١/ ٣٧٩)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٣/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٩٢).

فتَجْعَلُ الفِعلَ حلالًا أو حَرامًا، وصَحيحًا أو فاسِدًا، وصَحيحًا مِن وجهٍ، فاسدًا مِن وَجهٍ، كما أنَّ القَصدَ والنِّيَّةَ في العباداتِ تَجْعَلُها كذلك، ومِن ذلك: أنَّ جَدادَ النَّخلِ عَمَلٌ مُباحٌ أيَّ وقتٍ شاء صاحِبُه، لكنْ لَمَّا قَصَد به أصحابُه في اللَّيلِ حِرمانَ الفُقَراءِ عاقبَهم اللهُ تعالى بإهلاكِه[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ إلى آخرِ السِّياقِ: استدلَّ به بعضُهم على كَراهةِ الجَدادِ والحَصادِ باللَّيلِ[٢]. فقولُه: ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي: لأوَّلِ وقتٍ يُنسَبُ إلى الصَّباحِ، وذلك يكونُ في آخِرِ اللَّيلِ، كما يُقالُ: مُمْسِينَ، لأوَّلِ وقتٍ يُنسَبُ إلى المساءِ، وإذا كان كذلك فالانصرامُ يقَعُ باللَّيلِ؛ ألَا ترى إلى قولِه: ﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾، وهم لا يَملِكونَ بعدَ مُضيِّ اللَّيلِ منْعَ المَساكينِ عن الدُّخولِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ بعْدَ أنْ قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾: عِبرةٌ لِمَن مَنَعَ الخيرَ، فإنْ كان هؤلاء عُوقِبوا على قَصْدِ مَنْعِ الخَيرِ المُستحَبِّ، فكيف بمَنْ قَصَدَ مَنْعَ الواجِبِ؟! وإنْ كانوا إنَّما قَصَدوا مَنْعَ واجبٍ -وهو الصَّوابُ- فهُم لم يَمنَعوه بعدَ وُجوبِه؛ لأنَّه لو كان قد وَجَبَ لم يكُنْ فَرْقٌ بيْنَ صَرْمِه باللَّيلِ وصَرْمِه بالنَّهارِ، وإنَّما قَصَدوا بالصَّرْمِ لَيلًا الفِرارَ ممَّا كان للمَساكينِ فيه مِن اللُّقاطِ؛ فعُلِمَ أنَّ الأمرَ -كما ذَكَره المفَسِّرون- مِن أنَّ حقَّ المساكينِ كان فيما يَتساقَطُ، ولم يكُنْ شَيئًا مُوَقَّتًا، ووُجوبُ هذا مَشروطٌ بسُقوطِه وحُضورِ مَن يأخُذُه مِن المساكينِ، كأنَّ السَّاقِطَ عَفْوُ المالِ وفَضْلُه، وحُضورَ أهلِ الحاجةِ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ١٤٥).

بمنزلةِ السُّؤالِ والفاقةِ، ومِثْلُ هذه الحالِ يجِبُ فيها ما لا يجِبُ في غيرِها، كما يَجِبُ قِرَى الضَّيفِ، وإطعامُ المضطرِّ، ونَفَقةُ الأقاربِ، وحَمْلُ العَقلِ، ونحوُ ذلك، فيكونُ هذا فِرارًا مِن حقٍّ قدِ انعقَدَ بسببِ وُجوبِه قبْلَ وقتِ وجوبِه، فهو مِثلُ الفِرارِ مِن الزَّكاةِ قبْلَ حُلولِ الحَولِ بعدَ مِلْكِ النِّصابِ، والفِرارِ مِن الشُّفعةِ بعدَ إرادةِ البَيعِ قبْلَ تمامِه، والفِرارِ مِن قِرَى الضَّيفِ قبْلَ حُضورِه، ونحوِ ذلك[1].

٥- يَنبغي لصاحبِ الحائطِ إذا أراد الجِذاذَ ألَّا يَمنَعَ المساكينَ مِن الدُّخولِ، وأن يَتصدَّقَ عليهم؛ لقولِ الله تعالى في ذمِّ أصحابِ الجنَّةِ: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ...﴾، والعِلمُ عندَ الله تعالى[2].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ فلمَّا عزَموا على ما عزَموا عليه عُوقِبوا بنقيضِ قصدِهم، فأذْهَب الله ما بأيديهم بالكُليَّةِ؛ رأسَ المالِ، والرِّبحَ، والصَّدقةَ، فلم يَبْقَ لهم شيءٌ[3]، وقد استقرَّتْ سُنَّةُ الله في خلقِه شرعًا وقدرًا على معاقبةِ العبدِ بنقيضِ قصدِه، فمَن كاد كيدًا محرَّمًا فإنَّ الله يَكيدُه، ويُعامِلُه بنقيضِ قصدِه، وبمِثلِ عملِه، وهذه سنَّةُ الله في أربابِ الحيلِ المحرَّمةِ؛ أنَّه لا يُبارِكُ لهم فيما نالوه بهذه الحيلِ، كما هو الواقعُ، ويُهيِّئُ لهم كيدًا على يدِ مَن يشاءُ مِن خلقِه يُجزَوْنَ به مِن جنسِ كيدِهم وحِيلِهم[4].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ العَزمَ ممَّا يُؤاخَذُ به الإنسانُ؛ لأنَّهم عَزَموا على أن يَفعَلوا، فعُوقِبوا

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٥/ ١٦١، ١٩٥).

قبْلَ فِعْلِهم[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ دليلٌ على أنَّ الشَّيءَ يُسمَّى باسم غَيرِه وإنْ لَمْ يُشْبِهْه بجَميعِ صِفاتِه؛ ألَا ترى أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه قد جَمَعَ بيْن جَنَّةِ الدُّنيا الَّتي هي بُستانٌ، وجَنَّةِ الآخِرةِ بالاسمِ، وهما لا يجتَمِعانِ في جميعِ صِفاتِهما؟! وهذا رَدٌّ على المعتزلةِ -فيما يَزعُمونَ أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ بشَيءٍ ممَّا يَقَعُ اسمُه مُوافِقًا لاسمِ ما في المخلوقِ- وأغفَلوا مِثلَ هذا وأشباهَه، وما هو أعظمُ مِن هذا، وهو الجَمعُ بيْن أسمائِه سبحانَه وأسماءِ خلْقِه، مِثلُ: «المَلِك» و«الجبَّار» و«العزيز» و«العظيم» و«الكريم» وما ضاهاها! فلَمْ يُوجِبْ ذلك أنْ يُساويَ خلْقَه في جميعِ صِفاتِه، ولا على خلْقِه أنْ يُساوُوه في جميعِ صِفاتِهم، وإذا كان هذا غيرَ ضَيِّقٍ في الاسمِ وَجَبَ ألَّا يَضِيقَ فيما وَقَعَ عليه الاسمُ[٢].

٩- قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، قَولُه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾، أي: الدُّنيويُّ، لِمَن أتَى بأسبابِ العَذابِ؛ أن يَسلُبَ اللهُ العَبْدَ الشَّيءَ الَّذي طغى به وبغى، وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا، وأن يُزيلَه عنه أحوَجَ ما يكونُ إليه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا دَعَت إليه مُناسَبةُ قولِه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[القلم: ١٤-١٥]؛ فإنَّ الازدهاءَ والغُرورَ بسَعةِ الرِّزقِ المُفضِيَينِ إلى الاستِخفافِ بدَعوةِ الحقِّ، وإهمالِ النَّظَرِ في كُنْهِها ودَلائلِها؛ قدْ أوقَعَا مِن قَديمِ الزَّمانِ أصحابَهما في بَطَرِ النِّعمةِ، وإهمالِ الشُّكرِ، فجَرَّ ذلك عليهم شَرَّ العواقبِ، فضَرَبَ اللهُ للمشركينَ مَثَلًا بحالِ أصحابِ هذه الجنَّةِ؛ لعلَّهم يَستفيقونَ مِن غَفْلتِهم وغُرورِهم، كما ضُرِبَ المثَلُ بقَريبٍ منه في سُورةِ (الكهْفِ)، وضُرِبَ مَثَلًا بقارونَ في سُورةِ (القَصصِ)[1].

- والبَلْوى: الاختبارُ، وهي هنا تَمثيلٌ بحالِ المُبتلَى في إرخاءِ الحبْلِ له بالنِّعمةِ ليَشكُرَ أو يَكفُرَ، فالبَلْوى المذكورةُ هنا بَلوى بالخَيرِ -على قولٍ-؛ فإنَّ اللهَ أمدَّ أهلَ مكَّةَ بنِعمةِ الأمْنِ، ونِعمةِ الرِّزقِ، وجَعَل الرِّزقَ يأْتِيهم مِن كلِّ جِهةٍ، ويسَّرَ لهم سُبلَ التِّجارةِ في الآفاقِ بنِعمةِ الإيلافِ برِحلةِ الشِّتاءِ ورِحلةِ الصَّيفِ، فلمَّا أكمَلَ لهم النِّعمةَ بإرسالِ رَسولٍ منهم ليُكمِلَ لهم صَلاحَ أحوالِهم، ويَهْدِيَهم إلى ما فيه النَّعيمُ الدائمُ، فدَعاهم وذكَّرهم بنِعَمِ اللهِ؛ أعْرَضوا وطَغَوا، ولم يَتوجَّهوا إلى النَّظَرِ في النِّعَمِ السَّالفةِ، ولا في النِّعمةِ الكاملةِ الَّتي أكْمَلَت لهم النِّعَمَ، ووَجْهُ المُشابَهةِ بيْنَ حالِهم وحالِ أصحابِ الجنَّةِ المذكورةِ هنا هو الإعراضُ عن طَلَبِ مَرضاةِ اللهِ، وعن شُكرِ نِعمتِه. وهذا التَّمثيلُ تَعريضٌ بالتَّهديدِ بأنْ يَلحَقَ قُريشًا ما لَحِقَ أصحابَ الجنَّةِ مِن البُؤسِ بعْدَ النَّعيمِ، والقحْطِ بعْدَ الخِصبِ، وإنِ اختَلَفَ السَّببُ في نَوعِه فقدِ اتَّحَدَ جِنسُه[2]. وأهلُ هذه الجنَّةِ لم يَكونوا كُفَّارًا، فوَجْهُ الشَّبَهِ بيْنَهم وبيْنَ المشرِكينَ المَضروبِ لهم هذا المَثَلُ هو بَطَرُ النِّعمةِ، والاغترارُ بالقوَّةِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨١).

- قولُه: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ معناه: لا يَسْتثنُون لأيْمانِهم، بأنْ يَقولوا: إنْ شاء اللهُ، وعلى هذا التَّفسيرِ يكونُ قولُه: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ مِن قَبيلِ الإدماجِ[١]، أي: لِمَبلَغِ غُرورِهم بقوَّةِ أنفُسِهم صاروا إذا عَزَموا على فِعلِ شَيءٍ لا يَتوقَّعون له عائقًا[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ التَّعبيرُ بالفِعلِ المضارعِ لاستحضارِ حالتِهم العجيبةِ مِن بُخْلِهم على الفُقراءِ والأيتامِ[٣]. وذلك على أنَّ المرادَ أنَّهم لا يَسْتَثْنونَ مِن الثَّمرةِ شيئًا للمساكينِ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ الطَّوافُ: المشْيُ حولَ شَيءٍ مِن كلِّ جَوانبِه، يُقالُ: طاف بالكَعبةِ، وأُريدَ به هنا تَمثيلُ حالةِ الإصابةِ لشَيءٍ كلِّه بحالِ مَن يَطوفُ بمَكانٍ[٤].

- إسنادُ فِعلِ (طاف) إلى (طائف) بمَنزلةِ إسنادِ الفِعلِ المَبنيِّ للمَجهولِ، كأنَّه قِيل: فطِيفَ عليها وهمْ نائِمون، فلا يَتعلَّقُ غرَضٌ بتَعيينِ نَوعِ الطَّائفِ؛ لأنَّ العِبرةَ في الحاصلِ به[٥].

- وتَنكيرُ (طائف) وتَنوينُه الفائدةُ منه الإبهامُ؛ تَعظيمًا لِما أصاب جنَّتَهم، أي: أمْرٌ عَظيمٌ أصابَها، وقد بيَّنَه بقولِه: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾، فهو طائفُ سَوءٍ[٦].

- قولُه: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ تَقييدٌ لوقْتِ الطائفِ -إذا كان تَمثيلًا لحالةِ الإصابةِ لشَيءٍ كلِّه بحالِ مَن يطوفُ بمكانٍ-، وهو تَأْكيدٌ لمعْنى (طائف) -إنْ كان

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨١، ٨٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٨).

الطائفُ لا يكونُ إلَّا باللَّيلِ-، وفائدتُه تَصويرُ الحالةِ[١].

- والصَّريمُ قِيل: هو اللَّيلُ، والصَّريمُ مِن أسماءِ اللَّيلِ، ومِن أسماءِ النَّهارِ، كما سُمِّيَ كلٌّ مِن اللَّيلِ والنَّهارِ مَلًا، فيُقال: المَلَوَانِ، وعلى هذا فَفي الجمْعِ بيْنَ (أصبَحَت) و(الصَّريم) مُحسِّنُ الطِّباقِ، وقيل: الصَّريمُ: الرَّمادُ الأسْوَدُ بلُغةِ جَذِيمةَ أو خُزَيمةَ، وقيل: الصَّريمُ: اسمُ رَمْلةٍ مَعروفةٍ باليمَنِ لا تُنبِتُ شيئًا، وإيثارُ كَلمةِ (الصَّريم) هنا لكَثرةِ مَعانِيها، وصَلاحيةِ جَميعِ تلك المعاني لأنْ تُرادَ في الآيةِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ الفاءُ للتَّفريعِ على ﴿أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾، أي: فلمَّا أصْبَحوا تَنادَوا لإنجازِ ما بيَّتوا عليه أمْرَهم[٣].

- والتَّنادي: أنْ يُناديَ بَعضُهم بعضًا، وهو مُشعِرٌ بالتَّحريضِ على الغُدُوِّ إلى جنَّتِهم مُبكِّرينَ[٤].

- قولُه: ﴿اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ يجوزُ أنْ يُضمَّنَ الغُدُوُّ معْنى الإقبالِ، كقولِهم: يُغدَى عليه بالجَفنةِ ويُراحُ، أي: فأقْبِلوا على حَرْثِكم باكِرينَ، ويجوزُ أنْ تكونَ (على) مُستعمَلةً في تَمكُّنِ الوُصولِ إليه، كأنَّه قِيل: اغْدُوا تَكونوا على حَرْثِكم، أي: مُستقرِّينَ عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨٢، ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٣)، ((إعراب =

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ (إنْ) شَرطيَّةٌ، وجَوابُها مَحذوفٌ، أي: إنْ كُنتُم صارمينَ فاغْدُوا[١]. وقيل: ليس قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ بشَرطِ تَعليقٍ، ولكنَّه مُستعمَلٌ في الاستبطاءِ، فكأنَّهم لإبطاءِ بَعضِهم في الغُدُوِّ قد عَدَلَ عن الجِذاذِ ذلك اليومَ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ فيه تأْكيدُ فِعلِ النَّهيِ ﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾ بنُونِ التَّوكيدِ؛ لزِيادةِ تَحقيقِ ما تَقاسَموا عليه[٣].

- وأُسنِدَ إلى ﴿مِّسْكِينٌ﴾ فِعلُ النَّهيِ عن الدُّخولِ، والمرادُ نهْيُ بَعضِهم بعضًا عن دُخولِ المسكينِ إلى جنَّتِهم، أي: لا يَترُكْ أحدٌ مِسكينًا يَدخُلُها، وهذا مِن قَبيلِ الكِنايةِ، فالمرادُ بنهْيِ المسكينِ عن الدُّخولِ المُبالَغةُ في النَّهيِ عن تَمكينِه مِن الدُّخولِ، كقولِهم: لا أرَيَنَّك هاهنا[٤].

- وجُملةُ ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ في مَوضعِ الحالِ بتَقديرِ (قد)، أي: انْطَلَقوا في حالِ كَونِهم غادِينَ قادِرينَ على حَرْدٍ. وذُكِرَ فِعلُ ﴿وَغَدَوْاْ﴾ في جُملةِ الحالِ؛ لقصْدِ التَّعجيبِ مِن ذلك الغُدُوِّ النَّحسِ[٥].

- والحرْدُ: يُطلَقُ على المنْعِ، وعلى القصْدِ القويِّ، أي: السُّرعةِ، وعلى الغضَبِ، وفي إيثارِ كَلمةِ ﴿حَرْدٍ﴾ في الآيةِ نُكتةٌ مِن نُكَتِ الإعجازِ المُتعلِّقِ

= القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٤).

بشَرَفِ اللَّفظِ ورَشاقتِه مِن حيثُ المعْنى، ومِن جِهةِ تَعلُّقِ المجرورِ به بما يُناسِبُ كلَّ معْنًى مِن مَعانِيه، أي: بأنْ يَتعلَّقَ ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾ بـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾، أو بقولِه: (غَدَوْا)؛ فإذا عُلِّقَ بـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾ فتَقديمُ المُتعلَّقِ يُفيدُ تَخصيصًا، أي: قادرينَ على المنْعِ، أي: منْعِ الخيرِ، أو منْعِ ثَمَرِ جَنَّتِهم غيرَ قادرينَ على النَّفعِ. والتَّعبيرُ بـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾ على ﴿حَرۡدٖ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (وَغَدَوا حارِدينَ) تَهكُّمٌ؛ لأنَّ شأْنَ فِعلِ القدرةِ أنْ يُذكَرَ في الأفعالِ الَّتي يشُقُّ على الناسِ إتيانُها، فقولُه: ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ على هذا الاحتمالِ مِن بابِ قَولِهم: فلانٌ لا يَملِكُ إلَّا الحرمانَ، أو لا يَقدِرُ إلَّا على الخَيبةِ! وإذا حُمِلَ الحرْدُ على معْنى السُّرعةِ والقصْدِ، كان ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾ مُتعلِّقًا بـ (غَدَوْا) مُبيِّنًا لنَوعِ الغُدُوِّ، أي: غَدَوا غُدُوَّ سُرعةٍ واعتناءٍ، فتَكون (على) بمعْنى باءِ المصاحَبةِ، والمعْنى: غَدَوا بسُرعةٍ ونَشاطٍ، ويَكون ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حالًا مِن ضَميرِ (غَدَوْا) حالًا مُقدَّرةً، أي: مُقدِّرينَ أنَّهم قادِرونَ على تَحقيقِ ما أرادوا، وفي الكلامِ تَعريضٌ بأنَّهم خابُوا، دلَّ عليه قولُه بعْدَه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ [القلم: ٢٦]، وقولُه قبْلَه: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ [القلم: ١٩]. وإذا أُريدَ بالحرْدِ الغضَبُ والحَنَقُ؛ فإنَّه يُقالُ: حَرَدٌ بالتَّحريكِ، وحرْدٌ بسُكونِ الرَّاءِ، ويَتعلَّقُ المجرورُ بـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾، وتَقديمُه للحصْرِ، أي: غَدَوا لا قُدرةَ لهم إلَّا على الحَنَقِ والغضَبِ على المساكينِ، فتَحيَّلوا عليهم بالتَّبكيرِ إلى جِذاذِها، أي: لم يَقدِروا إلَّا على الغضَبِ والحَنَقِ، ولم يَقدِروا على ما أرادُوه مِن اجتناءِ ثَمَرِ الجنَّةِ(١).

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۞ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ أفادتْ (لَمَّا) اقترانَ جَوابِها بشَرْطِها بالفَورِ والبَداهةِ، والمقصودُ مِن هذا التَّعريضُ للمشركينَ بأنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٠، ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٤، ٨٥).

يكونَ حالُهم في تَدارُكِ أمْرِهم، وسُرعةِ إنابتِهم كحالِ أصحابِ هذه الجنَّةِ؛ إذ بادَرُوا بالنَّدمِ، وسَأَلوا اللهَ عِوَضَ خَيرٍ[١].

- وإسنادُ هذه المَقالةِ إلى ضَميرِ أصحابِ الجنَّةِ يَقْتضي أنَّهم قالوه جَميعًا، أي: اتَّفَقوا على إدراكِ سَببِ ما أصابَهم[٢].

- قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾، أي: قالوا: إنَّا أخْطَأْنا الطَّريقَ في السَّيرِ إلى جنَّتِنا، ويكون الإضرابُ في قولِه: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ إبطاليًّا، أي: أبْطَلوا أنْ يَكونوا ضَلُّوا طَريقَ جَنَّتِهم، وأثْبَتوا أنَّهم مَحرومونَ مِن خَيرِ جَنَّتِهم، فيكون المعنى: أنَّها هي جَنَّتُهم، ولكنَّها هَلَكَت فحُرِموا خَيراتِها بأنْ أتلَفَها اللهُ[٣].

وعلى القولِ بأن معْنى ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: عن طَريقِ الشُّكرِ، أي: كانوا غيرَ مُهتدِينَ، فهو كِنايةٌ عن كَونِ ما أصابَهم عِقابًا على إهمالِ الشُّكرِ، وأكَّدوا الكلامَ لتَنزيلِ أنفُسِهم مَنزلةَ مَن يشُكُّ في أنَّهم ضالُّون طَريقَ الخيرِ؛ لقُرْبِ عَهْدِهم بالغَفلةِ عن ضَلالِهم، ففيه إيذانٌ بالتَّحسُّرِ والتَّندُّمِ[٤]. وقولُه: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ إضرابٌ للانتقالِ إلى ما هو أهمُّ بالنَّظَرِ لحالِ تَبْييتِهم؛ إذ بَيَّتوا حِرمانَ المساكينِ مِن فُضولِ ثَمرتِهم، فكانوا همُ المَحرومينَ مِن جَميعِ الثِّمارِ، فالحِرمانُ الأعظمُ قدِ اختَصَّ بهم؛ إذْ ليس حِرمانُ المساكينِ بشَيءٍ في جانبِ حِرمانِهم، والكلامُ يُفيدُ ذلك إمَّا بطَريقِ تَقديمِ المُسنَدِ إليه، بأنْ أُتِيَ به ضَميرًا بارزًا مع أنَّ مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يكونَ ضَميرًا مُستترًا في اسمِ المفعولِ، مُقدَّرًا مُؤخَّرًا عنه؛ لأنَّه لا يُتصوَّرُ إلَّا بعْدَ سَماعِ مُتحمَّلِه، فلمَّا أُبرِزَ الضَّميرُ وقُدِّمَ، كان تَقديمُه مُؤذِنًا بمعْنى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الاختصاصِ، أي: القصرِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ[١]، وهذا مِن مُستتبَعاتِ التَّراكيبِ والتَّعويلِ على القرائنِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ حُكِيَ هذا القولُ بدُونِ عاطفٍ؛ لأنَّه قولٌ في مَجرى المُحاوَرةِ جوابًا عن قولِهم: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [القلم: ٢٧]، قالهُ لهم على وَجْهِ تَوقيفِهم على تَصويبِ رأْيِه، وخَطَلِ رَأْيِهم[٣].

- والاستِفهامُ ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ تَقريريٌّ، أو إنكاريٌّ[٤].

- و﴿تُسَبِّحُونَ﴾ مَفعولُه مَحذوفٌ، أي: تُسبِّحون اللهَ[٥].

- قولُه: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّندُّمِ[٦].

- قيل: جُعِلَ التَّسبيحُ مَوضعَ الاستثناءِ بقولِ: إنْ شاء اللهُ؛ لأنَّ المعْنى تَنزيهُ اللهِ أنْ يكونَ شَيءٌ إلَّا بمَشيئتِه، أو لالتِقائِهما في معْنى التَّعظيمِ للهِ؛ لأنَّ الاستثناءَ تَفويضٌ إليه، والتَّسبيحَ تَنزيهٌ له، وكلُّ واحدٍ مِن التَّفويضِ والتَّنزيهِ تَعظيمٌ له[٧]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ التَّسبيحِ هنا.

- وجُملةُ ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إقرارٌ بالذنْبِ، والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) لتَحقيقِ الإقرارِ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٧).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦، ٨٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦).

والاهتمامِ به، ويُفيدُ حرْفُ (إنَّ) مع ذلك تَعليلًا للتَّسبيحِ والتَّنزيهِ الَّذي قبْلَه[١].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿ظَٰلِمِينَ﴾؛ ليَعُمَّ ظُلْمَهم أنفُسَهم بما جَرُّوه على أنفُسِهم مِن سَلْبِ النِّعمةِ، وظُلْمَ المساكينِ بمَنْعِهم مِن حقِّهم في المالِ[٢].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ لَمَّا استَقرَّ حالُهم على المُشارَكةِ في منْعِ المساكينِ حقَّهم، أخَذَ بعضُهم يَلومُ بَعضًا على ما فَرَطَ مِن فِعلِهم، كلٌّ يَلومُ غيرَه بما كان قدْ تَلبَّسَ به في هذا الشَّأنِ؛ مِن ابتكارِ فِكرةِ منْعِ المساكينِ ما كان حقًّا لهم مِن حياةِ الأبِ، ومِن المُمالأةِ على ذلك، ومِن الاقتناعِ بتَصميمِ البقيَّةِ، ومِن تَنفيذِ جَميعِهم ذلك العزْمَ الذَّميمَ، فصَوَّرَ قولُه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ هذه الحالةَ، والتَّقاذُفَ الواقعَ بيْنَهم بهذا الإجمالِ البالغِ غايةَ الإيجازِ؛ ألَا تَرى أنَّ إقبالَ بَعضِهم على بَعضٍ يُصوِّرُ حالةً تُشبِهُ المُهاجَمةَ والتَّقريعَ، وأنَّ صِيغةَ التَّلاوُمِ مع حذْفِ مُتعلَّقِ التَّلاوُمِ تُصوِّرُ في ذِهنِ السَّامعِ صُوَرًا مِن لَومِ بَعضِهم على بَعضٍ[٣].

- وأُسنِدَ هذا القولُ إلى جَميعِهم؛ لأنَّه قد تلقَّى كلُّ واحدٍ منهم لَومَ غَيرِه عليه بإحقاقِ نفْسِه بالمَلامةِ، وإشراكِ بَقيَّتِهم فيها[٤].

- الإقبالُ: المَجيءُ إلى الغيرِ مِن جِهةِ وَجْهِه، وهو مُشتَقٌّ مِن القُبُلِ، وهو ما يَبْدو مِن الإنسانِ مِن جِهةِ وَجْهِه، ضِدُّ الإدبارِ، وهو هنا تَمثيلٌ لحالِ العِنايةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

باللَّومِ[١].

٨- قولُه تعالَى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾

- جُملةُ ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ إلى آخِرِها يجوزُ أنْ تكونَ مُبيِّنةً لجُملةِ ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾، أي: يَلومُ بَعضُهم بَعضًا بهذا الكلامِ، فتَكونَ خبَرًا مُستعمَلًا في التَّقريعِ على طَريقةِ التَّعريضِ بغَيرِه، والإقرارِ على نفْسِه، مع التَّحسُّرِ والتَّندُّمِ بما أفادهُ ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾، وذلك كَلامٌ جامعٌ للمَلامةِ كلِّها، ولم تُعطَفِ الجُملةُ؛ لأنَّها مُبيِّنةٌ. ويجوزُ أنْ تكونَ جَوابَ بَعضِهم بَعضًا عن لَومِه غيرَه؛ فكما أجْمَعوا على لَومِ بَعضِهم بَعضًا، كذلك أجْمَعوا على إجابةِ بَعضِهم بَعضًا عن ذلك المَلامِ، فقال كلُّ مَلومٍ لِلائمِه: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ...﴾ إلخ، جَوابًا بتَقريرِ مَلامِه، والاعترافِ بالذَّنْبِ، ورَجاءِ العفْوِ مِن اللهِ، وتَعويضِهم عن جنَّتِهم خَيرًا منها إذا قَبِلَ توبتَهم، وجَعَلَ لهم ثَوابَ الدُّنيا مع ثَوابِ الآخرةِ، فيكونُ تَرْكُ العطْفِ؛ لأنَّ فِعلَ القولِ جَرى في طَريقةِ المُحاوَرةِ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ بدَلٌ مِن جُملةِ الرَّجاءِ، أي: هو رَجاءٌ مُشتمِلٌ على رَغبةٍ إليه بالقَبولِ والاستجابةِ، والتأْكيدُ في ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ للاهتمامِ بهذا التَّوجُّهِ[٣].

- والمقصودُ مِن الإطنابِ في قولِهم بعْدَ حُلولِ العذابِ بهم، تَلقينُ الَّذين ضُرِبَ لهم هذا المَثَلُ بأنَّ في مُكْنتِهم الإنابةَ إلى اللهِ بنَبْذِ الكُفرانِ لنِعمتِه؛ إذ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨٧، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨٨).

أشْرَكوا به مَن لا إنعامَ لهم عليه[١].

٩- قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ هذا رُجوعٌ إلى تَهديدِ المشركين المَبدوءِ مِن قولِه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ [القلم: ١٧]، فالكلامُ فَذْلَكةٌ[٢] وخُلاصةٌ لِما قبْلَه، وهو استئنافٌ ابتدائيٌّ[٣].

- وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُسنَدٌ مُقدَّمٌ، و﴿ٱلْعَذَابُ﴾ مُسنَدٌ إليه، وتَقديمُ المُسنَدِ للاهتِمامِ بإحضارِ صُورتِه في ذِهنِ السَّامعِ، ولإفادةِ القَصرِ. والتَّعريفُ في ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وفيه تَوجيهٌ بالعهْدِ الذِّهنيِّ، أي: عَذابُكم الموعودُ مِثلُ عَذابِ أولئك[٤].

- والمُماثَلةُ في إتلافِ الأرزاقِ والإصابةِ بقطْعِ الثَّمراتِ؛ فالمُماثَلةُ بيْنَ المُشبَّهِ والمُشبَّهِ به مُماثَلةٌ في النَّوعِ، وإلَّا فإنَّ ما تُوُعِّدوا به مِن القحْطِ أشدُّ ممَّا أصاب أصحابَ الجنَّةِ وأطولُ[٥].

وقيل: تَشبيهُ بَلاءِ قُريشٍ ببَلاءِ أصحابِ الجنَّةِ هو أنَّ أصحابَ الجنةِ عَزَموا على الانتفاعِ بثَمَرِها، وحِرمانِ المساكينِ، فقَلَبَ اللهُ تعالَى عليهم وحَرَمَهم، وأنَّ قُريشًا حينَ خَرَجوا إلى بدْرٍ حَلَفوا على قتْلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، فإذا فَعَلوا ذلك رَجَعوا إلى مكَّةَ، وطافوا بالكعبةِ، وشَربوا الخُمورَ، فقَلَبَ اللهُ عليهم بأنْ قُتِلوا، وأُسِروا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٨).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٩، ٩٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٤)

- قولُه: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ جوابُ (لو) مَحذوفٌ دلَّ عليه سِياقُ الكلامِ، تَقديرُه: لَمَا فَرَط منهم ما سَلَف مِن ظُلمٍ وإحجامٍ عن الاستثناءِ[1].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٨).

الآيات (٣٤-٤١)

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زَعِيمٌ﴾: أي: كَفيلٌ وضَمينٌ، وأصْلُ (زعم): يدُلُّ على تكفُّلٍ بالشَّيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ: إنَّ للمتَّقينَ عِندَ رَبِّهم جنَّاتِ النَّعيمِ الدَّائمِ الَّذي لا يَنقَضي.

ثمَّ يسألُ المشركينَ السُّؤالَ تلوَ السُّؤالِ؛ إلزامًا لهم بالحجةِ، وتقريعًا لهم على غفلتِهم: أفنُساوي بيْنَ المُسلِمينَ الَّذين خَضَعوا لله تعالى وانقادُوا لأمْرِه، والمجرِمينَ الَّذي اكتَسَبوا الذُّنوبَ؟! ما لَكم -أيُّها المُشرِكونَ- كيف تَحكُمونَ بمُساواةِ المسلمينَ والمُجرِمينَ؟

أَلكم كِتابٌ منزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تَقرَؤونَ فيه أنَّ لكم فيه ما تختارونَه مِن أحكامٍ؟!

أمْ لكم -أيُّها المُشرِكونَ- عُهودٌ ومواثيقُ مُؤبَّدةٌ مُستَمِرَّةٌ إلى يومِ القيامةِ بأنَّ لكم حُكمَكم الَّذي تَختارونَه؟!

سَلْ -يا محمَّدُ- مُشرِكي قَومِك: مَن الضَّامِنُ المتكَفِّلُ بصِحَّةِ ذلك؟

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٤).

أمْ للكُفَّارِ شُرَكاءُ لله في استِحقاقِ العبادةِ؟ فلْيَأتوا بهم إن كانوا صادِقينَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى حالَ أهلِ الجنَّةِ الدُّنيويَّةِ، وما أصابهم فيها مِن النِّقمةِ حينَ عصَوُا اللهَ عزَّ وجلَّ وخالَفوا أمْرَه؛ بيَّن أنَّ لِمَن اتَّقاه وأطاعه في الدَّارِ الآخرةِ جنَّاتِ النَّعيمِ الَّتي لا تَبيدُ ولا تفرغُ ولا يَنقضي نعيمُها[1].

وأيضًا لَمَّا فَرَغ سبحانَه مِن ذِكرِ حالِ الكفَّارِ، وتشبيهِ ابتلائِهم بابتلاءِ أصحابِ الجنَّةِ المذكورةِ؛ ذَكَر حالَ المتَّقينَ، وما أعدَّه لهم مِن الخيرِ، فقال[2]:

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٣٤﴾.

أي: إنَّ الذين اتَّقَوُا اللهَ تعالى بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نَواهيه: لهم في الآخِرةِ عِندَ رَبِّهم جنَّاتُ النَّعيمِ الدَّائمِ الَّذي لا يَبيدُ ولا يَنقَضي، الخالي مِن كُلِّ ما يُنغِّصُه ويُكَدِّرُه[3].

﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥﴾.

أي: أفنُساوي بيْنَ المُسلِمينَ الَّذين خَضَعوا لله تعالى، وانقادُوا لأمْرِه، واجتَنَبوا نَهْيَه، وذَلُّوا بالطَّاعةِ والعُبوديَّةِ له وَحْدَه، والمجرِمينَ الَّذي اكتَسَبوا الذُّنوبَ، ورَكِبوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩١).

المعاصيَ، وخالَفوا أمْرَ اللهِ ونَهْيَه؟! كَلَّا؛ فإنَّما يُثيبُ اللهُ المسلِمينَ، ويُعَذِّبُ المُجرِمينَ، كما تَقتَضيه حِكمتُه سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۞ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [السجدة: ١٨ - ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠].

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

أي: أيُّ شيءٍ حصَل لكم مِن خللِ الفكرِ وفسادِ الرَّأيِ، كيف تَحكُمونَ هذا الحُكمَ الجائرَ، كأنَّ أمرَ الجزاءِ في الآخرةِ مفوَّضٌ إليكم، تَحكمونَ فيه بما شِئْتُم[2]!

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٤)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٣/ ٨٨، ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٨).
قال البقاعي: (﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي: أيُّ عَقلٍ دعاكم إلى هذا الحُكمِ الَّذي يتضَمَّنُ التَّسويةَ مِنَ السَّيِّدِ بيْنَ المحسِنِ مِن عبيدِه والمُسيءِ؟!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣١٩).

أي: أَلكم كتابٌ منزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تَقرَؤونَ فيه مِرارًا حتَّى تَحفَظوا أنَّ لكم فيه ما تختارونَه مِن أحكامٍ حتَّى تُساووا بيْنَ المسلمينَ والمُجرِمينَ[(١)]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٦، ١٥٧].

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: أمْ لكم -أيُّها المُشرِكونَ- عُهودٌ ومواثيقُ مُؤكَّدةٌ قد أقسَمْنا عليها، وهي مُؤبَّدةٌ مُستَمِرَّةٌ إلى يومِ القيامةِ، بأنَّ لكم حُكمَكم الَّذي تَختارونَه[(٢)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٩، ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٣، ٩٤).

قال ابن عطية: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ قال بعضُ المتأوِّلينَ: هذا استئنافُ قولٍ، على معنَى: إن كان لكم كتابٌ، فلَكم فيه مُتخَيَّرٌ. وقال آخَرون: «إنَّ» معمولةٌ لـ ﴿تَدْرُسُونَ﴾، أي: تَدرُسونَ في الكتابِ إنَّ لكم ما تَختارونَ مِن النَّعيمِ، وكُسِرت الألِفُ مِن «إنَّ» لِدُخولِ اللَّامِ في الخبَرِ، وهي في معنَى «أنَّ» بفتحِ الألِفِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٤، ٩٥).

قال الزمخشري: (﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جوابُ القسَمِ؛ لأنَّ معنى ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾: أمْ أقْسَمْنا لكم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٣).

وقال الشوكاني: (﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾ أي: عهودٌ مؤكَّدةٌ موثَّقةٌ مُتناهيةٌ، والمعنى: أمْ لكم أيْمانٌ على الله استَوثَقْتُم بها في أنْ يُدخِلَكم الجنَّةَ، ... وجوابُ القسَمِ قولُه: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾؛ =

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لمُشرِكي قَومِك هؤلاء: مَن الضَّامِنُ المتكَفِّلُ الملتَزِمُ بادِّعائِه صِحَّةَ ذلك[1]؟

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَفى اللهُ تعالى أن يكونَ للمُجرِمينَ مِنه في تَسويتِهم بالمُسلِمينَ دَليلٌ عَقليٌّ أو نقليٌّ أو عَهدٌ وَثيقٌ على هذا التَّرتيبِ المحكَمِ، والمِنهاجِ الأقوَمِ؛ أتْبَعَه ما يكونُ مِن عندِ غَيرِه إن كان ثَمَّ غَيرٌ على ما ادَّعَوا[2]!

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

أي: أم للكُفَّارِ شُرَكاءُ لله في استِحقاقِ العبادةِ؟ فلْيَأتوا بهم إذَن ليَجعَلوا لهم نصيبًا مِن ثوابِ اللهِ تعالى أو يَجعلوهم مِثلَ المسلمينَ في الآخرةِ، إن كانوا صادِقينَ في زَعْمِهم أنَّهم شُرَكاءُ للهِ سُبحانَه[3]!

= لأنَّ معنى ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ ﴾ أي: أمْ أقْسَمْنا لكم. قال الرازي: والمعنى: أمْ ضَمِنَّا لكم وأقسَمْنا لكم بأيْمانٍ مُغَلَّظةٍ مُتناهيةٍ في التَّوكيدِ. وقيل: قد تمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾، ثمَّ ابتدأ فقال: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾، أي: ليس الأمرُ كذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

قال السعدي: (أي: أيُّهم الكفيلُ بهذه الدَّعوى الفاسِدةِ؛ فإنَّه لا يمكِنُ التَّصَدُّرُ بها، ولا الزَّعامةُ فيها؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أنَّ مِن السَّفَهِ ومِن الخَطَأِ في الحُكْمِ أنْ نَجعَلَ المسلِمَ كالمجرمِ، أوِ الفاسِقَ كالمؤمِنِ[1]! فاللهُ تعالى يُخبِرُ أنَّ حِكمتَه لا تَقتَضي أن يَجعَلَ المُسلِمينَ القانِتينَ لرَبِّهم، المُنقادِينَ لأوامِرِه، المتَّبِعينَ لمَراضِيه؛ كالمجرِمينَ الَّذين أسرَعوا في مَعاصيه، والكُفرِ بآياتِه، ومُعانَدةِ رُسُلِه، ومُحارَبةِ أوليائِه، وأنَّ مَن ظَنَّ أنَّه يُسَوِّيهم في الثَّوابِ فإنَّه قد أساء الحُكمَ، وأنَّ حُكمَه حُكمٌ باطِلٌ، ورأيَه فاسِدٌ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أضاف ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾؛ لأنَّ النَّعيمَ لا يُفارِقُها، إذ ليس فيها إلَّا هو، فلا يَشوبُه كَدَرٌ كما يَشوبُ

= كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى الشُّرَكاءِ هنا: الشُّرَكاءُ لله تعالى في العبادةِ بحَسَبِ زَعمِ عابِدِيها: الواحديُّ، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٦).

وقيل: شُرَكاءُ، أي: شُهداءُ مِن غَيرِهم يَشهَدونَ لهم بما يَدَّعونَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٨).

وقيل: المرادُ: ناسٌ يُشارِكونَهم في هذا القَولِ، ويوافِقونَهم عليه، ويَذهَبونَ مَذهَبَهم فيه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

جَنَّاتِ الدُّنيا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۞ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ بيانُ أنَّه لا يَجوزُ لأحدٍ أنْ يُعارِضَ كِتابَ اللهِ بغيرِ كِتابٍ، فمَن عارَضَ كتابَ اللهِ، وجادَلَ فيه بما يُسمِّيه مَعقولاتٍ وبَراهينَ وأقْيِسةً، أو ما يُسمِّيه مُكاشَفاتٍ[٢] ومَواجيدَ[٣] وأذواقًا[٤]، مِن غيرِ أنْ يأتيَ على ما يقولُه بكتابٍ مُنَزَّلٍ- فقد جادَلَ في آياتِ اللهِ بغَيرِ سُلطانٍ. هذه حالُ الكُفَّارِ الَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، فهذه حالُ مَن يُجادِلُ في آياتِ اللهِ مُطلقًا[٥].

٣- يُبَيِّنُ الله تعالى الحَقائقَ بالمَقاييسِ العَقليَّةِ والأمثالِ المَضروبةِ، ويُبَيِّنُ طُرُقَ التَّسويةِ بيْن المتماثِلَين، والفَرْقِ بيْن المختلِفَين، ويُنكِرُ على مَن يَخرُجُ عن ذلك؛ كما في قولِه تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، أي: هذا حُكمٌ جائرٌ لا عادلٌ؛ فإنَّ فيه تسويةً بيْنَ المختلِفَين. ففيه التَّنبيهُ أنَّ الميزانَ العَقليَّ حقٌّ كما ذَكَر اللهُ تعالى في كتابِه، وليس هو مختصًّا بمنطقِ اليُونانِ، بل هي الأقيسةُ الصَّحيحةُ المتضَمِّنةُ للتَّسويةِ بيْن المتماثلَين، والفَرقِ بيْن المختلِفَين، سواءٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥).

(٢) الكشفُ عندَ الصوفيَّةِ: هو الاطِّلاعُ على ما وراءَ الحِجابِ مِن المعاني الغَيبيَّةِ، والأمورِ الحقيقيَّةِ وُجودًا وشُهودًا. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٨٤)، ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمُناوي (ص: ٢٨٢)، ((جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)) للتهانوي (٣/ ٨٩).

(٣) الوجْدُ عندَ الصوفيَّةِ: ما يُصادِفُ القلبَ ويَرِدُ عليه بلا تكلُّفٍ وتصَنُّعٍ. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٢٥٠)، ((التوقيف)) للمُناوي (ص: ٣٣٤)، ((جامع العلوم)) للتهانوي (٣/ ٣١٠).

(٤) الذَّوقُ عندَ الصُّوفيَّةِ: عبارةٌ عن نورٍ عرفانيٍّ يَقذِفُه الحقُّ بتجلِّيه في قلوبِ أوليائِه، يُفرِّقونَ به بيْن الحقِّ والباطلِ، مِن غيرِ أن يَنقُلوا ذلك مِن كتابٍ ولا غيرِه. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٠٧)، ((التوقيف)) للمناوي (ص: ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٢٢).

صِيغَ ذلك بصيغةِ قياسِ الشُّمولِ، أو بصيغةِ قياسِ التَّمثيلِ[١]، وصِيَغُ التَّمثيلِ هي الأصلُ، وهي أكمَلُ، والميزانُ هو القَدْرُ المُشتَرَكُ، وهو الجامِعُ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أصلٌ في مَشروعيَّةِ الضَّمانِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ مِن شأْنِ ما ذُكِرَ مِن عذابِ الآخِرةِ للمُجرمينَ أنْ يَنشَأَ عنه سُؤالٌ في نفْسِ السَّامعِ يقولُ: فما جَزاءُ المتَّقينَ؟ وهو كَلامٌ مُعترِضٌ بيْنَ أجزاءِ الوَعيدِ والتَّهديدِ، وبيْن قولِه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦]، وقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ [القلم: ٣٣]، وقد أشعَرَ بتَوقُّعِ هذا السُّؤالِ قولُه بعْدَه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥][٤]؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لبَيانِ ما أعدَّ اللهُ للمتَّقينَ يومَ القيامةِ، وللرَّدِّ على صَناديدِ قُريشٍ الَّذين كانوا يَقولون: إنْ صحَّ أنَّا نُبعَثُ لم تكُنْ حالُنا وحالُ المؤمنينَ إلَّا مِثلَ ما هي في الدُّنيا[٥].

- وتَقديمُ المُسنَدِ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ للاهتِمامِ بشأْنِ المُتَّقينَ؛ ليَسبِقَ ذِكرُ صِفتِهم العَظيمةِ ذِكرَ جَزائِها، واللَّامُ للاستحقاقِ،

---

(١) قياسُ التَّمثيلِ: هو: حَملُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المُشتَرَكَ الكُلِّيَّ، مثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامِعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ: هو القياسُ الأُصوليُّ (إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما). يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٩).

و(عِندَ) ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بمعْنى الكَونِ الَّذي يَقْتضيهِ حرْفُ الجرِّ، ولذلك قُدِّمَ مُتعلَّقُه معه على المُسنَدِ إليه؛ مِن أجْلِ ذلك الاهتمام، وقد حصَلَ مِن تَقديمِ المسنَدِ بما معه طُولٌ يُثيرُ تَشويقَ السَّامعِ إلى المُسنَدِ إليه(١).

- وإضافةُ جنَّاتٍ إلى النَّعيمِ تُفيدُ أنَّها عُرِفَت به، فيُشارُ بذلك إلى مُلازَمةِ النَّعيمِ لها؛ لأنَّ أصلَ الإضافةِ أنَّها بتَقديرِ لامِ الاستِحقاقِ، فـ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ مُفيدٌ أنَّها استَحقَّها النَّعيمُ؛ لأنَّها ليس في أحوالِها إلَّا حالُ نَعيمِ أهلِها، وأنَّ النَّعيمَ لا يُفارِقُها، فلا يكونُ فيها ما يكونُ في جنَّاتِ الدُّنيا مِن المتاعِبِ، مِثل الحرِّ في بَعضِ الأوقاتِ، أو شِدَّةِ البرْدِ، أو مِثل الحشراتِ والزَّنانيرِ، أو ما يُؤذي، مِثلُ شَوكِ الأزهارِ والأشجارِ، ورَوَثِ الدَّوابِّ، وذَرْقِ الطَّيرِ(٢).

فأفاد التَّركيبُ اختصاصَ الجنَّاتِ بالتَّنعُّمِ الخالصِ؛ إذ ليس فيها إلَّا هو، فلا يَشوبُه كَدَرٌ كما يشوبُ جنَّاتِ الدُّنيا، وجاء هذا التَّخصيصُ مِن جانبِ المقامِ التَّعريضيِّ؛ مِن تَقديمِ الخبَرِ -﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾- على المبتدَأِ، ومَجيءِ الآيةِ بعْدَ ذِكرِ أصحابِ الجنَّةِ وأحوالِ قُريشٍ، وإردافِه بقولِه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فاءُ التَّفريعِ في ﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ تَقْتضي أنَّ هذا الكلامَ مُتفرِّعٌ على ما قبْلَه مِن استحقاقِ المتَّقينَ جنَّاتِ النَّعيمِ، ومُقابَلتِه بتَهديدِ المشركينَ بعَذابِ الدُّنيا والآخرةِ، ولكنَّ ذلك غيرُ مُصرَّحٍ فيه بما يُناسِبُ أنْ يَتفرَّعَ عليه هذا الإنكارُ والتَّوبيخُ، فتَعيَّنَ تَقديرُ إنكارٍ مِن المُعرَّضِ بهم؛ ليَتوجَّهَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٩١).

إليهم هذا الاستفهامُ المُفرَّعُ[١].

وقيل: جُملةُ ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ مَعطوفةٌ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ السِّياقُ، أي: أنَحِيفُ في الحكْمِ فنَجعَلُ المسلمين كالكافرينَ[٢]؟! وهي تَقريرٌ لِما قبْلَه مِن فَوزِ المُتَّقينَ بجنَّاتِ النَّعيمِ، ورَدٌّ لِما يَقولُه الكَفَرةُ عندَ سَماعِهم بحديثِ الآخرةِ وما وَعَدَ اللهُ المسلمينَ فيهَا؛ فإنَّهم كانُوا يقولونَ: إنْ صحَّ أنَّا نُبعَثُ كما يَزعُمُ محمَّدٌ ومَنْ معَه، لم يكُنْ حالُنَا وحالُهُم إلَّا مِثلَ ما هيَ في الدُّنيا، وإلَّا لم يَزِيدُوا علينَا ولم يَفضُلونَا، وأقْصى أمْرِهِم أنْ يُساوونَا[٣].

- وقولُه: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ قيل: هو كَلامٌ مُوجَّهٌ إلى المشركين، وهم المقصودُ بالمُجرِمين، عُبِّرَ عنهم بطَريقِ الإظهارِ دونَ ضَميرِ الخِطابِ؛ لِما في وصْفِ المجرمينَ مِن المُقابَلةِ؛ ليَكونَ في الوصفَينِ إيماءٌ إلى سَببِ نفْيِ المُماثَلةِ بيْنَ الفريقينِ، فلذلك لم يكُنْ ضَميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ الْتفاتًا عن ضَمائرِ الغَيبةِ مِن قولِه: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، وقولِه: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾[٤] [القلم: ١٧].

- والهمزةُ في ﴿أَفَنَجۡعَلُ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّقريعيِّ؛ فُرِّعَ إنكارُ التَّساوي بيْنَ المسلِمينَ والكافرينَ على ما سَبَق مِن اختلافِ جَزاءِ الفَريقينِ؛ فالإنكارُ مُتسلِّطٌ على ما دارَ بيْنَ المشرِكينَ مِن القولِ عندَ نُزولِ الآيةِ السَّابقةِ، أو عندَ نُزولِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٢).

ما سَبَقَها مِن آيِ القُرآنِ الَّتي قابَلَت بيْن جَزاءِ المؤمنينَ وجَزاءِ المشركين، كما يَقتضيهِ صَريحًا قولُه: ﴿مَا لَكُمْ﴾، إلى قولِه: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٩]، والاستِفهامُ وما بعْدَه مِن التَّوبيخِ، والتَّخطئةِ، والتَّهكُّمِ على إدْلالِهم الكاذبِ؛ مُؤذِنٌ بأنَّ ما أُنكِرَ عليهم ووُبِّخوا عليه وسُفِّهوا على اعتقادِه، كان حَديثًا قدْ جَرى في نَوادِيهم، أو استَسْخَروا به على المسلِمينَ في مَعرضِ جُحودِ أنْ يكونَ بَعثٌ، وفرْضِهم أنَّه على تَقديرِ وُقوعِ البعثِ والجزاءِ لا يكونُ للمُسلِمينَ مَزيةٌ وفضْلٌ عندَ وُقوعِه[1].

- وإنكارُ جَعْلِ الفَريقينِ مُتشابهَينِ كِنايةٌ عن إعطاءِ المسلمينَ جَزاءَ الخَيرِ في الآخرةِ، وحِرمانِ المشركين منه؛ لأنَّ نفْيَ التَّساوي واردٌ في معْنى التَّضادِّ في الخيرِ والشَّرِّ في القرآنِ وكَلامِ العرَبِ، وإذا انْتَفى أنْ يكونَ للمشركينَ حظٌّ في جَزاءِ الخَيرِ انْتَفى ما قالُوه مِن أنَّهم أفضَلُ حظًّا في الآخرةِ مِن المسلمينَ كما هو حالُهم في الدُّنيا، بطَريقِ فَحوى الخِطابِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَا لَكُمْ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ لحالةِ حُكْمِهم، و﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ ثانٍ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿لَكُمْ﴾، أي: انْتَفى أنْ يكونَ لكم شَيءٌ في حالِ حُكْمِكم، أي: فإنْ ثَبَتَ لهم كان مُنكَرًا باعتبارِ حالةِ حُكْمِهم، والمعْنى: لا تَحكُمون أنَّكم مُساوُونَ للمسلمينَ في جَزاءِ الآخرةِ، أو مُفضَّلون

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٢).

وتقدَّم تعريفُ فحوى الخِطابِ (ص: ٢٥١).

عليهم[١].

- قيل: الالْتفاتُ مِن الغائبِ ﴿كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إلى الخِطابِ في قولِه: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فيه تَعجُّبٌ مِن حُكْمِهم، واستبعادٌ له، وإشعارٌ بأنَّه صادرٌ مِن اختلالِ فِكرٍ، واعوجاجِ رأْيٍ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ إضرابُ انتقالٍ مِن تَوبيخٍ إلى احتجاجٍ على كَذِبِهم، والاستفهامُ المُقدَّرُ مع (أَمْ) إنكارٌ لأنْ يكونَ لهم كتابٌ إنكارًا مَبنيًّا على الفرْضِ، وإنْ كانوا لم يَدَّعوه، وحاصلُ هذا الانتقالِ والانتقالاتِ الثَّلاثةِ بعْدَه -وهي ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا ...﴾ [القلم: ٣٩] إلخ، ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠]، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ ...﴾ [القلم: ٤١] إلخ- أنَّ حُكْمَكم هذا لا يَخلو مِن أنْ يكونَ سَنَدُه كتابًا سَماويًّا نزَلَ مِن لَدُنَّا، وإمَّا أنْ يكونَ سَنَدُه عهْدًا منَّا بأنَّا نُعطِيكم ما تَقترِحون، وإمَّا أنْ يكونَ لكمْ كَفيلٌ علينا، وإمَّا أنْ يكونَ تَعويلًا على نصْرِ شُركائِكم[٣].

- وضَميرُ ﴿فِيهِ﴾ عائدٌ إلى الحُكْمِ المُفادِ مِن قولِه: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٦]، أي: كِتابٌ في الحكْمِ. و(في) للتَّعليلِ أو الظَّرفيةِ، كما تقولُ: وَرَدَ كتابٌ في الأمْرِ بكذا، أو في النَّهيِ عن كذا، فيَكونُ ﴿فِيهِ﴾ ظَرفًا مُستقَرًّا[٤]

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٩، ١٨٠).

(٤) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ =

صِفةً لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى ﴿كِتَٰبٌ﴾، ويَتعلَّقُ المجرورُ بفِعلِ ﴿تَدۡرُسُونَ﴾؛ جُعِلَت الدِّراسةُ العميقةُ بمَزيدِ التَّبصُّرِ في ما يَتضمَّنُه الكتابُ بمَنزلةِ الشَّيءِ المظروفِ في الكتابِ، كما تقولُ: لنا درْسٌ في كِتابِ سِيبويْهِ. وفي هذا إدماجٌ بالتَّعريضِ بأنَّهم أُمِّيُّونَ لَيسوا أهلَ كتابٍ، وأنَّهم لَمَّا جاءهم كتابٌ لهَدْيِهم وإلْحاقِهم بالأُمَمِ ذاتِ الكتابِ، كَفَروا نِعمتَه وكذَّبوه[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ في مَوضعِ مَفعولِ ﴿تَدۡرُسُونَ﴾، على أنَّها مَحكيٌّ لَفْظُها، أي: تَدرُسونَ هذه العبارةَ، أي: تَدرُسون جُملةَ ﴿إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، ويكونُ ﴿فِيهِ﴾ تَوكيدًا لفظيًّا لنَظيرِها مِن قولِه: ﴿فِيهِ تَدۡرُسُونَ﴾، قُصِدَ مِن إعادتِها مَزيدُ ربْطِ الجُملةِ بالَّتي قبْلَها[٢].

- و﴿تَخَيَّرُونَ﴾ أصْلُه تَتخيَّرون بتاءينِ، حُذِفَت إحداهما تَخفيفًا[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ (أم) للانتقالِ إلى دَليلٍ آخَرَ،

= فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّي ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٩٣، ٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٩٤).

وهو نفْيُ أنْ يكونَ مُستنَدُ زَعْمِهم عهْدًا أخَذوه على اللهِ لأنفُسِهم؛ أنْ يُعامِلَهم يومَ القيامةِ بما يَحكُمونَ به لأنفُسِهم، فالاستفهامُ اللَّازمُ تَقديرُه بعْدَ (أَمْ) إنكاريٌّ تَقريعيٌّ(١).

- وقولُه: ﴿عَلَيْنَا﴾ صِفةٌ ثانيةٌ لـ﴿أَيْمَٰنٌ﴾، أي: أقَسَمْناها لكم لإثباتِ حقِّكم علينا؟ و﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ صِفةٌ ثالثةٌ لـ﴿أَيْمَٰنٌ﴾، أي: أيْمانٌ مُؤبَّدةٌ لا تَحِلَّةَ منها؛ فحَصَل مِن الوصفينِ أنَّها عُهودٌ مُؤكَّدةٌ ومُستمرَّةٌ طولَ الدَّهرِ، فليس يومُ القيامةِ مُنْتهى الأخْذِ بتلك الأيْمانِ، بلْ هو تَنصيصٌ على التَّأبيدِ(٢).

٧- قولُه تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ عن جُملةِ ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾ [القلم: ٣٩]؛ لأنَّ الأيْمانَ -وهي العهودُ- تَقْتضي الكُفلاءَ عادةً، فلمَّا ذُكِرَ إنكارُ أنْ يكونَ لهم عُهودٌ، كُمِّلَ ذلك بأنْ يُطلَبَ منهم أنْ يُعَيِّنوا مَن هم الزُّعماءُ بتلك الأيْمانِ(٣).

- وفي ﴿سَلْهُمْ﴾ تَلوينٌ للخِطابِ، وتَوجيهٌ لهُ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإسقاطِهم عن رُتبةِ الخِطابِ(٤).

- قولُه: ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ؛ زِيادةً على الإنكارِ عليهم، والزَّعيمُ: الكفيلُ، وقد جُعِلَ الزَّعيمُ أحدًا منهم زِيادةً في التَّهكُّمِ(٥).

٨- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾

- (أم) إضرابٌ انتقاليٌّ ثالثٌ إلى إبطالِ مُستنَدٍ آخَرَ مَفروضٍ لهم في سَنَدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٥).

قولِهم: إنَّا نُعطى مِثلَ ما يُعطى المسلِمونَ، أو خيرًا ممَّا يُعطَونه، وهو أنْ يُفرَضَ أنَّ أصنامَهم تَنصُرُهم، وتَجعَلُ لهم حظًّا مِن جَزاءِ الخَيرِ في الآخرةِ، والمعْنى: بلْ أثبَتَتْ لهم -أي: مِن أجْلِهم ونفْعِهم- شُركاءُ، أي: شُركاءُ لنا في الإلهيَّةِ في زَعْمِهم! فحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ لشُهرتِه عِندهم، فصار ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ بمَنزلةِ اللَّقَبِ، أي: أمْ آلِهَتُهم لهم؟! فلْيَأتوا بهم ليَنفَعوهم يومَ القيامةِ، واللَّامُ في ﴿لَهُمْ﴾ لامُ الأجْلِ، أي: لأجْلِهم بتَقديرِ مُضافٍ، أي: لأجْلِ نَصْرِهم[1].

- وتَنكيرُ ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ في حيِّزِ الاستِفهامِ المُستعمَلِ في الإنكارِ يُفيدُ انتفاءَ أنْ يكونَ أحدٌ مِن الشُّركاءِ -أي: الأصنامِ- لهم، أي: لنَفْعِهم، فيَعُمُّ أصنامَ جَميعِ قَبائلِ العرَبِ: المُشترَكَ في عِبادتِها بيْن القبائلِ، والمَخصوصةَ ببَعضِ القبائلِ[2].

- وقد نُقِلَ أُسلوبُ الكلامِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ لمُناسَبةِ وُقوعِه بعْدَ: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠]؛ لأنَّ أخصَّ النَّاسِ بمَعرفةِ أحقِّيَّةِ هذا الإبطالِ هو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك يَستتبِعُ تَوجيهَ هذا الإبطالِ إليهم بطَريقةِ التَّعريضِ[3].

- والتَّفريعُ في قولِه: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ تَفريعٌ على نفْيِ أنْ تَنفَعَهم آلهتُهم؛ فتَعيَّنَ أنَّ أمْرَ ﴿فَلْيَأْتُواْ﴾ أمْرُ تَعجيزٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وإضافةُ (شُركاء) إلى ضَميرِهم لإبطالِ صِفةِ الشَّرِكةِ في الإلهيَّةِ عنهم، أي: لَيسوا شُركاءَ في الإلهيَّةِ إلَّا عندَ هؤلاء؛ فإنَّ الإلهيَّةَ الحقَّ لا تكونُ نِسبيَّةً بالنِّسبةِ إلى فَريقٍ أو قَبيلةٍ(١).

- قولُه: ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ (إنْ) شَرطيَّةٌ، والجوابُ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما تَقدَّمَ، أي: فلْيَأتوا بشُركائِهم(٢).

- مِن قولِه: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ الاستِفهاماتُ الَّتي وَرَدَت في هذه الآياتِ سَبْعةٌ، وقد خَرَجَت عن معْناها الأصليِّ إلى الإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّقريعِ على ما أرْجَفُوا به مِن زَعْمِهم أنَّ اللهَ فضَّلنا عليكم في الدُّنيا، فلا بُدَّ مِن أنْ يُفضِّلَنا عليكم في الآخرةِ، أو على الأقلِّ إنْ لم يَحصُلِ التَّفضيلُ فلا أقلَّ مِن المُساواةِ؛ ففنَّد اللهُ مَزاعِمَهم مُقرِّعًا وموبِّخًا، وجاءت مُتعاقِبةً: أوَّلُها ﴿أَفَنَجۡعَلُ﴾، والثَّاني ﴿مَا لَكُمۡ﴾، والثَّالثُ ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾، والرَّابعُ ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٌ﴾، والخامسُ ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ﴾، والسَّادسُ ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾، والسَّابعُ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ﴾، وقد انتَظَمَت في سِلكٍ مِن الفصاحةِ والبَيانِ يَعْنو له كلُّ بَيانٍ(٣).

- مِن قولِه: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ نَبَّه سُبحانه وتَعالى في هذه الآياتِ على نفْيِ جَميعِ ما يُمكِنُ أنْ يَتشبَّثوا به مِن عقْلٍ -بقولِه تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾- أو نقْلٍ -بقولِه سبحانَه: ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٌ ...﴾ إلخ- أو وعْدٍ -بقولِه سبحانَه: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٨١، ١٨٢).

عَلَيْنَا ...﴾ إلخ-، أو مَحضِ تَقليدٍ -بقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾؛ على القولِ بأنَّ المرادَ مَن شارَكهم في هذه المقالةِ، وسبَقهم لها، فنبَّه على مَراتبِ النَّظرِ، وزيف ما لا سَنَدَ له[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦، ٢٣٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٩٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٩).

الآيات (٤٢-٤٧)

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَٰشِعَةً﴾: أي: ذليلةً خاضِعةً، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[١].

﴿تَرْهَقُهُمْ﴾: أي: تَغشاهم وتَلحَقُهم، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ[٢].

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾: أي: سنأخُذُهم قليلًا قليلًا، درجةً فدرجةً، ولا نُباغِتُهم، وأصلُه مِنَ الدَّرْجِ: وهو لفُّ الشَّيءِ وطَيُّه، والاستِدراجُ هو طَيُّ مَنزلةٍ بعْدَ مَنزلةٍ، ويجوزُ أن يكونَ مِنَ الدَّرَجةِ، فيكونَ معنى الاستدراجِ في الأمرِ: أن يُحَطَّ دَرَجةً بعدَ دَرَجةٍ حتَّى يَنتهيَ إلى مَقصودِه[٣].

﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾: أي: أؤَخِّرُهم وأُمْهِلُهم؛ وأطيلُ لهم المدَّةَ، وأترُكُهم مُلاوةً مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧، ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١١).

الدَّهْرِ، أي: حِينًا مِن الدَّهرِ، والمُلاوةُ المُدَّةُ مِن الدَّهرِ، وأصلُ (ملي): الزَّمَنُ الطَّويلُ[١].

﴿مَتِينٌ﴾: أي: قَويٌّ شَديدٌ، وأصلُ (متن): يدُلُّ على صَلابةٍ في الشَّيءِ[٢].

﴿مَّغْرَمٍ﴾: أي: غُرمٍ، وهو: ما يَنوبُ الإنسانَ في مالِه مِن ضَرَرٍ لغَيرِ جِنايةٍ منه أو خيانةٍ، والغرمُ أداءُ كلِّ شيءٍ يَلزَمُ، وأصلُ (غرم): يدُلُّ على مُلازَمةٍ[٣].

﴿مُّثْقَلُونَ﴾: أي: مُجهَدونَ لِما كلَّفْتَهم به، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا جانبًا مِن مَشاهِدِ يومِ القيامةِ: يَوْمَ يَكشِفُ الرَّبُّ سُبحانَه وتعالى عن ساقِه الكريمةِ يومَ القِيامةِ، ويُدْعَون إلى السُّجودِ لله تعالى فلا يَستطيعونَ، خاضِعةً ساكِنةً أبصارُهم تَغشاهم ذِلَّةٌ، وقد كانوا في الدُّنيا يُؤمَرونَ بالسُّجودِ للهِ، وهم أصِحَّاءُ مُعافَونَ!

ثمَّ يقولُ تعالى مهدِّدًا: فدَعْني -يا مُحمَّدُ- ومَن يُكذِّبونَ بهذا القُرآنِ، ولا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥، ٤٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٣٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

تَستَعجِلْ هَلاكَهم، سنُقَرِّبُهم مِن هَلاكِهم شَيئًا فشَيئًا مِن حيثُ لا يَعلَمونَ، وأُمهِلُهم ولا أُعاجِلُهم بالعُقوبةِ؛ إنَّ مَكرِي وكَيدِي بهم قَويٌّ شَديدٌ!

ثمَّ يُبطِلُ الله تعالى حُجَجَهم، فيقولُ: أم تَسألُ قَومَك -يا مُحمَّدُ- مالًا لإبلاغِهم دعوتي، فيُثقِلُهم ويَشُقُّ عليهم ذلك، فلا يَستجيبونَ لك؟!

أم عِندَ أولئك المُشرِكينَ عِلمُ الغَيبِ فهم يَكتُبونَه؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّ للمتَّقينَ عِندَه جَنَّاتِ النَّعيمِ؛ بَيَّنَ متى ذلك كائِنٌ وواقِعٌ[1].

وأيضًا لَمَّا نَفى اللهُ تعالَى جَميعَ شُبَهِ المشركينَ الَّتي يُمكِنُ أنْ يَتشبَّثوا بها، مع البيانِ لقُدرتِه على ما يُريدُ مِن تَفتيقِ الأدِلَّةِ، وتَشقيقِ البَراهينِ، الدَّالِّ على تَمامِ العِلمِ اللَّازمِ منه كَمالُ القُدرةِ، فأوصَلَهم مِن وُضوحِ الأمرِ إلى حدٍّ لم يَبْقَ معه إلَّا العِنادُ؛ أتْبَعَ ذلك تَهديدَهم بما يُثبِتُ قُدرتَه عليه؛ مِن يومِ الفصْلِ، ومُعاملَتِهم فيه بالعدْلِ[2].

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾.

أي: يَوْمَ[3] .....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٣) قال الألوسي: (﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾... ويجوزُ تعلُّقُه بمُقدَّرٍ، كاذْكُرْ، أو يكونُ كَيْتَ وكَيْتَ. وقيل: بـ﴿خَٰشِعَةً﴾. وقيل: بـ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾. وأيًّا ما كان فالمرادُ بذلك اليومِ عندَ الجمهورِ: يومُ القيامةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) =

يَكشِفُ الرَّبُّ سُبحانَه عن ساقِه الكريمةِ، وذلك يومَ القِيامةِ[١].

= (١٨/ ٢٤٨).

ممَّن اختار أنَّه متعلِّقٌ بقولِه: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وابنُ الجوزي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٩).

وممَّن اختار أنَّه متعلِّقٌ بمُقدَّرٍ تقديرُه: اذكُرْ: السمرقنديُّ، ومكِّي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣١، ٣٣٢).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ وطائفةٍ أنَّ المرادَ به الشِّدَّةُ؛ أنَّ اللهَ يَكشِفُ عن الشِّدَّةِ في الآخِرةِ. وعن أبي سعيدٍ وطائفةٍ: أنَّهم عَدُّوها في الصِّفاتِ). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٣٩٤، ٣٩٥). ويُنظر: ((الرد على الجهمية)) لابن منده (ص: ١٥).

وقال أيضًا: (الصَّحابةُ قد تَنازَعوا في تفسيرِ الآيةِ: هل المرادُ به الكشفُ عن الشِّدَّةِ، أو المرادُ به أنه يَكشِفُ الرَّبُّ عن ساقِه ... وذلك أنَّه ليس في ظاهرِ القرآنِ أنَّ ذلك صِفةٌ لله تعالى؛ لأنَّه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، ولم يقُلْ: «عن ساقِ الله»، ولا قال: «يَكشِفُ الرَّبُّ عن ساقِه». وإنَّما ذكَر ساقًا مُنكَّرةً غيرَ مُعرَّفةٍ ولا مُضافةٍ، وهذا اللَّفظُ بمُجَرَّدِه لا يدُلُّ على أنَّها ساقُ الله، والَّذين جعَلوا ذلك مِن صفاتِ الله تعالى أثبتوه بالحديثِ الصَّحيحِ المفسِّرِ للقرآنِ، وهو حديثُ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ المُخَرَّجُ في الصَّحيحَينِ، الَّذي قال فيه: «فيَكشِفُ الرَّبُّ عن ساقِه»). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٥/ ٤٧٢ - ٤٧٤).

وقال ابنُ عثيمين: (يحتَمِلُ أنْ يُرادَ بذلك ساقُ اللهِ تعالى، ويحتَمِلُ أن يُرادَ بالسَّاقِ الشِّدَّةُ، وقد قال السَّلَفُ بهذين القَولَينِ). ((شرح العقيدة السفارينية)) (١/ ٢٦٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ في الآيةِ: ساقُ الرَّبِّ سبحانه وتعالى: ابنُ جُزَي في ظاهرِ اختيارِه، واختاره الشوكاني، وابن باز، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٤/ ١٣١) و(٢٤/ ٣١٩)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢٦٣). ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٢٥٢، ٢٥٣).

وعقد البخاريُّ في صحيحه في كتاب (تفسير القرآن): باب ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، وأورد تحتَه =

= حديثَ أبي سعيدٍ (٤٩١٩)، وفيه: ((يَكْشِفُ رَبُّنا عن ساقِه...)).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٥٤).

قال الرَّسْعَنيُّ: (وذهَبَ جماعةٌ مِن عُلماءِ السُّنَّةِ إلى إلْحاقِ هذا بنظائرِه مِن آياتِ الصِّفاتِ وأخبارِ الصِّفاتِ...). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٤١).

قال الشوكاني: (قد أغنانا اللهُ سبحانه في تفسيرِ هذه الآيةِ بما صَحَّ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم...، وذلك لا يَستلزِمُ تَجسيمًا ولا تشبيهًا؛ فليس كمِثْلِه شَيءٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣١، ٣٣٢).

وقال ابن عثيمين: (سياقُ الحديثِ يجاري سياقَ الآيةِ تمامًا، فتُحمَلُ الآيةُ على ما جاء في الحديثِ، وتكونُ إضافتُنا السَّاقَ لله في الآيةِ بناءً على الحديثِ، ومِن المعلومِ أنَّ الحديثَ يفسِّرُ القرآنَ، وبهذا تكونُ القاعدةُ مُطَّردةً ليس فيها نقصٌ). ((شرح العقيدة السفارينية)) (١/ ٢٦٣).

وقال ابنُ تَيميَّةَ: (وقد يُقالُ: إنَّ ظاهرَ القُرآنِ يدُلُّ على ذلك مِن جِهةِ أنَّه أخبَرَ أنه يُكشَفُ عن ساقٍ، ويُدْعَون إلى السُّجودِ، والسُّجودُ لا يَصلُحُ إلَّا للهِ، فعُلِمَ أنَّه هو الكاشفُ عن ساقِه، وأيضًا فحَمْلُ ذلك على الشِّدَّةِ لا يصِحُّ؛ لأنَّ المستعمَلَ في الشِّدَّةِ أنْ يُقال: كَشَفَ اللهُ الشِّدَّةَ، أي: أزالها، كما قال: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٥٠]، وقال: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ [الأعراف ١٣٥]، وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون ٧٥]، وإذا كان المعروفُ مِن ذلك في اللُّغةِ أنَّه يُقال: كشَفَ الشِّدَّةَ، أي: أزالها، فلَفظُ الآيةِ: ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، وهذا يُرادُ به الإظهارُ والإبانةُ، كما قال: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾، وأيضًا فهناك تَحدُثُ الشِّدَّةُ ولا يُزيلُها، فلا يَكشِفُ الشِّدَّةَ يومَ القيامةِ، لكنَّ هذا الظَّاهرَ ليس ظاهرًا مِن مُجرَّدِ لَفظِ «ساقٍ»، بلْ بالتَّركيبِ والسِّياقِ وتَدبُّرِ المعنى المقصودِ). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٥/ ٤٧٢ - ٤٧٤).

وقال ابنُ القيِّمِ: (قالوا: وحمْلُ الآيةِ على الشِّدَّةِ لا يصِحُّ بوجْهٍ؛ فإنَّ لُغةَ القومِ في مِثلِ ذلك أنْ يُقال: كُشِفَت الشِّدَّةُ عن القومِ، لا: كُشِفَ عنها، كما قال اللهُ تَعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، فالعذابُ والشِّدَّةُ هو المكشوفُ لا المكشوفُ عنه، وأيضًا فهناك تَحدُثُ الشِّدَّةُ وتَشتَدُّ، ولا تُزالُ إلَّا بدُخولِ الجنَّةِ، وهناك لا يُدْعَون إلى السُّجودِ، وإنَّما يُدعَون إليه أشَدَّ ما كانت الشِّدَّةُ). ((الصواعق المرسلة)) (١/ ٢٥٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالسَّاقِ الشِّدَّةُ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والواحديُّ، والقرطبي، وذهب إليه البِقاعي، =

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ: ((يَكشِفُ رَبُّنا عن ساقِه، فيَسجُدُ له كُلُّ مُؤمِنٍ ومُؤمِنةٍ، فيَبقى كُلُّ مَن كان يَسجُدُ في الدُّنيا رِياءً وسُمعةً، فيَذهَبُ ليَسجُدَ، فيَعودُ ظَهرُه طَبَقًا واحِدًا!))[1].

= وابنُ عاشور. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٧، ٩٨).

ونُسِب هذا القولُ إلى جمهورِ أهلِ اللُّغةِ والمفسِّرينَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، وعَطاءٌ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٥٦).

وقال السعدي: (أي: إذا كان يومُ القيامةِ، وانكشَفَ فيه مِنَ القلاقِلِ والزَّلازِلِ والأهوالِ ما لا يدخُلُ تحتَ الوَهمِ، وأتى الباري لفَصلِ القَضاءِ بيْن عِبادِه ومجازاتِهم، فكَشَف عن ساقِه الكريمةِ الَّتي لا يُشبِهُها شَيءٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

(١) رواه البخاري (٤٩١٩) واللَّفظُ له، ومسلم (١٨٣).

وممَّا يُستأنسُ به حديثُ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((إذا جمَع الله العبادَ بصعيدٍ واحدٍ نادَى مُنادٍ: يَلحَقُ كلُّ قَومٍ بما كانوا يَعبُدونَ، ويبقَى النَّاسُ على حالِهم، فيأتيهم فيقولُ: ما بالُ النَّاسِ ذهَبوا وأنتم هاهنا؟ فيَقولونَ: نَنتَظِرُ إلهَنا، فيقولُ: هل تَعرِفونَه؟ فيقولونَ: إذا تعرَّف إلينا عرَفْناه، فيَكشِفُ لهم عن ساقِه، فيَقَعونَ سُجَّدًا، وذلك قولُ الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، ويبقَى كلُّ منافقٍ، فلا يستطيعُ أن يَسجُدَ، ثمَّ يَقودُهم إلى الجنَّةِ)). أخرجه الدَّارميُّ (٢٨٠٣) واللَّفظُ له، وابنُ أبي عاصم في ((السُّنة)) (٧٣٢).

حسَّن إسنادَه الألبانيُّ في تخريج ((كتاب السنة)) (٧٣٢)، وجوَّده في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٥٨٤). وقال أيضًا (٢/ ١٢٩): (وهو نصٌّ في الخِلافِ السَّابقِ في «السَّاق»، وإسنادُه قويٌّ).

وأخرجه مِن طريقٍ آخَرَ ابنُ مَنْدَه في ((الإيمان)) (٨١١)، وقال: (مقبولٌ، رُواتُه مَشاهيرُ).

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

أي: ويُدْعَونَ إلى السُّجودِ لله تعالى في ذلك اليَومِ، فلا يَقدِرونَ على ذلك[1].

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه -في حديثِ الرُّؤيةِ والشَّفاعةِ الطَّويلِ- أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((... فيُكشَفُ عن ساقٍ، فلا يبقَى مَن كان يَسجُدُ للهِ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه إلَّا أَذِنَ اللهُ له بالسُّجودِ، ولا يَبقى مَن كان يَسجُدُ اتِّقاءً ورياءً إلَّا جَعَلَ اللهُ ظَهْرَه طَبقةً واحِدةً، كلَّما أراد أن يَسجُدَ خَرَّ على قفاه!))[2].

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٨، ٩٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ المنافِقون: الزَّجَّاجُ، ومكِّي، والسمعاني، وابن الجوزي، وابن جُزَي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٠)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٧٦٤٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٨).

قال ابن جُزَي: (وفي الحديثِ الصَّحيحِ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «... فيكشفُ لهم عن ساقٍ، فيَقولون: نعَمْ أنت ربُّنا، ويَخِرُّونَ للسُّجودِ، فيَسجُدُ كلُّ مؤمنٍ، وتَرجِعُ أصلابُ المنافِقين عَظمًا واحدًا، فلا يَستَطيعونَ سُجودًا»، وتأويلُ الحديثِ كتأويلِ الآيةِ. ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ تفسيرُه في الحديثِ الَّذي ذَكَرْنا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٢).

وذكر ابن عاشور أنَّ قولَه: ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ لا يعودُ إلى المشرِكينَ؛ لقولِه بعدَ ذلك: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ فإنَّ المشرِكين لم يَكونوا في الدُّنيا يُدْعَون إلى السُّجودِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٨).

وقيل: المرادُ: الكفَّارُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٥).

وقيل: المرادُ: الكفَّارُ والمنافِقونَ. وممَّن اختاره: الواحديُّ -ونسَبَه لجميعِ المفسِّرينَ-، والبغويُّ، والخازنُ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيِّمِ، واختاره العُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٠)، ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣٤).

(٢) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) واللَّفظُ له.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ٤٣﴾.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾.

أي: تكونُ أبصارُهم يومَ القيامةِ خاضِعةً ساكِنةً[1].

قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٥].

﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾.

أي: تَغشاهم ذِلَّةٌ شديدةٌ[2].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾.

أي: وقد كانوا في الدُّنيا يُؤمَرونَ بالسُّجودِ للهِ، وهم أصِحَّاءُ، مُعافَونَ، لا يَمنَعُهم

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٤، ٣٢٥).
قال ابنُ تيميَّة: (... إنَّ الخُشوعَ يَجمَعُ مَعنيَينِ؛ أحدُهما: الذُّلُّ والخُضوعُ والتَّواضُعُ. والثَّاني: السُّكونُ والثَّباتُ. ومنه قَولُه تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾، وقَولُه: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٥]، وهو الانخفاضُ والسُّكونُ. ومنه خُشوعُ الأرضِ، وهو سُكونُها وانخفاضُها، فإذا أُنزِلَ عليها الماءُ اهتَزَّت بَدَلَ السُّكونِ، ورَبَتْ بَدَلَ الانخفاضِ). ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) (١/ ٤٢٦، ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٩).
قال البِقاعي: (﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾ أي: تَغشاهم وتَقهَرُهم ﴿ذِلَّةٞ﴾ أي: عَظيمةٌ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٢٥).
وقال ابن عاشور: (﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾: تحُلُّ بهم وتقتَرِبُ منهم بحِرصٍ على التَّمكُّنِ منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٩).

شَيءٌ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۞ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].

﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا خوَّفَ الكفَّارَ بعَظَمةِ يومِ القيامةِ، زاد في التَّخويفِ، فخوَّفَهم بما عندَه، وفي قُدرتِه مِن القهْرِ[(٢)].

وأيضًا بعْدَ أنِ استُوفِيَ الغرَضُ مِن مَوعظتِهم، ووَعيدِهم، وتَزْييفِ أوهامِهم؛ أُعقِبَ بهذا الاعتراضِ تَسليةً للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ تَكفَّلَ بالانتِصافِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٦ - ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٩).

قال الواحدي: (قولُه: ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾ يعني: في الدُّنيا، حينَ كانوا يُدْعَون إلى الصَّلاةِ المكتوبةِ ويُؤمَرون بها وهم مُعافَون، ليس في أصلابِهم مِثلُ سَفافيدِ الحديدِ. ومعنى قولِه: ﴿يُدۡعَوۡنَ﴾ أي: بالأذانِ والإقامةِ. وهذا الَّذي ذكَرْنا قولُ ابنِ عبَّاسٍ، ومُقاتلٍ، وإبراهيمَ التَّيْميِّ. قال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: كانوا يَسمَعونَ «حيَّ على الفلاحِ» فلا يُجيبونَ). ((البسيط)) (٢٢/ ١١٧). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٨، ٤٠٩).

وقال السمعاني: (وظاهرُ الآيةِ أنَّ مَعْناها السُّجودُ في الصَّلاةِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠).

وقال الشوكاني: (وقيل: يُدْعَونَ بالتَّكليفِ المُتَوجِّهِ عليهم بالشَّرعِ فلا يُجيبون). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٩).

وقال القاسمي: (والمرادُ مِن السُّجودِ: عبادةُ الله وحْدَه، وإسلامُ الوجهِ له، والعملُ بما أمَر به مِن الصَّالحاتِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٥).

مِن المُكذِّبينَ ونصْرِه عليهم[١].

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾.

أي: فدَعْني -يا مُحمَّدُ- ومَن يُكذِّبونَ بالقُرآنِ، فخَلِّ بيْني وبيْنَهم، وفوِّضْ أمْرَهم إلَيَّ؛ فإنِّي أكفيكَهم، فلا تَستَعجِلْ هَلاكَهم، ولا يَنشَغِلْ قَلْبُك بهم[٢]!

كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١٠، ١١].

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: سنُقَرِّبُ هؤلاء المكَذِّبينَ بالقُرآنِ مِن عَذابِهم شَيئًا فشَيئًا بالتَّدريجِ مِن جِهاتٍ وأسبابٍ لا يتفَطَّنونَ إلى أنَّها مُفضِيةٌ بهم إلى الهلاكِ؛ حيثُ يَزيدُهم اللهُ تعالى مِن مَتاعِ الدُّنيا، فيَحسَبونَ ذلك خَيرًا لهم[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالحديثِ هنا: القرآنُ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والزمخشري، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ عاشور: (وتَسميتُه حديثًا؛ لِما فيه مِن الإخبارِ عن اللهِ تعالى، وما فيه مِن أخبارِ الأُمَمِ، وأخبارِ المغَيَّباتِ ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٠).

وقيل: ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: يومَ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠١).

قال الشوكاني: (المعنى: سنأخُذُهم بالعذابِ على غَفلةٍ، ونَسوقُهم إليه دَرَجةً فدَرَجةً حتَّى =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٤ - ٥٦].

﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾.

أي: وأُمهِلُهم، ولا أعاجِلُهم بالعُقوبةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالم حتَّى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))[(٢)].

﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾.

أي: ذلك مِن مَكرِي وكَيدِي بهم، ومَكري قَويٌّ شَديدٌ[(٣)]!

= نوقِعَهم فيه مِن حيثُ لا يَعلَمونَ أنَّ ذلك استِدراجٌ؛ لأنَّهم يَظُنُّونَه إنعامًا، ولا يُفَكِّرونَ في عاقبتِه، وما سيَلقَونَ في نهايتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٨).

قال ابن جرير: (لِتَتكامَلَ حُجَجُ اللهِ عليهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٨).

وقال الواحدي: (لِيَتَمادَوا في المعاصي). ((البسيط)) (٩/ ٤٨٧).

(٢) رواه البخاري (٤٦٨٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٥٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن =

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنْ نَفى أنْ تكونَ لهم حُجَّةٌ تُؤيِّدُ صَلاحَ حالِهم، أو وعْدٌ لهم بإعطاءِ ما يَرغَبون، أو أولياءُ يَنصُرونهم؛ عَطَفَ الكلامَ إلى نفْيِ أنْ يكونَ عليهم ضُرٌّ في إجابةِ دَعوةِ الإسلامِ؛ استِقصاءً لقطْعِ ما يُحتملُ مِن المَعاذيرِ بافتراضِ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَأَلَهم أجْرًا على هَدْيِه إيَّاهم، فصَدَّهم عن إجابتِه ثِقَلُ غُرمِ المالِ على نُفوسِهم[1].

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: أم تَسألُ قومَك مالًا -يا مُحمَّدُ- مُقابلَ إبلاغِهم الحَقَّ، فيُثقِلُهم ويَشُقُّ عليهم ذلك فيَمتَنِعون عن قَبولِ نَصيحتِك، والاستِجابةِ لك[2]؟!

قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

= كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

قال البِقاعي: (﴿إِنَّ كَيْدِى﴾ أي: سَتْري لأسبابِ الهَلاكِ عمَّن أُريدُ إهلاكَه، وإبدائي ذلك له في مَلابِسِ الإحسانِ، وخِلَعِ البِرِّ والامتِنانِ ﴿مَتِينٌ﴾ أي: في غايةِ القوَّةِ؛ حيثُ كان حامِلًا للإنسانِ على إهلاكِ نَفْسِه باختيارِه، وسيَعلَمُ عندَ الأخذِ أنِّي لَمَّا أمهَلْتُه ما أهمَلْتُه، وأنَّ إمهالي إنَّما كان استِدراجًا). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٢٨، ٣٢٩).

وقال الشنقيطي: (الكَيدُ في لُغةِ العَرَبِ معناه: المكرُ، وهو أن يكونَ الفاعِلُ يُبطِنُ غَيرَ ما يُظهِرُ، وسَمَّى اللهُ هذا الاستدراجَ كَيدًا؛ لأنَّ ظاهِرَه إنعامٌ وإغداقُ نِعَمٍ، وباطِنَه استِدراجٌ يَستَدنيهم به، ويَستَدرِجُهم إلى الموتِ والعذابِ الدَّائمِ الَّذي يُخلَّدونَ فيه). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٢، ١٠٣).

[ص: ٨٦، ٨٧].

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نفَى اللهُ تعالى أن يكونَ تَكذيبُ المُشرِكينَ بشَهوةٍ دَعَتْهم إلى ذلك؛ نفَى أن يكونَ لهم في ذلك شُبهةٌ مِن شَكٍّ في الذِّكرِ، أو حَيفٍ في المذَكِّرِ، وأن يَكونوا على ثِقةٍ أو ظَنٍّ مِن سلامةِ العاقِبةِ[1].

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

أي: أم عِندَ أولئك المُشرِكينَ عِلمُ ما غاب عن الخَلقِ، فهم يَكتُبونَه[2]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ هذا الجزاءُ مِن جِنسِ عَمَلِهم؛ فإنَّهم كانوا يُدْعَونَ في الدُّنيا إلى السُّجودِ لله وتوحيدِه وعبادتِه وهم سالِمونَ، لا عِلَّةَ فيهم، فيَستَكبِرونَ عن ذلك ويأبَونَ، فلا تَسأَلْ يَومَئذٍ عن حالِهم وسُوءِ مآلِهم؛ فإنَّ اللهَ قد سَخِطَ عليهم، وحَقَّت عليهم كَلِمةُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٣).

قال القرطبي: (﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: عِلمُ ما غاب عنهم ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾. وقيل: أيَنزِلُ عليهم الوَحيُ بهذا الَّذي يَقولونَ. وعن ابنِ عبَّاسٍ: الغَيبُ هنا: اللَّوحُ المحفوظُ، فهم يكتُبونَ مِمَّا فيه يخاصِمونَك به، ويَكتُبونَ أنَّهم أفضَلُ منكم، وأنَّهم لا يُعاقَبونَ. وقيل: ﴿يَكْتُبُونَ﴾ يَحكُمونَ لأنفُسِهم بما يُريدونَ!). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢).

وقال السعدي: (﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما كان عِندَهم مِن الغُيوبِ، وقد وَجَدوا فيها أنَّهم على حَقٍّ، وأنَّ لهم الثَّوابَ عِندَ اللهِ، فهذا أمرٌ ما كان، وإنَّما كانت حالُهم حالَ مُعانِدٍ ظالِمٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

العذابِ، وتقطَّعَت أسبابُهم، ولم تنفَعْهم النَّدامةُ، ولا الاعتِذارُ يومَ القيامةِ؛ ففي هذا ما يُزعِجُ القُلوبَ عن المُقامِ على المعاصي، ويُوجِبُ التَّدارُكَ مُدَّةَ الإمكانِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ حمَلَه بعضُهم على أنَّ ذلك يَعني: حينَ كانوا يُدْعَونَ إلى الصَّلَواتِ بالأذانِ والإقامةِ، وكانوا سالِمينَ قادِرينَ على الصَّلاةِ، وأنَّ فيه وَعيدًا لِمَن قَعَد عن الجَماعةِ، ولم يُجِبِ المؤذِّنَ إلى إقامةِ الصَّلاةِ في الجَماعةِ[٢]! قال كعبُ الأحبارِ: (واللهِ ما نزلَتْ هذه الآيةُ إلَّا عن الَّذين يَتخلَّفونَ عن الجَماعاتِ)[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قد يُكَلِّفُ في الآخرةِ امتِحانًا، وإنْ كانت ليست دارَ تكليفٍ، بل هي دارُ جزاءٍ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ استدَلَّ به بعضُهم على أنَّ صلاةَ الجَماعةِ فَرْضٌ على الأعيانِ[٥]، ووَجْهُ الاستِدلالِ: أنَّه سُبحانَه عاقَبَهم يومَ القيامةِ بأنْ حالَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٤).

(٥) وهو مذهبُ الحنابلةِ، واختاره عددٌ مِن المحقِّقينَ؛ كالبخاريِّ، وابنِ المُنذِرِ، وممَّن اختاره مِن المعاصِرينَ: ابنُ باز، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((صحيح البخاري)) (١/ ١٣١) (باب وجوب صلاةِ الجماعةِ)، قبلَ حديثِ (٦٤٤)، ((الأوسط)) =

بيْنَهم وبيْنَ السُّجودِ لَمَّا دعاهم إلى السُّجودِ في الدُّنيا فأَبَوا أنْ يُجيبوا الدَّاعيَ، إذا ثَبَتَ هذا فإجابةُ الدَّاعي هي إتيانُ المَسجدِ بحُضورِ الجَماعةِ؛ لا فِعْلُها في بَيْتِه وَحْدَه، هكذا فَسَّر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الإجابةَ في قولِه صلَّى الله عليه وسلَّم للرَّجُلِ الأعمَى: ((هل تَسمَعُ النِّداءَ)). قال: نعَمْ. قال: ((فأجِبْ))[1]. فلم يُجعَلْ مُجيبًا له بصَلاتِه في بيتِه إذا سمِع النِّداءَ؛ فدلَّ على أنَّ الإجابةَ المأمورَ بها هي إتيانُ المسجدِ للجَماعةِ[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]: استُدِلَّ به على كُفرِ تارِكِ الصَّلاةِ[3]، ووجْهُ الدَّلالةِ مِن الآيةِ أنَّه سُبحانَه أَخبرَ أنَّه لا يَجعَلُ المُسلِمينَ كالمُجرِمينَ، وأنَّ هذا الأمرَ لا يَليقُ بحِكْمتِه ولا بحُكْمِه، ثُمَّ ذَكَرَ أحوالَ المجرِمينَ الَّذين هم ضِدُّ المُسلِمينَ، فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، وأنَّهم يُدْعَونَ إلى السُّجودِ لربِّهم تبارك وتعالى فيُحالُ بيْنَهم وبيْنَه، فلا يَستطيعونَ السُّجودَ مع المسلمينَ؛ عقوبةً لهم على تَركِ السُّجودِ

= لابن المنذر (٤/ ١٤٨)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٢/ ١٣)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٥/ ١٨).

(١) أخرجه مسلم (٦٥٣) من حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ١٠٠).

(٣) وهذا مذهبُ الحنابلةِ أنَّ تارِكَ الصَّلاةِ تَهاوُنًا، كافرٌ كفرًا مُخرِجًا مِن المِلَّةِ. يُنظر: ((الإنصاف)) للمَرْداوي (١/ ٢٨٦)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٢٢٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وتكفيرُ تارِكِ الصَّلاةِ هو المشهورُ المأثورُ عن جمهورِ السَّلَفِ مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٠/ ٩٧).

ومذهبُ الجمهورِ مِن الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ أنَّه لا يكفرُ. يُنظر: ((حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح)) (ص: ١١٦)، ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٢/ ٥٢)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٢/ ١٤٦). ويُنظر أيضًا: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٧/ ٥٣).

له مع المصَلِّينَ في دارِ الدُّنيا، ولو كانوا مِن المسلِمينَ لَأُذِنَ لهم بالسُّجودِ كما أُذِنَ للمُسلِمينَ[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ بيانُ أنَّ جِنسَ السُّجودِ أفضَلُ مِن جِنسِ القيامِ والقِراءةِ؛ فقد أُمِروا بالسُّجودِ في عَرَصاتِ القيامةِ دونَ غَيرِه مِن أجزاءِ الصَّلاةِ؛ فعُلِمَ أنَّه أفضَلُ مِن غَيرِه[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي: صَحيحونَ، فإنْ قيل: الصِّحَّةُ ليست شَرطًا في وُجوبِ الصَّلاةِ؟

الجوابُ: المرادُ: الخُروجُ إلى الصَّلاةِ في جماعةٍ مَشروطٌ بالصِّحَّةِ[٣].

أو يُجابُ بأنَّه تعليلٌ لعدمِ استِطاعتِهم السُّجودَ في الآخرةِ[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّه لم يَسأَلْهم أجرًا على دَعوتِه إيَّاهم، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، فالأجرُ المَسؤولُ المُستَفهَمُ عنه هو الأجرُ المادِّيُّ بالمالِ ونَحوِه[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾

- على القولِ بأنَّ قولَه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ [القلم: ٤١]، أي: فلْيَأتوا بالمَزعومينَ يومَ القِيامةِ، فهذا مِن حُسنِ التَّخلُّصِ إلى ذِكرِ

(١) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٧).

(٤) يُنظر: ((التفسير المظهري)) (١٠/ ٤٢).

(٥) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٥٤).

أهوالِ القِيامةِ عليهم. وعلى القولِ بأنَّه استئنافٌ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ يومَ يُكشَفُ عن ساقٍ، ويُدْعَون إلى السُّجودِ... إلخ؛ للتَّذكيرِ بأهوالِ ذلك اليومِ. أو يومَ يُكشَفُ عن ساقٍ كان كَيْتَ وكَيتَ، فإنَّه حُذِفَ للتَّهويلِ البليغِ، وأنَّ ثَمَّ مِن الكَوائنِ ما لا يُوصَفُ لِعِظَمِه(١).

- على القولِ بأنَّ الكشفَ عن ساقٍ مَثَلٌ لشِدَّةِ الحالِ وصُعوبةِ الخَطْبِ والهَولِ، فأصْلُه أنَّ المرءَ إذا هَلَعَ أنْ يُسرِعَ في المشْيِ ويُشمِّرَ ثيابَه، فيَكشِفَ عن ساقِه، كما يُقالُ: شمَّرَ عن ساعدِ الجِدِّ، وأيضًا كانوا في الرَّوعِ والهزيمةِ تُشمِّرُ الحرائرُ عن سُوقِهنَّ في الهرَبِ أو في العمَلِ، فتَنكشِفُ سُوقُهنَّ بحيث يَشغَلُهنَّ هَولُ الأمرِ عن الاحترازِ مِن إبداءِ ما لا تُبْدينَه عادةً، فيُقالُ: كَشَفَت عن ساقِها، أو شمَّرَت عن ساقِها، أو أبْدَتْ عن ساقِها، فإذا قالوا: كَشَفَ المرْءُ عن ساقِه، فهو كِنايةٌ عن هَولٍ أصابَه وإنْ لم يَكُنْ كشَفَ ساقَه(٢).

- قيل: تَنكيرُ السَّاقِ إبهامٌ للمُبالَغةِ في الدَّلالةِ على أنَّه أمْرٌ مُبهَمٌ في الشِّدَّةِ، مُنكَرٌ خارجٌ عن المألوفِ المُعتادِ(٣).

- قيل: جُملةُ ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ ليس عائدًا إلى المشرِكينَ؛ إذ لا يُساعِدُ قولُه: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ فإنَّ المشرِكين لم يَكونوا في الدُّنيا يُدْعَون إلى السُّجودِ، فالوجهُ أنْ يكونَ عائدًا إلى غيرِ مَذكورٍ، أي: ويُدْعى مَدْعُوُّون،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٣، ٥٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٣).

فيَكونَ تَعريضًا بالمنافِقينَ بأنَّهم يُحشَرونَ معَ المسلمينَ ويُمتحَنُ النَّاسُ بدُعائِهم إلى السُّجودِ؛ ليَتميَّزَ المؤمنونَ الخُلَّصُ عن غَيرِهم تَميُّزَ تَشريفٍ، فلا يَستطيعُ المنافِقون السُّجودَ، فيُفتضَحُ كُفْرُهم، فيكون قولُه تعالَى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ إدماجًا[١] لذِكرِ بَعضِ ما يَحصُلُ مِن أحوالِ ذلك اليومِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ خُشوعُ الأبصارِ: هَيئةُ النَّظَرِ بالعَينِ بذِلَّةٍ وخَوفٍ، عُبِّرَ عنه بوصْفِ ﴿خَٰشِعَةً﴾؛ لأنَّ الخاشعَ يكونُ مُطَأطِئًا مُختفيًا[٣].

- وخَصَّ الأبصارَ بالخُشوعِ، وإنْ كانتْ الجوارحُ كلُّها خاشِعةً؛ لأنَّ الخُشوعَ أبْيَنُ في البصرِ منه في كلِّ جارحةٍ، ولأنَّ ما في القلْبِ يُعرَفُ مِن العَينِ[٤].

- وجُملةُ ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ ما قبْلَها وما تَفرَّعَ عنها، أي: كانوا في الدُّنيا يُدْعَون إلى السُّجودِ للهِ وحْدَه وهم سالِمون مِن مِثلِ الحالةِ الَّتي همْ عليها في يومِ الحشرِ، والواوُ للحالِ وللاعتِراضِ[٥].

- قولُه: ﴿ٱلسُّجُودِ﴾ قيل: هو عِبارةٌ عن جَميعِ الطَّاعاتِ، وخُصَّ بالذِّكرِ مِن حيثُ هو أعظَمُ الطَّاعاتِ، ومِن حيثُ امتُحِنوا به في الآخِرةِ[٦].

- وفي قولِه: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ إظهارٌ في مَوضعِ الإضمارِ -حيثُ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٨).

لم يُقَلْ: (يُدْعَونَ إليهِ)-؛ لزِيادةِ التَّقريرِ، أو لأنَّ المرادَ بهِ الصَّلاةُ، أو ما فيها مِن السُّجودِ[١].

- قولُه: ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾، أي: فلا يُجيبونَ إليهِ ويأبَونَه، وإنَّما تُرِكَ ذِكرُه؛ ثِقةً بظُهورِه[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾

- الفاءُ في ﴿فَذَرْنِي﴾ لتَفريعِ الكلامِ الَّذي عطَفَتْه على الكلامِ الَّذي قبْلَه؛ لِكَونِ الكلامِ الأوَّلِ سببًا في ذِكرِ ما بعْدَه. ويجوزُ أنْ تكونَ فَصيحةً؛ لأنَّها جَوابُ شَرطٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إذا كانتْ أحوالُهم كذلك فذَرْني[٣].

- ويَتضمَّنُ هذا تَعريضًا بالتَّهديدِ للمُكذِّبين؛ لأنَّهم يَسمَعون كَلامَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهذا وعْدٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنَّصرِ، ووَعيدٌ لهم بانتقامٍ في الدُّنيا؛ لأنَّه تَعجيلٌ لتَسليةِ الرَّسولِ[٤].

- قولُه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ ...﴾ أفرَدَ الضَّميرَ؛ نصًّا على تهديدِ كلِّ واحدٍ مِن المكذِّبين[٥].

- قولُه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الحديثُ: القرآنُ، واسمُ الإشارةِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٦).

هذا للإشارةِ إلى مُقدَّرٍ في الذِّهنِ ممَّا سَبَق نُزولُه مِن القرآنِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بالحديثِ الإخبارَ عن البعثِ، وهو ما تَضمَّنَه قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ الآيةَ [القلم: ٤٢]، ويكونَ اسمُ الإشارةِ إشارةً إلى ذلك الكلامِ، والمعْنى: حسْبُك إيقاعًا بهم أنْ تَكِلَ أمْرَهم إلَيَّ؛ فأنا أعلَمُ كيف أنْتصِفُ منهم، فلا تَشغَلْ نفْسَك بهم، وتوكَّلْ علَيَّ[(١)].

- وقولُه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لمَضمونِ ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ باعتبارِ أنَّ الاستدراجَ والإملاءَ يَعقُبُهما الانتقامُ، فكأنَّه قال: سنَأخُذُهم بأعمالِهم، فلا تَستبطِئِ الانتقامَ؛ فإنَّه مُحقَّقٌ وُقوعُه، ولكنْ يُؤخَّرُ لحِكمةٍ تَقْتضي تأْخيرَه[(٢)].

- والضَّميرُ في ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ لـ (مَنْ)، والجمْعُ باعتبارِ معناها، كما أنَّ الإفرادَ في ﴿يُكَذِّبُ﴾ باعتبارِ لَفظِها[(٣)].

- ومَوقعُ (إنَّ) مَوقعُ التَّسبُّبِ والتَّعليلِ[(٤)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ إضرابٌ آخَرُ للانتقالِ إلى إبطالٍ آخَرَ مِن إبطالِ مَعاذيرِهم في إعراضِهم عن استِجابةِ دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المُبتدِئِ مِن قولِه: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ [القلم: ٣٦، ٣٧]، ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ﴾ [القلم: ٣٩]، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾[(٥)] [القلم: ٤١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٢).

- والاستِفهامُ الَّذي تُؤذِنُ به (أَمْ) استِفهامُ إنكارٍ، لفرْضِ أنْ يكونَ ذلك ممَّا يُخامِرُ نُفوسَهم فرْضًا اقتضاهُ استِقراءُ نيَّاتِهم مِن مَواقعِ الإقبالِ على دَعوةِ الخَيرِ والرُّشدِ[١].

- قولُه: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ الفاءُ في ﴿فَهُم﴾ للتَّفريعِ والتَّسبُّبِ، أي: فيَتسبَّبُ على ذلك أنَّك شَقَقْتَ عليهم، فيكونُ ذلك اعتِذارًا منهم عن عَدَمِ قَبولِ ما تَدْعوهم إليه[٢].

- و﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿مُّثْقَلُونَ﴾، و(مِن) ابتدائيَّةٌ، وهو ابتداءٌ بمعْنى التَّعليلِ، وتَقديمُ المعمولِ على عامِلِه للاهتِمامِ بمُوجِبِ المَشقَّةِ قبْلَ ذِكرِها، مع الرِّعايةِ على الفاصلةِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ إضرابٌ آخَرُ انتُقِلَ به مِن مَدارجِ إبطالِ مَعاذيرَ مَفروضةٍ لهم أنْ يَتمسَّكوا ببَعضِها تَعِلَّةً لإعراضِهم عن قَبولِ دَعوةِ القرآنِ، قطْعًا لِما عَسى أنْ يَنتحِلوه مِن المعاذيرِ على طَريقةِ الاستقراءِ، ومنْعِ الخُلوِّ[٤].

- وقد جاءتِ الإبطالاتُ السَّالفةُ مُتعلِّقةً بما يُفرَضُ لهم مِن المعاذيرِ الَّتي هي مِن قَبيلِ مُستنَداتٍ مِن المُشاهَداتِ، وانتُقِلَ الآنَ إلى إبطالٍ مِن نَوعٍ آخَرَ، وهو إبطالُ حُجَّةٍ مَفروضةٍ يَستنِدونَ فيها إلى عِلمِ شَيءٍ مِن المعلوماتِ المُغيَّباتِ عن النَّاسِ، وهي ممَّا استَأْثَرَ اللهُ بعِلمِه، وهو المُعبَّرُ عنه بالغَيبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والكلامُ هنا على حذْفِ مُضافٍ، أي: أعِندَهم عِلمُ الغَيبِ؟! فالمرادُ بقولِه: ﴿عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾ أنَّه حصَلَ في عِلمِهم ومُكْنَتِهم، أي: باطِّلاعِ جَميعِهم عليه، أو بإبلاغِ كُبرائِهم إليهم، وتَلقِّيهم ذلك منهم[(١)].

- وتَقديمُ ﴿عِندَهُمُ﴾ على المبتدأِ وهو مَعرِفةٌ؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: صار عِلمُ الغيبِ عندَهم لا عندَ اللهِ[(٢)]!

- ومَجيءُ جُملةِ ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ مُتفرِّعةً عن جُملةِ ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾، بِناءً على أنَّ ما في الغيبِ مَفروضٌ كَونُه شاهدًا على حُكْمِهم لأنفُسِهم المشارِ إليه بقولِه: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾[(٣)] [القلم: ٣٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٤).

الآيات (٤٨-٥٢)

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٥٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَكۡظُومٞ﴾: مَكروبٌ، مُمتَلِئٌ خَوفًا وحُزنًا، والكَظْمُ: تَرَدُّدُ الغَيظِ والخَوفِ والحُزنِ في القَلبِ حتَّى يَضيقَ به، وأصلُ (كظم): يدُلُّ على إمساكٍ وجَمعٍ للشَّيءِ[(١)].

﴿لَنُبِذَ﴾: أي: لأُلقِيَ وطُرِحَ، وأصلُ (نبذ): يدُلُّ على إلقاءِ الشَّيءِ وطَرْحِه؛ لقِلَّةِ الاعتِدادِ به[(٢)].

﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾: أي: المكانِ الخالي، لا يَتوارى فيه بشَجَرٍ ولا غَيرِه، وأصلُه: يدُلُّ على خُلُوٍّ ومُفارَقةٍ[(٣)].

﴿فَٱجۡتَبَٰهُ﴾: أَي: اصطَفاه واختارَه، والاجتِباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطِفاءِ، وأصْلُ (جبي): يدُلُّ على جَمعِ الشَّيءِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾: أي: لَيَرمُونَك، ويُزيلونَك عن مَوضِعِك؛ مِن حِدَّةِ نَظَرِهم إليك بأبصارِهم، كما يُقالُ: كاد يَصرَعُني لشِدَّةِ نَظَرِه إلَيَّ؛ مِنْ: أزلَقَه عن مَوضِعِه: إذا رماه ونحَّاه، وأصلُ (زلق): يدُلُّ على تزلُّجِ الشَّيءِ عن مَقامِه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- لِما حكَمَ اللهُ به شرعًا وقدَرًا، ولا تَكُنْ -يا مُحمَّدُ- في الغَضَبِ والعَجَلةِ على قَومِك كيُونُسَ الَّذي حُبِسَ في بَطنِ الحُوتِ، حينَ نادى رَبَّه قائِلًا: «لا إلهَ إلَّا أنتَ سُبحانَك إنِّي كُنتُ مِن الظَّالِمينَ»، وصَدْرُه مَملوءٌ غَيظًا وغَمًّا.

لولا أنْ أدرَكَتْ يُونُسَ رَحمةٌ عَظيمةٌ مِن رَبِّه لَطُرِحَ بالأرضِ الخاليةِ مِن كلِّ شَيءٍ وهو يُذَمُّ ويُلامُ بالذَّنْبِ، فاصطفاه رَبُّه وجعَلَه مِن عِبادِه الصَّالِحينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه شدَّةَ عداوةِ الكفَّارِ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: ولقد كاد الَّذين كَفَروا أن يُسقِطوك ويَصرَعوك -يا مُحمَّدُ- مِن إحدادِ نَظَرِهم إليك؛ عَداوةً وغَيظًا وحَسَدًا، ويقولونَ: إنَّ محمَّدًا لَمجنونٌ! وما هذا القُرآنُ إلَّا تذكيرٌ وعِظةٌ للعالَمينَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بالَغَ اللهُ تعالَى في تَزييفِ طَريقةِ الكفَّارِ، وفي زَجْرِهم عمَّا همْ عليه؛ قال

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٢).

لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(١)]:

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- لِما حكَمَ اللهُ به شرعًا وقدَرًا: بتبليغ رِسالتِه، والانقيادِ التَّامِّ لأمرِه، وتحمُّلِ أذى الكُفَّارِ والمُشرِكينَ في سَبيلِ ذلك دونَ سخطٍ أو جزَعٍ لإمهالِهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ...﴾ [الطور: ٤٨].

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾.

أي: ولا تَكُنْ -يا مُحمَّدُ- في الضَّجَرِ والغَضَبِ، والعَجَلةِ وقِلَّةِ الصَّبرِ على قَومِك؛ كيُونُسَ الَّذي حُبِسَ بسَبَبِ ذلك في بَطنِ الحُوتِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٠، ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

قال الرازي: (فيه وَجهانِ؛ الأوَّلُ: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ في إمهالِهم، وتأخيرِ نُصرتِك عليهم. والثَّاني: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ في أنْ أوجَبَ عليك التَّبليغَ والوَحيَ وأداءَ الرِّسالةِ، وتحمَّلْ ما يَحصُلُ بسَبَبِ ذلك مِنَ الأذى والمحنةِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٦).

ممَّن ذهب إلى الوجهِ الأوَّلِ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو حيَّان، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٦).

وممَّن ذهب إلى الوَجهِ الثَّاني: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠١).

وقال السعدي: (﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾: أي: لمَا حكَم به شرعًا وقدرًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن =

﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

أي: حينَ نادى رَبَّه قائِلًا: «لا إلهَ إلَّا أنتَ سُبحانَك إنِّي كُنتُ مِن الظَّالِمينَ»، وصَدْرُه مَملوءٌ غَيظًا وغَمًّا وهَمًّا(١).

قال الله سُبحانَه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩﴾.

أي: لولا أنْ أدرَكَتْ يُونُسَ رَحمةٌ عَظيمةٌ مِن رَبِّه لَطُرِحَ بالأرضِ الخاليةِ مِنَ النَّاسِ والأشجارِ والبِناءِ، وهو يُذَمُّ ويُلامُ بالذَّنْبِ(٢)!

= عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

قيل: العامِلُ في ﴿إِذْ﴾ معنى قَولِه: ﴿كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾، أي: لا تَكُنْ كمَن صَحِبَ الحُوتَ حالَ نِدائِه؛ وذلك لأنَّه في ذلك الوَقتِ كان مكظومًا، فكأنَّه قيل: لا تكُنْ مَكظومًا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٦). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١٨، ١١٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤١٩)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢١٦).

وقيل: المعنى: لا تكُنْ مُشابِهًا ليُونُسَ في الحالِ الَّتي أفضَت به إلى صُحبةِ الحُوتِ وحُصولِ النِّداءِ منه، وهي: ضَعفُ العزيمةِ والصَّبرِ لحُكمِه تعالى. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ القيِّم. يُنظر: ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ٣٤، ٣٥).

وقيل: ﴿إِذْ﴾ مُتعَلِّقةٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ. وممَّن ذهب إلى هذا: مكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١٩، ١٢٠)، =

كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ * وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ [الصافات: ١٤٥، ١٤٦].

﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠﴾.

= ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٦، ١٠٧).

قال القرطبي: (والعراءُ: الأرضُ الواسعةُ الفضاءُ، الَّتي ليس فيها جبلٌ ولا شجرٌ يَستُرُ. وقيل: ولولا فضلُ الله عليه لَبَقِيَ في بطنِ الحوتِ إلى يومِ القيامةِ، ثمَّ نُبِذ بعراءِ القيامةِ مذمومًا. يدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٤).

قال الألوسي عن القولِ الثَّاني: (ولا يخفَى بُعْدُه). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿نِّعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: رحمةٌ مِن الله أدرَكَتْه فرَحِمَه، وتاب عليه: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣٧).

وقيل: المرادُ: أنَّ اللهَ أنعَمَ عليه بالتَّوفيقِ للتَّوبةِ، وقَبِلَها منه، وتاب عليه. وهو قريبٌ مِن القولِ السَّابقِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرازي، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢).

قال الشوكاني: (قال الضَّحَّاكُ: النِّعمةُ هنا النُّبُوَّةُ. وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: عبادتُه الَّتي سلَفَت. وقال ابنُ زَيدٍ: هي نداؤُه بقَولِه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٠).

أي: فاصطفَى اللهُ يُونُسَ، وجعَلَه مِن عِبادِه الطَّائِعينَ الَّذين فَضَّلَهم؛ ممَّن صَلَحَت أعمالُهم، وأقوالُهم، ونيَّاتُهم، وأحوالُهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٥ - ٨٧].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما يَنبغي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٧).

قال الرازي: (في الآيةِ وجهانِ؛ أحدُهما: قال ابنُ عبَّاسٍ: رَدَّ اللهُ إليه الوَحيَ وشَفَّعَه في قَومِه. والثَّاني: قال قومٌ: ولعَلَّه ما كان رَسولًا صاحِبَ وَحيٍ قبْلَ هذه الواقِعةِ، ثمَّ بعْدَ هذه الواقِعةِ جَعَله اللهُ رسولًا، وهو المرادُ مِن قَولِه: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٧). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٠).

وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذِكْرُه: فاجتَبى صاحِبَ الحوتِ ربُّه، يعني: أنَّه اصطفاه واختاره لِنُبُوَّتِه ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: مِن المُرسَلينَ، العامِلينَ بما أمَرَهم به ربُّهم، المُنتَهينَ عمَّا نهاهم عنه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠١، ٢٠٢).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ﴿الصَّالِحِينَ﴾ المفَضَّلونَ مِن الأنبياءِ، وقد قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٧).

وقيل: المرادُ بالصَّالحينَ: الأنبياءُ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والخازن، وأبو حيَّان، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣٧).

قال الألوسي: (وهو مبنيٌّ على أنَّه لم يكُنْ قبْلَ الواقعةِ نبيًّا). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢).

وقيل: المرادُ بالصَّالحينَ: الكامِلونَ في الصَّلاحِ. وممَّن اختاره: النَّسَفيُّ، والشَّوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢).

لعبدٍ أن يقولَ: أنا خيرٌ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى[١]))[٢].

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَه تعالَى بالصَّبرِ لِما أرادهُ تعالَى ونَهاهُ عمَّا نَهاهُ؛ أخبَرَ بشِدَّةِ عَداوةِ الكفَّارِ؛ ليَتلقَّى ذلك بالصَّبرِ[٣].

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾.

أي: ولقد أوشَكَ الَّذين كَفَروا أن يُسقِطوك ويَصرَعوك -يا مُحمَّدُ- مِن إحدادِ نَظَرِهم إليك نَظَرَ عَداوةٍ وغَيظٍ منك، وحَسَدٍ لك، وذلك لَمَّا سَمِعوا كلامَ اللهِ يُتلَى عليهم[٤]!

---

(١) قوله: ((أنا)) يَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ به رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال ذلك تواضُعًا إنْ كان قالَه بعْدَ أنْ عَلِمَ أنَّه سيِّدُ البشَرِ. وقيل: هو عبارةٌ عن كلِّ قائلٍ يقولُ ذلك؛ كي لا يُفضِّلَ أحدٌ نفْسَه على يُونسَ عليه السَّلامُ. قيل: وخَصَّ يُونسَ بالذِّكرِ؛ لِما يُخْشى على مَن سَمِعَ قِصَّتَه أنْ يَقَعَ في نفْسِه تَنقيصٌ له، فبالَغَ في ذِكرِ فضْلِه لسَدِّ هذه الذَّريعةِ. وقد وَرَدَ ما يُؤيِّدُ هذا القولَ ويدُلُّ عليه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٣٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٦٧)، ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (١/ ٤٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣٠)، ومسلم (٢٣٧٧).

وأخرجه البخاري (٣٤١٦)، ومسلم (٢٣٧٦) أيضًا من حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٨، ١٠٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٢ - ٢٠٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٧).

قيل: المعنى: يَنظُرونَ إليك نَظَرًا شَديدًا بالعَداوةِ، يَكادُ يُزيلُ قدَمَك ويُسقِطُك ويَصرَعُك؛ لأنَّهم يَكرَهونَ سَماعَ القُرآنِ أشدَّ الكراهةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾.

أي: ويقولونَ: إنَّ محمَّدًا لَمجنونٌ، وهذا الَّذي جاءَنا به هَذَيانٌ يَهذِي به في جُنونِه[1]!

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

= وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والسمعاني، وابن الجوزي، والبِقاعي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الرَّسْعَني: (ويدُلُّ على صحَّةِ هذا المعنى: أنَّ اللهَ تعالى قرَن هذا النَّظرَ بسَماعِ القرآنِ، وهو قولُه تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾، وهم كانوا يَكرَهون ذلك أشدَّ الكراهةِ، فيُحِدُّونَ النَّظرَ إليه بالبَغضاءِ، والإصابةُ بالعَينِ تكونُ مع الإعجابِ والاستِحسانِ، ولا تكونُ مع البُغضِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٤٥).

وذهب الفرَّاءُ، والسَّمينُ الحلبيُّ، وابنُ كثير، والسعديُّ: إلى أنَّ المعنى: وإن يَكادُ الَّذين كفروا لَيَعينُونَك بأبصارِهم؛ لحَسَدِهم لك، فلولا وقايةُ اللهِ لك مِن أعيُنِهم الخبيثةِ لأصابوك بها. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٩)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (١٠/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

قال ابنُ القيِّم: (فالكُفَّارُ كانوا يَنظُرونَ إليه نَظَرَ حاسِدٍ شَديدِ العدواةِ، فهو نظرٌ يكادُ يُزْلِقُه لولا حِفظُ اللهِ وعِصمتُه، فهذا أشدُّ مِن نظَرِ العائِنِ، بل هو جِنسٌ من نظَرِ العائِنِ، فمَن قال: إنَّه مِن الإصابةِ بالعَينِ، أراد هذا المعنى، ومَن قال: ليسَ به، أراد أنَّ نَظَرَهم لم يكُنْ نَظَرَ استِحسانٍ وإعجابٍ؛ فالقَولانِ حقٌّ). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٣٢).

قال الرَّسْعَني: (وعباراتُ العلماءِ مُتقاربةُ المعنى: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ أي: لَيَنفُذونَك بأبصارِهم، ... وقال الكلبيُّ: يَصْرَعُونك. ورُوِيَ عنه: يَصرِفونَك عمَّا أنت عليه مِن تبليغِ الرِّسالةِ. وقال المُؤَرِّجُ: يَرْمُونَك. وقال ابنُ كَيْسانَ: يَقتُلونَك. ورُوِيَ عن الحسَنِ أيضًا مِثلُه. وقال قَتادةُ: يُزهِقونك). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها إبطالٌ لِقَولِ المُشرِكينَ: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾؛ لأنَّهم قالوه في سِياقِ تَكذيبِهم بالقُرآنِ، فإذا ثَبَت أنَّ القُرآنَ ذِكرٌ، بَطَل أن يكونَ مُبَلِّغُه مَجنونًا(١).

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٥٢﴾.

أي: وما هذا القُرآنُ إلَّا تذكيرٌ وعِظةٌ مِنَ اللهِ لجَميعِ الإنْسِ والجِنِّ(٢).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٦، ٨٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٨).

قال البقاعي: (﴿وَمَا﴾ أي: والحالُ أنَّ هذا القُرآنَ أو الرَّسولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ﴿هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ أي: مَوعِظةٌ وشَرَفٌ ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: كُلِّهم). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٣٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَمَا هُوَ﴾ القرآنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، الواحدي، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، وأبو حيَّان، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم: ابنُ جرير، والثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٤).

وقال ابنُ عاشور: (أي: ما القُرآنُ إلَّا ذِكرٌ للنَّاسِ كُلِّهم، وليس بكَلامِ المجانينِ، وينتقلُ مِن ذلك إلى أنَّ النَّاطِقَ به ليس مِن المجانينِ في شَيءٍ. والذِّكرُ: التَّذكيرُ باللهِ والجَزاءِ، وهو أشرَفُ أنواعِ الكلامِ؛ لأنَّ فيه صلاحَ النَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٨).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ أي: لِمَا حَكَم به شَرعًا وقَدَرًا، فالحُكمُ القَدَريُّ يُصبَرُ على المؤذِي منه، ولا يُتلقَّى بالسَّخَطِ والجَزَعِ، والحُكمُ الشَّرعيُّ يُقابَلُ بالقَبولِ والتَّسليمِ، والانقيادِ التَّامِّ لأمْرِه[1].

٢- خَتَمَ اللهُ تعالَى السُّورةَ بالأمرِ بالصَّبرِ الَّذي هو جِماعُ الخُلُقِ العَظيمِ في قَولِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾، وذلك نصٌّ في الصَّبرِ على ما يَنالُه مِن أذَى الخلْقِ، وعلى المصائبِ السَّماويَّةِ، والصَّبرُ على الأوَّلِ أشَدُّ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ إلخ، والإزْلاقُ بالبَصَرِ هو الغايةُ في البُغْضِ والغَضَبِ والأذَى. فالصَّبرُ على ذلك نَوعٌ مِن الحِلْمِ، وهو احتِمالُ أذَى الخَلقِ، وفي ذلك ما يَدْفَعُ كَيدَهم وشَرَّهم. وما ذَكَره في قِصَّةِ أهْلِ الجَنَّةِ مِن أمْرِ السَّخاءِ والجُودِ، وما ذَكَرَه هنا مِن الحِلْمِ والصَّبرِ: هو جِماعُ الخُلُقِ الحَسَنِ، كما جَمَعَ بيْنَهما في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، كما قِيل:

بِحِلْمٍ وبَذْلٍ سادَ في قَومِه الفَتَى ... وكَونُك إيَّاه عليْكَ يَسِيرُ

فالإحسانُ إلى النَّاسِ بالمَالِ والمَنفَعةِ، واحتِمالُ أذَاهُم مِن الخُلُقِ المَحمودِ، وجَمَع بيْنَهما أيضًا في قَولِه: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[2] [الأعراف: ١٩٩].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ يدُلُّ على

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٧٠).

أنَّه لا يَتِمُّ شَيءٌ مِنَ الصَّالِحاتِ والطَّاعاتِ إلَّا بتوفيقِ اللهِ تعالى وهدايتِه[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ لَمْ يقلْ: (لولا أنْ تدارَكَتْه نِعمةٌ مِن رَبِّه)؟

الجوابُ: إنَّما حَسُنَ تذكيرُ الفِعلِ؛ لِفَصلِ الضَّميرِ (الهاءِ) في ﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾[٢]، ولأنَّ تأنيثَ النِّعمةِ غيرُ حقيقيٍّ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ احتُجَّ به على أنَّ فِعلَ العَبدِ خَلقُ اللهِ تعالى؛ فالآيةُ تدُلُّ على أنَّ ذلك الصَّلاحَ إنَّما حَصَل بجَعلِ اللهِ وخَلْقِه[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أصلٌ في أنَّ العَينَ حَقٌّ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ تَفريعٌ على ما تَقدَّمَ مِن إبطالِ مَزاعِمِ المشركين ومَطاعِنِهم في القرآنِ والرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما تَبِعَه مِن تَكفُّلِ اللهِ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعاقبةِ النَّصرِ؛ وذلك أنَّ شِدَّتَه على نفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن شأْنِها أنْ تُدخِلَ عليه يَأْسًا مِن حُصولِ رَغبتِه، ونَجاحِ سَعْيِه، ففرَّعَ عليه تَثبيتَه وحثَّه على المُصابَرةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٢).

العينُ حقٌّ ولها تأثيرٌ، لكن لا تأثيرَ لها إلَّا بإذْنِ الله عزَّ وجلَّ؛ عن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((العينُ حقٌّ)) [البخاري (٥٧٤٠) ومسلم (٢١٨٧)]. وعن عائشةَ رضيَ الله عنها، قالت: ((أمَرَني رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، أوْ أمَر أنْ يُسْتَرْقَى مِن العَيْنِ)) [البخاري (٥٧٣٨) ومسلم (٢١٩٥)]. يُنظر: ((معارج القبول)) للحكمي (٢/ ٥٠١).

واستِمرارِه على الهُدى، وتَعريفَه بأنَّ ذلك التَّثبيتَ يَرفَعُ دَرَجتَه في مَقامِ الرِّسالةِ ليَكونَ مِن أُولي العزْمِ، فذَكَّرَه بمَثَلِ يُونسَ عليه السَّلامُ؛ إذ استَعجَلَ عن أمْرِ ربِّه، فأدَّبَه اللهُ ثمَّ اجتباهُ وتاب عليه، وجَعَلَه مِن الصَّالحينَ تَذكيرًا مُرادًا به التَّحذيرُ[١].

- قولُه: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ العاملُ في (إذْ) هو المحذوفُ المُضافُ، أي: كحالِ، أو كقصَّةِ صاحبِ الحوتِ وقتَ نِدائِه[٢].

- جُملةُ ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿نَادَىٰ﴾، وعليها يَدورُ النَّهيُ لا على النِّداءِ؛ فإنَّه أمْرٌ مُستحسَنٌ، ولذلكَ لم يُذكَرِ المُنادَى[٣].

- قولُه: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ جِيءَ بهذه الحالِ جُملةً اسميَّةً؛ لدَلالتِها على الثَّباتِ، أي: هو في حَبْسٍ لا يُرجَى لمِثلِه سَراحٌ، وهذا تَمهيدٌ للامتِنانِ عليه بالنَّجاةِ مِن مِثلِ ذلك الحبْسِ[٤]. وذلك على أنَّ معنَى ﴿مَكْظُومٌ﴾: مَحبوسٌ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن مَضمونِ النَّهيِ مِن قولِه: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ﴾ إلخ؛ لأنَّه يَتضمَّنُ التَّحذيرَ مِن الوُقوعِ في كَرْبٍ مِن قَبيلِ كَرْبِ يُونسَ، ثمَّ لا يَدْري كيف يكونُ انفراجُه[٥].

- واعتُمِدَ في جَوابِ (لولا) على الحالِ -أي: ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾-، فلَولاهُ لم يكُنْ لقولِه: ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾ فائدةٌ؛ لأنَّه نُبِذَ فيه، يعني أنَّ حالَه كانت على خِلافِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٥).

الذَّمِّ حِينَ نُبِذَ بالعَراءِ، ولولا تَوبتُه لَكانت حالُه على الذَّمِّ[١].

- أو جَوابُ (لَولا) مَحذوفٌ، دلَّ عليه قولُه: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾، مع ما تُفيدُه صِيغةُ الجُملةِ الاسميَّةِ مِن تَمكُّنِ الكظْمِ، فتلك الحالةُ إذا استَمرَّت لم يَحصُلْ نَبْذُه بالعَراءِ، ويكونُ الشَّرطُ بـ (لَوْلَا) لاحقًا لجُملةِ ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾، أي: لَبَقِيَ مَكظومًا، أي: مَحبوسًا في بطْنِ الحوتِ أبدًا -على قولٍ-، وهو معْنى قولِه في سُورةِ (الصافاتِ): ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، وتُجعَلُ جُملةُ ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن الإجمالِ الحاصلِ مِن مَوقعِ (لولا)، واللَّامُ فيها لامُ القسَمِ للتَّحقيقِ؛ لأنَّه خارقٌ للعادةِ، والمعْنى: لقدْ نُبِذَ بالعَراءِ وهو مَذمومٌ. والمذمومُ: إمَّا بمعْنى المُذْنِبِ؛ لأنَّ الذَّنْبَ يَقْتضي الذَّمَّ في العاجِلِ والعِقابَ في الآجِلِ، وهو معْنى قولِه في آيةِ (الصَّافَّاتِ): ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢]، وإمَّا بمعْنى العَيبِ، وهو كونُه عاريًا جائعًا، فيكونُ في معْنى قولِه: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥]؛ فإنَّ السَّقَمَ عَيبٌ أيضًا[٢]. وفيه بُعْدٌ.

- والتَّدارُكُ: تَفاعُلٌ مِن الدَّرَكِ -بالتَّحريكِ-، وهو اللَّحاقُ، أي: أنْ يَلحَقَ بَعضُ السَّائرينَ بَعضًا، وهو يَقْتضي تَسابُقَهم، وهو هنا مُستعمَلٌ في مُبالَغةِ إدراكِ نِعمةِ اللهِ إيَّاهُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٦، ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٥).

- إنَّ اللهَ أنْعَمَ على يونسَ عليه السَّلامُ بأنْ أنْبَتَ عليه شَجرةَ اليَقطينِ، كما في سُورةِ (الصَّافَّاتِ). وأُدمِجَ في ذلك فضْلُ التَّوبةِ والضَّراعةِ إلى اللهِ، وأنَّه لولا تَوبتُه، وضَراعتُه إلى اللهِ، وإنعامُ اللهِ عليه نِعمةً بعْدَ نِعمةٍ؛ لَقَذَفَه الحوتُ مِن بَطْنِه مَيِّتًا، فأخْرَجه الموجُ إلى الشَّاطِئِ، فلَكانَ مُثلةً للنَّاظِرينَ، أو حيًّا مَنبوذًا بالعَراءِ لا يَجِدُ إسعافًا، أو لَنَجَا بعْدَ شدَّةٍ وجهدٍ واللهُ غاضبٌ عليه، فهو مَذمومٌ عندَ اللهِ مَسخوطٌ عليه، وهي نِعَمٌ كثيرةٌ عليه؛ إذ أنْقَذَه مِن هذه الوَرَطاتِ كلِّها إنقاذًا خارقًا للعادةِ، وهذا المعْنى طُوِيَ طيًّا بَديعًا، وأُشِيرَ إليه إشارةٌ بَليغةٌ بجُملةِ ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾[١].

- وتَنكيرُ ﴿نِعْمَةٌ﴾ للتَّعظيمِ؛ لأنَّها نِعمةٌ مُضاعَفةٌ مُكرَّرةٌ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ عطفٌ على مُقدَّرٍ، أي: فتَداركَتْه نِعمةٌ مِن ربِّه، فاجْتَباهُ[٣].

- وفُرِّع على النَّفيِ في قولِه: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ الإخبارُ بأنَّ اللهَ اجتباهُ، وجَعَلَه مِن الصَّالحينَ، وذلك إيماءٌ إلى أنَّ الصَّلاحَ هو أصلُ الخَيرِ، ورفْعِ الدَّرجاتِ[٤].

- وتَعريفُ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يُفيدُ أنَّه جَعَلَه مِن الكامِلينَ في الصَّلاحِ[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩).

- هو عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤]؛ عرَّفَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعضَ ما تَنْطوي عليه نُفوسُ المشركين نحْوَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مِن الحِقدِ والغَيظِ وإضمارِ الشَّرِّ عندَما يَسمَعون القرآنَ[١].

- قولُه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ جاء ﴿يَكَادُ﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ ذلك في المُستقبَلِ. وجاء فِعلُ ﴿سَمِعُواْ﴾ ماضيًا؛ لوُقوعِه مع (لَمَّا)، وللإشارةِ إلى أنَّه قد حَصَل منهم ذلك، وليس مُجرَّدَ فرْضٍ[٢].

- ولَمَّا كان الزَّلَقُ يُفْضي إلى السُّقوطِ غالبًا، أُطلِقَ الزَّلَقُ وما يُشتَقُّ منه على السُّقوطِ والاندحاضِ على وَجْهِ الكِنايةِ، ومنه قولُه هنا: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾، أي: يُسقِطونك ويَصرَعونك[٣]. على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ ﴿لَمَّا﴾ ظرْفٌ، العاملُ فيه ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾، والجوابُ مَحذوفٌ لدَلالةِ ما قبْلَه عليه، أي: لَمَّا سَمِعوا الذِّكرَ كادُوا يُزلِقونك[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ مع قولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم: ٢] مُحسِّنُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٥].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ حيثُ كانُ مَدارُ حُكمِهم الباطلِ ما سَمِعُوه منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، رُدَّ ذلك ببَيانِ عُلوِّ شَأنِه، وسُطوعِ بُرهانِه؛ فقيل: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، على أنَّه حالٌ مِن فاعلِ (يَقولونَ)، مُفيدةٌ لغايةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٨). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٧٠).

بُطلانِ قولِهم، وفيه تَعجيبٌ للسَّامعينَ مِن جُرأتِهم على تَفَوُّهِ تلكَ العَظيمةِ، أي: يقولونَ ذلكَ والحالُ أنَّه ذِكرٌ للعالَمينَ[١]!

- وهو إبطالٌ لقولِهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾؛ لأنَّهم قالوهُ في سِياقِ تَكذيبِهم بالقرآنِ، فإذا ثبَتَ أنَّ القُرآنَ ذِكرٌ بَطَلَ أنْ يكونَ مُبلِّغُه مَجنونًا، وهذا مِن قَبيلِ الاحتباكِ[٢]؛ إذ التَّقديرُ: ويقولون: إنَّه لَمجنونٌ، وإنَّ القرآنَ كَلامُ مَجنونٍ، وما القرآنُ إلَّا ذِكرٌ، وما أنتَ إلَّا مُذكِّرٌ[٣].

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ الأربعونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الحاقَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٩).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سُورةُ الطَّلاقِ

أسماءُ السُّورةِ ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٧
الآيات (١-٣) ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٩
المعنى الإجماليُّ ١٠
تَفسيرُ الآياتِ ١١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩
بلاغةُ الآياتِ ٤٤
الآيتان (٤-٥) ٥٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٧
المعنى الإجماليُّ ٥٧
تَفسيرُ الآيتَينِ ٥٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٤
بلاغةُ الآيتَينِ ٦٨

الآيتان (٦-٧) ٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٧٢
المعنى الإجماليُّ ٧٣
تَفسيرُ الآيتَينِ ٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٧٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٩
بلاغةُ الآيتَينِ ٨٩
الآيات (٨-١٢) ٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٩٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٩٥
المعنى الإجماليُّ ٩٦
تَفسيرُ الآياتِ ٩٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٠٧
بلاغةُ الآياتِ ١١٣

سورةُ التَّحريمِ

أسماءُ السُّورةِ ١٢٣
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ١٢٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ١٢٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ ١٢٣

الآيات (١-٥) ١٢٥
غَريبُ الكَلِماتِ ١٢٥
المعنى الإجماليُّ ١٢٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٢٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٤٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤٢
بلاغةُ الآياتِ ١٥٥
الآيات (٦-٩) ١٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ ١٦٧
المعنى الإجماليُّ ١٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٦٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٨١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٨٣
بلاغةُ الآياتِ ١٨٩
الآيات (١٠-١٢) ١٩٧
غَريبُ الكَلِماتِ ١٩٧
المعنى الإجماليُّ ١٩٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٩٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٠٨

بلاغةُ الآياتِ ٢١٣

سورةُ المُلْكِ

أسماءُ السُّورةِ ٢٢٣
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ٢٢٤
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٢٢٥
مَقاصِدُ السُّورةِ ٢٢٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٢٢٥
الآيات (١-٥) ٢٢٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٢٧
المعنى الإجماليُّ ٢٢٩
تَفسيرُ الآياتِ ٢٣٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٤١
بلاغةُ الآياتِ ٢٤٥
الآيات (٦-١١) ٢٦١
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٦١
المعنى الإجماليُّ ٢٦٢
تَفسيرُ الآياتِ ٢٦٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٦٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٦٩

بلاغةُ الآياتِ ٢٧٣
الآيات (١٢-١٥) ٢٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٨٢
المعنى الإجماليُّ ٢٨٤
تَفسيرُ الآياتِ ٢٨٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩٤
بلاغةُ الآياتِ ٢٩٦
الآيات (١٦-١٩) ٣٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٠٣
المعنى الإجماليُّ ٣٠٤
تَفسيرُ الآياتِ ٣٠٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣١١
بلاغةُ الآياتِ ٣١٤
الآيات (٢٠-٢٢) ٣٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٢٤
المعنى الإجماليُّ ٣٢٥
تَفسيرُ الآياتِ ٣٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٢٩

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٣٠
بلاغةُ الآياتِ ٣٣١
الآيات (٢٣-٢٧) ٣٣٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٣٨
المعنى الإجماليُّ ٣٣٩
تَفسيرُ الآياتِ ٣٤٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٤٦
بلاغةُ الآياتِ ٣٤٨
الآيات (٢٨-٣٠) ٣٥٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٥٦
المعنى الإجماليُّ ٣٥٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٥٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٦١
بلاغةُ الآياتِ ٣٦٣

سورةُ القَلَمِ

أسماءُ السُّورةِ ٣٧١
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ٣٧١
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٣٧١

مَقاصِدُ السُّورةِ ٣٧٢
مَوضوعاتُ السُّورةِ..... ٣٧٢
الآيات (١-٧) ٣٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٣٧٣
مُشكِلُ الإعرابِ..... ٣٧٣
المعنى الإجماليُّ..... ٣٧٥
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٧٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ..... ٣٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٣٨٣
بلاغةُ الآياتِ..... ٣٨٧
الآيات (٨-١٦)..... ٣٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٣٩٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٩٦
المعنى الإجماليُّ..... ٣٩٦
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٩٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ..... ٤٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٤١١
بلاغةُ الآياتِ..... ٤١٤
الآيات (١٧-٣٣)..... ٤٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٤٢٣

المعنى الإجماليُّ ٤٢٥
تَفسيرُ الآياتِ ٤٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٤٠
بلاغةُ الآياتِ ٤٤٣
الآيات (٣٤-٤١) ٤٥٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٥٥
المعنى الإجماليُّ ٤٥٥
تَفسيرُ الآياتِ ٤٥٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٦٠
بلاغةُ الآياتِ ٤٦٢
الآيات (٤٢-٤٧) ٤٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٧٢
المعنى الإجماليُّ ٤٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ٤٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٨٥
بلاغةُ الآياتِ ٤٨٧
الآيات (٤٨-٥٢) ٤٩٤

غَريبُ الكَلِماتِ ٤٩٤
المعنى الإجماليُّ ٤٩٥
تَفسيرُ الآياتِ ٤٩٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٠٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٠٣
بلاغةُ الآياتِ ٥٠٤
الفهرس ٥١١

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

من سورة الحاقة إلى سورة الجن

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر، مصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الأربعون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة الحاقة إلى سورة الجن)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - من سورة الحاقة إلى سورة الجن - المجلد الأربعون/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١- الظهران، ١٤٤٣ هـ

٤١٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ١-٠٦-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- التفسير الحديث أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/٩٦٥٦

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٩٦٥٦

ردمك: ١-٠٦-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة الحاقة إلى سورة الجن)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الأربعون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ الحاقَّةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الحاقَّةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحاقَّة)[١].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ (الحاقة) مكِّيَّةٌ[٢]، ونقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

١- الحديثُ عن يومِ القيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه[٤].

٢- إقامةُ الأدِلَّةِ على صِدقِ الرَّسولِ، وأنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللهِ تَعالى[٥].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- افتُتِحَت السُّورةُ بتَهويلِ شَأنِ يومِ القيامةِ، والتَّعظيمِ لأمْرِه.

٢- التَّذكيرُ بما حلَّ بالأُمَمِ الَّتي كذَّبَت بالقيامةِ.

---

(١) وجْهُ التَّسميةِ وُقوعُ هذه الكلمةِ في أوَّلِها، ولم تقَعْ في غيرِها مِن سُوَرِ القرآنِ الكريمِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- وصْفُ أهوالِ يومِ القيامةِ، وبيانُ حالِ السُّعداءِ ممَّن يُؤتَونَ كُتُبَهم بأيْمانِهم، وحالِ الأشقياءِ الَّذين يُؤتَون كُتبَهم بشَمائلِهم.

٤- التَّنويهُ بالقرآنِ الكريمِ، وتَأكيدُ نُزولِه مِن عندِ اللهِ، وصِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يُبلِّغُه عن ربِّه.

٥- بَيانُ أنَّ القرآنَ تَذكِرةٌ للمؤمنِ، وحَسرةٌ على الكافرِ.

٦- خُتِمَت السُّورةُ بالأمرِ بتَسبيحِ اللهِ تَعالى.

الآيات (١-٨)

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾: أي: القيامةُ الصَّادِقةُ، الواجِبةُ الوُقوعِ، سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّ فيها حواقَّ الأُمورِ. وقيل غيرُ ذلك، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[1].

﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾: أي: القيامةِ الَّتي تَقرَعُ قُلوبَ العِبادِ بالمَخافةِ، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَقرَعُ النَّاسَ بالأهوالِ الشَّديدةِ، وأصلُ (قرع): يدُلُّ على ضَربِ الشَّيءِ[2].

﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾: أي: بالصَّيحةِ الطَّاغيةِ الَّتي جاوَزَت مِقدارَ الصِّياحِ. والطَّاغي مِن كُلِّ شَيءٍ: ما تجاوَزَ القَدْرَ، وأصلُ (طغي): يدُلُّ على تجاوُزِ الحَدِّ[3].

﴿صَرْصَرٍ﴾: أي: شَديدةِ البَردِ والصَّوتِ، والصَّرصَرُ: الرِّيحُ العاصِفةُ الَّتي يكونُ لها صَرصَرةٌ، أي: دَوِيٌّ في هُبوبِها؛ مِن شِدَّةِ سُرعةِ تنقُّلِها، والتَّضعيفُ فيه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٣).

للمُبالَغةِ في شِدَّتِها، والصَّرصرُ: الباردةُ تُهلِكُ بشدَّةِ بردِها، مأخوذٌ مِن الصِّرِّ: وهو البَردُ الَّذي يَصُرُّ، أي: يَجمَعُ ويَقبِضُ[١].

﴿عَاتِيَةٍ﴾: أي: قاهِرَةٍ، بالِغةٍ مُنتهاها في القُوَّةِ والشِّدَّةِ، والعُتُوُّ: الخروجُ عن الطَّاعةِ، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على استِكبارٍ[٢].

﴿سَخَّرَهَا﴾: أي: سلَّطها وأرْسَلها، والتَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قَهرًا، أو: استِعمالُ الشَّيءِ على وجهِ الاستِعلاءِ والاقتِدارِ، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ[٣].

﴿حُسُومًا﴾: أي: تِباعًا، مُتوالِيةً، مَشائِيمَ، قاطِعةً لهم، والحُسومُ: التَّتابُعُ؛ إذا تتابَعَ الشَّيءُ فلم يَنقَطِعْ أوَّلُه عن آخِرِه، قيل له: حُسومٌ، والحَسمُ كذلك: القَطعُ بالاستِئصالِ، وأصلُ (حسم): يدُلُّ على قَطعِ الشَّيء عن آخِرِه[٤].

﴿صَرْعَىٰ﴾: مَوْتى، وأصلُ (صرع): يدُلُّ على سُقوطِ شَيءٍ إلى الأرضِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٣٩، ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٣).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٥، ٥٦٧).

﴿أَعۡجَازُ﴾: أي: أصولُ، وأصلُ (عجز) هنا: يدُلُّ على مُؤَخَّرِ الشَّيءِ[١].

﴿خَاوِيَةٍ﴾: أي: ساقِطةٍ، خالِيةِ الأجوافِ، وأصلُ (خوي): يدُلُّ على الخُلُوِّ والسُّقوطِ[٢].

﴿بَاقِيَةٍ﴾: أي: بقاءٍ أو أثَرٍ، وأصلُ (بقي): يدُلُّ على دَوامٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بذِكرِ القيامةِ، فقال: القيامةُ الصَّادِقةُ الوُقوعِ، الَّتي تَظهَرُ فيها الحقائِقُ، أيُّ شَيءٍ هِي؟ وما حالُها وصِفتُها؟ وما أدراك ما الحاقَّةُ وصِفَتُها وحالُها وأهوالُها؟!

ثمَّ ذكَرَ اللهُ تعالى مَن كَذَّبَ بالقيامةِ، وما حَلَّ بهم بسَبَبِ التَّكذيبِ، فقال: كذَّبت ثَمودُ قَومُ صالحٍ، وعادٌ قَومُ هودٍ؛ بالقيامةِ!

فأمَّا ثَمودُ فأُهلِكوا بصَيحةٍ فَظيعةٍ تجاوَزَ صَوتُها مِقدارَ كُلِّ صَوتٍ، وأمَّا عادٌ فأُهلِكوا بريحٍ باردةٍ شَديدةِ الصَّوتِ، قد تجاوَزَت شِدَّتُها في ذلك كُلَّ عاصِفةٍ، فدمَّرَتْهم تَدميرًا، سلَّط اللهُ تلك الرِّيحَ عليهم سَبْعَ لَيالٍ وثمانيةَ أيَّامٍ مُتتابِعةً عليهم، فهلكوا! فتَرى قومَ عادٍ فيها ساقِطينَ على الأرضِ مَوتى، كأنَّهم جُذوعُ نَخلٍ ساقِطةٍ خالِيةِ الأجوافِ، فهل ترى لهم مِن بقاءٍ بعْدَ أن أبادَهم اللهُ تعالى؟!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١﴾.

أي: القيامةُ الثَّابِتةُ المَجيءِ، الصَّادِقةُ الوُقوعِ، الَّتي تَظهَرُ فيها الحقائِقُ، ويتحَقَّقُ فيها وَعدُ اللهِ تعالى ووَعيدُه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

قال الواحدي: (﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ يعني: القيامةَ، في قَولِ جميعِ المفَسِّرينَ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٤٣).

وقال الزمخشري: (﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ السَّاعةُ الواجِبةُ الوُقوعِ، الثَّابتةُ المَجيءِ، الَّتي هي آتيةٌ لا ريْبَ فيها. أو الَّتي فيها حَواقُّ الأمورِ مِن الحِسابِ والثَّوابِ والعِقابِ. أو الَّتي تحقُّ فيها الأمورُ، أي: تُعرَفُ على الحقيقةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨).

وقال الشوكاني: (قوله: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ هي القيامةُ؛ لأنَّ الأمرَ يحِقُّ فيها، وهي تحِقُّ في نفْسِها مِن غيرِ شكٍّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٣).

وقال الثعلبي: (سُمِّيَتْ حاقَّةً؛ لأنَّها حقَّتْ فلا كاذِبةَ لها، ولأنَّ فيها حَواقَّ الأمورِ وحقائقَها، ولأنَّ فيها يحقُّ الجزاءُ على الأعمالِ، أي: يجِبُ). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٥).

وقال البقاعي: (﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ أي: السَّاعةُ الَّتي يُكذِّبُ بها هؤلاء وهي أثبَتُ الأشياءِ وأجلاها، فلا كاذِبةَ لها، ولا لشَيءٍ عنها، فلا بُدَّ مِن حُقوقِها؛ فهي ثابتةٌ في نفْسِها، ومِن إحضارِ الأمورِ فيها بحقائقِها، والمُجازاةِ عليها بالحقِّ الَّذي لا مِرْيةَ فيه لأحدٍ مِن الخَلقِ، فهي فاعِلةٌ بمعنَى مفعولٍ فيها، وهي فاعلةٌ أيضًا لأنَّها غالبةٌ لكلِّ خصْمٍ، مِن حاقَقْتُه فحَقَقْتُه أَحُقُّه، أي غالَبْتُه في الحقِّ فغَلَبْتُه فيه، فهي تحِقُّ الحقَّ ولا بُدَّ، فتَعلو الباطِلَ فتَدْمَغُه وتُزهِقُه، فتُحِقُّ العذابَ للمجرِمينَ، والثَّوابَ للمُسلمينَ، وكلُّ ما فيها دائرٌ على الثَّباتِ والبيانِ؛ لأنَّ ذلك مُقتضى الحِكمةِ، ولا يُرضى لأحدٍ مِن الحُكَّامِ تركُ رعيَّتِه بغيرِ إنصافٍ بيْنَهم على زعمِه، فكيف بالحكيمِ العليمِ؟!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٣٨، ٣٣٩).

وعنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا تهجَّدَ مِنَ اللَّيلِ قال: ((اللَّهمَّ رَبَّنا لك الحَمدُ، أنت قَيِّمُ السَّمَواتِ والأرضِ، ولك الحَمدُ أنت رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ، ولك الحَمدُ أنت نُورُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فِيهِنَّ، أنت الحَقُّ، وقَولُك الحَقُّ، ووعَدُك الحَقُّ، ولِقاؤك الحَقُّ، والجنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والسَّاعةُ حَقٌّ))[1].

﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢﴾.

أي: أيُّ شَيءٍ تلك السَّاعةُ الحاقَّةُ، العَظيمةُ الشَّأنِ؟ وما حالُها وصِفتُها[2]؟

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾.

أي: وما الَّذي يُعَرِّفُك ما الحاقَّةُ وصِفتُها وحالُها وأهوالُها[3]؟!

---

(١) رواه البخاري (٧٤٤٢) واللَّفظُ له، ومسلم (٧٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٦).

قيل: الخِطابُ هنا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٧).

وقيل: الخِطابُ لغَيرِ مُعَيَّن. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

أمَّا معنى الآيةِ فقيل: المرادُ: كأنَّك لَسْتَ تَعلَمُها؛ إذ لم تُعاينْها حقيقةً، ولم تَرَ ما فيها مِن أهوالٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٣).

قال الزمخشري: (يعني: أنَّك لا عِلمَ لك بكُنْهِها ومدى عِظَمِها، على أنَّه مِن العِظَمِ والشِّدَّةِ بحيث لا يَبلُغُه دِرايةُ أحدٍ ولا وَهمُه، وكيفما قدَّرْتَ حالَها فهي أعظَمُ مِن ذلك!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨).

وقال القاسمي: (﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ قال بعضُهم: مِن عوائدِ العَربِ في مُحاوَراتِهم اللَّطيفةِ، =

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الحاقَّةَ وفخَّمَها؛ أتْبَعَ ذِكرَ ذلك ذِكرَ مَن كذَّب بها، وما حلَّ بهم بسَببِ التَّكذيبِ؛ تَذكيرًا لأهلِ مكَّةَ، وتخويفًا لهم مِن عاقبةِ تَكذيبِهم[١].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تَعالى ذكَرَ نَموذجًا مِن أحوالِ القيامةِ الموجودةِ في الدُّنيا المشاهَدةِ فيها، وهو ما أحلَّه مِن العُقوباتِ البَليغةِ بالأُمَمِ العاتيةِ[٢].

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ٤﴾.

أي: كذَّبت قَبيلةُ ثَمودَ قَومِ صالحٍ، وقبيلةُ عادٍ قَومِ هودٍ؛ بالقيامةِ، فأنكَروا بَعْثَ النَّاسِ بعْدَ مَوتِهم، وقيامَهم للحِسابِ والجَزاءِ[٣]!

= إذا أرادوا تشويقَ المُخاطَبِ في مَعرفةِ شَيءٍ ودِرايتِه، أتَوا بإجمالٍ وتفصيلٍ، أيْ: أيُّ شَيءٍ أعلَمَ المُخاطَبَ ما هي؟ تأكيدًا لتَفخيمِ شأنِها، حتَّى كأنَّها خرَجَت مِن دائرةِ عِلمِ المُخاطَبِ، على معنَى: أنَّ عِظَمَ شَأنِها وما اشتمَلَت عليه مِن الأوصافِ: ممَّا لم تَبلُغْه درايةُ أحدٍ مِن المُخاطَبينَ، ولم تَصِلْ إليه مَعرِفةُ أحدٍ مِن السَّامعينَ، ولا أدركَه وَهمُه، وكيفما قَدَّرَ حالَها فهي وراءَ ذلك وأعظَمُ. ومنه يُعلَمُ أنَّ الاستفهامَ كِنايةٌ عن لازِمِه، مِن أنَّها لا تُعلَمُ، ولا يَصِلُ إليها دِرايةُ دارٍ، ولا تَبلُغُها الأفكارُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٥).

قال ابن جرير: (القارعةُ أيضًا اسمٌ مِن أسماءِ القيامةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٧).

وقال البِقاعي: (﴿بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ أي: الَّتي تَقرَعُ، أي: تَضرِبُ ضَربًا قويًّا، وتَدُقُّ دقًّا عنيفًا شديدًا للأسماعِ وجميعِ العالَمِ، بانفِطارِ السَّمَواتِ، وتناثُرِ النَّيِّراتِ، ونَسْفِ الجِبالِ الرَّاسياتِ، فلا يَثبُتُ لذلك الهَولِ شَيءٌ!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٤٢).

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾.

أي: فأمَّا ثَمودُ فأُهلِكوا بالصَّيحةِ الطَّاغيةِ الفَظيعةِ الَّتي تجاوَزَ صَوتُها مِقدارَ كُلِّ صَوتٍ مُرتَفِعٍ، فرجَفَت منها الأرضُ والقُلوبُ، وماتوا مِن شِدَّتِها[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ * فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٣، ٤٤].

﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

قال ابن الجوزي: (فأمَّا ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ ففيها ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّها طُغيانُهم وكُفرُهم، قاله ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، ومقاتلٌ، وأبو عُبَيْدةَ، وابنُ قُتَيْبَةَ. قال الزَّجَّاجُ: ومعنَى الطَّاغيةِ عندَ أهلِ اللُّغةِ: طُغيانُهم. و «فاعِلة» قد يأتي بمعنَى المصادرِ، نحو: عاقِبة، وعافِيَة. والثَّاني: بالصَّيحةِ الطَّاغيةِ، قاله قَتادةُ؛ وذلك أنَّها جاوزَتْ مِقْدارَ الصِّياحِ، فأهلَكَتْهم. والثَّالثُ: أنَّ الطَّاغيةَ: عاقِرُ النَّاقةِ، قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالطَّاغيةِ: الصَّيحةُ: ابنُ جرير، وابنُ عطية، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بالطَّاغيةِ: بطُغْيانِهم وكُفرِهم وعِصْيانِهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وأبو عُبَيْدةَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والثعلبي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢١)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٣).

وقال الواحدي: (أكثَرُ أهلِ التَّفسيرِ والعربيَّةِ على أنَّ الطَّاغيةَ هاهنا بمعنى الطُّغْيانِ). ((البسيط)) (٢٢/ ١٣٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر المُهلَكينَ بالصَّيحةِ مِن أجْلِ التَّكذيبِ بالقارعةِ؛ تحذيرًا لِمَن يكَذِّبُ بها؛ أتْبَعَه المُهلَكينَ بما هو سَبَبٌ لإنفاذِ الصَّيحةِ وتَقويتِها؛ دَلالةً على تمامِ القُدرةِ على كُلِّ نَوعٍ مِن العذابِ بالاختيارِ[١].

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾.

أي: وأمَّا عادٌ فأُهلِكوا بريحٍ عَظيمةٍ باردةٍ شَديدةِ الصَّوتِ، قد تجاوَزَتْ شِدَّتُها في ذلك كُلَّ عاصِفةٍ أُخرَى، فدمَّرَتْهم تَدميرًا[٢]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٩)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

قال ابن عطية: («الصَّرْصَرُ» يحتَمِلُ أن يكونَ مِنَ الصِّرِّ، أي: البَرْدِ، وهو قَولُ قَتادةَ. ويحتمِلُ أن يكونَ مِن صَرَّ الشَّيءُ: إذا صَوَّتَ، فقال قومٌ: صَوتُ الرِّيحِ صَرصَرٌ، كأنَّه يَحكي هذَينِ الحَرفَينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسَّمرقندي، والقُرطبي، وابنُ كثير، والشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وعِكْرِمةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٦٥).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني: الرازيُّ، والخازن، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٧). =

= وقال ابنُ جَرير، ومكِّيٌّ، والقاسميُّ: هي شديدةُ العُصوفِ، مع شِدَّةِ بَرْدِها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٩).

وقال البِقاعي: (هي في غايةِ ما يكونُ مِن شِدَّةِ البرْدِ والصَّوتِ، كأنَّه كُرِّرَ فيها البرْدُ حتَّى صار يحرِقُ بشِدَّتِه، والصَّوتُ حتَّى صار يُصِمُّ بقُوَّتِه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٤٣).

وجمَعَ ابنُ كثيرٍ بيْن المعاني السَّابقةِ في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصلت: ١٦]، فقال: (والحقُّ أنَّها متَّصِفةٌ بجَميعِ ذلك [أي: كَونِها شَديدةَ الهُبوبِ، باردةً، لها صَوتٌ]؛ فإنَّها كانت رِيحًا شَديدةً قويَّةً؛ لِتَكونَ عُقوبتُهم مِن جنسِ ما اغتَرُّوا به مِن قُواهم، وكانت باردةً شديدةَ البرْدِ جِدًّا، كقولِه تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، أي: باردةٍ شَديدةٍ، وكانت ذاتَ صَوتٍ مُزعِجٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩).

والعاتية: الَّتي جاوَزَتِ المِقْدارَ. قاله ابنُ الجوزيِّ، والرَّسْعَنيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥١).

وقال الزمخشري: (﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديدةِ العَصفِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٩).

وقال القاسمي: (﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي: مُتجاوِزةٍ الحدَّ المعروفَ في الهُبوبِ والبُرودةِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٩).

قال مكِّي: (وقولُه: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ ليس هو مِن العُتُوِّ الَّذي هو العِصيانُ، إنَّما هو مِن العُتوِّ الَّذي هو بُلوغُ الشَّيءِ وانتهاؤُه في قوَّتِه وقَدْرِه). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٢/ ٧٦٦٢، ٧٦٦٣).

وقال الماوَرْدي: (وفي تسميتِها عاتيةً وجْهانِ؛ أحدُهما: لأنَّها عتَتْ على القَومِ بلا رحمةٍ ولا رأفةٍ، قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: لأنَّها عتتْ على خُزَّانِها بإذْنِ الله). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٧).

ممَّن قال الوجهِ الأوَّلِ: ابنُ جُزَي، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

وممَّن قال بالوجهِ الثَّاني: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤١).

وقال ابن عطيَّة: («العاتية» معناه: الشَّديدةُ، المُخالِفةُ، فكانت الرِّيحُ عتَتْ على الخُزَّانِ بخِلافِها، وعتت على قومِ عادٍ بشِدَّتِها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧).

كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨ - ٢١].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبورِ[(١)]))[(٢)].

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾.

أي: سلَّط اللهُ تلك الرِّياحَ العاصِفةَ على عادٍ، وأرسَلَها عليهم سَبْعَ لَيالٍ وثمانيةَ أيَّامٍ كَوامِلَ، مَشائيمَ، تتابَعَت عليهم حتَّى هَلَكوا[(٣)]!

---

(١) الصَّبا: هي الرِّيحُ الشَّرقيَّةُ، والدَّبورُ: هي الرِّيحُ الغَربيَّةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٩٧).

(٢) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١١ - ٢١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٧).

قال الرازي: (قولُه تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ قال مقاتلٌ: سلَّطها عليهم. وقال الزَّجَّاجُ: أقامها عليهم. وقال آخَرونَ: أرسَلَها عليهم. هذه هي الألفاظُ المنقولةُ عن المفسِّرينَ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٤).

وقال الثعلبيُّ، والسمعانيُّ، وابن الجوزيِّ، والقرطبيُّ: ﴿سَخَّرَهَا﴾: أرسَلَها وسلَّطها. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٩)، =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ [القمر: ١٩].

﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ﴾.

أي: فترى قومَ عادٍ في تلك اللَّيالي والأيَّامِ مَطروحينَ على الأرضِ مَوتى[(١)]!

= ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٩).

قال البِقاعي: (قد لَزِمَ مِن زيادةِ عَدَدِ الأيَّامِ أنَّ الابتداءَ كان بها قَطْعًا، وإلَّا لم تكن اللَّيالي سَبْعًا؛ فتأمَّلْ ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٤٥).

وقال الماوَرْديُّ: (وفي قولِه: ﴿حُسُومًا﴾ أربعةُ تَأويلاتٍ؛ أحدُها: مُتتابِعاتٍ. قاله ابنُ عباسٍ، وابنُ مسعودٍ، ومجاهدٌ، والفرَّاءُ... الثَّاني: مَشائيمَ. قاله عِكْرِمةُ والرَّبيعُ. الثَّالثُ: أنَّها حَسَمَت اللَّياليَ والأيَّامَ حتَّى استَوفَتْها؛ لأنَّها بدَأَت طُلوعَ الشَّمسِ مِن أوَّلِ يومٍ، وانقطَعَت مع غُروبِ الشَّمسِ مِن آخِرِ يومٍ. قالَه الضَّحَّاكُ. الرَّابعُ: لأنَّها حَسَمَتْهم ولم تُبْقِ منهم أحدًا. قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٧). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٠).

ونسَبَ الواحديُّ والرَّازيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ أنَّ ﴿حُسُومًا﴾ أي: مُتتابِعةً. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٣٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢).

قال الرازي: (وعلى هذا القولِ: حُسومٌ جمْعُ حاسمٍ، كشُهودٍ وقُعودٍ، ومعنى الحَسمِ في اللُّغةِ: القطعُ بالاستِئْصالِ... فلمَّا كانت تلك الرِّياحُ مُتتابِعةً ما سكنَتْ ساعةً حتَّى أتتْ عليهم، أشْبَهَ تَتابُعُها عليهم تَتابُعَ فِعلِ الحاسِمِ في إعادةِ الكَيِّ على الدَّاءِ كَرَّةً بعدَ أخرى حتَّى يَنحسِمَ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢).

وقال ابنُ فارسٍ: (أمَّا قولُه تعالى: ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ فيُقالُ: هي المتتابعةُ. ويُقالُ: الحسومُ الشؤمُ. ويُقالُ: سُمِّيتْ حسومًا؛ لأنَّها حسَمت الخيرَ عن أهلِها. وهذا القولُ أقيسُ). ((مقاييس اللغة)) (٢/ ٥٧).

وقال ابن كثير: (﴿... حُسُومًا﴾ أي: كَوامِلَ، مُتَتابِعاتٍ، مَشائيمَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨).

وقيل: الحُسومُ مَصدَرٌ، كالشُّكورِ والكُفورِ، وعلى هذا التَّقديرِ فإمَّا أن يَنتصِبَ بفِعلِه مُضمَرًا، والتَّقديرُ: تَحسِمُ حُسومًا، يعني: تَستأصِلُ استِئْصالًا، أو يكونَ صِفةً، كقولِك: ذاتُ حُسومٍ، أو يكونَ مفعولًا له، أي: سخَّرَها عليهم للاستِئْصالِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢). ويُنظر ما يأتي (ص: ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦١)، =

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

أي: صارت جُثَثُهم بعْدَ هَلاكِهم مِثلَ جُذوعِ نَخلٍ ساقِطةٍ خالِيةِ الأجوافِ[1].

= ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٥).

قيل: الخِطابُ في قَولِه تعالى: ﴿فَتَرَى﴾: لمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٦٧).

وقِيل: الخِطابُ لكلِّ مَن يَصلُحُ له، على تَقديرِ: أنَّه لو كان حاضرًا حينَئذٍ لَرأى ذلك، أي: فيَرى الرَّائي لو كان راءٍ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجُملةِ: الشَّوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٨).

ممَّن اختار أنَّ الأعجازَ هي الأصولُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، وابن الجوزي، والرازي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٦٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢).

قيل: المعنى: أنَّها صارت جُذوعًا باليةً لَيستْ لها رُؤوسٌ، قد بَقِيَت أصولُها، وذهَبَت أعناقُها. وممَّن ذهَبَ إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٢).

وممَّن قال بنحْوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٦٦).

وممَّن قال في الجُملةِ: إنَّ ﴿خَاوِيَةٍ﴾ أي: مُنقلِعةٍ ساقِطةٍ، قد اجتُثَّتْ مِن أُصولِها: السَّمرقنديُّ، والثَّعلبي، والبَغَوي، والخازنُ، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥).

وقيل: المعنى: كأنَّهم أصولُ نَخلٍ خاليةِ الأجوافِ لا شَيءَ فيها. وممَّن قال بهذا: الرازيُّ، =

كما قال تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠].

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾.

أي: فهل تَرى لكُفَّارِ عادٍ مِن بقاءٍ بعْدَ أن أبادَهم اللهُ تعالى[1]؟

= والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٦٧).

وقيل: الخاويةُ: الفارغةُ السَّاقطةُ، مُتآكِلةُ الأجوافِ، الَّتي قد خَلَت أعجازُها بِلًى وفَسادًا. وممَّن قال بهذا في الجُملةِ: ابنُ عطيَّةَ، والبِقاعيُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤١).

قال الماوَرْدي: (في تَشبيهِهم بالنَّخلِ الخاويةِ ثَلاثةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها: أنَّ أبدانَهم خَوَت مِن أرواحِهم، مِثلُ النَّخلِ الخاويةِ. قاله يحيى بنُ سلَّامٍ. الثَّاني: أنَّ الرِّيحَ كانت تَدخُلُ في أجوافِهم مِن الخَيْشومِ، وتَخرُجُ من أدبارِهم، فصاروا كالنَّخلِ الخاويةِ. حكاه ابنُ شَجَرةَ. الثَّالثُ: أنَّ الرِّيحَ قَطَعَت رُؤوسَهم عن أجسادِهم، فصاروا بقَطْعِها كالنَّخلِ الخاويةِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

الخِطابُ في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ﴾ قيل: هو لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٦٨).

وقيل: هو لغيرِ مُعَيَّنٍ. وممَّن ذهب إلى هذا: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩).

قال ابنُ الجوزي: (قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: مِن بقاءٍ. قاله الفرَّاءُ.

والثَّاني: مِن بَقيَّةٍ. قاله أبو عُبَيْدةَ. قال: وهو مَصدَرٌ، كالطَّاغيةِ.

والثَّالثُ: هل ترَى لهم مِن أثَرٍ. قاله ابنُ قُتَيْبةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الفرَّاءُ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والغَزْنَوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني =

كما قال تعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٣] عظَّم تعالى شأنَ القيامةِ وفَخَّمَه؛ فإنَّ لها شأنًا عَظيمًا، وهَولًا جَسيمًا[(١)].

٢- عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنةَ، قال: (ما في القرآنِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يُخبِرْه، وما كان ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فقد أخْبَره)[(٢)].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، ولم يقُلْ: (صَرصَرةٍ)، كما قال: ﴿عَاتِيَةٍ﴾، مع أنَّ الرِّيحَ مُؤنَّثةٌ؛ لأنَّ (الصَّرصَرَ) وَصفٌ مُختَصٌّ بالرِّيحِ،

= القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٧)، ((باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن)) للغزنوي (٣/ ١٥٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: أبو عُبَيْدةَ، وابنُ أبي زَمَنِين، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: مِن نفْسٍ باقِيَةٍ: السَّمْعانيُّ، والبغوي، والواحدي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٤).

ويجوزُ أنْ تكونَ بمعنى: فرقةٍ باقيةٍ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ٢٠٧).

ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ٢٦).

فأشبَهَ بابَ (حائِضٍ، وطامثٍ، وحامِلٍ)، بخِلافِ (عاتيةٍ)؛ فإنَّ غيرَ الرِّيحِ مِن الأسماءِ المُؤنَّثةِ يُوصَفُ به[١].

٤- قولُه تَعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ فيه أنَّه لم يَبْقَ لهم نَسْلٌ يُذْكَرون بهم، بلْ أُهلِكوا بأجْمَعِهم، وانقَطَعَ نَسْلُهم، وانقَطَعَ عنهم الذِّكرُ إلَّا بالسُّوءِ، وإلَّا كان يُرى لهم باقيةٌ، ففيه أنَّهم استُؤصِلوا، وعمَّ العَذابُ الكبيرَ والصَّغيرَ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾

- قولُه: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ هو صِيغةُ فاعِلٍ مِن: حقَّ الشَّيءُ؛ إذا ثبَتَ وُقوعُه، والهاءُ فيها لا تَخْلو عن أنْ تكونَ هاءَ تأنيثٍ؛ فتكونَ ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ وصْفًا لِمَوصوفٍ مُقدَّرٍ مُؤنَّثِ اللَّفظِ، أو أنْ تكونَ هاءَ مَصدرٍ، على وزْنِ (فاعِلةٍ)، مِثلُ الكاذِبةِ للكذِبِ، والخاتمةِ للختْمِ، والباقيةِ للبقاءِ، والطَّاغيةِ للطُّغيانِ، والنَّافلةِ، والخاطئةِ، وأصلُها تاءُ المرَّةِ، ولكنَّها لَمَّا أُريدَ المصدرُ قُطِعَ النَّظرُ عن المرَّةِ، مِثلُ كثيرٍ مِن المصادرِ الَّتي على وزْنِ فَعلةٍ غيرُ مُرادٍ به المرَّةُ، مِثلُ قولِهم: ضَربةُ لازِبٍ. فالحاقَّةُ إذنْ بمعنى الحقِّ، كما يُقالُ: مِن حاقِّ كذا، أي: مِن حقِّه. وعلى الوجهَينِ فيَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بالحاقَّةِ المعنى الوَصْفيَّ، أي: حادِثةٌ تَحِقُّ، أو حقٌّ يَحِقُّ. ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بها لَقبًا ليومِ القيامةِ، فلُقِّبَ بذلك يومُ القيامةِ؛ لأنَّه يومٌ مُحقَّقٌ وُقوعُه، كما قال تعالَى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧]، أو لأنَّه تَحِقُّ فيه الحقوقُ، ولا يُضاعُ الجزاءُ عليها؛ قال تعالَى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ١٦٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٣).

ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وإيثارُ هذه المادَّةِ وهذه الصِّيغةِ يَسمَحُ باندراجِ مَعانٍ صالحةٍ بهذا المقامِ، فيكونُ ذلك مِن الإيجازِ البديعِ؛ لتَذهَبَ نُفوسُ السَّامِعينَ كلَّ مَذهبٍ ممْكنٍ مِن مَذاهبِ الهَولِ والتَّخويفِ بما يحِقُّ حُلولُه بهم، فيَجوزُ أيضًا أنْ تكونَ ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ وصْفًا لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: السَّاعةُ الحاقَّةُ، أو الواقعةُ الحاقَّةُ؛ فيَكونَ تَهديدًا بيومٍ أو وقْعةٍ يكونُ فيها عِقابٌ شَديدٌ للمُعرَّضِ بهم، مِثْلُ يومِ بدْرٍ أو وَقْعتِه، وأنَّ ذلك حقٌّ لا رَيبَ في وُقوعِه، أو وصْفًا للكلمةِ، أي: كلمةُ الله الَّتي حقَّت على المشركين مِن أهلِ مكَّةَ، ويجوزُ أنْ تكونَ مَصدرًا بمعْنى الحقِّ، فيَصِحُّ أنْ يكونَ وصْفًا ليومِ القيامةِ بأنَّه حقٌّ، كقولِه تعالَى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧]، أو وصْفًا للقرآنِ، كقولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]، أو أُريدَ به الحقُّ كلُّه ممَّا جاء به القرآنُ مِن الحقِّ؛ قال تعالَى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾[1] [الأحقاف: ٣٠]. وقيل: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ وصْفٌ حُذِف مَوصوفُه؛ للإيذانِ بكَمالِ ظُهورِ اتِّصافِه بهذه الصِّفةِ، وجَرَيانِها مجرَى الاسمِ[2].

- وافتتاحُ السُّورةِ بهذا اللَّفظِ تَرويعٌ للمشركين[3].

- والاستِفهامُ ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ مُستعمَلٌ في التَّهويلِ والتَّعظيمِ والتَّفخيمِ لشأنِها؛ لأنَّ الأمرَ العظيمَ مِن شأْنِه أنْ يُستفهَمَ عنه، فصار التَّعظيمُ والاستفهامُ مُتلازِمَين. ولك أنْ تَجعَلَ الاستِفهامَ إنكاريًّا، أي: لا يَدْري أحدٌ كُنْهَ هذا الأمرِ، والمقصودُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١١ - ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

مِن ذلك على كِلا الاعتبارَينِ هو التَّهويلُ[١].

- وفي قولِه: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ وضْعُ الظاهرِ مَوضعَ المضمَرِ، فلمْ يقُلْ: ما هي؟ والفائدةُ منه زِيادةُ التَّهويلِ والتَّفخيمِ لشَأنِها[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ مُكنًّى به عن تَعذُّرِ إحاطةِ عِلمِ النَّاسِ بكُنْهِ الحاقَّةِ ببَيانِ خُروجِها عن دائرةِ عُلومِ المخلوقاتِ؛ لأنَّ الشَّيءَ الخارجَ عن الحدِّ المألوفِ لا يُتصوَّرُ بسُهولةٍ، فمِن شأْنِه أنْ يُتساءلَ عن فَهْمِه[٣].

- جُملةُ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ مَعطوفةٌ على ما قبْلَها مِن الجُملةِ الواقعةِ خبَرًا لقولِه تعالَى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾، مُؤكِّدةٌ لهَولِها[٤].

- ويجوزُ أنْ تكونَ مُعترِضةً بيْنَ جُملةِ ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ وجُملةِ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤]، والواوُ اعتراضيَّةٌ[٥].

- وتَركيبُ (ما أدراكَ كذا) ممَّا جَرَى مَجرى المثَلِ، فلا يُغيَّرُ عن هذا اللَّفظِ، وأصلُ الكلامِ قبْلَ التَّركيبِ بالاستِفهامِ أنْ تقولَ: دريتُ الحاقَّةَ أمرًا عظيمًا،

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣، ١١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

ثمَّ صار: أدراني فُلانٌ الحاقَّةَ أمْرًا عظيمًا[١].

- واستِعمالُ (ما أدْراك) غيرُ استعمالِ (ما يُدْريك) في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشُّورى: ١٧]، فمَفعولُ (ما أدراك) مُحقَّقُ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للتَّهويلِ، ومَفعولُ (ما يُدْريك) غيرُ مُحقَّقِ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للإنكارِ، وهو في معْنى نفْيِ الدِّرايةِ. وكلُّ مَوضعٍ ذُكِرَ في القرآنِ (وما أدراك) فقدْ عُقِّبَ ببَيانِه؛ نحوُ قولِ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ١٠، ١١]، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٢، ٣]، ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٨، ١٩]، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾[٢].

- ولَمَّا كان ذلك كلُّه أمرًا رائعًا للعقولِ، هازًّا للقلوبِ، مُزعِجًا للنُّفوسِ، وكان رُبَّما توقَّفَ فيه الجِلْفُ الجافي؛ أكَّدَ أمْرَه وزادَ في تَهويلِه، وأطْنَبَ في تَفخيمِه وتَبجيلِه؛ إشارةً إلى أنَّ هَوْلَه يَفوتُ الوصفُ بقولِه، مُعلِمًا أنَّه ممَّا يَحِقُّ له أنْ يُستفهَمَ عنه، سائقًا له بأداةِ الاستفهامِ مُرادًا بها التَّعظيمُ للشَّأنِ، وأنَّ الخبَرَ ليس كالعِيانِ ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؛ فأداةُ الاستفهامِ مُبتدأٌ أُخبِرَ عنه بالحاقَّةِ، وهما خبَرٌ عن الأُولى، الرَّابطُ تَكريرُ المُبتدَأِ بلَفْظِه، وأكثَرُ ما يكونُ ذلك إذا أُرِيدَ معْنى التَّعظيمِ والتَّهويلِ[٣].

وقيل: مُقتضَى التَّحقيقِ أنْ تكونَ (ما) الاستِفهاميَّةُ في قولِه: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ خبَرًا لِما بعْدَها؛ فإنَّ مَناطَ الإفادةِ بَيانُ أنَّ الحاقَّةَ أمْرٌ بَديعٌ، وخَطْبٌ فَظيعٌ، كما يُفيدُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٩).

كونُ (مَا) خبَرًا، لا بَيانُ أنَّ أمرًا بَديعًا الحاقَّةُ، كما يُفيدُه كونُها مُبتدَأً، وكونُ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ خبرًا[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾

- قولُه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لإعلامِ بَعضِ أحوالِ الحاقَّةِ لهُ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- إثرَ تَقريرِ أنَّه ما أدْراهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بها أحدٌ[٢]. فعلى أنَّ قولَه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ٣] نِهايةُ كَلامٍ؛ فمَوقعُ قولِه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ وما اتَّصَلَ به استِئنافٌ، وهو تَذكيرٌ بما حَلَّ بثَمودَ وعادٍ لتَكذيبِهم بالبعثِ والجزاءِ؛ تَعريضًا بالمشركينَ مِن أهلِ مكَّةَ بتَهديدِهم أنْ يَحِقَّ عليهم مِثلُ ما حلَّ بثَمودَ وعادٍ؛ فإنَّهم سواءٌ في التَّكذيبِ بالبعثِ، وعلى هذا يكونُ قولُه: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١] إلخ تَوطئةً له وتمْهيدًا لهذه الموعظةِ العظيمةِ؛ استِرهابًا لنُفوسِ السَّامعينَ. وإنْ جعَلْتَ الكلامَ مُتَّصلًا بجُملةِ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾، وعيَّنْتَ لَفظَ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١] ليومِ القيامةِ؛ كانت هذه الجُملةُ خبَرًا ثالثًا عن ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١]، والمعنى: الحاقَّةُ كذَّبَتْ بها ثَمودُ وعادٌ، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُؤتَى بضَميرِ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١]، فيُقالُ: كذَّبَتْ ثَمودُ وعادٌ بها، فعُدِلَ إلى إظهارِ اسمِ (القارعةِ)؛ لأنَّ (القارعة) مُرادِفةُ الحاقَّةِ -في أحدِ مَحملَي لَفظِ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾-، وهذا كالبَيانِ للتَّهويلِ الَّذي في قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾[الحاقة: ٣]، ولتَدُلَّ (القارعة) على معْنى القرْعِ، زِيادةً في وصْفِ شِدَّتِها، وتَشديدًا لِهَوْلِها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) =

- قولُه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ ابتُدِئَ بثَمودَ وعادٍ في الذِّكرِ مِن بيْنِ الأُمَمِ المكذِّبةِ؛ لأنَّهما أكثرُ الأُمَمِ المكذِّبةِ شُهرةً عندَ المشركينَ مِن أهلِ مكَّةَ؛ لأنَّهما مِن الأُمَمِ العربيَّةِ، ولأنَّ دِيارَهما مُجاورةٌ شمالًا وجنوبًا[١].

- القارعةُ، أي: الَّتي تُصيبُ النَّاسَ بالأهوالِ والأفزاعِ، أو الَّتي تُصيبُ الموجوداتِ بالقَرْعِ؛ مِثلُ دكِّ الجبالِ، وخسْفِ الأرضِ، وطمْسِ النُّجومِ، وكُسوفِ الشَّمسِ كُسوفًا لا انجلاءَ له، فشُبِّهَ ذلك بالقرْعِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ ابتُدِئَ بذِكرِ ثَمودَ مِن حيثُ إنَّ بلادَهم أقرَبُ إلى قُرَيشٍ، وواعظُ القُربِ أكبَرُ، وإهلاكهم بالصَّيحةِ، وهي أشْبَهُ بصَيحةِ النَّفخِ في الصُّورِ، المُبَعْثِرِ لِما في القُبورِ[٣]. أو لأنَّ العذابَ الَّذي أصابَهم مِن قَبيلِ القَرْعِ؛ إذ أصابَتْهم الصَّيحةُ الَّتي أُطلِق عليها الصَّاعِقةُ في بعضِ الآياتِ، ولأنَّ الكلامَ على مَهلكِ عادٍ أنسَبُ، فأُخِّرَ لذلك أيضًا[٤]، فاللهُ تعالى ذكَرَ تفصيلَ إهلاكِ عادٍ بخِلافِ ثَمودَ، فلعلَّ تأخيرَ ذِكْرِهم لِما تَبِعَه مِن تفصيلٍ.

- وجِيءَ في الخبرِ عن هاتَينِ الأُمَّتينِ -ثَمودَ وعادٍ- بطَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ[٥]؛

= (٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٤، ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

(٥) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلَفظٍ يشتملُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا. والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، =

لأنَّهما اجتَمَعتا في مُوجِبِ العُقوبةِ، ثمَّ فُصِّلَ ذِكرُ عَذابِهما[١].

- وإنَّما سُمِّيت الصَّيحةُ بالطَّاغيةِ؛ لأنَّها كانتْ مُتجاوِزةً الحالَ المُتعارَفَ في الشِّدَّةِ، فشُبِّهَ فِعلُها بفِعلِ الطَّاغي المُتجاوِزِ الحدَّ في العُدوانِ والبطْشِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾

- قولُه: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أصْلُ العُتُوِّ والعُتِيِّ: شِدَّةُ التَّكبُّرِ، فعُبِّرَ به عن الشَّيءِ المُتجاوِزِ الحدَّ المعتادَ؛ تَشبيهًا بالتَّكبُّرِ الشَّديدِ في عدَمِ الطَّاعةِ، والجرْيِ على المعتادِ[٣].

قيل: عَتَتْ على خُزَّانِها، فخَرَجَت بلا كيلٍ ولا وزْنٍ، وهذا كِنايةٌ عن الشِّدَّةِ والإفراطِ فيها، لا أنَّها عَتَت على الخُزَّانِ حقيقةً[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾

= أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَين؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المرتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبدالرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢).

- قولُه: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ استِئنافٌ جِيءَ به بَيانًا لكَيفيَّةِ إهلاكِهم بالرِّيحِ. وقيل: هو استِئنافٌ أو صِفةٌ جِيءَ به لنفْيِ ما يُتوهَّمُ مِن أنَّها كانتْ مِن اتِّصالاتٍ فَلَكيَّةٍ؛ إذ لو كانتْ لَكان هو المقدِّرَ لها والمسبِّبَ[1].

- والتَّسخيرُ: الغصْبُ على عمَلٍ، وعُبِّرَ به عن تَكوينِ الرِّيحِ الصَّرصرِ تَكوينًا مُتجاوِزًا المُتعارَفَ في قوَّةِ جِنسِها، فكأنَّها مُكرَهةٌ عليه، وعُلِّقَ به ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّه ضُمِّنَ معْنى أرْسَلَها[2].

- و(حُسومٌ) يَجوزُ أنْ يكونَ جمْعَ حاسمٍ، مِثلُ قُعودٍ جمْعُ قاعدٍ، وشُهودٍ جمْعُ شاهدٍ، غُلِّبَ فيه الأيَّامُ على اللَّيالي؛ لأنَّها أكثَرُ عَددًا؛ إذ هي ثَمانيةُ أيَّامٍ، وهذا له مَعانٍ؛ أحدُها: أنْ يكونَ المعنى: يُتابِعُ بعضُها بعضًا، أي: لا فصْلَ بيْنَها. وقيل: الحُسومُ مُشتَقٌّ مِن حَسْمِ الدَّاءِ بالمِكواةِ؛ إذ يُكوى ويُتابَعُ الكَيُّ أيَّامًا. المعْنى الثَّاني: أنْ يكونَ مِن الحسْمِ، وهو القطْعُ، أي: حاسِمةً مُستأصِلةً. ومنه سُمِّيَ السَّيفُ حُسامًا؛ لأنَّه يَقطَعُ، أي: حسَمَتْهم فلم تُبْقِ منهم أحدًا، وعلى هذَينِ المعْنيَينِ فهو صِفةٌ لـ ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾، أو حالٌ منها. المعْنى الثَّالثُ: أنْ يكونَ حُسومٌ مَصدرًا، كالشُّكورِ والدُّخولِ، فيَنتصِبَ على المفعولِ مِن أجْلِه، وعامِلُه ﴿سَخَّرَهَا﴾، أي: سخَّرَها عليهم لاستِئْصالِهم، وقطْعِ دَابِرِهم. وكلُّ هذه المعاني صالحٌ لأنْ يُذكَرَ مع هذه الأيَّامِ، فإيثارُ هذا اللَّفظِ مِن تَمامِ بَلاغةِ القرآنِ وإعجازِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩٠).

- قولُه: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ الرُّؤيةُ عِلميَّةٌ لا بَصريَّةٌ؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما أبْصَرَهم صَرْعى فيها ولا رآهُم، فصار المعْنى: فتَعلَمُهم صَرعى فيها بإعلامِنا حتَّى كأنَّك تُشاهِدُهم[١].

أو الخِطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ، أي: فيَرى الرَّائي لو كان راءٍ، وهذا أُسلوبٌ في حِكايةِ الأمورِ العظيمةِ الغائبةِ؛ تُستحضَرُ فيه تلك الحالةُ كأنَّها حاضرةٌ، ويُتخيَّلُ في المقامِ سامعٌ حاضرٌ شاهدٌ مُهْلَكَهم أو شاهَدَهم بعْدَه، وكِلا المُشاهدتَينِ مُنتَفٍ في هذه الآيةِ، فيُعتبَرُ خِطابًا فَرَضيًّا، فليس هو بالْتِفاتٍ[٢]، ولا هو مِن خِطابِ غيرِ المعيَّنِ[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ للعهْدِ الذِّكريِّ. والقومُ: القَبيلةُ، وهذا تَصويرٌ لهلاكِ جَميعِ القبيلةِ[٤].

- قولُه: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ تَشبيهٌ مُرسَلٌ[٥]؛ فقد شبَّهَهم بالجُذوعِ لطُولِ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٨، ٥٧٩).

(٢) الالتفات: هو نقلُ الكلامِ مِن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخَرَ؛ تطريةً واستِدرارًا للسَّامعِ، وتجديدًا لنَشاطِه، وصيانةً لخاطِرِه مِن المَلالِ والضَّجرِ بدَوامِ الأسلوبِ الواحدِ على سمعِه؛ كالانتقالِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، أو تغييرِ ضميرِ المتكلِّمِ نفْسِه: تارةً بجَعلِه تاءً على جهةِ الإخبارِ عن نفْسِه، وتارةً يجعله كافًا، فيجعلُ نفْسَه مُخاطَبًا، وتارةً يجعلُه هاءً، فيُقيمُ نفْسَه مُقامَ الغائبِ. وشرطُه أن يكونَ الضَّميرُ في المُتنقَلِ إليه عائدًا في نفْسِ الأمرِ إلى الملتفِّ عنه، وللمُتكلِّمِ والخِطابِ والغَيبةِ مقاماتٌ، والمشهورُ أنَّ الالتفاتَ هو الانتقالُ مِن أحَدِها إلى الآخَرِ بعدَ التَّعبيرِ بالأوَّلِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٠٠، ٢٠١)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٣١٤)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٨).

(٥) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: هو إثباتُ حُكمٍ مِن أحكامِ المُشبَّهِ =

قاماتِهم[١].

أو وجْهُ التَّشبيهِ بها: أنَّ الَّذين يَقطَعون النَّخلَ إذا قَطَعوه للانتِفاعِ بأعوادِه في إقامةِ البيوتِ للسُّقُفِ والعِضاداتِ، انْتَقَوا منه أصولَه؛ لأنَّها أغلَظُ وأملأُ، وتَرَكوها على الأرضِ حتى تَيبَسَ وتَزولَ رُطوبتُها، ثمَّ يَجعَلوها عَمَدًا وأساطينَ[٢].

- ووصْفُ نَخْلٍ بأنَّها خاويةٌ باعتِبارِ إطلاقِ اسمِ النَّخلِ على مكانِه بتَأويلِ الجنَّةِ أو الحديقةِ، ففيه استِخدامٌ[٣]، والمعْنى: خاليةٌ مِن النَّاسِ، وهذا الوصْفُ لتَشويهِ المشبَّهِ به بتَشويهِ مكانِه، ولا أثَرَ له في المشابَهةِ، وأحسَنُه ما كان فيه مُناسَبةٌ للغرَضِ مِن التَّشبيهِ كما في الآيةِ؛ فإنَّ لهذا الوصْفِ وقْعًا في التَّنفيرِ مِن حالتِهم؛ ليُناسِبَ الموعظةَ والتَّحذيرَ مِن الوُقوعِ في مِثلِ أسبابِها[٤].

= به للمُشبَّهِ. ويَنقسِمُ التشبيهُ عِدَّةَ تَقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّة؛ فمنه: التَّشبيهُ البليغُ: وهو ما كانتْ أداةُ التَّشبيهِ فيه مَحذوفةً. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ باعتبارٍ آخَرَ إلى مُؤكَّدٍ: وهو ما حُذِفتْ فيه الأداةُ، نحو: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مِثلَ مرِّ السحابِ. ومُرْسَلٍ: وهو ما لم تُحذَفْ فيه الأداةُ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٨).

(٣) الاستخدام: هو ذِكرُ اللَّفظِ بمعنًى وإعادةُ ضميرٍ أو إشارةٍ عليه بمعنًى آخَرَ، أو إعادةُ ضَميرَينِ عليه تُريدُ بثانيهما غيرَ ما تُريدُ بأوَّلِهما. يُنظر: ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٠١)، ((علوم البلاغة: البيان، المعاني، البديع)) للمراغي (ص: ٢٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٩٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩).

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ تَفريعٌ على مَجموعِ قِصَّتَيْ ثَمودَ وعادٍ، فهو فَذْلَكةٌ[١] لِما فُصِّلَ مِن حالِ إهلاكِهما، وذلك مِن قَبيلِ الجمْعِ بعْدَ التَّفريقِ، فيكونُ في الآياتِ جمْعٌ، ثمَّ تَفريقٌ، ثمَّ جمْعٌ[٢].

- والاستِفهامُ معْناهُ النَّفيُ، أي: لا تَرى لهم[٣].

- والباقيةُ: إمَّا اسمُ فاعلٍ على بابِه، والهاءُ: إمَّا للتَّأنيثِ بتأْويلِ (نفْسٍ)، أي: فما تُرى منهم نفْسٌ باقيةٌ، أو بتأْويلِ (فِرقةٍ)، أي: ما تُرى فِرقةٌ منهم باقيةٌ. ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿بَاقِيَةٍ﴾ مَصدرًا على وزْنِ فاعلةٍ، أي: فما ترَى لهم بَقاءً، أي: هَلَكوا على بَكرةِ أبيهم[٤].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لَهُم﴾ يَجوزُ أنْ تُجعَلَ لشِبْهِ المِلْكِ، أي: باقيةٍ مِن أجْلِ النَّفعِ. ويجوزُ أنْ يكونَ اللَّامُ بمعْنى (مِن)، مِثلُ قولِهم: سمِعْتُ له صُراخًا. ويجوزُ أنْ تكونَ اللَّامَ الَّتي تُنْوى في الإضافةِ إذا لم تكُنِ الإضافةُ على معْنى (مِن)، والأصلُ: فهلْ تَرى باقيَتَهم، فلمَّا قُصِدَ التَّنصيصُ على عُمومِ النَّفيِ،

---

(١) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحَوقلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤه، والفراغُ منه. يُنظر: ((تاج العروس)) (٢٧/ ٢٩٣) للزَّبيدي، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢١).

واقْتَضى ذلك جلْبَ (مِن) الزَّائدةِ؛ لَزِمَ تَنكيرُ مَدخولِ (مِن) الزَّائدةِ، فأُعطِيَ حقُّ معْنى الإضافةِ بإظهارِ اللَّامِ الَّتي الشَّأنُ أنْ تُنْوى، كما في قولِه تعالَى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ [الإسراء: ٥]؛ فإنَّ أصْلَه: عِبادَنا[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩، ١٢٠).

الآيات (٩-١٢)

﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ٩ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ١٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾: أي: مَدائِنُ قَومِ لُوطٍ؛ ائتَفَكَت بهم، أي: انقَلَبَت، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهَتِه[١].

﴿رَّابِيَةً﴾: أي: شديدةً، زائِدةً، عاليةً، وأصلُ (ربو): يدُلُّ على عُلُوٍّ[٢].

﴿طَغَا﴾: أي: كثُر، وتَجاوَزَ في الارتفاعِ والعُلوِّ، وخرَج عن الحدِّ حتَّى علا كلَّ شَيءٍ، وارتفَع فوقَه، وأصلُ الطُّغْيانِ: مُجاوَزةُ الحدِّ[٣].

﴿ٱلۡجَارِيَةِ﴾: أي: السَّفينةِ الَّتي تَجري في البَحرِ، وأصلُ (جري): يدُلُّ على انسياحِ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٣).

﴿وَتَعِيَهَآ﴾: أي: تَحفَظَها، والوعيُ: حِفظُ الحديثِ ونحوِه، وأصلُ (وعي): يدُلُّ على ضمِّ شَيءٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى عاقبةَ أقوامٍ آخَرينَ كفَروا وكذَّبوا، فيقولُ: وجاء فِرعَونُ ومَنْ قَبْلَه مِن الكُفَّارِ، وقَومُ لُوطٍ؛ أصحابُ القُرى الَّتي انقَلَبَت بهم؛ جاؤُوا جميعًا بالفَعْلةِ الخاطِئةِ مِنَ الكُفرِ والشِّركِ، والتَّكذيبِ والظُّلمِ، فعَصَوا رَسولَ رَبِّهم الَّذي أُرْسِل إليهم، فأهلَكهم اللهُ إهلاكًا عَظيمًا زائِدًا عن الحَدِّ.

ثمَّ يُشيرُ سُبحانَه إلى ما جرَى لقومِ نوحٍ عليه السَّلامُ، فيقولُ: إنَّا لَمَّا كَثُرَ الماءُ، وتَجاوَزَ حَدَّه المعروفَ؛ لإغراقِ قَومِ نُوحٍ، حمَلْنا آباءَكم في سَفينةِ نوحٍ؛ لِنَجعَلَها لكم -أيُّها المؤمِنونَ- تَذكيرًا ومَوعِظةً، وتَحفَظَها أُذنٌ مِن شأنِها أن تَحفَظَ وتَعقِلَ عن الله ما سمِعَتْ، وتَنتفِعَ به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ٩﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿قِبَلَهُۥ﴾ أي: ومَن عِندَ فِرعَونَ مِنَ الأتْباعِ مِن كُفَّارِ القِبطِ[٢].

٢- قِراءةُ: ﴿قَبْلَهُۥ﴾ أي: ومَن تَقَدَّمَه مِن الكُفَّارِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢١).

(٢) قرأ بها أبو عَمرٍو، والكِسائيُّ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٥١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٩). =

﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ٩﴾.

أي: وجاء فِرعَونُ مَلِكُ مِصرَ، ومَنْ كان قَبْلَه مِن الكُفَّارِ(١)، وقَومُ لُوطٍ؛ أصحابُ القُرى الَّتي انقَلَبَت بهم، حتَّى صار عاليها سافِلَها(٢)، كلُّ هؤلاءِ قد جاؤُوا بالفَعْلةِ الخاطِئةِ مِنَ الكُفرِ والشِّركِ، والتَّكذيبِ والظُّلمِ، وما انضَمَّ إلى ذلك مِن أنواعِ

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٥١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

(١) قيل: المرادُ: عُمومُ الكُفَّارِ الَّذين سَبَقوا فِرعَونَ، كقَومِ عادٍ وثمودَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢).

وقال ابن جُزَي: (﴿وَمَن قَبۡلَهُۥ﴾ يريدُ: مَن تقَدَّمَ قَبْلَه مِنَ الأُمَمِ الكافِرةِ، وأقرَبُهم إليه قومُ شُعَيبٍ، والظَّاهِرُ أنَّهم المرادُ؛ لأنَّ عادًا وثمودَ قد ذُكِرَا، وقومَ لُوطٍ هم المؤتَفِكاتُ، وقَومَ نُوحٍ قد أُشيرَ إليهم في قَولِه: ﴿لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥).

وقال ابن كثير: (أي: ومَن قَبْلَه مِنَ الأُمَمِ المُشبِهينَ له). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

(٢) وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ بالمؤتَفِكاتِ قَومُ لوطٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، وابن جُزَي، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢١).

ونسَبَ ابنُ الجَوزيِّ هذا القولَ للأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٦٦).

وقال الزَّجَّاج: (﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾ الَّذين ائتَفَكوا بذُنوبِهم، أي: أُهلِكوا بذُنوبِهم الَّتي أعظَمُها الإفكُ، وهو الكَذِبُ في أمرِ اللهِ، بأنَّهم كفروا وكَذَّبوا بالرُّسُلِ؛ فلذلك قيل لهم: مؤتَفِكونَ، وكذلك الَّذين ائتَفَكت بهم الأرضُ، أي: خُسِفَ بهم، إنَّما معناه: انقَلَبَت بهم كما يَقلِبُ بهم الكذَّابُ الحَقَّ إلى الباطِلِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢١٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾ وهم: المكَذِّبونَ بالرُّسُلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

الفواحِشِ والفُسوقِ؛ فأهلَكَهم اللهُ تعالى[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ۝ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ [الذاريات: ٣٨ - ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤].

﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ١٠﴾.

﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾.

أي: فخالَفَ كلٌّ مِن فِرعَونَ ومَن قَبْلَه وقَومُ لُوطٍ: رَسولَ رَبِّهم الَّذي أرسَلَه إليهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ۝ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

﴿فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً﴾.

أي: فأهلَكْنا كُلَّ أمَّةٍ مِنهم إهلاكًا شَديدًا عَظيمًا زائِدًا عن الحَدِّ؛ لزيادةِ أعمالِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥، ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

قال ابنُ جُزَي: (إنْ عاد الضَّميرُ على فِرعَونَ وقَومِه، فالرَّسولُ مُوسى عليه السَّلامُ، وإن عاد على ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ فالرَّسولُ لوطٌ عليه السَّلامُ، وإن عاد على الجَميعِ: فالرَّسولُ اسمُ جِنسٍ أو بمعنى الرِّسالةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥).

وممَّن ذهَب إلى العمومِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

في السُّوءِ والقُبْحِ[(١)].

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾.

أي: إنَّا لَمَّا كَثُرَ الماءُ وارتفَعَ حتَّى تجاوَزَ حَدَّه المعروفَ؛ لإغراقِ قَومِ نُوحٍ، حمَلْنا آباءَكم في سَفينةِ نوحٍ الجاريةِ على الماءِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٩).

قال القرطبي: (﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: عاليةً زائدةً على الأخَذَاتِ، وعلى عذابِ الأُمَمِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢).

وقال البِقاعي: (فأغرَق فِرعونَ وجُنودَه، وأغرَق كلَّ مَن كذَّب نوحًا عليه السَّلامُ، وهم كلُّ أهلِ الأرضِ غيرَ مَن ركِب معه في السَّفينةِ، وحمَل مدائنَ لُوطٍ عليه السَّلامُ بعدَ أنْ نَتَقَها مِن الأرضِ على مَتنِ الرِّيحِ بواسِطةِ مَن أمَره بذلك مِن الملائكةِ ثمَّ قلَبَها، وأتْبَعها الحِجارةَ، وخسَف بها، وغمَرَها بالماءِ المُنتِنِ الَّذي ليس في الأرضِ ما يُشبِهُه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٤٩).

وقال ابن عاشور: (﴿أَخْذَةً﴾: واحدة مِن الأخْذِ، فيُرادُ بها أخْذُ فِرعَونَ وقَومِه بالغرَقِ، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]. وإذا أُعيدَ ضميرُ الغائبِ إلى فِرعونَ ومَن قَبْلَه والمؤتَفِكاتِ كان إفرادُ الأخْذةِ كإفرادِ رسولِ ربِّهم، أي: أخَذْنا كلَّ أمَّةٍ منهم أَخْذةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٣).

قال الرازي: (سائرُ المفسِّرينَ قالوا: ﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي: تَجاوَزَ حَدَّه حتَّى علا كلَّ شَيءٍ، وارتَفَع فَوقَه). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٣).

وقال القرطبي: (مَنَّ عليهم بأنْ جعَلَهم ذُرِّيَّةَ مَن نجا مِن الغَرَقِ، بقَولِه: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي: حمَلْنا آباءَكم، وأنتم في أصلابِهم. ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي: في السُّفُنِ الجاريةِ، والمحمولُ في الجاريةِ نوحٌ وأولادُه، وكُلُّ مَن على وجهِ الأرضِ: مِن نَسلِ أولئك). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠).

﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ١٢﴾.

﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ﴾.

أي: لِنَجعَلَها لكم[1] -أيُّها المؤمِنونَ- تَذكيرًا ومَوعِظةً، فتَتَذكَّروا أنَّ اللهَ أهلَك الكافِرينَ، وأنجَى المؤمِنينَ، وتَستَدِلُّوا بذلك على كَمالِ قُدرةِ اللهِ وحِكمتِه، وقَهْرِه لأعدائِه، ورحمتِه بأوليائِه[2].

(١) قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿لِنَجۡعَلَهَا﴾ يعودُ إلى سفينةِ نوحٍ عليه السَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وهو ظاهرُ اختيارِ القرطبيِّ، واختاره أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢١).

وقيل: المرادُ: لِنَجعَلَ تلك الفَعْلةَ، وهي إنجاءُ المؤمِنينَ وإغراقُ الكافِرينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والبغوي، والزمخشري، والبيضاوي، والنَّسَفي، والخازن. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٤).

وممَّن جمَع بيْنَ القولَين: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٥١).

وقيل: المرادُ: جِنسُ السُّفُنِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥).

قال الشوكاني: (﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ﴾ أي: لِنَجعَلَ هذه الأمورَ المذكورةَ لكم، يا أمَّةَ محمَّدٍ، عِبْرةً ومَوعظةً تَستَدِلُّونَ بها على عظيمِ قُدرةِ الله، وبديعِ صُنعِه. أو لِنَجعلَ هذه الفَعلةَ الَّتي هي عبارةٌ عن إنجاءِ المؤمنينَ وإغراقِ الكافِرينَ لكم تَذكِرةً). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٦).

وقال ابنُ جزي: (الضَّميرُ للفعلةِ، وهي الحملُ في السَّفينةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٣).

كما قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ [الشعراء: ١١٩ - ١٢١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾.

أي: تَحفَظَها أُذنٌ مِن شأنِها أن تَحفَظَ وتَعقِلَ عن الله ما سمِعَتْ، وتَنتفِعَ به، ولا تُضَيِّعَه بتَرْكِ العملِ به[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ المقصودُ مِن قَصَصِ هذه الأُمَمِ، وذِكرِ ما حَلَّ بهم مِنَ العَذابِ: زَجرُ هذه الأُمَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٦)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٦).

قال ابن جُزَي: (الضَّميرُ [أي: في ﴿وَتَعِيَهَآ﴾] يعودُ على ما عاد عليه ضميرُ ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥).

وقال ابنُ عطيَّة: (قَولُه تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ عبارةٌ عن الرَّجُلِ الفَهِمِ المنوَّرِ القَلبِ، الَّذي يَسمَعُ القَولَ فيَتلَقَّاه بفَهمٍ وتدَبُّرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٨).

وقال البيضاوي: (﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ مِن شأْنِها أن تحفَظَ ما يجبُ حِفظُه؛ بتذكُّرِه، وإشاعتِه، والتَّفكُّرِ فيه، والعمَلِ بمُوجَبِه). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠).

عن الاقتِداءِ بهم في مَعصيةِ الرَّسولِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ فيه تذكيرٌ بنِعمةِ اللهِ على البَشَرِ؛ إذ أبقَى نَوعَهم بالإنجاءِ مِن الطُّوفانِ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، أي: ليَعقِلَها أولو الألبابِ، ويَعرِفوا المقصودَ منها، ووَجْهَ الآيةِ بها، وهذا بخِلافِ أهلِ الإعراضِ والغَفلةِ، وأهلِ البَلادةِ وعَدَمِ الفِطنةِ؛ فإنَّهم ليس لهم انتِفاعٌ بآياتِ اللهِ؛ لعَدَمِ وَعْيِهم عن اللهِ، وفِكْرِهم بآياتِ اللهِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

جعَل الله سبحانَه مصالحَ العبادِ في معاشِهم ومعادِهم، والثوابَ والعقابَ، والحدودَ والكفَّاراتِ، والأوامرَ والنواهيَ، والحلَّ والحرمةَ؛ كلَّ ذلك مرتبطًا بالأسبابِ، قائمًا بها، بل العبدُ نفسُه وصفاتُه وأفعالُه سببٌ لما يصدُرُ عنه، بل الموجوداتُ كلُّها أسبابٌ ومُسبَّباتٌ، والشَّرعُ كلُّه أسبابٌ ومُسبَّباتٌ، والمقاديرُ أسبابٌ ومُسبَّباتٌ، والقدرُ جارٍ عليها، متصرِّفٌ فيها، فالأسبابُ محلُّ الشرعِ والقدَرِ، والقرآنُ مملوءٌ مِن إثباتِ الأسبابِ، كقولِه تعالى: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾، وقولِه: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وقولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، وقولِه: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، وقولِه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۞ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠]، إلى غيرِ ذلك وهذا أكثرُ مِن أنْ يُستوعَبُ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤]، وقد جُمِعَ في الذِّكرِ هنا عدَّةُ أُمَمٍ تقدَّمَت قبْلَ بَعثةِ مُوسى عليه السَّلامُ إجمالًا وتَصريحًا، وخُصَّ منهم بالتَّصريحِ قومُ فِرعونَ والمؤتفكاتُ؛ لأنَّهم مِن أشهَرِ الأُمَمِ ذِكرًا عندَ أهلِ الكتابِ المختلِطينَ بالعرَبِ والنَّازِلينَ بجِوارِهم، فمِنَ العرَبِ مَن يَبلُغُه بعضُ الخبَرِ عن قِصَّتِهم[(٢)].

- وفي عطْفِ هؤلاء على ثَمودَ وعادٍ في سِياقِ ذِكرِ التَّكذيبِ بالقارعةِ إيماءٌ إلى أنَّهم تَشابَهوا في التَّكذيبِ بالقارعةِ، كما تَشابَهوا في المجيءِ بالخاطئةِ، وعِصيانِ رُسلِ ربِّهم، فحَصَل في الكلامِ احتِباكٌ[(٣)].

- والمرادُ بفِرعونَ: فِرعونُ الَّذي أُرسِلَ إليه مُوسى عليه السَّلامُ، وإنَّما

---

(١) ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).

قال ابنُ القيِّمِ: (وقد جاء التعليلُ في الكتابِ العزيزِ بالباءِ تارةً، وباللامِ تارةً، وبـ «أنْ» تارةً، وبمجموعِهما تارةً، وبـ «كي» تارةً، ومِن أجلِ تارةً، وترتيبِ الجزاءِ على الشَّرطِ تارةً، وبالفاءِ المؤذنةِ بالسَّببيةِ تارةً، وترتيبِ الحكمِ على الوصفِ المقتضِي له تارةً، وبـ «لمَّا» تارةً، وبـ «أنَّ» المشددةِ تارةً، وبـ «لعلَّ» تارةً، وبالمفعولِ له تارةً). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٥١).

وذكَر مِن أمثلةِ الفاءِ المؤذنةِ بالسببيةِ قولَه تعالى: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نَظائرُ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

أُسنِدَ الخِطْءُ إليه؛ لأنَّ مُوسى أُرسِلَ إليه ليُطلِقَ بني إسرائيلَ مِن العُبوديَّةِ؛ قال تعالَى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧]، فهو المؤاخَذُ بهذا العِصيانِ، وتَبِعَه القِبطُ امتِثالًا لأمْرِه، وكذَّبوا مُوسى، وأعْرَضوا عن دَعوتِه[١].

- قولُه: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتَ﴾ قُرى لوطٍ الثَّلاثُ، وأُرِيدَ بالمؤتَفِكاتِ سُكَّانُها، وهم قومُ لُوطٍ، وخُصُّوا بالذِّكرِ؛ لشُهرةِ جَريمتِهم، ولِكَونِهم كانوا مَشهورينَ عندَ العرَبِ؛ إذ كانت قُراهم في طَريقِهم إلى الشَّامِ؛ قال تعالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ [الفرقان: ٤٠]. ووُصِفتْ قُرى قَومِ لوطٍ بالمؤتَفِكاتِ، جمعُ مؤتَفِكةٍ، اسمُ فاعِلٍ: ائْتَفَك، مُطاوِعُ أفَكَه، إذا قَلَبَه، فهي المُنقَلِباتُ، أي: قلَبَها قالِبٌ، أي: خُسِف بها؛ قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾[٢] [هود: ٨٢].

- والخاطئةُ: إمَّا مَصدرٌ بوزْنِ (فاعِلةٍ)، وهاؤُه هاءُ المرَّةِ الواحدةِ، فلمَّا استُعمِلَ مَصدرًا قُطِعَ النَّظَرُ عن المرَّةِ، فهو مَصدرُ (خَطِئَ)، إذا أذْنَبَ، والذَّنْبُ: الخِطْءُ. وإمَّا اسمُ فاعِلٍ (خَطِئَ)، وتأنيثُه بتأويلِ الفِعلةِ ذاتِ الخِطْءِ، فهاؤُه هاءُ تأْنيثٍ. والتَّعريفُ فيه تَعريفُ الجِنسِ على كِلا الوجهَينِ، فالمعْنى: جاء كلٌّ منهم بالذَّنْبِ المستحِقِّ للعِقابِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ تَفريعٌ على ذنْبِهم المعبَّرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢١).

عنه بالخاطئةِ تَفريعَ بَيانٍ على المبيَّنِ[١].

- يَجوزُ أنْ يَرجِعَ ضَميرُ (عَصَوا) إلى ﴿فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾. و﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ هو الرَّسولُ المرسَلُ إلى كلِّ قومٍ مِن هؤلاء؛ فإفرادُ ﴿رَسُولَ﴾ مُرادٌ به التَّوزيعُ على الجماعاتِ، أي: رسول اللهِ لكلِّ جماعةٍ منهم، والقرينةُ ظاهرةٌ، وهو أجْمَلُ نظْمًا مِن أنْ يُقالَ: (فعَصَوا رُسلَ ربِّهم)؛ لِما في إفرادِ رسولٍ مِن التَّفنُّنِ في صِيَغِ الكَلِمِ مِن جمْعٍ وإفرادٍ تَفاديًا مِن تَتابُعِ ثلاثةِ جُموعٍ؛ لأنَّ صِيغَ الجمْعِ لا تَخلو مِن ثِقَلٍ؛ لِقلَّةِ استعمالِها، وعكْسُه قولُه في سُورةِ (الفرقانِ) [الآية: ٣٧]: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾، وإنَّما كذَّبوا رسولًا واحدًا، وقولُه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وما بعْدَه في سُورةِ (الشُّعراءِ) [الآية: ١٠٥].

ويجوزُ أنْ يَرجِعَ ضَميرُ (عَصَوْا) إلى فرعونَ باعتبارِه رأسَ قومِه، فالضَّميرُ عائِدٌ إليه وإلى قَوْمِه، وعلى هذا الاعتبارِ في مَحَلِّ ضَميرِ (عَصَوْا) يكونُ المرادُ بـ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ مُوسى عليه السَّلامُ، وتَعريفُه بالإضافةِ لِما في لَفظِ المضافِ إليه مِن الإشارةِ إلى تَخطئتِهم في عِبادةِ فِرعونَ، وجَعْلِهم إيَّاهُ إلهًا لهم[٢].

- والرَّابيةُ: اسمُ فاعلٍ مِن رَبَا يَرْبو؛ إذا زاد، وعُبِّرَ بها عن الشِّدَّةِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ لَمَّا شَمِلَ قولُه تعالَى: ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ [الحاقة: ٩] قومَ نوحٍ عليه السَّلامُ -وهم أوَّلُ الأُمَمِ كذَّبوا الرُّسلَ-، حسَّن اقتِضابَ التَّذكيرِ بأخْذِهم؛ لِما فيه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٢١، ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٢).

إدماجِ امتِنانٍ على جَميعِ النَّاسِ الَّذين تَناسَلوا مِن الفئةِ الَّذين نَجَّاهم اللهُ مِن الغَرَقِ؛ لِيُتَخلَّصَ مِن كَونِه عِظةً وعِبرةً إلى التَّذكيرِ بأنَّه نِعمةٌ، وهذا مِن قَبيلِ الإدماجِ[(١)]، وقد بُنِيَ على شُهرةِ مُهْلَكِ قومِ نوحٍ اعتِبارُه كالمذكورِ في الكلامِ، فجُعِل شَرْطًا لـ﴿لَمَّا﴾ في قولِه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، أي: في ذلك الوقتِ المعروفِ بطُغيانِ الطُّوفانِ[(٢)].

- وطُغيانُ الماءِ مُعبَّرٌ به عن شِدَّتِه الخارقةِ للعادةِ، تَشبيهًا لها بطُغيانِ الطَّاغي على النَّاسِ تَشبيهَ تَقريبٍ؛ فإنَّ الطُّوفانَ أقوى شِدَّةً مِن طُغيانِ الطَّاغي[(٣)].

- قولُه: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، أي: حمَلْنا آباءَكُم في السَّفينةِ الجاريةِ؛ لأنَّهم إذا كانوا مِن نَسْلِ المحمولينَ النَّاجينَ، كان حمْلُ آبائِهم مِنَّةً عليهم، وكأنَّهم هم المحمولونَ؛ لأنَّ نَجاتَهم سَببُ وِلادتِهم[(٤)].

- والمرادُ بحمْلِهم فيها رفعُهم فوقَ الماءِ إلى انقضاءِ أيَّامِ الطُّوفانِ، لا مُجرَّدُ رَفْعِهم إلى السَّفينةِ، كما يُعرِبُ عنهُ كلمةُ (في)؛ فإنَّها ليستْ بصِلةٍ للحمْلِ، بلْ مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ هو حالٌ مِن مَفعولِه، أي: رفَعْناكُم فوقَ الماءِ،

---

(١) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المَسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمَعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠).

وحفِظْناكُم حالَ كونِكُم في السَّفينةِ الجاريةِ بأمْرِنَا وحِفْظِنا[١].

- والجاريةُ: صِفةٌ لمَحذوفٍ، وهو السَّفينةُ[٢].

- قولُه: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ فيه ذِكْرُ إحْدى الحِكَمِ والعِلَلِ لهذا الحمْلِ، وهي حِكمةُ تَذكيرِ البشَرِ به على تَعاقُبِ الأعصارِ؛ لِيَكونَ لهم باعثًا على الشُّكرِ، وعِظةً لهم مِن أسواءِ الكُفْرِ، ولِيُخبرَ بها مَن عَلِمَها قَومًا لم يَعلَموها، فتَعِيَها أسماعُهم[٣].

- قولُه: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ هذا تَعريضٌ بالمشركين؛ إذ لم يتَّعِظوا بخبَرِ الطُّوفانِ والسَّفينةِ الَّتي نَجَا بها المؤمنونَ، فتَلقَّوه كما يَتلقَّون القصصَ الفُكاهيَّةَ[٤].

- وقيل: ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ على التَّوحيدِ والتَّنكيرِ؛ للإيذانِ بأنَّ الوُعاةَ فيهم قِلَّةٌ، ولتَوبيخِ النَّاسِ بقِلَّةِ مَن يَعِي منهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣).

الآيات (١٢ - ١٨)

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرنِ الَّذي يَنفُخُ فيه إسرافيلُ[١].

﴿فَدُكَّتَا﴾: أي: فُتِّتَتَا وكُسِرَتا، وأصلُ (دكك): يدُلُّ على تَطامُنٍ وانسِطاحٍ[٢].

﴿وَاهِيَةٞ﴾: أي: ضعيفةٌ، يُقالُ: وهَى البِناءُ يَهِي وَهْيًا فهو واهٍ: إذا ضَعُف جدًّا. ويُقالُ: كلامٌ واهٍ، أي: ضعيفٌ. أو المعنى: مُنشَقَّةٌ مُتصَدِّعةٌ، يُقال: وهَى الشَّيءُ: إذا انخرَق، والوَهْيُ: شقٌّ في الأديمِ والثَّوبِ ونحوِهما. أو المعنى: مُسترخيةٌ ساقطةُ القوَّةِ، وكلُّ شيءٍ استرخى رِباطُه فقد وَهِيَ[٣].

﴿أَرۡجَآئِهَا﴾: أي جوانبِها ونواحيها، وأصلُ (رجو) هنا: يدُلُّ على ناحيةِ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ٢٠٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧، ٨٨٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مفصِّلًا أهوالَ يومِ القيامةِ: فإذا نَفَخ المَلَكُ يومَ القيامةِ في القَرْنِ الموَكَّلِ به نفخةً واحدةً، ورُفِعَت الأرضُ والجِبالُ وأُزيلَتا مِن أماكنِهما، فدُقَّتا دَقَّةً واحِدةً؛ فيَومَئذٍ تَقَعُ السَّاعةُ، وتتصَدَّعُ السَّماءُ وتَنشَقُّ، فتكونُ يومَ القيامةِ ضَعيفةً لا قُوَّةَ لها، مُتشَقِّقةً، لا تتماسَكُ، والملائِكةُ على أطرافِ السَّماءِ وحافَاتِها، ويَحمِلُ عَرْشَ رَبِّك فَوقَ رُؤوسِهم يومَئذٍ ثمانيةٌ مِنَ الملائِكةِ! يَومَئذٍ تُعرَضُونَ -أيُّها النَّاسُ- على اللهِ تعالى؛ لِمُحاسَبتِكم، ولا يَخفى عليه سُبحانَه أيُّ شَيءٍ مِن أُمورِكم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تَعالى ما فَعَله بالمكذِّبين لرُسلِه، وكيف جازاهُم، وعجَّلَ لهم العُقوبةَ في الدُّنيا، وأنَّ اللهَ نجَّى الرُّسلَ وأتْباعَهم؛ كان هذا مُقدِّمةً لِذِكرِ الجزاءِ الأُخرويِّ، وتَوفيةِ الأعمالِ كاملةً يومَ القيامةِ، فذكَرَ أمْرَ الآخرةِ وما يَعرِضُ فيها لأهلِ السَّعادةِ وأهلِ الشَّقاوةِ، وبدَأَ بالأمورِ الهائلةِ الَّتي تَقَعُ أمامَ القيامةِ، وأوَّلُ ذلك: أنَّه يَنفُخُ إسرافيلُ في الصُّورِ[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تَعالى لَمَّا حكَى هذه القَصصَ السَّابقةَ، ونبَّهَ بها على ثُبوتِ القُدرةِ والحِكمةِ له سُبحانَه؛ فحينَئذٍ ثَبَت بثُبوتِ القُدرةِ إمكانُ القيامةِ، وثَبَت بثُبوتِ الحِكمةِ إمكانُ وُقوعِ القيامةِ. ولَمَّا ثَبَت ذلك؛ شَرَع سُبحانَه في تَفاصيلِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

أحوالِ القيامةِ، فذَكَر أوَّلًا مُقدِّماتِها[١].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣﴾.

أي: فإذا نَفَخ المَلَكُ في القَرنِ الموَكَّلِ به، نفخةً واحدةً لا يُحتاجُ لحُصولِ المُرادِ منها إلى تَكَرُّرِها؛ فأمْرُ الله لا يُخالَفُ ولا يُمانَعُ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٥).

قيل: المرادُ: النَّفخةُ الأولى. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرازي، والبيضاوي، والخازن، وابن جُزَي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣).

قال الرَّسْعَني: (قال عَطاءٌ: هي النَّفخةُ الأولى؛ لأنَّ عندَها خرابُ هذا العالَمِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥٦).

وقال القرطبي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: هي النَّفخةُ الأولى لقيامِ السَّاعةِ، فلم يَبْقَ أحدٌ إلَّا مات). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٤).

ممَّن نص على أنَّها نفخةُ الفزَعِ: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان، والكوراني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٧)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٢١).

قال أبو حيَّان: (هذه النَّفخةُ نفخةُ الفزَعِ. قال ابنُ عبَّاسٍ: وهي النَّفخةُ الأولى الَّتي يَحصُلُ عنها خرابُ العالَمِ، ويؤيِّدُ ذلك قولُه: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٧).

وقال ابن عطيَّة: (والنَّفخةُ المُشارُ إليها في هذه الآيةِ: نفخةُ القيامةِ الَّتي للفزَعِ، ومعها يكونُ الصَّعقُ، ثمَّ نفخةُ البعثِ، وقيل: هي نفَخاتٌ ثلاثةٌ: نفخةُ الفزَعِ، ونفخةُ الصَّعقِ، ثمَّ نفخةُ البعثِ، والإشارةُ بآياتنا هذه إلى نفخةِ الفزَعِ؛ لأنَّ حمْلَ الجبالِ هو بَعْدَها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٨).

=

عن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قَرنٌ يُنفَخُ فيه))(١).

= وقال النَّسَفي: (هي النَّفخةُ الأولى، ويموتُ عندَها النَّاسُ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٠). ويُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٥٧٩).

وقيل: هي النَّفْخةُ الآخِرةُ نفخةُ البعثِ والنُّشورِ والقيامِ لرَبِّ العالَمينَ؛ للفصلِ بيْن الخلائقِ. وممَّن ذهب إلى هذا في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنِين، والطُّوفي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٢٨)، ((الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية)) للطوفي (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

قال أبو حيَّان: (وعلى هذا لا يكونُ الدَّكُّ بعدَ النَّفخِ، والواوُ لا ترتِّبُ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٧).

لكنْ قال الألوسي بعدَ أنْ ذكَر أنَّ القولَ الأوَّلَ هو المناسِبُ لمَا بَعْدُ: (وإن كانت الواوُ لا تدُلُّ على التَّرتيبِ، لكنْ مُخالَفةُ الظَّاهرِ مِن غيرِ داعٍ ممَّا لا حاجةَ إليه). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٩).

وقال الطوفي: (هذه نفخةُ البعثِ في وقتِها الخاصِّ، بدليلِ تنزيلِ الملائكةِ، وظُهورِ عرشِ الرَّحمنِ جلَّ جلالُه). ((الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية)) (ص: ٦٥٤).

وقال الرَّسْعَني: (قال ابنُ السَّائبِ ومقاتلٌ: هي النَّفخةُ الثَّانيةُ؛ لقولِه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ [الحاقة: ١٨] عَقِيبَ ذِكرِ النَّفخةِ.

ويُجابُ عن هذا بأن يقالَ: المرادُ بقولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الحينُ الواسعُ الَّذي يقعُ فيه [النَّفختانِ] والنُّشورُ والحسابُ، كما تقولُ: رأيتُه في عامِ كذا، أو في يومِ كذا، وإنَّما كانت رؤيتُك إيَّاه في جزءٍ منه). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥٦). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٢).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٥).

وقد اختلَف العلماءُ في عددِ النَّفخِ في الصُّورِ. يُنظر ما تقدَّم في هذا التَّفسيرِ: (٢٢/ ٣٨٠).

(١) أخرجه أبو داودَ (٤٧٤٢)، وأحمدُ (٦٥٠٧) باختلافٍ يسيرٍ، والترمذيُّ (٢٤٣٠)، والنسائيُّ (١١٤٥٦) واللَّفظُ لهما.

حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٥٠)، وذكر ثبوتَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٥/ ٣٠٨)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٣٠).

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كيف أنعَمُ وقد التَقَم صاحِبُ القَرنِ القَرْنَ، وحنَى جَبهتَه، وأصغى سَمْعَه، ينتَظِرُ أن يُؤمَرَ أن يَنفُخَ، فيَنفُخُ. قال المسلِمونَ: فكيف نقولُ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: قولوا: حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، توكَّلْنا على اللهِ رَبِّنا))(١).

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾.

أي: وإذا رُفِعَت الأرضُ والجِبالُ وأُزيلَتا مِن أماكنِهما، فدُقَّتا دَقَّةً واحِدةً شَديدةً حتَّى تفتَّتتا وكُسِرتا(٢).

كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١].

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٢٤٣) واللَّفظُ له، وأحمدُ (١١٠٣٩).

حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٥).

قال أبو حيَّان: (المرادُ جملةُ الأرضِ وجُملةُ الجِبالِ، أي: ضُرِبَ بَعضُها ببعضٍ حتَّى تفتَّتَت). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٨).

وقال البِقاعي: (﴿فَدُكَّتَا﴾ أي: مُسِحَت الجُمْلَتانِ؛ الأرضُ وأوتادُها، وبُسِطَتا ودُقَّ بَعضُها ببعضٍ ﴿دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: فصارَتا كَثيبًا مَهيلًا، وسُوِّيَتا بأيسَرِ أمرٍ، فلم يُمَيَّزْ شَيءٌ منهما مِن الآخَرِ، بل صارَا في غايةِ الاستواءِ، مِن قولِهم: ناقةٌ دكَّاءُ، أي: لا سَنامَ لها، وأرضٌ دكَّاءُ، أي: مُتَّسِعةٌ مُستويةٌ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٥٣).

قال السمعاني: (﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: زُلْزِلَتا زَلْزَلةً واحدةً. وَيُقَال: فُتَّتَا فتةً واحدةً. وقيل: ضُرِب أحَدُهما بالآخَرِ فانهَدَمَتا وهلَكَتا). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٧).

وقال ابنُ كثير بِناءً على تفسيرِه للنَّفخةِ بأنَّها نفخةُ البعثِ والنُّشورِ: (﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: فمُدَّتْ مَدَّ الأديمِ العُكاظي [نسبة الى عُكاظ]، وتَبَدَّلت الأرضُ غيرَ الأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١١).

وقيل: بُسِطَتا بسطةً واحدةً، فصارَتا أرضًا لا تَرى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا، مِن قولِك: اندَكَّ السَّنامُ، إذا انفَرَش. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١).

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾.

أي: فيومَ يُنفَخُ في الصُّورِ، وتُدَكُّ الأرضُ والجِبالُ، تَقَعُ السَّاعةُ، وتقومُ القيامةُ حينَئذٍ[(١)].

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى تأثيرَ النَّفخةِ في العالَمِ السُّفليِّ؛ ذكَر العلويَّ، فقال[(٢)]:

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

أي: وتتصَدَّعُ السَّماءُ وتَنشَقُّ، فتكونُ يومَ القيامةِ مُتشَقِّقةً ضَعيفةً خَفيفةً لا تتماسَكُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

ممَّن اختار أنَّ ﴿وَاهِيَةٌ﴾ أي: ضعيفةٌ: الزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والسمعاني، والبغوي، والرَّسْعَني، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾.

﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا﴾.

أي: ويكونُ الملائِكةُ على أطرافِ السَّماءِ وحافَاتِها حينَ تَنشَقُّ، خاضِعينَ للهِ، مُستَكينينَ لعَظَمتِه(١).

= الرسعني)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٤).

ممَّن اختار أنَّ ﴿وَاهِيَةٌ﴾ أي: مُتشَقِّقةٌ مُتصَدِّعةٌ: الفرَّاءُ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٧٣).

وقال السمرقندي: (ضعيفةٌ مُنشَقَّةٌ متمَزِّقةٌ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٠).

وقال ابن عبَّاس: متمزِّقةٌ ضعيفةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٥).

وقيل: المعنى: ضعيفةٌ، ساقطةُ القوَّةِ، مسترخيةٌ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرازي، والبيضاوي، والنَّسَفي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٧).

وقال البِقاعي: (﴿وَاهِيَةٌ﴾ أي: ضعيفةٌ مُتساقِطةٌ، خفيفةٌ لا تَتماسَكُ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٧).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا﴾ معنى الأرجاءِ في اللُّغةِ: النَّواحي... والمفسِّرون يَقولون: على حَافَاتِها وأطرافِها ونَواحيها وأقطارِها. كلُّ هذا مِن ألفاظِهم). ((البسيط)) (٢٢/ ١٥٦).

وقال ابن عطية: (قال جمهورُ المفسِّرينَ: الضَّميرُ في ﴿أَرۡجَآئِهَا﴾ عائدٌ على السَّماءِ، أي: الملائكةُ على نَواحيها وما لم يَهِ منها ... وقال الضَّحَّاكُ أيضًا وابنُ جُبَيرٍ: الضَّميرُ في ﴿أَرۡجَآئِهَا﴾ عائدٌ على الأرضِ وإن كان لم يتقدَّمْ لها ذِكرٌ قريبٌ؛ لأنَّ القصَّةَ واللَّفظَ يَقتضي إفهامَ ذلك). =

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢].

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾.

أي: ويَحمِلُ عَرْشَ رَبِّك فَوقَ رُؤوسِهم يومَ القيامةِ ثمانيةٌ مِنَ الملائِكةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [غافر: ٧].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُذِنَ لي أن أُحدِّثَ عن ملَكٍ مِن ملائكةِ اللهِ مِن حَمَلةِ العَرشِ، إنَّ ما بيْنَ شَحْمةِ أُذُنِه إلى عاتِقِه مَسيرةَ سبعِمِئةِ عامٍ!))[(٢)].

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

أي: يَومَ القيامةِ الَّذي تقَعُ فيه جميعُ تلك الأمورِ تُعرَضُونَ -أيُّها النَّاسُ- على

= ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٩).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ بالثَّمانيةِ الَّذين يحمِلونَ العَرشَ: ثمانيةٌ مِن الملائِكةِ؛ فقيل: ثمانيةُ شُخوصٍ. وقيل: ثمانيةُ صُفوفٍ... وهذا مِن أحوالِ الغَيبِ الَّتي لا يتعَلَّقُ الغَرَضُ بتَفصيلِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٧).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٤٧٢٧) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ في ((المعجم الأوسط)) (٤٤٢١) بلفظ: ((سبعين))، والبيهقيُّ في ((الأسماء والصفات)) (٨٤٦).

صحَّح إسنادَه الذَّهبيُّ في ((العلو)) (ص: ٩٧)، وجوَّد إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٨/ ٢٣٩)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٣٣): (إسنادُه على شرطِ الصَّحيحِ)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٧٢٧).

اللهِ تعالى؛ لِمُحاسَبتِكم دونَ أن يَخفى عليه أيُّ شَيءٍ مِنكم[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۞ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ٤٧، ٤٨].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۞ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ سؤالٌ: أنَّه ليس في القرآنِ لفظةٌ زائدةٌ لا تُفيدُ معنًى، ولا كلمةٌ قد فُهِمَ معناها ممَّا قَبْلَها فأُعِيدتْ لا لمعنًى، أو لمجرَّدِ التَّأكيدِ المَحْضِ دونَ فائدةٍ جديدةٍ! فما وجْهُ ذِكْرِ النَّفخةِ الواحدةِ والدَّكَّةِ الواحدةِ؟

الجوابُ: أنَّ ذلك ليس على وجهِ التَّأكيدِ المُجَرَّدِ، بلِ المرادُ: التَّقييدُ بالمَرَّةِ الواحدةِ، ولَمَّا كانتِ النَّفخةُ قد يُرادُ بها الواحدةُ مِن الجنسِ، وقد يُرادُ بها مُطْلَقَة -كما في البقلةِ، وحَبَّةِ الحِنطةِ، واللَّعْنةِ، والهِمَّةِ، ونحوِها- وكان المرادُ التَّقييدَ بالمَرَّةِ الواحدةِ مِن هذا الجنسِ؛ أتَى بالواحدةِ لِيَدُلَّ على هذا المعنى، أي: أنَّ النَّفخَ لم يكنْ نفختَينِ، ولم يَكُ دَكُّ الأرضِ والجبالِ بعْدَ حمْلِهما دكَّتَينِ، بل واحِدةً فقط؛ فِعْلَ المُقْتَدِرِ على الشَّيءِ المتمكِّنِ منه، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٩] أي: لم يُتابِعْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).
قال السعدي: (﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ على الله ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ لا مِن أجسامِكم وأجسادِكم، ولا مِن أعمالِكم وصِفاتِكم؛ فإنَّ اللهَ تعالى عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ، ويَحشُرُ العِبادَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا، في أرضٍ مستويةٍ، يُسْمِعُهم الدَّاعي، ويَنْفُذُهم البصرُ، فحينَئذٍ يُجازيهم بما عَمِلوا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

عليهمُ الصَّيحةَ، بل أهلكَهم مِن صَيحةٍ واحِدةٍ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا﴾ فيه سُؤالٌ: الملائِكةُ يموتونَ في الصَّعقةِ الأُولى؛ لقَولِه تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: ٦٨] -وذلك على القول بأنَّ المرادَ بالنَّفخةِ: الأولى-، فكيف يُقالُ: إنَّهم يَقِفونَ على أرجاءِ السَّماءِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّهم يَقِفونَ لحظةً على أرجاءِ السَّماءِ، ثمَّ يموتونَ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ الَّذين استثناهم اللهُ في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[٢] [الزمر: ٦٨].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ رَدٌّ على مَن يَزْعُمُ -مِن المعتزلةِ- أنَّ العَرشَ مُلْكُه، فكيف يكونُ مُلْكُه محمولًا؟! أَمْ كيف يكونُ الملائكةُ خارجينَ مِن المُلْكِ؟! فقد بان بغيرِ إشكالٍ أنَّه السَّريرُ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾

- هو شُروعٌ في بَيانِ نفْسِ الحاقَّةِ، وكَيفيَّةِ وُقوعِها، إثرَ بَيانِ عِظَمِ شأْنِها بإهلاكِ مُكذِّبيها[٤].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٣).
ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ٥٨، ٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٥).
(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩٤).

- والفاءُ في ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لتَفريعِ ما بعْدَها على التَّهويلِ الَّذي صُدِّرت به السُّورةُ مِن قولِه: ﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١- ٣]، فعُلِمَ أنَّه تَهويلٌ لأمْرِ العذابِ الَّذي هُدِّد به المشركون مِن أمثالِ ما نال أمْثالَهم في الدُّنيا ومِن عَذابِ الآخرةِ الَّذي يَنتظِرُهم، فلمَّا أتمَّ تَهديدَهم بعَذابِ الدُّنيا؛ فرَّعَ عليه إنْذارَهم بعَذابِ الآخرةِ الَّذي يحُلُّ عندَ القارعةِ الَّتي كذَّبوا بها كما كذَّبت بها ثَمودُ وعادٌ، فحَصَل مِن هذا بَيانٌ للقارعةِ بأنَّها ساعةُ البعثِ، وهي الواقعةُ[(١)]. وهذا على القولِ بأنَّ المرادَ بالنَّفخةِ نفخةُ البعثِ والنُّشورِ.

- وإنَّما حسُنَ إسنادُ الفِعلِ ﴿نُفِخَ﴾ إلى المصدرِ ﴿نَفْخَةٌ﴾؛ لتَقيُّدِه بالوحدةِ والمرَّةِ لا نفخًا مجرَّدًا مبهَمًا، وحسُنَ تَذكيرُه؛ للفصْلِ؛ ولأنَّ تأنيثَ النَّفخِ غيرُ حقيقيٍّ[(٢)].

- قولُه: ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ وصْفُ النَّفخةِ بواحدةٍ تأكيدٌ لإفادةِ الوَحدةِ مِن صِيغةِ الفَعلةِ؛ تَنْصيصًا على الوَحدةِ المفادةِ مِن التَّاءِ، والتَّنصيصُ على هذا للتَّنبيهِ على التَّعجيبِ مِن تأثُّرِ جَميعِ الأجسادِ البشريَّةِ بنَفخةٍ واحدةٍ دَونَ تَكريرٍ؛ تَعجيبًا من عَظيمِ قُدرةِ الله ونُفوذِ أمْرِه؛ لأنَّ سِياقَ الكلامِ مِن مَبدأِ السُّورةِ تَهويلُ يَومِ القيامةِ، فتَعدادُ أهوالِه مَقصودٌ، ومِن أجْلِ القصدِ إليه هنا لم يُذكَرْ وصْفُ واحدٍ في قولِه تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ في سُورةِ (الرُّوم) [الآية: ٢٥]، فحصَلَ مِن ذِكرِ ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ تأْكيدُ معْنى النَّفخِ، وتأْكيدُ معْنى الوَحدةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير الخلوتي)) (١٠/ ١٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٠).

فليس المرادُ بوَصْفِها بواحدةٍ أنَّها غيرُ مُتْبَعةٍ بثانيةٍ؛ فقد جاء في آياتٍ أُخرى أنَّهما نَفختانِ، بل المرادُ أنَّها غيرُ مُحتاجٍ حُصولُ المرادِ منها إلى تَكرُّرِها؛ كِنايةً عن سُرعةِ وُقوعِ الواقعةِ، أي: يومِ الواقعةِ. وأمَّا ذِكرُ كَلمةِ ﴿نَفۡخَةٞ﴾ فلِيَتأتَّى إجراءُ وصْفِ الوَحدةِ عليها، فذِكرُ ﴿نَفۡخَةٞ﴾ تَبَعٌ غيرُ مَسوقٍ له الكلامُ، فتَكونُ هذه النَّفخةُ هي الأُولى -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهي المؤْذِنةُ بانقراضِ الدُّنيا، ثمَّ تقَعُ النَّفخةُ الثَّانيةُ الَّتي تكونُ عندَ بَعثِ الأمواتِ[١].

- وقد أكَّد النَّفخةَ بأنَّها ﴿وَٰحِدَةٞ﴾؛ لأنَّ أمرَ الله لا يُخالَفُ ولا يُمانَعُ، ولا يحتاجُ إلى تَكرارٍ وتأكيدٍ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾

- بُنِيَت أفعالُ ﴿نُفِخَ﴾، ﴿وَحُمِلَتِ﴾، و﴿فَدُكَّتَا﴾ للمجهولِ؛ لأنَّ الغرَضَ مُتعلِّقٌ ببَيانِ المفعولِ لا الفاعلِ، أو للعِلمِ بالفاعلِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾

- قولُه: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ تأْكيدٌ لمعْنى ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ...﴾ إلخ؛ لأنَّ تَنوينَ (يومَئذٍ) عِوَضٌ عن جُملةٍ تدُلُّ عليها جُملةُ ﴿نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ إلى قولِه: ﴿دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، أي: فيومَ إذ نُفِخَ في الصُّورِ... إلى آخِرِه، وَقَعَت الواقعةُ، وهو تأْكيدٌ لَفظيٌّ بمُرادِفِ المؤكَّدِ؛ فإنَّ المُرادَ بـ (يوم) مِن قولِه: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ مُطلَقُ الزَّمانِ، كما هو الغالبُ في وُقوعِه مُضافًا إلى (إذا)[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩٥، ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٦).

- قولُه: ﴿وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾، أي: تَحقَّقَ ما كان مُتوقَّعًا وُقوعُه؛ لأنَّهم كانوا يُتوعَّدون بواقعةٍ عَظيمةٍ، فيومَئذٍ يَتحقَّقُ ما كانوا يُتوعَّدون به، فعُبِّرَ عنه بفِعلِ المُضيِّ؛ تَنبيهًا على تَحقيقِ حُصولِه، والمعْنى: فحينَئذٍ تقَعُ الواقعةُ[1].

- والواقعةُ: مُرادِفةٌ للحاقَّةِ والقارعةِ، فذِكرُها إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزِيادةِ التَّهويلِ، وإفادةِ ما تَحْتوي عليه مِن الأحوالِ الَّتي تُنبِئُ عنها مَواردُ اشتِقاقِ أوصافِ الحاقَّةِ والقارعةِ والواقعةِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مَعطوفًا على جُملةِ ﴿نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، فيكونَ مُلحَقًا بشرْطِ (إذا)، وتأْخيرُ عطْفِه مِن أجْلِ ما اتَّصَلَ بهذا الانشقاقِ مِن وصْفِ الملائكةِ المحيطينَ بها، ومِن ذِكرِ العرشِ الَّذي يُحيطُ بالسَّمواتِ، وذِكرِ حَمَلتِه[3].

- وتَقييدُ الوَهْيِ بـ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ يُفيدُ أنَّ الوَهْيَ طرَأَ عليها بعْدَ أنْ كانتْ صُلْبةً بتَماسُكِ أجْزائِها، أي: فهي يومَئذٍ مَطروقةٌ مَسلوكةٌ[4].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ المَلَكُ: أصْلُه الواحدُ مِن الملائكةِ، وتَعريفُه هنا تَعريفُ الجِنسِ، وهو في معْنى الجمْعِ، أي: جِنسُ المَلَكِ، أي: جَماعةٌ مِن الملائكةِ، أو جميعُ الملائكةِ إذا أُريدَ الاستِغراقُ، والمَلَكُ أعمُّ مِن الملائكةِ، ألَا تَرى أنَّ قولَك: ما مِن مَلَكٍ إلَّا وهو شاهدٌ، أعمُّ مِن قولِك: ما مِن ملائكةٍ، واستِغراقُ المفردِ أصرَحُ في الدَّلالةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٢٧).

الشُّمولِ[١]. أو إنَّما جِيءَ به مُفرَدًا؛ لأنَّه أخفُّ[٢].

- ويَتعلَّقُ ﴿فَوْقَهُمْ﴾ بقولِه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾، وهو تأْكيدٌ لِما دلَّ عليه (يَحْمِلُ) مِن كونِ العرْشِ عاليًا[٣].

- قولُه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ كأنَّ الدَّاعيَ إلى ذِكرِ الحَمَلةِ إجْمالًا هو الانتِقالُ إلى الإخبارِ عن عرْشِ اللهِ؛ لئلَّا يكونَ ذِكرُه اقتِضابًا بعْدَ ذِكرِ الملائكةِ[٤].

- إضافةُ عرْشٍ إلى اللهِ تعالَى في قولِه: ﴿عَرْشَ رَبِّكَ﴾ إضافةُ تَشريفٍ[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾

- جُملةُ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ مُستأنَفةٌ، أو هي بَيانٌ لجُملةِ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، أو بدَلُ اشتِمالٍ منها[٦].

- والعرْضُ: إمرارُ الأشياءِ على مَن يُريدُ التَّأمُّلَ منها، مِثلُ عرْضِ السِّلعةِ على المشتري، وعرْضِ الجَيشِ على أميرِه، وأُطلِقَ هنا كِنايةً عن لازِمِه، وهو المحاسَبةُ، مع جَوازِ إرادةِ المعْنى الصَّريحِ[٧].

- وتأْنيثُ ﴿خَافِيَةٌ﴾؛ لأنَّه وصْفٌ لموصوفٍ مُؤنَّثٍ يُقدَّرُ بالفَعلةِ مِن أفعالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٢٩).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٢٨).

العِبادِ، أو يُقدَّرُ بنفْسٍ، أي: لا تَختبِئُ مِن الحسابِ نفْسٌ، أي: أحدٌ، ولا يَلتبِسُ كافرٌ بمؤمنٍ، ولا بارٌّ بفاجرٍ[(١)].

- وتَكريرُ لَفظِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لتَهويلِ ذلك اليومِ الَّذي مَبْدؤُه النَّفخُ في الصُّورِ، ثمَّ يَعقُبُه ما بعْدَه ممَّا ذُكِر في الجُمَلِ بعْدَه، فقدْ جَرى ذِكرُ ذلك اليوم خمْسَ مرَّاتٍ؛ لأنَّ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ تَكريرٌ لـ (إذا) مِن قولِه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾؛ إذ تَقديرُ المضافِ إليه في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ هو مَدلولُ جُملةِ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، فقدْ ذُكِرَ زَمانُ النَّفخِ أوَّلًا، وتَكرَّرَ ذِكرُه بعْدَ ذلك أربعَ مرَّاتٍ[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٩-٢٤)

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَآؤُمُ﴾: أي: خُذُوا أو تعالَوا[١].

﴿قُطُوفُهَا﴾: جمعُ قِطْفٍ، أي: ثَمَرُها، وأصلُ (قطف): يدُلُّ على أخذِ ثَمرةٍ مِن شَجرةٍ[٢].

﴿دَانِيَةٌ﴾: أي: قريبَةُ المتناوَلِ، تُنالُ على كلِّ حالٍ مِن قيامٍ وقعودٍ واضطجاعٍ، ولا يَمنَعُ منها بُعْدٌ ولا شوكٌ، والدُّنوُّ: القُربُ بالذَّاتِ، أو بالحُكمِ، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمنزلةِ، وأصلُ (دنو): المُقارَبةُ[٣].

﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾: أي: لا تكديرَ عليكم، ولا تنغيصَ، والهَنيءُ: كلُّ ما لا يَلحَقُ فيه مَشَقَّةٌ، ولا يُعقِبُ وخامةً، وأصلُه في الطَّعامِ، يُقالُ: هَنِئَ الطَّعامُ فهو هَنِيءٌ، وأصلُ (هنأ): يدُلُّ على إصابةِ خَيرٍ مِن غيرِ مشَقَّةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٤، ٥٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٦).

﴿أَسۡلَفۡتُمۡ﴾: أي: قدَّمْتُم، والسَّلَفُ: المتقدِّمُ، وأصلُ (سلف): يدُلُّ على تَقَدُّمٍ وسَبْقٍ[١].

﴿ٱلۡخَالِيَةِ﴾: أي: الماضيةِ في الدُّنيا، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تعَرِّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى ما أعدَّه لِمَن أُوتيَ كتابَه بيَمينِه في هذا اليَومِ، فيقولُ: فأمَّا مَن أُعطِيَ كِتابَ أعمالِه بيَمينِه فيَقولُ مُستَبشِرًا فَرِحًا: خُذُوا اقرؤُوا كتابي، وانظُروا ما فيه مِن حَسَناتي! إنِّي تيَقَّنْتُ في الدُّنيا أنِّي سأُبعَثُ وأَلْقَى حِسابي يومَ القيامةِ؛ فهو في عِيشةٍ حَسَنةٍ، في جنَّةٍ مُرتَفِعةٍ، عاليةِ المباني والقُصورِ والأشجارِ، ثمارُها قَريبةٌ، يَسهُلُ تَناوُلُها، يُقالُ لهم: كُلُوا واشرَبوا مُتهَنِّئينَ بسببِ ما قدَّمْتُموه مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ في أيَّامِ الدُّنيا الماضيةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ذكَر الله تعالى أنَّهم يُعرَضونَ عليه، ولا يَخفَى عليه شيءٌ مِن أعمالِهم- فصَّل أحكامَ هذا العرضِ[٣]، فقال:

﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٩/ ٥٦).

أي: فأمَّا مَن أُعطِيَ كِتابَ أعمالِه بيَدِه اليُمنى -وذلك دليلُ نَجاتِه- فإنَّه يقولُ فَرِحًا مُستَبشِرًا: خُذُوا اقرؤُوا كتابي، وانظُروا ما فيه مِن حَسَناتي[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧ - ٩].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٠، ١٣١).

قال البِقاعي: (خُذُوا أيُّها الحاضِرونَ مِنَ الخَلائِقِ الملائِكةُ وغَيرُهم). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٦٠).

وقال ابنُ عاشور: (الخِطابُ في قولِه: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟﴾ للصَّالحينَ مِن أهلِ المَحشَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣١).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿هَآؤُمُ﴾: خُذُوا: الزمخشريُّ، والرازي، والرَّسْعَني، والبيضاوي، وابن كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، وجلال الدين المحلي، ونسَبَه الواحديُّ إلى أهلِ اللُّغةِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٦).

وقيل: معنى قَولِه: ﴿هَآؤُمُ﴾: تعالَوا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣١).

وقال ابنُ عاشور: (﴿هَآؤُمُ﴾ بتَصاريفِه مُعَتَبرٌ اسمَ فِعلِ أمرٍ، بمعنى: خُذْ... وبمعنى: تعالَ أيضًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣١).

وقال السعدي: (﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي: دُونَكم كِتابي فاقرَؤُوه؛ فإنَّه يُبشِّرُ بالجنَّاتِ، وأنواعِ الكراماتِ، ومَغفرةِ الذُّنوبِ، وسَترِ العُيوبِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُدْني المؤمِنَ، فيَضَعُ عليه كَنَفَه[١] ويَستُرُه، فيقولُ: أتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذا؟ أتعرِفُ ذَنبَ كَذا؟ فيقولُ: نعم، أيْ رَبِّ! حتَّى إذا قرَّرَه بذُنوبِه، ورأى في نَفْسِه أنَّه هَلَك، قال: سترْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليَومَ، فيُعطَى كِتابَ حَسَناتِه))[٢].

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠﴾.

أي: إنِّي كُنتُ قد عَلِمتُ وأيقَنْتُ في الدُّنيا أنِّي سأُبعَثُ، وألْقَى حِسابي يومَ القيامةِ، فحرَصْتُ على القيامِ بالصَّالحاتِ؛ تأهُّبًا لذلك اليَومِ[٣].

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١﴾.

أي: فهو في عِيشةٍ حَسَنةٍ، شَديدُ الرِّضا بها، قد وَجَد فيها عظيمَ الثَّوابِ، والأمنَ والسَّلامةَ مِن العِقابِ[٤].

---

(١) كَنَفَه: سَتْرَه. يُنظر: ((خلق أفعال العباد)) للبخاري (ص: ٧٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٧).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

قال ابنُ عطية: (﴿ظَنَنتُ﴾ هنا واقِعةٌ موقِعَ تيقَّنْتُ، وهي في متيقَّنٍ لم يقَعْ بَعدُ ولا خرجَ إلى الحِسِّ، وهذا هو بابُ الظَّنِّ الَّذي يوقَعُ مَوقِعَ اليَقينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣١، ١٣٢).

قال القرطبي: (﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ أي: أيقَنْتُ وعَلِمتُ، عن ابنِ عبَّاسٍ وغيرِه. وقيل: أي: إنِّي ظننتُ إنْ يؤاخِذْني اللهُ بسَيِّئاتي عذَّبَني، فقد تفضَّل علَيَّ بعَفوِه ولم يؤاخِذْني بها). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٢، ١٣٣). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن يَدخُلُ الجنَّةَ يَنْعَمُ لا يَبْأَسُ، لا تَبْلى ثيابُه، ولا يَفْنى شَبابُه))(١).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُنادي مُنادٍ: إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبَدًا، وإنَّ لكم أن تَحْيَوا فلا تَموتوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهرَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تَبْأَسوا أبدًا))(٢).

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾.

= ممَّن اختار أنَّ ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ بمعنى مَرْضيَّة: الفرَّاءُ، وأبو عُبَيدةَ، وابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبيُّ، والماوَرْدي، والبغوي، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٦)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤٦).

قال ابن جرير: (في عِيشةٍ مَرْضيَّةٍ، أو عيشةٍ فيها الرِّضا، فوُصِفَت العيشةُ بالرِّضا وهي مَرْضيَّةٌ؛ لأنَّ ذلك مدحٌ للعِيشةِ، والعربُ تفعلُ ذلك في المدحِ والذَّمِّ، فتقولُ: هذا لَيلٌ نائم، وسرٌّ كاتمٌ، وماءٌ دافِقٌ، فيُوَجِّهونَ الفعلَ إليه، وهو في الأصلِ مفعولٌ؛ لِما يُرادُ مِن المدحِ أو الذَّمِّ. ومَن قال ذلك لم يَجُزْ له أن يقولَ للضَّاربِ مَضروبٌ، ولا للمَضروبِ ضارِبٌ؛ لأنَّه لا مدحَ فيه ولا ذَمَّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣).

وقال السَّمعانيُّ وأبو حيَّانَ: ذات رضا. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦١).

وقال الزَّجَّاجُ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ القارعة الآية (٧): (معنى ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾: ذاتِ رِضًا، يَرضاها مَن يعيشُ فيها. وقال قومٌ: معناه: مَرْضيَّةٍ، وهو يعودُ إلى هذا المعنى في التَّفسيرِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٣٥٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٣).

ويُنظر ما سيأتي في البلاغةِ (ص: ٧٦).

(١) رواه مسلم (٢٨٣٦).

(٢) رواه مسلم (٢٨٣٧).

أي: في جنَّةٍ مُرتَفِعةِ المكانِ، عاليةِ المباني والقُصورِ والأشجارِ[١].

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَفَها بالعُلُوِّ، وشأنُ المكانِ العالي أن تكونَ أشجارُه كذلك، فأزال ذلك بأنَّها مع عُلُوِّها فثِمارُها قريبةُ التَّناوُلِ، سَهلةُ المأخَذِ[٢].

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ثمارُ أشجارِ تلك الجنَّةِ قَريبةٌ، يَسهُلُ تَناوُلُها لِمَن يُريدُ قَطْفَها؛ فلا كُلْفةَ ولا مَشقَّةَ عليهم في أخْذِها[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

قال الزمخشري: (﴿عَالِيَةٍ﴾ مُرتفعةِ المكانِ في السَّماءِ، أو رفيعةِ الدَّرَجاتِ، أو رفيعةِ المباني والقُصورِ والأشجارِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٣).

وقال السعدي: (﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ المنازلِ والقصورِ، عاليةِ المحلِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

وقال البقاعي: (﴿عَالِيَةٍ﴾ أي: في المكانِ والمكانةِ والأبنيةِ والدَّرَجاتِ والأشجارِ، وكُلِّ اعتبارٍ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٨١). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٣).

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ٢٤﴾.

أي: يُقالُ لأهلِ الجنَّةِ: كُلُوا مِن طعامِ الجنَّةِ، واشرَبوا مِن شَرابِها، مُتهَنِّئينَ في أكْلِكم وشُربِكم بالطَّيِّبِ اللَّذيذِ الَّذي لا يَصحَبُه أذًى ولا تكديرٌ ولا تنغيصٌ، وهذا الجزاءُ المقدَّمُ لكم؛ بسَبَبِ ما قدَّمْتُموه مِن الأعمالِ الصَّالحةِ في أيَّامِ الدُّنيا الماضيةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢، ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- يُستحَبُّ تقديمُ اليمينِ في كلِّ ما هو مِن بابِ التَّكريمِ؛ كالوُضوءِ، والغُسلِ، والتَّيمُّمِ، ولُبسِ الثَّوبِ والنَّعلِ والخُفِّ والسَّراويلِ، ودُخولِ المَسجِدِ، والسِّواكِ، والاكتِحالِ، وتقليمِ الأظفارِ، وقَصِّ الشَّارِبِ، ونَتْفِ الإبْطِ، وحَلْقِ الرَّأسِ، والسَّلامِ مِنَ الصَّلاةِ، والأكلِ والشُّربِ، والمصافَحةِ، واستِلامِ الحَجَرِ الأسوَدِ، والخُروجِ مِنَ الخَلاءِ، والأخْذِ والعَطاءِ، وغيرِ ذلك ممَّا هو في معناه؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٨، ٩]، وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعجِبُه التَّيَمُّنُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).
قال ابن عطيَّة: (قال وكيعٌ وابنُ جُبَيرٍ وعبدُ العزيزِ بنُ رُفَيْعٍ: المرادُ: بما أسْلَفْتُم مِن الصَّومِ. وعُمومُها في كلِّ الأعمالِ أَوْلى وأحسَنُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠).

في طُهورِه، وترَجُّلِه، وتنَعُّلِه، في شأنِه كُلِّه))[١]. وعنها رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كانت يدُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم اليُمنى لطُهورِه وطعامِه، وكانت اليُسْرى لخَلائِه وما كان مِن أذًى))[٢].

٢- عن الحسنِ في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ قال: (إنَّ المؤمنَ أحسَنَ الظنَّ بربِّه فأحسَنَ العملَ، وإنَّ المنافقَ أساء الظنَّ فأساء العملَ)[٣].

وكان بعضُ أهلِ العلمِ يقولُ: (إنِّي وجدْتُ أكيسَ النَّاسِ مَن قال: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ ظنَّ ظنًّا يقينًا فنفَعه الله بظنِّه)[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ أي: مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ؛ مِن صَلاةٍ، وصِيامٍ، وصَدَقةٍ، وحَجٍّ، وإحسانٍ إلى الخَلقِ، وذِكرٍ للهِ، وإنابةٍ إليه؛ فالأعمالُ جعَلَها اللهُ تعالى سَبَبًا لدُخولِ الجنَّةِ، ومادَّةً لنَعيمِها، وأصلًا لسعادتِها[٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ خرَج ابنُ عُمَرَ في بعضِ نواحي المَدينةِ ومعه أصحابٌ له، ووضَعوا سُفرةً لهم، فمَرَّ بهم راعي

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((رياض الصالحين)) للنووي (ص: ٢٤١).
والحديث أخرجه أبو داودَ (٣٤)، وأحمدُ (٢٦٢٨٣) واللَّفظُ له.
صحَّحه النوويُّ في ((المجموع)) (٢/ ١٠٨)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٤)، وحسَّنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ١٤٤)، وصحَّح إسنادَه العراقيُّ في ((طرح التثريب)) (٢/ ٧١)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٣٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

غَنَمٍ، فَسلَّمَ، فقال ابنُ عُمَرَ: هَلُمَّ يا راعي، هَلُمَّ فأصِبْ مِن هذه السُّفرةِ، فقال له: إنِّي صائمٌ، فقال ابنُ عُمَرَ: أتصومُ في مِثلِ هذا اليومِ الحارِّ الشَّديدِ سَمومُه، وأنت في هذه الجبالِ ترعى هذه الغنَمَ؟! فقال له: إنِّي واللهِ أبادِرُ أيَّامي الخاليةَ[١]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ دليلٌ على أنَّه لا يدعو إلى قراءةِ كِتابِه إلَّا وقد مُحِيَتْ منه سيِّئاتُه، وبَقِيَتْ حَسَناتُه؛ فقَرَّت بذلك عيْنُه، فعَرَضه على مَن يَقْرَؤُه وهو قريرُ العَينِ؛ إذ مُحالٌ أنْ يَعرِضَ عليهم قِراءةَ سيِّئاتِه[٢]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾، فيه سُؤالٌ: كيف عبَّرَ بأنَّه يَظُنُّ ذلك مع أنَّه يَعلَمُه؟

الجوابُ: أنَّ الظَّنَّ يكونُ بمعنَى اليقينِ، فمعنى قولِه: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي: استَيقَنْتُ[٣]، قال الضَّحَّاكُ: (كلُّ ظنٍّ في القرآنِ مِن المؤمنِ فهو يقينٌ، ومِن الكافرِ فهو شكٌّ)[٤].

وللفرقِ بينَهما في القرآنِ ضابطان:

أحدُهما: أنَّه حيثُ وُجِد الظَّنُّ محمودًا مثابًا عليه فهو اليقينُ، وحيثُ وُجِد مذمومًا متوعَّدًا بالعقابِ عليه فهو الشَّكُّ.

الثَّاني: أنَّ كلَّ ظنٍّ يتَّصِلُ بعدَه «أنْ» الخفيفةُ فهو شكٌّ، كقولِه: ﴿إِن ظَنَّآ أَن

---

(١) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٤٩٠٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (١/ ٧٥). وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٣).

يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، وقوله تعالى: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ [الفتح: ١٢]. وكلَّ ظنٍّ يتَّصِلُ به «أنَّ» المشدَّدةُ فالمرادُ به اليقينُ، كقولِه: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٠] ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾ [القيامة: ٢٨]، والمعنى فيه أنَّ المشددةَ للتأكيدِ فدخَلتْ على اليقينِ، وأنَّ الخفيفةَ بخلافِها فدخَلتْ في الشكِّ، مثال الأوَّلِ قولُه سبحانَه: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفًا﴾ [الأنفال: ٦٦] ذُكِر بـ «أنَّ»، وقولُه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، ومثالُ الثَّاني: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [المائدة: ٧١] والحسبانُ الشَّكُّ.

فإنْ قِيل: يَرِدُ على هذا الضابطِ قولُه تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: ١١٨].

قيل: لأنَّها اتَّصَلتْ بالاسمِ. فتمسَّكْ بهذا الضابطِ فإنَّه مِن أسرارِ القرآنِ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ فيه سؤالٌ: أليس أنَّ مَنازِلَ البَعضِ فَوقَ مَنازِلِ الآخَرينَ، فهؤلاء الَّذين تكونُ مَنازِلُهم أدنَى مِن غيرِهم لا يكونونَ في الجنَّةِ العاليةِ؟

الجوابُ: أنَّ كَونَ بَعضِها دونَ بَعضٍ لا يَقدَحُ في كَونِها عاليةً، وفوق السَّمَواتِ، وإن أُريدَ العُلُوُّ في الدَّرَجةِ والشَّرَفِ فالأمرُ كذلك، وإن أُريدَ به كونُ تلك الأبنيةِ عاليةً مُشرِفةً فالأمرُ أيضًا كذلك(٢).

٤- قَولُه تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ هل يُنافي ما ثَبَتَ في الصَّحيحِ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((لا يَدخُلُ أحدٌ منكم

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ١٥٦، ١٥٧)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٩).

الجنَّةَ بعَمَلِه. قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟! قال: ولا أنا إلَّا أنْ يَتغمَّدَنِيَ اللهُ منه برَحمةٍ وفَضْلٍ))[١]!

والجوابُ: أنَّ هذا لا يُنافيه؛ فإنَّ القرآنَ أثبَتَ «باءَ» السَّبَبِ، والرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم نفى «باءَ» المقابَلةِ والمعادَلةِ[٢]، والتَّقديرُ: لن يَستَحِقَّ أحدٌ دُخولَ الجَنَّةِ بعَمَلٍ يَعمَلُه، فأزال بذلك تَوَهُّمَ مَن يَتَوَهَّمُ أنَّ الجَنَّةَ ثَمَنُ الأعمالِ، وأنَّ صاحِبَ العَمَلِ يَستحِقُّ على اللهِ دُخولَ الجَنَّةِ كما يَستحِقُّ مَن دَفَع ثمَنَ سِلعةٍ إلى صاحبِها تسليمَ سِلْعَتِه، فنَفَى بذلك هذا التَّوَهُّمَ، وبَيَّنَ أنَّ العمَلَ وإنْ كان سببًا لدخولِ الجَنَّةِ فإنَّما هو مِن فَضْلِ اللهِ ورحمتِه، فصار الدُّخولُ مُضافًا إلى فَضْلِ اللهِ ورَحمتِه ومغفرتِه؛ لأنَّه هو المُتَفَضِّلُ بالسَّبَبِ والمسبَّبِ المرتَّبِ عليه، ولم يَبْقَ الدُّخولُ مُرَتَّبًا على العَمَلِ نَفْسِه[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ إثباتُ الأسبابِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ الفاءُ في ﴿فَأَمَّا﴾ تَفصيلٌ لِما يَتضمَّنُه ﴿تُعْرَضُونَ﴾ [الحاقة: ١٨]؛ إذ العرْضُ عرْضٌ للحسابِ والجزاءِ، فإيتاءُ الكتابِ هو إيقافُ كلِّ واحدٍ على صَحيفةِ أعمالِه[٥].

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٦٧٣)، ومسلمٌ (٢٨١٦)، وأحمدُ (٧٤٧٩) واللَّفظُ له، مِن حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير أبي =

- ودلَّ قولُه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ على كَلامٍ مَحذوفٍ للإيجازِ، تَقديرُه: فيُؤتى كلُّ أحدٍ كِتابَ أعمالِه؛ فأمَّا مَن أُوتِيَ كِتابَه... إلخ[١].

- قولُه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ قاله بالفاءِ، وبعْدَه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥] بالواوِ؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصلٌ بأحوالِ القيامةِ وأهْوالِها، فاقْتَضى الفاءَ للتَّعقيبِ، والثَّانيَ مُتَّصلٌ بالأوَّلِ، فأُدخِلَ الواوُ؛ لأنَّه للجمْعِ[٢].

- وإيتاءُ الكتابِ باليمينِ عَلامةٌ على أنَّه إيتاءُ كَرامةٍ وتَبشيرٍ، والعرَبُ يَذْكُرون التَّناوُلَ باليمينِ كِنايةً عن الاهتِمامِ بالمأخوذِ، والاعتِزازِ به[٣].

- قولُه: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ جَوابُ شرْطِ (أمَّا)، وهو مُغْنٍ عن خبَرِ المُبتدَأِ، وهذا القولُ قولُ ذي بَهجةٍ وحُبورٍ يَبعثانِ على إطْلاعِ النَّاسِ على ما في كِتابِ أعمالِه مِن جَزاءٍ في مَقامِ الاغتِباطِ والفَخَارِ، ففيه كِنايةٌ عن كَونِه في حُبورٍ ونَعيمٍ؛ فإنَّ المعنى الكِنائيَّ هو الغرَضُ الأهمُّ مِن ذِكرِ العَرْضِ[٤].

- والهاءُ في ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ ونَظائرِها للسَّكتِ حينَ الوقْفِ، وحَقُّ هذه الهاءِ أنْ تَثبُتَ في الوقْفِ وتَسقُطَ في الوصْلِ، وقدْ أُثبِتَتْ في هذه الآيةِ في الحالَينِ عندَ جُمهورِ القُرَّاءِ[٥]، وكُتِبَت في المصاحفِ، فعُلِمَ أنَّها للتَّعبيرِ عن الكلامِ

= حيان)) (١٠/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٩، ٢٤٠)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ١٤٢).

المحكيِّ بلُغةِ ذلك القائلِ بما يُرادِفُه في الاستِعمالِ العربيِّ؛ لأنَّ الاستِعمالَ أنْ يَأتِيَ القائلُ بهذه الهاءِ بالوقْفِ على كِلْتا الجُملتَينِ، ولأنَّ هذه الكلماتِ وقَعَت فَواصِلَ، والفواصلُ مِثلُ الأسجاعِ تُعتبَرُ بحالةِ الوقْفِ، مِثلُ القَوافي، فلو قِيل: (اقْرؤوا كِتابِيَ؛ إنِّي ظَنَنتُ أنِّي مُلاقٍ حِسابِيَ) سقَطَت فاصِلَتانِ، وذلك تَفريطٌ في مُحسِّنَينِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ في مَوقعِ التَّعليلِ للفرَحِ والبَهجةِ الَّتي دلَّ عليهما قولُه: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾، وبذلك يكونُ حرْفُ (إنَّ) لمجرَّدِ الاهتِمامِ، وإفادةِ التَّسبُّبِ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ كِنايةً عن استِعدادِه للحسابِ بتَقديمِ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ ممَّا كان سبَبَ سَعادتِه[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾

- مَوقعُ قولِه: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ مَوقعُ التَّفريعِ على ما تَقدَّمَ مِن إيتائِه كِتابَه بيَمينِه، وما كان لذلك مِن أثَرِ المَسرَّةِ والكرامةِ في المَحشرِ؛ فتَكونُ الفاءُ لتَفريعِ ذِكرِ هذه الجُملةِ على ذِكرِ ما قبْلَها. ولك أنْ تَجعَلَها بدَلَ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾؛ فإنَّ ذلك القولَ اشتَمَلَ على أنَّ قائلَه في نَعيمٍ، وإعادةُ الفاءِ مع الجُملةِ مِن إعادةِ العاملِ في المبدَلِ منه مع البدَلِ للتَّأكيدِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣١، ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٢).

- قولُه: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ؛ الأوَّلُ: أنَّها على النَّسبِ، أي: ذاتِ رِضًا، نحوُ (لابِنٌ وتامرٌ)؛ لصاحبِ اللَّبنِ والتَّمرِ، أي: ثابتٌ لها الرِّضا ودائمٌ لها؛ لأنَّها في غايةِ الحُسنِ والكمالِ، والعرَبُ لا تُعبِّرُ عن أكثرِ السَّعاداتِ بأكثرَ مِن العِيشةِ الرَّاضيةِ، بمعْنى أنَّ أهلَها راضُون بها، والمُعتبَرُ في كَمالِ اللَّذَّةِ الرِّضا. الثَّاني: أنَّها على إظهارِ جَعْلِ المعيشةِ راضيةً لمَحلِّها، وحُصولِها في مُستحقِّها، وأنَّه لو كان للمَعيشةِ عقْلٌ لَرَضِيَت لنفْسِها بحالتِها. الثَّالثُ: أنَّ هذا ممَّا جاء فيه فاعِلٌ بمعْنى مَفعولٍ، بمعْنى أنَّ صاحبَها يَرْضى بها ولا يَسخَطُها[1].

- والعُلوُّ: الارتفاعُ، وهو مِن مَحاسِنِ الجنَّاتِ؛ لأنَّ صاحبَها يُشرِفُ على جِهاتٍ مِن مُتَّسعِ النَّظرِ، ولأنَّه يَبدو له كثيرٌ مِن مَحاسِنِ جنَّتِه حينَ يَنظُرُ إليها مِن أعْلاها أو وَسَطِها ممَّا لا يَلوحُ لنَظَرِه لو كانت جنَّتُه في أرضٍ مُنبسِطةٍ، وذلك مِن زِيادةِ البهجةِ والمَسرَّةِ؛ لأنَّ جَمالَ المَناظرِ مِن مَسرَّاتِ النَّفْسِ ومِن النِّعَمِ. وجُوِّزَ أنْ يُرادَ أيضًا بالعُلوِّ عُلوُّ القَدْرِ، مِثلُ: فلانٌ ذو دَرجةٍ رفيعةٍ، وبذلك كان للَفْظِ ﴿عَالِيَةٍ﴾ هنا ما ليس لقولِه: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]؛ لأنَّ المرادَ هنالك جنَّةٌ مِن الدُّنيا[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، وهو ومَقولُه في مَوضعِ صِفةٍ لـ ﴿جَنَّةٍ﴾؛ إذ التَّقديرُ: يُقالُ للفريقِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٢، ١٣٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٣).

الَّذين يُؤتَون كُتبَهم بأيْمانِهم حينَ يَستقِرُّون في الجنَّةِ: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ ...﴾ إلخ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ خبَرًا ثانيًا عن الضَّميرِ في قولِه: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾[١].

- وإنَّما أُفرِدَت ضَمائرُ الفريقِ الَّذي أُوتِيَ كِتابَه بيَمينِه فيما تَقدَّمَ، ثمَّ جاء الضَّميرُ ضَميرَ جمْعٍ عندَ حِكايةِ خِطابِهم؛ لأنَّ هذه الضَّمائرَ السَّابقةَ حُكيَت معها أفعالٌ ممَّا يَتلبَّسُ بكلِّ فرْدٍ مِن الفريقِ عندَ إتمامِ حِسابِه. وأمَّا ضَميرُ ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ فهو خِطابٌ لجَميعِ الفريقِ بعْدَ حُلولِهم في الجنَّةِ، كما يَدخُلُ الضُّيوفُ إلى المأْدُبةِ، فيُحيِّي كلُّ داخلٍ منهم بكلامٍ يَخُصُّه، فإذا استَقرُّوا أقبَلَ عليهم مُضيِّفُهم بعِباراتِ الإكرامِ[٢].

وأيضًا لَمَّا كان كونُ الثِّمارِ بهذه الصِّفةِ دالًّا على كَثرةِ الريِّ، وكَثرةُ الريِّ دالَّةً على المشربِ، وكانت مِن مُفرَداتِ اللَّفظِ عامَّةَ المعنى، فكان قدْ أُفرِدَ الضَّمائرُ باعتبارِ لَفْظِها تَنصيصًا على كلِّ فرْدٍ فرْدٍ، جَمَعَ باعتبارِ المعنى إعلامًا باشتراكِ جَميعِ أهْلِها في النِّعَمِ حالَ الانفرادِ والاجتماعِ، فقال: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾[٣].

- قولُه: ﴿هَنِيٓـٔٗا﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ فَعيلًا بمعْنى فاعلٍ؛ إذا ثَبَتَ له الهناءُ، فيكونَ مَنصوبًا على النِّيابةِ عن المفعولِ المطلَقِ؛ لأنَّه وصْفُه، وإسنادُ الهناءِ للأكْلِ والشُّربِ؛ لأنَّهما مُتلبِّسانِ بالهناءِ للآكِلِ والشَّارِبِ. ويجوزُ أنْ يكونَ اسمَ فاعلٍ مِن غيرِ الثُّلاثيِّ بوزْنِ ما للثُّلاثيِّ، والتَّقديرُ: مُهنِّئًا، أي: سَببَ هَناءٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ فَعيلًا بمعْنى مَفعولٍ، أي: مَهْنِئيًا به. وعلى الاحتِمالاتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٣، ١٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٤).

كلِّها فإفرادُ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ في حالِ أنَّه وصْفٌ لشَيئينِ بِناءٌ على أنَّ فَعيلًا بمعْنى فاعلٍ لا يُطابِقُ مَوصوفَه، أو على أنَّه إذا كان صِفةً لمصدرٍ فهو نائبٌ عن مَوصوفِه، والوصفُ بالمصدرِ لا يُثنَّى ولا يُجمَعُ ولا يُؤنَّثُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٤).

الآيات (٢٥ - ٢٧)

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَغُلُّوهُ﴾: أي: فشُدُّوه بالأغلالِ، واجعَلوها في عُنقِه، وقَيِّدوه، أو: اجمَعوا يدَه إلى عُنقِه بالأغلالِ، وأصلُ (غلل): يدُلُّ على تخَلُّلِ شَيءٍ وثَباتِ شَيءٍ[(١)].

﴿صَلُّوهُ﴾: أي: اغمُروه فيها وأَورِدُوه، يُقالُ: أصلَيْتُه النَّارَ وصلَّيتُه: إذا أورَدْتَه إيَّاها، وصَلِيَ النَّارَ وصَلِيَ بها صُلِيًّا، وصِلِيًّا، وصلَّى: قاسَى حَرَّها وشِدَّتَها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّارِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦).

قال البخاريُّ في ((صحيحه)) عقبَ حديث (٧٠١٧): (لا تَكونُ الأغلالُ إلَّا في الأعناقِ).

قال ابن حجر: (كأنَّه يُشيرُ إلى الرَّدِّ على مَن قال: قد يكونُ الغُلُّ في غيرِ العُنقِ كاليَدِ والرِّجْلِ، والغُلُّ بضَمِّ المُعجَمةِ وتشديدِ اللَّامِ: واحدُ الأغلالِ، قال: وقد أطلَق بعضُهم الغُلَّ على ما تُربَطُ به اليدُ، وممَّن ذكره أبو عليٍّ القالي وصاحِبُ «المُحكَمِ» وغيرُهما، قالوا: الغُلُّ جامعةٌ تُجعلُ في العُنقِ أو اليدِ، والجمعُ أغلالٌ، ويدٌ مَغلولةٌ: جُعِلت في الغُلِّ، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، كذا استشهد به الكرمانيُّ، وفيه نظرٌ؛ لأنَّ اليدَ تُغَلُّ في العُنقِ). ((فتح الباري)) (١٢/ ٤٠٩). ويُنظر: ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (٥/ ٣٧٠)، ((الكواكب الدراري)) للكرماني (٢٤/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٩٢) و(٢٢/ ١٧٧)، =

﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾: أي: فاجْعَلُوه فيها، وأصلُ (سلك): يدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ[١].

﴿حَمِيمٌ﴾: أي: قَريبٌ مُشفِقٌ، وحميمُ الرَّجُلِ: خاصَّتُه، مِنْ (حَمَّ): إذا دنا وقَرُبَ، فهو أخصُّ مِن الصَّديقِ، وأصلُ (حمم) هنا: الدُّنوُّ والحُضورُ[٢].

﴿غِسۡلِينٖ﴾: أي: غُسالةِ أهلِ النَّارِ مِن قَيحِهم وصَديدِهم، سُمِّيَ غِسْلِينًا؛ لسَيَلانِه مِن أبدانِهم، كأنَّه يَنغَسِلُ منهم، وأصلُ (غسل): يدُلُّ على تطهيرِ الشَّيءِ وتَنقيتِه[٣].

﴿ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾: أي: الآثِمونَ أصحابُ الخَطايا، وهم الكافِرون، والخاطِئُ هو القاصدُ الذَّنْبِ، يُقالُ: خَطِئ الرَّجُلُ: إذا تعمَّدَ الذَّنْبَ، وأخْطَأَ: إذا لم يَتعمَّدْ، وقيل غيرُ ذلك. وأصلُه يدُلُّ على تَعَدِّي الشَّيءِ، والذَّهابِ عنه[٤].

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٣)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٤٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٥٣).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى عاقِبةَ مَن أُوتيَ كتابَه بشِماله يومَ القيامةِ، وشدَّةَ ندَمِه، فيقولُ: وأمَّا مَن أُعطِيَ كِتابَ أعمالِه بشِماله فيَقولُ نادِمًا مُتحَسِّرًا: يا لَيْتَني لم أُعْطَ كتابَ أعمالِي السَّيِّئةِ! ولم أعلَمْ ما حِسابي؟! يا لَيْتَ مَوْتَتي في الدُّنيا كانت نهايةَ حَياتي، ما دفَعَ عنِّي مالي الَّذي جمَعْتُه في الدُّنيا! زال عنِّي مُلْكي وجاهي، وذهَبَتْ حُجَّتي!

ويأتي الأمرُ مِن الله تعالى بإنزالِ العذابِ به، فيقولُ لمَلائكتِه: خُذُوا هذا الكافِرَ فضَعُوا القَيدَ في عُنُقِه، ثمَّ اغمِسُوه في النَّارِ، ثمَّ اجعَلوه في سِلْسلةٍ طُولُها سَبعونَ ذِراعًا.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى الأسبابَ الَّتي أدَّت بهذا الشَّقيِّ إلى هذا العذابِ، فيقول: إنَّه كان في الدُّنيا لا يُؤمِنُ باللهِ العَظيمِ، ولا يَحُثُّ غَيرَه على إطعامِ المساكينِ؛ فليس لهذا الكافِرِ في هذا اليَومِ قَريبٌ يَنفَعُه، ولا طَعامٌ إلَّا مِن صَديدِ أهلِ النَّارِ، لا يأكُلُ هذا الطَّعامَ إلَّا الواقِعونَ في الخَطايا عَمْدًا مِن الكافرينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت العادةُ جاريةً بأنَّ أهْلَ العرْضِ يَنقَسِمونَ إلى قِسمَينِ: مَقبولٍ ومَردودٍ، وذَكَر اللهُ سُبحانَه وتَعالى المقبولَ بادئًا به؛ تَشويقًا إلى حالِه، وتَغبيطًا بعاقبتِه، وحُسنِ مآلِه- أتْبَعَه المردودَ؛ تَنفيرًا عن أعمالِه، بما ذُكِرَ مِن قَبائحِ أحوالِه[1].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٦).

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥﴾.

أي: وأمَّا مَن أُعطِيَ كِتابَ أعمالِه بيَدِه الشِّمالِ، فإنَّه يَقولُ نادِمًا مُتحَسِّرًا: يا ليتَني لم أُعْطَ كتابَ أعمالِي السَّيِّئةِ[1]!

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦﴾.

أي: ولم أعلَمْ ما حِسابي[2]؟!

﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾.

أي: يا ليتَ مَوْتَتي في الدُّنيا كانت نهايةَ حَياتي، ولم أُبعَثْ للحِسابِ والجَزاءِ[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٧).

قيل: هذه الجُملةُ جاءت عَطفًا على التَّمَنِّي، أي: يا لَيْتَني لم أدْرِ ما حِسابِيَه، أي: لم أعرِفْ حقيقتَه أو نتيجتَه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٦).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٤).

وقيل: هذه الجُملةُ في موضعِ الحالِ مِن ضميرِ (ليتني)، والمعنى: أنَّه كان مكَذِّبًا بالحِسابِ. وذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

قال الشوكانيُّ: (﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾، أي: لَيتَ المَوتةَ الَّتي مِتُّها كانت القاضيةَ، ولم أُحْيَ بعْدَها، ومعنى ﴿ٱلْقَاضِيَةَ﴾: القاطِعةَ للحياةِ، والمعنى: أنَّه تَمنَّى دَوامَ الموتِ، وعدَمَ البعثِ لِما شاهَدَ مِن سُوءِ عَمَلِه وما يَصيرُ إليه مِن العذابِ، فالضَّميرُ في «لَيْتَهَا» يَعودُ إلى المَوتةِ الَّتي قد كان ماتَها وإنْ لم تكُنْ مَذكورةً؛ لأنَّها -لظُهورِها- كانت كالمذكورةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٠).

=

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨﴾.

أي: لم يَدفَعْ عنِّي مالي الَّذي جمَعْتُه في الدُّنيا شيئًا مِن عذابِ الآخِرةِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ١١].

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡۜ ٢٩﴾.

أي: زال عنِّي مُلْكي وجاهي، وذهَبَتْ حُجَّتي[2]!

= وممَّن قال بنحْوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، ومحمدُ بنُ كعبٍ، والرَّبيعُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٥).

والوجهُ الثَّاني في تفسيرِ الآيةِ: أنَّه تمنَّى أنْ يموتَ في الحالِ، ولم يكُنْ في الدُّنيا أكرهُ إليه مِن الموتِ، قاله قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

قال ابن عطية: (﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ الاستفهامَ على معنى التَّقريرِ لِنَفْسِه والتَّوبيخِ، ويحتَمِلُ أن يريدَ النَّفيَ المحضَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٦).

وممَّن ذهَبَ في الجُملةِ إلى أنَّ معْنى ﴿سُلۡطَٰنِيَهۡۜ﴾: مُلْكي وجاهي وقُدْرتي وتَسلُّطي على النَّاسِ: الزمخشريُّ، والنَّسفيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٢).

وذهَبَ مُقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمرقنديُّ، وأبو حيان، ونسَبَه الثَّعلبيُّ =

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: يقولُ اللهُ تعالى لمَلائكتِه: خُذُوا هذا الكافِرَ فضَعُوا القَيدَ في عُنُقِه[1].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤].

﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾.

= لأكثَرِ المفسِّرينَ: أنَّ المرادَ: ذهَبَت عنِّي حُجَّتي، فلا حُجَّةَ لي يومَ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكرمةُ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٢).

قال أبو حيان: (الراجحُ قولُ ابنِ عباسٍ ومَن ذُكِر معه: أنَّ السلطانَ هنا هو الحجةُ التي كان يحتجُّ بها في الدُّنيا؛ لأنَّ ﴿مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ ليس مختصًّا بالملوكِ، بل هو عامٌّ في جميعِ أهلِ الشَّقاوةِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢).

وجمَعَ الواحديُّ وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ بيْن القولَينِ؛ فقال الواحديُّ: (ذهَبَ عنِّي حُجَّتي، وزال عنِّي مُلْكي وقُوَّتي). ((الوجيز)) (ص: ١١٢٩).

وقال جلالُ الدِّين المحلِّي: (﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾: قُوَّتي وحُجَّتي). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٣).

ويُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠).

وقال ابن عطيَّة: (سلطانُ كُلِّ أحدٍ ما لَه في الدُّنيا مِن عَدَدٍ وعُدَدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٧).

قال الواحدي: (﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾: اجمَعوا يَدَه إلى عُنُقِه). ((الوسيط)) (٤/ ٣٤٧).

وقال البِقاعي: (اجمَعوا يَدَيه إلى عُنُقِه ورِجْلَيه مِن وراءِ قَفاه إلى ناصيتِه!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٦٨).

وقال السعدي: (اجعَلوا في عُنُقِه غُلًّا يَخنُقُه!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

أي: ثمَّ اغمِسُوه واغْمُروه في النَّارِ[(١)].

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: ثمَّ اجعَلوه في سِلْسلةٍ طُولُها سَبعونَ ذِراعًا، فيتعَذَّبُ بها[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٨، ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٩)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٧).

قال الشوكاني: (السِّلْسِلةُ: حِلَقٌ مُنتَظِمةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٠).

قيل: إنَّها تدخُلُ في دُبُرِه، ثمَّ تَخرُجُ مِن مَنخِرَيه. وقيل: تدخُلُ في فيه، وتخرجُ مِن دُبُرِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧).

قال الفرَّاءُ: (والمعنى: ثمَّ اسْلُكوا فيه سِلسلةً، ولكنَّ العرَبَ تَقولُ: أدخَلْتُ رَأسي في القَلَنْسُوةِ، وأدخَلْتُها في رَأْسي، والخاتَمِ؛ يُقالُ: الخاتمُ لا يَدخُلُ في يَدي، واليدُ هي الَّتي فيه تَدخُلُ). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٨٢).

وقيل: معنى سَلْكِه فيها: أن تُلَفَّ عليه مع ذلك الطُّولِ المُفرِطِ؛ مُبالَغةً في التَّضييقِ عليه. يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٧). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٠).

قال ابنُ جُزَي: (واختُلِفَ في هذا الذِّراعِ؛ فقيل: إنَّه الذِّراعُ المعروفُ، وقيل: بذِراعِ الملَكِ، وقيل: في الذِّراعِ سَبعونَ باعًا، كلُّ باعٍ ما بيْن مكَّةَ والكوفةِ، ولله دَرُّ الحسَنِ البصريِّ في قولِه: اللهُ أعلَمُ بأيِّ ذِراعٍ هي. وجَعَلَها سَبعينَ ذِراعًا لإرادةِ وَصْفِها بالطُّولِ؛ فإنَّ السَّبعينَ مِن الأعدادِ الَّتي تَقصِدُ بها العرَبُ التَّكثيرَ. ويَحتمِلُ أنْ تكونَ هذه السِّلسلةُ لكلِّ واحدٍ مِن أهلِ النَّارِ، أو تكونَ بيْنَ جَميعِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٧).

وقال ابن جرير: (ثمَّ اسلُكوه في سِلسلةٍ ذَرْعُها سَبعونَ ذراعًا، بذِراعِ اللهُ أعلَمُ بقدرِ طُولِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تَعالى لَمَّا شرَحَ هذا العذابَ الشَّديدَ؛ ذكَرَ سَببَه[1]، فقال:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣﴾.

أي: استَحَقَّ هذا الكافِرُ ذلك العذابَ الشَّديدَ؛ لأنَّه كان في الدُّنيا لا يُؤمِنُ باللهِ ذي العَظَمةِ التَّامَّةِ الكامِلةِ[2].

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣٤﴾.

أي: ولأنَّه كان لا يَحُثُّ غَيرَه على إطعامِ المحتاجِينَ[3].

كما حكى اللهُ تعالى سؤالَ أصحابِ اليَمينِ للمُجرِمينَ: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ * قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ * وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٤].

﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥﴾.

أي: فليس لهذا الكافِرِ في هذا اليَومِ في الدَّارِ الآخِرةِ أيُّ قَريبٍ يَنفَعُه، فيَدفَعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٩).

قال ابنُ عاشور: (نفْيُ حَضِّه على طعامِ المِسكينِ يَقتَضي بطريقِ الفَحوى أنَّه لا يُطعِمُ المِسكينَ مِن مالِه؛ لأنَّه إذا كان لا يأمُرُ غَيرَه بإطعامِ المسكينِ فهو لا يُطعِمُه مِن مالِه، فالمعنى: لا يُطعِمُ المِسكينَ ولا يأمُرُ بإطعامِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٩). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧١).

عَذابَ اللهِ عنه[١]!

كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: وليس لهذا الكافِرِ طَعامٌ إلَّا مِن صَديدِ أهلِ النَّارِ[٢].

﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٧).

قال القُرطبي: (الحميمُ هاهنا القريبُ، أي: ليس له قَريبٌ يَرِقُّ له، ويدفَعُ عنه، وهو مأخوذٌ مِن الحَميمِ، وهو الماءُ الحارُّ، كأنَّه الصَّديقُ الَّذي يَرِقُّ ويحتَرِقُ قَلبُه له). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٧).

ممَّن قال بأنَّ الغِسلينَ هو صديدُ أهلِ النَّارِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٢، ٣٧٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في رِوايةٍ عنه، والكلْبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٨٣).

قال القرطبي: (الغِسْلِينُ: فِعْلِينٌ مِنَ الغَسلِ، فكأنَّه يَنغَسِلُ مِن أبدانِهم، وهو صديدُ أهلِ النَّارِ، السَّائِلُ مِن جروحِهم وفُروجِهم!). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٣).

وقال السعدي: (هو في غايةِ الحَرارةِ، ونَتْنِ الرِّيحِ، وقُبحِ الطَّعمِ ومَرارتِه!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

وقال الضَّحَّاكُ، والرَّبيعُ: (شجرٌ يأكُلُه أهلُ النَّارِ). يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٧٥). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٥).

وقال ابن عاشور: (الغِسْلِينُ -بكَسرِ الغَينِ-: ما يَدخُلُ في أفواه أهلِ النَّارِ مِن الموادِّ السَّائِلةِ مِنَ الأجسادِ، وماءِ النَّارِ، ونحوِ ذلك ممَّا يَعلَمُه اللهُ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٠).

أي: لا يأكُلُ هذا الطَّعامَ إلَّا الواقِعونَ في الخَطايا عَمْدًا، مِنَ الكافِرينَ باللهِ تعالى والمُشرِكينَ به[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ للهِ على العِبادِ أن يُوحِّدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا، وللعبادِ بَعضِهم على بَعضٍ حَقُّ الإحسانِ والمُعاوَنةِ على البِرِّ والتَّقْوى[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ۝ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ عن أبي الدَّرْداءِ رَضِي اللهُ عنه: (أنَّه كان يحُضُّ امرأتَه على تكثيرِ المَرَقِ لأجْلِ المساكِينِ، وكان يقولُ: خلَعْنا نِصفَ السِّلسِلةِ بالإيمانِ، أفلا نخلَعُ نِصفَها الآخَرَ؟!)[٣].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٠).

وقال القرطبي: (ويجوزُ أن يُرادَ الَّذين يتخَطَّونَ الحَقَّ إلى الباطِلِ، ويتعَدَّونَ حُدودَ اللهِ عزَّ وجَلَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٤).

وقال السعدي: (لا يأكُلُ هذا الطَّعامَ الذَّميمَ ﴿إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ الَّذين أخطَؤوا الصِّراطَ المستقيمَ، وسَلَكوا سُبُلَ الجَحيمِ؛ فلذلك استحَقُّوا العذابَ الأليمَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

وقال ابن عاشور: (أي: المُرتَكِبونَ أشَدَّ الخطَأِ، وهو الإشراكُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٠).

وقال ابن عطيَّة: (الخاطِئُ: الَّذي يفعلُ ضدَّ الصوابِ متعمِّدًا، والمُخطِئُ الَّذي يفعلُه غيرَ متعمِّدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٦٥). ويُنظر أيضًا: ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور)) للسيوطي (٨/ ٢٧٤).

إشارةٌ إلى أنَّ شَرَّ الخِصالِ بعْدَ الكُفرِ: البُخلُ، وقَسوةُ القَلبِ[١].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ مدارُ السَّعادةِ ومادَّتُها أمْرانِ: الإخلاصُ للهِ -الَّذي أصلُه الإيمانُ باللهِ-، والإحسانُ إلى الخَلقِ بوُجوهِ الإحسانِ الَّتي مِن أعظَمِها دَفعُ ضَرورةِ المحتاجِينَ بإطعامِهم[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ فيه دليلانِ قَويَّانِ على عِظَمِ الجُرمِ في حِرمانِ المساكينِ:

أحَدُهما: عَطْفُه على الكُفرِ، وجَعْلُه قرينةً له!

والثَّاني: ذِكرُ الحَضِّ دونَ الفِعلِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ تارِكَ الحَضِّ بهذه المنزلةِ، فكيف بمَن يترُكُ الفِعلَ[٣]؟!

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ فيه مَوعِظةٌ للمُؤمِنينَ زاجِرةٌ عن مَنعِ المساكينِ حَقَّهم في الأموالِ، وهو الحَقُّ المعروفُ في الزَّكاةِ والكفَّاراتِ وغَيرِها[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ سؤالٌ: أنَّ في سورةِ (الانشقاقِ) يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠]، فكيف يمكنُ الجَمعُ بيْن قَولِه: ﴿كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، وقولِه: ﴿كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾؟

الجوابُ: أنَّه يأخُذُه بشِمالِه، لكنْ تُخْلَعُ الشِّمالُ إلى الخَلفِ مِن وراءِ ظهْرِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٩).

والجزاءُ مِن جنسِ العملِ، فكما أنَّ هذا الرَّجُلَ جَعَل كتابَ اللهِ وراءَ ظهْرِه، أُعطيَ كتابَه يومَ القيامةِ مِن وراءِ ظهْرِه؛ جزاءً وِفاقًا(١)!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ بيَّن أنَّه لَمَّا نَظَر في كتابِه، وتذكَّرَ قبائِحَ أفعالِه، خَجِلَ منها، وصار العذابُ الحاصِلُ مِن تلك الخَجالةِ أَزْيَدَ مِن عَذابِ النَّارِ، فقال: لَيْتَهم عذَّبوني بالنَّارِ، وما عَرَضوا هذا الكتابَ الَّذي ذكَّرَني قبائِحَ أفعالي؛ حتَّى لا أَقَعَ في هذه الخَجالةِ، وهذا يُنَبِّهُ على أنَّ العذابَ الرُّوحانيَّ أشَدُّ مِن العذابِ الجُسمانيِّ(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الكافرَ يُحاسَبُ؛ لقَولِه في آخِرِ الكلامِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أنَّه قد يُنْفَى الشَّيءُ الَّذي نَفْيُه يَستلزِمُ نفْيَ غيرِه، لكنْ تُذكَرُ تلك اللَّوازمُ على سبيلِ التَّصريحِ؛ للفَرقِ بيْن دَلالةِ اللَّوازِمِ ودلالةِ المُطابَقةِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٩٦).

قال ابنُ تَيميَّةَ -بعْدَ أنْ ذكَرَ الخلافَ في الكفَّارِ هل يُحاسَبون يومَ القيامةِ أو لا-: (وفصْلُ الخِطابِ: أنَّ الحِسابَ يُرادُ به عَرْضُ أعمالِهم عليهم، وتَوبيخُهم عليها، ويُرادُ بالحِسابِ مُوازَنةُ الحَسَناتِ بالسَّيِّئاتِ. فإنْ أُريدَ بالحِسابِ المعنى الأوَّلُ، فلا رَيبَ أنَّهم يُحاسَبون بهذا الاعتبارِ. وإنْ أُريدَ المعنى الثَّاني؛ فإنْ قُصِدَ بذلك أنَّ الكُفَّارَ تَبْقى لهم حَسناتٌ يَستحِقُّون بها الجنَّةَ، فهذا خطَأٌ ظاهرٌ. وإنْ أُريدَ أنَّهم يَتفاوَتون في العِقابِ؛ فعِقابُ مَن كَثُرَت سيِّئاتُه أعظَمُ مِن عِقابِ مَن قلَّت سَيِّئاتُه، ومَن كان له حَسناتٌ خُفِّفَ عنه العذابُ... فإذا كان بعضُ الكفَّارِ عَذابُه أشدَّ عَذابًا مِن بَعضٍ -لكَثرةِ سيِّئاتِه وقِلَّةِ حَسَناتِه- كان الحِسابُ لبَيانِ مَراتبِ العَذابِ، لا لأجْلِ دُخولِهم الجنَّةَ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣٠٥).

تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ ﴾[البقرة: ٤٢]؛ فإنَّ كلَّ مَن لَبَّسَ بالباطلِ فلا بُدَّ أنْ يَكتُمَ بعضَ الحقِّ، وهذا ليس مِن بابِ النَّهيِ عنِ المجموعِ المقتضِي لجوازِ أحدِهما! ولا مِن بابِ النَّهيِ عن فِعلَينِ مُتباينَينِ حتَّى لا يُعادَ فيه حرفُ النَّفيِ، بل هو مِن بابِ النَّهيِ عنِ المتلازِماتِ،كما يُقالُ: لا تَكْفُرْ وتُكَذِّبْ بالرَّسولِ، ولا تُجادِلْ في اللهِ بغيرِ عِلْمٍ ولا هدًى ولا كتابٍ منيرٍ[(١)]!

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ دَلَّت الآيةُ على أنَّ الكُفَّارَ يُعاقَبونَ على تَركِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ، وهو المرادُ مِن قَولِ: إنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّرائعِ[(٢)]، فقد عطَفَ عدمَ الحضِّ على طعامِ المسكينِ، على عدمِ الإيمانِ باللهِ العظيمِ، ممَّا يُشيرُ إلى أنَّ الكافرَ يُعَذَّبُ على الفروعِ؛ فالإيمانُ يَزيدُ بالطَّاعةِ، والمؤمنُ يُثابُ على إيمانِه وعلى طاعتِه، وكذلك الكفرُ يَزدادُ بالمعاصي، ويُجازَى الكافرُ على كفرِه وعلى عصيانِه[(٣)].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ فيه سؤالٌ: ما التَّوفيقُ بيْنه وبيْن قَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦]، وفي آخَرَ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤]، وفي آخَرَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٢).

والمرادُ أنَّهم يُعاقَبون عليها إذا ماتوا على الكفرِ، لا أنَّهم مُلزَمون بها في حالِ الكفرِ؛ لأنَّنا نَدْعوهم أوَّلًا إلى الإسلامِ، ثمَّ نُلزِمُهم بأحكامِه. وأيضًا ليس معنى كَونِهم مُخاطَبينَ بها أنَّهم يُؤْمَرونَ بقضائِها. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٤٩) و(٢/ ٢٣٥).

قال ابن عاشور: (معنَى قولِ مَن قال مِن العلماءِ بأنَّ الكفَّارَ مُخاطَبونَ بفروعِ الشَّريعةِ يَعْنونَ خِطابَ المُؤاخَذةِ على ما نُهُوا عن ارتكابِه، وليس المرادُ أنَّهم يُطلَبُ منهم العملُ؛ إذْ لا تُقْبَلُ منهم الصَّالحاتُ بدونِ الإيمانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٦١).

بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ [البقرة: ١٧٤]؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ؛ منها:

الأوَّلُ: لا مُنافاةَ؛ إذ يجوزُ أن يكونَ طعامُهم جميعَ ذلك.

الثَّاني: أنَّ العذابَ أنواعٌ، والمعذَّبينَ طَبَقاتٌ؛ فمنهم أكَلَةُ غِسلِينٍ، ومنهم أكَلَةُ الضَّريعِ، ومنهم أكَلَةُ الزَّقُّومِ، ومنهم أكَلَةُ النَّارِ؛ لكُلِّ بابٍ مِنهم جزءٌ مَقسومٌ[(١)]. فالاختِلافُ بحسَبِ مَن يَطْعَمُ مِن أهلِ النَّارِ؛ فمَنِ اتَّصَفَ بالصِّفةِ الأُولى فطَعامُه مِن غِسْلِينٍ، ومَنِ اتَّصَف بالثَّانيةِ فطعامُه مِن ضَريعٍ[(٢)]. وقيل غيرُ ذلك[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾

- جُملةُ ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ قيل: هي في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ (لَيتني)، والمعْنى: أنَّه كان مُكذِّبًا بالحسابِ، وهو مُقابلُ قولِ الَّذي أُوتِيَ كتابَه بيَمينِه: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]، وجُملةُ الحالِ مُعترِضةٌ بيْن جُملتَي التَّمنِّي. ويجوزُ أنْ يكونَ عطْفًا على التَّمنِّي، أي: يا لَيتني لم أدْرِ ما حِسابِيَهْ، أي: لم أعرِفْ كُنْهَ حِسابي، أي: نَتيجتَه، وهذا وإنْ كان في معْنى

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٣١).

قال ابنُ قُتَيبة: (النَّارُ دَرَكاتٌ، والجنَّةُ دَرَجاتٌ، وعلى قَدْرِ الذُّنوبِ والحَسَناتِ تَقَعُ العُقوباتُ والمَثوباتُ؛ فمِن أهلِ النَّارِ مَن طَعامُه الزَّقُّومُ، ومنهم مَن طعامُه غِسلينٌ!). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٤).

التَّمنِّي الَّذي قبْلَه فإعادتُه تَكريرٌ مِن أجْلِ التَّحسُّرِ والتَّحزُّنِ[١].

- والاستِفهامُ في ﴿مَا حِسَابِيَهْ﴾ معْناهُ التَّعظيمُ والتَّهويلُ[٢].

- وقوله: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ تمَنٍّ آخَرُ، ولم يُعطَفْ على التَّمنِّي الأوَّلِ؛ لأنَّ المقصودَ التَّحسُّرُ والتَّندُّمُ[٣].

- وجُملةُ ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ مِن الكلامِ الصَّالحِ لأنْ يكونَ مَثلًا؛ لإيجازِه، ووَفْرةِ دَلالتِه، ورَشاقةِ معْناه، عبَّرَ بها عمَّا يقولُه مَن أُوتِيَ كتابَه بشِمالِه مِن التَّحسُّرِ بالعبارةِ الَّتي يَقولُها المتحسِّرُ في الدُّنيا بكلامٍ عَربيٍّ يُؤدِّي المعْنى المقصودَ[٤].

- قولُه: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ نفْيًا مَحضًا، ومَفعولُ ﴿أَغۡنَىٰ﴾ مَحذوفٌ للتَّعميمِ؛ أخبَرَ بذلك مُتأسِّفًا على مالِه حيثُ لم يَنفَعْه. ويجوزُ أنْ يكونَ استِفهامًا للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ وبَّخَ به نفْسَه، وقرَّرها عليه[٥].

- قولُه: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ﴾ يقولُ ذلك مَن كان ذا مالٍ وذا سُلطانٍ مِن ذلك الفريقِ مِن جميعِ أهلِ الإشراكِ والكفْرِ، فما ظنُّك بحسرةِ مَنِ اتَّبَعوهم واقتَدَوا بهم إذا رَأَوهم كذلك؟! وفي هذا تَعريضٌ بسادةِ مُشرِكي العرَبِ مِثلِ أبي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠١، ٢٠٢).

جَهلٍ وأُميَّةَ بنِ خلَفٍ؛ قال الله تبارك وتعالَى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾[1] [المزمل: ١١].

- وضُمِّنَ (هَلَكَ) معْنى (غاب)؛ فعُدِّيَ بـ(عن)، أي: لم يَحْضُرني سُلْطاني الَّذي عهِدْتُه[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۞ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾

- قولُه: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ مَقولٌ لقولٍ مَحذوفٍ مَوقعُه في مَوقعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥]، والتَّقديرُ: يُقالُ: خُذُوه. ومَعلومٌ مِن المقامِ أنَّ المأمورينَ بأنْ يَأخُذوه هم الملائكةُ الموكَّلونَ بسَوقِ أهلِ الحسابِ إلى ما أُعِدَّ لهم[3]. أو جُملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ للإجابةِ عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ؛ كأنَّه قِيل: وما يُفعَلُ به بعْدَ هذا التَّحسُّرِ الصَّادرِ عنه؟ فقِيل: يُقالُ: خُذُوه[4].

- وقولُه: ﴿فَغُلُّوهُ﴾ عُطِفَ بفاءِ التَّعقيبِ؛ لإفادةِ الإسراعِ بوَضْعِه في الأغلالِ عَقِبَ أخْذِه[5].

- قولُه: ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ فيه تَقديمُ الجحيمِ على عامِلِه؛ لتَعجيلِ المَساءةِ، مع الرِّعايةِ على الفاصلةِ، وكذلك تَقديمُ ﴿فِي سِلۡسِلَةٖ﴾ على عامِلِه[6]. أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٧).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٧).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٨).

تَقديمُ الجَحيمِ للدَّلالةِ على التَّخصيصِ، والاهتِمامِ بذِكرِ أنواعِ ما يُعذَّبُ به، وكذلك تَقديمُ ﴿فِي سِلْسِلَةٍ﴾، أي: لا تَسلُكوه إلَّا في هذه السِّلسلةِ[١].

-و﴿ثُمَّ﴾ مِن قولِه: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ بالنِّسبةِ لمَضمونِ الجُملتينِ قبْلَها؛ لأنَّ مَضمونَ ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ أعظَمُ مِن مَضمونِ ﴿فَغُلُّوهُ﴾، ومَضمونَ ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ دلَّ على إدخالِه الجحيمَ، فكان إسلاكُه في تلك السِّلسلةِ أعظَمَ مِن مُطلَقِ إسلاكِه الجحيمَ[٢].

- أو يُمكِنُ بَقاءُ (ثُمَّ) على مَوضوعِها مِن الدَّلالةِ على المهْلةِ الزَّمانيَّةِ، وأنَّه أوَّلًا يُؤخَذُ فيُغَلُّ، ولَمَّا لم يُعذَّبْ بالعَجَلةِ، صارت له استراحةٌ، ثمَّ جاء تَصليةُ الجَحيمِ، فكان ذلك أبلَغَ في عَذابِه؛ إذ جاءَه ذلك وقد سَكَنَت نفْسُه قليلًا، ثمَّ جاء سَلْكُه بعْدَ ذلك بعْدَ كَونِه مَغلولًا مُعذَّبًا في النَّارِ، لكنَّه كان له انتقالٌ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، فيَجِدُ بذلك بَعضَ تَنفُّسٍ، فلمَّا سُلِكَ في السِّلسلةِ كان ذلك أشدَّ ما عليه مِن العذابِ، حيثُ صار لا حِراكَ له ولا انتقالَ، وأنَّه يُضيَّقُ عليه غايةً، فهذا يَصِحُّ فيه أنْ تكونَ (ثُمَّ) على مَوضوعِها مِن المهْلةِ الزَّمانيَّةِ[٣].

- وجُملةُ ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ صِفةُ ﴿سِلْسِلَةٍ﴾، وهذه الصِّفةُ وَقَعَت مُعترِضةً بيْن المجرورِ ومُتعلَّقِه؛ للتَّهويلِ على المشرِكين المكذِّبين بالقارعةِ، وليست

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٤، ٦٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢).

الجُملةُ ممَّا خُوطِبَ الملائكةُ الموكَّلونَ بسَوقِ المجْرِمين إلى العَذابِ؛ قيل: ولذلك فعَدَدُ السَّبعينَ مُستعمَلٌ في معْنى الكثرةِ على طَريقةِ الكِنايةِ(١).

- قيل: وفي تَخصيصِ الطُّولِ بسَبعينَ ذِراعًا مُبالَغةٌ في إرادةِ الوصْفِ بالطُّولِ؛ لأنَّ السِّلسلةَ كلَّما طالت كان الإرهاقُ أشَدَّ، والعذابُ أمَضَّ، كأنَّ السِّلسةَ أفظَعُ مِن سائرِ أدواتِ الإرهاقِ؛ لأنَّها لَمَّا الْتَفَّت عليه تَضاعيفُها، صارت كأنَّها وِعاءٌ له(٢).

- واقترانُ فِعلِ ﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾ بالفاءِ؛ إمَّا لتَأكيدِ الفاءِ الَّتي اقترَنَت بفِعلِ ﴿فَغُلُّوهُ﴾، وإمَّا للإيذانِ بأنَّ الفِعلَ مُنزَّلٌ مَنزلةَ جَزاءِ شرْطٍ مَحذوفٍ، وهذا الحذْفُ يُشعِرُ به تَقديمُ المعمولِ غالبًا، كأنَّه قِيل: مهْما فعَلْتُم به شَيئًا فاسْلُكوه في سِلسلةٍ، أو مهْما يكُنْ شَيءٌ فاسْلُكوه، والمقصودُ تأْكيدُ وُقوعِ ذلك، والحثُّ على عدَمِ التَّفريطِ في الفعلِ، وأنَّه لا يُرْجى له تَخفيفٌ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۞ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ۞ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ۞ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ بدَأَ بأقْوى أسبابِ تَعذيبِه، وهو كفْرُه باللهِ، وهو في مَوضعِ العِلَّةِ للأمْرِ بأخْذِه وإصلائِه الجحيمَ على طَريقةِ الاستِئنافِ للمُبالَغةِ -لأنَّ السُّؤالَ المقدَّرَ فيه تَكثيرٌ للمعْنى مع تَقليلِ لَفظِه-، كأنَّ قائلًا قال: لِمَ يُعذَّبُ هذا العذابَ البليغَ الشَّديدَ؟ فأُجِيبَ وقيل: إنَّه كان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٨).

لا يُؤمِنُ[١].

- ووصْفُ اللهِ سُبحانَه بالعظيمِ هنا إيماءٌ إلى مُناسَبةِ عِظَمِ العذابِ للذَّنْبِ؛ إذ كان الذَّنْبُ كُفرانًا بعَظيمٍ، فكان جَزاءً وِفاقًا[٢].

- وقدْ جُعِل عدَمُ الحضِّ على طَعامِ المسكينِ مُبالَغةً في شُحِّ هذا الشَّخصِ عن المساكينِ بمالِ غيرِه، وكِنايةً عن الشُّحِّ عنهم بمالِه[٣].

- ولعلَّ تَخصيصَ الأمْرَينِ بالذِّكرِ؛ لأنَّ أقبحَ العقائدِ الكفرُ باللهِ تَعالى، وأشنعَ الرَّذائلِ البُخلُ وقَسوةُ القلبِ[٤].

- وأضافَ الطَّعامَ إلى المسكينِ مِن حيث لم يَنسُبْه إليه؛ إذ يَستحِقُّ المسكينُ حقًّا في مالِ الغنيِّ الموسِرِ ولو بأدْنى يَسارٍ[٥].

- قولُه: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ مِن تَمامِ الكلامِ الَّذي ابتُدِئَ بقولِه: ﴿خُذُوهُ﴾، وتَفريعٌ عليه، والمقصودُ منه أنْ يَسمَعَه مَن أُوتِيَ كِتابَه بشِمالِه، فيَيأَسَ مِن أنْ يَجِدَ مُدافِعًا يَدفَعُ عنه بشفاعةٍ، وتَنديمٌ له على ما أضاعَهُ في حَياتِه مِن التَّزلُّفِ إلى الأصنامِ وسَدَنتِها، وتَمويهِهم عليه أنَّه يَجِدُهم عندَ الشَّدائدِ وإلْمامِ المصائبِ، وهذا وجْهُ تَقييدِ نفْيِ الحميمِ باليومِ؛ تَعريضًا بأنَّ أحِمَّاءَهُم في

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٦)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٢، ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٣).

الدُّنيا لا يَنفَعونَهم اليومَ، كما قال تعالَى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢]، وقولُه عنهم: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وغيرُ ذلك ممَّا تفرَّقَ في آيِ القرآنِ الكريمِ[١].

- والحميمُ: القريبُ، قيل: هو هنا كِنايةٌ عن النَّصيرِ؛ إذ المتعارَفُ عندَ العرَبِ أنَّ أنصارَ المرْءِ هم عَشيرتُه وقَبيلتُه[٢].

- وتَعريفُ ﴿ٱلْخَٰطِـِٔينَ﴾ للدَّلالةِ على الكَمالِ في الوَصْفِ، أي: المرْتَكِبون أشدَّ الخطَأِ، وهو الإشراكُ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٨-٥٢)

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٥٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَاهِنٖ﴾: الكاهِنُ: الَّذي يتعاطى الخَبَرَ عمَّا يكونُ في مُستَقبَلِ الزَّمانِ بضَربٍ مِنَ الظَّنِّ، ويدَّعي مَعرِفةَ الأسرارِ(٥).

﴿ٱلۡوَتِينَ﴾: أي: نِياطَ القَلبِ، وهو عِرقٌ يَجري في الظَّهرِ حتَّى يتَّصِلَ بالقَلبِ، فإذا انقَطَع بطَلَت القُوى، ومات صاحِبُه، وأصلُ (وتن): يدُلُّ على ثباتٍ ومُلازَمةٍ(٢).

﴿لَحَسۡرَةٌ﴾: الحَسْرةُ هي أشدُّ النَّدامةِ على ما فاتَ ولا يُمكنُ ارتجاعُه؛ والغمُّ عليه، وأصلُ (حسر): كَشْفُ الشَّيءِ؛ ومِنه الحَسرةُ، وهي انكشافٌ عن حالِ النَّدامةِ(٣).

﴿ٱلۡيَقِينِ﴾: أي: الخَبَرِ الصِّدقِ الحَقِّ الَّذي لا مِرْيةَ فيه ولا شَكَّ، وأصلُ (وقن):

---

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥).

يدُلُّ على زَوالِ الشَّكِّ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقرِّرُ الله تعالى صِدقَ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: فأُقسِمُ بجَميعِ ما تَرَونَه وتُشاهِدونَه -أيُّها النَّاسُ- وما لا تَرَونَه؛ إنَّ هذا القُرآنَ لَقولُ رَسولٍ كَريمٍ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتْلوه عليكم، وما هذا القُرآنُ بكَلامِ شاعرٍ، قليلًا ما تُؤمِنونَ، وما هو بكَلامِ كاهنٍ كاذِبٍ يدَّعِي عِلمَ الغَيبِ، قليلًا ما تتذَكَّرونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِه سبحانَه، فيقولُ: هذا القُرآنُ تَنزيلٌ مِن عِندِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى ما يَحدُثُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم لو أنَّه غيَّر أو بدَّل شيئًا مِن القرآنِ -على سبيلِ الفرضِ-، فيقولُ: ولو ادَّعى محمَّدٌ على اللهِ تعالى بعضَ الأقاويلِ الكاذِبةِ، لَانتَقَمَ الله منه بقوَّتِه وقُدرتِه، ثمَّ لَقَطَعَ اللهُ تعالى مِن محمَّدٍ عِرقَ قَلْبِه، فأماتَه! فلا أحَدَ منكم -أيُّها النَّاسُ- يمنَعُه مِن عُقوبةِ اللهِ إن كَذَبَ على ربِّه، وإنَّ القُرآنَ مُذَكِّرٌ للمُتَّقينَ، وإنَّا لَنَعلَمُ أنَّ مِنكم مُكَذِّبينَ بهذا القُرآنِ، وإنَّ القُرآنَ لحَسْرةٌ على الكافِرينَ، يَندَمونَ على تَركِ الإيمانِ به، وإنَّ القُرآنَ لَهُوَ الحَقُّ الثَّابِتُ المؤكَّدُ، ولا شكَّ في نُزولِه مِن عِندِ اللهِ؛ فنَزِّهْ ربَّك المتَّصِفَ بكَمالِ العَظَمةِ -يا محمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦ / ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تَعالى لَمَّا أقام الدَّلالةَ على إمكانِ القِيامةِ، ثمَّ على وُقوعِها، ثمَّ ذَكَرَ أحوالَ السُّعداءِ وأحوالَ الأشقياءِ؛ ختَمَ الكلامَ بتَعظيمِ القرآنِ[١].

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨﴾.

أي: فلا أُقسِمُ بجَميعِ ما تَرَونَه وتُشاهِدونَه -أيُّها النَّاسُ- من الأشياءِ كُلِّها؛ كَبيرِها وصَغيرِها[٢].

﴿وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾.

أي: وجَميعِ ما لا تَرَونَه وما غاب عنكم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١).

قيل: المرادُ: أُقسِمُ، و(لا) صِلةٌ. وممَّن اختارَه: مكِّيٌّ، والسَّمعاني، والقُرطبي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٤).

وقيل: (لا) جاءت في هذا القَسَمِ؛ ردًّا لكلامِ المشركينَ، كأنَّه قيل: ليس الأمرُ كما يقولُ المشركونَ. وممَّن ذهَبَ إلى هذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جَريرٍ، والواحديُّ، والبَغَوي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٩).

وقال ابن عاشور: (مِن المفسِّرينَ مَن جَعَل حرفَ «لا» في هذا القَسَمِ إبطالًا لكلامٍ سابقٍ، وأنَّ فِعلَ أُقسِمُ بعدَها مُستأنَفٌ، ونُقِضَ هذا النَّوعُ بوُقوعِ مِثْلِه في أوائِلِ السُّوَرِ، مِثلُ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١]، ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد: ١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١).

وقيل: المعنى: لا أُقسِمُ بذلك؛ لأنَّ الأمرَ أوضَحُ مِن أن يحتاجَ إلى إقسامٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١). =

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠﴾.

أي: إنَّ هذا القُرآنَ لَقولُ رَسولٍ كَريمٍ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتلوه على عبادِ اللهِ، ويُبَلِّغُهم إيَّاه(١).

= قال ابنُ القيِّم: (هذا أعَمُّ قَسَمٍ وَقَع في القرآنِ؛ فإنَّه يَعُمُّ العُلويَّاتِ والسُّفْليَّاتِ، والدُّنيا والآخِرةَ، وما يُرى وما لا يُرى، ويدخُلُ في ذلك الملائِكةُ كُلُّهم، والجِنُّ والإنسُ، والعَرشُ والكُرسيُّ، وكُلُّ مخلوقٍ، وكُلُّ ذلك مِن آياتِ قُدرتِه ورُبوبيَّتِه... ففي ضِمنِ هذا القَسَمِ أنَّ كُلَّ ما يُرى وما لا يُرى آيةٌ ودليلٌ على صِدقِ رسولِه، وأنَّ ما جاء به هو مِن عندِ اللهِ، وهو كلامُه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٧٥).

وقال السعدي: (أقسَمَ تعالى بما يُبصِرُ الخَلقُ مِن جَميعِ الأشياءِ، وما لا يُبصِرونَه؛ فدخَلَ في ذلك كُلُّ الخلقِ، بل يَدخُلُ في ذلك نفْسُه المقدَّسةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٣)، ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ٤٨٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١).

وممَّن قال بأنَّ الرَّسولَ هنا: هو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ تيميَّةَ -ونسَبَه لعامَّةِ العُلَماءِ-، وابنُ القيِّم، وابن كثير، وابن عاشور، ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال القرطبي: (ليس القُرآنُ قَولَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إنَّما هو مِن قَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، ونُسِب القَولُ إلى الرَّسولِ؛ لأنَّه تالِيه، ومُبَلِّغُه، والعامِلُ به). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٤).

وقال ابنُ القيِّم: (وفي إضافتِه إليه باسمِ الرِّسالةِ أبيَنُ دَليلٍ أنَّه كَلامُ المُرسِلِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٧٦).

وقيل: المرادُ بالرَّسولِ هنا: جبريلُ عليه السَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والكرمانيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٨).

قال ابنُ تيميَّة: (وقد غَلِطَ بعضُ مَن شذَّ، فزَعَم أنَّه جِبريلُ). ((الإخنائية)) (ص: ٤٨٢).

وقال البِقاعي: (﴿كَرِيمٖ﴾ أي: هو في غايةِ الكرمِ الَّذي هو البُعدُ عن مساوئِ الأخلاقِ بإظهارِ =

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾.

أي: وما هذا القُرآنُ بكَلامِ شاعرٍ كما يَزعُمُ كُفَّارُ قُرَيشٍ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٦، ٣٧].

﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾.

أي: يقولُ اللهُ لِمُشرِكي قُرَيشٍ: قليلٌ هو إيمانُكم بما وجَبَ عليكم الإيمانُ به[(٢)].

= مَعاليها؛ لشَرَفِ النَّفْسِ وشَرَفِ الآباءِ؛ فهو لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، وكرمُ الشَّيءِ اجتِماعُ الكَمالاتِ اللَّائِقةِ به فيه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤١).

قال ابنُ عَطيَّةَ: (﴿مَا﴾ يَحتمِلُ أنْ تكونَ نافيةً، فيَنْتفي إيمانُهم الْبتَّةَ، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ مَصدريَّةً، ويتَّصِفُ بالقِلَّةِ؛ إمَّا الإيمانُ، وإمَّا العددُ الَّذي يُؤمِنونَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢).

ممَّن اختار أنَّه أُريدَ بالقِلَّةِ العدَمُ، وأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿قَلِيلًا﴾ نفْيُ إيمانِهم أصلًا: مُقاتلُ بنُ سُليمانَ، والواحديُّ، والسَّمعاني، والزَّمخشري، والخازنُ، والشَّوكاني، والقاسميُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

وممَّن اختار أنَّ القِلَّةَ بمعْناها الظَّاهرِ، أي: تُؤمِنون إيمانًا قليلًا، أو قَليلًا تُؤمِنونَ، ونحْو ذلك: =

كما قال تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢﴾.

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾.

أي: وما هذا القُرآنُ بكَلامِ كاهنٍ كاذِبٍ يدَّعِي عِلمَ الغَيبِ كما يَزعُمُه الكُفَّارُ[1]!

كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

= ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبيضاوي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّي، والنيسابوريُّ، وأبو السُّعودِ، والألُوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٢/ ١٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٩).

قيل: وذلك القليلُ مِن إيمانِهم هو أنَّهم إذا سُئِلوا مَن خَلَقهم قالوا: اللهُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٥).

وقيل: لأنَّهم -لظُهورِ صِدقِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لَزِمَ تَصديقُهم له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الجُملةِ، وإنْ أظْهَروا خِلافَه عِنادًا، وأبَوْه تَمرُّدًا بألْسنتِهم. يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٩).

وقيل: لأنَّهم آمَنوا بأشياءَ يسيرةٍ وتَذَكَّروها؛ مِمَّا أتى به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الخَيرِ والصِّلةِ والعَفافِ، فلم تُغْنِ عنهم شيئًا. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٤).

وقال مكِّي: (أي: إيمانًا قليلًا إيمانُكم، أو وقتًا قليلًا). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٢/ ٧٦٨٩).

وقال ابن أبي زَمَنِين: (أقَلُّكم مَن يُؤمنُ). حملًا على وصفِ العددِ الَّذي يؤمنُ بالقِلَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٢).

قال البِقاعي: (﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ وهو المنجِّمُ الَّذي يخبِرُ عن أشياءَ يُوهِمُها لرَئِيٍّ يُخبِرُه بذلك، وأغلَبُها ليس لها صِحَّةٌ، وعبارتُه عن ذلك بالسَّجعِ المتكَلَّفِ المقصودِ كَونُه سَجعًا، الَّذي يكونُ المعنى فيه تابِعًا للَّفْظِ؛ للتَّحليةِ بمُشاكلةِ المقاطِعِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٧٧).

أي: يَقولُ اللهُ تعالى لكُفَّارِ قُرَيشٍ: قليلًا ما تتذَكَّرونَ، فتَعتَبِرونَ وتتَّعِظونَ[١].

كما قال تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: هذا القُرآنُ تَنزيلٌ مِن عِندِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ على عَبدِه ورَسولِه محمَّدٍ، فهو كلامُ اللهِ حقًّا، وليس قَولَ شاعرٍ ولا قَولَ كاهِنٍ، كما يَزعُمُ المُشرِكونَ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ٢].

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: ولو ادَّعى محمَّدٌ على اللهِ تعالى بعضَ الأقاويلِ الكاذِبةِ، فنَسَب إليه شيئًا لم يَقُلْه[٣].

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: لَعاجَلْناه بالعقوبةِ، وانتَقَمْنا منه بقوَّتِنا وقُدرتِنا[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال ابن الجوزي: (أي: لو تكلَّف محمَّدٌ أن يقولَ علينا ما لم نَقُلْه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٣).

وقال الشوكاني: (التَّقَوُّلُ: تكلُّفُ القولِ، والمعنى: لو تكلَّف ذلك وجاء به مِن جهةِ نفْسِه، وسُمِّيَ الافتِراءُ تقَوُّلًا؛ لأنَّه قولٌ متكلَّفٌ، وكلُّ كاذِبٍ يَتكلَّفُ ما يَكذِبُ به). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٢). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٢)، =

= ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال البِقاعي: (﴿بِٱلۡيَمِينِ﴾ أي: الَّتي هي العُضوُ الأقوى منه؛ فبها يكونُ بَطشُه، فنُذهِبُه بشِدَّةِ بَطشِنا، أو اليمينُ مِنَّا، فيكونُ كِنايةً عن أخْذِنا له بغايةِ القُوَّةِ؛ فإنَّ قُوَّةَ كُلِّ شَيءٍ في مَيامنِه. وقيل: إذا أراد المَلِكُ إهانةَ شَخصٍ قال: خُذْه يا فُلانُ، فيأخُذُه بيَمينِه، فهو كنايةٌ عن الإذلالِ. وقيل: هذا تصويرُ قَتلِ الصَّبرِ بأشنَعِ صُورةٍ؛ فإنَّ المَلِكَ إذا أراد التَّخفيفَ على مَن يَقتُلُه أمَرَ السَّيَّافَ فأخَذ يَسارَه بيَسارِه، وضَرَبَ بالسَّيفِ مِن ورائِه؛ لأنَّ العُنُقَ مِن خَلفٍ أوسَعُ، فيكونُ أسرعَ قَطعًا، ولا يرى المقتولُ لَمْعَ السَّيفِ، وإن أراد التَّعذيبَ والمُبالَغةَ في الإهانةِ أخَذَ يَدَه اليُمنى بيَدِه اليُسرى، وضرَبَه وهو مُستقبِلٌ له، يرى لَمْعَ السَّيفِ! ورُبَّما وقعت الضَّربةُ -لضِيقِ المجالِ مِن قُدَّامٍ- في حَنَكِه، فيحتاجُ إلى ثانيةٍ وثالثةٍ، فهو أفحَشُ!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٨٠، ٣٨١). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٦، ٨٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: لَأخَذْناه بقُوَّتِنا وقُدرتِنا: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، ونسَبَه للمُبَرِّدِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفَرَّاء (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣)، ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (٥/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٥، ١٤٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٦).

قال ابنُ قُتَيْبَةَ: (قال ابنُ عبَّاسٍ: اليمينُ هاهنا: القوَّةُ. وإنَّما أقام اليمينَ مُقامَ القوَّةِ؛ لأنَّ قوَّةَ كلِّ شَيءٍ في مَيامِنِه). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٩٩).

وقيل: المرادُ: لَأخَذْنا بيَمينِه. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٢).

قال الزمخشري: (والمعنى: ولو ادَّعى علينا شيئًا لم نقُلْه، لَقتَلْناه صَبرًا، كما يَفعَلُ الملوكُ بمَن يتكذَّبُ عليهم...، وهو أن يُؤخَذَ بيَدِه، وتُضرَبَ رَقبتُه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧). ويُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١٥).

قال أبو حيَّان: (وهو قولٌ للمُتقدِّمينَ... قالوا: المعْنى: لَأخَذْنا بيَدِه الَّتي هي اليمينُ على جِهةِ =

﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦﴾.

أي: ثمَّ لقَطَعْنا مِن محمَّدٍ عِرقَ قَلْبِه، فأمَتْناه[1]!

﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧﴾.

أي: فلا أحَدَ منكم -أيُّها النَّاسُ- بقادِرٍ على مَنْعِ اللهِ تعالى مِن عُقوبةِ محمَّدٍ إن كَذَب على ربِّه[2]!

= الإذلالِ والصَّغارِ، كما يقولُ السُّلطانُ إذا أراد عُقوبةَ رجُلٍ: يا غُلامُ، خُذْ بيَدِه، وافعَلْ كذا. قاله أو قَريبًا منه الطبَريُّ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣).

وقال ابن تيميَّة: (قوله: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾: قيل: لَأخَذْنا بيَمينِه، كما يُفعلُ بمَن يُهانُ عندَ القتلِ، فيُقالُ: خُذْ بيَدِه، فيُجَرُّ بيَدِه، ثمَّ يُقتلُ، فهذا هلاكٌ بعِزَّةٍ وقُدرةٍ مِن الفاعلِ، وإهانةٍ وتعجيلِ [هلاكٍ] للمقتولِ. وقيل: لَأخَذْنا منه باليمينِ؛ أي: بالقوَّةِ، والقُدرةِ؛ فإنَّ المَيامِنَ أقوى ممَّن يأخذُ بشِمالِه، كما قال: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]، وكما قال: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]. لكنَّه قال: «أَخَذْنَا مِنْهُ»، ولم يقلْ: لَأخَذْناه. فهذا يُقوِّي القولَ الأوَّلَ). ((النبوات)) (٢/ ٨٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٦).

قال ابنُ القيِّم: (﴿ٱلۡوَتِينَ﴾: نِياطُ القَلبِ، وهو عِرقٌ يَجْري في الظَّهرِ حتَّى يتَّصِلَ بالقَلبِ، إذا انقَطَع بطَلَت القُوى، ومات صاحِبُه، هذا قَولُ جميعِ أهلِ اللُّغةِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٨٤). ويُنظر: ((الزاهر)) لابن الأنباري (٢/ ٣٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٩).

ونسَبَ الواحديُّ والبغويُّ القولَ بأنَّ ﴿ٱلۡوَتِينَ﴾ نِياطُ القَلبِ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ، وقال الواحديُّ: (وهذا قولُ جميعِ أهلِ اللُّغةِ). يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٩١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وابنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، ومسلمٌ البَطِينُ، وغيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨).

وقال محمَّدُ بنُ كعبٍ: (هو القلبُ ومَراقُّه وما يَليه). يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الأحقاف: ٨].

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تَعالى لَمَّا بيَّن أنَّ القرآنَ تَنزيلٌ مِن اللهِ الحقِّ، بواسِطةِ جِبريلَ، على محمَّدٍ الَّذي مِن صِفتِه أنَّه ليس بشاعرٍ ولا كاهنٍ؛ بيَّن بعْدَ ذلك أنَّ القرآنَ ما هو[(١)].

وأيضًا لَمَّا أُبطِلَ طَعْنُهم في القرآنِ بأنَّه قولُ شاعرٍ، أو قولُ كاهنٍ؛ أُعقِبَ ببَيانِ شَرَفِه ونفْعِه، إمعانًا في إبطالِ كَلامِهم بإظهارِ الفرْقِ البَيِّنِ بيْنه وبيْن شِعرِ الشُّعراءِ وزَمزمةِ الكُهَّانِ؛ إذ هو تَذكرةٌ، وليس ما أَلْحَقوه به مِن أقوالِ أولئك مِن التَّذكيرِ في شَيءٍ[(٢)].

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وإنَّ القُرآنَ مُذَكِّرٌ للمُتَّقينَ الَّذين يَمتَثِلونَ أوامِرَ اللهِ تعالى، ويَجتَنِبونَ نواهيَه، فيَعتَبِرونَ به ويتَّعِظونَ[(٣)].

= جزي)) (٢/ ٤٠٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٨٢).

قال السعدي: (وقولُه: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ أي: لو أهلَكه ما امتَنَع هو بنفسِه، ولا قدَر أحدٌ أنْ يمنعَه مِن عذابِ الله). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: وإنَّا لَنعلَمُ أنَّ مِنكم مُكَذِّبينَ بهذا القُرآنِ معَ وُضوحِ الحَقِّ فيه، وسنُجازيهم على تَكذيبِهم[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦].

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: وإنَّ القُرآنَ لحَسْرةٌ على الكافِرينَ، فيَندَمونَ على تَركِ الإيمانِ به[٢]!

= عاشور)) (٢٩/ ١٤٨).

قال السعدي: (يتذَكَّرونَ به مصالحَ دينِهم ودُنياهم، فيَعرِفونَها، ويَعمَلونَ عليها، يُذَكِّرُهم العقائدَ الدِّينيَّةَ، والأخلاقَ المَرْضيَّةَ، والأحكامَ الشَّرعيَّةَ، فيَكونونَ مِن العُلَماءِ الرَّبَّانيِّينَ، والعبادِ العارفينَ، والأئمَّةِ المَهْديِّينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قيل: الضَّميرُ راجِعٌ إلى النَّاسِ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٣).

وقيل: الضَّميرُ في ﴿مِنكُم﴾ راجِعٌ إلى المؤمِنينَ، فيكونُ المرادُ بالمكذِّبينَ منهم: المنافِقينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٣).

وقيل: الخِطابُ للمُسلِمينَ، والمعنى: أنَّ منهم ناسًا سيَكفُرونَ بالقرآنِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧).

قال ابن عرفة: (قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ إن كان الخِطابُ للكفَّارِ، فـ «مِن» لبيانِ الجنسِ، وليس هو إخبارًا بالمعلومِ؛ لأنَّه على جهةِ التَّهديدِ والوعيدِ. وإن كان الخِطابُ لعُمومِ النَّاسِ، فالمرادُ مَن سيُكَذِّبُ منهم في المُستقبَلِ). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن =

= عطية)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨، ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال الرازي: (الضَّميرُ في قولِه: «إِنَّهُ» إلى ماذا يعودُ؟ فيه وجهانِ:

الأوَّلُ: أنَّه عائِدٌ إلى القرآنِ، فكأنَّه قيلَ: وإنَّ القرآنَ لَحسرةٌ على الكافرينَ. إمَّا يومَ القيامةِ إذا رَأَوْا ثوابَ المصدِّقينَ به، أو في دارِ الدُّنيا إذا رَأَوْا دولةَ المؤمنينَ.

والثَّاني: قال مقاتلٌ: وإنَّ تكذيبَهم بالقرآنِ لَحسرةٌ عليهم، ودلَّ عليه قولُه: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة: ٤٩]). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٦).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: «إِنَّهُ» يعودُ على القُرآنِ: السَّمرقنديُّ، والرَّسْعني، والعُلَيمي، والشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٧١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٢).

وممَّن اختار أنَّه يعودُ على التَّكذيبِ: ابنُ جريرٍ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٧).

قال الواحديُّ: (قال ابنُ عبَّاسٍ: القرآنُ حَسرةٌ على الكافرين يومَ القيامةِ. يعني: ندامةً؛ إذ لم يُؤمِنوا به. والكنايةُ في «إِنَّهُ» -على هذا القولِ- للتَّكذيبِ. ودلَّ عليه قولُه: ﴿أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾). ((البسيط)) (٢٢/ ١٩٥).

وقال ابن عطية: (يَرَونَ مَن آمَنَ به يُنَعَّمُ، وهم يُعذَّبونَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٣).

وقال ابن عاشور: (الحَسْرةُ: النَّدَمُ الشَّديدُ المتكَرِّرُ على شَيءٍ فائتٍ مَرغوبٍ فيه... فالقرآنُ حَسرةٌ على الكافِرينَ، أي: سَبَبُ حَسرةٍ عليهم في الدُّنيا والآخرةِ، فهو حَسرةٌ عليهم في الدُّنيا؛ لأنَّه فَضَح تُرَّهاتِهم، ونَقَض عِمادَ دِينِهم الباطِلِ، وكَشَف حقارةَ أصنامِهم، وهو حَسرةٌ عليهم في الآخِرةِ؛ لأنَّهم يَجِدونَ مخالفتَه سببَ عَذابِهم، ويَقِفونَ على اليَقينِ بأنَّ ما كان يدعوهم إليه هو سَبَبُ النَّجاحِ لو اتَّبَعوه، لا سيَّما وقد رأَوا حُسنَ عاقبةِ الَّذين صَدَّقوا به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٩).

وقال ابن القيِّم: (أخبَر سبحانه أنَّ رَسولَه وكلامَه حَسْرةٌ على الكافِرينَ، إذا عايَنوا حقيقةَ ما أخبَرَ به كان تكذيبُهم عليهم مِن أعظمِ الحَسَراتِ حينَ لا يَنفَعُهم التَّحَسُّرُ! وهكذا كلُّ مَن كَذَّبَ بحَقٍّ، وصَدَّقَ بباطِلٍ؛ فإنَّه إذا انكشَفَ له حقيقةُ ما كَذَّبَ به وصَدَّقَ به، كان تكذيبُه وتصديقُه حَسْرةً عليه، كمَن فَرَّطَ فيما يَنفَعُه وقتَ تحصيلِه، حتَّى إذا اشتَدَّتْ حاجتُه إليه، وعايَنَ فوزَ المحصِّلينَ؛ صار تفريطُه عليه حَسْرةً). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٩١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٥، ٥٦].

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٥١﴾.

أي: وإنَّ القُرآنَ لَهُو الحَقُّ الثَّابِتُ المؤكَّدُ الَّذي لا شَكَّ فيه، ولا في نُزولِه مِن عِندِ اللهِ تعالى[١].

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٥٢﴾.

أي: فنَزِّهْ ربَّك المتَّصِفَ بكَمالِ العَظَمةِ -يا محمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، قائِلًا: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه يجبُ علينا أنْ نَعمَلَ بالقُرآنِ؛ لأنَّ الَّذي أنزَلَه هو الرَّبُّ المُطاعُ الخالقُ الرَّازقُ، الَّذي يجبُ أنْ نُطيعَه بما أمَرَ، ونَنتهيَ عمَّا نهى عنه وزَجَرَ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ * لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).
وقيل: يَحتمِلُ أنْ يكونَ الضَّميرُ في قولِه: «إِنَّهُ» عائدًا على كَوْنِ القرآنِ حَسرةً على الكافرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٩).

ٱلْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ أنَّ الواجبَ على المسلمِ ألَّا يُقْدِمَ على الفُتيا إلَّا بعلمٍ يُواجِهُ به اللهَ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه في مَقامِ المُبَلِّغِ عنِ اللهِ تعالى، القائلِ عنه[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ اليَقينُ مراتِبُه ثلاثةٌ: عِلمُ اليَقينِ: وهو العِلمُ المستفادُ مِن الخبرِ، ثمَّ عَينُ اليَقينِ: وهو العِلمُ المُدرَكُ بحاسَّةِ البصَرِ، ثمَّ حَقُّ اليقينِ: وهو العِلمُ المُدرَكُ بحاسَّةِ الذَّوقِ والمباشَرةِ، وهذا القُرآنُ الكريمُ بهذا الوَصفِ؛ فإنَّ ما فيه مِنَ العُلومِ المؤيَّدةِ بالبراهينِ القَطعيَّةِ، وما فيه مِن الحقائِقِ والمعارفِ الإيمانيَّةِ: يَحصُلُ به لِمَن ذاقه حَقُّ اليقينِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ جمَعَ اللهُ في هذا القسَمِ كلَّ ما الشَّأنُ أنْ يُقسَمَ به مِن الأمورِ العظيمةِ مِن صِفاتِ اللهِ تَعالى، ومِن مَخلوقاتِه الدَّالَّةِ على عَظيمِ قُدرتِه؛ إذ يَجمَعُ ذلك كلَّه الصِّلَتانِ ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾، فممَّا يُبصِرون: الأرضُ والجبالُ، والبحارُ والنُّفوسُ البشريَّةُ، والسَّمواتُ والكواكبُ، وما لا يُبصِرون: الأرواحُ، والملائكةُ، وأُمورُ الآخرةِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ نِسبةُ الشَّيءِ إلى مَن بَلَّغَه، ومِثْلُه أنَّ اللهَ نَسَبَ القرآنَ أيضًا إلى جِبريلَ؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠]، فنِسْبَةُ الشَّيءِ إلى المُبَلِّغِ سائغةٌ شَرعًا ولُغةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٤/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤). ويُنظر أيضًا: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩١-١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٣/ ٣٩٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذا يدُلُّ على أنَّ الرَّسولَ أحْدَثَ الكلامَ العَربيَّ!

الجوابُ: هذا باطِلٌ؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ هذا في القُرآنِ في موضِعَينِ، والرَّسولُ في أحدِ الموضِعَينِ: مُحمَّدٌ، والرَّسولُ في الآيةِ الأخرى: جِبريلُ؛ قال تعالى هنا: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ * وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فالرَّسولُ هنا محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال في سورةِ (التكويرِ): ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١] فالرَّسولُ هنا جِبريلُ، فلو كان أضافَه إلى الرَّسولِ لكَونِه أحدَثَ حروفَه أو أَحْدَثَ منه شيئًا، لَكان الخبَرانِ مُتناقِضَينِ؛ فإنَّه إنْ كان أحدُهما هو الَّذي أحدَثَها امتنَعَ أنْ يكونَ الآخَرُ هو الَّذي أحدَثَها، وأيضًا فإنَّه قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ ولم يَقُلْ: «لَقولُ مَلَكٍ ولا نبيٍّ»! ولفظُ «الرَّسولِ» يَستلزِمُ مُرسِلًا له، فدلَّ ذلك على أنَّ الرَّسولَ مُبَلِّغٌ له عن مُرْسِلِه، لا أنَّه أنشأَ منه شيئًا مِن جهةِ نفْسِه! وهذا يدُلُّ على أنَّه أضافه إلى الرَّسولِ؛ لأنَّه بَلَّغَه وأدَّاه، لا لأنَّه أنشأَ منه شَيئًا وابتَدَأَه، وأيضًا فإنَّ اللهَ قد كَفَّرَ مَن جَعَلَه قولَ البشَرِ، بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ * فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ * إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٥]، ومحمَّدٌ بَشَرٌ؛ فمَن قال: إنَّه قَولُ محمَّدٍ، فقد كَفَرَ، ولا فَرْقَ بيْن أنْ يقولَ: هو قَولُ بَشَرٍ، أو جِنِّيٍّ، أو مَلَكٍ، فمَن جَعَلَه قولًا لأحَدٍ مِن هؤلاءِ فقد كَفَر، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖ﴾، فجَعَله قولَ الرَّسولِ البَشَريِّ مع تكفيرِه مَن يقولُ: إنَّه قَولُ البَشَرِ، فعُلِمَ أنَّ المرادَ بذلك أنَّ الرَّسولَ بَلَّغَه عن مُرْسِلِه، لا أنَّه قَولٌ له مِن تِلْقاءِ نفْسِه، وهو كَلامُ اللهِ الَّذي أرسَلَه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ

مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فالَّذي بَلَّغَه الرَّسولُ هو كلامُ اللهِ، لا كَلامُ الرَّسولِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القُرآنَ نازِلٌ لجَميعِ الخَلْقِ؛ ففيه دليلٌ على عُمومِ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القرآنَ نازِلٌ مِن ربِّهم، وإذا كان كذلك فهو الحَكَمُ بيْنَهم، الحاكِمُ عليهم(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ نزولَ القُرآنِ هو مِن كَمالِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى، فإذا أُضِيفَ إلى هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ٢، ٣] عُلِمَ أنَّ القرآنَ رحمةٌ للعِبَادِ أيضًا، وربوبيَّةُ اللهِ مَبنيَّةٌ على الرَّحمةِ؛ قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣]، وكلُّ ما أمَرَ اللهُ به عبادَه أو نهاهم عنه، فهو رَحمةٌ بهم(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ؛ لأنَّه إذا كان اللهُ أنزَلَه فهو كلامُه لا كلامُ غيرِه -كما قاله السَّلَفُ رَحِمَهم اللهُ-، وهو غيرُ مخلوقٍ؛ لأنَّ جميعَ صِفاتِ اللهِ -حتَّى الصِّفاتِ الفِعليَّةَ- ليست مخلوقةً(٥).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أخبَرَ سُبحانَه أنَّه تنزيلٌ مِن رَبِّ العالَمينَ، وذلك يتضَمَّنُ أمورًا:

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٩).

أحدُها: أنَّه تعالى فوقَ خَلْقِه كُلِّهم، وأنَّ القُرآنَ نَزَل مِن عِندِه.

والثَّاني: أنَّه تكَلَّمَ به حقيقةً[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ ربوبيَّةَ اللهِ الكامِلةَ لِخَلْقِه تأبى أنْ يَتْرُكَهم سُدًى؛ لا يأمرُهم ولا يَنهاهُم، ولا يُرشِدُهم إلى ما يَنفَعُهم، ويُحَذِّرُهم ما يَضُرُّهم، بل يَترُكُهم هَمَلًا بمنزلةِ الأنعامِ السَّائمةِ! فمَن زَعَم ذلك لم يَقْدُرْ ربَّ العالَمينَ قَدْرَه، ونَسَبَه إلى ما لا يَليقُ به تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[٢] [المؤمنون: ١١٦].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ أنَّه سُبحانَه لا يُؤَيِّدُ الكذَّابَ عليه، بل لا بُدَّ أنْ يُظْهِرَ كَذِبَه، وأنْ يَنتَقِمَ منه؛ فقد ذَكَر هذا بَعْدَ قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثُمَّ قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾، هذا بتقديرِ أنْ يَتَقَوَّلَ بعضَ الأقاويلِ، فكيفَ بمَن يَتَقَوَّلُ الرِّسالةَ كلَّها[٣]؟! فحِكمتُه تعالى تَقتضي ألَّا يُمهِلَ الكاذِبَ عليه، الَّذي يَزعُمُ أنَّ اللهَ أباح له دِماءَ مَن خالَفَه وأموالَهم، وأنَّه هو وأتْباعَه لهم النَّجاةُ، ومَن خالفَه فله الهلاكُ، فإذا كان اللهُ قد أيَّدَ رَسولَه بالمعجزاتِ، وبَرْهَنَ على صِدقِ ما جاء به بالآياتِ البَيِّناتِ، ونَصَره على أعدائِه، ومكَّنَه مِن نواصيهم؛ فهو أكبَرُ شَهادةٍ منه على رِسالتِه[٤]، ولو قُدِّرَ أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غَيَّرَ الرِّسالةَ، لَانْتَقَمَ منه، والمقصودُ نفْيُ هذا التَّقديرِ؛

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

لانتفاءِ لازِمِه[١]. فالآياتُ فيها دليلٌ على أنَّ الله تعالى لا يُبقي أحدًا يدَّعي أنَّ اللهَ أوحى إليه كلامًا يُبَلِّغُه إلى النَّاسِ، وأنَّه يُعجِّلُ بهلاكِه، فأمَّا مَن يدَّعي النُّبوَّةَ دونَ ادِّعاءِ قَولٍ أُوحِيَ إليه، فإنَّ اللهَ قد يُهلِكُه بَعْدَ حِينٍ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معصومٌ مِن أنْ يَتَقَوَّلَ على اللهِ، فإذا لم يَأْذَنْ له اللهُ في تحليلِ شيءٍ أو تحريمِه، فلن يحَلِّلَه ولن يحَرِّمَه[٣].

١٢- خَتَم سُبحانَه السُّورةَ بقَولِه: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، وهي جديرةٌ بهذه الخاتمةِ؛ لِمَا تَضَمَّنَتْه مِن الإخبارِ عن عَظَمةِ الرَّبِّ -تعالى- وجلالِه، وذِكْرِ عِظَمِ مُلْكِه، وجرَيانِ حُكْمِه بالعَدلِ على عبادِه في الدُّنيا والآخرةِ، وذِكْرِ عظَمتِه تعالى في إرسالِ رَسولِه، وإنزالِ كتابِه، وأنَّه تعالى أعظمُ وأَجَلُّ وأكبرُ عندَ أهلِ سمَواتِه والمؤمِنينَ مِن عبادِه مِن أنْ يُقِرَّ كَذِبًا مُتَقَوَّلًا عليه، مُفترًى عليه؛ يُبَدِّلُ دِينَه، ويَنسَخُ شرائعَه، ويَقتُلُ عبادَه، ويُخبِرُ عنه بما لا حقيقةَ له، وهو سُبحانَه مع ذلك يؤيِّدُه ويَنصُرُه، ويُجيبُ دعواتِه، ويأخُذُ أعداءَه، ويَرفَعُ قَدْرَه، ويُعْلِي ذِكْرَه! فهو سُبحانَه العظيمُ الَّذي تأبى عَظَمتُه أنْ يَفعلَ ذلك بمَن أَتَى بأقبَحِ أنواعِ الكَذِبِ والظُّلمِ، فسُبحانَ ربِّنا العَظيمِ وتعالى عمَّا يَنسُبُه إليه الجاهِلونَ عُلُوًّا كبيرًا[٤]!

١٣- إنَّ بَرَكةَ الاسمِ تابِعةٌ لبَرَكةِ المسمَّى؛ فقولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ دليلٌ على الأمرِ بتسبيحِ الرَّبِّ بطريقِ الأَولى؛ فإنَّ تنزيهَ الاسمِ مِن توابعِ

(١) يُنظر: ((تلخيص كتاب الاستغاثة لابن تيمية)) لابن كثير (٢/ ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (١/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٣).

تنزيهِ المسمَّى[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ سؤالٌ: ما الفائدةُ في دُخولِ الباءِ في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، ولم تَدخُلْ في قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]؟

الجوابُ: التَّسبيحُ يُرادُ به التَّنزيهُ، والذِّكْرُ المُجَرَّدُ دونَ معنًى آخَرَ، ويُرادُ به ذلك معَ الصَّلاةِ، وهو ذِكْرٌ وتنزيهٌ مع عَمَلٍ؛ ولهذا تُسَمَّى الصَّلاةُ تسبيحًا؛ فإذا أُريدَ التَّسبيحُ المُجَرَّدُ فلا معنى للباءِ؛ لأنَّه لا يَتعدَّى بحَرفِ جَرٍّ، لا تَقولُ: سَبَّحْتُ باللهِ، وإذا أَرَدْتَ المقرونَ بالفعلِ -وهو الصَّلاةُ- أَدْخَلْتَ الباءَ؛ تنبيهًا على ذلك المرادِ، كأنَّك قُلْتَ: سَبِّحْ مُفتَتِحًا باسمِ ربِّك، أو ناطِقًا باسمِ ربِّك، كما تقولُ: صَلِّ مُفتَتِحًا أو ناطِقًا باسمِه؛ ولهذا السِّرِّ -واللهُ أعلمُ- دخَلَتِ اللَّامُ في قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، والمرادُ: التَّسبيحُ الَّذي هو السُّجودُ والخُضوعُ والطَّاعةُ، ولم يَقُلْ في موضع: «سَبَّحَ اللهَ ما في السَّمواتِ والأرضِ»، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]! وتأمَّلْ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، كيف قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ لَمَّا ذَكَرَ السُّجودَ باسمِه الخاصِّ؛ فصار التَّسبيحُ ذِكْرَهم له، وتنزيهَهم إيَّاه[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فائدةٌ في ذِكْرِ الاسمِ: وهو أنْ يكونَ التَّسبيحُ باللِّسانِ؛ إذْ لا يمكنُ تسبيحُ اللهِ باللِّسانِ إلَّا بذكرِ اسمِه، أمَّا إذا لم تَذْكُرِ اسمَ اللهِ؛ فإنَّ التَّسبيحَ يكونُ بالقلبِ؛ ولهذا تقولُ: «سُبْحانَ رَبِّيَ العظيمِ»،

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٠).

«سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه»، «سبحانَ اللهِ العظيم» تَذْكُرُ الاسمَ، فيكونُ فائدةُ ذِكْرِ الاسمِ هنا: الدَّلالةَ على أنَّ المرادَ التَّسبيحُ باللِّسانِ، وهذا لا يمكنُ إلَّا بذِكْرِ الاسمِ، فتكونُ هنا إذَن فائدةُ ذِكْرِ الاسمِ عَظيمةً جِدًّا؛ لئلَّا يَقتَصِرَ الإنسانُ على التَّسبيحِ بقَلبِه، الَّذي لا يَظْهَرُ معه الاسمُ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۞ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾ الفاءُ هنا لتَفريعِ إثباتِ أنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، ونفْيِ ما نسَبَه المشركون إليه، تَفريعًا على ما اقتضاهُ تَكذيبُهم بالبعثِ مِن التَّعريضِ بتَكذيبِ القرآنِ الَّذي أخبَرَ بوُقوعِه، وتَكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القائلَ: إنَّه مُوحًى به إليه مِن اللهِ تَعالى[٢].

- وابتُدِئَ الكلامُ بالقسَمِ تَحقيقًا لمَضمونِه على طَريقةِ الأقسامِ الواردةِ في القرآنِ، و(لا أُقسِمُ) صِيغةُ تَحقيقِ قَسَمٍ، وأصْلُها أنَّها امتِناعٌ مِن القسَمِ امتناعَ تَحرُّجٍ مِن أنْ يَحلِفَ بالمقسَمِ به خَشيةَ الحِنثِ، فشاع استِعمالُ ذلك في كلِّ قسَمٍ يُرادُ تَحقيقُه، واعتُبِرَ حرْفُ (لا) كالمزيدِ[٣]. وذلك على قولٍ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾

- ضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى القُرآنِ المفهومِ مِن ذِكرِ الحَشْرِ والبعثِ؛ فإنَّ ذلك ممَّا جاء به القُرآنُ، ومَجيئُه بذلك مِن أكبرِ أسبابِ تَكذيبِهم به، على أنَّ

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٠، ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠١).

إرادةَ القُرآنِ مِن ضَمائرِ الغَيبةِ الَّتي لا معادَ لها قدْ تَكرَّرَ غيرَ مرَّةٍ فيه. وتأْكيدُ الخبرِ بحرْفِ (إنَّ) واللَّامِ؛ للرَّدِّ على الَّذين كذَّبوا أنْ يكونَ القرآنُ مِن كَلامِ الله، ونَسَبوه إلى غيرِ ذلك[١].

- وإضافةُ (قول) إلى (رسول)؛ لأنَّه الَّذي بلَّغَه، فهو قائلُه، والإضافةُ لأدْنى مُلابَسةٍ، وإلَّا فالقُرآنُ جَعَلَه اللهُ تعالَى وأجْراهُ على لِسانِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما صدَرَ مِن جِبريلَ بإيحائِه بواسطتِه[٢].

- وفي لَفظِ (رَسول) إيذانٌ بأنَّ القولَ قولُ مُرسِلِه -وهو اللهُ تعالى-، وقد أُكِّدَ هذا المعْنى بقولِه عَقِبَه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣].

- ووصْفُ الرَّسولِ بـ﴿كَرِيمٍ﴾؛ لأنَّه الكريمُ في صِنفِه، أي: النَّفيسُ الأفضلُ، فأُثبِتَ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الفضلُ على غيرِه مِن الرُّسلِ بوصْفِ ﴿كَرِيمٍ﴾[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

- عُطِفَ قولُه: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ على جُملةِ الخبرِ في قولِه: ﴿بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، و(لا) النَّافيةُ تأْكيدٌ لنفْيِ (ما)[٥].

- وكُنِّيَ بنفْيِ أنْ يكونَ قولَ شاعرٍ، أو قولَ كاهنٍ عن تَنزيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن أنْ يكونَ شاعرًا أو كاهنًا؛ ردًّا لقولِهم: هو شاعرٌ، أو هو كاهنٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وإنَّما خُصَّ هذانِ بالذِّكرِ دونَ قولِهم: افتراهُ، أو هو مَجنونٌ؛ لأنَّ الوصفَ بـ﴿كَرِيمٍ﴾ كافٍ في نفْيِ أنْ يكونَ مَجنونًا أو كاذبًا؛ إذ ليس المجنونُ ولا الكاذبُ بكريمٍ، فأمَّا الشَّاعرُ والكاهنُ فقدْ كانَا مَعدودَينِ عِندَهم مِن أهلِ الشَّرَفِ[١].

- قولُه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أغْفَلَكم! تَتميمٌ[٢] للمعْنى السَّابقِ، وفيه معْنى التَّعجُّبِ[٣].

- و﴿قَلِيلًا﴾ في قولِه: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ و﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قيل: المُرادُ به انتِفاءُ ذلك مِن أصْلِه على طَريقةِ التَّمليحِ القَريبِ مِن التَّهكُّمِ[٤].

- وانتصَبَ ﴿قَلِيلًا﴾ في المَوضعَينِ على الصِّفةِ لمصدرٍ مَحذوفٍ أو زمانٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ و﴿تَذَكَّرُونَ﴾، أي: تُؤمِنون إيمانًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا، وتَذَكَّرون تَذكُّرًا قليلًا، أو زَمانًا قليلًا[٥].

- و(ما) يَحتمِلُ أنْ تكونَ نافيةً؛ فيَنْتفي إيمانُهم ألبَتَّةَ، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٢).

(٢) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١، ٢٤٠، ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٥).

مَصدريَّةً، والمتَّصِفُ بالقِلَّةِ هو الإيمانُ اللُّغويُّ، ويكونَ المصدرُ المؤوَّلُ في مَوضعِ رفْعٍ على الفاعليَّةِ بـ﴿قَلِيلًا﴾، أي: قَليلًا إيمانُكم، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ زائدةً مُؤكِّدةً، ولعلَّ هذا الوجهَ أصوَبُ الوُجوهِ؛ لأنَّه المناسِبُ لتأْكيدِ القِلَّةِ[١].

- قولُه: ﴿مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، و﴿مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ على قِراءةِ ﴿مَا يُؤْمِنُونَ﴾، و﴿مَا يَذَكَّرُونَ﴾ بالياءِ التَّحتيَّةِ[٢]، فيكونُ فيهما التِفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، وحسَّنَ ذلك كَونُهما مُعترِضتَينِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث خَتَم الأُولى بـ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، والثَّانيةَ بـ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، فأُوثِرَ نفْيُ الإيمانِ عنهم -على قولٍ- في جانبِ انتِفاءِ أنْ يكونَ قولَ شاعرٍ، ونَفْيُ التَّذكُّرِ -على قولٍ- في جانبِ انتِفاءِ أنْ يكونَ قولَ كاهنٍ؛ لأنَّ نفْيَ كَونِ القرآنِ قولَ شاعرٍ بَديهيٌّ؛ إذ ليس فيه ما يُشبِهُ الشِّعرَ مِن اتِّزانِ أجزائِه في المتحرِّكِ والسَّاكنِ والتَّقفيةِ المُتماثِلةِ في جَميعِ أواخِرِ الأجزاءِ، فادِّعاؤهم أنَّه قولُ شاعرٍ بُهتانٌ مُتعمَّدٌ، يُنادي على أنَّهم لا يُرْجى إيمانُهم، وأمَّا انتفاءُ كَونِ القرآنِ قولَ كاهنٍ فمُحتاجٌ إلى أدْنى تَأمُّلٍ؛ إذْ قد يُشبَّهُ في بادئِ الرَّأيِ على السَّامعِ مِن حيث إنَّه كلامٌ مَنثورٌ مُؤلَّفٌ على فواصِلَ، ويُؤلَّفُ كلامُ الكهَّانِ على أسجاعٍ مُثنَّاةٍ مُتماثِلةٍ زَوجَينِ زَوجَينِ، فإذا تأمَّلَ السَّامعُ فيه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٥، ٢٠٦).

(٢) قرأها ابنُ كثيرٍ ويعقوبُ وهشامٌ بالياءِ التَّحتيَّةِ، والباقون بالتَّاءِ، واختُلِف عن ذَكْوانَ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٣).

بأدْنى تَفكُّرٍ في نَظْمِه ومَعانيه، عَلِمَ أنَّه ليس بقولِ كاهنٍ[١]؛ فنَظْمُه مُخالِفٌ لنظْمِ كَلامِ الكُهَّانِ؛ إذ ليست فِقراتُه قصيرةً، ولا فواصِلُه مُزدوجةً، مُلتزَمٌ فيها السَّجعُ، ومَعانيه ليست مِن مَعاني الكِهانةِ الرَّاميةِ إلى الإخبارِ عمَّا يَحدُثُ لبعضِ النَّاسِ مِن أحداثٍ، أو ما يُلِمُّ بقومٍ مِن مَصائبَ مُتوقَّعةٍ ليَحذَروها؛ فلذلك كان المخاطَبون بالآيةِ مُنتفيًا عنهم التَّذكُّرُ والتَّدبُّرُ، وإذا بطَلَ هذا وذاك بطَل مُدَّعاهم؛ فحقَّ أنَّه تَنزيلٌ مِن ربِّ العالَمينَ، كما ادَّعاهُ الرَّسولُ الكريمُ عليه الصَّلاةُ والتَّسليمُ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ خبرًا ثانيًا عن اسمِ (إنَّ)، وهو تَصريحٌ بعْدَ الكِنايةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ خبرَ مُبتدأٍ مَحذوفٍ جَرى حذْفُه على النَّوعِ المسمَّى عِندَ بعضِ البلاغيِّين بمُتابَعةِ الاستِعمالِ[٣] في أمثالِه، وهو كثيرٌ في الكَلامِ البليغِ، وتكونَ الجُملةُ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ القرآنَ لَمَّا وُصِفَ بأنَّه ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، ونُفِيَ عنه أنْ يكونَ قولَ شاعرٍ أو قولَ كاهنٍ؛ تَرقَّبَ السَّامعُ مَعرفةَ كُنْهِه، فبُيِّنَ بأنَّه مُنزَّلٌ مِن ربِّ العالَمينَ على الرَّسولِ الكريمِ؛ ليَقولَه للنَّاسِ ويَتْلوَه عليهم[٤].

- وقولُه: ﴿تَنزِيلٌ﴾ وصْفٌ بالمصدَرِ؛ للمُبالَغةِ[٥].

---

(١) قال أبو السعود: (وأنت خبيرٌ بأنَّ ذلك أيضًا ممَّا لا يتوقَّفُ على تأمُّلٍ قطعًا). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٣).

(٣) العرَبُ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٤).

- وعُبِّرَ عن الجَلالةِ بوصْفِ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دونَ اسْمِه العَلَمِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه رَبُّ المخاطَبينَ، ورَبُّ الشُّعراءِ والكُهَّانِ الَّذين كانوا بمَحلِّ التَّعظيمِ والإعجابِ عندَهم[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ هذه الجُملةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾؛ فهي مَشمولةٌ لِما أفادَتْه الفاءُ مِن التَّفريعِ على ما اقتضاهُ تَكذيبُهم بالبعثِ مِن تَكذيبِهم القرآنَ، ومَن جاء به وقال: إنَّه وحْيٌ مِن اللهِ تَعالى، وهذه الجُملةُ مَعطوفةٌ عطْفَ اعتِراضٍ، فلك أنْ تَجعَلَ الواوَ اعتراضيَّةً؛ فإنَّه لا معْنى للواوِ الاعتراضيَّةِ إلَّا ذلك[٢].

- ومُفادُ هذه الجُملةِ: استِدلالٌ ثانٍ على أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تعالى بعْدَ الاستِدلالِ الأوَّلِ المستنِدِ إلى القسَمِ والمؤكِّداتِ، وهو استِدلالٌ بما هو مُقرَّرٌ في الأذهانِ مِن أنَّ اللهَ تعالى واسعُ القُدرةِ، وأنَّه سُبحانَه عليمٌ، فلا يُقْرِرُ أحدًا على أنْ يقولَ عنه كلامًا لم يَقُلْه، أي: لو لمْ يكُنِ القرآنُ مُنزَّلًا مِن عندِنا ومحمَّدٌ ادَّعى أنَّه مُنزَّلٌ مِنَّا، لَما أقرَرْناهُ على ذلك، ولعَجَّلْنا بإهلاكِه، فعَدَمُ هَلاكِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دالٌّ على أنَّه لم يَتقوَّلْه على اللهِ؛ فإنَّ (لو) تَقْتضي انتِفاءَ مَضمونِ شَرْطِها لانتِفاءِ مَضمونِ جَوابِها، فحَصَل مِن هذا الكلامِ غَرَضانِ مُهمَّانِ؛ أحدُهما: يَعودُ إلى ما تَقدَّمَ، أي: زيادةُ إبطالٍ لمَزاعمِ المشركين أنَّ القرآنَ شِعرٌ أو كِهانةٌ؛ إبطالًا جامعًا لإبطالِ النَّوعَينِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٤٤، ١٤٥).

أي: ويُوضِّحُ مُخالَفةَ القُرآنِ لهذَينِ النَّوعَينِ مِن الكلامِ أنَّ الآتيَ به يَنسُبُه إلى وحْيِ اللهِ، وما عَلِمْتُم شاعرًا ولا كاهنًا يَزعُمُ أنَّ كلامَه مِن عندِ اللهِ. وثانيهما: إبطالُ زعْمٍ لهم لم يَسبِقِ التَّصريحُ بإبطالِه، وهو قولُ فَريقٍ منهم ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [يونس: ٣٨]، أي: نَسَبَه إلى اللهِ افتراءً، وتقَوَّلَه على اللهِ؛ قال تعالَى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣]، فبيَّنَ لهم أنَّه لو افْتَرى على اللهِ لَما أقَرَّه على ذلك. ثمَّ إنَّ هذا الغرَضَ يَستتبِعُ غَرَضًا آخَرَ؛ وهو تأْييسُهم مِن أنْ يأتيَ بقُرآنٍ لا يُخالِفُ دِينَهم، ولا يُسَفِّهُ أحلامَهم وأصنامَهم؛ قال تبارك تعالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾[(١)] [يونس: ١٥].

- والتَّقوُّلُ: نِسبةُ قولٍ لِمَن لم يَقُلْه، وهو تَفعُّلٌ مِن القولِ، صِيغَت هذه الصِّيغةُ الدَّالَّةُ على التَّكلُّفِ؛ لأنَّ الَّذي يَنسُبُ إلى غَيرِه قولًا لم يَقُلْه يَتكلَّفُ ويَختلِقُ ذلك الكلامَ. ولِكَونِه في معْنى (كَذَبَ) عُدِّيَ بـ (على)[(٢)].

- والأقاويلُ: جمْعُ أقوالٍ، الَّذي هو جمْعُ قولٍ، أي: بعضًا مِن جِنسِ الأقوالِ الَّتي هي كثيرةٌ، فلِكَثرتِها جِيءَ لها بجمْعِ الجمْعِ الدَّالِّ على الكثرةِ[(٣)].

أو سمَّى الأقوالَ المتقوَّلةَ أقاويلَ؛ تَصغيرًا لها وتَحقيرًا، كقولِك: الأعاجيبُ والأضاحيكُ، كأنَّها جمْعُ أُفْعولةٍ مِن القَولِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٤، ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٦، ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧).

- قولُه: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾، قيل: المعنى: لَقَتَلْناه صَبْرًا، كما تَفعَلُ الملوكُ بمَن يَتكذَّبُ عليهم؛ مُعاجَلةً بالسَّخطِ والانتقامِ، فصُوِّرَ قتْلُ الصَّبرِ بصُورتِه ليَكونَ أهوَلَ؛ وهو أنْ يُؤخَذَ بيَدِه وتُضرَبَ رَقبتُه، وخصَّ اليمينَ على اليسارِ؛ لأنَّ القَتَّالَ إذا أراد أنْ يُوقِعَ الضَّربَ في قفاهُ أخَذَ بيَسارِه، وإذا أراد أنْ يُوقِعَه في جِيدِه وأنْ يُلحِقَه بالسَّيفِ -وهو أشدُّ على المصبورِ؛ لنَظَرِه إلى السَّيفِ-؛ أخَذَ بيَمينِه[1].

- قولُه: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾، أي: لَأخَذْناه أخْذًا عاجلًا فقَطَعْنا وَتينَه، وفي هذا تَهويلٌ لصُورةِ الأخْذِ؛ فلذلك لم يُقتصَرْ على نحْوِ: لأهْلَكْناهُ[2].

- واليمينُ: اليدُ اليُمنى، كُنِّيَ بها عن الاهتِمامِ بالتَّمكُّنِ مِن المأخوذِ؛ لأنَّ اليمينَ أقوى عمَلًا مِن الشِّمالِ؛ لكَثرةِ استِخدامِها، فنِسبةُ التَّصرُّفِ إليها شَهيرةٌ[3].

- و﴿مِنْهُ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿أَخَذْنَا﴾ تَعلُّقَ المفعولِ بعامِلِه. و(مِن) زائدةٌ في الإثباتِ، وفائدةُ (مِن) الزَّائدةِ في الكلامِ أنَّ أصْلَها التَّبعيضُ على وَجْهِ التَّمليحِ، كأنَّه يقولُ: نأخُذُ بَعضَه[4].

- والوَتينُ: عِرقٌ مُعلَّقٌ به القلبُ، ويُسمَّى النِّياطُ، وهو الَّذي يَسقي الجسَدَ بالدَّمِ؛ ولذلك يُقالُ له: نَهرُ الجسدِ، وهو إذا قُطِعَ مات صاحبُه، وهو يُقطَعُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عندَ نحْرِ الجَزورِ، فقَطْعُ الوَتينِ مِن أحوالِ الجَزورِ ونحْرِها؛ فشُبِّهَ عِقابُ مَن يُفرَضُ تَقَوُّلُه على اللهِ بجَزورٍ تُنحَرُ فيُقطَعُ وَتينُها[١]، واختير التَّعبيرُ به؛ لأنَّ مادَّتَه بهذا الترتيبِ تدورُ على المتانةِ والدَّوامِ، فلذا كان يفوتُ صاحبُه بفواتِه[٢].

- ومَوقعُ تَفريعِ قولِه: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ شَديدُ الاتِّصالِ بما استَتْبَعَه فرْضُ التَّقوُّلِ مِن تَأْييسِهم مِن أنْ يَتقوَّلَ على اللهِ كَلامًا لا يَسُوؤهم؛ ففي تلك الحالةِ مِن أحوالِ التَّقوُّلِ لو أخَذْنا منه باليمينِ فقَطَعْنا منه الوتينَ، لا يَستطيعُ أحدٌ منكم أو مِن غيرِكم أنْ يَحجُزَ عنه ذلك العِقابَ. وكَلمةُ (أَحَد) هو اسمٌ يقَعُ في النَّفيِ العامِّ مُستويًا فيه الواحدُ والجمْعُ، والمذكَّرُ والمؤنَّثُ، وبدونِ هذا الاتِّصالِ لا يَظهَرُ معْنى تَعجيزِهم عن نصْرِه؛ إذ لَيسوا مِن الولاءِ له بمَظِنَّةِ نصْرِه، فمعْنى هذه الآيةِ يَحومُ حولَ معْنى قولِه تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[٣] [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

- وإنَّما أُخبِرَ عن (أَحَد) وهو مُفرَدٌ بـ﴿حَٰجِزِينَ﴾ جمْعًا؛ لأنَّ (أحدًا) هنا وإنْ كان لَفظُه مُفرَدًا فهو في معْنى الجمْعِ؛ لأنَّ (أحدًا) إذا كان بمعْنى ذاتٍ أو شخصٍ لا يقَعُ إلَّا في سِياقِ النَّفيِ -مِثلَ عَريبٍ ودَيَّارٍ ونحوِهما مِن النَّكراتِ الَّتي لا تُستعمَلُ إلَّا مَنْفيَّةً-؛ فيُفيدُ العمومَ، أي: كلُّ واحدٍ لا يَستطيعُ الحجْزَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)) للبقاعي (٢٠/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٧).

عنه، ويَسْتوي في لَفظِه الواحدُ والجمْعُ، والمذكَّرُ والمؤنَّثُ[١].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ مَزيدةٌ؛ لتأكيدِ النَّفيِ، وللتَّنصيصِ على العُمومِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عطْفٌ على ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، والضَّميرُ عائدٌ إلى القرآنِ الَّذي تَقدَّمَ ضَميرُه في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[٣].

- والإخبارُ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ﴾ إخبارٌ بالمَصدَرِ؛ للمُبالَغةِ في الوَصفِ، والمعنى: أنَّه مُذكِّرٌ للنَّاسِ بما يَغفُلون عنه مِن العِلمِ باللهِ وما يَليقُ بجَلالِه؛ ليَنتشِلَهم مِن هُوَّةِ التَّمادي في الغَفلةِ حتَّى يَفوتَ الفواتُ، فالقرآنُ في ذاتِه تَذكرةٌ لِمَن يُريدُ أنْ يَتذكَّرَ، سواءٌ تَذكَّرَ أو لم يَتذكَّرْ[٤].

- والقُرآنُ تَذكرةٌ للمُتَّقينَ في الماضي والحالِ والمُستقبَلِ؛ فإنَّ الإخبارَ عنه باسمِ المَصدَرِ يَتحمَّلُ الأزمنةَ الثَّلاثةَ؛ إذ المصدرُ لا إشعارَ له بوقْتٍ، بخِلافِ الفعلِ وما أشْبَهَه[٥].

- وإنَّما عُلِّقَ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بكونِه تَذكرةً؛ لأنَّ المتَّقينَ هم الَّذين أدْرَكوا مَزيَّتَه، وهم المنتَفِعونَ به[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٤٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٩).

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هاتانِ جُملتانِ مُرتبطتانِ، وأُولاهما تَمهيدٌ وتَوطئةٌ للثَّانيةِ، وهي مُعترِضةٌ بيْن الَّتي قبْلَها والَّتي بعْدَها، والثَّانيةُ منهما مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨]، فكان تَقديمُ الجُملةِ الأُولى على الثَّانيةِ اهتِمامًا بتَنبيهِ المكذِّبين إلى حالِهم، وكانت أيضًا بمَنزلةِ التَّتميمِ لجُملةِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨]، والمعْنى: إنَّا بَعَثْنا إليكم الرَّسولَ بهذا القرآنِ، ونحن نَعلَمُ أنَّه سيكونُ منكم مُكذِّبون له وبه، وعِلْمُنا بذلك لم يَصْرِفْنا عن تَوجيهِ التَّذكيرِ إليكم وإعادتِه عليكم؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]؛ فقُوبِلَت صِفةُ القرآنِ الَّتي تَنفَعُ المتَّقينَ بصِفتِه الَّتي تَضُرُّ بالكافرينَ على طَريقةِ التَّضادِّ، فبيْن الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ مُحسِّنُ الطِّباقِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٩).

والطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ معَ مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِن الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَق بيْنَ الضَّحكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقونَ. ومنه: طباق ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خَفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةٌ، فتبدو المُطابَقةُ خفيَّةً؛ لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يقابلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ، كقولِه تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القصاصِ: القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أملَحِ الطِّباقِ وأخفاه. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٦).

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ إيعادٌ على التَّكذيبِ[١].

- والمكذِّبونَ: هم الكافِرونَ، وإنَّما عُدِلَ عن الإتيانِ بضَميرِهم إلى الاسمِ الظَّاهرِ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لأنَّ الحسرةَ تَعُمُّ المكذِّبين يومَئذٍ والَّذين سيَكفُرون به مِن بعْدُ[٢].

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ عطْفٌ على ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الحاقة: ٥٠]، فيَحتمِلُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا على القرآنِ؛ لأنَّ هذه مِن صِفاتِ القرآنِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ مُرادًا به المذكورُ، وهو كَوْنُ القرآنِ حَسرةً على الكافرينَ، أي: إنَّ ذلك حقٌّ لا مَحالةَ، أي: هو جالبٌ لحسْرتِهم في الدُّنيا والآخرةِ[٣].

- وإضافةُ حقٍّ إلى يَقينٍ يَجوزُ أنْ يكونَ مِن إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفةِ، أي: إنَّه لَلْيَقينُ الحقُّ الموصوفُ بأنَّه يَقينٌ لا يَشُكُّ في كونِه حقًّا إلَّا مَن غُشِيَ على بَصيرتِه، أي: لَلْيقينُ الحقُّ، أي: الَّذي لا تَعتريه شُبهةٌ[٤].

وقيل: ليست هذه الإضافةُ مِن بابِ إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه، بل مِن بابِ إضافةِ الجِنْسِ إلى نوعِه؛ فإنَّ «الحقَّ» -وكذلك «العلمُ» و«العينُ»- أعمُّ مِن كونِها يقينًا، فأُضيف العامُّ إلى الخاصِّ، مثل: بعضِ المتاعِ، وكُلِّ الدَّراهمِ.

ولما كان المضافُ والمضافُ إليه في هذا البابِ يَصْدُقانِ على ذَاتٍ واحدةٍ -بخلافِ قولِك: دارُ عمرٍو، وثوبُ زيدٍ- ظَنَّ مَنْ ظَنَّ أنَّها مِن إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه؛ وليس كذلك، بل هي مِن بابِ إضافةِ الجِنْسِ إلى نوعِه، كـ: ثوبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

خَزٍّ، وخاتَمِ فضَّةٍ. فالمضافُ إليه قد يكونُ مغايرًا للمضافِ، لا يَصْدُقانِ على ذاتٍ واحدةٍ، وقد يُجانسه فَيَصْدُقانِ على مسمًّى واحدٍ(١).

وعندَ الكوفيينَ هذا مِن إضافةِ الشيءِ إلى نفسِه، وأصلُه عندَهم: «الحقُّ اليقينُ» على النَّعتِ، ثمَّ أُضيف (المنعوت) إلى نعتِه، والنعتُ هو المنعوتُ في المعنى، فقد صار مِن إضافةِ الشيءِ إلى نفسِه(٢).

٩- قولُه تعالَى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تَفريعٌ على جميعِ ما تَقدَّمَ مِن وصْفِ القرآنِ وتَنزيهِه عن المطاعِنِ، وتَنزيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا افتراهُ عليه المشركون، وعلى ما أيَّدَه اللهُ به مِن ضرْبِ المثَلِ للمكذِّبين به بالأُمَمِ الَّتي كذَّبَت الرُّسلَ؛ فأُمِر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُسبِّحَ اللهَ تَسبيحَ ثَناءٍ وتَعظيمٍ شُكرًا له على ما أنْعَمَ به عليه مِن نِعمةِ الرِّسالةِ وإنزالِ هذا القرآنِ عليه(٣).

- والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ عن النَّقائصِ بالاعتِقادِ والعِبادةِ والقولِ؛ فتَعيَّنَ أنْ يَجريَ في التَّسبيحِ القَوليِّ اسمُ المنزَّهِ؛ فلذلك قال: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾، ولم يَقُلْ: فسبِّحْ ربَّك العظيمَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أيمان القرآن)) لابن القيم (١/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٩٣).

قال الشنقيطي: (والحقُّ هو اليقينُ. وإضافةُ الشيءِ إلى نفسِه معَ اختلافِ اللفظينِ أسلوبٌ عربيٌّ، وقد كثُر ورودُه في القرآنِ وفي كلامِ العربِ، ومنه في القرآنِ قولُه تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]، و«لدار» هي الآخرةُ، وقولُه: ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ [فاطر: ٤٣]، والمكرُ هو السيئُ بدليلِ قولِه بعدَه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾، وقولُه: ﴿مِنۡ حَبۡلٖ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، والحبلُ هو الوريدُ، وقولُه: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، والشَّهرُ هو رمضانُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣٧) بتصرف.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)). ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ١١٧).

تَفْسيرُ

سُورَةِ المعارجِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ المعارجِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (المعارِج)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ المعارِجِ مكِّيَّةٌ[٢]؛ نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

التَّذكيرُ بيَومِ القِيامةِ وشَدائدِه، وما فيه مِن حِسابٍ وجَزاءٍ، وثَوابٍ وعِقابٍ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- بَيانُ جُرأةِ الكافرِ في استِعجالِ العذابِ، وتَهديدُ الكافِرينَ بعَذابِ يومِ القِيامةِ.

٢- التَّأكيدُ على أنَّ يومَ القيامةِ حقٌّ، وأنَّه واقعٌ، وذِكرُ شَيءٍ مِن أهوالِه الشَّديدةِ.

---

(١) لم يَرِدْ فيها نصٌّ صريحٌ، لكن اشتَهَرت في كُتبِ التَّفسيرِ والمصاحفِ تَسميتُها بسُورة (المعارج). وسُمِّيَتْ بـ(المعارج)؛ لوُقوعِ هذه الكلمةِ في أوَّلِها. وتُسمَّى أيضًا سورةَ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾؛ لمفتتحِها، وسورةَ (الواقع)؛ لقولِه: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٨)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٤٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٨).

(٣) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابن الجوزيِّ، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٩٠).

٣- ذِكرُ جَهنَّمَ وأسبابِ استِحقاقِ عَذابِها، ومُقابَلةُ ذلك بأعمالِ المؤمنينَ الَّتي أدَّت بهم إلى الجنَّةِ.

٤- تَوبيخُ الكافِرينَ، وبَيانُ ذُلِّهم في يومِ القيامةِ.

٥- تَثبيتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَسليتُه على ما يَلْقاهُ مِن المشرِكينَ.

الآيات (١-٧)

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمَعَارِجِ﴾: أي: الدَّرَجاتِ، أو المصاعِدِ؛ لأنَّ العُرُوجَ: ذَهابٌ في صُعودٍ، أو السَّمَواتِ؛ لأنَّ الملائِكةَ تَعرُجُ فيها، وأصلُ (عرج): يدُلُّ على سُمُوٍّ وارتقاءٍ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ * مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾

- قَولُه تعالى: ﴿سَأَلَ﴾ فيه وَجهانِ؛ أحدُهما: أنْ يكونَ قد ضُمِّنَ معنى «دعا»؛ فلذلك تعدَّى بالباءِ؛ مِنْ قولِك: دعا بكَذا: إذا استَدْعاه وطَلَبه، ومنه قَولُه تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ [الدخان: ٥٥]، والمعنى: دعا داعٍ بعذابٍ. والثَّاني: أَنْ يكونَ على أصلِه، والباءُ بمعنى (عن).

- قولُه تعالى: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾: فيه أوجهٌ؛ أحدُها: أَنْ يتعلَّقَ بـ﴿سَأَلَ﴾ مُضَمَّنًا معنى «دَعا»، أي: دعا للكافِرينَ بعَذابٍ واقعٍ. الثَّاني: أَنْ يتعلَّقَ بـ﴿وَاقِعٍ﴾، واللَّامُ للعِلَّةِ، أي: نازِلٍ مِن أجْلِهم، أو تكونُ اللَّامُ بمعنى «على»، أي: واقعٍ على الكافِرينَ. الثَّالثُ: أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ صفةً ثانيةً لـ«عَذَابٍ»، أي: كائنٍ للكافِرينَ. الرَّابعُ: أَنْ يكونَ جوابًا للسَّائلِ، فيكونَ خبرَ مُبتدَأٍ محذوفٍ، أي: هو للكافِرينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٧).

- قوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ فيه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنْ يكونَ نعتًا آخَرَ لـ «عذابٍ». الثَّاني: أنْ يكونَ مُستأنَفًا. الثَّالثُ: أنْ يكونَ حالًا مِن «عذابٍ»؛ لتخصُّصِه بالعملِ أو الصِّفةِ.

- قَولُه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: في تعَلُّقِه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنْ يتعلَّقَ بـ﴿دَافِعٌ﴾، بمعنى: ليس له دافِعٌ مِنْ جهتِه تعالى إذا جاء وَقتُه. الثَّاني: أنْ يتعلَّقَ بـ﴿وَاقِعٍ﴾، أي: واقِعٍ مِن عندِه تعالى[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى في مَطلَعِ هذه السُّورةِ الكريمةِ مبيِّنًا جهْلَ المعاندينَ، واستعجالَهم لعذابِ الله: دعا داعٍ مِنَ الكُفَّارِ بعَذابِ اللهِ مُتعَجِّلًا له، وهو واقِعٌ بالكُفَّارِ لا محالةَ! وليس له دافعٌ يَدفَعُه عنهم، وهذا العذابُ واقعٌ عليهم مِنَ اللهِ ذي العلُوِّ والدَّرجاتِ والفواضِلِ والنِّعَمِ، فلا يمكِنُ لأحَدٍ دَفْعُه. تَصعَدُ الملائكةُ وجِبريلُ عليهم السَّلامُ إليه سُبحانَه وتعالى في يومٍ قَدْرُه خمسونَ ألْفَ سَنَةٍ!

فاصبِرْ -يا محَمَّدُ- على تكذيبِ المُشرِكينَ بك صَبرًا جَميلًا؛ إنَّ الكافِرينَ يَرَونَ عَذابَ الآخِرةِ بعيدًا وُقوعُه؛ لعَدَمِ إيمانِهم بالبَعثِ بعدَ المَوتِ، ونحن نَراه قريبَ الوُقوعِ؛ فكلُّ آتٍ قَريبٌ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٣٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٤٥ - ٤٤٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٦٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٩/ ٧٧).

قال ابن جُزَي: (﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يحتَمِلُ أن يتعلَّقَ بـ﴿وَاقِعٍ﴾ أي: واقِعٍ مِن عِندِ اللهِ، أو بـ﴿دَافِعٌ﴾ أي: ليس له دافِعٌ مِن عندِ اللهِ، أو يكونُ صِفةً للعَذابِ، أو مُستأنَفًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿سَالَ﴾ بالألِفِ مِن غيرِ هَمزٍ، قيل: هو مِن السَّيَلانِ، على معنى: جرى وادٍ في جهنَّمَ بعَذابٍ واقِعٍ[١]، وقيل: (سَالَ) بمعنى (سَأَلَ)، تُرِكت الهَمزةُ تَخفيفًا، فتكونُ القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ[٢].

٢- قِراءةُ: ﴿سَأَلَ﴾ بهمزةٍ مَفتوحةٍ؛ مِنَ السُّؤالِ، على معنى: دعا داعٍ بعَذابٍ واقِعٍ، أي: طَلَبه. وقيل: المعنى: سأل سائِلٌ عن عذابٍ واقِعٍ[٣].

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾.

أي: دعا داعٍ مِنَ الكُفَّارِ بعَذابِ اللهِ مُتعَجِّلًا له، وهو واقِعٌ بالكُفَّارِ لا محالةَ[٤]!

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٥٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢٠، ٧٢١).

(٢) قال الأزهري: (وجائِزٌ أن يكونَ ﴿سَالَ﴾ غيرَ مهموزٍ، ويكونَ بمعنى «سأل»، فَخُفِّفَ همزُه. وهو أَحَبُّ إلَيَّ من قَولِ مَن ذهب به إلى سَيْلِ الوادي؛ لتتَّفِقَ القِراءتانِ). ((معاني القراءات)) (٣/ ٨٨).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٥٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢١).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).
قوله: ﴿سَأَلَ﴾ اختُلِف فيه على قولَينِ:
أحدُهما: أن يكونَ السُّؤالُ بمعنَى الدُّعاءِ، أي: دعا داعٍ بعذابٍ واقِعٍ.
والآخَرُ: أن يكونَ السُّؤالُ بمعنَى الاستِخبارِ، أي: سأَلَ سائِلٌ عن عذابٍ واقِعٍ، والباءُ على هذا بمعنَى (عن). يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٤). =

= ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والزمخشري، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال ابن جُزَي: (وقد تكونُ الإشارةُ إلى قولِ الكفَّارِ: «أَمْطِرْ علينا حِجارةً مِن السَّماءِ»، وكان الَّذي قالها النَّضرُ بنُ الحارثِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩).

وقال ابن الجوزي: (قال المفسِّرون: نزلَت في النَّضرِ بنِ الحارثِ حينَ قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وهذا مذهبُ الجمهورِ؛ منهم ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ. وقال الرَّبيعُ بنُ أنسٍ: هو أبو جهلٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٥).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ أي أنَّ السُّؤالَ بمعنى الاستخبارِ: ابنُ جرير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٤).

قال ابن جُزَي: (وتكونُ الإشارةُ إلى قولِه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩).

وقال ابن كثير: (﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ فيه تضمينٌ دلَّ عليه حرفُ الباءِ، كأنَّه مقدَّر: يَستَعجِلُ سائلٌ بعذابٍ واقعٍ، كقولِه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، أي: وعذابُه واقعٌ لا مَحالةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٠).

وقال الرازي: (قال بعضُهم: هذا السَّائلُ هو رسولُ الله، استعجَل بعذابِ الكافِرين، فبَيَّن اللهُ أنَّ هذا العذابَ واقعٌ بهم، فلا دافِعَ له. قالوا: والَّذي يدُلُّ على صحَّةِ هذا التَّأويلِ قولُه تعالى في آخرِ الآيةِ: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، وهذا يدُلُّ على أنَّ ذلك السَّائلَ هو الَّذي أمَره بالصَّبرِ الجميلِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٧).

وقال ابن عاشور: (كان كفَّارُ قُرَيشٍ يَستَهزِئون فيَسألونَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم: متى هذا العذابُ الَّذي تَتوعَّدُنا به؟ ويَسألونَه تعجيلَه؛ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧]، وكانوا أيضًا يَسألونَ اللهَ أن يوقِعَ عليهم عذابًا إن كان القرآنُ حقًّا مِن عندِه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. =

﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢﴾.

أي: ليس للعَذابِ الواقعِ على الكافِرينَ أيُّ دافعٍ يَدفَعُه عنهم[1].

كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الملك: ٢٨].

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣﴾.

أي: وهذا العذابُ واقعٌ مِنَ اللهِ ذي العلُوِّ والدَّرجاتِ والفواضِلِ والنِّعَمِ، فلا يمكِنُ لأحَدٍ دَفْعُه[2].

= وقيل: إنَّ السَّائلَ شخصٌ معيَّنٌ، هو النَّضرُ بنُ الحارثِ، قال: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا﴾ أي: القرآنُ ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وكان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَسألُ اللهَ أن يُعينَه على المشركينَ بالقَحطِ، فأشارت الآيةُ إلى ذلك كلِّه، ولذلك فالمرادُ بـ﴿سَآئِلُۢ﴾ فريقٌ أو شخصٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٠).

قال السعدي: (أي: ليس لهذا العذابِ الَّذي استعجَلَ به مَن استعجلَ مِن مُتمَرِّدي المشركينَ أحدٌ يَدفَعُه قبْلَ نُزولِه، أو يَرفَعُه بعدَ نُزولِه... فالعذابُ لا بدَّ أن يقَعَ عليهم مِن الله؛ فإمَّا أن يُعَجَّلَ لهم في الدُّنيا، وإمَّا أنْ يُؤخَّرَ عنهم إلى الآخِرةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال ابن الجوزي: (قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ فيه قولانِ؛ أحدُهما: أنَّها السَّمواتُ، قاله ابنُ عبَّاسٍ. وقال مجاهدٌ: هي مَعارِجُ الملائكةِ. قال ابنُ قُتَيْبَةَ: وأصلُ «المعارج» الدَّرَجُ، وهي مِن عَرَجَ: إذا صَعِدَ. قال الفرَّاءُ: لَمَّا كانت الملائكةُ تَعْرُجُ إليه، وصَف نفْسَه بذلك). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٦). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾: ذو السَّمَواتِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ [غافر: ١٥].

﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤﴾.

﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾.

أي: تَصعَدُ الملائِكةُ وجِبريلُ عليهم السَّلامُ إليه سُبحانَه وتعالى[1].

= قال السمعاني: (وسُمِّيت السَّمواتُ مَعارِجَ؛ لأنَّ الملائكةَ يَعْرُجونَ إليها). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٥).

وممَّن قال في الجملةِ: إنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾: أي: ذي المَصاعِدِ: ابنُ أبي زَمَنين، والزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والنَّسَفي، وابنُ جُزَي، والنيسابوري، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكانيُّ، وعبَّر بعضُهم بقولِه: مَصاعِدِ الملائكةِ، وبعضُهم قال: المَراقي إلى السَّماءِ، وبعضُهم قال: الدَّرجاتِ الَّتي تَصعَدُ فيها الملائكةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٧٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٥٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٥).

وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ يعني: ذا العُلوِّ والدَّرَجاتِ، والفواضِلِ والنِّعَمِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٠).

وقال السعدي: (ذو العُلوِّ والجَلالِ والعَظَمةِ، والتَّدبيرِ لسائرِ الخَلقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال ابنُ كثيرٍ: (... عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ في قولِه: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ قال: ذو الدَّرَجاتِ. وقال عليُّ بنُ أبي طَلْحةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ يعني: العلو والفواضل. وقال مجاهدٌ: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ مَعارِجِ السَّماءِ. وقال قَتادةُ: ذي الفواضِلِ والنِّعَمِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٣٥٤).

قال ابنُ كثير في «الرُّوح»: (يحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ به جِبريلَ، ويكونَ مِن بابِ عَطفِ الخاصِّ على العامِّ، ويحتَمِلُ أن يكونَ اسمَ جِنسٍ لأرواحِ بني آدمَ؛ فإنَّها إذا قُبِضَت يُصعَدُ بها إلى السَّماءِ كما دَلَّ عليه حديثُ البَراءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢١). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣].

وقال سبحانه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤].

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

أي: في يومٍ واحدٍ قَدْرُه خمسونَ ألْفَ سَنةٍ[1]!

= وممَّن ذهب إلى أنَّ الرُّوحَ هنا جِبريلُ عليه السَّلامُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والقرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٧).

قال ابنُ عطيَّة: (الرُّوحُ عندَ جُمهورِ العُلَماءِ: هو جِبريلُ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٥).

ونسَبَه ابنُ الجَوزيِّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الرُّوحَ اسمُ جِنسٍ لأرواحِ بني آدمَ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

وذكر الماوَرْديُّ عن قَبيصةَ بنِ ذُؤَيْبٍ أنَّ المرادَ: رُوحُ الميِّتِ حينَ يُقبَضُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٩٠).

قال القرطبي: (﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي: تَصعَدُ في المعارجِ الَّتي جعَلَها اللهُ لهم). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨١).

وقال العُلَيمي: (﴿تَعْرُجُ﴾ أي: تَصعَدُ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الحَفَظةُ بأعمالِ بني آدمَ كُلَّ يومٍ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥١)، ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

قال ابن جُزَي: (اختُلِف في هذا اليومِ على قولَينِ؛ أحدُهما: أنَّه يومُ القيامةِ، والآخَرُ: أنَّه في الدُّنيا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠).

وقال ابن الجَوزيِّ: (﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فيه قَولانِ: =

= أحدُهما: أنَّه يومُ القيامةِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والقُرَظيُّ، وهذا هو مِقدارُ يومِ القيامةِ مِن وقتِ البَعثِ إلى أن يُفصَلَ بيْن الخَلقِ...

وقيل: بل لو وَلِيَ حِسابَ الخَلقِ سِوى اللهِ عزَّ وجلَّ لم يَفرُغْ منه في خمسينَ ألْفَ سَنةٍ! والحقُّ يَفرُغُ منه في ساعةٍ مِن نهارٍ. وقال عطاءٌ: يَفرُغُ اللهُ مِن حِسابِ الخَلقِ في مِقدارِ نِصفِ يومٍ مِن أيَّامِ الدُّنيا. فعلى هذا يكونُ المعنى: ليس له دافِعٌ مِنَ اللهِ في يومٍ كان مِقدارُه خمسينَ ألْفَ سَنةٍ... والثَّاني: أنَّه مِقدارُ صُعودِ الملائكةِ مِن أسفَلِ الأرضِ إلى العَرشِ لو صَعِدَه غيرُهم قَطَعه في خمسينَ ألْفَ سنةٍ. وهذا معنى قولِ مُجاهِدٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٧).

ونسَبَ الرَّسْعَنيُّ إلى جمهورِ المفسِّرينَ أنَّه يومُ القيامةِ. ثمَّ قال: (وهذا مِقْدارُ ما بيْن البَعثِ إلى الفَصلِ بيْن الخلائقِ، وإلَّا فهو يومٌ لا آخِرَ له، فعلى هذا القولِ: يتعلَّقُ قولُه: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ بقولِه: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ٢]، أي: ليس له دافِعٌ مِن الله في ذلك اليومِ. أو بقولِه: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، على معنى: سأل سائلٌ بعذابٍ واقِعٍ في ذلك اليومِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٧٦، ٢٧٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: مِقدارُ يومِ القيامةِ على الكافِرِ: القرطبيُّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٥).

قال ابن جُزَي: (اختُلِف هل مِقْدارُه [أي: اليومِ] خمسونَ ألْفَ سنةٍ حقيقةً؟ وهذا هو الأظهَرُ، أو هل وُصِف بذلك لشِدَّةِ أهوالِه؟ كما يُقالُ: يومٌ طويلٌ، إذا كان فيه مَصائبُ وهُمومٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠).

وقال القرطبي: (قيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، والمعنى: سأل سائلٌ بعذابٍ واقِعٍ للكافِرينَ ليس له مِن الله دافِعٌ، في يومٍ كان مِقْدارُه خمسينَ ألْفَ سنةٍ تَعرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إليه. وهذا القولُ هو معنى ما اختَرْناه). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ أنَّه لو وَلِيَ حِسابَ الخَلقِ أحدٌ سِوى الله عزَّ وجلَّ لم يَفرُغْ منه إلَّا في خمسينَ ألْفَ سَنةٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنِين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٤). ويُنظر أيضًا: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ٧١).

وممَّن قال بأنَّ مِقدارَ صُعودِ الملائكةِ مِن أسفَلِ الأرضِ إلى العَرشِ مَسافةُ خَمسينَ ألْفَ سَنةٍ لو قطَعَها غيرُهم: ابنُ جريرٍ، والبغويُّ، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) =

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن صاحِبِ ذَهَبٍ ولا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنها حَقَّها إلَّا إذا كان يومُ القيامةِ صُفِّحَت له صفائِحُ[(١)] مِن نارٍ، فأُحمِيَ عليها في نارِ جَهنَّمَ، فيُكوى بها جَنْبُه وجَبينُه وظَهرُه، كُلَّما بَرُدَت أُعيدَت له في يَومٍ كان مِقدارُه خَمسينَ ألْفَ سَنةٍ، حتَّى يُقضَى بيْن العِبادِ، فيَرى سَبيلَه؛ إمَّا إلى الجنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ))[(٢)].

﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥﴾.

= (٢٣/ ٢٥١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٦).

قال العُلَيمي: (﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ مِن سِنِي الدُّنيا، لو صَعِد فيه غيرُ المَلَكِ؛ لأنَّ المَلَكَ يَصعَدُ مِن مُنتهى أمرِ الله مِن أسفلِ السُّفلِ إلى منتهى أمرِه مِن فَوقِ السَّماءِ السَّابعةِ في يومٍ واحدٍ، ولو صَعِد فيه بنو آدَمَ لَصَعِدوه في خمسينَ ألْفَ سَنةٍ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٦).

وقال السعدي: (ذكَرَ المسافةَ الَّتي تَعرُجُ إلى اللهِ فيها الملائكةُ والأرواحُ، وأنَّها تَعرُجُ في يومٍ بما يسَّر لها مِن الأسبابِ، وأعانها عليه مِن اللَّطافةِ والخِفَّةِ وسرعةِ السَّيرِ، مع أنَّ تلك المسافةَ على السَّيرِ المُعتادِ مِقْدارُ خمسينَ ألْفَ سَنةٍ، مِن ابتداءِ العُروجِ إلى وُصولِها ما حُدَّ لها، وما تَنتهي إليه مِن المَلأِ الأعلى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

وقيل: المرادُ بذلك: مُدَّةُ بقاءِ الدُّنيا منذُ خلَقَ اللهُ هذا العالَمَ إلى قيامِ السَّاعةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٢).

قال ابن جُزَي: (إذا قُلْنا: إنَّه [أي: اليومَ] في الدُّنيا، فالمعنى: أنَّ الملائكةَ والرُّوحَ يَعرُجونَ في يومٍ لو عرَج فيه النَّاسُ لَعَرَجوا في خمسينَ ألْفَ سَنةٍ، وقيل: الخَمسونَ ألْفَ سَنةٍ هي مُدَّةُ الدُّنيا، والملائكةُ تَعرُجُ وتَنزِلُ في هذه المُدَّةِ. وهذا كلُّه على أن يكونَ قولُه: ﴿فِي يَوۡمٖ﴾ يتعلَّقُ بـ﴿تَعۡرُجُ﴾. ويحتملُ أن يكونَ ﴿فِي يَوۡمٖ﴾ صِفةً للعذابِ، فيتعيَّن أن يكونَ اليومُ يومَ القيامةِ، والمعنى على هذا مستقيمٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠).

(١) صُفِّحَت له صفائِحُ: أي: جُعِلَت لِصاحبِها (صَفائحَ)، أي: كأمثالِ الألواحِ، جمْع صَفيحةٍ، وهي ما طُبِعَ عَريضًا. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٦/ ٩).

(٢) رواه مسلم (٩٨٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الكفَّارُ قد سألوا استِعجالَ العذابِ، وكان السُّؤالُ على سبيلِ الاستهزاءِ والتَّكذيبِ، وكانوا قد وُعِدوا به؛ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ[١].

﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥﴾.

أي: فاصبِرْ -يا محَمَّدُ- على تكذيبِ المُشرِكينَ بك، وأذاهم لك، صَبرًا جَميلًا لا جَزَعَ فيه ولا شِكايةَ، ولا قِلَّةَ رِضًا ولا تعجُّلَ؛ فلا تَستعجِلْ عَذابَهم والنَّصرَ عليهم، وتحمَّلْ مَشاقَّ دَعوتِهم إلى اللهِ بلا ضَجَرٍ ولا مَلَلٍ[٢]!

﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦﴾.

أي: إنَّ الكافِرينَ يَرَونَ عَذابَ الآخِرةِ غَيرَ كائنٍ وُقوعُه؛ لعَدَمِ إيمانِهم بالبَعثِ بعدَ المَوتِ[٣].

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ٧﴾.

أي: ونحن نَرى العذابَ النَّازِلَ بهم قريبَ الوُقوعِ؛ لأنَّ ما أخبَرَ اللهُ بوُقوعِه فهو آتٍ لا محالةَ، وكلُّ آتٍ قَريبٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

أَمَرَ الله تعالى نَبيَّه بالهجْرِ الجميلِ، والصَّفحِ الجَميلِ، والصَّبرِ الجَميلِ؛ فالهجْرُ الجميلُ هجْرٌ بلا أذًى، والصَّفحُ الجَميلُ صَفحٌ بلا عِتابٍ، والصَّبرُ الجميلُ صَبْرٌ بلا شَكوَى[١].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ قد يُدفعُ العذابُ عن المسلمينَ مِن وُجوهٍ: إمَّا برحمةِ الله تعالى، أو بشفاعةِ الرُّسلِ والأخيارِ، وإمَّا بحسناتٍ سبَقت منهم، تُوجِبُ تكفيرَ سَيِّئاتِهم. فأمَّا الكفَّارُ فلا تَنالُهم رحمتُه، ولا شفاعةُ أحدٍ مِن الخلائقِ، وليست لهم حسناتٌ تُكفِّرُ سيِّئاتِهم، فليس لهم ما يَدفَعُ عنهم العذابَ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ جلَّ جَلالُه بنَفْسِه في السَّماءِ؛ لأنَّ «الهاءَ» في «إليه» راجِعةٌ على اللهِ ذي المَعارِجِ، فلو كان معهم في الأرضِ -كما يَزعُمونَ ويَفتَرونَ به عليه- ما كان لِذِكْرِ العُروجِ إليه معنًى[٣]!

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فيه سؤالٌ: كيف الجَمعُ بيْن هذه الآيةِ وبيْن قَولِه تعالى في سورة

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٩٩).

(السجدة): ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥]؟

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ آيةَ السَّجدةِ في الدُّنيا؛ فإنَّه سبحانه وتعالى يُدَبِّرُ الأمرَ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، ثُمَّ يَعرُجُ إليه في يومٍ كان مِقدارُ هذا اليَومِ الَّذي يَعرُجُ إليه الأمرُ ألْفَ سَنةٍ ممَّا نَعُدُّ، لكنَّه يكونُ في يومٍ واحدٍ، ولو كان بحسَبِ ما نَعُدُّ مِن السِّنينَ لَكان عنْ ألْفِ سَنَةٍ، فإذا نَزَلَ مِن السَّماءِ ثُمَّ عَرَجَ مِن الأرضِ فهذا ألْفُ سَنَةٍ، وأمَّا الآيةُ الَّتي في سورةِ (المعارجِ) فإنَّ ذلك يومُ القيامةِ -على قولٍ-، وقد ثَبَتَ في صحيحِ مسلمٍ[(١)] مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه في قِصَّةِ مانعِ الزَّكاةِ: أنَّه يُحْمَى عليها في نارِ جهنَّمَ، ((فيُكوى بها جنْبُه وجَبينُه وظَهْرُه، كُلَّما بَرُدَتْ أُعِيدَتْ في يومٍ كان مِقْدارُه خمسينَ ألْفَ سَنَةٍ))، فتبيَّن بهذا أنَّه ليس بيْن الآيتَينِ شَيءٌ مِن التَّعارُضِ؛ لاختِلافِ مَحَلِّهما[(٢)].

الثَّاني: أنَّ الأيَّامَ مُختَلِفةٌ؛ ففي سورةِ (المعارجِ): هو يومُ عُروجِ الرُّوحِ والملائِكةِ، وفي سورةِ (السَّجْدةِ): هو يومُ عُروجِ الأمرِ؛ فلا مُنافاةَ[(٣)].

الثَّالثُ: يحتَمِلُ أنَّه مِن أسفَلِ العالَمِ إلى أعلى العَرشِ مسافةُ خَمسينَ ألْفَ سَنةٍ، ومِن أعلى سماءِ الدُّنيا إلى الأرضِ مسافةُ ألْفِ سَنةٍ؛ لأنَّ عَرضَ كُلِّ سَماءٍ خَمسُمِئةٍ، وما بيْن أسفَلَ إلى قرارِ الأرضِ خَمسُمئةٍ، فقَولُه: ﴿فِي يَوْمٍ﴾، أي: مِن أيَّامِ الدُّنيا، وهو مِقدارُ ألْفِ سَنةٍ لو صَعِدوا فيه إلى سماءِ الدُّنيا، ومِقدارُ خَمسينَ ألْفَ سَنةٍ لو صَعِدوا إلى أعلى العَرشِ[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (٩٨٧).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٨٢).

٤- قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ ليس في أمرِ الله تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الصَّبرِ الجميلِ على أذَى المشركينَ ما يُوجِبُ أن يكونَ ذلك أمرًا منه له به في بعضِ الأحوالِ، بل كان ذلك أمرًا مِن الله له به في كلِّ الأحوالِ؛ لأنَّه لم يَزَلْ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن لَدُنْ بعَثه الله إلى أنْ اخترمه في أذًى منهم، وهو في كلِّ ذلك صابرٌ على ما يلقَى منهم مِن أذًى قبْلَ أن يأذَنَ الله له بحربِهم، وبَعْدَ إذْنِه له بذلك[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾

- قولُه: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ بمَنزلةِ (سُئِلَ)؛ لأنَّ مَجيءَ فاعلِ الفِعلِ اسمَ فاعلٍ مِن لَفظِ فِعلِه لا يُفيدُ زِيادةَ عِلمٍ بفاعلِ الفِعلِ ما هو؛ فالعُدولُ عن أنْ يقولَ: (سُئِلَ بعَذابٍ) إلى قولِه: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ﴾ لزِيادةِ تَصويرِ هذا السُّؤالِ العجيبِ[2].

- والسُّؤالُ مُستعمَلٌ في معْنى الاستِفهامِ عن شَيءٍ، والدُّعاءِ، على أنَّ استِفهامَهم مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ والتَّعجيزِ، ومِن بَلاغةِ القرآنِ تَعديةُ ﴿سَأَلَ﴾ بالباءِ؛ ليَصلُحَ الفعلُ لمعْنى الاستفهامِ والدُّعاءِ والاستعجالِ؛ لأنَّ الباءَ تَأتي بمعْنى (عن)، وهو مِن مَعاني الباءِ الواقعةِ بعْدَ فِعلِ السُّؤالِ[3].

- ووَصْفُ العَذابِ بأنَّه واقعٌ، وما بعْدَه مِن أوصافِه إلى قولِه: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٤، ١٥٥).

بَعِيدًا﴾[المعارج: ٦]، إدْماجٌ[١] مُعترِضٌ؛ ليُفيدَ تَعجيلَ الإجابةِ عمَّا سَأَل عنه سائلٌ بكِلا مَعْنيَي السُّؤالِ؛ لأنَّ السُّؤالَ لم يُحْكَ فيه عَذابٌ مُعيَّنٌ، وإنَّما كان مُجمَلًا لأنَّ السَّائلَ سأَلَ عن عَذابٍ غيرِ مَوصوفٍ، أو الدَّاعيَ دَعا بعَذابٍ غيرِ مَوصوفٍ، فحُكِيَ السُّؤالُ مُجمَلًا؛ ليُرتَّبَ عليه وَصْفُه بهذه الأوصافِ والتَّعلُّقاتِ، فيُنتقَلَ إلى ذِكرِ أحوالِ هذا العذابِ وما يَحُفُّ به مِن الأهوالِ. وقد طُوِيَت في مَطاوي هذه التَّعلُّقاتِ جُمَلٌ كثيرةٌ، كان الكلامُ بذلك إيجازًا؛ إذ حَصَل خِلالَها ما يُفهَمُ منه جَوابُ السَّائلِ، واستجابةُ الدَّاعي، والإنباءُ بأنَّه عَذابٌ واقعٌ عليهم مِن اللهِ، لا يَدفَعُه عنهم دافعٌ، ولا يَغُرُّهم تَأخُّرُه. وهذه الأوصافُ مِن قَبيلِ الأُسلوبِ الحكيمِ[٢]؛ لأنَّ ما عُدِّدَ فيه مِن أوصافِ العذابِ وهَولِه ووَقْتِه، هو الأَولى لهم أَنْ يَعلَموه؛ ليَحذَروه، دونَ أنْ يَخوضوا في تَعيينِ وَقْتِه، فحصَلَ مِن هذا كلِّه معْنى: أنَّهم سَأَلوا عن العَذابِ الَّذي هُدِّدوا به عن وَقتِه ووَصْفِه سُؤالَ استهزاءٍ، ودَعَوُا اللهَ أنْ يُرسِلَ عليهم عذابًا إنْ كان القرآنُ حقًّا؛ إظهارًا لقِلَّةِ اكتِراثِهم بالإنذارِ بالعذابِ، فأعْلَمَهم أنَّ العذابَ الَّذي استَهْزؤوا به واقعٌ، لا يَدفَعُه عنهم تَأخُّرُ وقْتِه، فإنْ أرادوا النَّجاةَ فلْيَحْذَروه[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۞ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٢) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأَولى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مقتضَى الظَّاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٥، ١٥٦).

- قولُه: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ قيل: مُتعلِّقٌ بـ ﴿سَأَلَ﴾، مُضمَّنًا معنَى: دعا، أي: دعا لهم. وقيل: مُتعلِّقٌ بـ ﴿وَاقِعٍ﴾، واللَّامُ للعِلَّةِ، أي: نازلٌ مِن أجْلِهم. ويجوزُ أن تكونَ اللَّامُ بمعنى (على)، أي: واقِعٍ على الكافِرين[١]. واللَّامُ في قولِه: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ لِشِبْهِ المِلْكِ، أي: عَذابٌ مِن خَصائصِهم[٢].

- وقولُه: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ...﴾ قيل: هو استِئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ وُقوعِ المسؤولِ عنهُ لا مَحالةَ[٣]. وقيل: هو نعتٌ ثانٍ لـ(عَذَابٍ)، أو حالٌ من (عَذَابٍ)؛ لأنَّه وصْفٌ[٤]. وقيل: قولُه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿وَاقِعٍ﴾، وقولُه: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ جُملةُ اعتراضٍ بيْن العاملِ والمعمولِ[٥].

- وإجْراءُ وَصْفِ ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ على اسمِ الجَلالةِ؛ لاستِحضارِ عَظَمةِ جَلالِه، ولإدماجِ الإشعارِ بكَثرةِ مَراتبِ القُربِ مِن رِضاهُ وثَوابِه؛ فإنَّ المَعارجَ مِن خَصائصِ مَنازلِ العُظَماءِ؛ قال تعالَى: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣]، ولكلِّ دَرجةٍ من المَعارجِ قومٌ عَمِلوا لنَوالِها؛ قال تعالَى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وليَكونَ مِن هذا الوصْفِ تَخلُّصٌ إلى ذِكرِ يومِ الجزاءِ الَّذي يكونُ فيه العذابُ الحقُّ للكافِرين[٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٠).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٦).

سَنَةٍ﴾

- قولُه: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المرادُ به يومُ القيامةِ -على قولٍ-، واستِطالتُه إمَّا لأنَّه كذلكَ في الحقيقةِ -وهو ظاهر الآيةِ-، أو لشِدَّته على الكفَّارِ، أوْ لكَثرةِ ما فيهِ مِن الحالاتِ والمُحاسَباتِ، وأيًّا ما كانَ فذلكَ في حقِّ الكافرِ، وأمَّا في حقِّ المؤمنِ فلا[1].

- والرُّوحُ: هو جِبريلُ عليه السَّلامُ، وتَخصيصُه بالذِّكرِ؛ لتَمييزِه بالفضْلِ على الملائكةِ، وتشريفًا[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ اعتِراضٌ مُفرَّعٌ: إمَّا على ما يُومِئُ إليه ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ [المعارج: ١] مِن أنَّه سُؤالُ استِهزاءٍ؛ فهذا تَثبيتٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وإمَّا على ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ بمعْنى: دعا داعٍ؛ فالفاءُ لتَفريعِ الأمرِ بالصَّبرِ على جُملةِ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ إذْ كان ذلك السُّؤالُ بمَعْنيَيه استهزاءً وتَعريضًا بالتَّكذيبِ، فشَأنُه ألَّا تَصبرَ عليه النُّفوسُ في العُرفِ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ تَعليلٌ لجُملتَيْ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، ولجُملةِ ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، أي: سَألوا استهزاءً؛ لأنَّهم يَرَونه مُحالًا، وعليك بالصَّبرِ؛ لأنَّا نَعلَمُ تَحقُّقَه، أي: وأنتَ تَثِقُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٧، ١٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٠).

بأنَّه قريبٌ، أي: مُحقَّقُ الوقوعِ، وأيضًا هو تَجهيلٌ لهم؛ إذ اغتَرُّوا بما هم فيه مِن الأمْنِ ومُسالَمةِ العرَبِ لهم، ومِن الحياةِ النَّاعمةِ، فرَأَوُا العذابَ الموعودَ بعيدًا؛ إنْ كان في الدُّنيا فلِأَمْنِهم، وإنْ كان في الآخرةِ فلإنْكارِهم البعثَ، والمعْنى: وأنت لا تُشبِهُ حالَهم، وذلك يُهوِّنُ الصَّبرَ عليك، فهو مِن بابِ ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[١] [الكهف: ٢٨].

- و﴿بَعِيدًا﴾ هنا كِنايةٌ عن معْنى الإحالةِ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنون بوُقوعِ العذابِ الموعودِ به، ولكنَّهم عبَّروا عنه بـ (بَعيدٍ)؛ تَشكيكًا للمؤمنينَ[٢].

- واستُعمِلَ ﴿بَعِيدًا﴾ كِنايةً عن تَحقُّقِ الوقوعِ على طَريقِ المُشاكَلةِ[٣] التَّقديريَّةِ، والمبالَغةِ في التَّحقُّقِ، وبينَ ﴿بَعِيدًا﴾ و﴿قَرِيبًا﴾ محسِّنُ الطِّباقِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٨).

(٣) المُشاكَلة: هي ذِكرُ الشَّيءِ بلَفظِ غيرِه لوُقوعِه في صُحبتِه تَحقيقًا أو تقديرًا. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٧٣٧)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٢، ٣٢٣)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٠٩)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٢٤، ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٨). وتقدَّم تعريفُ الطِّباقِ (ص: ١٢٨).

الآيات (٨ - ١٨)

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: المُهلُ: نَوعٌ مِن القَطِرانِ شَبيهٌ بعَكَرِ الزَّيتِ قد انتهى حَرُّه، وما أُذيبَ مِن الذَّهَبِ والفِضَّةِ والنُّحاسِ والرَّصاصِ، وأصلُ (مهل): يدُلُّ على جِنسٍ مِن الذَّائباتِ[١].

﴿كَٱلْعِهْنِ﴾: أي: الصُّوفِ المصبوغِ، وأصلُ (عهن): يدُلُّ على لِينٍ وسُهولةٍ[٢].

﴿حَمِيمٌ﴾: أي: قَريبٌ مُشفِقٌ، وحميمُ الرَّجُلِ: خاصَّتُه، مِنْ (حَمَّ): إذا دنا وقَرُبَ، فهو أخصُّ مِن الصَّديقِ[٣].

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾: أي: يُعَرَّفونَهم، أي يُعرَّفُ الحميمُ حميمَه حتَّى يعرِفَه، يُقالُ: بصَّرْتُ زيدًا بكذا، وبصَّرتُه كذا: إذا عرَّفْتَه إياه، وأصلُ (بصر) هنا: العلمُ بالشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٩٧)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٤٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، =

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾: أي: عَشيرتِه وأقاربِه، وفَصيلةُ الرَّجُلِ: رَهْطُه الأدْنَوْنَ، والفَصيلةُ أقرَبُ وأخَصُّ في النَّسَبِ مِنَ القَبيلةِ، والفَصيلةُ: القِطْعةُ مِن أعضاءِ الجَسَدِ، وسُمِّيتْ عشيرةُ الرَّجُلِ فَصيلةً؛ تَشبيهًا بالبَعضِ منه، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، وإبانتِه عنه[١].

﴿لَظَىٰ﴾: هي اسمٌ مِن أسماءِ جَهنَّمَ، عَلَمٌ مَنقولٌ مِن اسمِ اللَّهبِ، لا تَنصَرِفُ؛ فلذلك لا تُنَوَّنُ، واللَّظى: اللَّهَبُ الخالِصُ، يُقالُ: تلَظَّت النَّارُ تتلَظَّى تَلَظِّيًا: أي: توقَّدَت وتوهَّجَت وتلَهَّبَت[٢].

﴿لِّلشَّوَىٰ﴾: أي: الأطرافِ -اليَدينِ والرِّجْلينِ- وجِلْدِ الرَّأسِ، وأصلُ (شوي): يدُلُّ على الأمرِ الهَيِّنِ؛ مِن حيثُ إنَّ الشَّوى ليس بمَقْتَلٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا جانبًا مِن أهوالِ يومِ القيامةِ: يومَ تكونُ السَّماءُ كالشَّيءِ المائعِ الَّذي بَلَغ أقصَى الغايةِ في شِدَّةِ الحرارةِ، وتكونُ الجِبالُ يَومَ القيامةِ كالصُّوفِ المصبوغِ، ولا يَسأَلُ يومَ القيامةِ قَريبٌ قَريبًا عن حالِه وشأنِه؛ لشِدَّةِ ما

= ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٦).

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

يَعتريه مِن الهَولِ والفَزَعِ!

يُعرَّفُ كُلُّ حميمٍ بحَميمِه، ومع ذلك لا يَسأَلُ عن حالِه وشأنِه!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حالةَ المجرمينَ في هذا اليومِ، فيقولُ: يَتمنَّى الكافِرُ في ذلك اليومِ أن يَفتديَ مِن عذابِ اللهِ تعالى ذلك اليومَ بأبنائِه، وزَوجتِه، وإخوانِه، وعَشيرتِه الَّتي كانت تَنصُرُه وتُعينُه، ومَن في الأرضِ جميعًا، ثمَّ ينجُو هو بنفْسِه!

كلَّا! ذلك أمرٌ بعيدٌ! إنَّها نارٌ مُتلَهِّبةٌ مُتوَقِّدةٌ شَديدةُ الحرارةِ، تَنزِعُ أطرافَ الأبدانِ وجِلدةَ الرُّؤوسِ!

تدعو تلك النَّارُ إليها كلَّ مَنْ أدْبرَ في الدُّنيا عن الحَقِّ، وتولَّى عنه إلى الباطِلِ، وجمَعَ الأموالَ فكَنَزَها، ومَنَع حَقَّ اللهِ فيها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عن يومِ القيامةِ ما يَبعَثُ على السُّؤالِ عنه؛ استأنَفَ بَيانَه مُبيِّنًا عظَمَتَه[1]، فقال:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾.

أي: يومَ[2] تكونُ السَّماءُ كالشَّيءِ المائعِ الَّذي بَلَغ أقصَى الغايةِ في شِدَّةِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤).

(٢) في مُتعَلَّقِ ﴿يَوْمَ﴾ هنا أوجُهٌ:

أحدُها: أنَّه متعلِّقٌ بـ﴿قَرِيبًا﴾، والتقديرُ: ونراه قَريبًا يومَ تكونُ السَّماءُ كالمُهْلِ.

وثانيها: أنَّه متعلِّقٌ بمضمَرٍ يدُلُّ عليه ﴿وَاقِعٌ﴾ وهو يقعُ، أي: يقعُ يومَ تكونُ كالمُهْلِ.

والثَّالثُ: أنَّه متعلِّقٌ بمحذوفٍ مقدَّرٍ بعدَه، أي: يومَ تكونُ السَّماءُ كالمُهْلِ كان كذا وكذا. =

الحرارةِ[(١)].

= والرَّابعُ: أن يكونَ بدَلًا مِن «يَوْمٍ»، والتَّقديرُ: سأل سائِلٌ بعذابٍ واقعٍ في يومٍ كان مِقدارُه خمسينَ ألْفَ سَنةٍ يومَ تكونُ السَّماءُ كالمُهْلِ.

وقيل: يَتعَلَّقُ بفعلِ ﴿تَعْرُجُ﴾، وقيل: يَتعَلَّقَ بـ ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٨-٢٥١) و(٢٣/ ٢٥٦)، ((الزاهر)) لابن الأنباري (٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

قيل: المرادُ بالمُهْلِ: عَكَرُ الزَّيتِ [أي: ما غلُظَ ورَسَب منه]. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والسمعاني، وابن عطية، وابن جُزَي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عُمَرَ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧) و(٢٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨١).

قيل: المرادُ بهذا أنَّ السَّماءَ تكونُ كذلك؛ لسَوادِها وانكِدارِ أنوارِها يومَ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦).

وقيل: المرادُ: تشبيهُ السَّماءِ في انحلالِ أجزائِها بالزَّيتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمُهْلِ في الجملةِ: ما أُذيب مِن النُّحاسِ والرَّصاصِ والفِضَّةِ: الشَّوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧) و(٢٣/ ٢٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٢).

قال السعدي: (هو الرَّصاصُ المُذابُ مِن تشَقُّقِها، وبُلوغِ الهَولِ منها كُلَّ مَبلَغٍ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

وقيل: المُهلُ: ما أُذيبَ مِن فِضَّةٍ ونَحوِها، فيَجيءُ له ألوانٌ وتمَيُّعٌ مُختَلِطٌ، فالسَّماءُ تصيرُ مِثلَ ذلك؛ للأهوالِ الَّتي تُصيبُها. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦). =

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾.

أي: وتكونُ الجِبالُ يَومَ القيامةِ كالصُّوفِ المصبوغِ[1].

= قال ابن جرير: (يَقولُ تعالى ذِكْرُه: يومَ تكونُ السَّماءُ كالشَّيءِ المُذابِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٦).

وقال أيضًا بعدَ أن ذكَرَ الخِلافَ في تفسيرِ المُهلِ في سورةِ (الكهفِ): (وهذه الأقوالُ وإنِ اختلَفَتْ بها ألفاظُ قائِليها، فمُتَقارباتُ المعنَى؛ وذلك أنَّ كلَّ ما أُذيبَ مِن رَصاصٍ أو ذهَبٍ أو فِضَّةٍ فقد انْتَهى حَرُّه، وأنَّ ما أُوقِدَتْ عليه مِن ذلك النَّارُ حتَّى صار كدُرْدِيِّ الزَّيْتِ، فقد انْتَهى أيضًا حَرُّه... فالمُهْلُ إذًا هو كلُّ مائِعٍ قد أُوقِدَ عليه حتَّى بَلَغ غايةَ حَرِّه، أو لم يَكُنْ مائِعًا فانْماع بالوَقودِ عليه، وبَلَغ أقصَى الغايةِ في شِدَّةِ الحرِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٠، ٢٥١).

وقد تقدَّمَ الكلامُ عن المُهْلِ في تفسير سورةِ (الكهف) من هذا ((التفسير المحرَّر)) الآية (٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ العِهْنَ هو الصُّوفُ المصبوغُ: أبو عُبَيْدَةَ، وابنُ فارس، والواحديُّ، والسمعاني، والراغب، والزمخشري، والقرطبي، والبِقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

قال السمعاني: (العِهْنُ: الصُّوفُ المصبوغُ، وشبَّهه به في ضَعفِه وَلِينِه). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٦).

وقال ابنُ عاشور: (العِهنُ: الصُّوفُ المصبوغُ؛ قيل: المصبوغُ مُطلَقًا، وقيل: المصبوغُ ألوانًا مختَلِفةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩). و يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦).

وممَّن نصَّ على تخصيصِه بالمصبوغِ ألوانًا: أبو عُبَيْدَةَ، والزمخشريُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤).

وقال الحسَنُ: كالصُّوفِ الأحمَرِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿وَلَا يُسْأَلُ﴾ على معنى: لا يُسأَلُ قَريبٌ عن قريبِه، أو على معنى: لا يُقالُ لحَميمٍ: أينَ حَميمُك؟ أي: لا يُطالَبُ قَريبٌ بأن يُحضِرَ قَريبَه؛ لأنَّه لا جَوْرَ هناك، بخِلافِ ما يُفعَلُ في الدُّنيا أحيانًا بأن يُؤخَذَ الجارُ بالجارِ، والحَميمُ بالحَميمِ[(١)].

٢- قراءةُ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ﴾ على معنى: لا يَسألُ قَريبٌ قريبَه عن حالِه وشأنِه[(٢)].

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

أي: ولا يَسأَلُ يومَ القيامةِ قَريبٌ في غايةِ القُربِ والصَّداقةِ قَريبًا مِثْلَه عن حالِه وشأنِه؛ لشُغلِ كلِّ إنسانٍ بنَفْسِه عن غيرِه؛ لشِدَّةِ ما يَعتريه مِن الهَولِ والفَزَعِ[(٣)]!

= وقيل: العِهنُ هو الصُّوفُ، دونَ تقييدٍ. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠).

قال ابن جُزَي: (العِهنُ هو الصُّوفُ، شبَّه الجبالَ به في انتِفاشِه وتخلخلِ أجزائِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ العِهْنَ هو الصُّوفُ: مجاهدٌ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨١).

(١) قرأ بها: أبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقال سبحانه: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾﴾.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾.

أي: يُعرَّفُ كُلُّ حميمٍ بحَميمِه حتَّى يَعرِفَه، ويَرى ما فيه مِن كَربٍ وشِدَّةٍ، ومع ذلك لا يَسأَلُ عن حالِه وشأنِه؛ لشدَّةِ انشِغالِه بنَفْسِه[1]!

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾﴾.

أي: يَرغَبُ الكافِرُ في ذلك اليومِ ويتمَنَّى أن يُقبَلَ منه تقديمُ أبنائِه وزَوجتِه وإخوانِه؛ لإنقاذِ نَفْسِه مِنَ العَذابِ، فيُعذَّبون عِوَضًا عنه، ويَسلَمُ هو[2]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٦].

﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾.

= كثير)) (٨/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٠، ١٦١).

قال ابنُ عطيةَ: (المجرِمُ في هذه الآيةِ: الكافِرُ؛ بدليلِ شِدَّةِ الوَعيدِ، وذِكرِ لَظَى، وقد يَدخُلُ مُجرِمُ المعاصي فيما ذُكِرَ مِنَ الافتداءِ!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٧). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مَن بَقِيَ مِن الأقاربِ مُتقاربينَ في الرُّتبةِ؛ ذَكَر أقرَبَهم، فقال: ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾، أي: عَشيرتِه الَّذين هم أقرَبُ مَن فُصِلَ عنه[1].

﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾.

أي: ويَوَدُّ أن يُقبَلَ مِنه تقديمُ عَشيرتِه الَّتي كانت في الدُّنيا تضُمُّه وتَنصُرُه وتُعينُه، فتُعذَّبُ هي عِوَضًا عنه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٦، ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

قال ابنُ عاشور: (الفصيلةُ: الأقرباءُ الأَدْنَونَ مِنَ القَبيلةِ، وهم الأقرباءُ المفصولُ منهم، أي: المُستَخرَجُ منهم، فشَمِلَت الآباءَ والأمَّهاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦١).

وقال القَلْقَشَنْدي: (قد عدَّ أهلُ اللُّغةِ طبَقاتِ الأنسابِ ستَّ طبَقاتٍ:

الطَّبقةُ الأولى: الشَّعبُ، بفتحِ العَينِ، وهو النَّسبُ الأبعَدُ؛ كعَدْنانَ مثلًا...

الطَّبقةُ الثَّانيةُ: القَبيلةُ، وهي ما انقسَمَ فيه الشَّعبُ؛ كرَبيعةَ ومُضَرَ...

الطَّبقةُ الثَّالثةُ: العِمارةُ، بكسرِ العَينِ المُهمَلةِ، وهي ما انقسَم فيه أنسابُ القَبيلةِ؛ كقُرَيشٍ وكِنانةَ. وتُجمَعُ على عِماراتٍ، وعَمائرَ.

الطَّبقةُ الرَّابعةُ: البَطنُ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ العِمارةِ؛ كبَني عبدِ مَنافٍ، وبَني مَخزومٍ. ويُجمعُ: على بُطونٍ، وأبْطُنٍ.

الطَّبقةُ الخامِسةُ: الفَخِذُ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ البَطنِ؛ كبَني هاشمٍ، وبني أُمَيَّةَ. وتُجمعُ على: أفخاذٍ.

الطَّبقةُ السَّادسةُ: الفَصيلةُ، بالصَّادِ المُهمَلةِ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ الفَخِذِ؛ كبَني العبَّاسِ... وبالجُملةِ فالفَخِذُ يَجمَعُ الفصائلَ، والبطنُ يجمعُ الأفخاذَ، والعِمارةُ يجمعُ البُطونَ، والقبيلةُ تَجمعُ العَمائرَ، والشَّعبُ يجمعُ القبائلَ ... وزاد بعضُهم العَشيرةَ قبْلَ الفَصيلةِ). ((قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان)) (ص: ١٤). ويُنظر: ((الأحكام السلطانية)) للماوَرْدي (ص: ٣٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٤). =

﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤﴾.

أي: ويَرغَبُ في تقديمِ جَميعِ مَن في الأرضِ مِن أصدقائِه وغَيرِهم، فيُعذَّبون بَدَلًا منه، وينجُو بذلك مِن عَذابِ اللهِ(١).

﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥﴾.

أي: لن يكونَ للمُجرِمِ ما تمَنَّاه مِنَ الافتداءِ مِن عَذابِ اللهِ، فليس يُنجِيه مِن النَّارِ شَيءٌ؛ إنَّها نارٌ مُتلَهِّبةٌ مُتوَقِّدةٌ شَديدةُ الحرارةِ(٢)!

كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤].

﴿نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ١٦﴾.

أي: تَنزِعُ تلك النَّارُ أطرافَ أبدانِ المجرِمينِ -كاليَدينِ والرِّجْلينِ-، وجِلدةَ

= وقال الشنقيطي: (ولم يُذكَرْ مِن هذه السِّتِّ في القرآنِ إلَّا ثلاثٌ: الشُّعوبُ والقَبائلُ...، والفَصيلةُ في «المَعارِجِ»، في قولِه: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ﴾). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

قال الزمخشري: (﴿ثُمَّ﴾ لاستبعادِ الإنجاءِ، يعني: تمنَّى لو كان هؤلاء جميعًا تحتَ يَدِه، وبَذَلَهم في فِداءِ نَفْسِه، ثمَّ يُنجِيه ذلك، وهَيْهاتَ أن يُنْجِيَه!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢).

قال الواحدي: (لَظَى: مِن أسماءِ النَّارِ، ومَعناها في اللُّغةِ: اللَّهَبُ الخالِصُ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٥٢). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٤/ ٢٨٤).

وقال الشوكاني: (﴿كَلَّآ﴾ يأتي بمعنى: «حقًّا»، وبمعنى: «لا»، مع تضَمُّنِها لمعنى الزَّجْرِ والرَّدْعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٧). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٧).

رُؤوسِهم[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥).

قال ابنُ القيِّم: (في الآيةِ تفسيرانِ مَشهوران؛ أحَدُهما: أنَّ الشَّوى: الأطرافُ الَّتي ليست مَقاتِلَ؛ كاليَدينِ، والرِّجْلَينِ، تَنزِعُها عن أماكِنِها... التَّفسيرُ الثَّاني: أنَّ الشَّوى جمعُ شَواةٍ، وهي جِلدةُ الرَّأسِ وفَروتُه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ١١٤، ١١٥).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ -أنَّ الشَّوى: الأطرافُ الَّتي ليست مَقاتِلَ؛ كاليدَينِ والرِّجلَينِ-: الراغبُ، والبَغَويُّ، والخازن، وابن جُزَي. يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٧١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١١).

قال السَّمْعانيُّ: (الأكثَرونَ أنَّ الشَّوى هو الأطرافُ؛ مِثلُ اليَدينِ، والرِّجلَينِ، وغَيرِ ذلك). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو صالحٍ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨٢).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: ابنُ قُتَيْبَةَ، والغَزْنَوي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٦)، ((باهر البرهان)) للغزنوي (٣/ ١٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٨)، ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٨٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وسعيدُ ابنُ جُبَيرٍ، وقُرَّةُ بنُ خالدٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨٢).

قال البقاعي: (﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ أي: هي شديدةُ النَّزعِ لجُلودِ الرُّؤوسِ، بليغَتُه، فما الظَّنُّ بغيرِه مِن الجِلدِ؟! وقال في القاموس: الشَّوى: اليَدانِ والرِّجلانِ والأطرافُ، وقِحْفُ الرَّأسِ وما كان غيرَ مَقْتَلٍ. انتهى. وقيل: والجِلدُ كُلُّه واللَّحمُ. تَنزِعُ ذلك، ثمَّ يعودُ كما كان في الحالِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٩٨، ٣٩٩).

وقال ابن جرير جامعًا بيْن القولَينِ: (تَنْزِعُ جِلدةَ الرَّأسِ، وأطرافَ البدنِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦١).

=

﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧﴾.

أي: تدعو تلك النَّارُ إليها كلَّ مَنْ أدْبرَ في الدُّنيا عن الحَقِّ، وتولَّى عنه إلى الباطِلِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ١٨﴾.

أي: وجمَعَ الأموالَ فكَنَزَها، ومَنَع حَقَّ اللهِ فيها، فلم يُنفِقْ منها فيما أمَرَه[(٢)].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ * يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ

= وقال العُلَيميُّ: (وهي جِلدةُ الرَّأسِ وما ليست مَقتَلًا، كالأطرافِ، تَلخيصُه: تَقتلِعُ النَّارُ منهم كلَّ عُضْوٍ غير مَقتَلٍ، ثمَّ يَعودُ هكذا أبدًا). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٩).

وقال قَتادةُ: ﴿نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ﴾ أي: نَزَّاعةً لهامَتِه، ومَكارِمِ خَلقِه وأطرافِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥).

قال ابنُ كثير: (أي: تَدعو النَّارُ إليها أبناءَها الَّذين خلَقَهم اللهُ لها، وقدَّرَ لهم أنَّهم في الدَّارِ الدُّنيا يَعمَلونَ عمَلَها، فتَدْعوهم يومَ القيامةِ بلِسانٍ طَلْقٍ ذَلْقٍ، ثمَّ تَلتَقِطُهم مِن بيْنِ أهلِ المحشَرِ، كما يلتَقِطُ الطَّيرُ الحَبَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٥).

تَكۡنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ۞ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ۞ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴾ [الهمزة: ٢ - ٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۞ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ إذا كان هذا القَلَقُ والانزعاجُ لهذه الأجرامِ الكبيرةِ الشَّديدةِ، فما ظَنُّك بالعَبدِ الضَّعيفِ الَّذي قد أثقَلَ ظَهْرَه بالذُّنوبِ والأوزارِ؟ أليس حقيقًا أن ينخَلِعَ قَلبُه، ويَنزَعِجَ لُبُّه، ويَذهَلَ عن كلِّ أحَدٍ[1]؟!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾؛ لأنَّه قد كُشِفَ لهم أنَّه لا تُغْني نَفْسٌ عن نفْسٍ شيئًا، وأنَّه قد تقطَّعَت الأسبابُ، وتلاشت الأنسابُ، لَمَّا كَشَفَ الابتلاءُ عن أنَّه لا عِزَّ إلَّا بالتَّقوى[2]!

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ فيه إشارةٌ إلى حُبِّ الدُّنيا؛ فـ(جَمَع) إشارةٌ إلى الحِرصِ، و(أوعى) إشارةٌ إلى الأمَلِ، ولا شَكَّ أنَّ مَجامِعَ آفاتِ الدِّينِ ليست إلَّا هذه[3]!

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لم يُخبِرِ اللهُ تعالى أنَّ العالَمَ في يومِ القيامةِ يُعْدَمُ ويَفْنَى بحيثُ لا يبقَى شَيءٌ، بل أخبَرَ باستحالةِ العالَمِ؛ قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۞ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٦).

ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۞ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۞ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۞ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ [الواقعة: ٤ - ٧]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۞ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة: ٤-٥]، وأمثال هذه النُّصوصِ الَّتي تُبيِّنُ الاستِحالةَ والتَّغيُّرَ على السَّمَواتِ والأرضِ والجبالِ، وأنَّها تستحيلُ أنواعًا مِنَ الاستحالةِ؛ لتعَدُّدِ الأوقاتِ[1]. وذلك بِناءً على القولِ بأنَّ التَّبديلَ للسَّمواتِ والأرضِ تبديلُ صِفاتٍ لا ذاتٍ.

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۞ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴾ بدأ جَلَّ ثناؤُه بذِكرِ البَنينَ، ثمَّ الصَّاحِبةِ، ثمَّ الأخِ؛ إعلامًا منه عِبادَه أنَّ الكافِرَ مِن عَظيمِ ما يَنزِلُ به يومَئِذٍ مِنَ البَلاءِ يَفْتَدي نَفْسَه -لو وجَدَ إلى ذلك سبيلًا- بأحَبِّ النَّاسِ إليه[2]!

٣- قولُه تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ...﴾ الآياتِ: فيه أنَّ غيرَ المجرمِ لا يَوَدُّ ذلك؛ لأنَّه قد افتدَى في الدُّنيا مِن عذابِ يومئذٍ بالتَّقوَى والإيمانِ، وإنَّما هو في هذا اليومِ لا يَحزُنُه الفزعُ الأكبرُ، ويُؤمِّلُ اجتماعَه بمَن صلَح مِن آبائِه وأبنائِه وأحبابِه في جنَّاتِ النَّعيمِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۞ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾ يَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بـ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ ﴾؛ قُدِّمَ عليه

(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((المواهب الربانية من الآيات القرآنية)) للسعدي (ص: ١٥).

للاهتِمامِ بذِكرِ اليَومِ، فيَكونَ قولُه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ ابتِداءَ كَلامٍ، والجُملةُ المَجعولةُ مَبدأَ كَلامٍ تُجعَلُ بدَلَ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، ويَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بفِعلِ ﴿تَعْرُجُ﴾[1].

- وفي قولِه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ تَشبيهٌ مُرسَلٌ[2]، ووَجْهُ الشَّبهِ التَّلوُّنُ، والمعْنى: تَشبيهُ السَّماءِ في انْحلالِ أجْزائِها بالزَّيتِ، أو كالفِضَّةِ المُذابةِ في تَلوُّنِها[3]. وذلك على أحدِ الأقوالِ.

- وكذلك في قولِه: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ تَشبيهٌ مُرسَلٌ، ووَجْهُ الشَّبَهِ تَفرُّقُ أجزاءِ الصُّوفِ المَصبوغِ ألْوانًا، فإيثارُ العِهنِ بالذِّكرِ لإكمالِ المُشابَهةِ؛ لأنَّ الجِبالَ ذاتُ ألْوانٍ؛ فمنها جُدَدٌ بيضٌ، وحُمْرٌ مُختلِفٌ ألوانُها، وغَرابيبُ سُودٌ، فإذا بُسَّت وطُيِّرت في الجوِّ؛ أشْبَهَت العِهنَ المَنفوشَ إذا طيَّرَتْه الرِّيحُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).
ويُنظر ما تقدَّم: (ص: ١٥٤).

(٢) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: هو إثباتُ حُكمٍ مِن أحكامِ المُشبَّهِ به للمُشبَّهِ. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ عِدَّةَ تَقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّةٍ؛ فمنه: التَّشبيهُ البليغُ: وهو ما كانتْ أداةُ التَّشبيهِ فيه مَحذوفةً. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ باعتبارٍ آخَرَ إلى مُؤكَّدٍ: وهو ما حُذِفتْ فيه الأداةُ، نحو: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مِثلَ مرِّ السَّحابِ. ومُرْسَلٍ: وهو ما لم تُحذَفْ فيه الأداةُ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، أي: لشِدَّةِ ما يَعْتري النَّاسَ مِن الهَولِ، فمِن شِدَّةِ ذلك أنْ يَرى الحميمُ حَميمَه في كَرْبٍ وعَناءٍ، فلا يَتفرَّغَ لسُؤالِه عن حالِه؛ لأنَّه في شاغلٍ عنه، فحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿يَسْـَٔلُ﴾؛ لظُهورِه مِن المَقامِ ومِن قولِه: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾، أي: يُبصَّرُ الأخِلَّاءُ أحوالَ أخِلَّائِهم مِن الكَرْبِ، فلا يَسأَلُ حَميمٌ حَميمًا[1].

- و﴿حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ نَكِرتانِ في سِياقِ النَّفيِ؛ فيَعُمَّانِ، ولذلك جُمِعَ الضَّميرُ في ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾[2].

- قيل: مَوقعُ قولِه: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ مَوقعُ الاستئنافِ البيانيِّ؛ لدفْعِ احتمالِ أنْ يَقَعَ في نفْسِ السَّامعِ أنَّ الأَحِمَّاءَ لا يَرى بَعضُهم بعضًا يَومَئذٍ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ في شاغلٍ، فأُجيبَ بأنَّهم يُكشَفُ لهم عنْهم ليَرَوا ما هم فيه مِن العذابِ، فيَزْدادوا عذابًا فوقَ العذابِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ صِفةً، أي: حَميمًا مُبصَّرين مُعرَّفين إيَّاهم، وقيل غير ذلك[3].

- قولُه: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ مُضارِعُ (بَصَّرَه بالأمرِ)؛ إذا جَعَلَه مُبصِرًا له، أي: ناظرًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩، ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢).

فأصْلُه: يُبصَّرون بهم، فوَقَعَ فيه حذْفُ الجارِّ، وتَعديةُ الفعلِ[١].

- قولُه: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ حالٌ مِن أحَدِ الضَّميرين؛ المرفوعِ أو المنصوبِ مِن ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾، أو استئنافٌ يدُلُّ على أنَّ اشتغالَ كلِّ مُجرِمٍ بنفْسِه بحيثُ يَتمنَّى أنْ يَفتديَ بأقرَبِ النَّاسِ إليه، وأعْلَقِهم بقَلْبِه، فَضلًا أنْ يَهتَمَّ بحالِه ويَسأَلَ عنها[٢].

- والتَّنوينُ في قولِه: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ عِوَضٌ عن جُمَلٍ مَحذوفةٍ، والتَّقديرُ: يوم إذ تكونُ السَّماءُ كالمُهلِ، وتكونُ الجبالُ كالعِهنِ، ولا يَسأَلُ حَميمٌ حَميمًا[٣]. فـ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ هو ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾؛ فإنْ كان قولُه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ﴾ مُتعلِّقًا بـ﴿يَوَدُّ﴾، فقولُه: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ تأكيدٌ لـ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾، وإنْ كان مُتعلِّقًا بقولِه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [المعارج: ٤]، فقولُه: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ إفادةٌ لكونِ ذلك اليومِ هو يَومَ يَودُّ المجرِمُ لو يَفْتدي مِن العذابِ بمَن ذُكِرَ بعْدَه[٤].

- والفَصيلةُ: الأقرباءُ الأدْنَون مِن القَبيلةِ، وهم الأقرباءُ المَفصولُ منهم، أي: المُستخرَجُ منهم؛ فشَمِلَتِ الآباءَ والأُمَّهاتِ؛ فالفصيلةُ دلَّت على الآباءِ باللَّفظِ، وتُستفادُ الأُمَّهاتُ بدَلالةِ لَحنِ الخِطابِ[٥]. وقيل: الفصيلةُ هي أُمُّه، ويُفهَمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٠).

(٥) لحنُ الخِطابِ: هو أن يكونَ المَسكوتُ عنه موافِقًا للمَنطوقِ في الحُكمِ، ويُسمَّى أيضًا: فَحْوى الخِطابِ. وقيل: إنْ كان أَوْلى بالحُكمِ مِن المنطوقِ به فيُسَمَّى فَحْوى الخِطابِ، وإن كان مساويًا فيُسَمَّى لحنَ الخطابِ. وقيلَ غيرُ ذلك. يُنظر: ((شرح تنقيح الفصول)) للقرافي (ص: ٥٣)، ((نفائس الأصول)) للقرافي (٢/ ٦٤١)، ((المختصر في أصول الفقه)) لابن اللحام (ص: ١٣٢)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ٣٧).

منها الأبُ بطَريقِ لحْنِ الخِطابِ؛ فيَكونُ قدِ استَوفى ذِكرَ أقرَبِ القَرابةِ بالصَّراحةِ والمَفهومِ[١].

- وقد رُتِّبَت الأقرباءُ على حسَبِ شِدَّةِ المَيلِ الطَّبيعي في العُرْفِ الغالبِ؛ لأنَّ المَيلَ الطَّبيعيَّ يَنشَأُ عن المُلازَمةِ وكَثرةِ المُخالَطةِ، ولم يُذكَرِ الأبَوانِ لدُخولِهما في الفصيلةِ؛ قَصْدًا للإيجازِ[٢].

فلـمَّا ذكَر ألصقَ النَّاسِ بالفؤادِ، وأعزَّ مَن يلزمُه نصرُه والذَّبُّ عنه؛ أتبعَه ما يَليه في الرُّتبةِ والمودَّةِ، وما الافتداءُ به -لا سيَّما عندَ العربِ- مِن أقبحِ العارِ، فقال: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾، ولَمَّا ذَكَر الصَّاحِبةَ لِما لها مِن تمامِ الوُصْلةِ؛ أتْبَعَها الشَّقيقَ الَّذي لا يَلزَمُ مِنَ الذَّبِّ عنه ما يلزَمُ مِنَ الذَّبِّ عن الحريمِ، ورُبَّما كان مُباينًا، ولما كان مَن بقِي مِن الأقاربِ بعدَ ذلك متقاربينَ في الرُّتبةِ؛ ذكَر أقربَهم، فقال: ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: عشيرتِه، ولما خصَّ هنا عمَّ فقال: ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾[٣].

- وفي قولِه: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـَٔاوِيهِ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه هنا لَمَّا كان السِّياقُ للافتِداءِ، بدَأَ بأعَزِّهم في ذلك، بخِلافِ ما في سُورةِ (عَبَسَ)، فقال: ﴿بِبَنِيهِ﴾؛ لشِدَّةِ ما يَرى. ولَمَّا كانت هذه الآيةُ في الفِديةِ، قدَّمَ الأبعَدَ عن ذلك فالأبعَدَ مِن جِهةِ النَّفعِ والمَعرَّةِ. ولَمَّا كانتْ آيةُ سُورةِ (عَبَسَ) في الفِرارِ والنَّفرةِ، قدَّمَ الألْصَقَ فالألْصَقَ، والأعلَقَ في الأُنسِ فالأعلَقَ[٤].

- والإيواءُ: الضَّمُّ والانحيازُ، و﴿ٱلَّتِي تُـَٔاوِيهِ﴾: إنْ كانت القبيلةَ، فالإيواءُ عُبِّر به

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٣٩٦، ٣٩٧).

عن الحِمايةِ والنَّصرِ، أي: ومع ذلك يَفْتدي بها؛ لعِلمِه بأنَّها لا تُغْني عنه شيئًا يَومَئذٍ، وإنْ كانت الأُمَّ فالإيواءُ باعتبارِ الماضي، وصِيغةُ المُضارِعِ لاستِحضارِ الحالةِ، أي: يَوَدُّ لو يَفْتدي بأُمِّه مع شِدَّةِ تَعلُّقِ نفْسِه بها؛ إذ كانت تُؤوِيه، فإيثارُ لَفظِ (فَصِيلَتِهِ) وفِعلِ ﴿تُؤْوِيهِ﴾ هنا مِن إيجازِ القرآنِ وإعجازِه؛ ليَشملَ هذه المعانيَ[١].

- قولُه: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، أي: ومَن له في الأرضِ ممَّا يَعِزُّ عليه مِن أخِلَّاءَ، وقَرابةٍ، ونَفائسِ الأموالِ، ممَّا شأْنُ النَّاسِ الشُّحُّ ببَذْلِه، والرَّغبةُ في استبقائِه، و(مَن) المَوصولةُ لتَغليبِ العاقلِ على غَيرِه؛ لأنَّ منهم الأخِلَّاءَ[٢].

- وحرْفُ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ، أي: يَوَدُّ بَذْلَ ذلك، وأنْ يُنجيَه الفِداءُ مِن العذابِ، فالإنجاءُ مِن العذابِ هو الأهمُّ عندَ المُجرِمِ في وِدادتِه[٣]. وقيل: (ثُمَّ) تُفيدُ استبعادَ الإنجاءِ لشِدَّةِ الهَولِ، يعْنى: تَمنَّى لو كان هؤلاء جميعًا تحتَ يَدِه وبَذَلَهم في فِداءِ نفْسِه، ثمَّ يُنجيه ذلك، وهَيهاتَ[٤]!

- والمَعطوفُ بـ(ثُمَّ) هو المُسبَّبُ عن الوِدادةِ، فلذلك كان الظاهرُ أنْ يُعطَفَ بالفاءِ، وهو الأكثَرُ في مِثلِه، كقولِه تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]، وقولِه: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، فعُدِلَ عن عطْفِه بالفاءِ هنا إلى عطْفِه بـ (ثُمَّ)؛ للدَّلالةِ على شِدَّةِ اهتمامِ المُجرِمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦١، ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢).

بالنَّجاةِ بأيَّةِ وَسيلةٍ[١].

- ومُتعلَّقُ ﴿يُنجِيهِ﴾ مَحذوفٌ، يدُلُّ عليه قولُه: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّآ﴾ حرْفُ رَدْعٍ وإبطالٍ لكلامٍ سابقٍ، ولا يَخْلو مِن أنْ يُذكَرَ بعْدَه كَلامٌ، وهو هنا لإبطالِ ما يُخامِرُ نُفوسَ المُجرِمِ مِن الوِدادةِ، وتَصريحٌ بامتناعِ إنجاءِ الافتداءِ، نُزِّلَ مَنزلةَ الكلامِ؛ لأنَّ اللهَ مطَّلِعٌ عليه، أو لإبطالِ ما يَتفوَّهُ به مَن تَمنَّى ذلك؛ قال تعالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[٣] [النبأ: ٤٠].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عمَّا أفادَهُ حرْفُ (كلَّا) مِن الإبطالِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ الضَّميرُ للنَّارِ، ولم يَجْرِ لها ذِكرٌ؛ لأنَّ ذِكرَ العذابِ دلَّ عليها، أو مُبهَمٌ يُفسِّرُه ﴿لَظَىٰ﴾[٥].

- والمَقصودُ التَّعريضُ بأنَّ النَّارَ أُعِدَّت له، أي: أنَّها تُحرِقُك وتَنزِعُ شَواكَ، وقدْ صُرِّحَ بما وَقَعَ التَّعريضُ به في قولِه: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٧، ١٨]، أي: تَدْعوك يا مَن أدْبَرَ عن دَعوةِ التَّوحيدِ، وتَولَّى عنها، ولم يَعبَأْ إلَّا بجمْعِ المالِ. وحرْفُ (إنَّ) إمَّا للتَّوكيدِ مُتوجِّهًا إلى المعْنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١، ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٣).

التَّعريضيِّ، وإمَّا لمُجرَّدِ الاهتمامِ بالجُملةِ الَّتي بعْدَه؛ لأنَّ الجُمَلَ المُفتتَحةَ بضَميرِ الشَّأنِ مِن الأخبارِ المُهتَمِّ بها[١].

- والنَّزَّاعةُ: مُبالَغةٌ في النَّزعِ، وهو الفصْلُ والقطْعُ[٢].

- قولُه: ﴿نَزَّاعَةً﴾ قُرِئَ ﴿نَزَّاعَةٌ﴾ بالرَّفعِ على التَّهويلِ، أي: هي نَزَّاعةٌ، وقُرِئَ بالنَّصبِ[٣] على الحالِ المُؤكِّدةِ، أو المُتنقِّلةِ على أنَّ ﴿لَظَىٰ﴾ بمعنى مُتلظِّية، أو على الاختِصاصِ للتَّهويلِ[٤].

- والشَّوى: اسمُ جمْعِ شَوَاةٍ، وهي العضْوُ غيرُ الرَّأسِ، مِثلُ اليدِ والرِّجْلِ؛ فالجمْعُ باعتبارِ ما لكلِّ أحدٍ مِن شَوى. وقيل: الشَّوَاةُ: جِلدةُ الرَّأسِ، فالجمْعُ باعتِبارِ كَثرةِ النَّاسِ[٥].

- والإدبارُ: ترْكُ شَيءٍ في جِهةِ الوَراءِ؛ لأنَّ الدُّبُرَ هو الظَّهرُ، فأدْبَر: جَعَل شيئًا وَراءَه بألَّا يُعرِّجَ عليه أصْلًا، أو بأنْ يُقبِلَ عليه ثمَّ يُفارِقَه. والتَّولِّي: الإدبارُ عن شَيءٍ والبُعدُ عنه، وأصْلُه مُشتَقٌّ مِن الوَلايةِ، وهي المُلازَمةِ، ثمَّ قالوا: ولَّى عنه، أرادوا: اتَّخَذ غيرَه وليًّا، أي: ترَكَ وَلايتَه إلى ولايةِ غيرِه، ففي التَّولِّي معْنى إيثارِ غيرِ المُتولَّى عنه؛ ولذلك يكونُ بيْن التَّولِّي والإدبارِ فرْقٌ، وباعتبارِ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٦٤).

(٣) قرأ حفص ﴿نَزَّاعَةً﴾ بالنَّصبِ، وقرأ الباقونَ بالرَّفعِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤، ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢، ٢١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٤).

الفرْقِ عُطِفَ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ على ﴿أَدۡبَرَ﴾، أي: تَدْعو مَن ترَكَ الحقَّ، وتَولَّى عنه إلى الباطلِ. وهذه دَقيقةٌ مِن إعجازِ القُرآنِ؛ بأنْ يكونَ الإدبارُ إدْبارَ غَيرِ تَوَلٍّ، أي: إدبارًا مِن أوَّلِ وَهْلةٍ، ويكونَ التَّولِّي مُرادًا به الإعراضُ بعْدَ مُلابَسةٍ؛ ولذلك يكونُ الإدبارُ مُعبَّرًا به عن عدَمِ قَبولِ القُرآنِ، ونفْيِ استماعِ دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو حالُ الَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [فصلت: ٢٦]، والتَّولِّي مُعبَّرًا به عن الإعراضِ عن القُرآنِ بعْدَ سَماعِه، وللنُّفورِ عن دَعوةِ الرَّسولِ، كما قال تعالَى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]، وكِلا الحالَينِ حالُ كفْرٍ، ومُحِقَّةٌ للعِقابِ، وهما مُجتَمِعَتانِ في جَميعِ المُشرِكين، والمقصودُ مِن ذِكرِهما معًا تَفظيعُ أصحابِهما[١].

- يجوزُ أن يكونَ متعلَّقُ ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ متحدًا يَتنازَعُه كِلا الفِعلَينِ، ويُقدَّرُ بنحوِ: عن الحقِّ؛ إذ العِبرةُ باختلافِ معنَيَي الفِعلَينِ، وإن كان متعلَّقُهما متَّحدًا. ويجوزُ أن يُقدَّرَ لكلِّ فعلٍ متعلَّقٌ هو أشدُّ مُناسَبةً لمعناه، فقيل: أدبَر عن الحقِّ، وتولَّى عن الطَّاعةِ، أي: لم يَقبَلِ الحقَّ، وهو الإيمانُ مِن أصلِه، وأعرَض عن طاعةِ الرَّسولِ بعدَ سماعِ دعوتِه. وقيل عكسُه: أدبَر عن طاعةِ الله، وتولَّى عن كتابِ الله[٢].

- والجمْعُ والإيعاءُ في قولِه: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ مُرتَّبٌ ثانيهما على أوَّلِهما، فيدُلُّ تَرتُّبُ الثَّاني على الأوَّلِ أنَّ مَفعولَ (جَمَعَ) المحذوفَ هو شَيءٌ ممَّا يُوعَى، أي:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُجعَلُ في وِعاءٍ[١].

- وقيل: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾، أي: كان جَموعًا للخَبيثِ، فيُقدَّرُ لـ (جَمَعَ) مَفعولٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: وزادَ على إدبارِه وتَولِّيه أنَّه جَمَع الخبائثَ، وعليه يكونُ ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ مُعبَّرًا به عن مُلازَمتِه ما فيه مِن خِصالِ الخَبائثِ واستِمرارِه عليها، فكأنَّها مُختزَنةٌ لا يُفرِّطُ فيها[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٩-٢٥)

﴿ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾
إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ
وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ
غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾
وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَلُوعًا﴾: أي: شَديدَ الحِرصِ، قَليلَ الصَّبرِ، والهَلَعُ: جَزَعٌ واضطِرابٌ يَعتَري الإنسانَ عِندَ المَخاوِفِ وعندَ المَطامِعِ، وأصلُ (هلع): يدُلُّ على سُرعةٍ وحِدَّةٍ[١].

﴿جَزُوعًا﴾: أي: كثيرَ الجَزَعِ، والجَزَعُ: نَقيضُ الصَّبرِ، وهو انقِطاعُ القُوَّةِ عن حَملِ ما نزَلَ، وأصلُ (جزع): يدُلُّ على انقِطاعٍ[٢].

﴿بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: أي: يومِ الجزاءِ والحسابِ، وهو يومُ القيامةِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازيتُه، وأصلُ (دين) جِنْسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[٣].

﴿مُّشۡفِقُونَ﴾: أي: خائِفونَ حَذِرونَ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٥٦)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((غريب =

﴿ٱلۡعَادُونَ﴾: أي: المُعْتَدونَ المُجاوِزونَ ما أحَلَّ اللهُ لهم إلى ما حَرَّمَ عليهم، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ وتقَدُّمٍ لِما ينبغي أن يُقتَصَرَ عليه[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾

قوله تعالى: ﴿جَزُوعًا﴾ و﴿مَنُوعًا﴾ في نَصبِهما وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّهما مَنصوبانِ على الحالِ مِنَ الضَّميرِ في ﴿هَلُوعًا﴾، وهو العامِلُ فيهما، والتَّقديرُ: هَلُوعًا حالَ كونِه جَزُوعًا وقتَ مَسِّ الشَّرِّ، ومَنوعًا وقتَ مسِّ الخَيرِ. والظَّرفانِ مَعمولانِ لهاتَيْنِ الحالَيْنِ. الثَّاني: أنْ يَكونا خبَرَينِ لـ «كان» أو «صار» مُضمَرةً، أي: إذا مَسَّه الشَّرُّ كان أو صار جَزوعًا، وإذا مَسَّه الخيرُ كان أو صار مَنوعًا[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مُبيِّنًا طبائِعَ النَّفْسِ البشَريَّةِ، وما جُبِلت عليه: إنَّ الإنسانَ طُبِعَ على شدَّةِ الحِرصِ؛ إذا أصابه بلاءٌ جَزِعَ ولم يَصبِرْ، وإذا أصابه الخَيرُ بَخِلَ بمالِه، ومَنعَه عن المحتاجينَ، إلَّا المصَلِّينَ؛ فهم صابِرونَ في الضَّرَّاءِ، شاكِرونَ في السَّرَّاءِ.

ثمَّ يَصِفُ الله تعالى هؤلاء المصلِّينَ -الَّذين اسْتَثْناهم- ببعضِ الصِّفاتِ، فيقولُ:

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٥٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٩/ ٨٣).

أولئك المصَلُّونَ هم الَّذين يُواظِبونَ على أداءِ صَلَواتِهم.

والَّذين في أموالِهم نَصيبٌ معلومٌ للسَّائِلِ، والمتعفِّفِ الَّذي لا يَسألُ.

والَّذين يُصَدِّقونَ بمَجيءِ يومِ الحِسابِ والجَزاءِ.

والَّذين هم مِن عَذابِ رَبِّهم وَجِلُونَ حَذِرونَ؛ إنَّ عذابَ اللهِ غيرُ مأمونٍ لأحَدٍ.

والَّذين هم صائِنونَ لِفُروجِهم ممَّا حرَّمه اللهُ تعالى، إلَّا مِن زَوجاتِهم أو مِن إمائِهم اللَّاتي يَملِكونَهنَّ؛ فإنَّهم لا يُلامُونَ على وَطْئِهنَّ على الوَّجهِ المَشروعِ، فمَنِ التَمَس التَّمَتُّعَ بفَرْجِه فيما سِوى زَوجتِه وأمَتِه، فأولئك هم المُعتَدونَ حُدودَ اللهِ، المُجاوِزونَ ما أحلَّه لهم إلى ما حرَّمَه عليهم.

والَّذين هم لِأماناتِهم ولعُهودِهم مع اللهِ وعِبادِه: مُراعونَ قائِمونَ بحِفظِها.

والَّذين هم قائِمونَ بأداءِ الشَّهادةِ المطلوبةِ منهم دونَ تبديلٍ أو كِتمانٍ.

والَّذين هم يُحافِظونَ على أداءِ صَلاتِهم وإقامتِها؛ أولئِك المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ في جنَّاتٍ يُكرِمُهم اللهُ تعالى فيها بأنواعِ الكَراماتِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن أعجَبِ العجَبِ أنْ يُقبِلَ على الدُّنيا أحدٌ يَسمَعُ التَّهديدَ بالعرْضِ بيْن يَدَيِ اللهِ، والعِقابَ لِمَن لم يُقبِلْ على عِبادتِه سُبحانَه؛ بيَّنَ أنَّ ذلك لِما جَبَلَه عليه سُبحانَه، وأنَّ الإنسانَ مَقهورٌ مع جِبِلَّتِه، إلَّا مَن حَفِظَه اللهُ[1].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٠).

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾.

أي: طُبِعَ النَّاسُ ورُكِّبوا على شدَّةِ الحِرصِ الَّذي يترتَّبُ عليه الجزَعُ والمنْعُ، فلا يَشكُرونَ اللهَ على النَّعْماءِ، ولا يَصبِرونَ على الضَّرَّاءِ(١).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

---

(١) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٧٧١٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٦-١٦٨).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ: جِنسُ الإنسانِ بوَصفِ طبيعتِه الأصليَّةِ: النَّسَفي، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٦).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ هنا: الكافِرُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٦)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٩٤).

قال ابنُ عطيَّةَ: (وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ عُمومٌ لاسمِ الجِنسِ، لكنَّ الإشارةَ هنا إلى الكُفَّارِ؛ لأنَّ الأمْرَ فيهم وَكيدٌ كَثيرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٨).

وقال ابن عاشور: (الَّذي استخلَصْتُه مِن تتَبُّعِ استِعمالاتِ كَلِمةِ الهَلَعِ: أنَّ الهَلَعَ قِلَّةُ إمساكِ النَّفْسِ عندَ اعتراءِ ما يَحزُنُها أو ما يَسُرُّها، أو عندَ توَقُّعِ ذلك والإشفاقِ منه، وأمَّا الجزَعُ فمِن آثارِ الهلَعِ، وقد فَسَّر بعضُ أهلِ اللُّغةِ الهَلَعَ بالشَّرَهِ، وبعضُهم بالضَّجَرِ، وبَعضُهم بالشُّحِّ، وبعضُهم بالجُوعِ، وبعضُهم بالجُبنِ عندَ اللِّقاءِ، وما ذكَرْناه في ضَبطِه يجمَعُ هذه المعانيَ، ويُريك أنَّها آثارٌ لِصِفةِ الهلَعِ. ومعنى ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾: أنَّ الهلَعَ طَبيعةٌ كامِنةٌ فيه معَ خَلْقِه، تظهَرُ عندَ ابتداءِ شُعورِه بالنَّافِعِ والضَّارِّ؛ فهو مِن طِباعِه المخلوقةِ كغَيرِها مِن طِباعِه البَشَريَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٧، ١٦٨).

وقال الرَّسْعَني: (قال المفسِّرون: ما بَعْدَ الهلوعِ تفسيرٌ له). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٨٤).

يقولُ: ((شَرُّ ما في رجُلٍ: شُحٌّ هالِعٌ، وجُبنٌ خالِعٌ[١]))[٢].

وعن عَمرِو بنِ تَغلِبَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنِّي أُعطي الرَّجُلَ، وأدَعُ الرَّجُلَ، والَّذي أدَعُ أحَبُّ إلَيَّ مِن الَّذي أُعطِي؛ أُعطي أقوامًا لِما في قُلوبِهم مِنَ الجَزَعِ والهَلَعِ، وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جَعَل اللهُ في قُلوبِهم مِنَ الغِنى والخَيرِ))[٣].

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: إذا أصاب الإنسانَ بلاءٌ -كفَقرٍ، أو مَرَضٍ، أو فَقْدِ حَبيبٍ- فإنَّه يَجزَعُ بشِدَّةٍ، ولا يَصبِرُ[٤].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾.

أي: وإذا أصاب الإنسانَ خَيرٌ ونِعمةٌ، فصار غَنِيًّا كَثيرَ المالِ؛ فإنَّه يَغْدُو شديدَ البُخلِ بمالِه، فلا يُنفِقُه في طاعةِ اللهِ، ولا يُعطي منه ذَوِي الحاجةِ مِن عِبادِ اللهِ[٥].

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾.

---

(١) الجُبْنُ الخالعُ: هو الشَّديدُ، كأنَّه يَخلَعُ قلبَه مِن شِدَّةِ خَوفِه، والمرادُ به: ما يَعرِضُ مِن نَوازِعِ الأفكارِ، وضَعفِ القلبِ عندَ الخَوفِ. يُنظر: ((غريب الحديث)) للقاسم بن سلَّام (٢/ ٦٥١)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٦٥).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٢٥١١)، وأحمدُ (٨٠١٠)، وابن حبَّانَ (٣٢٥٠).
صحَّحه ابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤٣٧)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٥١١)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٢٥١١).

(٣) رواه البخاري (٧٥٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

أي: إلَّا المصَلِّينَ المتَّصِفينَ بالأوصافِ الآتيةِ، فليسوا كذلك؛ فهم صابِرونَ في الضَّرَّاءِ، شاكِرونَ في السَّرَّاءِ[١].

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣﴾.

أي: الَّذين يُواظِبونَ على أداءِ صَلَواتِهم المفروضةِ على الوَجهِ الصَّحيحِ، فلا يتخَلَّفونَ عنها، ولا يَترُكونَها[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ زكاةَ الرُّوحِ، أتْبَعَه زكاةَ عَديلِها؛ المالِ[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤﴾.

أي: والَّذين في أموالِهم نَصيبٌ معلومٌ لِذَوي الحاجةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١، ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

قيل: الحَقُّ المعلومُ في الآية هو الزَّكاةُ المفروضةُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، واستظهره الشوكاني، واختاره العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ في روايةٍ، والكلبيُّ، وابنُ سِيرينَ. يُنظر: =

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: في أموالِهم حقٌّ معلومٌ للسَّائِلِ الَّذي يَسأَلُ النَّاسَ الصَّدَقاتِ، والمتعفِّفِ الَّذي لا يَسألُ النَّاسَ رَغمَ حاجتِه وفَقْرِه الشَّديدِ(١).

= ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٢٨).

قال ابنُ جريرٍ في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾: (حَقٌّ مُؤَقَّتٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٩).

وقال القرطبي: (وصَفَ الحقَّ بأنَّه معلومٌ، وسِوى الزَّكاةِ ليس بمعلومٍ، إنَّما هو على قَدرِ الحاجةِ، وذلك يَقِلُّ ويَكثُرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣).

وقيل: الحَقُّ المعلومُ في الآيةِ ما سِوى الزَّكاةِ؛ لأنَّ الآيةَ مَكِّيَّةٌ، فنُزولُها قبْلَ فَرضِ مَقاديرِ الزَّكاةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ في الجملةِ: ابنُ عطيَّة، والألوسيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عُمَرَ، وابنُ عبَّاسٍ، والشَّعبيُّ، وإبراهيمُ النخعي في روايةٍ، ومجاهِدٌ، وعَطاءٌ، والحسَنُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٢٨).

قال ابن عطيَّة: (قال الحسَنُ، ومجاهدٌ، وابنُ عبَّاسٍ: هذه الآيةُ في الحقوقِ الَّتي في المالِ سِوى الزَّكاةِ، وهي ما نَدَبَت الشَّريعةُ إليه مِن المواساةِ، وقد قال ابنُ عُمَرَ، ومجاهِدٌ، والشَّعبيُّ، وكثيرٌ مِن أهلِ العِلمِ: إنَّ في المالِ حَقًّا سِوى الزَّكاةِ، وهذا هو الأصَحُّ في هذه الآيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٨).

وقال الألوسي: (﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾، أي: نَصيبٌ مُعَيَّنٌ يَستوجِبونَه على أنفُسِهم؛ تقَرُّبًا إلى اللهِ تعالى، وإشفاقًا على النَّاسِ، وهو... ما يُوظِّفُه الرَّجُلُ على نفْسِه يؤدِّيه في كلِّ جُمُعةٍ أو كُلِّ شَهرٍ مَثَلًا). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧١).

وقال ابن عاشور: (معنى كونِ الحَقِّ مَعلومًا أنَّه يَعلَمُه كُلُّ واحدٍ منهم، ويَحسِبونَه، ويَعلَمُه السَّائِلُ والمحرومُ بما اعتاد منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

وقيل: الحقُّ المعلومُ أي: مِن الزَّكَواتِ والصَّدَقاتِ الموَظَّفةِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: البيضاويُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٣، ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢). =

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦﴾.

أي: والَّذين يُقِرُّونَ بمَجيءِ يومِ القيامةِ الَّذي يقَعُ فيه الحِسابُ والجَزاءُ[1].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الدِّينُ معْناه الجزاءُ مِن الثَّوابِ والعِقابِ، وكان رُبَّما صَرَفه صارفٌ إلى الثَّوابِ فقطْ -للعِلمِ بعُمومِ رَحمتِه سُبحانه، وأنَّ رَحمتَه غَلَبَت غَضَبَه-؛ صرَّحَ بالعِقابِ[2].

= وممَّن قال بهذا المعنى للسَّائلِ والمحرومِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٥).

قال ابن جرير: (وهو الزَّكاةُ لِلسَّائلِ الَّذي يَسألُه مِن مالِه، والمحرومِ الَّذي قد حُرِمَ الغِنَى، فهو فقيرٌ لا يَسألُ... وأجْمَعوا على أنَّ السَّائلَ هو الَّذي وصفْتُ صِفتَه، واختَلَفوا... في معنَى المحرومِ في هذا الموضعِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٩، ٢٧١).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (السَّائلُ: المتكفِّفُ، والمحرومُ: الَّذي قد ثَبَتَ فَقْرُه، ولم تَنجَحْ سِعاياتُه لدُنياهُ، قالت عائشةُ: هو الَّذي لا يَكادُ يَتيسَّرُ له مَكسَبُه. وقال بعضُ أهلِ العِلمِ: المحرومُ: مَن احتَرَقَ زَرعُه. وقال بعضُهم: المحرومُ: مَن ماتَتْ ماشيتُه. وهذه أنواعُ الحِرمانِ؛ لا أنَّ الاسمَ يَستلزِمُ هذا خاصَّةً. وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: المحرومُ: الكلْبُ. أراد -واللهُ أعلمُ- أنْ يُعطِيَ مِثالًا مِن الحيوانِ ذي الكَبِدِ الرَّطْبةِ؛ لِما فيه مِن الأجْرِ حسَبَ الحديثِ المأثورِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٤، ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٥).

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧﴾.

أي: والَّذين هم مِن عَذابِ رَبِّهم وَجِلُونَ حَذِرونَ؛ فهم لذلك حَريصونَ على امتِثالِ أوامِرِ اللهِ تعالى، واجتِنابِ نَواهيه(١).

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۞ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ۞ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٧].

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ٢٨﴾.

أي: إنَّ عذابَ اللهِ غيرُ مأمونٍ لأحَدٍ؛ فوَجَب الخَوفُ والحَذَرُ منه، بتَركِ مُخالَفةِ أمرِ اللهِ ونَهْيِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السجدة: ١٦].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر التَّحَلِّيَ بتَطهيرِ النَّفْسِ بالصَّلاةِ، وتزكيةِ المالِ بالصَّدَقةِ؛ نَدَب إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

والعذابُ هنا: قيل هو عذابُ الآخرةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧١٦).

وقال البِقاعي: (خائفونَ في هذه الدَّارِ خَوفًا عَظيمًا هو في غايةِ الثَّباتِ مِن أنْ يُعذِّبَهم في الآخرةِ، أو الدُّنيا، أو فيهما). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٣).

التَّخَلِّي عن أمرٍ جامِعٍ بيْنَ تدنيسِ المالِ والنَّفْسِ، وهو الزِّنا الحامِلُ عليه شَهوةُ الفَرجِ، الَّتي هي أعظَمُ الشَّهَواتِ حملًا للنَّفْسِ على المُهلِكاتِ[١].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩﴾.

أي: والَّذين هم صائِنونَ لِفُروجِهم من كُلِّ ما حرَّمه اللهُ تعالى عليهم بشَأنِها[٢].

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠﴾.

أي: هم يَحفَظونَ فُروجَهم إلَّا مِن زَوجاتِهم أو مِن إمائِهم اللَّاتي يَملِكونَهنَّ، فلا حَرَجَ عليهم في وَطْئِهنَّ، والاستِمتاعِ بهِنَّ على الوَجهِ المشروعِ، ولا يُلامُون على ذلك[٣].

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٣١﴾.

أي: فمَن طَلَب الاستِمتاعَ بغَيرِ زَوجتِه وجاريتِه فهم المُعتَدونَ، المُجاوِزونَ ما أحلَّه اللهُ تعالى إلى ما حَرَّمه[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣).
قال السعدي: (فلا يَطَؤونَ بها وطْأً مُحَرَّمًا؛ مِن زنًا، أو لِواطٍ، أو وَطءٍ في دُبُرٍ أو حَيضٍ، ونحوِ ذلك، ويحفَظونَها أيضًا مِن النَّظَرِ إليها ومَسِّها ممَّن لا يجوزُ له ذلك، ويَترُكونَ أيضًا وسائِلَ المحرَّماتِ الدَّاعيةَ لِفعلِ الفاحِشةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٦، ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٧، ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعالى العادِيَ؛ أتْبَعه الواقفَ عندَ الحُدودِ[١].

وأيضًا ذِكرُ رَعْيِ الأماناتِ والعهْدِ لمُناسَبةِ وَصْفِ ما يَوَدُّ الكافرُ يومَ الجزاءِ أنْ يَفتدِيَه مِن العذابِ بفَصيلَتِه الَّتي تُؤْويه، فيَذهَبُ منه رَعْيُ العُهودِ الَّتي يَجِبُ الوفاءُ بها للقَبيلةِ، وحسْبُك مِن تَشويهِ حالِه أنَّه قدْ نَكَثَ العُهودَ الَّتي كانت عليه لقَومِه مِن الدِّفاعِ عن حَقيقتِهم بنفْسِه، وكان يَفدِيهم بنفْسِه، والمُسلِمُ لَمَّا كان يَرْعى العهدَ بما يُمْليه عليه دِينُه، جازاهُ اللهُ بأنْ دَفَعَ عنه خِزْيَ وِدادةِ فِدائِه نفْسَه بمَوالِيه وأهلِ عَهْدِه[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢﴾.

أي: والَّذين هم لِمَا ائْتَمَنَهم اللهُ والنَّاسُ عليه، ولعُهودِهم مع اللهِ وعِبادِه: مُراعونَ قائِمونَ بحِفظِها، فلا يَخونونَ الأماناتِ، ولا يَنقُضونَ العُهودَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لما كان أجلُّ العهودِ والأماناتِ ما كان بإشهادٍ؛ بيَّن فضلَ الشَّهادةِ[١].

وأيضًا ذُكِرَ لمُناسَبةِ ذِكرِ رَعْيِ الأماناتِ؛ إذ الشَّهادةُ مِن جُملةِ الأماناتِ؛ لأنَّ حقَّ المَشهودِ له وَديعةٌ في حِفظِ الشَّاهدِ، فإذا أدَّى شَهادتَه فكأنَّه أدَّى أمانةً لصاحبِ الحقِّ المشهودِ له كانت في حِفظِ الشَّاهدِ[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣﴾.

أي: والَّذين هم قائِمونَ بأداءِ الشَّهادةِ المطلوبةِ منهم شَرعًا، ولو على أقاربِهم، فيَتحَمَّلونَها، ويهتَمُّونَ بها، ويَحفَظونَها حتَّى يؤدُّوها في غايةِ التَّمامِ دونَ زيادةٍ أو نُقصانٍ، ودونَ تبديلٍ أو كِتمانٍ[٣].

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١، ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

وعن زَيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ألَا أُخبِرُكم بخَيرِ الشُّهَداءِ؟ الَّذي يأتي بشَهادتِه قبل أن يُسأَلَها))(١).

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٣٤﴾.

أي: والَّذين هم يُحافِظونَ على أداءِ صَلاتِهم، وإقامتِها على الوَجهِ الصَّحيحِ المطلوبِ منهم شَرْعًا(٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أُجرِيَت على المؤمِنينَ هذه الصِّفاتُ الجليلةُ؛ أخبَرَ عن جزائِهم عليها، بأنَّهم مُكْرَمونَ في الجنَّةِ(٣).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾.

أي: أولئِك المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ: في جنَّاتٍ يُكرِمُهم اللهُ تعالى فيها بأنواعِ الكَراماتِ، وأصنافِ المسَرَّاتِ(٤).

كما قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ * فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ * يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ * بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ

---

(١) رواه مسلم (١٧١٩). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)

وقال ابنُ عاشور: (الإكرامُ: التَّعظيمُ وحُسنُ اللِّقاءِ، أي: هم مع جزائِهم بنَعيمِ الجنَّاتِ، يُكرَمونَ بحُسنِ اللِّقاءِ والثَّناءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٥).

﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۞ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات: ٤٠ - ٤٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي: مُبالِغًا في الإمساكِ عمَّا يَلزَمُه مِنَ الحُقوقِ؛ للانهِماكِ في حُبِّ العاجِلِ، وقُصورِ النَّظَرِ عليه، وُقوفًا معَ المحسوسِ؛ لغَلَبةِ الجُمودِ والبَلادةِ، وهذا الوَصفُ ضِدُّ الإيمانِ؛ لأنَّ الإيمانَ نِصفانِ: صَبرٌ، وشُكرٌ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، و﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] الإنسانُ هنا هو الإنسانُ مِن حيثُ هو، مِن غيرِ اخْتِصاصٍ بواحِدٍ بعَيْنِه، فهذا شأنُ الإنسانِ مِن حيثُ ذاتُه ونفْسُه، وخروجُه عن هذه الصِّفاتِ بفضلِ ربِّه وتوفيقِه له ومِنَّتِه عليه، لا مِن ذاتِه، فليس له مِن ذاتِه إلَّا هذه الصِّفاتُ، وما به مِن نِعمةٍ فمِنَ اللهِ وحْدَه، فهو الَّذي حبَّب إلى عبدِه الإيمانَ وزَيَّنَه في قلبِه، وكَرَّهَ إليه الكفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ، وهو الَّذي كتَب في قلبِه الإيمانَ، وهو الَّذي يُثَبِّتُ أنبياءَه ورُسُلَه وأولياءَه على دينِه، وهو الَّذي يَصرِفُ عنهم السُّوءَ والفَحْشاءَ؛ قال تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]، وقال تعالَى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٦]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فهو رَبُّ جميعِ العالَمِ رُبوبيَّةً شامِلةً لجميعِ ما في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠١).

العالَمِ مِن ذَواتٍ وأفعالٍ وأحوالٍ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى هذه الأخلاقَ على وَجهِ الذَّمِّ، واستثنَى منهم المصَلِّينَ؛ لأنَّ صَلاتَهم تَحمِلُهم على قِلَّةِ الاكتِراثِ بالدُّنيا، فلا يَجزَعونَ مِن شَرِّها، ولا يَبخَلونَ بخَيرِها[٢].

٤- قال تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ وإذْ ذَكَر اللهُ الهَلَعَ هنا عَقِبَ مَذمَّةِ الجمْعِ والإيعاءِ، فقدْ أشعَرَ بأنَّ الإنسانَ يَستطيعُ أنْ يَكُفَّ عن هَلَعِه إذا تَدبَّرَ في العواقبِ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ذَكَرَ اللهُ تعالى الصَّلاةَ في أوَّلِ الأوصافِ الحَميدةِ وفي آخِرِها، وبهذا يُعْرَفُ أنَّ الصَّلاةَ أعظمُ الأعمالِ بعدَ شهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رَسولُ اللهِ[٤]، وأنَّ الصَّلاةَ أصْلٌ لكُلِّ خَيرٍ، ومَبدَأٌ لهذا المذكورِ كُلِّه؛ لِقَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]؛ فهي عَونٌ على كُلِّ خَيرٍ[٥].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى فضلِ المداومةِ على العِبادةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧٠).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ فيه حَثٌّ على تفَقُّدِ أربابِ الضَّروراتِ مِمَّن لا كسْبَ له، ومَنِ افتَقَر بعدَ الغِنى[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ الثَّناءُ على مَن خاف مِن عذابِ اللهِ؛ لأنَّ مَن خاف مِن شيءٍ اتَّقاه، فإذا خاف مِن عذابِ اللهِ فلا بُدَّ أنْ يَتَّقِيَ أسبابَ العَذابِ[٢].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ أي: لا يَنبغي لأحَدٍ أنْ يأمَنَه، بل يجوزُ أن يَحُلَّ به[٣]، وإنْ بالَغَ في الطَّاعةِ[٤].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ فيه وُجوبُ أداءِ كُلِّ أمانةٍ، والوفاءِ بكُلِّ عَهدٍ، والقيامِ بكُلِّ شَهادةٍ تحَمَّلَها الإنسانُ[٥].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ فيه ثَناءٌ عليهم بعنايتِهم بالصَّلاةِ مِن أن يَعتَرِيَها شَيءٌ يُخِلُّ بكَمالِها؛ فالمحافظةُ راجِعةٌ إلى استِكمالِ أركانِ الصَّلاةِ وشُروطِها وأوقاتِها[٦].

١٢- في هذه الآياتِ وصَفَ اللهُ تعالى أهلَ السَّعادةِ والخَيرِ بهذه الأوصافِ الكاملةِ، والأخلاقِ الفاضِلةِ؛ مِن العباداتِ البدَنيَّةِ كالصَّلاةِ والمُداوَمةِ عليها، والأعمالِ القلبيَّةِ كخَشيةِ الله الدَّاعيةِ لكلِّ خَيرٍ، والعباداتِ الماليَّةِ، والعقائدِ النَّافِعةِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

والأخلاقِ الفاضِلةِ، ومُعامَلةِ الله، ومُعامَلةِ خَلقِه أحسَنَ مُعامَلةٍ مِن إنصافِهم وحِفظِ عُهودِهم وأسرارِهم، والعِفَّةِ التَّامَّةِ بحِفظِ الفُروجِ عمَّا يَكْرَهُ اللهُ تعالى[١].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أنَّ اللهَ تعالى خَلَق الإنسانَ على هذه الصِّفةِ[٢]؛ ففيه دَلالةٌ على قولِ جماهيرِ المُثبِتينَ للقَدَرِ القائِلينَ بأنَّ اللهَ تعالى خالِقُ أفعالِ العِبَادِ؛ فإنَّهم يقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى خالِقُ العَبدِ وجميعِ ما يقومُ به؛ مِن إرادتِه وقدرتِه، وحرَكاتِه وغيرِ ذلك[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ فيه سؤالٌ: ما الحِكمةُ في خَلقِ الإنسانِ على مَساوي الأخلاقِ؟

الجوابُ: الحِكمةُ في خَلقِ شَهوةِ القَبيحِ: ليُمانِعَ نَفْسَه إذا نازَعَتْه نحوَه، ويحارِبَ شيطانَه عندَ تزيينِه مَعصيةً، فيَستَحِقَّ مِنَ الله تعالى مَثوبتَه وجنَّتَه[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أنَّ الإنسانَ خُلِقَ على هذه الصِّفةِ، وأنَّ مَن كان على غَيرِها فمِن أجْلِ ما زَكَّاه اللهُ به مِن فَضْلِه وإحسانِه[٥].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٠٤).

(٥) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٠٧).

مَنُوعًا﴾ فيه سُؤالٌ: حاصِلُ هذا الكلامِ أنَّه نُفورٌ عن المَضارِّ طَلَبًا للرَّاحةِ، وهذا هو اللَّائِقُ بالعَقلِ، فلِمَ ذَمَّه اللهُ عليه؟

الجوابُ: إنَّما ذَمَّه عليه؛ لأنَّه قاصِرُ النَّظَرِ على الأحوالِ الجُسمانيَّةِ العاجِلةِ، وكان مِنَ الواجِبِ عليه أن يكونَ مَشغولًا بأحوالِ الآخِرةِ، فإذا وقَعَ في مَرَضٍ أو فَقرٍ، وعَلِمَ أنَّه فِعلُ اللهِ تعالى، كان راضيًا به؛ لعِلْمِه أنَّ اللهَ يَفعَلُ ما يَشاءُ، ويَحكُمُ ما يُريدُ، وإذا وَجَد المالَ والصِّحَّةَ، صرَفَهما إلى طلَبِ السَّعاداتِ الأُخرويَّةِ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ هذا شامِلٌ لجَميعِ الأماناتِ الَّتي بيْنَ العبدِ وبيْنَ رَبِّه، كالتَّكاليفِ السِّرِّيَّةِ الَّتي لا يطَّلِعُ عليها إلَّا اللهُ؛ والأماناتِ الَّتي بيْنَ العَبدِ وبيْنَ الخَلقِ في الأموالِ والأسرارِ، وكذلك العَهدُ؛ شامِلٌ للعَهدِ الَّذي عاهَدَ عليه اللهَ، والعَهدِ الَّذي عاهَدَ عليه الخَلقَ؛ فإنَّ العَهدَ يُسأَلُ عنه العَبدُ: هل قام به ووفَّاه، أو رفَضَه وخانه، فلمْ يَقُمْ به[٢]؟

٦- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ ذِكرُ القِيامِ بالشَّهادةِ إتمامٌ لخِصالِ أهلِ الإسلامِ، فلا يُتطلَّبُ له مُقابلٌ مِن خِصالِ أهلِ الشِّركِ المَذكورةِ فيما تَقدَّمَ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ أنَّ كلَّ ما أعَدَّه الإنسانُ للتِّجارةِ والتَّكَسُّبِ ففيه الزَّكاةُ؛ لعُمومِ الآيةِ الكريمةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٨/ ٢٥٢).

والزَّكاةُ في عُروضِ التِّجارةِ واجبةٌ، وذلك باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق للزَّيْلَعي مع حاشية الشِّلْبي)) (١/ ٢٧٩)، ((الشرح الكبير للدردير مع حاشية الدسوقي)) (١/ ٤٧٢)، ((المجموع)) للنووي (٦/ ٤٧)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٢/ ٢٤٠). =

٨- مِن السُّؤالِ ما لا يكونُ مأمورًا به، والمسؤولُ مأمورٌ بإجابةِ السَّائلِ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾، وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾[1] [الضحى: ١٠].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ أنَّ مَن سَأَلَ وظَهَرَ صِدْقُه، وَجَبَ إطعامُه[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ أنَّ الزَّكاةَ تُجْعَلُ في صِنفٍ واحدٍ وصِنفَين، فتُجْزِئُ، وليس بحَتم أنْ تُجعَلَ في الثَّمانيةِ الأصنافِ كلِّها[3]! على القَولِ بأنَّ الحقَّ المعلومَ هو الزَّكاةُ المفروضةُ.

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على تحريمِ نِكاحِ المُتعةِ؛ لكَونِها غيرَ زَوجةٍ مَقصودةٍ، ولا مِلكَ يَمينٍ[4].

١٢- إنَّ ظاهرَ عُمومِ قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ يَقتضي جوازَ أنْ يَستَمتعَ الرَّجُلُ بزَوجتِه فيما

= قال ابنُ المُنذِرِ: (أجمَعَ أهلُ العِلمِ على أنَّ في العُروضِ الَّتي يُرادُ بها التِّجارةُ الزَّكاةَ، إذا حال عليها الحَوْلُ). ((الإشراف)) (٣/ ٨١).

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: (وقد شذَّ داودُ، فلم يَرَ الزَّكاةَ في العُروضِ، وإنْ نوى بها صاحِبُها التِّجارةَ). ((التمهيد)) (١٧/ ١٢٦).

وقال الخطَّابي: (وُجوبُ الزَّكاة في الأموالِ الَّتي تُرصَدُ للتِّجارةِ، وهو كالإجماعِ مِن أهلِ العِلمِ. وزعَم بعضُ المتأخِّرينَ مِن أهلِ الظَّاهرِ أنَّه لا زكاةَ فيها، وهو مَسبوقٌ بالإجماعِ). ((معالم السنن)) (٢/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

شاء، ما عدا الدُّبُرَ؛ فإنَّه لا يجوزُ للرَّجُلِ أنْ يجامعَ زوجتَه فيه[١].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ قال ابنُ عُيَيْنَةَ: (مَن لامَ أحدًا فيما ملَكَت يمينُه وإن كثُرَ، أو لامَه في نسائِه إذا بلغ الأربعَ، فقد عصى اللهَ تعالى؛ لقَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾). وقال أيضًا: (مَن تزوَّجَ بأربَعِ نِسوةٍ، أو تسَرَّى بمَماليكَ؛ فلا خلَلَ في زُهدِه في الدُّنيا)[٢].

١٤- ظاهِرُ عُموم قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ إباحةُ وَطْءِ الإماءِ بمِلْكِ اليمينِ مُطلَقًا على أيِّ دِينٍ كُنَّ، إلَّا ما استَثناه الدَّليلُ[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ تحريمُ الاستِمناءِ باليدِ، فهذا الصَّنيعُ خارجٌ عن هذَينِ القِسمَينِ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ إتيانَ البهيمةِ

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٩، ٥٠).

(٣) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٤٢٧).

وذهَب جمهورُ الفقهاءِ إلى أنَّ الأَمَةَ إذا كانت مجوسيَّةً أو وَثنيةً لم تحلَّ لسيدِها المسلم بملكِ اليمينِ، كما لا تحلُّ له بالزَّواجِ لو كانت حرَّةً. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١١/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٣).

معصيةٌ؛ فأيُّ شيءٍ وراءَ الأزواجِ ومِلْكِ اليمينِ يُعتبرُ عُدوانًا وظُلمًا[١].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ أنَّ التَّعرِّيَ عندَ الجِماعِ لا حَرَجَ فيه؛ لأنَّه إذا كان لا مَلامةَ في عدَمِ سَتْرِ الفَرجِ فما سِواه مِن بابِ أَوْلى[٢].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ سؤالٌ: كيف الجمعُ بيْنَ كَونِ اللهِ تعالى مُنْفَرِدًا بالمِلْكِ وبيْنَ إثباتِ المِلْكِ للمخلوقينَ -كالآيةِ هنا-، ومِثْلِ قَولِه تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]؟

الجوابُ: أنَّ الجَمعَ بيْنَهما مِن جِهاتٍ:

الأُولى: أنَّ مِلْكَ الإنسانِ للشَّيءِ ليس عامًّا شاملًا! لأنه يَمْلِكُ ما تحتَ يدِه، ولا يمْلِكُ ما تحتَ يدِ غيرِه! والكلُّ مِلْكٌ للهِ عزَّ وجلَّ، فمِن حيثُ الشُّمولُ: مِلْكُ اللهِ عزَّ وجلَّ أشملُ وأوسعُ، وهو مِلْكٌ تامٌّ.

الثاني: أنَّ مِلْكَ الإنسان لشَيءٍ ما ليس مِلْكًا حقيقيًّا يتَصَرَّفُ فيه كما يَشاءُ! وإنما يتَصَرَّفُ فيه كما أَمَر الشَّرعُ؛ وكما أَذِن المالكُ الحقيقيُّ -وهو اللهُ عزَّ وجلَّ-، فإذًا مِلْكُ الإنسانِ قاصرٌ.

وأيضًا لا يمْلِكُ فيه شيئًا مِن النَّاحيةِ القَدَرِيَّةِ؛ لأنَّ التَّصرُّفَ للهِ، فلا يستطيعُ أنْ يقولَ لعبدِه المريضِ: ابْرَأْ؛ فيَبْرَأُ! ولا يستطيعُ أنْ يقولَ لعبدِه الصَّحيحِ: امرَضْ؛ فيَمْرَضُ! لكنَّ التَّصرُّفَ الحقيقيَّ للهِ عزَّ وجلَّ، فلو قال له: ابْرَأْ؛ بَرَأ، ولو قال: امْرَضْ؛ مَرِضَ، فإذًا لا يمْلِكُ التَّصرُّفَ المطلقَ شرعًا وقَدَرًا، فمِلْكُه هنا قاصرٌ

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٤/ ٢٤٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٣٢٤).

مِن حيثُ التَّصرُّفُ، وقاصرٌ مِن حيثُ الشُّمولُ والعُمومُ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٧، ١٨] وبيْنَ الاستِثناءِ ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ...﴾ [المعارج: ٢٢]، وهي تَذييلٌ لجُملةِ ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨]؛ تَنبيهًا على خَصلةٍ تُخامِرُ نُفوسَ البشَرِ، فتَحمِلُهم على الحِرصِ لنَيلِ النَّافعِ، وعلى الاحتفاظِ به خَشيةَ نَفادِه؛ لِما فيهم مِن خُلُقِ الهَلَعِ، وهذا تَذييلُ لَومٍ، وليس في مَساقِه عُذْرٌ لِمَن جَمَع فأَوعَى، ولا هو تَعليلٌ لفِعلِه. ومَوقعُ حرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ) ما تَتضمَّنُه الجُملةُ مِن التَّعجيبِ مِن هذه الخَصلةِ البشَريَّةِ، فالتَّأكيدُ لمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخبَرِ، ولَفْتِ الأنظارِ إليه، والتَّعريضِ بالحذَرِ منه، والمقصودُ مِن التَّذييلِ هو قولُه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢١]، وأمَّا قولُه: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠] فتَمهيدٌ وتَتْميمٌ لِحالتَيْهِ[٢].

- وقيل: الجُملةُ كالتَّعليلِ لِما تقدَّمَ[٣].

- وهَلوعٌ: فَعولٌ، مِثالُ مُبالَغةٍ للاتِّصافِ بالهَلَعِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٧).

- قولُه: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ قيل: استثناءٌ منقطِعٌ، لمَّا وصَف مَن أدبَر وتولَّى بالهلعِ قال: لكنِ المصلِّينَ في مقابلةِ أولئكَ[1]، وقيل: هو استِثناءٌ مُنقطِعٌ ناشئٌ عن الوعيدِ المبتدَأِ به مِن قولِه: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ ...﴾ [المعارج: ١١]؛ فالمعْنى على الاستدراكِ، والتَّقديرُ: لكنَّ المصلِّين الموصوفينَ بكَيتَ وكَيْتَ أولئك في جنَّاتٍ مُكرَمونَ؛ فجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ حيث وَقَعَت بعْدَ (إلَّا) المنقطِعةِ -وهي بمعْنى (لكنَّ)- فلَها حكْمُ الجُملةِ المخبَرِ بها عن اسمِ (لكنَّ) المشدَّدةِ، أو عن المبتدَأِ الواقعِ بعْدَ (لكِنْ) المخفَّفةِ. والكلامُ استِئنافٌ بَيانيٌّ لمُقابَلةِ أحوالِ المؤمنينَ بأحوالِ الكافرينَ، ووَعْدِهم بوَعيدِهم، على عادةِ القرآنِ في أمثالِ هذه المُقابَلةِ[2].

وقيل: هو استثناءٌ متَّصِلٌ أي: إنَّ الإنسانَ خُلِق هلوعًا واستمرَّ ذلك عليه، ولم يفارِقْه إلَّا المصلِّينَ الموصوفينَ بالصفاتِ الآتيةِ، فإنَّهم خلَعوا ربقةَ الهلعِ عن أعناقِهم[3].

- وهذه صِفاتٌ ثمانٍ هي مِن شِعارِ المسلمينَ؛ فعُدِلَ عن إحضارِهم بوَصْفِ المسلِمينَ إلى تَعدادِ خِصالٍ مِن خِصالِهم إطنابًا في الثَّناءِ عليهم؛ لأنَّ مَقامَ

(١) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧٠).

قال البيضاوي: (﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ استِثناءٌ للمَوصوفينَ بالصِّفاتِ المذكورةِ بَعدُ مِن المَطبوعينَ على الأحوالِ المذكورةِ قبْلُ؛ لِمُضادَّةِ تلك الصِّفاتِ لها مِن حيثُ إنَّها دالَّةٌ على الاستغراقِ في طاعةِ الحقِّ، والإشفاقِ على الخلْقِ، والإيمانِ بالجَزاءِ، والخَوفِ مِن العُقوبةِ، وكسْرِ الشَّهوةِ، وإيثارِ الآجِلِ على العاجِلِ، وتلك ناشئةٌ مِن الانهماكِ في حُبِّ العاجِلِ، وقُصورِ النَّظرِ عليها). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٦).

الثَّناءِ مَقامُ إطنابٍ، وتَنْبيهًا على أنَّ كلَّ صِلةٍ مِن هذه الصِّلاتِ الثَّمانِ هي مِن أسبابِ الكَونِ في الجَنَّاتِ[١].

- ولَمَّا كان وصْفُ المصلِّينَ غَلَب على المسلِمينَ -كما دلَّ عليه قولُه تعالَى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ الآية [المدثر: ٤٢، ٤٣]-، أُتْبِع وصْفُ المصلِّينَ في الآيةِ هذه بوَصْفِ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، أي: مُواظِبونَ على صَلاتِهم، لا يَتخلَّفونَ عن أدائِها ولا يَترُكونَها[٢]. وكذلك في إضافةِ (صلاة) إلى ضَميرِ ﴿الْمُصَلِّينَ﴾ تَنويهٌ باختِصاصِها بهم، وهذا الوصفُ للمُسلِمينَ مُقابِلُ وَصْفِ الكافرينَ في قولِه: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ﴾[٣] [المعارج: ١، ٢].

- ومَجيءُ الصِّلةِ جُملةً اسميَّةً ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (الَّذين يَدُومون)؛ لقصْدِ إفادتِها الثَّباتَ تَقويةً كمُفادِ الدَّوامِ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ ختَم قولَه: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ هنا بقولِه: ﴿دَائِمُونَ﴾، وختَمَه بعْدُ بقولِه: ﴿يُحَافِظُونَ﴾؛ وفيه وَجْهانِ: الأوَّلُ: أنَّ المُرادَ بدَوامِهم عليها: ألَّا يَتْرُكوها في وقْتٍ مِن أوقاتِها، وبمُحافَظتِهم عليها: أنْ يَأتُوا بها على أكمَلِ أحوالِها؛ مِن الإتيانِ بها بجَميعِ واجِباتِها وسُنَنِها، ومنها الاجتهادُ في تَفريغِ القلْبِ عن الوَسوسةِ، والرِّياءِ، والسُّمعةِ. الثَّاني: أنَّ الدَّيمومةَ على الشَّيءِ والمحافَظةَ عليه شَيءٌ واحدٌ، لكنَّه لَمَّا كانت الصَّلاةُ هي عَمودَ الإسلامِ، بُولِغَ في التَّوكيدِ فيها، فذُكِرَت أوَّلَ خِصالِ الإسلامِ المذكورةِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذه السُّورةِ وآخِرَها؛ ليُعلَمَ مَرتبتُها في الأركانِ الَّتي بُنِيَ الإسلامُ عليها[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ فيه إعادةُ اسمِ المَوصولِ مع الصِّلاتِ المَعطوفةِ على قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾؛ لمَزيدِ العِنايةِ بأصحابِ تلك الصِّلاتِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ فيه تَسميةُ ما يُعطُونَه مِن أموالِهم مِن الصَّدقاتِ باسمِ ﴿حَقّٞ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم جَعَلوا السَّائلَ والمَحرومَ كالشُّركاءِ لهم في أموالِهم، مِن فَرْطِ رَغبتِهم في مُواساةِ إخوانِهم؛ إذْ لم تكُنِ الصَّدقةُ يَومَئذٍ واجبةً، ولم تكُنِ الزَّكاةُ قد فُرِضَت[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ومَجيءُ الصِّلةِ جُملةً اسميَّةً لإفادةِ ثَباتِ هذه الخَصلةِ فيهم، وتَمكُّنِها منهم؛ دفْعًا لتَوهُّمِ الشُّحِّ في بعضِ الأحيانِ لِما هو مَعروفٌ بيْنَ غالبِ النَّاسِ مِن مُعاوَدةِ الشُّحِّ للنُّفوسِ[٤].

- وهذه الصِّفةُ للمؤمنينَ مُضادَّةُ صِفةِ الكافرينَ المُتقدِّمةِ في قولِه: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾[٥] [المعارج: ١٨].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أُوثِرَ فيها الفِعلُ المضارعُ؛ لدَلالتِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨١، ٥٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على الاستِمرارِ[١].

- وهذا الوصفُ مُقابِلُ وصْفِ الكافرينَ بقولِه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾[٢] [المعارج: ٦].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ وَصْفُ المؤمنينَ بأنَّهم ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ مُقابِلُ قولِه في حقِّ الكافرينَ: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [المعارج: ١، ٢]؛ لأنَّ سُؤالَهم سُؤالُ مُستخِفٍّ بذلك ومُحيلِه[٣].

- وصَوغُ الصِّلةِ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ لتَحقيقِ ثَباتِ اتِّصافِهم بهذا الإشفاقِ؛ لأنَّه مِن المُغيَّباتِ، فمِن شأْنِ كَثيرٍ مِن الناسِ التَّردُّدُ فيه[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ، أي: غيرُ مأمونٍ لهم، وهذا تَعريضٌ بزَعْمِ المشركينَ الأمْنَ منه[٥].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ قيل: وَصْفُهم بأنَّهم لفُروجِهم حافِظونَ مُقابِلُ قولِه في تَهويلِ حالِ المشركينَ يومَ الجزاءِ بقولِه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠]؛ إذ أخصُّ الأحِمَّاءِ بالرَّجُلِ زَوجُه؛ فقُصِدَ التَّعريضُ بالمشركينَ بأنَّ هذا الهَولَ خاصٌّ بهم بخِلافِ المسلمينَ؛ فإنَّهم هم وأزواجَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُحْبَرونَ؛ لأنَّهم اتَّقوا اللهَ في العِفَّةِ عن غيرِ الأزواجِ، قال تعالَى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، أي: ليس في المسلمينَ سِفاحٌ، ولا زِنًا، ولا مُخالَّةٌ، ولا بِغاءٌ؛ ولذلك عُقِّبَ بالتَّفريعِ بقولِه: ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾[١].

٨- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾

- صَوغُ الصِّلةِ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾؛ لتَحقيقِ ثَباتِ اتِّصافِهم بهذا الوصْفِ[٢].

٩- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾

- تَخصيصُ الشَّهادةِ بالذِّكرِ معَ اندراجِها في الأماناتِ؛ لإبانةِ فضْلِها؛ لأنَّ في إقامتِها إحياءَ الحقوقِ وتَصحيحَها، وفي مَنْعِها تَضييعَها وإبطالَها[٣].

- وجاءت جُملةُ الصِّلةِ ﴿ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ اسميَّةً؛ لتَحقيقِ ثَباتِ اتِّصافِهم بهذا الوَصْفِ؛ لأنَّ أداءَ الشَّهادةِ يَشُقُّ على النَّاسِ؛ إذ قد يكونُ المَشهودُ عليه قَريبًا أو صَديقًا، وقد تُثيرُ الشَّهادةُ على المَرْءِ إحْنةً منه وعَداوةً[٤].

- قولُه: ﴿ بِشَهَٰدَٰتِهِمْ ﴾ قُرِئَ ﴿ بِشَهَادَتِهِمْ ﴾ بصِيغةِ الإفرادِ، وهو اسمُ جِنسٍ يعُمُّ جَميعَ الشَّهاداتِ الَّتي تَحمَّلوها. وقُرِئَ ﴿ بِشَهَٰدَٰتِهِمْ ﴾ بصِيغةِ الجمْعِ[٥]، وذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

(٥) قرأ يعقوبُ وحفصٌ ﴿ بِشَهَٰدَٰتِهِمْ ﴾ بصِيغةِ الجمْعِ، وقرأ الباقونَ بصِيغةِ الإفرادِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩١).

على اعتِبارِ جمْعِ المُضافِ إليه[١].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ ثَناءٌ عليهم بعِنايتِهم بالصَّلاةِ مِن أنْ يَعتريَها شَيءٌ يُخِلُّ بكَمالِها؛ لأنَّ مادَّةَ المُفاعَلةِ هنا للمُبالَغةِ في الحِفظِ[٢].

- وإيثارُ الفِعلِ المضارِعِ ﴿يُحَافِظُونَ﴾؛ لإفادةِ تَجدُّدِ ذلك الحِفاظِ، وعدَمِ التَّهاوُنِ به، وبذلك تَعلَمُ أنَّ هذه الجُملةَ ليسَتْ مُجرَّدَ تأْكيدٍ لجُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾، بل فيها زِيادةُ معنًى معَ حُصولِ الغرَضِ مِن التَّأكيدِ بإعادةِ ما يُفيدُ عِنايتَهم بالصَّلاةِ في كِلْتا الجُملتَينِ[٣].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ يُفيدُ تَقويةَ الخبَرِ، مع إفادةِ التَّجدُّدِ مِن الفِعلِ المُضارِعِ[٤].

- وقدْ حَصَل بيْنَ أُخرى هذه الصِّلاتِ -﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾- وبيْن أُولاها -﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾- مُحسِّنُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال الشوكاني: (كرَّر ذِكرَ الصَّلاةِ لاختلافِ ما وصَفهم به أوَّلًا، وما وصَفهم به ثانيًا؛ فإنَّ معنَى الدَّوامِ: هو أن لا يشتغِلَ عنها بشيءٍ مِن الشَّواغِلِ...، ومعنى المحافظةِ: أنْ يُراعي الأمورَ التي لا تكونُ صلاةً بدونِها، وقيل: المرادُ يُحافِظونَ عليها بعدَ فعلِها مِن أنْ يفعَلوا ما يُحبِطُها، ويُبطِلُ ثوابَها). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ورَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ، أو المُتجانِسَينِ، أو المُلحَقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ =

- وفي تَكريرِ الصَّلاةِ مُبالَغةٌ لا تَخْفى؛ اهتمامًا بشَأْنِها، وتَنويهًا بفضْلِها، ويُضافُ إلى التَّكريرِ تَصديرُ الجُملةِ بالضَّميرِ، وبِناءُ الجُملةِ عليه، وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفِعلِ، وفِعليَّةُ الخبَرِ، فتُفيدُ الجُملةُ الاسميَّةُ الدَّوامَ والاستِمرارَ، وتُفيدُ الجُملةُ الفِعليَّةُ التَّجدُّدَ مع الاستِمرارِ، وهذا نمَطٌ عَجيبٌ انفرَدَ به كِتابُ اللهِ تعالى[1].

- ومِن قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ تَكريرُ المَوصولاتِ لتَنزيلِ اختِلافِ الصِّفاتِ مَنزلةَ اختلافِ الذَّواتِ؛ إيذانًا بأنَّ كلَّ واحدٍ من الأوصافِ المذكورةِ نعْتٌ جَليلٌ على حِيالِه، له شأنٌ خَطيرٌ مُستتبِعٌ لأحكامٍ جَمَّةٍ، حَقيقٌ بأنْ يُفرَدَ له مَوصوفٌ مُستقِلٌّ، ولا يُجعَلَ شَيءٌ منها تَتِمةً للآخَرِ[2].

- ومِن قولِه: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكۡرَمُونَ﴾، وقال قبْلَه في سُورةِ (المؤمنينَ): ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ

= آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلِمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلِماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤).

هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ ﴾ [المؤمنون: ٤-١١]، تَجاوَبَت الآياتُ في السُّورتينِ لفْظًا ومعْنًى، واختَصَّت سُورةُ (المعارجِ) بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾، وحُذِفَ مِن سُورةِ (المؤمنين)؛ وذلك لمُناسَبةٍ حَسَنةٍ، وهي أنَّ آياتِ سُورةِ (المعارجِ) مَبْنيَّةٌ على التَّأكيدِ والمُبالَغةِ، فلمَّا قال: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾، أكَّد ذلك في آخرِ هذه الآياتِ كرًّا عليها بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]. ووصَفَ المزكِّين بأنَّهم ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾، وبعْدَه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ثمَّ أتْبَعَ ذلك التَّوكيدَ بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾، وبعْدَه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾، ثمَّ بالَغَ في تَحذيرِهم فقال: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾. وهذه الآيةُ جاءت في سُورةِ (المؤمنينَ). وبعْدَها في السُّورتينِ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾، ثمَّ خصَّ الآيةَ في سُورةِ (المعارجِ) بما أجْرَى عليه الآياتِ قبْلَها مِن المبالَغةِ في الطَّاعاتِ الَّتي تَضمَّنَت ذِكْرَها، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾؛ فكان مِن المبالَغةِ الَّتي تَقْتضيها الآياتُ المتقدِّمةُ ذِكرُ الشَّهاداتِ عَقِيبَ أداءِ الأماناتِ[(١)].

١١- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾

- جَيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم استَحقُّوا ما بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ ما سبَقَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[(٢)]. وما فيه مِن معْنى البُعدِ، مع قُربِ العهْدِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٩٧-١٣٠٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤١)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٥).

بالمُشارِ إليهِم؛ للإيذانِ بعُلوِّ شأْنِهم، وبُعدِ مَنزلَتِهم في الفضلِ[١].

- وتقديمُ ﴿فِي جَنَّتٍ﴾ على الخَبرِ ﴿مُّكْرَمُونَ﴾؛ للاهتِمامِ، مع مُراعاةِ الفَواصِلِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧٢).

الآيات (٣٦-٤٤)

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ
مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ٣٨ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ
إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ
ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٤٢ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ٤٣ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ
ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قِبَلَكَ﴾: أي في جهتِك، وما يَليك، وأصلُ (قبل): يدُلُّ على مُواجَهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[(١)].

﴿مُهۡطِعِينَ﴾: أي: مُسرِعينَ مُقبِلينَ، وأصلُ (هطع): يدُلُّ على إقبالٍ على الشَّيءِ، وانقيادٍ[(٢)].

﴿عِزِينَ﴾: أي: جماعاتٍ مُتفرِّقةً، واحِدُها: عِزَةٌ، وهي: العُصبةُ مِنَ النَّاسِ، وهو مِن المنقوصِ الَّذي جاز جمعُه بالواوِ والنُّونِ عِوَضًا مِنَ المحذوفِ، وأصلُها عِزْوَةٌ، وأصلُه مِن: عَزَوتُه فاعتَزَى: أي: نسَبْتُه فانتسَبَ؛ لأنَّ كُلَّ فِرقةٍ تَعتَزي -تنتَسِبُ- إلى غَيرِ ما تعتَزي إليه الفِرقةُ الأُخرى، وأصلُ (عزو): يدُلُّ على انتِماءٍ واتِّصالٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣، ٤٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:٣٤٧)، =

﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾: أي: القُبورِ، واحِدُها: الجَدَثُ[١].

﴿نُصُبٍ﴾: واحِدُ الأنصابِ: وهي حِجارةٌ كانت حوْلَ الكَعبةِ تُنصَبُ، فيُهَلُّ عليها، ويُذبَحُ عليها لغيرِ اللهِ تعالى، وقد كَثُرَ استِعمالُ هذا الاسمِ في الأصنامِ حتَّى قيلَ لها: الأنصابُ، ووَجهُ تَسميتِها نُصُبًا أنَّها تُنصَبُ للعِبادةِ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ[٢].

﴿يُوفِضُونَ﴾: أي: يُسرِعُونَ، يُقالُ: أوْفَضَ إيفاضًا: أَسْرَعَ[٣].

﴿خَٰشِعَةً﴾: أي: ذليلةً خاضِعةً، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[٤].

﴿تَرْهَقُهُمْ﴾: أي: تَغشاهم وتَلحَقُهم، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ[٥].

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤١٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧١)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٢٦).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُنْكِرًا على الكفَّارِ الَّذين كانوا في زَمَنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: فما لكُفَّارِ قُرَيشٍ -يا محَمَّدُ- يُسرِعونَ نَحوَك مُتطَلِّعةً أبصارُهم إليك، مُتفرِّقينَ عن يمينِك وعن شِمالِك؟! أيطمَعُ كلُّ واحدٍ منهم أن يُدخِلَه اللهُ جَنَّةَ نَعيمٍ؟! كلَّا! ليس الأمرُ كما يَطمَعونَ، إنَّا خلَقْناهم مِن نُطفةٍ كما يَعلَمونَ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى ما يدُلُّ على كمالِ قدرتِه، مهدِّدًا الكافِرينَ، ومحقِّرًا مِن شأنِهم، فيقولُ: فلا أُقسِمُ برَبِّ المشارِقِ والمغارِبِ، إنَّا لَقادِرونَ على إهلاكِ المُشرِكينَ، والإتيانِ بقَومٍ خَيرٍ مِنهم، وما يَفوتُنا منهم أحَدٌ، فيُعجِزَنا هَرَبًا؛ فاترُكِ المُشرِكينَ -يا محَمَّدُ- يخوضُوا في باطِلِهم، ويَلعَبوا حتَّى يُلاقُوا يومَ القيامةِ الَّذي فيه عَذابُهم؛ يومَ يَخرُجونَ مِن قُبورِهم مُسرِعينَ نَحوَ مَوقِفِ الحِسابِ، كأنَّهم يَسْعَونَ مُتعَجِّلينَ إلى أصنامِهم المَنصوبةِ الَّتي كانوا يتقَرَّبونَ إليها بالعِبادةِ وغَيرِها في الدُّنيا؛ خاضِعةً ساكِنةً أبصارُهم، وتَغْشاهم ذِلَّةٌ.

ذلك اليَومُ الموصوفُ بتلك الشَّدائِدِ هو اليومُ الَّذي كانوا يُوعَدونَ به في الدُّنيا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦﴾.

أي: فما شأنُ كُفَّارِ قُرَيشٍ -يا محَمَّدُ- يُسرِعونَ نَحوَك ويُقبِلونَ عليك وأبصارُهم مُتطَلِّعةٌ إليك[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قيل: ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ بمعنى: مُسرِعينَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: =

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧﴾.

أي: عن يمينِك وعن شِمالِك -يا محمَّدُ- مُتفرِّقينَ[1].

= الشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٢٠).

وقيل: مُسرِعينَ نافِرينَ منه. وممَّن نصَّ على هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٨).

وقيل المعنى: يُديمونَ النَّظرَ إليك، ويَتطَلَّعونَ نحوَك. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٣).

وقيل: هذا النَّظرُ نظَرُ تعجُّبٍ. نسَب الماوَرْديُّ هذا المعنى إلى الكلبيِّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٩٦).

وقيل: هو نظرُ عداوةٍ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا: الزَّجَّاجُ، وابنُ الجَوزيِّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٩). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٣٣).

قال ابن جرير: (والإهطاعُ في كلامِ العربِ بمعنَى الإسراعِ أشهَرُ منه بمعنَى إدامةِ النَّظرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٧).

وممَّن جمَع بيْنَ معنَيَي السُّرعةِ وإدامةِ النَّظرِ: العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦٤).

وقال ابن عطيَّة: (المُهطِعُ: الَّذي يَمشي مُسرِعًا إلى شيءٍ، قد أقبَل عليه ببصَرِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٠).

وقال الواحديُّ بعد أن ذكر أقوالَ العلماءِ: (والجامعُ لهذه الأقوالِ قولُ مَن قال: الإهطاعُ: إسراعٌ مع إدامةِ نظرٍ). ((البسيط)) (١٢/ ٤٩٨).

وقال ابن عاشور: (الإهطاعُ: مَدُّ العُنقِ عندَ السَّيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٦).

وممَّن جمَع بيْن المعاني الثَّلاثةِ -وهي: الإسراعُ، وتصويبُ النَّظرِ، ومَدُّ العُنُقِ-: البغويُّ، والزمخشري، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤١٢).

وقال القرطبي: (المعنى: ما بالُهم يُسرِعون إليك، ويَجلِسونَ حَوَالَيْك، ولا يَعمَلونَ بما تأمُرُهم؟). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٣). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

عباراتُ المفسِّرينَ في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿عِزِينَ﴾ مُتقارِبةٌ؛ فقيل: ﴿عِزِينَ﴾، أي: حِلَقًا حِلَقًا، =

﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ٣٨﴾.

أي: أيطمَعُ كلُّ واحدٍ مِن أولئكَ المُشرِكينَ أن يُدخِلَه اللهُ جَنَّةَ نَعيمٍ يومَ القيامةِ[1]؟!

﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا احتَجَّ على صِحَّةِ البعثِ، دلَّ على أنَّهم كانوا مُنكِرين للبَعثِ، فكأنَّه قِيل لهم: كلَّا إنَّكم مُنكِرونَ للبعثِ، فمِن أينَ تَطمَعونَ في دُخولِ الجنَّةِ[2]؟!

وأيضًا فإنَّ المستهزِئينَ كانوا يَستحقِرونَ المؤمنينَ، فأخبَرَ تعالَى أنَّ هؤلاء

= فلا يَدنُونَ مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيَنتَفِعونَ بمَجلِسِه. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٢٠).

وقيل: ﴿عِزِينَ﴾ أي: فِرَقًا شَتَّى. وممَّن قاله: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، والعُلَيمي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٥٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤).

وقال الواحدي: (﴿عِزِينَ﴾ جماعاتٍ حِلَقًا حِلَقًا، وذلك أنَّهم كانوا يَجتَمِعونَ عندَه، ويَستهزِئونَ به وبأصحابِه، ويقولونَ: لئنْ دخَل هؤلاء الجنَّةَ فلَندخُلَنَّها قبْلَهم). ((الوجيز)) (ص: ١١٣٤).

وقال ابنُ كَثيرٍ: (﴿عِزِينَ﴾ واحدُها عِزَةٌ، أي: مُتفرِّقينَ. وهو حالٌ مِن ﴿مُهۡطِعِينَ﴾، أي: في حالِ تَفرُّقِهم واختلافِهم، كما قال الإمامُ أحمدُ في أهلِ الأهواءِ: فهُمْ مُخالِفون للكِتابِ، مُختلِفون في الكِتابِ، متَّفِقون على مُخالَفةِ الكِتابِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٨). ويُنظر: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ٥٦).

وقال البِقاعي: (﴿عِزِينَ﴾ أي: حالَ كَونِهم جماعاتٍ جماعاتٍ، وحِلَقًا حِلَقًا، متفرِّقينَ فِرَقًا شتَّى أفواجًا يتمهَّلونَ ليأتوا جميعًا). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٧).

المسْتهزِئين مَخلوقونَ ممَّا خُلِقوا؛ فكيف يَليقُ بهم هذا الاحتقارُ[(١)]؟!

﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَطمَعون، فليس لهم أن يَدخُلوا الجنَّةَ مع كُفرِهم باللهِ وإشراكِهم به، إنَّا خلَقْناهم مِن نُطفةٍ كما يَعلَمونَ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قال ابن جُزَي: (وفي المقصودِ بهذا الكلامِ ثلاثةُ أوجُهٍ:

أحدُها: تحقيرُ الإنسانِ، والرَّدُّ على المتكبِّرينَ.

الثَّاني: الرَّدُّ على الكُفَّارِ في طمَعِهم أن يَدخُلوا الجنَّةَ، كأنَّه يقولُ: إنَّا خلَقْناكم ممَّا خلَقَنا منه النَّاسَ، فلا يَدخُلُ أحدٌ الجنَّةَ إلَّا بالعملِ الصَّالحِ؛ لأنَّكم سواءٌ في الخِلقةِ.

الثَّالث: الاحتِجاجُ على البعثِ بأنَّ الله خلَقهم مِن ماءٍ مَهينٍ، فهو قادرٌ على أن يُعيدَهم، كقولِه: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧] إلى آخرِ السُّورةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٢).

ممَّن قال بنحوِ القولِ الأوَّلِ: الشوكانيُّ، والسعديُّ.

قال الشوكاني: (﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: مِنَ القَذَرِ الَّذين يَعلَمونَ به؛ فلا يَنبغي لهم هذا التَّكَبُّرُ!). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٢).

وقال السعدي: (﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: مِن ماءٍ دافِقٍ، يَخرُجُ مِن بيْنِ الصُّلْبِ والتَّرائبِ، فهم ضُعفاءُ، لا يَملِكونَ لأنفُسِهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا مَوتًا ولا حياةً ولا نُشورًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

وممَّن قال بمعنى القولِ الثَّاني: ابنُ جرير، والسَّمعانيُّ، والبغوي، وابن عطية، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٤).

وممَّن قال بمعنى القولِ الثَّالثِ: الرازيُّ، وأبو حيَّان، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٨).

وقيل: المعنى: أنَّهم خُلِقوا مِن نُطفةٍ، فمَن قدَرَ على ذلك فلا يُعجِزُه إهلاكُهم؛ فلْيَحذَروا عاقِبةَ =

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾.

أي: فلا أُقسِمُ بخالِقِ ومُدَبِّرِ المشارِقِ والمغارِبِ، إنَّا لَقادِرونَ(١).

= البَغيِ والفَسادِ. قاله القاسمي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٢٠).

وقيل: المعنى: إنَّا خَلَقْناهم مِن أجْلِ ما يَعلَمونَ، وهو امتِثالُ الأمرِ والنَّهيِ، وتعرُّضِهم للثَّوابِ والعِقابِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٣).

قال ابن كثير: (وتقديرُ الكلامِ: ليسَ الأمرُ كما يَزعمونَ أنْ لا معادَ ولا حسابَ، ولا بعثَ ولا نشورَ، بل كلُّ ذلك واقعٌ وكائنٌ لا مَحالةَ. ولهذا أتى بـ «لا» في ابتداءِ القسَمِ؛ لِيدُلَّ على أنَّ المُقْسَمَ عليه نفيٌ، وهو مضمونُ الكلامِ، وهو الرَّدُّ على زعمِهم الفاسِدِ في نفْيِ يومِ القيامةِ، وقد شاهَدوا مِن عظيمِ قدرةِ اللهِ تعالَى ما هو أبلغُ مِن إقامةِ القيامةِ، وهو خلقُ السَّمواتِ والأرضِ، وتسخيرُ ما فيهما مِن المخْلوقاتِ مِن الحيواناتِ والجماداتِ، وسائرِ صنوفِ الموجوداتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩).

وقال الشوكاني: (قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ «لا» زائدةٌ...، والمعنَى: فأُقسِمُ برَبِّ المشارِقِ والمغارِبِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٣).

وقال ابنُ القيِّم: (أقسَمَ سُبحانَه برَبِّ المشارِقِ والمغارِبِ، وهي إمَّا مَشارِقُ النُّجومِ ومَغارِبُها، أو مَشارِقُ الشَّمسِ ومَغارِبُها، أو أنَّ كُلَّ مَوضعٍ مِنَ الجِهةِ مَشرِقٌ ومَغرِبٌ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٩٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: مَشارِقُ الكواكِبِ، كالشَّمسِ والقَمَرِ وغَيرِهما: ابنُ عطية، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: مَشارِقُ الشَّمسِ ومَغارِبُها: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والقرطبي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٥).

وممَّن قال بمعنى هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ. يُنظر: =

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١﴾.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

أي: إنَّا لَقادِرونَ على إهلاكِ المُشرِكينَ، والإتيانِ بقَومٍ خَيرٍ مِنهم يُطيعونُ رَبَّهم، ويَتَّقونَه[1].

= ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨٦).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (هو مِئةٌ وثمانون مَشرِقًا، ومِئةٌ وثمانون مَغرِبًا، في كُلِّ مَنزلةٍ تَطلُعُ يومَينِ في السَّنةِ، تطلُعُ فيها الشَّمسُ، وتَغرُبُ فيها). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٩).

وقيل: المرادُ: مَشارِقُ ومغاربُ الشَّمسِ والقَمَرِ. وممَّن قال بهذا: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٢٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨٦).

قال ابنُ القيِّم: (أقسَمَ سُبحانَه على عُمومِ قُدرتِه وكَمالِها وصِحَّةِ تعَلُّقِها بإعادتِهم بعدَ العدَمِ، فذكرَ المَشارِقَ والمغارِبَ بلَفظِ الجَمعِ؛ إذ هو أدَلُّ على المقسَمِ عليه، سواءٌ أُريدَ مَشارِقُ النُّجومِ ومَغارِبُها، أو مَشارِقُ الشَّمسِ ومَغارِبُها، أو كُلُّ جزءٍ مِن جهتَي المشرِقِ والمغرِبِ؛ فكُلُّ ذلك آيةٌ ودَلالةٌ على قُدرتِه تعالى على أن يُبَدِّلَ أمثالَ هؤلاء المكَذِّبينَ، ويُنشِئَهم فيما لا يَعلَمونَ، فيأتيَ بهم في نَشأةٍ أُخرى كما يأتي بالشَّمسِ كُلَّ يومٍ مِن مَطلَعٍ، ويَذهَبُ بها في مَغرِبٍ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٩٥).

وقيل: المرادُ: مَشارِقُ الأرضِ ومَغارِبُها. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٣).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، وابن القيِّم، والشوكاني. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن كثير: (أيْ: يومَ القيامةِ نُعيدُهم بأبدانٍ خيرٍ مِن هذه، فإنَّ قدرَتَه صالِحةٌ لذلك... كما =

كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾.

أي: وما يَفوتُنا منهم أَحَدٌ، فيُعجِزَنا هَرَبًا؛ فاللهُ تعالى قادِرٌ على الإتيانِ بخَيرٍ منهم؛ إذ لا يمتَنِعُ عليه شَيءٌ سُبحانَه[1].

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثبَت أنَّ لله سُبحانَه العَظَمةَ البالِغةَ الباهِرةَ، مِن شُمولِ العِلمِ، وتمامِ القُدرةِ، فأنتَج اعتِمادَ أهلِ حِزْبِه عليه، وإعراضَهم عن كلِّ ما سِواه؛ سبَّب عن ذلك قولَه تهديدًا للمُخالِفينَ، وتسليةً للمؤالِفينَ[2]:

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

= قال تعالَى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۞ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٣، ٤]، وقال تعالَى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]). وذكر أنَّ هذا القولَ (أظهرُ؛ لدَلالةِ الآياتِ الأُخَرِ عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (يحتَمِلُ مَعنَيينِ؛ أوَّلُهما -وهو المناسِبُ للسِّياقِ-: أن يكونَ المعنى: على أن نُبَدِّلَهم خَيرًا منهم، أي: نُبدِّلَ ذَواتِهم خَلقًا خَيرًا مِن خَلْقِهم الَّذي هم عليه اليومَ... والمعنى الثَّاني: أن نُبدِّلَ هؤلاء بخيرٍ منهم، أي: بأمَّةٍ خَيرٍ منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤١٨).

أي: فاترُكِ المُشرِكينَ -يا محمَّدُ- يَخوضُوا في باطِلِهم، ويَلعَبوا في دُنياهم بشَهَواتِهم، إلى أن يُلاقُوا يومَ القيامةِ الَّذي فيه عَذابُهم(١)!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾.

أي: يومَ يخرُجُ المشركون مِن قُبورِهم مُسرِعينَ نَحوَ مَوقِفِ الحِسابِ(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قال القرطبي: (أي: اترُكْهم يَخوضوا في باطِلِهم، ويَلعَبوا في دُنياهم، على جِهةِ الوَعيدِ، واشتَغِلْ أنت بما أُمِرْتَ به، ولا يَعظُمَنَّ عليك شِركُهم؛ فإنَّ لهم يومًا يَلقَونَ فيه ما وُعِدوا). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٦).

وقال ابنُ عاشور: (الخَوضُ: الكلامُ الكثيرُ، والمرادُ: خَوضُهم في القرآنِ، وشأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلِمينَ. واللَّعِبُ: الهَزْلُ والهُزْءُ، وهو لَعِبُهم في تلقِّي الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، وخُروجُهم عن حدودِ التَّعَقُّلِ والجِدِّ في الأمرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٠، ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ ﴾ بيانٌ وتوجيهٌ عن اليومِ الأوَّلِ الَّذي في قولِه: ﴿ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٢]، وتأويلُ الكلامِ: حتَّى يُلاقوا يومَهم الَّذي يُوعَدونَه ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٤).

ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [القمر: ٧، ٨].

﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿نُصُبٍ﴾ بضَمِّ النُّونِ والصَّادِ. قيل: بمعنى الأصنامِ المَنصوبةِ[١].

٢- قراءةُ: ﴿نَصْبٍ﴾ بفَتحِ النُّونِ. قيل: بمعنى: العَلَمِ المَنصوبِ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحِدٍ[٢].

﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾.

أي: يَخرُجونَ مِن قُبورِهم كأنَّهم يَسعَونَ مُتعَجِّلينَ مُسرِعينَ إلى أصنامِهم الَّتي نصَبوها للعبادةِ يَبْتَدِرونَ، أيُّهم يَسْتَلِمُه أوَّلَ[٣].

---

(١) قرأ بها ابنُ عامرٍ، وحفصٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٢٤)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٥٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٩٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢٤، ٧٢٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٢٤)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٥٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٩٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢٤، ٧٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٣).
قال ابنُ القيِّم: (المقصودُ: أنَّ النُّصُبَ كُلُّ شَيءٍ نُصِبَ؛ مِن خَشَبةٍ، أو حَجَرٍ، أو عَلَمٍ). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٢٠٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢١).
وقال ابن عطية: (النُّصُبُ: ما نُصِبَ للإنسانِ، فهو يَقصِدُ مُسرِعًا إليه؛ مِن عَلَمٍ، أو بِناءٍ، أو صَنَمٍ لأهلِ الأصنامِ. وقد كثُر استِعمالُ هذا الاسمِ في الأصنامِ حتَّى قيل لها: الأنصابُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧١). =

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤﴾.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾.

أي: تكونُ أبصارُهم يومَ القيامةِ خاضِعةً ساكِنةً، وتَغْشاهم ذِلَّةٌ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۞ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾ [النازعات: ٨، ٩].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

أي: ذلك اليَومُ الموصوفُ بتلك الشَّدائِدِ هو يومُ القيامةِ الَّذي كان الكُفَّارُ يُوعَدونَ به في الدُّنيا على ألسِنةِ الرُّسُلِ عليهم السَّلامُ، وكانوا به يُكذِّبونَ(٢)!

= وقال ابن كثير: (أي: كأنَّهم في إسْراعِهم إلى الموقفِ كما كانوا في الدُّنيا يُهَرْوِلونَ إلى النُّصُبِ إذا عايَنوه ﴿يُوفِضُونَ﴾: يَبْتَدِرونَ، أيُّهم يَسْتَلِمُه أوَّلَ. وهذا مرويٌّ عن مُجاهدٍ، ويحيى بنِ أبي كثيرٍ، ومُسلمٍ البَطينِ، وقَتادةَ، والضَّحَّاكِ، والرَّبيعِ بنِ أنسٍ، وأبي صالحٍ، وعاصمِ بنِ بَهْدلةَ، وابنِ زَيدٍ، وغيرِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قال السعدي: (ذلك أنَّ الذِّلَّةَ والقَلَقَ قد مَلَك قُلوبَهم، واستَولى على أفئِدتِهم؛ فخشَعَت منهم الأبصارُ، وسكَنَت منهم الحَرَكاتُ، وانقطَعَت الأصواتُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٤).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يُوعَدُونَ فيه في الدُّنيا العَذابَ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾، وهذا تهديدٌ شديدٌ يتضمَّنُ: اتْرُكْ هؤلاءِ الَّذين قامَت عليهم حُجَّتي فلم يَقْبَلوها، ولم يَخافوا بَأْسي، ولا صَدَّقوا رسالاتي في خَوضِهم بالباطلِ ولَعِبِهم، فالخَوضُ بالباطلِ ضِدُّ التَّكلُّمِ بالحقِّ، واللَّعِبُ ضِدُّ السَّعْيِ الَّذي يَعودُ نَفْعُه على ساعيه، فالأوَّلُ ضِدُّ العِلمِ النَّافعِ، والثَّاني ضدُّ العملِ الصَّالحِ؛ فلا تَكَلَّمَ بالحقِّ، ولا عَمِلَ بالصَّوابِ! وهذا شأنُ كلِّ مَن أعرَض عمَّا جاء به الرَّسولُ، لا بُدَّ له مِن هذَينِ الأمْرَينِ[1].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ إذا تأمَّلْتَ ارتباطَ إحدى الجُملتَينِ بالأُخرى وجدْتَ تحتَها كَنزًا عظيمًا مِن كنوزِ المعرفةِ والعلمِ؛ فأشار سُبحانَه بمَبدَأِ خلْقِه ممَّا يَعلَمونَ مِن النُّطفةِ وما بعدَها إلى موضِعِ الحُجَّةِ والآيةِ الدَّالَّةِ على وُجودِه ووحدانيَّتِه وكَمالِه، وتَفَرُّدِه بالرُّبوبيَّةِ والإلهيَّةِ، وأنَّه لا يَحْسُنُ به مع ذلك أنْ يَترُكَهم سُدًى، لا يُرسِلُ إليهم رَسولًا، ولا يُنزِلُ عليهم كِتابًا، وأنَّه لا يَعْجِزُ مع ذلك أنْ يَخْلُقَهم -بعدَ ما أماتَهم- خَلْقًا جديدًا، ويَبعَثَهم إلى دارٍ يُوَفِّيهم فيها أعمالَهم مِن الخَيرِ والشَّرِّ، فكيف يَطْمَعونَ في دُخولِ الجنَّةِ وهم يَكْذِبونَ ويُكَذِّبون رُسُلي، ويَعْدِلُون بي خَلْقي وهم يَعلمونَ مِن أيِّ شَيءٍ خَلَقْتُهم؟! ويُشْبِهُ هذا قولَه تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٧]، وهم كانوا مُصَدِّقينَ بأنَّه خالِقُهم، ولكنِ

= (٤/ ٤٣٩).

وقال ابنُ جريرٍ: (يُوعَدونَ في الدُّنيا أنَّهم لاقُوه في الآخِرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٧).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٠).

احتجَّ عليهم بخَلْقِه لهم على تَوحيدِه ومعرفتِه وصِدْقِ رُسُلِه، والإيمانِ بالمَعادِ، وهو سُبحانَه يُذَكِّرُ عبادَه بنِعَمِه عليهم، ويَدعوهم بها إلى مَعرفتِه ومحبَّتِه، وتصديقِ رُسُلِه، والإيمانِ بلِقائِه(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ جاء المشرقُ والمغربُ في القرآنِ: تارةً مجموعَينِ، وتارةً مُثَنَّيَينِ، وتارةً مُفرَدينِ، ووجْهُ ذلك: اختِصاصُ كلِّ محَلٍّ بما يَقتضيه مِن ذلك؛ فالأوَّلُ: كقولِه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾، والثَّاني: كقولِه: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٧، ١٨]، والثَّالثُ: كقولِه: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩]، فتأمَّلْ هذه الحكمةَ البالغةَ في تغايُرِ هذه المواضعِ في الإفرادِ والجمعِ والتَّثنيةِ بحسَبِ مواردِها يُطْلِعْك على عظَمةِ القرآنِ الكريمِ وجلالتِه؛ وأنه تنزيلٌ مِن حكيمٍ حميدٍ، فحيثُ جُمِعَتْ كان المرادُ بها مَشارِقَ الشَّمسِ ومَغارِبَها في أيَّامِ السَّنَةِ -وهي متعدِّدةٌ-، وحيثُ أُفْرِدَتْ كان المرادُ أُفُقَي المشرقِ والمغربِ، وحيثُ ثُنِّيَا كان المرادُ مَشرِقَيْ صُعودِها وهُبوطِها ومَغرِبَيْهِما؛ فإنَّها تَبْتَدِئُ صاعدةً حتَّى تنتهيَ إلى غايةِ أَوْجِها وارتفاعِها؛ فهذا مَشْرِقُ صُعودِها، ويَنْشَأُ منه فصْلَا الخريفِ والشِّتاءِ؛ فجَعَلَ مَشْرِقَ صُعودِها بجملتِه مَشرِقًا واحدًا؛ ومَشرِقَ هُبوطِها بجملتِه مَشرِقًا واحدًا، ويُقابِلُها مَغْرِباها، فهذا وجهُ اختلافِ هذه في الإفرادِ والتَّثنيةِ والجمعِ(٢). وذلك على قولٍ.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ مُناسَبةٌ في ذِكْرِ مجيئِهما مجموعَينِ: أنَّه لَمَّا كان هذا القَسَمُ في سياقِ سَعَةِ رُبوبيَّتِه، وإحاطةِ قدرتِه،

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢١١).

والمُقْسَمُ عليه إذهابُ هؤلاءِ والإتيانُ بخيرٍ منهم؛ ذَكَر المَشارِقَ والمغاربَ لِتَضمُّنِهما انتِقالَ الشَّمسِ -الَّتي هي أحدُ آياتِه العظيمةِ الكبيرةِ- ونَقْلَه سُبحانَه لها وتصريفَها كلَّ يومٍ في مشرقٍ ومغربٍ -وذلك على قولٍ-؛ فمَن فَعَلَ هذا كيف يُعجِزُه أنْ يُبَدِّلَ هؤلاء، ويَنقُلَ إلى أمكنتِهم خيرًا منهم؟! وأيضًا فإنَّ تأثيرَ مَشارِقِ الشَّمسِ ومَغاربِها في اختلافِ أحوالِ النَّباتِ والحيوانِ أمْرٌ مشهودٌ؛ وقد جَعَل اللهُ تعالى ذلك بحِكمتِه سببًا لِتَبَدُّلِ أجسامِ النَّباتِ وأحوالِ الحيواناتِ، وانتقالِها مِن حالٍ إلى غيرِه، ويُبَدِّلُ الحَرَّ بالبردِ والبردَ بالحَرِّ، والصَّيفَ بالشِّتاءِ والشِّتاءَ بالصَّيفِ؛ إلى سائرِ تَبَدُّلِ أحوالِ الحيوانِ والنَّباتِ والرِّياحِ والأمطارِ والثُّلوجِ وغيرِ ذلك مِن التَّبدُّلاتِ والتَّغيُّراتِ الواقعةِ في العالَمِ بسببِ اختلافِ مَشارِقِ الشَّمسِ ومَغاربِها، كلُّ ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ؛ فكيف لا يَقدِرُ -مع ما يَشْهَدونَه مِن ذلك- على أنْ يُبَدِّلَ خيرًا منهم؟! وأَكَّدَ هذا المعنى بقولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، فلا يليقُ بهذا الموضعِ سِوى لفظةِ الجَمعِ[(١)].

٤- قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾، إنَّ تَعدُّدَ مَطالعِ الشَّمسِ ومَغاربِها في فُصولِ السَّنةِ مَظهَرٌ عَجيبٌ مِن مَظاهرِ القُدرةِ الإلهيَّةِ والحِكمةِ الرَّبَّانيَّةِ؛ لدَلالتِه على عَظيمِ صُنعِ اللهِ مِن حيث إنَّه دالٌّ على الحرَكاتِ الحافَّةِ بالشَّمسِ الَّتي هي مِن عَظيمِ المَخلوقاتِ؛ ولذلك لم يُذكَرْ في القرآنِ قَسَمٌ بجِهةٍ غيرِ المشرِقِ والمغربِ، دونَ الشَّمالِ والجنوبِ، مع أنَّ الشَّمالَ والجنوبَ جِهتانِ مَشهورتانِ عندَ العرَبِ[(٢)]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ سُؤالٌ: أنَّ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٩).

في الآيةِ الكريمةِ أنَّهم كأنَّهم يَعرِفونَ طريقَهم بلا علاماتٍ يَذهَبونَ إليها. فما الجَمعُ مع قَولِه تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]؟

الجوابُ: أنَّ يومَ القيامةِ خمسونَ ألْفَ سَنةٍ، وأنَّ الأحوالَ تتغيَّرُ؛ فهم كأنَّهم جرادٌ مُنتَشِرٌ، ثُمَّ بعدَ ذلك يَهتَدونَ إلى الطَّريقِ ويَسعَونَ(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ في خِتامِ السُّورةِ الكريمةِ بهذا الوَصفِ والوعيدِ الشَّديدِ: تأييدٌ للقَولِ بأنَّ سُؤالَهم في أوَّلِها ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ إنَّما هو استِخفافٌ واستِبعادٌ، فبيَّن لهم تعالى بعدَ عَرضِ السُّورةِ نهايةَ ما يُستَقبَلونَ به؛ لِيَأخُذوا حِذْرَهم، ويَرجِعوا إلى رَبِّهم؛ فارتبَطَ آخِرُ السُّورةِ بأوَّلِها(٢)!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ فُرِّعَ استِفهامٌ إنكاريٌّ وتَعجيبيٌّ مِن تَجمُّعِ المشرِكين إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُستهزِئينَ بما يَسمَعون مِن وَعْدِ المؤمِنينَ بالجنَّةِ، ووَعيدِ المشركينَ بعَذابِ جهنَّمَ؛ فُرِّعَ ذلك على ما أفادَه في قولِه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥]، والمعْنى: أنَّ الَّذين كَفَروا لا مَطمَعَ لهم في دُخولِ الجنَّةِ، فماذا يُحاوِلون بتَجمُّعِهم حولَك بمَلامحِ استِهزائِهم(٣)؟!

- وتَقديمُ الظَّرفِ ﴿قِبَلَكَ﴾ على ﴿مُهْطِعِينَ﴾ للاهتِمامِ به؛ لأنَّ التَّعجيبَ مِن حالِهم في حَضْرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أقْوى؛ لِما فيهم مِن الوَقاحةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٧٦).

- والمَقصودُ مِن ذِكرِ اليمينِ الإحاطةُ بالجِهاتِ، فاكتُفِيَ بذِكرِ اليمينِ والشِّمالِ؛ لأنَّهما الجِهتانِ اللَّتانِ يَغلِبُ حُلولُهما[١].

- قولُه: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ شُبِّهَ حالُهم في إسراعِهم إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحالِ مَن يُظَنُّ بهم الاجتِماعُ لطَلَبِ الهُدى والتَّحصيلِ على المَغفرةِ؛ ليَدخُلوا الجنَّةَ؛ لأنَّ الشَّأنَ ألَّا يَلتَفَّ حوْلَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا طالِبو الاهتداءِ بهَدْيِه، والاستِفهامُ على هذا مُستعمَلٌ في أصلِ معْناهُ. ويجوزُ أنْ يكونَ الكلامُ استِفهامًا مُستعمَلًا في التَّعجيبِ مِن حالِ إسراعِهم ثمَّ تَكذيبِهم واستهزائِهم[٢].

- وجُملةُ ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بدَلُ اشتمالٍ عن جُملةِ ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ الآيةَ؛ لأنَّ الْتِفافَهم حوْلَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شأْنُه أنْ يكونَ لطلَبِ الهُدى والنَّجاةِ؛ فشُبِّه حالُهم بحالِ طالِبي النَّجاةِ والهُدى، فأُورِدَ استِفهامٌ عليه[٣].

- قولُه: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ قال المشرِكون مُستهزِئينَ: نحن نَدخُلُ الجنَّةَ قبْلَ المسلِمينَ، فجاز أنْ يكونَ الاستفهامُ إنكارًا لتَظاهُرِهم بالطَّمَعِ في الجنَّةِ بحمْلِ استهزائِهم على خِلافِ مُرادِهم، على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ[٤]، أو بالتَّعبيرِ بفِعلِ (يَطمَعُ) عن التَّظاهُرِ بالطَّمَعِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٧، ١٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٨).

- وأُسنِدَ الطمعُ إلى ﴿كُلُّ ٱمۡرِيٕ﴾ منهم دونَ أنْ يُقالَ: (أيطْمَعون أنْ يَدخُلوا الجنَّةَ؟!) تَصويرًا لحالِهم بأنَّها حالُ جَماعةٍ يُريدُ كلُّ واحدٍ منهم أنْ يَدخُلَ الجنَّةَ، لتَساويهم يَرَون أنفُسَهم سَواءً في ذلك، ففي قولِه: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ﴾ تَقويةُ التَّهكُّمِ بهم[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ بُنِيَ على التَّهكُّم في قولِه: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾ ما يُبطِلُ ما فُرِضَ لحالِهم بما بُنِيَ عليه بكَلمةِ الرَّدْعِ، وهي ﴿كَلَّآ﴾، أي: لا يكونُ ذلك، وذلك انتقالٌ مِن التَّهكُّمِ بهم إلى تَوبيخِهم؛ دفْعًا لتَوهُّمِ مَن يَتوهَّمُ أنَّ الكلامَ السابقَ لم يكُنْ تَهكُّمًا[2].

- قولُه: ﴿كَلَّآ﴾ ردْعٌ لهم عن طَمَعِهم في دُخولِ الجنَّةِ، ثم عَلَّلَ ذلك بقولِه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ، وهو كلامٌ دالٌّ على إنكارِهم البعثَ، فكأنَّه قال: كلَّا إنَّهم مُنكِرونَ للبَعثِ والجَزاءِ، فمِن أين يَطمَعون في دُخولِ الجنَّةِ[3]؟!

- قولُه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ استِئنافًا ابتدائيًّا للانتقالِ مِن إثباتِ الجَزاءِ إلى الاحتجاجِ على إمكانِ البعثِ؛ إبطالًا لشُبْهتِهم الباعثةِ على إنكارِه، وهو الإنكارُ الذي ذُكِرَ إجمالًا بقولِه المتقدِّمِ آنِفًا: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٦، ٧]، فاحتجَّ عليهم بالنَّشأةِ الأُولى، فالخبَرُ بقولِه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ مُستعمَلٌ في لازِمِ معْناهُ، وهو إثباتُ إعادةِ خلْقِهم بعْدَ فَنائِهم، فهذا مِن تَمامِ الخِطابِ المُوجَّهِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٨).

وسلَّمَ، والمقصودُ منه أنْ يُبلَّغَ إلى أسماعِ المشركينَ[١].

- ويجوزُ أنْ يُرادَ: إنَّا خلَقْناهم ممَّا يَعلَمون، أي: مِن النُّطفةِ المَذِرةِ، وهي مَنصبُهم الذي لا مَنصِبَ أوضَعُ منه؛ ولذلك أُبهِمَ وأُخفِيَ؛ إشعارًا بأنَّه مَنصِبٌ يُسْتحيا مِن ذِكرِه، فمِن أينَ يَتشرَّفون ويدَّعون التَّقدُّمَ، ويَقولونَ: لنَدخُلَنَّ الجنَّةَ قبْلَهم[٢]؟!

- وفيه مَناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عُدِلَ هنا عن أنْ يُقالَ: (إنَّا خلَقْناهم مِن نُطفةٍ)، كما قال في آياتٍ أُخرى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٧، ٧٨]، وغيرِها مِن آياتٍ كثيرةٍ؛ عُدِلَ عن ذلك إلى الموصولِ في قولِه: ﴿مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ تَوجيهًا للتَّهكُّمِ بهم؛ إذ جادَلوا وعانَدوا، وعِلْمُ ما جادَلوا فيه قائمٌ بأنفُسِهم وهم لا يَشعُرون! ومنه قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]. وكان في قولِه تعالَى: ﴿مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّهم يُخلَقونَ الخلْقَ الثَّانيَ ممَّا لا يَعلَمونَ، كما قال في الآيةِ الأُخرى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، وقال: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]، فكان في الخلْقِ الأوَّلِ سِرٌّ لا يَعلَمونَه[٣].

- ومَجيءُ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ مُؤكَّدًا بحرْفِ التَّأكيدِ؛ لتَنزيلِهم فيما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٩).

صَدَر منهم مِن الشُّبهةِ الباطلةِ مَنزلةَ مَن لا يَعلَمون أنَّهم خُلِقوا مِن نُطفةٍ وكانوا مَعدومين؛ فكيف أحالوا إعادةَ خلْقِهم بعْدَ أنْ عُدِمَ بَعضُ أجزائِهم، وبقِيَ بَعضُها[١]؟!

- وأُتبِعَ الكنايةُ عن إمكانِ إعادةِ الخلْقِ بالتَّصريحِ بذلك بقولِه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۞ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ مُفرَّعًا على قولِه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾، والتَّقديرُ: فإنَّا لَقادِرون... الآيةَ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۞ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾

- قولُه: (لَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) مُعترِضٌ بيْنَ الفاءِ وما عطَفَتْه، والقسَمُ باللهِ بعُنوانِ رُبوبيَّتِه المَشارقَ والمغاربَ معْناه: رُبوبيَّتُه العالَمَ كلَّه؛ لأنَّ العالَمَ مُنحصِرٌ في جِهاتِ شُروقِ الشَّمسِ وغُروبِها[٣].

- وفي إيثارِ المشارقِ والمغاربِ بالقسَمِ بربِّها رَعْيٌ لمُناسَبةِ طُلوعِ الشَّمسِ بعْدَ غُروبِها؛ لتَمثيلِ الإحياءِ بعْدَ الموتِ[٤].

- وقولُه: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ يَحتمِلُ مَعنيينِ؛ أوَّلُهما: أنْ يكونَ المعْنى: على أنْ نُبدِّلَهم خيرًا منهم، أي: نُبدِّلَ ذَواتِهم خلْقًا خيرًا مِن خلْقِهم الَّذي هم عليه اليومَ. والخيريَّةُ في الإتقانِ والسُّرعةِ ونحْوِهما، وإنَّما كان خلْقًا أتقَنَ مِن النَّشأةِ الأُولى؛ لأنَّه خلْقٌ مُناسِبٌ لعالَمِ الخُلودِ، وكان الخلْقُ الأوَّلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُناسِبًا لعالَم التَّغيُّرِ والفَناءِ، وعلى هذا الوجْهِ يكونُ ﴿نُبَدِّلَ﴾ مُضمَّنًا معْنى: نُعوِّضُ، ويكونُ المفعولُ الأوَّلُ لـ﴿نُبَدِّلَ﴾ ضَميرًا مِثلَ ضَميرِ ﴿مِّنْهُمْ﴾، أي: نُبدِّلَهم، والمفعولُ الثَّاني ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، و(مِن) تَفضيليَّةً، أي: خيرًا في الخِلْقةِ، والتَّفضيلُ باعتبارِ اختلافِ زَمانَيِ الخلْقِ الأوَّلِ والخلْقِ الثَّاني، أو اختلافِ عالَمَيْهما. والمعْنى الثَّاني: أنْ نُبدِّلَ هؤلاء بخَيرٍ منهم، أي: بأُمَّةٍ خيرٍ منهم، والخيريَّةُ في الإيمانِ، فيكونُ (نُبدِّل) على أصلِ معْناهُ، ويكونُ مفعولُه مَحذوفًا مِثلَ ما في المعْنى الأوَّلِ، ويكونُ ﴿خَيْرًا﴾ مَنصوبًا على نَزْعِ الخافضِ، وهو باءُ البَدليَّةِ، ويكونُ هذا تَهديدًا لهم بأنْ سيَستَأْصِلَهم، ويأتِيَ بقومٍ آخَرينَ، وفي هذا تَثبيتٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَذكيرٌ بأنَّ اللهَ عالِمٌ بحالِهم[1].

- قولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ تَذييلٌ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ تَفريعٌ على ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ [المعارج: ٣٦] مِن إرادتِهم بفِعلِهم ذلك وقولِهم: إنَّنا نَدخُلُ الجنَّةَ، الاستهزاءَ بالقُرآنِ والنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وبعْدَ إبطالِه إجْمالًا وتَفصيلًا فُرِّعَ عن ذلك أمْرُ اللهِ رسولَه بتَرْكِهم؛ للعِلمِ بأنَّهم لم يُجْدِ فيهم الهدْيُ والاستِدلالُ، وأنَّهم مُصِرُّون على العِنادِ والمُناوأةِ[3].

- ومعْنى الأمْرِ بالتَّركِ في قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أنَّه أمْرٌ بتَرْكِ ما أهمَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن عِنادِهم وإصرارِهم على الكُفْرِ معَ وُضوحِ الحُجَجِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨١).

إثباتِ البعثِ، ولَمَّا كان أكبَرُ أسبابِ إعراضِهم وإصرارِهم على كُفْرِهم هو خَوضَهم ولَعِبَهم؛ كُنِّيَ به عن الإعراضِ بقولِه: ﴿يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾[١].

- وتَعديةُ فِعلِ (ذَرْ) إلى ضَميرِهم مِن قَبيلِ تَوجُّهِ الفِعلِ إلى الذَّاتِ، والمرادُ تَوجُّهُه إلى بَعضِ أحوالِها الَّتي لها اختصاصٌ بذلك الفِعلِ، وقد يُتوسَّلُ مِن الأمْرِ بالتَّركِ إلى الكِنايةِ عن التَّحقيرِ، وقِلَّةِ الاكتِراثِ، وما في هذه الآيةِ مِن ذلك الأُسلوبِ، أي: لا تَكترِثْ بهم؛ فإنَّهم دونَ أنْ تَصرِفَ هِمَّتَك في شأْنِهم[٢].

- وجُزِمَ ﴿يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾ في جَوابِ الأمْرِ للمُبالَغةِ في ارتباطِ خَوضِهم ولَعِبِهم بقِلَّةِ الاكتراثِ بهم؛ إذْ مُقْتضى جَزْمِه في الجوابِ أنْ يُقدَّرَ: إنْ تَذَرْهم يَخوضوا ويَلْعَبوا، أي: يَستمِرُّوا في خَوضِهم ولَعِبِهم، وذلك لا يَضِيرُك[٣].

- و(حتَّى) مُتعلِّقةٌ بـ(ذَرْهُم) لِما فيه مِن معْنى: أمْهِلْهم وانتظِرْهم؛ فإنَّ اليومَ الَّذي وُعِدوه هو يومُ النُّشورِ حينَ يُجازَون على استهزائِهم وكُفْرِهم، فلا يكونُ غايةً لـ﴿يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾، والغايةُ هنا كِنايةٌ عن دَوامِ تَرْكِهم[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾

- لَفظُ ﴿يُوفِضُونَ﴾ مُضارِعُ (أوفَضَ)؛ إذا أسرَعَ وعَدَا في سَيرِه، أي: كأنَّهم ذاهِبون إلى صَنَمٍ، شُبِّه إسراعُهم يومَ القِيامةِ إلى الحشرِ بإسراعِهم في الدُّنيا إلى الأصنامِ لزِيارتِها؛ لأنَّ لهذا الإسراعِ اختصاصًا بهم، وفي هذا التَّشبيهِ إدماجٌ[٥] لتَفظيعِ حالِهم في عِبادةِ الأصنامِ، وإيماءٌ إلى أنَّ إسراعَهم يومَ القيامةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨١، ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨٣).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

إسراعُ دَعٍّ ودفْعٍ؛ جَزاءً على إسراعِهم للأصنامِ[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ وُصِفَتْ أبصارُهم بالخُشوعِ معَ أنَّه وَصْفُ الكلِّ؛ لغايةِ ظُهورِ آثارِه فيها[٢].

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ فَذْلَكةٌ[٣] لِما تَضمَّنتْه السُّورةُ في أوَّلِ أغراضِها مِن قولِه: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج: ١] إلى قولِه: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ الآياتِ [المعارج: ١- ٤]، وهي مُفيدةٌ معَ ذلك تأْكيدَ جُملةِ ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢]. وفيها مُحسِّنُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٤).

رَدُّ العَجُز على الصَّدرِ تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٠١).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ نوحٍ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ نوحٍ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (نوحٍ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ (نوح) مكِّيَّةٌ، ونقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

ضَرْبُ المَثَلِ للمشركينَ بقَومِ نُوحٍ، وهمْ أوَّلُ المشركينَ[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- ذِكرُ دَعوةِ نوحٍ عليه السَّلامُ قومَه وما قالَه لهم.

٢- ذِكرُ الطُّرقِ الَّتي سَلَكَها نوحٌ عليه السَّلامُ مع قَومِه في دَعوتِهم؛ كالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، وتَذكيرِهم بخَلْقِهم، ودَعوتِهم إلى التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ في نِعَمِ اللهِ عليهم، والاستِدلالِ ببَدائعِ صُنْعِ اللهِ تَعالى، والتَّذكيرِ بيَومِ البعْثِ.

---

(١) سُمِّيت السُّورةُ بذلك؛ لذِكرِ نُوحٍ عليه السَّلامُ في مُفتتَحِها ومُختتَمِها، وذِكرِ قصَّتِه مع قَومِه، ودَعْوتِه لهم. ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٢).
قال السعديُّ: (لم يَذكُرِ اللهُ في هذه السُّورةِ سِوى قصَّةِ نوحٍ وحْدَها؛ لطُولِ لُبْثِه في قَومِه، وتَكرارِ دَعوتِه إلى التَّوحيدِ، ونَهْيِه عن الشِّركِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٥).

٣- بَيانُ مَوقفِ قومِ نوحٍ عليه السَّلامُ مِن دَعوتِه، وتَصميمِهم على عِصيانِه، وتَمسُّكِهم بشِرْكِهم، وعِقابِهم في الدُّنيا والآخِرةِ.

٤- دُعاءُ نُوحٍ عليه السَّلامُ على قَومِه بالاستِئصالِ.

٥- دُعاءُ نُوحٍ عليه السَّلامُ بالمغفرةِ له ولِوالِدَيه وللمؤمِنينَ، وبالتَّبَارِ للكافِرين.

الآيات (١-٤)

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿نَذِيرٞ﴾: أي: مُنذِرٌ مُخَوِّفٌ، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تخويفٍ[1].

﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي: مُعَيَّنٍ، مَعلومٍ سَمَّاهُ اللهُ للأعمارِ، والأجَلُ: غايةُ الوَقتِ، والمدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ في الموتِ وغَيرِه[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مخبرًا عن نبيِّه نوحٍ عليه السَّلامُ: إنَّا أرسَلْنا نوحًا إلى قَومِه المُشرِكينَ بأنْ حذِّرْ قَومَك مِنَ الاستِمرارِ على شِرْكِهم، مِن قبْلِ أن يأتيَهم عذابٌ أليمٌ.

ثمَّ يَحكي سُبحانَه بعْدَ ذلك ما قاله نوحٌ عليه السَّلامُ لقَومِه، فيقولُ: قال نوحٌ مُبَلِّغًا رِسالةَ رَبِّه: يا قَومِ، إنِّي نَذيرٌ لكم ظاهِرُ النِّذارةِ، آمُرُكم بعِبادةِ اللهِ وَحْدَه، وعَدَمِ الإشراكِ به شَيئًا، وآمُرُكم أن تتَّقُوه وتُطيعوني؛ فإنَّكم إنْ فعَلْتُم ذلك يَغفِرْ لكم مِن ذُنوبِكم، ولا يُعاجِلْكم بعذابِ الاستِئصالِ، وإنَّما يُعافيكم إلى منتَهَى آجالِكم المُقَدَّرةِ، إنْ آمَنْتُم وأطَعْتُم، إنَّ أجَلَ اللهِ الَّذي حَدَّده لِمَوتِ كُلِّ أحدٍ مِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠، ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣، ٤٠٦، ٤١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩ - ٥٠، ٨٨٢).

خَلْقِه: لا يُؤخَّرُ عن وَقتِه، لو كنتُم تَعلَمونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١﴾.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾.

أي: إنَّا أرسَلْنا نوحًا إلى قَومِه المُشرِكينَ بأنْ حذِّرْ قَومَك مِنَ الاستِمرارِ على شِرْكِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ٥٩].

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أي: مِن قبْلِ أن يأتيَهم عذابٌ مُؤلِمٌ في غايةِ الإيلامِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢)، ((الفواتح الإلهية)) لعلوان (٢/ ٤٤٦).

قال ابن عرفة: (﴿يَأۡتِيَهُمۡ﴾ ولم يقُلْ: يَنزِلَ بهم؛ إمَّا إشارةٌ إلى أنَّه يَقصِدُهم ويَنزِلُ بسَبَبِهم، أو أنَّه يأتيهم مِن كُلِّ الجهاتِ). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٩٣).

قال الماوَرْدي: (﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: يعني: عذابَ النَّارِ في الآخرةِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: عذابُ الدُّنيا، وهو ما يَنزِلُ عليهم بعْدَ ذلك مِن الطُّوفانِ، قاله الكلبيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٩٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالعَذابِ هنا: الطُّوفانُ الَّذي غرَّقَهم اللهُ تعالى به: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، وابن عطية، والخازن، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٢٢). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن رسالةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ ومَضمونِها، بما أعلَمَ مِن أنَّ الفَسادَ كان غالِبًا عليهم؛ بيَّنَ امتِثالَه[1].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾.

أي: قال نوحٌ مُمتَثِلًا ما أمَرَه اللهُ تعالى به: يا قَومِ، إنِّي نَذيرٌ لكم ظاهِرُ النِّذارةِ، أُخَوِّفُكم عذابَ اللهِ إن عبَدْتُم غيرَه، وأُبَيِّنُ لكم ما أرسَلَني اللهُ به[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥، ٢٦].

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان تَركُ ما أنذَرَهم بسَبَبِه مِنَ الكُفرِ لا يُغْنِيهم إلَّا إن آمَنوا، وكان الإيمانُ

= وممَّن اختار أنَّه عذابُ النَّارِ: الشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٥).

وقال العُلَيمي: (عذابُ الآخرةِ والطُّوفانُ إن لم يؤمِنوا). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

مُخلِّصًا مِن عواقِبِ الإنذارِ؛ لأنَّه لا يَصِحُّ إلَّا معَ تركِ جَميعِ أنواعِ الكُفرِ؛ فَسَّرَ الإنذارَ بقَولِه[1]:

﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: آمُرُكم بعبادةِ اللهِ وَحْدَه، وعَدَمِ الإشراكِ به شَيئًا[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾.

أي: وآمُرُكم بأن تَجعَلوا بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعِقابِه حاجِزًا يَقيكم ذلك؛ بامتِثالِ ما أمَرَ به، واجتِنابِ ما نهَى عنه، وآمُرُكم بطاعتي[3].

كما قال تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء: ١٠٦ - ١٠٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤].

﴿ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤ ﴾.

﴿ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ ﴾.

أي: فإنَّكم إنْ عَبَدْتُم اللهَ وَحْدَه واتَّقَيْتُموه وأطَعْتُموني، يَمْحُ مِن ذُنوبِكم فلا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٥).

يُؤاخِذْكم بها[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٢٢).

اختلَف المفَسِّرون في معنى ﴿مِن﴾؛ فقيل: هي صِلةٌ للتَّأكيدِ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والواحديُّ. وضَعَّفَ هذا القولَ: مكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ كثيرٍ؛ لأنَّ زيادتَها في غيرِ النَّفيِ قليلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٥)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٧٧٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١).

وقيل: هي بمعنى: عن. وهو ظاهرُ اختيارِ الفرَّاءِ، وذهب إليه: ابنُ جريرٍ، ومكِّيٌّ. والمعنى: يَصفَحْ لكم عن ذُنوبِكم. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٩)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٧٧٢٩).

قال ابن عطيَّة: (وهذا غيرُ معروفٍ في أحكامِ «مِن»). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢).

وقيل: هي لبيانِ الجنسِ، واختاره القُشَيْريُّ، وردَّه الزَّجَّاجُ، وضعَّفه مكيُّ بنُ أبي طالبٍ، والقُرطبيُّ؛ لكَونِه لم يَتقدَّمْ جِنسٌ يليقُ به بحيث تُبَيِّنُه «مِن» بما بَعْدَه. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٦٣٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٢٨)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٧٧٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّها للتَّبعيضِ: ابنُ عطيَّة، وصحَّحه ابنُ جُزَي، واختاره أبو حيَّانَ، والشَّوكانيُّ، والمعنى: يَغفِرْ لكم ذُنوبَكم الماضيةَ قبْلَ الإسلامِ؛ فهي بعضُ ذُنوبِهم، ولم يَضمَنِ اللهُ لهم مغفرةَ ذُنوبِهم المتأخِّرةِ بعْدَ إسلامِهم؛ فهي تحتَ مشيئةِ اللهِ تعالى. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٦).

وقيل: المرادُ بالبعضِ: ما لا يتعلَّقُ بحُقوقِ العبادِ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٦).

وقيل: المعنى على ذلك القولِ: يَغفِرْ لكم الذُّنوبَ العِظامَ الَّتي وَعَدكم على ارتِكابِكم إيَّاها الانتِقامَ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١).

قال ابن كثير: (و«مِن» هاهنا قيل: إنَّها زائدةٌ. ولكنَّ القولَ بزيادتِها في الإثباتِ قليلٌ. ومنه قولُ بعضِ العربِ: «قد كان مِن مَطَرٍ». وقيل: إنَّها بمعنَى «عن» تقديرُه: يَصْفَحْ لكم عن ذُنوبِكم، واختارَه ابنُ جريرٍ. وقيل: إنَّها للتَّبعيضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١).

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: ولا يُعاجِلْكم اللهُ تعالى بعذابِ الاستِئصالِ الَّذي تَستَحِقُّونَه؛ بسَبَبِ شِرْكِكم، وإنَّما يُعافيكم إلى منتَهَى آجالِكم المُقدَّرةِ، إن آمَنْتُم وأطَعْتُم(١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ الأجَلَ الَّذي كتَبَه اللهُ لِمَوتِ كُلِّ أحدٍ مِن خَلْقِه: لا يُؤخَّرُ عن وَقتِه، فلو كنتُم تَعلَمونَ ذلك لَتُبْتُم إلى اللهِ سُبحانَه مِمَّا أنتم عليه مِنَ الشِّركِ به(٢).

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٢).

وقال البِقاعي: (﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: قدْ سمَّاه اللهُ وعَلِمه قبْلَ إيجادِكم، فلا يُزادُ فيه ولا يُنقَصُ منه، فيكونُ مَوتُكم على العادةِ مُتفرِّقًا، وإلَّا أخَذَكم جَميعًا بعَذابِ الاستئصالِ. فهذا مِن عِلمِ ما لا يكونُ لو كان كيف يكونُ؛ وذلك أنَّه عَلِم أنَّهم إنْ أطاعوا نُوحًا عليه السَّلامُ كان مَوتُهم على العادةِ، وإلَّا هَلَكوا هَلاكَ نفْسٍ واحدةٍ، وعَلِم أنَّهم لا يُطِيعونه، وأنَّ مَوتَهم إنَّما يكونُ بعَذابِ الاستئصالِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٢٨، ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١).

قال الواحدي: (﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ يقولُ: آمِنوا قبْلَ الموتِ تَسْلَموا مِن العُقوباتِ؛ فإنَّ أجَلَ الموتِ إذا حَلَّ لم يُؤخَّرْ، فلا يُمكِنُكم الإيمانُ إذا جاء الأجَلُ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٥٦).

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هذا وعدٌ بخَيرٍ دُنْيويٍّ يَستوي النَّاسُ في رغبتِه، وهو طولُ البَقاءِ؛ فإنَّه مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ؛ لأنَّ في جِبِلَّةِ الإنسانِ حُبَّ البقاءِ في الحياةِ، على ما في الحياةِ مِن عوارِضَ ومُكَدِّراتٍ، وهذا ناموسٌ جعَلَه اللهُ تعالى في جبِلَّةِ الإنسانِ؛ لتَجريَ أعمالُ النَّاسِ على ما يُعِينُ على حِفظِ النَّوعِ[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه سؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟

الجوابُ: الغَرَضُ: الزَّجرُ عن حُبِّ الدُّنيا، وعن التَّهالُكِ عليها، والإعراضِ عن الدِّين بسبَبِ حُبِّها، يعني: أنَّ غُلُوَّهم في حُبِّ الدُّنيا، وطَلَبِ لذَّاتِها بَلَغ إلى حيثُ يدُلُّ على أنَّهم شاكُّونَ في المَوتِ[(٢)]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ رِسالةُ نُوحٍ عليه السَّلامُ مَقصورةٌ على قَومِه، ومَن قال بعُمومِها فهي للإنسِ فقطْ، وأمَّا الرِّسالةُ العامَّةُ فخاصَّةٌ بنبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والفرْقُ بيْنَهما أيضًا: أنَّ رِسالةَ نُوحٍ عليه السَّلامُ أتَتْ لجَميعِ أهْلِ زَمانِه دونَ مَن بَعْدَهم، ونبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا تَزالُ شَريعتُه ورِسالتُه إلى يومِ قِيامِ السَّاعةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٩٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ ذِكْرُ نوعِ الإرسالِ الدِّينيِّ، ويُقابِلُه الإرسالُ الكَونيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾[1] [مريم: ٨٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ أنَّ أعمالَ المُشرِكينَ كانت ذُنوبًا قَبْلَ إنذارِ الرُّسُلِ إيَّاهم[2].

٤- إن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾، فإن كان المرادُ به تأخيرَهم عن الأجَلِ المُقدَّرِ لهم في الأزَلِ فهو مُحالٌ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، وإن كان المرادُ به تأخيرَهم إلى مجيءِ الأجَلِ المُقدَّرِ لهم في الأزَلِ فما فائدةُ تخصيصِهم بهذا وهُم وغيرُهم في ذلك سَواءٌ، على تقديرِ وُجودِ الإيمانِ منهم وعدمِ وُجودِه؟

والجوابُ: أنَّ معناه: ويُؤَخِّرْكم عن العذابِ إلى مُنتهى آجالِكم على تقديرِ الإيمانِ، فلا يُعذِّبْكم في الدُّنيا كما عذَّب غيرَكم مِن الأُمَمِ الكافرةِ.

وقيل: إنَّه سُبحانَه قضى أنَّهم إن آمَنوا عمَّرَهم ألْفَ سَنةٍ، وإن لم يؤمِنوا أهلَكهم بالعذابِ لتَمامِ خَمْسِمِئةِ سَنةٍ، فقيل لهم: آمِنوا يؤَخِّرْكم إلى ذلك الأجَلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٦٧٩).

(٣) يُنظر: ((أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل)) لزين الدين الرازي (ص: ٥٤٠). قال الكوراني: (﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ والتَّوفيقُ بينَه وبينَ تأخيرِ الأجلِ: أنَّ القضاءَ مُعلَّقٌ ومُبرَمٌ، فالتَّأخيرُ بالنَّظرِ إلى الأوَّلِ، وعدمُه بالنَّظرِ إلى الثَّاني. أي: لو آمَنوا عاشوا كذا، وإنْ لم يُؤمِنوا فكذا). ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٣٦). =

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قد يَستَدِلُّ بهذه الآيةِ مَن يَقولُ: إنَّ البِرَّ وصِلةَ الرَّحِمِ: يُزادُ بها في العُمُرِ حقيقةً، كما ورَد به الحديثُ[(١)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ فيما يَزعُمونَ: أنَّ المقتولَ ميِّتٌ بغيرِ أَجَلِه! فالأَجَلُ المُؤَجَّلُ مِن الموتِ لا تَقَدُّمَ فيه ولا تأخُّرَ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ

= وقال ابن عاشور: (لا تعارُضَ بيْنَ قَولِه: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وبيْن قَولِه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾؛ إمَّا لاختِلافِ المرادِ بلَفظَيِ «الأجَلِ» في قَولِه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وقَولِه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، وإمَّا لاختلافِ معنَيَيِ المجيءِ ومَعنَيَيِ التَّأخيرِ في قَولِه: ﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾؛ فانفَكَّت جِهةُ التَّعارُضِ). يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١).

قال القَصَّاب: (معناه: تَزيدُ في الأجَلِ الَّذي أُجِّل بغيرِ صِلهِ الرَّحمِ، كأنَّه قد سبَق في القضاءِ أن يُوهبَ لواصِلي الأرحامِ عُمُرًا يكونُ زيادةً في أعمارِهم). ((النكت الدالة على البيان)) (٤/ ٤٠٩).

وقد أخرج البخاريُّ (٢٠٦٧)، ومسلمٌ (٢٥٥٧) مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن سرَّه أن يُبسَطَ له في رِزْقِه، أو يُنْسَأَ له في أثَرِه، فلْيَصِلْ رَحِمَه)).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٠٩).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (وقولُه تَعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ممَّا تَعلَّقَ المعتزلةُ به في قولِهم: إنَّ للإنسانِ أجَلَين؛ وذلك أنَّهم قالوا: لو كان واحدًا مَحدودًا لَما صحَّ التَّأخيرُ إنْ كان الحدُّ قدْ بَلَغ، ولا المُعاجَلةُ إنْ كان الحدُّ لم يَبلُغْ. وليس لهم في الآيةِ تَعلُّقٌ؛ لأنَّ المعنى: أنَّ نُوحًا عليه السَّلامُ لم يَعلَمْ هلْ همْ ممَّن يُؤخَّرُ أو ممَّن يُعاجَلُ؟ ولا قال لهم: إنَّكم تُؤخَّرون عن أجَلٍ قد حانَ لكم، لكنْ قد سَبَق في الأزَلِ أنَّهم إمَّا ممَّن قُضِيَ لهم بالإيمانِ والتَّأخيرِ، وإمَّا ممَّن قُضِيَ عليه بالكفْرِ والمعاجَلةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٣).

أَلِيمٌ﴾

- افتتاحُ الكلامِ بالتَّوكيدِ بـ (إنَّ) للاهتمامِ بالخبَرِ؛ إذ ليس المَقامُ لرَدِّ إنكارِ مُنكِرٍ، ولا دفْعِ شَكٍّ عن مُتردِّدٍ في هذا الكلامِ[١].

- وإضافةُ (قوم) إلى ضَميرِ نُوحٍ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه أُرسِلَ إليهم، فلَهم مَزيدُ اختصاصٍ به، ولأنَّه واحدٌ منهم، وهمْ بيْن أبناءٍ له وأنسباءَ، فإضافتُهم إلى ضَميرِه تَعريفٌ لهم؛ إذ لم يكُنْ لهم اسمٌ خاصٌّ مِن أسماءِ الأُمَمِ الواقعةِ مِن بعْدُ[٢].

- وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ له: (أنذِرِ النَّاسَ) إلى قولِه: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾؛ إلْهابًا لنفْسِ نُوحٍ؛ ليكونَ شَديدَ الحرْصِ على ما فيه نَجاتُهم مِن العذابِ؛ فإنَّ فيهم أبناءَه وقَرابتَه وأحبَّتَه[٣].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ فِعلِ ﴿أَنذِرْ﴾؛ لدَلالةِ ما يأْتي بعْدَه مِن قولِه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[٤] [نوح: ٣].

- وحرْفُ (مِن) صِلةٌ للتَّوكيدِ، أي: قبْلَ أنْ يَأتِيَهم عَذابٌ، فهي قبْليَّةٌ مُؤكَّدةٌ، وتأْكيدُها باعتبارِ تَحقيقِ ما أُضِيفَ إليه (قبْل)[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

- لم تُعطَفْ جُملةُ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ بالفاءِ التَّفريعيَّةِ على جُملةِ ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قَوۡمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١]؛ لأنَّها في معْنى البَيانِ لجُملةِ ﴿أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾ [نوح: ١]؛ لدَلالتِها على أنَّه أنذَرَ قَومَه بما أمَرَه اللهُ أنْ يَقولَه لهم، وإنَّما أُدمِجَ فيه فِعلُ قَولِ نوحٍ؛ للدَّلالةِ على أنَّه أُمِرَ أنْ يقولَ فقال، تَنْبيهًا على مُبادَرةِ نوحٍ عليه السَّلامُ لإنذارِ قَومِه في حِينِ بُلوغِ الوحْيِ إليه مِن اللهِ بأنْ يُنذِرَ قَومَه. ولك أنْ تَجعَلَها استئنافًا بَيانيًّا لجوابِ سُؤالِ السَّامعِ أنْ يَسألَ: ماذا فَعَلَ نوحٌ حينَ أرسَلَ اللهُ إليه ﴿أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾؟ وهما مُتقارِبانِ[١].

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ افتتاحُ دَعوتِه قَومَه بالنِّداءِ؛ لطَلَبِ إقبالِ أذْهانِهم. ونِداؤُهم بعُنوانِ أنَّهم قَومُه تَمهيدٌ لقَبولِ نُصْحِه؛ إذ لا يُريدُ الرَّجلُ لقَومِه إلَّا ما يُريدُ لنفْسِه. وتَصديرُ دَعوتِه بحرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لأنَّ المخاطَبينَ يَتردَّدونَ في الخبَرِ[٢].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿نَذِيرٞ﴾؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ عليه، والتَّقديرُ: إنِّي لكم نَذيرٌ بعَذابٍ أليمٍ إنْ لم تَعبُدوا اللهَ ولم تتَّقُوه ولم تُطِيعوني[٣].

- وتَقديمُ ﴿لَكُمۡ﴾ على عامِلِه -وهو ﴿نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾-؛ للاهتِمامِ بتَقديمِ ما دلَّت عليه اللَّامُ مِن كَونِ النِّذارةِ لفائدتِهم لا لِفائدتِه[٤].

- وقدْ جمَعَ في صَدْرِ دَعوتِه خَمسةَ مُؤكِّداتٍ؛ وهي: النِّداءُ، وجَعْلُ المُنادى لَفظَ (يا قومِ) المُضافَ إلى ضَميرِه، وافتتاحُ كَلامِه بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٧، ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واجتلابُ لامِ التَّعليلِ، وتَقديمُ مَجرورِها[١].

- وأمَرَهم بعِبادةِ اللهِ؛ لأنَّهم أعْرَضوا عنها ونَسُوها بالتَّمحُّضِ لأصنامِهم، وكان قومُ نوحٍ مُشرِكين، كما دلَّ عليه قولُه تَعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ [يونس: ٧١]، وبذلك كان تَمثيلُ حالِ المشركين مِن العرَبِ بحالِ قومِ نُوحٍ تَمثيلًا تامًّا[٢].

- قولُه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ قيل: حرْفُ (مِنْ) صِلةٌ للتَّوكيدِ، وهذا مِن زيادةِ (مِن) في الإيجابِ، فيُفيدُ أنَّ الإيمانَ يَجُبُّ ما قبْلَه في شَريعةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ مِثلَ شَريعةِ الإسلامِ. ويجوزُ أنْ تكونَ (مِنْ) للتَّبعيضِ، أي: يَغفِرْ لكم بعضَ ذُنوبِكم، أي: ذُنوبَ الإشراكِ وما معه، فيَكون الإيمانُ في شرْعِ نُوحٍ عليه السَّلامُ لا يَقْتضي مَغفرةَ جَميعِ الذُّنوبِ السَّابقةِ، وليس يَلزَمُ تَماثُلُ الشَّرائعِ في جَميعِ الأحكامِ الفرعيَّةِ، ومَغفرةُ الذُّنوبِ مِن تَفاريعِ الدِّينِ وليست مِن أُصولِه، أو معْنى التَّبعيضِ: مَغفرةُ الذُّنوبِ السَّابقةِ دونَ ما يُذنِبون مِن بعْدُ. وهذا يَتِمُّ ويَحسُنُ إذا قدَّرنا أنَّ شَريعةَ نوحٍ عليه السَّلامُ تَشتمِلُ على أوامرَ ومَنهيَّاتٍ عمَليَّةٍ، فيَكونُ ذِكرُ (مِن) التَّبعيضيَّةِ اقتصادًا في الكلامِ بالقدْرِ المُحقَّقِ، أو هي لابتداءِ الغايةِ، كأنَّه يقولُ: يَبتدِئُ الغُفرانُ مِن هذه الذُّنوبِ العِظامِ الَّتي لهم[٣].

- قولُه: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾، الأجلُ المُسمَّى: هو الأجَلُ المُعيَّنُ بتَقديرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٢).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٣٧).

اللهِ عِندَ خَلْقِه كلَّ أحدٍ منهم؛ فالتَّنوينُ في ﴿أَجَلٍ﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: الجنسِ، وهو صادقٌ على آجالٍ مُتعدِّدةٍ بعدَدِ أصحابِها، ومعْنى ﴿مُّسَمًّى﴾ أنَّه مُحدَّدٌ مُعيَّنٌ، وعُبِّرَ عن التَّعيينِ بالتَّسميةِ؛ لشَبَهِ عَدَمِ الاختلاطِ بيْنَ أصحابِ الآجالِ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ يَحتمِلُ أنْ تكونَ الجُملةُ استِئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن تَحديدِ غايةِ تأْخيرِهم إلى أجَلٍ مُسمًّى، أي: دونَ تأْخيرِهم تأخيرًا مُستمِرًّا، فيَسألُ السَّامعُ في نفْسِه عن عِلَّةِ تَنْهيةِ تأخيرِهم بأجَلٍ آخَرَ، فيكونَ ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ غيرَ الأجَلِ الَّذي في قولِه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ تَعليلًا لِكِلا الأجَلَينِ: الأجَلِ المُفادِ مِن قولِه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [نوح: ١]؛ فإنَّ لَفظَ (قبْل) يُؤذِنُ بأنَّ العذابَ مُوقَّتٌ بوقْتٍ غيرِ بَعيدٍ، فله أجَلٌ مُبهَمٌ غيرُ بعيدٍ، والأجَلِ المذكورِ بقولِه: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾، فيَكونَ ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ صادقًا على الأجَلِ المُسمَّى، وهو أجَلُ كلِّ نفْسٍ مِن القومِ، وقيل غيرُ ذلك[2].

- قوله: ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أضاف الأجَلَ إليه سُبحانَه؛ لأنَّه الَّذي أثبَتَه، فالإضافةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٠، ١٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٢٣).

قال أبو السعود: (﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما قدَّرَ لكُم على تقديرِ بقائِكم على الكُفرِ... ويجوزُ أن يُرادَ بهِ وقْتُ إتْيانِ العذابِ المذكورِ في قولِه تعالَى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ فإنَّه أجَلٌ مُؤقَّتٌ له حَتْمًا، وحمْلُه على الأجَلِ الأطولِ ممَّا لا يُساعدُه المَقامُ، كيفَ لا والجُملةُ تَعليلٌ للأمرِ بالعِبادةِ المُستتبِعةِ للمَغفرةِ والتأْخيرِ إلى الأجَلِ المسمَّى، فلا بُدَّ أنْ يكونَ المَنفيُّ عندَ مَجيءِ الأجَلِ هو التَّأخيرَ الموعودَ، فكيفَ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ ما فُرِضَ مَجيئُه هو الأجلُ المسمَّى؟!). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٧).

إضافةُ كشْفٍ، أي: الأجَلُ الَّذي عيَّنه اللهُ وقدَّره لكلِّ أحدٍ. وقد يُضافُ إلى القَومِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾[النحل: ٦١]؛ لأنَّه مَضروبٌ لهم[(١)].

- وفي مجيءِ فِعلِ ﴿كُنتُمۡ﴾ قبْلَ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ إيذانٌ بأنَّ عِلمَهم بذلك المنتفيَ -لوُقوعِه شَرْطًا لحرْفِ (لو)- مُحقَّقٌ انتفاؤُه[(٢)].

- وجَوابُ (لو) مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾، والتَّقديرُ: لَأيقنْتُم أنَّه لا يُؤخَّرُ، أو لآمَنْتُم. وأيضًا حُذِفَ مَفعولُ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾، أي: لو كُنتُم تَعلَمون ذلك[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٠، ١٩١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٣).

الآيات (٥-١٢)

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ
لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾
ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ
إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ
وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾: أي: تغطَّوْا بها، وجَعَلوها غِشاوةً على أسماعِهم وأبصارِهم، وذلك عبارةٌ عن الامتِناعِ عن الإصغاءِ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[(١)].

﴿مِّدْرَارًا﴾: أي: مُتتابِعًا غَزيرًا، والدَّرُّ: تحلُّبُ الشَّيءِ حالًا بعدَ حالٍ، وأصلُه مِنَ الدَّرِّ، أي: اللَّبَنِ، ويُستعارُ ذلك للمَطَرِ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يَحكي الله تعالى شكوى نوحٍ -عليه السَّلامُ- إليه مِن إعراضِ قومِه، فيقولُ: قال نوحٌ: رَبِّ إنِّي دَعَوتُ قَومي لَيلًا ونهارًا إلى توحيدِك، فلم يَزِدْهم دُعائي لهم إلَّا هَرَبًا وإعراضًا! وإنِّي كُلَّما دَعوتُهم إلى الإيمانِ بك لكي تَغفِرَ لهم ذُنوبَهم،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

جَعَلوا أصابعَهم في آذانِهم؛ كي لا يَسمَعوا كَلامي، وتغَطَّوا بثِيابِهم؛ لئَلَّا يَرَوني، واستَمَرُّوا على شِرْكِهم ولم يَتوبوا، وتكبَّروا عن قَبولِ الحقِّ.

ثمَّ يذكرُ اللهُ تعالى ما أخبَر به نوحٌ عليه السَّلامُ عن طُرقِه في دعوةِ قَومِه، وتوجيهاتِه ونصائحِه لهم، فيقولُ: ثمَّ إنِّي دَعَوتُ قَومي إلى الحَقِّ مجاهرًا، ثمَّ إنِّي أظهَرتُ دَعوتي لهم ونشَرْتُها بيْنَهم، ودَعَوتُهم سِرًّا فيما بيْني وبيْنَهم، فقُلْتُ لهم: استَغفِروا رَبَّكم؛ إنَّه سُبحانَه متَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بكَمالِ المَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه؛ فإنَّكم إنِ استَغْفَرتُم رَبَّكم يُرسِلْ عليكم أمطارًا مُتتابِعةً مُتواصِلةً، ويُعْطِكم أموالًا وأبناءً، ويجعَلْ لكم في الدُّنيا بَساتينَ فيها أنواعُ الثِّمارِ، ويَجعَلْ لكم أنهارًا جارِيةً.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾.

أي: قال نوحٌ مُشتَكِيًا إلى رَبِّه طُغيانَ قَومِه: رَبِّ إنِّي دَعَوتُ قَومي في اللَّيلِ والنَّهارِ إلى توحيدِك، وحذَّرْتُهم مِنَ الشِّركِ بك ومَعصيتِك[1].

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾.

أي: فلم يَزِدْهم دُعائي لهم إلى الحقِّ ليتَّبِعوه إلَّا هَرَبًا منه، وإعراضًا عنه[2]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٤).

وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾.

أي: وإنِّي كُلَّما دَعوتُهم إلى سَبَبِ المَغفِرةِ -وهو الإيمانُ بك، وتوحيدُك وطاعتُك- لِتَمحوَ بذلك ذُنوبَهم، وتتجاوَزَ عن مؤاخَذتِهم بها؛ جَعَلوا أصابِعَهم في آذانِهم، فسَدُّوها؛ كي لا يَسمَعوا كَلامي[١].

﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾.

أي: وتغَطَّوا بثِيابِهم لئَلَّا يَرَوني؛ مُبالَغةً منهم في الإعراضِ عَنِّي[٢].

﴿وَأَصَرُّواْ﴾.

أي: واستَمَرُّوا على شِرْكِهم ولم يَتوبوا[٣].

﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾.

أي: وتعاظَموا وتكبَّروا عن قَبولِ الحقِّ، وعن اتِّباعِه[٤].

كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣١، ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قال الشوكاني: (وقيل: جَعلوا ثيابَهم على رؤوسِهم لئلَّا يَسْمَعوا كلامي، فيَكونُ استِغشاءُ الثِّيابِ على هذا زيادةً في سَدِّ الآذانِ. وقيلَ: هو كنايةٌ عن العداوةِ، يُقالُ: لَبِس فُلانٌ ثيابَ العداوةِ. وقيل: استَغشَوْا ثيابَهم؛ لئلَّا يَعْرِفَهم فيَدْعُوهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ [هود: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١].

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ نُوحًا عليه السَّلامُ ارتقى في شَكواه واعتِذارِه بأنَّ دَعوتَه كانت مختَلِفةَ الحالاتِ في القَولِ؛ مِن جَهرٍ وإسرارٍ[١].

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ﴾.

أي: ثمَّ إنِّي دَعَوتُ قَومي إلى الحَقِّ بمَسمَعٍ منهم، مجاهِرًا بالدَّعوةِ[٢].

﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ ﴾.

أي: ثمَّ إنِّي أظهَرتُ دَعوتي لهم، وأشَعْتُها ونشَرْتُها بيْنَهم[٣].

﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾.

أي: ودَعَوتُهم سِرًّا فيما بيْني وبيْنَهم في الخَفاءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٥، ٤٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ نوحٌ عليه السَّلامُ أنَّه بالَغَ في الدَّعوةِ إلى حَدٍّ لا مَزيدَ عليه، فلم يَدَعْ مِنَ الأوقاتِ ولا مِن الأحوالِ شَيئًا؛ سَبَّبَ عنه بيانَ ما قال في دَعوتِه، وهو التَّسَبُّبُ في السَّعادةِ كُلِّها بدَفعِ المَضارِّ، وجَلبِ المسارِّ[(١)].

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾.

أي: فقُلْتُ لهم: اطلُبوا مِن رَبِّكم أن يَغفِرَ لكم ذُنوبَكم، فيَمحوَها عنكم، ويَتجاوَزَ عن مؤاخَذتِكم بها[(٢)].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ متَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بكَمالِ المَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه[(٣)].

= (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٦).

قال الماوَرْدي: (فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه دعاهم في وقتٍ سرًّا، وفي وقتٍ جهرًا. الثَّاني: دعا بعضَهم سرًّا، وبعضَهم جهرًا). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٠١).

وقال الزمخشري: (فإنْ قُلْتَ: ذَكَر أنَّه دعاهم لَيلًا ونَهارًا، ثمَّ دعاهم جِهارًا، ثمَّ دعاهم في السِّرِّ والعَلَنِ، فيَجِبُ أن تكونَ ثلاثَ دَعَواتٍ مُختَلِفاتٍ حتَّى يَصِحَّ العَطفُ. قلتُ: قد فَعَل عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كما يَفعَلُ الَّذي يأمُرُ بالمعروفِ ويَنهى عن المنكَرِ: في الابتداءِ بالأهوَنِ، والتَّرَقِّي في الأشَدِّ فالأشَدِّ؛ فافتَتَح بالمناصَحةِ في السِّرِّ، فلمَّا لم يَقبَلوا ثَنَّى بالمجاهَرةِ، فلمَّا لم تؤثِّرْ ثَلَّث بالجَمعِ بيْن الإسرارِ والإعلانِ. ومعنى ﴿ ثُمَّ ﴾ الدَّلالةُ على تباعُدِ الأحوالِ؛ لأنَّ الجِهارَ أغلَظُ من الإسرارِ، والجَمعَ بيْن الأمْرَينِ أغلَظُ مِن إفرادِ أحَدِهما). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٧، ٤٣٨)، =

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١﴾.

أي: فإنَّكم إنِ استَغْفَرْتُم رَبَّكم يُرسِلْ عليكم أمطارًا مُتتابِعةً مُتواصِلةً[1].

كما قال هودٌ عليه السَّلامُ لقومِه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: ٥٢].

﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾.

﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾.

أي: ويُعْطِكم رَبُّكم أموالًا وأبناءً، ويُكَثِّرْ ذلك لكم[2].

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾.

أي: ويجعَلْ لكم في الدُّنيا بساتينَ فيها أنواعُ الثِّمارِ[3].

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾.

أي: ويَجعَلْ لكم أنهارًا جارِيةً[4].

= ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٧).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وقال جَلَّ شأنُه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ جَمَع بيْنَ الجَهرِ والإسرارِ؛ لأنَّ الجَمعَ بيْنَ الحالتَينِ أقوى في الدَّعوةِ وأغلَظُ من إفرادِ إحداهما[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ حَثٌّ على الاستِغفارِ، وإشارةٌ إلى وُقوعِ المغفرةِ لِمَنِ استغفَرَ[(٢)].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الاستِغفارَ يُستَنزَلُ به الرِّزقُ والأمطارُ[(٣)]. ففيها استِحبابُ الاستِغفارِ عِندَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٧). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٢).

الجَدْبِ وضِيقِ الرِّزقِ، وأنَّه مَجلَبَةٌ له[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ دليلٌ على تكثيرِ الأولادِ بالعَمَلِ الصَّالحِ؛ لأنَّ نوحًا عليه السَّلامُ وَعَدَ قومَه على الاستِغفارِ إمدادًا بالبَنينَ[٢]، ولو أنَّ رجُلًا ممَّن لا يُولَدُ له اشْتَهَى أنْ يكونَ له ولدٌ فاستَغفَرَ محتَسِبًا مُستعطِفًا به أولادًا، لَوُلِدَ له، وإنْ كان مِئْنَاثًا[٣] فأَحَبَّ الذُّكورَ مِن الأولادِ لم يَعْدَمْهم؛ فإنَّ اللهَ صادقٌ في قَولِه، لا يُخْلِفُ ميعادَه[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ أنَّ مَن أراد أنْ تُرفَعَ عنه العقوبةُ فَلْيَتُبْ إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّ التَّوبةَ مِن أسبابِ رَفْعِ العُقوبةِ، وجَلْبِ المَثُوبةِ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ أنَّه لا بأسَ مِن مُلاحظةِ الأمورِ الدُّنيويَّةِ في الاستِقامةِ، وأنَّ مُلاحظتَها لا تَضُرُّه؛ فالرُّسُلُ يأمُرون أقوامَهم بالطَّاعةِ، ثُمَّ يَذكُرونَ المصالحَ الدُّنيويَّةَ، فقولُ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ هذه المصلحةُ الدِّينيَّةُ، و﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ هذه

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤١٦).

(٣) مِئناث -على وزن مِفْعال- مِن الأبنيةِ الدَّالَّةِ على الكثرةِ، يُقالُ: امرأةٌ مِذْكارٌ، إذا كانت تلِدُ الذُّكورَ، وكذلك «مِئناثٌ» في الإناثِ. يُنظر: ((الصاحبي)) لابن فارس (ص: ١٧٠).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٥٨).

مصلحةٌ دُنيويَّةٌ، ولولا أنَّ الإنسانَ لا يَضُرُّه إذا لاحظَها ما ذَكَرَها الرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ استُدِلَّ به على أنَّ اسمَ «القومِ» واقِعٌ على الرِّجالِ والنِّساءِ، وأنَّه لا يُفْرَدُ به الرِّجالُ إلَّا بإرادةِ ذلك وإضمارِه، لا أنَّه اسمٌ لا يَقَعُ إلَّا على الرِّجالِ فقط؛ لإحاطةِ أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ دَعَا الرِّجالَ والنِّساءَ إلى دِينِه(٢).

٢- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، جَعَل دَعوتَه مَظروفةً في زَمنَيِ اللَّيلِ والنَّهارِ؛ للدَّلالةِ على عدَمِ الهوادةِ في حِرْصِه على إرشادِهم، وأنَّه يَترصَّدُ الوقتَ الَّذي يَتوسَّمُ أنَّهم فيه أقرَبُ إلى فَهْمِ دَعوتِه منهم في غيرِه مِن أوقاتِ النَّشاطِ، وهي أوقاتُ النَّهارِ، ومِن أوقاتِ الهُدوِّ وراحةِ البالِ، وهي أوقاتُ اللَّيلِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (١/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤١٥).

قيل: القَوْمُ: الجماعةُ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ معًا؛ لأنَّ قَومَ كلِّ رجُلٍ شِيعَتُه وعَشِيرتُه، ولأنَّ في التَّنزيلِ: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ١١]، و﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ و﴿قَوْمَ هُودٍ﴾ و﴿قَوْمَ صَالِحٍ﴾ و﴿قَوْمُ لُوطٍ﴾ [هود: ٨٩]، وهو اسمٌ يَجمَعُ الرِّجالَ والنِّساءَ.

وقيل: القَومُ هم الرِّجالُ خاصَّةً، ولا يقعُ على النِّساءِ إلَّا على وجْهِ التَّبعِ، واستدَلُّوا بقولِه تعالَى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]؛ أي: رِجالٌ مِن رِجالٍ، ولا نِساءٌ مِن نِساءٍ، فلو كانت النِّساءُ مِن القَومِ لم يَقُلْ: ولا نِساءٌ مِن نِساءٍ. يُنظر: ((جمهرة اللغة)) لابن دُرَيْد (٢/ ٩٧٧، ٩٧٨)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٢٨٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ١٢٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ٥٠٥)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٣/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٤).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ يدُلُّ على أنَّ جميعَ الحوادِثِ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه؛ وذلك لأنَّا نرى إنسانَينِ يَسمَعانِ دَعوةَ الرَّسولِ في مجلِسٍ واحِدٍ بلَفظٍ واحِدٍ، فيَصيرُ ذلك الكلامُ في حَقِّ أحدِهما سَبَبًا لحُصولِ الهِدايةِ، والمَيلِ والرَّغبةِ، وفي حَقِّ الثَّاني سَبَبًا لِمَزيدِ العُتُوِّ والتَّكَبُّرِ، ونهايةِ النَّفرةِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ أنَّه سُبحانَه يُعَلِّلُ أحكامَه وأفعالَه بأسمائِه؛ فليست أسماؤُه ألفاظًا مُجَرَّدةً لا مَعانيَ لها! ولو لَمْ يكُنْ لها معنًى لَمَا كان التَّعليلُ صحيحًا[2]!

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾، فيه سؤالٌ: نوحٌ عليه السَّلامُ أمَر الكفَّارَ قبْلَ هذه الآيةِ بالعبادةِ والتَّقْوى والطَّاعةِ، فأيُّ فائدةٍ في أنْ أمَرهم بعدَ ذلك بالاستِغفارِ؟

الجوابُ: كأنَّهم لَمَّا أمَرَهم بالعبادةِ قالوا: إنْ كنَّا على حقٍّ فلا نَترُكُه، وإنْ كنَّا على باطلٍ، فكيف يَقبَلُنا ويَلطُفُ بنا مَن عَصَيْناهُ؟ فأمَرَهم بما يَجُبُّ مَعاصيَهم، ويَجلِبُ إليهم المِنَحَ، ولذلك وَعَدَهم عليه بما هو أوقَعُ في قُلوبِهم[3].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾، ولم يقُلْ: (إنَّه غَفَّارٌ)؟

الجوابُ: أنَّ المرادَ: أنَّه كان غَفَّارًا في حَقِّ كُلِّ مَن استَغفَروه، كأنَّه يقولُ: لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٠).

(٢) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٨).

تظُنُّوا أنَّ مَغفِرتَه إنَّما حَدَثَت الآنَ، بل هو أبدًا هكذا كان[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى يُجازي عِبادَه الصَّالِحينَ بطِيبِ العَيشِ؛ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[٢] [الجن: ١٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ جُرِّدَ فِعلُ (قال) مِن العاطفِ؛ لأنَّه حِكايةُ جَوابِ نوحٍ عن قولِ اللهِ له: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾، عُومِلَ مُعامَلةَ الجوابِ الَّذي يُتلقَّى به الأمْرُ على الفورِ على طَريقةِ المُحاوَراتِ؛ تَنبيهًا على مُبادَرةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ بإبلاغِ الرِّسالةِ إلى قَومِه، وتَمامِ حِرصِه في ذلك كما أفادَه قولُه: ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥]، وحُصولِ يأْسِه منهم، فجَعَل مُراجَعتَه ربَّه بعْدَ مُهلةٍ مُستفادةٍ مِن قولِه: ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ بمَنزلةِ المراجَعةِ في المقامِ الواحدِ بيْنَ المُتحاوِرَيْنِ. ولك أنْ تَجعَلَ جُملةَ ﴿قَالَ رَبِّ﴾ إلخ مُستأنَفةً استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ السَّامعَ يَترقَّبُ مَعرفةَ ماذا أجاب قومُ نُوحٍ دَعوتَه؟ فكان في هذه الجُملةِ بَيانُ ما يَترقَّبُه السَّامعُ مع زِيادةِ مُراجَعةِ نُوحٍ ربَّه تَعالى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٢).
ويُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٩٣).

- وهذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في لازِمِ معْناه، وهو الشِّكايةُ والتَّمهيدُ لطلَبِ النَّصرِ عليهم؛ لأنَّ المخاطَبَ به عالِمٌ بمَدلولِ الخبَرِ، وذلك ما سيُفْضي إليه بقولِه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآياتِ[(١)].

- وفائدةُ حِكايةِ ما ناجَى به نوحٌ ربَّه إظهارُ تَوكُّلِه على اللهِ، وانتصارُ اللهِ له، والإتيانُ على مُهِمَّاتٍ مِن العِبرةِ بقصَّتِه، بتَلوينٍ لحِكايةِ أقوالِه، وأقوالِ قَومِه، وقَولِ اللهِ له، وتلك ثَمانِ مَقالاتٍ؛ هي:

أ- ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ...﴾ إلخ [نوح: ١].

ب- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ...﴾ إلخ [نوح: ٢].

ج- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي ...﴾ إلخ [نوح: ٥].

د- ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ...﴾ إلخ [نوح: ١٠].

هـ- ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ...﴾ إلخ [نوح: ٢١].

و- ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ...﴾ إلخ [نوح: ٢٤].

ز- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ ...﴾ إلخ [نوح: ٢٦].

ح- ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي ...﴾ إلخ[(٢)] [نوح: ٢٨].

- قولُه: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ فيه تأْكيدٌ للمدْحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ، أو تأْكيدُ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه، وهو هنا تأْكيدُ إعراضِهم المُشبَّهِ بالابتعادِ بصُورةٍ تُشبِهُ ضِدَّ الإعراضِ، ولَمَّا كان فِرارُهم مِن التَّوحيدِ ثابتًا لهم مِن قبْلُ، كان قولُه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٩٣، ١٩٤).

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾ مِن تأْكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه[١].

- وتَصديرُ كلامِ نُوحٍ بالتَّأكيدِ؛ لإرادةِ الاهتِمامِ بالخبرِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ جاء بكَلمةِ (كلَّما) الدَّالَّةِ على شُمولِ كلِّ دَعوةٍ مِن دَعَواتِه مُقترِنةً بدَلائلِ الصَّدِّ عنها؛ لأنَّ المعنى: أنَّهم لم يُظهِروا مَخيلةً مِن الإصغاءِ إلى دَعوتِه، ولم يَتخلَّفوا عن الإعراضِ والصُّدودِ عن دَعوتِه طَرْفةَ عَينٍ[٣].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾؛ لدَلالةِ ما تَقدَّمَ عليه مِن قولِه: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [نوح: ٣]، والتَّقديرُ: كلَّما دَعوتُهم إلى عِبادتِك وتَقْواك وطاعَتي فيما أمَرْتُهم به[٤].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِتَغْفِرَ﴾ لامُ التَّعليلِ، أي: دَعوتُهم بدَعوةِ التَّوحيدِ، فهو سبَبُ المغفرةِ، فالدَّعوةُ إليه مُعلَّلةٌ بالغُفرانِ. وجُعِلَت الدَّعوةُ مُعلَّلةً بمَغفرةِ اللهِ لهم؛ لأنَّها دَعوةٌ إلى سَببِ المغفرةِ، وهو الإيمانُ باللهِ وحْدَه وطاعةُ أمْرِه على لِسانِ رَسولِه، وفي ذلك تَعريضٌ بتَحميقِهم، وتَعجُّبٌ مِن خُلُقِهم؛ إذ يُعرِضون عن الدَّعوةِ لِما فيه نَفْعُهم، فكان مُقْتضى الرَّشادِ أنْ يَسمَعوها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويَتدبَّرُوها[١].

- قولُه: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ كِنايةً عن المُبالَغةِ في إعراضِهم عمَّا دَعاهم إليه، فهمْ بمَنزلةِ مَن سَدَّ سَمْعَه، ومنَعَ بَصَرَه[٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ تَمثيلًا لحالِهم في الإعراضِ عن قَبولِ كَلامِه، ورُؤيةِ مَقامِه بحالِ مَن يسُكُّ سمْعَه بأُنملتَيْه، ويَحجُبُ عَينَيه بطَرَفِ ثَوبِه[٣].

- وعُبِّرَ عن الأناملِ بالأصابعِ؛ للمُبالَغةِ في إرادةِ سَدِّ المَسامِعِ، بحيث لو أمكَنَ لأدْخَلوا الأصابعَ كلَّها[٤].

- والسِّينُ والتَّاءُ في (اسْتَغْشَوْا) للمُبالَغةِ[٥].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿وَأَصَرُّواْ﴾؛ لظُهورِه، أي: أصَرُّوا على ما هُمْ عليه مِن الشِّركِ[٦].

- قولُه: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارًا﴾ (اسْتَكْبَرُوا) مُبالَغةٌ في تَكبَّروا، أي: جَعَلوا أنفُسَهم أكبَرَ مِن أنْ يَأْتمِروا لواحدٍ منهم. وتأْكيدُ ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ بمَفعولِه المُطلَقِ ﴿ٱسۡتِكۡبَارًا﴾؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ الاستِكبارِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٥، ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

- وتَنوينُ ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ للتَّعظيمِ، أي: استِكبارًا شَديدًا، لا يَفُلُّه حدُّ الدَّعوةِ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا * ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ عُطِفَ الكلامُ بـ(ثُمَّ) الَّتي تُفيدُ في عَطْفِها الجُمَلَ أنَّ مَضمونَ الجُملةِ المعطوفةِ أهمُّ مِن مَضمونِ المعطوفِ عليها؛ لأنَّ اختِلافَ كَيفيَّةِ الدَّعوةِ أَلْصَقُ بالدَّعوةِ مِن أوقاتِ إلْقائِها؛ لأنَّ الحالةَ أشدُّ مُلابَسةً بصاحِبِها مِن مُلابَسةِ زَمانِه، فذَكَر أنَّه دَعاهم جِهارًا، أي: عَلَنًا، ثمَّ ارْتَقى فذَكَرَ أنَّه جمَعَ بيْن الجَهرِ والإسرارِ؛ لأنَّ الجمْعَ بيْنَ الحالتَينِ أقْوى في الدَّعوةِ، وأغلَظُ مِن إفرادِ إحْداهما، فقولُه: ﴿أَعۡلَنتُ لَهُمۡ﴾ تأْكيدٌ لقولِه: ﴿دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا﴾؛ ذُكِرَ ليُبْنى عليه عطْفُ ﴿وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾، والمعْنى: أنَّه تَوخَّى ما يَظُنُّه أوْغَلَ إلى قُلوبِهم مِن صِفاتِ الدَّعوةِ؛ فجَهَر حينَ يكونُ الجهرُ أجْدى مِثلُ مَجامعِ العامَّةِ، وأسرَّ للَّذين يَظُنُّهم مُتجَنِّبينَ لَوْمَ قَومِهم عليهم في التَّصدِّي لسَماعِ دَعوتِه، وبذلك تكونُ ضَمائرُ الغَيبةِ في قولِه: ﴿دَعَوۡتُهُمۡ﴾، وقولِه: ﴿أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ﴾ مُوزَّعةً على مُختَلِفِ النَّاسِ[٢].

- وانتصَب ﴿جِهَارٗا﴾ بالنيابةِ عن المفعولِ المطلقِ المبيِّنِ لنوعِ الدعوةِ، وانتصَبَ ﴿إِسۡرَارٗا﴾ على أنَّه مَفعولٌ مُطلَقٌ مُفيدٌ للتَّوكيدِ، أي: إسرارًا خَفيًّا[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا * يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ فصَّل دَعوتَه بفاءِ التَّفريعِ فقال: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾؛ فهذا القولُ هو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦، ١٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٧).

الَّذي قالَه لهم ليلًا ونهارًا، وجِهارًا وإسرارًا[١].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ تعليلٌ لقولِه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ علَّلَ لهم بأنَّ اللهَ مَوصوفٌ بالغُفرانِ صِفةً ثابتةً تَعهَّدَ اللهُ بها لعِبادِه المستغفرينَ، فأفادَ التَّعليلَ بحرْفِ (إنَّ)، وأفاد ثُبوتَ الصِّفةِ للهِ بذِكرِ فِعلِ (كان)، وأفاد كَمالَ غُفرانِه بصِيغةِ المُبالَغةِ بقولِه: ﴿غَفَّارًا﴾، وهذا وعْدٌ بخَيرِ الآخِرةِ. ورتَّبَ على الوعْدِ بخيرِ الآخرةِ وعْدًا بخيرِ الدُّنيا بطَريقِ جَوابِ الأمرِ، وهو ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم ...﴾ الآيةَ[٢].

- قولُه: ﴿غَفَّارًا﴾ صيغةُ مبالغةٍ، وهو أبلغُ في المغفرةِ مِن (غافر)؛ لأنَّ (فعَّالًا) يدلُّ على كثرةِ صدورِ الفعلِ، و(فاعلًا) لا يدلُّ على الكثرةِ، وقوَّةُ اللفظِ تدلُّ على قوةِ المعنَى، فالألفاظُ أدلةٌ على المعاني، وأمثلةٌ للإبانةِ عنها[٣].

- وقدَّمَ إليهم الموعدَ بما هو أوقَعُ في نُفوسِهم وأحَبُّ إليهم؛ مِن المنافعِ الحاضرةِ، والفوائدِ العاجلةِ؛ تَرغيبًا في الإيمانِ وبَرَكاتِه، والطَّاعةِ ونَتائجِها مِن خَيرِ الدَّارَينِ[٤].

- قولُه: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ الإرسالُ: مُعبَّرٌ به عن الإيصالِ والإعطاءِ، وتَعديتُه بـ﴿عَلَيْكُم﴾ لأنَّه إيصالٌ مِن عُلوٍّ. والمِدرارُ: الكثيرةُ الدَّرِّ والدُّرورِ، وهو السَّيَلانُ، ومعْنى ذلك: أنْ يَتبَعَ بَعضُ الأمطارِ بَعضًا، ومِدرارٌ زِنةُ مُبالَغةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٩٧، ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((المثل السائر)) لابن الأثير (٢/ ١٩٧، ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٨).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ فيه إعادةُ فِعلِ (يَجعَل) بعْدَ واوِ العطفِ في قولِه: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ للتَّوكيدِ؛ اهتمامًا بشأْنِ المعطوفِ؛ لأنَّ الأنهارَ قِوامُ الجنَّاتِ، وتَسْقي المزارعَ والأنعامَ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٨).

الآيات (١٢-٢٠)

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَقَارًا﴾: أي: عَظَمةً مُقتَضِيةً للإجلالِ، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقلٍ في الشَّيءِ[١].

﴿أَطْوَارًا﴾: أي: تاراتٍ، حالًا بَعْدَ حالٍ؛ نُطفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضْغةً، إلى تمامِ الخَلقِ، وأصلُ (طور): يدُلُّ على امتِدادٍ في شَيءٍ مِن مكانٍ أو زمانٍ[٢].

﴿طِبَاقًا﴾: أي: مُتَطابِقةً بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، والمُطابَقةُ: أن تَجعَلَ الشَّيءَ فَوقَ آخَرَ بقَدْرِه، وأصلُ (طبق): يدُلُّ على وَضعِ شَيءٍ مَبسوطٍ على مِثْلِه حتَّى يُغَطِّيَه[٣].

﴿بِسَاطًا﴾: أي: مَبسوطةً، مُتَّسِعةً، مُمهَّدةً كالفِراشِ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٦).

﴿فِجَاجًا﴾: أي: مَسالِكَ وطُرُقًا، الواحِدُ فَجٌّ، والفَجُّ: الطَّريقُ الواسِعُ، وكلُّ فَتحٍ بيْنَ جَبَلينِ أو شَيئَينِ، وأصلُ (فجج): يدُلُّ على تفتُّحٍ وانفِراجٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى إنكارَ نوحٍ عليه السَّلامُ على قَومِه سوءَ أدبِهم معَ الله، واستِخفافَهم بما يَدعوهم إليه، وأنَّه قال لهم: ما لَكم لا تُعَظِّمونَ اللهَ تعالى حقَّ عَظَمتِه، وقد خلَقَكم حالًا بعْدَ حالٍ، فكُنتُم نُطْفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضْغةً، إلى تمامِ خَلْقِكم؟!

قال نوحٌ لِقَومِه داعيًا لهم إلى التَّأمُّلِ في عجائبِ خَلقِ الله: ألَم تَرَوا كيفَ خَلَق اللهُ سَبْعَ سَمَواتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ، وجَعَل القَمَرَ في السَّمَواتِ نُورًا، وجعَلَ الشَّمسَ مِصباحًا مُضيئًا؛ فتَستَدِلُّوا بذلك على كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، واستِحقاقِه للعبادةِ دونَ ما سِواه؟!

ثمَّ دعاهم إلى التَّأمُّلِ في خَلقِ أنفُسِهم، وفي مَبدئِهم ومعادِهم، فقال: واللهُ ابتدَأَ خَلْقَ أبيكم آدَمَ مِن تُرابِ الأرضِ، فأصلُ نَشأتِكم منها، ثمَّ يُعيدُكم اللهُ في الأرضِ بعْدَ مَوتِكم، ويُخرِجُكم منها يَومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ.

ثمَّ دعاهم إلى التَّأمُّلِ في خَلقِ الأرضِ الَّتي يعيشونَ عليها، فقال: واللهُ جعَل لكم الأرضَ مَبسوطةً ممهَّدةً كالفِراشِ؛ لتتَّخِذوا منها طُرُقًا واسِعةً مُيَسَّرةً للسَّيرِ فيها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

أي: قال نوحٌ لِقَومِه مُعاتِبًا لهم على كُفْرِهم: ما لَكم لا تُعَظِّمونَ اللهَ تعالى حقَّ عَظَمتِه؛ فتُوحِّدوه وتُطيعوه[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

قال الماوَرْدي: (﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ فيه خمسةُ تأويلاتٍ:

أحدُها: ما لَكم لا تَعرِفونَ للهِ عَظَمةً. قاله مجاهِدٌ، وعِكرِمةُ.

الثَّاني: لا تَخشَونَ للهِ عِقابًا وتَرجُونَ منه ثوابًا. قاله ابنُ عبَّاسٍ في روايةِ ابنِ جُبَيرٍ.

الثَّالثُ: لا تَعرِفونَ للهِ حَقَّه، ولا تَشكُرونَ له نِعَمَه. قاله الحَسَنُ.

الرَّابعُ: لا تؤَدُّونَ للهِ طاعةً. قاله ابنُ زَيدٍ.

الخامِسُ: أنَّ الوَقارَ: الثَّباتُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] أي: اثبُتْنَ، ومعناه: لا تُثبِتونَ وحدانيَّةَ اللهِ، وأنَّه إلهُكم الَّذي لا إلهَ لكم سِواه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٠١).

وقال ابن القيِّم: (وهذه الأقوالُ تَرجِعُ إلى معنًى واحدٍ، وهو أنَّهم لو عَظَّموا اللهَ وعَرَفوا حقَّ عظَمتِه وحَّدُوه وأطاعوه وشَكَروه). ((الفوائد)) (ص: ١٨٧، ١٨٨).

وممَّن قال: إنَّ الرَّجاءَ هنا بمعنى الخَوفِ، أي: ما لَكم لا تَخافونَ للهِ عظَمةً: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، والأخفش، وابن قُتَيبة، وابن جرير، والواحديُّ، والسمعاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥٠)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٨)، ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٥٠)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

وقد ردَّ الرَّازيُّ هذا القولَ ولم يُجَوِّزْه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٣).

وقال ابن القيِّم: (قال كثيرٌ مِن المفسِّرينَ: المعنى: ما لَكم لا تَخافونَ للهِ عَظَمةً؟ قالوا: والرَّجاءُ بمعنى الخَوفِ، والتَّحقيقُ أنَّه ملازِمٌ له؛ فكُلُّ راجٍ خائِفٌ مِن فواتِ مَرجُوِّه. والخوفُ بلا رجاءٍ يأسٌ وقُنوطٌ. وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] قالوا في تفسيرِها: لا يَخافُونَ وقائعَ اللهِ بهم، كوقائِعِه بمَن قَبْلَهم مِنَ الأُمَمِ). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٥١).

وقيل: المعنى: ما لَكم لا تَكونونَ على حالٍ تأمُلونَ فيها تعظيمَ الله إيَّاكم في دارِ الثَّوابِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٩٢). =

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ نُوحٌ عليه السَّلامُ بتَعظيمِ اللهِ؛ استَدَلَّ على التَّوحيدِ بوُجوهٍ مِنَ الدَّلائِلِ[1]، فقال:

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾.

أي: كيف تَترُكونَ تَعظيمَ اللهِ تعالى وإجلالَه، وقد جَعَل لكم في أنفُسِكم آيةً تدُلُّ على توحيدِه، وتَحمِلُ على تَعظيمِه، وهي خلْقُه إيَّاكم حالًا بعدَ حالٍ، فكُنتُم نُطْفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضْغةً، إلى تمامِ خَلْقِكم[2]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ

= وقال البِقاعي: (﴿وَقَارًا﴾ أي: ثوابًا يوقِّرُكم فيه ولو قَلَّ؛ فإنَّ قليلَه أكثرُ مِن كثيرِ غيرِه، ولا تَخافونَ له إهانةً بالعِقابِ بأن تعلَموا أنَّه لا بدَّ مِن أن يُحاسِبَكم بعدَ البعثِ، فيُثيبَ الطَّائعَ، ويُعاقبَ العاصيَ... ولأجْلِ أنَّ المطلوبَ تحصيلُ الأعمالِ الَّتي هي أسبابٌ ظاهريَّةٌ، عبَّر بالرَّجاءِ؛ ليَسُرَّهم بأنَّ أعمالَهم مؤثِّرةٌ، وعبَّر بالطَّمعِ في غيرِ هذه الآيةِ؛ تنبيهًا على أنَّه لا سببَ في الحقيقةِ إلَّا رحمةُ الله لحالٍ دعا إلى ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٣٩، ٤٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

قال الزجَّاج: (خلَقَكم مِن تُرابٍ، ثمَّ مِن نُطفةٍ، ثمَّ مِن عَلَقةٍ، ثمَّ مِن مُضغةٍ، ثمَّ جَعَل المُضغةَ عَظمًا، وكَسا العَظمَ لَحمًا). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٢٩).

وقال السعدي: (أي: خَلْقًا مِن بَعدِ خَلْقٍ، في بَطنِ الأُمِّ، ثمَّ في الرَّضاعِ، ثمَّ في سِنِّ الطُّفوليَّةِ، ثمَّ التَّمييزِ، ثمَّ الشَّبابِ، إلى آخِرِ ما يَصِلُ إليه الخَلْقُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠١).

عِظَٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمًا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ﴾ [الروم: ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نبَّهَهم نُوحٌ عليه السَّلامُ على الفِكرِ في أنفُسِهم، وكيف انْتَقَلوا مِن حالٍ إلى حالٍ، وكانتِ الأنفُسُ أقرَبَ ما يُفكِّرون فيه منهم؛ أرشَدَهُم إلى الفِكرِ في العالَمِ عُلْوِه وسُفلِه، وما أودَعَ تعالَى فيه، أي: في العالَمِ العُلويِّ مِن هذَينِ النَّيِّرَينِ اللَّذَينِ بهما قِوامُ الوُجودِ(١).

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: ألَم تَرَوا كيف خَلَق اللهُ سَبْعَ سَمَواتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ؛ فتَستَدِلُّوا بذلك على كَمالِ قُدرةِ اللهِ، واستِحقاقِه للعبادةِ دونَ ما سِواه(٢)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٢).

قال ابنُ عرفة: (وهذه الآيةُ مِن كلامِ نوحٍ عليه السَّلامُ لقومِه). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٩٦).

وقال القرطبي: (وقولُه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾ على جهةِ الإخبارِ لا المُعايَنةِ، كما تقولُ: ألم تَرَني كيفَ صنعتُ بفُلانٍ كذا). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٤). =

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾.

أي: وجَعَل اللهُ القَمَرَ في السَّمَواتِ السَّبعِ نُورًا[1].

= قال ابنُ عجيبة: (والرُّؤيةُ هنا علميَّةٌ؛ إذ لا يُرَى بالبصرِ إلَّا واحدةٌ). ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ١٤٦).
وقيل: الرُّؤيةُ بصَريَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).
قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ يقولُ: وجَعَل القمرَ في السَّمواتِ السَّبعِ نورًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٩).
قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾: أنَّ القَمَر في بَعضِها؛ لأنَّه في السَّماءِ الدُّنيا، كما يُقالُ: فلانٌ في المدينةِ، وهو في بعضِ نواحيها. وممَّن قال بهذا المعنى: الأخفشُ، والسمرقندي، والزمخشري، وابن عطية، والرازي، وابن جُزَي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٥).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٧).
قال الشوكاني: (وجعْلُ القمرِ في السَّمواتِ على كَونِه في سماءِ الدُّنيا؛ لأنَّه إذا كان في إحداهنَّ، فهو فيهنَّ، كذا قال ابنُ كَيْسانَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٨).
وقيل: المرادُ أنَّ أحَدَ وَجهَي القَمَرِ يُضيءُ السَّمَواتِ، والوَجهَ الآخَرَ يُضيءُ الأرضَ. وممَّن ذهب إليه: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٣). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٠).
وممَّن رُوِيَ عنه نحوُ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: عبدُ الله بنُ عَمرِو بنِ العاص، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٩١).
وقيل: الألِفُ واللَّامُ في القَمَرِ للجنسِ، لا للعَهدِ؛ فليس القَمَرُ خاصًّا بالأرضِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: القاسميُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٢١٠). ويُنظر أيضًا: ((مجلة المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٤/ ٥٧٧).

كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

أي: وجعل اللهُ الشَّمسَ مِصباحًا مُضيئًا(١).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها رُجوعٌ إلى دَلائلِ الأنفُسِ، وهي كالتَّفسيرِ لقَولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]؛ فإنَّه بيَّنَ أنَّه تَعالى خَلَقَهم مِن الأرضِ، ثمَّ يَرُدُّهم إليها، ثمَّ يُخرِجُهم منها مرَّةً أُخرى(٢).

وأيضًا لَمَّا دلَّ اللهُ تعالَى على كَمالِ عِلمِه وتَمامِ قُدرتِه بخلْقِ الإنسانِ، ثمَّ بخلْقِ ما هو أكبَرُ منه؛ أعاد الدَّلالةَ بخَلْقِ الإنسانِ؛ لأنَّه أعظَمُ المُحدَثاتِ، وأدَلُّها على اللهِ سُبحانَه وتعالَى على وجْهٍ آخَرَ(٣).

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾.

أي: واللهُ ابتدَأَ خَلْقَ أَبيكم آدَمَ مِن تُرابِ الأرضِ، فأصلُ نَشأتِكم منها(٤).

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٤). =

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾.

أي: ثمَّ يُعيدُكم اللهُ في الأرضِ بعْدَ مَوتِكم، فتُدفَنونَ فيها، وتَصيرونَ تُرابًا كما كُنتُم قبْلَ خَلْقِكم[1].

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

أي: ويُخرِجُكم اللهُ مِنَ الأرضِ يَومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ، فتَخرُجونَ مِن قُبورِكم أحياءً[2].

كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢].

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾.

أي: واللهُ جعَل لكم الأرضَ مَبسوطةً ممهَّدةً كالفِراشِ[3].

= قال الرازي: (في هذه الآيةِ وَجهانِ:

أحَدُهما: معنى قَولِه: ﴿أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أنبَتَ أباكم مِن الأرضِ، كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والثَّاني: أنَّه تعالى أنبَتَ الكُلَّ مِنَ الأرضِ؛ لأنَّه تعالى إنَّما يَخلُقُنا مِنَ النُّطَفِ، وهي متوَلِّدةٌ مِنَ الأغذيةِ المتولِّدةِ مِن النَّباتِ المتولِّدِ مِنَ الأرضِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٤). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٢٣٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف: ١٠].

﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: لتتَّخِذوا منها طُرُقًا واسِعةً سَهلةً مُيَسَّرةً للسَّيرِ فيها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- ممَّا يَستقيمُ به القَلبُ تَعظيمُ الأمرِ والنَّهيِ، وهو ناشِئٌ عن تَعظيمِ الآمِرِ النَّاهي؛ فإنَّ اللهَ تعالى ذَمَّ مَن لا يُعَظِّمُ أمْرَه ونَهْيَه، قال سُبحانَه وتعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[2].

٢- قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ومِن وقارِ الله تعالى أن لا تعدِلَ به شيئًا مِن خلقِه لا في اللَّفْظ -بِحَيْثُ تَقولُ: والله، وحياتِك، ما لي إلَّا الله وأنت، وما شاءَ الله وشئتَ- ولا في الحبِّ والتَّعظيمِ والإجلالِ، ولا في الطَّاعةِ، ولا في الخوفِ والرجاءِ، ولا يجعلَه أهْونَ النَّاظرينَ إليه، ولا يستهينَ بحقِّه، ويَقولَ:

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٥).

قال ابنُ عاشور: (الفَجُّ: الطَّريقُ الواسِعُ، وأكثَرُ ما يُطلَقُ على الطَّريقِ بيْن جَبَلينِ؛ لأنَّه يكونُ أوسَعَ مِن الطَّريقِ المعتادِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٨).

هو مَبْنِيٌّ على المُسامحَةِ، ولا يجعلَه على الفضلةِ، ويقدِّمَ حقَّ المخلوقِ عليه، ولا يَجعلَ مُرادَ نَفسِه مقدَّمًا على مُرادِ ربِّه، فهذا كلُّه مِن عدمِ وقارِ الله في القلبِ، وَمن وقارِ الله أن يستحيَ من اطِّلاعِه على سرِّه وضميرِه فيرَى فيه ما يكرهُ، ومِن وقارِه أنْ يستحيَ منه فِي الخلْوَةِ أعظمَ مِمَّا يستحي مِن أكابرِ النَّاسِ. وإنَّ مِن أعظمِ الظُّلمِ والجهلِ أن تطلبَ التَّعظيمَ والتَّوقيرَ مِن النَّاسِ وقلبُك خالٍ مِن تعظيمِ الله وتوقيرِه[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ فيه تَنبيهٌ على عِظَمِ خَلقِ هذه الأشياءِ، وكَثرةِ المنافِعِ في الشَّمسِ والقَمَرِ، الدَّالَّةِ على رحمةِ الله، وسَعةِ إحسانِه؛ فالعظيمُ الرَّحيمُ يَستَحِقُّ أن يُعظَّمَ، ويُحَبَّ، ويُعبَدَ، ويُخافَ، ويُرجَى[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ فيه مِن شُعَبِ الإيمانِ: الرَّجاءُ والخَشيةُ، على القَولَينِ في تَفسيرِه[٣].

٢- قال تعالَى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾؛ فالَّذي انفرَدَ بالخَلقِ والتَّدبيرِ البديعِ مُتعيِّنٌ أنْ يُفرَدَ بالعِبادةِ والتَّوحيدِ. وفي ذِكرِ ابتِداءِ خَلْقِهم تَنبيهٌ لهم على الإقرارِ بالمَعادِ، وأنَّ الَّذي أنْشَأَهُم مِن العدَمِ قادرٌ على أنْ يُعيدَهم بعْدَ مَوتِهم[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ فيه سُؤالٌ، وهو:

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

كيف قِيل لهم: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ﴾، و(الكَيفُ) للحالةِ والهيئةِ، وهمْ لم يُشاهِدوها، كما قال تعالَى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١]؟

والجوابُ: حيثُ إنَّ اللهَ خاطَبَهم هنا ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ﴾؛ فكان هذا أمْرًا -لِفَرْطِ صِدقِ الإخبارِ به- كالمُشاهَدِ المحسوسِ المُلزِمِ لهم. وقيل غيرُ ذلك[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال ذلك، والقَمَرُ ليس فيها بأسْرِها، بل في السَّماءِ الدُّنيا؟

الجوابُ: هذا كما يُقالُ: (السُّلطانُ في العراقِ) ليس المرادُ أنَّ ذاتَه حاصِلةٌ في جميعِ أحيازِ العِراقِ، بل إنَّ ذاتَه في حَيِّزٍ مِن جملةِ أحيازِ العِراقِ، فكذا هاهنا[٢].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ في جَعلِ القَمَرِ نُورًا إيماءٌ إلى أنَّ ضَوءَ القَمَرِ ليس مِن ذاتِه؛ فإنَّ القَمَرَ مُظلِمٌ، وإنَّما يَستضيءُ بانعكاسِ أشِعَّةِ الشَّمسِ على ما يَستَقبِلُها من وَجهِه بحَسَبِ اختلافِ ذلك الاستِقبالِ مِن تبَعُّضٍ وتمامٍ[٣]، وأيضًا جَعْلُ الشَّمسِ سِراجًا: فيه إشارةٌ إلى أنَّ نُورَ القَمَرِ مِنَ الشَّمسِ مُكتَسَبٌ، حيث جَعَل الشَّمسَ بمنزلةِ نَفسِ السِّراجِ، والقمَرَ بمنزلةِ ضَوئِه ونُورِه[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ مِن أدَلِّ الأدلَّةِ على الحُدوثِ؛ لأنَّهم إذا كانوا نَباتًا كانوا مُحْدَثينَ -لا مَحالةَ- حُدوثَ النَّباتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣١٠-٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٤).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٥٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي =

٧- لطيفة: أجسامُ بني آدَمَ بل وسائِرِ الحيواناتِ: كنَباتِ الأرضِ، تَنقَلِبُ مِن حالٍ إلى حالٍ، ثمَّ تجِفُّ وتصيرُ تُرابًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا * ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا * وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ بدَّلَ نوحٌ عليه السَّلامُ خِطابَه مع قَومِه مِن طَريقةِ النُّصحِ والأمرِ إلى طَريقةِ التَّوبيخِ بقولِه: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾، وهو استِفهامٌ صُورتُه صُورةُ السُّؤالِ عن أمْرٍ ثبَتَ لهم في حالِ انتفاءِ رَجائِهم تَوقيرَ اللهِ، والمقصودُ أنَّه لا شَيءَ يَثبُتُ لهم صارِفٌ عن تَوقيرِ اللهِ؛ فلا عُذْرَ لكم في عدَمِ تَوقيرِه[2].

- قولُه: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ اختُلِفَ في معناه وفي تَعلُّقِ مَعمولاتِه بعوامِلِه على أقوالٍ: فإذا حُمِلَ الرَّجاءُ على معْنى تَرقُّبِ الأمرِ، وحُمِلَ الوَقارُ على معْنى العَظَمةِ المُقتضيةِ للإجلالِ؛ فالمعْنى: ما لَكمْ لا تَرجُون ثَوابًا مِن اللهِ، ولا تَخافون عِقابًا، أي: فتَعْبُدوه راجينَ أنْ يُثيبَكم على عِبادتِكم وتَوقيرِكم إيَّاه، وهذا التَّفسيرُ يَنْحو إلى أنْ يكونَ في الكلامِ اكتِفاءٌ[3]، أي: ولا تَخافون

= السعود)) (٩/ ٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٩).

(٣) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، على سبيلِ الاكتفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

عِقابًا، وإنَّ نُكتةَ الاكتِفاءِ بالتَّعجُّبِ مِن عدَمِ رَجاءِ الثَّوابِ: أنَّ ذلك هو الَّذي يَنْبغي أنْ يَقصِدَه أهلُ الرَّشادِ والتَّقوى، والتَّقديرُ: ما لَكمْ لا تَكونونَ على حالٍ تأمُلونَ فيها تَعظيمَ اللهِ إيَّاكم في دارِ الثَّوابِ. وهذا يَقْتضي أنْ يكونَ الكلامُ كِنايةً تَلويحيَّةً عن حَثِّهم على الإيمانِ باللهِ الَّذي يَستلزِمُ رَجاءَ ثَوابِه، وخَوفَ عِقابِه؛ لأنَّ مَن رَجا تَعظيمَ اللهِ إيَّاه آمَنَ به، وعبَدَه، وعمِلَ الصَّالحاتِ.

وعلى أنَّ الرَّجاءَ بمَعْنى الاعتقادِ، و﴿لَا تَرْجُونَ﴾ حالٌ من ضَميرِ المُخاطَبينَ، والعاملُ فيها مَعْنى الاستقرارِ في ﴿لَكُمْ﴾، على أنَّ الإنكارَ مُتوجِّهٌ إلى السَّببِ فقَطْ مع تَحقُّقِ مَضمونِ الجُملةِ الحاليَّةِ لا إليهما معًا؛ فيكونُ قولُه إنكارًا لأنْ يكونَ لهُم سَببٌ ما في عدَمِ رَجائِهم للهِ تعالَى وَقارًا؛ فقولُه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، أي: لا تَعتَقِدون له عَظَمةً، فتَخافوا عِصيانَه؟! وإنَّما عبَّرَ عن الاعتقادِ بالرَّجاءِ التَّابعِ لأدْنى الظَّنِّ مُبالَغةً.

وعلى القَولِ بأنَّ معنى الوَقارِ: العاقبةُ، أي: ما لَكمْ لا تَرْجُون للهِ عاقبةً، أي: عاقبةَ الإيمانِ؛ فيكونُ الكلامُ كِنايةً عن التَّوبيخِ على تَرْكِهم الإيمانَ باللهِ تعالَى[1].

- وجُملةُ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ حالٌ مُقرِّرةٌ للإنكارِ مِن حيثُ إنَّها مُوجِبةٌ للرَّجاءِ؛ فهي حالٌ مِن ضَميرِ ﴿لَكُمْ﴾ أو ضَميرِ ﴿تَرْجُونَ﴾، أي: في حالِ تَحقُّقِكم أنَّه خَلَقَكم أطْوارًا، فأمَّا أنَّه خَلَقَهم فمُوجِبٌ للاعترافِ بعَظَمتِه؛ لأنَّه مُكوِّنُهم وصانعُهم، فحقَّ عليهم الاعترافُ بجَلالِه، وأمَّا كونُ خلْقِهم أطوارًا؛ فلأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٧، ٦١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٤، ٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٩، ٢٠٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٩، ٢٣٠).

الأطوارَ الَّتي يَعلَمونها دالَّةٌ على رِفقِه بهم في ذلك التَّطوُّرِ، فهذا تَعريضٌ بكُفْرِهم النِّعمةَ، ولأنَّ الأطوارَ دالَّةٌ على حِكمةِ الخالِقِ وعِلمِه وقُدرتِه؛ فإنَّ تَطوُّرَ الخلْقِ مِن طَورِ النُّطفةِ، إلى طَورِ الجنينِ، إلى طَورِ خُروجِه طِفلًا، إلى طَورِ الصِّبا، إلى طَورِ بُلوغِ الأشُدِّ، إلى طَورِ الشَّيخوخةِ، وطُروِّ الموتِ على الحياةِ، وطُروِّ البِلى على الأجسادِ بعدَ الموتِ؛ كلُّ ذلك والذَّاتُ واحدةٌ، فهو دَليلٌ على تَمكُّنِ الخالِقِ مِن كَيفيَّاتِ الخلْقِ والتَّبديلِ في الأطوارِ، وهم يُدرِكون ذلك بأدْنى الْتِفاتِ الذِّهنِ، فكانوا مَحقوقينَ بأنْ يَتوصَّلوا به إلى مَعرفةِ عَظَمةِ اللهِ تعالى، وتَوقُّعِ عِقابِه؛ لأنَّ الدَّلالةَ على ذلك قائمةٌ بأنفُسِهم، وهل التَّصرُّفُ فيهم بالعِقابِ والإثابةِ إلَّا دونَ التَّصرُّفِ فيهم بالكَونِ والفسادِ[1]؟

- قَولُه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ بدَأَ بدَلائلِ الأنفُسِ، وبعْدَها بدَلائلِ الآفاقِ؛ لأنَّها مع شَرَفِها أقرَبُ مَنظورٍ إليه لهم، فنفْسُ الإنسانِ أقرَبُ الأشياءِ إليه، فلا جَرَمَ بدَأَ بالأقرَبِ، وثَنَّى بالعُلويِّ؛ لأنَّه يليها في الشَّرَفِ ووُضوحِ الآياتِ. وتارَّةً يَبدَأُ بدَلائلِ الآفاقِ، ثمَّ بدَلائلِ الأنفُسِ؛ إمَّا لأنَّ دَلائلَ الآفاقِ أبهَرُ وأعظَمُ، فوَقَعَت البدايةُ بها لهذا السَّببِ، أو مِن أجْلِ أنَّ دَلائلَ الأنفُسِ حاضرةٌ، لا حاجةَ بالعاقلِ إلى التَّأمُّلِ فيها، إنَّما الَّذي يَحتاجُ إلى التَّأمُّلِ فيه دَلائلُ الآفاقِ؛ لأنَّ الشُّبَهَ فيها أكثَرُ، فلا جَرَمَ تَقَعُ البدايةُ بها[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾

- هذا الكلامُ إنْ كان هذا مِن حِكايةِ كَلامِ نوحٍ عليه السَّلامُ لقومِه، كان تَخلُّصًا مِن التَّوبيخِ والتَّعريضِ إلى الاستدلالِ عليهم بآثارِ وُجودِ اللهِ ووَحدانيَّتِه

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٤). ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤١، ٤٤٢).

وقُدرتِه، ممَّا في أنفُسِهم مِن الدَّلائلِ إلى ما في العالَمِ منها؛ لِما في قولِه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] مِن تَذكيرٍ بالنِّعمةِ وإقامةٍ للحُجَّةِ، فتَخلَّصَ منه لذِكرِ حُجَّةٍ أُخرى، فكان قد نبَّهَهم على النَّظَرِ في أنفُسِهم أولًا؛ لأنَّها أقرَبُ ما يُحِسُّونه ويَشعَرون به، ثمَّ على النَّظَرِ في العالَمِ وما سُوِّيَ فيه مِن العجائبِ الشَّاهدةِ على الخالقِ العليمِ القديرِ. وإنْ كان مِن خطابِ اللهِ تعالَى للأُمَّةِ -وهو ما يَسمَحُ به سِياقُ السُّورةِ مِن الاعتبارِ بأحوالِ الأُمَمِ الماضيةِ المُساويةِ لأحوالِ المشركينَ- كان هذا الكلامُ اعتراضًا للمُناسَبةِ[(١)].

- والهمزةُ في ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ للاستِفهامِ التَّقريريِّ مُكنًّى به عن الإنكارِ عن عدَمِ العِلمِ بدَلائلِ ما يَرَونه، والمعْنى: ألَسْتُم تَرَون هَيئةَ وحالةَ خلْقِ اللهِ السَّمواتِ[(٢)]؟!

- وقولُه: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ وصْفُ سبْعٍ مَعلومًا للمُخاطَبينَ مِن قومِ نوحٍ، أو مِن أُمَّةِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ؛ بأنْ يَكونوا عَلِموا ذلك مِن قبْلُ، فيكون ممَّا شَمِلَه فِعلُ ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾، ويجوزُ أنْ يكونَ تَعليمًا للمخاطَبينَ على طَريقةِ الإدماجِ[(٣)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ الإخبارُ عن القمرِ بأنَّه نورٌ مُبالَغةٌ في وصْفِه بالإنارةِ بمَنزلةِ الوصْفِ بالمَصدرِ[(٤)].

- قَولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ بدَأَ به؛ لقُربِه، وسُرعةِ حَرَكتِه، وقَطعِه جميعَ البروجِ في كُلِّ شَهرٍ مَرَّةً، وغَيبتِه في ليالي السِّرارِ[(٥)]، ثمَّ ظُهورِه، وذلك أعجَبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٠٣).

(٥) السِّرارُ: يومَ يَستَسِرُّ فيه الهلالُ آخِرَ يومٍ مِن الشَّهرِ أو قبْلَه، ورُبَّما استَتَر لَيلتَينِ اذا تَمَّ الشَّهرُ. =

في القُدرةِ[١].

- والسِّراجُ: المِصباحُ الزَّاهرُ نُورُه، الَّذي يُوقَدُ بفَتيلةٍ في الزَّيتِ يُضِيءُ الْتهابُها المُعدَّلُ بمِقدارِ بَقاءِ مادَّةِ الزَّيتِ تَغمُرُها، والإخبارُ به عن الشَّمسِ مِن التَّشبيهِ البليغِ، والقصدُ منه تَقريبُ المُشبَّهِ مِن إدراكِ السَّامعِ؛ فإنَّ السِّراجَ كان أقْصى ما يُستضاءُ به في اللَّيلِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ لم يُخبَرْ هنا عن الشَّمسِ بالضِّياءِ، كما في آيةِ سُورةِ (يُونسَ) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ [يونس: ٥]، والمعنى واحدٌ، وهو الإضاءةُ، ولعلَّ إيثارَ السِّراجِ هنا لمُقارَبةِ تَعبيرِ نُوحٍ في لُغتِه، مع ما فيه مِن الرِّعايةِ على الفاصلةِ؛ لأنَّ الفواصلَ الَّتي قبْلَها جاءتْ على حُروفٍ صَحيحةٍ، ولو قِيل: (ضِياءً) لَصارتِ الفاصلةُ هَمزةً، والهمزةُ قريبةٌ مِن حُروفِ العِلةِ، فيَثقُلُ الوقفُ عليها[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أنشَأَ الاستدلالُ بخلْقِ السَّمواتِ حُضورَ الأرضِ في الخَيالِ؛ فأعقَبَ نوحٌ عليه السَّلامُ به دَليلَه السَّابقَ، استِدلالًا بأعجَبِ ما يَرَونه مِن أحوالِ ما على الأرضِ، وهو حالُ الموتِ والإقبارِ، ومهَّدَ لذلك بما يَتقدَّمُه مِن إنشاءِ النَّاسِ، وأُدمِجَ في ذلك تَعليمُهم بأنَّ الإنسانَ مَخلوقٌ مِن عناصرِ الأرضِ مِثلَ النَّباتِ، وإعلامُهم بأنَّ بعْدَ الموتِ حياةً أخرى[٤].

= يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ١٨٧)، ((السنن الكبرى)) للبيهقي (٤/ ٣٥٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٠٤).

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ التَّقديرُ: أنشَأَ آدَمَ مِن الأرضِ، وصارتْ ذُرِّيَّتُه منه، فصَحَّ نِسبتُهم كلِّهم إلى أنَّهم أُنبِتوا منها، وأُطلِقَ على معْنى (أنشَأَكُم) فِعلُ ﴿أَنۢبَتَكُم﴾؛ للمُشابَهةِ بيْنَ إنشاءِ الإنسانِ وإنباتِ النَّباتِ مِن حيثُ إنَّ كِلَيهما تكوينٌ، كما قال تعالَى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، أي: أنْشَأَها، وكما يَقولون: زَرَعَك اللهُ للخَيرِ، ويَزيدُ وَجْهَ الشَّبَهِ هنا قُربًا مِن حيث إنَّ إنشاءَ الإنسانِ مُركَّبٌ مِن عناصرِ الأرضِ[(١)].

- ولَفظُ ﴿نَبَاتًا﴾ اسمٌ مِن (أنْبَتَ)، عُومِلَ مُعامَلةَ المصدرِ، فوَقَع مَفعولًا مُطلقًا لـ ﴿أَنۢبَتَكُم﴾، ولم يَجْرِ على قِياسِ فِعلِه فيُقال: (إنْباتًا)؛ لأنَّ (نَباتًا) أخفُّ، فلمَّا تَسنَّى الإتيانُ به -لأنَّه مُستعمَلٌ فَصيحٌ- لم يُعدَلْ عنه إلى الثَّقيلِ كَمالًا في الفَصاحةِ، بخِلافِ قولِه بعْدَه: ﴿إِخۡرَاجًا﴾؛ فإنَّه لم يُعدَلْ عنه إلى (خروجًا)؛ لعدَمِ مُلاءَمتِه لألفاظِ الفواصلِ قبْلَه المَبْنيَّةِ على ألِفٍ مِثلِ ألِفِ التَّأسيسِ[(٢)]، فكما تُعَدُّ مُخالفتُها في القافيةِ عَيبًا، كذلك تُعَدُّ المُحافَظةُ عليها في الأسجاعِ والفواصلِ كَمالًا. ويجوزُ أن يكونَ الأصلُ (أنبَتَكُم مِن الأرضِ إنباتًا، فنبَتُّم نباتًا)، فحُذِفَ مِن الجُملةِ الأُولى المصدرُ، ومِن الثَّانيةِ الفعلُ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٩).

(٢) ألِفُ التَّأسيسِ: مِن مُصطَلحاتِ عِلمِ العَروضِ والقافيةِ، وهو كلُّ ألِفٍ وقعَتْ في القافيةِ وبيْنَها وبيْنَ الرَّويِّ حرفٌ مُتحرِّكٌ يُسمَّى هذا الحَرْفُ المتحرِّكُ الدَّخيلَ، والتَّأسيسُ يَلزَمُ ذلك الموضِعَ في القَصيدةِ كُلِّها؛ ففي قولِ زيادِ بنِ مُعاويةَ الذُّبْيانيِّ -وهو في ((ديوانه)) (ص: ٤٧)-:

كِلِينِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبِ ... ولَيْلٍ أُقاسِيهِ بَطيءِ الكواكِبِ

الألِفُ مِن «كواكِبِ» تأسِيسٌ، والكافُ دَخيلٌ، والباءُ رَويٌّ، والياءُ المتولِّدةُ مِن كَسْرةِ الباءِ وصْلٌ. يُنظر: ((القوافي)) للأخفش الأوسط (ص: ٢٨)، ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ٤٩١)، ((العِقد الفريد)) لابن عبد ربه (٦/ ٣٤٣)، ((عِلم العَروض والقافية)) لعبد العزيز عتيق (ص: ١٣٦).

اكتِفاءً في كلٍّ منهُمَا بما ذُكِرَ في الأُخرى[١].

وهذا مِن بَديعِ القُرآنِ، لا تَرى العُدولَ مِن لَفظٍ إلى آخَرَ إلَّا لمعْنًى، والنَّحْويُّ يقولُ: أُجريَ المصدَرُ على غيرِ فِعلِه، وصاحبُ المعاني يقولُ: له فائدةٌ في التَّحقيقِ وراءَ هذا؛ وهو التَّنبيهُ على تَحتُّمِ القُدرةِ، وسُرعةِ نَفاذِ حُكْمِها، حتَّى كأنَّ إنباتَ اللهِ تعالَى نفْسُ نَباتِهم، أي: إذا وُجِدَ مِن اللهِ الإنباتُ وُجِدَ لهم النَّباتُ حتْمًا، فكان أحدُ الأمْرَينِ عيْنَ الآخَرِ، فقُرِنَ به[٢].

- وقد أُدمِجَ الإنذارُ بالبعثِ في خلالِ الاستِدلالِ، ولِكَونِه أهَمَّ رُتبةً مِن الاستدلالِ عليهم بأصلِ الإنشاءِ، عُطِفَتِ الجُملةُ بحرْفِ (ثُمَّ) الدَّالَّةِ على التَّراخي الرُّتبيِّ في قولِه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾؛ لأنَّ المقصودَ مِن الجُملةِ هو فِعلُ (يُخرِجُكم)، وأمَّا قولُه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ﴾ فهو تَمهيدٌ له[٣].

- وأُكِّدَ (يُخْرِجُكُمْ) بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿إِخْرَاجًا﴾؛ لرَدِّ إنكارِهم البعثَ[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ استِدلالٌ وامتِنانٌ؛ ولذلك عُلِّقَ بفِعلِ ﴿جَعَلَ﴾ مَجرورٌ بلامِ التَّعليلِ، وهو ﴿لَكُمُ﴾، أي: لأجْلِكم[٥].

- وتَوسيطُ ﴿لَكُمُ﴾ بيْن الجَعْلِ ومَفعولَيهِ في قولِه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المُنَيِّر)) (٢/ ٣٣١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بِسَاطًا﴾ مع أنَّ حقَّه التَّأخيرُ؛ للاهتِمامِ ببَيانِ كَونِ المَجعولِ مِن مَنافِعِهم، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ؛ فإنَّ النَّفْسَ عندَ تأخيرِ ما حقُّه التَّقديمُ -ولا سِيَّما عندَ كَونِ المُقدَّمِ مُلوِّحًا بكَونِه مِن المنافعِ- تَبْقَى مُترقِّبةً له، فيَتمكَّنُ عندَ وُرودِه لها فضْلَ تَمكُّنٍ[١].

- والبِساطُ: ما يُفرَشُ للنَّومِ عليه، والجلوسِ؛ مِن ثَوبٍ أو زَرْبيَّةٍ[٢]؛ فالإخبارُ عن الأرضِ ببِساطٍ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: كالبِساطِ، ووَجْهُ الشَّبَهِ: تَناسُبُ سطْحِ الأرضِ في تَعادُلِ أجزائِه بحيث لا يُوجِعُ أرجُلَ الماشينَ، ولا يُقِضُّ جُنوبَ المُضطجعينَ[٣].

- وليس المرادُ أنَّ اللهَ جَعَلَ حجْمَ الأرضِ كالبِساطِ؛ لأنَّ حجْمَ الأرضِ كُرَويٌّ، وقد نبَّهَ على ذلك بالعِلَّةِ الباعثةِ في قولِه: ﴿لَكُمُ﴾، والعِلَّةِ الغائيَّةِ في قولِه: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا﴾، وحَصَلَ مِن مَجموعِ العِلَّتينِ الإشارةُ إلى جَميعِ النِّعَمِ الَّتي تَحصُلُ للنَّاسِ مِن تَسويةِ سطْحِ الأرضِ مِثل الحرْثِ والزَّرعِ، وإلى نِعمةٍ خاصَّةٍ، وهي السَّيرُ في الأرضِ، وخُصَّت بالذِّكرِ؛ لأنَّها أهمُّ؛ لاشتِراكِ كلِّ الناسِ في الاستفادةِ منها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٩، ٤٠).

(٢) الزَّرْبيَّة: الوِسادةُ تُبسَطُ للجُلوسِ عليها، والجمع: زَرابيُّ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١/ ٤٤٧)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢١-٢٥)

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَسَارًا﴾: أي: خُسْرانًا، والخُسْرانُ في البيعِ: انتِقاصُ رأسِ المالِ، وأصلُ (خَسِرَ): يدُلُّ على النَّقصِ[(١)].

﴿كُبَّارًا﴾: أي: كَبيرًا عَظيمًا، يُقالُ: كَبِيرٌ، وكُبَارٌ: بالتَّخفيفِ، وكُبَّارٌ: بالتَّشديدِ؛ كُلُّها بمعنًى واحِدٍ، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[(٢)].

﴿لَا تَذَرُنَّ﴾: أي: لا تَدَعُنَّ، فهو بوَزْنِ وَدَعَ الشَّيءَ يَدَعُه وَدْعًا، ومَعْناه، والمُضارِعُ منه: يَذَرُ، والأمْرُ منه: ذَرْ، ولم يَرِدْ في اللُّغةِ استِعْمالُ ماضِيه ولا مَصْدَرِه، وهو بمعنَى التَّرْكِ والإهمالِ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يَحكي الله تعالى تضَرُّعَ نُوحٍ إليه، وشَكْواه مِن تعنُّتِ قَومِه، فيقولُ: قال نوحٌ: ربِّ إنَّ قَومي عَصَوني، واتَّبَعوا المُبطِلينَ الَّذين لم تَزِدْهم كَثرةُ أموالِهم وأولادِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٦٨).

إلَّا هَلاكًا وضَلالًا، ومَكَروا مَكْرًا كبيرًا جدًّا، وقال بعضُهم لبَعضٍ: لا تَترُكوا أصنامَكم الَّتي يَنْهاكم نوحٌ عن عبادتِها، ولا تَترُكوا وَدًّا، ولا سُواعًا، ولا يَغُوثَ ويَعوقَ ونَسْرًا!

وقد أضَلُّوا كثيرًا مِنَ النَّاسِ عن طَريقِ الحَقِّ، ولا تَزِدْ -يا رَبِّ- هؤلاءِ الظَّالِمينَ بالشِّركِ والتَّكذيبِ إلَّا ضَلالًا عن الحَقِّ.

ثمَّ يذكُرُ سبحانَه عقوبةَ قومِ نوحٍ الدُّنيويَّةَ والأخرويَّةَ، فيقولُ: بسَبَبِ ذُنوبِهم أغرَقَهم اللهُ، فأُدخِلوا نارًا يُعذَّبونَ فيها، فلم يَجِدوا حينَها مَن يَنصُرُهم، ويَمنَعُهم مِن عذابِ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ لَمَّا دعا قَومَه إلى اللهِ، ونَبَّهَهم على هذه الدَّلائِلِ الظَّاهِرةِ؛ حكَى عنهم أنواعَ قَبائِحِهم وأقوالِهم وأفعالِهم[1].

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾.

أي: قال نُوحٌ: ربِّ إنَّ قَومي خالَفوا ما أمَرْتُهم به، ورَدُّوا ما دعَوتُهم إليه، فلم يتَّبِعوني على الحَقِّ[2].

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۞ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ٩، ١٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾.

أي: واتَّبَعوا على الباطِلِ أبناءَ الدُّنيا الَّذين لم تَزِدْهم كَثرةُ أموالِهم وأولادِهم إلَّا هَلاكًا وبُعْدًا مِن اللهِ، وضَلالًا عن الحَقِّ[1].

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرًا كُبَّارًا ٢٢﴾.

أي: ومَكَروا مكرًا كبيرًا جدًّا بنوحٍ والَّذينَ آمَنوا معه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرًا ٢٣﴾.

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾.

أي: وقال بعضُهم لبَعضٍ: لا تَترُكوا أصنامَكم الَّتي يَنهاكم نوحٌ عن عبادتِها[3]!

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٧، ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٧).

قال البغوي: (واختَلَفوا في مَكرِهم. قال ابنُ عبَّاسٍ: قالوا قولًا عظيمًا. قال الضَّحَّاكُ: افتَرَوْا على الله كَذِبًا، وكذَّبوا رُسُلَه. وقيل: مَنَع الرُّؤساءُ أتْباعَهم عن الإيمانِ بنوحٍ، وحَرَّضوهم على قتلِه). ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٧).

وقال ابن كثير: (والمعنَى في قولِه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرًا كُبَّارًا﴾ أي: بأتْباعِهم في تَسويلِهم لهم بأنَّهم على الحقِّ والهدَى، كما يقولونَ لهم يومَ القيامةِ: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ:٣٣]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٧).

أي: ولا تَترُكوا عِبادةَ الصَّالِحينَ: وَدٍّ، وسُواعٍ، ويَغُوثَ، ويَعوقَ، ونَسرٍ[١]!

قال عَطاءٌ: عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: (صارت الأوثانُ الَّتي كانت في قَومِ نوحٍ في العَرَبِ بَعْدُ؛ أمَّا وَدٌّ كانت لكَلبٍ بدَومةِ الجَنْدلِ، وأمَّا سُواعٌ كانت لهُذَيلٍ، وأمَّا يَغُوثُ فكانت لِمُرادٍ، ثمَّ لبَني غُطَيفٍ بالجَوفِ عندَ سَبَإٍ، وأمَّا يَعوقُ فكانت لهَمْدانَ، وأمَّا نَسْرٌ فكانت لِحِمْيَرٍ؛ لآلِ ذي الكَلاعِ؛ أسماءُ رِجالٍ صالحينَ مِن قَومِ نُوحٍ، فلمَّا هَلَكوا أوحى الشَّيطانُ إلى قَومِهم: أنِ انصِبوا إلى مجالِسِهم الَّتي كانوا يَجلِسونَ أنصابًا، وسَمُّوها بأسمائِهم، ففعَلوا، فلم تُعبَدْ، حتَّى إذا هلَكَ أولئك، وتنَسَّخَ[٢] العِلمُ، عُبِدَت!)[٣].

﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ٢٤﴾.

﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾.

أي: وقد أضَلُّوا كثيرًا مِنَ النَّاسِ عن طَريقِ الحَقِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٨).

(٢) وتنَسَّخَ: أي: تغيَّر العِلمُ بها، وزالت المعرفةُ بحالِها. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٧/ ٤٠١).

وفي رواية أبي ذَرٍّ والكُشْمِيهَني: (ونُسِخ العِلمُ)، أي: عِلمُ تلك الصُّوَرِ بخُصوصِها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٦٩).

(٣) رواه البخاري (٤٩٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٩، ٣٦٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

قال ابنُ الجوزي: (قولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾ فيه قولانِ؛ أحَدُهما: وقد أضَلَّت الأصنامُ كثيرًا مِن النَّاسِ، أي: ضَلُّوا بسبَبِها. والثَّاني: وقد أضَلَّ الكُبَراءُ كَثيرًا مِنَ النَّاسِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٤).

=

كما قال تعالى حكايةً عن دُعاءِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾.

أي: ولا تَزِدْ هؤلاءِ الظَّالِمينَ بالشِّركِ والكُفرِ والتَّكذيبِ إلَّا ضَلالًا عن الحَقِّ؛ حتَّى يَموتوا على ضلالِهم، ويَزدادوا إثمًا وعُقوبةً على باطِلِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥﴾.

= وممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، واختاره ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٤٢).

وممَّن ذَهَب إلى القَولِ الثَّاني: ابنُ عطيَّةَ، والقُرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

وممَّن جمَع بيْن القولَينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٤٦)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٠).

قال الواحدي: (هذا دعاءٌ عليهم بعدَ أن أعلَمَه اللهُ أنَّهم لا يُؤمِنونَ، وهو قَولُه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]). ((الوسيط)) (٤/ ٣٦٠). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٢٣٥).

وقال ابن كثير: (دعاءٌ منه على قَومِه؛ لتمَرُّدِهم وكُفرِهم وعِنادِهم، كما دعا موسى على فِرعَونَ ومَلَئِه في قولِه: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٦). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٠).

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾.

أي: بسَبَبِ ذُنوبِهم أغرَقَهم اللهُ، فأُدخِلوا نارًا يُعذَّبونَ فيها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٢).

قال ابنُ عاشور: (جَمعُ الخَطيئاتِ مرادٌ بها: الإشراكُ، وتكذيبُ الرَّسولِ، وأذاه، وأذى المؤمِنينَ معه، والسُّخْريةُ منه حينَ توَعَّدَهم بالطُّوفانِ، وما يَنطوي عليه ذلك كُلُّه مِن الجرائمِ والفواحِشِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٢).

وقال الزمخشري: (جَعَل دُخولَهم النَّارَ في الآخِرةِ كأنَّه مُتعَقِّبٌ لإغراقِهم؛ لاقترابِه، ولأنَّه كائنٌ لا مَحالةَ، فكأنَّه قد كان، أو أُريدَ عَذابُ القَبرِ، ومَن مات في ماءٍ أو في نارٍ أو أكلَتْه السِّباعُ والطَّيرُ: أصابه ما يُصيبُ المقبورَ مِنَ العَذابِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالنَّارِ المذكورةِ هنا: نارُ جهنَّمَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: عَذابُهم بالنَّارِ في قبورِهم: النَّسَفيُّ، والخازنُ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٨٨).

ويُنظر ما يأتي (ص: ٢٩٠).

وقال البِقاعي: (﴿فَأُدْخِلُواْ﴾ أي: بقَهرِ القَهَّارِ في الآخرةِ الَّتي أوَّلُها البَرزَخُ يُعرضَونَ فيه على النَّارِ بُكْرةً وعَشِيًّا ﴿نَارًا﴾ أي: عَظيمةً جِدًّا أخَفُّها ما يكونُ مِن مبادِئِها في البَرزخِ، قال الشَّيخُ وليُّ الدِّينِ المَلَّويُّ: فعُذِّبوا في الدُّنيا بالغَرَقِ، وفي الآخِرةِ بالحَرقِ، والإياسِ مِن الرَّحمةِ، وأيُّ عذابٍ أشدُّ مِن ذلك؟!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٥٣، ٤٥٤).

﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾.

أي: فلم يَجِدْ قَومُ نوحٍ حينَ أُغرِقوا وأُدخِلوا النَّارَ أعوانًا ومُغيثِينَ يَنصُرونَهم، ويَمنَعونَ عنهم عذابَ اللهِ(١).

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ ابنِ نُوحٍ: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ هذه الآيةُ حُجَّةٌ على كُلِّ مَن عَوَّلَ على شَيءٍ غَيرِ اللهِ تعالى(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ نَصَّ تعالى هنا على أنَّ قَومَ نُوحٍ اتَّبَعوا مَن هذا وَصْفُه، مع أنَّ المالَ يَزيدُ الإنسانَ نَفعًا، وقد بيَّنَ تعالى أنَّ المالَ قد يُورِثُ خَسارةً وهَلاكًا، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾(٣) [العلق: ٦، ٧].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن أصولِ الشِّركِ باللهِ: اتِّخاذُ القُبورِ مَساجِدَ، كما قال طائفةٌ مِن السَّلَفِ في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾: (هؤلاء كانوا قومًا صالِحينَ في قومِ نُوحٍ، فلمَّا ماتوا عَكَفوا على قُبورِهم، ثُمَّ صَوَّرُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣١٢).

على صُوَرِهم تماثيلَ، ثُمَّ طال عليهم الأَمَدُ، فعبَدوها!)، وقد ذكر البُخاريُّ في صَحيحِه هذا المعنى عن ابنِ عَبَّاسٍ[١]، وذكره محمَّدُ بنُ جريرٍ الطَّبَريُّ وغيرُه في التَّفسيرِ[٢]، عن غيرِ واحدٍ مِنَ السَّلَفِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا نَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَرِيَّةِ -المُنْكِرينَ أنَّ الهِدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ-؛ مِن أَجْلِ أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ لا يجوزُ عليه أنْ يَدعوَ بالباطِلِ، ولا اللهُ تبارك وتعالى يُسْأَلُ باطِلًا، وقد سَأَلَه أنْ يَزيدَ الظَّالِمينَ ضَلالًا؛ فدلَّ على أنَّ الكفرَ الَّذي فيهم، والزَّائدَ بدُعائِه معًا: هو مِن عندِ رَبِّه[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ استُدِلَّ به على إثباتِ عَذابِ القَبرِ؛ وذلك مِن وجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ الفاءَ في قَولِه: ﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ تدُلُّ على أنَّه حَصَلت تلك الحالةُ عَقيبَ الإغراقِ، فلا يمكِنُ حَملُها على عذابِ الآخِرةِ، وإلَّا بطَلَت دَلالةُ هذه الفاءِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه قال: ﴿فَأُدْخِلُواْ﴾ على سَبيلِ الإخبارِ عن الماضي[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ دليلٌ على أنَّ اسمَ «الخطيئةِ» واقِعٌ على الكُفرِ، ومعناها أنَّها ضِدُّ الصَّوابِ، فمَن خالَفَ اللهَ سُبحانَه وتعالى في الإيمانِ الَّذي آمَنَ به، أو واقَعَ ما نهَى عنه مِن كُفْرٍ أو مَعصيةٍ؛ فهو

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٩).

مُخطئٌ غيرُ مُصيبٍ، وإنَّما تَختَلِفُ عُقوبةُ الفِعلَينِ فقط، فليس لِتَعَلُّقِ المُعتَزِلةِ في بابِ الوعيدِ باسمِ «خطيئةٍ ذُكِرَ في عقوبتِها خُلودٌ»: وَجهٌ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ هذه الجُملةُ بدَلٌ مِن جُملةِ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ [نوح: ٥] بدَلَ اشتِمالٍ؛ لأنَّ حِكايةَ عِصيانِ قومِه إيَّاه ممَّا اشتَمَلَت عليه حِكايةُ أنَّه دَعاهم، فيَحتمِلُ أنْ تكونَ المَقالتانِ في وقْتٍ واحدٍ جاء فيه نُوحٌ إلى مُناجاةِ ربِّه بالجوابِ عن أمْرِه له بقولِه: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١]، فتَكونَ إعادةُ فِعلِ (قال) مِن قَبيلِ ذِكرِ عاملِ المُبدَلِ منه في البدَلِ؛ للرَّبطِ بيْنَ كَلامَيه؛ لطُولِ الفصلِ بيْنَهما، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ المَقالتانِ في وَقتينِ جَمَعَها القرآنُ حِكايةً لجَوابَيه لربِّه، فتَكونَ إعادةُ فِعلِ (قال)؛ للإشارةِ إلى تَباعُدِ ما بيْن القولينِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُستأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ ما سَبَقَها مِن قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ إلى هنا، ممَّا يُثيرُ عَجَبًا مِن حالِ قومِه المَحكيِّ بحيث يَتساءَلُ السَّامعُ عن آخِرِ أمْرِهم، فابتُدِئَ ذِكرُ ذلك بهذه الجُملةِ وما بعْدَها إلى قولِه: ﴿أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، وتأْخيرُ هذا عن قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥] ارتقاءٌ في التَّذمُّرِ منهم؛ لأنَّ هذا حِكايةُ حُصولِ عِصيانِهم بعدَ تَقديمِ الموعظةِ إليهم بقولِه: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ إلى قولِه: ﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾[2] [نوح: ١١- ٢٠].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَ تعالَى هنا: (قَالَ نُوحٌ) بغيرِ واوٍ، ثمَّ قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ﴾ [نوح: ٢٦]، بزِيادةِ الواوِ؛ لأنَّ الأوَّلَ ابتداءُ دُعاءٍ، والثَّانيَ عُطِفَ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٦).

عليه[١].

- وإظهارُ اسمِ نُوحٍ مع القولِ الثَّاني دونَ إضمارٍ؛ لبُعدِ مَعادِ الضَّميرِ لو تَحمَّلَه الفعلُ[٢].

- قولُه: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ...﴾ هذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في لازِمِ معناه، وهو الشِّكايةُ والتَّمهيدُ لطَلَبِ النَّصْرِ عليهم؛ لأنَّ المُخاطَبَ به عالِمٌ بمَدْلولِ الخبَرِ. وذلك ما سَيُفْضي إليه بقولِه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ...﴾ الآياتِ [نوح: ٢٦]. وتأْكيدُ الخبرِ بـ(إنَّ)؛ للاهتمامِ بما استُعمِلَ فيه مِن التَّحسُّرِ والاستِنْصارِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ عَدَلَ عن التَّعبيرِ عن الكافِرينَ بالكُبراءِ ونحْوِه إلى المَوصولِ؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن بَطَرِهم نِعمةَ اللهِ عليهم بالأموالِ والأولادِ، فقَلَبوا النِّعمةَ عندَهم مُوجِبَ خَسارٍ وضَلالٍ[٤].

- وأُدمِجَ في الصِّلةِ أنَّهم أهلُ أموالٍ وأولادٍ؛ إيماءً إلى أنَّ ذلك سَببُ نَفاذِ قولِهم في قَومِهم، وائتمارِ القَومِ بأمْرِهم؛ فأمْوالُهم إذ أنْفَقوها لتأْليفِ أتْباعِهم؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وأولادُهم أرْهَبوا بهم مَن يُقاوِمُهم[٥]. ففي وصْفِهم بذلكَ إشعارٌ بأنَّهم إنَّما اتَّبَعوهم لوَجاهتِهم الحاصِلةِ لهم بسَببِ الأموالِ والأولادِ، لا لِما شاهَدُوا

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤١)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٠٦، ٢٠٧).

فيهم مِن شُبهةٍ مُصحِّحةٍ للاتِّباعِ في الجُملةِ[١].

- وجَعَل أموالَهم وأولادَهم الَّتي لم تَزِدْهم إلَّا وَجاهةً ومَنفعةً في الدُّنيا زائدةً خَسارًا في الآخرةِ، وأجْرى ذلك مُجرى صِفةٍ لازمةٍ لهم، وسِمةٍ يُعرَفون بها؛ تَحقيقًا له وتَثبيتًا، وإبطالًا لِما سِواه؛ فكنَّى عن الرُّؤساءِ بقولِه: ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾، كما يُكنَّى عن الإنسانِ بقولِهم: حَيٌّ مُستوي القامةِ، عَريضُ الأظفارِ؛ لأنَّه صِفةٌ لازِمةٌ، أي: كاشِفةٌ مُوضِّحةٌ، فنَفى عنهم جَميعَ وُجوهِ الأرباحِ والمنافعِ، وأثبَتَ لهم الخَسارَ[٢].

- والخَسارُ: مُعبَّرٌ به عن حُصولِ الشَّرِّ مِن وَسائلَ شأْنُها أنْ تكونَ سَببَ خيرٍ، كخَسارةِ التَّاجِرِ مِن حيثُ أرادَ الرِّبحَ، فإذا كان هؤلاء خاسِرينَ فالَّذين يَتْبَعونهم يَكونونَ مِثلَهم في الخسارةِ، وهم يَحسَبون أنَّهم أرْشَدوهم إلى النَّجاحِ[٣].

- وماصَدَقَ[٤] (مَن) فريقٌ مِن القومِ أهلُ مالٍ وأولادٍ ازْدادوا بذلك بَطَرًا دونَ الشُّكرِ، وهم سادَتُهم؛ ولذلك أُعيدَ عليه ضَميرُ الجمْعِ في قولِه: ﴿وَمَكَرُواْ﴾، وقولِه: ﴿وَقَالُواْ﴾، وقولِه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾[٥] [نوح: ٢٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٧).

(٤) الماصَدَق -عند المناطقة-: الأفرادُ الَّتي يتحقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ، ويُقابِلُه: المفهومُ، وهو: مجموعُ الصِّفاتِ والخصائصِ الموضحةِ لمعنًى كلِّيٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحبنكة (ص: ٤٥، ٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٧).

- قولُه: ﴿كُبَّارًا﴾ مُبالَغةٌ، أي: كبيرًا جدًّا[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ لقومِ نوحٍ أصنامٌ كثيرةٌ جَمَعَها قولُ كُبرائِهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، ثمَّ خَصُّوا بالذِّكرِ أعظَمَها، وهي هذه الخمسةُ، فيَكونَ ذِكرُها مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتِمامِ به. ويَحتمِلُ ألَّا يكونَ لهم غيرُ تلك الأصنامِ الخَمسةِ؛ فيَكونَ ذِكرُها مُفصَّلةً بعْدَ الإجمالِ؛ للاهتِمامِ بها، ويكونَ العطْفُ مِن قَبيلِ عطْفِ المُرادِفِ، ولقصْدِ التَّوكيدِ أُعِيدَ فِعلُ النَّهيِ ﴿وَلَا تَذَرُنَّ﴾، ولم يُسلَكْ طَريقُ الإبدالِ، والتَّوكيدُ اللَّفظيُّ قدْ يُقرَنُ بالعاطِفِ كقولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾[٢] [الانفطار: ١٧، ١٨].

- وتَكريرُ (لا) النَّافيةِ في قولِه: ﴿وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ﴾ لتَأكيدِ النَّفيِ الَّذي في قولِه: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، وعدَمُ إعادةِ (لا) مع قولِه: ﴿وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾؛ لأنَّ الاستِعمالَ جارٍ على ألَّا يُزادَ في التَّأكيدِ على ثلاثِ مرَّاتٍ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾

- يَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ تَتمَّةَ كلامِ نوحٍ، مُتَّصِلةً بحِكايةِ كَلامِه السَّابقِ، فتَكونَ الواوُ عاطفةً جُزءَ جُملةٍ مَقولةٍ لفِعلِ ﴿قَالَ﴾ [نوح: ٢١] على جُزئِها الَّذي قبْلَها عطْفَ المَفاعيلِ بَعضِها على بَعضٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ غيرَ مُتَّصلةٍ بحِكايةِ كَلامِه في قولِه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٠٩، ٢١٠).

عَصَوْنِي﴾ [نوح: ٢١]، بلْ هو حِكايةُ كلامٍ آخَرَ له صدَرَ في مَوقفٍ آخَرَ؛ فتَكونَ الواوُ عاطفةً جُملةَ مَقولةِ قولٍ على جُملةِ مَقولةِ قولٍ آخَرَ، أي: نائبةٍ عن فِعلِ ﴿قَالَ﴾[1]. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةً مُعترِضةً، وهي مِن كَلامِ اللهِ تعالَى لنوحٍ عليه السَّلامُ، فتَكونَ الواوُ اعتراضيَّةً، ويُقدَّرُ قولٌ مَحذوفٌ: وقُلْنا: لا تَزِدِ الظَّالِمينَ، والمعنى: ولا تَزِدْ في دُعائِهم؛ فإنَّ ذلك لا يَزيدُهم إلَّا ضَلالًا، فالزِّيادةُ منه تَزيدُهم كُفرًا وعِنادًا. وبهذا يَبْقى الضَّلالُ مُستعمَلًا في معْناه المشهورِ في اصطلاحِ القُرآنِ، فصِيغةُ النَّهيِ مُستعمَلةٌ في التَّأييسِ مِن نفْعِ دَعوتِه إيَّاهم[2].

- والمرادُ بالظَّالِمينَ: قومُه الَّذين عَصَوه، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ التَّعبيرَ عنهم بالضَّميرِ عائدًا على ﴿قَوْمِي﴾ مِن قولِه: ﴿دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥]، فعُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ؛ لِما يُؤذِنُ به وصْفُ الظَّالِمينَ مِن استِحقاقِهم الحِرمانَ مِن عِنايةِ اللهِ بهم لظُلْمِهم، أي: إشراكِهم باللهِ[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾، وقال في آخِرِ السُّورةِ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾؛ فاختَصَّ الأوَّلَ بالإضلالِ، والثَّانيَ بالإهلاكِ الَّذي هو التَّبارُ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الأوَّلَ جاء بعْدَ قولِه: ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣]. وأمَّا الآخَرُ فخَتَمَه بقولِه: ﴿تَبَارًا﴾، أي: هَلاكًا؛ مُوافَقةً لقولِه قبْلُ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٠، ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٠، ٢١١).

(٤) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٠٥، ١٣٠٦)، ((أسرار التكرار في =

٥- قولُه تعالَى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ مَقالاتِ نوحٍ عليه السَّلامُ، وليستْ مِن حِكايةِ قولِ نوحٍ عليه السَّلامُ؛ فهي إخبارٌ مِن اللهِ تعالَى لرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه قدَّرَ النَّصرَ لنُوحٍ والعِقابَ لِمَن عَصَوه مِن قَومِه قبْلَ أنْ يَسألَه نوحٌ استِئصالَهم، فإغراقُ قومِ نُوحٍ مَعلومٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنَّما قُصِدَ إعلامُه بَسببِه. والغرَضُ مِن الاعتراضِ بها التَّعجيلُ بتَسليةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ما يُلاقِيه مِن قَومِه ممَّا يُماثِلُ ما لاقاهُ نوحٌ عليه السَّلامُ مِن قَومِه. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُتَّصِلةً بجُملةِ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا﴾ [نوح: ٢٤] على وَجْهِ أنْ تكونَ مِن كَلامِ اللهِ تعالَى الموجَّهِ إلى نوحٍ عليه السَّلامُ، بتَقديرِ: وقُلْنا: لا تَزِدِ الظَّالمينَ إلَّا ضَلالًا، وتَكونَ صِيغةُ المُضِيِّ في قولِه: ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ مُستعمَلةً في تَحقُّقِ الوعدِ لنُوحٍ بإغراقِهم، وكذلك قولُه: ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾[1].

وقيل: هو اعتراضٌ وُسِّطَ بيْنَ دُعائِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّ ما أصابَهم مِن الإغراقِ والإحراقِ لم يُصِبْهم إلَّا مِن أجْلِ خَطيئاتِهم الَّتي عدَّدَها نوحٌ عليه السَّلامُ، وأشارَ إلى استحقاقِهم للإهلاكِ مِن أجْلِها، لا أنَّها حِكايةٌ لنفْسِ الإغراقِ والإحراقِ على طَريقةِ حِكايةِ ما جَرى بيْنَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وبيْنَهم مِن الأحوالِ والأقوالِ، وإلَّا لأُخِّرَ عن حِكايةِ دُعائِه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[2].

= القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤١)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٨٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١).

- وقُدِّمَ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ على عامِلِه لإفادةِ القصْرِ[١]، أي: أُغرِقوا فأُدخِلوا نارًا مِن أجْلِ مَجموعِ خَطيئاتِهم، لا لمُجرَّدِ استجابةِ دَعوةِ نوحٍ عليه السَّلامُ الَّتي ستُذكَرُ عقِبَ هذا؛ ليُعلَمَ أنَّ اللهَ لا يُقِرُّ عِبادَه على الشِّركِ بعْدَ أنْ يُرسِلَ إليهم رَسولًا، وإنَّما تأخَّرَ عَذابُهم إلى ما بعْدَ دَعوةِ نوحٍ عليه السَّلامُ؛ لإظهارِ كَرامتِه عندَ ربِّه بيْنَ قومِه، ومَسرَّةً له وللمؤمنينَ معه، وتَعجيلًا لِما يَجوزُ تأْخيرُه. و(مِن) تَعليليَّةٌ، و(ما) مُؤكِّدةٌ لمعْنى التَّعليلِ، والتَّفخيمِ[٢].

- قولُه: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ المرادُ عَذابُ القَبرِ، أو عذابُ الآخِرةِ، والتَّعقيبُ بالفاءِ علَى الأوَّلِ ظاهرٌ، وهو على هذا لعَدَمِ الاعتِدادِ بما بيْنَ الإغراقِ والإدخالِ، فكأنَّه شبَّه تخلُّلَ ما لا يُعتَدُّ به بعدَمِ تَخلُّلِ شيءٍ أصلًا. أو لأنَّ المُسبَّبَ كالمُتعقِّبِ للسَّببِ وإنْ تَراخَى عنه لفَقْدِ شَرطٍ، أو وُجودِ مانعٍ، كما أنَّه عبَّر عن المُستقبَلِ بالماضي لتَحقُّقِه. ولا يَخفَى ما في ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ مِن الحُسنِ الذي لا يُجارَى، وللهِ تعالَى درُّ التَّنزيلِ[٣].

- قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] فيه ما يعرف بالطباق الخفي، وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متَوهَّمةً، فتَبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لتعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ[٤].

---

(١) سيأتي تعريفُه (ص: ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠، ٦٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((خزانة الأدب)) للحموي =

- وتَنكيرُ النَّارِ إمَّا لتَعظيمِها وتَهويلِها، أو لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أعدَّ لهم على حسَبِ خَطيئاتِهم نَوعًا مِن النارِ[(١)].

- وتَفريعُ ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ تَعريضٌ بالمشرِكين مِن العرَبِ الَّذين كانوا يَزعُمون أنَّ الأصنامَ تَشفَعُ لهم، وتَدفَعُ عنهم الكَوارثَ -أي: في الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يُؤمِنون بالبعثِ-، وتَهكُّمٌ بهم، كأنَّه قال: فلمْ يَجِدوا لهم مِن دونِ اللهِ آلهةً يَنصُرونهم، ويَمنَعونهم مِن عَذابِ اللهِ[(٢)].

= (١/ ١٥٩، ١٦٠)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠، ٦٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٢، ٢١٣).

الآيات (٢٦-٢٨)

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿دَيَّارًا﴾: أي: أحَدًا يَدورُ فيها، وهو مِن ألفاظِ العُمومِ الَّتي تُستَعمَلُ في النَّفيِ العامِّ، وهو فَيْعالٌ مِنَ الدَّوَرانِ، وقيل: مِن الدَّارِ، أي: نازِلَ دارٍ، وأصلُ (دور): يدُلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِن حوالَيه[1].

﴿تَبَارًا﴾: أي: هَلاكًا وخُسرانًا، وأصلُ (تبر) هنا: الهلاكُ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَحكي الله تعالى ما دعا به نوحٌ عليه السَّلامُ على قومِه -بعْدَ أنْ يئِس مِن إيمانِهم-، وما دعا به للمؤمِنينَ، فيقولُ: وقال نوحٌ: رَبِّ لا تُبْقِ على الأرضِ أحَدًا حيًّا مِنَ الكافِرينَ.

ثمَّ ذكَر نوحٌ عليه السَّلامُ السَّببَ في ذلك، فقال: إنَّك إنْ أبقَيْتَهم أحياءً يُضِلُّوا عِبادَك المؤمِنينَ، ولا يَلِدوا إلَّا مَن سيَكونُ فاجِرًا شديدَ الفَسادِ، وكثيرَ الكُفرِ برَبِّه.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٨).

ثمَّ ختَم نوحٌ عليه السَّلامُ دعاءَه بقولِه: رَبِّ اغفِرْ لي ولوالِدَيَّ، ولِمَن دَخَل مَنزِلي مِنَ المُؤمِنينَ، واغفِرْ للمُؤمِنينَ والمؤمِناتِ، ولا تَزِدِ الظَّالِمينَ أنفُسَهم بكُفرِهم إلَّا هَلاكًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: وقال نوحٌ: رَبِّ لا تُبْقِ على الأرضِ أحَدًا حيًّا مِنَ الكافِرينَ[1].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٣).

قال الأُلوسيُّ: (الدَّيَّارُ مِن الأسماءِ الَّتي لا تُستعمَلُ إلَّا في النَّفْيِ العامِّ؛ يُقالُ: ما بالدَّارِ دَيَّارٌ أو دَيُّورٌ -كقَيَّامٍ وقيُّومٍ- أي: ما بها أحدٌ، وهو فَيْعالٌ؛ مِن الدَّارِ أو مِن الدَّوْرِ، كأنَّه قِيل: لا تَذَرْ على الأرضِ مِنَ الكافِرينَ مَن يَسكُنُ دارًا، أو لا تَذَرْ عليها منهم مَن يَدورُ ويَتحرَّكُ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٨٨).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجملةِ -أي: أنَّ الدَّيَّارَ مأخوذٌ مِن الدَّارِ، والمعنى: الَّذي يَنزِلُ ويحلُّ بالدِّيارِ-: ابنُ قُتَيْبَةَ، والواحديُّ، وجلال الدين المحلي، والشنقيطي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٣).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ في الجملةِ -أي: أنَّ الدَّيَّارَ مأخوذٌ مِن الدَّوَرانِ، والمعنى: الَّذي يَدورُ في الأرضِ فيَذهَبُ ويَجيءُ-: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، وابن عطية، والنسفي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٤٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

قال البِقاعي: (﴿دَيَّارًا﴾ أي: أحدًا يَدورُ فيها، وهو مِن ألفاظِ العُمومِ الَّتي تُستَعمَلُ في النَّفيِ العامِّ، فيُقالُ مِن الدَّورِ أو الدَّارِ، لا فَعَّالٌ، وإلَّا لَكان دَوَّارًا، ويجوزُ -وهو أقرَبُ- أن يكونَ هذا الدُّعاءُ عندَ رُكوبِه السَّفينةَ، وابتِداءِ الإغراقِ فيهم، يريدُ به العُمومَ؛ كراهيةَ أن يبقى أحدٌ منهم =

كما قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَقولونَ ولا يَفعَلونَ إلَّا ما فيه مَصلحةُ الدِّينِ؛ عَلَّل نوحٌ عليه السَّلامُ دُعاءَه بقَولِه[1]:

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾.

أي: إنَّك إنْ أبقَيْتَهم أحياءً يُضِلُّوا عِبادَك المؤمِنينَ، فيَصُدُّوهم عن الحَقِّ، ويُزَيِّنوا لهم الباطِلَ[2].

﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

أي: ولا يَلِدوا إلَّا مَن سيَكونُ فاجِرًا شديدَ الفَسادِ، وكثيرَ الكُفرِ برَبِّه[3].

= على ذِروةِ جَبَلٍ أو نحوِه، لا أصل الإغراقِ، وأن يكونَ معنى ما قَبْلَه الحُكمَ بإغراقِهم، وتحتُّمَ القَضاءِ به، أو الشُّروعَ فيه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٥٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ١١٠٩، ١١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤).

قال السعدي: (أي: بَقاؤُهم مَفسَدةٌ مَحْضةٌ لهم ولِغَيرِهم، وإنَّما قال نوحٌ عليه السَّلامُ ذلك؛ لأنَّه مع كثرةِ مخالطتِه إيَّاهم، ومُزاوَلَتِه لأخلاقِهم، عَلِمَ بذلك نتيجةَ أعمالِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

وقال ابنُ عاشور: (عَلِمَ نُوحٌ أنَّهم لا يَلِدونَ إلَّا فاجِرًا كَفَّارًا بأنَّ أولادَهم يَنشَؤونَ فيهم، فيُلَقِّنونَهم دينَهم، ويَصُدُّونَ نُوحًا عن أن يُرشِدَهم، فحَصَل له عِلمٌ بهذه القِضيَّةِ بدَليلِ التَّجرِبةِ). =

﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا ٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا دعا نوحٌ عليه السَّلامُ على الكُفَّارِ، استَغفَرَ للمُؤمِنينَ؛ فبدأ بنَفْسِه، ثمَّ بمَن وجَبَ بِرُّه عليه، ثمَّ للمُؤمِنينَ(١).

﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾.

أي: وقال نوحٌ: رَبِّ امْحُ الذُّنوبَ عنِّي وعن والِدَيَّ، واسْتُرْها علينا، ولا تُؤاخِذْنا بها(٢).

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا﴾.

أي: واغفِرْ لِمَن دَخَل مَنزِلي مِنَ المُؤمِنينَ(٣).

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤).

واستظهَر البِقاعي أنَّ هذا الكلامَ لا يَقولُه إلَّا عن وَحيٍ، كما في سورةِ هودٍ عليه السَّلامُ، مِن قَولِه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بـ ﴿بَيۡتِيَ﴾: مَنْزلي: الثعلبيُّ، والبغوي، والزمخشري، وابنُ جُزَي، والعليمي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٥٩). =

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾

أي: واغفِرْ ذُنوبَ جَميعِ المُؤمِنينَ والمؤمِناتِ[١].

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾

أي: ولا تَزِدِ الظَّالِمينَ أنفسَهم بكُفرِهم إلَّا هَلاكًا[٢].

= وقال ابنُ كثير: (ولا مانِعَ مِن حَملِ الآيةِ على ظاهِرِها، وهو أنَّه دعا لكُلِّ مَن دَخَل مَنزِلَه وهو مُؤمِنٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧).

وذهب ابن عاشور إلى أنَّ المرادَ أهلُه وذَووه المؤمِنونَ، فدَخَل أولادُه وبَنوهم والمؤمِناتُ مِن أزواجِهم الَّذين يَسكُنون معه، فالمرادُ بالدُّخولِ في الآيةِ دُخولٌ مخصوصٌ، وهو الدُّخولُ المتكَرِّرُ الملازِمُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٥).

وقيل: المرادُ: مَسْجِدي. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والقرطبي، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٨).

وقريبٌ مِن هذا القولِ قولُ مَن قال: ﴿دَخَلَ بَيْتِيَ﴾: أي: دخَل شريعتي، واختاره ابنُ عرفة، ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ ﴿دَخَلَ بَيْتِيَ﴾، أي: في ديني، وهو قولُ جُوَيْبِرٍ؛ وذلك لأنَّ مَن دخَل مَسجِدَه مؤمِنًا، فقد دخل في دينِه. يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٣٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٧٥)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٠٦).

وقيل: المرادُ: سَفينتي. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧).

قال القرطبي: (﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عامَّةً إلى يومِ القيامةِ. قاله الضَّحَّاكُ. وقال الكلبيُّ: مِن أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وقيل: مِن قَومِه. والأوَّلُ أظهَرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ في كَلامِ نُوحٍ عليه السَّلامُ دَلالةٌ على أنَّ المُصلِحينَ يَهتَمُّونَ بإصلاحِ جِيلِهم الحاضِرِ، ولا يُهمِلونَ تأسيسَ أُسُسِ إصلاحِ الأجيالِ الآتيةِ؛ إذ الأجيالُ كُلُّها سواءٌ في نَظَرِهم الإصلاحيِّ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى حكايةً عن نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فيه أدَبٌ عَظيمٌ مِن آدابِ الدُّعاءِ، وهو جَمعُ الوالِدَينِ والمؤمِنينَ في الدُّعاءِ، والابتِداءُ بنَفْسِه[٢]، فيُؤخَذُ مِنه: أنَّ سُنَّةَ الدُّعاءِ أنْ يُقدِّمَ الإنسانُ الدُّعاءَ لنفْسِه على الدُّعاءِ لغَيرِه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ دعا نوحٌ عليه السَّلامُ على الكافِرينَ أجمَعينَ، ودعا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مَن تحزَّبَ على المؤمِنينَ، وألَّبَ عليهم[٤]، وكان هذا أصلًا في الدُّعاءِ على الكُفَّارِ في الجُملةِ[٥].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ ردٌّ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ شَديدٌ؛ وذلك أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ مع نُبُوَّتِه جَمَع في دُعائِه بيْنَ إضلالِهم للعِبادِ وإيلادِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٦).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣١٢).

الفُجَّارَ والكُفَّارَ؛ فلم يُنكِرْه عليه ربُّه، ثُمَّ أنزَلَه على نبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في كتابِه مَدْحًا للدَّاعي، وذَمًّا للمَدعُوِّ عليه، وأخبَرَ نصًّا بغَيرِ تفسيرٍ ولا تأويلٍ أنَّ المولودَ مِن قَومِه يُولَدُ فاجِرًا كافِرًا قبْلَ أنْ يَكتَسِبَهما كَبيرًا بسَيِّئِ عَمَلِه[١]!

فإن قيل: ما الجمعُ بيْنَ هذا وبيْن حديثِ: ((كُلُّ مَولودٍ يُولَدُ على الفِطرةِ))[٢]؟

فالجوابُ: أنَّه يولَدُ على الفِطرةِ، ثمَّ يَصيرُ في ثاني حالٍ فاجِرًا كَفَّارًا[٣].

وأيضًا فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ مُختَصٌّ بِمَن عاشَ منهم إلى أن بلَغ، بدليلِ حديثِ الفِطرةِ السَّابقِ[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ فيه سُؤالٌ: كيف دعا نوحٌ على قَومِه بذلك، مع أنَّه أُرسِلَ إليهم؛ لِيَهدِيَهم ويُرشِدَهم؟

والجوابُ: أنَّه لم يَدْعُ عليهم هذا الدُّعاءَ إلَّا بَعْدَ أن تحَدَّوه، ويَئِسَ منهم؛ أمَّا تحَدِّيهم ففي قَولِهم: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود: ٣٢]، وقَولِه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٨٥) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((الفتاوى الحديثية)) لابن حجر الهيتمي (ص: ٧٨).

وقال ابن القيِّم: (إن قيل: فالغلامُ الَّذي قتَلَه الخَضِرُ طُبِع يومَ طُبِع كافرًا، وقال نوحٌ عن قومِه: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾... قيل: هذا لا يُناقِضُ كونَه مولودًا على الفِطرةِ؛ فإنَّه طُبِع وَوُلِد مُقدَّرًا كُفْرُه إذا عقَلَ، وإلَّا ففي حالِ ولادتِه لا يَعرِفُ كفرًا ولا إيمانًا، فهي حالٌ مُقدَّرةٌ لا مُقارِنةٌ للعامِلِ، فهو مولودٌ على الفِطرةِ ومولودٌ كافرًا باعتبارَينِ صحيحَينِ ثابتَينِ له، هذا بالقَبولِ وإيثار الإسلامِ لو خُلِّيَ، وهذا بالفعلِ والإرادةِ إذا عقَلَ. فإذا جمَعْتَ بيْن الفِطرةِ السَّابقةِ والرَّحمةِ السَّابقةِ العاليةِ والحِكمةِ البالغةِ والغِنى التَّامِّ، وقرَنْتَ بيْن فِطرتِه ورحمتِه وحكمتِه وغِناهُ؛ تبيَّنَ لك الأمرُ). ((شفاء العليل)) (ص: ٢٦٢).

مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ٩، ١٠]. وأمَّا يأسُه منهم فلِقَولِه تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[(١)] [هود: ٣٦].

٤- قولُه تعالَى حكايةً عن نوح عليه السَّلامُ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ احتَجَّ به الخوارجُ على أنَّ أطْفالَ المشركينَ كُفَّارٌ، في النَّارِ. ولا حُجَّةَ لهم في هذه الآيةِ؛ لأنَّ نُوحًا عليه السَّلامُ إنَّما أرادَ قَومَه خاصَّةً؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال له: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فأيْقَنَ نوحٌ بهذا؛ أنَّه لنْ يُؤمِنَ منهم أحَدٌ[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ جوازُ الدُّعاءِ على القومِ إذا أيِسَ مِن صلاحِهم، وتَمَرَّدوا تَمَرُّدًا بالِغًا[(٣)].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ إنْ قيلَ: كيف عَرَف نوحٌ عليه السَّلامُ ذلك؟

الجوابُ: بالنَّصِّ والاستِقراءِ؛ أمَّا النَّصُّ فقَولُه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٣)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل)) لابن حزم (٤/ ٦١)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٩٧).

وأطفالُ المشركين الَّذين ماتوا قبلَ أن يُمَيِّزوا شيئًا قد اختلَفوا في حُكمِهم اختلافًا كثيرًا، وذكر ابنُ القيِّم في هذه المسألةِ ثمانيةَ مَذاهِبَ، والمذهبُ الثَّامنُ: أنَّهم يُمتحَنونَ في عَرْصةِ القيامةِ، ويُرسَلُ إليهم هناك رسولٌ، وإلى كلِّ مَن لم تَبْلُغْه الدَّعوةُ، فمَن أطاع الرَّسولَ دخل الجنَّةَ، ومَن عصاه أدخله النَّارَ. قال: (وعلى هذا فيكونُ بعضُهم في الجنَّةِ، وبعضُهم في النَّارِ. وبهذا يتألَّفُ شملُ الأدِلَّةِ كلِّها، وتَتوافَقُ الأحاديثُ). ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: ٣٨٧-٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٩).

إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود: ٣٦]، وأمَّا الاستِقراءُ فهو أنَّه لَبِثَ فيهم ألْفَ سَنةٍ إلَّا خَمسينَ عامًا، فعرَف طِباعَهم وجَرَّبَهم، وكان الرَّجُلُ منهم يَنطَلِقُ بابنِه إليه، ويقولُ: (احذَرْ هذا؛ فإنَّه كَذَّابٌ! وإنَّ أبي أوصاني بمِثلِ هذه الوَصيَّةِ!)، فيموتُ الكبيرُ، ويَنشأُ الصَّغيرُ على ذلك[١]!

فلا تَعارُضَ بيْن هذه الآيةِ والآياتِ الأُخَرِ الَّتي تدُلُّ على أنَّ الغَيبَ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، كقولِه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وكقولِ نوحٍ نفْسِه فيما ذَكَرَه اللهُ عنه في سُورةِ (هودٍ): ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [هود: ٣١] الآيةَ؛ لأنَّه عَلِم ذلك بوَحْيٍ مِن اللهِ أنَّ قومَه لا يُؤمِنُ منهم أحدٌ إلَّا مَنْ آمَنَ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ سُؤالٌ: هل يُخبِرُ نوحٌ اللهَ تعالى بالواقِعِ، أَليسَ اللهُ تعالى عالِمًا به؟!

الجوابُ: بلى، هو عالِمٌ به، لكِنَّ قَصْدَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بيانُ الحاملِ له على هذا الدُّعاءِ، وهو أنَّه يَعتَقِدُ أنَّه إذا أبقاهم فإنَّهم لا يَلِدونَ إلَّا فاجِرًا كفَّارًا، وإلَّا فاللهُ تعالى عليمٌ به؛ فيكونُ هذا كالاعتِذارِ عن هذا السُّؤالِ العامِّ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[٣].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خَصَّ نَفْسَه أوَّلًا بالدُّعاءِ، ثمَّ المتَّصِلينَ به؛ لأنَّهم أَولى وأحَقُّ بدُعائِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٩).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٠١).
(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٠٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٠).

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ أبوَيْ نُوحٍ عليه السَّلامُ كانا مُؤمِنَينِ(١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ بِشارةٌ لكلِّ مُؤمِنٍ ومُؤمِنةٍ تَكونُ إلى يومِ القيامةِ؛ لأنَّ نوحًا عليه السَّلامُ نبيٌّ، ودُعاؤُه مُستقيمٌ(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الميِّتَ يَنتَفِعُ بدُعاءِ الخَلْقِ له(٣).

١٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا﴾ فيه سُؤالٌ: ما جُرْمُ الصِّبيانِ حِين أُغرِقوا؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: قال الحسَنُ: (عَلِمَ اللهُ بَراءةَ الصِّبيانِ، فأهْلَكَهم بغَيرِ عَذابٍ).

الوجهُ الثَّاني: غَرِقوا معهم لا علَى وجْهِ العِقابِ، بلْ كما يَموتون بالغَرَقِ والحَرْقِ، وكان ذلك زِيادةً في عَذابِ الآباءِ والأمَّهاتِ إذا أبْصَروا أطْفالَهم يَغرَقون.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّه قيل: إنَّ اللهَ تعالَى أيْبَسَ أصلابَ آبائِهم، وأعْقَمَ أرحامَ نِسائِهم قبْلَ الطُّوفانِ بأربعينَ سَنةً أو تِسعينَ، فلم يكُنْ معهم صَبيٌّ حينَ أُغرِقوا، ويدُلُّ عليه قولُه: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ إلى قولِه: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٠-١٢]، وهذا يدُلُّ -بحسَبِ المفهومِ- على أنَّهم إذا لم يَستغفِروا فإنَّه تَعالى لا يُمْدِدُهم

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٣٠٦).

بالبَنينَ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ عطْفٌ على ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ [نوح: ٢١]؛ أعْقَبَه بالدُّعاءِ عليهم بالإهلاكِ والاستئصالِ بألَّا يُبقِيَ منهم أحَدًا، أي: لا تُبْقِ منهم أحدًا على الأرضِ. وأُعِيدَ فِعلُ (قال)؛ لوُقوعِ الفَصلِ بيْن أقوالِ نُوحٍ عليه السَّلامُ بجُملةِ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ ...﴾[نوح: ٢٥] إلخ، أو بها وبجُملةِ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [نوح: ٢٤]. وقُرِنَت بواوِ العطْفِ لتَكونَ مُستقِلَّةً فلا تَتبَعَ جُملةَ ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ دَعوةَ نُوحٍ عليه السَّلامُ حَصَلَت بعْدَ شِكايتِه بقولِه: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾[٢].

- و﴿دَيَّارًا﴾: اسمٌ مَخصوصٌ بالوُقوعِ في النَّفيِ يَعُمُّ كلَّ إنسانٍ، ومعْنى دَيَّارٍ: مَن يحُلُّ بدارِ القَومِ، كِنايةً عن إنسانٍ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ تَعليلٌ لسُؤالِه ألَّا يَترُكَ اللهُ على الأرضِ أحدًا مِن الكافِرين، يُريدُ أنَّه خَشِيَ أنْ يُضِلُّوا بعضَ المؤمنينَ، وأنْ يَلِدوا أبناءً يَنْشَؤون على كُفْرِهم[٤].

- و(الكَفَّارُ): مُبالَغةٌ في الموصوفِ بالكُفْرِ، أي: إلَّا مَن يَجمَعُ بيْنَ سُوءِ الفِعلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٣٣).

وسُوءِ الاعتقادِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ جَعَل الدُّعاءَ لنفْسِه ووالِدَيْه خاتمةَ مُناجاتِه؛ فابْتَدَأَ بنَفْسِه، ثمَّ بأقرَبِ النَّاسِ به -وهما والِداهُ-؛ لأنَّهم أَولى وأحقُّ بدُعائِه، ثمَّ عمَّمَ أهْلَه وذَوِيه المؤمنينَ، فدَخَل أولادُه وبَنُوهم والمؤمناتُ مِن أزواجِهم، وعبَّرَ عنهم بمَن دَخَلَ بَيْتَه كِنايةً عن سُكْناهم معه -على قولٍ-؛ فالمُرادُ بقولِه: ﴿دَخَلَ بَيْتِىَ﴾ دُخولٌ مَخصوصٌ، وهو الدُّخولُ المُتكرِّرُ الملازِمُ، ثمَّ عمَّمَ المؤمنينَ والمؤمناتِ، ثمَّ عاد بالدُّعاءِ على الكَفَرةِ بأنْ يَحرِمَهم اللهُ النَّجاحَ؛ فختَم الكلامَ مرَّةً أُخرى بالدُّعاءِ على الكافِرينَ، وهو على حدِّ قولِه المُتقدِّمِ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾[٢] [نوح: ٢٤].

- و(التَّبارُ): الهَلاكُ والخَسارُ؛ فهو تَخصيصٌ للظَّالِمينَ مِن قَومِه بسُؤالِ استِئصالِهم بعْدَ أنْ شَمِلَهم وغيرَهم بعُمومِ قولِه: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]؛ حِرصًا على سَلامةِ المجتمَعِ الإنسانيِّ مِن شَوائبِ المَفاسِدِ، وتَطهيرِه مِن العناصرِ الخبيثةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٥).

تَفْسيرُ

سُورَةِ الجِنِّ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الجِنِّ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الجِنِّ)[١].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الجِنِّ مكِّيَّةٌ، ونقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

ذِكرُ ما يتَّصِلُ بخبرِ الجنِّ، واستِماعِهم القرآنَ، وما كان مِن مَردودِ ذلك عليهم، وما للمُستَجيبينَ لأمرِ الله والمُعرِضينَ عنه[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- سَماعُ جَماعةٍ مِن الجِنِّ للقرآنِ، وإيمانُهم به، وحِكايةُ ما صَدرَ منهم مِن أقوالٍ.

٢- استِراقُ الجِنِّ للسَّمعِ، ثمَّ مَنْعُهم مِن ذلك.

٣- ذِكرُ انقِسامِ الجِنِّ إلى صالِحينَ وغيرِ صالِحينَ.

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ سورةَ الجنِّ؛ لاشتِمالِها على خبَرِ الجِنِّ وذِكرِ أحْوالِهم. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٤).

(٢) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ١٢٧).

٤- جَزاءُ المُسْتقيمينَ على أمْرِ اللهِ والمُعْرِضينَ عنه.

٥- ذِكرُ ما أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَبْليغِه.

٦- ذِكرُ اختِصاصِ اللهِ بعِلمِ الغَيبِ.

الآيات (١-٧)

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَفَرٌ﴾: أي: جماعةٌ ما بيْنَ الثَّلاثةِ إلى العَشَرةِ، والنَّفَرُ: اسْمُ جَمْعٍ، يَقَعُ على جماعةٍ مِن الرِّجالِ خاصَّةً، ولا واحدَ له مِن لَفظِه. والنَّفْرُ: الانْزِعاجُ عن الشَّيءِ وإلى الشَّيءِ، كالفَزَعِ إلى الشَّيءِ وعن الشَّيءِ، والنَّفَرُ والنَّفيرُ والنَّفَرَةُ: عِدَّةُ رِجالٍ يُمْكِنُهم النَّفْرُ(١).

﴿جَدُّ﴾: أي: عَظَمةُ وجلالُ، وأصلُ (جدد) هنا: يدُلُّ على العَظَمةِ(٢).

﴿سَفِيهُنَا﴾: أي: إبليسُ أو مَرَدةُ الجِنِّ، أو جاهِلُنا، والسَّفَهُ: الخِفَّةُ، والجهلُ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٤)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٩٣).
قال الكفوي: (النَّفَرُ: مِن الثَّلاثةِ إلى التِّسعةِ، ولا يُستعمَلُ فيما فَوقَ العَشَرةِ، ولا في طائفةِ النِّساءِ، وإذا استُعْمِلَ فيما فَوْقَها أو في طائفةِ الرِّجالِ والنِّساءِ يُفَسَّرُ حِينَئذٍ بالنَّفسِ). ((الكليات)) (ص: ٦٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩، ٤٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨).

والسَّفيهُ: الخفيفُ العَقلِ، وأصلُ (سفه): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسَخافةٍ[١].

﴿شَطَطًا﴾: أي: كَذِبًا وجَوْرًا، ومعنى الشَّطَطِ في اللُّغةِ: مُجاوَزةُ القَدْرِ، وأصلُ (شطط): يدُلُّ على الإفراطِ في البُعدِ والمَيلِ[٢].

﴿يَعُوذُونَ﴾: أي: يَلجَؤُونَ ويَستَجيرونَ. والعَوذُ: الالتِجاءُ إلى الغَيرِ، والتَّعَلُّقُ به، وأصلُ (عوذ): يدُلُّ على الالتِجاءِ إلى الشَّيءِ[٣].

﴿رَهَقًا﴾: أي: ضَلالًا وإثْمًا وظُلْمًا، والرَّهَقُ: الإثمُ وغِشْيانُ المَحارِمِ، وأصلُ (رهق) هنا: يدُلُّ على غِشْيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۞ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قُرِئَت هذه الآيةُ بفَتحِ إنَّ وكَسْرِها[٥]:

فمَن كسَرَها عَطَفَها على قَولِ الجِنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾، فيَكونُ التَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٠، ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٩)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٩، ٤٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠).

(٥) قرأها أبو جعفرٍ، وابنُ عامرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ، وحفصٌ بفتحِ الهمزةِ، والباقونَ بكَسْرِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩١).

وقالوا: إنَّه تعالى جَدُّ رَبِّنا.

ومَن فَتَح الهمزةَ عَطَفَها على (الهاءِ) في قَولِ الجِنِّ: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾، فيكونُ التَّقديرُ: وآمَنَّا بأنَّه تعالى جَدُّ رَبِّنا. بتقديرِ الجارِّ؛ لاطِّرادِ حَذْفِه قبْلَ (أنْ) و(أنَّ). وقيل غيرُ ذلك[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَبتدِئُ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بأمرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يحَدِّثَ بما حصَل مِن سماعِ بعضِ الجنِّ للقرآنِ، وما قالوه، فيقولُ سُبحانَه: قُلْ -يا مُحَمَّدُ-: أوحَى اللهُ إلَيَّ أنَّه استمَعَ جماعةٌ مِن الجِنِّ للقُرآنِ، فقالوا: إنَّا سَمِعْنا قرآنًا عجيبًا يدُلُّ على الحَقِّ والهُدى، فآمَنَّا به، ولن نُشرِكَ برَبِّنا أحَدًا مِن خَلْقِه، وأنَّه تعالَت عَظَمةُ ربِّنا لم يتَّخِذْ زَوجةً ولا وَلَدًا، وأنَّه كان يقولُ جاهِلُنا على اللهِ كَذِبًا، وأنَّا كُنَّا نَظُنُّ أنَّ الإنسَ والجِنَّ صادِقونَ في ادِّعاءاتِهم، وأنَّهم لن يَجرُؤوا على الكَذِبِ على اللهِ تعالى، وأنَّه كان رِجالٌ مِن الإنسِ إذا نَزَلوا مَنزِلًا يَستَعيذونَ ويَستَجيرونَ بعظيمِ ذلك المكانِ مِنَ الجِنِّ، فزاد الإنسُ الجِنَّ طُغْيانًا وكِبْرًا، وأنَّ كُفَّارَ الجِنِّ ظَنُّوا -كما ظَنَّ كُفَّارُ الإنسِ- أنَّ اللهَ لن يَبعَثَ أحدًا يومَ القيامةِ للحِسابِ والجزاءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١﴾.

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٩٦، ٩٧)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٧٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٨١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٩٤).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((انطلَقَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في طائفةٍ مِن أصحابِه عامِدينَ إلى سُوقِ عُكاظٍ، وقد حِيلَ بيْنَ الشَّياطينِ وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، وأُرسلَت عليهم الشُّهُبُ، فرجَعَت الشَّياطينُ إلى قَومِهم، فقالوا: ما لَكم؟! فقالوا: حِيلَ بيْنَنا وبيْنَ خبَرِ السَّماءِ، وأُرسِلَت علينا الشُّهُبُ! قالوا: ما حالَ بيْنَكم وبيْنَ خبَرِ السَّماءِ إلَّا شَيءٌ حَدَث؛ فاضرِبوا مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها، فانظُروا ما هذا الَّذي حالَ بيْنَكم وبيْنَ خبرِ السَّماءِ؟! فانصرَف أولئك الَّذين توَجَّهوا نحوَ تِهامةَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو بنَخْلةَ[1] عامِدينَ إلى سوقِ عُكاظٍ، وهو يُصلِّي بأصحابِه صلاةَ الفَجرِ، فلمَّا سَمِعوا القرآنَ استَمَعوا له، فقالوا: هذا -واللهِ- الَّذي حال بيْنَكم وبيْنَ خبرِ السَّماءِ، فهنالك حينَ رَجَعوا إلى قومِهم، وقالوا: يا قَومَنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢]، فأنزل اللهُ على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، وإنَّما أُوحِيَ إليْه قَوْلُ الجِنِّ))[2].

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ-: أوحَى اللهُ إلَيَّ أنَّه استمَعَ جماعةٌ مِن الجِنِّ للقُرآنِ[3].

---

(١) نخلة: موضعٌ بيْن مكَّةَ والطَّائفِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٧٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٧٧٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦٤، ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٠).

قال الزمخشري: (﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ جماعةٌ منهم ما بيْنَ الثَّلاثةِ إلى العَشَرةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣).

=

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا﴾.

أي: فقال أولئك النَّفَرُ مِنَ الجِنِّ: إنَّا سَمِعْنا قرآنًا عجيبًا بديعًا خارِجًا عن العادةِ، فلا حديثَ مِثلُه[1].

﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنوا فَضْلَ القرآنِ مِن جِهةِ الإعجازِ وغَيرِه؛ بيَّنوا المقصودَ بالذَّاتِ الدَّالَّ على غَوصِهم على المعاني، بَعْدَ عِلْمِهم بحُسنِ المباني[2].

﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾.

أي: قالوا: وهذا القُرآنُ يدُلُّ على الحَقِّ والخَيرِ والصَّوابِ والهُدى، فآمَنَّا به[3].

= وقال الكرماني: (والنَّفَرُ دونَ العَشَرةِ. قيل: كانوا تِسعةً، وقيل: سَبعةً). ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٢٥٩).

وقال البِقاعي: (وهل هذا الاستماعُ هو المذكورُ في «الأحقافِ» أو غَيرُه، قال أبو حيَّانَ: المشهورُ أنَّه هو. وقيل: هو غيرُه، والجِنُّ الَّذين أتَوه بمكَّةَ جِنُّ نَصِيبينَ، والَّذين أتوه بنَخلةَ جِنُّ نِينَوى، والسُّورةُ الَّتي استَمَعوها قال عِكرِمةُ: العَلَقُ. وقيل: الرَّحمنُ. ولم يُذكَرْ هنا ولا في الأحقافِ أنَّه رآهم، ويَظهَرُ مِن الحديثِ تعدُّدُ الواقعةِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٦٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١).

ويُنظر ما تقدَّم في سورة الأحقاف الآية (٢٩) (٣٣/ ٣٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢١). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾.

أي: ولن نَجعَلَ أحَدًا مِن خَلْقِه شَريكًا له[(١)].

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا سَمِعُوا القرآنَ، ووُفِّقُوا للتَّوحيدِ والإيمانِ؛ تَنبَّهوا للخطأِ فيما اعتَقَده كفَرةُ الجنِّ مِن تَشبيهِ الله تعالَى بخَلْقِه في اتِّخاذِ الصَّاحبةِ والولدِ، فاستَعْظَموه ونزَّهُوه تعالَى عنه[(٢)].

= قال السعدي: (الرُّشدُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُرشدُ النَّاسَ إلى مصالحِ دينِهم ودُنياهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(١) وقال ابن القيِّم: (أعظَمُ الرُّشدِ والحَقِّ الَّذي يَهدي إليه: مَعرِفةُ اللهِ سُبحانَه، وإثباتُ صِفاتِه، وعُلُوِّه على خَلْقِه ومُبايَنتِه لهم؛ إذ بذلك يتِمُّ الاعترافُ به وإثباتُه، ونَفْيُ ذلك نَفيٌ له ولصِفاتِه). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٣٢٦).

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨١).

قال الشوكاني: (﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ مِن خَلْقِه، ولا نتَّخِذَ معه إلهًا آخَرَ؛ لأنَّه المتفرِّدُ بالرُّبوبيَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٤).

وقال الواحدي: (﴿وَلَن نُّشْرِكَ﴾: لن نَعدِلَ ﴿بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ يعنون: إبليسَ، أي: لا نُطيعُه في الشِّركِ باللهِ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٣).

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾.

أي: وأنَّه تعالَت عَظَمةُ ربِّنا وجَلالُه[١].

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَفوه بهذا التَّعالي الأعظَمِ المستلزِمِ للغِنى المطلَقِ، والتَّنزُّهِ عن كلِّ شائبةِ نقْصٍ؛ بَيَّنوه بنَفْيِ ما يُنافِيه بقولِهم إبطالًا للباطلِ[٢]:

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

أي: لم يتَّخِذِ اللهُ تعالى زَوجةً له، ولم يتَّخِذْ وَلَدًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٢).

قال ابنُ عطية: (قرأ جمهورُ النَّاسِ ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ -بفتحِ الجيمِ، وضمِّ الدَّالِ- وإضافتِه إلى الرَّبِّ، وقال جمهورُ المفَسِّرينَ: معناه: عَظَمتُه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٩).

ومِن المفسِّرينَ مَنْ جعَل: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ مُفَسَّرًا بما بَعْدَه على معنى: تعالت عَظَمةُ ربِّنا عن اتِّخاذِ الصَّاحبةِ والولَدِ. وممَّن نصَّ على هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

أي: وأنَّه كان يقولُ جاهِلُنا -الملازِمُ للطَّيشِ والغَيِّ- على اللهِ كَذِبًا وجَورًا بعيدًا عن العَدلِ والصَّوابِ، ومِن ذلك ادِّعاءُ الشَّريكِ والزَّوجةِ والولَدِ لله سُبحانَه وتعالى[1].

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نَّقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَروا ما هُدُوا إليه مِنَ الحَقِّ في اللهِ، وفيمَن كان يَحمِلُهم على الباطِلِ؛ ذكَروا عُذْرَهم في اتِّباعِهم للسَّفيهِ، وفي وُقوعِهم في مَواقِعِ التُّهَمِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

قال ابن عطية: (لا خِلافَ أنَّ هذا مِن قَولِ الجِنِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٩).

قيل: المرادُ بالسَّفيهِ هنا: إبليسُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، والعُلَيمي، ونسَبَه الألوسيُّ وغيرُه إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٩٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٥٠).

وقيل: السَّفيهُ هنا: اسمُ جِنسٍ، فيَعُمُّ إبليسَ وغيرَه. واستحسَنَ ابنُ عطيَّةَ هذا القولَ، واختاره البِقاعيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

قال ابن عطيَّة: (السَّفيهُ المذكورُ قال جميعُ المفسِّرينَ: هو إبليسُ لعنه الله. وقال آخَرونَ: هو اسمُ جِنسٍ لكلِّ سفيهٍ منهم. ولا مَحالةَ أنَّ إبليسَ صدرٌ في السُّفهاءِ، وهذا القولُ أحسَنُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٠).

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نَّقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾.

أي: وأنَّا قبْلَ سَماعِنا للقُرآنِ وإيماننا باللهِ كُنَّا نَظُنُّ أنَّ الإنسَ والجِنَّ صادِقونَ في ادِّعاءاتِهم، وأنَّهم لن يَجرُؤوا على الكَذِبِ على اللهِ تعالى، فيَدَّعُوا له الشَّريكَ والصَّاحِبةَ والوَلَدَ كَذِبًا وزُورًا[1]!

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

أي: وأنَّه كان رجالٌ مِن الإنسِ إذا نَزَلوا مَنزِلًا يَستَعيذونَ ويَستَجيرونَ بعظيمِ ذلك المكانِ وسَيِّده مِنَ الجِنِّ؛ طلبًا للأمانِ والسَّلامةِ مِمَّا يخافونَ ويَحذَرونَ[2]!

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

أي: فزاد الإنسُ الجِنَّ طُغْيانًا وكِبرًا حينَ رأَوُا الإنسَ يَستَعيذونَ بهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

قال ابن جرير: (كانوا يحسَبونَ أنَّ إبليسَ صادِقٌ فيما يَدعو بَني آدمَ إليه مِن صُنوفِ الكُفرِ؛ فلمَّا سَمِعوا القرآنَ أيْقَنوا أنَّه كان كاذِبًا في كلِّ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٢).

وقال السعدي: (أي: كنَّا مغترِّينَ قبلَ ذلك، وغَرَّنا القادةُ والرُّؤساءُ مِن الجِنِّ والإنسِ، فأحسَنَّا بهم الظَّنَّ، وظنَنَّاهم لا يتجرَّؤونَ على الكذِبِ على الله؛ فلذلك كنَّا قبْلَ هذا على طريقِهم، فاليومَ إذْ بانَ لنا الحَقُّ، رجَعْنا إليه، وانقَدْنا له، ولم نُبالِ بقولِ أحدٍ مِنَ النَّاسِ يُعارِضُ الهُدى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٤-٣٢٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠). =

= قال السمعاني: (فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّ الإنسَ زادوا الجِنَّ رَهَقًا، أي: عَظَمةً في أنفُسِهم، كأنَّ الإنسَ لَمَّا استعاذوا بالجِنِّ ازداد الجِنُّ في أنفُسِهم عَظَمةً.

والقولُ الثَّاني: هو أنَّ الإنسَ ازدادوا رهقًا بالاستعاذةِ مِنَ الجِنِّ. ومعناه: طُغْيانًا وإثمًا، كأنَّ الإنسَ لَمَّا استعاذوا بالجِنِّ وأمِنوا على أنفُسِهم ازدادوا كُفرًا، وظَنُّوا أنَّ أَمْنَهم كان مِنَ الجِنِّ. وقيل: رَهقًا أي: غِشيانًا للمَحارِمِ. وقيل: مُقارَفةً للْإثمِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: زاد الإنسُ الجنَّ بهذا التَّعوُّذ طُغيانًا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّمِ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٣٣، ٣٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٠٩).

قال السعدي: (كان الإنسُ يَعبُدونَ الجِنَّ، ويَستعيذونَ بهم عندَ المَخاوِفِ والأفزاعِ، فزاد الإنسُ الجِنَّ رهَقًا، أي: طغيانًا وتكَبُّرًا لَمَّا رأَوُا الإنسَ يَعبُدونَهم، ويَستعيذونَ بهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

وقال الرازي (قولُه: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قال المفسِّرونَ: معناه: زادوهم إثمًا وجُرْأةً وطُغْيانًا وخطيئةً وغَيًّا وشرًّا، كلُّ هذا مِن ألفاظِهم). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨).

وقيل: المرادُ: أنَّ الجِنَّ زادَتِ الإنسَ -لَمَّا استعاذوا بهم- إثمًا، واستِحلالًا للمَحارِمِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والرَّازيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٨).

وقيل: المرادُ: أنَّ الجِنَّ زادَت الإنسَ -لَمَّا استعاذوا بهم- خوفًا وذُعرًا منهم؛ فاشتَدَّ خَوفُهم منهم، وصاروا أكثَرَ تعوُّذًا بهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، وجعله السعديُّ احتمالًا في معنى الآيةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

قال ابنُ جُزَي: (ضَميرُ الفاعلِ للجِنِّ، وضَميرُ المفعولِ للإنسِ، والمعْنى: أنَّ الجنَّ زادُوا الإنسَ ضَلالًا وإثمًا لَمَّا عاذُوا بهم، أو زادُوهم تَخويفًا لَمَّا رَأَوْا ضَعْفَ عُقولِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٨).

وقال ابنُ عاشور: (الَّذي أختارُه في معنى الآيةِ: أنَّ العَوْذَ هنا هو الالتجاءُ إلى الشَّيءِ، والالتِفافُ =

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

أي: وأنَّ كُفَّارَ الجِنِّ ظَنُّوا -كما ظَنَّ كُفَّارُ الإنسِ- أنَّ اللهَ لن يبعَثَ أحدًا يومَ القيامةِ للحِسابِ والجزاءِ[1].

= حَوْلَه، وأنَّ المرادَ: أنَّه كان قومٌ مِن المشركينَ يَعبُدونَ الجِنَّ؛ اتقاءَ شَرِّها. ومعنى ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾: فزادَتْهم عبادتُهم إيَّاهم ضَلالًا. والرَّهَقُ: يُطلَقُ على الإثمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٥).

وقال البِقاعي: (﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أي: الإنسُ الجنَّ باستِعاذتِهم هذه المُرَتَّبِ عليها إعاذتُهم، والجنُّ الإنسَ بترئيسِ الإنسِ لهم وخَوفِهم منهم ﴿رَهَقًا﴾ أي: ضيقًا وشدَّةً وغِشْيانًا لِما هم فيه مِن أحوالِ الضَّلالِ، الَّتي يَلزَمُ منها الضِّيقُ والشِّدَّةُ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٧٢، ٤٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٤-٣٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٠، ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٦).

قال ابنُ عطيَّةَ: (قولُهم: ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ يحتَمِلُ معنيَينِ؛ أحدُهما: بعْثُ الحَشرِ مِن القبورِ. والآخَرُ: بعْثُ آدميٍّ رَسولًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨١).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ -أي: أنَّه البعثُ بعدَ الموتِ-: السمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والرازي، والرَّسْعَني، والنَّسَفي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وأبو حيَّانَ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٩٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠).

واختلَف المفسِّرونَ في قائلِ هذا الكلامِ: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾؛ فقيل: هو مِن قَولِ اللهِ تعالى مخاطِبًا كُفَّارَ الإنسِ؛ لإخبارِهم بأنَّ كُفَّارَ الجِنِّ قد ظنُّوا كما ظَنَنْتُم في شأنِ =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۞ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ جعَلوا السَّبَبَ الدَّاعيَ لهم إلى الإيمانِ وتوابِعِه: ما عَلِموه مِن إرشاداتِ القُرآنِ، وما اشتَمَل عليه مِن المصالِحِ والفوائِدِ، واجتنابِ المَضارِّ؛ فإنَّ ذلك آيةٌ عظيمةٌ وحُجَّةٌ قاطِعةٌ لِمَن استنارَ به، واهتَدى بهَدْيِه، وهذا هو الإيمانُ النَّافعُ، المُثمِرُ لكُلِّ خَيرٍ، المبنيُّ على هدايةِ القُرآنِ، بخِلافِ إيمانِ العوائِدِ والمَرْبَى والإلْفِ ونَحوِ ذلك؛ فإنَّه إيمانُ تقليدٍ تحتَ خَطَرِ الشُّبُهاتِ والعوارِضِ الكَثيرةِ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾، يَقتضي أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَعلَمْ بحُضورِ الجِنِّ لاستِماعِ القُرآنِ قبْلَ نُزولِ هذه الآيةِ[2].

= بَعثِ الرُّسُلِ أو العِبادِ. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحديُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٨).

وقيل: هو مِن قَولِ الجِنِّ بَعضِهم لبعضٍ، أي: ظَنَّ كُفَّارُ الإنسِ في ذلك كما ظَنَنْتُم يا مَعشَرَ الجِنِّ. وممَّن ذهب إلى هذا: الرازيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٨).

قال الرازي: (حَمْلُه على كلامِ الجنِّ أَولى؛ لأنَّ ما قبْلَه وما بعدَه كلامُ الجنِّ، فإلقاءُ كلامٍ أجنبيٍّ عن كلامِ الجنِّ في البَيْنِ غيرُ لائقٍ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨).

وقال الشوكاني: (هذا مِن قولِ الجنِّ للإنسِ، أي: وإنَّ الجنَّ ظَنُّوا كما ظننتُم أيُّها الإنسُ أنَّه لا بعثَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٩).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۞ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ في هذا توبيخٌ للكُفَّارِ مِن بني آدَمَ؛ حيث آمَنَت الجِنُّ بسَماعِ القرآنِ مرَّةً واحدةً، وانتَفَعوا بسَماعِ آياتٍ يسيرةٍ منه، وأدركوا بعُقولِهم أنَّه كلامُ اللهِ، وآمَنوا به، ولم ينتَفِعْ كفَّارُ الإنسِ -ولا سيَّما رؤساؤُهم وعُظَماؤُهم- بسَماعِه مرَّاتٍ متعدِّدةً، وتِلاوتِه عليهم في أوقاتٍ مختلِفةٍ، مع كَونِ الرَّسولِ منهم، يَتلوه عليهم بلِسانِهم[١]!

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- كما بُعِثَ إلى الإنسِ، فقد بُعِثَ إلى الجِنِّ[٢]. فهو رسولٌ إلى الجِنِّ، كما هو رسولٌ إلى الإنسِ؛ فإنَّ اللهَ صَرَف نَفَرَ الجِنِّ لِيَستَمِعوا ما يُوحَى إليه، ويُبلِّغوا قومَهم[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ فيه أنَّ الجِنَّ مكَلَّفونَ كالإنسِ[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ فيه أنَّ الجِنَّ يَستَمِعونَ كَلامَنا، ويَفهَمونَ لُغاتِنا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٥).

قال تقيُّ الدِّينِ السُّبكي: (إنَّ قوةَ هذا الكلامِ تَقْتضي أنَّهم انقادوا له، وآمَنوا بعدَ شِركِهم، وذلك يَقْتضي أنَّهم فهِموا أنَّهم مُكلَّفونَ به، وكذلك كثيرٌ مِن الآياتِ التي في هذه السُّورةِ التي خاطَبوا بها قومَهم). ((فتاوى السبكي)) (٢/ ٥٩٥)

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٥).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ فيه أنَّ المؤمِنَ مِنَ الجِنِّ يدعو غيرَه مِن قبيلتِه إلى الإيمانِ[(١)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ فيه سؤالٌ: الَّذين رُمُوا بالشُّهُبِ هم الشَّياطينُ، والَّذين سَمِعوا القرآنَ هم الجِنُّ، فكيف وَجهُ الجَمعِ؟

الجوابُ مِن وجهَينِ:

الوجهُ الأولُ: أنَّ الَّذين رُمُوا بالشُّهُبِ كانوا مِنَ الجِنِّ، إلَّا أنَّه قيل لهم: شياطينُ، كما قيل: (شياطينُ الجِنِّ والإنسِ)؛ فإنَّ الشَّيطانَ: كلُّ مُتمَرِّدٍ بعيدٍ عن طاعةِ اللهِ تعالى.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الجِنَّ كانوا مع الشَّياطينِ، فلمَّا رُمِيَ الشَّياطينُ أخَذ الجِنُّ الَّذين كانوا معهم في تجَسُّسِ الخبرِ[(٢)].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۞ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ فيه بيانُ ذكاءِ الجِنِّ، ومعرفتِهم بالحَقِّ، وأنَّ الَّذي ساقَهم إلى الإيمانِ هو ما تحَقَّقوه مِن هدايةِ القرآنِ؛ وحُسنِ أدَبِهم في خِطابِهم[(٣)].

٩- إذا تُلِيَ القرآنُ على إنسانٍ فقد قامتْ عليه الحُجَّةُ، ولهذا فإنَّ الجنَّ ولَّوْا إلى قَومِهم مُنذِرينَ بمُجرَّدِ سماعِهم القُرآنَ، قال تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۞ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾، وقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأحقاف: ٣٠]. فقراءةُ القرآنِ مُلْزِمةٌ، لكنْ إذا كان الشَّخصُ لا يَفهمُ لغةَ القرآنِ فلا تكونُ مُلْزِمةً؛ لقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤]، ولا يَحصُلُ البيانُ وهو لا يَدري لُغةَ القُرآنِ(١)!

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾، أي: ولن نَعودَ إلى ما كنَّا عليه مِنَ الإشراكِ به، وهذا يدُلُّ على أنَّ أولئك الجِنَّ كانوا مِن المُشرِكينَ(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ حُجَّةٌ على تسميةِ المخلوقينَ بأسماءِ الخالقِ عزَّ وجلَّ؛ إذِ «الأحَدُ» اسمٌ مِن أسماءِ اللهِ تبارك وتعالى(٣).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ دليلٌ على أنَّ العربَ تُسمِّي بالاسمِ الواحدِ المعانيَ الكثيرةَ؛ إذِ «الجَدُّ» في هذا الموضعِ: العَظَمةُ والجلالُ، وفي غيرِه: «البختُ»، و«أبو الأبِ»، وفيه أيضًا رَدٌّ على المعتزلةِ -فيما يَزعُمونَ-: أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٨).

لكنْ في ذلك تفصيلٌ؛ فقد جاء في فتاوى اللَّجنةِ الدَّائمةِ: (ما كان مِن أسماءِ الله تعالى عَلَم شَخصٍ، كلَفظِ «الله»: امتنع تسميةُ غيرِ الله به؛ لأنَّ مُسمَّاه مُعيَّنٌ لا يَقبَلُ الشَّركةَ، وكذا ما كان مِن أسمائِه في معناه في عدَمِ قَبولِ الشَّركةِ، كالخالقِ والبارئِ؛ فإنَّ الخالقَ: مَن يُوجِدُ الشَّيءَ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، والبارئَ: مَن يوجِدُ الشَّيءَ بريئًا مِن العَيبِ، وذلك لا يكونُ إلَّا مِن الله وحْدَه؛ فلا يُسمَّى به إلَّا اللهُ تعالى. أمَّا مَا كان له معنًى كُلِّيٌّ تَتفاوَتُ فيه أفرادُه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، كالمَلِكِ، والعزيزِ، والجبَّارِ، والمتكبِّرِ؛ فيجوزُ تسميةُ غيرِه بها؛ فقد سمَّى الله نفْسَه بهذه الأسماءِ، وسمَّى بعضَ عبادِه بها). ((فتاوى اللجنة الدائمة- المجموعة الثانية)) (٢/ ٣٦٨).

الشَّيءَ إذا سُمِّيَ باسمٍ، ثمَّ سُميَّ به غيرُه لزِم أنْ يُشبِهَه بجميعِ جِهاتِه[١]!

١٣- قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، فعَلِموا مِن جَدِّ اللهِ وعَظَمتِه ما دَلَّهم على بُطلانِ قولِ مَن يَزعُمُ أنَّ له صاحبةً أو ولَدًا؛ لأنَّ له العَظَمةَ والكَمالَ في كلِّ صِفةِ كَمالٍ، واتِّخاذُ الصَّاحبةِ والولَدِ يُنافي ذلك؛ لأنَّه يُضادُّ كَمالَ الغِنى[٢]، ولأنَّ الصَّاحبةَ إنَّما تكونُ للضَّعيفِ العاجزِ الَّذي تَضطَرُّه الشَّهوةُ الباعثةُ إلى اتِّخاذِها له، وأنَّ الولَدَ إنَّما يكونُ عن شَهوةٍ أزعَجَتْه إلى الوِقاعِ الَّذي يَحدُثُ منه الولَدُ، فقال النَّفَرُ مِن الجِنِّ: عَلا مُلْكُ ربِّنا وسُلطانُه وقُدرتُه وعَظَمتُه أنْ يكونَ ضَعيفًا ضَعْفَ خَلْقِه الَّذين تَضطَرُّهم الشَّهوةُ إلى اتِّخاذِ صاحبةٍ، أو وِقاعِ شَيءٍ يكونُ منه ولَدٌ[٣].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ فيه دليلٌ على المنعِ مِن أكثَرِ الرُّقى والعزائِمِ[٤].

١٥- الاستِعاذةُ بالأمواتِ أو الأحياءِ غيرِ الحاضِرينَ القادِرينَ على العَوذِ: شِركٌ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أنَّ الاستِعاذةَ بالجِنِّ حرامٌ؛ لأنَّها لا تفيدُ المُستعيذَ، بل تَزيدُه رَهَقًا -أي: خَوفًا وضَعفًا-، فعُوقِبَ بنَقيضِ قَصْدِه، وهذا على اعتبارِ أنَّ «الواوَ» ضميرُ الجِنِّ، و«الهاءَ»

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣١٧، ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٥).

(٥) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٦٤).

ضميرُ الإنسِ[١].

١٧- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ الإنسُ سُمُّوا إنسًا لأنَّهم يؤنَسونَ، أي: يُرَونَ. كما قال تعالى حكايةً عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [طه: ١٠]، أي: رأيتُها، والجِنُّ سُمُّوا جِنًّا لاجتِنانِهم، يجتَنُّونَ عن الأبصارِ، أي: يَستَترونَ، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ [الأنعام: ٧٦]، أي: استولى عليه، فغَطَّاه وسترَه[٢].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ تسميتُه الجِنَّ رجالًا، إلَّا أنَّه لم يُطْلِقْ عليهم: الرِّجالَ، بل هي تسميَّةٌ مقيَّدةٌ بقَولِه: ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، فهم رجالٌ مِن الجِنِّ، ولا يَستَلزِمُ ذلك دُخولَهم في الرِّجالِ عندَ الإطلاقِ، كما تقولُ: «رجالٌ مِن حِجارةٍ» و «رِجالٌ مِن خشَبٍ» ونحوَه؛ وعليه فلا يُشْكِلُ هذا مع قولِه سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩] في أنَّه لم يُرْسِلْ جِنِّيًّا، ولا امرأةً، ولا بَدَويًّا[٣].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أنَّ للجِنِّ رجالًا، ولهم إناثٌ[٤].

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا﴾ يدُلُّ على أنَّ الجِنَّ كما أنَّهم كان فيهم مُشرِكٌ ويَهودِيٌّ ونَصرانيٌّ، ففيهم مَن يُنكِرُ البَعثَ[٥]. على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالأمرِ بالقولِ يُشيرُ إلى أنَّ ما سيُذكَرُ بعْدَه حدَثٌ غَريبٌ، وخاصَّةً بالنِّسبةِ للمشرِكينَ الَّذين همْ مَظِنَّةُ التَّكذيبِ به، كما يَقتضيهِ قولُه: ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾[1] [الجن: ٧].

- قولُه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الَّذين أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَ لهم: إنَّه أُوحِيَ إليه بخبَرِ الجنِّ؛ همْ جميعُ النَّاسِ الَّذين كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُبلِّغُهم القُرآنَ مِن المسلمينَ والمشرِكين، أراد اللهُ إبلاغَهُم هذا الخبَرَ؛ لِما له مِن دَلالةٍ على شرَفِ هذا الدِّينِ، وشرَفِ كِتابِه، وشرَفِ مَن جاء به، وفيه إدخالُ مَسرَّةٍ على المسلِمينَ، وتَعريضٌ بالمُشرِكين؛ إذ كان الجنُّ قدْ أدْرَكوا شرَفَ القُرآنِ وفَهِموا مَقاصِدَه وهمْ لا يَعرِفون لُغتَه، ولا يُدرِكون بَلاغتَه، فأقْبَلوا عليه، والَّذين جاءهُم بلِسانِهم وأدْرَكوا خَصائصَ بَلاغتِه أنْكَروه وأعْرَضوا عنه[2]!

- وفي الإخبارِ هنا عن استِماعِ الجنِّ للقُرآنِ بأنَّه أُوحِيَ إليه ذلك إيماءٌ إلى أنَّه ما عَلِمَ بذلك إلَّا بإخبارِ اللهِ إيَّاهُ بوُقوعِ هذا الاستماعِ، فالآيةُ تَقْتضي أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يَعلَمْ بحُضورِ الجنِّ لاستماعِ القُرآنِ قبْلَ نُزولِ هذه الآيةِ، وأمَّا في قولِه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ...﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآياتِ؛ فتَذكيرٌ بما في هذه الآيةِ، أو هي إشارةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢١٩).

إلى قصَّةٍ أُخرى رَواها عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ[١]، ولا عَلاقةَ لها بهذه الآيةِ[٢]. وذلك على قولٍ.

- وتأْكيدُ الخبَرِ المُوحَى بحرْفِ (أنَّ)؛ للاهتِمامِ به؛ لغَرابتِه[٣].

- وضَميرُ ﴿أَنَّهُۥ﴾ ضَميرُ الشَّأنِ، وخبَرُه جُملةُ ﴿ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، وفي ذلك زِيادةُ اهتمامٍ بالخبَرِ المُوحى به[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ فيه تأْكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ)؛ لأنَّهم أخْبَروا به فَريقًا منهم يَشُكُّون في وُقوعِه، فأَتَوا في كَلامِهم بما يُفيدُ تَحقيقَ ما قالُوه[٥].

- ووَصْفُ القُرآنِ بالعجَبِ وَصْفٌ بالمَصدرِ على سبيلِ المُبالَغةِ، أي: هو عجبٌ في نفسِه؛ لفَصاحةِ كَلامِه، وحُسنِ مَبانيه، ودِقَّةِ مَعانيه، وغَرابةِ أُسلوبِه، وبَلاغةِ مَواعظِه، وكَونِه مُباينًا لسائرِ الكُتبِ[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾

- قولُه: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾، أي: بالقُرآنِ؛ لَمَّا كان الإيمانُ بالقرآنِ يَقْتضي الإيمانَ بمَن جاء به وبمَن أنْزَلَه، قالوا: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾؛ فعطْفُ: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ مِن بابِ عطْفِ المُسبَّبِ على السَّببِ، وحرْفُ الجمْعِ

---

(١) يُنظر ما أخرجه مسلم (٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٩، ٢٢٠).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣١٩)، وما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ الأحقافِ (٣٣/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٢١).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢١).

يُفوِّضُ التَّرتيبَ إلى ذِهنِ السَّامعِ، وهو أبلَغُ مِن الفاءِ. ويُمكنُ أنْ يُقالَ: إنَّ مَجموعَ قولِهم: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ مُسبَّبٌ عن مَجموعِ قولِهم: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۞ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾؛ فكَوْنُه قُرآنًا عجَبًا -أي: مُعجِزًا بَديعًا- يُوجِبُ الإيمانَ به، وكَونُه يَهدي إلى الرُّشدِ مُوجِبٌ قلْعَ الشِّركِ مِن أصْلِه، والدُّخولَ في دِينِ اللهِ كلِّه[1].

- وقولُ الجنِّ: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾، أي: يَنْتفي ذلك في المُستقبَلِ، وهذا يَقْتضي أنَّهم كانوا مُشرِكين، ولذلك أكَّدوا نفْيَ الإشراكِ بحرْفِ (لن)؛ فكما أُكِّدَ خبَرُهم عن القرآنِ والثَّناءِ عليه بحرْفِ (إنَّ)، أُكِّدَ خبَرُهم عن إقلاعِهم عن الإشراكِ بحرْفِ (لنْ)[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾

- الجَدُّ -بفتْحِ الجيمِ-: العَظَمةُ والجَلالُ، وهذا تَمهيدٌ وتَوطئةٌ لقولِه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾؛ لأنَّ اتِّخاذَ الصاحبةِ للافتقارِ إليها؛ لأُنْسِها وعَونِها والالتِذاذِ بصُحبتِها، وكلُّ ذلك مِن آثارِ الاحتياجِ، وللهِ تعالَى الغِنَى المُطلَقُ، وتعالَى جَدُّه بغِناهُ المطلَقِ، والولدُ يُرغَبُ فيه للاستِعانةِ والأُنسِ به، مع ما يَقتضيهِ مِن انفصالِه مِن أجزاءِ والِدَيْه؛ وكلُّ ذلك مِن الافتِقارِ والانتقاصِ[3].

- وتأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (أنَّ)؛ لأنَّه مَسوقٌ إلى فَريقٍ يَعتقِدون خِلافَ ذلك مِن الجنِّ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٨، ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٣، ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٢٣).

- وضَميرُ الجَماعةِ في قولِه: ﴿رَبِّنَا﴾ عائدٌ إلى كلِّ مُتكلِّمٍ مع تَشريكِ غيرِه؛ فعلَى تَقديرِ أنَّه مِن كَلامِ الجِنِّ، فهو قولُ كلِّ واحدٍ منهم عن نفْسِه ومَن معَه مِن بَقيَّةِ النَّفَرِ[١].

- وقولُه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ بَيانٌ لِحُكْمِ تَعالِي جَدِّه سُبحانَه[٢].

- والاقتِصارُ في بَيانِ تَعالِي جَدِّ الله على انتفاءِ الصَّاحبةِ عنه والولَدِ يُنبِئُ بأنَّه كان شائعًا في عِلمِ الجنِّ ما كان يَعتقِدُه المشرِكون أنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ مِن سَرَواتِ -أي ساداتِ وأشرافِ وخَواصِّ- الجنِّ، وما اعتقادُ المشركينَ إلَّا ناشئٌ عن تَلقينِ الشَّيطانِ، وهو مِن الجنِّ، ولأنَّ ذلك ممَّا سَمِعوه مِن القرآنِ، مِثل قولِه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾[٣] [الأنعام: ١٠١].

- وإعادةُ (لا) النَّافيةِ مع المَعطوفِ للتَّأكيدِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ المعطوفَ مَنفيٌّ باستِقلالِه؛ لدَفْعِ توهُّمِ نفْيِ المجموعِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾

- تأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (أنَّ)؛ لأنَّه مَسوقٌ إلى فَريقٍ يَعتقِدون خِلافَ ذلك مِن الجنِّ[٥].

- قولُه: ﴿شَطَطًا﴾ نعْتٌ لمَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: قولًا شَططًا، وهو البُعدُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ومُجاوَزةُ الحدِّ، أوْ هُو شطَطٌ في نفْسِه؛ لفَرْطِ بُعدِه عن الحقِّ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نَّقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ اعتِذارٌ عمَّا اقتَضاهُ قولُهم: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢] مِن كَونِهم كانوا مُشرِكينَ لجَهْلِهم، وأخْذِهم قولَ سُفهائِهم يَحسَبونَهم لا يَكذِبون على اللهِ تعالَى[٢].

- والتَّأكيدُ بحرْفِ (أنَّ)؛ لقصْدِ تَحقيقِ عُذرِهم فيما سلَفَ مِن الإشراكِ[٣].

- وتأْكيدُ المَظنونِ بحرْفِ (لنْ) يُفيدُ أنَّهم كانوا مُتوغِّلينَ في حُسنِ ظَنِّهم بمَن ضَلَّلوهم، ويدُلُّ على أنَّ الظَّنَّ هنا بمعْنى اليقينِ، وهو يَقينٌ مُخطِئٌ[٤].

- قولُه: ﴿كَذِبًا﴾ مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لـ﴿نَقُولَ﴾؛ لأنَّه نَوعٌ مِن القولِ، أو وصْفٌ لمَصدرِه المحذوفِ، أيْ: قولًا كذِبًا، أيْ: مَكذوبًا فيه[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ التَّأكيدُ بـ(أنَّ) راجِعٌ إلى ما تَفرَّعَ على خبَرِها مِن قَولِهم: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[٦].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٣٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٥).

- التَّأكيدُ بحرْفِ (أنَّ) للاهتِمامِ بالخبَرِ؛ لغَرابتِه[١].

- وجُملةُ ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ ﴿ظَنُّوا﴾ ومَعمولِه، فيَجوزُ أنْ تكونَ مِن القولِ المَحكيِّ، يقولُ الجنُّ بَعضُهم لبعضٍ؛ يُشبِّهونَ كُفَّارَهم بكفَّارِ الإنسِ، وقيل غيرُ ذلك[٢].

- و﴿كَمَا﴾ نعْتٌ لمَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: ظنُّوا ظنًّا مِثلَ ظَنِّكم[٣].

- قولُه: ﴿لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ فيه التَّعبيرُ بحرْفِ (لن)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم كانوا غيرَ مُتردِّدينَ في إحالةِ ذلك[٤].

- والإخبارُ عن هذا فيه تَعريضٌ بالمشركينَ بأنَّ فَسادَ اعتقادِهِم تَجاوَزَ عالَمَ الإنسِ إلى عالَمِ الجنِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨-١٠)

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَشُهُبًا﴾: أي: نارًا ساطِعةً مُحرِقةً يُرجَمُ بها مَن استرَق السَّمعَ، والشِّهابُ: الشُّعلةُ السَّاطِعةُ مِن النَّارِ المُوقَدةِ، وأصلُ (شهب): يدُلُّ على بياضٍ في شَيءٍ مِن سَوادٍ[1].

﴿رَّصَدًا﴾: أي: أُرْصِدَ وأُعِدَّ له؛ لِيُرْمَى به، وهو فَعَلٌ بمعنى مَفعولٍ، وأصلُ (رصد): يدُلُّ على تهيُّؤٍ لِرقبةِ شَيءٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله سبحانَه عن هؤلاء الجنِّ ما قالوه عندَ اقترابِهم مِن السَّماءِ؛ طلَبًا لمعرفةِ أخبارِها، وذلك قبْلَ أنْ يؤمِنوا، وأنَّهم قالوا: وأنَّا أتَيْنا السَّماءَ لِنَستَمِعَ فيها بعضًا مِن أخبارِ الغَيبِ، كما كنَّا نَصنَعُ، فوجَدْناها مملوءةً بحُرَّاسٍ أشِدَّاءَ مِن الملائكةِ، وشُهُبٍ مُحرِقةٍ لِمَن يُريدُ استِراقَ السَّمعِ، وأنَّا كُنَّا فيما مضَى نَقعُدُ في مَواضِعَ مِنَ السَّماءِ؛ مِن أجْلِ استِماعِ بَعضِ ما تتحَدَّثُ به الملائِكةُ ممَّا هو كائِنٌ، فمَنْ أراد مِن الشَّياطينِ الاستِماعَ الآنَ لأخبارِ السَّماءِ، فإنَّه يُرمَى بشِهابٍ

(١) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٣٩).

مِن نارٍ أُرصِدَ وأُعِدَّ له، وأنَّا لا نَدري الغايةَ مِمَّا يَحدُثُ في السَّماءِ: أهو عَذابٌ أُرِيدَ بأهلِ الأرضِ، أمْ أراد بهم رَبُّهم هُدًى وخَيرًا؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾.

أي: وأنَّا أتَيْنا السَّماءَ لِنَستَمِعَ فيها بعضًا مِن أخبارِ الغَيبِ كما جَرَت عادتُنا، فوجَدْناها مملوءةً بحُرَّاسٍ أشِدَّاءَ مِن الملائكةِ يَحفَظونَها مِن الشَّياطينِ، ومملوءةً بشُهُبٍ تَرجُمُهم وتُحرِقُهم إن أرادوا استِراقَ السَّمعِ[1].

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾.

أي: وأنَّا كُنَّا فيما مضَى نَقعُدُ في مواضِعَ مِنَ السَّماءِ؛ مِن أجْلِ استِماعِ بَعضِ ما تتحَدَّثُ به الملائِكةُ ممَّا هو كائِنٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

قال ابن عاشور: (الشُّهُبُ: جمعُ شِهابٍ، وهو القِطعةُ الَّتي تنفَصِلُ عن بعضِ النُّجومِ، فتَسقُطُ في الجوِّ أو في الأرضِ أو البَحرِ، وتكونُ مُضاءةً عندَ انفصالِها، ثمَّ يزولُ ضَوؤُها ببُعدِها عن مُقابلةِ شُعاعِ الشَّمسِ، ويُسَمَّى الواحِدُ منها عندَ علماءِ الهيئةِ نَيْزَكًا، باسمِ الرُّمحِ القصيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

قال البِقاعي: (قد جاء في الخبَرِ أنَّ صِفةَ قُعودِهم هي أن يكونَ الواحِدُ منهم فوقَ الآخَرِ حتَّى يَصِلوا إلى السَّماءِ، قال أبو حيَّانَ: فمتى احترقَ الأعلى كان الَّذي تحتَه مكانَه، فكانوا =

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾.

أي: فمَنْ أراد مِن الشَّياطينِ الاستماعَ الآنَ لأخبارِ السَّماءِ، فإنَّه يُرمَى بشِهابٍ مِن نارٍ مُرصَدٍ له؛ لِمَنعِه مِنَ الاستِماعِ، أو إحراقِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾[الحجر: ١٦ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[الصافات: ٦ - ١٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضي الله عنه، قال: إنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا قضَى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبت الملائِكةُ بأجنِحَتِها خُضْعانًا لِقَولِه، كأنَّه سِلسلةٌ على صَفوانٍ(٢)، فإذا فُزِّعَ(٣) عن قُلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا للَّذي قال: الحَقَّ، وهو العَليُّ الكبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقُ السَّمعِ، ومُستَرِقُ السَّمعِ هكذا بعضُه فوقَ بَعضٍ -ووصَفَ سُفْيانُ بكَفِّه فحَرَفَها وبَدَّد بيْنَ أصابِعِه- فيسمَعُ الكَلِمةَ فيُلْقيها إلى مَن تحتَه، ثمَّ يُلقيها الآخَرُ إلى مَن تحتَه، حتَّى يُلقيَها على لسانِ الساحِرِ أو الكاهِنِ، فرُبَّما أدرَكَ الشِّهابُ قبْلَ أن يُلقِيَها، ورُبَّما ألْقاها قبْلَ

= يَستَرِقونَ الكَلِمةَ فيُلْقونَها إلى الكُهَّانِ، فيَزيدونَ معها الكَذِبَ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٧٧). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٧، ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

قال ابنُ كثير: (لا يتخَطَّاه ولا يتعَدَّاه، بل يَمحَقُه ويُهلِكُه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠).

(٢) صَفوانٍ: هو الحَجَرُ الأملَسُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٧/ ١٩٢).

(٣) فُزِّعَ أي: أُزيلَ الخَوفُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٧/ ١٩٢).

أن يُدرِكَه، فيَكذِبُ معها مِئةَ كَذْبةٍ، فيُقالُ: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟! فيُصَدَّقُ بتلك الكَلِمةِ التي سَمِعَ مِنَ السَّماءِ))[١].

وعن عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها، قالت: ((سَأل أُناسٌ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الكُهَّانِ، فقال لهم رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ليسُوا بشَيءٍ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، فإنَّهم يحَدِّثونَ أحيانًا بالشَّيءِ يكونُ حَقًّا! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: تلك الكَلِمةُ مِنَ الحَقِّ يَخطَفُها الجِنِّيُّ، فيَقُرُّها في أُذُنِ وليِّه قَرَّ الدَّجاجةِ[٢]، فيَخلِطون فيها أكثَرَ مِن مِئةِ كَذْبةٍ))[٣].

وعن عائشةَ رَضيَ الله عنها، أنَّها سَمِعَت رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ الملائِكةَ تَنزِلُ في العَنانِ -وهو السَّحابُ-، فتذكُرُ الأمرَ قُضِي في السَّماءِ، فتَستَرِقُ الشَّياطينُ السَّمعَ فتَسمَعُه، فتُوحيه إلى الكُهَّانِ، فيَكذِبون معها مِئةَ كَذبةٍ مِن عندِ أنفُسِهم))[٤].

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ١٠﴾.

أي: وأنَّا لا نَدري الغايةَ مِن وَراءِ حِراسةِ السَّماءِ بالملائِكةِ والشُّهُبِ: أهي إنزالُ عذابٍ بأهلِ الأرضِ، أمْ أرادَ ربُّهم بهم هُدًى وخَيرًا وصَلاحًا[٥]؟

---

(١) رواه البخاري (٤٨٠٠).

(٢) القَرُّ: ترديدُك الكلامَ في أُذُنِ المخاطَبِ حتى يفهَمَه، وقَرُّ الدجاجةِ: صَوتُها إذا قطَّعَتْه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٩).

(٣) رواه البخاري (٦٢١٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢٨).

(٤) رواه البخاري (٣٢١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

وقال ابنُ عاشور: (فحاصلُ المعْنى: إنَّا الآنَ لا نَدْري ماذا أُرِيدَ بأهلِ الأرضِ مِن شَرٍّ أو خيرٍ بعْدَ أنْ كنَّا نَتجسَّسُ الخبَرَ في السَّماءِ... وهي مِن قَبيلِ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أَدَبٌ عالٍ للجِنِّ؛ حيثُ قالوا في الشَّرِّ: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يُضيفوه إلى الله، وفي الرَّشَدِ قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ولم يقولوا: «أمْ أُريدَ بهم رَشَدٌ»[(١)].

فاختِلافُ صُورةِ الكلامِ في قولِه: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ لاختِلافِ الأحوالِ؛ فإنَّ ما قبْلَ (أَمْ) صُورةٌ مِن الكلامِ تُخالِفُ صُورةَ ما بعْدَها؛ لأنَّ الأُولى فيها فِعلُ الإرادةِ مَبنيٌّ للمَجهولِ، والثَّانيةَ فيها فِعلُ الإرادةِ مَبنيٌّ للمعلومِ، والحالُ الدَّاعي لذلك نِسبةُ الخَيرِ إليه سُبحانَه في الثَّانيةِ، ومَنْعُ نِسبةِ الشَّرِّ إليه في الأُولى؛ جَرْيًا على واجِبِ الأدبِ مع اللهِ تعالَى في تَحاشي إسنادِ الشَّرِّ إليه[(٢)]، وهذه طَريقةُ القرآنِ، ومنه قَولُ الخَضِرِ في شَأنِ الجِدارِ واليَتيمَينِ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، وقال في خرْقِ السَّفينةِ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ثمَّ قال بعْدَ ذلك: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾[(٣)] [الكهف: ٨٢].

= [الأحقاف: ٩]. وليس المرادُ منها -فيما نَرى- أنَّهم يَنْفُون أنْ يَعلَموا ماذا أرادَ اللهُ بهذه الشُّهبِ؛ فإنَّ ذلك لا يُناسِبُ ما تَقدَّمَ مِن أنَّهم آمَنوا بالقرآنِ؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، وقولُهم: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ فذلك صَريحٌ في أنَّهم يَدْرون أنَّ اللهَ أراد بمَن في الأرضِ خَيرًا بهذا الدِّينِ، وبصَرْفِ الجِنِّ عن استراقِ السَّمعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٦٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٢).

٢- لَمَّا أخْبَروا عن إيمانِهم أنَّه كان عَقِبَ سَماعِهم مِن غيرِ تَوقُّفٍ، ثمَّ ذَكَروا منْعَهم مِن الاستراقِ؛ ذَكَروا أنَّه اشتَبَهَ عليهم المنْعُ، فلمْ يَعلَموا سِرَّه، فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ دَلالةً على أنَّ جَهْلَ بَعضِ المسائلِ الفرعيَّةِ لا يَقدَحُ، ونَدْبًا إلى رفْعِ الهِمَّةِ عن الخَوضِ في شَيءٍ بغيرِ عِلمٍ، وحثًّا على التَّفويضِ إلى علَّامِ الغُيوبِ[1].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ يؤخَذُ منه أنَّ الشُّهُبَ تكاثرَت في مدَّةِ الرِّسالةِ المُحَمَّديَّةِ؛ حِفظًا للقُرآنِ مِن دسائسِ الشَّياطينِ، كما دَلَّ عليه قَولُه عَقِبَه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[2] [الجن: ٩].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ فيه سؤالٌ: هذه الشُّهُبُ كانت موجودةً قبْلَ المَبعَثِ، فما معنى تخصيصِها بمُحَمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟

الجوابُ مبنيٌّ على مقامينِ:

المقامُ الأوَّلُ: أنَّ هذه الشُّهُبَ ما كانت موجودةً قبْلَ المبعَثِ، وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ وأُبَيِّ بنِ كَعبٍ رضيَ الله عنهم.

المقامُ الثَّاني: أنَّ هذه الشُّهُبَ كانت موجودةً قبلَ المبعَثِ، إلَّا أنَّها زِيدَت بعدَ المبعَثِ، وجُعِلَت أكمَلَ وأقوى، وهذا هو الَّذي يدُلُّ عليه لفظُ القُرآنِ؛ لأنَّه قال: ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ﴾، وهذا يدُلُّ على أنَّ الحادِثَ هو المَلءُ والكثرةُ، وكذلك قَولُه: ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ﴾، أي: كُنَّا نجِدُ فيها بعضَ المقاعِدِ خاليةً مِن الحَرَسِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٨، ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

والشُّهُبِ، والآنَ مُلِئَت المقاعِدُ كُلُّها؛ فعلى هذا: الَّذي حَمَل الجِنَّ على الضَّربِ في البلادِ، وطَلَبِ السَّبَبِ: إنَّما هو كثرةُ الرَّجمِ، ومَنْعُ الاستراقِ بالكُلِّيَّةِ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ لو قال قائلٌ: كيف تتعَرَّضُ الجِنُّ لإحراقِ نَفْسِها بسَبَبِ استماعِ خبَرٍ بعدَ أن صار ذلك معلومًا لهم؟

فالجوابُ: أنَّ الْجِنَّ لَا تنكَفُّ عن ذلك؛ لأنَّهم مُنساقونَ إليه بالطَّبعِ -معَ ما ينالُهم مِن أذَى الرَّجمِ والاحتراقِ-، شأنَ انسياقِ المخلوقاتِ إلى ما خُلِقَتْ له، مثلَ تهافُتِ الفَراشِ على النَّارِ، لاحتمالِ ضَعفِ القوَّةِ المُفكِّرةِ في الجنِّ، بحيثُ يغلِبُ عليها الشَّهوةُ، ونحنُ نرَى البشرَ يقتَحِمونَ الأخطارَ والمهالِكَ تَبَعًا للهوَى(٢). وقيل: إنَّ اللهَ تعالى يُنسِيهم ذلك حتَّى تَعظُمَ المحنةُ(٣).

٤- مِن آياتِ النَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ودلائلِ نُبوَّتِه الَّتي في القرآنِ ما ذكَره مِن أنَّ السَّماءَ مُلِئت حرَسًا شديدًا وشُهُبًا، بخِلافِ ما كانت العادةُ جاريةً به، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢]، وهذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرؤُه على النَّاسِ، وهم يقرؤونه؛ ولم يُنكِرْه أحدٌ، ولا ارتابَ به مؤمنٌ، ولا احتجَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٩، ٦٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨١).

وعن عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((أخبَرني رجلٌ مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الأنصارِ، أنَّهم بينَما هم جلوسٌ ليلةً معَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم رُمِي بنَجمٍ فاستَنار، فقال لهم رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ماذا كنتُم تقولونَ في الجاهليَّةِ إذا رُمِي بمثلِ هذا؟...)). أخرجه مسلمٌ (٢٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤)، ونسَبَه للجاحظ. ويُنظر: ((الحيوان)) للجاحظ (٦/ ٤٥٦).

به عليه كافرٌ؛ فدلَّ أنَّ النَّاسَ عَلِموا صِدْقَ ما أَخبرتْ به الجِنُّ مِن أنَّ السَّماءَ مُلِئَتْ حرسًا شديدًا وشُهُبًا؛ وأنَّهم لم يَتَمَكَّنوا حينَئذٍ ممَّا كانوا يَتمَكَّنُون منه قبْلَ ذلك مِن الاستماعِ، ومعلومٌ أنَّ هذا أمْرٌ يَراه النَّاسُ بأبصارِهم؛ فإنَّ امتلاءَ السَّماءِ بالشُّهُبِ أمرٌ يراه النَّاسُ كلُّهم، فلو لَمْ يكُنْ كذلك لَكان النَّاسُ يُكَذِّبون بهذا -مؤمنُهم، وكافرُهم-، فإنَّ الجماعةَ العظيمةَ -الَّذين لم يَتواطَؤوا- يَمتَنِعُ اتِّفاقُهم على الكذبِ، وعلى التَّصديقِ بما يَعلمون أنَّه كذبٌ، وعلى كِتمانِ ما يَعلَمونه، وعلى تَركِ إنكارِ ما يَعلمون أنَّه كَذِبٌ. وقد سَمِع القرآنَ ألوفٌ مؤلَّفةٌ أَدركوا مَبْعَثَه، وشاهَدوا أحوالَ السَّماءِ؛ ولم يُنكِرْ ذلك أحدٌ، بل تظاهرتِ الأخبارُ بمِثْلِ ما أَخْبَر به القرآنُ مِن الرَّميِ العظيمِ بالشُّهُبِ الَّذي لم يُعهَدْ مِثلُه[1].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ فيه نَصٌّ على أنَّ الجِنَّ لا تَعلَمُ الغَيبَ[2].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ قد يَبدو مِن هذه الآيةِ إشكالٌ؛ حيث قالوا أوَّلًا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، ثمَّ يقولون: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، والواقِعُ أنَّهم تساءَلوا لَمَّا لَمَسوا السَّماءَ فمُنِعوا منها لشِدَّةِ حِراستِها، وأقَرُّوا أخيرًا لَمَّا سَمِعوا القرآنَ، وعَلِموا السَّبَبَ في تشديدِ حِراسةِ السَّماءِ؛ لأنَّهم لَمَّا مُنِعوا ما كان يخطُرُ ببالِهم أنَّه مِن أجْلِ الوَحيِ؛ لِقَولِه: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾[3] [الجن: ٧]. وذلك على قولٍ في معنى البعثِ.

---

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ حُجَّةٌ على المعتزِلةِ والقَدَريَّةِ؛ لإخبارِ اللهِ جلَّ جلالُه عن الجنِّ بإرادتِه سبحانَه الشَّرَّ بمَن في الأرضِ كإرادتِه بهم الرَّشَدَ؛ ولم يُنكِرْه مِن قَولِهم، ولا نَسَبَهم إلى الكَذِبِ عليه فيه، بل أنزَلَه في جملةِ القرآنِ العَجَبِ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾

- التَّأكيدُ في قولِه: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ بحرْفِ (أنَّ)؛ لغَرابةِ الخبَرِ، باعتبارِ ما يَلِيه مِن قولِه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ...﴾ إلخ[2].

- واللَّمسُ مُعبَّرٌ به عن اختبارِ أمْرٍ؛ لأنَّ إحساسَ اليدِ أقْوى إحساسٍ، فشُبِّهَ به الاختبارُ[3]. أو عُبِّر به عن الطَّلَبِ، أي: طَلَبْنا بُلوغَ السَّماءِ أو خبَرَها[4].

- وقولُه: ﴿شَدِيدًا﴾ صِفةٌ للحرَسِ على اللَّفظِ؛ لأنَّه اسمُ جمْعٍ، ولو لُحِظَ المعْنى لَقال: (شِدادًا) بالجمْعِ[5].

- وأيضًا هذا الكلامُ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ تَوطئةٌ وتَمهيدٌ لقولِهم بعْدَه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ إلى آخِرِه؛ إذ المَقصودُ أنْ يُخبِروا مَن لا خبَرَ عندَه مِن نَوعِهم بأنَّهم قدْ تَبيَّنوا سَببَ شِدَّةِ حِراسةِ السَّماءِ، وكَثرةِ الشُّهبِ، وأمَّا نفْسُ الحِراسةِ وكَثرةِ الشُّهبِ فإنَّ المُخبَرينَ -بفتحِ الباءِ- يُشاهِدونَه[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ مِن تَمامِ قولِهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾، وإنَّما أُعِيدَ معه كَلمةُ ﴿وَأَنَّا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الخبَرَ الَّذي تَضمَّنَه هو المقصودُ، وأنَّ ما قبْلَه كالتَّوطئةِ له، فإعادةُ ﴿وَأَنَّا﴾ تَوكيدٌ لَفظيٌّ[٢].

- قولُه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ (مِن) في قولِه: ﴿مِنْهَا﴾ تَبعيضيَّةٌ، أي: مِن ساحاتِها، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿نَقْعُدُ﴾، وليس المَجرورُ حالًا مِن ﴿مَقَٰعِدَ﴾ مُقدَّمًا على صاحِبِه؛ لأنَّ السِّياقَ في الكَلامِ على حالِهم في السَّماءِ؛ فالعِنايةُ بمُتعلَّقِ فِعلِ القُعودِ أَوْلى[٣].

- والمقاعِدُ: جمْعُ مَقعَدٍ، وهو مَفعَلٌ للمكانِ الَّذي يقَعُ فيه القعودُ، وأُطلِقَ هنا على مَكانِ المُلازَمةِ؛ فإنَّ القُعودَ يُطلَقُ على مُلازَمةِ الحُصولِ[٤].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِلسَّمْعِ﴾ لامُ العِلَّةِ، أي: لأجْلِ السَّمعِ[٥].

- وفي ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ مَبحَثٌ في مَباحثِ فَصاحةِ الكلِماتِ، حيثُ جاءت هذه اللَّفظةُ ﴿مَقَٰعِدَ﴾ في القُرآنِ حَسنةً مَرْضيَّةً، غيرَ مُضافةٍ إلى مَن تَقبُحُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إضافتُها إليه، وهذا بخِلافِ قولِ الرَّضيِّ في رِثاءِ أبي إسحاقَ الصَّابئِ[١]:

أعْـزِزْ علَـيَّ بـأنْ أراك وقـدْ خـلا ... عـن جانِبَيْـك مَقاعِـدُ العُـوَّادِ

فإنَّ إيرادَ هذه اللَّفظةِ (أي: مَقاعد) في هذا الموضعِ صَحيحٌ، إلَّا أنَّه يُوافِقُ ما يُكرَهُ ذِكرُه، لا سيَّما وقدْ أضافَه إلى مَن يُحتمَلُ (أي: ما يكْرَه) إضافتُه إليه، وهمُ العُوَّادُ، ولو انفرَدَ لَكان الأمْرُ فيه سهْلًا، ولو قال الشاعرُ بدَلًا مِن (مَقاعِد العُوَّادِ): (مَقاعِدُ الزِّيارةِ) لَزالَت تلك الهُجنةُ؛ فإنَّ لِمُصطلحاتِ النَّاسِ في استِعمالِ الكَلِماتِ أثرًا في وَقْعِ الكلِماتِ عندَ الأفهامِ[٢].

- وقولُه: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ تفريعٌ على مَحذوفٍ دلَّ عليه فِعلُ ﴿كُنَّا﴾ وتَرتُّبُ الشَّرطِ وجَزائِه عليه، وتَقديرُه: كنَّا نَقعُدُ منها -أي: مِن السَّماءِ- مَقاعِدَ للسَّمعِ، فنَستمِعُ أشياءَ، ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[٣].

- قيل: جِيءَ بصِيغةِ الشَّرطِ وجَوابِه؛ لأنَّ الغرَضَ تَحذيرُ إخوانِهم مِن التَّعرُّضِ للاستِماعِ؛ لأنَّ المُستمِعَ يَتعرَّضُ لِأذى الشُّهبِ[٤]. أو يكونُ ذلك لِمُجَرَّدِ أنَّهم يُخبِرونَ عن الحالِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ نَتيجةٌ ناتجةٌ عن قولِهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن: ٩] إلخ؛ لأنَّ ذلك

(١) يُنظر: ((ديوان الرضي)) (ص: ٢٩٥)، وفيه (مقاود) بدلًا من (مقاعد).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٨، ٢٢٩).

ويُنظر أيضًا: ((سر الفصاحة)) للخفاجي (ص: ٨٥)، ((المثل السائر)) لابن الأثير (١/ ٢٠٢)؛ فالشَّرطُ السَّادسُ عندَ الخفاجيِّ في الكلمةِ الفصيحةِ: ألَّا تكونَ الكلمةُ قد عُبِّرَ بها عن أمْرٍ آخَرَ يُكرَه ذِكرُه، فإذا أُورِدَت وهي غيرُ مَقصودٍ بها ذلك المعْنى، قَبُحَت.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السَّمعَ كان لمَعرفةِ ما يَجْري به الأمرُ مِن اللهِ للملائكةِ، وممَّا يُخبِرُهم به ممَّا يُريدُ إعلامَهم به، فكانوا على عِلمٍ مِن بَعضِ ما يَتلقَّفونه، فلمَّا مُنِعوا السَّمعَ صاروا لا يَعلَمون شيئًا مِن ذلك، فأخْبَروا إخوانَهم بهذا؛ عَساهم أنْ يَعتبِروا بأسبابِ هذا التَّغيُّرِ، فيُؤمِنوا بالوحْيِ الَّذي حرَسَه اللهُ مِن أنْ يطَّلِعَ عليه أحدٌ قبْلَ الَّذي يُوحَى به إليه والَّذي يَحمِلُه إليه. وهذا تَمهيدٌ لِما سَيَقولونه مِن قولِه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، ثمَّ قولِهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجن: ١٢]، ثمَّ قولِهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، إلى قولِه: ﴿فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾[1] [الجن: ١٣- ١٥].

- وتَكريرُ (أنَّ) واسْمِها للتَّأكيدِ؛ لِكَونِ هذا الخبَرِ مُعرَّضًا لشَكِّ السَّامِعينَ مِن الجنِّ الَّذين لم يَختبِروا حِراسةَ السَّماءِ[2].

- والرَّشَدُ: إصابةُ المَقصودِ النَّافعِ، وهو وَسيلةٌ للخَيرِ؛ فلهذا الاعتبارِ جُعِلَ مُقابِلًا للشَّرِّ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٤).

الآيات (١١-١٢)

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴿١٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾: أي: أصنافًا وضُروبًا وفِرَقًا مُختَلِفةً، والطَّرائِقُ جمعُ طَريقةٍ، وهي طَريقةُ الرَّجُلِ ومَذْهَبُه، والقِدَدُ هي الضُّروبُ والأجناسُ المُختَلِفةُ، جمع قِدَّةٍ: وهي القِطعةُ مِن الشَّيءِ، يُقالُ: صَار القَومُ قِدَدًا: إذا تفرَّقَت أحوالُهم وأهواؤُهم، وقيل: القِدَدُ نحوُ الطَّرائِقِ، وهو تأكيدٌ لها هاهنا، يُقالُ لكُلِّ طَريقةٍ: قِدَّةٌ، والطَّرِيقُ: السَّبيلُ الَّذي يُطْرَقُ بالأرجُلِ، ثمَّ استُعمِلَ في كلِّ مَسلَكٍ يَسلُكُه الإنسانُ في فِعْلٍ، محمودًا كان أو مذمومًا، وأصلُ (قدد): يدُلُّ على قَطعِ الشَّيءِ طُولًا[(١)].

﴿بَخۡسٗا﴾: أي: نَقْصًا مِن عَمَلِه وثَوابِه، وأصلُ (بخس): يدُلُّ على نَقصٍ[(٢)].

﴿رَهَقٗا﴾: أي: ظُلْمًا أو مَكروهًا يَغْشاه، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٨، ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٩، ٤٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٠).

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى ما قالَه هؤلاء الجنُّ يَصِفُونَ به حالَهم وواقعَهم، وأنَّهم قالوا: وأنَّا مِنَّا المُطيعونَ للهِ، ومِنَّا مَنْ هم دُونَهم، كنَّا فِرَقًا ومَذاهِبَ مُتفرِّقةً، وأنَّا عَلِمْنا يقينًا أنَّنا في سُلطانِ اللهِ وقَبضتِه، ولن نَنجُوَ مِن العذابِ إذا أراده بنا في الأرضِ، وإن هرَبْنا منه لم نَنْجُ، فلَنْ نُعْجِزَه إنْ طَلَبَنا، وأنَّا لَمَّا سَمِعْنا القُرآنَ آمَنَّا به، فمَن يؤمِنْ بربِّه فلا يَخافُ أن يَنقُصَ اللهُ شَيئًا مِن حَسَناتِه، ولا أن يَزيدَ شيئًا في سيِّئاتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

أي: وأنَّا مِنَّا المُطيعونَ للهِ، ومِنَّا مَنْ هم دُونَهم[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال ابنُ جُزَي في قولِه: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾: (أراد به الَّذين ليس صلاحُهم كاملًا، أو الَّذين ليس لهم صلاحٌ؛ فإنَّ «دُونَ» قد تكونُ بمعنَى «أقَلّ»، أو بمعنى «غَيْر»). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٨).

قيل: المرادُ بمَن هم دونَ ذلك: الكُفَّارُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنِين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٤٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٠٤).

وقيل: المرادُ: مَن هم أقلُّ مرتبةً منهم في الصَّلاحِ. وقد مال إليه القرطبيُّ، وذهب إليه ابنُ القيِّم، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥)، ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٤١٥، ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٢).

قال ابنُ القيِّم: (تضَمَّنت هذه الآياتُ انقسامَهم إلى ثلاثِ طَبَقاتٍ: صالحينَ، ودونَ الصَّالِحين، وكُفَّارٍ. وهذه الطَّبقاتُ بإزاءِ طبَقاتِ بني آدمَ؛ فإنَّها ثلاثةٌ: أبرارٌ، ومُقتَصِدونَ، وكُفَّارٌ. فالصَّالحونَ بإزاءِ الأبرارِ، ومَنْ دونَهم بإزاءِ المقتَصِدينَ، والقاسِطون بإزاءِ الكُفَّارِ). ((طريق الهجرتين =

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾.

أي: كنَّا مَذاهِبَ مُتعَدِّدةً، وآراءً مُتفرِّقةً، وأهواءً مختلِفةً[١].

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان شأْنُ الصَّلاحِ أنْ يكونَ مَرْضيًّا عندَ اللهِ تعالَى، وشأْنُ ضِدِّه بعكْسِ ذلك؛ أعْقَبوا لتَعريضِ الإقلاعِ عن ضِدِّ الصَّلاحِ بما يَقْتضي أنَّ اللهَ قدْ أعدَّ لغيرِ الصَّالحينَ عِقابًا، فأيْقَنوا أنَّ عِقابَ اللهِ لا يُفلِتُ منه أحدٌ استَحقَّه[٢].

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ١٢﴾.

أي: وأنَّا عَلِمْنا يقينًا أنَّنا في سُلطانِ اللهِ وقَبضتِه وتحتَ قُدرتِه، فلا يُمكِنُنا الإفلاتُ منه في الأرضِ والنَّجاةُ مِن السُّوءِ والعذابِ إذا أراده بنا، وإنْ هَرَبْنا منه لم نَنْجُ، فلَنْ نُعجِزَه إنْ طَلَبَنا[٣].

= وباب السعادتين)) (ص: ٤١٥، ٤١٦).

وقال السعدي: (أي: فُسَّاق، وفُجَّار، وكُفَّار). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال ابن تيمية: (أي: على مَذاهِبَ شتَّى، كما قال العُلماءُ: منهم المسلِمُ، والمشرِكُ، والنَّصرانيُّ، والسُّنِّيُّ، والبِدْعيُّ). ((مجموع الفتاوى)) (١١/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨٢)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٤). =

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعدَ أن ذكَّروا قَومَهم بعذابِ اللهِ في الدُّنيا؛ عادوا إلى ترغيبِهم في الإيمانِ

= قال السمعاني: (معنى الظَّنِّ هاهُنا: اليقينُ، أي: أيقَنَّا أن لن نُعجِزَه في الأرضِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٨).

وقال الرازي: (و﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿هَرَبًا﴾ فيه وجهان:

الأوَّلُ: أنَّهما حالانِ، أي: لن نُعجِزَه كائنينَ في الأرض أيْنَما كُنَّا فيها، ولن نُعجِزَه هارِبينَ منها إلى السَّماءِ.

والثَّاني: لن نُعجِزَه في الأرضِ إن أراد بنا أمرًا، ولن نُعجِزَه هرَبًا إن طَلَبَنا). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٠).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الزمخشريُّ، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٩٩).

قال الألوسي: (لن نُعجِزَ اللهَ تعالى كائنينَ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: أيْنَما كُنَّا مِن أقطارِها ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي: هارِبينَ منها إلى السَّماءِ، فالأرضُ محمولةٌ على الجملةِ. ولَمَّا كان ﴿وَلَن ...﴾ إلخ في مُقابَلةِ ما قَبْلُ، لَزِمَ أن يكونَ الهرَبُ إلى السَّماءِ، وفيه تَرَقٍّ ومُبالَغةٌ، كأنَّه قيل: لن نُعجِزَه سُبحانَه في الأرضِ ولا في السَّماءِ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٩٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، الواحدي، والبغوي، والخازن، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٥٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٣٣).

قال ابن عاشور: (ذِكرُ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يؤذِنُ بأنَّ المرادَ بالهرَبِ في قَولِه: ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ الهرَبُ مِن الرَّجمِ بالشُّهبِ، أي: لا تَطمَعوا أن تَستَرِقوا السَّمعَ؛ فإنَّ رَجْمَ الشُّهُبِ في السَّماءِ لا يُخطِئُكم...، ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿نُّعْجِزَهُۥ﴾ الأوَّلُ بمعْنى نُغالِبَ...، أيْ: لا يَغْلِبونَ قُدْرَتَنا، ويكونَ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مَقصودًا به تَعميمُ الأمكنةِ...، والمرادُ: أنَّا لا نَغلِبُ اللهَ بالقوَّةِ، ويكونَ «نُعجِز» الثَّاني بمعْنى الإفلاتِ، ولذلك بُيِّنَ بـ﴿هَرَبًا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٤).

باللهِ وَحْدَه، وتحذيرِهم مِن الكُفرِ بطريقِ المفهومِ[(١)].

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

أي: وأنَّا لَمَّا سَمِعْنا القُرآنَ الَّذي يَهدِي إلى الحَقِّ، آمَنَّا به دونَ تردُّدٍ[(٢)].

﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾.

أي: فمَن يؤمِنْ بربِّه فلا يَخافُ أن يَنقُصَ اللهُ شَيئًا مِن حَسَناتِه، ولا أن يَزيدَ شيئًا في سيِّئاتِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٢).

ممَّن ذهب إلى القولِ المذكورِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعاني، وابن القيم، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٨)، ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٨).

قال ابن كثير: (﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، وغيرُهما: فلا يَخافُ أن ينقصَ مِن حسناتِه، أو يُحمَلَ عليه غيرُ سيِّئاتِه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٢).

وقال الشوكاني: (﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: لا يخافُ نقصًا في عمَلِه وثَوابِه، ولا ظُلْمًا ومكروهًا يَغشاه، والبَخْسُ: النُّقصانُ، والرَّهَقُ: العُدوانُ والطُّغيانُ، والمعنى: لا يخافُ أن ينقصَ مِن حسناتِه، ولا أن يُزادَ في سيِّئاتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٨).

وقال الواحدي: (﴿وَلَا رَهَقًا﴾ ظُلْمًا، بأن يَذهَبَ عمَلُه كلُّه. قاله الكلبيُّ ومقاتلٌ. وقال عَطاءٌ: ﴿رَهَقًا﴾: عذابًا. قال المُبَرِّدُ: البَخسُ: الظُّلمُ، والرَّهقُ: ما يَغشاه مِن المكروهِ، فيَدخُلُ فيه العذابُ، ونُقصانُ الحسناتِ والثَّوابِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٣٠٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٣).

=

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ [طه: ١١٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾ يَعنُونَ بالصَّالحينَ: أنفُسَهم، وبمَن دونَ الصَّلاحِ: بَقيَّةَ نَوعِهم، فلمَّا قاموا مَقامَ دَعوةِ إخوانِهم إلى اتِّباعِ طَريقِ الخَيرِ، لم يُصارِحوهم بنِسبتِهم إلى الإفسادِ، بل أبهَموا وقالوا: ﴿مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، ثمَّ تلَطَّفوا فقالوا: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ الصَّادِقُ بمراتبَ مُتفاوِتةٍ في الشَّرِّ والفَسادِ؛ لِيَتطَلَّبَ المُخاطَبونَ دلائِلَ التَّمييزِ بيْنَ الفريقَينِ، على أنَّهم ترَكوا لهم احِتمالَ أن يُعنى بالصَّالحينَ الكامِلونَ في الصَّلاحِ، فيَكونَ المعنيُّ بمَن دونَ ذلك: مَن هم دونَ مَرتبةِ الكمالِ في الصَّلاحِ، وهذا مِن بليغِ العباراتِ في الدَّعوةِ والإرشادِ إلى الخيرِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾، وإذا سَلِمَ مِنَ الشَّرِّ حصَلَ له الخيرُ، فالإيمانُ سَبَبٌ داعٍ إلى حصولِ كُلِّ خَيرٍ، وانتِفاءِ كُلِّ شَرٍّ(٢).

٣- قال تعالى: ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾؛ لأنَّه لم يَبخَسْ أحدًا حقًّا، ولا ظلَم أحدًا، فلا يَخافُ جزاءَهما، وفيه دَلالةٌ على أنَّ مِنْ حقِّ مَنْ آمَنَ باللهِ تعالَى أنْ يَجتنِبَ المَظالِمَ(٣).

= وقال السعدي: (﴿فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾، أي: لا نَقْصًا، ولا طُغيانًا، ولا أذًى يَلحَقُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، وقَولُه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدًا ۞ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤، ١٥]، وقَولُه: ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾ فيه أنَّ الجِنَّ مكلَّفونَ بطاعةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، مأمورونَ مَنهيُّونَ، مُجازَونَ بأعمالِهم، وأنَّ منهم المسلِمَ والكافرَ، والصَّالحَ ودونَ ذلك[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أنَّ اللهَ قادِرٌ على العِبَادِ حيثُ كانوا[٢].

٣- قال تعالى حكايةً عن الجنِّ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ فذكروا ما يَقْتضي أنَّ اللهَ قدْ أعدَّ لغيرِ الصَّالحينَ عِقابًا، فأيْقَنوا أنَّ عِقابَ اللهِ لا يُفلِتُ منه أحدٌ استَحقَّه، وقَدَّموه على الأمرِ بالإيمانِ الَّذي في قَولِه: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [الجن: ١٣] الآيَةَ؛ لأنَّ دَرءَ المفاسدِ مُقَدَّمٌ على جَلبِ المصالحِ، والتَّخليةَ مُقَدَّمةٌ على التَّحْليةِ، وقدِ استَفادوا عِلمَ ذلك ممَّا سَمِعوا مِن القُرآنِ، ولم يَكونوا يَعلَمون ذلك مِن قبْلُ؛ إذ لم يَكونوا مُخاطَبينَ بتَعليمٍ في أُصولِ العقائدِ، فلمَّا أَلْهَمَهم اللهُ لاستِماعِ القرآنِ، وعَلِموا أُصولَ العقائدِ؛ حذَّروا إخوانَهم اعتقادَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ١٩١).
قال ابنُ تَيميَّةَ: (لا رَيبَ أنَّهم مَأمورونَ بأعمالٍ زائدةٍ على التَّصديقِ، ومَنْهيُّون عن أعمالٍ غيرِ التَّكذيبِ؛ فهم مأمورونَ بالأصولِ والفُروعِ بحَسَبِهم؛ فإنَّهم لَيسوا مُماثِلي الإنسِ في الحدِّ والحقيقةِ، فلا يكونُ ما أُمِروا به ونُهُوا عنه مُساويًا لِما على الإنسِ في الحدِّ، لكنَّهم مُشاركونَ الإنسَ في جِنسِ التَّكليفِ بالأمرِ والنَّهيِ والتَّحليلِ والتَّحريمِ. وهذا ما لم أعلَمْ فيه نِزاعًا بيْن المسلمينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٠٦).

الشِّركِ ووَصْفَ اللهِ بما لا يَليقُ به؛ لأنَّ الاعتقادَ الباطلَ لا يُقِرُّه الإدراكُ المستقيمُ بعْدَ تَنبيهِه؛ لبُطلانِه[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾، أي: بوُجودِه وانفرادِه بالإلهيَّةِ، كما يُشعِرُ به إحضارُ اسمِه بعُنوانِ الرَّبِّ؛ إذِ الرَّبُّ هو الخالقُ، فما لا يَخلُقُ لا يُعبَدُ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أنَّ مُحْسِني الجِنِّ في الجَنَّةِ، كما أنَّ مُسيئَهم في النَّارِ. ووَجهُ الاحتجاجِ بالآيةِ أنَّ البَخْسَ المَنْفِيَّ هو نُقصانُ الثَّوابِ، والرَّهَقَ: الزِّيادةُ في العُقوبةِ على ما عَمِلَ؛ فلا يُنْقَصُ مِن ثوابِ حَسَناتِه، ولا يُزادُ في سيِّئاتِه، ونظيرُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، أي: لا يَخافُ زيادةَ سيِّئاتِه، ولا نُقصانَ حَسَناتِه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾

- قولُه: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، أي: كنَّا ذَوي مَذاهبَ مُفترِقةٍ مُختلِفةٍ، أو كُنَّا في اختلافِ أحوالِنا مِثلَ الطَّرائقِ المُختلِفةِ، على حذْفِ المُضافِ مِن ﴿طَرَآئِقَ﴾، وإقامةِ المُضافِ إليه (ذَوي أو مِثْل) مُقامَه، أو كانتْ طَرائقُنا طَرائقَ قِدَدٍ، على حذْفِ المُضافِ -الَّذي هو الطَّرائقُ- وإقامةِ الضَّميرِ المُضافِ إليه مُقامَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٢).

- وقيل: قولُه: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ؛ شُبِّهَ تَخالُفُ الأحوالِ والعقائدِ بالطَّرائقِ تُفْضي كلُّ واحدةٍ منها إلى مَكانٍ لا تُفْضي إليه الأُخرى[١].

- ووُصِفَت ﴿طَرَآئِقَ﴾ بـ ﴿قِدَدًا﴾؛ لدَلالتِها على معْنى التَّقطُّعِ والتَّفرُّقِ[٢]؛ فالقِدَّةُ: القِطعةُ مِن جِلْدٍ ونحْوِه، المَقطوعةُ طُولًا كالسَّيرِ، شُبِّهَت الطَّرائقُ في كَثرتِها بالقِدَدِ المُقتطَعةِ مِن الجِلْدِ يُقطِّعُها صانعُ حِبالِ القِدِّ، كانوا يُقيِّدون بها الأسْرى[٣].

- وأيضًا هذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بذَمِّ الاختِلافِ بيْن القَومِ، وأنَّ على القَومِ أنْ يَتَّحِدوا، ويَتطلَّبوا الحقَّ؛ لِيَكونَ اتِّحادُهم على الحقِّ، وليس المقصودُ منه فائدةَ الخبَرِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ يَعلَمون ذلك، والتَّوكيدُ بـ (أنَّ) مُتوجِّهٌ إلى المعْنى التَّعريضيِّ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ عطْفٌ على المجرورِ في قولِه: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ٢]، والتَّقديرُ: وآمنَّا بأنْ لنْ نُعجزَ اللهَ في الأرضِ. وذِكرُ فِعلِ ﴿ظَنَنَّآ﴾ تأْكيدٌ لَفظيٌّ لِفعلِ (آمَنَّا) المُقدَّرِ بحرْفِ العَطْفِ؛ لأنَّ الإيمانَ يَقينٌ، وأُطلِقَ الظَّنُّ هنا على اليقينِ، وهو إطلاقٌ كثيرٌ[٥]، وقرينةُ استعمالِ الظَّنِّ هنا في اليَقينِ هي تأْكيدُ المَظنونِ بحرْفِ (لَنْ)[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٤، ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٣). ويُنظر ما تقدَّم في غريبِ الكلماتِ (ص: ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٤).

- قولُه: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ الإعجازُ هنا كِنايةٌ عن الإفلاتِ والنَّجاةِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾ عطْفٌ على المَجرورِ في قولِه: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ٢]، والمقصودُ بالعطْفِ قولُه: ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾، وأمَّا جُملةُ ﴿لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ فتَوطئةٌ لذلك[٢].

- وأُريدَ بالهُدى القُرآنُ؛ إذ هو المَسموعُ لهم، ووَصَفوه بالهُدى للمُبالَغةِ في أنَّه هادٍ[٣].

- وجُملةُ ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مِن القولِ المَحكيِّ عن الجنِّ، ويجوزُ أنْ تكونَ كَلامًا مِن اللهِ مُوجَّهًا للمشركينَ، وهي مُعترِضةٌ بيْنَ الجُملتينِ المُتعاطفَتَينِ[٤].

- وجُملةُ ﴿فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾ جَوابٌ لشَرْطِ (مَن)، جُعِلَت بصُورةِ الجُملةِ الاسميَّةِ فقُرِنَت بالفاءِ مع أنَّ ما بعْدَ الفاءِ فِعلٌ، وشأْنُ جَوابِ الشَّرطِ ألَّا يَقترِنَ بالفاءِ إلَّا إذا كان غيرَ صالحٍ لأنْ يكونَ فِعلَ الشَّرطِ، فكان اقترانُه بالفاءِ وهو فِعلٌ مُضارِعٌ مُشيرًا إلى إرادةِ جَعْلِه خبَرَ مُبتدأٍ مَحذوفٍ بحيث تكونُ الجُملةُ اسميَّةً، والاسميَّةُ تَقترِنُ بالفاءِ إذا وَقَعَت جَوابَ شَرْطٍ، فكان التَّقديرُ هنا: (فهو لا يَخافُ)؛ ليَكونَ دالًّا على تَحقيقِ سَلامتِه مِن خَوفِ البَخسِ والرَّهَقِ، وليَدُلَّ على اختصاصِه بذلك دونَ غيرِه الَّذي لا يُؤمِنُ برَبِّه، فتَقديرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المُسنَدِ إليه قبْلَ الخبَرِ الفِعليِّ هنا يَقْتضي التَّخصيصَ والتَّقَوِّيَ. وقد يُقالُ: إنَّ العُدولَ عن تَجريدِ الفعلِ مِن الفاءِ وعن جَزْمِه؛ لدفْعِ إيهامِ أنْ تكونَ (لا) ناهيةً، فهذا العُدولُ صَراحةٌ في إرادةِ الوعْدِ، دونَ احتمالِ إرادةِ النَّهيِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٥).

الآيات (١٤-١٧)

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾: أي: الظَّالِمونَ الَّذين كفَروا، العادِلُونَ عن الحَقِّ إلى الباطِلِ، يُقالُ: قَسَط: أي: جارَ. وأقسَطَ: إذا عَدَلَ، والقَسْطُ -بفتحِ القافِ-: الجَورُ، والقُسوطُ: العُدولُ عن الحَقِّ[١].

﴿تَحَرَّوْا۟﴾: أي: تَوخَّوا وقَصَدوا، والتَّحَرِّي: القَصدُ للشَّيءِ، مِن قَولِهم: ذلك أحْرَى، أي: أحَقُّ وأقرَبُ، وأصلُه يدُلُّ على القُربِ والقَصدِ[٢].

﴿رَشَدًا﴾: الرَّشَدُ والرُّشْدُ: نقيضُ الضَّلالِ، وهو الاهتِداءُ والدَّيمومةُ عليه، وأصلُ (رشد): يدُلُّ على استِقامةِ الطَّريقِ[٣].

﴿حَطَبًا﴾: أي: وَقودًا للنَّارِ، وأصلُ (حطب): يدُلُّ على وَقودٍ[٤].

﴿غَدَقًا﴾: أي: كثيرًا غَزيرًا، يُقالُ: غَدِقَت العَينُ تَغدَقُ، فهي غَدِقةٌ: إذا كَثُرَ ماؤُها،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧).

وأصلُ (غدق): يدُلُّ على غُزْرٍ وكَثرةٍ[١].

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾: أي: لِنَختبِرَهم، والفِتنةُ في الأصلِ: الاختِبارُ، والابتلاءُ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءَتِه[٢].

﴿يَسْلُكْهُ﴾: أي: يُدْخِلْه، والسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريقِ، يُقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ أسْلُكُه. وسَلَكْتُ الشَّيءَ في الشَّيءِ: أنْفَذْتُه، وأصلُ (نفذ): يدُلُّ على نُفوذِ شيءٍ في شيءٍ[٣].

﴿صَعَدًا﴾: أي: شَديدًا شاقًّا، والصَّعَدُ: المشَقَّةُ، تقولُ: تصَعَّدَني الأمرُ: إذا شَقَّ عليك، وهو مَصدَرُ صَعِدَ، يُقالُ: صَعِدَ صَعَدًا وصُعودًا، فوُصِفَ به العَذابُ؛ لأنَّه يتصَعَّدُ المعَذَّبَ، أي: يَعْلوه ويَغلِبُه فلا يُطيقُه، وأصلُ (صعد): يدُلُّ على ارتفاعٍ ومشَقَّةٍ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى حكايةً عن الجنِّ: وأنَّا مِنَّا المُسلِمونَ المُطِيعونَ للهِ، ومِنَّا الجائِرونَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩).

عن طريقِ الحَقِّ، فمَنْ أسلَمَ للهِ تعالى بالتَّوحيدِ، وخَضَع له بالطَّاعةِ، فأولئك قصَدُوا الحَقَّ والصَّوابَ، وأمَّا الجائِرونَ عن الإسلامِ فكانوا وَقُودًا لجهنَّمَ.

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى سُنَّةً مِن سُنَنِه في عبادِه، فيقولُ: وأنْ لو استقام الظَّالِمونَ على طريقةِ الحَقِّ، لَأَسْقاهم اللهُ ماءً كثيرًا غَزيرًا، وأرغَدَ لهم العَيشَ؛ لِيَختَبِرَهم اللهُ فيما وسَّعَ عليهم مِنَ الرِّزقِ، ومَن يُعرِضْ عن القُرآنِ الكريمِ يُدخِلْه اللهُ عَذابًا شَديدًا شاقًّا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾.

أي: وأنَّا مِنَّا المُسلِمونَ المُطِيعونَ لله، السَّائِرونَ على صِراطِه المستقيمِ، ومِنَّا الجائِرونَ العادِلونَ عن طريقِ الحَقِّ القَويمِ[1].

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾.

أي: فمَنْ أسلَمَ للهِ تعالى بالتَّوحيدِ، وخَضَع له بالطَّاعةِ؛ فأولئك الَّذين توَخَّوا وقصَدُوا الحَقَّ والصَّوابَ، وسَلَكوا طريقَه الموصِلَ إلى الجنَّةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٦).
قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ أي: وأنَّا بعدَ استماعِ القُرآنِ مُختَلِفونَ؛ فمِنَّا مَن أسلَمَ، ومِنَّا مَن كَفَر). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨٤، ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).
ممَّن اختار أنَّ هذا مِن كلامِ الجنِّ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّي، وابن الجوزي، وأبو حيَّان. =

﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

أي: وأمَّا الجائِرونَ عن الإسلامِ، العادِلونَ باللهِ تعالى غَيرَه؛ فكانوا وَقُودًا لجهنَّمَ، تتوقَّدُ بهم؛ جزاءً على أعمالِهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾.

أي: وأنْ لو عَدَل الظَّالِمونَ إلى طريقِ الصَّوابِ، واستقاموا على طريقةِ الحَقِّ، لَأسْقَيْناهم ماءً كثيرًا غَزيرًا عظيمَ النَّفعِ، نُكثِّرُ به الرِّزقَ، ونُزَيِّنُ به الأرضَ، ونُرغِدُ به العَيشَ[(٢)].

= يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٩).

وممَّن اختار أنَّ هذا مِن كلامِ الله تعالى، لا الجِنِّ: ابنُ عطيَّة، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال القرطبي: (قوله: ﴿فَكَانُوا۟﴾ أي: في عِلمِ اللهِ تعالى). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧).

وقال البِقاعي: (﴿فَكَانُوا۟﴾ بجِبِلَّاتِهم). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧-١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨٦، ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٧، ٢٣٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الاستِقامةُ على طريقةِ الحَقِّ والهُدى: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وسعيدُ بنُ المُسيِّبِ، وعَطاءٌ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٥٣).

وقيل: المرادُ: طريقةُ الكُفرِ والضَّلالةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٣٣٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو مِجْلَزٍ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٥٣).

قال ابنُ كثير: (القَولُ الثَّاني: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ الضَّلالةِ ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ أي: لَأوسَعْنا عليهم الرِّزقَ؛ استِدراجًا... وله اتِّجاهُ، ويتأيَّدُ بقَولِه: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٣).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (وقال مُقاتلٌ وجُمهورُ المفسِّرينَ: هذا إخبارٌ عن أهْلِ مكَّةَ. المعنى: وأنْ لو استَقاموا على طَريقةِ الهُدى.

وذهَبَ قومٌ إلى أنَّ المرادَ بها: طَريقةُ الكفْرِ. وهو قولُ محمَّدِ بنِ كعْبٍ، والرَّبيعِ، والفَرَّاءِ، وابنِ قُتَيْبَةَ.

فعلى الأوَّلِ يكونُ المعنى: لو آمَنوا لَوسَّعْنا عليهم؛ ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ لِنَختَبِرَهم فنَنظُرَ كيف شُكْرُهم.

وعلى الثَّاني يكونُ المعنى: وأنْ لو استَقاموا على طَريقتِهم في الكفْرِ لَوسَّعْنا عليهم؛ لنُوقِعَهم في الفِتنةِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣١٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٤).

وهذه الجملةُ مِن قولِ الله تعالى، لا الجِنِّ. وممَّن نصَّ على ذلك: مكِّيٌّ، والقرطبيُّ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٩).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ [هود: ١١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقال تبارك وتعالى حكايةً عن نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا * يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا * وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

وعن سُفيانَ بنِ عَبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحدًا بَعْدَك. قال: قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، فاستَقِمْ))[(١)].

﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ١٧﴾.

﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾.

أي: لِنَختَبِرَهم فيما وسَّعْنا عليهم مِنَ الرِّزقِ، فيَنكَشِفَ الشَّاكِرُ مِن غَيرِه، ويَظهَرَ مَن يَستَمِرُّ منهم على الهِدايةِ، ومَن يَرتَدُّ إلى الغَوايةِ[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا * وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧، ٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

---

(١) رواه مسلم (٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).
قال ابنُ جُزَي: (﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾ إنْ كانت الطَّريقةُ الإيمانَ والطَّاعةَ، فمعْنى الفِتنةِ: الاختبارُ، هلْ يُسلِمون أمْ لا؟ وإنْ كانت الطَّريقةُ الكفْرَ، فمعْنى الفِتنةِ: الإضلالُ والاستدراجُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٩).

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: ١٥].

وعن عَمرِو بنِ عَوفٍ البَدْريِّ رَضِيَ الله عنه: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((واللهِ ما الفَقرَ أَخشَى عليكم، ولكِنِّي أخشَى أن تُبسَطَ عليكم الدُّنيا كما بُسِطَت على مَن كان قَبْلَكم، فتَنافَسوها كما تَنافَسوها، وتُهلِكَكم كما أهلَكَتْهُم!))[1].

﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾.

أي: ومَن يُعرِضْ عن القُرآنِ -فلا يتَّبِعْه ولا يعمَلُ به-؛ يُدخِلْه اللهُ عَذابًا شَديدًا شاقًّا لا يُطيقُه[2].

---

(١) رواه البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩، ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾: القرآنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١١٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣١٢).

ومِن المفسِّرينَ مَن قال: إنَّ المرادَ: توحيدُ ربه، كالسَّمَرْقَنْديِّ. ومنهم مَن قال: الإيمانُ بربِّه، كالسَّمْعانيِّ. ومنهم مَن قال: عبادةُ ربِّه، كالخازِنِ، والعُلَيميِّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٦).

قال الألوسي: (الذِّكرُ مصدرٌ مُضافٌ لمفعولِه تُجُوِّزَ به عن العبادةِ. أو هو بمعنى التَّذكيرِ مُضافٌ لفاعِلِه، ويُفسَّرُ بالموعظةِ. وقال بعضُهم: المرادُ بالذِّكْرِ: الوحيُ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٠١). ويُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٥٨).

قال الماوَرْدي: (﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾ قال ابنُ زَيدٍ: يعني: القرآنَ. وفي إعراضِه عنه =

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ فيه أنَّ مَنْ آمَنَ باللهِ فقد توخَّى سَبَبَ النَّجاةِ، وما يحصُلُ به الثَّوابُ؛ لأنَّ الرَّشَدَ سَبَبُ ذلك(١).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فكُلُّها نصوصٌ على أنَّ الأمَّةَ إذا استقامت على الطَّريقةِ القويمةِ؛ شِرعةِ اللهِ، فَتَح عليهم بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ والأرضِ، ومفهومُ ذلك: أنَّ مَن لم يَستَقِمْ على الطَّريقةِ فقد يكونُ انحرافُه أو شِرْكُه مُوجِبًا لحِرمانِه مِن نعمةِ اللهِ -تعالى- عليه(٢).

٣- مَن أحَبَّ تَصفيةَ الأحوالِ، فلْيَجتَهِدْ في تصفيةِ الأعمالِ؛ قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ أنَّ مُؤْمِني الجنِّ في الجَنَّةِ؛ فالرَّشَدُ هو الهُدى والفَلاحُ، وهو الَّذي يَهدي إليه القُرآنُ، ومَن لم يَدْخُلِ الجَنَّةَ لم

= وجهانِ؛ أحدُهما: عن القَبولِ، إنْ قيلَ: إنَّها في أهلِ الكُفرِ. الثَّاني: عن العَمَلِ، إنْ قيلَ: إنَّها في المؤمنينَ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١١٨). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٣١).

يَنَلْ غايةَ الرَّشَدِ، بل لم يَحصُلْ له مِن الرَّشَدِ إلَّا مجَرَّدُ العِلمِ[١]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ ذكَرَ عِقابَ القاسِطينَ، ولم يذكُرْ ثوابَ المُسلِمينَ؟

الجوابُ: بل ذكَرَ ثوابَ المؤمِنينَ، وهو قَولُه تعالى: ﴿تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤]، أي: توَخَّوا رشَدًا عَظيمًا لا يَبلُغُ كُنْهَه إلَّا اللهُ تعالى، ومِثلُ هذا لا يتحَقَّقُ إلَّا في الثَّوابِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أنَّ كافِرَ الجِنِّ في النَّارِ ككافِرِ الإنسِ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ فيه سؤالٌ: الجِنُّ مخلوقون مِن النَّارِ، فكيف يَكونونَ حَطَبًا للنَّارِ، وكيفَ يُعَذَّبون بها؟

الجوابُ: أنَّهم وإن خُلِقوا مِنَ النَّارِ لكِنَّهم تغَيَّروا عن تلك الهيئةِ، وصاروا خَلْقًا آخَرَ[٤]. فالإنسانُ أصلُه الطِّينُ، وليس طينًا حقيقةً، لكنَّه كان طينًا، كذلك الجانُّ كان نارًا في الأصلِ[٥]. وأيضًا فإنَّ النَّارَ يكونُ بَعضُها أقوى مِن بَعضٍ، فالأقوى يُؤثِّرُ على الأضعَفِ، ومعلومٌ أنَّ النَّارَ طَبَقاتٌ بَعضُها أشَدُّ مِن بَعضٍ، وهذا أمرٌ مَلموسٌ؛ فقد تكونُ الآلةُ مَصنوعةً مِن حَديدٍ، وتُسَلَّطُ عليها آلةٌ مِن حديدٍ أيضًا أقوى منها فتَكسِرُها. كما قيل: (لا يَفُلُّ الحديدَ إلَّا الحديدُ)، فلا

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧١).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((آكام المرجان في أحكام الجان)) للشبلي (ص: ٣١).

يَمنَعُ كَونُ أصلِه مِن نارٍ ألَّا يتعذَّبَ بالنَّارِ، كما أنَّ أصلَ الإنسانِ مِن طِينٍ مِن حَمَأٍ مَسنونٍ، ومِن صَلصالٍ كالفَخَّارِ، وبَعْدَ خَلْقِه فإنَّه لا يَحتَمِلُ التَّعذيبَ بالصَّلصالِ ولا بالفخَّارِ؛ فقد يُقضَى عليه بضَربةٍ مِن قِطعةٍ مِن فَخَّارٍ(١). واللهُ تعالى قادرٌ أن يعذِّبَ النَّارَ بالنَّارِ(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ لا يُعارِضُ قَولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]؛ لأنَّ القاسِطَ هو الجائِرُ، والمُقسِطَ هو العادِلُ، فهما ضِدَّانِ(٣).

٦- مِن عُقوباتِ المعاصي: أنَّها تَمحَقُ بَرَكةَ العُمُرِ، وبَرَكةَ الرِّزقِ، وبرَكةَ العِلمِ، وبرَكةَ العمَلِ، وبَركةَ الطَّاعةِ، وبالجُملةِ فإنَّها تَمحَقُ بَركةَ الدِّينِ والدُّنيا، فلا تجِدُ أقَلَّ بَرَكةً في عُمُرِه ودِينِه ودُنياه ممَّن عصى اللهَ، وما مُحِقَت البَركةُ مِنَ الأرضِ إلَّا بمعاصي الخَلْقِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، وإنَّ العَبدَ لَيُحرَمُ الرِّزقَ بالذَّنْبِ يُصيبُه(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أنَّ الإعطاءَ قد يكونُ فِتنةً(٥).

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ هذا وَعْدٌ بالجزاءِ

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨٤).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٥٤).

على الاستِقامةِ في الدِّينِ جَزاءً حَسنًا في الدُّنيا، يكونُ عُنوانًا على رِضا اللهِ تعالَى، وبِشارةً بثَوابِ الآخِرةِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۞ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾

- قولُه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ عطْفٌ على المَجرورِ بالباءِ في قولِه: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ٢]، والمَقصودُ بالعطْفِ قولُه: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾، وما قبْلَه تَوطئةٌ له، وهذا تَفصيلٌ لقولِهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن: ١١]؛ لأنَّ فيه تَصريحًا بأنَّ دونَ ذلك هو ضِدُّ الصَّلاحِ[٢].

- وقدْ جاء هذا التَّقسيمُ وإنْ كان قدْ تقدَّمَ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ ليُذكَرَ حالُ الفريقينِ مِن النَّجاةِ والهَلَكةِ، ويُرغَّبَ مَن يَدخُلُ في الإسلامِ[٣].

- قولُه: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۞ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ على القولِ بأنَّ هذا خارجٌ عن الكَلامِ المَحكيِّ عن الجنِّ، وأنَّه كَلامٌ مِن جانبِ اللهِ تعالَى لمَوعظةِ المشرِكينَ مِن النَّاسِ فهو في معْنى التَّذييلِ، وإنَّما قُرِنَ بالفاءِ لتَفريعِه على القِصَّةِ؛ لاستخلاصِ العِبرةِ منها، فالتَّفريعُ تَفريعُ كَلامٍ على كَلامٍ، وليس تَفريعَ معْنى الكلامِ على معْنى الكلامِ الَّذي قبْلَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٦).

- وتَنوينُ ﴿رَشَدًا﴾؛ للتَّعظيمِ[١].

- وإقحامُ فِعلِ (كانوا)؛ لتَحقيقِ مَصيرِهم إلى النَّارِ، حتَّى كأنَّهم كانوا كذلك مِن زمَنٍ مَضى[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾

- الضميرُ في قولِه: ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ يجوزُ أنْ يعودَ إلى القاسِطينَ، ويجوزُ أنْ يكونَ عائِدًا إلى غيرِ مذكورٍ في الكلامِ، ولكِنَّه معروفٌ مِن المقامِ؛ إذِ السُّورةُ مَسوقَةٌ للتَّنبيهِ على عنادِ المُشْركينَ وطَعْنِهم في القرآنِ، فضميرُ ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ عائدٌ إلى المشْركينَ[٣].

- الاستقامةُ على الطَّريقةِ تَمثيلٌ لهَيئةِ المُتَّصِفِ بالسُّلوكِ الصَّالحِ، والاعتقادِ الحقِّ، بهَيئةِ السَّائرِ سَيرًا مُستقيمًا على طَريقةٍ؛ ولذلك فالتَّعريفُ في الطَّريقةِ للجِنسِ لا للعهْدِ[٤].

- قولُه: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، أيْ: لَوسَّعْنا عليهم الرِّزقَ. وتَخصيصُ الماءِ الغَدَقِ -وهو الكثيرُ- بالذِّكرِ؛ لأنَّه أصلُ المَعاشِ والسَّعةِ، ولعِزَّةِ وُجودِه بيْن العرَبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٥).

وفي هذا إنذارٌ بأنَّه يُوشِكُ أنْ يُمسَكَ عن أهلِ مكَّةَ المطرُ- وذلك على قولٍ-، فيَقَعوا في القحْطِ والجُوعِ، وهو ما حَدَثَ عليهم بعْدَ هِجرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى المدينةِ ودُعائِه عليهم بسِنينَ كسِنِي يُوسُفَ[١]؛ فإنَّه دَعا بذلك في المدينةِ في القُنوتِ، وقدْ كانوا يومَ نُزولِ هذه الآيةِ في بُحبُوحةٍ مِن العيشِ وفي نَخيلٍ وجنَّاتٍ، فكان جعْلُ تَرتُّبِ الإسقاءِ على الاستقامةِ على الطَّريقةِ -كما اقتضاهُ الشَّرطُ بحَرْفِ (لَو)- مُشيرًا إلى أنَّ المرادَ: لأَدَمْنا عليهم الإسقاءَ بالماءِ الغَدَقِ، وإلى أنَّهم لَيسوا بسالِكِينَ سَبيلَ الاستقامةِ، فيُوشِكُ أنْ يُمسَكَ عنهم الرِّيُّ، ففي هذا إنذارٌ بأنَّهم إنِ استَمَرُّوا على اعوجاجِ الطَّريقةِ أُمسِكَ عنهم الماءُ، وبذلك يَتناسَبُ التَّعليلُ بالإفتانِ في قولِه: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ مع الجُملةِ السَّابقةِ؛ إذ يكونُ تَعليلًا لِما تَضمَّنَه معْنى إدامةِ الإسقاءِ؛ فإنَّه تَعليلٌ للإسقاءِ الموجودِ حِينَ نُزولِ الآيةِ، ولَيس تَعليلًا للإسقاءِ المفروضِ في جَوابِ (لَو)؛ لأنَّ جَوابَ (لَو) مُنتَفٍ، فلا يَصلُحُ لأنْ يُعلَّلَ به، وإنَّما هم مَفْتونونَ بما همْ فيه مِن النِّعمةِ، فأراد اللهُ أنْ يُوقِظَ قُلوبَهم بأنَّ استمرارَ النِّعمةِ عليهم فِتنةٌ لهم، فلا تَغُرَّنَّهم[٢].

- وجُملةُ ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ إدماجٌ[٣]، فهي مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[٤].

- وأُكِّدَت الكنايةُ عن الإنذارِ المأخوذةُ مِن قولِه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ بصَريحِ الإنذارِ بقولِه: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا

(١) أخرجه البخاري (١٠٠٦)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٩).

صَعَدًا﴾، أي: فإنْ أعْرَضوا انقَلَبَ حالُهم إلى العذابِ، فسَلَكْنا بهم مَسالِكَ العَذابِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ فيه العُدولُ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (عن ذِكْرِنا)، أو (عن ذِكْري)؛ لاقتضاءِ الحالِ الإيماءَ إلى وَجْهِ بناءِ الخبَرِ؛ فإنَّ المُعرِضَ عن ربِّه الَّذي خلَقَه وأنشَأَه ودبَّرَه حَقيقٌ بأنْ يُسلَكَ عَذابًا صَعَدًا[٢].

- قولُهص: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ على قِراءةِ ﴿نَسْلُكْه﴾ بنُونِ العظَمةِ، ففيهِ الْتفاتٌ[٣].

- قولُه: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الأصلُ: يَسْلُكْه في عَذابٍ، كقولِه: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، فعُدِّيَ إلى مَفعولينِ: إمَّا بحذْفِ الجارِّ وإيصالِ الفِعلِ، كقولِه: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وإمَّا بتَضمينِه معْنى (نُدخِلْه)[٤]، وعلى القولِ بأنَّ ﴿عَذَابًا﴾ انتَصَبَ على نزْعِ الخافضِ، وهو حرْفُ الظَّرفيَّةِ (في)، فهي ظَرفيَّةٌ تدُلُّ على أنَّ العَذابَ إذا حلَّ به يُحيطُ به إحاطةَ الظَّرفِ بالمَظروفِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٤٠).

قرَأ الكوفِيُّونَ (عاصمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ) ويعقوبُ: ﴿يَسْلُكْهُ﴾ بالياءِ، وقرأها الباقونَ بالنُّونِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٩).

- وقولُه: ﴿صَعَدًا﴾، أي: شاقًّا صَعْبًا يَعلُو المُعذَّبَ ويَغلِبُه، على أنَّه مَصدرٌ وُصِفَ به مُبالَغةً[١].

- واستُعمِلَ السَّلكُ هنا في معْنى شِدَّةِ وُقوعِ الفعلِ، والمعْنى: نُعذِّبْه عَذابًا لا مَصرِفَ عنه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٩).

الآيات (١٨-٢٤)

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِبَدًا﴾: أي: جماعاتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ، شُبِّهَت بالشَّيءِ المتلَبِّدِ بعضُه فوقَ بَعضٍ، وهو مِن: تلَبَّدَ الشَّيءُ على الشَّيءِ: أي تجَمَّعَ، وأصلُ (لبد): يدُلُّ على تكَرُّسِ الشَّيءِ بَعضِه فوقَ بَعضٍ[(١)].

﴿يُجِيرَنِى﴾: أي: يَنصُرَني، وَيدفَعَ عنِّي، وأصلُه مِنَ الجِوارِ بمعنى التَّأمينِ[(٢)].

﴿مُلْتَحَدًا﴾: أي: مَلجأً أمِيلُ إليه، وأصلُ (لحد): يدُلُّ على مَيلٍ[(٣)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾

---

(١) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣).

قَولُه: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾: فيه أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّه استِثناءٌ مُنقَطِعٌ، أي: لكِنْ إنْ بَلَّغْتُ عن اللهِ رَحِمني. الثَّاني: أنَّه مُتَّصِلٌ، وتأويلُه: أنَّ الإجارةَ مُستعارةٌ للبلاغِ، إذ هو سَبَبُها، وسببُ رحمتِه تعالى، والمعنى: ولن أجِدَ مِن دُونِه مَنجًى إلَّا بلاغًا، أي: لا يُنجِيني إلَّا أن أُبلِّغَ عن اللهِ ما أُرسِلْتُ به، وعليه يكونُ بدلًا مِنْ ﴿مُلْتَحَدًا﴾؛ لأنَّ الكلامَ غيرُ موجَبٍ. أو يكونُ مَنصوبًا على الاستثناءِ. الثَّالثُ: أن يكونَ مُستثنًى مُنقَطِعًا مِن قَولِه: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ [الجن: ٢١]، فقال: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾ استِثناءً منه، أي: لا أملِكُ إلَّا أنْ أُبَلِّغَكم ما أُرْسِلْتُ به. وقولُه: ﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي ...﴾ جملةٌ اعتُرِضَ بها؛ لتأكيدِ نَفيِ الاستِطاعةِ عن نَفْسِه.

﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ فيه وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّها مَنصوبةٌ عطفًا على ﴿بَلَٰغًا﴾، كأنَّه قال: لا أملِكُ لكم إلَّا التَّبليغَ والرِّسالةَ. والثَّاني: أنَّها مجرورةٌ عَطْفًا على ﴿ٱللَّهِ﴾، أي: إلَّا أن أُبلِّغَ عن اللهِ وعن رِسالاتِه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمِرًا عِبادَه أنْ يُوَحِّدوه في مَحالِّ عبادتِه: وأنَّ المساجِدَ لله تعالى وَحْدَه؛ فلا تُشرِكوا باللهِ فيها أحدًا مِن خَلْقِه.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه حالَ الجنِّ مِن الصَّالحينَ معَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: وأنَّه لَمَّا قام محمَّدٌ يدعو اللهَ، كاد الجنُّ يَكونونَ عليه جماعاتٍ.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يبيِّنَ حقيقةَ ما يدعو إليه، فيقولُ: قلْ -يا محمَّدُ-: إنَّما أدْعُو ربِّي وَحْدَه، ولا أُشرِكُ به أحدًا مِن خَلْقِه. قُلْ: إنِّي لا أملِكُ لكم ضَرًّا ولا نَفعًا، ولا ضَلالةً ولا صوابًا. قُلْ: إنِّي لن يُنقِذَني مِن اللهِ أحدٌ

(١) يُنظَر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٠٠).

إنْ أرادني بسُوءٍ، ولن أَجِدَ مِن دونِ اللهِ مَلْجأً ألجَأُ إليه، إلَّا أن أبَلِّغَ عنه ما أُرسِلْتُ به.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سوءَ عاقبةِ مَن يُخالِفُ أمْرَه، فيقولُ: ومَن يَعْصِ اللهَ ورسولَه في التَّوحيدِ والعبادةِ؛ فإنَّ له نارَ جهنَّمَ خالِدًا فيها أبدًا.

ثمَّ يهدِّدُ الله الكافرينَ بسببِ استهزائِهم بالمؤمنينَ، فيقولُ: حتَّى إذا رأى الكُفَّارُ ما وعَدَهم اللهُ به مِنَ العَذابِ، فسيَعلَمونَ حِينَها مَنِ الأضعَفُ ناصِرًا والأقَلُّ عددًا: هم أو المُؤمِنونَ؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾.

أي: وأنَّ جميعَ المساجِدِ الَّتي هي بيوتٌ لعِبادةِ اللهِ تعالى: هي له وَحْدَه؛ فلا تُشرِكوا باللهِ فيها أحدًا مِن خَلْقِه، وأفرِدوه وَحْدَه بالسُّؤالِ والعبادةِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال الرازي: (التَّقديرُ: قُلْ: أُوحِيَ إلَيَّ أنَّ المساجِدَ للهِ. ومذهبُ الخليلِ أنَّ التَّقديرَ: ولأنَّ المساجِدَ لله فلا تدعوا، فعلى هذا اللَّامُ مُتعلِّقةٌ بـ﴿فَلَا تَدْعُوا۟﴾، أي: فلا تدعوا مع اللهِ أحدًا في المساجِدِ؛ لأنَّها لله خاصَّةً). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٣).

ممَّن ذهب إلى التَّقديرِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨٩).

وممَّن ذهب إلى التَّقديرِ الثَّاني، أي: ولأنَّ المساجِدَ لله: الخليلُ -كما نسَبَه إليه سيبويه- وذهب إليه ابنُ أبي زَمَنِين، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٧٠).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ يعني: الكنائِسَ والبِيَعَ والمساجِدَ، للهِ ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾؛ وذلك أنَّ اليهودَ والنَّصارى يُشرِكونَ في صلاتِهم في البِيَعِ والكنائِسِ، فأمَرَ اللهُ المؤمِنينَ أن يوحِّدوه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٤).

وقال القرطبي: (وقيل: المعنى: أفرِدوا المساجِدَ لذِكرِ اللهِ، ولا تتَّخِذوها هُزُوًا ومَتجَرًا =

كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

أي: وأنَّه لَمَّا قام محمَّدٌ يدعو اللهَ، كاد الجنُّ يَكونون عليه جماعاتٍ يَتراكَمُ بَعضُها على بَعضٍ(١).

= ومَجلِسًا، ولا طُرُقًا، ولا تجعلوا لغيرِ اللهِ فيها نصيبًا. وفي الصَّحيح: «مَن نَشَد ضالَّةً في المسجدِ، فقولوا: لا ردَّها اللهُ عليك؛ فإنَّ المساجِدَ لم تُبْنَ لهذا» [أخرجه مسلم (٥٦٨)]). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢).

وقيل: معنى قولِه: ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ الصَّلواتُ للَّه، وقيل: الأعضاءُ التي يُسجَدُ عليها للَّه، وقيل: هي كلُّ موضعٍ صلَّى فيه الإنسانُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٢-٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤١، ٢٤٢).

قيل: المعنى: كاد الجِنُّ مِن تكاثُرِهم على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ سمِعوه يقرأُ القُرآنَ يَكونونَ عليه متراكِمينَ ومُقتَرِبينَ منه؛ مِن ازدحامِهم عليه؛ حرصًا ورغبةً منهم في استماعِ القرآنِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والواحديُّ، والرَّسْعَني، والعُلَيمي، والشَّوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

وقيل: المرادُ: لَمَّا قام محمَّدٌ يدعو النَّاسَ إلى توحيدِ الله تعالى، كاد المشركونَ أن يَكونوا عليه جَميعًا؛ ليُطفِئُوا نورَ اللهِ تعالى. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، واستظهره =

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠﴾.

أي: قلْ -يا محمَّدُ-: إنَّما أدْعُو ربِّي وَحْدَه، ولا أُشرِكُ به أحدًا مِن خَلْقِه[1].

﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه انتِقالٌ مِن ذِكرِ ما أُوحِيَ به إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إلى تَوجيهِ خِطابٍ مُستأنَفٍ إليه؛ فبَعْدَ أنْ حُكِيَ في هذه السُّورةِ ما أوحَى اللهُ إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّا خَفِيَ عليه مِن الشُّؤونِ المُتعلِّقةِ به مِن اتِّباعِ مُتابِعينَ، وإعراضِ مُعرِضين؛ انتُقِلَ إلى تَلقينِه ما يَرُدُّ به على الَّذين أظْهَروا له العِنادَ، ولبَيانِ عَجْزِه عن شُؤونِ نفْسِه، وأنَّ الأمرَ كلَّه بيَدِ اللهِ[2].

﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ-: إنِّي لا أملِكُ لكم ضَرًّا ولا نَفعًا، ولا ضَلالةً ولا صوابًا

= ابنُ كثير، وذهب إليه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤١، ٢٤٢).

وقال البِقاعي: (﴿كَادُواْ﴾ أي: قَرُبَ القاسِطونَ مِن الفريقَينِ الجنِّ والإنسِ، ﴿يَكُونُونَ عَلَيۡهِ﴾ أي: على عبْدِ اللهِ، ﴿لِبَدٗا﴾ أي: مُتراكِمينَ بعضُهم على بعضٍ مِن شِدَّةِ ازدحامِهم، حتَّى كان ذلك جِبِلَّةً لهم؛ تَعجُّبًا ممَّا رَأَوا منه مِن عِبادتِه، وإرادةً لِرَدِّه عن ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٩١).

قال الواحدي: (قوله: ﴿عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ يعني: النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَولِ الجميعِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٣١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال ابنُ جرير: (قُلْ -يا محمَّدُ- للنَّاسِ الَّذين كادوا يَكونونَ عليك لِبَدًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣).

وسَدادًا؛ فإنَّما المرجِعُ في ذلك كُلِّه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وإنَّما أنا عبدٌ ليس لي مِنَ الأمرِ شَيءٌ[١].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۗ﴾ [الفتح: ١١].

﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾.

﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ-: إنِّي لن يُنقِذَني مِن اللهِ أحدٌ إنْ أراد أن يُصيبَني بضُرٍّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨].

﴿وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾.

أي: ولن أَجِدَ مِن دونِ اللهِ مَلجَأً ألجَأُ إليه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦)، ((الروح)) لابن =

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾.

أي: لن أجِدَ مِن دونِ اللهِ مَلجَأً إلَّا أن أبَلِّغَ عنه ما أُرسِلْتُ به؛ فإنَّ فيه الأمانَ والنَّجاةَ(١).

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الجن: ٢٠] إلى هنا، كَلامًا مُتضمِّنًا أنَّهم أشْرَكوا وعانَدوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حينَ دَعاهم إلى التَّوحيدِ، واقتَرَحوا عليه ما تَوهَّموه -تَعجيزًا له- مِن ضُروبِ الاقتراحِ؛ أُعقِبَ ذلك بتَهْديدِهم ووَعيدِهم بأنَّهم إنْ دامُوا على عِصيانِ اللهِ ورَسولِه سيَلْقَون نارَ جهنَّمَ؛ لأنَّ كلَّ مَن يَعْصي اللهَ ورسولَه كانت له نارُ جهنَّمَ(٢).

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

= القيم (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦)، ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٤٣٢).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: إنِّي لا أملِكُ لكم ضَرًّا ولا رشَدًا، ولكنِّي أُبلِّغُ عن اللهِ، فأمَّا الرَّشَدُ والخِذْلانُ فبِيَدِ اللهِ، هو مالِكُه وَحْدَه، فيَهدي مَن يَشاءُ، ويَخذُلُ مَن يشاءُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٥).

أي: ومَن يعْصِ اللهَ تعالى ورَسولَه في التَّوحيدِ والعبادةِ، فقد استحَقَّ الخُلودَ الأبَديَّ في نارِ جهنَّمَ[(١)].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدًا ٢٤﴾.

أي: حتَّى إذا رأَى الكُفَّارُ ما وعَدَهم اللهُ مِن العذابِ وشاهَدوه عِيانًا، وأيْقَنوا بوُقوعِه؛ فسيَعلَمونَ حِينَها مَنِ الأضعَفُ ناصِرًا ومانِعًا لهم مِن العَذابِ، ومَن الأقَلُّ عددًا: هم أو المؤمِنونَ الموَحِّدونَ لله تعالى[(٢)]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦، ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال السِّعديُّ: (وهذا المرادُ به المعصيةُ الكُفْريَّةُ، كما قيَّدَتْها النُّصوصُ الأُخَرُ المُحكَمةُ. وأمَّا مُجرَّدُ المعصيةِ فإنَّه لا يُوجِبُ الخلودَ في النَّارِ، كما دَلَّت على ذلك آياتُ القرآنِ، والأحاديثُ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأجْمَعَ عليه سَلَفُ الأُمَّةِ وأئمَّةُ هذه الأُمَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: يوعَدون في الدُّنيا وفي الآخرةِ: السمرقنديُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والقرطبي، وابنُ جُزَي، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧٢).

وممَّن قال بأنَّ المراد: ما يُوعَدونَ يومَ القيامةِ: البَغَويُّ، والخازن، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٦).

قال الزَّمخشريُّ: (فإنْ قلتَ: بِمَ تَعلَّق ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وجُعِلَ ما بعْدَه غايةً له؟ قلتُ: بقولِه: ﴿يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾، على أنَّهم يَتظاهَرونَ عليه بالعَداوةِ، ويَستضعِفون أنْصارَه، ويَستقلُّون عَدَدَهم، حتَّى إذا رَأَوا ما يُوعَدون مِن يومِ بدْرٍ وإظهارِ اللهِ له عليهم، أو مِن يومِ القيامةِ؛ فسَيعلَمون حينَئذٍ أنَّهم أضعَفُ ناصرًا وأقلُّ عدَدًا. ويجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بمَحذوفٍ دلَّت عليه الحالُ: مِن استضعافِ =

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾ [مريم: ٧٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا * قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ فيه بيانُ حالةِ الخَلقِ، وأنَّ كُلَّ أحدٍ منهم لا يستَحِقُّ مِن العبادةِ مِثقالَ ذَرَّةٍ؛ لأنَّ الرَّسولَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا كان لا يملِكُ لأحدٍ نَفعًا ولا ضَرًّا، بل ولا يملِكُ لِنَفْسِه، عُلِمَ أنَّ الخَلْقَ كُلَّهم كذلك، فمِنَ الخطَأِ والغَلَطِ اتِّخاذُ مَن هذا وَصْفُه إلهًا آخَرَ مع اللهِ[(١)]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ فيه أنَّ المساجِدَ الَّتي هي أعظَمُ محالِّ العبادةِ مَبنيَّةٌ على الإخلاصِ للهِ، والخُضوعِ لعَظَمتِه، والاستِكانةِ لعِزَّتِه[(٢)].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ قولُه: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ في ضِمْنِه أمرٌ بذِكرِ اللهِ وبدُعائِه[(٣)].

= الكفَّارِ له، واستِقلالِهم لعَدَدِه، كأنَّه قال: لا يَزالون على ما هم عليه حتَّى إذا رَأَوا ما يُوعَدون). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٤).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أضاف تعالى المساجِدَ لنَفْسِه تَشريفًا، فاستُدِلَّ به على تنزيهِها عن غيرِ العباداتِ؛ مِنَ البَيعِ، والخُصوماتِ، وإقامةِ الحُدودِ(١).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ قيل: المساجِدُ هنا هي جَمعُ (مَسجَدٍ) بالفتحِ، وهي الأعضاءُ السَّبعةُ الَّتي يَسجُدُ عليها الإنسانُ: الجبهةُ، واليَدانِ، والرُّكبتانِ، والقَدَمانِ، أي: هي للهِ؛ فلا تَسجُدوا بها لغَيرِه؛ ففيه رَدٌّ على مَن خَصَّ السُّجودَ بالجَبهةِ فقط دونَ السِّتَّةِ الباقيةِ(٢).

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لا يجوزُ إضافةُ المساجدِ إلى مخلوقٍ إضافةَ مِلْكٍ واختِصاصٍ، وأنَّه لا يجوزُ نِسبةُ شيءٍ مِن المساجدِ إلى بعضِ طوائفِ المُسلمينَ للاختِصاصِ بها، فيُقالُ: هذه

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٥).

اتَّفق الفُقهاءُ على أنَّه تَحرُمُ إقامةُ الحدودِ في المساجدِ، أمَّا البَيعُ والشِّراءُ فقد اتَّفَق الفقهاءُ على مَنعِه، لكنْ ذهب الحَنَفيَّةُ والمالكيَّةُ والشَّافعيَّةُ إلى الكراهةِ، وذهب الحنابلةُ إلى التَّحريمِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٧/ ١٤٨، ١٧٩).

قال العُلَيمي: (وأمَّا حُكمُ القاضي في المسجدِ؛ فقال أبو حنيفةَ ومالكٌ وأحمدُ: يجوزُ؛ لأنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان يَقضي بيْن الخُصومِ في المسجدِ، وكذا الخُلفاءُ الرَّاشِدونَ بعْدَه. ومذهبُ الشَّافِعيِّ: يُكرَهُ كَراهةَ تنزيهٍ، فلو اتَّفقَتْ قضيَّةٌ أو قضايا وقتَ حُضورِه في المسجدِ لصلاةٍ أو غيرِها، فلا بأسَ بفَصلِها. وأمَّا الحدودُ فلا تُقامُ في المساجدِ بالاتِّفاقِ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٥).

قال أبو حيَّانَ: (وأبعَدَ ابنُ عطاءٍ في قولِه: إنَّها الآرابُ الَّتي يُسجَدُ عليها، واحدُها مَسجَدٌ؛ بفتْحِ الجيمِ، وهي الجَبْهةُ والأنفُ، واليَدانِ، والرُّكبتانِ، والقَدَمانِ؛ عدَّ الجَبْهةَ والأنفَ واحدًا. وأبعَدَ أيضًا مَن قال: المسجدُ الحرامُ؛ لأنَّه قِبلةُ المساجدِ، ومَن قال: إنَّه جمْعُ مَسجِدٍ، وهو السُّجودُ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٠).

المساجِدُ للطَّائفةِ الفُلانيةِ، وهذه للطَّائفةِ الأُخرى؛ فإنَّها مُشتَرَكةٌ بيْن المسلمينَ عُمومًا[١].

٦- قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ المساجدُ وإن كانت لله مِلْكًا وتشريفًا، فإنَّها قد تُنسبُ إلى غيرِه تعريفًا، فيقالُ: مَسجِدُ فُلانٍ[٢].

٧- أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لا يَرضى أنْ يُشْرَكَ معه في عبادتِه أحدٌ، بل هو وحْدَه المستحِقُّ للعبادةِ، ودليلُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، فنهى اللهُ تعالى أنْ يَدْعُوَ الإنسانُ مع اللهِ أحدًا، واللهُ لا يَنْهَى عن شَيءٍ إلَّا وهو لا يَرضاه سُبحانَه[٣].

٨- اتَّفَق أئِمَّةُ الإسلامِ على أنَّه لا يُشْرَعُ بناءُ المشاهِدِ على القُبورِ، ولا يُشْرَعُ اتِّخاذُها مَساجِدَ، ولا يُشْرَعُ الصَّلاةُ عندَها، ولا يُشْرَعُ قصدُها لأجلِ التَّعَبُّدِ عندَها بصلاةٍ أوْ اعتكافٍ أوْ استغاثةٍ أوْ ابتهالٍ أوْ نحوِ ذلك، فهذا ليس مِن دينِ الله، إنَّما دِينُ اللهِ تَعظيمُ بُيوتِ اللهِ وحْدَه لا شَريكَ له، وهي المساجدُ الَّتي تُشرَعُ فيها الصَّلَواتُ جَماعةً وغيرَ جماعةٍ، والاعتكافُ، وسائرُ العِباداتِ البَدَنيَّةِ والقلْبيَّةِ؛ مِن القراءةِ والذِّكرِ والدُّعاءِ للهِ؛ قال تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١).

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضِيَ الله عنهما، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سابَق بيْنَ الخَيلِ الَّتي أُضْمِرَتْ مِن الحَفْياءِ، وأمَدُها ثَنِيَّةُ الوَداعِ، وسابَق بيْنَ الخيلِ الَّتي لم تُضْمَرْ مِن الثَّنِيَّةِ إلى مَسجِدِ بني زُرَيْقٍ...)). أخرجه البخاريُّ (٤٢٠)، وترجم له: (بابٌ: هل يُقالُ: مَسجِدُ بَني فُلانٍ؟).

(٣) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٣٣).

مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ * رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ * لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[(١)] [النور: ٣٦ - ٣٨].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ سَمَّى محمَّدًا بـ (عبدِ اللهِ)، وما ذكَرَه بـ (رَسولِ اللهِ) أو (نبيِّ اللهِ)؟

الجوابُ: لأنَّه إن كان هذا الكلامُ مِن جُملةِ المُوحَى، فاللَّائِقُ بتواضُعِ الرَّسولِ أن يَذكُرَ نَفْسَه بالعُبوديَّةِ[(٢)]، وإنْ كان مِن كلامِ الجِنِّ، كان المعنى: أنَّ عبْدَ اللهِ لَمَّا اشتَغَل بعبوديَّةِ اللهِ فهؤلاء الكُفَّارُ لِمَ اجتَمَعوا ولِمَ حاوَلوا مَنْعَه منه، مع أنَّ ذلك هو الموافِقُ لقانونِ العَقلِ[(٣)]؟! فالمعنى: أنَّ عبادةَ عبْدِ اللهِ للهِ ليست بأمرٍ مُستبعَدٍ عن العقلِ ولا مُستنكَرٍ حتَّى يَكونوا عليه لِبَدًا[(٤)] -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، أو لأنَّ العبوديَّةَ مِن أشرَفِ الخِصالِ[(٥)]. فقد وَصَفَ اللهُ تعالى أكرَمَ خَلْقِه عليه، وأعلاهم عِندَه مَنزِلةً بالعُبوديَّةِ في أشرَفِ مَقاماتِه؛ فوَصَفه بالعُبوديَّةِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٤٩).

(٢) قال ابن جُزَي بعدَ أن ذكَر هذا الوجهَ مِن كلامِ الزمخشريِّ: (وهذا الَّذي قاله بعيدٌ، مع أنَّه إنَّما يُمكِنُ على قراءةِ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ﴾ بفتحِ الهمزةِ، فيكونُ عطفًا على ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ﴾[الجن: ١]. وأمَّا على القِراءةِ بالكسرِ على الاستِئنافِ فيَكونُ إخبارًا مِن الله، أو مِن جملةِ كلامِ الجِنِّ، فيَبطُلُ ما قاله). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ١٥٩).

في مقامِ الدعوةِ إليه، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ وذكره بالعُبوديَّةِ في مقامِ الإسراءِ، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: ١]، وذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ إنزالِ الكِتابِ عليه، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وقال سُبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]، وذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ التحَدِّي بأن يأتُوا بمِثْلِه في قَولِه: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾[1] [البقرة: ٢٣].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ فيه شِدَّةُ حِرصِ الجِنِّ لاستِماعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتراكُمِهم عليه[2].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا * قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَملِكُ لنَفْسِه نَفْعًا ولا ضَرًّا؛ فكيف يَمْلِكُ لغيرِه؟! فالنَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لو أراد اللهُ به ما يُريدُ، ما استطاع أحدٌ مِن النَّاسِ أنْ يَمْنعَ إرادةَ اللهِ فيه، وإذا كان كذلك فمِن الضَّلالِ البَيِّنِ أنْ يَستغيثَ أحدٌ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل هذا مِن الشِّركِ[3].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ ردٌّ واضحٌ على مَن قال: إنَّ عذابَ النَّارِ غيرُ مُؤَبَّدٍ[4]!

١٣- إذا أُطْلِقَتِ المعصيةُ للهِ ورَسولِه دَخَلَ فيها الكُفرُ والفُسوقُ، كقَولِه

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٣) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٧٠).

تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[١].

١٤- قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ الآيةُ في الكفَّارِ، وحمَلها المعتزلةُ على عصاةِ المؤمنينَ؛ لأنَّ مذهبَهم خلودُهم في النَّارِ. والدَّليلُ على أنَّها في الكفَّارِ وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّها مكِّيَّةٌ، والسُّورةُ المكِّيَّةُ إنَّما الكلامُ فيها معَ الكفَّارِ. والآخَرُ: دَلالةُ ما قبْلَها وما بعْدَها على أنَّ المرادَ بها الكفَّارُ[٢]، فالعِصيانُ في الآيةِ هو عِصيانُ الكُفرِ، لا عِصيانُ الذَّنْبِ، فمَن شُبِّهَ عليه مِن المعتزِلةِ، وتعلَّقَ بظاهِرِ لَفظِ العِصيانِ، نبَّهَه عليه قَولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾؛ لأنَّ المسلِمَ -عاصيًا كان أو غيرَ عاصٍ- لم يَنْسُبْ قَطُّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى أنَّه لا ناصرَ له، ولا كَثرةَ عددٍ يَغْلِبُ بها! وإنَّما كان يَنْسُبُه إلى ذلك الكُفَّارُ، ويَرَونَ أنَّه مَغلوبٌ لِقلَّةِ عددِه وأنصارِه، وكانوا يَعصُونَه ولا يُطيعونَه، ويَتربَّصونَ به رَيْبَ المَنونِ، وكانت مَعصيتُهم للرَّسولِ مَعصيةً للهِ تبارك وتعالى؛ فأنزَلَ اللهُ هذه الآيةَ فيهم، وأخبَرَ أنَّهم إذا أَفْضَوا إلى الخُلودِ في النَّارِ عَرَفوا أنَّهم كانوا هم الأَقَلِّينَ عدَدًا وأنصارًا، لا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾

- فُرِّعَ على اختِصاصِ كَونِ المساجِدِ للهِ النَّهيُ عن أنْ يَدْعوَ المشرِكون مع اللهِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٨٣).

أحَدًا، وهذا إلْزامٌ لهم بالتَّوحيدِ بطَريقِ القَولِ بالمُوجَبِ[١]؛ لأنَّهم كانوا يَزعُمون أنَّهم أهلُ بَيتِ اللهِ، فعِبادتُهم غيرَ اللهِ مُنافيةٌ لزَعْمِهم ذلك[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾

- قولُه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ هو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وُضِعَ الاسمُ الظَّاهرُ مَوضعَ المُضمَرِ؛ إذ مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: وأنَّه لَمَّا قُمتَ تَدْعو اللهَ كادُوا يَكونون عليك، أو لَمَّا قُمتُ أدْعو اللهَ كادوا يَكونون علَيَّ؛ ولكنْ عُدِلَ إلى الاسمِ الظَّاهرِ لقَصْدِ تَكريمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بوَصْفِ ﴿عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾؛ لِما في هذه الإضافةِ مِن التَّشريفِ مع وَصْفِ (عبْدٍ)[٣].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ مِن جُملةِ المُوحَى في قولِه: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، ومَعطوفٌ على قولِه: ﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، فيَكونُ قولُه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ مِن تَتِمَّةِ كَلامِه صَلَواتُ اللهِ عليه؛ لأنَّه هو المأمورُ بقولِه: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، فكان الأصلُ: قُل: أُوحِيَ إلَيَّ أنَّه لَمَّا قُمتَ تَدْعو؛ فوُضِعَ مَوضعَ الضَّميرِ ﴿عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ للإشعارِ بما هو المُقتضي لِقيامِه، وتَواضُعًا للهِ تعالَى، وتَذلُّلًا لجَلالِه؛ تَعليمًا مِن اللهِ، وتأْديبًا له. أو يكونُ نقْلًا لكلامِ اللهِ

(١) القولُ بالموجَبِ: هو عبارةٌ عن تسليمِ مقتضَى ما جعَله المستدلُّ دليلًا لحُكمٍ، مع بقاءِ الخِلافِ بيْنَهما فيه. أو: تسليمُ الدَّليلِ معَ بقاءِ النِّزاعِ، ومعنى ذلك: أن يُسلِّمَ الخَصمُ الدَّليلَ الَّذي استدَلَّ به المُستَدِلُّ، إلَّا أنَّه يقولُ: هذا الدَّليلُ ليس في محلِّ النِّزاعِ، إنَّما هو في غيرِه؛ فيبقَى الخِلافُ بيْنَهما. يُنظر: ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٨٩)، ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) للإسنوي (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٤٢).

تعالَى المُوحَى إليه؛ فتَخصيصُ ذِكرِ العبدِ إدماجٌ[١] لمعْنى أنَّ العِبادةَ مِن العبدِ غيرُ مُستبعَدةٍ، فلا يَنْبغي أنْ نَتعجَّبَ منه[٢].

- قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ، وهو مِن تَمامِ ما أُوحِيَ به إليه[٣].

- ويُفيدُ قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ قصْرًا[٤]، أي: لا أدْعو غيرَه، أي: لا أعبُدُ غيرَه دُونَه، وعُطِفَ عليه ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ تأْكيدًا لمَفهومِ القصْرِ، وأصْلُه ألَّا يُعطَفَ، فعَطْفُه لمُجرَّدِ التَّشريكِ؛ للعِنايةِ باستِقلالِهِ بالإبلاغِ[٥].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٦).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٦).

(٤) القَصرُ أو الحَصرُ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ. ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ الشَّرِكةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقدُ اشتراكَ اللهِ والأصنام في الأُلوهيَّةِ. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ إثباتَ الحُكمِ لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نَمرودُ، الَّذي اعتَقد أنَّه هو المحيي المميتُ دون اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْران، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ. وقولُه: ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ تَتميمٌ(١).

- وأيضًا في قولِه: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ احتباكٌ(٢)؛ لأنَّ الضَّرَّ يُقابِلُه النَّفعُ، والرَّشَدُ يُقابِلُه الضَّلالُ، فالتَّقديرُ: لا أمْلِكُ لكم ضَرًّا ولا نفْعًا، ولا ضَلالًا ولا رَشَدًا، فحُذِفَ مِن كلٍّ ما يدُلُّ عليه مُقابِلُه. أو جُعِلَ الضَّرُّ مُقابِلًا للرَّشدِ تَعبيرًا به عن الْغَيِّ؛ إذِ الْغَيُّ ثَمَرتُه الضَّررُ(٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾

- قولُه: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ مُعترِضٌ بيْن المُسْتثنى منه ﴿لَآ أَمْلِكُ﴾ والمُسْتثنى ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾(٤). قيل: هو اعتِراضٌ لتَأْكيدِ نفْيِ الاستِطاعةِ عن نفْسِه، وبَيانِ عَجْزِه، على معْنى: أنَّ اللهَ إنْ أرادَ به سُوءًا -مِن مرَضٍ، أو مَوتٍ، أو غَيرِهما- لم يَصِحَّ أنْ يُجيرَه منه أحدٌ، أو يَجِدَ مِن دُونِه مَلاذًا يَأْوي إليه(٥).

- قولُه: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾، أي: لنْ أجِدَ مَكانًا يَعصِمُني كائنًا مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٧). وتقدَّم تعريفُ التَّتميم (ص: ١٢٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٦).

دونِ اللهِ، أي: بَعيدًا عن اللهِ غيرَ داخلٍ مِن مَلكوتِه؛ ولهذا جاء لنَفْيِ وِجْدانِه حرْفُ (لنْ)[١].

- قولُه: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ قيل: هو استِثناءٌ مُنقطِعٌ مِن ﴿ضَرًّا﴾ و﴿رَشَدًا﴾، وليس مُتَّصلًا؛ لأنَّ الضَّرَّ والرَّشدَ المَنفيَّينِ في قولِه: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ هما الضَّرُّ والرَّشدُ الواقعانِ في النَّفْسِ بالإلجاءِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مع ذلك استثناءً مُتَّصِلًا مِن ﴿مُلۡتَحَدًا﴾، أي: بتَأويلِ ﴿مُلۡتَحَدًا﴾ بمعْنى مَخلَصٍ أو مَأمَنٍ، وهذا الاستثناءُ مِن أُسلوبِ تَأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه. وقيل: ﴿إِلَّا﴾ في تَقديرِ الانفصالِ: (إنْ) شَرطيَّةٌ و(لا) نافيةٌ، وحُذِفَ فِعلُها لدَلالةِ المَصدرِ عليه، والتَّقديرُ: إنْ لمْ أُبَلِّغْ بلاغًا مِن اللهِ ورِسالتِه...، وهذا كما تَقولُ: إنْ لا قِيامًا فقُعودًا، أي: إنْ لم تقُمْ قِيامًا فاقعُدْ قُعودًا، وحَذْفُ هذا الفِعلِ قد يكونُ لدَلالةٍ عليه بعْدَه أو قبْلَه[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ كانوا إذا سَمِعوا آياتِ الوعْدِ بنَصْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلِمينَ في الدُّنيا والآخِرةِ، وآياتِ الوعيدِ للمُشرِكين بالانهزامِ وعَذابِ الآخِرةِ وعذابِ الدُّنيا؛ استَسْخَروا مِن ذلك، وقالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [السجدة: ٢٨]، إلى غيرِ ذلك؛ فهُم مَغرورونَ بالاستِدراجِ والإمهالِ؛ فلذلك عُقِّبَ وَعيدُهم بالغايةِ المُفادةِ مِن (حتَّى)، فالغايةُ هنا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٨).

ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ٣٧٧).

مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ يدُلُّ عليه الكلامُ مِن سُخريةِ الكفَّارِ مِن الوعيدِ، واستِضعافِهم المسلِمينَ في العَدَدِ والعُدَدِ؛ فإنَّ ذلك يُفهَمُ منه أنَّهم لا يَزالون يَحسَبون أنَّهم غالِبون فائِزون، حتَّى إذا رَأَوْا ما يُوعَدون تَحقَّقوا إخفاقَ آمالِهم(١).

- وجِيءَ بالجُملةِ المُضافِ إليها (إذا) فِعلًا ماضيًا فقال: ﴿رَأَوْاْ﴾؛ للتَّنبيهِ على تَحقيقِ وُقوعِه(٢).

- قولُه: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ السِّينُ هنا للتَّأكيدِ المُجرَّدِ، لا للاسْتِقبالِ؛ لأنَّ السِّينَ حرْفُ استِقبالٍ، ووَقْتُ رُؤيةِ العذابِ يَحصُلُ فَورَ عِلمِ الضَّعيفِ مِن القَويِّ، والسِّينُ تَقْتضي أنَّه يَتأخَّرُ عنه(٣).

- والاستِفهامُ بما فيه مِن الإبهامِ يَكونُ كِنايةً عن الغَرابةِ، بحيث يَسأَلُ النَّاسُ عن تَعيينِ الشَّيءِ بعْدَ البحثِ عنه(٤).

- وضَعْفُ الناصرِ وَهَنٌ لهم مِن جِهةِ وَهَنِ أنْصارِهم، وقِلَّةُ العَددِ وَهَنٌ لهم مِن جانبِ أنفُسِهم، وهذا وَعيدٌ لهم بخَيبةِ غُرورِهم بالأمْنِ مِن غَلَبِ المسلمينَ في الدُّنيا؛ فإنَّهمْ كانوا يَقولونَ: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾(٥) [سبأ: ٣٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٩).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٩، ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٥-٢٨)

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَمَدًا﴾: أي: غايةً وبُعدًا، والأَمَدُ: مُدَّةٌ لها حَدٌّ مجهولٌ إذا أُطلِقَ[(١)].

﴿رَصَدًا﴾: أي: حَرَسًا وحَفَظةً مِنَ الملائكةِ، وأصلُ (رصد): يدُلُّ على تهيُّؤٍ لرِقْبةِ شَيءٍ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: لا أدري أَقَريبٌ الوَقتُ الَّذي وعَدَكم اللهُ بوُقوعِ العَذابِ فيه، أم يَجعَلُه ربِّي بعْدَ أَمَدٍ بَعيدٍ؟ هو وَحْدَه عالِمُ ما غاب عن خَلْقِه، فلا يُطلِعُ على غَيبِه أحدًا مِن خَلْقِه إلَّا مَنِ ارتضاه مِن رُسُلِه؛ فإنَّ اللهَ يُرسِلُ مِن أمامِ الرَّسولِ -الَّذي يُطلِعُه على بَعضِ الغَيبِ- ومِن خَلْفِه حَرَسًا مِن الملائكةِ يَحفَظونَه مِنَ الشَّياطينِ؛ لِيَعلَمَ سُبحانَه -عِلمَ وُجودٍ وظُهورٍ- أنَّ الرُّسُلَ قد تمَكَّنوا مِن تبليغِ رِسالاتِه كما هي، وأحاط عِلْمُ اللهِ تعالى بما عندَ الرُّسُلِ، وعَلِمَ تعالى عدَدَ كُلِّ شيءٍ وأحصاه.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٠).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

كان المُشرِكون يُكثِرونَ أنْ يَسأَلوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [النمل: ٧١]، وعن السَّاعةِ ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وتكرَّرتْ نِسبةُ ذلك إليهم في القُرآنِ، فلمَّا قال اللهُ تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا﴾ [الجن: ٢٤] الآيةَ، عُلِمَ أنَّهم سيُعِيدون ما اعْتادوا قولَه مِن السُّؤالِ عن وقْتِ حُلولِ الوعيدِ، فأمَرَ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُعِيدَ عليهم ما سَبَقَ مِن جَوابِه(١).

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ: لا أدري أقَريبٌ الوَقتُ الَّذي وعَدَكم اللهُ بوُقوعِ العَذابِ فيه، أمْ يَجعَلُه ربِّي بعدَ مُدَّةٍ طويلةٍ؟ فذلك غَيبٌ يَعلَمُه اللهُ تعالى ولا أعلَمُه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٩].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾.

أي: هو وَحْدَه عالِمُ ما غاب عن خَلْقِه، فلا يُطلِعُ على عِلمِ الغَيبِ الَّذي اختَصَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني: قيامَ السَّاعةِ. وقيل: عذابُ الدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧).

به أحدًا مِن خَلْقِه[١].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَفاتيحُ الغَيبِ خَمْسٌ لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ: لا يَعلَمُ ما تَغيضُ الأرحامُ إلَّا اللهُ، ولا يَعلَمُ ما في غدٍ إلَّا اللهُ، ولا يَعلَمُ متى يأتي المطَرُ أحَدٌ إلَّا اللهُ، ولا تَدري نَفْسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ إلَّا اللهُ، ولا يَعلَمُ متى تقومُ السَّاعةُ إلَّا اللهُ))[٢].

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧).

قال ابنُ عاشور: (﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾: خبرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: هو عالِمُ الغَيبِ، والضَّميرُ المحذوفُ عائدٌ إلى قَولِه ﴿رَبِّيٓ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٥).

(٢) رواه البخاري (٧٣٧٩).

أي: لا يُظهِرُ اللهُ على الغَيبِ أحَدًا إلَّا مَنِ ارتضاه مِن رُسُلِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى يُطلِعُه على ما شاء منه[١].

﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾.

أي: فإنَّ اللهَ يُرسِلُ مِن أمامِ الرَّسولِ الَّذي يُطلِعُه على بَعضِ الغَيبِ ومِن خَلْفِه حَرَسًا مِن الملائكةِ يَحفَظونَه مِنَ الشَّياطينِ، فلا يَستطيعونَ تخليطَ الوَحيِ عليه، أو استِراقَ شَيءٍ منه[٢].

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾.

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءة: ﴿لِيُعْلَمَ﴾ بضَمِّ الياءِ مبنيًّا للمفعولِ، ونائبُ الفاعِلِ محذوفٌ يُفهَمُ مِنَ السِّياقِ، والتَّقديرُ: ليُعلَمَ النَّاسُ -أي: المُرسَلُ إليهم- أنَّ الرُّسُلَ قد أبلغوا رسالاتِ رَبِّهم. وقيل: هي بمعنى القراءةِ الأخرى: أي: ليَعلَمَ اللهُ أنَّ الرُّسُلَ قد أبلغوا رسالاتِ رَبِّهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٨، ٢٤٩).

قال ابن كثير: (هذا يعُمُّ الرَّسولَ المَلَكِيَّ والبَشَريَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٩).

قال ابن قُتَيْبَةَ: (أي: يجعَلُ بيْنَ يَدَيه وخَلْفَه رَصَدًا مِن الملائكةِ، يَحُوطونَ الوَحيَ مِن أن تَستَرِقَه الشَّياطينُ، فتُلْقِيَه إلى الكَهَنةِ، حتَّى تُخبِرَ به الكَهَنةُ إخبارَ الأنبياءِ، فلا يكونُ بيْنَهم وبيْنَ الأنبياءِ فَرْقٌ، ولا يكونُ للأنبياءِ دَلالةٌ). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٤٤).

(٣) قرأ بها رُوَيسٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٢). =

٢- قِراءةُ: ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ بفتحِ الياءِ، أي: ليَعلَمَ اللهُ -عِلْمَ ظُهورٍ- أنَّ الرُّسُلَ قد أبلغوا رسالاتِ رَبِّهم. وقيل: لِيَعلَمَ الرَّسولُ أنَّ الرُّسُلَ قَبْلَه قد أبلغوا رسالاتِ ربِّهم. وقيل: لِيَعلَمَ الرَّسولُ أنَّ الملائكةَ قد أبلَغوا رِسالاتِ ربِّهم. وقيل غيرُ ذلك[١].

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾.

أي: حَفِظَ اللهُ رسُلَه بملائكتِه؛ لِيَعلَمَ -عِلمَ وُجودٍ وظُهورٍ- أنَّ الرُّسُلَ قد تمكَّنوا مِن تبليغِ رسالاتِه كما هي، دونَ أن يُخالِطَها ما يُلبِّسُ عليها أو يُبدِّلُها[٢].

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥١).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٤-٣٥٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٠٣، ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ ضَميرَ ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ يعودُ إلى الله تعالى -أي: ليعلَمَ اللهُ أنَّ الرُّسُلَ قد أبلَغوا رسالاتِ رَبِّهم-: ابنُ قُتَيْبَةَ، واستظهره ابنُ جُزَي، وذهب إليه البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الزَّجَّاج: (يجوزُ أن يكونَ: لِيَعلَمَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ الرِّسالةَ أتَتْه ولم تصِلْ إلى غيرِه، ويجوزُ أن يكونَ -واللهُ أعلمُ-: ليعلمَ اللهُ أنْ قد أبلَغوا رِسالاتِه، وما بَعْدَه يدُلُّ على هذا، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدٗا﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٣٨).

وممَّن رجَّح أنَّ المعنى: ليعلَمَ الرَّسولُ أنَّ الرُّسُلَ قَبْلَه قد أبلغوا رسالاتِ رَبِّهم: ابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنِين، وهو ظاهرُ اختيارِ القرطبيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٠).

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سَبَقَ رُبَّما أوهَمَ أنَّه مُحتاجٌ في الحِفظِ إلى الرَّصَدِ؛ أزال ذلك بقَولِه تعالى[١]:

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾.

أي: وقد أحاط عِلْمُ اللهِ تعالى بكلِّ ما عندَ الرُّسُلِ[٢].

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سَبَق كافيًا في المقصودِ، لكِنَّه قاصِرٌ على محلِّ الحاجةِ؛ عَمَّ تعريفًا بالأمرِ على ما هو عليه، فقال حامِلًا على شِدَّةِ الوُثوقِ بما تقولُه الرُّسُلُ عن رَبِّهم، وأنَّه لا لَبْسَ فيه ولا غائِلَةَ بوَجهٍ[٣]:

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

أي: وعَلِمَ اللهُ سُبحانَه عددَ كُلِّ شيءٍ مِن خَلْقِه، فلا يَخفى عليه شَيءٌ مِن ذلك[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ فيه

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣١).

سُؤالٌ: أليس أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: ((بُعِثْتُ أنا والسَّاعةَ كهاتَين))[١]، فكان عالِمًا بقُربِ وُقوعِ القيامةِ، فكيف قال هاهنا: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ﴾؟

الجوابُ: المرادُ بقُربِ وُقوعِه هو أنَّ ما بَقِيَ مِنَ الدُّنيا أقَلُّ مِمَّا انقَضى، فهذا القَدْرُ مِنَ القُربِ معلومٌ، وأمَّا معنى معرفةِ القُربِ القريبِ وعَدَمِ ذلك: فغيرُ مَعلومٍ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ ردٌّ على المنجِّمينَ وعلى كلِّ مَن يَدَّعي أنَّه يَطَّلِعُ على ما سيَكونُ مِن حياةٍ أو موتٍ أو غيرِ ذلك! لأنه مُكَذِّبٌ للقرآنِ، وهم أبْعَدُ شيءٍ مِن الارتِضاءِ مع سَلْبِ صِفةِ الرسليَّةِ عنهم[٣]. فمَنِ ادَّعى أنَّ النُّجومَ تَدُلُّه على ما يكونُ مِن حياةٍ أو موتٍ أو غيرِ ذلك، فقد كَفَر بما في القُرآنِ الكريمِ[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ فيه أنَّ عُلومَ الغُيوبِ قد انفَرَد اللهُ بعِلْمِها، فلا يَعلَمُها أحدٌ مِنَ الخَلقِ إلَّا مَن ارتضاه اللهُ، وخَصَّه بعِلمِ شَيءٍ منها[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ ردٌّ على مَن يَزعُمُ مِن الشِّيعةِ أنَّ الإمامَ يَعلَمُ الغَيبَ، وهذا مِن كِبارِ حماقاتِهم، وقد أَخبَرَ اللهُ جلَّ جلالُه أنَّه لا يُظْهِرُ عليه إلَّا مَنِ ارتضاه رَسولًا، والإمامُ ليس برَسولٍ[٦]!

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠) مِن حديثِ سهلِ بنِ سعدٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٣٠).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ أنَّ سائرَ ما كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخبِرُ به مِن الغُيوبِ هو بإعلامِ اللهِ تعالى إيَّاه؛ لا أنَّه يَستَقِلُّ بعِلْمِ ذلك[١]!

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ يدُلُّ على كَونِه تعالى عالِمًا بالجُزئيَّاتِ[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدًا﴾ يدُلُّ على كَونِه تعالى عالِمًا بجميعِ الموجوداتِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ جُملةُ ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ القولَ المأمورَ بأنْ يَقولَه جَوابٌ لسُؤالِهم المُقدَّرِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِما قبْلَه مِن عدَمِ الدِّرايةِ[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ في مَوضعِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ الآيةَ[٦].

- وتَعريفُ المُسنَدِ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ مع تَعريفِ المُسنَدِ إليه المُقدَّرِ (هو)

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٦، ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧).

يُفيدُ القصْرَ[١]، أي: هو عالِمُ الغيبِ لا أنا. وتَعريفُ الغيبِ تَعريفُ الجِنسِ[٢].

- وإضافةُ صِفةِ ﴿عَٰلِمُ﴾ إلى ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ تُفيدُ العِلمَ بكلِّ الحقائقِ المُغيَّبَةِ، سواءٌ كانت ماهيَّاتٍ أو أفرادًا، فيَشملُ المعْنى المَصدريَّ للغَيبِ، مِثلَ عِلمِ اللهِ بِذاتِه وصِفاتِه، ويَشملُ الأُمورَ الغائبةَ بذاتِها، مِثلَ الملائكةِ والجنِّ، ويَشملُ الذَّواتِ المُغيَّبَةَ عن عِلمِ النَّاسِ، مِثلَ الوقائعِ المُستقبَلةِ الَّتي يُخبَرُ عنها أو الَّتي لا يُخبَرُ عنها؛ فإيثارُ المَصدرِ هنا لأنَّه أشمَلُ لإحاطةِ عِلمِ اللهِ بجَميعِ ذلك[٣].

- وفُرِّع على معْنى تَخصيصِ اللهِ تعالَى بعِلمِ الغيبِ جُملةُ ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾؛ فالفاءُ لتَفريعِ حُكْمٍ على حُكْمٍ، والحُكمُ المُفرَّعُ إتمامٌ للتَّعليلِ، وتَفصيلٌ لأحوالِ عدَمِ الاطِّلاعِ على غَيبِه[٤].

- ومعْنى ﴿فَلَا يُظۡهِرُ﴾، أي: فلا يُطْلِعُ ولا يُنبِئُ به، وهو أقْوى مِن (يُطلِعُ)؛ لأنَّ (يُظهِرُ) جاء مِن الظُّهورِ، وهو المُشاهَدةُ، ولتَضمينِه معْنى (يُطلِعُ) عُدِّي بحرْفِ (على)[٥].

- ووُقوعُ الفِعلِ ﴿يُظۡهِرُ﴾ في حيِّزِ النَّفيِ يُفيدُ العُمومَ، وكذلك وُقوعُ مَفعولِه ﴿أَحَدًا﴾ وهو نَكرةٌ في حيِّزِه يُفيدُ العُمومَ[٦].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٤٨).

- وحرْفُ (على) مُستعمَلٌ في التَّمكُّنِ مِن الاطِّلاعِ على الغيبِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ تَقريرٌ وتَحقيقٌ للإظهارِ المُستفادِ مِن الاستثناءِ، وبَيانٌ لكَيفيَّتِه[٢].

- والإتيانُ بالمَوصولِ والصِّلةِ في قولِه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ لقَصْدِ ما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن الإيماءِ إلى تَعليلِ الخبَرِ، أي: يُطلِعُ اللهُ بَعضَ رُسلِه مِن أجْلِ ما أرادهُ اللهُ مِن الرِّسالةِ إلى النَّاسِ[٣].

- والسَّلكُ: الإدخالُ، وأُطلِقَ السَّلْكُ على الإيصالِ المباشِرِ تَشبيهًا له بالدُّخولِ في الشَّيءِ بحيث لا مَصرِفَ له عنه، أي: يُرسِلُ إليه مَلائكةً مُتَّجِهينَ إليه لا يَبتعِدونَ عنه حتَّى يَبْلُغَ إليه ما أُوحِيَ إليه مِن الغَيبِ، كأنَّهم شُبِّهَ اتِّصالُهم به وحراستُهم إيَّاه بشَيءٍ داخلٍ في أجزاءِ جِسمٍ، وهذا مِن جُملةِ الحِفظِ الَّذي حَفِظَ اللهُ به ذِكْرَه في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٤] [الحجر: ٩].

- والمُرادُ بقَولِه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ الكِنايةُ عن جَميعِ الجِهاتِ، ومِن تلك الكِنايةِ يُنتقَلُ إلى كِنايةٍ أُخرى عن السَّلامةِ مِن التَّغييرِ والتَّحريفِ[٥].

وقيل: خَصَّ هاتَينِ الجِهتَينِ؛ لأنَّ العَدُوَّ متى أُعرِيَت واحدةٌ منهما أَتى منها، ومتى حُفِظَتَا لم يأتِ مِن غَيرِهما[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤١٠).

٤- قولُه تعالَى: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾

- قولُه: ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ يَتعلَّقُ بقولِه: ﴿يَسۡلُكُ﴾، أي: يَفعَلُ اللهُ ذلك لِيُبلِّغَ الغَيبُ إلى الرَّسولِ كما أُرسِلَ إليه، لا يُخالِطُه شَيءٌ ممَّا يَلبسُ عليه الوحيَ، فيَعلَمَ اللهُ أنَّ الرُّسلَ أبْلَغوا ما أُوحِيَ إليهم كما بَعَثَهم دونَ تَغييرٍ، فلمَّا كان عِلمُ اللهِ بتَبْليغِ الرَّسولِ الوحيَ مُفرَّغًا ومُسبَّبًا عن تَبليغِ الوحْيِ كما أنْزَلَ اللهُ، جُعِلَ المُسبَّبُ عِلَّةً، وأُقِيمَ مُقامَ السَّببِ إيجازًا في الكلامِ؛ لأنَّ عِلمَ اللهِ بذلك لا يكونُ إلَّا على وَفْقِ ما وَقَعَ، وهذه العِلَّةُ هي المَقصَدُ الأهمُّ مِن إطْلاعِ مَن ارْتَضى مِن رَسولٍ على الغيبِ، وذِكرُ هذه العِلَّةِ لا يَقْتضي انحصارَ عِلَلِ الإطْلاعِ فيها[1]. وقيل: فيه حَذْفٌ تَتعلَّقُ به اللَّامُ، أي: أخبَرْناه بحِفْظِنا الوحيَ؛ ليَعلَمَ أنَّ الرُّسلَ قبْلَه قدْ أبْلَغوا الرِّسالةَ كما بَلَّغَ الرِّسالةَ[2].

- وإيرادُ عِلْمِهِ تعالَى؛ لإبرازِ اعتِنائِه تعالَى بأمْرِ الإبلاغِ، والإشعارِ بتَرتيبِ الجَزاءِ عليه، والمُبالَغةِ في الحَثِّ عليه، والتَّحذيرِ مِن التَّفريطِ فيه[3].

- وجِيءَ بضَميرِ الإفرادِ في قولِه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ مُراعاةً للَفظِ ﴿رَّسُولٍ﴾، ثمَّ جِيءَ له بضَميرِ الجمْعِ في قولِه: ﴿أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ﴾ مُراعاةً لمعْنى ﴿رَّسُولٍ﴾، وهو الجِنسُ، أي: الرُّسلِ[4].

- والواوُ في قولِه: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ واوُ الحالِ أو اعتراضيَّةٌ؛ لأنَّ مَضمونَها

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ١٥١، ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٠).

تَذييلٌ لجُملةِ ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: أحاطَ بجَميعِ ما لَدى الرُّسلِ مِن تَبليغٍ وغيرِه، وأحاط بكلِّ شَيءٍ ممَّا عدا ذلك، فقولُه: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصِ ما قبْلَه بعِلمِه بتَبليغِهم ما أرسَلَ إليهم، وقولُه: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدٗا﴾ تَعميمٌ أشمَلُ بعْدَ تَعميمِ (ما)[1].

- وفائدةُ قولِه: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدٗا﴾ بَيانُ أنَّ عِلمَه تعالَى بالأشياءِ ليس على وجْهٍ كُلِّيٍّ إجماليٍّ، بلْ على وَجْهٍ جُزئيٍّ تَفصيليٍّ؛ فإنَّ الإحصاءَ قد يُرادُ به الإحاطةُ الإجماليَّةُ، كما في قولِه تعالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، أي: لا تَقدِروا على حصْرِها إجمالًا فضْلًا عن التَّفصيلِ[2].

- وعُبِّرَ عن العِلمِ بالإحصاءِ؛ تَشبيهًا لعِلمِ الأشياءِ بمَعرفةِ الأعدادِ؛ لأنَّ مَعرفةَ الأعدادِ أقْوى[3].

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الأربعونَ

ويليه المجلدُ الحادي والأربعونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ المُزَّمِّلِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥١).

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ الحاقَّةِ

أسماءُ السُّورةِ ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٧
الآيات (١-٨) ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٩
المعنى الإجماليُّ ١١
تَفسيرُ الآياتِ ١٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٢
بلاغةُ الآياتِ ٢٣
الآيات (٩-١٢) ٣٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٥
المعنى الإجماليُّ ٣٦
تَفسيرُ الآياتِ ٣٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٢
بلاغةُ الآياتِ ٤٣
الآيات (١٣ - ١٨) ٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٨
المعنى الإجماليُّ ٤٩

تَفسيرُ الآياتِ ٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٦
بلاغةُ الآياتِ ٥٧
الآيات (١٩-٢٤) ٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٣
المعنى الإجماليُّ ٦٤
تَفسيرُ الآياتِ ٦٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧١
بلاغةُ الآياتِ ٧٣
الآيات (٢٥ - ٣٧) ٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٧٩
المعنى الإجماليُّ ٨١
تَفسيرُ الآياتِ ٨١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٨٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٨٩
بلاغةُ الآياتِ ٩٢
الآيات (٣٨-٥٢) ٩٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٩٩
المعنى الإجماليُّ ١٠٠
تَفسيرُ الآياتِ ١٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١١١

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١١٢
بلاغةُ الآياتِ ١١٨

سورةُ المعارجِ

أسماءُ السُّورةِ ١٣٣
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ١٣٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ١٣٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ ١٣٣
الآيات (١-٧) ١٣٥
غَريبُ الكَلِماتِ ١٣٥
مُشكِلُ الإعرابِ ١٣٥
المعنى الإجماليُّ ١٣٦
تَفسيرُ الآياتِ ١٣٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٤٥
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤٥
بلاغةُ الآياتِ ١٤٧
الآيات (٨ - ١٨) ١٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ ١٥٢
المعنى الإجماليُّ ١٥٣
تَفسيرُ الآياتِ ١٥٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٦٣
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ١٦٣
بلاغةُ الآياتِ ١٦٤

الآيات (١٩-٣٥) ١٧٤
غَريبُ الكَلِماتِ ١٧٤
مُشكِلُ الإعرابِ ١٧٥
المعنى الإجماليُّ ١٧٥
تَفسيرُ الآياتِ ١٧٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٨٧
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩٠
بلاغةُ الآياتِ ١٩٥
الآيات (٣٦-٤٤) ٢٠٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٠٥
المعنى الإجماليُّ ٢٠٧
تَفسيرُ الآياتِ ٢٠٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢١٧
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٢١٧
بلاغةُ الآياتِ ٢٢٠

سورةُ نوحٍ

أسماءُ السُّورةِ ٢٣١
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٢٣١
مَقاصِدُ السُّورةِ ٢٣١
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٢٣١
الآيات (١-٤) ٢٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٣٣

المعنى الإجماليُّ ٢٣٣
تَفسيرُ الآياتِ ٢٣٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٣٩
بلاغةُ الآياتِ ٢٤١
الآيات (٥-١٢) ٢٤٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٤٧
المعنى الإجماليُّ ٢٤٧
تَفسيرُ الآياتِ ٢٤٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٥٥
بلاغةُ الآياتِ ٢٥٧
الآيات (١٣-٢٠) ٢٦٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٦٤
المعنى الإجماليُّ ٢٦٥
تَفسيرُ الآياتِ ٢٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٧٣
بلاغةُ الآياتِ ٢٧٥
الآيات (٢١-٢٥) ٢٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٨٣
المعنى الإجماليُّ ٢٨٣

تَفسيرُ الآياتِ ٢٨٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٨٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٨٩
بلاغةُ الآياتِ ٢٩١
الآيات (٢٦-٢٨) ٢٩٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٩٩
المعنى الإجماليُّ ٢٩٩
تَفسيرُ الآياتِ ٣٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٠٤
بلاغةُ الآياتِ ٣٠٩

سورةُ الجِنِّ

أسماءُ السُّورةِ ٣١٣
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ ٣١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ٣١٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٣١٣
الآيات (١-٧) ٣١٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٣١٥
مُشكِلُ الإعرابِ ٣١٦
المعنى الإجماليُّ ٣١٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣١٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٢٦

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٢٦
بلاغةُ الآياتِ ٣٣٢
الآيات (٨-١٠) ٣٣٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٣٨
المعنى الإجماليُّ ٣٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ٣٣٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٤٣
بلاغةُ الآياتِ ٣٤٦
الآيات (١١-١٣) ٣٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٥٠
المعنى الإجماليُّ ٣٥١
تَفسيرُ الآياتِ ٣٥١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٥٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٥٦
بلاغةُ الآياتِ ٣٥٧
الآيات (١٤-١٧) ٣٦١
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٦١
المعنى الإجماليُّ ٣٦٢
تَفسيرُ الآياتِ ٣٦٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٦٨

بلاغةُ الآياتِ ٣٧١
الآيات (١٨-٢٤) ٣٧٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٧٦
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٧٦
المعنى الإجماليُّ ٣٧٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٧٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٨٤
بلاغةُ الآياتِ ٣٨٩
الآيات (٢٥-٢٨) ٣٩٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٩٥
المعنى الإجماليُّ ٣٩٥
تَفسيرُ الآياتِ ٣٩٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٠٠
بلاغةُ الآياتِ ٤٠٢
الفهرس ٤٠٨

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

من سورة المزمل إلى سورة المرسلات

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الواحد والأربعون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة المزمل إلى سورة المرسلات)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - من سورة المزمل إلى سورة المرسلات -

المجلد الواحد والأربعون - القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١

الظهران، ١٤٤٣ هـ

٥٢٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٥-٠٨-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- التفسير الحديث أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/١١٣٢٢

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١١٣٢٢

ردمك: ٥-٠٨-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة المزمل إلى سورة المرسلات)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الواحد والأربعون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ
سُورَةِ المُزَّمِّلِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ المُزَّمِّلِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المزَّمِّلِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ المزَّمِّلِ مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

التَّوجيهُ إلى ما يُتزوَّدُ به؛ لتحَمُّلِ ثِقلِ أعباءِ الدَّعوةِ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقيامِ اللَّيلِ.

٢- تثبيتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتحمُّلِ إبلاغِ الوَحيِ.

٣- الأمرُ بالصَّبرِ على جفاءِ الكُفَّارِ.

---

(١) وجهُ تسميةِ السُّورةِ بهذا الاسم: افتتاحُها بهذا اللَّفظِ الواقِعِ في أوَّلِها في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٢).

(٢) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا آيتَينِ منها؛ قولَه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ...﴾ [المزمل: ١٠] والَّتي بعدها، فمَدَنيَّتانِ. وقيل: إلَّا قولَه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾ [المزمل: ٢٠] إلى آخرِ السُّورةِ؛ فإنَّ ذلك نزَل بالمدينةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٦).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٥٩). ويُنظر أيضًا: ((مصاعد النظر)) للبِقاعي (٣/ ١٣١).

٤- تهديدُ الكافِرينَ، وبيانُ بَعضِ ما أعَدَّه اللهُ لهم مِن عذابٍ.

٥- وعْظُ الكافِرينَ بما حَلَّ بقَومِ فِرعَونَ لَمَّا كَذَّبوا رسولَ اللهِ إليهم.

٦- ذِكرُ يومِ القيامةِ، ووَصفُ أهوالِه.

٧- التَّسهيلُ والمسامحةُ في قيامِ اللَّيلِ.

٨- الأمرُ بإدامةِ إقامةِ الصَّلاةِ، وأداءِ الزَّكاةِ، وإعطاءِ الصَّدَقاتِ، والأمرُ بالاستغفارِ مِن الذُّنوبِ والعِصيانِ.

الآيات (١-٩)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾: أي: المتَلَفِّفُ في ثيابِه، وأصلُه: المتَزَمِّلُ: أُدغِمَت التَّاءُ في الزَّاي، والتَّزَمُّلُ: الالتِفافُ في الثِّيابِ بضَمٍّ وتشميرٍ، وأصلُ التَّزَمُّلِ مُشتَقٌّ مِنَ الزَّمْلِ: وهو الإخفاءُ، وقيل: المزَّمِّلُ: الَّذي زُمِّلَ أمْرًا عظيمًا هو أمرُ النُّبوَّةِ، أي: حُمِّلَه، والزِّمْلُ: الحِمْلُ، وازْدَمَلَه أي: احتمَلَه، وأصلُ (زمل) على ذلك: يدُلُّ على حَمْلِ ثِقْلٍ مِن الأثْقالِ[1].

﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾: أي: بَيِّنْه تبيينًا، واقرَأْهُ على تمهُّلٍ، والتَّرتيلُ في القراءةِ: التَّبْيينُ لها، وإشباعُ الحرَكاتِ، وبيانُ الحروفِ، كأنَّه يَفْصِلُ بيْنَ الحرفِ والحرفِ، ومنه قيل: ثَغْرٌ رَتِلٌ ورَتَلٌ، إذا كان مُفَلَّجًا لا يَركَبُ بعضُه بعضًا، والرَّتَلُ: اتِّساقُ الشَّيءِ وانتِظامُه على استِقامةٍ، والتَّرتيلُ: إرسالُ الكلمةِ مِن الفَمِ بسُهولةٍ واستِقامةٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٧١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٥١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٠).

﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾: أي: آناءَ اللَّيلِ وساعاتِه، مأخوذةٌ مِن: نَشَأَتْ نَشْأً، أي: ابتَدَأَتْ، وأقبَلَت شيئًا بعدَ شَيءٍ. وقيل: النَّاشِئةُ: القيامُ، مَصدَرٌ جاء على فاعِلةٍ، كالعافيةِ بمعنى العَفوِ. فهي بمعنى: قيامِ اللَّيلِ، والنَّاشِئةُ إنَّما تكونُ بعدَ النَّومِ، يُقالُ: نشَأَ: إذا قام بعدَ النَّومِ، وأصلُ (نشأ): يدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ[١].

﴿وَطۡـًٔا﴾: أي: كُلْفةً ومَشَقَّةً، مِن قَولِك: اشتَدَّت على القَومِ وَطْأَةُ سُلْطانِهم: إذا ثَقُل عليهم ما يُلزِمُهم ويأخُذُهم به. وقيل: أي: أوطَأُ للقيامِ، وأسهَلُ للمُصَلِّي مِن ساعاتِ النَّهارِ، وأصلُ (وطأ): يدُلُّ على تمهيدِ شَيءٍ وتَسهيلِه[٢].

﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾: أي: أصْوَبُ قِراءةً، وأصحُّ قولًا، وأسَدُّ مقالًا، وقيل: أخلَصُ للقَولِ وأسمَعُ له، وأصل (قوم) هنا: يدُلُّ على انْتِصابٍ أو عَزْمٍ[٣].

﴿سَبۡحًا﴾: أي: تصَرُّفًا وتقلُّبًا في مُهمَّاتِك وحَوائجِك وأشغالِك، أو: فراغًا طويلًا، وسَعةً لتصَرُّفِك، وقضاءِ حوائجِك، قيل: أصلُ السَّبْحِ: سُرعةُ الذَّهابِ، وقيل: السَّبْحُ: التَّباعُدُ، فالمعنى: مُتباعَدًا في المَذهبِ والمُدَّةِ لِما تُريدُ مِن قضاءِ حوائجِك، وأصلُ (سبح) هنا: جِنْسٌ مِن السَّعْيِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٣)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٠)، =

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾: أي: انقَطِعْ إليه في العبادةِ انقِطاعًا، والتَّبَتُّلُ: الانقِطاعُ، وهو تفَعُّلٌ مِنَ البَتلِ: وهو القَطعُ، ومِنه سُمِّيَت مَريمُ: البَتُولَ؛ لانقِطاعِها عن الأزواجِ، وأصلُ (بتل): يدُلُّ على إبانةِ الشَّيءِ مِن غَيرِه[1].

﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾: أي: حافِظًا ومُدَبِّرًا لأمورِك كلِّها، قائمًا بها، ففَوِّضْها إليه، والوكيلُ هو القائمُ بالأمورِ، والَّذي تُوكَلُ إليه الأشياءُ، فَعيلٌ بمعنى المفعولِ، والتَّوكيلُ: أن تَعتمِدَ على غيرِك وتَجعَلَه نائبًا عنك، وأصلُ (وكل): يدُلُّ على اعتِمادِ غيرِك في أمرِك[2].

المعنى الإجماليُّ:

افتتح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بنِداءِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نِداءً مِلْؤُه التَّلَطُّفُ والتَّحَبُّبُ إليه، قائلًا له: يا أيُّها الَّذي التَفَّ بالثِّيابِ وضَمَّها عليه، قُمْ كلَّ اللَّيلِ للصَّلاةِ فيه إلَّا قَليلًا منه، أو قُمْ نِصْفَ اللَّيلِ، أو انقُصْ مِنَ النِّصفِ قَليلًا، أو زِدْ على نِصفِ اللَّيلِ؛ فلا حَرَجَ عليك فيما فعَلْتَ، واقرَأِ القُرآنَ بتمَهُّلٍ وتُؤَدَةٍ وتَبيينٍ لحُروفِه؛ إنَّا سنُنزِلُ عليك قُرآنًا عظيمًا ثقيلًا لرَزانةِ ألفاظِه؛ لامتِلائِها بالمعاني مع جلالتِها، ولِما فيه مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ على النَّفْسِ -لِمُخالَفتِها هواها-، ولِما

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٤٦) و(٢٢/ ٣٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩٥، ١٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ٢٠٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

له مِن قَدْرٍ عَظيمٍ، وهو ثقيلٌ في الميزانِ، ولا يَقدِرُ الكافرُ على رَدِّه، أو الطَّعنِ فيه بوجهٍ.

ثمَّ يُبيِّنُ -سُبحانَه- الحِكمةَ مِن أمْرِه النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقيامِ اللَّيلِ إلَّا قليلًا منه، فيقولُ: إنَّ ساعاتِ اللَّيلِ بعدَ القيامِ مِنَ النَّومِ: أثْقَلُ على المصَلِّي وأشَقُّ مِن صلاةِ النَّهارِ -لأنَّ اللَّيلَ وقتُ النَّومِ والرَّاحةِ والسُّكونِ- وأصْوَبُ قِراءَةً وأصحُّ قَولًا؛ لهدوءِ النَّاسِ، وسُكونِ الأصواتِ.

ثمَّ يقولُ تعالى مقرِّرًا للأمرِ بقيامِ اللَّيلِ إلَّا قليلًا منه: إنَّ لك -يا محمَّدُ- في النَّهارِ سَعَةً مِنَ الوَقتِ وفَراغًا طويلًا تتقلَّبُ فيه في شُؤونِ حَياتِك.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالإكثارِ مِن ذِكْرِه، والانقطاعِ إليه، والتَّوكُّلِ عليه، فيقولُ: واذْكُرِ اسمَ ربِّك في كُلِّ وَقتٍ، وانقَطِعْ على عِبادتِه انقِطاعًا تامًّا، هو سُبحانَه ربُّ المشرِقِ والمغرِبِ، لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو سُبحانَه؛ فاتَّخِذْه قائمًا بأمورِك، وفَوِّضْها إليه وَحْدَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾.

أي: يا أيُّها الَّذي التَفَّ بالثِّيابِ وضَمَّها عليه، يعني: النَّبيَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٦).

قال البِقاعي: (مَدلولُه التَّلَفُّفُ في الثَّوبِ على جميعِ البدَنِ، والاختفاءُ ولُزومُ مكانٍ واحِدٍ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢).

قيل: المرادُ بنِدائِه بالمزَّمِّلِ: طلَبُ تَركِ التَّزَمُّلِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٩). =

= قال ابنُ كثير: (يأمُرُ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يترُكَ التَّزَمُّلَ، وهو: التَّغَطِّي في اللَّيلِ، ويَنهَضَ إلى القيامِ لرَبِّه عزَّ وجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]، كذلك كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممتَثِلًا ما أمَرَه اللهُ تعالى به مِن قيامِ اللَّيلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٩).

وقيل: المرادُ وَصْفُه بالتَّزَمُّلِ بالثِّيابِ للصَّلاةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٤٩).

قال الزمخشري: (وقيل: كان متزَمِّلًا في مِرْطٍ لعائشةَ يُصَلِّي، فهو... ثَناءٌ عليه، وتحسينٌ لحالِه الَّتي كان عليها، وأَمْرٌ بأن يَدومَ على ذلك ويواظِبَ عليه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (قال قَتادةُ: كان تزمَّلَ في ثيابِه للصَّلاةِ واستعَدَّ، فنُوديَ على معنى: يا أيُّها المُستَعِدُّ للعبادةِ المتزَمِّلُ لها. وهذا القَولُ مدحٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ أيضًا: (وقال جمهورُ المفسِّرينَ والزُّهْريُّ بما في البخاريِّ [«٣، ٤» ومسلم «١٦٠، ١٦١»] مِن أنَّه عليه السَّلامُ لَمَّا جاءه المَلَكُ في غارِ حِراءٍ وحاوَرَه بما حاوره، رجَع رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى خديجةَ فقال: زَمِّلوني زَمِّلوني: فنزلتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، وعلى هذا نزَلَت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٦).

قال السَّخاوي: (والعلماءُ على أنَّه إنَّما نزَل عليه مِن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] إلى قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، ثمَّ نزَل باقيها بعدَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾. وقال جابرُ بنُ عبدِ الله: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ أوَّلُ القرآنِ نُزولًا». والأكثرُ على ما قدَّمْتُه، وليس في قولِ جابرٍ ما يُناقِضُه؛ لأنَّ المُدَّثِّرَ مِن جملةِ ما نزَل أوَّلَ القرآنِ). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (١/ ١٠٥). ويُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٩٩، ٢٠٧-٢٠٨).

وقال السيوطي: (وقد ذُكِر عن ابنِ عبَّاسٍ في ترتيبِ نُزولِ السُّورِ: أنَّ المُدَّثِّرَ نزلتْ عَقِبَ المُزَّمِّلِ [كذا] أخرجه ابنُ الضُّرَيْسِ، وأخرجه غيرُه عن جابرِ بنِ زَيدٍ). ((أسرار ترتيب القرآن)) (ص: ١٤٩). يُنظر: ((فضائل القرآن)) لابن الضُّرَيْسِ (١٧) (ص: ٣٣).

وقال ابن عاشور: (الأصَحُّ الَّذي تَضافَرَتْ عليه الأخبارُ الصَّحيحةُ: أنَّ أوَّلَ ما نزَل سورةُ العَلَقِ، واختُلِفَ فيما نزَل بعدَ سورةِ العَلَقِ؛ فقيل: سورةُ ن والقلمِ، وقيل: نزَل بعدَ العَلَقِ سورةُ المدَّثِّرِ، =

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾.

أي: قُمْ -يا محمَّدُ- كلَّ اللَّيلِ للصَّلاةِ فيه إلَّا قَليلًا منه، فاجعَلْه للرَّاحةِ والنَّومِ(١).

= ويَظهَرُ أنَّه الأرجحُ. ثُمَّ قيل: نَزَلتْ سورةُ المزَّمِّلِ بعدَ القلمِ، فتكونُ ثالثةً، وهذا قولُ جابرِ ابنِ زيدٍ في تَعدادِ نُزولِ السُّوَرِ. وعلى القولِ بأنَّ المدَّثِّرَ هي الثَّانيةُ يحتمِلُ أنْ تكونَ القلمُ ثالثةً والمزَّمِّلُ رابعةً، ويحتمِلُ أنْ تكونَ المزَّمِّلُ هي الثَّالثةَ والقلمُ رابعةً، والجمهورُ على أنَّ المدَّثِّرَ نَزَلتْ قبْلَ المُزَّمِّلِ، وهو ظاهرُ حديثِ عُروةَ بنِ الزُّبَيْرِ عن عائشةَ في بَدْءِ الوحيِ مِن «صحيح البُخاريِّ»[٣]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٤).

وقال ابن حجر: (نُزولُها [أي: المزَّمِّلِ] تأخَّر عن نُزولِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ بالاتِّفاقِ؛ لأنَّ أوَّلَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ الأمرُ بالإنذارِ، وذلك أوَّلَ ما بُعِث، وأوَّلَ المُزَّمِّلِ الأمرُ بقيامِ اللَّيلِ وترتيلِ القرآنِ، فيَقتضي تقَدُّمَ نُزولِ كثيرٍ مِن القرآنِ قبْلَ ذلك). ((فتح الباري)) (٨/ ٧٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٩).

قال الماوَرْدي: (في فَرْضِه [أي: قيامِ اللَّيلِ] على مَنْ سِواه مِن أُمَّتِه قولان:

أحدُهما: فُرِض عليه دونَهم؛ لتوَجُّهِ الخِطابِ إليه، ويُشبِهُ أن يكونَ قَولَ سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ.

الثَّاني: أنَّه فُرِض عليه وعليهم، فقاموا حتَّى وَرِمَت أقدامُهم. قاله ابنُ عبَّاسٍ وعائشةُ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: كانوا يقومون نحوَ قيامِه في شهرِ رمضانَ، ثمَّ نُسِخَ فَرضُ قيامِه على الأمَّةِ. واختُلِفَ بماذا نُسِخَ عنهم؛ على قولَينِ: أحدُهما: بالصَّلَواتِ الخَمسِ، وهو قولُ عائشةَ. الثَّاني: بآخِرِ السُّورةِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٣).

والقَولُ بأنَّ أوَّلَ السُّورةِ مَنسوخٌ بآخِرِها نسَبَه ابنُ سلامةَ إلى مُعظَمِ المفسِّرينَ، وهو ظاهرُ اختيارِ: ابنِ جرير، وابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٨)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن سلامة (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدٌ، وعِكْرِمةُ، والحسَنُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٠).

قال السخاوي: (قلتُ: إنَّ ذلك ليس بنَسخٍ، وإنَّما هو تخفيفٌ مِن المِقْدارِ؛ لأنَّهم لا يُحصُونَه). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾.

أي: قُمْ نِصْفَ اللَّيلِ، أو انقُصْ مِنَ النِّصفِ قَليلًا، فتُصَلِّي نحوَ ثُلُثِ اللَّيلِ[1].

= ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٨٧٩).

وقال الشنقيطي: (الأخيرُ ناسخٌ للأوَّلِ، ثمَّ نُسِخ الأخيرُ أيضًا بالصَّلَواتِ الخَمْسِ). ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) (ص: ٢٤٦).

وممَّن قال بأنَّ فَرْضَ قيامِ اللَّيلِ مَنسوخٌ بالصَّلَواتِ الخَمسِ: الواحديُّ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ١١٤٤).

وقيل: نُسِخَ قيامُ اللَّيلِ في حَقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، ونُسِخَ في حقِّ المؤمنينَ بالصَّلَواتِ الخَمسِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٣).

وقال ابن تيميَّةَ: (نقَلَهم عندَ نَسخِ وُجوبِ قيامِ اللَّيلِ إلى القِراءةِ، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ الآيةَ [المزمل: ٢٠]، واللهُ أعلَمُ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٦٠).

وقال أيضًا: (لَمَّا نسَخَ ما كان افترَضَه مِن قيامِ اللَّيلِ، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فأمَرهم بقِراءةِ ما تيسَّر مِن القُرآنِ؛ فإنَّ مِن المُسلِمينَ المعذورَ بالمرَضِ، ومنهم التَّاجرَ الضَّاربَ في الأرضِ يَطلُبُ فضْلَ اللهِ، ومنهم المقاتِلَ في سبيلِ الله). ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٨٤).

وقال السَّخاوي: (وقيل: كان [أي: قيامُ اللَّيلِ] نَدْبًا، وهو الصَّوابُ إن شاء اللهُ تعالى، والقولُ بأنَّه كان تطَوُّعًا أوضَحُ منه. وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾: أي دُمْ على ما تطَوَّعْتَ به؛ مدحًا لحالِه، وتحسينًا لها). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٨٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧١)، ((تفسير ابن =

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾.

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾.

أي: أو زِدْ في صَلاتِك على نِصفِ اللَّيلِ، فتُصَلِّي ثُلُثَيْه؛ فلا حَرَجَ عليك في قيامِ نِصفِ اللَّيلِ، أو أقَلَّ مِنَ النِّصفِ بقَليلٍ، أو أكثَرَ مِنَ النِّصفِ[١].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ نَبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقومُ مِنَ اللَّيلِ حتَّى تتفَطَّرَ قَدَماه، فقالت عائِشةُ: لِمَ تَصنَعُ هذا يا رَسولَ اللهِ، وقد غَفَرَ اللهُ لك ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِك وما تأخَّرَ؟! قال: أفلا أُحِبُّ أن أكونَ عَبدًا شَكورًا؟!))[٢].

﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾.

أي: واقرَأِ القُرآنَ بتمَهُّلٍ وتُؤَدَةٍ وتَبيينٍ لحُروفِه بلا عَجَلةٍ؛ فيَكونَ ذلك عَونًا على التَّفَكُّرِ فيه، وفَهْمِ مَعانيه[٣].

= كثير)) (٨/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٩).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: أو انقُصْ مِنَ النِّصفِ قليلًا إلى الثُّلُثِ، أو زِدْ على النِّصفِ قليلًا إلى الثُّلُثَينِ، جَعَل له سَعةً في مدَّةِ قيامِه في اللَّيلِ، وخَيَّرَه في السَّاعاتِ للقيامِ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٧١).

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٧) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

قال الداني: (أي: تلَبَّثْ في قراءتِه، وافصِلِ الحَرفَ مِنَ الحَرفِ الَّذي بعْدَه، ولا تَستَعجِلْ؛ فتُدخِلَ بَعضَ الحُروفِ في بَعضٍ). ((التحديد في الإتقان والتجويد)) (ص: ٧١). ويُنظر: ((الأم)) للشافعي (١/ ١٣٢)، ((التمهيد في علم التجويد)) لابن الجزري (ص: ٤٨، ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٠).

عن حَفْصةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بالسُّورةِ فيُرَتِّلُها حتَّى تكونَ أطْوَلَ مِن أطْوَلَ مِنها))(١).

وعن قَتادةَ، قال: ((سألْتُ أنَسَ بنَ مالِكٍ عن قِراءةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: كان يَمُدُّ مَدًّا))(٢).

وعن عبدِ الله بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُقالُ لصاحِبِ القُرآنِ: اقرَأْ وارتَقِ، ورَتِّلْ كما كُنتَ تُرَتِّلُ في الدُّنيا؛ فإنَّ مَنزِلَتَك عندَ آخِرِ آيةٍ تَقرَأُ بها))(٣).

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

وَجهُ النَّظْمِ أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَه بصَلاةِ اللَّيلِ، فكأنَّه قال: إنَّما أمَرْتُك بصلاةِ اللَّيلِ؛ لأنَّا سنُلْقي عليك قولًا ثَقيلًا، فلا بدَّ أن تَسعى في صَيرورةِ نَفْسِك مُستَعِدَّةً لذلك القَولِ الثَّقيلِ، ولا يَحصُلُ ذلك الاستِعدادُ إلَّا بصلاةِ اللَّيلِ(٤)، فالجملةُ كالعلةِ لقيامِ الليلِ؛ فإنَّ الطاعةَ -سيَّما في اللَّيلِ- تُعينُ الرَّجلَ على نوائبِه، وتُسهِّلُ عليه المصائبَ(٥).

---

(١) رواه مسلم (٧٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٤٥).

(٣) أخرجه أبو داودَ (١٤٦٤)، والترمذيُّ (٢٩١٤) واللَّفظُ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٨٠٥٦)، وأحمدُ (٦٧٩٩).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وكذا قال الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٩١٤). وصَحَّحَه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٧٦٦)، وصحَّحَه لغيرِه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٤٦٤)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١١/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٣، ٦٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٣٩٦).

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾.

أي: إنَّا سنُنزِلُ عليك -يا محمَّدُ- قُرآنًا ثقيلًا لِما فيه مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّة، ورَزانةِ ألفاظِه؛ لامتلائِها بالمعاني مع جلالتِها، وما له مِن قَدْرٍ عَظيمٍ، وهو ثقيلٌ في الميزانِ، ولا يَقدِرُ الكافرُ على رَدِّه، أو الطَّعنِ فيه بوجهٍ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦١، ٢٦٢).

اختلَف المفسِّرونَ في معنى تسميةِ القرآنِ بالقَولِ الثَّقيلِ؛ فقيل: المرادُ: ثقيلٌ لِما فيه مِن الأوامرِ والنَّواهي، والحدودِ، والتَّكاليفِ الشَّاقَّةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والزمخشري، وأبو حيَّان، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٩٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ في روايةٍ عنه، وأبو العاليةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥١).

وقيل: المرادُ: كَونُه رَصينًا رزينًا، ليس بالسَّفسافِ والخفيفِ؛ لأنَّه كلامُ اللهِ تعالى. وممَّن قال بهذا القولِ: الفرَّاءُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٥).

وقيل: المرادُ مِن كَونِه ثقيلًا: عِظَمُ قَدْرِه، وجلالةُ خَطَرِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

قال ابنُ جُزَي: (واختُلِف في وَصفِه بالثِّقَلِ؛ على خمسةِ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه سُمِّيَ ثقيلًا؛ لِما كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يَلْقاه مِن الشِّدَّةِ عندَ نُزولِ الوَحيِ عليه، حتَّى إنَّ جَبينَه لَيَتفَصَّدُ عَرَقًا في اليومِ الشَّديدِ البَردِ، وقد كان يَثقُلُ جِسمُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بذلك، حتَّى إنَّه إذا أُوحِيَ إليه وهو على ناقتِه برَكَت به، وأُوحيَ إليه وفَخِذُه على فَخِذِ زَيدِ بنِ ثابتٍ، فكادت أن تَرُضَّ فَخِذَ زَيدٍ، والثِّقلُ على هذا حقيقةٌ. =

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ: ﴿وِطَاءً﴾ أي: أشَدُّ مُوافَقةً، والمعنى: أنَّ القراءةَ في اللَّيلِ يَتواطَأُ فيها قَلبُ المصَلِّي ولسانُه وسَمعُه على التَّفَهُّمِ والأداءِ أكثَرَ ممَّا يتواطَأُ عليه ذلك في النَّهارِ[(١)].

٢- قِراءةُ: ﴿وَطْئًا﴾ قيل: المعنى: أشدُّ مُكابَدةً؛ فقيامُ اللَّيلِ أشَدُّ على الإنسانِ وأثقَلُ مِنَ القيامِ بالنَّهارِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جعَلَ اللَّيلَ سكنًا وراحةً. وقيل: معناه: أبيَنُ في القَولِ. وقيل: أثبَتُ في الحِفظِ. وقيل: معناه: أبلَغُ في الثَّوابِ[(٢)].

= الثَّاني: أنَّه ثقيلٌ على الكُفَّارِ بإعجازِه ووعيدِه.

الثَّالثُ: أنَّه ثقيلٌ في الميزانِ.

الرَّابعُ: أنَّه كلامٌ له وَزنٌ ورُجحانٌ.

الخامسُ: أنَّه ثقيلٌ لِما تضَمَّن مِن التكاليفِ والأوامِرِ والنَّواهي). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٣).

وقد ذهب البِقاعي إلى العُموم، فقال: (﴿ثَقِيلًا﴾ أي: لِما فيه مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ مِن جِهةِ حَمْلِها وتحميلِها للمَدعُوِّينَ؛ لأنَّها تُضادُّ الطَّبعَ، وتُخالِفُ النَّفْسَ، ومِن جهةِ رَزانةِ لَفظِه؛ لامتِلائِه بالمعاني مع جلالةِ معناه، وتَصاعُدِه في خفاءٍ، فلا يَفهَمُه المتأمِّلُ ويَستَخرِجُ ما فيه مِن الجواهِرِ إلَّا بمَزيدِ فِكرٍ، وتصفيةِ سِرٍّ، وتجريدِ نَظَرٍ؛ فهو ثقيلٌ على الموافقِ مِن جميعِ هذه الوجوهِ وغَيرِها، وعلى المخالِفِ مِن جِهةِ أنَّه لا يَقدِرُ على رَدِّه، ولا يتمكَّنُ مِن طَعنٍ فيه بوجهٍ، مع أنَّه ثقيلٌ في الميزانِ، وعندَ تلَقِّيه، وله وزنٌ وخطرٌ وقَدْرٌ عَظيمٌ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٠).

(١) قرأ بها أبو عَمرٍو، وابنُ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٩٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٣٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٩٩، ١٠٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٣٠، ٧٣١).

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦﴾.

أي: إنَّ ساعاتِ اللَّيلِ بعدَ القيامِ مِنَ النَّومِ: أثْقَلُ على المصَلِّي وأشَقُّ مِن صلاةِ النَّهارِ -لأنَّ اللَّيلَ وقتُ النَّومِ والرَّاحةِ والسُّكونِ- وأصْوَبُ قِراءةً وأصحُّ قَولًا؛ لهدوءِ النَّاسِ، وسُكونِ الأصواتِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦، ٣٧٠، ٣٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٩-٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٢، ٢٦٣).

وممَّن قال بأنَّ ناشِئةَ اللَّيلِ تكونُ بعدَ نَومٍ: ابنُ الأعرابيِّ، وأحمدُ بنُ حَنْبَلٍ، ورجَّحه ابنُ تيميَّةَ، ونسَبَه لأكثرِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٩٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣٣).

قال ابن الجوزي: (... الثَّاني: أنَّها القيامُ بعدَ النَّومِ، وهذا قولُ عائشةَ، وابنِ الأعرابيِّ. وقد نصَّ عليه الإمامُ أحمدُ في روايةِ المَرُّوذي). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٤).

وقال ابن تيميَّةَ: (﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ في أصَحِّ القولَينِ: إنَّما تكونُ بعدَ النَّومِ، يُقالُ: نشَأَ: إذا قام بعدَ النَّومِ؛ فإذا قام بعدَ النَّومِ كانت مواطأةُ قَلبِه لِلسانِه أشَدَّ؛ لعدمِ ما يَشغَلُ القَلبَ، وزَوالِ أثَرِ حركةِ النَّهارِ بالنَّومِ، وكان قَولُه أقوَمَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ٤٩٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ أيضًا: (قَولُه تعالى: ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ عندَ أكثَرِ العلماءِ: هو إذا قام الرَّجُلُ بعدَ نَومٍ ليس هو أوَّلَ اللَّيلِ، وهذا هو الصَّوابُ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم هكذا كان يُصَلِّي، والأحاديثُ بذلك متواترةٌ عنه؛ كان يقومُ بعدَ النَّومِ، لم يكُنْ يقومُ بيْنَ العِشاءَينِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٧٤).

وقيل: المرادُ بناشئةِ اللَّيلِ: جميعُ ساعاتِه وأوقاتِه، فهي تنشأُ وقتًا بعدَ آخَرَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ الزُّبَيرِ، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦).

قال ابنُ جُزَي: (﴿أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾ يحتَمِلُ معنيَينِ؛ أحَدُهما: أثقَلُ وأصعَبُ على المصَلِّي...، والأثقَلُ =

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اللهُ سُبحانَه مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا ما به صلاحُ الدِّينِ، وأظهَرَ ما

= أعظَمُ أجرًا، فالمعنى تحريضٌ على قيامِ اللَّيلِ؛ لكثرةِ الأجرِ. الثَّاني: أشدُّ ثبوتًا مِن أجْلِ الخَلوةِ، وحُضورِ الذِّهنِ، والبُعدِ عن النَّاسِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٤).

ممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والسمرقنديُّ، والسمعاني، والبغوي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٠).

وقال ابن جرير: (أشدُّ ثباتًا مِن النَّهارِ، وأثْبَتُ في القلبِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٠).

وقال ابن كثير: (﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أي: أجمَعُ للخاطرِ في أداءِ القراءةِ وتَفَهُّمِها مِن قيامِ النَّهارِ؛ لأنَّه وقتُ انتشارِ النَّاسِ، ولَغَطِ الأصواتِ، وأوقاتُ المعاشِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٢).

وقال السعدي: (ذكَرَ الحِكمةَ في أمرِه بقيامِ اللَّيلِ، فقال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: الصَّلاةَ فيه بعدَ النَّومِ ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أي: أقرَبُ إلى تحصيلِ مقصودِ القُرآنِ، يتَواطأُ على القرآنِ القَلبُ واللِّسانُ، وتَقِلُّ الشَّواغِلُ، ويفهمُ ما يقولُ، ويستقيمُ له أمرُه، وهذا بخِلافِ النَّهارِ؛ فإنَّه لا يحصُلُ به هذا المقصودُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٣).

وممَّن اختار المعنى المذكورَ في قولِه: ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، والرَّسْعَني، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٦١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٩٥).

قال القرطبي: (﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أي: القراءةُ باللَّيلِ أقومُ منها بالنَّهارِ، أي: أشدُّ استِقامةً واستِمرارًا على الصَّوابِ؛ لأنَّ الأصواتَ هادئةٌ، والدُّنيا ساكنةٌ، فلا يَضْطَرِبُ على المصَلِّي ما يَقرَؤُه). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤١).

وقيل: المعنى: أخلَصُ للقَولِ، وأسمَعُ له. وممَّن اختاره: ابنُ قُتَيْبَةَ، والسمرقنديُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٤).

للتَّهجُّدِ مِن الفَضائلِ؛ فكان التَّقديرُ حَتمًا: فواظِبْ عليه لتَنالَ هذه الثَّمَراتِ- قال معلِّلًا مُحَقِّقًا له، مُبَيِّنًا ما به صلاحُ الدُّنيا الَّتي هي فيها المَعاشُ، وصلاحُها وسيلةٌ إلى صلاحِ المقصودِ، وهو الدِّينُ، وهو الَّذي ينبغي له؛ لئلَّا يكونَ كَلًّا على النَّاسِ، ليحصلَ مِن الرِّزقِ ما يُعينُه على دينِه، ويوسِّعُ به على عيالِ اللهِ مِن غيرِ مَلَلٍ ولا ضَجَرٍ، ولا كَسَلٍ ولا مُبالَغةٍ[1]:

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ٧﴾.

أي: إنَّ لك -يا محمَّدُ- في النَّهارِ سَعَةً مِنَ الوَقتِ وفَراغًا طويلًا تتقلَّبُ فيه بالذَّهابِ والمجيءِ؛ لقَضاءِ حوائجِك وللنَّومِ؛ فتفرَّغْ في اللَّيلِ لقِيامِه[2].

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ٨﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- اسمَ ربِّك في كُلِّ وقْتٍ، وانقَطِعْ إليه مِن كُلِّ شَيءٍ يُلهيك عن طاعتِه انقِطاعًا تامًّا بالعبادةِ له وَحْدَه، وطَلَبِ الحاجاتِ منه دونَ غيرِه[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٢، ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٧)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٦٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٣، ٤٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣١، ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

قال السعدي: (﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ شامِلٌ لأنواعِ الذِّكرِ كُلِّها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٢).

وقال القرطبي: (﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ أي: ادعُه بأسمائِه الحُسنى، لِيَحصُلَ لك مع الصَّلاةِ محمودُ العاقبةِ. وقيل: أي: اقصِدْ بعمَلِك وجْهَ رَبِّك. وقال سهلٌ: اقرَأْ بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ في ابتداءِ صَلاتِك تُوصِلْك بَرَكةُ قراءتِها إلى رَبِّك، وتقطَعْك عمَّا سِواه. وقيل: اذكُرِ اسمَ رَبِّك في وَعْدِه ووعيدِه؛ لتَوَفَّرَ على طاعتِه، وتَعدِلَ عن معصيتِه. وقال الكلبيُّ: صَلِّ لرَبِّك، أي: بالنَّهارِ. قلتُ: =

= وهذا حَسَنٌ؛ فإنَّه لَمَّا ذكَرَ اللَّيلَ ذَكَر النَّهارَ؛ إذ هو قَسيمُه، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ [الفرقان: ٦٢]. ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٣).

وقال ابن كثير: (قولُه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا﴾ أي: أكثِرْ مِن ذِكْرِه، وانقطِعْ إليه، وتفرَّغْ لعِبادتِه إذا فرَغْتَ مِن أشغالِك، وما تحتاجُ إليه مِن أمورِ دُنياكَ، كما قال: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾ [الشرح: ٧]، أي: إذا فرَغْتَ مِن مهامِّك فانصَبْ في طاعتِه وعبادتِه؛ لِتَكونَ فارغَ البالِ. قاله ابنُ زَيدٍ بمعناهُ أو قريبٍ منه.

وقال ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وأبو صالحٍ، وعطيَّةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا﴾ أي: أخلِصْ له العبادةَ.

وقال الحسَنُ: اجتَهِدْ وبَتِّلْ إليه نفْسَك). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٥).

وقال الواحدي: (جميعُ المفسِّرينَ فَسَّروا التَّبَتُّلَ بالإخلاصِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٣٦٦).

وقال أيضًا: (قال أبو إسحاقَ [الزَّجَّاجُ]: انقطِعْ إليه في العبادةِ. وقال الفرَّاءُ: يُقالُ للعابدِ إذا ترَكَ كلَّ شيءٍ، وأقبَلَ على العبادةِ: قد تَبَتَّلَ، أي: قطَع كلَّ شيءٍ إلَّا أمْرَ اللهِ وطاعتَه. وهذا يؤدِّي معنى الإخلاصِ الَّذي ذكَر أهلُ التَّفسيرِ. وقال زَيدُ بنُ أسْلَمَ: التَّبَتُّلُ: رفْضُ الدُّنيا وما فيها، والتِماسُ ما عندَ الله. وقال ابنُه: «تَبَتَّلْ إليه»: تفرَّغْ لعبادتِه. وهذا كلُّه يَرجِعُ إلى معنى الانقطاعِ إليه عمَّا سِواه). ((البسيط)) (٢٢/ ٣٦٧). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩٨).

وقال ابن عاشور: (المرادُ بالانقطاعِ المأمورِ به انقطاعٌ خاصٌّ، وهو الانقطاعُ عن الأعمالِ الَّتي تَمنَعُه مِن قيامِ اللَّيلِ، ومَهامِّ النَّهارِ في نشرِ الدَّعوةِ ومُحاجَّةِ المشركين؛ ولذلك قيل: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ﴾ أي: إلى الله، فكلُّ عمَلٍ يقومُ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أعمالِ الحياةِ فهو لدينِ الله؛ فإنَّ طَعامَه وشَرابَه ونَومَه وشُؤونَه للاستِعانةِ على نشرِ دينِ الله، وكذلك مُنعشاتُ الرُّوحِ البريئةُ مِن الإثمِ؛ مِثلُ الطِّيبِ، وتزَوُّجِ النِّساءِ، والأُنْسِ إلى أهلِه وأبنائِه وذَويه، وقد قال: «حُبِّبَ إلَيَّ مِن دُنياكم النِّساءُ والطِّيبُ»، وليس هو التَّبَتُّلَ المُفْضي إلى الرَّهبانيَّةِ، وهو الإعراضُ عن النِّساءِ، وعن تدبيرِ أمورِ الحياةِ؛ لأنَّ ذلك لا يُلاقي صِفةَ الرِّسالةِ... ومِن أكبَرِ التَّبَتُّلِ إلى الله الانقطاعُ عن الإشراكِ، وهو معنى الحَنيفيَّةِ؛ ولذلك عُقِّب قولُه: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا﴾ بقولِه: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]. وخُلاصةُ المعنى: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مأمورٌ ألَّا تَخلوَ أوقاتُه عن إقبالٍ على عبادةِ الله ومُراقَبَتِه، والانقطاعِ للدَّعوةِ لدينِ الحقِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٦).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ بالذِّكرِ أوَّلًا، ثمَّ بالتَّبتُّلِ ثانيًا؛ ذكَرَ السَّبَبَ فيه[١].

وأيضًا فوَصْفُ اللهِ بأنَّه رَبُّ المشرقِ والمغرِبِ؛ لِمُناسَبةِ الأمرِ بذِكْرِه في اللَّيلِ وذِكْرِه في النَّهارِ، وهما وَقْتَا ابتِداءِ غيابِ الشَّمسِ وطُلوعِها[٢].

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾.

أي: هو خالِقُ ومالِكُ ومُدَبِّرُ المشرِقِ والمغرِبِ[٣].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ سُبحانَه وَحْدَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾.

أي: فاتَّخِذِ اللهَ قائمًا بأمورِك، وفوِّضْها إليه، واعتَمِدْ عليه وَحْدَه دونَ مَنْ سِواه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ في خِطابِه بهذا الاسمِ فائدتانِ:

إحداهما: الملاطَفةُ؛ فإنَّ العَرَبَ إذا قصَدَت ملاطَفةَ المخاطَبِ، وتَرْكَ المُعاتَبةِ، سَمَّوْه باسمٍ مُشتَقٍّ مِن حالتِه الَّتي هو عليها، كقَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لعليٍّ حينَ غاضَبَ فاطِمةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، فأتاه وهو نائِمٌ، وقد لَصِقَ بجَنْبِه التُّرابُ، فقال له: ((قُمْ يا أبا تُرابٍ))[(٢)]؛ إشعارًا له أنَّه غيرُ عاتِبٍ عليه، ومُلاطَفةً له، وكذلك قَولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لحُذَيفةَ: ((قُمْ يا نَوْمانُ))[(٣)]، وكان نائِمًا؛ مُلاطَفةً له،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٧).

قال الشوكاني: (﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ أي: إذا عرَفْتَ أنَّه المُختَصُّ بالرُّبوبيَّةِ ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾، أي: قائمًا بأمورِك، وعَوِّلْ عليه في جميعِها. وقيل: كفيلًا بما وعَدَك مِن الجزاءِ والنَّصرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨١).

وقال الواحديُّ: (قولُه: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ قال الكلبيُّ: يقولُ: اتَّخِذْه يا محمَّدُ كفيلًا على ما قال لك إنَّه سيَفعَلُه بك. وهذا المعنى أراد الزَّجَّاجُ بقولِه: اتَّخِذْه كفيلًا بما وعَدَك. وهو قولُ الفرَّاءِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٣٦٩، ٣٧٠). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩) من حديث سَهلِ بنِ سعدٍ رضيَ الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٨٨) من حديث حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رضيَ الله عنهما.

وإشعارًا لتَركِ العَتْبِ والتَّأنيبِ، فقَولُ اللهِ تعالى لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ * قُمِ﴾ فيه تأنيسٌ وملاطَفةٌ؛ ليَستَشعِرَ أنَّه غيرُ عاتبٍ عليه.

الفائدةُ الثَّانيةُ: التَّنبيهُ لكُلِّ مُتزمِّلٍ راقدٍ لَيلَه لِيَتنبَّهَ إلى قيامِ اللَّيلِ، وذِكْرِ اللهِ تعالى فيه؛ لأنَّ الاسمَ المشتَقَّ مِن الفِعلِ يَشتَرِكُ فيه مع المُخاطَبِ كُلُّ مَن عَمِلَ ذلك العَمَلَ، واتَّصَف بتلك الصِّفةِ[1].

٢- اللهُ سُبحانَه وتعالى خاطَبَ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بأسمائِهم، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١، ١٢]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ولَمَّا خاطَبَ نبيَّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [التحريم: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، فنحن أحقُّ أن نتأدَّبَ في دُعائِه وخِطابِه صلَّى الله عليه وسلَّم.

وأمَّا إذا كان في مقامِ الإخبارِ عنه، قُلْنا: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وقُلْنا: محمَّدٌ رَسولُ اللهِ وخاتَمُ النَّبيِّينَ، فنُخبِرُ عنه باسمِه كما أخبَرَ اللهُ سُبحانَه لَمَّا أخبَرَ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ [محمد: ٢]؛ فالفَرقُ بيْن

(١) يُنظر: ((التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام)) للسهيلي (ص: ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٤٥١).

مَقامِ المُخاطَبةِ ومَقامِ الإخبارِ فَرقٌ ثابتٌ بالشَّرعِ والعقلِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ فيه أمرٌ بترتيلِ القُرآنِ؛ حتَّى يَتمكَّنَ الخاطِرُ مِن التَّأمُّلِ في حقائقِ تلك الآياتِ ودقائِقِها، فعندَ الوُصولِ إلى ذِكرِ اللهِ يَستَشعِرُ عَظَمتَه وجلالتَه، وعندَ الوُصولِ إلى الوَعدِ والوعيدِ يَحصُلُ الرَّجاءُ والخَوفُ، وحينَئذٍ يَستنيرُ القَلبُ بنورِ مَعرفةِ اللهِ. والإسراعُ في القراءةِ يدُلُّ على عدَمِ الوُقوفِ على المعاني؛ لأنَّ النَّفْسَ تَبتَهِجُ بذِكرِ الأمورِ الإلهيَّةِ الرُّوحانيَّةِ، ومَنِ ابتَهَج بشَيءٍ أحَبَّ ذِكْرَه، ومَن أحَبَّ شَيئًا لم يَمُرَّ عليه بسرعةٍ، فالمقصودُ مِن التَّرتيلِ إنَّما هو حُضورُ القَلبِ، وكَمالُ المعرفةِ[٢]، وأنْ يجِدَ الفِكرُ فُسحةً للنَّظرِ، وفهمِ المعاني، وبذلك يرِقُّ القلبُ، ويَفيضُ عليه النُّورُ والرَّحمةُ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ فيه استِحبابُ ترتيلِ القِراءةِ، وأنَّه أفضَلُ مِنَ السُّرعةِ في قِراءتِه[٤]. قال الشَّافعيُّ: (أقلُّ التَّرتيلِ تَركُ العَجَلةِ في القرآنِ عن الإبانةِ، وكُلَّما زاد على أقَلِّ الإبانةِ في القراءةِ كان أحَبَّ إلَيَّ، ما لم يَبلُغْ أن تكونَ الزِّيادةُ فيها تمطيطًا. وأُحِبُّ ما وصَفْتُ لكلِّ قارئٍ في صلاةٍ وغَيرِها، وأنا له في المصَلِّي أشَدُّ استِحبابًا منه للقارئِ في غيرِ صلاةٍ)[٥].

٥- كان جُملةُ القُرآنِ حينَ نُزولِ هذه السُّورةِ سُورتَينِ أو ثلاثَ سُوَرٍ، بِناءً

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٦).

قال النووي: (وقد اتَّفَق العلماءُ رضيَ الله عنهم على استحبابِ التَّرتيلِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾). ((التبيان في آداب حملة القرآن)) (ص: ٨٨).

(٥) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (١/ ١٣٢).

على أصَحِّ الأقوالِ في أنَّ هذا المِقْدارَ مِنَ السُّورةِ مَكِّيٌّ، وفي أنَّ هذه السُّورةَ مِن أوائِلِ السُّوَرِ، وهذا مِمَّا أشعَرَ به قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، أي: سنُوحي إليك قُرآنًا[١].

٦- كان مالكٌ رحمه الله يقولُ: (مَن سُئِلَ عن مسألةٍ فيَنبغي له قبْلَ أن يُجيبَ فيها أن يَعرِضَ نفْسَه على الجنَّةِ والنَّارِ، وكيف يكونُ خلاصُه في الآخرةِ، ثمَّ يجيب فيها)، وسُئِلَ عن مسألةٍ، فقال: (لا أدري. فقيل له: إنَّها مسألةٌ خفيفةٌ سهلةٌ! فغَضِبَ، وقال: ليس في العِلمِ شيءٌ خفيفٌ؛ أمَا سَمِعتَ قولَ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾)، فالعِلمُ كلُّه ثقيلٌ، وخاصَّةً ما يُسأَلُ عنه يومَ القيامةِ[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ فيه إرشادٌ إلى ما يُقابِلُ هذا الثِّقْلَ فيما سيُلْقى على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ القَولِ، فهو كالتَّوجيهِ إلى ما يتزوَّدُ به لتحَمُّلِ ثِقْلِ أعباءِ الدَّعوةِ والرِّسالةِ[٣].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ دَلَّ به على أنَّ قيامَ اللَّيلِ مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ الَّتي ورد بها القرآنُ؛ لأنَّ اللَّيلَ محَلُّ الرَّاحةِ، فإحياؤُه بالعبادةِ مُضادٌّ للطَّبعِ، وفيه إيقاظٌ له على التَّشَمُّرِ لتحَمُّلِه، وتوطُّنِ النَّفْسِ على المُكابَدةِ في تبليغِه وتحميلِه[٤].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ بيَّن تعالى في هذه الآيةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٠).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٣).
(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٤/ ١٦٧).
(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٦١).

فضْلَ صلاةِ اللَّيلِ على صلاةِ النَّهارِ، وأنَّ الاستِكثارَ مِن صلاةِ اللَّيلِ بالقراءةِ فيها ما أمكَنَ: أعظَمُ للأجرِ، وأجلَبُ للثَّوابِ[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ فيه أنَّ صَلاةَ اللَّيلِ أعوَنُ على تذَكُّرِ القُرآنِ، والسَّلامةِ مِن نِسيانِ بَعضِ الآياتِ، وأعوَنُ على المزيدِ مِن التَّدَبُّرِ[٢].

١١- قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾ وإنَّ مِن شرطِ هذا الاتِّخاذِ أنَّه إذا قضَى لعبدِه قضاءً يكونُ راضيًا بالقضاءِ في تلك الوكالةِ محسنًا ظنًّا غيرَ مسيءٍ له؛ فإنَّ الله تعالى لا يختارُ له إذا اتَّخذَه وكيلًا إلَّا الأفضلَ والأجودَ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ليس المزَّمِّلُ باسمٍ مِن أسماءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولم يُعرَفْ به كما ذهَبَ إليه بعضُ النَّاسِ وعَدُّوه في أسمائِه عليه السَّلامُ! وإنَّما المزَّمِّلُ اسمٌ مُشتَقٌّ مِن حالتِه الَّتي كان عليها حينَ الخِطابِ، وكذلك المُدَّثِّرُ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه سُؤالٌ: هذا الكلامُ، مع قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ [المزمل: ٢٠] إلى قوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠] يدُلُّ على وُجوبِ قيامِ اللَّيلِ على الأُمَّةِ؛ لأنَّ أمْرَ القُدوةِ أمْرٌ لأتْباعِه. وقَولُه: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠] دليلٌ على عدمِ الخُصوصِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد ذَكَر اللهُ ما يدُلُّ على خِلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((الإفصاح عن معاني الصحاح)) لابن هبيرة (٣/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((التعريف والإعلام)) للسهيلي (ص: ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٣).

ذلك، في قَولِه: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقَولِه: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ [المزمل: ٢٠]!

الجوابُ: أنَّ الأخيرَ ناسِخٌ للأوَّلِ، ثمَّ نُسِخَ الأخيرُ أيضًا بالصَّلَواتِ الخَمسِ(١). وذلك على قولٍ.

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ تخصيصُ اللَّيلِ بالصَّلاةِ فيه؛ لأنَّه وقتُ النَّومِ عادةً، فأمْرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقيامِ فيه زيادةٌ في إشغالِ أوقاتِه بالإقبالِ على مُناجاةِ اللهِ، ولأنَّ اللَّيلَ وَقتُ سُكونِ الأصواتِ، فتكونُ نفْسُ القائمِ فيه أقوى استِعدادًا لتلَقِّي الفَيضِ الرَّبَّانيِّ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أنَّه سُبحانَه لَمَّا سمَّى الصَّلاةَ قيامًا؛ دلَّ على وُجوبِ القيامِ فيها، وذلك: أنَّ تسميتَها بهذا الفعلِ دليلٌ على أنَّ هذا الفعلَ لازِمٌ لها، فإذا وُجِد هذا الفعلُ فيكونُ مِن الأبعاضِ اللَّازمةِ، كما أنَّهم يُسمُّونَ الإنسانَ بأبعاضِه اللَّازمةِ له، فيُسمُّونَه رقبةً ورأسًا ووجهًا ونحوَ ذلك، كما في قولِه تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾(٣) [المجادلة: ٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ يدُلُّ على أنَّ أكثرَ المقاديرِ الواجِبةِ: الثُّلُثانِ، فهذا يدُلُّ على أنَّ نومَ الثُّلُثِ جائِزٌ، وإذا كان كذلك وجَبَ أن يكونَ المرادُ في قَولِه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ هو الثُّلُثَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٦).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٩، ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ إلى ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ وسائرِ السُّورةِ: أنَّ الصَّلاةَ لا بُدَّ فيها مِن القراءةِ؛ فإنَّه يُعَبَّرُ عن الشَّيءِ باسمِ بعضِه إذا كان رُكنًا فيه[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ أنه يُستَحَبُّ أنْ يَقْرَأَ القارئُ قِراءةً مُرَتَّلةً يُمَكِّنُ فيها حَرْفَ المَدِّ مِن غَيرِ تمطيطٍ، ويَقِفُ عندَ كلِّ آيةٍ[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ في هذه الآيةِ تَنبيهٌ على نومِ القائِلةِ الَّذي يَستريحُ به العَبدُ مِن قيامِ اللَّيلِ في الصَّلاةِ، أو في العِلمِ[٣]. وفيه إرشادٌ إلى أنَّ النَّهارَ ظرْفٌ واسعٌ لإيقاعِ ما عسَى أنْ يُكلفَه قِيامُ اللَّيلِ مِن فُتورٍ بالنَّهارِ؛ ليَنامَ بَعضَ النَّهارِ، وليَقومَ بمَهامِّه فيه[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ فَضْلُ العِبادةِ باللَّيلِ[٥].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أنَّ نَفْلَ اللَّيلِ أفضلُ مِن نَفْلِ النَّهارِ[٦].

١١- قال تعالَى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ فتارةً يأمُرُ بذِكْرِ اسْمِه، وتارةً يأمُرُ بذِكْرِه كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]؛ كما يأمُرُ بتَسبيحِه تارةً، وتسبيحِ اسْمِه تارةً. فقولُه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ يَقتضي أن يَذْكُرَه بلِسانِه، وأمَّا قولُه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ فقد

---

(١) يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((الكلم الطيب)) لابن تيمية (ص: ٣٤).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٦).

يَتناوَلُ ذِكرَ القلبِ، وقولُه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] هو كقولِ الآكِلِ: باسْمِ اللهِ، وقولِ الذَّابِحِ: باسْمِ اللهِ. وأمَّا التَّسبيحُ فقد قال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقال: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦] [الحاقة: ٥٢]. وفي الدُّعاءِ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ فقولُه: ﴿أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ﴾ يَقتضي تَعدُّدَ المَدْعُوِّ؛ لقولِه ﴿أَيّٗا مَّا﴾، وقولُه: ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ يَقتضي أنَّ المَدْعُوَّ واحدٌ له الأسماءُ الحُسنى، وقولُه: ﴿ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ -ولم يقلْ: ادعوا باسْمِ اللهِ أو باسْمِ الرَّحمنِ- يَتضَمَّنُ أنَّ المَدْعوَّ هو الرَّبُّ الواحدُ بذلك الاسمِ. فقد جعَل الاسمَ تارةً مَدْعُوًّا، وتارةً مَدعوًّا به في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فهو مَدْعُوٌّ به باعتبارِ أنَّ المَدْعُوَّ هو المُسمَّى، وإنَّما يُدْعى باسْمِه. وجعَل الاسمَ مَدْعُوًّا باعتبارِ أنَّ المقصودَ به هو المُسمَّى وإن كان في اللَّفظِ هو المَدعوَّ المُنادَى، كما قال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي: ادعوا هذا الاسمَ أو هذا الاسمَ، والمرادُ إذا دَعَوْتَه هو المُسمَّى؛ أيَّ الاسْمَيْنِ دَعَوْتَ ومُرادُك هو المُسمَّى: ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾. فمَن تدَبَّرَ هذه المعانيَ اللَّطيفةَ تبيَّن له بعضُ حِكَمِ القرآنِ وأسرارِه[1].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ فيه أنَّ التَّبَتُّلَ مأمورٌ به في القُرآنِ، وهو مَنهيٌّ عنه في السُّنَّةِ[2]، إلَّا أن مُتعَلَّقَ الأمرِ غيرُ مُتعَلَّقِ النَّهيِ؛ فلا يَتناقَضانِ، والتَّبَتُّلُ المأمورُ به: الانقِطاعُ إلى اللهِ بإخلاصٍ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢١٠ - ٢١٢).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢).

مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، والتَّبَتُّلُ المَنهيُّ عنه: سُلوكُ مَسلَكَ النَّصارى في تَرْكِ النِّكاحِ، والتَّرَهُّبِ في الصَّوامِعِ، لكِنْ عندَ فَسادِ الزَّمانِ يكونُ خَيرُ مالِ المسلِمِ غَنَمًا يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجِبالِ ومواقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بدينِه مِنَ الفِتَنِ[(١)].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ جاء المشرِقُ والمغرِبُ في القرآنِ: تارةً مجموعَينِ، وتارةً مُثَنَّيَينِ، وتارةً مُفرَدينِ؛ ووجْهُ ذلك: اختِصاصُ كلِّ مَحَلٍّ بما يَقتضيه مِن ذلك؛ فالأوَّلُ: كقَولِه تبارك وتعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، والثَّاني: كقَولِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٧، ١٨]، والثَّالثُ: كقولِه هنا: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، فتأمَّلْ هذه الحِكمةَ البالغةَ في تغايُرِ هذه المواضعِ في الإفرادِ والجَمعِ والتَّثنيةِ بحسَبِ مَوارِدِها، يُطْلِعْك على عظَمةِ القرآنِ الكريمِ وجلالتِه، وأنَّه تنزيلٌ مِن حكيمٍ حميدٍ؛ فحيثُ جُمِعَتْ كان المرادُ بها مَشارِقَ الشَّمسِ ومَغارِبَها في أيَّامِ السَّنةِ، وهي متعدِّدةٌ، وحيثُ أُفْرِدَتْ كان المرادُ أُفُقَي المشرقِ والمغربِ، وحيثُ ثُنِّيَا كان المرادُ مَشرِقَيْ صُعودِها وهبوطِها ومَغْرِبَيْهِما؛ فإنَّها تَبتَدِئُ صاعِدةً حتَّى تنتهيَ إلى غايةِ أَوْجِها وارتفاعِها؛ فهذا مَشْرِقُ صُعودِها، ويَنْشَأُ منه فَصْلَا الخريفِ والشِّتاءِ؛ فجَعَلَ مَشْرِقَ صُعودِها بجُملتِه مَشرِقًا واحدًا، ومَشرِقَ هبوطِها بجُملتِه مَشرِقًا واحدًا، ويُقابِلُها مَغْرِباها، فهذا وجهُ اختلافِ هذه في الإفرادِ والتَّثنيةِ والجَمعِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٤٦٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٦).

ويُنظر ما أخرجه البخاري (١٩) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢١).

وقيل غيرُ ذلك، يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ الآية (٤٠) من سورةِ المعارجِ، وتفسيرِ الآيةِ (١٧) مِن سورةِ الرَّحمنِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۞ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۞ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾

- هذا الافتِتاحُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ يدُلُّ على الاعتناءِ بما سيُلْقَى؛ لأنَّ افتِتاحَ الكلامِ بالنِّداءِ إذا كان المُخاطَبُ واحدًا ولم يكُنْ بَعيدًا، يدُلُّ على الاعتِناءِ بما سيُلْقَى إلى المُخاطَبِ مِن كَلامٍ[(١)].

- والأصلُ في النِّداءِ أنْ يكونَ باسمِ المُنادَى العَلَمِ إذا كان مَعروفًا عندَ المُتكلِّمِ، فلا يُعدَلُ مِن الاسمِ العَلَمِ إلى غيرِه مِن وصْفٍ أو إضافةٍ إلَّا لغرَضٍ يَقصِدُه البُلغاءُ؛ فنِداءُ النبيِّ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ نِداءُ تَلطُّفٍ وتأْنيسٍ وارتفاقٍ، ومِثلُه قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾[(٢)] [المدثر: ١]. أو نِداؤه بالمُزمِّلِ وغيرِ ذلك مِن صِفاتِه تَشريفًا له وإكرامًا؛ إذ لم يُنادِه اللهُ تعالَى باسمِه[(٣)]. وقيل غير ذلك[(٤)].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ قيل: معْناه يا أيُّها الَّذي زُمِّلَ أمْرًا عظيمًا هُو أمرُ النُّبوَّةِ، أي: حُمِّلَه، فالتَّعرُّضُ للوَصْفِ حِينَئذٍ للإشعارِ بعِلِّيَّتِه للقِيامِ أو للأمْرِ به؛ فإنَّ تَحميلَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأعباءِ النُّبوَّةِ ممَّا يُوجِبُ الاجتهادَ في العبادةِ. ويَكونُ قولُه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ مع قولِه: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ [المزمل:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٥، ٢٥٦).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٦٣٤)، ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٦/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٥).

٧]؛ تَحريضًا على استِفراغِ النَّبيِّ جُهْدَه في القِيامِ بأمْرِ التَّبليغِ في جَميعِ الأزمانِ مِن لَيلٍ ونَهارٍ إلَّا قَليلًا مِن اللَّيلِ، وهو ما يُضطَرُّ إليه مِن الهُجوعِ فيه[١].

- وفِعلُ (قُم) مُنزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازمِ، فلا يَحتاجُ إلى تَقديرِ مُتعلَّقٍ؛ لأنَّ القِيامَ مُرادٌ به الصَّلاةُ[٢].

- قولُه: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استِثناءٌ مِن اللَّيلِ، أي: إلَّا قَليلًا منه، فلمْ يَتعلَّقْ إيجابُ القِيامِ عليه بأوقاتِ اللَّيلِ كلِّها، و﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بدَلٌ مِن ﴿قَلِيلًا﴾ بدَلًا مُطابِقًا، وهو تَبيينٌ لإجمالِ ﴿قَلِيلًا﴾، فجُعِلَ القليلُ هنا النِّصفَ أو أقلَّ منه بقَليلٍ. وفائدةُ هذا الإجمالِ الإيماءُ إلى أنَّ الأَولى أنْ يكونَ القيامُ أكثَرَ مِن مُدَّةِ نِصفِ اللَّيلِ، وأنَّ جَعْلَه نِصفَ اللَّيلِ رَحمةٌ ورُخصةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويدُلُّ لذلك تَعقيبُه بقولِه: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾، أي: انقُصْ مِن النِّصفِ قَليلًا، فيَكونُ زمَنُ قِيامِ اللَّيلِ أقَلَّ مِن نِصفِه، وهو حينَئذٍ قليلٌ، فهو رُخصةٌ في الرُّخصةِ[٣].

- وفي إبدالِ ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ مِن ﴿قَلِيلًا﴾ إشارةً إلى أنَّ ما نامَ فيه مِن اللَّيلِ وإنْ كان نِصفًا منه، فهو بالإضافةِ إلى النِّصفِ القائمِ قَليلٌ؛ لأنَّ النِّصفَ القائمَ يُضاعَفُ إلى العشَرةِ، والنِّصفَ النَّائمَ لاستِراحةِ النَّفْسِ، وإنْ كان لا يَخْلو مِن أنْ يَدخُلَ في العِبادةِ، مِن حيث إنَّه استعدادٌ لها، ويدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]. ويُمكِنُ أنْ يُقالَ: القِلَّةُ في الحَقيقةِ صِفةٌ للحاصلِ في النِّصفِ، ثمَّ اعتُبِرَت صِفةً للنِّصفِ، كقَولِهم: نَهارُه صائمٌ ولَيلُه قائمٌ؛ فعلى هذا: النِّصفُ النَّائمُ قليلٌ بالإضافةِ إلى النِّصفِ القائمِ، بالنَّظَرِ إلى ما في كلِّ واحدٍ منهما، أي: مِن الثَّوابِ؛ فجُعِلَ القليلُ مُبدَلًا منه، والنِّصفُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٩).

بدَلًا؛ تَنبيهًا على هذا المعْنى الدَّقيق. وأمَّا التَّخييرُ فليُعْلَمَ أنَّ هذا ليس ممَّا لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، بلْ ممَّا يَحتمِلُ الزِّيادةَ والنُّقصانَ، أي: ذِكرَ النِّصفِ أوَّلًا، فلو اقتُصِرَ عليه ظُنَّ أنَّ الزِّيادةَ والنُّقصانَ لا يَتطرَّقانِ إليه، كرَكَعاتِ الصَّلاةِ المفروضةِ، وكأوقاتِ الصَّلاةِ، وكالحُدودِ، ولأنَّ في ترْكِ التَّخييرِ تَعسيرًا، وفي وُجودِه تَيسيرًا.

ويحتملُ أن يكونَ ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدَلًا مِن ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، كما تقولُ: ضرَبْتُ زَيدًا رأْسَه؛ فإنَّما ذكَرْتَ (زيدًا) لتَوكيدِ الكلامِ، فهو أوكَدُ مِن قولِك: ضَرَبْتُ رأْسَ زَيدٍ، فالمعْنى: قُمْ نِصفَ اللَّيلِ إلَّا قليلًا، أو انقُصْ مِن النِّصفِ، أو زِدْ على النِّصفِ كَثيرًا، أو انقُصْ منه قليلًا؛ كُرِّرَ ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾؛ ليُؤذِنَ بأنَّ الأوَّلَ عَزيمةٌ، والثَّانيَ رُخصةٌ، كما تقولُ: جالِسِ الحسَنَ أو ابنَ سِيرينَ، تُريدُ أنَّ مُجالَسةَ الحسَنِ لا بُدَّ منها، فإنْ لَزِمَتْك ضَرورةً فأنتَ بالخيارِ بيْن مُجالَسَتِه ومُجالَسةِ ابنِ سِيرينَ[1]. والتَّعبيرُ عن النِّصفِ المُخرَجِ بالقَليلِ لإظهارِ كَمالِ الاعتِدادِ بشَأنِ الجُزءِ المُقارِنِ للقيامِ، والإيذانِ بفَضْلِه، وكَونِ القِيامِ فيه بمَنزلةِ القِيامِ في أكثَرِه في كَثرةِ الثَّوابِ، واعتبارُ قِلَّتِه بالنِّسبةِ إلى الكُلِّ -مع عَرائِه عن الفائدةِ- خِلافُ الظَّاهرِ[2].

- قولُه: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ عَودٌ إلى التَّرغيبِ في أنْ تكونَ مُدَّةُ القِيامِ أكثَرَ مِن نِصفِ اللَّيلِ؛ ولذلك لم يُقيَّدْ ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ بمِثلِ ما قُيِّدَ به ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾؛ لتَكونَ الزِّيادةُ على النِّصفِ مُتَّسِعةً، والتَّخييرُ المُستفادُ مِن حرْفِ (أوْ) مَنظورٌ فيه إلى تَفاوُتِ اللَّيالي بالطُّولِ والقِصَرِ؛ لأنَّ لذلك ارتباطًا بسَعةِ النَّهارِ للعمَلِ،

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٨٣، ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٩).

ولأخْذِ الحظِّ الفائتِ مِن النَّوم، وبعْدُ فذلك تَوسيعٌ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لرفْعِ حرَجِ تَحديدِه لزمَنِ القِيام، فسُلِكَ به مَسلَكَ التَّقريب[١].

- قولُه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ فيه تأكيدُ الأمرِ بالتَّرتيلِ بالمفعولِ المُطلَقِ؛ لإفادةِ تَحقيقِ صِفةِ التَّرتيلِ؛ فقولُه: ﴿تَرْتِيلًا﴾ تَأكيدٌ على أنَّه ممَّا لا بُدَّ منه للقارئِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ تَعليلٌ للأمرِ بقِيامِ اللَّيلِ، وَقَعَ اعتراضًا بيْنَ جُملةِ ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ [المزمل: ٢] وجُملةِ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ [المزمل: ٦]، وهو جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا لحِكمةِ الأمرِ بقِيامِ اللَّيلِ بأنَّها تَهيئةُ نفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليَحمِلَ شِدَّةَ الوحْيِ؛ فإنَّ التَّهجُّدَ يُعِدُّ للنَّفْسِ ما به تُعالِجُ ثِقَلَه، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ يسَّرَ عليه ذلك، كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]، ويدُلُّ على أنَّ التَّهجُّدَ شاقٌّ، مُضادٌّ للطَّبْعِ، مُخالِفٌ للنَّفْسِ، فتلك مُناسَبةُ وُقوعِ هذه الجُملةِ عقِبَ جُملةِ ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢]؛ فهذا إشعارٌ بأنَّ نُزولَ هذه الآيةِ كان في أوَّلِ عهْدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بنُزولِ القرآنِ، فلمَّا قال له: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] أعقَبَ ببَيانِ عِلَّةِ الأمرِ بتَرتيلِ القرآنِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ وُصِفَ القُرآنُ بالثِّقَلِ؛ قيل: لثِقَلِه بنُزولِ الوحْيِ على نَبيِّه، حتَّى كان يَعرَقُ في اليَومِ الشَّاتي، أو لثِقَلِ العمَلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦١).

بما فيهِ، أو لِثِقَلِه في الميزانِ، أو لِثِقَلِه على المنافِقين والكافِرين، أو رَصينٌ لرَزانةِ لفْظِهِ ومَتانةِ معناهُ، أو ثَقيلٌ على المُتأمِّلِ فيهِ؛ لافتِقارِه إلى مَزيدِ تَصفيةٍ للسِّرِّ، وتَجْريدٍ للنَّظرِ[١]. وقيل: وَصْفُ القُرآنِ بالثِّقلِ كِنايةٌ عن بَقائِه على وَجْهِ الدَّهرِ؛ لأنَّ الثَّقيلَ مِن شأْنِه أنْ يَبْقى في مَكانِه[٢].

- وأشعَرَ قولُه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أنَّ ثِقَلَه مُتعلِّقٌ ابتداءً بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه مُتحمِّلُه بنفْسِه، ومُحمِّلُه أُمَّتَه، فهو أثقَلُ عليه، وأبهَظُ له[٣].

- وتَأكيدُ هذا الخبَرِ بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ به، وإشعارِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتَأكيدِ قُرْبِه واستِمرارِه؛ ليكونَ وُرودُه أسهَلَ عليه مِن وُرودِ الأمْرِ المُفاجِئِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ تَعليلٌ لتَخصيصِ زمَنِ اللَّيلِ بالقِيامِ فيه؛ فهي مُرتبِطةٌ بجُملةِ ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ [المزمل: ٢]، أي: قُمِ اللَّيلَ لأنَّ ناشئتَه أشَدُّ وطْأً وأقوَمُ قِيلًا[٥].

- و﴿نَاشِئَةَ﴾ وصْفٌ مِن النَّشْءِ، وهو الحُدوثُ. وقدْ جَرى هذا الوصفُ هنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٤).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦١).

على غَيرِ مَوصوفٍ، وأُضِيفَ إلى اللَّيلِ إضافةً على معْنى (في)، مِثْلُ مَكرِ اللَّيلِ، وجُعِلَ مِن أقومِ القِيلِ، فعُلِمَ أنَّ فيه قَولًا، وقدْ سَبَقَه الأمرُ بقِيامِ اللَّيلِ وتَرتيلِ القرآنِ؛ فتَعيَّنَ أنَّ مَوصوفَه المَحذوفَ هو صَلاةٌ، أي: الصَّلاةُ الناشئةُ في اللَّيلِ؛ فإنَّ الصَّلاةَ تَشتمِلُ على أفعالٍ وأقوالٍ، وهي قِيامٌ[١].

- ووَصْفُ الصَّلاةِ بالنَّاشئةِ؛ لأنَّها أنْشَأَها المُصلِّي، فنَشَأَت بعْدَ هَدْأةِ اللَّيلِ، فأشْبَهَت السَّحابةَ الَّتي تَنشَأُ مِن الأُفقِ بعْدَ صَحْوٍ، وإذا كانت الصَّلاةُ بعْدَ نَومٍ، فمعْنى النَّشْءِ فيها أقْوى، وإيثارُ لَفظِ ﴿نَاشِئَةَ﴾ في هذهِ الآيةِ دونَ غيرِه مِن نحْوِ: قِيامٍ أو تَهجُّدٍ؛ مِن أجْلِ ما يَحتمِلُه مِن المعاني؛ ليَأخُذَ النَّاسُ فيه بالاجتهادِ[٢].

- وضَميرُ الفصْلِ (هِيَ) في قولِه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾ لتَقويةِ الحُكْمِ، لا للحصْرِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ فصْلُ هذه الجُملةِ دونَ عطْفٍ على ما قبْلَها يَقْتضي أنَّ مَضمونَها ليس مِن جِنسِ حُكْمِ ما قبْلَها، فليس المقصودُ تَعيينَ صَلاةِ النَّهارِ؛ إذ لم تكُنِ الصَّلواتُ الخَمسُ قدْ فُرِضَت يَومَئذٍ -على المشهورِ-، ولم يُفرَضْ حينَئذٍ إلَّا قِيامُ اللَّيلِ، فالَّذي يَبْدو أنَّ مَوقعَ هذه الجُملةِ مَوقعُ العِلَّةِ لشَيءٍ ممَّا في جُملةِ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، وذلك دائرٌ بيْن أنْ يكونَ تَعليلًا لاختيارِ اللَّيلِ لفرْضِ القيامِ عليه فيه، فيُفيدُ تَأكيدًا للمُحافَظةِ على قِيامِ اللَّيلِ؛ لأنَّ النَّهارَ لا يُغني غَناءَهُ، فيَتحصَّلُ مِن المعْنى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٦٣).

قُمِ اللَّيلَ؛ لأنَّ قِيامَه أشدُّ وقْعًا وأرسَخُ قَولًا؛ لأنَّ النَّهارَ زمَنٌ فيه شُغلٌ عَظيمٌ، لا يَترُكُ لك خَلوةً بنفْسِك، وشُغلُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النَّهارِ بالدَّعوةِ إلى اللهِ، وإبلاغِ القرآنِ، وتَعليمِ الدِّينِ، ومُحاجَّةِ المشرِكين، وافتقادِ المؤمنينَ المُستضعَفين؛ فعُبِّرَ عن جَميعِ ذلك بالسَّبْحِ الطَّويلِ. وبيْن أنْ يكونَ تلطُّفًا واعتذارًا عن تَكليفِه بقِيامِ اللَّيلِ، ويجوزُ أنْ يكونَ تَعليلًا لِما تَضمَّنَه ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٣]، أي: إنْ نَقَصْتَ مِن نِصفِ اللَّيلِ شيئًا لا يَفُتْك ثَوابُ عَمَلِه؛ فإنَّ لك في النَّهارِ مُتَّسعًا للقيامِ والتِّلاوةِ. ويَظهَرُ أنْ يكونَ كلُّ هذا مَقصودًا؛ لأنَّه ممَّا تَسمَحُ به دَلالةُ كَلمةِ ﴿سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾، وهي مِن بَليغِ الإيجازِ[(١)].

- والسَّبْحُ مُعبَّرٌ به عن التَّصرُّفِ السَّهلِ المتَّسَعِ الَّذي يُشبِهُ حَرَكةَ السَّابحِ في الماءِ؛ فإنَّه لا يَعترِضُه ما يَعوقُ جَوَلانَه على وجْهِ الماءِ، ولا إعياءُ السَّيرِ في الأرضِ[(٢)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ عطْفٌ على قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ [المزمل: ٢]، وقُصِدَ بإطلاقِ الأمرِ عن تَعيينِ زَمانٍ إلى إفادةِ تَعميمِه، أي: اذكُرِ اسمَ ربِّك في اللَّيلِ وفي النَّهارِ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ﴾ التَّبتُّلُ: شِدَّةُ البَتْلِ، وهو مَصدَرُ (تَبتَّلَ) القاصرِ الَّذي هو مُطاوِعُ (بَتَلَه فتَبتَّلَ)، وهو هنا للمُطاوَعةِ الَّتي يُقصَدُ مِن صِيغتِها المُبالَغةُ في حُصولِ الفِعلِ، حتَّى كأنَّه فَعَلَه غيرُه به، فطاوَعَه، والتَّبتُّلُ: الانقطاعُ، قيل: هو هنا بمعْنى تَفرُّغِ البالِ والفِكرِ إلى ما يُرْضي اللهَ، فكأنَّه انقَطَعَ عن النَّاسِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٣، ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٥).

وانحازَ إلى جانبِ اللهِ، فعُدِّي بـ (إلى) الدَّالَّةِ على الانتهاءِ[١].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ جاء مصدرُ «تَبَتَّلَ» «تبَتُّلًا» -كالتَّعَلُّمِ والتَّفَهُّمِ- على التَّفعيلِ مَصْدَرِ «فَعَّلَ»؛ لِسِرٍّ لطيفٍ؛ فإنَّ في هذا الفعلِ إيذانًا بالتَّدريجِ والتَّكَلُّفِ والتَّعَمُّلِ والتَّكَثُّرِ والمُبالَغةِ، فأتَى بالفعلِ الدَّالِّ على أحدِهما، وبالمصدرِ الدَّالِّ على الآخَرِ، فكأنَّه قيل: «بَتِّلْ نفْسَك إلى اللهِ تبتيلًا، وتَبَتَّلَ إليه تبَتُّلًا»، ففُهِمَ المعنيان مِن الفعلِ ومَصدَرِه، وهذا كثيرٌ في القرآنِ، وهو مِن أحسنِ الاختِصارِ والإيجازِ[٢].

أو بعبارةٍ أخرى: لَمَّا كان معْنى «تَبَتَّلْ إليه»: انقطِعْ إليه، أُقيمَ التَّبتيلُ مُقامَه، وأُكِّد ليَدُلَّ على أنَّ ذلك الانقطاعَ إلى الرَّبِّ لا يَحصُلُ إلَّا بتَكرارِ التَّبتُّلِ؛ فالتَّبتيلُ يدُلُّ على حُصولِ الشِّدَّةِ، والتَّبتُّلُ على التَّكرارِ؛ لأنَّ التَّفعيلَ لتَكثيرِ الفعلِ[٣].

وقيل: قولُه: ﴿تَبۡتِيلٗا﴾ التَّبتيلُ: مَصدَرُ (بتَّل) المُشدَّدِ الَّذي هو فِعلٌ مُتعَدٍّ، مِثلُ التَّقطيعِ، وجِيءَ بهذا المصدرِ عِوَضًا عن (التَّبتُّل)؛ للإشارةِ إلى أنَّ حُصولَ التَّبتُّلِ -أي: الانقطاعِ- يَقْتضي التَّبتيلَ -أي: القطْعَ-، ولَمَّا كان التَّبتيلُ قائمًا بالمُتبتِّلِ، تعيَّنَ أنَّ تَبتيلَه قَطْعُه نفْسَه عن غَيرِ مَن تَبَتَّلَ هو إليه، فالمقطوعُ عنه هنا هو مَن عَدا الله تعالَى، فالجمْعُ بيْن (تَبَتَّلْ) و﴿تَبۡتِيلٗا﴾ مُشيرٌ إلى إراضةِ النَّفْسِ على ذلك التَّبتُّلِ، مع ما فيهِ مِن رِعايةِ الفواصلِ[٤].

- ولَمَّا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قبْلُ غيرَ غافلٍ عن هذا الانقطاعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٦).

بإرشادٍ مِن اللهِ، كما أَلْهَمَه التَّحنُّثَ في غارِ حِراءٍ، ثمَّ بما أفاضَهُ عليه مِن الوحْيِ والرِّسالةِ؛ فالأمرُ في قولِه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ﴾ مُرادٌ به الدَّوامُ على ذلك؛ فإنَّه قدْ كان يَذكُرُ اللهَ فيما قبْلُ[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾

- قدْ وُصِفَ اللهُ تعالَى بأنَّه رَبُّ المشرقِ والمَغربِ؛ لمُناسَبةِ الأمْرِ بذِكرِه في اللَّيلِ وذِكرِه في النَّهارِ، وهما وَقْتا ابتداءِ غِيابِ الشَّمسِ وطُلوعِها، وذلك يُشعِرُ بامتدادِ كلِّ زمانٍ منهما إلى أنْ يَأتِيَ ضِدُّه، فيَصِحُّ أنْ يكونَ المشرقُ والمغربُ جِهتَيِ الشُّروقِ والغروبِ، فيكونَ لاستِيعابِ جِهاتِ الأرضِ، أي: ربُّ جَميعِ العالَمِ، وذلك يُشعِرُ بوَقتَيِ الشُّروقِ والغروبِ، ويَصِحُّ أنْ يُرادَ بهما وَقْتا الشُّروقِ والغروبِ، أي: مَبدَأُ ذَينِك الوقتينِ ومُنْتهاهما، كما يُقالُ: سَبِّحوا للهِ كلَّ مَشرِقِ شمْسٍ، وكما يُقالُ: صَلاةُ المغرِبِ[2].

- وعُقِّبَ وَصْفُ اللهِ سُبحانَه بأنَّه ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ بالإخبارِ عنه أو بوَصْفِه بأنَّه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لأنَّ تَفرُّدَه بالإلهيَّةِ بمَنزلةِ النَّتيجةِ لرُبوبيَّةِ المَشرقِ والمغربِ، فلمَّا كانتْ رُبوبيَّتُه للعالَمِ لا يُنازِعُ فيها المشرِكون، أُعقِبَت بما يَقْتضي إبطالَ دَعوى المشرِكين تَعدُّدَ الآلهةِ بقولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، تَعريضًا بهم في أثناءِ الكلامِ وإنْ كان الكلامُ مَسوقًا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولذلك فُرِّعَ عليه قولُه: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾، وإذ كان الأمرُ باتِّخاذِه وَكيلًا مُسبَّبًا عن كونِهِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، كان ذلك في قُوَّةِ النَّهيِ عن اتِّخاذِ وَكيلٍ غيرِه؛ إذ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٦٧).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٤).

ليس غيرُه بأهلٍ لاتِّخاذِه وَكيلًا؛ فهو وَحْدَه الَّذي يَجِبُ -لتَوحُّدِه بالرُّبوبيَّةِ- أنْ تُوكَلَ إليه الأُمورُ[١].

- وفي قولِه: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾ أمَرَه اللهُ بألَّا يَعتمِدَ إلَّا عليه، وهذا تَكفُّلٌ بالنَّصرِ؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[٢] [المزمل: ١٠].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٧).

الآيات (١٠-١٤)

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَذَرۡنِي﴾: أي: دَعْني، بوَزْنِ وَدَعَ الشَّيءَ يَدَعُه وَدْعًا، ومَعْناه، والمُضارِعُ منه: يَذَرُ، والأمْرُ منه: ذَرْ، ولم يَرِدْ في اللُّغةِ اسْتِعْمالُ ماضِيه ولا مَصْدَرِه[١].

﴿ٱلنَّعۡمَةِ﴾: أي: الغِنى، وكَثرةِ الأموالِ، وحُسْنِ العَيْشِ، ولِينِه ورَغَدِه، والنِّعْمةُ -بكَسرِ النُّونِ- أعمُّ مِن هذا؛ لأنَّها بمعنى المِنَّةِ والعَطاءِ، فالنَّعْمةُ -بالفَتحِ- هي مِن جُملةِ النِّعْمةِ -بالكَسرِ-، وأصلُ (نعم): يدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيشٍ وصلاحٍ[٢].

﴿أَنكَالٗا﴾: أي: قُيودًا وأغلالًا، وأصلُ (نكل): يدُلُّ على مَنعٍ، وأصلُ ذلك النِّكْلُ: القيْدُ؛ لأنَّه يَنْكُلُ: أيْ: يَمْنَعُ[٣].

﴿وَجَحِيمٗا﴾: أي: نارًا، والجُحْمةُ: شِدَّةُ تأجُّجِ النَّارِ، والجاحِمُ: المكانُ الشَّديدُ الحرِّ، وبذلك سُمِّيت الجحيمُ، وأصْلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٦٨).

(٢) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٠٩) و(٢٢/ ٣٧١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩)، ((مجمل اللغة)) لابن فارس (ص: ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

﴿غُصَّةٍ﴾: أي: لا يَسُوغُ في الحَلْقِ، والغُصَّةُ: ما يَغَصُّ به الإنسانُ، و(غصص): أصلٌ ليس فيه إلَّا الغَصَصُ بالطَّعام[١].

﴿تَرْجُفُ﴾: أي: تَتزَلْزَلُ وتَتحَرَّكُ وتَضْطَرِبُ بمَنْ عليها، والرَّجفةُ: حَرَكةُ الأرضِ، أو الزَّلزلةُ الشَّديدةُ، والرَّجْفُ: الاضْطِرابُ الشَّديدُ، وأصلُ (رجف): يدُلُّ على اضطرابٍ[٢].

﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾: أي: رَمْلًا سائِلًا مَنثورًا، والكَثيبُ: القِطعةُ العَظيمةُ مِنَ الرَّملِ، وسُمِّيَ الكثيبُ كَثيبًا؛ لأنَّ تُرابَه دُقاقٌ، كأنَّه مكثوبٌ مَنثورٌ بَعضُه على بَعضٍ لرَخاوتِه. والمهيلُ: السَّائلُ الذي قد سُيِّلَ، وهو اسمُ مفعولٍ مِن هالَ الشَّيءَ هَيلًا: إذا نَثَره وصبَّه، يُقالُ: تُرابٌ مَهيلٌ، أي: مَصْبوبٌ مُسيَّلٌ، ويُقالُ: أهَلْتُ الرَّملَ: إذا حرَّكْتَ أسفَلَه حتَّى انهالَ مِن أعلاه، وأصلُ (كثب): يدُلُّ على تجمُّعٍ وعلى قُربٍ، وأصلُ (هيل): يدُلُّ على دَفْعِ شيءٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على أذى قَومِه، وهَجرِهم،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

ومَهيلٌ أصلُه مَهْيُولٌ، اسْتُثْقِلَت الضَّمَّةُ على الياءِ، فنُقِلَتْ إلى السَّاكِنِ قبْلَها، فالْتَقَى ساكِنانِ، فحُذِفَت الواوُ؛ لأنَّها زائِدةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

فيقولُ: واصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يَقولُه مُشرِكو قَومِك؛ مِن التَّكذيبِ والاستِهزاءِ بك، واهجُرْهم هَجْرًا جميلًا لا عِتابَ معه ولا أذى.

ثمَّ يقولُ تعالى متوعِّدًا ومهدِّدًا الكافِرين: ودَعْني -يا مُحمَّدُ- والمكَذِّبينَ بالحَقِّ أهلَ التَّنَعُّمِ والتَّرَفُّهِ في الدُّنيا، ولا تهتَمَّ بهم، وأمهِلْهم وَقتًا قليلًا.

ثمَّ يَذكُرُ سُبحانَه ما عندَه مِن العِقابِ، فيقولُ: إنَّ عِندَنا في الآخِرةِ لهم قُيودًا وأغلالًا، ونارًا حاميةً، وطعامًا غَيرَ سائغٍ، وعَذابًا مُؤلِمًا؛ يومَ تتزَلْزَلُ الأرضُ والجِبالُ، وتصيرُ الجِبالُ رَمْلًا سائِلًا مُتناثِرًا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ مُهِمَّاتِ العِبادِ مَحصورةٌ في أمْرَينِ: كيفيَّةِ معامَلتِهم مع الله، وكيفيَّةِ مُعاملتِهم مع الخَلْقِ، والأوَّلُ أهَمُّ مِنَ الثَّاني، فلمَّا ذكَرَ تعالى في أوَّلِ هذه السُّورةِ ما يتعلَّقُ بالقِسمِ الأوَّلِ؛ أتْبَعَه بما يتعَلَّقُ بالقِسمِ الثَّاني[1].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ نبيَّه عليه السَّلامُ بالصَّلاةِ خُصوصًا، وبالذِّكرِ عُمومًا، وبذلك يحصلُ للعبدِ مَلَكةٌ قَوِيَّةٌ في تحمُّلِ الأثقالِ، وفِعلِ الثَّقيلِ مِن الأعمالِ- أمَرَه بالصَّبرِ على ما يقولُ فيه المعانِدونَ له ويسُبُّونَه ويَسُبُّونَ ما جاء به، وأن يَمضيَ على أمرِ اللهِ، لا يَصُدُّه عنه صادٌّ، ولا يرُدُّه رادٌّ، وأن يَهجُرَهم هَجرًا جميلًا[2].

وأيضًا فهو عطْفٌ على قولِه: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩]، والمُناسَبةُ أنَّ الصَّبرَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

على الأذَى يُستعانُ عليه بالتَّوكُّلِ على الله[١].

وأيضًا لَمَّا كانت الوكالةُ لا تكونُ إلَّا فيما يُعجِزُ، وكان الأمرُ بها مشيرًا إلى أنَّه لا بدَّ أن يكونَ عن هذا القَولِ الثَّقيلِ خُطوبٌ طِوالٌ، وزلازِلُ وأهوالٌ؛ قال[٢]:

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

أي: واصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يقولُه مُشرِكو قَومِك؛ مِن التَّكذيبِ أو الاستِهزاءِ بك[٣].

﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾.

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

هذه الآيةُ مُحكَمةٌ غَيرُ مَنسوخةٍ[٤].

وقيل: هي مَنسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ في سورةِ التَّوبةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨).

ويُنظر ما تقدَّم في آخر بلاغةِ الآياتِ السابقةِ (ص: ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦).

(٤) وممَّن ذهب إلى ذلك: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((المصفى بأكف أهل الرسوخ)) لابن الجوزي (ص: ٥٨).

قال الرازي: (قال المفسِّرون: هذه الآيةُ إنَّما نزلتْ قبْلَ آيةِ القتالِ، ثمَّ نُسِخَت بالأمرِ بالقتالِ. وقال آخَرونَ: بل ذلك هو الأخْذُ بإذنِ الله فيما يكونُ أدعى إلى القَبولِ، فلا يَرِدُ النَّسخُ في مِثْلِه، وهذا أصَحُّ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩).

(٥) وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ حزم، والواحديُّ، وابنُ عطية، وابنُ الفَرَس، ونسَبَ ابنُ الجوزيِّ إلى الأكثَرِ أنَّها منسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٦)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٨)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦٠١)، ((المصفى =

﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾.

أي: واهجُرْ -يا مُحمَّدُ- قَومَك المُشرِكينَ في ذاتِ اللهِ هَجْرًا جميلًا لا عِتابَ معه ولا أذًى، وأعرِضْ عن الانتِقامِ منهم، فلا تُقابِلْهم بمِثلِ ما يقولونَ ويَفعَلونَ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النساء: ٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [النجم: ٢٩].

= بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ)) لابن الجوزي (ص: ٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣١٨).

ومِن أهلِ العلمِ مَن ذهب إلى أنَّ آيةَ السَّيفِ ناسخةٌ لجميع الآياتِ الَّتي فيها الصَّفحُ والكَفُّ عمَّن لم يقاتِلْ مِن المشركين، ومنهم مَن ذهب إلى أنَّها ليست ناسخةً، ولكنَّ الأحوالَ تختلِفُ؛ فإذا قوِيَ المسلمونَ وصارت لهم السُّلطةُ والقُوَّةُ والهَيبةُ استَعمَلوا آيةَ السَّيفِ وما جاء في معناها وعمِلوا بها، وإذا ضَعُفَ المسلمونَ ولم يَقْوَوا على قتالِ الجميعِ فلا بأسَ أن يُقاتِلوا بحسَبِ قُدرتِهم، ويَكُفُّوا عمَّن كفَّ عنهم إذا لم يَستطيعوا ذلك، فيكونُ الأمرُ إلى وليِّ الأمرِ؛ إن شاء قاتَلَ، وإن شاء كفَّ، وإن شاء قاتَلَ قومًا دون قومٍ، على حسَبَ القوَّةِ والقدرةِ والمصلحةِ للمسلمينَ، لا على حسَبِ هواه وشَهوتِه، ولكنْ يَنظُرُ لحالِ المسلمينَ وقوَّتِهم. قال ابن باز: (وهذا القولُ أظهَرُ وأبْيَنُ في الدَّليلِ؛ لأنَّ القاعدةَ الأصوليَّةَ أنَّه لا يُصارُ إلى النَّسخِ إلَّا عندَ تعذُّرِ الجمعِ بيْنَ الأدِلَّةِ، والجمعُ هنا غيرُ متعَذِّرٍ). ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣/ ١٩٤).

وقال الزَّرْكَشيُّ بعدَ أنْ بيَّنَ ضَعفَ القولِ بأنَّ الآيَاتِ الآمِرةَ بالتَّخفيفِ منسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ، وأنَّها ليست كذلك فـ: (كلُّ أمرٍ ورد يجبُ امتِثالُه في وقتٍ ما لعلَّةٍ توجِبُ ذلك الحُكمَ، ثمَّ يُنتقَلُ بانتِقالِ تلك العلَّةِ إلى حُكمٍ آخَرَ، وليس بنَسخٍ، إنَّما النَّسخُ الإزالةُ حتَّى لا يجوزَ امتثالُه أبدًا). ((البرهان في علوم القرآن)) (٢/ ٤٢). ويُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٨، ٢٦٩).

﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ ﴾.

أي: ودَعْني -يا مُحمَّدُ- والمكَذِّبينَ بالحَقِّ ذوي الغِنى والثَّراءِ، وأهلَ التَّنَعُّمِ والتَّرَفُّهِ في الدُّنيا، فاترُكْ شَأنَ عُقوبتِهم إلَيَّ، ولا تهتَمَّ بتَكذيبِهم، ولا تنشَغِلْ بالانتِقامِ منهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴾ [مريم: ٨٤].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦، ٧].

﴿ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴾.

أي: وانتَظِرْ -يا مُحمَّدُ- وَقتًا قليلًا؛ ليأتيَ مِيعادُ عَذابِهم، وننتَصِرَ لك منهم؛ فلا تَستَعجِلْ عِقابَهم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٩).

قال علَمُ الدِّينِ السَّخاويُّ: (وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ الآيةَ، قالوا: نُسِخَتْ بآيةِ السَّيفِ. وهذا تهديدٌ ووعيدٌ غيرُ منسوخٍ بها). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٨٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٠).

قال الرازي: (﴿ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: المرادُ مِن القليلِ: الحياةُ الدُّنيا. والثَّاني: المرادُ مِن القليلِ: تلك المدَّةُ القليلةُ الباقيةُ إلى يومِ بَدرٍ؛ فإنَّ اللهَ أهلكهم في ذلك اليومِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧].

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: إنَّ عِندَنا في الآخِرةِ للمُكَذِّبينَ بآياتِنا قُيودًا وأغلالًا ثقيلةً، ونارًا حاميةً شديدةَ الاتِّقادِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [سبأ: ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤].

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾.

= وقال البِقاعي: (﴿قَلِيلًا﴾ أي: مِنَ الزَّمانِ، والإمهالُ: إلى مَوتِهم، أو الإيقاعِ بهم قَبْلَه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٢، ٣٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ ما يُقابِلُ تَكذيبَهم؛ أتْبَعَه ما يقابِلُ النِّعمةَ، فقال[١]:

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾.

أي: وعِندَنا لهم طعامٌ غَيرُ سائغٍ، يَعلَقُ في حَلْقِ آكِلِه، فلا يَنزِلُ عنه، ولا يَخرُجُ منه[٢]!

﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: وعِندَنا لهم عَذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ شَديدٌ[٣].

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى هذا العذابَ؛ ذكَرَ ظَرْفَه[٤].

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾.

أي: ذلك واقِعٌ بهم يومَ تتزَلْزَلُ الأرضُ والجِبالُ وتَضطَرِبُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٦، ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧١). =

كما قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١، ٢].

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾.

أي: وتصيرُ الجِبالُ رَمْلًا مجتَمِعًا مُنصَبًّا رِخْوًا مُتناثِرًا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ١٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ جَمَع الله سُبحانَه كلَّ ما يُحتاجُ إليه مِن كيفيَّةِ المُعامَلةِ معَ الخَلْقِ في هاتينِ الكَلِمتَينِ؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ إمَّا أن يكونَ مخالِطًا للنَّاسِ، أو مجانِبًا عنهم؛ فإنْ خالطَهم فلا بدَّ له مِن المصابَرةِ على إيذائِهم وإيحاشِهم، فإنَّه إنْ كان يطمَعُ منهم في الخَيرِ والرَّاحةِ لم يجِدْ، فيَقَعُ في الغُمومِ والأحزانِ، فثَبَت أنَّ مَن أراد مُخالَطةً مع الخَلْقِ فلا بُدَّ له

= قال ابنُ عاشور: (المرادُ: الرَّجفُ المتكَرِّرُ المستَمِرُّ، وهو الَّذي يكونُ به انفراطُ أجزاءِ الأرضِ وانحلالُها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١-٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

مِن الصَّبرِ الكثيرِ، فأمَّا إن ترَكَ المخالطةَ فذاك هو الهَجرُ الجَميلُ؛ فثَبتَ أنَّه لا بُدَّ لكُلِّ إنسانٍ مِن أحَدِ هذَينِ الأمْرَينِ[(١)].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ فيه بِشارةٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالبقاءِ بعدَ أخْذِهم كما كان، وأنَّه ليس محتاجًا في أمرِهم إلى غيرِ وَكْلِهم إليه سُبحانَه وتعالى بإلقائِهم عن بالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتفريغِ ظاهِرِه وباطِنِه لِما هو مأمورٌ به مِنَ الله سُبحانَه وتعالى مِن الإقبالِ على اللهِ سُبحانَه؛ ففي الآيةِ أنَّ مَن اشتَغَل بعَدُوِّه وَكَلَه اللهُ إلى نَفْسِه، فكان ذلك كالمانعِ مِن أخْذِ اللهِ له، فإذا توكَّلَ عليه فقد أزال ذلك المانِعَ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ الهجْرُ الجَميلُ: هو الَّذي يَقتصِرُ صاحبُه على حَقيقةِ الهجْرِ، وهو ترْكُ المُخالَطةِ فلا يَقرِنُها بجَفاءٍ آخَرَ أو أذًى، ولَمَّا كان الهجْرُ يَنشَأُ عن بُغضِ المهجورِ، أو كَراهيةِ أعمالِه؛ كان مُعرَّضًا لأنْ يَتعلَّقَ به أذًى؛ مِن سَبٍّ، أو ضرْبٍ، أو نحْوِ ذلك، فأمَرَ اللهُ رسولَه بهَجْرِ المشرِكين هجْرًا جَميلًا، أي: أنْ يَهجُرَهم ولا يَزيدَ على هَجْرِهم سبًّا أو انتقامًا[(٣)].

٢- الهجرُ الشَّرعيُّ نَوعانِ:

الأوَّلُ: هجرُ تَركٍ، وقد دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾، وقولُه: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ﴾ [النساء: ١٤٠]. فهذا يُرادُ به أنَّه لا يَشهَدُ المُنكَراتِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٨، ٢٦٩).

لغيرِ حاجةٍ، مثلَ قومٍ يَشرَبونَ الخمرَ يَجلِسُ عندَهم، وقومٍ دَعَوْا إلى وليمةٍ فيها خمرٌ وزَمرٌ لا يُجيبُ دعوتَهم، وأمثال ذلك. بخِلافِ مَن حضَر عندَهم للإنكارِ عليهم، أو حضر بغيرِ اختيارِه. ومِن هذا البابِ: هِجرةُ المسلمِ مِن دارِ الحربِ. فالمقصودُ بهذا أن يَهجُرَ المسلمُ السَّيِّئاتِ، ويَهجُرَ قُرناءَ السُّوءِ الَّذين تَضُرُّه صُحبتُهم، إلَّا لحاجةٍ، أو مصلحةٍ راجحةٍ.

الثَّاني: هجرةٌ بمعنى العقوبةِ والتَّعزيرِ على وجهِ التَّأديبِ، وهو هَجْرُ مَن يُظهِرُ المُنكَراتِ، فيُهجَرُ حتَّى يَتوبَ منها، مِثلُ هجرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابِه الثَّلاثةَ الَّذين خُلِّفوا، وذلك حينَ ظهَر منهم تركُ الجهادِ المُتعيِّنِ عليهم بغيرِ عذرٍ[(١)].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ جَعْلُهم ذَوي النَّعمةِ للإشارةِ إلى أنَّ قُصارَى حَظِّهم في هذه الحياةِ هي النَّعمةُ -أي: الانطلاقُ في العَيشِ بلا ضيقٍ، والاستِظلالُ بالبيوتِ والجنَّاتِ، والإقبالُ على لَذيذِ الطُّعومِ، ولَذائذِ الانبساطِ إلى النِّساءِ والخمْرِ والمَيسرِ- وهم مُعرِضون عن كَمالاتِ النَّفْسِ، ولَذَّةِ الاهتداءِ والمعرفةِ؛ قال تعالَى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[(٢)] [الفرقان: ٤٤].

٤- بيَّن الله جلَّ وعلا الأحوالَ الَّتي تصيرُ إليها الجبالُ يومَ القيامةِ في آياتٍ مِن كتابِه:

فبيَّن أنَّه يَنزِعُها مِن أماكِنِها، ويَحمِلُها فيَدُكُّها دَكًّا، وذلك في قولِه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢١٦).
ويُنظر ما أخرجه البخاريُّ (٤٤١٨)، ومسلمٌ (٢٧٦٩) من حديث كعبِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٠).

ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ۞ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ [الحاقة: ١٣، ١٤].

ثمَّ بيَّن أنَّه يُسَيِّرُها في الهواءِ بيْن السَّماءِ والأرضِ، وذلك في قولِه تبارك وتعالى: ﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ ﴾ الآيةَ [الكهف: ٤٧]، وقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴾ [التكوير: ٣]، وقولِه تعالى: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴾ [النبأ: ٢٠]، وقولِه تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۞ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴾ [الطور: ٩، ١٠].

ثمَّ بيَّن أنَّه يُفتِّتُها ويَدُقُّها، كقولِه: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴾ [الواقعة: ٥].

وبيَّن أنَّه يَنسِفُها نَسْفًا في قولِه تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴾ [طه: ١٠٥].

ثمَّ بيَّن أنَّه يُصَيِّرُها كالرَّملِ المُتهايلِ، وكالعِهْنِ المَنفوشِ، وذلك في قولِه: ﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ﴾، وقولِه تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۞ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴾ [المعارج: ٨، ٩].

ثمَّ بيَّن أنَّها تصيرُ كالهباءِ المُنْبَثِّ، في قولِه: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۞ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴾ [الواقعة: ٥، ٦].

ثمَّ بيَّن أنَّها تصيرُ سَرابًا، وذلك في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴾ [النبأ: ٢٠]، وقد بيَّن في موضعٍ آخَرَ أنَّ السَّرابَ لا شيءَ، وذلك قولُه تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾[1] [النور: ٣٩].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٧).

- ضَميرُ ﴿يَقُولُونَ﴾ عائدٌ إلى المشركينَ، ولم يَتقدَّمْ له مُعادٌ، فهو مِن الضَّمائرِ الَّتي استُغْنِيَ عن ذِكرِ مُعادِها بأنَّه مَعلومٌ للسَّامِعينَ، ولأنَّه سَيَأتي عَقِبَه قولُه: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمل: ١١]، فيُبيِّنُ المرادَ مِن الضَّميرِ[(١)].

- ومُناسَبةُ أمْرِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ هنا: أنَّه قدْ مَضَى في السُّورِ الَّتي نَزَلَت قبْلَ سُورةِ (المُزمِّلِ) مَقالاتُ أذًى مِن المُشركين لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ففي سُورةِ (العلَقِ) [٩، ١٠]: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾، وفيها: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وفي سُورةِ (القلَمِ) [٢ - ١٥]: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ إلى قولِه: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۞ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾، وقولِه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ إلى قولِه: ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ رَدًّا لمَقالاتِهم، وفي سُورةِ المدَّثِّرِ [١١-٢٥] -إنْ كانت نزَلَت قبْلَ سُورةِ المزمِّلِ[(٢)]- ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾؛ فلذلك أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالصَّبرِ على ما يقولونَ[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ مِن بابِ الكِنايةِ، قَريبٌ مِن نحْوِ قولِك: لا أَرَيَنَّك هاهنا، يعني: أنَّه تعالَى أنْهَى إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه طَلَبَ منْعَه أنْ يُوقِعَ بالمُكذِّبين، وأنَّه صَلواتُ اللهِ عليه ما طَلَبَ المنْعَ، بلْ شُوهِدَ منه ما نُزِّلَ مَنزِلةَ المنْعِ؛ مِن تَرْكِ الاستكفاءِ، وتَفويضِ الأمْرِ إليه تعالَى، المعْنى: ما لَكَ لا تَستكْفِينِيه، ولا تُفوِّضُ أمْرَك إلَيَّ حتَّى أستَكْفِيَكَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٨).

وأنْتقِمَ لكَ منه؟ ويَجوزُ أنْ يكونَ مِن بابِ التَّهييجِ والالتِفاتِ[١].

- والمُكذِّبون همْ مَن عَناهم بضَميرِ ﴿يَقُولُونَ﴾ ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ﴾ [المزمل: ١٠]، وهم المُكذِّبون للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ مكَّةَ؛ فهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإفادةِ أنَّ التَّكذيبَ هو سَببُ هذا التَّهديدِ[٢].

- ووَصَفَ المُكذِّبين بوَصْفِ ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ تَوبيخًا لهم بأنَّهم كذَّبوا لغُرورِهم وبَطَرِهم بسَعةِ حالِهم، وتَهديدًا لهم بأنَّ الَّذي قال: (ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ) سيُزيلُ عنهم ذلك التَّنعُّمَ. وفي هذا الوصْفِ تَعريضٌ بالتَّهكُّمِ؛ لأنَّهم كانوا يَعُدُّون سَعةَ العيشِ ووَفرةَ المالِ كَمالًا، وكانوا يُعيِّرون الَّذين آمَنوا بالخَصاصةِ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ الآياتِ [المطففين: ٢٩، ٣٠]، وقال تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾[٣] [محمد: ١٢].

- قولُه: ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ وَعيدٌ لهم بسُرعةِ الانتقامِ منهم[٤]. وهو مُترتِّبٌ في المعْنى على قولِه: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، أي: وانتظِرْ أنْ نَنتصِرَ لك. و﴿قَلِيلًا﴾ وصْفٌ لمَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: تَمهيلًا قليلًا[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا * وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمل: ١١]، أي: لأنَّ لَدَيْنا ما هو أشدُّ عليهم مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٠).

رَدِّك عليهم، وهذا التَّعليلُ أفادَ تَهديدَهم بأنَّ هذه النِّقَمَ أُعِدَّت لهم؛ لأنَّها لَمَّا كانتْ مِن خَزائنِ نِقمةِ اللهِ تعالَى كانتْ بحيثُ يَضَعُها اللهُ في المواضِعِ المُستأْهِلةِ لها، وهمُ الَّذين بدَّلوا نِعمةَ اللهِ كُفرًا، فأعَدَّ اللهُ لهم ما يكونُ عليهم في الحَياةِ الأبَديَّةِ ضِدًّا لأُصولِ النِّعمةِ الَّتي خُوِّلوها، فبَطِروا بها، وقابَلَوا المُنعِمَ بالكُفْرانِ؛ فالأنكالُ مُقابِلُ كُفرانِهم بنِعمةِ الصِّحَّةِ والمَقدِرةِ؛ لأنَّ الأنكالَ القُيودُ، والجحيمُ -وهو نارُ جَهنَّمَ- مُقابِلُ ما كانُوا عليه مِن لَذَّةِ الاستظلالِ والتَّبرُّدِ، والطَّعامُ ذُو الغُصَّةِ مُقابِلُ ما كانُوا مُنهمِكين فيه مِن أطعِمتِهم الهَنيئةِ؛ مِن الثَّمراتِ والمَطبوخاتِ والصَّيدِ، والعذابُ الأليمُ مُقابِلُ ما في النِّعمةِ مِن مَلاذِّ البشرِ، وقدْ جَمَعَ الأخيرُ جَميعَ ما يُضادُّ معْنى النِّعمةِ[1].

- وتَنكيرُ هذه الأجناسِ الأربعةِ ﴿أَنكَالًا﴾، ﴿وَجَحِيمًا﴾، ﴿وَطَعَامًا﴾، ﴿وَعَذَابًا﴾؛ لقصْدِ تَعظيمِها وتَهويلِها[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ يَتعلَّقُ بالاستِقرارِ الَّذي يَتضمَّنُه خبرُ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾. وقيلَ: هو مُتعلِّقٌ بمُضمَرٍ محذوفٍ، هو صِفةٌ لـ (عَذَابًا)، أي: عذابًا واقعًا يومَ ترجُفُ[3].

- وجِيءَ بفِعلِ (كانت) في قولِه: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾؛ للإشارةِ إلى تَحقيقِ وُقوعِه حتَّى كأنَّه وَقَعَ في الماضي. ووَجْهُ مُخالَفتِه لأُسلوبِ ﴿تَرْجُفُ﴾ أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٢).

صَيرورةَ الجبالِ كُثبًا أمْرٌ عَجيبٌ غيرُ مُعتادٍ، فلَعلَّه يَستبْعِدُه السَّامعونَ، وأمَّا رَجْفُ الأرضِ فهو مَعروفٌ، إلَّا أنَّ هذا الرَّجفَ الموعودَ به أعظَمُ ما عُرِفَ مِن جِنسِه[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

الآيات (١٥-١٩)

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولَۢا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَبِيلًا﴾: أي ثَقيلًا شَديدًا، وأصلُ (وبل): يدُلُّ على شِدَّةٍ في شَيءٍ[١].

﴿ٱلۡوِلۡدَٰنَ﴾: أي: صِغارَ الأطفالِ، جمعُ وليدٍ، وهو الطِّفلُ الصَّغيرُ، والوَليدُ يُقالُ لِمَن قَرُبَ عهْدُه بالوِلادةِ وإن كان في الأصلِ يَصِحُّ لِمَن قَرُبَ عَهْدُه أو بَعُدَ، فإذا كبِر الوَلَدُ سقَط عنه هذا الاسمُ[٢].

﴿مُنفَطِرُۢ﴾: الانفِطارُ: التَّصَدُّعُ والانشِقاقُ على غيرِ نِظامٍ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذَكِّرًا بما حلَّ بالمكذِّبين مِن قَبْلِهم: إنَّا أرسَلْنا إليكم رَسولًا شاهِدًا على مَن اتَّبَعَه وآمَنَ به، ومَنْ خالَفَه وكفَر به -وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-، كما أرسَلْنا إلى فِرعَونَ رَسولًا، وهو موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٩).

فعصَى فِرعَونُ موسى عليه السَّلامُ، فلم يُؤمِنْ به، فأهلَكْنا فِرعَونَ وجُنْدَه إهلاكًا ثَقيلًا بإغراقِهم أجمَعينَ.

ثم يُذكِّرُ -سُبحانَه- بأهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: فكيف تتَّقونَ -إنْ بَقِيتُم على الكُفرِ- أهوالَ القيامةِ الَّتي يَشيبُ منها الوِلْدانُ، السَّماءُ مُتشَقِّقةٌ فيه؛ مِن شِدَّتِه وعِظَمِ أهوالِه، كان وَعْدُ اللهِ مَفعولًا لا محالةَ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى هذه التَّهديداتِ، فيقولُ: إنَّ هذه تَذكِرةٌ يَتذَكَّرُ بها المتَّقونَ، فمَن شاء اتَّخَذ إلى رَبِّه طَريقًا بالإيمانِ به وطاعتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا هدَّدَ المكذِّبين بأهوالِ القِيامةِ؛ ذكَّرَهم بحالِ فِرعونَ وكيفَ أخَذَه اللهُ تعالَى؛ إذ كَذَّب مُوسى عليه السَّلامُ، وأنَّه إنْ دامَ تَكذيبُهم أهْلَكَهم اللهُ تعالَى[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر العذابَ ووَقْتَه، وقدَّمَهما؛ لِيَكونَ السَّامِعُ أقبَلَ لِما يُطلَبُ منه- أتْبَعَهما السَّبَبَ فيه، مُشيرًا إلى ما به إصلاحُ أمرِ الآخرةِ الَّتي فيها المَعادُ، وإليها المنتهى والمآبُ، فقال[2]:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾.

أي: إنَّا أرسَلْنا إليكم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شاهِدًا على إيمانِ مَن استجابَ له منكم فاتَّبَعَه، وكُفْرِ مَن خالفَه وعَصاه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٦)، ((الوسيط)) =

كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾.

أي: مِثْلَ ما أرسَلْنا إلى فِرعَونَ رَسولًا يَدْعوه إلى الحَقِّ، وهو موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[(١)].

﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾.

أي: فعصى فِرعَونُ موسى عليه السَّلامُ، فلم يُؤمِنْ به وبما جاء به[(٢)].

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾.

أي: فأهلَكْنا فِرعَونَ وجُنْدَه إهلاكًا ثَقيلًا غليظًا بإغراقِهم أجمَعينَ؛ فاحذَروا أن تَعصُوا رَسولَكم مُحمَّدًا، فيُهلِكَكم اللهُ كما أهلك فِرعَونَ وقَومَه حينَ عَصَوا رَسولَهم[(٣)].

= للواحدي (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٣).

قال ابنُ كثير: (قال مخاطِبًا لكُفَّارِ قُرَيش، والمرادُ سائِرُ النَّاسِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

قال الشوكاني: (المعنى: إنَّا أرسَلْنا إليكم رَسولًا فعَصَيتُموه، كما أرسَلْنا إلى فِرعَونَ رَسولًا فعَصاه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣). =

كما قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۞ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٤١، ٤٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [النازعات: ٢٥].

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عُلِمَ أنَّ اللهَ سُبحانَه شديدُ الأخْذِ، وأنَّه لا يُغْني ذا الجَدِّ منه الجَدُّ؛ سَبَّبَ عن ذلك قَولَه محَذِّرًا لهم مِن الاقتِداءَ بفِرعَونَ[(١)]:

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: فكيف تَحصُلُ لكم الوِقايةُ والنَّجاةُ مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ الَّذي يَشيبُ فيه الوِلْدانُ مِن فَزَعِه وشِدَّةِ أهوالِه، إنْ بَقِيتُم على الكُفرِ فلم تُؤمِنوا وتَعمَلوا صالِحًا[(٢)]؟!

= قال ابنُ القيِّم: (أي: كيف يقَعُ الإنكارُ منكم، وقد تقدَّم قَبْلَكم رُسُلٌ منِّي مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ؟ وقد عَلِمتُم حالَ مَن عصى رُسُلي كيف أخَذْتُهم أخذًا وَبيلًا؟). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٨٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥، ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

قال ابنُ كثيرٍ: (قولُه: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ يحتمِلُ أنْ يكونَ ﴿ يَوْمًا ﴾ معمولًا لـ ﴿ تَتَّقُونَ ﴾... ويحتمِلُ أنْ يكونَ معمولًا لـ ﴿ كَفَرْتُمْ ﴾، فعلى الأوَّلِ: كيفَ يحصُلُ لكم أمانٌ مِن يومِ هذا الفزعِ العظيمِ إنْ كفرْتُم؟ وعلى الثَّاني: كيفَ يحصُلُ لكم تقوى إنْ كفرْتُم =

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((يقولُ اللهُ تعالى: يا آدمُ، فيقول: لبَّيكَ وسَعْدَيكَ، والخيرُ في يدَيكَ، فيقولُ: أَخرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قال: وما بَعْثُ النَّارِ؟ قال: مِن كلِّ ألفٍ تِسعَمائةٍ وتسعةً وتسعينَ، فعنده يَشيبُ الصَّغيرُ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها[1]، وترى النَّاسَ سُكارَى وما هم بسُكارَى، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ))[2].

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾.

= يومَ القيامةِ وجحَدْتُموه؟ وكلاهما معنى حسنٌ، ولكنَّ الأوَّلَ أولَى، والله أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦).

وقال القرطبي: (والولدانُ: الصِّبيانُ. وقال السدِّيُّ: هم أولادُ الزِّنا. وقيل: أولادُ المشركينَ. والعمومُ أصحُّ، أي: يشيبُ فيه الصَّغيرُ مِن غيرِ كبرٍ، وذلك حينَ يُقالُ: «يا آدمُ قمْ فابعَثْ بعثَ النَّارِ»). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٠)

وقال ابنُ جزي: (﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾... المعنى أنَّ الأطفالَ يَشيبونَ يومَ القيامةِ، فقيل: إنَّ ذلك حقيقةٌ، وقيل: إنَّه عبارةٌ عن هولِ ذلك اليومِ، وقيل: إنَّه عبارةٌ عن طولِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٥).

(١) قال ابنُ حجر: (وقد استُشكِلَ بأنَّ ذلك الوقتَ لا حملَ فيه ولا وضعَ ولا شيبَ، ومِن ثَمَّ قال بعضُ المفسرينَ: إنَّ ذلك قبلَ يومِ القيامةِ، لكنَّ الحديثَ يردُّ عليه، وأجاب الكرمانيُّ بأنَّ ذلك وقَع على سبيلِ التَّمثيلِ والتَّهويلِ، وسبَق إلى ذلك النووي، فقال: فيه وجهانِ للعلماءِ فذكرهما، وقال: التَّقديرُ أنَّ الحالَ يَنتهي إلى أنَّه لو كانَت النِّساءُ حينئذٍ حواملَ لوضَعتْ، كما تقولُ العربُ أصابَنا أمرٌ يشيبُ منه الوليدُ.

وأقولُ: يحتمِلُ أن يُحملَ على حقيقتِه؛ فإنَّ كلَّ أحدٍ يُبعَثُ على ما مات عليه، فتُبعَثُ الحامِلُ حامِلًا، والمرضعُ مرضعةً، والطفلُ طِفلًا، فإذا وقَعت زلزلةُ السَّاعةِ، وقيل ذلك لآدمَ، ورأَى النَّاسُ آدمَ، وسمِعوا ما قيل له؛ وقَع بهم مِن الوَجلِ ما يَسقُطُ معه الحملُ ويَشيبُ له الطِّفلُ، وتذهلُ به المرضعةُ...). ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٩٠). ويُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (١٤/ ١٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٩٧).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٨) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أمرُ القيامةِ أمرًا عَظيمًا، صوَّرَ بَعضَ أهوالِه؛ زيادةً في عِظَمِه[١]، فقال:

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾.

أي: السَّماءُ مُتشَقِّقةٌ يومَ القيامةِ؛ مِن شِدَّتِه وعِظَمِ أهوالِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١].

﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾.

أي: ما وَعَد اللهُ به خَلْقَه مِن مَجيءِ القيامةِ أمرٌ واقِعٌ لا محالةَ؛ فاللهُ تعالى لا يُخلَفُ وَعْدُه[٣].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بدأ في أوَّلِ السُّورةِ بشَرحِ أحوالِ السُّعَداءِ، وأمَّا الأشقياءُ فقد بدأ بتهديدِهم على سَبيلِ الإجمالِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمل:١١]، ثمَّ ذَكَر بَعْدَه أنواعَ عذابِ الآخرةِ، ثمَّ ذَكَر بعدَه عذابَ الدُّنيا، وهو الأخذُ الوَبيلُ في الدُّنيا، ثمَّ وَصَف بعدَه شِدَّةَ يومِ القيامةِ، فعندَ هذا تمَّ البيانُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٧).

بالكُلِّيَّةِ؛ فلا جَرَم خَتَم ذلك الكلامَ بقَولِه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا كان ما مضى مِن هذه السُّورةِ مِن الأحكامِ والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ: مُرشِدًا إلى معالي الأخلاقِ، مُنقِذًا مِن كُلِّ سوءٍ؛ قال مُستأنِفًا مؤكِّدًا تنبيهًا على عِظَمِها، وأنَّها ممَّا يَنبغي التَّنبيهُ عليه[2]:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾.

أي: إنَّ هذه تَذكِرةٌ يَتذَكَّرُ بها المتَّقونَ، وعِظةٌ وعِبرةٌ[3].

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

قال ابنُ عطية: (الإشارةُ بـ﴿هَٰذِهِۦ﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ إلى ما ذُكِرَ مِن الأنكالِ والجَحيمِ والأخذِ الوَبيلِ ونَحوِه، ويحتَمِلُ أن تكونَ إلى السُّورةِ بأجمَعِها، ويحتَمِلُ أن تكونَ إلى القُرآنِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الإشارةُ إلى هذه السُّورةِ الكريمةِ: السمرقنديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الإشارةُ إلى جميعِ آياتِ القُرآنِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والبغويُّ، والخازنُ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٥).

وممَّن قال في الجملة بأنَّ المرادَ: الآياتُ النَّاطِقةُ بالوعيدِ، وما تقدَّم مِن المَواعِظِ: البيضاويُّ، وابنُ جُزَي، والقاسميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

قال ابنُ عاشور: (الإشارةُ بـ﴿هَٰذِهِۦ﴾ إلى الآياتِ المتقدِّمةِ مِن قَولِه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٧).

أي: فمَن شاء مِنَ النَّاسِ اتَّخَذ إلى رَبِّه طَريقًا بالإيمانِ به وطاعتِه؛ لِيَظفَرَ برِضاه ورَحمتِه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ هذا تَنويهٌ بآياتِ القُرآنِ، وتجديدٌ للتَّحريضِ على التَّدَبُّرِ فيه والتَّفَكُّرِ على طَريقةِ التَّعريضِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾ ذِكْرُ الإرسالِ الدِّينيِّ، ويقابلُه ذِكْرُ الإرسالِ الكَونيِّ في قَولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ [مريم: ٨٣]، وقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾[٣] [الفرقان: ٤٨].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۞ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ فيه سُؤالٌ: هل يمكِنُ التَّمَسُّكُ بهذه الآيةِ في إثباتِ أنَّ القِياسَ حُجَّةٌ؟

الجوابُ: نعم؛ لأنَّ الكلامَ إنَّما ينتَظِمُ لو قِسْنا إحدى الصُّورتَينِ على الأُخرى[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ﴾ إثباتُ الأسبابِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥١)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩١).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).

ويُنظر ما تقدَّم في سورة الحاقة (٤٠/ ٤٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ التَّحذيرُ مِن يومِ القيامةِ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ في هذا دَليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى أقدَرَ العبادَ على أفعالِهم، ومكَّنَهم منها، لا كما يَقولُه الجَبْريَّةُ: (إنَّ أفعالَهم تقَعُ بغَيرِ مَشيئتِهم!)؛ فإنَّ هذا خِلافُ النَّقلِ والعَقلِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ إثباتُ مَشيئةِ العِبادِ[٣]؛ لكنَّ مشيئةَ العبدِ داخلةٌ تحتَ مشيئةِ الله وتابعةٌ لها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٤] [الإنسان: ٣٠].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾

- نُقِلَ الكلامُ إلى مُخاطَبةِ المشركينَ بعْدَ أنْ كان الخِطابُ مُوجَّهًا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. والمُناسَبةُ لذلك التَّخلُّصُ إلى وَعيدِهم؛ بعْدَ أنْ أمَرَه بالصَّبرِ على ما يَقولون وهَجْرِهم هَجْرًا جَميلًا؛ إذ قال له: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [المزمل: ١١- ١٣]؛ فالكلامُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، ولا يُعَدُّ هذا الخِطابُ مِن الالتفاتِ؛ لأنَّ الكلامَ نُقِلَ إلى غرَضٍ غيرِ الغرَضِ الَّذي كان قبْلَه[٥]. وقيل: هو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لخِطابِ أهْلِ مكَّةَ على طَريقِ الالْتفاتِ مِن الغَيبةِ في قولِه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ١٠]، وقولِه:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

﴿وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[١] [المزمل: ١١].

- والمَقصودُ مِن هذا الخبَرِ التَّعريضُ بالتَّهديدِ أنْ يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَ أمْثالَهم ممَّن كذَّبوا الرُّسلَ، فهو مَثَلٌ مَضروبٌ للمُشرِكين[٢].

- وأُكِّدَ الخبَرُ بحرْفِ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لأنَّ المُخاطَبينَ مُنكِرونَ أنَّ اللهَ أرسَلَ إليهم رَسولًا[٣].

- وتَنكيرُ ﴿رَسُولٗا﴾ المُرسَلِ إلى فِرعونَ؛ لأنَّ الاعتبارَ بالإرسالِ لا بشَخصِ المُرسَلِ؛ إذ التَّشبيهُ تَعلَّقَ بالإرسالِ في قولِه: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ إذ تَقديرُه: كإرْسالِنا إلى فِرعونَ رسولًا[٤]. وقيل: لعَلَّه نكَّرَه؛ للتَّنبيهِ على أنَّه ليس مِن قومِ فِرعَونَ، فلا مانِعَ له منه مِن حميمٍ ولا شَفيعٍ يُطاعُ؛ ليُعلَمَ أنَّه مَن كانت له قبيلةٌ تُحامي عنه، أَولى بالنُّصرةِ[٥].

- وأُدمِجَ في التَّنظيرِ والتَّهديدِ وصْفُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بكَونِه شاهِدًا عليهم، والمُرادُ بالشَّهادةِ هنا: الشَّهادةُ بتَبليغِ ما أرادَهُ اللهُ مِن النَّاسِ، وبذلك يكونُ وَصْفُ ﴿شَٰهِدًا﴾ مُوافقًا لاستِعمالِ الوصْفِ باسمِ الفاعلِ في زمَنِ الحالِ، أي: هو شاهدٌ عليكم الآنَ بمُعاوَدةِ الدَّعوةِ والإبلاغِ، وأمَّا شَهادةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ القِيامةِ فهي شَهادةٌ بصِدقِ المسلِمينَ في شَهادتِهم على الأُمَمِ بأنَّ رُسلَهم أبْلَغوا إليهم رِسالاتِ ربِّهم،

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥).

وذلك قولُه تعالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾[1] [البقرة: ١٤٣].

- قولُه: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ... ﴾ اختيرَ للمُشركينَ ضَرْبُ المَثَلِ بفِرعونَ مع مُوسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّ الجامعَ بيْنَ حالِ أهلِ مكَّةَ وحالِ أهلِ مِصرَ في سبَبِ الإعراضِ عن دَعوةِ الرَّسولِ، هو مَجموعُ ما همْ عليه مِن عِبادةِ غيرِ اللهِ، وما يَملأُ نُفوسَهم مِن التَّكبُّرِ والتَّعاظُمِ على الرَّسولِ المَبعوثِ إليهم بزَعْمِهم أنَّ مِثلَهم لا يُطِيعُ مِثلَه، كما حَكَى اللهُ تعالَى عنهم بقولِه: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وقدْ قال أهلُ مكَّةَ: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقدْ حَكَى اللهُ عنهم أنَّهم قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٢١]، ولأنَّ أخبارَ مُوسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ كانت مُنتشِرةً بمَكَّةَ[2].

- والكافُ في قولِه: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ ﴾ في محلِّ النَّصبِ على أنَّها صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، على تقديرِ اسميتِها، أي: إرسالًا مثلَ إرسالِنا، أو الجارُّ والمجرورُ في موضعِ الصِّفةِ على تقديرِ حرفيتِها، أي: إرسالًا كائنًا كما، والمعنى: أرسَلْنا إليكم رسولًا شاهدًا عليكم فعصَيْتُموه، كما أرْسَلْنا إلى فرعونَ رسولًا فعَصاه[3].

- وتَفريعُ ﴿ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ ذلك هو الغرَضُ مِن هذا الخبَرِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٧).

وهو التَّهديدُ بأنْ يَحُلَّ بالمُخاطَبينَ لَمَّا عَصَوُا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِثْلُ ما حلَّ بفِرعونَ[١].

- وفي إعادةِ فرعونَ والرَّسولِ مظهرينِ تفظيعٌ لشأنِ عصيانِه، وأنَّ ذلك لكونِه عصيانَ الرسولِ، لا لكونِه عصيانَ موسى[٢].

- وفي قولِه: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ لَمَّا جرَى ذِكرُ الرَّسولِ المُرسَلِ إلى فِرعونَ أوَّلَ مَرَّةٍ نَكِرةً ﴿رَسُولٗا﴾، جِيءَ به في ذِكرِه ثانيَ مرَّةٍ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ مُعرَّفًا بلامِ العَهدِ، وهو العهدُ الذِّكريُّ، أي: الرَّسولَ المذكورَ آنفًا؛ فإنَّ النَّكرةَ إذا أُعيدتْ مُعرَّفةً باللَّامِ كان مدلولُها عينَ الأُولَى، فلمَّا أعادَه وهو مَعهودٌ بالذِّكرِ، أدخَلَ لامَ التَّعريفِ إشارةً إلى المَذكورِ بَعينِه[٣].

- قولُه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ الأخْذُ مُعبَّرٌ به عن الإهلاكِ؛ لأنَّه لَمَّا أزالَهم مِن الحياةِ أشْبَهَ فِعلُه أخْذَ الآخِذِ شيئًا مِن مَوضِعِه، وجَعْلَه عندَه[٤].

- قولُه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ خارجٌ مِن التَّشبيهِ؛ جِيءَ به للتَّنبيهِ على أنَّه سيَحيقُ بهؤلاءِ ما حاقَ بأولئكَ لا مَحالةَ[٥].

- والوَبيلُ مُعبَّرٌ به عن سَيِّئِ العاقِبةِ، شَديدِ السُّوءِ[٦].

٢- قوله تعالَى: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٤).

- الاستفهامُ بـ(كيف) هنا مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ والتَّوبيخِ، وهو مُتفرِّعٌ بالفاءِ على ما تَضمَّنَه الخِطابُ السَّابقُ مِن التَّهديدِ على تَكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما أُدمِجَ فيه مِن التَّسجيلِ بأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شاهدٌ عليهم، فليس بعدَ الشَّهادةِ إلَّا المُؤاخَذةُ بما شَهِدَ به، وقدِ انتَقَل بهم مِن التَّهديدِ بالأخْذِ في الدُّنيا، المُستفادِ مِن تَمثيلِ حالِهم بحالِ فِرعونَ مع مُوسى، إلى الوَعيدِ بعِقابٍ أشدَّ، وهو عَذابُ يومِ القِيامةِ، وقدْ نشَأَ هذا الاستِفهامُ عن اعتبارِهم أهلَ اتِّعاظٍ وخَوفٍ مِن الوَعيدِ بما حلَّ بأمْثالِهم، ممَّا شَأنُه أنْ يُثيرَ فيهم تَفكيرًا في النَّجاةِ مِن الوُقوعِ فيما هُدِّدوا به، وأنَّهم إنْ كانوا أهلَ جَلادةٍ على تَحمُّلِ عَذابِ الدُّنيا؛ فماذا يَصنَعون في اتِّقاءِ عَذابِ الآخرةِ؟! فدَلَّت فاءُ التَّفريعِ واسمُ الاستفهامِ على هذا المعْنى، فالمعْنى: هَبْكم أقدَمْتُم على تَحمُّلِ عَذابِ الدُّنيا، فكيفَ تَتَّقون عَذابَ الآخرةِ[1]؟!

- وفِعلُ الشَّرطِ مِن قولِه: ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ مُستعمَلٌ في معْنى الدَّوامِ على الكُفْرِ؛ لأنَّ ما يَقْتضيه الشَّرطُ مِن الاستِقبالِ قَرينةٌ على إرادةِ معْنى الدَّوامِ مِن فِعلِ ﴿كَفَرْتُمْ﴾، وإلَّا فإنَّ كُفْرَهم حاصلٌ مِن قبْلِ نُزولِ هذه الآيةِ[2].

وقيل: في ذكرِ ﴿إِن﴾ التي للشَّكِّ إشعارٌ بأنَّه لا ينبغي الشكُّ معَ إرسالِ هذا الرَّسولِ النُّورِ المبينِ[3].

- ووَصْفُ اليومِ بأنَّه ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ وصْفٌ له باعتبارِ ما يقَعُ فيه مِن الأهوالِ والأحزانِ؛ لأنَّه شاع أنَّ الهمَّ ممَّا يُسرِعُ به الشَّيبُ، فلمَّا أُريدَ وصْفُ هَمِّ ذلك اليومِ بالشِّدَّةِ البالغةِ، أُسنِدَ إليه شَيبُ الولدانِ الَّذين شَعرُهم في أوَّلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٣٩٨).

سَوادِه، وهذه مُبالَغةٌ عَجيبةٌ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾

- جُملةُ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ صِفةٌ ثانيةٌ، والباءُ بمعْنى (في)، وهو ارتقاءٌ في وصْفِ اليومِ بحُدوثِ الأهوالِ فيه؛ فإنَّ انفطارَ السَّماءِ أشدُّ هَولًا ورُعبًا ممَّا كُنِّيَ عنه بجُملةِ ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾، أي: السَّماءُ على عِظَمِها وسُمْكِها تَنفطِرُ لذلك اليومِ، فما ظنُّكُم بأنفُسِكم وأمثالِكم مِن الخَلائقِ فيه؟! فذِكرُ انفطارِ السَّماءِ في ذلك اليومِ زِيادةٌ في تَهويلِ أحوالِه؛ لأنَّ ذلك يَزيدُ المُهدَّدينَ رُعبًا وإنْ لم يكُنِ انفطارُ السَّماءِ مِن آثارِ أعمالِهم، ولا له أثَرٌ في زِيادةِ نَكالِهم[٢].

- ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ جُملةُ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ مُستأنَفةً مُعترِضةً بيْنَ جُملةِ ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ ...﴾ إلخ، وجُملةِ ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ الإخبارُ بانفطارِ السَّماءِ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أي: كالمُنفطِرِ به، فيَكونَ المعْنى كقولِه تبارك وتعالَى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ۞ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدًّا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾[٣] [مريم: ٨٨ - ٩٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤١، ٦٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧١).

قال البقاعي: (﴿شِيبًا﴾ جمعُ أَشيَبَ، وهو مَن ابيَضَّ شَعْرُه، وذلك كنايةٌ عن كثرةِ الهُمومِ فيه؛ لأنَّ العادةَ جاريةٌ بأنَّها إذا تفاقَمَت أسرَعَت بالشَّيبِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٦).

- وتَذكيرُ قولِه: ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾؛ لإجرائِه على مَوصوفٍ مَحذوفٍ مُذكَّرٍ، أي: شَيءٌ مُنفطِرٌ، عُبِّرَ عنها بذلك للتَّنبيهِ على أنَّه تَبدَّلتْ حَقيقتُها، وزالَ عنها اسْمُها ورسْمُها، ولم يَبْقَ منها إلَّا ما يُعبَّرُ عنه بالشَّيءِ. وقيل: لتَأويلِ السَّماءِ بمعْنى السَّقفِ، تقولُ: هذا سَماءُ البيتِ، أي: سَقْفُه، قال تعالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، أو لأنَّها تُذكَّرُ وتُؤنَّثُ، أو جاء ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾ على النَّسَبِ، أي: ذاتُ انفطارٍ، كامرأةٍ مُرضِعٍ وحائضٍ، أي: ذاتُ إرضاعٍ وذاتُ حَيضٍ[1].

وقيل: لَمَّا كان المرادُ الجِنسَ الشَّاملَ للكلِّ ذَكَّرَ فقال: ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾، أي: مُنشَقٌّ مُتزايلٌ مِن هَيبةِ الرَّبِّ تَزايُلَ المُتفرِّطِ مِن السِّلكِ، ولو أنَّثَ لَكان ظاهرًا في واحدةٍ مِن السَّمواتِ، وفي اختيارِ التَّذكيرِ أيضًا لَطيفةٌ أُخرى؛ وهي إفهامُ الشِّدَّةِ الزَّائدةِ في الهولِ المؤدِّي إلى انفطارِه ما هو في غايةِ الشِّدَّةِ؛ لأنَّ الذَّكَرَ في كلِّ شَيءٍ أشدُّ مِن الأُنثى، وذلك كلُّه تَهويلًا لليومِ المذكورِ[2]. أو: لعلَّ العُدولَ في الآيةِ عن الاستعمالِ الشَّائعِ في الكلامِ الفصيحِ في إجْراءِ السَّماءِ على التَّأنيثِ إلى التَّذكيرِ؛ إيثارًا لتَخفيفِ الوصْفِ؛ لأنَّه لَمَّا جِيءَ به بصِيغةِ (مُنفعِلٍ) بحَرْفَي زِيادةٍ -وهما الميمُ والنُّونُ- كانت الكلمةُ مُعرَّضةً للثِّقَلِ إذا أُلحِقَ بها حرْفٌ زائدٌ آخَرُ ثالثٌ، وهو هاءُ التَّأنيثِ، فيَحصُلُ فيها ثِقَلٌ يُجنِّبُه الكلامُ البالغُ غايةَ الفصاحةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٢٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧).

ألَا تَرى أنَّها لم تَجْرِ على التَّذكيرِ في قولِه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١]؛ إذ ليس في الفِعلِ إلَّا حرْفٌ مَزيدٌ واحدٌ، وهو النُّونُ؛ إذْ لا اعتدادَ بهَمزةِ الوصْلِ؛ لأنَّها ساقطةٌ في حالةِ الوصْلِ، فجاءتْ بعْدَها تاءُ التَّأنيثِ[١].

وقيل: إذا كان الاسمُ غيرَ حقيقيِّ التأنيثِ جاز إجراءُ وصفِه على التَّذكيرِ، فلا تلحَقُه هاءُ التَّأنيثِ قياسًا على الفعلِ المسندِ للمؤنثِ غيرِ حقيقيِّ التأنيثِ في جوازِ اقترانِه بتاءِ التَّأنيثِ وتجريدِه منها؛ إجراءً للوصفِ مجرى الفعلِ[٢].

- وجُملةُ ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ صِفةٌ أُخرى لكَلمةِ ﴿يَوۡمًا﴾، وهذا الوصْفُ إدماجٌ[٣] للتَّصريحِ بتَحقيقِ وُقوعِ ذلك اليومِ بعْدَ الإنذارِ به الَّذي هو مُقتَضٍ لوُقوعِه بطَريقِ الكِنايةِ؛ استقصاءً في إبلاغِ ذلك إلى عِلمِهم، وفي قطْعِ مَعذرتِهم[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ تَذييلٌ[٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٧٦).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلاَّ أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٧).

(٥) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمامِ معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَينِ: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ =

أي: تَذكرةٌ لِمَن يَتذكَّرُ؛ فإنْ كان مِن مُنكِري البَعثِ آمَنَ به، وإنْ كان مُؤمنًا استَفاقَ مِن بَعضِ الغفْلةِ الَّتي تَعرِضُ للمُؤمنِ، فاستدْرَكَ ما فاتَه، وبهذا العُمومِ الشَّاملِ لأحْوالِ المُتحدَّثِ عنهم وأحوالِ غيرِهم كانت الجُملةُ تَذْييلًا[١].

- وتَأْكيدُ الكلامِ بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لأنَّ المُواجَهينَ به ابتِداءً هم مُنكِرون كَونَ القُرآنِ تَذكرةً وهُدًى؛ فإنَّهم كذَّبوا بأنَّه مِن عندِ اللهِ، ووَسَموه بالسِّحرِ وبالأساطيرِ، وذلك مِن أقوالِهم الَّتي أُرشِدَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى الصَّبرِ عليها؛ قال تعالَى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[٢] [المزمل: ١٠].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فُرِّعَ على التَّحريضِ التَّعريضيِّ تَحريضٌ صَريحٌ على الإيمانِ، أي: مَن كان يُريدُ أنْ يتَّخِذَ إلى ربِّه سَبيلًا، فقدْ تَهيَّأَ له اتِّخاذُ السَّبيلِ إلى اللهِ بهذه التَّذكرةِ، فلم تَبْقَ للمُتغافِلِ مَعذِرةٌ[٣].

- والإتيانُ بمَوصولِ ﴿فَمَن شَآءَ﴾ مِن قَبيلِ التَّحريضِ؛ لأنَّه يَقْتضي أنَّ هذا السَّبيلَ مُوصِلٌ إلى الخَيرِ، فلا حائلَ يَحولُ بيْن طالِبِ الخَيرِ وبيْنَ سُلوكِ هذا السَّبيلِ إلَّا مَشيئتُه؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾ قَرينةٌ على ذلك، فليستِ المَشيئةُ هنا على معْنى الإباحةِ، بلْ تَتضمَّنُ معْنى الوعدِ والوعيدِ[٤].

= السَّائرِ؛ ليشتهرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانِه على الألسِنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٨).

- ومَفعولُ ﴿شَآءَ﴾ مَحذوفٌ يدُلُّ عليه الشَّرطُ؛ لأنَّ (مَن) شَرطيَّةٌ، أي: فمَن شاء أنْ يتَّخِذَ سَبيلًا اتَّخَذه إلى ربِّه، أو فمَن شاء النَّجاةَ اتَّخَذ إلى ربِّه سَبيلًا[١].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٨).

الآية (٢٠)

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَطَآئِفَةٞ﴾: أي: جماعةٌ، والطَّائِفةُ: جماعةٌ مِن النَّاسِ؛ وتُطلَقُ على الواحدِ فما فَوْقَه، وأصلُ (طوف): دَوَرانُ الشَّيءِ على الشَّيءِ، قيل: سُمِّيَت الجماعةُ بذلك؛ لِتَصَرُّفِها في الإقبالِ والإدبارِ كأنَّها تَطوفُ[١].

﴿يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: أي: يَعلَمُ مَقاديرَهما على الحقيقةِ، أو: يَخلُقُهما مُقدَّرَينِ، ويَجعَلُهما على مَقاديرَ يَجريانِ عليها، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايَتِه[٢].

﴿لَّن تُحۡصُوهُ﴾: أي: لن تُطيقوه؛ قيل: لن تُطيقوا قِيامَه، وقيل: لن تَقدِروا على تقديرِ الأوقاتِ، ولن تَستطيعوا ضبطَ السَّاعاتِ، وأصلُه هنا: العَدُّ والإطاقةُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٩)، ((الصَّحاح)) للجوهري (٤/ ١٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٣٤٠، ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١، ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣).

﴿يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: يَسِيرونَ في الأرضِ، ويُسافِرونَ للتِّجارةِ وغَيرِها، والضَّرْبُ في الأَرضِ: الذَّهابُ فيها، وضَربُها بالأرجُلِ[(١)].

﴿وَأَقْرِضُوا۟﴾: أي: تَصَدَّقوا وأنْفِقوا، والقَرْضُ: ما يُدفَعُ مِن المالِ بشَرْط ردِّ بَدَلِه، وأصلُ القَرْضِ: القَطْعُ؛ ومنه سُمِّيَ القَرْض؛ فكأنَّه شيءٌ قد قَطَعْتَه مِن مالِكَ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾

قَولُه: ﴿هُوَ خَيْرًا﴾ ﴿هُوَ﴾: توكيدٌ للهاءِ في ﴿تَجِدُوهُ﴾، أو ضَميرُ فَصلٍ لا محَلَّ له مِن الإعرابِ، وإنْ لم يقَعْ بيْنَ معرفتَينِ؛ فإنَّ أفعَلَ -خَيْر- في حُكْمِ المعرفةِ. ﴿خَيْرًا﴾: مَفعولٌ به ثانٍ لـ (تجِدُ)[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى أنَّ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم وطائفةً مِن المؤمنينَ قد امتثلَوا ما أمَرهم به مِن قيامِ اللَّيلِ، فيقولُ: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- يَعلَمُ أنَّك تُصَلِّي في اللَّيلِ وجَماعةٌ مِن أصحابِك المؤمِنينَ: أقَلَّ مِن ثُلُثَي اللَّيلِ، وتارةً تُصَلِّي نِصْفَه، وتارةً أُخرى تصَلِّي ثُلُثَه، واللهُ وَحْدَه هو الَّذي يُقدِّرُ ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهارِ، ويَعلَمُ مقاديرَهما، عَلِمَ اللهُ سُبحانَه -أيُّها المؤمِنونَ- أنَّكم لن تَستطيعوا تقديرَ ساعاتِه تقديرًا دقيقًا؛ فتاب عليكم وخفَّف عنكم في أمرِ القيامِ؛ فصَلُّوا ما تيسَّرَ لكم مِنَ

---

(١) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧١، ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٦).

(٣) يُنظَر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٣١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٢٦).

اللَّيلِ دونَ تَحديدٍ.

ثمَّ يذكُرُ سُبحانَه بعضَ الأسبابِ المُناسِبةِ للتَّخفيفِ، فيقولُ: عَلِمَ اللهُ أنَّه سيَكونُ مِنكم مَرْضَى يَضعُفونَ عن الصَّلاةِ في اللَّيلِ، وآخَرونَ يُسافِرونَ في الأرضِ؛ طَلَبًا للرِّزقِ، وآخَرونَ يُجاهِدونَ الكُفَّارَ؛ نُصْرةً لدِينِ اللهِ تعالى؛ فصَلُّوا ما تيسَّرَ لكم مِن اللَّيلِ.

ثمَّ يأمُرُ سبحانَه المؤمنينَ بإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وعُمومِ فعلِ الخَيرِ، فيقولُ: وحافِظُوا على إقامةِ الصَّلَواتِ المفروضةِ عليكم، وأَعطوا الزَّكاةَ لِمُستَحِقِّيها مِن الفُقَراءِ والمساكينِ، وتَصَدَّقوا مِن طَيِّبِ أموالِكم بإخلاصٍ للهِ تعالى، وما تَفعَلوه في الدُّنيا مِن خَيرٍ تَجِدوا ثوابَه عِندَ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ مُضاعَفًا، واستَغفِروا اللهَ؛ إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ.

تَفسيرُ الآيةِ:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

ذَكَر اللهُ تعالى في أوَّلِ هذه السُّورةِ أنَّه أمَرَ رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بقيامِ نِصفِ اللَّيلِ أو ثُلُثِه أو ثُلُثَيه، والأصلُ أنَّه أُسوةٌ لأُمَّتِه في الأحكامِ، وذكَرَ في هذا الموضِعِ أنَّه امتَثَل ذلك هو وطائِفةٌ معه مِن المؤمِنينَ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ قِراءتانِ:

١- قراءةُ: ﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ أي: تقومُ نِصفَ اللَّيلِ وثُلُثَه[١].

٢- قراءةُ: ﴿وَنِصۡفِهِۦ وَثُلُثِهِۦ﴾ عَطفًا على ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾، والمعنى: تقومُ أقَلَّ مِن نِصفِه، وأقَلَّ مِن ثُلُثِه[٢].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- يَعلَمُ أنَّك تُصَلِّي في اللَّيلِ تارةً أقَلَّ مِن ثُلُثَيه، وتارةً تصَلِّي نِصْفَه، وتارةً أُخرى تصَلِّي ثُلُثَه، ويُصَلِّي ذلك المِقدارَ أيضًا جَماعةٌ مِن أصحابِك المؤمِنينَ[٣].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ نَبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقومُ مِنَ اللَّيلِ حتَّى تتفَطَّرَ[٤] قَدَماه، فقالت عائِشةُ: لِمَ تصنَعُ هذا يا رَسولَ اللهِ، وقد غَفَرَ اللهُ

(١) قرأ بها ابنُ كثير، والكوفيُّون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٥٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٠٠، ١٠١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٣١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٥٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٠١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩، ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨١).

(٤) تتفَطَّرَ: أي: تتشقَّقَ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٧/ ٣٤٧).

لك ما تقدَّمَ مِن ذَنْبِك وما تأخَّرَ؟! قال: أفلا أُحِبُّ أن أكونَ عَبدًا شَكُورًا؟!))[١].

وعن زَيدِ بنِ خالِدٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَأَرْمُقَنَّ[٢] صَلاةَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم اللَّيلةَ، فصَلَّى ركعتينِ خفيفتَينِ، ثمَّ صلَّى ركعتينِ طويلتينِ طويلتينِ طويلتينِ، ثمَّ صلَّى ركعتينِ، وهما دونَ اللَّتَينِ قَبْلَهما، ثمَّ صلَّى ركعتينِ، وهما دونَ اللَّتينِ قَبْلَهما، ثمَّ صلَّى ركعتينِ، وهما دونَ اللَّتَينِ قَبْلَهما، ثمَّ صلَّى ركعتينِ، وهما دونَ اللَّتَينِ قَبْلَهما، ثمَّ أوتَرَ، فذلك ثلاثَ عَشْرَةَ رَكعةً))[٣].

وعن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((صلَّيتُ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذاتَ ليلةٍ، فافتَتَح البَقَرةَ، فقُلتُ: يركَعُ عند المئةِ! ثمَّ مضَى، فقُلْتُ: يصَلِّي بها في رَكعةٍ! فمضَى، فقُلتُ: يركَعُ بها! ثمَّ افتَتَح النِّساءَ فقَرَأَها، ثمَّ افتَتَح آلَ عِمرانَ فقَرَأها، يَقرَأُ مُترَسِّلًا[٤]؛ إذا مَرَّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سَبَّح، وإذا مَرَّ بسؤالٍ سألَ، وإذا مرَّ بتعَوُّذٍ تعَوَّذَ، ثمَّ ركَعَ، فجَعَل يقولُ: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ، فكان رُكوعُه نَحوًا مِن قِيامِه! ثمَّ قال: سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَه، ثمَّ قام طويلًا قريبًا مِمَّا ركَعَ! ثمَّ سَجَد، فقال: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى، فكان سجودُه قَريبًا مِن قيامِه))[٥].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((صلَّيْتُ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأطال حتَّى هَمَمْتَ بأمرِ سَوْءٍ! قيل: وما هَمَمْتَ به؟ قال: هَمَمْتُ أن أجلِسَ وأدَعَه!))[٦].

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٠).

(٢) لأَرمُقَنَّ: أي: لأنظُرَنَّ وأتأمَّلَنَّ وأحفَظَنَّ وأرقُبَنَّ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ٩٠٦).

(٣) رواه مسلم (٧٦٥).

(٤) مُترَسِّلًا: أي: مرتلًا بتبيينِ الحروفِ وأداءِ حقِّها، يُقالُ: ترسَّلَ الرجُلُ في كلامِه ومَشْيِه: إذا لم يَعجَلْ. يُنظر: ((شرح السيوطي لسنن النسائي)) (٣/ ٢١٩)، ((دليل الفالحين)) لابن علان (٢/ ٣٢٠).

(٥) رواه مسلم (٧٧٢).

(٦) رواه البخاريُّ (١١٣٥)، ومسلمٌ (٧٧٣) واللفظ له.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان تحريرُ الوَقتِ المأمورِ به مَشَقَّةً على النَّاسِ؛ أخبَرَ أنَّه سَهَّل عليهم في ذلك غايةَ التَّسهيلِ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: يَعلَمُ مَقاديرَهما وما يَمضي منهما ويَبقَى[١].

وأيضًا لَمَّا كان القيامُ -على هذا التَّفاوتِ مع الاجتهادِ في السَّبقِ في العبادةِ- دالًّا على عدمِ العِلمِ بالمقاديرِ ما هي عليه، قال تعالى[٢]:

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الَّذي يُقدِّرُ ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهارِ وأوقاتَهما، ويَعلَمُ مقاديرَهما[٣].

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾.

أي: عَلِمَ اللهُ سُبحانَه -أيُّها المؤمِنونَ- أنَّكم لن تُطيقوا تقديرَ ما طُلِبَ منكم عِلمًا وعَمَلًا مِن غيرِ زيادةٍ ولا نَقصٍ، فذاك يَستدعي انتباهًا وعَناءً زائدًا؛ فلذا تاب عليكم لعَجزِكم وضَعْفِكم، وخفَّف عنكم بالتَّرخيصِ في تركِ القيامِ المقَدَّرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

قال الواحدي: (﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ قال عَطاءٌ: يريدُ: لا يَفوتُه عِلْمُ ما يَفعلونَ، أي: أنَّه يعلَمُ مقاديرَ اللَّيلِ والنَّهارِ، فيَعلَمُ القَدْرَ الَّذي يَقومونَه مِنَ اللَّيلِ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٧٧).

وقال القرطبيُّ: (أي: يَعلَمُ مَقاديرَ اللَّيلِ والنَّهارِ على حقائقِها، وأنتم تَعلَمونَ بالتَّحَرِّي والاجتهادِ الَّذي يقعُ فيه الخطأُ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣).

أوَّلَ السُّورةِ، ورَفَع عنكم التَّبِعةَ في ذلك، وأمَرَكم بفِعلِ ما تيسَّرَ لكم منه، سَواءٌ زاد على الوَقتِ المقدَّرِ أو نَقَصَ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: لن تُطيقوا قيامَ اللَّيلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٠).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: لن تُطيقوا تقديرَ الأوقاتِ، ولن تستطيعوا ضبطَ السَّاعاتِ: السمعاني، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، وابن جُزَي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٥).

قال الزمخشري: (والضَّميرُ في ﴿لَّن تُحۡصُوهُ﴾ لِمَصدرٍ يُقدَّرُ، أي: عَلِم أنَّه لا يصحُّ منكم ضبطُ الأوقاتِ، ولا يتأتَّى حِسابُها بالتَّعديلِ والتَّسويةِ، إلَّا أن تأخُذوا بالأوسَعِ للاحتياطِ، وذلك شاقٌّ عليكم، بالِغٌ منكم ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ عبارةٌ عن التَّرخيصِ في تركِ القيامِ المُقدَّرِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣).

وقال السمعاني: (المعنى: أنَّه يَشُقُّ عليكم مَعرِفةُ مِقدارِ المفروضِ، والقيامُ بالأمرِ؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ إذا نام ثمَّ استيقظ، لا يَدري: كم نام، وكم بَقِيَ مِنَ اللَّيلِ، وقد كان اللهُ تعالى فَرَض قيامَ اللَّيلِ على مِقدارٍ معلومٍ، وهو لا يَنقُصُ عن الثُّلُثِ، ويَبلُغُ الثُّلُثَينِ إن أراد). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٨٤).

وقال القرطبي: (أي: لن تُطيقوا معرفةَ حقائقِ ذلك، والقيامَ به. وقيل: أي: لن تُطيقوا قيامَ اللَّيلِ. والأوَّلُ أصحُّ؛ فإنَّ قيامَ اللَّيلِ ما فُرِض كلُّه قطُّ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣).

وقال ابن جُزَي: (﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ الضَّميرُ يعودُ على ما يُفهَمُ مِن سياقِ الكلامِ، أي: لن تُحصوا تقديرَ اللَّيلِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٥).

وقال النَّسَفي: (لن تُطيقوا قيامَه على هذه المقاديرِ إلَّا بشِدَّةٍ ومشَقَّةٍ، وفي ذلك حرَجٌ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٥٩).

وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: فعاد عليكم بالعفوِ، وهذا يدُلُّ على أنَّه كان =

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾.

أي: فصَلُّوا -أيُّها المؤمِنونَ- ما تيسَّرَ لكم مِنَ اللَّيلِ دونَ تَحديدٍ[1].

= فيهم مَن ترَكَ بعضَ ما أُمِر به. وقيل: أي: فتاب عليكم مِن فرضِ القيامِ إذ عجَزْتُم. وأصلُ التَّوبةِ: الرُّجوعُ...، فالمعنى: رجَع لكم مِن تثقيلٍ إلى تخفيفٍ، ومِن عُسْرٍ إلى يُسرٍ، وإنَّما أُمِروا بحِفظِ الأوقاتِ على طريقِ التَّحَرِّي، فخَفَّف عنهم ذلك التَّحَرِّيَ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣).

تقدَّم ذكر الخِلافِ في النَّسخِ (ص: ١٤)، فإن حُمِلَ أوَّلُ السُّورةِ على التَّطوُّعِ أو على النَّدبِ، وآخِرُها على تركِ المؤاخَذةِ بالمِقدارِ؛ كانت الآيتانِ مُحْكَمتَينِ. وإنْ حُمِل أوَّلُها على الوُجوبِ؛ كان آخِرُها ناسِخًا لأوَّلِها، وكانوا في آخِرِها مأمورينَ بأن يُصَلُّوا ما تيسَّر لهم، ثمَّ كان آخِرُها أيضًا منسوخًا بالصَّلَواتِ الخَمْسِ. يُنظر: ((جمال القراء)) للسخاوي (٢/ ٨٨٢).

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٣٤، ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٣، ٢٨٤).

قال ابن العربي: (قولُه: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فيه قولان:

أحدُهما: أنَّ المرادَ به نفْسُ القراءةِ.

الثَّاني: أنَّ المرادَ به الصَّلاةُ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٣٤).

وممَّن رجَّح أنَّ المرادَ: الصَّلاةُ، أي: فصَلُّوا ما تيسَّر لكم مِن صلاةِ اللَّيلِ: ابنُ العربي، والرَّسْعَنيُّ، وأبو حيَّان، وابنُ كثير، والبِقاعي، وأبو السعود، والألوسي، وإليه ذهب ابن عاشور. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٣٤، ٣٣٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٣، ٢٨٤).

قال ابن العربي: (لأنَّه عن الصَّلاةِ أخبر، وإليها رجَع القولُ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٣٥). =

= وقال الرَّسْعَني: (وعبَّر عن الصَّلاةِ بالقراءةِ؛ لاشتِمالِها عليها، كما عبَّر عنها بالرُّكوعِ والسُّجودِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٤٣).

وقال ابن كثير: (كما قال في سورةِ سُبْحانَ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقِراءتِك، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨).

قال الماوَرْدي: (فعلى هذا يحتملُ في المراد بما تيسَّر مِن الصَّلاةِ وجهان:

أحدُهما: ما يتطوَّعُ به مِن نوافِلِه؛ لأنَّ الفرضَ المقدَّرَ لا يُؤْمَرُ فيه بما تيسَّر.

الثَّاني: أنَّه محمولٌ على فُروضِ الصَّلَواتِ الخَمسِ؛ لانتقالِ النَّاسِ مِن قيامِ اللَّيلِ إليها، ويكونُ قولُه: ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ محمولًا على صفةِ الأداءِ في القوَّةِ والضَّعفِ، والصِّحَّةِ والمرضِ، ولا يكونُ محمولًا على العددِ المقدَّرِ شرعًا). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٣٢).

والقولُ الثَّاني: أنَّ المراد: نفْسُ القراءةِ. وذلك حملًا للخِطابِ على ظاهِرِ اللَّفظِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣).

قال الماوَرْديُّ: (فعلى هذا فيه وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ المرادَ به: قراءةُ القرآنِ في الصَّلاةِ، فيكونُ الأمرُ به واجبًا؛ لوُجوبِ القراءةِ في الصَّلاةِ. واختُلِف في قَدرِ ما يَلزَمُه أن يَقرأَ به مِن الصَّلاةِ...

والوجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ به: قراءةُ القرآنِ من غيرِ الصَّلاةِ، فعلى هذا يكونُ مُطلَقُ هذا الأمرِ محمولًا على الوُجوبِ أو على الاستِحبابِ؟ على وجهَينِ؛ أحدُهما: أنَّه محمولٌ على الوُجوبِ؛ لِيَقِفَ بقِراءتِه على إعجازِه، ودلائلِ التَّوحيدِ فيه، وبعثِ الرُّسلِ، ولا يَلزَمُه إذا قرأه وعرَف إعجازَه ودلائلَ التَّوحيدِ منه أن يَحفَظَه؛ لأنَّ حِفظَ القرآنِ مِن القُرَبِ المُستحَبَّةِ دونَ الواجبةِ. الثَّاني: أنَّه محمولٌ على الاستحبابِ دونَ الوُجوبِ، وهذا قولُ الأكثَرينَ؛ لأنَّه لو وجَب عليه أن يَقرأَه وجَب عليه أن يَحفظَه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٣٢).

ذَهبَ مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ والبَغَويُّ إلى أنَّ المرادَ: قراءةُ القرآنِ في الصَّلاةِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٠).

قال الرَّسْعَنيُّ: (وذهب كثيرٌ مِن المفسِّرينَ إلى أنَّ المعنى: فاقرَؤوا في الصَّلاةِ ما تيسَّر مِن القرآنِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٤٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: قراءةُ القرآنِ في صلاةِ اللَّيلِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والقرطبي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٥)، ((تفسير القاسمي)) =

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾.

أي: عَلِمَ اللهُ -أيُّها المؤمِنونَ- أنَّه سيكونُ مِنكم مَرْضَى يَضعُفونَ عن الصَّلاةِ في اللَّيلِ[1].

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر عُذْرَ المريضِ، وبدأَ به لكَونِه أعَمَّ، ولا قُدرةَ للمَريضِ على دَفْعِه- أتْبَعَه السَّفَرَ للتِّجارةِ؛ لأنَّه يليه في العُمومِ[2].

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾.

= (٩/ ٣٤٤).

وقال ابن تيميَّةَ: (أمَّا قولُه: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فليس المرادُ به القِراءةَ المفروضةَ في الصَّلاةِ؛ بدَليلِ قَولِه بعدَ ذلك: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولأنَّ هذه السُّورةَ نَزَلَتْ بمكَّةَ في أوَّلِ الأمرِ قبْلَ أنْ تُفْرَضَ الصَّلواتُ الخَمسُ، وكان وُجوبُ الفاتحةِ بالمدينةِ، وإنَّما المرادُ به -واللهُ أعلمُ-: التِّلاوةُ المأمورُ بها عِوَضًا عن قيامِ اللَّيلِ؛ فإنَّ حافِظَ القُرآنِ يَنبغي له أنْ يَتلوَه، وإذا نَسِيَه فإنَّه يجبُ عليه أنْ يَتلوَه بحيثُ لا يَنْساه، وسياقُ الآيةِ يدُلُّ على هذا، حيث قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾. وقد قيل: إنَّ المرادَ به قراءةُ ما تيسَّر بعدَ الفاتحةِ). ((شرح العمدة لابن تيمية- كتاب الصلاة)) (ص: ١٧٤). ويُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ٣٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

قال السعدي: (ذَكَر بعضَ الأسبابِ المناسِبةِ للتَّخفيفِ، فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ يشُقُّ عليهم صلاةُ ثُلُثَي اللَّيلِ أو نِصفِه أو ثُلُثِه، فلْيُصَلِّ المريضُ المتسَهَّلَ عليه، ولا يكونُ أيضًا مأمورًا بالصلاةِ قائِمًا عندَ مشقَّةِ ذلك، بل لو شَقَّت عليه الصَّلاةُ النَّافِلةُ فله تَرْكُها، وله أجرُ ما كان يَعمَلُ صحيحًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣).

أي: وعَلِمَ اللهُ أنَّه سيَكونُ مِنكم آخَرونَ يُسافِرونَ في الأرضِ؛ طَلَبًا للرِّزقِ، فيَضعُفونَ عن قيامِ اللَّيلِ(١).

﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وآخَرونَ يُجاهِدونَ الكُفَّارَ؛ نُصْرةً لدِينِ اللهِ تعالى، وإعلاءً لكَلِمتِه، فيَشُقُّ عليهم قيامُ اللَّيلِ(٢).

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾.

أي: فصَلُّوا -بعدَ أن خفَّفَ اللهُ عليكم في قيامِ اللَّيلِ- ما تيسَّرَ لكم مِن صلاةِ اللَّيلِ(٣).

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: وحافِظُوا -أيُّها المسلِمونَ- على إقامةِ الصَّلَواتِ المفروضةِ، بأركانِها وشُروطِها وواجِباتِها، وأعْطوا الزَّكاةَ الواجِبةَ عليكم في أموالِكم أهلَها المستَحِقِّينَ لها(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

قال ابنُ عاشور: (لأنَّ السَّيرَ في الأسفارِ يكونُ في اللَّيلِ كثيرًا، ويكونُ في النَّهارِ، فيَحتاجُ المسافِرُ للنَّومِ في النَّهارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

قال الواحدي: (قال المفَسِّرون: كان هذا في صَدْرِ الإسلام، ثمَّ نُسِخَ بالصَّلَواتِ الخَمْسِ عن المؤمِنينَ، وثَبَت على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خاصَّةً). ((الوسيط)) (٤/ ٣٧٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣، ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المرادُ بقولِه: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبَ المعروفَ؛ أَتْبَعَه سائِرَ الإنفاقاتِ المفروضةِ والمندوبةِ -على قولٍ-، فقال[1]:

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

أي: وتَصَدَّقوا مِن طَيِّبِ أموالِكم بإخلاصٍ للهِ تعالى، ودونَ مَنٍّ ولا أذًى[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

أي: وما تَفعَلوه في الدُّنيا مِن أيِّ وَجهٍ مِن وُجوهِ الخَيرِ؛ لِنَفعِ أنفُسِكم في الآخِرةِ،

= (٨/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٧، ٢٨٨).

قيل: يَدخُلُ في هذا: الصَّدَقةُ الواجِبةُ والمستحَبَّةُ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

وقيل: المرادُ: الصَّدَقاتُ غَيرُ الواجِبةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٧).

وقال العُلَيمي: (هو الإنفاقُ في سُبُلِ الخَيرِ غير المفروضِ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٠٠).

وقال أبو حيَّان: (﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ العطْفُ يُشعِرُ بالتَّغايُرِ؛ فقولُه: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أمْرٌ بأداءِ الواجبِ، ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أمْرٌ بأداءِ الصَّدَقاتِ الَّتي يُتطوَّعُ بها). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢١).

قال ابنُ عبَّاسٍ: (يُريدُ: سِوى الزَّكاةِ؛ مِن صِلَةِ الرَّحمِ، وقِرَى الضَّيفِ). يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٨٨).

فإنَّكم تَجِدونَه يومَ القيامةِ مَحفوظًا لكم عِندَ اللهِ بأفضَلَ مِمَّا قدَّمْتُم، وأعظَمَ ثوابًا ممَّا عَمِلْتُم[١].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيما يَروي عن ربِّه عزَّ وجلَّ قال: ((إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، ثمَّ بيَّنَ ذلك، فمَنْ هَمَّ بحَسَنةٍ فلم يَعمَلْها، كتَبَها اللهُ له عندَه حَسَنةً كامِلةً، فإنْ هو هَمَّ بها فعَمِلَها، كتَبَها اللهُ له عِندَه عَشْرَ حَسَناتٍ، إلى سَبْعِمئةِ ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ))[٢].

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

أي: واسألوا اللهَ أن يَمحُوَ عنكم ذُنوبَكم؛ عَيْنَها وآثارَها، فيَتجاوَزَ عنها ويَستُرَها[٣].

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦].

وعن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّه قال: ((يا عِبادي، إنَّكم تُخطِئُونَ باللَّيلِ والنَّهارِ، وأنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٢) رواه البخاري (٦٤٩١) واللفظ له، ومسلم (١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤١).

أغفِرُ الذُّنوبَ جميعًا؛ فاستَغفِروني أغفِرْ لكم))[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عَظيمُ المغفرةِ لذُنوبِ عِبادِه، بليغُ الرَّحمةِ بهم[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((قال اللهُ تبارك وتعالى: يا ابنَ آدمَ، إنَّك ما دعَوْتَني ورَجَوْتَني غفَرْتُ لك على ما كان فيك ولا أُبالي، يا ابنَ آدَمَ، لو بلَغَت ذُنوبُك عَنانَ السَّماءِ، ثمَّ استَغفَرْتَني، غَفَرْتُ لك ولا أُبالي، يا ابنَ آدَمَ، إنَّك لو أتَيْتَني بقُرابِ الأرضِ خَطايا، ثمَّ لَقِيتَني لا تُشرِكُ بي شيئًا، لَأَتَيْتُك بقُرابِها مَغفِرةً))[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ لَمَّا كان رُبَّما تغالى بعضُ النَّاسِ في العبادةِ، وشَقَّ على نَفْسِه، ورُبَّما شَقَّ على غَيرِه؛ أشار سُبحانَه وتعالى إلى الاقتصادِ؛ تخفيفًا لِما يَلحَقُ الإنسانَ مِنَ النَّصَبِ[٤].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٣٠٥)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ٢٣١).

صحَّحه ابنُ القيِّم في ((أعلام الموقعين)) (١/ ٢٠٤)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٤٠)، وقال ابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (٢/ ٤٠٠): (إسنادُه لا بأسَ به). وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((رياض الصالحين)) (٤٤٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨، ٢٩).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سَوَّى اللهُ تعالى في هذه الآيةِ بيْنَ دَرَجةِ المجاهِدينَ، والمكتسِبينَ المالَ الحلالَ للنَّفَقةِ على نَفْسِه وعيالِه، والإحسانِ، فكان هذا دليلًا على أنَّ كَسْبَ المالِ بمنزلةِ الجِهادِ؛ لأنَّ جَمْعَه مِن الجهادِ في سَبيلِ اللهِ[1]. وقدْ كان بَعضُ الصَّحابةِ يَتأوَّلُ مِن هذه الآيةِ فَضيلةَ التِّجارةِ والسَّفرِ للتَّجْرِ؛ حيث سوَّى اللهُ بيْن المجاهِدين والمُكتسِبينَ المالَ الحلالَ، يعني أنَّ اللهَ ما ذَكَرَ هذَين السَّببينِ لنسْخِ تَحديدِ القيامِ إلَّا تَنويهًا بهما؛ لأنَّ في غَيرِهما مِن الأعذارِ ما هو أشبَهُ بالمرَضِ، ودَقائقُ القرآنِ ولَطائفُه لا تَنحصِرُ[2].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذا تذكيرٌ بأنَّ الصَّلَواتِ الواجبةَ هي الَّتي تَحرِصونَ على إقامتِها وعدَمِ التَّفريطِ فيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وفي هذا التَّعقيبِ بعَطفِ الأمرِ بإقامةِ الصَّلاةِ إيماءٌ إلى أنَّ في الصَّلَواتِ الخَمسِ ما يَرفَعُ التَّبِعةَ عن المؤمِنينَ، وأنَّ قيامَ اللَّيلِ نافِلةٌ لهم، وفيه خيرٌ كثيرٌ[3].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وصْفُ القَرْضِ بالحُسنِ يُفيدُ الصَّدقةَ المُرادَ بها وَجْهُ اللهِ تعالَى، والسَّالِمةَ مِن المَنِّ والأذى، والحُسنُ مُتفاوِتٌ[4].

٥- قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ الحَسَنةُ بعَشْرِ أمثالِها إلى سَبْعِمئةِ ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ولْيُعلَمْ أنَّ مِثقالَ ذَرَّةٍ مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨٨).

الخَيرِ في هذه الدَّارِ يُقابِلُه أضعافُ أضعافِ الدُّنيا وما عليها في دارِ النَّعيمِ المقيمِ مِنَ اللَّذَّاتِ والشَّهَواتِ، وأنَّ الخيرَ والبرَّ في هذه الدُّنيا مادَّةُ الخيرِ والبرِّ في دارِ القرارِ، وبَذْرُه وأصلُه وأساسُه، فوا أَسَفاه على أوقاتٍ مَضَت في الغَفَلاتِ! وواحَسْرَتاه على أزمانٍ تقَضَّت بغيرِ الأعمالِ الصَّالحاتِ! وواغَوْثاه من قلوبٍ لم يؤثِّرْ فيها وعظُ بارئِها، ولم يَنجَعْ فيها تشويقُ مَن هو أرحَمُ بها منها! فلك اللَّهمَّ الحمدُ، وإليك المشتكى، وبك المستغاثُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بك[1]!

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ في الأمرِ بالاستِغفارِ بعدَ الحَثِّ على أفعالِ الطَّاعةِ والخَيرِ: فائِدةٌ كبيرةٌ؛ وذلك أنَّ العَبدَ ما يخلو مِن التَّقصيرِ فيما أُمِرَ به؛ إمَّا ألَّا يَفعَلَه أصلًا، أو يَفعَلَه على وجهٍ ناقِصٍ، فأُمِرَ بترقيعِ ذلك بالاستِغفارِ؛ فإنَّ العبدَ يُذنِبُ آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ، فمتى لم يتغَمَّدْه اللهُ برَحمتِه ومَغفِرتِه فإنَّه هالِكٌ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ لَمَّا كان أكثَرُ أحوالِ الصَّلاةِ القِيامَ، عَبَّر به عنها[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ فيه وُجوبُ القِيامِ في الصَّلاةِ؛ فإنَّ العبادةَ إذا سُمِّيَتْ بما يُفْعَلُ فيها، دَلَّ على أنَّه واجِبٌ فيها[4].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ احتَجَّ بَعْضُهم على تكليفِ ما لا يُطاقُ بأنَّه تعالى قال: ﴿لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي: لن تُطيقُوه، ثمَّ إنَّه كان قد كَلَّفَهم به،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيمية- كتاب الحج)) (٢/ ٥٤٢).

ويمكِنُ أن يُجابَ عنه بأنَّ المرادَ صُعوبتُه، لا أنَّهم لا يَقدِرونَ عليه، كقَولِ القائِلِ: ما أُطيقُ أن أنظُرَ إلى فُلانٍ، إذا استثقَلَ النَّظَرَ إليه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ التَّعبيرُ عن النَّسخِ بالتَّوبةِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه لو لا النَّسخُ لَكان الإنسانُ آثِمًا؛ إمَّا بفِعلِ مُحَرَّمٍ، أو بتركِ واجِبٍ[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ هذه الآيةُ صالِحةٌ لأن تكونَ أصلًا للتَّعليلِ بالمَظِنَّةِ، وصالِحةٌ لأن تكونَ أصلًا تُقاسُ عليه الرُّخَصُ العامَّةُ الَّتي تُراعَى فيها مَشقَّةُ غالِبِ الأُمَّةِ، مِثلُ رُخصةِ بَيعِ السَّلَمِ، دونَ الأحوالِ الفَرديَّةِ والجُزئيَّةِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أنَّ قيامَ اللَّيلِ بالصَّلاةِ أفضَلُ مِن مجَرَّدِ قِراءةِ القُرآنِ والذِّكْرِ فيه؛ ولهذا نَقَلَهم سُبحانَه عندَ نَسْخِ وُجوبِ قيامِ اللَّيلِ إلى القِراءةِ[٤]. وذلك على قولٍ.

٧- قال الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٧).

وقال في قولِه تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]: (كانوا في أوَّلِ الأمرِ إذا صلَّى أحدُهم العِشاءَ الآخِرةَ، أو إذا نام قبْلَ العِشاءِ الآخِرةِ فإنَّه يَحرُمُ عليه الاستِمتاعُ بالمرأةِ والأكلِ والشُّربِ إلى غروبِ الشَّمسِ مِن اليومِ التَّالي؛ فشَقَّ عليهم ذلك مشَقَّةً عظيمةً، حتَّى إنَّ بعضَهم لم يَصبِرْ؛ فبيَّن اللهُ عزَّ وجلَّ حِكمتَه، ورحمتَه بنا، حيث أحلَّ لنا هذا الأمرَ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]: أي تاب عليكم بنَسخِ الحُكمِ الأوَّلِ الَّذي فيه مشَقَّةٌ؛ والنَّسخُ إلى الأسهلِ تَوبةٌ). ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ٣٩٠).

سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُؤخَذُ مِن الآيةِ أنَّ المريضَ والمسافِرَ والمجاهِدَ يُكْتَبُ له مِثْلُ ما كان يَعمَلُ[(١)].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مِن حِكَمِ نَسخِ تحديدِ الوَقتِ في قيامِ اللَّيلِ -وذلك على قولٍ-: مراعاةُ أحوالٍ طرَأَت على المسلِمينَ مِن ضُروبٍ ما تدعو إليه حالةُ الجماعةِ الإسلاميَّةِ، وذكَرَ مِن ذلك ثلاثةَ أضرُبٍ هي أصولُ الأعذارِ:

الضَّربُ الأوَّلُ: أعذارُ اختِلالِ الصِّحَّةِ، وقد شَمِلَها قَولُه تعالى: ﴿أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾.

الضَّربُ الثَّاني: الأشغالُ الَّتي تدعو إليها ضَرورةُ العَيشِ مِن تجارةٍ وصِناعةٍ وحِراثةٍ وغَيرِ ذلك، وقد أشار إليها قَولُه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، وفَضْلُ اللهِ هو الرِّزقُ.

الضَّربُ الثَّالثُ: أعمالٌ لِمَصالحِ الأمَّةِ، وأشار إليها قَولُه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ودخل في ذلك حِراسةُ الثُّغورِ والرِّباطُ بها، وتدبيرُ الجُيوشِ، وما يَرجِعُ إلى نَشرِ دَعوةِ الإسلامِ مِن إيفادِ الوُفودِ، وبَعْثِ السُّفَراءِ، وهذا كُلُّه مِن شُؤونِ الأمَّةِ على الإجمالِ[(٢)].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أصلٌ في التِّجارةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٧٩). ويُنظر ما أخرَجه البخاري (٢٩٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٦).

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذه الآيةُ -بل السُّورةُ كُلُّها- مَكِّيَّةٌ، ولم يكُنِ القِتالِ شُرِعَ بَعْدُ، فهي مِن أكبَرِ دَلائِلِ النُّبُوَّةِ؛ لأنَّه مِن بابِ الإخبارِ بالمُغَيَّباتِ المُستقبَلةِ[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ جوازُ قراءةِ المصلِّي أواخِرَ السُّوَرِ، وأواسِطَها، وأوائِلَها في الفَرضِ والنَّفْلِ[٢]. وجوازُ قراءةِ المصلِّي بعدَ الفاتحةِ سورتَينِ أو ثلاثًا، وله أنْ يَقْتَصِرَ على سُورةٍ واحدةٍ، أو يَقْسِمَ السُّورةَ إلى نِصفَينِ، وكلُّ ذلك جائزٌ؛ لعُمومِ الآيةِ الكريمةِ[٣]. وأنَّه لا بأسَ مِن إعادةِ السُّورةِ مرَّةً أو مرَّتَينِ؛ سواءٌ في ركعةٍ أو في ركعتَينِ، وسواءٌ كان سَهوًا أو عَمدًا؛ لعُمومِ الآيةِ الكريمةِ[٤]. وذلك على أنَّ المرادَ بالآيةِ قراءةُ ما تيسَّر بعدَ الفاتحةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٣/ ٢٦١).

قال ابن القيِّم: (وكان مِن هَدْيِه قِراءةُ السُّورةِ كاملةً، ورُبَّما قرأها في الرَّكعتَينِ، ورُبَّما قرأ أوَّلَ السُّورةِ. وأمَّا قِراءةُ أواخِرِ السُّوَرِ وأوساطِها فلم يُحفَظْ عنه). ((زاد المعاد)) (١/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٣/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٤/ ٤٤١).

قال ابن كثير: (وقد استدَلَّ أصحابُ الإمامِ أبي حنيفةَ رحمه الله بهذه الآيةِ، وهي قولُه: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ على أنَّه لا يتعيَّنُ قراءةُ الفاتحةِ في الصَّلاةِ، بل لو قرأ بها أو بغيرِها مِن القرآنِ ولو بآيةٍ، أجْزَأَه. واعتضَدوا بحديثِ المُسيءِ صلاتَه الَّذي في الصَّحيحَينِ: «ثمَّ اقرَأْ ما تيسَّر معك مِن القرآنِ». وقد أجابهم الجمهورُ بحديثِ عُبادةَ بنِ الصَّامتِ، وهو في الصَّحيحَينِ أيضًا: أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: «لا صَلاةَ لِمَن لم يَقرَأْ بفاتحةِ الكِتابِ»، وفي صحيحِ مسلمٍ عن أبي هُرَيرةَ أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «كلُّ صلاةٍ لا يُقرأُ فيها بأمِّ الكِتابِ فهي خِداجٌ، فهي خِداجٌ، فهي خِداجٌ، غيرُ تمامٍ». وفي صحيحِ ابنِ خُزَيْمةَ عن أبي هُرَيرةَ مرفوعًا: «لا تُجزئُ صلاةُ مَن لم يَقرَأْ بأمِّ القرآنِ»). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصَّاص (١/ ٢٠)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٧٦).

قال ابن عاشور: (لا دَلالةَ في هذه الآيةِ على مِقْدارِ ما يُجزئُ مِن القراءةِ في الصَّلاةِ؛ إذْ ليسَ =

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أنَّه ليس على الإمامِ في صلاةِ التَّراويحِ في رمضانَ أنْ يَخْتِمَ القرآنَ؛ لعُمومِ الآيةِ الكريمةِ، ولكِنْ إنْ خَتَمَه مِن أجْلِ أنْ تكونَ الجماعةُ الَّذين وراءَه يَستَمِعونَ إلى كتابِ اللهِ سُبحانَه وتعالى مِن أوَّلِه إلى آخِرِه، كان خَيرًا، وإنْ لم يَفْعَلْ فلا حَرَجَ[١]، وأيضًا أنَّه لا حَرَجَ أنْ يَقْرَأَ الإمامُ أجزاءً مُتفرِّقةً في قيامِ رمضانَ في التَّراويحِ؛ لعُمومِ الآيةِ الكريمةِ[٢]. وذلك على أنَّ المرادَ بالآيةِ قِراءةُ ما تيسَّر بعدَ الفاتحةِ.

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أقيمُوا صَلاتَكم الواجِبةَ عليكم، وآتُوا الزَّكاةَ المفروضةَ. وهذا يدُلُّ لِمَن قال: إنَّ فَرْضَ الزَّكاةِ نَزَل بمكَّةَ، لكِنَّ مَقاديرَ النُّصُبِ والمُخْرَجِ لم تُبَيَّنْ إلَّا بالمدينةِ. واللهُ أعلمُ[٣].

١٤- إذا كانتْ هذه الآيةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ ...﴾ ممَّا نزَلَ بمكَّةَ ففيها بِشارةٌ بأنَّ أمْرَ المسلمينَ صائرٌ إلى استِقلالٍ وقَترةٍ على أعدائِهم، فيُقاتِلون في سَبيلِ اللهِ، وإنْ كانت مَدَنيَّةً فهو عذْرٌ لهم عن صَلاةِ القيامِ بسَببِ ما ابتَدؤوا فيه مِن السَّرايا والغزَواتِ[٤].

بلاغةُ الآيةِ:

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ

= سِياقُها في هذا المَهْيَعِ، ولَئِنْ سَلَّمْنا، فإنَّ ما تَيسَّر مُجمَلٌ، وقد بَيَّنَه قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «لا صلاةَ لِمَن لم يَقْرَأْ بفاتحةِ الكتابِ». ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٤).

وقد ذهب المالكيَّةُ والشَّافعيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّ قراءةَ الفاتحةِ ركنٌ مِن أركانِ الصَّلاةِ، وفي قراءةِ المأمومِ خلفَ الإمامِ خلافٌ بينهم. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٣٣/ ٤٧، ٥٢).

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٥/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٥).

لإيضاحِ ما أُجمِلَ في أوَّلِ السُّورةِ[١].

- وافتِتاحُ الكلامِ بقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ يُشعِرُ بالثَّناءِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لوَفائِه بحَقِّ القيامِ الَّذي أُمِرَ به، وأنَّه كان يَبسُطُ إليه، ويَهتَمُّ به، ولم يَقتصِرْ على القدْرِ المُعيَّنِ فيه؛ النِّصفِ، أو أنقَصَ منه قليلًا، أو زائدٍ عليه، بلْ أخَذَ بالأقْصى، وذلك ما يَقرُبُ مِن ثُلُثي اللَّيلِ، كما هو شأْنُ أُولي العزْمِ[٢].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ) للاهتمامِ به، وهو كِنايةٌ عن أنَّه أرْضَى ربَّه بذلك، وتَوطئةٌ للتَّخفيفِ الَّذي سيُذكَرُ في قولِه: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّه تَخفيفُ رَحمةٍ وكَرامةٍ، ولإفراغِ بَعضِ الوقتِ مِن النَّهارِ للعمَلِ والجِهادِ[٣].

- وإيثارُ المُضارِعِ في قولِه: ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ ذلك العِلمِ وتَجدُّدِه، وذلك إيذانٌ بأنَّه بمَحلِّ الرِّضا منه، وفي ضِدِّه قولُه: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ﴾ [الأحزاب: ١٨]؛ لأنَّه في مَعرِضِ التَّوبيخِ، أي: لمْ يَزَلْ عالِمًا بذلك حِينًا فحِينًا، لا يَخْفَى عليه منه حِصَّةٌ[٤].

- وإنَّما عُبِّرَ بالأدْنى -وهو الأقربُ- عن الأقلِّ؛ لأنَّ المسافةَ إذا دَنَت بيْنَ الشَّيئينِ قلَّ ما بيْنَهما مِن الأحيازِ، وإذا بعُدَت كثُرَ ذلك[٥].

- وقُرِئَ ﴿ونِصفِه وثُلثِه﴾ بخفْضِهما عطْفًا على ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾، أي: أدْنى مِن

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٩).

نِصفِه، وأدْنى مِن ثُلثِه. وقُرِئَ بنصْبِ ﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾[1]، على أنَّهما مَنصوبانِ على المفعولِ لـ ﴿تَقُومُ﴾، أي: تَقومُ ثُلُثَي اللَّيلِ، وتَقومُ نِصفَ اللَّيلِ، وتَقومُ ثُلثَ اللَّيلِ، بحيث لا يَنقُصُ عن النِّصفِ وعن الثُّلثِ. وهذه أحوالٌ مُختلِفةٌ في قِيامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باللَّيلِ، تابعةٌ لاختلافِ أحوالِ اللَّيالي والأيَّامِ في طُولِ بَعضِها وقِصَرِ بَعضٍ، وكلُّها داخلةٌ تحتَ التَّخييرِ الَّذي خيَّرَه اللهُ في قولِه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ٢] إلى قولِه: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل: ٤]، وبه تَظهَرُ مُناسَبةُ تَعقيبِ هذه الجُملةِ بالجُملةِ المُعترِضةِ، وهي جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: قدْ عَلِمَها اللهُ كلَّها، وأنْبَأَه بها، فلا يَختلِفُ المقصودُ باختلافِ القراءاتِ[2].

- قولُه: ﴿وَطَآئِفَةٞ﴾ عطْفٌ على اسمِ (إنَّ) بالرَّفعِ، وهو وجْهٌ جائزٌ إذا كان بعْدَ ذِكرِ خبَرِ (إنَّ)؛ لأنَّه يُقدَّرُ رفْعُه حِينَئذٍ على الاستِئنافِ، كما في قولِه تعالَى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣]، وهو مِن اللَّطائفِ إذا كان اتِّصافُ الاسمِ والمعطوفِ بالخبَرِ مُختلِفًا؛ فإنَّ بيْنَ قِيامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقِيامِ الطَّائفةِ الَّتي معه تَفاوُتًا في الحكْمِ والمِقدارِ، وكذلك بَراءةُ اللهِ مِن المُشرِكينَ وبَراءةُ رَسولِه؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدْعوهم، ويَقرَأُ عليهم القُرآنَ، ويُعامِلُهم، وأمَّا اللهُ فغاضِبٌ عليهم ولاعِنُهُم، وهذا وجْهُ العُدولِ عن أنْ يقولَ: إنَّ اللهَ يَعلَمُ أنَّكم تَقومون، إلى قولِه: ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾، ثمَّ قولِه: ﴿وَطَآئِفَةٞ ...﴾ إلخ[3].

- وصدْرُ هذه الآيةِ إيماءٌ إلى الثَّناءِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في وَفائِه

(١) يُنظر ما تقدَّم (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨١، ٢٨٢).

بقِيامِ اللَّيلِ حقَّ الوفاءِ، وعلى الطَّائفةِ الَّذين تابَعُوه في ذلك؛ فالخبَرُ بأنَّ اللهَ يَعلَمُ أنَّك تَقومُ مُرادٌ به الكِنايةُ عن الرِّضا عنهم فيما فَعَلوا، والمَقصودُ التَّمهيدُ لقولِه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ، ومِن أجْلِ هذا الاعتبارِ أُعِيدَ فِعلُ (عَلِمَ) في جُملةِ ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ...﴾ إلخ، ولم يقُلْ: (وأنْ سيَكونُ منكم مَرْضى) بالعطْفِ[1].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: ولا يَقدِرُ على تَقديرِ اللَّيلِ والنَّهارِ ومَعرفةِ مَقاديرِ ساعاتِهما إلَّا اللهُ وحْدَه. وتَقديمُ اسمِه تعالَى مُبتدأً مَبنيًّا عليه ﴿يُقَدِّرُ﴾ يُشعِرُ بالاختِصاصِ، ويُؤيِّدُه قولُه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾، أي: لنْ تُحْصوا تَقديرَ الأوقاتِ، ولن تَستطيعوا ضَبْطَ السَّاعاتِ. أو إنَّما استُفِيدَ الاختِصاصُ مِن سِياقِ الكلامِ، لا مِن تَقديمِ المُبتدأِ. أو إفادةُ الاختِصاصِ مِن خُصوصيَّةِ الاسمِ الجامعِ مع التَّركيبِ؛ لِما تَجِدُ التَّفاوُتَ بيْن ما عليه التِّلاوةُ وقولِنا: يُقدِّرُ اللهُ اللَّيلَ[2].

- وجُملةُ ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ خبَرًا ثانيًا عن (إنَّ) بعْدَ الخبَرِ في قولِه: ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ ...﴾ إلخ. ويَجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا بَيانيًّا لِما يَنشَأُ عن جُملةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾؛ مِن تَرقُّبِ السَّامعِ لمَعرفةِ ما مُهِّدَ له بتلكَ الجُملةِ؛ فبعْدَ أنْ شَكَرَهم على عَمَلِهم، خفَّفَ عنْهم منه[3].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿تُحْصُوهُ﴾ وما بَعْدَه مُوجَّهٌ إلى المسلمينَ الَّذين كانوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٠٣، ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٣).

يَقومونَ اللَّيلَ: إمَّا على طَريقةِ الالْتفاتِ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ بعْدَ قولِه: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾. وإمَّا على طَريقةِ العامِّ المُرادِ به الخُصوصُ؛ بقَرينةِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يُظَنُّ تعذُّرُ الإحصاءِ عليه، وبقَرينةِ قولِه: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ إلخ[١].

- وقولُه: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ مُفرَّعٌ على قولِه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾؛ لعدَمِ المُؤاخَذةِ قبْلَ حُصولِ التَّقصيرِ؛ لأنَّ التَّقصيرَ مُتوقَّعٌ، فشابَهَ الحاصلَ، فعُبِّرَ عن عدَمِ التَّكليفِ بما يُتوقَّعُ التَّقصيرُ فيه بفِعلِ (تاب) المُفيدِ رفْعَ المُؤاخَذةِ بالذَّنْبِ بعْدَ حُصولِه[٢].

- ومعنى قولِه: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فصَلُّوا ما تيسَّرَ لكم، لَمَّا كانت الصَّلاةُ لا تَخْلو عن قِراءةِ القُرآنِ، عُبِّر عنها بالقِراءةِ؛ لأنَّها بَعضُ أركانِها؛ فقِيل: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾، أي: صَلُّوا، كقولِه تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، أي: صلاةَ الفَجرِ[٣].

- وفي الكِنايةِ عن الصَّلاةِ بالقُرآنِ جمْعٌ بيْن التَّرغيبِ في القِيامِ، والتَّرغيبِ في تِلاوةِ القُرآنِ فيه بطَريقةِ الإيجازِ[٤].

- قولُه: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استِئنافٌ يُبيِّنُ حِكمةً أُخرى مُقتضيةً للتَّرخيصِ والتَّخفيفِ، وهي تَعذُّرُ القِيامِ على المَرْضى، والضَّاربينَ في الأرضِ للتِّجارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٤).

وللأشغالِ الَّتي تَدْعو إليها ضَرورةُ العَيشِ، والمُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ؛ ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ كُرِّرَ ذلك على سَبيلِ التَّوكيدِ[١].

- أو استِئنافٌ على تَقديرِ السُّؤالِ عن وَجْهِ النَّسخِ وحِكمتِه[٢].

- وهذه الجُملةُ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾، وهذا تَخفيفٌ آخَرُ مِن أجْلِ أحوالٍ أُخرى اقتَضَت التَّخفيفَ[٣].

- وقدْ سوَّى اللهُ بيْن المُجاهِدينَ والمسافِرينَ لكسْبِ الحَلالِ؛ وذلك أنَّه أُعيدَ ذِكْرُ ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، وقُوبِلَ ﴿يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ بقولِه: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ثمَّ جُمِعَا في قولِه: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾، لفْظًا مِن حيثُ الضَّميرُ، وحُكمًا في الأمْرِ بالقراءةِ على سَبيلِ التَّيسيرِ، وكان أصلُ الكلامِ: عَلِمَ أنْ سيَكونُ منْكم مَرْضَى ومُسافِرون، فقَسَمَهم قِسمَين: المُبتغينَ مِن فضْلِ اللهِ والمُجاهِدينَ، ولم يَكتَفِ بذلك، بل قدَّمَ المسافرينَ على المجاهِدينَ[٤].

- وسُمِّيَ السَّيرُ في الأرضِ ضَرْبًا في الأرضِ؛ لتَضمينِ فِعلِ ﴿يَضۡرِبُونَ﴾ معْنى يَسيرون؛ فإنَّ السَّيرَ ضرْبٌ للأرضِ بالرِّجلَين، لكنَّه تُنُوسِيَ منه معْنى الضَّربِ وأُريدَ المشْيُ، فلذلك عُدِّيَ بحرْفِ (فِي)؛ لأنَّ الأرضَ ظرْفٌ للسَّيرِ، كما قال تعالَى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[٥] [آل عمران: ١٣٧].

- وفُرِّعَ على الابتغاءِ مِن فضْلِ اللهِ مِثْلُ ما فُرِّعَ على الَّذي قبْلَه فقال: ﴿فَٱقۡرَءُواْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٠٥، ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، أي: مِن القرآنِ، وقد نِيطَ مِقدارُ القيامِ بالتَّيسيرِ على جَميعِ المسلمينَ وإنِ اختَلَفَت الأعذارُ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ شُبِّهَ إعطاءُ الصَّدقةِ للفَقيرِ بقرْضٍ يُقرِضُه اللهَ؛ لأنَّ اللهَ وَعَدَ على الصَّدقةِ بالثَّوابِ الجزيلِ، فشابَهَ حالُ مُعْطي الصَّدقةِ مُستجيبًا رَغبةَ اللهِ فيه، بحالِ مَن أقرَضَ مُستقرِضًا في أنَّه حَقيقٌ بأنْ يُرجِعَ إليه ما أقْرَضَه، وذلك في الثَّوابِ الَّذي يُعطاهُ يومَ الجَزاءِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ تَذْييلٌ لِما سَبَقَ مِن الأمْرِ في قولِه: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ فإنَّ قولَه: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ يعُمُّ جَميعَ فِعلِ الخيرِ[٣].

- وفي الكلامِ إيجازُ حَذْفٍ، وتَقديرُ المحذوفِ: وافْعَلوا الخيرَ وما تُقدِّمُوا لأنفُسِكم منه تَجِدوه عندَ اللهِ، فاستُغْنِيَ عن المحذوفِ بذِكرِ الجزاءِ على الخيرِ[٤].

- ومعْنى تَقديمِ الخيرِ: فِعلُه في الحياةِ؛ شُبِّهَ فِعلُ الخَيرِ في مُدَّةِ الحياةِ -لرَجاءِ الانتفاعِ بثَوابِه في الحياةِ الآخِرةِ- بتَقديمِ العازمِ على السَّفرِ ثَقَلَه -وهو متاعُ المُسافِرِ وحَشَمُه- وأدواتِه وبَعضَ أهْلِه إلى المحلِّ الَّذي يَرومُ الانتهاءَ إليه؛ ليَجِدَ ما يَنتفِعُ به وقْتَ وُصولِه[٥].

- و﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ بَيانٌ لإبهامِ (ما) الشَّرطيَّةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ومعنى ﴿تَجِدُوهُ﴾ تَجِدوا جَزاءَه وثَوابَه، وهو الَّذي قَصَدَه فاعلُه، فكأنَّه وَجَدَ نفْسَ الَّذي قدَّمَه، وهذا استعمالٌ كَثيرٌ في القرآنِ والسُّنَّةِ؛ أنْ يُعبَّرَ عن عِوَضِ الشَّيءِ وجَزائِه باسمِ المُعوَّضِ عنه والمُجازى به[١].

- وأفاد ضَميرُ الفصْلِ (هو) مُجرَّدَ التَّأكيدِ لتَحقيقِه[٢].

- ويَجوزُ أنْ تكونَ الواوُ في قولِه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ للعطْفِ، فيَكونَ مَعطوفًا على جُملةِ ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم ...﴾ إلخ، فيَكونَ لها حُكمُ التَّذييلِ؛ إرشادًا لتَدارُكِ ما عَسى أنْ يَعرِضَ مِن التَّفريطِ في بَعضِ ما أمَرَه اللهُ بتَقديمِه مِن خَيرٍ؛ فإنَّ ذلك يَشملُ الفرائضَ الَّتي يَقْتضي التَّفريطُ في بَعضِها تَوبةً منه. ويَجوزُ أنْ يكونَ استِئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن التَّرخيصِ في ترْكِ بَعضِ القيامِ؛ إرشادًا مِن اللهِ لِما يَسُدُّ مَسدَّ قِيامِ اللَّيلِ الَّذي يَعرِضُ ترْكُه بأنْ يَستغفِرَ المُسلِمُ ربَّه إذا انتَبَهَ مِن أجزاءِ اللَّيلِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تَعليلٌ للأمرِ بالاستِغفارِ، أي: لأنَّ اللهَ كَثيرُ المغفرةِ، شَديدُ الرَّحمةِ[٤]. والمَقصودُ مِن هذا التَّعليلِ التَّرغيبُ والتَّحريضُ على الاستِغفارِ بأنَّه مَرجوُّ الإجابةِ. فقَرْنُ الحُكْمِ بالعِلَّةِ في مِثْلِ هذا يفيدُ الإقدامَ والنَّشاطَ على استِغفارِ اللهِ عزَّ وجلَّ. وفي الإتيانِ بالوصفَينِ الدَّالَّينِ على المُبالَغةِ في الصِّفةِ إيماءٌ إلى الوعْدِ بالإجابةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣١).

تَفْسيرُ
سُورَةِ المُدَّثِّرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ المُدَّثِّرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (المدَّثِّرِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ المدَّثِّرِ مكيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

الأمرُ بالنُّهوضِ بالدَّعوةِ ومُقَوِّماتِها[٣].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- تكريمُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأمْرُه بتبليغِ رسالةِ الله إلى النَّاسِ.

٢- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِن أذًى، وتهديدُ أعدائِه

---

(١) سُمِّيَت السورةُ بذلك؛ لافتتاحِها بلفظ (المدَّثِّر) في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، وهو وصفٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩١).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٣٤).

(٣) قال البِقاعي: (مقصودُها: الجِدُّ والاجتهادُ في الإنذارِ بدارِ البوارِ لأهلِ الاستكبارِ، وإثباتُ البعثِ في أنفُسِ المكَذِّبينَ الفُجَّارِ، والإشارةُ بالبِشارةِ لأهلِ الادِّكارِ، بحُكمِ العزيزِ الغَفَّارِ). ((مصاعد النظر)) (٣/ ١٣٥).

بأشَدِّ ألوانِ العِقابِ.

٣- بيانُ حُسنِ عاقبةِ المؤمِنينَ، وسوءِ عاقبةِ المكَذِّبينَ.

٤- الرَّدُّ على الكافِرينَ بما يُبطِلُ دعاواهم.

الآيات (١-١٠)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ١٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾: أي: المُشتَمِلُ بثيابِه إذا نام، يقالُ: تدَثَّرَ بالثَّوبِ: إذا اشتَمَل به داخِلًا فيه وتلَفَّف. والدِّثارُ: هو الثَّوبُ الَّذي يُستدفَأُ به مِن فوقِ الشِّعارِ الملاصِقِ للبَدَنِ، وأصلُ (دثر): يدُلُّ على تضاعُفِ شَيءٍ وتَناضُدُه بَعْضِه على بعضٍ[(١)].

﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾: أي: الأوثانَ والأصنامَ، والرِّجزُ: العَذابُ، وسمُّيَت الأوثانُ رجزًا؛ لأنَّها تؤدِّي إلى العَذابِ، والرُّجزُ: اسمٌ للقبيحِ المستقذَر، والرُّجْزُ والرِّجْزُ لغتانِ، وقيل: الرُّجْزُ بالضَّمِّ: الصَّنَمُ، وبالكسرِ: النَّجاسَةُ، والمعصيةُ، والعذابُ[(٢)].

﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾: أي: لا تُعْطِ عَطاءً لِتُعْطَى أكْثَرَ منه، مِن قَولِهم: مَنَّ: إذا أعطى. أو: لا تَمنُنْ بعَمَلِك مُستَكثِرًا له؛ مِنَ المَنِّ: الَّذي هو تعديدُ النِّعمةِ وذِكْرُها. وأصلُ (منن): يدُلُّ على اصطناعِ خَيرٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٨)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١١/ ٢٧٢).
و﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ بتشديد الدَّالِ، وأصْلُه المُتَدَثِّرُ، فأُدغِمَتِ التَّاءُ في الدَّالِ؛ لتَقارُبِ مَخرجَيْهِما. يُنظر: ((مشارق الأنوار على صحاح الآثار)) لعياض (١/ ٢٥٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩، ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

﴿ٱلنَّاقُورِ﴾: أي: الصُّورِ، وأصلُ (نقر): يدُلُّ على قَرعِ شَيءٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

افتتح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بنداءِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نِداءً مِلْؤُه التَّلَطُّفُ والتَّحَبُّبُ إليه، قائلًا له: يا أيُّها الَّذي التَفَّ بالثِّيابِ وضَمَّها عليه؛ خَوفًا وفَزَعًا، قُمْ فحَذِّرِ المُشرِكينَ عَذابَ اللهِ إنْ لم يُوَحِّدوه، وعَظِّمْ رَبَّك ونَزِّهْه عن النَّقائصِ، وطَهِّرْ ثِيابَك مِنَ النَّجاساتِ، ونَفْسَك مِن دَنَسِ الذُّنوبِ، وأعمالَك مِن الشِّركِ والمعاصي، واترُكْ عِبادةَ الأوثانِ، ولا تُعْطِ شَيئًا رجاءَ أن تُعطى أكثَرَ منه، واصبِرْ على ما تَلْقَى مِن أذًى ومَكروهٍ في سبيلِ اللهِ، واصبِرْ على غيرِ ذلك مِن أقدارِ الله المؤلِمةِ، وعلى طاعةِ الله وعن معصيتِه.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى جانبًا مِن أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: فإذا نُفِخَ في الصُّورِ يومَ القيامةِ لِبَعثِ النَّاسِ للحِسابِ، فذلك يَومٌ صَعْبٌ شديدٌ على الكافِرين، غَيرُ سَهلٍ ولا هَيِّنٍ عليهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((جاوَرْتُ بحِراءٍ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيتُ جِواري، نَزَلْتُ فاستَبطَنْتُ بَطْنَ الوادِي، فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ أمامي وخَلفي، وعنْ يَميني، وعنْ شِمالي، فلمْ أرَ أحَدًا، ثُمَّ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٤).

نُودِيتُ فنَظَرْتُ فلمْ أرَ أحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسي، فإذا هو على العَرشِ في الهواءِ -يعني: جِبريلَ عليه السَّلامُ-، فأخَذَتْني رَجْفَةٌ شَديدةٌ! فأتَيتُ خَديجةَ، فَقُلتُ: دَثِّروني، فدَثَّروني، فصَبُّوا علَيَّ ماءً، فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ * قُمۡ فَأَنذِرۡ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر: ١ - ٤]))[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾.

أي: يا أيُّها المتغَطِّي بالثِّيابِ خَوفًا وفَزَعًا[٢].

﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾.

أي: قُمْ فخَوِّفِ المُشرِكينَ وحَذِّرْهم عَذابَ اللهِ إنْ لم يُوَحِّدوه[٣].

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٩٢٤)، ومسلمٌ (١٦١) واللَّفظُ له.

قال القَسْطَلَّاني: (وليس في هذا الحديثِ أنَّ أوَّلَ ما نزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، وإنَّما استخرَج ذلك جابرٌ باجتهادِه وظنِّه فلا يُعارِضُ الحديثَ الصَّحيحَ الصَّريحَ ... أنَّه ﴿ٱقۡرَأۡ﴾). ((إرشاد الساري)) (٧/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٤).

قال الزمخشري: (المُدَّثِّرُ: لابِسُ الدِّثارِ، وهو ما فوقَ الشِّعارِ، وهو الثَّوبُ الَّذي يلي الجسَدَ، ومنه قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «الأنصارُ شِعارٌ، والنَّاسُ دِثارٌ» [البخاري «٤٣٣٠» ومسلم «١٠٦١»]). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٤).

وقال الرازي: (أجمَعوا على أنَّ ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ هو رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٦).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: يا أيُّها المدَّثِّرُ مِن الرُّعبِ لرؤيةِ مَلَكِ الوَحيِ، لا تَخَفْ، وأقبِلْ على الإنذارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٤، ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥).

قال الرازي: (في قولِه: ﴿قُمۡ﴾ وجهان: أحدُهما: قمْ مِن مضجعِك، والثاني: قُمْ قيامَ عزمٍ وتصميمٍ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٧)

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإنذارُ يتضَمَّنُ مواجهةَ النَّاسِ بما يَكرَهون، وذلك عظيمٌ على الإنسانِ، وكان المُفَتِّرُ عن اتِّباع الدَّاعي أحدَ أمْرَين: ترْكَه ما يؤمَرُ به، وطَلَبَه عليه الأجرَ، كما أنَّ الموجِبَ لاتِّباعِه: عمَلُه بما دعا إليه، وبُعدُه عن أخذِ الأجرِ عليه- أمَرَه بتعظيمِ مَن أرسَلَه سُبحانَه؛ فإنَّه إذا عُظِّمَ حَقَّ تعظيمِه، صَغُرَ كُلُّ شيءٍ دونَه، فهان عليه الدُّعاءُ، وكان له مُعينًا على القَبولِ، فقال[1]:

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾.

أي: وعَظِّمْ رَبَّك قَولًا -ومِن ذلك قولُ: الله أكبرُ- واعتقادًا، ومِن ذلك: عِبادتُه وَحْدَه، وتنزيهُه عن النَّقائصِ، ووَصْفُه بصِفاتِ الكَمالِ، ودَعوةُ النَّاسِ إلى توحيدِه وتَعظيمِه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٥، ٢٩٦).

قال ابنُ جُزَي: (﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ أي: عظِّمْه. ويحتَمِلُ أن يريدَ قولَ: اللهُ أكبَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٣٩).

وقال ابن عاشور: (مَعْنَى ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾: صِفْ رَبَّك بصِفاتِ التَّعظيمِ، وهذا يَشمَلُ تَنْزيهَه عن النَّقائصِ، فيَشمَلُ توحيدَه بالإلَهيَّةِ، وتنزيهَه عن الولدِ، ويَشمَلُ وَصْفَه بصفاتِ الكمالِ كُلِّها. ومعْنى «كبِّرْ»: كبِّرْه في اعتِقادِك، وكبِّرْه بقولِك تَسبيحًا وتَعليمًا، ويَشمَلُ هذا المعْنى أنْ يقولَ: «اللهُ أكبَرُ»؛ لأنَّه إذا قال هذه الكلمةَ أفاد وصْفَ اللهِ بأنَّه أكبَرُ مِن كلِّ كبيرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٦).

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان تنزيهُ العبدِ عن الأدناسِ مِن أجْلِ تنزيهِ المعبودِ؛ أمَرَ اللهُ تعالى بتطهيرِ الظَّاهِرِ والباطِنِ[١]، فقال:

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾.

أي: وطَهِّرْ ثِيابَك مِنَ النَّجاساتِ، وطهِّرْ نَفْسَك مِن دَنَسِ الذُّنوبِ، وطهِّرْ أعمالَك مِن الشِّركِ والمعاصي[٢].

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ بمُجانَبةِ القَذَرِ في الثِّيابِ، وجَعَل ذلك كنايةً عن تجنُّبِ الأقذارِ كُلِّها؛ لأنَّ مَن جَنَّب ذلك مَلْبَسَه أبعَدَه عن نَفْسِه مِن بابِ الأَولى- حَقَّق العُمومَ وأكَّده، فقال[٣]:

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾.

أي: واترُكْ عِبادةَ الأوثانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((شرح العمدة- كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ٤٠٤-٤٠٨)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٥٢، ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٢-٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٣، ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بدأ بأحَدِ سَبَبَيِ القَبولِ، أتْبَعَه الثَّانيَ المُبعِدَ عن قاصمةِ العَمَلِ؛ مِن الإعجابِ والرِّياءِ والمَلَلِ، فقال: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾[1]، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

وأيضًا فمُناسَبةُ عطْفِه على الأمرِ بهَجْرِ الرُّجْزِ: أنَّ المَنَّ في العطيَّةِ كَثيرٌ مِن خُلقِ أهلِ الشِّركِ، فلمَّا أمَرَه اللهُ بهَجْرِ الرُّجْزِ نَهاهُ عن أخلاقِ أهلِ الرُّجْزِ[2]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦﴾.

أي: لا تُعْطِ شيئًا رجاءَ أن تُعطَى أكثرَ منه[3].

= (٨/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٨).

قال الواحدي: (قال جماعةُ المفَسِّرينَ: يريدُ: عِبادةَ الأوثانِ فاهجُرْ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٨٠، ٣٨١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٨).

(٣) ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزجاجُ، والسمرقندي، والسمعاني، والواحدي، واستظهره القرطبي، وابن كثير. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٤).

وممَّن نسَب هذا القولَ إلى أكثرِ المفسِّرينَ وجمهورِهم: مكِّيٌّ، والرَّسْعَنيُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٢٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٥٢).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: لا تُعْطِ العَطِيَّةَ تَلتَمِسُ أكثرَ منها. وكذا =

= قال عِكْرِمةُ، ومجاهِدٌ، وعطاءٌ، وطاوُسٌ، وأبو الأحوصِ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وغيرُهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٤).

قال ابنُ جُزَي: (﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ يحتَمِلُ قولُه: ﴿تَمْنُن﴾ أن يكونَ بمعنى العطاءِ، أو بمعنى المَنِّ، وهو ذِكرُ العطاءِ وشِبْهِه، أو بمعنى الضَّعْفِ؛ فإن كان بمعنَى العطاءِ ففيه وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ معناه: لا تُعْطِ شيئًا لتأخُذَ أكثَرَ منه. قال بعضُهم: هذا خاصٌّ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومباحٌ لأُمَّتِه، والآخَرُ: لا تُعْطِ النَّاسَ عطاءً وتَستَكْثِره؛ لأنَّ الكريمَ يَستقِلُّ ما يُعطي وإنْ كان كثيرًا. وإن كان مِن المَنِّ بالشَّيءِ ففيه وجهانِ؛ الأوَّلُ: لا تَمْنُنْ على النَّاس بنُبوَّتِك تَستكثِرُ بأجرٍ أو مَكسَبٍ تَطلُبُه. الثَّاني: لا تمنُنْ على الله بعَمَلِك تستكثِرُ أعمالَك ويقَع لك بها إعجابٌ. وإن كان مِن الضَّعفِ فمعناه: لا تَضعُفْ عن تبليغِ الرِّسالةِ، وتَستكثِرْ ما حمَّلْناك مِن ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٧).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: ولا تَمنُنْ بعمَلِكَ الصَّالحِ فتَستَكْثِرَه على ربِّك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٦).

وقيل: المعنى: لا تَمنُنْ على النَّاسِ بما قدَّمْتَ لهم مِن خيرٍ، وتَعُدَّ ما أعطَيْتَه كثيرًا. ومِمَّن ذهب إليه في الجملةِ: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٨).

قال السعدي: (لا تَمنُنْ على النَّاسِ بما أسدَيْتَ إليهم مِن النِّعَمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، فتَتكثَّرَ بتلكَ المِنَّةِ، وتَرى لك الفضلَ عليهم بإحسانِك المِنَّةَ، بل أحسِنْ إلى النَّاسِ مهما أمكَنَك، وانْسَ عِندَهم إحسانَك، ولا تطلُبْ أجْرَه إلَّا مِن اللهِ تعالى، واجعَلْ مَن أحسَنْتَ إليه وغَيْرَه على حَدٍّ سواءٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥).

وقال الجصَّاصُ: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ وإبراهيمُ ومجاهدٌ وقَتادةُ والضَّحَّاكُ: لا تُعطِ عَطيَّةً لِتُعطَى أكثَرَ منها. وقال الحسَنُ والرَّبيعُ بنُ أنسٍ: لا تَمنُنْ حسَناتِك على الله مُستكثِرًا لها فيَنقُصَك ذلك عندَ الله. وقال آخَرون: لا تَمنُنْ بما أعطاك الله مِن النُّبوَّةِ والقرآنِ مُستكثِرًا به الأجرَ مِن النَّاسِ. وعن مُجاهِدٍ أيضًا: لا تَضعُفْ في عمَلِك مُستكثِرًا لطاعتِك.

وقال أبو بكرٍ [الجصَّاص]: هذه المعاني كلُّها يَحتمِلُها اللَّفظُ، وجائزٌ أن يكونَ جميعُها مرادًا به، فالوجهُ حمْلُه على العُمومِ في سائرِ وُجوهِ الاحتمالِ). ((أحكام القرآن)) (٥/ ٣٦٨).

وقال ابن العربي: (المَنُّ... يُطلَقُ على معنيَينِ؛ أحدُهما: العطاءُ.

والثَّاني: التَّعدادُ على المُنعَمِ عليه بالنِّعَمِ... والآيةُ تَتناوَلُ المعنيَينِ كِلَيْهِما). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٤٣).

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإنذارُ شديدًا على النُّفوسِ يَحصُلُ به مِن المعالَجاتِ ما الموتُ دونَه؛ لأنَّ تَرْكَ المألوفاتِ أصعَبُ شَيءٍ على النُّفوسِ، وكذا تركُ العوائِدِ- قال آمِرًا بالتَّحَلِّي بالعاصِمِ بعدَ التَّخَلِّي عن القاصِمِ، مُعْلِمًا بأنَّ الأذَى مِن المُنذَرِينَ أمرٌ لا بدَّ منه، فيَدخُلُ في الطَّاعةِ على بصيرةٍ[1]:

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾.

أي: واصبِرْ مِن أجْلِ رَبِّك وَحْدَه على ما تَلْقَى مِن أذًى ومَكروهٍ في سبيلِ دَعوةِ الخَلْقِ إلى اللهِ تعالى، وتبليغِ رِسالتِه، واصبِرْ على غيرِ ذلك مِن أقدارِ الله المؤلِمةِ، وعلى طاعةِ الله وعن معصيتِه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٩، ٣٠٠).

ومِمَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ أمرُه بالصَّبرِ على الأذى والمكروهِ مِنَ المُشرِكينَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٩).

وقيل: المعنى: اصبِرْ لرَبِّك على طاعتِه، وأداءِ فرائِضِه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٩).

ومِمَّن ذهب إلى العُموم: ابنُ عطيَّةَ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥).

قال ابنُ عطية: (﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ أي: لوَجهِ رَبِّك وطَلَبِ رِضاه، كما تقولُ: فعَلْتُ للهِ تعالى، والمعنى: على الأذى مِن الكُفَّارِ، وعلى العبادةِ، وعن الشَّهَواتِ، وعلى تكاليفِ النُّبُوَّةِ). =

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا تَمَّمَ ما يتعَلَّقُ بإرشادِ قُدوةِ الأنبياءِ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ عَدَل عنه إلى شَرحِ وَعيدِ الأشقياءِ(١)، فقال:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾.

أي: فإذا نُفِخَ في الصُّورِ يومَ القيامةِ لِبَعثِ النَّاسِ أحياءً مِن قُبورِهم للحِسابِ والجَزاءِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

= ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٣).

وقال السعدي: (﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أي: احتَسِبْ بصَبْرِك، واقصِدْ به وَجْهَ اللهِ تعالى، فامتَثَلَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لأمرِ رَبِّه، وبادَرَ إليه، فأنذَرَ النَّاسَ، وأوضَحَ لهم بالآياتِ البيِّناتِ جميعَ المطالِبِ الإلهيَّةِ، وعَظَّم اللهَ تعالى، ودعا الخَلْقَ إلى تعظيمِه، وطهَّر أعمالَه الظَّاهِرةَ والباطِنةَ مِن كُلِّ سُوءٍ، وهَجَر كُلَّ ما يُبعِدُ عن اللهِ مِن الأصنامِ وأهلِها، والشَّرِّ وأهلِه، وله المِنَّةُ على النَّاسِ، بَعْدَ مِنَّةِ اللهِ تعالى، مِن غيرِ أن يَطلُبَ منهم على ذلك جزاءً ولا شُكورًا، وصَبَر للهِ أكمَلَ صَبرٍ؛ فصَبَرَ على طاعةِ اللهِ، وعن معاصي اللهِ، وعلى أقدارِ اللهِ المؤلِمةِ، حتَّى فاق أُولي العَزمِ مِنَ المُرسَلينَ، صلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه وعليهم أجمَعينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥، ٨٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

قال النيسابوري: (النَّاقورُ ما يُنقَرُ به، وهو الصُّورُ باتِّفاقِ المفَسِّرينَ، فكأنَّه آلةُ النَّقْرِ، أي: النَّفخِ). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (النَّاقورُ: البُوقُ الَّذي يُنادَى به الجَيشُ، ويُسَمَّى الصُّورَ، وهو قَرنٌ كبيرٌ أو شِبْهُه يَنفُخُ فيه النَّافِخُ لنداءِ ناسٍ يَجتَمِعونَ إليه مِن جيشٍ ونحوِه... قَولُه: ﴿نُقِرَ﴾ أي: صُوِّتَ، أي: صوَّتَ مُصَوِّتٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٠، ٣٠١).

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨].

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾.

أي: فذلك يَومٌ صَعْبٌ شديدٌ، بالغُ العُسْرِ، عظيمُ الأهوالِ[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَجمَعُ اللهُ النَّاسَ الأوَّلِينَ والآخِرينَ في صعيدٍ واحدٍ، يُسمِعُهم الدَّاعي، ويَنفُذُهم البَصَرُ، وتَدْنو الشَّمسُ، فيَبلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ والكَرْبِ ما لا يُطيقونَ، ولا يَحتَمِلونَ))[٢].

﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

أي: وهو يومٌ شديدٌ على الكافِرينَ باللهِ ورُسُلِه، غَيرُ سَهلٍ ولا هَيِّنٍ عليهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٧، ٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- اللهُ سُبحانَه وتعالى خاطَبَ الأنبياءَ بأسمائِهم، فقال ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١، ١٢]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ولَمَّا خاطَبَ نبيَّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [التحريم: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

(٢) رواه البخاري (٤٧١٢) واللَّفظُ له، ومسلم (١٩٤).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥).

[المائدة: ٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، فنحن أحقُّ أن نتأدَّبَ في دُعائِه وخِطابِه صلَّى الله عليه وسلَّم.

وأمَّا إذا كان في مقامِ الإخبارِ عنه، قُلْنا: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وقُلْنا: محمَّدٌ رَسولُ اللهِ وخاتَمُ النَّبيِّينَ، فنُخبِرُ عنه باسمِه كما أخبَرَ اللهُ سُبحانَه لَمَّا أخبَرَ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ [محمد: ٢]، فالفَرقُ بيْن مَقامِ المُخاطَبةِ ومَقامِ الإخبارِ فَرقٌ ثابتٌ بالشَّرعِ والعقلِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۞ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ أنَّه واجِبٌ على الأُمَّةِ أنْ يُبَلِّغوا ما أُنْزِلَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُنْذِروا كما أنْذَرَ(٢).

٣- الآمِرُ بالمعروفِ والنَّاهي عن المنكرِ يجبُ أنْ يكونَ حليمًا صبورًا على الأذَى؛ فإنَّه لا بدَّ أنْ يحصُلَ له أذًى؛ فإنْ لم يحلمْ ويصبرْ كان ما يُفسِدُ أكثرَ ممَّا يُصلِحُ، ولهذا أمَر الله الرُّسلَ -وهم أئمةُ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكرِ- بالصبرِ، بل قرَنه بتبليغِ الرِّسالةِ، كقولِه لخاتمِ الرُّسلِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۞ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ إلى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ فافتتَحَ آياتِ الإرسالِ إلى الخَلْقِ بالأمرِ بالنِّذارةِ، وخَتَمَها بالأمرِ بالصَّبرِ، ونَفْسُ الإنذارِ أمرٌ بالمعروفِ ونهيٌ عنِ المُنكَرِ؛ فعُلِمَ أنَّه يجبُ بعدَ ذلك الصَّبرُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٣٧).

٤- قولُه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فيه الأمرُ بالتَّطَهُّرِ الحِسِّيِّ والمعنويِّ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ يدُلُّ على وُجوبِ الاحترازِ عن كُلِّ المعاصي -وذلك بناءً على أنَّ الرجزَ هو العذابُ-، وعلى أنَّه اسمٌ للقبيحِ فهو كلامٌ جامعٌ في مكارمِ الأخلاقِ؛ كأنَّه قيل له: اهجُرْ كلَّ شيءٍ قبيحٍ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ نَهْيُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن دَناءاتِ الأخلاقِ والمطامعِ، وقد حَثَّ اللهُ تعالى على التَّأسِّي برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تأسِّيًا عامًّا في قَولِه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٣] [الأحزاب: ٢١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ هذه سِتُّ وصايا أوصى اللهُ بها رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مبدأِ رِسالتِه، وهي مِن جوامِعِ القُرآنِ، أراد اللهُ بها تزكيةَ رَسولِه، وجعلَه قُدوةً لأمَّتِه[٤]. ونبَّه الله تعالى في هذه الآياتِ على حالِ رسولِه وكمالِه، وإتمامِ نعمةِ الله عليه، وكم بينَ ابتداءِ أمرِه وانزعاجِه مِن الوحيِ، وتدثُّرِه مِن شدَّةِ ما لقِي، وبينَ آخرِ أمرِه حينَ أتمَّ الله أمورَه كلَّها؛ ولهذا أمرَه بتكميلِ نفسِه وتكميلِ غيرِه، وأرشَده إلى ما ينالُ به ذلك: وهو القيامُ التامُّ على وجهِ النَّشاطِ والتَّعظيمِ لربِّه، وتكبيرُه في باطنِه، وتطهيرُ أعمالِه وثيابِه الظَّاهرةِ، وتركُ كلِّ شرٍّ ودَنَسٍ، واستعمالُ رُوحِ الأعمالِ، وهو الإخلاصُ في كلِّ شيءٍ، حتى في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٦١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٠).

العطاءِ، فلهذا قال: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾، ثمَّ أرشَده إلى ما يُعينُه على كلِّ الأمورِ، وهو الصبرُ لوجهِ الله، فقال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾، ثمَّ تكفَّل له بحفظِه مِن الأعداءِ، وحفظِ ما جاء به، بتوعُّدِهم بالعذابِ، خصوصًا لأكبرِهم عنادًا وأعظمِهم عداوةً، وهذا تمامُ النِّعمةِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قيل: إنَّ أوَّلَ ما أُنزِلَ مِنَ القُرآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ وقد رُوِيَ ذلك عن جابرِ ابنِ عبدِ الله رضيَ الله عنهما[٢]، والأصحُّ أنَّ أوَّلَ ما أُنزِلَ مِنَ القُرآنِ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، وهو قولُ جماهيرِ العُلَماءِ؛ فإنَّ حديثَ عائِشةَ رضيَ الله عنها الَّذي في الصَّحيحَينِ[٣] يُبَيِّنُ أنَّ أوَّلَ ما نَزَل: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، نزَلَت عليه وهو في غارِ حِراءٍ، وأنَّ (المُدَّثِّرَ) نزلت بَعْدُ. وهذا هو الَّذي يَنبغي؛ فإنَّ قَولَه: ﴿ٱقْرَأْ﴾ أمرٌ بالقراءةِ، لا بتبليغِ الرِّسالةِ، وبذلك صار نَبيًّا، وقَولَه: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أمرٌ بالإنذارِ، وبذلك صار رسولًا مُنذِرًا[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ جُعِلَت هذه الكلمةُ (اللهُ أكبَرُ) افتتاحًا للصَّلاةِ، ولعلَّ في ذِكرِ التَّكبيرِ إيماءً إلى شَرعِ الصَّلاةِ الَّتي أوَّلُها التَّكبيرُ، وخاصَّةً اقترانُه بقولِه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾؛ فإنَّه إيماءٌ إلى شَرعِ الطَّهارةِ؛ فلعَلَّ ذلك إعدادٌ

---

(١) يُنظر: ((المواهب الربانية)) للسعدي (ص: ١٥، ١٦)، ويُنظر أيضًا: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٢٤)، ومسلم (١٦١).

والمرادُ بالأوَّليَّةِ فيما رُوِيَ عن جابرٍ رضيَ الله عنه أوَّليَّةٌ مخصوصةٌ بما بعدَ فَترةِ الوحيِ، أو مخصوصةٌ بالأمرِ بالإنذارِ، لا أنَّ المرادَ أنَّها أوَّليَّةٌ مُطلَقةٌ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٥٤).

لشَرعِ الصَّلاةِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أمرٌ بتطهيرِ الثِّيابِ مِنَ النَّجاساتِ، ويَقبُحُ أن تكونَ ثيابُ المؤمِنِ نَجِسةً[٢]. ففيه وُجوبُ غَسلِ النَّجاسةِ، وإزالتِها مِن الثَّوبِ[٣].

٤- على القولِ بأنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ هو أنْ تُهْدِيَ لِيُهْدَى إليك أكثرَ مِن هَديَّتِك فهذا يدُلُّ على أنَّ صُوَرَ العُقودِ غيرُ كافيةٍ في حِلِّها وحُصولِ أحكامِها إلَّا إذا لم يَقصِدْ بها قَصْدًا فاسِدًا، وكلُّ ما لو شَرَطَه في العقدِ كان عِوَضًا فاسدًا فقَصْدُه فاسِدٌ؛ لأنَّه لو كان صالِحًا لم يَحْرُمِ اشْتِراطُه[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ تثبيتٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على تحَمُّلِ ما يَلْقاه مِن أذى المُشرِكينَ، وعلى مَشاقِّ الدَّعوةِ[٥].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ فيه بِشارةٌ للمُؤمِنينَ كبيرةٌ؛ إذْ لا يكونُ ذلك اليَومُ على الكافِرينَ غيرَ يَسيرٍ إلَّا وهو على المؤمِنينَ يسيرٌ[٦]. قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: (لَمَّا قال: إنَّه غيرُ يَسيرٍ على الكافِرينَ، كان يسيرًا على المؤمِنينَ)، فبَعضُ مَن قال بدليلِ الخِطابِ[٧] قال: لولا أنَّ دَليلَ الخِطابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٧٧). ويُنظر أيضًا: ((الأم)) للشافعي (١/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٩).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٣٦).

(٧) دَليلُ الخِطابِ -أو مفهومُ المُخالَفةِ-: هو ما يُفهَمُ مِن الكلامِ بطَريقِ الالْتزامِ. وقيل: هو أنْ يَثبُتَ الحُكمُ في المسكوتِ على خِلافِ ما ثبَتَ في المنطوقِ، ومِنه الاحتِجاجُ بقولِه تعالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] على رُؤيةِ المُؤمِنين لربِّهم يومَ القِيامةِ، وهو احتِجاجٌ =

حُجَّةٌ وإلَّا لَمَا فَهِمَ ابنُ عبَّاسٍ مِن كَونِه غيرَ يَسيرٍ على الكافِرِ: كَونَه يَسيرًا على المؤمِنِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾

- النِّداءُ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ نِداءُ تَكرمةٍ وتَلطُّفٍ[٢].

- قوله: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ قيل: القِيامُ المأمورُ به هنا مُستعمَلٌ في الأمْرِ بالمُبادَرةِ والإقبالِ والتَّهمُّمِ بالإنذارِ كِنايةً، واستعمالُ فِعلِ القِيامِ في معنَى الشروعِ قدْ يكونُ كِنايةً عن لازمِ القِيامِ مِن العَزمِ والتَّهمُّمِ، أي: قُمْ قِيامَ عَزْمٍ وَتصميمٍ فحَذِّرْ مِن عذابِ اللهِ مَن لم يُؤمنوا، وقدْ يُرادُ المعنى الصَّريحُ مع المعنَى الكنائيِّ[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ ابتُدِئَ بالأمْرِ بالإنْذارِ؛ لأنَّ الإنذارَ يَجمَعُ مَعانيَ التَّحذيرِ مِن فِعلِ شَيءٍ لا يَليقُ وعَواقبِه، فالإنذارُ حَقيقٌ بالتَّقديمِ قبْلَ الأمرِ بمَحامدِ الفِعالِ؛ لأنَّ التَّخليةَ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ، ودَرْءَ المَفاسدِ مُقدَّمٌ على جلْبِ المصالحِ، ولأنَّ غالبَ أحوالِ النَّاسِ يَومَئذٍ مُحتاجةٌ إلى الإنذارِ

= مِن جِهةِ دَليلِ الخِطابِ، وإلَّا فلو حُجِبَ الكلُّ لَما أغْنَى هذا التَّخصيصُ؛ قال الشَّافعيُّ: (لَمَّا حَجَب قومًا بالسَّخَطِ، دلَّ على أنَّ قومًا يَرَوْنَه بالرِّضا). يُنظر: ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٩)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٤).

والتَّحذيرِ[١].

- وأفادتْ فاءُ ﴿فَأَنذِرْ﴾ تَعقيبَ إفادةِ التَّحفُّزِ والشُّروعِ بالأمرِ بإيقاعِ الإنذارِ، ففِعلُ ﴿قُمْ﴾ مُنزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازمِ، وتَفريعُ ﴿فَأَنذِرْ﴾ عليه يُبيِّنُ المرادَ مِن الأمرِ بالقِيامِ[٢].

- ومَفعولُ (أنذِرْ) مَحذوفٌ؛ لإفادةِ العُمومِ، أي: أنذِرِ النَّاسَ كلَّهم، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨]، أو المفعولُ مُقدَّرٌ بمَفعولٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[٣] [الشعراء: ٢١٤].

- واقتَصر على الإنذارِ هنا معَ أنَّه أيضًا بُعِث مُبشِّرًا؛ لأنَّ ذلك كان أوَّلَ الإسلامِ، فمتعلَّقُ الإنذارِ محقَّقٌ، فلمَّا أطاعَ مَن أطاعَ نزَلتْ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[٤] [الأحزاب: ٤٥] [الفتح: ٨].

- قولُه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ انتَصَب (ربَّك) على المفعوليَّةِ للفِعلِ (كبِّرْ)، وقُدِّمَ على عامِلِه لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: لا تُكبِّرْ غيرَه، وهو قصْرُ إفرادٍ، أي: دونَ الأصنامِ[٥].

- قولُه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ دخَلَت الفاءُ على (كبِّر) إيذانًا بشَرْطٍ مَحذوفٍ يكونُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٥).

(كبِّر) جَوابَه، وهو شرْطٌ عامٌّ؛ إذ لا دَليلَ على شَرطٍ مَخصوصٍ، وهُيِّئَ لتَقديرِ الشَّرطِ بتَقديمِ المفعولِ؛ لأنَّ تَقديمَ المعمولَ قدْ يُنزَّلُ مَنزلةَ الشَّرطِ، فالتَّقديرُ: مهْما يكُنْ شَيءٌ فكبِّرْ ربَّك، والمعْنى: ألَّا يَفتُرَ عن الإعلانِ بتَعظيمِ اللهِ وتَوحيدِه في كلِّ زمانٍ وكلِّ حالٍ، وهذا مِن الإيجازِ. أوْ للدَّلالةِ على أنَّ المقصودَ الأوَّلَ مِن الأمرِ بالقيامِ أنْ يُكبِّرَ رَبَّه، ويُنزِّهَه مِن الشِّركِ[١].

- قولُه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ دخَلَتِ الفاءُ على (طَهِّر) إيذانًا بشَرْطٍ مَحذوفٍ يكونُ (طهِّر) جَوابَه، وهو شرْطٌ عامٌّ؛ إذ لا دَليلَ على شَرطٍ مَخصوصٍ، وهُيِّئَ لتَقديرِ الشَّرطِ بتَقديمِ المفعولِ؛ لأنَّ تَقديمَ المعمولِ قدْ يُنزَّلُ مَنزلةَ الشَّرطِ، فالتَّقديرُ: مهْما يكُنْ شَيءٌ فلا تَترُكْ تَطهيرَ ثِيابَك[٢].

- قولُه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ للثِّيابِ إطلاقٌ صَريحٌ، وهو ما يَلبَسُه اللَّابسُ، وإطلاقٌ كِنائيٌّ، فيُكنَّى بالثِّيابِ عن ذاتِ صاحبِها وقلْبِه، وللتَّطهيرِ إطلاقٌ بمعْنى التَّنظيفِ وإزالةِ النَّجاساتِ، وإطلاقٌ بمعْنى التَّزكيةِ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، والمَعنيانِ صالحانِ في الآيةِ، فتُحمَلُ عليهما معًا، فتَحصَّلُ أربعةُ مَعانٍ؛ لأنَّه مَأمورٌ بالطَّهارةِ الحقيقيَّةِ لثِيابِه؛ إبطالًا لِما كان عليه أهلُ الجاهليَّةِ مِن عدَمِ الاكتراثِ بذلك، والطَّهارةُ لجسَدِه بالأَولى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٨٦).

وقيل: هو كِنايةٌ عن طَهارةِ العَملِ، والمعنى: وعمَلَك فأصْلِحْ؛ فالرَّجلُ إذا كان خَبيثَ العَملِ قالوا: فلانٌ خَبيثُ الثِّيابِ، وإذا كان حَسَنَ العَملِ قالوا: فلانٌ طاهرُ الثِّيابِ. وقيل: كنَّى بالثيابِ عن الجسْمِ. وقيل: هي كِنايةٌ عن الأهْلِ؛ قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، والتَّطهُّرُ فيهنَّ اختيارُ المؤمناتِ العَفائفِ. وقيل: ووَطْؤهنَّ في القُبلِ لا في الدُّبرِ، في الطُّهرِ لا في الحَيضِ. وقيل: كِنايةٌ عن الخُلُقِ، أي: وخُلقَك فحسِّنْ[١].

- وتَقديمُ (ثِيَابَكَ) على فِعلِ (طهِّرْ)؛ للاهتمامِ به في الأمرِ بالتَّطهيرِ[٢].

- قولُه: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فيه تَقديمُ الرُّجْزِ على فِعلِ (اهجُرْ)؛ للاهتمامِ في مَهْيعِ الأمرِ بتَرْكِه[٣].

- والهَجرُ هنا كِنايةٌ عن تَرْكِ التَّلبُّسِ بالأحوالِ الخاصَّةِ بأنواعِ الرُّجْزِ لكلِّ نوعٍ بما يُناسِبُه في عُرفِ النَّاسِ، والأمرُ بهَجرِ الرُّجزِ يَستلزِمُ ألَّا يَعبُدَ الأصنامَ، وأنْ يَنفِيَ عنها الإلهيَّةَ[٤].

- وأيضًا الأمرُ في قولِه: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ مُستعمَلٌ في معْنى الثَّباتِ والدَّوامِ على هجْرِ الرُّجزِ؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان بَريئًا منه[٥].

- وكذلك في قولِه: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ دخَلَت الفاءُ على (اهْجُرْ) إيذانًا بشَرْطٍ مَحذوفٍ يكونُ (اهْجُرْ) جَوابَه، وهو شرْطٌ عامٌّ؛ إذ لا دَليلَ على شَرطٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٤).

مَخصوصٍ، وهُيِّئَ لتَقديرِ الشَّرطِ بتَقديمِ المفعولِ؛ لأنَّ تَقديمَ المعمولِ قدْ يُنزَّلُ مَنزِلةَ الشَّرطِ، فالتَّقديرُ: مَهْما يكُنْ شَيءٌ فاهْجُرِ الرُّجزَ[١].

- قولُه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ قيل: لمَّا أمَرَه اللهُ بهَجْرِ الرُّجْزِ نَهاهُ عن أخلاقِ أهلِ الرُّجْزِ نَهْيًا يَقْتضي الأمرَ بالصَّدقةِ، والإكثارَ منها بطَريقِ الكِنايةِ، فكأنَّه قال: وتَصدَّقْ وأكثِرْ مِن الصَّدقةِ ولا تَمنُنْ، ففي هذه الآيةِ إيماءٌ إلى التَّصدُّقِ، كما كان فيها ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ إيماءٌ إلى الصَّلاةِ، ومِن عادةِ القُرآنِ الجمْعُ بيْن الصَّلاةِ والزَّكاةِ، والسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ للعَدِّ، أي: بعَدِّ ما أعطَيْتَه كثيرًا -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهذا مِن بَديعِ التَّأكيدِ لحُصولِ المأمورِ به جُعِلَت الصَّدقةُ كالحاصلةِ، أي: لأنَّها مِن خُلُقِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ كان أجوَدَ النَّاسِ، وقد عُرِفَ بذلك مِن قَبلِ رِسالتِه؛ لأنَّ اللهَ هيَّأه لمَكارِمِ الأخلاقِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ الاستِكثارُ: عَدُّ الشَّيءِ كثيرًا، أي: لا تَستعظِمْ ما تُعطِيه -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهذا النَّهيُ يُفيدُ تَعميمَ كلِّ استكثارٍ كيْفما كان ما يُعطِيه مِن الكثرةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ فيه تَقديمُ ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ على (اصبِرْ)؛ للاهتمامِ بالأُمورِ الَّتي يُصبَرُ مِن أجْلِها، مع الرِّعايةِ على الفاصلةِ[٤].

- وفِعلُ الصَّبرِ يُعدَّى إلى اسمِ الَّذي يَتحمَّلُه الصَّابرُ بحرْفِ (على)، يُقالُ: صبَرَ على الأذى، ويَتضمَّنُ معْنى الخُضوعِ للشَّيءِ الشَّاقِّ، فيُعدَّى إلى اسمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٦، ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٩٨، ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٩٩، ٣٠٠).

ما يَتحمَّلُه الصَّابرُ باللَّام، ومُناسَبةُ المقامِ تُرجِّحُ إحْدى التَّعديتَين، فلا يُقالُ: اصبرْ على اللهِ، ويُقالُ: اصبرْ على حُكمِ اللهِ، أو لحُكْمِ اللهِ، فيجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ في قولِه: (لِرَبِّكَ) لتَعديةِ فِعلِ الصَّبرِ على تَقديرِ مُضافٍ، أي: اصبرْ لأمْرِ اللهِ وتَكاليفِ وَحْيِه، وهذا يُناسِبُ نِداءَه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]؛ لأنَّه تَدثَّرَ مِن شِدَّةِ وَقْعِ رُؤيةِ المَلَكِ، وتَرْكُ ذِكرِ المُضافِ لتَذهَبَ النَّفْسُ إلى كلِّ ما هو مِن شأْنِ المُضافِ إليه ممَّا يَتعلَّقُ بالمُخاطَبِ. ويجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ في (لِرَبِّكَ) للتَّعليلِ، وحُذِفَ مُتعلَّقُ فِعلِ الصَّبرِ، أي: اصبرْ مِن أجْلِ ربِّك على كلِّ ما يَشُقُّ عليك[١]. ويجوزُ أن يُضَمَّنَ (اصْبِرْ) معنى: أذْعِنْ لربِّك، وسَلِّمْ له أمْرَك صابرًا[٢].

- وأُطلِقَ الصَّبرُ، وتُرِك ذِكرُ المصبورِ عليه والمصبورِ عنه؛ للعِلمِ بهما، ولِيَتناوَلَ كلَّ مصبورٍ عليه ومَصبورٍ عنه، ويَدخُلُ فيه الصَّبرُ على أذَى المشرِكينَ؛ لأنَّه فردٌ مِن أفرادِ العامِّ، لا لأنَّه وحْدَه هو المرادُ[٣].

- وفي التَّعبيرِ عن اللهِ بوَصْفِ (ربِّك) إيماءٌ إلى أنَّ هذا الصَّبرَ برٌّ بالمَولَى، وطاعةٌ له[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾

- الفاءُ في ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ للتَّسبيبِ، كأنَّه قال: اصبرْ على أذاهُم؛ فبيْنَ أيدِيهم يومٌ عَسيرٌ يَلْقَون فيه عاقبةَ أذاهُم، وتَلْقى فيه عاقبةَ صَبرِك عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٩، ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٥، ١٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ الفاءُ في ﴿ فَذَٰلِكَ ﴾ لجزاءِ (إذا)؛ لأنَّ (إذا) يَتضمَّنُ معْنى شَرطٍ، والشَّرطُ والجزاءُ إذا اتَّحَدا معنًى دلَّ على فَخامةِ الجَزاءِ، وكان الجزاءُ مُتضمِّنًا للإخبارِ أو التَّوبيخِ، وهاهنا المشارُ إليه بقولِه: ﴿ فَذَٰلِكَ ﴾ -الَّذي هو الجزاءُ- نفْسُ الشَّرطِ -الَّذي هو وقْتُ النَّقرِ-، وانضَمَّ معه تَكريرُ ﴿يَوْمَئِذٍ ﴾ و﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾؛ فدلَّ على التَّنبيهِ على الخطْبِ الجَليلِ، والأمْرِ العظيمِ[1].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ فَذَٰلِكَ ﴾ مِن معْنى البُعدِ -مع قُربِ العهدِ بالمُشارِ إليه-؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِه في الهَولِ والفَظاعةِ[2].

- وفائدةُ قولِه ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ -مع أنَّ الظاهرَ أنَّ قولَه: ﴿عَسِيرٌ ﴾ مُغْنٍ عنه-: أنَّه لَمَّا قال: ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فخَصَّصَ إيقاعَ ذِكرِ العُسرِ عليهم، قال: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾؛ ليُؤذِنَ بأنَّه لا يكونُ عليهم كما يكونُ على المؤمِنينَ يَسيرًا هيِّنًا؛ ليَجمَعَ بيْن وَعيدِ الكافِرين، وزيادةِ غَيظِهم، وبِشارةِ المؤمِنينَ وتَسليتِهم. ويَجوزُ أنْ يُرادَ أنَّه عَسيرٌ لا يُرْجى أنْ يَرجِعَ يَسيرًا، كما يُرْجى تَيسيرُ العَسيرِ مِن أُمورِ الدُّنيا[3].

- وأيضًا لَمَّا كان العُسرُ قد يُطلَقُ على الشَّيءِ، وفيه يُسْرٌ مِن بَعضِ الجِهاتِ،

= حيان)) (١٠/ ٣٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠١، ٣٠٢).

أو يُعالَجُ فيَرجِعُ يَسيرًا، بيَّن أنَّه ليس كذلك بقولِه: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾، فجَمَع فيه بيْنَ إثباتِ الشَّيءِ، ونفْيِ ضدِّه؛ تَحقيقًا لأمْرِه، ودفعًا للمَجازِ عنه، وتَأييدًا لكونِه غيرَ مُنقطِعٍ بوجْهٍ، وتَقييدُه بالكافِرينَ يُشعِرُ بتَيسُّرِه على المؤمنينَ[1].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٧).

الآيات (١١-٢٠)

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّمْدُودًا﴾: أي: كثيرًا مَبْسوطًا، وأصلُ (مدد): يدُلُّ على جَرِّ شيءٍ في طولٍ، واتِّصالِ شَيءٍ بشَيءٍ في اسْتِطالةٍ[(١)].

﴿شُهُودًا﴾: أي: حُضورًا، لا يَغيبونَ عنه، وأصلُ (شهد): يدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعلامٍ[(٢)].

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾: أي: بَسَطْتُ له في العيشِ بَسْطًا، يُقالُ: مَهَّدْتُ لك كذا: هيَّأْتُه وسوَّيْتُه، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على تَوْطِئَةٍ وتَسْهيلٍ للشَّيءِ[(٣)].

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾: أي: سأُحَمِّلُه مَشَقَّةً شديدةً مِنَ العَذابِ، والإرهاقُ: أن

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ١٠٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٥).

يُحمَلَ الإنسانُ على الشَّيءِ لا يُطيقُه، يُقالُ: فلانٌ رَهِقَه الأمرُ يَرهَقُه: إذا حَلَّ به بقَهرٍ ومَشَقَّةٍ لا قُدرةَ له على دَفْعِه، والصَّعودُ: العَقَبةُ الشَّاقَّةُ، مِن قَولِهم: عَقَبةٌ صَعودٌ وكَؤُودٌ، أي: شاقَّةُ المَصعَدِ، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشْيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ، وأصلُ (صعد): يدُلُّ على ارتفاعٍ ومَشقَّةٍ[١].

﴿فَقُتِلَ﴾: أي: لُعِنَ وأُهلِكَ، وأصلُ (قتل): يدُلُّ على إذلالٍ وإماتةٍ[٢].

﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾: أي: قَطَّبَ وَجْهَه، وقَبَضَ ما بيْنَ عينَيه، واسوَدَّ وَجْهُه، ونَظَر بكراهيةٍ شَديدةٍ كالمُهْتَمِّ المتفكِّرِ في شَيءٍ، والعُبُوسُ: تَقطُّبُ الوَجهِ عندَ كراهيةِ أمرٍ، وأصلُ (عبس): يدُلُّ عَلَى تَكَرُّهٍ، والبُسُورُ: أشَدُّ العُبوسِ، وهو هَيئةٌ في الوَجهِ تدُلُّ على تحَزُّنٍ في القَلبِ، يُقالُ: وَجْهٌ باسِرٌ: إذا تَغَيَّرَ[٣].

﴿يُؤْثَرُ﴾: أي: يأثُرُه عن غيرِه، ويَرويه عنه، وأصلُه مِن قولِهم: أَثَرْتُ الحديثَ أثرًا، إذا حدَّثْتَ به عن قَومٍ في آثارِهم، أي: بعدَ ما ماتوا. ثمَّ صار بمعنَى الرِّوايةِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩١، ٤٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١) و(٣/ ٢٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٩).

قال الواحدي: (قال ابن الأنباري: والقَتلُ إذا أُخبِرَ عن اللهِ به كان بمعنى اللَّعنةِ؛ لأنَّ مَن لعَنَه الله كان بمنزلةِ المقتولِ الهالكِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٧٤). ويُنظر: ((الزاهر الزاهر في معاني كلمات الناس)) لابن الأنباري (١/ ٢٩٣).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ من سورةِ الذَّاريات (٣٥/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٥، ٤٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٤).

عمَّن كان، والإخبارِ، وأصلُ (أثر) هنا: ذِكْرُ الشَّيءِ[١].

﴿سَأُصْلِيهِ﴾: أي: سَأُورِدُه، وأُدخِلُه، يُقالُ: صَلِيَ النَّارَ وصَلِيَ بها صُلِيًّا، وصِلِيًّا، وصلَّى: دخَلها وقاسَى حَرَّها وشِدَّتَها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّارِ[٢].

﴿سَقَرَ﴾: أي: جَهنَّمَ، وهي عَلَمٌ مُشتَقٌّ مِنَ السَّقْرِ: وهو التِهابُ النَّارِ، وأصلُ (سقر): يدُلُّ على إحراقٍ[٣].

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾: أي: مُغَيِّرةٌ للبَشَراتِ، مُحرِقةٌ للجُلودِ مُسَوِّدةٌ لها، و«البَشَرُ» جَمعُ بَشَرةٍ، تقولُ العَرَبُ: لاحتِ النَّارُ الشَّيءَ: إذا أحرَقَتْه وسوَّدَتْه. وقيل: ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ أي: للنَّاسِ. وقيل: ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ بناءُ مُبالغةٍ مِن: لاحَ يَلُوحُ: إذا ظَهَرَ، والمعنى أنَّها تَظهَرُ للنَّاسِ حتَّى يَرَوها عِيانًا؛ لِعظَمِها وهَولِها[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى متوعِّدًا أحدَ زعماءِ المشرِكين، معَدِّدًا ما أنعَمَ به عليه مِن نِعَمِ الدُّنيا: دَعْني -يا محمَّدُ- وهذا الكافِرَ الَّذي خلَقْتُه مُنفَرِدًا دونَ مالٍ أو وَلَدٍ، وجعَلْتُ له مالًا كثيرًا وأبناءً حاضِرينَ معه في كُلِّ مَشهَدٍ، وبَسَطْتُ له في العَيشِ بَسْطًا، ثمَّ يَرْجو مِن شِدَّةِ حِرْصِه وطَمَعِه أن أَزيدَه مِنَ المالِ والوَلَدِ مع كُفْرِه بي!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٩٢) و(٢٢/ ١٧٧، ٤٣٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٣٩).

كلَّا، لن أَزيدَ هذا الكافِرَ كما يأمُلُ، بل سأُكَلِّفُه في جَهنَّمَ عذابًا شاقًّا.

ثمَّ يُعلِّلُ اللهُ تعالى هذا الوعيدَ مقرِّرًا استِحقاقَه له، فيقولُ: إنَّه أعمَلَ فِكْرَه في شأنِ القُرآنِ، وأوقَعَ في نَفْسِه تقديرًا للصِّفاتِ الباطِلةِ الَّتي يَطعَنُ بها فيه، فهَلَك ولُعِنَ هذا الكافِرُ! كيفَ أوقَعَ هذا التَّقديرَ في نَفْسِه لإلصاقِ الأوصافِ الباطِلةِ بالقُرآنِ؟! ثمَّ هَلَك ولُعِنَ! كَيفُ قدَّر في نَفْسِه ذلك؟! ثمَّ نَظَر هذا الكافِرُ في أمرِ القُرآنِ بحثًا عن وَصْفٍ باطلٍ يَطعَنُ به فيه، ثمَّ قطَّب وجْهَه، وقبَض ما بيْنَ عينَيْه، وتغيَّر لَونُه، ثمَّ تولَّى وتكبَّرَ عن قَبولِ الحَقِّ، فقال: ما هذا القرآنُ إلَّا سِحرٌ يَرْويه محمَّدٌ عن غَيرِه مِنَ السَّحَرةِ! ما هذا القُرآنُ إلَّا حَديثٌ مِن أحاديثِ البَشَرِ، وليس بكَلامٍ للهِ تعالى!

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى ما أعدَّه له مِن عذابٍ أليمٍ، فيقولُ: سأُدخِلُه النَّارَ المُلتَهِبةَ، وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيَّ شَيءٍ سَقَرُ؟!

لا تُبقِي مَن دَخَل فيها حَيًّا، ولا تَترُكُه مَيِّتًا؛ فيَستريحَ مِن عَذابِها، وهي نارٌ مُحْرِقةٌ لبَشَرةِ أهْلِها، فتُحَوِّلُ لَونَ جُلودِهم إلى السَّوادِ، وعلى تلك النَّارِ تِسعَةَ عَشَرَ مَلَكًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جَرى ذِكرُ الكافِرينَ في قولِه: ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر: ٩، ١٠]، وأُشِيرَ إلى ما يَلقاهُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الكافِرين بقولِه: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [المدثر: ٧]؛ انتَقَلَ الكلامُ إلى ذِكرِ زَعيمٍ مِن زُعماءِ

الكافرينَ ومُدبِّرِ مَطاعنِهم في القرآنِ ودَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

وأيضًا لَمَّا آذَنَ ما سبق بأنَّ أكثَرَ الخَلْقِ يُوافى يومَ القيامةِ على كُفْرِه، وخُبثِ طَوِيَّتِه، وسوءِ أمْرِه، وكان ذلك ممَّا يُهِمُّ؛ لشَفَقتِه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- على الخَلْقِ، ولِما يَعلَمُ مِن نَصْبِهم للعداوةِ- هوَّن أمْرَهم عليه، وحقَّر شَأْنَهم لديه، بوَعْدِه بالكفايةِ، بقولِه[٢]:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾.

أي: دَعْني -يا محمَّدُ- وهذا الكافِرَ الَّذي خلَقْتُه مُنفَرِدًا دونَ مالٍ أو وَلَدٍ، وكِلْ أمْرَه إلَيَّ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٧، ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

قال الزَّجَّاجُ: (﴿وَحِيدًا﴾ ... هو على وجهَينِ:

أحدُهما: أن يكون وحيدًا مِن صفةِ الله عزَّ وجلَّ، المعنى: ذَرْنِي ومَن خلَقْتُه وَحْدي، لم يَشرَكْني في خَلقِه أحدٌ.

[أو] يكونَ ﴿وَحِيدًا﴾ مِن صفةِ المخلوقِ، ويكونُ المعنى: ذَرْني ومَن خلَقْتُه وحْدَه؛ لا مالَ له ولا ولَدَ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٤٦). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤١٧).

ممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وأبو حيان، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦). =

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: وجعَلْتُ له مالًا واسِعًا كثيرًا يَزدادُ ويَنمو فلا يَنقَطِعُ عنه خَيرُه[1].

= ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤١٧).

واختار القُشَيْريُّ القولَ الأوَّلَ، فقال في معنى الآية: (أي: لا تَهتَمَّ بشأنِهم ولا تَحتفِلْ؛ فإنِّي أَكفيك أمْرَهم، إنِّي خَلَقْتُه وحْدي لم يُشارِكْني في خَلْقي إيَّاه أحدٌ). ((تفسير القشيري)) (٣/ ٦٤٩).

وقال البِقاعي جامعًا بيْن المعنيَين السَّابقَين: (﴿خَلَقْتُ﴾ أي: أَوجَدْتُ مِنَ العَدَم، وأنشأْتُ في أطوارِ الخِلْقةِ، حالَ كَونه ﴿وَحِيدًا﴾ لا مالَ له ولا ولَدَ ولا شَيءَ، وحالَ كَوْني أنا واحِدًا شديدَ الثَّباتِ في صِفةِ الوَحدانيَّةِ، لم يُشارِكْني في صُنعِه أحدٌ، فلم يَشكُرْ هذه النِّعمةَ، بل كفَرَها بالشِّركِ باللهِ سُبحانَه القادِرِ على إعدامِه بعدَ إيجادِه!). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٤٨).

ويحتملُ على القولِ الأوَّلِ أن يكونَ المعنى: ذَرْني وحْدي معه، فأنا أَجزيك في الانتقامِ منه عن كلِّ مُنتقِمٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٧).

قال ابن عطيَّة: (لا خِلافَ بيْن المفسِّرينَ أنَّ هذه الآيةَ نَزَلت في الوليدِ بنِ المُغيرةِ المَخْزُوميِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٤). ويُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٣).

وممَّن نقل أيضًا اتِّفاقَ المفسِّرينَ وإجماعَهم على أنَّ هذه الآياتِ نزلت في الوليدِ بنِ المُغيرةِ: الواحديُّ، والرازي، والقاسمي. يُنظر: ((البسيط) للواحدي (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٠٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٥).

ونسَبَه السَّمعانيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩١).

وقال القرطبيُّ: (المفسِّرون على أنَّه الوليدُ بنُ المُغيرةِ المَخْزُوميُّ، وإن كان النَّاسُ خُلِقوا مِثلَ خَلْقِه، وإنَّما خُصَّ بالذِّكرِ؛ لاختِصاصِه بكُفرِ النِّعمةِ، وإيذاءِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكان يُسَمَّى الوَحيدَ في قَومِه!). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧١). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٣٩).

وقال ابنُ عاشور: (كان الوَليدُ بنُ المغيرةِ يُلقَّبُ في قُريشٍ بالوَحيدِ؛ لتَوَحُّدِه وتفَرُّدِه باجتماعِ مزايا له لم تجتَمِعْ لِغَيرِه مِن طَبَقتِه؛ وهي: كثرةُ الوَلَدِ، وسَعةُ المالِ، ومَجْدُه ومجدُ أبيه مِن قَبْلِه، وكان مَرجِعَ قُرَيشٍ في أُمورِهم؛ لأنَّه كان أسَنَّ مِن أبي جهلٍ وأبي سُفْيانَ، فلَمَّا اشتَهَر بلقَبِ الوحيدِ كان هذا الكلامُ إيماءً إلى الوليدِ بنِ المغيرةِ المُشتَهِرِ به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٨).

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أوَّلَ ما تمتَدُّ إليه النَّفْسُ بعدَ كثرةِ المالِ الوَلَدُ، وكان أحَبَّ الوَلَدِ الذَّكَرُ؛ قال[1]:

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾.

أي: وجعَلْتُ له أبناءً حاضِرينَ معه، لا يَغِيبونَ عنه ولا يُفارِقونَه، فهو يَستأنِسُ بهم ويَفتَخِرُ، ويَستعينُ بهم على قَضاءِ حوائِجِه[2].

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا ﴿١٤﴾﴾.

أي: وبَسَطْتُ له في العَيشِ بَسْطًا، فأقام ببَلدتِه مُطْمَئِنًّا مُتَرَفِّهًا، له الرِّياسةُ والتَّقَدُّمُ، والجاهُ العَريضُ، فلا يَعْسُرُ عليه أمرٌ، ولا يَستعْصي عليه شأنٌ[3]!

﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٤).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني: حُضورًا لا يَغِيبونَ أبدًا عنه في تجارةٍ ولا غَيرِها؛ لكثرةِ أموالِهم بمكَّةَ، وكُلُّهم رجالٌ؛ منهم: الوليدُ بنُ الوليدِ، وخالدُ بنُ الوليدِ، وهو سَيفُ اللهِ، أسلَمَ بعدَ ذلك، وعُمارةُ بنُ الوليدِ، وهِشامُ بنُ الوليدِ، والعاصِ بنُ الوليدِ، وقَيسُ بنُ الوليدِ، وعبدُ شمسِ بنُ الوليدِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٤).

أي: ثمَّ يَرْجو مِن شِدَّةِ حِرْصِه وطَمَعِه أن أَزيدَه مِنَ المالِ والوَلَدِ مع كُفرانِه للنِّعَمِ، وإشراكِه باللهِ تعالى[١]!

﴿كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ١٦﴾.

أي: لن أَزيدَ هذا الكافِرَ كما يأمُلُ؛ فلا يكونُ له ما يَطمَعُ فيه مِن زيادةِ النِّعَمِ، مع مُعانَدتِه البالِغةِ لآياتِ اللهِ تعالى الَّذي أنعَمَ عليه بما أنعَمَ، ثمَّ لا يَنقادُ للحَقِّ ويَتَّبِعُه مع عِلْمِه به[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥).

قال الماوَرْدي: (﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾ فيه وَجهانِ:

أحدُهما: ثمَّ يَطمَعُ أن أُدخِلَه الجنَّةَ...

الثَّاني: أن أَزيدَه مِن المالِ والولَدِ...

ويحتَمِلُ وَجهًا ثالثًا: ثمَّ يَطمَعُ أن أنصُرَه، على كُفرِه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٠).

ومِمَّن ذهب إلى الوجهِ الأوَّلِ وأنَّ المرادَ النَّعيمُ الأخرويُّ: القاسميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٢).

ومِمَّن ذهب إلى الوجهِ الثَّاني: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وأبو مالكٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٢، ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾.

أي: سأُكَلِّفُ هذا الكافِرَ في جَهنَّمَ عذابًا شاقًّا لا راحةَ له منه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨﴾.

أي: إنَّ هذا الكافِرَ قد أعمَلَ فِكْرَه، وأدارَ رأيَه في شأنِ القُرآنِ، وأوقَعَ في نَفْسِه تقديرًا للصِّفاتِ الباطِلةِ الَّتي يَطعَنُ بها في القُرآنِ؛ لِيَعلَمَ أيُّها أقرَبُ إلى قَبولِ النَّاسِ له[٢].

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ١٩﴾.

أي: فهَلَك ولُعِنَ هذا الكافِرُ! وعَجَبًا له؛ إذ كيفَ أوقَعَ هذا التَّقديرَ في نَفْسِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٢).

قال الرَّسْعَني: (﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ أي: سأحملُه على مشَقَّةٍ مِن العذابِ، أو سأُغَشِّيه عَقَبةً شاقَّةَ المَصعدِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٦٠).

وقال البيضاوي: (﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ سأُغشيهِ عَقَبةً شاقَّةَ المَصعدِ، وهو مَثَلٌ لِما يَلقى مِن الشَّدائدِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠).

وقال البِقاعي: (﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ أي: أُلحِقُه بعُنفٍ وغِلظةٍ وقَهرٍ إلحاقًا يَغْشاه ويُحيطُ به، بوعيدٍ لا خُلْفَ فيه ﴿صَعُودًا﴾ أي: شيئًا مِن الدَّواهي والأنكادِ كأنَّه عَقَبةٌ؛ فإنَّ الصَّعودَ لُغةً: العَقَبةُ شاقةُ المَصعدِ جدًّا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٤، ٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٢، ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٧، ٣٠٨).

قال ابنُ كثير: (أي: إنَّما أرهَقْناه صَعُودًا، أي: قرَّبْناه مِن العذابِ الشَّاقِّ؛ لبُعْدِه عن الإيمانِ؛ لأنَّه ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي: ترَوَّى ماذا يقولُ في القرآنِ حينَ سُئِلَ عن القرآنِ، ففكَّرَ ماذا يَختَلِقُ مِن المقالِ، ﴿وَقَدَّرَ﴾ أي: ترَوَّى). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦).

لإلصاقِ الأوصافِ الباطِلةِ بالقُرآنِ[١]؟!

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ثمَّ هَلَك ولُعِنَ مرَّةً أُخرى! وعَجَبًا له ثانيةً؛ إذ كَيفَ قدَّرَ في نَفْسِه ذلك[٢]؟!

﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: ثمَّ نَظَر هذا الكافِرُ في أمرِ القُرآنِ بحثًا عن وَصْفٍ باطلٍ يَطعَنُ به فيه؛ لِيَصُدَّ النَّاسَ عنه[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٤).

قال الواحدي: (قال صاحِبُ النَّظمِ [أبو عليٍّ الجُرْجاني]: معناه: لُعِنَ على أيِّ حالٍ قَدَّر ما قَدَّر مِن الكلامِ، كما يُقالُ في الكلامِ: لَأَضْرِبَنَّه كيف صنَع، أي: على أيِّ حالٍ كانت منه). ((الوسيط)) (٤/ ٣٨٣).

وقال القاسمي: (كيف قَدَّر ذلك الافتراءَ الباطِلَ، واختَلَق ما يُكَذِّبُه وِجدانُه فيه؟!). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٥).

قال السعدي: (﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾؛ لأنَّه قَدَّر أمرًا ليس في طَورِه، وتسوَّرَ على ما لا يَنالُه هو ولا أمثالُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦).

وممَّن قال في الجملةِ بالمعنى المذكورِ: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦).

قال الرازي: (المعنى: أنَّه أوَّلًا: فكَّر، وثانيًا: قدَّرَ، وثالثًا: نَظَر في ذلك المُقدَّرِ؛ فالنَّظَرُ السَّابِقُ للاستخراجِ، والنَّظَرُ اللَّاحِقُ للتَّقديرِ، وهذا هو الاحتياطُ؛ فهذه المراتِبُ الثَّلاثةُ متعلِّقةٌ بأحوالِ قَلْبِه). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٠٦). =

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: ثمَّ قطَّب وجْهَه، وقبَض ما بيْنَ عينَيْه، وتغيَّر لَونُه حينَ لم يَجِدْ وَصْفًا صَحيحًا يَطعَنُ به في القُرآنِ[1].

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ثمَّ تولَّى وتكبَّرَ عن قَبولِ الحَقِّ مع تبيُّنِه كمالَ القُرآنِ في ألفاظِه ومَعانيه، وخُلُوَّه مِن أيِّ باطِلٍ[2]!

= وقال ابنُ عاشور: (النَّظَرُ هنا: نَظَرُ العَينِ؛ لِيَكونَ زائدًا على ما أفاده فكَّر وقَدَّر. والمعنى: نَظَر في وجوهِ الحاضِرينَ يَستخرِجُ آراءَهم في انتحالِ ما يَصِفونَ به القُرآنَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩).

قال الشوكاني: (والعَبْسُ: مَصْدَرُ عَبَسَ مُخَفَّفًا يَعْبِسُ عَبْسًا وعُبوسًا إذا قَطَّبَ. وقيل: عَبَسَ في وُجُوهِ المؤمِنينَ. وقيل: عَبَسَ في وَجْهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ﴿وَبَسَرَ﴾ أي: كَلَحَ وَجْهُه وَتَغَيَّرَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٢).

وقيل: البُسُورُ: هو تقطيبُ الوَجهِ، وهو أشدُّ مِن العُبوسِ. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي. ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٩).

وقيل: هما بمعنًى واحدٍ. واختاره: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٣).

قال القرطبي: (والعَبْسُ -مُخَفَّفًا-: مصدَرُ عَبَس يَعبِسُ عَبْسًا وعُبوسًا: إذا قَطَّب... ﴿وَبَسَرَ﴾ أي: كَلَح وَجْهُه وتغيَّرَ لَونُه. قاله قَتادةُ والسُّدِّيُّ،... وقيل: إنَّ ظُهورَ العُبوسِ في الوَجهِ بعدَ المحاورةِ، وظُهورَ البُسورِ في الوجهِ قبْلَ المحاورةِ. وقال قومٌ: بَسَرَ: وقَفَ لا يَتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ... والعرَبُ تقولُ: وَجهٌ باسِرٌ بَيِّنُ البُسورِ: إذا تغيَّرَ واسْوَدَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٥).

قال ابنُ جُزَي: (فَعَل ذلك مِن حَسَدِه للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: عبَسَ في وَجْهِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أو عَبَس لَمَّا ضاقت عليه الحِيَلُ ولم يَدْرِ ما يقولُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن =

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: فقال: ما هذا القرآنُ إلَّا سِحرٌ يَرْويه محمَّدٌ عن غَيرِه مِنَ السَّحَرةِ[١]!

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: قال: ما هذا القُرآنُ إلَّا حَديثٌ بَشَريٌّ، وليس بكلامٍ للهِ تعالى، فلا ينبغي لأحدٍ أن يَغتَرَّ به أو يُعَوِّلَ عليه[٢]!

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: قال اللهُ تعالى: سأُدخِلُه النَّارَ وأغْمُرُه فيها، فتُحيطُ به مِن جميعِ جوانِبِه، لِيُقاسيَ شدَّتَها وحرَّها[٣].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ سَقَرُ[٤]؟!

= كثير)) (٨/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩، ٣١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٥، ٥٦).

قال ابن عاشور: (وصَفَ هذا السِّحرَ بأنَّه مَأثورٌ -أي: مَرويٌّ عن الأقدَمينَ- يقولُ هذا ليَدفَعَ به اعتراضًا يَرِدُ عليه: أنَّ أقوالَ السَّحرةِ وأعمالَهم لَيست مُماثِلةً للقرآنِ ولا لأحوالِ الرَّسولِ، فزَعَمَ أنَّه أقوالٌ سِحريَّةٌ غيرُ مَألوفةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٧).

قال الواحديُّ: (سَقَرُ: اسمٌ مِن أسماءِ جَهنَّمَ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٨٤). ويُنظر: ((الزاهر)) لابن الأنباري (٢/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: لا تُبقِي مَن دَخَل فيها حَيًّا، ولا تَتْرُكُه مَيِّتًا؛ فيَستريحَ مِن عَذابِها، بل تُبدَّلُ أجسادُ أهلِها كلَّما احترَقَت، فيَستَمِرُّ عَذابُها[1]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾.

= (١٩/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٨).

قال البِقاعي: (لَمَّا أثبَتَ له هذا العذابَ عظَّمه وهوَّله بقَولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أي: أعلَمَك وإنِ اجتَهَدْتَ في البَحثِ ﴿مَا سَقَرُ﴾ يعني: أنَّ عِلْمَ هذا خارِجٌ عن طَوقِ البشَرِ، لا يُمكِنُ أن يَصِلَ إليه أحدٌ منهم إلَّا بإعلامِ اللهِ له؛ لأنَّه أعظَمُ مِن أن يَطَّلِعَ عليه بَشَرٌ!). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٥٩).

وقال الشوكاني: (العَرَبُ تقولُ: وما أدراك ما كذا؟ إذا أرادوا المبالَغةَ في أمْرِه، وتعظيمَ شَأنِه، وتهويلَ خَطْبِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٢).

قال السمرقندي: (قال: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ يعني: لا تُبقي لحمًا إلَّا أكلَتْه، ولا تذَرُهم إذا أُعيدوا فيها خَلقًا جديدًا. ويُقالُ: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ يعني: لا تُميتُ ولا تُحْيي. ويُقالُ: لا تُبقي اللَّحمَ ولا العَظمَ ولا الجِلْدَ إلَّا أحرَقَتْه، ولا تذَرُ لَحمًا ولا عَظمًا ولا جِلدًا، أي: تدَعُه مُحرقًا، بل تجدُه خَلقًا جديدًا!). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٧).

وقال الشَّوكاني: (قال السُّدِّيُّ: لا تُبقي لهم لحمًا، ولا تذَرُ لهم عَظْمًا. وقال عطاءٌ: لا تُبقي مَن فيها حيًّا، ولا تذَرُه مَيِّتًا. وقيل: هما لفظانِ بمعنًى واحدٍ، كُرِّرا للتَّأكيدِ، كقولِك: صَدَّ عنِّي، وأعرَضَ عنِّي). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٣).

وقال ابنُ كثير: (﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: تأكُلُ لُحومَهم وعُروقَهم وعَصَبَهم وجُلودَهم، ثمَّ تُبَدَّلُ غَيرَ ذلك، وهم في ذلك لا يَموتونَ ولا يَحيَونَ. قاله ابنُ بُرَيدةَ، وأبو سِنانٍ، وغيرُهما). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٨).

أي: تلك النَّارُ مُحْرِقةٌ لبَشَرةِ أهْلِها، فتُحَوِّلُ لَونَ جُلودِهم إلى السَّوادِ[١]!

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٦)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٨).

قال ابن الجوزي: (في «البَشَرِ» قولانِ؛ أحَدُهما: أنَّه جَمعُ بَشَرةٍ، وهي جِلدةُ الإنسانِ الظَّاهِرةُ. وهذا قول مُجاهِدٍ، والفرَّاءِ، والزَّجَّاجِ. والثَّاني: أنَّهم الإنسُ مِن أهلِ النَّارِ. قاله الأخفَشُ، وابنُ قُتَيْبَةَ في آخَرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، ومكِّي، والواحدي، والرَّسْعَني، والنسفي، وابن جُزَي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وأبو السعود. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٨).

ونسَبَ ابنُ عطيَّةَ هذا القولَ إلى الجمهورِ، ونسَبَه الشَّوكانيُّ للأكثَرِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وأبو رَزِينٍ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٨).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الأخفشُ -كما نسَبَه إليه الماوَرْديُّ وغيرُه-، وابنُ قُتَيْبَةَ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وقال الثعلبيُّ: (وقال الحسَنُ وابنُ كَيْسانَ: يعني: تَلوحُ لهم جهنَّمُ حتَّى يَرَوْها عِيانًا. نظيرُه: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٤).

وقال الواحديُّ: (وقال عَطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ: تَلوحُ لأهلِها مِن مسيرةِ خَمسِمئةِ عامٍ). ((البسيط)) (٢٢/ ٤٣٥).

كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: على تلك النَّارِ تِسعةَ عَشَرَ مَلَكًا(١).

كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۞ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۞ وَبَنِينَ شُهُودًا ۞ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۞ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۞ كَلَّآ﴾ في هذا الإبطالِ والرَّدعِ إيذانٌ بأنَّ كُفرانَ النِّعمةِ سَببٌ لقَطْعِها؛ قال تعالَى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، ولهذا قيل: (مَن لمْ يَشكُرِ النِّعَمِ فقدْ تَعرَّضَ لِزَوالِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٢).

قال الثعلبي: (يحتَمِلُ أن يَكونوا تِسعةَ عَشَرَ مَلَكًا بأعيانِهم، وعلى هذا أكثَرُ المفَسِّرينَ). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٤).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: يقولُ: على النَّارِ تِسعةَ عَشَرَ مِنَ الملائكةِ، هم خَزَنَتُها: مالِكٌ ومعه ثمانيةَ عَشَرَ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٨٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٤).

وقال ابنُ عطيَّة: (لا خِلافَ بيْن العُلَماءِ أنَّهم خَزَنَةُ جَهنَّمَ المحيطونَ بأمْرِها، الَّذين إليهم جِماعُ أمرِ زبانِيَتِها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٦).

وقال القرطبي: (الصَّحيحُ -إن شاء اللهُ- أنَّ هؤلاء التِّسعةَ عَشَرَ هم الرُّؤساءُ والنُّقَباءُ، وأمَّا جُملتُهم فالعِبارةُ تَعجِزُ عنها، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٠). ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٨).

ومَن شَكَرَها فقدْ قيَّدَها بعِقالِها)[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّ اللهَ تعالى لَمْ يَزَلْ بأسمائِه وصِفاتِه، أمَّا زَعْمُ الجَهميَّةِ أنَّ مَن قال بهذا فقد قال بقولِ النَّصارى؛ حيثُ جَعَلوا معه غيرَه!

فالجوابُ عنه: أنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ يقولونَ: إنَّه واحدٌ بأسمائِه وصِفاتِه؛ فلا يَصِفونَ إلَّا واحدًا بصِفاتِه، كما قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ وَصَفَه بالوحدةِ؛ مع أنَّه كان له لِسانٌ وعَيْنانِ وأُذُنانِ وسمعٌ وبصَرٌ؛ ولم يَخْرُجْ بهذه الصِّفاتِ عن كَونِه واحدًا! وللهِ المَثَلُ الأعلى[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ هذا جزاءُ كُلِّ مَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ١٤١)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٨١). ويُنظر أيضًا: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (ص: ٧٩).

والمقصودُ مِن ضَربِ الوحيدِ مثلًا؛ أنَّ الذَّاتَ المُتَّصِفةَ بصِفاتٍ تَتَّصِفُ بالوَحدانيَّةِ؛ لأنَّ الصِّفاتِ لا تَستَقِلُّ بنفْسِها، ولا يُمكِنُ انفِكاكُها عن الذَّاتِ إلَّا في الذِّهنِ، واعتراضُ الجَهميَّةِ الَّذين يَنفون الصِّفاتِ لا يَرِدُ على أهلِ السُّنَّةِ، ومذهبُ النَّصارى لا يَصلُحُ نقضًا؛ فإنَّهم أثبتوا الأقانيمَ الثَّلاثةَ وكلٌّ منها مُستَقِلٌّ، فالتَّعدُّدُ مُتحَقِّقٌ، وأمَّا المُثبِتونَ للصِّفاتِ فعندَهم أنَّ الذَّاتَ لا تَنفَكُّ عنها أصلًا، والتَّعدُّدَ مُنتَفٍ. يُنظر: ((غاية الأماني في الرد على النبهاني)) للألوسي (٢/ ٢٢).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (والَّذين قالوا مِن نُفاةِ الصِّفاتِ المعتزلةِ والجَهميَّةِ: إنَّ مَن أثبَتَ الصِّفاتِ فقد قال بقولِ النَّصارى، هو مُتَوَجِّهٌ على مَن جعَلَ الصِّفاتِ جَواهرَ، وهؤلاء هم النَّصارى يَزعُمون أنَّ الصِّفاتِ جواهرُ آلهةٍ... وأمَّا الرُّسلُ وأتْباعُهم فنَطَقوا أنَّ لله عِلمًا وقُدرةً وغيرَ ذلك مِن الصِّفاتِ، وثبتوا أنَّ الإلهَ إلهٌ واحدٌ. فإذا قال القائلُ: عبَدْتُ اللهَ ودَعَوْتُ اللهَ؛ فإنَّما دعا وعبَدَ إلهًا واحدًا، وهو ذاتٌ مُتَّصِفةٌ بصِفاتِ الكمالِ، لم يَعبُدْ ذاتًا لا حياةَ لها ولا عِلمَ ولا قُدرةَ، ولا عبَدَ ثلاثةَ آلهةٍ ولا ثلاثةَ جواهرَ، بل نفْسُ اسمِ الله يَتضَمَّنُ ذاتَه المُقَدَّسةَ المُتَّصِفةَ بصِفاتِه سُبحانَه، وليست صِفاتُه خارجةً عن مُسمَّى اسمِه، ولا زائدةً على مُسمَّى اسمِه). ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) (٥/ ١٥، ١٦).

عانَدَ الحَقَّ ونابَذَه: أنَّ له الخِزْيَ في الدُّنيا، ولَعَذابُ الآخرةِ أخْزى[١].

٣- أنَّ كثرةَ الأموالِ والأولادِ لا تَستلزِمُ القُربَ إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّ مِنَ النَّاسِ مَن يكونُ كثيرَ المالِ والولَدِ، وهو مِن أبعَدِ النَّاسِ عن اللهِ سُبحانَه وتعالى، ومِنَ النَّاسِ مَن يكونُ قليلَ المالِ والولَدِ، وهو مِن أقربِ النَّاسِ إلى اللهِ تعالى؛ فهذا النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ليس هو مِن أكثَرِ النَّاسِ أموالًا وأولادًا، ومع ذلك فهو أقرَبُ النَّاسِ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى، والرَّجُلُ الَّذي افتخَرَ بمالِه ووَلَدِه، قال اللهُ -تعالى- في شَأنِه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]، إذا آتاه اللهُ المالَ والولَدَ فإنَّه لا ينفَعُه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا * إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾، فالأموالُ والأولادُ لا تُقَرِّبُ إلى اللهِ تعالى[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أزال كلَّ لَبْسٍ عن أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ؛ لتوَعُّدِه مَن نسَب هذا القرآنَ إلى قَولِ البشَرِ، وإذا لم يكُنْ قَولَ البشَرِ فلا يكونُ إلَّا قولَ الخالِقِ، وإن تلاه البَشَرُ أيضًا فلا يكونُ قَولَه، بل يكونُ قَولَ مَن بدأ به، وهو اللهُ جَلَّ جلالُه، فلم يَصِرْ بتلاوةِ جبريلَ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مخلوقًا، وجبريلُ مخلوقٌ، ولا بتلاوةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أصحابِه مخلوقًا، ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مخلوقٌ، ولا بتلاوةِ التَّالِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٣).

إلى يومِ القيامةِ مخلوقًا، وإن كان التَّالونُ له مخلوقينَ(١).

٥- قد تَوَعَّدَ اللهُ تعالى مَن قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾، فمَن قال: إنَّ هذا القرآنَ قولُ البَشَرِ، فقد كَفَرَ، وقال بقَولِ الوَحيدِ الَّذي أوعَدَه اللهُ سَقَرَ، ومَن قال: إنَّ شيئًا منه قولُ البَشَرِ، فقد قال ببعضِ قولِه، ومَن قال: إنَّه ليس بقَولِ رَسولٍ كريمٍ، وإنَّما هو قولُ شاعرٍ أو مجنونٍ أو مُفْتَرٍ، أو قال: هو قولُ شيطانٍ نَزَلَ به عليه، ونحوَ ذلك- فهو أيضًا كافرٌ ملعونٌ، وقد عَلِمَ المسلمون الفرقَ بيْنَ أنْ يُسْمَعَ كلامُ المتكلِّمِ، منه، أو مِن المُبَلِّغِ عنه، وأنَّ موسى عليه السَّلامُ سَمِعَ كلامَ اللهِ مِن اللهِ بلا واسِطةٍ، وأنَّا نحن إنَّما نسمعُ كلامَ اللهِ مِن المُبَلِّغينَ عنه، وإذا كان الفَرقُ ثابتًا بيْنَ مَن سَمِعَ كلامَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منه، وبيْن مَن سَمِعَه مِن الصَّاحبِ المُبَلِّغِ عنه، فالفَرْقُ هنا أَولى؛ لأنَّ أفعالَ المخلوقِ وصِفاتِه أشْبَهُ بأفعالِ المخلوقِ وصفاتِه، مِن أفعالِه وصفاتِه بأفعالِ اللهِ وصِفاتِه(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أنْكَر اللهُ تعالى قولَ المُشرِكينَ هذا، ولا يُعترَضُ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]؛ لأنَّ معناه: قولٌ تَلَقَّاه عن رَسولٍ كريمٍ، كقَولِه تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ولا يُعترَضُ أيضًا بقولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]؛ لأنَّ معناه: سمَّيْناه قُرآنًا، وهو كقَولِه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، وقَولِه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]، ولا يُعترَضُ أيضًا بقَولِه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]. فالمرادُ: أنَّ تنزيلَه إلينا هو المُحْدَثُ، لا الذِّكْرُ نَفْسُه، وبهذا احْتَجَّ الإمامُ أحمدُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٣٧، ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((الاعتقاد)) للبيهقي (ص: ٩٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٤٥٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ آيةٌ مِن آياتِ نُبُوَّةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّتي في القرآنِ؛ فإنَّ الكُفَّارَ -مع حِرْصِهم على تكذيبِه- لم تَنْبَعِثْ دواعيهم لإظهارِ تَكذيبِه، وكان كما أخبَرَ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مات الوليدُ كافِرًا، وكذا مات أبو لَهَبٍ كافرًا، مع قَولِه تعالى عنه: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[1] [المسد: ٣]!

٨- قد وُزِّعَ وَعيدُ هذا الكافرِ على ما تَقتضيه أعمالُه؛ فإنَّه لَمَّا ذُكِرَ عِنادُه -وهو مِن مَقاصِدِه السَّيِّئةِ النَّاشئةِ عن مُحافَظتِه على رِئاستِه وعن حَسَدِه النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك مِن الأغراضِ الدُّنيويَّةِ- عُقِّبَ بوَعيدِه بما يَشملُ عَذابَ الدُّنيا ابتداءً، ولَمَّا ذُكِرَ طَعْنُه في القرآنِ بقولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، وأُنْكِرَ أنَّه وَحْيٌ مِن اللهِ بقولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾، أُرْدِفَ بذِكرِ عَذابِ الآخرةِ بقولِه: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾

- قولُه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ...﴾ إلخ، استِئنافٌ يُؤذِنُ بأنَّ حدَثًا كان سَببًا لنُزولِ هذه الآيةِ عَقِبَ الآياتِ الَّتي قبْلَها؛ وهو أنَّ الوليدَ بنَ المُغيرةِ نصَحَ قُريشًا أنْ يَقولوا عن النَّبيِّ والقرآنِ: ساحِرٌ جاء بقولٍ هو سِحرٌ، يُفرِّقُ به بيْنَ المَرْءِ وأبيه، وبيْنَ المَرْءِ وأخيه، وبيْنَ المَرْءِ وزَوجتِه، وبيْنَ المَرْءِ وعَشيرتِه، فأنزَلَ اللهُ في الوليدِ بنِ المُغيرةِ قولَه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ الآياتِ -وذلك على قول جماهيرِ المفسِّرينَ-، فإنْ كان قولُ الوليدِ صدَرَ منه بعْدَ

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٧).

نُزولِ صدْرِ هذه السُّورةِ؛ فجُملةُ ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا، والمُناسَبةُ ظاهرةٌ، وإنْ كان قولُ الوليدِ هو سبَبَ نُزولِ السُّورةِ، كان مُتَّصِلًا بقولِه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ٧]، على أنَّه تَعليلٌ للأمْرِ بالصَّبرِ بأنَّ اللهَ يَتولَّى جَزاءَ هذا القائلِ، وما بيْنَهما اعتراضٌ[١].

- وتَصديرُ الجُملةِ بفِعلِ ﴿ذَرۡنِي﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مُهتمًّا ومُغتمًّا ممَّا اختَلَقَه الوليدُ بنُ المُغيرةِ؛ فاتِّصالُه بقولِه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ٧] يَزدادُ وُضوحًا[٢].

- وتَركيبُ (ذَرْني وكذا) يُفيدُ تَهديدًا ووَعيدًا للمَذكورِ بعْدَ واوِ المَعيَّةِ[٣].

- وجِيءَ بالموصولِ وصِلَتِه في قولِه: ﴿وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ لإدماجِ[٤] تَسجيلِ كُفرانِ الوليدِ بنِ المُغيرةِ المَخزوميِّ النِّعمةَ في الوَعيدِ والتَّهديدِ؛ فقد كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٢، ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٤) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيقَ لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه تعالى بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٤٩)، ((خزانة الأدب)) لابن حِجَّةَ الحَمَوي (٢/ ٤٨٤)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

الوليدُ بنُ المُغيرةِ يُلقَّبُ في قُريشٍ بالوحيدِ، فلمَّا اشتَهَرَ بلَقبِ الوحيدِ كان هذا الكلامُ إيماءً إلى الوليدِ بنِ المُغيرةِ المُشتهرِ به، وجِيءَ بَلفظِ ﴿وَحِيدًا﴾ تَهكُّمًا به وبلَقبِه، وهو تَغييرٌ له عن الغرَضِ الَّذي كانوا يَؤُمُّونه -مِن مَدْحِه، والثَّناءِ عليه بأنَّه وَحيدُ قَومِه لرِياستِه ويَسارِه وتَقدُّمِه في الدُّنيا- إلى وَجْهِ الذَّمِّ والعَيبِ، وهو أنَّه خُلِقَ وَحيدًا لا مالَ له ولا ولَدَ، فآتاهُ اللهُ ذلك، فكَفَرَ بنِعمةِ اللهِ وأشْرَكَ به واستَهْزَأَ بدِينِه[١]!

- والمَمدودُ: اسمُ مَفعولٍ مِن (مَدَّ) الَّذي بمعْنى: أطال؛ بأنْ شُبِّهَت كَثرةُ المالِ بسَعةِ مَساحةِ الجِسمِ. أو مِن (مَدَّ) الَّذي بمعْنى: زاد في الشَّيءِ مِن مِثلِه، كما يُقالُ: مَدَّ الوادي النَّهرَ، أي: مالًا مَزيدًا في مِقدارِ ما يَكتسِبُه صاحبُه مِن المكاسبِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا﴾ التَّمهيدُ هنا مُعبَّرٌ به عن تَيسيرِ أُمورِه، ونَفاذِ كَلمتِه في قَومِه، بحيث لا يَعسُرُ عليه مطلَبٌ، ولا يَستعصي عليه أمْرٌ[٣].

- وأُكِّدَ (مَهَّدْتُ) بمَصدرِه ﴿تَمۡهِيدًا﴾ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ؛ ليُتوسَّلَ بتَنكيرِه لإفادةِ تَعظيمِ ذلك التَّمهيدِ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ وُصِفَ الوليدُ في هذه الآيةِ بما لَه مِن النِّعمةِ والسَّعةِ؛ لأنَّ الآيةَ في سِياقِ الامتِنانِ عليه تَوطئةً لتَوبيخِه وتَهديدِه بسُوءٍ في الدُّنيا، وبعَذابِ النَّارِ في الآخِرةِ، فأمَّا في آيةِ سُورةِ (القلَمِ) فقدْ وَصَفَه بما فيه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٣، ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٠٥).

مِن النَّقائصِ في قولِه تعالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ...﴾ [القلم: ١٠] إلخ -بِناءً على أنَّ المرادَ به الوليدُ بنُ المُغيرةِ-؛ لأنَّ تلك الآيةَ في مَقامِ التَّحذيرِ مِن شَرِّه وغدْرِه[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ حرْفُ (ثُم) للتَّراخي الرُّتبيِّ، أي: وأعظَمُ مِن ذلك أنَّه يَطمَعُ في الزِّيادةِ مِن تلك النِّعَمِ! وذلك بما يُعرَفُ مِن يُسْرِ أُمورِه، وهذا مُشعِرٌ باستِبعادِ حُصولِ المَطموعِ فيه، واستِنكارِ طَمَعِه وحِرصِه، وقد صُرِّح به في قولِه: ﴿كَلَّا﴾[٢] [المدثر: ١٦].

- وجُعِلَ مُتعلَّقُ طَمَعِه زِيادةً ممَّا جعَلَ اللهُ له؛ لأنَّهم لم يَكونوا يُسنِدونَ الرِّزقَ إلى الأصنامِ، أو لأنَّه طَمِعَ في زِيادةِ النِّعمةِ غيرَ مُتذكِّرٍ أنَّها مِن عندِ اللهِ؛ فيَكونُ إسنادُ الزِّيادةِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ إدماجًا[٣] بتَذكيرِه بأنَّ ما طَمِعَ فيه هو مِن عندِ الَّذي كفَرَ هو بنِعمتِه، فأشْرَكَ به غيرَه في العِبادةِ! ولهذه النُّكتةِ عُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (يَطمَعُ في الزِّيادةِ)، أو (يَطمَعُ أنْ يُزادَ)[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ۞ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾

- قولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ ردْعٌ وإبطالٌ لطَمَعِه في الزِّيادةِ مِن النِّعمِ، وقطْعٌ لرَجائِه، والمَقصودُ إبلاغُ هذا إليه، مع تَطمينِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ الوليدَ سيُقطَعُ عنه مَدَدُ الرِّزقِ؛ لِئلَّا تكونَ نِعمتُه فِتنةً لغيرِه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٧، ٢٧٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥).

المُعانِدين، فيُغْرِيَهم حالُه بأنَّ عِنادَهم لا يَضُرُّهم؛ لأنَّهم لا يَحسِبون حياةً بعْدَ هذه[١].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ تَعليلٌ للرَّدعِ على وجْهِ الاستئنافِ؛ كأنَّ قائلًا قال: لِمَ لا يُزادُ[٢]؟

- قولُه: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ قيل: هو مُعترِضٌ بيْن ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ وبيْن ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨]، قُصِدَ بهذا الاعتِراضِ تَعجيلُ الوَعيدِ له مَساءةً له، وتَعجيلُ المَسَرَّةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

- والصَّعودُ: العَقَبةُ الشَّديدةُ التَّصعُّدِ الشَّاقَّةُ على الماشِي، وهي فَعولٌ مُبالَغةٌ مِن (صَعِدَ)؛ فإنَّ العَقَبةَ صَعْدةٌ، فإذا كانتْ عَقَبةٌ أشَدَّ تَصعُّدًا مِن العَقَباتِ المُعتادةِ قِيل لها: صَعودٌ، وكأنَّ أصْلَ هذا الوَصفِ أنَّ العقَبةَ وُصِفَت بأنَّها صاعِدةٌ، ثمَّ جُعِلَ ذلك الوصفُ اسمَ جِنسٍ لها[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١٦]؛ فهي تَكمِلةٌ وتَبيينٌ لها[٥]. وقيل: قولُه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ تَعليلٌ للوَعيدِ المَعنيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٠٦).

بقولِه: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧]؛ فجَمَع له عَذابَ الدَّارَين[١].

- وقد وُصِفَ حالُ الوليدِ بنِ المُغيرةِ في تَردُّدِه وتَأمُّلِه بأبلَغِ وصْفٍ؛ فابتُدِئَ بذِكرِ تَفكيرِه في الرَّأيِ الَّذي سيَصدُرُ عنه وتَقديرِه[٢].

- وقولُه: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كَلامٌ مُعترِضٌ بيْن ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ وبيْن ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾، وهو إنشاءُ شَتْمٍ مُفرَّعٍ على الإخبارِ عنه بأنَّه ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾؛ لأنَّ الَّذي ذُكِرَ يُوجِبُ الغضَبَ عليه، فالفاءُ لتَفريعِ ذمِّه عن سيِّئِ فِعلِه، والدَّاعي إلى الاعتراضِ هو التَّعجيلُ بفائدةِ الكلامِ؛ للاهتمامِ بها[٣].

- قولُه: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ قيل: هو دُعاءٌ مُقتضاهُ الاستحسانُ والتَّعجُّبُ؛ فقِيل: ذلك لمَنزعِه الأوَّلِ في مَدْحِه القُرآنَ، وفي نَفْيِه الشِّعرَ والكهانةَ والجُنونَ عنه. وقيل: ذلك لإصابتِه ما طَلَبَت قُريشٌ منه. وقيل: ذلك ثَناءٌ عليه على جِهةِ الاستِهزاءِ[٤]. وقيل: إنَّ (قُتِلَ): دُعاءٌ عليه بأنْ يَقتُلَه قاتلٌ، أي: دُعاءٌ عليه بتَعجيلِ مَوتِه؛ لأنَّ حَياتَه حَياةٌ سيِّئةٌ. وهذا الدُّعاءُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن حالِه والرِّثاءِ له، كقولِه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقولِهم: عَدِمْتُك، وثَكِلَتْه أُمُّه. وهو كِنايةٌ عن سُوءِ حالِه؛ لأنَّ ما قدَّرَه ليس ممَّا يُغتبَطُ ذَوو الألْبابِ على إصابتِه؛ إذ هو قد ناقَضَ قولَه ابتِداءً؛ إذ قال: ما هو بعَقْدِ السَّحرةِ ولا نفْثِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨، ٦٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٩).

وبعْدَ أنْ فكَّرَ قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، فناقَضَ نفْسَه[١]!

- قولُه: ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ استِفهامٌ على طَريقِ التَّعجُّبِ المَشوبِ بالإنكارِ، وهو مُوجَّهٌ إلى سامِعٍ غيرِ مُعيَّنٍ يَستفهِمُ المتكلِّمُ سامِعَه استِفهامًا عن حالةِ تَقديرِه. وهو في معْنى: ما أعجَبَ تَقديرَه وما أغْرَبَه! كقولِهم: أيُّ رجُلٍ زَيدٌ! أي: ما أعظَمَه[٢]!

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ قيل: ذَكَر ﴿قَدَّرَ﴾ ثَلاثَ مرَّاتٍ، و﴿قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ مرَّتَينِ؛ لأنَّ المعْنى: أنَّ الوليدَ فكَّرَ في شأْنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وما أتى به، وقدَّر ماذا يُمكِنُه أنْ يقولَ فيهما، فقال اللهُ: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، أي: على أيِّ حالٍ كان تَقديرُه، فالتَّقديرُ الأوَّلُ مُغايرٌ للثَّاني والثَّالثِ؛ لاختلافِ المُقدَّرِ[٣].

وقيل: كرَّرَ قولَه: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ للمُبالَغةِ، فهو تَأكيدٌ، ولَزِمَ منه أنَّ ﴿قَدَّرَ﴾ الثَّالثَ تَأكيدٌ للثَّاني، وأنَّ ﴿قُتِلَ﴾ الثَّانيَ تَأكيدٌ للأوَّلِ[٤]؛ فقولُه: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تَأكيدٌ لنَظيرِه المُفرَّعِ بالفاءِ. والعطْفُ بـ(ثُمَّ) يُفيدُ أنَّ جُملتَها أرْقى رُتبةً مِن الَّتي قبْلَها في الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ، فإذا كان المعطوفُ بها عينَ المعطوفِ عليه أفادَتْ أنَّ معْنى المعطوفِ عليه ذُو دَرَجاتٍ مُتفاوتةٍ، مع أنَّ التَّأكيدَ يَكسِبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٧، ٥٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٢).

الكلامَ قوَّةً[١]. فجِيءَ بـ(ثُمَّ) للدَّلالةِ على أنَّ مَدخولَها أبلَغُ ممَّا قبْلَها، كأنَّه دُعِيَ عليْه أوَّلًا ورُجِيَ أنْ يُقلِعَ عمَّا كان يَرومُه، فلم يَفعَلْ، فدُعِيَ عليه ثانيًا[٢].

- وأيضًا هو تَعجيبٌ أبلَغُ مِن الأوَّلِ؛ لأنَّه صَدَر عن رَويَّةٍ، بخِلافِ الأوَّلِ؛ فإنَّه نَشَأَ عن النَّظرةِ الأُولى، وهي حَمقاءُ. وفي هذا التَّرقِّي غايةُ تَهكُّمٍ به وبمَن اغترَّ بما تَفوَّهَ به[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ عطْفٌ على ﴿وَقَدَّرَ﴾، وهي ارتقاءٌ مُتَوالٍ فيما اقْتَضَى التَّعجيبَ مِن حالِهِ والإنكارَ عليه، فالتَّراخي تَراخي رُتبةٍ، لا تَراخي زمَنٍ؛ لأنَّ نَظَرَه وعُبوسَه وبَسْرَه وإدبارَه واستكبارَه مُقارِنةٌ لتَفكيرِه وتَقديرِه[٤].

- وقدْ وصَفَت الآيةُ أشكالَ الوليدِ بنِ المغيرةِ الَّتي تَشكَّلَ بها لَمَّا أجْهَدَ نفْسَه لاستنباطِ ما يَصِفُ به القرآنَ، وذلك تَهكُّمٌ بالوليدِ واستِهزاءٌ به، وبيانُ أنَّ ما يَقولُه كذِبٌ وافتراءٌ؛ إذ لو كان مُمكِنًا لَكان له هَيئاتٌ غيرُ هذه؛ مِن فرَحِ القلْبِ، وظُهورِ السُّرورِ والجَذلِ والبِشرِ في وَجْهِه، ولو كان حقًّا لم يَحتَجْ إلى هذا الفِكرِ؛ لأنَّ الحقَّ أبلَجُ يتَّضِحُ بنفْسِه مِن غيرِ إكدادِ فِكرٍ ولا إبطاءِ تأمُّلٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٧، ٥٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ كان العطْفُ في ﴿وَبَسَرَ﴾ وفي ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾؛ لأنَّ البُسورَ قَريبٌ مِن العُبوسِ، فهو كأنَّه على سَبيلِ التَّوكيدِ، والاستكبارَ يَظهَرُ أنَّه سَببٌ للإدبارِ؛ إذ الاستكبارُ معنًى في القلْبِ، والإدبارُ حَقيقةٌ مِن فِعلِ الجِسمِ، فهما سَببٌ ومُسبَّبٌ، فلا يُعطَفُ بـ(ثُمَّ)، وقُدِّمَ المسَّببُ على السَّبَبِ؛ لأنَّه الظَّاهرُ للعَينِ، وناسَبَ العطفُ بالواوِ[1].

- وقيل: العطْفُ بحرْفِ (ثُمَّ) هنا؛ للدَّلالةِ على أنَّه قدْ تأنَّى في التَّأمُّلِ، وتمهَّلَ، وكان بيْن الأفعالِ المُتناسقةِ تراخٍ وتباعُدٌ[2].

- وقولُه: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ﴾ قالَه بالفاءِ بعْدَ عطْفِ ما قبْلَه بحرْفِ (ثُم)؛ لأنَّ الكلمةَ لَمَّا خَطَرَت ببالِه بعْدَ التَّطلُّبِ، لم يَتمالَكْ أنْ نَطَقَ بها مِن غيرِ تَلبُّثٍ وتفكُّرٍ، فكان نُطقُه بها حَقيقًا بأنْ يُعطَفَ بحرْفِ التَّعقيبِ[3].

- وصِيغةُ الحصْرِ في قولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ مُشعِرةٌ بأنَّ استِقراءَ أحوالِ القُرآنِ بعْدَ السَّبرِ والتَّقسيمِ[4] أنتَجَ له أنَّه مِن قَبيلِ السِّحرِ، فهو قصْرُ تَعيينٍ لأحدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

(٤) السَّبرُ والتَّقسيمُ: يُقصَدُ بالتَّقسيم عندَ الأصوليِّين: حصْرُ الأوصافِ الَّتي تَحتمِلُ أنْ يُعَلَّلَ بها حُكمُ الأصلِ في عدَدٍ مُعيَّنٍ، والسَّبرُ: هو الاختبارُ لكلِّ الأوصافِ الَّتي قدْ جُمِعَت، فيُستبْعَدُ منها ما لا يَصلُحُ أنْ يكون عِلَّةً يُعلَّلُ بها الحُكمُ، ويُستبقَى ما يَصلُحُ أن يكونَ عِلَّةً، مثالُ ذلك أنْ يقولَ المجتهِدُ: تَحريمُ الرِّبا في «البُرِّ» ثبَتَ لعِلَّةٍ، والعِلَّةُ هذه هي إمَّا لِكَونِه مَكيلًا، وإمَّا لكَونِه مَطعومًا، وإمَّا لكونِه قوتًا مُدَّخرًا، وإمَّا لكونِه مَوْزونًا، وإمَّا لكونِه مالًا. فهذا يُسمَّى «التَّقسيمَ»، ثمَّ يَختبِرَ هذه العِلَلَ ويَختارَ ما يَراهُ صَحيحًا ويُهمِلَ ما عداهُ، والتَّقسيمُ مُقدَّمٌ على السَّبْرِ في التَّطبيقِ. يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٧)، ((الإحكام في أصول الأحكام)) =

الأقوالِ الَّتي جالَتْ في نفْسِه؛ لأنَّه قال: ما هو بكلامِ شاعرٍ، ولا بكَلامِ كاهنٍ، ولا بكَلامِ مَجنونٍ[١].

- قولُه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[٢] مِن جُملةِ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ بأنَّ السِّحرَ يكونُ أقوالًا وأفعالًا، فهذا مِن السِّحرِ القَوليِّ، وهذه الجُملةُ بمَنزلةِ النَّتيجةِ لِما تَقدَّمَ؛ لأنَّ مَقصودَ الوليدِ مِن ذلك كلِّه أنَّ القرآنَ ليس وَحيًا مِن اللهِ[٣].

وقيل: لم يُوسَّطْ حرْفُ العطْفِ بيْن الجُملتَين ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾؛ لأنَّ الأُخرى ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ جَرَت مِن الأُولى ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ مَجرى التَّوكيدِ مِن المُؤكَّدِ[٤].

- وجاء النَّظمُ على السَّننِ المألوفِ مِن التَّنزيلِ؛ وذلك أنَّه تعالَى لَمَّا حسَمَ طمَعَ الوليدِ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾، وبيَّن عِنادَه بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾، دَعا عليه بالدُّعاءَينِ بتَقديرِه مرَّتينِ: قدَّرَ أوَّلًا أنَّه شاعرٌ ثمَّ نَفاه حِيلةً، وقدَّرَ ثانيًا أنَّه كاهنٌ كذلك، ثمَّ بعْدَ ذلك نظَرَ في طلَبِ ما يَدفَعُ به ويَرُدُّه، ثمَّ عبَس وبسَرَ كالمُهتَمِّ المُتفكِّرِ في شَيءٍ، ثمَّ أدبَرَ عن الحقِّ، واستكبَرَ عن اتِّباعِه،

= للآمدي (٣/ ٢٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٩١، ٤٩٢)، ((التعريفات الفقهية)) للبركتي (ص: ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

(٢) بَدلُ الاشتمالِ: هو الَّذي يدُلُّ على مَعنًى في مَتْبوعِه أو صِفةٍ فيه، مِثلُ: أعْجَبَني مُحمَّدٌ خُلُقُه؛ فـ (خُلُقُه) بَدَلٌ مِن (مُحمَّدٌ)؛ بَدَلُ اشْتِمالٍ. يُنظر: ((توضيح المقاصد)) للمرادي (٢/ ١٠٣٧)، ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٣/ ٣٦٥)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) (٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٩).

فقال: ما هذا الَّذي يَقرَؤُه محمَّدٌ إلَّا سِحرٌ يُؤثَرُ. واللهُ أعلَمُ[١].

٥- ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۞ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۞ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۞ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾

- جُملةُ ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا ناشِئًا عن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨] إلى آخِرِ الآياتِ، فذَكَر وَعيدَه بعَذابِ الآخِرةِ[٢]. وقيل: هي بدَلٌ مِن ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾، ويَظهَرُ أنَّهما جُملَتانِ اعتَقَبَت كلُّ واحدةٍ منهما على سَبيلِ التَّوعُّدِ للعِصيانِ الَّذي قبْلَ كلِّ واحدةٍ منهما؛ فتُوُعِّدَ على كَونِه عَنيدًا لآياتِ اللهِ بإرهاقِ صَعودٍ، وعلى قولِه بأنَّ القرآنَ سِحرٌ يُؤثَرُ بإصلائِه سَقَرَ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ تَفخيمٌ وتَفظيعٌ وتَهويلٌ لشَأنِها[٤].

- قولُه: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ بَيانٌ لوصفِها وحالِها، وإنجازٌ للوعيدِ الضِّمنيِّ الَّذي يَلوحُ به ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾[٥].

- وقيل: حُذِفَ مَفعولُ ﴿تُبْقِي﴾ لقَصْدِ العُمومِ، أي: لا تُبقِي منهم أحدًا، أو لا تُبْقي مِن أجْزائِهم شيئًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١).

(٤) يُنظر: (تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٩).

(٥) يُنظر: (تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٢).

- وجُملةُ ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ عطْفٌ على ﴿لَا تُبْقِي﴾، فهي في معْنى الحالِ، ومعنى (لَا تَذَرُ)، أي: لا تَترُكُ مَن يُلْقى فيها، أي: لا تَترُكُه غيرَ مَصلِيٍّ بعَذابِها، وهذه كِنايةٌ عن إعادةِ حَياتِه بعْدَ إهلاكِه، كما قال تعالَى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦][١]. وذلك على قولٍ.

- وقولُه: ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ بِناءُ مُبالَغةٍ[٢].

- قولُه: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ معْنى ﴿عَلَيْهَا﴾ على حِراستِها، فـ(على) للاستعلاءِ بتَشبيهِ التَّصرُّفِ والوِلايةِ بالاستعلاءِ، كما يُقالُ: فلانٌ على الشُّرطةِ، أو على بَيتِ المالِ، أي: يَلي ذلك[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٢).

الآية (٣١)

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فِتْنَةً﴾: أي: اختِبارًا، وابتِلاءً، وامتِحانًا، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على اختِبارٍ وابتِلاءٍ[1].

﴿يَرْتَابَ﴾: أي: يشُكَّ، والرَّيبُ مصدرُ: رابَني الشَّيءُ: إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وهي قلَقُ النَّفْسِ واضطرابُها، وسُمِّيَ به الشَّكُّ؛ لأنَّه يُقلِقُ النَّفْسَ ويُزيلُ الطُّمأنينةَ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى ردًّا على المشرِكين، ومُبيِّنًا الحكمةَ مِن ذِكرِ عددِ خَزَنةِ النَّارِ: وما جعَلْنا خَزَنةَ النَّارِ التِّسعةَ عَشَرَ إلَّا ملائِكةً، وما جعَلْنا ذِكْرَ عَدَدِهم إلَّا فِتنةً للكُفَّارِ؛ لِيَستيقِنَ الَّذين أُوتُوا التَّوراةَ والإنجيلَ بأنَّ القُرآنَ حَقٌّ، وأنَّ محمَّدًا رَسولُ اللهِ، ويَزدادَ المؤمِنونَ إيمانًا بتَصديقِهم بهذا الخَبَرِ، ولا يَشُكَّ أهلُ التَّوراةِ والإنجيلِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩- ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

والمؤمِنونَ بما أخبَرَ اللهُ به من عَدَدِ خَزَنةِ النَّارِ، ولِيَقولَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ، والكافِرونَ باللهِ ورَسولِه: ما الحِكمةُ مِن هذا العَدَدِ؟

كما أضَلَّ اللهُ تعالى الكفَّارَ بهذا العَدَدِ، وهَدى المؤمِنينَ لقَبولِه، يُضِلُّ أيضًا مَن يَشاءُ ويَهْدي مَن يَشاءُ سُبحانَه وتعالى، وما يَعلَمُ جُنودَ رَبِّك وكَثْرتَهم إلَّا اللهُ وَحْدَه، وما هي إلَّا تَذكِرةٌ للنَّاسِ؛ لِيَتَّعِظوا بها ويَنزَجِروا.

تَفسيرُ الآيةِ:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سَبَق غيرَ مُمَيِّزٍ للمعدودِ، وكانت الحِكمةُ في تعيينِ هذا العدَدِ غيرَ ظاهرةٍ، وكان هذا العَدَدُ مِمَّا يَستقِلُّه المتعَنِّتُ، فيَزيدُه كُفرًا- قال تعالى مُبَيِّنًا ذلك[1]:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾.

أي: وما جعَلْنا خَزَنةَ النَّارِ التِّسعةَ عَشَرَ إلَّا ملائكةً[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٤).

قال ابنُ كثير: (ذلك ردٌّ على مُشركي قُرَيشٍ حينَ ذكَرَ عدَدَ الخَزَنةِ، فقال أبو جَهلٍ: يا معشَرَ قُرَيشٍ، أمَا يَستطيعُ كُلُّ عَشَرةٍ منكم لواحِدٍ منهم فتَغلِبونَهم؟! فقال اللهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: شَديدي الخَلْقِ، لا يُقاوَمونَ، ولا يُغالَبونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩).

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: وما جعَلْنا ذِكْرَ عَدَدِهم إلَّا فِتنةً للكُفَّارِ، ومِحنةً لهم[(١)].

﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

أي: ذكَرْنا ذلك العَدَدَ؛ لِيَستيقِنَ الَّذين أُوتُوا التَّوراةَ والإنجيلَ بأنَّ القُرآنَ حَقٌّ، وأنَّ محمَّدًا رَسولُ اللهِ؛ لِمُوافَقةِ كُتُبِهم للقُرآنِ بأنَّ عدَدَهم تِسْعةَ عَشَرَ[(٢)].

﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩).

قال الزَّجَّاج: (لأنَّ بَعْضَهم قال: بَعضُنا يكفي هؤلاء!). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٤٨).

وقال البيضاوي: (افتِتانُهم به: استِقلالُهم، واستهزاؤُهم به، واستبعادُهم أن يتولَّى هذا العَدَدُ القليلُ تعذيبَ أكثَرِ الثَّقَلينِ!). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالَّذين أُوتُوا الكِتابَ: اليهودُ والنَّصارى: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٦).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: اليهودُ حينَ يَبلُغُهم ما في القرآنِ مِن مِثْلِ ما في كُتُبِهم أو أخبارِهم، وكان اليهودُ يترَدَّدونَ على مكَّةَ في التِّجارةِ، ويتردَّدُ عليهم أهلُ مكَّةَ للمِيرةِ في خَيبَرَ وقُرَيظةَ ويَثرِبَ، فيَسألُ بَعضُهم بعضًا عمَّا يقولُه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويوَدُّ المُشرِكونَ لو يَجِدونَ عندَ اليَهودِ ما يكَذِّبونَ به أخبارَ القُرآنِ، ولكِنَّ ذلك لم يَجِدوه، ولو وَجَدوه لَكان أيسَرَ ما يَطعَنونَ به في القُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٧، ٤٩٨).

أي: وذَكَرْنا ذلك العَدَدَ؛ لِيَزدادَ المؤمِنونَ إيمانًا بتَصديقِهم بهذا الخَبَرِ[١].

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: ولا يَشُكَّ أهلُ التَّوراةِ والإنجيلِ والمؤمِنونَ باللهِ ورَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما أخبَرَ اللهُ به مِن عَدَدِ خَزَنةِ النَّارِ[٢].

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

أي: ولِيَقولَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ، والكافِرونَ باللهِ ورَسولِه: ما الحِكمةُ مِن وراءِ هذا العَدَدِ[٣]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

قال البِقاعي: (﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: أوجَدوا هذه الحقيقةَ ولو على أدنى الوُجوهِ إلى ما عِندَهم مِن الإيمانِ ﴿إِيمَٰنًا﴾ بتَصديقِ ما لم يَعلَموا وَجهَ حِكمتِه، لا سِيَّما مع افتِتانِ غَيرِهم به، وكثرةِ كلامِهم فيه؛ فإنَّ الإيمانَ بمِثْلِ ذلك يكونُ أعظَمَ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٦٣).

وقال السعدي: (المؤمِنونَ كُلَّما أنزَلَ اللهُ آيةً، فآمَنوا بها وصَدَّقوا؛ ازداد إيمانُهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٣، ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٧).

قال الواحدي: (معنى المثَلِ هاهنا: الحديثُ نَفْسُه، ومنه قَولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥]، أي: حَديثُها والخَبَرُ عنها). ((البسيط)) (٢٢/ ٤٤١).

وقال الرازي: (لَمَّا كان هذا العدَدُ عَدَدًا عَجيبًا، ظَنَّ القَومُ أنَّه رُبَّما لم يكُنْ مُرادُ اللهِ منه ما أشعَرَ به ظاهِرُه، بل جعَلَه مَثَلًا لشَيءٍ آخَرَ، وتنبيهًا على مقصودٍ آخَرَ- لا جَرَم سَمَّوْه مَثَلًا). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٢).

وقال أبو حيَّان: (لَمَّا سَمِعوا هذا العَدَدَ لم يَهتَدوا وحارُوا، فاستفهَمَ بعضُهم بعضًا عن ذلك؛ =

= استِبعادًا أن يكونَ هذا مِن عندِ اللهِ، وسَمَّوْه مَثَلًا استِعارةً مِنَ المثَلِ المَضروبِ؛ استِغرابًا منهم لهذا العَدَدِ، والمعنى: أيَّ شيءٍ أراد اللهُ بهذا العَدَدِ العَجيبِ؟! ومُرادُهم: إنكارُ أصْلِه، وأنَّه ليس مِن عندِ اللهِ!). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٤). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٢).

وقال ابن الجوزي: (﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وفيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه النِّفاقُ، ذكره الأكثَرونَ.

والثَّاني: أنَّه الشَّكُّ. قاله مُقاتلٌ، وزَعَم أنَّهم يهودُ أهلِ المدينةِ، وعِندَه أنَّ هذه الآيةَ مَدَنيَّةٌ.

والثَّالثُ: أنَّه الخِلافُ. قاله الحُسَينُ بنُ الفَضلِ. وقال: لم يكُنْ بمكَّةَ نِفاقٌ. وهذه مكِّيَّةٌ. فأمَّا «الكافرون» فهم مُشركو العَرَبِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ: أي نِفاقٌ، وأنَّ المرادَ المنافِقونَ: السمرقنديُّ، ومكِّي، والزمخشري، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٦٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٦).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بالمرضِ النِّفاقُ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٣٤).

قال النسفي: (فإنْ قُلتَ: النِّفاقُ ظَهَر في المدينةِ، والسُّورةُ مَكِّيَّةٌ؟ قلتُ: معناه: ولِيَقولَ المنافِقونَ الَّذين يَظهَرونَ في المستقبَلِ بالمدينةِ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٦٦).

وقال الإيجي: (وفي الآيةِ إخبارٌ عن الغيبِ؛ لأنَّها مكيَّةٌ، فظهَر النِّفاقُ في المدينةِ). ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٤٠٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّهم اليهودُ مِن أهلِ المدينةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٨).

قال ابن عاشور: (المَرَضُ في القلوبِ: هو سُوءُ النِّيَّةِ في القُرآنِ والرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهؤلاء هم الَّذين لم يَزالوا في تَرَدُّدٍ بيْن أن يُسلِموا وأن يَبقَوا على الشِّركِ، مِثلُ الأخنَسِ بنِ شَريقٍ، والوليدِ بنِ المُغيرةِ، وليس المرادُ بالَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ: المنافِقينَ؛ لأنَّ المنافِقينَ ما ظهَروا إلَّا في المدينةِ بعدَ الهجرةِ، والآيةُ مَكِّيَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٧).

قال ابن تيميَّةَ: (إنَّ مكَّةَ لم يكُنْ بها نِفاقٌ؛ بل إمَّا مؤمنٌ، وإمَّا كافرٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٢٧٤). =

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

أي: كما أضَلَّ اللهُ تعالى الكفَّارَ بهذا العَدَدِ، وهَدى المؤمنينَ لقَبولِه، يُضِلُّ بما يُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ أيضًا مَن يَشاءُ، فيَخذُلُه عن اتِّباعِ الحَقِّ، ويَهْدي مَن يَشاءُ، فيُوَفِّقُه لاتِّباعِ الحَقِّ، ولله الحِكمةُ البالِغةُ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

= وقال أيضًا: (أمَّا حينَ كان [أي: النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم] بمكَّةَ، وكان المؤمنونَ مُستَضْعَفينَ، فلم يكنْ أحدٌ يحتاجُ إلى النِّفاقِ، بل كان مِن المؤمنينَ مَن يَكتُمُ إيمانَه من كثيرٍ مِن النَّاسِ، ومنهم مَن يَتكلَّمُ بالكفرِ مُكرَهًا مع طُمأنينةِ قلبِه بالإيمانِ، وهذا مؤمنٌ باطنًا وظاهرًا... ولهذا قال العلماءُ -منهم أحمدُ بنُ حَنبلٍ-: لم يَكُنْ يُمكِنُهم نِفاقٌ، إنَّما كان النِّفاقُ بالمدينةِ. ولكنْ كان بمكَّةَ مَن في قلبِه مرضٌ، كما قال في السُّورةِ المكِّيَّةِ: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾ [المدثر: ٣١]). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٠٤).

وممَّن قال بأنَّ الكافِرينَ هم كُفَّارُ مكَّةَ: ابنُ جرير، ومكِّي، والبغوي، والزمخشري، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١٠).

وقيل: الكافِرونَ هنا هم اليهودُ والنَّصارى. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

قال ابنُ عاشور: (أي: مِثلَ ذلك الضَّلالِ الحاصِلِ للَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ وللكافِرينَ، والحاصِلِ للَّذين أوتوا الكتابَ بعدَ أن استيقَنوا، فلم يُؤمِنوا؛ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشاءُ أن يُضِلَّه مِن عِبادِه، ومِثلَ ذلك الهُدى الَّذي اهتداه المؤمِنونَ فزادهم إيمانًا مع إيمانِهم؛ يَهدي اللهُ مَن يَشاءُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٨).

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سَبَق مِمَّا يُوهِمُ قِلَّةَ جُنودِه تعالى؛ أَتْبَعَه ما يُزيلُ ذلك، فقال:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: وما يَعلَمُ عَدَدَ جُنودِ رَبِّك وكَثْرتَهم مِن الملائِكةِ أو غَيرِهم إلَّا اللهُ وَحْدَه[1].

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

أي: وما هي إلَّا تَذكِرةٌ عظيمةٌ للنَّاسِ؛ لِيَتَّعِظوا بها ويَنزَجِروا عن مُخالَفةِ الحَقِّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

قال القرطبي: (أي: وما يَدري عَدَدَ مَلائكةِ رَبِّك الَّذين خلَقَهم لتعذيبِ أهلِ النَّارِ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي: إلَّا اللهُ جَلَّ ثناؤُه). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: ما يَعلَمُ عَدَدَهم وكَثْرَتَهم إلَّا هو تعالى؛ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوَهِّمٌ أنَّهم تِسعةَ عَشَرَ فقط، كما قد قاله طائفةٌ مِن أهلِ الضَّلالةِ والجَهالةِ ومِن الفلاسفةِ اليونانيِّينَ، ومَن تابَعَهم مِن المِلَّتَينِ، الَّذين سمِعوا هذه الآيةَ، فأرادوا تنزيلَها على العُقولِ العَشَرةِ والنُّفوسِ التِّسعةِ الَّتي اختَرَعوا دعواها، وعَجَزوا عن إقامةِ الدَّلالةِ على مُقتضاها، أَفَهِموا صَدْرَ هذه الآيةِ وقد كَفَروا بآخِرِها؟! وهو قَولُه تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٠).

وقال السعدي: (الواجِبُ أن يُتلقَّى ما أخبَرَ اللهُ به ورسولُه بالتَّسليمِ؛ فإنَّه لا يعلَمُ جنودَ رَبِّك مِن الملائكةِ وغَيرِهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾، فإذا كنتُم جاهِلينَ بجُنودِه، وأخبَرَكم بها العليمُ الخبيرُ؛ فعليكم أن تُصَدِّقوا خبَرَه، مِن غيرِ شَكٍّ ولا ارتيابٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وقال ابنُ عاشور: (نَفْيُ العِلمِ هنا نَفيٌ للعِلمِ التَّفصيليِّ بأعدادِها وصِفاتِها وخصائصِها، بقرينةِ المقامِ؛ فإنَّ العِلمَ بعَدَدِ خَزَنةِ جَهنَّمَ قد حَصَل للنَّاسِ بإعلامٍ مِنَ اللهِ، لكِنَّهم لا يَعلَمونَ ما وراءَ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٧).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿هِيَ﴾: النَّارُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبَغَوي، =

كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣٥، ٣٦].

الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ فيه بيانُ أنَّ الواجِبَ على المؤمِنِ المُبادَرةُ بالتَّصديقِ والانقيادِ، ولو لم يَعلَمِ الحِكمةَ أو السِّرَّ أو الغَرَضَ، بِناءً على أنَّ الخبَرَ مِنَ اللهِ تعالى[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هذه مَقاصِدُ جَليلةٌ يعتني بها أولو الألبابِ، وهي السَّعيُ

= والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٣٤).

وقيل: المرادُ: الدَّلائِلُ والحُجَجُ في القرآنِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمرقنديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٣).

وقال الزَّجَّاجُ: (جاء في التَّفسيرِ: أنَّ النَّارَ في الدُّنيا تُذَكِّرُ بالنَّارِ في الآخِرةِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٤٨). قال الشوكاني: (وهو بعيدٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧).

وذهب السعديُّ إلى أنَّ المعنى: وما المقصودُ بهذه الموعِظةِ العبثَ، وإنَّما المقصودُ بها أن يَتذَكَّرَ البَشَرُ ما ينفَعُهم فيَفعَلوه، وما يَضُرُّهم فيتَرُكوه. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

قال الشوكاني: (﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: وما سَقَرُ وما ذُكِر مِن عَدَدِ خَزَنَتِها إلَّا تَذْكِرَةٌ وموعِظَةٌ للعالَمِ، وقيل: ﴿وَمَا هِىَ﴾ أي: الدَّلائلُ والحُجَجُ والقرآنُ إلَّا تذكِرَةٌ للبشرِ... وقيلَ: ما هي أي عِدَّةُ خزنةِ جهنَّمَ إلَّا تذكِرَةٌ للبشَرِ لِيَعْلَموا كمالَ قُدْرَةِ اللَّهِ وأنَّه لا يَحْتاجُ إلى أعْوانٍ وأنصارٍ. وقِيلَ: الضَّميرُ في ﴿وَمَا هِىَ﴾ يَرْجِعُ إلى الجنودِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩-٣٢٠).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٦٥).

في اليقينِ، وزيادةِ الإيمانِ في كُلِّ وَقتٍ، وكُلِّ مسألةٍ مِن مسائِلِ الدِّينِ، ودَفعِ الشُّكوكِ والأوهامِ الَّتي تَعرِضُ في مقابلةِ الحَقِّ، فجَعَل ما أنزلَه اللهُ على رَسولِه مُحَصِّلًا لهذه الفوائِدِ الجليلةِ، ومميِّزًا للكاذِبينَ مِنَ الصَّادِقينَ[(١)].

٣- إنَّ القلوبَ تمرضُ كغيرِها مِن الأعضاءِ، وعلاجُها في كتبِ الأطباء. وتمرضُ بالشُّبهاتِ والشُّكوكِ؛ لقولِه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وتمرضُ القلوبُ بالشَّهواتِ لقولِه تعالى ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] أي: فجورٌ، وهو شهوةُ الزِّنا، وعلاجُ ذلك اتباعُ كتابِ الله وسنَّةِ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، والاجتهادُ في الطَّاعاتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، وتركُ المحرَّماتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ جعَلَهم ملائِكةً؛ لوُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: لِيَكونوا بخِلافِ جِنسِ المعَذَّبينَ؛ لأنَّ الجِنسيَّةَ مَظِنَّةُ الرَّأفةِ والرَّحمةِ؛ ولذلك بَعَث الرَّسولَ المبعوثَ إلينا مِن جِنْسِنا؛ ليكونَ له رأفةٌ ورَحمةٌ بنا.

الوجهُ الثَّاني: أنَّهم أبعَدُ الخَلقِ عن معصيةِ اللهِ تعالى، وأقواهم على الطَّاعاتِ الشَّاقَّةِ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ قُوَّتَهم أعظَمُ مِن قوَّةِ الجنِّ والإنسِ[(٣)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

(٢) يُنظر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٣/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٠٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٩).

لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ فيه سُؤالٌ: ما وجْهُ تأثيرِ إنزالِ هذا المُتشابِهِ في استيقانِ أهلِ الكِتابِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ هذا العددَ لَمَّا كان موجودًا في كتابِهم، ثمَّ إنَّه عليه السَّلامُ أخبَرَ على وَفقِ ذلك مِن غَيرِ سابِقةِ دِراسةٍ وتعَلُّمٍ، فظَهَر أنَّ ذلك إنَّما حَصَل بسبَبِ الوَحيِ مِنَ السَّماءِ، فالَّذين آمَنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ الكتابِ يَزدادونَ به إيمانًا.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ التَّوراةَ والإنجيلَ كانا محَرَّفَينِ، فأهلُ الكِتابِ كانوا يَقرَؤونَ فيهما أنَّ عَدَدَ الزَّبانيةِ هو هذا القَدْرُ، ولكِنَّهم ما كانوا يُعَوِّلون على ذلك كلَّ التعويلِ؛ لعِلْمِهم بتطَرُّقِ التَّحريفِ إلى هذينِ الكتابينِ، فلمَّا سَمِعوا ذلك مِن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَوِيَ إيمانُهم بذلك، واستيقَنوا أنَّ ذلك العَدَدَ هو الحَقُّ والصِّدقُ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَعلَمُ مِن حالِ قُرَيشٍ أنَّه متى أخبَرَهم بهذا العَدَدِ العَجيبِ فإنَّهم يَستَهزِئونَ به ويَضحَكونَ منه؛ لأنَّهم كانوا يَستَهزِئونَ به في إثباتِ التَّوحيدِ والقُدرةِ والعِلمِ، مع أنَّ تلك المسائِلَ أوضَحُ وأظهَرُ، فكيف في ذِكرِ هذا العددِ العجيبِ؟! ثمَّ إنَّ استهزاءَهم برَسولِ الله وشِدَّةَ سُخريَتِهم به ما منَعَه مِن إظهارِ هذا الحَقِّ، فعندَ هذا يَعلَمُ كُلُّ أحَدٍ أنَّه لو كان غَرَضُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طلَبَ الدُّنيا والرِّياسةِ، لَاحتَرَز عن ذِكرِ هذا العَدَدِ العَجيبِ، فلمَّا ذكَرَه مع عِلْمِه بأنَّهم لا بدَّ أن يَستَهْزِئُوا به، عَلِمَ كُلُّ عاقلٍ أنَّ مَقصودَه منه إنَّما هو تبليغُ الوَحيِ، وأنَّه ما كان يُبالي في ذلك

لا بتَصديقِ المصَدِّقينَ، ولا بتكذيبِ المكَذِّبين[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ إثباتُ زيادةِ الإيمانِ[٢]، فالمؤمِنُ كُلَّما جاءه أمرٌ عن اللهِ وصَدَّقَه ولو لم يَعلَمْ حَقيقتَه؛ اكتِفاءً بأنَّه مِن اللهِ، ازداد بهذا التَّصديقِ إيمانًا، وهي مسألةُ ازديادِ الإيمانِ بالطَّاعةِ والتَّصديقِ[٣]. وفيه دليلٌ أيضًا على النَّقصِ؛ لأنَّه لا تُتَصَوَّرُ زيادةٌ إلَّا بما نَقَصَ عنها[٤]، وما جاز عليه الزِّيادةُ، جاز عليه النُّقصانُ[٥].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾ فيه سؤالٌ: القَومُ كانوا يُنكِرونَ كَونَ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ، فكيف قالوا: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾؟

الجوابُ: أمَّا الَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ، وهم المنافِقونَ، فكانوا في الظَّاهِرِ مُعتَرِفينَ بأنَّ القُرآنَ مِن عندِ اللهِ، فلا جَرَمَ قالوا ذلك باللِّسانِ، وأمَّا الكُفَّارُ فقالوه على سَبيلِ التَّهَكُّمِ، أو على سَبيلِ الاستِدلالِ بأنَّ القُرآنَ لو كان مِن عندِ اللهِ لَمَا قال مِثلَ هذا الكلامِ[٦].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزلةِ والقَدَرِيَّةِ في نِسبةِ الإضلالِ، والمشيئةِ منه سُبحانَه فيه[٧]. فالهدايةُ والإضلالُ بيدِ الله؛ يهدي مَن يشاءُ بفضلِه، ويُضِلُّ مَن يشاءُ بعدلِه، وهو أعلمُ بمواقعِ فضلِه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١١).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦٦).

(٥) يُنظر: ((الغنية لطالبي طريق الحق)) للجيلاني (١/ ١٣٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٢).

(٧) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٤١).

وعدلِه ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٣٠]، وله في ذلك الحكمةُ البالغةُ، والحجَّةُ الدَّامغةُ(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا ينبغي استصغارُ شيءٍ مِن خلقِ الله تعالى إلَّا مِن حيثُ أذِن الله في استصغارِه؛ فإنَّ الله تعالى إذا سلَّط أضعفَ خلقِه على أشدِّهم أهلَكه، كما سلَّط البعوضَ على نمرودَ فأهلَكه بها، وكما سلَّط الجرادَ والقمَّلَ والضَّفادعَ على فرعونَ وقومِه(٢).

بلاغةُ الآيةِ:

قولُه تعالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ صِيغةُ القصْرِ (ما... إلَّا) تُفيدُ قلْبَ اعتِقادِ أبي جَهْلٍ وغيرِه ما تَوهَّموه أو تَظاهَروا بتَوهُّمِه أنَّ المُرادَ تِسعةَ عشَرَ رجُلًا، فطَمِعَ أنْ يَخلُصَ منهم هو وأصحابُه بالقوَّةِ(٣).

- قولُه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ تَتميمٌ في إبطالِ تَوهُّمِ المشركينَ حَقارةَ عدَدِ خزَنةِ النارِ، وهو كَلامٌ جارٍ على تَقديرِ الأُسلوبِ الحَكيمِ(٤)؛ إذ

(١) يُنظر: ((أعلام السنة المنشورة)) للحكمي (ص: ٩٢).

(٢) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) لنجم الدين الغزي (٧/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٤).

(٤) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المُخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأولَى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: =

الكلامُ قدْ أثار في النُّفوسِ تَساؤلًا عن فائدةِ جَعْلِ خَزَنةِ جهنَّمَ تِسعةَ عشَرَ، وهلَّا كانوا آلافًا؛ ليكونَ مَرآهُم أشدَّ هَولًا على أهلِ النَّارِ؟ أو هلَّا كانوا مَلَكًا واحدًا؛ فإنَّ قُوَى الملائكةِ تَأتي كلَّ عمَلٍ يُسخِّرُها اللهُ له؟ فكان جَوابُ هذا السُّؤالِ: أنَّ هذا العدَدَ قدْ أظهَرَ لأصنافِ النَّاسِ مَبلَغَ فَهْمِ الكفَّارِ للقُرآنِ، وإنَّما حصَلَت الفِتنةُ مِن ذِكرِ عَددِهم في الآيةِ السَّابقةِ، فقولُه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ تَقديرُه: وما جَعَلْنا ذِكرَ عِدَّتِهم إلَّا فِتنةً...[1].

- والقصرُ في قولِه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَصْرُ قلْبٍ[2] للرَّدِّ

= ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٤).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقَصْرُ القَلبِ: أن يَقلبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) =

على الَّذين كَفَروا؛ إذِ اعتَقَدوا أنَّ عِدَّتَهم أمْرٌ هيِّنٌ، والتَّقديرُ: ما جعَلْنا ذِكرَ عِدَّتِهم لعِلَّةٍ وغرَضٍ إلَّا لغَرضِ فِتنةِ الَّذين كَفروا[١].

- وقيل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: وما جَعَلْنا عَدَدَهم إلَّا العددَ الَّذي اقْتَضى فِتنتَهم، وهو التِّسعةَ عشَرَ، فعُبِّرَ بالأثَرِ عن المُؤثِّرِ؛ تَنبيهًا على أنَّه لا يَنفَكُّ منه[٢].

- والاستِيقانُ: قُوَّةُ اليقينِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ فيه للمُبالَغةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المَقصودُ مِن ذِكرِه التَّمهيدُ لذِكرِ مُكابَرةِ الَّذين في قُلوبِهم مرَضٌ والكافِرينَ في سُوءِ فَهْمِهم لهذه العِدَّةِ؛ تَمْهيدًا بالتَّعريضِ قبْلَ التَّصريحِ؛ لأنَّه إذا قِيل: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ شَعَرَ الَّذين في قُلوبِهم مرَضٌ والكافِرون بأنَّهم لَمَّا ارْتابُوا في ذلك فقدْ كانوا دونَ مَرتبةِ الَّذين أُوتوا الكِتابَ؛ لأنَّهم لا يُنازِعون في أنَّ الَّذين أُوتوا الكِتابَ أرجَحُ منهم عُقولًا، وأسَدُّ قَولًا؛ ولذلك عُطِفَ عليه ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، أي: لِيَقولوا هذا القولَ إعرابًا عمَّا في نُفوسِهم مِن الطَّعنِ في القرآنِ غيرَ عالِمِينَ بتَصديقِ الَّذين أُوتوا

= للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٥).

الكِتابَ[١].

- فإنْ قِيل: لِمَ قال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ والاستِيقانُ وازديادُ الإيمانِ دالَّانِ على انتفاءِ الارتيابِ؟

فالجوابُ: لأنَّه إذا جَمَع لهم إثباتَ اليقينِ ونفْيَ الشَّكِّ، كان آكَدَ وأبلَغَ لوَصْفِهم بسُكونِ النَّفْسِ، وثَلَجِ الصَّدرِ، فالمقصودُ مِن إعادةِ هذا الكلامِ هو أنَّه حَصَل لهم يقينٌ جازمٌ، بحيثُ لا يحصُلُ عَقِيبَه البتَّةَ شَكٌّ ولا رَيبٌ، ولأنَّ فيه تَعريضًا بحالِ مَن عَداهم، كأنَّه قال: ولِتُخالِفَ حالُهم حالَ الشَّاكِّينَ المُرتابينَ مِن أهلِ النِّفاقِ والكُفْرِ[٢].

- وإنَّما لم يُنظَمِ المؤمنونَ في سَلْكِ أهلِ الكِتابِ في نفْيِ الارتيابِ، حيث لم يُقَلْ: ولا يَرْتابوا؛ للتَّنبيهِ على تَبايُنِ النَّفيَينِ حالًا، فإنَّ انتفاءَ الارتيابِ مِن أهلِ الكتابِ مُقارِنٌ لِما يُنافيهِ مِن الجُحودِ، ومِن المؤمنينَ مُقارِنٌ لِما يَقتضيهِ مِن الإيمانِ، وكَمْ بيْنَهما! والتَّعبيرُ عن المؤمنينَ باسمِ الفاعلِ في قولِه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بعْدَ ذِكرِهم بالموصولِ والصِّلةِ الفِعليَّةِ المُنبئةِ عن الحُدوثِ؛ للإيذانِ بثَباتِهم على الإيمانِ بعدَ ازديادِه، ورُسوخِهم في ذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ إفرادُ قَولِهم هذا بالتَّعليلِ مع كَونِه مِن بابِ فِتنتِهم؛ للإشعارِ باستقلالِه في الشَّناعةِ[٤].

- وقولُهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ، وتَقديرُ الكلامِ: ما الأمْرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٦، ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١١، ٧١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الَّذي أراده اللهُ بهذا الكلامِ في حالِ أنَّه مَثَلٌ؟! والمعنى: لم يُرِدِ اللهُ هذا العددَ المُمثَّلَ به، وقدْ كُنِّيَ بنَفْيِ إرادةِ اللهِ العدَدَ عن إنكارِ أنْ يكونَ اللهُ قال ذلك، فكَنَّوْا بنَفْيِ إرادةِ اللهِ وصْفَ هذا العدَدِ عن تَكذيبِهم أنْ يكونَ هذا العدَدُ مُوافقًا للواقعِ؛ لأنَّهم يَنْفُونَ فائدتَه، وإنَّما أرادوا تَكذيبَ أنْ يكونَ هذا وَحْيًا مِن عندِ اللهِ[1].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ تَشبيهٌ، الغرَضُ منه تَقريبُ المعْنى المعقولِ إلى المعْنَى المحسوسِ المعروفِ في واقعةِ الحالِ، فمِثلَ ذلك المذكورِ مِن الإضلالِ والهُدى يُضِلُّ الكافِرينَ ويَهْدي المؤمنينَ، وقاله تَعليمًا للمُسلمينَ، وتَنبيهًا للنَّظَرِ في تَحصيلِ ما يَنفَعُ نُفوسَهم. ووَجْهُ الشَّبهِ هو السَّببيَّةُ في اهتداءِ مَن يَهْتدي، وضَلالِ مَن يَضِلُّ، في أنَّ كُلًّا مِن المُشبَّهِ والمُشبَّهِ به جَعَلَه اللهُ سَببًا وإرادةً لحِكمةٍ اقْتَضاها عِلمُه تعالَى، فتَفاوَتَ النَّاسُ في مَدَى أفهامِهم فيه بيْن مُهتدٍ ومُرتابٍ مُختلِفِ المَرتبةِ في رَيبِه، ومُكابرٍ كافرٍ، وسيِّئِ فَهْمٍ كافرٍ. وهذه كَلمةٌ عَظيمةٌ في اختِلافِ تَلقِّي العُقولِ للحَقائقِ وانتفاعِهم بها أو ضِدِّه، بحسَبِ اختلافِ قَرائحِهم وفُهومِهم وتَراكيبِ جِبلَّاتِهم المُتسلسلةِ مِن صَوابٍ إلى مِثلِه، أو مِن تَردُّدٍ واضطرابٍ إلى مِثلِه، أو مِن حَنَقٍ وعِنادٍ إلى مِثلِه، فانْطَوى التَّشبيهُ مِن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على أحوالٍ وصُوَرٍ كثيرةٍ تَظهَرُ في الخارجِ[2].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ مَحلُّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصْبٌ بالنِّيابةِ عن المفعولِ المُطلَقِ؛ لأنَّ الجارَّ والمجرورَ هنا صِفةٌ لمَصدرٍ مَحذوفٍ دلَّت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٧).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٨).

عليه الصِّفةُ، والتَّقديرُ: يُضِلُّ اللهُ مَن يشاءُ، ويَهْدي مَن يشاءً إضلالًا وهَدْيًا كذلك الإضلالِ والهَدْي. وقُدِّمَ وصْفُ المفعولِ المُطلَقِ على الفِعلِ؛ للاهتمامِ بهذا التَّشبيهِ؛ لِما يُرشِدُ إليه مِن تَفصيلٍ عندَ التَّدبُّرِ فيه، وحصَل مِن تَقديمِه أيضًا مُحسِّنُ الجمْعِ، ثمَّ التَّقسيمِ[1]؛ إذ جاء تَقسيمُه بقولِه: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[2]. فحُذِفَ المَصدرُ، وأُقيمَ وصْفُه مُقامَه، ثمَّ قُدِّمَ على الفِعلِ لإفادةِ القَصرِ، فصارَ النَّظمُ: مِثلَ ذلكَ الإضلالِ وتلك الهِدايةِ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشاءُ إضلالَه؛ لصَرفِ اختيارِه حسَبَ استِعدادِه السَّيِّئِ إلى جانبِ الضَّلالِ عندَ مُشاهَدتِه لآياتِ الله تعالى النَّاطِقةِ بالهُدى، ويَهْدي مَن يَشاءُ هِدايتَه لصَرفِ اختيارِه حسَبَ استِعدادِه الحسَنِ عندَ مُشاهَدةِ تلك الآياتِ إلى جانبِ الهُدى، لا إضلالًا وهِدايةً أدْنَى منهما[3].

- قولُه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ كَلمةٌ جامعةٌ لإبطالِ التَّخرُّصاتِ الَّتي يَتخرَّصُها الضَّالُّون ومَرضَى القُلوبِ عندَ سَماعِ الأخبارِ عن عالَمِ الغَيبِ وأُمورِ الآخِرةِ، مِن نحْوِ ما هَذَى به أبو جهْلٍ في أمْرِ خَزَنةِ جَهنَّمَ، يَشملُ ذلك وغيرَه؛ فلذلك كان لهذه الجُملةِ حُكْمُ التَّذييلِ[4].

- قولُه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ إضافةُ (ربّ) إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إضافةُ تَشريفٍ، وتَعريضٌ بأنَّ مِن شأْنِ تلك الجُنودِ أنَّ بَعضَها يكونُ

---

(١) الجمعُ والتَّقسيمُ: هو جمْعُ متعدِّدٍ تحتَ حُكمٍ، ثمَّ تقسيمُه، كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (ص: ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩).

به نصْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

- قولُه: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ فيه مَعانٍ كَثيرةٌ، أعْلاها أنْ يكونَ هذا تَتِمَّةً لقولِه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، على أنْ يكونَ جاريًا على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ[٢]، أي: أنَّ النَّافِعَ لكم أنْ تَعلَموا أنَّ الخبرَ عن خَزَنةِ النَّارِ بأنَّهم تِسعةَ عشَرَ -وذلك على قولٍ-، فائدتُه أنْ يكونَ ذِكرَى للبشَرِ؛ ليَتذكَّروا دارَ العِقابِ بتَوصيفِ بَعضِ صِفاتِها؛ لأنَّ في ذِكرِ الصِّفةِ عَونًا على زِيادةِ استِحضارِ الموصوفِ، فغرَضُ القُرآنِ الذِّكرى، وقدِ اتَّخَذه الضَّالُّون ومَرضَى القُلوبِ لَهوًا وسُخريةً ومِراءً بالسُّؤالِ عن جَعْلِهم تِسعةَ عَشَرَ ولم يَكونوا عِشرينَ، أو مِئاتٍ، أو آلافًا[٣]!

- وقيل: قولُه: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ القصْرُ مُتوجِّهٌ إلى مُضافٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه السِّياقُ، تَقديرُه: وما ذِكْرُها أو وَصْفُها، أو نحْوُ ذلك[٤].

- وإنَّما حَمَلَتِ الآيةُ المعانيَ الكثيرةَ بحُسنِ مَوقعِها في هذا الموضِعِ، وهذا مِن بَلاغةِ نظْمِ القُرآنِ، ولو وَقَعَت إثرَ قولِه: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٩] لَتمحَّضَ ضَميرُ ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ للعَودِ إلى سَقَرَ، وهذا مِن الإعجازِ بمَواقعِ جُمَلِ القرآنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٢٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٢-٣٧)

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَسْفَرَ﴾: أي: أضاء وانتَشَر ضَوؤُه، وأصلُ (سفر): يدُلُّ على انكِشافٍ وجَلاءٍ[(١)].

﴿ٱلْكُبَرِ﴾: أي: العَظائِمِ، وهي جمعُ «الكُبْرى»، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾

قَولُه تعالى: ﴿نَذِيرًا﴾: في نَصبِه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّه حالٌ ممَّا دلَّت عليه الجُملةُ، أي: كَبُرَت مُنذِرةً، فـ ﴿نَذِيرًا﴾ وَصفٌ بمعنى «مُنذِرةً»، وإنَّما لم يُؤَنِّثْ ﴿نَذِيرًا﴾ وهو حالٌ مِن مُؤَنَّثٍ «سَقَر»؛ لأنَّها بمعنى «ذاتَ إنذارٍ» على معنى النَّسَبِ. الثَّاني: أنَّه حالٌ مِنْ «إحْدَى»، أي: إنَّها لكبيرةٌ في حالِ الإنذارِ، والهاءُ في ﴿إِنَّهَا﴾ تعودُ إلى «سَقَر» النَّارِ، وذُكِّرَ الحالُ؛ لأنَّ النَّارَ في معنى «العذابِ». الثَّالثُ: أنَّه تمييزٌ عن «إحدى»؛ لِما تضَمَّنه مِن معنى التَّعظيمِ، كأنَّه قيل: أعظَمُ الكُبَرِ إنذارًا، فـ «نذير» بمعنى الإنذارِ، كالنَّكيرِ بمعنى الإنكارِ. وقيل غَيرُ ذلك[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٥٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٩).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ليس الأمرُ كما يظُنُّ المُشرِكونَ في شأنِ عِدَّةِ خَزَنةِ النَّارِ.

وأُقسِم بالقَمَرِ، وباللَّيلِ وَقتَ ذَهابِه، وبالصُّبحِ إذا ابتدَأَ ظُهورُ ضَوئِه؛ إنَّ النَّارَ لإِحْدى الأُمورِ الكُبْرى الَّتي لا نَظيرَ لها، مُنْذِرةً للنَّاسِ؛ لِمَن شاء أن يَقبَلَ النِّذارةَ ويَهتَدِيَ للحَقِّ، فيتقَدَّمَ إلى الإيمانِ، ولِمَن شاء أن يتأَخَّرَ عن الإيمانِ، فلا يَرْعوِيَ بنِذارتِها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢﴾.

﴿كَلَّا﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يظُنُّ المُشرِكونَ في شأنِ عِدَّةِ خَزَنةِ النَّارِ[1].

﴿وَٱلْقَمَرِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧).

وهذا المعنى المذكورُ لـ﴿كَلَّآ﴾ ذهب إليه في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، واستظهره الشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧).

قال الشوكاني: (قال ابنُ جرير: والمعنى: ردٌّ زعْم مَنْ زعَمَ أنَّه يُقاوِمُ خَزَنةَ جَهنَّمَ، أي: ليس الأمرُ كما يقولُ، ثمَّ أقسَمَ على ذلك بالقَمَرِ وبما بَعْدَه. وهذا هو الظَّاهِرُ مِن معنى الآيةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧).

وقيل: ﴿كَلَّآ﴾ هنا بمعنى: حَقًّا. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحديُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٥).

أي: وأُقسِم بالقَمَرِ[١].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ وَقتَ ذَهابِه وانصِرافِه[٢].

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤﴾.

أي: وأُقسِمُ بالصُّبحِ إذا ابتدَأَ ظُهورُ ضَوئِه عندَ الفَجرِ[٣].

﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ٣٥﴾.

أي: إنَّ النَّارَ لَإِحْدى الأُمورِ الكُبْرى الَّتي لا نَظيرَ لها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٤)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٤٤١).

قال ابن عطية: («أسفَرَ الصُّبحُ»: أضاء وانتَشَر ضَوؤُه قبلَ طُلوعِ الشَّمسِ بكثيرٍ، والإسفارُ رُتَبٌ: أوَّلُ، ووسَطٌ، وآخِرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿إِنَّهَا﴾ يعودُ إلى سَقَرَ الَّتي جرى ذِكرُها، وهي النَّارُ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والرازي، والرَّسْعَني، والنسفي، والخازن، وأبو حيَّان، والعُليمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٤)، ((تفسير الرسعني)) =

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: مُنْذِرةً للنَّاسِ، فتُخَوِّفُهم وتحَذِّرُهم تحذيرًا بالِغًا[١].

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: لِمَن شاء أن يَقبَلَ النِّذارةَ، ويَهتَدِيَ للحَقِّ، فيتقَدَّمَ إلى الإيمانِ والخَيرِ، ولِمَن شاء أنْ يتأخَّرَ عن الإيمانِ والخيرِ، فلا يَرْعويَ بنِذارتِها[٢].

= (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ -أي: أنَّ المرادَ النَّارُ-: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وأبو رَزِينٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣).

قال الماوَرْدي: (﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ فيها ثلاثةُ تأويلاتٍ:

أحدُها: أي أنَّ تكذيبَهم بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم لَإِحْدى الكُبَرِ، أي: الكبيرةُ مِن الكبائرِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: أي أنَّ هذه النَّارَ لَإِحْدى الكُبَرِ، أي: لَإِحْدى الدَّواهي.

الثَّالثُ: أنَّ هذه الآيةَ لَإِحْدى الكُبَرِ، حكاه ابنُ عيسى.

ويحتمِلُ رابعًا: أنَّ قيامَ السَّاعةِ لَإِحْدى الكُبَرِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (يحتمِلُ أن يكونَ الضَّميرُ للنِّذارةِ وأمرِ الآخِرةِ، فهو للحالِ والقِصَّةِ، وتكونَ هذه الآيةُ مِثلَ قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالنَّذيرِ هنا: النَّارُ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٣).

قال ابنُ عاشور: (أي: إنَّها لَعُظمى العَظائمِ في حالِ إنذارِها للبَشَرِ، وكفى بها نذيرًا!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

إنَّ إضاعةَ الوَقتِ الصَّحيحِ يَدْعو إلى دَرَكِ النَّقيصةِ؛ إذ صاحِبُ حِفْظِه مُتَرَقٍّ على دَرَجاتِ الكمالِ، فإذا أضاعه لم يقِفْ مَوضِعَه، بل يَنزِلُ إلى دَرَجاتٍ مِنَ النَّقصِ، فإنْ لَمْ يكنْ في تَقَدُّمٍ فهو مُتَأَخِّرٌ ولا بُدَّ، فالعبدُ سائرٌ لا واقفٌ؛ فإمَّا إلى فوقٍ وإمَّا إلى أسفلَ، إمَّا إلى أمامٍ وإمَّا إلى وراءٍ، وليس في الطبيعةِ ولا في الشَّريعةِ وُقوفٌ البَتَّةَ، ما هو إلَّا مراحِلُ تُطْوَى أسرعَ طيٍّ إلى الجنَّةِ أو النَّارِ، فمُسْرِعٌ ومُبْطِئٌ، ومُتَقَدِّمٌ ومُتَأَخِّرٌ، وليس في الطَّريقِ واقفٌ البَتَّةَ! وإنَّما يَتخالَفونَ في جهةِ المسيرِ، وفي السُّرعةِ والبُطءِ ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٥ - ٣٧]، فلَمْ يَذْكُرْ واقفًا؛ إذْ لا مَنْزِلَ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، ولا طريقَ لسالكٍ إلى غيرِ الدَّارَينِ البَتَّةَ، فمَن لم يَتَقَدَّمْ إلى هذه بالأعمالِ الصَّالحةِ، فهو متأخِّرٌ إلى تلك بالأعمالِ السَّيِّئةِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ * وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أقْسَم سُبحانَه بهذه الأشياءِ الثَّلاثةِ -وهي: القمرُ، واللَّيلُ إذا أدْبَر، والصُّبحُ إذا أسْفَر- على المَعادِ؛ لِمَا في القَسَمِ مِن الدَّلالةِ على ثُبوتِ المُقْسَمِ عليه؛ فإنَّه يَتضمَّنُ كمالَ قدرتِه وحكمتِه وعنايتِه بخَلْقِه، وإبداءَ الخَلْقِ وإعادتَه، كما هو مشهودٌ في إبداءِ النَّهارِ واللَّيلِ وإعادتِهما، وفي إبداءِ النُّورِ وإعادتِه في القمرِ، وفي إبداءِ الزَّمانِ

= عطية)) (٥/ ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٣).

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٧٨).

وإعادتِه -الَّذي هو حاصلٌ بسَيرِ الشَّمسِ والقمرِ-، وإبداءِ الحيوانِ والنَّباتِ وإعادتِهما، وإبداءِ فصولِ السَّنَةِ وإعادتِها، وإبداءِ ما يَحْدُثُ في تلك الفصولِ وإعادتِه، فكلُّ ذلك دليلٌ ظاهرٌ على المبدأِ والمعادِ الَّذي أخْبَرَتْ به الرُّسُلُ كلُّهم عنه؛ فصَرَّفَ سُبحانَه الآياتِ الدَّالَّةَ على صِدْقِ رُسُلِه، ونَوَّعَها، وجَعَلها للفِطَرِ تارةً، والسَّمعِ تارةً، والمُشاهَدةِ تارةً، فجَعَلها آفاقيَّةً ونفْسيَّةً، ومنقولةً ومعقولةً، ومشهودةً بالعيَانِ ومذكورةً بالجَنانِ؛ فأبَى الظَّالِمونَ إلَّا كُفورًا! ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾[1] [الفرقان: ٣].

بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ۝ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ﴾ (كلَّا) حرْفُ رَدْعٍ وإبطالٍ، وهو رَدْعٌ لقَولِ مَن قالوا: إنَّهم يَقدِرونَ على مُقاوَمةِ خَزَنةِ جَهنَّمَ[2]. ويحتمِلُ أنْ يكونَ إبطالًا لِما قبْلَه مِن قولِهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾، فيَكونَ ما بيْنَهما اعتراضًا، ويكونَ قولُه: ﴿وَٱلۡقَمَرِ﴾ ابتداءَ كَلامٍ، فيَحسُنُ الوقفُ على ﴿كَلَّا﴾. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ حرْفَ إبطالٍ مُقدَّمًا على الكلامِ الَّذي بعْدَه مِن قولِه: ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ۝ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣٥، ٣٦] تَقديمَ اهتِمامٍ لإبطالِ ما يَجِيءُ بعْدَه مِن مَضمونِ قولِه: ﴿نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ﴾، أي: مِن حقِّهم أنْ يَنتذِروا بها، فلمْ يَنتذِرْ أكثَرُهم، على نحْوِ معْنى قولِه: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]، فيَحسُن أنْ تُوصَلَ في القراءةِ بما

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٥).

بعْدَها[١].

- الواوُ في ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ واوُ القسَمِ، وهذا القسَمُ يجوزُ أنْ يكونَ تَذييلًا لِما قبْلَه مُؤكِّدًا لِما أفادَتْه ﴿كَلَّا﴾ مِن الإنكارِ والإبطالِ لمَقالتِهم في شأْنِ عِدَّةِ خَزَنةِ النارِ؛ فتكونَ جُملةُ ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ تَعليلًا للإنكارِ الَّذي أفادَتْه ﴿كَلَّا﴾، ويكونَ ضَميرُ ﴿إِنَّهَا﴾ عائدًا إلى ﴿سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦]، أي: هي جَديرةٌ بأنْ يُتذكَّرَ بها؛ فلذلك كان مَن لم يَتذكَّرْ بها حَقيقًا بالإنكارِ عليه ورَدْعِه، وجُملةُ القَسَمِ على هذا الوجْهِ مُعترِضةٌ بيْن الجُملةِ وتَعليلِها. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ القسَمُ صَدْرًا للكلامِ الَّذي بعْدَه، وجُملةُ ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ جَوابَ القسَمِ[٢].

- قولُه: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ * وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ هذه ثلاثةُ أيْمانٍ لزِيادةِ التَّأكيدِ؛ فإنَّ التَّأكيدَ اللَّفظيَّ إذا أُكِّد بالتَّكرارِ يُكرَّرُ ثلاثَ مرَّاتٍ غالبًا، أقسَمَ بمَخلوقٍ عَظيمٍ، وبحالَينِ عَظيمَينِ مِن آثارِ قُدرةِ اللهِ تعالَى[٣].

- ومُناسَبةُ القسَمِ بـ ﴿وَٱلْقَمَرِ * وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أنَّ هذه الثَّلاثةَ تَظهَرُ بها أنوارٌ في خِلالِ الظَّلامِ، فناسَبَت حالَي الهُدى والضَّلالِ مِن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١]، ومِن قولِه: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١]؛ ففي هذا القسَمِ تَلويحٌ إلى تَمثيلِ حالِ الفَريقَينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢).

مِن النَّاسِ عندَ نُزولِ القُرآنِ بحالِ اختراقِ النُّورِ في الظُّلمةِ[١].

- وأقسَمَ تعالَى بهذه الأشياءِ تَشريفًا لها، وتَنبيهًا على ما يَظهَرُ بها وفيها مِن عَجائبِ اللهِ وقُدرتِه، وقِوامِ الوُجودِ بإيجادِها[٢].

قولُه: ﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ أقسَمَ باللَّيلِ في حالةِ إدْبارِه الَّتي مضَتْ، وهي حالةٌ مُتجدِّدةٌ تَمضي وتَحْضُرُ وتُستقبَلُ، فأيُّ زَمنٍ اعتُبِرَ معها فهي حقيقةٌ بأنْ يُقسَمَ بكَونِها فيه؛ ولذلك أقْسَمَ بالصُّبحِ إذا أسفَرَ مع اسمِ الزَّمنِ المستقبَلِ، فحصَل تفنُّنٌ في القَسمِ[٣].

- وقد أُجرِيَت جُملةُ ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ [المدثر: ٣٥] مُجْرى المثَلِ، ومعنَى (إحْدَى) أنَّها المتوحدِّةُ المتميِّزةُ مِن بيْنِ الكُبَرِ في العِظَمِ لا نظيرةَ لها، كما يُقالُ: هو أحدُ الرِّجالِ، لا يُرادُ: أنَّه واحدٌ منهم، بل يُرادُ: أنَّه مُتوحِّدٌ فيهم بارزٌ ظاهرٌ[٤].

- قولُه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ بدَلٌ مُفصَّلٌ مِن مُجمَلٍ مِن قولِه: ﴿لِّلْبَشَرِ﴾، وأُعِيدَ حرْفُ الجرِّ مع البدَلِ للتَّأكيدِ، والمعْنى: أنَّها نَذيرٌ لِمَن شاء أنْ يَتقدَّمَ إلى الإيمانِ والخَيرِ ليَنتذِرَ بها، ولِمَن شاء أنْ يَتأخَّرَ عن الإيمانِ والخَيرِ فلا يَرْعوي بنِذارتِها؛ لأنَّ التَّقدُّمَ مشْيٌ إلى جِهةِ الأمامِ، فكأنَّ المُخاطَبَ يَمْشي إلى جِهةِ الدَّاعي إلى الإيمانِ، وهو كِنايةٌ عن قَبولِ ما يَدْعو إليه، وبعكْسِه التَّأخُّرُ، فحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ و﴿يَتَأَخَّرَ﴾ لظُهورِه مِن السِّياقِ. ويَجوزُ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢).
ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢).

يُقدَّرَ: لِمَن شاء أنْ يَتقدَّمَ إليها، أي: إلى سَقَرَ؛ بالإقدامِ على الأعمالِ الَّتي تُقدِّمُه إليها، أو يَتأخَّرَ عنها؛ بتَجنُّبِ ما مِن شَأنِه أنْ يُقرِّبَه منها[١].

- وتَعليقُ ﴿نَذِيرًا﴾ بفِعلِ المشيئةِ إنذارٌ لِمَن لا يَتذكَّرُ بأنَّ عدَمَ تَذكُّرِه ناشئٌ عن عدَمِ مَشيئتِه، فتَبعَتُه عليه؛ لتَفريطِه، على نحْوِ قولِ المثَلِ: «يَداكَ أَوْكَتَا، وفُوكَ نَفَخ»[٢].

- وذُكِّر ﴿نَذِيرًا﴾؛ لأنَّ معناه معنَى العذابِ، أو أرادَ ذاتَ إنذارٍ على معنَى النَّسَبِ، كقولِهم: امرأةٌ طالِقٌ وطاهِرٌ، أو لأنَّ النَّذيرَ مصدرٌ كالنَّكيرِ؛ ولذلك يُوصَفُ به المؤَنَّثُ[٣].

- وفي ضَميرِ ﴿مِنكُمْ﴾ الْتفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ لأنَّ مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: لِمَن شاء مِنْهم، أي: مِن البشَرِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٤).

الآيات (٢٨-٤٨)

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَهِينَةٌ﴾: أي: محبوسةٌ بكَسْبِها، مأخوذةٌ بعمَلِها، ومُرتَهَنةٌ به غيرُ مفكوكةٍ، وكلُّ ما احتُبِس به شيءٌ فرهينُه ومُرْتهَنُه، والرَّهينةُ اسمٌ بمعنى الرَّهنِ، كالشَّتيمةِ بمعنى الشَّتمِ، وأصلُ (رهن): يدُلُّ على ثباتِ شيءٍ يُمْسَكُ بحقٍّ أو غيرِه[1].

﴿سَلَكَكُمْ﴾: أي: أدخلَكم، والسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريقِ، يُقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ أسْلُكُه، وسَلَكْتُ الشَّيءَ في الشَّيءِ: أنْفَذْتُه، وأصلُ (سلك): يدُلُّ على نُفوذِ شيءٍ في شيءٍ[2].

﴿ٱلْخَآئِضِينَ﴾: أي: الغاوِينَ الكاذِبينَ أهلِ الباطِلِ، والخَوضُ: الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، ويُستعمَلُ في الدُّخولِ في الأمرِ بالقَولِ، وأكثَرُ ما وردَ في القُرآنِ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، وأصلُ (خوض): يدُلُّ على توسُّطِ شَيءٍ ودُخولٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٨٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير =

﴿بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: أي: يومِ الجزاءِ والحسابِ، وهو يومُ القيامةِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازيتُه، وأصلُ (دين): جِنْسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[١].

﴿ٱلۡيَقِينُ﴾: أي: الموتُ المُوقَنُ به؛ فإنَّه أمرٌ متيقَّنٌ لا شكَّ في إتيانِه، واليَقينُ: اسمُ مصدَرِ يَقِنَ -كفَرِحَ-، إذا عَلِم عِلْمًا لا شَكَّ معه ولا تَرَدُّدَ، وأصلُ اليقينِ: زوالُ الشَّكِّ[٢].

﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾: الشَّفاعةُ: الانضِمامُ إلى آخَرَ؛ نُصرةً له، وسؤالًا عنه، يُقالُ: شفَع لفُلانٍ إذا جاء مُلتَمِسًا مَطلبَه، ومُعينًا له، وأصْلُ الشَّفْعِ: ضمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ اللهُ تعالى جانبًا مِن مَظاهِرِ عدلِه، والأسبابِ الَّتي أدَّتْ إلى دُخولِ الكافِرينَ النَّارَ، فيقولُ: كلُّ نَفْسٍ بما عَمِلَت في الدُّنيا مِن سَيِّئاتٍ وذُنوبٍ: مَحبوسةٌ بها في النَّارِ، إلَّا المؤمِنينَ الَّذين يُعطَونَ كُتُبَ أعمالِهم بأيْمانِهم؛ فإنَّهم تُغفَرُ ذُنوبُهم، ولا يُحبَسُونَ في النَّارِ بها.

إنَّ أصحابَ اليَمينِ في جَنَّاتِ النَّعيمِ يَسألونَ عن أصحابِ النَّارِ، يقولونَ لهم: ما الَّذي أوجَبَ دُخولَكم النَّارَ؟ قالوا لهم: لم نكُنْ في الدُّنيا مِنَ المصَلِّينَ،

= القرطبي)) (١٩/ ٨٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٥٦)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((تفسير الخلوتي)) (١٠/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

ولم نكُنْ نُطعِمُ المِسكِينَ، وكنَّا نخوضُ في الباطِلِ مع مَن يَخوضونَ فيه، وكُنَّا نُكذِّبُ بيومِ الحِسابِ والجَزاءِ، حتَّى أتانا الموتُ. فما تَنفَعُ أولئك الكافِرينَ شَفاعةُ الشَّافِعينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: كلُّ نَفْسٍ بما عَمِلَت في الدُّنيا مِن سَيِّئاتٍ وذُنوبٍ: مَحبوسةٌ بها في النَّار[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ لقولِه تعالى: ﴿رَهِينَةٌ﴾ في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١٢).

وقال السعدي: (﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مِن أعمالِ السُّوءِ، وأفعالِ الشَّرِّ ﴿رَهِينَةٌ﴾ بها، موثَقةٌ بسَعْيِها، قد أُلزِمَ عُنُقَها، وغُلَّ في رقبتِها، واستوجَبَتْ به العذابَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ يقولُ: كلُّ كافرٍ مُرتَهَنٌ بذُنوبِه في النَّارِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٩).

قال الماوَرْدي: (﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ:

أحَدُها: أنَّ كُلَّ نفْسٍ مُرتَهَنةٌ مُحتبَسةٌ بعَمَلِها؛ لِتُحاسَبَ عليه، إلَّا أصحابَ اليمينِ، وهم أطفالُ المسلِمينَ؛ فإنَّه لا حسابَ عليهم؛ لأنَّه لا ذُنوبَ لهم. قاله عليٌّ رضيَ الله عنه.

الثَّاني: كلُّ نفْسٍ مِن أهلِ النَّارِ مُرتَهَنةٌ في النَّارِ، إلَّا أصحابَ اليمينِ، وهم المسلِمون؛ فإنَّهم لا يُرتَهَنونَ، وهم إلى الجنَّةِ يُسارِعونَ. قاله الضَّحَّاكُ.

الثَّالثُ: كُلُّ نفْسٍ بعَمَلِها مُحاسَبةٌ، إلَّا أصحابَ اليمينِ، وهم أهلُ الجنَّةِ؛ فإنَّهم لا يُحاسَبونَ. قاله ابنُ جُرَيجٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٨).

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: إلَّا المؤمنينَ الَّذين يُعطَونَ كُتُبَ أعمالِهم بأيْمانِهم؛ فإنَّهم لا يُحبَسُونَ في النَّارِ بذُنوبِهم؛ لأنَّ اللهَ يَغفِرُها لهم(١).

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٢].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُدْني المؤمِنَ، فيَضَعُ عليه كَنَفَه(٢) ويَستُرُه، فيقولُ: أتعرِفُ ذَنْبَ كذا؟ أتعرِفُ ذنْبَ كذا؟ فيقولُ: نَعَمْ، أيْ رَبِّ! حتَّى إذا قَرَّره بذُنوبِه، ورأى في نَفْسِه أنَّه هلَك، قال: سَتَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليومَ، فيُعطَى كِتابَ حَسَناتِه))(٣).

﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧١).
قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ الَّذين أُعطوا كُتُبَهم بأيْمانِهم، لا يُرتَهنون بذُنوبِهم في النَّارِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٩).
وقال البغوي: (لا يُرتَهنونَ بذُنوبِهم في النَّارِ، ولكنْ يَغفِرُها اللهُ لهم). ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٩).
وقال جلال الدِّين المحلِّي: (﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ وهم المؤمنونَ؛ فناجُونَ منها). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧٧).

(٢) كَنَفَه: سَتْرَه وعَفْوَه. يُنظر: ((خلق أفعال العباد)) للبخاري (ص: ٧٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٧).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٤٤١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٦٨).

أي: إنَّ أصحابَ اليَمينِ في جَنَّاتِ النَّعيمِ يَسألونَ عن أصحابِ النَّارِ المُجرِمينَ[١].

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: يَقولونَ لهم: ما الَّذي أوجَبَ دُخولَكم النَّارَ[٢]؟

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: قال المجرِمونَ لهم: الَّذي أدخَلَنا النَّارَ هو أنَّنا لم نكُنْ في الدُّنيا مِنَ المصَلِّينَ للهِ وَحْدَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

قال الشوكاني: (قولُه: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يجوزُ أن يكونَ على بابِه، أي: يَسألُ بعضُهم بعضًا، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى: يَسألون، أي: يَسألون غيرَهم، نحو دَعَيْتُه وتَداعَيْتُه؛ فعلى الوجهِ الأوَّلِ يكونُ ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾، أي: يَسألُ بعضُهم بعضًا عن أحوالِ المجرمين، وعلى الوجهِ الثَّاني تكونُ «عن» زائدةً، أي: يَسألونَ المجرمين). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٩).

وقال ابن عاشور: (إنْ كان السُّؤالُ على حقيقَتِه والاستفهامُ مُستعمَلًا في أصلِ معناه كانَ الباعِثُ على السُّؤالِ: إمَّا نسيانُ الَّذي كانوا عَلِموه في الدُّنيا مِن أسبابِ الثَّوابِ والعقابِ فيَبقَى عُمومُ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ الرَّاجعُ إلى أصحابِ اليمينِ وعُمومُ ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ على ظاهِرِه، فكلُّ مِن أصحابِ اليمينِ يُشرِفُ على المجرِمينَ مِن أعالي الجنَّةِ، فيَسألُهم عن سببِ وُلُوجِهم النَّارَ، فيحصلُ جوابُهم، وذلك إلهامٌ مِن الله لِيَحمَدَه أهلُ الجنَّةِ على ما أخَذوا به مِن أسبابِ نجاتِهم ممَّا أصاب المجرِمينَ، ويَفرَحوا بذلك. وإمَّا أن يكونَ سؤالًا موَجَّهًا مِن بعضِ أصحابِ اليمينِ إلى ناسٍ كانوا يَظُنُّونَهم مِن أهلِ الجنَّةِ فرَأَوْهم في النَّارِ مِن المُنافقينَ أو المرتَدِّينَ بعدَ موتِ أصحابِهم، فيكونَ المرادُ بأصحابِ اليمينِ بعضَهم، وبالمجرِمينَ بعضَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: ولم نكُنْ نُطعِمُ المِسكِينَ؛ بُخلًا بما أعطانا اللهُ، ومَنْعًا لِما أوجَبَ علينا مِن الزَّكَواتِ والصَّدَقاتِ(١).

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: وكنَّا في الدُّنيا نَخوضُ في الباطِلِ مع مَن يَخوضونَ فيه، فنُخالِطُهم في باطِلِهم(٢).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣].

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: وكُنَّا في الدُّنيا نُكذِّبُ بيومِ الحِسابِ والجَزاءِ، فلا نُصدِّقُ بالقيامةِ ولا بالجنَّةِ والنَّارِ(٣).

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣).

قال ابنُ كثير: (أي: ما عبَدْنا رَبَّنا، ولا أحسَنَّا إلى خَلْقِه مِن جِنْسِنا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤٧).

قال البِقاعي: (﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ بحيث صار لنا هذا وَصفًا راسِخًا، فنَقولُ في القُرآنِ: إنَّه سِحرٌ، وإنَّه شِعرٌ، وإنَّه كِهانةٌ، وغيرَ هذا مِن الأباطيلِ، لا نتورَّعُ عن شيءٍ مِن ذلك، ولا نَقِفُ مع عَقلٍ، ولا نرجِعُ إلى صحيحِ نَقلٍ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٧).

أي: فاستَمرَرْنا على كُفْرِنا وضَلالِنا حتَّى أتانا الموتُ[١].

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: فما تَنفَعُ الكافِرينَ شَفاعةُ الشَّافِعينَ؛ مِنَ الملائكةِ والأنبياءِ، والشُّهَداءِ والصَّالِحينَ، حينَ يَقبَلُ اللهُ شفاعتَهم في المُذنِبينَ الموَحِّدينَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أنَّه لا أحدَ يُعطَى مِن عَمَلِ أحَدٍ، ولا يُؤْخَذُ منه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٨)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

قال ابن تيمية: (المرادُ به ما يُوقَنُ به من الموتِ وما بَعْدَه، باتِّفاقِ السَّلَفِ). ((الرد على الشاذلي)) (ص: ٥١).

وقال ابن القيم: (اليقينُ هاهنا هو الموتُ، بإجماعِ أهلِ التَّفسيرِ). ((مدارج السالكين)) (١/ ١٢٤).

ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤٧).

وقال الشوكاني: (هو الموتُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠٠). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٦).

قال ابنُ جزي: (أجمعَ العُلَماءُ أنَّه لا يَشفَعُ أحَدٌ في الكُفَّارِ، وجَمْعُ ﴿ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ دليلٌ على كثرتِهم، كما ورد في الآثارِ؛ تَشفَعُ الملائكةُ والأنبياءُ، والعُلَماءُ والشُّهَداءُ والصالحونَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٠-٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٨٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: كلُّ نفسٍ مرتهنَةٌ محبوسةٌ وموثقةٌ بكسبِها السيئِ، وحبسُها في العذابِ السيئِ؛ وذلك لأنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العملِ، فكما حبَس المجرمونَ ما لديهم لله ولخلقِه مِن الحقوقِ اللَّازمةِ؛ فلم يُؤدُّوا الصَّلاةَ التي هي أكبرُ العباداتِ المتضمِّنةِ للإخلاصِ للمعبودِ، ولا أطعَموا المساكينَ مِن الحقِّ الذي أوجَبه الله لهم في أموالِهم، ولا حبَسوا نفوسَهم على ما شرَع، وقيَّدوها بقيودِ الدين، بل أطلَقوها فيما شاؤوا مِن المراداتِ الفاسدةِ، فخاضوا بالباطلِ معَ الخائضينَ، ولا صدَّقوا ربَّهم ورسلَه معَ تواترِ الآياتِ، بل كانوا يُكذِّبونَ بيومِ الدِّينِ؛ فلذلك حُبِسوا في هذا المحبسِ الفظيعِ، وأُدخِلوا في سقرَ. ولمَّا كان أصحابُ اليمينِ قد حبَسوا نفوسَهم في الدُّنيا على شرعِ الله تصديقًا وعملًا، وأطلَقوا ألسنتَهم وجوارحَهم في طاعةِ الله ومرضاتِه؛ أطلَق الله إسارَهم، وفكَّ رهنَهم، فلم يكونوا في ذلك اليومِ مرتهنينَ، بل كانوا مطلَقينَ فيما اشتَهتْ أنفسُهم، ولذَّت عيونُهم.

فعملُ العبدِ في الدُّنيا إمَّا أنْ يكونَ سببًا لارتهانِه، أو سببًا لخلاصِه، بل الأصلُ أنَّ الإنسانَ في حبسٍ، وأنَّ عملَه سيُرتهَنُ؛ لأنَّه ظلومٌ وجهولٌ طبعًا، إلَّا مَن خلَّصه الله مِن هذا، ومَنَّ عليه بالصبرِ وعملِ الصالحاتِ، فلهذا جعَل الارتهانَ، واستثنَى منه أصحابَ اليمينِ، فقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾[1].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ هذا تنبيهٌ على أنَّ رُسوخَ القَدَمِ في الصَّلاةِ مانِعٌ مِن مِثْلِ حالِهم، وعلى أنَّ الصَّلاةَ أعظَمُ الأعمالِ، وأنَّ الحِسابَ

(١) يُنظر: ((المواهب الربانية)) للسعدي (ص: ٨٢، ٨٣).

بها يُقَدَّمُ على غَيرِها[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ * فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه قال تعالى أيضًا: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٣٩]!

الجوابُ: أنَّه لا يُسأَلُ عن ذنْبِه سؤالَ استِرشادٍ واستِعلامٍ، وإنَّما يُسألونَ سؤالَ تبكيتٍ وتوبيخٍ، وما جاء مِن سؤالِ الإنسِ والجِنِّ عن ذُنوبِهم: هل أنت عَمِلْتَ أو لم تَعمَلْ؟ فهو سؤالُ تبكيتٍ وتوبيخٍ، وهناك فرقٌ بيْن سؤالِ الاسترشادِ وسؤالِ التَّوبيخِ؛ فلا تَتناقَضُ الآياتُ[٢].

وقيل: إنَّ في القيامةِ مواقِفَ مُتعدِّدةً؛ ففي بعضِها يُسألونَ، وفي بعضها لا يُسألونَ.

وقيل: إنَّ إثباتَ السُّؤالِ مَحمولٌ على السُّؤالِ عن التَّوحيدِ، وتَصديقِ الرُّسلِ، وعدَمَ السُّؤالِ مَحمولٌ على ما يَستلزِمُه الإقرارُ بالنُّبوَّاتِ مِن شرائِعِ الدِّينِ وفُروعِه[٣]، وقيل غيرُ ذلك[٤].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ * قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ * وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ مَجموعَ ما ذَكَروه سَبَبٌ لدُخولِ مَجموعِهم النَّارَ، فلا يَضُرُّ في ذلك أنَّ مِن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٠، ٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٨).

أهلِ النَّارِ مَن لم يكُنْ وَجَب عليه إطعامُ مِسْكينٍ، كفُقَراءِ الكَفَرةِ المُعْدِمينَ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أنَّ الكافرَ يُعاقَبُ على أصلِ الكفرِ وعلى المعاصي أيضًا الَّتي عَمِلَها؛ فالمُشرِكُ إذا زنا وسَرَق وشَرِب الخَمْرَ يُعاقَبُ على ذلك، فيُعاقَبُ على الأصلِ والفرعِ، فالصَّدَقةُ ليست مِن الأُصولِ، وكذلك الزَّكاةُ -على القَولِ الصَّحيحِ- لا يَكْفُرُ تارِكُها، ومع ذلك ذَكَروا أنَّها مِن أسبابِ دُخولِهم النَّارَ، ولولا أنَّ لها تأثيرًا في الجزاءِ ما صارتْ مِن الأسبابِ، أمَّا الصَّلاةُ فمِن أهلِ العِلمِ مَن ذهَب إلى أنَّها مِن الأُصولِ، وأنَّ تارِكَها يَكْفُرُ[٢]، فالآيةُ احتُجَّ بها على أنَّ الكُفَّارَ يُعَذَّبونَ بتَرْكِ فُروعِ الشَّرائِعِ[٣]، وإن كانت لا تَصِحُّ منهم، فلو فَعَلوها قبْلَ الإيمانِ لم يُعْتَدَّ بها[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾، استُدِلَّ به على أنَّ الكفارَ مكلَّفونَ بالفُروعِ[٥]. ففي الآيةِ التَّصريحُ بأنَّ مِن الأسبابِ الَّتي سلَكَتْهم في سَقَرَ عدَمَ إطعامِ المسكينِ، وهو فرعٌ مِن الفُروعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٥).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٧).

(٦) يُنظر: ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٤٠).

قال ابن عاشور: (معنَى قولِ مَن قال مِن العلماءِ بأنَّ الكفَّارَ مُخاطَبونَ بفروعِ الشَّريعةِ يَعْنونَ خِطابَ المُؤاخَذةِ على ما نُهُوا عن ارتكابِه، وليس المرادُ أنَّهم يُطلَبُ منهم العملُ؛ إذْ لا تُقْبَلُ منهم الصَّالحاتُ بدونِ الإيمانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٥).

وقال ابن عثيمين: (الكفَّارُ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّريعةِ... ولكن ليس معنَى خِطابِهم بها أنَّهم =

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ دليلٌ على توكيدِ حُرْمةِ المسكينِ حينَ قَرَنَ تضييعَه بتَركِ الصَّلاةِ، وخَوضِ الخائِضينَ، وتَكذيبِ يومِ الدِّينِ! وكما قال تبارك وتعالى في سورةِ (الحاقَّةِ): ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤]، وكقَولِه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[1] [الماعون: ١ - ٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ المسلِمَ الَّذي أضاع إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ مُستَحِقٌّ حَظًّا مِن سَقَرَ على مِقدارِ إضاعتِه، وعلى ما أراد اللهُ مِن مُعادَلةِ حسَناتِه وسَيِّئاتِه، وظَواهِرِه وسَرائِرِه، وقبْلَ الشَّفاعةِ وبَعْدَها[2].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ أخَّرَ التَّكذيبَ، وهو أفحَشُ تلك الخِصالِ الأربَعةِ؟

الجوابُ: أُريدَ أنَّهم بعدَ اتِّصافِهم بتلك الأُمورِ الثَّلاثةِ كانوا مُكَذِّبينَ بيَومِ الدِّينِ، والغَرَضُ تعظيمُ هذا الذَّنْبِ، كقَولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[3] [البلد: ١٧].

= مُلزَمونَ بها في حالِ الكفرِ؛ لأنَّنا نَدْعوهم أوَّلًا إلى الإسلامِ، ثمَّ نُلزِمُهم بأحكامِه، وليس معنَى كَونِهم مُخاطَبينَ بها أنَّهم يُؤْمَرونَ بقضائِها... والفائدةُ مِن قولِنا: إنَّهم مُخاطَبونَ بها -كما قال أهلُ العِلمِ-: زيادةُ عُقوبتِهم في الآخرةِ، وهذا يدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ * فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾). ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٦).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ احتُجَّ على ثُبوتِ الشَّفاعةِ للفُسَّاقِ بمفهومِ هذه الآيةِ؛ فإنَّ تخصيصَ هؤلاء بأنَّهم لا تَنفَعُهم شَفاعةُ الشَّافِعينَ يدُلُّ على أنَّ غيرَهم تَنفَعُهم شفاعةُ الشَّافِعينَ[(١)]، وأنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه مُشَفِّعٌ بَعْضَ خَلْقِه في بَعْضٍ[(٢)]. ووردت أحاديثُ في صِحَّةِ ذلك[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾

- قولُه: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ يُبيِّنُ للسَّامعِ عُقْبَى الاختيارِ الَّذي في قولِه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾[(٤)] [المدثر: ٣٧].

- قولُه: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ﴾ مُرادٌ به خُصوصُ أنفُسِ المُنذَرينَ مِن البشَرِ؛ فهو مِن العامِّ المرادِ به الخُصوصُ بالقَرينةِ، أي: قَرينةُ ما تُعْطيهِ مادَّةُ رَهينةٍ مِن معْنى الحبْسِ والأسْرِ[(٥)].

- و﴿رَهِينَةٌ﴾: مَصدرٌ بوَزنِ فَعيلةٍ، كالشَّتيمةِ، والإخبارُ بالمَصدرِ للمُبالَغةِ[(٦)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾

- قولُه: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مُتعلِّقًا بقولِه: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، قُدِّمَ للاهتِمامِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٢٥).

و﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ حالٌ مِن أصحابِ اليمينِ، وهو مَناطُ التَّفصيلِ الَّذي جِيءَ مِن أجْلِه بالاستثناءِ المُنقطِعِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ خبَرَ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: همْ في جنَّاتٍ، والجُملةُ استئنافٌ بَيانيٌّ لمَضمونِ جُملةِ الاستثناءِ، والتَّقديرُ: فما شَأنُهم وحالُهم[1]؟

- ومعْنى ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ على ظاهرِ صِيغةِ التَّفاعُلِ؛ للدَّلالةِ على صُدورِ الفِعلِ مِن جانبَينِ، أي: يَسأَلُ أصحابُ اليمينِ بعضُهم بعضًا عن شأْنِ المُجرمين، وتكونَ جُملةُ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ بيانًا لجُملةِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾. وضَميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿سَلَكَكُمْ﴾ يُؤذِنُ بمَحذوفٍ، والتَّقديرُ: فيَسْألون المُجرمين: ما سلَكَكُم في سَقَرَ؟ وليس الْتِفاتًا، أو يقولُ بعضُ المَسؤولينَ لأصحابِهم جَوابًا لِسائليهم: قُلْنا لهم: ما سَلَكَكم في سَقَرَ؟ ويجوزُ أنْ تكونَ صِيغةُ التَّفاعُلِ مُستعمَلةً في معْنى تَكريرِ الفِعلِ، أي: يَكثُرُ سُؤالُ كلِّ أحدٍ منهم سُؤالًا مُتكرِّرًا، أو هو مِن تَعدُّدِ السُّؤالِ مِن أجْلِ تَعدُّدِ السَّائلينَ، وعلى هذا يكونُ مَفعولُ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ مَحذوفًا يدُلُّ عليه قولُه: ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، والتَّقديرُ: يَتساءلون المُجرمين عنهم، أي: عن سَببِ حُصولِهم في سَقَرَ، ويدُلُّ عليه بَيانُ جُملةِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ بجُملةِ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؛ فإنَّ ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ فيه بَيانٌ للتَّساؤُلِ[2].

وقيل: قولُه: ﴿يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: يَسألونَهم عن أحوالِهم، وقد حُذِفَ المَسؤولُ لكَونِه عينَ المسؤولِ عنه، وقولُه تعالَى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ مُقدَّرٌ بقَولٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٥، ٣٢٦).

هو حالٌ مِن فاعلِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، أيْ: يَسألونَهم قائلينَ: أيُّ شَيءٍ أدْخَلَكم فيها[١]؟

- قولُه: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ يَسألونهم وهم عالِمونَ بحالِهم؛ تَوبيخًا لهم وتَحسيرًا، وليكونَ حِكايةُ اللهِ ذلك في كِتابِه تَذكرةً للسَّامعينَ[٢].

- و(ما) الاستفهاميةُ مُحتمِلةٌ للتَّوبيخِ والتَّعجيبِ[٣].

- قولُه: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ إيمانِهم، وسَلَكوا بها طَريقَ الإطنابِ المناسِبَ لمَقامِ التَّحسُّرِ والتَّلهُّفِ على ما فاتَ، فكأنَّهم قالوا: لأنَّا لم نكُنْ مِن المؤمنينَ؛ لأنَّ أهلَ الإيمانِ اشتَهَروا بأنَّهم أهلُ الصَّلاةِ، وبأنَّهم في أموالِهم حقٌّ مَعلومٌ للسَّائلِ والمَحرومِ، وبأنَّهم يُؤمِنون بالآخِرةِ وبيَومِ الدِّينِ، ويُصدِّقون الرُّسلَ[٤].

- قولُه: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾، أي: بيَومِ الجَزاءِ، أضافُوه إلى الجزاءِ مع أنَّ فيه مِن الدَّواهِي والأهوال ما لا غايةَ له؛ لأنَّه أدْهاهَا وأهْوَلُها، وأنَّهم مُلابِسوه[٥].

- قولُه: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ تَأخيرُ جِنايتِهم هذه مع كَونِها أعظَمَ مِنَ الكُلِّ؛ لتَفخيمِها، كأنَّهم قالُوا: وكنَّا بعْدَ ذلكَ كلِّه مُكذِّبينَ بيَومِ الدِّينِ، ولبَيانِ كَونِ تَكذيبِهم به مُقارنًا لسائرِ جِناياتِهم المَعدودةِ مُستمِرًّا إلى آخِرِ عُمرِهم، حسبَما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦١، ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٢).

نطَقَ به قولُهم: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾[١].

- وفي الأفعالِ المُضارِعةِ في قولِه: ﴿لَمۡ نَكُ﴾، و﴿نَخُوضُ﴾، و﴿نُكَذِّبُ﴾ إيذانٌ بأنَّ ذلك دَيدنُهم، ومُتجدِّدٌ منهم طُولَ حَياتِهم[٢].

- وفاءُ ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾، أي: فهمْ دائِمون في الارتهانِ في سَقَرَ[٣].

- وفي قولِه تعالَى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بنفْيِ الشَّيءِ بإيجابِه[٤]؛ فهنا ليس المعْنى أنَّهم يُشفَعُ لهم فلا تَنفَعُهم شفاعةُ مَن يَشفَعُ لهم، وإنَّما المعْنى نفْيُ الشَّفاعةِ، فانْتَفى النَّفعُ، أي: لا شَفاعةَ شافِعينَ لهم فتَنفَعَهم، مِن بابِ «على لاحِبٍ لا يُهتَدى بمَنارِه»[٥]، أي: لا مَنارَ له فيُهتَدى به[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) نفْي الشَّيءِ بإيجابِه: هو أنْ يكونَ الكلامُ ظاهِرُه إيجابُ الشَّيءِ وباطنُه نفْيُه، بأنْ يُنفَى ما هو مِن سببِه وهو المنفيُّ في الباطِنِ، أو أنْ يُذكرَ كَلامٌ يدُلُّ ظاهِرُه أنَّه نفْيٌ لصِفةِ مَوصوفٍ، وهي نفْيٌ للمَوصوفِ أصْلًا، وهو مِن مَحاسِنِ الكلامِ، فإذا تأمَّلْتَه وجَدْتَ باطنَه نفيًا، وظاهِرَه إيجابًا. يُنظر: ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشِيق (٢/ ٨٠)، ((المثل السائر)) للضياء ابن الأثير (٢/ ٢٠٣)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٧٧)، ((خزانة الأدب)) لابن حِجَّة الحَمَوي (٢/ ٢٤)، ((شرح عقود الجُمَان)) للسيوطي (ص: ١٣٤)، ((أنوار الربيع)) لابن معصوم (٤/ ٣٦٤).

(٥) القائلُ هو امرُؤ القَيس. يُنظر: ((ديوان امرئ القيس)) (ص: ٩٦).
واللَّاحبُ: الطَّريقُ الواضحُ، ولم يُرِدْ أن فيه منارًا لا يُهتدَى به، ولكنَّه نفَى أن يكون به منارٌ. والمعنى: لا منارَ فيه فيُهتدَى به. يُنظر: ((خِزانة الأدب)) للبغدادي (١٠/ ١٩٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٣).

الآيات (٤٩-٥٦)

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾: أي: نافِرةٌ هارِبةٌ، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على تَباعُدٍ[١].

﴿قَسْوَرَةٍ﴾: أي: رُمَاةٍ، أو أَسَدٍ؛ مِنَ «القَسْرِ» وهو: القَهْرُ، وسُمِّيَ الأسدُ بذلك؛ لأنَّه يَقهَرُ السِّباعَ، وأصلُ (قسر): يدُلُّ على الغَلَبةِ والقَهْرِ[٢].

﴿مُّنَشَّرَةً﴾: أي: مَنشورةً مفتوحةً غيرَ مَطويَّةٍ، تُنشَرُ وتُقرأُ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا شدَّةَ إعراضِ المشرِكينَ وعِنادِهم: فما لِهؤلاء المُشرِكينَ عن القُرآنِ مُعرِضينَ؟! كأنَّهم في إعراضِهم عنه حَميرُ وَحْشٍ هارِبةٌ، هرَبَت مِن أَسَدٍ أو رُماةٍ!

إنَّ هؤلاء المُشرِكينَ لا يَكْتَفونَ بتلك التَّذكِرةِ، ولا يَرضَونَ بها، بل يُريدُ كُلُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠٠).

واحدٍ مِنهم أن يُنزِلَ اللهُ عليه كِتابًا مِن السَّماءِ مَفتوحًا يأمُرُه باتِّباعِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! كلَّا لن نُجيبَهم إلى مُقترَحاتِهم؛ فهم قومٌ لا يخافُونَ عَذابَ اللهِ في الآخِرةِ، ولا يُؤمِنونَ ببَعثٍ ولا جنَّةٍ ولا نارٍ، وليس الأمرُ كما يَزعُمُ هؤلاء المُشرِكونَ في القُرآنِ مِن أنَّه سِحرٌ يُؤثَرُ، وأنَّه قَولُ البَشَرِ، وإنَّما هو تَذكِرةٌ بليغةٌ مِنَ اللهِ تعالى، فمَن شاء مِن العِبادِ تذَكَّرَ بهذا القُرآنِ واتَّعَظَ، وما يَذكُرونَ بهذا القُرآنِ ويتَّعِظونَ إلَّا أن يَشاءَ اللهُ لهم ذلك؛ هو سُبحانَه أهْلٌ لِأَنْ يَخافَه عِبادُه ويَحذَروا سَخَطَه وعِقابَه، وهو وَحْدَه أهْلٌ لِأَنْ يَغفِرَ ذُنوبَ عِبادِه، ويَرحَمَهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: فما لِهؤلاء المُشرِكينَ عن القُرآنِ الَّذي يُذكَّرونَ به مُعرِضينَ، فلا يُؤمِنونَ به ولا يتَّبِعونَه[1]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: كأنَّ المُشرِكينَ في إعراضِهم عن القُرآنِ ونُفورِهم مِن الحَقِّ: حَميرُ وَحْشٍ هارِبةٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾.

أي: هرَبَت أشدَّ الهرَبِ ممَّن يُريدُ صَيْدَها مِن أَسَدٍ أو رُماةٍ[1].

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾.

= (١٩/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٧).

وقال ابنُ عاشور: (الحُمُرُ: جمعُ حِمارٍ، وهو الحِمارُ الوَحْشيُّ، وهو شديدُ النِّفارِ إذا أحَسَّ بصَوتِ القانِصِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٩).

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٧٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ﴿قَسْوَرَةٍ﴾: الرُّماةُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، ونسَبَه ابنُ كثيرٍ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو موسى الأشعريُّ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ، وابنُ كَيْسانَ. وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحسَنُ: القُنَّاصُ، وهو روايةٌ عن ابنِ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ﴿قَسْوَرَةٍ﴾: الأسدُ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو هُرَيرةَ، وعَطاءٌ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُه، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٦).

قال ابنُ عطيَّةَ: (قال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا وأبو هُرَيرةَ وجمهورٌ مِنَ اللُّغَويِّينَ: القَسْوَرةُ: الأسَدُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٩).

وقيل: القَسْوَرةُ: حِبالُ الصَّيَّادينَ. وقيل: النَّبْلُ. وقيل: أصواتُ النَّاسِ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٦).

أي: لا يَكْتَفون بتلك التَّذكِرةِ ولا يَرضَونَ بها، بل[(١)] يُريدُ كُلُّ واحدٍ مِنَ المُشرِكينَ أن يُنزِلَ اللهُ عليه كِتابًا مِن السَّماءِ مَفتوحًا غيرَ مَطْوِيٍّ[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها رَدعٌ للكافِرينَ عن تلك الإرادةِ، وزَجرٌ عن اقتِراحِ الآياتِ؛ فإنَّه لَمَّا حَصَلَت

---

(١) قال الشَّوكاني: (عطفٌ على مُقدَّرٍ يَقتضيه المَقامُ، كأنَّه قيل: لا يَكتَفون بتلك التَّذكرةِ، ﴿بَلْ يُرِيدُ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠٠). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤٨).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ما بهؤلاء المشركين في إعراضِهم عن هذا القرآنِ أنَّهم لا يَعلَمون أنَّه مِن عندِ الله، ولكنْ كلُّ رجُلٍ منهم يُريدُ أن يُؤتَى كتابًا مِن السَّماءِ يَنزِلُ عليه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٠، ٤٦١).

وقال البِقاعي: (لَمَّا كان الجوابُ قَطعًا: لا شَيءَ لهم في إعراضِهم هذا، أضرَبَ عنه بقَولِه: ﴿بَلْ يُرِيدُ﴾). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٧٨).

وقال السعدي: (ومع هذا الإعراضِ وهذا النُّفورِ يَدَّعونَ الدَّعاوى الكِبارَ؛ فـ ﴿يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ نازِلةً عليه مِن السَّماءِ، يَزعُمُ أنَّه لا يَنقادُ للحَقِّ إلَّا بذلك!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٤).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: وذلك أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ قالوا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لِيُصبِحْ عندَ رأسِ كلٍّ مِنَّا كتابٌ مَنشورٌ مِنَ اللهِ: أنَّ آلهتَنا باطِلةٌ، وأنَّ إلهَك حَقٌّ، وأنَّك رسولُه، نُؤمَرُ فيه باتِّباعِك! كقَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]). ((البسيط)) (٢٢/ ٤٦٤).

وقال ابنُ جُزَي: (معنى ﴿مُّنَشَّرَةً﴾: منشورةً غيرَ مَطويَّةٍ، أي: طريَّةً كما كُتِبَت، لم تُطْوَ بَعْدُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣١).

وقال ابنُ عاشور: (المُنَشَّرةُ: المفتوحةُ المقروءةُ، أي: لا نَكتفي بصَحيفةٍ مَطويَّةٍ لا نَعلَمُ ما كُتِب فيها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١).

المُعجزاتُ الكثيرةُ كَفَت في الدَّلالةِ على صِحَّةِ النُّبُوَّةِ، فطَلَبُ الزِّيادةِ يكونُ مِن بابِ التَّعَنُّتِ[١].

﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ۝٥٣﴾.

أي: لن نُعطِيَ كُلَّ واحدٍ منهم كتابًا خاصًّا، وليس الأمرُ كما زَعَموا أنَّهم سيُؤمِنونَ لو أتَتْهم صُحُفٌ مُنَشَّرةٌ، وإنَّما هم قومٌ لا يَخافونَ عذابَ اللهِ في الآخِرةِ؛ لأنَّهم لا يؤمِنونَ بالبَعثِ والجنَّةِ والنَّارِ، فأعرَضوا بسَبَبِ ذلك عن القُرآنِ، وامتَنَعوا عن اتِّباعِ الحَقِّ، واغتَرُّوا بالدُّنيا حتَّى هَلَكوا[٢].

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ هؤلاء المُشرِكونَ في القُرآنِ مِن أنَّه سِحرٌ يُؤْثَرُ، وأنَّه قَولُ البَشَرِ، وإنَّما هو تَذكِرةٌ بليغةٌ مِنَ اللهِ تعالى لخَلْقِه، يُذَكِّرُهم به[٣].

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٥٢).

وقال البِقاعي: (﴿كَلَّآ﴾ أي: ليس الأمرُ قَطْعًا كما تَزعُمونَ مِن أنَّ هذا القُرآنَ لا يَستَحِقُّ الإقبالَ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٧٩).

أي: فمَن شاء مِن العِبادِ تذكَّرَ بهذا القُرآنِ واتَّعظَ، وعَمِلَ بما فيه مِن أوامِرَ ونَواهٍ[(١)].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ [المزمل: ١٩].

﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ٥٦﴾.

﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: وما يَذكُرونَ بهذا القُرآنِ ويتَّعِظونَ به ويَعمَلونَ، إلَّا أن يَشاءَ اللهُ لهم ذلك[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧ - ٢٩].

﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه هو الحقيقُ بأن يَخافَه عِبادُه، ويَحذَروا سَخَطَه وعِقابَه؛ بفِعلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).
قال الزمخشري: (فمَن شاء أن يَذكُرَه ولا يَنساه، ويَجعَلَه نُصْبَ عَيْنِه، فَعَل؛ فإنَّ نَفْعَ ذلك راجِعٌ إليه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٧).
وقال السعدي: (﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ لأنَّه قد بُيِّن له السَّبيلُ، ووُضِّحَ له الدَّليلُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).
وقال ابن الجوزي: (﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ الهاءُ عائدةٌ على القرآنِ، فالمعنى: فمَن شاء أن يذكرَ القرآنَ ويتَّعِظَ به ويَفْهَمَه، ﴿ذَكَرَهُۥ﴾). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٧).
وقيل: الضَّميرُ الظَّاهرُ في ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى الله تعالى. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه، وهو وَحْدَه الحقيقُ بأن يَغفِرَ ذُنوبَ عِبادِه، ويَرحَمَهم[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ذَمُّ المُعْرِضينَ عن سَماعِ القُرآنِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ هذا تعريضٌ بالتَّحريضِ للعُصاةِ أن يُقلِعوا عن الذُّنوبِ[٣].

٣- أصلُ التَّقوَى أنْ يجعلَ العبدُ بينَه وبينَ ما يخافُه ويحذرُه وقايةً تَقيه منه، فتقوَى العبدِ لربِّه أنْ يجعَلَ بينَه وبينَ ما يخشاه مِن ربِّه مِن غضبِه وسخطِه وعقابِه وقايةً تقيه مِن ذلك، وهو فعلُ طاعتِه، واجتنابُ معاصيه.

والتَّقوى تارةً تُضافُ إلى اسمِ الله عزَّ وجلَّ، كقولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦]، فإذا أُضيفَت التَّقوَى إليه سبحانَه وتعالى، فالمعنى: اتَّقوا سخطَه وغضبَه، وهو أعظمُ ما يُتَّقَى، وعن ذلك ينشأُ عقابُه الدُّنيويُّ والأخرويُّ، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾، فهو سبحانَه أهلٌ أنْ يُخشَى ويُهابَ ويجلَّ ويعظَّمَ في صدورِ عبادِه حتَّى يَعبدوه ويُطيعوه، لما يستحقُّه مِن الإجلالِ والإكرامِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨٠، ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٤).

قال ابنُ جُزَي: (أي: هو أهلٌ لأن يُتَّقى؛ لشِدَّةِ عِقابِه، وهو أهلٌ لأن يَغفِرَ الذُّنوبَ؛ لكَرَمِه، وسَعةِ رَحمتِه وفَضْلِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٤).

وصفاتِ الكبرياءِ والعظمةِ وقوةِ البطشِ، وشدةِ البأس...

وتارةً تُضافُ التَّقوَى إلى عقابِ الله وإلى مكانِه كالنَّارِ، أو إلى زمانِه كيومِ القيامةِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1] [البقرة: ٢٨١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ سؤالٌ: أنَّه في قَولِه سُبحانَه: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧] أنَّه إذا كان هو الَّذي صَرَفهم وجَعَلهم مُعْرِضِينَ ومأفوكِينَ، فكيف يَنبغي إنكارُ ذلك عليهم؟!

قيل: هم دائِرونَ بيْنَ عَدْلِه وحُجَّتِه عليهم، فمَكَّنَهم، وفَتَح لهم البابَ، ونَهَج لهم الطَّريقَ، وهَيَّأَ لهم الأسبابَ؛ فأرْسَلَ إليهم رُسُلَه، وأنْزَل عليهم كُتُبَه، ودعاهم على ألْسِنَةِ رُسُلِه، وجَعَل لهم عقولًا تُمَيِّزُ بيْنَ الخَيرِ والشَّرِّ، والنَّافعِ والضَّارِّ، وأسبابِ الرَّدَى وأسبابِ الفلاحِ، وجَعَل لهم أسماعًا وأبصارًا؛ فآثَروا الهوى على التَّقْوى، واستَحَبُّوا العَمَى على الهُدَى، وقالوا: مَعصيتُك آثَرُ عندَنا مِن طاعتِك! والشِّرْكُ أحَبُّ إلينا مِن توحيدِك! وعبادةُ سِواك أنْفَعُ لنا في دُنيانا مِن عبادتِك! فأَعْرَضَتْ قلوبُهم عن ربِّهم وخالقِهم ومَليكِهم، وانصرفَتْ عن طاعتِه ومحبَّتِه، فهذا عَدْلُه فيهم، وتلك حُجَّتُه عليهم، فهم سَدُّوا على أنفُسِهم بابَ الهدَى إرادةً منهم واختيارًا، فسَدَّه عليهم اضطرارًا، فخَلَّاهم وما اختاروا لأنْفُسِهم، ووَلَّاهم ما تَوَلَّوه، ومَكَّنَهم فيما ارتَضَوه، وأدْخَلَهم مِن البابِ الَّذي اسْتَبَقُوا إليه، وأَغْلَقَ عنهم البابَ الَّذي تَوَلَّوا عنه وهم مُعْرِضُون، فلا أقْبَحَ مِن

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٣٩٨، ٣٩٩).

فِعْلِهم، ولا أحسَنَ مِن فِعْلِه[١]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ فيها رَدٌّ على القَدَريَّةِ الَّذين لا يُدخِلونَ أفعالَ العِبادِ تحتَ مَشيئةِ اللهِ، والجَبْرِيَّةِ الَّذين يَزعُمونَ أنَّه ليس للعَبدِ مَشيئةٌ، ولا فِعلٌ حَقيقةً، وإنَّما هو مجبورٌ على أفعالِه! فأثبت تعالى للعِبادِ مَشيئةً حَقيقةً وفِعلًا، وجَعَل ذلك تابعًا لمَشيئتِه[٢]. ومَشيئتُه جَلَّ وتعالى مُتقَدِّمةٌ على مَشيئةِ العَبدِ، لولا ذلك ما استطاعَ العبدُ فِعْلَ شَيءٍ، ولا كانت مَشيئةٌ في شَيءٍ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «أهلٌ للتَّقْوى»، بل قال: ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ فهو وَحْدَه أهلٌ أنْ يُتَّقَى فيُعْبَدَ دونَ ما سِواه، ولا يَستَحِقُّ غيرُه أنْ يُتَّقَى، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾[٤] [النحل: ٥٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ تَفريعٌ للتَّعجيبِ مِن إصرارِهم على الإعراضِ عمَّا فيه تَذكرةٌ[٥]؛ فالفاءُ لتَرتيبِ إنكارِ إعْراضِهم عنِ القُرآنِ بغيرِ سَببٍ على ما قبْلَها مِن مُوجباتِ الإقبالِ عليه، والاتِّعاظِ به مِن سُوءِ حالِ المُكذِّبينَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٢).

- وجِيءَ باسمِ التَّذكرةِ الظَّاهرِ دونَ أنْ يُؤتَى بضَميرٍ، نحْو أنْ يُقالَ: (عنها مُعرِضينَ)؛ لئلَّا يَختصَّ الإنكارُ والتَّعجيبُ بإعراضِهم عن تَذكرةِ الإنذارِ بسَقَرَ، بلِ المقصودُ التَّعميمُ لإعراضِهم عن كلِّ تَذكرةٍ، وأعظَمُها تَذكرةُ القُرآنِ، كما هو المناسِبُ للإعراضِ؛ قال تبارك وتعالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] [التكوير: ٢٧].

- والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في الإنكارِ والتَّعجيبِ مِن غَرابةِ حالِهم، بحيث تَجدُرُ أنْ يَستفهِمَ عنها المُستفهِمون، أيْ: فإذَا كان حالُ المُكذِّبينَ به على ما ذُكِرَ، فأيُّ شَيءٍ حصَلَ لهم مُعرِضينَ عن القُرآنِ مع تَعاضُدِ مُوجباتِ الإقبالِ عليه، وتآخُذِ الدَّواعِي إلى الإيمانِ به[2]؟!

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ شَبَّهَهم في إعراضِهم ونُفورِهم عن القُرآنِ بحُمُرٍ رأت الأسَدَ أو الرُّماةَ ففرَّت منه، وهذا مِن بديعِ التَّمثيلِ؛ فإنَّ القَومَ مِن جَهْلِهم بما بعَثَ اللهُ سبحانه رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كالحُمُرِ، فهي لا تَعقِلُ شَيئًا، فإذا سَمِعَت صوتَ الأسَدِ أو الرَّامي نفَرَت منه أشَدَّ النُّفورِ، وهذا غايةُ الذَّمِّ لهؤلاء؛ فإنَّهم نَفَروا عن الهدى الَّذي فيه سعادتُهم وحياتُهم كنُفورِ الحُمُرِ عمَّا يُهلِكُها ويَعقِرُها، وتحتَ المُستَنفِرةِ معنًى أبلَغُ مِنَ النَّافِرةِ؛ فإنَّها لشِدَّةِ نُفورِها قد استنفَرَ بَعضُها بعضًا، وحَضَّه على النُّفورِ، فكأنَّها تواصت بالنُّفورِ، وتواطأَت عليه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٩)، ((إعراب =

- والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ للمُبالَغةِ في الوصْفِ، مِثلُ: استَكمَلَ واستجابَ، واستعْجَبَ واستَسخَرَ، واستَخرَجَ واستَنبَطَ، أي: نافرةٌ نِفارًا قويًّا، فهي تَعْدو بأقْصى سُرعةِ العَدْوِ[١].

- وقولُه: ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ قُرِئَ ﴿مُسْتَنْفَرَةٌ﴾ بفتْحِ الفاءِ[٢]، أي: استَنفَرَها مُستنفِرٌ، أي: أنْفَرَها، فهو مِن (استَنْفَره) المُتعدِّي بمعْنى أنْفَرَه، وبِناءُ الفعلِ للنَّائبِ يُفيدُ الإجمالَ ثمَّ التَّفصيلَ بقولِه: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾، وقُرِئَ بكسْرِ الفاءِ، أي: استَنْفَرَت، هي مِثلُ: استجابَ، فيكونُ جُملةُ ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ بَيانًا لسَببِ نُفورِها[٣].

- و﴿قَسْوَرَةٍ﴾ قِيل: هو اسمُ جمْعِ قَسْوَرٍ، وهو الرَّامي؛ فيَكونُ التَّشبيهُ جاريًا على مُراعاةِ الحالةِ المشهورةِ في كَلامِ العرَبِ. وقيل: القَسورةُ مُفرَدٌ، وهو الأسَدُ، وعلى هذا فهو تَشبيهٌ مُبتكَرٌ لحالةِ إعراضٍ مَخلوطٍ برُعْبٍ ممَّا تَضمَّنَتْه قَوارعُ القرآنِ. وإيثارُ لَفظِ قَسورةٍ هنا لصَلاحيتِه للتَّشبيهَينِ، مع الرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ لذِكرِ حالةٍ أُخرى مِن أحوالِ عِنادِهم[٥]، قيل: هو إضرابٌ انتقاليٌّ عن مَحذوفٍ

= القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٠).

(٢) قرأها نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو جعفرٍ بفتحِ الفاءِ، والباقونَ بكسرِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٣١).

هو جَوابُ الاستفهامِ السَّابقِ، كأنَّه قِيل: فلا جَوابَ لهم عن هذا السُّؤالِ -أي: لا سبَبَ لهم في الإعراضِ- ﴿بَلۡ يُرِيدُ﴾[1].

وقيل: هو عطْفٌ على مُقدَّرٍ يَقتضيهِ المقامُ، كأنَّه قيل: لا يَكتفونَ بتلك التَّذكرةِ ولا يَرْضَون بها، بلْ يُريدُ كلُّ واحدٍ منهم...[2].

- قيل: جَمَعَ ﴿صُحُفٗا﴾؛ إمَّا لأنَّهم سَأَلوا أنْ يكونَ كلُّ أمرٍ أو نهْيٍ تَأتي الواحدَ منهم في شأنِه صَحيفةٌ، وإمَّا لأنَّهم لَمَّا سَأَلوا أنْ تَأتيَ كلَّ واحدٍ منهم صَحيفةٌ باسمِه، وكانوا جَماعةً مُتَّفِقينَ جُمِعَ لذلك، فكأنَّ الصُّحفَ جَميعُها جاءت لكلِّ امرئٍ منهم[3].

- و﴿مُّنَشَّرَةٗ﴾ مُبالَغةٌ في مَنْشورةٍ، والمُبالَغةُ واردةٌ على ما يَقتضيهِ فِعلُ (نَشَرَ) المُجرَّدِ مِن كَونِ الكتابِ مَفتوحًا واضحًا مِن الصُّحفِ المُتعارَفةِ[4].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾

- ﴿كَلَّا﴾ إبطالٌ لظاهرِ كَلامِهم ومُرادِهم منه، وردْعٌ عن إرادتِهم تلك، وزَجْرٌ لهم عن اقتِراحِ الآياتِ، أي: لا يكونُ لهم ذلك[5].

- ثمَّ أضرَبَ على كَلامِهم بإبطالٍ آخَرَ بحرْفِ الإضرابِ، فقال: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، أي: ليس ما قالوه إلَّا تَنصُّلًا، فلو أُنزِلَ عليهم كِتابٌ ما

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٦، ٦٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٢).

آمَنوا، وهم لا يَخافون الآخرةَ، أي: لا يُؤمِنون بها، فكُنِّيَ عن عدَمِ الإيمانِ بالآخرةِ بعدَمِ الخَوفِ منها؛ لأنَّهم لو آمَنوا بها لَخافوها؛ إذ الشَّأنُ أنْ يُخافَ عَذابُها إذ كانت إحالتُهم الحياةَ الآخرةَ أصْلًا لتَكذيبِهم بالقرآنِ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ (كَلَّا) ردْعٌ ثانٍ مُؤكِّدٌ للرَّدعِ الَّذي قبْلَه، أي: لا يُؤتَون صُحفًا مَنشورةً، ولا يُوزَعون إلَّا بالقرآنِ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ تَعليلٌ للرَّدعِ عن سُؤالِهم أنْ تُنزَّلَ عليهم صُحُفٌ مُنشَّرةٌ، بأنَّ هذا القرآنَ تَذكرةٌ عَظيمةٌ[٣].

- وتَنكيرُ ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ للتَّعظيمِ، يعْني أنَّه تَذكرةٌ بَليغةٌ كافيةٌ، مُبهَمٌ أمْرُها في الكِفايةِ[٤].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ تَفريعٌ على ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾، وهذا تَعريضٌ بالتَّرغيبِ في التَّذكُّرِ، أي: التَّذكُّرُ طَوعُ مَشيئتِكم، فإنْ شِئتُم فتَذَكَّروا[٥].

- والضَّميرُ الظَّاهرُ في ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ يجوزُ أنْ يعودَ إلى ما عاد إليه ضَميرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

﴿إِنَّهُۥ﴾ -وهو القرآنُ- فيكونَ على الحَذْفِ والإيصالِ[١]، وأصْلُه: ذَكَر به. ويجوزُ أنْ يعودَ إلى اللهِ تعالَى وإنْ لم يَتقدَّمْ لاسْمِه ذِكرٌ في هذه الآياتِ؛ لأنَّه مُستحضَرٌ مِن المَقامِ[٢].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ إنذارٌ للنَّاسِ بأنَّ التَّذكُّرَ بالقرآنِ يَحصُلُ إذا شاؤوا التَّذكُّرَ به، والمشيئةُ تَستدعي التَّأمُّلَ فيما يُخلِّصُهم مِن المؤاخَذةِ على التَّقصيرِ، وهمْ لا عُذْرَ لهم في إهمالِ ذلك[٣]!

- ومَفعولُ ﴿شَآءَ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: أنْ يَذكُرَه[٤].

- قولُه: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ مُعترِضةٌ في آخِرِ الكلامِ؛ لإفادةِ تَعلُّمِهم بهذه الحَقيقةِ، والواوُ اعتراضيَّةٌ[٥].

- وجُملةُ ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ واقعةٌ مَوقعَ التَّعليلِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٥]؛ تَقويةً للتَّعريضِ بالتَّرغيبِ في التَّذكُّرِ،

---

(١) الحذفُ والإيصالُ: هو حذْفُ حرفِ الجرِّ لتضمُّنِ الفِعلِ معنى فِعلٍ مُتعَدٍّ، وهو ما يُعرَفُ عندَ النُّحاةِ بنزْعِ الخافِضِ، وهذا مِن أَسَدِّ وأَدمثِ مذاهبِ العربيَّةِ؛ وذلك أنَّه موضعٌ يَملِكُ فيه المعنى عِنانَ الكلامِ فيأخُذُه إليه، ويُصرِّفُه بحسَبِ ما يُؤثِرُه عليه، مِثلُ قولِه تعالَى: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ [يس: ٦٦]؛ فتعديةُ فِعلِ الاستباقِ إليه على حذْفِ (إلى) بطريقةِ الحذفِ والإيصالِ، أو على تَضمينِ (استبَقوا) معنى (ابْتَدَروا)، أي: ابتَدَروا الصِّراطَ مُتسابقينَ، أي: مُسرِعينَ لِمَا دهمَهم؛ رجاءَ أن يَصِلوا إلى بُيوتِهم قبْلَ أنْ يَهلِكوا فلمْ يُبصِروا الطَّريقَ، ومِثلُ قولِه عزَّ اسمُه: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي: مِن قومِه. يُنظر: ((المحتسب)) لابن جِنِّي (١/ ٥١)، ((الإيضاح)) للقزويني (٢/ ١٧٣)، ((السماع والقياس)) لأحمد تَيْمور باشا (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢) و(٢٧/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

والتَّذكُّرُ يُفْضي إلى التَّقْوى، فالمعْنى: فعليكمْ بالتَّذكُّرِ، واتَّقوا اللهَ تعالَى؛ لأنَّ اللهَ هو أهلٌ للتَّقوى[١].

- وتَعريفُ جُزأَيِ الجُملةِ في قولِه: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ يُفيدُ قصْرَ مُستحِقِّ اتِّقاءِ العِبادِ إيَّاه على اللهِ تعالَى، وأنَّ غيرَه لا يَستحِقُّ أنْ يُتَّقى ويُتجنَّبَ غضَبُه، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. فإمَّا أنْ يكونَ القصرُ قصْرًا إضافيًّا[٢] للرَّدِّ على المشرِكين الَّذين يَخشَون غضَبَ الأصنامِ، ويَطلُبون رِضاها، أو يكونَ قصْرًا ادِّعائيًّا[٣] لتَخصيصِه تعالَى بالتَّقْوى الكاملةِ الحقِّ؛ وإلَّا فإنَّ بعضَ التَّقْوى مأمورٌ بها، كتَقْوى حُقوقِ ذوي الأرحامِ في قَولِه تعالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]. وقد يُقالُ: إنَّ ما ورَدَ الأمرُ به مِن التَّقوى في الشَّريعةِ راجِعٌ إلى تَقْوى اللهِ، وهذا مِن مُتمِّماتِ القصْرِ الادِّعائيِّ[٤].

- وهذا تَعريضٌ بالتَّحريضِ للمشرِكين أنْ يُقلِعوا عن كُفْرِهم بأنَّ اللهَ يَغفِرُ لهم ما أسْلَفوه؛ قال تعالَى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وبالتَّحريضِ للعُصاةِ أنْ يُقلِعوا عن الذُّنوبِ؛ قال تعالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٥] [الزمر: ٥٣].

- وأُعِيدَت كَلمةُ ﴿أَهْلُ﴾ في الجُملةِ المعطوفةِ دونَ أنْ يُقالَ: (والمَغفرةِ)؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٤).
(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٣).
(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للإشارةِ إلى اختلافِ المعْنى بيْن (أهْلٍ) الأوَّلِ و(أهْلٍ) الثَّاني، على طَريقةِ إعادةِ فِعلِ ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[1] [النساء: ٥٩].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٥).

تَفْسيرُ

سُورَةِ القيامةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ القيامةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (القيامةِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ القيامةِ مَكِّيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

وصْفُ يومِ القِيامةِ، والحديثُ عن أهوالِه، وعن أحوالِ النَّاسِ فيه[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- التَّذكيرُ بيومِ القيامةِ وما يكونُ فيه.

٢- بيانُ إمكانيَّةِ البَعثِ، وحَتميَّةِ وُقوعِه والجزاءِ فيه على الأعمالِ.

٣- ذِكرُ آدابِ سَماعِ الوَحيِ.

٤- ذِكرُ اختلافِ أحوالِ أهلِ السَّعادةِ وأهلِ الشَّقاءِ، وتكريمِ أهلِ السَّعادةِ ووَعْدِهم برؤيةِ اللهِ تعالى.

٥- التَّذكيرُ بالموتِ، وأنَّه أوَّلُ مَراحِلِ الآخِرةِ.

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بالقَسَمِ بيومِ القيامةِ، ولم يُقسَمْ به فيما نَزَل قَبْلَها مِن السُّوَرِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٦).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابن الجوزي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤٣٦٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ١٩٥).

الآيات (١-٦)

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُّسَوِّيَ﴾: أي: نُتقِنَها سَويَّةً، والتَّسويةُ: تَقويمُ الشَّيءِ، وإتقانُ الخَلْقِ، وقيل: نَجعَلَها شيئًا واحدًا، مُستويةً كخُفِّ البعيرِ ونحوِه، وأصْلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بيْنَ شيئَيْنِ[(١)].

﴿بَنَانَهُۥ﴾: البَنانُ: الأصابِعُ أو أطرافُها، وهو جَمعُ «بَنَانةٍ»، قيل: سُمِّيَت بَنانًا مِن قولِهم: أبَنَّ بالمكانِ: إذا أقامَ؛ فالبَنانُ به يُعتمَلُ كلُّ ما يكونُ للإقامةِ والحياةِ[(٢)].

﴿لِيَفۡجُرَ﴾: أي: يَعْصيَ ويُخالِفَ، والفُجُورُ: الانبِعاثُ في المعاصي، وأصلُ (فجر): يدُلُّ على تفَتُّحٍ في شَيءٍ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالقَسَمِ بيَومِ القيامةِ الَّذي يقومُ النَّاسُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٩٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ٣٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩١).

فيه للحِسابِ والجَزاءِ، والقَسَمِ بالنَّفْسِ الَّتي تَلُومُ صاحِبَها، ثمَّ قال تعالى: أَيَظُنُّ الإنسانُ أَنَّنا لن نَجمَعَ عِظامَه بعدَ تفَتُّتِها وتفَرُّقِها؛ لإحيائِه وبَعْثِه مِن قَبْرِه؟! بلى نحن نَقدِرُ على جَمعِ عِظامِه، ونَقدِرُ على ما هو أعظَمُ، وذلك بتسويةِ أصابِعِه بعدَ ما تفَرَّقَت وتفتَّتَت في التُّرابِ، فمَن قَدَر على جمعِ صِغارِ العِظامِ، كان على جَمعِ كِبارِها أقدَرَ!

بل يُريدُ الإنسانُ أن يَعصيَ في مُستَقبَلِ أيَّامِه، يَسألُ: متى يومُ القيامةِ؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بيومِ القيامةِ الَّذي يقومُ النَّاسُ فيه للحِسابِ والجَزاءِ[1].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٥١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

حكى الإجماعَ على أنَّ المعنى: أُقسِمُ بيومِ القيامةِ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٨).

قال الزَّجَّاج: (لا اختِلافَ بيْن النَّاسِ أنَّ معناه: أُقسِمُ بيومِ القيامةِ، واختَلَفوا في تفسيرِ «لا»). ((معاني القرآن)) (٥/ ٢٥١). ويُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٨، ٢٦٣).

واختلَف المفسِّرونَ في «لا» المذكورةِ هنا قبلَ القَسَمِ؛ فقيل: هي نافيةٌ لكلامٍ محذوفٍ تقديرُه: ما الأمرُ كما تقولون -أيُّها النَّاسُ- مِن أنَّ اللهَ لا يَبعَثُ عِبادَه بعدَ مماتِهم أحياءً. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٨).

قال ابن كثير: (المُقسَمُ عليه إذا كان مُنتفيًا، جاز الإتيانُ بـ «لا» قبْلَ القسَمِ لتأكيدِ النَّفيِ. والمقسومُ عليه هاهنا هو إثباتُ الميعادِ، والرَّدُّ على ما يَزعُمُه الجهلةُ مِن العبادِ مِن عدمِ بعثِ الأجسادِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٥). =

كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ * يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦].

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بالنَّفْسِ الَّتي تَلُومُ صاحِبَها[1].

= وقيل: دخلت توكيدًا للكلام. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤).

وقيل: «لا» هنا للتَّنبيهِ. وممَّن اختاره: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ١١٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠١).

قال السعدي: (ليست ﴿لَآ﴾ هاهنا نافيةً ولا زائدةً، وإنَّما أُتِيَ بها للاستِفتاحِ والاهتمامِ بما بعدَها، ولكثرةِ الإتيانِ بها مع اليمينِ لا يُستغرَبُ الاستفتاحُ بها، وإن لم تكُنْ في الأصل موضوعةً للاستفتاحِ، فالمقسَمُ به في هذا الموضِعِ هو المقسَمُ عليه، وهو البعثُ بعدَ الموتِ، وقيامُ النَّاسِ مِن قُبورِهم، ثمَّ وُقوفُهم يَنتظِرونَ ما يَحكُمُ به الرَّبُّ عليهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وقال الرازي: (﴿لَآ﴾ هاهنا لنَفْيِ القَسَمِ، كأنَّه قال: لا أُقسِمُ عليكم بذلك اليومِ وتلك النَّفْسِ، ولكنِّي أسألُك غيرَ مُقسِمٍ: أتحسَبُ أنَّا لا نَجمَعُ عِظامَك إذا تفرَّقَت بالموتِ؟ فإن كنتَ تحسَبُ ذلك، فاعلَمْ أنَّا قادِرونَ على أن نفعلَ ذلك. وهذا القولُ اختيارُ أبي مسلمٍ، وهو الأصَحُّ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٢٠).

وقال البقاعي: (أشار سُبحانَه وتعالى إلى أنَّ الأمرَ قد صار غنيًّا عن الإقسامِ؛ لِما له مِن الظُّهورِ الَّذي لا يُنكِرُه إلَّا معانِدٌ، فقال مشيرًا إلى تعظيمِها، والتَّهويلِ في أمرِها، بذِكْرِها، وإثباتِ أمْرِها بعدَمِ الإقسامِ، أو تأكيدِه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ أي: لا أُوقِعُ الإقسامَ، أو أُوقِعُه مُؤَكَّدًا ﴿بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على وُجودِ يومِ القيامةِ، أو بسبَبِ وُجودِه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٨٤). ويُنظر في الخلافِ في (لا) المذكورةِ قبلَ القَسَمِ: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٨٠)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٢٥، ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

قال ابنُ جرير: (إنَّ الجميعَ مِن الحُجَّةِ مُجْمِعونَ على أنَّ قَولَه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قَسَمٌ، =

= فكذلك قَولُه: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾، إلَّا أن تأتيَ حُجَّةٌ تدُلُّ على أنَّ أحَدَهما قَسَمٌ، والآخَرَ خَبَرٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (جمهورُ المتأوِّلينَ على أنَّ اللهَ تعالى أقسَمَ بالأمْرَينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢).

وقال الماوَرْدي: (﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه تعالى أقسَمَ بالنَّفْسِ اللَّوَّامةِ كما أقسَمَ بيومِ القيامةِ، فيَكونانِ قَسَمَينِ. قاله قَتادةُ. الثَّاني: أنَّه أقسَمَ بيومِ القيامةِ، ولم يُقسِمْ بالنَّفْسِ اللَّوَّامةِ. قاله الحسَنُ. ويكونُ تقديرُ الكلامِ: أُقسِمُ بيومِ القيامةِ، ولا أُقسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامةِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٥١).

وقال البِقاعي: (لا أُقسِمُ على ذلك بهذا الَّذي هو مِن أدَلِّ الأمورِ على عَظَمتِه سُبحانَه؛ فإنَّ الأمرَ في ذلك غَنِيٌّ عن القَسَمِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٨٧).

وأمَّا جوابُ القَسَمِ فقيل: هو ما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾، وهو: لَتُبعَثُنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٥).

وقال أبو حيَّان: (قولُ مَن قال: جوابُ القسَمِ هو: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ [القيامة: ٣]، وما رُويَ عن الحسَنِ أنَّ الجوابَ: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ﴾ [القيامة: ٤]، وما قيل: إنَّ «لا» في القَسَمَينِ لِنَفْيِهما، أي: لا أُقسِمُ على شَيءٍ، وأنَّ التَّقديرَ: ولكنِّي أسألُك أَيَحْسَبُ الإنسانُ؟ أقوالٌ لا تَصلُحُ أن تُرَدَّ، بل تُطرَحُ ولا يُسَوَّدُ بها الورَقُ، ولولا أنَّهم سرَدوها في الكتبِ لم أُنَبِّهْ عليها). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٤).

وقال ابنُ القيِّم في جوابِ القسَمِ: (يجوزُ أن يكونَ مِمَّا حُذِفَ لدَلالةِ السِّياقِ عليه، والعِلمِ به، ويجوزُ أن يكونَ مِن القَسَمِ المقصودِ به التَّنبيهُ على دَلالةِ المُقسَمِ به، وكَونِه آيةً، ولم يَقصِدْ به مُقسَمًا عليه مُعَيَّنًا، فكأنَّه يقولُ: أذكُرُ يومَ القيامةِ والنَّفْسَ اللَّوَّامةَ مُقسِمًا بها؛ لكَونِها مِن آياتِنا، وأدِلَّةِ ربُوبيَّتِنا). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٤٧).

واختُلِف في المرادِ بالنَّفْسِ اللَّوَّامةِ؛ فقيل: هي النَّفْسُ المؤمِنةُ، تَلومُ نَفْسَها في الدُّنيا وتُحاسِبُها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: السمعانيُّ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨، ٣٣٩).

وقيل: المرادُ: النَّفسُ المتَّقِيَةُ الَّتي تَلومُ صاحِبَها يومَ القيامةِ على تقصيرِها في التَّقْوى. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٩). =

= ومِنهم مَن خَصَّص النَّفْسَ هنا بالكافِرةِ، وبوُقوعِ ذلك في الآخِرةِ. وممَّن ذهب إليه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٠٩).

ومِنهم مَن عَمَّم، فأدخَل في ذلك كلَّ نَفْسٍ، ولكِنْ خَصَّص بوُقوعِ ذلك في الآخِرةِ. كـ: الزَّجَّاج، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٣).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وقد قيل: إنَّ النَّفْسَ تكونُ لَوَّامةً وغَيرَ لَوَّامةٍ، وليس كذلك. بل نَفْسُ كُلِّ إنسانٍ لَوَّامةٌ؛ فإنَّه ليس بَشَرٌ إلَّا يَلومُ نَفْسَه ويَندَمُ؛ إمَّا في الدُّنيا، وإمَّا في الآخرةِ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٦٤).

وقال العُلَيمي: (والنَّفْسُ في الآيةِ اسمُ جنسٍ لِنُفوسِ البشَرِ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١٩).

وقال السمرقنديُّ: (هي نفْسُ ابنِ آدَمَ، يَلومُ نفْسَه، كما رُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ وعن عُمَرَ رضيَ الله عنهم: ما مِن نَفْسٍ بَرَّةٍ وفاجِرةٍ إلَّا تَلومُ نفْسَها؛ إن كانت مُحْسِنةً تقولُ: يا لَيْتَني زِدْتُ إحسانًا، وإن كانت سَيِّئةً تقولُ: يا لَيْتَني ترَكْتُ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٠).

وقال السعدي: (﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ وهي جميعُ النُّفوسِ الخَيِّرةِ والفاجِرةِ، سُمِّيَت لَوَّامةً؛ لكثرةِ تَرَدُّدِها وتلَوُّمِها، وعدَمِ ثبوتِها على حالةٍ مِن أحوالِها، ولأنَّها عندَ الموتِ تَلومُ صاحِبَها على ما عَمِلَتْ، بل نفْسُ المؤمنِ تَلومُ صاحِبَها في الدُّنيا على ما حصَل منه؛ مِن تفريطٍ، أو تقصيرٍ في حقٍّ مِنَ الحقوقِ، أو غفلةٍ؛ فجَمَع بيْن الإقسامِ بالجزاءِ، وعلى الجزاءِ، وبيْن مُستَحِقِّ الجزاءِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وقال البِقاعي: (﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾ أي: الَّتي تَلومُ صاحِبَها، وهي خَيِّرةٌ وشِرِّيرةٌ؛ فالخَيِّرةُ تكونُ سببًا للنَّجاةِ فيه، والأُخرى تكون سببًا للهلاكِ فيه، فإنْ لامَتْ على الشَّرِّ أو على التَّهاوُنِ بالخَيرِ أنجَتْ، وإن لامتْ على ضِدِّ ذلك أهلَكَت، وكيفما كانت لا بُدَّ أن تَلومَ، وهي بيْن الأمَّارةِ والمُطمَئِنَّةِ، فما غلَب عليها منهما كانت في حَيِّزِه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وقال البِقاعي أيضًا: (واللَّوَّامةُ يَشتَدُّ لَومُها في ذلك اليَومِ على عَدَمِ الخيرِ، أو عَدَمِ الزِّيادةِ منه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٨٧).

وقال ابن جرير: (اختَلَف أهلُ التَّأويلِ في تأويلِ قولِه: ﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾؛ فقال بعضُهم: معناه: ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ الَّتي تَلومُ على الخَيرِ والشَّرِّ... وقال آخَرونَ: بل معنَى ذلك: أنَّها تَلومُ على ما فاتَ وتَندَمُ... وقال آخَرونَ: بل اللَّوَّامةُ: الفاجِرةُ... وقال آخَرونَ: بل هي المَذْمومةُ... وهذه =

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾.

أي: أيَظُنُّ الإنسانُ أنَّنا لن نَجمَعَ عِظامَه الباليَةَ، فتَعودَ كما كانت بعدَ تمَزُّقِها وتفَتُّتِها وتفَرُّقِها؛ لإحيائِه وبَعْثِه مِن قَبْرِه[1]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧، ٤٨].

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾.

أي: نحن نَقدِرُ على جَمعِ عِظامِه، ونَقدِرُ على ما هو أعظَمُ، وذلك بتسويةِ أصابِعِه مع أنَّ عِظامَها أكثَرُ العِظامِ تفَرُّقًا، وأصغَرُها وأدَقُّها أجزاءً، فنَرُدُّها ونُؤَلِّفُ بيْنَها كما كانت في حياةِ صاحِبِها، بعد ما تفَرَّقَت وتفتَّتَت في التُّرابِ، فمَن قَدَر على جمعِ صِغارِ العِظامِ، كان على جَمعِ كِبارِها أقدَرَ[2]!

= الأقوالُ الَّتي ذَكَرْناها عمَّنْ ذَكَرْناها عنه وإنِ اختَلَفَتْ بها ألفاظُ قائِليها، فمُتَقارِباتُ المعاني. وأشْبَهُ القولِ في ذلك بظاهِرِ التَّنْزيلِ أنَّها تَلومُ صاحِبَها على الخَيرِ والشَّرِّ، وتَندَمُ على ما فات). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٩-٤٧١).

وقال الشوكاني: (ومعنى النَّفْسِ اللَّوَّامةِ: النَّفسُ الَّتي تَلومُ صاحِبَها على تقصيرِه، أو تَلومُ جميعَ النُّفوسِ على تقصيرِها). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٦، ٢٠٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج =

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥﴾.

أي: بل يريدُ الإنسانُ أنْ يَعصيَ اللهَ في مُستقبَلِ أيَّامِه وطوالَ عُمُرِه، دونَ أن يَتوبَ[1].

= (٥/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨٨، ٨٩).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، واختاره ابنُ عطيَّة، والقرطبيُّ، واستظهره أبو حيَّان، ورجَّحه ابنُ القيِّم، وذهب إليه البِقاعي. يُنظر: المصادر السابقة. ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦).

قال السعدي: (استبعَدَ مِن جَهلِه وعُدوانِه قُدرةَ الله على خَلْقِ عِظامِه الَّتي هي عِمادُ البَدَنِ، فرَدَّ عليه بقَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾، أي: أطرافَ أصابعِه وعِظامِه، المُستلزِم ذلك لخَلْقِ جميعِ أجزاءِ البدَنِ؛ لأنَّها إذا وُجِدَت الأنامِلُ والبَنانُ، فقد تمَّت خِلقةُ الجسَدِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وقد اكتشف العلماءُ أنَّ لكلِّ إنسانٍ في أطرافِ أصابِعِه بَصماتٍ تُميِّزُه عن غيرِه، وتختلِفُ مِن شخصٍ لآخَرَ، وهي الخطوطُ الدقيقةُ الموجودةُ فيها. يُنظر: ((فوائد المجاميع)) للمعلمي (٢٤/ ٧٥).

وقيل: المرادُ بتَسويةِ بَنانِه: جَعْلُ أصابعِ يَدَيه وقدَمَيه في الدُّنيا شيئًا واحدًا مِثلَ خُفِّ البعيرِ، أو حافِرِ الحِمارِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ وغيرُه إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢).

قال ابنُ جرير: (فكان لا يأخُذُ ما يأكُلُ إلَّا بفيه كسائِرِ البهائِمِ، ولكِنَّه فَرَّق أصابعَ يَدَيه يأخُذُ بها ويتناوَلُ، ويَقبِضُ إذا شاء ويَبسُطُ، فحَسَّن خَلْقَه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٢).

ممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابن عطية، وابن القيم، والبِقاعي، =

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦﴾.

أي: يَسألُ هذا الإنسانُ: متى يومُ القيامةِ[١]؟

= وجوَّزه ابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦).

وقيل: المرادُ: أنَّ الإنسانَ يريدُ أن يُكذِّبَ بما أمامَه مِن البعثِ ويومِ القيامةِ. واستحسن هذا المعنى: ابنُ قُتَيْبةَ، وجوَّزه الزَّجَّاجُ، وابنُ القيِّمِ وذكر أنَّه قولٌ قويٌّ، واستظهره ابنُ كثير، وذهب إليه السعديُّ. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧، ٢٠٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٥٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٠، ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦).

قال ابن جُزَي: (وفي معنى ﴿أَمَامَهُۥ﴾ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه عبارةٌ عمَّا يستقبلُ مِن الزَّمانِ، أي: يَفجُرَ بقيَّةَ عُمُرِه.

الثَّاني: أنَّه عبارةٌ عن اتِّباعِ أغراضِه وشَهَواتِه، يُقالُ: مشى فُلانٌ قُدَّامَه، إذا لم يَرجِعْ عن شَيءٍ يُريدُه. والضَّميرُ على هذَينِ القولَينِ يعودُ على الإنسانِ.

الثَّالثُ: أنَّ الضَّميرَ يعودُ على يومِ القيامةِ، والمعنى: يريدُ الإنسانُ أن يَفجُرَ قبلَ يومِ القيامةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦، ٢٧٧).

قيل: المعنى: يَسألُ ابنُ آدَمَ السَّائرُ في معصيةِ اللهِ قُدُمًا: متى يومُ القيامةِ؟ تسويفًا منه للتَّوبةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٦٣).

وقيل المراد: سؤالُ الكافرِ عن موعدِ يومِ القيامةِ على جهةِ التَّكذيبِ والاستبعادِ والاستهزاءِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۞ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۞ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ فيه أنَّ كُلَّ نَفْسٍ مُتوسِّطةٍ ليست بمُطمَئِنَّةٍ ولا أمَّارةٍ بالسُّوءِ، فإنَّها لَوَّامةٌ في الطَّرَفينِ؛ مرَّةً تَلومُ على تَركِ الطَّاعةِ، ومرَّةً تَلومُ على فَوتِ ما تَشتهي، فإذا اطمأنَّت خلَصَت وصَفَت[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۞ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ جَمَعَ سُبحانَه في القَسَمِ بيْن مَحَلِّ الجزاءِ -وهو يومُ القيامةِ-، ومَحَلِّ الكَسْبِ -وهو النَّفْسُ اللَّوَّامةُ-، ونَبَّهَ سُبحانَه بكَونِها لَوَّامةً على شِدَّةِ حاجتِها وفاقتِها وضَرورتِها إلى مَن يُعَرِّفُها الخَيرَ والشَّرَّ، ويَدُلُّها عليه، ويُرْشِدُها إليه، ويُلْهِمُها إيَّاه، فيَجْعَلُها مُريدةً للخَيرِ مُؤْثِرةً له، كارِهةً للشَّرِّ مُجانِبةً له؛ لِتَخْلُصَ مِن اللَّومِ ومِن شَرِّ ما تَلُومُ عليه، ولأنَّها مُتَلَوِّمةٌ مُتَرَدِّدةٌ لا تَثْبُتُ على حالٍ واحدةٍ، فهي مُحتاجةٌ إلى مَن يُعَرِّفُها ما هو أنفَعُ لها في مَعاشِها ومَعادِها، فتُؤْثِرُه وتَلُومُ نفْسَها عليه إذا فاتَها، فتَتُوبُ منه إنْ كانت سعيدةً، ولِتَقومَ عليها حُجَّةُ عَدْلِه، فيَكونَ لَومُها في القيامةِ لنَفْسِها عليه لومًا بحقٍّ قد أَعْذَرَ اللهُ خالقُها وفاطرُها إليها فيه، ففي صِفةِ اللَّومِ تنبيهٌ على ضرورتِها إلى التَّصديقِ بالرِّسالةِ والقرآنِ، وأنَّها لا غِنَى لها عن ذلك، ولا صلاحَ ولا فلاحَ بدونِه البَتَّةَ، ولَمَّا كان يومُ مَعادِها هو مَحَلَّ ظهورِ هذا اللَّومِ، وتَرَتُّبِ أَثَرِه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣).

عليه؛ قَرَنَ بينهما في الذِّكْرِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ فيه تنبيهٌ على التَّأمُّلِ في لُطفِ تَفصيلِ الأنامِلِ، وبَديعِ صُنْعِها؛ الموجِبِ للقَطعِ بأنَّ صانِعَها قادِرٌ على كُلِّ ما يُريدُ[٢].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ألَا يُعارِضُ إقسامَه تعالى به في قَولِه: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ [البروج: ٢]؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ (لا) نافيةٌ لكلامِ الكُفَّارِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّها صِلةٌ، وذلك على عادة العرب؛ فإنَّها رُبَّما لَفَظَتْ (لا) مِن غيرِ قصدِ معناها الأصليِّ، بل لِمُجَرَّدِ تقويةِ الكلامِ وتوكيدِه[٣].

٢- في ذِكْرِ البَنَانِ في قَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ لطيفةٌ، وهي أنَّها أطرافُه، وآخِرُ ما يَتِمُّ به خَلْقُه، فمَن قَدَرَ على جَمْعِ أطرافِه وآخِرِ ما يَتِمُّ به خَلْقُه -مع دِقَّتِها وصِغَرِها ولطافتِها- فهو على ما دونَ ذلك أَقْدَرُ؛ فالقومُ لَمَّا استبعَدوا جَمْعَ العظامِ بعدَ الفناءِ والإرمامِ، قيل: إنَّا نَجْمَعُ ونُسَوِّي أكثرَها تفرُّقًا وأَدَقَّها أجزاءً، وآخِرَ أطرافِ البدنِ، وهي عظامُ الأناملِ ومَفاصِلُها[٤].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٨، ٢٦٣). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۞ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالقسَمِ مُؤذِنٌ بأنَّ ما سيُذكَرُ بعْدَه أمْرٌ مُهِمٌّ؛ لتَستشرِفَ به نفْسُ السَّامعِ[١].

- وكَوْنُ القسَمِ بيومِ القِيامةِ بَراعةُ استِهلالٍ؛ لأنَّ غرَضَ السُّورةِ وصْفُ يومِ القِيامةِ. وفيه أيضًا كونُ المقسَمِ به يومَ القِيامةِ، وهو المقسَمُ على أحوالِه؛ تَنبيهًا على زِيادةِ مَكانتِه عندَ المقسِمِ[٢].

- وصِيغةُ ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ صِيغةُ قسَمٍ، أُدخِلَ حرْفُ النَّفيِ على فِعلِ ﴿أُقۡسِمُ﴾؛ لقصْدِ المبالَغةِ في تَحقيقِ حُرمةِ المقسَمِ به إعظامًا له، بحيث يُوهِمُ للسَّامعِ أنَّ المُتكلِّمَ يَهُمُّ أنْ يُقسِمَ به، ثمَّ يَترُكُ القسَمَ مَخافةَ الحِنثِ بالمقسَمِ به، فيقولُ: لا أُقسِمُ به، أي: ولا أُقسِمُ بأعزَّ منه عِندي، وذلك كِنايةٌ عن تأكيدِ القسَمِ[٣]. وذلك على قولٍ.

- وقيل: (لا) للنَّفيِ، والمعْنى في ذلك أنَّه لا يُقسِمُ بالشَّيءِ إلَّا إعظامًا له، فكأنَّه بإدخالِ حرْفِ النَّفيِ يقولُ: إنَّ إعْظامي له بإقْسامي به كَلا إعظامٍ، يعْني أنَّه يَستأهِلُ فوقَ ذلك[٤]. أو يُقالُ: كأنَّه تعالَى يقولُ: لا أُقسِمُ بهذه الأشياءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٨، ٦٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٥، ٢٩٦).

على إثباتِ هذا المطلوبِ؛ فإنَّه أعظَمُ وأجَلُّ مِن أنْ يُقسَمَ عليه بهذه الأشياءِ، والغرَضُ تَعظيمُ المُقسَمِ عليه. أو يُقالُ: لا أُقسِمُ بهذه الأشياءِ على إثباتِ هذا المطلوبِ؛ فإنَّه أظهَرُ وأجْلى أنْ تُحاوِلَ إثباتَه بمِثلِ هذا القسَمِ[١].

- وفيه مُحسِّنٌ بَديعيٌّ مِن قَبيلِ ما يُسمَّى تَأكيدَ المدْحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ[٢].

- والقسَمُ بيومِ القِيامةِ باعتبارِه ظَرفًا لِما يَجْري فيه مِن عدْلِ اللهِ وإفاضةِ فضْلِه، وما يَحضُرُه مِن الملائكةِ والنُّفوسِ المبارَكةِ[٣].

- وفي الإقسامِ على تَحقُّقِ البعثِ بيومِ القِيامةِ مِن الجَزالةِ ما لا مَزيدَ عليهِ[٤].

- وأيضًا في قولِه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بصِحَّةِ الأقسامِ، أو التَّناسُبِ بيْن المعاني[٥]، وهذه الآيةُ تُعَدُّ مِن

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤).

(٥) التَّقسيمُ أو صحَّةُ الأقسامِ: هو عبارةٌ عن استيفاءِ المتكلِّمِ جميعَ أقسامِ المعنى الَّذي هو آخِذٌ فيه، بحيث لا يُغادِرُ منه شيئًا، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا﴾ [يونس: ١٢]، فقولُه: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا﴾ استوفى جميعَ الهيئاتِ الَّتي يكونُ عليها الإنسانُ. وفي قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [الرعد: ١٢]، استوفى قِسمَيْ رؤيةِ البَرقِ؛ إذ ليس فيها إلَّا الخَوفُ مِنَ الصَّواعقِ والطَّمعُ في الأمطارِ، ولا ثالثَ لهذين القِسْمَينِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٧٣)، ((نهاية الأرب)) للنويري (٧/ ١٣٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٢١٤).

والتَّناسُبُ بيْنَ المعاني -وسمَّاهُ بعضُهم: صحَّةَ التَّفسيرِ والتَّبيينِ-: هو أن يأتيَ المتكلِّمُ في أوَّلِ كلامِه بمعنًى لا يستقِلُّ الفَهمُ بمعرفةِ فَحْواهُ؛ إمَّا أن يكونَ مُجمَلًا يحتاجُ الى تفصيلٍ، أو موَجَّهًا يفتقرُ إلى توجيهٍ، أو محتملًا يحتاجُ المرادُ منه إلى ترجيحٍ لا يحصُلُ إلَّا بتفسيرِه وتبيينِه. يُنظر: ((الصناعتين)) لأبي هلال العسكري (ص: ٣٤٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: =

مَحاسِنِ التَّقسيمِ؛ لتَناسُبِ الأمْرَينِ المقسَمِ بهما؛ فقدْ أقسَمَ بيَومِ البَعثِ أوَّلًا، ثمَّ أقسَمَ بالنُّفوسِ المَجْزيَّةِ فيه على حَقيقةِ البَعثِ والجَزاءِ، فسُبحانَ المتكلِّمِ بهذا الكلامِ[١]!

- وجَوابُ القسَمِ محذوفٌ يدُلُّ عليه يومُ القِيامةِ المُقسَمُ به وما بَعْدَه مِن قولِه ﴿أَيَحْسَبُ ...﴾ الآيةَ، وتقديرُه: لَتُبعَثُنَّ، فيُؤخَذُ الجوابُ مِن قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؛ لأنَّه دَليلُ الجوابِ، وهو لَنجمَعَنَّ عِظامَكم ولنَبْعثَنَّكم لِلحِسابِ[٢]. وذلك على قولٍ.

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ﴾ تَأكيدًا للجُملةِ المعطوفِ عليها[٣].

- وتَعريفُ النَّفْسِ في قولِه: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، أي: الأنفُسُ اللَّوَّامةُ، قيل: المرادُ نُفوسُ المؤمنينَ[٤]، ومُناسَبةُ القسَمِ بها مع يومِ القيامةِ أنَّها النُّفوسُ ذاتُ الفَوزِ في ذلك اليومِ[٥]. وقيل: المناسَبةُ بيْنَ القسَمينِ مِن حيثُ أحوالُ النَّفسِ مِن سَعادتِها وشَقاوتِها، وظُهورُ ذلك في يومِ القِيامةِ[٦]. أو ضَمَّ النَّفسَ اللَّوَّامةِ إلى يومِ القِيامةِ؛ لأنَّ المقصودَ مِن إقامتِها

= ١٨٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣١) و(٨/ ١٩٧، ١٩٨).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣).

مُجازاتُها[١].

- ووصْفُ اللَّوَّامةِ مُبالَغةٌ؛ لأنَّها تُكثِرُ لَومَ صاحبِها[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾

- قولُه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ الاستِفهامُ للتَّقريرِ والتَّوبيخِ، ولإنكارِ الواقعِ واستِقباحِه؛ حيث يُنكِرُ الإنسانُ قُدرةَ اللهِ تعالَى على إعادةِ المعدومِ[٣]!

- وتَعريفُ الإنسانِ في قولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ تَعريفُ الجنسِ، ووُقوعُه في سِياقِ الإنكارِ الَّذي هو في معْنى النَّفيِ يَقْتضي العُمومَ، وهو عُمومٌ عُرفيٌّ مَنظورٌ فيه إلى غالِبِ النَّاسِ يَومَئذٍ؛ إذ كان المؤمِنون قليلًا؛ فالمعنى: أيحسَبُ الإنسانُ الكافرُ المكذِّبُ بالبَعثِ[٤]. وإسنادُ الفِعلِ إلى جِنسِ الإنسانِ؛ لأنَّ فيهم مَن يَحسَبُ، وقيل غيرُ ذلك[٥].

- والهَمزةُ في قولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ لإنكارِ الواقعِ واستِقباحِه[٦].

- وجِيءَ بحرْفِ (لن) الدَّالِّ على تَأكيدِ النَّفيِ، لحِكايةِ اعتِقادِ المشْرِكين استِحالةَ جمْعِ العِظامِ بعْدَ رِمامِها وتَشتُّتِها[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩).

- والعِظامُ هنا: كِنايةٌ عن الجسَدِ كلِّه، وإنَّما خُصَّت بالذِّكرِ لحِكايةِ أقوالِهم، مِثلِ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]؛ فهم احتَجُّوا باستِحالةِ قَبولِ العِظامِ للإعادةِ بعْدَ البِلى، على أنَّ استِحالةَ إعادةِ اللَّحمِ والعصَبِ والفؤادِ بالأَولى، فإثباتُ إعادةِ العِظامِ اقْتَضى أنَّ إعادةَ بَقيَّةِ الجسْمِ مُساوٍ لإعادةِ العَظْمِ، وفي ذلك كِفايةٌ مِن الاستِدلالِ مع الإيجازِ[(١)].

وأيضًا ذِكرُ العِظامِ، وإنْ كان المعنى إعادةَ الإنسانِ وجمْعَ أجزائِه المتفرِّقةِ؛ لأنَّ العِظامَ هي قالَبُ الخلْقِ[(٢)].

- قولُه: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ ﴿بَلَىٰ﴾ حرْفُ إبطالٍ للنَّفيِ الَّذي دلَّ عليه ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؛ فمَعْناهُ: بلْ تُجمَعُ عِظامُه[(٣)].

- و﴿قَٰدِرِينَ﴾ حالٌ مُقرِّرةٌ لِما أُوجِبَ بعْدَ النَّفيِ: إمَّا مُكمِّلةٌ له على سَبيلِ التَّرقِّي، أي: نَجمَعُ العِظامَ قادِرينَ على تَأليفِ جَميعِها، وإعادتِها إلى التَّركيبِ الأوَّلِ إلى أنْ نُسوِّيَ بَنانَه، أو واردةٌ مُبالَغةً، أي: فكيف بكِبارِ العِظامِ؟ أو مُوبِّخةٌ، أي: نَجعَلها مُستويةً كخُفِّ البَعيرِ، وحافِرِ الحِمارِ، على أُسلوبِ قولِه تعالَى: ﴿قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٨]، في جَوابِ قولِه: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾ [الصافات: ١٦] الآيةَ[(٤)].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿بَلَىٰ﴾ إبطالًا للنَّفيَينِ: النَّفيِ الَّذي أفادَه الاستِفهامُ الإنكاريُّ مِن قولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، والنَّفيِ الَّذي في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٤، ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٠).

مَفعولِ (يَحسَبُ)، وهو إبطالٌ بزَجْرٍ، أي: بلْ لِيَحسَبْنا قادِرين؛ لأنَّ مُفادَ ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ ألَّا نَقدِرَ على جمْعِ عِظامِه، فيكونُ ﴿قَٰدِرِينَ﴾ مَفعولًا ثانيًا لـ (يَحسَبْنا) المقدَّرِ[١].

- وعُدِلَ في مُتعلقِ ﴿قَٰدِرِينَ﴾ عن أنْ يُقالَ: قادِرين على جمْعِ عِظامِه إلى ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤]؛ لأنَّه أوفَرُ معنًى، وأوفَقُ بإرادةِ إجمالِ كَيفيَّةِ البَعثِ والإعادةِ، ولمُراعاةِ هذه المعاني عُدِل عن رفْعِ (قادِرون)، بتَقديرِ: نحْنُ قادِرون، فلمْ يُقرَأْ بالرَّفعِ[٢].

- والتَّسويةُ: تَقويمُ الشَّيءِ وإتقانُ الخلْقِ، وأُريدَ بالتَّسويةِ إعادةُ خلْقِ البَنانِ مُقوَّمةً مُتقَنةً؛ فالتَّسويةُ كِنايةٌ عن الخلْقِ؛ لأنَّها تَستلزِمُه؛ فإنَّه ما سُوِّيَ إلَّا وقد أُعِيدَ خلْقُه[٣].

- والبَنانُ: أصابعُ اليَدينِ والرِّجلينِ، أو أطرافُ تلك الأصابعِ، وإذ كانتْ هي أصغَرَ الأعضاءِ الواقعةِ في نِهايةِ الجسَدِ كانتْ تَسويتُها كِنايةً عن تَسويةِ جَميعِ الجَسدِ؛ لظُهورِ أنَّ تَسويةَ أطرافِ الجسَدِ تَقْتضي تَسويةَ ما قبْلَها[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ ﴿بَلۡ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ مِن كَلامٍ إلى كَلامٍ مِن غيرِ إبطالٍ، وإلى ذِكرِ حالٍ آخَرَ مِن أحوالِ فُجورِهم؛ فمَوقعُ الجُملةِ بعْدَ ﴿بَلۡ﴾ بمَنزلةِ الاستِئنافِ الابتدائيِّ؛ للمُناسَبةِ بيْنَ معْنى الجُملتَينِ، أي: لَمَّا دُعُوا إلى الإقلاعِ عن الإشراكِ وما يَسْتدعِيه مِن الآثامِ، وأُنْذِروا بالعِقابِ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يومَ القِيامةِ؛ كانوا مُصمِّمينَ على الاسترسالِ في الكُفْرِ[١].

- قولُه: ﴿يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ إخبارًا عمَّا في نُفوسِ أهْلِ الشِّركِ مِن مَحبَّةِ الاسترسالِ فيما همْ عليه مِن الفِسقِ والفُجورِ، ويجوزُ أنْ يكونَ استفهامًا إنكاريًّا مُوافقًا لسِياقِ ما قبْلَه مِن قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾[٢] [القيامة: ٣].

- ومَفعولُ ﴿يُرِيدُ﴾ مَحذوفٌ يدُلُّ عليه التَّعليلُ في ﴿لِيَفْجُرَ﴾، والمعْنى: بلْ يُريدُ الإنسانُ الثَّباتَ والدَّيمومةَ على ما هو عليه مِن عدَمِ التَّقيُّدِ بقَيدِ الإيمانِ؛ ليَسترسِلَ على فُجورِه، ويَدومَ على غيِّهِ[٣].

- وأُعِيدَ لَفظُ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ المَقامَ لتَقريعِه، والتَّعجيبِ مِن ضَلالِه، وكُرِّرَ لَفظُ الإنسانِ في هذه السُّورةِ خمْسَ مرَّاتٍ لذلك، مع زِيادةِ ما في تَكرُّرِه في المرَّةِ الثَّانيةِ والمرَّتينِ الرَّابعةِ والخامسةِ مِن خُصوصيَّةٍ؛ لِتَكونَ تلك الجُمَلُ الثَّلاثُ الَّتي ورَدَ ذِكرُه فيها مُستقِلَّةً بمُفادِها[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مُتَّصِلةً بالَّتي قبْلَها على أنَّها بدَلُ اشتِمالٍ منها؛ لأنَّ إرادةَ الإنسانِ الاسترسالَ على الفُجورِ يَشتمِلُ على التَّهكُّمِ بيَومِ البعثِ، أو على أنَّها بدَلٌ مُطابقٌ على تَفسيرِ ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٥] بالتَّكذيبِ بيَومِ البَعثِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُستأنَفةً للتَّعجيبِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٢).

مِن حالِ سُؤالِهم عن وقْتِ يومِ القيامةِ، وهو سُؤالُ استِهزاءٍ لاعتِقادِهم استحالةَ وُقوعِه[١]. ويجوزُ أنْ تكونَ الجملةُ استئنافًا بيانيًّا جيء به تعليلًا لإرادةِ الدَّوامِ على الفجورِ، فكأنَّه قيل: لِمَ يريدُ الدَّوامَ على الفُجورِ؟ قيل: لأنَّه أنكَر البعثَ واستهزَأ به. وقيل غير ذلك[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٥٣).

الآيات (٧-١٥)

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَرِقَ﴾: أي: شَخَصَ فلا يَطرِفُ، وفَزِعَ وتحَيَّرَ؛ وبَرَقَ وبَرِقَ: يُقالُ في العَينِ إذا اضطَرَبَتْ وجالتْ مِن خَوفٍ، والإنسانُ إذا بَقِيَ كالمُتَحَيِّرِ قيل: بَرِقَ بَصَرُه بَرَقًا، وأصلُ (برق) هنا: يدُلُّ على لَمعانٍ في شَيءٍ[1].

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾: أي: ذهَب ضَوؤُه، وقيل: غاب القَمَرُ وذهب، قيل: خسَف وكسَف واحدٌ، وقيل: إذا ذَهَب بعضُه فهو الكُسوفُ، وإذا ذَهَب كلُّه فهو الخُسوفُ، وقيل: الخُسوفُ للقَمَرِ، والكُسوفُ للشَّمسِ، وأصل (خسف): يدُلُّ على غُموضٍ وغُؤورٍ[2].

﴿وَزَرَ﴾: أي: مَلْجَأَ، والوَزَرُ: الملجأُ الَّذي يُلتجَأُ إليه مِن الجَبَلِ ونحوِه، وأصلُ (وزر) هنا: يدُلُّ على مَلجَأٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٩)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٦)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) =

﴿بَصِيرَةٌ﴾: أي: شاهدٌ، وأصلُ (بصر) هنا: العِلمُ بالشَّيءِ[١].

﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾: أي: ما اعتَذر به، أو اعتذارَه، جمعُ مَعْذرةٍ، والعُذْرُ هو رَوْمُ الإنسانِ إصْلاحَ ما أُنْكِر عليه بكَلامٍ، أو: تحرِّيه ما يمحو به ذُنوبَه[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى أحوالَ القيامةِ، فيقولُ: فإذا لَمَع بَصَرُ الإنسانِ وشَخَصَ مَبهوتًا متحَيِّرًا فلم يَطرِفْ، وذَهَب ضَوءُ القَمَرِ وجُمِع بيْنَ الشَّمسِ والقَمَرِ؛ يقولُ الإنسانُ يَومَئِذٍ: أين المَهرَبُ والخَلاصُ؟! كَلَّا لا مَلجَأَ مِنَ اللهِ! إلى ربِّك في ذلك الوَقتِ المرجِعُ والاستِقرارُ، يُخبَرُ الإنسانُ يَومَئذٍ بما قدَّمَه أو أخَّرَه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، بل الإنسانُ شاهِدٌ على نَفْسِه فيما عَمِل، فلا تخفَى عليه أعمالُه، ولو اعتَذَر أو جادَل بالباطِلِ عن كُفْرِه أو مَعاصيه، فهو يَعلَمُ أنْ لا عُذرَ له!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾.

أي: فإذا لَمَع بَصَرُ الإنسانِ وشَخَصَ مَبهوتًا متحَيِّرًا فلم يَطرِفْ[٣]!

= للراغب (ص: ٨٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٠)، ((ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن)) لغلام ثعلب (ص: ٥٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٧٨)، ((ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن)) لغلام ثعلب (ص: ٥٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٤).

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾.

أي: وإذا ذَهَب ضَوءُ القَمَرِ[١]!

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾.

أي: وإذا جُمِع بيْنَ الشَّمسِ والقَمَرِ[٢]!

عن أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الشَّمْسُ والقَمَرُ مُكَوَّرانِ[٣] يومَ القِيامةِ))[٤].

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

قال ابن عاشور: (خُسوفُ القمَرِ أُريدَ به انطِماسُ نُورِه انطماسًا مُستَمِرًّا... فهذا خُسوفٌ ليس هو خُسوفَه المعتادَ عندَ ما تَحُولُ الأرضُ بيْن القَمَرِ وبيْن مُسامتَتِه الشَّمسَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

قال الرَّسْعَني: (قال الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ: المعنى: جُمِع بيْنَهما في ذَهابِ نُورِهما. وقال جمهورُ المفسِّرينَ: جُمِع بيْن ذاتَيْهِما). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٨٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٢). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٥٣).

(٣) مُكَوَّرانِ: أي: مطويَّانِ ذاهِبا الضَّوءِ، وقيل: يُلَفَّانِ ويُجْمَعانِ، ويُلْقَيانِ في النار. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ٢٠٨)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ١٢٠).

قال القَسْطَلَّاني: (لأنَّهما عُبِدا مِن دونِ الله، وليسَ المرادُ مِن تكويرِهما فيها تعذيبَهما بذلك، لكنَّه زيادةُ تبكيتٍ لمَن كان يعبدُهما في الدُّنيا؛ ليَعْلموا أنَّ عبادتَهم لهما كانتْ باطِلةً). ((إرشاد الساري)) (٥/ ٢٥٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٠).

أي: إذا بَرِقَ البَصَرُ وخَسَفَ القَمَرُ وجُمِعَ الشَّمسُ والقَمَرُ، يقولُ الإنسانُ: أين المَهرَبُ والخَلاصُ[(١)]؟!

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾.

أي: ليس ثَمَّةَ مكانٌ يومَئذٍ تَلجَؤون إليه، وتَعتَصِمونَ به[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ [الشورى: ٤٧].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢﴾.

أي: إلى ربِّك في ذلك الوَقتِ المرجِعُ والاستقرارُ: إمَّا في الجنَّةِ، وإمَّا في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

قال الماوَرْدي في جملةِ ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾: (يحتَمِلُ وجهَينِ؛ أحدُهما: ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ مِنَ اللهِ؛ استحياءً منه. الثَّاني: ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ مِن جهنَّمَ؛ حَذَرًا منها. ويحتَمِلُ هذا القَولُ مِنَ الإنسانِ وجهَينِ؛ أحدُهما: أن يكونَ مِن الكافِرِ خاصَّةً مِن عَرَصةِ القيامةِ دون المؤمِنِ؛ لِثِقَةِ المؤمِنِ ببُشْرى رَبِّه. الثَّاني: أن يكونَ مِن قَولِ المؤمِنِ والكافِرِ عندَ قيامِ السَّاعةِ؛ لِهَولِ ما شاهَدوه منها). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩).

قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يكونَ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ كلامًا مُستأنَفًا مِن جانبِ اللهِ تعالى جوابًا لِمَقالةِ الإنسانِ، أي: لا وَزَرَ لك... ويجوزُ أن يكونَ مِن تمامِ مقالةِ الإنسانِ، أي: يقولُ: أين المفَرُّ؟ ويُجيبُ نَفْسَه بإبطالِ طَمَعِه، فيقولُ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، أي: لا وَزَرَ لي!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩٣).

النَّارِ[(١)].

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: يُخبَرُ الإنسانُ يومَئذٍ بجَميعِ عَمَلِه الَّذي قدَّمَه أو أخَّرَه؛ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

قيل: هذا خِطابٌ مِن الله تعالى للإنسانِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٨).

وقيل: هي حكايةٌ لِقَولِ الإنسانِ ذلك لنَفْسِه. واستظهَر هذا القولَ أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٦).

وقيل: هو كلامُ اللهِ تعالى خاطَبَ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الدُّنيا، بقرينةِ قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٧).

قيل: معنى: ما قدَّم وأخَّرَ: ما قَدَّمَ لآخِرتِه، وما أَخَّرَ مِن خَيرٍ أو شرٍّ بعدَ مَوتِه في دنياه، فاستَنَّ به قومٌ بَعْدَه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٢٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وابنُ مسعودٍ، وأبو صالحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٤٦).

قال ابن جرير: (والصَّوابُ مِن القولِ في ذلك عندَنا، أنَّ ذلك خَبَرٌ مِن اللهِ أنَّ الإنسانَ يُنَبَّأُ بكلِّ ما قَدَّم أمامَه مِمَّا عَمِل مِن خيرٍ أو شَرٍّ في حياتِه، وأخَّر بعدَه مِن سُنَّةٍ حسَنةٍ أو سَيِّئةٍ مِمَّا قَدَّم وأخَّر، كذلك ما قَدَّمَ مِن عمَلٍ عَمِلَه مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وأخَّر بعدَه مِن عمَلٍ كان عليه فضَيَّعه، فلم يَعمَلْه مِمَّا قَدَّم وأخَّر، ولم يَخُصِّصِ اللهُ مِن ذلك بعضًا دونَ بعضٍ، فكلُّ ذلك مِمَّا يُنَبَّأُ به الإنسانُ يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩١).

وقيل: المرادُ بـ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾: بأوَّلِ عَمَلِه وآخِرِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: ٥].

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ في الآيةِ الأولى أنَّ الإنسانَ يُخبَرُ يومَ القيامةِ بأعمالِه، ثمَّ ذَكَر في هذه الآيةِ أنَّه شاهِدٌ على نَفْسِه بما عَمِلَ(١).

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ شاهِدٌ على نَفْسِه فيما عَمِلَ، فلا تَخفى عليه أعمالُه الَّتي استحَقَّ

= جرير)) (٢٣/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٤).

وقيل: المعنى: أنَّه يُخبَرُ بجميعِ أعمالِه؛ قديمِها وحديثِها، أوَّلِها وآخِرِها، صغيرِها وكبيرِها. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٢).

وقيل: المعنى: ما قدَّمَه مِن عَمَلِه الَّذي يوجِبُ نجاتَه وثوابَه؛ مِن الخَيراتِ والصَّالحاتِ، وما أَخَّره منه ففرَّط وقصَّر فيه ولم يَعمَلْه. وممَّن ذهب إليه: القاسميُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٦٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩٢).

وقيل: المرادُ بما قَدَّم: ما فعَلَه الكافِرُ مِن سُوءٍ، وبما أَخَّرَ: ما ترَكَه ممَّا أُمِرَ بفِعْلِه أو نُهِيَ عن فِعْلِه في الحالَينِ، فخالَف ما كُلِّف به. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٧). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٥٤).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩٤).

عليها العِقابَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

﴿ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٣).

قال الماتُريدي: (جائزٌ أن يكونَ أرادَ بهذا في الدُّنيا: أنَّ الإنسانَ بَصيرٌ بعَمَلِ نَفْسِه، وإن جادَل عنها أنَّه لم يَفعَلْ ذلك، وأسَرَّ ذلك عن النَّاسِ...

والوجهُ الثَّاني: أن يكونَ في الآخرةِ، وهو يحتَمِلُ وَجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ الإنسانَ وإن كان يَعتَذِرُ يومَ القيامةِ بقَولِه: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال: ﴿ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ ﴾ [المجادلة: ١٨]، فيُقْدِمون على الحَلِفِ؛ اعتِذارًا منهم، على العِلمِ منهم أنَّهم مُبطِلونَ في جدالِهم.

والثَّاني: أن يكونَ معنى البصيرةِ: الشَّاهِدَ، أي: أنَّ الإنسانَ على نَفْسِه شاهدٌ يومَ القيامةِ بسُوءِ أفعالِه، ﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾، أي: وإنْ سَتَرَ على نَفْسِه شهَدتَ عليه جَوارِحُه). ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٣٤٣).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: أنَّ جوارِحَه تَشهَدُ عليه يومَ القيامةِ: ابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تأويل مُشْكِل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

وقال ابنُ كثير: (أي: هو شَهيدٌ على نَفْسِه، عالِمٌ بما فعَلَه، ولو اعتَذَر وأنكَرَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

وممَّن جمَع بيْن المعاني السَّابقةِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩٥، ٩٦).

أي: ولو اعتَذَر أو جادَلَ بالباطِلِ عن كُفْرِه أو مَعاصيه، فهو يَعلَمُ أنْ لا عُذرَ له[١]!

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ فيه سؤالٌ: طَعَنَت الملاحِدةُ في الآيةِ، وقالوا: خُسوفُ القَمَرِ لا يَحصُلُ حالَ اجتماعِ الشَّمسِ والقَمَرِ!

الجوابُ: اللهُ تعالى قادِرٌ على أن يجعَلَ القَمَرَ مُنخَسِفًا، سواءٌ كانت الأرضُ متوسِّطةً بيْنَه وبيْن الشَّمسِ، أو لم تكُنْ، واللهُ قادِرٌ على كلِّ الممكِناتِ، فوجَبَ أن يَقدِرَ على إزالةِ الضَّوءِ عن القَمَرِ في جميعِ الأحوالِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ ردٌّ على مَن يَقولُ بالدَّهرِ، وقِدَمِ العالَمِ، ومَن يقولُ: إنَّ المعتادَ مِن مجاري اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ والقَمَرِ: لا يَتَغَيَّرُ! وقد أخْبَرَ اللهُ تعالى نصًّا -كما ترى- أنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ يُجْمَعُ بيْنَهما، وفي الجَمعِ بيْنَهما ذَهابُ المعتادِ مِن مَجاريهما[٣].

٣- قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ جُمِعَ الشَّمسُ والقَمَرُ ولم يَجتَمِعا قبْلَ ذلك، بل يَجمَعُهما الَّذي يجمَعُ عِظامَ الإنسانِ بعدَ ما فَرَّقها البِلَى ومَزَّقها[٤].

٤- قولُه سُبحانَه: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ غَلَّبَ المذكَّرَ على المؤنَّثِ؛ لاجتِماعِهما، ولو قُلتَ: طلَعَ الشَّمسُ والقَمَرُ، لَقَبُحَ ذلك، كما يَقبُحُ: قام هندٌ وزَيدٌ، إلَّا أن تريدَ الواوَ الجامِعةَ لا العاطفةَ، وأمَّا في الآيةِ فلا بُدَّ أن تكونَ الواوُ جامِعةً، ولَفظُ الفِعلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩٣، ٤٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩٦، ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٢٤، ٧٢٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٠).

(٤) ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٢).

-﴿وَجُمِعَ﴾- يَقتضي ذلك[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ دليلٌ على قَبولِ إقرارِ المرءِ على نَفْسِه؛ لأنَّها شَهادةٌ منه عليها؛ قال اللهُ سُبحانَه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، ولا خِلافَ فيه؛ لأنَّه إخبارٌ على وَجهٍ تَنتفي التُّهمةُ عنه؛ لأنَّ العاقِلَ لا يَكْذِبُ على نفْسِه. وقولُه: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي: لو اعتذرَ بعدَ الإقرارِ لم يُقْبَلْ منه؛ ففيه دليلٌ على أنَّ الرُّجوعَ عن الإقرارِ لا يُقْبَلُ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ الفاءُ لتَفريعِ الجَوابِ عن السُّؤالِ، وعُدِلَ عن أنْ يُجابوا بتَعيينِ وقْتٍ ليومِ القِيامةِ إلى أنْ يُهدَّدوا بأهوالِه؛ لأنَّهم لم يَكونوا جادِّينَ في سُؤالِهم؛ فكان مِن مُقتَضى حالِهم أنْ يُنذَروا بما يقَعُ مِن الأهوالِ عندَ حُلولِ هذا اليومِ مع تَضمينِ تَحقيقِ وُقوعِه؛ فإنَّ كَلامَ القُرآنِ إرشادٌ وهدْيٌ، ما يَترُكُ فُرصةً للهدْيِ والإرشادِ إلَّا انتَهَزَها، وهذا تَهديدٌ في ابتدائِه جاء في صُورةِ التَّعيينِ لوقْتِ يومِ القِيامةِ إيهامًا بالجوابِ عن سُؤالِهم، كأنَّه حمْلٌ لِكلامِهم على خِلافِ الاستِهزاءِ، على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ[٣]. وفيه تَعريضٌ بالتَّوبيخِ على

---

(١) يُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ١٩٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٤٤ - ٣٤٦)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٧٨).

والإقرارُ إن كان بحقٍّ مِن حقوقِ الله التي تسقطُ بالشُّبهةِ كالزِّنا، فمذهبُ جمهورِ الفقهاءِ: الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ -في المشهورِ عندَهم- والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ؛ على أنَّ الرُّجوعَ في إقرارِه يُعتبَرُ، ويسقُطُ الحدُّ عنه. أمَّا مَن أقرَّ بحقٍّ مِن حقوقِ العبادِ أو بحقٍّ لله تعالى لا يسقطُ بالشُّبهةِ -كالقصاصِ وحدِّ القذفِ وكالزكاةِ والكفَّاراتِ- ثمَّ رجَع في إقرارِه فإنَّه لا يُقبَلُ رجوعُه عنها مِن غيرِ خلافٍ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٦/ ٧٢، ٧٣).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٢).

أنْ فرَّطوا في التَّوقِّي مِن ذلك اليومِ، واشتَغَلوا بالسُّؤالِ عن وقْتِه، وقَريبٌ منه ما جاء في الحديثِ أنَّ رجُلًا مِن المسلمينَ سأَلَ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((متى السَّاعةُ؟ فقال له: ماذا أعدَدْتَ لها؟))[١]؛ فإنَّ هذه الأحوالَ المذكورةَ في الآيةِ ممَّا يقَعُ عندَ حُلولِ السَّاعةِ وقِيامِ القِيامةِ، فكان ذلك شيئًا مِن تَعيينِ وقْتِه بتَعيينِ أشراطِه[٢].

- قولُه: ﴿بَرِقَ﴾ معْناه: دُهِشَ وبُهِتَ، وإنَّما أُسنِدَ في الآيةِ إلى البصَرِ تَنزيلًا له مَنزِلةَ مَكانِ البَرْقِ؛ لأنَّه إذا بُهِتَ شخَصَ بَصَرُه. وعلى قراءةِ «بَرَقَ» بفتْحِ الرَّاءِ[٣]، مِن البريقِ بمعْنى اللَّمَعانِ، أي: لَمَعَ البصَرُ مِن شِدَّةِ شُخوصِه، ومآلُ معْنى القِراءتينِ واحدٌ، وهو كِنايةٌ عن الفزَعِ والرُّعبِ[٤].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْبَصَرُ﴾ للجِنسِ المرادِ به الاستغراقُ، أي: أبصارُ النَّاسِ كلِّهم مِن الشِّدَّةِ الحاصلةِ في ذلك الوقتِ، على أنَّهم مُتفاوِتون في الرُّعبِ الحاصِلِ لهم على تَفاوتِهم فيما يُعرَضونَ عليه مِن طَرائقِ مَنازِلِهم[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [القيامة: ١٠]، وإنَّما قُدِّمَ على عامِلِه للاهتِمامِ بالظَّرفِ؛ لأنَّه المقصودُ مِن سِياقِ مُجاوَبةِ قولِه: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦]. وطُوِيَ التَّصريحُ بأنَّ ذلك حُلولُ يومِ القِيامةِ اكتِفاءً بذِكْرِ ما يدُلُّ عليه، وهو قولُهم: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [القيامة: ١٠]،

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٦٨٨)، ومسلمٌ (٢٦٣٩) من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٣) قرأ نافعٌ وأبو جعفرٍ بفتحِ الرَّاءِ، والباقون بكَسْرِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فكأنَّه قِيل: حلَّ يومُ القِيامةِ، وحَضَرَت أهوالُه، يقولُ الإنسانُ يومئذٍ... ثمَّ تأكَّدَ بقولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾[1] [القيامة: ١٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، أُعِيدَ لَفظُ (القمَر) في الفاصلتَينِ المُتواصلَتينِ؛ لأنَّ ذلك لبَيانِ أهوالِ القِيامةِ وتَعظيمِها، والعرَبُ تَستعمِلُ هذا فيما تَقصِدُ به التَّهويلَ والتَّعظيمَ، وقدِ اجتَمَعَ هنا قصْدُ التَّعظيمِ، ورَعْيُ الأسجاعِ، فتَأكَّدَ الحاملُ على التَّكريرِ، وإذا تَكرَّرَ أحدُ النَّيِّرينِ المرادُ اجتماعُهما أغْنى عن تَكرُّرِ الآخَرِ، وطَلَبَت الفواصلُ منها ما يُناسِبُ، فجاء على أتمِّ وَجهٍ في البلاغةِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يَقُولُ﴾ أيضًا، أي: يومَ إذْ يَبرُقُ البصَرُ، ويَخسِفُ القمَرُ، ويُجمَعُ الشَّمسُ والقمَرُ؛ فتَنوينُ (إذْ) تَنوينُ عِوَضٍ عن الجُملِ المحذوفةِ الَّتي دلَّت عليها الجُملةُ الَّتي أُضِيفَ إليها (إذ)[3].

- وذِكرُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ معَ أنَّ قولَه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ...﴾ إلخ مُغْنٍ عنه؛ للاهتِمامِ بذِكرِ ذلك اليومِ الَّذي كانوا يُنكِرون وُقوعَه، ويَستهْزِئون فيَسأَلون عن وقْتِه، وللتَّصريحِ بأنَّ حُصولَ هذه الأحوالِ الثلاثةِ في وقْتٍ واحدٍ[4].

- والاستِفهامُ ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ مُستعمَلٌ في التَّمنِّي، أي: لَيْتَ لي فِرارًا في مكانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣١٢، ١٣١٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٩٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نَجاةٍ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّا﴾ ردْعٌ وإبطالٌ لِما تَضمَّنَه ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ مِن الطَّمَعِ في أنْ يَجِدَ للفِرارِ سَبيلًا[٢].

- والوَزَرُ: المكانُ الَّذي يُلجَأُ إليه للتَّوقِّي مِن إصابةِ مَكروهٍ، مِثلُ الجِبالِ والحُصونِ؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ كلامًا مُستأنَفًا مِن جانبِ اللهِ تعالَى جوابًا لمَقالةِ الإنسانِ، أي: لا وَزَرَ لك. ويجوزُ أنْ يكونَ مِن تَمامِ مَقالةِ الإنسانِ، أي يقولُ: أين المفرُّ؟ ويُجيبُ نفْسَه بإبطالِ طَمَعِه فيقولُ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، أي: لا وَزَرَ لي، وذلك بأنْ نظَرَ في جِهاتِه فلم يَجِدْ إلَّا النَّارَ، كما ورَدَ في الحَديثِ[٣].

- قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ كَلامٌ مِن جانبِ اللهِ تعالَى خاطَبَ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الدُّنيا؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، فهو اعتراضٌ وإدماجٌ[٤] للتَّذكيرِ بمُلكِ ذلك اليومِ، وذلك على قولٍ. وإضافةُ (ربّ) إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيماءٌ إلى أنَّه ناصِرُه يَومَئذٍ بالانتقامِ مِن الَّذين لم يَقبَلوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦).
ويُنظر ما أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

دَعوتَه[١].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ لإفادةِ الحَصْرِ[٢].

- والمُستقَرُّ: مَصدرٌ مِيميٌّ مِن استقرَّ، إذا قَرَّ في المكانِ ولم يَنتقِلْ، والسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ في الوصْفِ[٣].

- وجُملةُ ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا أثارَه قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، أو بدَلُ اشتِمالٍ مِن مَضمونِ تلك الجُملةِ، أي: إلى اللهِ مَصيرُهم، وفي مَصيرِهم يُنبَّؤون بما قدَّموا وما أخَّروا[٤].

- وتَنْبئةُ الإنسانِ بما قدَّمَ وأخَّرَ كِنايةٌ عن مُجازاتِه على ما فَعَلَه: إنْ خيرًا فخَيرٌ، وإنْ سُوءًا فسُوءٌ؛ إذ يُقالُ له: هذا جَزاءُ الفعلةِ الفُلانيَّةِ، فيَعلَمُ مِن ذلك فِعلتَه، ويَلْقى جَزاءَها، فكان الإنباءُ مِن لَوازمِ الجزاءِ، ويَحصُلُ في ذلك الإنباءِ تَقريعٌ وفضْحٌ لحالِه[٥].

- قولُه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ، وهو للتَّرقِّي مِن مَضمونِ ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] إلى الإخبارِ بأنَّ الكافرَ يَعلَمُ ما فَعَلَه؛ لأنَّهم تَشهَدُ عليهم ألْسنتُهم وأيْديهم وأرْجُلُهم بما كانوا يَعمَلون[٦].

- ونظْمُ قولِه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ صالحٌ لإفادةِ مَعنيَينِ؛ أوَّلُهما: أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٤٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يكونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ بمعْنى مُبصِرٍ شَديدِ المُراقَبةِ، فيكونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ خبَرًا عن ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ مُتعلِّقًا بـ﴿بَصِيرَةٌ﴾، أي: الإنسانُ بَصيرٌ بنفْسِه، وعُدِّيَ بحرْفِ (على) لتَضمينِه معْنى المُراقَبةِ، وهو معْنى قولِه في الآيةِ الأُخرى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، وهاءُ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ تكونُ للمُبالَغةِ، مِثلُ هاءِ علَّامةٍ ونسَّابةٍ، أي: الإنسانُ عليمٌ بَصيرٌ قويُّ العِلمِ بنفْسِه يومَئذٍ. والمعْنى الثَّاني: أنْ يكونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ مُبتدأً ثانيًا، والمرادُ به قَرينُ الإنسانِ مِن الحفَظةِ، ويكونَ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ خبَرَ المبتدأِ الثَّاني مُقدَّمًا عليه، ومَجموعُ الجُملةِ خبرًا عن ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، و﴿بَصِيرَةٌ﴾ حِينَئذٍ يَحتمِلُ أنْ يكونَ بمعْنى بَصيرٍ، أي: مُبصِرٍ، والهاءُ للمُبالَغةِ، وتكونَ تَعديةُ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ بـ﴿عَلَىٰ﴾ لتَضمينِه معْنى الرَّقيبِ.

ويَحتمِلُ أنْ تكونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ صِفةً لمَوصوفٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: حُجَّةٌ بَصيرةٌ، أو عينٌ بَصيرةٌ، وتكونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ معبَّرًا بها عن كَونِها بيِّنةً، والتَّأنيثُ لتَأنيثِ الموصوفِ. وقد جَرَت هذه الجُملةُ مَجرى المثَلِ؛ لإيجازِها ووَفْرةِ مَعانيها[1].

- و﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾: جمْعٌ مُعرَّفٌ بالإضافةِ، يدُلُّ على العُمومِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٨).

الآيات (١٦-١٩)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يُوجِّهُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم إلى ما يَنبغي أنْ يكونَ عليه عندَ تلَقِّي القرآنِ، فيقولُ: لا تُحرِّكْ بالقُرآنِ لِسانَك -يا محمَّدُ- مُتعَجِّلًا بأخْذِه قبْلَ أن يَفرُغَ جِبريلُ مِن قراءَتِه عليك؛ إنَّ علينا أن نجْمَعَ هذا القُرآنَ في صَدْرِك، وأن تَقرَأَه بعْدَ ذلك؛ فلَسْتَ بحاجةٍ إلى تحريكِ شَفَتَيك عندَ نُزولِه، فإذا قرأ جِبْريلُ عليك القُرآنَ فاستَمِعْ لِقراءتِه حتَّى يَفرُغَ، ثمَّ اقْرَأْه كما أقرَأَك، ثمَّ إنَّ علينا أن نُبَيِّنَ لك معانيَ القُرآنِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ مُنكِرَ القِيامةِ والبَعثِ مُعرِضًا عن آياتِ اللهِ تعالَى ومُعجزاتِه، وأنَّه قاصرٌ شَهَواتِه على الفُجورِ، غيرُ مُكترِثٍ بما يَصدُرُ منه- ذكَرَ حالَ مَن يُثابِرُ على تَعلُّمِ آياتِ اللهِ وحِفظِها وتَلقُّفِها، والنَّظَرِ فيها وعَرْضِها على مَن يُنكِرُها؛ رَجاءَ قَبولِه إيَّاها، فظَهَرَ بذلك تَبايُنُ مَن يَرغَبُ في تَحصيلِ آياتِ اللهِ ومَن يَرغَبُ عنها، وبِضِدِّها تَتميَّزُ الأشياءُ. ولَمَّا كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -لِمُثابَرتِه على ذلك- كان يُبادِرُ للتَّحفُّظِ بتَحريكِ لِسانِه، أخبَرَه تعالَى أنَّه يَجمَعُه له ويُوضِّحُه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٠).

=

وقيل: هذه الآيةُ وما بعدَها نَزَلَتْ في خلالِ توبيخِ المشركينَ على إنكارِهم البعثَ ووصْفِ يومِ الحشرِ وأهوالِه، وليسَتْ لها مناسبةٌ بذلك، ولكنْ سَبَبُ نُزولِها حَصَل في خلالِ ذلك[١].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾.

سبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعالِجُ مِن التَّنزيلِ شِدَّةً، وكان مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيه، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: جَمْعَه لك في صَدْرِك وتَقرَأَه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] قال: فاستَمِعْ له وأنصِتْ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩]: ثمَّ إنَّ علينا أن تقرَأَه، فكان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعْدَ ذلك إذا أتاه جِبريلُ استَمَعَ، فإذا انطَلَق جِبريلُ قَرَأَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما قَرَأَه))[٢].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾.

أي: لا تُحرِّكْ بالقُرآنِ لِسانَك -يا محمَّدُ- مُتعَجِّلًا بحَمْلِه وأخْذِه قبْلَ أن يَفرُغَ جِبريلُ مِن قراءتِه عليك[٣].

= وذكر الرازيُّ وُجوهًا أخرى. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٢٦، ٧٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٨٠).

قال الإيجي: (قولُه: ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ اعتراضٌ بذِكرِ ما اتفقَ في أثناءِ نزولِ هذه الآياتِ). ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٤١٣). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦).

(٢) رواه البخاري (٥) واللفظ له، ومسلم (٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩).

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤].

﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه عَلَّل النَّهيَ عن العَجَلةِ بقَولِه: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ﴾ في صَدْرِك، وإثباتَ قِراءتِه في لسانِك[1].

﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧﴾.

أي: إنَّ علينا -يا محمَّدُ- أن نجْمَعَ هذا القُرآنَ في صَدْرِك، فنُثْبِتَه فيه، وأن تَقرَأَه بعْدَ ذلك؛ فلَسْتَ بحاجةٍ إلى تحريكِ شَفَتَيك عندَ نُزولِه[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦].

﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨﴾.

أي: فإذا قرأ جِبْريلُ عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- فاستَمِعْ لقِراءتِه حتَّى يَفرُغَ، ثمَّ اقْرَأْه كما أقرَأَك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٩).

قال ابنُ تيميَّةَ: (مَذهَبُ سَلَفِ الأمَّةِ وأئمَّتِها وخَلَفِها: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَمِع =

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

أي: ثمَّ إنَّ علينا أن نُبَيِّنَ لك -يا محمَّدُ- معانيَ القُرآنِ[(١)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ...﴾ فيه التوبيخُ على حُبِّ العَجلةِ؛ لأنَّ العَجلةَ إذا كانتْ مذمومةً فيما هو أهمُّ الأمورِ، وأصلُ الدِّينِ، فكيفَ بها في غيرِه[(٢)]؟ فالنَّهيُ عن العجلةِ في هذا يَقتضي النهيَ فيما عداه على آكدِ وجهٍ، ومِن

= القرآنَ مِن جِبريلَ، وجِبريلَ سَمِعَه مِنَ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وأمَّا قَولُه: ﴿نَتْلُوا۟﴾ [القصص: ٣] و﴿نَقُصُّ﴾ [يوسف: ٣] ونحوه؛ فهذه الصِّيغةُ في كلامِ العَرَبِ للواحِدِ العظيمِ الَّذي له أعوانٌ يُطيعونَه، فإذا فعَل أعوانُه فِعلًا بأمْرِه، قال: نحنُ فَعَلْنا، كما يقولُ الملِكُ: نحنُ فَتَحْنا هذا البَلَدَ... قولُه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ هو قراءةُ جبريلَ له عليه، واللهُ قرَأَه بواسِطةِ جِبريلَ كما قال: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١]؛ فهو مكَلِّمٌ لمحمَّدٍ بلِسانِ جِبريلَ وإرسالِه إليه). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ١٢٨، ٢٣٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بيانُ معاني القُرآنِ: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: المصدران السابقان.

وقيل: المرادُ: بيانُ أحكامِه وحلالِه وحَرامِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، وعطيَّةُ العَوْفيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩).

وقيل: البيانُ هنا بيانُ ألفاظِه، وليس بيانَ معانيه. وممَّن ذهب إليه: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٠).

وقيل: بيانُ ألفاظِه ومعانيه. وممَّن ذهب إليه: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦).

محبةِ العاجلِ وايثارِه على الآجلِ تقديمُ الدُّنيا الحاضرةِ على الآخرةِ[١].

٢- مِن الأسرارِ الَّتي تَضَمَّنَها قولُه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ التَّأنِّي والتَّثَبُّتُ في تلَقِّي العِلمِ، وألَّا يَحْمِلَ السَّامِعَ شِدَّةُ محبَّتِه وحِرْصِه وطَلَبِه على مُبادَرةِ المعلِّمِ بالأخذِ قبْلَ فراغِه مِن كلامِه، بل مِن آدابِ الرَّبِّ الَّتي أَدَّبَ بها نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أَمْرُه بتركِ الاستعجالِ على تلَقِّي الوَحيِ، بل يَصبِرُ إلى أنْ يَفْرُغَ جبريلُ مِن قراءتِه، ثُمَّ يَقرؤُه بعدَ فراغِه عليه، فهكذا يَنبغي لطالبِ العلمِ ولسامعِه أنْ يَصبِرَ على مُعَلِّمِه حتَّى يَقضيَ كلامَه، ثُمَّ يُعيدَه عليه، أو يَسألَ عمَّا أَشْكَلَ عليه منه، ولا يُبادِرَه قبْلَ فراغِه[٢]؛ فإنَّ الإنسانَ إذا تَسَرَّعَ في تلَقِّي العِلمِ، فرُبَّما يَتلقَّاه على غيرِ ما ألقاه إليه شَيخُه[٣]!

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ دليلٌ إلى الإشارةِ إلى المعنى وإنْ لم يَجْرِ لفْظُه في أوَّلِ الكلامِ؛ لأنَّ «الهاء» في ﴿بِهِۦ﴾ راجعةٌ على القُرآنِ، ولم يُذْكَرْ قَبْلَها؛ فاستغنى بما دلَّ عليه آخرُ الكلامِ؛ إذْ يقولُ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، وهو مِن المواضعِ الَّتي يُبينُ آخِرُ اللَّفظِ فيه عن أَوَّلِه[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أنَّ القرآنَ المسموعَ مِن لسانِ العِبادِ هو كلامُ اللهِ، غيرُ مخلوقٍ، ولم يَصِرْ لفظًا ولا حِكايةً، وأنَّه القرآنُ المَحْضُ الَّذي تَكَلَّمَ اللهُ به، وليس للعِبادِ به لفظٌ أصلًا، إنَّما حَمَلُوه حَملًا، وأَدَّوه أداءً كما يَحمِلُه الكاتبُ بكتابتِه مِن غيرِ أنْ يكونَ له فيه ممازَجةُ لَفظٍ، فليس

(١) يُنظر: ((حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٢).

للتَّالي، ولا للكاتبِ، ولا للحافظِ، ولا للسَّامعِ صنعٌ في اللَّفظِ، ولا في الحكايةِ؛ لأنَّ اللَّفظَ لا يكونُ مِن لافظَينِ في حالٍ واحدةٍ، ولا الكلامُ يكون حكايةً ومحكيًّا مِن واحدٍ في حالٍ واحدةٍ؛ إذ لا بدَّ مِن عدمِ أحدِهما بوجودِ الآخَرِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ القُرآنَ نَزَل مُفرَّقًا، وإشارةٌ إلى أنَّ جَمْعَه على هذا النَّحوِ الموجودِ برعايةٍ وعنايةٍ مِنَ اللهِ تعالى، وتحقيقًا لقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، ويَشهَدُ لذلك أنَّ هذا الجَمعَ الموجودَ مِن وسائِلِ حِفْظِه، كما تعَهَّدَ تعالى بذلك[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ سؤالٌ: أنَّ المرادَ هنا قراءةُ جبريلَ القرآنَ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع أنَّ اللهَ تعالى أضاف القراءةَ إليه!

الجوابُ: لَمَّا كان جبريلُ يَقْرَؤُه على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأمرِ اللهِ تعالى، صَحَّتْ إضافةُ القراءةِ إليه تعالى، وكذلك جاء في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، وإبراهيمُ إنَّما كان يجادِلُ الملائكةَ الَّذين هم رُسُلُ اللهِ تعالى[٣]. وأيضًا فقد جعَل قراءةَ جبريلَ قراءةَ الله؛ لأنَّها مِن عندِه[٤]. وأيضًا فما يُسنِدُه سُبحانَه إلى نفْسِه بصيغةِ ضَميرِ الجَمعِ قد يريدُ به ملائكتَه، كقَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، وقَولِه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٣] ونَظائِرِه؛ فتأمَّلْه[٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ احتَجَّ مَن جوَّزَ تأخيرَ البيانِ عن وَقتِ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٢، ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٤).

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٦).

الخِطابِ بهذه الآيةِ[١]، فـ﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّراخي، فدلَّت على تراخي البيان عن وقتِ الخِطابِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ أنَّه سُبحانَه تَكَفَّلَ بأنْ يُبَيِّنَ هذا القرآنَ لعبادِه لفظًا ومعنًى؛ ولهذا لا يوجَدُ في القرآنِ كلمةٌ لا يَفْهَمُ أحدٌ معناها، بمعنى: أنَّ الأُمَّةَ كلَّها تُطْبِقُ على عدمِ معرفتِها! هذا لا يمكنُ، صحيحٌ أنَّ مِن القرآنِ ما يَخفى على بعضِ النَّاسِ دونَ بعضٍ، وهذا واضحٌ. لكنْ لا يمكِنُ أنْ يوجَدَ في القرآنِ شيءٌ لا تَفْهَمُه الأُمَّةُ كلُّها أبدًا[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ إنَّ الله سُبحانَه وتعالى لم يُخْفِ على العِبادِ ما يُكَلِّفُهم به، فإنَّ رحمتَه وحِكمتَه تأبى ذلك؛ ولهذا قال اللهُ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾، فاللهُ تعالى قد بَيَّنَ للخَلْقِ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وينبني على هذه الفائدةِ -وهي فائدةُ البيانِ-: أهمِّيَّةُ التَّرجمةِ، وأنَّ على المسلمينَ أنْ يُترجِموا الشَّريعةَ إلى لغةِ مَن يُخاطِبونَهم بها حتَّى تَتِمَّ الحُجَّةُ؛ لأنَّك لو أَتيتَ إلى قومٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((روضة الناظر وجنة المناظر)) لابن قدامة (١/ ٥٣٦)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٢٣).

لكن قال ابنُ عاشور: (قد احتجَّ بهذه الآيةِ بعضُ علمائِنا الذين يرونَ جوازَ تأخيرِ البيانِ عن المبينِ متمسكينَ بأنَّ ﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّراخي، وهو متمسكٌ ضعيفٌ؛ لأنَّ التَّراخيَ الذي أفادَتْه ﴿ ثُمَّ ﴾ إنَّما هو تراخٍ في الرُّتبةِ، لا في الزَّمنِ، ولأنَّ ﴿ ثُمَّ ﴾ قد عطَفت مجموعَ الجملةِ، ولم تعطِفْ لفظَ ﴿ بَيَانَهُۥ ﴾ خاصَّةً، فلو أُريد الاحتجاجُ بالآيةِ للزمِ أنْ يكونَ تأخيرُ البيانِ حقًّا لا يخلو عنه البيانُ، وذلك غيرُ صحيحٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٣).

عَجَمٍ وتكلَّمْتَ عندَهم بأبلَغِ الكلامِ العربيِّ وأفصَحِه، ما استفادوا مِن هذا شيئًا، ولا يَدرون ما تقولُ، وعليه فمَن أراد أنْ يَذهبَ إلى قومٍ يَدْعوهم إلى اللهِ لا بُدَّ أنْ يَتَعَلَّمَ لُغتَهم؛ حتَّى يَتمكَّنَ مِن دَعوتِهم، أو يَصْطَحِبَ شخصًا يُترجِمُ له يكونُ عالِمًا باللُّغَتَينِ الأصليَّةِ والفَرعيَّةِ، ويكونُ له إلمامٌ بموضوعِ ما يُتَرْجِمُه، فإذا أراد أن يُترجِمَ في الكلامِ على التَّوحيدِ -مثلًا- فلا بُدَّ أنْ يكونَ عندَه إلمامٌ بذلك؛ لئلَّا يُفْهِمَ الأمرَ على خِلافِه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: فإذا أتْمَمْنا قِراءتَه عليكَ بلسانِ جِبريلَ عليه السَّلامُ، فكُنْ مُتَّبِعًا له ولا تُسابِقْه، وإسنادُ القِراءةِ إلى نُونِ العَظَمةِ للمُبالَغةِ في إيجابِ التَّأنِّي[٢].

- وتقديمُ شِبه الجُملةِ ﴿عَلَيْنَا﴾ على اسم (إنَّ) في ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾، و﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾: أسلوبُ قَصرٍ[٣] يُفيدُ أنَّ اللهَ تعالَى المتولِّي مُهمَّةَ الحِفظِ والبَيانِ، لم يَكِلْ ذلك إلى بَشرٍ، وبهذا سَلِم مِن التَّغييرِ والنَّقْصِ والتَّحريفِ[٤].

- لَفظُ ﴿عَلَيْنَا﴾ في الموضعَينِ للتَّكفُّلِ والتَّعهُّدِ[٥].

- و(ثُمَّ) في ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ قيل: للتَّراخي في الرُّتبةِ، أي: التَّفاوتِ بيْن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٥٧).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٧٨٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٠).

رُتبةِ الجُملةِ المعطوفِ عليها -وهي قولُه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾- وبيْن رُتبةِ الجُملةِ المعطوفةِ، وهي ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، أي: ليس فقط علينا حِفظُه وجَمْعُه وقِراءتُه عليك، وتَثبيتُ حِفظِه في قلبِكَ، بلْ فوقَ ذلك بَيانُه لك، وتفسيرُ معانِيه، وشرْحُ أحكامِه، وتَفصيلُ مُجمَلِه، وتَيسيرُ تِبيانِه للنَّاسِ على لِسانِك بما أُوتيتَ مِن جَوامِعِ الكَلِمِ وفَصْلِ الخِطابِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٠).

الآيات (٢٠-٢٥)

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَّاضِرَةٌ﴾: أي: مُشرِقةٌ مُتهَلِّلةٌ حَسَنةٌ؛ يقالُ: نَضَرَ وَجهُ فلانٍ: إذا حَسُنَ مِن النِّعمةِ، وأصلُ (نضر): يدُلُّ على حُسنٍ وجمالٍ[(١)].

﴿بَاسِرَةٌ﴾: أي: كَئيبةٌ مُتكَدِّرةٌ عابِسةٌ مُسْوَدَّةٌ[(٢)].

﴿فَاقِرَةٌ﴾: أي: داهِيةٌ عظيمةٌ تَكسِرُ فَقَارَ الظَّهرِ، وأصلُ (فقر): يدُلُّ على انفِراجٍ في شَيءٍ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ليس الأمرُ كما تَزعُمونَ مِن إنكارِ البَعْثِ أو غيرِه مِنَ الحَقِّ، وإنَّما الَّذي دعاكم لذلك حُبُّكم للدُّنيا، وتَرْكُكم للآخِرةِ وإعراضُكم عنها.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٥، ٥٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٩).
قال الخليل: (عَبَسَ يَعْبِسُ عُبوسًا فهو عابِسُ الوجهِ غَضْبانُ. فإنْ أبدى عن أسنانِه في عُبوسِه قلتَ: كَلَحَ. وإنِ اهتَمَّ لذلك وفكَّر فيه، قلتَ: بَسَرَ). ((العين)) (١/ ٣٤٣). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى أحوالَ النَّاسِ يومَ القيامةِ، وتَفاوُتَهم فيه، فيقولُ: وُجوهٌ يومَ القيامةِ حَسَنةٌ مُشرِقةٌ ناظِرةٌ إلى رَبِّها سُبحانَه وتعالى في الآخِرةِ، ووُجوهٌ مُظلِمةٌ مُتجَهِّمةٌ كَئيبةٌ مِن شَقاءِ أصحابِها وبُؤسِهم، يَظُنُّ الكُفَّارُ أن تُصيبَهم داهِيةٌ عَظيمةٌ تَقصِمُ ظُهورَهم في ذلك اليَومِ العَصيبِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا فرَغَ مِن خِطابِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ رجَعَ إلى حالِ الإنسانِ السَّابقِ ذِكرُه المنكِرِ البَعثَ، وأنَّ همَّه إنَّما هو في تَحصيلِ حُطامِ الدُّنيا الفاني، لا في تَحصيلِ ثَوابِ الآخرةِ؛ إذ هو مُنكِرٌ لذلك[1]، فقال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ليس الأمرُ كما تَزعُمونَ مِن إنكارِ البَعْثِ أو غيرِه مِنَ الحَقِّ، وإنَّما الَّذي دعاكم لذلك: هو أنَّكم تُحِبُّونَ الدُّنيا، وتَنشَغِلونَ بها[2]!

﴿وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وتَترُكونَ الآخِرةَ، وتُعرِضُونَ عنها[3].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩).

ثَقِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٧].

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الآخِرةَ الَّتي أعرَضوا عنها، ذكَرَ ما يكونُ فيها؛ بيانًا لِجَهْلِهم وسَفَهِهم وقِلَّةِ عُقولِهم، وترهيبًا لِمَن أدبَرَ عنها، وترغيبًا لِمَن أقبَلَ عليها؛ لُطفًا بهم، ورحمةً لهم[(١)].

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

أي: وُجوهٌ يومَ القيامةِ حَسَنةٌ بَهِيَّةٌ مُشرِقةٌ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۞ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٤].

﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي: تَنظُرُ إلى رَبِّها سُبحانَه وتعالى في الآخِرةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٢).
قال مكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ: (أي: حَسَنةٌ ناعِمةٌ جميلةٌ؛ مِنَ السُّرورِ والغِبْطةِ، هذا قولُ جميعِ أهلِ التَّفسيرِ). ((الهداية)) (١٢/ ٧٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٦، ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٢).
قال أبو الحَسَنِ الأشعريُّ: (أجمَعوا على أنَّ المؤمنينَ يَرَونَ اللهَ عزَّ وجَلَّ يومَ القيامةِ بأعيُنٍ =

كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

عن صُهَيب رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا دَخَل أهلُ الجنَّةِ الجَنَّةَ يقولُ اللهُ تبارك وتعالى: تُريدونَ شَيئًا أَزيدُكم؟ فيقولونَ: ألَمْ تُبَيِّضْ وُجوهَنا؟! ألم تُدخِلْنا الجنَّةَ، وتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ؟! قال: فيَكشِفُ الحِجابَ، فما أُعطُوا شيئًا أَحَبَّ إليهم مِن النَّظَرِ إلى رَبِّهم عزَّ وجَلَّ!))، ثمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾[1] [يونس: ٢٦].

وعن أبي هُرَيرةَ وأبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّاسَ قالوا: يا رَسولَ اللهِ، هل نرى رَبَّنا يومَ القيامةِ؟ قال: هل تُمارُونَ[2] في القَمَرِ لَيلةَ البَدْرِ ليس دُونَه سَحابٌ؟ قالوا: لا يا رَسولَ اللهِ. قال: فهل تمارُونَ في الشَّمسِ ليس

= وُجوهِهم، على ما أخبَرَ به تعالى في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾). ((رسالة إلى أهل الثغر)) (ص: ١٣٤).

وقال ابنُ جُزَي: (هذا مِنَ النَّظَرِ بالعَينِ، وهو نَصٌّ في نظرِ المؤمنينَ إلى اللهِ تعالى في الآخرةِ، وهو مَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ، وأنكَرَه المعتَزِلةُ، وتأوَّلوا ﴿نَاظِرَةٞ﴾ بأنَّ معناه: مُنتَظِرةٌ! وهذا باطِلٌ؛ لأنَّ «نَظَر» بمعنى «انتَظَر» يَتعدَّى بغيرِ حرفِ جَرٍّ، تقولُ: نظَرْتُك، أي: انتَظَرْتُك، وأمَّا المتعدِّي بـ«إلى» فهو مِن نَظَرِ العَينِ، ومنه قولُه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَ﴾ [يونس: ٤٣]... وقد جاء عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النَّظَرِ إلى اللهِ أحاديثُ صَحيحةٌ مُستفيضةٌ صريحةُ المعنى، لا تحتَمِلُ التَّأويلَ، فهي تفسيرٌ للآيةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٤). ويُنظر: ((الإبانة عن أصول الديانة)) للأشعري (ص: ٣٥-٤٠)، ((تمهيد الأوائل)) للباقلاني (ص: ٣٠٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٣).

(١) رواه مسلم (١٨١).

(٢) تُمارُونَ: أي: تَشُكُّون، والمِرْيةُ: الشَّكُّ. ويحتملُ أن يكونَ المرادُ: هل يَحصُلُ لكم تَمارٍ واختِلافٌ في رؤيتِهما؟ فكما لا يَحصُلُ لكم في رؤيتِهما تَمارٍ واختِصامٌ، فكذلك رؤيةُ اللهِ عزَّ وجل. والتَّماري والتَّنازُعُ إنَّما يقعُ مِن الشَّكِّ وعدمِ اليقينِ، كما يقعُ في رؤيةِ الأهِلَّةِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٤١٥).

دُونَها سَحابٌ؟ قالوا: لا. قال: فإنَّكم تَرَونَه كذلك))[١].

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ أهلَ النِّعْمةِ؛ أتْبَعَه أضْدادَهم مِن أهلِ النِّقْمةِ[٢].

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ووُجوهٌ يومَ القيامةِ مُظلِمةٌ مُتجَهِّمةٌ كَئيبةٌ مُتكَدِّرةٌ؛ مِن شَقاءِ أصحابِها وبُؤسِهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: يَظُنُّ الكُفَّارُ أنَّ داهِيةً عَظيمةً وعُقوبةً شَديدةً ستُصيبُهم؛ فلذلك تغَيَّرتْ وُجوهُهم[٤]!

---

(١) رواه البخاري (٨٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ والمفسِّرونَ: كالِحةٌ، عابسةٌ، كاشِفةٌ، كئيبةٌ، مُصْفَرَّةٌ، مُتغيِّرةُ اللَّونِ، كريهةٌ، مُقطبةٌ؛ كلُّ هذا مِن ألفاظِهم). ((البسيط)) (٢٢/ ٥١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٤، ٣٩٥)، ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ ذَمُّ مَن يُحِبُّ الدُّنيا ويُؤْثِرُها على الآخِرةِ[١].

٢- قَال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾، الكلامُ مُشعِرٌ بالتَّوبيخِ، ومَناطُ التَّوبيخِ هو حُبُّ العاجلةِ مع نَبْذِ الآخرةِ، فأمَّا لو أحَبَّ أحَدٌ العاجلةَ وَراعى الآخرةَ -أي: جَرى على الأمرِ والنَّهيِ الشَّرعيَّينِ- لم يكُنْ مَذمومًا؛ قال تعالَى فيما حَكاهُ عن الَّذين أُوتوا العِلمَ مِن قومِ قارونَ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[٢] [القصص: ٧٧].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ جُمِعَ الضَّميرُ، وإن كان مبنى الخِطابِ مع الإنسانِ؛ نظَرًا للمعنى، إشارةً إلى أنَّه لا يَسلَمُ مِنَ العَجَلةِ المذمومةِ إلَّا أفرادٌ حَفِظَهم اللهُ بقُدرتِه الباهِرةِ[٣].

= القرطبي)) (١٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠).

ذهب كثيرٌ مِنَ المفَسِّرينَ إلى أنَّ الظَّنَّ هنا بمعنى اليقينِ. ومنهم: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٦).

وقيل: هو على بابِه بمعنى التَّوقُّعِ. وممَّن قال بهذا: البِقاعي، قال: (﴿تَظُنُّ﴾ أي: تتوَقَّعُ بما تَرى مِنَ المخايِلِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٠٧).

وقال البِقاعي أيضًا في معنى ﴿فَاقِرَةٌ﴾: (داهِيةٌ تَكْسِرُ الفَقارَ: وهو عَظمُ سِلسلةِ الظَّهرِ الَّذي هو أصلَبُ ما في العِظامِ، فتكونُ قاصِمةَ الظَّهرِ!). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٠٧).

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٤).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أنَّ النَّفْسَ مُولَعةٌ بحُبِّ العاجِلِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ إثباتُ رؤيةِ المؤمنينَ لربِّهم في الآخِرةِ[٢]، وفيه ردٌّ على المعتَزلةِ في إنكارِهم الرُّؤْيةَ[٣]. وإضافةُ النَّظَرِ إلى الوجهِ -الَّذي هو مَحَلُّه- في هذه الآيةِ، وتعديتُه بأداةِ «إلى» الصَّريحةِ في نَظَرِ العَينِ، وإخلاءُ الكلامِ مِن قرينةٍ تدُلُّ على أنَّ المرادَ بالنَّظَرِ المضافِ إلى الوجهِ، المُعَدَّى بـ«إلى»: خِلافُ حقيقتِه ومَوضوعِه- صريحٌ في أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أراد بذلك نَظَرَ العَينِ الَّتي في الوجهِ، إلى نَفْسِ الرَّبِّ جلَّ جلالُه؛ فإنَّ النَّظَرَ له عِدَّةُ استعمالاتٍ بحَسَبِ صِلاتِه وتَعَدِّيه بنَفْسِه؛ فإنْ عُدِّيَ بنَفْسِه فمعناه التَّوقُّفُ والانتِظارُ، كقَولِه: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، وإنْ عُدِّيَ بـ«في» فمعناه التَّفَكُّرُ والاعتِبارُ، كقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وإنْ عُدِّيَ بـ«إلى» فمعناه المُعاينةُ بالأبصارِ، كقولِه: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، فكيف إذا أُضيفَ إلى الوَجهِ الَّذي هو مَحَلُّ البَصَرِ[٤]؟!

٤- قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾ إنَّما ذكر تعالى الوُجوهَ؛ لأنَّه فيها يَظهَرُ ما في النَّفْسِ مِن سُرورٍ أو غَمٍّ[٥].

٥- عن الحَسَنِ، في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال: (حَسَنةٌ). ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: (تَنظُرُ إلى الخالِقِ، وحُقَّ لها أن تَنضُرَ وهي تنظُرُ إلى الخالِقِ!)[٦].

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٧).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ جَمَعَ سُبحانَه بيْن الجمالَين؛ فالنَّضْرةُ تُزَيِّنُ ظواهِرَهم، والنَّظَرُ يُجَمِّلُ بواطِنَهم[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ رُجوعٌ إلى مَهيعِ (طريقِ) الكلامِ الَّذي بُنِيَت عليه السُّورةُ، كما يَرجِعُ المتكلِّمُ إلى وصْلِ كَلامِه بعْدَ أنْ قَطَعَه عارضٌ أو سائلٌ[٢].

- وكَلمةُ ﴿كَلَّا﴾ ردْعٌ وإبطالٌ؛ يَجوزُ أنْ يكونَ إبطالًا لِما سبَقَ مِن قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣] إلى قولِه: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ٣- ١٥]، فأُعِيدَ ﴿كَلَّا﴾ تَأكيدًا لنَظيرِه، ووصْلًا للكلامِ بإعادةِ آخِرِ كَلمةٍ منه، والمعْنى: أنَّ مَزاعمَهم باطلةٌ. وقولُه: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ إضرابٌ إبطاليٌّ يُفصِّلُ ما أجْمَلَه الرَّدعُ بـ ﴿كَلَّا﴾ مِن إبطالِ ما قبْلَها وتَكذيبِه، أي: لا مَعاذيرَ لهم في نفْسِ الأمرِ، ولكنَّهم أحَبُّوا العاجلةَ، أي: شَهَواتِ الدُّنيا، وتَرَكوا الآخرةَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ إبطالًا لِما تَضمَّنَه قولُه: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٥]؛ فهو استِئنافٌ ابتدائيٌّ، والمعْنى: أنَّ مَعاذيرَهم باطلةٌ، ولكنَّهم يُحِبُّون العاجلةَ، ويَذَرون الآخرةَ، أي: آثَروا شَهَواتِهم العاجلةَ، ولم يَحسَبوا للآخرةِ حِسابًا[٣].

- وقيل: ﴿كَلَّا﴾ ردْعٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن عادةِ العجَلةِ، وإنكارٌ لها عليه، وحثٌّ على الأناةِ والتُّؤدَةِ، وقد بالَغَ في ذلك بإتْباعِه قولَه: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلْعَاجِلَةَ﴾[١].

- قولُه: ﴿تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ تَعميمٌ للخِطابِ؛ إشعارًا بأنَّ بَني آدَمَ مَطبوعونَ على الاستِعجالِ، وإنْ كان الخِطابُ للإنسانِ، والمرادُ به الجِنسَ، فجُمِع الضَّميرُ للمعْنى[٢].

- قولُه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ ﴿تُحِبُّونَ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ﴾ بتاءٍ فَوقيَّةٍ على الالْتِفاتِ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ في مَوعظةِ المشْركين مُواجهةً بالتَّفريعِ؛ لأنَّ ذلك أبلَغُ فيه، وقُرِئَ بياءٍ تَحتيَّةٍ على نسَقِ ضَمائرِ الغَيبةِ السَّابقةِ، والضَّميرُ عائدٌ إلى الإنسانِ في قولِه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، جاء ضَميرَ جمْعٍ؛ لأنَّ الإنسانَ مُرادٌ به النَّاسُ المشْركون[٣]. وعلى قِراءةِ ﴿يُحِبُّونَ﴾ ﴿وَيَذَرُونَ﴾ بالياءِ[٤]، قيل: هو أبلَغُ؛ للالْتفاتِ بعْدَ تَعميمِ الخِطابِ؛ قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، ثمَّ عمَّ وقال: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، وعلى الغَيبةِ يَعْني مِن شأْنِ بني آدَمَ العَجَلةُ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ لَمَّا وبَّخهم بحُبِّ العاجِلةِ، وترْكِ الاهتِمامِ بالآخِرةِ، تَخلَّصَ إلى شَيءٍ مِن أحوالِ الآخِرةِ؛ فقدْ تَخلَّصَ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦١، ٦٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥١).

(٤) قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو وابنُ عامرٍ ويعقوبُ بالياءِ فيهما، وقرأ الباقونَ بالتَّاءِ فيهما. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٦٥).

إجمالِ حالِ النَّاسِ يومَ القِيامةِ بيْن أهلِ سَعادةٍ وأهْلِ شَقاوةٍ(١).

- وتَنكيرُ ﴿وُجُوهٌ﴾ للتَّنويعِ والتَّقسيمِ(٢).

- وكُنِّيَ بنَضْرةِ الوُجوهِ عن فرَحِ أصحابِها ونَعيمِهم؛ قال تعالَى في أهلِ السَّعادةِ: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]؛ لأنَّ ما يَحصُلُ في النَّفْسِ مِن الانفِعالاتِ يَظهَرُ أثَرُه(٣).

- قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، ظاهرُ لَفظِ (ناظِرة) أنَّه مِن (نَظَرَ) بمعْنى: عايَنَ ببَصرِه، إعلانًا بتَشريفِ تلك الوُجوهِ أنَّها تَنظُرُ إلى اللهِ تعالَى نظَرًا خاصًّا لا يُشارِكُها فيه مَن يكونُ دونَ رُتَبِهم(٤).

- وتَقديمُ المجرورِ مِن قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ على عامِلِه؛ للاهتِمامِ بهذا العَطاءِ العَجيبِ، وليس للاختِصاصِ؛ لأنَّهم يَرونَ بهَجاتٍ كثيرةً في الجنَّةِ(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾

- قولُه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أُعِيدَ لَفظُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ تَأكيدًا للاهتِمامِ بالتَّذكيرِ بذلك اليومِ(٦).

- قولُه: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لبَيانِ سَببِ بُسُورِها(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٢، ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٥٦).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- و﴿فَاقِرَةٌ﴾، أي: داهيةٌ عَظيمةٌ، وإفرادُها إفرادُ الجِنسِ، أي: نوعًا عظيمًا مِن الدَّاهيةِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٦).

الآيات (٢٦-٣٥)

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ٣٣ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ٣٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾: جمعُ تَرْقُوةٍ: وهي ثُغْرةُ النَّحرِ، أو عَظْمٌ يَصِلُ ما بيْن ثُغْرةِ النَّحرِ والعاتِقِ، ولكُلِّ إنسانٍ تَرْقُوتانِ عن يمينِه وعن شمالِه، ويُكْنَى ببُلوغِ النَّفْسِ التَّراقيَ عن الإشفاءِ على الموتِ[1].

﴿مَنۡۜ رَاقٖ﴾: أي: مَنْ صاحِبُ رُقيةٍ أو طَبيبٌ يَرقِيه فيَشفِيه برُقْيَتِه أو دَوائِه؟ يُقالُ: رَقاه يَرْقِيه رُقْيةً: إذا عَوَّذَه بما يَشْفِيه، كأنَّهم طَلَبوا له الرُّقْيةَ والشِّفاءَ. وقيل: مَن يَرْقَى ويَصعَدُ برُوحِه مِن الملائِكةِ؟ مِن رَقِيَ يَرْقَى رُقِيًّا. وأصلُ (رقي) هنا: يدُلُّ على عُوذةٍ يُتعَوَّذُ بها، ويدُلُّ على الصُّعودِ[2].

﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾: أي: المَرجِعُ والمآبُ، وأصلُ (سوق): يدُلُّ على حَدْوِ الشَّيءِ[3].

﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾: أي: يَتبختَرُ ويَختالُ في مِشْيَتِه؛ مِنَ المَطَا، وهو الظَّهرُ، فيَلْوي ظَهْرَه تبختُرًا. أو مِنَ المطِّ: وهو المَدُّ؛ لأنَّه يتبَختَرُ ويمُدُّ يَدَيه في المشْيِ، وأصلُه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٥١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٥١٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢).

«يَتمَطَّطُ»، فجُعِلَت الطَّاءُ الثَّالثةُ ياءً؛ للتَّخفيفِ[١].

﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾: أي: وَلِيَكَ المكروهُ، وقارَبَك ما يُهلِكُك، وهو أفعَلُ، مِنَ الوَلْيِ: وهو القُربُ، ومَعناه التَّوَعُّدُ والتَّهَدُّدُ. وقيل: وَعيدٌ بمعنى: وَيْلٌ لك، وأصلُ أَوْلى: أَوْيَلُ، أي: أشَدُّ وَيْلًا، فوقَعَ فيه قَلبٌ، ووَزْنُه أفلَعُ، مأخوذٌ مِنَ الوَيلِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾

قَولُه تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾: فيه عِدَّةُ أوجُهٍ:

أحَدُها: أنَّه مُبتدَأٌ مَرفوعٌ. و ﴿لَكَ﴾: جارٌّ ومجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ خبَرٌ، وهي كَلِمةُ تهديدٍ ووعيدٍ، أي: وَيلٌ لك، أو هَلاكٌ لك، وسَوَّغ الابتداءَ بالنَّكرةِ كَونُه دُعاءً.

الثَّاني: أنَّ ﴿أَوْلَىٰ﴾ خبرٌ لِمُبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: فالعِقابُ أو الهلاكُ أَولى لك، أي: أقرَبُ وأَدنى.

الثَّالِثُ: أنَّ ﴿أَوْلَىٰ﴾: فِعلٌ ماضٍ، وفاعِلُه مُضمَرٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: قاربَك ووَلِيَك ما يُهلِكُك، واللَّامُ في ﴿لَكَ﴾ زائِدةٌ في المفعولِ.

الرَّابعُ: أنَّه فِعلٌ ماضٍ، وفاعِلُه ضَميرُ اللهِ عزَّ وجلَّ، واللَّامُ مَزيدةٌ في المفعولِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٥٢٦).

(٢) يُنظَر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (١٠/ ٤٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٥٠) و(٢٢/ ٥٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٤١١)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٤٠/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٩).

الأوَّلِ، والمفعولُ الثَّاني محذوفٌ، والتَّقديرُ: أَوْلاكَ اللهُ تعالى ما تَكرَهُه. أو اللَّامُ غيرُ مَزيدةٍ، والمفعولُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: أدنَى اللهُ عزَّ وجلَّ الهلاكَ لك.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالةَ الاحتضارِ، وما يَعتريها مِن الأهوالِ: كَلَّا إذا بلَغَت الرُّوحُ العِظامَ الموجودةَ عندَ ثُغْرةِ النَّحرِ في أعلى الصَّدرِ وبدايةِ الحُلْقومِ، وذلك عندَ مَوتِ الإنسانِ، وقيلَ: هل مِن راقٍ يَرْقِيه، وطبيبٍ يُداويه؛ فيَشفى مِمَّا هو فيه؟ وظنَّ ذلك المُحتَضَرُ أنَّه مُفارِقٌ للدُّنيا وما فيها، وتتابَعَتْ عليه الشَّدائِدُ، إلى رَبِّك المَساقُ والمرجِعُ.

ثمَّ يُخبِرُ اللهُ تعالى عن حالِ الكافرِ في الدُّنيا، فيقولُ: فلمْ يُصَدِّقْ بما وجَبَ عليه التَّصديقُ به، ولا صلَّى ما أُمِرَ بأدائِه مِنَ الصَّلَواتِ، ولكِنْ كذَّبَ بالحَقِّ فلم يُؤمِنْ به، وأعرَضَ عنه فلم يَعمَلْ به، ثمَّ مَضَى إلى أهلِه مُتبَختِرًا مُختالًا في مِشْيَتِه.

ثمَّ يتوَعَّدُ اللهُ -تعالى- ويُهَدِّدُ هذا الكافِرَ فيقولُ: وَلِيَك الهَلاكُ، وقَرُبَ منك المكروهُ! ثمَّ وَلِيَكَ الهلاكُ، وقَرُبَ منك المكروهُ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن تعظيمَ أحوالِ الآخِرةِ؛ بيَّن أنَّ الدُّنيا لا بدَّ فيها مِن الانتهاءِ والنَّفادِ،

(١) يُنظَر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٥٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٩٨) و (١٠/ ٥٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٤).

والوُصولِ إلى تجَرُّعِ مرارةِ الموتِ[١].

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦﴾.

أي: كَلَّا[٢] إذا بلَغَت الرُّوحُ العِظامَ الموجودةَ عندَ ثُغْرةِ النَّحرِ في أعلى الصَّدرِ، وبدايةِ الحُلقومِ، وذلك عندَ مَوْتِ الإنسانِ[٣].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٤).

(٢) قيل: ﴿كَلَّآ﴾ هنا نافيةٌ لِما يظُنُّه المشركون مِن أنَّهم لا يُعاقَبونَ على شِرْكِهم ومَعصِيتِهم رَبَّهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٨).

وقيل: معناها: استبعادُ إيمانِ الكافرِ بيومِ القيامةِ، أي: بعيدٌ أن يؤمِنَ الكافرُ بيومِ القيامةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، وابنُ عادل، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٥٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٠).

وقيل: ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ وزجرٌ وتنبيهٌ، ومعناه: ارتَدِعوا عمَّا يؤدِّي إلى العذابِ، وعن إيثارِ الدُّنيا على الآخرةِ، وتنبَّهوا على ما بيْن أيديكم مِن الموتِ. وممَّن قال بهذا في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٦، ٣٥٧).

وقيل: المرادُ: نَفيُ استمرارِ محبَّةِ الدُّنيا، بل لا بُدَّ أن ينقَطِعَ ذلك انقِطاعًا قَبيحًا جِدًّا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٨).

قال ابنُ عاشور: (جمعُ تَرْقُوَةٍ: وهي ثُغْرةُ النَّحرِ، ولكُلِّ إنسانٍ تَرْقُوَتانِ عن يمينِه وعن شِمالِه. ومعنى: ﴿بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾: أنَّ الرُّوحَ بَلَغَت الحَنجَرةَ حيثُ تَخرجُ الأنفاسُ الأخيرةُ، فلا يُسمَعُ صَوتُها إلَّا في جهةِ التَّرْقُوةِ، وهي آخِرُ حالاتِ الاحتضارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٨).

أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٧].

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: وقيلَ: هل مِن راقٍ يَرْقِيه، وطبيبٍ يُداويه؛ فيَشفَى مِن مَرَضِه[١]؟

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: وأيقَن المُحتَضَرُ أنَّه مُفارِقٌ الدُّنيا والأموالَ والأولادَ، والأهلَ والأحبابَ[٢].

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٨).

قال السعدي: (أي: مَن يَرْقِيه؟ مِنَ الرُّقْيةِ؛ لأنَّهم انقَطَعت آمالُهم مِن الأسبابِ العاديَّةِ، فلم يَبْقَ إلَّا الأسبابُ الإلهيَّةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠).

وقال الشوكاني: (وقالَ أبو الجوزاءِ: هو مِن رَقَى يَرْقَى إذا صَعِد، والمعنَى: مَن يَرْقَى برُوحِه إلى السَّماءِ: أمَلائكةُ الرَّحمةِ أم ملائِكَةُ العذابِ؟ وقيلَ: إنَّه يقولُ ذلك مَلَكُ الموتِ؛ وذلك أنَّ نفْسَ الكافرِ تكرَهُ الملائِكَةُ قُرْبَها). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٩).

قال جمْعٌ مِن المفسِّرينَ: الظَّنُّ هنا بمعنى اليقينِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابن الجوزي، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٢).

قال ابن عطيَّة: (وهذا يقينٌ فيما لم يَقَعْ بَعْدُ؛ ولذلك استُعمِلَت فيه لفظةُ الظَّنِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٦).

وقال ابن عاشور: (الظَّنُّ: العِلمُ المقارِبُ لليَقينِ، وضميرُ ﴿أَنَّهُ﴾ ضميرُ شأنٍ، أي: وأيْقَنَ أنَّه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٩).

أي: وتتابَعَتْ على المُحتَضَرِ الشَّدائِدُ[(١)]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١٥، ٥٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠).

قال الماوَرْدي: (﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ فيه أربعةُ أوجُهٍ:

أحدُها: اتِّصالُ الدُّنيا بالآخِرةِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: الشِّدَّةُ بالشِّدَّةِ، والبلاءُ بالبلاءِ، وهو شِدَّةُ كُرَبِ الموتِ، بشِدَّةِ هَولِ المَطلَعِ. قاله عِكْرِمةُ، ومجاهِدٌ.

الثَّالثُ: التفَّت ساقاه عندَ الموتِ. وحكى ابنُ قُتَيْبةَ عن بعضِ المفسِّرينَ أنَّ التفافَ السَّاقِ بالسَّاقِ عندَ السِّياقِ. قال الحسَنُ: ماتت رِجْلاه فلم تَحمِلاه، وقد كان عليهما جَوَّالًا.

الرَّابعُ: أنَّه اجتمَع أمْرانِ شديدانِ عليه: النَّاسُ يُجَهِّزونَ جَسَده، والملائِكةُ يُجَهِّزونَ رُوحَه. قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٥٨). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: شِدَّةُ الدُّنيا بشِدَّةِ الآخرةِ: السمعانيُّ، وابنُ الجوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٢٦).

قال الخازن: (﴿ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي: الشِّدَّةُ بالشِّدَّةِ، يعني: شِدَّةَ مُفارَقةِ الدُّنيا، مع شدَّةِ الموتِ وكربِه). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٤).

وقال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصِّحَّةِ عندي قولُ مَن قال: معنَى ذلك: والْتَفَّتْ ساقُ الدُّنيا بساقِ الآخرةِ، وذلك شِدَّةُ كربِ الموتِ بشِدَّةِ هولِ المَطْلَعِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني: التفَّ أمرُ الدُّنيا بالآخرةِ، فصار واحدًا كِلاهما). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥١٣).

قال الواحديُّ: (قال المفسِّرونَ: تتابعَتْ عليه الشَّدائدُ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٩٥). ونسَبَه الشَّوكانيُّ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٠).

قال الواحديُّ أيضًا: (قال ابنُ عبَّاسٍ في روايةِ عطاءٍ: يريدُ شدَّةَ الموتِ، بشِدَّةِ الآخرةِ. وهو قولُ الكلبيِّ، ومقاتلٍ، وقَتادةَ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، والسُّدِّيِّ، قالوا: معناه: تتابعَتْ عليه الشَّدائدُ: شدَّةُ بُعْدِ مُفارَقةِ الوطَنِ مِن الدُّنيا والأهلِ، وشدَّةُ القُدومِ على ربِّه، فالتقَتْ آخِرُ شِدَّةِ الدُّنيا، بأوَّلِ شدَّةِ الآخرةِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٥١٩، ٥٢٠). =

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا صَوَّر وَقتَ تأسُّفِه على الدُّنيا وإعراضِه عنها؛ ذكَرَ غايةَ ذلك[1]، فقال:

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾.

أي: إلى رَبِّك يومَئذٍ المرجعُ[2].

= وممَّن ذهَب إلى المعنى الثَّالثِ: أي: التفَّت ساقاه عندَ الموتِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والزمخشري، والنسفي، وابن جُزَي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٦٩).

قال القاسمي: (أي: الْتَوَت ساقُه بساقِه، فلا يَقدِرُ على تحريكِها). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٦٩).

وقال ابن جُزَي: (هذا عبارةٌ عن شدَّةِ كُرَبِ الموتِ وسَكَراتِه، أي: التفَّتْ ساقُه على الأخرى عندَ السِّياقِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٥).

وقيل: المرادُ: لَفُّ ساقَيِ الميِّتِ في كَفَنِه. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٩).

قال ابن عاشور: (قولُه: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ إن حُمِلَ على ظاهِرِه، فالمعنى: التِفافُ ساقَيِ المحتَضَرِ بعدَ موتِه؛ إذ تُلَفُّ الأكفانُ على ساقَيه، ويُقرَنُ بيْنَهما في ثوبِ الكَفَنِ، فكُلُّ ساقٍ منهما مُلتفَّةٌ صُحبةَ السَّاقِ الأخرى، فالتَّعريفُ عِوَضٌ عن المضافِ إليه، وهذا نهايةُ وصفِ الحالةِ الَّتي تهيَّأَ بها لمصيرِه إلى القَبرِ الَّذي هو أوَّلُ مَراحِلِ الآخرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٠، ١١١).

قال ابن كثير: (وذلك أنَّ الرُّوحَ تُرفَعُ إلى السَّمَواتِ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: رُدُّوا عبدي إلى الأرضِ؛ فإنِّي منها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخرِجُهم تارةً أُخرى). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢). =

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبْدَ المؤمِنَ إذا كانَ في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقْبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كَأنَّ وُجوهَهُمُ الشَّمْسُ، معَهُم كَفَنٌ مِن أَكْفانِ الجَنَّةِ، وحَنوطٌ[1] مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجْلِسوا منه مَدَّ البَصَرِ، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ، حتَّى يَجلِسَ عندَ رَأْسِه، فيَقولُ: أَيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخْرُجي إلى مَغْفرةٍ مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ. فتَخْرُجُ تَسيلُ كما تَسيلُ القَطْرةُ مِن فِي السِّقَاءِ، فيَأْخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَأْخُذوها، فيَجْعَلوها

= قيل: ضميرُ المخاطَبِ في قَولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ عائدٌ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٠).

وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ التِفافِ السَّاقِ بالسَّاقِ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢).

وقال البقاعي: (﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: إذ وقَع هذا الأمرُ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١١٠).

وقال مكِّي: (أي: إلى ربِّك مَساقُه إذا اشتدَّ كربُه، وحَشرَجَتْ نفْسُه). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٢/ ٧٨٩٣).

وقيل: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ القيامةِ. وممَّن اختاره: الرَّسْعَني، والقرطبيُّ، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٠).

(١) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٦).

في ذلك الكَفَنِ، وفي ذلك الحَنُوطِ، ويَخرُجُ منها كأَطْيَبِ نَفْحةٍ[١] مِسْكٍ وُجِدَت على وَجْهِ الأرضِ. فيَصْعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ المَلائِكَةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحْسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنْتَهوا بها إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيَسْتَفتِحون له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها، حتَّى يُنْتَهى به إلى السَّماءِ السَّابِعةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَ عَبْدي في عِلِّيِّينَ[٢]، وأَعِيدُوه إلى الأرضِ؛ فإنِّي منها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخْرِجُهم تارةً أُخرى...

وإنَّ العَبدَ الكافِرَ إذا كان في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا، وإقبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نَزَل إليه مِن السَّماءِ مَلائكةٌ سُودُ الوُجوهِ، مَعَهمُ المُسُوحُ[٣]، فيَجْلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ حتَّى يَجلِسَ عِندَ رَأسِه، فيَقولُ: أَيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخْرُجي إلى سَخَطٍ مِن اللهِ وغَضَبٍ! فتَفَرَّقُ في جسَدِه، فيَنتَزِعُها كما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ[٤] مِنَ الصُّوفِ المَبْلولِ، فيَأْخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَجْعَلوها في تِلك المُسوحِ، ويَخْرُجُ منها كأَنْتَنِ رِيحِ جِيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ. فيَصْعَدونَ بها، فَلا يَمُرُّون بها على مَلأٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فلانٍ؛ بأقبَحِ أسمائِه الَّتي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتَّى يُنتَهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستَفتَحُ له، فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرَأ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[الأعراف: ٤٠]. فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ

(١) النَّفحةُ: المرَّةُ مِن نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحَتِه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).
(٢) عِلِّيِّينَ: هو دِيوانُ المُقَرَّبينَ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٦).
(٣) المُسوحُ: جمعُ الْمِسحِ: وهو اللِّباسُ الخَشِنُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٩).
(٤) السَّفُّودُ: الحديدةُ الَّتي يُشوى بها اللَّحمُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٤٨٩).

السُّفْلى، فتُطْرَحُ رُوحُه طَرحًا. ثمَّ قرَأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]...))[١].

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾.

أي: فلم يُصَدِّقْ بما وجب عليه التَّصديقُ به، ولا صلَّى ما أُمِرَ بأدائِه مِنَ الصَّلَواتِ[٢].

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نفى عنه أفعالَ الخَيرِ؛ أثبَتَ له أفعالَ الشَّرِّ، فقال[٣]:

---

(١) أخرجه ابنُ أبي شَيْبَةَ في ((المصنَّف)) (١٢٠٥٩)، وأحمدُ (١٨٥٣٤)، والطيالسيُّ (٧٨٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقارِبةٍ.
صحَّح إسنادَه الطبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقيُّ في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وقال ابنُ مَنْدَه في ((الإيمان)) (٣٩٨): (إسنادُه مُتَّصِلٌ مَشهورٌ ثابتٌ على رَسمِ الجَماعةِ). وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦١).
قال الزمخشري: (فلا صَدَّق بالرَّسولِ والقُرآنِ، ولا صَلَّى. ويجوزُ أن يرادَ: فلا صَدَّق مالَه، بمعنى: فلا زكَّاه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٤).
وقال البِقاعي: (﴿فَلَاصَدَّقَ﴾ أي: هذا الإنسانُ الَّذي الكلامُ فيه: الرَّسولَ فيما أخبَرَه بما كان يعمَلُ مِن الأعمالِ الخبيثةِ، ولا إيمانَه بالإنفاقِ في وُجوهِ الخَيرِ الَّتي نُدِبَ إليها واجِبةً كانت أو مَسنونةً، وحُذِفَ المفعولُ؛ لأنَّه أبلَغُ في التَّعميمِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١١١).
وقال الخطابي: (قد يُوضَعُ «لا» بمعنى «لم»، كقولِه تعالى: ﴿فَلَاصَدَّقَ وَلَاصَلَّىٰ﴾، أي: لم يُصَدِّقْ ولم يُصَلِّ). ((معالم السنن)) (٢/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١١).

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ٣٢﴾.

أي: ولكِنْ كذَّبَ بالحَقِّ فلم يُؤمِنْ به، وأعرَضَ عنه فلم يَعمَلْ به[١].

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ٣٣﴾.

أي: ثمَّ مَضَى إلى أهلِه مُتبَختِرًا مُعْجَبًا بنَفْسِه، غيرَ مُبالٍ بكُفْرِه ومَعاصيه[٢].

﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ٣٤﴾.

أي: قال اللهُ تعالى مُتوَعِّدًا ومُهَدِّدًا هذا الكافِرَ: وَلِيَك الهَلاكُ، وقَرُبَ منك المكروهُ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٢).

قال ابنُ عطية: (قال جمهورُ المتأوِّلينَ: هذه الآيةُ كُلُّها إنَّما نزلت في أبي جَهلِ بنِ هِشامٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٦).

وقال ابن عاشور: (المرادُ: كُلُّ إنسانٍ كافرٍ، كما يَقتضيه أوَّلُ الكلامِ مِن قَولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ إلى قَولِه: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ [القيامة: ٣ - ١٤]، وما أبو جَهلٍ إلَّا مِن أوَّلِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٣).

قال ابنُ عطيَّة: (المعنى: أَولى لك الازدِجارُ والانتهاءُ، وهو مأخوذٌ مِن «وَلِيَ»، والعرَبُ تَستَعمِلُ هذه الكَلِمةَ زَجرًا، ومنه قَولُه تعالى: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ * طَاعَةٞ﴾ [محمد: ٢٠، ٢١]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٧).

وقال الرَّاغبُ الأصفهانيُّ: (قولُه تعالى: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ﴾ كَلِمةُ تهديدٍ وتخويفٍ يُخاطَبُ بها مَن أشرَفَ على هلاكٍ، فيُحَثُّ بها على التَّحَرُّزِ، أو يُخاطَبُ بها مَن نجا ذليلًا منه، فيُنهى عن مِثْلِه ثانيًا، وأكثَرُ ما يُستَعمَلُ مُكَرَّرًا، وكأنَّه حَثٌّ على تأمُّلِ ما يَؤُولُ إليه أمرُه؛ ليتنَبَّهَ للتَّحَرُّزِ منه). =

﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ٣٥﴾.

أي: ثمَّ وَلِيَكَ الهلاكُ، وقَرُبَ منك المكروهُ[١]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي: يتبختَرُ، وفيه ذمُّ هذه المِشْيةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ تضَمَّنَت هذه الآيةُ وَصْفَ الرُّوحِ بأنَّها جِسمٌ يَنتَقِلُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ؛ فتُجْمَعُ مِن تَفاريقِ البَدَنِ حتَّى تَبلُغَ التَّراقيَ[٣]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ لعَلَّه إنَّما سُمِّيَ اليقينُ هاهنا بالظَّنِّ؛ لأنَّ الإنسانَ ما دام يبقى رُوحُه مُتعَلِّقًا ببَدَنِه فإنَّه يَطمَعُ في الحياةِ؛ لشِدَّةِ حُبِّه لهذه الحياةِ العاجلةِ، على ما قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، ولا ينقَطِعُ رَجاؤُه عنها، فلا يَحصُلُ له يقينُ الموتِ، بل الظَّنُّ الغالِبُ مع رجاءِ الحياةِ.

= ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ١٠٠).

وقال ابنُ كثير: (هذا تهديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ منه تعالى للكافِرِ به المتبختِرِ في مِشْيَتِه، أي: يحِقُّ لك أن تَمشِيَ هكذا وقد كفَرْتَ بخالِقِك وبارئِك! كما يُقالُ في مِثْلِ هذا على سبيلِ التَّهَكُّمِ والتَّهديدِ، كقَولِه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤).

قال البِقاعي: (﴿فَأَوْلَىٰ﴾ أي: ابتلاكَ اللهُ بداهيةٍ عَقِبَ داهيةٍ، وأبلَغ ذلك التَّأكيدَ إشارةً إلى أنَّه يَستَحِقُّه على مَدى الأعصارِ، فقال مُشيرًا بأداةِ التَّراخي إلى عَظيمِ ما ارتكب وقُوَّةِ استِحقاقِه لهذا التأكيدِ: ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ﴾ أي: أيُّها الَّذي قد أحَلَّ نَفْسَه بالغَفلةِ دونَ مَحَلِّ البَهائِمِ ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ أي: وصَلْتَ إلى هذا الهلاكِ بداهيةٍ تَعقُبُها تارةً متواليًا، وتارةً مُتراخِيًا، وبَعضُها أعظَمُ مِن بعضٍ، لَحِقَكَ ذلك لا محالةَ؛ فإنَّ هذا دعاءٌ مِمَّن بيَدِه الأمرُ كُلُّه!). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٣).

وفيه وَجهٌ آخَرُ: لعَلَّه سَمَّاه بالظَّنِّ على سَبيلِ التَّهَكُّمِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ يدُلُّ على أنَّ الرُّوحَ قائِمةٌ بنَفْسِها باقيةٌ بعدَ موتِ البَدَنِ؛ لأنَّه تعالى سَمَّى الموتَ فِراقًا، والفِراقُ إنَّما يكونُ لو كانت الرُّوحُ باقيةً؛ فإنَّ الفِراقَ والوِصالَ صِفةٌ، والصِّفةُ تَستدعي وُجودَ الموصوفِ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّ الكافِرَ يَستَحِقُّ الذَّمَّ والعِقابَ بتَرْكِ الصَّلاةِ، كما يَستَحِقُّهما بتَرْكِ الإيمانِ[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ يُؤَيِّدُ أنَّ تَرْكَ الصَّلاةِ كُفْرٌ؛ إذْ قَرَنَه جلَّ جلالُه مع تكذيبِ الرُّسُلِ وتَرْكِ تصديقِهم[٤].

٦- استُدِلَّ بقولِه سبحانَه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ...﴾ إلخ على أنَّ الكفَّارَ مُخاطَبونَ بالفروعِ[٥].

٧- قال الله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾، وكلُّ مَن لم يُصَدِّقْ لم يُصَلِّ؛ ففيه أنَّه قد يُنْفَى الشَّيءُ الَّذي نَفْيُه يَستَلزِمُ نفْيَ غيرِه، لكنْ تُذْكَرُ تلك اللَّوازمُ على سبيلِ التَّصريحِ؛ للفَرقِ بيْن دَلالةِ اللَّوازمِ ودَلالةِ المُطابَقةِ، كما في قَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٧٣٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٥).

مذهبُ الحنابلةِ أنَّ تاركَ الصَّلاةِ بالكلِّيَّةِ يكفُرُ، وهو اختيارُ ابنِ تيميَّةَ، وابنِ القيِّمِ، وابنِ عُثيمينَ. يُنظر: ((الإنصاف)) للمَرْداوي (١/ ٢٨٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٢٢٩)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيميَّة (٢/ ٢٤)، ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٦٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٢/ ٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٥).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٩٧).

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢]، وأنَّ كلَّ مَن لَبَّسَ بالباطلِ فلا بُدَّ أنْ يَكْتُمَ بعضَ الحقِّ، وهذا ليس مِن بابِ النَّهي عنِ المجموعِ المقتَضي لجوازِ أحَدِهما، ولا مِن بابِ النَّهي عن فِعلَينِ مُتباينَينِ حتَّى لا يُعادَ فيه حرفُ النَّفي، بل هو مِن بابِ النَّهي عنِ المُتلازِماتِ، كما يُقالُ: لا تَكفُرْ وتُكَذِّبْ بالرَّسولِ، ولا تُجادِلْ في اللهِ بغيرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كتابٍ مُنيرٍ[(١)]!

بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ * وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ * وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ * فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ * أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ ردْعٌ ثانٍ على قَولِ الإنسانِ: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦]، وهو مُؤكِّدٌ للرَّدعِ الَّذي قبْلَه في قولِه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، ومعْناهُ زجْرٌ عن إحالةِ البَعثِ؛ فإنَّه واقعٌ غيرُ بَعيدٍ؛ فكلُّ أحَدٍ يُشاهِدُه حينَ الاحتِضارِ للموتِ، كما يُؤذِنُ به قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠]، وأُتبِعَ تَوصيفُ أشراطِ القِيامةِ المباشِرةِ لحُلولِه بتَوصيفِ أشْراطِ حُلولِ التَّهيُّؤِ الأوَّلِ لِلقائِه مِن مُفارَقةِ الحياةِ الأُولى[(٢)]. أو هو ردْعٌ عن إيثارِ الدُّنيا على الآخِرةِ، كأنَّه قِيل: ارتَدِعوا وتَنبَّهوا على ما بيْنَ أيْدِيكم مِن الموتِ الَّذي عندَه تَنقطِعُ العاجِلةُ، وتَنتَقِلون إلى الآجِلةِ، فيكونُ ردْعًا على مَحبَّةِ العاجِلةِ، وترْكِ العِنايةِ بالآخِرةِ، فليس مُؤكِّدًا للرَّدعِ الَّذي في قولِه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، بل هو ردْعٌ على ما تَضمَّنَه ذلك الرَّدعُ مِن إيثارِ العاجلةِ على الآخِرةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي =

- وجَوابُ (إذا) مَحذوفٌ، تَقديرُه: وجَدَ ما عَمِلَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ[١].

- وضَميرُ ﴿بَلَغَتِ﴾ راجعٌ إلى غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ، ولكنَّه مَعلومٌ مِن فِعلِ (بَلَغَت)، ومِن ذِكرِ التَّراقي؛ فإنَّ فِعلَ ﴿بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ يدُلُّ أنَّها رُوحُ الإنسانِ، والتَّقديرُ: إذا بَلَغَت الرُّوحُ أو النَّفْسُ[٢].

- والتَّراقي: جمْعُ تَرْقُوةٍ، وهي ثُغرةُ النَّحرِ، ولكلِّ إنسانٍ تَرقوتانِ عن يَمينِه وعن شِمالِه؛ فالجمْعُ هنا مُستعمَلٌ في التَّثنيةِ لقَصْدِ تَخفيفِ اللَّفظِ، وقد أُمِنَ اللَّبْسُ؛ لأنَّ في تَثنيةِ «تَرْقوةٍ» شَيئًا مِن الثِّقَلِ لا يُناسِبُ أفصَحَ كَلامٍ[٣].

- قيل: اللَّامُ في ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ -مِثلُ اللَّامِ في ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾-: عِوَضٌ عن المضافِ إليه، أي: بَلَغَت رُوحُه تَراقِيَه[٤].

- قولُه: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ﴾ قيل: هو استِفهامُ إبعادٍ وإنكارٍ، أي: قد بَلَغَ مَبلَغًا لا أحدَ يَرْقِيه، كما يقولُ القائلُ عندَ اليأسِ: مَن ذا الَّذي يَقدِرُ أنْ يَرقِيَ هذا المُشرِفَ على الموتِ[٥]؟!

- قولُه: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ ذلك تَمثيلًا؛ فإنَّ العرَبَ يَستعمِلون السَّاقَ مثَلًا في الشِّدَّةِ وجِدِّ الأمرِ تَمْثيلًا بساقِ السَّاعي أو النَّاهضِ

= حيان)) (١٠/ ٣٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥١).

لعمَلٍ عَظيمٍ، يَقولون: قامتِ الحربُ على ساقٍ[١].

- قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ بَيانٌ للرَّدعِ، وتَقريبٌ لإبطالِ الاستبعادِ المحْكيِّ عن مُنكِري البَعثِ بقولِه: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[٢] [القيامة: ٦].

- وتَقديمُ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على مُتعلَّقِه -وهو ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾- للاهتِمامِ به؛ لأنَّه مَناطُ الإنكارِ منهم[٣].

- والتَّنوينُ في قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عِوَضٌ عن جُمَلٍ أربعٍ؛ هي: بلَغَت الرُّوحُ التَّراقيَ، وقِيل مَن راقٍ، وظنَّ أنَّه الفِراقُ، والتفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ[٤].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الْتفاتٌ عن طَريقِ خِطابِ الجَماعةِ في قولِه: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]؛ لأنَّه لَمَّا كان خِطابًا لغيرِ مُعيَّنٍ حَسُنَ التَّفنُّنُ فيه[٥].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ الَّذي يعُمُّ النَّاسَ كلَّهم، بما فيهم الإنسانُ الكافرُ المردودُ عليه. ويجوزُ التَّعبيرُ عن اللَّامِ بأنَّها عِوَضٌ عن المضافِ إليه، أي: مَساقُ الإنسانِ الَّذي يَسأَلُ: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[٦] [القيامة: ٦].

- وسُلِكَ في الجُمَلِ الَّتي بعْدَ ﴿إِذَا﴾ مَسلَكُ الإطنابِ؛ لتَهويلِ حالةِ الاحتِضارِ على الكافِرِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ الكافرَ يَتراءَى له مَصيرُه في حالةِ احتِضارِه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٣، ٦٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ قيل: عُطِفَ على قولِه: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، تَعجُّبًا مِن حالِ الإنسانِ، يعْني: سأَلَ أيَّانَ يومُ القِيامةِ، ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، أي: يَسأَلُ وما استَعدَّ له إلَّا ما يُوجِبُ دَمارَه وهَلاكَه. وأمَّا قولُه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ فجَوابٌ عن السُّؤالِ، وقولُه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ يَخْلصُ إلى ما استُطْرِدَ مِن أحوالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أُقحِمَ الجوابُ بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ لشِدَّةِ الاهتمامِ[(١)].

وقيل: قولُه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦]، فالضَّميرُ عائدٌ إلى الإنسانِ في قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، أي: لجَهْلِه البَعثَ لم يَستعِدَّ له. ويَجوزُ أنْ يكونَ الفاءُ تَفريعًا وعطْفًا على قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠]، أي: فقدْ فارَقَ الحياةَ وسِيقَ إلى لِقاءِ اللهِ خاليًا مِن العُدَّةِ لذلك اللِّقاءِ. وفي الكَلامِ على كِلا الوَجهينِ حَذْفٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، تَقديرُه: فقدْ عَلِمَ أنَّه قد خسِرَ وتَندَّمَ على ما أضاعَهُ مِن الاستِعدادِ لذلك اليومِ[(٢)].

- وعُطِفَ ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ على نفْسِ التَّصديقِ؛ تَشويهًا له بأنَّ حالَه مُباينٌ لأحوالِ أهْلِ الإسلامِ[(٣)].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿كَذَّبَ﴾ لِيَشملَ كلَّ ما كذَّبَ به المشركون، والتَّقديرُ: كذَّبَ الرَّسولَ والقرآنَ وبالبعثِ، وتولَّى عن الاستجابةِ لشَرائعِ الإسلامِ[(٤)].

- وأفادتْ جُملةُ ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ مَعنيَينِ؛ أحدُهما: تَوكيدُ قولِه: ﴿فَلَا

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٠، ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

صَدَّقَ﴾ بقولِه: ﴿كَذَّبَ﴾. وثانيهما: زِيادةُ بَيانِ معْنى ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ بأنَّه تولَّى عمْدًا؛ لأنَّ عدَمَ التَّصديقِ له أحوالٌ[١].

- و(ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ حرْفُ عطْفٍ للتَّرتيبِ مع التَّراخي، والسِّرُّ الاستِبعادُ؛ لأنَّ مَن صدَرَ عنه مِثلُ ذلك يَنْبغي أنْ يَخافَ مِن حُلولِ غضَبِ اللهِ، ولكنَّ هذا يَمْشي مُتبختِرًا مُتعجْرِفًا، يُطاوِلُ أعنانَ السَّماءِ، وهو أهوَنُ قدْرًا، وأخسُّ مكانًا[٢]!

- قولُه: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ كَلمةُ توعُّدٍ تَجْري مَجرى المثَلِ في لُزومِ هذا اللَّفظِ[٣].

- والكافُ في قولِه: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ خِطابٌ للإنسانِ المصرَّحِ به غيرَ مرَّةٍ في الآياتِ السَّابقةِ بطَريقِ الغَيبةِ إظهارًا وإضمارًا، وعُدِلَ هنا عن الغَيبةِ إلى الخِطابِ على طَريقةِ الالْتفاتِ؛ لمُواجَهةِ الإنسانِ بالدُّعاءِ؛ لأنَّ المُواجَهةَ أوقَعُ في التَّوبيخِ، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: أَولى له[٤].

- وجِيءَ بفاءِ التَّعقيبِ في قولِه: ﴿فَأَوْلَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه يُدْعى عليه بأنْ يَعقُبَه المكروهُ، ويعقبَ بدُعاءٍ آخَرَ[٥].

- وكرَّر ﴿أَوْلَىٰ﴾ بقولِه: ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ مُبالَغةً في التَّهديدِ والوعيدِ، فهو تَهديدٌ بعْدَ تَهديدٍ، ووَعيدٌ بعْدَ وَعيدٍ، أي: فهو وعيدُ أربعةٍ لأربعةٍ... فتَرْكُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٨٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

التَّصديقِ: خَصْلةٌ، والتَّكذيبُ: خَصلةٌ، وتَرْكُ الصَّلاةِ: خَصْلةٌ، والتَّوَلِّي عن اللهِ تعالى: خَصلةٌ؛ فجاء الوعيدُ أربعةً مُقابَلةً لتَركِ الخِصالِ الأربَعةِ[١].

وأيضًا التَّكريرُ تَأكيدٌ للدُّعاءِ عليه ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾، ولتَأكيدِه السَّابقِ ﴿فَأَوْلَىٰٓ﴾[٢].

وقيل: بلْ كرَّرَها أربعَ مرَّاتٍ؛ فإنَّ قولَه ﴿أَوْلَىٰ﴾ تامٌّ في الذَّمِّ، وإنَّما كرَّرَها؛ لأنَّ المعْنى: أَولى لك الموتُ، فأَولى لك العذابُ في القبْرِ، ثمَّ أَولى لك أهوالُ القيامةِ، وأَولى لك عَذابُ النَّارِ[٣]، أو هو وعيدٌ ودُعاءٌ، يعني: قَرُبَ منك ما يُهْلِكُ قُرْبًا بعدَ قُرْبٍ، كما تقولُ: غَفَرَ اللهُ لك ثُمَّ غَفَرَ اللهُ لك، أي: غَفَرَ لك مَغفِرةً بعدَ مغفرةٍ، فليس هذا بتَكرارٍ مَحْضٍ، ولا مِن بابِ التَّأكيدِ اللَّفظيِّ، بل هو تَعَدُّدُ الطَّلبِ لتعدُّدِ المطلوبِ، ونظيرُه: اضرِبْه ثُمَّ اضرِبْه[٤].

- وجِيءَ بحرْفِ (ثُمَّ) لعطْفِ الجُملةِ دَلالةً على أنَّ هذا التَّأكيدَ ارتقاءٌ في الوعيدِ، وتَهديدٌ بأشدَّ ممَّا أفادَه التَّهديدُ الأوَّلُ وتَأكيدُه، والمرادُ: تَهديدُ كلِّ إنسانٍ كافرٍ، كما يَقتضيه أوَّلُ الكلامِ مِن قولِه ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣] إلى قولِه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾[٥] [القيامة: ١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣١٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٣، ٢٤٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٩٥، ٤٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٠).

(٤) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤).

الآيات (٣٦-٤٠)

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُدًى﴾: أي: هَمَلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنْهَى، وأصلُ (سدو): يدُلُّ على إهمالٍ وذَهابٍ على وَجهٍ[١].

﴿نُطْفَةً﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[٢].

﴿عَلَقَةً﴾: العَلَقةُ: الدَّمُ الجامِدُ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ[٣].

﴿فَسَوَّىٰ﴾: عدَّل، وأتقَن، والتَّسويةُ: جعلُ الشَّيءِ سواءً، أي: مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا، وأصْلُ (سوي): يَدُلُّ على استقامةٍ واعْتِدالٍ بينَ شيئَيْنِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يُشيرُ الله تعالى إلى الحكمةِ مِن البَعثِ والجزاءِ، ويُبيِّنُ جانبًا مِن مَظاهِرِ قُدرتِه،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

فيقولُ: أيَظُنُّ الإنسانُ أن يَترُكَه اللهُ في الدُّنيا مُهمَلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنهَى، ولا يُبعَثُ بعدَ موتِه للثَّوابِ أو العِقابِ؟! ألم يكُنْ هذا الإنسانُ في أوَّلِ أمْرِه ماءً قَليلًا مَهينًا مِن مَنيٍّ يُراقُ؟! ثمَّ صار قِطْعةَ دَمٍ جامِدةً، فخَلَقَه اللهُ وسَوَّاه، فجَعَل منه الصِّنفَينِ: الذُّكورَ والإناثَ، أليس الَّذي فَعَل ذلك كُلَّه بقادِرٍ على إحياءِ الموتى، وإعادتِهم كما كانوا؟! سُبحانَك اللَّهُمَّ فبَلَى!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ حالَ الإنسانِ في الموتِ وما كان مِن حالِه في الدُّنيا؛ قرَّرَ له أحوالَه في بِدايتِه ليَتأمَّلَها، فلا يُنكِرَ معها جَوازَ البَعثِ مِن القبورِ[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر في أوَّلِ السُّورةِ قَولَه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، أعاد في آخِرِ السُّورةِ ذلك، وذكَرَ في صِحَّةِ البَعثِ والقيامةِ دَليلَينِ؛ الأوَّلُ[2]:

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦﴾.

أي: أيظُنُّ الإنسانُ أن يَترُكَه اللهُ في الدُّنيا مُهمَلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنهَى، ولا يُبعَثُ بعدَ موتِه للثَّوابِ أو العِقابِ[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٥، ٣٦٦). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها الدَّليلُ الثَّاني على صِحَّةِ القَولِ بالحَشْرِ: الاستِدلالُ بالخِلْقةِ الأُولى على الإعادةِ[1].

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: ألم يكُنْ في أوَّلِ أمْرِه ماءً قَليلًا مِن مَنيٍّ يُراقُ[2]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾

= قال الشَّافعيُّ: (لم يختَلِفْ أهلُ العِلمِ بالقُرآنِ -فيما عَلِمْتُ- أنَّ السُّدَى: الَّذي لا يُؤمَرُ ولا يُنهَى). ((الأم)) (٧/ ٣١٣). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١٧٤).

قال ابن كثير: (قولُه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ قال السُّدِّيُّ: يعني: لا يُبعَثُ. وقال مجاهدٌ، والشَّافعيُّ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ: يعني: لا يُؤْمَرُ ولا يُنهَى. والظَّاهرُ أنَّ الآيةَ تعُمُّ الحالَين، أي: ليس يُترَكُ في هذه الدُّنيا مُهمَلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنهى، ولا يُترَكُ في قبرِه سُدًى لا يُبعَثُ، بل هو مأمورٌ مَنهيٌّ في الدُّنيا، مَحشورٌ إلى الله في الدَّارِ الآخرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٧).

[المرسلات: ٢٠ - ٢٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥، ٦].

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: ثمَّ صار الإنسانُ بعدَ النُّطفةِ قِطْعةَ دَمٍ جامِدةً، فخَلَقَه اللهُ وسَوَّاه، فأتقَنَه وأحكَمَه، فصار في غايةِ الاعتدالِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧].

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: فجَعَل اللهُ منه الصِّنفَينِ: الذُّكورَ والإناثَ[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: أليس الَّذي فَعَل ذلك كُلَّه بقادِرٍ على إحياءِ الموتى، وإعادتِهم كما كانوا؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٧٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٢).

قال البِقاعي: (﴿فَجَعَلَ﴾ أي: بسَبَبِ النُّطفةِ ﴿مِنْهُ﴾ أي: هذا الماءِ الدَّافِقِ، أو المخلوقِ المسَوَّى، وهما شيءٌ واحِدٌ ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ أي: القرينَينِ اللَّذَينِ لا يمكِنُ الانتفاعُ بأحَدِهما إلَّا بالآخَرِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١١٧).

سُبحانَك اللَّهُمَّ فبلَى[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٢].

وعن بُسرِ بنِ جِحاشٍ القُرَشيِّ رَضِيَ الله عنه، ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بزَقَ يومًا في كَفِّه، فوضع عليها أُصبُعَه، ثمَّ قال: قال الله: ابنَ آدمَ، أنَّى تُعجِزُني، وقد خلقتُك مِن مِثلِ هذه؟! حتى إذا سَوَّيتُك وعَدَّلتُك، مَشَيتَ بينَ بُردَينِ[(٢)] وللأرضِ مِنك وَئيدٌ[(٣)]، فجَمَعْتَ ومَنَعْتَ، حتى إذا بلَغَتِ التَّراقيَ، قلتَ: أتصَدَّقُ! وأنَّى أوانُ الصَّدَقةِ؟!))[(٤)].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما: (أنَّه كان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠] قال: سُبحانَك اللَّهُمَّ بلَى، وإذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٢) البُرْدُ: نوعٌ من الثيابِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١١٦).

(٣) الوئيدُ: صوتُ شِدَّةِ الوطءِ على الأرضِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٤٣).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٧٠٧)، وأحمد (١٧٨٤٤)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢/ ٣٢) (١١٩٣)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٨٥٥).

صحَّح إسنادَه الحاكم، والبوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٣/ ١٤٣)، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح الجامع)) (٨١٤٤).

[الأعلى: ١] قال: سبحانَ ربِّيَ الأعلَى)[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١ - قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] وهذا كثيرٌ في القرآنِ؛ يدعو العبدَ إلى النَّظَرِ والفِكْرِ في مبدأِ خَلْقِه ووَسَطِه وآخِرِه، إذْ نَفْسُه وخَلْقُه مِن أعظمِ الدَّلائلِ على خالقِه وفاطرِه، وأقربُ شَيءٍ إلى الإنسانِ نفْسُه، وفيه مِن العجائبِ الدَّالَّةِ على عَظَمةِ اللهِ ما تنقضي الأعمارُ في الوقوفِ على بَعضِه، وهو غافلٌ عنه، مُعْرِضٌ عن التَّفَكُّرِ فيه! ولو فَكَّرَ في نفْسِه لَزَجَرَه ما يَعْلَمُ مِن عجائبِ خَلْقِها عن كُفْرِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ * مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ * ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ * ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧ - ٢٢]، فلَمْ يُكَرِّرْ سُبحانَه على أسماعِنا وعقولِنا ذِكْرَ هذا لِنَسمَعَ لفظَ النُّطْفةِ والعَلَقةِ والمُضغةِ والتُّرابِ، ولا لِنتكَلَّمَ بها فقط، ولا لمجرَّدِ تَعريفِنا بذلك، بل لأمرٍ وراءَ

(١) أخرجه عبد الرَّزَّاق (٤٠٥١) واللَّفظُ له، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٢١٠٠).
صحَّحه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٤٨)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صفة الصلاة)) (ص: ١٠٥).

ذلك كلِّه هو المقصودُ بالخِطابِ، وإليه جرى ذلك الحديثُ[١].

٢- تأمَّلْ قَولَه تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ فمَن لَمْ يَتْرُكِ الإنسانَ -وهو نُطفةٌ- سُدًى، بل قَلَّبَ النُّطفةَ وصَرَّفَها حتَّى صارتْ أكمَلَ ممَّا هي، وهي العَلَقةُ، ثُمَّ قَلَّبَ العَلَقةَ حتَّى صارتْ أكملَ ممَّا هي، حتَّى خَلَقَها فسَوَّى خَلْقَها، فدَبَّرَها بتصريفِه وحِكمتِه في أطوارِ كَمالاتِها، حتَّى انتهَى كَمالُها بَشَرًا سَويًّا! فكيف يَترُكُه سُدًى لا يَسُوقُه إلى غايةِ كمالِه الَّذي خُلِقَ له؟! فإذا تأمَّلَ العاقلُ البصيرُ أحوالَ النُّطفةِ مِن مَبدَئِها إلى منتهاها دَلَّتْه على المَعادِ والنُّبُوَّاتِ، كما تدُلُّه على إثباتِ الصَّانعِ وتوحيدِه وصفاتِ كمالِه، فكما تدُلُّ أحوالُ النُّطفةِ مِن مَبدَئِها إلى غايتِها على كَمالِ قدرةِ فاطرِ الإنسانِ وبارئِه، فكذلك تدُلُّ على كمالِ حِكمتِه وعِلْمِه ومُلْكِه، وأنَّه المَلِكُ الحقُّ المتعالي عن أنْ يَخْلُقَها عَبَثًا، ويَترُكَها سُدًى بعدَ كَمالِ خَلْقِها[٢]!

الفَوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أنَّ هذا مُنافٍ لكَمالِ حكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّ ربوبيَّتَه وعِزَّتَه وحِكمتَه تأبى ذلك؛ ولهذا أخْرَجَ الكلامَ مُخرَجَ الإنكارِ على مَن زَعَمَ ذلك، وهو يدُلُّ على أنَّ قُبْحَ تَرْكِه سُدًى مُعَطَّلًا مُستقِرٌّ في الفِطَرِ، فكيف يُنْسَبُ الى الرَّبِّ ما قُبْحُه مُستقِرٌّ في فِطَرِكم وعُقولِكم[٣]؟!

فإنَّ الَّذي خلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ تَقويمٍ، وأبدَعَ تَركيبَه، ووَهَبَه القُوى العَقليَّةَ الَّتي لم يُعْطِها غيرَه مِن أنواعِ الحيوانِ؛ لِيَستعمِلَها في مَنافِعَ لا تَنحصِرُ، أو في

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٧).

ضِدِّ ذلك مِن مَفاسِدَ جَسيمةٍ؛ لا يَليقُ بحِكمتِه أنْ يُهمِلَه مِثلَ الحيوانِ، فيَجعَلَ الصَّالحينَ كالمُفسِدين، والطَّائعينَ لربِّهم كالمُجْرِمين، وهو العليمُ القديرُ المتمكِّنُ بحِكمتِه وقُدرتِه أنْ يَجعَلَ إليه المصيرَ، فلو أهْمَلَه لَفاز أهلُ الفَسادِ في عالَمِ الكَسادِ، ولم يُلاقِ الصَّالِحونَ مِن صَلاحِهم إلَّا الأنكادَ، ولا يُناسِبُ حِكمةَ الحكيمِ إهمالُ النَّاسِ يَهيمون في كلِّ وادٍ[1]. فتَرْكُ الإنسانِ كالبهائمِ مُهمَلًا مُعَطَّلًا مُضادٌّ للحِكمةِ؛ فإنَّه خُلِق لغايةِ كمالِه، وكمالُه أن يكونَ عارفًا برَبِّه، محِبًّا له، قائمًا بعُبوديَّتِه[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ تضمَّن الدَّلالةَ على وُقوعِ الحشرِ؛ مِن حيث إنَّ الحِكمةَ تَقْتضي الأمرَ بالمحاسِنِ، والنَّهيَ عن القَبائحِ، والتَّكليفُ لا يَتحقَّقُ إلَّا بالمُجازاةِ، وهي قدْ لا تكونُ في الدُّنيا، فتَكونُ في الآخِرةِ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ إلى قَولِه: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أنَّ الَّذي خَلَقَ الإنسانَ على هذه الصِّفةِ أَولى بأنْ يكونَ قادِرًا على إحيائِه، وذلك معلومٌ بالفِطرةِ الضَّروريَّةِ العَقْليَّةِ[4].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ فيه سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في ﴿يُمْنَىٰ﴾؟

الجوابُ: فيه إشارةٌ إلى حَقارةِ حالِه، كأنَّه قيل: إنَّه مخلوقٌ مِن المنيِّ الَّذي جرى على مَخرَجِ النَّجاسةِ؛ فلا يليقُ بمِثلِ هذا الشَّيءِ أن يتمَرَّدَ عن طاعةِ اللهِ تعالى، إلَّا أنَّه عَبَّرَ عن هذا المعنى على سبيلِ الرَّمزِ، كما في قَولِه تعالى في عيسى ومَريمَ عليهما السَّلامُ: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ٤٢٩).

والمرادُ منه قضاءُ الحاجةِ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الخُنْثَى أحَدُهما، لا صِنفٌ ثالِثٌ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أنَّه سُبحانَه خَلَقَ الزَّوجَينِ مِن شَيءٍ واحدٍ، وهذا يدُلُّ على كَمالِ قُدرتِه جلَّ وعلا؛ إذْ إنَّه خَلَقَ صِنفَينِ مُختَلِفَينِ في كلِّ الأحوالِ: في القوَّةِ البدنيَّةِ، والعَقليَّةِ، والفِكريَّةِ، والتَّنظيميَّةِ، يختلِفُ الذَّكَرُ عن الأنثى، وبذلك نَعرِفُ ضلالَ أولئك القَومِ الَّذين يُريدون أنْ يُلْحِقوا المرأةَ بالرَّجُلِ في أعمالٍ تختصُّ بالرَّجُلِ؛ فإنَّهم سُفَهاءُ العُقولِ، ضُلَّالُ الأديانِ، فكيف يمكنُ أنْ نسَوِّيَ بيْن صِنفَينِ فَرَّقَ اللهُ بيْنَهما خِلْقةً وشَرعًا؟! فهناك أحكامٌ يُطالَبُ بها الرَّجُلُ، ولا تُطالَبُ بها المرأةُ، وأحكامٌ تُطالَبُ بها المرأةُ، ولا يُطالَبُ بها الرَّجُلُ، وأمَّا قَدَرًا وخِلْقةً فالأمرُ واضحٌ؛ لكنَّ هؤلاء الَّذين لم يُوَفَّقوا -وسَلَبَ اللهُ عقولَهم، وأَضْعَفَ أديانَهم- يُحاوِلونَ الآنَ أنْ يُلْحِقوا النِّساءَ بالرِّجالِ، وهذه لا شكَّ أنَّها فكرةٌ خاطئةٌ مُخالِفةٌ للفِطرةِ، ومخالِفةٌ للطَّبيعةِ، كما أنَّها مخالِفةٌ للشَّريعةِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾

- قولُه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، عاد به الكلامُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٩).

الاستدلالِ على إمكانِ البَعثِ، وهو ما ابتُدِئَ به، فارتبَطَ بقولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، فكأنَّه قِيل: أيحسَبُ أنْ لن نَجمَعَ عِظامَه؟! ويَحسَبُ أنْ نَترُكَه في حالةِ العدَمِ؟! وزِيدَ هنا أنَّ مُقْتضى الحكمةِ الإلهيَّةِ إيقاعُه بقولِه: ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[١].

- والاستفهامُ إنكاريٌّ[٢].

- وعُدِلَ عن بناءِ فِعلِ ﴿يُتْرَكَ﴾ للفاعلِ، فبُنِيَ للنَّائبِ إيجازًا؛ مِن أجْلِ العِلمِ بالفاعلِ مِن قولِه السَّابقِ: ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، فكأنَّه قال: أيحسَبُ الإنسانُ أنْ نَترُكَه دونَ بَعثٍ، وأنْ نُهمِلَ أعْمالَه سُدًى؟! فجاء ذِكرُ ﴿سُدًى﴾ هنا على طَريقةِ الإدماجِ[٣] فيما سِيقَ له الكلامُ، إيماءً إلى أنَّ مُقْتضى حِكمةِ خلْقِ الإنسانِ ألَّا يَترُكَه خالقُه بعْدَ الموتِ، فلا يُحْيِيَه ليُجازِيَه على ما عَمِلَه في حَياتِه الأُولى[٤].

- وفي إعادةِ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ تَهيئةٌ لِما سيُعقَبُ مِن دَليلِ إمكانِ البعثِ مِن جانبِ المادَّةِ بقولِه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ، فقولُه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ تَكريرٌ وتَعدادٌ للإنكارِ على الكافِرين تَكذيبَهُم بالبعثِ؛ ألَا تَرى أنَّه وقَعَ بعْدَ وصْفِ يومِ القيامةِ وما فيه مِن الحِسابِ على ما قدَّمَ الإنسانُ وأخَّرَ[٥]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٦).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقولُه: ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ كِنايةٌ عن الجزاءِ؛ لأنَّ التَّكليفَ في الحياةِ الدُّنيا مَقصودٌ منه الجَزاءُ في الآخرةِ(١).

- قولُه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ استِئنافٌ واردٌ لإبطالِ الحِسبانِ المذكورِ؛ فإنَّ مَدارَه لَمَّا كان استِبعادَهم للإعادةِ استُدِلَّ على تَحقُّقِها ببَدْءِ الخلْقِ. واستئنافٌ هو عِلَّةٌ وبَيانٌ للإنكارِ المَسوقِ للاستدلالِ بقولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ الَّذي جُعِلَ تَكريرًا وتَأييدًا لمَضمونِ قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، أي: أنَّ خلْقَ الإنسانِ مِن مادَّةٍ ضَعيفةٍ، وتَدرُّجَه في أطوارِ كِيانِه: دَليلٌ على إثباتِ القُدرةِ على إنشائِه إنشاءً ثانيًا بعْدَ تَفرُّقِ أجزائِه واضْمحلالِها، فيَتَّصِلُ معْنى الكلامِ هكذا: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ ويَعُدُّ ذلك مُتعذِّرًا؟! ألَمْ نَبدَأْ خَلْقَه؛ إذ كَوَّنَّاهُ نُطفةً، ثمَّ تَطوَّرَ خَلْقُه أطوارًا، فماذا يُعجِزُنا أنْ نُعيدَ خلْقَه ثانيًا كذلك(٢)؟!

- وهذه الجُمَلُ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ تَمهيدٌ لقولِه: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وهذا البَيانُ خاصٌّ بأحَدِ مَعْنَيَي التَّركِ في الآيةِ، وهو تَرْكُه دونَ إحياءٍ، واكْتُفِيَ ببَيانِ هذا عن بَيانِ المعنى الآخَرِ الَّذي قيَّدَه قولُه: ﴿سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، أي: تَرْكُه بدونِ جزاءٍ على أعمالِه؛ لأنَّ فائدةَ الإحياءِ أنْ يُجازى على عمَلِه، والمعنى: أيحسَبُ أنْ يُترَكَ فانيًا ولا تُجدَّدَ حَياتُه(٣)؟!

- ووقَعَ وصْفُ ﴿سُدًى﴾ في خِلالِ ذلك مَوقعَ الاستِدلالِ على لُزومِ بَعثِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٦، ٣٦٧).

النَّاسِ مِن جانبِ الحِكمةِ، وانتُقِلَ بعْدَه إلى بَيانِ إمكانِ البَعثِ مِن جانبِ المادَّةِ؛ فكان وُقوعُه إدماجًا[١].

- قولُه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ الهمزةُ للاستِفهامِ التَّقريريِّ الإنكاريِّ[٢].

- وعُطِفَ فِعلُ ﴿كَانَ عَلَقَةً﴾ بحرْفِ (ثُمَّ)؛ للدَّلالةِ على التَّراخي الرُّتبيِّ؛ فإنَّ كَوْنَه عَلَقةً أعجَبُ مِن كَونِه نُطفةً؛ لأنَّه صار عَلَقةً بعْدَ أنْ كان ماءً، فاختَلَطَ بما تُفرِزُه رَحِمُ الأُنثى مِن البُويضاتِ، فكان مِن مَجموعِهما عَلَقةً، ولَمَّا كان تَكوينُه عَلَقةً هو مَبدَأَ خلْقِ الجسْمِ، عُطِفَ عليه قولُه: ﴿فَخَلَقَ﴾ بالفاءِ؛ لأنَّ العلَقةَ يَعقُبُها أنْ تَصيرَ مُضغةً إلى أنْ يَتِمَّ خلْقُ الجسَدِ وتُنفَخَ فيه الرُّوحُ[٣].

- ومَفعولُ (خلَقَ) ومَفعولُ (سَوَّى) مَحذوفانِ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليهما، أي: فخلَقَه فسوَّاه[٤].

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿يُمْنَىٰ﴾ إلى المَجهولِ؛ لأنَّ النُّطفةَ تَدفَعُها قوَّةٌ طَبيعيَّةٌ في الجِسمِ خَفيَّةٌ، فكان فاعلُ الإمناءِ مَجهولًا؛ لعدَمِ ظُهورِه[٥]. أو لأنَّه وقتَ صَبِّها في الرَّحمِ تَنصَبُّ منه بغيرِ اختيارِه، حتَّى كأنَّه لا فِعلَ له فيها أصلًا[٦].

- قولُه: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تَوقيفٌ وتَوبيخٌ لمنكِرِ البَعثِ[٧].

- والاستِفهامُ إنكارٌ للمَنفيِّ إنكارَ تَقريرٍ بالإثباتِ. وهذا غالِبُ استِعمالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٧، ٣٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٦) و (٢٩/ ٣٦٨).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٤).

الاستفهامِ التَّقريريِّ؛ أنْ يقَعَ على نفْيِ ما يُرادُ إثباتُه؛ لِيَكونَ ذلك كالتَّوسعةِ على المقرَّرِ إنْ أراد إنكارًا؛ كِنايةً عن ثِقةِ المتكلِّمِ بأنَّ المخاطَبَ لا يَستطيعُ الإنكارَ[١].

- وهذه الجُملةُ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ واقعةٌ مَوقعَ النَّتيجةِ مِن الدَّليلِ؛ لأنَّ خلْقَ جِسمِ الإنسانِ مِن عدَمٍ -وهو أمرٌ ثابتٌ بضَرورةِ المُشاهَدةِ- أحقُّ بالاستبعادِ مِن إعادةِ الحَياةِ إلى الجِسمِ بعْدَ الموتِ، سواءٌ بقِيَ الجِسمُ غيرَ ناقصٍ، أو نقَصَ بَعضُه أو مُعظَمُه، فهو إلى بَثِّ الحياةِ فيه، وإعادةِ ما فَنِيَ مِن أجزائِه أقرَبُ مِن إيجادِ الجِسمِ مِن عدَمٍ[٢].

- وتَعميمُ الموتى بعْدَ جَرَيانِ أُسلوبِ الكلامِ على خُصوصِ الإنسانِ الكافرِ أو خُصوصِ كافرٍ مُعيَّنٍ؛ يَجعَلُ جُملةَ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تَذييلًا[٣].

- وقدْ جاء في هذا الخِتامِ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بمُحسِّنِ رَدِّ العجُزِ على الصَّدرِ[٤]؛ فإنَّ السُّورةَ افتُتِحت بإنكارِ أنْ يَحسَبَ المشركون استحالةَ البَعثِ، وتَسلسَلَ الكلامُ في ذلك بأفانينَ مِن الإثباتِ والتَّهديدِ والتَّشريطِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ: هو جَعْلُ أحدِ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ -المتَّفقَينِ في اللَّفظِ والمعنَى، أو المُتجانِسَينِ المُتَّفقَينِ في اللَّفظِ دون المعنى، أو المُلحقَينِ بهما، بأنْ جمَعَهما اشتِقاقٌ أو شبهُه- في أوَّلِ الكلامِ، ثمَّ إعادةُ ذلك في آخِرِ الكلامِ، كقولِه تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقولِه تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، وهو مِن جِهاتِ الحُسنِ في الكَلامِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٣٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٥٨).

والاستدلالِ، إلى أنْ أفْضى إلى استِنتاجِ أنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُحيِيَ الموتى، وهو المطلوبُ الَّذي قُدِّمَ في قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[1] [القيامة: ٣، ٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

تَفْسيرُ

سُورَةِ الإنسانِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الإنسانِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الإنسانِ)[١].

وسُمِّيَتْ أيضًا بسورةِ ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾[٢]؛ فعن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ في الجُمُعةِ في صَلاةِ الفَجرِ: ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ﴾ السَّجدةَ، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾))[٣].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

أنَّه يُستحَبُّ القِراءةُ بها في صلاةِ الصُّبحِ يومَ الجُمُعةِ في الرَّكعةِ الثَّانيةِ[٤].

فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرأُ في الصُّبحِ يومَ الجُمُعةِ: بِـ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ﴾ فِي الرَّكعةِ الأُولَى، وفي الثَّانيةِ ﴿هَلۡ أَتَىٰ

---

(١) سُمِّيَت السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بذِكرِ الإنسانِ وخَلْقِه. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٣).

(٢) قال ابنُ عاشور: (وسُمِّيَت في زَمَنِ أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سورةَ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٩).
وتُسمَّى أيضًا سورةَ (الدَّهرِ) و(الأبرارِ) و(الأمْشاجِ). يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٠٦٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٨٨٠).

(٤) والحِكمةُ في استحبابِ قراءة سورةِ (الإنسانِ) في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن صلاةِ الصُّبحِ يومَ الجُمُعةِ وقِراءةِ سُورةِ (السَّجدةِ) في الرَّكعةِ الأُولى؛ لِما اشتملت عليه هاتان السُّورتانِ ممَّا كان ويكونُ مِن المبدأِ والمَعادِ، وحَشرِ الخلائقِ، وبَعْثِهم مِن القُبورِ إلى الجنَّةِ أو النَّارِ؛ ففيهما بَدْءُ خَلقِ الإنسانِ، وآدمُ خُلِق يومَ الجُمُعةِ، وفيهما ذِكرُ القيامةِ، وفي يومِ الجُمُعةِ تقومُ السَّاعةُ؛ فاستُحِبَّ قراءةُ هاتَينِ السُّورتَينِ في هذا اليومِ؛ تذكيرًا للأمَّةِ بما كان فيه ويكونُ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٦٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٠٨).

عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾))[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الإنسانِ مَكِّيَّةٌ[٢]. وقيل: مَدَنِيَّةٌ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

ذِكْرُ خَلْقِ بني آدمَ، وانقِسامِهم، ومآلِهم يومَ القيامةِ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- تذكيرُ الإنسانِ بنِعَمِ اللهِ تعالى عليه؛ حيث خلَقَه سُبحانه مِن نُطفةٍ أَمْشاجٍ، وجعَلَه سميعًا بصيرًا، وهداه السَّبيلَ.

٢- ذِكرُ ما أعَدَّ اللهُ تعالى مِن النَّعيمِ لِمَن أطاعه واتَّقاه.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩١)، ومسلمٌ (٨٨٠) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٩)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٥٥٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩).

وحكى ابنُ تيميَّةَ اتِّفاقَ النَّاسِ على كَونِها مَكِّيَّةً، نزلت قبْلَ الهِجرةِ. يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٥٥٣).

قال ابنُ عاشور: (الأصَحُّ أنَّها مَكِّيَّةٌ؛ فإنَّ أُسلوبَها ومعانيَها جاريةٌ على سَنَنِ السُّوَرِ المكِّيَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٠).

(٣) وقيل: السُّورةُ مدنيةٌ إلَّا قولَه: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]؛ فمَكِّيٌّ. وقيل: مِن قَولِه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣] إلى آخِرِها مَكِّيٌّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٤/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٦٩).

٣- إنذارُ الكافِرينَ بسُوءِ العاقِبةِ.

٤- إثباتُ أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللهِ تعالى.

٥- ذِكرُ المِنَّةِ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإنزالِ القُرآنِ عليه، وأمْرُه بالصَّبرِ وذِكرِ اللهِ تعالى، والسُّجودِ له وتسبيحِه.

٦- بيانُ أنَّ مَشيئةَ اللهِ تعالى فوقَ كُلِّ مَشيئةٍ.

الآيات (١-٢)

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾.

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلدَّهۡرِ﴾: الدَّهْرُ اسمٌ للزَّمانِ الطَّويلِ ومُدَّةِ الحياةِ الدُّنيا، وهو في الأصلِ: اسمٌ لِمُدَّةِ العالَمِ مِن مَبدأِ وُجودِه إلى انقضائِه، ثمَّ يُعبَّرُ به عن كلِّ مُدَّةٍ كثيرةٍ، بخِلافِ الزَّمانِ؛ فإنَّه يقَعُ على المدَّةِ القليلةِ والكثيرةِ، وأصلُ (دهر): هو الغلَبَةُ والقَهرُ، وسُمِّيَ الدَّهْرُ دَهْرًا؛ لأنَّه يأتي على كلِّ شيءٍ ويَغْلِبُه[١].

﴿نُّطۡفَةٍ﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[٢].

﴿أَمۡشَاجٖ﴾: أي: أخلاطٍ؛ مِن مَشَجْتُ الشَّيءَ: إذا خلَطْتَه؛ لأنَّ النُّطْفةَ مِن مَنِيِّ الرَّجُلِ ومَنِيِّ المرأةِ، وأصلُ (مشج): يدُلُّ على خَلْطٍ[٣].

﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾: أي: نَختَبِرُه ونَمتَحِنُه، والبلاءُ يكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ، وأصلُ (بلي) هنا: الاختِبارُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣١٩)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٥). =

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ بأنَّه قد مَرَّ على الإنسانِ قبْلَ أن يُخلَقَ زَمَنٌ طَويلٌ لم يكُنْ فيه شَيئًا مَذكورًا.

ثمَّ ذكرَ اللهُ سُبحانَه أطوارَ خَلقِ الإنسانِ، فقال: إنَّا خَلَقْنا كُلَّ إنسانٍ مِن ماءٍ قَليلٍ مكوَّنٍ مِن اختِلاطِ ماءِ الرَّجُلِ بماءِ المرأةِ؛ مِن أجْلِ أن نَختَبِرَه في الدُّنيا، فجَعَلْناه سَميعًا بَصيرًا.

ثمَّ ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه بيَّن للنَّاسِ طريقَ الحقِّ، وأنَّهم انقسَموا إلى قِسمَينِ، فقال: إنَّا هدَيْنا كُلَّ إنسانٍ، وبَيَّنَّا له طريقَ الحَقِّ الَّذي يُوصِلُه إلى رِضوانِ اللهِ وجَنَّتِه؛ فإمَّا أن يَسلُكَه فيَكونَ شاكِرًا، وإمَّا أن يَترُكَه فيَكونَ كَفُورًا لنِعَمِ اللهِ عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾.

أي: قد مَرَّ على الإنسانِ قبْلَ أن يُخلَقَ زَمَنٌ طَويلٌ لم يكُنْ فيه شَيئًا يُذكَرُ[1]!

= وقال الرَّاغب: (يُقالُ: بَلِيَ الثَّوبُ بِلًى وبَلَاءً، أي: خَلَقَ، ومنه قيل لِمَن سافر: بِلْوُ سفرٍ وبِلْيُ سفَرٍ، أي: أبلاه السَّفرُ، وبَلَوْتُه: اختَبَرْتُه، كأنِّي أخلَقْتُه مِن كثرةِ اختباري له). ((المفردات)) (ص: ١٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٢).

حكى الرازي الاتِّفاقَ على أنَّ ﴿هَلۡ﴾ هاهنا بمعنى: قَدْ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٩).

ويُنظر أيضًا: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٨).

ونَسَبه ابنُ عَطيَّةَ إلى أكثَرِ المتأوِّلينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٨).

قيل: المرادُ بالإنسانِ المذكورِ في هذه الآيةِ: آدَمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والمهدوي، والواحدي، والسَّمْعاني، والبَغَوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ =

﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى مُطْلَقَ خَلْقِ الإنسانِ، وأنَّه قد كان لا شيءَ، ثمَّ أنعَم الله عليه بنعمةِ الإيجادِ؛ شَرَع يَذكُرُ كيفيَّةَ خَلْقِه، فقال[1]:

﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ﴾.

أي: إنَّا خَلَقْنا كُلَّ إنسانٍ مِن ماءٍ قَليلٍ مكوَّنٍ مِن اختِلاطِ ماءِ الرَّجُلِ بماءِ المرأةِ؛ مِن أجْلِ أن نختَبِرَه في الدُّنيا[2].

= ٥٢٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٩٣)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٥٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٣١).

ونسَبَ السَّمْعانيُّ هذا القولَ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ، ونسَبَه ابنُ الجَوزيِّ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٤).

وقيل: الإنسانُ هنا اسمُ جِنسٍ، يَعُمُّ كُلَّ إنسانٍ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٢).

قال أبو حيَّان: (الإنسانُ هنا جِنسُ بني آدَمَ، والحِينُ الَّذي مَرَّ عليه إمَّا حِينُ عَدَمِه، وإمَّا حينُ كَونِه نُطفةً، وانتِقالِه مِن رُتبةٍ إلى رُتبةٍ حتَّى حينِ إمكانِ خِطابِه؛ فإنَّه في تلك المدَّةِ لا ذِكْرَ له، وسُمِّيَ إنسانًا باعتبارِ ما صار إليه). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣١، ٥٣٥، ٥٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٥، ٢٨٦).

وقد حكى الماوَرْديُّ وابنُ عطيَّةَ اتِّفاقَ المفسِّرينَ على أنَّ الإنسانَ في هذا الموضِعِ هو كُلُّ إنسانٍ مِن بني آدَمَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٨).

قال ابن جزي: (قولُه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ﴾ وهو هنا جنسٌ باتِّفاقٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٦). =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

أي: فجَعَلْنا للإنسانِ سَمْعًا يَسمَعُ به الأصواتَ، وجعَلْنا له بَصَرًا يُبصِرُ به المَرئيَّاتِ[(١)].

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أخبَرَ تعالى أنَّه بعدَ أن ركَّبَ الإنسانَ، وأعطاه الحواسَّ الظَّاهِرةَ والباطِنةَ؛ بيَّنَ له سَبيلَ الهُدى والضَّلالِ[(٢)].

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

أي: إنَّا بَيَّنَّا للإنسانِ وعرَّفْناه طريقَ الحَقِّ الَّذي يُوصِلُه إلى رِضوانِ اللهِ وجَنَّتِه؛ فإمَّا أن يَسلُكَه فيكونَ شاكِرًا لنِعَمِ اللهِ مُوَحِّدًا طائِعًا، وإمَّا أن يَترُكَه فيكونَ كَفُورًا

= وقال البِقاعي: (ولَمَّا كان خَلْقُه على طبائِعَ مختَلِفةٍ وأمزِجةٍ مُتفاوِتةٍ أعظَمَ لأجْرِه إنْ جاهد ما يَتنازَعُه مِن المختَلِفاتِ بأمرِ رَبِّه الَّذي لا يختَلِفُ، وكانت أفعالُه تابِعةً لأخلاقِه، وأخلاقُه تابعةً لجِبِلَّتِه؛ قال: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاطٍ... مِن قولِك: مَشَجْتُ الشَّيءَ: إذا خلَطْتَه؛ لأنَّه مِن مَنِيِّ الرَّجُلِ ومَنِيِّ المرأةِ، وكُلٌّ منهما مختَلِفُ الأجزاءِ، مُتبايِنُ الأوصافِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٦).

قال الرَّازي: (أعطاه ما يَصِحُّ معه الابتلاءُ، وهو السَّمعُ والبَصَرُ، فقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، والسَّمعُ والبَصَرُ كِنايَتانِ عن الفَهْمِ والتَّمييزِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤١).

وقال البِقاعي: (ليتمَكَّنَ مِن مُشاهَدةِ الدَّلائِلِ ببَصَرِه، وسَماعِ الآياتِ بسَمْعِه، ومَعرفةِ الحُجَجِ ببَصيرتِه؛ فيَصِحَّ تَكليفُه وابتِلاؤُه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤١).

لنِعَمِ اللهِ مُشرِكًا عاصيًا[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ تَعريفُ الإنسانِ بحالِه، وابتِداءِ أمْرِه؛ لِيَعلَمَ أنْ لا طريقَ له للكِبْرِ، واعتِقادِ السِّيادةِ لِنَفْسِه، وألَّا يُغْلِطَه ما اكتنَفَه مِنَ الألطافِ الرَّبانيَّةِ، والاعتناءِ الإلهيِّ، والتَّكْرِمةِ، فيَعتَقِدَ أنَّه يَستَوجِبُ ذلك ويَستَحِقُّه[٢]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ في هذا نِداءٌ على أنَّ اللهَ تعالى أرشَدَ الإنسانَ إلى الحَقِّ، وأنَّ بعضَ النَّاسِ أدخَلوا على أنفُسِهم ضلالَ الاعتِقادِ، ومَفاسِدَ الأعمالِ، فمَن بَرَّأَ نَفْسَه مِن ذلك فهو الشَّاكِرُ، وغَيرُه الكَفورُ[٣].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- سورةُ ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ سورةٌ عجيبةُ الشَّأنِ مِن سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، على اختِصارِها؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه ابتدأَها بذِكْرِ كيفيَّةِ خَلْقِ الإنسانِ مِن النُّطْفةِ ذاتِ الأمشاجِ والأخلاطِ الَّتي لَمْ يَزَلْ بقُدرتِه ولُطْفِه وحِكمتِه يُصَرِّفُه عليها أطوارًا، ويَنْقُلُه مِن حالٍ إلى حالٍ إلى أنْ تَمَّتْ خِلْقَتُه، وكَمَلَتْ صورتُه؛ فأخْرَجه إنسانًا سَوِيًّا سميعًا بصيرًا، ثُمَّ لَمَّا تكامَلَ تمييزُه وإدراكُه هَداه طريقَي الخَيرِ والشَّرِّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٥، ٣٧٦).

قال ابن كثير: (أي: بَيَّنَّا له طريقَ الخَيرِ وطريقَ الشَّرِّ. وهذا قولُ عِكْرِمةَ، وعطيَّةَ، وابنِ زَيدٍ، ومجاهِدٍ -في المشهورِ عنه- والجمهورِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((البرهان في تناسب سور القرآن)) لأبي جعفر الغرناطي (ص: ٣٥٢، ٣٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٥، ٣٧٦).

والهُدى والضَّلالِ، وأنَّه بعدَ هذه الهدايةِ إمَّا أنْ يَشْكُرَ ربَّه وإمَّا أنْ يَكْفُرَه، ثُمَّ ذَكَرَ مآلَ أهلِ الشُّكرِ والكُفرِ وما أعَدَّ لهؤلاء وهؤلاء، وبَدَأَ أوَّلًا بذِكْرِ عاقِبةِ أهلِ الكفرِ ثُمَّ عاقبةِ أهلِ الشُّكرِ، وفي آخرِ السُّورةِ ذَكَر أوَّلًا أهلَ الرَّحمةِ ثُمَّ أهلَ العذابِ، فبَدَأَ السُّورةَ بأوَّلِ أحوالِ الإنسانِ -وهي النُّطْفةُ-، وخَتَمَها بآخِرِ أحوالِه -وهي كَونُه مِن أهلِ الرَّحمةِ أو العذابِ-، ووَسَّطَها بأعمالِ الفريقَينِ، فذَكَرَ أعمالَ أهلِ العذابِ مُجْمَلةً في قولِه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الإنسان: ٤]، وأعمالَ أهلِ الرَّحمةِ مُفَصَّلةً، وجزاءَهم مُفَصَّلًا[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ أنَّ رُوحَ الإنسانِ مخلوقةٌ، وليست قَديمةً، فلو كانت رُوحُه قديمةً لَكان الإنسانُ لَمْ يَزَلْ شيئًا مذكورًا؛ فإنَّه إنَّما هو إنسانٌ برُوحِه، لا ببَدَنِه فقط[(٢)]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ أنَّ الاشتراكَ في الأسماءِ والصِّفاتِ لا يَستَلزِمُ تَماثُلَ المُسَمَّياتِ والمَوصوفاتِ؛ فقد نفَى سُبحانَه أنْ يكونَ السَّميعُ كالسَّميعِ، والبصيرُ كالبَصيرِ، فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][(٣)]، وفيه حُجَّةٌ على الجَهميَّةِ شَديدةٌ خانِقةٌ، ألَا تَراه كيف وصَفَ الإنسانَ بما وَصَف به نَفْسَه مِن السَّمعِ والبَصَرِ؛ إذ يقولُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾، فسَوَّى بيْن الصِّفَتينِ، ولم يُخالِفْ بيْن اللَّفظَينِ، فأخبَر بذلك؛ لأنَّ اللهَ سميعٌ بسَمعٍ وبصيرٌ ببَصَرٍ غيرِ مخلوقَينِ، ومَن نفى عن اللهِ جَلَّ جلالُه حقائِقَ وَصْفِه، أو حقائِقَ فِعلِه فقد عطَّلَه، وإن لم يُثبِتْ وأخَذَ بالسَّميعِ والبَصيرِ إلى معنى الإدراكِ خَوفًا مِن التَّشبيهِ، لم يسلَمْ مِن التَّشبيهِ، وكيف يَسلَمُ مِن التَّشبيهِ؟! أليس للمخلوقِ

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١١٧).

أيضًا إدراكٌ لأشياءَ، وإن لم يُدرِكْ جميعَها، كما يُدرِكُ الله جميعَها؟! وأيضًا فالإنسانُ يُسمَّى عالِمًا وعليمًا، ويُسَمَّى اللهُ عالِمًا وعليمًا، فلا يكونُ تشبيهًا؛ لأنَّ عِلمَ المخلوقِ الَّذي سُمِّيَ به عالِمًا وعليمًا مُستفادٌ مُتعَلَّمٌ، وعِلمُه سُبحانَه أزَليٌّ صِفةٌ مِن صفاتِه، غيرُ مُتعَلَّمٍ ولا مُستفادٍ، كذلك سَمْعُ المخلوقِ مَصنوعٌ فانٍ، وبَصَرُه مِثلُه، يُفنيهما اللهُ إذا شاء، ثمَّ يُعيدُهما إذا أحياه كما ابتدأهما بقدرتِه، وكذلك بَصَرُه. وسَمْعُ اللهِ وبَصَرُه كائنان أزَليَّانِ فيه، بلا إحداثِ مُحدِثٍ، ولا صُنعِ صانعٍ، حقيقيَّانِ غيرُ مَجازيَّينِ، معروفٌ عندَنا حقيقتُهما، مَسكوتٌ عن كَيفيَّتِهما، كهيئةِ ما هما عندَه سُبحانَه[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أنَّ مِن أسماءِ اللهِ تعالى ما لا يَختَصُّ به، مِثلُ: السَّميعِ، البصيرِ، العليمِ، الرَّحيمِ، وقال تعالى عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2] [التوبة: ١٢٨].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ تَوبيخيٌّ، وهو هنا مُوجَّهٌ إلى غيرِ مُعيَّنٍ، ومُستعمَلٌ في تَحقيقِ الأمْرِ المُقرَّرِ به على طَريقِ الكِنايةِ؛ لأنَّ الاستفهامَ طَلَبُ الفَهمِ، والتَّقريرُ يَقْتضي حُصولَ العِلمِ بما قُرِّرَ به، وذلك إيماءٌ إلى استِحقاقِ اللهِ أنْ يَعترِفَ الإنسانُ له بالواحدانيَّةِ في الرُّبوبيَّةِ، إبطالًا لإشراكِ المشْركين، والمعْنى: هلْ يُقِرُّ كلُّ إنسانٍ مَوجودٍ أنَّه كان مَعدومًا زَمانًا طَويلًا، فلمْ يكُنْ شَيئًا يُذكَرُ؟ أي: لم يكُنْ يُسمَّى ولا يُتحدَّثُ عنه بذاتِه، وهمْ لا يَسَعُهم إلَّا الإقرارُ بذلك؛ فلذلك اكتُفِيَ بتَوجيهِ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢٦٠). ويُنظر أيضًا: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٩، ٥٥٠).

هذا التَّقريرِ إلى كلِّ سامعٍ[١].

- وتَقديمُ هذا الاستفهامِ؛ لِما فيه مِن تَشويقٍ إلى مَعرفةِ ما يَأْتي بعْدَه مِن الكلامِ؛ فجُملةُ ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ ...﴾ تَمهيدٌ وتَوطئةٌ للجُملةِ الَّتي بعْدَه، وهي ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾ [الإنسان: ٢] إلخ[٢].

٢- قوله تعالَى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لقولِه: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١]؛ لبَيانِ كَيفيَّةِ خلْقِ الإنسانِ؛ لِما فيه مِن التَّشويقِ، والتَّقريرُ يَقْتضي الإقرارَ بذلك لا مَحالةَ؛ لأنَّه مَعلومٌ بالضَّرورةِ، فالسَّامعُ يَتشوَّفُ لِما يَرِدُ بعْدَ هذا التَّقريرِ، فقِيل له: إنَّ اللهَ خَلَقَه بعْدَ أنْ كان مَعدومًا، فأوجَدَ نُطفةً كانت مَعدومةً، ثمَّ استَخرَجَ منها إنسانًا، فثَبَتَ تَعلُّقُ الخلْقِ بالإنسانِ بعْدَ عَدَمِه[٣].

- وتَأكيدُ الكلامِ بحرْفِ (إنَّ) لتَنزيلِ المشْركين مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ خلَقَ الإنسانَ؛ لعَدَمِ جَرْيِهم على مُوجَبِ العِلمِ؛ حيث عَبَدوا أصنامًا لم يَخلُقوهم[٤].

- وإظهارُ لَفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ لزِيادةِ التَّقريرِ[٥].

- وأُدمِجَ في ذلك كَيفيَّةُ خلْقِ الإنسانِ مِن نُطفةِ التَّناسُلِ؛ لِما في تلك الكيفيَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٠).

مِن دَقائقِ العِلمِ الإلهيِّ والقُدرةِ والحِكمةِ[١].

- على القولِ بأنَّ ﴿أَمْشَاجٍ﴾ جمْعٌ، فيكونُ وَصَف النُّطفةَ -مع أنَّها مُفرَدٌ- بلَفظِ ﴿أَمْشَاجٍ﴾، وهو جمْعٌ؛ لأنَّها أُريدَ بها الجِنسُ، كقولِه: ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ [الرحمن: ٧٦]، أو لتَنزيلِ كلِّ جُزءٍ مِن النُّطفةِ نُطفةً[٢]. أو وَصَفَ النُّطفةَ بالجمْعِ باعتِبارِ ما تَشتمِلُ عليه النُّطفةُ مِن أجزاءٍ مُختلِفةِ الخواصِّ؛ فلذلك يَصيرُ كلُّ جُزءٍ مِن النُّطفةِ عضْوًا، فوَصْفُ النُّطفةِ بجمْعِ الاسمِ للمُبالَغةِ، أي: شَديدةُ الاختلاطِ[٣]. أو وصَفَ النُّطفةَ بـ﴿أَمْشَاجٍ﴾ وهو جمْعٌ؛ لِما أنَّ المُرادَ بها مَجموعُ الماءَينِ مِن الرَّجُلِ والأُنثى، ولكلٍّ منهُما أوصافٌ مُختلِفةٌ مِن اللَّونِ والرِّقَّةِ والغِلَظِ، وخَواصُّ مُتباينةٌ[٤].

- وقد وقَعَت هذه الحالُ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ مُعترِضةً بيْن جُملةِ ﴿خَلَقْنَا﴾ وبيْن ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾؛ لأنَّ الابتلاءَ -أي: التَّكليفَ الَّذي يَظهَرُ به امتِثالُه أو عِصيانُه- إنَّما يكونُ بعْدَ هِدايتِه إلى سَبيلِ الخَيرِ، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يَقَعَ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ بعْدَ جُملةِ ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، ولكنَّه قُدِّمَ؛ للاهتِمامِ بهذا الابتلاءِ الَّذي هو سَببُ السَّعادةِ والشَّقاوةِ. وجِيءَ بجُملةِ ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ بَيانًا لجُملةِ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾؛ تَفنُّنًا في نظْمِ الكلامِ[٥].

- وقد نُزِّلَت الكَلِمتانِ ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ مَنزِلةَ الكَلِمةِ الواحدةِ؛ لأنَّهما كِنايةٌ عن التَّمييزِ والفَهمِ؛ إذْ آلَتُهما سَببٌ لذلك، وهما أشرَفُ الحواسِّ، تُدرَكُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٤، ٣٧٥).

بهما أعظَمُ المُدرَكاتِ، أي: جَعَلْناه بسَببِ الابتلاءِ حينَ تَأهُّلِه له سَميعًا بَصيرًا؛ ليَتمكَّنَ مِن مُشاهَدةِ الدَّلائلِ، واستِماعِ الآياتِ؛ فالعطفُ على إرادةِ الابتلاءِ لا الابتلاءِ فيه، فلا يَرِدُ السُّؤالُ الآتي: كيف عُطِفَ على ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ ما بعْدَه بالفاءِ مع أنَّ الابتلاءَ مُتأخِّرٌ عنه[١]؟

- وحَقيقةُ الابتلاءِ: الاختِبارُ لِتُعرَفَ حالُ الشَّيءِ، وهو هنا كِنايةٌ عن التَّكليفِ بأمْرٍ عَظيمٍ؛ لأنَّ الأمْرَ العظيمَ يُظهِرُ تَفاوُتَ المكلَّفينَ به في الوفاءِ بإقامتِه[٢].

- وفُرِّعَ على خلْقِه مِن نُطفةٍ أنَّه جَعَلَه سَميعًا بَصيرًا، وذلك إشارةٌ إلى ما خَلَقَه اللهُ له مِن الحواسِّ الَّتي كانت أصلَ تَفكيرِه وتَدبيرِه؛ ولذلك جاء وصْفُه بالسَّميعِ البصيرِ بصِيغةِ المُبالَغةِ، ولم يقلْ: فجَعَلْناه سامعًا مُبصِرًا؛ لأنَّ سمْعَ الإنسانِ وبصَرَه أكثَرُ تَحصيلًا وتَمييزًا في المسموعاتِ والمُبصَراتِ مِن سمْعِ وبصَرِ الحيوانِ؛ فبِالسَّمعِ يَتلقَّى الشَّرائعَ ودَعوةَ الرُّسلِ، وبالبصَرِ يَنظُرُ في أدِلَّةِ رُبوبيَّةِ الله تعالى ووحدانيَّتِه[٣].

- وهذا تَخلُّصٌ إلى ما ميَّزَ اللهُ به الإنسانَ مِن جَعْلِه تُجاهَ التَّكليفِ واتِّباعِ الشَّرائعِ، وتلك خَصِيصةُ الإنسانِ الَّتي بها ارتَكَزَت مَدنيَّتُه، وانتَظَمَت جامعاتُه؛ ولذلك أُعقِبَت هذه الجُملةُ بقولِه: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ الآياتِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لبَيانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما نشَأَ عن جُملةِ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]، ولتَفصيلِ جُملةِ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وتَخلُّصٌ إلى الوعيدِ على الكفْرِ، والوعْدِ على الشُّكرِ[١].

فقولُه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ رُتِّب على قولِه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]؛ لأنَّه جملةٌ مُستأنَفةٌ تعليليَّةٌ في معنى: لأنَّا هدَيْناه، أي: دلَلْناه على ما يُوصِلُه مِن الدَّلائلِ السَّمعيَّةِ كالآياتِ التَّنزيليَّةِ، والعَقليَّةِ كالآياتِ الآفاقيَّةِ والأنفُسيَّةِ، وهو إنَّما يكونُ بعدَ التَّكليفِ والابتلاءِ[٢].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) في ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ...﴾ للرَّدِّ على المشرِكين الَّذين يَزعُمون أنَّ ما يَدْعوهم إليه القرآنُ باطلٌ[٣].

- ولَمَّا كان الشُّكرُ قَلَّ مَن يتَّصِفُ به، قال: ﴿شَاكِرًا﴾، فعبَّرَ عنه باسمِ الفاعلِ؛ للدَّلالةِ على قِلَّتِه، ولَمَّا كان الكفْرُ كثيرًا مَن يَتَّصِفُ به، ويَكثُرُ وُقوعُه مِن الإنسانِ، قال: ﴿كَفُورًا﴾؛ فعبَّرَ عنه بصِيغةِ المُبالَغةِ[٤].

أو: أنَّه عَبَّرَ باسمِ الفاعِلِ الخالي مِن المُبالَغةِ في ﴿شَاكِرًا﴾؛ لأنَّه لا يَقدِرُ أحدٌ أن يَشكُرَ جميعَ النِّعَمِ، فلا يُسَمَّى شَكورًا إلَّا بتفَضُّلٍ مِن رَبِّه عليه، ولَمَّا كان الإنسانُ لِما له مِن النُّقْصانِ لا يَنفَكُّ غالبًا عن كُفْرٍ ما، أتى بصيغةِ المُبالَغةِ؛ تنبيهًا له على ذلك[٥]، وإشعارًا بأنَّ الإنسانَ لا يَخْلو عن كُفرانٍ غالبًا، وإنَّما المُؤاخَذُ به التَّوغُّلُ فيه، أو لم يقُلْ: (كافرًا) ليُطابِقَ قَسيمَه؛ مُحافَظةً على الفواصلِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٨٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩).

الآيات (٤-١٢)

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ٤ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢﴾.

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَغۡلَٰلٗا﴾: جَمعُ غُلٍّ، وهو طَوقٌ تُشَدُّ به اليدُ إلى العُنُقِ، وأصلُ (غلل): يدُلُّ على إحاطةٍ وثَباتٍ[(١)].

﴿وَسَعِيرًا﴾: أي: نارًا تُسَعَّرُ عليهم فتَتَوَقَّدُ، والسَّعيرُ اسْمٌ مِن أسماءِ جَهَنَّمَ، يُقال: سَعرْتُ النَّارَ، إذا ألهَبْتَها، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه وارتِفاعِه[(٢)].

﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾: أي: المؤمنينَ الصَّادقينَ في إيمانِهم، المُطيعينَ لربِّهم، جمعُ: بَرٍّ وبَارٍّ، وأصلُ (برر) هنا: الصِّدْقُ، يُقالُ: يَبَرُّ رَبَّه، أي: يُطيعُه، وهو مِنَ الصِّدقِ. وقيل: لَمَّا كان البَرُّ خِلافَ البحرِ، وتُصُوِّرَ منه التَّوسُّعُ، اشتُقَّ منه البِرُّ، وهو التَّوسُّعُ في فِعلِ الخَيرِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، =

﴿مِزَاجُهَا﴾: أي: ما يُمازِجُها، يُقالُ: مَزَجَ الشَّرابَ: خلَطَه، وأصلُ (مزج): يدُلُّ على خَلْطِ الشَّيءِ بغَيرِه[١].

﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾: أي: يُجْرُونها ويُصَرِّفونَها ويَقودُونَها إلى حيث شاؤوا، والتَّفجيرُ: الإسالةُ والإجراءُ، والفَجْرُ: شَقُّ الشَّيءِ شَقًّا واسعًا، وأصلُ (فجر): التَّفَتُّحُ في الشَّيءِ[٢].

﴿مُسْتَطِيرًا﴾: أي: فاشِيًا مُنتَشِرًا، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصْطِفافِ شَيءٍ[٣].

﴿عَبُوسًا﴾: أي: تَعبَسُ وتَنقَبِضُ فيه الوُجوهُ مِن هَولِه وشِدَّتِه، نُسِبَ العُبُوسُ إلى اليومِ، كما يُقالُ: يَومٌ صائِمٌ، ولَيلٌ قائِمٌ، والعُبُوسُ: تَقطُّبُ الوَجهِ عندَ كراهيةِ أمرٍ، وأصلُ (عبس): يدُلُّ على تَكَرُّهٍ[٤].

﴿قَمْطَرِيرًا﴾: أي: شَديدًا صَعْبًا، والقَمْطَريرُ: أشَدُّ ما يكونُ مِنَ الأيَّامِ وأطوَلُه في البلاءِ، يُقالُ: يومٌ قَمطَرِيرٌ وقُماطِرٌ: إذا كان شَديدًا كريهًا[٥].

= ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٠٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٠)، ((تفسير البغوي)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٠، ٣٨٠)، =

﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾: أي: آتاهم، وأعْطاهم حينَ لَقُوه، وأصلُ (لقي) هنا: يدُلُّ على تَوافي شَيئَيْنِ[(١)].

﴿نَضْرَةً﴾: أي: حُسْنًا وإشراقًا وبَهْجةً، يُقالُ: نَضَرَ وَجهُ فُلانٍ: إذا حَسُنَ مِن النِّعمةِ، وأصلُ (نضر): يدُلُّ على حُسنٍ وجمالٍ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾

قَولُه تعالى: ﴿عَيْنًا﴾ منصوبةٌ مِن أوجُهٍ؛ أحَدُها: أنَّه بَدَلٌ مِن ﴿كَافُورًا﴾؛ لأنَّ ماءَها في بياضِ الكافورِ، وفي رائحتِه وبَرْدِه. والثَّاني: أنَّها بَدَلٌ مِن محلِّ ﴿مِن كَأْسٍ﴾ على تقديرِ مُضافٍ، أي: يَشرَبونَ خَمرًا خَمْرَ عَينٍ. الثَّالثُ: أنَّها مفعولٌ بـ ﴿يَشْرَبُونَ﴾، أي: يَشرَبونَ عَينًا مِن كأسٍ. الرَّابعُ: أن يَنتصِبَ على الاختِصاصِ بإضمارِ «أعني» أو «أَخُصُّ». الخامسُ: أنَّه مَفعولٌ به ثانٍ لِفِعلٍ محذوفٍ تقديرُه: «يُعْطَونَ». وقيلَ غَيرُ ذلك.

قَولُه تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ في الباءِ أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه على تَضمينِ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٤).

«يَشْرَبُ» معنى: «يَلْتَذُّ» أو «يَرْوَى»، وهما يَتعَدَّيانِ بالباءِ. الثَّاني: أنَّها مَزيدةٌ، أي: يَشرَبُها. الثَّالثُ: أنَّها بمعنى «مِنْ». الرَّابعُ: أنَّ الباءَ للإلصاقِ مُتعَلِّقةٌ بمحذوفٍ حال، أي: يَشرَبُ الخَمْرَ ممزوجةً بها، أي: بالعَينِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما أعَدَّه للكافِرين: إنَّا هَيَّأْنا للكافِرينَ سلاسِلَ يُقادُونَ بها، وقُيودًا في أعناقِهم، ونارًا حاميةً، ثم يبينُ ما أعدَّه للشَّاكرينَ، فيقولُ: إنَّ الطَّائِعينَ الأبرارَ يَشرَبونَ مِن كأسٍ مُمتَزِجٍ شَرابُها بالكافورِ، وهذا الكافُورُ هو عَينٌ جاريةٌ يَرتَوي بها عِبادُ اللهِ، يتصرَّفُون في تلك العَينِ بإنباعِها وإجرائِها حيث شاؤُوا!

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى الأسبابَ الَّتي أوصلَتِ الشَّاكرينَ إلى هذا النَّعيمِ، ويذكُرُ جملةً مِن أعمالِهم، فيقولُ: أولئك الأبرارُ كانوا يُوفُونَ في الدُّنيا بنُذورِهم، ويَخافُونَ يومَ القيامةِ ذا الشَّرِّ المنتَشِرِ، ويُطْعِمونَ الطَّعامَ -مع محَبَّتِهم إيَّاه- المِسكينَ، واليتيمَ، والأسيرَ، قائِلينَ: إنَّما نُطعِمُكم لوَجْهِ اللهِ تعالى، ورجاءَ رِضاه وثَوابِه، لا نَطلُبُ منكم مُكافأةً على ذلك، ولا شُكْرًا، إنَّا نَخافُ مِن رَبِّنا يومَ القيامةِ ذا الأهوالِ العظيمةِ، والضِّيقِ والشِّدَّةِ، فدَفَعَ اللهُ عنهم شرَّ ذلك اليَومِ، وأعطاهم حُسْنًا في وُجوهِهم، وفَرَحًا في قُلوبِهم، وجَزاهم اللهُ تعالى بسَبَبِ صَبْرِهم جَنَّةً وحريرًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ٤﴾.

(١) يُنظَر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٦٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٩٩، ٦٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٧٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَسَّمَهم اللهُ تعالى إلى القِسمَينِ؛ ذكَرَ جزاءَ كُلِّ قِسمٍ[١].

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ٤﴾.

أي: إنَّا هَيَّأْنا للكافِرينَ سلاسِلَ يُقادُونَ أو يُوثَقونَ بها، وقُيودًا في أعناقِهم، ونارًا حاميةً تتوقَّدُ ويَشتَدُّ التِهابُها[٢].

قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هو شُروعٌ في بيانِ حُسنِ حالِ الشَّاكرينَ، إثرَ بَيانِ سُوءِ حالِ الكافرينَ[٣]، فلَمَّا أوجز اللهُ تعالى في جزاءِ الكافِرِ؛ أتْبَعَه جزاءَ الشَّاكِرِ وأطنَبَ فيه؛ تأكيدًا للتَّرغيبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٤، ١٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٧).

قال القرطبي: (قال الحَسَنُ: إنَّ الأغلالَ لم تُجعَلْ في أعناقِ أهلِ النَّارِ لأنَّهم أعجَزوا الرَّبَّ سُبحانَه، ولكِنْ إذلالًا). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٤).

قيل: الأغلالُ تكونُ بجَمْعِ الأيدي إلى الأعناقِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٥).

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾.

أي: إنَّ الطَّائِعينَ الصَّادِقينَ الَّذين يَسعَونَ في أعمالِ البِرِّ والخَيرِ يَشرَبونَ مِن كأسٍ(١) مُمتَزِجٍ شَرابُها بالكافورِ(٢).

---

(١) قال الزَّجَّاجُ: (الكأسُ في اللُّغةِ: الإناءُ إذا كان فيه الشَّرابُ، فإذا لم يكُنْ فيه الشَّرابُ لم يُسَمَّ كأسًا). ((معاني القرآن)) (٥/ ٢٥٨).

قيل: المرادُ بقوله: ﴿مِن كَأۡسٖ﴾ أي: مِن إناءٍ فيه شرابٌ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والخازن، وابن عادل. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ١٦).

وقيل: المرادُ بالكأسِ هنا: الخَمرُ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبي، والماوَرْدي، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٩٥)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨١).

قال جلال الدين المحلي: (المرادُ: مِن خَمرٍ، تسميةً للحالِّ باسمِ المَحَلِّ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨١).

وقال الماوَرْدي: (قال الضَّحَّاكُ: كلُّ كأسٍ في القرآنِ فإنَّما عنى به الخمرَ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣١).

وقال أبو السعود: (﴿يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ﴾ هي الزُّجاجةُ إذا كانت فيها خَمرٌ، وتُطلَقُ على نفْسِ الخَمرِ أيضًا؛ فـ«مِنْ» على الأوَّلِ ابتدائيَّةٌ، وعلى الثَّاني تبعيضيَّةٌ أو بيانيَّةٌ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال البغوي: (﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ يعني: المؤمنينَ الصَّادقينَ في إيمانِهم، المُطيعينَ لربِّهم واحدُهم بارٌّ، مثل شاهدٍ وأشهادٍ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٩). =

= وقال السعدي: (﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ وهم الَّذين بَرَّتْ قلوبُهم بما فيها مِن محبَّةِ الله ومعرفتِه، والأخلاقِ الجميلةِ، فبَرَّتْ جَوارِحُهم، واستعمَلوها بأعمالِ البِرِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال ابن الجوزي: (﴿كَافُورًا﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه الكافورُ المعروفُ، قاله مجاهدٌ، ومقاتلٌ. فعلى هذا في المرادِ بالكافورِ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: بَردُه، قاله الحسَنُ. والثَّاني: ريحُه، قاله قَتادةُ. والثَّالثُ: طَعمُه، قاله السُّدِّيُّ.

والثَّاني: أنَّه اسمُ عَينٍ في الجنَّةِ، قاله عَطاءٌ، وابنُ السَّائبِ.

والثَّالثُ: أنَّ المعنى: مِزاجُها كالكافورِ؛ لطِيبِ ريحِه. وأجازه الفرَّاءُ، والزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٦). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٢٤)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢١٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٥).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّه يُمزَجُ بالكافورِ لِبَردِه وعُذوبتِه وطِيبِ عَرْفِه: البيضاويُّ، وابنُ كثير، والبِقاعي، والشربيني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال السعدي: (قد مُزِجَ بكافورٍ، أي: خُلِطَ به؛ ليُبَرِّدَه ويَكسِرَ حِدَّتَه، وهذا الكافورُ في غايةِ اللَّذَّةِ والسَّلامةِ مِن كُلِّ مُكَدِّرٍ ومُنَغِّصٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

وقال ابن كثير: (وقد عُلِمَ ما في الكافورِ مِن التَّبريدِ والرَّائحةِ الطَّيِّبةِ، معَ ما يُضافُ إلى ذلك مِن اللَّذاذةِ في الجنَّةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ أنَّ مِزاجَ ما في الكأسِ مِن الشَّرابِ كالكافورِ في طِيبِ رائحتِه: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩١٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١٥).

وممَّن اختار أنَّ الكافورَ اسمُ عَينٍ في الجنَّةِ: الزمخشريُّ، والنسفي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٧، ٦٦٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١).

قال الزمخشري: (﴿مِزَاجُهَا﴾ ما تُمْزَجُ به ﴿كَافُورًا﴾ ماءَ كافُورٍ، وهو اسمُ عَينٍ في الجنَّةِ ماؤُها في بَياضِ الكافُورِ ورائِحَتِه وبَرْدِه، و﴿عَيْنًا﴾ بدَلٌ منه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٧، ٦٦٨).

﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦﴾.

﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾.

أي: هذا الكافورُ هو عَينٌ جاريةٌ يَرتَوي بها عِبادُ اللهِ[1].

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾.

أي: يتصرَّفُ عِبادُ اللهِ في عَينِ الشَّرابِ بإنباعِها وإجرائِها حيث شاؤُوا[2]!

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر جزاءَ الأبرارِ على بِرِّهم المُبَيِّنِ لِشُكرِهم؛ أتْبَعَه تَفصيلَه[3].

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾.

أي: أولئك الأبرارُ يُوفُونَ في الدُّنيا بنُذورِهم الَّتي نَذَروها طاعةً للهِ، فألزَموا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (و﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ هنا خصوصٌ في المؤمنينَ النَّاعمينَ؛ لأنَّ جميعَ الخَلقِ عِبادُه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٩، ٤١٠).

وذهب ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القَيِّم، وابنُ كَثيرٍ إلى أنَّ ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ هنا عائدةٌ على المقرَّبينَ، والمعنى: أنَّ الأبرارَ يَشرَبونَ مِن كأسٍ مُمتَزِجٍ شَرابُها بالكافُورِ، وأمَّا المقرَّبونَ فإنَّهم يَشرَبوَن شَرابًا صافِيًا بلا مَزْجٍ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٧٨)، ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٧).

بها أنفُسَهم[١].

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾.

أي: ويَخافُونَ يومَ القيامةِ الَّذي شرُّه في غايةِ الانتِشارِ والامتِدادِ[٢].

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مَن خاف شيئًا سعَى في الأمنِ منه بكُلِّ ما عَساه ينفَعُ فيه، وكان قد ذكَرَ تذَرُّعَهم بالواجِبِ؛ أتْبَعَه المندوبَ؛ دَلالةً على أنَّهم لا رُكونَ لهم إلى الدُّنيا، ولا وُثوقَ بها، فقد جمَعوا إلى كرَمِ الطَّبعِ بالوفاءِ، ورِقَّةِ القَلبِ: شَرَفَ النَّفْسِ، بالانسلاخِ مِن الفاني، فقال[٣]:

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾.

أي: ويُطْعِمونَ الطَّعامَ -مع محَبَّتِهم إيَّاه، واشتِهائِهم له- ويُؤْثِرونَ به المِسكينَ، والصَّغيرَ الَّذي فَقَدَ أباه، والأسيرَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤١، ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال السعدي: (﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ أي: بما ألزَموا به أنفُسَهم لله مِن النُّذورِ والمعاهَداتِ، وإذا كانوا يُوفُونَ بالنَّذْرِ وهو لم يجِبْ عليهم إلَّا بإيجابِهم على أنفُسِهم، كان فِعْلُهم وقيامُهم بالفُروضِ الأصليَّةِ مِن بابِ أَوْلى وأَحْرى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١). ويُنظر ما يأتي في الفوائد (ص: ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٧، ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٣-٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٨، ١٢٩)، =

= ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٤).

قال الماوَرْدي: (في الأسيرِ ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: أنَّه المسجونُ المُسلِمُ. قاله مجاهِدٌ. الثَّاني: أنَّه العَبدُ. قاله عِكْرِمةُ. الثَّالثُ: أسيرُ المُشرِكينَ. قاله الحَسَنُ، وسَعيدُ بنُ جُبَيرٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الأسيرُ الكافرُ بيْن المسلِمينَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابن أبي زَمَنِين، وابن جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٣٥).

وممَّن قال مِن السَّلفِ بأنَّ الأسيرَ هنا المرادُ به المشركُ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ في روايةٍ عنه، وعَطاءٌ في روايةٍ عنه، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٧١).

وذهب ابنُ جَريرٍ والثعلبيُّ إلى القَولِ الأوَّلِ والثَّالثِ، وهو أنَّه الحربيُّ مِن أهلِ دارِ الحَربِ يُؤخَذُ قَهْرًا بالغَلَبةِ، أو مِن أهلِ القِبلةِ يُؤخَذُ فيُحبَسُ بحَقٍّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٣، ٥٤٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٩٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالأسيرِ هنا: العبدُ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عِكْرِمةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٦).

قال ابنُ عاشور: (أمَّا الأسيرُ فإذ قد كانت السُّورةُ كُلُّها مَكِّيَّةً قبلَ عِزَّةِ المُسلِمينَ، فالمرادُ بالأسيرِ: العَبدُ مِن المسلِمينَ؛ إذ كان المشركونَ قد أجاعوا عَبيدَهم الَّذين أسلَموا، مِثلَ بلالٍ، وعَمَّارٍ وأمِّه، ورُبَّما سَيَّبوا بَعْضَهم إذا أضجَرَهم تعذيبُهم، وترَكوهم بلا نَفَقةٍ، والعبوديَّةُ تَنشَأُ مِن الأسْرِ، فالعَبدُ أسيرٌ؛ ولذلك يُقالُ له العاني أيضًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٤).

وقال القرطبي: (عن عَطاءٍ قال: الأسيرُ مِن أهلِ القِبلةِ وغَيرِهم. قلتُ: وكأنَّ هذا القولَ عامٌّ يجمَعُ جميعَ الأقوالِ، ويكونُ إطعامُ الأسيرِ المشرِكِ قُرْبةً إلى اللهِ تعالى، غَيْرَ أنَّه مِن صَدَقةِ التَّطَوُّعِ، فأمَّا المفروضةُ فلا. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٩).

ممَّن ذهب مِن السَّلفِ إلى أنَّ هذه الآيةَ تَشمَلُ أهلَ القِبلةِ وغيرَهم: سعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ =

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾.

أي: يَقولُ الأبرارُ: إنَّما نُطعِمُكم طلَبًا لرضا اللهِ تعالى ورجاءَ ثَوابِه[١].

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

أي: لا نَطلُبُ منكم مُكافأةً على ذلك، ولا نَطلُبُ منكم شُكْرًا ولا ثَناءً عليه[٢].

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

= عنه، وعَطاءٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٩).

قال ابنُ جُزَي: (﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ عبارةٌ عن الإخلاصِ لله؛ ولذلك فسَّروه وأكَّدوه بقَولِهم: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٨).

وقال الزمخشري: (يجوزُ أن يكونَ قَولًا باللِّسانِ؛ مَنْعًا لهم عن المُجازاةِ بمِثْلِه أو بالشُّكْرِ؛ لأنَّ إحسانَهم مفعولٌ لِوَجهِ اللهِ، فلا معنَى لمكافأةِ الخَلْقِ، وأن يكونَ قَولُهم لهم لُطفًا وتفقيهًا وتنبيهًا على ما يَنبغي أن يكونَ عليه مَن أخلَصَ لله... ويجوزُ أن يكونَ ذلك بيانًا وكَشْفًا عن اعتِقادِهم وصِحَّةِ نِيَّتِهم، وإن لم يَقولوا شيئًا). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٨).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّهم يقولونَ ذلك لهم؛ تأنيسًا لهم، ودَفعًا لانكِسارِ النَّفْسِ الحاصِلِ عندَ الإطعامِ، أي: ما نُطعِمُكم إلَّا استجابةً لِما أمَرَ اللهُ، فالمُطعِمُ لهم هو اللهُ... وعن مُجاهدٍ أنَّه قال: ما تكَلَّموا به، ولكِنْ عَلِمَه اللهُ فأثْنى به عليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ أنَّ الأبرارَ يُحسِنونَ إلى هؤلاء المحتاجِينَ، بيَّن أنَّ لهم فيه غرَضَينِ؛ أحدُهما: تحصيلُ رِضا اللهِ، وهو المرادُ مِن قَولِه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، والثَّاني: الاحترازُ مِن خَوفِ يومِ القيامةِ، وهو المرادُ مِن قَولِه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[1].

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

أي: إنَّا نخافُ مِن رَبِّنا يومَ القيامةِ ذا الأهوالِ العظيمةِ، وذا الضِّيقِ والشِّدَّةِ[2].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَتعَوَّذُ مِن ضِيقِ المقامِ يومَ القيامةِ))[3].

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكَى عن الأبرارِ أنَّهم أتَوا بالطَّاعاتِ لغَرَضينِ: طَلَبِ رِضا الله، والخَوفِ مِن القيامةِ؛ بيَّنَ أنَّه أعطاهم هذينِ الغَرَضينِ؛ أمَّا الحِفظُ مِن هولِ القيامةِ فهو المرادُ بقَولِه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾، وأمَّا طَلَبُ رِضا اللهِ تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٦، ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال ابنُ عاشور: (قولُه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ مَقولٌ لِقَولٍ يَقولونَه في نُفوسِهم، أو يَنطِقُ به بعضُهم مع بعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٦).

(٣) أخرجه أبو داودَ (٧٦٦)، والنَّسائيُّ (٥٥٣٥)، وابنُ ماجه (١٣٥٦).

قال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٧٦٦): (حَسَنٌ صحيحٌ). وحَسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٧٦٦).

فأعطاهم بسَبَبِه نَضرةً في الوَجهِ، وسُرورًا في القَلْبِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان فِعلُ الأبرارِ هذا خالصًا لله؛ سَبَّب عنه جزاءَهم[(٢)].

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾.

أي: فدَفَع اللهُ عن الأبرارِ شرَّ يَومِ القيامةِ[(٣)].

﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾.

أي: وأعطاهم اللهُ حُسْنًا في وُجوهِهم، وفَرَحًا في قُلوبِهم[(٤)].

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال ابن كثير: (﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً﴾ أي: في وجوهِهم، ﴿وَسُرُورًا﴾ أي: في قلوبِهم. قاله الحسنُ البصريُّ، وقتادةُ، وأبو العاليةِ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. وهذه كقولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، وذلك أنَّ القلبَ إذا سُرَّ استنار الوجهُ، قال كعبُ بنُ مالكٍ في حديثِه الطَّويلِ: «وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهُه حتَّى كأنَّه قطعةُ قمرٍ» [البخاري «٤٤١٨» ومسلم «٢٧٦٩»]، وقالت عائشةُ: «دخَل عليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مسرورًا تبرقُ أساريرُ وجهِه...» الحديث. [البخاري «٦٧٧٠» ومسلم «١٤٥٩»]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٩)

وقال الشوكاني: (﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أيْ: أعْطاهم -بَدَلَ العُبوسِ في الكفَّارِ- نَضْرَةً في الوُجوهِ، وسُرورًا في القلوبِ. قال الضَّحَّاكُ: «والنَّضْرَةُ: البياضُ والنَّقاءُ في وُجوهِهم». وقال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ: «الحُسنُ والبَهاءُ»، وقيل: النَّضْرَةُ: أثرُ النِّعمةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٠).

وقال ابنُ عاشور: (جَعَلَهم يَلْقَونَ نَضْرةً وسُرورًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٨).

وقال سُبحانَه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: وجَزاهم اللهُ تعالى بسَبَبِ صَبْرِهم جَنَّةً يَدخُلونَها، وحريرًا يَلْبَسُونَه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ...﴾ فذكَرَ سُبْحانَه مِن أعمالِ الأبرارِ ما يُنَبِّهُ سامِعَه على جَمْعِهم لأعمالِ البِرِّ كلِّها؛ فذكَرَ سُبحانَه وفاءَهم بالنَّذرِ، وخَوْفَهم مِن ربِّهم، وإطعامَهم الطَّعامَ على محبَّتِهم له، وإخلاصَهم لرَبِّهم في طاعتِهم[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ فيه الحَثُّ على الوَفاءِ بالنَّذرِ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ فيه أنَّ مجامِعَ الطَّاعاتِ مَحصورةٌ في أمْرَينِ: التَّعظيمُ لأمرِ اللهِ تعالى، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، والشَّفَقةُ على خَلْقِ اللهِ، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ ذَكَر سُبحانَه الوَفاءَ بالنَّذْرِ، وهو أضعَفُ الواجباتِ؛ فإنَّ العبدَ هو الَّذي أوجَبَه على نفْسِه بالْتِزامِه، فهو دونَ ما أوجَبَه اللهُ سُبحانَه عليه، فإذا وَفَّى للهِ بأضعَفِ الواجِبَينِ الَّذي التَزَمَه هو، فهو بأنْ يُوَفِّيَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٦).

بالواجبِ الأعظَمِ الَّذي أَوجَبَه اللهُ عليه: أَوْلَى وأَحْرَى، ومِن هاهنا قال مَن قال مِن المفَسِّرينَ: المقَرَّبونَ يُوفُونَ بطاعةِ اللهِ، ويَقومُونَ بحقِّه عليهم؛ وذلك أنَّ العبدَ إذا نَذَرَ للهِ طاعةً فوَفَّى بها، فإنَّما يَفعلُ ذلك لكَونِها صارتْ حقًّا للهِ يجبُ الوفاءُ بها، وهذا موجودٌ في حُقوقِه كلِّها، فهي في ذلك سَواءٌ[1].

٥- أنَّ مَن تَعَبَّدَ للهِ خَوفًا فهو محمودٌ، وقد أَثنى اللهُ على مَن تَعَبَّدَ خَوفًا منه مِن العذابِ؛ قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرًا﴾، وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، وأثنى اللهُ تعالى على مَن تعَبَّدَ طَلَبًا؛ قال تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]. وفي هذا ردٌّ على مَن ذَهَبَ مِن الصُّوفيَّةِ أو غيرِهم إلى أنَّ الأفضَلَ في التَّعَبُّدِ أَلَّا يَقصِدَ الإنسانُ حظًّا لنَفْسِه، وإنَّما يَعْبُدُ اللهَ لِذَاتِه فقط، يعني أنَّك إذا عَبَدْتَ اللهَ فلا تَقصِدْ فضْلَ اللهِ أو تحذَرْ عِقابَه، يقولون: اُعْبُدِ اللهَ للهِ! فيُقالُ لهم: لَسْتُم أكملَ حالًا مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، وقد ذَكَرَ اللهُ عنهم أنَّهم كانوا: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]، ولستُم أكملَ حالًا ممَّن أَثنى اللهُ عليهم مِن الأبرارِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ إلى أنْ قال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرًا﴾، ولا شَكَّ أنَّ الإنسانَ الَّذي يَعبُدُ اللهَ سُبحانَه لِيَنالَ فضْلَه ويَنجوَ مِن عِقابِه: هو يريدُ الوُصولَ إلى رضوانِ اللهِ وإلى رُؤيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ مِن جملةِ النَّعيمِ في الجَنَّةِ رؤيةَ اللهِ سُبحانَه وتعالى[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢٦٨).

لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ أنَّ حُبَّ المساكينِ مُستَلزِمٌ لإخلاصِ العَمَلِ للهِ تعالى، والإخلاصُ هو أساسُ الأعمالِ، الَّذي لا تَثبُتُ الأعمالُ إلَّا عليه؛ فإنَّ حُبَّ المساكينِ يَقتضي إسداءَ النَّفعِ إليهم بما يُمكِنُ مِن مَنافِعِ الدِّينِ والدُّنيا، فإذا حَصَل إسداءُ النَّفْعِ إليهم حُبًّا لهم، والإحسانُ إليهم، كان هذا العَمَلُ خالِصًا[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ إخبارٌ منه سُبحانَه عنهم بإطعامِ الطَّعامِ على محبَّتِهم له، وذلك يدُلُّ على نَفاسَتِه عِندَهم، وحاجتِهم إليه، وما كان كذلك فالنُّفوسُ به أَشَحُّ، والقُلوبُ به أَعْلَقُ، واليدُ له أمْسَكُ، فإذا بَذَلُوه في هذه الحالِ فَهُم لِمَا سِواه مِن حُقوقِ العِبادِ أبْذَلُ؛ فذَكَر مِن حقوقِ العِبادِ بَذْلَ قُوتِ النَّفْسِ على نفاسَتِه وشِدَّةِ الحاجةِ، مُنَبِّهًا على الوَفاءِ بما دُونَه، كما ذَكَر مِن حُقوقِه الوَفاءَ بالنَّذْرِ مُنَبِّهًا على الوَفاءِ بما هو فوقَه وأَوْجَبُ منه، ونَبَّهَ بقَولِه: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أنَّه لولا أنَّ اللهَ سُبحانَه أَحَبُّ إليهم منه لَمَا آثَرُوه على ما يُحِبُّونَه، فآثَرُوا المحبوبَ الأعلَى على الأدنَى[2].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ فيه أنَّهم يتحَرَّونَ في إطعامِهم أَولى النَّاسِ وأحوجَهم[3].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أنَّ الإخلاصَ في الصَّدَقةِ ألَّا يَسْأَلَ عِوَضَها دُعاءً مِن المُعطَى، ولا يَرجوَ بَرَكتَه وخاطرَه ولا غيرَ ذلك مِن الأقوالِ[4]، ومَن طَلَبَ مِن الفقراءِ الدُّعاءَ أو الثَّناءَ خَرَجَ مِن هذه الآيةِ؛ فإنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن أتى إليكم مَعروفًا فكافِئُوه، فإنْ

(١) يُنظر: ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٤) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٤/ ١٠٩).

لَمْ تَجِدُوا فادْعُوا له حتَّى تَعْلَموا أنَّكم قد كافَأْتُموه))[١]؛ ولهذا كانت عائشةُ إذا أَرسَلَتْ إلى قومٍ بهَدِيَّةٍ تقولُ للرَّسولِ: (اسمَعْ ما دَعَوا به لنا؛ حتَّى نَدْعُوَ لهم بمِثْلِ ما دَعَوْا، ويَبْقَى أَجْرُنا على اللهِ)[٢].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾، أي: بسَبَبِ ما أوجَدوه مِن الصَّبرِ على العبادةِ؛ مِن لُزومِ الطَّاعةِ، واجتنابِ المعصيةِ، ومَنْعِ أنفُسِهم الطَّيِّباتِ، وبَذْلِ المحبوباتِ[٣].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ لَمْ يَذْكُرِ اللهُ عزَّ وجلَّ في الكافِرين وعذابِهم إلَّا قليلًا بالنِّسبةِ للأبرارِ، والسَّببُ أنَّه قال: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فقط، ولَمْ يَقُلْ شيئًا مِن أعمالِهم؛ فكان الجزاءُ مختصَرًا: ﴿سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾، وذَكَر الأبرارَ، وأطالَ في ذِكْرِ ما لَهم مِن نعيمٍ؛ لأنَّه ذَكَرَ عدَّةَ أعمالٍ مِن أعمالِهم: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۞ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۞ وَيُطْعِمُونَ

---

(١) أخرجه أبو داودَ (٥١٠٩) واللَّفظُ له، والنسائيُّ (٢٥٦٧)، وأحمدُ (٦١٠٦) من حديث ابنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما.

صحَّحه النوويُّ في ((رياض الصالحين)) (١٧٢٣)، وابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٥/ ٢٥٠)-، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥١٠٩).

وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٧٣) وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٢٣٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ٢٦٧)، وقال الحاكمُ وشعيبٌ الأرناؤوط: (على شرط الشَّيخَين).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١١١).

ويُنظر في الأثرِ المذكورِ عن عائشةَ رضيَ الله عنها ما أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠٠٦٢)، وجوَّد إسنادَه الألبانيُّ في تخريج ((الكلم الطيب)) (٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٢).

ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾، فلَمَّا أطالَ في ذِكْرِ أعمالِهم وأوصافِهم أطالَ في ذِكْرِ جزائِهم -بخِلافِ الكافِرين-، وهذا بلا شكٍّ مِن بلاغةِ القرآنِ الكريمِ[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾ احْتُجَّ به على أنَّ الجَحيمَ بسَلاسِلِها وأغلالِها مخلوقةٌ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ إخبارٌ عن الماضي[(٢)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾ استُدِلَّ به على أنَّ المؤمِنَ وإنْ دَخَلَ النَّارَ بعِصيانِه وجُرْمِه، وأُحْرِقَ في النَّارِ بقَدْرِ جنايتِه؛ لَمْ يُغَلَّ، ولَمْ يُجْعَلْ في السَّلاسِلِ حتَّى يُعْتِقَه اللهُ برحمتِه، ويَذَرَ الكافِرَ في السَّلاسِلِ والأغلالِ والسَّعيرِ الَّذي يَسْتَعِرُ عليه، كُلَّما نَضِجَ له جِلدٌ اسْتَعَرَ على الجِلْدِ الَّذي يُبَدَّلُ له، خالِدًا مُخَلَّدًا[(٣)].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ مَزجَ الكافورِ بالمشروبِ لا يكونُ لذيذًا، فما السَّبَبُ في ذِكْرِه هاهنا؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ الكافورَ اسمُ عَينٍ في الجنَّةِ، ماؤُها في بياضِ الكافورِ ورائحتِه وبَرْدِه، ولكِنْ لا يكونُ فيه طَعْمُه ولا مضَرَّتُه، فالمعنى أنَّ ذلك الشَّرابَ يكونُ ممزوجًا بماءِ هذه العَينِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ رائحةَ الكافورِ عَرَضٌ، فلا يكونُ إلا في جِسمٍ، فإذا خَلَقَ اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٣).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٩).

تلك الرَّائحةَ في جِرْمِ ذلك الشَّرابِ، سُمِّيَ ذلك الجِسمُ كافورًا، وإن كان طَعمُه طيِّبًا.

الوَجهُ الثَّالثُ: لا بأسَ في أن يَخلُقَ اللهُ تعالى الكافورَ في الجنَّةِ، لكِنْ مِن طَعمٍ طَيِّبٍ لذيذٍ، ويَسلُبَ عنه ما فيه مِن المضَرَّةِ، ثمَّ إنَّه تعالى يمزُجُه بذلك المشروبِ، كما أنَّه تعالى سلَبَ عن جميعِ المأكولاتِ والمشروباتِ ما معها في الدُّنيا مِن المَضارِّ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ يدُلُّ على وُجوبِ الوَفاءِ بالنَّذْرِ؛ لأنَّه تعالى عقَّبه بـ (يَخافُونَ يَوْمًا)، وهذا يَقْتَضي أنَّهم إنَّما وفَّوْا بالنَّذْرِ خوفًا مِن شَرِّ ذلك اليومِ، والخَوفُ مِن شَرِّ ذلك اليومِ لا يَتَحَقَّقُ إلَّا إذا كان الوفاءُ به واجِبًا[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ فيه إشعارٌ بحُسنِ عَقيدتِهم، واجتنابِهم عن المَعاصي[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ فيه سؤالٌ: أحوالُ القيامةِ وأهوالُها كُلُّها فِعلُ اللهِ، وكُلُّ ما كان فِعلًا لله فهو يكونُ حِكمةً وصَوابًا، وما كان كذلك لا يكونُ شَرًّا، فكيف وصَفَها اللهُ تعالى بأنَّها شَرٌّ؟

الجوابُ: أنَّها إنَّما سُمِّيَت شَرًّا؛ لِكَونِها مضَرَّةً بمَن تَنزِلُ عليه، وصعبةً عليه، كما تُسمَّى الأمراضُ وسائِرُ الأمورِ المكروهةِ شُرورًا[٤].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يُمكِنُ أن يُقالَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٧٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٥).

شَرُّ ذلك اليَوم مُستَطيرٌ مُنتَشِرٌ، مع أنَّه تعالى قال في صِفةِ أوليائِه: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ هَولَ القيامةِ شَديدٌ؛ فالسَّمَواتُ تَنشَقُّ وتَنفَطِرُ وتَصيرُ كالمُهْلِ، وتتناثَرُ الكواكِبُ، وتتكَوَّرُ الشَّمسُ والقَمَرُ، وتَفزَعُ الملائكةُ، وتُبَدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرضِ، وتُنسَفُ الجِبالُ، وتُسْجَرُ البِحارُ، وهذا الهَولُ عامٌّ يَصِلُ إلى كُلِّ المكَلَّفِينَ، على ما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢]، وقال: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]، إلَّا أنَّه تعالى بفَضْلِه، يؤمِّنُ أولياءَه مِن ذلك الفَزَعِ.

الوَجهُ الثَّاني: أن يكونَ المرادُ أنَّ شَرَّ ذلك اليومِ يكونُ مُستطيرًا في العُصاةِ والفُجَّارِ، وأمَّا المؤمِنونَ فهم آمِنونَ، كما قال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، إلَّا أنَّ أهلَ العِقابِ في غايةِ الكَثْرةِ بالنِّسبةِ إلى أهلِ الثَّوابِ؛ فأُجرِيَ الغالبُ مجرى الكُلِّ[1].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ الأسارى مِن المشرِكين يجِبُ إطعامُهم إلى أن يَرى الإمامُ رأيَه فيهم؛ مِن قَتلٍ أو غيرِ ذلك فإن قيل: لَمَّا وَجَب قَتْلُه، فكيف يَجِبُ إطعامُه؟

الجوابُ: القَتلُ في حالٍ لا يَمنَعُ مِن الإطعامِ في حالٍ أُخرى، ولا يَجِبُ إذا عوقِبَ بوَجهٍ أن يُعاقَبَ بوَجهٍ آخَرَ؛ ولذلك لا يَحسُنُ فيمَن يَلزَمُه القِصاصُ أن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٥، ٧٤٦).

يُفعَلَ به ما هو دونَ القَتْلِ[١]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الأسيرِ.

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أنَّ إطعامَ الطَّعامِ هو مِن الأسبابِ المُوجِبةِ للجَنَّةِ ونَعيمِها[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أنَّ مَن خافه في الدُّنيا، وأخَذ أُهْبَتَه مِن طاعةِ ربِّه؛ أمَّنَه مِن أهوالِه، ووقَاه أفزاعَه، وكذا قال في سُورةِ (النَّملِ): ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[٣] [النمل: ٨٩].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أنَّ الجَنَّاتِ فيها النَّعيمُ المطلَقُ الَّذي يَشملُ نَعيمَ البَدَنِ ونعيمَ الرُّوحِ؛ قال العلماءُ: («النَّضْرةُ» في الوَجهِ، و«السُّرورُ» في القَلْبِ)[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ جُمِعَ لهم بيْن النَّضْرةِ والسُّرورِ، وهذا جمالُ ظواهرِهم، وهذا حالُ بواطنِهم، كما جَمَّلُوا في الدُّنيا ظواهِرَهم بشَرائعِ الإسلامِ، وبواطِنَهم بحقائقِ الإيمانِ[٥].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أنَّ مَن ضَيَّقَ على نفْسِه في مُخالَفةِ الهوى، فإنَّه يُوَسَّعُ عليها في قَبْرِه ومَعادِه، فلمَّا كان في الصَّبرِ -الَّذي هو حَبْسُ النَّفْسِ عن الهوى- خشونةٌ وتضييقٌ، جازاهم على ذلك نُعومةَ الحريرِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٨).

(٢) يُنظر: ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٨٥).

وسَعَةَ الجَنَّةِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾ لَمَّا ذُكِر الفريقانِ الشَّاكر والكَفور في قولِه تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] أُريدَ التَّخلُّصُ إلى جزائِهما، والجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] يُثيرُ تَطلُّعَ السَّامِعِ إلى مَعرفةِ آثارِ هذَينِ الحالَينِ المُتردِّدِ حالُه بيْنَهما[٢].

- وابتُدِئَ بجَزاءِ الكافرِ؛ لأنَّ ذِكرَه أقرَبُ[٣]. أو قُدِّمَ وَعيدُ الكافِرينَ وقد تَأخَّرَ ذِكرُهم؛ لأنَّ الإنذارَ أهَمُّ وأنفَعُ، وتَصديرُ الكلامِ وخَتْمُه بذِكرِ المؤمنينَ أحسَنُ، على أنَّ في وَصْفِهم تَفصيلًا رُبَّما يُخِلُّ تَقديمُه بتَجاوُبِ أطرافِ النَّظمِ الكريمِ[٤]. أو قُدِّم؛ لأنَّ طريقَ النَّشرِ المُشَوَّشِ[٥] أفصَحُ، ولِيُعادلَ البُداءةَ

---

(١) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١).

(٥) اللَّف والنَّشْر: هو أن يُذكَرَ شَيئانِ أو أشياءُ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكَرَ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضَ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ. =

بالشَّاكرِ في أصلِ التَّقسيمِ، لِيَتعادلَ الخَوفُ والرَّجاءُ، وليكونَ الشاكرُ أوَّلًا وآخِرًا، ولأنَّ الانقيادَ بالوعيدِ أتمُّ؛ لأنَّه أدَلُّ على القدرةِ، لا سيَّما في حقِّ أهلِ الجاهليَّةِ الَّذين بعدَتْ عنهم معرفةُ التَّكاليفِ الشَّرعيَّةِ(١).

- وأُكِّدَ الخبَرُ عن الوَعيدِ بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لإدخالِ الرَّوعِ عليهم؛ لأنَّ المُتوعِّدَ إذا أكَّدَ كَلامَه بمُؤكِّدٍ فقدْ آذَنَ بأنَّه لا هَوادةَ له في وَعيدِه(٢).

- وقدَّمَ الأسهَلَ في العذابِ فالأسهَلَ؛ تَرَقِّيًا(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾

- هو استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن الاستِئنافِ الَّذي قبْلَه مِن قولِه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا

= واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلٍّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كقولِه تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارةِ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفْقَ توزيعٍ مُرتَّبٍ؛ فقولُه: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيلِ، وقولُه: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهارِ.

وغيرُ المرتَّبِ -وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوسِ»- هو: أن يأتيَ النَّشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّلٌ، وجاء بعدَها نَشْرٌ غيرُ مُرَتَّبٍ؛ فجُملةُ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى، ومتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ، ومُتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ، ومتعلِّقةٌ بها.

يُنظر في تفصيلِ أقسامِه وأمثلةٍ على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٥).

لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]؛ فإنَّ مَن عرَفَ ما أُعِدَّ للكَفورِ مِن الجزاءِ، يَتطلَّعُ إلى مَعرفةِ ما أُعِدَّ للشَّاكرِ مِن الثَّوابِ، وأُخِّرَ تَفصيلُه عن تَفصيلِ جَزاءِ الكَفورِ، مع أنَّ ﴿شَاكِرًا﴾ [الإنسان: ٣] مَذكورٌ قبْلَ ﴿كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المعكوسِ[١]؛ ليتَّسِعَ المجالُ لإطنابِ الكلامِ على صِفةِ جَزاءِ الشَّاكرينَ وما فيه مِن الخَيرِ والكرامةِ، تَقريبًا للمَوصوفِ مِن المُشاهَدةِ المحسوسةِ[٢].

- وتَأكيدُ الخبَرِ عن جَزاءِ الشاكرينَ بـ(إنَّ)؛ لدَفْعِ إنكارِ المشركين أنْ يكونَ المؤمنونَ خيرًا منهم في عالَمِ الخُلودِ، ولإفادةِ الاهتمامِ بهذه البِشارةِ بالنِّسبةِ إلى المؤمنينَ[٣].

- والأبرارُ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ ...﴾ همُ الشَّاكِرون، وإيرادُ الشَّاكرينَ بعُنوانِ البِرِّ؛ للإشعارِ بما استحَقُّوا به ما نالُوه مِن الكَرامةِ السَّنيَّةِ، وزِيادةً في الثَّناءِ عليهم[٤].

- ووَصْفُ (بَرٍّ) أقْوى مِن بارٍّ في الاتِّصافِ بالبِرِّ؛ ولذلك يُقال: اللهُ بَرٌّ، ولم يُقَلْ: اللهُ بارٌّ[٥].

- والكأسُ بالهَمزةِ: الإناءُ المَجعولُ للخمْرِ، فلا يُسمَّى كأسًا إلَّا إذا كان فيه خَمرٌ، فيَجوزُ أنْ يُرادَ هنا آنيةُ الخمْرِ؛ فتكونَ (مِن) للابتداءِ، وإفرادُ كأسٍ للنَّوعيَّةِ. ويَجوزُ أنْ تُرادَ الخمرُ، فتكونَ (مِن) للتَّبعيضِ، وعلى التَّقديرينِ

(١) تقدَّم تعريفُه قريبًا.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٠).

فكأسٌ مُرادٌ به الجنسُ، وتَنوينُه لتَعظيمِه في نَوعِه[١].

- وابتُدِئَ في وَصْفِ نَعيمِهم بنَعيمِ لذَّةِ الشُّربِ مِن خَمْرِ الجنَّةِ؛ لِما لِلَذَّةِ الخَمْرِ مِن الاشتِهارِ بيْن الناسِ، وكانوا يَتنافَسون في تَحصيلِها[٢].

- والمِزاجُ قيل: إنَّه هنا مُرادٌ به الماءُ، والإخبارُ عنه بأنَّه كافورٌ مِن قَبيلِ التَّشبيهِ البَليغِ، أي: في اللَّونِ، أو ذَكاءِ الرَّائحةِ[٣].

- وإقحامُ فِعلِ (كان) في جُملةِ الصِّفةِ بقولِه: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾؛ لإفادةِ أنَّ ذلك مِزاجُها لا يُفارِقُها؛ إذ كان مُعتادُ النَّاسِ في الدُّنيا نُدرةَ ذلك المِزاجِ؛ لغَلاءِ ثَمَنِه، وقِلَّةِ وِجْدانِه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾

- قولُه: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ وُصِلَ فِعلُ الشُّربِ بحرْفِ الابتداءِ (مِن) أوَّلًا، وبحرْفِ الإلصاقِ -الباء- آخِرًا؛ لأنَّ الكأسَ مَبدَأُ شُربِهم وأوَّلُ غايتِه، وأمَّا العينُ فبها يَمزُجونَ شَرابَهم، فكان المعْنى: يَشرَبُ عِبادُ اللهِ بها الخمْرَ، كما تقولُ: شَرِبْت الماءَ بالعسَلِ، أو ضُمِّن ﴿يَشْرَبُ﴾ معْنى (يَروى) فعُدِّيَ بالباءِ، وإذا قلتَ: «يَرْوى بها» فقد تَضَمَّنَ معنى «يَشْرَبُ» وزيادةً. وقيل: الباءُ زائدةٌ، والمعْنى يَشرَبُها. وقيل: الباءُ بمعْنى (مِن) التَّبعيضيَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٨)، ((إعراب =

- و﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ مُرادٌ بهم: الأبرارُ، وهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للتَّنويهِ بهم بإضافةِ عُبوديَّتِهم إلى اللهِ تعالَى إضافةَ تَشريفٍ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرًا﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] إلخ، وبيْنَ جُملةِ ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: ١٥] إلخ، وهذا الاعتراضُ استئنافٌ بَيانيٌّ هو جَوابٌ عن سُؤالٍ مِن شأْنِ الكلامِ السَّابقِ أنْ يُثيرَه في نفْسِ السَّامعِ المُغتبِطِ بأنْ يَنالَ مِثلَ ما نالوا مِن النَّعيمِ والكَرامةِ في الآخرةِ، فيَهتَمَّ بأنْ يَفعَلَ مِثلَ ما فَعَلوا، فذُكِرَ بَعضُ أعمالِهم الصَّالحةِ الَّتي هي مِن آثارِ الإيمانِ، مع التَّعريضِ لهم بالاستزادةِ منها في الدُّنيا[٢].

- وجِيءَ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يُوفُونَ﴾؛ للاستحضارِ، والدَّلالةِ على الاستمرارِ، وعلى تَجدُّدِ وَفائِهم بما عَقَدوا عليه ضَمائرَهم مِن الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ[٣].

- والوفاءُ بالنَّذرِ مُبالَغةٌ في وَصْفِهم بالتَّوفُّرِ على أداءِ الواجباتِ؛ لأنَّ مَن وفَّى بما أوجَبَه هو على نفْسِه لوجْهِ اللهِ، كان بما أوجَبَه اللهُ عليه أوفَى[٤].

- والتَّعريفُ في (النَّذر) تَعريفُ الجِنسِ؛ فهو يَعُمُّ كلَّ نَذْرٍ[٥].

= القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٦).

ويُنظر ما تقدَّم في مُشْكِلِ الإعرابِ (ص: ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٢، ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٣).

- وعُطِفَ على ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ قولُه: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾؛ لأنَّهم لَمَّا وُصِفوا بالعمَلِ بما يَنذِرونَه أُتبِعَ ذلك بذِكرِ حُسنِ نيَّتِهم، وتَحقُّقِ إخلاصِهم في أعمالِهم؛ لأنَّ الأعمالَ بالنِّيَّاتِ، فجَمَع لهم بهذا صِحَّةَ الاعتِقادِ، وحُسْنَ الأعمالِ[١].

- وصِيغةُ (يَخافون) دالَّةٌ على تَجدُّدِ خَوفِهم شرَّ ذلك اليومِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ وُصِفَ اليومُ بأنَّ له شرًّا مُستطيرًا وَصْفًا مُشعِرًا بعِلَّةِ خَوفِهم إيَّاهُ، فالمعْنى: أنَّهم يَخافون شرَّ ذلك اليومِ، فيَتجنَّبونَ ما يُفْضي بهم إلى شَرِّه مِن الأعمالِ المُتوعَّدِ عليها بالعِقابِ[٣].

- قولُه: ﴿مُسۡتَطِيرٗا﴾، أي: فاشيًا مُنتشِرًا بالغًا أقْصى المَبالغِ، والسِّينُ والتَّاءُ في (استطارَ) للمُبالَغةِ[٤].

- وذِكرُ فِعلِ ﴿كَانَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ الخبَرِ مِن المُخبَرِ عنه، وإلَّا فإنَّ شرَّ ذلك اليومِ ليس واقعًا في الماضي، وإنَّما يقَعُ بعْدَ مُستقبَلٍ بَعيدٍ. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ ذلك مِن التَّعبيرِ عن المُستقبَلِ بلَفظِ الماضي؛ تَنْبيهًا على تَحقُّقِ وُقوعِه[٥].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٣).

- قولُه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ خصَّصَ الإطعامَ بالذِّكرِ؛ لِما في إطعامِ المُحتاجِ مِن إيثارِه على النَّفْسِ، كما أفادَ قولُه: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[١].

- والتَّصريحُ بلَفظِ الطَّعامِ معَ أنَّه مَعلومٌ مِن فِعلِ (يُطْعِمُونَ) تَوطئةٌ؛ ليُبْنى عليه الحالُ، وهو ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؛ فإنَّه لو قِيل: (ويُطعِمون مِسكينًا ويَتيمًا وأسيرًا) لَفات ما في قولِه: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ مِن معْنى إيثارِ المَحاويجِ على النَّفْسِ، على أنَّ ذِكرَ الطَّعامِ بعْدَ (يُطْعِمُونَ) يُفيدُ تَأكيدًا، مع استِحضارِ هَيئةِ الإطعامِ، حتَّى كأنَّ السَّامعَ يُشاهِدُ الهَيئةَ[٢].

- قولُه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ خصَّ هؤلاء الثَّلاثةَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ المِسكينَ عاجزٌ عن اكتِسابِ قُوتِه بنفْسِه، واليتيمَ مات أبوه، وبقِيَ عاجزًا عن الكسْبِ لصِغَرِه، والأسيرَ لا يَملِكُ لنفْسِه ضَرًّا ولا نَفْعًا ولا نَصرًا ولا حِيلةً[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: يَقولون لهم، أي: للَّذين يُطعِمونهم، فهو في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ (يُطْعِمُونَ)، وجُملةُ ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ مُبيِّنةٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾[٤]. أو جُملةُ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ تَعليلٌ لبَيانِ سَببِ الإطعامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٧).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٣٣).

- والقصْرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) قصْرُ قلْبٍ[١] مَبنيٌّ على تَنزيلِ المُطعَمِينَ مَنزِلةَ مَن يظُنُّ أنَّ مَن أطعَمَهم يَمُنُّ عليهم، ويُريدُ منهم الجزاءَ والشُّكرَ، بِناءً على المُتعارَفِ عندَهم في الجاهليَّةِ[٢].

- قولُه: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ تقريرٌ وتأكيدٌ لِما قبْلَه[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ واقعٌ مَوقعَ التَّعليلِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[٤] [الإنسان: ٩]. وهو حالٌ مِن ضَميرِ (يَخافُونَ) [الإنسان: ٧]، أي: يَخافون ذلك اليومَ في نُفوسِهم قائلِينَ: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾، فحُكِيَ قولُهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، وقولُهم: ﴿إِنَّا نَخَافُ ...﴾ إلخ، على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المعكوسِ[٥]، والدَّاعي إلى عكْسِ النَّشرِ مُراعاةُ حُسنِ تَنسيقِ النَّظمِ؛ ليكونَ الانتقالُ مِن ذِكرِ الإطعامِ إلى ما يَقولونَه للمُطعَمينَ، والانتقالُ مِن ذِكرِ خَوفِ يومِ الحِسابِ إلى بِشارتِهم بوِقايةِ اللهِ إيَّاهم مِن شَرِّ ذلك اليومِ وما يَلْقَونه فيه مِن النَّضرةِ والسُّرورِ والنَّعيمِ[٦].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۞ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٧).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٣٤).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٤٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٦).

- قولُه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ إلى ﴿قَطْرِيرًا﴾ [الإنسان: ٧- ١٠]، وفي هذا التَّفريعِ تَلوينٌ للحديثِ عن جَزاءِ الأبرارِ وأهلِ الشُّكورِ، وهذا بَرزخٌ للتَّخلُّصِ إلى عَودِ الكلامِ على حُسنِ جَزائِهم أنَّ اللهَ وَقاهُم شَرَّ ذلك اليومِ، وهو الشَّرُّ المُستطيرُ المذكورُ آنِفًا؛ وَقاهَم إيَّاهُ جَزاءً على خَوفِهم إيَّاهُ، وأنَّه لَقَّاهم نَضرةً وسُرورًا جَزاءً على ما فَعَلوا مِن خَيرٍ. وأُدمِجَ في ذلك قولُه: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ الجامعُ لأحوالِ التَّقوى والعملِ الصَّالحِ كلِّه؛ لأنَّ جَميعَه لا يَخْلو عن تَحمُّلِ النَّفْسِ لتَرْكِ مَحبوبٍ، أو فِعلِ ما فيه كُلفةٌ، ومِن ذلك إطعامُ الطَّعامِ على حُبِّه[١].

- والفاءُ في ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ عاطفةٌ لبَيانِ السَّببِ، أي: فبِسَبَبِ خَوفِهم وَقاهُم اللهُ، أي: دفَعَ عنهم شرَّ ذلك اليومِ ووَطْأَته[٢].

- قوله: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ لعَلَّ اللهَ إنَّما خَصَّ الحريرَ؛ لأنَّه لِباسُهم الظَّاهِرُ الدَّالُّ على حالِ صاحِبِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٧، ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

الآيات (١٢-١٨)

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾: جمعُ أريكةٍ، وهي السَّريرُ في الحِجَالِ، وتسميتُها بذلك إمَّا لِكَونِها في الأرضِ مُتَّخَذةً مِن أراكٍ، وهو شجرةٌ، أو لِكَونِها مكانًا للإقامةِ، مِن قَولِهم: أَرَكَ بالمكان أُرُوكًا، وأصلُ الأُرُوكِ: الإقامةُ على رعْيِ الأَراكِ، ثمَّ تُجُوِّزَ به في غيرِه مِن الإقاماتِ، و(أرك) أصْلانِ: أحدُهما شَجَرٌ، والآخَرُ الإقامةُ[1].

﴿زَمْهَرِيرًا﴾: أي: بَردًا شديدًا[2].

﴿وَدَانِيَةً﴾: أي: قَريبةً، وأصل الدُّنُوِّ: القُرْبُ بالذَّاتِ أو بالحُكْمِ، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمَنزِلةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).
قال ابن عاشور: (الأريكةُ: سريرٌ عليه وِسادةٌ، معها سَتْرٌ وهو حَجَلَتُه، والحَجَلةُ: ظُلَّةٌ تُنصَبُ فوقَ السَّريرِ لِتَقيَ الحَرَّ والشَّمسَ، ولا يُسَمَّى السَّريرُ أريكةً إلَّا إذا كان معه حَجَلةٌ. وقيل: كُلُّ ما يُتوسَّدُ ويُفتَرَشُ مِمَّا له حَشوٌ: يُسَمَّى أريكةً، وإنْ لم تكُنْ له حَجَلةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

﴿قُطُوفُهَا﴾: أي: ثِمارُها، جمعُ قِطْفٍ، وهو ما قُطِف مِن ثِمارِها، وقيل: القِطفُ: هو العُنقودُ مِن النَّخلِ والعنبِ، وأصلُ (قطف): يدُلُّ على أخْذِ ثَمَرةٍ مِن شَجَرةٍ(١).

﴿قَوَارِيرَاْ﴾: جَمعُ قارورةٍ، وهي: ما قَرَّ فيه الشَّرابُ ونَحوُه مِن كُلِّ إناءٍ رقيقٍ صافٍ كالزُّجاجِ، وأصلُ (قرر) هنا: يدُلُّ على تمكُّنٍ(٢).

﴿قَدَّرُوهَا﴾: أي: أتوا بها على قَدرِ رِيِّهم، بغيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنهِه ونهايتِه(٣).

﴿سَلْسَبِيلًا﴾: السَّلْسَبيلُ: الشَّرابُ السَّهلُ اللَّذيذُ، يقالُ: هذا شرابٌ سَلِسٌ وسَلْسَالٌ وسَلْسَلٌ وسَلْسَبِيلٌ بمعنًى، أي: طيِّبُ الطَّعمِ، لذيذُه، سهلُ المساغِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٨)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢١٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٧-٥٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٥٤٩).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢١٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦١-٥٦٤)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٥٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٨، ٤١٩)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٢)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٧٠).

قال ابن عاشور: (قيل: مشتقٌّ مِن السَّلاسةِ، وهي السهولةُ واللينُ، فيُقالُ: ماءٌ سلسلٌ، أي: عذبٌ باردٌ، قيل: زِيدَتْ فيه الباءُ والياءُ، أي: زيدتا في أصلِ الوضعِ على غيرِ قياسٍ... ومعنى ﴿تُسَمَّىٰ﴾ على هذا الوجهِ، أنها تُوصَفُ بهذا الوصفِ حتَّى صار كالعَلَمِ لها... ومِن المفسِّرينَ مَن جعَل التَّسميةَ على ظاهرِها، وجعَل ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ علمًا على هذه العينِ، وهو أنسبُ بقولِه تعالى: ﴿تُسَمَّىٰ﴾). =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مفصِّلًا نعيمَ أهلِ الجنَّةِ: مُتَّكِئينَ في راحةٍ ورَفاهيَةٍ على السُّررِ المُغَطَّاةِ بقُبَّةٍ مِن الثِّيابِ الفاخِرةِ، لا يَرونَ في الجنَّةِ شَمْسًا ولا بَرْدًا شَديدًا، وقَريبةً منهم ظِلالُ أشجارِ الجَنَّةِ، وسُهِّلَ لهم قَطْفُ ثمارِها تذليلًا، ويُطافُ عليهم بآنيةٍ مِن فِضَّةٍ، وأكوابٍ صافيةٍ شفَّافةٍ كالزُّجاجِ، وتلك الأكوابُ مِن فِضَّةٍ، وقد قَدَّروا الأكوابَ على قَدْرِ كِفايتِهم، فلا تَزيدُ ولا تَنْقُصُ عن ذلك، ويُسقَون فيها خَمْرًا ممزوجةً بزَنجبيلٍ، الزَّنجَبيلُ مِن عَينٍ تُسمَّى سَلْسَبيلًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى طعامَهم ولِباسَهم؛ وصَفَ مَساكِنَهم[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه كفاهم المَخُوفَ، وحَباهم الجنَّةَ؛ أتْبَعَه حالَهم فيها وحالَها، فقال دالًّا على راحتِهم الدَّائِمةِ[2]:

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾.

=((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٧).

وقال أبو حيان: (والظَّاهرُ أنَّ هذه العينَ ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ بمعنى تُوصَفُ بأنَّها سلسلةٌ في الاتساعِ، سهلةٌ في المذاقِ، ولا يُحمَلُ سلسبيل على أنَّه اسمٌ حقيقةً؛ لأنَّه إذ ذاك كان ممنوعَ الصَّرفِ؛ للتأنيثِ والعلميَّةِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢١٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٢).

أي: مُتَّكِئينَ في راحةٍ وطُمَأنينةٍ ورَفاهيَةٍ على السُّررِ الَّتي أُرخِيَ عليها ما يَستُرُها ويُزَيِّنُها، فتَكونُ مُغَطَّاةً بقُبَّةٍ مِن الثِّيابِ الفاخِرةِ(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢، ٢٣].

﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾.

أي: لا يَرى الأبرارُ في الجنَّةِ شَمْسًا فيُؤذيَهم حَرُّها، ولا بَرْدًا شَديدًا(٢).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((اشتَكَت النَّارُ إلى رَبِّها، فقالت: يا رَبِّ، أكَلَ بَعْضي بَعْضًا، فأَذِنَ لها بنَفَسَينِ؛ نَفَسٌ في الشِّتاءِ، ونَفَسٌ في الصَّيفِ، فهو أشَدُّ ما تَجِدونَ مِنَ الحَرِّ، وأشَدُّ ما تَجِدونَ مِنَ الزَّمْهَريرِ))(٣).

﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤﴾.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾.

أي: وقَريبةً منهم ظِلالُ أشجارِ الجَنَّةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).
قال ابن عاشور: (الاتِّكاءُ: جِلسةٌ بيْن الجُلوسِ والاضطجاعِ، يَستَنِدُ فيها الجالِسُ على مَرفِقِه وجَنْبِه، ويَمُدُّ رِجْليه، وهي جِلسةُ ارتياحٍ، وكانت مِن شِعارِ الملوكِ وأهلِ البَذخِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥١، ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٢٦٠)، ومسلمٌ (٦١٧) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١).
قال القرطبيُّ: (قولُه تعالَى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾ أيْ: ظِلُّ الأشْجارِ في الجنَّةِ قَريبةٌ مِن الأبرارِ، =

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.

أي: وسُهِّلَ لهم قَطْفُ ثمارِها كيفَ شاؤُوا قُعودًا وقِيامًا ومُتَّكِئينَ[(١)].

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَفَ طعامَهم ولِباسَهم ومَسْكَنَهم، وصَفَ بعد ذلك شَرابَهم، وقدَّمَ عليه وَصْفَ تلك الأواني الَّتي فيها يَشرَبونَ[(٢)].

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾﴾.

أي: ويُطافُ على هؤلاءِ الأبرارِ بآنيةٍ مِن فِضَّةٍ، ويُطافُ عليهم بأكوابٍ عَظيمةٍ

= فهي مُظِلَّةٌ عليهم؛ زيادةً في نَعيمِهم، وإنْ كان لا شمسَ ولا قمرَ ثَمَّ، كما أنَّ أَمْشاطَهم الذَّهَبُ والفِضَّةُ، وإنْ كان لا وَسَخَ ولا شَعَثَ ثَمَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٨).

وقال الواحديُّ: (﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ قال مقاتلٌ: يعني: شجَرها قَرُبَتْ منهم). ((الوسيط)) (٤/ ٤٠٣). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٢٧).

قال ابن كثير: (﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ أي: قريبةً إليهم أغصانُها). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٠).

ويُنظر ما سيأتي (ص: ٣٦١، و٣٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٠).

قال ابنُ جرير: (عن مجاهد: قَولُه: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ قال: إذا قام ارتفَعَت بقَدْرِه، وإن قَعَد تذَلَّت حتَّى يَنالَها، وإن اضطَجَع تذَلَّت حتَّى ينالَها، فذلك تَذليلُها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٤).

وقال السعدي: (أي: قُرِّبَت ثَمَراتُها مِن مُريدِها تقريبًا، ينالُها وهو قائِمٌ أو قاعِدٌ أو مُضْطَجِعٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٠).

لا آذانَ لها ولا خَراطيمَ، صافيةٍ شفَّافةٍ كالزُّجاجِ[(١)].

﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾.

أي: تلك الأكوابُ الَّتي في صَفاءِ الزُّجاجِ وشَفافيَتِه هي مِن فِضَّةٍ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٤-٥٥٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٣).

قيل: الضَّميرُ في ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَاْ﴾ يعودُ إلى الأواني والأكوابِ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٢٦).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى الأكوابِ فقط. وممَّن ذهب إليه: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والبِقاعي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٧٦).

قال ابنُ جرير: (قَولُه: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَاْ﴾ يقولُ: كانت هذه الأواني والأكوابُ قواريرَ، فحَوَّلها اللهُ فِضَّةً. وقيل: إنَّما قيل: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾؛ لِيَدُلَّ بذلك على أنَّ أرضَ الجنَّةِ فِضَّةٌ؛ لأنَّ كُلَّ آنيةٍ تُتَّخَذُ فإنَّما تُتَّخَذُ مِن تُربةِ الأرضِ الَّتي فيها، فدَلَّ جَلَّ ثناؤه بوَصْفِه الآنيةَ الَّتي يُطافُ بها على أهلِ الجنَّةِ أنَّها مِن فِضَّةٍ؛ لِيُعلِمَ عِبادَه أنَّ تُربةَ أرضِ الجنَّةِ فِضَّةٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٦).

وقال البِقاعي: (لَمَّا جَمَع الآنيةَ خَصَّ فقال: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ جمعُ كُوبٍ، وهو كُوزٌ لا عُروةَ له، فيَسهُلُ الشُّربُ منه مِن كُلِّ مَوضِعٍ، فلا يحتاجُ عندَ التَّناوُلِ إلى إدارةٍ. ﴿كَانَتْ﴾ أي: تلك الأكوابُ كَونًا هو مِن جِبِلَّتِها ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ أي: كانت بصِفةِ القواريرِ مِنَ الصَّفاءِ والرِّقَّةِ والشُّفوفِ، والإشراقِ والزَّهارةِ، جمعُ قارورةٍ، وهي: ما قَرَّ فيه الشَّرابُ ونَحْوُه مِن كُلِّ إناءٍ رقيقٍ صافٍ. وقيل: هو خاصٌّ بالزُّجاجِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٦، ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قال ابنُ القيِّم: (القواريرُ هي الزُّجاجُ، فأخبَرَ سُبحانَه وتعالى عن مادَّةِ تلك الآنيةِ أنَّها مِن الفِضَّةِ، =

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾.

أي: قَدَّروا[١] الأكوابَ على قَدْرِ كِفايتِهم، فلا تَزيدُ ولا تَنْقُصُ عن ذلك[٢]!

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وصَف أوانيَ مَشروبِهم؛ ذكَرَ بعدَ ذلك وَصْفَ مَشروبِهم[٣]، فأتْبَعَ وَصْفَ الآنيةِ ومحاسِنِها، بوَصفِ الشَّرابِ الَّذي يحويه وطِيبِه[٤].

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾.

= وأنَّها بصَفاءِ الزُّجاجِ وشَفافيتِه، وهذا مِن أحسَنِ الأشياءِ وأعجَبِها، وقَطَع سُبحانَه توَهُّمَ كَونِ تلك القواريرِ مِن زُجاجٍ، فقال: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾، قال مجاهِدٌ، وقَتادةُ، ومُقاتِلٌ، والكَلْبيُّ، والشَّعْبيُّ: قواريرُ الجنَّةِ مِن الفِضَّةِ، فاجتَمَع لها بياضُ الفِضَّةِ، وصَفاءُ القواريرِ. ((حادي الأرواح)) (ص: ١٩٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٣).

قال السعدي: (وهذا مِن أعجَبِ الأشياءِ؛ أن تكونَ الفِضَّةُ الكثيفةُ مِن صَفاءِ جَوهرِها وطِيبِ مَعدِنِها على صفاءِ القواريرِ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

وقال ابنُ كثير: (وهذا ممَّا لا نظيرَ له في الدُّنيا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١).

(١) قال ابنُ عطية: (قولُه تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ الضَّميرُ للملائكةِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ للطَّائِفينَ، ويحتَمِلُ أن يكون للمُنعَّمِينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٢). ويُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٤، ١٩٥).

وقال السعدي: (ويحتَمِلُ أنَّ المرادَ: قَدَّرَها أهلُ الجنَّةِ بنُفوسِهم بمِقدارٍ يُوافِقُ لَذَّاتِهم، فأتَتْهم على ما قَدَّروا في خواطِرِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٧، ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٤).

أي: ويُسقَى الأبرارُ فيها[١] كأسَ خَمْرٍ ممزوجةٍ بزَنجبيلٍ[٢]!

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

أي: الزَّنجَبيلُ مِن عَينٍ تُسمَّى سَلْسَبيلًا[٣].

---

(١) قال البِقاعي: (﴿فِيهَا﴾ أي: الجنَّةِ، أو تلك الأكوابِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٤٦).
وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الجنَّةِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والنسفي، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).
وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الأكوابِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).
قال ابنُ القيِّم: (أخبَرَ سُبحانَه عن مِزاجِ شَرابِهم بشَيئَينِ: بالكافُورِ في أوَّلِ السُّورةِ، والزَّنجبيلِ في آخرِها؛ فإنَّ في الكافورِ مِنَ البَرْدِ وطِيبِ الرَّائحةِ، وفي الزَّنجبيلِ مِنَ الحَرارةِ وطِيبِ الرَّائِحةِ: ما يُحدِثُ لهم باجتماعِ الشَّرابَينِ حالةً أخرى أكمَلَ وأطيَبَ وألَذَّ مِن كُلٍّ منهما بانفرادِه... وما ألطَفَ مَوقعَ ذِكرِ الكافورِ في أوَّلِ السُّورةِ، والزَّنجبيلِ في آخِرِها! فإنَّ شَرابَهم مُزِجَ أوَّلًا بالكافورِ، وفيه مِنَ البَردِ ما يجيءُ الزَّنجبيلُ بَعْدَه فيَعدِلُه، والظَّاهِرُ أنَّ الكأسَ الثَّانيةَ غيرُ الأُولى، وأنَّهما نَوعانِ لَذيذانِ مِنَ الشَّرابِ، أحَدُهما مُزِجَ بكافورٍ، والثَّاني مُزِجَ بزَنجبيلٍ). ((حادي الأرواح)) (ص: ١٨٥).
وقال ابنُ كثير: (فتارةً يُمزَجُ لهم الشَّرابُ بالكافُورِ، وهو باردٌ، وتارةً بالزَّنجبيلِ، وهو حارٌّ؛ لِيَعتَدِلَ الأمرُ، وهؤلاء يُمزَجُ لهم مِن هذا تارةً، ومِن هذا تارةً، وأمَّا المقرَّبون فإنَّهم يَشرَبونَ مِن كلٍّ منهما صِرْفًا، كما قاله قَتادةُ وغيرُ واحدٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٥).
قال ابنُ كثير: (قال مجاهِدٌ: سُمِّيَت بذلك؛ لسَلاسةِ سَيْلِها، وحِدَّةِ جَريِها. وقال قَتادةُ: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾: عَينٌ سَلِسةٌ مُستَقِيدٌ ماؤُها. وحكى ابنُ جريرٍ عن بعضِهم أنَّها سُمِّيَت بذلك لسَلاستِها في الحَلْقِ، واختار هو أنَّها تعُمُّ ذلك كُلَّه، وهو كما قال). ((تفسير ابن كثير)) =

عن ثَوْبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سألَ حَبرٌ مِن أحبارِ اليَهودِ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن تُحفةِ[١] أهلِ الجنَّةِ حينَ يَدْخُلونَها؟ قال: زيادةُ كَبِدِ النُّونِ، قال: فما غِذاؤُهم على إثْرِها؟ قال: يُنحَرُ لهم ثَورُ الجنَّةِ الَّذي كان يأكُلُ مِن أطرافِها، قال: فما شَرابُهم عليه؟ قال: مِن عَينٍ فيها تُسَمَّى سَلْسَبيلًا. قال: صَدَقْتَ))[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ توجيهٌ إلى حُسْنِ الصُّنعِ في التَّسويةِ في التَّقديرِ والمقاساتِ[٣].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ في قَولِه: ﴿ظِلَالُهَا﴾ سؤالٌ: كيف قال سُبحانَه في صِفةِ أهلِ الجنَّةِ ذلك، والظِّلُّ إنَّما يكونُ لِما يقَعُ عليه الشَّمسُ، ولا شَمسَ في الجنَّةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾؟!

الجوابُ عن ذلك مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ الظِّلالَ في الجنَّةِ عبارةٌ عن تكاثُفِ الأشجارِ وجَودةِ المباني، وإلَّا فلا شَمسَ تُؤذي هنالك حتَّى يكونَ ظِلٌّ يُجيرُ مِن حَرِّها[٤].

الثَّاني: أنَّ المرادَ بالظِّلالِ نَعيمُها وراحتُها، ومنه قَولُهم: عَيشٌ ظَليلٌ[٥].

= (٨/ ٢٩٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧١).

(١) التُّحفةُ: ما يُتحَفُ به الإنسانُ مِن الفواكِهِ والطُّرَفِ؛ مُحاسَنةً ومُلاطَفةً. يُنظر: ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) لأبي العباس القرطبي (١/ ٥٧٤).

(٢) رواه مسلم (٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢١).

(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٢٦).

الثَّالثُ: قيل: ظِلُّ أشجارِ الجنَّةِ مِن نُورِ قناديلِ العَرشِ -أو مِن نُورِ العَرشِ-؛ لِئلَّا تَبهَرَ أبصارَهم؛ فإنَّه أعظَمُ مِن نورِ الشَّمسِ(١)، وقيل غيرُ ذلك(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١] سؤالٌ: أنَّه لِمَ اقتصَرَ مِن آنيتِهم وحِلْيَتِهم على الفِضَّةِ دونَ الذَّهَبِ، ومعلومٌ أنَّ الجِنَانَ جَنَّتانِ مِن فِضَّةٍ آنيتُهما وحِلْيَتُهما وما فيهما، وجَنَّتانِ مِن ذَهَبٍ آنيتُهما وحِلْيَتُهما وما فيهما(٣)؟

الجوابُ: أنَّ سياقَ هذه الآياتِ إنَّما هو في وصفِ الأبرارِ ونعيمِهم مُفَصَّلًا، دونَ تفصيلِ جزاءِ المقرَّبينَ؛ فإنَّه سُبحانَه إنَّما أشار إليه إشارةً تُنَبِّهُ على ما سَكَتَ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٤).

(٢) قال الرازي: (الظِّلُّ إنَّما يوجَدُ حيثُ توجَدُ الشَّمسُ، فإن كان لا شمسَ في الجنَّةِ فكيف يحصُلُ الظِّلُّ هناك؟

والجوابُ: أنَّ المرادَ أنَّ أشجارَ الجنَّةِ تكونُ بحيثُ لو كان هناك شمسٌ لَكانت تلك الأشجارُ مُظَلِّلةً منها). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٠).

وقال ابن القيِّم: (وقد أخبَرَ سُبحانَه أنَّ في الجنَّةِ ظِلالًا، والظِّلالُ لا بُدَّ أن تَفيءَ ممَّا يُقابِلُها، فقال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦]، وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١]، وقال: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]). ثمَّ ذكَر ما خلاصتُه أنَّ هذه الظِّلالَ وغيرَها مما في الجنَّة -كالطَّعامِ والحلوَى- تَستدعي أسبابًا تتِمُّ بها، واللهُ سُبحانَه خالقُ السَّببِ والمُسَبَّبِ، وهو رَبُّ كلِّ شيءٍ ومَليكُه، لا إلهَ إلَّا هو، وقد جعَل سُبحانَه لأهلِ الجنَّةِ أسبابًا، وهو الخالقُ بالأسبابِ والحِكَمِ ما يَخلُقُه في الدُّنيا والآخرةِ، والأسبابُ مظهرُ أفعالِه وحِكمتِه، ولكنَّها تختلِفُ، ولهذا يقعُ التَّعجُّبُ مِن العبدِ لورودِ أفعالِه سبحانَه على أسبابٍ غيرِ الأسبابِ المعهودةِ المألوفةِ، ولَيست قُدرتُه سُبحانَه وتعالى مُقصِّرةً عن أسبابٍ أُخَرَ ومُسَبَّباتٍ يُنشئُها منها، كما لا تَقصُرُ قُدرتُه في هذا العالَمِ المشهودِ عن أسبابِه ومُسَبَّباتِه، وليس هذا بأهْوَنَ عليه مِن ذلك. يُنظر: ((حادي الأرواح)) (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

عنه، وهو أنَّ شَرابَ الأبرارِ يُمْزَجُ مِن شَرابِهم، فالسُّورةُ مَسُوقَةٌ بصفةِ الأبرارِ وجزائِهم على التَّفصيلِ؛ وذلك -واللهُ أعلَمُ- لأنَّهم أَعَمُّ مِن المقرَّبينَ وأكثرُ منهم؛ ولهذا يُخبِرُ سُبحانَه عنهم بأنَّهم ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩-٤٠]، وعنِ المقرَّبين السَّابقينَ بأنَّهم ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[الواقعة: ١٣-١٤]، وأيضًا فإنَّ في ذِكْرِ جزاءِ الأبرارِ تنبيهًا على أنَّ جزاءَ المقرَّبينَ ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ[١]!

وقيل: لا مُنافاةَ بيْنَ الأمْرَينِ؛ فتارةً يُسقَوْن بهذا، وتارةً بذاك[٢]. فوُصِفَت الآنيةُ هنا بأنَّها مِن فِضَّةٍ، أي: تَأتِيهم آنيتُهم مِن فِضَّةٍ في بعضِ الأوقاتِ، ومِن ذَهَبٍ في أوقاتٍ أُخرى، كما دلَّ عليه قولُه في سُورةِ (الزُّخرفِ): ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١]؛ لأنَّ للذَّهبِ حُسْنًا، وللفِضَّةِ حُسْنًا، فجُعِلَت آنيتُهم مِن المَعدِنَينِ النَّفيسَينِ؛ لئلَّا يَفوتَهم ما في كلٍّ مِن الحُسنِ والجَمالِ، أو يُطافُ عليهم بآنيةٍ مِن فِضَّةٍ وآنيةٍ مِن ذهَبٍ مُتنوِّعةٍ مُتزاوِجةٍ؛ لأنَّ ذلك أبهَجُ مَنظَرًا، مِثلَ ما قال مرَّةً: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾[الإنسان: ٢١]، ومرَّةً ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١]؛ وذلك لإدخالِ المَسَرَّةِ على أنفُسِهم بحُسنِ المَناظِرِ؛ فإنَّهم كانوا يَتمَنَّونَها في الدُّنيا لعِزَّةِ وُجودِها أو وُجودِ الكثيرِ منها[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ * قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ فيه سؤالٌ: كيف تكونُ هذه الأكوابُ مِن فِضَّةٍ، ومِن قواريرَ؟

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٢).

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ أصلَ القواريرِ في الدُّنيا الرَّملُ، وأصلُ قواريرِ الجنَّةِ هو فِضَّةُ الجنَّةِ، فكما أنَّ اللهَ تعالى قادرٌ على أن يَقلِبَ الرَّملَ الكثيفَ زجاجةً صافيةً، فكذلك هو قادرٌ على أن يَقلِبَ فِضَّةَ الجنَّةِ قارورةً لطيفةً، فالغَرَضُ مِن ذِكرِ هذه الآيةِ التَّنبيهُ على أنَّ نِسبةَ قارورةِ الجنَّةِ إلى قارورةِ الدُّنيا كنِسبةِ فِضَّةِ الجنَّةِ إلى رملِ الدُّنيا، فكما أنَّه لا نِسبةَ بيْن هذَينِ الأصلَينِ، فكذا بيْن القارورتَينِ في الصَّفاءِ واللَّطافةِ.

الوجهُ الثَّاني: قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: (ليس في الدُّنيا شيءٌ ممَّا في الجنَّةِ إلَّا الأسماءُ)[1]، وإذا كان كذلك فكمالُ الفِضَّةِ في بقائِها ونقائِها وشَرَفِها، إلَّا أنَّه كثيفُ الجوهَرِ، وكمالُ القارورةِ في شفافيتِها وصفائِها، إلَّا أنَّه سريعُ الانكسارِ؛ فآنيةُ الجنَّةِ آنيةٌ يَحصُلُ فيها مِن الفِضَّةِ بقاؤُها ونقاؤُها وشَرَفُ جوهرِها، ومِن القارورةِ صفاؤُها وشفافيتُها.

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّها تكونُ فِضَّةً، ولكِنْ لها صفاءُ القارورةِ، ولا يُستبعَدُ مِن قدرةِ اللهِ تعالى الجَمعُ بيْن هذينِ الوصفَينِ.

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّ المرادَ بالقواريرِ في الآيةِ ليس هو الزُّجاجَ؛ فإنَّ العَرَبَ تسَمِّي ما استدار مِن الأواني الَّتي تُجعَلُ فيها الأشربةُ ورَقَّ وصَفَا: (قارورةً)، فمعنى الآيةِ: وأكوابٍ مِن فِضَّةٍ، مُستديرةٍ صافيةٍ رقيقةٍ[2].

---

(١) أخرجه هناد في ((الزهد)) (٨) وابن جرير في ((تفسيره)) (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٢٦٠) وأبو نعيم في ((صفة الجنة)) (١٢٤) والبيهقي في ((البعث والنشور)) (٣٣٢).
قال ابن تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ١١٥): (ثابت)، وصححه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣٧٦٩)، وقال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٤٠٨): (إسناده جيد).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ أَخْبَرَ سُبحانَه عن العَينِ الَّتي يَشْرَبُ بها المقرَّبون صِرْفًا أنَّ شَرابَ الأبرارِ يُمْزَجُ منها؛ لأنَّ أولئك أَخْلَصوا الأعمالَ كلَّها للهِ، فأُخْلِصَ شَرابُهم، وهؤلاء مَزَجُوا، فمُزِجَ شَرابُهم[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ المرادُ بالشَّمسِ حَرُّ أشعَّتِها؛ فنَفْيُ رُؤيةِ الشَّمسِ في قولِه: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ كِنايةٌ عن نفْيِ وُجودِ الشَّمسِ الَّذي يَلزَمُه انتفاءُ حَرِّ شُعاعِها، فهو مِن الكِنايةِ التَّلويحيَّة[٢]. أو المرادُ بالشَّمسِ حَقيقتُها، وبالزَّمهريرِ البَردُ؛ ففي الآيةِ احتِباكٌ[٣]، والتَّقديرُ: لا يَرَون فيها شَمسًا ولا قمَرًا، ولا حَرًّا ولا زَمهريرًا، والمعْنى أنَّ نُورَها مُعتدِلٌ،

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٨٤).

(٢) تَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازم) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء؛ فالتَّعريضُ اصطِلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ. والتَّلويحُ اصطِلاحًا: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تَعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزومِ بواسِطةِ لَوازِمَ؛ نحو قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْعٍ: (زَوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي على كثرةِ الأكَلةِ، وهي على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقَل الفِكرُ إلى جملةِ وسائطَ. والرَّمزُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ خفاءٍ في اللُّزومِ بلا تعريضٍ نحو: فلانٌ عريضُ القفا، أو عريضُ الوسادةِ؛ كناية عن بلادتِه وبلاهتِه. والإيماءُ أو الإشارةُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ وضوحِ اللُّزومِ، بلا تعريضٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥ - ١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦ - ٢٩٠).

(٣) الاحْتِبَاك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن أَلْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

وهواءَها مُعتدِلٌ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾

- قولُه: ﴿وَدَانِيَةً﴾ عطْفٌ على ما قبْلَها، حالٌ مِثلُها، ودَخَلَت الواوُ للدَّلالةِ على أنَّ الأمْرَينِ مُجتمِعانِ لهم، كأنَّه قِيل: وجَزاهم جَنَّةً جامِعينَ فيها بيْنَ البُعدِ عن الحرِّ والقَرِّ ودُنوِّ الظِّلالِ عليهم. أو صِفةٌ لمَحذوفٍ مَعطوفٍ على ﴿جَنَّةً﴾، أي: وجَنَّةً أُخرى دانِيةً عليهم ظِلالُها، على أنَّهم وُعِدوا جَنَّتينِ، كما في قولِه تعالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[٢] [الرحمن: ٤٦].

- وإنَّما قِيل: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ﴾، ولم يُقَلْ: منْهم؛ لأنَّ الظِّلالَ عاليةٌ عليهم[٣].

- ودُنوُّ الظِّلالِ قُرْبُها مِن أهْلِ الجنَّةِ، وإذْ لم يُعهَدْ وَصْفُ الظِّلِّ بالقُربِ فقد قيل: يَظهَرُ أنَّ دُنوَّ الظِّلالِ كِنايةٌ عن تَدلِّي الأدواحِ[٤] الَّتي مِن شَأنِها أنَّ تُظلِّلَ الجَنَّاتِ في مُعتادِ الدُّنيا، ولكنَّ الجنَّةَ لا شَمسَ فيها فيُستظَلَّ مِن حَرِّها؛ فتَعيَّنَ أنَّ تَركيبَ (دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا) مَثَلٌ يُطلَقُ على تَدلِّي أفنانِ الجنَّةِ؛ لأنَّ الظِّلَّ المُظلِّلَ للشَّخصِ لا يَتفاوَتُ بدُنوٍّ ولا بُعدٍ[٥].

- وجُملةُ ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي: سُخِّرَت لهم قُطوفُ تلك الأدْواحِ وسُهِّلَت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٩، ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٩٦).

(٤) الدَّوْحَة: الشَّجَرةُ العظيمةُ ذاتُ الفُروعِ المُمتدَّةِ مِن أيِّ الشَّجرِ كانت، جمعُها دَوْحٌ، وأدْواحٌ جمْعُ الجمعِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٦/ ٣٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٠). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٥٧، و٣٦٦).

لهم بحيثُ لا الْتواءَ فيها ولا صَلابةَ تُتعِبُ قاطِفَها، ولا يَتمطَّونَ إليها، بلْ يَجْتنُونَها بأسهلِ تَناوُلٍ، فعُبِّرَ عن التَّيسيرِ بالتَّذليلِ. و﴿تَذْلِيلًا﴾ مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لذلك، أي: تَذليلًا شَديدًا مُنتهِيًا[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾

- قولُه: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ...﴾ [الإنسان: ٥] إلخ، كما اقتضاهُ التَّناسُبُ بيْن جُملةِ ﴿يَشْرَبُونَ﴾، وجُملةِ (يُطَافُ عَلَيْهِمْ) في الفِعليَّةِ والمُضارعيَّةِ، وذلك مِن أحسَنِ أحوالِ الوصْلِ، عاد الكلامُ إلى صِفةِ مَجالسِ شَرابِهم. وهذه الجُملةُ بَيانٌ لِما أُجمِلَ في جُملةِ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ [الإنسان: ٥]، وإنَّما عُطِفَت عليها؛ لِما فيها مِن مُغايَرةٍ مع الجُملةِ المَعطوفِ عليها مِن صِفةِ آنيةِ الشَّرابِ، فلهذه المُناسَبةِ أُعقِبَ ذِكرُ مَجالسِ أهْلِ الجنَّةِ ومُتَّكآتِهم، بذِكرِ ما يَستتبِعُه ممَّا تَعارَفَه أهلُ الدُّنيا مِن أحوالِ أهلِ البَذَخِ والتَّرَفِ واللَّذَّاتِ بشُرْبِ الخمْرِ؛ إذ يُديرُ عليهم آنيةَ الخمْرِ سُقاةٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَيُطَافُ﴾ لَمَّا كان الدَّوَرانُ بالآنيةِ متجدِّدًا، عُبِّر فيه بالمضارعِ[٣]. ﴿وَيُطَافُ﴾ أي: يَطوفُ سُقاةٌ، ذَكَرَه بالبِناءِ للمَفعولِ؛ لأنَّه لَمَّا كان الفاعلُ مَعروفًا لم تكُنْ حاجةٌ إلى ذِكرِ فاعلِ الطَّوافِ[٤]. أو قالَه بالبِناءِ للمفعولِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩١).

وبعْدُ قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: ١٩] بالبناءِ للفاعِلِ؛ لأنَّ المقصودَ في الأوَّلِ ما يُطافُ به لا الطَّائفونَ، بقَرينةِ قولِه: ﴿بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾، والمقصودَ في الثَّاني الطَّائفونَ، فذُكِرَ في كلٍّ منْهما ما يُناسِبُه[١].

- وعطْفُ (أكوابٍ) على (آنيةٍ) مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ[٢].

- قيل: أُوثِرَ ذِكرُ آنيةِ الفِضَّةِ هنا؛ لمُناسَبةِ تَشبيهِها بالقَواريرِ في البَياضِ[٣].

- قولُه: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: شَبيهةٌ بالقَواريرِ في صَفاءِ اللَّونِ والرِّقَّةِ، حتَّى كأنَّها تَشِفُّ عمَّا فيها. وفِعلُ ﴿كَانَتْ﴾ هنا تَشبيهٌ بَليغٌ، والمعْنى: أنَّها مِثلُ القواريرِ في شَفيفِها، وقَرينةُ ذلك قولُه: ﴿مِن فِضَّةٍ﴾، أي: هي مِن جِنسِ الفِضَّةِ في لَونِ القَواريرِ[٤].

- ووَصْفُ الأكْوابِ بفِعلِ ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ هو مِن قَبيلِ الفِعلِ «يكونُ» في قولِه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، أي: تَكوَّنَت قَواريرَ بتَكوينِ اللهِ؛ تَفخيمًا لتلك الخِلقةِ العَجيبةِ الشَّأنِ، الجامعةِ بيْن صِفتَيِ الجَوهرينِ المُتباينَينِ[٥].

- ولَفظُ ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ الثَّاني يَجوزُ أنْ يكونَ تَأكيدًا لَفظيًّا لنَظيرِه؛ لزِيادةِ تَحقيقِ أنَّ لها رِقَّةَ الزُّجاجِ، فيَكونَ الوقفُ على ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ الأوَّلِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣١٥-١٣١٨)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٩٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٩٢، ٣٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٤).

تَكريرًا؛ لإفادةِ التَّصنيفِ؛ فإنَّ حُسنَ التَّنسيقِ في آنيةِ الشَّرابِ مِن مُكمِّلاتِ رَونقِ مَجلسِه، فيكونَ التَّكريرُ مِثلَ ما في قولِه تعالَى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقولِ النَّاسِ: قَرأْتُ الكتابَ بابًا بابًا، فيَكونَ الوقفُ على ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الثَّاني[١].

- قُرِئَ ﴿قَوَارِيرًا﴾ الأوَّلُ والثَّاني مُنوَّنَين، وتَنوينُ الأوَّلِ لمُراعاةِ الكلماتِ الواقعةِ في الفواصلِ السَّابقةِ واللَّاحقةِ مِن قولِه: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ [الإنسان: ٥] إلى قولِه: ﴿تَقۡدِيرًا﴾، وتَنوينُ الثَّاني للمُزاوَجةِ مع نَظيرِه، وقُرِئَ ﴿قَوَارِيرًا﴾ الأوَّلُ بالتَّنوينِ، ووُقِفَ عليه بالألِفِ، وهو جارٍ على التَّوجيهِ الأوَّلِ. وقُرِئَ ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الثَّاني بغَيرِ تَنوينٍ على الأصلِ، ولم تُراعَ المُزاوَجةُ، ووُقِفَ عليه بالسُّكونِ، وقُرِئَ بتَرْكِ التَّنوينِ فيهما؛ لمَنْعِ الصَّرفِ وعدَمِ مُراعاةِ الفواصلِ ولا المُزاوَجةِ[٢].

- كَلمةُ ﴿تَقۡدِيرًا﴾ في قولِه: ﴿قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرًا﴾ مَفعولٌ مُطلَقٌ مُؤكِّدٌ لعامِلِه؛ للدَّلالةِ على وَفاءِ التَّقديرِ، وعدَمِ تَجاوُزِه المطلوبَ، ولا تَقصيرِه عنه[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا﴾ أُتبِعَ وَصْفُ الآنيةِ ومَحاسنِها بوَصْفِ الشَّرابِ الَّذي يَحْويه وطِيبِه؛ فالكأسُ كأسُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قرأ ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الأوَّلَ: نافعٌ وأبو جعفرٍ وابنُ كثيرٍ والكِسائيُّ وخلَفٌ وأبو بكرٍ بالتَّنوينِ بالألِفِ، وقرأها الباقونَ بدونِ تنوينٍ.

وقرأ الثَّانيةَ: نافعٌ وأبو جعفرٍ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ بالتَّنوينِ بالألِفِ، وقرأها الباقونَ بدونِ تنوينٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٤).

الخمْرِ، وهي مِن جُملةِ عُمومِ الآنيةِ المذكورةِ فيما تَقدَّمَ، ولا تُسمَّى آنيةُ الخمرِ كأْسًا إلَّا إذا كان فيها خمْرٌ، فكَونُ الخمْرِ فيها هو مُصحِّحٌ تَسميتَها كأْسًا؛ ولذلك حَسُنَ تَعديةُ فِعلِ السَّقيِ إلى الكأْسِ؛ لأنَّ مَفهومَ الكأسِ يَتقوَّمُ بما في الإناءِ مِن الخمْرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٤، ٣٩٥).

الآيات (١٩-٢٢)

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿مُّخَلَّدُونَ﴾: أي: لا يَموتونَ، مِن الخُلْدِ وهو البقاءُ، أو: يَبقونَ على حالِهم لا يَتغيَّرونَ، ولا يَكبَرونَ، ولا يَهرَمونَ، والعربُ تقولُ للَّذي لا يَشيبُ: مخلَّدٌ، وقيل: مُحَلَّوْنَ، والتَّخْليدُ التَّحْلِيَةُ، وأصلُ (خلد): يدُلُّ على الثَّباتِ والملازَمةِ[١].

﴿عَالِيَهُمْ﴾: أي: يَعْلوهم، وأصلُ (علو): يدُلُّ على السُّمُوِّ والارتفاعِ[٢].

﴿سُندُسٍ﴾: أي: رَقيقِ الحَريرِ[٣].

﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾: أي: غليظُ الحَريرِ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٥٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٣)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٤) يُنظَر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

١- قَولُه تعالى: ﴿ثَمَّ﴾ اسمُ إشارةٍ للمَكانِ البَعيدِ بمعنى (هُناك) مَبنيٌّ على الفَتحِ في محَلِّ نَصبٍ؛ ظرفُ مكانٍ مُتعَلِّقٌ بـ﴿رَأَيْتَ﴾، ومفعولُ الرُّؤيةِ غيرُ مذكورٍ؛ لأنَّ القَصدَ: وإذا صَدَرَتْ منك رؤيةٌ إلى ذلك المكانِ رَأَيْتَ كَيْتَ وكَيْتَ، فهو مُنَزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازِمِ. وقيل: التَّقديرُ: رأيتَ ما ثَمَّ، فـ«ما» مفعولٌ به، وهو اسمٌ مَوصولٌ حُذِفَ، وقامتَ صِلَتُه «ثَمَّ» مَقامَه، وهو قَولُ الكوفيِّينَ.

٢- قَولُه تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾: في نَصبِ ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾ أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بمحذوفٍ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ، و﴿ثِيَابُ﴾ مُبتدَأٌ مؤخَّرٌ، كأنَّه قيل: فوقَهم ثيابُ... الثَّاني: أنَّه حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: ١٩]، وهو اسمُ فاعلٍ، و﴿ثِيَابُ﴾ مرفوعٌ على الفاعليَّةِ به، أي: يَطوفُ عليهم وِلْدانٌ عاليًا للمَطُوفِ عليهم ثِيابٌ، ولم يؤنِّثْ «عالِيًا»؛ لأنَّ «الثِّيابَ» غيرُ حقيقيِّ التَّأنيثِ. وقيل غَيرُ ذلك(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ويَطوفُ على الأبرارِ في الجنَّةِ بالشَّرابِ أو غَيرِه أولادٌ صِغارٌ، إذا رأيتَهم ظَنَنْتَهم -لحُسْنِهم وانتِشارِهم لخِدمةِ الأبرارِ- لُؤلؤًا مُفرَّقًا، وإذا نَظَرْتَ هناك في تِلكَ الجنَّةِ أبصَرْتَ نَعيمًا ومُلْكًا عَظيمًا، عليهم ثيابٌ مِن حريرٍ رقيقٍ أخضَرِ اللَّونِ، ومِن فَوقِها ثيابٌ مِن حريرٍ غَليظٍ له بَريقٌ ولَمَعانٌ، وحُلُّوا أساوِرَ مِن فِضَّةٍ، وسقاهم اللهُ شَرابًا طاهِرًا مُطَهَّرًا لهم مِن كُلِّ أذًى.

يُقالُ للأبرارِ: إنَّ هذا النَّعيمَ ثوابٌ لكم على ما عَمِلْتُموه في الدُّنيا، وكان سَعْيُكم بالأعمالِ الصَّالحةِ مَشكورًا مُتَقَبَّلًا.

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٦٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦١٤، ٦١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٧٨).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ مَن يكونُ خادِمًا في تلك المجالِسِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ المَطوفَ به؛ لأنَّه الغايةُ المقصودةُ- وصَفَ الطَّائِفَ؛ لِما في طَوافِه مِن العَظَمةِ المشهودةِ؛ تصويرًا لِما هم فيه مِن المُلْكِ، بعدَما نَجَوا منه من الهُلْكِ[(٢)].

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾.

أي: ويَدورُ على الأبرارِ في الجنَّةِ بالشَّرابِ أو غَيرِه أولادٌ صِغارٌ على سنٍّ واحِدةٍ، فلا يَهرَمونَ ولا يموتونَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٤، ٥٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قال الرَّسْعَني: (قولُه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: مُبْقَوْنَ أبدًا على شكلِ الوِلْدانِ، لا يَكبَرونَ، ولا يَنقُصونَ، ولا يَتغيَّرونَ، ولا يَموتونَ. هذا قولُ جمهورِ العُلماءِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٩٤) و (٨/ ٤١٩).

وقال الفرَّاء: (ويُقالُ: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ مُقرَّطونَ. ويُقالُ: مُسَوَّرونَ). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٢٣). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٦).

قال ابن كثير: (﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: على حالةٍ واحدةٍ مُخَلَّدونَ عليها، لا يَتغيَّرون عنها، لا تَزيدُ أعمارُهم عن تلك السِّنِّ. ومَن فسَّرهم بأنَّهم مُخرَّصونَ في آذانِهم الأقْرِطةُ، فإنَّما عبَّر عن المعنى بذلك؛ لأنَّ الصَّغيرَ هو الَّذي يَليقُ له ذلك دونَ الكبيرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢).

وقال ابنُ القيِّم: (الأشبَهُ أنَّ هؤلاء الوِلدانَ مَخلوقونَ مِنَ الجنَّةِ كالحُورِ العِينِ خَدَمًا لهم وغِلْمانًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤]، وهؤلاء غيرُ =

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثُورًا﴾.

أي: إذا رأيتَ أولئك الوِلدانَ ظَنَنْتهم -لحُسْنِهم وبَياضِهم وصَفاءِ لَونِهم، وكَثرتِهم وانتِشارِهم لخِدمةِ الأبرارِ- لُؤلؤًا مُفرَّقًا[1].

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر تَفصيلَ أحوالِ أهلِ الجنَّةِ؛ أتْبَعَه بما يدُلُّ على أنَّ هناك أمورًا أعلى وأعظَمَ مِن هذا القَدْرِ المذكورِ[2].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر المخدومَ والخَدَمَ؛ شَرَع في ذِكْرِ المكانِ[3].

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وإذا نَظَرْتَ هناك في تِلكَ الجنَّةِ أبصَرْتَ نَعيمًا ومُلْكًا عَظيمًا وسُلطانًا باهِرًا أعَدَّه اللهُ تعالى للأبرارِ[4].

= أولادِهم؛ فإنَّ مِن تمامِ كرامةِ الله تعالى لهم أن يجعَلَ أولادَهم مخدومينَ معهم، ولا يَجعَلَهم غِلمانًا لهم). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قيل: الخِطابُ هنا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٣١).

وقيل: الخِطابُ لغَيرِ مُعَيَّنٍ، أي: إذا رأيتَ أيُّها الرَّائي. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٧). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٦-٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢). =

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ آخِرَ أهلِ الجنَّةِ دُخولًا الجنَّةَ، وآخِرَ أهلِ النَّارِ خُروجًا مِنَ النَّارِ: رَجُلٌ يَخرُجُ حَبْوًا[١]، فيقولُ له رَبُّه: ادخُلِ الجنَّةَ. فيقولُ: رَبِّ، الجنَّةُ مَلَأْى. فيقولُ له ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ، فكُلُّ ذلك يُعيدُ عليه: الجنَّةُ مَلْأَى. فيقولُ: إنَّ لك مِثلَ الدُّنيا عَشْرَ مِرارٍ!))[٢].

﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الدَّارَ وساكِنيها مِن مخدومٍ وخَدَمٍ؛ ذَكَر لِباسَهم[٣].

﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞ﴾.

أي: على أولئك الأبرارِ ثيابٌ مِن حريرٍ رقيقٍ أخضَرِ اللَّونِ، ومِن فَوقِها ثيابٌ مِن حريرٍ غَليظٍ له بَريقٌ ولَمَعانٌ[٤].

= قيل الخِطابُ هنا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢).

وقيل: الخِطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ. وممَّن ذهب إلى هذا: الزمخشريُّ، ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٧).

قال الزمخشري: (ومعناه: أنَّ بصَرَ الرَّائي أيْنَما وقَع لم يَتعلَّقْ إدراكُه إلَّا بنَعيمٍ كثيرٍ، ومُلكٍ كبيرٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٣).

(١) حَبْوًا: أي: زَحْفًا. يُنظر: ((مشارق الأنوار على صحاح الآثار)) للقاضي عياض (١/ ١٧٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٧٥١١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٧-٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٦)، ((حادي =

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾.

أي: وحُلُّوا أساوِرَ مِن فِضَّةٍ يَلبَسونَها في أيديهم زِينةً لهم[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((تَبلُغُ الحِلْيةُ مِن المؤمِنِ حيثُ يَبلُغُ الوَضوءُ[٢]))[٣].

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

أي: وسقَى اللهُ الأبرارَ شَرابًا بالِغَ الطَّهارةِ في نَفْسِه، لا كدَرَ فيه بوَجهٍ مِن الوُجوهِ، مُطَهِّرًا لهم مِن كُلِّ أذًى أو سُوءٍ[٤]!

= الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣).

قال أبو عليٍّ الفارسيُّ في قولِه: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾: (قد أُجيزَ أن يكونَ ظَرفًا، كأنَّه لَمَّا كان «عالٍ» بمعنَى «فوقَ»؛ أُجريَ مُجراهُ في هذا). ((الحجة للقراء السبعة)) (٦/ ٣٥٥).

قال الفرَّاء: (﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾... جعَلوها كالصِّفةِ «فوقَهم». والعربُ تقولُ: قَومُك داخلَ الدَّارِ، فيَنصبون داخلَ الدَّارِ؛ لأنَّه محَلٌّ، فـ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ مِن ذلك). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢١٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٢).

وقيل: المعنى: يَطوفُ على الأبرارِ وِلْدانٌ، عاليًا الأبرارَ ثيابُ سُنْدُسٍ. وذلك على أنَّ ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ حالٌ مِن الهاءِ والميمِ في «يَطوفُ عليهم».

وقيل: المعنى: حَسِبْتَهم لُؤلؤًا في حالِ عُلوِّ الثِّيابِ إيَّاهم. وذلك على أنَّ ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ حالٌ مِن الهاءِ والميمِ في ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٢٠). ويُنظر ما تقدَّم في مُشْكِل الإعرابِ (ص: ٣٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(٢) الحِليةُ: البياضُ الحاصِلُ للمؤمِنِ يومَ القيامةِ في أعضاءِ الوُضوءِ، أي: يَبلُغُ النُّورُ. وقيل: المرادُ بـ (الحلية): الزِّينةُ في الجنَّةِ مِن السِّوارِ والخَلْخَالِ. و«الوَضوءُ» بالفتحِ، أي: ماءُ وُضوئِه مِن الأعضاءِ. يُنظر: ((شرح المصابيح)) لابن الملك (١/ ٢٣٤).

(٣) رواه مسلم (٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٩)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٣٥)، =

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

الطهور فيه قولان:

القولُ الأوَّلُ: أنَّه مبالغةٌ في كونِه طاهرًا.

قال الرازي: (فيه على هذا التفسيرِ احتمالاتٌ: أحدُها: أنَّه لا يكونُ نجسًا كخمرِ الدُّنيا. وثانيها: المبالغةُ في البعدِ عن الأمورِ المستقذرةِ، يعني ما مسَّتْه الأيدي الوَضِرةُ، وما داسَتْه الأقدامُ الدَّنسةُ. وثالثُها: أنَّها لا تَؤولُ إلى النجاسةِ؛ لأنَّها ترشحُ عرقًا مِن أبدانِهم، له ريحٌ كريحِ المسكِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٥).

ممن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: أنَّه طاهرٌ مُنَزَّهٌ عمَّا في أمثالِه مِن شَرابِ الدُّنيا مِنَ الخبائثِ والفَسادِ والأقذارِ: الثعلبيُّ، والخازن، وجلال الدين المحلي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٠).

قال البقاعي: (﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي: ليس هو كشَرابِ الدُّنيا؛ سواءٌ كان مِن الخَمرِ أو مِن الماءِ أو مِن غيرِهما). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٥٠).

وقال العُلَيمي: (﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ طاهرًا مِن الأقذارِ، لم تَدُسْه الأقدامُ، ولم تمَسَّه الأيدي الوَسِخةُ، كخَمرِ الدُّنيا، ولا يصيرُ بَولًا؛ وذلك أنَّهم إذا طَعِموا وشَربوا، فيصيرُ ما أكلوا طِيبًا يخرجُ مِن أبدانِهم كأطيَبَ مِن رِيحِ المِسكِ، وتَضمُرُ بُطونُهم، وتعودُ شَهوتُهم). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٤٠).

والقولُ الثاني في الطَّهورِ: أنَّه المطهِّرُ؛ لأنَّه يُطهِّرُ باطنَهم عن الأخلاقِ الذَّميمةِ، والأشياءِ المؤذيةِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٥).

وممن اختار في الجملةِ أن المرادَ بقَولِه تعالى: ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾: أي أنه مُطَهِّرٌ لبواطِنِ شاربيه مِن كُلِّ أذًى ونَقْصٍ: ابنُ القيِّم، وابنُ كثير. يُنظر: ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٢٣٥)، ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣).

قال ابنُ كثير: (أي: طهَّرَ بواطِنَهم مِنَ الحَسَدِ والحِقْدِ والغِلِّ والأذَى، وسائِرِ الأخلاقِ الرَّدِيَّةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَين في الجملةِ: البِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٠، ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾.

أي: يُقالُ للأبرارِ: إنَّ هذا النَّعيمَ الَّذي أُوتيتُموه في الجنَّةِ هو ثوابٌ لكم على ما عَمِلْتُموه في الدُّنيا مِن خَيرٍ[1].

﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

أي: وما عَمِلْتُم مِن خَيرٍ فإنَّ اللهَ يَشكُرُه لكم، فيَتقَبَّلُه منكم ولو كان قليلًا، ويُثيبُكم عليه ثَوابًا عَظيمًا[2].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أحسَنُ مَن يُتَّخَذُ للخِدْمةِ الوِلْدانُ؛ لأنَّهم أخَفُّ حَرَكةً، وأسرَعُ مَشْيًا، ولأنَّ المخدومَ لا يتحَرَّجُ إذا أمَرَهم أو نهاهم[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ هذا مِن تمامِ لَذَّةِ أهلِ الجنَّةِ؛ أن يكونَ خُدَّامَهم الوِلْدانُ المخَلَّدونَ، الَّذين تَسُرُّ رؤيتُهم، ويَدخُلونَ على مَساكِنِهم آمِنينَ مِن تَبِعَتِهم، ويَأتونَهم بما يَدْعُونَ وتَطلُبُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قال ابنُ عاشور: (مِن تمامِ الإكرامِ عندَ الكرامِ أن يُتْبِعوا كرامتَهم بقَولٍ يَنشَطُ له المُكرَمُ، ويُزيلُ عنه ما يَعرِضُ مِن خَجَلٍ ونَحْوِه، أي: هو جزاءٌ حَقًّا لا مُبالَغةَ في ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٧).

نُفوسُهم[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثُورًا﴾ أي: إذا رأيتَهم في انتِشارِهم في قَضاءِ حَوائِجِ السَّادةِ، وكَثْرتِهم، وصَباحةِ وُجوهِهم، وحُسْنِ ألوانِهم وثيابِهم وحُلِيِّهم؛ حَسِبْتَهم لؤلؤًا مَنثورًا، ولا يكونُ في التَّشبيهِ أحسَنُ مِن هذا، ولا في المنظَرِ أحسَنُ مِن اللُّؤلُؤِ المنثورِ على المكانِ الحَسَنِ[٢]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أنَّ أهلَ الجَنَّةِ كلَّهم ملوكٌ فيها[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ دَلَّتْ لفظةُ: ﴿عَالِيَهُمْ﴾ على كَونِ ذلك اللِّباسِ ظاهِرًا بارِزًا يُجَمِّلُ ظواهِرَهم، ليس بمَنزِلةِ الشِّعارِ الباطِنِ، بل الَّذي يُلبَسُ فوقَ الثِّيابِ للزِّينةِ والجَمالِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ تأمَّلْ كيف جَمَعَ سُبحانَه لهم بَيْنَ نَوعَي الزِّينةِ الظَّاهِرةِ مِن اللِّباسِ والحُلِيِّ، كما جَمَعَ لهم بيْن الظَّاهرةِ والباطنةِ؛ فجَمَّلَ سُبحانَه البواطِنَ بالشَّرابِ الطَّهُورِ، والسَّواعِدَ بالأساورِ، والأبدانَ بثيابِ الحَريرِ[٥].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ فيه سؤالٌ: قال تعالى في سورةِ (الكَهفِ): ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١]، فكيف جَعَل تلك الأساورَ هاهنا مِن فِضَّةٍ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٩).

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّهما جنَّتانِ أوانيهما وجميعُ ما فيهما مِن فِضَّةٍ، وأُخْرَيانِ أوانيهما وجميعُ ما فيهما مِن ذَهَبٍ(١).

الثَّاني: أنَّ قولَه: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ هذا في صِفةِ الأبرارِ، وأمَّا المقرَّبونَ فكما قال: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾(٢) [الحج: ٢٣].

الثَّالثُ: أنَّه لا مُنافاةَ بيْن الأمْرَينِ؛ فلَعلَّهم يُسَوَّرونَ بالجِنسَينِ؛ إمَّا على المُعاقَبةِ، أو على الجَمعِ، كما تفعَلُ النِّساءُ في الدُّنيا.

الرَّابعُ: أنَّ الطِّباعَ مُختَلِفةٌ، فرُبَّ إنسانٍ يكونُ استِحسانُه لبياضِ الفِضَّةِ فوقَ استِحسانِه لصُفرةِ الذَّهَبِ؛ فاللهُ تعالى يُعطي كُلَّ أحدٍ ما تكونُ رَغبتُه فيه أتَمَّ، ومَيْلُه إليه أشَدَّ. وقيل غَيرُ ذلك(٣).

٨- قولُه تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ استدَلَّ بعضُ العلماءِ بمفهومِ المُخالَفةِ في هذه الآيةِ على أنَّ الخمرَ نجِسةُ العَينِ؛ لأنَّ وصْفَه لشَرابِ أهلِ الجنَّةِ بأنَّه طَهورٌ يُفهَمُ منه أنَّ خمرَ الدُّنيا ليست كذلك، وممَّا يؤيِّدُ هذا أنَّ كلَّ الأوصافِ الَّتي مدَحَ بها تعالى خمرَ الآخرةِ مَنفيَّةٌ عن خمرِ الدُّنيا(٤). وذلك على

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣).

ويُنظر ما تقدَّم: (ص: ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٥).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢٦).

والخَمرُ نَجِسةٌ نجاسةً عينيَّةً باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحنفيَّة، والمالكيَّة، والشَّافعيَّة، والحنابلة. يُنظر: ((العناية شرح الهداية)) للبابَرْتي (١٠/ ٩٩)، ((حاشية الدسوقي)) (١/ ٤٩، ٥٠)، ((المجموع)) للنووي (٢/ ٥٦٣)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (١/ ٣١٩).

قولٍ في التَّفسيرِ.

٩- الفرْقُ بيْنَ «سقَى» و«أسقى»: أنَّ «سَقَى» لِمَا لا كُلْفةَ معَه في السُّقْيا؛ ولهذا أوْرَدَه تعالى فِي شَرابِ الجَنَّةِ، فقال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾. و«أَسْقَى» لِمَا فيه كُلْفةٌ؛ ولهذا أوْرَدَه في شَرابِ الدُّنْيا، فقال: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]، ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]؛ لأنَّ السُّقْيا في الدُّنيا لا تَخْلُو مِن الكُلْفةِ أبَدًا[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾

- وُصِفَ الوِلدانُ بأنَّهم ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾؛ للاحتِراسِ ممَّا قد يُوهِمُه اشتِقاقُ ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ مِن أنَّهم يَشِبُّون ويَكتهِلون، أي: لا تَتغيَّرُ صِفاتُهم، فهُمْ وِلدانٌ دَومًا، وإلَّا فإنَّ خُلودَ الذَّواتِ في الجنَّةِ مَعلومٌ، فما كان ذِكرُه إلَّا لأنَّه تَخليدٌ خاصٌّ[٢].

- والحِكمةُ في تَشبيهِ الوِلدانِ باللُّؤلؤِ المَنثورِ دونَ المَنظومِ: أنَّه تعالَى أراد تَشبيهَهُم -لحُسنِهم وانتشارِهم في الخِدمةِ- باللُّؤلؤِ الَّذي لم يُثقَبْ، وهو أشدُّ صَفاءً، وأحسَنُ مَنظرًا ممَّا ثُقِبَ؛ لأنَّه إذا ثُقِبَ نَقَص صَفاؤه ومائيَّتُه، وما لم يُثقَبْ لا يكونُ إلَّا مَنثورًا[٣]. وقيل: شُبِّهوا باللُّؤلؤِ الرَّطبِ إذا نُثِرَ مِن صَدَفِه؛ لأنَّه أحسَنُ وأكثَرُ ماءً[٤].

---

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٣٨٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٢، ٦٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٢، ٦٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٥).

وقيل: في كَونِه منثورًا فائدتان؛ إحداهُما: الدَّلالةُ على أنَّهم غيرُ معطَّلينَ، بل مَبثوثونَ في خِدمتِهم وحوائجِهم. والثَّانيةُ: أنَّ اللُّؤلؤَ إذا كان منثورًا -ولا سيَّما على بِساطٍ مِن ذهبٍ أو حريرٍ- كان أحسَنَ لِمَنظرِه، وأبهى مِن كَونِه مجموعًا في مكانٍ واحدٍ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: مِثلَ أحوالِ المُلكِ الكبيرِ المُتنعِّمِ ربُّه، وفائدةُ هذا التَّشبيهِ تَقريبُ المُشبَّهِ لمَداركِ العُقولِ[٢].

- وفِعلُ (رَأيتَ) الأوَّلُ مُنزَّلٌ مَنزلةَ اللَّازمِ، يدُلُّ على حُصولِ الرُّؤيةِ فقطْ، لا تَعلُّقِها بمَرئيٍّ، أي: إذا وجَّهْتَ نَظَرَك، و(رَأيتَ) الثَّاني جَوابُ (إذا)، أي: إذا فَتحْتَ عَينَك تَرى نَعيمًا، والتَّقييدُ بـ (إذا) أفاد معْنى الشَّرطيَّةِ؛ فدَلَّ على أنَّ رُؤيةَ النَّعيمِ لا تَتخلَّفُ عن بصَرِ المُبصِرِ هنالك، فأفادَ معْنى: لا تَرى إلَّا نَعيمًا، أي: بخِلافِ ما يرى في جِهاتِ الدُّنيا[٣].

وقيل: مَفعولُ فِعلِ الشَّرطِ مَحذوفٌ؛ حُذِفَ اقتِصارًا، والمعْنى: وإذا رمَيتَ ببَصرِك هناك. وقيل: التَّقديرُ: وإذا رَأيتَ ما ثَمَّ، فحُذِفَ (ما)[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾

- قولُه: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ هذه الأشياءُ

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٨، ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٧، ٣٩٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٥).

مِن شِعارِ الملوكِ في عُرفِ الناسِ زَمانَئذٍ، فهذا مُرتبِطٌ بقولِه: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[١] [الإنسان: ٢٠].

- قولُه: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ عُطِفَ على ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، وساغ عطْفُ الماضي على المُضارِعِ؛ لأنَّه مُستقبَلُ المَعنى، وللإيذانِ بتَحقيقِه[٢].

- قولُه: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ احتِراسٌ ممَّا يُوهِمُه شُرْبُهم مِن الكأْسِ المَمزوجةِ بالكافورِ والزَّنجبيلِ مِن أنْ يكونَ فيها ما في أمْثالِها المعروفةِ في الدُّنيا، ومِن الغَولِ، وسُوءِ القولِ والهَذيانِ، فعُبِّرَ عن ذلك بكَونِ شَرابِهم طَهورًا بصِيغةِ المُبالَغةِ في الطَّهارةِ، وهي النَّزاهةُ مِن الخَبائثِ، أي: مُنزَّهًا عمَّا في غيرِه مِن الخَباثةِ والفَسادِ[٣].

- وأُسنِدَ سَقْيُ الشَّرابِ إلى ربِّهم؛ إظهارًا لكَرامتِهم، أي: أمَر هو بسَقْيِهم، كما يُقالُ: أطْعَمَهم رَبُّ الدَّارِ وسَقاهم[٤]. أو أُسنِدَ سَقْيُه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه أُرِيدَ به نوعٌ آخَرُ يَفوقُ على النَّوعينِ المُتقدِّمَينِ[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ هذا الكلامُ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ، والقولُ المحذوفُ يُقدَّرُ فِعلًا في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ الغائبِ في (سَقَاهُمْ)، نحْو: يُقالُ لهم، أو يقولُ لهم ربُّهم، أو يُقدَّرُ اسمًا هو حالٌ مِن ذلك الضَّميرِ، نحْو: مَقولًا لهم هذا اللَّفظُ، أو قائلًا لهم هذا اللَّفظَ. والإشارةُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٥).

ما يكونُ حاضِرًا لَدَيهم مِن ألوانِ النَّعيمِ المَوصوفِ فيما مَضى مِن الآياتِ، والمقصودُ مِن ذلك الثَّناءُ على الأبرارِ بما أسْلَفوا مِن تَقْوى اللهِ، وتَكرِمتُهم بذلك، وتَنشيطُ أنفُسِهم بأنَّ ما أنْعَمَ به عليهمْ هو حَقٌّ لهم جَزاءً على عَمَلِهم[١].

- وإقحامُ فِعلِ ﴿كَانَ﴾ للدَّلالةِ على تَحقيقِ كَونِه جَزاءً، لا مَنًّا عليهم بما لم يَستحقُّوا[٢].

- والإتيانُ بفِعلِ ﴿كَانَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقيقِ كَونِه سَعْيًا مَشكورًا[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٣-٢٦)

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

﴿بُكْرَةً﴾: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدئِه[1].

﴿وَأَصِيلًا﴾: أي: آخِرَ النَّهارِ، وما بيْنَ العَصرِ إلى اللَّيلِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مثبِّتًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّا نحن نَزَّلْنا عليك -يا محمَّدُ- القُرآنَ تَنزيلًا مُفرَّقًا، فاصبِرْ لحُكمِ اللهِ على تبليغِ رِسالتِه، وما تَلْقاه مِن أذًى في سَبيلِ ذلك، وعلى تأخيرِ نَصرِك، ولا تُطِعْ فاجِرًا يَدعوك إلى مَعصيةِ اللهِ، أو كافِرًا باللهِ يدعوك لعبادةِ غَيْرِه.

ثمَّ يرشدُ الله سُبحانَه نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم إلى ما يُعينُه على الصَّبرِ والثَّباتِ، فيقولُ: واذكُرِ اسمَ رَبِّك -يا محمَّدُ- في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه، واسجُدْ للهِ تعالى في صَلاتِك في اللَّيلِ، وسَبِّحْه وَقتًا طَويلًا مِنَ اللَّيلِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ أوَّلًا حالَ الإنسانِ وقسَّمَه إلى العاصي والطَّائعِ؛ ذَكَرَ ما شرَّفَ به نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر أصنافَ الوعدِ والوَعيدِ؛ بيَّنَ أنَّ هذا الكتابَ يتضَمَّنُ ما بالنَّاسِ حاجةٌ إليه، فليس بسِحرٍ ولا كِهانةٍ ولا شِعرٍ، وأنَّه حَقٌّ(٢).

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

أي: إنَّا نحن نَزَّلْنا عليك -يا محمَّدُ- القُرآنَ تَنزيلًا مُفرَّقًا بحَسَبِ الحِكْمةِ(٣).

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

أي: فاصبِرْ لحكَمِ ربِّك القَدَريِّ -ومنه تأخيرُ نَصرِك، وما يَنالُك مِن أذًى- فلا تَسخَطْه، ولِحُكمِه الدِّينيِّ مِن القيامِ بما ألْزَمَك القيامَ به في كِتابِه، وتبليغِ رِسالتِه، وتحمُّلِ ما تَلْقاه مِن أذى المُشرِكين في سَبيلِ ذلك(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: قضائِه: القرطبيُّ، وابنُ كثير، والشوكانيُّ. يُنظر: =

كما قال الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن ضُروبِ إعراضِهم عن قَبولِ دَعوتِه، ضَرْبٌ فيه رَغباتٌ منهم، مِثلُ أنْ يَترُكَ قَرْعَهم بقَوارِعِ التَّنزيلِ مِن تَأفينِ رأْيِهم، وتَحقيرِ دِينِهم وأصْنامِهم، ورُبَّما عَرَضوا عليه الصِّهرَ معهم، أو بَذْلَ المالِ منهم؛ أُعقِبَ أمْرُه بالصَّبرِ على ما هو مِن ضُروبِ الإعراضِ في صَلابةٍ وشِدَّةٍ؛ بأنْ نَهاهُ عن أنْ يُطِيعَهم في الضَّربِ الآخَرِ مِن ضُروبِ الإعراضِ الواقعِ في قالَبِ اللِّينِ والرَّغبةِ[1].

= ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٦).

قال الشوكاني: (ومِن حُكْمِه وقَضائِه تأخيرُ نَصرِك إلى أجَلٍ اقْتَضَتْه حِكْمَتُه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٦).

وقال ابن جرير: (اصْبِرْ لِمَا امْتَحَنَك به رَبُّكَ مِن فَرائِضِه، وتبليغِ رِسالاتِه، والقيامِ بما أَلْزَمَك القيامَ به في تَنزيلِه الَّذي أوحاه إليك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٢).

وقال ابنُ عطيَّة: (وحُكْمُ رَبِّه: هو أن يُبَلِّغَ ويُكافِحَ، ويَتَحَمَّلَ المشَقَّةَ، ويَصبِرَ على الأذى؛ ليُعذِرَ اللهُ إليهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٤).

وممَّن جمَع بيْنَ المعاني السَّابقةِ: البِقاعي، والسعديُّ:

قال البقاعي: (﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ أي: المحسِنِ إليك بتَخصيصِه لك بهذه النِّعمةِ، على ضلالِ مَن حَكَم بضَلالِه، وعلى كلِّ ما يَنوبُك، وأَطِعْه في التَّعبُّدِ له بجميعِ ما أمَرَك به مِن الرِّفقِ، إلى أن يأمُرَك بالسَّيفِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٥٤).

وقال السعدي: (اصبِرْ لِحُكمِه القَدَريِّ، فلا تَسخَطْه، ولِحُكْمِه الدِّينيِّ، فامْضِ عليه، ولا يُعَوِّقْك عنه عائِقٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٣).

﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾.

أي: ولا تُطِعْ فاجِرًا يَدْعوك إلى مَعصيةِ اللهِ، أو كافِرًا باللهِ جَحُودًا لنِعَمِه يدعوك لعبادةِ غَيرِه(١).

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نهَى عن طاعَةِ الآثمِ والكفورِ القاطِعةِ عن اللهِ؛ أمَرَ بمُلازَمةِ الموصِلِ إلى اللهِ، وهو الذِّكرُ(٢).

وأيضًا لَمَّا نَهى اللهُ سُبحانَه وتعالَى حَبيبَه صَلواتُ اللهِ عليه، عن طاعةِ الآثِمِ والكَفورِ، وحثَّه على الصَّبرِ على أذاهم، وإفراطِهم في العَداوةِ، وأراد أنْ يُرشِدَه إلى مُتاركتِهم- عقَّبَ ذلك بالأمرِ باستغراقِ أوقاتِه بالاشتِغالِ بالعِبادةِ لَيلًا ونَهارًا(٣). وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قال الرازي: (كُلُّ مَن عَبَد غَيرَ اللهِ فقد اجتَمَع في حَقِّه هذان الوَصفانِ؛ لأنَّه لَمَّا عَبَد غَيْرَه، فقد عصاه وجَحَد إنعامَه). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ ... «الكَفُور» هو الآثِمُ أيضًا، لكِنَّه عَطفُ خاصٍّ على عامٍّ. وقد قيل: هما وصفانِ لموصوفٍ واحدٍ، وهو أبلَغُ). ((مجموع الفتاوى)) (٢١/ ٣٨٨). ويُنظر ما سيأتي في البلاغةِ (ص: ٣٩٨).

وقال ابن عاشور: (كان المُشرِكونَ يَعمِدونَ إلى الطَّلَبِ مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَفعَلَ ما يَرغَبونَ، مِثلُ: طَرْدِ ضُعَفاءِ المؤمِنينَ مِنَ المجلِسِ، والإتيانِ بقُرآنٍ غيرِ هذا أو تبديلِه بما يُشايِعُ أحوالَهم، وأنْ يَكُفَّ عمَّا لا يُريدونَ وُقوعَه مِن تحقيرِ آلهتِهم، والجَهْرِ بصَلاتِه؛ فحَذَّرَه اللهُ مِنَ الاستماعِ لِقَولِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢١٢، ٢١٣).

وأيضًا لَمَّا كان الصَّبرُ يُساعِدُه القيامُ بعبادةِ اللهِ، والإكثارُ مِن ذِكْرِه؛ أمَرَه اللهُ بذلك، فقال[١]:

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥﴾.

أي: واذكُرِ اسمَ رَبِّك -يا محمَّدُ- في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه[٢].

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾.

أي: واسجُدْ للهِ تعالى في صَلاتِك في اللَّيلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤).

قيل: المرادُ: صَلِّ لرَبِّك أوَّلَ النَّهارِ صَلاةَ الصُّبحِ، وصَلِّ في آخِرِه صَلاةَ الظُّهرِ والعَصْرِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، ومكِّيٌّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠).

وقيل: المرادُ: الذِّكْرُ باللِّسانِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والبِقاعي، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٥، ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٦).

وقيل بالعُمومِ، فيَدخُلُ في ذلك: الصَّلَواتُ المكتوباتُ وما يَتْبَعُها مِن النَّوافلِ، والذِّكرُ، والتَّسبيحُ، والتَّهليلُ، والتَّكبيرُ. وممَّن ذهب إلى هذا في الجملةِ: القاسميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٦).

قيل: المرادُ: صلاةُ المغرِبِ والعِشاءِ. وممَّن قال بهذا: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والماوَرْدي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) =

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾.

أي: وسَبِّحِ اللهَ تعالى وَقتًا طَويلًا مِنَ اللَّيلِ(١).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩].

= (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٠٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٧).

وقيل: المرادُ: صلاةُ العِشاءِ، والوترُ، وقيامُ اللَّيلِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٨٧).

وقيل: المراد: قيامُ اللَّيلِ. وممَّن ذهب إليه: القاسميُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٧٨).

وقال ابنُ عاشور: (هذا خاصٌّ بصلاةِ اللَّيلِ فَرضًا ونَفلًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٦).

قيل: المرادُ بالتَّسبيحِ هنا: قيامُ اللَّيلِ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٧).

وقيل: المرادُ: تنزيهُ اللهِ تعالى عمَّا لا يَليقُ به. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠).

وقال ابن عاشور: (التَّسبيحُ: التَّنزيهُ بالقَولِ وبالاعتقادِ، ويَشملُ الصَّلَواتِ والأقوالَ الطَّيِّبةَ، والتَّدَبُّرَ في دَلائلِ صِفاتِ اللهِ وكَمالاتِه، وغَلَب إطلاقُ مادَّةِ التَّسبيحِ على الصَّلاةِ النَّافِلةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٦).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ أنَّه كان مِن المنتَظَرِ أنْ يُقالَ: «فاشكُرْ نِعمةَ رَبِّك»، ولكِنَّه عزَّ وجلَّ قال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ مَن قام بهذا القرآنِ فلا بُدَّ أنْ يَنالَه ما يَنالُه ممَّا يحتاجُ إلى صبرٍ، وانظرْ إلى حالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ ضَرَبه قَومُه فأَدْمَوه، وهو يَمْسَحُ الدَّمَ عن وَجْهِه الشَّريفِ، ويقولُ: ((اللَّهُمَّ اغفِرْ لِقَومي؛ فإنَّهم لا يَعلَمونَ!))[(١)]؛ فعلى الدَّاعيةِ أنْ يكونَ صابرًا مُحتَسِبًا[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أنَّه لَمَّا كان لا سَبيلَ إلى الصَّبرِ إلَّا بتعويضِ القَلْبِ بشَيءٍ هو أحَبُّ إليه مِن فَواتِ ما يَصبِرُ على فَوْتِه، أمَرَه بأنْ يَذْكُرَ ربَّه سُبحانَه بُكْرةً وأَصيلًا؛ فإنَّ ذِكْرَه أعظمُ العَونِ على تَحَمُّلِ مَشاقِّ الصَّبرِ، وأنْ يَصْبِرَ لرَبِّه باللَّيلِ فيَكونَ قيامُه باللَّيلِ عَونًا على ما هو بصَدَدِه بالنَّهارِ، ومادَّةً لِقُوَّتِه ظاهِرًا وباطِنًا، ولنَعيمِه عاجِلًا وآجِلًا[(٣)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما كان يُطِيعُ أحَدًا منهم، لكِنَّ المقصودَ بَيانُ أنَّ النَّاسَ مُحتاجونَ إلى مُواصَلةِ التَّنبيهِ والإرشادِ؛ مِن أجْلِ ما تركَّبَ فيهم مِن الشَّهَواتِ الدَّاعيةِ إلى الفَسادِ، وأنَّ أحدًا لو استَغنَى عن توفيقِ اللهِ وإمدادِه وإرشادِه، لَكان أحَقُّ النَّاسِ به هو الرَّسولَ المعصومَ، ومتى ظَهَر ذلك عَرَف كُلُّ مُسلِمٍ أنَّه لا بُدَّ له مِن الرَّغبةِ إلى اللهِ، والتَّضَرُّعِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٤٧٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٧٩٢).

(٢) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٢٤).

(٣) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧٥).

إليه أن يَصونَه عن الشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ فَضْلُ العبادةِ باللَّيلِ[٢].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا * فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾، و(على) تُفيدُ الاستِعلاءَ، أي: أنَّه نَزَل إلى الرَّسولِ مِن فَوقٍ، وتُفيدُ أيضًا التَّحَمُّلَ؛ لأنَّه نَزَل عليه كأنَّه فوقَه، والشَّيءُ الَّذي فوقَك لا بدَّ أن تتحمَّلَه؛ ممَّا يدُلُّ على ثِقَلِ القُرآنِ. قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾[٣] [المزمل: ٥].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ فيه سُؤالٌ: قَولُه: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾، دَخَل فيه أنْ لا تُطِعْ منهم آثمًا أو كَفُورًا، فكان ذِكْرُه بَعْدَ هذا تكريرًا؟

الجوابُ: الأوَّلُ أمرٌ بالمأموراتِ، والثَّاني نهيٌ عن المنهيَّاتِ، ودَلالةُ أحَدِهما على الآخَرِ بالالتزامِ لا بالتَّصريحِ، فيكونُ التَّصريحُ به مُفيدًا[٤].

٣- قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا * وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا * وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ فمَن سَبَّحَ اللهَ لَيلًا طويلًا لَمْ يكُنْ ذلك اليومُ ثَقيلًا عليه، بل كان أَخَفَّ شَيءٍ عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٨).

(٢) يُنظر: ((الكلم الطيب)) لابن تيمية (ص: ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٨).

(٥) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٨٥).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ يَقتَضي نَهْيَ الإمامِ عن طاعةِ آثمٍ مِن العُصاةِ، أو كَفورٍ مِن المُشرِكين[(١)].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ فيه سُؤالٌ: كَلِمةُ (أو) تَقتضي النَّهيَ عن طاعةِ أحَدِهما، فلِمَ لَمْ يَذكُرِ (الواو)؛ حتَّى يكونَ نَهيًا عن طاعتِهما جميعًا؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّه لو قِيلَ: (ولا تُطِعْهما) لَجاز أن يُطيعَ أحَدَهما؛ لأنَّ النَّهيَ عن طاعةِ مَجموعِ شَخصَينِ لا يَقتَضي النَّهيَ عن طاعةِ كُلِّ واحِدٍ منهما وَحْدَه، أمَّا النَّهيُ عن طاعةِ أحَدِهما، فيكونُ نَهْيًا عن طاعةِ مَجموعِهما؛ لأنَّ الواحِدَ داخِلٌ في المجموعِ.

الوَجهُ الثَّاني: تقديرُ الآيةِ: لا تُطِعْ منهم أحَدًا؛ سواءٌ كان آثِمًا أو كَفُورًا، كقَولِ الرَّجُلِ لِمَن يَسألُه شيئًا: (لا أُعطيك؛ سواءٌ سألْتَ أو سَكَتَّ)[(٢)].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ۞ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ فيه إشارةٌ إلى الصَّلَواتِ الخَمْسِ، فالبُكرةُ صلاةُ الصُّبحِ، والأصيلُ: الظُّهرُ والعصرُ، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾: المغربُ والعِشاءُ[(٣)]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٩).

ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦٠٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٩).

- هو استِئنافٌ ابتدائيٌّ للانتقالِ مِن الاستِدلالِ على ثُبوتِ البَعثِ بالحُجَّةِ والتَّرهيبِ والوَعيدِ للكافِرينَ به، والتَّرغيبِ والوعْدِ للمؤمنينَ به بمُرهِّباتٍ ومُرغِّباتٍ هي مِن الأحوالِ الَّتي تكونُ بعْدَ البَعثِ؛ فلمَّا استُوفِيَ ذلك ثُنِيَ عِنانُ الكلامِ إلى تَثبيتِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والرَّبطِ على قلْبِه؛ لدِفاعِ أنْ تَلحَقَه آثارُ الغَمِّ على تَصلُّبِ قَومِه في كُفْرِهم وتَكذيبِهم بما أُنزِلَ عليه، ممَّا شَأْنُه أنْ يُوهِنَ العَزيمةَ البشَريَّةَ، فذكَّرَه اللهُ بأنَّه نزَّلَ عليه الكتابَ؛ لئلَّا يَعبَأَ بتَكذيبِهم[(١)].

- وفي إيرادِ هذا بعْدَ طُولِ الكلامِ في أحوالِ الآخِرةِ: قَضاءٌ لحقِّ الاعتناءِ بأحوالِ النَّاسِ في الدُّنيا؛ فابتُدِئَ بحالِ أشرَفِ النَّاسِ، وهو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ بحالِ الَّذين دَعاهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْنَ مَن ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [الإنسان: ٢٧]، ومَن ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩] فأدْخَلَهم في رَحمتِه[(٢)].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) للاهتِمامِ به، وتَأكيدُ الضَّميرِ المتَّصلِ بضَميرٍ مُنفصِلٍ في قولِه: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾؛ لتَقريرِ مَدلولِ الضَّميرِ تَأكيدًا لَفظيًّا؛ للتَّنبيهِ على عَظَمةِ ذلك الضَّميرِ؛ ليُفضِيَ به إلى زِيادةِ الاهتمامِ بالخبَرِ؛ إذ يَتقرَّرُ أنَّه فِعلُ مَن هذانِ الضَّميرانِ له؛ لأنَّه لا يَفعَلُ إلَّا فِعلًا مَنوطًا بحِكمةٍ وأقْصى الصَّوابِ. وهذا مِن الكِنايةِ الرَّمزيةِ[(٣)]، وبعْدُ فالخبَرُ بمَجموعِه مُستعمَلٌ في لازِمِ معْناهُ، وهو التَّثبيتُ والتَّأييدُ، فمَجموعُه كِنايةٌ رَمزيَّةٌ[(٤)]. فتَكريرُ الضَّميرِ بعْدَ إيقاعِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اسمًا لـ (إنَّ) تَأكيدٌ على تَأكيدٍ لمعْنى اختصاصِ اللهِ بالتَّنزيلِ؛ ليَتقرَّرَ في نفْسِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه إذا كان هو المُنزِّلَ لم يكُنْ تَنزيلُه على أيِّ وجْهٍ نزَلَ إلَّا حِكمةً وصَوابًا، كأنَّه قِيل: ما نزَّلَ عليك القرآنَ تَنزيلًا مُفرَّقًا مُنجَّمًا إلَّا أنا، لا غَيري، وقد عرَفْتَني حَكيمًا فاعلًا لكلِّ ما أفْعَلُه بدَواعي الحِكمةِ. فاجتماعُ التَّأكيدِ على التَّأكيدِ يُفيدُ مُفادَ القصْرِ[١]؛ إذ ليس الحصرُ والتَّخصيصُ إلَّا تَأكيدًا على تَأكيدٍ[٢].

- وجاء التَّوكيدُ بـ (إنَّ) لمَضمونِ الخبَرِ ومَدلولِ المُخبَرِ عنه، وأُكِّدَ الفِعلُ بالمَصدرِ[٣].

- وإيثارُ فِعلِ ﴿نَزَّلْنَا﴾ الدَّالِّ على تَنزيلِه مُنجَّمًا آياتٍ وسُورًا تَنزيلًا مُفرَّقًا: إدماجٌ[٤]؛ للإيماءِ إلى أنَّ ذلك كان مِن حِكمةِ اللهِ تعالَى الَّتي أومَأَ إليها تَأكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ)، وتَأكيدُ الضَّميرِ المتَّصلِ بالضَّميرِ المُنفصِلِ[٥].

- وفيه تَعريضٌ بالمشركينَ الَّذين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، فجَعَلوا تَنزيلَه مُفرَّقًا شُبهةً في أنَّه ليس مِن عندِ اللهِ، والمعْنى: ما أنْزَلَه مُنجَّمًا إلَّا أنا، واقتَضَت حِكْمتي أنْ أُنزِلَه عليك مُنجَّمًا[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٣).

- قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ الفاءُ هي الفصيحةُ؛ أفْصَحَتْ عن شَرطٍ مُقدَّرٍ، أي: إنْ عرَفْتَ هذا فاصبِرْ[١]. وهو أمْرٌ للرَّسولِ بالصَّبرِ على أعباءِ الرِّسالةِ وما يَلْقاه فيها مِن أذَى المشرِكين، وشدٌّ لعَزيمتِه ألَّا تَخورَ، وسَمَّى ذلك حُكمًا؛ لأنَّ الرِّسالةَ عن اللهِ لا خِيَرةَ للمُرسَلِ في قَبولِها، والاضْطِلاعِ بأُمورِها[٢].

- وعُدِّيَ فِعلُ (اصبِرْ) باللَّامِ؛ لتَضمُّنِ الصَّبرِ معْنى الخُضوعِ والطَّاعةِ للأمْرِ الشَّاقِّ[٣].

- وفي هذا النَّهيِ ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ تَأكيدٌ للأمرِ بالصَّبرِ؛ لأنَّ النَّهيَ عنه يَشملُ كلَّ ما يَرفَعُ مُوجباتِ الصَّبرِ المرادِ هنا، والمقصودُ مِن هذا النَّهيِ تَأييسُهم مِن استجابتِه لهم حِينَ يَقرَأُ عليهم هذه الآيةَ؛ لأنَّهم يَحسَبونَ أنَّ ما عَرَضوه عليه سيَكونُ صارِفًا له عمَّا هو قائمٌ به مِن الدَّعوةِ؛ إذ همْ بُعَداءُ عن إدراكِ ماهيَّةِ الرِّسالةِ ونَزاهةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

- ومُقْتَضَى الظَّاهرِ أنْ يقولَ: (ولا تُطِعْهم)، أو (ولا تُطِعْ منهم أحدًا)، فعُدِلَ عنه إلى ﴿ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾؛ للإشارةِ بالوصفَينِ إلى أنَّ طاعَتَهم تُفْضي إلى ارتكابِ إثمٍ أو كُفْرٍ؛ لأنَّهم في ذلك يَأمُرونَه ويَنهَونَه غالبًا، فهمْ لا يَأمُرونَ إلَّا بما يُلائِمُ صِفاتِهم[٥].

- والتَّقسيمُ بـ (أو) في قولِه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ باعتبارِ ما يَدْعونَه إليه؛ فالمعْنى: ولا تُطِعْ منهم راكبًا لِما هو إثمٌ داعيًا لك إليه، أو فاعلًا لِما

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٤).

هو كُفْرٌ داعيًا لك إليه؛ لأنَّهم إمَّا أنْ يَدْعوه إلى مُساعَدتِهم على فِعلٍ هو إثْمٌ أو كفْرٌ، أو غيرُ إثْمٍ ولا كفْرٍ؛ فنَهى أنْ يُساعِدَهم على الاثنينِ دونَ الثَّالثِ[١].

وقيل: (أو) إذا وقَعت في سياقِ النَّفيِ تُفيدُ مُفادَ واوِ العَطْفِ، فتدُلُّ على انتفاءِ المعطوفِ والمعطوفِ عليه معًا، ولا تفيدُ المفادَ الَّذي تُفيدُه في الإثباتِ، وهو كونُ الحُكمِ لأحدِ المتعاطِفَينِ[٢].

ومعْنى الآيةِ نهْيٌ عن طاعةِ أحَدِ هذينِ الموصوفينِ، ويُعلَمُ أنَّ طاعةَ كِلَيهما مَنهيٌّ عنها بدَلالةِ الفَحوى؛ لأنَّه إذا أطاعَهُما معًا فقدْ تَحقَّقَ منه طاعةُ أحَدِهما وزِيادةٌ[٣].

- والنَّهيُ عن طاعةِ كلِّ واحدٍ منْهما أبلَغُ مِن النَّهيِ عن طاعتِهما؛ لأنَّه يَستلزِمُ النَّهيَ عن أحدِهما؛ لأنَّ في طاعَتِهما طاعةَ أحَدِهما. ولو قال: لا تَضرِبْ زَيدًا وعَمْرًا، لَجاز أنْ يكونَ نَهيًا عن ضَرْبِهما جَميعًا، لا عن ضَرْبِ أحَدِهما[٤].

- و(مِن) للتَّبعيضِ، والضَّميرُ المجرورُ بها عائدٌ للمشرِكين، ولم يَتقدَّمْ لهم ذِكرٌ؛ لأنَّهم مَعلومونَ مِن سِياقِ الدَّعوةِ، أو لأنَّهم المفهومُ مِن قولِه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾، أي: لا كما يَزعُمُ المشرِكون أنَّك جِئتَ به مِن تِلْقاءِ نفْسِك، ومِن قولِه: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، أي: على أذَى المشرِكين. ويَؤولُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٦).

المعْنى: ولا تُطِعْ أحدًا مِن المشرِكين[١].

- والآثمُ والكَفورُ مُتلازِمانِ، فكان ذِكرُ أحَدِ الوصفينِ مُغْنِيًا عن الآخَرِ، ولكنْ جُمِعَ بيْنَهما لتَشويهِ حالِ المُتَّصِفِ بهما[٢].

- والكَفورُ وإنْ كان آثمًا، فإنَّ فيه مُبالَغةً في الكُفْرِ. ولَمَّا كان وَصْفُ الكُفورِ مُباينًا للمَوصوفِ بمجرَّدِ الإثْمِ، صَلَحَ التَّغايُرُ؛ فحَسُنَ العطْفُ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۞ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾

- قولُه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ في ذِكرِ الوَقتَينِ إشارةٌ إلى دَوامِ الذِّكرِ، وذِكرُ اسمِه لازمٌ لذِكرِه[٤].

- وعلى القولِ بأنَّ قولَه: ﴿فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ يعني: فصَلِّ له صَلاتَي المَغرِبِ والعِشاءِ فقد ذَكَرَهما بالسُّجودِ تَنبيهًا على أنَّه أفضَلُ الصَّلاةِ، فهو إشارةٌ إلى أنَّ اللَّيلَ مَوضعُ الخُضوعِ[٥].

- وتَقديمُ الظَّرفِ في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾؛ لِمَا في صَلاةِ اللَّيلِ مِن مَزيدِ الكُلفةِ والخُلوصِ، ومَزيدِ الفَضيلةِ؛ لأنَّ الالْتفاتَ فيه إلى جانِبِ الحقِّ أتمُّ؛ لزَوالِ الشَّاغِلِ للحواسِّ مِن حَركاتِ النَّاسِ وأصواتِهم، وسائرِ الأحوالِ الدُّنيويَّةِ؛ فكان أبْعَدَ عن الرِّياءِ، فكان الخُشوعُ فيه واللَّذَّةُ التَّامَّةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٧٦، ٢٧٧).

بحلاوةِ العِبادةِ أوْفَى[١].

- والمقصودُ بقولِه: ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ صَلاةُ التَّطوُّعِ في اللَّيلِ، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ، وقولُه: ﴿طَوِيلًا﴾ صِفةُ ﴿لَيْلًا﴾، وحيث وُصِفَ اللَّيلُ بالطُّولِ بعْدَ الأمْرِ بالتَّسبيحِ فيه، عُلِمَ أنَّ ﴿لَيْلًا﴾ أُرِيدَ به أزمانُ اللَّيلِ؛ لأنَّه مَجموعُ الوقتِ المُقابِلِ للنَّهارِ؛ لأنَّه لو أُرِيدَ ذلك المِقدارُ كلُّه لم يكُنْ في وَصْفِه بالطُّولِ جَدْوى، فتَعيَّنَ أنَّ وصْفَ الطُّولِ تَقييدٌ للأمرِ بالتَّسبيحِ، أي: سبِّحْه أكثَرَ اللَّيلِ، فهو في معْنى قولِه تعالَى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلى ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [الإنسان: ٢، ٤]، أو يَتنازَعُه كلٌّ مِن (اسْجُدْ) و(سَبِّحْه)[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٦).

الآيات (٢٧-٢١)

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ٢٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿أَسۡرَهُمۡ﴾: أي: خَلْقَهم، والأَسْرُ في كلامِ العَرَبِ: شِدَّةُ الخَلْقِ، يُقالُ: فُلانٌ شَديدُ أَسْرِ الخَلْقِ: إذا كان مَعصوبَ الخَلْقِ غيرَ مُسترخٍ، و: شَدَّ اللهُ أَسْرَه، أي: قَوَّى إحكامَ خَلْقِه. وأصلُ (أسر): يدُلُّ على الرَّبطِ والتَّوثيقِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا * يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾

قَولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّ المصدَرَ المؤَوَّلَ في محلِّ نَصبٍ على الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ بتَقديرِ المُضافِ السَّادِّ هو مَسَدَّه، أي: إلَّا وَقْتَ مشيئةِ اللهِ تعالى. الثَّاني: أنَّ المصدَرَ المؤوَّلَ في محلِّ نَصبٍ على نَزعِ الخافِضِ، والاستثناءُ مِن أعَمِّ الأسبابِ، أي: وَما تَشاؤُونَ بسَبَبٍ مِنَ الأسبابِ إلَّا بأنْ يَشاءَ اللهُ تعالى. الثَّالثُ: أنَّه في محلِّ نَصبٍ مُستثنًى مِن أعمِّ الأحوالِ على نِيَّةِ حَذفِ مُضافٍ، أي: وما تَشاؤُونَ في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالِ مَشيئةِ اللهِ تعالى.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٩)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٠/ ٤٨).

وقَولُه تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ﴾: «الظَّالِمينَ»: مَنصوبٌ على الاشتِغالِ بفِعلٍ محذوفٍ يُفَسِّرُه ﴿أَعَدَّ لَهُمۡ﴾ مِن حيثُ المعنى، لا مِن حيثُ اللَّفظُ؛ لأنَّ (أَعَدَّ) يتعدَّى باللَّامِ، تقديرُه: وعَذَّبَ الظَّالِمينَ، أو: أَوْعَدَ، ونحوُ ذلك. وجملةُ ﴿أَعَدَّ﴾ مُفَسِّرةٌ للفِعلِ المقَدَّرِ؛ فلا محلَّ لها مِن الإعرابِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى موبِّخًا المشرِكين ومنكِرًا عليهم: إنَّ مُشْرِكي قُرَيشٍ يُحِبُّونَ الحَياةَ الدُّنيا العاجِلةَ، ويَترُكونَ خَلْفَ ظُهورِهم يومَ القيامةِ الثَّقيلَ بأهوالِه وشَدائِدِه، نحنُ خَلَقْناهم وأحْكَمْنا خِلْقَتَهم، وإذا شِئْنا بَعَثْناهم يومَ القيامةِ، وأعَدْنا أجسامَهم مِن جَديدٍ مِثْلَما كانوا في الدُّنيا.

ثمَّ يحُضُّ اللهُ سُبحانَه على طاعتِه، ويحذِّرُ مِن مَعصيتِه، فيقولُ: إنَّ آياتِ هذه السُّورةِ تَذكيرٌ للنَّاسِ؛ لِيَتَّعِظوا بها ويَعْتَبِروا، فمَن شاء سَلَك طَريقًا يُوصِلُه إلى اللهِ تعالى، بالإيمانِ به، والتَّوبةِ إليه، وطاعتِه.

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه نُفوذَ مَشيئتِه، وأنَّها فوقَ كلِّ مَشيئةٍ، فيقولُ: وما تَشاؤُونَ -أيُّها النَّاسُ- اتِّباعَ طَريقِ الحَقِّ إلَّا أن يَشاءَ اللهُ لكم ذلك، إنَّ اللهَ تعالى كان عَليمًا فلا يَخْفَى عليه شَيءٌ، حكيمًا فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به، يُدخِلُ اللهُ تعالى مَن يَشاءُ مِن عِبادِه في رَحمتِه، وأعَدَّ للظَّالِمينَ عَذابًا مُؤلِمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧﴾.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٢٦، ٦٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٨٤، ١٨٥)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٩/ ١٩٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا خاطَبَ رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّعظيمِ والنَّهيِ والأمرِ؛ عَدَل إلى شَرْحِ أحوالِ الكُفَّارِ والمتمَرِّدينَ(١).

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴾.

أي: إنَّ مُشْركي قُرَيشٍ يُحِبُّونَ الحَياةَ الدُّنيا، فهم حَرِيصونَ على البَقاءِ فيها، والتَّمَتُّعِ بمَلَذَّاتِها(٢).

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴾.

أي: ويَترُكونَ خَلْفَ ظُهورِهم يومَ القيامةِ الثَّقيلَ بأهوالِه وشَدائِدِه؛ فلا يَعمَلونَ له، ولا يَسْتَعِدُّونَ له، ولا يَعْبَؤونَ به(٣).

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ [المدثر: ٨ - ١٠].

﴿ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٧).

قال السمعاني: (يجوزُ أن يكونَ سَمَّاه ثقيلًا؛ لشِدَّةِ الهَولِ والفَزَعِ فيه، ويجوزُ أن يكونَ سَمَّاه ثقيلًا؛ لفَصلِ القضاءِ فيه بيْنَ العِبادِ وعَدْلِه معهم، وهو في غايةِ الثِّقَلِ عليهم إلَّا مَن تَدارَكَه اللهُ بفَضْلِه). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنه لَمَّا كان الإخبارُ عنهم بأنَّهم (يَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا) يَتضمَّنُ أنَّهم يُنكِرونَ وُقوعَ ذلك اليَومِ، وكان الباعثُ لهم على إنكارِه شُبهةَ استِحالةِ إعادةِ الأجسادِ بعْدَ بِلاها وفَنائِها، وكان الكلامُ السَّابقُ مَسوقًا مَساقَ الذَّمِّ لهم، والإنكارِ عليهم؛ جِيءَ هنا بما هو دَليلٌ للإنكارِ عليهم، وإبطالٌ لِشُبهتِهم، ببَيانِ إمكانِ إعادةِ خَلْقِهم، فالَّذي خَلَقَهم أوَّلَ مرَّةٍ يُعيدُهم[1]. فلَمَّا كان تَركُهم لليَومِ الثَّقيلِ على وَجهِ التَّكذيبِ الَّذي هو أقبَحُ التَّركِ، وكان تكذيبُهم لاعتقادِهم عدَمَ القدرةِ عليه؛ قال دالًّا على الإعادةِ بالابتداءِ مِن بابِ الأَولى[2]:

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾.

أي: نحنُ خَلَقْنا أولئك المُشرِكينَ وأحْكَمْنا خِلْقَتَهم، فرَبَطْنا أجزاءَ أجسادِهم بالعِظامِ والأوتارِ والأعصابِ والعُروقِ وغَيرِها؛ فصارت أجزاءُ أبدانِهم مُحكَمةً مَشدودًا بَعضُها إلى بَعضٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٥، ٥٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٨، ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٩، ٤١٠).

قال القرطبي: (الكَلامُ خَرَج مَخْرَجَ الامتِنانِ عليهم بالنِّعَم حينَ قابَلوها بالمعصيةِ، أي: سَوَّيتُ خَلْقَك، وأحكَمْتُه بالقُوى، ثمَّ أنت تَكفُرُ بي!). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٢).

وقال السعدي: (﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: أحكَمْنا خِلقتَهم بالأعصابِ، والعروقِ، والأوتارِ، والقُوى الظَّاهرةِ والباطنةِ، حتَّى تمَّ الجسمُ واستكمل، وتمكَّن مِن كلِّ ما يُريدُه، فالَّذي أوجَدَهم على هذه الحالةِ قادرٌ على أن يُعيدَهم بعدَ مَوتِهم لجزائِهم، والَّذي نقلَهم في هذه الدَّارِ إلى =

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.

أي: وإذا شِئْنا بَعَثْناهم يومَ القيامةِ، وأعَدْنا أجسامَهم مِن جَديدٍ مِثْلَما كانوا في الدُّنيا(١).

قال تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠ - ٦٢].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا شَرَح أحوالَ السُّعَداءِ وأحوالَ الأشقياءِ، قال بَعْدَه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، والمعنى: إنَّ هذه السُّورةَ بما فيها مِنَ التَّرتيبِ العَجيبِ، والنَّسَقِ البَعيدِ، والوَعدِ والوَعيدِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ: تَذكِرةٌ

= هذه الأطوارِ، لا يَليقُ به أن يَترُكَهم سُدًى، لا يُؤْمَرونَ ولا يُنْهَوْن، ولا يُثابونَ ولا يُعاقَبون). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٥)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٧، ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ المذكورِ: الزمخشريُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: وإذا شِئْنا أهلَكْنا المُشرِكين، وجِئْنا بآخَرينَ خَيرٍ منهم، فيَكونونَ أطْوَعَ وأتْقَى لله منهم في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والنَّسَفيُّ، وأبو حيَّانَ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٧). ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٦).

للمُتأمِّلينَ، وتَبصِرةٌ للمُستَبصِرينَ؛ فمَن شاء الخِيَرَةَ لِنَفْسِه في الدُّنيا والآخِرةِ اتَّخَذ إلى رَبِّه سَبيلًا[١].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾.

أي: إنَّ آياتِ هذه السُّورةِ تَذكيرٌ للنَّاسِ؛ لِيَتَّعِظوا بها ويَعْتَبِروا[٢].

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾.

أي: فمَن شاء سَلَك طَريقًا يُوصِلُه إلى اللهِ تعالى، وإلى جَنَّتِه ورِضوانِه، بالإيمانِ به، والتَّوبةِ إليه، وطاعتِه[٣].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ناطَ اختيارَهم سَبيلَ مَرضاةِ اللهِ بمَشيئتِهم، أعقَبَه بالتَّنبيهِ إلى الإقبالِ على طَلَبِ مَرضاةِ اللهِ؛ للتَّوسُّلِ برِضاه إلى تيسيرِ سُلوكِ سُبُلِ الخَيرِ لهم؛ لأنَّهم إذا كانوا منه بمحَلِّ الرِّضا والعنايةِ، لَطَف بهم، ويسَّرَ لهم ما يَعسُرُ على النُّفوسِ، مِن المُصابَرةِ على تَرْكِ الشَّهَواتِ المُهلِكةِ[٤].

وأيضًا لَمَّا أثبَتَ لهم المشيئةَ الَّتي هي مَناطُ التَّكليفِ، وكان رُبَّما ظَنَّ ظانٌّ أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١١، ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٢).

ادَّعى مُدَّعٍ في خَلْقِ الأفعالِ، كما قال أهلُ الاعتزالِ؛ قال نافيًا عنهم الاستِقلالَ[١]:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: وما تَشاؤُونَ -أيُّها النَّاسُ- اتِّباعَ طَريقِ الحَقِّ إلَّا أن يَشاءَ اللهُ لكم ذلك؛ فلا أحَدَ يَقدِرُ على هِدايةِ نَفْسِه[٢].

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِلْمِ التَّامِّ، فلا يَخْفى عليه شَيءٌ، ومِن ذلك عِلْمُه بمَن يَستَحِقُّ الهِدايةَ فيُيَسِّرُها له، ومَن يَستَحِقُّ الغَوايةَ فيَصرِفُه عن الهُدى، وهو متَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالحِكْمةِ البالِغةِ، فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به، ومِن ذلك الهِدايةُ والإضلالُ[٣].

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾.

أي: يُدخِلُ اللهُ مَن يَشاءُ مِن عِبادِه في رَحمتِه بتَوفيقِه لسُلوكِ طَريقِه المُستَقيمِ الموصِلِ إلى جَنَّتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: وأعدَّ اللهُ تعالى للظَّالِمينَ أنفُسَهم بالشِّركِ وتَرْكِ التَّوبةِ: عَذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا﴾ إخبارٌ منه سُبحانَه عمَّا يَمنعُ العبدَ مِن إيثارِ ما فيه سَعادتُه في الدُّنيا والآخِرةِ، وهو حُبُّ العاجِلةِ، وإيثارُها على الآخِرةِ؛ تَقديمًا لداعي الحِسِّ على داعي العَقلِ[٢].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ صَحَّ به ما قاله أهلُ السُّنَّةِ مِن أنَّ للعَبدِ مَشيئةً لا تُؤَثِّرُ إلَّا بمشيئةِ اللهِ تعالى وتحريكِها لقُدرةِ العَبدِ، وانتفى مَذهَبُ القَدَريَّةِ الَّذين يَقولونَ: إنَّا نحن نَخلُقُ أفعالَنا! ومَذهَبُ الجَبْريَّةِ القائِلينَ: لا فِعْلَ لنا أصلًا[٣]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إثباتُ المشيئَتَينِ: مَشيئةِ الرَّبِّ، ومَشيئةِ العَبدِ، وفيها بيانُ أنَّ مَشيئةَ العَبدِ تابِعةٌ لمشيئةِ الرَّبِّ[٤].

٣- يجبُ أنْ نَقرِنَ كلَّ آيةٍ جاءتْ بلَفظِ المَشيئةِ أو جاءتْ مُعَلَّقةً؛ أنْ نَقرِنَها بالحِكْمةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨١).

فالقاعدةُ: أنَّ كلَّ فِعلٍ لله تعالى مُعلَّقٌ بالمشيئةِ؛ فإنَّه مَقرونٌ بالحِكمةِ، وليس شيءٌ مِن فِعلِه سُبحانَه مُعلَّقًا بالمشيئةِ المجرَّدةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يشرعُ ولا يفعلُ إلَّا لحِكمةٍ(١).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يدُلُّ على أنَّه جَفَّ القَلَمُ بما هو كائِنٌ؛ لأنَّ معنى ﴿أَعَدَّ﴾: أنَّه عَلِمَ ذلك وقضى به، وأخبَرَ عنه وكتَبَه في اللَّوحِ المحفوظِ، ومَعلومٌ أنَّ التَّغييرَ على هذه الأشياءِ مُحالٌ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن إطاعةِ الكافِرينَ في قولِه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، أي: لأنَّ خُلُقَهم الانصبابُ على الدُّنيا مع الإعراضِ عن الآخرةِ؛ إذْ همْ لا يُؤمِنون بالبَعثِ، فلو أطاعَهم لَتَخلَّقَ بخُلقِهم؛ قال تعالَى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ الآيةَ [النساء: ٨٩]؛ فمَوقعُ (إنَّ) مَوقعُ التَّعليلِ، وهي بمَنزلةِ فاءِ السَّببيَّةِ(٣).

- و(هؤلاء) إشارةٌ إلى حاضِرينَ في ذِهنِ المُخاطَبِ؛ لكَثرةِ الحديثِ عنهم، وقدْ عُلِمَ بالاستِقراءِ مِن القُرآنِ أنَّه إذا أُطلِقَ (هؤلاء) دونَ سَبْقِ ما يكونُ مُشارًا إليه، فالمَقصودُ به المشرِكون(٤).

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٧١).
ويُنظر ما يأتي في بلاغة الآيات (ص: ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود) (٩/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٧).

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُحِبُّونَ﴾ تدُلُّ على تَكرُّرِ ذلك، أي: أنَّ ذلك دَأبُهم ودَيْدَنُهم، لا يُشارِكون مع حُبِّ العاجِلةِ حُبَّ الآخرةِ[١].

- ومُتعلَّقُ ﴿يُحِبُّونَ﴾ مُضافٌ مَحذوفٌ، تَقديرُه: نَعيمَ أو مَنافعَ؛ لأنَّ الحُبَّ لا يَتعلَّقُ بذاتِ الدُّنيا[٢].

- والعاجِلةُ: صِفةٌ لمَوصوفٍ مَحذوفٍ مَعلومٍ مِن المقامِ، تَقديرُه: الحياةَ العاجِلةَ، أو الدَّارَ العاجلةَ[٣].

- وفي إيثارِ ذِكرِ الدُّنيا بوَصْفِ ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ تَوطئةٌ للمَقصودِ مِن الذَّمِّ؛ لأنَّ وَصْفَ العاجِلةِ يُؤذِنُ بأنَّهم آثَرُوها لأنَّها عاجلةٌ، وفي ذلك تَعريضٌ بتَحميقِهم؛ إذْ رَضُوا بالدُّونِ؛ لأنَّه عاجلٌ، وليس ذلك مِن شِيَمِ أهلِ التَّبصُّرِ، فقَولُه: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ واقعٌ مَوقعَ التَّكميلِ لمَناطِ ذَمِّهم وتَحميقِهم؛ لأنَّهم لو أحَبُّوا الدُّنيا مع الاستعدادِ للآخرةِ لَمَا كانوا مَذمومينَ[٤].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿وَيَذَرُونَ﴾ تَقْتضي أنَّهم مُستمِرُّون على ذلك، وأنَّ ذلك مُتجدِّدٌ فيهم ومُتكرِّرٌ لا يَتخلَّفون عن ذلك التَّركِ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بحُلولِ ذلك اليَومِ[٥].

- واليَومُ الثَّقيلُ: هو يومُ القيامةِ، وُصِفَ بالثَّقيلِ؛ لشِدَّةِ ما يَحصُلُ فيه مِن المَتاعبِ والكُروبِ، فهو كالشَّيءِ الثَّقيلِ الَّذي لا يُستطاعُ حمْلُه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي =

- والآيةُ مِن الاحتباكِ[١]: ذَكَر الحُبَّ والعاجِلةَ أوَّلًا؛ دَلالةً على ضِدِّهما ثانيًا، والتَّرْكَ والثِّقلَ ثانيًا؛ دَلالةً على ضِدِّهما أوَّلًا، وسرُّ ذلك: أنَّ ما ذكَره أدَلُّ على سَخافةِ العَقلِ بعَدَمِ التَّأمُّلِ للعواقِبِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾

- قولُه: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ فيه افتتاحُ الجُملةِ بالمُبتدأِ المُخبَرِ عنه بالخبَرِ الفِعليِّ دونَ أنْ تُفتتَحَ بـ (خَلَقْناهم) أو (نحن خالِقون)؛ لإفادةِ تَقَوِّي الخبَرِ وتَحقيقِه بالنَّظرِ إلى المَعنيِّينَ بهذا الكلامِ، وإنْ لم يكُنْ خِطابًا لهم، ولكنَّهم هم المَقصودُ منه. وتَقويةُ الحُكمِ بِناءٌ على تَنزيلِ أولئك المَخلوقينَ مَنزِلةَ مَن يشُكُّ في أنَّ اللهَ خَلَقَهم؛ حيثُ لم يَجْرُوا على مُوجبِ العِلمِ، فأنْكَروا أنَّ اللهَ يُعيدُ الخلْقَ بعْدَ البِلى، فكأنَّهم يُسندون الخلْقَ الأوَّلَ لغيرِه. وتَقوِّي الحُكمِ يَترتَّبُ عليه أنَّه إذا شاء بدَّلَ أمثالَهم بإعادةِ أجسادِهم؛ فلذلك لم يُحتَجْ إلى تَأكيدِ جُملةِ ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ﴾؛ استِغناءً بتَولُّدِ مَعناها عن معْنى الَّتي قبْلَها، وإنْ كان هو أَولى بالتَّقويةِ على مُقتضى الظَّاهرِ. وهذا التَّقَوِّي هنا مُشعِرٌ بأنَّ كَلامًا يَعقُبُه هو مَصبُّ التَّقَوِّي[٣].

- وقولُه: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ إخبارٌ بأنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُبدِلَهم بناسٍ آخَرينَ، فحُذِفَ مَفعولُ ﴿شِئْنَا﴾ لدَلالةِ جَوابِ (إذا) عليه، كما هو الشَّأنُ في فِعلِ المَشيئةِ غالبًا، واجتِلابُ (إذا) في هذا التَّعليقِ للدَّلالةِ على

= حيان)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٩).

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٩).

تَحقُّقِ القُدرةِ وقُوَّةِ الدَّاعيةِ؛ لأنَّ شأنَ (إذا) أنْ تُفيدَ اليَقينَ بوُقوعِ ما قُيِّدَ بها، بخِلافِ حرْفِ (إنْ)؛ فهو إيماءٌ إلى أنَّ حُصولَ هذه المَشيئةِ مُستقرَبُ الوُقوعِ[١].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ هذا بمَنزلةِ النَّتيجةِ لقولِه: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾ إلخ، ويُحمَلُ الشَّرطُ على التَّحقُّقِ؛ قال تعالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ٦]. ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ تَهديدًا لهم على إعراضِهم وجُحودِهم للبَعثِ، أي: لو شِئْنا لَأهلَكْناهم وخَلَقْنا خَلْقًا آخَرَ مِثلَهم، ويكون (إذا) مُرادًا به تَحقُّقُ التَّلازُمِ بيْنَ شَرطِ (إذا) وجَوابِها، أي: الجُملةِ المضافِ إليها، والجُملةِ المُتعلِّقِ بها[٢].

- وفِعلُ التَّبديلِ يَقتضي مُبدَّلًا ومُبدَّلًا به، وأيُّهما اعتَبَرْتَه في مَوضعِ الآخَرِ صَحَّ؛ لأنَّ كلَّ مُبدَّلٍ بشَيءٍ هو أيضًا مُبدَّلٌ به ذلك الشَّيءُ، ولا سيَّما إذا لم يكُنْ في المَقامِ غرَضٌ ببَيانِ المَرغوبِ في اقتنائِه، والمَسموحِ ببَذْلِه مِن الشَّيئينِ المُستبدَلينِ، فحُذِفَ مِن الكلامِ هنا مُتعلَّقُ ﴿بَدَّلْنَآ﴾ -وهو المَجرورُ بالباءِ-؛ لأنَّه أَولَى بالحذْفِ، وأُبقِيَ المفعولُ[٣].

- وانتصَبَ ﴿تَبْدِيلًا﴾ على المفعولِ المطلَقِ المؤكِّدِ لعامِلِه؛ للدَّلالةِ على أنَّه تَبديلٌ حَقيقيٌّ، وللتَّوصُّلِ بالتَّنوينِ إلى تَعظيمِه وأُعجوبتِه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤١١).

للانتِقالِ مِن بَسْطِ التَّذكيرِ والاستِدلالِ إلى فَذْلكةِ[١] الغرَضِ وحَوصلتِه؛ إشعارًا بانتهاءِ المَقصودِ، وتَنبيهًا إلى فائدتِه، ووَجْهِ الانتفاعِ به، والحثِّ على التَّدبُّرِ فيه، واستثمارِ ثَمرتِه، وباعتبارِ ما تَفرَّعَ عن هذه الجُملةِ مِن قولِه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ...﴾ [الإنسان: ٢٩] إلخ، يُقوِّي مَوقعَ الفَذلكةِ للجُملةِ[٢].

- وتَأكيدُ الكلامِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ لأنَّ حالَ المُخاطَبينَ عدَمُ اهتمامِهم بها، فهم يُنكِرون أنَّها تَذكرةٌ[٣].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ليس على جِهةِ التَّخييرِ، بلْ على جِهةِ التَّحذيرِ مِن اتِّخاذِ غيرِ سَبيلِ اللهِ تعالَى[٤].

- وأُطلِقَت التَّذكرةُ هنا على الموعظةِ بالإقلاعِ عن عمَلٍ سيِّئٍ والإقبالِ على عمَلٍ صالحٍ، وعلى وُضوحِ الخَيرِ والشَّرِّ لِمَن تَذكَّرَ -أي: تَبصَّرَ- بتَشبيهِ حالةِ المُعرِضِ عن الخيرِ المشغولِ عنه بحالةِ النَّاسي له؛ لأنَّ شَأنَه ألَّا يُفرِّطَ فيه إلَّا مَن كان ناسيًا؛ لِما فيه مِن نفْعٍ له[٥].

---

(١) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١١).

- وفُرِّعَ على قولِه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾ الحثُّ على سُلوكِ سَبيلِ مَرضاةِ اللهِ بقولِه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾، أي: ليس بعْدَ هذه التَّذكرةِ إلَّا العملُ بها إذا شاء المُتذكِّرُ أنْ يَعمَلَ بها، ففي قولِه: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ حثٌّ على المُبادَرةِ بذلك؛ لأنَّ مَشيئةَ المَرءِ في مُكْنَتِه، فلا يَمنَعُه منها إلَّا سُوءُ تَدبيرِه، وهذا حثٌّ وتَحريضٌ فيه تَعريضٌ بالمشركين بأنَّهم أبَوْا أنْ يَتذكَّروا عِنادًا وحسَدًا[(١)].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ مَفعولُ ﴿شَآءَ﴾ مَحذوفٌ، أي: الخيرَ لنفْسِه، وحُسنَ العاقبةِ[(٢)].

- لا يَختلِفُ العُقلاءُ في شَرَفِ ما يُوصِلُ إلى الرَّبِّ سُبحانَه، أي: إلى إكرامِه؛ لأنَّ ذلك قَرارةُ الخَيراتِ، ولذلك عُبِّرَ برَبٍّ مُضافًا إلى ضَميرِ ﴿فَمَن شَآءَ﴾؛ إذ سَعادةُ العبْدِ في الحُظْوةِ عندَ ربِّه[(٣)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ جُملةُ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ تَتميمٌ واحتراسٌ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والتَّتميمُ: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. =

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿تَشَآءُونَ﴾ لإفادةِ العُمومِ، والتَّقديرُ: وما تَشاؤونَ شَيئًا أو مَشيئًا، أو الطَّاعةَ، وعُمومُ الأشخاصِ يَستلزِمُ عُمومَ الأحوالِ والأزمنةِ، أي: ما تَشاؤونَ شَيئًا في وَقتٍ مِن الأوقاتِ، أو في حالٍ مِن الأحوالِ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عُلِّلَ ارتباطُ حُصولِ مَشيئتِهم بمَشيئةِ اللهِ بأنَّ اللهَ عَليمٌ حَكيمٌ، أي: عَليمٌ بوَسائلِ إيجادِ مَشيئتِهم الخيرَ، حَكيمٌ بدَقائقِ ذلك ممَّا لا تَبلُغُ إلى مَعرفةِ دَقائقِه بالكُنْهِ عُقولُ النَّاسِ؛ لأنَّ هنالك تَصَرُّفاتٍ عُلويَّةً لا يَبلُغُ النَّاسُ مَبلَغَ الاطِّلاعِ على تَفصيلِها، ولكنْ حَسْبُهم الاهتداءُ بآثارِها، وتَزكيةُ أنفُسِهم للصَّدِّ عن الإعراضِ عن التَّدبُّرِ فيها[2].

- و(ما) نافيةٌ، والاستِثناءُ مِن عُمومِ الأشياءِ المَشيئةِ وأحوالِها وأزْمانِها. ولَمَّا كان ما بعْدَ أداةِ الاستِثناءِ حرْفَ مَصدرٍ، تَعيَّنَ أنَّ المُستثنى يُقدَّرُ مَصدرًا، أي: إلَّا شَيْءَ اللهِ (بمعْنى مَشيئتِه)، وهو صالحٌ لاعتبارِ المعْنى المَصدريِّ، ولاعتبارِ الحالةِ، ولاعتبارِ الزَّمانِ؛ لأنَّ المَصدرَ صالحٌ لإرادةِ الثَّلاثةِ باختلافِ التَّأويلِ؛ فإنْ قُدِّرَ مُضافٌ كان المعْنى: إلَّا حالَ مَشيئةِ اللهِ، أو إلَّا

= والاحتِراسُ: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نَوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفَعُ ذلك الاحتِمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ: التَّكميلَ.

والفَرقُ بيْنَ الاحتِراسِ والتَّتميمِ: أنَّ الاحتِراسَ يجبُ أنْ يكونَ لرَفْعِ إيهامِ خِلافِ المقصودِ، وأمَّا التَّتميمُ فإنَّه يكونُ في كلامٍ لا يُوهِمُ خِلافَ المقصودِ؛ فالنِّسبةُ بيْنَهما إذَنْ هي التَّبايُنُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١، ٢٤٠ - ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٢، ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤١٣).

زمَنَ مَشيئتِه، وإنْ لم يُقدَّرْ مُضافٌ كان المعْنى: لا مَشيئةَ لكمْ في الحقيقةِ إلَّا تَبعًا لمَشيئةِ اللهِ، وإيثارُ اجتلابِ (أن) المَصدريَّةِ مِن إعجازِ القرآنِ. ويجوزُ أنْ يكونَ فِعلَا ﴿تَشَآءُونَ﴾ و﴿يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ مُنزَّلين مَنزلةَ اللَّازِم، فلا يُقدَّرُ لهما مَفعولانِ، ويكونَ الاستِثناءُ مِن أحوالٍ، أي: وما تَحصُلُ مَشيئتُكم في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالِ حُصولِ مَشيئةِ اللهِ، وفي هذا كلِّه إشارةٌ إلى دِقَّةِ كُنْهِ مَشيئةِ العبْدِ تُجاهَ مَشيئةِ اللهِ؛ ففي الآيةِ تَنبيهُ النَّاسِ إلى هذا المعْنى الخَفيِّ؛ ليَرقُبُوه في أنفُسِهم فيَجِدوا آثارَه الدَّالَّةَ عليه قائمةً مُتوافرةً؛ ولهذا أُطنِبَ وَصْفُ هذه المشيئةِ بالتَّذييلِ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فهو تَذييلٌ أو تَعليلٌ لجُملةِ ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الإنسان: ٣١]، أي: لأنَّه واجبٌ له العِلمُ والحكمةُ، فهو أعلَمُ، فمَن شاء أنْ يُدخِلَه في رَحمتِه، ومَن شاء أبْعَدَه عنها. وهذا إطنابٌ لم يَقَعْ مِثلُه في قولِه تعالَى في سُورةِ (عَبَسَ) [١١، ١٢]: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ لأنَّ حُصولَ التَّذكُّرِ مِن التَّذكرةِ أقرَبُ وأمكَنُ مِن العملِ بها، المُعبَّرِ عنه بالسَّبيلِ المُوصلةِ إلى اللهِ تعالَى؛ فلذلك صُرِفَت العِنايةُ والاهتمامُ إلى ما يَلوحُ بوَسيلةِ اتِّخاذِ تلك السَّبيلِ[(١)].

- قولُه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ بتاءِ الخِطابِ على الالتفاتِ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٣، ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤١٥).

والالتفات: هو نقْلُ الكلامِ مِن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخَرَ؛ تجديدًا لنشاطِ السَّامعِ، وصيانةً لخاطرِه مِن الملالِ والضَّجرِ بدوامِ الأسلوبِ الواحدِ على سمعِه، كالانتقالِ مِن الخِطابِ إلى الغيبةِ، أو تغييرِ ضميرِ المتكلِّمِ نفسِه تارةً يجعلُه تاءً على جهةِ الإخبارِ عن نفسِه، وتارةً يجعلُه كافًا، فيجعلُ نفسَه مخاطبًا، وتارةً يجعلُه هاءً، فيُقيمُ نفسَه مقامَ الغائبِ. وشرطُه أنْ يكونَ الضَّميرُ في المتنقلِ إليه عائدًا في نفسِ الأمرِ إلى الملتفِّ عنه، وللمتكلِّمِ والخطابِ والغيبةِ مقامات، والمشهورُ =

٥- قولُه تعالَى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بيانٌ لأحكامِ مَشيئتِه تعالى المُترتِّبةِ على عِلمِه وحِكمتِه[١]. فالجملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن جُملةِ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]؛ إذ يَتساءلُ السَّامعُ عن أثَرِ مَشيئةِ اللهِ في حالِ مَن اتَّخَذَ إلى ربِّه سَبيلًا، ومَن لم يتَّخِذْ إليه سَبيلًا، فيُجابُ بأنَّه يُدخِلُ في رَحمتِه مَن شاء أنْ يَتَّخِذَ إليه سَبيلًا، وأنَّه أعدَّ لِمَن لم يَتَّخِذْ إليه سَبيلًا عَذابًا أليمًا، وأولئك هم الظَّالِمونَ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ خبَرَ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وتكونَ جُملةُ ﴿كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠] مُعترِضةً بيْن اسمِ (إنَّ) وخبَرِها، أو حالًا، وهي على التَّقديرينِ مُنبِئةٌ بأنَّ إجراءَ وَصفَيِ العليمِ الحكيمِ على اسمِ الجَلالةِ مُرادٌ به التَّنبيهُ على أنَّ فِعلَه كلَّه -مِن جَزاءٍ برَحمةٍ أو بعَذابٍ- جارٍ على حسَبِ عِلمِه وحِكمتِه[٢].

- وانتَصَبَ ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنَّه مَفعولٌ لِفعلٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه المذكورُ على طَريقةِ الاشتغالِ، والتَّقديرُ: أوعَدَ الظَّالِمين، أو كافَأَ، أو نحْوُ ذلك ممَّا يُقَدِّرُه السَّامعُ مُناسِبًا للفِعلِ المذكورِ بعْدَه[٣].

- الآيةُ مِن الاحتباكِ[٤]: ذَكَر الإدخالَ والرَّحمةَ أوَّلًا؛ دَلالةً على الضِّدِّ ثانيًا،

= أنَّ الالتفاتَ هو الانتقالُ مِن أحدِها إلى الآخرِ بعدَ التَّعبيرِ بالأوَّلِ. يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٣١٤)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٠٠ - ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٨).

ويُنظر ما تقدَّم في مُشْكِل الإعراب (ص: ٤٠١).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٦٥).

والعذابَ ثانيًا؛ دَلالةً على الثَّوابِ أوَّلًا، وسرُّ ذلك: أنَّ ما ذكَرَه أَولى بترغيبِ أهلِ العَدلِ فيه، وإن ساءت حالُهم في الدُّنيا، وبترهيبِ أهلِ الظُّلمِ منه، وإن حَسُنَت حالُهم في الدُّنيا[1].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٣).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ
سُورَةِ المُرسَلاتِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ المُرسَلاتِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المرسَلاتِ)[١]. وسمِّيت بـ(الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا)[٢].

وممَّا يدُلُّ على ذلك:

١- عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه، قال: ((بَيْنَما نحنُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غارٍ بمِنًى إذ نزلَت عليه ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، وإنَّه لَيَتْلوها، وإنِّي لَأَتَلَقَّاها مِن فيهِ، وإنَّ فاهُ لَرَطْبٌ بها[٣] ...)) الحديثَ[٤].

٢- عن أُمِّ الفَضلِ بنتِ الحارثِ رضيَ الله عنها، قالَتْ: ((سمِعْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرأُ في المغربِ بـ«الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا»، ثُمَّ ما صلَّى لنا بعدَها حتَّى قَبَضه اللهُ))[٥].

فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

١- أنَّها نزَلَتْ جملةً واحدةً[٦].

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٥).

(٢) قال ابن عاشور: (وسُمِّيَتْ في عهدِ الصَّحابةِ سورَة ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٧).

(٣) أي: لم يجِفَّ ريقُه بها، والمعنى: أنَّه لم يُمسِكْ عن التِّلاوةِ لها بعدُ، ورطوبةُ الفَمِ بها حرَكتُه للتِّلاوةِ. يُنظر: ((الإفصاح عن معاني الصحاح)) لابن هُبَيْرة (٢/ ١٩)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٣/ ٣٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (١٨٣٠)، ومسلم (٢٢٣٤).

(٥) أخرجه البخاري (٤٤٢٩).

(٦) ذكرها السيوطيُّ فيما نزَل جمعًا لا مفرَّقًا. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) (١/ ١٣٦).

عن ابنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه، قال: ((كنَّا معَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في غارٍ، فنزَلتْ عليه ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾[١]، فأخَذْتُها مِن فيهِ، وإنَّ فاه لَرَطْبٌ بها، فلا أدْري بأيِّها ختَم ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أو ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾))[٢].

٢- صلَّى بها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في آخِرِ صَلاةٍ صلَّاها بالنَّاسِ إمامًا:

وقد تقدَّم حديثُ أُمِّ الفضلِ بنتِ الحارثِ وسماعِها للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقرأُ بسورةِ (المرسَلاتِ) في صلاةِ المغربِ، وفيه: قالت: ((ثُمَّ ما صلَّى لنا بعدَها حتَّى قَبَضه اللهُ)). والمرادُ -واللهُ أعلَمُ-: ما صلَّى بعدَها إمامًا بالنَّاسِ[٣].

وفي روايةٍ قالت: ((إنَّها [أي: سورةَ المرسَلاتِ] لَآخِرُ ما سمِعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرأُ بها في المغربِ))[٤].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ المرسَلاتِ مَكِّيَّةٌ[٥].

---

(١) قال ابن العربي: (وهي مِن غرائبِ القرآنِ...؛ فإنَّها نزلت على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم تحتَ الأرضِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه أحمدُ (٣٥٧٤)، وابنُ حبَّانَ (٧٠٧)، والحاكمُ (٢٩٩٤).

صحَّحه ابنُ حبَّانَ، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ٤٦)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ. والحديثُ في الصَّحيحَينِ دونَ آخِرِه: (فلا أدري ...).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٧/ ٢١).

(٤) أخرجه البخاري (٧٦٣)، ومسلم (٤٦٢).

(٥) وقيل: إلَّا آيةً منها، وهي قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]؛ فهي =

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

تخويفُ الكفَّارِ وتحذيرُهم عن الكُفرِ[(١)].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- القَسَمُ على وُقوعِ القيامةِ، وأنَّه آتٍ لا شَكَّ فيه، وذِكرُ بعضِ أهوالِ يومِ القيامةِ.

٢- الاستِدلالُ على وُقوعِ البَعثِ، وذِكرُ بعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى: من خَلْقِ الإنسانِ والأرضِ والجبالِ.

٣- وعيدُ المكذِّبين، ووصْفُ عذابِهم في الآخِرةِ.

٤- وصْفُ نعيمِ المتَّقينَ، وحُسنِ عاقبتِهم، وأنواعِ كرامتِهم.

٥- التَّعجيبُ مِن أحوالِ الكافِرين، وشِدَّةِ عِنادِهم وتعنُّتِهم.

= مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٠). وقد ذكر عشَرةَ أنواعٍ مِن التَّخويفاتِ اشتملت عليها السُّورةُ الكريمةُ (٣٠/ ٧٧٠ - ٧٨١).

الآيات (١-٧)

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾: المرادُ بالمُرْسَلاتِ: الرِّياحُ، وقيل: الملائكةُ، وقيل: الأنبياءُ، والعُرْفُ: التَّتابُعُ؛ مِن قَولِ العَرَبِ: تركْتُ النَّاسَ إلى فُلانٍ عُرْفًا واحِدًا: إذا توَجَّهوا إليه فأكثَروا، والعُرْفُ على هذا: اسمٌ أُقيمَ مُقامَ الحالِ؛ لأنَّ المعنى: والرِّياحِ الَّتي أُرسِلَت مُتتابِعةً. وقيل: العُرْفُ: المعروفُ والإحسانُ. وأصلُ (عرف): يدُلُّ على تتابُعِ الشَّيءِ مُتَّصِلًا بَعْضُه بَبعضٍ، ويدُلُّ كذلك على السُّكونِ والطُّمأنينةِ؛ لأنَّ النُّفوسَ تَسكُنُ إلى المعروفِ والإحسانِ[1].

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾: أي: الرِّياحِ الشَّديدةِ الهُبوبِ، وأصلُ (عصف): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[2].

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾: هم الملائِكةُ الَّتي تَنشُرُ أجنحَتها في الجوِّ، وتنشُرُ الشَّرائعَ في الأرضِ وقيل غير ذلك، وقيل: هي الرِّياحِ الَّتي تَنشُرُ السَّحابَ، وتأتي بالمطَرِ. وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٨١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠١).

﴿فَٱلْفَرِقَٰتِ فَرْقًا﴾: أي: الملائكةِ تأتي بما يَفرُقُ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، والحَلالِ والحَرامِ، وقيل غيرُ ذلك، وأصلُ (فرق): يدُلُّ على تمييزٍ بيْن شَيئَينِ[(١)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾

قَولُه تعالى: ﴿عُرْفًا﴾: فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنَّه مَفعولٌ مِنْ أجْلِه، أي: والمُرْسَلاتِ للإحسانِ والمَعروفِ، والعُرْفُ: ضِدُّ النُّكْرِ. الثَّاني: أنْ يَنتصِبَ على الحالِ، بمعنى: مُتتابِعةً؛ مِنْ قولِهم: جاؤُوا عُرْفًا واحِدًا: إذا جاؤوا يَتْبَعُ بَعْضُهم بعضًا. الثَّالثُ: أنْ يَنتصِبَ على إسقاطِ الخافضِ، أي: والمُرسَلاتِ بالعُرْفِ[(٢)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۞ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾

قولُه تعالى: ﴿ذِكْرًا﴾: مَفعولٌ به لاسمِ الفاعِلِ «المُلْقِياتِ».

قَولُه: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾: ﴿عُذْرًا﴾: فيه أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّه بَدَلٌ مِنْ «ذِكْرًا». الثَّاني: أنَّه مَفعولٌ به منصوبٌ بالمصدرِ ﴿ذِكْرًا﴾. الثَّالثُ: أنَّه مفعولٌ مِنْ أجْلِه، والعامِلُ فيه: إمَّا «المُلْقِيات»، وإمَّا «ذِكْرًا»، أي: فالْمُلْقِياتِ ذِكْرًا للإعذارِ والإنذارِ. الرَّابعُ: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ مِن «المُلْقِيات»، أو مِن الضَّميرِ فيها، أي: فالمُلْقِياتِ ذِكْرًا مُعْذِرينَ أو مُنْذِرينَ. ﴿نُذْرًا﴾: مَعطوفٌ على «عُذْرًا» منصوبٌ مِثلُه، وله حُكْمُه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٢٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٧)، ((الدر المصون)) =

المعنى الإجماليُّ:

افتتح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بأنْ أقسَمَ بالرِّياحِ الَّتي تُرسَلُ مُتتابِعةً، وتَهُبُّ شَيئًا فشَيئًا، وبالرِّياحِ الشَّديدةِ الهُبوبِ، وبالملائكةِ الَّتي تَنشُرُ ما دُبِّرتْ على نشرِه، وبالملائِكةِ الَّتي تأتي بما يَفرُقُ بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، وبالملائِكةِ الَّتي تُبَلِّغُ رُسُلَ اللهِ وَحْيَه؛ إقامةً للحُجَّةِ مِنَ اللهِ على خَلْقِه، وتحذيرًا لهم مِن عَذابِه؛ أقسَمَ سُبحانه بما تقَدَّمَ على أنَّ الَّذي يوعَدُ به النَّاسُ به مِنَ البَعثِ يومَ القيامةِ والحِسابِ والجَزاءِ: واقِعٌ لا شَكَّ فيه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾.

أي: أُقسِمُ بالرِّياحِ الَّتي تُرسَلُ مُتتابِعةً، فيَتْبَعُ بَعْضُها بَعْضًا، وتَهُبُّ شَيئًا فشَيئًا[1].

= للسمين الحلبي (١٠/ ٦٣٠، ٦٣١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٨٩).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٠).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المُرسَلاتِ هي الرِّياحُ المُرسَلةُ: الواحديُّ، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، وابنُ كثير، ورجَّحه الشوكانيُّ، وابنُ عاشور، واختاره الشنقيطيُّ كما نقله عنه صاحبُ التَّتِمَّةِ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٠).

ونسَبَ السَّمْعانيُّ، والقُرطبيُّ، وابنُ القيِّمِ هذا القولَ إلى جمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو صالحٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٠).

قال ابن كثير: (والأظهرُ أنَّ «المُرْسَلاتِ» هي الرِّياحُ، كما قال تعالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ =

= [الحجر: ٢٢]، وقال تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]. ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧).

وقال ابن القيِّم: (ويؤيِّدُ كَوْنَها الرِّياحَ عَطْفُ العاصِفاتِ عليها بفاءِ التَّعقيبِ والتَّسَبُّبِ، فكأنَّها أُرسِلَت فعصَفَت). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٤٣).

وقيل: هي الملائِكةُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزمخشريُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٣)، ((تأويل مُشْكِل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو هُرَيرةَ، ومَسروقٌ، وأبو صالحٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، وأبو الضُّحى، والسُّدِّيُّ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨١، ٥٨٢)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٦).

وممَّن جمَع بيْن القولَينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٥). ويُنظر أيضًا: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٢-١٤٤).

وقيل: المرادُ: الأنبياءُ المُرسَلونَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو صالحٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧).

قال ابن عطيَّة: (قال كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ: المُرسَلاتُ: الرُّسُلُ إلى النَّاسِ مِنَ الأنبياءِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٦).

وضعَّف ابنُ القَيِّم هذا القَولَ. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٣).

وقد اختار ابنُ جريرٍ العُمومَ، فقال: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك عندَنا أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أقسَمَ بالمُرسَلاتِ عُرْفًا، وقد تُرسَلُ عُرْفًا الملائِكةُ، وتُرسَلُ كذلك الرِّياحُ، ولا دَلالةَ تدُلُّ على أنَّ المَعْنيَّ بذلك أحدُ الجِنسَينِ دونَ الآخَرِ، وقد عَمَّ جَلَّ ثناؤُه بإقسامِه بكُلِّ ما كانت صِفتُه ما وَصَف، فكُلُّ مَن كانت صِفتُه كذلك فداخِلٌ في قَسَمِه ذلك؛ مَلَكًا أو رِيحًا أو رَسولًا مِن بني آدَمَ مُرسَلًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٣).

قال القرطبيُّ: (وقيل: يحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ بالمُرسَلاتِ السَّحابَ؛ لِما فيها مِن نِعمةٍ ونِقمةٍ، عارفةً بما أُرسِلَت فيه، ومَن أُرسِلَت إليه). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٤).

كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان العُصوفُ للعَواصِفِ يَتعَقَّبُ الهُبوبَ، عطَفَ بالفاءِ؛ تَعقيبًا وتَسبيبًا[1]:

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢﴾.

أي: فالرِّياحِ الشَّديدةِ الهُبوبِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠).

قال ابنُ عاشور: (﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾ تَفريعٌ على المُرسَلاتِ، أي: تُرسَلُ فتَعْصِفُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالعاصِفاتِ الرِّياحُ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابن جُزَي، وأبو حيَّان، وابن كثير، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليٌّ، وابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وأبو صالحٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٨١).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهِرُ أنَّه أقسَم أوَّلًا بالرِّياحِ، فهي مُرسَلاتُه تعالى، ويدُلُّ عليه عَطفُ الصِّفةِ بالفاءِ،... وأنَّ العَصفَ مِن صفاتِ الرِّيحِ في عدَّةِ مَواضِعَ مِن القرآنِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤).

وقيل: هي الملائِكةُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الزمخشريُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير =

﴿وَٱلنَّشِرَٰتِ نَشۡرٗا ٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بالملائكةِ الَّتي تَنشُرُ ما دُبِّرتْ على نشرِه[١].

= الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، ومسروقٌ، ومسلمُ بنُ صُبَيحٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٧٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٨٢).

وممَّن جمَع بيْن القولَينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٥).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الملائكةُ: الزمخشريُّ، والقرطبي، وابن جُزَي، وأبو حيَّان، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيِّم، واختاره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو صالحٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٨٢).

قال أبو حيَّان: (والَّذي أراه أنَّ المُقسَمَ به شيئان؛ ولذلك جاء العطفُ بالواوِ في ﴿وَٱلنَّشِرَٰتِ﴾، والعطفُ بالواوِ يُشعِرُ بالتَّغايُرِ، بل هو مَوضوعُه في لسانِ العرَبِ... فالظَّاهِرُ أنَّه أقسَمَ أوَّلًا بالرِّياحِ، فهي مُرسَلاتُه تعالى، ويدُلُّ عليه عطفُ الصِّفةِ بالفاءِ، ... وأنَّ العصفَ مِن صفاتِ الرِّيحِ في عِدَّةِ مواضِعَ من القرآن. والقَسَمُ الثَّاني فيه تَرَقٍّ إلى أشرَفَ مِن المقسَمِ به الأوَّلِ، وهم الملائكةُ، ويكون ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ... فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ﴾ مِن صِفاتِهم، كما قُلْنا في عَطفِ الصِّفاتِ. وإلقاؤُهم الذِّكْرَ -وهو ما أنزَلَ اللهُ- يصِحُّ إسنادُه إليهم). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤).

وقال ابن عاشور: (... الصِّفات الَّتي عُطِفَت بالفاءِ تابعةٌ لجِنسِ ما عُطِفَت هي عليه، والَّتي عُطِفَت بالواوِ يَترجَّحُ أنَّها صِفاتُ جِنسٍ آخَرَ.

فالأرجَحُ أنَّ المُرسَلاتِ والعاصِفاتِ صِفتانِ للرِّياحِ، وأنَّ ما بَعْدَها صِفاتٌ للملائكة، والواوُ الثَّانيةُ للعطْفِ وليستْ حرْفَ قسَمٍ. ومُناسَبةُ الجمْعِ بيْن هذَينِ الجِنسينِ في القسَمِ أنَّ كِلَيْهما مِن الموجوداتِ العُلويَّةِ؛ لأنَّ الأصلَ في العطْفِ بالواوِ أنْ يكونَ المعطوفُ بها ذاتًا غيرَ المعطوفِ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠).

وقال ابنُ القيِّم: (لكِنَّ هنا أمرًا يَنبغي التَّفطُّنُ له، وهو أنَّه سُبحانَه جعَل الأقسامَ في هذه السُّورةِ =

= نوعَينِ، وفَصَل أحدَهما مِن الآخَرِ، وجعَل «العاصِفاتِ» معطوفًا على «المرسَلاتِ» بفاء التَّعقيبِ؛ فصارَا كأنَّهما نوعٌ واحدٌ، ثمَّ جعَل «النَّاشِراتِ» كأنَّه قسَمٌ مُبتدَأٌ، فأتى فيه بالواوِ، ثمَّ عطَف عليه «الفارِقاتِ» و«المُلْقياتِ» بالفاءِ، فأوهَمَ هذا أنَّ «الفارِقاتِ» و«المُلْقياتِ» مُرتبطٌ بـ«النَّاشِراتِ»، وأنَّ «العاصِفاتِ» مرتبطٌ بـ «المرسَلاتِ»... ويَظهَرُ -واللهُ أعلَمُ بما أراد مِن كلامِه- أنَّ القسَمَ في هذه الآيةِ وقَع على النَّوعَينِ: الرِّياحِ والملائكةِ، ووجْهُ المُناسَبةِ أنَّ حياةَ الأرضِ والنَّباتِ وأبدانِ الحيَوانِ: بالرِّياحِ؛ فإنَّها مِن رَوْحِ الله، وقد جعَلها اللهُ تعالى نُشورًا؛ وحياةَ القُلوبِ والأرواحِ بالملائكةِ، فبِهَذَينِ النَّوعَينِ يحصُلُ نَوْعَا الحياةِ، ولهذا -واللهُ أعلَمُ- فصَل أحدَ النَّوعَينِ مِن الآخَرِ بالواوِ، وجعل ما هو تابعٌ لكلِّ نَوعٍ بعدَه بالفاءِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٤٥، ١٤٦).

قال الزمخشري: (نَشَرْنَ أجنِحَتَهنَّ في الجَوِّ عندَ انحطاطِهنَّ بالوَحْيِ، أو نَشَرْنَ الشَّرائِعَ في الأرضِ، أو نشَرْنَ النُّفوسَ الموتى بالكُفرِ والجَهلِ، بما أَوْحَينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧).

وقال القرطبي: (﴿وَٱلنَّشِرَٰتِ نَشْرٗا﴾ الملائِكةُ الموكَّلونَ بالسُّحُبِ يَنشُرونَها). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٥).

وقيل: المرادُ بالنَّاشِراتِ: الرِّياحُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ أبي زَمَنِين، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطيُّ كما نقله عنه صاحبُ التَّتِمَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٠)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٠).

ونسَبَ الرَّسْعَنيُّ هذا القولَ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٢٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وأبو صالحٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٠٩).

قال ابن كثير: (النَّاشِراتُ هي: الرِّياحُ الَّتي تَنْشُرُ السَّحابَ في آفاقِ السَّماءِ، كما يَشاءُ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧).

وممَّن جمَع بيْنَ القولَينِ: الملائكةِ والرِّياحِ: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٥).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى العُمومِ، فقال: (إنَّ اللهَ -تعالى ذِكْرُه- أقسَمَ بالنَّاشِراتِ نَشْرًا، ولم يَخصُصْ شَيئًا مِن ذلك دونَ شَيءٍ، فالرِّيحُ تَنشُرُ السَّحابَ، والمطَرُ يَنشُرُ الأرضَ، والملائِكةُ تَنشُرُ الكُتُبَ، ولا دَلالةَ مِن وَجهٍ يَجِبُ التَّسليمُ له على أنَّ المرادَ مِن ذلك بَعضٌ دونَ بَعضٍ، فذلك على كُلِّ ما =

﴿فَٱلْفَرِقَٰتِ فَرْقًا ٤﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تأتي بما يَفرُقُ بيْنَ الحقِّ والباطِلِ[1].

= كان ناشِرًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٧).

وقال السعدي: (يحتَمِلُ أنَّها الملائِكةُ تَنشُرُ ما دُبِّرَت على نَشْرِه، أو أنَّها السَّحابُ الَّتي يَنشُرُ بها اللهُ الأرضَ، فيُحييها بعدَ مَوتِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالفارقاتِ: الملائكةُ: الزَّجَّاجُ، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني، ونسبه ابنُ القيِّم إلى الجمهور. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿فَٱلْفَرِقَٰتِ فَرْقًا * فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ يعني: الملائكةَ. قاله ابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومَسروقٌ، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، والسُّدِّيُّ، والثَّوْريُّ. ولا خِلافَ هاهنا؛ فإنَّها تنزِلُ بأمرِ الله على الرُّسُلِ، تُفَرِّقُ بيْن الحقِّ والباطِلِ، والهُدى والغَيِّ، والحلالِ والحرامِ، وتُلْقي إلى الرُّسُلِ وحيًا فيه إعذارٌ إلى الخَلقِ، وإنذارٌ لهم عِقابَ الله إن خالَفوا أمْرَه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧).

وقيل: المرادُ: القُرآنُ، فهو يَفْرُقُ بيْن الحَقِّ والباطِلِ. وممَّن قال بهذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ، وابنُ كَيْسانَ. ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧).

وقيل: المرادُ: الرِّياحُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٦).

قال الرَّسْعَني: (﴿فَٱلْفَرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ قال مجاهدٌ: هي الرِّياحُ تُفَرِّقُ بيْن السَّحابِ فتُبَدِّدُه). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٢٨).

وقيل: المرادُ: السَّحابُ. وممَّن ذهب إليه: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٦٦).

قيل: السُّحبُ فرَّقْنَ بيْن مَن يَشكُرُ اللهَ تعالى وبيْن مَن يَكفُرُ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٨٢).

وقيلَ: شُبِّهَتِ السَّحاباتُ الماطِرةُ بالنَّاقةِ الفارِقِ -وهي الحامِلُ- الَّتي تَخرُجُ وتَنِدُّ في الأرضِ =

﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ٥﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تُبَلِّغُ رُسُلَ اللهِ وَحْيَه المُذَكِّرَ بالحَقِّ لِعبادِه[١].

﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ٦﴾.

أي: وذلك الوَحيُ إقامةٌ للحُجَّةِ مِنَ اللهِ على خَلْقِه، وتحذيرٌ لهم مِن عَذابِه[٢].

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ٧﴾.

أي: إنَّ الَّذي تُوعَدونَ به مِنَ البَعثِ يومَ القيامةِ والحِسابِ والجَزاءِ: لَكائِنٌ لا شَكَّ في ذلك[٣].

= حينَ تضَعُ، شَبَّهوا السَّحابةَ الَّتي تَنْفَرِدُ مِن السَّحابِ بهذه النَّاقةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٥).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى عَدَمِ التَّخصيصِ بشَيءٍ مُعَيَّنٍ، فقال: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك أنْ يقالَ: أَقسَمَ رَبُّنا -جَلَّ ثناؤه- بالفارِقاتِ، وهي الفاصِلاتُ بيْن الحَقِّ والباطِلِ، ولم يَخصُصْ بذلك منهنَّ بَعضًا دونَ بَعضٍ، فذلك قَسَمٌ بكُلِّ فارِقةٍ بيْن الحَقِّ والباطِلِ؛ مَلَكًا كان أو قُرآنًا أو غيرَ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

حكى غيرُ واحدٍ الاتِّفاقَ وعدمَ الخلافِ في أنَّ المرادَ: الملائكةُ؛ منهم: المهدويُّ، والقرطبيُّ، وابنُ القيم، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٩).

ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤). =

كما قال تعالى حِكايةً عن الرَّاسِخينَ في العِلمِ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ [فاطر: ٥].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ الإرسالُ نَوعانِ: إرسالُ دينٍ يُحِبُّه ويَرضاه، كإرسالِ رُسُلِه وأنبيائِه، وإرسالُ كَونٍ، وهو نَوعانِ: نوعٌ يُحِبُّه ويَرضاه، كإرسالِ ملائكتِه في تدبيرِ أمرِ خَلْقِه -على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-، ونوعٌ لا يحِبُّه، بل يَسخَطُه ويُبغِضُه، كإرسالِ الشَّيطانِ على الكُفَّارِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۞ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ أنَّه مِن تمامِ عَدْلِه وإحسانِه سُبحانَه أنْ أعْذَرَ إلى عبادِه، وألَّا يُؤاخِذَ ظالِمَهم إلَّا بعدَ كَمالِ الإعذارِ، وإقامةِ الحُجَّةِ عليه(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۞ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۞ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۞ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۞ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۞ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾

- قولُه: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۞ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۞ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۞ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۞ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ

= قال الماوَرْدي: (﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ هذا جوابُ ما تقَدَّمَ مِنَ القَسَمِ؛ لأنَّ في أوَّلِ السُّورةِ قَسَمًا). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٧).

قيل: الخِطابُ للنَّاسِ. وممَّن قال به: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٠).

وقيل: الخِطابُ للمُشرِكين. وممَّن اختاره: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٣).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٠١).

ذِكْرًا﴾ صِفاتٌ لمَوصوفاتٍ قد حُذِفَت، وأُقِيمَت صِفاتُها مُقامَها[١].

- وهذا قَسَمٌ بمَخلوقاتٍ عَظيمةٍ دالَّةٍ على عَظيمِ عِلمِ اللهِ تعالَى وقُدرتِه، والمَقصودُ مِن هذا القسَمِ تأْكيدُ الخبَرِ، وفي تَطويلِ القسَمِ تَشويقُ السَّامعِ لتَلقِّي المُقسَمِ عليه[٢].

- قولُه: ﴿عُرْفًا﴾ حالٌ مُفيدةٌ معْنى التَّشبيهِ البليغِ، أي: مِثلَ عُرْفِ الفرَسِ في تَتابُعِ الشَّعرِ بَعضِه ببَعضٍ، يُقالُ: همْ كعُرْفِ الضَّبعِ، إذا تَألَّبوا، ويُقالُ: جاؤوا عُرْفًا واحدًا. وهو صالِحٌ لوَصْفِ الملائكةِ ولوَصْفِ الرِّيحِ. وقيل غيرُ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾ تَفريعٌ على ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، إنْ أُريدَ بالمُرسَلاتِ وصْفُ الملائكةِ، فالعصْفُ تَشبيهٌ لنُزولِهم في السُّرعةِ بشِدَّةِ الرِّيحِ؛ وذلك في المُبادَرةِ في سُرعةِ الوُصولِ بتَنفيذِ ما أُمِروا به، و﴿عَصْفًا﴾ مُؤكِّدٌ للوصْفِ تَأكيدًا لتَحقيقِ الوصْفِ[٤].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ النَّشرُ: ضِدُّ الطَّيِّ، ويَكثُرُ استِعمالُه في الإظهارِ والإيضاحِ وفي الإخراجِ، فالنَّاشِراتُ إذا جُعِلَ وصْفًا للملائكةِ جاز أنْ يكونَ نَشْرَهم للوحيِ، أي: تكرير نزولِهم لذلك -على قولٍ-، وأنْ يكونَ النَّشرُ كِنايةً

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٣، ٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢١).

عن الوُضوحِ، أي: بالشَّرائعِ البيِّنةِ[١].

وإذا كان قولُه: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾ وَصْفًا للرِّياحِ فهو نشْرُ السَّحابِ في الأجواءِ، فيكونُ عطْفُه بالواوِ دونَ الفاءِ للتَّنبيهِ على أنَّه مَعطوفٌ على ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾ لا على ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ﴾؛ لأنَّ العصْفَ حالةُ مَضَرَّةٍ، والنَّشرَ حالةُ نفْعٍ[٢].

- قولُه: ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا﴾ قيل: لتَفرُّعِ الفرْقِ عن النَّشرِ عُطِفَ ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ﴾ على (النَّاشِرَاتِ) بالفاءِ، وأُكِّدَ بالمَفعولِ المُطلَقِ تَأكيدًا لتَحقيقِ الوصْفِ[٣].

- قولُه: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ الإلقاءُ مُعبَّرٌ به عن تَبليغِ الذِّكرِ مِن العالَمِ العُلويِّ إلى أهلِ الأرضِ، بتَشبيهِه بإلقاءِ شَيءٍ مِن اليَدِ إلى الأرضِ، وإلقاءُ الذِّكرِ تَبليغُ المواعظِ إلى الرُّسلِ ليُبلِّغوها إلى النَّاسِ، وهذا الإلقاءُ مُتفرِّعٌ على الفرْقِ؛ لأنَّهم يَخُصُّون كلَّ ذِكْرٍ بمَن هو مُحتاجٌ إليه، فذِكرُ الكُفَّارِ بالتَّهديدِ والوعيدِ بالعَذابِ، وذِكرُ المؤمنين بالثَّناءِ والوعْدِ بالنَّعيمِ[٤].

- على القولِ بأنَّ الآياتِ إقسامٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ بطَوائفَ مِن الملائكةِ أرسَلَهنَّ بأوامِرِه فلَعلَّ تَقديمَ النَّشْرِ -نشْرِ الشَّرائعِ ونشْرِ النُّفوسِ- والفَرْقِ على الإلقاءِ؛ للإيذانِ بكَونِها غايةً للإلقاءِ، حَقيقةً بالاعتناءِ بها، أو للإشعارِ بأنَّ كُلًّا مِن الأوصافِ المَذكورةِ مُستقِلٌّ بالدَّلالةِ على استحقاقِ الطَّوائفِ الموصوفةِ بها التَّفخيمَ والإجلالَ بالإقسامِ بهِنَّ، ولو جِيءَ بها على تَرتيبِ الوُقوعِ لَرُبَّما فُهِمَ أنَّ مَجموعَ الإلقاءِ والنَّشْرِ والفرْقِ هو المُوجِبُ لِما ذُكِرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن الاستِحقاقِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ جَوابُ القسَمِ، وزِيدَت تَأْكيدًا بـ (إنَّ)؛ لتَقويةِ تَحقيقِ وُقوعِ الجَوابِ[٢].

- و(إنَّما) في قولِه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ كَلِمتانِ هما (إنَّ) الَّتي هي حرْفُ تَأكيدٍ، و(ما) الموصولةُ، وليست هي (إنَّما) الَّتي هي أداةُ حصْرٍ، وما يُوعَدون هو البعثُ للجَزاءِ، وهم يَعلَمون الصِّلةَ؛ فلذلك جِيءَ في التَّعبيرِ عنه بالمَوصوليَّةِ، والخِطابُ للمشرِكين -على قولٍ-، أي: ما تَوَعَّدكم اللهُ به مِن العِقابِ بعْدَ البعثِ واقعٌ لا مَحالةَ وإنْ شكَكْتُم فيه أو نَفَيتُموه[٣].

- والواقعُ: الثَّابتُ، وأصلُ الواقعِ السَّاقطُ على الأرضِ، فعُبِّرَ به عن الشَّيءِ المُحقَّقِ؛ تَشبيهًا بالمُستقِرِّ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨-١٥)

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طُمِسَتۡ﴾: أي: مُحِيَ نُورُها، والطَّمْسُ: إزالةُ الأثَرِ بالمَحْوِ، وأصلُ (طمس): يدُلُّ على مَحوِ الشَّيءِ ومَسْحِه[1].

﴿نُسِفَتۡ﴾: أي: قُلِعَتْ وأُزِيلَتْ، وأصلُ (نسف): يدُلُّ على كَشْفِ شَيءٍ[2].

﴿أُقِّتَتۡ﴾: أي: جُمِعَتْ لِميقاتِ يومٍ مَعلومٍ. أو: جُعِلَ لها وَقتٌ مُنتَظَرٌ فجاء وحانَ، وأصلُ (وقت): يدُلُّ على حَدِّ شَيءٍ في زَمانٍ وغَيرِه[3].

﴿وَيۡلٞ﴾: أي: عَذابٌ وهَلاكٌ. وقيلَ: وَيلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٥).

قال الراغب: (ومَن قال: وَيْلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ وَيْلًا في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد: مَن قال اللهُ تعالى ذلك فيه فقد استحَقَّ مَقَرًّا من النَّارِ، وثَبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤).

وقال ابنُ عطيَّة: (الوَيلُ في كلامِ العَرَبِ: المصائِبُ والحُزنُ والشِّدَّةُ مِن هذه المعاني، وهي لفظةٌ تُستعمَلُ في الدُّعاءِ على الإنسانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨١). =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ القيامةِ: فإذا ذَهَب ضَوءُ النُّجومِ، وإذا فُتِحَت السَّماءُ، وإذا قُلِعَت الجِبالُ وتفَتَّتَت فصارتْ هَباءً، وإذا جُمِعَ رُسُلُ اللهِ في الوَقتِ المحَدَّدِ؛ وَقَعَ ما تُوْعَدون.

لأيِّ يَومٍ أُجِّلَ اجتِماعُ الرُّسُلِ؟ ليَومِ الفَصلِ، الَّذي يَفصِلُ فيه اللهُ تعالى بيْنَ عِبادِه. وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- ما يومُ الفَصْلِ؟

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨﴾.

أي: فإذا ذَهَب ضَوءُ النُّجومِ[1].

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩﴾.

أي: وإذا فُتِحَت السَّماءُ وانشَقَّت[2].

قال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ: ١٩].

= وقال الشنقيطي: (الأظهرُ أنَّ لفظةَ ﴿وَيۡلٞ﴾ كلمةُ عَذابٍ وهلاكٍ، وأنَّها مَصدرٌ لا فِعلَ له مِن لَفظِه، وأنَّ المسَوِّغَ للابتِداءِ بها -مع أنَّها نَكِرةٌ- كَونُها في مَعرِضِ الدُّعاءِ عليهم بالهَلاكِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٠، ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧).

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١].

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠﴾.

أي: وإذا قُلِعَت الجِبالُ، وتفتَّتَتْ فصارَتْ هَباءً[١].

قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا * فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا * فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ [الواقعة: ٥، ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى تغييرَ السَّماءِ والأرضِ؛ ذكَرَ ما فُعِلَ ذلك مِن أجْلِه، فقال[٢]:

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١﴾.

أي: وإذا جُمِعَ رُسُلُ اللهِ في الوَقتِ الَّذي حُدِّدَ لذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٤).
ويُنظر ما تقدَّم في ذكرِ الأحوالِ الَّتي تصيرُ إليها الجبالُ يومَ القيامةِ (ص: ٥٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٠، ٥٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).
قال ابن عاشور: (لا خِلافَ في أنَّ ﴿أُقِّتَتۡ﴾ مُشتَقٌّ مِنَ الوَقتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٥).

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩].

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾.

أي: لأيِّ يومٍ أُخِّرت الرُّسلُ، وضُرِب لهم الأجلُ لجمعِهم[(١)]؟

﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾.

أي: ليَوم يَفصِلُ فيه اللهُ تعالى بيْنَ عِبادِه، فيَحكُمُ بيْنَهم، ويُحاسِبُهم، ويُجازِي كُلًّا بما يَستَحِقُّ[(٢)].

قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

ثمَّ قال تعالى مُعَظِّمًا شَأنَ ذلك اليَومِ، ومُهَوِّلًا أمْرَه:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وأيُّ شَيءٍ أعلَمَك -يا محمَّدُ- ما يومُ الفَصْلِ[(٣)]؟

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۞ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

قال ابنُ عاشور: (الفَصلُ: تمييزُ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ بالقَضاءِ والجَزاءِ؛ إذ بذلك يَزولُ الالتِباسُ والاشتِباهُ والتَّمويهُ الَّذي كان لأهلِ الضَّلالِ في الدُّنيا، فتتَّضِحُ الحقائِقُ على ما هي عليه في الواقِعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٧).

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا هَوَّلَ أمْرَ يومِ القيامةِ؛ ذَكَر ما يَقَعُ فيه مِنَ الشِّدَّةِ على وَجهِ الإجمالِ، فقال[١]:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[٢].

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٦٠].

الفَوائِدُ التَّرْبَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أنَّه في مَقامِ التَّرغيبِ أوِ التَّرهيبِ فإنَّه يَنبغي التَّكرارُ، حيثُ كُرِّرَتْ الآيةُ عِدَّةَ مرَّاتٍ؛ تحذيرًا وإنذارًا، ولكلِّ مَقامٍ مَقالٌ، والتَّكرارُ قد يكونُ مِن الرَّكاكةِ ومِن البُعْدِ عن البَلاغةِ، لكِنْ إذا كان في مَوضِعٍ يَحسُنُ فيه كان ذلك مِن البَلاغةِ[٣].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ انتَزَعَ النَّاسُ مِن هذه الآيةِ تأجيلَ القُضاةِ للخُصومِ في الحُكوماتِ؛ لِيَقَعَ فَصْلُ القَضاءِ عندَ تمامِ التَّأجيلِ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ جاء في هذه السُّورةِ بَعْدَ كُلِّ جُملةٍ؛ لأنَّ كُلَّ جُملةٍ منها فيها إخبارُ اللهِ تعالى عن أشياءَ مِن أحوالِ الآخِرةِ، وتقريراتٍ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٧، ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦١٠).

مِن أحوالِ الدُّنيا؛ فناسَبَ أن يَذكُرَ الوَعيدَ عَقِيبَ كُلِّ جملةٍ منها للمُكَذِّبِ، بالوَيلِ في يومِ الآخِرةِ[١].

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّه قد كُرِّرَت هذه الجُملةُ بعَدَدِ أجزاءِ طرَفِ القَسَمِ أو أجزاءِ الجوابِ؛ لِتَكونَ كُلُّ جملةٍ منها وعيدًا على التَّكذيبِ بواحدٍ مِن تلك الأجزاءِ[٢]. وقيل: هو معَ كُلِّ آيةٍ كأنَّه مع سورةٍ مُفرَدةٍ، فلا تَكرارَ[٣]. فكلُّ آيةٍ مِن هذا الوعيدِ تَعودُ الى ما ذُكِر قبْلَها.

بلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ الفاءُ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ [المرسلات: ٧]؛ لأنَّه لَمَّا أفاد وُقوعَ البَعثِ، وكان المُخاطَبونَ يُنكِرونه ويَتعلَّلون بعدَمِ التَّعجيلِ بوُقوعِه؛ بيَّن لهم ما يَحصُلُ قبْلَه زيادةً في تَهويلِه عليهم، والإنذارِ بأنَّه مُؤخَّرٌ إلى أنْ تَحصُلَ تلك الأحداثُ العظيمةُ، وذلك على أنَّ الخطابَ للمشركينَ، وفيه كِنايةٌ رَمزيَّةٌ على تَحقيقِ وُقوعِه؛ لأنَّ الإخبارَ عن أمَاراتِ حُلولِ ما يُوعَدون يَستلزِمُ التَّحذيرَ مِن التَّهاوُنِ به؛ ولذلك خُتِمَت هذه الأخبارُ بقولِه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾[٤] [المرسلات: ١٩].

- وفي جوابِ (إذا) في جُملةِ ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه مَحذوفٌ، تَقديرُه: فإذا طُمِسَت النُّجومُ وَقَعَ ما تُوعَدون؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ [المرسلات: ٧]. والثَّاني: أنَّه ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾، على إضمارِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩، ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٣، ٤٢٤).

القولِ، أي: يُقالُ: لأيِّ يومٍ أُجِّلتْ، فالفعلُ في الحقيقةِ هو الجوابُ، وقيل: جَوابُ (إِذَا) هذه الجملةُ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

- وكُرِّرت كَلمةُ (إذا) في أوائلِ الجُمَلِ المَعطوفةِ على هذه الجُملةِ بعْدَ حُروفِ العطْفِ، مع إغناءِ حرْفِ العطفِ عن إعادةِ (إذا) كما في قولِه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنسَانُ﴾ الآيَةَ [القيامة: ٧ - ١٠]؛ لإفادةِ الاهتِمامِ بمَضمونِ كلِّ جُملةٍ مِن هذه الجُمَلِ؛ ليَكونَ مَضمونُها مُستقِلًّا في جَعْلِه عَلامةً على وُقوعِ ما يُوعَدون[2].

- وبِناءُ الأفعالِ في قولِه: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ بصِيغةِ المَبنيِّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه؛ لأنَّ المَقصودَ الاعتِبارُ بحُصولِ الفِعلِ، لا بتَعْيينِ فاعِلِه، على أنَّه مِن المَعلومِ أنَّ فاعِلَها هو اللهُ تعالَى؛ إذ لا يَقدِرُ عليه غيرُه[3].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾

- جُملةُ ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ عطْفٌ على الجُملَ الثَّلاثِ المُتقدِّمةِ، فهي تَقييدٌ لوقتٍ حادثٍ يَحصُلُ، وهي ممَّا جُعِلَ مَضمونُها علامةً على وُقوعِ ما يُوعَدون به، فيَلزَمُ أنْ يكونَ مَضمونُها مُستقبَلَ الحُصولِ[4].

- قولُه: ﴿أُقِّتَتْ﴾ قدْ يكون بمعْنى: وُقِّت لها وقتٌ، على طَريقةِ الحذْفِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والإيصالِ[١].

- وليس في اللَّفظِ بَيانُ أنَّه تحصيلٌ لوَقتِ أيِّ شيءٍ، وإنَّما لم يُبيِّنْ ذلك، ولم يُعَيِّنْ؛ مِن أجْلِ أن يَذهَبَ الوَهمُ إلى كُلِّ جانبٍ، فيَكونَ التَّهويلُ فيه أشَدَّ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ لَفظُ (أيّ) يَجوزُ أنْ تكونَ اسمَ استفهامٍ مُستعمَلٍ للتَّهويلِ، ويجوزُ أنْ تكونَ (أيّ) مَوصولةً دالَّةً على التَّعظيمِ والتَّهويلِ، وهو ما يُعبَّرُ عنه بالدَّالِّ على معْنى الكَمالِ، وتكونَ صِفةً لمَوصوفٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه ما أُضِيفَت إليه (أيّ)، وتَقديرُه: ليَومٍ أيِّ يومٍ! أي: ليَومٍ عَظيمٍ، ويكونَ معْنى ﴿أُقِّتَتۡ﴾: حضَرَ مِيقاتُها الَّذي وُقِّت لها، ويكونَ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ لامَ التَّعليلِ، أي: جُمِعَت لأجْلِ اليومِ الَّذي أُجِّلَت إليه[٣].

- وقد بُولِغ في تَهويلِه بإبهامِه أوَّلًا، ثمَّ ببيانِه بأنَّه يومُ الحُكمِ والقضاءِ، ثمَّ هوَّلَ شأنَه بأنَّك لم تُحِطْ عِلمًا بكُنْهِ ذلك[٤].

- وجُملةُ ﴿أُجِّلَتۡ﴾ صِفةٌ لـ﴿يَوۡمٍ﴾، وحُذِفَ العائدُ؛ لظُهورِه، أي: أُجِّلَت إليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٥).
وتقدَّم تعريفُ الحذف والإيصال (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٦).

- قولُه: ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾ بَيانٌ ليومِ التَّأجيلِ، وهو الَّذي يُفصَلُ فيه بيْنَ الخلائقِ[١]. وهو بدَلٌ من ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ بإعادةِ الحرْفِ الَّذي جُرَّ به المُبدَلُ منه، أي: أُحضِرَت الرُّسلُ ليومٍ عَظيمٍ هو يومُ الفصْلِ. والمُبدَلُ منه والبدَلُ دَليلانِ على جَوابِ (إذا) مِن قولِه: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ [المرسلات: ٨] إلخ؛ إذ يُعلَمُ أنَّ المعْنى: إذا حصَلَ جَميعُ ما ذُكِرَ، فذلك وُقوعُ ما تُوعَدون[٢]. وذلك على قولٍ.

٣- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أصلُ التَّركيبِ: وما أدْراكَ ما هو، وإنَّما أُظهِرَ في مَقامِ الإضْمارِ؛ لتَقويةِ استِحضارِ يومِ الفَصْلِ؛ قصْدًا لتَهويلِه، والاستِفهامانِ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ ﴿مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ مُستعمَلانِ في معْنى التَّهويلِ والتَّعجيبِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أيْ: أيُّ شَيءٍ جَعَلَك داريًا ما هُو؟! على أنَّ (مَا) الأُولى مُبتَدأٌ، و(أدراكَ) خبرُه، و(مَا) الثَّانيةَ خبَرٌ مقدَّمٌ، و﴿يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ مُبتدأٌ مؤخَّرٌ، لا بالعكسِ؛ لأنَّ مَحطَّ الفائدةِ بَيانُ كَونِ يومِ الفصلِ أمْرًا بَديعًا هائلًا، لا يُقادَرُ قَدْرُه، ولا يُكتَنُه كُنْهُه، كَما يُفيدُه خَبريَّةُ (ما)، لا بَيانُ كَونِ أمرٍ بَديعٍ مِن الأُمورِ يومَ الفصلِ كما يُفيدُه عكْسُه[٤].

٤- قولُه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ استِئنافٌ لقصْدِ تَهديدِ المشركين الَّذين يَسمَعون القرآنَ، وتَهويلِ يومِ الفصْلِ في نُفوسِهم ليَحذَروه، وهو متَّصِلٌ في المعْنى بجُملةِ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ [المرسلات: ٧] اتِّصالَ أجزاءِ النَّظمِ، فمَوقعُ جُملةِ ﴿وَيۡلٞ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٢).

يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ابتداءُ الكلامِ، ومَوقعُ جُملةِ ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: ٨] التَّأخُّرُ، وإنَّما قُدِّمَت لتُؤذنَ بمعْنى الشَّرطِ. وقدْ حصَلَ مِن تَغييرِ النَّظمِ -على هذا الوجْهِ- أنْ صارتْ جُملةُ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بمَنزلةِ التَّذييلِ، فحصَلَ في هذا النَّظمِ أُسلوبٌ رائعٌ، ومَعانٍ بدائعُ. وقيل: هذه الجُملةُ جوابُ (إذا)، أي: يَتعلَّقُ (إذا) بالاستقرارِ الَّذي في الخبَرِ، وهو ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، والتَّقديرُ: إذا حصَلَ كذا وكذا حلَّ الويلُ للمُكذِّبينَ، وهو كالبَيانِ لقولِه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾، فيَحصُلُ تَأكيدُ الوعيدِ، وعلى الوجْهِ الأوَّلِ يكونُ المرادُ بالمكذِّبينَ الَّذين كذَّبوا بالقُرآنِ، وعلى الوجْهِ الثَّاني في معْنى الجُملةِ: جَميعَ الَّذين كذَّبوا الرُّسلَ وما جاؤوهم به، وبذلك العُمومِ أفادَتِ الجُملةُ مُفادَ التَّذييلِ، ويَشملُ ذلك المشركين الَّذين كذَّبوا بالقرآنِ والبعثِ؛ إذْ هم المَقصودُ مِن هذه المواعظِ، وهم الموَجَّهُ إليهم هذا الكلامُ، فخُوطِبوا بقولِه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَيْلٌ﴾ في الأصلِ مَصدرٌ مَنصوبٌ سادٌّ مَسدَّ فِعلِه، لكنْ عُدلَ به إلى الرَّفعِ للدَّلالةِ على ثَباتِ الهَلاكِ ودَوامِه للمَدْعوِّ عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٧، ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٩).

الآيات (١٦-٢٤)

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّهِينٍ﴾: أي: ضَعيفٍ، مُمتَهَنٍ، لا خَطَرَ له عندَ النَّاسِ، ولا يُعبأُ به، وأصلُ (مهن): يدُلُّ على احتِقارٍ وحَقارةٍ في الشَّيءِ[1].

﴿قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾: أي: الرَّحم، اسْتَقرَّ المنيُّ فيه فتَمَكَّنَ، والقرارُ هنا: مكانُ الاستِقرارِ، والمَكينُ: المتمكِّنُ، وأصلُ (قرر) هنا: يدُلُّ على تَمكُّنٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا بعضَ الأدِلَّةِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه: أَلَمْ نُهْلِكِ المُكَذِّبينَ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، كقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ وغَيرِهم؟ ثمَّ نحن نُلحِقُ بهم في العَذابِ والهَلاكِ كُفَّارَ قُرَيشٍ وغَيرَهم مِنَ الكُفَّارِ المُكَذِّبينَ بالحَقِّ، وكذلك نُهْلِكُ كُلَّ كافِرٍ مُكَذِّبٍ مُجْرِمٍ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

ثمَّ يقولُ تعالى ممتنًّا على عبادِه، ومحتجًّا على الإعادةِ بالبُداءةِ: ألَمْ نَخْلُقْكم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١) و(٢٣/ ٥٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٤).

-أيُّها النَّاسُ- مِن مَنِيٍّ ضَعيفٍ، فجَعَلْناه في رَحِمِ المرأةِ مُستَقِرًّا ومحفوظًا فيه إلى وَقتِ الوِلادةِ، فقَدَرْنا على خَلْقِ النُّطفةِ إنسانًا وتصويرِه، فنِعْمَ القادِرونَ نحنُ!

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ حذَّر اللهُ عزَّ وجلَّ الكافِرين وخَوَّفَهم بأنَّ يومَ الفَصلِ كائنٌ لا مَحالةَ، وأنَّ فيه مِن الأهوالِ ما لا يُدرِكُ كُنْهَهُ إلَّا علَّامُ الغُيوبِ- أردَفَ ذلك بتَخويفِهم بأنَّه أهلَك الكفَّارَ قَبْلَهم بكُفرِهم[1].

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٦﴾.

أي: ألَمْ نُهْلِكِ المُكَذِّبينَ بآياتي ورُسُلي مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، كقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ وغَيرِهم[2]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٩/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

ممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وقال ابن عاشور: (الإهلاكُ: الإعدامُ والإماتةُ. وإهلاكُ الأوَّلينَ له حالَتانِ: حالةٌ غيرُ اعتياديَّةٍ تنشَأُ عن غَضَبِ اللهِ تعالى، وهو إهلاكُ الاستئصالِ، مِثلُ إهلاكِ عادٍ وثمودَ؛ وحالةٌ اعتياديَّةٌ، وهي ما سَنَّ اللهُ عليه نظامَ هذا العالَمِ مِن حياةٍ ومَوتٍ. وكِلْتا الحالتَينِ يَصِحُّ أن تكونَ مُرادًا هنا؛ فأمَّا الحالةُ غيرُ الاعتياديَّةِ فهي تذكيرٌ بالنَّظَرِ الدَّالِّ على أنَّ اللهَ لا يَرضى عن الَّذين كذَّبوا بالبَعْثِ، وأمَّا الحالةُ الاعتياديَّةُ فدليلٌ على أنَّ الَّذي أحيا النَّاسَ يُميتُهم؛ فلا يتعَذَّرُ أن يُعيدَ إحياءَهم). =

﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧﴾.

أي: ثمَّ نُلحِقُ بهم في العَذابِ والهَلاكِ كُفَّارَ قُرَيشٍ وغَيرَهم مِنَ الكُفَّارِ المُكَذِّبينَ بالحَقِّ، فنُهلِكُهم جميعًا كما أهلَكْنا مَن قَبْلَهم[1].

﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه يفعلُ بهؤلاء المتأخِّرينَ مِثلَ ما يفعَلُ بأولئك المتقدِّمينَ؛ بيَّن أنَّ هذا الإهلاكَ إنَّما يَفعَلُه بهم لِكَونِهم مُجرِمينَ، فلا جَرَمَ في جميعِ المجرِمينَ؛

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٤).

وذكَر الرازي أنَّه إنْ كان المرادُ مِن الإهلاكِ هو مطلقَ الإماتةِ لم يكُنْ تخويفًا للكفَّارِ؛ لأنَّ ذلك أمرٌ حاصلٌ للمؤمنِ والكافرِ، فلا يصلُحُ تحذيرًا للكافرِ، ثمَّ قال: (لِمَ لا يَجوزُ أن يكونَ المرادُ منه الإماتةَ بالتَّعذيبِ، وقد وقع ذلك في حقِّ قُرَيشٍ وهو يوم بدرٍ؟ ولِمَ لا يجوزُ أن يكونَ المرادُ مِن الإهلاكِ معنًى ثالثًا مغايرًا للأمْرَين المذكورينِ، وهو الإماتةُ المُستعقبةُ للذَّمِّ واللَّعنِ؟ فكأنَّه قيل: إنَّ أولئك المتقدِّمين لحرصِهم على الدُّنيا، عانَدوا الأنبياءَ وخاصَموهم، ثمَّ ماتوا، فقد فاتَتْهم الدُّنيا، وبقيَ اللَّعنُ عليهم في الدُّنيا، والعقوبةُ الأخرويَّةُ دائمًا سَرْمدًا، فهكذا يكونُ حالُ هؤلاء الكُفَّارِ الموجودِينَ، ومعلومٌ أنَّ مِثلَ هذا الكلامِ مِن أعظَمِ وُجوهِ الزَّجرِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٨).

قال البِقاعي: (لَمَّا كان الفِعلُ ﴿نُتۡبِعُهُمُ﴾ مرفوعًا، عَلِمْنا أنَّه ليس معطوفًا على ﴿نُهۡلِكِ﴾ لِيَكونَ تقديرًا، بل هو إخبارٌ للتَّهديدِ، تقديرُه: نحنُ إنْ شِئْنا ﴿نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي: الَّذين في زمانِك مِن كُفَّارِ العَرَبِ وغَيرِهم؛ لتكذيبِهم لك، أو الَّذين قَرُبوا مِن ذلك الزَّمانِ، كأصحابِ الرَّسِّ وأصحابِ الفيلِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٧٢).

وقال السعدي: (هذه سُنَّتُه السَّابِقةُ واللَّاحِقةُ في كُلِّ مُجرِمٍ؛ لا بُدَّ مِن عذابِه، فلِمَ لا تَعتَبِرونَ بما تَرَونَ وتَسْمَعونَ؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

لأنَّ عُمومَ العِلَّةِ يَقتضي عُمومَ الحُكمِ[١].

وأيضًا لَمَّا هدَّد مَن واجَهَ الرُّسُلَ بالتَّكذيبِ؛ تسليةً لهم، سَلَّى مَن قَطَعوه مِن أتْباعِهم ممَّا يجِبُ وَصْلُه بهم مِن المعروفِ، فقال مُستأنِفًا مُنَبِّهًا على الوَصفِ الموجِبِ لذلك الإهلاكِ[٢]:

﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٨﴾.

أي: كما أهلَكْنا المُكَذِّبينَ بي وبرُسُلي مِن الأُمَمِ الكافِرةِ، نُهْلِكُ أيضًا كُلَّ كافِرٍ مُكَذِّبٍ[٣].

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٩﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[٤].

﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الإهلاكَ على ذلك الوَجْهِ الدَّالِّ على القُدرةِ التَّامَّةِ على البَعثِ، وعلى ما يُوعَدُ به بعدَ البَعثِ؛ أتْبَعَه الدَّلالةَ بابتداءِ الخَلْقِ، وهو أدَلُّ، فقال مُقَرِّرًا ومُنكِرًا على مَن يُخالِفُ عِلْمَه بذلك عَمَلُه[٥]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

قال الشوكاني: (أي: مِثلَ ذلك الإهلاكِ نَفعلُ بكُلِّ مُشرِكٍ؛ إمَّا في الدُّنيا، أو في الآخِرةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٦).

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ألَمْ نُوجِدْكم -أيُّها النَّاسُ- مِن مَنِيٍّ ضَعيفٍ[١].

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

أي: فجَعَلْنا مَنِيَّ الرَّجُلِ في رَحِمِ المرأةِ مُستَقِرًّا ومحفوظًا فيه[٢].

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: إلى وَقتِ الوِلادةِ[٣].

قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥].

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿فَقَدَّرْنَا﴾ بتَشديدِ الدَّالِ، مِنَ التَّقديرِ، أي: خلَقْنا كُلَّ شَيءٍ مِن الإنسانِ بقَدْرٍ. وقيل: أي: قدَّرْنا خَلْقَ الإنسانِ على تاراتٍ مُختَلِفةٍ؛ مِن نُطْفةٍ وعَلَقةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).
قال الواحديُّ: (قال ابنُ عبَّاسٍ والمفسِّرونَ في قولِه: ﴿مَّكِينٍ﴾: يريدُ الرَّحِمَ، مُكِّن فيه بأنْ هُيِّئَ لاستِقرارِه فيه إلى بُلوغِ أمَدِه الَّذي جُعِل له). ((البسيط)) (١٥/ ٥٣٨) و(٢٣/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).
قال البِقاعي: (﴿إِلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي: مِقدارٍ مِنَ الزَّمانِ قَدَّره اللهُ تعالى للوِلادةِ ﴿مَّعْلُومٍ﴾ أي: عِندَنا، مِن تِسعةِ أشهُرٍ للوِلادةِ إلى ما فَوْقَها أو دُونَها، لا يَعلَمُه غَيْرُه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٧٣).

ومُضْغةٍ، وما بعدَ ذلك إلى أنْ جعَلْناه إنسانًا سَوِيًّا. وقيل: قدَّرْناه شَقِيًّا وسعيدًا، وصغيرًا وكبيرًا، وأسْوَدَ وأبيَضَ، وغيرَ ذلك(١).

٢- قِراءةُ: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بتَخفيفِ الدَّالِ، مِنَ القُدرةِ. وقيل: القِراءتانِ لُغَتانِ بمَعنى التَّقديرِ لا القُدْرةِ(٢).

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: فقَدَرْنا على خَلْقِ النُّطفةِ إنسانًا وتصويرِه، فنِعْمَ القادِرونَ نحنُ حيثُ خلَقْناه في أحسَنِ صورةٍ وهَيئةٍ(٣).

---

(١) قرأ بها نافِعٌ، والكِسائيُّ، وأبو جَعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٣٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٧٢)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٣).
ممن اختار أنَّ قولَه: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ مِن القُدرةِ: الثعلبي، والبغوي، والخازن، والسمين الحلبي، وجلال الدين المحلي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٣٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٤٩).
قال القرطبي: (رُوِي عن عِكْرِمةَ ﴿فَقَدَرْنَا﴾ مُخَفَّفَةً مِن القُدرةِ، وهو اختيارُ أبي عُبَيدٍ وأبي حاتِمٍ والكِسائيِّ لقولِه: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٠).
قال الخازن: (قُرِئ بالتخفيفِ مِن القُدرةِ، أي: قَدَرْنا على خلقِه، وتصويرِه كيفَ شِئْنا ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ حيثُ خَلَقْناه في أحسنِ صورةٍ وهيئةٍ). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٣). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٧، ٨].

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ(١).

= وقال البقاعي: (﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ أي بعظمتِنا على ذلك، أو فجَعَلْناه على مقدارٍ معلومٍ مِن الأرزاقِ والآجالِ والأحوالِ والأعمالِ ﴿ فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ نحنُ مطلقًا على ذلك وغيرِه، أو المقدِّرونَ في تلك المقاديرِ لما لنا مِن كمالِ العظمةِ بحيثُ نجعلُ ذلك بمباشرةِ مَن أردناه منه بطوعِه واختيارِه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٧٣).

وممن اختار أنَّ قولَه: ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ بمعنى قدَّرْنا بالتَّشديدِ: ابنُ قتيبةَ، والزمخشري، والنسفي، والألوسي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣١).

قال ابن قتيبة: (﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ بمعنى «قدَّرْنا» مشدَّدةً. يقال: قدَرْتُ كذا وقدَّرْتُه). ((غريب القرآن)) (ص: ٥٠٦). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٣).

وذكر الزمخشري أنَّ هذا القولَ أولى: (لقراءةِ مَن قرَأ: ﴿ فَقَدَّرْنَا ﴾ بالتَّشديدِ، ولقولِه: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٩]). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩).

وقال السعدي: (﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ أي: قَدَّرْنا ودبَّرْنا ذلك الجنينَ في تلك الظُّلماتِ، ونَقَلْناه مِن النُّطفةِ إلى العَلقةِ، إلى المضغةِ، إلى أنْ جعَله الله جسدًا، ثمَّ نفخَ فيه الرُّوحَ، ومِنهم مَن يموتُ قبلَ ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: أَمَا أهلَكْنا المكَذِّبينَ السَّابِقينَ، ثمَّ نُتبِعُهم بإهلاكِ مَن كَذَّبَ مِن الآخِرينَ؟ وهذه سُنَّتُه تعالى السَّابِقةُ واللَّاحِقةُ في كُلِّ مُجرمٍ؛ لا بدَّ مِن عَذابِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لَمْ يَظْلِمْ بهذا العذابِ؛ فهم لم يُعَذَّبوا إلَّا لِجُرْمِهم[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أنَّ النَّاسَ عندَ اللهِ سَواءٌ، فكُلُّ مَنِ استَحَقَّ عِقابًا أو ثَوابًا فهو له، يعني: لَمْ نَفعلْ بهؤلاء وحْدَهم، بل حُكْمُنا هذا شامِلٌ لكلِّ مُجرمٍ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إثباتُ الفعلِ للهِ عزَّ وجلَّ، واللهُ سُبحانَه وتعالى فَعَّالٌ لِمَا يُريدُ، والفعلُ يَقتضي التَّجَدُّدَ بحسَبِ المفعولِ، فخَلْقُ اللهِ السَّمَواتِ والأرضَ لَمْ يكُنْ أزَلِيًّا، وإنَّما كان حينَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، وخَلْقُ اللهِ للجَنينِ في بَطنِ أُمِّه لَمْ يكُنْ أزَلِيًّا، بل هو حادثٌ حينَ حُدوثِ هذا الجَنينِ، ويَتَفرَّعُ على هذه الفائدةِ فائدةٌ أخرى، وهي إثباتُ أفعالِ اللهِ الاختياريَّةِ، خِلافًا لِمَن أَنْكَرَ ذلك، وقال: إنَّ اللهَ لا يَقومُ به فِعلٌ اختياريٌّ[٤]!

٥- استُدِلَّ بقَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ على أنَّه لا يجوزُ إلقاءُ النُّطفةِ الَّتي في الرَّحِمِ في مُدَّةِ الأربعينَ الأُولى، لأنَّه لا يجوزُ أنْ نَتَجاسَرَ على هذا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

القرارِ المَكينِ، ونُخرِجَ الجَنينَ منه، لكِنَّ تحريمَه ليس كتحريمِ ما بَعْدَه مِن بُلوغِه أربعةَ أشهُرٍ[١].

٦- قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ قدْ جاء هنا التَّقريرُ على ثُبوتِ الإيجادِ بعْدَ العدَمِ إيجادًا مُتقنًا دالًّا على كَمالِ الحِكمةِ والقُدرةِ؛ ليُفضَى بذلك التَّقريرِ إلى التَّوبيخِ على إنكارِ البعثِ والإعادةِ، وإلى إثباتِ البَعثِ بإمكانِه بإعادةِ الخلْقِ كما بُدِئَ أوَّلَ مرَّةٍ، وكَفى بذلك مُرجِّحًا لوُقوعِ هذا المُمكنِ؛ لأنَّ القُدرةَ تَجْري على وَفْقِ الإرادةِ بتَرجيحِ جانبِ إيجادِ المُمكِنِ على عدَمِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استِئنافٌ بخِطابٍ مُوجَّهٍ إلى المشركين الموجودينَ الَّذين أنْكَروا البعثَ، مُعترِضٌ بيْنَ أجزاءِ الكلامِ المُخاطَبِ به أهلُ الشِّركِ في

(١) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٨٩).

وهذا مذهبُ المالكيَّةِ: أنَّه لا يجوزُ ولو قبْلَ الأرْبَعينَ يومًا. يُنظر: ((الشرح الكبير وحاشية الدسوقي)) (٢/ ٢٦٦).

وذهَب الجُمهورُ مِن الحَنَفيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنابلةِ إلى أنَّه يجوزُ إسقاطُ الجَنينِ قبْلَ نَفخِ الرُّوحِ فيه. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٣/ ١٧٦)، ((الغرر البهية)) لزكريا الأنصاري (٥/ ٣٣١)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (١/ ١٢١).

قال ابنُ باز: (إسقاطُ الجنينِ فيه تفصيلٌ؛ فإذا كان في الأربعينَ الأُولى فالأمرُ فيه أوسَعُ، ولا يَنبغي إسقاطُه، لكنْ إذا اقتَضَت المصلحةُ الشَّرعيَّةُ إسقاطَه لِمَضَرَّةٍ على الأمِّ، أو لهذا السَّبَبِ الَّذي قرَّره الأطبَّاءُ أنَّه قد يَتشوَّهُ بأسبابٍ فعَلَتْها الأمُّ: فلا حرَجَ في ذلك). ((فتاوى نور على الدرب)) (٢١/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٠).

المَحشرِ، ويَتضمَّنُ استِدلالًا على المشرِكين الَّذين في الدُّنيا؛ بأنَّ اللهَ انتقَمَ مِن الَّذين كَفَروا بيَومِ البَعثِ؛ مِن الأُمَمِ سابِقِهم ولاحِقِهم؛ ليَحذَروا أنْ يَحُلَّ بهم ما حلَّ بأولئك الأوَّلينَ والآخِرينَ(١).

- والاستِفهامُ للتَّقريرِ؛ استِدلالًا على إمكانِ البَعثِ بطَريقةِ قِياسِ التَّمثيلِ(٢).

- قولُه: ﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ استِئنافٌ، وهو وَعيدٌ لأهلِ مكَّةَ، يُريدُ: ثمَّ نَفعَلُ بأمثالِهم مِن الآخِرينَ مِثلَ ما فعَلْنا بالأوَّلِينَ، ونَسلُكُ بهم سَبيلَهم؛ لأنَّهم كذَّبوا مِثلَ تَكذيبِهم(٣).

- وحرْفُ (ثُم) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ التَّهديدَ أهمُّ مِن الإخبارِ عن أهلِ المَحشرِ؛ لأنَّه الغرَضُ مِن سَوقِ هذا كلِّه، ولأنَّ إهلاكَ الآخِرينَ أشدُّ مِن إهلاكِ الأوَّلِينَ؛ لأنَّه مَسبوقٌ بإهلاكٍ آخَرَ(٤).

- ووقَعَت جُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ مَوقِعَ البيانِ لجُملةِ ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، وهو كالتَّذييلِ يُبيِّنُ سَببَ وُقوعِ إهلاكِ الأوَّلِينَ، وأنَّه سَببٌ لإيقاعِ الإهلاكِ بكلِّ مُجرمٍ، أي: تلك سُنَّةُ اللهِ في مُعامَلةِ المُجرِمين،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٤).
وقياسُ التَّمثيلِ: هو: حَملُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المُشترَكَ الكُلِّيَّ، مِثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامِعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ: هو القياسُ الأُصوليُّ (إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما).
يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٩).

فلا مَحيصَ لكم عنها[١].

- وذِكرُ وَصْفِ المُجرِمين إيماءٌ إلى أنَّ سَببَ عِقابِهم بالإهلاكِ هو إجْرامُهم، وإنذارٌ وتَحذيرٌ مِن عاقبةِ الجُرمِ وسُوءِ أثَرِه[٢].

- قولُه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: بآياتِ اللهِ وأنبيائِه، فليس تكريرًا، وكذا إنْ أُطلِق التَّكذيبُ أو عُلِّقَ في الموضعَينِ بواحدٍ؛ لأنَّ الوَيْلَ الأوَّلَ لعذابِ الآخرةِ، وهذا للإهلاكِ في الدُّنيا، مع أنَّ التَّكريرَ للتَّوكيدِ حسَنٌ شائعٌ في كَلامِ العرَبِ[٣].

وقيل: هو تَقريرٌ لنَظيرِه المُتقدِّمِ؛ تَأكيدًا للتَّهديدِ، وإعادةً لمعْناه، فعلى أنَّ جُملةَ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ استئنافيَّةٌ- يُقدَّرُ الكلامُ المُعوَّضُ عنه تَنوينُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يومَ إذ يُقال لهم: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾، والمرادُ بالمكذِّبينَ: المُخاطَبونَ، فهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لتَسجيلِ أنَّهم مُكذِّبونَ، والمعنى: وَيلٌ يومَئذٍ لكم.

وعلى أن جُمْلةَ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ جوابُ (إذَا) أي: يَتعلَّقُ (إذا) بالاسْتِقْرارِ الَّذي في الخبَرِ، وهو ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾. والتَّقديرُ: إذا حَصَل كَذا وكَذا حَلَّ الوَيْلُ للمُكَذِّبينَ -يُقدَّرُ المحذوفُ المُعوَّضُ عنه التَّنوينُ: يومَ إذِ النُّجومُ طُمِسَت... إلخ، فتكونُ الجُملةُ تَأكيدًا لَفظيًّا لنَظيرِتها الَّتي تَقدَّمَت، والمرادُ بالمكذِّبينَ جميعُ المُكذِّبينَ، الشَّاملُ للسَّامِعينَ، وعلى الاعتِبارَينِ فتَقريرُ معْنى الجُملتَينِ حاصلٌ؛ لأنَّ اليَومَ يومٌ واحدٌ، ولأنَّ المُكذِّبينَ يَصدُقُ بالأحياءِ وبأهلِ المحشَرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٩، ٤٣٠). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٥٠٦).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- الاستِفهامُ تَقريريٌّ استِدلالًا على إمكانِ البَعثِ بطَريقةِ قِياسِ التَّمثيلِ[١]، وجِيءَ به هنا على طَريقةِ تَعدادِ الخِطابِ في مَقامِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، وكلٌّ مِن التَّقريرِ والتَّقريعِ مِن مُقتضَياتِ تَرْكِ العطْفِ؛ لشَبَهِه بالتَّكريرِ في أنَّه تَكريرُ معْنًى وإنْ لم يكُنْ تَكريرَ لَفظٍ، والتَّكريرُ شَبيهٌ بالأعدادِ المَسرودةِ، فكان حقُّه تَرْكَ العطْفِ فيه[٢].

- قولُه: ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ الماءُ: هو ماءُ الرَّجُلِ. والمَهينُ: الضَّعيفُ، فَعيلٌ مِن مَهُنَ، إذا ضعُفَ، وهذا الوصْفُ كِنايةٌ رَمزيَّةٌ[٣] عن عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالَى؛ إذْ خَلَقَ مِن هذا الماءِ الضَّعيفِ إنسانًا شَديدَ القُوَّةِ عقْلًا وجِسمًا[٤].

- وحرْفُ (مِنْ) للابتداءِ؛ لأنَّ تَكوينَ الإنسانِ نشَأَ مِن ذلك الماءِ[٥].

- وقولُه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ تَفصيلٌ لكَيفيَّةِ الخلْقِ على سَبيلِ الإدماجِ[٦] مع مُناسَبتِه؛ لأنَّ له دَخْلًا في تَبْيينِ إمكانِ الإعادةِ؛ إذ شَديدُ القُدرةِ لا يُعجِزُه شَيءٌ؛ ولذلك ذيَّلَه بقولِه: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾[٧].

- قولُه: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ الفاءُ في قولِه: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ للتَّفريعِ على قولِه:

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٠).

(٣) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٠، ٤٣١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٣١).

(٦) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣١).

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، أي: جعَلْناه في الرَّحمِ إلى انتهاءِ أمَدِ الحمْلِ، فقَدَرْنا أطوارَ خلْقِكم حتَّى أخْرَجْناكم أطْفالًا، والفاءُ في ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ للتَّفريعِ على (قدَرْنا)، أي: تَفريعِ إنشاءِ ثَناءٍ ومَدْحٍ، أي: فدلَّ تَقديرُنا على أنَّنا نِعمَ القادِرون، أي: كان تَقديرُنا تَقديرَ أفضلِ قادرٍ، وهذا تَنويهٌ بذلك الخلْقِ العَجيبِ بالقُدرةِ[1]. وذلك على أنَّ ﴿فَقَدَرْنَا﴾ من التَّقديرِ.

- والقادِرونَ: اسمُ فاعلٍ مِن (قدَرَ) اللَّازم؛ إذا كان ذا قُدرةٍ، وبذلك يكونُ الكلامُ تَأسيسًا لا تأكيدًا -وذلك على أنَّ ﴿فَقَدَرْنَا﴾ من التَّقديرِ-، أي: فنِعمَ القادِرون على الأشياءِ. وعَلامةُ الجمْعِ للتَّعظيمِ، مِثل نُونِ (قدَرْنا)؛ فإنَّ القُدرةَ لَمَّا أتَتْ بما هو مُقْتضى الحِكمةِ كانت قُدرةً جَديرةً بالمدْحِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٥-٢٨)

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كِفَاتًا﴾: الكِفَاتُ: السِّتْرُ، والوِعاءُ الجامِعُ للشَّيءِ، يُقالُ: كَفَتَ الشَّيءَ: إذا ضَمَّه وجَمَعَه، والكَفْتُ: الضَّمُّ والجَمْعُ، فالأرضُ تَكفِتُ -تَحفَظُ وتَستُرُ وتَضُمُّ- الأحياءَ على ظَهْرِها، وتَكفِتُ الأمواتَ في بَطْنِها، وأصلُ (كفت): يدُلُّ على جَمعٍ وضَمٍّ[١].

﴿رَوَٰسِىَ﴾: أي: جِبالًا ثَوابِتَ، وأصلُ (رسو): يدُلُّ على ثَباتٍ[٢].

﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾: أي: عالياتٍ مُرتَفِعاتٍ، وكُلُّ عالٍ فهو شامِخٌ، وأصلُ (شمخ): يدُلُّ على تعَظُّمٍ وارتِفاعٍ[٣].

﴿فُرَاتًا﴾: الفُراتُ: الماءُ الشَّديدُ العُذوبةِ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٨).

قَولُه تعالى: ﴿كِفَاتًا﴾: هو مَصدَرُ كَفَت يَكْفِتُ: أي: ضَمَّ وجَمَع.

و﴿أَحْيَآءً﴾: مفعولٌ به للمصدَرِ ﴿كِفَاتًا﴾، أي: تَكْفِتُ الأرضُ الأحياءَ والأمواتَ، أي: تَضُمُّهم أحياءً على ظَهْرِها، وأمواتًا في بَطْنِها. ويجوزُ نصبُ ﴿أَحْيَآءً﴾ على الحاليَّةِ مِن مفعولِ ﴿كِفَاتًا﴾ المحذوفِ؛ للعِلْمِ به، والتَّقديرُ: كِفَاتًا الإِنْسَ أحياءً وأمواتًا. وقيل غيرُ ذلك[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: أَلَمْ نَجعَلِ الأرضَ وِعاءً يَضُمُّ ويَجمَعُ جَميعَ الخَلْقِ؛ الأحياءَ على ظَهْرِها، والأمواتَ في بَطْنِها؟ وجَعَلْنا في الأرضِ جِبالًا ثوابتَ عَظيمةَ الارتِفاعِ، وأسْقَيْناكم ماءً عَذْبًا سائِغًا.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا دَلَّ تعالى بابتِداءِ الخَلْقِ على تمامِ قُدرتِه؛ أتْبَعَه الدَّلالةَ بانتِهاءِ أمرِه وأثنائِه، وما دَبَّر فيهما مِن المَصالحِ، فقال[2]:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٩، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٤).

أي: أَلَمْ نَجعَلِ الأرضَ وِعاءً يَضُمُّ ويَجمَعُ جَميعَ الخَلْقِ[(١)]؟

﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: تَجمَعُ وتَضُمُّ الأحياءَ على ظَهْرِها، والأمواتَ في بَطْنِها[(٢)].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾.

أي: وجَعَلْنا في الأرضِ جِبالًا ثَوابِتَ عَظيمةَ الارتِفاعِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٧/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).
قال ابن عطيَّة: (الكِفَاتُ: السِّترُ، والوِعاءُ الجامعُ للشَّيءِ بإجماعٍ، تقولُ: كَفَتَ الرَّجُلُ شَعرَه: إذا جمَعَه بخِرقةٍ، فالأرضُ تَكفِتُ الأحياءَ على ظَهرِها، وتَكفِتُ الأمواتَ في بَطنِها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٩). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٧/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).
قال السعدي: (﴿أَحْيَآءً﴾ في الدُّورِ، ﴿وَأَمْوَٰتًا﴾ في القُبورِ، فكما أنَّ الدُّورَ والقُصورَ مِن نِعَمِ اللهِ على عِبادِه ومِنَّتِه، فكذلك القُبورُ رَحمةٌ في حَقِّهم، وسترٌ لهم عن كَونِ أجسادِهم باديةً للسِّباعِ وغَيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٥).
ممَّن اختار أنَّ الرَّواسيَ: الجبالُ الثَّوابتُ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، وابن عطية، والقرطبي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٤).
وقال ابن كثير: (﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ يعني: الجبالَ، أرسَى بها الأرضَ؛ لئلَّا تَميدَ =

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٢، ٣٣].

﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾.

أي: وأسْقَيْناكم ماءً عَذْبًا سائِغًا[(١)].

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝ لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ استَدَلَّ به مَن قال: إنَّ

= وتَضْطَرِبَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

وقال البِقاعي: (﴿رَوَٰسِيَ﴾ لولاها لَمادَتْ بأهلِها، ومِن العجائِبِ أنَّ مَراسيَها مِن فَوقِها؛ خِلافًا لِمَراسي السُّفُنِ. ﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ أي: هي معَ كَونِها ثَوابتَ في أنفُسِها مُثَبِّتةً لغيرِها- طوالٌ جِدًّا، عظيمةُ الارتفاعِ، كأنَّها قد تكبَّرَتْ على بقيَّةِ الأرضِ، وعلى مَن يُريدُ صُعودَها). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

النَّبَّاشَ يُقْطَعُ؛ لأنَّ بَطْنَ الأرضِ حِرْزٌ للكَفَنِ، فإذا نَبَش وأخَذَ منه فهو سارِقٌ[١]، فقد جُعِل القَبْرُ للمَيِّتِ كالبَيتِ للحَيِّ، فيكونُ حِرْزًا[٢]، والسَّارِقُ مِن الحِرزِ يجبُ عليه القطعُ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ يدُلُّ على وُجوبِ مُواراةِ الميِّتِ ودَفْنِه[٤]، وأنَّ دَفْنَ الميِّتِ فَرْضُ كفايةٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى امْتَنَّ على العِبادِ[٥] بجَعْلِ الأرضِ صالِحةً لدَفنِ الأمواتِ، فيُؤخَذُ مِنَ الآيةِ وُجوبُ الدَّفنِ في الأرضِ إلَّا إذا تعَذَّر ذلك؛ كالَّذي يموتُ في سفينةٍ بَعيدةٍ عن مراسي الأرضِ، أو لا تستطيعُ الإرساءَ، أو كان الإرساءُ يَضُرُّ بالرَّاكِبينَ، أو يُخافُ تَعَفُّنُ الجُثَّةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٣/ ٨٤)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٣).

اختلَف الفقهاءُ في حُكمِ النَّبَّاشِ (الَّذي يَسرِقُ أكفانَ الموتى بعدَ دَفنِهم في قُبورِهم)؛ فيُقطَعُ عندَ الجمهورِ: المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ وأبي يوسفَ مِن الحنفيَّةِ؛ وذلك على اعتبارِه سارقًا، ولا يُقطَعُ عندَ أبي حنيفةَ ومحمَّدِ بن الحسَنِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٣/ ٢٤٧) و(١٩/ ٢٠٩) و(٢٤/ ٢٩٤) و(٤٠/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٢٨).

قال ابنُ العربي: (قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ يَقْتَضي أَنْ يُدْفَنَ فيها الميتُ بجَميعِ أجْزائِه كُلِّها مِن شَعرٍ، وظُفْرٍ، وثِيابٍ، وما يُواريه على التَّمامِ، وما اتَّصَل به وما بانَ عنه). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٥٧).

وقال الإمام أحمدُ بنُ حنبل: في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾: (تكفتونَ فيها الأحياءَ: الشعرَ والدمَ، وتدفنونَ فيها موتاكم). وقال أيضًا في هذه الآيةِ: (يُدْفَنُ ثَلَاثَةُ أَشياءَ: الأظافرُ، والشَّعرُ، والدَّمُ. ثُمَّ قال: ﴿وَأَمْوَاتًا﴾: يُدْفَنُ فيها الأمواتُ). ((الوقوف والترجل من مسائل الإمام أحمد)) للخلال بتصرفٍ يسيرٍ (ص: ١٤١).

(٥) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٥/ ٢٦٤).

فإنَّها يُرمَى بها في البَحرِ وتُثَقَّلُ بشَيءٍ؛ لِتَرسُبَ إلى غريقِ الماءِ، وعليه فلا يجوزُ إحراقُ الميِّتِ كما يفعَلُ مجوسُ الهِندِ، وكان يَفعَلُه بعضُ الرُّومانِ، ولا وَضْعُه لكواسِرِ الطَّيرِ كما كان يَفعَلُ مجوسُ الفُرْسِ[(١)]!

٣- قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ قد تَصدَّى الكلامُ لإثباتِ البَعثِ بشَواهدَ ثلاثةٍ؛ أحدُها: بحالِ الأُمَمِ البائدةِ في انْقِراضِها، والثَّاني: بحالِ تَكوينِ الإنسانِ، والثَّالثُ: مَصيرُ الكلِّ إلى الأرضِ، وفي كلِّ ذلك إبطالٌ لإحالَتِهم وُقوعَ البعثِ؛ لأنَّهم زَعَموا استحالتَه، فأُبطِلَت دَعْواهم بإثباتِ إمكانِ البعثِ؛ فإنَّه إذ ثَبَتَ الإمكانُ بَطَلَت الاستِحالةُ، فلمْ يَبْقَ إلَّا النَّظرُ في أدِلَّةِ تَرجيحِ وُقوعِ ذلك المُمكنِ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾

- الهمزةُ في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّقريريِّ[(٣)].

- وقَدَّم الأرضَ؛ لأنَّ أقرَبَ الأشياءِ إلينا مِن الأُمورِ الخارجيَّةِ: هو الأرضُ[(٤)].

- وقدْ جاء هذا التَّقريرُ على سَننِ سابقَيْه في عدَمِ العطفِ؛ لأنَّه على طَريقةِ التَّكريرِ للتَّوبيخِ، وهو تَقريرٌ لهم بما أنْعَمَ اللهُ به عليهم مِن خلْقِ الأرضِ لهم بما فيها ممَّا فيه مَنافِعُهم، ومَحلُّ الامتِنانِ هو قولُه: ﴿أَحْيَاءً﴾، وأمَّا قولُه: ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ فتَتميمٌ[(٥)] .....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٢).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤١٣).

وإدماجٌ[١]؛ لأنَّ فيه مُشاهَدةَ المُلازَمةِ بيْنَ الأحياءِ والأمواتِ تدُلُّ على أنَّ الحياةَ هي المقصودُ مِن الخِلقةِ، وهذا تَقريرٌ لهم بالاعترافِ بالأحوالِ المُشاهَدةِ في الأرضِ، الدَّالَّةِ على تَفرُّدِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ[٢].

- وتَنكيرُ ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ للتَّفخيمِ -مع أنَّها تَكفِتُ الأحياءَ والأمواتَ جميعًا-، كأنَّه قيل: تَكفِتُ أحياءً لا يُعَدُّون، وأمواتًا لا يُحصَرون، على أنَّ أحياءَ الإنسِ وأمواتَهم لَيسوا بجَميعِ الأحياءِ والأمواتِ. فالتنكير للتَّعظيمِ مُرادًا به التَّكثيرُ؛ ولذلك لم يُؤتَ بهما مُعرَّفَينِ باللَّامِ. وجُوِّز أنْ يكونَ للتبعيضِ بإرادةِ أحياءِ الإنسِ وأمواتِهم، وهم ليسوا بجميعِ الأحياءِ والأمواتِ، ولا ينافي ذلك التَّفخيمَ؛ نظرًا إلى أنَّه بعضٌ غيرُ محصورٍ، كثيرٌ في نفسِه. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: تَكفِتُكم أحياءً وأمواتًا، فيَنتصِبَا على الحالِ مِن الضَّميرِ؛ لأنَّه قد عُلِمَ أنَّها كِفاتُ الإنسِ. وقيلَ: هُو مصدرٌ نُعِتَ به للمُبالغةِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ جُمِعَ ﴿رَوَٰسِيَ﴾ على فَواعِلَ؛ لوُقوعِه صِفةً لِمُذَكَّرٍ غيرِ عاقلٍ[٤].

- ونُكِّرَ ﴿رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ و﴿مَّآءً فُرَاتًا﴾ لإفادةِ التَّبعيضِ؛ لأنَّ في السَّماءِ جِبالًا؛ قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣]، وفيها ماءٌ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٢، ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩، ٦٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤).

فُراتٌ كثيرٌ، بلْ هي مَنبَعُه ومَصبُّه. أو تَنوينُ ﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ و﴿مَّآءً فُرَاتًا﴾؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ؛ لدَلالةِ ذلك على عَظيمِ القُدرةِ[1].

- وعُطِفَ ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ لِمُناسَبةِ ذِكرِ الجِبالِ؛ لأنَّها تَنحدِرُ منها المياهُ تَجْري في أسافِلِها، وهي الأوديةُ، وتَقِرُّ في قَراراتٍ وحِياضٍ وبُحَيراتٍ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤).

الآيات (٢٩-٣٤)

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾: يعني: دُخانَ جَهنَّمَ إذا ارتَفَع انشَعَب وافتَرَق ثلاثَ فِرَقٍ، والتَّشَعُّبُ: تفرُّقُ الجِسْمِ الواحِدِ فِرَقًا، وأصلُ (شعب): يدُلُّ على الافتِراقِ[١].

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾: أي: لا يُظِلُّ مِن الحرِّ، ولا يُفيدُ فائدةَ الظِّلِّ، وأصلُ (ظلل): يَدُلُّ عَلَى سَتْرِ شيءٍ لشَيءٍ، وهو الَّذي يُسَمَّى الظِّلَّ[٢].

﴿ٱللَّهَبِ﴾: أي: لَهبِ النَّارِ، واللَّهَبُ ما يَعلو على النَّارِ إذا اضْطَرَمَتْ مِن أحْمَرَ وأصْفَرَ وأخْضَرَ، واللَّهَبُ: اضْطِرامُ النَّارِ، ويُقالُ للدُّخَانِ وللغُبارِ، وأصلُ (لهب): ارْتِفاعُ لِسانِ النَّارِ، ثُمَّ يُقاسُ عليه ما يُقارِبُه. تقولُ: الْتَهَبَتِ النَّارُ الْتِهابًا. وكلُّ شَيءٍ ارتَفَع ضَوْؤُه، ولَمَع لَمَعانًا شَديدًا فإنَّه يُقالُ فيه ذلك[٣].

﴿كَٱلْقَصْرِ﴾: أي: كالدُّورِ الكِبارِ المُشَيَّدةِ، والحُصونِ والمدائِنِ في العِظَمِ، وهو واحِدُ القُصورِ. وقيل: القَصْرُ: أُصُولُ النَّخْلِ والشَّجَرِ العِظَامِ، جَمعُ قَصْرةٍ، مِثلُ جَمْرةٍ وجَمْرٍ، وتَمْرةٍ وتَمْرٍ. والقَصْرةُ: الواحِدةُ مِن الحَطَبِ الغَليظِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير =

﴿جِمَٰلَتٌ﴾: الجِمالةُ: جَمْعُ الجَمَلِ المعروفِ، مِثْلُ: حَجَرٍ وحِجارةٍ. وقيل: هي حِبالُ السُّفُنِ يُجمَعُ بَعضُها إلى بَعضٍ، حتَّى تكونَ كأوساطِ الرِّجالِ، وأصلُ (جمل): يدُلُّ على تجَمُّعٍ وعِظَمِ الخَلْقِ[(١)].

﴿صُفْرٌ﴾: أي: سُودٌ، جمعُ أصفرَ، يُقالُ: جمَلٌ أصفرُ، أي: أسْوَدُ، والصُّفْرةُ: لَونٌ مِن الألوانِ الَّتي بيْن السَّوادِ والبَياضِ، وهي إلى السَّوادِ أقرَبُ، وقد سُمِّيَتْ صُفْرًا؛ لأنَّ سَوادَها يَضرِبُ إلى الصُّفرةِ، وأصل (صفر) هنا: لَوْنٌ مِن الألوانِ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما يَنتظِرُ هؤلاءِ المكذِّبينَ مِن العذابِ والنَّكالِ: يُقالُ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ: سِيروا إلى النَّارِ الَّتي كُنتُم تُكَذِّبونَ بها في الدُّنيا، سِيروا إلى ظِلٍّ مِن دُخَانٍ ذي ثلاثِ شُعَبٍ، لا يُظِلُّ الكافِرينَ، ولا يَقِيهم مِن لَهَبِ النَّارِ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى عِظَمَ شَرَرِ النَّارِ، فيقولُ: إنَّ النَّارَ مِن شِدَّةِ استِعارِها وتَلَهُّبِها تَرْمي بشَرَرٍ عَظيمٍ يَتطايَرُ منها، كالقُصورِ العاليةِ، كأنَّه جِمالٌ سُودٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوَعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩﴾.

= ابن عطية)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٣).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٠٨٣)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ذكَرَ أنَّ للمُكَذِّبينَ باللهِ وأنبيائِه واليَومِ الآخِرِ العذابَ في يومِ الفَصلِ والجزاءِ؛ بيَّن هنا نوعَ ذلك العذابِ بما يَحارُ فيه أولو الألبابِ، ويَخِرُّ مِن هَولِه كُلُّ مُخْبِتٍ أوَّابٍ[1].

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩﴾.

أي: يُقالُ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ: سِيروا إلى النَّارِ الَّتي كُنتُم تُكَذِّبونَ بها في الدُّنيا[2].

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ٣٠﴾.

أي: سِيروا إلى ظِلٍّ مِن دُخَانٍ يَرتَفِعُ مِنَ النَّارِ ويَتصاعَدُ حتَّى يتشَعَّبَ إلى ثلاثِ شُعَبٍ عَظيمةٍ[3].

﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ٣١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٩/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤، ٤٣٥).

قال الشوكاني: (تَقولُ لهم ذلك خَزَنَةُ جهنَّمَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٣). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٥، ٤٣٦).

قال ابنُ قُتَيْبَةَ: (شَأنُ الدُّخَانِ العَظيمِ إذا ارتَفَع أن يتشَعَّبَ، فيَكونون فيه إلى أن يُفرَغَ مِن الحِسابِ، كما يكونُ أولياءُ اللهِ في ظِلِّ عَرْشِه أو حيثُ شاء مِنَ الظِّلِّ إلى أن يُفرَغَ مِن الحِسابِ، ثمَّ يُؤمَرُ بكُلِّ فَريقٍ إلى مُستَقَرِّه مِن الجنَّةِ أو النَّارِ). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٩٣، ١٩٤).

وقال ابنُ عاشور: (فإنَّ النَّارَ إذا عَظُمَ اشتِعالُها تصاعَدَ دُخَانُها مِن طَرَفَيْها ووسَطِها؛ لشِدَّةِ انضِغاطِه في خُروجِه منها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٥).

أي: لا يُظِلُّ المُكَذِّبينَ مِن حَرِّها، ولا يَقِيهم مِن لَهَبِها[١].

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: إنَّ النَّارَ مِن شِدَّةِ استِعارِها وتَلَهُّبِها تَرْمي بشَرَرٍ عَظيمٍ يَتطايَرُ منها، كأنَّه قُصورٌ عاليةٌ[٢]!

﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢، ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

قال القرطبي: (واللَّهَبُ: ما يَعلو على النَّارِ إذ اضطرَمَت؛ مِن أحمَرَ، وأصفَرَ، وأخضَرَ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠١، ٦٠٤، ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧).

قال ابنُ جُزَي: (والقَصرُ واحِدُ القُصورِ، وهي الدِّيارُ العِظامُ، شَبَّه الشَّرَرَ به في عَظَمَتِه وارتفاعِه في الهواءِ. وقيل: هو الغليظُ مِن الشَّجَرِ، واحِدُه قَصْرةٌ، كجَمْرةٍ وجَمْرٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٣).

وقال ابن الجوزي: (﴿كَالْقَصْرِ﴾ قرأ الجُمهورُ بإسكانِ الصَّادِ، على أنَّه واحِدُ القُصورِ المَبنيَّةِ. وهذا المعنى في روايةِ ابنِ أبي طَلْحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ، وهو قولُ الجُمهورِ. وقرأ ابنُ عبَّاسٍ، وأبو رَزِينٍ، ومجاهِدٌ، وأبو الجَوْزاءِ: «كَالْقَصَرِ» بفتحِ الصَّادِ. وفي أفرادِ البُخاريِّ [٤٩٣٢] مِن حديثِ ابنِ عبَّاسٍ، قال: كُنَّا نَرفَعُ الخَشَبَ بِقَصَرٍ [أي: قَدْر] ثلاثةَ أذرُعٍ أو أقَلَّ، فنَرفَعُه للشِّتاءِ، فنُسمِّيه: القَصَرَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨٥).

وقال ابنُ حجر: («فنُسَمِّيه القَصرَ» بسُكونِ الصَّادِ وبفَتحِها، وهو على الثَّاني جمعُ قَصرةٍ، أي: كأعناقِ الإبلِ، ويؤيِّدُه قراءةُ ابنِ عبَّاسٍ: «كالقَصَرِ» بفتحتَين. وقيل: هو أصولُ الشَّجَرِ. وقيل: أعناقُ النَّخلِ. وقال ابنُ قُتَيْبةَ: القَصْرُ: البَيتُ، ومَن فَتَح أراد أصولَ النَّخلِ المقطوعةِ، شبَّهها بقَصَرِ النَّاسِ، أي: أعناقِهم، فكأنَّ ابنَ عبَّاسٍ فَسَّر قراءتَه بالفتحِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٦٨٨).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ جَمعُ جَمَلٍ، يعني: أنَّ الشَّرَرَ كالجِمالِ الصُّفْرِ[١].

٢- قِراءةُ: ﴿جُمَالَاتٌ﴾ قيل: جَمعُ جُمالةٍ، مِنَ الشَّيءِ المُجمَلِ، وقيل: هو الحَبلُ الغَليظُ كحِبالِ السُّفُنِ والجُسورِ. وقيل: هذه القراءةُ والَّتي تليها بمعنًى واحدٍ، وهي الجِمالُ[٢].

٣- قراءة: ﴿جِمَالَاتٌ﴾ جمعُ جِمالةٍ، أو جِمالٍ، فيَكونُ جَمْعَ الجَمعِ، وهو بمعنَى القِراءةِ الأُولى، أي: أنَّ الشَّرَرَ كالجِمالِ الصُّفْرِ[٣].

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفۡرٌ ٣٣﴾.

أي: كأنَّ الشَّرَرَ الَّذي يَتطايَرُ مِن جَهَنَّمَ جِمالٌ سُودٌ[٤].

---

(١) قَرَأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ، وحفصٌ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٦٠).

(٢) قرأ بها رُوَيسٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٨)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١١/ ٧٥)، ((المحتسب)) لابن جني (٢/ ٣٤٧).

(٣) قرأ بها الباقونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٥ - ٦٠٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧). وممَّن اختار القولَ المذكورَ -أنَّ المرادَ: جِمالٌ سُودٌ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وأبو عُبَيْدَةَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، ومكِّي، والواحدي، والقرطبي، والنسفي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٦)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٥)، ((مجاز =

= القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٧١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

قال الواحدي: (الصُّفْرُ: معناها: السُّودُ، في قَولِ المفَسِّرينَ. قال الفَرَّاء: الصُّفرُ: سُودُ الإبِلِ، لا تَرى أسْوَدَ مِنَ الإبِلِ إلَّا وهو مُشرَبٌ صُفرةً؛ لذلك سَمَّتِ العَرَبُ سُودَ الإبِلِ صُفْرًا). ((الوسيط)) (٤/ ٤٠٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٥).

وقال الشوكاني: (إذا كانت العَرَبُ تُسَمِّي الأسْوَدَ أصفَرَ لم يَبْقَ إشكالٌ؛ لأنَّ القُرآنَ نَزَل بلُغَتِهم، وقد نَقَل الثِّقاتُ عنهم ذلك، فكان ما في القُرآنِ هنا واردًا على هذا الاستِعمالِ العَربيِّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٤).

وقال الرَّسْعَني: (وهذا قولُ الحسَنِ، ومجاهِدٍ، وقَتادةَ، وعامَّةِ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٣٩).

وقال الرازي: (الأكثَرونَ على أنَّ المرادَ منه: سُودٌ تَضرِبُ إلى الصُّفرةِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٥).

وقال الشنقيطي: (العربُ لا تُطلِقُ الصُّفرةَ وتُريدُ السَّوادَ إلَّا في الإبِلِ خاصَّةً دونَ غيرِها... والمرادُ بـ «الصُّفْرِ»... «السُّودِ»؛ لأنَّ شرَرَ نارِ الآخرةِ أَسْوَدُ، والعربُ إنَّما تُطلِقُ الصُّفرةَ على السَّوادِ في الإبِلِ خاصَّةً دونَ غيرِها مِن سائرِ الحيواناتِ). ((العذب النمير)) (١/ ١٢٩).

وممَّن اختار أنَّ الصُّفرةَ على ظاهِرِها: الثعلبيُّ، والبغوي، والبيضاوي، والخازن، والبِقاعي، والعُلَيمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧).

قال البِقاعي: (﴿صُفْرٌ﴾ جَمعُ أصفَرَ، لِلَّوْنِ المعروفِ. وقيل: المرادُ به سَوادٌ يَضرِبُ إلى صُفرةٍ كما هي ألوانُ الجِمالِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٧٩).

وقال ابن عاشور: (والصُّفْرةُ: لَونُ الشَّرَرِ إذا ابْتَعَد عن لَهيبِ نارِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧).

وقال ابن جُزَي: (و﴿صُفْرٌ﴾ على ظاهِرِه؛ لأنَّ لَونَ النَّارِ يَضرِبُ إلى الصُّفرةِ. وقيل: صُفْرٌ هنا بمعنى سُودٍ، يُقالُ: جمَلٌ أصفَرُ، أي: أسْوَدُ. وهذا أَلْيَقُ بوَصفِ جهنَّمَ). ((تفسير ابن جزي)) =

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[١].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ﴾ فيه أصلٌ مِن قواعِدِ الهَندسةِ، وهو أنَّ الشَّكلَ المثَلَّثَ لا ظِلَّ له[٢]، فهو شَكلٌ إذا نُصِبَ في الشَّمسِ كَيْفَما نُصِبَ على أيِّ ضِلعٍ كان مِن أضلاعِه لا يكونُ له ظِلٌّ؛ لتَحديدِ رُؤوسِ زَواياهُ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ * كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾، وهي السُّودُ الَّتي تَضرِبُ إلى لَونٍ فيه صُفرةٌ، وهذا يدُلُّ على أنَّ النَّارَ مُظلِمةٌ؛ لَهَبُها وجَمْرُها وشَرَرُها، وأنَّها سَوْداءُ، كَريهةُ المَرْأَى، شديدةُ الحرارةِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه الله تبارك وتعالَى: ﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ هذا خِطابٌ للمُكذِّبينَ في يومِ الحَشرِ، فهو

= (٢/ ٤٤٣).

وقال ابن كثير: (﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ أي: كالإبِلِ السُّودِ. قاله مجاهِدٌ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. واختاره ابنُ جريرٍ.

وعن ابنِ عبَّاسٍ، ومجاهِدٍ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ: ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ يعني: حِبالَ السُّفنِ. وعنه -أعني: ابنَ عبَّاسٍ-: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ قِطَعُ نُحاسٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٩، ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه صِيغةُ الخِطابِ بالانطلاقِ دونَ وُجودِ مُخاطَبٍ يُؤمَرُ به الآنَ، والضَّميرُ المُقدَّرُ مع القَولِ المحذوفِ عائدٌ إلى المُكذِّبينَ، أي: يُقالُ للمكذِّبين[١].

- والأمْرُ بانطلاقِهم في قولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّسخيرِ؛ لأنَّهم تَنطلِقُ بهم مَلائكةُ العذابِ قَسْرًا[٢].

- وما كانوا به يُكذِّبونَ هو جَهنَّمُ، وعُبِّرَ عنه بالمَوصولِ وصِلَتِه ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ لِما تَتضَمَّنُه الصِّلةُ مِن النِّداءِ على خَطَئِهم وضَلالِهم[٣].

- قولُه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ أُعِيدَ فِعلُ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ على طَريقةِ التَّكريرِ؛ لقَصْدِ التَّوبيخِ أو الإهانةِ والدَّفعِ، ومِن أجْلِه أُعِيدَ فِعلُ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ وحرْفُ (إلى)، ومُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (انطَلِقوا إلى ما كُنتُم به تُكذِّبون؛ ظِلٍّ ذي ثلاثِ شُعَبٍ)؛ فإعادةُ العامِلِ في البدَلِ للتَّأكيدِ في مَقامِ التَّقريعِ[٤].

- وأُرِيدَ بالظِّلِّ دُخَانُ جَهنَّمَ لكَثافتِه، فعُبِّرَ عنه بالظِّلِّ تَهكُّمًا بهم؛ لأنَّهم يَتشَوَّقون ظِلًّا يَأْوون إلى بَرْدِه، وأُفرِدَ ﴿ظِلٍّ﴾ هنا؛ لأنَّه جُعِلَ لهم ذلك الدُّخَانُ في مَكانٍ واحدٍ ليَكونوا مُتراصِّينَ تحتَه؛ لأنَّ ذلك التَّراصَّ يَزيدُهم ألَمًا[٥].

- قوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ الظَّليلُ: القَويُّ في ظِلالِه، اشتُقَّ للظِّلِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤، ٤٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وصْفٌ مِن اسمِه لإفادةِ كَمالِه فيما يُرادُ منه، أي: ليس هو مِثلَ ظِلِّ المُؤمنينَ؛ قال تعالَى: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]. وفي هذا تَحسيرٌ لهم[١].

- والإغناءُ: جَعْلُ الغَيرِ غَنيًّا، أي: غيرَ مُحتاجٍ في ذلك الغرَضِ، وتَعديتُه بـ(مِن) على معْنى البدَليَّةِ، أو لتَضمينِه معْنى: يُبعِدُ، وبذلك سُلِبَ عن هذا الظِّلِّ خَصائصُ الظِّلالِ؛ لأنَّ شأنَ الظِّلِّ أنْ يُنفِّسَ عن الَّذي يَأوي إليه ألَمَ الحَرِّ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ظِلِّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ تَهكُّمٌ بهم، وتَعريضٌ بأنَّ ظِلَّهم غيرُ ظِلِّ المؤمنينَ؛ فقدْ أدمَجَ في معْنى ﴿لَّا ظَلِيلٖ﴾ معْنيَينِ؛ أحدُهما: التَّهكُّمُ بهم؛ لأنَّ مَفهومَ الظِّلِّ للاستِرواحِ، وهاهنا عكْسُه، كما في قولِه: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ۝ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٣، ٤٤]، وثانيهما: تَعريضٌ بأنَّ للمؤمنينَ ظِلًّا على خِلافِه؛ ليَزيدَ في تَحسُّرِهم وتنديمِهم[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ۝ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ۝ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ كالتَّعليلِ لعدَمِ غَناءِ الظِّلِّ غيرِ الظَّليلِ[٤]. ويجوزُ أنْ يكونَ هذا مِن تَمامِ ما يُقالُ للمُكذِّبينَ الَّذين قِيل لهم: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩]؛ فإنَّهم بعْدَ أنْ حَصَلَ لهم اليَّأسُ ممَّا يُنفِّسُ عنهم ما يَلقَونَ مِن العذابِ، وقيل لهم: انْطَلِقوا إلى دُخَانِ جَهنَّمَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠، ٨١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٩).

رُبَّما شاهَدوا ساعَتَئذٍ جَهنَّمَ تَقذِفُ بشَرَرِها، فيُروِّعُهم المَنظَرُ، أو يُشاهِدونها عن بُعدٍ لا تتَّضِحُ منه الأشياءُ، وتَظهَرُ عليهم مَخايلُ تَوقُّعِهم أنَّهم بالِغون إليه، فيَزدادون رَوعًا وتَهويلًا؛ فيُقالُ لهم: إنَّ جَهنَّمَ تَرْمي بشَررٍ كالقصْرِ كأنَّه جِمالتٌ صُفرٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ اعتِراضًا في أثناءِ حِكايةِ حالِهِم، أو في خِتامِ حِكايةِ حالِهِم؛ فضَميرُ ﴿إِنَّهَا﴾ عائدٌ إلى جَهنَّمَ الَّتي دلَّ عليها قولُه: ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، كما يُقال لِلَّذي يُساقُ إلى القتْلِ وقدْ رأى رجُلًا بيَدِه سَيفٌ، فاضطَرَبَ لرُؤيتِه؛ فيُقالُ له: إنَّه الجلَّادُ[١].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) للاهتمامِ به؛ لأنَّهم حينَئذٍ لا يَشُكُّون في ذلك، سَواءٌ رَأَوْه أو أُخبِروا به[٢].

- والقصْرُ: البِناءُ العالي، والتَّعريفُ فيه للجنسِ، أي: كالقُصورِ؛ لأنَّه شُبِّهَ به جمْعٌ[٣].

- وفي الآيةِ تَشبيهانِ؛ فقدْ شَبَّهَ سُبحانه الشَّرَرَ بالقَصْرِ مِن جِهةِ العِظَمِ ومِن جِهةِ الطُّولِ في الهواءِ، وشبَّهَه ثانيًا لبَيانِ التَّشبيهِ بالجِمالةِ الصُّفرِ -والجِمالاتُ: جمْعُ جِمالةٍ، وهي اسمُ جمْعِ طائفةٍ مِن الجِمالِ، أي: تُشبَّهُ طَوائفُ مِن الجِمالِ مُتوزِّعةً فِرَقًا- في اللَّونِ والكَثرةِ والتَّتابُعِ والاختلاطِ وسُرعةِ الحرَكةِ. وهذا تَشبيهٌ مُركَّبٌ؛ لأنَّه تَشبيهٌ في هَيئةِ الحجْمِ معَ لَونِه مع حَرَكتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٦، ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٠، ٦٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٠).

- ومِن الممكنِ أنْ يُقالَ: إنَّ الضَّميرَ في قولِه تعالَى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفۡرٌ﴾ عائدٌ إلى (القَصر)؛ فيذهبُ به إلى تَصويرٍ عَجيبٍ وتخييلٍ غريبٍ؛ شُبِّهتِ الشَّرارةُ حِينَ تنقَضُّ مِن النَّارِ في عِظَمِها بالقَصرِ، ثُم شُبِّهَ القصرُ المُشبَّهُ به حِينَ يأخُذُ في الارتفاعِ والانبساطِ؛ فإنَّه حينَئذٍ يَنشَقُّ عن أعدادٍ لا نِهايةَ لها، بالجِمالاتِ المتكاثرةِ، فيتصوَّرُ منها حينَئذٍ العِظَمُ أوَّلًا، والاتِّساقُ مع الكثرةِ والصُّفرةِ والحركةِ المخصوصةِ ثانيًا، فيبلغُ التَّشبيهُ إلى الذِّروةِ العُليا[1].

- وإجراءُ تِلك الأوصافِ في الإخبارِ عن النَّارِ؛ لزِيادةِ التَّرويعِ والتَّهويلِ، فإنْ كانوا يَرَون ذلك الشَّررَ -لقُرْبِهم منه- فوَصْفُه لهم لتَأكيدِ التَّرويعِ والتَّهويلِ بتَظاهُرِ السَّمعِ مع الرُّؤيةِ، وإنْ كانوا على بُعدٍ منه فالوصْفُ للكشْفِ عن حالِه الفَظيعةِ[2].

- قولُه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ تَكريرٌ لقصْدِ تَهديدِ المشرِكينَ الأحياءِ[3].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٣٩). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٥٠٦).

الآيات (٣٥-٤٠)

﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٣٧ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ٣٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٠﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ المكذِّبينَ يومَ القيامةِ: هذا اليَومُ يومُ القيامةِ لا يَتكَلَّمُ فيه المكَذِّبونَ، ولا يُؤذَنُ لهم فيَعتَذِرونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوَعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

هذا هو اليَومُ الَّذي يَحكُمُ اللهُ تعالى فيه بيْنَ عِبادِه، جمَعْناكم -أيُّها المكَذِّبونَ- مع كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ مِنْ قَبْلِكم، فإنْ كان لكم حِيلةٌ تتخَلَّصونَ بها مِن عَذابِ النَّارِ، فافعَلوا.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥﴾.

أي: في ذلك الوَقتِ والموقِفِ مِن يومِ القيامةِ لا يَتكَلَّمُ المكَذِّبونَ[(١)].

﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦﴾.

أي: ولا يُؤذَنُ لهم؛ لِيَعتَذِروا مِن ذُنوبِهم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٩، ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٩)، ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٣٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٠). =

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ(١).

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: هذا اليَومُ هو اليَومُ الَّذي يَحكُمُ اللهُ تعالى فيه بالعَدْلِ بيْنَ عِبادِه، جمَعْناكم فيه -أيُّها المكَذِّبونَ- مع كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ مِنْ قَبْلِكم(٢).

= قال السمعاني: (قولُه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾؛ لأنَّه لا عُذْرَ لهم فيَعتَذِرونَ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٢).

وقال الخازن: (ليس لهم عُذرٌ في الحقيقةِ؛ لأنَّه قد تقَدَّم الإعذارُ والإنذارُ في الدُّنيا، فلمْ يَبْقَ لهم عُذرٌ في الآخرةِ، ولكِنْ رُبَّما تخَيَّلوا خَيالًا فاسِدًا أنَّ لهم عُذرًا، فلم يُؤذَنْ لهم في ذلك العُذْرِ الفاسِدِ). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٤). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨١).

قيل: إنَّ الخِطابَ في قولِه: ﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾ للكفَّارِ المكذِّبينَ مِن هذه الأمَّةِ. وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ جرير، ومكِّيٍّ، واختاره الواحدي، والبغوي، والخازن، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨١).

وقيل: إنَّه خِطابٌ للكفَّارِ يَومَئذٍ؛ في زمَنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: مقاتل بن سليمان، وابنُ عطيَّةَ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٥). =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

﴿فَإِن كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: فإنْ كان لكم حِيلةٌ تتخلَّصونَ بها مِن عَذابِ النَّارِ، فافعَلوا؛ فلا مَفَرَّ لكم مِن عَذابي(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٣ - ٣٥].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ(٢).

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يُمكِنُ الجَمعُ بيْنَ هذا، وبيْن قولِه تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾

= وقال مقاتل: (﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ يا مَعْشَرَ أهلِ مكَّةَ، وسائرَ النَّاسِ ممَّن بَعْدَكم، ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ الَّذين كذَّبوا بالبَعثِ مِن قَبْلِكم مِن الأُمَمِ الخالِيةِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٦).

وقال ابنُ كثير: (هذه مُخاطَبَةٌ مِن الخالِقِ لِعبادِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨١، ١٨٢).

[الزمر: ٣١]، وقولِه تعالى حكايةً عن المشركينَ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقولِه: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ فيه إضمارًا، والتَّقديرُ: هذا يومُ لا يَنطِقونَ فيه بحُجَّةٍ، ولا يُؤْذَنُ لهم فيَعتَذِرونَ؛ لأنَّه ليس لهم فيما عَمِلوه عُذرٌ صحيحٌ، وجوابٌ مستقيمٌ، فإذا لم يَنطِقوا بحُجَّةٍ سليمةٍ، وكلامٍ مُستقيمٍ، فكأنَّهم لم يَنطِقوا؛ لأنَّ مَن نطَق بما لا يُفيدُ فكأنَّه لم يَنطِقْ، ونظيرُه ما يُقالُ لِمَن ذكر كلامًا غيرَ مُفيدٍ: (ما قُلْتَ شَيئًا!).

الوجهُ الثَّاني: أراد بقولِه: ﴿يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ تلك السَّاعةَ، وذلك القَدْرَ مِن الوقتِ الَّذي لا يَنطِقون فيه، كما تقولُ: (آتِيك يومَ يَقدَمُ فُلانٌ)، والمعنى: ساعةَ يَقدَمُ، وليس المرادُ باليَومِ كُلَّه؛ لأنَّ القُدومَ إنَّما يكونُ في ساعةٍ يَسيرةٍ، ولا يَمتَدُّ في كلِّ اليومِ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ في يومِ القيامةِ مَواقِفَ[1]؛ فإنَّه يومٌ طويلٌ، فتأتي عليهم ساعةٌ لا يَنطِقونَ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لهم فيَختَصِمونَ، ثُمَّ يكونُ ما شاء اللهُ يَحْلِفُون ويَجْحَدُون، فإذا فَعَلوا ذلك خَتَمَ اللهُ على أفواهِهم، وتُؤْمَرُ جوارحُهم فتَشْهَدُ على أعمالِهم بما صَنعوا، ثُمَّ تَنْطِقُ أَلْسِنَتُهم فيَشْهَدونَ على أنْفُسِهم بما صَنعوا؛ وذلك قولُه: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[2] [النساء: ٤٢]. وأيضًا فهذه الآيةُ ورَدَتْ عَقِيبَ قولِ خَزَنةِ جَهنَّمَ لهم: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠]، فيَنقادونَ

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٠)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٨٦).

ويَذهَبونَ، فقولُه: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ مُتقيِّدٌ بهذا الوقتِ في هذا العَمَلِ، وتقييدُ المطلَقِ بسَبَبِ مقدِّمةِ الكلامِ مشهورٌ في العُرفِ[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يَقُلْ: (ولا يُؤذَنُ لهم فيَعتَذِروا) كما قال: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾ [فاطر: ٣٦]؟

الجواب: أنَّ قولَه: ﴿فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ عَطفٌ على ﴿يُؤۡذَنُ﴾ مُنتَظِمٌ معه في سِلْكِ النَّفيِ، والفاءُ للتَّعقيبِ بيْنَ النَّفْيَينِ في الإخبارِ، أو لترَتُّبِ النَّفيِ الثَّاني على الأوَّلِ، ولم يَقُلْ: (فَيَعْتَذِرُوا) بالنَّصبِ في جَوابِ النَّفيِ؛ ليفيدَ الكلامُ نَفْيَ الاعتذارِ مُطلَقًا؛ إذ لا عُذْرَ لهم ولا يَعتَذِرونَ، بخِلافِ ما لو نُصِبَ وجُعِلَ جوابًا؛ فإنَّه يدُلُّ على أنَّ عَدَمَ اعتِذارِهم لعَدَمِ الإذنِ، فيُوهِمُ ذلك أنَّ لهم عُذرًا لكِنْ لم يؤذَنْ لهم فيه. وقيل: إنَّما لم يُنصَبْ في جوابِ النَّفيِ للمُحافَظةِ على رُؤوسِ الآيِ؛ لأنَّ الآياتِ بالواوِ والنُّونِ، ولو قِيلَ: (فيَعتَذِروا) لَمْ تتوافَقِ الآياتُ[(٢)].

٣- إنْ قيل: نفْيُ النُّطقِ عنهم يدُلُّ على انتفاءِ الاعتذارِ منهم؛ إذِ الاعتذارُ لا يكونُ إلَّا بالنُّطقِ؛ فما فائدةُ قولِه عَقِبَه: ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾؟

فالجوابُ: أنَّ معناهُ: لا يَنطِقون ابتِداءً بعُذرٍ مَقبولٍ، ولا بَعْدَ أن يُؤذَنَ لهم في الاعتِذارِ -لو أُذِنَ لهم فيه-؛ إذِ الخائفُ عادةً قد لا يَنطِقُ لِسانُه بعُذرٍ وحُجَّةٍ لخَوفِه، لكنْ إذا أُذِنَ له فيه نَطَقَ، ففائدةُ ذلك نفْيُ هذا المعْنى، أي: لا يَنطِقون ابتِداءً بعُذرٍ، ولا بعْدَ الإذنِ[(٣)]. ويمكنُ أن يكونَ ذلك لقطعِ الرَّجاءِ، بحيث لا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٧، ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٨، ٧٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٦٤٣، ٦٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي =

يُتوَهَّمُ أنَّه رُبَّما يُستثنى مِن نفيِ النُّطقِ ما كان مِن قَبيلِ الاعتِذارِ.

٤- قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ هذا مِن العَذابِ الَّذي يُعَذَّبونَه؛ إذ هو مِن نوعِ العَذابِ النَّفْسانيِّ، وقد يكونُ أوْقَعَ على العاقِلِ مِن العذابِ الجُسمانيِّ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ الحالةِ في ذلك اليومِ[(٢)].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ﴾ إنْ كانتْ على ظاهِرِها كان المشارُ إليه هو اليومَ الحاضرَ، وهو يومُ الفصلِ، فتَكونُ الجُملةُ مِن تَمامِ ما يُقالُ لهم في ذلك اليومِ بعْدَ قولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩]، فيكونُ في الانتقالِ مِن خِطابِهم بقولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ إلى إجْراءِ ضَمائرِ الغَيبةِ عليهم الْتِفاتٌ، يَزيدُه حُسنًا أنَّهم قدِ استَحَقُّوا الإعراضَ عنهم بعْدَ إهانتِهم بخِطابِ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، وهذا الوجْهُ أنسَبُ بقولِه تعالَى بعْدَه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]، ومَوقعُ الجُملةِ -على هذا التَّأويلِ- مَوقعُ تَكريرِ التَّوبيخِ الَّذي أفادَهُ قولُه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩]، وهو مِن جُملةِ ما يُقالُ لهم في ذلك اليومِ.

وإنْ كانت الإشارةُ إلى المذكورِ في اللَّفظِ، وهو يومُ الفصْلِ المُتحدَّثُ عنه بأنَّ

= السعود)) (٨/ ٨١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٣).

فيه الوَيْلَ للمُكذِّبينَ، كان هذا الكلامُ مُوَجَّهًا إلى الَّذين خُوطِبوا بالقرآنِ كلِّهم؛ إنذارًا للمُشرِكينَ منهم، وإنعامًا على المؤمنينَ؛ فكانتْ ضَمائرُ الغَيبةِ جاريةً على أصْلِها، وكانتْ عائدةً على المُكذِّبينَ مِن قولِه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٤]، وتكونُ الجُملةُ مُعترِضةً بيْن جُملةِ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، وجُملةِ ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]، واسمُ الإشارةِ الَّذي هو إشارةٌ إلى القريبِ مُستعمَلٌ في مُشارٍ إليه بَعيدٍ باعتبارِ قُرْبِ الحديثِ عنه[١].

- قولُه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تَكريرٌ لتَهديدِ المشركينَ، مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥] الآيةَ -على أوَّلِ الوجهَينِ في مَوقعِ ذلك-، أو هو واردٌ لِمُناسَبةِ قولِه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ -على ثاني الوجهَينِ المَذكورينِ فيه- فيكونُ تَكريرًا لنَظيرِه الواقعِ بعْدَ قولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩] إلى قولِه: ﴿صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٣]، اقْتَضى تَكريرَه عَقِبَه أنَّ جُملةَ ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ إلخ، تَتضَمَّنُ حالةً مِن أحوالِهم يومَ الحشْرِ لم يَسبِقْ ذِكرُها، فكان تَكريرُ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بعْدَها لوُجودِ مُقتضى تَكريرِ الوَعيدِ للسَّامِعينَ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ * فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: ويُقالُ لهم: هذا...[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٤).

- وهو تَكريرٌ لتَوبيخِهم بعدَ جُملةِ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩]، شُيِّعَ به القولُ الصَّادرُ بطَرْدِهم وتَحقيرِهم؛ فإنَّ المَطرودَ يُشيَّعُ بالتَّوبيخِ، فهو ممَّا يُقالُ لهم يَومَئذٍ، ولم تُعطَفْ بالواوِ؛ لأنَّها وقَعَتْ مَوقعَ التَّذييلِ للطَّردِ، وذلك مِن مُقتَضَياتِ الفصْلِ، سواءٌ أكان التَّكريرُ بإعادةِ اللَّفظِ والمعْنى، أمْ كان بإعادةِ المعْنى والغرَضِ(١).

- وجُملةُ ﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ تَقريرٌ وبَيانٌ للفَصلِ بأنَّه الفصلُ في النَّاسِ كلِّهم، لجَزاءِ المُحسنينَ والمُسيئينَ كلِّهم؛ لأنَّه إذا كان يومُ الفصلِ بيْنَ السُّعداءِ والأشقياءِ وبيْنَ الأنبياءِ وأُمَمِهم، فلا بُدَّ مِن جمْعِ الأوَّلينَ والآخِرينَ؛ حتَّى يقَعَ ذلك الفصْلُ بيْنَهم، والمُخاطَبونَ بضَميرِ ﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ المُشرِكونَ الَّذين سِيقَ الكلامُ لتَهديدِهم، وهم المُكذِّبون بالقُرآنِ، وقد أُنذِروا بما حلَّ بالأوَّلين أمْثالِهم مِن عَذابِ الدُّنيا، فأُريدَ تَوقيفُهم يَومَئذٍ على صِدقِ ما كانوا يُنذَرونَ به في الحياةِ الدُّنيا مِن مَصيرِهم إلى ما صار إليه أمْثالُهم؛ فلذلك لم يَتعلَّقِ الغرَضُ يَومَئذٍ بذِكرِ الأُمَمِ الَّتي جاءت مِن بَعْدِهم، وباعتِبارِ هذا الضَّميرِ فُرِّعَ عليه قولُه: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾، فكان تخلُّصًا إلى تَوبيخِ الحاضِرينَ على ما يَكيدونَ به للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُسلِمينَ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٥-١٧]، وأنَّ كَيدَهم زائلٌ، وأنَّ سُوءَ العُقبى عليهم. وفُرِّعَ على ذلك ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾، أي: فإنْ كان لكمْ كَيدٌ اليومَ كما كان لكمْ في الدُّنيا فافْعَلوه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨١، ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢).

- والشَّرطُ في قولِه: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ للتَّوبيخِ والتَّذكيرِ بسُوءِ صَنيعِهم في الدُّنيا، والتَّسجيلِ عليهم بالعجْزِ عن الكَيدِ يَومَئذٍ؛ حيث مُكِّنوا مِن البحثِ عمَّا عَسى أنْ يكونَ لهم مِن الكَيدِ، فإذا لم يَسْتطيعوه بعْدَ ذلك فقدْ سُجِّلَ عليهم العجْزُ[(١)].

- والأمْرُ ﴿فَكِيدُونِ﴾ للتَّعجيزِ، والتَّقريعِ لهم على كَيدِهم لدِينِ اللهِ وذَوِيه[(٢)].

- قولُه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تَكريرٌ للوعيدِ والتَّهديدِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٥٠٦).

الآيات (٤١-٤٥)

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حُسنَ عاقِبةِ المتَّقينَ يومَ القيامةِ: إنَّ المتَّقِينَ يتنَعَّمونَ في ظِلالِ الجنَّةِ، وعُيونِها الجاريةِ، وفَواكِهِها الكثيرةِ مِمَّا تَشتَهيه أنفُسُهم، ويُقالُ لهم: كُلُوا واشرَبوا بلا أذًى ولا تنغيصٍ؛ بسَبَبِ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن الأعمالِ الصَّالِحةِ، وذلك جَزاؤُنا لكُلِّ مَن أحسَنَ العمَلَ في الدُّنيا.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن بيَّن سُبحانَه ما يحلُّ بالكُفَّارِ مِن الخِزيِ والنَّكالِ يومَ القيامةِ؛ أعْقَبَه بذِكرِ ما يكونُ للمُؤمنينَ مِن السَّعادةِ والكرامةِ حينَئذٍ[1].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه: يتنَعَّمونَ في ظِلالِ الجنَّةِ، فلا حَرَّ ولا بَرْدَ فيها يُؤذِيهم، ولهم فيها عُيونٌ جاريةٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٩/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلٗا﴾ [النساء: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ * هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٥، ٥٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾ [الإنسان: ١٤].

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ٤٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر العُيونَ؛ أَتْبَعَها ما يَنشَأُ عنها[1].

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ٤٢﴾.

أي: ولهم في الجَنَّةِ فَواكِهُ مِمَّا تَشتَهيه أنفُسُهم[2].

= ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣).

قال الألوسي: (﴿ظِلَٰلٍ﴾ جمعُ ظِلٍّ، ضِدُّ الضِّحِّ، وهو أعَمُّ مِن الفَيْءِ، فإنَّه يُقالُ: ظِلُّ اللَّيلِ، وظِلُّ الجنَّةِ، ويُقالُ لِكُلِّ مَوضِعٍ لم تَصِلْ إليه الشَّمسُ: ظِلٌّ، ولا يُقالُ الفَيْءُ إلَّا لِما زالَ عنه الشَّمسُ، ويُعبَّرُ به أيضًا عن الرَّفاهةِ، وعن العِزَّةِ والمَناعةِ، وعن هذا المعنى حمَل الرَّاغبُ ما في الآيةِ، والمُتبادرُ منه ما هو المعروفُ، ويؤيِّدُه ما تقدَّم في المُقابِلِ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ [المرسلات: ٣٠] إلخ ... وأيًّا ما كان فالمرادُ مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ * وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أنَّهم مُستَقِرُّونَ في فُنونِ التَّرفُّهِ، وأنواعِ التَّنعُّمِ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٧).

ويُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٣٥).

وقال الشوكاني: (والمُرادُ بالعُيونِ: الأنهارُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥). =

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: يُقالُ لأهلِ الجنَّةِ إكرامًا لهم: كُلُوا مِن فَواكِهِ الجنَّةِ واشرَبوا مِن عُيُونِها بلا أذًى ولا تَنغيصٍ فيما تأكُلونَ وتَشرَبونَ، وذلك جزاءٌ لكم بسَبَبِ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن الأعمالِ الصَّالِحةِ(١).

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: وذلك جَزاؤُنا لِكُلِّ مَن أحسَنَ العَمَلَ في الدُّنيا(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ(٣).

= قال ابن جرير: (﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يَأْكُلونَ مِنها كُلَّما اشْتَهَوْا لا يَخافونَ ضُرَّها، ولا عاقِبَةَ مَكْروهِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١).

وقال الشوكاني: (والمرادُ... بالفَواكِهِ: ما يُتَفَكَّهُ به مِمَّا تَطْلُبُه أنفُسُهم، وتَسْتَدْعِيه شَهَواتُهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١، ٦١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣، ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٤).

الفَوائِدُ التَّرْبَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه النَّصُّ على أنَّ عَمَلَهم في الدُّنيا سبَبٌ في تمتُّعِهم بنعيمِ الجَنَّةِ في الآخِرةِ، ومِثلُه قَولُه تعالى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] [الأعراف: ٤٣].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۞ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۞ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه أنَّه تعالى لَمَّا بَعَث الكُفَّارَ إلى ظِلٍّ ذي ثَلاثِ شُعَبٍ أعَدَّ في مقابَلتِه للمُؤمِنينَ ثلاثةَ أنواعٍ مِنَ النِّعمةِ؛ أوَّلُها: قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾، كأنَّه قيل: ظِلالُهم ما كانت ظليلةً، وما كانت مُغْنِيةً عن اللَّهَبِ والعَطَشِ، أمَّا المتَّقونَ فظِلالُهم ظليلةٌ، وفيها عُيونٌ عَذْبةٌ مُغْنِيةٌ لهم عن العَطَشِ، وحاجِزةٌ بيْنَهم وبيْنَ اللَّهَبِ، ومعَهم الفواكِهُ الَّتي يَشتَهونَها ويتَمَنَّونَها، ولَمَّا قال للكُفَّارِ: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾، قال للمُتَّقينَ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سؤالٌ: أنَّ اللهَ تعالى جَعَل ذلك بسَبَبِ العَمَلِ، والرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَدخُلُ أحدٌ منكم الجنَّةَ بعَمَلِه))[3]؟

الجوابُ: أنْ يُقالَ: «الباءُ» تأتي للسَّبَبيَّةِ، وتأتي للبَدَليَّةِ، فإذا قيل: دَخَلَ الرَّجُلُ الجنَّةَ بعمَلِه؛ فالمعنى: السَّببيَّةُ، وإذا قال: لن يَدخُلَ الجنَّةَ أحدٌ بعَمَلِه؛ فالمعنى:

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٨٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٥٦٧٣)، ومسلمٌ (٢٨١٦)، وأحمدُ (٧٤٧٣) واللَّفظُ له مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

البَدَليَّةُ، وهذا مَثَلٌ يُبيِّنُ هذا: بِعْتُك الثَّوبَ بدِرْهَم؛ فالباءُ للبدَليَّةِ، لأنَّ الدِّرهمَ صار عِوضًا عن الثَّوبِ، وإذا قلتُ: أَدَّبْتُ الولدَ بعَبَثِه؛ هذه للسَّببيَّةِ، إذن: كُلُّنا لن يَدخُلَ الجنَّةَ بعمَلِه؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لو حاسَبَنا على عمَلِنا ما قابَلَ عمَلُنا نِعمةً واحدةً مِن نِعَمِ اللهِ تعالى! فالنَّفَسُ الآنَ، الَّذي هو مِن ضرورةِ الحياةِ؛ يَخرُجُ منك ويَدخُلُ بدون تَعَبٍ، وبدونِ مشَقَّةٍ، وكم يَتَنَفَّسُ الإنسانُ في الدَّقيقةِ؟! فلو أنَّنا حُوسِبْنا على أعمالِنا بالمُعاوَضةِ والمُبادَلةِ لَكانت نعمةٌ واحدةٌ تَستَوعِبُ جميعَ العملِ! لذلك نقولُ: إنَّ الباءَ في قولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للسَّببيَّةِ، وليست للبدليَّةِ[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدُّنيا مِن الأعمالِ الصَّالحةِ، وذلك مِن إكرامِهم؛ بأنْ جَعَل ذلك الإنعامَ حَقًّا لهم[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إثباتُ القياسِ، يعني: مِثلَ هذا الجزاءِ نَجْزي كُلَّ مُحْسِنٍ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُرَتِّبُ الجزاءَ والعقوبةَ والثَّناءَ والقَدْحَ على الأوصافِ، لا على الأشخاصِ؛ لأنَّه هنا عَلَّقَ الجزاءَ على الإحسانِ؛ ولهذا لَمْ يأتِ شيءٌ مِن أحكامِ اللهِ سُبحانَه وتعالى مُقَيَّدًا بشَخصٍ لشَخصِه أبدًا، حتَّى خصائصُ الرُّسُلِ ليست مِن بابِ خصائصِ الأشخاصِ، لكنْ مِن بابِ خصائصِ الأوصافِ؛ لأنَّ فيهم وصفًا زائدًا على غيرِهم، وهو وَصفُ النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ؛ فخُصُّوا ببعضِ الأحكامِ المُناسِبةِ لِمَقامِهم، أمَّا أنْ يُخَصَّ شخصٌ بعَيْنِه؛ لأنَّه فُلانُ بنُ فُلانٍ مَثلًا، فهذا لا يوجَدُ في الشَّريعةِ؛ لأنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٩).

سُبحانَه وتعالى يُرَتِّبُ الأحكامَ ويُعَلِّقُها على الأوصافِ، لا على الأشخاصِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العمَلِ؛ فكما أحْسَنَ في عبادةِ اللهِ أحْسَنَ اللهُ إليه، وقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ في سورةِ (الرَّحمنِ): ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، يعني: ما جزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحسانُ، وبهذا يَتَبيَّنُ لك كمالُ فَضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الَّذي أَحْسَنَ إليك أوَّلًا بتوفيقِك للطَّاعاتِ والإحسانِ، ثُمَّ أَحْسَنَ إليك ثانيًا بالجزاءِ عليه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ۝ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ۝ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لذِكرِ أحوالِ المؤمنينَ على سَبيلِ الإيجازِ، بعْدَ أنْ ذَكَر أحوالَ الكُفَّارِ على سَبيلِ الإطنابِ، فانتُقِلَ إلى ذِكرِ نَعيمِ المؤمنينَ المُتَّقينَ؛ تَنْويهًا بشَأنِهم، وتَعريضًا بتَرغيبِ المُشرِكينَ المَوجودينَ في الإقلاعِ عنه؛ ليَنالوا كَرامةَ المُتَّقينَ[٣].

ويَجوزُ أنْ يكونَ هذا خِتامَ الكَلامِ الَّذي هو تَقريعٌ للمُشرِكين، حُكِيَ لهم فيه نَعيمُ المُؤمنينَ الَّذي لا يُشاهِدُه المشرِكون؛ لبُعدِهم عن مَكانِه، فيُحكَى لهم يَومَئذٍ فيما يُقالُ لهم؛ ليَكونَ ذلك أشدَّ حَسرةً عليهم، وتَنْديمًا لهم على ما فرَّطوا فيه ممَّا بادَرَ إليه المُتَّقونَ المؤمِنونَ فَفازوا، فيَكونَ هذا مِن جُملةِ القولِ الَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٤).

حُذِفَ فِعلُه عندَ قولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ [المرسلات: ٢٩] إلخ[١].

- وظِلالٌ: جمْعُ ظِلٍّ، وجُمِعَت الظِّلالُ هنا؛ لأنَّها ظِلالٌ كَثيرةٌ؛ لكَثرةِ شَجَرِ الجنَّةِ، وكَثرةِ المُستَظِلِّينَ بِظِلِّها، ولأنَّ لكلِّ واحدٍ منهم ظِلًّا يَتمتَّعُ فيه هو ومَن إليه، وذلك أوقَعُ في النَّعيمِ[٢].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ للاستِغراقِ؛ فلِكُلِّ واحدٍ مِن المُتَّقينَ كَونٌ في ظِلالٍ[٣].

- قولُه: ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ صِفةُ (فَوَاكِهَ)، قيل: جمَعَ قولُه: (فَوَاكِهَ) الفواكِهَ وغيرَها؛ فالتَّبعيضُ الَّذي دلَّ عليه حرْفُ (مِن) تَبعيضٌ مِن أصنافِ الشَّهواتِ، لا مِن أصنافِ الفَواكهِ، فأفاد أنَّ تلك الفَواكِهَ مَضمومةٌ إلى مَلاذَّ أُخرى ممَّا اشتَهَوهُ[٤].

- وجُملةُ ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ، وذلك المَحذوفُ في مَوقعِ الحالِ مِن ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾، والتَّقديرُ: مَقولًا لهم: كُلوا واشْرَبوا[٥].

- والمَقصودُ مِن ذلك القولِ كَرامتُهم بعرْضِ تَناوُلِ النَّعيمِ عليهم، كما يَفعَلُه المُضِيفُ لضُيوفِه، فالأمْرُ في ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ مُستعمَلٌ في العرْضِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٥٧، ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣).

- وقولُه: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ وصْفٌ لمَوصوفٍ غيرِ مَذكورٍ دلَّ عليه فِعلُ ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾، وذلك المَوصوفُ مَفعولٌ مُطلَقٌ مِن ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾، مُبيِّنٌ للنَّوعِ لقصْدِ الدُّعاءِ، مِثلُ: «سَقْيًا» و«رَعْيًا» في الدُّعاءِ بالخيرِ، و«تَبًّا» و«سُحْقًا» في ضِدِّه[1].

- والباءُ في ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: لإفادةِ تَسبُّبِ ما بعْدَها في وُقوعِ مُتعلَّقِه، أي: كُلوا واشْرَبوا بسَببِ ما كُنتم تَعمَلون في الدُّنيا مِن الأعمالِ الصَّالحةِ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ ممَّا يُقالُ للمُتَّقينَ بعْدَ أنْ قِيل لهم: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ ...﴾ إلخ، مَسوقةً إليهم مَساقَ زِيادةِ الكرامةِ بالثَّناءِ عليهم، أي: هذا النَّعيمُ الَّذي أنْعَمْتُ به عليكم هو سُنَّتُنا في جَزاءِ المُحسنينَ، فإذْ قدْ كُنتُم مِن المُحسِنينَ فذلك جَزاءٌ لكم نِلْتُموه بأنَّكم مِن أصحابِ الحقِّ في مِثلِه، ففي هذا هَزٌّ مِن أعطافِ المُنعَمِ عليهم، والمعْنى عليه: أنَّ هذه الجُملةَ تُقالُ لكلِّ مُتَّقٍ منْهم، أو لكلِّ جَماعةٍ منهم مُجتَمِعةٍ على نَعيمِ الجنَّةِ، ولِيَعلَموا أيضًا أنَّ أمْثالَهم في الجنَّاتِ الأُخرى لهم مِن الجَزاءِ مِثلُ ما هم يُنعَّمونَ به. ويجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُوَجَّهةً إلى المُكذِّبينَ الموجودينَ بعْدَ أنْ وُصِفَ لهم ما يُنعَّمُ به المُتَّقونَ إثْرَ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ إلخ، قُصِدَ منها التَّعريضُ بأنَّ حِرمانَهم مِن مِثلِ ذلك النَّعيمِ همُ الَّذين قَضَوا به على أنفُسِهم؛ إذْ أبَوْا أنْ يَكونوا مِن المُحسِنينَ، تَكملةً لتَنديمِهم وتَحسيرِهم الَّذي بُودِئوا به مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ إلى آخِرِه، أي: إنَّا كذلك نَجْزي المُحسنينَ، دونَ أمْثالِكم المُسيئينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ومَوقعُ هذه الجُملةِ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ مَوقعُ التَّعليلِ لِما قبْلَها، ومِن أجْلِ الإشعارِ بهذا التَّعليلِ افتُتِحَت بحَرْفِ (إنَّ)، مع خُلوِّ المَقامِ عن التَّردُّدِ في الخبَرِ؛ إذ المَوقفُ يَومَئذٍ مَوقِفُ الصِّدقِ والحقيقةِ؛ فلذلك كانت (إنَّ) مُتمَحِّضةً لإفادةِ الاهتِمامِ بالخبَرِ، وحِينَئذٍ تَصيرُ مُغْنِيةً غَناءَ فاءِ التَّسبُّبِ، وتُفيدُ مُفادَ التَّعليلِ والرَّبْطِ. وأيضًا الجُملةُ تُفيدُ معْنى التَّذييلِ بما اشتَمَلَت عليه مِن شِبهِ عُمومِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾، ومِن عُمومِ المُحسِنينَ؛ فاجتَمَعَ فيها التَّعليلُ والتَّذييلُ[1].

- قولُه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ هي على الوجْهِ الأوَّلِ في جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ [المرسلات: ٤١] -وهو كَونُها ممَّا يُقالُ للمُتَّقينَ بعْدَ أنْ قِيل لهم: كُلوا واشْرَبوا... إلخ، مَسوقةً إليهم مَساقَ زِيادةِ الكرامةِ بالثَّناءِ عليهم- تَكريرٌ لنَظائرِها، واليومُ المضافُ إلى (إذ) ذاتِ تَنوينِ العِوَضِ هو يومُ صُدورِ تلك المَقالةِ، وأمَّا على الوجْهِ الثَّاني في جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ...﴾ [المرسلات: ٤١] إلخ -وهو كَونُها مُوَجَّهةً إلى المُكذِّبينَ الموجودينَ بعْدَ أنْ وُصِفَ لهم ما يُنعَّمُ به المُتَّقونَ- فهي مُتَّصِلةٌ بتلك الجُملةِ؛ لِمُقابَلةِ ذِكرِ نَعيمِ المؤمنينَ المُطنَبِ في وَصْفِه، بذِكرِ ضِدِّه للمُشرِكينَ بإيجازٍ حاصلٍ مِن كَلمةِ (وَيْل)؛ لتَحصُلَ مُقابَلةُ الشَّيءِ بضِدِّه، ولِتَكونَ هذه الجُملةُ تَأكيدًا لنَظائرِها، واليومُ المضافُ إلى (إذ) يومٌ غيرُ مَذكورٍ، ولكنَّه ممَّا يَقْتَضيه كَونُ المُتَّقينَ في ظِلالٍ وعُيونٍ وفَواكِهَ؛ لِيُعلَمَ بأنَّ ذلك يكونُ لهم في يومِ القيامةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٤٥). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٥٠٦).

الآيات (٤٦-٥٠)

﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ٤٦ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ٤٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٩ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ٥٠﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا سوءَ عاقِبةِ المكذِّبينَ يومَ القيامةِ: يُقالُ للمُكَذِّبينَ بالبَعْثِ: كُلُوا وتمَتَّعوا في الدُّنيا قليلًا إلى آخِرِ أعمارِكم؛ إنَّكم مُجرِمونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

وإذا قِيلَ في الدُّنيا لأولئكَ المجرِمينَ: صَلُّوا للهِ تعالى، لا يَفعَلونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

ثمَّ يختمُ اللهُ سُبحانَه هذه السُّورةَ الكريمةَ بالتَّعجيبِ مِن أحوالِهم، فيقولُ: فبأيِّ حَديثٍ بَعْدَ هذا القُرآنِ يُؤمِنونَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ٤٦﴾.

أي: يُقالُ للمُكَذِّبينَ بالبَعْثِ: كُلُوا وتمَتَّعوا في الدُّنيا قليلًا إلى آخِرِ أعمارِكم؛ إنَّكم مُجرِمونَ بكُفْرِكم باللهِ، وتَكذيبِكم رُسُلَه، فمَصيرُ تلك اللَّذَّاتِ الانقِطاعُ، ومَصيرُكم إلى عذابِ اللهِ[1].

قال تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٥، ٤٤٦).

وقال الله سُبحانَه: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[(١)].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

أي: وإذا قِيلَ في الدُّنيا لأولئك المجرِمينَ: صَلُّوا للهِ تعالى، لا يَفعَلونَ[(٢)].

قال تعالى: ﴿ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[(٣)].

﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بالَغَ في زَجْرِ الكُفَّارِ مِن أوَّلِ هذه السُّورةِ إلى آخِرِها، وحَثَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٢-٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

قال السعدي: (مِن إجرامِهم أنَّهم إذا أُمِروا بالصَّلاةِ الَّتي هي أشرَفُ العباداتِ، وقيل لهم: ﴿ ٱرْكَعُوا۟ ﴾، امتَنَعوا مِن ذلك، فأيُّ إجرامٍ فوقَ هذا؟! وأيُّ تكذيبٍ يَزيدُ على هذا؟). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٦، ١٨٧).

على التَّمَسُّكِ بالنَّظَرِ والاستِدلالِ والانقيادِ للدِّينِ الحَقِّ؛ خَتَم السُّورةَ بالتَّعَجُّبِ مِن الكُفَّارِ، وبَيَّن أنَّهم إذا لم يُؤمِنوا بهذه الدَّلائِلِ اللَّطيفةِ مع تجَلِّيها ووُضوحِها، فبأيِّ حديثٍ بَعْدَه يُؤمِنونَ[(١)]؟!

وأيضًا لَمَّا أعْلَمَ أنَّ لهم الوَيْلَ دائِمًا؛ ذَكَر أنَّ سَبَبَه عَدَمُ الإيمانِ بالقُرآنِ، وأنَّ مَن لم يؤمِنْ بالقُرآنِ لم يُؤمِنْ بشَيءٍ أبدًا، فقال مُسَبِّبًا عن معنى الكلامِ[(٢)]:

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾.

أي: فبأيِّ كلامٍ بعْدَ هذا القُرآنِ يُؤمِنونَ إنْ لم يُؤمِنوا به، معَ كَمالِ صِدْقِه، ووُضوحِ حُجَجِه[(٣)]؟!

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

الفَوائِدُ التَّرْبَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ هذا تهديدٌ ووَعيدٌ للمُكَذِّبينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٨١، ٧٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٧، ٤٤٨).

أنَّهم وإنْ أكَلوا في الدُّنيا وشَربوا وتمتَّعوا باللَّذَّاتِ، وغَفَلوا عن القُرُباتِ؛ فإنَّهم مُجرِمونَ يَستَحِقُّونَ ما يَستَحِقُّه المجرِمونَ، فستَنقَطِعُ عنهم اللَّذَّاتُ، وتبقَى عليهم التَّبِعاتُ[١].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ أي: وإذا قيل لهم: صَلُّوا، لا يُصَلُّونَ، فعُبِّر عن الصَّلاةِ بلفظِ الرُّكوعِ؛ لأنَّه ركنٌ مِن أركانِها[٢]. والآيةُ أصلٌ في وُجوبِ الرُّكوعِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّرائعِ، وأنَّهم حالَ كُفرِهم كما يَستَحِقُّونَ الذَّمَّ والعِقابَ بتركِ الإيمانِ، فكذلك يَستَحِقُّونَ الذَّمَّ والعِقابَ بتركِ الصَّلاةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذَمَّهم حالَ كُفْرِهم على تَركِ الصَّلاةِ[٤]. فهذه الآيةُ الكريمةُ مِن آياتِ الاستِدلالِ على أنَّ الكُفَّارَ مُؤاخَذونَ بتَرْكِ الفُروعِ، وأكثَرُ ما يأتي ذِكْرُه مِن الفُروعِ هي الصَّلاةُ؛ مِمَّا يؤكِّدُ أنَّها هي بحَقٍّ عِمادُ الدِّينِ[٥].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ القائِلونَ بأنَّ الأمرَ للوُجوبِ استَدَلُّوا بهذه الآيةِ؛ لأنَّه تعالى ذمَّهم بمُجَرَّدِ تَرْكِ المأمورِ به، وهذا يدُلُّ على أنَّ مُجَرَّدَ الأمرِ للوُجوبِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٨١).

(٥) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٤).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٩٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٨١).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ * وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ استُدِلَّ به على كُفْرِ تاركِ الصَّلاةِ؛ فإنَّه ذَكَرَ سُبحانَه هذا بعْدَ قولِه: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾، ثُمَّ تَوَعَّدَهم على تَرْكِ الرُّكوعِ -وهو الصَّلاةُ إذا دُعُوا إليها-، ولا يُقالُ: إنَّما تَوَعَّدَهم على التَّكذيبِ؛ فإنَّه سُبحانَه وتعالى إنَّما أَخْبَرَ عن تَرْكِهم لها، وعليه وَقَعَ الوَعيدُ[1].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ مِنَ الوَيلِ عليهم أنَّهم تَنْسَدُّ عليهم أبوابُ التَّوفيقِ، ويُحرَمونَ كُلَّ خَيرٍ؛ فإنَّهم إذا كَذَّبوا هذا القُرآنَ الكَريمَ الَّذي هو أعلى مراتِبِ الصِّدقِ واليَقينِ على الإطلاقِ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾[2]؟!

٦- تأمَّلْ كيفَ وقَع القَسَمُ في أوَّلِ هذه السُّورةِ على المَعادِ والحياةِ الدَّائِمةِ الباقيةِ، وحالِ السُّعداءِ والأشقياءِ فيها، وقَرَّرَها بالحياةِ الأُولى في قَولِه ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [المرسلات: ٢٠]، فذكَر فيها المَبدأَ والمَعادَ، وأخلَصَ السُّورةَ لذلك؛ فحَسُنَ الإقسامُ بما يَحصُلُ به نَوْعَا الحياةِ المُشاهَدةِ، وهو الرِّياحُ والملائكةُ، فكان في القَسَمِ بذلك أبْيَنُ دليلٍ وأظهرُ آيةٍ على صِحَّةِ ما أقسَمَ عليه وتضَمَّنَتْه السُّورةُ؛ ولهذا كان المكَذِّبُ بعدَ ذلك في غايةِ الجُحودِ والعنادِ والكُفرِ؛ فاستحقَّ الوَيْلَ بعدَ الوَيلِ، فتَضاعَفَ عليه الويلُ كما تَضاعَفَ منه الكُفرُ والتَّكذيبُ، فلا أحسَنَ مِن هذا التَّكرارِ في هذا الموضِعِ، ولا أعظَمَ منه مَوقعًا؛ فإنَّه تكرَّر عَشْرَ مرَّاتٍ، ولم يُذكَرْ إلَّا في أثَرِ دليلٍ أو مَدلولٍ عليه، عَقِيبَ

(١) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٩).
مذهبُ الحنابلةِ أنَّ تاركَ الصَّلاةِ بالكُلِّيَّةِ تَهاوُنًا أو كسلًا، كافرٌ كُفرًا مُخرِجًا مِن المِلَّةِ، واختاره ابنُ تَيميَّةَ، وابنُ عُثَيمينَ. يُنظر: (الإنصاف)) للمَرْداوي (١/ ٢٨٦)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ٢٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٢/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

ما يوجِبُ التَّصديقَ، وما يَجِبُ التَّصديقُ به؛ فتأمَّلْه[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ مَن لَمْ يَهْتَدِ بما جاءتْ به الأنبياءُ فهو أبْعَدُ النَّاسِ عن الهُدى[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ مِن أحسَنِ اللَّازِمِ وأبْيَنِه أنْ تُبَيِّنَ للسَّامعِ الحقَّ، ثُمَّ تقولَ له: ماذا تقولُ خِلافَ هذا؟! وأين تَذهَبُ خِلافَ هذا؟! قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، فالأمرُ مُنْحَصِرٌ في الحقِّ والباطلِ، والهدى والضَّلالِ، فإذا عَدَلْتُم عنِ الهُدى والحَقِّ، فأين العُدولُ؟ وأين المَذهَبُ[٣]؟!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ الجُملةُ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، وهذا المَحذوفُ في مَحلِّ نصْبٍ على الحالِ مِن المُكذِّبينَ، أي: الويلُ ثابتٌ لهم في حالِ ما يُقالُ لهم: كُلوا وتَمتَّعوا، يُقالُ لهم ذلك في الآخِرةِ؛ إيذانًا بأنَّهم كانوا في الدُّنيا أحِقَّاءَ بأنْ يُقالَ لهم، وكانوا مِن أهْلِه؛ تَذكيرًا بحالِهم السَّمِجةِ، وبما جَنَوا على أنفُسِهم مِن إيثارِ المتاعِ القليلِ على النَّعيمِ والمُلكِ الخالدِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٦).
ويُنظر ما يأتي في بلاغةِ الآياتِ (ص: ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٩٤٢).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٥).

ويَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ مُستأنَفًا خِطابًا للمُكذِّبينَ في الدُّنيا الَّذين خُوطِبوا بقولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧]، وهو استئنافٌ ناشئٌ عن قولِه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤٤]؛ إذ يُثيرُ في نُفوسِ المُكذِّبينَ المُخاطَبينَ بهذه القَوارِعِ ما يَكثُرُ خُطورُه في نُفوسِهم مِن أنَّهم في هذه الدُّنيا في نِعمةٍ مُحقَّقةٍ، وأنَّ ما يُوعَدونَ به غيرُ واقِعٍ؛ فقِيل لهم: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾، فالأمْرُ في قولِه: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ﴾ مُستعمَلٌ في الإمهالِ والإنذارِ، أي: ليس أكْلُكم وتَمتُّعُكم بِلَذَّاتِ الدُّنيا بشَيءٍ؛ لأنَّه تَمتُّعٌ قليلٌ، ثمَّ مَأْواكم العذابُ الأبَدِيُّ؛ قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ * لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[1] [آل عمران: ١٩٥- ١٩٧].

- وجُملةُ ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ والوَعيدِ بالسُّوءِ، أي: إنَّ إجرامَكم مُهْوٍ بكم إلى العَذابِ، وذلك مُستفادٌ مِن مُقابَلةِ وصْفِهم بالإجرامِ بوَصْفِ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المرسلات: ٤١] بالإحسانِ؛ إذِ الجَزاءُ مِن جِنسِ العمَلِ، فالجُملةُ واقِعةٌ مَوقعَ التَّعليلِ للتَّهديدِ[2].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ)؛ لرَدِّ إنكارِهم كَوْنَهم مُجرِمينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٥، ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٦).

- وقولُه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ له ارتباطٌ خاصٌّ بجُملةِ ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾ [المرسلات: ٤٦]؛ لِما في (تَمَتَّعُوا قَلِيلًا) مِن الكِنايةِ عن تَرَقُّبِ سُوءِ عاقِبةٍ لهم، فيَقَعُ قولُه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ مَوقعَ البَيانِ لتلك الكِنايةِ، أي: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾ الآنَ، ووَيْلٌ لكم يومَ القيامةِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ عطفًا على قولِه: ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٧]، والتَّقديرُ: والَّذين إذا قِيل لهم: ارْكَعوا، لا يَركَعونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ عطفًا على جُملةِ ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾ [المرسلات: ٤٦]، والانتِقالُ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ الْتِفاتٌ، وعلى كِلا الوَجْهينِ فهو مِن الإدماجِ[٢]؛ لِيَنعَى عليهم مُخالفَتَهم المُسلِمينَ في الأعمالِ الدَّالَّةِ على الإيمانِ الباطِنِ، فهو كِنايةٌ عن عدَمِ إيمانِهم؛ لأنَّ الصَّلاةَ عِمادُ الدِّينِ، والمعْنى: إذا قِيل لهم آمِنوا وارْكَعوا، لا يُؤمِنون ولا يَركَعون. ويجوزُ أنْ يكونَ عطْفًا على قولِه: ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦]. وعلى الوُجوهِ كلِّها يُفيدُ تَهديدَهم؛ لأنَّه مَعطوفٌ على التَّكذيبِ أو على الإجرامِ، وكِلاهما سَببٌ للتَّهديدِ بجَزاءِ السُّوءِ في يَومِ الفصْلِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ سمَّى الصَّلاةَ باسمِ جُزءٍ مِن أجْزائِها، وهو الرُّكوعُ، وإنَّما خَصَّ الرُّكوعَ بالذِّكرِ معَ أنَّ الصَّلاةَ تَشتمِلُ على أفعالٍ كَثيرةٍ؛ لأنَّ العرَبَ كانوا يَأنَفون مِن الرُّكوعِ والسُّجودِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٦، ٤٤٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((إعراب =

وقيل: خَصَّ هذا الجُزءَ؛ لأنَّه يُقالُ على الخُضوعِ والطَّاعةِ، ولأنَّه خاصٌّ بصَلاةِ المُسلِمينَ[١].

- وجُملةُ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مُتَّصِلةً بقولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]، ويكونَ التَّعبيرُ بالمُكذِّبينَ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ؛ لقصْدِ وَصْفِهم بالتَّكذيبِ، والتَّقديرُ: وَيلٌ يومَئذٍ لهم أو لكم، فهي تَهديدٌ ناشئٌ عن جُملةِ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، ويكونَ اليومُ المُشارُ إليه بـ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الزَّمانَ الَّذي يُفيدُه (إذا) مِن قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾ الَّذي يُجازى فيه بالوَيلِ للمُجرِمينَ الَّذين إذا قِيل لهم: ارْكَعوا، لا يَركَعونَ، أي: لا يُؤمِنونَ، وتُفيدُ مع ذلك تَقريرًا وتَأْكيدًا لنَظيرِها المذكورِ ثانيًا في هذه السُّورةِ[٢].

- وجاء في هذه السُّورةِ بعْدَ كلِّ جُملةٍ قولُه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ لأنَّ كلَّ جُملةٍ منها فيها إخبارُ اللهِ تعالَى عن أشياءَ مِن أحوالِ الآخرةِ، وتَقريراتٍ مِن أحوالِ الدُّنيا، فناسَبَ أنْ يُذكَرَ الوعيدُ عَقِيبَ كلِّ جُملةٍ منها للمُكذِّبِ بالوَيلِ في يومِ الآخرةِ[٣].

- وأيضًا قدْ تَكرَّرت آيةُ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في هذه السُّورةِ عشْرَ مرَّاتٍ، والسِّرُّ فيها زِيادةُ التَّرهيبِ، والتَّكرارُ في مَقامِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ مُسْتَساغٌ

= القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩).

حسَنٌ، لا سيَّما إذا تَغايَرَتِ الآياتُ السَّابقاتُ على المرَّاتِ المُكرَّرةِ، كما هنا[١].

وقيل: كرَّرَه في هذه السُّورةِ عندَ كلِّ آيةٍ لِمَن كذَّب؛ لأنَّه قسَمَه بيْنَهم على قَدرِ تكذيبِهم؛ فإنَّ لكلِّ مكَذِّبٍ بشَيءٍ عذابًا سِوى تكذيبِه بشَيءٍ آخَرَ، ورُبَّ شَيءٍ كذَّب به هو أعظَمُ جُرمًا مِن تكذيبِه بغيرِه؛ لأنَّه أقبَحُ في تكذيبِه، وأعظَمُ في الرَّدِّ على الله، فإنَّما يُقسَمُ له مِنَ الوَيلِ على قَدْرِ ذلك، وعلى قدرِ وِفاقِه[٢].

وقيل: ليس بتَكرارٍ؛ لأنَّه أراد بكُلِّ قولٍ منه غيرَ الَّذي أراد بالآخَرِ، كأنَّه ذكَرَ شيئًا، فقال: وَيلٌ لِمَن يُكَذِّبُ بهذا، ثمَّ ذكَرَ شيئًا آخَرَ، فقال: وَيلٌ لِمَن يُكَذِّبُ بهذا، ثمَّ ذكر شيئًا آخَرَ فقال: ويلٌ لِمَن يكَذِّبُ بهذا، ثمَّ كذلك إلى آخِرِها[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ الفاءُ في ﴿فَبِأَيِّ﴾ فَصيحةٌ تُنبِئُ عن شَرْطٍ مُقدَّرٍ، تَقديرُه: إنْ لم يُؤمِنوا بهذا القُرآنِ فبأيِّ حَديثٍ بعْدَه يُؤمِنونَ؟! وقد دلَّ على تَعيينِ هذا المُقدَّرِ ما تَكرَّرَ في آياتِ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٩]؛ فإنَّ تَكذيبَهم بالقُرآنِ وما جاء فيه مِن وُقوعِ البعثِ[٤].

- والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في الإنكارِ التَّعجيبيِّ مِن حالِ الكافِرينَ المُكذِّبينَ، أي: إذا لم يُصدِّقوا بالقُرآنِ مع وُضوحِ حُجَّتِه، فلا يُؤمِنون بحَديثٍ غيرِه،

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣١٩-١٣٢٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٩٨، ٤٩٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٥، ٤٩٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٦).

والمقصودُ أنَّ القُرآنَ بالِغٌ الغايةَ في وُضوحِ الدَّلالةِ، ونُهوضِ الحُجَّةِ، فالَّذين لا يُؤمِنونَ به لا يُؤمِنونَ بكَلامٍ يَسمَعونه عَقِبَ ذلك[١].

- وقولُه: ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ يَجوزُ أنْ يُجعَلَ صِفةَ ﴿حَدِيثٍ﴾ فهو ظَرْفٌ مُستقَرٌّ[٢]، والمرادُ بالبَعديَّةِ: تَأخُّرُ الزَّمانِ، ويُقدَّرُ معْنى بالغٍ أو مَسموعٍ بعْدَ بُلوغِ القُرآنِ أو سَماعِه، سواءٌ كان حَديثًا مَوجودًا قبْلَ نُزولِ القُرآنِ، أو حَديثًا يُوجَدُ بعدَ القُرآنِ، فليس المعْنى أنَّهم يُؤمِنونَ بحديثٍ جاء قبْلَ القرآنِ مِثلِ التَّوراةِ والإنجيلِ وغَيرِهما مِن المواعظِ والأخبارِ، بل المرادُ أنَّهم لا يُؤمِنون بحَديثٍ غَيرِه بعدَ أنْ لم يُؤمِنوا بالقُرآنِ؛ لأنَّه لا يقَعُ إليهم كَلامٌ أوضَحُ دَلالةً وحُجَّةً مِن القرآنِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ مُتعلِّقًا بـ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، فهو ظَرْفٌ لَغْوٌ، ويَبْقى لَفظُ ﴿حَدِيثٍ﴾ مَنفيًّا بلا قَيدِ وَصْفِ أنَّه بعْدَ القرآنِ، والمعْنى: لا يُؤمِنون بعْدَ القرآنِ بكلِّ حَديثٍ[٣].

- وضَميرُ ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ عائدٌ إلى القُرآنِ، ولم يَتقدَّمْ ما يدُلُّ عليه في هذه السُّورةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٧، ٤٤٨).

(٢) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبَرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسَببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّيَ ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لَغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولُك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زَيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِفَ الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زَيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٨).

ليكونَ معادًا للضَّميرِ، ولكنَّه اعتُبِر كالمذكورِ؛ لأنَّه مَلحوظٌ لأذْهانِهم كلَّ يومٍ مِن أيَّامِ دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إيَّاهم به. ويجوزُ أنْ يكونَ ضَميرُ ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ عائدًا إلى القولِ المأخوذِ مِن ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]؛ فإنَّ أمْرَهم بالرُّكوعِ -الَّذي هو كِنايةٌ عن الإيمانِ- كان بأقوالِ القُرآنِ[1].

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الحادي والأربعونَ

ويليه المجلدُ الثَّاني والأربعونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ النَّبَإِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٨).

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ المُزَّمِّلِ

أسماءُ السُّورةِ ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٧
الآيات (١-٩) ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٩
المعنى الإجماليُّ ١١
تَفسيرُ الآياتِ ١٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩
بلاغةُ الآياتِ ٣٤
الآيات (١٠-١٤) ٤٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٤
المعنى الإجماليُّ ٤٥
تَفسيرُ الآياتِ ٤٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٣
بلاغةُ الآياتِ ٥٥
الآيات (١٥-١٩) ٦٠

غَريبُ الكَلِماتِ ٦٠
المعنى الإجماليُّ ٦٠
تَفسيرُ الآياتِ ٦١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٦٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٧
بلاغةُ الآياتِ ٦٨
الآية (٢٠) ٧٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٧٨
مُشكِلُ الإعرابِ ٧٩
المعنى الإجماليُّ ٧٩
تَفسيرُ الآيةِ ٨٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٩٣
بلاغةُ الآيةِ ٩٧

سورةُ المُدَّثِّرِ

أسماءُ السُّورةِ ١٠٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ١٠٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ١٠٧
موضوعاتُ السُّورةِ ١٠٧
الآيات (١-١٠) ١٠٩
غَريبُ الكَلِماتِ ١٠٩

المعنى الإجماليُّ ١١٠
تَفسيرُ الآياتِ ١١٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٢١
بلاغةُ الآياتِ ١٢٣
الآيات (١١-٣٠) ١٣١
غَريبُ الكَلِماتِ ١٣١
المعنى الإجماليُّ ١٣٣
تَفسيرُ الآياتِ ١٣٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤٦
بلاغةُ الآياتِ ١٤٩
الآية (٣١) ١٦١
غَريبُ الكَلِماتِ ١٦١
المعنى الإجماليُّ ١٦١
تَفسيرُ الآيةِ ١٦٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٦٩
بلاغةُ الآيةِ ١٧٢
الآيات (٣٢-٣٧) ١٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ ١٧٩

مُشكِلُ الإعرابِ ١٧٩
المعنى الإجماليُّ ١٨٠
تَفسيرُ الآياتِ ١٨٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٨٣
بلاغةُ الآياتِ ١٨٤
الآيات (٣٨-٤٨) ١٨٨
غَريبُ الكَلِماتِ ١٨٨
المعنى الإجماليُّ ١٨٩
تَفسيرُ الآياتِ ١٩٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٩٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩٦
بلاغةُ الآياتِ ١٩٩
الآيات (٤٩-٥٦) ٢٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٠٣
المعنى الإجماليُّ ٢٠٣
تَفسيرُ الآياتِ ٢٠٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢١٠
بلاغةُ الآياتِ ٢١١

سورةُ القيامةِ

أسماءُ السُّورةِ ٢٢١
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ..... ٢٢١
مَقاصِدُ السُّورةِ ٢٢١
مَوضوعاتُ السُّورةِ..... ٢٢١
الآيات (١-٦) ٢٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٢٢٢
المعنى الإجماليُّ..... ٢٢٢
تَفسيرُ الآياتِ..... ٢٢٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ..... ٢٣٠
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٢٣١
بلاغةُ الآياتِ..... ٢٣٢
الآيات (٧-١٥)..... ٢٤٠
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٢٤٠
المعنى الإجماليُّ..... ٢٤١
تَفسيرُ الآياتِ..... ٢٤١
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٢٤٧
بلاغةُ الآياتِ..... ٢٤٨
الآيات (١٦-١٩)..... ٢٥٤
المعنى الإجماليُّ..... ٢٥٤
تَفسيرُ الآياتِ..... ٢٥٤

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٥٧
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٥٨
بلاغةُ الآياتِ ٢٦١
الآيات (٢٠-٢٥) ٢٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٦٣
المعنى الإجماليُّ ٢٦٣
تَفسيرُ الآياتِ ٢٦٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٦٨
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٦٨
بلاغةُ الآياتِ ٢٧٠
الآيات (٢٦-٣٥) ٢٧٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٧٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٧٥
المعنى الإجماليُّ ٢٧٦
تَفسيرُ الآياتِ ٢٧٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٨٥
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٨٥
بلاغةُ الآياتِ ٢٨٧
الآيات (٣٦-٤٠) ٢٩٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٩٣
المعنى الإجماليُّ ٢٩٣

تَفسيرُ الآياتِ ٢٩٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٩٨
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩٩
بلاغةُ الآياتِ ٣٠١

سورةُ الإنسانِ

أسماءُ السُّورةِ ٣٠٩
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ٣٠٩
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٣١٠
مَقاصِدُ السُّورةِ ٣١٠
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٣١٠
الآيات (١-٣) ٣١٢
غَرِيبُ الكَلِماتِ ٣١٢
المعنى الإجماليُّ ٣١٣
تَفسيرُ الآياتِ ٣١٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣١٦
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣١٦
بلاغةُ الآياتِ ٣١٨
الآيات (٤-١٢) ٣٢٣
غَرِيبُ الكَلِماتِ ٣٢٣
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٢٥
المعنى الإجماليُّ ٣٢٦

تَفسيرُ الآياتِ ٣٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٣٦
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٣٩
بلاغةُ الآياتِ ٣٤٤
الآيات (١٣-١٨) ٣٥٣
غَرِيبُ الكَلِماتِ ٣٥٣
المعنى الإجماليُّ ٣٥٥
تَفسيرُ الآياتِ ٣٥٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٦١
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٦١
بلاغةُ الآياتِ ٣٦٥
الآيات (١٩-٢٢) ٣٧١
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٧١
المعنى الإجماليُّ ٣٧٢
تَفسيرُ الآياتِ ٣٧٣
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٧٨
بلاغةُ الآياتِ ٣٨١
الآيات (٢٣-٢٦) ٣٨٥
غَرِيبُ الكَلِماتِ ٣٨٥
المعنى الإجماليُّ ٣٨٥
تَفسيرُ الآياتِ ٣٨٥

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٩١
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٩٢
بلاغةُ الآياتِ ٣٩٣
الآيات (٢٧-٣١) ٤٠٠
غَرِيبُ الكَلِماتِ ٤٠٠
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٠٠
المعنى الإجماليُّ ٤٠١
تَفسيرُ الآياتِ ٤٠١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٤٠٧
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٠٧
بلاغةُ الآياتِ ٤٠٨

سورةُ المُرسَلاتِ

أسماءُ السُّورةِ ٤٢١
فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها ٤٢١
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٤٢٢
مَقاصِدُ السُّورةِ ٤٢٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٤٢٣
الآيات (١-٧) ٤٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٢٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٢٥
المعنى الإجماليُّ ٤٢٦

تَفسيرُ الآياتِ ٤٢٦
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٣٣
بلاغةُ الآياتِ ٤٣٣
الآيات (٨-١٥) ٤٣٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٣٧
المعنى الإجماليُّ ٤٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ٤٣٨
الفَوائِدُ التَّرْبَويَّةُ ٤٤١
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٤١
بلاغةُ الآياتِ ٤٤٢
الآيات (١٦-٢٤) ٤٤٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٤٧
المعنى الإجماليُّ ٤٤٧
تَفسيرُ الآياتِ ٤٤٨
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٥٤
بلاغةُ الآياتِ ٤٥٥
الآيات (٢٥-٢٨) ٤٦٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٦٠
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٦٠
المعنى الإجماليُّ ٤٦١
تَفسيرُ الآياتِ ٤٦١

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٦٣
بلاغةُ الآياتِ ٤٦٥
الآيات (٢٩-٣٤) ٤٦٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٤٦٨
المعنى الإجماليُّ ٤٦٩
تَفسيرُ الآياتِ ٤٦٩
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٧٤
بلاغةُ الآياتِ ٤٧٤
الآيات (٣٥-٤٠) ٤٧٩
المعنى الإجماليُّ ٤٧٩
تَفسيرُ الآياتِ ٤٧٩
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٨١
بلاغةُ الآياتِ ٤٨٤
الآيات (٤١-٤٥) ٤٨٨
المعنى الإجماليُّ ٤٨٨
تَفسيرُ الآياتِ ٤٨٨
الفَوائِدُ التَّرْبَويَّةُ ٤٩١
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٩١
بلاغةُ الآياتِ ٤٩٣
الآيات (٤٦-٥٠) ٤٩٧
المعنى الإجماليُّ ٤٩٧

تَفسيرُ الآياتِ ٤٩٧
الفَوائِدُ التَّرْبَويَّةُ ٤٩٩
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٠٠
بلاغةُ الآياتِ ٥٠٢
الفهرس ٥٠٩

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر للقرآن الكريم

من سورة النبأ إلى سورة الانشقاق

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثاني والأربعون

الدرر السنية
www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة النبأ إلى سورة الإنشقاق)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الواحد والأربعون - القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ الظهران، ١٤٤٣ هـ

١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩-١٣-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- التفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٣/١٣٠٠٣

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١٣٠٠٣

ردمك: ٩-١٣-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة النبأ إلى سورة الإنشقاق)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثاني والأبعون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ النَّبَأِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ النَّبَإِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (النَّبَأِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ النَّبَأِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

إثباتُ البَعثِ، وتهويلُه، وإنذارُ مُنكِريه[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- سؤالُ المُشرِكينَ عن القُرآنِ الَّذي جاء به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم وما

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ: سُمِّيَت بذلك؛ لافتتاحِها بلَفظِ النَّبَأِ في قَولِه تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٧).
قال ابنُ عاشور: (سُمِّيتْ هذه السُّورةُ في أكثَرِ المصاحِفِ، وكُتُبِ التَّفسيرِ، وكُتُبِ السُّنَّةِ «سُورةَ النَّبَأِ»؛ لِوُقوعِ كلمةِ ﴿ٱلنَّبَإِ﴾ في أوَّلِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥).
وتُسمَّى أيضًا سورةَ ﴿عَمَّ﴾ و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ تسميةً لها بأوَّلِ جملةٍ فيها. وتُسمَّى «سورةَ التَّساؤُلِ»؛ لوُقوعِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ في أوَّلِها. وتُسمَّى «سورةَ المُعْصِراتِ»؛ لقولِه تعالى فيها: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا﴾ [النبأ: ١٤]. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبِقاعي (٣/ ١٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦، ٥٨).

اشتَمَل عليه مِن التَّوحيدِ والبَعثِ إلى غيرِ ذلك، وتهديدُهم بسُوءِ المصيرِ إذا ما استمَرُّوا في طُغيانِهم وإنكارِهم لِما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

٢- إقامةُ الأدِلَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعلى عظيمِ قُدرتِه، وإمكانِ حُصولِ البَعثِ.

٣- ذِكرُ أحداثِ يومِ القيامةِ، ووَصْفُ أهوالِه.

٤- بيانُ ما أعَدَّه اللهُ سُبحانَه للكافِرينَ مِن عذابٍ في جهنَّمَ.

٥- بيانُ ما أعَدَّه اللهُ عزَّ وجلَّ للمُتَّقينَ مِن النَّعيمِ في الجنَّةِ.

٦- تقريرُ أنَّ يومَ القيامةِ حَقٌّ لا رَيبَ فيه، وأنَّه يَنبغي تقديمُ العَمَلِ الصَّالحِ مِن قَبلِ أن يأتيَ هذا اليومُ.

٧- الإنذارُ بعذابٍ قَريبٍ، وعَرْضُ الأعمالِ على العبادِ؛ خَيرِها وشَرِّها، وتمنِّي الكافِرِ في ذلك اليومِ أنْ لو كان تُرابًا.

الآيات (١-٥)

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلنَّبَإِ﴾: أي: الخَبَرِ العظيمِ الشَّأنِ، والمرادُ به هنا القُرآنُ أو البَعْثُ، وأصلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والخبرُ يَأْتي مِن مكانٍ إلى مكانٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بأُسلوبِ الاستِفهامِ؛ لِتَشويقِ السَّامِعِ إلى المُستفهَمِ عنه، ولتَهويلِ أَمْرِه، وتَعظيمِ شَأنِه، قائِلًا سُبحانَه: عن أيِّ شَيءٍ يَتساءَلُ مُشرِكو قُرَيشٍ؟ عن الخَبَرِ العَظيمِ، وهو القُرآنُ وما اشتَمل عليه مِن التَّوحيدِ والبَعْثِ وغيرِ ذلك، الَّذي هم فيه مُختَلِفونَ، ثمَّ قال الله تعالى متوعِّدًا ومهدِّدًا: كلَّا سيَعلَمونَ عِلْمَ اليَقينِ ما كَذَّبوا به، وعاقِبةَ تَكذيبِهم، ثُمَّ كَلَّا سيَعْلَمونَ صِدْقَ القُرآنِ ووُقوعَ البَعْثِ الَّذي كَذَّبوا به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾.

أي: عن أيِّ شَيءٍ عَظيمٍ يَتساءَلُ مُشرِكو قُرَيشٍ[2]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥، ٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١١٢).
قال الرَّاغبُ: (النَّبَأُ: خَبَرٌ ذو فائدةٍ عَظيمةٍ يَحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبةُ ظَنٍّ، ولا يُقالُ للخبَرِ في الأصلِ نَبأٌ حتَّى يَتضمَّنَ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ). ((المفردات)) (ص: ٧٨٨، ٧٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦). =

= قال الواحدي: (﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أصلُه: «عَنْ ما»، فأُدغِمَت النُّونُ في الميمِ، وحُذِفَت ألِفُ «ما»، كقَولِهم: فِيمَ، وبِمَ). ((الوسيط)) (٤/ ٤١١).

والضَّميرُ في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ لكُفَّارِ قُرَيشٍ. وقيل: لجميعِ النَّاسِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ كفَّارُ مكَّةَ ومُشرِكو قُرَيشٍ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، ومكِّي، والزمخشري، والنسفي، والخازن، وأبو حيَّان، وابن كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشربيني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٨٨).

قال الواحديُّ: (قال المفسِّرونَ: لَمَّا بُعِث رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وأخبَرَهم بتوحيدِ الله، والبعثِ بعدَ الموتِ، وتلا عليهم القرآنَ؛ جعَلوا يَتساءَلونَ بيْنَهم، فيَقولونَ: ماذا جاء به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم؟ وما الَّذي أتى به؟ فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾). ((الوسيط)) (٤/ ٤١١).

وقال ابن عطيَّةَ: (يحتملُ الضَّميرُ في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أن يريدَ جميعَ العالَمِ، فيكونَ الاختِلافُ حينَئذٍ يُرادُ به تصديقُ المؤمنينَ، وتكذيبُ الكافِرين، ونَزَغاتُ المُلحِدين. ويحتمِلُ أن يُرادَ بالضَّميرِ الكفَّارُ مِن قُرَيشٍ، فيكونَ الاختِلافُ شكَّ بعضٍ، وتكذيبَ بعضٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٣).

فعلى الاحتمالِ الأول فالَّذين كانوا يَتساءَلون هم الكفَّارُ والمؤمِنونَ، وكانوا جميعًا يَتساءَلونَ عنه؛ أمَّا المُسلِمُ فلِيَزدادَ بصيرةً ويقينًا في دينِه، وأمَّا الكافرُ فعلى سبيلِ السُّخريةِ، أو على سبيلِ إيرادِ الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦).

وذكر ابنُ عاشورٍ -على الاحتمالِ الثاني- أنَّ قولَه: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ إمَّا أن يكونَ بسُؤالِ بَعضِهم بعضًا سؤالَ مُتطَلِّعٍ للعِلمِ؛ لأنَّهم حينَئذٍ لم يَزالوا في شكٍّ مِن صِحَّةِ ما أُنبِئوا به، ثمَّ استقَرَّ أمرُهم على الإنكارِ، أو أنَّهم يَتظاهَرونَ بالسُّؤالِ، وهم موقِنونَ بانتفاءِ وُقوعِ ما يَتساءَلونَ عنه؛ فيَكونونَ قَصَدوا بالسُّؤالِ الاستِهزاءَ.

ثمَّ ذكَر ابنُ عاشور أنَّ الوَجهَ هو حَملُ الآيةِ عليهما، قال: (لأنَّ المُشرِكينَ كانوا مُتفاوِتينَ في التَّكذيبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨).

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا فَخَّم ما يَتساءَلونَ عنه، مُعَجِّبًا منهم فيه؛ بيَّنَه بقَولِه إعلامًا بأنَّ ذلك الإبهامَ ما كان إلَّا للإعظامِ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾[1].

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢﴾.

أي: يتَساءلونَ عن الخَبَرِ العَظيمِ، وهو ما اشتَمل عليه القرآنُ مِن التَّوحيدِ والبعثِ وغيرِ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦).

قيل: المرادُ بالنبأ -أي: الخبرِ- العظيمِ: القرآنُ. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، والرازيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦).

قال الواحدي: (ومعنى: ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ القرآنُ في قولِ جميعِ المفَسِّرينَ، وهو قولُ الكَلْبيِّ، ومُقاتِلٍ، ومجاهِدٍ، وقَتادةَ، وسُفْيانَ). ((البسيط)) (٢٣/ ١١١). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٥٧).

ورواه ابنُ مَرْدويه عن ابنِ عبَّاسٍ، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٩٠).

وقال الواحديُّ أيضًا: (هو: القرآنُ في قولِ الجميعِ. ومعناه: الخبَرُ العظيمُ الشَّأنِ؛ لأنَّه يُنبئُ على التَّوحيدِ، وتصديقِ الرَّسولِ، والخبَرِ عمَّا يجوزُ وعمَّا لا يجوزُ، وعن البَعثِ والنُّشورِ). ((الوسيط)) (٤/ ٤١١).

ونَسَب البَغَويُّ هذا القولَ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٩).

وقيل: هو البَعثُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ أبي زَمَنين، والنَّسَفيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨٨).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ النَّبأَ العَظيمَ هو رسالةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وشريعتُه، وما جاء =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾.

أي: الَّذي اختَلَف فيه أهلُ مَكَّةَ(١).

= به مِن القرآنِ المُشتَمِلِ على التَّوحيدِ والبَعثِ وغيرِ ذلك: ابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥).

قال ابنُ عاشور: (يَشملُ كُلَّ نَبأٍ عَظيم أنبَأَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم به، وأوَّلُ ذلك إنباؤُه بأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، وما تضَمَّنَه القُرآنُ مِن إبطالِ الشِّركِ، ومِن إثباتِ بَعثِ النَّاسِ يومَ القيامةِ، فما يُروى عن بعضِ السَّلَفِ مِن تعيينِ نبأٍ خاصٍّ: يُحمَلُ على التَّمثيلِ؛ فعن ابنِ عبَّاسٍ: هو القرآنُ. وعن مُجاهِدٍ وقَتادةَ: هو البَعثُ يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠).

قال ابنُ جُزَي (ويتعلَّقُ ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾ بفعلٍ مَحذوفٍ يُفَسِّرُه الظَّاهِرُ، تقديرُه: يَتساءَلونَ عن النَّبأ. ووقعت هذه الجُملةُ جوابًا عن الاستفهامِ، وبيانًا للمَسْؤولِ عنه، كأنَّه لَمَّا قال: عَمَّ يَتساءَلونَ؟ أجاب فقال: يَتساءَلونَ عن النَّبأِ العظيمِ. وقيل: يتعلَّقُ ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾ بـ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ الظَّاهِرِ، والمعنى على هذا: لأيِّ شَيءٍ يَتساءَلونَ عن النَّبأِ العظيمِ؟ والأوَّلُ أفصَحُ وأبرَعُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥).

قيل: المرادُ: اختِلافُ الكُفَّارِ فيما يَصِفونَ به النَّبَأَ العَظيمَ؛ كُفْرًا وتكذيبًا به. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الشَّوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠، ١١).

وقيل: معنى اختلافِهم: أنَّ مِنهم مَنْ آمَنَ به، ومنهم مَن كَفَر به. وممَّن قال بهذا في الجُملةِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَيْن: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩١).

قال ابنُ جُزَي (إن كان الضَّميرُ في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ لكُفَّارِ قُرَيشٍ، فاختِلافُهم أنَّ مِنهم مَن يقطَعُ =

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٤﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ المكَذِّبونَ بالقُرآنِ والمُنكِرونَ للبَعْثِ وغيرِه ممَّا جاء به، وهم سيَعلَمونَ عِلْمَ اليَقينِ ما كَذَّبوا به، عندَ مَوتِهم ويومَ القيامةِ، وسيَعلَمونَ حَقًّا عاقِبةَ تَكذيبِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٠ - ٧٢].

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٥﴾.

أي: ثمَّ ليس الأمرُ كما يَزْعُمونَ، فهم حَتْمًا سيَعْلَمونَ صِدْقَ القُرآنِ وما اشتمَل

= بالتَّكذيبِ، ومنهم مَن يشُكُّ، أو يكونُ اختِلافُهم قَولَ بَعضِهم: سِحرٌ، وقولَ بَعضِهم: شِعرٌ وكِهانةٌ، وغيرَ ذلك، وإن كان الضَّميرُ لجميعِ النَّاسِ فاختِلافُهم أنَّ منهم المؤمِنَ والكافِرَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٤).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ الاختِلافُ بالإقرارِ والإنكارِ على كَونِ ضميرِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ للكفَّارِ أيضًا، بأن يُجعلَ ضميرُ ﴿هُمْ﴾ للسَّائلينَ والمَسْؤولينَ. يُنظر: ((حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٣٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٠٣).

وقال ابن كثير بعدَ أن ذكر أنَّ المرادَ تَساؤُلُ المشرِكين: (قوله: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ يعني: النَّاسُ فيه على قولَينِ: مؤمنٌ به، وكافرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١).

قال البِقاعي: (﴿كَلَّا﴾ أي: ليس ما سألُوا عنه واختَلَفوا فيه بمَوضِعِ اختِلافٍ أصلًا، ولا يَصِحُّ أن يَطرُقَه رَيْبٌ بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ؛ فلْيَنزَجِروا عن ذلك، ولْيَرْتَدِعوا قبْلَ حُلولِ ما لا قِبَلَ لهم به). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٩٣).

عليه، كوُقوعِ البَعْثِ الَّذي كَذَّبوا به، وسيَعْلَمونَ عاقِبةَ ذلك[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ سُؤالٌ، وقَولُه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ جوابُ السَّائِلِ، والمجيبُ هو اللهُ تعالى، وذلك يدُلُّ على عِلْمِه بالغَيْبِ، بل بجَميعِ المعلوماتِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فيه سؤالٌ: ما الفائدةُ في أن يُذكَرَ الجَوابُ معه؟

الجوابُ: لأنَّ إيرادَ الكلام في مَعرِضِ السُّؤالِ والجوابِ أقرَبُ إلى التَّفهيمِ والإيضاحِ، ونظيرُه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[٣] [غافر: ١٦].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ عِظَمُ ما جاء به الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن الوَحْيِ، وأنَّه نَبأٌ عَظيمٌ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ افتِتاحُ الكلامِ بالاستِفهامِ عن تَساؤُلِ جماعةٍ عن نَبأٍ عَظيمٍ، افتِتاحُ تَشويقٍ ثمَّ تَهويلٍ وتَفخيمِ الشَّأنِ لِما سيُذكَرُ بعدَه، كأنَّه لفَخامتِه وخُروجِه عن حُدودِ الأجناسِ المعهودةِ خَفِيَ جِنسُه فيُسأَلُ عنه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)). ويُنظر ما يأتي (ص: ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٢).

فهو مِن الفواتحِ البديعةِ؛ لِما فيها مِن أُسلوبٍ عَزيزٍ غيرِ مألوفٍ، ومِن تَشويقٍ بطَريقةِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ، المحصِّلةِ لتَمكُّنِ الخبرِ الآتي بعْدَه في نفْسِ السَّامعِ أكمَلَ تَمكُّنٍ(١).

- ولَمَّا كان هذا الافتتاحُ مُؤْذِنًا بعَظيمِ أمْرٍ، كان مُؤذِنًا بالتَّصدِّي لقولٍ فصْلٍ فيه، ولَمَّا كان في ذلك إشعارٌ بأهَمِّ ما فيه خَوضُهم يَومَئذٍ، يُجعَلُ افتِتاحُ الكلامِ به مِن بَراعةِ الاستِهلالِ(٢).

- وضَميرُ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ ضَميرَ جَماعةِ الغائبينَ مُرادًا به المُشركونَ مِن أهلِ مكَّةَ، ولم يَسبِقْ لهم ذِكرٌ في هذا الكلامِ، ولكنَّ ذِكرَهم مُتكرِّرٌ في القرآنِ، فصاروا مَعروفينَ بالقَصدِ مِن بعضِ ضَمائرِه وإشاراتِه المُبهَمةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦).

وبراعةُ الاستِهلالِ: هي كَونُ ابتداءِ الكلامِ مُناسِبًا للمقصودِ، وأنْ يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على ما يُناسِبُ حالَ المتكلِّمِ، مُتضمِّنًا لِمَا سِيقَ الكلامُ مِن أجْلِه مِن غيرِ تصريحٍ، بلْ بألْطَفِ إشارةٍ يُدرِكُها الذَّوقُ السَّليمُ، ومِن أحسَنِ صُوَرِ براعةِ الاستِهلالِ مَوقِعًا، وأبلَغِها معنًى: فواتحُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، ومنها الحُروفُ المقطَّعةُ؛ فإنَّها تُوقِظُ السَّامعينَ للإصغاءِ إلى ما يَرِدُ بعدَها؛ لأنَّهم إذا سمِعوها مِن النَّبيِّ الأُمِّيِّ عَلِموا أنَّها والمَتْلُوَّ بعْدَها مِن جِهةِ الوحيِ، وفيها تنبيهٌ على أنَّ المتلوَّ عليهم مِن جِنسِ ما يَنظِمونَ منه كلامَهم، مع عجْزِهم عن أنْ يأتوا بمِثلِه. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٥)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم (١/ ٥٣)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠).

- وقيلَ: هو سؤالُ استِهزاءٍ أو تَعجُّبٍ، وإنَّما هم موقِنونَ بالتَّكذيبِ[١].

- ولَمَّا كان الاستِفهامُ مستعمَلًا في غيرِ طلبِ الفَهمِ، حَسُن تعقيبُه بالجوابِ عنه بقولِه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، فهو بَيانٌ لشَأنِ المسؤولِ عنه إثرَ تَفخيمِه بإبهامِ أمْرِه، وتَوجيهِ أذهانِ السَّامِعينَ نحوَه، وتَنزيلِهم مَنزِلةَ المستفهِمينَ؛ فإنَّ إيرادَه على طَريقةِ الاستِفهامِ مِن علَّامِ الغُيوبِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه لانقطاعِ قَرينِه، وانعدامِ نَظيرِه خارجٌ عن دائرةِ عُلومِ الخَلْقِ، خَليقٌ بأنْ يُعتنَى بمَعرفتِه ويُسألَ عنه، كأنَّه قيلَ: عنْ أيِّ شيءٍ يَتساءَلونَ؟ هل أُخبِرُكُم بِه؟ ثمَّ قيلَ بطَريقِ الجوابِ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، على مِنهاجِ قولِه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فـ(عَنْ) مُتعلِّقةٌ بما يدُلُّ عليه المذكورُ مِن مُضمَرٍ حقُّه أنْ يُقدَّرَ بعدَها؛ مُسارَعةً إلى البيانِ، ومُراعاةً لتَرتيبِ السُّؤالِ، هذا هو الحقيقُ بالجزالةِ التَّنزيليَّةِ[٢].

- ووُصِفَ النَّبأُ بالعظيمِ هنا زيادةً في التَّنويهِ به؛ لأنَّ كَونَه واردًا مِن عالِمِ الغَيبِ زادَه عِظَمَ أوصافٍ وأهوالٍ، فوَصْفُ النَّبأِ بالعظيمِ باعتبارِ ما وُصِفَ فيه مِن أحوالِ البعثِ فيما نزَلَ مِن آياتِ القرآنِ قبْلَ هذا[٣].

وقيل: لَمَّا كان في مَقامِ التَّفخيمِ له، وصَفَه تأكيدًا بقولِه: ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾، مع أنَّ النَّبأَ لا يُقالُ إلَّا لخبرٍ عظيمٍ شأنُه؛ ففي ذلك تَنبيهٌ على أنَّه مِن حقِّه أن يُذعِنَ له كلُّ سامعٍ، ويَهتَمَّ بأمرِه، لا أنْ يَشُكَّ فيه ويَجعَلَه مَوضِعًا للنِّزاعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٤، ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩١).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلنَّبَإِ﴾ قيل: هو تَعريفُ الجنسِ؛ فيَشملُ كلَّ نبأٍ عظيمٍ أنبَأَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم به[١].

- وقد وُصِفَ النَّبأُ بقولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بعدَ وصْفِه بالعظيمِ؛ تأكيدًا لخطرِه إثرَ تأكيدٍ، وإشعارًا بمَدارِ التَّساؤلِ عنه[٢].

- والضَّميرُ في ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ تأكيدٌ، وفيه معْنى الاختصاصِ، ولم يكنْ لقُرَيشٍ اختصاصٌ بالاختلافِ، لكنْ لَمَّا كان خَوضُهم فيه أكثَرَ، وتعنُّتُهم له أظْهَرَ؛ جُعِلوا كأنَّهم مَخصوصونَ به[٣].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ جِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ في صِلةِ المَوصولِ دونَ أنْ يقولَ: (الَّذي يَختلِفونَ فيه) أو نحوَ ذلك؛ لتُفيدَ الجملةُ الاسميَّةُ أنَّ الاختِلافَ في أمرِ هذا النَّبأِ مُتمكِّنٌ منهم، ودائمٌ فيهم؛ لدَلالةِ الجملةِ الاسميَّةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ[٤].

- وتَقديمُ ﴿فِيهِ﴾ على ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالمجرورِ، وللإشعارِ بأنَّ الاختلافَ ما كان مِن حقِّه أنْ يَتعلَّقَ به، مع ما في التَّقديمِ مِن الرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾

- ﴿كَلَّا﴾ حرْفُ رَدْعٍ وإبطالٍ لشَيءٍ يَسبِقُه غالبًا في الكلامِ، يَقتضي ردْعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١).

(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

المنسوبِ إليه، وإبطالَ ما نُسِب إليه، وهو هنا رَدعٌ لِلَّذينَ ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۞ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۞ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ [النَّبأ: ١-٣]، وإبطالٌ لِما تَضمَّنَتْه جملةُ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ مِن تَساؤلٍ مَعلومٍ للسَّامِعينَ، فمَوقعُ الجملةِ مَوقعُ الجوابِ عن السُّؤالِ؛ ولذلك فُصِلَتْ ولم تُعطَفْ؛ لأنَّ ذلك طَريقةُ السُّؤالِ والجوابِ، والكلامُ وإنْ كان إخبارًا عنهم فإنَّهم المقصودونَ به، فالرَّدعُ موجَّهٌ إليهم بهذا الاعتبارِ، والمعنى: إبطالُ الاختِلافِ في ذلك النَّبأِ، وإنكارُ التَّساؤلِ عنه، ذلك التَّساؤلُ الَّذي أرادوا به الاستهزاءَ وإنكارَ الوُقوعِ، وذلك يُثبِتُ وُقوعَ ما جاءَ به النَّبأُ وأنَّه حقٌّ؛ لأنَّ إبطالَ إنكارِ وُقوعِه يُفْضي إلى إثباتِ وُقوعِه[١].

- والغالبُ في استعمالِ (كَلَّا) أنْ تُعقَّبَ بكلامٍ يُبيِّنُ ما أجمَلَتْه مِن الرَّدعِ والإبطالِ؛ فلذلك عُقِّبتْ هنا بقولِه: ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾، وهو زيادةٌ في إبطالِ كلامِهم بتحقيقِ أنَّهم سيُوقِنونَ بوُقوعِه، ويُعاقَبونَ على إنكارِه، فَهُمَا عِلْمانِ يَحصُلانِ لهم: عِلمٌ بحقِّ وُقوعِ البعثِ، وعِلمٌ في العِقابِ عليه، ولذلك حُذِفَ مَفعولُ ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾؛ ليَعُمَّ المَعلومَيْنِ؛ فإنَّهم عندَ الموتِ يَرَون ما سيَصيرون إليه بعدَ الموتِ[٢].

- أو حُذِفَ ما يَتعلَّقُ به العِلمُ على سبيلِ التَّهويلِ، أي: سيَعلَمونَ ما يَحُلُّ بهم[٣].

- وتَضمَّنَ هذا الإبطالُ وما بعدَه إعلامًا بأنَّ يومَ البعثِ واقعٌ، وتَضمَّنَ وعيدًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١، ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢).

- ومِن مَحاسنِ هذا الأسلوبِ في الوعيدِ أنَّ فيه إيهامًا بأنَّهم سيَعلَمونَ جوابَ سؤالِهم الَّذي أرادوا به الإحالةَ والتَّهكُّمَ، وصَوَّروهُ في صورةِ طلبِ الجوابِ، فهذا الجوابُ مِن بابِ قولِ النَّاسِ: الجوابُ ما تَرى لا ما تَسمَعُ[١].

- قولُه: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ بطَريقِ الاستِئنافِ أنَّهم سوف يَعلَمونَ أنَّ ما يَتساءَلونَ عنه ويَضحكونَ منه حقٌّ، وتَعليلٌ للرَّدعِ. والتَّعبيرُ عمَّا يُلاقونَه مِن فُنونِ الدَّواهِي والعُقوباتِ بالعِلمِ؛ لوُقوعِه في مَعرِضِ التَّساؤلِ والاختِلافِ[٢].

- والسِّينُ في قولِه: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ للتَّقريبِ والتأكيدِ؛ أُكِّدَ الكلامُ بحرْفِ الاستِقبالِ الَّذي شأنُه إفادةُ تقريبِ المستقبَلِ[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ارتقاءٌ في الوعيدِ والتَّهديدِ؛ فإنَّ (ثُمَّ) لَمَّا عطَفَتِ الجملةَ فهي للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ وهو أنَّ مَدلولَ الجملةِ الَّتي بعدَها أَرْقى رُتبةً في الغرضِ مِن مَضمونِ الجملةِ الَّتي قبْلَها، ولَمَّا كانتِ الجملةُ الَّتي بعدَ (ثُمَّ) مِثلَ الجملةِ الَّتي قبْلَ (ثُمَّ)، تَعيَّنَ أنْ يكونَ مضمونُ الجملةِ الَّتي بعدَ (ثُمَّ) أَرْقى درجةً مِن مضمونِ نظيرِها، ومعنى ارتقاءِ الرُّتبةِ أنَّ مضمونَ ما بعدَ (ثُمَّ) أَقْوى مِن مضمونِ الجملةِ الَّتي قبلَ (ثُمَّ)، وهذا المضمونُ هو الوعيدُ، فلمَّا استُفيدَ تحقيقُ وُقوعِ المتوعَّدِ به بما أفادَهُ التَّوكيدُ اللَّفظيُّ -إذ الجملةُ الَّتي بعدَ (ثُمَّ) أكَّدَتِ الجملةَ الَّتي قبْلَها[٤]- تَعيَّنَ انصرافُ معنى ارتقاءِ رتبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢).

(٤) جملةُ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ توكيدٌ للأُولى ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ مِن حيثُ المعنى، وإن كانتْ ليستْ توكيدًا باعتبارِ اصطلاحِ النَّحْويِّينَ؛ لأنَّه فُصِل بيْنَها وبيْنَ الَّتي قبْلَها بحرفِ العطفِ، والتَّوكيدُ لا يُفصَلُ بيْنَه وبيْنَ مؤكَّدِه بشَيءٍ مِنَ الحروفِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥، ٢٦).

معنى الجملةِ الثَّانيةِ وهو أنَّ المتوعَّدَ به الثَّانيَ أعظَمُ ممَّا يَحسَبونَ[١].

وقيل: كُرِّرَ قولُه: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ تَوعُّدٌ للكُفَّارِ بما يَرَونَه عِندَ النَّزعِ، والثَّانيَ تَوعُّدٌ لهم بما يَصيرونَ إليه مِن عذابِ الآخِرةِ، أو الأوَّلَ تَوعُّدٌ بأهوالِ القيامةِ، والثَّانيَ تَوعُّدٌ بما بعدَها مِن النَّارِ وحَرِّها، أو الأوَّلَ رَدعٌ عن الاختِلافِ، والثَّانيَ عن الكفرِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥).

الآيات (٦-١٦)

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مِهَٰدًا﴾: أي: فِراشًا وبِساطًا، ومَكانًا مُمَهَّدًا مُوَطَّأً، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على تَوطئةٍ وتَسهيلٍ للشَّيءِ[(١)].

﴿أَوْتَادًا﴾: جمعُ وَتِدٍ، والوَتِدُ: عُودٌ غَليظٌ، أسفَلُه أدَقُّ مِن أعلاه، يُدَقُّ في الأرضِ؛ لتُشَدَّ به أطنابُ الخيمةِ، وأصلُ (وتد): يدُلُّ على الثَّباتِ والرُّسوخِ[(٢)].

﴿سُبَاتًا﴾: أي: راحةً لأبدانِكم؛ لانقِطاعِكم فيه عن الأعمالِ، وأصلُ (سبت): يدُلُّ على راحةٍ وسُكونٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤، ١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) (٣/ ١٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٢/ ١٦٥).

قال الراغب: (أصلُ السَّبْتِ: القطعُ). ((المفردات)) (ص: ٣٩٢).

وقال ابن عاشور: (والسُّباتُ: بضمِّ السِّينِ وتخفيفِ الباءِ اسمُ مصدرٍ بمعنَى السَّبْتِ، أي: =

﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾: أي: شَمسًا وَقَّادةً مُضِيئةً، والوَهَجُ: يَجمَعُ النُّورَ والحَرَّ، وأصلُ (سرج): يدُلُّ على الحُسْنِ والزِّينةِ والجَمالِ، ومِنْ ذلك السِّراجُ، سُمِّي بذلك لضِيائِه وحُسْنِه، وأصلُ (وهج): يدُلُّ على حَرٍّ وتوَقُّدٍ(١).

﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾: أي: السَّحائِبِ الَّتي تَجيءُ بالمطَرِ، مأخوذٌ مِنَ العَصْرِ؛ لأنَّ السَّحابَ يَنعَصِرُ فيَخرُجُ منه الماءُ، وأصلُ (عصر): يدُلُّ على ضَغطِ شَيءٍ حتَّى يتحَلَّبَ(٢).

﴿ثَجَّاجًا﴾: أي: سَيَّالًا مُنصَبًّا بشِدَّةٍ، والثَّجَّاجُ: الكثيرُ المنصَبُّ، وأصلُ (ثجج): يدُلُّ على صَبِّ شَيءٍ(٣).

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾: أي: بَساتينَ مُلْتَفَّةً بالنَّباتِ والشَّجَرِ، والأَلْفافُ: الشَّجَرُ يَلتَفُّ بَعْضُه ببَعضٍ، وأصلُ (جنن): السَّتْرُ والتَّغطيةُ، ومنه سُمِّي البُستانُ جَنَّةً؛

= القطع، أي: جعلْناه لكم قطعًا لعملِ الجسدِ بحيثُ لا بُدَّ للبدنِ منه، وإلى هذا أشار ابنُ الأعرابيِّ وابنُ قُتيبةَ إذْ جَعَلا المعنى: وجَعَلْنا نومَكم راحَةً، فهو تفسيرُ معنًى). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨).

وقيل :كأنَّه إذا نام فقد انقَطَع عن النَّاسِ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٢/ ٢٦٨)، ((ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن)) لغلام ثعلب (ص: ٥٥١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٦) و(٦/ ١٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦، ٨٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤٠، ٢٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٥).

لأنَّه يستُرُ داخلَه بالأشجارِ، ويُغطِّيه، وأصلُ (لفف): يدُلُّ على تلَوِّي شَيءٍ على شَيءٍ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا مَظاهِرَ قُدرتِه: ألَمْ نَجعَلِ الأرضَ مُذَلَّلةً للنَّاسِ مُمَهَّدةً يَستَقِرُّونَ عليها ويَنتَفِعونَ بها؟ وجَعَلْنا الجِبالَ مُثَبِّتةً للأرضِ؛ حتَّى لا تَضطَرِبَ بأهْلِها، وخَلَقْناكم ذُكُورًا وإناثًا؛ لِيَحصُلَ التَّزاوُجُ بَيْنَكم، وجَعَلْنا نَومَكم راحةً لكم مِن تَعَبِ سَعْيِكم وأعمالِكم بالنَّهارِ، وجَعَلْنا اللَّيلَ غِطاءً يُغَطِّيكم بظَلامِه، وجَعَلْنا النَّهارَ وَقْتًا لسَعْيِ النَّاسِ في مَصالِحِهم وأرْزاقِهم، وبَنَيْنا فَوقَكم سَبْعَ سَمَواتٍ في غايةِ القُوَّةِ والصَّلابةِ، وجَعَلْنا شَمسًا مُضيئةً شَديدةَ التَّوَقُّدِ، وأنزَلْنا مِن السَّحابِ ماءَ المطَرِ الغَزيرَ؛ لِنُخرِجَ بهذا المطَرِ أنواعَ الحُبوبِ والنَّباتاتِ، وبَساتينَ أشجارُها كثيرةٌ مُلْتَفٌّ بَعْضُها ببَعْضٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عنهم إنكارَ البَعثِ والحَشرِ، وأرادَ إقامةَ الدَّلالةِ على صِحَّةِ الحَشرِ؛ قدَّم لذلك مقدِّمةً في بيانِ كَونِه تعالى قادِرًا على جميعِ المُمكِناتِ، عالِمًا بجميعِ المعلوماتِ؛ وذلك لأنَّه مهما ثَبَت هذان الأصلانِ ثَبَت القَولُ بصِحَّةِ البَعثِ، وإنَّما أثبَت هذَينِ الأصلينِ بأنْ عدَّد أنواعًا مِن مخلوقاتِه الواقعةِ على

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١) و(٥/ ٢٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٤).

وَجهِ الإحكامِ والإتقانِ؛ فإنَّ تلك الأشياءَ مِن جِهةِ حُدوثِها تدُلُّ على القُدرةِ، ومِن جهةِ إحكامِها وإتقانِها تدُلُّ على العِلمِ، ومتى ثَبَت هذان الأصلانِ، وثبت أنَّ الأجسامَ مُتساويةٌ في قَبولِ الصِّفاتِ والأعراضِ؛ ثبَتَ -لا مَحالةَ- كَونُه تعالى قادِرًا على تخريبِ الدُّنيا بسَماواتِها وكواكِبِها وأرضِها، وعلى إيجادِ عالَمِ الآخرةِ؛ فهذا هو الإشارةُ إلى كيفيَّةِ النَّظمِ[١].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾.

أي: ألَمْ نَجعَلِ الأرضَ فِراشًا للنَّاسِ، مُذَلَّلةً لهم، يَستَقِرُّونَ عليها، ويَنتَفِعونَ بها[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾.

أي: وجَعَلْنا الجِبالَ مُثَبِّتةً للأرضِ، فلا تَضطَرِبُ بأَهْلِها[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَّر بما في الظَّرْفِ -الَّذي هو فَرْشُهم- مِنَ الدَّلالةِ على تمامِ القُدْرةِ؛ أتْبَعَه التَّذكيرَ بما في المظروفِ، وهو أنفُسُهم؛ لتَجتَمِعَ آياتُ الأنفُسِ والآفاقِ، فيَتبيَّنَ لهم أنَّه الحَقُّ، فقال[1]:

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾.

أي: وخَلَقْناكم ذُكُورا وإناثًا؛ لِيَحصُلَ التَّزاوُجُ بَيْنَكم، ويَخرُجَ النَّسْلُ منكم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر ما هو سبَبٌ لبقاءِ النَّوعِ؛ ذكَرَ ما هو سبَبٌ لحِفظِه مِن إسراعِ الفَسادِ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧، ١٨).

وممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: خَلَقْناكم أصنافًا مُتقابِلةً، فهم بَيْنَ ذَكَرٍ وأُنثى، وصغيرٍ وكبيرٍ، وأسْوَدَ وأحمَرَ، وجميلٍ ودميمٍ... إلى غيرِ ذلك مِمَّا يختَلِفُ النَّاسُ فيه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٦).

وأيضًا فقد انتَقَلَ مِن الاستِدلالِ بخلْقِ النَّاسِ إلى الاستِدلالِ بأحوالِهم، وخَصَّ منها الحالةَ الَّتي هي أقوى أحوالِهم المعروفةِ شبَهًا بالموتِ الَّذي يَعقُبُه البعثُ، وهي حالةٌ متكرِّرةٌ لا يَخْلُونَ مِن الشُّعورِ بما فيها مِن العِبرةِ؛ لأنَّ تدبيرَ نظامِ النَّومِ وما يَطرَأُ عليه مِن اليقظةِ أشبَهُ حالٍ بحالِ الموتِ وما يعقُبُه مِن البعثِ[1].

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾.

أي: وجَعَلْنا نَومَكم قاطِعًا لحركتِكم، فتَحصُلُ به راحتُكم مِن تَعَبِ سَعْيِكم وأعمالِكم[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر النَّومَ أتْبَعَه وَقْتَه الأليقَ به، مُذَكِّرًا بنِعمةِ الظَّرْفِ الزَّمانيِّ بعدَ التَّذكيرِ بالظَّرفِ المكانيِّ، فقال[3]:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾.

أي: وجَعَلْنا اللَّيلَ غِطاءً يَتغشَّاكم سَوادُه، وتُغَطِّيكم ظُلْمَتُه، كما يُغَطِّي الثَّوبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٧).

البَدَنَ[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ﴾ [الفرقان: ٤٧]

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ [الليل: ١].

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر خَلْقَ نِظامِ اللَّيلِ؛ قُوبِلَ بذِكْرِ خَلْقِ نِظامِ النَّهارِ[٢].

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾.

أي: وجَعَلْنا النَّهارَ وَقْتًا يَطلُبُ فيه النَّاسُ أرزاقَهم، ويَسعَونَ في مَصالِحِهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٧].

﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

ناسَبَ بعدَ ذِكرِ اللَّيلِ والنَّهارِ -وهما مِن مَظاهِرِ الأُفقِ المسمَّى سماءً- أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠، ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦، ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧).
قال ابن عاشور: (المَعاشُ: يُطلَقُ مصدرَ «عاش» إذا حَيِيَ، فالمَعاشُ: الحياةُ، ويُطلَقُ اسمًا لِما به عَيشُ الإنسانِ مِن طعامٍ وشرابٍ على غيرِ قياسٍ، والمعنيانِ صالحانِ للآيةِ؛ إذ يكونُ المعنى: وجعَلْنا النَّهارَ حياةً لكم، شُبِّهَتِ اليقظةُ فيه بالحياةِ، أو يكونُ المعنى: وجعَلْنا النَّهارَ معيشةً لكم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢).

يُتْبَعَ ذلك وما سبَقَه مِن خلْقِ العالَمِ السُّفليِّ بذِكرِ خلْقِ العوالِمِ العُلويَّةِ[١].

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: وبَنَيْنا فَوقَكم سَبْعَ سَمَواتٍ في غايةِ القُوَّةِ والصَّلابةِ والإحكامِ[٢].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨].

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر السَّقفَ، ذكَرَ بَعضَ ما فيه مِن أمَّهاتِ المنافِعِ[٣].

وأيضًا ذِكرُ السَّمَواتِ يُناسِبُه ذِكرُ أعظَمِ ما يُشاهِدُه النَّاسُ في فَضائِها، وذلك الشَّمسُ؛ ففي ذلك مع العِبرةِ بخَلْقِها عِبرةٌ في كَونِها على تلك الصِّفةِ، ومِنَّةٌ على النَّاسِ باستفادتِهم مِن نُورِها فوائِدَ جَمَّةً[٤].

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾.

أي: وجَعَلْنا شَمسًا مُضيئةً شَديدةَ التَّوَقُّدِ والإضاءةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ [نوح: ١٦].

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ الانتِقالِ مِن ذِكرِ السَّمواتِ إلى ذِكرِ السَّحابِ والمطرِ قويَّةٌ[١]. ومِن ذلك أنَّها استِدلالٌ بحالةٍ أُخرى مِن الأحوالِ الَّتي أَودَعَها اللهُ تعالى في نِظامِ الموجوداتِ، وجعَلَها مَنشأً شبيهًا بحياةٍ بعدَ شبيهٍ بموتٍ أو اقترابٍ منه، ومَنشأَ تَخلُّقِ موجوداتٍ مِن ذرَّاتٍ دقيقةٍ، وتلك حالةُ إنزالِ ماءِ المطرِ مِن الأَسْحِبةِ على الأرضِ، فتُنبِتُ الأرضُ به سَنابلَ حَبٍّ وشجرًا وكَلأً، وتلك كلُّها فيها حياةٌ قريبةٌ مِن حياةِ الإنسانِ والحيوانِ، وهي حياةُ النَّماءِ، فيكونُ ذلك دليلًا للنَّاسِ على تصَوُّرِ حالةِ البعثِ بعدَ الموتِ بدليلٍ مِن التَّقريبِ الدَّالِّ على إمكانِه؛ حتَّى تَضمحِلَّ مِن نفوسِ المُكابِرينَ شُبَهُ إحالةِ البعثِ[٢].

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤﴾.

أي: وأنزَلْنا مِن السَّحابِ المُثْقَلِ بالمياهِ ماءَ المطَرِ المُنصَبَّ على الأرضِ بتَتابُعٍ وكَثْرةٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾ [عبس: ٢٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٣، ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦).

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ١٥﴾.

أي: لِنُخرِجَ بهذا المطَرِ أنواعَ الحُبوبِ -كالقَمْحِ، والشَّعيرِ، والذُّرَةِ، والأَرُزِّ- وأنواعَ النَّباتاتِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨).

ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿حَبًّا﴾ أي: مِمَّا يأكُلُه النَّاسُ كالقمحِ والشَّعيرِ وما يُقتاتُ، ﴿وَنَبَاتًا﴾ أي: ما يكونُ قُوتًا للأنعامِ والدَّوابِّ كالحشيشِ والعشبِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والقرطبي، والنسفي، وابنُ جُزَي، والخازن، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧).

قال الرازي: (كلُّ شَيءٍ نبت مِن الأرضِ فإمَّا ألَّا يكونَ له ساقٌ وإمَّا أن يكونَ، فإن لم يكُنْ له ساقٌ فإمَّا أن يكونَ له أَكْمامٌ وهو الحَبُّ، وإمَّا ألَّا يكونَ له أكمامٌ وهو الحشيشُ، وهو المرادُ هاهنا بقولِه: ﴿وَنَبَاتًا﴾، وإلى هذَينِ القِسمَينِ الإشارةُ بقولِه تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡ﴾ [طه: ٥٤]. وأمَّا الَّذي له ساقٌ فهو الشَّجرُ، فإذا اجتمَع منها شَيءٌ كثيرٌ سُمِّيَتْ جَنَّةً، فثبَت بالدَّليلِ العقليِّ انحِصارُ ما يَنبُتُ في الأرضِ في هذه الأقسامِ الثَّلاثةِ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١).

وقال الزَّجَّاجُ: (كلُّ ما حُصِد فهو حَبٌّ، وكلُّ ما أكَلَتْه الماشيةُ مِن الكَلأِ فهو نَباتٌ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٧٢).

وقال البِقاعي: (﴿وَنَبَاتًا﴾ يتفكَّهون ويتنزَّهون فيه، وتعتَلِفُه البهائمُ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٩٩).

وقال الرَّسْعَني: (﴿وَنَبَاتًا﴾ يأكُلُه النَّاسُ والأنعامُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٤٧).

وقال ابن كثير: (﴿حَبًّا﴾ يُدَّخَرُ للأَناسيِّ والأنعامِ، ﴿وَنَبَاتًا﴾ أي: خَضِرًا يُؤكَلُ رَطبًا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٤).

وقال أبو حيَّان: (ثَنَّى بِالنَّباتِ، فشَمِلَ كُلَّ مَا يَنْبُتُ مِن شَجَرٍ وحَشِيشٍ، ودَخَل فيه الحَبُّ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٥).

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٧ - ٣٢].

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

أي: ونُخرِجَ بالمطَرِ بَساتينَ وحَدائِقَ أشجارُها كثيرةٌ مُجتَمِعةٌ، مُلْتَفٌّ بَعْضُها ببَعْضٍ؛ لكَثْرتِها، وتَقارُبِها، وتداخُلِ أغصانِها[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ...﴾ قرَّرَهم تعالى على النَّظَرِ في آياتِه الباهِرةِ، وغرائِبِ مخلوقاتِه التي ابتَدَعها من العَدَمِ الصِّرْفِ، وأنَّ النَّظَرَ في ذلك يُفْضي إلى الإيمانِ بما جاءت به الرُّسُلُ مِنَ البَعْثِ والجزاءِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ استِدلالٌ يَتضمَّنُ امتِنانًا، وفي ذلك الامتِنانِ إشعارٌ بحِكمةِ اللهِ تعالَى؛ إذ جعَلَ الأرضَ مُلائمةً للمخلوقاتِ الَّتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٤، ١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨).

قال ابنُ جرير: (أهلُ التَّأويلِ مُجمِعونَ على أنَّ معناه: مُلْتَفَّةٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ أي: بَساتينَ وحدائِقَ مِن ثمراتٍ مُتنوِّعةٍ، وألوانٍ مُختَلِفةٍ، وطُعومٍ ورَوائِحَ مُتفاوِتةٍ، وإنْ كان ذلك في بقعةٍ واحدةٍ مِنَ الأرضِ مُجتَمِعًا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٤).

عليها؛ فإنَّ الَّذي صنَعَ هذا الصُّنعَ لا يُعجِزُه أنْ يخلُقَ الأجسامَ مرَّةً ثانيةً بعدَ بِلاها، والغرضُ مِنَ الامتنانِ هنا تذكيرُهم بفضلِ اللهِ؛ لعلَّهم أنْ يَرْعَوُوا عن المكابَرةِ، ويُقبِلوا على النَّظرِ فيما يَدْعوهم إليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تبليغًا عن اللهِ تعالى[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ الأزواجُ: جمْعُ زَوجٍ، وهو اسمٌ للعددِ الَّذي يُكرِّرُ الواحدَ تكريرةً واحدةً، وقد وُصِف به كما يُوصَفُ بأسماءِ العَددِ؛ فقولُه: ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أفادَ أنْ يكونَ الذَّكَرُ زَوجًا للأُنثى والعكسُ، فالذَّكَرُ زَوجٌ لأُنثاهُ، والأُنثى زوجٌ لِذَكَرِها[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أُعقِبَ الاستِدلالُ بخلْقِ الأرضِ وجبالِها بالاستِدلالِ بخلقِ النَّاسِ؛ للجَمعِ بيْنَ إثباتِ التَّفرُّدِ بالخلْقِ وبيْنَ الدَّلالةِ على إمكانِ إعادتِهم، والدَّليلُ في خلقِ النَّاسِ على الإبداعِ العظيمِ -الَّذي الخلْقُ الثَّاني مِن نوعِه- أمكَنُ في نُفوسِ المستدَلِّ عليهم، قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٣] [الذاريات: ٢١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: ذُكُورًا وإناثًا مِن جِنسٍ واحِدٍ؛ لِيَسكُنَ كُلٌّ منهما إلى الآخَرِ، فتَكونَ المودَّةُ والرَّحمةُ، وتَنشَأَ عنهما الذُّرِّيَّةُ[٤].

٥- في قولِه: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ إيماءٌ إلى ما في ذلك الخلْقِ مِن حِكمةِ إيجادِ قوَّةِ التَّناسُلِ مِن اقترانِ الذَّكَرِ بالأُنثى، وهو مَناطُ الإيماءِ إلى الاستِدلالِ على إمكانِ إعادةِ الأجسادِ؛ فإنَّ القادرَ على إيجادِ هذا التَّكوينِ العجيبِ ابتِداءً بقوَّةِ التَّناسُلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦).

قادرٌ على إيجادِ مِثلِه بمِثلِ تلك الدِّقَّةِ أو أدَقَّ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ ذِكْرُ الجَعْلِ القَدَرِيِّ، ويُقابِلُه الجَعْلُ الشَّرْعيُّ، كقَولِه تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقَولِه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[٢] [المائدة: ١٠٣].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ فيه امتِنانٌ على النَّاسِ بخلْقِ نظامِ النَّومِ فيهم؛ لتحصُلَ لهم راحةٌ مِن أتعابِ العملِ الَّذي يَكْدَحونَ له في نَهارِهم؛ فاللهُ تعالى جعَلَ النَّومَ حاصلًا للإنسانِ بدونِ اختيارِه، فالنَّومُ يُلجِئُ الإنسانَ إلى قطعِ العملِ؛ لتحصُلَ راحةٌ لمجموعِه العصبيِّ الَّذي رُكنُه في الدِّماغِ، فبتِلك الرَّاحةِ يَستجِدُّ العصبُ قُواهُ الَّتي أَوهَنَها عمَلُ الحَواسِّ وحرَكاتُ الأعضاءِ وأعمالُها، بحيثُ لو تَعلَّقتْ رغبةُ أحدٍ بالسَّهرِ لا بدَّ له مِن أنْ يَغلِبَه النَّومُ، وذلك لُطفٌ بالإنسانِ؛ بحيثُ يحصُلُ له ما به مَنفعةُ مَدارِكِه قَسْرًا عليه لئلَّا يَتهاوَنَ به؛ ولذلك قيل: إنَّ أقَلَّ النَّاسِ نَومًا أقصَرُهم عُمرًا، وكذلك الحيوانُ[٣].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ مِن إتمامِ الاستِدلالِ الَّذي قبْلَه وما فيه مِن المِنَّةِ؛ لأنَّ كَونَ اللَّيلِ لِباسًا حالةٌ مهيِّئةٌ لتكيُّفِ النَّومِ، ومُعِينةٌ على هنائِه والانتفاعِ به؛ لأنَّ اللَّيلَ ظُلمةٌ عارِضةٌ في الجوِّ مِن مُزايَلةِ ضوءِ الشَّمسِ عن جزءٍ مِن كُرةِ الأرضِ، وبتلك الظُّلمةِ تَحتجِبُ المرئيَّاتُ عن الأبصارِ، فيَعسُرُ المشيُ والعملُ والشُّغلُ، ويَنحَطُّ النَّشاطُ، فتَتهيَّأُ الأعصابُ للخمولِ، ثمَّ يَغْشاها النَّومُ، فيَحصُلُ السُّباتُ بهذه المقدِّماتِ العجيبةِ، فلا جَرَمَ كان نظامُ اللَّيلِ آيةً على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩).

انفرادِ اللهِ تعالى بالخلْقِ وبديعِ تقديرِه، وكان دليلًا على أنَّ إعادةَ الأجسامِ بعدَ الفناءِ غيرُ متعذِّرةٍ عليه تعالى، فلو تَأمَّلَ المُنكِرون فيها؛ لَعَلِموا أنَّ اللهَ قادرٌ على البعثِ، فَلَمَا كذَّبوا خبرَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم به. وفي ذلك امتنانٌ عليهم بهذا النِّظامِ الَّذي فيه اللُّطفُ بهم، وراحةُ حياتِهم، لو قدَروهُ حقَّ قَدْرِه لَشَكَروا وما أَشرَكوا، فكان تذكُّرُ حالةِ اللَّيلِ سريعَ الخُطورِ بالأذهانِ عِندَ ذِكرِ حالةِ النَّومِ، فكان ذِكرُ النَّومِ مُناسَبةً للانتِقالِ إلى الاستِدلالِ بحالةِ اللَّيلِ على حسَبِ أفهامِ السَّامِعينَ[(١)].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ النَّهارُ: الزَّمانُ الَّذي يكونُ فيه ضَوءُ الشَّمسِ منتشرًا على جزءٍ كبيرٍ مِن الكُرةِ الأرضيَّةِ، وفيه عِبرةٌ بدِقَّةِ الصُّنعِ وإحكامِه؛ إذ جُعِل نِظامانِ مختَلِفانِ مَنشؤُهما سُطوعُ نورِ الشَّمسِ واحتِجابُه فوقَ الأرضِ، وهما نِعمتانِ للبَشرِ مختلِفتانِ في الأسبابِ والآثارِ؛ فنِعمةُ اللَّيلِ راجعةٌ إلى الرَّاحةِ والهدوءِ، ونعمةُ النَّهارِ راجعةٌ إلى العملِ والسَّعيِ؛ لأنَّ النَّهارَ يَعقُبُ اللَّيلَ، فيكونُ الإنسانُ قد استجَدَّ راحتَه، واستعادَ نشاطَه، ويَتمكَّنُ مِن مختلِفِ الأعمالِ؛ بسببِ إبصارِ الشُّخوصِ والطُّرقِ[(٢)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أنَّه سُبحانَه سمَّى الشَّمْسَ سِراجًا وضِياءً؛ لأنَّ فيها مع الإنارةِ والإشراقِ تَسخينًا وإحراقًا، فهي بالنَّارِ أشبَهُ، بخلافِ القَمَرِ؛ فإنَّه ليس فيه مع الإنارةِ تَسخينًا؛ فلهذا قال: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[(٣)] [يونس: ٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا *

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩، ٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٣٦٨).

لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ أنَّه لَمَّا ذَكَرَ سُبحانَه السِّرَاجَ الوَهَّاجَ -الَّذي به الحرارةُ واليُبُوسةُ- ذَكَرَ ما يُقابِلُ ذلك، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ والماءُ فيه رطوبةٌ وفيه بُرودةٌ، وهذا الماءُ أيضًا تَنْبُتُ به الأرضُ وتحيا به، فإذا انضاف ماءُ السَّماءِ إلى حرارةِ الشَّمسِ حَصَلَ في هذا إنضاجٌ للثِّمارِ، ونموٌّ لها على أكمَلِ ما يكونُ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۞ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ أنَّه سُبحانَه يَخْلُقُ الأسبابَ والحِكَمَ[٢].

١٣- قال تعالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۞ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ في الآيةِ استِدْلالانِ: استِدلالٌ بإنزالِ الماءِ مِن السَّحابِ، واستدلالٌ بالإنباتِ، وفي هذا أيضًا مِنَّةٌ على المُعرِضينَ عن النَّظرِ في دلائلِ صُنعِ اللهِ، الَّتي هي دَواعٍ لشُكرِ المُنعِمِ بها؛ لِما فيها مِن مَنافعَ للنَّاسِ مِن رزقِهم ورزقِ أنعامِهم، ومِن تَنعُّمِهم وجَمالِ مَرائيهِم؛ فإنَّهم لو شكَروا المُنعِمَ بها لَكانوا عِندَما يَبلُغُهم عنه أنَّه يَدْعوهم إلى النَّظرِ في الأدِلَّةِ مُستعدِّينَ للنَّظرِ، بتوقُّعِ أنْ تكونَ الدَّعوةُ البالغةُ إليهم صادقةَ العزوِ إلى اللهِ، فما خَفِيَتْ عنهم الدَّلالةُ[٣].

١٤- قولُه تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ بُيِّنَتْ حِكمةُ إنزالِ المطرِ مِن السَّحابِ بأنَّ اللهَ جعَلَه لإنباتِ النَّباتِ مِن الأرضِ؛ جمعًا بيْنَ الامتِنانِ والإيماءِ إلى دليلِ تقريبِ البعثِ؛ لِيحصُلَ إقرارُهم بالبعثِ، وشُكرُ الصَّانعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾

- لَمَّا كان أعظَمُ نَبأٍ جاءهُم به القرآنُ إبطالَ إلهيَّةِ أصنامِهم، وإثباتَ إعادةِ خلْقِ أجسامِهم -وهما الأصلانِ اللَّذانِ أثارَا تكذيبَهم بأنَّه مِن عندِ اللهِ، وتألُّبَهم على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَرويجَهم تكذيبَه؛ جاء هذا الاستئنافُ بَيانًا لإجمالِ قولِه: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[1] [النبأ: ٢، ٣].

- قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾، بدَأَ بما هم دائمًا يُباشِرونَه[2].

- جمَعَ اللهُ لهم في هذه الآياتِ الاستدلالَ على الوحدانيَّةِ بالانفرادِ بالخلْقِ، وعلى إمكانِ إعادةِ الأجسادِ للبَعثِ بعدَ البِلى بأنَّها لا تَبلُغُ مَبلَغَ إيجادِ المخلوقاتِ العظيمةِ، ولكونِ الجُملةِ في مَوقعِ الدَّليلِ لم تُعطَفْ على ما قبْلَها[3].

- والاستِفهامُ في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ تَقريريٌّ، وهو تقريرٌ على النَّفيِ، كما هو غالبُ صِيَغِ الاستِفهامِ التَّقريريِّ؛ أنْ يكونَ بعدَه نفيٌ، والأكثرُ كونُه بحرفِ (لم)، وذلك النَّفيُ كالإعذارِ للمُقرَّرِ إنْ كان يُريدُ أنْ يُنكِرَ، وإنَّما المقصودُ التَّقريرُ بوُقوعِ جعلِ الأرضِ مِهادًا، لا بنفْيِه، فحرفُ النَّفيِ لمجرَّدِ تأكيدِ معنى التَّقريرِ، فالمعْنى: أجَعَلْنا الأرضَ مهادًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢، ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥١).

- قولُه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ فيه الالْتِفاتُ إلى الخِطابِ؛ للمُبالَغةِ في الإلزامِ والتَّبكيتِ، والكلامُ موجَّهٌ إلى مُنكِري البعثِ، وهم الموجَّهُ إليهم الاستفهامُ[١].

- وجعْلُ الأرضِ: خلْقُها على تلك الحالةِ؛ لأنَّ كَونَها مِهادًا أمرٌ حاصلٌ فيها مِن ابتداءِ خلْقِها ومِن أزمانِ حُصولِ ذلك لها مِن قبلِ خلْقِ الإنسانِ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، والمعنى: أنَّه خلَقَها في حالِ أنَّها كالمِهادِ؛ فالكلامُ تشبيهٌ بليغٌ، ففي قولِه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ تشبيهٌ للأرضِ بالمِهادِ؛ إذ جُعِل سطحُها ميسَّرًا للجلوسِ عليها والاضطجاعِ، وبالأَحْرى المشيُ، وذلك دليلٌ على إبداعِ الخلقِ، والتَّيسيرِ على النَّاسِ[٢].

- والتَّعبيرُ بـ﴿نَجْعَلِ﴾ دونَ (نخلُق)؛ لأنَّ كَونَها مِهادًا حالةٌ مِن أحوالِها عِندَ خلْقِها أو بعدَه، بخلافِ فعلِ الخَلْقِ؛ فإنَّه يَتعدَّى إلى الذَّاتِ غالبًا، أو إلى الوصفِ المقوِّمِ للذَّاتِ[٣].

- ومناسَبةُ ابتداءِ الاستِدلالِ على إمكانِ البَعثِ بخلْقِ الأرضِ: أنَّ البعثَ هو إخراجُ أهلِ الحشرِ مِن الأرضِ؛ فكانتِ الأرضُ أسبَقَ شَيءٍ إلى ذهنِ السَّامعِ عِندَ الخَوضِ في أمرِ البعثِ، أي: بعثِ أهلِ القبورِ، وجعلُ الأرضِ مِهادًا يَتضمَّنُ الاستدلالَ بأصلِ خلْقِ الأرضِ على طريقةِ الإيجازِ؛ ولذلك لم يُتعرَّضْ إليه بعدُ عِندَ التَّعرُّضِ لخلقِ السَّمواتِ[٤].

- قولُه: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ الإخبارُ عن الجِبالِ بأنَّها أَوتادٌ على طريقةِ التَّشبيهِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣، ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

البليغ؛ أيْ: كالأَوتادِ. ومُناسَبةُ ذِكرِ الجِبالِ دعا إليها ذِكرُ الأرضِ وتَشبيهُها بالمِهادِ الَّذي يكونُ داخلَ البيتِ، فلمَّا كان البيتُ مِن شأنِه أنْ يخطُرَ ببالِ السَّامعِ مِن ذِكرِ المِهادِ، كانتِ الأرضُ مُشبَّهةً بالبيتِ، فشُبِّهتْ جبالُ الأرضِ بأَوتادِ البيتِ. وأيضًا فإنَّ كثرةَ الجِبالِ النَّاتئةِ على وجهِ الأرضِ قد يخطِرُ في الأذهانِ أنَّها لا تُناسِبُ جعْلَ الأرضِ مِهادًا؛ فكان تشبيهُ الجبالِ بالأَوتادِ مُستملَحًا بمنزلةِ حُسنِ الاعتذارِ، فيجوزُ أنْ تكونَ الجبالُ مُشبَّهةً بالأَوتادِ في مجرَّدِ الصُّورةِ، ويَجوزُ أنْ تكونَ الجِبالُ مُشبَّهةً بأوتادِ الخَيمةِ في أنَّها تشُدُّ الخَيمةَ مِن أنْ تَقلعَها الرِّياحُ أو تُزلزلَها[1].

- وغالِبُ سُكَّانِ الأرضِ -وخاصَّةً العربَ- لهم مَنافعُ جَمَّةٌ في الجِبالِ؛ فمنها مَسايِلُ الأَوديةِ، وقراراتُ المياهِ في سُفوحِها، ومَراعي الأنعامِ، ومُستعصَمُهم في الخوفِ، ومَراقبُ الطُّرقِ المُؤدِّيةِ إلى دِيارِهم إذا طَرَقَها العدُوُّ؛ ولذلك كثُرَ ذِكرُ الجِبالِ مع ذِكرِ الأرضِ؛ فكانتْ جملةُ ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ إدماجًا[2] مُعترِضًا بينَ جملةِ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النَّبأ: ٦] ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[3] [النَّبأ: ٨].

- وقولُه: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ معطوفٌ على التَّقريرِ الَّذي في قولِه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النَّبأ: ٦]، والتَّقديرُ: وأَخلَقْناكُم أزواجًا؟ فكان التَّقريرُ هنا على أصلِه؛ إذ المُقرَّرُ عليه هو وُقوعُ الخلْقِ؛ فلذلك لم يقلْ: (ألم نَخلُقْكم أزواجًا؟). والمعطوفُ عليه ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ وإنْ كان فِعلًا مضارعًا، فدخولُ (لَمْ) عليه صيَّرَه في معنى الماضي؛ لِما هو مقرَّرٌ مِن أنَّ (لم) تَقلِبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤، ١٥).

(٢) يُنظر تعريفُ الإدماجِ (ص: ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥).

معنى المضارعِ إلى المُضيِّ؛ فلذلك حسُنَ عطفُ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النَّبأ: ٦، ٧]، والكلُّ تقريرٌ على شَيءٍ مَضَى. وإنَّما عُدِلَ في ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ﴾ عن أنْ يكونَ الفعلُ فِعلًا مضارعًا مِثلَ المعطوفِ هو عليه؛ لأنَّ صِيغةَ المضارعِ تُستعمَلُ لقَصدِ استحضارِ الصُّورةِ للفعلِ؛ فالإتيانُ بالمضارعِ في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النَّبأ: ٦] يُفيدُ استدعاءَ إعمالِ النَّظرِ في خلقِ الأرضِ والجبالِ؛ إذ هي مَرئيَّاتٌ لهم، والأكثرُ أنْ يَغفُلَ النَّاظِرونَ عن التَّأمُّلِ في دقائقِها؛ لتَعوُّدِهم بمُشاهَدتِها مِن قبْلِ سِنِّ التَّفكُّرِ؛ فإنَّ الأرضَ تحتَ أقدامِهم لا يَكادونَ يَنظُرونَ فيها، بَلْهَ أنْ يَتفكَّروا في صُنعِها، والجبالَ يَشغَلُهم عن التَّفكُّرِ في صُنعِها شُغلُهم بتجشُّمِ صُعودِها، والسَّيرِ في وَعْرِها، وحراسةِ سوائمِهم مِن أنْ تَضِلَّ في شِعابِها، وصَرفِ النَّظرِ إلى مسالكِ العدوِّ عِندَ الاعتلاءِ إلى مَراقِبِها، فأُوثِرَ الفعلُ المضارعُ مع ذِكرِ المصنوعاتِ الحَرِيَّةِ بدقَّةِ التَّأمُّلِ واستِخلاصِ الاستدلالِ؛ ليكونَ إقرارُهم ممَّا قُرِّروا به على بصيرةٍ، فلا يَجِدوا إلى الإنكارِ سبيلًا، وجيءَ بفعلِ المُضيِّ هنا وما بعدَه؛ لأنَّ مفاعيلَ فِعلِ (خلَقْنا) وما عُطِف عليه ليستْ مُشاهَدةً لهم، وذُكِرَ لهم مِن المصنوعاتِ ما هو شديدُ الاتِّصالِ بالنَّاسِ مِن الأشياءِ الَّتي تَتوارَدُ أحوالُها على مُدرَكاتِهم دوامًا، فإقرارُهم بها أيسَرُ؛ لأنَّ دَلالتَها قريبةٌ مِن البديهيِّ[(١)].

- وعُبِّر هنا بفِعلِ (الخلْقِ) دونَ (الجَعْلِ)؛ لأنَّه تكوينُ ذواتِهم، فهو أدَقُّ مِن الجَعلِ[(٢)].

- وضميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ للمُشرِكينَ الَّذين وُجِّهَ إليهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥، ١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٦).

التَّقريرُ بقولِه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النَّبأ: ٦]، وهو الْتفاتٌ مِن طريقِ الغَيبةِ إلى طريقِ الخِطابِ(١).

- وانتصَبَ ﴿أَزْوَاجًا﴾ على الحالِ مِن ضَميرِ الخِطابِ في (خَلَقْنَاكُمْ)؛ لأنَّ المقصودَ الاستدلالُ بخلقِ النَّاسِ وبكونِ النَّاسِ أزواجًا، فلمَّا كان المناسبُ لفعلِ (خلَقْنا) أنْ يَتعدَّى إلى الذَّواتِ؛ جيءَ بمفعولِه ضميرَ ذواتِ النَّاسِ، ولَمَّا كان المناسِبُ لكونِهم أزواجًا أنْ يُساقَ مَساقَ إيجادِ الأحوالِ، جيءَ به حالًا مِن ضَميرِ الخِطابِ في (خَلَقْنَاكُمْ)، ولو صُرِّح له بفعلٍ لَقيل: (وخلَقْناكم وجعَلْناكم أزواجًا)، على نحوِ ما تَقدَّمَ في قولِه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النَّبأ: ٦]، وما يأتي مِن قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾(٢) [النَّبأ: ٩].

- وفي قولِه: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ استِدلالٌ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وحِكمتِه، وامتنانٌ على النَّاسِ بأنَّه خلَقَهم، وأنَّه خلَقَهم بحالةٍ تَجعَلُ لكلِّ واحدٍ مِن الصِّنفينِ ما يصلُحُ لأنْ يكونَ له زوجًا؛ لِيحصُلَ التَّعاونُ والتَّشارُكُ في الأُنسِ والتَّنعُّمِ؛ ولذلك صِيغَ هذا التَّقريرُ بتعليقِ فعلِ (خلَقْنا) بضميرِ النَّاسِ، وجعلِ ﴿أَزْوَاجًا﴾ حالًا منه؛ لِيحصُلَ بذلك الاعتبارُ بكِلا الأمْرينِ، دونَ أنْ يُقالَ: (وخلَقْنا لكم أزواجًا). وفي ذلك حَمْلٌ لهم على الشُّكرِ بالإقبالِ على النَّظرِ فيما بُلِّغَ إليهم عن اللهِ الَّذي أسعَفَهم بهذه النِّعمِ على لِسانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتعريضٌ بأنَّ إعراضَهم عن قَبولِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ ومُكابَرتَهم فيما بلَغَهم مِن ذلك كُفرانٌ لنِعمةِ واهبِ النِّعمِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧، ١٨).

- وأُوثِرَ فِعلُ (جعَلْنا) هنا؛ لأنَّ النَّومَ كيفيَّةٌ يُناسِبُها فِعلُ الجَعْلِ لا فِعلُ الخلْقِ المناسِبُ للذَّواتِ، فإضافةُ (نوم) إلى ضميرِ المخاطَبينَ ليستْ للتَّقييدِ لإخراجِ نَومِ غيرِ الإنسانِ؛ فإنَّ نومَ الحيوانِ كلِّه سُباتٌ، ولكنَّ الإضافةَ لزيادةِ التَّنبيهِ للاستدلالِ، أي: إنَّ دليلَ البعثِ قائمٌ بَيِّنٌ في النَّومِ الَّذي هو مِن أحوالِكم، وأيضًا لأنَّ في وصفِه بسُباتٍ امتِنانًا، والامتنانُ خاصٌّ بهم؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ ﴾[1] [يونس: ٦٧].

- إنَّما أُوثِرَ لفظُ (سُباتٍ)؛ لِما فيه مِن الإشعارِ بالقطعِ عن العملِ؛ ليُقابِلَه قولُه بعدَه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾[2] [النَّبأ: ١١].

- قولُه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾، أي: يَستُرُكم بظَلامِه كما يستُرُكم اللِّباسُ، ولعلَّ المرادَ به -أي: باللِّباسِ- ما يُستتَرُ به عندَ النَّومِ مِن اللِّحافِ ونحوِه؛ فإنَّ شبَهَ اللَّيلِ به أكمَلُ، واعتبارَه في تحقيقِ المقصدِ أدْخَلُ، فهو جعَلَ اللَّيلَ محلًّا للنَّومِ الَّذي جُعِلَ مَوتًا، كما جعَلَ النَّهارَ محلًّا لليقظةِ المعبَّرِ عنها بالحياةِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾[3]. وقيل: المَعْنيُّ مِن جعْلِ اللَّيلِ لِباسًا يَحومُ حولَ وصفِ حالةٍ خاصَّةٍ باللَّيلِ عُبِّر عنها باللِّباسِ؛ فيجوزُ أنْ يكونَ اللِّباسُ محمولًا على معنى الاسمِ، وهو المشهورُ في إطلاقِه، أي: ما يَلبَسُه الإنسانُ مِن الثِّيابِ، فيكونُ وصفُ اللَّيلِ به على تَقديرِ كافِ التَّشبيهِ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أي: جعَلْنا اللَّيلَ للإنسانِ كاللِّباسِ له، فيجوزُ أنْ يكونَ وجهُ الشَّبَهِ هو التَّغشيةَ، وتحتَه ثلاثةُ مَعانٍ؛ أحدُها: أنَّ اللَّيلَ ساترٌ للإنسانِ كما يَستُرُه اللِّباسُ، فالإنسانُ في اللَّيلِ يَختلي بشؤونِه الَّتي لا يَرتكِبُها في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٨، ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٦).

النَّهارِ؛ لأنَّه لا يُحِبُّ أنْ تراها الأبصارُ، وفي ذلك تعريضٌ بإبطالِ أصلٍ مِن أصولِ الدَّهريِّينَ أنَّ اللَّيلَ رَبُّ الظُّلمةِ، وهو مُعتقَدُ المَجوسِ، وهم الَّذين يَعتقِدون أنَّ المخلوقاتِ كلَّها مَصنوعةٌ مِن أصلينِ -أي: إلهَينِ-: إلهِ النُّورِ، وهو صانعُ الخيرِ، وإلهِ الظُّلمةِ، وهو صانعُ الشَّرِّ. والمعنى الثَّاني مِن معنيَيْ وجهِ الشَّبهِ باللِّباسِ: أنَّه المشابَهةُ في الرِّفقِ باللَّابسِ والملاءمةِ لراحتِه، فلمَّا كان اللَّيلُ راحةً للإنسانِ، وكان مُحيطًا بجميعِ حَواسِّه وأعصابِه؛ شُبِّه باللِّباسِ في ذلك. والمعنى الثَّالثُ: أنَّ وجهَ شَبَهِه باللِّباسِ هو الوقايةُ؛ فاللَّيلُ يَقي الإنسانَ مِن الأخطارِ والاعتداءِ عليه، فكان العربُ لا يُغيرُ بعضُهم على بعضٍ في اللَّيلِ؛ وإنَّما تقَعُ الغارةُ صباحًا؛ ولذلك إذا غِيرَ عليهم يصرُخُ الرَّجُلُ بقومِه بقولِه: يا صَباحاهْ! ويُقالُ: صبَّحَهم العدوُّ، وكانوا إذا أقاموا حرَسًا على الرُّبى -ليراقِبَ ما عَسى أنْ يَطرُقَهم مِن الأعداءِ- يُقيمونَه نَهارًا، فإذا أظلَمَ اللَّيلُ نزَلَ الحرَسُ[1].

- ولَمَّا كان مُعظَمُ العملِ في النَّهارِ مِن أجْلِ المَعاشِ، أُخبِر عن النَّهارِ بأنَّه مَعاشٌ، وقد أشعَرَ ذِكرُ النَّهارِ بعدَ ذِكرِ كلٍّ مِن النَّومِ واللَّيلِ بملاحظةِ أنَّ النَّهارَ ابتداءُ وقتِ اليقظةِ الَّتي هي ضدُّ النَّومِ، فصارتْ مقابَلتُهما بالنَّهارِ في تقديرِ: وجعَلْنا النَّهارَ واليقظةَ فيه معاشًا، ففي الكلامِ اكتِفاءٌ[2] دلَّتْ عليه المقابَلةُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠، ٢١).

(٢) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتِفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ٢٨٢)، =

وبذلك حصَلَ بيْنَ الجُمَلِ الثَّلاثِ مُطابَقتانِ مِن المحسِّناتِ البديعيَّةِ لفظًا وضِمْنًا[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا﴾

- التَّعبيرُ عن خلْقِ السَّماءِ بالبناءِ مَبنيٌّ على تَنزيلِها مَنزلةَ القِبابِ المضروبةِ على الخَلقِ؛ فعُبِّرَ بالفِعلِ (بنَيْنا) في هذه الآيةِ لمعنى: خلَقْنا ما هو عالٍ فوقَ النَّاسِ؛ لأنَّ تكوينَه عاليًا يُشبِهُ البناءَ؛ ولذلك كان قولُه: ﴿فَوْقَكُمْ﴾ إيماءً إلى وَجهِ الشَّبَهِ في إطلاقِ فِعلِ (بنَيْنا)، مع ما فيه مِن تنبيهِ النُّفوسِ للاعتبارِ والنَّظرِ في تلك السَّبْعِ الشِّدادِ[٢].

- وقيل: البناءُ يكونُ أبعَدَ مِن الآفةِ والانحلالِ مِن السَّقفِ، فذَكَر قولَه: ﴿وَبَنَيْنَا﴾؛ إشارةً إلى أنَّه وإن كان سَقفًا لكِنَّه في البُعدِ عن الانحلالِ كالبناءِ؛ فالغَرَضُ مِن اختيارِ هذا اللَّفظِ هذه الدَّقيقةُ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ تقديمُ الظَّرفِ على المفعولِ ليسَ لِمُراعاةِ الفواصلِ فقط، بل للتَّشويقِ إليه؛ فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّر تَبْقى النَّفْسُ مترقِّبةً له، فإذا ورَدَ عليها تمكَّنَ عندَها فضلَ تمكُّنٍ[٤].

- والمرادُ بالسَّبْعِ الشِّدادِ: السَّمواتُ، فهو مِن ذِكرِ الصِّفةِ وحذفِ الموصوفِ للعِلمِ به؛ كقولِه تعالى: ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]؛ ولذلك جاء الوصفُ

= ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٧).

باسمِ العددِ المؤنَّثِ؛ إذ التَّقديرُ: سبعُ سمواتٍ[١].

- والسِّراجُ: المِصباحُ الَّذي يُستضاءُ به، والكلامُ على التَّشبيهِ البليغِ، والغرضُ مِن التَّشبيهِ تقريبُ صِفةِ المُشبَّهِ إلى الأذهانِ، وزيدَ ذلك التَّقريبُ بوصفِ السِّراجِ بالوهَّاجِ، أي: الشَّديدِ السَّنا (الضَّوءِ). وأُوثِرَ فعلُ (جعَلْنا) دونَ (خلَقْنا)؛ لأنَّ كونَها سِراجًا وهَّاجًا حالةٌ مِن أحوالِها، وإنَّما يُعلَّقُ فعلُ الخلْقِ بالذَّواتِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾

- الثَّجَّاجُ: المُنصَبُّ بقوَّةٍ، ووَصْفُ الماءِ هنا بالثَّجَّاجِ للامتِنانِ[٣].

- وجيءَ هنا بفعلِ ﴿لِّنُخْرِجَ﴾ دونَ نحوِ (لِنُنبِتَ)؛ لأنَّ المقصودَ الإيماءُ إلى تصويرِ كيفيَّةِ بعْثِ النَّاسِ مِن الأرضِ؛ إذ ذلك المقصدُ الأوَّلُ مِن هذا الكلامِ؛ فإنَّه لَمَّا كان المَقصدُ الأوَّلُ مِن آيةِ سُورةِ (ق) هو الامتِنانَ، جِيءَ بفِعلِ (أنْبَتْنا) في قولِه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ [ق: ٩] الآيةَ، ثمَّ أُتبِعَ ثانيًا بالاستِدلالِ به على البَعثِ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، والبعثُ خُروجٌ مِن الأرضِ؛ قال تعالَى: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ في سُورةِ (طه) [الآية: ٥٥][٤].

- قولُه: ﴿حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ بدَأَ بالحَبِّ؛ لأنَّه الَّذي يُتقوَّتُ به، كالحِنطةِ والشَّعيرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢، ٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦، ٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٥).

وقيل: تقديمُ الحَبِّ مع تأخُّرِه عن النَّباتِ في الإخراجِ؛ لأصالتِه وشرَفِه؛ لأنَّ غالبَه غذاءُ الإنسانِ[١].

- قَولُه: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾ أخَّر الجنَّاتِ في الذِّكرِ؛ لأنَّ الحاجةَ إلى الفَواكِهِ ليست ضَروريَّةً[٢].

- ووجْهُ إيثارِ لفظِ (جنَّاتٍ) أنَّ فيه إيماءً إلى إتمامِ المِنَّةِ؛ لأنَّهم كانوا يُحِبُّونَ الجنَّاتِ والحدائقَ؛ لِما فيها مِن التَّنعُّمِ بالظِّلالِ والثِّمارِ والمياهِ وجمالِ المَنظرِ؛ ولذلك أُتْبِعَتْ بوصفِ ﴿أَلۡفَافًا﴾؛ لأنَّه يَزيدُها حُسنًا، ومَساقُ الآيةِ هنا الامتِنانُ بما فيه نعيمُ النَّاسِ[٣].

- وأَلْفافٌ: اسمُ جمْعٍ لا واحدَ له مِن لفظِه، وهو مِثلُ أَوْزاعٍ وأَخْيافٍ، أي: كلُّ جَنَّةٍ مُلتفَّةٌ، أي: مُلتفَّةُ الشَّجرِ بعضِه ببعضٍ، ولَمَّا كانتِ الأشجارُ لا يَلتَفُّ بعضُها على بعضٍ في الغالبِ إلَّا إذا جمَعَتْها جَنَّةٌ، أُسنِدَ ألفافٌ إلى جنَّاتٍ بطريقِ الوَصفِ، ولعلَّه مِن مُبتكَراتِ القُرآنِ[٤].

- وبهذا الاستِدلالِ والامتنانِ خُتِمَتِ الأدِلَّةُ الَّتي أُقيمَتْ للمشركين على انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ، وتَضمَّنَتِ الإيماءَ إلى إمكانِ البعثِ وما أُدمِجَ فيها مِن المِنَنِ عليهم؛ عساهم أنْ يَذكُروا النِّعمةَ فيَشعُروا بواجبِ شُكرِ المُنعِمِ، ولا يَستفظِعوا إبطالَ الشُّركاءِ في الإلهيَّةِ، ويَنظُروا فيما بلَغَهم عنه مِن الإخبارِ بالبعثِ والجزاءِ، فيَصرِفوا عقولَهم للنَّظرِ في دلائلِ تصديقِ ذلك. وقد ابتُدِئَتْ هذه الدَّلائلُ بدلائلِ خلْقِ الأرضِ وحالتِها، وجالَتْ بهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٧، ٢٨).

الذِّكْرى على أهمِّ ما على الأرضِ مِن الجمادِ والحيوانِ، ثمَّ ما في الأُفقِ مِن أعراضِ اللَّيلِ والنَّهارِ، ثمَّ تَصاعَدَ بهم التَّجوالُ بالنَّظرِ في خلْقِ السَّمواتِ، وبخاصَّةٍ الشمسُ، ثمَّ نزَلَ بهم إلى دلائلِ السَّحابِ والمطرِ، فنزَلوا معه إلى ما يخرُجُ مِن الأرضِ مِن بدائعِ الصَّنائعِ ومُنتهى المنافعِ، فإذا هم يَنظُرونَ مِن حيثُ صدَروا، وذلك مِن رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨).

ورَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ، أو المُتجانِسَينِ، أو المُلحَقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلِمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلِماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

الآيات (١٧-٢٠)

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مِيقَـٰتًا﴾: أي: وَقْتًا ومِيعادًا، والميقاتُ: الوقتُ المضروبُ للشَّيءِ، والوَعدُ الَّذي جُعِلَ له وَقْتٌ، وأصلُ (وقت): يدُلُّ على حَدِّ شَيءٍ في زَمانٍ وغَيرِه[١].

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرْنِ الَّذي يَنفُخُ فيه إسرافيلُ المَلَكُ الموكَّلُ به[٢].

﴿أَفْوَاجًا﴾: أي: جَماعاتٍ، والفَوجُ: الجَماعةُ مِنَ النَّاسِ، وأصلُ (فوج): يدُلُّ على تجَمُّعٍ[٣].

﴿سَرَابًا﴾: أي: هَباءً وغُبارًا مُنتَشِرًا كالسَّرابِ في عَينِ النَّاظِرِ، والسَّرابُ: ما رأيتَ مِن الشَّمسِ كالماءِ نِصفَ النَّهارِ، وأصلُ (سرب): يدُلُّ على الاتِّساعِ والذَّهابِ في الأرضِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٥).
قال ابن حجر: (مِيقاتٌ وهو مِفعالٌ مِن الوقتِ، وهو القَدْرُ المحدَّدُ للفعلِ مِن الزَّمانِ أو المكانِ). ((فتح الباري)) (٢/ ٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٥)، ((تذكرة =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ: إنَّ يومَ القيامةِ الَّذي يَحكُمُ اللهُ فيه بيْنَ عِبادِه يومٌ مُحَدَّدٌ بوَقتٍ مُعَيَّنٍ لجَمعِ النَّاسِ، يومَ يَنفُخُ الملَكُ في القَرْنِ لبَعْثِ النَّاسِ، فتأتونَ مِن قُبورِكم إلى مَوضِعِ العَرْضِ جَماعاتٍ، وتتشَقَّقُ السَّماءُ فتكونُ أبوابًا مَفتوحةً، وتُقلَعُ الجبالُ مِن أماكِنِها فتكونُ هَباءً.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتًا ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا بَيانٌ لِما أجمَلَه قولُه تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ٢، ٣]، وهو المقصودُ مِن سِياقِ الفاتحةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها السُّورةُ، وهيَّأتْ للانتقالِ مُناسَبةُ ذِكرِ الإخراجِ مِن قولِه: ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا﴾ [النَّبأ: ١٥] إلخ؛ لأنَّ ذلك شُبِّهَ بإخراجِ أجسادِ النَّاسِ للبعثِ، كما قال تعالَى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ إلى قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ في سُورةِ (ق)[1] [٩- ١١].

﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتًا ١٧﴾.

أي: إنَّ يومَ القيامةِ الَّذي يَحكُمُ اللهُ فيه بيْنَ عِبادِه يومٌ مُحَدَّدٌ بوَقتٍ مُعَيَّنٍ لجَمعِ النَّاسِ للحِسابِ والجَزاءِ[2].

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩، ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

أي: وذلك واقِعٌ يومَ يَنفُخُ المَلَكُ في القَرْنِ لبَعْثِ النَّاسِ أحياءً يومَ القيامةِ، فتأتونَ -أيُّها النَّاسُ- مِن قُبورِكم إلى مَوضِعِ العَرْضِ للحِسابِ والجَزاءِ زُمَرًا وجَماعاتٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قرنٌ يُنفَخُ فيه))(٢).

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾.

أي: وتتشَقَّقُ السَّماءُ وتَنفَرِجُ، فتكونُ أبوابًا مَفتوحةً(٣).

= وقال البِقاعي: (﴿كَانَ﴾ أي: في عِلْمِ اللهِ وحِكْمتِه كَونًا لا بُدَّ منه، جُعِلَ فيه كالجِبِلَّةِ في ذوي الأرواحِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨، ١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩، ٣٠).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٤٧٤٢)، وأحمدُ (٦٥٠٧) باختلافٍ يسيرٍ، والترمذيُّ (٢٤٣٠)، والنسائيُّ (١١٤٥٦) واللَّفظُ لهما.

حَسَّنه الترمذيُّ، وصَحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٥٠)، ووافقه الذهبي في ((التلخيص)) (٢/ ٥٥٠)، وذَكَر ثُبوتَه ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٥/ ٣٠٨)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ٩)، وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).=

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ﴾ [الحاقة: ١٦، ١٧].

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر السَّقْفَ، ذَكَر أقرَبَ الأرضِ إليه وأشَدَّها، فقال[1]:

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

أي: وتُقلَعُ الجبالُ مِن أماكِنِها وتتفَتَّتُ تُرابًا، وتكونُ هَباءً، يُخيَّلُ إلى النَّاظرِ أنَّها شيءٌ، وليسَتْ بشيءٍ[2].

= قال البِقاعي: (﴿فَكَانَتْ﴾ أي: كُلُّها كَيْنونةً كأنَّها جِبِلَّةٌ لها ﴿أَبْوَابًا﴾ أي: كثيرةً جدًّا؛ لكثرةِ الشُّقوقِ الكبيرةِ بحيث صارت كأنَّها لا حقيقةَ لها إلَّا الأبوابُ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٠٢).

قيل: إنَّها تكونُ أبوابًا؛ مِن أجْلِ نُزولِ الملائكةِ. وممَّن قال بهذا: الثعلبيُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، وابن كثير، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

قال الماوَرْدي: (﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ فيه وجهانِ:

أحدُهما: سُيِّرَتْ أي: أُزيلَتْ عن مَواضِعِها.

الثَّاني: نُسِفَتْ مِن أُصولِها). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٨٥).

قال ابنُ عاشور: (السَّرابُ: ما يَلُوحُ في الصَّحاري مِمَّا يُشبِهُ الماءَ وليس بماءٍ، ولكِنَّه حالةٌ في الجوِّ القَريبِ تَنشَأُ مِن تَراكُمِ أبْخِرَةٍ على سَطحِ الأرضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ١٠].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ دليلٌ على كَمالِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ أنَّ هذه السَّبْعَ الشِّدادَ يَجعَلُها اللهُ تعالى يومَ القيامةِ كأنْ لم تكُنْ، فتكونُ أبوابًا[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ فيه سُؤالٌ: وهو أنَّ الآيةَ تُفيدُ أنَّ السَّماءَ بكُلِّيَّتِها تَصيرُ أبوابًا، فكيف يُعقَلُ ذلك؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ تلك الأبوابَ لَمَّا كَثُرت جدًّا صارت كأنَّها ليست إلَّا أبوابًا مُفَتَّحةً، كقَولِه: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢]، أي: كأنَّ كُلَّها صارت عُيونًا تتفَجَّرُ.

= وقال ابن عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ عِبارةٌ عن تلاشيها وفَنائِها بعْدَ كَونِها هَباءً مُنْبَثًّا، ولم يَرِدْ أنَّ الجبالَ تعودُ تُشبِهُ الماءَ على بُعدٍ مِن النَّاظِرِ إليها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٥).

وقال الشنقيطي: (ذكَرَ جلَّ وعلا أنَّه يَجعلُ الجبالَ سَرابًا، فقال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾. وبيَّن في موضعٍ آخَرَ أنَّ السَّرابَ عِبارةٌ عن لا شَيءَ؛ وهو قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ إلى قولِه: ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٨٣) بتصرف.

وقال البِقاعي: (﴿وَسُيِّرَتِ﴾ أي: حُمِلَت بأيسَرِ أمرٍ على السَّيرِ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ على ما تَعلَمونَ مِن صَلابتِها وصُعوبتِها في الهواءِ، كأنَّها الهباءُ المنثورُ، وعلى ذلك دَلَّ قَولُه: ﴿فَكَانَتْ﴾ أي: كَيْنونةً راسخةً ﴿سَرَابًا﴾ أي: لا نرى فيها إلَّا خَيالًا يتراءى، وهي سائِرةٌ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ، ثمَّ تخفى؛ لتناثُرِ أجزائِها كالهَباءِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٠٢).

قال الألوسي: (﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: فصارتْ بعدَ تسييرِها مِثلَ سرابٍ، فتُرى بعدَ تفَتُّتِها وارتفاعِها في الهواءِ كأنَّها جبالٌ، وليست بجبالٍ، بل غُبارٌ غليظٌ مُتراكِمٌ يُرى مِن بعيدٍ كأنَّه جبلٌ، كالسَّرابِ يُرى كأنَّه بحرٌ مثلًا، وليس به). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

الوجهُ الثَّاني: هذا مِن بابِ تقديرِ حَذْفِ المضافِ، والتَّقديرُ: فكانت ذاتَ أبوابٍ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ عائِدٌ إلى مُضمَرٍ، والتَّقديرُ: فكانت تلك المواضِعُ المفتوحةُ أبوابًا لِنُزولِ الملائكةِ، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[1] [الفجر: ٢٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ذَكَر تعالى في مَواضِعَ مِن كتابِه أحوالَ هذه الجِبالِ على وُجوهٍ مُختَلِفةٍ، ويمكِنُ الجَمعُ بيْنَها:

بأنَّ **أوَّلَ أحوالِها**: الانْدِكاكُ، وهو قَولُه: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

والحالةُ الثَّانيةُ لها: أنَ تَصيرَ ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وذَكَر اللهُ تعالى ذلك في قَولِه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤، ٥] وقَولِه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨، ٩].

والحالةُ الثَّالثةُ: أن تصيرَ كالهَباءِ، وذلك أن تتقَطَّعَ وتتبَدَّدَ بعدَ أن كانت كالعِهْنِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٤ - ٦].

والحالةُ الرَّابعةُ: أن تُنسَفَ؛ لأنَّها مع الأحوالِ المتقَدِّمةِ قارَّةٌ في مَواضِعِها، والأرضُ تحتَها غيرُ بارزةٍ، فتُنسَفُ عنها بإرسالِ الرِّياحِ عليها، وهو المرادُ مِن قَولِه: ﴿فَقُل يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥].

والحالةُ الخامِسةُ: أنَّ الرِّياحَ تَرفَعُها عن وَجهِ الأرضِ، فتُطَيِّرُها شُعاعًا في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٢٦).

الهواءِ كأنَّها غُبارٌ، فمَن نَظَر إليها مِن بُعْدٍ حَسِبَها لتَكاثُفِها أجسامًا جامِدةً، وهي في الحقيقةِ مارَّةٌ، إلَّا أنَّ مُرورَها بسَبَبِ مرورِ الرِّياحِ بها صَيَّرَها مُندَكَّةً مُتفَتِّتةً، وهي قَولُه: ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، ثمَّ بَيَّن أنَّ تلك الحرَكةَ حَصَلت بقَهْرِه وتَسخيرِه، فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

الحالةُ السَّادِسةُ: أنْ تَصيرَ سَرابًا، بمعنى: لا شَيءَ، فمَن نَظَر إلى مَواضِعِها لم يجِدْ فيها شيئًا، كما أنَّ مَن يَرى السَّرابَ مِن بُعْدٍ إذا جاء الموضِعَ الَّذي كان يَراه فيه لم يَجِدْه شَيئًا[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ سُؤالٌ: أنَّه كيف التَّوفيقُ مع قولِه سُبحانَه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]؟

الجوابُ: أنَّه وردتْ نصوصٌ في اليومِ الآخِرِ مختلِفةٌ في هذا وفي غيرِه، حتَّى في بني آدمَ وَرَدَ أنهم يُحشَرون زُرْقًا -يعني: المجرِمينَ منهم- ووَرَدَ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ولا تَعارُضَ بيْنَها؛ لأنَّ يومَ القيامةِ مِقدارُه خمسونَ ألْفَ سَنَةٍ؛ فتَتغَيَّرُ الأحوالُ وتَنتقِلُ وتَختَلِفُ، وإذا كنَّا نرى أنَّ الجَوَّ يَختَلِفُ في الدُّنيا بيْن عَشِيَّةٍ وضُحاها، وبيْن يومٍ وآخَرَ، وبيْن أُسبوعٍ وأُسبوعٍ، وبيْن شَهرٍ وشَهرٍ، وبيْن السَّنَةِ أوَّلِها وآخِرِها؛ فإنَّ الجبالَ والأحوالَ يومَ القيامةِ تتغيَّرُ مِن شيءٍ إلى آخَرَ؛ ولذلك نقولُ: كلُّ النُّصوصِ في يومِ القيامةِ، الَّتي ظاهِرُها التَّعارُضُ، ليس فيها تعارُضٌ، بل تُحمَلُ على تغيُّرِ الأحوالِ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ۞ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣، ١٤).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٧).

- قولُه: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ...﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ أُعقِبَ به قولُه: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ الآيةَ [النَّبأ: ١٥] فيما قُصِدَ به مِن الإيماءِ إلى دليلِ البعثِ، وهذا رَدٌّ لسؤالِهم تَعجيلَه وعن سَببِ تَأخيرِه، وهو سؤالٌ يُريدونَ منه الاستهزاءَ بخَبَرِه، والمعنى: أنْ ليس تأخُّرُ وُقوعِه دالًّا على انتفاءِ حصولِه، وفي هذا إنذارٌ لهم بأنَّه لا يُدرَى لَعلَّه يَحصُلُ قريبًا[١].

- وأُكِّد الكلامُ بحرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لأنَّ فيه إبطالًا لإنكارِ المُشرِكينَ وتكذيبِهم بيومِ الفَصلِ[٢].

- وأُوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾؛ لإثباتِ شَيئينِ؛ أحدُهما: أنَّه بيَّنَ ثُبوتَ ما جحَدوهُ مِن البعثِ والجزاءِ، وذلك فصلٌ بيْنَ الصِّدقِ وكَذِبِهم، وثانيهما: القضاءُ بيْنَ النَّاسِ فيما اختلَفوا فيه، وما اعتَدى به بعضُهم على بعضٍ[٣].

- و أفاد فعلُ ﴿كَانَ﴾ أنَّ تَوقيتَه متأصِّلٌ في عِلمِ اللهِ؛ لِما اقتَضتْه حِكمتُه تعالى الَّتي هو أعلَمُ بها، وأنَّ استِعجالَهم به لا يُقدِّمُه على ميقاتِه[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ دَلَّ السِّياقُ على متعلَّقِ ميقاتٍ، أي: كان ميقاتًا للبعثِ والجزاءِ، وكَونُ يومِ الفِصلِ مِيقاتًا كِنايةٌ تَلويحيَّةٌ[٥] عن تَحقيقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩، ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازمِ) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء؛ فالتَّعريضُ اصطِلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ، نحوُ قولِك للمؤْذِي: «المسلِمُ مَن سَلِمَ المسلمونَ مِن لِسانِه ويَدِه»؛ تعريضًا بنَفيِ صِفةِ الإسلامِ عن المؤذِي. والتَّلويحُ اصطِلاحًا: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تَعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزومِ =

وُقوعِه؛ إذ التَّوقيتُ لا يكونُ إلَّا بزمنٍ مُحقَّقِ الوُقوعِ ولو تأخَّرَ وأبطَأَ[١].

- قولُه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ بدَلٌ مِن ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، وفائدةُ هذا البدلِ حصولُ التَّفصيلِ لبعضِ أحوالِ الفَصلِ وبعضِ أهوالِ يومِ الفصلِ، أو عطفُ بَيانٍ له، مُفيدٌ لزيادةِ تَفخيمِه وتهويلِه[٢].

- وبُنِيَ ﴿يُنفَخُ﴾ إلى النَّائبِ؛ لعدمِ تَعلُّقِ الغرضِ بمعرفةِ النَّافخِ؛ وإنَّما الغرضُ معرفةُ هذا الحادثِ العظيمِ، وصورةِ حصولِه[٣].

- قولُه: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ الفاءُ فصيحةٌ تُفصِحُ عن جملةٍ قد حُذِفَتْ؛ ثِقةً بدلالةِ الحالِ عليها، وإيذانًا بغايةِ سرعةِ الإتيانِ، أي: فتُبعثونَ مِن قُبورِكم، فتَأتونَ إلى الموقفِ عَقيبَ ذلكَ مِن غيرِ لُبثٍ أصْلًا[٤].

- وعُطِفَ (تَأْتون) بالفاءِ؛ لإفادةِ تَعقيبِ النَّفخِ بمَجيئِهم إلى الحِسابِ[٥].

- وحُذِفَ ما يحصُلُ بيْنَ النَّفخِ في الصُّورِ وبينَ حضورِهم؛ لزيادةِ الإيذانِ

= بواسِطةِ لَوازِمَ، نحوُ قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْعٍ: (زَوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي على كثرةِ الأكَلةِ، وهي على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقَلَ الفِكرُ إلى جملةِ وسائطَ. والرَّمزُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ خفاءٍ في اللُّزومِ بلا تعريضٍ نحو: فلانٌ عريضُ القفا، أو عريضُ الوسادةِ؛ كناية عن بلادتِه وبلاهتِه. والإيماءُ أو الإشارةُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ وضوحِ اللُّزومِ، بلا تعريضٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥ - ١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦ - ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١).

بسرعةِ حصولِ الإتيانِ حتَّى كأنَّه يحصُلُ عِندَ النفخِ في الصُّورِ، وإنْ كان المعنى: يُنفَخُ في الصُّورِ فتَحْيَوْنَ فتَسيرونَ فتَأتونَ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾، ويكون التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي (فُتِحَت)؛ لتحقيقِ وُقوعِ هذا التَّفتيحِ حتَّى كأنَّه قد مَضى وُقوعُه[٢].

- قولُه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ على قِراءةِ ﴿وفُتِّحَتِ﴾ بتشديدِ الفَوقيَّةِ، فهو مُبالَغةٌ في فعلِ الفتحِ بكثرةِ الفتحِ أو شِدَّتِه؛ إشارةً إلى أنَّه فتحٌ عظيمٌ؛ لأنَّ شقَّ السَّماءِ لا يَقدِرُ عليه إلَّا اللهُ. وعلى قِراءةِ ﴿وَفُتِحَتِ﴾ بتخفيفِ الفوقيَّةِ على أصلِ الفِعلِ؛ فمجرَّدُ تعلُّقِ الفتحِ بالسَّماءِ مُشعِرٌ بأنَّه فتحٌ شديدٌ، فالتَّفتُّحُ والفتْحُ سواءٌ في المعنى المقصودِ، وهو تَهويلُ يومِ الفصْلِ[٣].

- وفُرِّع على انفِتاحِ السَّماءِ بفاءِ التَّعقيبِ ﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾، أي: ذاتَ أبوابٍ. على قولٍ. والإخبارُ عن السَّماءِ بأنَّها أبوابٌ جَرى على طَريقِ المبالَغةِ في الوصْفِ بذاتِ أبوابٍ؛ للدَّلالةِ على كَثرةِ المَفاتِحِ فيها حتَّى كأنَّها هي أبوابٌ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ تَشبيهٌ بليغٌ حُذِفَتْ منه الأداةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢).

قرأ الكوفيُّون: عاصِمٌ وحَمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ بالتَّخفيفِ، وقرأ الباقونَ بالتَّشديدِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢، ٣٣).

وحُذِف وجهُ الشَّبهِ أيضًا؛ وهو أنَّ المرئيَّ خلافُ الواقعِ، فكما يُرى السَّرابُ مِن بعيدٍ للظَّامئِ المُلْتاحِ[١] كأنَّه ماءٌ، فيَستبشِرُ به ويَخِفُّ إليه، حتَّى إذا أَدرَكَه بعدَ طُولِ الأَيْنِ[٢] لم يَجِدْه شيئًا، وكذلك تُرى الجبالُ كأنَّها جبالٌ وليستْ كذلك في نفْسِ الأمرِ؛ إذ تُرى على صورةِ الجبالِ ولم تَبقَ على حقيقتِها؛ لِتَفتُّتِ أجزائِها وانبثاثِها[٣].

- وقد أُدمِجَ في هذا التَّشبيهِ تشبيهُ حالِ الجبالِ بحالِ السَّحابِ في تَخلْخُلِ الأجزاءِ وانتفاشِها كما يَنطِقُ به قولُه تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، يُبدِّلُ اللهُ تعالى الأرضَ ويُغيِّرُ هيئتَها، ويُسيِّرُ الجبالَ على تلك الهيئةِ الهائلةِ، ثمَّ يُفرِّقُها في الهواءِ، وذلك قولُه تعالَى: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[٤].

- والتَّعبيرُ بالفِعلِ الماضي ﴿وَسُيِّرَتِ﴾؛ لتحقيقِ وُقوعِ هذا التَّسييرِ حتَّى كأنَّه قد مضى وُقوعُه[٥].

---

(١) المُلْتاح: أي: العَطِشِ. يقال: لاحَ لَوْحًا ولُواحًا: عَطِشَ. والْتاحَ مِثلُه. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (١/ ٤٠٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٧/ ١٠٢).

(٢) الأَيْن: الإعياء. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (٥/ ٢٠٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢، ٣٣).

الآيات (٢١-٢٠)

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جَهَنَّمَ﴾: اسمٌ للنَّارِ الَّتي يُعذِّبُ اللهُ بها في الآخرةِ، قيل: هي أعجميَّةٌ، وقيل: هي اسمٌ عربيٌّ، سُمِّيَتْ نارُ الآخرةِ بها؛ لِبُعْدِ قَعرِها، حُكيَ أنَّه قيل: رَكِيَّةٌ جِهنامٌ، أي: بعيدةُ القعرِ، وقيل: اشتِقاقُها مِن الجُهومةِ، وهي الغِلَظُ، وسُمِّيَتْ بذلك؛ لِغِلَظِ أمْرِها في العذابِ[1].

﴿مِرْصَادًا﴾: أي: مَوضِعَ رَصْدٍ وترَقُّبٍ لأعداءِ اللهِ، فهي مِفْعَالٌ مِنَ الرَّصْدِ، وهو التَّرَقُّبُ، وأصلُ (رصد): يدُلُّ على تهيُّؤٍ لرِقْبةِ شَيءٍ[2].

﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾: أي: للضَّالِّينَ المُتجاوِزينَ لحدود الله، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[3].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٥/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٥، ١٢٦) و(٢٤/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٧٩٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠).

﴿مَـَٔابًا﴾: أي: مَرْجِعًا ومَصيرًا ومَأْوًى، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[١].

﴿أَحۡقَابٗا﴾: أي: دُهورًا مُتتابِعةً، جمعُ الحقبِ، أي: الدَّهرِ، وأصلُ (حقب): يدُلُّ على حَبسٍ[٢].

﴿بَرۡدٗا﴾: أي: بُرودةً تخفِّفُ عنهم حرَّ النَّارِ، وأصلُ (برد) -على ذلك-: خِلافُ الحَرِّ، وقيل: البَرْدُ في هذا المَوضِعِ النَّومُ، يُقالُ: منَعَ البَرْدُ البَرْدَ، أي: منَعَ البَرْدُ النَّومَ، قيل: سُمِّيَ النَّومُ بَرْدًا؛ لأنَّه يرخي المفاصلَ، ويُسكنُ الحرَكاتِ، وأصلُ (برد) -على ذلك-: السُّكونُ والثُّبوتُ[٣].

﴿حَمِيمٗا﴾: أي: ماءً حارًّا شَديدَ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على الحَرارةِ[٤].

﴿وَغَسَّاقٗا﴾: أي: ما يَسيلُ مِن جُلودِ أهلِ النَّارِ، وهو الصَّديدُ، مِن قَولِهم: غَسَقَت عَينُه: إذا انصَبَّت، والغَسَقانُ: الانصِبابُ. وقيل: هو الزَّمهريرُ الَّذي انتهى بَرْدُه، يُحرِقُهم ببَرْدِه كما تُحرِقُهم النَّارُ بحَرِّها[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤١-٢٤٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦٣، ١٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٦٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦).

﴿وِفَاقًا﴾: أي: مُوافِقًا لأعمالِهم، والوَفْقُ: المُطابَقةُ بيْن الشَّيئَينِ، وأصلُ (وفق): يدُلُّ على مُلاءَمةِ الشَّيئَينِ[١].

﴿كِذَّابًا﴾: أي: تكذيبًا مفرطًا، وأصلُ (كذب): يدُلُّ على خِلافِ الصِّدقِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾

﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ يجوزُ أنْ يتعَلَّقَ بمَحذوفٍ صِفةٍ لـ «مِرْصَادًا»، أي: كائنًا للطَّاغِينَ، أو بمحذوفٍ حالٍ مِن ﴿مَـَٔابًا﴾ كان صفةً له، فلمَّا تقدَّم عليه صار حالًا منه، أي: كانت مرجِعًا ومأوًى كائنًا لهم، ويجوزُ أن يكونَ مُتعَلِّقًا بنَفْسِ «مِرْصَادًا» أو بنفْسِ «مَآبًا»؛ لأنَّه بمعنى مَرْجِعٍ.

﴿مَـَٔابًا﴾: خَبَرٌ ثانٍ لـ «كان»، أو بَدَلٌ مِن ﴿مِرْصَادًا﴾ بَدَلَ كُلٍّ مِن كُلٍّ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾

﴿جَزَآءً﴾: مفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ مَحذوفٍ، أي: يُجزَونَ بذلك جَزاءً. ﴿وِفَاقًا﴾: نَعتٌ له مَنصوبٌ[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾

«كُلَّ» مَنصوبٌ على الاشتِغالِ مَفعولٌ به لِفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: أحصَيْنا،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٥٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٦).

يُفَسِّرُه الفِعلُ المذكورُ بَعْدُ، وجُملةُ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ تفسيريَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ.

﴿كِتَٰبًا﴾ فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه مفعولٌ مُطلَقٌ نائِبٌ عن المصدَرِ مِنْ معنى «أَحْصَيْنا»؛ فإنَّ الإحصاءَ والكَتْبَ يتشارَكانِ في معنى الضَّبطِ، فإمَّا أن يُؤَوَّلَ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ بـ«كَتَبْناه» أو ﴿كِتَٰبًا﴾ بـ«إحصاءً». الثَّاني: أن يكونَ مَصدرًا مُؤَوَّلًا بُمشتَقٍّ مَنصوبٍ على الحالِ، بمعنى: مَكتوبًا في اللَّوحِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جزاءَ الكافِرينَ يومَ القيامةِ: إنَّ جَهَنَّمَ تَرصُدُ أهْلَها وتَرْقُبُهم يومَ القيامةِ، وتكونُ مَصيرًا للَّذين طَغَوا في الدُّنيا ومرجعًا في الآخِرةِ، ويَمكُثونَ فيها دُهورًا طَويلةً لا انقِضاءَ لها، لا يَذوقُونَ فيها بَرْدًا ولا شَرابًا، لكنْ يَذوقونَ ماءً شَديدَ الحرارةِ، وما يَسيلُ مِن صديدِ أهلِ النَّارِ؛ جزاءً مُوافِقًا لأعمالِهم السَّيِّئةِ في الدُّنيا.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه الأسبابَ الَّتي أدَّتْ بهم إلى هذا العذابِ، فيقولُ: إنَّهم كانوا في الدُّنيا لا يُؤمِنونَ بالبَعْثِ والحِسابِ في الآخِرةِ، وكَذَّبوا بآياتِ اللهِ تعالى تكذيبًا، وكُلُّ شَيءٍ مِن أعمالِ العِبادِ أو غَيرِها مَكتوبٌ مَعدودٌ، لا يَخْفى على اللهِ تعالى منه شَيءٌ. ويُقالُ للكُفَّارِ في جَهَنَّمَ: ذُوقوا هذا العَذابَ، فلن نَزيدَكم إلَّا عَذابًا فوقَ ما أنتم فيه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شروعٌ في تفصيلِ أحكامِ الفصلِ الَّذي أُضيفَ إليه اليومُ، إثْرَ بيانِ هَولِه[1].

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾.

أي: إنَّ جَهَنَّمَ تَرصُدُ أهْلَها وتَرْقُبُهم يومَ القيامةِ، فلا يُجاوِزُها مَن وَجَب عليه دُخولُها، واستَحَقَّ العَذابَ فيها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

وعن أبي هُرَيرةَ وأبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥).

قال البِقاعي: (﴿كَانَتْ﴾ أي: جِبِلَّةً وخَلْقًا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٠٣).

وقال الشَّوكاني: (كانت في حُكْمِ اللهِ وقَضائِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٢).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ معنى ﴿مِرْصَادًا﴾: أنَّ جَهنَّمَ ذاتُ رَصدٍ، أي: ارتِقابٍ وتطَلُّعٍ، فتَرْقُبُ مَن يَجتازُها وتَرصُدُهم، فلا يُجاوِزُها مَن وَجَب عليه دُخولُها: ابنُ جرير، وهو ظاهِرُ اختيارِ الزَّجَّاج، واختاره الواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٦٦).

وممَّن ذَهَب إلى أنَّ النَّارَ مُرصَدةٌ، أي: مُعَدَّةٌ ومُهَيَّأةٌ للطَّاغِينَ: ابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

قال البَغَوي: (﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ طريقًا ومَمَرًّا، فلا سَبيلَ لأحَدٍ إلى الجنَّةِ حتَّى يَقْطَعَ النَّارَ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٠).

وقيل: معنى الآيةِ: أنَّ جَهنَّمَ مَوضِعُ رَصدٍ يَرصُدُ فيه خَزَنَةُ النَّارِ الكُفَّارَ لِيُعَذِّبوهم فيها. وممَّن ذكَرَ هذا المعنى: البِقاعي، والشوكاني، وذهب إليه ابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥).

عليه وسلَّم قال: ((يُضرَبُ الصِّراطُ بيْنَ ظَهرانَيْ[١] جَهنَّمَ، فأكونُ أنا وأُمَّتي أوَّلَ مَن يُجيزُ[٢]، ولا يتكَلَّمُ يومَئذٍ إلَّا الرُّسُلُ، ودَعْوى الرُّسُلِ يومَئذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سلِّمْ، وفي جَهنَّمَ كَلاليبُ[٣] مِثلُ شَوْكِ السَّعْدانِ[٤]، غيرَ أنَّه لا يَعلَمُ قَدْرَ عِظَمِها إلَّا اللهُ، تَخطَفُ النَّاسَ بأعمالِهم؛ فمِنهم مَن يُوبَقُ[٥] بعَمَلِه، ومِنهم مَن يُخَرْدَلُ[٦] ثمَّ يَنْجو))[٧].

﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ٢٢﴾.

أي: تكونُ جَهنَّمُ للَّذين طَغَوا في الدُّنيا، فجاوَزوا حُدودَ اللهِ تعالى: مَصيرًا ومَرجِعًا في الآخِرةِ[٨].

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن أنَّ جَهنَّمَ مآبٌ للطَّاغِينَ؛ بيَّنَ كَمِّيَّةَ استِقرارِهم هناك، فقال[٩]:

---

(١) بيْنَ ظَهرانَيْ جَهنَّمَ: أي: بيْنَ طَرَفَيْها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٥٤).

(٢) يُجيزُ: أي: يَمضي عليه ويَقطَعُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٠).

(٣) الكَلاليبُ: جَمعُ كَلُّوبٍ، وهو حديدةٌ مَعطوفةُ الرَّأسِ يُعلَّقُ فيها اللَّحمُ، وتُرسَلُ في التَّنُّورِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢١).

(٤) السَّعْدان: نَبتٌ له شوكةٌ عَظيمةٌ مِثلُ الحَسَكِ مِن كُلِّ الجوانِبِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٢).

(٥) يوبَقُ: أي: يُهلَكُ. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخَطَّابي (١/ ٥٣٣)، ((تفسير غريب ما في الصحيحين)) للحميدي (ص: ٢٩٤).

(٦) يُخردَلُ: أي: يُقطَّعُ ويُصرَعُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٢).

(٧) رواه البخاري (٨٠٦) واللَّفظُ له، ومسلم (١٨٢).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

(٩) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥).

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾.

أي: يَمكُثونَ في جَهنَّمَ مُدَدًا طَويلةً لا انقِضاءَ لها[1].

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ٢٤﴾.

أي: لا يَذوقُ الطَّاغُونَ في جَهَنَّمَ بَرْدًا يُبَرِّدُ أبدانَهم، ويَكسِرُ شِدَّةَ الحَرِّ، ولا شَرابًا يُبَرِّدُ بَواطِنَهم أو يُزيلُ عَطَشَهم[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٧-١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: أنَّهم يَلْبَثونَ فيها أحقابًا مُتتالِيةً لا انقِضاءَ لها، كُلَّما مضى حُقبٌ تَبِعَه حُقبٌ آخَرُ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والقرطبيُّ، وهو ظاهِرُ اختيار البِقاعي، وذهب إليه ابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: أنَّهم لابِثونَ في النَّارِ أحقابًا لا يَذوقونَ فيها بَرْدًا ولا شَرابًا، أي: يُعَذَّبونَ بهذا النَّوعِ مِنَ العَذابِ أحقابًا، وثَمَّ أحقابٌ أُخَرُ لسائِرِ أنواعِ العَذابِ. وهذا القَولُ مال إليه ابنُ جرير، واختاره الزَّجَّاجُ، واستظهره الشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٦، ٢٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٧٣)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٠). ويُنظر أيضًا: ((الرد على من قال بفناء الجنة والنار)) لابن تيمية (ص: ٦٤، ٦٥).

قال ابن كثير: (قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ لهلالٍ الهَجَريِّ: ما تَجِدونَ الحُقبَ في كتابِ الله المُنزَّلِ؟ قال: نَجِدُه ثمانين سَنةً، كلُّ سنةٍ اثْنا عشَرَ شهرًا، كلُّ شهرٍ ثلاثون يَومًا، كلُّ يومٍ ألْفُ سَنةٍ. وهكذا رُوِيَ عن أبي هُرَيرةَ، وعبدِ الله بنِ عَمرٍو، وابنِ عبَّاسٍ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وعَمرِو بنِ مَيمونٍ، والحسَنِ، وقَتادةَ، والرَّبيعِ بنِ أنسٍ، والضَّحَّاكِ. وعن الحسَنِ والسُّدِّيِّ أيضًا: سبعون سَنةً كذلك. وعن عبدِ الله بنِ عَمرٍو: الحقبُ أربعونَ سَنةً، كلُّ يومٍ منها كألْفِ سَنةٍ ممَّا تَعُدُّونَ. رواهما ابنُ أبي حاتمٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥).

قال الرَّاغبُ الأصفهانيُّ: (﴿أَحۡقَابٗا﴾ قيل: جمعُ الحُقُبِ، أي: الدَّهرِ، قيل: والحِقْبةُ ثمانونَ عامًا، وجَمْعُها حِقَبٌ، والصَّحيحُ أنَّ الحِقْبةَ مُدَّةٌ مِنَ الزَّمانِ مُبهَمةٌ). ((المفردات)) (ص: ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧)، ((تفسير ابن =

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: لَكِنْ يَذوقونَ في جَهنَّمَ ماءً شَديدَ الحرارةِ، وما يَسيلُ مِن أهلِ النَّارِ مِن

= عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

وممَّن اختار -في الجملةِ- المعنى المذكورَ لقولِه: ﴿بَرْدًا﴾: ابنُ جرير، والنَّحَّاسُ، والرازي، وابن جُزَي، وأبو حيَّان، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٨٣)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٧).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهِرُ -وهو قَولُ الجُمهورِ- أنَّ البَرْدَ هو مَسُّ الهواءِ القَرِّ، أي: لا يَمَسُّهم منه ما يُستَلَذُّ ويَكسِرُ شِدَّةَ الحَرِّ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٧).

وقيل: ﴿بَرْدًا﴾ أي: نَومًا. وممَّن اختاره: أبو عُبَيْدَةَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والسِّجِسْتانيُّ، والرَّاغبُ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٧).

ونُسِب هذا القولُ إلى ثعلبٍ، والأخفَشِ، والكِسائيِّ، والفرَّاءِ، وقُطْرُبٍ، والفضلِ بنِ خالدٍ، ومُعاذٍ النَّحْويِّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٣١).

قال الفرَّاء: (إنَّ النَّومَ لَيُبْرِدُ صاحِبَه، وإنَّ العَطْشانَ لَيَنامُ فيبردُ بالنَّومِ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٢٨).

وقال ابن جرير: (ليس هو باسمِه المعروفِ، وتأويلُ كتابِ اللهِ على الأغلبِ مِن معروفِ كلامِ العربِ، دونَ غيرِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦).

وقال ابن عاشور: (حَمْلُ الآيةِ عليه تَكَلُّفٌ لا داعِيَ إليه، وعَطْفُ ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ يُناكِدُه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧).

وقال الزجاج: (وجائزٌ أن يكونَ لا يَذوقونَ فيها بَرْدَ رِيحٍ ولا ظِلٍّ ولا نَوْمٍ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٧٣).

صَديدٍ وغَيرِه، وهو معَ نتنِ رائحتِه شديدُ البرودةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿... فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ * يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ * وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ * لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٤].

﴿جَزَآءً وِفَاقًا ٢٦﴾.

أي: ذلك العِقابُ للطَّاغِينَ مُوافِقٌ لأعمالِهم السَّيِّئةِ في الدُّنيا، فلم يَظْلِمْهم اللهُ تعالى، وإنَّما ظَلَموا أنفُسَهم[(٢)].

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن على الإجمالِ أنَّ ذلك الجزاءَ كان على وَفْقِ جُرْمِهم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧، ٢٨، ٣١، ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٠، ١٨١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧، ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠، ٣١).
قال ابن كثير: (والغَسَّاقُ: هو ما اجْتَمَع مِن صديدِ أهلِ النَّارِ وعَرَقِهم ودُموعِهم وجُروحِهم، فهو باردٌ لا يُسْتَطاعُ مِن بَرْدِه، ولا يُواجَهُ مَن نَتَنِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧).
ويُنظر ما تقدَّم في تفسير الآية (٥٧) من سورة (ص).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١).

شَرَح أنواعَ جَرائِمِهم[١].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾.

أي: إنَّهم كانوا في الدُّنيا لا يُؤمِنونَ بالبَعْثِ، ولا بأنَّهم يُحاسَبونَ ويُجازَوْنَ على أعمالِهم في الآخِرةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧).

قال ابن جُزَي: (قيل: معنى ﴿يَرْجُونَ﴾ هنا: يَخافونَ، وقيل: ... الرَّجاءُ على أصلِه. وقيل: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾: لا يَتوَقَّعونَ أصلًا، ولا يَخطرُ ببالِهم). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٥٣) و(٢/ ٤٤٦).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ هنا أي: لا يَخافونَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، وابن أبي زَمَنِين، والواحديُّ، والسمعاني، والرَّسْعَني، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٦٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٧)، ((تفسير العليمي (٧/ ٢٦٤).

قال الواحديُّ: (لا يَخافونَ أن يُحاسَبوا. قاله مقاتلٌ، والمفسِّرونَ). ((البسيط)) (٢٣/ ١٣٤).

ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٠).

وقال النَّحَّاسُ: (قيل: ﴿يَرْجُونَ﴾ بمعنى: يَخافونَ؛ لأنَّ مَن رجا شيئًا يَلحَقُه خَوفٌ مِن فَواتِه، فغلَّب إحدى الخِيفتَينِ). ((إعراب القرآن)) (٥/ ٨٤).

قال الواحدي: (﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾: لا يَخافونَ أن يُحاسَبوا، والمعنى: كانوا لا يؤمِنونَ بالبعثِ، ولا بأنَّهم يُحاسَبونَ). ((الوسيط)) (٤/ ٤١٥).

وممَّن اختار أنَّ الرَّجاءَ على أصلِه: الزَّجَّاجُ، والشَّوكانيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١).

قال الزَّجَّاجُ: (﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: لا يؤمِنونَ بالبعثِ، ولا بأنَّهم يُحاسَبونَ، ويَرجونَ ثوابَ حِسابٍ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٧٤). =

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا هو النَّوعُ الثَّاني مِن قبائِحِ أفعالِ الكُفَّارِ(١).

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ٢٨﴾.

أي: وكانوا يُكَذِّبونَ بآياتِ اللهِ تعالى تكذيبًا شَديدًا مع وُضوحِها ودَلالتِها على الحَقِّ(٢).

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن أنَّ فَسادَ حالِ الكُفَّارِ في القُوَّةِ العمَليَّةِ وفي القوَّةِ النَّظَريَّةِ بلَغ إلى أقصى الغاياتِ، وأعظَمِ النِّهاياتِ- بيَّن أنَّ تفاصيلَ تلك الأحوالِ في كَمِّيَّتِها وكيفيَّتِها معلومةٌ له، وقَدْرَ ما يُستحَقُّ عليه مِن العِقابِ مَعلومٌ له(٣).

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩﴾.

أي: وكُلُّ شَيءٍ مِن أعمالِ العِبادِ أو غَيرِها مكتوبٌ مَعدودٌ مَضبوطٌ، لا يَخْفى

= وقال السعدي: (﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾ أي: لا يؤمِنونَ بالبعثِ، ولا أنَّ اللهَ يُجازي الخَلْقَ بالخَيرِ والشَّرِّ؛ فلذلك أهمَلوا العملَ للآخرةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧).

وقال ابن كثير: (﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾ أي: لم يَكونوا يَعتَقِدونَ أنَّ ثَمَّ دارًا يُجازَوْنَ فيها ويُحاسَبونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩).

على اللهِ تعالى منه شَيءٌ[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا شرح أحوالَ العِقابِ أوَّلًا، ثمَّ ذكر كَونَه ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ:٢٦]، ثمَّ بيَّن تفاصيلَ أفعالِهم القبيحةِ، وظَهَر صِحَّةُ ما ذكره أوَّلًا مِن أنَّ ذلك العِقابَ كان جزاءً وِفاقًا- لا جَرَمَ أعاد ذِكرَ العِقابِ[٢].

﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

أي: يُقالُ للكُفَّارِ في جَهَنَّمَ توبيخًا وتَقريعًا لهم: فذُوقوا هذا العَذابَ، وسنَزيدُكم عذابًا فوقَ ما أنتم فيه[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢).

قال القرطبي: (قيل: أي: كَتَبْناه في اللَّوحِ المحفوظِ لتَعرِفَه الملائكةُ. وقيل: أراد ما كُتِبَ على العِبادِ مِن أعمالِهم، فهذه كتابةٌ صَدَرَت عن الملائكةِ الموكَّلِينَ بالعبادِ بأمْرِ اللهِ تعالى إيَّاهم بالكِتابةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ يدُلُّ على أنَّ جَهنَّمَ كانت مخلوقةً، لِقَولِه تعالى: ﴿مِرْصَادًا﴾ أي: مُعَدَّةً -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وإذا كان كذلك كانت الجنَّةُ أيضًا كذلك؛ لأنَّه لا قائِلَ بالفَرْقِ[(١)].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ إنَّ الشِّركَ أقصى الطُّغيانِ؛ إذ المشركون باللهِ مُعرِضونَ عن عبادتِه، ومتكَبِّرون على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيث أَنِفوا من قَبولِ دعوتِه، وهم المقصودُ مِن معظَمِ ما في هذه السُّورةِ، كما يصَرِّحُ به قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٢٧، ٢٨]. هذا، وإنَّ المُسلِمينَ المُستخِفِّينَ بحقوقِ اللهِ، أو المعتدينَ على النَّاسِ بغيرِ حقٍّ، واحتقارًا لا لمجرَّدِ غلَبةِ الشَّهوةِ - لهم حظٌّ مِن هذا الوعيدِ بمِقدارِ اقترابِهم مِن حالِ أهلِ الكفرِ[(٢)].

= (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣).
قال ابنُ عاشور: (الزِّيادةُ المنفيَّةُ في قَولِه: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ يجوزُ أن تكونَ زيادةَ نوعٍ آخَرَ مِن عذابٍ يكونُ حاصِلًا لهم، كما في قَولِه تعالى: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]. ويجوزُ أن تكونَ زيادةً مِن نوعِ ما هم فيه مِن العذابِ، بتكريرِه في المستقبَلِ. والمعنى: فسَنَزيدُكم عذابًا زيادةً مُستَمِرَّةً في أزمِنةِ المُستقبَلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ وَجهُ الجَمْعِ بيْنَ الأحقابِ المذكورةِ هنا مع الدَّوامِ الأَبَديِّ الَّذي في آياتٍ دالَّةٍ عليه؛ مِن أَوْجُهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ قَولَه: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ متعَلِّقٌ بما بَعْدَه، أي: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ في حالِ كَونِهم ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا﴾، فإذا انقَضَت تلك الأحقابُ عُذِّبوا بأنواعٍ أُخَرَ مِن أنواعِ العَذابِ غَيرِ الحَميمِ والغَسَّاقِ. ويدُلُّ لهذا تصريحُه تعالى بأنَّهم يُعَذَّبونَ بأنواعٍ أُخَرَ مِن أنواعِ العَذابِ غيرِ الحَميمِ والغَسَّاقِ، في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ۝ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٧، ٥٨].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ هذه الأحقابَ لا تَنْقَضي أبَدًا.

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّا لو سَلَّمْنا دَلالةَ قَولِه: ﴿أَحۡقَابٗا﴾ على التَّناهي والانقِضاءِ فإنَّ ذلك إنَّما فُهِمَ مِن مفهومِ الظَّرفِ، والتَّأبيدُ مُصَرَّحٌ به منطوقًا، والمنطوقُ مُقَدَّمٌ على المفهومِ، كما تقَرَّرَ في الأُصولِ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾ أنَّه لَمَّا نُفِيَ ذَوقُ البَرْدِ والشَّرابِ فرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّهم لا يَذُوقونَ غَيرَهما، فقال: ﴿إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا﴾[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾ أنَّ الذَّوقَ لا يَختَصُّ بالفَمِ، وإنَّما هو في لُغةِ العَرَبِ: وُجودُ طَعمِ الشَّيءِ. والاستِعمالُ يدُلُّ على ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٠، ٢٥١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٧٠).

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ [الطلاق: ٩][١]؛ فلَفْظُ «الذَّوقِ» يُستَعمَلُ في كلِّ ما يُحسُّ به ويَجِدُ أَلَمَه أو لَذَّتَه[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أنَّ تفاوُتَ أهلِ النَّارِ في العَذابِ هو بحَسَبِ تَفاوُتِ أعمالِهم الَّتي دَخَلوا بها النَّارَ[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ الكُفَّارَ كانوا قد أتَوا بأنواعٍ مِنَ القبائِحِ والكبائِرِ، فما السَّبَبُ في أنْ خَصَّ اللهُ تعالى هذا النَّوعَ مِن الكُفرِ بالذِّكرِ في أوَّلِ الأمرِ؟

الجوابُ: لأنَّ رَغبةَ الإنسانِ في فِعْلِ الخَيراتِ وفي تَرْكِ المحظوراتِ إنَّما تكونُ بسَبَبِ أن ينتَفِعَ به في الآخِرةِ، فمَن أنكَرَ الآخِرةَ لم يُقْدِمْ على شَيءٍ مِنَ المُستحسَناتِ، ولم يُحجِمْ عن شَيءٍ مِنَ المُنكَراتِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ تنبيهٌ على أنَّهم فَعَلوا كُلَّ شَرٍّ، وتَرَكوا كُلَّ خَيرٍ[٤].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ يدُلُّ على كَونِه تعالى عالِمًا بالجُزْئيَّاتِ[٥].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ذِكْرُ كِتابِ اللهِ الكَونيِّ، ويُقابِلُه الكِتابُ الشَّرعيُّ، كقَولِه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[٦] [البقرة: ١٨٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ردٌّ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ

---

(١) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣١/ ٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٦).

الَّذين يُنكِرون الكتابَ السَّابقَ؛ لأنَّه مَجمَعُ الأشياءِ، فدَخَلَ فيه الخيرُ والشَّرُّ، والإيمانُ والكفرُ، وصارتْ الكتابةُ متقدِّمةً على الأفعالِ، فخَرَجَتِ الأفعالُ عليها، ولم يُمكنِ المَحيصُ عنها[١].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ فيه سؤالٌ: أليس أنَّه تعالى قال في صفةِ الكُفَّارِ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧]، فهنا لَمَّا قال لهم: ﴿فَذُوقُواْ﴾ فقد كَلَّمهم؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ تقديرَ الآيةِ: فيُقالُ لهم: ﴿فَذُوقُواْ﴾.

الوَجهُ الثَّاني: أن يقالَ: إنَّ قَولَه: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمْ﴾، أي: ولا يكَلِّمُهم بالكلامِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ؛ فإنَّ تخصيصَ العُمومِ غيرُ بعيدٍ، لا سيَّما عندَ حُصولِ القرينةِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ إنَّما ذكَرَه لبيانِ أنَّه تعالى لا ينفَعُهم، ولا يُقيمُ لهم وزنًا، وذلك لا يحصُلُ إلَّا مِن الكلامِ الطَّيِّبِ[٢].

وأيضًا فيومُ القيامةِ يومٌ طويلٌ، فيُكلِّمُهم الله تعالى في وقتٍ، ولا يُكلِّمُهم في آخَرَ.

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ هذه الآيةُ أشَدُّ الآياتِ في شِدَّةِ عَذابِ أهلِ النَّارِ. أجارنا اللهُ تعالى منها[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۞ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ كَلامٌ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦).

مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في وصْفِ أهوالِ جهنَّمَ بعدَ أنْ فُرِغَ مِن وَصْفِ الأهوالِ العامَّةِ ليومِ القِيامةِ[١].

- ويَجوزُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ في موضعِ خبرٍ ثانٍ لـ (إنَّ) مِن قولِه: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ [النَّبأ: ١٧]، والتَّقديرُ: إنَّ يومَ الفصلِ إنَّ جهنَّمَ كانتْ مِرصادًا فيه للطَّاغينَ، والعائدُ مَحذوفٌ دَلَّ عليه قولُه: ﴿مِرْصَادًا﴾، أي: مِرصادًا فيه، أي: في ذلك اليومِ؛ لأنَّ معنى المِرصادِ مُقتربٌ مِن معنى المِيقاتِ؛ إذ كِلاهما مُحدَّدٌ لجزاءِ الطَّاغينَ. ودُخولُ حرْفِ (إنَّ) في خبرِ (إنَّ) يُفيدُ تَأكيدًا على التَّأكيدِ الَّذي أفادَه حرفُ التَّأكيدِ الدَّاخلُ على قولِه: ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، وتكون الجُملةُ مِن تَمامِ ما خُوطِبوا به بقولِه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النَّبأ: ١٨]. والتَّعبيرُ بالطَّاغينَ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للتَّسجيلِ عليهم بوصْفِ الطُّغيانِ، والإيماءِ إلى سَببِ جعْلِ جهنَّمَ لهم؛ لأنَّ مُقتضى الظَّاهرِ أنْ يقولَ: (لكم مآبًا).

ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ مُستأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا عن جُملةِ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ [النَّبأ: ١٧] وما لَحِقَ بها؛ لأنَّ ذلك ممَّا يُثيرُ في نفوسِ السَّامعينَ تَطلُّبَ ماذا سيَكونُ بعدَ تلك الأهوالِ، فأُجيبَ بمَضمونِ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ الآيةَ؛ وعليه فليس في قولِه: ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ تَخريجٌ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ[٢].

- وابتُدِئَ بذِكرِ جهنَّمَ؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ تهديدٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤، ٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤).

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ دونَ أنْ يُقالَ: إنَّ جهنَّمَ مِرصادٌ؛ للدَّلالةِ على أنَّ جَعْلَها مِرصادًا أمرٌ مُقدَّرٌ لها[١].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿مِرْصَادًا﴾ مَصدرًا على وزْنِ المِفعالِ، أي: رَصدًا. والإخبارُ عن جهنَّمَ بأنَّها ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ للمُبالغةِ، حتَّى كأنَّها أصلُ الرَّصدِ، أي: لا تُفْلِتُ أحدًا ممَّنْ حَقَّ عليهم دُخولُها. ويجوزُ أنْ يكونَ مِرصادٌ زِنَةَ مُبالَغةٍ للرَّاصِدِ الشَّديدِ الرَّصْدِ، مِثلَ صِفةِ (مِغيارٍ، ومِعطارٍ)، وُصِفَتْ به جهنَّمُ، ولم تَلحَقْه (ها) التَّأنيثُ؛ لأنَّ جَهنَّمَ شُبِّهتْ بالواحدِ مِن الرَّصَدِ -بتَحريكِ الصَّادِ-، وهو الواحدُ مِن الحرسِ الَّذي يقفُ بالمَرْصَدِ؛ إذ لا يكونُ الحارسُ إلَّا رجُلًا[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِّلطَّاغِينَ﴾ قولُه: ﴿لِّلطَّاغِينَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿مِرْصَادًا﴾، ومُتعلَّقُ ﴿مَآبًا﴾ مُقدَّرٌ دلَّ عليه ﴿لِّلطَّاغِينَ﴾، فيكونُ كالتَّضمينِ في الشِّعرِ؛ إذ كانت بَقيَّةً لِما في القَرينةِ الأُولى في القَرينةِ المُواليةِ، فتَكونُ القرينةُ طويلةً. أو مُتعلَّقُ ﴿مِرْصَادًا﴾ مَحذوفٌ دَلَّ عليه قولُه: ﴿لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾، والتَّقديرُ: مِرصادًا للطَّاغينَ، وقولُه: ﴿لِّلطَّاغِينَ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿مَآبًا﴾؛ قُدِّم عليه لإدخالِ الرَّوْعِ على المُشركينَ الَّذين بشِركِهم طَغَوْا على اللهِ. وهذا أحسَنُ؛ لأنَّ قرائنَ السُّورةِ قِصارٌ، فيَحسُنُ الوقفُ عندَ ﴿مِرْصَادًا﴾؛ لتكونَ قرينةً[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿لِّلطَّاغِينَ﴾ للعَهدِ؛ فالمرادُ به المُشركونَ المخاطَبونَ بقولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥، ٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والقرينةُ: هي القطعةُ مِن الكلامِ تُجعَلُ مُزاوِجةً للأخرى، وهي أخصُّ مِن الفقرةِ، والقرينتانِ في النَّثرِ بمنزلةِ البيتِ مِن الشِّعرِ. يُنظر: ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٦٧١).

﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[(١)] [النَّبأ: ١٨].

- وكلمةُ ﴿أَحْقَابًا﴾ جمعٌ مرادٌ به الطُّولُ العظيمُ والكثرةُ؛ لأنَّ أكثرَ استِعمالِ الحُقُبِ والأحقابِ أنْ يكونَ في حيثُ يُرادُ تَوالي الأزمانِ، ويُبيِّنُ هذا الآياتُ الأُخرى الدَّالَّةُ على خُلودِ المُشركينَ، فجاءتْ هذه الآيةُ على المعروفِ الشَّائعِ في الكلامِ؛ كِنايةً به عن الدَّوامِ دونَ انتهاءٍ[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَآءً وِفَاقًا﴾

- استِثناءُ ﴿حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ مِن ﴿بَرْدًا﴾ أو ﴿شَرَابًا﴾ على طريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المُرَتَّبِ[(٣)]، وهو استثناءٌ مُنقطِعٌ؛ لأنَّ الحميمَ ليس مِن جنسِ البَرْدِ في شيءٍ؛ إذ هو شديدُ الحرِّ، ولأنَّ الغسَّاقَ ليس مِن جنسِ الشرابِ، والمعنى: يَذوقونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٦، ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧).

(٣) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

الحميمَ إذ يُراقُ على أجسادِهم، والغسَّاقَ إذ يَسيلُ على مَواضعِ الحَرقِ فيَزيدُ ألَمَهم، وصُورةُ الاستثناءِ هنا مِن تَأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه في الصُّورةِ[١].

- وقولُه: ﴿جَزَآءً﴾ مَنْصوبٌ على الحالِ مِن ضَميرِ ﴿يَذُوقُونَ﴾، أي: حالةَ كَونِ ذلك جَزاءً، مُجازًى به، فالحالُ هنا مصدرٌ مُؤوَّلٌ بمعنى الوصفِ، وهو أبلَغُ مِن الوصفِ[٢].

- قولُه: ﴿وِفَاقًا﴾ الوِفاقُ: مَصدرُ وافَقَ، وهو مُؤوَّلٌ بالوصفِ، أي: مُوافقًا للعملِ الَّذي جُوزوا عليه، وهو التَّكذيبُ بالبعثِ وتكذيبُ القُرآنِ، كما دلَّ عليه التَّعليلُ بعدَه بقولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۞ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ [النَّبأ: ٢٧، ٢٨]؛ فإنَّ ذلك أصلُ إصرارِهم على الكفرِ، وهما أصلانِ: أحدُهما عدَميٌّ، وهو إنكارُ البعثِ، والآخَرُ وُجوديٌّ، وهو نِسبتُهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والقرآنَ للكَذِبِ، فعُوقِبوا على الأصلِ العدَميِّ بعِقابٍ عدَميٍّ، وهو حِرمانُهم مِن البَرْدِ والشَّرابِ، وعلى الأصلِ الوُجوديِّ بجزاءٍ وُجوديٍّ، وهو الحميمُ يُراقُ على أجسادِهم، والغَسَّاقُ يمُرُّ على جِراحِهم[٣]، أو قولُه: ﴿وِفَاقًا﴾ على حذْفِ مُضافٍ، أي: ذا وِفاقٍ لأعمالِهم، أو نفْسُ الوِفاقِ مُبالَغةً[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في وَصْفِ عَذابِ أهلِ النارِ: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۞ جَزَآءً وِفَاقًا﴾، وقال في وَصْفِ نَعيمِ أهلِ الجنَّةِ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ۞ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۞ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٤-٣٦]، فوَصَفَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩١).

الجَزاءَ الأوَّلَ منهما بالوِفاقِ، ووَصَفَ الثَّانيَ بأنَّه حِسابٌ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالَى قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، وقال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فلمَّا كانت الحَسَنةُ بأضْعافِها، والسَّيِّئةُ بمِثلِها، استُعمِلَ في جَزاءِ السَّيِّئةِ أنَّه وِفاقٌ لها، غيرُ زائدٍ عليها، ولا قاصرٌ عنها، ولَمَّا كانت الحَسَنةُ بأضعافِها، استُعمِلَ في جَزائِها أنَّه عَطاءٌ يَكفي مُعطاه، ويَبلُغُ مِن مَطلوبِه مُنتهاهُ، فقال: عَطاءً بحَسبِه، أي: يَكْفيهِ ممَّا يُريدُ ويَشتهِيه، ويُغْنِيه عن طَلَبِ زِيادةٍ إليه، وإذا كان كذلك لم يَصلُحْ لكلِّ مكانٍ إلَّا ما استُعمِلَ فيه[(١)].

أو أنَّ وجهَ ذلك: أنَّ الأوَّلَ للكُفَّارِ، فناسَبَ ذِكرُ ﴿وِفَاقًا﴾، أي: جَزاءً مُوافقًا لأعمالِهم، والثَّانيَ للمؤمِنينَ، فناسَبَ ذِكرُ ﴿حِسَابًا﴾، أي: كافيًا وافيًا لأعمالِهم، مِن قولِك: حَسْبي، أي: كَفاني[(٢)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۞ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ بَيانٌ لِما وافَقَه ذلك الجزاءُ؛ لَمَّا أنْكَروا البعثَ، وجَحَدوا الآياتِ، وكذَّبوا الرُّسلَ، عُذِّبوا بأشدِّ العذابِ، ولم يُنفَّسْ عنهم الكرْبُ؛ لأنَّ كُفْرَهم أعظَمُ كُفْرٍ[(٣)].

- ومَوقعُ هذه الجُملةِ مَوقعُ التَّعليلِ لجملةِ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ إلى قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النَّبأ: ٢١- ٢٦]، فهي تعليلٌ لاستحقاقِهم

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٢٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥٠٠)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٣٠٧).

الجزاءَ المذكورَ، ولذلك فُصِلَتْ، وهي مُعترِضةٌ بيْن ما قبْلَها وبيْن جُملةِ ﴿فَذُوقُواْ﴾[١] [النبأ: ٣٠].

- وحرفُ (إنَّ) للاهتِمامِ بالخَبرِ، وليستْ لردِّ الإنكارِ؛ إذ لا يُنكِرُ أحدٌ أنَّهم لا يَرْجونَ حِسابًا، وأنَّهم مُكذِّبونَ بالقُرآنِ، وشأنُ (إنَّ) إذا قُصِد بها مجرَّدُ الاهتمامِ أنْ تكونَ قائمةً مَقامَ فاءِ التَّفريعِ، مفيدةً للتَّعليلِ[٢].

- وفِعلُ ﴿كَانُواْ﴾ دالٌّ على أنَّ انتفاءَ رَجائِهم الحسابَ وصْفٌ متمكِّنٌ مِن نُفوسِهم، وهم كائِنونَ عليه، وليس المرادُ بفعلِ ﴿كَانُواْ﴾ أنَّهم كانوا كذلك فانْقضى؛ لأنَّ هذه الجملةَ إخبارٌ عنهم في حينِ نزولِ الآيةِ وهم في الدُّنيا، وليستْ ممَّا يُقالُ لهم أو عنهم يومَ القيامةِ[٣].

- قولُه: ﴿لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ الرَّجاءُ اشتهَرَ في ترقُّبِ الأمرِ المحبوبِ، والحِسابُ ليس خيرًا لهم حتَّى يُجعَلَ نفْيُ ترقُّبِه مِن قَبيلِ نفْيِ الرَّجاءِ، فكان الظَّاهرُ أنْ يُعبَّرَ عن تَرقُّبِه بمادَّةِ التَّوقُّعِ الَّذي هو تَرقُّبُ الأمرِ المكروهِ، فيَظهَرُ أنَّ وجْهَ العدولِ عن التَّعبيرِ بمادَّةِ التَّوقُّعِ إلى التَّعبيرِ بمادَّةِ الرَّجاءِ: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أَخبَرَ عن جَزاءِ الطَّاغينَ وعَذابِهم، تَلقَّى المُسلِمونَ ذلك بالمَسَرَّةِ، وعَلِموا أنَّهم ناجونَ ممَّا سيَلْقاهُ الطَّاغونَ، فكانوا مُترقِّبينَ يومَ الحِسابِ تَرقُّبَ رَجاءٍ، فنفْيُ رَجاءِ يومِ الحسابِ عن المُشرِكينَ جامعٌ بصَريحِه معْنى عدَمِ إيمانِهم بوُقوعِه، وبكِنايتِه رَجاءَ المؤمِنينَ وُقوعَه بطَريقةِ الكِنايةِ التَّعريضيَّةِ تَعريضًا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٩، ٤٠).

بالمُسلِمينَ، وهي أيضًا تلويحيَّةٌ؛ لِما في لازِمِ مَدلولِ الكلامِ مِن الخَفاءِ[١].

وقيل: الرَّجاءُ هاهنا بمعنى التَّوَقُّعِ؛ لأنَّ الرَّاجيَ للشَّيءِ مُتوَقِّعٌ له، إلَّا أنَّ أشرَفَ أقسامِ التَّوَقُّعِ هو الرَّجاءُ؛ فسُمِّيَ الجِنسُ باسم أشرَفِ أنواعِه. وقيل: معنى قَولِه ﴿لَا يَرۡجُونَ﴾: لا يَخافُونَ. وقيل: إنَّ المؤمِنَ لا بُدَّ أن يَرجُوَ رَحمةَ اللهِ؛ لأنَّه قاطِعٌ بأنَّ ثوابَ إيمانِه زائِدٌ على عِقابِ جميعِ المعاصي سِوى الكُفْرِ، فقَولُه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم ما كانوا مُؤمِنينَ[٢].

وقيل: عبَّر عن تكذيبِهم بنَفْيِ الرَّجاءِ؛ لأنَّه أبلَغُ؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ يَطمَعُ في الخَيرِ بأدْنى احتِمالٍ[٣].

- وجِيءَ بفِعلِ ﴿يَرۡجُونَ﴾ مُضارِعًا؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ انتفاءِ ما عُبِّر عنه بالرَّجاءِ؛ وذلك لأنَّهم كلَّما أُعيدَ لهم ذِكرُ يومِ الحسابِ جدَّدوا إنكارَه، وكرَّروا شُبُهاتِهم على نفْيِ إمكانِه؛ لأنَّهم قالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾[٤] [الجاثية: ٣٢].

- قولُه: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾ عطفٌ على ﴿لَا يَرۡجُونَ ...﴾؛ وجيءَ في جانبِ التَّكذيبِ بالفعلِ الماضي؛ لكونِ تكذيبِهم بآياتِ القُرآنِ وما اشتمَلتْ عليه مِن إثباتِ الوَحدانيَّةِ، ورسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد استقرَّ في نُفوسِهم ولم يَتردَّدوا فيه، حيثُ قالوا: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠).

وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[١] [فصلت: ٥].

- ومعنَى ﴿كِذَّابًا﴾، أي: تَكذيبًا هو في غايةِ المُبالَغةِ؛ وأُقيمَ ﴿كِذَّابًا﴾ مُقامَ التَّكذيبِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم كذَبوا في تَكذيبِهم، أو المُكاذَبةِ؛ فإنَّهم كانوا عِندَ المُسلِمينَ كاذِبينَ، وكان المُسلِمونَ كاذِبينَ عندَهم، فكان بيْنَهم مُكاذَبةٌ، أو كانوا مُبالِغينَ في الكذبِ مُبالَغةَ المغالبينَ فيه، وعلى المعنيَينِ يجوزُ أنْ يكونَ حالًا بمعنى كاذِبينَ أو مكاذِبينَ، ويجوزُ أنْ يكونَ للمُبالَغةِ، فيكونَ صفةً للمصدرِ، أي: تَكذيبًا مُفرِطًا كَذِبُه[٢]. أو يكونَ مفعولًا مطلَقًا مؤكِّدًا لعامِلِه؛ لإفادةِ شِدَّةِ تَكذيبِهم بالآياتِ[٣].

- وأيضًا أُوثِرَ هذا المصدرُ ﴿كِذَّابًا﴾ هنا دونَ (تَكذيبٍ)؛ لمُراعاةِ التَّماثُلِ في فَواصلِ هذه السُّورةِ؛ فإنَّها على نحْوِ ألِفِ التَّأسيسِ في القَوافي[٤]، والفواصلُ كالأسجاعِ، ويَحسُنُ في الأسجاعِ ما يَحسُنُ في القَوافي[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٩، ٦٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٨، ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١).

(٤) ألِفُ التَّأسيسِ: مِن مُصطَلحاتِ عِلمِ العَروضِ والقافيةِ، وهو كلُّ ألِفٍ وقعَتْ في القافيةِ وبيْنَها وبيْنَ الرَّويِّ حرفٌ مُتحرِّكٌ يُسمَّى هذا الحَرْفُ المتحرِّكُ الدَّخيلَ، والتَّأسيسُ يَلزَمُ ذلك الموضِعَ في القَصيدةِ كُلِّها؛ ففي قولِ زيادِ بنِ مُعاويةَ الذُّبْيانيِّ -وهو في ((ديوانه)) (ص: ٤٧)-:

كِلِينـــي لِهَـــمٍّ يـــا أُمَيْمَـــةَ ناصِـــبِ ... ولَـيْـلٍ أُقـاسِـيـهِ بَـطـيءِ الـكـواكِـبِ

الألِفُ مِن «كواكِبِ» تأسِيسٌ، والكافُ دَخيلٌ، والباءُ رَويٌّ، والياءُ المتولِّدةُ مِن كَسْرةِ الباءِ وصْلٌ. يُنظر: ((القوافي)) للأخفش الأوسط (ص: ٢٨)، ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ٤٩١)، ((العِقد)) لابن عبد ربه (٦/ ٣٤٣)، ((عِلم العَروض والقافية)) لعبد العزيز عتيق (ص: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ اعتِراضٌ بيْنَ الجُمَلِ الَّتي سِيقتْ مساقَ التَّعليلِ وبيْنَ جُملةِ ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النَّبأ: ٣٠]، وفائدةُ هذا الاعتراضِ المُبادَرةُ بإعلامِهم أنَّ اللهَ لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم، فلا يَدَعُ شيئًا مِن سيِّئاتِهم إلَّا يُحاسِبُهم عليه؛ ما ذُكِر هنا وما لم يُذكَرْ، كأنَّه قيل: إنَّهم كانوا لا يَرْجونَ حِسابًا وكذَّبوا بآياتِنا، وفعَلوا ممَّا عدا ذلك، وكلُّ ذلك مُحصًى عندَنا[١].

وقيل: فائدةُ الاعتراضِ بقولِه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ الإشعارُ بأنَّ تكذيبَهم البعثَ والرُّسلَ والكُتبَ، إنَّما نشَأَ مِن اعتقادِهم أنَّه تعالى لا يَعلَمُ جُزئيَّاتِ أعمالِهم وأعمالِ الرُّسلِ، فلا حِسابَ ولا بعثةَ ولا كتابَ[٢]!

- والإحصاءُ: حِسابُ الأشياءِ لضَبطِ عددِها، فالإحصاءُ كِنايةٌ عن الضَّبطِ والتَّحصيلِ[٣].

- علَى أنَّ ﴿كِتَٰبًا﴾ مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ المطلَقةِ لـ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾، والتَّقديرُ: إحصاءَ كِتابةٍ، فهو مَصدرٌ بمعنى الكِتابةِ، وهو كِنايةٌ عن شدَّةِ ضَبطِ الأمورِ؛ لأنَّ الأمورَ المكتوبةَ مَصونةٌ عن النِّسيانِ والإغفالِ، فباعتبارِ كَونِه كنايةً عن الضَّبطِ جاء مَفعولًا مطلَقًا لـ (أَحْصَيْنا)[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ هذا مُسبَّبٌ عن كُفرِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٦٠).

بالحِسابِ، وتَكذيبِهم بالآياتِ، وهي آيةٌ في غايةِ الشِّدَّةِ، وناهيكَ بقولِه: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾، وبدَلالتِه على أنَّ تركَ الزِّيادةِ كالمُحالِ الَّذي لا يدخُلُ تحتَ الصِّحَّةِ، وبمجيئِها على طَريقةِ الالْتِفاتِ شاهدًا على أنَّ الغضبَ قد تَبالَغَ؛ وذلك أنَّه تعالى لَمَّا حكَى مآبَ الطَّاغينَ واستمرارَ لَبْثِهم في جهنَّمَ، وأنْ لا ذَوْقَ لهم فيها سِوى الحَميمِ والغَسَّاقِ، وعلَّلَ ذلك على سبيلِ الشِّكايةِ إلى الغيرِ بقولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، أي: لا يَخافونَ أنْ يُحاسَبوا، كنايةً عن أنَّهم كانوا يُنكِرونَ البعثَ إنكارًا بليغًا، ثمَّ عظَّم شأنَ تكذيبِهم رُسلَ اللهِ ووحْيَه بصيغةِ التَّعظيمِ وأكَّدَه بقولِه: ﴿كِذَّابًا﴾ -الْتفَتَ إليهم قائلًا: فذُوقوا أيُّها الجاحِدونَ المكذِّبونَ ذلكم الغَسَّاقَ والحميمَ، وليس لكم عندي سِوى المزيدِ مِن أنواعِ العذابِ، هذا كما تشكو إلى النَّاسِ جانبًا، ثمَّ تُقبِلُ عليهم إذا حَميتَ في الشِّكايةِ مواجهًا بالتَّوبيخِ والذَّمِّ وإلزامِ الحُجَّةِ[1].

وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَذُوقُوا۟ ...﴾ للتَّفريعِ والتَّسبُّبِ على جملةِ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النَّبأ: ٢١] وما اتَّصَلَ بها، ولَمَّا غُيِّرَ أسلوبُ الخبرِ إلى الخِطابِ بعدَ أنْ كان جاريًا بطريقِ الغَيبةِ، ولم يكنْ مَضمونُ الخبرِ ممَّا يَجري في الدُّنيا فيُظَنَّ أنَّه خِطابُ تهديدٍ للمُشرِكينَ؛ تَعيَّنَ أنْ يكونَ المُفرَّعُ قولًا مَحذوفًا دلَّ عليه (ذُوقوا) الَّذي لا يُقالُ إلَّا يومَ الجزاءِ، فالتَّقديرُ: فيُقالُ لهم: ذُوقوا... إلى آخِرِه؛ ولهذا فليس في ضميرِ الخِطابِ الْتفاتٌ، فالمُفرَّعُ بالفاءِ هو فعلُ القولِ المحذوفِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١، ٤٢).

- والأمرُ في ﴿فَذُوقُواْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والإهانةِ والتَّحقيرِ[١].

- وقيل: فُرِّع قولُه: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ على ﴿فَذُوقُواْ﴾ ما يَزيدُ تَنكيدَهم وتحسيرَهم بإعلامِهم بأنَّ اللهَ سيَزيدُهم عذابًا فوقَ ما هم فيه[٢].

- والزِّيادةُ المنفيَّةُ في قولِه: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ يجوزُ أنْ تكونَ زيادةً مِن نوعِ ما هم فيه مِن العذابِ بتكريرِه في المستقبَلِ، فصِيغَ التَّعبيرُ عن هذا المعنى بهذا التَّركيبِ الدَّقيقِ؛ إذ ابتُدِئ بنفْيِ الزِّيادةِ بحرفِ تأبيدِ النَّفْيِ (لن)، وأُردِفَ الاستثناءُ المقتضِي ثبوتَ نقيضِ حُكمِ المُستثنَى منه للمُستثنَى، فصارتْ دَلالةُ الاستثناءِ على معنى: سنَزيدُكم عذابًا مؤبَّدًا، وهذا مِن تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه، وهو أسلوبٌ طريفٌ مِن التَّأكيدِ؛ إذ ليس فيه إعادةُ لفظٍ؛ فإنَّ زيادةَ العذابِ تأكيدٌ للعذابِ الحاصلِ. ولَمَّا كان المقصودُ الوعيدَ بزيادةِ العذابِ في المستقبلِ؛ جيءَ في أسلوبِ نفيِه بحرفِ نفيِ المستقبَلِ، وهو (لَنْ) المفيدُ تأكيدَ النِّسبةِ المنفيَّةِ، وهي ما دلَّ عليه مجموعُ النَّفيِ والاستثناءِ؛ فإنَّ قيدَ تأبيدِ نفيِ الزِّيادةِ الَّذي يُفيدُه حرفُ (لَنْ) في جانبِ المُستثنَى منه، يَسْري إلى إثباتِ زيادةِ العذابِ في جانبِ المُستثنَى، فيكونُ معنى جملةِ الاستثناءِ: سنَزيدُكم عذابًا أبدًا، وهو معنى الخلودِ في العذابِ، وفي هذا الأسلوبِ ابتداءٌ مُطْمِعٌ بانتهاءٍ مُؤْيِسٍ، وذلك أشدُّ حُزنًا وغمًّا بما يُوهِمُهم أنَّ ما أُلقُوا فيه هو منتهى التَّعذيبِ، حتَّى إذا ولَجَ ذلك أسماعَهم فحَزِنوا له، أُتْبِعَ بأنَّهم يَنتَظِرُهم عذابٌ آخَرُ أشَدُّ، فكان ذلك حُزنًا فوقَ حُزنٍ، فهذا مِنوالُ هذا النَّظمِ، وهو مُؤذِنٌ بشدَّةِ الغضبِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٢، ٤٣).

الآيات (٢١-٢٦)

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَفَازًا﴾: مصدرٌ كالفَوزِ، أي: فَوزًا ونَجاةً مِنَ النَّارِ، أو مكانَ فَوزٍ ونَجاةٍ وخَلاصٍ، أو ظفرًا بما يُريدونَ، يُقالُ: فازَ بالأمرِ، إذا ظَفِرَ به. والفوزُ: الظَّفَرُ، وأصلُ (فوز): يدُلُّ على نجاةٍ[1].

﴿حَدَآئِقَ﴾: أي: بَساتينَ، جَمْعُ حَديقةٍ، وهي كلُّ بُسْتانٍ عليه حائطٌ يُحدِقُ به، وما لم يكُنْ عليه حائطٌ لم يُقَلْ له حديقةٌ، ويُقالُ للقِطعةِ مِنَ النَّخلِ: حَديقةٌ، وقيل: الحديقةُ قِطعةٌ مِن الأرضِ ذاتُ ماءٍ، سُمِّيَتْ تشبيهًا بحَدَقةِ العَينِ في الهَيئةِ وحُصولِ الماءِ فيها، يُقالُ: حَدَقُوا به وأَحْدَقُوا: أحاطوا به، تشبيهًا بإدارةِ الحَدَقةِ، وأصلُ (حدق): هو الشَّيءُ يُحيطُ بشيءٍ[2].

﴿وَكَوَاعِبَ﴾: أي: جَوَارِيَ نَواهِدَ قد تَكَعَّبَتْ ثُدِيُّهنَّ، والكاعِبُ: الجاريةُ إذا نَهَد ثَدْيُها، أي: ارتَفَع عن الصَّدْرِ، وأصلُ (كعب): يدُلُّ على نُتُوٍّ وارتفاعٍ في

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦، ٥١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨، ١١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٣)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٣٥٤).

الشَّيءِ[١].

﴿أَتْرَابًا﴾: أي: مُتساوِياتٍ في السِّنِّ، والتِّرْبُ: هو الَّذي مَسَّ التُّرابَ مع تِرْبِه في وَقتٍ واحِدٍ، وأصلُ (ترب): يدُلُّ على تَساوي شَيئَينِ[٢].

﴿دِهَاقًا﴾: أي: مُتْرَعةً مَملوءةً، وقيل: مُتتابِعةً، وأصلُ (دهق): يدُلُّ على امتلاءٍ[٣].

﴿لَغْوًا﴾: أي: باطِلًا مِن القَولِ، وأصلُه يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[٤].

﴿حِسَابًا﴾: أي: كافِيًا، يقالُ: شيءٌ حِسابٌ، أيْ: كافٍ، وأحْسَبْتُ فُلانًا، إذا أعطَيْتَه ما يُرْضِيه، وأعطيتُه الكِفايةَ حتَّى قال: حَسْبي، وأصلُ (حسب) هنا: الكِفايَةُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٠).

قال ابن جرير: (أصْلُه مِن الدَّهْقِ: وهو مُتابَعَةُ الضَّغْطِ على الإنسانِ بشِدَّةٍ وعُنْفٍ، وكذلك الكأْسُ الدِّهاقُ: مُتابَعَتُها على شارِبيها بكَثرةٍ وامْتِلاءٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥، ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٣٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٥).

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾

﴿حَدَآئِقَ﴾: بدَلٌ منصوبٌ مِنْ ﴿مَفَازًا﴾ بَدَلَ اشتِمالٍ، أو بدَلَ بَعضٍ مِن كُلٍّ باعتِبارِ أنَّه بَعضٌ مِن مَكانِ الفَوْزِ، أو بدَلَ كُلٍّ مِنْ كُلٍّ مُبالَغةً، بأَنْ جُعِلَتْ نفْسُ هذه الأشياءِ مَفازًا[1].

٢- قوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾

﴿جَزَآءً﴾: مَفعولٌ مُطلَقٌ لفِعلٍ محذوفٍ، تقديرُه: جازى المتَّقينَ بمَفازٍ جزاءً. ﴿عَطَآءً﴾ بَدَلٌ مِن ﴿جَزَآءً﴾ مَنصوبٌ مِثلَه.

﴿حِسَابًا﴾ نَعتٌ لـ﴿عَطَآءً﴾، والمعنى: كافيًا، فهو مصدرٌ مُؤَوَّلٌ بالمُشتَقِّ، مِنْ قَولِهم: أحسَبَني الشَّيءُ، أي: كَفاني[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جزاءَ المتَّقينَ يومَ القيامةِ، وما أعدَّ لهم مِن النَّعيم: إنَّ للمُتَّقينَ فَوزًا بالجنَّةِ الَّتي يَظفَرونَ فيها بما يُريدونَ، ونَجاةً مِنَ النَّارِ؛ بَساتينَ وأعنابًا، ونِساءً شابَّاتٍ قد استدارَتْ أثداؤُهنَّ، مُتساوِياتٍ في السِّنِّ، وكُؤُوسًا مَملوءةً مِن خَمرِ الجَنَّةِ، مُتتابِعةً على شارِبيها، لا يَسمَعونَ في الجنَّةِ كَلامًا باطِلًا لا فائدةَ فيه، ولا تَكذيبًا؛ جزاءً مِن رَبِّك -يا محمَّدُ- عَطاءً كثيرًا كافيًا.

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٦١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٨٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٦٣-٦٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى شيئًا مِن حالِ أهلِ النَّارِ؛ ذَكَر ما لأهلِ الجنَّةِ[١].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾.

أي: إنَّ للَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه بامتِثالِ أمْرِه واجتنابِ نَهْيِه: فَوزًا بالجنَّةِ الَّتي يَظفَرونَ فيها بما يُريدونَ، ونجاةً مِنَ النَّارِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣، ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤).

قيل: ﴿مَفَازًا﴾ أي: نجاةً مِن النَّارِ ومِن العذابِ الَّذي أُعِدَّ للكافِرين. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والماتُريديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والبغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٦٤)، ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٨).

ومِن المفسِّرينَ مَن قال: نجاةً مِن النَّارِ إلى الجنَّةِ. ومنهم: السمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٠٦).

وقيل: ﴿مَفَازًا﴾ أي: مكانَ فَوزٍ ومَوضِعَه. وممَّن اختاره: ابنُ قُتَيْبَةَ، والسمعانيُّ، وابن عطية، والقرطبي، وأبو حيان، وجلال الدين المحلي، والشربيني، وابن عاشور. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣).

وقيل: المرادُ: الفوزُ بالجنَّةِ والنَّعيمِ، والظَّفَرُ بالمطلوبِ، والنَّجاةُ مِن النَّارِ. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾.

أي: بساتينَ مُحاطةً بالجُدْرانِ أو غَيْرِها، جامعةً لأصنافِ الأشجارِ المثمرةِ، ومِنها الأعنابُ[1].

= ٤٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٩٢).

وقال ابن جرير: (إنَّ للمتَّقينَ مَنْجًى مِن النَّارِ إلى الجنَّةِ، ومَخلَصًا منها لهم إليها، وظَفَرًا بما طَلَبوا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧).

وقال الواحدي: (والمَفازُ: مصدرٌ كالفَوزِ، والمعنى: أنَّ لهم فَوزًا بالجنَّةِ، ونَجاةً مِن النَّارِ، وهو معنى قولِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (٢٣/ ١٣٦).

وقال الرازي: (والفوزُ يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ منه فوزًا بالمطلوبِ، وأن يكونَ المرادُ منه فوزًا بالنَّجاةِ مِن العذابِ، وأن يكونَ المرادُ مجموعَ الأمْرَينِ، وعندي أنَّ تفسيرَه بالفوزِ بالمطلوبِ أَولى مِن تفسيرِه بالفوزِ بالنَّجاةِ مِن العذابِ، ومِن تفسيرِه بالفوزِ بمجموعِ الأمْرَينِ -أعني: النَّجاةَ مِن الهلاكِ، والوُصولَ إلى المطلوبِ-؛ وذلك لأنَّه تعالى فسَّر المَفازَ بما بعْدَه، وهو قولُه: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ [النبأ: ٣٢]، فوجَبَ أن يكونَ المرادُ مِن المَفازِ هذا القدرَ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢١).

وقال ابن كثير: (يقولُ تعالى مخبرًا عن السُّعداءِ وما أعَدَّ لهم تعالى مِن الكرامةِ والنَّعيمِ المقيمِ، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ والضَّحَّاكُ: مُتنزَّهًا. وقال مجاهِدٌ، وقَتادةُ: فازوا، فنَجَوْا مِن النَّارِ. الأظهرُ هاهنا قولُ ابنِ عبَّاسٍ؛ لأنَّه قال بعدَه: ﴿حَدَآئِقَ﴾ وهي البساتينُ مِن النَّخيلِ وغيرِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٨).

وقال ابن عثيمين: (المَفازُ هو مكانُ الفَوزِ، وزمانُ الفوزِ أيضًا؛ فهم فائزون في أمْكِنَتِهم، وفائزون في أيَّامِهم). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥).

وقال البِقاعي: (﴿مَفَازًا﴾ أي: فَوزًا، ومَوضِعَ فَوزٍ، وزَمانَ فَوزٍ بالرَّاحةِ الدَّائمةِ مِن جميعِ ما مضى ذِكرُه للطَّاغينَ الَّذين هم أضْدادُهم). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر المساكِنَ النَّزِهةَ المُؤْنِقةَ المُعْجِبةَ؛ ذكَرَ ما يُتمَتَّعُ به[١].

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ونِساءً شابَّاتٍ قد استدارَت أثداؤُهنَّ وبَرَزَت دونَ أن تتدلَّى للأسفَلِ، وهنَّ مُتساوِياتٌ في السِّنِّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٨].

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾.

أي: وكُؤُوسًا مَملوءةً مِن خَمرِ الجَنَّةِ، صافيةً، مُتتابِعةً على شارِبيها[٣].

= (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (المقدمة/ ٣٤).

قال الشوكاني: (المرادُ بالكأْسِ: الإناءُ المعروفُ، ولا يُقالُ له الكأسُ إلَّا إذا كان فيه الشَّرابُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٥).

قال ابن الجوزي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّها المَلْأَى. رواه أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال الحسَنُ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. =

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾.

أي: لا يَسمَعُ المتَّقونَ في الجنَّةِ لَغطًا أو كَلامًا باطِلًا لا فائِدةَ فيه، ولا يَكذِبونَ ولا يُكَذِّبُ بَعْضُهم بعضًا في حَديثِهم[1].

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾.

أي: وهذا الجَزاءُ المذكورُ للمُتَّقينَ هو عَطاءٌ كافٍ وافِرٌ كثيرٌ مِن رَبِّك- يا محمَّدُ[2].

= والثَّاني: أنَّها المُتَتابِعةُ. رواه مجاهِدٌ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال ابنُ جُبَيرٍ. وعن مجاهِدٍ كالقولَينِ. والثَّالثُ: أنَّها الصَّافيةُ. قاله عِكْرِمةُ. ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٠). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٨).

والقولُ الأوَّلُ -أنَّ المرادَ بالدِّهاقِ: المُتْرَعةُ المُمتَلِئةُ- نسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى الجمهورِ، ونسَبَه الرَّازيُّ إلى أكثرِ أهلِ اللُّغةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٢).

وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ يقولُ: وكأسًا مَلْأَى مُتَتابِعةً على شارِبيها بكَثرةٍ وامْتِلاءٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩).

قال ابنُ عثيمين بعدَ أن ذكر الأقوالَ الثَّلاثةَ -مملوءةً، مُتَتابِعةً، صافيةً-: (لا مُنافاةَ بيْنَ هذه الأقوالِ، والآيةُ تحتَمِلُها؛ فتُحمَلُ عليها جميعًا، ويكونُ كُلُّ قَولٍ لنَوعٍ مِن المعنى). ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (المقدمة/ ٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣، ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥).

قال الماوَرْدي: (﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحَدُها: كافيًا. قاله الكَلْبيُّ.

الثَّاني: كَثيرًا. قاله قَتادةُ.

الثَّالث: حِسابًا لِما عَمِلوا. فالحِسابُ بمعنى العَدِّ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٨٩). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ ذَكَر اللهُ عزَّ وجَلَّ ما للمُتَّقينَ مِن النَّعيم بعدَ قَولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾؛ لأنَّ القرآنَ مَثانٍ؛ إذا ذُكِرَ فيه العِقابُ ذُكِرَ فيه الثَّوابُ، وإذا ذُكِرَ الثَّوابُ ذُكِرَ العِقابُ، وإذا ذُكِرَ أهلُ الخيرِ ذُكِرَ أهلُ الشَّرِّ، وإذا ذُكِرَ الحقُّ ذُكِرَ الباطِلُ. مَثانٍ؛ حتَّى يكونَ سَيْرُ الإنسانِ إلى ربِّه بيْن الخَوفِ والرَّجاءِ؛ لأنَّه إنْ غَلَبَ عليه الرَّجاءُ وَقَعَ في الأمْنِ مِن مِكْرِ اللهِ تعالى، وإنْ غَلَبَ عليه الخَوفُ وَقَعَ في القُنوطِ مِن رحمةِ اللهِ تعالى، وكِلاهما مِن كبائرِ الذُّنوبِ، كِلاهما شَرٌّ؛ قال الإمامُ أحمدُ بنُ حَنبَلٍ رحمه اللهُ: (يَنبغي أنْ يكونَ الإنسانُ في عبادتِه لربِّه بيْن الخَوفِ والرَّجاءِ، فأيُّهما غَلَبَ هَلَكَ صاحِبُه)؛ لذلك تَجِدُ القرآنَ الكريمَ يأتي بهذا وبهذا، ولئلَّا تَمَلَّ النُّفوسُ مِن ذِكْرِ حالٍ واحدةٍ والإسهابِ فيها دونَ ما يُقابِلُها، وهكذا؛ مِن

= وممَّن ذهب إلى المعنى الأول: الزَّجَّاجُ، والبَغَويُّ، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى جمهورِ المفَسِّرينَ واللُّغويِّينَ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٨).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: ابنُ قتيبة، والفيروزابادي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٤٦٠).

قال القرطبي: (﴿حِسَابًا﴾ أي: كثيرًا، قاله قَتادةُ، يُقالُ: أحسَبْتُ فُلانًا، أي: كَثَّرْتُ له العطاءَ حتَّى قال: حَسْبي). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٤).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ: الواحديُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩).

والمعنى الثَّالثُ هو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧).

أجْلِ أنْ يكونَ الإنسانُ حينَ يَقرأُ القُرآنَ راغبًا راهبًا، وهذا مِن بلاغةِ القُرآنِ الكَريمِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ فيه سُؤالٌ: الخَلاصُ مِنَ الهَلاكِ أهَمُّ مِن حُصولِ اللَّذَّةِ، فلِمَ أُهمِلَ الأهمُّ، وذُكِرَ غيرُ الأهَمِّ؟

الجوابُ: لأنَّ الخلاصَ مِن الهَلاكِ لا يَستَلزِمُ الفَوزَ باللَّذَّةِ والخَيرِ، أمَّا الفوزُ باللَّذَّةِ والخَيرِ فيَستلزِمُ الخلاصَ مِنَ الهَلاكِ؛ فكان ذِكرُ هذا أَوْلى[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَابًا﴾ عَبَّرَ عن أشجارِ الأعنابِ بثَمَرتِها؛ إعلامًا بأنَّها لا تُوجَدُ إلَّا مُوقَرةً حِمْلًا، وأنَّ ثَمَرتَها هي جُلُّ مَنفَعتِها[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ شُروعٌ في بيانِ مَحاسنِ أحوالِ المُؤمنينَ، إثرَ بيانِ سوءِ أحوالِ الكفَرةِ[٤].

وجَرَى هذا الانتقالُ على عادةِ القُرآنِ الكريمِ في تَعقيبِ الإنذارِ للمُنذَرينَ بتبشيرِ مَن هم أهلٌ للتَّبشيرِ، فانتقَلَ مِن ترهيبِ الكافِرينَ بما سيُلاقونَه إلى ترغيبِ المتَّقينَ فيما أُعِدَّ لهم في الآخِرةِ مِن كرامةٍ ومِن سلامةٍ ممَّا وقَعَ فيه أهلُ الشِّركِ؛ فالجُملةُ مُتَّصلةٌ بجُملةِ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [النبأ: ٢١- ٢٢]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤). ويُنظر أيضًا: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٣٥٩)، ((الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف)) للمرداوي (٦/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢).

وهي مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا بمُناسَبةِ مُقْتضي الانتقالِ[١].

- وافتِتاحُ الجُملةِ بحرْفِ (إنَّ)؛ للدَّلالةِ على الاهتمامِ بالخبرِ؛ لئلَّا يشُكَّ فيه أحدٌ[٢].

- وتَقديمُ خبرِ (إنَّ) ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ على اسمِها ﴿مَفَازًا﴾؛ للاهتِمامِ به تنويهًا بالمتَّقينَ[٣].

- وتَنوينُ ﴿مَفَازًا﴾ للتَّعظيمِ[٤].

- والمرادُ بالمَفازِ: الجنَّةُ ونعيمُها، وأُوثرَتْ كلمةُ ﴿مَفَازًا﴾ على كلمةِ (الجنَّةِ)؛ لأنَّ في اشتقاقِه إثارةَ النَّدامةِ في نُفوسِ المخاطَبينَ بقولِه: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النَّبأ: ١٨]، وبقولِه: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[٥] [النَّبأ: ٣٠].

٢- قولُه تعالَى: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾

- قَولُه: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ التَّنكيرُ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَعْنَابًا﴾ يدُلُّ على تعظيمِ حالِ تلك الأعنابِ[٦].

- قَولُه: ﴿وَأَعْنَابًا﴾ خَصَّ أشجارَ العِنَبِ؛ لطِيبِها وحُسْنِها وشَرَفِها، وما فيها مِن لذَّةِ الذَّوقِ[٧].

وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه خَصَّها؛ لكَثْرتِها في تلك الحَدائِقِ[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢١).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٩).

(٨) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧).

- قولُه: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أُريدَ بالكأسِ الجِنسُ؛ إذ المعنى: وأَكْؤُسًا، وعُدِلَ عن صِيغةِ الجمْعِ؛ لأنَّ (كأسًا) بالإفرادِ أخفُّ مِن أَكْؤُسٍ وكُؤوسٍ، ولأنَّ هذا المركَّبَ جرى مَجرى المَثَلِ[(١)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾

- قولُه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ المجرورُ عائدًا إلى الكأسِ، فتكونَ (في) للظَّرفيَّةِ المُفيدةِ تَشبيهَ تَناوُلِ النَّدامى (أي: المُجالسينَ على الشَّرابِ) للشَّرابِ مِن الكأسِ بحُلولِهم في الكأسِ، أو تكون (في) للتَّعليلِ، كما في الحديثِ: ((دَخَلَتِ امرأةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ))[(٢)] الحديثَ، أي: مِن أجْلِ هِرَّةٍ، والمعنى: لا يَسمَعونَ لغوًا ولا كِذَّابًا منها أو عندَها، فتكون الجملةُ صفةً ثانيةً لـ (كأسًا). ويجوزُ أنْ يعودَ ضميرُ (فيها) إلى ﴿مَفَازًا﴾ باعتبارِ تأويلِه بالجنَّةِ؛ لوُقوعِه في مُقابَلةِ ﴿جَهَنَّمَ﴾ مِن قولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النَّبأ: ٢١]، أو لأنَّه أَبدَلَ ﴿حَدَآئِقَ﴾ مِن ﴿مَفَازًا﴾، وهذا المعنى نشَأَ عن أسلوبِ نَظمِ الكلامِ، حيثُ قُدِّمَ ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ إلخ، وأُخِّرَ ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾، حتَّى إذا جاءَ ضميرُ (فيها) بعدَ ذلك جازَ إرجاعُه إلى الكأسِ وإلى المَفازِ، وهذا مِن بديعِ الإيجازِ مع وَفْرةِ المَعاني، أي: لا يَسمَعونَ في الجنَّةِ الكلامَ السَّافلَ ولا الكذبَ، فلمَّا أحاطَ بأهلِ جهنَّمَ أشَدُّ الأذى بجميعِ حواسِّهم مِن جرَّاءِ حرقِ النَّارِ، وسَقْيِهم الحميمَ والغَسَّاقَ؛ لِيَنالَ العذابُ بواطنَهم، كما نالَ ظاهرَ أجسادِهم، كذلك نَفى عن أهلِ الجنَّةِ أقلَّ الأذى، وهو أذى سماعِ ما يَكرَهُه النَّاسُ؛ فإنَّ ذلك أقلُّ الأذى[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٣١٨)، ومسلمٌ (٢٦١٩) مطوَّلًا مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥، ٤٦).

- وكُنِّيَ عن انتفاءِ اللَّغوِ والكِذَّابِ عن شاربي خمْرِ الجنَّةِ بأنَّهم لا يَسمَعونَ اللَّغوَ والكِذَّابَ فيها؛ لأنَّه لو كان فيها لَغوٌ وكذبٌ لَسَمِعوه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ أهلَ الجنَّةِ مُنزَّهةٌ أسماعُهم عن سَقَطِ القولِ وسُفْلِ الكلامِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾

- قولُه: ﴿جَزَآءً﴾ مَفعولٌ مطلَقٌ لفعلٍ مَحذوفٍ، أي: جَزاهم اللهُ بذلك جزاءً، أو جَزَيْنا المتَّقينَ. وقولُه: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ نعتٌ لـ ﴿جَزَآءً﴾، و﴿عَطَآءً﴾ بدَلٌ مِن ﴿جَزَآءً﴾، وفي هذا البدلِ سِرٌّ لطيفٌ، وهو الإلْماعُ إلى أنَّ ذلك تَفضُّلٌ وعَطاءٌ وجَزاءٌ مَبنيٌّ على الاستحقاقِ[٢].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: صادرًا مِن لَدُنِ اللهِ، وذلك تَنويهٌ بكَرَمِ هذا الجزاءِ، وعِظَمِ شَأنِه[٣].

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُنْبئةِ عن التَّبليغِ إلى الكَمالِ شيئًا فشيئًا، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ مَزيدُ تشريفٍ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤]. وأيضًا إضافةُ (ربّ) إلى ضميرِ المخاطَبِ مُرادًا به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ للإيماءِ إلى أنَّ جَزاءَ المتَّقينَ بذلك يَشتمِلُ على إكرامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ إسداءَ هذه النِّعمِ إلى المتَّقينَ كان مِن أجْلِ إيمانِهم به، وعمَلِهم بما هداهُم إليه[٥].

- وُصِفَ الجزاءُ بـ ﴿عَطَآءً﴾ وهو اسمٌ لِما يُعطى، أي: يُتفضَّلُ به بدونِ عِوَضٍ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧).

للإشارةِ إلى أنَّ ما جُوزوا به أَوفَرُ ممَّا عَمِلوه، فكان ما ذُكِر للمتَّقينَ مِن المَفازِ وما فيه جَزاءً شكرًا لهم، وعطاءً كرَمًا مِن اللهِ تعالى وكرامةً لهذه الأُمَّةِ؛ إذ جعَلَ ثوابَها أضعافًا[١].

- وقولُه: ﴿حِسَابًا﴾ نعْتٌ لـ ﴿عَطَآءً﴾، والمعْنى: كافيًا، فهو مَصدَرٌ أُقِيمَ مُقامَ الوصْفِ، أو باقٍ على مَصدريَّتِه مُبالَغةً[٢].

- وتَنوينُ ﴿حِسَابًا﴾ للتَّكثيرِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧).

الآيات (٢٧-٤٠)

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ٣٧ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَـَٔابًا﴾: أي: مَرْجِعًا يَرْجِعُ إليه بالطَّاعةِ والعملِ الصَّالحِ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾

﴿رَّبِّ﴾ بَدَلٌ أو نَعتٌ لـ﴿رَّبِّكَ﴾ في قولِه: ﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ [النبأ: ٣٦]، مجرورٌ مِثْلَه.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ نَعتٌ أو بَدَلٌ لـ﴿رَّبِّ﴾ الثَّاني.

- وقُرِئَ برَفعِ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مِن أوجُهٍ؛ أحدُها: أن يكونَ «رَبُّ» خبَرَ مُبتدَأٍ محذوفٍ، أي: هو رَبُّ. و«الرَّحمنُ» كذلك، أو هو مبتدأٌ خَبَرُه «لا يَملِكونَ». الثَّاني: أن يكونَ «رَبُّ» مبتدأً، و«الرَّحمنُ» خبَرَه، و«لا يملِكونَ» خَبَرًا ثانيًا، أو مُستأنَفٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).

الثَّالثُ: أن يكونَ «رَبُّ» مُبتدَأً، و«الرَّحمنُ» نعتًا له، و«لا يملِكونَ» خبرَ «رَبُّ».

- وقُرِئَ بَجِّر الأوَّلِ ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على البَدَلِ أو النَّعْتِ لـ ﴿رَبِّكَ﴾ كما تقَدَّمَ، ورَفع الثَّاني ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ على الابتداءِ[1]، والخَبَرُ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾، أو على أنَّه خَبَرُ مبتدأٍ محذوفٍ، و﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ مُستأنفٌ أو خَبَرٌ ثانٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا عَظَمتَه وجلالَه: جزاءً مِن ربِّك ربِّ السَّمواتِ السَّبعِ والأرضِ وما بيْنَهما مِنَ الخَلْقِ؛ الرَّحْمَنِ، لا يَقْدِرُ أحَدٌ مِنَ الخَلْقِ على مُخاطَبتِه -سُبحانَه وتعالى- يومَ القيامةِ بلا إذْنٍ، يَومَ يقومُ جِبريلُ والملائِكةُ مُصْطَفِّينَ بخُضوعٍ للهِ تعالى، لا يَتكَلَّمونَ إلَّا مَن أَذِنَ اللهُ له، وقال قَولًا حَقًّا مَرْضِيًّا للهِ تعالى، ذلك اليَومُ واقِعٌ لا مَحالةَ، فمَن شاء عَمِلَ عَمَلًا صالِحًا يَرجِعُ به إلى اللهِ تعالى.

ثمَّ يختمُ اللهُ سُبحانَه السُّورةَ الكريمةَ بإنذارٍ بليغٍ، فيقولُ: إنَّا حَذَّرْناكم -أيُّها النَّاسُ- عَذابًا قَريبًا يومَ يَنظُرُ كُلُّ إنسانٍ إلى ما عَمِلَه في حياتِه، ويَقولُ الكافِرُ: يا لَيْتَني كُنتُ تُرابًا؛ فلا أُعذَّبَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ٣٧﴾.

---

(١) قرأ ابنُ عامرٍ، ويعقوبُ، والكوفيُّونَ: ﴿رَّبِّ﴾ بكسرِ الباءِ، والباقونَ بضَمِّها. وقرأ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بالكسرِ: ابنُ عامرٍ وعاصِمٌ ويعقوبُ، والباقونَ بضَمِّها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٨٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٦٣ - ٦٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه سَعةَ فَضْلِه؛ وَصَف نَفْسَه الأقدَسَ بما يَدُلُّ على عَظَمتِه؛ زيادةً في شَرَفِ المُخاطَبِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ عَظَمةَ العبدِ على حسَبِ عَظَمةِ السَّيِّدِ، فقال[1]:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾.

أي: خالِقِ ومالِكِ ومدَبِّرِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ، الرَّحمنِ الَّذي وَسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ[2].

﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾.

أي: لا يَقْدِرُ أحَدٌ مِنَ الخَلْقِ على مُخاطَبةِ اللهِ -سُبحانَه وتعالى- يومَ القيامةِ بلا إِذْنٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ يعودُ على جميعِ الخَلقِ مِن أهلِ السَّمواتِ والأرضِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والزمخشري، والرازي، والبيضاوي، والعُلَيمي، والألوسي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩١)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).

وقال ابن عثيمين: (وقولُه: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ يعني: أنَّ النَّاسَ لا يَملِكونَ الخِطابَ مِن الله، ولا يَستطيعُ أحدٌ أن يَتكلَّمَ إلَّا بإذْنِ اللهِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٦).

وقال ابن عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ الضَّميرُ للكفَّارِ، أي: لا يَملِكونَ مِن أفضالِه وأجمالِه أن يُخاطِبوه بمَعذِرةٍ ولا غيرِها، وهذا في موطنٍ خاصٍّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٨). =

كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر أنَّ أحَدًا مِنَ الخَلْقِ لا يُمكِنُه أن يُخاطِبَ اللهَ في شَيءٍ، أو

= وقال أبو حيَّان: (والضَّميرُ في ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ عائدٌ على المشرِكين، قاله عَطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ، أي: لا يُخاطِبُ المشرِكون اللهَ. أمَّا المؤمنونَ فيشفَعون، ويَقبَلُ اللهُ ذلك منهم. وقيل: عائدٌ على المؤمنينَ، أي: لا يَملِكونَ أن يُخاطِبوه في أمرٍ مِن الأمورِ؛ لعِلْمِهم أنَّ ما يَفعَلُه عدلٌ منه. وقيل: عائدٌ على أهلِ السَّمواتِ والأرضِ. والضَّميرُ في ﴿مِنْهُ﴾ عائدٌ عليه تعالى). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٠).

وقال الشوكاني: (﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لا يَملِكونَ أن يَسألوا إلَّا فيما أذِن لهم فيه. وقال الكِسائيُّ: لا يَملِكونَ منه خِطابًا بالشَّفاعةِ إلَّا بإذْنِه. وقيل: الخِطابُ: الكلامُ، أي: لا يَملِكونَ أن يُخاطِبوا الرَّبَّ سُبحانَه إلَّا بإذْنِه؛ دليلُه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٦).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: لا يَتكلَّمونَ مع الله، ويُمنَعون مِن الكلامِ معه: الثعلبيُّ، والسمعاني، والخازن، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٦).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: لا يَملِكونَ الكلامَ بالشَّفاعةِ إلَّا بإذْنِه: السمرقنديُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦٦).

قال البيضاوي: (﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ... أي: لا يَملِكونَ خِطابَه، والاعتِراضَ عليه في ثَوابٍ أو عِقابٍ؛ لأنَّهم مَمْلوكونَ له على الاطلاقِ، فلا يَستَحِقُّونَ عليه اعتِراضًا، وذلك لا يُنافي الشَّفاعةَ بإذْنِه). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١).

وقال الماتُريدي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾؛ هَيْبةً مِن الله تعالى، وتعظيمًا لحقِّه؛ فلا يَملِكونَ مِن هَيْبَتِه الخِطابَ بالشَّفاعةِ أو بالخُصومةِ أو بأيِّ شيءٍ كان). ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٤٠٠).

يُطالِبَه بشَيءٍ؛ قرَّر هذا المعنى وأكَّدَه[١]، فقال:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾.

أي: وذلك واقِعٌ يَومَ يقومُ جِبريلُ وجميعُ الملائِكةِ مُصْطَفِّينَ بخُضوعٍ للهِ تعالى[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).

قال النَّسَفي: (﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ إنْ جعَلْتَه ظَرفًا لـ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لا تَقِفُ على خِطابًا، وإنْ جعَلْتَه ظَرفًا لـ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ تَقِفُ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٣).

وممَّن ذَهَب إلى أنَّه ظَرفٌ لِقَولِه تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالرُّوحِ هنا جِبريلُ عليه السَّلامُ: القاسميُّ، والسعدي، وابن عثيمين، ونَسَبه النَّسَفيُّ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، والشَّعبيُّ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩).

وقيل: هم بنو آدَمَ. وقد مال إلى هذا القولِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٢).

وقيل غَيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩).

قال ابن حجر: (وقد روى ابنُ إسحاقَ في تفسيرِه بإسنادٍ صحيحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: الرُّوحُ مِن الله، وخَلقٌ مِن خَلقِ الله، وصوَرٌ كبني آدَمَ، لا يَنزِلُ ملَكٌ إلَّا ومعه واحدٌ مِن الرُّوحِ. وثبت عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه كان لا يُفسِّرُ الرُّوحَ، أي: لا يُعَيِّنُ المرادَ به في الآيةِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٤٠٢).

وقد توقَّفَ ابنُ جَريرٍ في معنى الرُّوحِ في هذه الآيةِ، فذَهَب إلى أنَّه خَلقٌ مِن خَلْقِ اللهِ تعالى، =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.

أي: لا يَتكَلَّمونَ يومَ القيامةِ إلَّا مَن أَذِنَ اللهُ له في الكلامِ، وقال قَولًا حَقًّا صائِبًا مُوافِقًا لِمَرْضاةِ اللهِ تعالى[1].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قَرَّر أحوالَ المكَلَّفينَ في دَرَجاتِ الثَّوابِ والعِقابِ، وقَرَّر عَظَمةَ يَومِ القيامةِ؛ قال بَعْدَه[2]:

= اللهُ أعلَمُ به؛ فجائِزٌ أن يكونَ الرُّوحُ جِبريلَ، أو أرواحَ بني آدَمَ، أو غيرَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ عائدٌ على جميعِ الخَلْقِ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٣).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧).

واستظهر الواحديُّ أنَّ المرادَ الملائكةُ، واختاره السَّمعانيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤٢).

وقيل: هو عائِدٌ على الرُّوحِ والملائكةِ. وقد جوَّز هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٥).

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: ذلك اليَومُ العَظيمُ كائِنٌ لا مَحالةَ، ولا شَكَّ في وُقوعِه(١).

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾.

أي: فمَن شاء عَمِلَ عَمَلًا صالِحًا يَرجِعُ به إلى اللهِ تعالى(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٤).

قال الماوَرْدي: (﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّ﴾ يعني: يومَ القيامةِ، وفي تسميتِه ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ وجْهانِ؛ أحدُهما: لأنَّ مجيئَه حقٌّ، وقد كانوا على شَكٍّ. الثَّاني: أنَّ اللهَ تعالى يَحكُمُ فيه بالحقِّ بالثَّوابِ والعِقابِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٠).

ممَّن اختار الوجهَ الأوَّلَ -أي: أنَّه الكائنُ لا مَحالةَ، المُتحَقِّقُ الواقعُ الثَّابتُ وُقوعُه-: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وابن جُزَي، والخازن، وأبو حيَّان، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠١٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٩٤).

قال السعدي: (﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ﴾ هو ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ الَّذي لا يَرُوجُ فيه الباطِلُ، ولا يَنفَعُ فيه الكَذِبُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).

وقال ابن عثيمين: (الثَّابتُ الَّذي يقومُ فيه الحَقُّ، ويقومُ فيه العَدْلُ ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧). =

كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠].

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾.

أي: إنَّا حَذَّرْناكم -أيُّها النَّاسُ- عَذابًا قد دنا وقرُبَ منكم[1].

= قال البِقاعي: (﴿مَّـَٔابًا﴾ أي: مَرجِعًا هو المرجِعُ مِمَّا يَحصُلُ له فيه الثَّوابُ بالإيمانِ والطَّاعةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢١٤).

وقال السعدي: (﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي: عَمَلًا وقَدَمَ صِدْقٍ يَرجِعُ إليه يومَ القيامةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ العذابُ في الآخرة، فكُلُّ ما هو آتٍ قريبٌ: السمرقنديُّ، والثعلبي، والبغوي، وابن عطية، وابن كثير، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧).

قال القرطبي: (الأظهَرُ أنَّه عذابُ الآخرةِ، وهو الموتُ والقيامةُ؛ لأنَّ مَن مات فقد قامت قيامتُه، فإن كان مِن أهلِ الجنَّةِ رأى مَقعَدَه مِنَ الجَنَّةِ، وإن كان مِن أهلِ النَّارِ رأى الخِزْيَ والهَوانَ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨).

وقال البيضاوي: (﴿أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني: عذابَ الآخِرةِ، وقُرْبُه لتحقُّقِه؛ فإنَّ كُلَّ ما هو آتٍ قريبٌ، ولأنَّ مَبدَأَه الموتُ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١).

وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾: العذابُ في الدُّنيا، يعني: القَتلَ ببَدرٍ، وهلاكَ الأُمَمِ الخاليةِ، وإنَّما قال: ﴿قَرِيبًا﴾؛ لأنَّها أقرَبُ مِن الآخرةِ. قاله مقاتِلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٦٦).

وقال ابنُ عاشور: (العَذابُ يَصْدُقُ بعذابِ الآخِرةِ، وهو ما تقَدَّم الإنذارُ به، ويَصدُقُ بعذابِ الدُّنيا مِن القَتْلِ والأسْرِ في غَزَواتِ المسلِمينَ لأهلِ الشِّرْكِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾.

أي: وذلك يومَ يَنظُرُ كُلُّ إنسانٍ إلى ما عَمِلَه مِن قَبْلُ في حياتِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦، ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٣٨).
ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿ٱلْمَرْءُ﴾ عامٌّ للمؤمنِ والكافرِ: السمرقنديُّ، والواحدي، والرازي، والبيضاوي، والعُلَيمي، والشربيني، والألوسي، وابن عثيمين، ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٧)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٦٠).
قال الواحدي: (والظَّاهِرُ أنَّ ﴿ٱلْمَرْءُ﴾ عامٌّ في كُلِّ أحدٍ؛ لأنَّ كُلَّ أحدٍ يرى في ذلك اليومِ ما كَسَب وقَدَّم وأخَّرَ مِن خيرٍ وشَرٍّ مُثبَتًا عليه في صحيفتِه). ((البسيط)) (٢٣/ ١٥٠).
وقال البِقاعي: (﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ أي: جِنْسُه، الصَّالحُ منه والطَّالِحُ، نظرًا لا مِرْيَةَ فيه ﴿مَا﴾ أي: الَّذي ﴿قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: كَسَبَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢١٥).
وقيل: المرادُ به هنا: المؤمنُ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والشَّوكانيُّ، وهو قولُ الحسَنِ، وقَتادةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٦).
وقيل: المرادُ بالمرءِ هنا: الكافرُ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، وهو قولُ عَطاءٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩١)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٦).
قال الزمخشري: (﴿مَا﴾ يجوزُ أن تكونَ استفهاميَّةً منصوبةً بـ﴿قَدَّمَتْ﴾، أي: ينظُرُ أيَّ شَيءٍ قدَّمَتْ يَداه، ومَوصولةً منصوبةً بـ﴿يَنظُرُ﴾). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٢).

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦ - ٨].

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

أي: ويَقولُ الكافِرُ مُتحَسِّرًا يومَئِذٍ: يا لَيْتَني كُنتُ تُرابًا[1]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠، ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٨).

قال ابنُ عثيمين: (﴿كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ تحتَمِلُ ثلاثةَ مَعانٍ:

المعنى الأوَّلُ: يا لَيْتَني كنتُ ترابًا فلم أُخلَقْ؛ لأنَّ الإنسانَ خُلِقَ مِن ترابٍ.

المعنى الثَّاني: يا ليتَني كنتُ ترابًا فلم أُبعَثْ، يعني: كُنتُ ترابًا في أجوافِ القُبورِ.

المعنى الثَّالثُ: أنَّه إذا رأى البهائِمَ الَّتي قضى اللهُ بيْنَها، وقال لها: كُوني تُرابًا، فكانت ترابًا؛ قال: لَيْتَني كنتُ تُرابًا، أي: كما كانت هذه البهائِمُ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٧).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: الكرمانيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّالثِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والواحدي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٦٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الله بنُ عَمرٍو، وأبو هُرَيرةَ، وأبو الزِّنادِ عبدُ الله بنُ ذَكْوانَ، وسُفْيانُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤-٥٦).

قال الواحدي: (قال جماعةُ المفسِّرينَ: وذلك أنَّ اللهَ تعالى يَحشُرُ الدَّوابَّ، والبهائمَ، والوحشَ، فيقتصُّ لبعضِها مِن بعضٍ، ثمَّ يُقالُ لها: كُوني تُرابًا، فيَتمَنَّى الكافرُ عندَ ذلك أنَّه كان ترابًا). ((البسيط)) (٢٣/ ١٥٠).

وقال ابن كثير: (وقد ورد معنى هذا في حديثِ الصُّورِ المشهورِ، وورد فيه آثارٌ عن أبي هُرَيرةَ، =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[(١)] [النساء: ٤٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ ذِكْرُ وَصْفِ الكافِرِ يُفهَمُ منه أنَّ المؤمِنَ ليس كذلك؛ لأنَّ المؤمِنَ وإن عَمِلَ بَعضَ السَّيِّئاتِ، وتوَقَّع العِقابَ على سَيِّئاتِه؛ فهو يَرْجو أن تكونَ عاقِبتُه إلى النَّعيمِ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ (ما) مَوصولةٌ، وهي مِن صِيَغِ العُمومِ، وقد استُفيدَ مِن ذلك تعميمُ رُبوبيَّتِه سُبحانَه على جميعِ المصنوعاتِ[(٣)].

٢- قولُه تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ الغرضُ مِن ذِكرِ هذا إبطالُ اعتذارِ المُشرِكينَ حينَ استشعَروا شناعةَ عبادتِهم الأصنامَ الَّتي شهَّرَ القرآنُ بها، فقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[(٤)] [الزمر: ٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ

= وعبدِ الله بنِ عَمرٍو، وغيرِهما). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١١).

(١) قال مكِّي: (قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [النساء: ٤٢] الآيةَ. يومَ يَجيءُ مِن كلِّ أُمَّةٍ شهيدٌ، يتمنَّى الكافِرون ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: يَصيرون ترابًا مِثلَها، كما قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (٢/ ١٣٣٣). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٠).

وَقَالَ صَوَابًا﴾ لِمَن يقولُ بتفضيلِ الملَكِ على البَشَرِ أن يتمَسَّكَ بهذه الآيةِ؛ وذلك لأنَّ المقصودَ مِن الآيةِ أنَّ الملائِكةَ لَمَّا بَقُوا خائِفينَ خاضِعينَ وَجِلينَ مُتحَيِّرينَ في مَوقِفِ جَلالِ اللهِ، وظُهورِ عِزَّتِه وكِبْريائِه، فكيف يكونُ حالُ غَيْرِهم؟! ومعلومٌ أنَّ هذا الاستِدلالَ لا يَتِمُّ إلَّا إذا كانوا أشرَفَ المخلوقاتِ[1].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ إطلاقُ صِفةِ الرَّحمنِ على مَقامِ الجلالةِ إيماءٌ إلى أنَّ إذْنَ اللهِ لِمَن يَتكلَّمُ في الكلامِ أثَرٌ مِن آثارِ رحْمَتِه؛ لأنَّه أَذِنَ فيما يحصُلُ به نفعٌ لأهلِ المَحشَرِ مِن شفاعةٍ أو استغفارٍ[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ فيه سؤالٌ: لَمَّا أَذِنَ له الرَّحمنُ في ذلك القَولِ عُلِمَ أنَّ ذلك القَولَ صوابٌ لا محالةَ، فما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ الرَّحمنَ أذِنَ له في مُطلَقِ القَولِ، ثمَّ إنَّهم عندَ حُصولِ ذلك الإذْنِ لا يتكَلَّمونَ إلَّا بالصَّوابِ، فكأنَّه قيل: إنَّهم لا يَنطِقونَ إلَّا بعدَ وُرودِ الإذنِ في الكلامِ، ثمَّ بَعْدَ وُرودِ ذلك الإذْنِ يَجتَهِدونَ ولا يتكَلَّمونَ إلَّا بالكلامِ الَّذي يَعلَمونَ أنَّه صِدقٌ وصَوابٌ، وهذا مُبالَغةٌ في وَصْفِهم بالطَّاعةِ والعُبوديَّةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٤).

والصَّوابُ في هذه المسألةِ التَّفصيلُ: وهو أنَّ صالِحي البَشَرِ أفضَلُ باعتبارِ كَمالِ النِّهايةِ، والملائكةَ أفضَلُ باعتبارِ البدايةِ؛ فإنَّ الملائكةَ الآنَ في الرَّفيقِ الأعلى مُنزَّهينَ عمَّا يُلابِسُه بنو آدَمَ، مُستَغرِقينَ في عبادةِ الرَّبِّ سُبحانَه، ولا ريبَ أنَّ هذه الأحوالَ الآنَ أكمَلُ مِن أحوالِ البَشَرِ، وأمَّا يومَ القيامةِ بعدَ دُخولِ الجنَّةِ، فيَصيرُ حالُ صالِحي البَشَرِ أكمَلَ مِن حالِ الملائكةِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٥٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣).

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ تقديرَه: لا يَتكَلَّمونَ إلَّا في حَقِّ مَن أَذِنَ له الرَّحمنُ، وقال صوابًا، والمعنى: لا يَشفَعونَ إلَّا في حَقِّ شَخصٍ أَذِنَ له الرَّحمنُ في شفاعتِه، وذلك الشَّخصُ كان ممَّن قال صَوابًا(١).

أو أنَّه لا يتكلَّمُ أحدٌ إلَّا بهذَينِ الشَّرطَينِ: أن يأذَنَ اللهُ له في الكلامِ، وأن يكونَ ما تكلَّمَ به صوابًا(٢).

٦- أنَّ الإيمانَ بالقَدَرِ لا يُنافي أنْ يكونَ للعَبْدِ مَشيئةٌ في أفعالِه الاختياريَّةِ وقُدْرتِه عليها؛ قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾(٣).

٧- قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ دلَّ على أنَّه مآبُ خَيرٍ؛ لأنَّ اللهَ لا يَرضى إلَّا بالخيرِ(٤).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ سَمَّاه إنذارًا؛ لأنَّه تعالى بهذا الوَصْفِ قد خَوَّف منه نهايةَ التَّخويفِ، وهو معنى الإنذارِ(٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾

- قولُه: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ قُرِئَ برفعِ ﴿رَّبِّ﴾ ورفعِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، فـ (ربُّ) خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ هو ضميرٌ يعودُ على قولِه: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ [النَّبأ: ٣٦]، على طَريقةِ حذفِ المسنَدِ إليه لاتِّباعِ الاستِعمالِ الواردِ على تَرْكِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).
(٣) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٦).

أي: في المقامِ الَّذي يَجْري استِعمالُ البُلغاءِ فيه على حذْفِ المسنَدِ إليه[١].

- وأُتْبِعَ وصفُ ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بذِكرِ اسمٍ مِن أسمائِه الحُسنى، وهو اسمُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، وخُصَّ بالذِّكرِ دونَ غيرِه مِن الأسماءِ الحُسنى؛ لأنَّ في معناه إيماءً إلى أنَّ ما يُفيضُه مِن خيرٍ على المتَّقينَ في الجنَّةِ هو عطاءُ رحمنٍ بهم[٢].

- وفي ذِكرِ هذه الصِّفةِ الجليلةِ تعريضٌ بالمُشركينَ؛ إذ أنكَروا اسمَ الرَّحمنِ الواردَ في القرآنِ، كما حَكى اللهُ عنهم بقولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[٣] [الفرقان: ٦٠].

- قولُه: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ استِئنافٌ مقرِّرٌ لِما أفادَهُ الرُّبوبيَّةُ العامَّةُ مِن غايةِ العظَمةِ والكبرياءِ، واستقلالِه تعالى بما ذُكِر مِن الجزاءِ والعطاءِ مِن غيرِ أنْ يكونَ لأحدٍ قُدرةٌ عليه، والمرادُ نفيُ قُدرتِهم على أنْ يُخاطِبوه تعالى بشيءٍ مِن نقصِ العذابِ أو زيادةِ الثَّوابِ مِن غيرِ إذْنِه على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه[٤].

ويجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ حالًا مِن (مَا بَيۡنَهُمَا)؛ لأنَّ ما بيْنَ السَّمواتِ والأرضِ يَشملُ ما في ذلك مِن المخلوقاتِ العاقلةِ، أو المزعومِ لها العقلُ مِثلِ الأصنامِ، فيُتوهَّمُ أنَّ مِن تلك المخلوقاتِ مَن يَستطيعُ خِطابَ اللهِ ومُراجَعتَه. ويجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا ابتدائيًّا لإبطالِ مَزاعمِ المُشركينَ، أو للاحتراسِ لدفْعِ توهُّمِ أنَّ ما تُشعِرُ به صلةُ (ربِّ) مِن الرِّفقِ بالمَربوبينَ في تدبيرِ شؤونِهم يُسيغُ إقدامَهم على خِطابِ الرَّبِّ تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩).

- وفعلُ ﴿يَمْلِكُونَ﴾ يعُمُّ؛ لوُقوعِه في سِياقِ النَّفيِ كما تعُمُّ النَّكِرةُ المنفيَّةُ، و﴿خِطَابًا﴾ عامٌّ أيضًا، وكِلاهُما مِن العامِّ المخصوصِ بمُخصِّصٍ منفصِلٍ؛ كقولِه عَقِبَ هذه الآيةِ: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النَّبأ: ٣٨]، وقولِه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]، وقولِه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقولِه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[(١)] [الأنبياء: ٢٨].

- والتَّنكيرُ في ﴿خِطَابًا﴾ للتَّقليلِ، و(مِنْ) بيانٌ، والظَّرفُ حالٌ مِن ﴿خِطَابًا﴾، المعنى: ليس في أيديهم خِطابٌ كائنٌ مِن عِندِ اللهِ في أمرِ الشَّفاعةِ قَطُّ، أي: ليس لهم مَمْسَكٌ ونصٌّ يَتصرَّفونَ به في أمرِ الشَّفاعةِ[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ الجُملةُ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ قولِه تعالَى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ إلخ، ومُؤكِّدٌ له، على مَعْنى: أنَّ أهلَ السَّمواتِ والأرضِ إذا لم يَقدِروا يَومَئذٍ على أنْ يَتكلَّموا بشَيءٍ مِن جِنسِ الكلامِ إلَّا مَنْ أَذِنَ اللهُ تعالَى له منهم في التَّكلُّمِ، وقال ذلكَ المأذونُ له قَولًا صَوابًا؛ فكيفَ يَملِكون خِطابَ ربِّ العِزَّةِ مع كَونِه أخصَّ مِن مُطلَقِ الكلامِ، وأعزَّ منه مَرامًا[(٣)]؟!

- قولُه: ﴿ٱلرُّوحُ﴾ هو جِبريلُ، وتَخصيصُه بالذِّكرِ قبْلَ ذِكرِ الملائكةِ المعطوفِ عليه؛ لتشريفِ قدْرِه بإبلاغِ الشَّريعةِ[(٤)].

وقيل: اللَّامُ في ﴿ٱلرُّوحُ﴾ لتعريفِ الجِنسِ؛ فالمفردُ معها والجمعُ سواءٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١).

والمعنى: يومَ تحضُرُ الأرواحُ مَصفوفةً لِتُودَعَ في أجسادِها، وتقومُ الملائكةُ صفًّا، وإنَّما يَصطفُّ النَّاسُ في المقاماتِ الَّتي يكونُ فيها أمرٌ عظيمٌ، فصَفُّ الملائكةِ تعظيمٌ للهِ، وخضوعٌ له[١].

- وجملةُ ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ مُؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النَّبأ: ٣٧]، أُعيدَتْ بمعناها لتقريرِ المعنَى؛ إذ كان المَقامُ حَقيقًا، فالتَّقريرُ لقَصدِ التَّوصُّلِ به إلى الدَّلالةِ على إبطالِ زعْمِ المُشركينَ شَفاعةَ أصنامِهم لهم عِندَ اللهِ، وهي دَلالةٌ بطريقِ الفَحْوى[٢]؛ فإنَّه إذا نُفِيَ تَكلُّمُهم بدونِ إذْنٍ نُفِيَتْ شفاعتُهم؛ إذ الشَّفاعةُ كلامُ مَن له وجاهةٌ وقَبولٌ عِندَ سامِعِه[٣].

- ومتعلَّقُ ﴿أَذِنَ﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾، أي: مَن أُذِن له في الكلامِ[٤].

- وإظهارُ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في موضعِ الإضْمارِ؛ للإيذانِ بأنَّ مناطَ الإذنِ هو الرَّحمةُ البالغةُ، لا أنَّ أحدًا يَستحِقُّه عليه سبحانَه وتعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١، ٥٢).

(٢) فَحْوَى الخِطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولَى، كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهي عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظَمُ مِن التَّافيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿مَّن إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كان دونَ القِنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأُولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٤).

- وفعلُ ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ مُستعمَلٌ في معنى المُضارِعِ، أي: ويقولُ صوابًا، فعُبِّر عنه بالماضي؛ لإفادةِ تحقُّقِ ذلك[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ كالفَذْلَكةِ[٢] لِما تَقدَّمَ مِن وَعيدٍ ووعدٍ، وإنذارٍ وتبشيرٍ، سِيقَ مساقَ التَّنويهِ بيومِ الفصلِ الَّذي ابتُدِئَ الكلامُ عليه مِن قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ [النَّبأ: ١٧]، والمقصودُ التَّنويهُ بعظيمِ ما يقَعُ فيه مِن الجزاءِ بالثَّوابِ والعِقابِ، وهو نتيجةُ أعمالِ النَّاسِ مِن يومِ وُجودِ الإنسانِ في الأرضِ[٣].

- والإشارةُ بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ إلى اليومِ المتقدِّمِ في قولِه: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾، ومُفادُ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في مِثلِ هذا المَقامِ التَّنبيهُ على أنَّ المُشارَ إليه حقيقٌ بما سيُوصَفُ به بسببِ ما سبَقَ مِن حِكايةِ شُؤونِه؛ فمِن أجْلِ جميعِ ما وُصِفَ به يومُ الفصلِ كان حقيقًا بأنْ يُوصَفَ بأنَّه اليومُ الحقُّ، وما تَفرَّعَ عن ذلك مِن قولِه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾[٤].

- وتَعريفُ ﴿ٱلْيَوْمُ﴾ باللَّامِ؛ للدَّلالةِ على معنى الكمالِ، أي: هو الأعظَمُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣).

(٢) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٤).

بيْنِ ما يَعُدُّه النَّاسُ مِن أيَّامِ النَّصرِ للمُنتصِرينَ؛ لأنَّه يومٌ يُجمَعُ فيه النَّاسُ كلُّهم، ويُعطى كلُّ واحدٍ منهم ما هو أهلُه مِن خيرٍ أو شرٍّ، فكأنَّ ما عداهُ مِن الأيَّامِ المشهورةِ في تاريخِ البشرِ غيرُ ثابتِ الوُقوعِ[١].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ هذا وعيدٌ وتهديدٌ[٢].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ بالفاءِ الفصيحةِ على قولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ لإفصاحِها عن شَرْطٍ مُقدَّرٍ ناشئٍ عن الكلامِ السَّابقِ، والتَّقديرُ: فإذا عَلِمتُم ذلك كلَّه، فمَن شاءَ اتِّخاذَ مآبٍ عِندَ ربِّه فلْيَتَّخِذْه، فقدْ بانَ لكم ما في ذلك اليومِ مِن خيرٍ وشرٍّ، فلْيَختَرْ صاحبُ المشيئةِ ما يَليقُ به للمَصيرِ في ذلك اليومِ، والتَّقديرُ: مآبًا فيه، أي: في اليومِ. وهذا التَّفريعُ مِن أبدَعِ الموعظةِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ عِندَما تَسنَحُ الفُرصةُ للواعظِ مِن تهيُّؤِ النُّفوسِ لقَبولِ الموعظةِ[٣].

- والاتِّخاذُ: مُبالَغةٌ في الأخْذِ، أي: أخَذَ أخْذًا يُشبِهُ المطاوَعةَ في التَّمكُّنِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ اعتِراضٌ بيْن ﴿مَـَٔابًا﴾ [النَّبأ: ٣٩] وبيْن ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النَّبأ: ٤٠]، والمقصودُ مِن هذه الجُملةِ الإعذارُ للمُخاطَبينَ بقَوارِعِ هذه السُّورةِ؛ بحيثُ لم يَبقَ بيْنَهم وبيْنَ العِلمِ بأسبابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥).

النَّجاةِ وضِدِّها شُبهةٌ ولا خَفاءٌ، فالخبرُ -وهو ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا﴾- مُستعمَلٌ في قطْعِ العُذرِ، وليس مُستعمَلًا في إفادةِ الحُكمِ؛ لأنَّ كونَ ما سبَقَ إنذارًا أمرٌ مَعلومٌ للمُخاطَبينَ[١].

- وافتُتِح الخبرُ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للمُبالَغةِ في الإعذارِ بتَنزيلِهم مَنزلةَ مَن يَتردَّدُ في ذلك[٢].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ جُعِلَ المسنَدُ ﴿أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ فِعلًا مُسنَدًا إلى الضَّميرِ المنفصِلِ؛ لإفادةِ تَقَوِّي الحُكمِ، مع تَمثيلِ المتكلِّمِ في مَثَلِ المتبرِّئِ مِن تَبِعةِ ما عَسى أنْ يَلحَقَ المخاطَبينَ مِن ضُرٍّ إنْ لم يَأخُذوا حِذرَهم ممَّا أنذَرَهم به[٣].

- والإنذارُ: الإخبارُ بحُصولِ ما يَسوءُ في مُستقبَلٍ قَريبٍ، وعُبِّر عنه بالمُضيِّ؛ لأنَّ أعظَمَ الإنذارِ قدْ حصَلَ بما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾ [النَّبأ: ٢١، ٢٢] إلى قولِه: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابٗا﴾[٤] [النَّبأ: ٣٠].

- قولُه: ﴿عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ هو عَذابُ الآخِرةِ؛ ووُصِفَ بالقَريبِ لتَحقيقِ إتيانِه حَتْمًا، ولأنَّ مَبدَأَه الموتُ، ولأنَّه قَريبٌ بالنِّسبةِ إليه تعالى وإنْ رَأَوْه بعيدًا، وسَيَرَونَه قريبًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٥، ٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦).

- والمَرءُ: اسمٌ للرَّجُلِ؛ إذ هو اسمٌ مُؤنَّثُه امرأةٌ. والاقتصارُ على المرْءِ جَرَى على غالِبِ استعمالِ العرَبِ في كَلامِهم؛ فالكلامُ خرَجَ مَخرَجَ الغالبِ في التَّخاطُبِ[١].

- قَولُه: ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي: كَسَبَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وعَبَّرَ بهما -أي: اليدَينِ-؛ لأنَّهما مَحَلُّ القُدرةِ، فكَنَّى بهما عنها، مع أنَّ أكثَرَ ما يُعمَلُ كائِنٌ بهما مُستقِلَّتَينِ به أو مُشارِكتَينِ فيه؛ خيرًا كان أو شَرًّا[٢].

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ خُصَّ بالذِّكرِ مِن عُمومِ المرْءِ الإنسانُ الكافرُ الَّذي يقولُ: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾؛ وذلك تلهُّفٌ وتندُّمٌ على ما قدَّمتْ يداهُ مِن الكُفرِ، وقد كانوا يقولونَ: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، فجعَلَ اللهُ عِقابَهم بالتَّحسُّرِ وتمنِّي أنْ يكونوا مِن جِنسِ التُّرابِ[٣].

وخصَّ قولَ الكافرينَ دونَ المؤمنينَ؛ لأنَّ قولَ الكافرينَ دلَّ على غايةِ الخَيبةِ، ونِهايةِ التَّحسُّرِ، ودلَّ حَذْفُ قولِ المؤمنينَ على غايةِ التَّبجُّحِ، ونِهايةِ الفرَحِ ممَّا لا يُحيطُ به الوصفُ[٤].

وعلى القولِ بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ٱلْمَرْءُ﴾: الكافرُ؛ لقولِه: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾، فيكونُ ﴿ٱلْكَافِرُ﴾ ظاهرًا وُضِعَ مَوضعَ الضَّميرِ؛ لزِيادةِ الذَّمِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٠، ٣٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٥).

- وهذه الآيةُ جامعةٌ لِما جاءَ في السُّورةِ مِن أحوالِ الفَريقينِ، وفي آخِرِها رَدُّ العَجُزِ على الصَّدْرِ[١] مِن ذِكرِ أحوالِ الكافِرينَ الَّذين عُرِفوا بالطَّاغينَ، وبذلك كان خِتامُ السُّورةِ بها بَراعةَ مَقطعٍ[٢].

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨).

وبراعةُ المقطعِ: أن يكونَ آخِرُ الكلامِ مُستعَذبًا حسَنًا؛ لتبقى لَذَّتُه في الأسماع، مُؤذنًا بالانتهاءِ، بحيث لا يبقى للنَّفْسِ تشَوُّفٌ إلى ما وراءَه. يُنظر: ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ١٣٥)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٥٦٣).

تَفْسيرُ

سُورَةِ النَّازِعاتِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ النَّازِعاتِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (النَّازعاتِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ النَّازِعاتِ مَكِّيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

تقريرُ أنَّ البَعثَ حَقٌّ، وذِكرُ جانبٍ مِن أهوالِ القيامةِ، والرَّدُّ على المُنكِرينَ للبعثِ، وتهديدُهم وتَرهيبُهم[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- إثباتُ البَعثِ والجَزاءِ.

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لوُقوعِ القَسَمِ الإلهيِّ في أوَّلِها وافتتاحِها به، في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾، ولأنَّه لم يُذكَرْ في غَيرِها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩).

وقيل: تُسمَّى «سورةَ السَّاهرةِ»؛ لوُقوعِ لفظِ «السَّاهرةِ» في أثنائِها، ولم يقَعْ في غيرِها مِن السُّوَرِ. وتُسمَّى «سورةَ الطَّامَّةِ»؛ لوُقوعِ لفظِ «الطَّامَّةِ» فيها، ولم يقَعْ في غيرِها. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابن الجوزي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٢٦١).

٢- الرَّدُّ على المُشرِكينَ المُنكِرينَ لوُقوعِ البَعثِ.

٣- ذِكرُ جانبٍ مِن قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ، وإرسالِه إلى فِرعَونَ.

٤- إقامةُ الأدِلَّةِ على إثباتِ البَعثِ وأنَّه حَقٌّ، وذِكرُ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ.

٥- ذِكرُ شَيءٍ مِن أحداثِ الآخِرةِ، وأهوالِ القيامةِ.

٦- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ المتَّقينَ، وسوءِ عاقِبةِ الكافِرينَ.

٧- الإجابةُ على أسئلةِ المُشرِكينَ عن وُقوعِ يومِ القيامةِ، وبيانُ أنَّ مَوعِدَ مَجيءِ هذا اليومِ مَرَدُّه إلى اللهِ وَحْدَه، وأنَّ شأنَ الرَّسولِ أن يُذَكِّرَهم بها، وأنَّها إذا حَلَّت بهم ورَأَوْها كأنَّهم مع طُولِ الزَّمَنِ لم يَلبَثوا إلَّا جُزءًا مِنَ النَّهارِ.

الآيات (١-١٤)

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾: أي: الملائكةِ الَّذين يَنزِعونَ أرواحَ الكُفَّارِ عن أبدانِهم نَزْعًا شديدًا، و﴿غَرۡقٗا﴾ اسمُ مَصدرٍ مِن «أغرَقَ»، وأصلُه: إغراقًا، والإغراقُ في الشَّيءِ: المُبالَغةُ فيه والوُصولُ به إلى نهايتِه، يُقالُ: أغرَقَ فُلانٌ في هذا الأمرِ: إذا أوغَلَ فيه، وبَلَغ أقصى غايتِه، وأصلُ (نزع): يدُلُّ على قَلْعِ شَيءٍ، وأصلُ (غرق): يدُلُّ على انتِهاءٍ في شَيءٍ يُبلَغُ أقصاه[1].

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾: أي: الملائكةِ الَّذين يَقبِضُون أرواحَ المؤمِنينَ بسُهولةٍ ورِفْقٍ وسُرْعةٍ؛ مِنَ النَّشْطِ: وهو السُّرعةُ في العَمَلِ، والخِفَّةُ في أخْذِ الشَّيءِ، وأصلُ (نشط): يدُلُّ على اهتِزازٍ وحَرَكةٍ[2].

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾: أي: الملائِكةِ يَنزِلونَ مِن السَّماءِ مُسرِعينَ كالفَرَسِ الجَوَادِ يُقالُ له: سابِحٌ: إذا أسرَعَ في جَرْيِه. وقيل: هم الملائِكةُ يَقبِضونَ أرواحَ المؤمِنينَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٦).

يَسُلُّونَها سَلًّا رفيقًا، ثمَّ يَدَعُونَها حتَّى تستريحَ، كالسَّابِحِ بالشَّيءِ في الماءِ يَرفُقُ به، وأصلُه مِن السَّبْحِ: وهو المَرُّ السَّريعُ(١).

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾: أي: الملائكةِ يَسبِقونَ ابنَ آدَمَ بالخَيرِ والعَمَلِ الصَّالحِ. وقيل: هم الملائكةُ يَسبِقونَ بأرواحِ المؤمِنينَ إلى الجنَّةِ، وأصلُ السَّبقِ: التَّقَدُّمُ في السَّيرِ(٢).

﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرًا﴾: الملائِكةِ يَنزِلونَ بالتَّدبيرِ مِن عندِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وأصلُ (دبر): يدُلُّ على آخِرِ الشَّيءِ، فتدبيرُ الإنسانِ أمْرَه أنَّه يَنظُرُ إلى ما تصيرُ عاقبتُه وآخِرُه(٣).

﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: أي: الصَّيحةُ، وهي النَّفخةُ الأُولى، وأصلُ (رجف): يدُلُّ على الاضطرابِ الشَّديدِ(٤).

﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾: أي: الصَّيحةُ التَّابِعةُ لها، وهي النَّفخةُ الثَّانيةُ، وأصلُ (ردف): يدُلُّ على إتْباعِ الشَّيءِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

﴿وَاجِفَةٌ﴾: أي: خائِفةٌ شَديدةُ الاضطرابِ، يُقالُ: وَجَف قلبُه يَجِفُ وَجِيفًا: إذا اضطَرَب[١].

﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾: أي: أوَّلِ خَلْقِنا، وابتداءِ أمْرِنا، فنَصيرُ أحياءً بَعْدَ الموتِ، يقالُ: رَجَع فُلانٌ في حافِرتِه، أي: رَجَع مِن حيثُ جاء، والحافِرةُ عندَ العَرَبِ: اسمُ أوَّلِ الشَّيءِ، وابتِداءِ الأمرِ، وأصلُ (حفر) هنا: أوَّلُ الأمرِ[٢].

﴿نَّخِرَةً﴾: أي: باليةً مُتفَتِّتةً، وأصلُ (نخر): يدُلُّ على صَوتٍ؛ لأنَّ هذه العِظامَ البالِيةَ خلا ما فيها، فصار الهواءُ يَنخِرُ فيها، أي: يَصُوتُ[٣].

﴿كَرَّةٌ﴾: أي: رَجْعَةٌ وإعادةٌ، والكَرُّ: الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ[٤].

﴿زَجْرَةٌ﴾: أي: صَيحةٌ بشِدَّةٍ وانتِهارٍ، وهي النَّفخةُ في الصُّورِ للبعثِ، وأصلُ (زجر): يدُلُّ على طَردٍ بصَوتٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٤، ٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٣)، =

﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾: أي: وَجهِ الأرضِ وظَهْرِها، وهي أرضٌ مُسْتَويةٌ بَيضاءُ لا نَباتَ فيها، يَجعَلُها اللهُ تعالى لجَمعِ النَّاسِ للحَشْرِ، وُصِفَتْ بما يقَعُ فيها، وهو السَّهَرُ، وأصلُ (سهر): يدُلُّ على ذَهابِ النَّومِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾

قَولُه تعالى: ﴿غَرۡقٗا﴾: مَصدَرٌ مُؤَكِّدٌ بحَذفِ الزَّوائدِ، أي: إغراقًا في النَّزعِ مِن أقاصي الأجسادِ، والنَّاصِبُ له ما قَبْلَه؛ لِمُلاقاتِه له في المعنى، أو مَنصوبٌ على الحالِ، أي: ذواتِ إغْراقٍ.

وانتِصابُ ﴿نَشۡطٗا﴾ و﴿سَبۡحٗا﴾ و﴿سَبۡقٗا﴾ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ، وأمَّا انتِصابُ ﴿أَمۡرٗا﴾ فعلى المفعوليَّةِ لاسمِ الفاعِلِ «المُدَبِّراتِ».

قَولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ﴾: ظَرفُ زَمانٍ مَنصوبٌ بفِعلٍ مُقدَّرٍ، هو جوابُ القَسَمِ تقديرُه: لَتُبعَثُنَّ؛ لدَلالةِ ما بعدَه عليه، أي: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ...﴾ إلخ: لَتُبعَثُنَّ يَوْمَ...[2].

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٣).

قال الفراءُ: (كأنَّها سُمِّيت بهذا الاسمِ؛ لأنَّ فيها الحيوانَ: نومَهم، وسهرَهم). ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٢)..

وقال الواحدي: (وقال غيرُه [أي: غيرُ الفراءِ] مِن أهلِ المعاني: العربُ تسمِّي وجهَ الأرضِ مِن الفلاةِ: «ساهرةً»، أي: ذاتَ سَهَرٍ؛ لأنَّه يُسهَرُ فيها خوفًا منها). ((البسيط)) (٢٣/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٦٧، ٦٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٢٤).

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقْسِمًا على وُقوعِ البَعْثِ بلا شَكٍّ، فأقسَمَ بالملائِكةِ الَّتي تَنزِعُ أرواحَ الكُفَّارِ مِن أبْدانِهم نَزْعًا شَديدًا، وبالملائكةِ الَّتي تَقبِضُ أرواحَ المؤمِنينَ بسُهولةٍ ورِفْقٍ وسُرْعةٍ، وبالملائكةِ الَّتي تَسبَحُ في أجواءِ السَّمَواتِ وآفاقِ الأرضِ بأمرِ اللهِ تعالى، وبالملائكةِ الَّتي تُسارِعُ إلى تنفيذِ أمرِ اللهِ تعالى، وبالملائكةِ الَّتي تُدَبِّرُ ما وكَّلَها اللهُ بتَدبيرِه؛ لَتُبعَثُنَّ أيُّها النَّاسُ.

ثمَّ ذكَرَ اللهُ تعالى أهوالَ يومِ القيامةِ، فقال: يومَ تَضطَرِبُ الأرضُ وتَتزلزَلُ، فتَتبَعُ تلك الرَّجفةَ رَجفةٌ أُخرى تأتي بَعْدَها، فتَضطرِبُ قُلوبُ الكُفَّارِ المكَذِّبينَ في ذلك اليَومِ؛ مِن شِدَّةِ أهوالِه، وتكونُ أبصارُهم ذَليلةً مُنكَسِرةً.

ثمَّ حكى ما كان يقولُه المكذِّبونَ في الدُّنيا إنكارًا للبعثِ، فقال: يقولُ المكَذِّبونَ بالبَعْثِ: أنَعودُ أحياءً بَعْدَ مَوتِنا، ونُبعَثُ مِن قُبورِنا؟ كيف نُبعَثُ أحياءً إذا صِرْنا عِظامًا بالِيةً مُتفَتِّتةً؟ قالوا: إنْ حصَلَت تلك الرَّجعةُ بَعْدَ الموتِ فنحن خاسِرونَ إذَنْ.

ثمَّ قال الله تعالى ردًّا عليهم: فإنَّما هي صَيحةٌ واحِدةٌ بلا تَكرارٍ، فإذا النَّاسُ قِيامٌ مِن قُبورِهم أحياءً على ظَهْرِ أرضِ المحشَرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالملائِكةِ الَّتي تَنزِعُ أرواحَ الكُفَّارِ مِن أبْدانِهم بشِدَّةٍ[1].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٣-١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٩). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وعن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((... وإنَّ العَبْدَ الكافِرَ إذا كان في انقِطاعٍ مِن الدُّنيا وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزل إليه مِنَ السَّماءِ مَلائِكةٌ سُودُ الوُجوهِ، معهم المُسُوحُ[(١)]، فيَجلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ،

= وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: الواحديُّ، والقرطبي، وابن القيِّم، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال الواحدي: (أكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّ هذا قَسَمٌ بمَلَكِ الموتِ وأعوانِه مِن الملائكةِ الَّذين يَنزِعونَ أرواحَ الكُفَّارِ عن أبدانِهم، وهو قَولُ عَليٍّ رضي الله عنه، ومسروقٍ، ومُقاتِلٍ، وأبي صالحٍ، وعطيَّةَ). ((البسيط)) (٢٣/ ١٥٥).

وقال ابن كثير: (قال ابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومسروقٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وأبو صالحٍ، وأبو الضُّحى، والسُّدِّيُّ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ الملائكة، يَعْنُونَ: حينَ تَنزِعُ أرواحَ بني آدَمَ، فمِنهم مَن تأخُذُ رُوحَه بعُنفٍ فتغرقُ في نَزعِها، ومِنهم مَن تأخُذُ رُوحَه بسهولةٍ وكأنَّما حَلَّتْهُ مِن نشاطٍ، وهو قولُه: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾، قاله ابنُ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٢).

وذكر ابنُ جريرٍ الخِلافَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾، وأنَّ مِن المفسِّرينَ مَن قال: هم الملائكةُ الَّتي تَنْزِعُ نُفوسَ بني آدَمَ، والمَنْزوعُ نُفوسُ الْآدَمِيِّينَ. ومِنهم مَن قال: هو الموتُ يَنزِعُ النُّفوسَ. ومنهم مَن قال: هي النُّجومُ تَنزِعُ مِن أُفُقٍ إلى أُفُقٍ. ومنهم مَن قال: هي القِسِيُّ تَنزِعُ بالسَّهْمِ. ومنهم مَن قال: هي النَّفْسُ حِينَ تُنزَعُ. ثمَّ قال: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه أقسَمَ بالنَّازِعاتِ غَرْقًا، ولم يَخْصُصْ نازِعةً دونَ نازعةٍ، فكُلُّ نازعةٍ غَرْقًا فداخِلةٌ في قَسَمِه؛ مَلَكًا كان، أو مَوتًا، أو نَجمًا، أو قَوسًا، أو غيرَ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١-٦٣).

(١) المُسوحُ: جمعُ المِسْحِ: وهو اللِّباسُ الخَشِنُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٩).

ثمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوتِ، حتَّى يَجلِسَ عندَ رأسِه، فيقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخرُجي إلى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وغَضَبٍ، فتفَرَّقُ في جَسَدِه، فيَنتَزِعُها كما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ مِن الصُّوفِ المَبلولِ[١]! فيأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفَةَ عَينٍ حتَّى يَجعَلوها في تِلكَ المُسوحِ، ويَخرُجُ منها كأنتَنِ رِيحِ جيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ! فيَصعَدونَ بها))[٢].

﴿وَٱلنَّشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الشَّدَّ مُبتَدِئًا به لأنَّه أهوَلُ؛ أتْبَعَه الرِّفْقَ، فقال[٣]:

﴿وَٱلنَّشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بالملائِكةِ الَّتي تَقبِضُ أرواحَ المؤمِنينَ بسُهولةٍ ورِفْقٍ، وسُرْعةٍ وخِفَّةٍ[٤].

---

(١) السَّفُّودُ: الحديدةُ الَّتي يُشوى عليها اللَّحمُ، فيَبقَى معها بقيَّةٌ مِن المحروقِ، فيَستصحِبُ عندَ الجذبِ شيئًا مِن ذلك الصُّوفِ مع قُوَّةٍ وشِدَّةٍ. يُنظر: ((شرح الطِّيبي على مشكاة المصابيح)) (٤/ ١٣٨١)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شَيْبَةَ في ((المصنَّف)) (١٢٠٥٩)، وأحمدُ (١٨٥٣٤)، والطَّيالسيُّ (٧٨٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقارِبةٍ.
صحَّح إسنادَه ابنُ جرير في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وقال ابنُ مَنْدَه في ((الإيمان)) (٣٩٨): (إسنادُه مُتَّصِلٌ مشهورٌ ثابتٌ على رَسمِ الجماعةِ). وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٨، ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٩).
وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ القيِّم، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عثيمين.
يُنظر: المصادر السَّابقة. =

عن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبدَ المؤمِنَ إذا كان في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقْبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهمُ الشَّمسُ، معَهم كَفَنٌ مِن أكْفانِ الجَنَّةِ، وحَنُوطٌ[1] مِن حَنُوطِ الجنَّةِ، حتَّى يَجْلِسوا منه مَدَّ البَصَرِ، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ، حتَّى يَجلِسَ عندَ رأْسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخْرُجي إلى مَغفِرةٍ مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ. فتَخرُجُ تَسِيلُ كما تَسيلُ القَطْرةُ مِن فِي السِّقَاءِ، فيأْخُذُها))[2].

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر نَوعَيِ السَّلِّ بالشِّدَّةِ والرِّفْقِ؛ ذكَرَ فِعْلَ الملائكةِ أيضًا في الجَوِّ بعدَ

= وذكَرَ ابنُ جريرٍ الخِلافَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾، وأنَّ مِن المفسِّرينَ مَن قال: هم الملائكةُ، تَنْشِطُ نفْسَ المُؤْمِنِ فتَقْبِضُها، كما يُنشَطُ العِقالُ مِن البعيرِ إذا حُلَّ عنه، ومنهم مَن قال: هو الموتُ يَنْشِطُ نفْسَ الإنسانِ، ومنهم مَن قال: هي النُّجومُ تَنْشِطُ مِن أُفُقٍ إلى أُفُقٍ... إلى غيرِ ذلك، ثمَّ قال: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤه أقسَمَ بالنَّاشِطاتِ نَشْطًا، وهي الَّتي تَنشِطُ مِن مَوضِعٍ إلى مَوضِعٍ، فتذهَبُ إليه، ولم يَخْصُصِ اللهُ بذلك شيئًا دونَ شَيءٍ، بل عَمَّ القَسَمَ بجميعِ النَّاشِطاتِ، والملائكةُ تَنشِطُ مِن موضِعٍ إلى موضِعٍ، وكذلك الموتُ، وكذلك النُّجومُ والأوهاقُ [حبلٌ تُشَدُّ به الإبلُ والخيلُ لئلَّا تَنفِرَ وتشرُدَ] وبَقَرُ الوَحشِ أيضًا تَنشِطُ، فكُلُّ ناشطٍ فداخِلٌ فيما أقسَمَ به، إلَّا أن تقومَ حُجَّةٌ يَجِبُ التَّسليمُ لها بأنَّ المَعْنِيَّ بالقَسَمِ مِن ذلك بَعضٌ دونَ بَعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١، ٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣).

(١) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٦).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٢٨).

التَّهَيُّؤِ للطَّيرانِ، في إقبالِها إليه ورُجوعِها عنه، فقال[١]:

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بالملائكةِ الَّتي تَسبَحُ في أجواءِ السَّمَواتِ وآفاقِ الأرضِ بأمرِ اللهِ تعالى[٢].

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تُسارِعُ إلى تنفيذِ أمرِ اللهِ تعالى بلا تأخُّرٍ ولا إبطاءٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٥، ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٠).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: الفَرَّاءُ، وابنُ القيِّم، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وذكَرَ ابنُ جريرٍ الخِلافَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾، وأنَّ مِن المفسِّرينَ مَن قال: هو الموتُ يَسْبَحُ في نَفْسِ ابنِ آدَمَ. ومنهم مَن قال: هي النُّجومُ تَسْبَحُ في فَلَكِها. ومنهم مَن قال: هي السُّفُنُ، ثمَّ قال: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤُه أقسَمَ بالسَّابحاتِ سَبْحًا مِن خَلْقِه، ولم يَخْصُصْ مِن ذلك بعضًا دونَ بَعضٍ، فذلك كلُّ سابحٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣-٦٤).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤١).

وممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: ابنُ القيِّم، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وذكَرَ ابنُ جريرٍ الخِلافَ في قولِه تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾، وأنَّ مِن المفسِّرينَ مَن قال: هي الملائكةُ. ومِنهم مَن قال: هي للخيلِ السَّابقةِ. ومنهم من قال: بل هي النُّجومُ يَسْبِقُ بعضُها بعضًا في السَّيْرِ. وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ القَسَمَ يَعُمُّ كُلَّ سابقٍ لِغَيرِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٣، ٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٤).

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تُدَبِّرُ ما وكَّلَها اللهُ بتَدبيرِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ٦٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤١).

وقد حكى ابنُ عطيَّةَ والرَّازيُّ وابنُ القَيِّمِ الإجماعَ على أنَّ (الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا): الملائكةُ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤٦).

ونسَبَ الماوَرْديُّ هذا القَولَ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٤).

قال ابن كثير: (قوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ قال عليٌّ، ومجاهِدٌ، وعَطاءٌ، وأبو صالحٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، والسُّدِّيُّ: هي الملائكةُ -زاد الحسَنُ: تُدَبِّرُ الأمرَ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ. يعني: بأمرِ ربِّها عزَّ وجلَّ. ولم يَختَلِفوا في هذا، ولم يَقطَعِ ابنُ جريرٍ بالمرادِ في شيءٍ مِن ذلك، إلَّا أنَّه حكى في ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ أنَّها الملائكةُ، ولا أثبتَ ولا نفَى). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤).

وقال ابنُ القيِّم: (هي الملائِكةُ عندَ أهلِ الإيمانِ وأتْباعِ الرُّسُلِ عليهم السَّلامُ، وأمَّا المكَذِّبونَ للرُّسُلِ المنكِرونَ للصَّانعِ فيقولون: هي النُّجومُ... وقد دَلَّ الكِتابُ والسُّنَّةُ على أصنافِ الملائكةِ، وأنَّها موكَّلةٌ بأصنافِ المخلوقاتِ،... والمقصودُ: أنَّ اللهَ سُبحانَه وكَّل بالعالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ ملائكةً، فهي تدَبِّرُ أمرَ العالَمِ بإذْنِه ومشيئتِه وأمْرِه). ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠).

ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٣).

وقال البِقاعي: (يَصِحُّ أن يكونَ [يعني: الأقسامَ المذكورةَ] للشَّمسِ والقَمَرِ والكواكِبِ والرِّياحِ والخَيلِ؛ السَّابحةِ في الأرضِ والجَوِّ؛ لِمَنفعةِ العِبادِ وتدبيرِ أُمورِهم، وبعضُها سابقٌ لبعضٍ، وبه قال بَعضُ المفَسِّرينَ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٢٠).

وجوابُ القَسَمِ قِيلَ: محذوفٌ للعِلْمِ به، وهو: لَتُبعَثُنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا التَّقديرِ: الفَرَّاءُ، والواحديُّ، والقرطبي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٤).

وقال ابنُ القيِّم: (جوابُ القَسَمِ محذوفٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، وهو البَعْثُ المستلزِمُ لصِدقِ الرَّسولِ وثُبوتِ القُرآنِ، أو أنَّه مِنَ القَسَمِ الَّذي أُريدَ به التَّنبيهُ على الدَّلالةِ والعِبرةِ بالمُقسَمِ به دونَ أن =

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾.

أي: يومَ تَضطَرِبُ الأرضُ وتَتزلزَلُ[١].

﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾.

أي: تَتبَعُ تلك الرَّجفةَ رَجفةٌ أُخرى تأتي بَعْدَها[٢].

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا

= يُرادَ به مُقْسَمٌ عليه بعَينِه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٣٩).

وقيل: جوابُ القَسَمِ هو قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٤).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٥).

قال ابن عاشور: (وصريحُ الكلامِ موعظةٌ. والمقصودُ منه لازِمُه، وهو وُقوعُ البعثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٦، ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٧).

قال الماوَرْدي: (﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ وفيهما ثلاثةُ أقاويلَ:

أحَدُها: أنَّ الرَّاجِفةَ: القيامةُ، والرَّادِفةَ: البَعثُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: أنَّ الرَّاجِفةَ: النَّفْخةُ الأُولى تُميتُ الأحياءَ، والرَّادِفةَ: النَّفخةُ الثَّانيةُ تُحْيي الموتى. قاله الحسَنُ وقَتادةُ... وقال عِكْرِمةُ: الأُولى: مِنَ الدُّنيا، والثَّانيةُ: مِنَ الآخرةِ.

الثَّالثُ: أنَّ الرَّاجِفةَ: الزَّلزلةُ الَّتي ترجفُ الأرضَ والجبالَ، والرَّادِفةَ: إذا دُكَّتا دكَّةً واحدةً. قاله مجاهِدٌ.

ويحتَمِلُ رابعًا: أنَّ الرَّاجِفةَ: أشراطُ السَّاعةِ، والرَّادِفةَ: قيامُها). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٤، ١٩٥).

وكثيرٌ مِن المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالرَّاجِفةِ: النَّفخةُ الأُولى، وبالرَّادِفةِ: النَّفخةُ الثَّانيةُ. ومنهم: ابنُ جرير، والبِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٢).

ذَهَب ثُلُثَا اللَّيلِ قام فقال: يا أيُّها النَّاسُ، اذكُروا اللهَ، اذكُروا اللهَ، جاءت الرَّاجِفةُ، تَتْبَعُها الرَّادِفةُ، جاء الموتُ بما فيه، جاء الموتُ بما فيه))[١].

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾.

أي: قُلوبُ الكُفَّارِ المكَذِّبينَ في ذلك اليَومِ شَديدةُ الخَوفِ والاضطرابِ والقَلَقِ مِن شِدَّةِ أهوالِه[٢].

﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩﴾.

أي: تكونُ أبصارُ أولئك الكُفَّارِ ذَليلةً مُنكَسِرةً لا تكادُ تُحَدِّقُ بها وتَنظُرُ[٣].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤].

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠﴾.

أي: يقولُ المكَذِّبونَ بالبَعثِ: أنَعودُ أحياءً بعْدَ مَوتِنا، ونُبعَثُ مِن قُبورِنا[٤]؟

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٢٤٥٧) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٢١٢٤١) مختصرًا.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وحَسَّنه ابنُ حجر في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (٢/ ٣٤٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٢).
قال القرطبي: (أي: خائِفةٌ وَجِلةٌ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وعليه عامَّةُ المفَسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠)، ((الوسيط)) =

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾.

أي: كيف نُبعَثُ أحياءً بعْدَ مَوتِنا إذا صِرْنا عِظامًا بالِيةً مُتفَتِّتةً[1]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ﴿١٢﴾﴾.

أي: قال أولئك المكَذِّبونَ: إنْ حصَلَت تلك الرَّجعةُ المزعومةُ إلى الحياةِ بعْدَ الموتِ فنحن خاسِرونَ إذَنْ[2].

= للواحدي (٤/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٩، ٧٠).

قال ابن جُزَي: (اختلَفوا في معنى ﴿ٱلۡحَافِرَةِ﴾ على ثلاثةِ أقوالٍ:

أَحَدُها: أنَّها الحالةُ الأُولى. يقال: رَجَع فلانٌ في حافرتِه: إذا رجَع إلى حالتِه الأولى، فالمعنى: أَإِنَّا لَمَرْدودون إلى الحياةِ بعدَ الموتِ؟

والآخَرُ: أنَّ الحافِرةَ الأرضُ، بمعنى محفورةٍ، فالمعنى: أَإِنَّا لَمَرْدودون إلى وَجهِ الأرضِ بعدَ الدَّفنِ في القبورِ؟

والثَّالثُ: أنَّ الحافِرةَ: النَّارُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٩، ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧١، ٧٢).

قيل: وَجهُ الخَسارةِ هنا أنَّهم صائِرونَ إلى النَّارِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مكِّيٌّ، وابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٣). =

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

أي: فإنَّما هي صَيحةٌ واحِدةٌ ونَفخةٌ تُنفَخُ في الصُّورِ بلا تَكرارٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

= ومِن المفسِّرينَ مَن عبَّر عن معنى الخسارةِ في الآيةِ بقولِه: لَنَخسَرَنَّ بما يُصيبُنا بعدَ الموتِ. ومنهم: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٣).

وقيل: إنَّهم قالوا ذلك استِهزاءً منهم، والمعنى: أنَّها إنْ صحَّتْ فنحن إذَنْ خاسِرونَ؛ لتكذيبِنا بها. وممَّن اختار هذا المعنى: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢).

قال البقاعي: (﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي: القيامةُ ﴿زَجْرَةٌ﴾ أي: صَيحةٌ بانتِهارٍ تتضَمَّنُ الأمرَ بالقيامِ، والسَّوقَ إلى المحشَرِ، والمنعَ مِنَ التخَلُّفِ ﴿وَاحِدَةٌ﴾). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٢٦).

قال ابنُ كثيرٍ: (فإنَّما هو أمرٌ مِن الله لا مثنويةَ فيه، ولا تأكيد، فإذا النَّاسُ قيامٌ ينظرونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٤).

وقال ابن عثيمين: (﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]. يعني أنَّ الله إذا أراد شيئًا إنَّما يقولُ له: «كنْ» مرةً واحدةً فقط فيكونُ، ولا يتأخَّرُ هذا عن قولِ الله لحظةً ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ والله عزَّ وجلَّ لا يعجزُه شيءٌ). ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ٤٢).

وقال ابن عاشور: (وهذه الزَّجْرةُ هي النَّفخةُ الثَّانيةُ الَّتي في قولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، فهي ثانيةٌ للَّتي قَبْلَها، وهي الرَّادِفةُ الَّتي تَقَدَّم ذِكْرُها آنِفًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢).

ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٧).

وقد اختُلِف في عددِ النَّفخاتِ في الصُّور، يُنظر ما يأتي (ص: ٣٨).

وسلَّم: ((... يَصْعَقُ النَّاسُ، ثمَّ يُرسِلُ اللهُ -أو قال: يُنزِلُ اللهُ- مطَرًا كأنَّه الطَّلُّ أو الظِّلُّ، فتَنبُتُ منه أجسادُ النَّاسِ، ثمَّ يُنفَخُ فيه أُخرى، فإذا هم قِيامٌ يَنظُرونَ، ثمَّ يُقالُ: يا أيُّها النَّاسُ، هَلُمَّ إلى رَبِّكم))[١].

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾.

أي: فإذا النَّاسُ قِيامٌ مِن قُبورِهم أحياءً على ظَهْرِ أرضِ المحشَرِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ عَبَّرَ بالزَّجْرِ، وهو أشَدُّ مِنَ النَّهْيِ؛ لأنَّه يكونُ للعَرْضِ؛ لأنَّها صيحةٌ لا يتخَلَّفُ عنها القيامُ أصلًا، فكان كأنَّ لِسانَ الحالِ قال عن تلك الصَّيحةِ: أيُّها الأجسادُ الباليةُ، انتهي عن الرُّقادِ، وقُومي إلى الميعادِ، بما حَكَمْنا به مِنَ المَعادِ، فقد انتهى زمانُ الحَصادِ، وآنَ أوانُ الاجتناءِ لِما قُدِّم مِنَ الزَّادِ، فيا وَيْلَ مَن ليس له زادٌ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ المرادُ بالنَّازِعاتِ وما عُطِفَ عليه: الملائِكةُ، وذُكِروا بلَفظِ التَّأنيثِ مع أنَّهم ليسُوا إناثًا؛ لأنَّه تعالى أقسَمَ بطَوائِفِها، والطَّائِفةُ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٢).

قال الواحدي: (﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ يعني: وَجْهَ الأرضِ وظَهْرَها في قَولِ الجَميعِ). ((الوسيط)) (٤/ ٤١٩).

وقال القرطبي: (العَرَبُ تُسَمِّي الفَلاةَ ووَجهَ الأرضِ ساهِرةً). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٧).

مُؤَنَّثَةٌ[١].

٢- إنَّ كُلَّ حَرَكةٍ في السَّمَواتِ والأرضِ مِن حَرَكاتِ الأفلاكِ، والنُّجومِ، والشَّمسِ، والقَمَرِ، والرِّياحِ، والسَّحابِ، والنَّباتِ، والحَيوانِ: هي ناشئةٌ عن الملائكةِ الموكَّلينَ بالسَّمَواتِ والأرضِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾، وقال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾[٢] [الذاريات: ٤].

٣- قد وكَّل الله عزَّ وجلَّ ملائكةً بالعالَمِ العُلْويِّ والسُّفْليِّ؛ فهي تقومُ بتدبيرِ أمرِ العالَمِ بإذْنِه تعالى ومَشيئتِه وأَمْرِه؛ فلهذا يُضيفُ التَّدبيرَ إلى الملائكةِ تارةً؛ لِكَونِهم هم المباشِرينَ للتَّدبيرِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾، ويضيفُ التَّدبيرَ إليه، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، وقَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]؛ فهو سُبحانَه المُدَبِّرُ؛ أَمْرًا وإذْنًا ومشيئةً، والملائكةُ المُدَبِّراتُ؛ مُباشَرةً وامتِثالًا[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۞ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ احتَجَّ به مَن يقولُ بأنَّ عددَ النَّفخِ نَفْخَتانِ[٤]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ١٤٠).

وقد اختَلَف العُلَماءُ في عدَدِ النَّفَخاتِ في الصُّورِ على أقْوالٍ؛ فقيلَ: هُما نَفْخَتانِ: نَفْخةُ الفزَعِ والصَّعقِ، ونَفْخةُ البَعثِ. وممَّن ذهَبَ إلى هذا القَولِ: ابنُ جَريرٍ، والقُرطبيُّ، والسعديُّ، وابنُ باز، وابنُ عُثَيْمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٤٩٠، ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((فتاوى نور على =

٥- قال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾، فقلوبُ الكفَّارِ ﴿وَاجِفَةٌ﴾، أي: خائفةٌ خَوفًا شديدًا. وأمَّا القِسمُ الثَّاني فقلوبُهم على عكسِ قُلوبِ هؤلاء، ويدُلُّ لهذا التَّقسيمِ قَولُه تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ﴾ بصيغةِ النَّكِرةِ، فيكونُ المعنى: وقلوبٌ على عكسِ ذلك[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ أنَّه جلَّ وعَلَا مِن قُوَّتِه وقُدْرَتِه: يَبعَثُ النَّاسَ كنَفْسٍ واحِدةٍ، فهو جلَّ وعَلَا له القُوَّةُ البالِغةُ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ ابتُدِئ بالقَسَمِ بمَخلوقاتٍ ذاتِ صِفاتٍ عَظيمةٍ قسَمًا مُرادًا منه تحقيقُ ما بعْدَه مِن الخَبرِ، وفي هذا القسَمِ تهويلُ المقسَمِ به[٣].

- وفي هذه الصِّفاتِ إجمالٌ مَقصودٌ؛ لِتَذهَبَ أفهامُ السَّامِعينَ كلَّ مَذهَبٍ ممكِنٍ، فتكثُرَ خُطورُ المعاني في الأذهانِ، وتَتكرَّرَ الموعظةُ والعِبرةُ باعتبارِ

= الدرب)) لابن باز (٤/ ٣٢٨)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٦٧).

وقيل: هي ثَلاثُ نَفَخاتٍ، وهي: نفخةُ الفزَعِ، ونفخةُ الصَّعقِ، ونفخةُ البعثِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ تَيميَّةَ، وابنُ كثير. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦).

وقيل: هي أربعُ نَفَخاتٍ: اثنتانِ قبْلَ يومِ القيامةِ، واثنتانِ في يومِ القيامةِ؛ فأمَّا النَّفختانِ قبْلَ القيامةِ فهُما نفخةٌ للموتِ، ونفخةٌ للبعثِ. وأمَّا النَّفختانِ يومَ القيامةِ: فنَفخةُ الفَزَعِ والصَّعقِ الَّتي يغشى فيها الخلائق -ولا يموتون- إلَّا مَن شاء اللهُ، ثمَّ نفخةٌ أخرى لقيامِهم وإفاقتِهم. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٢-٥٥٣، ٥٥٨، ٥٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠).

وَقْعِ كلِّ معنًى في نفْسٍ له فيها أشدُّ وَقْعٍ، وذلك مِن وَفرةِ المَعاني مع إيجازِ الألفاظِ[١].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ وصْفٌ مُشتَقٌّ مِن النَّزْعِ، ومعاني النَّزعِ كثيرةٌ، كلُّها تَرجِعُ إلى الإخراجِ والجَذبِ، وأقسَمَ اللهُ بالملائكةِ؛ لأنَّها مِن أشرَفِ المخلوقاتِ، وخَصَّها بهذا الوَصفِ الَّذي هو مِن تصَرُّفاتِها تَذكيرًا للمُشركينَ؛ إذْ هم في غفلةٍ عن الآخِرةِ وما بعْدَ الموتِ، ولأنَّهم شديدٌ تعلُّقُهم بالحياةِ؛ ففي القسَمِ بملائكةِ قبْضِ الأرواحِ عِظةٌ لهم وعِبرةٌ، والقسَمُ على هذا الوجهِ مناسِبٌ للغرَضِ الأهمِّ مِن السُّورةِ، وهو إثباتُ البعثِ؛ لأنَّ الموتَ أوَّلُ منازلِ الآخرةِ، فهذا مِن براعةِ الاستهلالِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ عَطفُها على النَّازعاتِ عطفُ نوعٍ على نوعٍ، أو عطفُ صِنفٍ على صِنفٍ[٣].

- و﴿سَبْحًا﴾ مَصدرٌ مؤكِّدٌ؛ لإفادةِ التَّحقيقِ، مع التَّوسُّلِ إلى تَنوينِه للتَّعظيمِ[٤].

- وأُكِّد (السَّابِقَاتِ) بالمصدرِ المرادفِ لمعناهُ -وهو ﴿سَبْقًا﴾-؛ للتَّأكيدِ، ولدَلالةِ التَّنكيرِ على عِظَمِ ذلك السَّبْقِ[٥].

- قولُه: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ التَّدبيرُ: جَوَلانُ الفِكْرِ في عواقبِ الأشياءِ، وبإجراءِ الأعمالِ على ما يليقُ بما تُوجَدُ له، فإنْ كانتِ السَّابحاتُ جماعاتِ الملائكةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٢).
وبراعةُ الاستِهلالِ تقدم تعريفُه (ص: ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فمعنى تدبيرِها: تنفيذُ ما نِيطَ بعُهدتِها على أكمَلِ ما أُذِنَتْ به، فعُبِّر عن ذلك بالتَّدبيرِ للأمورِ؛ لأنَّه يُشبِهُ فِعلَ المُدبِّرِ المتثبِّتِ[١].

- والفاءُ في ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۞ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾؛ للدَّلالةِ على تَرتُّبِهما على ما قبْلَهما بغيرِ مُهلةٍ[٢].

- قولُه: ﴿أَمۡرٗا﴾ الأمرُ: الشَّأنُ والغرَضُ المهِمُّ، وتنوينُه وتنكيرُه للتَّهويلِ والتَّفخيمِ والتَّعظيمِ. وإفرادُ الأمْرِ لإرادةِ الجنسِ، أي: أمورًا[٣].

- والعطفُ مع اتِّحادِ الكلِّ؛ لتَنزيلِ التَّغايُرِ العُنوانيِّ مَنزلةَ التَّغايُرِ الذَّاتيِّ؛ للإشعارِ بأنَّ كلَّ واحدٍ مِن الأوصافِ المعدودةِ مِن معظَّماتِ الأمورِ حقيقٌ بأنْ يكونَ على حِيالِه مناطًا لاستحقاقِ مَوصوفِه للإجلالِ والإعظامِ بالإقسامِ به مِن غيرِ انضمامِ الأوصافِ الأُخَرِ إليه[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۞ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۞ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۞ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾

- قولُه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ إلى ﴿خَٰشِعَةٞ﴾ قيل: هو جوابُ القَسَمِ، والمرادُ بقولِه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ هو يومُ القِيامةِ؛ لأنَّه قد عُرِفَ بمِثلِ هذه الأحوالِ في آياتٍ كثيرةٍ ممَّا سبَقَ نُزولُه، مِثل قولِه: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [الواقعة: ٤]؛ فكان في هذا الجوابِ تهويلٌ ليومِ البعثِ، وفي طيِّه تَحقيقُ وُقوعِه، فحصَلَ إيجازٌ في الكلامِ جامِعٌ بيْنَ الإنذارِ بوُقوعِه، والتَّحذيرِ ممَّا يَجري فيه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٥، ٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٥، ٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٥، ٦٦).

وقيلَ: المُقسَمُ عليه مَحذوفٌ؛ تَعْويلًا على إشارةِ ما قبْلَه مِن المقسَمِ به إليه، ودَلالةِ ما بعدَه مِن أحوالِ القيامةِ عليه، وهو (لَتُبعثُنَّ)؛ فإنَّ الإقسامَ بمَنْ يَتولَّى نزْعَ الأرواحِ ويقومُ بتدبيرِ أُمورِها يُلَوِّحُ بكونِ المقسَمِ عليهِ مِن قَبيلِ تلكَ الأمورِ لا مَحالةَ، وفيهِ مِنَ الجزالةِ ما لا يَخْفى[١].

- وجُعِلَ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ ظرفًا للمُقسَمِ عليه المضمَرِ الَّذي هو (لَتُبعثُنَّ)، وهم لا يُبعَثونَ عندَ النَّفخةِ الأُولى؛ لأنَّ المعنى: لَتُبعثُنَّ في الوقتِ الواسعِ الَّذي يقَعُ فيه النَّفختانِ، وهم يُبعَثونَ في بعضِ ذلك الوقتِ الواسعِ، وهو وقتُ النَّفخةِ الأُخرى، ودَلَّ على ذلك أنَّ قولَه: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ جُعِل حالًا عن الرَّاجِفةِ، ويجوزُ أنْ يَنتصِبَ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ بما دلَّ عليه ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾، أي: يومَ تَرجُفُ وجَفَتِ القلوبُ[٢].

وقيلَ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ منصوبٌ بـ(اذْكُرْ)، فتكونُ الجملةُ استِئنافًا مُقرِّرًا لمضمونِ الجوابِ المُضْمَرِ، كأنَّه قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اذكُرْ لهم يومَ النَّفختَينِ؛ فإنَّه وقتُ بَعْثِهم[٣].

وقيل: قولُه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ ظرْفٌ متعلِّقٌ بـ﴿وَاجِفَةٌ﴾، فآلَ إلى أنَّ المُقسَمَ عليه المرادَ تحقيقُه هو وُقوعُ البَعثِ بأسلوبٍ أَوقَعَ في نُفوسِ السَّامِعينَ المُنكِرينَ مِن أسلوبِ التَّصريحِ بجوابِ القسَمِ؛ إذ دلَّ على المقسَمِ عليه بعضُ أحوالِه الَّتي هي

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٢، ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٦).

مِن أهوالِه؛ فكان في جوابِ القَسَم إنذارٌ. وقُدِّم الظَّرفُ على مُتعلَّقِه ﴿وَاجِفَةٌ﴾؛ لأنَّ ذلك الظَّرفَ هو الأهمُّ في جوابِ القسَمِ؛ لأنَّ المقصودَ إثباتُ وُقوعِه؛ فتقديمُ الظَّرفِ للاهتِمامِ به والعنايةِ به؛ فإنَّه لَمَّا أُكِّد الكلامُ بالقسَمِ شَمِل التَّأكيدُ مُتعلَّقاتِ الخبرِ الَّتي منها ذلك الظرفُ، والتَّأكيدُ اهتمامٌ، ثمَّ أُكِّد ذلك الظَّرفُ في الأثناءِ بقولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الَّذي هو يومَ تَرجُفُ الرَّاجفةُ؛ فحصَلتْ عِنايةٌ عظيمةٌ بهذا الخبرِ[١].

- والرَّجفُ: الاضطرابُ والاهتزازُ، والمرادُ بالرَّاجفةِ الصَّيحةُ والزَّلزلةُ الَّتي ترجُفُ الأرضُ بسببِها، جُعِلتْ هي الرَّاجفةَ مبالَغةً، وهذا هو المناسِبُ لقولِه: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾، أي: تَتْبَعُ تلك الرَّاجفةَ -أي: مسبِّبةَ الرَّجفِ- رادفةٌ، أي: واقعةٌ بعدَها. ويجوزُ أنْ يكونَ الرَّجفُ مُعبَّرًا به عن شِدَّةِ الصَّوتِ، فشُبِّهَ الصَّوتُ الشَّديدُ بالرَّجفِ، وهو التَّزلزُلُ[٢].

- وقيلَ: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي: الواقعةُ الَّتي تردُفُ الأُولى، وهي النَّفخةُ الثَّانيةُ، تابعةً لها لا قبْلَ ذلكَ، واعتبارُ امتِدادِه معَ أنَّ البعثَ لا يكونُ إلَّا عِندَ النفخةِ الثَّانيةِ؛ لتهويلِ اليومِ ببيانِ كَونِه مَوقعًا لداهيتَينِ عظيمتَينِ لا يَبْقى عندَ وُقوعِ الأُولى حيٌّ إلَّا ماتَ، ولا عندَ وُقوعِ الثَّانيةِ إلَّا بُعِثَ، ووجْهُ إضافتِه إلى الأُولى ظاهِرٌ[٣].

- وتنكيرُ ﴿قُلُوبٌ﴾ يقومُ مَقامَ الوصفِ المختصِّ، سواءٌ على حمْلِ التَّنويعِ وإنْ لم يُذكَرِ النَّوعُ المقابِلُ؛ فإنَّ المَعْنى منسحِبٌ عليه، أو على التَّكثيرِ؛ فإنَّ التَّفخيمَ كما يكونُ بالكيفيَّةِ يكونُ بالكَمِّيَّةِ أيضًا، كأنَّه قيلَ: قُلوبٌ كثيرةٌ يومَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٦، ٩٧).

إذْ يقعُ النَّفختانِ واجفةٌ[١].

- وأضافَ الأبصارَ إلى القُلوبِ، مع أنَّها لا تُضافُ إليها؛ لأنَّ فيه حذفَ مُضافٍ، أي: أبصارُ أربابِها؛ لأنَّ الأبصارَ لأصحابِ القلوبِ، وكِلاهُما مِن جوارحِ الأجسادِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۞ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۞ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾

- قولُه: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۞ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ استئنافٌ إمَّا ابتدائيٌّ بعْدَ جُملةِ القَسَمِ وجوابِه؛ لإفادةِ أنَّ هؤلاء هم الَّذين سيَكونونَ أصحابَ القُلوبِ الواجفةِ والأبصارِ الخاشعةِ يومَ ترجُفُ الرَّاجفةُ. وإمَّا استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ القسَمَ وما بعْدَه مِن الوعيدِ يُثيرُ سؤالًا في نفْسِ السَّامعِ عن الدَّاعي لهذا القسَمِ، فأُجيبَ بجملةِ ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾، أي: مُنكِرونَ البعثَ؛ ولذلك سُلِك في حِكايةِ هذا القولِ أسلوبُ الغَيبةِ شأنَ المتحدِّثِ عن غيرِ حاضرٍ[٣].

فقولُه: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ حِكايةٌ لِما يقولُه المنكِرونَ للبعثِ المكذِّبونَ بالآياتِ النَّاطقةِ به، إثْرَ بيانِ وُقوعِه بطريقِ التَّوكيدِ القَسَميِّ، وذِكرِ مقدِّماتِه الهائلةِ، وما يَعرِضُ عندَ وُقوعِها للقُلوبِ والأبصارِ، أي: يقولونَ إذا قيلَ لهم: «إنكُم تُبعَثونَ» مُنكِرينَ له مُتعجِّبينَ منه: أإنَّا لَمَرْدودونَ بعْدَ موتِنا في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٨، ٦٩).

الحافرةِ؟! أي: في الحالةِ الأُولى؛ يَعْنونَ الحياةَ[١].

- وضَميرُ ﴿يَقُولُونَ﴾ عائدٌ إلى معلومٍ مِن السِّياقِ، وهم الَّذين شُهِروا بهذه المقالةِ، ولا يَخْفَوْنَ على المُطَّلِعِ على أحوالِهم ومخاطَباتِهم، وهم المُشرِكونَ في تكذيبِهم بالبعثِ، والمُساقُ إليه الكلامُ كلُّ مَن يَتأتَّى منه سماعُه مِن المُسلِمينَ وغيرِهم، ويجوزُ أنْ يكونَ الكلامُ مسوقًا إلى مُنكِري البعثِ على طَريقةِ الالتِفاتِ[٢].

- وحُكِيَ مَقالُهم بصِيغةِ المضارعِ ﴿يَقُولُونَ﴾؛ لإفادةِ أنَّهم مُستَمِرُّونَ عليه، وأنَّه متجدِّدٌ فيهم لا يَرْعَوُونَ عنه، وللإشعارِ بما في المضارعِ مِن استحضارِ حالتِهم بتكريرِ هذا القولِ؛ ليكونَ ذلك كنايةً عن التَّعجيبِ مِن قولِهم هذا، وقد عَلِم السَّامعُ أنَّهم ما كرَّروا هذا القولَ إلَّا وقد قالوهُ فيما مضى[٣].

- والهمزةُ في ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ؛ لأنَّهم أنكَروا الرَّدَّ ونَفَوْه[٤].

- وكانتْ عادتُهم أنْ يُلْقُوا الكلامَ الَّذي يُنكِرونَ فيه البعثَ بأسلوبِ الاستِفهامِ؛ إظهارًا لأنفُسِهم في مَظهَرِ المتردِّدِ السَّائلِ؛ لقَصدِ التَّهكُّمِ والتَّعجُّبِ مِن الأمرِ المستفهَمِ عنه، والمقصودُ التَّكذيبُ؛ لزعمِهم أنَّ حُجَّةَ استِحالةِ البعثِ ناهضةٌ. وجُعِل الاستِفهامُ التَّعجيبيُّ داخلًا على جُملةٍ اسميَّةٍ مؤكَّدةٍ بـ (إنَّ) وبلامِ الابتداءِ، وتلك ثلاثةُ مؤكِّداتٍ مقوِّيةٌ للخبرِ؛ لإفادة أنَّهم أَتَوْا بما يُفيدُ التَّعجُّبَ مِن الخبرِ، ومِن شدَّةِ يقينِ المُسلِمينَ به، فهم يَتعجَّبونَ مِن تصديقِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٣، ٣٦٤).

هذا الخبرِ، فضلًا عن تحقيقِه والإيقانِ به[١].

- والعربُ تقولُ: رجَعَ إلى الحافرةِ، تمثيلًا لِمَن كان في حالةٍ ففارَقَها ثمَّ رجَعَ إليها، فصار: رجَعَ في الحافرةِ، ورُدَّ إلى الحافرةِ، جاريًا مَجرى المَثَلِ[٢].

- قولُهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ هذا الاستِفهامُ إنكاريٌّ مؤكِّدٌ للاستِفهامِ الأوَّلِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذه الحالةَ جديرةٌ بزيادةِ إنكارِ الإرجاعِ إلى الحياةِ بعدَ الموتِ، فهما إنكارانِ؛ لإظهارِ شدَّةِ إحالتِه[٣].

- والظَّرفُ (إذا) هو مَناطُ التَّعجُّبِ وادِّعاءِ الاستِحالةِ، أي: إذا صِرْنا عِظامًا باليةً فكيف نَرجِعُ أحياءً[٤]؟!

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ﴿قَالُوا۟﴾ بدَلُ اشتمالٍ مِن جُملةِ ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾، أُعيدَ فِعلُ القولِ؛ لِمَقاصِدَ، منها: الدَّلالةُ على أنَّ قولَهم هذا في غرَضٍ آخَرَ غيرِ القولِ الأوَّلِ؛ فالقولُ الأوَّلُ قَصْدُهم منه الإنكارُ والإبطالُ، والقولُ الثَّاني قصَدوا منه الاستهزاءَ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بتلك الكَرَّةِ، فوصْفُهم إيَّاها بخاسرةٍ مِن بابِ الفرضِ والتَّقديرِ، أي: لو حصَلتْ كَرَّةٌ لَكانتْ خاسرةً، ونحن إذنْ خاسرونَ؛ لتكذيبِنا بها، ومنها دفْعُ توهُّمِ أنْ تكونَ جملةُ ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ استئنافًا مِن جانبِ اللهِ تعالى[٥].

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مسوقٌ لحِكايةِ كُفرٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٠، ٧١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧١).

آخَرَ متفرِّعٍ على كفرِهم السَّابقِ[١].

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ عُبِّر عن قولِهم هذا بصِيغةِ الماضي دونَ المضارعِ على عَكسِ ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠]؛ لأنَّ هذه المقالةَ قالوها استِهزاءً، فليستْ ممَّا يَتكرَّرُ منهم، بخِلافِ قولِهم: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠]؛ فإنَّه حُجَّةٌ ناهِضةٌ في زعمِهم، فهذا ممَّا يَتكرَّرُ منهم في كلِّ مَقامٍ، وبذلك لم يكُنِ المقصودُ التَّعجيبَ مِن قولِهم هذا؛ لأنَّ التَّعجيبَ يَقتضي الإنكارَ، وكونُ كَرَّتِهم -أي: عَودتِهم إلى الحياةِ- عودةً خاسرةً أمرٌ محقَّقٌ لا يُنكَرُ؛ لأنَّهم يَعودونَ إلى الحياةِ خاسِرينَ لا مَحالةَ[٢]؛ فلَعلَّ توسيطَ ﴿قَالُوا۟﴾ بيْنَهما؛ للإيذانِ بأنَّ صُدورَ هذا الكُفرِ عنهم ليس بطَريقِ الاطِّرادِ والاستِمرارِ مِثلَ كُفرِهم السَّابقِ المستمرِّ صُدورُه عنهم في أوقاتِهم كافَّةً حسبَما يُنبئُ عنه حِكايتُه بصِيغةِ المضارعِ[٣].

- وقيل: عبِّر بالماضي؛ لأنَّهم ما سمَحوا بهذا القولِ إلَّا مرَّةً مِنَ الدَّهرِ، وأمَّا أغلبُ قولِهم فكان أنَّهم يكونون على تَقديرِ البعثِ أسعَدَ مِنَ المؤمنينَ على قِياسِ ما هُم عليه في الدُّنيا ونحوِ هذا مِنَ الكذِبِ على الله[٤].

- و﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى الرَّدَّةِ المستفادةِ مِن (مَرْدودونَ)، والإشارةُ إليه باسمِ الإشارةِ للمؤنَّثِ؛ للإخبارِ عنه بـ(كَرَّةٌ)، و(إذنْ) حرفُ جوابٍ وجزاءٍ للكلامِ المتقدِّمِ، لا عمَلَ لها، جِيءَ بها لإفادةِ تأكيدِ الرَّجعةِ الخاسرةِ، والتَّقديرُ: إذنْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٦).

تلك كَرَّةٌ خاسرةٌ، فقُدِّم (تلك) على حرفِ الجوابِ؛ للعنايةِ بالإشارةِ[١].

- ووصْفُ الكَرَّةِ بالخاسرةِ للمبالَغةِ؛ لأنَّ الخاسرَ أصحابُها، والمعنى: إنَّا إذنْ خاسرونَ؛ لتكذيبِنا، وتَبيُّنِ صِدقِ الَّذي أنذَرَنا بتلك الرَّجعةِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ فصيحةٌ -تُفصِحُ عن جملةٍ قد حُذِفَتْ-؛ للتَّفريعِ على ما يُفيدُه قولُهم: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات: ١٠، ١١] مِن إحالتِهم الحياةَ بعدَ البِلى والفَناءِ، فتَقديرُ الكلامِ: لا عجَبَ في ذلك؛ فما هي إلَّا زجرةٌ واحدةٌ فإذا أنتم حاضِرونَ في الحشرِ[٣]؛ فهو تَعليلٌ لِمُقدَّرٍ يَقتضيه إنكارُهم لإحياءِ العِظامِ النَّخِرةِ الَّتي عبَّروا عنها بالكَرَّةِ؛ فإنَّ مَدارَه لَمَّا كان استِصعابَهم إيَّاها ردَّ عليهم ذلك، فقيلَ: لا تَستَصْعِبوها؛ فإنَّما هي صيحةٌ واحدةٌ[٤].

- قولُه: ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ هي النَّفخةُ الثَّانيةُ، عُبِّر عنها بها؛ تَنبيهًا على كمالِ اتِّصالِها بها، كأنَّها عَيْنُها[٥].

- في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ قَصْرٌ حقيقيٌّ[٦] مرادٌ منه تَأكيدُ الخبرِ بتنزيلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨).

(٦) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ =

السَّامعِ مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ زجرةً واحدةً غيرُ كافيةٍ في إحيائِهم[١].

- ووُصِفَتِ الزَّجرةُ بواحدةٍ تأكيدًا؛ لِما في صِيغةِ المَرَّةِ مِن معْنى الوَحدةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ إفرادَه للنَّوعيَّةِ، وإنَّما أُريدَ بكَونِها واحدةً أنَّها لا تُتْبَعُ بثانيةٍ لها، وقد وُصِفَتْ بواحدةٍ في سورةِ الحاقَّةِ بهذا الاعتبارِ[٢].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ بيانٌ لترتُّبِ الكَرَّةِ على الزَّجرةِ مُفاجأةً، أي: فإذا هُم أحياءٌ على وجهِ الأرضِ بعْدَما كانوا أمواتًا في جَوفِها، أو بيانٌ لحُضورِهم الموقفَ عَقِيبَ الكَرَّةِ الَّتي عُبِّرَ عنها بالزَّجرةِ[٣].

= والواقِعِ، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقَصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٧٢، ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨).

- والفاءُ في ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ فاءُ الفَصيحةِ؛ للتَّفريعِ على جُملةِ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾، و(إذا) للمُفاجأةِ؛ فالإتيانُ بها للدَّلالةِ على سُرعةِ حُضورِهم بهذا المكانِ عَقِبَ البعثِ، أي: الحُصولِ دونَ تأخيرٍ، فحصَلَ تأكيدُ معنى التَّفريعِ الَّذي أفادَتْه الفاءُ، وذلك يُفيدُ عدمَ التَّرتُّبِ بيْنَ الزَّجْرةِ والحُصولِ في السَّاهرةِ؛ فالجمعُ بيْنَ المفاجأةِ والتَّفريعِ أشدُّ ما يُعبَّرُ به عن السَّرعةِ مع إيجازِ اللَّفظِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٤، ٣٦٥).

الآيات (١٥-٢٦)

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾: أي: المُطَهَّرِ المُبارَكِ، وأصلُ (قدس): يدُلُّ على الطُّهرِ[١].

﴿طَغَىٰ﴾: أي: عَتا، وتَجاوَزَ حدَّه في العُدوانِ، والتَّكبُّرِ على ربِّه، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[٢].

﴿تَزَكَّىٰ﴾: أي: تتطهَّرَ مِن الشِّركِ، وأصلُ (زكى): يدُلُّ على نَماءٍ وطهارةٍ[٣].

﴿أَدْبَرَ﴾: أي: ولَّى مُعرِضًا، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه[٤].

﴿فَحَشَرَ﴾: أي: فجمَع قَومَه وجُنودَه، وأصلُ (حشر): يدُلُّ على جَمعٍ مع سَوقٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٨٠٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٨٠٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٨٠٣٥، ٨٠٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٨٠٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((الهداية)) =

﴿نَكَالَ﴾: النَّكالُ: العُقوبةُ والتَّنكيلُ، يُقالُ: نَكَّلْتُ بفُلانٍ، إذا عاقَبْتَه في شَيءٍ أتاه عقوبةً تُنَكِّلُ غيرَه عن ارتكابِ مِثلِه، أي: تمنَعُ وترُدُّ، والنِّكْلُ: القَيدُ؛ لأنَّه يَمنعُ الجَريَ، وأصلُ (نكل): يدُلُّ على مَنعٍ[1].

﴿لَعِبْرَةً﴾: أي: لَعِظَةً ومُعتَبَرًا وفِكرةً، والعِبرةُ: الدَّلالةُ بالشَّيءِ على مِثلِه، وحقيقتُها: الحالةُ الَّتي يُتوصَّلُ بها مِن معرفةِ المُشاهَدِ إلى ما ليس بمُشاهَدٍ، وأصلُ (عبر): يدُلُّ على النُّفوذِ والمُضِيِّ في الشَّيءِ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾

﴿لَّكَ﴾: شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ خَبَرُ مُبتدأٍ محذوفٍ. و ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ متعَلِّقٌ بذلك المبتدأِ المحذوفِ، والتَّقديرُ: هل لك سَبيلٌ أو رغبةٌ إلى التَّزكيةِ.

= لمكي (١٢/ ٨٠٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٦٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٨٠٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٣).

قال ابن فارس: (أمَّا الاعتبارُ والعِبْرةُ فعِندَنا مَقيسانِ مِن عِبْرَي النَّهرِ [بفتحِ العينِ وكسرِها، أي: شطيه]؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما عِبْرٌ مُساوٍ لصاحبِه فذاكَ عِبْرٌ لهذا، وهذا عِبْرٌ لذاكَ. فإذا قُلْتَ: اعْتَبَرْتُ الشَّيءَ، فكأنَّكَ نَظَرْتَ إلى الشَّيءِ فجَعَلْتَ ما يَعْنِيكَ عِبْرًا لذاكَ: فتَساوَيا عِندَك. هذا عِندَنا اشْتِقاقُ الاعْتِبارِ). ((مقاييس اللغة)) (٤/ ٢٠٩، ٢١٠).

وقال ابن القيِّم: (الاتِّعاظُ يُسمَّى اعتبارًا وعِبرةً؛ لعُبورِ المتَّعِظِ مِن النَّظيرِ إلى نظيرِه). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٤٩).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾

قَولُه تعالى: ﴿نَكَالَ﴾: نائِبٌ عن المصدَرِ، مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ؛ لِمُلاقاتِه «أَخَذَ» في المعنى؛ لأنَّ أَخَذَه ونَكَّلَ به هنا بمَعنًى، أي: نَكَّل بالأَخْذِ نَكالَ الآخرةِ والأُولى، أو: أخَذَه أخْذَ نَكالٍ. ويجوزُ أَنْ يكونَ مفعولًا لأجْلِه، أي: لأجْلِ نَكالِه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَحكي الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ؛ تسليةً لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ ناداه ربُّه سُبحانَه بالوادي المُبارَكِ المسَمَّى طُوًى؟ فقال له: اذهَبْ إلى فِرعَونَ؛ لأنَّه تجاوَزَ حَدَّه في التَّكَبُّرِ والعِصْيانِ، فقُلْ له: هل لك إلى أن تُطَهِّرَ نَفْسَك مِن دَنَسِ الكُفْرِ والمعاصي، وأَدُلَّك على خالقِك ورازِقِك؛ فتَخشى سَخَطَه وعَذابَه؟

فأرى موسى فِرعَونَ المُعجِزةَ الكُبرى الدَّالَّةَ على صِدْقِه، فكَذَّب فِرعَونُ بالحَقِّ وعصى، ثمَّ تولَّى ساعيًا في صَدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِ موسى عليه السَّلامُ، فجَمَع فِرعَونُ قومَه وأتْباعَه وخاطَبَهم، فقال لهم: أنا رَبُّكم الأعلى! فعاقَبَه اللهُ تعالى عُقوبةَ الآخرةِ بالنَّارِ، وعُقوبةَ الدُّنيا بالغَرَقِ.

إنَّ في ذلك العِقابِ لِفِرعَونَ لَعِظَةً لِمَن يَخافُ اللهَ تعالى وعِقابَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥﴾.

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٧٦، ٦٧٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٣١، ٢٣٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٢٣١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

وَجْهُ المناسَبةِ بيْن هذه القِصَّةِ وبيْن ما قَبْلَها مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ اللهَ تعالى حكى عن الكُفَّارِ إصرارَهم على إنكارِ البَعْثِ، حتَّى انتَهَوْا في ذلك الإنكارِ إلى حَدِّ الاستهزاءِ في قَولِهم: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات:١٢]، وكان ذلك يَشُقُّ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذكَرَ قِصَّةَ موسى عليه السَّلامُ، وبيَّنَ أنَّه تَحمَّلَ المشَقَّةَ الكثيرةَ في دَعوةِ فِرعَونَ؛ لِيَكونَ ذلك كالتَّسليةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ فِرعَونَ كان أقوى من كُفَّارِ قُرَيشٍ، وأكثَرَ جَمعًا، وأشَدَّ شَوكةً، فلَمَّا تمَرَّد على موسى عليه السَّلامُ أخَذَه اللهُ نَكالَ الآخرةِ والأُولى، فكذلك هؤلاء المُشرِكونَ في تمَرُّدِهم عليك، إنْ أصَرُّوا أخَذَهم اللهُ، وجَعَلَهم نَكالًا[(١)].

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥﴾.

أي: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وما كان مِن أَمْرِه[(٢)]؟

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

قال القرطبي: (هذا تسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: إنَّ فِرعَونَ كان أقوى مِن كُفَّارِ عَصْرِك، ثمَّ أخَذْناه، وكذلك هؤلاء). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٠، ٢٠١).

وقال ابن عثيمين: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، أو لكُلِّ مَن يتأتَّى خِطابُه ويَصِحُّ توجيهُ الخِطابِ إليه، ويكونُ على المعنى الأوَّلِ: هل أتاك يا محمَّدُ؟ وعلى المعنى الثَّاني: هل أتاك أيُّها الإنسانُ؟). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٤).

أي: حينَ ناداه ربُّه سُبحانَه بالوادي المباركِ المطَهَّرِ المسَمَّى طُوًى[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١١، ١٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧﴾.

أي: قال اللهُ لِموسى: اذهَبْ إلى فِرعَونَ مَلِكِ مِصرَ؛ لأنَّه تَجاوَزَ حَدَّه في التَّكَبُّرِ والعُدوانِ والعِصْيانِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ۝ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٢ - ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٥).

قال ابن جرير: (وقد اختَلَفَ أهلُ التَّأويلِ في قَولِه: ﴿طُوًى﴾؛ فقال بعضُهم: هو اسمُ الوادي... وقال آخَرونَ: بلْ معنى ذلك: طَأِ الأرضَ حافيًا... وقال آخَرونَ: بلْ معنى ذلك أنَّ الواديَ قُدِّسَ طُوًى، أيْ: مَرَّتَينِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧-٣١) و(٢٤/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٦).

أي: فقُلْ له: هل لك إلى أن تُطَهِّرَ نَفْسَك مِن دَنَسِ الكُفْرِ والمعاصي[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۞ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٥، ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

أي: قُلْ له: وهَلْ لك إلى أن أُرشِدَك وأَدُلَّك على خالقِك ورازِقِك؛ فتَخشَى سَخَطَه وعَذابَه، بامتِثالِ أوامِرِه واجتنابِ نَواهيه[(٢)]؟

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: فأرى موسى فِرعَونَ المُعجِزةَ الكُبرى الدَّالَّةَ على صِدْقِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠١)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٧).

قيل: المرادُ بالآيةِ الكُبرى: اليَدُ -إذ أخرَجها بَيْضاءَ للنَّاظِرينَ- والعصا إذ تحوَّلَتْ ثُعبانًا. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلَّامٍ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، والخازن، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٧).

ونسَبَ ابنُ الجَوزيِّ هذا القولَ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٦).=

كما قال الله تعالى: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٖ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٞ مُّبِينٞ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾[الأعراف: ١٠٦ - ١٠٨].

﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: فكَذَّب فِرعَونُ بالحَقِّ الَّذي جاء به موسى، وعصى ما أمَرَه به مِن طاعةِ رَبِّه[1].

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾.

أي: ثمَّ تولَّى فِرعَونُ مُجتَهِدًا في محارَبةِ موسى، وصَدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِه[2].

= وقيل: المرادُ بالآيةِ الكبرى: اليَدُ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٩٠).

وقيل: هي العصا. وممَّن اختاره: الرَّسْعَنيُّ، والشربيني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٨).

قال الزمخشري: (الآيةُ الكُبرى: قَلْبُ العَصا حَيَّةً؛ لأنَّها كانت المقَدِّمةَ والأصلَ، والأُخرى كالتَّبَعِ لها... أو أرادهما جميعًا، إلَّا أنَّه جعَلَهما واحدةً؛ لأنَّ الثَّانيةَ كأنَّها مِن جملةِ الأُولى؛ لكَونِها تابِعةً لها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٥، ٦٩٦).

وقال السمرقندي: (﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ يعني: العصا، واليَدَ، وسائرَ الآياتِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٣).

وقال السعدي: (﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ أي: جِنسَ الآيةِ الكُبرى، فلا يُنافي تعَدُّدَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

قال ابن كثير: (قَولُه: ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ أي: في مُقابَلةِ الحقِّ بالباطِلِ، وهو جَمْعُه السَّحَرةَ؛ ليُقابِلوا ما جاء به موسى عليه السَّلامُ مِن المعجزةِ الباهِرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥).

وقال ابن عاشور: (يجوزُ أن يكونَ ﴿ أَدْبَرَ ﴾ على حقيقتِه، أي: تَرَك ذلك المَجمَعَ بأن قام =

كما قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٣٤ - ٣٧].

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي: فجَمَع فِرعَونُ قومَه وأتْباعَه، وخاطَبَهم بصَوتٍ مُرتَفِعٍ(١).

= مُعرِضًا؛ إعلانًا بغَضَبِه على موسى، ويكونَ ﴿يَسْعَىٰ﴾ مُستَعمَلًا في حقيقتِه أيضًا، أي: قام يشتَدُّ في مَشْيِه، وهي مِشيةُ الغاضِبِ المُعرِضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٨).

قيل: المحشورونَ هم قَومُه وأتْباعُه وأهلُ مملكتِه. وممَّن ذهب إلى هذا في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥).

وقيل: المحشورونَ هم الجنودُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٠).

وقيل: هم السَّحَرةُ والجُنودُ. وممَّن ذهب إليه: النَّسَفي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٢).

قال القرطبي: (قيل: جمَع جُنودَه للقتالِ والمُحارَبةِ، والسَّحرةَ للمُعارَضةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢).

وقيل: حشَر قَومَه، وجُنودَه. وممَّن اختاره: البغويُّ، والرَّسْعَني، والخازن. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٢).

وقيل: المحشورون هم السَّحرةُ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرازي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٣١).

وقيل: حشَر النَّاسَ للحُضورِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢).

قال ابن عثيمين: (حشَر النَّاسَ -أي: جمَعَهم- ونادى فيهم بصَوتٍ مُرتفعٍ؛ لِيَكونَ ذلك أبلَغَ في نَهْيِهم عمَّا يريدُ منهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٨).

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾.

أي: فقال فِرعَونُ: أنا رَبُّكم الأعلى، فلا أحَدَ فَوقي، وكُلُّ رَبٍّ فهو دُوني[1]!

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن فِرعَونَ أفعالَه وأقوالَه؛ أتْبَعَه بما عامَلَه به[2].

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾.

أي: فعاقَبَه اللهُ تعالى عُقوبةَ الآخرةِ بالنَّارِ، وعُقوبةَ الدُّنيا بالغَرَقِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٢).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالآخِرةِ: الدَّارُ الآخِرةُ، وبالأُولى: الدُّنيا، فنكل به في الدُّنيا بالإغراقِ، وفي الآخرةِ بالإحراقِ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والكرماني، والزمخشري، وابنُ جُزَي، والخازن، وابن كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢٧)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٩٠).

وقيل: المعنى: فعاقَبَ اللهُ فِرعَونَ عُقوبةَ كَلِمتِه الأخيرةِ، وهي قَولُه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وكَلِمتِه الأُولى الَّتي قالها مِن قَبْلُ، وهي: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: =

كما قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٣٩، ٤٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ * ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: إنَّ في ذلك العِقابِ لِفِرعَونَ لَعِظَةً لِمَن يَخافُ اللهَ تعالى وعِقابَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ

= ٣٨]. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وابنُ جرير، والسمعانيُّ، والقرطبي، وابن تيميَّةَ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٧٧)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٣١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٠).

ونسَبَ الواحديُّ هذا القولَ إلى الأكثَرينَ، ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وعِكْرِمةُ، ومُجاهِدٌ في روايةٍ عنه، والشَّعْبيُّ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٩٠).

قال الفرَّاءُ: (أي: أخَذَه اللهُ أخْذًا نَكالًا للآخرةِ والأُولى). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٣٣).

وقال القرطبيُّ: (والمعنَى: أمْهَلَه في الأُولَى، ثُمَّ أخَذه في الآخِرةِ، فعَذَّبَه بكَلِمَتَيْهِ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٢، ١٠٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- إنَّ مُخاطَبَةَ الرُّؤَساءِ بالقَولِ اللَّيِّنِ أمْرٌ مَطلوبٌ شرعًا وعقلًا وعُرفًا؛ ولذلك تَجِدُ النَّاسَ كالمَفطورينَ عليه، وهكذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخاطِبُ رؤساءَ العَشائرِ والقبائلِ، وتأمَّلِ امْتِثالَ موسى عليه السَّلامُ لِمَا أُمِرَ به[1]، فقد أمَرَه سُبحانَه أنْ يُخاطِبَ فِرعَونَ بألينِ خِطابٍ، فقال لموسى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، وفي هذا مِن لُطْفِ الخِطابِ ولِينِه وُجوهٌ:

أحدُها: إخراجُ الكَلامِ مُخْرَجَ العَرْضِ، ولم يُخرِجْه مُخرَجَ الأمرِ والإلزامِ، وهو ألطَفُ، ونظيرُه قولُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لضَيفِه المكرَمينَ: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧]، ولم يَقُلْ: كُلُوا.

الثَّاني: قولُه: ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ والتَّزَكِّي: النَّماءُ والطَّهارةُ والبَرَكةُ والزِّيادةُ، فعَرَضَ عليه أمرًا يَقْبَلُه كلُّ عاقلٍ، ولا يَرُدُّه إلَّا كلُّ أحمَقَ جاهِلٍ.

الثَّالثُ: قولُه: ﴿تَزَكَّىٰ﴾، ولَم يَقُلْ: أُزَكِّيك، فأضاف التَّزكيةَ إلى نفْسِه، وعلى هذا يُخاطَبُ الملوكُ.

الرَّابعُ: قولُه: ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ أي: أكونُ دليلًا لك وهاديًا بيْن يَدَيك؛ فنَسَبَ الهِدايةَ إليه، والتَّزَكِّي إلى المُخاطَبِ، أي: أكونُ دليلًا لك وهاديًا فتَزَكَّى أنت، كما تقولُ للرَّجُلِ: هل لك أنْ أدُلَّك على كَنزٍ تأخُذُ منه ما شِئْتَ؟ وهذا أَحسَنُ مِن قَولِه: أُعطِيك.

الخامِسُ: قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ فإنَّ في هذا ما يُوجِبُ قَبولَ ما دلَّ عليه، وهو أنَّه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٣٢).

يدعوه ويُوصِلُه إلى ربِّه فاطِرِه وخالِقِه، الَّذي أوجَدَه ورَبَّاه بنِعَمِه جَنينًا وصغيرًا وكبيرًا، وآتاه المُلْكَ، وهو نَوعٌ مِن خِطابِ الاستِعطافِ والإلزام، كما تقولُ لِمَن خرَج عن طاعةِ سيِّدِه: ألَا تُطيعُ سيِّدَك ومَوْلاك ومالِكَك؟! وتقولُ للولَدِ: ألَا تُطيعُ أباك الَّذي رَبَّاك[١]؟!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّ مَعرِفةَ اللهِ تعالى مُقَدَّمةٌ على طاعتِه؛ لأنَّه ذَكَر الهدايةَ، وجَعَل الخَشْيةَ مُؤخَّرةً عنها، ومُفَرَّعةً عليها[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّ الخَشيةَ لا تكونُ إلَّا بالمَعرِفةِ، قال تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، أي: العلماءُ به، ودَلَّت الآيةُ على أنَّ الخشيةَ مِلاكُ الخَيراتِ، لأنَّ مَن خَشِيَ اللهَ أتَى منه كلُّ خيرٍ، ومَنْ أَمِنَ اجْتَرَأ على كلِّ شرٍّ، ومنه قولُه عليه السَّلامُ: ((مَنْ خَافَ أَدْلَجَ[٣]، وَمَنْ أدلَجَ بلَغ المَنزِلَ))[٤].

٤- قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۞ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۞ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ فجَمَع بيْن التَّزَكِّي والهُدى والخَشيةِ، كما جَمَع بيْن العِلمِ والخَشيةِ في قَولِه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وفي قَولِه: ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٠).

(٣) أَدْلَجَ: أي: سارَ أوَّلَ اللَّيلِ. يُنظر: ((جامع الأصول)) لابن الأثير (٤/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٠).

والحديث أخرجه الترمذيُّ (٢٤٥٠) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٧٨٥١)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٨٨١).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٥٠)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((رياض الصالحين)) (٤١٠)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحسَّن إسنادَه ابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٧٩).

هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وفي قَولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]؛ وذلك لأنَّ كُلَّ واحدٍ مِن العِلمِ بالحَقِّ -الَّذي يتضَمَّنُه التَّذَكُّرُ، والذِّكْرُ الَّذي يُحدِثُه القُرآنُ-، ومِنَ الخَشيةِ المانعةِ مِن اتِّباعِ الهوى: سَبَبٌ لصلاحِ حالِ الإنسانِ، فإذا ضَعُفَ العِلمُ غلَبَ الهوى الإنسانَ، وإنْ وُجِد العِلمُ والهوى -وهما المُقتضي والدَّافعُ- فالحُكمُ للغالبِ. وإذا كان كذلك فصلاحُ بَني آدَمَ الإيمانُ والعملُ الصَّالحُ، ولا يُخرِجُهم عن ذلك إلَّا شَيئانِ؛ أحدُهما: الجهلُ المُضادُّ للعِلمِ، فيَكونونَ ضُلَّالًا، والثَّاني: اتِّباعُ الهوى والشَّهوةِ اللَّذَينِ في النَّفْسِ، فيَكونونَ غُواةً مغضوبًا عليهم[(١)].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ فيه أنَّ مَن يَخشى اللهَ هو الَّذي يَنتَفِعُ بالآياتِ والعِبَرِ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّ اللهَ تعالى تكلَّمَ بالقرآنِ بحُروفِه ومَعانيه، فجميعُه كلامُ الله، وهو سُبحانَه نادى موسى عليه السَّلامُ بصَوتٍ سمِعه موسى؛ فإنَّه قد أخبَر أنَّه نادى موسى في غيرِ مَوضِعٍ مِن القرآنِ الكريم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾، والنِّداءُ لا يكونُ إلَّا صَوتًا باتِّفاقِ أهلِ اللُّغةِ[(٣)]. ففي قَولِه تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ دليلٌ على أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ، تَكَلَّمَ به تكَلُّمًا؛ لأنَّ النِّداءَ كَلامٌ مَسموعٌ لا مَحالةَ، والكَلامُ للمُتكَلِّمِ، والنِّداءُ منه، وصِفةٌ مِن صِفاتِه، وهو بجَميعِ صِفاتِه غيرُ مَخلوقٍ، ثُمَّ أخبَرَ عن فِرعَونَ،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

(٣) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٣/ ١٥٥).

فقال: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾، فكان نِداءُ فِرعَونَ مخلوقًا؛ لأنَّ المنادِيَ مخلوقٌ، وكلُّ صِفةٍ تَبَعٌ للمَوصوفِ؛ فإنْ كان الموصوفُ مَخلوقًا كان كَلامُه مَخلوقًا، وإنْ كان الموصوفُ خالقًا كان كَلامُه غيرَ مَخلوقٍ(١).

٢- في قَولِه تعالى لموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ سؤالٌ: أنَّه في سورةِ (طه) قال سُبحانَه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣]!

والجوابُ: أنَّه لا مُنافاةَ بيْن الآيتَينِ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى أَرْسَلَ موسى أوَّلًا، ثُمَّ طَلَبَ موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن ربِّه أنْ يَشُدَّ أَزْرَه بأخيه هارونَ، فأَرْسَلَ هارونَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع موسى، فصار موسى وهارونُ كِلاهما مُرْسَلًا إلى فِرعَونَ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۞ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۞ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ إخبارٌ عن قُبْحِ أعمالِ الكُفَّارِ قبْلَ أنْ يأتيَهم الرَّسولُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٧٨).

قال ابن تيميَّةَ: (قد تنازَعَ النَّاسُ في حُسنِ الأفعالِ وقُبحِها؛ كحُسنِ العدلِ والتَّوحيدِ والصِّدقِ، وقُبحِ الظُّلْمِ والشِّركِ والكَذِبِ: هل يُعلَمُ بالعقلِ، أمْ لا يُعلَمُ إلَّا بالسَّمعِ؟ وإذا قيل: إنَّه يُعلَمُ بالعقلِ، فهل يُعاقَبُ مَن فعَلَ ذلك قبْلَ أن يأتيَه رسولٌ؟ على ثلاثةِ أقوالٍ معروفةٍ في أصحابِ الأئمَّةِ وغيرِهم، وهي ثلاثةُ أقوالٍ لأصحابِ الإمامِ أحمدَ وغيرِهم؛ فقالت طائفةٌ: لا يُعرَفُ ذلك إلَّا بالشَّرعِ لا بالعقلِ. وقيل: بل قد يُعلَمُ حُسنُ الأفعالِ وقُبحُها بالعقلِ. ثمَّ هؤلاء على قولَينِ: منهم مَن يقولُ: يَستَحِقُّونَ عذابَ الآخرةِ بمُجرَّدِ مُخالَفَتِهم للعقلِ، كقولِ المعتزلةِ والحنَفيَّةِ وأبي الخطَّابِ، وقولُ هؤلاء مخالِفٌ للكتابِ والسُّنَّةِ. ومنهم مَن يقولُ: بل لا يُعَذَّبونَ حتَّى يُبعَثَ إليهم رسولٌ كما دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ، لكنْ أفعالُهم تكونُ مذمومةً مَمْقوتةً، يَذُمُّها اللهُ ويُبغِضُها، ويُوصَفونَ بالكفرِ الَّذي يَذُمُّه اللهُ ويُبغِضُه، وإن كان لا يُعَذِّبُهم حتَّى يَبعَثَ إليهم رسولًا؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا =

٤- في قولِه: ﴿هَل لَّكَ﴾ فائدةٌ لطيفةٌ، وهي أنَّ المعنى: هل لك في ذلك حاجةٌ أو أَرَبٌ؟ ومعلومٌ أنَّ كلَّ عاقِلٍ يُبادِرُ إلى قَبولِ ذلك؛ لأنَّ الدَّاعيَ إنَّما يَدعو إلى حاجتِه ومصلحتِه، لا إلى حاجةِ الدَّاعي، فكأنَّه يقولُ: الحاجَةُ لك، وأنت المُتزَكِّي، وأنا الدَّليلُ لك والمُرشِدُ لك إلى أعظَمِ مَصالِحِك[(١)].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّه أراه الآياتِ كُلَّها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ [طه: ٥٦]، وكُلُّ آياتِه كُبْرى؟

الجوابُ: الإخبارُ هنا عمَّا أَراه له أوَّلَ مُلاقاتِه إيَّاه، وهو العَصا واليَدُ، وأطلَقَ عليهما: ﴿ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾؛ لاتِّحادِ مَعناهما، أو أراد بالكُبْرى: العَصا وَحْدَها؛ لأنَّها كانت مُقَدَّمةً على الأُخرى[(٢)].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ كُلَّ أحَدٍ يَعلَمُ أنَّ كُلَّ مَن كَذَّبَ اللهَ فقد عصى، فما الفائدةُ في قَولِه: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾؟

= مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]، فهذا يُبيِّنُ أنَّه لم يكُنْ لِيُعَذِّبَ الكفَّارَ حتَّى يَبعَثَ إليهم رسولًا، وبَيِّنٌ أنَّهم قبْلَ الرَّسولِ كانوا قد اكتَسَبوا الأعمالَ الَّتي تُوجِبُ المَقْتَ والذَّمَّ، وهي سببٌ للعذابِ، لكنْ شَرْطُ العذابِ قيامُ الحُجَّةِ عليهم بالرِّسالةِ). ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) بتصرف (٢/ ٣٠٧-٣١٤).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٥، ٦٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩، ١٠٠).

الجوابُ: أنَّ المعنى: كَذَّب بالقَلْبِ واللِّسانِ، وعصى بأنْ أظهَرَ التَّمَرُّدَ والتَّجَبُّرَ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾

- قولُه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ هذه الآيةُ اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [النازعات: ١٣] وبيْنَ جُملةِ ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، الَّذي هو الحُجَّةُ على إثباتِ البعثِ، ثمَّ الإنذارُ بما بَعْدَه، دعَتْ إلى استِطرادِه مُناسَبةُ التَّهديدِ لِمُنكِري ما أخبَرَهم به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن البعثِ؛ لِتَماثُلِ حالِ المُشرِكينَ في طُغيانِهم على اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحالِ فِرعونَ وقَومِه، وتماثُلِ حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع قَومِه بحالِ موسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ؛ لِيَحصُلَ مِن ذِكرِ قِصَّةِ موسى تَسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تَكذيبِ قَومِه له، ومَوعظةٌ للمُشرِكينَ وأَئِمَّتِهم مِثلِ أبي جَهلٍ وأُمَيَّةَ بنِ خلَفٍ وأضرابِهما؛ لقولِه في آخِرِها: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾[٢] [النازعات: ٢٦].

- ومَعْنى ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ إنِ اعتُبِرَ هذا أوَّلَ ما أتاهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن حَديثِه عليه السَّلامُ: ترغيبٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في استِماعِ حَديثِه، كأنَّه قيلَ: هل أتاكَ حَديثُه؟ أنا أُخبِرُك به، وإنِ اعتُبِرَ إتيانُه قبْلَ هذا -وهو المُتبادِرُ مِن الإيجازِ في الاقتِصاصِ- حمَلَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على أنْ يُقِرَّ بأمْرٍ يَعرِفُه قبْلَ ذلكَ، كأنَّه قيلَ: أليس قد أتاكَ حديثُه؟ فالاستِفهامُ تَقريريٌّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩)، ((إعراب القرآن)) =

- وقيل: الاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ صُوريٌّ يُقصَدُ منه تشويقُ السَّامعِ إلى الخبرِ مِن غيرِ قَصدٍ إلى استِعلامِ المخاطَبِ عن سابقِ عِلمِه بذلك الخبرِ، فسواءٌ في ذلك عَلِمَه مِن قبْلُ أو لم يَعلَمْه؛ ولذلك لا يَنتظِرُ المتكلِّمُ بهذا الاستفهامِ جوابًا عنه مِن المسؤولِ، بل يُعقِّبُ الاستِفهامَ بتفصيلِ ما أَوْهَمَ الاستِفهامَ عنه بهذا الاستفهامِ؛ كِنايةً عن أهمِّيَّةِ الخبرِ بحيثُ إنَّه ممَّا يَتساءَلُ النَّاسُ عن عِلمِه، والخِطابُ لغيرِ معيَّنٍ، فالكلامُ موعظةٌ، ويَتْبعُه تسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(١)].

- وجملةُ ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ قيلَ: الجُملةُ مَقولُ قولٍ محذوفٍ، تقديرُه: «فقال: اذهَبْ». أو «قائلًا له: اذْهَبْ». ويجوزُ أنْ تكونَ جملةً مُفسِّرةً للنِّداءِ، أي: ناداه اذهَبْ، وقيل: هو على حذفِ «أن» المفسرةِ؛ لأنَّ في النِّداءِ معنَى القولِ، ويجوزُ أن تكونَ بتقديرِ (أن) المصدريةِ قبلَها حرفُ جرٍّ مقدرٍ، أي: بأنْ ناداه[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تَعليلٌ للأمرِ في قولِه: ﴿ٱذۡهَبۡ﴾، أو لوُجوبِ الامتِثالِ بهِ؛ ولذلك افتُتِحَتْ بحَرفِ (إنَّ) الَّذي هو للاهتِمامِ، ويُفيدُ مُفادَ التَّعليلِ[(٣)].

- قولُه: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ بدَأَ مُخاطَبتَه بالاستِفهامِ الَّذي معناه العَرْضُ والتَّرغيبُ، كما يقولُ الرَّجُلُ لضَيفِه: هل لك أنْ تَنزِلَ

= لدرويش (١٠/ ٣٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٣، ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٦).

بنا؟ وأَردَفه الكلامَ الرَّقيقَ؛ لِيَستدعيَه بالتَّلطُّفِ في القولِ، ويَستنزِلَه بالمُداراةِ مِن عُتُوِّه، وهذا ضربُ تفصيلٍ لقولِه تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[1] [طه: ٤٤].

- وقولُه: ﴿هَل لَّكَ﴾ تركيبٌ جرَى مَجرى المَثَلِ، فلا يُغيَّرُ عن هذا التَّركيبِ؛ لأنَّه قُصِد به الإيجازُ، وهو كلامٌ يُقصَدُ منه العَرْضُ[2].

- و﴿لَّكَ﴾ خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: هل لك رغبةٌ في كذا؟ فحُذِف (رغبةٌ) واكتُفِيَ بدَلالةِ حرفِ (في) عليه، وقالوا: هل لَك إلى كذا[3].

- وذَكَر مُوسى عليه السَّلامُ لِفِرعونَ الإلهَ الحَقَّ بوصْفِ ﴿رَبِّكَ﴾ دونَ أنْ يذكُرَ له اسمَ اللهِ العَلَمَ أو غيرَه مِن طُرُقِ التَّعريفِ؛ إلطافًا في الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، وتجنُّبًا لاستِطارةِ نفْسِه نُفورًا؛ لأنَّه لا يُعرَفُ في لُغةِ فِرعونَ اسمٌ للهِ تعالى، ولو عرَّفَه له باسمِه في لغةِ إسرائيلَ لَنَفَرَ؛ لأنَّ فِرعونَ كان يَعبُدُ آلهةً باطلةً، فكان في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وفِرعونُ يَعلَمُ أنَّ له ربًّا: إطماعٌ له أنْ يُرشِدَه موسى إلى ما لا يُنافي عقائدَه، فيُصْغي إليه سمْعَه، حتَّى إذا سَمِع قولَه وحُجَّتَه داخَلَه الإيمانُ الحقُّ مدرَّجًا؛ ففي هذا الأسلوبِ استنزالٌ لطائرِه[4].

- قولُه: ﴿فَتَخۡشَىٰ﴾ الخَشيةُ: الخَوفُ، فإذا أُطلِقَت في لِسانِ الشَّرعِ يُرادُ بها خَشيةُ اللهِ تعالَى، ولهذا نُزِّلَ فِعلُها هنا مَنزِلةَ اللَّازمِ، فلمْ يُذكَرْ له مَفعولٌ؛ لأنَّ المَخْشيَّ مَعلومٌ، مِثل فِعلِ الإيمانِ في لِسانِ الشَّرعِ؛ يُقال: آمَنَ فُلانٌ، وفُلانٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٧٨).

مؤمنٌ، أي: مُؤمنٌ باللهِ ووَحدانيَّتِه[١].

- وتَفريعُ ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ على (أَهْدِيَكَ) إشارةٌ إلى أنَّ خشيةَ اللهِ لا تكونُ إلَّا بالمعرفةِ. وفي الاقتِصارِ على ذِكرِ الخشيةِ إيجازٌ بليغٌ؛ لأنَّ الخشيةَ مِلاكُ كلِّ خيرٍ[٢].

- وجاء تَرتيبُ الجُمَلِ أحسنَ تَرتيبٍ، حيثُ جاء تَرتيبُها في الذِّكرِ مُراعًى فيه ترتُّبُها في الحُصولِ؛ فلذلك لم يُحتَجْ إلى عطفِ ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ بفاءِ التَّفريعِ؛ إذْ كثيرًا ما يُسْتغنَى بالعَطْفِ بالواوِ مع إرادةِ التَّرتيبِ عن العَطْفِ بحرْفِ التَّرتيبِ؛ لأنَّ الواوَ تُفيدُ التَّرتيبَ بالقَرينةِ، ويُسْتغنَى بالعطْفِ عن ذِكرِ حرْفِ التَّفسيرِ في العطْفِ التَّفسيريِّ الَّذي يكونُ الواوُ فيه بمعْنى (أيْ) التَّفسيريَّةِ؛ فإنَّ ﴿أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ﴾ في قوَّةِ المفرَدِ، والتَّقديرُ: هلْ لك في التَّزكيةِ وهِدايتي إيَّاك فخَشْيتِك اللهَ تعالَى[٣]؟

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾

- قولُه: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ الفاءُ فَصيحةٌ تُفصِحُ عن جُمَلٍ قد طُويَتْ؛ تعويلًا على تفصيلِها في السُّوَرِ الأُخرى، وتفريعٌ على مَحذوفٍ يَقتضيه قولُه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [النازعات: ١٧]، والتَّقديرُ: فذهَبَ فدَعاهُ فكَذَّبَه فأَراهُ الآيةَ الكُبرى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٧).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي =

- وأُعقِبَ فعلُ ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ بفعلِ ﴿فَكَذَّبَ﴾؛ للدَّلالةِ على شِدَّةِ عِنادِه ومُكابَرتِه، حتَّى إنَّه رأى الآيةَ فلم يَتردَّدْ ولم يَتمهَّلْ حتَّى يَنظُرَ في الدَّلالةِ، بل بادَرَ إلى التَّكذيبِ والعِصيانِ(١).

- و(ثمَّ) حرْفُ عطْفٍ للتَّرتيبِ مع التَّراخي، وأتى بها؛ لأنَّ إبطالَ الإيمانِ ونقْضَه يَقتضي زمانًا طويلًا(٢).

- وقيل: عُطِف قولُه: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ بحرفِ (ثُمَّ)؛ للدَّلالةِ على التَّراخي الرُّتَبيِّ كما هو شأنُها في عَطفِ الجُمَلِ، فأفادَتْ (ثُمَّ) أنَّ مضمونَ الجُملةِ المعطوفةِ بها أَعلى رُتبةً في الغرَضِ الَّذي تَضمَّنَتْه الجملةُ قبْلَها، أي: إنَّه ارتقى مِن التَّكذيبِ والعِصيانِ إلى ما هو أشدُّ، وهو الإدبارُ، والسَّعيُ، وادِّعاءُ الإلهيَّةِ لنفْسِه، أي: بعدَ أنْ فكَّرَ مَليًّا لم يَقتنِعْ بالتَّكذيبِ والعِصيانِ، فخَشِيَ أنَّه إنْ سكَتَ رُبَّما تَرُوجُ دعوةُ موسى بيْنَ النَّاسِ، فأرادَ الحَيطةَ لدَفْعِها وتحذيرَ النَّاسِ منها(٣).

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ الإدبارُ كِنايةٌ عن إعْراضِه عن الإيمانِ(٤). وعلى القولِ بأنَّ المرادَ: (ثمَّ أقبَلَ)، أي: أنشَأَ يَسْعى؛ فوُضِعَ مَوضعَهُ (أدبَرَ)؛ تَحاشيًا عن وصْفِه بالإقبالِ(٥).

- والسَّعيُ: شِدَّةُ المشيِ، وهو هنا مُعبَّرٌ به عن الحرْصِ والاجتهادِ في أمْرِه النَّاسَ

= السعود)) (٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٠).

بعدمِ الإصغاءِ لكلامِ موسى، فهو يَجتهِدُ في مُكايَدةِ مُوسى عليه السَّلامُ، وجمَعَ السَّحَرةَ لمُعارَضةِ مُعجزتِه؛ إذ حَسِبَها سِحرًا[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾

- حُذِف مفعولُ (حشَرَ) و(نادَى) لظُهورِه؛ لأنَّ الَّذين يُحشَرونَ ويُنادَونَ هم أهلُ مَدينتِه مِن كلِّ صِنفٍ[٢].

- وعُطِف ﴿فَنَادَىٰ﴾ بالفاءِ؛ لإفادةِ أنَّه أعلَنَ هذا القولَ لهم بفَورِ حُضورِهم؛ لفَرْطِ حِرصِه على إبلاغِ ذلك إليهم[٣].

- وإسنادُ الحشرِ والنِّداءِ إلى فِرعونَ وإن لم يُباشِرْ بنفْسِه حَشْرَ النَّاسِ ولا نِداءَهم، ولكنَّه أمَرَ أتْباعَه وجُندَه، فأُسنِدَ إليه؛ لأنَّه الَّذي أمَرَ به[٤].

- وصِيغةُ الحَصرِ في ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ﴾ لرَدِّ دَعوةِ موسَى عليه السَّلامُ[٥].

- وقولُه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ بدَلًا مِن جُملةِ ﴿فَنَادَىٰ﴾ بدَلًا مُطابِقًا بإعادةِ حرْفِ العطْفِ، وهو الفاءُ؛ لأنَّ البدَلَ قدْ يَقترِنُ بمِثلِ العاملِ في المُبدَلِ منه لقَصْدِ التَّأكيدِ[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾

- جملةُ ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ مُفرَّعةٌ عن الجُمَلِ الَّتي قبْلَها، أي: كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما ذُكِر مِن تكذيبِه وعِصيانِه وكَيدِه سببًا لأنْ أخَذَه اللهُ، وهذا هو المقصودُ مِن سَوقِ القِصَّةِ، وهو مناطُ مَوعظةِ المُشرِكينَ وإنذارِهم، مع تسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتثبيتِه[١].

- ووُرودُ فِعلِ (أخَذَه) بصِيغةِ المُضِيِّ مع أنَّ عذابَ الآخِرةِ مُستقبَلٌ ليومِ الجزاءِ، مُراعًى فيه أنَّه لَمَّا مات ابتدَأَ يذوقُ العذابَ حينَ يَرى مَنزلتَه الَّتي سيَؤولُ إليها يومَ الجزاءِ[٢].

- وتَقديمُ الآخِرةِ على الأُولى في الذِّكرِ؛ لأنَّ أمْرَ الآخِرةِ أعظَمُ[٣].

- وجاء في آخِرِ القِصَّةِ بحَوصلةٍ وفَذْلَكةٍ[٤] لِما تَقدَّمَ فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾؛ فهو في معْنى البَيانِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥] الآياتِ[٥].

- وتَنوينُ (عِبرةً) للتَّعظيمِ؛ لأنَّ في هذه القِصَّةِ مَواعظَ كثيرةً مِن جهاتٍ هي مَثُلاتٌ للأعمالِ وعواقبِها، ومراقبةِ اللهِ وخشْيتِه، وما يَترتَّبُ على ذلك وعلى ضدِّه مِن خيرٍ وشرٍّ في الدُّنيا والآخرةِ، وجُعِل ذلك عِبرةً لِمَن يَخْشى، أي: مَن تُخالِطُ نفْسَه خشيةُ اللهِ؛ لأنَّ الَّذين يَخشَونَ اللهَ هم أهلُ المعرفةِ الَّذين يَفهَمونَ دَلالةَ الأشياءِ على لَوازِمِها وخَفاياها[٦].

- وفي هذا تعريضٌ بالمُشرِكينَ بأنَّهم ليسوا بأهلٍ للانتفاعِ بمِثلِ هذا كما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٨٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) تقدَّم تعريفُها (ص: ١١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لم يَنتفِعْ بمِثلِه فِرعونُ وقَومُه. وفي القصَّةِ كلِّها تعريضٌ بسادةِ قُريشٍ مِن أهلِ الكُفرِ مِثلِ أبي جَهلٍ بتنظيرِهم بفِرعونَ، وتنظيرِ الدَّهْماءِ بالقَومِ الَّذين حشَرَهم فِرعونُ ونادى فيهم بالكفرِ، وقد عَلِم المُسلِمونَ مَضرِبَ هذا المَثَلِ؛ فكان أبو جهلٍ يُوصَفُ عِندَ المُسلِمينَ بفِرعونِ هذه الأُمَّةِ[١].

- وتأكيدُ الخبرِ بـ (إنَّ) ولامِ الابتِداءِ؛ لتنزيلِ السَّامِعينَ الَّذين سِيقَتْ لهم القِصَّةُ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ ما فيها مِن المَواعِظِ؛ لعدَمِ جَرْيِهم على الاعتبارِ والاتِّعاظِ بما فيها مِن المواعظِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٨٣).

الآيات (٢٧-٣٢)

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَمْكَهَا﴾: أي: بِناءَها وسَقْفَها، وأصلُ (سمك): يدُلُّ على عُلُوٍّ[١].

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: أي: جَعَلَها مُسْتَوِيةَ الخَلْقِ مُعَدَّلَةَ الشَّكْلِ، والتَّسويةُ: جَعْلُ الشَّيءِ سَواءً، أي: مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعْتِدالٍ بيْنَ شيئَيْنِ[٢].

﴿وَأَغْطَشَ﴾: أي: أظلَمَ، وأصلُ (غطش): يدُلُّ على ظُلْمةٍ[٣].

﴿دَحَىٰهَآ﴾: أي: بَسَطَها ومَدَّها مُسْتَوِيةً، وأصلُ (دحو): يدُلُّ على بَسطٍ وتمهيدٍ[٤].

﴿أَرْسَىٰهَا﴾: أي: أثبَتَها، يُقالُ: رَسَا الشَّيءُ يَرْسُو: ثبَت، وأَرْساهُ غيرُه، وأصل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٨).

(رسو): يدُلُّ على ثَباتٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا كمالَ قُدرتِه: أأَنْتُم -أيُّها المكَذِّبونَ بالبَعْثِ- أقوى خَلْقًا أمِ السَّماءُ؟ بناها اللهُ تعالى، ورفَعَ بِناءَها، وجَعَل لَيْلَها مُظْلِمًا، وأضاء نهارَها بطُلوعِ شَمْسِها، وبَسَط اللهُ تعالى الأرضَ بعْدَ خَلْقِ السَّماءِ، وأخرَجَ مِنَ الأرضِ البِحارَ والأنهارَ، والنَّباتَ، وثبَّتَ الجِبالَ، فلا تَضطَرِبُ الأرضُ؛ لِمَنفعَتِكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها انتِقالٌ مِن الاعتبارِ بأمثالِ الكُفَّارِ مِن الأُممِ الَّذي هو تخويفٌ وتهديدٌ على تكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إلى إبطالِ شُبهتِهم على نفْيِ البعثِ -وهي قولُهم: ﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠]- وما أَعقَبوهُ مِن التَّهكُّمِ المبنيِّ على توهُّمِ إحالةِ البعثِ[٢].

وأيضًا لَمَّا خَتَم اللهَ تعالى تلك القِصَّةَ؛ رَجَع إلى مخاطبةِ مُنكِري البَعْثِ، فقال[٣]:

﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٢).

أي: أأنتم -أيُّها المكَذِّبونَ بالبَعْثِ- أقوى خَلْقًا أم السَّماءُ أقوى منكم؟ فالقادِرُ على خَلْقِ السَّماءِ وهي أعظَمُ منكم: قادِرٌ على إحيائِكم بعْدَ مَوتِكم(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨١، ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿بَنَىٰهَا﴾.

أي: بنى اللهُ السَّماءَ، وجعَلَها سَقْفًا للأرضِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

قال الشَّوكاني: (أي: أخَلْقُكم بعدَ الموتِ وبَعْثُكم أشَدُّ عِندَكم وفي تقديرِكم أمْ خَلْقُ السَّماءِ؟ والخِطابُ لكُفَّارِ مكَّةَ، والمقصودُ به التَّوبيخُ لهم والتَّبكيتُ؛ لأنَّ مَن قَدَر على خَلقِ السَّماءِ الَّتي لها هذا الجِرْمُ العظيمُ، وفيها مِن عجائِبِ الصُّنعِ وبدائِعِ القُدْرةِ ما هو بَيِّنٌ للنَّاظِرينَ، كيف يَعجِزُ عن إعادةِ الأجسامِ الَّتي أماتها بعدَ أنْ خلقَها أوَّلَ مَرَّةٍ؟!). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٧).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٠).

قال ابنُ عثيمين: (﴿بَنَىٰهَا﴾ هذه الجُملةُ لا تتعلَّقُ بالَّتي قَبْلَها؛ ولهذا يَنبغي للقارئِ إذا قرَأَ أن يَقِفَ على قَولِه: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، ثمَّ يَستأنِفَ فيقولَ: ﴿بَنَىٰهَا﴾، فالجُملةُ استئنافيَّةٌ لبيانِ عَظَمةِ السَّماءِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٠).

وقال أبو بكرٍ الأنباريُّ: (﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ وقفٌ حسَنٌ، ثمَّ فسَّر أمْرَها فقال: ﴿بَنَىٰهَا * رَفَعَ =

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن في السَّماءِ أنَّه بناها؛ بَيَّن بعدَ ذلك أنَّه كيف بناها، وشَرَح تلك الكيفيَّةَ مِن وُجوهٍ(١).

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾.

أي: جَعَل اللهُ بناءَ السَّماءِ عاليًا عن الأرضِ، فأتقَنَ بناءَها، فهي مُستَوِيةٌ لا ارتِفاعَ أو انخفاضَ في أرجائِها، ولا فُطورَ فيها ولا شُقوقَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ

= سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]. وقال بعضُ المفسِّرينَ: الوقفُ على ﴿بَنَىٰهَا﴾. ((إيضاح الوقف والابتداء)) (٢/ ٩٦٥). ويُنظر: ((المكتفى في الوقف والابتدا)) لأبي عمرو الداني (ص: ٢٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

قال ابن الجوزي: (ومعنى ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ رَفَع ارتِفاعَها وعلوَّها في الهواءِ، ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ بلا شُقوقٍ ولا فُطورٍ ولا تفاوُتٍ يرتَفِعُ فيه بعضُها على بعضٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٧).

وقال ابن جرير: (فسَوَّى السَّماءَ، فلا شيءَ أرفَعُ مِن شيءٍ، ولا شيءَ أخْفَضُ مِن شيءٍ، ولَكِنْ جميعُها مُسْتَوِي الارْتِفاعِ والامْتِدادِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨، ٨٩).

وقال الشوكاني: (ومعنَى ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: فجَعَلَها مُسْتَوِيةَ الخَلقِ، مُعَدَّلةَ الشَّكلِ، لا تَفاوُتَ فيها ولا اعْوِجاجَ، ولا فُطورَ ولا شُقوقَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٧).

فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣].

﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩﴾.

﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا﴾.

أي: وجَعَل اللهُ ليلَ السَّماءِ مُظْلِمًا(١).

قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤].

﴿وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾.

أي: وأضاء اللهُ نهارَ السَّماءِ بطُلوعِ شَمْسِها(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٣].

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف كيفيَّةَ خَلْقِ السَّماءِ؛ أتْبَعَه بكيفيَّةِ خَلْقِ الأرضِ(٣)، فقال:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾.

أي: بَسَط اللهُ تعالى الأرضَ بعْدَ خَلْقِ السَّماءِ، ومَدَّها للسُّكنى فيها(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الدَّحْوَ، أَتْبَعَه ما استلزَمَه مِنَ المنافِعِ؛ لتوَقُّفِ السُّكنى المقصودةِ بالدَّحْوِ عليه[1].

= (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

قال الأزهري: (لم يختَلِفِ المفَسِّرون أنَّ خَلْقَ الأرضِ سَبَق خَلْقَ السَّماءِ... فاللهُ جلَّ وعَزَّ خلَقَ الأرضَ أوَّلًا غيرَ مَدْحُوَّةٍ، ثمَّ خَلَق السَّماءَ، ثمَّ دحا الأرضَ، أي: بَسَطَها). ((تهذيب اللغة)) (٢/ ١٤٤). ويُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٢٣).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ قولَه: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ أي: بَسَطَها ومَدَّها ومَهَّدَها للسُّكْنَى: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والواحدي، وابن عطية، والبيضاوي، والنسفي، وابن جُزَي، والخازن، وأبو حيان، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٩١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٧٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٨١).

قال الرَّسْعَني: (قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه مِن المفسِّرينَ واللُّغَوِيِّينَ: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ بمعنى: بَسَطَها. والدَّحْوُ: البَسْطُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٧).

وقال السعدي: (﴿دَحَىٰهَآ﴾ أي: أودَعَ فيها مَنافِعَها. وفسَّر ذلك بقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۞ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي: ثبَّتَها في الأرضِ. فدَحْيُ الأرضِ بعدَ خلقِ السَّماءِ، كما هو نصُّ هذه الآياتِ [الكريمة]. وأمَّا خلقُ نفْسِ الأرضِ فمُتقدِّمٌ على خَلقِ السَّماءِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] إلى أن قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

وقال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ فسَّره بقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (المقدمة/ ٣٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠).

﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١﴾.

أي: أخرَجَ اللهُ مِنَ الأرضِ البِحارَ والأنهارَ وعُيونَ الماءِ، وأخرج نَباتَها[١].

﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الأرضَ ومَنافِعَها؛ ذكَرَ المراسيَ الَّتي تمَّ بها نَفْعُها[٢].

﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢﴾.

أي: وثبَّتَ اللهُ الجِبالَ، فلا تَضطَرِبُ الأرضُ وتَميدُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣﴾.

أي: خَلَق اللهُ تعالى ذلك لِمَنفعَتِكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم مِن الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، فتتمَتَّعونَ بذلك إلى حينٍ مِنَ الزَّمانِ[٤].

قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة: ٣٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ أنَّ السَّماءَ مَبنِيَّةٌ[١].

٢- قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾، وإخراجُ الضُّحى: إبرازُ نورِ الضُّحى، وإنَّما جُعِل إظهارُ النُّورِ إخراجًا؛ لأنَّ النُّورَ طارئٌ بعدَ الظُّلمةِ؛ إذ الظُّلمةُ عدَمٌ، وهو أسبَقُ، والنُّورُ محتاجٌ إلى السَّببِ الَّذي يُنيرُه[٢].

٣- قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾، ثمَّ قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، وهذا يدُلُّ على أنَّ دَحْوَ الأرضِ بعْدَ خَلقِ السَّماءِ، مع أنَّ قولَه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] الآيةَ: يدُلُّ على أنَّ خَلْقَ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ، بدليلِ لَفظةِ: (ثُمَّ) الَّتي هي للتَّرتيبِ والانفصالِ، وكذلك آيةُ (فُصِّلَتْ) تدُلُّ أيضًا على خَلقِ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ؛ لأنَّه قال فيها: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، إلى أن قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ الآيةَ [فصلت: ١١].

والجواب: أنَّ ابنَ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما سُئل عن الجَمعِ بيْنَ آيةِ (فُصِّلَتْ) وآيةِ (النَّازعات)، فأجاب بأنَّ اللهَ تعالى خلَقَ الأرضَ أوَّلًا قبْلَ السَّماءِ غيرَ مَدْحُوَّةٍ، ثمَّ استوى إلى السَّماءِ فسَوَّاهُنَّ سَبْعًا في يومَين، ثمَّ دحا الأرضَ بعدَ ذلك، وجعَلَ فيها الرَّواسيَ والأنهارَ وغيرَ ذلك، فأصْلُ خَلقِ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ، ودَحْوُها بجبالِها وأشجارِها ونحوِ ذلك بعْدَ خَلقِ السَّماءِ، ويدُلُّ لهذا أنَّه قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، ولم يَقُلْ: (خَلَقَها)، ثمَّ فسَّر دَحْوَه إيَّاها بقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ الآيةَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٥، ٨٦).

وهذا الجَمْعُ الَّذي جمَع به ابنُ عبَّاسٍ بيْن هاتَينِ الآيتَينِ واضحٌ لا إشكالَ فيه، مفهومٌ مِن ظاهرِ القرآنِ العظيمِ، إلَّا أنَّه يَرِدُ عليه إشكالٌ مِن آيةِ (البقرة) هذه، وإيضاحُه أنَّ ابنَ عبَّاسٍ جمَع بأنَّ خَلْقَ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ، ودَحْوَها بما فيها بعدَ خَلقِ السَّماءِ.

وفي هذه الآيةِ التَّصريحُ بأنَّ جميعَ ما في الأرضِ مخلوقٌ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ؛ لأنَّه قال فيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٩].

وهذا الإشكالُ مرفوعٌ مِن وجهَينِ، كلٌّ منهما تدُلُّ عليه آيةٌ مِن القرآنِ:

الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بخَلقِ ما في الأرضِ جميعًا قبْلَ خَلقِ السَّماءِ: الخَلقُ اللُّغَويُّ الَّذي هو التَّقديرُ، لا الخَلقُ بالفِعلِ الَّذي هو الإبرازُ مِن العدَمِ إلى الوُجودِ، والعربُ تُسَمِّي التَّقديرَ خَلْقًا، ومنه قولُ زُهَيْرٍ[1]:

ولَأَنتَ تَفْـــري ما خَلَقْـــتَ وبَعـ ـــــضُ القَومِ يَخلُقُ ثمَّ لا يَفْري[2]

والدَّليلُ على أنَّ المرادَ بهذا الخَلقِ التَّقديرُ: أنَّه تعالى نَصَّ على ذلك في سورةِ (فُصِّلَتْ)، حيث قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠]، ثمَّ قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ الآيةَ [فصلت: ١١].

الوجهُ الثَّاني: أنَّه لَمَّا خلَقَ الأرضَ غيرَ مَدْحُوَّةٍ، وهي أصلٌ لكلِّ ما فيها، كان

---

(١) يُنظر: ((ديوان زهير بن أبي سُلْمى)) (ص: ٥٦).

(٢) يَخلُقُ: أي: يُقَدِّرُ الأديمَ ويُهَيِّئُه للقَطعِ. ويَفْري: أي: يَشُقُّه كما قَدَّر. ومعنى البَيتِ: أنت إذا قدَّرْتَ أمرًا وتهَيَّأْتَ له أمضَيْتَه وأنفَذْتَه بعَزمِك وقدرتِك ولم تَعجزْ عنه، بخِلافِ غيرِك؛ فإنَّ بعضَ القَومِ يُقَدِّرُ ثمَّ لا قوَّةَ له ولا عزيمةَ على إنفاذِ ما قدَّره وإمضائِه، فالخَلْقُ: التَّقديرُ، والفَرْيُ: التَّنفيذُ. يُنظر: ((شرح ديوان زهير)) لثعلب (ص: ٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٧/ ٣٨١)، ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ٥٣)، ((معارج القبول)) لحافظ حكمي (١/ ١٣٢).

كلُّ ما فيها كأنَّه خُلِق بالفعلِ؛ لِوُجودِ أصْلِه فِعلًا، والدَّليلُ مِن القرآنِ على أنَّ وُجودَ الأصلِ يُمكِنُ به إطلاقُ الخَلقِ على الفرعِ وإن لم يكُنْ مَوجودًا بالفِعلِ: قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الأعراف: ١١]. قولُه: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ بخَلْقِنا وتصويرِنا لأبيكم آدَمَ الَّذي هو أصْلُكم.

وجمَعَ بعضُ العُلماءِ بأنَّ معنى قولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، أي: معَ ذلك، فلَفْظةُ (بَعْدَ) بمعنَى معَ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]. وعليه فلا إشكالَ في الآيةِ[(١)].

٤- قال الله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ دَلَّ بذِكْرِ الماءِ والمَرْعى على جميعِ ما تُخرِجُه الأرضُ قُوتًا للنَّاسِ وللحَيوانِ، حتَّى ما تُعالَجُ به الأطعِمةُ مِن حَطَبٍ للطَّبخِ؛ فإنَّه ممَّا تُنبِتُ الأرضُ، وحتَّى المِلْحُ؛ فإنَّه مِن الماءِ الَّذي على الأرضِ[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا * مَتَٰعًا لَّكُمْ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١١-١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣-١٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٠).

قال الرَّسْعَني: (قال عبدُ الله بنُ عمر وعِكْرِمةُ وعَطاءٌ وجمهورُ المفسِّرينَ: خلَقَ الأرضَ قبْلَ السَّماءِ، ثمَّ خلَقَ السَّماءَ، ثمَّ دحى الأرضَ بعدَ خَلقِ السَّماءِ.

وحمَل القائلونَ بتَكامُلِ خَلقِ الأرضِ قبْلَ السَّماءِ «بَعْدَ» على معنى: قبْلَ، كقولِه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ومنهم مَن قال: «بَعْدَ» بمعنى: معَ، قالوا: ومنه قولُه: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]، أي: معَ ذلك). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٧).

وقال الشنقيطي: (وجَمَع بعضُهم بأوجهٍ ضعيفةٍ؛ لأنَّها مَبنيَّةٌ على أنَّ خلْقَ السَّماءِ قبْلَ الأرضِ، وهو خلافُ التَّحقيقِ؛ منها: أنَّ «ثُمَّ» بمعنَى الواوِ، ومنها: أنَّها للتَّرتيبِ الذِّكْريِّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٧).

وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ الماءَ والكَلَأَ وحِجارةَ الجِبالِ وحَطَبَه: النَّاسُ فيه شُرَكاءُ، ما لَم يَقَعْ فيها الحيازاتُ بالأملاكِ الظَّاهرةِ الَّتي تُستفادُ بوُجوهِ الفوائدِ، فإذا وَقَعَتِ الحيازاتُ فكُلُّ مَن مَلَكَ أرضًا مَلَكَ كلَّ ما تُخرِجُه مِن عَينٍ وكَلَأٍ، إلَّا ماءَ الشَّفَهِ[١] ما لَم تُجعَلْ في الظُّروفِ، والكَلَأَ مِن المارَّةِ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ معنى ﴿أَرْسَىٰهَا﴾ أي: أَثْبَتَها وأثبَتَ بها الأرضَ أنْ تَميدَ بأهلِها، وهذا تَحقيقٌ للحقِّ، وتنبيهٌ على أنَّ الرُّسوَّ المنسوبَ إليها في مواضعَ كثيرةٍ مِن التَّنزيلِ بالتَّعبيرِ عنها بالرَّواسي ليس مِن مُقتضَياتِ ذَواتِها، بل هو بإرسائِه عزَّ وجلَّ، ولَوْلاهُ لَما ثبَتتْ في أنفُسِها، فضلًا عن إثباتِها للأرضِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ إبطالٌ لشُبهةِ المشركينَ على نفْيِ البعثِ، وجاءَ إبطالُ شُبهتِهم بقياسِ خلْقِ أجسادِهم على خلقِ السَّمواتِ والأرضِ، فقيلَ لهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ فلذلك قيلَ لهم هنا: ﴿ءَأَنتُمْ﴾ بضميرِهم، ولم يقُلْ: آلإنسانُ أشدُّ خَلْقًا، وما هم إلَّا مِن الإنسانِ، فالخِطابُ موجَّهٌ إلى المُشركينَ الَّذين عُبِّر عنهم آنِفًا بضمائرِ الغَيبةِ مِن قولِه: ﴿يَقُولُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠- ١٤]، وهو الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، فالجُملةُ مُستأنَفةٌ لقَصْدِ الجوابِ عن شُبهتِهم؛ لأنَّ حِكايةَ شُبهتِهم بـ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا﴾ إلى آخِرِه، تَقتضي ترَقُّبَ جوابٍ

(١) أي الماء الذي يشربُه النَّاسُ والدوابُّ. يُنظر: ((الأصل)) للشيباني (٨/ ١٥٠)، ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٦/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٢).

عن ذلك القولِ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ خِطابٌ لأهلِ مكَّةَ، أو عامٌّ للمُنكِرينَ للبعثِ بِناءً على صُعوبتِه في زَعْمِهم بطريقِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ بعدَما بُيِّنَ كمالُ سُهولتِه بالنِّسبةِ إلى قُدرةِ اللهِ تعالى بقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾[٢].

- والاستِفهامُ في ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ تقريريٌّ، والمقصودُ مِن التَّقريرِ إلجاؤُهم إلى الإقرارِ بأنَّ خلْقَ السَّماءِ أعظَمُ مِن خلْقِهم، أي: مِن خلْقِ نَوعِهم، وهو نوعُ الإنسانِ، وهم يَعلَمونَ أنَّ اللهَ هو خالقُ السَّماءِ، فلا جَرَمَ أنَّ الَّذي قَدَرَ على خلْقِ السَّماءِ قادرٌ على خَلْقِ الإنسانِ مرَّةً ثانيةً، فيُنتِجُ ذلك أنَّ إعادةَ خلْقِ الأجسادِ بعدَ فَنائِها مَقدورةٌ للهِ تعالى؛ لأنَّه قَدَرَ على ما هو أعظَمُ مِن ذلك؛ ذلك أنَّ نظَرَهم العقليَّ غيَّمتْ عليه العادةُ، فجَعَلوا ما لم يَألَفوهُ مُحالًا، ولم يَلتَفِتوا إلى إمكانِ ما هو أعظَمُ ممَّا أحالوهُ بالضَّرورةِ[٣]. وقيلَ: الهمزةُ للاستفهامِ التَّقريعيِّ والتَّوبيخيِّ[٤].

- والسَّماءُ في قولِه: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ يَجوزُ أنْ يُرادَ به الجنسُ، وتعريفُه تعريفُ الجِنسِ، أي: السَّمواتُ، وهي مَحجوبةٌ عن مُشاهَدةِ النَّاسِ؛ فيكونَ الاستفهامُ التَّقريريُّ مبنيًّا على ما هو مشتهرٌ بيْنَ النَّاسِ مِن عظَمةِ السَّمواتِ؛ تنزيلًا للمعقولِ مَنزِلةَ المحسوسِ. ويجوزُ أنْ يُرادَ به سماءٌ معيَّنةٌ، وهي المُسمَّاةُ بالسَّماءِ الدُّنيا الَّتي تَلوحُ فيها أضواءُ النُّجومِ، فتعريفُه تعريفُ العهدِ، وهي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٩).

الكُرةُ الفَضائيَّةُ المحيطةُ بالأرضِ ويَبدو فيها ضوءُ النَّهارِ وظُلْمةُ اللَّيلِ، فيكونَ الاستِفهامُ التَّقريريُّ مبنيًّا على ما هو مُشاهَدٌ لهم، وهذا أنسَبُ بقولِه: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ لعدَمِ احتياجِه إلى التَّأويلِ[١].

- في عدَمِ ذِكرِ الفاعلِ في قولِه: ﴿بَنَىٰهَا﴾ وفيما عُطِف عليه مِن الأفعالِ: مِن التَّنبيهِ على تعيُّنِه وتَفخيمِ شأنِه عزَّ وجلَّ؛ ما لا يَخْفى[٢].

- وجُملةُ ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿بَنَىٰهَا﴾، أو بدَلُ اشتِمالٍ منها، وسُلِك طَريقُ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ؛ لزِيادةِ التَّصويرِ[٣].

- والرَّفعُ: جعْلُ جِسمٍ مُعْتلِيًا، وهو مرادفٌ للسَّمْكِ، فتعديةُ فعلِ (رَفَعَ) إلى السَّمْكِ للمبالَغةِ في الرَّفعِ، أي: رَفَع رَفْعَها، أي: جَعَلَه رَفيعًا[٤].

- والفاءُ في ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ للتَّعقيبِ، وتسويةُ السَّماءِ حصَلتْ مع حصولِ سَمْكِها؛ فالتَّعقيبُ لإفادةِ السَّرعةِ في التَّسويةِ[٥].

- قوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ بدَأ باللَّيلِ؛ لأنَّه كان أوَّلًا، والعدمُ قبْلَ الوُجودِ[٦].

- قولُه: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾، أي: أبْرَزَ نَهارَها، وعُبِّرَ عنه بالضُّحى؛ لأنَّه أشرَفُ أوقاتِه وأطيَبُها، وأكمَلُ أجزاءِ النَّهارِ في النُّورِ والضَّوءِ، فكان أحَقَّ بالذِّكرِ في مَقامِ الامتنانِ، وهو السِّرُّ في تأخيرِ ذِكرِه عن ذِكرِ اللَّيلِ، وفي التَّعبيرِ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٩).

إحداثِهِ بالإخراجِ؛ فإنَّ إضافةَ النُّورِ بعدَ الظُّلْمةِ أتَمُّ في الإنعامِ، وأكمَلُ في الإحسانِ[١].

- وأضاف اللَّيلَ إلى السَّماءِ في قولِه: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾؛ لأنَّ اللَّيلَ غُروبُ الشَّمسِ، وغُروبُها وطُلوعُها فيها، فأُضيفَ إليها لَمَّا كان فيها، كما قيل: نُجومُ اللَّيلِ؛ إذ كان فيه الطُّلوعُ والغُروبُ[٢]. ولأنَّه هو أوَّلُ ما يَظهَرُ عندَ الغُروبِ مِن أُفُقِ السَّماءِ[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

- وأضاف الضُّحى إلى السَّماءِ كما أضاف إليها اللَّيلَ في قولِه: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ لأنَّ فيها سَبَبَ الظَّلامِ والضِّياءِ، وهو غروبُ الشَّمسِ وطُلوعُها[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ * أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا * مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ انتقَلَ الكلامُ مِن الاستِدلالِ بخَلْقِ السَّماءِ إلى الاستِدلالِ بخَلقِ الأرضِ؛ لأنَّ الأرضَ أقرَبُ إلى مُشاهَدتِهم، وما يُوجَدُ على الأرضِ أقرَبُ إلى عِلمِهم بالتَّفصيلِ، أو الإجمالِ القريبِ مِن التَّفصيلِ[٦].

- قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ مِن أجْلِ الاهتِمامِ بدَلالةِ خَلقِ الأرضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠١، ١٠٢).ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٦).

وما تحتوي عليه؛ قُدِّم اسمُ الأرضِ على فِعلِه وفاعلِه، فانتصَبَ على طريقةِ الاشتغالِ[١]، والاشتغالُ يَتضمَّنُ تأكيدًا باعتبارِ الفعلِ المُقدَّرِ العامِلِ في المشتغَلِ عنه الدَّالِّ عليه الفعلُ الظَّاهرُ المشتغِلُ بضَميرِ الاسمِ المقدَّم[٢].

وقيل: انتصَبَ قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ بمُضمَرٍ مُقدَّمٍ قد حُذِفَ على شَريطةِ التَّفسيرِ لا بما ذُكِرَ بعدَهُ؛ ليُفيدَ القصرَ، وتَتعيَّنَ البَعديَّةُ في الوُجودِ، وفائدةُ تأخيرِه في الذِّكرِ إمَّا التَّنبيهُ على أنَّه قاصرٌ في الدَّلالةِ على القُدرةِ القاهرةِ بالنِّسبةِ إلى أحوالِ السَّماءِ، وإمَّا الإشعارُ بأنَّه أدْخَلُ في الإلزامِ؛ لِما أنَّ المنافعَ المَنوطةَ بما في الأرض أكثرُ، وتعلُّقَ مَصالِحِ النَّاسِ بذلكَ أظهَرُ، وإحاطتَهم بتفاصيلِ أحوالِه أكمَلُ[٣].

- وجُملةُ ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ لم يَدخُلْ حرفُ العطفِ على ﴿أَخْرَجَ﴾ لوجهينِ؛ أحدُهما: أنْ يكونَ معنى (دَحاها): بسَطَها ومهَدَها للسُّكنى، ثمَّ فُسِّر

---

(١) الاشتِغالُ: هو أن يتقَدَّمَ اسمٌ واحِدٌ، ويتأخَّرَ عنه عامِلٌ مُشتَغِلٌ عن العَمَلِ في ذلك الاسمِ بالعَمَلِ في ضَميرِه مُباشَرةً، أو في سَبَبِه -أي: كلِّ شَيءٍ له صِلةٌ وعَلاقةٌ به؛ مِن قَرابةٍ، أو صداقةٍ، أو عَمَلٍ-، بحيثُ لو فُرِّغ مِن ذلك المعمولِ وسُلِّطَ على الاسمِ المتقَدِّمِ، لعَمِلَ فيه النَّصبُ لَفظًا أو محَلًّا. وأركانُ الاشتِغالِ ثلاثةٌ؛ هي:

أ- مَشغولٌ عنه: وهو الاسمُ المتقَدِّمُ.

ب- مشغولٌ: وهو الفِعلُ المتأخِّرُ.

ج- ومَشغولٌ به: وهو الضَّميرُ الَّذي تعدَّى إليه الفِعلُ بنَفْسِه أو بالوَساطةِ. يُنظر: ((أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك)) لابن هشام (٢/ ١٣٩)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) (٢/ ١٢٨)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٣).

التَّمهيدُ بما لا بُدَّ منه في تَأَتِّي سُكْناها؛ مِن تسويةِ أمرِ المأكَلِ والمَشرَبِ، وإمكانِ القرارِ عليها، والسُّكونِ بإخراجِ الماءِ والمَرْعى، وإرساءِ الجبالِ وإثباتِها أوتادًا لها حتَّى تَستَقِرَّ ويُستقَرَّ عليها.

والثَّاني: أنْ يكونَ ﴿أَخْرَجَ﴾ حالًا بإضمارِ (قد)؛ كقولِه: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠]، وأرادَ بمَرْعاها: ما يأكُلُ النَّاسُ والأنعامُ[١].

- وقُدِّم الماءُ على المَرْعى؛ لأنَّه سببٌ في وُجودِ المَرْعى[٢].

- والرَّعيُ: تَناوُلُ الماشيةِ الكَلَأَ والحَشيشَ والقَصِيلَ[٣]؛ فالاقتصارُ على المَرْعى اكتِفاءٌ عن ذِكرِ ما تُخرِجُه الأرضُ مِن الثِّمارِ والحُبوبِ؛ لأنَّ ذِكرَ المَرْعى يدُلُّ على لُطفِ اللهِ بالعَجْماواتِ، فيُعرَفُ منه أنَّ اللُّطفَ بالإنسانِ أَحْرى؛ بدَلالةِ فَحْوى الخِطابِ[٤]، والقَرينةُ على الاكتِفاءِ[٥] قولُه بعْدَه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٠).
وقال ابن عاشور: (وجملةُ ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جملةِ ﴿دَحَىٰهَآ﴾؛ لأنَّ المقصدَ مِن دَحوِها بمقتضى ما يكمُلُ تيسيرَ الانتفاعِ بها. ولا يصحُّ جعلُ جملةِ ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ إلى آخِرِها بيانًا لجملةِ ﴿دَحَىٰهَآ﴾؛ لاختِلافِ معنَى الفِعلَينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٠).

(٣) القَصِيل: ما اقتُصِل مِنَ الزَّرعِ أخضَرَ لعلْفِ الدَّوابِّ. والقصلُ: القطعُ. وقصَلَ الدابَّةَ: علَفَها القَصِيلَ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٥٥٨)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٥٠٦).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١١٣).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٢).

﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾[١] [النازعات: ٣٣].

- قولُه: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾ لعلَّ تَقديمَ إخراجِ الماءِ والمَرْعى ذِكرًا، مع تقدُّمِ الإرساءِ عليهِ وُجودًا، وشدَّةِ تعلُّقِه بالدَّحْوِ؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتِناءِ بأمرِ المأكَلِ والمشرَبِ، مع ما فيه مِن دفعِ توهُّمِ رُجوعِ ضَميرَيِ الماءِ والمَرْعَى إلى الجبالِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾

- (المتاع) يُطلَقُ على ما يُنتفَعُ به مُدَّةً؛ ففيه معنَى التَّأجيلِ. وقولُه: ﴿مَتَٰعًا﴾ إمَّا مَفعولٌ له، أي: فعَلَ ذلكَ تَمتيعًا لكُم ولأنْعامِكم؛ لأنَّ فائدةَ ما ذُكِرَ مِن البَسطِ والتَّميهدِ وإخراجِ الماءِ والمَرْعى واصلةٌ إليهم وإلى أنعامِهم؛ فإن المرادَ بالمَرْعَى ما يَعُمُّ ما يأكلُه الإنسانُ وغيرُه. وقيلَ: مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لفعلِه المُضمَرِ، أي: متَّعكُم بذلكَ متاعًا، أو مَصدرٌ مِن غيرِ لَفْظِه؛ فإنَّ قولَه تعالَى: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ في معْنى: متَّع بذلكَ[٣].

- قولُه: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ لامُ ﴿لَّكُمۡ﴾ و(لِأَنْعَامِكُمْ) لامُ التَّقويةِ، وهو راجِعٌ إلى خَلقِ الأرضِ والجِبالِ، وذلك في الأرضِ ظاهرٌ، وأمَّا الجِبالُ؛ فلأنَّها مُعتصَمُهم مِن عدُوِّهم، وفيها مَراعي أنعامِهم تكونُ في الجبالِ مأمونةً مِن الغارةِ عليها على غِرَّةٍ، وهذا إدماجُ الامتنانِ في الاستِدلالِ؛ لإثارةِ شُكرِهم حَقَّ النِّعمةِ بأنْ يَعبُدوا المنعِمَ وحْدَه، ولا يُشرِكوا بعبادتِه غيرَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٨).

- وفي قولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] إلى ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ مُحسِّنُ الجَمْعِ ثمَّ التَّقسيمِ[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٨).

والجمعُ والتَّقسيمُ: هو جمْعُ مُتعدِّدٍ تحتَ حُكمٍ، ثمَّ تقسيمُه، كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ﴾ [فاطر: ٣٢]. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٢٤).

الآيات (٣٤-٤١)

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾: أي: القيامةُ والدَّاهِيةُ الَّتي لا تُستطاعُ، والحادِثةُ الَّتي تَطُمُّ على ما سِواها، أي: تَعلو وتَغلِبُ، مأخوذٌ مِن: طَمَّ الماءُ: إذا غَمَر الأشياءَ، وأصلُ (طمم): يدُلُّ على تَغطيةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[1].

﴿وَبُرِّزَتِ﴾: أي: أُظْهِرتْ، وأصلُ (برز): ظُهورُ الشَّيْءِ وبُدُوُّه[2].

﴿وَءَاثَرَ﴾: أي: اختارَ وقَدَّم، وأصلُ (أثر) هنا: يدُلُّ على تقديمِ الشَّيءِ[3].

﴿ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾: أي: المَثوى والمَسكَنُ والمقَرُّ، والمَأْوى: مَكَانُ كلِّ شَيْءٍ ومَرجِعُه الَّذي يَعودُ إليه ليلًا أو نهارًا؛ يُقالُ: أَوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه، وأصلُ (أوى) هنا: يدُلُّ على التَّجمُّعِ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٣).

﴿ٱلْهَوَىٰ﴾: أي: المَيْلِ إلى الشَّهوةِ، قيل: سُمِّيَ بذلك لأنَّه يَهْوِي بصاحِبِه في الدُّنيا إلى كلِّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاوِيةِ، وقيل: الهوى أصلُه مُطلَقُ المَيلِ، وأصلُ (هوي): الخُلوُّ والسُّقوطُ؛ ولذلك يُقالُ للآراءِ الزَّائفةِ: أهواءٌ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ النَّاسِ يومَ القيامةِ: فإذا جاءت الدَّاهِيةُ الكُبْرى الَّتي تَفوقُ شِدَّتُها كُلَّ شِدَّةٍ، يومَ يَتذكَّرُ الإنسانُ ما عَمِلَه في الدُّنيا مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وأُظهِرَت النَّارُ للنَّاسِ، فيَرَوْنَها عِيانًا؛ فأمَّا مَن جاوَزَ حَدَّه فتمَرَّدَ واستكبَرَ، وفَضَّل مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا وقدَّمَها على الآخِرةِ؛ فإنَّ النَّارَ هي مَسكَنُه، وأمَّا مَن خافَ مَقامَه بيْن يَدَيِ اللهِ تعالى للحِسابِ يومَ القيامةِ، ونهى نَفْسَه وزَجَرَها عَمَّا يُسخِطُ اللهَ تعالى؛ فإنَّ الجَنَّةَ تكونُ مَسكَنَه ومُستَقَرَّه في الآخِرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى إنَّما ذَكَر كيفيَّةَ خَلْقِه السَّماءَ والأرضَ؛ لِيستَدلَّ بها على كَونِه قادِرًا على الحَشْرِ والنَّشرِ، فلمَّا قَرَّر ذلك وبيَّن إمكانَ الحَشْرِ عَقلًا؛ أخبَرَ بعدَ ذلك عن وُقوعِه[2].

وأيضًا لَمَّا كان الَّذي خَلَق السَّمَواتِ العِظامَ وما فيها مِن الأنوارِ والأجرامِ،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤، ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٣).

والأرضَ الكَثيفةَ الغَبراءَ وما فيها مِن ضَروريَّاتِ الخَلْقِ ومَنافِعِهم- لا بُدَّ أن يَبعَثَ الخَلْقَ المكَلَّفينَ، فيُجازيَهم على أعمالِهم، فمَن أحسَنَ فله الحُسنى، ومَن أساء فلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَه- ذَكَر بعدَ هذا قيامَ السَّاعةِ، ثمَّ الجزاءَ[١].

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤﴾.

أي: فإذا جاءت المُصِيبةُ العُظْمى والدَّاهِيةُ الكُبْرى الَّتي شِدَّتُها وهَولُها فَوقَ كُلِّ خَطْبٍ ومُصيبةٍ[٢].

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥﴾.

أي: يومَ يتذكَّرُ الإنسانُ ما عَمِلَه في الدُّنيا مِن خيرٍ أو شَرٍّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٢).

قال الرَّسْعَني: (قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ يريدُ: القيامةَ. وقيل: السَّاعةُ الَّتي يَتصَدَّعون فيها؛ فريقٌ إلى الجنَّةِ، وفريقٌ إلى السَّعيرِ. وقيل: النَّفخةُ الثَّانيةُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٢).

قال السمين الحلبي: (قولُه: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ﴾: بدَلٌ مِنْ «إذا»، أو منصوبٌ بإضمارِ فعلٍ، أي: أعني يومَ، أو: يومَ يتذكَّرُ يجري كَيْتَ وكيتَ). ((الدر المصون)) (١٠/ ٦٨١).

أي: وأُظهِرَت النَّارُ الَّتي اشتَدَّ توَقُّدُها وأُبرِزَت للنَّاسِ، فيَرَوْنَها عِيانًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦، ٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُؤتَى بجَهَنَّمَ يومَئِذٍ لها سَبعونَ ألْفَ زِمامٍ، مع كُلِّ زِمامٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَها))[٢].

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: فأمَّا مَن جاوَزَ حَدَّه فتمَرَّدَ واستكبَرَ عن طاعةِ اللهِ تعالى وعبادتِه[٣].

﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾.

أي: وفَضَّل مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا، وقدَّمَها على الآخِرةِ؛ إرضاءً لِهَواه، فعَمِل لدُنْياه، ولم يَعمَلْ لأُخْراه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠).

(٢) رواه مسلم (٢٨٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩١، ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٣).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: فإنَّ مَسْكَنَه ومُستَقَرَّه في الآخِرةِ: النَّارُ الشَّديدةُ التَّوَقُّدِ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الطَّاغيَ؛ أتْبَعَه المتَّقِيَ[٢]، فقال:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾.

أي: وأمَّا مَن خافَ مَقامَه بيْن يَدَيِ اللهِ تعالى للحِسابِ يومَ القيامةِ، فاتَّقاه بفِعْلِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهيه[٣].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((سَبعةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٣).

يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه))، وذكَرَ منهم: ((ورَجُلٌ دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجَمالٍ، فقال: إنِّي أخافُ اللهَ، ورجُلٌ ذَكَر اللهَ خاليًا ففاضَتْ عَيْناه))[١].

﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾.

أي: ونهى نَفْسَه وزَجَرَها عن كُلِّ ما لا يُرضي اللهَ تعالى[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾.

أي: فإنَّ الجَنَّةَ تكونُ مَسْكَنَه ومُستَقَرَّه في الآخِرةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مِن طريقةِ القُرآنِ الكريمِ: التَّصريحُ بذِكْرِ ثَوابِ الأبرارِ والمتَّقينَ والمخلِصينَ والمحسِنينَ، ومَن رَجَحَتْ حَسَناتُهم، وبذِكْرِ عِقابِ الكُفَّارِ والفُجَّارِ والظَّالِمينَ

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٣).

لأنفُسِهم، ومَن خَفَّتْ موازينُهم، ويَسْكُتُ عنِ القِسْمِ الَّذي فيه شائبتانِ وله مادَّتانِ، هذه طريقةُ القُرآنِ، كقولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وهذا كثيرٌ في القرآنِ. قالوا: وفي السُّكوتِ عن شأنِ صاحبِ الشَّائبتَينِ تحذيرٌ عظيمٌ وتخويفٌ له؛ فإنَّ أمْرَه مُرْجَأٌ إلى اللهِ تعالى، وليس له عليه ضَمانٌ، ولا له عِندَه وَعْدٌ، فلْيَحْذَرْ كلَّ الحذرِ، ولْيُبادِرْ بالتَّوبةِ النَّصوحِ الَّتي تُلْحِقُه بالمضمونِ لهم النَّجاةُ والفَلاحُ(١).

٢- الطُّغيانُ وإيثارُ الحياةِ الدُّنيا وشَهَواتِها: مِن مُوجِباتِ النَّارِ، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(٢).

٣- النَّاسُ على قِسمَينِ: قِسمٌ ظَفِرَتْ به نفْسُه فمَلَكَتْه وأهلكَتْه، وصار طَوعًا لها تحتَ أوامِرِها؛ وقِسمٌ ظَفِروا بنُفوسِهم فقَهَرُوها، فصارتْ طَوعًا لهم مُنقادةً لأوامِرِهم. قال بعضُ العارفينَ: انتهى سفرُ الطَّالبينَ إلى الظَّفَرِ بأنفُسِهم، فمَن ظَفِرَ بنَفْسِه أفلَحَ وأنجَحَ، ومَن ظَفِرَتْ به نفْسُه خَسِرَ وهَلَكَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، فالنَّفْسُ تدعو إلى الطُّغيانِ وإيثارِ الحياةِ الدُّنيا، والرَّبُّ يدعو عَبْدَه إلى خوْفِه ونَهْيِ النَّفْسِ عنِ الهوى(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أنَّ الخَشْيةَ

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٧٥).

تَمنَعُ اتِّباعَ الهوى[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّه تعالى قال في سُورةِ (الشُّعَراءِ): ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠، ٩١]، فخَصَّ الغاوينَ بتبريزِها لهم؟

الجوابُ: أنَّها بُرِّزَت للغاوينَ، والمؤمِنونَ يَرَونَها أيضًا في الممَرِّ، ولا مُنافاةَ بيْن الأمْرَينِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أنَّ اللهَ تعالى لَم يَجعَلْ للجَنَّةِ طريقًا غيرَ مُخالَفةِ الهوى، ولَم يَجعَلْ للنَّارِ طريقًا غيرَ مُتابَعتِه[٣]!

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ متى كان الإنسانُ موَصوفًا بهذَينِ الأمْرَينِ كان بالِغًا في الفَسادِ إلى أقصى الغاياتِ، وهو الكافِرُ الَّذي يكونُ عِقابُه مُخَلَّدًا[٤].

٤- قال تعالى: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ والإيثارُ: تَفضيلُ شَيءٍ على شَيءٍ في حالٍ لا يَتيسَّرُ فيها الجمْعُ بيْنَ أحوالِ كلٍّ منهما، ويُفهَمُ مِن فعلِ الإيثارِ أنَّ معه نَبْذًا لنعيمِ الآخِرةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩١، ٩٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ التَّفريعُ على الاستِدلالِ الَّذي تَضمَّنَه قولُه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧] الآياتِ؛ فإنَّ إثباتَ البعثِ يَقتضي الجزاءَ؛ إذ هو حِكمتُه، وفُرِّع على دَليلِ إثباتِ البعثِ تَذكيرٌ بالجزاءينِ، وإرشادٌ إلى النَّجْدَينِ. وإذْ قد قُدِّم قبْلَ الاستِدلالِ تحذيرٌ إجماليٌّ بقولِه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ الآيةَ [النازعات: ٦] جِيءَ عَقِبَ الاستِدلالِ بتَفصيلِ ذلك التَّحذيرِ مع قَرْنِه بالتَّبشيرِ لِمَن تَحلَّى بضِدِّه؛ فلذلك عُبِّر عن البعثِ ابتِداءً بالرَّاجفةِ؛ لأنَّها مَبدؤُه، ثمَّ بالزَّجْرةِ، وأخيرًا بالطامَّةِ الكُبرى؛ لِما في هذينِ الوَصفينِ مِن معنًى يَشملُ الرَّاجفةَ وما بعْدَها مِن الأهوالِ إلى أنْ يَستقرَّ كلُّ فريقٍ في مَقَرِّه. ومِن تَمامِ المُناسَبةِ للتَّذكيرِ بيومِ الجزاءِ وُقوعُه عَقِبَ التَّذكيرِ بخلْقِ الأرضِ، والامتنانِ بما هَيَّأ منها للإنسانِ متاعًا به؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذلك يَنتهي عِندَما يَحينُ يومُ البعثِ والجزاءِ. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ قولُه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ مُفرَّعًا على قولِه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]؛ فإنَّ الطامَّةَ هي الزَّجرةُ، ومَناطُ التَّفريعِ هو ما عَقَّبه مِن التَّفصيلِ بقولِه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ إلخ؛ إذ لا يَلتئِمُ تفريعُ الشَّيءِ على نفْسِه(١).

- و(إذا) ظرْفٌ للمُستقبَلِ؛ فلذلك إذا وقَعَ بعدَه الفعلُ الماضي صُرِف إلى الاستقبالِ، وإنَّما يُؤتى بعدَ (إذا) بفعلِ الماضي؛ لزيادةِ تحقيقِ ما يُفيدُه (إذا) مِن تحقُّقِ الوُقوعِ(٢).

- والطَّامَّةُ: الحادثةُ، أو الوَقعةُ الَّتي تطُمُّ، أي: تَعْلو وتَغلِبُ، بمعنى تَفوقُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٨٩، ٩٠).

أمثالَها مِن نَوعِها بحيثُ يَقِلُّ مِثلُها في نوعِها، وهذا الوصفُ يُؤذِنُ بالشِّدَّةِ والهَولِ؛ إذ لا يُقالُ مِثلُه إلَّا في الأمورِ المَهولةِ، ثمَّ بُولِغَ في تشخيصِ هَولِها بأنْ وُصِفَتْ بالكُبرى، فكان هذا أصرَحَ الكلماتِ لتصويرِ ما يُقارِنُ هذه الحادثةَ مِن الأهوالِ[1].

- وجوابُ (إذا) قولُه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧] إلخ. وقيلَ: محذوفٌ، تقديرُه: فإنَّ الجحيمَ مأواهُ[2]. وقيلَ: جوابُ (إذا) محذوفٌ يدُلُّ عليه التَّفصيلُ المذكورُ، والتَّقديرُ: كان مِن عظائمِ الأمورِ ما لا يخطُرُ في بالٍ، ولا تَراهُ عينٌ، ولا تَسمَعُ به أُذُنٌ[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۞ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾، وقال في سُورةِ (عَبَسَ): ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]؛ فسمَّاها الطَّامَّةَ الكُبرى في الأُولى، وسمَّاها الصَّاخَّةَ في الثَّانيةِ؛ وَجْهُ ذلك: أنَّ الطَّامَّةَ والصَّاخَّةَ وإنْ أُريدَ بهما في السُّورتَينِ شَيءٌ واحدٌ، فإنَّ اسمَ الطَّامَّةِ أرهَبُ وأنبَأُ بأهوالِ القِيامةِ؛ لأنَّها مِن قَولِهم: طمَّ السَّيلُ؛ إذا عَلا وغَلَبَ. وأمَّا الصَّاخَّةُ فالصَّيحةُ الشَّديدةُ، مِن قَولِهم: صخَّ بأُذنَيه، مِثل أصاخَ، فعُبِّرَ بها عن القِيامةِ؛ لأنَّ النَّاسَ يُصِيخون لها، فلمَّا كانت الطَّامَّةُ أبلَغَ في الإشارةِ إلى أهْوالِها، خُصَّ بها أبلَغُ السُّورتَينِ في التَّخويفِ والإنذارِ، وعلى ذلك بُنِيَت سُورةِ (النازعاتِ)، ألَا تَرى قولَه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۞ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧]، ووَصْفَ الطَّامَّةَ بالكُبْرى، وما أُتبِعَ به بَعْدُ، وابتِداءَ السُّورةِ وخِتامَها، فكلُّها تَخويفٌ وتَرهيبٌ، فناسَبَها أشدُّ العبارتينِ مَوقعًا وأرهَبُها. وأمَّا سُورةُ (عَبَسَ) فلم تُبْنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٧، ٥٩٨).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٠).

على ذلك الغرَضِ، وإنَّما بُنِيَت على قصَّةِ عبدِ اللهِ بنِ أمِّ مَكتومٍ الأعْمى، وذلك مَشهورٌ، ثمَّ وَرَدَ قولُه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ عَقِبَ التَّذكيرِ بقولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ [عبس: ١١]، والتَّحريكِ للاعتبارِ بقولِه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤] إلى قولِه: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [عبس: ٣٢]، ثمَّ أتبعَ بعْدَ ذكرِ الصَّاخَّةِ بقولِه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۞ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]. فسُورةُ النَّازعاتِ -على الجُملةِ- أشدُّ في التَّخويفِ والتَّرهيبِ، فناسَبَها أبلَغُ العبارتينِ مِن أسماءِ القيامةِ في التَّخويفِ والإنذارِ بحالِها، وليست سُورةُ (عَبَسَ) كسُورةِ النَّازعاتِ في التَّخويفِ والتَّرهيبِ، فناسَبَها إيرادُ اسمِ القيامةِ بالصَّاخَّةِ؛ إذ ليس في الإرهابِ كالطَّامَّةِ، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[(١)]. وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ التَّذكُّرُ يَقتضي سَبْقَ النِّسيانِ، وهو انْمِحاءُ المعلومِ مِن الحافظةِ، والمعنى: يومَ يُذكَّرُ الإنسانُ فيَتذكَّرُ، أي: يُعرَضُ عليه عمَلُه فيَعترِفُ به؛ إذ ليس المقصودُ مِن التَّذكُّرِ إلَّا أثرَه، وهو الجزاءُ، فكُنِّيَ بالتَّذكُّرِ عن الجزاءِ[(٣)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ مَعطوفٌ على ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، وصِيغةُ الماضِي ﴿وَبُرِّزَتِ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[(٤)]. وبناه للمَفعولِ؛ لعدَمِ الغرضِ ببيانِ مُبْرِزِها؛ إذ الموعظةُ في الإعلامِ بوُقوعِ إبرازِها يومَئذٍ؛ لأنَّ الهائِلَ مُطلَقُ تَبريزِها،

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٣١-١٣٣٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٥، ٢٤٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٩، ٥٠٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٧، ٥٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٥).

لا كونُه مِن مُعَيَّنٍ، مع الدَّلالةِ على الخِفَّةِ والسُّهولةِ؛ لكَونِه على طريقةِ كلامِ القادِرينَ[١].

- وتَبريزُ الجحيمِ: إظهارُها لأهلِها، وجيءَ بالفِعلِ المضاعَفِ ﴿وَبُرِّزَتِ﴾؛ لإفادةِ إظهارِ الجحيمِ؛ لأنَّه إظهارٌ مِن أجْلِ الإرهابِ[٢].

- قولُه: ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾، أي: لكلِّ راءٍ، ففِعلُ ﴿يَرَى﴾ مُنزَّلٌ مَنزلةَ اللَّازمِ؛ لأنَّ المقصودَ: لِمَن له بصَرٌ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ تَفصيلٌ للجوابِ المحذوفِ، تقديرُه: انقسَمَ الرَّاؤونَ قِسمَينِ: فأمَّا مَن... إلخ. أي: تفصيلٌ لحالَيِ الإنسانِ الَّذي يَتذكَّرُ ما سَعى، وتقسيمٌ له بحسَبِ أعمالِه إلى القِسمَينِ المذكورينِ. والَّذي تَستدعيهِ فخامةُ التَّنزيلِ، ويَقتضيهِ مَقامُ التَّهويلِ، أنَّ الجوابَ المحذوفَ: كان مِن عظائمِ الشُّؤونِ، ما لم تُشاهِدْهُ العيونُ[٤].

أو يَكونُ الجوابُ: ﴿فَأَمَّا ...﴾ وما بعدَه، كما تَقولُ: إذا جاءَكَ بَنو تَميمٍ، فأمَّا العاصي فأهِنْه، وأمَّا الطَّائِعُ فأكْرِمْه[٥].

وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ استِئنافيَّةٌ، والكلامُ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبيانِ حالِ النَّاسِ في الدُّنيا[٦].

- وقُدِّم ذِكرُ الطُّغيانِ على إيثارِ الحياةِ الدُّنيا؛ لأنَّ الطُّغيانَ مِن أكبرِ أسبابِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٤، ١٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠١).

(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧١).

إيثارِ الحياةِ الدُّنيا، فلمَّا كان مسبَّبًا عنه ذُكِر عَقِبَه؛ مراعاةً للتَّرتُّبِ الطبيعيِّ[١].

- والمرادُ بالحَياةِ الدُّنيا: حُظوظُها ومنافعُها الخاصَّةُ بها، أي: الَّتي لا تُشارِكُها فيها حظوظُ الآخرةِ؛ فالكلامُ على حذفِ مُضافٍ، تقديرُه: نعيمُ الحياةِ[٢].

- قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ تَقديرُ الآيةِ: فإنَّ الجَحيمَ هي مأواه، كما تقولُ للرَّجُلِ: غُضَّ الطَّرْفَ، تُريد: طرْفَك، وليس الألِفُ واللَّامُ بدَلًا مِن الإضافةِ، ولكن لَمَّا عُلِمَ أنَّ الطَّاغيَ هو صاحِبُ المأوَى، وأنَّه لا يَغُضُّ الرَّجُلُ طرْفَ غيرِه: تُرِكتِ الإضافةُ، ودخولُ حرْفِ التَّعريفِ في المأوى والطَّرْفِ للتَّعريفِ، لأنَّهما مَعروفانِ. أو التَّقديرُ: المأوَى له، ثمَّ حُذِفتِ الصِّلةُ لوُضوحِ المعنَى. أو التَّقديرُ: فإنَّ الجَحيمَ هي المأوَى اللَّائِقُ بمَن كان مَوصوفًا بهذه الصِّفاتِ والأخلاقِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ في إضافةِ المَقامِ إلى الرَّبِّ سُبحانَه تَفخيمٌ للمَقامِ، وتهويلٌ عظيمٌ، واقعٌ مِن النُّفوسِ موقعًا عظيمًا[٤].

- ونهيُ الخائفِ نفْسَه مُعبَّرٌ به عن الانكفافِ عن تَناوُلِ ما تُحِبُّه النَّفْسُ مِن المعاصي والهوى، فجُعِلتْ نفْسُ الإنسانِ بمنزلةِ شخصٍ آخَرَ يدْعوهُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠١).

السَّيِّئاتِ وهو يَنهاهُ عن هذه الدَّعوةِ، وهذا يُشبِهُ ما يُسمَّى بالتَّجريدِ[١]، يقولونَ: قالتْ له نفْسُه كذا فعصاها، ويُقالُ: نَهى قلْبَه[٢].

- وتَعريفُ الهوَى تعريفُ الجِنسِ، والتَّعريفُ في المَأْوى تعريفُ العهدِ، أي: مَأوى مَن خافَ مَقامَ ربِّه، وهو تعريفٌ مُغْنٍ عن ذِكرِ ما يُضافُ إليه (مَأْوى)، ومِثلُه شائعٌ في الكلامِ، كما في قولِه: غُضَّ الطَّرْفَ، أي: الطَّرْفَ المعهودَ مِن الأمرِ، أي: غُضَّ طَرْفَك، وقولِه: واملَأِ السَّمعَ، أي: سَمْعَك، أو يكونُ تقديرُ الكلامِ: المأْوَى له[٣].

- و﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أصلُ المَقامِ مكانُ القيامِ؛ فكانُ أصلُه مكانَ ما يُضافُ هو إليه، ثمَّ شاعَ إطلاقُه على نفْسِ ما يُضافُ إليه على طريقةِ الكنايةِ بتعظيمِ المكانِ عن تعظيمِ صاحِبِه، مِثلَ ألفاظِ: جَنابٍ، وكَنَفٍ، وذَرًى، وذلك مِن قبيلِ الكنايةِ المطلوبِ بها نِسبةٌ إلى المُكَنَّى عنه؛ فإنَّ خَوفَ مَقامِ اللهِ مُرادٌ به خَوفُ اللهِ، والمرادُ بالنِّسبةِ ما يَشملُ التَّعلُّقَ بالمفعولِ[٤].

- وتعريفُ النَّفْسِ هو للعهدِ، مِثلُ التَّعريفِ في ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٥].

- وفي تَعريفِ أصحابِ الجحيمِ وأصحابِ الجنَّةِ بطريقِ المَوصولِ ﴿فَأَمَّا

(١) التَّجريد: أن يُنتزَعَ مِن أمرٍ ذي صِفةٍ أمرٌ آخَرُ مِثلُه في تلك الصِّفةِ، حتَّى تَصيرَ الذَّاتُ الواحدةُ ذاتَين؛ مُبالَغةً لكمالِ الوصفِ في تلكَ الذَّاتِ. كقَولِهم: لي مِنكَ صديقٌ حميمٌ، و: لَئِنْ سألْتَ فُلانًا، لَتَسْألَنَّ به بحرًا. يُنظر: ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٩)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٤).

مَن طَغَىٰ ...﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ...﴾: إيماءٌ إلى أنَّ الصِّلتَينِ عِلَّتانِ في استِحقاقِ ذلك المَأْوى[١].

- وفي قولِه: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ مُحسِّنُ الجَمعِ مع التَّقسيمِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٣).

والجمعُ والتَّقسيمُ تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩١).

الآيات (٤٢-٤٦)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾: أي: في أيِّ وَقتٍ وُقوعُها وقيامُها وثَباتُها واستِقرارُها؟ وأَيَّانَ: يُسأَلُ به عن الزَّمانِ المُستَقبَلِ، وأصلُ (رسو): يدُلُّ على ثُبوتٍ[1].

﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾: العَشِيُّ: مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، أو: آخِرُ النَّهارِ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظلامٍ، وقِلَّةِ وُضوحِ الشَّيءِ، والضُّحَى: أوَّلُ اليومِ، أو انبِساطُ الشَّمسِ وامتِدادُ النَّهارِ، وسُمِّيَ الوقْتُ به، وأَصْلُه يدُلُّ على بُروزِ الشَّيءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: يَسأَلُك المكَذِّبونَ بالبَعْثِ -يا محمَّدُ- عن مَوعِدِ القيامةِ، فيقولونَ: متى وَقتُ قيامِها؟

ثمَّ يقولُ تعالى مجيبًا: ليس مِن شأنِك مَعرِفةُ وَقتِ قيامِ السَّاعةِ، وليس ذلك إليك، إلى رَبِّك وَحْدَه مُنتهى عِلمِها، إنَّما أنت مُكَلَّفٌ بإنذارِ مَن يَخشى قيامَ السَّاعةِ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ ببيانِ حالِهم عندَ قيامِ السَّاعةِ، فيقولُ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥، ٥١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٢، ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩١) و(٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٢، ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

كأنَّهم يومَ يَرَوْنَ السَّاعةَ لم يَمكُثوا في الدُّنيا إلَّا وَقتًا قليلًا كمِقدارِ آخِرِ النَّهارِ أو أوَّلِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن بالبُرهانِ العَقليِّ إمكانَ القيامةِ، ثمَّ أخبَرَ عن وُقوعِها، ثمَّ ذَكَر أحوالَها العامَّةَ، ثمَّ ذَكَر أحوالَ الأشقياءِ والسُّعَداءِ فيها؛ قال تعالى[1]:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾.

أي: يَسأَلُك المكَذِّبونَ بالبَعْثِ -يا محمَّدُ- عن مَوعِدِ القيامةِ، فيقولونَ: متى وَقتُ قيامِها[2]؟

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٤).

وممَّن قال بأنَّ السَّائِلينَ هم المكَذِّبونَ بالبَعْثِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال ابن عاشور: (كان سؤالُهم استِهزاءً واستِخفافًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٤).

وقال ابن عثيمين: (سؤالُ النَّاسِ عن السَّاعةِ يَنقَسِمُ إلى قِسمَينِ: سؤالُ استبعادٍ وإنكارٍ، وهذا كُفرٌ... وسؤالٌ عن السَّاعةِ يَسألُ متى السَّاعةُ؛ لِيَستعِدَّ لها، وهذا لا بأسَ به... فالنَّاسُ يَسألون النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولكِنْ تختَلِفُ نيَّاتُهم في هذا السُّؤالِ، ومهما كانت نيَّاتُهم ومهما كانت أسئلتُهم، فعِلمُ السَّاعةِ عندَ اللهِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٦).

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٥، ٦].

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣﴾.

أي: ليس مِن شأنِك مَعرِفةُ وَقتِ قيامِ السَّاعةِ، وليس ذلك إليك[١].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤﴾.

أي: إلى رَبِّك -يا محمَّدُ- وَحْدَه مُنتهى عِلمِ السَّاعةِ، فلا يَعلَمُ مَوعِدَ إتيانِها سِواه[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥﴾.

أي: إنَّما أنت -يا محمَّدُ- مُكَلَّفٌ بتحذيرِ مَن يَخشى قيامَ السَّاعةِ؛ فهو الَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٦).

قال القاسمي: (﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ أي: في أيِّ شَيءٍ أنت مِن ذِكرِ ساعتِها لهم، أي: ليس إليك ذِكرُها؛ لأنَّها مِن الغُيوبِ، فلا معنى لسؤالِهم إيَّاك عنها). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٠٣).

وقيل: ﴿فِيمَ﴾ إنكارٌ لسُؤالِهم، أي: فيمَ هذا السُّؤالُ؟ ثمَّ قيل: أنتَ مِن ذِكْراها، أي: أرسلَك وأنت خاتَمُ الأنبياءِ وآخِرُ الرُّسُلِ ذكرًا مِن أنواعِ علاماتِها، وواحِدًا مِن أقسامِ أشراطِها، فكفاهم بذلك دليلًا على دُنُوِّها ووُجوبِ الاستعدادِ لها، ولا فائِدةَ في سُؤالِهم عنها. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٦).

ينتَفِعُ بذلك، فيَعمَلُ لها، ويَستَعِدُّ مِن أجْلِها، ولم تُكَلَّفْ مَعرِفةَ وَقْتِها، أو إعلامَ النَّاسِ بمَوعِدِها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

أي: كأنَّهم يومَ يَرَونَ القيامةَ لم يَعِيشوا في الدُّنيا إلَّا وَقتًا قليلًا لا يَتجاوَزُ مِقدارَ آخِرِ النَّهارِ أو أوَّلِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٨).

الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ قيل: عائِدٌ على الكُفَّارِ المكَذِّبينَ بالبَعثِ. وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٦).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: كأنَّهم يومَ يَرَوْنَ القيامةَ، لم يَلْبَثوا في الدُّنيا إلَّا عَشيَّةً أو ضُحاها: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، ومكي، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرازي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وأبو حيَّان، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٨٢)، =

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ آياتِه الإيمانيَّةَ القرآنيَّةَ إنَّما يَنتَفِعُ بها أهلُ التَّقوى والخَشيةِ والإنابةِ، ومَن كان قصْدُه اتِّباعَ رِضوانِه، وأنَّها يَتذكَّرُ بها مَن يَخْشاه سُبحانَه، كما قال سُبحانَه: ﴿طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١ - ٣]، وقال هنا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾، وأمَّا مَن لا يُؤْمِنُ بها ولا يَرجوها ولا يَخْشاها، فلا تَنفَعُه الآياتُ العِيانيَّةُ ولا القُرآنيَّةُ(١).

= ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٠٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٠).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي: إذا قاموا مِن قُبورِهم إلى المَحشَرِ يَستقصِرونَ مدَّةَ الحياةِ الدُّنيا، حتَّى كأنَّها عِندَهم كانت عَشيَّةً مِن يَومٍ، أو ضُحًى مِن يَومٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨).

وقيل: المعنى ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في قُبورِهم ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩١).

قال ابنُ عثيمين: (﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أي: يَرَونَ القيامةَ ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ العَشِيَّةُ مِن الزَّوالِ إلى غروبِ الشَّمسِ، والضُّحى مِن طُلوعِ الشَّمسِ إلى زَوالِها، يعني: كأنَّهم لم يَلْبَثوا إلَّا نِصفَ يَومٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٨).

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣١).

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ أي: فيه أهليَّةٌ أن يَخافَها خَوفًا عظيمًا، فيَعمَلَ لها؛ لعِلْمِه بإتيانِها لا محالةَ، وعِلْمِه بمَوتِه لا محالةَ، وعِلْمِه بأنَّ كُلَّ ما تحقَّقَ وُقوعُه فهو قريبٌ، وذلك لا يناسِبُ تَعيينَ وَقْتِها؛ فإنَّ مَن فيه أهليَّةُ الخَشيةِ لا يَزيدُه إبهامُها إلَّا خَشيةً، وغَيرُه لا يَزيدُه ذلك إلَّا اجتِراءً وإجرامًا[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۞ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ لَمَّا كان عِلمُ العِبادِ للسَّاعةِ ليس لهم فيه مَصلَحةٌ دِينيَّةٌ ولا دُنيويَّةٌ، بل المصلحةُ في خَفائِه عليهم؛ طوَى سُبحانَه عِلْمَ ذلك عن جميعِ الخَلْقِ، واستأثَرَ بعِلْمِه[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ يقولُ القائِلُ: إنَّما الإرساءُ للسَّفينةِ والجِبالِ، وما أشبَهَهنَّ، فكيف وُصِفَت السَّاعةُ بالإرساءِ؟

الجوابُ: هي بمنزلةِ السَّفينةِ إذا كانت جاريةً فَرَسَتْ، ورُسُوُّها قيامُها، وليس قيامُها كقيامِ القائِمِ على رِجْلِه ونحوِه، إنَّما هو كقَولِك: قد قام العَدلُ، وقام الحَقُّ، أي: ظَهَر وثَبَت[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۞ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ۞ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ قُدِّمَ الخَبَرُ في قَولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾؛ ليفيدَ اختصاصَ ذلك به تبارك وتعالى، وهذا صريحٌ في أنَّ عِلْمَ السَّاعةِ خاصٌّ باللهِ تعالى، لا يَطَّلِعُ عليه مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٧٠).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ فيه سؤالٌ: قَولُه: ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا﴾، معناه: ضُحى العَشِيَّةِ، وهذا غيرُ مَعقولٍ؛ لأنَّه ليس للعَشِيَّةِ ضُحًى؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ الهاءَ والألِفَ صِلةٌ للكلامِ -أي: زائدةٌ-، يريدُ: لم يَلْبَثوا إلَّا عَشِيَّةً أو ضُحًى.

الوَجهُ الثَّاني: المرادُ بإضافةِ الضُّحى إلى العَشِيَّةِ إضافتُها إلى يومِ العَشِيَّةِ، كأنَّه قيل: إلَّا عَشِيَّةً أو ضُحى يَومِها، والعَرَبُ تقولُ: (آتيك العَشِيَّةَ أو غَدَاتَها).

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ النَّحْويِّينَ قالوا: يَكفي في حُسْنِ الإضافةِ أَدنى سَبَبٍ، فالضُّحى المتقَدِّمُ على عَشِيَّةٍ يَصِحُّ أن يُقالَ: إنَّه ضُحَى تلك العَشِيَّةِ، وزَمانُ المحنةِ قد يُعَبَّرُ عنه بالعَشِيَّةِ، وزَمانُ الرَّاحةِ قد يُعَبَّرُ عنه بالضُّحى؛ فالَّذين يَحضُرونَ في مَوقِفِ القيامةِ يُعَبِّرونَ عن زَمانِ مِحنتِهم بالعَشِيَّةِ، وعن زمانِ راحتِهم بضُحى تلك العَشِيَّةِ، فيقولونَ: كأنَّ عُمُرَنا في الدُّنيا ما كان إلَّا هاتَينِ السَّاعتَينِ[(١)].

٥- قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ المرادُ: ساعةٌ من نهارٍ؛ أوَّلِه أو آخِرِه، لم يَستَكْمِلوا نهارًا تامًّا، ولم يَجمعوا بيْن طَرَفَيه، على أنَّ الكُفَّارَ أيضًا يَستَقصِرونَ مدَّةَ لُبثِهم، فكأنَّهم أصنافٌ؛ بعضُهم يقولُ: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣]، وبعضُهم يقولُ: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤]، وبعضُهم يتحَيَّرُ فيقولُ: (اسْأَلِ العادِّينَ). أو أنَّ تلك أقوالُهم، والحَقُّ مِن ذلك هو ما أخبَرَ اللهُ به غيرَ مُضافٍ إلى أقوالِهم مِن أنَّ ما مضى لهم في جَنْبِ ما يأتي كأنَّه ساعةٌ مِن نهارٍ بالنِّسبةِ إلى النَّهارِ الكامِلِ! كما قال تعالى في سُورةِ يُونُسَ عليه الصَّلاةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥١).

والسَّلامُ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، على أنَّ منهم مَن يقولُ ذلك أيضًا، كما قال تعالى في سورةِ المؤمنينَ حينَ قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾[1] [المؤمنون: ١١٢، ١١٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مَنشؤُه أنَّ المُشرِكينَ كانوا يَسألونَ عن وقتِ حُلولِ السَّاعةِ الَّتي يَتوعَّدُهم بها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما حَكاهُ اللهُ عنهم غيرَ مرَّةٍ في القُرآنِ؛ كقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، وكان سؤالُهم استِهزاءً واستخفافًا؛ لأنَّهم عقَدوا قلوبَهم على استِحالةِ وُقوعِ السَّاعةِ، ورُبَّما طلَبوا التَّعجيلَ بوُقوعِها، وأَوهَموا أنفُسَهم وأشْياعَهم أنَّ تأخُّرَ وُقوعِها دليلٌ على اليأسِ منها؛ لأنَّهم يَتوهَّمونَ أنَّهم إذا فعَلوا ذلك مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لو كان صادقًا لَحَمِيَ غضَبُ اللهِ مُرسِلِه سُبحانَه فبادَرَ بإراءَتِهم العذابَ، وهم يَتوهَّمونَ شؤونَ الخالقِ كشُؤونِ النَّاسِ إذا غَضِبَ أحدُهم عَجِل بالانتقامِ طيشًا وحَنَقًا! فلا جَرَمَ لَمَّا قُضِيَ حقُّ الاستِدلالِ على إمكانِ البعثِ بإقامةِ الدَّليلِ وضربِ الأمثالِ، وعُرِّض بعِقابِ الَّذين استَخَفُّوا بها في قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤]؛ كان ذلك مَثارًا لسؤالِهم أنْ يَقولوا: هلْ لِمَجيءِ هذه الطَّامَّةِ الكُبرى وقتٌ معلومٌ؟ فكان الحالُ مقتضيًا هذا الاستئنافَ البيانيَّ؛ قضاءً لحقِّ المَقامِ، وجوابًا عن سابقِ الكلامِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٤).

- وحُكِي فِعلُ السُّؤالِ بصِيغةِ المضارعِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ هذا السُّؤالِ وتكرُّرِه[١].

- والسَّاعةُ: هي الطَّامَّةُ، فذِكرُ السَّاعةِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لقصدِ استقلالِ الجملةِ بمَدلولِها، مع تَفنُّنٍ في التَّعبيرِ عنها بهذَينِ الاسمينِ: ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ و﴿ٱلسَّاعَةِ﴾[٢].

- وجُملةُ ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ جُملةٌ مبيِّنةٌ للسُّؤالِ. و﴿أَيَّانَ﴾: اسمٌ يُستفهَمُ به عن تَعيينِ الوقتِ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في الاستبعادِ، وهو أيضًا كِنايةٌ عن الاستحالةِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾

- قولُه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ واقعٌ موقعَ الجوابِ عن سؤالِهم عن السَّاعةِ باعتبارِ ما يَظهَرُ مِن حالِ سؤالِهم عن السَّاعةِ مِن إرادةِ تعيينِ وقتِها، وصرْفِ النَّظرِ عن إرادتِهم به الاستهزاءَ، فهذا الجوابُ مِن تخريجِ الكلامِ على خلافِ مُقتضى الظَّاهرِ، وهو مِن تَلَقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يَتطلَّبُ؛ تَنبيهًا له على أنَّ الأَولى به أنْ يَهتمَّ بغيرِ ذلك، وهو مضمونُ قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾ [النازعات: ٤٥]، وهذا ما يُسمَّى بالأسلوبِ الحَكيمِ. والخِطابُ وإنْ كان موجَّهًا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فالمقصودُ بُلوغُه إلى مَسامِعِ المُشرِكينَ؛ فلذلك اعتُبِر اعتبارَ جوابٍ عن كلامِهم، وذلك مُقتضى فصْلِ الجملةِ عن الَّتي قبْلَها شأنَ الجوابِ والسُّؤالِ[٤].

- و(ما) في قولِه: ﴿فِيمَ﴾ اسمُ استفهامٍ بمعنى: أيُّ شيءٍ؟ مُستعمَلةٌ في التَّعجيبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن سُؤالِ السَّائلينَ عنها، ثمَّ توبيخِهم[١]؛ فقولُه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ تعجُّبٌ مِن كَثرةِ ذِكرِه لها، كأنَّه قيل: في أيِّ شُغلٍ واهتمامٍ أنت مِن ذِكرِها والسُّؤالِ عنها؟ والمعنى: أنَّهم يَسألونَك عنها، فلِحرصِك على جوابِهم لا تَزالُ تذكُرُها وتَسألُ عنها[٢].

وقيلَ: ﴿فِيمَ﴾ إنكارٌ لسُؤالِهم، وما بَعْدَه مِن الاستِئنافِ تعليلٌ للإنكارِ، وبيانٌ لبُطلانِ السُّؤالِ، أيْ: فيمَ هذا السؤالُ؟ ثمَّ ابتُدِئَ فقيلَ: ﴿أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ أي: إرسالُك وأنتَ خاتمُ الأنبياءِ المبعوثُ في نَسَمِ السَّاعةِ[٣] علامةً مِن علاماتِها: دليلٌ يَدُلُّهم على العِلمِ بوُقوعِها عن قريبٍ، فحَسْبُهم هذه المرتبةُ مِن العِلمِ، فـ﴿فِيمَ﴾ ليس خبرًا مقدَّمًا لِما بعدَه، بل هو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: فِيمَ هذا السُّؤالُ الواقعُ مِن الكفَرةِ؟ فتَمَّ الكلامُ عندَه، ثمَّ استأنَفَ بجملةِ ﴿أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ بيانًا لسببِ الإنكارِ عن سؤالِهم، كأنَّه قيل: إنَّها قريبةٌ غيرُ بعيدةٍ؛ لأنَّك علامةٌ مِن علاماتِها، فإرسالُك يَكْفيهِم دليلًا على دُنُوِّها، والاهتمامِ بتحصيلِ الاعتدادِ لها، فلا معنَى لسؤالِهم عنها، فمعنى ﴿أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾: أنت مِن علاماتِها ومُذكِّراتِها[٤].

- و(في) للظَّرفيَّةِ بجعْلِ المُشرِكينَ في إحْفائِهم بالسُّؤالِ عن وقتِ السَّاعةِ كأنَّهم جعَلوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ محوطًا بذِكرِ وقتِ السَّاعةِ، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٩).

(٣) نَسَمِ السَّاعةِ: مِن النَّسيمِ، وهو أوَّلُ هُبوبِ الرِّيحِ الضَّعيفةِ: والمعنى أنَّه مبعوثٌ في أوَّلِ أشراطِ السَّاعَةِ وضَعْفِ مَجيئِها. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٢).

مُتلبِّسًا به تلبُّسَ العالِمِ بالمعلومِ[١].

- وتَقديمُ ﴿فِيمَ﴾ على المبتدأ ﴿أَنتَ﴾ للاهتِمامِ به؛ ليُفيدَ أنَّ مضمونَ الخبرِ هو مَناطُ الإنكارِ، بخلافِ ما لو قيل: أأنت في شيءٍ مِن ذِكْراها[٢]؟

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ جُملةٌ في موقعِ العِلَّةِ للإنكارِ الَّذي اقتضاهُ قولُه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾؛ ولذلك فُصِلَتْ -أي: لم تُعطَفْ على الَّتي قبْلَها[٣].

- وفي الكلامِ إيجازٌ بالحذْفِ، تَقديرُه: إلى ربِّك عِلمُ مُنتهاها[٤].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على المبتدأ ﴿مُنتَهَاهَا﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ[٥]، أي: لا إليك، وهذا قصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن جملةِ ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات: ٤٣، ٤٤]؛ وهو أنْ يَسألَ السَّامعُ عن وجْهِ إكثارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذِكرَها وأنَّها قريبةٌ، فأُجيبَ بأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حظُّه التَّحذيرُ مِن بَغْتَتِها، وليس حظُّه الإعلامَ بتعيينِ وقتِها[٧].

وقيلَ: قولُه: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ إمَّا تقريرٌ لِما قبْلَه مِن قولِه تعالَى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ [النازعات: ٤٣]، وتحقيقٌ لِما هو المرادُ منه، وبيانٌ لوظيفتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في ذلكَ الشأنِ؛ فإنَّ إنكارَ كَونِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٥، ٩٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٦).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٧).

شيءٍ مِن ذِكْراها ممَّا يُوهِمُ بظاهِرِه أنْ ليس له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يَذكُرَها بوجهٍ مِن الوُجوهِ، فأُزيحَ ذلك ببيانِ أنَّ المَنفيَّ عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ذِكرُها لهم بتعيينِ وقتِها حسبَما كانوا يَسألونَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عنها، فالمَعْنى: إنَّما أنت مُنذِرُ مَن يَخْشاها، وظيفتُكَ الامتثالُ بما أُمِرتَ به مِن بيانِ اقترابِها، وتفصيلِ ما فيها مِن فُنونِ الأهوالِ كما تُحيطُ به خُبْرًا، لا تعيينُ وقتِها الَّذي لم يُفوَّضْ إليك، فما لَهم يَسألونَكَ عمَّا ليس مِن وظائفِكَ بيانُه؟! أو هو تَقريرٌ لقولِه تعالى: ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ ببَيانِ أنَّ إرسالَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -وهو خاتَمُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ- مُنذِرٌ بمجيءِ السَّاعةِ[١].

- وأفادَتْ ﴿إِنَّمَآ﴾ قصْرَ المخاطَبِ على صِفةِ الإنذارِ، أي: تخصيصَه بحالِ الإنذارِ، وهو قصْرُ موصوفٍ على صفةٍ، فهو قصرٌ إضافيٌّ[٢]، أي: بالنِّسبةِ إلى ما اعتقَدوه فيه بما دلَّ عليه إلحافُهم في السُّؤالِ مِن كَونِه مُطَّلِعًا على الغَيبِ[٣].

- وفي إضافةِ ﴿مُنذِرُ﴾ إلى ﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أو نصْبِه به -على قِراءة أبي جعْفر: ﴿مُنذِرٌ﴾ بالتَّنوينِ[٤]- إيجازُ حذْفٍ تَقديرُه: مُنذِرُها فيَنتذِرُ مَن يَخْشاها، وقرينةُ ذلك حاليَّةٌ؛ للعِلمِ المتواترِ مِنَ القُرآنِ بأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان يُنذِرُ جميعَ النَّاسِ، لا يخُصُّ قَومًا دُونَ آخَرينَ؛ فإنَّ آياتِ الدَّعوةِ مِن القرآنِ ومَقاماتِ دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ لم تكُنْ إلَّا عامَّةً، ولا يُعْرَفُ مَن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٥، ١٠٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٧).

(٤) قرأها أبو جعفرٍ بالتَّنوينِ، والباقونَ بدونِ تنوينٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٨).

يَخْشى السَّاعةَ إلَّا بعْدَ أنْ يُؤمِنَ المؤمنُ، ولو عُرِف أحدٌ بعَينِه أنَّه لا يُؤمِنُ أبدًا لَما وُجِّهَتْ إليه الدَّعوةُ؛ فتَعيَّنَ أنَّ المرادَ: أنَّه لا يَنتفعُ بالإنذارِ إلَّا مَن يَخْشى السَّاعةَ، ومَن عَداهُ تمُرُّ الدَّعوةُ بسَمْعِه فلا يَأبَهُ بها؛ فكان ذِكرُ ﴿مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ تنويهًا بشأنِ المؤمِنينَ، وإعلانًا لمَزيَّتِهم، وتحقيرًا للَّذين بَقُوا على الكفرِ[(١)].

- وتَخصيصُ الإنذارِ بمَن يَخْشَى مع عُمومِ الدَّعوةِ؛ لأنَّه المنتفِعُ به[(٢)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ إمَّا تقريرٌ وتأكيدٌ لِما يُنبِئُ عنه الإنذارُ مِن سرعةِ مجيءِ المُنذَرِ به، أيْ: كأنَّهم يومَ يرَوْنَها لم يَلبَثوا بعدَ الإنذارِ بها إلَّا عَشيَّةَ يومٍ واحدٍ أو ضُحاهُ. وإمَّا ردٌّ لِما أَدْمَجوهُ في سؤالِهم؛ فإنَّهم كانوا يَسألونَ عنها بطريقِ الاستبطاءِ مُستعجِلينَ بها، وإنْ كانَ على نهجِ الاستِهزاءِ بها ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، فالمَعْنى: كأنَّهم يومَ يَرَوْنَها لم يَلبَثوا بعدَ الوعيدِ؛ تحقيقًا للإنذارِ، ورَدًّا لاستبطائِهم؛ فهو على هذا جوابٌ عمَّا تَضمَّنَه قولُه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢] باعتبارِ ظاهِرِ حالِ السُّؤالِ مِن طلبِ المعرفةِ بوقتِ حلولِ السَّاعةِ، واستبطاءِ وُقوعِها الَّذي يَرْمونَ به إلى تكذيبِ وُقوعِها، فأُجيبوا على طريقةِ الأسلوبِ الحكيمِ، أي: إنْ طالَ تأخُّرُ حصولِها فإنَّها واقعةٌ، وأنَّهم يومَ وقوعِها كأنَّه ما لَبِثوا في انتظارٍ إلَّا بعضَ يومٍ[(٣)].

- والعَشيَّةُ: مُعبَّرٌ بها عن مُدَّةٍ يسيرةٍ مِن زَمانٍ طويلٍ على طَريقةِ التَّشبيهِ، وهو مُستفادٌ مِن ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾، فهو تَشبيهُ حالِهم بحالةِ مَن لم يَلبَثْ إلَّا عشيَّةً، وهذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٨).

التَّشبيهُ مقصودٌ منه تقريبُ معنى المُشبَّهِ مِن المُتعارَفِ[١].

- وقولُه: ﴿أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ تخييرٌ في التَّشبيهِ، وفي هذا العطفِ زِيادةٌ في تقليلِ المُدَّةِ؛ لأنَّ حِصَّةَ الضُّحى أقصَرُ مِن حصَّةِ العَشيَّةِ[٢].

- وصحَّتْ إضافةُ الضُّحى إلى العَشيَّةِ؛ لِما بيْنَهما مِن الملابَسةِ؛ لاجتماعِهما في نهارٍ واحدٍ، ولم يقل: (إلا عشية أو ضحى)، بل أضافَ الضُّحى إلى العَشيِّ؛ للدَّلالةِ على أنَّ مدَّةَ لَبْثِهم كأنَّها لم تَبلُغْ يومًا كاملًا، ولكنْ ساعةً منه عَشِيَّتَه أو ضُحاهُ، فلمَّا تُرِك اليومُ أضافَهُ إلى عشيَّتِه، فهو كقولِه: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فأصْلُ الكلامِ: لم يَلْبَثوا إلَّا ساعةً مِن نَهارٍ عَشيَّتَه أو ضُحاهُ، فوُضِعَ هذا المختصَرُ مكانَه، وقيل: الظَّاهرُ أنَّ إضافةَ (ضُحى) إلى (عَشِية) للبيانِ، ولكنَّ المرادَ التَّوكيدُ وَتحقيقُهما، نحْو: أخذْتُ بيَدِي ورأيتُ بعَيْني؛ لأنَّه مِن الإمكانِ أنْ يُرادَ بضُحى وساعةِ النَّهارُ كلُّه[٣].

وقيلَ: مُسوِّغُ الإضافةِ أنَّ الضُّحى أسبَقُ مِن العَشيَّةِ؛ إذ لا تقَعُ عشيَّةٌ إلَّا بعدَ مرورِ ضُحًى، فصارَ ضُحَى ذلك اليومِ يُعرَّفُ بالإضافةِ إلى عشيَّةِ اليومِ؛ لأنَّ العشيَّةَ أقرَبُ إلى عِلمِ النَّاسِ؛ لأنَّهم يكونونَ في العشيَّةِ بعدَ أنْ كانوا في الضُّحى، فالعشيَّةُ أقرَبُ، والضُّحى أسبَقُ. وفي هذه الإضافةِ أيضًا رعايةٌ على الفواصلِ الَّتي هي على حرفِ الهاءِ المفتوحةِ مِن ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٨٧، ٢٨٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٨، ٩٩).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ٢١٣).

تَفْسيرُ

سُورَةِ عَبَسَ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ عَبَسَ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ سُورةَ (عَبَسَ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ (عَبَسَ) مَكِّيَّةٌ، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

حقيقةُ دَعوةِ القُرآنِ، وكرامةُ مَن ينتَفِعُ بها، وحَقارةُ مَن يُعرِضُ عنها[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- عِتابُ اللهِ تعالى لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عتابًا رقيقًا، على ما حَدَث منه مع ابنِ أمِّ مَكتومٍ الأَعمى.

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بلَفظِ «عَبَسَ» في قَولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠١).

قال الألوسي: (وتُسمَّى سورةَ الصَّاخَّةِ، وسورةَ السَّفَرةِ، وسُمِّيَتْ في غيرِ كتابٍ سورةَ الأعمى). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٤١). ويُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (ص: ٩٢).

وقال ابن عاشور: (وكلُّ ذلك تسميةٌ بألفاظٍ وقعتْ فيها لم تقَعْ في غيرِها مِن السُّوَرِ، أو بصاحبِ القصَّةِ الَّتي كانت سببَ نُزولِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠١).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّة، وابن الجوزي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((المختصر في تفسير القرآن الكريم)) (ص: ٥٨٥).

٢- الثَّناءُ على القُرآنِ، وأنَّه ذِكْرى ومَوعِظةٌ لِمَن عَقَل وتدبَّرَ.

٣- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، بذِكرِ أصلِ نَشأةِ الإنسانِ، ونِعَمِ اللهِ عليه، وتَيسيرِ أسبابِ حَياتِه.

٤- التَّذكيرُ بأهوالِ يومِ القيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه.

الآيات (١-١٦)

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَبَسَ﴾: أي: قَطَّبَ وَجْهَه، وقَبَضَ ما بيْنَ عينَيه، والعُبُوسُ: تَقطُّبُ الوَجهِ عندَ كراهيةِ أمرٍ، وأصلُ (عبس): يدُلُّ على تكَرُّهٍ[١].

﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: أي: أعرَضَ، والتَّولِّي إذا وُصِلَ بـ(عن) لفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنَى الإعراضِ، وتَركِ القُربِ[٢].

﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾: أي: يَتطَهَّرُ مِنَ الذُّنوبِ، وأصلُ (زكو): يدُلُّ على نَماءٍ، وزِيادةٍ، وطَهارةٍ[٣].

﴿ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾: أي: التَّذكيرُ والعِظَةُ، وأصلُ (ذكر): يدُلُّ على خِلافِ النِّسْيانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، (إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٧).

﴿تَصَدَّىٰ﴾: أي: تَتَعَرَّضُ، وتُقبِلُ عليه[١].

﴿تَلَهَّىٰ﴾: أي: تُعْرِضُ، وتتشاغلُ عنه بغَيْرِه، يُقالُ: لهيتُ عن الشَّيءِ، وتلهَّيْتُ عنه، إذا شُغِلْتَ عنه، وتركْتَه، وأصلُ (لهو) هنا: يَدُلُّ على شُغْلٍ عن شيءٍ بشيءٍ[٢].

﴿سَفَرَةٍ﴾: السَّفَرةُ: هم الملائِكةُ الكِرامُ الكاتِبونَ، واحِدُهم سافِرٌ، يُقالُ: سَفَرْتُ: أي: كَتَبْتُ. ومنه قيل للكِتابِ: سِفْرٌ؛ لأنَّه يُبَيِّنُ الشَّيءَ ويُوضِّحُه. وقيل: هم الرُّسُلُ مِن الملائكةِ الَّذين يَسْفِرونَ بالوَحْيِ بيْن اللهِ ورُسُلِه، ومنه: سفيرُ القَومِ: الَّذي يَسعى بيْنَهم للصُّلحِ، وأصلُ (سفر): يدُلُّ على الانكِشافِ والجَلاءِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بمُعاتَبةِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عِتابًا رقيقًا، فقال: قَطَّبَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَجْهَه، وأعرَضَ؛ بسَبَبِ مَجيءِ الرَّجُلِ الأعمى إليه، وهو مَشغولٌ بدَعوةِ رَجُلٍ مِن أشرافِ قُرَيشٍ، وما يُدْرِيك -يا مُحمَّدُ- لعَلَّ هذا الأعمى يتطَهَّرُ مِن ذُنوبِه بما يتعَلَّمُه مِنَ القُرآنِ منك، أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:١٥٩، ١٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٧١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣).

وأصلُه تتلَّهَى، فأُسْقِطتْ إحدَى التَّاءيْنِ استثقالًا لها في صدرِ الكلمةِ. يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٩).

يتذَكَّرُ؛ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما يَسمَعُ مِنَ القُرآنِ؟!

ثمَّ فصَّل اللهُ تعالى ما كان مِن نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: أمَّا الَّذي استَغْنى بمالِه وجاهِه عن الإيمانِ، وأعرَضَ عن هَدْيِك، فأنت تتعَرَّضُ له، وتُقبِلُ عليه، وتجتَهِدُ في وَعْظِه؛ رجاءَ هِدايتِه للحَقِّ، وأيُّ ضَرَرٍ عليك إذا لم يُسْلِمْ ويتطَهَّرْ مِن كُفْرِه وذُنوبِه؟! وأمَّا هذا الرَّجُلُ الأعمى الَّذي جاءك يَسْعى مُجتَهِدًا في الوُصولِ إليك؛ طَلَبًا للعِلْمِ وسَماعِ الحَقِّ، وهو يَخافُ اللهَ تعالى، فأنت تُعْرِضُ عنه!

ثمَّ قال تعالى: كَلَّا، لا تَفعَلْ ما فعَلْتَ -يا محمَّدُ- إنَّ آياتِ القُرآنِ تذكيرٌ للنَّاسِ جَميعًا، فمَن شاء مِن النَّاسِ ذَكَر هذا القُرآنَ، فاتَّعَظَ وعَمِلَ بما فيه، وهذا القُرآنُ الكريمُ مَكتوبٌ في صُحُفٍ مُكَرَّمةٍ عِندَ اللهِ تعالى، عاليةٍ رفيعةِ القَدْرِ، مُطَهَّرةٍ مِن كُلِّ دَنَسٍ وعَيبٍ، بأيدي طائِفةٍ مِنَ الملائِكةِ ذَوي خَلْقٍ حَسَنٍ وأخلاقٍ جَميلةٍ، كثيري الخَيرِ والطَّاعةِ والإحسانِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن مَعمَرٍ، عن قَتادةَ، عن أنسٍ -رَضِيَ اللهُ عنه- في قَولِه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، قال: ((جاء ابنُ أُمِّ مَكتومٍ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو يُكَلِّمُ أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ، فأعرَضَ عنه؛ فأنزل اللهُ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، فكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعْدَ ذلك يُكْرِمُه))، قال قَتادةُ: وأخبَرَني أنَسُ بنُ مالكٍ قال: رأَيْتُه يومَ القادسِيَّةِ وعليه دِرعٌ، ومعه رايةٌ سَوداءُ، يعني: ابنَ أُمِّ مَكتومٍ[1].

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٣١٢٣).

=

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾.

أي: قَطَّبَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَجْهَه، وأعرَضَ غَضَبًا[1].

﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾.

أي: بسَبَبِ مَجيءِ الرَّجُلِ الأعمى إليه، وهو مَشغولٌ بدَعوةِ رَجُلٍ مِن أشرافِ قُرَيشٍ[2].

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾.

= قال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (٢٦٧): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ).

وأخرج الموقوفَ منه مِن طرُقٍ أخرى: الحارثُ في ((المسند)) (٦٦١)، وابنُ جرير في ((التفسير)) (٢٤/ ٢١٨).

وثَّق رجالَ إسنادِه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٥/ ١٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٩).

قال السمعاني: (قَولُه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ هو الرَّسولُ في قولِ الجَميعِ... وقَولُه: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾... هو عبدُاللهِ بنُ أُمِّ مكتومٍ في قَولِ الجَميعِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥٥). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٩٢).

وقال ابنُ العربي: (لا خِلافَ أنَّها نَزَلَت في ابنِ أُمِّ مَكتومٍ الأَعمى). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٦٢).

قيل: معنى: ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: أعرَضَ بوَجْهِه. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، والثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٨٢).

وقيل: المعنى: أعرَضَ ببدَنِه. وممَّن ذهب إليه: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٣، ١٠٤).

أي: وما يُدْرِيك -يا مُحمَّدُ- لعَلَّ هذا الأعمى -الَّذي عَبَسْتَ وأعرَضْتَ عنه- يتَزكَّى بما يتعَلَّمُه مِنَ القُرآنِ منك؛ فيَتطَهَّرَ مِن ذُنوبِه[١].

﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤﴾.

أي: أو لعَلَّه يَتذَكَّرُ ما غَفَل عنه؛ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما يَسمَعُ مِنَ القُرآنِ[٢].

﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥﴾.

أي: أمَّا الَّذي استَغْنى عن الإيمانِ والقُرآنِ بما لَه مِنَ المالِ والجاهِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠).

قال البِقاعي: (﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ أي: وأيُّ شَيءٍ يَجعلُك داريًا بحالِه وإن اجتَهَدْتَ في ذلك؟ فإنَّ ذواتِ الصُّدورِ لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ تعالى). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٠).

قال الواحدي: (﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: عن الله تعالى، وعن الإيمانِ، بما لَه مِن المالِ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٢٢).

قيل: معنى ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ أي: بمالِه. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابن عطية، وجلال الدين المحلي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٨٤).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ وابنُ أبي زَمَنِين: استغنى عن الله. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٩٤).

وقال السمرقندي: (﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ يعني: استغنى بنَفْسِه عن ثوابِ الله). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٦). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۞ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ٨ - ١١].

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦﴾.

أي: فأنت -يا مُحمَّدُ- تتعَرَّضُ له، وتُقبِلُ عليه، وتجتَهِدُ في وَعْظِه؛ رجاءَ هِدايتِه للحَقِّ[1]!

﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧﴾.

= وقيل: ﴿ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ أي: أثرَى وكان ذا ثروةٍ وغِنًى. وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والقرطبي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٧).

وقال البِقاعي: (﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ أي: طلَبَ الغِنى -وهو المالُ والثَّروةُ- فوجَدَه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٥٢).

قال الرازي: (قال عَطاءٌ: يريدُ: عن الإيمانِ. وقال الكلبيُّ: استغنى عن اللهِ. وقال بعضُهم: استغنى: أَثْرَى. وهو فاسِدٌ هاهنا؛ لأنَّ إقبالَ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يكُنْ لثَروتِهم ومالِهم حتَّى يُقالَ له: أمَّا مَن أَثْرَى فأنت تُقبِلُ عليه! ولأنَّه قال: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۞ وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾ [عبس: ٨، ٩]، ولم يقُلْ: وهو فقيرٌ عَديمٌ. ومَن قال: أمَّا مَنِ استغنَى بمالِه، فهو صحيحٌ؛ لأنَّ المعنى: أنَّه استغنَى عن الإيمانِ والقُرآنِ بما لَه مِنَ المالِ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٤). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢١٣).

وقال ابنُ عاشور: (الاستِغناءُ: عَدُّ الشَّخْصِ نَفْسَه غَنِيًّا في أمرٍ يدُلُّ عليه السِّياقُ: قَولٌ، أو فِعلٌ، أو عِلمٌ، فالسِّينُ والتَّاءُ للحِسْبانِ، أي: حَسِبَ نَفْسَه غَنِيًّا، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ الاستغناءُ في التَّكَبُّرِ والاعتزازِ بالقُوَّةِ. فالمرادُ بـ ﴿مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ هنا: مَن عَدَّ نَفْسَه غَنِيًّا عن هَدْيِك، بأن أعرَضَ عن قَبُولِه... وليس المرادُ بـ ﴿مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ مَنِ استَغنى بالمالِ؛ إذ ليس المَقامُ في إيثارِ صاحِبِ مالٍ على فقيرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٠).

أي: وأيُّ ضَرَرٍ عليك -يا مُحمَّدُ- إذا لم يُسْلِمْ هذا الرَّجُلُ الَّذي استغنى، ويتطَهَّرْ من كُفْرِه وذُنوبِه؟ فلا تُبَالِ به، ولا تَكتَرِثْ بشأنِه؛ فإنَّه لا يَضُرُّك إثمُه، وليس عليك إلَّا البَلاغُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ [لقمان: ٢٣].

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾.

أي: وأمَّا هذا الرَّجُلُ الأعمى الَّذي جاءك -يا مُحمَّدُ- يَمْشي مُسْرِعًا مُجتَهِدًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٠).

قوله: (ما) في الآية: ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾: استفهاميَّةٌ، والمعنى: وأيُّ شَيءٍ عليك يا محمَّدُ؟ وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكي، والواحدي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٣).

وقيل: هي نافيةٌ، والمعنى: ليس عليك بأسٌ، ولا حرَجَ عليك. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: البيضاويُّ، وابن جُزَي، والنسفي، والبِقاعي، والقاسمي، والألوسي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٠٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٠).

في الوُصولِ إليك؛ طَلَبًا للعِلْمِ، وسَماعِ الحَقِّ[١].

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾.

أي: والحالُ أنَّه يَخافُ اللهَ تعالى؛ لعِلْمِه بعَظَمتِه وشِدَّةِ عَذابِه[٢].

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾.

أي: فأنت -يا مُحمَّدُ- تُعْرِضُ عن هذا الرَّجُلِ الحَريصِ على الحَقِّ، وتتشاغَلُ بدَعْوةِ ذلك الكافِرِ[٣]!

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

كأنَّه قيل: هذا القُرآنُ قد بلَغ في العَظَمةِ إلى هذا الحَدِّ العظيمِ، فأيُّ حاجةٍ به إلى أن يَقبَلَه هؤلاء الكُفَّارُ، فسَواءٌ قَبِلوه أو لم يَقبَلوه، فلا تلتَفِتْ إليهم، ولا تَشغَلْ قَلْبَك بهم، وإيَّاك وأن تُعرِضَ عمَّن آمَنَ به تطييبًا لقَلبِ أربابِ الدُّنيا[٤].

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

قال ابن عطية: (قال كثيرٌ مِن العلماءِ وابنُ زيدٍ وعائشةُ وغيرُها مِن الصحابةِ: لو كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كاتمًا شيئًا مِن الوحيِ، لكتَم هذه الآياتِ، وآياتِ قصةِ زيدٍ وزينبَ بنتِ جحشٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٥).

أي: لا تَفعَلْ ما فعَلْتَ -يا مُحمَّدُ-؛ فليس الخَيرُ في الإعراضِ عن المؤمِنِ الحَريصِ على الحَقِّ، والتَّشاغُلِ عنه بدعوةِ غَيرِه مِن الكُفَّارِ المكابِرينَ؛ إنَّ آياتِ القُرآنِ تذكيرٌ للنَّاسِ جميعًا(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

قال القرطبي: (﴿كَلَّآ﴾ كَلِمةُ رَدعٍ وزَجرٍ، أي: ما الأمرُ كما تفعَلُ مع الفريقينِ، أي: لا تَفعَلْ بَعْدَها مِثْلَها). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿إِنَّهَا﴾: القرآنُ: البِقاعي، والألوسي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٤٤).

قال البقاعي: (﴿إِنَّهَا﴾ أي: القرآنَ، ولعَلَّه أنَّث الضَّميرَ باعتبارِ ما تُلِيَ عليهم في ذلك المجلِسِ مِن الآياتِ أو السُّوَرِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٥٦).

وقال الرازي: (لَمَّا جَعَل القرآنَ تَذْكِرةً أخرَجه على لَفظِ التَّذكِرةِ، ولو ذَكَّره لَجازَ، كما قال في موضِعٍ آخَرَ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ [المدثر: ٥٤]، والدَّليلُ على أنَّ قولَه: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ المُرادُ به القرآنُ قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٥).

وبمعنى هذا القولِ مَن قال: المرادُ: آياتُ القرآنِ. ومنهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والعُلَيمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

وقيل: المرادُ: السُّورةُ. وممَّن قال به: الفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، ونسَبَه الرازيُّ إلي الأخفَشِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٥).

وقيل: المرادُ: الموعظةُ. وممَّن قال به: الزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والبغوي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٠).

وجمَعَ ابنُ جريرٍ بيْن القولَينِ الأخيرَينِ، أي أنَّ المرادَ: هذه العِظةُ، وهذه السُّورةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧).

قال ابنُ كثيرٍ: (قَولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ أي: هذه السُّورةَ، أو الوَصِيَّةَ بالمساواةِ بيْن النَّاسِ في إبلاغِ العِلْمِ مِن شريفِهم ووضيعِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١).

وقال أيضًا: (مِنْ هاهنا أَمَر اللهُ عزَّ وجَلَّ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ألَّا يَخُصَّ بالإنذارِ =

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾.

أي: فمَن شاء مِن النَّاسِ ذَكَر هذا القُرآنَ، فاتَّعَظَ واعتَبَرَ وعَمِلَ بما فيه[1].

كما قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨، ٤٩].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩].

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: وهذا القُرآنُ الكريمُ مَكتوبٌ في صُحُفٍ مُكَرَّمةٍ عِندَ اللهِ تعالى[2].

= أحدًا، بل يُساوي فيه بيْن الشَّريفِ والضَّعيفِ، والفَقيرِ والغَنِيِّ، والسَّادةِ والعَبيدِ، والرِّجالِ والنِّساءِ، والصِّغارِ والكِبارِ، ثمَّ اللهُ يَهْدِي مَن يشاءُ إلى صراطٍ مُستقيمٍ، وله الحِكمةُ البالِغةُ، والحُجَّةُ الدَّامِغةُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩).

وقال القاسمي: (قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي: إنَّ المعاتبةَ المذكورةَ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

قال ابن كثير: (﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: فمَن شاء ذكَرَ اللهَ في جميعِ أمورِه. ويحتملُ عَوْدُ الضَّميرِ على الوحيِ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١).

وقال ابن عاشور: (ويجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائِدًا إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّ إعادةَ ضميرِ الغَيبةِ على اللهِ تعالَى دونَ ذِكْرِ معادِه في الكلامِ كثيرٌ في القرآنِ؛ لأنَّ شُؤونَه تعالَى وأحكامَه نَزَل القرآنُ لأجْلِها، فهو مَلْحوظٌ لكُلِّ سامِعٍ للقرآنِ، أيْ: فمَنْ شاءَ ذَكَر اللهَ وتَوَخَّى مَرْضاتَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥، ٢١٦)، ((تفسير =

﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وهي صُحُفٌ عاليةٌ، رفيعةُ المكانةِ والقَدْرِ، مُطَهَّرةٌ مِن كُلِّ دَنَسٍ وعَيبٍ[(١)].

قال سُبحانَه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾.

أي: وهذه الصُّحُفُ المكتوبُ فيها القُرآنُ هي بأيدي طائِفةٍ مِنَ الملائِكةِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩].

﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

= ابن كثير)) (٨/ ٣٢١)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

قال الواحدي: (قال المفَسِّرون: يعني: اللَّوحَ المحفوظَ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٢٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٦، ١١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

قال ابنُ جريرٍ: (﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ يعني: في اللَّوحِ المحفوظِ، وهو المرفوعُ المطَهَّرُ عندَ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٢).

قال ابن جُزَي: (﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ هي الملائِكةُ، والسَّفَرةُ: جَمعُ سافِرٍ، وهو الكاتِبُ؛ لأنَّهم يَكتُبونَ القُرآنَ. وقيل: لأنَّهم سُفَراءُ بيْن اللهِ وبيْن عَبيدِه. وقيل: يعني: القرَّاءَ مِنَ النَّاسِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٣).

وقال ابنُ عثيمين: (هذا لأنَّهم سُفَراءُ بيْنَ اللهِ وبيْنَ الخَلقِ؛ فجِبريلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ واسِطةٌ بيْنَ اللهِ وبيْنَ الخَلقِ في النُّزولِ بالوَحْيِ، والكَتَبةُ الَّذين يَكتُبونَ ما يَعمَلُ الإنسانُ أيضًا يَكتُبونَه ويُبَلِّغونَه إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، واللهُ تعالى عالِمٌ به حينَ كتابتِه وقبْلَ كِتابتِه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٢).

أي: وأولئك الملائكةُ ذَوُو خَلْقٍ حَسَنٍ شَريفٍ، وأخلاقٍ حَسَنةٍ جَميلةٍ، كثيرو الخَيرِ والطَّاعةِ والإحسانِ[١].

عن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَثَلُ الَّذي يَقرَأُ القُرآنَ وهو حافِظٌ له: مع السَّفَرةِ الكِرامِ البَرَرةِ، ومَثَلُ الَّذي يقرَأُ وهو يَتعاهَدُه، وهو عليه شَديدٌ؛ فلَهُ أجْرانِ))[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ فيه الحَثُّ على التَّرحيبِ بمَن يَطلبُ الهدى، والإقبالِ عليهم في مجالِسِ العِلْمِ، وقَضاءِ حوائِجِهم، وعدمِ إيثارِ الأغنياءِ عليهم[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ إلى آخرِ السِّياقِ تأديبٌ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ للخَلْقِ؛ أَلَّا يكونَ همُّهم همًّا شَخصيًّا، بل يكونُ همُّهم همًّا معنويًّا، وأَلَّا يُفَضِّلُوا في الدَّعوةِ إلى اللهِ شريفًا لِشَرَفِه، ولا عظيمًا لعَظَمتِه، ولا قريبًا لقُرْبِه، بل يكونُ النَّاسُ عندَهم سواءً في الدَّعوةِ إلى اللهِ؛ الفقيرُ والغنيُّ، الكبيرُ والصَّغيرُ، القَريبُ والبعيدُ[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ * وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ هذه فائِدةٌ كبيرةٌ هي المقصودةُ مِن بَعْثةِ الرُّسُلِ، ووَعْظِ الوُعَّاظِ، وتَذكيرِ المذَكِّرينَ؛ فإقبالُك على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٢).

(٢) رواه البخاري (٤٩٣٧) واللفظ له، ومسلم (٧٩٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٢).

مَن جاء بنَفْسِه مُفتَقِرًا لذلك منك هو الأليقُ الواجِبُ، وأمَّا تصَدِّيك وتعَرُّضُك للغَنِيِّ المُسْتغني الَّذي لا يَسألُ ولا يَستفتي؛ لعَدَمِ رَغبتِه في الخَيرِ، مع تَرْكِك مَن هو أهَمُّ منه- فإنَّه لا يَنبغي لك؛ فإنَّه ليس عليك ألَّا يَزَّكَّى، فلو لم يتَزَكَّ فلَسْتَ بمُحاسَبٍ على ما عَمِلَه مِن الشَّرِّ؛ فدَلَّ هذا على القاعِدةِ المشهورةِ، أنَّه: «لا يُترَكُ أمرٌ مَعلومٌ لأمرٍ مَوهومٍ، ولا مصلحةٌ مُتحَقِّقةٍ لمَصلحةٍ مُتوَهَّمةٍ»، وأنَّه يَنبغي الإقبالُ على طالِبِ العِلْمِ المفتَقِرِ إليه الحَريصِ عليه؛ أَزْيَدَ مِن غَيرِه[١].

- قولُه تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ فيه مَزيدُ تَنفيرٍ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن مُصاحَبتِهم[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه يَجِبُ الاجتهادُ في تزكيةِ التَّابعِ الَّذي عُرِفَ منه القَبولُ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ تَلَطُّفُ اللهِ عزَّ وجَلَّ بمُخاطَبةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم؛ فقال سُبحانَه ثلاثَ جُمَلٍ لَمْ يُخاطِبْ فيها النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم؛ لأنَّها عِتابٌ، فلو وُجِّهَتْ إلى الرَّسولِ بالخِطابِ لَكان شَديدًا عليه، لكنْ جاءتْ بالغَيبةِ ﴿عَبَسَ﴾ وإلَّا كان مقتضى الحالِ أنْ يقولَ: «عَبَسْتَ وتَوَلَّيتَ؛ أنْ جاءك الأعمى»، ولكِنَّه قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ فجَعَلَ الحُكْمَ للغائِبِ؛ كراهيةَ أنْ يُخاطِبَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بهذه الكَلِماتِ الغَليظةِ الشَّديدةِ، ومِن أجْلِ ألَّا يَقَعَ بمِثْلِ ذلك مَن يَقَعُ مِن هذه الأُمَّةِ، واللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٥).

سُبحانَه وتعالى وَصَفَ كتابَه العزيزَ بأنَّه بلِسانٍ عَربيٍّ مُبينٍ، وهذا مِن بَيانِه[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ عَبَّرَ عن هذا الصَّحابيِّ الجَليلِ -الَّذي هو عبدُ اللهِ بنُ أُمِّ مَكتومٍ- بلَقَبٍ يَكرَهُه النَّاسُ، مع أنَّه قال: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١]؟

الجوابُ مِن وجهينِ:

الأوَّلُ: أنَّ السِّرَّ في التَّعبيرِ عنه بلَفظِ: (الأعمَى) للإشعارِ بعُذرِه في الإقدامِ على قَطْعِ كلامِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لو كان يَرَى ما هو مُشْتَغِلٌ به معَ صناديدِ الكفَّارِ، لَمَا قَطَعَ كلامَه[٢].

الثَّاني: جاء لَفظُ (الأعمى)؛ إشعارًا بما يُناسِبُ مِنَ الرِّفقِ به، والصَّغْوِ لِما يَقصِدُه[٣]؛ وتَرقيقًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ليكونَ العِتابُ ملحوظًا فيه أنَّه لَمَّا كان صاحبَ ضَرارةٍ، فهو أجدَرُ بالعنايةِ به؛ لأنَّ مِثلَه يكونُ سريعًا إلى انكسارِ خاطِرِه[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ دَليلٌ على جوازِ أنْ يُلَقَّبَ الإنسانُ بوصْفِه؛ مِثلُ: الأعمى، والأعرَجِ، والأعمَشِ، وقد كان العلماءُ يَفعلون هذا، فيقولون: رواه الأعرجُ عن أبي هُرَيرةَ، رواه الأعمشُ... وهكذا، قال أهلُ العلمِ: واللَّقَبُ بالعَيبِ إذا كان المقصودُ به تعيينَ الشَّخصِ -حيث لا يُعرَف إلَّا به- فلا بأسَ به،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٢).
ويُنظر ما يأتي في بلاغةِ الآياتِ (ص: ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٤).

وأمَّا إذا كان المقصودُ به تعييرَ الشَّخصِ فإنَّه حرامٌ؛ لأنَّ الأوَّلَ: إذا كان المقصودُ به تبيينَ الشَّخصِ فإنَّه تدعو الحاجةُ إليه، والثَّاني: إذا كان المقصودُ به التَّعييرَ فإنَّه لا يُقصَدُ به التَّبيينُ، وإنَّما يُقصدُ به الشَّماتةُ[١]!

٤- قولُه تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ تَحقيرٌ لأمرِ الكافرِ، وحضٌّ على الإعراضِ عنه، وتركِ الاهتمامِ به[٢]، والمعنى: عدَمُ تَزكِّيهِ ليس محمولًا عليك، أي: لستَ مؤاخَذًا بعَدمِ اهتدائِه حتَّى تَزيدَ مِن الحِرصِ على تَرغيبِه في الإيمانِ ما لم يُكلِّفْك اللهُ به، وهذا رِفقٌ مِن اللهِ برسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ فيه دَليلٌ لِما تقرَّر في أُصولِ الفِقْهِ مِن جوازِ الاجتهادِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووُقوعِه، وأنَّه جرَى على قاعدةِ: إعمالِ أرجَحِ المصلحتَينِ بحسَبِ الظَّاهِرِ[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ غرَضُه تَعليمُ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المُوازَنةَ بيْنَ مراتِبِ المصالِحِ، ووُجوبَ الاستقراءِ لخفيَّاتِها؛ كَيْلا يُفيتَ الاهتمامُ بالمهمِّ منها في بادئِ الرَّأيِ مُهمًّا آخَرَ مُساويًا في الأهمِّيَّةِ أو أرجَحَ. ولذلك يقولُ علماءُ أصولِ الفقهِ: إنَّ على المجتَهِدِ أنْ يَبحَثَ عن مُعارِضِ الدَّليلِ الَّذي لاحَ له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١١١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٠٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أنَّ العَبدَ فاعِلٌ على الحقيقةِ، وله مَشيئةٌ ثابتةٌ، وله إرادةٌ جازمةٌ، وقوَّةٌ صالِحةٌ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ فيه تَعريضٌ بأنَّ موعظةَ القُرآنِ نافعةٌ لكلِّ أحدٍ تَجرَّدَ عن العِنادِ والمُكابَرةِ، فمَن لم يَتَّعِظْ بها فلأنَّه لم يَشَأْ أنْ يَتَّعِظَ[٢]، وفيه ترغيبٌ في التَّذكرةِ، وحَثٌّ على حِفظِها[٣].

٩- قال تعالى ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ في وصْفِهم بالسَّفَرةِ ثناءٌ عليهم؛ لأنَّهم يُبلِّغونَ القُرآنَ للنَّاسِ وهم حُفَّاظُه ووُعاتُه، فهذا معنى السَّفَرةِ، وفيه بِشارةٌ بأنَّهم سيَنشُرونَ الإسلامَ في الأُممِ[٤]. وذلك على أنَّ المرادَ كُتَّابُ الوَحْيِ مِن الصحابةِ.

١٠- الغالبُ في اصطلاحِ القُرآنِ أنَّ البَرَرةَ الملائكةُ، والأبرارَ الآدَميُّونَ؛ لأنَّ (بَرَرةً) أبلَغُ مِن (أبرارٍ)؛ إذ هو جمعُ بَرٍّ، وأبرارٌ جمعُ بارٍّ -على قولٍ-، وبَرٌّ أبلَغُ مِن بارٍّ، كما أنَّ عَدْلًا أبلَغُ مِن عادلٍ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾

- قولُه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ افتِتاحُ هذه السُّورةِ بفِعلينِ مُتحمِّلينِ لضميرٍ لا مَعادَ له في الكلامِ تَشويقٌ لِما سيُورَدُ بعدَهما، والفِعلانِ يُشعِرانِ بأنَّ المحكيَّ حادثٌ عظيمٌ، فأمَّا الضَّمائرُ فيُبيِّنُ إبهامَها قولُه: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٦]،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٨، ١١٩).

(٥) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٩).

وأمَّا الحادثُ فيَتبيَّنُ مِن ذِكرِ الأَعمى ومَن استَغنى[١].

- وحُذِف مُتعلَّقُ (تَوَلَّى)؛ لظُهورِ أنَّه تَوَلٍّ عن الَّذي مَجيئُه كان سَببَ التَّولِّي[٢].

- وصِيغةُ الخبرِ في قولِه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۞ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ مُستعمَلةٌ في العِتابِ على الغَفلةِ عن المقصودِ الَّذي تَضمَّنَه الخبرُ، وهو اقتِصارُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الاعتناءِ بالحِرصِ على تَبليغِ الدَّعوةِ إلى مَن يَرْجو منه قَبولَها مع الذُّهولِ عن التَّأمُّلِ فيما يُقارِنُ ذلك مِن تَعليمِ مَن يَرغَبُ في عِلمِ الدِّينِ ممَّنْ آمَنَ. ولَمَّا كان صُدورُ ذلك مِن اللهِ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لم يَشَأِ اللهُ أنْ يُفاتِحَه بما يَتبادَرُ منه أنَّه المقصودُ بالكلامِ، فوَجَّهَه إليه على أسلوبِ الغَيبةِ؛ ليكونَ أوَّلُ ما يَقرَعُ سمْعَه باعثًا على أنْ يَترقَّبَ المَعنيَّ مِن ضميرِ الغائبِ فلا يُفاجِئَه العِتابُ، وهذا تلطُّفٌ مِن اللهِ برسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِيقَعَ العِتابُ في نفْسِه مُدَرَّجًا، وذلك أهوَنُ وقعًا[٣]. وقيل: التَّعرُّضُ لعُنوانِ عَماهُ؛ لزيادةِ الإنكارِ؛ كأنَّه قيلَ: تَوَلَّى لكَونِه أَعْمى، كما أنَّ الالتفاتَ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ لذلكَ؛ فإنَّ المُشافَهةَ أدْخَلُ في تشديدِ العتابِ[٤].

وكذلِك في إسنادِ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ إلى ضَميرِ الرَّسولِ في حالِ الغَيبةِ إشعارٌ بأنَّ ذلك ممَّا لا يَليقُ بمنزلةِ مَن في صَدَدِ الرِّسالةِ، لا سيَّما أنَّه ما أُرسِلَ إلَّا رحمةً للعالَمينَ، وأنَّه لَعلى خُلُقٍ عظيمٍ؛ فكأنَّ العابسَ والمتولِّيَ غيرُه، ثمَّ الْتفَتَ يُخاطِبُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٤، ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٧).

قائلًا: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ تأنيبًا، أي: مِثلُك بتلك المنزلةِ لا يَنبغي له ذلك، وكذلك في صِفةِ الأعمى؛ مِن حيثُ اعتبارُ الجِبِلَّةِ النَّفْسانيَّةِ: مَنقصةٌ تُوجِبُ الإعراضَ والتَّولِّيَ عمَّن هو مُتَّصِفٌ بها، ومِن حيثُ مَرتبتُك مِن الخُلُقِ العظيمِ: قمْعُ النَّفْسِ، والعملُ بمُقتضى الخُلُقِ العظيمِ لا بمُقتضى شَهوةِ النَّفْسِ، أو في تلك الصِّفةِ إشعارٌ باستعمالِ التَّعطُّفِ والتَّرؤُّفِ، والتَّقريبِ والتَّرحيبِ، لا سيَّما مِن مِثلِك، وقد وصَفَك اللهُ بالخُلُقِ العظيمِ، أو في تلك الصِّفةِ مِن تمهيدِ العُذرِ، وأنَّه أَعْمى لم يَهتدِ إلى عدمِ الإقدامِ بيْنَ يدَيْك، وقطْعِ كلامِك عن كلامِ القومِ: اعتذارٌ عِندَ الكِرامِ، خُصوصًا عِندَ مِثلِك، وكنتَ للعالَمينَ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللهِ بإذْنِه وسِراجًا منيرًا[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ الاستِفهامُ في هذا التَّركيبِ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ مُرادٌ منه التَّنبيهُ على مَغفولٍ عنه، والمعنى: أيُّ شيءٍ يَجعَلُك داريًا بحالِه؟ وإنَّما يُستعمَلُ مِثلُ هذا الأسلوبِ لقَصدِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ[2].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ إيماءٌ إلى عُذرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في تأخيرِه إرشادَ ابنِ أمِّ مَكْتومٍ؛ لأنَّ تَركيبَ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ يُستعمَلُ في التَّنبيهِ على أمْرٍ مَغفولٍ عنه -كما سبَق-، والمعنى: لعلَّه يَزَّكَّى تزكيةً عظيمةً كانتْ نفْسُه متهيِّئةً لها ساعتَئذٍ؛ إذ جاءَ مُسترشِدًا حريصًا، وهذه حالةٌ خفيَّةٌ، وكذلك عُذرُه في الحرصِ على إرشادِ المُشرِكِ بقولِه: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٧]؛

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٥، ١٠٦).

إذ كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَخْشى تَبِعةً مِن فَواتِ إيمانِ المُشرِكِ بسببِ قطعِ المُحاوَرةِ معه، والإقبالِ على استجابةِ المؤمنِ المُسترشِدِ[١].

- وأيضًا في معْنى التَّرجِّي الَّذي يُعطيهِ ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ تَمهيدُ عُذرٍ له صلواتُ اللهِ عليه؛ جَبرًا لذلك الخِطابِ المشتمِلِ على التَّوبيخِ، يعني: أَعْذَرْناك لأنَّك حريصٌ على إسلامِ القَومِ، فأدَّى اجتهادُك إلى أنْ تُقبِلَ عليهم وتُعرِضَ عن الأعمَى، ولو دَرَيْتَ ذلك لَما فَرَطَ ذلك منك، أي: وإنْ كان خفيًّا عليك يا رسولَ اللهِ[٢].

- وقولُه: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ قيل: هو استِئنافٌ واردٌ لبَيانِ ما يُلوِّحُ به ما قبْلَه؛ فإنَّه معَ إشعارِه بأنَّ له شأنًا مُنافيًا للإعراضِ عنه خارجًا عن دِرايةِ الغيرِ وإدْرائِه مُؤْذِنٌ بأنَّه تعالى يُدْريهِ ذلكَ، أي: لعلَّه يَتطهَّرُ بما يَقتبِسُ منكَ مِن أَوضارِ الأوزارِ بالكُلِّيَّةِ، وكلمةُ (لعلَّ) مع تحقُّقِ التَّزكِّي واردةٌ على سَننِ الكِبْرياءِ، أو على اعتبارِ مَعْنى التَّرجِّي بالنِّسبةِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الإعراضَ عنه عِندَ كَونِه مَرْجُوَّ التَّزكِّي ممَّا لا يجوزُ، فكيفَ إذا كان مقطوعًا بالتَّزكِّي كما في قولِك: لعلَّك ستَندَمُ على ما فعَلتَ؟ وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن تَصدَّى لتزكيتِهم مِن الكفَرةِ لا يُرجَى منهم التَّزكِّي والتَّذكُّرُ أصلًا[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ اكتِفاءٌ[٤] عن أنْ يقولَ: (فيَنفَعَه التَّزكِّي وتَنفَعَه الذِّكرى)؛ لظهورِ أنَّ كِلَيْهما نفعٌ له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٧).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٧).

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾، أي: مهْما يكُنِ الَّذي استَغنى فأنتَ له تَصدَّى، أو مهْما يكنْ شيءٌ فالَّذي استَغنى تَتصدَّى له، والمقصودُ: أنت تَحرِصُ على التَّصدِّي له، فجُعِل مضمونُ الجوابِ -وهو التَّصدِّي له- معلَّقًا على وجودِ مَن استَغنى، وملازِمًا له ملازَمةَ التَّعليقِ الشَّرْطيِّ على طريقةِ المبالغةِ[١].

- قولُه: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ الإتيانُ بضَميرِ المخاطَبِ مُظهَرًا قبْلَ المسنَدِ الفِعليِّ دونَ استتارِه في الفِعلِ يجوزُ أنْ يكونَ للتَّقَوِّي، كأنَّه قيل: تَتصدَّى له تصدِّيًا، فمَناطُ العِتابِ هو التَّصدِّي القويُّ. ويجوزُ أنْ يكونَ مفيدًا للاختِصاصِ، أي: فأنت لا غيرُك تَتصدَّى له، أي: ذلك التَّصدِّي لا يَليقُ بك، أي: لو تَصدَّى له غيرُك لَكان هَونًا، فأمَّا أنت فلا يَتصدَّى مِثلُك لمِثلِه، فمَناطُ العتابِ هو أنَّه وقَعَ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في جليلِ قَدْرِه[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ جملةٌ معترِضةٌ بينَ جملةِ ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ [عبس: ٥] وجملةِ ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾ [عبس: ٨]، والواوُ اعتراضيَّةٌ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، قيل: (ما) نافيةٌ، أي: وليسَ عليكَ بأسٌ في ألَّا يَتزكَّى بالإسلامِ حتَّى تَهتمَّ بأمرِه وتُعرِضَ عمَّن أسلَمَ. وقيلَ: (ما) استفهاميَّةٌ للإنكارِ، أيْ: أيُّ شيءٍ عليك في ألَّا يَتزكَّى؟! ومآلُه النَّفيُ أيضًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٨).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ [عبس: ٥]، اقتضى ذِكرَه قصْدُ المقابلةِ مع المعطوفِ عليها مقابلةَ الضِّدَّينِ؛ إتمامًا للتَّقسيمِ(١).

- والمرادُ بمَن جاءَ يَسْعى: هو ابنُ أمِّ مَكْتومٍ، فحصَلَ بمضمونِ هذه الجُملةِ تأكيدٌ لمضمونِ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾(٢) [عبس: ١، ٢].

- والسَّعيُ: شِدَّةُ المشيِ، كُنِّيَ به عن الحِرصِ على اللِّقاءِ، فهو مُقابِلٌ لحالِ مَن استَغنى؛ لأنَّ استغناءَه استغناءُ المُمتعِضِ مِن التَّصدِّي له(٣).

- وحُذِف مفعولُ ﴿يَخۡشَىٰ﴾؛ لظهورِه؛ لأنَّ الخشيةَ في لسانِ الشَّرعِ تَنصرِفُ إلى خشيةِ اللهِ تعالى(٤).

- واختِيرَ الفعلُ ﴿يَخۡشَىٰ﴾ المضارِعُ؛ لإفادتِه التَّجدُّدَ(٥).

- قولُه: ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ الإتيانُ بضميرِ المخاطَبِ مُظهَرًا قبْلَ المسنَدِ الفِعليِّ دونَ استتارِه في الفِعلِ يجوزُ أنْ يكونَ للتَّقَوِّي، كأنَّه قيل: تَتَلَهَّى عنه تَلَهِّيًا، فمناطُ العِتابِ هو التَّلَهِّي القَويُّ. ويجوزُ أنْ يكونَ مفيدًا للاختصاصِ، أي: فأنت لا غيرُك تَتلهَّى عنه، أي: ذلك التَّلَهِّي لا يَليقُ بك، أي: لو تَلَهَّى غيرُك لَكان هَونًا، فأمَّا أنت فلا يَتلهَّى مِثلُك عن مِثلِه، فمناطُ العتابِ هو أنَّه وقَعَ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في جليلِ قَدْرِه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٠٨، ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي =

- وتقديمُ ﴿لَهُۥ﴾ في قولِه: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾، و﴿عَنۡهُ﴾ في قولِه: ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾؛ للتَّعريضِ باهتِمامِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بمَضمونِهما[1].

- وما وقَعَ في خِلالِ هذا العِتابِ مِن ذِكرِ حالِ المؤمِنِ والكافرِ إنَّما هو إدْماجٌ[2]؛ لأنَّ في الحادثةِ فُرصةً مِن التَّنويهِ بسُمُوِّ منزلةِ المؤمنِ؛ لانطواءِ قلبِه على أشعَّةٍ تُؤهِّلُه لأنْ يَستنيرَ بها ويُفيضَها على غيرِه، جمعًا بيْنَ المعاتَبةِ والتَّعليمِ، على سَننِ هَدْيِ القرآنِ الكريمِ في المناسَباتِ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ عن المعاتَبِ عليه، أو عن مُعاوَدةِ مِثلِه؛ مِن التَّصدِّي لِمَنِ استَغنى عمَّا دعاهُ إليهِ مِن الإيمانِ والطَّاعةِ وما يُوجِبُهما مِن القرآنِ الكريمِ،

= السعود)) (٩/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨، ١٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٨).

(٢) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيقَ لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه تعالى بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٤٩)، ((خِزانة الأدب)) لابن حِجَّةَ الحَمَوي (٢/ ٤٨٤)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبدالرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٤).

مُبالِغًا في الاهتمامِ بأمرِه، مُتهالِكًا على إسلامِه، مُعرِضًا بسببِ ذلكَ عن إرشادِ مَن يَسترشِدُه. وهي إبطالٌ لِما جَرَى في الكلامِ السَّابقِ ولو بالمفهومِ، كما في قولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ٣]، ولو بالتَّعريضِ أيضًا، كما في قولِه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١]. ويجوزُ أنْ يَنصرِفَ الإبطالُ إلى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ خاصَّةً. ويجوزُ أنْ يكونَ تأكيدًا لقولِه: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٧]، أي: لا تظُنَّ أنَّك مسؤولٌ عن مُكابَرتِه وعِنادِه؛ فقد بلَّغتَ ما أُمِرتَ بتبليغِه(١).

- ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ استِئنافًا ابتدائيًّا موجَّهًا إلى مَن كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدْعوهُ قُبيلَ نزولِ السُّورةِ ومَن معه، وكانوا لا يَستجيبونَ إلى ما دعاهُم، ولا يُصدِّقونَ بالبعثِ، فتكونَ (كَلَّا) إبطالًا لِما نعَتوا به القرآنَ مِن أنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ أو نحو ذلك، فيكونَ ضميرُ ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ عائدًا إلى الآياتِ الَّتي قرَأَها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليهم في ذلك المَجلِسِ، ثمَّ أُعيدَ عليها الضَّميرُ بالتَّذكيرِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المرادَ آياتُ القرآنِ الكريمِ. ويُؤيِّدُ هذا الوجهَ قولُه تعالى عَقِبَه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧] الآياتِ، حيثُ ساقَ لهم أدِلَّةَ إثباتِ البعثِ، فكان تأنيثُ الضَّميرِ نُكتةً خصوصيَّةً؛ لتحميلِ الكلامِ هذه المَعانيَ(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ تَعليلٌ للرَّدعِ عمَّا ذُكِرَ ببيانِ عُلُوِّ رُتبةِ القرآنِ العظيمِ الَّذي استَغنى عنه مَن تَصدَّى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لهُ، وتحقيقُ أنَّ شأنَه أنْ يكونَ موعظةً حقيقةً بالاتِّعاظِ بها، فمَن رَغِبَ فيها اتَّعَظَ بها، ومَن رَغِبَ عنها

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٥).

-كما فعَلَ المُستغني- فلا حاجةَ إلى الاهتمامِ بأمرِه[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ استِئنافٌ بعدَ حرفِ الإبطالِ (كلَّا)، وهو استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ما تَقدَّمَ مِن العتابِ ثمَّ ما عَقِبَه مِن الإبطالِ يُثيرُ في خاطِرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الحَيرةَ في كيف يكونُ العَملُ في دَعوةِ صَناديدِ قُريشٍ إذا لم يَتفرَّغْ لهم؛ لئلَّا يَنفِروا عن التَّدبُّرِ في القرآنِ، أو يُثيرُ في نفْسِه مخافةَ أنْ يكونَ قصَّرَ في شيءٍ مِن واجبِ التَّبليغِ[٢].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ الضَّميرُ الظَّاهرُ في قولِه: ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ يَجوزُ أنْ يعودَ إلى ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ [عبس: ١١]؛ لأنَّ (ماصَدَقَها)[٣] القرآنُ الَّذي كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَعرِضُه على صَناديدِ قُريشٍ قُبيلَ نزولِ هذه السُّورةِ، أي: فمَن شاءَ ذكَرَ القرآنَ وعَمِل به. ويجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى اللهِ تعالى، والذِّكرُ على كِلا الوَجهينِ: الذِّكرُ بالقلبِ، وهو تَوَخِّي الوُقوفِ عِندَ الأمرِ والنَّهيِ. والَّذي اقتَضَى الإتيانَ بالضَّميرِ وكَوْنَه ضميرَ مُذكَّرٍ مُراعاةُ الفواصلِ، وهي: ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾، ﴿مُّكَرَّمَةٖ﴾ ﴿مُّطَهَّرَةِۭ﴾، ﴿سَفَرَةٖ﴾، ﴿بَرَرَةٖ﴾[٤].

- وجُملةُ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ قولِه: ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ [عبس: ١١] وقولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٤، ١١٥).

(٣) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو المَوصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يُقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٥، ١١٦).

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: ١٣]، تَتضمَّنُ الوَعدَ والوعيدَ[١]، والفاءُ لتفريعِ مضمونِ الجملةِ على جملةِ ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١١]، والفاءُ مِن جملةِ الاعتراضِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ استطرادٌ، وبيانُه: أنَّه لَمَّا خاطَبَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذلك الخِطابِ الهائلِ، قيل: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، أي: إنَّ تلك المُعاتَبَةَ -على قولٍ- موعظةٌ للسَّامعينَ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بجلالتِه إذا عُوتِبَ بذلك الخِطابِ الفظيعِ لذلك التَّصدِّي والتَّلهِّي، فما بالُ غيرِه؟! وإذا كان كذلك، فتَذكَّرْها أيُّها السَّامعُ. وكان مِن الظَّاهِرِ أنْ يُؤخَّرَ قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ عن وصفِ التَّذكرةِ، فقُدِّمَ؛ لشِدَّةِ العنايةِ بها، ولِعِظَمِ الحادثةِ عظَّمَ الكُتُبَ، ووصَفَها بتلك الأوصافِ العظيمةِ، ثمَّ قيل: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، فجمَعَ في ألفاظٍ قليلةٍ معانيَ كثيرةً، ثمَّ فصَّلَ بقولِه: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٨] إلى آخِرِه[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾

- قولُه: ﴿فِي صُحُفٍ﴾ متعلِّقٌ بمُضمَرٍ هو صِفةٌ لـ(تذكرةٌ)، أي: كائنةٌ في صُحُفٍ مُنتسَخةٍ مِن اللَّوحِ، أو خبرٌ ثانٍ لـ(إنَّ)[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾

- لكلمةِ ﴿سَفَرَةٍ﴾ الوَقعُ العَظيمُ المُعجِزُ في هذا المَقامِ؛ فيجوزُ أنْ تكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٩).

جمعَ سافِرٍ، مِثلَ كاتِبٍ وكَتَبَةٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ اسمَ جمْعِ سَفيرٍ، وهو المرسَلُ في أمرٍ مهمٍّ، فهو فعيلٌ بمعنى فاعِلٍ[١].

- قولُه: ﴿كِرَامِ بَرَرَةٍ﴾ البَرَرةُ: جمعُ بَرٍّ، وهو الموصوفُ بكَثرةِ البِرِّ؛ فهذا مِن بابِ الوَصْفِ بالمصدرِ، وقد اختُصَّ البَرَرةُ بجمْعِ بَرٍّ، ولا يكونُ جمْعَ بارٍّ[٢].

- وفي الآياتِ السَّابقةِ تَنويهٌ بشأنِ القُرآنِ؛ لأنَّ التَّنويهَ بالآياتِ الواردةِ في أوَّلِ هذه السُّورةِ مِن حيثُ إنَّها بعضُ القُرآنِ، فأُثنِيَ على القُرآنِ بفضيلةِ أثرِه في التَّذكيرِ والإرشادِ، وبرِفعةِ مَكانتِه، وقُدسِ مَصدرِه، وكَرَمِ قَرارِه وطَهارتِه، وفَضائلِ حمَلَتِه ومُبلِّغيه؛ فإنَّ تلك المدائحَ عائدةٌ إلى القُرآنِ بطريقِ الكِنايةِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٧ - ١١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٧-٢٢)

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُّطۡفَةٍ﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[١].

﴿أَنشَرَهُۥ﴾: أي: أحياه وبعَثَه، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه[٢].

﴿وَقَضۡبٗا﴾: القَضْبُ: هو العَلَفُ الرَّطْبُ الَّذي تأكُلُه الدَّوابُّ، وسُمِّيَ قَضْبًا؛ لأنَّه يُقضَبُ -أي: يُقطَعُ- بعدَ ظُهورِه مرَّةً بعدَ أُخرى، وقيل: هو كُلُّ ما يُؤكَلُ مِنَ النَّباتِ رَطْبًا، كالقِثَّاءِ والخِيارِ ونَحوِهما، وأصلُ (قضب): يدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٨).

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾: أي: بساتينَ عظيمةً غِلاظَ الأَشْجارِ، مُتكاثِفًا مُلْتَفًّا شَجَرُها بَعضُه في بَعضٍ، والغُلْبُ جمعُ غَلْباءَ. يُقالُ: حَديقةٌ غَلْباءُ: إذا كانت عَظيمةَ الشَّجَرِ مُلتَفَّةً، وأصلُها مِنَ الغَلَبِ بمعنى الغِلَظِ، يقال: غَلِبَ فُلانٌ، أي: غَلُظَ عُنُقُه، ويُقالُ: اغْلَوْلَبَت الأرضُ: إذا التفَّ عُشْبُها وتكاثَفَ[١].

﴿وَأَبًّا﴾: الأَبُّ: اسمٌ للكَلَأِ والعُشْبِ الَّذي تَرْعاه الأنعامُ، مأخوذٌ مِن أَبَّ فُلانٌ الشَّيءَ: إذا قَصَده واتَّجه نَحْوَه، والكَلأُ والعُشْبُ يتَّجِهُ إليه الإنسانُ بدَوابِّه للرَّعْيِ. وقيل: الأَبُّ: المَرْعى المتهَيِّئُ للرَّعْيِ، مِن قَولِهم: أَبَّ لكذا، أي: تهيَّأَ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾

المَصدَرُ المؤَوَّلُ ﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾ في محلِّ جَرٍّ بدَلُ اشتمالٍ مِن ﴿طَعَامِهِۦٓ﴾؛ فإنَّ صَبَّ الماءِ لكَونِه مِن أسبابِ تكَوُّنِ الطَّعامِ كالمُشتَمِلِ عليه، والعائِدُ محذوفٌ، أي: صَبَبْنا له[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن نِعَمِه على خَلقِه، وموقفهم منها، فيقولُ: أُهلِكَ الإنسانُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٤٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٢٤٨).

فما أشَدَّ كُفْرَه باللهِ الَّذي خَلَقَه!

مِنْ أيِّ شَيءٍ خَلَقَ اللهُ الإنسانَ؟ خَلَقَه اللهُ مِن ماءٍ قَليلٍ -وهو المَنيُّ- فقدَّره في بَطْنِ أُمِّه أحوالًا وأطوارًا في الخَلْقِ، وهَيَّأه لِما يَصلُحُ له مِنَ الأعضاءِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ والأشكالِ، ثمَّ سهَّل اللهُ له طَريقَ الخُروجِ مِن بَطْنِ أُمِّه، وطريقَ الخيرِ والشَّرِّ، ثمَّ قَبَض اللهُ رُوحَه عِندَ انقِضاءِ أجَلِه، وجَعَل له قَبْرًا يُوارَى فيه بَدَنُه؛ إكرامًا له، ثُمَّ إذا شاء اللهُ بَعَثَ الإنسانَ بعْدَ مَوتِه، وأحياه يومَ القيامةِ؛ لِيُجازِيَه على أعمالِه.

ثمَّ يَزجُرُ اللهُ سُبحانَه الإنسانَ لتقصيرِه، فيقولُ: كَلَّا، لم يَقُمِ الإنسانُ بكُلِّ ما فَرَض اللهُ عليه!

ثمَّ يذكُرُ سُبحانَه جانبًا مِن نِعَمِه، وكيف هيَّأ للإنسانِ طَعامَه، فيقولُ: فلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى طَعامِه مُتَفَكِّرًا في أسبابِ حُصولِه؛ أنَّا أنزَلْنا ماءَ المطَرِ مِنَ السَّحابِ، ثمَّ شَقَقْنا الأرضَ بخُروجِ النَّباتِ، فأنبَتْنا فيها أنواعَ الحُبوبِ، والعِنَبَ، وأنبَتْنا قتًّا رطبًا تُعْلَفُ به البهائمُ، وأنبَتْنا الزَّيتونَ، وأشجارَ النَّخيلِ، وبَساتينَ ذاتَ أشجارٍ غَليظةٍ عَظيمةٍ، وأنواعَ الفَواكِهِ، والعُشْبَ الَّذي تأكُلُه الأنعامُ؛ مَنفَعةً لكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم، تتمَتَّعونَ بها في الحياةِ الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَبَّه اللهُ تعالى على عُلُوِّ القُرآنِ المكتوبِ، وجَلالةِ مِقدارِه، وعَظَمةِ آثارِه، وظُهورِ ذلك لِمَن تدَبَّرَه وتأمَّلَه حَقَّ تأمُّلِه؛ عَقَّبَه بقَولِه ناعيًا على مَن لم يُقبِلْ

بكُلِّيَّتِه عليه، داعيًا بأعظَمِ شدائدِ الدُّنيا -الَّتي هي القَتلُ- في صيغةِ الخَبَرِ؛ لأنَّه أبلَغُ[(١)]:

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾.

أي: أُهلِكَ الإنسانُ، فما أشَدَّ كُفْرَه باللهِ الَّذي خَلَقَه[(٢)]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢١).

قال ابن جُزَي: (﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ دعاءٌ عليه، على ما جَرَت به عادةُ العَرَبِ مِنَ الدُّعاءِ بهذا اللَّفظِ، ومعناه تقبيحُ حالِه، وأنَّه ممَّن يَستَحِقُّ أن يُقالَ له ذلك. وقيل: معناه: لُعِنَ. وهذا بعيدٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٣).

قال الرازي: (وليس المرادُ مِن الإنسانِ هاهنا جميعَ النَّاسِ، بل الإنسانُ الكافرُ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٨).

وقال ابنُ جرير: (في قَولِه: ﴿أَكۡفَرَهُۥ﴾ وجهانِ؛ أحدُهما: التَّعَجُّبُ مِن كُفْرِه مع إحسانِ اللهِ إليه، وأياديه عِندَه. والآخَرُ: ما الَّذي أكفَرَه؟ أيْ: أيُّ شَيءٍ أكفَرَه؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّه تعَجُّبٌ: الواحديُّ، والقرطبي، والبيضاوي، والخازن، وأبو حيان، والبِقاعي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢١).

ممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤١٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّه استفهامٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ، والكرمانيُّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩١)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٨٠٥٩)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٠٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾ [الحج: ٦٦].

﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨﴾.

أي: ما الشَّيءُ الَّذي خَلَق اللهُ الإنسانَ منه[١]؟

كما قال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٨ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٩ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ١٠ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ [الطارق: ٥ - ٨].

﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩﴾.

أي: خَلَق اللهُ الإنسانَ مِن ماءٍ قَليلٍ -وهو المَنيُّ- فقدَّره في بَطْنِ أُمِّه أحوالًا وأطوارًا في الخَلْقِ؛ نُطفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضْغةً، إلى أنْ تَمَّ خَلْقُه، وهَيَّأه لِما يَصلُحُ له، ويَليقُ به مِنَ الأعضاءِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ والأشكالِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: مِن أيِّ شَيءٍ خَلَقَ الإنسانَ الكافِرَ رَبُّه، حتَّى يتكَبَّرَ ويتعَظَّمَ عن طاعةِ رَبِّه، والإقرارِ بتوحيدِه؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١١).

وقال السمعاني: (معناه: أفلَا يتفَكَّرُ هذا الكافِرُ مِن أيِّ شَيءٍ خَلَقَه اللهُ تعالى؟!). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥٩).

وقال السعدي: (قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ لنِعمةِ اللهِ! وما أشَدَّ مُعانَدتَه للحَقِّ بعدَ ما تبَيَّنَ! وهو ما هو؟! هو مِن أضعَفِ الأشياءِ، خَلَقَه اللهُ مِن ماءٍ مَهينٍ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٥).

قال البيضاوي: (﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾: فهيَّأه لِما يَصلُحُ له مِن الأعضاءِ والأشكالِ، أو: فَقَدَّرَه أطوارًا =

كما قال سبحانَه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: حَدَّثَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو الصَّادِقُ المصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطْنِ أُمِّه أربعينَ يومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مِثْلَ ذلك، ثمَّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا، فيُؤمَرُ بأَربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقِيٌّ أو سَعيدٌ، ثمَّ يُنفَخُ فيه الرُّوحُ))(١).

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾.

أي: ثمَّ سهَّل اللهُ للإنسانِ طَريقَ الخُروجِ مِن بَطْنِ أُمِّه، وطريقَ الخَيرِ والشَّرِّ(٢).

= إلى أنْ أتَمَّ خلقتَه). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧).

وقال البقاعي: (﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: هَيَّأه لِما يَصلُحُ له مِنَ الأعضاءِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ والأشكالِ والأطوارِ، إلى أن صَلَح لذلك، ثمَّ جَعَله في ظُلُماتٍ ثلاثٍ: ظُلمةِ البَطنِ، ثمَّ الرَّحِمِ، ثمَّ المَشيمةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٦٠، ٢٦١).

وقال المهدوي: (﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾: يعني: قدَّره شقيًّا أو سعيدًا، وقيل: حسنًا أو قبيحًا، ونحوه. وقيل: نقله من حال إلى حال؛ نطفة ثم علقة، إلى أن تمَّ خلقُه). ((التحصيل لفوائد كتاب التفصيل)) (٧/ ٣٢).

وقال ابن كثير: (﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أيْ: قَدَّر أجَلَه ورِزْقَه وعملَه، وشَقِيٌّ أوْ سَعيدٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢).

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١١، ١١٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦١). =

= قال السمعاني: (قَولُه: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ أكثَرُ أهلِ التَّفسيرِ على أنَّ المُرادَ منه هو الخُروجُ مِن الرَّحِمِ. وقيل مَعْناه: يسَّرَ له سبيلَ الخَيرِ. وقيل: بَيَّنَ له سَبيلَ الشَّقاوةِ والسَّعادةِ. قاله مُجاهِدٌ. والَّذي تقدَّمَه قَولُ الحسَنِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥٩).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، وأبو صالِحٍ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢).

وذكر ابنُ جَريرٍ أنَّ هذا القَولَ أشبَهُ بظاهِرِ الآيةِ؛ وذلك أنَّ الخبَرَ مِن الله قَبْلَها وبَعْدَها عن صِفةِ خَلْقِه، وتدبيرِه جِسْمَه، وتصريفِه إيَّاه في الأحوالِ، فالأَولى أن يكونَ أوسَطُ ذلك نظيرَ ما قَبْلَه وبَعْدَه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: يسَّر له طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ: ابنُ كثير، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١١).

وممَّن جمَع بيْن القولَين: البِقاعي، وابنُ عثيمين:

قال ابن عثيمين: (﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ السَّبيلُ هنا بمعنَى الطَّريقِ، يعني: يسَّر له الطَّريقَ ليخرجَ مِن بَطنِ أُمِّه إلى عالَمِ المُشاهَدةِ، ويسَّر له أيضًا بعدَ ذلك ما ذكره تعالى في قولِه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

يسَّر له ثَدْيَيْ أمِّه يتغذَّى بهما، ويسَّر له بعدَ ذلك ما فتَح له مِن خزائنِ الرِّزقِ، ويسَّر له فوقَ هذا كلِّه وما هو أهَمُّ، وهو طريقُ الهُدى والفَلاحِ، وذلك بما أرسل إليه مِن الرِّسالاتِ، وأنزَل عليه مِن الكُتبِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٥).

وقال البِقاعي: (﴿يَسَّرَهُۥ﴾ أي: سهَّل له أمْرَه في خروجِه، بأن فتَح فَمَ الرَّحِمِ، وألهَمَه أن يَنتكِسَ، وذلَّل له سبيلَ الخَيرِ والشَّرِّ، وجعَل له عقلًا يَقودُه إلى ما يسَّر له منهما). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٦١).

وقال السعدي: (﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ أي: يسَّر له الأسبابَ الدِّينيَّةَ والدُّنيويَّةَ، وهداه السَّبيلَ [وبيَّنه] وامتَحَنه بالأمرِ والنَّهيِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١﴾.

أي: ثمَّ قَبَض اللهُ رُوحَ الإنسانِ عِندَ انقِضاءِ أجَلِه، وجَعَل له قَبْرًا يُوارَى فيه بَدَنُه؛ إكرامًا له[١].

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾.

أي: ثُمَّ إذا شاء اللهُ بَعَثَ الإنسانَ بعْدَ مَوتِه، وأحياه يومَ القيامةِ؛ لِيُجازِيَه على أعمالِه[٢].

﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ الإنسانُ مِن أنَّه قد أدَّى جميعَ ما أوجَبَ اللهُ عليه؛ فلم يَقُمِ الإنسانُ بكُلِّ ما فَرَض اللهُ عليه؛ من العَمَلِ بطاعتِه، واجتِنابِ مَعصِيَتِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

قال ابنُ الجوزي: (هل هذا عامٌّ أم خاصٌّ؟ فيه قولان:

أحَدُهما: أنَّه عامٌّ. قال مجاهِدٌ: لا يَقْضي أحدٌ أبدًا كُلَّ ما افتَرَض اللهُ عليه.

والثَّاني: أنَّه خاصٌّ للكافِرِ، لم يَقْضِ ما أُمِرَ به مِن الإيمانِ والطَّاعةِ. وقاله يحيى بنُ سَلَّامٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٢).

وممَّن ذهب إلى القَولِ الأوَّلِ -أنَّه عامٌّ، وأنَّ المعنى أنَّه لا يَخلو إنسانٌ مِن تقصيرٍ-: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٣).

قال ابن كثير: (عن مجاهدٍ قوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ قال: لا يَقضي أحدٌ أبدًا كلَّ ما افتُرِض =

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ عادةَ اللهِ تعالى جاريةٌ في القُرآنِ بأنَّه كُلَّما ذَكَر الدَّلائِلَ الموجودةَ في الأنفُسِ فإنَّه يَذكُرُ عَقِبَها الدَّلائِلَ الموجودةَ في الآفاقِ، فجَرى هاهنا على تلك العادةِ، وذَكَر دلائِلَ الآفاقِ، وبدأ بما يحتاجُ الإنسانُ إليه[1].

وأيضًا لَمَّا عَدَّد تعالى نِعَمَه في نفْسِ الإنسانِ، ذَكَر النِّعَمَ فيما به قِوامُ حياتِه، وأمَرَه بالنَّظَرِ إلى طعامِه، وكيفيَّاتِ الأحوالِ الَّتي اعتوَرَت على طعامِه، حتَّى صار بصدَدِ أن يَطعَمَ[2].

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾.

= عليه. وحكاه البَغَويُّ عن الحسَنِ البصريِّ بنحوٍ من هذا. ولم أجِدْ للمتقدِّمينَ فيه كلامًا سِوى هذا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١١).

وممَّن ذهب إلى القَولِ الثَّاني: ابنُ جرير، والواحديُّ، والنسفي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٠٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٥).

وقيل: المرادُ: أنَّ اللهَ تعالى لم يَقْضِ ما أمَرَ به كَونًا وقَدَرًا، فهو سُبحانَه لا يَبعَثُ العِبادَ الآنَ حتَّى تَنقَضِيَ المدَّةُ الَّتي قدَّرَها، ويَفرُغَ القَدَرُ مِن بني آدَمَ مِمَّن كَتَب تعالى وُجودَهم وخُروجَهم إلى الدُّنيا، فإذا اكتَمَل ذلك بَعَث اللهُ الخلائِقَ وأعادهم كما بدَأَهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٦).

قال ابنُ عثيمين: (وفي هذا رَدٌّ على المكَذِّبينَ بالبَعْثِ الَّذين يقولونَ: لو كان البَعثُ حَقًّا لوَجَدْنا آباءَنا الآنَ، وهذا القَولُ منهم تحَدٍّ مَكذوبٌ؛ لأنَّ الرُّسُلَ لم تَقُلْ لهم: إنَّكم تُبعَثونَ الآنَ، ولكِنَّهم قالوا لهم: إنَّكم تُبعَثونَ جَميعًا بعْدَ أن تَموتوا جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩).

أي: فلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى طَعامِه مُتَفَكِّرًا في كيفيَّةِ خَلْقِه، وتيسيرِ أسبابِ حُصولِه[١].

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٧].

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المقصودُ النَّظَرَ إلى صنائِعِ اللهِ تعالى في الطَّعامِ، وكانت أفعالُ الإنسانِ وأقوالُه في تكذيبِه بالبَعثِ أفعالَ مَن يُنكِرُ ذلك الصُّنعَ؛ قال سُبحانَه مُفَصِّلًا لِمَا يَشتَرِكُ في عِلْمِه الخاصُّ والعامُّ مِن صنائِعِه في الطَّعامِ، مؤكِّدًا؛ تنبيهًا على أنَّ التَّكذيبَ بالبَعثِ يَستلزِمُ التَّكذيبَ بإبداعِ النَّباتِ وإعادتِه، وذلك في أسلوبٍ مُبينٍ أنَّ الإنسانَ مُحتاجٌ إلى جميعِ ما في الوُجودِ، ولو نَقَص منه شيءٌ اختَلَّ أمْرُه، وبدأ أوَّلًا بالسَّماويِّ؛ لأنَّه أشرَفُ، وبالماءِ الَّذي هو حياةُ كُلِّ شَيءٍ؛ تنبيهًا له على ابتداءِ خَلْقِه[٢]:

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: أنَّا أنزَلْنا ماءَ المطَرِ مِنَ السَّحابِ إنزالًا كَثيرًا[٣].

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٩، ١٣٠).
قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: فلْيَنظُرْ هذا الإنسانُ الكافِرُ المنكِرُ توحيدَ اللهِ إلى طعامِه كيفَ دَبَّرَه؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: ثمَّ شَقَقْنا الأرضَ بخُروجِ النَّباتِ[١].

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾.

أي: فأنبَتْنا في الأرضِ أنواعَ الحُبوبِ؛ كالقَمحِ، والشَّعيرِ، والذُّرَةِ، والأَرُزِّ، وغَيرِ ذلك[٢].

﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾.

أي: وأنبَتْنا فيها العِنَبَ، وأنبَتْنا فيها قتًّا رطبًا تُعْلَفُ به البهائمُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).
قيل: المرادُ: شَقَقْناها بالنَّباتِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبِقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٥).
وقال ابنُ عاشور: (المرادُ هنا: شَقُّ سَطحِ الأرضِ بخَرْقِ الماءِ فيه، أو بآلةٍ كالمِحْراثِ والمِسْحاةِ، أو بقُوَّةِ حَرِّ الشَّمسِ في زمَنِ الصَّيفِ؛ لتتهَيَّأَ لقَبولِ الأمطارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣١).
ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣، ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤).
ممن اختار المعنى المذكور للقضب: ابن قتيبة، والفراء، وابن جرير، والزجاج، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والرسعني، وابن كثير، والعليمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور.
يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٨٩)، ((تفسير =

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾.

أي: وأنبَتْنا في الأرضِ الزَّيتونَ، وأشجارَ النَّخيلِ[(١)].

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾.

أي: وأنبَتْنا في الأرضِ بَساتينَ ذاتَ أشجارٍ غَليظةٍ عَظيمةٍ[(٢)].

﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾.

أي: وأنبَتْنا في الأرضِ أنواعَ الفَواكِهِ الَّتي يأكُلُها النَّاسُ؛ مِن ثِمارِ الأشجارِ، وأنبَتْنا

= الشوكاني)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣١).
قال الشوكاني: (والقَضْبُ: هو القَتُّ الرَّطْبُ الَّذي يقضبُ مَرَّةً بعدَ أُخرَى تُعْلَفُ به الدَّوابُّ، ولهذا سُمِّي قَضْبًا على مصدَرِ قَضَبَه، أيْ: قَطَعه كأنَّه لِتَكَرُّرِ قَطْعِها نفسَ القطْعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٦). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤).
قال ابن كثير: (والقضبُ هو: الفِصفصةُ التي تأكلُها الدوابُّ رطبةً. ويقالُ لها: القتُّ أيضًا قال ذلك ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، والضحَّاكُ. والسُّدي. وقال الحسنُ البصري: القضبُ: العلفُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤).
وقيل: هو كُلُّ ما يُقطَعُ مِنَ النَّباتِ؛ لِيَأكُلَه ابنُ آدَمَ غَضًّا طَرِيًّا؛ كالبُقولِ وغَيرِها. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عطيَّة، والبِقاعيُّ، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤١٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤).
قال الثعلبي: (﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ غِلاظَ الأشجارِ، واحدُها أغلَبُ، ومنه قيل لغَليظِ الرَّقبةِ: أغلَبُ. وقال مجاهدٌ: مُلتَفَّةً. ابنُ عبَّاسٍ: طِوالًا. قَتادةُ: الغُلْبُ: النَّخلُ الكِرامُ. عِكْرِمةُ: عِظامَ الأوساطِ. ابنُ زَيدٍ: عِظامَ الجُذوعِ والرِّقابِ). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٨).

فيها العُشْبَ والكَلَأَ مِمَّا تأكُلُه الأنعامُ[١].

﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾.

أي: أنبَتَ اللهُ ذلك كُلَّه؛ مَنفعةً لكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم مِنَ الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، تتمَتَّعونَ بها في الحياةِ الدُّنيا[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة: ٣٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٢، ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).

قال ابن جُزَي: (﴿وَأَبّٗا﴾ الأبُّ: المَرْعَى عندَ ابنِ عبَّاسٍ والجمهورِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٤).

وقال الرَّسْعَني: (﴿وَأَبّٗا﴾ ما تأكُلُه الأنعامُ. وهذا قولُ عامَّةِ المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٩٥).

وقال ابن الجوزي: (﴿وَأَبّٗا﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه ما تَرْعاه البهائمُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، واللُّغَويُّونَ. قال الزَّجَّاجُ: هو جميعُ الكَلَأِ الَّذي تَعتَلِفُه الماشيةُ. والثَّاني: أنَّه الثِّمارُ الرَّطبةُ، رواه الوالِبيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٣). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٦).

وقيل: هو كلُّ نباتٍ سِوى الفاكهةِ. وقيل: هو التِّبنُ خاصَّةً. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٣٢).

وقد توقَّف في تفسيرِه عُمَرُ رضي الله عنه؛ فعن أنَسٍ قال: (قرأ عُمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ الله عنه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، فلمَّا أتى على هذه الآيةِ: ﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ قال: قد عرَفْنا الفاكهةَ، فما الأبُّ؟ قال: لَعَمْرُكَ يا ابنَ الخطَّابِ، إنَّ هذا لَهُو التَّكلُّفُ). أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٤/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٥).

أنَّه لو فَكَّرَ الإنسانُ في نفْسِه لَزَجَرَه ما يَعلَمُ مِن عجائبِ خَلْقِها عن كُفْرِه[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ الَّتي خلَقَها اللهُ وسَخَّرَها لكم، فمَن نظَرَ في هذه النِّعَمِ أوجَبَ له ذلك شُكْرَ رَبِّه، وبَذْلَ الجُهدِ في الإنابةِ إليه، والإقبالِ على طاعتِه، والتَّصديقِ بأخبارِه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، ولم يَقُلْ: (فقبَرَه)؛ لأنَّ القابرَ هو الدَّافِنُ بيَدِه، والمُقْبِرُ هو اللهُ تعالى؛ يقالُ: قَبَرَ الميِّتَ: إذا دَفَنَه، وأقبَرَ الميِّتَ: إذا أمَرَ غَيْرَه بأن يَجعَلَه في القَبْرِ، والعَرَبُ تقولُ: بَتَرْتُ ذَنَبَ البَعيرِ، واللهُ أبتَرَه، وعَضَبْتُ قَرْنَ الثَّورِ، واللهُ أعضَبَه، وطَرَدْتُ فُلانًا عنِّي، واللهُ أَطْرَدَه، أي: صَيَّرَه طَريدًا[٣]، فأُسنِدَ الإقبارُ إلى اللهِ؛ لأنَّه ألهَمَ النَّاسَ إيَّاه، وأكَّدَ ذلك بما أمَرَ في شرائعِه مِن وُجوبِ دفنِ الميِّتِ[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ في الآيةِ دَليلٌ على أنَّ وُجوبَ دَفْنِ أمواتِ النَّاسِ بالإقبارِ دونَ الحَرْقِ بالنَّارِ، كما يَفعَلُ مَجوسُ الهِندِ، ودونَ الإلقاءِ لِسِباعِ الطَّيرِ في ساحاتٍ في الجِبالِ مَحُوطةٍ بجُدْرانٍ دُونَ سَقفٍ، كما كان يَفعَلُه مَجوسُ الفُرْسِ، وكما كان يَفعَلُه أهلُ الجاهِليَّةِ بموتى الحُروبِ والغاراتِ في الفيافي؛ إذْ لا يُوارونَهم بالتُّرابِ، وكانوا يَفتَخِرونَ بذلك ويتمَنَّونَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٨). ويُنظر أيضًا: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٨٦)، ((إصلاح المنطق)) لابن السِّكِّيت (ص: ١٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٥). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٨١).

٣- قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ مِن نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى أنْ شَرَعَ لعبادِه هذا الدَّفنَ؛ فإنَّ معنى: ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ أي: جَعَلَه في قَبْرٍ، أي: مَدفونًا؛ سَترًا عليه، وإكرامًا؛ لأنَّ البشرَ لو كانوا إذا ماتوا كسائرِ الميتاتِ: جُثَثًا تُرمَى، لَكان في ذلك إهانةٌ عَظيمةٌ للمَيِّتِ ولأهلِ الميِّتِ[١]، وأيضًا فإكرامُهم أمواتًا بالدَّفنِ؛ لئلَّا يكونَ الإنسانُ كالشَّيءِ اللَّقَى -أي: المُلْقى لِهَوانِه- يَجتنِبُ بنو جنسِه القُربَ منه، ويُهينُه الْتِقامُ السِّباعِ وتمزيقُ مَخالِبِ الطَّيرِ والكلابِ، فمَحَلُّ المِنَّةِ في قولِه: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ هو فيما فُرِّع عليه بالفاءِ بقولِه: ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، وليستِ الإماتةُ وحْدَها مِنَّةً[٢].

٤- قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ في تَعليقِ الإنشارِ بمشيئتِه تعالَى إيذانٌ بأنَّ وقتَه غيرُ متعيِّنٍ، بل هو تابعٌ لها[٣].

٥- في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ رَدٌّ لشُبهةِ الكافِرينَ؛ إذ كانوا يطلُبونَ تعجيلَ البعثِ تحدِّيًا وتهكُّمًا؛ لِيَجعَلوا عدمَ الاستجابةِ بتعجيلِه دليلًا على أنَّه لا يكونُ، فأعلَمَهم اللهُ أنَّه يقَعُ عندَما يَشاءُ اللهُ وُقوعَه، لا في الوقتِ الَّذي يَسألونَه؛ لأنَّه مَوكولٌ إلى حِكمةِ اللهِ تعالى، واستفادةُ إبطالِ قولِهم مِن طريقِ الكِنايةِ[٤].

٦- قال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، تعديةُ فِعلِ النَّظرِ هنا بحرفِ (إلى) تدُلُّ على أنَّه مِن نظَرِ العَينِ؛ إشارةً إلى أنَّ العِبرةَ تحصُلُ بمجرَّدِ النَّظرِ في أطوارِه، والمقصودُ التَّدبُّرُ فيما يُشاهِدُه الإنسانُ مِن أحوالِ طعامِه بالاستدلالِ بها على إيجادِ الموجوداتِ مِن الأرضِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٢٩).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ جَعَل سُبحانَه نَظَرَ الإنسانِ في إخراجِ طعامِه مِن الأرضِ دليلًا على إخراجِه هو منها بعدَ مَوتِه؛ استِدلالًا بالنَّظيرِ على النَّظيرِ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ إثباتُ الحِكَمِ والغاياتِ الَّتي جَعَلَها سُبحانَه في خَلْقِه وأمْرِه(٢).

٩- قَولُه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ...﴾ فيه امتِنانٌ، وفيه استِدلالٌ بإحياءِ النَّباتِ مِنَ الأرضِ الهامِدةِ على إحياءِ الأجسامِ بَعْدَما كانت عِظامًا باليةً، وتُرابًا مُتمَزِّقًا(٣).

١٠- قال تعالَى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ...﴾ بَعْدَما بَيَّنَ مِمَّ خُلِقَ الإنسانُ بيَّنَ هنا كيف يُطعِمُه، وفي كِلَيْهِما آيةٌ على القُدرةِ، وقد اتَّفَقت الآيتانِ على خُطُواتٍ ثلاثٍ مُتطابِقةٍ فيهما؛ فصَبُّ الماءِ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ يُقابِلُ دَفْقَ الماءِ في الرَّحِمِ، وشَقُّ الأرضِ للنَّباتِ يُقابِلُ خُروجَه إلى الدُّنيا، وإنباتُ أنواعِ النَّباتاتِ يُقابِلُ تقاديرَ الخَلْقِ المختَلِفةَ، وفي التَّنصيصِ على أنواعِ النَّباتِ مِن: حَبٍّ، وقَضْبٍ، وعِنَبٍ، ورُمَّانٍ، وزَيتونٍ، ونخيلٍ، وفواكِهَ مُتعَدِّدةٍ، وحدائِقَ مُلْتفَّةٍ؛ لظُهورِ معنى المغايَرةِ فيها، مع أنَّها مِن أصلَينِ مُشتَركينِ: الماءِ مِنَ السَّماءِ، والتُّربةِ في الأرضِ، يُسقى بماءٍ واحدٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٣٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ نشَأَ عن ذِكرِ مَن استَغنى؛ فإنَّه أُريدَ به معيَّنٌ واحدٌ أو أكثرُ، وذلك يُبيِّنُه ما وقَعَ مِن الكلامِ الَّذي دارَ بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبيْنَ صناديدِ المُشرِكينَ في المجلِسِ الَّذي دخَلَ فيه ابنُ أمِّ مَكْتومٍ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ لا تَرى أسلوبًا أغلَظَ منه، ولا أخشَنَ مَسًّا، ولا أدَلَّ على سَخَطٍ، ولا أبْعَدَ شوطًا في المَذَمَّةِ، مع تَقارُبِ طرَفَيْه، ولا أجمَعَ لِلَّائمةِ على قِصَرِ مَتنِه؛ فهذه الجُملةُ بلَغتْ نهايةَ الإيجازِ، وأرفَعَ الجَزالةِ، بأسلوبٍ غليظٍ دالٍّ على السَّخَطِ، بالِغٍ حدَّ المَذَمَّةِ، جامِعٍ للمَلامةِ، ولم يُسمَعْ مِثلُها قبْلَها، فهي مِن جَوامِعِ الكَلِمِ القرآنيَّةِ[٢].

- وفِعلُ (قُتِلَ فلانٌ) أصلُه دُعاءٌ عليه بالقَتلِ، وهي مِن أشنَعِ دعَواتِهم؛ لأنَّ القتلَ قُصارَى شدائدِ الدُّنيا وفَظائعِها، والدُّعاءُ بالسُّوءِ مِن اللهِ تعالى مُستعمَلٌ في التَّحقيرِ والتَّهديدِ؛ لظُهورِ أنَّ حقيقةَ الدُّعاءِ لا تُناسِبُ الإلهيَّةَ؛ لأنَّ اللهَ هو الَّذي يَتوجَّهُ إليه النَّاسُ بالدُّعاءِ[٣].

- وبناءُ ﴿قُتِلَ﴾ للمجهولِ متفرِّعٌ على استِعمالِه في الدُّعاءِ؛ إذ لا غرَضَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٢، ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٩).

قاتلٍ يقتُلُه[١].

- وتعريفُ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ التَّعريفَ المسمَّى تعريفَ الجِنسِ، فيُفيدَ استغراقَ جميعِ أفرادِ الجنسِ، وهو استغراقٌ حقيقيٌّ، وقد يُرادُ به استغراقُ مُعظَمِ الأفرادِ بحسَبِ القَرائنِ، فتَولَّدَ بصِيغةِ الاستغراقِ ادِّعاءٌ لعدمِ الاعتدادِ بالقَليلِ مِن الأفرادِ، ويُسمَّى الاستغراقَ العُرفيَّ في اصطلاحِ عُلماءِ المعاني، ويُسمَّى العامَّ المرادَ به الخصوصُ في اصطلاحِ عُلماءِ الأصولِ، والقرينةُ هنا ما بُيِّن به كفرُ الإنسانِ مِن قولِه: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٨] إلى قولِه: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٢]، فيكونُ المرادُ مِن قولِه: ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المُشرِكينَ المُنكِرينَ البعثَ. ويجوزُ أنْ يكونَ تعريفُ الإنسانِ تعريفَ العَهدِ لشخصٍ معيَّنٍ مِن الإنسانِ يُعيِّنُه خبرُ سببِ النُّزولِ[٢].

- قولُه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ تنبيهٌ على أنَّهم استحَقُّوا أعظَمَ أنواعِ العِقابِ عُرفًا، وقولُه: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ تنبيهٌ على أنَّهم اتَّصَفوا بأعظَمِ أنواعِ القبائحِ والمنكَراتِ شرعًا[٣].

- وجملةُ ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ تعليلٌ لإنشاءِ الدُّعاءِ عليه دعاءَ التَّحقيرِ والتَّهديدِ، وهذا تعجُّبٌ مِن شِدَّةِ كُفرِ هذا الإنسانِ[٤].

- وحُذِفَ المتعلَّقُ بلَفظِ ﴿أَكْفَرَهُۥ﴾؛ لظُهورِه مِن لفظِ ﴿أَكْفَرَهُۥ﴾، وتقديرُه: ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٢٠، ١٢١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٧).

أكفَرَه باللهِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۞ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾

- جُملةُ ﴿أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ جُملةٌ مستأنَفةٌ مَسوقةٌ للشُّروعِ في بيانِ ما أنعَمَ عليه بعدَ المبالَغةِ في وصْفِه بكُفرانِ نِعَمِ خالِقِه[٢]. وهي أيضًا بيانٌ لجُملةِ ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]؛ لأنَّ مُفادَ هذه الجُملةِ الاستِدلالُ على إبطالِ إحالتِهم البعثَ، وذلك الإنكارُ مِن أكبرِ أُصولِ كُفرِهم[٣].

- والاستِفهامُ على معنى التَّقريرِ على حَقارةِ ما خُلِق منه[٤]؛ ولذلك أجابَ عنه بقولِه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾[٥]. وهذا الاستفهامُ صُوريٌّ، وجُعِل المُستفهَمُ عنه تَعيينَ الأمرِ الَّذي به خُلِق الإنسانُ؛ لأنَّ المَقامَ هنا ليس لإثباتِ أنَّ اللهَ خلَقَ الإنسانَ، بل المَقامُ لإثباتِ إمكانِ إعادةِ الخلْقِ بتنظيرِه بالخلْقِ الأوَّلِ، أي: كما كان خلْقُ الإنسانِ أوَّلَ مرَّةٍ مِن نُطفةٍ، يكونُ خلْقُه ثانيَ مرَّةٍ مِن كائنٍ ما[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٢).

(٤) قال ابن عطية: (قولُه تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ استفهامٌ على معنى التَّقريرِ على تفاهةِ الشَّيءِ الَّذي خُلِق الإنسانُ منه، وهي عبارةٌ تَصلُحُ للتَّحقيرِ والتَّعظيمِ، والقرينةُ تبيِّنُ الغرضَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٨).

وقال ابن عاشور: (وليس في ذِكرِ النُّطفةِ هنا إيماءٌ إلى تَحقيرِ أصلِ نشأةِ الإنسانِ؛ لأنَّ قصْدَ ذلك محلُّ نظرٍ، على أنَّ المَقامَ هنا للدَّلالةِ على خَلْقٍ عظيمٍ، وليس مَقامَ زَجْرِ المُتكبِّرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٢).

- وجيءَ في هذا الاستِدلالِ بصُورةِ سؤالٍ وجوابٍ؛ للتَّشويقِ إلى مَضمونِه؛ ولذلك قُرِن الاستفهامُ بالجوابِ عنه[١].

- قولُه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ مُحاكاةً لتقديمِ المُبيَّنِ في السُّؤالِ الَّذي اقتَضى تقديمَه كَونُه استِفهامًا يَستحِقُّ صدْرَ الكلامِ، مع الاهتِمامِ بتقديمِ ما منه الخلْقُ؛ لِما في تقديمِه مِن التَّنبيهِ للاستدلالِ على عظيمِ حِكمةِ اللهِ تعالَى؛ إذ كوَّنَ أبدَعَ مخلوقٍ معروفٍ مِن أهوَنِ شيءٍ، وهو النُّطفةُ[٢].

- وإنَّما لم يُستغنَ عن إعادةِ فِعلِ ﴿خَلَقَهُۥ﴾ في جُملةِ الجوابِ مع العِلمِ به بتقدُّمِ ذِكرِ حاصِلِه في السُّؤالِ؛ لزيادةِ التَّنبيهِ على دِقَّةِ ذلك الخلْقِ البديعِ، فذِكرُ فعلِ ﴿خَلَقَهُۥ﴾ الثَّاني مِن أسلوبِ المساواةِ[٣]؛ ليس بإيجازٍ، وليس بإطنابٍ[٤].

- قولُه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ غلَبَ إطلاقُ النُّطفةِ على الماءِ الَّذي منه التَّناسُلُ، فذُكِرَتِ النُّطفةُ لتعيُّنِ ذِكرِها؛ لأنَّها مادَّةُ خلْقِ الحيوانِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ صُنعَ اللهِ بديعٌ، فإمكانُ البعثِ حاصلٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الأصلُ في الكلامِ أن يكونَ تأديةً للمعاني بألفاظٍ على مِقْدارِها، أي: بأن يكونَ لِكُلِّ معنًى قصَدَه المتكلِّمُ لفظٌ يدُلُّ عليه؛ ظاهرٌ أو مُقَدَّرٌ، وتُسمَّى دَلالةُ الكلامِ بهاتِه الكَيفيَّةِ: (مُساواةً)؛ لأنَّ الألفاظَ كانت مساويةً للمَدْلولاتِ. فإذا نقَصَتِ الألفاظُ عن عددِ المعاني مع إيفائِها بجميعِ تلك المعاني، فذلك (الإيجازُ). وإذا زادَتِ الألفاظُ على عددِ المعاني مع عدَمِ زيارةِ المعاني، فذلك (الإطنابُ). يُنظر: ((نقد الشعر)) لقدامة بن جعفر (ص: ٥٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٧٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١١٨-١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٢، ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٢٣).

- وفُرِّع على فعلِ ﴿خَلَقَهُۥ﴾ فِعلُ ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ بفاءِ التَّفريعِ؛ لأنَّ التَّقديرَ هنا إيجادُ الشَّيءِ على مِقدارٍ مضبوطٍ مُنظَّمٍ، أي: جعَلَ التَّقديرَ مِن آثارِ الخلْقِ؛ لأنَّه خلَقَه متهيِّئًا للنَّماءِ وما يُلابِسُه مِن العقلِ والتَّصرُّفِ وتمكينِه مِن النَّظرِ بعقلِه، والأعمالِ الَّتي يُريدُ إتيانَها، وذلك حاصِلٌ مع خلْقِه مدرَّجًا مفرَّعًا. وهذا التَّفريعُ وما عُطِف عليه إدماجٌ[١] للامتنانِ في خلالِ الاستدلالِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۞ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾

- حرفُ (ثُمَّ) مِن قولِه: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ تيسيرَ سبيلِ العَملِ الإنسانيِّ أعجَبُ في الدَّلالةِ على بديعِ صنعِ اللهِ؛ لأنَّه أثرُ العقلِ، وهو أعظَمُ ما في خلْقِ الإنسانِ، وهو أقوى في المِنَّةِ[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ونُصِب ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ بفعلٍ يُفسِّرُه الظَّاهرُ؛ للمُبالَغةِ في التَّيسيرِ[٤].

- وتعريفُ السَّبيلِ باللَّامِ دونَ الإضافةِ؛ للإشعارِ بعُمومِه وأنَّه سبيلٌ عامٌّ[٥].

- وتقديمُ لفظِ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ على فِعلِه؛ للاهتِمامِ بالعِبرةِ بتيسيرِ السَّبيلِ، وفيه رعايةٌ للفواصلِ[٦].

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ عطفُ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ على ﴿يَسَّرَهُۥ﴾ بحرفِ التَّراخي هو لِتَراخي الرُّتبةِ؛ فإنَّ انقراضَ تلك القُوى العقليَّةِ والحِسِّيَّةِ بالموتِ -بعدَ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٤).

أنْ كانتْ راسخةً زمنًا ما- انقراضٌ عَجيبٌ دونَ تدريجٍ ولا انتظارِ زمانٍ يُساوي مُدَّةَ بقائِها، وهذا إدماجٌ للدَّلالةِ على عظيمِ القُدرةِ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ عَدَّ الإماتةَ والإقبارَ في النِّعَمِ؛ لأنَّ الإماتةَ وُصْلةٌ في الجُملةِ إلى الحياةِ الأبَديَّةِ واللَّذَّاتِ الخالصةِ، والأمرَ بالقَبْرِ تَكرِمةٌ وصيانةٌ عن السِّباعِ[٢].

- وصِيغةُ المُضيِّ في قولِه: ﴿أَمَاتَهُۥ﴾ مُستعمَلةٌ في الماضي -وهو موتُ مَن ماتَ-، والمُستقبَلِ، وهو موتُ مَن سيَموتونَ؛ لأنَّ موتَهم في المستقبَلِ مُحقَّقٌ؛ فمِن المعلومِ بالضَّرورةِ أنَّ الكثيرَ الَّذي لا يُحصى مِن أفرادِ النَّوعِ الإنسانيِّ قد صار أمرُه إلى الموتِ، وأنَّ مَن هو حيٌّ آيِلٌ إلى الموتِ لا محالةَ[٣].

- وذِكرُ جُملةِ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ تَوطئةٌ وتَمهيدٌ لجُملةِ ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، وهذا إدماجٌ للامتنانِ في خِلالِ الاستِدلالِ[٤].

- وقولُه: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ رُجوعٌ إلى إثباتِ البعثِ، وهي كالنَّتيجةِ عَقِبَ الاستدلالِ. ووقَعَ قولُه: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ مُعترِضًا بيْنَ جملةِ ﴿أَمَاتَهُۥ﴾ وجملةِ ﴿أَنشَرَهُۥ﴾؛ لِرَدِّ تَوهُّمِ المُشرِكينَ أنَّ عدمَ التَّعجيلِ بالبعثِ دَليلٌ على انتفاءِ وُقوعِه في المستقبَلِ، و(إذا) ظرفٌ للمُستقبَلِ، ففِعلُ المُضيِّ بعدَها مُؤوَّلٌ بالمستقبَلِ، والمعنى: ثمَّ حينَ يَشاءُ يُنشِرُه، أي: يُنشِرُه حينَ تَتعلَّقُ مشيئتُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠).

وقيل: مَحَلُّ المِنَّةِ في الإماتة هو فيما فُرِّع عليها بالفاءِ بقولِه: ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، وليستِ الإماتةُ وحْدَها مِنَّةً. ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بإنشارِه[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾

- (كَلَّا) تُفيدُ الرَّدعَ والزَّجرَ، وهو مُتوجِّهٌ إلى ما قبْلَها ممَّا يُومِئُ إليه قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٢]، أي: إذا شاء اللهُ؛ إذ يُومِئُ إلى أنَّ الكافرَ يُنكِرُ أنْ يُنشِرَه اللهُ، ويَعتَلُّ بأنَّه لم يُنشِرْ أحدًا منذُ القِدَمِ إلى الآنَ، ومَوقعُ (كَلَّا) مَوقعُ الجوابِ بالإبطالِ، ومَوقعُ جُملةِ ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ مَوقعُ العِلَّةِ للإبطالِ، أي: لو قَضى ما أمَرَه اللهُ به لَعَلِمَ بُطلانَ زَعمِه أنَّه لا يُنشَرُ. أو هو ردْعٌ للإنسانِ عمَّا هو عليه، أي: ممَّا ذُكِر قبْلَه مِن شدَّةِ كفرِه واسترسالِه عليه دونَ إقلاعٍ، فهو زجْرٌ عن مَضمونِ: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]. وقيل غير ذلك[٢].

- و﴿لَمَّا﴾ حرفُ نفْيٍ يدُلُّ على نفيِ الفعلِ في الماضي مِثلَ (لَمْ)، ويَزيدُ بالدَّلالةِ على استمرارِ النَّفيِ إلى وقتِ التَّكلُّمِ، وجُزِم هنا بـ(لَمَّا)؛ للدَّلالةِ على أنَّ العُجبَ والكِبْرَ ما زالا يُلازِمانِ الإنسانَ حتَّى السَّاعةِ الَّتي هو فيها، والمقصودُ أنَّه مستمِرٌّ على عدمِ قضاءِ ما أمَرَه اللهُ ممَّا دعاهُ إليه[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾

- قولُه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في تَعدادِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٦- ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٥).

النِّعمِ المتعلِّقةِ ببقائه بعدَ تفصيلِ النِّعم المتعلِّقةِ بحدوثه[١]. أو هو إمَّا مُفرَّعٌ على قولِه: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٣]، فيكونَ ممَّا أمَرَه اللهُ به مِن النَّظر، وإمَّا على قولِه: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، فيكونَ هذا النَّظرُ ممَّا يُبطِلُ ويُزيلُ شِدَّةَ كفرِ الإنسانِ، والفاءُ مع كَونِها للتَّفريعِ تُفيدُ معنى الفَصيحةِ -الَّتي تُفصِحُ عن جملةٍ قد حُذِفَتْ-؛ إذ التَّقديرُ: إنْ أراد أنْ يَقضيَ ما أمَرَه فلْيَنظُرْ إلى طعامِه، أو إنْ أرادَ نقْضَ كُفرِه فلْيَنظُرْ إلى طعامِه[٢].

- وقولُه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ إلى قولِه: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ استِدلالٌ على تقريبِ كَيفيَّةِ البعثِ، انتُقِلَ إليه في مَعرِضِ الإرشادِ إلى تَدارُكِ الإنسانِ ما أهمَلَه، وكان الانتقالُ مِن الاستدلالِ بما في خلْقِ الإنسانِ مِن بديعِ الصُّنعِ مِن دَلائلَ قائمةٍ بنفْسِه في آيةِ ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٨] إلى الاستدلالِ بأحوالٍ موجودةٍ في بعضِ الكائناتِ شديدةِ الملازَمةِ لحياةِ الإنسانِ -ترسيخًا للاستدلالِ، وتفنُّنًا فيه، وتَعريضًا بالمِنَّةِ على الإنسانِ في هذه الدَّلائلِ، مِن نعمةِ النَّباتِ الَّذي به بقاءُ حياةِ الإنسانِ، وحياةِ ما يَنفَعُه مِن الأنعامِ[٣].

- وجُعِلَ المنظورُ إليه ذاتَ الطَّعامِ مع أنَّ المرادَ النَّظرُ إلى أسبابِ تكَوُّنِه وأحوالِ تطوُّرِه إلى حالةِ انتفاعِ الإنسانِ به، وانتفاعِ أنعامِ النَّاسِ به، وذلك مِن أسلوبِ إناطةِ الأحكامِ بأسماءِ الذَّواتِ والمرادُ أحوالُها؛ مِثلَ قولِه تعالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، أي: أكْلُها، فأمَرَ اللهُ الإنسانَ بالتَّفكيرِ في أطوارِ تكَوُّنِ الحُبوبِ والثِّمارِ الَّتي بها طعامُه، وقد وُصِفَ له تطوُّرُ ذلك لِيَتأمَّلَ ما أُودِعَ إليه في ذلك مِن بديعِ التَّكوينِ، سواءٌ رأى ذلك ببصَرِه أو لم يَرَه،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ولا يَخلو أحدٌ عن عِلمٍ إجماليٍّ بذلك، فيَزيدُه هذا الوصفُ عِلمًا تفصيليًّا، وفي جميعِ تلك الأطوارِ تمثيلٌ لإحياءِ الأجسادِ المستقرَّةِ في الأرضِ، فقد يكونُ هذا التَّمثيلُ في مجرَّدِ الهيئةِ الحاصلةِ بإحياءِ الأجسادِ، وقد يكونُ تمثيلًا في جميعِ تلك الأطوارِ بأنْ تُخرَجَ الأجسادُ مِن الأرضِ كخروجِ النَّباتِ بأنْ يكونَ بَذرُها في الأرضِ، ويُرسِلَ اللهُ لها قُوًى لا نَعلَمُها تُشابِهُ قوَّةَ الماءِ الَّذي به تَحْيا بُذورُ النَّباتِ؛ قال تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾[1] [نوح: ١٧، ١٨].

- والإنسانُ المذكورُ في قولِه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ هو الإنسانُ المذكورُ في قولِه: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، وإنَّما جيءَ باسمِه الظَّاهرِ هنا دونَ الضَّميرِ كما في قولِه: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٨]؛ لأنَّ ذلك قَريبٌ مِن مَعادِه، وما هنا ابتداءُ كلامٍ؛ فعُبِّر فيه بالاسمِ الظَّاهرِ للإيضاحِ[2].

- وأُدمِجَ في أمرِ الإنسانِ بالنَّظرِ إلى الطَّعامِ مِنَّةٌ عليه بالإمدادِ بالغذاءِ الَّذي به إخلافُ ما يَضمحِلُّ مِن قُوَّتِه بسببِ جهودِ العقلِ والتَّفكيرِ الطَّبيعيَّةِ الَّتي لا يُشعَرُ بحُصولِها في داخِلِ المِزاجِ، وبسببِ كَدِّ الأعمالِ البدَنيَّةِ والإفرازاتِ، وتلك أسبابٌ لتبَخُّرِ القُوى البدَنيَّةِ، فيَحتاجُ المِزاجُ إلى تعويضِها وإخلافِها، وذلك بالطَّعامِ والشَّرابِ[3].

- وإنَّما تَعلَّقَ النَّظرُ بالطَّعامِ مع أنَّ الاستدلالَ هو بأحوالِ تكوينِ الطعامِ؛ إجراءً للكلامِ على الإيجازِ، ويُبيِّنُه ما في الجُمَلِ بعْدَه مِن قولِه: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٩، ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ إلى آخِرِها، فالتَّقديرُ: فلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى خلْقِ طعامِه، وتهيئةِ الماءِ لإنمائِه، وشقِّ الأرضِ وإنباتِه، وإلى انتفاعِه به وانتفاعِ مَواشيهِ في بقاءِ حياتِهم[١].

- قولُه: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ قُرِئَ بفتحِ الهمزةِ على أنَّه بدَلُ اشتمالٍ[٢] مِن ﴿طَعَامِهِۦٓ﴾؛ لأنَّ الماءَ سببٌ لحدوثِ الطعامِ، فهو مُشتمِلٌ عليه. وقُرِئَ: ﴿إِنَّا﴾ على الاستئنافِ[٣]؛ على أنَّ الجملةَ بيانٌ لجملةِ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾؛ لتفصيلِ ما أُجمِلَ هنالك على وجهِ الإيجازِ[٤].

- وانتصَبَ ﴿صَبًّا﴾ و﴿شَقًّا﴾ على المفعولِ المطلَقِ للفِعلينِ ﴿صَبَبْنَا﴾ و﴿شَقَقْنَا﴾ مؤكِّدًا لعامِلِه؛ لِيَتأتَّى تَنوينُه؛ لِما في التَّنكيرِ مِن الدَّلالةِ على التَّعظيمِ، وتعظيمُ كلِّ شيءٍ بما يُناسِبُه[٥].

- وإسنادُ الصَّبِّ والشَّقِّ والإنباتِ إلى ضميرِ الجلالةِ في قولِه: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾؛ لأنَّ اللهَ مُقدِّرُ نظامِ الأسبابِ المؤثِّرةِ في ذلك، ومُحْكِمُ نواميسِها، ومُلهِمُ النَّاسِ استعمالَها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٠).

(٢) بَدلُ الاشتمالِ: هو الَّذي يدُلُّ على مَعنًى في مَتْبوعِه أو صِفةٍ فيه، مِثلُ: أعْجَبَني مُحمَّدٌ خُلُقُه؛ فـ (خُلُقُه) بَدَلٌ مِن (مُحمَّدٌ)؛ بَدَلُ اشْتِمالٍ. يُنظر: ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٣/ ٣٦٥)، ((توضيح المقاصد)) للمرادي (٢/ ١٠٣٧)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) لابن مالك (٣/ ٢٤٩).

(٣) قرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿أَنَّا﴾ بفتحِ الهمزةِ، والباقونَ بكسرِها، ووافقهم رويس في الابتداءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٨)، ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) لابن البناء (ص: ٥٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجاء مَساقُ النَّظمِ الكريمِ لبيانِ النِّعمِ الفائضةِ مِن جَنابِه تعالى على وجهٍ بديعٍ خارجٍ عن العاداتِ المعهودةِ، كما يُنبِئُ عنه تأكيدُ الفِعلينِ بالمَصدرَينِ ﴿صَبًّا﴾ ﴿شَقًّا﴾[١].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ للتَّفريعِ والتَّعقيبِ، وهو في كلِّ شيءٍ بحسَبِه[٢].

- وقَدَّم العِنَبَ؛ لأنَّه أنفَعُ الفواكِهِ، يُؤكَلُ رَطْبًا ويابِسًا، ويُعصَرُ فيُتَّخَذُ منه أنواعٌ، وهو أعَمُّ وُجودًا مِنَ النَّخلِ، يُوجَدُ في عامَّةِ البلادِ، والنَّخلُ لا يكونُ إلَّا في البلادِ الحارَّةِ[٣].

- والقَضْبُ: أي: رَطْبةٌ، سُمِّيَتْ بمصدرِ قضَبَهُ، أي: قطَعَهُ؛ مبالَغةً، كأنَّها لتكرُّرِ قطعِها وتكثُّرِه نفْسُ القَطعِ[٤].

- قولُه: ﴿وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا﴾ إنَّما ذُكِرَ النَّخلُ دونَ ثمرتِه، وهو التَّمرُ، خِلافًا لِما قُرِن به مِن الثِّمارِ والفواكِهِ والكَلَأِ؛ لأنَّ منافعَ شجرِ النَّخيلِ كثيرةٌ لا تَقتصِرُ على ثَمرِه، فهم يَقتاتونَ ثمرتَه مِن تمرٍ ورُطَبٍ وبُسْرٍ، ويأكُلونَ جُمَّارَه، ويَشرَبونَ ماءَ عُودِ النَّخلةِ إذا شُقَّ عنه، ويَتَّخِذونَ مِن نَوى التمرِ علَفًا لإبِلِهم، وكلُّ ذلك مِن الطَّعامِ، فضلًا عن اتِّخاذِهم البيوتَ والأَوانيَ مِن خَشَبِه، والحُصُرَ مِن سَعَفِه، والحِبالَ مِن لِيفِه، فذِكرُ اسمِ الشَّجرةِ الجامعةِ لهذه المنافعِ أجمَعُ في الاستِدلالِ بمختلِفِ الأحوالِ، وهو إدْماجٌ للامتِنانِ بوَفرةِ النِّعَمِ[٥].

- قولُه: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا﴾ الحدائقُ: جمعُ حديقةٍ، وهي الجَنَّةُ مِن نخلٍ وكَرْمٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٢).

وشجرِ فَواكِهَ، وعطفُها على النَّخلِ مِن عطفِ الأعمِّ على الأخصِّ، ولأنَّ في ذِكرِ الحدائقِ إدماجًا للامتِنانِ بها. وخُصَّتِ بالذِّكرِ؛ لأنَّها مواضعُ التَّنزُّهِ والاختِرافِ، ولأنَّها تَجمَعُ أصنافًا مِن الأشجارِ[١].

- قولُه: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ إمَّا مفعولٌ له، أي: فعَلَ ذلكَ تمتيعًا لكُم ولمَواشيكُم؛ فإنَّ بعضَ النِّعَمِ المعدودةِ طعامٌ لهم، وبعضَها علَفٌ لدَوابِّهم، والالتفاتُ لتكميلِ الامتنانِ. وإمَّا مصدرٌ مؤكِّدٌ لفِعلِه المضمَرِ بحذفِ الزَّوائدِ، أي: متَّعَكم بذلك متاعًا، أو لفعلٍ مترتِّبٍ عليهِ، أي: متَّعَكم بذلك فتَمتَّعتُم متاعًا، أي: تمتُّعًا، أو مصدرٌ مِن غيرِ لفْظِه؛ فإنَّ ما ذُكِرَ مِن الأفعالِ الثَّلاثةِ في مَعْنى التَّمتيعِ[٢].

وقيل: قولُه: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمۡ﴾ حالٌ مِن المذكوراتِ، وقولُه: ﴿وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ عُطِفَ على قولِه: ﴿لَّكُمۡ﴾، والمتاعُ: ما يُنتفَعُ به زمنًا ثمَّ يَنقطِعُ، وفيه لَفٌّ ونَشْرٌ مُشَوَّشٌ[٣]، والسَّامعُ يَرجِعُ كلَّ شيءٍ مِن المذكوراتِ إلى ما يَصلُحُ له؛ لظُهورِه، وهذه الحالُ واقعةٌ موقعَ الإدماجِ؛ أُدمِجَتِ الموعظةُ والمِنَّةُ في خلالِ الاستدلالِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٢).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٤).

الآيات (٣٣-٤٢)

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: الصَّيحةُ الشَّديدةُ الَّتي تَصُخُّ الآذانَ، أي: تُصِمُّها مِن شِدَّتِها، وأصلُ الصخِّ: الطعنُ والصكُّ، فالصاخَّةُ: الصاكَّةُ لشِدَّةِ صوتِها للآذانِ، والمرادُ بها هنا: النَّفخةُ الثَّانيةُ، وهي اسمٌ مِن أسماءِ القيامةِ، وأصلُ (صخخ): يدُلُّ على صوتٍ[١].

﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾: أي: مُشْرِقةٌ مُضِيئةٌ مُتهَلِّلةٌ؛ مِن أسفَرَ الصُّبحُ: إذا أضاءَ وأشرَقَ، وأصلُ (سفر): يدُلُّ على انكِشافٍ وجَلاءٍ[٢].

﴿مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾: أي: فرحةٌ بما نالت مِن كرامةِ الله، واستبشَر: إذا وجَد ما يُبشِّرُه مِن الفَرَحِ، وأصلُ (بشر): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجَمالٍ[٣].

﴿غَبَرَةٞ﴾: أي: غُبارٌ وكُدُورةٌ، وأصلُ (غبر) هنا: يدُلُّ على لَونٍ مِنَ الألوانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٩، ٤٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦).

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾: أي: تَغْشاها وتَعْلوها ظُلْمةٌ وسَوادٌ، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ، وأصلُ (قتر): يدُلُّ على تجميعٍ وتضييقٍ(١).

﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾: جمعُ فاجِرٍ، وهو المُنْبَعِثُ في المعاصي والمحارِمِ، يُقالُ: فَجَرَ يَفْجُرُ فُجُورًا، فهو فاجِرٌ، والفُجورُ: الانبعاثُ والتَّفَتُّحُ في المَعاصي، وأصلُ (فجر): التَّفَتُّحُ في الشَّيءِ. وقيل: الفَجْرُ: شقُّ الشيء شقًّا واسعًا، والفُجورُ: شقُّ ستر الدِّيانة(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يختمُ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالحديثِ عن أحوالِ النَّاسِ يومَ القيامةِ، فيقولُ: فإذا جاءت القيامةُ بصَيْحَتِها العَظيمةِ الَّتي تُصِمُّ الآذانَ؛ مِن شِدَّةِ صَوتِها، وذلك واقِعٌ يومَ يَهرُبُ كُلُّ إنسانٍ مِن أخيه، وأُمِّه وأبيه، وزَوجتِه وأبنائِه؛ لكُلِّ واحدٍ مِن أولئك الأقرِباءِ يومَ القيامةِ أَمْرٌ عظيمٌ يُهِمُّه ويَشغَلُه عن غَيرِه!

وُجوهُ المُؤمِنينَ في ذلك اليَومِ مُضِيئةٌ مُشرِقةٌ، ضاحِكةٌ مُستَبشِرةٌ، ووُجوهُ الكافِرينَ يومَ القيامةِ يَعْلوها غُبارٌ وتَغْشاها ظُلْمةٌ وسَوادٌ، أولئك هم الكَفَرةُ الفَجَرةُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١) و(٥/ ٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٤١٣).

وقيل: أصلُه الميلُ، والفاجرُ: المائلُ عن الحقِّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر ما كان المقصودُ منه أمورًا ثلاثةً؛ أوَّلُها: الدَّلائِلُ الدَّالَّةُ على التَّوحيدِ. وثانيها: الدَّلائلُ الدَّالَّةُ على القُدرةِ على المعادِ. وثالِثُها: أنَّ هذا الإلهَ الَّذي أحسَنَ إلى عَبيدِه بهذه الأنواعِ العَظيمةِ مِنَ الإحسانِ لا يَليقُ بالعاقلِ أن يتمَرَّدَ عن طاعتِه، وأن يتكبَّرَ على عبيدِه- أتْبَعَ هذه الجُملةَ بما يكونُ مُؤَكِّدًا لهذه الأغراضِ، وهو شَرحُ أهوالِ القيامةِ؛ فإنَّ الإنسانَ إذا سَمِعَها خاف، فيَدْعوه ذلك الخَوفُ إلى التَّأمُّلِ في الدَّلائِلِ، والإيمانِ بها، والإعراضِ عن الكُفرِ، ويدعوه ذلك أيضًا إلى تَرْكِ التَّكَبُّرِ على النَّاسِ، وإلى إظهارِ التَّواضُعِ إلى كُلِّ أحدٍ، فلا جَرَمَ ذَكَرَ القيامةَ[١].

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣﴾.

أي: فإذا جاءت القيامةُ بصَيحَتِها العَظيمةِ الَّتي تُصِمُّ الآذانَ؛ مِن شِدَّةِ صَوتِها[٢].

﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤﴾.

أي: يومَ يَهرُبُ كُلُّ إنسانٍ من أخيه؛ مِن شِدَّةِ الهَولِ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٤).

قال ابنُ عطية: (الصَّاخَّةُ: اسمٌ مِن أسماءِ القيامةِ، واللَّفظةُ في حقيقتِها إنَّما هي لنفخةِ الصُّورِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).

قال الشوكاني: (والظَّرفُ في قولِه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ إمَّا بدَلٌ مِن «إذا جاءَتْ»، أو منصوبٌ بمقدَّرٍ، أي: أعني، ويكونُ تفسيرًا للصَّاخَّةِ، أو بَدَلًا منها مبنيٌّ على =

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١٠ - ١٤].

﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: ويَهرُبُ كُلُّ إنسانٍ كذلك مِن أُمِّه وأبيه، فلا يَنفَعُهما بشَيءٍ[(١)]!

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: ومِن زَوجتِه الَّتي كانت مُلازِمةً له في الدُّنيا، ومِن أبنائِه الَّذين هم أحَبُّ النَّاسِ إليه[(٢)]!

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر فِرارَ المرءِ؛ أتْبَعَه بذِكْرِ سَبَبِه[(٣)].

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: لكُلِّ واحدٍ مِن أولئك الأقرِباءِ يومَ القيامةِ أَمْرٌ عظيمٌ يُهِمُّه ويَكفيه، فيَشغَلُه

= الفتح). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦١).

عن النَّظَرِ في أمْرِ غَيْرِه[١].

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((تُحشَرونَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا[٢]، فقالت امرأةٌ: أيُبصِرُ أو يَرى بَعْضُنا عَورةَ بَعْضٍ؟! قال: يا فُلانةُ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾!))[٣].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذَكَر حالَ يومِ القيامةِ في الهَولِ، بَيَّن أنَّ المكَلَّفينَ فيه على قِسمَينِ: منهم السُّعَداءُ، ومنهم الأشقياءُ؛ فوَصَف السُّعَداءَ بقَولِه تعالى[٤]:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: وُجوهُ المُؤمِنينَ في ذلك اليَومِ مُضِيئةٌ مُشرِقةٌ[٥].

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

(٢) الغُرْلُ: معناه: غيرُ مختونينَ، جمعُ أَغْرَلَ، وهو: الَّذي لم يُختَنْ وبَقِيَت معه غُرْلتُه، وهي قُلْفتُه، وهي الجِلدةُ الَّتي تُقطَعُ في الختانِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٩٣).

(٣) أخرجه مِن طُرُقٍ: الترمذيُّ (٣٣٣٢) واللَّفظُ له، والنَّسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٦٤٧). قال الترمذي: (حَسَنٌ صحيحٌ)، وكذا قال الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٣٢). وصَحَّح إسنادَه على شرطِ الشَّيخَينِ الحاكِمُ في ((المستدرك)) (٢٩٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

أي: تَضحَكُ سُرورًا، وتَفرَحُ مُستَبشِرةً[١].

كما قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٩].

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الله سبحانه وتعالى أهلَ السَّعادةِ من المؤمنين؛ ذكَرَ أضْدادَهم[٢].

فقال تعالى:

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: ووُجوهُ الكافِرينَ يومَ القيامةِ يَعْلوها غُبارٌ[٣].

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

قال الواحدي: (﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ فَرِحةٌ بما نال مِن كرامةِ الله ورِضاه). ((البسيط)) (٢٣/ ٢٤٠).

وقال ابن كثير: (﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: مسرورةٌ فَرِحةٌ مِن سُرورِ قُلوبِهم، قد ظهَرَ البِشْرُ على وُجوهِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٧).

وقال البِقاعي: (﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: طالِبةٌ للبِشْرِ، وهو تغَيُّرُ البَشَرةِ مِن السُّرورِ، ومُوجِدةٌ لذلك، وهي بَيْضاءُ نَيِّرةٌ بما يُرى مِن تبشيرِ الملائكةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

أي: تَغْشاها ظُلْمةٌ وسَوادٌ[١].

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وقال سُبحانَه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦، ٢٧].

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: أولئك هم الكَفَرةُ الَّذين لم تُؤمِنْ قُلوبُهم بالحَقِّ، الفَجَرةُ الَّذين كانوا يَعمَلونَ السَّيِّئاتِ مُتجَرِّئينَ على إتيانِ المحَرَّماتِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ كونُ أقرَبِ النَّاسِ للإنسانِ يَفِرُّ منهم يَقتضي هَوْلَ ذلك اليومِ؛ بحيثُ إذا رَأى ما يَحُلُّ مِن العذابِ بأقرَبِ النَّاسِ إليه، تَوهَّمَ أنَّ الفِرارَ منه يُنجيهِ مِن الوُقوعِ في مِثلِه؛ إذ

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

قال البقاعي: (هم -في الأغلَبِ- المُتْرَفُونَ الَّذين يَحمِلُهم غِناهم على التَّكَبُّرِ والأَشَرِ والبَطَرِ، فلِجَمْعِهم بيْن الكُفرِ والفُجورِ، جُمِع لهم بيْن الغَبَرةِ والقَتَرةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٧٣).

قد عَلِم أنَّه كان مماثلًا لهم فيما ارتكَبوهُ مِن الأعمالِ، فذُكِرتْ هنا أصنافٌ مِن القَرابةِ؛ فإنَّ القَرابةَ آصِرةٌ تكونُ لها في النَّفْسِ مَعَزَّةٌ وحِرصٌ على سلامةِ صاحِبِها وكرامتِه، والإلْفَ يُحدِثُ في النَّفْسِ حرصًا على الملازَمةِ والمقارَنةِ، وكِلا هذينِ الوِجْدانَينِ يصُدُّ صاحِبَه عن المفارَقةِ، فما ظَنُّك بهَولٍ يَغْشى على هذينِ الوِجْدانينِ فلا يَترُكُ لهما مجالًا في النَّفْسِ[1]؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ بِشارةٌ للمُؤمِنِ كبيرةٌ؛ لأنَّه -لا مَحالةَ- حاصلٌ له هذا الإخبارُ؛ لأنَّه قال على إثْرِه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ فحَصَل هذا للكافرِ، وذلك للمؤمِنِ إنْ شاء اللهُ؛ إذ لَم يَذْكُرْ معهما ثالِثةً[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ أتبَعَ وَصْفَ الكَفَرةِ بوَصْفِ الفَجَرةِ، مع أنَّ وَصْفَ الكُفرِ أعظَمُ مِن وَصْفِ الفُجورِ؛ لِما في معنى الفُجورِ مِن خَساسةِ العَمَلِ، فذُكِرَ وَصْفاهم الدَّالَّانِ على مَجموعِ فَسادِ الاعتقادِ وفَسادِ العَمَلِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في بَيانِ أحوالِ مَعادِهم إثرَ بيانِ مَبدأِ خلْقِهم ومَعاشِهم، والفاءُ للدَّلالةِ على تَرتُّبِ ما بعْدَها على ما يُشعِرُ به لَفظُ المتاعِ مِن سُرعةِ زَوالِ هاتِيكَ النِّعمِ، وقُربِ اضْمحلالِها[4].

وقيل: الفاءُ في ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ للتَّفريعِ على اللَّومِ والتَّوبيخِ في قولِه:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٦).

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، وما تَبعَهُ مِنَ الاستدلالِ على المُشرِكينَ مِن قولِه: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٨] إلى قولِه: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾ [عبس: ٢٥]، ففُرِّع على ذلك إنذارٌ بيومِ الجزاءِ، مع مُناسبةِ وُقوعِ هذا الإنذارِ عَقِبَ التَّعريضِ والتَّصريحِ بالامتنانِ في قولِه: ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤]، وقولِه: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾[(١)] [عبس: ٣٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾

- حرْفُ (مِنْ) في قولِه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ بمعنى التَّعليلِ الَّذي يُعَدَّى به فِعلُ الفِرارِ إلى سَببِ الفرارِ حينَ يُقالُ: فَرَّ مِن الأسدِ، وفَرَّ مِن العدوِّ، وفَرَّ مِن الموتِ. ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى المجاوَزةِ مِثلَ (عَنْ)[(٢)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ رُتِّبتْ أصنافُ القَرابةِ في هذه الآيةِ حسَبَ الصُّعودِ مِن الصِّنفِ إلى مَا هو أَقْوَى منه؛ تدَرُّجًا في تَهويلِ ذلك اليومِ؛ فابتُدِئ بالأخِ لشِدَّةِ اتِّصالِه بأخيه مِن زمنِ الصِّبا، فيَنشَأُ بذلك إلْفٌ بيْنَهما يَستمرُّ طولَ الحياةِ، ثمَّ ارتُقِيَ مِن الأخِ إلى الأبوَينِ، وهما أشدُّ قُربًا لابنَيْهما، وانتُقِل إلى الزَّوجةِ والبنينَ، وهما مُجتمَعُ عائلةِ الإنسانِ، وأشَدُّ النَّاسِ قُربًا به ومُلازَمةً، كأنَّه قال: يَفِرُّ مِن أخيه، بل مِن أبوَيْه، بل مِن صاحِبتِه وبَنيه؛ لأنَّ تعلُّقَ القلبِ بهما أشدُّ مِن تعلُّقِه بالأبوَينِ[(٣)]. فلمَّا كان السِّياقُ للفِرارِ قدَّمَ أدناهم رُتبةً في الحبِّ والذَّبِّ فأدناهم على سبيلِ التَّرقِّي، وأخَّر الأوجَبَ في ذلك فالأوجَبَ -بخِلافِ ما في سورة (المعارِجِ)- فقال: ﴿مِنۡ أَخِيهِ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٥)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٥).

لأنَّه يألَفُه صغيرًا، وقد يَركَنُ إليه كبيرًا، مع طولِ الصَّحابةِ، وشِدَّةِ القُربِ في القَرابةِ، فيكون عندَه في غايةِ العِزَّةِ. ولَمَّا كانت الأمُّ مُشارِكةً له في الإلْفِ، ويَلزَمُ مِن حمايتِها أكثَرُ ممَّا يلزَمُ الأخ، وهو لها آلَفُ، وإليها أحَنُّ وعليها أرَقُّ وأعطَفُ؛ قال: ﴿وَأُمِّهِۦ﴾. ولَمَّا كان الأبُ أعظَمَ منها في الإلْفِ؛ لأنَّه أقرَبُ في النَّوعِ، وللولدِ عليه مِنَ العاطِفةِ لِمَا له مِن مَزيدِ النَّفعِ أكثَرُ ممَّنْ قبْلَه؛ قال: ﴿وَأَبِيهِ﴾، وأيضًا قُدِّمت الأمُّ للرَّعيِ على الفاصلةِ. ولَمَّا كانت الزَّوجةُ -الَّتي هي أهلٌ لأنْ تُصحَبَ- ألصَقَ بالفؤادِ، وأعرَقَ في الوِدادِ، وكان الإنسانُ أذَبَّ عنها عندَ الاشتدادِ؛ قال: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾، ولعلَّه أفرَدَها إشارةً إلى أنَّها عندَه في الدَّرجةِ العُلْيا مِن المودَّةِ، بحيثُ لا يألَفُ غيرَها. ولَمَّا كان للوالدِ إلى الولدِ مِنَ المحَبَّةِ والعاطفةِ، والإباحةِ بالسِّرِّ، والمُشاوَرةِ في الأمرِ ما ليس لغَيرِه؛ ولذلك يضَيِّعُ عليه رزقَه وعُمُرَه؛ قال: ﴿وَبَنِيهِ﴾، وإن اجتمَع فيها الصَّغيرُ الَّذي هو عليه أشفَقُ، والكبيرُ الَّذي هو في قلبِه أجَلُّ، وفي عَينِه أنبَلُ، ومَن بيْنَهُما مِنَ الذَّكَرِ والأنثى[1].

- وأيضًا الابتداءُ يكونُ في كلِّ مَقام بما يُناسِبُه؛ فتارةً يَقتضي الابتداءَ بالأعلى، وتارةً بالأدنى، وهنا المناسَبةُ تقتضي الابتداءَ بالأدنى؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ فِرارِه عن أقارِبه مفصَّلًا شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، فلو ذُكِر الأقرَبُ أوَّلًا لم يكُنْ في ذِكرِ الأبعَدِ فائدةٌ طائلةٌ؛ فإنَّه يُعلَمُ أنَّه إذا فَرَّ مِنَ الأقرَبِ فَرَّ مِنَ الأبعَدِ، ولَمَا حصَل للمستمِعِ استِشعارُ الشِّدَّةِ مفصَّلةً، فابتُدِئ بنَفيِ الأبعَدِ منتقلًا منه إلى الأقرَبِ، فقيل أوَّلًا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾، فعُلِم أنَّ ثَمَّ شِدَّةً توجِبُ ذلك. وقد يجوزُ أن يَفِرَّ مِن غَيرِه ويجوزُ ألَّا يَفِرَّ، فقيل: ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾؛ فعُلِم أنَّ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٠، ٢٧١).

الشِّدَّةَ أكبَرُ مِن ذلك بحيثُ توجِبُ الفِرارَ مِنَ الأبَوَين. ثمَّ قيل: ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾؛ فعُلِم أنَّها طامَّةٌ بحيثُ توجِبُ الفِرارَ ممَّا لا يُفَرُّ منهم إلَّا في غايةِ الشِّدَّةِ، وهي الزَّوجةُ والبَنونَ. ولفظُ ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ ﴾ أحسَنُ مِن زوجتِه[١].

- وكذلك أُطنِبَ بتَعدادِ هؤلاء الأقرباءِ دونَ أنْ يُقالَ: (يومَ يَفِرُّ المرءُ مِن أقرَبِ قرابتِه) مَثَلًا؛ لإحضارِ صورةِ الهَولِ في نفْسِ السَّامعِ[٢].

- وكلٌّ مِن هؤلاء القَرابةِ إذا قدَّرْتَه هو الفارَّ، كان مَن ذُكِر معه مفرورًا منه، إلَّا قولَه: ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ ﴾؛ لظُهورِ أنَّ معناهُ: والمرأةُ مِن صاحِبِها؛ ففيه اكتفاءٌ[٣]، وإنَّما ذُكِرَتْ بوصْفِ الصَّاحبةِ الدَّالِّ على القُربِ والمُلازَمةِ دونَ وصْفِ الزَّوجِ؛ لأنَّ المرأةَ قد تكونُ غيرَ حسَنةِ العِشرةِ لزَوجِها، فلا يكونُ فِرارُه منها كِنايةً عن شِدَّةِ الهَولِ، فذُكِرَتْ بوصْفِ الصَّاحبةِ[٤].

- وتعليقُ جارِّ الأقرباءِ بفعلِ ﴿يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ﴾ يَقتضي أنَّهم قد وقَعوا في عذابٍ يَخشَوْنَ تَعدِّيَه إلى مَن يَتَّصِلُ بهم[٥].

- وقد اجتمَعَ في قولِه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ...﴾ إلى آخِرِه أبلَغُ ما يُفيدُ هَوْلَ ذلك اليومِ، بحيثُ لا يَترُكُ هَولُه للمرءِ بقيَّةً مِن رُشدِه؛ فإنَّ نفْسَ الفِرارِ للخائفِ مَسَبَّةٌ فيما تَعارَفوهُ؛ لدَلالتِه على جُبنِ صاحِبِه، وهم يَتعيَّرونَ بالجُبنِ، وكونُه يترُكُ أعَزَّ الأعِزَّةِ عليه مَسَبَّةٌ عُظْمى[٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٦/ ٧٤، ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٦).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لزيادةِ تهويلِ اليوم، وحيثُ كان فِرارُ المرءِ مِن الأَقْرِباءِ الخَمسةِ يَقتضي فِرارَ كلِّ قَريبٍ مِن أولئك مِن مِثلِه، كان الاستِئنافُ جامعًا للجميعِ تصريحًا بذلك المُقتضَى، فقال: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾، أي: عن الاشتغالِ بغيرِه مِن المذكوراتِ، بَلْهَ الاشتغالَ عمَّن هو دونَ أولئك في القَرابةِ والصُّحبةِ[١]. أو هو استِئنافٌ واردٌ لبيانِ سببِ الفِرارِ[٢].

- وتَنوينُ ﴿شَأۡنٞ﴾ للتَّعظيمِ. وتَقديمُ الخبَرِ في قولِه: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ﴾ على المبتدأِ؛ ليَتأتَّى تَنكيرُ ﴿شَأۡنٞ﴾ الدَّالِّ على التَّعظيمِ[٣].

- قولُه: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ أَصْلُ الإغناءِ والغِنى: حُصولُ النَّافعِ المحتاجِ إليه، وقد استُعمِلَ هنا في معْنى الإشغالِ، والإشغالُ أعمُّ، فاستُعمِل الإغناءُ الَّذي هو نفعٌ في معنى الإشغالِ الأعمِّ؛ إيماءً إلى أنَّ المؤمِنينَ يَشغَلُهم عن قَرابتِهم المُشرِكينَ فَرْطُ النَّعيمِ، ورفْعُ الدَّرَجاتِ، كما دَلَّ عليه قولُه عَقِبَه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۞ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾

- جُملةُ ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾ بيانٌ لمآلِ أمرِ المذكورينَ وانقسامِهم إلى السُّعداءِ والأشقياءِ، بعْدَ ذِكرِ وُقوعِهم في داهيةٍ دَهْياءَ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قُدِّم هنا ذِكرُ وُجوهِ أهلِ النَّعيمِ على وُجوهِ أهلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٣٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٣).

الجَحيمِ، بخِلافِ قولِه في سورةِ (النازعاتِ): ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧]، ثمَّ قولِه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [النازعات: ٤٠] إلى آخِرِه؛ لأنَّ هذه السُّورةَ أُقيمَتْ على عِمادِ التَّنويهِ بشأنِ رجُلٍ مِن أفاضلِ المؤمِنينَ، والتَّحقيرِ لشأنِ عظيمٍ مِن صناديدِ المُشرِكينَ، فكان حظُّ الفريقَينِ مقصودًا مَسوقًا إليه الكلامُ، وكان حظُّ المؤمِنينَ هو المُلتفَتَ إليه ابتداءً، وذلك مِن قولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٣] إلى آخِرِه، ثمَّ قولِه: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٥، ٦]. وأمَّا سورةُ (النازعاتِ) فقد بُنِيَتْ على تهديدِ المُنكِرينَ للبعثِ ابتداءً مِن قولِه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦- ٨]، فكان السِّياقُ للتَّهديدِ والوَعيدِ، وتهويلِ ما يَلقَوْنَه يومَ الحشرِ، وأمَّا ذِكرُ حظِّ المؤمِنينَ يومَئذٍ، فقد دعا إلى ذِكرِه الاسْتِطرادُ، على عادةِ القرآنِ الكريمِ مِن تعقيبِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ[(١)].

- وتَنكيرُ ﴿وُجُوهٌ﴾ الأوَّلِ والثَّاني للتَّنويعِ، وذلك مُسوِّغُ وُقوعِهما مُبتدأً[(٢)].

- قولُه: ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ كِنايةٌ عن السُّرورِ. والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ قيل: هي للمُبالَغةِ، ويُقالُ: بَشَرَ، أيْ: فَرِح وسُرَّ[(٣)].

- وفي هذه الآياتِ والَّتي تليها احتِباكٌ[(٤)]: ذِكْرُ الإسفارِ والبِشْرِ أوَّلًا يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٣٨).

(٤) الاحْتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن أَلْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

الخَوفِ والذُّعرِ ثانيًا، وذِكْرُ الغَبَرةِ ثانيًا يدُلُّ عل البياضِ والنُّورِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك أنَّه ذَكَر دليلَ الرَّاحةِ ودليلَ التَّعَبِ لظُهورِهما؛ ترغيبًا وترهيبًا[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ زيادةٌ في تشهيرِ حالِهم الفظيعِ للسَّامعينَ، وجيءَ باسمِ الإشارةِ؛ لزيادةِ الإيضاحِ؛ تشهيرًا بالحالةِ الَّتي سَبَّبَتْ لهم ذلك[٢]؛ فـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى أصحابِ تلك الوُجوهِ، وما فيهِ مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ درَجتِهم في سُوءِ الحالِ، أي: أولئكَ المَوصوفونَ بسَوادِ الوُجوهِ وغيرِه هُمُ الكفَرةُ الفجَرةُ الجامِعونَ بينَ الكفرِ والفُجورِ؛ فلذلكَ جمَعَ اللهُ تعالى إلى سَوادِ وُجوهِهم الغَبَرةَ[٣].

- وضميرُ الفصلِ ﴿هُمُ﴾؛ لإفادةِ التَّقَوِّي[٤].

- وذِكرُ وصفِ ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ بدونِ عاطفٍ يُفيدُ أنَّهم جمَعوا بينَ الكُفرِ والفُجورِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَفْسيرُ
سُورَةِ التَّكويرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ التَّكويرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (التَّكويرِ)[١].

وسُمِّيَتْ أيضًا بسورةِ (إذا الشَّمسُ كُوِّرَتْ)[٢]: فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن سَرَّه أن يَنظُرَ إلى يومِ القيامةِ كأنَّه رَأْيُ عَيْنٍ فلْيَقرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾))[٣].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

مَن قَرَأها فكأنَّه يَنظُرُ إلى يومِ القيامةِ رَأْيَ عَينٍ:

كما في حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما المتقدِّمِ.

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ التَّكويرِ مَكِّيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٤].

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿كُوِّرَتۡ﴾، ولم يَرِدْ هذا اللَّفظُ في سُورةٍ سِواها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٣).

قال ابن عاشور: (وأكثرُ التَّفاسيرِ يُسَمُّونَها سورةَ «التَّكْوِيرِ»، وكذلك تَسْمِيَتُها في المصاحِفِ، وهو اخْتِصارٌ لِمَدْلولِ ﴿كُوِّرَتۡ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٩).

(٢) عُنْوِنَتْ بذلك في ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ٣٩٥)، و((صحيح البخاري)) (٦/ ١٦٦) و((سنن الترمذي)) (٥/ ٤٣٣)، و((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٨).

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٣٣)، وأحمدُ (٤٨٠٦).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٣٣)، وجوَّدَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٦٤)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٩٦)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٤٢٤).

(٤) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: =

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

بيانُ أحوالِ القيامةِ، وأهوالِها[1].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- ذِكرُ أهوالِ يومِ القيامةِ.

٢- التَّأكيدُ على أنَّ هذا القُرآنَ الكَريمَ مِن عندِ اللهِ تعالى، وليس مِن كَلامِ البَشَرِ، وذِكرُ صِفةِ المَلَكِ الَّذي يحمِلُه، والنَّبيِّ الَّذي يتلَقَّاه، وإثباتُ نُبُوَّتِه.

٣- بيانُ أنَّ القُرآنَ عِظَةٌ وذِكْرى لِمَن أراد الهِدايةَ.

٤- تَقريرُ أنَّ مَشيئةَ العَبدِ تابِعةٌ لِمَشيئةِ الرَّبِّ سُبحانَه وتعالى.

= ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٦٠).

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٣).

الآيات (١-١٤)

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كُوِّرَتۡ﴾: أي: لُفَّت كما تُلَفُّ العِمامةُ، فذَهَب ضَوؤُها، والتَّكويرُ: تلفيفٌ على جِهةِ الاستِدارةِ، كتَكويرِ العِمامةِ، وأصلُ (كور): يدُلُّ على دَورٍ وتجَمُّعٍ[1].

﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾: أي: تناثَرَتْ مِنَ السَّماءِ، وسَقَطَت على الأرضِ، وأصلُ (كدر) هنا: يدُلُّ على حَرَكةٍ[2].

﴿ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾: أي: النُّوقُ الحوامِلُ الَّتي قد أتَى عليها عَشَرةُ أشهُرٍ مِن حَمْلِها: سُيِّبَت وأُهمِلَت وتُرِكَت بلا راعٍ، وأصلُ (عطل): يدُلُّ على خُلُوٍّ وفَراغٍ[3].

﴿سُجِّرَتۡ﴾: أي: أُوقِدَت فصارت نارًا تَضطَرِمُ. وقيل: مُلِئتْ ونفَذ بعضُها إلى بعضٍ، فصارَتْ بحرًا واحِدًا مملوءًا. وأصلُ (سجر) على القولِ الأوَّلِ: الإيقادُ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥١).

وعلى القولِ الثَّاني: المَلْءُ[١].

﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾: هي الجاريةُ المدفونةُ حَيَّةً، سُمِّيَت بذلك لِما يُطرَحُ عليها مِن التُّرابِ فيَؤُودُها، أي: يُثقِلُها حتَّى تموتَ، وكان بعضُ العَرَبِ يَدفِنُ البناتِ حَيَّةً؛ مَخافةَ العارِ والحاجةِ! وأصلُ (وأد): يدُلُّ على إثقالِ شَيءٍ بشَيءٍ[٢].

﴿كُشِطَتْ﴾: أي: نُزِعَت وطُوِيَت وقُلِعَت، والكَشْطُ: قَلْعٌ عن شِدَّةِ التِزاقٍ، وأصلُ (كشط): يدُلُّ على تَنحيةِ شَيءٍ وكَشْفِه[٣].

﴿سُعِّرَتْ﴾: أي: أُوقِدَت، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ شَيءٍ واتِّقادِه[٤].

﴿أُزْلِفَتْ﴾: أي: قُرِّبَت، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تقَدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[٥].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ واصِفًا أحوالَ القيامةِ وأهوالَها، فقال

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٨، ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٩، ٣٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٩).

تعالى: إذا لُفَّت الشَّمسُ وجُمِعَت، وطُوِيَ بَعْضُها على بَعضٍ؛ فذَهَب ضَوؤُها، وإذا النُّجومُ تساقَطَت وتناثَرَت، وإذا الجِبالُ قُلِعَت مِن أماكِنِها وسُيِّرَت عن وَجْهِ الأرضِ، وإذا النُّوقُ الحوامِلُ -وهي أنفَسُ أموالِ العَرَبِ- تُرِكَت مُهمَلةً بلا راعٍ؛ لِما دهاهم مِن الأمرِ العَظيمِ، وإذا الوُحوشُ مِن الحيواناتِ جُمِعَت يومَ القيامةِ؛ لِيَقتَصَّ اللهُ تعالى مِن بَعْضِها لبَعضٍ، وإذا البِحارُ أُوقِدَت فصارت نارًا تَضْطَرِمُ، وإذا قُرِنَ كُلُّ واحِدٍ بمَن هو مِثْلُه في الخَيرِ والشَّرِّ، وإذا البِنتُ الَّتي دُفِنَت في التُّرابِ حَيَّةً قد سُئِلَت عن الذَّنْبِ الَّذي استحَقَّتْ به القَتْلَ، وإذا صُحُفُ أعمالِ النَّاسِ عُرِضَت ونُشِرَت للحِسابِ، وإذا السَّماءُ نُزِعَت مِن مَكانِها وقُلِعَت، وإذا أُوقِدَت النَّارُ لأعداءِ اللهِ إيقادًا شديدًا، وقُرِّبَت الجنَّةُ وأُدْنِيَت لأهلِها المتَّقينَ المؤمِنينَ لِيَدخُلوها؛ إذا وَقَعَت تلك الأُمورُ المَهُولةُ المُفزِعةُ عَلِمَت وتيَقَّنَت كُلُّ نَفْسٍ ما أحضَرَتْه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ كان منها في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾.

أي: إذا لُفَّت الشَّمسُ وجُمِعَت، وطُوِيَ بَعْضُها على بَعضٍ؛ فذَهَب ضَوؤُها[1].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الشَّمسُ والقَمَرُ مُكَوَّرانِ[2] .....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٩).

(٢) مُكَوَّرانِ: أي: مَطويَّانِ، ذاهِبا الضَّوءِ. وقيل: يُلَفَّانِ ويُجْمَعانِ، ويُلْقَيانِ في النَّارِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ٢٠٨)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ١٢٠).
قال القَسْطَلَّاني: (لأنَّهما عُبِدا مِن دونِ الله، وليسَ المرادُ مِن تكويرِهما فيها تعذيبَهما بذلك، لكنَّه زيادةُ تَبكيتٍ لِمَن كان يَعبُدُهما في الدُّنيا؛ لِيَعْلَموا أنَّ عبادتَهم لهما كانتْ باطِلةً). ((إرشاد الساري)) (٥/ ٢٥٩).

يومَ القيامةِ))[١].

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّأثيرُ في الأعظَمِ دالًّا على التَّأثيرِ فيما دُونَه بطَريقِ الأَوْلى؛ أَتْبَعَ ذلك قَوْلَه مُعَمِّمًا بعدَ التَّخصيصِ[٢]:

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢﴾.

أي: وإذا النُّجومُ تهاوَتْ وتَساقَطَت مِن مَواضِعِها وتناثَرَت[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: تناثَرَتْ وتساقطَتْ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي، والرازي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والنسفي، وابن جُزَي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٣)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، ومُجاهِدٌ، والرَّبيعُ بنُ خُثَيْمٍ، والحسَنُ البصريُّ، وأبو صالحٍ، وحمَّادُ بنُ أبي سُلَيْمانَ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) =

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بدأ بأعلامِ السَّماءِ لأنَّها أشهَرُ وأعَمُّ تَخويفًا وإرهابًا، وذكَرَ منها اثنَينِ هما أشهَرُ ما فيها وأعَمُّها نَفْعًا؛ أتْبَعَها أعلامَ الأرضِ، فقال مُكَرِّرًا للظَّرفِ؛ لِمَزيدِ الاعتناءِ بالتَّهويلِ[1]:

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾.

أي: وإذا الجِبالُ سُيِّرَت عن وَجْهِ الأرضِ بَعْدَ قَلْعِها مِن أماكِنِها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر أعلامَ الجَمادِ؛ أتْبَعَه أعلامَ الحَيوانِ النَّافِعِ الَّذي هو أعَزُّ أموالِ العَرَبِ

= لمكي (١٢/ ٨٠٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٠).

قال القرطبي: (وعن ابنِ عبَّاسٍ أيضًا: ﴿ٱنكَدَرَتْ﴾: تغيَّرَتْ، فلم يَبْقَ لها ضَوءٌ؛ لِزَوالِها عن أماكِنِها. والمعنى مُتقارِبٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٨). ويُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٧٥).

وجمع السعديُّ بيْن المعنيَيْنِ السَّابقَينِ، فقال: (﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي: تغيَّرَتْ، وتساقطَتْ مِن أفلاكِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

وأغلَبُها- على وَجهٍ دَلَّ على عِظَمِ الهَولِ؛ فقال[١]:

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾.

أي: وإذا النُّوقُ الحوامِلُ الَّتي قد مَرَّ على حَمْلِها عَشَرةُ أشهُرٍ قد تَرَكها أصحابُها، وانشغَلوا عنها مع شِدَّةِ نَفاستِها لَدَيهم؛ من شِدَّةِ أهوالِ ذلك اليَومِ[٢].

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾.

أي: وإذا الحَيواناتُ البَرِّيَّةُ الَّتي لا تَأنَسُ بأحَدٍ قد بعَثَها اللهُ فجُمِعَت يومَ القيامةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لَتُؤَدَّنَّ الحُقوقُ[٤] إلى أهلِها يومَ القيامةِ، حتَّى يُقادَ للشَّاةِ الجَلْحاءِ مِن الشَّاةِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٠، ٣٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

قال البِقاعي: (وهي أحَبُّ أموالِ العَرَبِ إليهم، وأنفَسُها عِندَهم؛ لأنَّها تَجمَعُ اللَّحْمَ والظَّهْرَ، واللَّبَنَ والوَبَرَ... ولا يزالُ ذلك اسمَها حتَّى تَضَع لتَمامِ السَّنَةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

قال السعدي: (جُمِعَت ليومِ القيامةِ؛ لِيَقتَصَّ اللهُ مِن بَعْضِها لبَعضٍ، ويرى العبادُ كَمالَ عَدْلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢).

(٤) لَتُؤَدَّنَّ: بفتحِ الدَّالِّ المُشَدَّدةِ، وفي بعضِ النُّسخ بضَمِّها؛ فقولُه: (الحُقوقُ): بالرَّفع على الأوَّلِ، =

القَرْناءِ[١]))[٢].

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾.

أي: وإذا البِحارُ صارَتْ بحرًا واحدًا، ومُلِئَت، وأُوقِدَت نارًا[٣].

= وبالنَّصبِ على الثَّاني. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) للقاري (٨/ ٣٢٠٢).

(١) الجَلْحاء هي التي لا قرنَ لها. والقَرْناء: هي الَّتي لها قَرْنٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٣٧)، ((شرح المصابيح)) لابن المَلَك (٥/ ٣٦١).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٩، ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

وممَّن قال بأنَّ المعنى: أُوقِدَتْ: الواحديُّ، وذهب ابنُ القَيِّم إلى أنَّه أقوى الأقوالِ، واختاره السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٩، ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وأُبَيُّ بنُ كعبٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زَيدٍ، ومُجاهِدٌ، والحسَنُ بنُ مسلمٍ، وشِمْرُ بنُ عطيَّةَ، وسُفْيانُ، ووَهْبٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٧)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢).

وقيل: معنى: ﴿سُجِّرَتْ﴾ امتلأت بالماءِ حتَّى فاضَت به. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الرَّبيعُ بنُ خُثَيْمٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ: تَجاوُزُ مِياهِها مُعَدَّلَ سُطوحِها، واختلاطُ بَعضِها ببَعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٣).

ومنهم مَن جمَع بيْنَ تلك المعاني، كالبقاعي، فقال: (فُجِّرَ بَعْضُها إلى بعضٍ حتَّى صارت بحرًا واحدًا، ومُلِئَت حتَّى كان ما فيها أكثَرَ منها، وأُحمِيَت حتَّى كان كالتَّنُّورِ التِهابًا وتَسَعُّرًا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٧٨). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ [الطور: ٦].

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧﴾.

أي: وإذا النَّاسُ قد قُرِنَ كُلُّ واحِدٍ مِنهم بمَن هو مِثْلُه في الخَيرِ والشَّرِّ(١).

= (١٩/ ٢٣٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٩، ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧١).

قال ابنُ جُزَي: (﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّ التَّزويجَ بمعنى التَّنويعِ؛ لأنَّ الأزواجَ هي الأنواعُ، فالمعنى: جَعْلُ الكافِرِ مع الكافِرِ، والمؤمنِ مع المؤمنِ.

والثَّاني: زُوِّجَت نُفوسُ المؤمِنينَ بزَوجاتِهم مِنَ الحُورِ العِينِ.

والثَّالثُ: زُوِّجَت الأرواحُ والأجسادُ، أي: رُدَّت إليها عندَ البعثِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والزمخشري، وابن عطية، والرَّسْعَني، وابنُ جُزَي، وابن القيِّم -ونسَبَه للأكثَرينَ-، وابنُ كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٥، ٤٥٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّابِ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والرَّبيعُ بنُ خُثَيْمٍ، والحسَنُ في روايةٍ عنه، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وأنَّ المعنى: زُوِّجَتْ أنفُسُ المؤمِنينَ مع الحُورِ العِينِ، وزُوِّجَت أنفُسُ الكافِرينَ مع الشَّياطينِ، يعني: يُقرَنُ ابنُ آدَمَ وشيطانه في السِّلسلةِ الواحدةِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠١). =

كما قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩﴾.

أي: وإذا البِنتُ الَّتي دُفِنَت في التُّرابِ حَيَّةً قد سُئِلَت عن الذَّنْبِ الَّذي استحَقَّتْ به القَتْلَ[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٞ * يَتَوَٰرَىٰ

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعَطاءٌ، والكلبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٦).

قال ابن القيِّم: (وهو راجعٌ إلى القولِ الأوَّلِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٣١).

وممَّن اختار القولَ الثَّالثَ وأنَّ المعنى: قُرِنَتْ بأجسادِها: جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٩١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو العاليةِ، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والشَّعبيُّ، والحسَنُ البصريُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢).

وجمَع السعديُّ بيْن القولِ الأوَّلِ والثَّاني، فقال: (﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ أي: قُرِنَ كُلُّ صاحِبِ عَمَلٍ مع نَظيرِه، فجُمِعَ الأبرارُ مع الأبرارِ، والفُجَّارُ مع الفُجَّارِ، وزُوِّج المؤمنونَ بالحُورِ العِينِ، والكافِرونَ بالشَّياطينِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢).

وممَّن جمَع أيضًا بيْن المعاني السَّابقةِ: البِقاعي، فقال: (﴿زُوِّجَتۡ﴾ أي: قُرِنَتْ بأبدانِها، وجُمِع كلٌّ مِن الخَلقِ إلى ما كانت نفْسُه تألَفُه وتَنزِعُ إليه، فكانوا أصنافًا، كما قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٧٩).

وقال ابن عاشور بعدَ أن جوَّز المعنى الأوَّلَ والثَّالثَ: (ولعلَّ قَصْدَ إفادةِ هذا التَّركيبِ لهذيْنِ المعنيَيْنِ هو مُقتضَى العُدولِ عن ذِكْرِ ما زُوِّجَتِ النُّفوسُ به. وأوَّلُ منازِلِ البعثِ اقْترانُ الأرواحِ بأجْسادِها، ثُمَّ تقسيمُ النَّاسِ إلى مَراتِبِهم للحشرِ). ((تفسير بن عاشور)) (٣٠/ ١٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٢-٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٩، ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧١).

مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ ﴾.

أي: وإذا صُحُفُ أعمالِ النَّاسِ الَّتي طُوِيَت بعدَ مَوتِهم قد فُتِحَت لهم، فيَطَّلِعُ كُلُّ أحَدٍ فيها على عَمَلِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [الحاقة: ١٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٥].

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ ﴾.

أي: وإذا السَّماءُ نُزِعَت مِن مَكانِها، وجُذِبتْ، وقُلِعَت بقُوَّةٍ وسُرعةٍ، وأُزِيلَتْ[2].

﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ ﴾.

أي: وإذا النَّارُ الشَّديدةُ التَّأجُّجِ قد أُحمِيَت لأهْلِها، واشتَدَّ توَقُّدُها ولَهيبُها[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، =

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر دارَ الأعداءِ البُعَداءِ تَرهيبًا؛ أَتْبَعَه دارَ المقَرَّبينَ السُّعَداءِ تَرغيبًا، فقال[١]:

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾.

أي: وإذا الجَنَّةُ قد قُرِّبَت وأُدنِيَت لأهْلِها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى هذه الأُمورَ الاثنَيْ عَشَرَ؛ ذَكَر الجزاءَ المرَتَّبَ على الشَّرطِ الَّذي هو مجموعُ هذه الأشياءِ، فقال[٣]:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

أي: إذا وَقَعَت تلك الأُمورُ المَهُولةُ المُفزِعةُ عَلِمَت وتيَقَّنَت حينَئِذٍ كُلُّ نَفْسٍ ما أحضَرَتْه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ عَمِلَتْه في الدُّنيا[٤].

= ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠).

قال ابنُ عاشور: (جُعِلَت بقُربٍ مِن مَحْشَرِهم، بحيث لا تَعَبَ عليهم في الوُصولِ إليها؛ وذلك كرامةً لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ إعلامٌ بخَرابِ عالَمِ المُلْكِ والشَّهادةِ؛ تزهيدًا في كُلِّ ما يَجُرُّ إليه، وحَثًّا على عدَمِ المبالاةِ، والابتعادِ مِن التَّعَلُّقِ بشَيءٍ مِن أسبابِه[(١)].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ...﴾ هذه الأوصافُ الَّتي وَصَفَ اللهُ بها يومَ القيامةِ مِنَ الأوصافِ الَّتي تنزَعِجُ لها القُلوبُ، وتشتَدُّ مِن أَجْلِها الكُروبُ، وترتَعِدُ الفرائِصُ، وتَعُمُّ المَخاوِفُ، وتَحُثُّ أُولي الألبابِ للاستِعدادِ لذلك اليومِ، وتَزجُرُهم عن كُلِّ ما يُوجِبُ اللَّومَ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ ترغيبٌ في الأعمالِ الصَّالِحةِ والقُرَناءِ الصَّالِحينَ؛ لئلَّا يُزَوَّجَ بما يَسوءُه[(٣)]!

٤- قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ يُؤخَذُ مِن سُؤالِ المَوْؤُودةِ

= عطية)) (٥/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠، ١٥١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٩).

تحريمُ الظُّلمِ لكُلِّ أحدٍ، وكَفُّ اليَدِ واللِّسانِ عن كُلِّ إنسانٍ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ سُؤالٌ: كيف الجَمعُ بيْن هذه الآيةِ الكريمةِ والحَديثِ الَّذي فيه ((أنَّ الشَّمسَ تَدنو مِن الخلائقِ يومَ القيامةِ))[٢]؟

الجوابُ: أنَّه وَرَدَ في يومِ القيامةِ أشياءُ مُتغايرةٌ، ولكنَّ يومَ القيامةِ مِقْدارُه خمسونَ ألْفَ سَنَةٍ، فتتغيَّرُ فيها الأمورُ؛ تَدنو الشَّمسُ مِن الخلائقِ، وتُكَوَّرُ بعدَ ذلك، وكذلك أيضًا تُلْقَى في النَّارِ إهانةً لعابِديها، فيَومُ القيامةِ ليس يومًا أو شهرًا أو سَنَةً، وانظرْ إلى قَولِ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقولِه: ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ [طه: ١٠٢]، واختلافٌ بيْن الزُّرْقةِ والسَّوادِ، كذلك أيضًا أخْبَر عن المشركينَ أنَّهم يقولونَ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وفي آيةٍ أخرى قال: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤٢]، فَهُم في الأوَّلِ قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] في الآيةِ الأُولى، وفي الثَّانيةِ قال: ﴿لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤٢]؛ لأنَّ الحوادثَ تتغيَّرُ، فكلُّ ما أتاك مِن اختلافاتٍ في اليومِ الآخِرِ فإنَّما ذلك لطُولِ مُدَّتِه، وتَغَيُّرِ الأحوالِ فيه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ سُؤالٌ: أنَّه إذا أُنْشِرَ الموتى للبَعثِ والحِسابِ، وزُوِّجَتِ النُّفوسُ بقُرَنائِها بالثَّوابِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاريُّ (٣٣٤٠)، ومسلمٌ (١٩٤) من حديث أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((دروس الحرم المدني)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٦).

والعِقابِ؛ فلِمَ يحصُلُ هَدْمُ الأبنيةِ، وسَيْرُ الجبالِ، ودَكُّ الأرضِ، وفَطْرُ السَّماءِ، ونَثْرُ النُّجومِ، وتكويرُ الشَّمسِ؟!

الجوابُ: أنَّه إنَّما بُنِيَتْ لهم الدَّارُ للسُّكنى والتَّمَتُّعِ، وجَعَلَها سُبحانَه وجَعَلَ ما فيها للاعتِبارِ والتَّفَكُّرِ، والاستِدلالِ عليه بحُسْنِ التَّأمُّلِ والتَّذَكُّرِ، فلمَّا انقَضَتْ مدةُ السُّكنى، وأَجْلَاهم مِن الدَّارِ؛ خَرَّبَها لانتِقالِ السَّاكنِ منها، وفي إحالةِ الأحوالِ وإظهارِ تلك الأهوالِ بيانُ المقدرةِ بعدَ بيانِ العِزَّةِ، وتكذيبٌ لأهلِ الإلحادِ وزنادقةِ المنجِّمينَ وعُبَّادِ الكواكِبِ والشَّمسِ والقَمَرِ والأوثانِ، فيَعْلَمُ الَّذين كفروا أنَّهم كانوا كاذِبينَ، فإذا رأَوا آلهتَهم قد انهَدَمتْ، وأنَّ معبوداتِهم قد انتَثَرتْ وانفَطَرتْ، ومَحالَّها قد تشَقَّقتْ؛ ظهرتْ فضائِحُهم، وتَبَيَّنَ كَذِبُهم، وظَهَرَ أنَّ العالَمَ مَربوبٌ مُحْدَثٌ مُدَبَّرٌ، له ربٌّ يُصَرِّفُه كيف يشاءُ؛ تكذيبًا لملاحِدةِ الفلاسِفةِ القائِلينَ بالقِدَمِ، فكم للهِ تعالى مِن حِكمةٍ في هَدمِ هذه الدَّارِ! ودَلالةٍ على عِظَمِ عِزَّتِه وقُدرتِه وسُلطانِه، وانفرادِه بالرُّبوبيَّةِ، وانقيادِ المخلوقاتِ بأَسْرِها لقَهْرِه، وإذعانِها لمشيئَتِه. فتبارَكَ اللهُ ربُّ العالَمينَ[1]!

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ الغَرَضُ مِن ذِكرِ هذه القِصَّةِ هاهنا وُجوهٌ:

أحَدُها: أنَّه تعالى إذا كان يومُ القيامةِ يَحشُرُ كُلَّ الحيواناتِ؛ إظهارًا للعَدْلِ، فكيف يجوزُ مع هذا ألَّا يَحشُرَ المكَلَّفينَ مِنَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

الثَّاني: أنَّها تجتَمِعُ في مَوقِفِ القيامةِ مع شِدَّةِ نفْرتِها عن النَّاسِ في الدُّنيا، وتَبَدُّدِها في الصَّحاري؛ فدَلَّ هذا على أنَّ اجتِماعَها إلى النَّاس ليس إلَّا مِن هَولِ ذلك اليَومِ.

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٨٢)، والجواب نقله عن أبي الوفاء ابنِ عَقِيل.

والثَّالثُ: أنَّ هذه الحيواناتِ بَعضُها غِذاءٌ للبَعضِ، ثمَّ إنَّها في ذلك اليومِ تَجتَمِعُ، ولا يتعَرَّضُ بَعضُها لبعضٍ، وما ذاك إلَّا لشِدَّةِ هَولِ ذلك اليَومِ[١].

٤- اللهُ سُبحانَه وتعالى يَحكُمُ في الأُمورِ المتماثِلةِ بأحكامٍ مُتماثِلةٍ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ قَرَن النَّظيرَ بنَظيرِه، وقال: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٌ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ [القمر: ٤٣]، وقال: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: أشباهَهم ونُظَراءَهم[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ أنَّه يُقْرَنُ كلُّ صاحِبِ عَمَلٍ بشَكْلِه وَنظيرِه، فقُرِنَ بيْن المتحابِّينَ في اللهِ في الجَنَّةِ، وقُرِنَ بيْن المتحابِّينَ في طاعةِ الشَّيطانِ في الجَحيمِ؛ فالمرءُ مع مَن أَحَبَّ، شاء أو أَبَى[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ﴾ سُؤالٌ: ما معنى سُؤالِ المَوؤودةِ عن ذَنْبِها الَّذي قُتِلَت به؟ وهلَّا سُئِلَ الوائِدُ عن مُوجِبِ قَتْلِه لها؟!

الجوابُ: سُؤالُها وجوابُها تَبكيتٌ لقاتِلِها، وهو كتَبكيتِ النَّصارى في قَولِه لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦][٤]! ونظيرُ ذلك لو أنَّ شخصًا اعتدى على آخَرَ في الدُّنيا، فأَتَوا إلى السُّلطانِ أو الأميرِ، فقال للمظلومِ: بأيِّ ذَنْبٍ ضرَبَك هذا الرَّجُلُ؟ وهو يَعرِفُ أنَّه مُعتدًى عليه؛ ليس له ذنْبٌ، لكنْ مِن أجْلِ التَّوبيخِ للظَّالِمِ، فالمَوؤدةُ تُسْأَلُ: بأيِّ ذنْبٍ قُتِلَتْ؟ توبيخًا لظالِمِها وقاتِلِها ودافِنِها[٥]،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٢).

ولإدْخالِ الرَّوعِ على مَن وَأَدَها، وليَكونَ جَوابُها شَهادةً على مَن وَأَدَها؛ فيَكونَ استِحقاقُه العِقابَ أشَدَّ وأَظهَرَ[١]، أو تَوجيهُ السُّؤالِ إليْها لتَسليتِها، وإظهارِ كَمالِ الغَيظِ والسَّخَطِ لوائِدِها، وإسقاطِه عن دَرجةِ الخِطابِ، والمُبالَغةِ في تَبكيتِه[٢]؛ فيومَ القيامةِ تُسألُ الموءودةُ على أيِّ ذنْبٍ قُتِلَتْ؛ لِيَكونَ ذلك تهديدًا لقاتِلِها، فإذا سُئل المظلومُ فما ظَنُّ الظَّالِمِ إذَن[٣]؟!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ سؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ مع الآياتِ الَّتي تَنْفي السُّؤالَ يومَ القيامةِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]؟

الجوابُ: أنَّ سُؤالَ المَوْؤودةِ لا يُعارِضُ الآياتِ النَّافيةَ السُّؤالَ عن الذَّنْبِ؛ لأنَّها سُئِلَت عن أيِّ ذَنبٍ قُتِلَت، وهذا ليس من ذَنْبِها، والمرادُ بسُؤالِها توبيخُ قاتِلِها وتقريعُه؛ لأنَّها هي تقولُ: لا ذَنْبَ لي! فيَرجِعُ اللَّومُ على مَن قَتَلَها ظُلْمًا[٤].

٨- إسقاطُ الحَمْلِ حَرامٌ، قال بعضُ العُلماءِ: وهو مِن الوَأْدِ الَّذي قال اللهُ تعالى فيه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٣).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٧/ ٥٠٤).

(٥) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ٤٠٠).

وهذا مذهبُ المالكيَّةِ: أنَّه لا يجوزُ إسقاطُه ولو قبْلَ الأرْبَعينَ يومًا. يُنظر: ((الشرح الكبير وحاشية الدسوقي)) (٢/ ٢٦٦).

وذهَب الجُمهورُ مِن الحَنَفيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنابلةِ إلى أنَّه يجوزُ إسقاطُ الجَنينِ قبْلَ نَفخِ =

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ دَليلٌ على أنَّه لا يجوزُ قَتْلُ النَّفْسِ إلَّا بذَنْبٍ منها، فلا يجوزُ قَتْلُ الصَّبيِّ والمجنونِ؛ لأنَّ القَلَمَ مرفوعٌ عنهما، فلا ذَنْبَ لهما، وهذه العِلَّةُ لا يَنبغي أنْ يُشَكَّ فيها في النَّهي عن قَتلِ صِبيانِ أهلِ الحَرْبِ، وأمَّا العِلَّةُ المشترَكةُ بيْنَهم وبيْن النِّساءِ فكَونُهم ليسوا مِن أهلِ القِتالِ -على الصَّحيحِ الَّذي هو قولُ الجُمهورِ-، أو كونُهم يَصيرون للمُسلِمينَ، فأمَّا التَّعليلُ بهذا وَحْدَه في الصَّبيِّ فلا، والآيةُ تَقتضي ذَمَّ قَتْلِ كلِّ مَن لا ذَنْبَ له مِن صغيرٍ وكبيرٍ[(١)].

١٠- قال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، والمعنى: حُصولُ اليَقينِ بما لم يَكُنْ لها به عِلمٌ مِن حَقائقِ الأعْمالِ الَّتي كان عِلمُها بها أشتاتًا؛ بَعضُه مَعلومٌ على غَيرِ وَجْهِه، وبَعضُه مَعلومٌ صُورتُه مَجهولةٌ عَواقِبُه، وبَعضُه مَغفولٌ عنه؛ فنُزِّلَ العِلمُ الَّذي كان حاصِلًا للنَّاسِ في الحَياةِ الدُّنيا مَنزِلةَ عَدَمِ العِلمِ، وأُثبِتَ العِلمُ لهم في ذلك اليَومِ؛ عِلمُ أعْمالِهم مِن خَيرٍ أو شرٍّ، فيَعلَمُ ما لم يَكُنْ له به عِلمٌ ممَّا يَحْقِرُه مِن أعمالِه، ويَتذكَّرُ ما كان قد عَلِمَه مِن قبْلُ، وتَذَكُّرُ المَنسيِّ والمَغفولِ عنه نَوعٌ مِن العِلمِ[(٢)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ سُؤالٌ: أنَّ كُلَّ نفْسٍ تَعلَمُ ما

= الرُّوحِ فيه. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٣/ ١٧٦)، ((الغرر البهية)) لزكريا الأنصاري (٥/ ٣٣١)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (١/ ١٢١).

قال ابنُ باز: (إسقاطُ الجنينِ فيه تفصيلٌ؛ فإذا كان في الأربعينَ الأُولى فالأمرُ فيه أوسَعُ، ولا يَنبغي إسقاطُه، لكنْ إذا اقتَضَت المصلحةُ الشَّرعيَّةُ إسقاطَه لِمَضَرَّةٍ على الأمِّ، أو لهذا السَّبَبِ الَّذي قرَّره الأطبَّاءُ أنَّه قد يَتشوَّهُ بأسبابٍ فعَلَتْها الأمُّ: فلا حرَجَ في ذلك). ((فتاوى نور على الدرب)) (٢١/ ٤٣٠).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥١).

أحضَرَت؛ لِقَولِه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، فما معنى قَولِه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ هذا هو مِن عَكسِ كَلامِهم الَّذي يَقصِدونَ به الإفراطَ -وإن كان اللَّفظُ مَوضوعًا للقَليلِ-، ومنه قَولُه تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الحجر: ٢]، وكمَن يَسألُ فاضِلًا مسألةً ظاهِرةً، ويقولُ: هل عندَك فيها شَيءٌ؟ فيقولُ: «رُبَّما حَضَر شَيءٌ»، وغَرَضُه الإشارةُ إلى أنَّ عِندَه في تلك المسألةِ ما لا يقولُ به غيرُه؛ فكذا هاهنا.

الوَجهُ الثَّاني: لعَلَّ الكُفَّارَ كانوا يُتعِبونَ أنفُسَهم في الأشياءِ الَّتي يَعتَقِدونَها طاعاتٍ، ثمَّ بدا لهم يومَ القيامةِ خِلافُ ذلك، فهو المرادُ مِن هذه الآيةِ[(١)]. والتَّنوينُ في ﴿نَفْسٌ﴾ إذَنْ للنَّوعِ، أي: عَلِمَت نفْسٌ كافِرةٌ أنَّ ما حَسِبَته طاعةً كان وَبالًا عليها[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ الافتِتاحُ بحَرفِ (إذَا) افتِتاحٌ مُشوِّقٌ؛ لأنَّ (إذَا) ظَرْفٌ يَستَدعي مُتعلَّقًا، ولأنَّه أيضًا شَرطٌ يُؤذِنُ بذِكرِ جَوابٍ بعْدَه، فإذا سَمِعَه السَّامعُ تَرقَّبَ ما سيأتي بعدَه، فعندَما يَسمَعُه يَتمكَّنُ مِن نَفْسِه كَمالَ تَمكُّنٍ، وخاصَّةً بالإطْنابِ بتَكريرِ كَلِمةِ (إذَا)،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٩).
ويُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣١٣).

وتَعدُّدِ الجُملِ الَّتي أُضيفَ إليها اثنَتَيْ عَشْرةَ مرَّةً، فإعادةُ كَلِمةِ (إِذَا) بعدَ (واو) العَطفِ في هذه الجُمَلِ المُتعاطِفةِ إطْنابٌ، وهذا الإطْنابُ اقْتَضاه قَصدُ التَّهويلِ، والتَّهويلُ مِن مُقْتَضَياتِ الإطْنابِ والتَّكريرِ[١].

- وفي إعادةِ (إِذَا) إشارةٌ إلى أنَّ مَضمونَ كُلِّ جُملةٍ مِن هذه الجُمَلِ الثِّنتَيْ عَشْرةَ مُستقِلٌّ بحُصولِ مَضمونِ جُملةِ الجَوابِ عندَ حُصولِه، بقَطْعِ النَّظرِ عن تَفاوُتِ زَمانِ حُصولِ الشُّروطِ؛ فإنَّ زَمنَ سُؤالِ المَوْءُودةِ، ونَشرِ الصُّحُفِ أقْرَبُ لعِلمِ النُّفوسِ بما أَحضرَتْ، أقْرَبُ مِن زَمانِ تَكويرِ الشَّمسِ وما عُطِفَ عليه ممَّا يَحصُلُ قبْلَ البَعثِ[٢].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليْه في الجُمَلِ الثِّنتَيْ عَشْرةَ المُفتتَحاتِ بكَلِمةِ (إِذَا) مِن قولِه: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾، والإخبارُ عنه بالمُسنَدِ الفِعليِّ، مع إمكانِ أنْ يُقالَ: إذا كُوِّرَتِ الشَّمسُ، وإذا انكَدرَتِ النُّجومُ... وهكذا؛ لإفادةِ الاهتِمامِ بتلك الأخبارِ المَجْعولةِ عَلاماتٍ ليَومِ البَعثِ؛ تَوسُّلًا بالاهتِمامِ بأشْراطِه إلى الاهتِمامِ به وتَحقيقِ وُقوعِه؛ لأنَّ الابْتداءَ بها أَدخَلُ في التَّهويلِ والتَّشويقِ، وليُفيدَ ذلك التَّقديمُ على المُسنَدِ الفِعليِّ تَقَوِّيَ الحُكمِ وتأكيدَه في جَميعِ تلك الجُملِ؛ رَدًّا على إنْكارِ مُنكِريه؛ فلذلك قيلَ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، ولم يُقَلْ: إذا كُوِّرَتِ الشَّمسُ، وهكذا نَظائِرُه[٣].

- وصِيغةُ الماضي في الجُملِ الثِّنتَيْ عَشْرةَ الواردةِ شُروطًا لأداةِ الشَّرطِ (إذا) مُستَعمَلةٌ في مَعنى الاستِقبالِ؛ تَنبيهًا على تَحقُّقِ وُقوعِ الشَّرطِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٤٠، ١٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٤١، ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٤١).

- وفي قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَ هُنا: ﴿سُجِّرَتْ﴾ -أي: أُوقِدَتْ فَصارَتْ نارًا، أو مُلِئَتْ بتَفجيرِ بَعضِها إلى بَعضٍ حتَّى تَعودَ بَحرًا واحِدًا، مِن: (سَجَرَ التَّنُّورَ): إذا مَلأَه بالحَطَبِ ليُحمِيَه، وقالَ في (الانفِطارِ): ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣]: أي: سالَتْ مِياهُها على الأرضِ، فَصارَتْ بَحرًا واحِدًا، واختَلطَ العَذبُ بالمِلحِ-؛ مُوافَقةً في الأوَّلِ لقولِه بعدَه: ﴿سُعِّرَتْ﴾؛ ليَقَعَ الوَعيدُ بتَسجيرِ البِحارِ، وتَسعيرِ النَّارِ. وفي الثَّاني لقولِه: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، أي: تَساقَطَتْ على الأرضِ[١]، فهذه الآيةُ مُناسِبةٌ لبقيَّةِ الآياتِ؛ لأنَّ معناه: تغييرُ أوصافِ تلك الأشياءِ عن حالاتِها، وتنقلِها عن أماكِنِها، فناسَبَ ذلك انفجارُ البحارِ؛ لتغيُّرِها عن حالِها مع بقائِها[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ بمُناسَبةِ ذِكرِ تَزويجِ النُّفوسِ بالأجسادِ - على قولٍ في معنى التَّزويجِ- خُصَّ سُؤالُ المَوءُودةِ بالذِّكرِ دونَ غَيرِه ممَّا يُسألُ عنه المُجرِمون يَومَ الحِسابِ؛ ذلك لأنَّ إعادةَ الأرواحِ إلى الأجسادِ كان بعْدَ مُفارَقَتِها بالمَوتِ، والمَوتُ إمَّا بِعارِضٍ جَسَديٍّ مِن انحِلالٍ أو مَرَضٍ، وإمَّا باعتِداءٍ عُدوانيٍّ مِن قَتلٍ أو قِتالٍ، وكان مِن أفظَعِ الاعتِداءِ على إزهاقِ الأرواحِ مِن أجسادِها اعتِداءُ الآباءِ على نُفوسِ أطفالِهم بالوَأْدِ؛ فإنَّ اللهَ جَعَلَ في الفِطرةِ حِرصَ الآباءِ على استِحياءِ -أي: طلَبِ حَياةِ- أبنائِهم، وجَعَلَ الأبَوَينِ سَببَ إيجادِ الأبناءِ؛ فالوَأْدُ أفظَعُ أعْمالِ أهلِ الشِّركِ. وسُؤالُ المَوْءودةِ سُؤالٌ تَعريضيٌّ مُرادٌ منه تَهديدُ وائِدِها ورُعْبُه بالعَذابِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) لابن جماعة (ص: ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٤).

- وأيضًا الاستِفهامُ في ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ﴾ تَقريريٌّ، وإنَّما سُئِلَتْ عن تَعيينِ الذَّنْبِ المُوجِبِ قَتْلَها، دُون أنْ تُسألَ عن قاتِلِها؛ لزِيادةِ التَّهديدِ؛ لأنَّ السُّؤالَ عن تَعيينِ الذَّنْبِ مَع تَحقُّقِ الوائِدِ الَّذي يَسمَعُ ذلك السُّؤالَ أنْ لا ذَنْبَ لها، إشعارٌ للوائِدِ بأنَّه غَيرُ مَعذورٍ فيما صَنَعَ بها[١].

- قولُه: ﴿قُتِلَتۡ﴾ قُرِئَ بتَشديدِ التَّاءِ[٢]؛ لأنَّ الموءودةَ اسمُ جِنسٍ، فناسَبَ التَّكثيرُ باعتبارِ الأشخاصِ[٣]، أو تُفيدُ مَعنى: أنَّه قَتلٌ شَديدٌ فَظيعٌ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾

- قولُه: ﴿نُشِرَتۡ﴾ قُرِئَ بالتَّشديدِ[٥]؛ للمُبالَغةِ في النَّشرِ، أو لكَثرةِ الصُّحُفِ المنْشورةِ، أو شِدَّةِ التَّطايُرِ[٦].

- قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾، أي: هذا الجِنسُ كلُّه؛ أفْردَه لأنَّه يُعلَمُ بالقُدرةِ على بعضِه القُدرةُ على الباقِي[٧].

و﴿كُشِطَتۡ﴾، أي: قُلعتْ بقُوَّةٍ عظيمةٍ وسُرعةٍ زائدةٍ، وأُزيلتْ عن مَكانِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٦).

(٢) قرأ أبو جعفرٍ بتشديدِ التَّاءِ، وقرأ الباقونَ بتخفيفِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٩).

(٥) قرأها نافعٌ وأبو جَعْفرٍ، وابنُ عامرٍ، ويعقوبُ، وعاصِمٌ بتخفيفِ الشِّينِ، وقرَأها الباقونَ بتَشديدِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٩).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١).

الَّتي هي ساترةٌ له محيطةٌ به، أو عن الهواءِ المحيطِ بسَطْحِها الَّذي هو كالرُّوحِ لها، كما يُكشَطُ الإهابُ عمَّا هو ساترٌ له ومحيطٌ به مع شِدَّةِ الالتزاقِ به؛ لأنَّ ذلك يومُ الكشفِ والإظهارِ. والكشطُ: إزالةُ الإهابِ عن الحيوانِ الميِّتِ، وهو أعمُّ مِن السَّلخِ، والظَّاهرُ أنَّ السَّماءَ تَبقَى مُنشقَّةً مُنفطِرةً تَعرُجُ الملائكةُ بيْنَهما وبيْنَ أرضِ المحشرِ حتَّى يتِمَّ الحسابُ، فإذا قُضِيَ الحسابُ أُزيلتِ السَّماءُ مِن مكانِها؛ فالسَّماءُ مَكشوطةٌ، والمكشوطُ عنه هو عالَمُ الخُلودِ، ويكون ﴿كُشِطَتۡ﴾ مُعبَّرًا بها عن الإزالةِ[(١)].

- قولُه: ﴿سُعِّرَتۡ﴾ بتَشْديدِ العَينِ مُبالَغةً في الإسعارِ، أي: أُوقِدَت إيقادًا شديدًا[(٢)].

- قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾، أي: قُرِّبتْ مِن المؤمِنينَ، ونُعِّمتْ ببَردِ العَيشِ وطِيبِ المستقَرِّ، والآيةُ مِن الاحتباكِ[(٣)]: ذِكْرُ التَّسعيرِ أوَّلًا دالٌّ على ضِدِّه في الجَنَّةِ ثانيًا، وذِكرُ التَّقريبِ ثانيًا دالٌّ على مِثلِه أولًا[(٤)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ هو جَوابُ (إذَا)، على أنَّ المرادَ بها: زَمانٌ واحِدٌ مُمتَدٌّ يَسَعُ الأمورَ المذكورةَ، لكنْ لا بمَعنى أنَّها تَعلَمُ ما تَعلَمُ في كُلِّ جُزءٍ مِن أجزاءِ ذلك الوَقتِ المَديدِ، أو عِندَ وُقوعِ داهِيةٍ مِن تلك الدَّواهي، بل عندَ نَشْرِ الصُّحُفِ، إلَّا أنَّه لَمَّا كان بَعضُ تلك الدَّواهي مِن مَباديهِ وبعضُها مِن رَوادفِه نُسِبَ عِلمُها بذلك إلى زَمانِ وَقْعِ كُلِّها؛ تَهويلًا للخَطْبِ، وتَفظيعًا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١).

للحالِ[١]. وجُعِلَتْ مَعرفةُ النُّفوسِ لجَزاءِ أعْمالِها حاصِلةً عندَ حُصولِ مَجموعِ الشُّروطِ الَّتي ذُكِرَتْ في الجُمَلِ الثِّنتَيْ عَشْرةَ؛ لأنَّ بعضَ الأحوالِ الَّتي تَضمَّنَتْها الشُّروطُ مُقارِنٌ لِحُصولِ عِلمِ النُّفوسِ بأعمالِها، وهي الأحوالُ السِّتَّةُ المَذكورةُ أخيرًا، وبَعضُ الأحوالِ حاصِلٌ مِن قبْلُ بقَليلٍ، وهي الأحوالُ السِّتَّةُ المَذكورةُ أوَّلًا؛ فنُزِّلَ القَريبُ مَنزلةَ المُقارِنِ؛ فلِذلك جُعِلَ الجَميعُ شُروطًا لأداةِ الشَّرطِ (إِذَا)[٢].

- قولُه: ﴿نَفْسٌ﴾ نَكِرةٌ في سِياقِ الشَّرطِ، مُرادٌ بها العُمومُ، أي: عَلِمَتْ كُلُّ نفْسٍ ما أحضَرَتْ[٣].

- وأيضًا تَنكيرُ النَّفْسِ المفيدُ لثُبوتِ العِلمِ المذكورِ لفَرْدٍ مِن النُّفوسِ أو لبَعضٍ منها؛ للإيذانِ بأنَّ ثُبوتَه لجَميعِ أفرادِها قاطبةً مِن الظُّهورِ والوُضوحِ بحيثُ لا يَكادُ يَحومُ حوْلَه شائبةُ اشْتِباهٍ قطعًا، يَعرِفُه كلُّ أحدٍ ولو جِيءَ بعِبارةٍ تدُلُّ على خِلافِه، وللرَّمزِ إلى أنَّ تلكَ النُّفوسَ العالِمةَ بما ذُكِرَ -مع تَوفُّرِ أفرادِها، وتَكثُّرِ أعدادِها- ممَّا يُستقَلُّ بالنِّسبةِ إلى جَنابِ الكِبرياءِ الَّذي أُشيرَ إلى بَعضِ بَدائعِ شُؤونِه المنْبِئةِ عن عِظَمِ سُلطانِه. ويَجوزُ أنْ يَكونَ ذلك للإشعارِ بأنَّه إذا عَلِمَتْ حِينَئذٍ نفْسٌ مِن النُّفوسِ ما أحضَرَتْ، وَجَبَ على كُلِّ نفْسٍ إصلاحُ عَمَلِها؛ مَخافةَ أنْ تَكونَ هي تلك الَّتي عَلِمَتْ ما أحضَرَتْ؛ فكيفَ وكُلُّ نفْسٍ تَعلَمُه؟! على طَريقةِ قولِك -لِمَن تَنصَحُه-: لعلَّكَ ستَندَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٩٣).

على ما فعَلْتَ، ورُبَّما نَدِمَ الإنسانُ على ما فَعَل! فإنَّك لا تَقصِدُ بذلك أنَّ نَدَمَه مَرجُوُّ الوُجودِ لا مُتَيَقَّنٌ به، أو نادِرُ الوُقوعِ، بل تُريدُ أنَّ العاقِلَ يَجِبُ عليه أنْ يَجتَنِبَ أمرًا يُرجَى فيه النَّدَمُ، أو قَلَّ ما يَقَعُ فيه، فكيفَ به إذا كان قَطْعيَّ الوُجودِ كَثيرَ الوُقوعِ[١]؟!

- قولُه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، أُسنِدَ الإحضارُ إلى النُّفوسِ؛ لأنَّها الفاعِلةُ للأعْمالِ الَّتي يَظهَرُ جَزاؤُها يَومَئذٍ، فهذا الإسنادُ مِن إسنادِ فِعلِ الشَّيءِ إلى سَببِ فِعلِه[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ خَتَمَ الآيةَ هنا بقولِه: ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، وختَمَها في الانفِطارِ بقَولِه: ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥]؛ قيل: وجْهُ ذلِك: أنَّ ما في هذه السُّورةِ مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾، فقَرَأَها أرْبابُها فعَلِموا ما أحْضَرَت، وفي الانفطارِ مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، والقُبورُ كانت في الدُّنيا، فيَذكُرون ما قدَّموا في الدُّنيا وما أخَّروا في العُقبى؛ فكلُّ خاتمةٍ لائقةٌ بمَكانِها، وهذه السُّورةُ مِن أوَّلِها شَرطٌ وجَزاءٌ، وقسَمٌ وجَوابٌ[٣].

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه رِعايةٌ للمُناسَبةِ؛ إذ شُروطُ الجَوابِ هنا طالَتْ بكَثرتِها، فحَسُنَ اختِصارُه ليُوقَفَ عليه، وشُروطُه ثَمَّ قَصُرَتْ بقِلَّتِها، فحَسُنَ بَسْطُه لتَيَسُّرِ الوَقفِ عليه حِينَئذٍ[٤]، وقيل غيرُ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٠).

(٥) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٣٨)، ((كشف المعانى فى المتشابه من المثانى)) لابن جماعة (ص: ٣٧٤، ٣٧٥).

الآيات (١٥-٢٩)

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلۡخُنَّسِ﴾: أي: النُّجومِ الَّتي تختفي في النَّهارِ فلا تُرى، والخُنوسُ: الانقِباضُ والاستِخفاءُ، تقول: خَنَس مِن بيْنِ القَومِ، وانْخَنَسَ، أي: انقَبَض واستَخْفى، وأصلُ (خنس): يدُلُّ على استِخفاءٍ وتَستُّرٍ[١].

﴿ٱلۡجَوَارِ﴾: أي: الَّتي تَجري في فَلَكِها بسُرعةٍ، جَمعُ جاريةٍ؛ مِنَ الجَرْيِ: وهو المَرُّ السَّريعُ[٢].

﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾: أي: النُّجومِ الَّتي تَكنِسُ -تَستَتِرُ- في أبراجِها في السَّماءِ؛ مِن: كَنَس الوَحْشُ: إذا دَخَل كِناسَه، وهو بَيتُه الَّذي يأوي إليه، وأصلُ (كنس): يدُلُّ على استِخفاءٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٦١).

﴿عَسۡعَسَ﴾: أي: وَلَّى وذَهَب وأدبَرَ، أو: أقبَلَ بظَلامِه، فهو مِن الأضْدادِ، وعَسْعَسَ: مقلوبٌ عن «سَعْسَعَ»: إذا مَضَى، وأصلُ (سعع): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ[١].

﴿تَنَفَّسَ﴾: أي: أضاءَ وأسفَرَ وانتَشَر ضَوؤُه وامتدَّ وتتابَع، وأصلُ (نفس): يدُلُّ على خُروجِ النَّسيمِ كيف كان، مِن رِيحٍ أو غَيرِها[٢].

﴿مَكِينٍ﴾: أي: وَجيهٍ عِندَ اللهِ تعالى؛ مِن: مَكُنَ مَكانةً: إذا عَلَت رُتبتُه عندَ غَيرِه، وأصلُ (مكن): يدُلُّ على الموضِعِ الحاوي للشَّيءِ[٣].

﴿بِٱلۡأُفُقِ﴾: أي: الأُفُقِ الأعلى مِن ناحيةِ المَشرِقِ حيثُ تَطلُعُ الشَّمسُ، والأُفُقِ: ناحِيةُ السَّماءِ، وأصلُ (أفق): يدُلُّ على تَباعُدِ ما بيْن أطرافِ الشَّيءِ واتِّساعِه[٤].

﴿بِضَنِينٖ﴾: أي: ببَخيلٍ، والضِّنَّةُ: البُخلُ بالشَّيءِ النَّفيسِ، وأصلُ (ضنن): يدُلُّ على بُخلٍ بالشَّيءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٥٧) و(٤/ ٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٢).

وقال الماوردي: (وأصلُه العسُّ وهو الامتلاءُ، ومنه قيل للقَدَحِ الكبيرِ: عُسٌّ؛ لامتلائِه بما فيه، فأُطلِق على إقبالِ الليلِ لابتداءِ امتلائه، وأُطلِق على إدْبارِه لاستكمالِ امتلائِه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢١٧). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٩).

(٢) يُنظَر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢، ٧٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٧)، =

﴿رَّجِيمٍ﴾: أي: مَلْعُونٍ مَطْرُودٍ، والرَّجمُ: اللَّعنُ والطَّردُ والإبعادُ، وأصلُ الرَّجمِ: الرَّميُ بالحِجارةِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

رَدَّ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ على افتراءاتِ قُرَيشٍ الذين كذَّبوا بنُبُوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وزَعموا أنَّه ساحِرٌ وكاهِنٌ وشاعِرٌ ومجنونٌ، وكذَّبوا بالوَحْيِ المُنزَّلِ عليه، فأقسَمَ تعالى بالنُّجومِ العَظيمةِ الَّتي تختَفي وتَغيبُ بالنَّهارِ، والَّتي تَجري في السَّماءِ وتَكنِسُ وتَسْتَتِرُ، وأَقسَمَ باللَّيلِ إذا أقْبَلَ بظَلامِه وإذا أدبَرَ، وبالصُّبحِ إذا أقبَلَ وتَبَيَّنَ ضَوؤُه: إنَّ هذا القُرآنَ المُنزَّلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو تبليغُ رَسولٍ كَريمٍ على اللهِ تعالى، وهو جِبريلُ عليه السَّلامُ، وهو صاحِبُ قُوَّةٍ عَظيمةٍ، وله عِندَ اللهِ تعالى مكانةٌ عاليةٌ، ومَنزِلةٌ رَفيعةٌ، وهو مُطاعٌ في السَّماءِ بيْنَ الملائِكةِ، أَمينٌ على ما ائتَمَنَه اللهُ عليه مِن الوَحْيِ.

ثمَّ خاطَبَهم اللهُ تعالى بقَولِه: وما نَبيُّكم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذي خالَطْتُموه -يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ- وعَرَفْتُم صِدْقَه وأمانَتَه: بمَجنونٍ كما تَزعُمونَ، ولقد رأى محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جِبْريلَ في صُورتِه الَّتي خَلَقَه اللهُ عليها، في أُفُقِ الشَّمسِ الأَعْلى مِن جِهةِ المَشرِقِ حيثُ تَطلُعُ الشَّمسُ، وتُرى الأشياءُ بوُضوحٍ.

وما محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ببَخيلٍ على النَّاسِ بالقُرآنِ، بل هو حَريصٌ على تبليغِ القُرآنِ إلى جميعِ النَّاسِ، وما هذا القُرآنُ بقَولِ شَيطانٍ مَلعونٍ مَطرودٍ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦).

مِن رَحمةِ اللهِ، مَرجومٍ بالشُّهُبِ.

ثمَّ قال تعالى موَبِّخًا لهم: فإلى أين تَذهَبونَ -أيُّها المُشرِكونَ- عن هذا القُرآنِ مع وُضوحِ الحَقِّ فيه بدَلائِلِه؟! وإلى أيِّ طَريقٍ تَعدِلونَ عنه؟!

ما هذا القُرآنُ إلَّا تذكيرٌ مِنَ اللهِ تعالى للخَلْقِ أجمعينَ؛ لِمَن شاء منهم أن يَستقيمَ على الحَقِّ، فيتَّبِعَه ويؤمِنَ به.

ثمَّ ختم اللهُ سُبحانَه هذه السُّورةَ الكريمةَ ببيانِ أنَّ مشيئتَه هي النَّافذةُ، فقال: وما تَشاؤونَ الاستقامةَ على الحَقِّ إلَّا إذا شاء اللهُ رَبُّ العالَمِينَ لكم ذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥﴾.

أي: فأُقسِمُ بالنُّجومِ العَظيمةِ الَّتي تختَفي وتَغيبُ[1].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧، ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٤) و (١١/ ٢٧٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٧).

المرادُ بالخنَّسِ الجوارِ الكُنَّسِ: النُّجومُ، واختُلِف هل هي السَّبعةُ أو الخمسةُ أو جميعُ النُّجومِ.

ممَّن قال: إنَّ المرادَ السَّبعةُ (الشَّمسُ والقمرُ وزُحَلُ وعُطارِدُ والمِرِّيخُ والمُشتَري والزُّهَرةُ): ابنُ جُزَي، والسيوطيُّ، والسعدي، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٦)، ((معترك الأقران)) للسيوطي (٢/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٣).

وممَّن قال: إنَّها الخمسةُ (بدونِ الشَّمسِ والقمرِ): مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، والرازي، والعُلَيمي، والمظهري. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٥٦)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٩٧)، ((التفسير المظهري)) (١٠/ ٢٠٧، ٢٠٨).

قال ابن جُزَي: (وقيل: يعني: النَّجومَ كلَّها؛ لأنَّها تَخنِسُ في جريِها، وتَكنِسُ بالنَّهارِ، أي: تسترُ، وتختفي بضَوءِ الشَّمسِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٦). =

﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦﴾.

أي: الَّتي تَجري في السَّماءِ وتَسْتَتِرُ[(١)].

= قيل: معنى خَنْسِ النُّجومِ: اختِفاؤُها في النَّهارِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، وابن تيميَّة، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٢).

وقيل: المعنى: رُجوعُها في مَجْراها. وممَّن قال بهذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، واستظهره الرَّازيُّ، وذهب إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٥).

قال ابنُ عطية: (أقسَم اللهُ تعالى بالخُنَّسِ الجَوارِ الكُنَّسِ، فقال جمهورُ المفَسِّرينَ: إنَّ ذلك الدَّراريُّ السَّبعةُ: الشَّمسُ، والقَمَرُ، وزُحَلُ، وعُطارِدُ، والمِرِّيخُ، والزُّهَرةُ، والمُشتَري، وقال عليُّ ابنُ أبي طالب: المرادُ الخَمسةُ دونَ الشَّمسِ والقَمَرِ؛ وذلك أنَّ هذه الكواكِبَ تَخنِسُ في جَرْيِها، أي: تتقهقَرُ فيما تَرى العَينُ... وقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ أيضًا والحسنُ وقتادةُ: المرادُ النُّجومُ كلُّها؛ لأنَّها تخنسُ بالنَّهارِ حينَ تَخْتفي). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٣).

وقال الرازي: (القَولُ الأظهَرُ: أنَّ ذلك إشارةٌ إلى رُجوعِ الكواكِبِ الخَمْسةِ السَّيَّارةِ واستقامتِها، فرُجوعِها هو الخُنوسُ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧، ٦٨).

وقال المظهري: (الخُنُوسُ: الرُّجوعُ مِن منتهى السَّيرِ الى مكانٍ ابتدَأَ منه، والمرادُ بها الكواكِبُ الخَمسةُ المُسمَّاةُ بالمتحَيِّرةِ، وهي: عُطارِدُ، والزُّهَرةُ، والمُشْتَري، والمِرِّيخُ، والزُّحَلُ؛ فإنَّها تُرى سيَّارةً مِن المغرِبِ إلى المشرِقِ، ثمَّ تَرجِعُ الى المغرِبِ، وقد تُرى ساكنةً؛ ولذلك سُمِّيَت مُتحَيِّرةً). ((التفسير المظهري)) (١٠/ ٢٠٧، ٢٠٨).

وقال ابن جُزَي: (وقيل: يعني: بقرَ الوحشِ، فالخنسُ على هذا مِن خَنَسِ الأنفِ، والكنسُ مِن سُكْناها في كِناسِها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٦). ويُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٦/ ٧٢).

ويُنظر الكلامُ عن (لَا أُقْسِمُ) والخلافُ فيها فيما تقدَّم (٤١/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٦).

والمراد بكُنوسِها: استتارُها وتواريها. وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ =

= سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠٢)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧).

وممَّن اختار أنَّ كُنوسَها هو اختِفاؤُها واسْتِتارُها بالنَّهارِ تحتَ ضَوءِ الشَّمسِ: الرازيُّ، والبِقاعي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢).

وقال الزَّجَّاج: (تَكْنِسُ: تَدخُلُ في كِنَاسِها، أي: تَغِيبُ في المواضِعِ الَّتي تَغِيبُ فيها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٩٢). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٣).

وقال ابنُ عطيَّةَ وابنُ جُزَي: (هي تَكنِسُ في أبراجِها، أي: تستترُ). يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٦).

قال الرازي: (اختلَفوا في خُنوسِ النُّجومِ وكُنوسِها على ثلاثةِ أوجُهٍ:

فالقولُ الأظهَرُ: أنَّ ذلك إشارةٌ إلى رجوعِ الكواكبِ الخمسةِ السَّيَّارةِ واستِقامَتِها؛ فرُجوعُها هو الخُنوسُ، وكُنوسُها اخْتِفاؤُها تحتَ ضَوءِ الشَّمسِ، ولا شكَّ أنَّ هذه حالةٌ عجيبةٌ، وفيها أسرارٌ عظيمةٌ باهرةٌ.

القولُ الثَّاني: ما رُويَ عن عليٍّ وعَطاءٍ ومُقاتلٍ وقَتادةَ: أنَّها هي جميعُ الكواكبِ، وخُنوسُها عبارةٌ عن غَيبوبتِها عن البصرِ في النَّهارِ، وكُنوسُها عبارةٌ عن ظُهورِها للبصرِ في اللَّيلِ، أي: تَظهَرُ في أماكِنِها، كالوَحشِ في كُنُسِها.

والقولُ الثَّالثُ: أنَّ السَّبعةَ السَّيَّارةَ تختلِفُ مَطالِعُها ومَغارِبُها، على ما قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، ولا شكَّ أنَّ فيها مَطلِعًا واحدًا ومَغرِبًا واحدًا هما أقرَبُ المَطالِعِ والمَغارِبِ إلى سَمتِ رُؤوسِنا، ثمَّ إنَّها تأخُذُ في التَّباعُدِ مِن ذلك المَطلعِ إلى سائر المطالعِ طولَ السَّنةِ، ثمَّ ترجعُ إليه؛ فخُنوسُها عبارةٌ عن تَباعُدِها عن ذلك المطلعِ، وكُنوسُها عبارةٌ عن عَودِها إليه، فهذا محتملٌ.

فعلى القولِ الأوَّلِ يكونُ القسَمُ واقعًا بالخمسةِ المتحيِّرةِ، وعلى القولِ الثَّاني يكونُ القسَمُ واقعًا بجميعِ الكواكبِ، وعلى هذا الاحتمالِ الَّذي ذكَرْتُه يكونُ القسَمُ واقعًا بالسَّبعةِ السَّيَّارةِ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٦).

وقال ابن جرير: (اختلَف أهلُ التَّأويلِ في الخُنَّسِ الجَوارِ الكُنَّسِ؛ فقال بعضُهم: هي النُّجومُ الدَّراريُّ الخَمسةُ، تَخنِسُ في مَجْراها فتَرجِعُ، وتَكنِسُ فتَستَتِرُ في بُيوتِها، كما تَكنِسُ الظِّباءُ =

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ إذا أقبَلَ بظَلامِه، وإذا أدبَرَ(١).

= في المغارِ... وقال آخَرونَ: هي بقَرُ الوَحشِ الَّتي تَكنِسُ في كِناسِها... وقال آخَرونَ: هي الظِّباءُ... وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أقسَمَ بأشياءَ تَخنِسُ أحيانًا -أي: تغيبُ- وتَجري أحيانًا وتَكنِسُ أخرى، وكُنوسُها: أن تأويَ في مَكانِسِها، والمكانسُ عندَ العرَبِ هي المواضعُ الَّتي تأوي إليها بقرُ الوحشِ والظِّباءُ...، وغيرُ مُنْكَرٍ أن يُستعارَ ذلك في المواضعِ الَّتي تكونُ بها النُّجومُ مِن السَّماءِ، فإذْ كان ذلك كذلك، ولم يكُنْ في الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ المرادَ بذلك النُّجومُ دونَ البقرِ، ولا البقرُ دونَ الظِّباءِ؛ فالصَّوابُ أن يُعَمَّ بذلك كلُّ ما كانت صِفتُه الخُنوسَ أحيانًا، والجَرْيَ أخرى، والكُنوسَ بآناتٍ، على ما وصَف جلَّ ثناؤُه مِن صِفَتِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥٢-١٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٦).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿عَسۡعَسَ﴾: أدبَر: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والزمخشري، وابن عطية، وابن تيميَّة، وابن القيِّم، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (١/ ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وعَطاءٌ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٧).

قال ابنُ القَيِّم: (الأكثرونَ على أنَّ «عَسْعَسَ» بمعنى: ولَّى، وذَهَب، وأدبَرَ. هذا قولُ: عليٍّ، وابنِ عبَّاسٍ وأصحابِه... ومَن رجَّحَ أنَّه إدبارُه احتجَّ بقَولِه تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٢- ٣٤]، فأقسَمَ سبحانه بإدبارِ اللَّيلِ، وإسفارِ الصُّبْحِ، وذلك نظيرُ عَسْعَسَةِ اللَّيلِ، وتنفُّسِ الصُّبْحِ. قالوا: والأحسَنُ أن يكونَ القَسَمُ بانصرامِ اللَّيلِ، وإقبالِ النَّهارِ عَقِيبَه مِن غَيرِ فَصْلٍ، فهذا أعظَمُ في الدَّلالةِ والعِبرةِ، بخِلافِ إقبالِ اللَّيلِ وإقبالِ النَّهارِ؛ فإنَّه لم يُعرَفِ =

= القَسَمُ في القرآنِ بهما، ولأنَّ بيْنَهما زمنًا طويلًا، فالآيةُ في انصِرام هذا ومجيءِ الآخَرِ عَقيبَه بغيرِ فَصْلٍ أبلَغُ؛ فذَكَر سُبحانَه حالةَ ضَعْفِ هذا وإدبارِه، وحالةَ قوَّةِ هذا وتنفُّسِه وإقبالِه يَطرُدُ ظُلْمةَ اللَّيلِ بتنفُّسِه، فكُلَّما تنفَّسَ هَرَبَ اللَّيلُ وأدبَرَ بيْن يديه، وهذا هو القَولُ. واللهُ أعلَمُ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (١/ ١١٨).

وحكى الفَرَّاءُ إجماعَ المفَسِّرينَ على هذا القَولِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٢).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ يُقالُ: عَسْعَسَ: إذا كان غيرَ مُستحكِمِ الظَّلامِ؛ فقيل: ذلك في أوَّلِه، وقيل: في آخِرِه، وهذا أرجَحُ؛ لأنَّ آخِرَ اللَّيلِ أفضَلُ، ولأنَّه أعقَبَه بقَولِه: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: استطار واتَّسَع). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٦).

وقيل: معنى ﴿عَسۡعَسَ﴾: أقبَلَ بظَلامِه. وممَّن ذهب إليه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسِّجِسْتانيُّ، والسَّمْعانيُّ، والخازن، وابن كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٧، ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ البصريُّ، وعطيَّةُ العَوْفيُّ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٧).

قال ابنُ كثير: (وعندي أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿عَسۡعَسَ﴾ إذا أقبَلَ، وإن كان يصِحُّ استِعمالُه في الإدبارِ، لكِنَّ الإقبالَ هاهنا أنسَبُ، كأنَّه أقسَم تعالى باللَّيلِ وظَلامِه إذا أقبَلَ، وبالفَجْرِ وضيائِه إذا أشرَقَ، كما قال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [اللَّيْل: ١، ٢]، وقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضُّحَى: ١، ٢]، وقال: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ [الأَنْعَام: ٩٦]، وغير ذلك مِن الآياتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٨).

وقال المُبَرِّدُ -كما نقله عنه القرطبيُّ- والزَّجَّاجُ، والرَّاغبُ، وابن عجيبة: المعنيانِ (أي: أقبَلَ وأدبَرَ) يَرجِعانِ إلى شَيءٍ واحدٍ، وهو ابتداءُ الظَّلامِ في أوَّلِه، وإدبارُه في آخِرِه. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٢٥٠). ويُنظر أيضًا: ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٢٧٥).

قال الزَّجَّاج: (يُقالُ: عَسْعَسَ اللَّيلُ: إذا أقبَلَ، وعَسْعَسَ: إذا أدبَرَ، والمعنيانِ يَرجِعانِ إلى شَيءٍ =

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾.

أي: وأُقسِمُ بالصُّبحِ إذا أقبَلَ وتَبَيَّنَ ضَوؤُه[١].

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر المُقسَمَ به؛ أَتْبَعَه بذِكْرِ المُقسَمِ عليه[٢].

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾.

أي: إنَّ مَنْ يُنزِلُ هذا القُرآنَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رَسولٌ مِن عندِ اللهِ تعالى، حَسَنُ الخَلْقِ والأخلاقِ، وهو جِبريلُ عليه السَّلامُ[٣].

= واحدٍ، وهو ابتداءُ الظَّلامِ في أوَّلِه، وإدبارُه في آخِرِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٩٢).
وقال الرَّاغب: (أي: أقبَلَ وأدبَرَ، وذلك في مبدَأِ اللَّيلِ ومُنتَهاه، فالعَسْعَسةُ والعِسَاسُ: رِقَّةُ الظَّلامِ، وذلك في طرَفَي اللَّيلِ). ((المفردات)) (ص: ٥٦٦).
وقال ابنُ كثير: (قال كثيرٌ مِن عُلَماءِ الأُصولِ: إنَّ لَفظةَ «عَسعَسَ» تُستعمَلُ في الإقبالِ والإدبارِ على وَجهِ الاشتراكِ؛ فعلى هذا يَصِحُّ أن يُرادَ كُلٌّ منهما. والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٨).
وذكر ابنُ عاشور أنَّه أُتيَ بهذا الفعلِ لأنَّه يفيدُ حالَينِ صالحينِ للقسَمِ به فيهما؛ فهُما مِن مَظاهِرِ القدرةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).
قال البِقاعي: (﴿وَٱلصُّبۡحِ﴾ أي: الَّذي هو أعدَلُ أوقاتِ النَّهارِ ﴿إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: أضاء وأقبَلَ رَوْحُه ونَسيمُه، وأُنسُه ونَعيمُه، واتَّسَع نُورُه، وانفرج به عن اللَّيلِ دَيجورُه [أي: ظَلامُه]). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٦). =

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وهو صاحِبُ قُوَّةٍ عَظيمةٍ، وله عِندَ اللهِ تعالى مكانةٌ عاليةٌ، ومَنزِلةٌ رَفيعةٌ[١].

كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥].

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وهو مُطاعٌ في السَّماءِ عندَ الملائِكةِ، أَمينٌ على ما ائتَمَنَه اللهُ عليه، ومِن ذلك تبليغُه الوَحْيَ إلى أنبيائِه دونَ زيادةٍ أو نَقصٍ[٢].

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعدَ أنْ أَثنى اللهُ تعالى على القُرآنِ بأنَّه قَولُ رَسولٍ مُرسَلٍ مِن اللهِ، وكان قد تَضَمَّنَ ذلك ثَناءً على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه صادِقٌ فيما بَلَّغَه عن اللهِ

= قال القرطبي: (﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا جوابُ القَسَم). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٨).

قال الشوكاني: (﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾... ﴿ثَمَّ﴾ ظرفُ مكانٍ للبعيدِ، والعاملُ فيه ﴿مُّطَاعٍ﴾ أوْ ما بعدَه، والمعنَى: أنَّه مُطاعٌ في السَّمَواتِ أوْ أمينٌ فيها، أيْ: مُؤْتَمَنٌ على الوحيِ وغيرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٣).

تعالى؛ أَعقَبَه بإبْطالِ بُهْتانِ المُشرِكين فيما اختَلَقوه عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قَولِهم: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤]، وقَولِهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾[١] [سبأ: ٨].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر فَضْلَ الرَّسولِ المَلَكيِّ الَّذي جاء بالقُرآنِ؛ ذَكَر فَضْلَ الرَّسولِ البَشَريِّ الَّذي نَزَل عليه القُرآنُ، ودعا إليه النَّاسَ، فقال[٢]:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وما نَبيُّكم محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يا أهلَ مكَّةَ، الَّذي خالَطْتُموه وعَرَفْتُم صِدْقَه وأمانَتَه: بمَجنونٍ كما تَزعُمونَ[٣]!

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

وقال الله سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٠).

قال ابنُ عطيَّة: (أجمَع المفسِّرونَ على أنَّ قَولَه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يُرادُ به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المُشرِكين كانوا إذا بَلَغَهم أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخبِرُ أنَّه نَزَلَ عليه جِبريلُ بالوَحيِ مِن وَقتِ غارِ حِراءَ فما بعْدَه، استَهزَؤُوا وقالوا: إنَّ ذلك الَّذي يَتَراءى له هو جِنِّيٌّ! فكَذَّبَهم اللهُ بنَفيِ الجُنونِ عنه، ثمَّ بتَحقيقِ أنَّه إنَّما رأى جِبريلَ القَويَّ الأَمينَ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان المجنونُ لا يُثبِتُ ما يَسمَعُه ولا ما يُبصِرُه حَقَّ الإثباتِ، فكان التَّقديرُ بعْدَ هذا النَّفيِ: «فلقد سَمِعَ مِن رَسولِنا إليه ما أُرسِلَ به حَقَّ السَّمْعِ، ما التبَسَ عليه فيه حَقٌّ بباطِلٍ»؛ عَطَفَ عليه الإخبارَ برِفعةِ شَأنِه في رُؤيةِ ما لم يَرَه غَيرُه، وأمانتِه، وجُودِه؛ فقال[(٢)]:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ولقد رأى محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جِبْريلَ في صُورتِه الَّتي خَلَقَه اللهُ عليها، وذلك في السَّماءِ مِن جِهةِ المَشرِقِ حيثُ تَطلُعُ الشَّمسُ، وتُرى الأشياءُ بوُضوحٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩).

قال الواحدي: (يعني: رأى محمَّدٌ جِبريلَ عليهما السَّلامُ ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ يعني: حيثُ تَطلُعُ الشَّمسُ، في قَولِ الجَميعِ). ((البسيط)) (٢٣/ ٢٧٦).

وقال ابنُ عاشور: (الأُفُقُ: الفَضاءُ الَّذي يَبْدو للعَينِ مِن الكُرَةِ الهوائيَّةِ بيْن طَرَفَي مَطلَعِ الشَّمسِ ومَغرِبِها، مِن حيثُ يَلوحُ ضَوءُ الفَجرِ ويَبدو شَفَقُ الغُروبِ، وهو يلوحُ كأنَّه قُبَّةٌ زَرقاءُ، والمعنى: رآه ما بيْن السَّماءِ والأرضِ. و﴿ٱلْمُبِينِ﴾: وَصفُ الأُفُقِ، أي: للأُفُقِ الواضِحِ البَيِّنِ، والمقصودُ مِن هذا الوَصفِ نَعتُ الأُفُقِ الَّذي تَراءى منه جِبريلُ للنَّبيِّ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه =

كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ٥ - ١٥].

وعن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأى جِبْريلَ له سِتُّمِئةِ جَناحٍ!))[(١)].

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا انتَفَى ما يُظَنُّ مِن لَبسِ السَّمعِ وزَيغِ البصَرِ، لم يَبْقَ إلَّا ما يتعَلَّقُ بالتَّأديةِ؛ فنفى ما يُتوَهَّمُ مِن ذلك[(٢)].

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿بِظَنِينٍ﴾ بالظَّاءِ، مِن الظِّنَّةِ، وهي التُّهْمةُ، أي: ليس محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمتَّهَمٍ فيما يُخبِرُهم به عن اللهِ، بل هو ثِقةٌ صادِقٌ في ذلك[(٣)].

= أُفُقٌ واضِحٌ بَيِّنٌ، لا تَشتَبِهُ فيه المرئيَّاتُ، ولا يُتخَيَّلُ فيه الخَيالُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٩).

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٣٢)، ومسلمٌ (١٧٤) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٣).

(٣) قرأَ بها ابنُ كثيرٍ، وأبو عَمرٍو، والكِسائيُّ، ورُوَيسٌ عن يَعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٨، ٣٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٧)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٦٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٢٤).

٢- قِراءةُ: ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضَّادِ، مِن الضَّنِّ، وهو البُخلُ، أي: ليس محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ببَخيلٍ عليهم بالوَحْيِ، بل هو يُعَلِّمُهم ما عَلَّمَه اللهُ تعالى مِن القُرآنِ، ويُبَلِّغُهم إيَّاه(١).

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: وما محمَّدٌ ببَخيلٍ على النَّاسِ بالقُرآنِ، ولا يَمتَنِعُ مِن إخبارِهم به، بل هو حَريصٌ على تبليغِ القُرآنِ إلى جميعِ النَّاسِ(٢).

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٧)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٦٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٠).
قال ابنُ القَيِّم: (أجمَعَ المفسِّرون على أنَّ ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ هاهنا: القُرآنُ والوَحْيُ، وقال الفَرَّاءُ: يقولُ تعالى: يأتيه غَيبُ السَّماءِ، وهو مَنفوسٌ فيه، فلا يَضِنُّ به عليكم. وهذا معنًى حَسَنٌ جدًّا؛ فإنَّ عادةَ النُّفوسِ الشُّحُّ بالشَّيءِ النَّفيسِ، ولا سيَّما عمَّن لا يَعرِفُ قَدْرَه، ويَذُمُّه، ويَذُمُّ مَن هو عِندَه، ومع هذا فهذا الرَّسولُ لا يَبخَلُ عليكم بالوَحْيِ الَّذي هو أنفَسُ شَيءٍ وأجَلُّه. وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ: المعنى: يأتيه الغَيبُ فيُبَيِّنُه ويُخبِرُ به ويُظهِرُه، ولا يَكتُمُه كما يَكتُمُ الكاهِنُ ما عندَه ويُخْفيه حتَّى يأخُذَ عليه حُلْوانًا. وفيه معنًى آخَرُ: وهو أنَّه على ثِقةٍ مِن الغَيبِ الَّذي يُخبِرُ به، فلا يخافُ أن يَنتَقِضَ ويَظهَرَ الأمرُ بخِلافِ ما أخبَرَ به، كما يَقَعُ للكُهَّانِ وغَيرِهم ممَّن يُخبِرُ بالغَيبِ؛ فإنَّ كَذِبَهم أضعافُ صِدْقِهم، وإذا أخبَرَ أحَدُهم بخبَرٍ لم يكُنْ على ثقةٍ منه، بل هو خائِفٌ مِن ظُهورِ كَذِبِه، فإقدامُ هذا الرَّسولِ على الإخبارِ بهذا الغَيبِ العَظيمِ -الَّذي هو أعظَمُ الغَيبِ- واثِقًا به، مقيمًا عليه، مُبْديًا له في كُلِّ مَجمَعٍ ومُعيدًا، مُناديًا به على صِدْقِه، مُجلِبًا به على أعدائِه: مِن أعظَمِ الأدِلَّةِ على صِدْقِه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٢٤، ١٢٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٢)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٦/ ٣٨١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر جَلالةَ كِتابِه وفَضْلَه بذِكْرِ الرَّسُولَينِ الكَريمَينِ -اللَّذَينِ وصلَ الكتابُ إلى النَّاسِ على أيدِيهما، وأثنى اللهُ عليهما بما أثنى؛ دفَعَ عنه كُلَّ آفةٍ ونَقصٍ ممَّا يَقدَحُ في صِدْقِه، فقال[1]:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: وما هذا القُرآنُ بقَولِ شَيطانٍ مَلعونٍ مَطرودٍ مِن رَحمةِ اللهِ، مَرجومٍ بالشُّهُبِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢].

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا لم يَدَعْ وَجهًا يُلَبِّسُ به على مَن لا يَعرِفُ حالَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ سَبَّبَ عنه قَولَه مُوَبِّخًا مُنكِرًا[3]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

قال ابن عطية: (﴿رَّجِيمٍ﴾ معناه: مرجومٌ مبعدٌ بالكواكبِ واللَّعنةِ وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٤).

وقال البِقاعي: (﴿رَّجِيمٍ﴾ أي: مرجومٌ باللَّعنِ وغيرِه مِن الشُّهبِ؛ لأجْلِ استراقِ السَّمعِ، مطرودٌ عن ذلك). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٤).

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: فإلى أين تَذهَبونَ -أيُّها المُشرِكونَ- عن هذا القُرآنِ مع وُضوحِ الحَقِّ فيه بدَلائِلِه؟ وإلى أيِّ طَريقٍ تَعدِلونَ عنه[1]؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنْ أفاقَهم مِن ضَلالتِهم؛ أَرشَدَهم إلى حَقيقةِ القُرآنِ بقولِه[2]:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: ما هذا القُرآنُ إلَّا تذكيرٌ مِنَ اللهِ تعالى لجَميعِ الإنسِ والجِنِّ، فيتَّعِظونَ به ويَعتَبِرونَ وينتَفِعونَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٩).

قال ابنُ كثير: (أي: فأين تَذهَبُ عُقولُكم في تكذيبِكم بهذا القُرآنِ مع ظُهورِه ووُضوحِه، وبيانِ كَونِه جاء مِن عندِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؟!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٠).

وقال السعدي: (﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي: كيف يَخطُرُ هذا ببالِكم؟ وأين عَزَبَت عنكم أذهانُكم حتَّى جعَلْتُم الحَقَّ الَّذي هو في أعلى دَرَجاتِ الصِّدقِ بمَنزِلةِ الكَذِبِ الَّذي هو أنزَلُ ما يكونُ، وأرذَلُ وأسفَلُ الباطِلِ؟! هل هذا إلَّا مِن انقِلابِ الحقائِقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٥).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى ﴿ذِكْرٌ﴾ أي: تَذكِرةٌ وعِظَةٌ وزَجْرٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والقرطبي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٠). =

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾.

أي: وذلك إنَّما يكونُ لِمَن شاء منكم أن يَستقيمَ على الحَقِّ، فيتَّبِعَه ويؤمِنَ به، وأمَّا مَن لا يُريدُ ذلك فلن ينتَفِعَ بالقُرآنِ(١).

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾.

أي: وما تَشاؤونَ الاسْتِقامةَ على الحَقِّ إلَّا إذا شاء الخالِقُ المالِكُ المدَبِّرُ ذلك

= قال السعدي: (﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يتذَكَّرونَ به رَبَّهم، وما لَه مِن صِفاتِ الكَمالِ، وما يُنَزَّهُ عنه مِن النَّقائِصِ والرَّذائِلِ [والأمثالِ]، ويتذَكَّرونَ به الأوامِرَ والنَّواهيَ وحُكْمَها، ويتذَكَّرونَ به الأحكامَ القَدَريَّةَ والشَّرعيَّةَ والجَزائيَّةَ، وبالجُملةِ يتذكَّرون به مَصالِحَ الدَّارَينِ، ويَنالونَ بالعَمَلِ به السَّعادَتينِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

وقال ابنُ عاشور: (والذِّكْرُ اسمٌ يجمَعُ معانيَ الدُّعاءِ والوَعظِ بحُسنِ الأعمالِ، والزَّجْرِ عن الباطِلِ وعن الضَّلالِ، أي: ما القرآنُ إلَّا تذكيرٌ لجميعِ النَّاسِ، يَنتَفِعونَ به في صلاحِ اعتِقادِهم، وطاعةِ اللهِ رَبِّهم، وتهذيبِ أخلاقِهم، وآدابِ بَعضِهم مع بعضٍ، والمحافَظةِ على حُقوقِهم، ودَوامِ انتظامِ جماعتِهم، وكيف يُعامِلونَ غَيرَهم مِن الأُمَمِ الَّذين لم يتَّبِعوه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٥).

وقيل: قَولُه: ﴿ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: شَرَفٌ لهم، يَشْرُفُ قَدْرُهم به، ويَصيرون أئمَّةً يُقتدَى بهم، ويُختَلَفُ إليهم؛ ليُتعَلَّمَ منهم. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٤٣٩).

وقال البِقاعي: (ما ﴿هُوَ﴾ أي: القُرآنُ الَّذي أتاكم به ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: شَرَفٌ للخَلْقِ كُلِّهم مِنَ الجِنِّ والإنسِ والملائكةِ، ومَوعِظةٌ بَليغةٌ عَظيمةٌ لهم). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨١).

لكم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۞ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥، ٥٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۞ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ [الإنسان: ٢٩ - ٣١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۞ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۞ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ أنَّ الولايةَ لها رُكنانِ: القُوَّةُ والأمانةُ، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وقال صاحِبُ مِصرَ ليوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾[٢] [يوسف: ٥٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ بدَلٌ مِن ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، والتَّقديرُ: «إنْ هو إلَّا ذِكرٌ لِمَن شاء منكم أن يَستقيمَ»، وفائدةُ هذا الإبدالِ: أنَّ الَّذين شاؤوا الاستِقامةَ بالدُّخولِ في الإسلامِ هم المنتَفِعونَ بالذِّكْرِ، فكأنَّه لم يُوعَظْ به غَيرُهم، والمعنى: أنَّ القرآنَ إنَّما ينتَفِعُ به مَن شاء أن يَستقيمَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧١).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ الاستِقامةُ هي الاعتِدالُ، ولا عَدْلَ أقوَمُ مِن عَدلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ في شريعتِه. وفي الشَّرائعِ السَّابِقةِ كانت الشَّرائِعُ تُناسِبُ حالَ الأُمَمِ زمانًا ومكانًا وحالًا، وبعدَ بَعْثةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانت شريعتُه تناسِبُ الأُمَّةَ الَّتي بُعِثَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليها مِن أوَّلِ بَعْثتِه إلى نهايةِ الدُّنيا؛ ولهذا كان مِن العباراتِ المعروفةِ: «إنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ صالحٌ لكُلِّ زمانٍ ومكانٍ وحالٍ»، لو تمسَّك النَّاسُ به لَأصلَحَ اللهُ الخَلْقَ[(١)].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ ضِدُّ الاستقامةِ انحِرافانِ: انحِرافٌ إلى جانِبِ الإفراطِ والغُلُوِّ، وانحرافٌ إلى جانِبِ التَّفريطِ والتَّقصيرِ؛ ولهذا كان النَّاسُ في دِينِ اللهِ عزَّ وجَلَّ ثلاثةَ أشكالٍ: طرَفانِ ووَسَطٌ؛ طَرَفٌ غالٍ مُبالِغٌ مُتنَطِّعٌ مُتعَنِّتٌ، وطَرَفٌ آخَرُ مُفَرِّطٌ مُقَصِّرٌ مُهمِلٌ. الثَّالِثُ: وَسَطٌ بيْن الإفراطِ والتَّفريطِ، مستقيمٌ على دينِ اللهِ، هذا هو الَّذي يُحمَدُ، أمَّا الأوَّلُ الغالي، والثَّاني الجافي؛ فكِلاهما هالِكٌ[(٢)].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ أي: مَن أراد الهِدايةَ فعليه بهذا القُرآنِ؛ فإنَّه مَنجاةٌ له وهِدايةٌ، ولا هِدايةَ فيما سِواه[(٣)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هاتان الآيَتانِ مُتضَمِّنتانِ إثباتَ الشَّرعِ والقَدَرِ، والأسبابِ والمُسَبَّبات، وفِعلِ العبدِ واستِنادِه إلى فِعْلِ الرَّبِّ، ولكُلٍّ منهما عُبوديَّةٌ مختَصٌّ بها؛ فعُبوديَّةُ الآيةِ الأُولى: الاجتِهادُ واستِفراغُ الوُسعِ، والاختيارُ والسَّعيُ. وعُبوديَّةُ الثَّانيةِ:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٠).

الاستعانةُ باللهِ والتَّوكُّلُ عليه واللَّجَأُ إليه، واستِنزالُ التَّوفيقِ والعَونِ منه، والعِلمُ بأنَّ العبدَ لا يمكِنُه أنْ يشاءَ ولا يَفْعَلَ حتَّى يَجعَلَه اللهُ كذلك. وقَولُه: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَنْتَظِمُ ذلك كلَّه ويَتضَمَّنُه، فمَن عَطَّلَ أحدَ الأمْرَينِ فقد جَحَدَ كَمالَ الرُّبوبيَّةِ وعَطَّلَها[1].

٧- قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: الموجِدُ لهم والمالِكُ، والمحسِنُ إليهم، والمرَبِّي لهم، وهو أعلَمُ بهم منهم؛ فمِن أجْلِ ذلك لا يَقدِرونَ إلَّا على ما قَدَّرَهم عليه، ويجِبُ على كُلٍّ منهم طاعتُه، والإقبالُ بالكُلِّيَّةِ عليه سبحانه وتعالى، وشُكْرُه؛ اسْتِمْطارًا للزِّيادةِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ حصَلَ مِن مَجموعِ الأَوصافِ الثَّلاثِ ما يُشبِهُ اللُّغزَ، يُحسَبُ به أنَّ المَوصوفاتِ ظِباءٌ أو وُحوشٌ؛ لأنَّ تلك الصِّفاتِ حَقائِقُها مِن أحوالِ الوُحوشِ. والألغازُ طَريقةٌ مُستَملَحةٌ عندَ بُلَغاءِ العَرَبِ، وهي عَزيزةٌ في كَلامِهم[3].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هنا يُقسِمُ بحالاتِ الكواكِبِ في ظُهورِها واختِفائِها وجَرَيانِها، وبـ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، وهما أثَرانِ مِن آثارِ الشَّمسِ في غُروبِها وشُروقِها، والمُقسَمُ عليه: هو أنَّ القُرآنَ قَولُ رَسولٍ كَريمٍ، كأنَّه يقولُ: إنَّ القُرآنَ المقسَمَ عليه: حالُه في الثُّبوتِ والظُّهورِ، وحالُ النَّاسِ معه؛ كحالِ هذه الكواكِبِ الثَّوابِتِ لديكم في ظُهورِها تارةً، واختفائِها أُخرى، وكحالِ اللَّيلِ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٣).

والصُّبحِ؛ فهو عِندَ أناسٍ مَوضِعُ ثِقةٍ وهِدايةٍ، كالصُّبحِ في إسفارِه، قُلوبُهم مُتفَتِّحةٌ إليه، وعُقولُهم مُهتَدِيةٌ به؛ فهو لهم رُوحٌ ونُورٌ، وعندَ أُناسٍ مُظلِمةٌ أمامَه قُلوبُهم، عُمْيٌ عنه بصائِرُهم، وفي آذانِهم وَقْرٌ، وهو عليهم عَمًى، وأناسٌ تارةً وتارةً، كالنُّجومِ أحيانًا وأحيانًا، تارةً ينقَدِحُ نُورُه في قُلوبِهم، فتَظهَرُ مَعالِمُه فيَسيرونَ معه، وتارةً يَغيبُ عنهم نورُه، فتَخنِسُ عنه عُقولُهم وتَكنِسُ دُونَه قُلوبُهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ [البقرة: ٢٠]، وليس بعيدًا أن يُقالَ: إنَّه مِن وَجهٍ آخَرَ؛ تُعتَبَرُ النُّجومُ كالكُتُبِ السَّابِقةِ، مضى عليها الظُّهورُ في حينِها والخَفاءُ بَعْدَها، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾: هو ظلامُ الجاهِليَّةِ، ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾: يُقابِلُه ظُهورُ الإسلامِ، وأنَّه سيَنتشِرُ انتِشارَ ضَوءِ النَّهارِ، ولا تقوى قوَّةٌ قَطُّ على حَجْبِه، وسيَعُمُّ الآفاقَ كُلَّها مهما وَقَفوا دُونَه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1] [الصف: ٨].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ * وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ مُناسَبةٌ بيْن ذِكْرِ هذه الآياتِ العُلْويَّةِ الأُفُقيَّةِ مع الرَّسولِ الَّذي أُقْسِمَ على أنَّه قولُه، وهو جِبريلُ؛ لأنَّ جِبريلَ عندَ اللهِ عزَّ وجَلَّ[2].

٤- الصُّبحُ هو الفَجْرُ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[3] [هود: ٨١].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٤٤).

قال عطية سالم بعدَ إيرادِ ما سبق: (وقد يكونُ في هذا الإيرادِ غرابةٌ على بعضِ النَّاسِ، ولا سيَّما وأنِّي لم أقِفْ على بحثٍ مُستَقِلٍّ فيه، ولا توجيهٍ يُشيرُ إليه، ولكِنْ مع التَّتَبُّعِ وجَدْتُ اطِّرادَه في مواضِعَ متعَدِّدةٍ، وجديرٌ بأن يُفرَدَ برِسالةٍ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٩).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ٢٩).

٥- قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، وفي التَّعبيرِ عن جِبريلَ بوَصفِ رَسولٍ إيماءٌ إلى أنَّ القولَ الَّذي يُبَلِّغُه هو رِسالةٌ مِن اللهِ، مأمورٌ بإبلاغِها كما هيَ[(١)].

٦- في قَولِه -تعالى- عن جِبريلَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، وفي الآيةِ الثَّانيةِ عن محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١] أنَّ الرَّسولَ يُطْلَقُ على البَشَرِ والمَلَكِ، بخِلافِ النَّبيِّ؛ فإنَّه لا يُطْلَقُ إلَّا على البَشَرِ، فيكونُ الرَّسولُ أَعَمَّ مِن حيثُ مُتَعَلَّقُه، يعني: يكونُ للبَشَرِ والملائِكةِ[(٢)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ نُسِبَ القَولُ إلى الرَّسولِ؛ لأنَّ القَولَ الصَّادِرَ إليك عن رَسولٍ يُبَلِّغُه إليك عن مُرسِلٍ له: يَصِحُّ أن تَنسُبَه إليه تارةً، وإلى رَسولِه تارةً، وكِلاهما صَحيحٌ[(٣)]، وقد ظَنَّ بَعضُ الغالِطينَ أنَّ إضافتَه إلى الرَّسولِ تقتضي أنَّه أنشَأَ حُروفَه، وهذا خَطَأٌ؛ لأنَّه لو كان جبريلُ أو محمَّدٌ هو الَّذي أنشأَ لَفْظَه ونَظْمَه، امتنَعَ أن يكونَ الآخَرُ الَّذي أنشأ ذلك، فلمَّا أضافه إلى هذا تارةً، وإلى هذا تارةً؛ عُلِمَ أنَّه أضافه إليه لأنَّه بَلَّغَه وأدَّاه، لا لأنَّه أنشأه وابتدَأَه لا لَفْظَه ولا معناه؛ ولهذا قال: ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، ولم يقُلْ: لَقَولُ مَلَكٍ ولا نَبيٍّ، فذَكَر ذلك بلَفظِ الرَّسولِ؛ ليُبَيِّنَ أنَّه يُبَلِّغُ عن غَيرِه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[(٤)] [المائدة: ٦٧].

٨- في هذه الآياتِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ أقسَمَ اللهُ عزَّ وجَلَّ على أنَّ هذا القُرآنَ قَولُ هذا الرَّسولِ الكريمِ الملَكِيِّ جِبريلَ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٤١، ٥٤٢).

الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي آيةٍ أُخرى بَيَّن اللهُ سُبحانَه وتعالى وأقسَمَ أنَّ هذا القُرآنَ قَولُ رَسولٍ كريمٍ بَشَريٍّ، في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ * وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤١]، فكيف يَصِفُ اللهُ القرآنَ بأنَّه قَولُ الرَّسولِ البَشَريِّ والرَّسولِ المَلَكِيِّ؟

الجوابُ: نعَمْ، الرَّسولُ المَلَكِيُّ بَلَّغَه إلى الرَّسولِ البَشَريِّ، والرَّسولُ البَشَريُّ بَلَّغَه إلى الأُمَّةِ، فصار قَولَ جبريلَ بالنِّيابةِ، وقَولَ محمَّدٍ بالنِّيابةِ، والقائلُ الأوَّلُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فالقرآنُ قولُ اللهِ حقيقةً، وقولُ جبريلَ باعتبارِ أنَّه بَلَّغَه لمحمَّدٍ، وقولُ محمَّدٍ باعتبارِ أنَّه بَلَّغَه إلى الأُمَّةِ[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ وُصِفَ الرَّسولُ المَلَكِيُّ في هذه السُّورةِ بأنَّه كَريمٌ، قَويٌّ، مَكِينٌ عندَ الرَّبِّ تعالى، مُطاعٌ في السَّمَواتِ، أمينٌ، فهذه خَمسُ صِفاتٍ تتضَمَّنُ تزكيةَ سَنَدِ القُرآنِ، وأنَّه سَماعُ محمَّدٍ مِن جبريلَ، وسماعُ جبريلَ مِن ربِّ العالَمينَ، فناهيك بهذا السَّنَدِ عُلُوًّا وجَلالةً! تَوَلَّى اللهُ سُبحانَه بنَفْسِه تزكيتَه[2].

١٠- في قَولِه -تعالى- عن جِبريلَ: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ تنبيهٌ على أُمورٍ:

أحدُها: أنَّه بقُوَّتِه يَمنعُ الشَّياطينَ أنْ تَدنوَ مِن القُرآنِ، وأنْ يَنالوا منه شَيئًا، وأنْ يَزيدوا فيه أو يَنْقُصوا منه، بل إذا رآه الشَّيطانُ هَرَبَ منه، ولَمْ يَقْرَبْه.

الثَّاني: أنَّه مُوالٍ لهذا الرَّسولِ الَّذي كَذَّبْتُموه، ومُعاضِدٌ له، ومُوَادٌّ له وناصِرٌ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، ومَن كان هذا القويُّ وليَّه ومِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٨).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٠).

أنصارِه وأعوانِه، ومُعَلِّمَه: فهو المَهْديُّ المنصورُ، واللهُ هاديه وناصِرُه.

الثَّالثُ: أنَّ مَن عادى هذا الرَّسولَ فقد عادى صاحِبَه ووليَّه جِبريلَ، ومَن عادى ذا القُوَّةِ والشِّدَّةِ فهو عُرْضَةٌ للهَلاكِ.

الرَّابعُ: أنَّه قادِرٌ على تنفيذِ ما أُمِرَ به لقُوَّتِه، فلا يَعْجِزُ عن ذلك، مُؤَدٍّ له كما أُمِرَ به لأمانتِه، فهو القَوِيُّ الأمينُ، وأحدُكم إذا انتَدبَ غيرَه في أمْرٍ مِن الأُمورِ لرِسالةٍ أو وِلايةٍ أو وَكالةٍ أو غَيرِها فإنَّما يَنتَدِبُ لها القَويَّ عليه، الأمينَ على فِعْلِه، وإنْ كان ذلك الأمرُ مِن أهمِّ الأُمورِ عندَه انتَدبَ له قَوِيًّا أمينًا مُعَظَّمًا ذا مكانةٍ عندَه، مُطاعًا في النَّاسِ، كما وَصَفَ اللهُ عبْدَه جبريلَ بهذه الصِّفاتِ، وهذا يدُلُّ على عَظَمةِ شأنِ المُرْسِلِ والرَّسولِ والرِّسالةِ والمُرْسَلِ إليه؛ حيثُ انتَدبَ له الكريمَ القويَّ المكِينَ عندَه، المطاعَ في الملأِ الأعلى، الأمينَ حقَّ الأمينِ؛ فإنَّ الملوكَ لا تُرسِلُ في مُهِمَّاتِها إلَّا الأشرافَ ذَوِي الأقدارِ والرُّتَبِ العاليةِ[(١)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أنَّ جِبريلَ له مَكانةٌ ووَجاهةٌ عِندَه سُبحانَه، وهو أقربُ الملائكةِ إليه[(٢)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ إشارةٌ إلى عُلُوِّ مَنزلةِ جبريلَ؛ إذْ كان قَريبًا مِن ذي العَرْشِ سُبحانَه[(٣)].

١٣- في قَولِه -تعالى- عن جبريلَ: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ جنودَ جبريلَ وأعوانَه يُطيعونَه إذا نَدَبَهم لنَصرِ صاحبِه وخَليلِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا الَّذي تُكَذِّبونَه وتُعادونَه سيَصيرُ مُطاعًا في الأرضِ، كما أنَّ جِبريلَ مُطاعٌ في السَّماءِ، وأنَّ كلًّا مِن الرَّسولَينِ مُطاعٌ في مَحَلِّه وقَومِه(١).

١٥- قال اللهُ تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ هذا عَظيمٌ جدًّا؛ أنَّ الرَّبَّ عزَّ وجَلَّ يُزَكِّي عَبْدَه ورَسولَه المَلَكيَّ جِبريلَ كما زكَّى عَبْدَه ورَسولَه البَشَريَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بقَولِه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾(٢) [التكوير: ٢٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ تعظيمٌ لجبريلَ بأنَّه بمَنزلةِ الملوكِ المُطاعِينَ في قَومِهم، فلَمْ يَنْتَدِبْ لهذا الأمرِ العظيمِ إلَّا مِثلَ هذا المَلَكِ المُطاعِ(٣).

١٧- قال تعالى: ﴿أَمِينٍ﴾ وَصْفُ جبريلَ بالأمانةِ؛ إشارةٌ إلى حفْظِه ما حُمِّلَه، وأدائِه له على وَجْهِه(٤).

١٨- لَمَّا كان جِبرائيلُ هو الَّذي جاء بالرِّسالةِ، وهو صاحِبُ الوَحيِ، وهو غَيبٌ عن النَّاسِ، لم يَرَوه بأبصارِهم، ولم يَسمَعوا كلامَه بآذانِهم، وزَعَم زاعِمونَ أنَّ الَّذي يأتيه شيطانٌ يُعَلِّمُه ما يقولُ، أو أنَّه إنَّما يُعَلِّمُه إيَّاه بعضُ الإنسِ- أخبَرَ اللهُ العِبادَ عن الرَّسولِ الَّذي جاء به، ونعَتَه أحسَنَ النَّعتِ، وبَيَّن حالَه أحسَنَ البَيانِ، وذلك كُلُّه إنَّما هو تشريفٌ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونَفْيٌ عنه ما زعموه، وتقريرٌ للرِّسالةِ؛ إذ كان هو صاحِبَه الَّذي يأتي بالوَحيِ، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، أي: أنَّ الرَّسولَ البَشَريَّ لم يَنطِقْ به مِن عِندِ نَفْسِه، وإنَّما هو مُبَلِّغٌ يقولُ ما قِيلَ له؛ فكان في اسمِ الرَّسولِ إشارةٌ إلى مَحْضِ التَّوَسُّطِ والسِّعايةِ، ثمَّ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٣).

وَصَفَه بالصِّفاتِ الَّتي تَنفي كلَّ عَيبٍ؛ مِنَ القُوَّةِ والمُكْنةِ والأمانةِ، والقُرْبِ مِنَ اللهِ سُبحانَه، فلمَّا استقرَّ حالُ الرَّسولِ الملَكيِّ بَيَّن أنَّه مِن جِهتِه، وأنَّه لا يجيءُ إلَّا بالخيرِ، وكان الرَّسولُ البَشَريُّ معلومًا ظاهِرُه عِندَهم، وهو الَّذي يُبَلِّغُهم الرِّسالةَ، ولولاه لَمَا أطاقُوا الأخْذَ عن الرَّسولِ الملَكِيِّ(١).

١٩- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾. في قَولِه تعالى: ﴿صَاحِبُكُم﴾ إشارةٌ إلى أنَّه قد صَحِبَكم سِنينَ قبْلَ ذلك، ولا سابِقةَ له بما تقولونَ فيه وتَرمُونَه مِن الجُنونِ والسِّحْرِ وغيرِ ذلك! وأنَّه لولا سابِقتُه وصُحبتُه إيَّاكم لَمَا استَطَعْتُم الأخْذَ عنه، أَلَا تَسمَعُه يقولُ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩](٢)؛ ففيه تنبيهٌ على نِعْمتِه على البَشَرِ وإحسانِه إليهم؛ إذْ بَعَثَ إليهم مَن يَصحَبُهم ويَصحَبونَه بَشَرًا مِثْلَهم؛ فإنَّهم لا يُطيقونَ الأخذَ عن المَلَكِ(٣).

٢٠- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ الظَّاهِرُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّ هذه السُّورةَ نزَلَت قبْلَ ليلةِ الإسراءِ؛ لأنَّه لم يَذكُرْ فيها إلَّا هذه الرُّؤيةَ، وهي الأُولى، وأمَّا الثَّانيةُ وهي المذكورةُ في قَولِه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٣ - ١٦]، فتلك إنَّما ذُكِرَت في سُورةِ «النَّجْمِ»، وقد نزَلَت بَعْدَ سُورةِ «الإسراءِ»(٤).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أنَّ جِبريلَ مَلَكٌ موجودٌ في الخارجِ، يُرى بالعِيانِ، ويُدْرِكُه البصَرُ، لا كما يقولُ المتفلسِفةُ ومَن قَلَّدَهم: إنَّه

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٨٩، ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٣٩).

ويُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩).

العَقلُ الفَعَّالُ، وإنَّه ليس ممَّا يُدْرَكُ بالبصَرِ! وحقيقتُه عِندَهم أنَّه خيالٌ موجودٌ في الأذهانِ لا في الأعيانِ! وهذا ممَّا خالَفوا به جميعَ الرُّسُلِ وأتْباعَهم، وخَرَجوا به عن جَميعِ المِلَلِ؛ ولهذا كان تقريرُ رؤيةِ النَّبيِّ لجبريلَ أهمَّ مِن تقريرِ رؤيتِه لربِّه تعالى؛ فإنَّ رؤيتَه لجِبريلَ هي أصلُ الإيمانِ الَّذي لا يَتِمُّ إلَّا باعتِقادِها، ومَن أنْكَرَها كَفَرَ قَطْعًا، وأمَّا رؤيتُه لربِّه تعالى فغايتُها أنْ تكونَ مَسألةَ نزاعٍ لا يَكْفُرُ جاحِدُها بالاتِّفاقِ، فنحن إلى تقريرِ رؤيتِه لجِبريلَ أحوَجُ مِنَّا إلى تقريرِ رؤيتِه لربِّه تعالى، وإنْ كانت رُؤيةُ الرَّبِّ أعظَمَ مِن رُؤيةِ جِبريلَ ومَن دُونَه؛ فإنَّ النُّبُوَّةَ لا يَتوقَّفُ ثُبوتُها عليها البَتَّةَ(١).

٢٢- قال تعالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ وُصِف الأُفُقُ الَّذي تَراءى منه جِبريلُ للنَّبيِّ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه أُفُقٌ واضِحٌ بَيِّنٌ لا تَشتبِهُ فيه المَرئيَّاتُ، ولا يُتخيَّلُ فيه الخَيالُ، وجُعِلَتْ تلك الصِّفةُ عَلامةً على أنَّ المَرئيَّ مَلَكٌ وليس بخَيالٍ؛ لأنَّ الأخْيِلةَ الَّتي يَتخيَّلُها المَجانينُ إنَّما يَتخيَّلُونها على الأرضِ تابِعةً لهم، على ما تَعوَّدوه مِن وَقتِ الصِّحَّةِ(٢).

٢٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ هذا إبْطالٌ لقَولِ المُشركينَ في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّه كاهِنٌ؛ فإنَّهم كانوا يَزعُمون أنَّ الكُهَّانَ تأْتيهم الشَّياطينُ بأخبارِ الغَيبِ، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢]، وقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، وقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]، وهُم كانوا يَزعُمون

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٩، ١٦٠).

أنَّ الكاهِنَ يَتلقَّى عن شَيطانِه، ويُسَمُّون شَيطانَه رَئِيًّا[١].

٢٤- قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ إنَّ الَّذينَ لم يَشاؤوا أنْ يَسْتَقيموا هم الكافِرونَ بالقرآنِ، وهم المَسوقُ لهم الكلامُ، ويُلْحَقُ بهم على مَقاديرَ مُتفاوِتةٍ كلُّ مَن فَرَّط في الاهتداءِ بشَيءٍ مِن القرآنِ مِن المسلمينَ؛ فإنَّه ما شاءَ أنْ يستقيمَ لِمَا فَرَطَ منه في أحوالٍ أو أزمانٍ أو أمكنةٍ، وفي هذه الآيةِ إشارةٌ بَيِّنةٌ على أنَّ مِنَ الخَطَأِ أن يُوزَنَ حالُ الدِّينِ الإسلاميِّ بميزانِ أحوالِ بَعضِ المُسلِمينَ أو مُعظَمِهم، كما يَفعَلُه بَعضُ أهلِ الأنظارِ القاصِرةِ مِنَ الغَربيِّينَ وغَيرِهم؛ إذ يَجعَلونَ وِجهةَ نَظَرِهم التَّأمُّلَ في حالةِ الأُمَمِ الإسلاميَّةِ، ويَستَخلِصونَ مِن استقرائِها أحكامًا كُلِّيَّةً يَجعَلونَها قَضايا لفَلْسفَتِهم في كُنْهِ الدِّيانةِ الإسلاميَّةِ[٢]!

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ الأسبابَ لا تَسْتَقِلُّ بالتَّأثيرِ في مُسَبَّباتِها[٣].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ ما كان مِن فِعْلِ المخلوقِ فهو بمشيئةِ اللهِ[٤].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ مشيئةَ الإنسانِ تابعةٌ لمشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٥].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٦٦، ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٦٧).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٢١٩).

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أنَّ العبدَ فاعلٌ حقيقةً، وله مَشيئةٌ وقُدرةٌ[١].

٢٩- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لا يَدُلُّ على أنَّ العبدَ ليس بفاعِلٍ لِفِعْلِه الاختياريِّ، ولا أنَّه ليس بقادرٍ عليه، ولا أنَّه ليس بمُريدٍ، بل يدُلُّ على أنَّه لا يَشاؤُه إلَّا أنْ يشاءَ اللهُ، وهذه الآيةُ ردٌّ على الطَّائِفتَينِ: المُجْبرةِ الجَهميَّةِ، والمُعتزِلةِ القَدَريَّةِ؛ فإنَّه تعالى قال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ فأَثْبَتَ للعَبدِ مشيئةً وفِعلًا، ثُمَّ قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فبيَّنَ أنَّ مَشيئةَ العبدِ مُعَلَّقةٌ بمشيئةِ اللهِ، والأُولى ردٌّ على الجَبْريَّةِ، وهذه رَدٌّ على القَدَريَّةِ الَّذين يقولون: قد يشاءُ العَبدُ ما لا يَشاؤه اللهُ! كما يقولون: إنَّ اللهَ يشاءُ ما لا يَشاؤونَ[٢]! فدَلَّت الآيةُ على أنَّ مَشيئتَه سُبحانَه نافِذةٌ لا يُمكِنُ أن تُعارَضَ أو تُمانَعَ، ففي هذه الآيةِ وأمثالِها رَدٌّ على هاتَينِ الفِرقتَينِ؛ لأنَّه أثبَتَ لهم مَشيئةً، لكِنْ بخَلْقِه لا بخَلْقِهم[٣].

٣٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لَمَّا وَصَفَ نَفْسَه سُبحانَه بأنَّه لا يَخرُجُ شَيءٌ عن أَمْرِه، أَتْبَعَ ذلك الوَصْفَ بما هو كالعِلَّةِ لذلك، فقال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٤].

٣١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؛ في هذه الآيةِ، وآيةِ سورةِ الإنسانِ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠] إفْصاحٌ عن شَرَفِ

---

(١) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٦).

أهلِ الاستِقامةِ بِكَونِهم بمَحَلِّ العِنايةِ مِن رَبِّهم؛ إذْ شاءَ لهم الاستِقامةَ، وهَيَّأَهم لها[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ الفاءُ لتَفريعِ القَسَمِ وجَوابِه على الكَلامِ السَّابقِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ ما تَقدَّمَ مِن الكَلامِ هو بمَنزِلةِ التَّمهيدِ لِما بعْدَ الفاءِ؛ فإنَّ الكَلامَ السَّابقَ أفادَ تَحقيقَ وُقوعِ البَعثِ والجَزاءِ، وهم قدْ أنكَروه، وكَذَّبوا القُرآنَ الَّذي أنذَرَهم به، فلمَّا قُضِيَ حَقُّ الإنذارِ به، وذُكِرَ أشْراطُه، فُرِّعَ عنه تَصديقُ القُرآنِ الَّذي أنذَرَهم به، وأنَّه مُوحًى به مِن عِندِ اللهِ؛ فالتَّفريعُ هنا تَفريعُ معنًى وتَفريعُ ذِكرٍ معًا[٢].

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ القَسَمُ هنا مُرادٌ به تأكيدُ الخَبَرِ وتَحقيقُه، وأُدمِجَ فيه أَوصافُ الأشياءِ المُقسَمِ بها؛ للدَّلالةِ على تَمامِ قُدرةِ اللهِ تعالَى[٣].

- و(الْخُنَّسِ): جَمعُ خانِسةٍ؛ وهي الَّتي تَخنِسُ، أي: تَختَفي. و(الجَواري): جَمعُ جارِيةٍ؛ وهي الَّتي تَجري، أي: تَسيرُ سَيرًا حَثيثًا. و(الْكُنَّسِ): جَمعُ كانِسةٍ، يُقالُ: كَنَسَ الظَّبْيُ، إذا دَخَلَ كِناسَه (بكَسرِ الكافِ)؛ وهو البَيتُ الَّذي يَتَّخِذُه للمَبيتِ. وهذه الصِّفاتُ المُرادُ بمَوصوفاتِها: الكَواكِبُ، وُصِفْنَ بذلك؛ لأنَّها تَكونُ في النَّهارِ مُختفِيةً عن الأنظارِ، فشُبِّهَتْ بالوَحشيَّةِ المُختفِيةِ في شَجَرٍ ونَحوِه، فقيلَ: (الْخُنَّسِ)، وهو مِن بَديعِ التَّشبيهِ؛ لأنَّ الخُنوسَ اختِفاءُ الوَحشِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عن أنظارِ الصَّيَّادينَ ونَحوِهم دُون سُكونٍ في كِناسٍ، وكذلك الكَواكِبُ؛ لأنَّها لا تُرى في النَّهارِ لغَلَبةِ شُعاعِ الشَّمسِ على أُفُقِها، وهي مع ذلك مَوجودةٌ في مَطالِعِها، وشَبَّهَ ما يَبدو للأنظارِ مِن تَنقُّلِها في سَمْتِ النَّاظِرين للأُفُقِ -باعتِبارِ اختلافِ ما يُسامِتُها مِن جُزءٍ مِن الكُرةِ الأرضيَّةِ- بخُرُوجِ الوَحشِ، فشُبِّهَتْ حالةُ بُدُوِّها بعْدَ احتِجابِها مع كَونِها كالمُتحَرِّكةِ بحالةِ الوَحْشِ تَجري بعدَ خُنوسِها تَشبيهَ التَّمثيلِ، وهو يَقتَضي أنَّها صارَتْ مَرئيَّةً؛ فَلذلك عَقَّبَ بعْدَ ذلك بوَصفِها بالكُنَّسِ، أي: عندَ غُروبِها، تَشبيهًا لغُروبِها بدُخولِ الظَّبْيِ أو البَقَرةِ الوَحشيَّةِ كِناسَها بعدَ الانْتِشارِ والجَريِ؛ فشُبِّهَ طُلوعُ الكوكبِ بخُروجِ الوَحشيَّةِ مِن كِناسِها، وشُبِّهَ تَنقُّلُ مَرآها للنَّاظرِ بجَرْيِ الوَحشيَّةِ عندَ خُروجِها مِن كِناسِها صَباحًا، وشُبِّهَ غُروبُها بعدَ سَيْرِها بكُنوسِ الوَحشيَّةِ في كِناسِها، وهو تَشبيهٌ بَديعٌ[(١)].

- وفي قَولِه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ احتِباكٌ[(٢)]؛ ذِكْرُ خُنوسِ الكواكِبِ وكُنوسِها أوَّلًا يُفهِمُ ظُهورَها ثانيًا، وذِكْرُ اللَّيلِ ثانيًا يُفهِمُ حَذْفَ النَّهارِ أوَّلًا[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ عُطِفَ القَسَمُ باللَّيلِ على القَسَمِ بالكَواكِبِ؛ لمُناسَبةِ جَرَيانِ الكَواكِبِ في اللَّيلِ، ولأنَّ تَعاقُبَ اللَّيلِ والنَّهارِ مِن أجَلِّ مَظاهِرِ الحِكمةِ الإلَهيَّةِ في هذا العالَمِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٢، ١٥٣).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٤).

- الفعلُ (عَسْعَسَ) مِن الأضْدادِ؛ يُقالُ: عَسْعَسَ، إذا أَقبَلَ ظَلامُه، وعَسْعَسَ، إذا أَدبَرَ ظَلامُه؛ وبذلك يَكونُ إيثارُ هذا الفِعلِ لإفادَتِه كِلا حالَينِ صالِحَينِ للقَسَمِ به فِيهما؛ لأنَّهما مِن مَظاهِرِ القُدرةِ؛ إذ يَعقُبُ الظَّلامَ الضِّياءُ، ثمَّ يَعقُبُ الضِّياءَ الظَّلامُ، وهذا إيجازٌ[١].

- قولُه: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ عُطِفَ على القَسَمِ باللَّيلِ القسَمُ بالصُّبحِ حِينَ تَنفُّسِه -أي: انشِقاقِ ضَوئِه-؛ لمُناسَبةِ ذِكرِ اللَّيلِ، ولأنَّ تَنفُّسَ الصُّبحِ مِن مَظاهِرِ بَديعِ النِّظامِ الَّذي جَعَلَه اللهُ في هذا العالَمِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾

- ضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى القُرآنِ، ولم يَسبِقْ له ذِكرٌ، ولكنَّه مَعلومٌ مِن المقامِ في سِياقِ الإخبارِ بوُقوعِ البَعثِ؛ فإنَّه ممَّا أخبَرَهم به القرآنُ، وكذَّبوا بالقرآنِ مِن أجْلِ ذلك[٣].

- والرَّسولُ الكريمُ يُرادَ به: جِبريلُ عليْه السَّلامُ؛ وُصِفَ جِبريلُ برَسولٍ؛ لأنَّه مُرسَلٌ مِن اللهِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقُرآنِ. وإضافة (قَوْل) إلى (رَسُولٍ) لأَدْنى مُلابَسةٍ؛ لأنَّ جِبريلَ يُبَلِّغُ ألْفاظَ القُرآنِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيَحكِيها كما أَمَرَه اللهُ تعالَى، فهو قائِلُها؛ أي: صادِرةٌ منه ألْفاظُها[٤].

- واستُطرِدَ في خِلالِ الثَّناءِ على القُرآنِ الثَّناءُ على المَلَكِ المُرسَلِ به؛ تَنويهًا بالقُرآنِ، فإجراءُ أَوصافِ الثَّناءِ على ﴿رَسُولٖ﴾ للتَّنويهِ به أيضًا، وللكِنايةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٥٤، ١٥٥).

أنَّ ما نَزَل به صِدقٌ؛ لأنَّ كَمالَ القائلِ يدُلُّ على صِدقِ القَولِ[١].

- ووُصِفَ جِبريلُ بقولِه: ﴿مَكِينٍ﴾، وخُصَّ مِن أوصافِ اللهِ ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾؛ ليَدُلَّ على عِظَمِ مَنزلةِ جِبريلَ عندَ اللهِ ومَكانتِه؛ لأنَّ حالَ الشَّخصِ يَتفاوَتُ بتَفاوُتِ حالِ مَن له عندَه المنزلةُ[٢]. وأيضًا عُدِلَ عن اسمِ الجَلالةِ إلى ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾؛ لتَمثيلِ حالِ جِبريلَ ومَكانَتِه عندَ اللهِ بحالةِ الأميرِ الماضي في تَنفيذِ أمرِ المَلِكِ، وهو بمَحَلِّ الكَرامةِ لَدَيْه[٣].

- وتَوسيطُ قولِه: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ بيْنَ ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ و﴿مَكِينٍ﴾؛ ليَتَنازَعَه كِلَا الوَصفَينِ على وَجْهِ الإيجازِ[٤].

- وفي إجْراءِ تِلك الصِّفاتِ على جِبريلَ في هذا المَقامِ إدْماجٌ[٥] لتَعظيمِ الرَّسولِ، وأنَّه بَلَغ مِن المَكانةِ وعُلُوِّ المَنزِلةِ عندَ ذي العَرشِ أنْ جعَلَ السَّفيرَ بيْنَه وبيْنَه مِثلَ هذا المَلَكِ المُقرَّبِ المُطاعِ الأَمينِ[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]؛ فهو داخِلٌ في خَبَرِ القَسَمِ جَوابًا ثانيًا عن القَسَمِ، والمَعنى: وما هو (أي: القُرآنُ) بقَولِ مَجنونٍ -كَما تَزعُمون-، فأَبطَلَ قولَهم إبْطالًا مُؤكَّدًا ومُؤيَّدًا؛ فتأْكيدُه بالقَسَمِ وبزِيادةِ (الباء) بعْدَ النَّفيِ، وتأييدُه بما أومَأَ إليه وصْفُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٦).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣١٩).

بأنَّ الَّذي بلَّغَه صاحِبُهم؛ فإنَّ وصْفَ (صاحِب) كِنايةٌ عن كَونِهم يَعلَمون خُلُقَه وعَقلَه، ويَعلَمون أنَّه ليس بمَجنونٍ؛ إذْ شأْنُ الصَّاحِبِ ألَّا تَخفَى دَقائقُ أحوالِه على أصحابِه، والمَعنى: نَفيُ أنْ يَكونَ القُرآنُ مِن وَساوِسِ المَجانينِ؛ فسَلامةُ مُبَلِّغِه مِن الجُنونِ تَقتَضي سَلامةَ قولِه عن أنْ يَكونَ وَسوَسةً[1].

- قولُه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ التَّعرُّضُ لعُنوانِ المصاحَبةِ؛ للتَّلويحِ بإحاطَتِهم بتَفاصيلِ أحوالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خُبْرًا، وعِلمِهم بنَزاهتِه عليه السَّلامُ عمَّا نَسَبوه إليْه بالكُلِّيَّةِ، فالعُدولُ عن اسمِ النَّبيِّ العَلَمِ إلى ﴿صَاحِبُكُم﴾؛ لِما يُؤْذِنُ به ﴿صَاحِبُكُم﴾ مِن كَونِهم على عِلمٍ بأَحوالِه[2].

- وتَسميةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَجنونًا في قولِه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ جاءَ على المُشاكَلةِ[3] وإطْباقِ الجَوابِ على ما سُمِعَ مِن كُفَّارِ مكَّةَ، ويُؤيِّدُه أنَّ قولَه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ جَوابُ القَسَمِ -وذلك على قولٍ-، أي: أُقسِمُ بهذه الأشياءِ أنَّ القُرآنَ نَزَلَ به جِبريلُ، وأنَّ صاحِبَكم ليس بمَجنونٍ؛ لأنَّهم قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾[4] [الحجر: ٦].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٍ﴾ الضَّنينُ هو: البَخيلُ، أي: وما صاحِبُكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٩).

(٣) المُشاكَلةُ: هي ذِكرُ الشَّيءِ بغيرِ لَفظِه؛ لِوُقوعِه في صُحبتِه، كقولِه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فالجزاءُ عن السَّيِّئةِ في الحقيقةِ غيرُ سيِّئةٍ، والأصلُ: وجزاءُ سيِّئةٍ عقوبةٌ مِثلُها. يُنظر: ((خزانة الأدب)) للحموي (٢/ ٢٥٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٠٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٧١، ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣١٨).

بِبَخيلٍ، أي: بِما يُوحَى إليه، وما يُخبِرُ به عن الأُمورِ الغَيْبيَّةِ طَلَبًا للانتِفاعِ بما يُخبِرُ به، بحَيثُ لا يُنبِّئُكم عنه إلَّا بعِوَضٍ تُعْطونه، وذلك كِنايةٌ عن نَفيِ أن يكونَ كاهِنًا أو عرَّافًا يَتَلقَّى الأخبارَ عن الجِنِّ؛ إذ كان المُشرِكون يَترَدَّدون على الكُهَّانِ، فأَقامَ لهم الفَرْقَ بيْنَ حالِ الكُهَّانِ وحالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإشارةِ إلى أنَّ النَّبيَّ لا يَسألُهم عِوَضًا عمَّا يُخبِرُهم به، وأنَّ الكاهِنَ يأخُذُ على ما يُخبِرُ به ما يُسَمُّونه حُلْوانًا، فيكونُ هذا المعنى مِن قَبيلِ قولِه تعالَى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧]، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠]، ونحوِ ذلكَ، ويَتعلَّقُ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ بقولِه: ﴿بِضَنِينٍ﴾، وحرْفُ (على) على هذا الوجْهِ بمعْنى الباءِ، مِثل قولِه تعالَى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، أي: حَقيقٌ بي، أو لتَضمينِ (ضَنِين) معْنى حَريصٍ، والحرْصُ: شِدَّةُ البخلِ، أي: وما محمَّدٌ بكاتمٍ شيئًا مِن الغَيبِ، فما أخبَرَكم به فهو عَينُ ما أوحَيْناهُ إليه. وقد يكونُ البَخيلُ على هذا كِنايةً عن كاتِمٍ، وهو كِنايةٌ بمَرتَبةٍ أُخْرى عن عدَمِ التَّغييرِ، والمَعنى: وما صاحِبُكم بكاتِمٍ شَيئًا مِن الغَيبِ، أي: ما أَخبَرَكم به فهو الحَقُّ(١).

- قولُه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ عَطفٌ على ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]، وهذا رُجوعٌ إلى ما أقسَمَ عليه مِن أنَّ القُرآنَ قولُ رَسولٍ كَريمٍ، بعدَ أنِ استُطرِدَ بيْنَهما بتلك المُستَطْرَداتِ الدَّالَّةِ على زِيادةِ كَمالِ هذا القَولِ بقُدُسيَّةِ مَصدَرِه، ومَكانةِ حامِلِه عندَ اللهِ، وصِدقِ مُتلَقِّيه منه عن رُؤْيةٍ مُحقَّقةٍ لا تَخيُّلَ فيها؛ فكان التَّخلُّصُ إلى العَوْدِ لتَنزيهِ القُرآنِ بمُناسَبةِ ذِكرِ الغَيبِ في قولِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٢، ١٦٣).

تعالَى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]؛ فإنَّ القُرآنَ مِن أَمرِ الغَيبِ الَّذي أُوحيَ به إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفيه كَثيرٌ مِن الأخبارِ عن أُمورِ الغَيبِ؛ الجَنَّةِ، والنَّارِ، ونَحوِ ذلك(١).

- و﴿رَّجِيمٍ﴾ فعيلٌ بمعنَى مفعولٍ، أي: مَرجوم، والمرجومُ: المُبعَدُ الَّذي يَتباعَدُ النَّاسُ مِن شَرِّه، فإذا أقبَلَ عليهم رجَموه، فهو وصْفٌ كاشفٌ(٢) للشَّيطانِ؛ لأنَّه لا يكونُ إلَّا مُتبَرَّأً منه(٣).

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ مُعترِضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥] وقولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧]، و(الفاء) لتَفريعِ التَّوبيخِ والتَّعجيزِ على الحُججِ المُتقدِّمةِ المُثبِتةِ أنَّ القُرآنَ لا يَجوزُ أنْ يَكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٣).

(٢) الصِّفةُ الكاشفةُ: هي الَّتي تُبيِّنُ الواقعَ، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ؛ لأنَّ الصِّفاتِ منها صِفةٌ مقيِّدةٌ تُخرِجُ ما سِواه، ومنها صفةٌ كاشِفةٌ تبيِّنُ حقيقةَ أمرِه، فهي خبرٌ عن المَوصوفِ عندَ التَّحقيقِ، تبيِّنُ ماهيَّةَ الشَّيءِ بأن تكونَ وصفًا لازمًا مختصًّا به. والصِّفةُ إذا كان لها مفهومٌ فهي مقيِّدةٌ، وإن لم يكن لها مفهومٌ فهي كاشِفةٌ، أي: مبيِّنةٌ للحقيقةِ، مثالُ ذلك: قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، ولا مفهومَ مخالفةٍ له، فلا يصحُّ لأحدٍ أن يقولَ: أمَّا مَن عبَدَ معه إلهًا آخَرَ له بُرهانٌ به فلا مانعَ مِن ذلك! لاستِحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وصفٌ مطابقٌ للواقعِ؛ لأنَّهم يَدْعون معه غيرَه بلا بُرهانٍ، فذِكْرُ الوصفِ لموافقتِه الواقِعَ، لا لإخراجِ المفهومِ عن حُكمِ المنطوقِ. ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، وقولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٩٩، ٣١٤)، ((دراسات أصولية في القرآن الكريم)) للحفناوي (ص: ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٤).

كَلامَ كاهِنٍ، وأنَّه وَحيٌ مِن اللهِ بواسِطةِ المَلَكِ[١].

- و(أَيْنَ): اسمُ استِفهامٍ عن المَكانِ، وهو استِفهامٌ إنْكاريٌّ عن مَكانِ ذَهابِهم، أي: طَريقِ ضَلالِهم[٢].

ويَجوزُ أنْ يَكونَ الاستِفهامُ هنا مستَعمَلًا في التَّعجيزِ عن طَلَبِ طَريقٍ يَسلُكونه إلى مَقصدِهم مِن الطَّعنِ في القُرآنِ، والمَعنى: أنَّه قد سُدَّتْ عليْكم طُرُقُ بُهْتانِكم؛ إذِ اتَّضحَ بالحُجَّةِ الدَّامِغةِ بُطلانُ ادِّعائِكم أنَّ القُرآنَ كَلامُ مَجنونٍ، أو كَلامُ كاهِنٍ، فمَاذا تَدَّعون بعدَ ذلك[٣]؟!

- وقد أُرسِلَتْ جُملةُ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ مَثلًا، ولعلَّه مِن مُبتَكَراتِ القُرآنِ. ووُجِدَ في كَلامِ بَعضِهم: أين يذهَبُ بك؟ لِمَن كان في خَطأٍ وعَمايةٍ[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾

- قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه الجُملةُ تَتنزَّلُ مَنزِلةَ المُؤكِّدةِ لجُملةِ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥]؛ ولذلك جُرِّدَتْ عن العاطِفِ؛ ذلك أنَّ القَصْرَ المُستَفادَ مِن النَّفيِ والاستِثْناءِ في قولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يُفيدُ قَصْرَ القُرآنِ على صِفةِ الذِّكرِ، أي: لا غَيرَ ذلك، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ[٥] قُصِدَ منه إبْطالُ أنْ يَكونَ قولَ شاعِرٍ، أو قولَ كاهِنٍ، أو قولَ مَجنونٍ، فمِن جُملةِ ما أَفادَه القَصْرُ نَفيُ أنْ يَكونَ قولَ شيطانٍ رَجيمٍ، وبذلك كان فيه تأْكيدٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٤، ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٦٥).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

لجُملةِ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾[١].

- فإنْ قِيل: القرآنُ يَشتمِلُ على أحاديثِ الأنبياءِ والأُمَمِ، وهو أيضًا مُعجِزةٌ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكيف قُصِرَ على كَونِه ذِكرًا؟

فالجوابُ: أنَّ القصْرَ هنا إضافيٌّ، والقصرُ الإضافيُّ لا يُقصَدُ منه إلَّا تَخصيصُ الصِّفةِ بالمَوصوفِ بالنِّسْبةِ إلى صِفةٍ أُخْرى خاصَّةٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ القَصْرُ حَقيقيًّا[٢] مُفيدًا قَصْرَ القُرآنِ على الذِّكرِ دُونَ غَيرِ ذلك مِن الصِّفاتِ؛ فإنَّ ما اشتَمَلَ عليْه مِن القَصصِ والأخبارِ مَقصودٌ به المَوعِظةُ والعِبرةُ، وأمَّا إعْجازُه فله مَدخلٌ عَظيمٌ في التَّذْكيرِ؛ لأنَّ إعْجازَه دَليلٌ على أنَّه ليس بكَلامٍ مِن صُنْعِ البشَرِ، وإذا عُلِمَ ذلك وَقَعَ اليَقينُ بأنَّه حَقٌّ[٣].

- وقولُه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بَدَلَ بَعضٍ مِن كُلٍّ، وأُعيدَ مع البَدَلِ حرفُ الجَرِّ العامِلُ مِثله في المُبدَلِ منه لتأْكيدِ العامِلِ[٤]. وأُبدِلَ مِن (العالَمينَ) قولُه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾؛ لِأنَّهم المُنتَفِعون بالتَّذْكيرِ[٥].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿مِنكُمْ﴾ للَّذين خُوطِبوا بقَولِه: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦]، وإذا كان القُرآنُ ذِكرًا لهم، وهم مِن جُملةِ العالَمينَ، كان ذِكْرُ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ مِن بَقيَّةِ العالَمينَ أيضًا بحُكْمِ قِياسِ المُساواةِ؛ فَفي الكَلامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٥).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٥، ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٩).

كِنايةٌ عن ذلك[١].

- قولُه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ في مَفهومِ الصِّلةِ تَعْريضٌ بأنَّ الَّذين لم يَتذَكَّروا بالقُرآنِ ما حالَ بيْنَهم وبيْنَ التَّذكُّرِ به إلَّا أنَّهم لم يَشاؤُوا أنْ يَستَقيموا، بل رَضُوا لأنفُسِهم بالاعْوِجاجِ -أي: سُوءِ العَملِ والاعتِقادِ-؛ ليَعلَمَ السَّامِعون أنَّ دَوامَ أولئك على الضَّلالِ ليس لقُصورِ القُرآنِ عن هَديِهم، بل لأنَّهم أَبَوا أنْ يَهتَدوا به؛ إمَّا للمُكابَرةِ فقد كانوا يَقولون: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥]، وإمَّا للإعْراضِ عن تَلقِّيه؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾[٢] [فصلت: ٢٦].

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ تَذْييلًا[٣] أو اعْتِراضًا في آخِرِ الكَلامِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ حالًا؛ والمَقصودُ التَّكْميلُ والاحْتِراسُ[٤] في مَعنى ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾، أي: ولِمَن شاءَ له ذلك مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمامِ معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَينِ: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ السَّائرِ؛ ليشتهرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانِه على الألسِنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

(٤) الاحتِراسُ: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه بعضُهم: التَّكميلَ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٤٥)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢٠٨)، ((البرهان =

العالَمينَ[١].

- وفي قولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ في آخِرِ سُورةِ (الإنسانِ) قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠]، والفَرْقُ بيْنَهما: أنَّ في هذه الآيةِ وُصِفَ اللهُ تعالَى بـ ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو مُفيدٌ التَّعليلَ لارْتِباطِ مَشيئةِ مَن شاءَ الاستِقامةَ مِن العالَمينَ لِمَشيئةِ اللهِ؛ ذلك لأنَّه رَبُّ العالَمينَ؛ فهو الخالِقُ فيهم دَواعيَ المَشيئةِ، وأسبابَ حُصولِها المُتَسلْسِلةَ، وهو الَّذي أرشَدَهم للاستِقامةِ على الحَقِّ، وبهذا الوَصفِ ظهَرَ مَزيدُ الاتِّصالِ بيْنَ مَشيئةِ النَّاسِ الاستِقامةَ بالقُرآنِ، وبيْنَ كَونِ القُرآنِ ذِكرًا للعالَمينَ. وأمَّا آيةُ سُورةِ (الإنسانِ) فقد ذُيِّلَتْ بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، أي: فهو بعِلمِه وحِكمتِه يَنوطُ مَشيئتَه لهم الاستِقامةَ بمَواضِعِ صَلاحِيَتِهم لها، فيُفيدُ أنَّ مَن لم يَشأْ أنْ يَتَّخِذَ إلى رَبِّه سَبيلًا قد حَرَمَه اللهُ تعالى مِن مَشيئتِه الخَيرَ بعِلمِه وحِكمتِه، كِنايةً عن شَقائِهم[٢].

= في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَفْسيرُ

سُورَةِ الانفِطارِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الانفِطارِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ: بسُورةِ (الانفِطارِ)[١].

وسُمِّيَت أيضًا بسورةِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾: فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن سَرَّه أن يَنظُرَ إلى يومِ القِيامةِ كأنَّه رأيُ عَينٍ فلْيَقرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾))[٢].

وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام مُعاذٌ فصَلَّى العِشاءَ الآخِرةَ، فطَوَّلَ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أفتَّانٌ يا مُعاذُ؟! أفتَّانٌ يا مُعاذُ؟! أينَ كُنتَ عن ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾؟))[٣].

---

(١) سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ سورَةَ «الانفطارِ» في المصاحفِ ومُعْظَمِ التَّفاسيرِ؛ لقولِه في مُفتتَحِها: ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٣٣)، وأحمد (٤٨٠٦).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٣٣)، وجوَّده ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٦٤)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٩٦)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٤٢٤).

(٣) أخرجه النَّسائيُّ (٩٩٧).

صَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٩٩٧).

وقال ابنُ كثيرٍ في ((الأحكام الكبير)) (٣/ ١٨٩): (أصلُ هذا الحديثِ في صَحيحِ البُخاريِّ). والحديثُ أصلُه في الصَّحيحَينِ؛ أخرجه البخاريُّ (٦١٠٦)، ومسلمٌ (٤٦٥)، ولفظُ مسلمٍ: ((اقرَأْ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾)).

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

مَن قَرَأها فكأنَّه يَنظُرُ إلى يومِ القيامةِ رَأْيَ عَينٍ:

كما في حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما المتقدِّمِ.

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الانفِطارِ مَكِّيَّةٌ، ونقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[(١)].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

إثباتُ البعثِ، وبيانُ أهوالِ يومِ القيامةِ، وتنبيهُ النَّاسِ إلى وجوبِ الاستعدادِ له[(٢)].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- وَصفُ أهوالِ يومِ القيامةِ.

٢- ذِكرُ جانبٍ مِن نِعَمِ اللهِ على خَلْقِه.

٣- بيانُ أنَّ أعمالَ الإنسانِ مُوكَلٌ بها ملائِكةٌ كِرامٌ كاتِبونَ.

٤- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ الأبرارِ، وسُوءِ عاقِبةِ الفُجَّارِ.

---

(١) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٨))، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٠٧).

٥- بيانُ عِظَمِ يومِ الحِسابِ وشِدَّةِ هَولِه، وتجَرُّدِ النُّفوسِ مِن كُلِّ حَولٍ فيه، وتفَرُّدِ اللهِ سُبحانَه فيه بالأمرِ.

الآيات (١-٥)

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾: أي: انشَقَّت، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[١].

﴿ٱنتَثَرَتۡ﴾: أي: تَساقَطَت مُتفرِّقةً، ونَثْرُ الشَّيءِ: نَشْرُه وتفريقُه، وأصلُ (نثر): يدُلُّ على إلقاءِ شَيءٍ مُتفرِّقٍ[٢].

﴿فُجِّرَتۡ﴾: أي: فُتِحَ بَعضُها في بعضٍ، فصارت بحرًا واحِدًا مُمتَلِئًا، وأصلُ (فجر): يدُلُّ على تَفتُّحٍ في شَيءٍ[٣].

﴿بُعۡثِرَتۡ﴾: أي: أُثِيرت، وقُلِبَ تُرابُها، وأُخرِجَ ما فيها، وأصلُ (بعثر): مُركَّبٌ مِن: بَعَث وأُثيرَ؛ فإنَّ البَعْثرةَ تتضَمَّنُ معناهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٣).

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالحَديثِ عن أشراطِ السَّاعةِ، فقال تعالى: إذا السَّماءُ انشَقَّت وتَصَدَّعَت يومَ القيامةِ، وإذا الكواكِبُ تَساقَطَت وتفرَّقَت، وإذا البِحارُ فُجِّرَت واختَلَط بَعضُها ببَعضٍ، فصارت جميعُها بحرًا واحِدًا، وإذا القُبورُ أُثيرَت وقُلِبَ ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ، فبُعِثُوا للحِسابِ- إذا وقَعَت تلك الأمورُ عَلِمَت كُلُّ نفْسٍ حِينَها بجميعِ أعمالِها مِن خَيرٍ وشَرٍّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾.

أي: إذا السَّماءُ مع قُوَّتَها وشِدَّةِ إحكامِها قد انشَقَّت يومَ القيامةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨].

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان يَلزَمُ مِن انفِطارِها وَهْيُها، وعَدَمُ إمساكِها لِما أُثبِتَ بها؛ ليَكونَ ذلك أشَدَّ تخويفًا لِمَن تحتَها بأنَّهم يَترَقَّبونَ كُلَّ وَقتٍ سُقوطَها أو سُقوطَ طائفةٍ منها فَوقَهم، فيَكونونَ بحيثُ لا يَقِرُّ لهم قَرارٌ؛ قال[٢]:

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢﴾.

أي: وإذا الكواكِبُ تَساقَطَت وتفرَّقَت[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٨، ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣﴾.

أي: وإذا البِحارُ المتفرِّقةُ في الأرضِ قد فُجِّرَت تَفجيرًا كَثيرًا، وفُتِح بعضُها إلى بعضٍ[1].

= (٨/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

قال الماوَرْدي: (﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحَدُها: يَبِسَت. قاله الحسَنُ.

الثَّاني: خُلِطَت فصارت بحرًا واحدًا. وهذا معنى قَولِ ابنِ عبَّاسٍ، قال: وهو سَبعةُ أبحُرٍ، فتصيرُ بحرًا واحدًا.

الثَّالثُ: فُجِّر عَذبُها في مالِحِها: ومالِحُها في عَذْبِها. قاله قَتادةُ.

ويحتَمِلُ رابعًا: أي: فاضت). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٢٠، ٢٢١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: فُتِح بَعضُها إلى بعضٍ، فصارت بحرًا واحِدًا مُمتَلِئًا: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، وابن الجوزي، والقرطبي، والبيضاوي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّالثِ -وهو قريبٌ مِن القولِ السَّابقِ- أنَّه اختلاطُ العَذبِ بالمِلْحِ الأُجاجِ، وزَوالُ ما بيْنَهما مِن البَرزخِ فتَصيرُ البِحارُ بحرًا واحدًا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والثعلبي، والبغوي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦١٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٦٧).

وممَّن ذهب إلى المعنى الرابع: ابنُ عاشور، فقال: (تفجيرُ البِحارِ: انطِلاقُ مائِها مِن مُستواه، وفَيضانُه على ما حولَها مِن الأرَضِينَ كما يتفَجَّرُ ماءُ العَينِ حينَ حَفْرِها...، وبذلك التَّفجيرِ يَعُمُّ الماءُ على الأرضِ، فيَهْلِكُ ما عليها، ويختَلُّ سَطْحُها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧١، ١٧٢).

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سبَق مُقتَضِيًا لغَمْرِ القُبورِ، فأوهمَ أنَّ أهلَها لا يقومونَ -كما كان العَرَبُ يَعتَقِدونَ أنَّ مَن مات فات- قال دافِعًا لذلك على نَمَطِ كلامِ القادِرينَ؛ إشارةً إلى سُهولةِ ذلك عليه[1]:

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾.

أي: وإذا القُبورُ أُثيرَت وقُلِبَ ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ إلى ظَهْرِها، فبَعَثَهم اللهُ تعالى أحياءً[2].

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩].

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت هذه الشُّروطُ كُلُّها -الَّتي جُعِلَت أشراطًا على السَّاعةِ- مُوجِبةً لعُلومٍ دقيقةٍ، وتَكشِفُ كُلُّ واحدةٍ منها عن أمورٍ عَجيبةٍ، وكانت كُلُّها دالَّةً على الانتِقالِ مِن هذه الدَّارِ إلى دارٍ أُخرى لخرابِ هذه الدَّارِ؛ ناسَبَ أن يجيبَ «إذا» بقَولِه[3]:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾.

أي: إذا وقَعَت تلك الأمورُ عَلِمَتْ كُلُّ نفْسٍ حِينَها بجميعِ أعمالِها؛ خَيْرِها

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٠).

وشَرِّها[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٥ - ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٣).

قوله: ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ قيل: المرادُ به: ما عَمِلَتْه مِن عمَلٍ صالحٍ وقَدَّمَتْه مِن خَيرٍ. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وهو ظاهرُ اختيارِ السَّمْعانيِّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٧٢).

وقال الواحدي: (قال ابنُ مسعودٍ: ما قدَّمَتْ مِن خيرٍ... وهو قولُ الكلبيِّ، ومجاهِدٍ، وقَتادةَ، وعَطاءٍ، والقُرَظيِّ). ((البسيط)) (٢٣/ ٢٩٢).

وقيل: المرادُ: ما قدَّمَتْ مِن عمَلٍ صالحٍ أو سَيِّئٍ، أو خيرٍ أو شرٍّ. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٤٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٩).

وقولُه: ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ قيل: أي: مِن سُنَّةٍ يُعمَلُ بها بعدَ مَوتِها مما سَنَّتْه مِن سُنَّةٍ حسَنةٍ أو سَيِّئةٍ. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، وابن أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٥، ١٧٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٤٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٠٣)، ((تفسير الشوكاني)).

وقال الواحديُّ: (قال ابن مسعودٍ: ... وما أخَّرَتْ مِن سُنَّةٍ استُنَّ بها بعدَه. وهو قولُ الكلبيِّ، ومجاهدٍ، وقَتادةَ، وعَطاءٍ، والقُرَظيِّ). ((البسيط)) (٢٣/ ٢٩٢).

وقيل: المرادُ: ما تَرَكَتْ وضَيَّعَت مِن خَيرٍ فلمْ تَعمَلْه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٧٢).

وقال الرازي: (الأصحُّ أنَّ المقصودَ منه الزَّجرُ عن المعصيةِ، والتَّرغيبُ في الطَّاعةِ، أي: يَعلَمُ كلُّ أحدٍ في هذا اليومِ ما قدَّمَ فلمْ يُقَصِّرْ فيه، وما أخَّر فقصَّر فيه؛ لأنَّ قولَه: ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ يَقتضي فِعلًا، وما أخَّرَتْ يَقتضي تركًا، فهذا الكلامُ يَقتضي فِعلًا وتركًا، وتقصيرًا وتوفيرًا، فإنْ كان قدَّم الكبائرَ وأخَّر العملَ الصَّالحَ فمَأْواه النَّارُ، وإن كان قدَّم العملَ الصَّالحَ وأخَّر الكبائرَ فمأْواه الجنَّةُ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٣). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ لعَلَّه نَكَّرَ؛ إشارةً إلى أنَّه ينبغي لِمَن وَهَبه اللهُ عقلًا أن يُجَوِّزَ أنَّه هو المرادُ، فيَخافَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ زَجْرٌ عن المعصيةِ، وترغيبٌ في الطَّاعةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ دَلالةٌ على سُرعةِ الانتشارِ، كبَعْثرةِ الحَبِّ مِن الكَفِّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾[٣] [المعارج: ٤٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ دَلالةٌ على مُؤاخَذةِ الإنسانِ بما عُمِلَ به بَعْدَه مِمَّا سَنَّه مِن هُدًى أو ضَلالةٍ، كقَولِه تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا

= وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ أي: مِن سيِّئةٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦١٣).

قال الماتُريدي: (أي: تَعلَمُ الأنفُسُ ما عَمِلَت إلى آخِرِ ما انتهى إليه عَمَلُها، فلا يخفى عليها شيءٌ مِن أمْرِها.

ومنهم مَن يقولُ: ما قَدَّمَت مِن خيرٍ، وأخَّرَت مِن شَرٍّ: فستَعرِفُه في ذلك اليوم.

ومنهم مَن يقولُ: عَلِمَت ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ مِنَ العَمَلِ، أي: بما عَمِلَت بنَفْسِها، ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ أي: ما سَنَّت مِنَ السُّنَّةِ، فعُمِلَ بها بَعْدَها.

وهذا الَّذي ذكروه داخِلٌ في تفسيرِ الجُملةِ الَّتي ذكَرْنا أنَّها: تَعلَمُ مِن أوَّلِ ما عَمِلَت إلى آخِرِ ما انتهى إليه عَمَلُها). ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٤٤٤).

وقال ابنُ عطية: (قال كثيرٌ مِن المفَسِّرين في معنى قَولِه تعالى: ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾: إنَّها عبارةٌ عن جميعِ الأعمالِ؛ لأنَّ هذا التَّقسيمَ يَعُمُّ الطَّاعاتِ المعمولةَ والمتروكةَ، وكذلك المعاصي). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٤٩).

قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] بِناءً على أنَّ المعنَى: ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ مُباشِرًا له، ﴿وَأَخَّرَ﴾ مِمَّا عُمِلَ به بَعْدَه مِمَّا سَنَّه مِن هُدًى أو ضَلالٍ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ سؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ يُوهِمُ ظاهِرُها أنَّ الَّذي يَعلَمُ يومَ القيامةِ ما قَدَّم وما أخَّر: نفْسٌ واحِدةٌ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على أنَّ كُلَّ نفْسٍ تَعلَمُ ما قَدَّمت وأخَّرَت، كقَولِه تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]، وقَولِه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ.

الجوابُ: أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿نَفْسٌ﴾ كُلُّ نَفسٍ، والنَّكِرةُ وإن كانت لا تَعُمُّ إلَّا في سياقِ النَّفيِ أو الشَّرطِ أو الامتِنانِ، كما تقرَّر في الأُصولِ؛ فإنَّ التَّحقيقَ أنَّها رُبَّما أفادت العُمومَ بقرينةِ السِّياقِ مِن غَيرِ نَفيٍ أو شرطٍ أو امتنانٍ، كقَولِه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ في «التَّكوير» و«الانفطار»، وقَولِه: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقَولِه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ [الزمر: ٥٦]، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۞ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾

- الافْتِتاحُ بـ (إذَا) افْتِتاحٌ مُشوِّقٌ لِما يَرِدُ بَعدَها مِن مُتَعلَّقِها الَّذي هو جَوابُ ما في (إذا) مِن مَعنى الشَّرطِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٦/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٣).
ويُنظر ما تقدَّم في سورة التَّكوير (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٠).

- وصِيغةُ الماضي المُتَكرِّرةُ في قولِه: ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾ وما عُطِفَ عليه، مُستعمَلةٌ في المُستَقبَلِ؛ تَشْبيهًا لتَحقيقِ وُقوعِ المُستَقبَلِ بحُصولِ الشَّيءِ في الماضي[١].

- وأيضًا الجُملُ الَّتي أُضيفَ إليها (إذا) مُفتتَحةٌ بمُسنَدٍ إليْه مُخبَرٍ عنه بمُسنَدٍ فِعليٍّ دُونَ أنْ يُؤتى بالجُملةِ الفِعليَّةِ، ودُونَ تَقديرِ أفْعالٍ مَحْذوفةٍ قبْلَ الأسْماءِ؛ لقَصْدِ الاهْتمامِ بالمُسنَدِ إليه، وتَقويةِ الخَبَرِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّ الجُمَلَ المُتعاطِفةَ المُضافةَ إلى (إذا) هُنا أقَلُّ مِن اللَّاتي في سورةِ (التَّكويرِ)؛ لأنَّ المَقامَ لم يَقتَضِ تَطْويلَ الإطْنابِ كما اقْتَضاه المَقامُ في سورةِ (التَّكْويرِ)، وإنْ كان في كِلتَيهما مُقتَضٍ للإطْنابِ لكنَّه مُتفاوِتٌ[٣].

- قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ بَعْثرةُ القُبورِ: حالةٌ مِن حالاتِ الانقِلابِ الأرضيِّ والخَسفِ، خُصَّتْ بالذِّكرِ مِن بيْنِ حالاتِ الأرضِ؛ لِما فيها مِن الهَوْلِ باسْتِحضارِ حالةِ الأرضِ وقد أَلْقَتْ على ظاهِرِها ما كان في باطِنِ المَقابِرِ مِن جُثَثٍ كامِلةٍ ورُفاتٍ[٤].

- وكُرِّرَتْ (إذا)؛ لتَهويلِ ما في حَيِّزِها مِن الدَّواهي[٥].

- قولُه: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ هذا العِلمُ كِنايةٌ عن الحِسابِ على ما قَدَّمَتِ النُّفوسُ وأخَّرَتْ[٦]؛ فهذا وَعيدٌ بالحِسابِ على جَميعِ أعمالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٢).

المُشرِكين، وهم المَقصودُ بالسُّورةِ، كما يُشيرُ إليه قولُه بعدَ هذا: ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]، ووَعْدٌ للمُتَّقينَ، ومُختَلَطٌ لِمَن عَمِلوا عمَلًا صالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا[١].

- وأيضًا إثْباتُ العِلمِ للنَّاسِ بما قَدَّموا وأَخَّروا عندَ حُصولِ تلك الشُّروطِ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾؛ لعَدَمِ الاعتِدادِ بعِلمِهم بذلك الَّذي كان في الحياةِ الدُّنيا، فنُزِّلَ مَنزِلةَ عدَمِ العِلمِ[٢].

- و﴿نَفۡسٌ﴾ نَكِرةٌ مُرادٌ بها العُمومُ[٣].

- والمَقصودُ مِن قولِه: ﴿مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ تَعميمُ التَّوقِيفِ على جَميعِ ما عَمِلَتْه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٢، ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٣).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦-١٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غَرَّكَ﴾: أي: خدَعَك، يُقالُ: غَرَرْتُ فُلانًا: أصبتُ غِرَّتَه ونِلتُ منه ما أُريدُه، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقَظةِ، ويُقالُ: غرَّه بفُلانٍ، إذا أمَّنه المحذورَ مِن جهتِه وهو غيرُ مأمونٍ[١].

﴿فَسَوَّىٰكَ﴾: أي: جعلَك سَويًّا مُتساويَ الأعضاءِ والقُوى على وَفْقِ الحكمةِ ومُقتضاها، سالِمًا، والتَّسويةُ: جعلُ الشَّيءِ سَواءً، أي: مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا سليمًا، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعْتِدالٍ بيْنَ شيئَيْنِ[٢].

﴿فَعَدَلَكَ﴾: أي: قَوَّم خَلْقَك، وجعَلَه مُعتَدِلًا، وأصلُ (عدل): يدُلُّ على اسْتِواءٍ[٣].

﴿رَكَّبَكَ﴾: أي: وَضَعَك، وألَّف تركيبَ أعضائِك، وأصلُ (ركب): يدُلُّ على عُلُوِّ شَيءٍ شَيئًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٠)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

﴿بِٱلدِّينِ﴾: أي: بالجزاءِ والحسابِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازَيْتُه، وأصلُ (دين): جِنسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾

﴿فِيٓ أَيِّ﴾: شِبهُ جُملةٍ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بـ﴿رَكَّبَكَ﴾. و(مَا): على هذا الوَجهِ مَزيدةٌ، وجملةُ ﴿شَآءَ﴾ في محلِّ جَرٍّ نعتٌ لـ﴿صُورَةٖ﴾، والجُملةُ كُلُّها بيانٌ لِقَولِه: ﴿فَعَدَلَكَ﴾، والتَّقديرُ: فعَدَلَك: ركَّبَك في أيِّ صُورةٍ شاءَها. وجُوِّزَ أن يكونَ الجارُّ والمجرورُ في موضِعِ الحالِ، أي: ركَّبَك كائنًا في أيِّ صُورةٍ شاءَها، وجُوِّزَ أن تكونَ ﴿مَّا﴾ شَرطيَّةً في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ مُطلَقٌ، والتَّقديرُ: أيَّ تركيبٍ شاء ركَّبَك، و﴿شَآءَ﴾ فِعلُ الشَّرطِ، و﴿رَكَّبَكَ﴾ جوابُه، أي: إنْ شاء تركيبَك في أيِّ صورةٍ غيرِ هذه الصُّورةِ ركَّبَك فيها، والجُملةُ الشَّرطيَّةُ كلُّها في محلِّ جَرٍّ نعتٌ لـ﴿صُورَةٖ﴾، والعائِدُ محذوفٌ، وتقديرُه (فيها أو عليها)، ويكونُ ﴿فِيٓ أَيِّ﴾ عندَئذٍ مُتعَلِّقًا بـ(عَدَلَك)، أي: عَدَلَك في صُورةٍ أيِّ صورةٍ، ثمَّ استُؤنِفَ الشَّرطُ بَعْدَه، ولم يُجَوِّزوا على هذا الوَجهِ تعَلُّقَ ﴿فِيٓ أَيِّ﴾ بـ﴿رَكَّبَكَ﴾؛ لأنَّ مَعمولَ ما في حَيِّزِ الشَّرطِ لا يجوزُ تقديمُه عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٥/ ٢٩٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧١٠-٧١٢)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٦٩).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى معاتبًا الإنسانَ المفرِّطَ في حقِّ ربِّه: يا أيُّها الإنسانُ ما الَّذي خَدَعَك وسوَّلَ لك التَّجَرُّؤَ على الكُفْرِ برَبِّك الكريمِ وعِصيانِه؟! وهو الَّذي أوجَدَك فجَعَلك سَوِيًّا مُعتَدِلَ الخِلْقةِ، وركَّبك في أيِّ صُّورةٍ شاء أن تكونَ عليها!

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى سببَ الغُرورِ والغفلةِ، فيقولُ: كلَّا، ليس هناك شيءٌ يَقتَضي غُرورَكم باللهِ تعالى، ولكِنَّ تكذيبَكم بالبَعثِ والحِسابِ هو الَّذي حَمَلكم على الكُفْرِ والفُسوقِ والعِصيانِ.

ثمَّ يُقرِّرُ سُبحانَه أنَّ الملائكةَ تَكتُبُ ما يَعمَلُه كلُّ إنسانٍ، فيقولُ: وإنَّ عليكم -أيُّها النَّاسُ- ملائِكةً حافِظينَ كِرامًا يُراقِبونَكم، ويُسَجِّلونَ أعمالَكم، ويَعلَمونَ ما تَفعَلونَ مِن قَولٍ أو فِعلٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ سُبحانَه في الآيةِ الأُولى عن وُقوعِ الحَشرِ والنَّشرِ؛ أتْبَعَه ما يدُلُّ عَقلًا على إمكانِه أو على وُقوعِه[1].

وأيضًا لَمَّا كان الإنسانُ إذا اعتَقَد البَعثَ قد يقولُ تهاوُنًا ببَعضِ المعاصي: المرجِعُ إلى كريمٍ، ولا يَفعَلُ بي إلَّا خيرًا؛ أنتج قَولَه مُنكِرًا سُبحانَه وتعالى على مَن يقولُ هذا اغترارًا بخَدْعِ الشَّيطانِ[2]:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾.

أي: يا أيُّها الإنسانُ ما الَّذي خَدَعَك وسوَّلَ لك التَّجَرُّؤَ على الكُفْرِ برَبِّك أو مَعصيتِه، وهو الكريمُ ذو الكَمالِ والجَمالِ، الَّذي ينبغي أن يُعبَدَ ويُطاعَ شُكرًا لإحسانِه، ومُقابَلةً لكَرَمِه[1]؟!

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَف تعالى نفْسَه بالكَرَمِ؛ ذكَرَ هذه الأُمورَ الثَّلاثةَ كالدَّلالةِ على تحَقُّقِ ذلك الكَرَمِ[2].

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بتخفيفِ الدَّالِ، قيل: بمعنى: صَرَفَك اللهُ إلى أيِّ صُورةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١، ٣٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠١-٣٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٩).

قيل: المرادُ بالإنسانِ هنا: الكافِرُ. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والواحدي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٩).

وقيل: المرادُ: جِنسُ بني آدَمَ، فيَدخُلُ في ذلك الكُفَّارُ وعُصاةُ المؤمنينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الرازيُّ، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

شاءَها. وقيل: المعنى: صَرَفَك عن خِلْقةِ غَيْرِك إلى خِلْقةٍ حَسَنةٍ مُفارِقةٍ لسائِرِ الخَلْقِ. وقيل: معنى قِراءةِ التَّخفيفِ كقراءةِ التَّشديدِ، أي: عَدَلَ بعضَ أعضائِك ببعضٍ حتَّى اعتدَلَت[(١)].

٢- قِراءةُ: ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ بتشديدِ الدَّالِ، أي: جعَلَك مُعتَدِلَ الخِلْقةِ، مُتناسِبَ الأعضاءِ[(٢)].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾.

أي: الَّذي أوجَدَك فجَعَل خَلْقَك سَوِيًّا سَلِيمًا مُتقَنًا، فصِرْتَ مُعتَدِلَ الخِلْقةِ، مُتناسِبَ الأعضاءِ[(٣)].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

---

(١) قرأ بها عاصِمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظَرُ لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٦٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٢٦، ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٦٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٢٦، ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٩).

﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾.

أي: ركَّبك اللهُ -أيُّها الإنسانُ- في أيِّ صُورةٍ شاء أن تكونَ عليها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٤].

﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن سُبحانَه بالدَّلائِلِ العَقليَّةِ صِحَّةَ القَولِ بالبَعثِ والنُّشورِ على الجُملةِ؛ فَرَّع عليها شَرْحَ تفاصيلِ الأحوالِ المتعَلِّقةِ بذلك[2].

﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩﴾.

أي: ارتَدِعوا وانزَجِروا عن الكُفْرِ برَبِّكم ومَعْصيتِه، فالواجِبُ في حَقِّ مَن خَلَقَكم فسَوَّاكم وعَدَلَكم وصَوَّرَكم: طاعتُه وشُكْرُه؛ فلا عُذْرَ لكم في تَرْكِ ذلك، وإنَّما الَّذي يَحمِلُكم على تَرْكِه هو تكذيبُكم باليومِ الآخِرِ الَّذي يُحاسَبُ فيه النَّاسُ، ويُجازَونَ على أعمالِهم[3].

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠﴾.

أي: وإنَّ عليكم -أيُّها النَّاسُ- ملائِكةً حافِظينَ يُراقِبونَكم، ولا يُضَيِّعونَ شَيئًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٩، ٩٠).

قال البِقاعي: (﴿مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي: ألَّف تركيبَ أعضائِك، وجَمَعَ الرُّوحَ إلى البَدَنِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٨، ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٠).

مِن أعمالِكم[١].

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أثبَتَ لهم الحِفظَ، نَزَّهَهم عن الزِّيادةِ والنَّقْصِ، فقال[٢]:

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ١١﴾.

أي: هم ذَوُو كَمالٍ وَجمالٍ في صِفاتِهم الخِلْقِيَّةِ والخُلُقِيَّةِ، لا يَظلِمونَكم، ويَكتُبونَ جميعَ أعمالِكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أفهَمَ الاستعلاءُ والتَّعبيرُ بالوَصْفِ -في قَولِه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾- إحاطةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٠).
ممَّن اختار أنَّ معنى: (حَافِظِينَ): يَحفَظونَ أعمالَ النَّاسِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابن عطية، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٠).

الاطِّلاعِ على ما يَبرُزُ مِنَ الأعمالِ؛ صَرَّحَ به فقال[١]:

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

أي: يَعلَمُ أولئك الملائكةُ المُوَكَّلونَ بكِتابةِ أعمالِكم كُلَّ ما تَفعَلونَه؛ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، خيرٍ أو شَرٍّ، ظاهِرٍ أو باطِنٍ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ﴾، يَعني: أيُّها الغافِلُ، وَراءَك هذا الخَطْبُ الجَسيمُ، والخَطَرُ العَظيمُ، وأنت قد اغتَرَرْتَ بما تَكرَّمَ عليْك رَبُّك، حيثُ خَلَقَك فسَوَّاك فعَدَلَك، في أيِّ صُورةٍ ما شاء رَكَّبَك، فاشتَغَلْتَ بذلك عن التَّزوُّدِ لدارِ القَرارِ، وأَخْلَدتَ إلى دارِ الغُرورِ.

ولَمَّا كان مُؤدَّى غَفلةِ الإنسانِ الاغْترارَ إلى الذُّهولِ عن المُستقَرِّ الأَصليِّ، نَزَّلَه مَنزِلةَ التَّكْذيبِ بيَومِ الدِّينِ، حتَّى أضرَبَ عنه بقولِه: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾، وهذا كما تَرى مِن حالِ المُتَمادي في أُمورِ الدُّنيا مِن المُتَسمَّينَ بالإسلامِ، إذا سَمِعَ شَيئًا مِن أَمرِ الآخِرةِ تَقَبَّضَ واشْمَأزَّ؛ لِغايةِ انهِماكِه في لَذَّاتِ العاجِلةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٩)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٥٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٠).

قال ابنُ عثيمين: (﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ إمَّا بالمشاهَدةِ إنْ كان فِعلًا، وإمَّا بالسَّماعِ إن كان قولًا، بل إنَّ عَمَلَ القَلبِ يُطلِعُهم اللهُ عليه فيَكتُبونَه، كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «مَن هَمَّ بالحَسَنةِ فلم يَعمَلْها كُتِبَت حسَنةً، ومَن هَمَّ بالسَّيِّئةِ ولم يَعمَلْها كُتِبَت حَسَنةً كامِلةً» [البخاريُّ «٦٤٩١»، ومسلم «١٣١»]). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٠). ويُنظر ما يأتي في الفوائدِ (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢٥). =

وهذا على أنَّ قولَه: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ -هنا- يَشملُ جميعَ العُصاةِ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۞ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۞ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ أنَّه قد أقام اللهُ عليكم ملائِكةً كِرامًا يَكتُبونَ أقوالَكم وأفعالَكم، ويَعلَمونَ أفعالَكم، ودَخَل في هذا أفعالُ القُلوبِ وأفعالُ الجوارحِ، فاللَّائِقُ بكم أن تُكرِموهم وتُجِلُّوهم وتحتَرِموهم[1]، فعلى المسلِمِ إذا خلا بالأمرِ وسَوَّل له الشَّيطانُ أن يَفعَلَ فاحِشةً لأنَّ النَّاسَ لا يَرَونَه، وأنَّه لا يَطَّلِعُ عليه أحدٌ، كالَّذي يخلو بامرأةٍ في محَلٍّ مقفولٍ، يأمَنُ عُيونَ النَّاسِ فيه، فيُسوِّلُ له الشَّيطانُ الرِّيبةَ معها- عليه أن يَنظُرَ أنَّ اللهَ رَقيبٌ عليه، وأنَّ الملائكةَ الكِرامَ معه ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]، وعلى الشَّخصِ أن يَعبُدَ اللهَ كأنَّه يراه، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنَّه يراك[2].

٣- يُنتَزَعُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۞ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۞ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ أنَّ هذه الصِّفاتِ الأربَعَ هي عِمادُ الصِّفاتِ المشروطةِ في كُلِّ مَن يقومُ بعَمَلٍ للأمَّةِ في الإسلامِ مِنَ الوُلاةِ وغَيرِهم؛ فإنَّهم حافِظونَ لمصالحِ ما استُحفِظوا عليه، وأوَّلُ الحِفظِ: الأمانةُ وعَدَمُ التَّفريطِ، ولا بُدَّ فيهم مِن الكَرَمِ: وهو زَكاءُ الفِطرةِ، أي: طَهارةُ النَّفْسِ، ومِنَ الضَّبطِ فيما يَجري على يديه بحيثُ لا تُضَيَّعُ المصالِحُ العامَّةُ ولا الخاصَّةُ، بأن يكونَ ما يُصدِرُه مكتوبًا أو كالمكتوبِ، مضبوطًا لا يُستطاعُ تَغييرُه، ويمكِنُ لكُلِّ مَن يقومُ بذلك العَمَلِ بعدَ القائِمِ به أو في مَغيبِه أن

= قال ابنُ كثير: (قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ هذا تهديدٌ، لا كما يتوهَّمُه بعضُ النَّاسِ مِن أنَّه إرشادٌ إلى الجوابِ؛ حيثُ قال: ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾ حتَّى يقولَ قائلُهم: غرَّه كرمُه. بل المعنَى في هذه الآيةِ: ما غرَّك يا ابنَ آدمَ بربِّك الكريم -أي: العظيمِ- حتَّى أقدمْتَ على معصيتِه، وقابلْتَه بما لا يَليقُ؟). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٨٤).

يَعرِفَ ماذا أُجرِيَ فيه مِن الأعمالِ، وهذا أصلٌ عَظيمٌ في وَضعِ الملفَّاتِ للنَّوازِلِ والتَّراتيبِ، ومنه نشَأَتْ دواوينُ القُضاةِ، ودفاترُ الشُّهودِ، والخِطابُ على الرُّسومِ، وإخراجُ نُسَخِ الأحكامِ والأحباسِ وعُقودِ النِّكاحِ؛ ومِن إحاطةِ العِلمِ بما يَتعَلَّقُ بالأحوالِ الَّتي تُسنَدُ إلى المؤتَمَنِ عليها بحيثُ لا يستطيعُ أحدٌ مِنَ المخالِطينَ لوَظيفةٍ أن يُمَوِّهَ عليه شيئًا، أو أن يُلَبِّسَ عليه حقيقةً، بحيث يَنتفي عنه الغَلَطُ والخطَأُ في تمييزِ الأُمورِ بأقصى ما يمكِنُ، ويختَلِفُ العِلمُ المطلوبُ باختِلافِ الأعمالِ، فيُقَدَّمُ في كُلِّ ولايةٍ مَن هو أعلَمُ بما تقتضيه وِلايتُه مِن الأعمالِ، وما تتوَقَّفُ عليه مِن المواهِبِ والدِّرايةِ؛ فليس ما يُشتَرَطُ في القاضي يُشتَرَطُ في أميرِ الجَيشِ مَثَلًا، وبمِقْدارِ التَّفاوُتِ في الخِصالِ الَّتي تقتَضيها إحدى الوِلاياتِ يكونُ ترجيحُ مَن تُسنَدُ إليه الوِلايةُ على غيرِه؛ حِرصًا على حِفظِ مَصالحِ الأُمَّةِ، فيُقَدَّمُ في كُلِّ وِلايةٍ مَن هو أقوى كَفاءةً لإتقانِ أعمالِها، وأشَدُّ اضْطِلاعًا بممارستِها[1].

فالآيةُ كأنَّها توجيهٌ لِما ينبغي لوُلاةِ الأُمورِ مُراعاتُه في استِكتابِ الكُتَّابِ والأُمَناءِ؛ ولذا قالوا: على القاضي أن يتخَيَّرَ كاتِبًا أمينًا، حَسَنَ الخَطِّ، فاهِمًا[2].

٤- لا ألأَمَ ممَّن لا يَستَحي مِن الكريمِ العَظيمِ القَدْرِ، ولا يُجِلُّه ولا يُوَقِّرُه، وقد نَبَّه سُبحانَه على لزومِ الاستحياءِ ممَّن لا يُفارِقُنا مِن الملائكةِ وإكرامِهم بقَولِه: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۞ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۞ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾، أي: استَحْيُوا مِن هؤلاءِ الحافِظينَ الكرامِ، وأكرِموهم وأَجِلُّوهم أنْ يَرَوْا منكم ما تَستحْيُونَ أنْ يَراكم عليه مَن هو مِثْلُكم، والملائكةُ تتأذَّى ممَّا يتأذَّى منه بنو آدمَ، وإذا كان ابنُ آدم يتأذَّى ممَّن يَفْجُرُ ويَعْصِي بيْن يَدَيه، وإنْ كان يَعمَلُ مِثلَ عَمَلِه، فما الظَّنُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥١).

بأذَى الملائكةِ الكرامِ الكاتبينَ؟! واللهُ المستعانُ[(١)].

٥- عن عطاءِ بنِ أبي رباحٍ: (إنَّ مَن كان قبلَكم كانوا يكرَهونَ فُضولَ الكلامِ، وكانوا يعدُّونَ فضولَ الكلامِ ما عدا كتابَ الله تعالى أنْ يُقرأَ، أو أمرًا بمعروفٍ أو نهيًا عن منكرٍ، أو تنطِقَ في حاجتِك في معيشتِك التي لا بدَّ لك منها، أتُنكِرونَ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨]؟! أمَا يَسْتحي أحدُكم لو نُشِرتْ عليه صحيفتُه التي أملاها صدرَ نهارِه أكثرَ ما فيها ليس مِن أمرِ دينِه ولا دُنياه؟!)[(٢)].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ سؤالٌ: أنَّ بِناءَ هذا الاستدلالِ على أنَّه تعالى حكيمٌ؛ ولذلك قال في سورةِ (التِّينِ) بعدَ هذا الاستِدلالِ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، فلِمَ لَمْ يَقُلْ في هذه السُّورةِ: «ما غَرَّك بربِّك الحكيمِ»؟

الجوابُ: أنَّ الكريمَ يَجبُ أن يكونَ حَكيمًا؛ لأنَّ إيصالَ النِّعمةِ إلى الغَيرِ لو لم يكُنْ مبنيًّا على داعيةِ الحِكمةِ لَكان ذلك تبذيرًا لا كَرَمًا، أمَّا إذا كان مَبنيًّا على داعيةِ الحِكمةِ فحينَئذٍ يُسَمَّى كَرَمًا[(٣)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ إنْ قيلَ: ما مُناسَبةُ وَصْفِه بالكريمِ هنا للتَّوبيخِ على الغُرورِ؟

فالجوابُ: أنَّ الكريمَ يَنبغي أن يُعبَدَ ويُطاعَ؛ شُكرًا لإحسانِه، ومُقابلةً لكَرَمِه،

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٠٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٣/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٤).

ومَن لم يفعَلْ ذلك فقد كَفَر النِّعْمةَ، وأضاع الشُّكرَ الواجِبَ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ سؤالٌ: أنَّ كَونَه سُبحانَه كريمًا يَقتضي أن يغتَرَّ الإنسانُ بكَرَمِه؛ فكيف جعَلَه هاهنا مانعًا مِن الاغترارِ به؟!

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

أحدُها: أنَّ معنى الآيةِ: أنَّك لَمَّا كنتَ ترى حِلْمَ اللهِ على خَلْقِه ظَنَنْتَ أنَّ ذلك لأنَّه لا حِسابَ، ولا دارَ إلَّا هذه الدارُ، فما الَّذي دعاك إلى هذا الاغترارِ، وجَرَّأك على إنكارِ الحَشرِ والنَّشرِ؟! فإنَّ رَبَّك كريمٌ، فهو لكَرَمِه لا يُعاجِلُ بالعُقوبةِ؛ بَسطًا في مُدَّةِ التَّوبةِ، وتأخيرًا للجزاءِ إلى أن يَجمَعَ النَّاسَ في الدَّارِ الَّتي جعَلَها لهم للجَزاءِ. فالحاصِلُ أنَّ تَرْكَ المعاجَلةِ بالعُقوبةِ مِن أجْلِ الكَرَمِ، وذلك لا يَقتضي الاغترارَ بأنَّه لا دارَ بعْدَ هذه الدَّارِ.

ثانيها: أنَّ كَرَمَه لَمَّا بلغ إلى حيثُ لا يَمنَعُ مِن العاصي موائِدَ لُطْفِه، فبأَنْ ينتَقِمَ للمَظلومِ مِنَ الظَّالمِ كان أَوْلى، فإذَنْ كَونُه كريمًا يَقتضي الخَوفَ الشَّديدَ مِن هذا الاعتِبارِ، وتَرْكَ الجَراءةِ والاغترارِ.

ثالِثُها: أنَّ كَثرةَ الكرَمِ تُوجِبُ الجِدَّ والاجتِهادَ في الخِدْمةِ، والاستِحياءَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٨).

قال ابنُ كثيرٍ: (أتَى باسمِه ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾؛ ليُنبِّهَ على أنَّه لا ينبغي أنْ يُقابَلَ الكريمُ بالأفعالِ القبيحةِ، وأعمالِ السوءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٢).

وقال ابنُ القيِّم: (قد يقولُ بعضُهم: إنَّه لقَّن المغترَّ حُجَّتَه، وهذا جهلٌ قبيحٌ، وإنَّما غرَّه بربِّه الغَرورُ، وهو الشَّيطانُ، ونفسُه الأمَّارةُ بالسُّوءِ وجهلُه وهواه، وأتَى سبحانَه بلفظِ ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾ وهو السيدُ العظيمُ المطاعُ، الذي لا ينبغي الاغترارُ به، ولا إهمالُ حقِّه، فوضَع هذا المغترُّ الغرورَ في غيرِ موضعِه، واغترَّ بمَن لا ينبغي الاغترارُ به). ((الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)) (ص: ٢٤).

الاغترارِ والتَّواني[١].

٤- قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ على القولِ بأنَّ ﴿كَلَّا﴾ إِبْطَالٌ لِوُجُودِ مَا يَغُرُّ الإنسانَ أنْ يُشْرِكَ باللَّهِ فالآيةُ بَيانٌ لِما جَرَّأهم على الإشراكِ، وأنَّه ليس غُرورًا؛ إذ لا شُبهةَ لهم في الإشراكِ حتَّى تكونَ الشُّبهةُ كالغُرورِ، ولكِنَّهم أصَرُّوا على الإشراكِ؛ لأنَّهم حَسِبوا أنفُسَهم في مأمَنٍ مِن تَبِعَتِه، فاختاروا الاستمرارَ عليه لأنَّه هوى أنفُسِهم، ولم يعبَؤوا بأنَّه باطِلٌ صُراحٌ، فهم يُكَذِّبونَ بالجَزاءِ؛ فذلك سَبَبُ تصميمِ جَميعِهم على الشِّركِ مع تفاوُتِ مَداركِهم الَّتي لا يَخفى على بَعْضِها بُطلانُ كَونِ الحِجارةِ آلهةً، ألَا ترى أنَّهم ما كانوا يَرَونَ العَذابَ إلَّا عذابَ الدُّنيا؟! وعلى هذا الوَجهِ يكونُ فيه إشارةٌ إلى أنَّ إنكارَ البَعثِ هو جِماعُ الإجرامِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ وَكَّلَ بنا كِرامًا كاتِبينَ، يَعلَمونَ ما نَفْعَلُ، مع أنَّ اللهَ تعالى يَعلَمُ كُلَّ شَيءٍ؟

الجوابُ: الحِكمةُ مِن ذلك بيانُ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى نَظَّمَ الأشياءَ وقَدَّرَها، وأَحْكَمَها إحكامًا مُتقَنًا، حتَّى إنَّه سُبحانَه وتعالى جَعَلَ على أفعالِ بني آدمَ وأقوالِهم كِرامًا كاتِبينَ مُوَكَّلِينَ بهم يَكتُبونَ ما يَفعَلونَ، مع أنَّه سُبحانَه وتعالى عالِمٌ بما يَفعَلونَ قبْلَ أنْ يَفعَلوه، ولكِنْ كلُّ هذا مِن أجْلِ بيانِ كَمالِ عِنايةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ بالإنسانِ، وكمالِ حِفْظِه تبارك وتعالى، وأنَّ هذا الكونَ مُنَظَّمٌ أحسَنَ نِظامٍ، ومُحْكَمٌ أحسنَ إحكامٍ، واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٧٩).

٦- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أنَّ وَصْفَ اللهِ إيَّاهم بهذه الصِّفاتِ يدُلُّ على أنَّه تعالى أثنى عليهم، وعَظَّم شَأْنَهم، وفي تَعظيمِ الكَتَبةِ بالثَّناءِ عليْهم تَعظيمٌ لأَمرِ الجَزاءِ، وأنَّه عندَ اللهِ مِن جَلائلِ الأُمورِ، ولولا ذلك لَما وَكَّلَ بضَبطِ ما يُحاسِبُ عليه ويُجازي به المَلائكةَ الكِرامَ، الحَفَظةَ الكَتَبةَ[1].

٧- ثَبَت عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ مَن هَمَّ بالحَسَنةِ فلمْ يَعمَلْها كُتِبَت حَسَنةً، ومَن هَمَّ بالسَّيِّئةِ فلم يَعمَلْها كُتِبَت حَسَنةً[2]، والمعروفُ أنَّ الَّذي يَكتُبُ هم الملائِكةُ؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، وعلى هذا فيكونُ الملائكةُ عندَهم اطِّلاعٌ على ما في القَلبِ، ولا غرابةَ في ذلك؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يقولُ في كتابِه الكريمِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، فهو سُبحانَه عالِمٌ بذلك، ويجوزُ أنْ يُطْلِعَ اللهُ هؤلاء الملائكةَ على ما عَلِمَه مِن حالِ الشَّخصِ، ويكونُ عِلْمُهم بذلك بواسطةٍ مِن عِلْمِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، ويجوزُ أنْ يَعلَموا ذلك بما يَحصُلُ للقلبِ مِن حركةٍ؛ لأنَّ الهَمَّ حركةُ القَلبِ، فهو يَهُمُّ بالشَّيءِ أي: يتحَرَّكُ، فيَعلَمونَ ما يَحصُلُ بحركةِ القلبِ، وإذا كان الشَّيطانُ يجري مِن ابنِ آدمَ مجرى الدَّمِ، ويَصِلُ إلى شَغَافِ قلْبِه؛ فلا غَرْوَ أنْ يَعْلَمَ الملائِكةُ بما يَحْدُثُ للإنسانِ في قلْبِه[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أنَّهم يَعلَمونَ تلك الأفعالَ حتَّى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٤٩١)، ومسلمٌ (١٣١) مطوَّلًا من حديث عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٢٧).

يُمكِنَهم أن يَكتُبوها، وهذا تنبيهٌ على أنَّ الإنسانَ لا يجوزُ له الشَّهادةُ إلَّا بعْدَ العِلْمِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ قال الحُسَينُ بنُ الفَضلِ: (حيثُ قال: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ولم يَقُلْ: «يَكْتُبونَ» دَلَّ على أنَّه لا يُكتَبُ الجميعُ، فيَخرجُ عنه السَّهوُ والخَطَأُ، وما لا تَبِعةَ فيه)[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ استِئْنافٌ ابتِدائيٌّ؛ لأنَّ ما قبْلَه بمَنزِلةِ المُقدِّمةِ له؛ لتَهيئةِ السَّامِعِ لتَلقِّي هذه المَوعِظةِ؛ لأنَّ ما سَبَقَه مِن التَّهويلِ والإنْذارِ يُهيِّئُ النَّفْسَ لقَبولِ المَوعِظةِ؛ إذ المَوعِظةُ تَكونُ أشَدَّ تَغلْغُلًا في القَلبِ حينَئذٍ؛ لِما يَشعُرُ به السَّامعُ مِن انكِسارِ نفْسِه، ورِقَّةِ قَلْبِه، فيَزولُ عنه طُغيانُ المُكابَرةِ والعِنادِ، فخَطَرَ في النُّفوسِ تَرقُّبُ شَيءٍ بعْدَ ذلك[٣].

- والنِّداءُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾؛ للتَّنبيهِ تَنبيهًا يُشعِرُ بالاهتِمامِ بالكَلامِ والاستِدعاءِ لسَماعِه، فليس النِّداءُ مُرادًا به طَلَبُ إقْبالٍ، ولا هو موَجَّهٌ لشَخصٍ مُعيَّنٍ أو جَماعةٍ مُعيَّنةٍ، بل مِثلُه يَجعَلُه المُتكلِّمُ مُوجَّهًا لكُلِّ مَن يَسمَعُه بقَصْدٍ أو بغَيرِ قَصْدٍ[٤].

- وتعريفُ (الإنسانِ) في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ قيل:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هو تَعريفُ الجِنسِ، يُرادُ به العُمومُ، وهذا العُمومُ مُرادٌ به الَّذين أنْكَروا البَعثَ؛ بدَلالةِ وُقوعِه عَقِبَ الإنذارِ بحُصولِ البَعثِ، ويدُلُّ على ذلك قولُه بعْدَه: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]؛ فالمَعنى: يا أيُّها الإنسانُ الَّذي أنكَرَ البَعثَ، ولا يَكونُ مُنكِرُ البَعثِ إلَّا مُشرِكًا؛ لأنَّ إنْكارَ البَعثِ والشِّركِ مُتلازِمانِ يَومَئذٍ، فهو مِن العامِّ المُرادِ به الخُصوصُ بالقَرينةِ، أو مِن الاستِغراقِ العُرفيِّ؛ لأنَّ جُمهورَ المُخاطَبينَ في ابتِداءِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ هم المُشرِكون(١).

وقيل: المقصودُ بالإنسانِ العُمومُ؛ وذلك أنَّ قولَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ إلى قولِه: ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ كالاعتِراضِ بيْنَ قَرينتَي الجَمْعِ والتَّقسيمِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ عامٌّ اشتَملَ على الفُجَّارِ والأبْرارِ، وقولَه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ * وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ تَقسيمٌ تَضمَّنَ مَعنى التَّفريقِ(٢)؛ فإنَّه تعالى لَمَّا بيَّنَ أحوالَ القيامةِ بانفِطارِ السَّماءِ، وانتِثارِ الكَواكِبِ، وانفِجارِ الأبحُرِ، والبَعثِ عن القُبورِ، ثمَّ اطِّلاعِ كُلِّ نفْسٍ بَرِّها وفاجِرِها على عمَلِها، خَيرِها وشَرِّها؛ نَبَّهَ جِنسَ الإنسانِ عن رَقدةِ الغَفلةِ وسِنَةِ الجَهالةِ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ﴾(٣).

- وإيثارُ تَعريفِ اللهِ بوَصْفِ (رَبِّك) دُون ذِكرِ اسمِ الجَلالةِ؛ لِما في مَعنى الرَّبِّ مِن المِلْكِ والإنشاءِ والرِّفْقِ؛ ففيه تَذْكيرٌ للإنسانِ بمُوجِباتِ استِحقاقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) الجمْعُ والتَّقسيمُ والتَّفريقُ: أنْ يُجمعَ بيْنَ مُتعدِّدٍ في حُكمٍ، ثمَّ يُفرَّقَ -أي: يُوقعَ التَّبايُنُ بيْنَها-، ثمَّ يُضافَ لكلِّ واحدٍ ما يُناسِبُه؛ كقولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥] الآياتِ؛ فالجمعُ في قولِه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ لأنَّها مُتعدِّدةٌ معنًى؛ إذِ النَّكرةُ في سياقِ النَّفْيِ تَعُمُّ. والتَّفريقُ في قولِه: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ [هود: ١٠٥]. والتَّقسيمُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ [هود: ١٠٦] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ [هود: ١٠٨]. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((حاشية الدسوقي على مختصر المعاني)) (٤/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢٥).

الرَّبِّ طاعةَ مَربوبِه؛ فهو تَعريضٌ بالتَّوبيخِ[١].

- وإجراءُ وصْفِ الكريمِ دونَ غيرِه مِن صِفاتِ اللهِ؛ للتَّذْكيرِ بنِعمتِه على النَّاسِ ولُطفِه بهم؛ فإنَّ الكَريمَ حَقيقٌ بالشُّكرِ والطَّاعةِ، وأيضًا فذِكْرُ الكريمِ والتَّعرُّضُ لعُنوانِ كَرَمِه تعالَى؛ للمُبالَغةِ في المنعِ عنِ الاغترارِ؛ فإنَّ مَحْضَ الكرَمِ لا يَقتضي إهمالَ الظَّالمِ، وتسويةَ المُوالي والمُعادِي، والمُطيعِ والعاصي؛ فهو للإيذانِ بأنَّه ليس ممَّا يَصلُحُ أنْ يَكونَ مَدارًا لاغترارِه؛ يُغْويه الشَّيطانُ ويَقولُ له: افعَلْ ما شِئتَ؛ فإنَّ رَبَّك كَريمٌ، قد تَفضَّلَ عليْك في الدُّنيا، وسيَفعَلُ مِثْلَه في الآخِرةِ، ولا يُعذِّبُ أحدًا ولا يُعاجِلُ بالعقوبةِ؛ فإنَّه قِياسٌ عَقيمٌ، وتَمنيةٌ باطِلةٌ، بل هو ممَّا يُوجِبُ المبالَغةَ في الإقْبالِ على الإيمانِ والطَّاعةِ، والاجتِنابِ عن الكُفرِ والعِصيانِ، كأنَّه قيلَ: ما حَمَلَك على عِصيانِ رَبِّك المَوصوفِ بالصِّفاتِ الزَّاجِرةِ عنه الدَّاعِيةِ إلى خِلافِه؟! فهو تَعْييرٌ وتَوبيخٌ، وليس بإطْماعٍ؛ فالدَّلالةُ على كَثرةِ كرَمِه تَستدعِي الجِدَّ في طاعتِه، لا الانهماكَ في عِصيانِه اغترارًا بكَرمِه[٢].

- وقولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ صِفةٌ ثانيةٌ مُقرِّرةٌ للرُّبوبيَّةِ، مُبيِّنةٌ للكَرَمِ، مُنبِّهةٌ على أنَّ مَن قَدَرَ على ذلك بَدْءًا قَدَرَ عليه إعادةً[٣].

- والوَصفُ الثَّالثُ الَّذي تَضمَّنَتْه الصِّلةُ ﴿فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ﴾ جامِعٌ لكَثيرٍ ممَّا يُؤذِنُ به الوَصْفانِ الأوَّلانِ ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾؛ فإنَّ الخَلْقَ والتَّسويةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢٣، ٣٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٥). ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٣٨٥-٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١).

والتَّعديلَ وتَحسينَ الصُّورةِ مِن الرِّفْقِ بالمَخلوقِ، وهي نِعَمٌ عليه، وجَميعُ ذلك تَعريضٌ بالتَّوبيخِ على كُفرانِ نِعمتِه بعِبادةِ غَيرِه[١].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ فيه تَعدادُ الصِّلاتِ وإنْ كان بَعضُها قد يُغْني عن ذِكرِ بعضٍ؛ فإنَّ التَّسويةَ حالةٌ مِن حالاتِ الخَلْقِ، وقد يُغْني ذِكرُها عن ذِكرِ الخَلْقِ، كقولِه: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، ولكنْ قُصِدَ إظْهارُ مَراتبِ النِّعمةِ، وهذا مِن الإطْنابِ المَقصودِ به التَّذْكيرُ بكُلِّ صِلةٍ، والتَّوقيفُ عليْها بخُصوصِها، ومِن مُقتَضياتِ الإطْنابِ مَقامُ التَّوبيخِ[٢].

- وفُرِّعَ فِعلُ (سَوَّاكَ) على ﴿خَلَقَكَ﴾، وفِعلُ (عَدَلَكَ) على (سَوَّاكَ) تَفْريعًا في الذِّكرِ؛ نَظَرًا إلى كَونِ مَعانيها مُترتِّبةً في اعتِبارِ المُعتبِرِ، وإنْ كان جَميعًا حاصِلًا في وَقتٍ واحِدٍ؛ إذ هي أطْوارُ التَّكْوينِ مِن حِينِ كَونِه مُضْغةً إلى تَمامِ خَلْقِه، فكان للفاءِ في عَطفِها أحسَنُ وَقْعٍ[٣].

- قولُه: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ قُرِئَ بتَشْديدِ الدَّالِ، وقُرِئَ بتَخفيفِها، وهُما مُتَقاربان، إلَّا أنَّ التَّشْديدَ يَدُلُّ على المُبالَغةِ في العَدْلِ -أي: التَّسويةِ- فيُفيدُ إتْقانَ الصُّنْعِ[٤].

- والاستِفهامُ ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ﴾ مُرادٌ به الكِنايةُ عن التَّعجُّبِ أو التَّعجيبِ مِن شأْنِ ما أُضِيفتْ إليه (أيّ)؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا بلَغَ مِن الكَمالِ والعظَمةِ مَبلغًا قَويًّا يُتساءلُ عنه، ويُستفَهمُ عن شأْنِه، ومِن هنا نشَأَ معْنى دَلالةِ (أيّ) على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم في القراءاتِ ذاتِ الأثرِ في التَّفسيرِ (ص: ٣٧٨).

الكَمالِ[١].

- قولُه: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾، أي: في صُورةٍ أيِّ صورةٍ، أي: في صُورةٍ كامِلةٍ بَديعةٍ[٢].

- وحرفُ (فِي) للظَّرفيَّةِ الَّتي هي بمَعنى المُلابَسةِ، أي: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ مُلابِسًا صُورةً عَجيبةً، فمَحَلُّ ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾ مَحَلُّ الحالِ مِن (كافِ) الخِطابِ، وعامِلُ الحالِ (عَدَلَكَ)، أو (رَكَّبَكَ)، فجُعِلَتِ الصُّورةُ العَجيبةُ كالظَّرفِ للمُصوَّرِ بها؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِها مِن مَوصوفِها[٣].

- وقولُه: ﴿مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ بَيانٌ؛ فإنَّه لَمَّا قيلَ: ﴿فَعَدَلَكَ * فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾ على التَّعجُّبِ والتَّنكيرِ للتَّفخيمِ، قيلَ: ما ذلك التَّعديلُ المُفخَّمُ، العَجيبُ الشَّأنِ؟ وأُجيبَ: لا يُحيطُ الوَصفُ بذلك؛ فإنَّه كما شاءَ اللهُ رَكَّبَك، ولا يَعلَمُ ذلك إلَّا هو[٤].

- و(مَا) يَجوزُ أنْ تَكونَ مَوصولةً، ماصَدَقَها[٥]: تَركيبٌ، وهي في مَوضِعِ نَصبٍ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ، و(شَاءَ) صِلةُ (مَا)، والعائِدُ مَحذوفٌ، تَقديرُه: شاءَه، والمَعنى: رَكَّبَك التَّركيبَ الَّذي شاءَه. وعُدِلَ عن التَّصريحِ بمَصدَرِ ﴿رَكَّبَكَ﴾ إلى إبهامِه بـ (ما) المَوصولةِ؛ للدَّلالةِ على تَفْخيمِ المَوصولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٧).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٨).

بـ(ما) في صِلَتِه مِن المَشيئةِ المُسنَدةِ إلى ضَميرِ الرَّبِّ الخَالِقِ المُبدِعِ الحَكيمِ، وناهيكَ بِها. ويَجوزُ أنْ تَكونَ جُملةُ ﴿شَآءَ﴾ صِفةً لـ﴿صُورَةٍ﴾، والرَّابطُ مَحذوفٌ، و(مَا) مَزيدةٌ للتَّأكيدِ، والتَّقديرُ: في صورةٍ عَظيمةٍ شاءَها مَشيئةً مُعيَّنةً، أي: عن تَدبيرٍ وتَقديرٍ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾

- و﴿كَلَّا﴾ ردْعٌ عن الاغترارِ بكرَمِ اللهِ تعالَى، وجعْلِه ذَريعةً إلى الكُفرِ والمعاصِي، مع كَونِه مُوجِبًا للشُّكرِ والطَّاعةِ، وقولُه: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ إضْرابٌ عن جُملةٍ مُقدَّرةٍ يَنْساقُ إليها الكَلامُ، كأنَّه قيلَ بعْدَ الرَّدْعِ بطَريقِ الاعتِراضِ: وأنتم لا تَرتَدِعون عن ذلك، بل تَجترِئون على أَعظَمَ مِن ذلك، حيثُ تُكَذِّبون بالجَزاءِ والبَعثِ رأْسًا، أو بدِينِ الإسلامِ الَّذي هُمَا مِن جُملةِ أحْكامِه، فلا تُصدِّقون سُؤالًا ولا جَوابًا، ولا ثَوابًا ولا عِقابًا. وقيلَ: كأنَّه قيلَ: إنَّكم لا تَستَقيمون على ما تُوجِبُه نِعَمي عليْكم، وإرْشادي لكُم، بل تُكذِّبون... إلخ. وقيلَ: ليس الأمرُ كما تَقولون مِن أنَّه لا بَعثَ ولا نُشورَ، ثمَّ قيلَ: أنتم لا تَتَبيَّنون بهذا البَيانِ، بل تُكذِّبون بيَومِ الدِّينِ. وقولُه: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ فيه تَرَقٍّ مِن الأَهوَنِ إلى الأَغلَظِ(٢).

وقيل: ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ عمَّا هو غُرورٌ باللهِ، أو كالغُرورِ، ممَّا تَضمَّنَه قولُه: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] مِن حُصولِ ما يَغُرُّ الإنسانَ بالشِّركِ، ومِن إعْراضِه عن نِعَمِ اللهِ تعالى بالكُفرِ، أو مِن كَونِ حالةِ المُشرِكِ كحالةِ المَغرورِ، والمَعنى:

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١).

إشْراكُك بخالِقِك باطِلٌ، وهو غُرورٌ، أو كالغُرورِ، ويكون قولُه: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ بعدَ ﴿كَلَّا﴾ إضْرابًا انتِقاليًّا مِن غَرَضِ التَّوبيخِ والزَّجرِ على الكُفرِ إلى ذِكرِ جُرْمٍ فَظيعٍ آخَرَ، وهو التَّكذيبُ بالبَعثِ والجَزاءِ، ويَشملُه التَّوبيخُ بالزَّجرِ بسَببِ أنَّه مَعطوفٌ على تَوبيخٍ وزَجْرٍ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿كَلَّا﴾ إبْطالًا لوُجودِ ما يَغُرُّ الإنسانَ أنْ يُشرِكَ باللهِ، أي: لا عُذرَ للإنسانِ في الإشراكِ باللهِ؛ إذ لا يُوجَدُ ما يَغُرُّه به، ويَكونَ قولُه: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ إضْرابًا إبْطاليًّا، وما بعْدَ ﴿بَلْ﴾ بَيانًا لِما جَرَّأَهم على الإشراكِ، وأنَّه ليس غُرورًا[١].

- وفي صِيغةِ المُضارعِ مِن قولِه: ﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ إفادةُ أنَّ تَكذيبَهم بالجَزاءِ مُتَجدِّدٌ لا يُقلِعون عنه، وهو سَببُ استِمرارِ كُفرِهم. وفي المُضارعِ أيضًا استِحضارُ حالةِ هذا التَّكذيبِ استِحضارًا يَقتَضي التَّعجيبَ مِن تَكذيبِهم؛ لأنَّ معهم مِن الدَّلائلِ ما حَقُّه أنْ يقلِعَ تَكذيبَهم بالجَزاءِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]؛ تَأكيدًا لثُبوتِ الجزاءِ على الأعمالِ. وأُكِّدَ الكلامُ بحرْفِ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ لأنَّهم يُنكِرون ذلك إنكارًا قويًّا[٣].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ تَحقيقٌ لِما يُكذِّبون به مِن الجَزاءِ، ومُفيدٌ لبُطلانِ تَكذيبِهم، يعني: أنَّكم تُكذِّبون بالجزاءِ، والكاتِبون يَكتُبون عليكم أعمالَكُم لتُجازَوا بها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١).

- و﴿لَحَٰفِظِينَ﴾ صِفةٌ لمَحذوفٍ، تَقديرُه: لَمَلائكةً حافِظينَ، أي: مُحْصينَ غيرَ مُضيِّعينَ لشَيءٍ مِن أعمالِكُم(١).

- وجُمِعَ الملائكةُ باعتِبارِ التَّوزيعِ على النَّاسِ، وإنَّما لكلِّ أحدٍ مَلَكانِ؛ قال تعالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٢) [ق: ١٧، ١٨].

- وفيه إنْذارٌ وتَهويلٌ وتَشويرٌ -أي: إخْجالٌ- للعُصاةِ، ولُطْفٌ للمُؤمِنينَ(٣).

- وأيضًا قولُه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ هذا بصَريحِ معناه يُفيدُ كِنايةً عن وُقوعِ الجزاءِ؛ إذ لولا الجزاءُ على الأعمالِ لَكان الاعتناءُ بإحصائِها عبثًا(٤).

- وأُجرِيَ على الملائكةِ الموكَّلينَ بإحصاءِ أعمالِ النَّاسِ أربعةُ أوصافٍ؛ هي: الحِفظُ، والكرَمُ، والكِتابةُ، والعِلمُ بما يَعمَلُه النَّاسُ. وابتُدِئ منها بوصْفِ الحِفظِ؛ لأنَّه الغرَضُ الَّذي سِيقَ مِن أجْلِه الكلامُ، الَّذي هو إثباتُ الجزاءِ على جَميعِ الأعمالِ، ثمَّ ذُكِرَت بعْدَه صِفاتٌ ثلاثٌ بها كَمالُ الحِفظِ والإحْصاءِ، وفيها تَنويهٌ بشَأنِ الملائكةِ الحافظينَ(٥).

- والحِفظُ هنا بمعْنى الرِّعايةِ والمراقبةِ، وهو بهذا المعْنى يَتعدَّى إلى المعمولِ بحرْفِ الجرِّ، وهو (على)؛ لتَضمُّنِه معْنى المراقبةِ. والحَفيظُ: الرَّقيبُ؛ قال تعالَى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦]. وهذا الاستِعمالُ هو غيرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) .
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٧١٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

استِعمالِ الحِفظِ المعدَّى إلى المفعولِ بنفْسِه؛ فإنَّه بمعْنى الحِراسةِ، نحْو قولِه: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]؛ فالحِفظُ بهذا الإطلاقِ يَجمَعُ مَعنى الرِّعايةِ والقِيامِ على ما يُوكَلُ إلى الحَفيظِ، والأمانةِ على ما يُوكَلُ إليه، وحرْفُ (على) فيه للاستِعلاءِ؛ لتَضَمُّنِه مَعنى الرِّقابةِ والسُّلطةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٧٠).

الآيات (١٢-١٩)

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾: أي: المؤمنينَ، الصَّادِقينَ في إيمانِهم، المُطيعينَ لرَبِّهم، قيل: أصلُ (برر) هنا: الصِّدْقُ، يُقالُ: يَبَرُّ رَبَّه، أي: يُطيعُه، وهو مِنَ الصِّدقِ. وقيل: لَمَّا كان البَرُّ خِلافَ البحرِ، وتُصُوِّرَ منه التَّوسُّعُ، اشتُقَّ منه البِرُّ، وهو التَّوسُّعُ في فِعلِ الخَيرِ، ويُقالُ: بَرَّ العبدُ ربَّه، أي: توسَّع في طاعتِه، وأصلُ (برر) هنا -على ذلك-: خلافُ البحرِ[1].

﴿ٱلۡفُجَّارَ﴾: أي: الكفَّارَ، جمعُ فاجِرٍ، وهو المُنْبَعِثُ في المعاصي والمحارِمِ، يُقالُ: فَجَرَ يَفْجُرُ فُجُورًا، فهو فاجِرٌ، والفُجورُ: الانبِعاثُ والتَّفَتُّحُ في المعاصي، وأصلُ (فجر): التَّفَتُّحُ في الشَّيءِ. وقيل: الفَجْرُ: شَقُّ الشَّيءِ شَقًّا واسعًا، والفُجورُ: شَقُّ سِتْرِ الدِّيانةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٠٤).

وكلمة الأبرارُ قيل: هي جمعُ برٍّ، وقيل: جمعُ بارٍّ، وقيل: هي جمعُ برٍّ -كنَهْرٍ وأنْهارٍ، وجَدٍّ وأجدادٍ-، وجمعُ بارٍّ، كصاحِبٍ وأصحابٍ، وشاهِدٍ وأشْهادٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٥٨٨)، ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (٣/ ١٠٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥، ٦٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٧)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٤١٣).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾

﴿يَوۡمَ﴾ بالفَتحِ، وهي فتحةُ إعرابٍ؛ لإضافتِه إلى فِعلٍ مُعرَبٍ، ونصبُه على المفعوليَّةِ بإضمارِ (أعني) أو (اذكُرْ)، أو مَنصوبٌ على الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ على تقديرِ (يُجازَوْن)، أو (يُدانُونَ). أو هو مَنصوبٌ على البَدَلِ مِن «يَوْمَ» في قَولِه تعالى: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾. وقيل: فَتْحَتُه فتحةُ بناءٍ على رأيِ الكُوفيِّينَ، وحينَئذٍ يكونُ خَبَرَ مُبتدَأٍ محذوفٍ، أي: هو يومَ لا تملِكُ. وبُنيَ لإضافتِه إلى الفِعلِ «تَمْلِكُ» وإنْ كان مُعرَبًا، أو هو مبنيٌّ في محَلِّ رَفعٍ على البَدَلِ مِن «يَوْمُ» الَّذي قَبلَه في قَولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ النَّاسِ يومَ القيامةِ: إنَّ المؤمنينَ الطَّائِعينَ لَفِي جَنَّةٍ يَتنَعَّمونَ فيها، وإنَّ الكُفَّارَ العُصاةَ لَفِي نارِ الجَحيمِ، يَدخُلونَها ويُقاسُونَ حَرَّها يومَ الحِسابِ والجَزاءِ، وما هم بخارِجينَ منها، بل هم مُلازِمونَ لها أبَدًا.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا شدَّةَ هَولِ يَومِ القيامةِ: وما أعلَمَك ما يَومُ الحِسابِ والجَزاءِ، ثمَّ ما أعلَمَك بحقيقةِ ذلك اليَومِ العَظيمِ المَهُولِ؟!

ذلك اليَومُ الَّذي لا يَملِكُ فيه أحَدٌ نَفْعًا لِغَيرِه، ولا إنقاذَه مِمَّا هو فيه، والمُلْكُ والتَّصَرُّفُ يومَئذٍ للهِ وَحْدَه.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي بن أبي طالب (٢/ ٨٠٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧١٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٧١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَف تعالى الكِرامَ الكاتِبينَ لأعمالِ العِبادِ؛ ذكَرَ أحوالَ العامِلينَ، وقَسَّمَهم قِسمَينِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كانت نتيجةُ حِفظِ الأعمالِ الجَزاءَ عليها؛ أنتَجَ ذلك بيانَ ما كانت الكتابةُ مِن أَجْلِه؛ تفريقًا بيْنَ المحسِنِ والمُسيءِ، الَّذي لا يَصِحُّ في حِكمةِ حَكيمٍ ولا كَرَمِ كَريمٍ غَيرُه، بقَولِه على سبيلِ التَّأكيدِ مِن أجْلِ تكذيبِهم[(٢)]:

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣﴾.

أي: إنَّ المؤمِنينَ الطَّائِعينَ الملازِمينَ لِفعلِ الخَيراتِ وأعمالِ البِرِّ والإحسانِ: لَفِي جَنَّةٍ يَتنَعَّمونَ فيها[(٣)].

﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤﴾.

أي: وإنَّ الكُفَّارَ العُصاةَ الَّذين قَصَّروا في حُقوقِ اللهِ تعالى وحُقوقِ عِبادِه: لَفِي نارٍ شَديدةِ التَّوَقُّدِ والتَّأجُّجِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩١).

﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان السِّياقُ للتَّرهيبِ؛ وَصَف عَذابَ الفُجَّارِ، فقال[١]:

﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾.

أي: يُغمَسونَ فيها فيُباشِرونَ حرَّها، ويحترِقونَ بنارِها يومَ الحِسابِ والجَزاءِ على الأعمالِ، وهو يومُ القيامةِ[٢].

﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان العَذابُ على ما نَعْهَدُه لا بُدَّ أن يَنقَضِيَ؛ بَيَّن أنَّ عَذابَه على غَيرِ ذلك[٣]، فقال:

﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾.

أي: وما هم بخارِجينَ منها، بل هم مُلازِمونَ لها أبَدًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩١).

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤ - ٧٧].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عُلِمَ أنَّ الوعيدَ الأعظَمَ يومَ الدِّينِ، هَوَّل أمْرَه بالسُّؤالِ عنه إعلامًا بأنَّه أهلٌ لأن يُصرَفَ العُمُرُ إلى الاعتناءِ بأمرِه، والسُّؤالِ عن حقيقةِ حالِه سؤالَ إيمانٍ وإذعانٍ، لا سؤالَ كُفرانٍ وطُغيانٍ؛ لِيَكونَ أقعَدَ في الوَعيدِ به، فقال[1]:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾﴾.

أي: قال اللهُ تعالى مُعَظِّمًا ومُهَوِّلًا شأنَ يومِ القيامةِ: وما أعلَمَك[2] بحقيقةِ ذلك اليومِ الَّذي يُحاسَبُ فيه النَّاسُ على أعمالِهم، ويُجازَونَ بحَسَبِها[3]؟!

﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨).

(٢) قال الرازي: (الأكثَرونَ: أنَّه خِطابٌ للرَّسولِ، وإنَّما خاطبه بذلك؛ لأنَّه ما كان عالِمًا بذلك قبْلَ الوَحْيِ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٠).

ومِمَّن قال بأنَّ الخِطابَ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٠٧).

ومِمَّن قال بأنَّ الخِطابَ عامٌّ لكُلِّ إنسانٍ: الألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٧١).

قال القاسمي: (الخِطابُ للإنسانِ المتقَدِّمِ أوَّلَ السُّورةِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٣).

قال السمرقندي: (يعني: كيف تَعلَمُ حقيقةَ ذلك اليومِ ولم تُعايِنْه؟). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٥).

وقال ابن عاشور: (المقصودُ أنَّه لا تَصِلُ إلى كُنْهِه دِرايةُ دارٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت أهوالُه زائدةً على الحَدِّ؛ كَرَّر ذلك السُّؤالَ لذلك الحالِ[١].

﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾.

أي: ثمَّ ما أعلَمَك بحقيقةِ ذلك اليومِ العَظيمِ المَهُولِ[٢]؟!

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾.

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: يومَ لا يَملِكُ فيه أحَدٌ نَفْعًا لِغَيرِه، ولا إنقاذَه مِمَّا هو فيه[٣]!

كما قال تعالى: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان: ٤١].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يا بَنِي هاشِمٍ، أنقِذُوا أنفُسَكم مِن النَّارِ، يا بَنِي عبدِ المُطَّلِبِ، أنقِذُوا أنفُسَكم مِنَ النَّارِ، يا فاطِمةُ، أنقِذي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ؛ فإنِّي لا أملِكُ لكم مِنَ اللهِ شَيئًا))[(١)].

﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾.

أي: المُلْكُ والتَّصَرُّفُ يومَ القيامةِ لله وَحْدَه، لا يُنازِعُه فيه أَحَدٌ مِن خَلْقِه، فهو وَحْدَه الَّذي يُحاسِبُ الخلائِقَ، ويُجازيهم بأعمالِهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ مِن طريقةِ القُرآنِ الكريمِ التَّصريحُ بذِكْرِ ثوابِ الأبرارِ والمتَّقينَ، والمُخلِصين والمحسِنينَ، ومَن رَجَحَتْ حسناتُهم، وبذِكْرِ عِقابِ الكُفَّارِ والفُجَّارِ، والظَّالِمينَ لأَنْفُسِهم، ومَن خَفَّتْ موازينُهم، ويَسكُتُ عن القِسْمِ الَّذي فيه شائبتانِ، وله مادَّتانِ؛ هذه طريقةُ القرآنِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى

(١) رواه البخاريُّ (٤٧٧١)، ومسلمٌ (٢٠٤) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٥).

ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١]، وهذا كثيرٌ في القرآنِ. قالوا: وفي السُّكوتِ عن شأنِ صاحِبِ الشَّائبتَينِ تحذيرٌ عظيمٌ وتخويفٌ له بأنَّ أمْرَه مُرْجَأٌ إلى اللهِ تعالى، وليس له عليه ضَمانٌ، ولا له عِندَه وَعْدٌ، فلْيَحْذَرْ كلَّ الحذرِ، ولْيُبادِرْ بالتَّوبةِ النَّصوحِ الَّتي تُلْحِقُه بالمضمونِ لهم النَّجاةُ والفَلاحُ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ تهديدٌ عَظيمٌ للعُصاةِ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۞ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ فيه خِطابُ أعلَمِ الخَلقِ -على قولٍ في التَّفسيرِ- بأنَّه لم يُحِطْ بكُنْهِ ذلك اليَومِ، وكُرِّر ذلك، وأُوثِرَ (ثُمَّ) للتَّراخي رُتبةً؛ إشارةً إلى أنَّه مهما ترَقَّى في العِلمِ لم يَبلُغْ ذلك[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾ إشارةٌ أنَّ بِرَّ القَلْبِ يُوجِبُ نعيمَ الدُّنيا[٤].

٢- أنَّ لَفْظَ (الأبرارِ) إذا أُطْلِقَ دَخَلَ فيه كُلُّ تَقِيٍّ مِن السَّابقِينَ والمقتَصِدينَ، وإذا قُرِنَ بالمقرَّبينَ كان أخَصَّ؛ قال تعالى في الأوَّلِ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۞ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾، وقال في الثَّاني: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٢٧٠).

وذكر ابنُ القيِّم أنَّ هذا قد يُقالُ: إنَّه مُرادٌ مِن النَّعيمِ الأكبرِ، وقد يقالُ: إنَّه مفهومٌ بإشارةِ الآيةِ، ثمَّ قال عن الثَّاني: (وهو أظهَرُ). ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧١).

عِلِّيُّونَ ۞ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٞ ۞ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾[1] [المطففين: ١٨ - ٢١].

٣- لَفظُ البِرِّ إذا أُطْلِقَ تَناوَلَ جميعَ ما أَمَرَ اللهُ به، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾، وقَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقَولِه: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فالبِرُّ إذا أُطلِقَ كان مُسَمَّاه مُسَمَّى التَّقوى، والتَّقوى إذا أُطلِقَت كان مُسَمَّاها مُسَمَّى البِرِّ، ثمَّ قد يُجمَعُ بيْنَهما، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾[2] [المائدة: ٢].

٤- قُلوبُ أهلِ البِدَعِ والمُعْرِضِينَ عن القُرآنِ، وأهلِ الغَفْلةِ عن اللهِ، وأهلِ المعاصي: في جَحيمٍ قبْلَ الجَحيمِ الأكبرِ، وقُلوبُ الأبرارِ في نَعيمٍ قبْلَ النَّعيمِ الأكبَرِ؛ ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾، وهذا في دُورِهم الثَّلاثِ -الدُّنيا، والبَرْزخِ، والآخرةِ-؛ ليس مختصًّا بالدَّارِ الآخرةِ، وإنْ كان تمامُه وكمالُه وظهورُه إنَّما هو في الدَّارِ الآخِرةِ، وفي البَرزخِ دُونَ ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٣٣).

قال ابن رجب: (وإذا قُرِنَ البِرُّ بالتَّقْوى، كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، فقَدْ يكونُ المُرادُ بالبِرِّ مُعامَلةَ الخَلقِ بالإحسانِ، وبالتَّقْوى: مُعامَلةَ الحقِّ بفعلِ طاعَتِه، واجْتِنابِ مُحَرَّماتِه، وقد يكونُ أُريدَ بالبِرِّ فِعْلُ الواجِباتِ، وبالتَّقْوى: اجْتِنابُ المُحَرَّماتِ). ((جامع العلوم والحكم)) (٢/ ٩٨).

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [النمل: ٧١، ٧٢]، وفي هذه الدَّارِ دونَ ما في البَرزخِ، ولكِنْ يَمْنَعُ مِن الإحساسِ به الاستِغراقُ في سَكْرةِ الشَّهَواتِ، وطَرحُ ذلك عن القَلبِ، وعدَمُ التَّفَكُّرِ فيه[١]؛ فلا تَحسَبْ أنَّ قَولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ مقصورٌ على نعيمِ الآخِرةِ وجَحيمِها فقط، بل في دُورِهِم الثَّلاثةِ كذلك، فهؤلاء في نعيمٍ، وهؤلاء في جحيمٍ، وهل النَّعيمُ إلَّا نَعيمُ القَلبِ؟ وهل العَذابُ إلَّا عذابُ القَلْبِ؟ وأيُّ عذابٍ أشَدُّ مِنَ الخَوفِ والهَمِّ والحَزَنِ، وضِيقِ الصَّدرِ، وإعراضِه عن اللهِ والدَّارِ الآخِرةِ، وتعَلُّقِه بغيرِ اللهِ، وانقِطاعِه عن اللهِ، بكُلِّ وادٍ منه شُعبةٌ، وكُلُّ شَيءٍ تعَلَّقَ به وأحَبَّه مِن دونِ اللهِ فإنَّه يَسومُه سُوءَ العَذابِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ إشارةٌ أنَّ فُجورَ القَلبِ يُوجِبُ جَحيمَ الدُّنيا[٣].

٦- أنَّ اسمَ الفاجِرِ في عُرْفِ القُرآنِ والسُّنَّةِ يَتناوَلُ الكافِرَ قَطْعًا، كقَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ دليلٌ مِن أدِلَّةِ خُلودِ الكُفَّارِ في النَّارِ[٥]، والمرادُ بالفُجَّارِ هنا: المُشرِكونَ؛ فهم لا يَغيبونَ عن النَّارِ طَرْفةَ عَينٍ، وذلك هو

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٦).

(٣) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٢٧٠).

وذكر ابنُ القيِّمِ أنَّ هذا قد يُقالُ: إنَّه مرادٌ مِن الجحيمِ الأكبَرِ، وقد يقالُ: إنَّه مفهومٌ بإشارةِ الآيةِ، ثمَّ قال عن الثَّاني: (وهو أظهَرُ). ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٨٥).

(٥) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥١).

الخُلودُ، ونحن -أهلَ السُّنَّةِ- لا نَعتَقِدُ الخُلودَ في النَّارِ لغيرِ الكافِرِ، فأمَّا عُصاةُ المؤمِنينَ فلا يُخَلَّدونَ في النَّارِ، وإلَّا لَبَطَلَتْ فائدةُ الإيمانِ(١).

٨- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ كلُّ موضعٍ في القرآنِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد عُقِّب ببيانِه؛ نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ * نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ [القارعة: ١٠، ١١]، وكلُّ موضعٍ ذُكِر بلَفظِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ لم يُعقَّبْ ببيانِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾(٢) [الشورى: ١٧].

٩- قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ و﴿شَيۡـٔٗا﴾ اسمٌ يدُلُّ على جِنسِ المَوجودِ، والمَعنى: لا تَملِكُ نفْسٌ لِنَفْسٍ شَيئًا يُغْني عنها ويَنفَعُها، أي: ليس في قُدرَتِها شَيءٌ يَنفَعُ نفْسًا أُخْرى، وهذا يُفيدُ تأْييسَ المُشرِكين مِن أنْ تَنفَعَهم أصْنامُهم يومَئذٍ، كما قال تعالَى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾(٣) [الأنعام: ٩٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ سُؤالٌ: كيف قال ذلك، مع أنَّ النُّفوسَ المقبولةَ الشَّفاعةِ تَملِكُ لِمَن شَفَعَت فيه شيئًا، وهو الشَّفاعةُ؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٩٧).

وقال الفَرَّاءُ: (كلُّ ما كان في القرآنِ مِن قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وما كان مِن قولِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُدْرِه). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٨٠).

وأخرج ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ٢٠٧) بسندِه عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، قال: (ما في القرآنِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُخبِرْه، وما كان: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبَرَه). وأخرجه أيضًا ابنُ المُنذِرِ وابنُ أبي حاتم، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٥).

الجوابُ: أنَّ المنفيَّ ثُبوتُ المُلْكِ بالسَّلْطَنة، والشَّفاعةُ ليست بطَريقِ السَّلْطَنة؛ فلا تدخُلُ في النَّفْي، ويُؤَيِّدُه قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[1]. فهي لا تَملِكُ ذلك استقلالًا، وإنَّما يكونُ ذلك بعدَ إذْنِ الله ومَشيئتِه.

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ سؤالٌ: أنَّ ظاهِرَ هذه الآيةِ تقييدُ الأمرِ بالظَّرفِ المذكورِ، ولكِنَّ الأمرَ لله في ذلك اليومِ وقبْلَ ذلك اليَومِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، وقَولِه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] أي: يتصَرَّفُ في خَلْقِه بما يَشاءُ مِن أمْرِه لا يَشرَكُه أحَدٌ كما لا يَشرَكُه أحَدٌ في خَلْقِه. فما وَجهُ التَّخصيصِ بيومِ القيامةِ؟

والجوابُ: أنَّ الأمرَ للهِ تعالى في يومِ القيامةِ وفيما قَبْلَه، والمُلْكُ لله في الدُّنيا وفي الآخِرةِ، لكِنَّ ظهورَ مَلَكوتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ وأمْرِه في ذلك اليومِ أكثرُ بكثيرٍ مِن ظهورِ ملَكوتِ الله وأمْرِه في الدُّنيا، فلا أمْرَ مع أمْرِه، ولا متقَدِّمَ عليه، حتَّى ولا بكَلِمةٍ، إلَّا مَن أَذِنَ له الرَّحمنُ وقال صَوابًا، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فيتبَيَّنُ في ذلك اليومِ أنَّه ليس هناك آمِرٌ في ذلك اليَومِ إلَّا اللهُ عزَّ وجَلَّ[2].

وأيضًا فالأمرُ إذا كان إلى اللهِ وحْدَه في ذلك اليومِ العظيمِ، فما دُونَه أَولى.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ فُصِلَتْ هذه الجُملةُ عن الَّتي قبْلَها؛ لأنَّها

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٢).

استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابٌ عن سُؤالٍ يَخطُرُ في نفْسِ السَّامِعِ يُثيرُه قولُه: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ٩، ١٠] الآيةَ؛ لتَشوُّفِ النَّفْسِ إلى مَعرِفةِ هذا الجَزاءِ: ما هو؟ وإلى مَعرفةِ غايةِ إقامةِ المَلائكةِ لإحْصاءِ الأعْمالِ: ما هيَ؟ فبَيَّنَ ذلك بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ الآيةَ. وأيضًا تَتضمَّنُ هذه الجُملةُ تَقسيمَ أصحابِ الأعمالِ؛ فهي تَفصيلٌ لجُملةِ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢]، وذلك مِن مُقتضَياتِ فَصْلِ الجُملةِ عن الَّتي قبْلَها[١]. فقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ نَتيجةِ الحِفظِ والكِتابِ مِن الثَّوابِ والعِقابِ[٢].

- وجِيءَ بالكَلامِ مُؤكَّدًا بـ(إنَّ) ولامِ الابتِداءِ؛ ليُساويَ البَيانُ مُبيِّنَه في التَّحقيقِ ودَفْعِ الإنْكارِ[٣].

- والظَّرفيَّةُ مِن قولِه: (فِي نَعِيمٍ) تُفيدُ تَشبيهَ دَوامِ التَّنعُّمِ لهم بإحاطةِ الظَّرفِ بالمَظروفِ بحَيثُ لا يُفارِقُه[٤].

- وكُرِّرَ التَّأكيدُ مع الجُملةِ المَعطوفةِ ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾؛ للاهتِمامِ بتَحقيقِ كَونِهم في جَحيمٍ، لا يَطْمَعون في مُفارَقتِه[٥].

- وفي تَنكيرِ النَّعيمِ والجَحيمِ مِن التَّفخيمِ والتَّهويلِ ما لا يَخْفى[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٨٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢).

- قولُه: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ إمَّا صِفةٌ لـ﴿جَحِيمٍ﴾، أو استِئنافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نَشَأَ مِن تَهويلِها، كأنَّه قيلَ: ما حالُهم فيها؟ فقيلَ: يُقاسون حَرَّها[١].

- و﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ ظَرفٌ لـ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾، وذُكِرَ لبَيانِ أنَّهم يَصْلَونها جَزاءً عن فُجورِهم؛ لأنَّ الدِّينَ الجَزاءُ، ويومَ الدِّينِ يومُ الجَزاءِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾، أي: لا يَغيبون عنها طَرْفةَ عَينٍ؛ فإنَّ المُرادَ دَوامُ نَفيِ الغَيبةِ، لا نَفيُ دَوامِ الغَيبةِ؛ لأنَّ الجُملةَ الاسميَّةَ المَنفيَّةَ قد يُرادُ بها استِمرارُ النَّفيِ، لا نَفيُ الاستِمرارِ، باعتِبارِ ما تُفيدُه مِن الدَّوامِ والثَّباتِ بعْدَ النَّفيِ لا قبْلَه[٣]، فجِيءَ بالجُملةِ ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾ اسميَّةً دُون أنْ يُقالَ: (وما يَغيبون عنها)، أو (وما يُفارِقونها)؛ لإفادةِ الاسميَّةِ الثَّباتَ، سَواء في الإثْباتِ أو النَّفيِ؛ فالثَّباتُ حالةٌ للنِّسبةِ الخَبريَّةِ، سَواءٌ كانت نِسبةَ إثْباتٍ أو نِسبةَ نَفيٍ، وزِيادةُ الباءِ لتأكيدِ النَّفيِ[٤].

- وتَقديمُ ﴿عَنۡهَا﴾ على مُتَعلَّقِه؛ للاهتِمامِ بالمَجرورِ، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ تَفخيمٌ لِشأْنِ وهَوْلِ يومِ الدِّينِ الَّذي يُكذِّبون به، إثْرَ تَفخيمٍ وتَهويلٍ لأمْرِه بعْدَ تَهويلٍ، وكَيْفَما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَصوَّرْتَه فهو فَوقَ ذلك وعلى أضْعافِه[١].

وقيل: الاستِفهامُ الأوَّلُ مُستعمَلٌ كِنايةً عن تَعظيمِ أمْرِ اليَومِ وتَهويلِه، والاستِفهامُ الثَّاني مُستعمَلٌ في معناهُ، أي: سؤالِ سائِلٍ عن حَقيقةِ يومِ الدِّينِ، كما تَقولُ: عَلِمْتَ هلْ زَيدٌ قائمٌ؟ أي: عَلِمْتَ جَوابَ هذا السُّؤالِ، ومِثلُ هذا التَّركيبِ ممَّا جَرى مَجْرى المَثَلِ، فلا يُغيَّرُ لَفْظُه[٢].

وقيل: قولُه: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ تكريرٌ للتَّهويلِ تَكريرًا يُؤْذِنُ بزِيادتِه، أي: تَجاوُزِه حَدَّ الوَصفِ والتَّعبيرِ، فهو مِن التَّوكيدِ اللَّفْظيِّ[٣]. وقيلَ: الأوَّلُ للمُؤمِنينَ، والثَّاني للكُفَّارِ[٤].

- وقَرَنَ هذا بحرفِ (ثُمَّ) الَّذي شأْنُه -إذا عَطَفَ جُملةً على أُخْرى- أنْ يُفيدَ التَّراخيَ الرُّتْبيَّ، أي: تَباعُدَ الرُّتْبةِ في الغَرَضِ المَسوقِ له الكَلامُ، وهي في هذا المَقامِ رُتبةُ العَظَمةِ والتَّهويلِ، فالتَّراخي فيها هو الزِّيادةُ[٥].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ إظْهارُ يومِ الدِّينِ في مَوقِعِ الإضْمارِ، وهو تَأْكيدٌ لهَوْلِه وفَخامتِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٣).

- قولُه: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ بَيانٌ إجْماليٌّ لِشأْنِ يَومِ الدِّينِ إثْرَ إبْهامِه وبَيانِ خُروجِه عن عُلومِ الخَلقِ بطَريقِ إنْجازِ الوَعْدِ؛ فإنَّ نفْيَ إدْرائِهم مُشعِرٌ بالوَعْدِ الكَريمِ بالإدْراءِ[١]؛ فهو بَيانٌ للتَّهويلِ العَظيمِ المُجمَلِ الَّذي أفادَه قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨]؛ إذ التَّهويلُ مَشعِرٌ بحُصولِ ما يَخافُه المُهَوَّلُ لهم، فأُتبِعَ ذلك بزِيادةِ التَّهويلِ مع التَّأييسِ مِن وُجْدانِ نَصيرٍ أو مُعينٍ[٢].

- وعُمومُ (نَفْس) الأُولى والثَّانيةِ في سِياقِ النَّفيِ يَقتَضي عُمومَ الحُكمِ في كُلِّ نفْسٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ تَذييلٌ[٤]؛ والتَّعريفُ في (الأمْر) للاستِغراقِ، والأمرُ هُنا بمَعنى: التَّصرُّفِ والإذْنِ، وهو واحِدُ الأَوامِرِ، أي: لا يأمُرُ إلَّا اللهُ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الأَمرُ مُرادِفًا للشَّيءِ، فتَغييرُ التَّعبيرِ للتَّفنُّنِ، والتَّعريفُ على كِلا الوَجْهَينِ تَعريفُ الجِنسِ المُستَعمَلُ لإرادةِ الاستِغراقِ، فيَعُمُّ كُلَّ الأُمورِ، وبذلك العُمومِ كانتِ الجُملةُ تَذْييلًا[٥].

- أَفادَتْ لامُ الاختِصاصِ في ﴿لِّلَّهِ﴾ -مع عُمومِ الأَمرِ-: أنَّه لا أمْرَ يَومَئذٍ إلَّا للهِ وحْدَه، لا يَصدُرُ مِن غَيرِه فِعلٌ، وليس في هذا التَّركيبِ صِيغةُ حَصْرٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٨٥).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٥).

ولكنَّه آيِلٌ إلى مَعنى الحَصْرِ[١].

- وفي هذا الخِتامِ رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٢]؛ لأنَّ أوَّلَ السُّورةِ ابتُدِئَ بالخَبَرِ عن بَعضِ أحوالِ يَومِ الجَزاءِ، وخُتِمَتِ السُّورةُ ببَعضِ أحوالِه[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٥).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٥).

تَفْسيرُ
سُورَةِ المُطَفِّفينَ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ المُطَفِّفِينَ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المُطَفِّفِينَ)، و﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾[(١)].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ المُطَفِّفِينَ مُختَلَفٌ فيها[(٢)]؛ فقِيلَ: مَكِّيَّةٌ[(٣)]، وقيلَ: مَدَنِيَّةٌ[(٤)].

---

(١) سُمِّيت بذلك؛ لافتِتاحِها بقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٦).

وقال ابنُ عاشور: (سُمِّيَت هذه السُّورةُ في كُتُبِ السُّنَّةِ وفي بعضِ التَّفاسيرِ «سورةَ ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾»، وكذلك ترجَمَها البُخاريُّ في كتابِ التَّفسيرِ مِن «صحيحِه» [«٦/ ١٦٧»]، والتِّرمذيُّ في «جامِعِه» [«٥/ ٤٣٤»]، وسُمِّيَت في كثيرٍ مِن كُتُبِ التَّفسيرِ والمصاحِفِ «سُورةَ المطَفِّفِينَ» اختصارًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٧).

وتسمَّى أيضًا سورةَ التَّطفيفِ. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٥١).

(٣) ممَّن اختار أنَّها مَكِّيَّةٌ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِين، والواحديُّ، والزَّمخشريُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٠).

(٤) ممَّن اختار أنَّها مَدَنِيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والبَغَويُّ، وابنُ كثير، والبِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٦٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٩٩).

قال ابن الجوزيِّ: (فيها ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: أنَّها مكِّيَّةٌ. قاله ابنُ مَسعودٍ، والضَّحَّاكُ، ويحيى بنُ سَلَّام.

والثَّاني: مَدَنِيَّةٌ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والحَسَنُ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، ومُقاتِلٌ، إلَّا أنَّ ابنَ عبَّاسٍ وقَتادةَ قالا: فيها ثماني آياتٍ مَكِّيَّةٌ؛ مِن قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ [المطففين: ٢٩] إلى آخِرِها. وقال مقاتِلٌ: فيها آيةٌ مكِّيَّةٌ، وهي قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: ١٣].

=

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

١- التَّحْذيرُ مِن التَّطْفيفِ[(١)].

٢- الحديثُ عن الفُجَّارِ والأبرارِ، والموازنةُ بيْنَ مصيرِ كلٍّ منهما[(٢)].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- التَّحذيرُ مِن التَّطفيفِ في الكَيلِ والميزانِ، وتوَعُّدُ المطَفِّفينَ، وتذكيرُهم بيَومِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ.

٢- بيانُ سُوءِ عاقِبةِ الفُجَّارِ، وحُسنِ عاقِبةِ الأبرارِ، وبيانُ أنَّ صَحائِفَ أعمالِ الفُجَّارِ فى أسفَلِ سافِلينَ، وصَحائِفَ أعمالِ الأبرارِ فى أعلى عِلِّيِّينَ.

٣- ذِكرُ ما كان يَفعَلُه المُشرِكونَ مع المؤمِنينَ مِن استِهزاءٍ وإيذاءٍ.

٤- تبشيرُ المؤمِنينَ بأنَّهم يومَ القيامةِ سيَضحَكونَ مِن الكُفَّارِ كما ضَحِكَ الكُفَّارُ منهم في الدُّنيا.

= والثَّالثُ: أنَّها نزَلَت بيْن مكَّةَ والمدينةِ. قاله جابرُ بنُ زَيدٍ، وابنُ السَّائِبِ. وذَكَرَ هِبةُ الله بنُ سلامةَ المفسِّرُ أنَّها نزلت في الهِجرةِ بيْن مكَّةَ والمدينةِ، نِصفُها يُقارِبُ مكَّةَ، ونِصفُها يُقارِبُ المدينةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٣). ويُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لهبة الله بن سلامة (ص: ١٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣١٥).

وذكر الإسكافي أنَّ سورةَ المطَفِّفينَ: (مَقصورةٌ على التَّرهيبِ مِن النَّارِ ووَصْفِها ومُعاقَبةِ أهْلِها، وعلى التَّرغيبِ في الجنَّةِ ونَعيمِ أهْلِها؛ ليس في السُّورةِ غيرُ هذَينِ المعنيَينِ). ((درة التنزيل وغرة التأويل)) (ص: ١٣٤٩).

الآيات (١-٦)

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَيْلٌ﴾: أي: عَذابٌ وهَلاكٌ. وقيلَ: وَيلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ[1].

﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾: أي: الَّذين يَنقُصونَ النَّاسَ حُقوقَهم في الكَيْلِ والوَزْنِ، والتَّطفيفُ: النُّقصانُ، أصلُه في الشَّيءِ الطَّفيفِ، وهو النَّزْرُ القليلُ، والمطَفِّفُ إنَّما يأخُذُ بالميزانِ شيئًا طفيفًا، وأصلُ (طفف): يدُلُّ على قِلَّةِ الشَّيءِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨).

قال الراغب: (ومَن قال: وَيْلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ وَيْلًا في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد: مَن قال اللهُ تعالى ذلك فيه فقد استحَقَّ مَقَرًّا من النَّارِ، وثَبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤).

وقال ابنُ عطيَّة: (الوَيلُ في كلامِ العَرَبِ: المصائِبُ والحُزنُ والشِّدَّةُ مِن هذه المعاني، وهي لفظةٌ تُستعمَلُ في الدُّعاءِ على الإنسانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨١).

وقال الشنقيطي: (الأظهرُ أنَّ لفظةَ ﴿وَيْلٌ﴾ كلمةُ عَذابٍ وهلاكٍ، وأنَّها مَصدرٌ لا فِعلَ له مِن لَفظِه، وأنَّ المسَوِّغَ للابتِداءِ بها -مع أنَّها نَكِرةٌ- كَونُها في مَعرِضِ الدُّعاءِ عليهم بالهَلاكِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

قال الزَّجَّاجُ: (والمطَفِّفونَ: الَّذين يَنقُصونَ المِكْيالَ والميزانَ، وإنَّما قيل للفاعِلِ مِن هذا مُطَفِّفٌ؛ لأنَّه لا يَكادُ يَسرِقُ في المِكْيالِ والميزانِ إلَّا الشَّيءَ الحقيرَ الطَّفيفَ، وإنَّما أُخِذَ مِن طَفِّ =

﴿ٱكۡتَالُواْ﴾ ﴿كَالُوهُمۡ﴾: يُقالُ: كِلْتُ فُلانًا: أعطَيْتُه. واكتَلْتُ عليه: أخَذْتُ منه، والاكتيالُ: الأخذُ بالكَيْلِ[1].

﴿يَسۡتَوۡفُونَ﴾: أي: يأخُذونَ حُقوقَهم وافيةً تامَّةً، وأصلُ (وفي): يدُلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالوَعيدِ الشَّديدِ للَّذين يَنقُصونَ في الكَيلِ أو الوَزنِ، فقال تعالى: عَذابٌ وهَلاكٌ للَّذين يَنقُصونَ النَّاسَ حُقوقَهم في المِكْيالِ والمِيزانِ؛ الَّذين إذا اشتَرَوا مِنَ النَّاسِ أخَذُوا حَقَّهم كامِلًا، وإذا كالُوا أو وَزَنوا لغَيرِهم مِن النَّاسِ يَنقُصونَهم حَقَّهم.

ثمَّ قال تعالى متوعِّدًا لهم: ألَا يَظُنُّ أولئك المُطَفِّفونَ أنَّهم مَبعوثونَ ليومِ الحِسابِ العَظيمِ؛ يومَ يَقومُ النَّاسُ لله رَبِّ العالَمينَ ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((لَمَّا قَدِمَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المدينةَ كانوا مِن أخبَثِ النَّاسِ كَيْلًا، فأنزَل اللهُ سُبحانَه: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾؛

= الشَّيءِ، وهو جانِبُه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

فأحسَنُوا الكَيلَ بعْدَ ذلك))[١].

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ للَّذين يَنقُصونَ النَّاسَ حُقوقَهم في المِكْيالِ والمِيزانِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩].

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾.

أي: الَّذين إذا اشتَرَوا مِنَ النَّاسِ ما يُباعُ بالكَيلِ أخَذُوا حَقَّهم كامِلًا بلا نَقْصٍ[٣].

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾.

أي: وإذا كالُوا أو وَزَنوا للنَّاسِ حينَ يَبيعونَ لهم ما يُكالُ أو يُوزَنُ يَنقُصونَهم حَقَّهم[٤].

---

(١) أخرجه النَّسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٦٥٤)، وابنُ ماجه (٢٢٢٣) واللَّفظُ له.
صَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٤٩١٩)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢٢٤٠)، وصَحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٦٥)، وحَسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٢٢٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٤٩١٩).
قال ابنُ عاشور: (اجتَمَعت كَلِمةُ المفَسِّرينَ على أنَّ أهلَ يَثرِبَ كانوا مِن أخبَثِ النَّاسِ كَيلًا، فقال جماعةٌ مِنَ المفَسِّرينَ: إنَّ هذه الآيةَ نزلت فيهم؛ فأحسَنوا الكَيلَ بعدَ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩١، ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٦، ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير =

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه وتعالى أنَّهم أدمَنُوا على هذه الرَّذائِلِ حتَّى صارت لهم خُلُقًا مَرَنُوا عليه، وأَنِسُوا به، وسَكَنوا إليه، وكان ذلك لا يكونُ إلَّا مِمَّن أَمِنَ العِقابَ وأنكَرَ الحِسابَ- أنتَجَ ذلك الإنكارَ عليهم على أبلَغِ الوُجوهِ؛ لإفهامِه أنَّ حالَهم أهلٌ لأن يُتعَجَّبَ منه ويُستَفهَمَ عنه، وأنَّ المُستَفهَمَ عن حُصولِه عِندَهم الظَّنُّ -وذلك على قولٍ-، وأمَّا اليقينُ فلا يُتخَيَّلُ فيهم؛ لبُعدِ أحوالِهم الجافيةِ وأفهامِهم الجامدةِ عنه؛ فقال تعالى[1]:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤﴾.

أي: ألَا يَظُنُّ أولئك المُطَفِّفونَ أنَّهم مَبعوثونَ مِن قُبورِهم أحياءً بَعْدَ مَوتِهم[2]؟!

﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥﴾.

= السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩١، ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٣).

قال ابنُ عثيمين: (فهؤلاء يَستَوفُونَ حَقَّهم كاملًا، ويَنقُصونَ حَقَّ غَيرِهم؛ فجَمَعوا بيْن الأمْرَينِ؛ بيْن الشُّحِّ والبُخلِ. الشُّحُّ: في طَلَبِ حَقِّهم كاملًا بدونِ مُراعاةٍ أو مُسامحةٍ. والبُخلُ: بمَنعِ ما يجِبُ عليهم مِن إتمامِ الكَيلِ والوَزنِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٥، ٣١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٣).

قال القرطبي: (الظنُّ هنا بمعنى اليقينِ، أي: ألَا يوقنُ أولئك، ولو أيقنوا ما نقَصوا في الكيلِ والوزنِ. وقيل: الظنُّ بمعنى التردد، أي: إنْ كانوا لا يستيقنونَ بالبعثِ، فهلا ظنُّوه، حتى يتدبَّروا ويَبحثوا عنه، ويأخذوا بالأحوطِ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٤).

أي: ليومٍ عَظيمٍ شأنُه، شديدةٍ أهوالُه[١]

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

أي: يومَ يكونُ النَّاسُ قيامًا لله رَبِّ العالَمينَ، فيُحاسِبُهم ويُجازيهم على أعمالِهم[٢].

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حتَّى يَغِيبَ أحَدُهم في رَشَحِه[٣] إلى أنصافِ أُذُنَيه!))[٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ ذَمُّ التَّطفيفِ والخيانةِ في الكَيلِ والوَزنِ[٥]. فأَمرُ المكيالِ والميزانِ عَظيمٌ؛ وذلك لأنَّ عامَّةَ الخَلْقِ يحتاجونَ إلى المعامَلاتِ، وهي مَبنيَّةٌ على أمرِ المِكيالِ والميزانِ؛ فلهذا السَّبَبِ عَظَّم اللهُ أمْرَه، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩]، وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٦).

(٣) في رَشَحِه: أي: عَرَقِه. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٨/ ٤٨٧).

(٤) رواه البخاريُّ (٤٩٣٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٨٦٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٨٤).

وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الحديد: ٢٥][١]، ولا ينفَعُ فيما وقع مِن التَّطفيفِ ولا يُخلِّصُ صاحِبَه إلَّا التَّوبةُ، ورَدُّ المَظْلمةِ إلى صاحِبِها، وقال مالِكُ ابنُ دِينارٍ: (احتُضِرَ جارٌ لي، فجعل يقولُ: جبلانِ مِن نارٍ، فقلتُ له ما هذا؟ فقال لي: يا أخي، كان لي مِكيالانِ، آخُذُ بالوافي، وأُعطي بالنَّاقِصِ)[٢]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ هذه الآيةُ تحذيرٌ للمُسلِمينَ مِن التَّساهُلِ في التَّطفيفِ، وحَسْبُهم أنَّ التَّطفيفَ يَجمَعُ ظُلمًا واختِلاسًا ولُؤْمًا، والعَرَبُ كانوا يتعَيَّرونَ بكُلِّ واحدٍ مِن هذه الخِلالِ مُتفرِّقةً ويتبَرَّؤونَ منها، ثمَّ يَأتونَها مُجتَمِعةً، وناهِيكَ بذلك أَفَنًا[٣]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ الوَعيدُ على مَن يَستوفي العُقودَ تامَّةً ولا يُوَفِّيها تامَّةً[٤]!

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ هذا مِثالٌ ذَكَرَه اللهُ عزَّ وجلَّ في الكَيلِ والوَزنِ، فيُقاسُ عليه كلُّ ما أشْبَهَه؛ فكلُّ مَن طَلَبَ حقَّه كامِلًا ممَّن هو عليه، ومَنَعَ الحقَّ الَّذي عليه: فإنَّه داخِلٌ في الآيةِ الكريمةِ؛ فمثلًا الزَّوجُ يريدُ مِن زوجتِه أنْ تعطيَه حقَّه كاملًا، ولا يَتهاوَنُ في شَيءٍ مِن حقِّه، لكِنَّه عندَ أداءِ حقِّها يَتهاوَنُ، ولا يُعطيها الَّذي لها! ورُبَّما يَنْقُصُ أكثرَ حقِّها مِن النَّفَقةِ والعِشْرةِ بالمعروفِ وغيرِ ذلك[٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٢).

والأَفَنُ: ضَعفُ الرَّأْيِ والعَقْلِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٤/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٣).

وأيضًا الموظَّفُ إذا كان يريدُ أنْ يُعطَى راتبَه كامِلًا لكِنَّه يتأخَّرُ في الحُضورِ أو يتقدَّمُ في الخُروجِ، فإنَّه مِن المطَفِّفينَ الَّذين توعَّدَهم اللهُ بالوَيلِ؛ لأنَّه لا فرقَ بيْن إنسانٍ يَكِيلُ أو يَزِنُ للنَّاسِ، وبيْن إنسانٍ مُوظَّفٍ عليه أنْ يَحْضُرَ في السَّاعةِ الفلانيَّةِ ولا يَخْرُجَ إلَّا في السَّاعةِ الفلانيَّةِ، ثُمَّ يتأخَّرُ في الحضورِ ويتقَدَّمُ في الخُروجِ! هذا مُطَفِّفٌ، وهذا المُطَفِّفُ في الوظيفةِ لو نَقَصَ مِن راتبِه ريالٌ واحِدٌ مِن عَشَرةِ آلافٍ لَقال: لماذا تَنْقُصُ! هذا مُطَفِّفٌ يَدخُلُ في هذا الوَعيدِ[1]، وأيضًا فمِن الحَيفِ والجَورِ أنْ يَتكَلَّمَ الإنسانُ في شَخصٍ كعالِمٍ أو تاجرٍ أو أيِّ إنسانٍ، ثُمَّ يَذْكُرَ مَساوِيَه -الَّتي قد يكونُ معذورًا فيها- ولا يَذْكُرَ محاسِنَه! هذا ليس مِن العَدْلِ؛ يأتي إلى عالِمٍ مِن العُلَماءِ أخطأ في مَسألةٍ وهو فيها معذورٌ، ثُمَّ يَنْشُرُ هذه المسألةَ الَّتي أخطَأَ فيها، ويَنْسَى محاسِنَ هذا العالِمِ الَّذي نفَعَ العِبادَ بكَثيرٍ مِن عِلْمِه! هذا لا شَكَّ أنَّه تطفيفٌ وجَورٌ وظُلْمٌ. إذا كنتَ تريدُ أنْ تُقَوِّمَ الشَّخصَ فلا بُدَّ أنْ تَذْكُرَ محاسِنَه ومَساوِيَه، أمَّا إذا كنتَ تريدُ أنْ تَتكَلَّمَ على خَطَأٍ معيَّنٍ لِتُحَذِّرَ النَّاسَ منه، فنَعم، اذكُرِ الخطأَ، لكنْ بقَطْعِ النَّظَرِ عن قائلِه، وقُلْ مثلًا: سَمِعْنا أنَّ بعضَ النَّاسِ يقولُ كذا وكذا، وهو خطأٌ، ثُمَّ تُبَيِّنُ الخطأَ، أمَّا أنْ تريدَ أنْ تَنشرَ مَساويَ الآخَرينَ دونَ محاسِنِهم، فهذا ظُلْمٌ وجَورٌ[2].

٥- قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ والمطَفِّفُ الَّذي يَنقُصُ الكَيلَ والوَزنَ، وأراد بهذا الَّذينَ يُعامِلونَ النَّاسَ؛ فإذا أخَذوا لأنفُسِهم استَوفَوا، وإذا دَفَعوا إلى مَن يُعامِلُهم نَقَصوا، ويَتجَلَّى ذلك في الوَزنِ والكَيلِ، وفي إظهارِ العَيبِ، وفي القَضاءِ والأداءِ والاقتِضاءِ، فمَن لم يَرْضَ لأخيه المُسلِمِ ما يَرضاه لنَفْسِه، فليس بمُنصِفٍ؛ فالَّذي يرى عَيبَ النَّاسِ ولا يرى عيبَ نَفْسِه فهو مِن هذه الجُملةِ؛

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٥٠).

جُملةِ المطَفِّفينَ، كما قيل:

وتَعــذِرُ نفْسَــك إمَّــا أَسَــأْتَ وغــيــرُكَ بــالــعُــذرِ لا تَــعــذِرُ
وتُبصِــرُ في العَيــنِ مِنْــهُ القَذَى وفــي عَينِــكَ الجِــذْعُ لا تُبصِرُ

ومَن اقتضى حَقَّ نَفْسِه دونَ أن يَقضيَ حُقوقَ غَيرِه مِثلَما يَقتضيها لنَفْسِه، فهو مِن جُملةِ المُطَفِّفينَ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ تَنبيهٌ على أنَّ أصلَ الآفاتِ: الخُلُقُ السَّيِّئُ، وهو حُبُّ الدُّنيا المُوقِعُ في جَمعِ الأموالِ مِن غَيرِ وَجْهِها، ولو بأخَسِّ الوُجوهِ؛ التَّطفيفِ الَّذي لا يَرضاه ذو مُروءةٍ(٢)!

٧- التَّقديمُ في افتتاحيةِ هذه السُّورةِ بـ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ يُشعِرُ بشِدَّةِ خَطَرِ هذا العَمَلِ، وهو فِعلًا خَطيرٌ؛ لأنَّه مِقياسُ اقتِصادِ العالَمِ، ومِيزانُ التَّعامُلِ، فإذا اختَلَّ أحدَثَ خَلَلًا في اقتصادِه، واختلالًا في التَّعامُلِ، وهو فسادٌ كبيرٌ، وأكبَرُ مِن هذا كُلِّه وُجودُ الرِّبا إذا بِيعَ جِنسٌ بجِنْسِه، وحَصَل تفاوُتٌ في الكَيلِ أو الوَزنِ، وفيه كما قال تعالى: ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(٣) [البقرة: ٢٧٩].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الإنسانَ كما يأخُذُ مِنَ النَّاسِ الَّذي له يجِبُ عليه أن يُعطِيَهم كُلَّ ما لَهم مِن الأموالِ والمعاملاتِ، بل يَدخُلُ في عُمومِ هذا الحُجَجُ والمقالاتُ؛ فإنَّه كما أنَّ المتناظِرَينِ قد جرت العادةُ أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يحرِصُ على ما له مِن الحُجَجِ، فيَجِبُ عليه أيضًا أن يُبَيِّنَ ما لخَصْمِه مِنَ الحُجَجِ الَّتي لا

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٦٩٩، ٧٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١١).
(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥٤).

يَعلَمُها، وأن يَنظُرَ في أدِلَّةِ خَصْمِه كما يَنظُرُ في أدِلَّتِه هو، وفي هذا الموضِعِ يُعرَفُ إنصافُ الإنسانِ مِن تعَصُّبِه واعتِسافِه، وتواضُعُه مِن كِبْرِه، وعَقْلُه مِن سَفَهِه[١].

٩- قال عُلَماءُ الدِّينِ: (التَّطفيفُ في كُلِّ شَيءٍ؛ في الصَّلاةِ والوُضوءِ، والكَيلِ والميزانِ)، كما أنَّ السَّرِقةَ في كُلِّ شَيءٍ، وأسوأُ النَّاسِ سَرِقةً مَن يَسرِقُ صَلاتَه؛ فلا يُتِمُّ ركوعَها ولا سُجودَها[٢]. وعن سَلْمانَ الفارسيِّ رضيَ الله عنه، قال: (الصَّلاةُ مِكيالٌ، فمَن أَوفى أَوفى اللهُ له، وقد عَلِمتُم ما قال اللهُ في الكَيلِ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾)[٣]. قال مالِكٌ: (وكان يُقالُ: في كُلِّ شَيءٍ وفاءٌ وتطفيفٌ)، فإذا توعَّد اللهُ سُبحانَه بالوَيلِ للمُطَفِّفينَ في الأموالِ، فما الظَّنُّ بالمطَفِّفينَ في الصَّلاةِ[٤]؟!

١٠- يُشعِرُ قَولُه تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أنَّ عَدَمَ الإيمانِ بالبَعْثِ أو الشَّكَّ فيه: هو الدَّافِعُ لكُلِّ سُوءٍ، والمضَيِّعُ لكُلِّ خيرٍ، وأنَّ الإيمانَ باليَومِ الآخِرِ هو المُنطَلَقُ لكُلِّ خيرٍ، والمانِعُ لكُلِّ شَرٍّ، والإيمانُ بالبَعثِ هو مُنطَلَقُ جميعِ الأعمالِ الصَّالحةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٦٦).

فيه إشارةٌ إلى حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أسوأُ النَّاسِ سرقةً الذي يسرِقُ صلاتَه. قال: وكيفَ يسرقُ صلاتَه. قال: لا يتمُّ ركوعَها ولا سجودَها)) أخرجه ابن حبان (١٨٨٨) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٦٦٥)، والحاكم (٨٣٦).

صحَّحه ابن حبان، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٥٣٣)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (١٨٨٨).

(٣) أخرجه ابنُ أبي شَيْبَةَ في ((المصنَّف)) (١/ ٢٥٩) (٢٩٧٩).

(٤) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ١٢٤). ويُنظر: ((الموطأ)) للإمام مالك (١/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٧١).

١١- قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ * يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في هذا الإنْكارِ والتَّعْجيبِ، وكَلِمةِ الظَّنِّ، ووَصفِ اليَومِ بالعِظَمِ، وقِيامِ النَّاسِ فيه للهِ خاضِعينَ، ووَصْفِه ذاتَه برَبِّ العالَمينَ: بَيانٌ بَليغٌ لعِظَمِ الذَّنْبِ وتَفاقُمِ الإثمِ في التَّطفيفِ، وفيما كان في مِثلِ حالِه مِن الحَيفِ، وتَرْكِ القِيامِ بالقِسطِ والعَملِ على السَّويَّةِ والعَدْلِ في كُلِّ أخْذٍ وإعْطاءٍ، بل في كُلِّ قَولٍ وعَملٍ، وليس ذلك كُلُّه مِن أجْلِ التَّطْفيفِ مِن حَيثُ هو التَّطفيفُ، بل مِن حَيثُ إنَّ الميزانَ قانونُ العَدْلِ والاستِقامةِ، وهو الحِكمةُ في الخَلقِ والتَّكليفِ، والحَشْرِ والنَّشْرِ، ومَن تَطفَّفَ حاوَلَ إبْطالَ حِكمةِ اللهِ في الدَّارَينِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ أنَّه إذا كان الوعيدُ بالوَيلِ على الشَّيءِ الطَّفيفِ، فما فَوقَه مِن بابِ أَولى(٢)!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ أنَّه إذا كان هذا الوعيدُ على الَّذين يَبخَسُونَ النَّاسَ بالمِكيالِ والميزانِ، فالَّذي يأخُذُ أموالَهم قَهْرًا أو سَرِقةً أَولى بهذا الوعيدِ مِن المُطَفِّفينَ(٣).

٣- يُفهَمُ مِن فَحْوى قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّهم إذا بُعِثوا إلى ذلك اليَومِ العَظيمِ، وقام النَّاسُ لرَبِّ العالَمينَ، واجتَمَع الخلائِقُ الأوَّلونَ والآخِرونَ في صَعيدٍ واحدٍ يَنفُذُهم البَصَرُ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥).

ويُسْمِعُهم الدَّاعي: أنَّ ذلك الخائِنَ النَّاقِصَ في الكَيلِ والوَزنِ يُنادَى به على رُؤوسِ الأشهادِ، ويُفتَضَحُ على رُؤوسِ الأشهادِ يومَ القيامةِ، وفَضيحةُ القيامةِ ليست كفَضيحةِ الدُّنيا[١]!

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في هذه الآياتِ مُبالَغاتٌ:

منها: أنَّ الوَيلَ إنَّما يُذكَرُ عند شِدَّةِ البلاءِ.

ومنها: الإنكارُ بقَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾.

ومنها: استِعظامُه تعالى لليَومِ.

ومنها: تأكيدُه بما بَعْدَه، وما يُوهِمُ ذلك وما يَقتَضيه مِن خضوعِهم وذِلَّتِهم، وفي هذا نكتةٌ، وهي كأنَّ قائِلًا يقولُ: هذا التَّشديدُ العظيمُ، والوعيدُ البليغُ، كيف يكونُ على التَّطفيفِ مع نَزارتِه وزَهادتِه، وكَرَمِ المَولى وإحسانِه؟ فأشار بقَولِه: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى أنَّه مُرَبِّيهم ومَسؤولٌ عن أمورِهم، فلا يليقُ أن يُهمِلَ مِن أمورِهم شيئًا[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أنَّ الظَّنَّ قد يُستعمَلُ بمعنى اليقينِ في اللُّغةِ العربيَّةِ[٣]. وذلك على قولٍ في الآيةِ.

٦- يومُ القيامةِ إنَّما سُمِّيَ يومَ القيامةِ؛ لوُجوهٍ ثلاثةٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ النَّاسَ يَقومون فيه مِن قُبورِهم للهِ عزَّ وجَلَّ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٥)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٥).

الثَّاني: أنَّه يُقامُ فيه العَدلُ؛ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والثَّالثُ: أنَّه يقومُ فيه الأشهادُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[1] [غافر: ٥١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ افتِتاحُ السُّورةِ باسمِ الوَيلِ مُؤذِنٌ بأنَّها تَشتَمِلُ على وَعيدٍ، فلَفْظُ (وَيْلٌ) مِن بَراعةِ الاستِهلالِ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هنا: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، وقال في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]؛ فمعْنى هذه الآيةِ: تَحرَّوا بقدْرِ المستطاعِ مِن التَّطفيفِ ولو يَسيرًا وبعْدَ بَذْلِ الجُهدِ، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وهذا غايةٌ في التَّحرِّي، مع شِدَّةِ التَّحذيرِ، والتَّوعُّدِ بالويْلِ[3].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ...﴾ إلخ، صِفةٌ كاشِفةٌ[4] للمُطفِّفينَ، شارِحةٌ لكَيفيَّةِ تَطْفيفِهم الَّذي استَحقُّوا به الذَّمَّ، والدُّعاءَ بالوَيلِ[5]، ويجوزُ

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٦/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٩).

وبراعةُ الاستهلالِ تقدَّم تعريفُها (ص: ١٥).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥٥).

(٤) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٤).

أنْ تكونَ صِفةً مُخصِّصةً، أو جارِيةً على الذَّمِّ.

- وجُملةُ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ قيل: هي إدْماجٌ[١]، مَسوقةٌ لكَشْفِ عادةٍ ذَميمةٍ في تُجَّارِ الكافِرين، وهي الحِرصُ على تَوفيرِ مِقْدارِ ما يَبْتاعونه بدُونِ حَقٍّ لهم فيه، والمَقصودُ الجُملةُ المَعطوفةُ عليها، وهي جُملةُ ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾؛ فَهُم مَذْمومون بمَجْموعِ ضِمْنِ الجُملتَينِ[٢].

- قولُه: ﴿ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي: اشْتَروا مِن النَّاسِ ما يُباعُ بالكَيلِ، فحُذِفَ المَفعولُ؛ لأنَّه مَعلومٌ في فِعلِ ﴿ٱكۡتَالُواْ﴾، أي: اكْتالوا مَكيلًا، ومَعنى ﴿كَالُوهُمۡ﴾: باعوا للنَّاسِ مَكيلًا، فحُذِفَ المَفعولُ؛ لأنَّه مَعلومٌ[٣]. أو عَدَمُ التَّعرُّضِ للمَكيلِ والمَوزونِ في الصُّورَتَينِ ﴿ٱكۡتَالُواْ﴾، ﴿كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾؛ لأنَّ مَساقَ الكَلامِ لبَيانِ سُوءِ مُعامَلتِهم في الأخْذِ والإعْطاءِ، لا في خُصوصيَّةِ المأْخوذِ والمُعْطى[٤].

- ولَمَّا كان اكْتِيالُهم مِن النَّاسِ اكْتِيالًا يَضُرُّهم ويُتحامَلُ فيه عليهم، أُبدِلَ (عَلَى) مَكانَ (مِن)؛ للدَّلالةِ على ذلك، بتَضْمينِ ﴿ٱكۡتَالُواْ﴾ مَعنى التَّحامُلِ، أي: إلْقاءِ المَشقَّةِ على الغَيرِ وظُلمِه؛ ذلك أنَّ شأْنَ التَّاجرِ وخُلُقَه أنْ يَتطلَّبَ تَوفيرَ الرِّبحِ، وأنَّه مَظِنَّةُ السَّعةِ، ووُجودِ المالِ بيَدِه؛ فهو يَستَعمِلُ حاجةَ مَن يأْتيه بالسِّلعةِ. وقيلَ: إنَّ الحَرفَينِ (مِن) و(عَلَى) يَتعاقَبانِ في هذا المَوضِعِ؛ لأنَّه حَقٌّ عليه، فإذا قالَ: اكتَلْتُ عليك، فكأنَّه قال: أخَذْتُ ما عليك، وإذا قالَ: اكتَلْتُ منك، فكقَولِه: استَوفَيْتُ منك[٥].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي =

- وقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ ولم يَقُلْ: (اكْتالوا واتَّزَنوا)، كما قال في مقابِله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾؛ لأنَّ المُطفِّفين كانتْ عادَتُهم ألَّا يَأخُذوا ما يُكالُ وما يُوزَنُ إلَّا بالمِكيالِ؛ لأنَّ استِيفاءَ الزِّيادةِ بالمِكيالِ أمكَنُ لهم، وأهْوَنُ عليهم منه بالميزانِ، وإذا أَعطَوا كالُوا ووَزَنوا؛ لتَمَكُّنِهم مِن البَخْسِ فيهما[1].

أو لم يَقُلْ: (أو اتَّزَنوا)، كما قيلَ: ﴿أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ﴾ إمَّا أنْ يَكونَ صِفةً مُخصِّصةً، أو كاشِفةً، أو جارِيةً على الذَّمِّ؛ فَعَلى الأوَّلِ لا يَنبَغي ذِكرُ الوَزنِ؛ لأنَّ سَببَ النُّزولِ في قَومٍ مَخصوصينَ، وفي فِعلٍ مَخصوصٍ، وهو: الكَيلُ؛ لأنَّ مَعنى التَّطْفيفِ: البَخْسُ في الكَيلِ والوَزنِ، فيَدخُلُ في هذا العامِّ مَن نَزَلَتْ فيهم الآيةُ دُخولًا أوَّليًّا، أو يَكونُ ذِكرُ الوَزنِ لمَزيدِ الذَّمِّ، يَعني: إذا اتَّفَقَ أحْيانًا لهم وَزنٌ بما هو قانونُ العَدلِ -لقولِه تعالَى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]- يُخسِرون أيضًا[2].

أو الاقتِصارُ على قولِه: ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ﴾ دُونَ أنْ يَقولَ: (وإذا اتَّزَنوا) كما قال: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾؛ اكتِفاءٌ بذِكرِ الوَزنِ في الثَّاني تَجَنُّبًا لفِعلِ (اتَّزَنوا)؛ لِقِلَّةِ دَوَرانِه في الكلامِ؛ فكان فيه شَيءٌ مِن الثِّقَلِ، ولنُكْتةٍ أُخْرى؛ وهي: أنَّ المُطفِّفين هم أهلُ التَّجْرِ، وهم يأخُذونَ السِّلَعَ مِن الجالِبينَ في الغالِبِ بالكَيلِ؛ لأنَّ الجالِبينَ يَجلِبونَ التَّمرَ والحِنطةَ ونَحوَهما ممَّا يُكالُ، ويَدفَعون لهم الأثْمانَ

= حيان)) (١٠/ ٤٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٠، ١٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٣٩، ٣٤٠).

عَينًا بما يوزَنُ مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ مَسْكوكَينِ أو غَيرَ مَسْكوكَينِ؛ فلذلك اقتُصِرَ في ابْتِياعِهم مِن الجالِبينَ على الاكْتيالِ نَظرًا إلى الغالِبِ، وذكَرَ في بَيعِهم للمُبْتاعِينَ الكَيلَ والوَزنَ؛ لأنَّهم يَبيعون الأشْياءَ كَيلًا، ويَقبِضون الأثْمانَ وَزْنًا، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ التَّطْفيفَ مِن عَملِ تُجَّارِهم[١].

- والاسْتيفاءُ: أَخْذُ الشَّيءِ وافِيًا؛ فالسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ للمُبالَغةِ في الفِعلِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ مُقابَلَةٌ أَتَتْ على أحسَنِ وَجْهٍ وأنْظَمِه، أي: إذا كان الكَيلُ مِن جِهةِ غَيرِهم استَوفَوه، وإذا كان الكَيلُ مِن جِهتِهم خاصَّةً أخْسَروه، سَواءٌ باشَروه أو لا؛ فالضَّميرُ لا يدُلُّ على مُباشَرةٍ ولا إشعارٍ أيضًا بذلك، والَّذي يدُلُّ على أنَّ الضَّميرَ لا يُعطي مُباشرةَ الفعلِ: أنَّه يَجوزُ أنْ يُقالَ: الأمراءُ همُ الَّذين يُقيمون الحدودَ لا السُّوقةُ، وليس معناه أنَّهم يُباشِرونَ ذلك بأنفُسِهم، وإنَّما مَعناهُ أنَّ فِعلَ ذلك مِن جِهتِهم خاصَّةً[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استِئنافٌ ناشئٌ عن الوَعيدِ والتَّقْريعِ للمُطفِّفينَ بالوَيلِ على التَّطْفيفِ، وما وُصِفوا به مِن الاعتِداءِ على حُقوقِ المُبتاعينَ[٤]؛ فهو استئنافٌ واردٌ لتهويلِ ما ارتكَبُوه مِن التَّطفيفِ، والتَّعجيبِ مِن اجترائِهم عليهِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٥).

- قولُه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ الهَمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّعْجيبيِّ، بحَيثُ يَسألُ السَّائلُ عن عِلمِهم بالبَعثِ، كأنَّهم لا يَخطُرُ ببالِهم، ولا يُخمِّنون تَخْمينًا أنَّهم مَبْعوثونَ ومُحاسَبون على مِقدارِ الذَّرَّةِ والخَرْدَلةِ[1]!

- و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المُطفِّفينَ، ووَضَعه مَوضِعَ ضَميرِهم للإشْعارِ بمَناطِ الحُكمِ الَّذي هو وَصفُهم؛ فإنَّ الإشارةَ إلى الشَّيءِ مُتعرِّضةٌ له مِن حَيثُ اتِّصافُه بوَصفِه، وأمَّا الضَّميرُ فلا يَتعرَّضُ لوَصفِه. وللإيذانِ بأنَّهم مُمتازونَ بذلك الوَصفِ القَبيحِ عن سائرِ النَّاسِ أكْمَلَ امتيازٍ، نازِلون مَنزِلةَ الأُمورِ المُشارِ إليها إشارةً حِسِّيَّةً؛ فالعُدولِ عن الإضْمارِ إلى اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لقَصدِ تَمييزِهم، وتَشهيرِ ذِكرِهم في مَقامِ الذَّمِّ، ولأنَّ الإشارةَ إليهم بعْدَ وَصفِهم بالمُطَفِّفينَ تُؤذِنُ بأنَّ الوَصفَ مَلحوظٌ في الإشارةِ، فيُؤذِنُ ذلك بتَعليلِ الإنْكارِ. وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإشْعارِ ببُعدِ دَرَجتِهم في الشَّرارةِ والفَسادِ[2].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ لامُ التَّوقيتِ، وفائدةُ لامِ التَّوقيتِ إدْماجُ الرَّدِّ على شُبهتِهم الحامِلةِ لهم على إنْكارِ البَعثِ، باعتِقادِهم أنَّه لو كان بَعثٌ لَبُعِثَتْ أمْواتُ القُرونِ الغابِرةِ، فأَوْمأَ قولُه: ﴿لِيَوۡمٍ﴾ أنَّ للبَعثِ وَقتًا مُعيَّنًا يَقَعُ عندَه لا قبْلَه[3].

- ومَعنى ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾: أنَّهم يَكونون قِيامًا؛ فالتَّعبيرُ بالمُضارِعِ لاستِحضارِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٢، ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٣).

الحالةِ[١].

- وفي تَخصيصِ (ربِّ العالَمينَ) بالذِّكرِ هنا مِن بيْنِ سائِرِ الصِّفاتِ: إشْعارٌ بالمالِكيَّةِ والتَّربيةِ، ولاستِحضارِ عَظَمتِه بأنَّه مالِكُ أَصنافِ المَخلوقاتِ؛ فلا يَمتَنِعُ عليه الظَّالمُ القَويُّ، ولا يَترُكُ حَقَّ المَظلومِ الضَّعيفِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٣).

الآيات (٧-١٧)

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سِجِّينٖ﴾: على وزنِ فِعِّيلٍ مِن مادَّةِ السَّجْنِ، قيل: هي اسمٌ للأرضِ السَّابعةِ السُّفلى، وقيل: هي اسمٌ لجهنَّمَ، بإزاءِ عِلِّيِّينَ؛ سُمِّيَ ذلك المكانُ سِجِّينًا لأنَّه أشَدُّ الحَبسِ لِمَن فيه، فلا يفارِقُه، وأصلُ (سجن): يدُلُّ على حَبسٍ[1].

﴿مَّرۡقُومٞ﴾: أي: مَكتوبٌ كِتابةً بَيِّنةً تُشبِهُ الرَّقْمَ في الثَّوبِ المَنسوجِ، وأصلُ (رقم): يدُلُّ على خَطٍّ وكِتابةٍ وما أشبهَ ذلك[2].

﴿ٱلدِّينِ﴾: أي: الجزاءِ والحسابِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازيتُه، وأصلُ (دين): جِنْسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٥).
قال ابن جُزَي: (هو مشتَقٌّ مِن السجنِ بمعنى الحَبسِ؛ لأنَّه سببُ الحبسِ والتَّضييقِ في جهنَّمَ، أو لأنَّه مطروحٌ في مكانِ الهَوانِ والعذابِ كالسجنِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩، ٤٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٨)، ((المفردات في غريب =

﴿أَثِيمٍ﴾: أي: كثيرِ الإثمِ، مُتجاوِزٍ في الظُّلمِ، مُتمادٍ في الكُفرِ، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه[١].

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: أي: أباطيلُ، جمعُ أُسطُورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلِينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ شَيءٍ[٢].

﴿رَانَ﴾: أي: غَطَّى وغَلَب، والرَّيْنُ كالصَّدَأِ يَغْشَى القَلْبَ مِن كَثرةِ المعاصي والذُّنوبِ، وكُلُّ ما غَلَبَك وعَلاك فقد رانَ بك، وران عليك، وأصلُ (رين): يدُلُّ على غِطاءٍ وسَترٍ[٣].

﴿لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: لَداخِلو الجَحيمِ ومُقاسونَ حَرَّها، والجحيمُ: النَّارُ، والصَّلَى أصلُه: الإيقادُ بالنَّارِ، وأصلُ (صلى) هنا: النَّارُ، وأصلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى متوَعِّدًا ومهدِّدًا: فارتَدِعوا -أيُّها الفُجَّارُ الظَّلَمةُ- عمَّا أنتم فيه مِن

= القرآن)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠، ٣٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩) و(٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣٥).

التَّطفيفِ والغَفْلةِ عن البَعثِ والحِسابِ؛ إنَّ صَحيفةَ أعمالِ الفُجَّارِ مِنَ المُطَفِّفينَ وغَيرِهم في مكانٍ ضَيِّقٍ مِنَ الأرضِ السَّابعةِ، وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بحَقيقةِ سِجِّينٍ الموضوعِ فيه كتابُ أعمالِ الفُجَّارِ؟ كِتابُ الفُجَّارِ كِتابٌ مَكتوبةٌ فيه أعمالُهم.

عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ الَّذين يُكَذِّبونَ بيَومِ الحِسابِ والجَزاءِ. ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أوصافَ هؤلاءِ المكذِّبينَ، فيقولُ: وما يُكَذِّبُ بذلك اليَومِ إلَّا كُلُّ مُعتَدٍ على حُدودِ اللهِ، كَثيرِ الآثامِ، إذا تُلِيَت عليه آياتُ القُرآنِ قال مُكَذِّبًا: تلك أحاديثُ الأوَّلينَ وخُرافاتُهم الَّتي سُطِرَت في الكُتُبِ مِن قَبْلُ!

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه السَّببَ الَّذي حمَلَهم على أن يَقولوا في القرآنِ ما قالوا، فيقولُ: ارتَدِعوا وانزَجِروا عن هذه الأقوالِ؛ فليس الأمرُ كما زعَمْتُم أيُّها المعتَدُونَ الآثِمونَ، وإنَّما السَّبَبُ في افترائِهم هو كثرةُ الذُّنوبِ والخَطايا الَّتي حجَبَت قُلوبَهم عن الإيمانِ بالقُرآنِ، كَلَّا إنَّ أولئك المكَذِّبينَ لَمَحجوبونَ يومَ القيامةِ عن رَبِّهم، فلا يَرَونَه أبَدًا، ثمَّ إنَّهم يَدخُلونَ النَّارَ، ويَحتَرِقونَ فيها، ثمَّ يُقالُ لهم تقريعًا وتَوبيخًا: هذا هو عذابُ النَّارِ الَّذي كنتُم في الدُّنيا تُكَذِّبونَ به؛ فذُوقوه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن عِظَمَ ذلك الذَّنْبِ؛ أتْبَعَه بذِكْرِ لواحِقِه وأحكامِه[1].

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٦).

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ هؤلاءِ الكفَّارُ أنَّهم غيرُ مبعوثينَ ولا مُعذَّبينَ، فلْيَرْتَدِعوا! إنَّ صَحيفةَ أعمالِ الفُجَّارِ مِنَ المُطَفِّفينَ وغَيرِهم في مكانٍ ضَيِّقٍ مِنَ الأرضِ السَّابعةِ(١)!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٤، ١٩٥).

قال ابن الجوزي: (﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ وفيها أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّها الأرضُ السَّابعةُ...

والثَّاني: أنَّ المعنى: إنَّ كتابَهم لَفي سفالٍ، قاله الحسَنُ.

والثَّالثُ: لَفي خَسارٍ، قاله عِكْرِمةُ.

والرَّابعُ: لَفي حبسٍ، فِعِّيلٌ مِن السِّجنِ، قاله أبو عُبَيْدةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ المرادَ الأرضُ السَّابعةُ السُّفلى-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والواحدي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الله بنُ عَمرٍو، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ، ومُغيثُ بنُ سُمَيٍّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٣، ١٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣١٥).

ونسَبَ الواحديُّ والرازيُّ هذا القولَ للأكثَرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣١٥)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٦).

قال الواحديُّ: (المعنى في الآيةِ: إنَّ كِتابَ عمَلَهم يُوضَعُ في الأرضِ السَّابعةِ، وذلك علامةُ خَسارِهم، ودليلٌ على خَساسةِ مَنزلتِهم، ولا يُصعَدُ به إلى السَّماءِ كما يُصعَدُ بكتابِ المؤمِنِ، وهو قَولُه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المُطَفِّفين: ١٨]). ((الوسيط)) (٤/ ٤٤٤).

وقال ابنُ كثير: (الصَّحيحُ أنَّ «سِجِّينًا» مأخوذٌ مِنَ السَّجْنِ، وهو الضِّيقُ؛ فإنَّ المخلوقاتِ كُلُّ ما تسافلَ منها ضاقَ، وكُلُّ ما تعالى منها اتَّسَع، فإنَّ الأفلاكَ السَّبعةَ كُلُّ واحدٍ منها أوسَعُ وأعلى مِن الَّذي دُونَه، وكذلك الأَرَضونَ كُلُّ واحدةٍ أوسَعُ مِنَ الَّتي دونَها، حتَّى ينتهيَ السُّفولُ المُطلَقُ والمحَلُّ الأضيَقُ إلى المركَزِ في وَسَطِ الأرضِ السَّابعةِ... وهو يَجمَعُ الضِّيقَ والسُّفولَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٩). =

عن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال في حديثِه الطَّويلِ في صفةِ قبضِ الرُّوحِ، ونعيمِ القبرِ وعذابِه: ((فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: اكتُبُوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفْلى، فتُطرَحُ رُوحُه طَرْحًا))(١).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨﴾.

أي: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بحَقيقةِ سِجِّينٍ الموضوعِ فيه كتابُ أعمالِ الفُجَّارِ(٢)؟

= وقيل: قولُه: ﴿لَفِي سِجِّينٖ﴾ فُسِّر بقولُه: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ [المطففين: ٩]، فكأنَّه قيل: إنَّ كتابَهم في كتابٍ مَرقوم. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والنَّسَفي، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦).

وممَّن اختار القولَ الرَّابعَ -أي: أنَّ المرادَ بقوله: ﴿لَفِي سِجِّينٖ﴾: لَفي حَبْسٍ وضِيقٍ شديدٍ-: أبو عُبَيْدةَ، ونسَبَه القرطبيُّ والشَّوكانيُّ إلى الأخفَشِ والزَّجَّاجِ، وزاد الشوكانيُّ: المُبَرِّدَ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٤). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٨).

قال القرطبي: (المعنى [أي: على هذا القولِ]: كتابُهم في حبسٍ، جُعِل ذلك دليلًا على خَساسةِ منزلتِهم، أو لأنَّه يحلُّ مِن الإعراضِ عنه والإبعادِ له محلَّ الزَّجرِ والهَوانِ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٨).

(١) أخرجه ابنُ أبي شَيْبةَ في ((المصنَّف)) (١٢٠٥٩)، وأحمدُ (١٨٥٣٤)، والطَّيالِسيُّ (٧٨٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ متقاربةٍ.

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (١٦٧٦) و((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨)، وحسَّنه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠)، وابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٩٠).

وصحَّح إسنادَه الطبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٠/ ٥٠٣)، وقال ابن منده في ((الإيمان)) (٣٩٨): (إسنادُه متَّصِلٌ مشهورٌ ثابتٌ على رسمِ الجماعةِ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨). =

﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٞ ٩﴾.

أي: كِتابُ الفُجَّارِ هذا كِتابٌ مَسطورةٌ فيه أعمالُهم بوُضوحٍ دونَ زيادةٍ أو نَقْصٍ(١).

= قال ابنُ عطيَّة: (قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ تعظيمٌ لأمرِ هذا السِّجِّينِ، وتَعجُّبٌ منه. ويحتَمِلُ أن يكونَ تقريرَ استفهامٍ، أي: هذا ممَّا لم يكُنْ يَعرِفُه قبْلَ الوَحْيِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥١).

ومِمَّن قال بالمعنى الأول: ابنُ كثير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨).

ومِمَّن ذهب إلى الاحتِمالِ الآخَرِ: الزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨).

ممَّن اختار القولَ المذكورَ -أي: أنَّ ﴿مَّرۡقُومٞ﴾ بمعنى: مكتوب، قد كُتبتْ فيه أعمالُهم وسُطِرَتْ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، وابنُ أبي زَمَنِين، ومكِّي، وابن عطية، وابن الجوزي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨).

وقال الثعلبيُّ والبغوي والقرطبي في الجملة: ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٞ﴾ مكتوبٌ، مُثبَتٌ عليهم، كالرَّقْمِ في الثَّوبِ، لا يُنسى ولا يُمحى حتَّى يُجازَوا به. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨).

وقيل: ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٞ﴾ أي: مختومٌ. وممَّن اختاره: جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٧). =

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أعلَمَ هذا بما للكِتابِ مِنَ الشَّرِّ؛ استأنَفَ الإخبارَ بما أنتَجَه مِمَّا لأصحابِه؛ فقال[1]:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ[2]!

﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾﴾.

أي: الَّذين يُكَذِّبونَ في الدُّنيا بيَومِ الحِسابِ والجَزاءِ، فيُنكِرونَ البَعْثَ يومَ القيامةِ[3].

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾.

= قال الرازي: (معنى قولِه: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾... فيه وُجوهٌ؛ أحدُها: ﴿مَّرْقُومٌ﴾ أي: مكتوبةٌ أعمالُهم فيه.

وثانيها: قال قَتادةُ: رُقِم لهم بسوءٍ، أي: كُتِب لهم بإيجابِ النَّارِ.

وثالثُها: قال القَفَّالُ: يحتملُ أن يكونَ المرادُ: أنَّه جُعِل ذلك الكتابُ مَرقومًا، كما يَرقُمُ التَّاجرُ ثوبَه علامةً لقيمتِه، فكذلك كتابُ الفاجرِ جُعِل مَرقومًا برقْمٍ دالٍّ على شقاوتِه.

ورابعُها: المرقومُ هاهنا: المختومُ. قال الواحديُّ: وهو صَحيحٌ؛ لأنَّ الختمَ علامةٌ، فيجوزُ أن يُسمَّى المختومُ مرقومًا.

وخامِسُها: أنَّ المعنى: كتابٌ مُثبَتٌ عليهم كالرَّقْمِ في الثَّوبِ لا يَنْمَحي). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٧). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨).

أي: وما يُكَذِّبُ بذلك اليَومِ إلَّا كُلُّ مُعتَدٍ على حُدودِ اللهِ، ظالمٍ لعِبادِ اللهِ، مُبالِغٍ في الانهِماكِ في المحَرَّماتِ، كَثيرِ الآثامِ والسَّيِّئاتِ(١).

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: إذا تُلِيَت عليه آياتُ القُرآنِ قال مُكَذِّبًا: تلك أحاديثُ الأوَّلِينَ وخُرافاتُهم الَّتي سُطِرَت في الكُتُبِ مِن قَبْلُ(٢)!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤].

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ذكر أنَّهم قالوا: إنَّ القرآنَ أساطيرُ الأوَّلينَ، وليس وحيًا مِن عندِ الله- أردَفَ ذلك بيانَ أنَّ الَّذي جرَّأهم على ذلك هي أفعالُهم القبيحةُ(٣).

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: ليس القُرآنُ بأساطيرِ الأوَّلِينَ كما يَزعُمُ المكَذِّبونَ، ولكِنَّ الَّذي حمَلَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ٧٧).

على التَّكذيبِ بالحَقِّ وتَرْكِ الإيمانِ به أنَّه غَطَّى على قُلوبهم وأحاط بها ما كانوا يَعمَلونَه مِن الذُّنوبِ المُتتابِعةِ، حتَّى اسْوَدَّت قُلوبُهم، فرَأَوُا الحَقَّ باطِلًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ المؤمِنَ إذا أَذنَبَ كانت نُكتةٌ[٢] سَوداءُ في قَلْبِه، فإنْ تاب ونَزَع واستغفَرَ، صُقِلَ[٣] قَلْبُه، فإن زاد زادت، فذلك الرَّانُ الَّذي ذكَرَه اللهُ في كِتابِه: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾))[٤].

وعن حُذَيفةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ كالحَصيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ[٥] سوداءُ، وأيُّ قَلبٍ أنكَرَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بيضاءُ، حتَّى تَصيرَ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥، ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٩، ١٠٠).

(٢) النُّكْتةُ: أثَرُ الذَّنْبِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦٢٢).

(٣) صُقِلَ قَلْبُه: أي: محا الله تلك النُّكتةَ عن قلبِه فيَنْجلي. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٨/ ٤٢).

(٤) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٣٤)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٦٥٨)، وابنُ ماجه (٤٢٤٤) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٧٩٥٢).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه ابن جريرٍ الطبريُّ في ((التفسير)) (١/ ١٤٧)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٩٣٠)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (٦)، وحَسَّنه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢٤٤).

(٥) نُكِتَ فيه نُكتةٌ: أي: نُقِطَتْ وأَثَّرَتْ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٧٨).

قَلْبَينِ؛ على أبيضَ مِثلِ الصَّفا[١]، فلا تَضُرُّه فِتنةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبَادًّا[٢] كالكُوزِ مُجَخِّيًا[٣]، لا يَعرِفُ مَعروفًا ولا يُنكِرُ مُنكَرًا إلَّا ما أُشرِبَ مِن هَواه))[٤].

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: كَلَّا[٥] إنَّ أولئك المكَذِّبينَ لَمَحجوبونَ يومَ القيامةِ عن رَبِّهم، فلا يَرَونَه أبَدًا[٦].

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن ما لَهم مِنَ العَذابِ بالحِجابِ الَّذي هو عذابُ القَلْبِ الَّذي لا عذابَ أشَدُّ منه؛ لأنَّه يتفَرَّعُ عنه جميعُ العَذابِ- شَرَع يُبَيِّنُ بَعضَ ما تفَرَّعَ عنه مِن عذابِ

---

(١) الصَّفا: الحَجَر الأملَس؛ مِن غايةِ البَياضِ والصَّفاءِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٣٧٨).

(٢) مُربادًّا: أي: صار كلَونِ الرَّمادِ؛ مِنَ الرُّبْدةِ: لونٌ بيْن السَّوادِ والغُبرةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٨٣).

(٣) كالكُوزِ مُجَخِّيًا: أي: كالكوزِ المائِلِ المنكوسِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٣٧٨).

(٤) رواه مسلم (١٤٤).

(٥) قيل: المرادُ: نَفْيُ ما كان يقولُه هؤلاء المكَذِّبونَ بيومِ الدِّينِ مِن أنَّ لهم عندَ الله زُلْفةً. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٤).

وقيل: المرادُ: نَفْيُ ما ادَّعَوه مِن أنَّ القُرآنَ أساطيرُ الأوَّلينَ، فهو ليس كذلك لا في الواقعِ ولا في قَرارةِ أنفُسِهم؛ فلْيَرتَدِعوا عن ذلك أعظَمَ ارتِداعٍ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥، ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٠).

القالَبِ، مؤكِّدًا مِن أجْلِ إنكارِهم، مُعَبِّرًا بأداةِ التَّراخي إعلامًا بعُلُوِّ رُتبتِه في أنواعِ العَذابِ، فقال[١]:

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: ثمَّ إنَّهم مع حِرْمانِهم رُؤيةَ اللهِ يَدخُلونَ النَّارَ، ويَحتَرِقونَ فيها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٤ - ١٦].

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن ما لَهم مِنَ الفِعْلِ الَّذي هو للقَلْبِ والقالَبِ؛ أتْبَعَه القَولَ بالتَّوبيخِ والتَّبكيتِ الَّذي هو عذابُ النَّفْسِ[٣].

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: ثمَّ يُقالُ لهم تقريعًا وتَوبيخًا: هذا هو عذابُ النَّارِ الَّذي كنتُم في الدُّنيا تُكَذِّبونَ به؛ فذُوقوه الآنَ في الآخِرةِ[٤]!

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ فردَع المطفِّفينَ عمَّا كانوا عليه مِن التَّطفيفِ، والغفلةِ عن البعثِ والحسابِ، ونَبَّهَهم على أنَّه ممَّا يَجِبُ أنْ يُتابَ عنه ويُندَمَ عليه بقوله: ﴿كَلَّآ﴾، ثمَّ أَتْبعه وَعيدَ الفُجَّارِ على العُمومِ بقولِه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ التَّحذيرُ مِن الذُّنوبِ؛ فإنَّها تَرينُ على القَلْبِ، وتُغَطِّيه شَيئًا فشَيئًا؛ حتَّى يَنطَمِسَ نُورُه، وتموتَ بَصيرتُه؛ فتَنقَلِبَ عليه الحقائِقُ، فيَرى الباطِلَ حَقًّا، والحَقَّ باطِلًا! وهذا مِن بَعضِ عُقوباتِ الذُّنوبِ[(٢)].

فالمُبادَرةُ بالعَمَلِ السَّيِّئِ سَبَبٌ لطَمسِ البَصيرةِ والطَّبعِ والرَّانِ على القُلوبِ، كما بيَّنَه اللهُ تعالى في آياتٍ كثيرةٍ، ومنها هذه الآيةُ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، وقَولُه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا﴾ [البقرة: ١٠]، وقَولُه جَلَّ وعلا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[(٣)] [الصف: ٥].

٣- قال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فوصَفَهم بأنَّ كَسْبَهم رانَ على قُلوبِهم، والرَّانُ: هو ما يَعلو على القَلبِ مِن الذُّنوبِ مِن ظُلمةِ المعاصي وقَسْوتِها، ثُّم ذَكَر جزاءَهم على ذلك، وهو ثلاثةُ أنواعٍ: الحِجابُ عن رَبِّهم، ثُّم صِلِيُّ الجَحيمِ، ثمَّ التَّوبيخُ.

فأعظَمُ عَذابِ أهلِ النَّارِ حِجابُهم عن رَبِّهم عَّز وجَلَّ، ولَمَّا كانت قُلوبُهم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٢٨).

الدُّنيا مُظلِمةً قاسِيةً، لا يَصِلُ إليها شيءٌ مِن نورِ الإيمانِ وحقائِقِ العِرفانِ، كان جزاؤُهم على ذلك في الآخِرةِ حِجابَهم عن رؤيةِ الرَّحمنِ.

قال بعضُ العارفينَ: «مَن عَرَف اللهَ في الدُّنيا عَرَفه بقَدْرِ تعَرُّفِه إليه، وتجلَّى له في الآخِرةِ بقَدْرِ مَعرفتِه إيَّاه في الدُّنيا، فرآه في الدُّنيا رؤيةَ الأسرارِ، ويراه في الآخِرةِ رُؤيةَ الأبصارِ، فمَن لا يراه في الدُّنيا بسِرِّه، لا يراه في الآخِرةِ بعَينِه» انتهى. فخَوفُ العارفينَ في الدُّنيا مِن احتِجابِه عن بصائِرِهم، وفي الآخِرةِ مِن احتِجابِه عن أبصارِهم ونواظِرِهم[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ كِتابَهم إذا كان في سِجنٍ عَظيمٍ، أي: ضيقٍ شَديدٍ؛ كانوا هم في أعظَمَ[(٢)]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ أنَّ اسمَ الفاجِرِ في عُرْفِ القُرآنِ والسُّنَّةِ يتناولُ الكافِرَ قَطْعًا[(٣)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ النَّارَ في الأرضِ، فـ «سِجِّينٌ» هي الأرضُ السُّفلى، كذلك جاء في الحديثِ فيمَنِ احتُضِرَ وقُبِضَ مِن الكافِرينَ؛ فإنَّها لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السَّماءِ، ويقولُ اللهُ تعالى: ((اكتُبُوا كِتابَ عبدي في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفلَى، وأعيدُوه إلى الأرضِ))[(٤)]. ولو كانتِ النَّارُ في السَّماءِ لَكانت تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السَّماءِ لِيَدخُلوها، وإذا كانت في السَّماءِ لَزِمَ

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٣٧٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٨).
(٣) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٨٥).
(٤) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٤٠).

مِن دُخولِهم في النَّارِ -الَّتي في السَّماءِ- أنْ تُفَتَّحَ أبوابُ السَّماءِ[١]!

٤- كُلَّما عَلَت الجِهةُ اتَّسَعَت، وكُلَّما سَفَلت ضاقَت؛ فلهذا كان الأعلى هو الأوسَعَ، وكان الأسفَلُ هو الأضيقَ؛ ولهذا قابَلَ اللهُ تعالى بيْن عِلِّيِّينَ وبيْن سِجِّينٍ في كتابِه، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المُطَفِّفين ١٨] ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾، ولَم يَقُلْ: «في سِفْلِين» كما لَم يَقُلْ هناك: «في وِسْعِين»؛ لِيُبَيِّنَ الضِّيقَ والحَرَجَ الَّذي في المكانِ، كما بَيَّنَ سُفُولَه بمقابلتِه بـ«عِلِّيِّين»، وبَيَّنَ أيضًا سَعَةَ «عِلِّيِّين» بمُقابلةِ «سِجِّين»؛ فيكونُ قد دلَّ على العُلُوِّ والسَّعةِ الَّتي للأبرارِ، وعلى السُّفولِ والضِّيقِ الَّذي للفُجَّارِ[٢].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ التَّكذيبُ بيَومِ الجزاءِ هو مَنشَأُ الإقدامِ على السَّيِّئاتِ والجرائِم؛ ولذلك أعقَبَه بقَولِه: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: إنَّ تَكذيبَهم به جَهلٌ بحِكمةِ اللهِ تعالى في خَلْقِ النَّاسِ وتَكليفِهم؛ إذ الحِكمةُ مِن خَلْقِ النَّاسِ تقتضي تحسينَ أعمالِهم، وحِفْظَ نِظامِهم؛ فلذلك جاءتهم الشَّرائعُ آمِرةً بالصَّلاحِ، وناهيةً عن الفَسادِ، ورَتَّب لهم الجزاءَ على أعمالِهم الصَّالحةِ بالثَّوابِ والكَرامةِ، وعلى أعمالِهم السَّيِّئةِ بالعَذابِ والإهانةِ؛ كلٌّ على حَسَبِ عَمَلِه، فلو أهمَلَ الخالِقُ تَقويمَ مَخلوقاتِه، وأهمَلَ جزاءَ الصَّالحينَ والمُفسِدينَ؛ لم يكُنْ ذلك مِن حِكمةِ الخَلْقِ؛ قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾[٣] [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٦٠).

وتُنظر الآثارُ الواردةُ في مكانِ جهنَّمَ في: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٤/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٦).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ إلى قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:٢٩، ٣٠] أنَّ مَن كَذَّبَ بالبَعْثِ فهو كافِرٌ[١].

٧- إذا طَبَعَ اللهُ على قَلبِ العَبْدِ فإنَّه يرى الباطِلَ حَقًّا، والحَقَّ باطِلًا، كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني: كَلَّا ليس أساطيرَ الأوَّلِينَ، ولكِنْ لَمَّا كان هذا الإنسانُ قد كَسَب معاصيَ وآثامًا أظلَمَ بها قَلْبُه، اجتمَعَت هذه الآثامُ على القَلْبِ وصار لا يرى القرآنَ العظيمَ إلَّا كحِكاياتِ الأوَّلينَ، لم يَذُقْ له طَعْمًا، ولم يَستَنِرْ به قَلْبُه. والعِياذُ باللهِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أنَّ المعاصيَ تَحُولُ بيْن الإنسانِ وبَيْنَ الفِقهِ في دِينِ اللهِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أنَّ أهلَ النَّارِ كما حُجِبَتْ قلوبُهم في الدُّنيا عن اللهِ، حُجِبُوا في الآخرةِ عن رؤيتِه، وهذا بخِلافِ حالِ أهلِ الجَنَّةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، والَّذين أَحسَنوا هم أهلُ الإحسانِ، والإحسانُ أنْ يَعْبُدَ العبدُ ربَّه كأنَّه يَراه، كما فَسَّرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم لَمَّا سألَه عنه جبريلُ عليه السَّلامُ، فجَعَل جزاءَ الإحسانِ الحُسْنى -وهي الجَنَّةُ-، والزِّيادةَ -وهي النَّظرُ

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٦/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٦٤٧).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ التَّربويَّةِ (ص: ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٦).

إلى وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ- كما فَسَّرَه بذلك رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم في حديثِ صُهَيبٍ وغَيرِه[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ رَدٌّ على مَن زَعَم أنَّ الكُفَّارَ يَرَونَه تعالى يومَ القيامةِ[٢]، ومفهومُ الآيةِ أنَّ المؤمِنينَ يَرَونَ رَبَّهم يومَ القيامةِ وفي الجَنَّةِ، ويتَلَذَّذونَ بالنَّظَرِ إليه أعظَمَ مِن سائرِ اللَّذَّاتِ، ويبتَهِجونَ بخِطابِه، ويَفرَحونَ بقُرْبِه[٣]، وقد احتجَّ بهذه الحُجَّةِ الشَّافعيُّ نفْسُه وغيرُه مِن الأئمَّةِ، ووَجْهُ الاستِدلالِ بها أنَّه سُبحانَه وتعالى جعَلَ مِن أعظمِ عُقوبةِ الكُفَّارِ كونَهم محجوبينَ عن رؤيتِه واستِماعِ كلامِه، فلو لم يَرَه المؤمِنونَ ولم يَسمَعوا كلامَه لَكانوا أيضًا مَحجوبينَ عنه[٤]!

١١- قِيل هنا: ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، دونَ أنْ يُقالَ: (عن رُؤيةِ ربِّهم)، أو (عن وجْهِ ربِّهم)؛ ليَكونَ الكلامُ مُفيدًا لِمَعنيينِ: حَجْبِهم عن ربِّهم -والحجبُ هو السَّترُ- والإهانةِ؛ فالحجْبُ يُستعمَلُ في المنْعِ مِن الحُضورِ لَدَى الملِكِ ولَدَى سيِّدِ القَومِ، وكِلا المعنيَينِ مُرادٌ هنا؛ لأنَّ المكذِّبين بيومِ الدِّينِ لا يَروَن اللهَ يومَ القِيامةِ حينَ يَراهُ أهلُ الإيمانِ[٥].

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ مَن رانَ على قَلْبِه كَسْبُه، وغَطَّتْه معاصيه، فإنَّه محجوبٌ عن الحَقِّ؛ ولهذا

(١) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٩٦).
ويُنظر ما أخرجه مسلمٌ (١٨١) من حديثِ صُهَيبٍ رضيَ الله عنه.
(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).
(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩٢). ويُنظر أيضًا: ((مناقب الشافعي)) للبيهقي (١/ ٤١٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٠، ٢٠١).

جُوزِيَ على ذلك بأن حُجِبَ عن اللهِ كما حُجِبَ قَلْبُه في الدُّنيا عن آياتِ اللهِ[١].

١٣- قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فجَمَعَ عليهم نَوعَيِ العذابِ: عَذابِ النَّارِ، وعذابِ الحِجابِ عنه سُبحانَه، كما جَمَعَ لأوليائِه نَوعَيِ النَّعيمِ: نعيمِ التَّمَتُّعِ بما في الجَنَّةِ، ونعيمِ التَّمَتُّعِ برُؤيتِه تعالى[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ ﴿كَلَّا﴾ إبْطالٌ ورَدْعٌ لِما تَضمَّنَتْه جُملةُ ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ٤] مِن التَّعجيبِ مِن فِعلِهم التَّطفيفَ، وكذا الغفلةُ عن البعثِ والحِسابِ، والمَعنى: كَلَّا بل هم مَبْعوثون لذلك اليَومِ العَظيمِ، ولتَلَقِّي قَضاءِ رَبِّ العالَمينَ؛ فهي جَوابٌ عمَّا تَقدَّمَ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ...﴾ إلخ، استِئنافٌ ابتِدائيٌّ بمُناسَبةِ ذِكرِ يومِ القِيامةِ، وهو تَعريضٌ بالتَّهديدِ للمُطفِّفين بأنْ يَكونَ عَملُهم موجِبًا كَتْبَه في كِتابِ الفُجَّارِ[٤].

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ...﴾ إلخ، تعليلٌ للرَّدْعِ أو وُجوبِ الارتِداعِ بطَريقِ التَّحقيقِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْفُجَّارِ﴾ للجِنسِ مُرادٌ به: الاِستِغراقُ، أي: جَميعُ المُشرِكينَ؛ فيَعُمُّ المُطفِّفينَ وغَيرَ المُطفِّفينَ. وشُمولُ عُمومِ الفُجَّارِ لجَميعِ المُشرِكينَ؛ المُطفِّفينَ منهم وغَيرِ المُطفِّفين، يُعنى به: أنَّ المُطفِّفينَ منهم والمَقصودُ الأوَّلُ مِن هذا العُمومِ؛ لأنَّ ذِكرَ هذا الوَصفِ والوَعيدِ عليه عَقِبَ كَلِمةِ الرَّدْعِ عن أعمالِ المُطفِّفينَ قَرينةٌ على أنَّ الوَعيدَ مُوَجَّهٌ إليهم[١].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ أظهَرَ مَوضِعَ الإضمارِ؛ تعميمًا، وتعليقًا للحُكمِ بالوصفِ[٢].

- ومَحمَلُ قولِه: ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ إنْ كان على ظاهِرِ الظَّرفيَّةِ، كان المَعنى: إنَّ كُتُبَ أعمالِ الفُجَّارِ مُودَعةٌ في مكانٍ اسمُه سِجِّينٌ، أو وَصفُه سِجِّينٌ، وذلك يُؤذِنُ بتَحقيرِه، أي: تَحقيرِ ما احْتَوى عليه مِن أَعمالِهم المَكتوبةِ فيه. وإنْ حُمِلَت الظَّرفيَّةُ في قولِه: ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ على غَيرِ ظاهِرِها، فجَعْلُ كِتابِ الفُجَّارِ مَظروفًا في سِجِّينٍ مُعبَّرٌ به عن جَعْلِ الأعمالِ المُحصاةِ فيه في سِجِّينٍ، وذلك كِنايةٌ رَمزيَّةٌ عن كَونِ الفُجَّارِ في سِجِّينٍ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ وجُملةِ ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾، وهي تَهويلٌ لأَمرِ السِّجِّينِ تَهويلَ تَفظيعٍ لحالِ الواقِعينَ فيه، أي: هو بحَيثُ لا يَبلُغُه دِرايةُ أحَدٍ[٤].

- قَولُه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ الاستِفهامُ فيه هو مِن بابِ تفخيمِ الأمرِ وتعظيمِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٥).

وكذلك قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾[(١)] [المطففين: ١٩].

- وقولُه: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ خَبرٌ عن ضَميرٍ مَحذوفٍ يَعودُ إلى ﴿كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾، والتَّقديرُ: هو -أي: كِتابُ الفُجَّارِ- كِتابٌ مَرقومٌ، وهذا مِن حَذفِ المُسنَدِ إليه الَّذي اتُّبِعَ في حَذفِه استِعمالُ العَرَبِ[(٢)] إذا تَحدَّثوا عن شَيءٍ ثمَّ أرادوا الإخْبارَ عنه بخَبرٍ جَديدٍ[(٣)].

- والمَرقومُ: المَكتوبُ كِتابةً بَيِّنةً تُشبِهُ الرَّقْمَ في الثَّوبِ المَنسوجِ، وهذا الوَصفُ: ﴿مَّرۡقُومٞ﴾ يُفيدُ تأكيدَ ما يُفيدُه لَفظُ ﴿كِتَٰبٞ﴾[(٤)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

- جُملةُ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تَكونَ مُبيِّنةً لمَضمونِ جُملةِ ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۞ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [المطففين: ٤، ٥]؛ فإنَّ قولَه: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ يُفيدُ تَنوينُه جُملةً مَحذوفةً جُعِلَ التَّنوينُ عِوَضًا عنها، تَقديرُها: يومَ إذ يَقومُ النَّاسُ لرَبِّ العالَمين وَيلٌ فيه للمُكذِّبين. ويَجوزُ أنْ تَكونَ ابتِدائيَّةً، وبيْنَ المُكذِّبين بيَومِ الدِّينِ والمُطفِّفين عُمومٌ وخُصوصٌ وَجهيٌّ[(٥)]؛ فمِن المُكذِّبين مَن هم مُطفِّفون، ومِن المُطفِّفين مُسلِمون وأهلُ كِتابٍ لا يُكذِّبون بيَومِ الدِّينِ؛ فتَكونُ

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٤٠٨).

(٢) وهو ما يُسمَّى بمُتابعةِ الاستعمالِ؛ وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٥، ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٩٦).

(٥) عُمومٌ وخُصوصٌ وَجْهيٌّ: هو أنْ يَجتمِعَ الطَّرَفانِ في صُورةٍ، ويَنفَرِدَا في صُورةٍ؛ مثلًا: الحمدُ والشُّكرُ، يَجتَمِعانِ في أنَّهما ثَناءٌ باللِّسانِ، ويَنفرِدُ الحمدُ في صُورةٍ؛ وهي: الثَّناءُ على الصِّفاتِ الحميدةِ، ويَنفَرِدُ الشُّكرُ في صُورةٍ؛ هي: الثَّناءُ بالقلبِ. يُنظر: ((التحبير)) للمَرْداوي (١/ ٤٢).

هذه الجُملةُ إدْماجًا لتَهديدِ المُشرِكين المُكذِّبين بيَومِ الدِّينِ، وإنْ لم يَكونوا مِن المُطفِّفين[١].

- وقدْ ذُكِرَ المُكذِّبون مُجمَلًا في قولِه: ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، ثمَّ أُعيدَ مُفصَّلًا ببَيانِ مُتعَلَّقِ التَّكْذيبِ، وهو ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ لزِيادةِ تَقريرِ تَكذيبِهم في أذْهانِ السَّامِعينَ منهم ومِن غَيرِهم مِن المُسلِمينَ وأهلِ الكِتابِ؛ فالصِّفةُ هنا للتَّهديدِ، وتَحذيرِ المُطفِّفين المُسلِمينَ مِن أنْ يَستَخِفُّوا بالتَّطفيفِ فيَكونوا بمَنزِلةِ المُكذِّبين بالجَزاءِ عليه[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث أُفرِدَت هذه الآيةُ في هذه السُّورةِ، وتَكرَّرت في سُورةِ (المرسَلاتِ) عشْرَ مرَّاتٍ؛ قيل: ذلك لأنَّ قولَه: (وَيلٌ لهم) كَلمةٌ تُقالُ في كلِّ مَن وقَعَ في هَلَكةٍ لا يُرْجَى خَلاصُه منها، وفي هذه السُّورةِ مَذكورةٌ مَرَّةً واحدةً؛ لأنَّها مَقصورةٌ على التَّرهيبِ مِن النَّارِ ووَصْفِها ومُعاقَبةِ أهْلِها، وعلى التَّرغيبِ في الجنَّةِ ونَعيمِ أهْلِها؛ ليس في السُّورةِ غيرُ هذَين المعْنيَين، فلمَّا جُرِّدتْ لهما ذُكِرتِ الكلِمةُ عِندَ ذِكرِ ما كُتِب على المكذِّبين وأعلَمَ به كِتابُهم بما يكونُ إليه مآلُهُم، ثمَّ شُرِعَ في وَصْفِ كِتابِ الأبرارِ ومَحلِّه وتَبعيدِ ما بيْن جَزائِهم وجَزاءِ غيرِهم؛ فاكْتُفِيَ بذِكرِ الكلمةِ مرَّةً لِما بُنِيَ على اختصارِ السُّورةِ[٣].

أمَّا التَّكرارُ في سورةِ (المُرسَلاتِ) فلأنَّ كلَّ جُملةٍ منها فيها إخبارُ اللهِ تعالَى عن أشياءَ مِن أحوالِ الآخرةِ وتَقريراتٍ مِن أحوالِ الدُّنيا، فناسَبَ أنْ يُذكَرَ الوعيدُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٤٩).

عَقِيبَ كلِّ جُملةٍ منها للمُكذِّبِ بالوَيلِ في يومِ الآخرةِ[١].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وَصْفٌ لِلذَّمِّ لا للبَيانِ، كَقولِك: فَعَلَ ذلك فُلانٌ الفاسِقُ الخَبيثُ، فليسَ قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ﴾ صِفةً كاشِفةً[٢] للمُكذِّبين؛ لكَونِهم مَعلومينَ، ولا هي فارِقةٌ؛ لأنَّه لم يُرَدْ تَمييزُهم عن غَيرِهم، بل مَرفوعٌ أو مَنصوبٌ على الذَّمِّ، ويَجوزُ أنْ يُبدَلَ؛ ليُناطَ به قولُه: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ صِيغةُ القَصْرِ مِن النَّفيِ والاستِثناءِ (مَا... إلَّا) تُفيدُ قَصْرَ صِفةِ التَّكذيبِ بيَومِ الدِّينِ على المُعتَدينَ الآثِمينَ الزَّاعِمينَ القُرآنَ أساطيرَ الأوَّلين، وهو قَصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ، وهو قَصْرٌ حَقيقيٌّ[٤]؛ لأنَّ يومَ الدِّينِ لا يُكَذِّبُ به إلَّا غَيرُ المُتدَيِّنين؛ المُشرِكون والوَثَنيُّون وأضْرابُهم ممَّن جَمَع الأوصافَ الثَّلاثةَ، وأعظَمُها التَّكْذيبُ بالقُرآنِ؛ فإنَّ أهْلَ الكِتابِ والصَّابِئةَ لا يُكذِّبون بيَومِ الدِّينِ، وكَثيرٌ مِن أهلِ الشِّركِ لا يُكذِّبون بيَومِ الدِّينِ مِثلَ أَصحابِ دِيانةِ القِبْطِ؛ فالَّذين يُكذِّبون بيَومِ الدِّينِ هم مُشرِكو العَرَبِ ومَن شابَهَهم مِثلُ الدَّهْريِّين؛ فإنَّهم تَحقَّقَتْ فيهم الصِّفتان الأُولى والثَّانيةُ، وهي الاعتِداءُ والإثمُ، وهو ظاهِرٌ. وأمَّا زَعْمُ القُرآنِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩). ويُنظر ما تقدَّم في سورة المرسلات (٤١/ ٥٠٥).

(٢) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

أساطيرَ الأوَّلينَ فهو مَقالةُ المُشركين مِن العَرَبِ، وهم المَقصودُ ابتِداءً، وأمَّا غَيرُهم ممَّن لم يُؤثَرْ عنهم هذا القَولُ فَهُم مُتَهيِّئون لِأنْ يَقولوه، أو يَقولوا ما يُساويه أو يَؤولُ إليه؛ لأنَّ مَن لم يُعرَضْ عليهم القُرآنُ منهم لو عُرِضَ عليه القُرآنُ لكَذَّبَ به تَكذيبًا يُساوي اعتِقادَ أنَّه مِن وَضْعِ البَشَرِ، فهؤلاء وإنْ لم يَقولوا: القُرآنُ أساطيرُ الأوَّلينَ؛ فظَنُّهم في القُرآنِ يُساوي ظَنَّ المُشركين، فنُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَقولُه. ويَجوزُ أنْ يكونَ القَصْرُ ادِّعائيًّا[1]، ولا يُلتَفَتُ إلى تَنزيلِ مَن لم يَقُلْ ذلك في القُرآنِ، ومَعنى الادِّعاءِ: أنَّ مَن لم يُؤثَرْ عنهم القَولُ في القُرآنِ بأنَّه أساطيرُ الأوَّلين، قد جُعِلَ تَكذيبُهم بيَومِ الدِّينِ كَلَا تَكذيبٍ؛ مُبالَغةً في إبطالِ تَكذيبِ المُشركين بيَومِ الدِّينِ[2].

- و﴿أَثِيمٍ﴾ صِفةُ مُبالَغةٍ في الآثِمِ، أي: كَثيرُ الإثْمِ، مُنهَمِكٌ في الشَّهَواتِ الفانيةِ، بحَيثُ شَغَلَتْه عمَّا وَراءَها مِن اللَّذَّاتِ التَّامَّةِ الباقِيةِ، وحَمَلَتْه على إنْكارِها[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ اعتِراضٌ بالرَّدْعِ وبَيانٌ له؛ لأنَّ ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لقَولِهم: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: إنَّ قولَهم باطِلٌ، وحرفُ ﴿بَلْ﴾ للإبْطالِ؛ تَأكيدًا لمَضمونِ ﴿كَلَّا﴾، وبَيانًا وكَشفًا لِما حَمَلَهم على أنْ يَقولوا في القُرآنِ ما قالوا، وأنَّه ما أَعْمَى بَصائِرَهم مِن الرَّيْنِ[4].

- ومَجيءُ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ بصِيغةِ المُضارعِ دُون الماضي؛ لإفادةِ تَكرُّرِ ذلك

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٧، ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٨، ١٩٩).

الكَسْبِ وتَعدُّدِه في الماضي[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ وزَجْرٌ عن الكَسْبِ الرَّائنِ[٢]. أو ﴿كَلَّآ﴾ هُنا تَأكيدٌ لـ ﴿كَلَّآ﴾ الأُولى؛ زِيادةً في الرَّدْعِ ليَصيرَ تَوبيخًا[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ قيل: عُطِفَت الجُملةُ بحرفِ (ثُمَّ) الدَّالَّةِ في عَطْفِها الجُملَ على التَّراخي الرُّتْبيِّ، وهو ارتِقاءٌ في الوَعيدِ؛ لأنَّه وَعيدٌ بأنَّهم مِن أَهلِ النَّارِ، وذلك أَشَدُّ مِن خِزيِ الإهانةِ، وحجبِهم عن ربِّهم[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ تَقريعٌ، مع التَّأييسِ مِن التَّخفيفِ؛ فعَطفُ الجُملةِ بحَرْفِ (ثُمَّ) اقتَضَى تراخِي مَضمونِ الجُملةِ على مَضمونِ الَّتي قبْلَها، أي: بُعْدَ درجتِه في الغَرضِ المَسوقِ له الكلامُ. واقْتَضى اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ أنَّهم صاروا إلى العَذابِ. والإخبارُ عن العَذابِ بأنَّه الَّذي كانوا به يُكذِّبون، يُفيدُ أنَّه العَذابُ الَّذي تَكرَّرَ وَعيدُهم به وهُم يُكذِّبونه، وذلك هو الخُلودُ، وهو درَجةٌ أَشَدُّ في الوَعيدِ، وبذلك كان مَضمونُ الجُملةِ أَرْقى رُتبةً في الغَرَضِ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٩، ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١، ٧٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٥).

قال الألوسي: (﴿ثُمَّ﴾ قيل: لتَراخي الرُّتبةِ، لكن بناءً على ما عندَهم؛ فإنَّ صليَ الجحيم عندَهم أشدُّ مِن حجابِهم عن ربِّهم عزَّ وجلَّ، وأمَّا عندَ المؤمنينَ لا سيَّما الوالهينَ به سبحانَه منهم فإنَّ الحجابَ عذابٌ لا يُدانيه عذابٌ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٠).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٤٤٧-٤٤٨).

مَضمونِ الجُملةِ المَعطوفةِ هي عليها[١].

ويجوزُ أنْ يَكونَ قولُه: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ إشارةً إلى جَوابِ مالكٍ خازنِ جَهنَّمَ المَذكورِ في قولِه تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧، ٧٨]؛ فطُوِيَ سُؤالُهم، واقتُصِرَ على جَوابِ مالكٍ خازنِ جَهنَّمَ اعتِمادًا على قَرينةِ عَطْفِ جُملةِ هذا المَقالِ بـ (ثُمَّ) الدَّالَّةِ على التَّراخي[٢].

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿يُقَالُ﴾ للمَجهولِ؛ لعَدَمِ تَعلُّقِ الغَرَضِ بمَعرِفةِ القائِلِ، والمَقصدُ هو: القَولُ[٣].

- وجِيءَ باسمِ المَوصولِ؛ ليُذَكَّروا تَكذيبَهم به في الدُّنيا؛ تَنديمًا لهم وتَحزينًا[٤].

- وتَقديمُ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿تُكَذِّبُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بمُعادِ الضَّميرِ، مع الرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٠١، ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٨-٢٨)

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عِلِّيِّينَ﴾: جَمعٌ منقولٌ مِن «عِلِّيٍّ» وهو فِعِّيلٌ مِنَ «العُلُوِّ»، كسِجِّينٍ مِنَ السَّجنِ، قيل: هو السَّماءُ السَّابعةُ تَحتَ العَرْشِ. وقيل: هو عَلَمٌ لديوانِ الخَيرِ الَّذي دُوِّنَ فيه كُلُّ ما عَمِلَتْه الملائكةُ وصُلَحاءُ الثَّقَلينِ؛ وسُمِّيَ بذلك إمَّا لأنَّه سَبَبُ الارتفاعِ إلى أعالي الدَّرَجاتِ في الجنَّةِ، وإمَّا لأنَّه مَرفوعٌ في السَّماءِ السَّابعةِ، وأصلُ (علو): يدُلُّ على ارتفاعٍ[1].

﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾: جمعُ أريكةٍ، وهي السَّريرُ في الحِجالِ، وتسميتُها بذلك إمَّا لكَونِها في الأرضِ متَّخذةً مِن أَراكٍ، وهو شجرةٌ، أو لكَونِها مكانًا للإقامةِ مِن قولِهم: أَرَكَ بالمكانِ أُرُوكًا، وأصلُ الأُرُوكِ: الإقامةُ على رَعْيِ الأَراكِ، ثمَّ تُجُوِّزَ به في غيرِه مِن الإقاماتِ، و(أرك) أصلانِ؛ أحدُهما: شَجَرٌ، والآخَرُ: الإقامةُ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

قال ابن عاشور: (الأريكةُ: سريرٌ عليه وِسادةٌ، معها سَتْرٌ وهو حَجَلَتُه، والحَجَلةُ: ظُلَّةٌ تُنصَبُ =

﴿نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾: أي: بَهْجةَ التَّنَعُّمِ وحُسْنَه، وأصلُ (نضر): يدُلُّ على حُسنٍ وجمالٍ، وأصلُ (نعم): يدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ[١].

﴿رَّحِيقٖ﴾: الرَّحيقُ: اسمٌ للخَمْرِ الصَّافيةِ الطَّيِّبةِ[٢].

﴿مَّخۡتُومٍ﴾: أي: مختومٍ شرابُه بالرَّائحةِ المسكيَّةِ، وقيل: مَسدودٍ إناؤُه، ممنوعٍ مِن أن تمَسَّه يدٌ إلى أن يَفُكَّ خَتْمَه الأبرارُ، وأصلُ (ختم): يدُلُّ على بُلوغِ آخِرِ الشَّيءِ[٣].

﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾: أي: فلْيَرغَبِ الرَّاغِبونَ، ولْيَسْتَبِقُوا في طَلَبِه، ولْتَحْرِصْ عليه نُفوسُهم، والمُنافَسةُ: مُجاهَدةُ النَّفْسِ للتَّشبُّهِ بالأفاضلِ، واللُّحُوقِ بهم مِن غيرِ إدخالِ ضرَرٍ على غيرِه، يُقالُ: نافَسْتُ في الشَّيءِ مُنافَسةً ونِفاسًا، إذا رَغِبْتَ فيه على وجهِ المُباراةِ، ومِن هذا قَولُهم: شَيءٌ نَفيسٌ، أي: هو أهلٌ أن يُتنافَسَ فيه، ويُرغَبَ فيه[٤].

= فوقَ السَّريرِ لِتَقيَ الحَرَّ والشَّمسَ، ولا يُسَمَّى السَّريرُ أريكةً إلَّا إذا كان معه حَجَلةٌ. وقيل: كُلُّ ما يُتوسَّدُ ويُفتَرَشُ مِمَّا له حَشوٌ: يُسَمَّى أريكةً، وإنْ لم تكُنْ له حَجَلةٌ)). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٩، ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٠)، ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ٩٨٥)، ((البسيط)) =

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾: أي: ما يُمزَجُ ويُخلَطُ به ذلك الشَّرابُ مِن تَسنيمٍ، وهو: اسمُ عَينٍ في الجنَّةِ رَفيعةِ القَدْرِ، سُمِّيَت بالتَّسنيمِ الَّذي هو مَصدَرُ سَنَّمَه: إذا رفَعَه؛ إمَّا لأنَّها أرفَعُ شَرابٍ في الجنَّةِ، وإمَّا لأنَّها تأتيهم مِن فَوقٍ، وأصلُ (مزج): يدُلُّ على خَلْطِ الشَّيءِ بغَيْرِه، وأصلُ (سنم): يدُلُّ على العُلُوِّ والارتفاعِ، ومنه سَنامُ البَعيرِ، وتسَنَّمتُ الحائِطَ: إذا عَلَوتَه[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾

قَولُه تعالى: ﴿عَيْنًا﴾ في نَصبِه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ مِنْ ﴿تَسْنِيمٍ﴾؛ لأنَّه عَلَمٌ لعَينٍ واسمٌ لِماءٍ في الجَنَّةِ، ولا يَضُرُّ كَونُه جامِدًا؛ لوَصفِه بقَولِه تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، أو لتأويلِه بمُشتَقٍّ كجاريةٍ، مع أنَّ الاشتِقاقَ غيرُ لازمٍ. الثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ على المدحِ أو الاختِصاصِ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ. الثَّالثُ: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ الثَّانيةِ بـ «يُسْقَونَ» مُقَدَّرًا. الرَّابعُ: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بـ ﴿تَسْنِيمٍ﴾ على أنَّه مَصدَرٌ مُنَوَّنٌ مُشتَقٌّ مِن سَنَّمَه: إذا رفَعَه.

وقولُه: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾: «الباءُ» إمَّا زائدةٌ، أي: يَشرَبُها، أو بمعنى «مِن»، أي: يَشرَبُ منها، أو هي على بابِها، على تَضمينِ ﴿يَشْرَبُ﴾ معنى: يَرْوَى أو يَلْتَذُّ[2].

= للواحدي (٢٣/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٨)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٣٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٧) و(٥/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٤٢-٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٠١)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٣).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ارتَدِعوا -أيُّها الفُجَّارُ- عن تَكذيبِكم بالبَعْثِ والجَزاءِ؛ إنَّ صَحيفةَ أعمالِ المؤمِنينَ الطَّائِعينَ في مَوضِعٍ عالٍ رفيعٍ، وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بحقيقةِ عِلِّيِّينَ الموضوعِ فيه كتابُ أعمالِ الأبرارِ؟ كِتابُ الأبرارِ كِتابٌ مَسطورةٌ أعمالُهم فيه، يَحضُرُه المُقَرَّبونَ عِندَ اللهِ.

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه ما أعدَّه للأبرارِ، فيقولُ: إنَّ الأبرارَ الَّذين أطاعوا اللهَ لَفِي نَعيمِ الجَنَّةِ الدَّائمِ، على السُّرُرِ يَنظُرونَ إلى وَجهِ اللهِ الكَريمِ، وإلى ما أعطاهم مِنَ النَّعيمِ، تَعرِفُ في وُجوهِهم أثَرَ النِّعمةِ والسُّرورِ، يُسقَون مِن خَمرٍ لذيذةٍ صافيةٍ مختومةٍ بالمِسْكِ؛ فلْيَجتَهِدِ المُتسابِقونَ ويُبادِرُوا في طَلَبِ ذلك النَّعيمِ. ويُمزَجُ ذلك الرَّحيقُ المختومُ ويُخلَطُ بشَرابٍ شَريفٍ مِن عَينٍ رَفيعةٍ عاليةٍ اسمُها تَسنيمٌ، وتلك العَينُ يَروَى بها المقَرَّبونَ السَّابِقونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكرَ تعالى أَمْرَ كِتابِ الفُجَّارِ وأنَّه في أسفَلِ الأمكِنةِ وأضيَقِها؛ عَقَّبَه بذِكرِ كِتابِ ضِدِّهم وهو كِتابُ الأبرارِ، وأنَّه في أعلَى الأمكنةِ وأوسَعِها وأفسَحِها؛ ليَتبيَّنَ الفَرْقُ[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر حالَ الفُجَّارِ المُطَفِّفينَ؛ أتْبَعَه بذِكْرِ حالِ الأبرارِ الَّذين لا يُطَفِّفونَ[2].

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٠).

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ أولئك الفُجَّارُ مِن أنَّه لا بَعْثَ ولا حِسابَ ولا جَزاءَ؛ فلْيَرتَدِعوا عن تكذيبِهم بذلك! إنَّ صَحيفةَ أعمالِ المؤمِنينَ الطَّائِعينَ الملازِمينَ فِعْلَ الخَيراتِ وأعمالَ الإحسانِ: في مَوضِعٍ عالٍ رفيعٍ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٦، ٢١٠، ٢١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٢).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ لَفِي ساقِ العرشِ، يعني: أعمالَ المؤمنينَ وحسَناتِهم). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٢٤).

وقيل: المرادُ: أعلى الأمكنةِ. وممَّن ذهب إليه: الزَّجَّاجُ، والقُشَيريُّ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٧٠١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٨٢).

وقيل: في السَّماءِ السَّابعةِ تحتَ العرشِ. وممَّن اختاره: الواحديُّ، وابنُ الجَوزيِّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣١٤).

قيل: عِلِّيُّونَ هو: عَلَمٌ لديوانِ الخَيرِ الَّذي دُوِّنَ فيه كُلُّ ما عَمِلَتْه الملائكةُ وصُلَحاءُ الثَّقَلينِ. ومِمَّن قال بهذا: الزمخشريُّ، والنسفي، وابنُ جُزَي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٠٣).

وقيل: عِلِّيُّونَ: هو اسمٌ لأعلى الجنَّةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القول: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٣).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ معناه: في علوٍّ وارتفاعٍ، في سماءٍ فوقَ سماءٍ، وعلوٍّ فوقَ علوٍّ. وجائزٌ أن يكونَ ذلك إلى السَّماءِ السَّابعةِ، وإلى سِدْرةِ المُنتهَى، وإلى قائمةِ العَرشِ، ولا خبَرَ يَقطَعُ العُذرَ بأنَّه مَعْنِيٌّ به بعضُ ذلك دونَ بعضٍ. والصَّوابُ أن يُقالَ في ذلك كما قال جلَّ ثناؤُه: إنَّ كتابَ أعمالِ الأبرارِ لَفِي ارتفاعٍ إلى حدٍّ قد عَلِمَ اللهُ جلَّ وعزَّ مُنْتَهاه، ولا عِلْمَ عندَنا بغايتِه، غيرَ أنَّ ذلك لا يقصرُ عن السَّماءِ السَّابعةِ؛ لإجماعِ الحُجَّةِ مِن أهلِ التَّأويلِ على ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١١).

عن البَراءِ بن عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما في حَديثِه الطَّويلِ في صفةِ قبضِ الرُّوحِ، ونعيمِ القبرِ وعذابِه، وفيه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((فيَصعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ -يعني: بها- على مَلَإٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فيقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنْتَهوا بها إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيَستَفتِحونَ له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبُوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها، حتَّى يُنتَهَى به إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: اكتُبُوا كِتابَ عَبْدي في عِلِّيِّينَ، وأَعيدوه إلى الأرضِ؛ فإنِّي منها خَلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخرِجُهم تارةً أُخرى))[1].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان هذا أمرًا عَظيمًا؛ زاد في تعظيمِه بقَولِه[2]:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾.

أي: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بحقيقةِ عِلِّيِّينَ الموضوعِ فيه كتابُ أعمالِ الأبرارِ[3]؟

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٣).

والاستفهامُ هنا قيل: هو للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ. وممَّن اختاره: القرطبيُّ، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٣).

وقيل: هو امتِنانٌ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه لم يكُنْ يَعلَمُ ذلك حتَّى أطْلَعَه اللهُ عليه. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٤٥٧).

﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَظَّم المكانَ فعُلِمَت عَظَمةُ الكِتابِ، ابتدَأَ الإخبارَ عنه على سَبيلِ القَطْعِ؛ زيادةً في عَظَمتِه، فقال[1]:

﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠﴾.

أي: كِتابُ الأبرارِ هذا هو كِتابٌ مَسطورةٌ أعمالُهم فيه بوُضوحٍ دونَ زِيادةٍ أو نَقْصٍ[2].

﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَظَّمَه في نَفْسِه وفي مَكانِه؛ عَظَّمَه في حُضَّارِه؛ فقال[3]:

﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾.

أي: يَحضُرُه عِبادُ اللهِ المُقَرَّبونَ عِنْدَه[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨، ٢٦٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤).

ممَّن ذهب إلى أنَّ ﴿يَشۡهَدُهُ﴾ بمعنى: يَحضُرُه: ابنُ الجوزيِّ، والخازنُ، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٣٣). =

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شُروعٌ في بَيانِ مَحاسِنِ أحوالِ الأبرارِ إثْرَ بَيانِ حالِ كِتابِهم، على طَريقةِ

= وقال الواحديُّ والبغويُّ والرازيُّ والرَّسْعَنيُّ: يَشهَدونَ ويَحضُرونَ ذلك المكتوبَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٤٠).

وقال ابنُ عاشور: (﴿يَشۡهَدُهُ﴾ يَطَّلِعونَ عليه، أي: يُعلَنُ به عندَ المقرَّبينَ، وهم الملائِكةُ، وهو إعلانُ تَنويهٍ بصاحِبِه، كما يُعلَنُ بأسماءِ النَّابِغينَ في التَّعليمِ، وأسماءِ الأبطالِ في الكتائِبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤).

والمُقَرَّبونَ قيل: هم الملائِكةُ. ومِمَّن قال به: ابنُ جريرٍ، وابنُ الجوزيِّ، والقرطبيُّ، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢).

وقيل: هم الملائِكةُ ومَن في السَّمَواتِ مِنَ الأنبياءِ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالِحينَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: البِقاعيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

وعن ابنِ عبَّاسٍ: يَشهَدُه كلُّ أهلِ السَّماءِ. وفي روايةٍ: يَشهَدُه مِن كلِّ سماءٍ مُقَرَّبوها، وقال بها الضَّحَّاكُ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤٤٨).

قال البقاعي: (﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يَحضُرُه حضورًا تامًّا دائمًا -لا غَيبةَ فيه- الجماعةُ الَّذين يَعرِفُ كُلُّ أحدٍ أنَّه ليس لهم عندَ كُلِّ مَن يُعتَبَرُ تقريبُه إلَّا التَّقريبُ مِن ابتدائِه إلى انتهائِه، هم شهودُ هذا المسطورِ، وهم الملائِكةُ يُشَيِّعونَه مِن سماءٍ إلى سماءٍ، ويَحُفُّونَ به؛ سرورًا وتعظيمًا لصاحِبِه، ويَشهَدُه مَن في السَّمَواتِ مِنَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالحينَ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٢٦، ٣٢٧).

ما مَرَّ في شَأنِ الفُجَّارِ[١].

وأيضًا لَمَّا عَظَّم كِتابَهم في الآيةِ المتقَدِّمةِ؛ عَظَّم بهذه الآيةِ مَنزِلتَهم[٢].

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢﴾.

أي: إنَّ المؤمِنينَ الَّذين أطاعوا اللهَ، وأحسَنُوا إلى عبادِ اللهِ: لَفِي نَعيمِ الجَنَّةِ الدَّائِمِ[٣].

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر أنَّ الأبرارَ في نعيمٍ؛ بَيَّن ذلك النَّعيمَ بأمورٍ ثَلاثةٍ[٤]:

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣﴾.

أي: هم على السُّرُرِ الَّتي أُرخِيَ عليها سُتورٌ مُزَيَّنةٌ يَنظُرونَ إلى وَجهِ اللهِ الكَريمِ، وإلى ما أعطاهم مِنَ النَّعيمِ العَظيمِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: يَنظُرونَ إلى ما أعَدَّ الله لهم مِن النَّعيم، وما أعطاهم مِن أنواعِ الكرامةِ: ابنُ جرير، والبغويُّ، والرَّسْعَني، والبِقاعي، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) =

كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَف نَعيمَهم؛ أخبَرَ أنَّهم مِن عَراقَتِهم فيه يَعرِفُهم به كُلُّ ناظِرٍ إليهم[١].

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: تَعرِفُ في وُجوهِهم أثَرَ النِّعمةِ والسُّرورِ الظَّاهِرَ؛ مِنَ الحُسْنِ والبَهاءِ والنَّضارةِ[٢].

= للبقاعي (٢١/ ٣٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٤).

قال ابن القيم: (هضمَ معنى الآيةِ مَن قال: يَنظرونَ إلى أعدائِهم يُعذَّبون، أو يَنظرونَ إلى قصورِهم وبساتينِهم، أو ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ. وكلُّ هذا عُدولٌ عن المقصودِ إلى غيرِه، وإنَّما المعنَى ينظرونَ إلى وجهِ ربِّهم، ضدَّ حالِ الكفارِ الذين هم عن ربِّهم محجوبونَ). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٣٢).

وقال السعدي: (﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعدَّ الله لهم مِن النَّعيمِ، ويَنظُرونَ إلى وجهِ ربِّهم الكريمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

وقال القُشَيري: (أثبتَ النَّظرَ ولم يُبيِّنِ المنظورَ إليه؛ لاختِلافِهم في أحوالِهم؛ فمِنهم مَن يَنظُرُ إلى قُصورِه، ومِنهم مَن ينظرُ إلى حُورِه، ومنهم ومنهم... ومنهم الخواصُّ فهُم على دوامِ الأوقاتِ إلى الله سُبحانَه يَنظُرونَ). ((تفسير القشيري)) (٣/ ٧٠٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٤).

قال ابنُ جُزَي: (الخِطابُ في ﴿تَعْرِفُ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، أو لكُلِّ مُخاطَبٍ مِن غيرِ تَعيينٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٢).

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت مجالِسُ الأُنْسِ -لا سِيَّما في الأماكِنِ النَّضِرةِ- لا تَطِيبُ إلَّا بالمآكِلِ والمَشارِبِ، وكان الشَّرابُ يدُلُّ على الأكلِ؛ قال مُقتَصِرًا عليه؛ لأنَّ هذه السُّوَرَ قِصارٌ، يُقصَدُ فيها الجَمعُ مع الاختِصارِ؛ قال[1]:

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ...﴾.

أي: يُسقَى هؤلاءِ الأبرارُ مِن خَمرٍ لذيذةٍ صافيةٍ لا كَدَرَ فيها، مختومةٍ بالمِسْكِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٤، ٢١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٤، ١٠٥).

قال الماوَرْدي: (فيه أربعةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: مِزاجُه مِسْكٌ. قاله مجاهدٌ. الثَّاني: عاقِبَتُه مِسْكٌ. ويكونُ خِتامُه آخِرَه... الثَّالثُ: أنَّ طَعْمَه وريحَه مِسْكٌ... الرَّابعُ: أنَّ خَتْمَه الَّذي خُتِمَ به إناؤُه مِسْكٌ. قاله ابنُ عبَّاسٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٣٠).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ: أنَّ هذه الخَمْرَ مختومةٌ بالرَّائحةِ المِسْكِيَّةِ، فتَفوحُ منها في آخِرِ شُرْبِهم لها رائِحةُ المِسْكِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن عطية، والقرطبي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٥).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (إذا شرِب وفرَغ ونزَع الإناءَ مِن فيه وجَد طَعْمَ المِسْكِ). ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٦٢٤).

وقال الزَّجَّاجُ: (انختَمَ ذلك بطَعْمِ المِسْكِ ورائحتِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٣٠١).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ: تُختَمُ أوانيه مِن الأكوابِ والأباريقِ بمِسْكٍ مكانَ السِّدادةِ الَّتي تُغَطِّي الأوانيَ: الزمخشريُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٦).

=

﴿... وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

أي: فلْيَجتَهِدِ المتسابِقونَ ويُبادِرُوا في طَلَبِ ذلك النَّعيمِ[(١)]، بطاعةِ اللهِ تعالى، واجتنابِ ما يُسخِطُه، ولْيُسارِعوا؛ حِرصًا على الفَوزِ به[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ

= قال ابنُ عاشور: (الخِتامُ بوَزنِ كِتابٍ: اسمٌ للطِّينِ الَّذي يُختَمُ به، كانوا يجعَلونَ طِينَ الخِتامِ على مَحَلِّ السِّدادِ مِنَ القارورةِ أو الباطيةِ أو الدَّنِّ للخَمْرِ؛ لِمَنعِ تخلُّلِ الهواء إليها، وذلك أصلَحُ لاختمارِها، وزيادةِ صَفائِها، وحِفظِ رائحتِها، وجُعِلَ خِتامُ خَمرِ الجَنَّةِ بعَجينِ المِسْكِ عِوَضًا عن طِينِ الخَتْمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٦).

وقال البِقاعي: (﴿مَّخْتُومٍ﴾ أي: فهو معَ نفاستِه سالمٌ مِن الغبارِ وجميعِ الأقذاءِ والأقذارِ. ولَمَّا كان الخَتمُ حينَ الفكِّ لا بدَّ أن يَنزِلَ مِن فُتاتِه في الشَّرابِ؛ قال: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾. وقال ابنُ مسعودٍ رضيَ الله عنه: إنَّ المرادَ بخِتامِه: آخرُ طَعمِه، فيحصلُ أنَّ خِتامَه في أوَّلِ فَتحِه وفي آخِرِ شربِه المِسكُ، وذلك يقتضي أن لا يكونَ يَفتَحُه إلَّا شاربُه، وأنَّه يكونُ على قدرِ كفايتِه فيَشرَبُه كلَّه، والعبارةُ صالحةٌ لأنْ يكونَ الختامُ أوَّلًا وآخِرًا، وهو يَجري مجرى افتِضاضِ البِكْرِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٢٩).

(١) قيل: المرادُ بقولِه ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارةُ إلى ما سبق ذِكرُه في هذه السُّورةِ مِن نَعيمِ الجنَّةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

وقيل: اسمُ الإشارة يعودُ على الرَّحيقِ المختومِ بمِسْكٍ. ومِمَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٥).

أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١].

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الشَّرابَ أتْبَعَه مِزاجَه -على ما يَتعارَفُه أهلُ الدُّنيا- لكِنْ بما هو أشرَفُ منه؛ فقال مُبَيِّنًا لحالِ هذا المَسْقِيِّ[(١)]:

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: ويُمزَجُ ذلك الرَّحيقُ المختومُ ويُخلَطُ بشَرابٍ شَريفٍ مِن عَينٍ رَفيعةٍ عاليةٍ اسمُها تَسنيمٌ[(٢)].

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: وتلك العَينُ يَروَى بها المقرَّبونَ السَّابِقونَ، وهم أعلى وأفضَلُ مِن الأبرارِ، فيَشرَبونَ منها شرابًا صافيًا خالِصًا دونَ أن يُمزَجَ بشَيءٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٥).

قال الجوهري: (تسنَّمه، أي: علاه. وقولُه تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ قالوا: هو ماءٌ في الجنَّةِ، سمِّي بذلك لأنَّه يجري فوقَ الغرفِ والقصورِ). ((الصَّحاح)) (٥/ ١٩٥٥). ويُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٥٤٥)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٥، ١٠٦).

قال ابن عثيمين: (مِن العلماءِ مَن قال: «الباءُ» بمعنى «مِن»، فمعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: يَشرَبُ منها. ومنهم مَن قال: إنَّ ﴿يَشْرَبُ﴾ بمعنى: يَروَى، ضُمِّنَتْ معنَى يَروى، فمعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ =

الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ توجيهٌ إلى ما ينبغي أن تكونَ فيه المنافَسةُ؛ ففي هذه الآيةِ الكريمةِ لَفتٌ لأوَّلِ السُّورةِ؛ فإذا كان أولئك يَسعَونَ لجَمعِ المالِ بالتَّطفيفِ، فلَهُمُ الوَيلُ يومَ القيامةِ، وإذا كان الأبرارُ في نعيمٍ يومَ القيامةِ، وهذا شَرابُهم؛ فهذا هو محَلُّ المنافَسةِ، لا في التَّطفيفِ مِن أيِّ مَكيلٍ أو مَوزونٍ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أنَّ التَّنافُسَ ليس مذمومًا مُطلَقًا، بل هو محمودٌ في الخَيرِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أنَّ العاقلَ يُنافِسُ في العُلُوِّ الدَّائمِ الباقي الَّذي فيه رِضوانُ اللهِ وقُرْبُه وجِوارُه، ويَرغَبُ عن العُلُوِّ الفاني الزَّائلِ الَّذي يَعْقُبُه غَضَبُ اللهِ وسَخَطُه، وانحِطاطُ العبدِ وسُفولُه، وبُعْدُه عن اللهِ وطَرْدُه عنه؛ فهذا العُلُوُّ الفاني الَّذي يُذَمُّ، وهو العُتُوُّ والتَّكبُّرُ في الأرضِ بغَيرِ الحقِّ، وأمَّا العُلُوُّ الأوَّلُ والحِرصُ عليه فهو مَحمودٌ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أنَّ الشَّارعَ لَمْ يَجْعَلِ الطَّاعاتِ والقُرُباتِ محَلًّا للإيثارِ، بل مَحَلًّا للتَّنافُسِ والمُسابَقةِ؛ ولهذا قال

= أي: يَروى بها المقرَّبون. وهذا المعنى أو هذا الوجهُ أحسَنُ مِن الوجهِ الَّذي قبْلَه؛ لأنَّ هذا الوجهَ يتضَمَّنُ شيئينِ يُرجِّحانِه؛ وهما: أوَّلًا: إبقاءُ حرفِ الجرِّ على معناه الأصليِّ. والثَّاني: أنَّ الفعلَ ﴿يَشۡرَبُ﴾ ضُمِّن معنًى أعلى مِن الشُّربِ، وهو الرِّيُّ، فكم مِن إنسانٍ يَشرَبُ ولا يَروى، لكنْ إذا رَوِيَ فقد شَرِب). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٦).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٨٩).

الفُقَهاءُ: «لا يُستحَبُّ الإيثارُ بالقُرُباتِ»، والسِّرُّ فيه -واللهُ أعلمُ- أنَّ الإيثارَ إنَّما يكونُ بالشَّيءِ الَّذي يَضِيقُ عن الاشتراكِ فيه، فلا يَسَعُ المؤْثِرَ والمؤْثَرَ، بل لا يَسَعُ إلَّا أحدَهما، وأمَّا أعمالُ البرِّ والطَّاعاتِ فلا ضِيقَ على العِبادِ فيها، فلو اشتركَ الألوفُ المؤلَّفةُ في الطَّاعةِ الواحدةِ لَمْ يكُنْ عليهم فيها ضِيقٌ ولا تزاحُمٌ، ووَسِعَتْهُم كلَّهم، وإنْ قُدِّرَ التَّزاحمُ فإنَّ في العَزْمِ والنِّيَّةِ الجازمةِ على فِعْلِه مِن الثَّوابِ ما لفاعلِه، فإذا قُدِّرَ فَوتُ مباشَرتِه له فلا يَفُوتُ عليه عَزْمُه ونِيَّتُه لفِعْلِه، وأيضًا فإنَّه إذا فات عليه كان في غيرِه مِن الطَّاعاتِ والقُرُباتِ عِوضٌ منه، وأيضًا فإنَّ المقصودَ رغبةُ العَبدِ في التَّقَرُّبِ إلى اللهِ، وابتغاءِ الوَسيلةِ إليه، والمنافَسةِ في مَحابِّه. والإيثارُ بهذا التَّقَرُّبِ يدُلُّ على رَغبتِه عنه، وتَرْكِه له، وعدَمِ المُنافَسةِ فيه، وهذا بخِلافِ ما يَحتاجُ إليه العَبدُ مِن طَعامِه وشَرابِه ولباسِه إذا كان أخوه محتاجًا إليه، فإذا اختَصَّ به أحدُهما فات الآخَرَ؛ فنَدَبَ اللهُ سُبحانَه عبْدَه إذا وَجَدَ مِن نفْسِه قوَّةً وصبرًا على الإيثارِ به ما لَمْ يَخْرِمْ عليه دِينًا، أو يَجْلِبْ له مَفسَدةً[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أهلُ الجَنَّةِ نَوعانِ: سابِقونَ مُقَرَّبون، وأبرارٌ أصحابُ يمينٍ، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ * يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ * إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٍ

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٩٩، ٣٠٠).

وقال ابن القيِّم: (الله سُبحانَه وتعالَى يُحبُّ المُبادَرةَ أو المُسارَعةَ إلى خدمتِه، والتَّنافُسَ فيها؛ فإنَّ ذلك أبلَغُ في العُبوديَّةِ؛ فإنَّ المُلوكَ تحبُّ المُسارَعةَ والمُنافَسةَ في طاعتِها وخِدمَتِها، فالإيثارُ بذلك مُنافٍ لمقصودِ العُبوديَّةِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه أمَر عبدَه بهذه القُربةِ إمَّا إيجابًا وإمَّا استِحبابًا، فإذا آثَر بها ترَكَ ما أُمِر به وولَّاه غيرَه... وقد كان الصَّحابةُ يُسابِقُ بعضُهم بعضًا بالقُرَبِ، ولا يُؤْثِرُ الرَّجُلُ منهم غيرَه بها). ((الروح)) (ص: ١٣٠).

مَّخْتُومٍ ۞ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۞ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: (تُمزَجُ لأصحابِ اليَمينِ مَزْجًا، ويَشرَبُها المقرَّبونَ صِرْفًا [أي: خالصةً])[١].

٢- لَفظُ الأبرارِ إذا أُطْلِقَ دَخَلَ فيه كلُّ تَقِيٍّ مِن السَّابقينَ والمقتَصِدينَ، وإذا قُرِنَ بالمقرَّبينَ كان أخَصَّ؛ قال تعالى في الأوَّلِ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وقال في الثَّاني: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۞ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ استُدِلَّ به أنَّ الجَنَّةَ في أعلى عِلِّيِّينَ، وكما في قَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حَديثِ البراءِ بنِ عازبٍ المشهورِ في صفةِ قبضِ الرُّوحِ، ونعيمِ القبرِ وعذابِه: ((فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكتُبُوا كِتابَ عَبْدي في عِلِّيِّينَ، وأَعيدُوه إلى الأرضِ))[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ تحقيقٌ لكَونِه مَكتوبًا كِتابةً حَقيقيَّةً[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ خَصَّ تعالى كتابَ الأبرارِ بأنَّه يُكْتَبُ ويُوَقَّعُ لهم به بمَشْهَدِ المقرَّبينَ مِن الملائكةِ والنَّبيِّينَ وساداتِ المؤمنينَ -وذلك على قولٍ-، ولَمْ يَذْكُرْ شَهادةَ هؤلاء لكِتابِ الفُجَّارِ؛ تنويهًا بكتابِ الأبرارِ وما وَقَعَ لهم به، وإشهارًا له، وإظهارًا بيْن خواصِّ خلْقِه؛ كما تَكتبُ الملوكُ تواقيعَ مَن تُعَظِّمُه بيْن الأمراءِ وخواصِّ أهلِ المملكةِ؛ تنويهًا باسمِ المكتوبِ له، وإشادةً

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تعليق مختصر على لمعة الاعتقاد)) لابن عثيمين (ص: ١٣٢).
والحديث تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٧٠).

بذِكْرِه، وهذا نوعٌ مِن صلاةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى وملائكتِه على عَبْدِه[١].

٦- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ بِرَّ القَلبِ يُوجِبُ نَعيمَ الدُّنيا[٢].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ يعني: أنَّهم في نَعيمٍ في القَلبِ، وفي نعيمٍ في البَدَنِ، فهُم في أَسَرِّ ما يَكونُ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ دليلٌ على أنَّ المؤمنَ مَندوبٌ إلى الرَّغبةِ في مَلاذِّ النُّفُوسِ وشَهَواتِها في الآخِرةِ، والسَّعيِ في اكتِسابِها، وأنَّ تَنَطُّعَ الصُّوفيَّةِ كما يَدَّعُون مِن تَرْكِ الاشتغالِ بها، والاقتصارِ على العَمَلِ الصَّالحِ الرَّضِيِّ وحْدَه، لا للرَّغبةِ في الجَزاءِ عليه مِن مُباشرةِ ما وَعَدَه اللهُ تبارك وتعالى وأَعَدَّه لأهلِ الجَنَّةِ: مذمومٌ مِن قولِهم، وغيرُ مَرْضيٍّ مِن فِعْلِهم؛ لأنَّ رِضا اللهِ جلَّ جلالُه وإنْ كان مِن أجَلِّ الجزاءِ وأعظَمِ النَّعيمِ فليس بمانعٍ مِن الرَّغبةِ في مباشرةِ مَلاذِّ النُّفُوسِ، والتَّمَتُّعِ بما هو مِن حَظِّها، وأنَّه لا يَحُطُّه مِن درجةِ طُلَّابِ الرِّضا، وإنَّما نُهُوا عنه في الدُّنيا، ونُدِبُوا إلى الزُّهدِ فيها؛ لأنَّ محظورَها يُفضِي بهم إلى المُحَرَّمِ، ويَكْسِبُهم النَّارَ، ومُباحَها يُفْضي بهم إلى الفُتورِ والكَسَلِ، والرَّغبةِ في الدُّنيا عن مباشرةِ تَعَبِ العبادةِ ونَصَبِها، ويُصَعِّبُ عليهم تَجَرُّعَ المراراتِ، ويُطَمْئِنُ إلى الرَّاحاتِ وإيثارِ الحلاواتِ عليها، فإذا دَخَلوا الجَنَّةَ وانتَقَلوا عن دارِ المِحَنِ، ورُفِعَتْ عنهم العبادةُ؛ تَلَذَّذُوا بمَحابِّ النُّفُوسِ مِن الأكلِ والشُّربِ وأنواعِ النَّعيمِ مِن مُعانَقةِ الحُورِ ومَن يُزَوَّجُون مِن الآدَميَّاتِ المُطيعاتِ، ويُرَدُّ

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٧٠).

(٢) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٧٢٦).

إليهم مِن الزَّوجاتِ اللَّواتي كُنَّ لهم في الدُّنيا، فلَمْ يَضُرَّهم ذلك، ولا خَشُوا مَقْتًا مِن ربِّهم، ولا حَذِروا فُتورًا عن العبادةِ؛ لأنَّه جزاءٌ لهم على ما أطاعوه في الدُّنيا، وآثَروا طاعتَه على مَلاذِّهم ومَحابِّهم فيها، أَلَا تراه يقولُ سُبحانَه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، والقرآنُ مملوءٌ به؛ مِن قوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وكيف يكونُ مذمومًا مع قولِه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾، فلِمَ أمَرَهم إذَنْ بالتَّنافُسِ؟! ولِمَ وَصَفَه ومَلأَ القرآنَ بذِكْرِه[١]؟!

٩- في قولِه تعالى: ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ﴾ عُبِّرَ بالفِعلِ ﴿يُسۡقَوۡنَ﴾ دُونَ (يَشرَبون)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مَخدومون، يَخدُمُهم مَخلوقاتٌ مِن أجْلِ ذلك في الجَنَّةِ، وذلك مِن تَمامِ التَّرفُّهِ ولَذَّةِ الرَّاحةِ[٢].

١٠- قال تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ قيل: إنَّ المرادَ بالخِتامِ: ما يَبقى في سُفْلِ الشَّرابِ مِن الثُّفْلِ[٣]، وهذا يدُلُّ على أنَّ أنهارَها تجري على المِسْكِ؛ ولذلك يَرْسُبُ منه في الإناءِ في آخِرِ الشَّرابِ كما يَرْسُبُ الطِّينُ في آنيةِ الماءِ في الدُّنيا[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۞ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أنَّ مِزاجَ شَرابِ الأبرارِ مِن التَّسنيمِ؛ وأنَّ المقرَّبينَ يَشرَبونَ منه بلا مِزاجٍ؛ وهذا لأنَّ الجزاءَ وِفاقُ العَمَلِ، فكما خَلَصَتْ أعمالُ المقرَّبينَ كلُّها للهِ خَلَصَ شرابُهم، وكما مَزَجَ الأبرارُ الطَّاعاتِ بالمباحاتِ، مُزِجَ لهم شَرابُهم؛ فمَن أَخْلَصَ أُخْلِصَ شَرابُه،

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٨٧-٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥).

(٣) الثُّفْلُ: حُثَالَةُ الشَّيْءِ، وهو الثَّخينُ الَّذي يَبقَى أسفَلَ الصَّافي. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٦).

ومَن مَزَجَ مُزِجَ شرابُه[١].

١٢- قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ لَمْ يَقُلْ: «يَشْرَبُ منها»؛ لأنَّه ضَمَّنَ قَوْلَه: «يَشْرَب» مَعْنى «يَرْوَى بها»؛ فإنَّ الشَّاربَ قد يَشْرَبُ ولا يَرْوى، فإذا قيل: «يَشرَبونَ منها» لَمْ يَدُلَّ على الرِّيِّ، فإذا قيل: «يَشربونَ بها» كان المعنى: «يَرْوَون بها»، فالمقرَّبون يَرْوَونَ بها فلا يحتاجُونَ معها إلى ما دونَها؛ فلهذا يَشرَبونَ منها صِرْفًا بخِلافِ أصحابِ اليمينِ؛ فإنَّها مُزِجَتْ لهم مَزْجًا، وهو كما قال تعالى في سورةِ (الإنسانِ): ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥، ٦]، فعِبَادُ اللهِ هم المقرَّبون المذكورونَ في تلك السُّورةِ؛ وهذا لأنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العمَلِ في الخَيرِ والشَّرِّ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾

- حرفُ ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ وإبْطالٌ لِما تَضمَّنَه ما يُقالُ لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧]، فيَجوزُ أنْ تَكونَ كَلِمةُ ﴿كَلَّآ﴾ ممَّا قيلَ لهم مع جُملةِ ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ رَدْعًا لهم؛ فهي مِن المَحكيِّ بالقَولِ. ويَجوزُ أنْ تَكونَ مُعتَرِضةً مِن كَلامِ اللهِ في القُرآنِ؛ إبْطالًا لتَكذيبِهم المَذكورِ[٣].

وقيل: حرفُ ﴿كَلَّآ﴾ تَكريرٌ، تَأكيدٌ للرَّدعِ؛ ليُعقَبَ بوَعدِ الأبْرارِ، كَما عُقِّبَ الأوَّلُ بوَعيدِ الفُجَّارِ؛ إشْعارًا بأنَّ التَّطفيفَ فُجورٌ، والإيفاءَ بِرٌّ، أو رَدْعٌ عن التَّكذيبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ مَحلِّ كِتابِ الأبْرارِ، بعدَ بيانِ سُوءِ حالِ الفُجَّارِ، مُتَّصلًا ببَيانِ سُوءِ حالِ كِتابِهم، وفيه تَأكيدٌ للرَّدْعِ، ووُجوبِ الارتِداعِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ الآياتِ؛ قيل: يَظهَرُ أنَّ هذه الآياتِ المُنتَهيةَ بقَولِه: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ مِن الحِكايةِ، ولَيستْ مِن الكلامِ المَحكيِّ بقَولِه: ﴿ثُمَّ يُقَالُ ...﴾ إلخ؛ فإنَّ هذه الجُملةَ بحَذافِرِها تُشبِهُ جُملةَ ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ...﴾ [المطففين: ٧] إلخ، أُسلوبًا ومُقابَلةً؛ فالوَجْهُ أنْ يَكونَ مَضمونُها قَسيمًا لمَضمونِ شَبيهِها، فتَحصُلَ مُقابَلةُ وَعيدِ الفُجَّارِ بوَعدِ الأبْرارِ، ومِن عادةِ القُرآنِ تَعقيبُ الإنذارِ بالتَّبشيرِ، والعَكسُ؛ لأنَّ النَّاسَ راهِبٌ وراغِبٌ؛ فالتَّعرُّضُ لنَعيمِ الأبْرارِ إدْماجٌ[٢] اقتَضَتْه المُناسَبةُ، وإنْ كان المَقامُ مِن أوَّلِ السُّورةِ مَقامَ إنْذارٍ، ويَكونُ المُتكلِّمُ بالوَعدِ والوَعيدِ واحِدًا، وَجَّهَ كلامَه للفُجَّارِ الَّذين لا يَظُنُّون أنَّهم مَبْعوثون، وأعقَبَه بتَوجيهِ كلامٍ للأبْرارِ الَّذين هُم بضِدِّ ذلك، فتَكونُ هذه الآياتِ مُعتَرِضةً مُتَّصِلةً بحرفِ الرَّدْعِ. ويَجوزُ أنْ تَكونَ مِن المَحكيِّ بالقَولِ في ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧]، فتَكونَ مَحكيَّةً بالقَولِ المَذكورِ، مُتَّصِلةً بالجُملةِ الَّتي قبْلَها وبحَرفِ الإبْطالِ، على أنْ يَكونَ القائلون لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ على وَجْهِ التَّوبيخِ؛ أعقَبوا تَوبيخَهم بوَصفِ نَعيمِ المُؤمِنينَ بالبَعثِ تَنْديمًا للَّذين أنكَروه، وتَحسيرًا لهم على ما أفاتوه مِن الخَيرِ[٣].

= السعود)) (٩/ ١٢٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٧).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٢، ٢٠٣).

- وفي قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ مع الأولى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ [المُطَفِّفين: ٧] احتباكٌ[١]؛ ذِكرُ ﴿سِجِّينٖ﴾ أوَّلًا دالٌّ على الاتِّساعِ ثانيًا، وذكرُ ﴿عِلِّيِّينَ﴾ والمقرَّبينَ ثانيًا دالٌّ على أسفلِ سافلينَ والمُبعَدينَ أوَّلًا[٢].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾؛ (مَا) اسمُ استِفهامٍ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ[٣].

- وعِلِّيُّون: جَمعُ عِلِّيٍّ، وعِلِّيٌّ على وَزنِ (فِعِّيلٌ) مِن العُلُوِّ، وهو زِنةُ مُبالَغةٍ في الوَصفِ، جاءَ على صورةِ جَمْعِ المُذكَّرِ السَّالِمِ[٤]. وقيلَ: إنَّ عِلِّيِّينَ ليس جَمْعَ عِلِّيٍّ، ولكنَّه عَلَمٌ على مَكانِ الأبْرارِ في الجَنَّةِ، وصِيغَ على صِيغةِ جَمعِ المُذكَّرِ؛ لأنَّ أَصلَ تلك الصِّيغةِ أنْ تُجمَعَ بها أسْماءُ العُقلاءِ وصِفاتُهم، فاستُكمِلَ له صِيغةُ جَمعِ العُقلاءِ الذُّكورِ؛ إتْمامًا لشَرَفِ المَعنى بإعْطائِه صِيغةَ التَّذكيرِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۞ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۞ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۞ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۞ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۞ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ مَضمونُ هذه الجُملةِ قَسيمٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] إلى آخِرِها؛

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٣).

ولذلك جاءَتْ على نَسيجِ نَظْمِ قَسيمتِها افتِتاحًا وتَوصيفًا وفَصلًا، وهي مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]؛ فمَوقِعُها مَوقِعُ البَيانِ، أو موقِعُ بَدَلِ الاشتِمالِ[١] على كِلَا الوَجهَينِ في مَوقِعِ الَّتي قبْلَها، على أنَّه يَجوزُ أنْ تَكونَ مِن الكلامِ الَّذي يُقالُ لهم، وهو المَحكيُّ بقَولِه: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧]، فيَكونَ قولُ ذلك لهم تَحسيرًا وتَنديمًا على تَفريطِهم في الإيمانِ، ولا تعارُضَ بيْن الوَجهَينِ[٢]. وقيل: الجملةُ مستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: هذا حالُ كتابِهم، فما حالُهم؟ فأُجيبَ بما ذُكِر، أي: إنَّهم لفي نعيمٍ عظيمٍ[٣].

- وذِكرُ ﴿ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ بالاسمِ الظَّاهِرِ دونَ ضَميرِهم، خِلافًا لِما جاءَ في جُملةِ ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]؛ تَنويهًا بوَصفِ الأبْرارِ[٤].

- وحَذفُ مَفعولِ ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ إمَّا لدَلالةِ ما تَقدَّمَ عليه مِن قولِه في ضِدِّهم: ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، والتَّقديرُ: يَنظُرون إلى رَبِّهم، وإمَّا لقَصدِ التَّعميمِ، أي: يَنظُرون كُلَّ ما يُبهِجُ نُفوسَهم ويَسُرُّهم؛ بقَرينةِ مَقامِ الوَعدِ والتَّكريمِ[٥].

- قولُه: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ كلامٌ مُستأْنَفٌ، مَسوقٌ لإيذانِ المُخاطَبِ بالالْتِفاتِ إليهم، والتَّأمُّلِ في آثارِ النَّعيمِ على وُجوهِهم[٦].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٠٥).

(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٦).

- قولُه: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ الخِطابُ لكُلِّ أَحدٍ ممَّن له حَظٌّ مِن الخِطابِ؛ للإيذانِ بأنَّ ما لَهم مِن آثارِ النِّعمةِ وأَحكامِ البَهجةِ، بحَيثُ لا يَختَصُّ برُؤيتِه راءٍ دُونَ راءٍ. والخِطابُ بمِثلِه في مَقامِ وَصْفِ الأُمورِ العَظيمةِ طَريقةٌ عَرَبيَّةٌ مَشهورةٌ[١].

- والنَّضْرةُ: البَهْجةُ والحُسنُ، وإضافةُ ﴿نَضْرَةَ﴾ إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ مِن إضافةِ المُسبَّبِ إلى السَّببِ، أي: النَّضْرةُ والبَهْجةُ الَّتي تَكونُ لوَجْهِ المَسرورِ الرَّاضي؛ إذ تَبْدو على وَجْهِه مَلامِحُ السُّرورِ[٢].

- قولُه: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ نَعتٌ للرَّحيقِ، أو بدَلٌ مُفَصَّلٌ مِن مُجمَلٍ، أو استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن وَصْفِ الرَّحيقِ بأنَّه مَختومٌ؛ أنْ يَسألَ سائلٌ عن خِتامِها، أيُّ شيءٍ هو مِن أصنافِ الخِتامِ؟ لأنَّ غالِبَ الخِتامِ أنْ يَكونَ بطِينٍ أو سِدادٍ[٣]. وذلك على قولٍ.

- وجُملةُ ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ وجُملةِ ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾، ونَظْمُ التَّركيبِ في هذه الجُملةِ دَقيقٌ يَحتاجُ إلى بَيانٍ؛ وذلك أنْ نَجعَلَ (الواوَ) اعتِراضيَّةً، فقَولُه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ هو مَبدأُ الجُملةِ، وتَقديمُ المَجرورِ لإفادةِ الحَصْرِ، أي: وفي ذلك الرَّحيقِ فلْيَتَنافَسِ النَّاسُ، لا في رَحيقِ الدُّنيا الَّذي يَتَنافَسُ فيه أهلُ البَذَخِ، ويَجلِبونه مِن أَقاصي البِلادِ، ويُنفِقون فيه الأموالَ، ولَمَّا كانت (الواوُ) اعتِراضيَّةً لم يَكُنْ إشْكالٌ في وُقوعِ (فاءِ) الجَوابِ بعْدَها، و(الفاءُ) إمَّا أنْ تَكونَ فَصيحةً؛ أفْصَحَتْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٠٦).

عن شَرطٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إذا عَلِمْتُم الأوصافَ لهذا الرَّحيقِ فلْيَتَنافَسْ فيه المُتَنافِسونَ، أو التَّقديرُ: وفي ذلك فلْتَتَنافَسوا، فلْيَتَنافَسْ فيه المُتَنافِسون، فتَكونَ الجُملةُ في قُوَّةِ التَّذييلِ؛ لأنَّ المُقدَّرَ هو تَنافُسُ المُخاطَبينَ، والمُصَرَّحَ به تَنافُسُ جَميعِ المُتَنافِسينَ، فهو تَعميمٌ بعدَ تَخصيصٍ. وإمَّا أنْ تَكونَ الفاءُ فاءَ جَوابٍ لشَرطٍ مُقدَّرٍ في الكَلامِ يُؤذِنُ به تَقديمُ المَجرورِ؛ لأنَّ تَقديمَ المَجرورِ كثيرًا ما يُعامَلُ مُعامَلةَ الشَّرطِ، فالتَّقديرُ: إنْ عَلِمْتُم ذلك فلْيَتَنافَسْ فيه المُتَنافِسونَ. وإمَّا أنْ تَكونَ (الفاءُ) تَفريعًا على مَحذوفٍ على طَريقةِ الحَذفِ على شَريطةِ التَّفسيرِ، والتَّقديرُ: وتَنافَسوا -صيغة أمرٍ في ذلك- فلْيَتَنافَسِ المُتَنافِسونَ فيه، ويَكونَ الكَلامُ مُؤذِنًا بتَوكيدِ فِعلِ التَّنافُسِ؛ لأنَّه بمَنزِلةِ المَذكورِ مَرَّتَينِ، مع إفادةِ التَّخصيصِ بتَقديمِ المَجرورِ[1]. وذلك على قولٍ في المُتنافَسِ فيه.

- قولُه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ ما فيه مِن مَعْنى البُعدِ؛ إمَّا للإشْعارِ بعُلُوِّ مَرتَبتِه وبُعدِ مَنزِلتِه، أو لكَونِه في الجَنَّةِ، أي: في ذلك خاصَّةً دونَ غَيرِه[2].

- و(لامُ) الأمرِ في ﴿فَلْيَتَنَافَسِ﴾ مُستَعمَلةٌ في التَّحريضِ والحَثِّ[3].

- قولُه: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ عَطْفٌ على قولِه: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾، والتَّسنيمُ هو المَعنيُّ بالشَّرابِ الَّذي هو أرفَعُ شَرابٍ في الجَنَّةِ. وقولُه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ في حُكمِ المُتأخِّرِ؛ قُدِّمَ لمَكانِ العِنايةِ بشَأنِه، فالمُشارُ إليه بـ (ذلك) جَميعُ ما سَبَقَ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ...﴾ إلى آخِرِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٧).

وذلك على قولٍ. وفائدةُ التَّقديمِ: التَّرغيبُ والحَثُّ على التَّحرِّي والاجتِهادِ، وإيثارِ ذلك على طَلَبِ العاجِلةِ، والمُسابقةِ فيه؛ ولذلك قُدِّمَ الظَّرفُ -أي: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾-، وخُصَّ التَّنافُسُ مع بِناءِ التَّفاعُلِ[1].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٤٩، ٣٥٠).

الآيات (٢٩-٣٦)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَتَغَامَزُونَ﴾: أي: يَغمِزُ بَعضُهم بَعضًا، ويُشِيرونَ بأَعْيُنِهم على وجهِ السُّخريةِ، والغَمزُ: الإشارةُ بالجَفنِ والحاجِبِ، ويكونُ الغمزُ أيضًا بمعنى العَيبِ، يُقالُ: غَمَزَه إذا عابه، و: ما في فُلانٍ غَميزةٌ، أي ما يُعابُ به[١].

﴿ٱنقَلَبُوٓاْ﴾: أي: انصَرَفوا ورَجَعوا، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على صَرْفِ الشَّيءِ عن وجهٍ إلى وجهٍ، أو ردِّه مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[٢].

﴿فَكِهِينَ﴾: أي: فَرِحينَ مَسرورينَ مُعْجَبِينَ باستِخفافِهم بالمؤمِنينَ، وأصلُ (فكه): يدُلُّ على طِيبٍ واستِطابةٍ[٣].

﴿ثُوِّبَ﴾: أي: جُوزِيَ وأُثيبَ، وأصلُ (ثوب): يدُلُّ على عَودٍ ورُجوعٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٤)، =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾

قَولُه تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ...﴾: في محَلِّ هذه الجُملةِ الاستفهاميَّةِ أَوجُهٌ؛

أحَدُها: أنَّها في محلِّ نصبٍ بعدَ إسقاطِ حرفِ الجَرِّ الَّذي هو «إلى»، فهي مُعَلِّقةٌ لـ ﴿يَنظُرُونَ﴾ قَبْلَها، أي: يَنظُرونَ هلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ.

الثَّاني: أنَّها في محَلِّ نَصبٍ مَقولٌ لقَولٍ مَحذوفٍ وَقَع حالًا مِن ضَميرِ ﴿يَنظُرُونَ﴾، أي: يَنظُرونَ مَقولًا لهم...

الثَّالثُ: أنَّها استِئْنافيَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما كان يفعلُه الكُفَّارُ معَ المؤمنينَ: إنَّ الكفَّارَ كانوا في الدُّنيا يَضحَكونَ مِنَ المؤمِنينَ؛ استِهزاءً بهم، وإذا مَرُّوا بهم أشار بَعضُهم إلى بَعضٍ بأعيُنِهم؛ استِهزاءً بالمؤمِنينَ، واحتِقارًا لهم، وإذا انصَرَفَ أولئك المجرِمونَ إلى أهلِهم انصَرَفوا فَرِحينَ مَسرورينَ باستِخفافِهم بالمؤمِنينَ، وإذا رَأَوُا المؤمِنينَ قالوا: إنَّ هؤلاء لَضالُّونَ عن طَريقِ الحَقِّ. وما أرسَلَ اللهُ الكُفَّارَ وُكَلاءَ على المؤمِنينَ ليَحفَظوا أعمالَهم!

ثمَّ يُبشِّرُ اللهُ تعالى المؤمنينَ بأنَّ العاقِبةَ الطَّيِّبةَ لهم، فيقولُ: ففي اليَومِ الآخِرِ يَضحَكُ المُؤمِنونَ مِنَ الكُفَّارِ حِينَ يَرَونَهم وهم يُعَذَّبونَ، والمُؤمِنونَ في الجَنَّةِ

= ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٥).

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٥).

على السُّرُرِ يَنظُرونَ إلى وجهِ الله الكريمِ وإلى ما أُعِدَّ لهم مِن النَّعيم، وإلى الكافِرينَ وهم يُعذَّبونَ، هل جُوزيَ الكُفَّارُ على ما كانوا يَفعَلونَه في الدُّنيا بالمؤمِنينَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَف سُبحانَه كَرامةَ الأبرارِ في الآخِرةِ؛ ذَكَر بعْدَ ذلك قُبْحَ مُعامَلةِ الكُفَّارِ معهم في الدُّنيا في استِهزائِهم وضَحِكِهم، ثمَّ بَيَّن أنَّ ذلك سيَنقَلِبُ على الكُفَّارِ في الآخِرةِ، والمقصودُ منه تسليةُ المؤمِنينَ وتقويةُ قُلوبِهم[1].

وأيضًا بعْدَ أنْ ذكَرَ حالَ المُشرِكين على حِدةٍ، وذكَرَ حالَ المُسلِمينَ على حِدةٍ، أَعقَبَ بما فيه صِفةٌ لعاقِبةِ المُشرِكين في مُعامَلتِهم للمُؤمِنينَ في الدُّنيا؛ ليَعلَموا جَزاءَ الفَريقَينِ مَعًا[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾.

أي: إنَّ الكُفَّارَ كانوا في الدُّنيا يَضحَكونَ مِنَ المؤمِنينَ؛ استِهزاءً بهم، وسُخْريةً منهم، واحتِقارًا لهم[3].

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٦).

قال السمعاني: (قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ هم الكفَّارُ. وقيل: هذا في قومٍ مخصوصينَ مِن قريشٍ، منهم أبو جهلٍ والوليدُ بنُ المغيرةِ، والأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ، والنَّضرُ بنُ الحارثِ وغيرُهم). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٨٤).

ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ * إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩ - ١١١].

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠﴾.

أي: وإذا مَرُّوا بهم في طَريقِهم تغامَزَ أولئك المجرِمونَ، فأشار بَعضُهم إلى بَعضٍ بأعيُنِهم؛ استِهزاءً بالمؤمِنينَ، واحتِقارًا لهم(١).

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

قال ابنُ عاشور: (ضميرُ ﴿مَرُّواْ﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾، فيكونَ ضَميرُ ﴿بِهِمۡ﴾ عائِدًا إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ويجوزُ العَكسُ، والمعنى: وإذا مَرَّ المؤمنونَ بالَّذين أجرَموا وهم في مجالِسِهم يتغامَزُ المجرِمونَ حينَ مرورِ المؤمنينَ، أو: وإذا مَرَّ الَّذين أجرموا بالَّذين آمَنوا وهم في عَمَلِهم وفي عُسْرِ حالِهم يتغامَزُ المجرِمونَ حينَ مُرورِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١١).

ومِمَّن قال بأنَّ المؤمنينَ هم مَن يمُرُّونَ على المجرمينَ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن عطية، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٩).

ومِمَّن قال بأنَّ المجرِمينَ هم الَّذين يمُرُّونَ على المؤمنينَ: مكِّيٌّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣).

وذهب ابنُ عثيمينَ إلى أنَّ الآيةَ تَشملُ كِلا المعنيَين، فيَحصُلُ أنَّ المجرِمينَ يَمُرُّونَ على المؤمِنينَ، ويَحصُلُ العَكسُ، وفي كلٍّ يَتغامَزُ المجرِمونَ بالمؤمنينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَفَهم في مَواضِعِ التَّرَدُّدِ والتَّقَلُّبِ؛ وصَفَهم في المنازِلِ[(١)]:

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١﴾.

أي: وإذا انصَرَفَ أولئك المجرِمونَ إلى أهلِهم في بُيوتِهم انصَرَفوا فَرِحينَ مَسرورينَ باستِخفافِهم بالمؤمِنينَ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣].

﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣، ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٢، ٢١٣).

قال السعدي: (﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾ صباحًا أو مساءً ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ أي: مَسرورينَ مُغتَبِطينَ، وهذا مِن أعظَمِ ما يكونُ مِنَ الاغترارِ؛ أنَّهم جمَعوا بيْن غايةِ الإساءةِ والأمْنِ في الدُّنيا، حتَّى كأنَّهم قد جاءهم كتابٌ مِن اللهِ وعَهدٌ أنَّهم مِن أهلِ السَّعادةِ، وقد حَكَموا لأنفُسِهم أنَّهم أهلُ الهدى، وأنَّ المؤمنينَ ضالُّونَ؛ افتِراءً على الله، وتجَرُّؤًا على القَولِ عليه بلا عِلمٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

وقال ابن عاشور: (والمعنى: وإذا رَجَع الَّذين أجرَموا إلى بُيوتِهم وخَلَصوا مع أهلِهم تحَدَّثوا أحاديثَ الفُكاهةِ معهم بذِكْرِ المؤمِنينَ وذَمِّهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٢).

وقال ابن عثيمين: (﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ إذا انقلَب المجرمونَ إلى أهلِهم ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ يعني: متفكِّهينَ بما نالوه مِن السُّخريةِ بهؤلاء المؤمنينَ، فهُم يَستَهزِئونَ ويَسخَرونَ ويَتفَكَّهون بهذا؛ ظنًّا منهم أنَّهم نجَحوا وأنَّهم غلَبوا المؤمنينَ، ولكنَّ الأمرَ بالعكسِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر مُرورَهم بهم وتغامزَهم؛ ذَكَر مُطلَقَ رُؤيتِهم لهم وما يقولونَ فيهم[(١)].

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: وإذا رَأَوُا المؤمِنينَ قالوا: إنَّ هؤلاء لَضالُّونَ عن طَريقِ الحَقِّ، وفِعْلِ الصَّوابِ[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ولم يُرسِلِ اللهُ الكُفَّارَ وُكَلاءَ على المؤمِنينَ ليَحفَظوا أعمالَهم، ويَنشَغِلوا بمُراقَبتِهم، ويَحكُموا عليهم، بل كَلَّفَهم اللهُ بالإيمانِ، والانشغالِ بالأعمالِ الصَّالحةِ[(٣)].

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٧).

قال ابنُ عاشور: (مُرادُهم بالضَّلالِ: فَسادُ الرَّأيِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ لا يَعرِفونَ الضَّلالَ الشَّرعيَّ، أي: هؤلاء سَيِّئُو الرَّأيِ؛ إذ اتَّبَعوا الإسلامَ، وانسَلَخوا عن قَومِهم، وفَرَّطوا في نَعيمِ الحياةِ؛ طَمَعًا في نَعيمٍ بعدَ المَوتِ، وأقْبَلوا على الصَّلاةِ والتَّخَلُّقِ بالأخلاقِ الَّتي يَراها المُشرِكونَ أوهامًا وعَنَتًا؛ لأنَّهم بمَعزِلٍ عن مَقدِرةِ قَدْرِ الكَمالِ النَّفْسانيِّ، وما هَمُّهم إلَّا التَّلَذُّذُ الجُثمانيُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٧).

أي: ففي اليَومِ الآخِرِ يَضحَكُ المُؤمِنونَ مِنَ الكُفَّارِ حينَ يَرَونَهم وهُم يُعَذَّبونَ[(١)]!

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥﴾.

أي: والمُؤمِنونَ في الجَنَّةِ على السُّرُرِ الَّتي أُرخِيَ عليها السُّتُورُ المُزيَّنَةُ يَنظُرونَ إلى وَجهِ رَبِّهم الكريمِ، وإلى ما أُعِدَّ لهم مِن النَّعيمِ، وإلى الكافِرينَ وهم يُعذَّبونَ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٨).

قيل: المرادُ بقوله هنا: ﴿يَنظُرُونَ﴾: نَظَرُهم إلى اللهِ تعالى. وممَّن قال به: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤).

قال ابنُ القيم: (فأطلَقَ النَّظَرَ، ولم يُقَيِّدْه بمَنظورٍ دونَ مَنظورٍ، وأعلى ما نظَروا إليه وأجَلُّه وأعظَمُه هو اللهُ سُبحانَه وتعالى، والنَّظَرُ إليه أجَلُّ أنواعِ النَّظَرِ وأفضَلُها، وهو أعلى مراتِبِ الهِدايةِ؛ فقابَلَ بذلك قَولَهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾؛ فالنَّظَرُ إلى الرَّبِّ سُبحانَه مُرادٌ مِن هذَينِ الموضِعَينِ [أي قولِه: ﴿يَنظُرُونَ﴾ هنا وفي الآيةِ «٢٣»] ولا بُدَّ؛ إمَّا بخُصوصِه، وإمَّا بالعُمومِ والإطلاقِ، ومَن تأمَّلَ السِّياقَ لم يَجِدِ الآيتَينِ تحتَمِلانِ غيرَ إرادةِ ذلك، خُصوصًا أو عُمومًا). ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) (١/ ٣٣).

وقال السعدي: (﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعَدَّ اللهُ لهم مِن النَّعيمِ، ويَنظُرونَ إلى وَجهِ رَبِّهم الكريمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

وقيل: المرادُ: أنَّهم يُشاهِدونَ الكُفَّارَ في العذابِ والإهانةِ، وممَّن قال به: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، والرازي، والرَّسْعَني، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ =

﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾.

أي: هل جُوزِيَ الكُفَّارُ على ما كانوا يَفعَلونَه في الدُّنيا حينَ يُعَذِّبُهم اللهُ في النَّارِ[1]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: أنَّه إذا كان هذا حالَ بَعضِ الَّذين أجرَموا مع بَعضِ ضَعَفةِ المُؤمِنينَ، وكذلك حالُ بَعضِ الأُمَمِ مع رُسُلِها؛ فإنَّ الدَّاعِيةَ إلى اللهِ تعالى يجِبُ عليه ألَّا يَتأثَّرَ بسُخريةِ أحدٍ منه، وأن يَعلَمَ أنَّه على سَنَنِ غَيرِه مِنَ الدُّعاةِ إلى اللهِ تعالى، وأنَّ اللهَ تعالى سيَنتَصِرُ له إمَّا عاجِلًا وإمَّا آجِلًا[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ فيه عِظةٌ شَديدةٌ لِمَن يتضَحَّكُ مِنَ المؤمِنينَ، ومِمَّن يتَّخِذونَه ضُحْكةً؛ إذْ هو شيءٌ مِن أخلاقِ الكُفَّارِ، فإذا تشَبَّه بهم أهلُ الإيمانِ خِيفَ عليهم أن يَكونوا مِثْلَهم؛ كما في الحديثِ: ((مَن تَشَبَّه بقَومٍ فهو منهم))[3]. وإنَّما يَضحَكونَ في الآخِرةِ -واللهُ

= ٢٢٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: يَنظُرونَ إلى ما أُوتوا مِن النَّعيمِ، وما أُعِدَّ لهم مِن الثَّوابِ، وما حلَّ بالمجرِمين مِن عذابِ الجحيمِ: القاسميُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٦٤).

(٣) أخرجه أبو داودَ (٤٠٣١) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٥١١٤) مطوَّلًا مِن حديثِ ابنِ عُمرَ رضيَ الله عنهما. قال الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٠٣١): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ =

أعلَمُ-؛ لأنَّه جزاءٌ لهم وعقوبةٌ لِما كان منهم إليهم في الدُّنيا، فيُصيبُهم مِن مَضَضِه ما كان يُصيبُ المؤمِنينَ في الدُّنيا؛ فصار كالاقتِصاصِ؛ فعلى المَضحوكِ منه أن يتَّقِيَ اللهَ، ولا يَضَعَ نَفْسَه هذا الموضِعَ، وعلى الضَّاحكِ أن يجتَنِبَه في الجِدِّ والهَزْلِ؛ لأنَّه مِن عظيمِ الذَّنْبِ وفِعلِ الظَّالِمينَ، ومَن قد نَسِيَ أمرَ مَعادِه، وما هو مُفْضٍ إليه[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ قاعدةٌ ثابتةٌ لأتْباعِ الرُّسُلِ: «أنَّ أهلَ الباطلِ يُلَقِّبُون أهلَ الحقِّ بألقابِ السُّوءِ؛ تنفيرًا للنَّاسِ عن قَبُولِهم»، واللهُ تبارك وتعالى قد جَعَل لكلِّ نبيٍّ عدوًّا مِن المجرِمينَ، والعدوُّ مِن المجرِمينَ عَدوٌّ للنَّبيِّ بوَصْفِه، بدليلِ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قبْلَ أنْ تأتيَه الرِّسالةُ هو عندَ العربِ الصَّادقُ الأمينُ، ويَرون أنَّه مِن أفضلِ بني هاشِمٍ، وأقوَمِهم بالعَدْلِ؛ فلمَّا جاء بالحَقِّ صار عندَهم الخائِنَ الكذوبَ! فإذا كان هؤلاء المجرِمون يُعادُونَ الرُّسُلَ بوصْفِهم؛ فمعنى ذلك أنَّ هذه المُعاداةَ ستنتقلُ إلى مَن تابَعَ هؤلاء الرُّسُلَ؛ لأنَّ المعنى الَّذي حَصَلَتْ به العداوةُ موجودٌ أيضًا في أتْباعِ الرُّسُلِ، ونستفيدُ مِن هذا: طَمْأنَةَ أتْباعِ الرُّسُلِ، وتثبيتَهم على أنَّهم سيَنالُهم مِن ألقابِ السُّوءِ ومِن المُعاداةِ مِثلُ ما نال الرُّسُلَ؛ فعليهم أنْ يُقابِلوا ذلك بالصَّبرِ والثَّباتِ والقوَّةِ، لا أنْ يَنخَذِلوا، بل عليهم أنْ يَكونوا كما كان مَتبوعُهم الَّذي أَمَرَه اللهُ قائلًا: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ

= كما في ((بلوغ المرام)) لابن حجر (٤٣٧)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣٥٨)، وجوَّده ابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (٢٥/ ٣٣١)، وصحَّح إسنادَه العِراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٣٥٩)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٧/ ١٢١)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١٠/ ٢٨٢)، وقال الذهبيُّ في ((سير أعلام النبلاء)) (١٥/ ٥٠٩): (إسنادُه صالحٌ).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٩٠، ٤٩١).

مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾[١] [الأحقاف: ٣٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ أنَّ المجرمَ في أكثرِ القرآنِ: الكافِرُ، وقد حقَّقَه في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ تحريمُ السُّخْريةِ بالمُؤمِنينَ، والضَّحِكِ منهم، والتَّغامُزِ عليهم[٣].

٣- قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، أهلُ الرَّجُلِ: زَوجُه وأبناؤه، وذُكِرَ الأهلُ هنا؛ لأنَّهم يُنبسَطُ إليهم بالحديثِ؛ فلذلك قيل: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾ دونَ (إلى بُيوتِهم)[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، أي: رَجَعوا مُلْتَذِّينَ بذِكرِهم بالسُّوءِ والسُّخريةِ منهم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا لا يَفعَلون ذلك بمَرأًى مِن المارِّينَ بهم، ويَكتَفون حِينَئذٍ بالتَّغامُزِ[٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ تأمَّلْ كيف قابَلَ سُبحانَه ما قاله الكُفَّارُ في أعدائِهم في الدُّنيا وسَخِروا به منهم، بضِدِّه في القيامةِ؛ فإنَّ الكُفَّارَ كانوا إذا مَرَّ بهم المؤمِنونَ يَتغامَزونَ ويَضحَكونَ منهم: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾، فقال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٩).

ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾؛ مُقابَلةً لتَغامُزِهم وضَحِكِهم منهم[١]، فأفادت فاءُ السَّببيَّةِ في قولِه: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ أنَّ استِهزاءَهم بالمُؤمِنين في الدُّنيا كان سَببًا في جَزائِهم بِما هو مِن نَوعِه في الآخِرةِ؛ إذ جعَلَ اللهُ الَّذين آمنوا يَضحَكون مِن المُشرِكين، فكان جَزاءً وِفاقًا[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أنَّ المؤمِنينَ يُسَرُّونَ بعَذابِ أعداءِ اللهِ، فعذابُهم رحمةٌ للمؤمِنينَ[٣].

٧- قَولُ مَن قال: «إنَّ الثَّوابَ في اللُّغةِ يختَصُّ بجَزاءِ الخَيرِ بالخَيرِ» غيرُ صوابٍ، بل يُطلَقُ الثَّوابُ أيضًا على جزاءِ الشَّرِّ بالشَّرِّ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[٤]، فالثَّوابُ هو المُجازاةُ على العمَلِ؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ، حتَّى الإثابةُ على الشَّرِّ تُسَمَّى ثوابًا[٥]. وقيل: جُوِّز حملُه عليه هنا على أنَّ المرادَ التَّهكُّمُ[٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٤).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ التَّربويةِ (ص: ٤٩٢-٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٤).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَسلِيةِ المُؤمِنينَ، وتَقويةِ قُلوبِهم بِما أُعِدَّ للأبْرارِ في الجَنَّةِ(١).

وقيل: هو حِكايةٌ لبَعضِ قَبائحِ مُشركي قُرَيشٍ، وهو مِن جُملةِ القَولِ الَّذي يُقالُ يومَ القِيامةِ للفُجَّارِ المَحكيِّ بقَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧]؛ لأنَّه مُرتَبطٌ بقَولِه في آخِرِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾؛ جِيءَ بها تَمهيدًا لذِكرِ بَعضِ أَحوالِ الأبْرارِ في الجَنَّةِ(٢).

- وإذا كانتْ جُملةُ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] الآياتِ، مَحكيَّةً بالقَولِ الواقِعِ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧] إلى هُنا؛ فجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ مُتَّصلةٌ بها، والتَّعبيرُ عنهم بـ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ على طَريقةِ الالْتِفاتِ؛ إذ مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ لهم: إنَّكم كُنتم مِن الَّذين آمنوا تَضحَكون، وهكذا على طَريقِ الخِطابِ.

وإنْ كانتْ تلك الجُملةُ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] وما بعْدَها اعتراضًا، فهذه الجُملةُ مَبدأُ كَلامٍ مُتَّصِلٍ بقَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٦] واقِعٍ مَوقِعَ بَدَلِ الاشتِمالِ(٣) لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٦]، باعتِبارِ ما جاءَ في آخِرِ هذا مِن قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾؛ فالتَّعبيرُ بـ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ إذْنْ جارٍ على مُقتَضى الظَّاهِرِ، وليس بالْتِفاتٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٩).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٩).

- والافتِتاحُ بـ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ بصورةِ الكَلامِ المُؤكَّدِ؛ لإفادةِ الاهتِمامِ بالكَلامِ، وذلك كَثيرٌ في افتِتاحِ الكَلامِ المُرادِ إعْلانُه؛ ليَتَوجَّهَ بذلك الافتِتاحِ جَميعُ السَّامِعينَ إلى استِماعِه؛ للإشْعارِ بأنَّه خبَرٌ مُهمٌّ[١].

- وعبَّرَ بالمَوصولِ وهذه الصِّلةِ: ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ ما أُخبِرَ به عنهم هو إجْرامٌ، وليَظهَرَ مَوقِعُ قولِه: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[٢] [المطففين: ٣٦].

- وتَقديمُ الجارِّ والمَجرورِ في قولِه: ﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ إمَّا للقَصْرِ؛ إشْعارًا بغايةِ شَناعةِ ما فَعَلوا، أي: كانوا مِن الَّذين آمنوا يَضحَكون، مع ظُهورِ عدَمِ استِحقاقِهم لذلك. أو لِمُراعاةِ الفَواصِلِ[٣].

- ويُؤذِنُ تَركيبُ ﴿كَانُواْ ... يَضۡحَكُونَ﴾ بأنَّ الإجْرامَ -وهو ارتِكابُ الجُرْمِ، وهو: الإثمُ العَظيمُ- صِفةٌ مُلازِمةٌ لهم في الماضي. وصَوْغُ ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ بِصيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ ذلك منهم، وأنَّه دَيدَنٌ لهم[٤].

- قولُه: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ تَكريرُ فِعلِ ﴿ٱنقَلَبُواْ﴾ مِن النَّسجِ الجَزلِ في الكَلامِ؛ كان يَكْفي أنْ يُقالَ: (وإذا انقَلَبوا إلى أَهلِهم فَكِهوا)، أو (إذا انقَلَبوا إلى أَهلِهم كانوا فاكِهين)؛ وذلك لِما في إعادةِ الفِعلِ مِن زيادةِ تَقريرِ مَعناهُ في ذِهنِ السَّامِعِ؛ لأنَّه ممَّا يَنبَغي الاعتِناءُ به، ولزِيادةِ تَقريرِ ما في الفِعلِ مِن إفادةِ التَّجدُّدِ؛ حتَّى يَكونَ فيه استِحضارُ الحالةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢١٢).

- قولُه: ﴿فَكِهِينَ﴾، وفي قراءةٍ ﴿فَاكِهِينَ﴾[١] اسمُ فاعِلِ فَاكِهٍ، وهو مِن (فَكِهَ) -مِن بابِ فَرِحَ- إذا مَزَحَ وتَحدَّثَ فأَضحَكَ، والمَعْنى: فاكِهِينَ بالتَّحدُّثِ عن المُؤمِنينَ؛ فحُذِفَ مُتعَلَّقُ ﴿فَاكِهِينَ﴾؛ للعِلمِ بأنَّه مِن قَبيلِ مُتعَلَّقاتِ الأفعالِ المَذكورةِ معه[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ فيه تأكيدُ الخبَرِ بحرفِ التَّأكيدِ (إنَّ) ولامِ الابتِداءِ؛ لقَصْدِ تَحقيقِ الخَبَرِ، أي: نَسَبوا المُسلِمينَ ممَّن رَأَوهم ومِن غَيرِهم إلى الضَّلالِ بطَريقِ التَّأكيدِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾، أي: قالوا ذلك، والحالُ أنَّهم ما أُرسِلوا مِن جِهةِ اللهِ تعالى مُوكَّلينَ بهم، يَحفَظون عليْهم أحوالَهم، ويُهَيْمِنون على أعمالِهم، ويَشهَدون برُشْدِهم وضَلالِهم، وهذا تَهكُّمٌ بهم، وإشْعارٌ بأنَّ ما اجترَؤوا عليه مِن القَولِ مِن وَظائفِ مَن أُرسِلَ مِن جِهتِه تعالى؛ فإنَّ شِدَّةَ الحِرصِ على أنْ يَقولوا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ كُلَّما رَأَوهم، يُشبِهُ حالَ المُرسَلِ لِيَتتبَّعَ أحوالَ أحَدٍ، ومِن شأنِ الرَّسولِ الحِرصُ على التَّبليغِ، والخَبَرُ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ بالمُشرِكين، أي: لم يَكونوا مُقيَّضينَ للرَّقابةِ عليهم، والاعتِناءِ بصَلاحِهم، فمَعْنى الحِفظِ هنا: الرَّقابةُ؛ ولذلك عُدِّيَ بحرفِ (على)؛ لِيَتسلَّطَ النَّفيُ على الإرسالِ والحِفظِ ومَعْنى الاستِعلاءِ الَّذي أفادَه حرفُ (على) فيَنتَفيَ حالُهم المُمَثَّلُ. وقد جُوِّزَ أنْ يَكونَ ذلك مِن جُملةِ قولِ المُجرِمين، كأنَّهم قالوا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾، وما أُرسِلوا علينا حافِظينَ؛

(١) قرأها ﴿فَكِهِينَ﴾ أبو جعفرٍ وحفصٌ، وقرأها الباقونَ بإثباتِ ألِفِ ﴿فَاكِهِينَ﴾. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٤).

إنْكارًا لصَدِّهم عن الشِّركِ، ودُعائِهم إلى الإسلام، وإنَّما قيلَ: (عليْهم)؛ نَقلًا له بالمَعنى، كما في قولِك: حَلَفَ لَيَفعَلَنَّ؛ لا بالعِبارةِ، كما في قولِك: حَلَفَ لأَفعَلَنَّ[١].

- وأيضًا تَقديمُ المَجرورِ على مُتعَلَّقِه في قولِه: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾؛ للاهتِمامِ بمُفادِ حرْفِ الاستِعلاءِ وبمَجرورِه، مع الرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾

- تَقديمُ (الْيَوْمَ) على ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ للاهتِمامِ به؛ لأنَّه يومُ الجَزاءِ العَظيمِ الأَبَديِّ[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ قُدِّمَ المُسنَدُ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ دونَ أنْ يُقالَ: (فاليَومَ يَضحَكُ الَّذين آمَنوا)؛ لإفادةِ الحَصْرِ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ[٤] في مُقابَلةِ قولِه: ﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾[المطففين: ٢٩]، أي: زالَ استِهزاءُ المُشرِكين بالمُؤمِنينَ، فاليَومَ المُؤمِنونَ يَضحَكون مِن الكُفَّارِ، دُونَ العَكسِ[٥].

- وتَقديمُ ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ على مُتعَلَّقِه -وهو ﴿يَضۡحَكُونَ﴾- للاهتِمامِ بالمَضحوكِ منهم؛ تَعجيلًا لإساءتِهم عندَ سَماعِ هذا التَّقريعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وقيل: تَقديمُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ للقَصْرِ؛ تَحقيقًا للمُقابَلةِ، أي: فاليَومَ هم مِن الكُفَّارِ يَضحَكون، لا الكُفَّارُ منهم كما كانوا يَفعَلون في الدُّنيا[١].

- وقولُه: ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ، عُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (منهم يَضحَكون)؛ لِما في الوَصفِ المُظهَرِ مِن الذَّمِّ للكُفَّارِ[٢].

- ومَفعولُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ مَحذوفٌ دَلَّ عليه قولُه: ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾، تَقديرُه: يَنظُرونَهم، أي: يُشاهِدونَ المُشرِكينَ في العَذابِ والإهانةِ[٣]. وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ فَذْلَكةٌ[٤] لِمَا حُكِيَ مِن اعتِداءِ المُشرِكين على المُؤمِنينَ، وما تَرتَّبَ عليه مِن الجَزاءِ يَومَ القِيامةِ؛ فالمَعنى: فقدْ جُوزيَ الكُفَّارُ بما كانوا يَفعَلونَ، وهذا مِن تَمامِ النِّداءِ الَّذي يُعلَّقُ به يَوم القِيامةِ[٥].

- قولُه: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ، أي: يَقولونَ: هل ثُوِّبَ؟ وهو استِفهامٌ بمعْنى التَّقريرِ للمؤمنينَ، أي: هلْ جُوزوا بها؟ فهو استفهامٌ تَقريريٌّ وتَعجيبٌ مِن عدَمِ إفلاتِهم منه بعْدَ دُهورٍ. والخِطابُ بهذا الاستِفهامِ مُوَجَّهٌ إلى غَيرِ مُعيَّنٍ، بلْ إلى كُلِّ مَن يَسمَعُ ذلك النِّداءَ يَومَ القِيامةِ[٦].

- قولُه: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، ليس الجَزاءُ هو ﴿مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُها (ص: ١١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥، ٢١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٨).

بل عبَّرَ عنه بهذه الصِّلةِ؛ لمُعادَلتِه شِدَّةَ جُرْمِهم على طَريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ، أو على حَذفِ مُضافٍ تَقديرُه: مِثلَ، أو جَزاءَ أو عِقابَ ما كانوا يَفعَلونَ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ على نَزْعِ الخافِضِ، وهو: (باءُ السَّبَبيَّةِ)، أي: بما كانوا يَفعَلون[1].

- وفي هذه الجُملةِ ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ مُحسِّنُ بَراعةِ المَقطَعِ[2]؛ لأنَّها جامِعةٌ لِما اشتَمَلَتْ عليه السُّورةُ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٦).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ الانشِقاقِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الانشِقاقِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ: سورةَ الانشِقاقِ[١].

وسُمِّيَت أيضًا سورةَ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾[٢]:

فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن سَرَّه أن يَنظُرَ إلى يومِ القيامةِ كأنَّه رَأْيُ عَينٍ فلْيَقرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾))[٣].

وعن أبي رافِعٍ، قال: ((صَلَّيتُ مع أبي هُرَيرةَ العَتَمةَ، فقرَأَ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ فسجَدَ، فقُلتُ له[٤]. قال: سجَدْتُ خَلْفَ أبي القاسِمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا أزالُ أسجُدُ فيها حتَّى ألقاه))[٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سَجَدْنا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

---

(١) قال ابنُ عاشورٍ: (سمَّاها المفسِّرونَ وكتَّابُ المصاحفِ «سورةَ الانشِقاقِ» باعتبارِ المعنى). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٧).

(٢) وَجهُ التَّسميةِ: افتِتاحُها بقَولِه تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٧).

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٣٣)، وأحمدُ (٤٨٠٦).
صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٣٣)، وجوَّده ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٦٤)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٩٦)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٤٢٤).

(٤) وفي روايةِ مسلم: ((فقُلتُ: تَسجُدُ فيها؟ فقالَ: نَعَمْ)).

(٥) أخرجه البخاريُّ (٧٦٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٥٧٨).

في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾))[١].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- مَن قَرَأها فكأنَّه يَنظُرُ إلى يومِ القيامةِ رأيَ العَينِ:

كما في حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما المتقدِّمِ.

٢- فيها مَوضِعُ سَجْدةٍ:

لِما تقدَّمَ في حديثِ أبي هُرَيرةَ، وذلك عندَ قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ﴾[٢].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الانشِقاقِ مَكِّيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

وصفُ يومِ القيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٥٧٨) (١٠٨).

(٢) وهذا مذهبُ الجمهورِ مِن الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ، وهو روايةٌ عن مالكٍ، واختاره ابنُ حزم. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٢/ ١٠٤)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٩)، ((الإقناع)) للحَجَّاوي (١/ ١٥٥)، (شرح مختصر خليل)) للخرَشي (١/ ٣٥٠)، ((المحلى)) لابن حزم (٣/ ٣٢٢).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٣١). ويُنظر أيضًا: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٧١).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- ذِكرُ أهوالِ يومِ القيامةِ.

٢- الحديثُ عن أحوالِ السُّعَداءِ والأشقياءِ يومَ القيامةِ.

٣- تحذيرُ الكافِرينَ مِن سُوءِ عاقِبةِ إصرارِهم على كُفْرِهم وفُسوقِهم.

الآيات (١-٦)

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَذِنَتۡ﴾: أي: سَمِعَت وأطاعت؛ مِنَ الأَذَنِ، وهو الاستِماعُ للشَّيءِ، والإصغاءُ إليه[١].

﴿وَحُقَّتۡ﴾: أي: وحُقَّ لها أن تُطيعَ رَبَّها؛ مِن قَولِهم: هو محقوقٌ بكذا وحقيقٌ به، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[٢].

﴿مُدَّتۡ﴾: أي: بُسِطَت باندِكاكِ جِبالِها وتَسويتِها، وأصلُ (مدد): يدُلُّ على اتِّصالِ شَيءٍ بشَيءٍ[٣].

﴿وَتَخَلَّتۡ﴾: أي: خلَتْ عمَّا كان فيها غايةَ الخُلُوِّ، ولم تَتمسَّكْ منه بشَيءٍ، حتَّى لم يَبْقَ في باطِنِها شيءٌ، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تَعَرِّي الشَّيءِ مِن الشَّيءِ[٤].

﴿كَادِحٌ﴾: أي: ساعٍ بعَمَلِك، والكادِحُ: العامِلُ بشِدَّةٍ وسُرعةٍ واجتهادٍ، والكَدْحُ:

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٧).

عَمَلُ الإنسانِ وجُهدُه في الأمرِ مِن الخَيرِ والشَّرِّ حتَّى يَكدَحَ ذلك فيه، أي: يُؤَثِّرَ، وأصلُ (كدح): يدُلُّ على تأثيرٍ في شيءٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ عن أهوالِ القيامةِ، فقال تعالى: إذا تَشَقَّقت السَّماءُ يومَ القيامةِ وتصَدَّعَت، واستمَعَت لأمرِ رَبِّها وأطاعَتْه في تشَقُّقِها، وحُقَّ لها أن تستَمِعَ لأمْرِه وتُطيعَه، وإذا بُسِطَت الأرضُ فكانت واسِعةً مُسْتَوِيةً لا انخِفاضَ فيها ولا ارتِفاعَ، وألقَت ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ إلى سَطْحِها، واستَمَعَت لأمرِ رَبِّها وأطاعَتْه، وحُقَّ لها ذلك- إذا حَدَث ذلك رأَيْتُم أعمالَكم مِن خيرٍ أو شَرٍّ.

ثمَّ قال تعالى موجِّهًا نداءَه إلى الإنسانِ: يا أيُّها الإنسانُ إنَّك عامِلٌ ومُجِدٌّ في عَمَلِك، وساعٍ إلى ربِّك بعَمَلِك لا محالةَ ولا مَفَرَّ، فتَلْقَاه بعَمَلِك ويُجازيك عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾.

أي: إذا تَشَقَّقت السَّماءُ يومَ القيامةِ وتصَدَّعَت[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦].

﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٩).

قال البِقاعي: (ذلك بعدَ القيامِ مِن القُبورِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٣٥).

أي: واستمَعَت لأمرِ رَبِّها وأطاعَتْه في تشَقُّقِها، وحُقَّ لها أن تستَمِعَ لأمْرِه وتُطيعَه؛ فهو رَبُّها الَّذي خلَقَها ويَملِكُها ويُدَبِّرُ أَمْرَها[١].

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بدأَ بالعالَمِ العُلويِّ؛ لِكَونِه أشرَفَ لأنَّه أعلى مكانةً ومَكانًا؛ ثَنَّى بالسُّفْليِّ[٢].

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾.

أي: وإذا بُسِطَت الأرضُ يومَ القيامةِ ومُطَّتَ بعْدَ نَسْفِ جِبالِها، فتكونُ أرضًا واسِعةً مُسْتَوِيةً لا انخِفاضَ فيها ولا ارتِفاعَ ولا انثِناءَ، وتَسَعُ النَّاسَ جَميعًا على كَثْرَتِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٠-٢٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٩).

قال ابنُ عطية: (يحتَمِلُ أن يريدَ: وحُقَّ لها أن تَنْشَقَّ؛ لشِدَّةِ الهَولِ وخَوفِ اللهِ تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦).

وقال البِقاعي: (﴿وَحُقَّتْ﴾ بالبناءِ للمَفعولِ، بمعنى: أنَّها مَجبولةٌ على أنَّ ذلك حَقٌّ عليها ثابتٌ لها، فهي حقيقةٌ به؛ لأنَّها مَربوبةٌ له سُبحانَه، وكُلُّ مَربوبٍ فهو حقيقٌ بالانقيادِ لرَبِّه، وهي لم تَزَلْ مُطيعةً له في ابتدائِها وانتهائِها، لكِنْ هناك يكونُ الكَشْفُ التَّامُّ لجميعِ الأنامِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٠).

قال ابن عاشور: (... ومِن معاني المدِّ أن يُزالَ تَكويرُها بتمَدُّدِ جِسْمِها حتَّى تصيرَ إلى =

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وقال سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَجمَعُ اللهُ يومَ القيامةِ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ في صعيدٍ واحدٍ، فيُسمِعُهم الدَّاعي، ويَنفُذُهم البَصَرُ[(١)]))[(٢)].

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: وألقَتِ الأرضُ ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ إلى سَطْحِها، فخلَتْ عمَّا كان فيها، ولم يَبْقَ فيها أحدٌ منهم[(٣)].

= الاستِطالةِ بعدَ التَّكويرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠).

(١) أي: يُحيطُ بهم بَصَرُ النَّاظِرِ لا يَخفى عليه منهم شَيءٌ؛ لاستواءِ الأرضِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٥/ ٣٥١).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٧١٢)، ومسلمٌ (١٩٤) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٠).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ إلقاءُ الأرضِ ما في جَوفِها مِن الأمواتِ: ابنُ جرير، وابنُ عطيَّةَ ونسَبَه للجُمهورِ، وقال به ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وسعيدٌ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤٥٥).

وقيل: إلقاءُ الأرضِ يَعُمُّ الأمواتَ والكُنوزَ. ومِمَّن ذهب إليه: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والزمخشري، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧).

وضَعَّفه ابنُ عَطيَّةَ؛ حيث قال: (﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾: يريدُ الموتى. قاله الجمهورُ. وقال الزَّجَّاجُ: =

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾.

أي: واستَمَعَت لأمرِ رَبِّها، وأطاعَتْه في إخراجِ ما في بَطْنِها من الأمواتِ، وحُقَّ لها أن تستَمِعَ لأمْرِه وتُطيعَه؛ فهو رَبُّها الَّذي خلَقَها ويَملِكُها ويُدَبِّرُ أَمْرَها[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾.

أي: يا أيُّها الإنسانُ إنَّك عامِلٌ أعمالًا تجتَهِدُ فيها سواءٌ كانت خيرًا أو شرًّا، ثمَّ تَرجِعُ إلى رَبِّك فتَلْقَاه بعَمَلِك ويُجازيك عليه[2].

= ومِن الكُنوزِ. وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ ذلك يكونُ وقتَ خُروجِ الدَّجَّالِ، وإنَّما تُلقي يومَ القيامةِ الموتى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦).

وقال قَتادةُ في قولِه: ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾: أخرجَتْ أثقالَها وما فيها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٣).

وقال ابنُ عاشور: (قَولُه: ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾ صالحٌ للحَمْلِ على ما يُناسِبُ هذه الاحتِمالاتِ في مَدِّ الأرضِ، ومحتَمِلٌ لأن تنقَذِفَ مِن باطِنِ الأرضِ أجزاءٌ أُخرى يكونُ لانقذافِها أثَرٌ في إتلافِ الموجوداتِ؛ مِثلُ البراكينِ، واندِفاعِ الصُّخورِ العَظيمةِ، وانفِجارِ العُيُونِ إلى ظاهِرِ الأرضِ، فيكونُ طُوفانٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٧).

قيل: جوابُ ﴿إِذَا﴾ محذوفٌ، تقديرُه: إذا وقَعَت تلك الأمورُ قابَلَ الإنسانُ رَبَّه، أو: رأى ما عَمِلَه مِن خيرٍ أو شَرٍّ، أو رأى ثوابَه وعِقابَه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٤-٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠).

وقيل غيرُ ذلك. ويُنظر ما يأتي في بلاغة الآيات (ص: ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١١).

قال ابنُ جُزَي: (الكَدْحُ في اللُّغةِ هو: الجِدُّ والاجتِهادُ والسُّرعةُ، فالمعنى: إنَّك في غايةِ =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ

= الاجتهادِ في السَّيرِ إلى رَبِّك؛ لأنَّ الزَّمانَ يطيرُ، وأنت في كلِّ لحظةٍ تَقطَعُ حَظًّا مِن عُمُرِك القَصيرِ، فكأنَّك سائِرٌ مُسرِعٌ إلى الموتِ، ثمَّ تلاقي ربَّك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٤).

والخِطابُ هنا لجميعِ النَّاسِ لا لإنسانٍ بعَيْنِه. ومِمَّن ذكر ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ القيِّم، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢١).

وقولُه: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ على قولِه: ﴿رَبِّكَ﴾ وأنَّ المعنى: «فمُلاقِي ربِّك»: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن جُزَي، والسعديُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ لجمهورِ المتأوِّلينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠، ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٧).

وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ على العملِ، أي: فمُلاقٍ عمَلَك: الزَّجَّاجُ، ومكِّيٌّ، والواحدي، والنسفي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٠٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٩).

ونحو هذا القولِ قولُ مَن قال: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ أي: مُلاقي جزاءِ عمَلِك، خيرًا كان أو شرًّا. ومنهم: البغويُّ، والخازن، والعُلَيمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٨).

قال ابنُ القَيِّم: (﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ إنْ عاد الضَّميرُ على العَمَلِ فهو رؤيتُه في الكتابِ مَسطورًا مُثبَتًا، وإن عاد على الرَّبِّ سُبحانَه وتعالى فهو لقاؤه الَّذي وَعَد به). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٢٨٨).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ أي: ساعٍ إلى ربِّك سَعْيًا، وعامِلٌ عمَلًا ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ ثمَّ إنَّك ستَلْقى ما عَمِلْتَ مِن خَيرٍ أو شرٍّ... ومِن النَّاسِ مَن يُعيدُ الضَّميرَ على قولِه: ﴿رَبِّكَ﴾ أي: فمُلاقٍ ربَّك، ومعناه: فيُجازيك بعَمَلِك، ويُكافئك على سَعْيِك. وعلى هذا فكِلا القولَينِ مُتلازِمٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦).

تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مِمَّا هو جَديرٌ بالتَّنبيهِ عليه أنَّه إذا كانت السَّماءُ مع عِظَمِ جِرْمِها، والأرضُ مع مِساحةِ أَصْلِها (أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) مع أنَّها لم تتحَمَّلْ أمانةً، ولن تُسأَلَ عن واجِبٍ؛ فكيف بالإنسانِ على ضَعْفِه، وقد تحَمَّلَ أمانةَ التَّكليفِ؟! كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧]، وكقولِه تعالى: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]؛ فكان أحَقَّ بالسَّمعِ والطَّاعةِ في كَدْحِه إلى أن يَلْقى رَبَّه لِما يُرْضِيه(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ إثباتُ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويؤخَذُ مِن ذلك: أنَّه يَجبُ على الإنسانِ أنْ يَسْتَعِدَّ لِمُلاقاةِ اللهِ، وأنْ يَعْرِفَ كيف يُلاقي اللهَ: هل يُلاقيه على حالٍ مَرْضِيَّةٍ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، أو على العَكسِ؟ ففَتِّشْ نفْسَك، واعرِفْ ما أنت عليه(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ حَثٌّ على الاجتِهادِ في الإحسانِ في العَمَلِ؛ لأنَّ مَن أيقَنَ بأنَّه لا بُدَّ له مِن العَرْضِ على المَلِكِ أفرَغَ جُهْدَه في العَمَلِ بما يَحمَدُه عليه عندَ لِقائِه(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ أنَّ الإنسانَ لا بُدَّ أنْ يكونَ دائمًا في عملٍ، يجتازُ مِن عَمَلٍ إلى عَمَلٍ، ليس في حياتِه عُطْلَةٌ إطلاقًا؛ فالإنسانُ دَؤوبٌ كادِحٌ إلى أنْ يَلقى اللهَ عزَّ وجلَّ، فقد أَتَتِ «الفاءُ» بعدَ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٩).

قولِه: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ إشارةً إلى أنَّ هذا الكَدْحَ سوف يَسْتَمِرُّ إلى مُلاقاةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وذلك بحُلولِ الأَجَلِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الأرضَ كُرَويَّةٌ؛ لأنَّ هذا إنَّما يكونُ يومَ القيامةِ، وهو يدُلُّ على أنَّها قبْلَ ذلك ليست ممدودةً، بل هي كُرَويَّةٌ، وهذا لا يعارِضُ قولَه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]؛ لأنَّ سَطْحَها هو باعتبارِ المشاهَدةِ، فأنت الآنَ إذا وقفتَ على الأرضِ تَجِدُها مُستَوِيةً إلى مَدِّ البَصَرِ(٢).

٢- في قَولِه -تعالى- عن السَّماءِ والأرضِ: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أنَّ الكونَ كُلَّه مُطِيعٌ مُنقادٌ لأوامِرِ اللهِ(٣)؛ فتأمَّلْ أيُّها الآدَمِيُّ البَشَرُ الضَّعيفُ كيف كانت هذه المخلوقاتُ العَظيمةُ تَسمَعُ وتُطيعُ لله عزَّ وجَلَّ هذه الطَّاعةَ العظيمةَ في ابتداءِ الخَلْقِ، وفي انتهاءِ الخَلْقِ! في ابتداءِ الخَلْقِ قال: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وفي انتهاءِ الخَلْقِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ حُقَّ لها أن تأذَنَ: تَسمَعَ وتُطيعَ(٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أنَّها بعدَ أن كانت لهم كِفاتًا أحياءً وأمواتًا، وبعدَ أن كانت لهم مِهادًا، لَفَظَتْهم وتخَلَّت عنهم، وهذا ما يَزيدُ في رَهبةِ الموقِفِ وشِدَّتِه والتَّضييقِ على العِبادِ؛ وأنْ لَا مَلْجَأَ لهم ولا مَنجَى إلَّا إلى اللهِ،

(١) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٩).
(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٠).

كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾[١] [القيامة: ١١، ١٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ أنَّ الخَلْقَ كلَّهم مَصيرُهم ومَرْجِعُهم إلى اللهِ على أيِّ طريقٍ سَلَكوا[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾

- (إذا) ظَرفٌ للزَّمانِ المُستَقبَلِ، والفِعلُ الَّذي في الجُملةِ المُضافةِ إليه (إذا) مُؤوَّلٌ بالمُستقبَلِ، وصِيغَ بالمُضِيِّ؛ للتَّنبيهِ على تَحقُّقِ وُقوعِه؛ لأنَّ أصلَ (إذا) القَطعُ بوُقوعِ الشَّرطِ[٣].

- وقُدِّمَ المُسنَدُ إليه -﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ و﴿ٱلْأَرْضُ﴾- على المُسنَدِ الفِعليِّ -﴿ٱنشَقَّتْ﴾ و﴿مُدَّتْ﴾- دُون أنْ يُقالَ: (إذا انشَقَّتِ السَّماءُ)، (وإذا مُدَّتِ الأرضُ)؛ لإفادةِ تَقَوِّي الحُكمِ، وهو التَّعليقُ الشَّرْطيُّ، أي: أنَّ هذا الشَّرطَ مُحقَّقُ الوُقوعِ، زِيادةً على ما يَقتَضيه (إذا) في الشَّرطيَّةِ مِن قَصدِ الجَزمِ بحُصولِ الشَّرطِ، بخِلافِ (إنْ)[٤].

- قولُه: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إليها؛ للإشْعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ؛ فالتَّعبيرُ بـ (رَبِّهَا) دُون غَيرِ ذلك مِن أسْماءِ اللهِ وطُرُقِ تَعريفِه؛ لِما يُؤذِنُ به وَصْفُ الرَّبِّ مِن المُلْكِ والتَّدْبيرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢١٨، ٢١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٩).

- قولُه: ﴿وَحُقَّتْ﴾، أي: جُعِلَتْ حَقيقةً بالاستِماعِ والانقِيادِ، لكنْ لا بَعْدَ أنْ لم تَكُن كذلك، بلْ في نفْسِها وحَدِّ ذاتِها، مِن قَولِهم: هو مَحقوقٌ بكذا وحَقيقٌ به، والمَعْنى: انقادَتْ لرَبِّها، وهي حَقيقةٌ بذلك، لكنْ لا على أنَّ المُرادَ خُصوصيَّةُ ذاتِها مِن بيْنِ سائرِ المَقدوراتِ، بل خُصوصيَّةُ القُدرةِ القاهِرةِ الرَّبَّانيَّةِ الَّتي يَتأتَّى لها كُلُّ مَقدورٍ، ولا يَتخَلَّفُ عنها أمرٌ مِن الأُمورِ؛ فحَقُّ الجُملةِ أنْ تَكونَ اعتِراضًا مُقرِّرًا لِما قبْلَها، لا مَعطوفةً عليه[١].

- ومُتعلَّقُ (حُقَّتْ) مَحذوفٌ دَلَّ عليْه فِعلُ ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾، أي: وحُقَّتْ بذلك الانقِيادِ والتأثُّرِ، يُقالُ: حُقَّ فُلانٌ بكذا، أي: تَوجَّهَ عليْه حَقٌّ[٢].

- قولُه: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ذكَرَه مَرَّتَينِ؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصلٌ بالسَّماءِ، والثَّانيَ بالأرضِ، وإذا اتَّصَلَ بغيرِ ما اتَّصَلَ به الآخَرُ لا يكونُ تَكرارًا[٣].

- قولُه: ﴿وَتَخَلَّتْ﴾، أي: أَخرَجَتْ ما في باطِنِها، فلمْ يَبقَ منه شَيءٌ؛ لأنَّ فِعلَ (تَخلَّى) يدُلُّ على قُوَّةِ الخُلُوِّ عن شَيءٍ؛ لِما في مادَّة (التَّفَعُّلِ) مِن الدَّلالةِ على تَكلُّفِ الفِعلِ، كما يُقالُ: تَكرَّمَ فُلانٌ، إذا بالَغَ في الإكْرامِ، والمَعْنى: إنَّه لم يَبقَ ممَّا في باطِنِ الأرضِ شيءٌ[٤].

- وتَكريرُ (إذا) في الآيتَينِ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾؛ لاستِقلالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠).

كُلٍّ مِن الجُملتَينِ بنَوعٍ مِن القُدرةِ[١].

- وجَوابُ (إذَا) قيل: هو قولُه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ إلخ، وقولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ اعتِراضٌ. وقيلَ: جَوابُ (إذَا) مَحذوفٌ؛ للتَّهويلِ، والإيماءِ إلى قُصورِ العِبارةِ عن بَيانِه، أو للتَّعويلِ على ما مَرَّ في سُورةِ (التَّكويرِ) و(الانفِطارِ). وقيلَ: هو ما دَلَّ عليه قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، تَقديرُه: لاقَى الإنسانُ كَدْحَه، وذلك على قولٍ. وقيلَ: هو قولُه تعالَى: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، وما قبْلَه اعتِراضٌ. وقيلَ: هو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ...﴾ إلخ، بإضْمارِ القولِ، أي: يُقالُ: يا أيُّها الإنسانُ[٢]، أو يكونُ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ...﴾ جَوابَ (إذَا) باعتِبارِ ما فُرِّعَ عليه مِن قولِه: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾؛ فالمَعنى: إذا السَّماءُ انشَقَّتْ، وإذا الأرضُ مُدَّتْ؛ لاقَيتَ رَبَّك -أيُّها الإنسانُ- بعْدَ كَدْحِك لمُلاقاتِه؛ فكان قولُه: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ إدْماجًا[٣] بمَنزِلةِ الاعتِراضِ أمامَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٢٢).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيقَ لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيلَ: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: =

المَقصودِ. وجُوِّزَ أن يَكونَ جَوابُ (إذا) مَحذوفًا دَلَّ عليْه قولُه: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، والتَّقديرُ: إذا السَّماءُ انشَقَّتْ... إلى آخِرِه، لاقَيتَ أيُّها الإنسانُ رَبَّك[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾

- الخِطابُ لجَميعِ النَّاسِ؛ فاللَّامُ في قولِه: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ لتَعريفِ الجِنسِ، وهو للاستِغراقِ، كما دَلَّ عليه التَّفصيلُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق: ٧] إلى قولِه: ﴿كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا﴾ [الانشقاق: ١٥]، والمَقصودُ الأوَّلُ مِن هذا وَعيدُ المُشرِكين؛ لأنَّهم الَّذين كَذَّبوا بالبَعثِ، فالخِطابُ بالنِّسبةِ إليهم زِيادةٌ للإنذارِ، وهو بالنِّسبةِ إلى المُؤمِنينَ تَذكيرٌ وتَبشيرٌ[٢].

- وتَعليقُ مَجرورِ ﴿كَادِحٌ﴾ في هذه الآيةِ بحرْفِ (إلَى) يُؤذِنُ بأنَّ المُرادَ به: عمَلٌ يَنتَهي إلى لِقاءِ اللهِ، فيَجوزُ أنْ يُضَمَّنَ (كَادِحٌ) مَعنى: ساعٍ؛ لأنَّ كَدْحَ النَّاسِ في الحَياةِ يَتَطلَّبون بعَملِ اليَومِ عَملًا لغَدٍ، وهكذا[٣].

- و﴿كَدۡحٗا﴾ مَنصوبٌ على المَفعوليَّةِ المُطْلقةِ؛ لتَأكيدِ (كَادِحٌ) المُضمَّنِ مَعنى: ساعٍ إلى رَبِّك، أي: ساعٍ إليه لا مَحالةَ، ولا مَفرَّ[٤].

- وضَميرُ النَّصبِ في (مُلَاقِيهِ) عائِدٌ إلى الرَّبِّ، أي: فمُلاقٍ رَبَّك، أي: لا مَفرَّ لك مِن لِقاءِ اللهِ؛ ولذلك أُكِّدَ الخَبَرُ بـ (إنَّ)[٥].

= ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٢٢).

الآيات (٧-١٥)

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ثُبُورًا﴾: أي: هَلاكًا، والثُّبُورُ: الهَلاكُ والفَسادُ، وأصلُ (ثبر): يدُلُّ على هَلاكٍ[١].

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾: أي: يَدخُلُ النَّارَ، ويذُوقُ حَرَّها، والصَّلَى أصلُه: الإيقادُ بالنَّارِ، وأصلُ (صلى) هنا: النَّارُ، وأصلُ (سعر): يَدُلُّ على اشتعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه وارتِفاعِه[٢].

﴿يَحُورَ﴾: أي: يَرجِعَ ويُبعَثَ، وأصلُ (حور) هنا: يدُلُّ على رُجوعٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مفصِّلًا عاقِبةَ ذلك الكَدْحِ مُبتَدِئًا بحالِ السُّعداءِ: فأمَّا المؤمِنُ الَّذي يُعطَى كِتابَ أعمالِه بيَمينِه، فسَوْفَ يُحاسَبُ يومَ القيامةِ حِسابًا سَهْلًا يَسيرًا بلا مناقَشةٍ، ويَنصَرِفُ إلى أهلِه في الجَنَّةِ مَسرورًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥، ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه حالَ الأشقياءِ، فيقولُ: وأمَّا الكافِرُ الَّذي يُعطَى كِتابَ أعمالِه بشِمالِه مِن خَلْفِ ظَهْرِه، فسَوْفَ يُنادي على نَفْسِه بالهَلاكِ والخُسْرانِ، ويَدخُلُ النَّارَ فيَحترِقُ فيها.

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه الأسبابَ الَّتي أدَّتْ به إلى هذه العاقِبةِ، فيقولُ: إنَّه كان في الدُّنيا مسرورًا في أهلِه باتِّباعِ هَواه وفِعْلِه المعاصيَ، فَرِحًا بدُنْياه وشَهَواتِها، إنَّه ظَنَّ في الدُّنيا أنَّه لن يَرجِعَ إلى رَبِّه بعْدَ مَوتِه؛ لِيُحاسِبَه على أعمالِه، وليس الأمرُ كما يَظُنُّه هذا المكَذِّبُ بالبَعْثِ؛ فإنَّه سيُبعَثُ حَيًّا بعدَ مَوتِه، إنَّ اللهَ بصيرٌ به ومُطَّلِعٌ على أعمالِه، وسيُجازيه عليها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ عَبيدَ المَلِكِ إذا عُرِضوا عليه كان فيهم المقبولُ والمردودُ؛ بسَبَبِ أنَّ كَدْحَهم تارةً يكونُ حَسَنًا، وتارةً يكونُ سَيِّئًا؛ قال مُعَرِّفًا أنَّ الأمرَ في لقائِه كذلك على ما نَعهَدُ؛ فمَن كان مقبولًا أُعطِيَ كِتابَه بيمينِه، ومَن كان مردودًا أُعطِيَ كتابَه بشِمالِه؛ فتَرْجَمَ هذا الغَرَضَ[1] بقولِه:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾.

أي: فأمَّا المؤمِنُ الَّذي يُعطَى كِتابَ أعمالِه، فيَتَسلَّمُه بيَدِه اليُمْنى[2].

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٣).

أي: فسوف يُحاسَبُ يومَ القيامةِ حِسابًا سَهْلًا، فتُعرَضُ عليه سَيِّئاتُه المكتوبةُ بلا مناقَشةٍ وتدقيقٍ وإطالةٍ، ولا يُؤاخَذُ بها(١).

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ. فقُلتُ: أوَلَيس يقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟! فقال: إنَّما ذلكِ العَرضُ، ولكِنْ مَن نُوقِشَ(٢) الحِسابَ يَهلِكْ))(٣).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُدْنِي المؤمِنَ فيَضَعُ عليه كَنَفَه(٤) ويَستُرُه، فيقولُ: أتَعْرِفُ ذَنْبَ كذا؟ أتعرِفُ ذَنْبَ كذا؟ فيقولُ: نَعَمْ، أيْ رَبِّ! حتَّى إذا قَرَّره بذُنُوبِه، ورأى في نَفْسِه أنَّه هَلَكَ، قال: سَتَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليَومَ، فيُعطَى كِتابَ حَسَناتِه))(٥).

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾.

أي: ويَنصَرِفُ إلى أهلِه في الجَنَّةِ مَسرورًا بنَجاتِه مِن الجَحِيمِ، وبما أعطاه اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٦، ٢٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٢)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٣).

(٢) نُوقِشَ: استُقصِيَ عليه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٢٠٨).

(٣) رواه البخاريُّ (١٠٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٨٧٦).

(٤) كَنَفَه: سَتْرَه. يُنظر: ((خلق أفعال العباد)) للبخاري (ص: ٧٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٧).

(٥) رواه البخاريُّ (٢٤٤١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٦٨).

مِن النَّعيمِ العَظيمِ[١].

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٤].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾.

أي: وأمَّا الكافِرُ الَّذي يُعطَى كِتابَ أعمالِه، فيَتسَلَّمُه بشِمالِه مِن خَلْفِ ظَهْرِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٢٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٣).

قيل: المرادُ بـ﴿أَهْلِهِۦ﴾: زَوجاتُه مِنَ الحُورِ العِينِ، والآدَمِيَّاتِ. ومِمَّن قال بهذا: الواحديُّ، والبغويُّ، وابنُ الجَوزيِّ، والخازنُ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠٩).

وقيل: هم: أزواجُه مِنَ الحُورِ العِينِ. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ أبي زَمَنِين، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٢).

وقال الألوسي: (﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي: عَشيرتِه المؤمنينَ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٩).

وقال ابنُ عاشور: (الأهلُ: العَشيرةُ مِن زَوجةٍ وأبناءٍ وقَرابةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٣).

وقال أبو السعود: (﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي: عشيرتِه المؤمنينَ، أو فريقِ المؤمنينَ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٢).

وقال الشوكاني: (﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي: ويَنصَرِفُ بعدَ الحِسابِ اليَسيرِ إلى أهلِه الَّذين هم في الجنَّةِ مِن عَشيرتِه، أو إلى أهلِه الَّذين كانوا له في الدُّنيا مِن الزَّوجاتِ والأَولادِ وقد سَبَقوه إلى الجنَّةِ، أو إلى مَن أعَدَّه اللهُ له في الجنَّةِ مِنَ الحُورِ العِينِ والوِلْدانِ المخَلَّدينَ، أو إلى جميعِ هؤلاء، مسرورًا مُبتَهِجًا بما أُوتِيَ مِنَ الخَيرِ والكرامةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٣).

﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾.

أي: فسوف يُنادي على نَفْسِه بالهَلاكِ والخُسْرانِ؛ نَدامةً وحَسرةً مِمَّا يَرى في كتابِه من السَّيِّئاتِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: ويَنغَمِسُ في النَّارِ المُلتَهِبةِ الشَّديدةِ التَّوَقُّدِ، فيَحتَرِقُ فيها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٥، ٥٦].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر العَذابَ الَّذي لا يُطاقُ؛ أَتْبَعَه سَبَبَه؛ تَرهيبًا منه، وحثًّا على التَّوبةِ[٣].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾.

أي: إنَّه كان في الدُّنيا مسرورًا في أهلِه باتِّباعِ هَواه، ورُكوبِ شهوتِه، واقترافِ المعاصي، فَرِحًا بدُنْياه، لا يُفَكِّرُ في عاقِبةِ أعمالِه، ولا يَخافُ عَذابَ الآخِرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن =

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤﴾.

أي: إنَّ هذا الكافِرَ قد ظَنَّ في الدُّنيا أنَّه لن يَرجِعَ إلى رَبِّه بعْدَ مَوتِه؛ لِيُحاسِبَه ويُجازِيَه على أعمالِه، فلَمْ يَكُنْ يَخشَى عِقابًا أو يَرجو ثَوابًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ١٥﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّه هذا المكَذِّبُ بالبَعْثِ؛ فإنَّه سيُبعَثُ حَيًّا بعدَ مَوتِه، واللهُ بصيرٌ به ومُطَّلِعٌ على أعمالِه، فلا يخفى عليه كُفْرُه أو عِصيانُه، وسيُجازيه على ذلك[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الكِتابُ: صَحيفةُ الأعمالِ، وجُعِلَ إيتاؤُه إيَّاه بيَمينِه شِعارًا للسَّعادةِ؛ لِما هو مُتَعارَفٌ مِن أنَّ اليَدَ اليُمْنى تَتناوَلُ الأشياءَ الزَّكيَّةَ[٣].

= كثير)) (٨/ ٣٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٤).

قال ابن عطية: (وقولُه تعالى: ﴿فِيٓ أَهۡلِهِۦ﴾ يريدُ: في الدُّنيا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٥).

قال البِقاعي: (﴿بَصِيرًا﴾ أي: ناظِرًا له وعالِمًا به أبلَغَ نَظَرٍ وأكمَلَ عِلمٍ؛ فتَرْكُه مُهمَلًا -مع العِلمِ بأعمالِه- مُنافٍ للحِكمةِ والعَدْلِ والمُلْكِ؛ فهو شَيءٌ لا يمكِنُ في العَقْلِ بوَجهٍ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ دَلالةٌ على أنَّه سبحانه أعَدَّ له ولأهلِه في الجَنَّةِ ما يَليقُ به مِنَ الثَّوابِ[١].

٣- اربطْ بيْن قَولِه تعالى فيمَن أُوتِيَ كِتابَه بيَمينِه: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾، وهذا: ﴿كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ تجِدْ فرقًا بيْن السُّرورَين؛ فسُرورُ الأوَّلِ سرورٌ دائِمٌ -نسألُ اللهَ أن يجعَلَنا منهم-، وسرورُ الثَّاني سُرورٌ زائِلٌ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ سُؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ مع قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥]؟

الجوابُ: يُؤتَى كِتابَه بشِمالِه، فيكونُ الأخذُ بالشِّمالِ، ولكِنْ تُلوى يَدُه الشِّمالُ إلى الخَلْفِ حتَّى تكونَ مِن وراءِ ظهْرِه، والجزاءُ مِن جنسِ العملِ؛ فكما أنَّ هذا الرَّجُلَ جَعَلَ كتابَ اللهِ وراءَ ظَهْرِه، أُعطِيَ كتابَه يومَ القيامةِ مِن وراءِ ظَهْرِه؛ جَزاءً وِفاقًا[٣]. وقيل: بَعضُهم يُعطَى بشِمالِه، وبعضُهم مِن وَراءِ ظَهرِه[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۞ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ بيانُ نتيجةِ سُرورِ أولئك في الدُّنيا، بأنَّهم يَصْلَونَ سَعيرًا، ولم يُبَيِّنْ سَبَبَ سُرورِ الآخَرينَ، ولكِنْ بَيَّنَه في موضِعٍ آخَرَ: وهو خَوفُهم مِنَ اللهِ في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ۞ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۞ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦ - ٢٨]، وهنا يقالُ: إنَّ اللهَ سُبحانَه لم يجمَعْ على عَبْدِه خَوفَينِ، ولم يُعْطِه الأمْنَينِ معًا؛ فمَن خافه في الدُّنيا أمَّنَه في الآخِرةِ: ﴿وَلِمَنۡ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٤). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٩).

خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، ومَنْ أَمِنَ مَكْرَ اللهِ، وقضى كُلَّ شَهَواتِه، وكان لا يُبالي؛ فيُؤتى كِتابَه بشِمالِه، ويَصلَى سَعيرًا، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ * وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٧] تكذيبًا للبَعْثِ، وقَولُه هذا هو بعَينِه المذكورُ في هذه الآياتِ: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾[(١)].

٦- السُّرورُ ورَد في القرآنِ على أَوجهٍ؛ منها: سُرورُ أهلِ الدُّنيا بدُنْياهم، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، ومنها سرورُ المطيعينَ بنَعيمِ العُقْبَى، كما في قولِه: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، وفيه تنبيهٌ على أنَّ سُرورَ الآخرةِ يُضادُّ سُرورَ الدُّنيا[(٢)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا * إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أنَّ السُّرورَ في الدُّنيا، وعدَمَ الخَوفِ مِنَ اللهِ: سَبَبُ العَذابِ يومَ القيامةِ، وقد تقرَّر في مَسلَكِ الإيماءِ والتنبيهِ[(٣)] أنَّ «إنَّ» المكسورةَ المشَدَّدةَ مِن حُروفِ التَّعليلِ، فقَولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ عِلَّةٌ لِقَولِه: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾[(٤)].

٨- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ يُشعِرُ أنَّ عدَمَ الإيمانِ بالبَعثِ أو الشَّكَّ

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٠٩).

(٣) دلالةُ الإيماءِ والتَّنبيهِ: أن يُذكرَ وصْفٌ مُقتَرِنٌ بحُكمٍ في نصٍّ مِن نصوصِ الشَّرعِ على وجهٍ لو لم يكُنْ ذلك الوصفُ علَّةً لذلك الحُكمِ لَكان الكلامُ معيبًا. يُنظر: ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٧).

فيه: هو الدَّافِعُ لكُلِّ سُوءٍ، والمُضَيِّعُ لكُلِّ خَيرٍ، وأنَّ الإيمانَ باليَومِ الآخِرِ هو المُنطَلَقُ لكُلِّ خيرٍ، والمانِعُ لكُلِّ شَرٍّ، والإيمانُ بالبَعْثِ هو مُنطَلَقُ جميعِ الأعمالِ الصَّالحةِ كما في مُستَهَلِّ المُصحَفِ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[1] [البقرة: ٢- ٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ إشارةٌ إلى حِكمةِ البَعْثِ للجَزاءِ؛ لأنَّ رَبَّ النَّاسِ عَليمٌ بأحوالِهم؛ فمنهم المصلِحُ، ومنهم المفسِدُ، والكُلُّ متفاوِتونَ في ذلك؛ فليس مِن الحِكمةِ أن يَذهَبَ المُفسِدُ بفَسادِه وما ألحَقَه بالموجوداتِ مِن مَضَارَّ، وأن يُهمَلَ صَلاحُ المُصلِحِ؛ فجَعَل اللهُ الحياةَ الأَبَديَّةَ، وجَعَلَها للجَزاءِ على ما قَدَّم صاحِبُها في حياتِه الأُولى[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ هذا تَفصيلُ الإجْمالِ الَّذي في قولِه: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، أي: رُجوعُ جَميعِ النَّاسِ أولئك إلى اللهِ؛ فمَنْ أُوتيَ كِتابَه بيَمينِه فَريقٌ مِن النَّاسِ هم المُؤمِنون، ومَن أُوتيَ كِتابَه وَراءَ ظَهْرِه فَريقٌ آخَرُ، وهم المُشرِكون، وبيْنَ مُنتهاهُما مَراتبُ، وإنَّما جاءَتْ هذه الآيةُ على اعتِبارِ تَقسيمِ النَّاسِ يَومَئذٍ بيْنَ أَتقياءَ ومُشرِكين[3].

- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٢٢).

وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ احتباكٌ[١]: ذِكرُ اليَمينِ أوَّلًا يدُلُّ على الشِّمالِ ثانيًا، وذِكرُ الوراءِ ثانيًا يدُلُّ على الأمامِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك أنَّه ذَكَر دليلَ المَوَدَّةِ والرِّفْقِ بالمُصافَحةِ ونَحوِها في السَّعيدِ، ودليلَ الغَدْرِ والاغتيالِ في الشَّقيِّ[٢].

- قولُه: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ حرفُ (سوفَ) أصْلُه لحُصولِ الفِعلِ في المُستَقبَلِ، والأكثرُ أنْ يُرادَ به المستقبَلُ البعيدُ، ويُقصَدُ به في الاستِعمالِ البَليغِ تَحقُّقُ حُصولِ الفِعلِ واستِمرارِه، وهو هُنا مُفيدٌ للتَّحقُّقِ والاستِمرارِ بالنِّسبةِ إلى الفِعلِ القابِلِ للاستِمرارِ، وهو ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾، وهو المَقصودُ مِن هذا الوَعدِ[٣].

- والحِسابُ اليَسيرُ: هو عَرْضُ أعمالِه عليه دونَ مُناقَشةٍ، فلا يَطولُ زَمَنُه، فيُعَجَّلُ به إلى الجَنَّةِ، وذلك إذا كانت أعمالُه صالحةً؛ فالحِسابُ اليَسيرُ كِنايةٌ عن عدَمِ المُؤاخَذةِ[٤].

- وفي قَولِه: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ احتِباكٌ: ذِكرُ الحِسابِ اليَسيرِ -الَّذي هو الثَّمَرةُ والمسَبَّبُ- أوَّلًا يدُلُّ على حَذفِ ضِدِّه ثانيًا، وذِكرُ السُّرورِ في الأهلِ -الَّذي هو السَّبَبُ في الثَّاني- يدُلُّ على حَذفِ ضِدِّه، وهو سَبَبُ السَّعادةِ، وهو الغَمُّ، ومحاسَبةُ النَّفْسِ في الأوَّلِ. فهو احتِباكٌ في احتِباكٍ[٥].

---

(١) الاحْتِبَاك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن أَلْطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٢، ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٢٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۞ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾

- قولُه: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ المُرادُ بالدُّعاءِ هنا: النِّداءُ، أي: يُنادي الثُّبورَ بأنْ يَقولَ: يا ثُبوري، أو يا ثُبورًا، كما يُقالُ: يا وَيْلي، ويا وَيْلَتَنا، والثُّبورُ: الهَلاكُ وسُوءُ الحالِ، وهي كَلِمةٌ يَقولُها مَن وَقَعَ في شَقاءٍ وتَعْسٍ، والنِّداءُ في مِثلِ هذه الكَلماتِ مُستَعمَلٌ في التَّحسُّرِ والتَّوجُّعِ مِن مَعْنى الاسمِ الواقِعِ بعْدَ حرفِ النِّداءِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۞ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۞ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ استِئنافٌ لبَيانِ عِلَّةِ ما يُلاقيه[٢]. وقيل: هذه الجُملةُ مُعترِضةٌ. وهذا القولُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن حالِهم؛ كيف انقَلَبَتْ مِن ذلك السُّرورِ الَّذي كان لهم في الحَياةِ الدُّنيا، المَعروفِ مِن أحوالِهم بما حُكِيَ في آياتٍ كَثيرةٍ، فآلُوا إلى ألَمِ النَّارِ في الآخِرةِ حتَّى دَعَوا بالثُّبورِ؟! وتأكيدُ الخَبَرِ مِن شأْنِ الأخبارِ المُستعمَلةِ في التَّعجيبِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ تَعليلٌ لسُروره في الدُّنيا، أي: ظَنَّ أنْ لن يَرجِعَ إلى اللهِ تعالى تَكْذيبًا للمَعادِ؛ فهو تَعليلٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ...﴾ [الانشقاق: ١٠] إلى آخِرِها. وحرفُ (إنَّ) فيها مُغْنٍ عن (فاءِ) التَّعليلِ، فالمَعْنى: يَصْلى سَعيرًا؛ لأنَّه ظَنَّ أنْ لنْ يَحُورَ، أي: لن يَرجِعَ إلى الحَياةِ بعدَ المَوتِ، أي: لأنَّه يُكَذِّبُ بالبَعثِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٤). =

- وجِيءَ بحرْفِ (لَن) الدَّالِّ على تَأكيدِ النَّفيِ وتَأييدِه؛ لحِكايةِ جَزْمِهم وقَطْعِهم بنَفيِه[١].

- قولُه: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجابٌ لِما بعْدَ ﴿لَّن﴾، وقولُه تعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ تَحقيقٌ وتَعليلٌ له، أيْ: بَلى لَيَحورَنَّ البَتَّةَ؛ إنَّ ربَّه الَّذي خَلَقَه كان به وبأعمالِه الموجِبةِ للجَزاءِ بَصيرًا، بحَيثُ لا يَخْفى منها خافِيةٌ، فلا بُدَّ مِن رَجْعِه وحِسابِه وجَزائِه عليها حَتْمًا؛ فأُجيبَ بقولِه: ﴿بَلَىٰٓ﴾ الكلامُ المنفيُّ لإبطالِ نفْيِه، ومَوقعُه الاستئنافُ، وجُملةُ ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ مُبيِّنةٌ للإبْطالِ الَّذي أفادَه حرفُ ﴿بَلَىٰٓ﴾ على وَجْهِ الإجْمالِ، يَعني: إنَّ ظَنَّه باطِلٌ؛ لأنَّ رَبَّه أنْبأَه بأنَّه يُبعَثُ، والمَعنى: إنَّ رَبَّه عَليمٌ بمآلِه. وتأكيدُ ذلك بحرْفِ (إنَّ)؛ لِرَدِّ إنْكارِه البَعثَ الَّذي أَخبَرَ اللهُ به على لِسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فآلَ المَعنى الحاصِلُ مِن حَرفِ الإبْطالِ ومِن حرفِ التَّأكيدِ إلى مَعنى: أنَّ رَبَّه بَصيرٌ به، وأمَّا هو فغَيرُ بَصيرٍ بحالِه، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[٢] [البقرة: ٢١٦].

- وتَقديمُ المَجرورِ ﴿بِهِۦ﴾ على مُتَعلَّقِه ﴿بَصِيرًا﴾؛ للاهتِمامِ بهذا المَجرورِ، أي: بَصيرٌ به لا مَحالةَ، مع مُراعاةِ الفَواصِلِ[٣].

= ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٥٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٦).

الآيات (١٦-٢٥)

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلشَّفَقِ﴾: أي: الحُمْرةِ الَّتي تكونُ عندَ مَغيبِ الشَّمسِ، وسُمِّي بذلك لرِقَّتِه، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[(١)].

﴿وَسَقَ﴾: أي: جَمَع وضَمَّ، والوَسْقُ: جَمعُ المتفرِّقِ، وضَمُّك الشَّيءَ بَعضَه إلى بعضٍ[(٢)].

﴿ٱتَّسَقَ﴾: أي: اجتَمَعَ، واستَوَى، وتَمَّ نُورُه، وهو افتَعَل مِنَ الوَسْقِ: الَّذي هو الجَمعُ[(٣)].

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾: المرادُ بالرُّكوبِ: المُلاقاةُ، والطَّبَقُ: ما طابَق غيرَه. يُقالُ: هذا طَبَقٌ لهذا: إذا طابَقه، والمعنى: لَتُلاقُنَّ حالًا كائنةً بعدَ حالٍ، كُلُّ واحدةٍ مُطابِقةٌ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧، ١٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٦).

للأخرَى، أو: يكونُ الطَّبَقُ جمعَ طَبَقةٍ، وهي المرتبةُ[١]، والمعنى: لَتَرْكَبُنَّ أحوالًا بعدَ أحوالٍ هي طبقاتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، وأصلُ (ركب): عُلُوُّ شَيءٍ شيئًا، وأصلُ (طبق): يدُلُّ على وَضعِ شَيءٍ مَبسوطٍ على مِثْلِه حتَّى يُغَطِّيَه[٢].

﴿يُوعُونَ﴾: أي: يَكتُمونَ ويَجمَعونَ في صُدورِهم مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ، وأصلُ (وعي): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ[٣].

﴿مَمْنُونٍ﴾: أي: مَقطوعٍ أو مَنقوصٍ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على قَطْعٍ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾

قَولُه تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾: هذا جوابُ القَسَم في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦]، فلا محَلَّ له مِن الإعرابِ. ﴿طَبَقًا﴾ مَفعولٌ به، على معنَى: لَتَرْكَبُنَّ وتُلاقُنَّ أحوالًا بعدَ أحوالٍ هي طبقاتٌ في الشِّدَّةِ. وقيل: منصوبٌ على الحالِ، على معنى: لَتَركَبُنَّ هذه الأحوالَ أُمَّةً بعْدَ أمَّةٍ، كأنَّه قيلَ: مُتتابعِينَ أُمَّةً بعدَ أُمَّةٍ. ﴿عَن طَبَقٍ﴾: «عن» على بابِها مِن معنَى المُجاوَزةِ، أو بمعنى «بَعْدَ»، وفي محلِّ الجارِّ والمجرورِ وَجْهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه في محلِّ نصبٍ على الحالِ مِنْ فاعِلِ

---

(١) قال أبو السعود: (وهو أوفقُ للرُّكوبِ المُنبئِ عن الاعتِلاءِ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٢) و(٣/ ٤٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٠).

«تَرْكَبُنَّ»، أي: لَتَرْكَبُنَّ طبقًا مُجاوزِينَ لطَبَقٍ. والثَّاني: أنَّه صِفةٌ لـ «طَبَقًا»، أي: طبقًا مُجاوِزًا لطَبَقٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُقْسِمًا ببعضِ مخلوقاتِه: فأُقسِمُ بالحُمْرةِ الَّتي تَلُوحُ في الأُفُقِ بعْدَ غُروبِ الشَّمسِ، وباللَّيلِ وما جَمَع مِن مَخلوقاتٍ، وبالقَمَرِ إذا تمَّ واكتَمَل فصار بَدْرًا مُنيرًا؛ لَتَركَبُنَّ -أيُّها الناسُ- حالًا بَعْدَ حالٍ!

ثمَّ يقولُ سبحانَه منكرًا وموبخًا: فما للكافِرينَ لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ، ولا يُقِرُّونَ بالبَعْثِ بعدَ المَوتِ، وإذا قُرِئَ عليهم القُرآنُ لا يَسجُدونَ للهِ؟! لا يُوجَدُ ما يَمنَعُهم مِن الإيمانِ والسُّجودِ، بل هم يُكَذِّبونَ بالقُرآنِ والبَعثِ؛ عِنادًا وكِبْرًا، واللهُ أعلَمُ بما يَجمَعُه الكافِرونَ في صُدورِهم مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ؛ فبَشِّرْهم -يا محمَّدُ- بعَذابٍ مُؤلِمٍ، إلَّا الَّذين تابُوا منهم فآمَنوا، وأطاعوا اللهَ تعالى؛ فأولئك لهم في الآخِرةِ أجرٌ كامِلٌ غَيرُ مَنقوصٍ ولا مَقطوعٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦﴾.

أي: فأُقسِمُ بالحُمْرةِ الَّتي تَلُوحُ في الأُفُقِ بَعْدَ غُروبِ الشَّمسِ[2].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٣٧-٧٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٦).

قال الواحدي: (يعني: الحُمْرةَ الَّتي تكونُ بعدَ غُروبِ الشَّمسِ إلى وَقتِ العِشاءِ الآخِرةِ، وهذا قولُ المفَسِّرينَ وأهلِ اللُّغةِ جَميعًا). ((الوسيط)) (٤/ ٤٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ وما جَمَع وضمَّ فيه مِن مَخلوقاتٍ(١).

= (٨/ ٣٥٨).

وقال ابنُ عاشور: (الشَّفَقُ: اسمٌ للحُمْرةِ الَّتي تَظهَرُ في أُفُقِ مَغرِبِ الشَّمسِ إثْرَ غُروبِها، وهو ضياءٌ مِن شُعاعِ الشَّمسِ إذا حَجَبها عن عُيونِ النَّاسِ بَعضُ جِرمِ الأرضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٧).

قال ابن جُزَي: (﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: جمَع وضمَّ، ومنه الوَسْقُ؛ وذلك أنَّ اللَّيلَ يضُمُّ الأشياءَ ويَستُرُها بظَلامِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٥).

قيل: المعنى: جَمَع وضَمَّ ما كان مُنتَشِرًا بالنَّهارِ في تصَرُّفِه؛ وذلك أنَّ اللَّيلَ إذا أقبَلَ أوى كُلُّ شَيءٍ إلى مأواه. ومِمَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والرَّسْعَني، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٥٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢٣).

قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ يقولُ: واللَّيلِ وما جَمَع، مِمَّا سَكَن وهَدَأ فيه مِن ذي رُوحٍ كان يَطيرُ، أوْ يَدِبُّ نَهارًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (الوَسْقُ: جَمعُ الأشياءِ بَعْضِها إلى بعضٍ، فيَجوزُ أن يكونَ المعنى: وما جَمَع ممَّا كان مُنتَشِرًا في النَّهارِ مِن ناسٍ وحَيوانٍ؛ فإنَّها تأوي في اللَّيلِ إلى مآويها؛ وذلك ممَّا جعَلَ اللهُ في الجِبِلَّةِ مِن طلَبِ الأحياءِ السُّكونَ في اللَّيلِ؛ قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣]، وذلك مِن بديعِ التَّكوينِ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٧).

وقيل: المرادُ: النُّجومُ؛ لأنَّها تَظهَرُ في اللَّيلِ، فشَبَّه ظُهورَها فيه بوَسْقِ الواسِقِ أشياءَ مُتفرِّقةً. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٧).

وقال القاسمي: (والأظهَرُ أن يكونَ إشارةً إلى الأشياءِ كُلِّها؛ لاشتمالِ اللَّيلِ عليها. فكأنَّه تعالى أقسَمَ بجَميعِ المخلوقاتِ، كما قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٤١).

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾.

أي: وأُقسِمُ بالقَمَرِ إذا تمَّ واكتَمَل فصار بَدْرًا مُنيرًا[١].

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ بفَتحِ الباءِ، على خِطابِ الواحِدِ؛ قيل: المرادُ: النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعنى: لتَرْكَبَنَّ -يا محمَّدُ- طَبَقًا مِن أطباقِ السَّماءِ بَعْدَ طَبَقٍ، ولَتَرتَقِيَنَّ حالًا بعدَ حالٍ. وقيل: يَذكُرُ حالاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن يومِ أُوحِيَ إليه إلى يومِ قَبَضه اللهُ. أو أنَّه خِطابُ الإنسانِ المتقَدِّمِ الذِّكرِ في قَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾[٢] [الانشقاق: ٦].

٢- قراءة ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ بضَمِّ الباءِ على خِطابِ الجَمعِ[٣].

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٧).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٦٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٥٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٣٧).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٦٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٥٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٣٧).

أي: لَتَركَبُنَّ -أيُّها النَّاسُ- حالًا بَعْدَ حالٍ[١].

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ظَهَر المرادُ ولم يَبْقَ إلَّا العِنادُ؛ سَبَّب عن ذلك الإنكارَ على الكافرينَ والتَّوبيخَ والتَّقريعَ والتَّهديدَ؛ فقال مُعْرِضًا عن خِطابِهم إلى الغَيبةِ؛ إيذانًا باستِحقاقِهم للأخْذِ إنْ لم يَرجِعوا[٢]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٨)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٧).

قيل: المعنى: لَتَركَبُنَّ -أيُّها النَّاسُ- ممَّا تَلْقَونَ مِن شدائِدِ القيامةِ وأهوالِها أحوالًا. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٩). ويُنظر أيضًا: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٧٣).

وقيل: المعنى: لَتَركَبُنَّ حالًا بعدَ حالٍ حتَّى يَصيروا إلى الله تعالى، مِن إحياءٍ، وإماتةٍ، وبعثٍ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٢).

وقريبٌ منه قولُ مَن قال: لَتَركَبُنَّ الشَّدائِدَ: الموتَ والبعثَ والحسابَ حالًا بعدَ حالٍ. وممَّن اختاره: الثعالبيُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٥٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢٤).

وقيل: المعنى: لَتَكونُنَّ نُطفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضغةً، ثمَّ تُنفَخُ الرُّوحُ، فتَحْيَونَ إلى أن تموتوا، ثمَّ تُبعَثونَ، ثمَّ تُحاسَبونَ، ثمَّ تَصيرونَ إلى الجنَّةِ أو النَّارِ. ومِمَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ القيِّم، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٩٢)، ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧).

وقال ابنُ كثيرٍ: (قال الحسنُ البصري: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ يقولُ: حالًا بعدَ حالٍ، رخاءً بعدَ شِدَّةٍ، وشدةً بعدَ رخاءٍ، وغنًى بعدَ فقرٍ، وفقرًا بعدَ غنًى، وصحةً بعدَ سقمٍ، وسقمًا بعدَ صحَّةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٨).

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: فما الَّذي يَمنَعُ الكافِرينَ إذَنْ مِنَ الإيمانِ بالآخِرةِ، والإقرارِ بالبَعْثِ بعدَ المَوتِ، واللهُ هو المتصَرِّفُ في الكَونِ كيف يَشاءُ، وقد ظهَرَت لهم دلائِلُ الحَقِّ، وقامت عليهم حُجَجُه البَيِّنةُ(١)؟!

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وما لَهم إذا قُرِئَ عليهم القُرآنُ لا يَسجُدونَ لله تَعظيمًا وخُضوعًا له(٢)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٥١، ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٢).

قال الرازي: (قال ابنُ عَبَّاسٍ والحسَنُ وعَطاءٌ والكَلْبيُّ ومُقاتِلٌ: المُرادُ مِن السُّجودِ: الصَّلاةُ. وقال أبو مُسلِمٍ: الخُضوعُ والاستِكانةُ. وقال آخَرونَ: بل المرادُ نفْسُ السُّجودِ عندَ آياتٍ مخصوصةٍ، وهذه الآيةُ منها). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٠٤).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ معنى: ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾: لا يُصَلُّونَ: ابنُ أبي زَمَنِين، والقرطبيُّ، والخازن، والعُلَيمي، ونسَبَه ابنُ تيميَّةَ إلى عامَّةِ العُلَماءِ ومُفَسِّري السَّلَفِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٥١، ١٥٢).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: لا يَخضَعونَ ولا يَستَكينونَ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والزمخشري، والقاسمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٠).

قال البِقاعي: (أي: يَخضَعونَ بالقَلبِ ويَتذَلَّلونَ للحَقِّ بالسُّجودِ اللُّغَويِّ، فيَسجُدونَ بالقالَبِ السُّجودَ الشَّرعيَّ لِتلاوتِه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٤٩). =

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢﴾.

أي: لا يُوجَدُ ما يَمنَعُهم مِن الإيمانِ والسُّجودِ؛ فدلائِلُ الحَقِّ واضِحةٌ ومُتوفِّرةٌ، وإنَّما مِن سَجِيَّةِ الَّذين كَفَروا وعادتِهم المُستَمِرَّةِ: التَّكذيبُ بالقُرآنِ، والبَعثِ، والجنَّةِ والنَّارِ؛ عِنادًا أو كِبْرًا منهم دونَ حُجَّةٍ وعُذرٍ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الروم: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾ [البروج: ١٩].

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣﴾.

أي: واللهُ أعلَمُ بما يَجمَعُه الكافِرونَ في صُدورِهم مِنَ التَّكذيبِ والآثامِ[(٢)].

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤﴾.

أي: فبشِّرْ -يا محمَّدُ- أولئك الكافِرينَ بعَذابٍ مُوجِعٍ في غايةِ الإيلامِ[(٣)].

= وقيل: المرادُ به: سجودُ التِّلاوةِ. وممَّن ذهب إليه: الماتُريديُّ، واستدلَّ بالآيةِ على وُجوبِها. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٤٧٨).

لكنْ قال ابنُ الجَوزيِّ نقلًا عن القاضي أبي يعلى: (وقد احتجَّ بها قَومٌ على وُجوبِ سُجودِ التِّلاوةِ، وليس فيها دَلالةٌ على ذلك، وإنَّما المعنى: لا يَخشَعون، ألَا ترى أنَّه أضاف السُّجودَ إلى جميعِ القُرآنِ، والسُّجودُ يختصُّ بمَواضِعَ منه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٢). ويُنظر: ((التعليق الكبير في المسائل الخلافية بين الأئمة)) لأبي يعلى (١/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١١ - ١٤].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: إلَّا الَّذين تابُوا منهم فآمَنوا بكُلِّ ما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وأطاعوا اللهَ تعالى، فامتَثَلوا أمْرَه واجتَنَبوا نَهْيَه؛ فأولئك لهم في الآخِرةِ أجرٌ كامِلٌ غَيرُ مَنقوصٍ، ودائِمٌ غيرُ مَقطوعٍ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ سؤالٌ: لِماذا يُقْسِمُ اللهُ تعالى على خَبَرِه وهو سُبحانَه الصَّادِقُ بلا قَسَمٍ؟! وكذلك يُقْسِمُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه

= (٨/ ٣٦٢).

وقال ابنُ عثيمين: (الخِطابُ في قَولِه: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ عامٌّ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسَلَّم، ولكُلِّ مَن يَصِحُّ خِطابُه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٤، ٢٣٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قال عامَّةُ المفَسِّرينَ: غيرُ مَقطوعٍ ولا منقوصٍ... وقد شَذَّ بَعضُ النَّاسِ فقال: غيرُ مَمْنونٍ عليهم... وهذا القَولُ مع مُخالَفتِه لأقوالِ السَّلَفِ والجُمهورِ هو خطأٌ؛ لوُجوهٍ: أحَدُها: أنَّ اللهَ يَمُنُّ علينا بكُلِّ نِعمةٍ أنعَمَ بها علينا، حتَّى بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]...). ((الرد على من قال بفناء الجنة والنار)) (ص: ٨٤، ٨٥).

وقال ابن كثير: (وقال بعضُهم: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عليهم. وهذا القولُ ... قد أنكره غيرُ واحدٍ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ له المِنَّةُ على أهلِ الجنَّةِ في كلِّ حالٍ وآنٍ ولَحظةٍ، وإنَّما دخَلوها بفَضلِه ورحمتِه، لا بأعمالِهم، فله عليهم المِنَّةُ دائمًا سَرْمَدًا، والحمدُ لله وحْدَه أبدًا؛ ولهذا يُلْهَمونَ تسبيحَه وتحميدَه كما يُلهَمونَ النَّفَسَ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٢).

وسلَّم على خَبَرِه، وهو صادقٌ بلا قَسَمٍ؟!

الجوابُ: أنَّ القَسَمَ يُؤَكِّدُ الكلامَ؛ والقرآنُ الكريمُ نَزَلَ باللِّسانِ العربيِّ، وإذا كان مِن عادتِهم أنَّهم يُؤَكِّدون الكلامَ بالقَسَمِ صار هذا الأسلوبُ جاريًا على اللِّسانِ العربيِّ الَّذي نَزَلَ به القرآنُ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ سؤالٌ: أنَّه قد ورد الحَظْرُ بأنْ يُقسَمَ بغَيرِ اللهِ تعالى، أو بصِفةٍ مِن صِفاتِه!

الجوابُ: أنَّ ذلك الحَظْرَ في حَقِّ الإنسانِ، وأمَّا اللهُ تعالى فإنَّه يُقسِمُ بما شاء مِن خَلْقِه[٢].

٣- قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ مُناسَبةُ الأُمورِ المُقسَمِ بها هُنا للمُقسَمِ عليه؛ لأنَّ الشَّفَقَ واللَّيلَ والقَمَرَ تُخالِطُ أَحوالًا بيْنَ الظُّلمةِ وظُهورِ النُّورِ معها، أو في خِلالِها، وذلك مُناسِبٌ لِما في قولِه: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ مِن تَفاوُتِ الأحوالِ الَّتي يَختَبِطُ فيها النَّاسُ يَومَ القِيامةِ، أو في حياتِهم الدُّنيا. ولعلَّ ذِكرَ الشَّفَقِ إيماءٌ إلى أنَّه يُشبِهُ حالةَ انتِهاءِ الدُّنيا؛ لأنَّ غُروبَ الشَّمسِ مِثلُ حالةِ المَوتِ، وأنَّ ذِكرَ اللَّيلِ إيماءٌ إلى شِدَّةِ الهَولِ يومَ الحِسابِ، وذِكرَ القَمَرِ إيماءٌ إلى حُصولِ الرَّحمةِ للمُؤمِنينَ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ القَسَمُ بالقَمَرِ مِمَّا يدُلُّ على عِظَمِ آيتِه، ودِقَّةِ دَلالتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٣٧).

٥- استُدِلَّ بقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ على مَشروعيَّةِ سُجودِ التِّلاوةِ هنا[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أنَّ البِشارةَ قد تُطلَقُ على الإخبارِ بما يَسوءُ[٢]. فالآيةُ حُجَّةٌ في أنَّ البِشارةَ تكونُ في الخيرِ والشَّرِّ[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، على القولِ بأنَّ الخِطابَ في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ عامٌّ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم ولكلِّ مَن يصِحُّ منه الخِطابُ، فنحن نُبَشِّرُ كلَّ كافرٍ بعذابٍ أليمٍ يَنْتَظِرُه، كما قال تعالى: ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾[٤] [السجدة: ٣٠].

٨- قَولُه تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فيه دوامُ نعيمِ المؤمِنينَ العامِلينَ الصَّالحاتِ؛ فقولُه تعالى: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: لا يُقْطَعُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[٥] [مريم: ٦٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ * وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ الفاءُ لتَفريعِ القَسَمِ وجَوابِه على التَّفصيلِ الَّذي

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٩٧).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٤).

في قولِه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق: ٧] إلى هُنا؛ فإنَّه اقتَضى أنَّ ثَمَّةَ حِسابًا وجَزاءً بخَيرٍ وشَرٍّ، فكان هذا التَّفريعُ فَذْلَكةً[١] وحَوصَلةً لِما فُصِّلَ مِن الأحوالِ، وكان أيضًا جَمعًا إجْماليًّا لِما يَعتَرِضُ في ذلك مِن الأهوالِ[٢]. وهذه الفاءُ هي الفاءُ الفَصيحةُ؛ لأنَّها في جَوابِ شَرطٍ مُقدَّمٍ، أي: إذا عرَفْتَ هذا، أو إذا تَحقَّقْتَ الرُّجوعَ بالبَعثِ، فلا أُقسِمُ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۞ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالالْتِزامِ، أو لُزومِ ما لا يَلزَمُ، ومِنهم مَن يُسمِّيه الإعْنات[٤]؛ فالآيةُ قد الْتَزَمَتِ السِّينَ قبْلَ القافِ[٥].

- قولُه: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۞ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ اتِّساقُ القَمَرِ: اجتِماعُ ضِيائِه،

---

(١) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتَّفريعُ عليه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٢٦).

(٤) التزامُ ما لا يَلزَمُ -أو الإعنات-: هو أن يجيءَ قبْلَ حرفِ الرَّويِّ، أو ما في معناهُ مِن الفاصِلةِ، بما ليس بلازِمٍ في التَّقفيةِ، ويُلتزَمُ في بيتَينِ أو أكثَرَ مِن النَّظمِ، أو في فاصلتَينِ أو أكثَرَ مِنَ النَّثرِ، مشروطًا بعدَمِ الكُلفةِ. وهو في القرآنِ كثيرٌ، ومِنه قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۞ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضحى: ٩، ١٠]؛ فقد التُزِم بحرفِ الهاءِ قبْلَ الرَّاءِ. يُنظر: ((البديع)) لابن المعتز (ص: ١٧٥)، ((الإيضاح)) للقزويني (ص: ٣٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٣/ ٤٠٧) و(١٠/ ٤٢٨).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٢٨).

وهو (افْتِعالٌ)، مِن الوَسْقِ بمَعْنى الجَمعِ، وذلك في لَيلةِ البدْرِ، وتَقييدُ القَسَمِ به بتلك الحالةِ؛ لأنَّها مَظهَرُ نِعمةِ اللهِ على النَّاسِ بضِيائِه[١].

- وجُملةُ ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ نُسِجَ نَظمُها نَسجًا مُجمَلًا؛ لتَوفيرِ المَعاني الَّتي تَذهَبُ إليها أفهامُ السَّامِعينَ، فجاءَتْ على أَبدَعِ ما يُنسَجُ عليه الكَلامُ الَّذي يُرسَلُ إرسالَ الأمثالِ مِن الكَلامِ الجامِعِ البَديعِ النَّسْجِ الوافِرِ المَعْنى، وذلك ما جَعَلَ لإيثارِ هذَينِ اللَّفظَينِ في هذه الآيةِ خُصوصيَّةً مِن أَفْنانِ الإعجازِ القُرآنيِّ[٢].

- قولُه: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، أي: لتَركَبُنَّ حالًا بعْدَ حالٍ، وهو تَهديدٌ بأَهوالِ القِيامةِ؛ فتَنوينُ (طَبَق) في المَوضِعَينِ للتَّعظيمِ والتَّهويلِ، و(عن) بمَعْنى: (بعْدَ)، والبَعديَّةُ اعتباريَّةٌ، وهي بَعديَّةُ ارتِقاءٍ، فقيل: المعنى: لَتُلاقُنَّ هَولًا أَعظَمَ مِن هَولٍ. وإطْلاقُ الطَّبَقِ على الحالةِ؛ لأنَّ الحالةَ مُطابِقةٌ لعَمَلِ صاحِبِها[٣]. وقيلَ: لَتَركَبُنَّ مَنزلةً بعْدَ مَنزِلةٍ، على أنَّ طَبَقًا اسمٌ للمَنزِلةِ، أي: لَتَصيرُنَّ مِن طَبَقِ الدُّنيا إلى طَبَقِ الآخِرةِ، أو إنَّ قَومًا كانوا في الدُّنيا مُتَّضِعينَ فارْتَفَعوا في الآخِرةِ؛ فالتَّنوينُ فيهما -﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾- للتَّنويعِ[٤]. وقيلَ: مَن كان على صَلاحٍ دَعاه إلى صَلاحٍ آخَرَ، ومَن كان على فَسادٍ دَعاه إلى فَسادٍ فَوقَه؛ لأنَّ كُلَّ شيءٍ يَجُرُّ إلى شَكلِه، فتَكونُ الجُملةُ اعتِراضًا بالمَوعِظةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وتَكونُ (عن) للمُجاوَزةِ، والتَّنوينُ للتَّعظيمِ[١].

- ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ الرُّكوبُ مُعبَّرًا به عن السَّيرِ، أي: لَتَحضُرُنَّ للحِسابِ جَماعاتٍ بعدَ جَماعاتٍ، وهذا تَهديدٌ لمُنكِريه[٢]. ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ الرُّكوبُ مُستعمَلًا في المُتابَعةِ، أي: لَتَتَّبِعُنَّ، وحُذِفَ مَفعولُ (تَرْكَبُنَّ) بتَقديرِ: لَيَتَّبِعَنَّ بَعضُكم بَعضًا، أي: في تَصميمِكم على إنكارِ البَعثِ، ودَليلُ المَحذوفِ هو قولُه: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، ويَكونَ ﴿طَبَقًا﴾ مَفعولًا به[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الفاءُ) لتَرتيبِ ما بعْدَها مِن الإنكارِ والتَّعجيبِ على ما قبْلَها مِن أحوالِ القِيامةِ وأَهوالِها المُوجِبةِ للإيمانِ والسُّجودِ، أيْ: إذا كان حالُهم يومَ القِيامةِ كما ذُكِرَ -وذلك على قولٍ-، فأيُّ شَيءٍ لهم حالَ كَونِهم غَيرَ مُؤمِنينَ؟! أيْ: أيُّ شيءٍ يَمنَعُهم مِن الإيمانِ مع تَعاضُدِ مُوجِباتِه[٤]؟!

ويَجوزُ أنْ يَكونَ هذا التَّفريعُ ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على ما ذُكِر مِن أحوالِ مَن أُوتيَ كِتابَه وراءَ ظَهرِه، وأُعيدَ عليه ضَميرُ الجَماعةِ؛ لأنَّ المُرادَ بـ (مَن) المُوصولةِ: كُلُّ مَن تَحِقُّ فيه الصِّلةُ، فجَرى الضَّميرُ على مَدلولِ (مَن)، وهو الجَماعةُ، والمَعْنى: فما لَهم لا يَخافون أهْوالَ يَومِ لِقاءِ اللهِ فيُؤمِنوا؟! ويَجوزُ أنْ يَكونَ مُفرَّعًا على قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، أي: إذا تَحقَّقْتَ ذلك، فكيف لا يُؤمِنُ بالبَعثِ الَّذين أَنكَروه؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣).

وجِيءَ بضَميرِ الغَيبةِ؛ لأنَّ المَقصودَ مِن الإنْكارِ والتَّعجيبِ خُصوصُ المُشركينَ مِن الَّذين شَمِلَهم لَفظُ الإنسانِ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾؛ لأنَّ العِنايةَ بمَوعِظتِهم أهَمُّ، فالضَّميرُ الْتِفاتٌ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ تَفريعًا على قولِه: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩]، فيَكونَ مَخصوصًا بالمُشركين باعتِبارِ أنَّهم أهَمُّ في هذه المَواعِظِ، والضَّميرُ أيضًا الْتِفاتٌ. ويَجوزُ تَفريعُه على ما تَضمَّنَه القَسَمُ مِن الأحوالِ المُقسَمِ بها باعتِبارِ تَضمُّنِ القَسَمِ بها أنَّها دَلائلُ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى وتَفرُّدِه بالإلَهيَّةِ، ففي ذِكرِها تَذكِرةٌ بدَلالَتِها على الوَحدانيَّةِ، والالْتِفاتُ هُوَ هُوَ[1].

- وأيضًا الاستِفهامُ ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ مُستَعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن عَدَمِ إيمانِهم، وفي إنْكارِ انتِفاءِ إيمانِهم؛ لأنَّ شَأنَ الشَّيءِ العَجيبِ المُنكَرِ أنْ يُسألَ عنه، وجُملةُ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ؛ والحالُ هي مَناطُ التَّعجيبِ[2].

- ومُتعلَّقُ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ مَحذوفٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: بالبَعثِ والجَزاءِ. ويَجوزُ تَنزيلُ فِعلِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ مَنزِلةَ اللَّازِمِ، أي: لا يَتَّصِفونَ بالإيمانِ، أي: ما سَبَبُ ألَّا يَكونوا مُؤمِنينَ؛ لظُهورِ الدَّلائلِ على انفِرادِ اللهِ تعالى بالإلَهيَّةِ، فكيف يَستَمِرُّون على الإشْراكِ به؟! والمَعْنى: التَّعجيبُ والإنكارُ مِن عدَمِ إيمانِهم مع ظُهورِ دَلائلِ صِدقِ ما دُعُوا إليه، وأُنذِروا به[3].

- قولُه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ﴾ ظَرفٌ قُدِّمَ على عامِلِه ﴿لَا يَسۡجُدُونَ﴾؛ للاهتِمامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣١).

به، والتَّنويهِ بشأنِ القُرآنِ[١].

- على القولِ بأنَّ السُّجودَ مُستعمَلٌ بمَعْنى الخُضوعِ والخُشوعِ، فقيل: المعنى: إذا قُرِئَ عليْهم القُرآنُ لا يَخضَعون للهِ ولِمَعاني القُرآنِ وحُجَّتِه، ولا يُؤمِنون بحَقِّيَّتِه، ودَليلُ هذا المَعْنى مُقابَلتُه بقَولِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾[٢] [الانشقاق: ٢٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ * وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾

- قولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ يَجوزُ أنَّه إضْرابٌ انتِقاليٌّ مِن التَّعجيبِ مِن عدَمِ إيمانِهم وإنْكارِه عليهم، إلى الإخْبارِ عنهم بأنَّهم مُستمِرُّون على الكُفرِ والطَّعْنِ في القُرآنِ، فالكَلامُ ارتِقاءٌ في التَّعجيبِ والإنْكارِ؛ فالإخبارُ عنهم بأنَّهم ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ والإنْكارِ؛ فلذلك عُبِّر عنه بالفِعلِ المُضارِعِ الَّذي يُفيدُ استحضارَ الحالةِ[٣].

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ (بَل) إضْرابًا إبْطاليًّا، أي: لا يوجَدُ ما لِأجْلِه لا يُؤمِنونَ ولا يُصَدِّقون بالقُرآنِ، بلِ الواقِعُ بضِدِّ ذلك؛ فإنَّ بَواعِثَ الإيمانِ مِن الدَّلائِلِ مُتوفِّرةٌ، ودَواعيَ الاعتِرافِ بصِدقِ القُرآنِ والخُضوعِ لدَعوتِه مُتظاهِرةٌ، ولكنَّهم يُكذِّبون، أي: يَستَمِرُّون على التَّكذيبِ عِنادًا وكِبرياءً، ويُومِئُ إلى ذلك قولُه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾. وفي اجتِلابِ الفِعلِ المُضارِعِ دَلالةٌ على حُدوثِ التَّكذيبِ منهم وتَجدُّدِه، أي: بل هم مُستمِرُّون على التَّكذيبِ عِنادًا، وليس ذلك اعتِقادًا، فكما نُفيَ عنهم تَجدُّدُ الإيمانِ وتَجدُّدُ الخُضوعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٣٣).

عندَ قِراءةِ القُرآنِ، أُثبِتَ لهم تَجدُّدُ التَّكذيبِ[١].

- وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ؛ لأنَّ مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (بل هم يُكذِّبون)؛ فعُدِلَ إلى المَوصولِ والصِّلةِ؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن ذَمِّهم بالكُفرِ؛ للإيماءِ إلى عِلَّةِ الخَبَرِ، أي: إنَّهم استَمَرُّوا على التَّكذيبِ لتَأصُّلِ الكُفرِ فيهم، وكَونِهم يُنعَتونَ به[٢]. وأيضًا وضَعَ الظَّاهرَ موضعَ المُضمَرِ؛ تعميمًا[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾، وقال في سُورةِ (البُروجِ): ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾ [البروج: ١٩]؛ فاختُصَّ الأوَّلُ بقولِه: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ بلَفظِ المضارِعِ، والثَّاني بقولِه: ﴿فِي تَكۡذِيبٖ﴾ بلَفظِ المصدَرِ، مع اتِّحادِ المعْنى المقصودِ؛ وذلك لوَجهينِ؛ الأوَّلُ: أنَّ آيةَ الانشقاقِ تَقدَّمَها وَعيدٌ أُخرويٌّ كلُّه لم يَقَعْ بعدُ، وهم مُكذِّبون بجَميعِه، فجِيءَ هنا باللَّفظِ المَقولِ على الاستِقبالِ -وإنْ كان يَصلُحُ للحالِ- ليُطابِقَ الإخبارَ؛ لأنَّه عمَّا يأْتي ولم يقَعْ بعْدُ؛ فجِيءَ بما يُطابِقُه في استقبالِه. أمَّا آيةُ (البُروجِ) فقدْ تَقدَّمَها قولُه تعالَى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۝ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ [البروج: ١٧، ١٨]، وحديثُ هؤلاء وأَخْذُهم بتَكذيبِهم قد تَقدَّمَ ومَضى زَمانُه، وهؤلاء مُستَمِرُّون على تَكذيبِهم، فقِيل: ﴿فِي تَكۡذِيبٖ﴾، وجِيءَ بالمصدرِ؛ ليُحرِزَ تَماديَهم، وأنَّ ذلك شَأنُهم أبدًا فيما أخبَرَهم به، وفيما يَدْعوهم إليه ويَنْهاهم عنه، ولَفظُ المصدَرِ أعْطى لِما قُصِدَ مِن هذا مِن لَفظِ المضارِعِ؛ فجِيءَ في كلٍّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٩).

مِن الآيتَينِ بما يُناسِبُ[١]. الثَّاني: أنَّه مُراعاةٌ لفَواصلِ الآيِ، مع صِحَّةِ اللَّفظِ، وجَودةِ المعنى[٢].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢]، وجُملةِ ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤]، وهو كِنايةٌ عن الإنْذارِ والتَّهديدِ بأنَّ اللهَ يُجازيهم بسُوءِ طَويَّتِهم[٣].

- ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ معنَى الإيعاءِ: جعْلُ الشَّيءِ وِعاءً، والوِعاءُ: الظَّرفُ؛ لأنَّه يُجمَعُ فيه، ثمَّ شاع إطلاقُه على جمْعِ الأشياءِ لئلَّا تَفوتَ؛ فصار مُشعِرًا بالتَّقتيرِ، واستُعمِل في هذه الآيةِ في الإخفاءِ؛ لأنَّ الإيعاءَ يَستلزِمُ الإخفاءَ[٤]. وعِلمُ اللهِ تعالَى بذلك وبكلِّ شيءٍ أمرٌ ثابتٌ، وهو كِنايةٌ عن مُجازاتِه سُبحانَه عليه. وقيل: المرادُ الإشارةُ إلى أنَّ لهم وراءَ التَّكذيبِ قبائحَ عظيمةً كثيرةً يَضيقُ عن شرحِها نِطاقُ العِبارةِ. وقيل: يَحتمِلُ أن يَكونَ المعنَى: واللهُ تعالَى أعلَمُ بما يُضمِرونَه في أنفُسِهم مِن أدِلَّةِ كَونِه -أي: القرآنِ- حقًّا؛ فيكونَ المرادُ المُبالَغةَ في عِنادِهم وتكذيبِهم على خِلافِ عِلمِهم[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩٢).

- قولُه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢]، وعلى القولِ بأنَّ التَّبشيرَ هو الإخْبارُ بِما يَسُرُّ ويَنفَعُ ففِعلُ (بَشِّرْهُمْ) مُعبَّرٌ به عن الإنْذارِ والوَعيدِ على طَريقةِ التَّهكُّمِ، فلمَّا عُلِّقَ بالفِعلِ (عَذابٌ أَليمٌ) -في قولِه: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾- كانتْ قَرينةُ التَّهكُّمِ كَنارٍ على عَلَمٍ[1].

- قولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ الاستِثناءُ مُتَّصلًا؛ إمَّا على أنَّه استِثناءٌ مِن الضَّميرِ في قولِه: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩] جَريًا على تَأويلِه برُكوبِ طِباقِ الشَّدائدِ والأهْوالِ يَومَ القِيامةِ وما هو في معنى ذلك مِن التَّهديدِ، وإمَّا على أنَّه استِثناءٌ مِن ضَميرِ الجَمعِ في ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ [الانشقاق: ٢٤]، والمَعنى: إلَّا الذين يُؤمِنون مِن الَّذين هُم مُشرِكون الآنَ، وفِعلُ ﴿ءَامَنُواْ﴾ على هذا الوَجْهِ مُرادٌ به المُستقبَلُ، وعُبِّرَ عنه بالماضي؛ للتَّنبيهِ على مَعْنى: مَن تَحقَّقَ إيمانُهم، وما بيْنَهما مِن قولِه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠] إلى هُنا تَفريعٌ مُعترِضٌ بيْنَ المُستَثنى والمُستَثنى منه، خُصَّ به الأهَمُّ ممَّن شَمِلَهم عُمومُ ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩]. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الاستِثناءُ استِثناءً مُنقَطِعًا مِن ضَميرِ ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ [الانشقاق: ٢٤]، فهو داخِلٌ في التَّبشيرِ المُستعمَلِ في التَّهكُّمِ -على قولٍ-؛ زِيادةً في إدْخالِ الحَزَنِ عليهم؛ فحرفُ (إلَّا) بمَنزِلةِ (لكنْ)، والاستِدراكُ فيه لمُجرَّدِ المُضادَّةِ، لا لدَفْعِ تَوهُّمِ إرادةِ ضِدِّ ذلك، ومِثلُ ذلك كَثيرٌ في الاستِدراكِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٣٤، ٢٣٥).

- وقولُه: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِما أَفادَه الاستِثناءُ مِن انتِفاءِ العَذابِ عنهم، ومُبيِّنٌ لكَيفيَّتِه ومُقارَنتِه للثَّوابِ العَظيمِ[1]، وهو استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ كأنَّ سائِلًا سأَلَ: كيف حالُهم يَومَ يَكونُ أولئك في عَذابٍ أَليمٍ[2]؟

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الثَّاني والأربعونَ

ويليه المجلدُ الثَّالثُ والأربعونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ البُرُوجِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٥).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سُورةُ النَّبَأِ

أسماءُ السُّورةِ: ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٧
الآيات (١-٥) ٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٩
المعنى الإجماليُّ: ٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٤
بلاغةُ الآياتِ: ١٤
الآيات (٦-١٦) ٢١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢١
المعنى الإجماليُّ: ٢٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣١
بلاغةُ الآياتِ: ٣٦
الآيات (١٧-٢٠) ٤٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٧
المعنى الإجماليُّ: ٤٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥١
بلاغةُ الآياتِ: ٥٣
الآيات (٢١-٣٠) ٥٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦٠
المعنى الإجماليُّ: ٦١
تَفسيرُ الآياتِ: ٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٠
بلاغةُ الآياتِ: ٧٣
الآيات (٣١-٣٦) ٨٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٨٥
مُشكِلُ الإعرابِ: ٨٧
المعنى الإجماليُّ: ٨٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٩٣
بلاغةُ الآياتِ: ٩٣
الآيات (٣٧-٤٠) ٩٨

غَريبُ الكَلِماتِ: ٩٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ٩٨
المعنى الإجماليُّ: ٩٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٩٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٠٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٠٨
بلاغةُ الآياتِ: ١١٠

سُورةُ النَّازِعاتِ

أسماءُ السُّورةِ: ١٢١
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ١٢١
مَقاصِدُ السُّورةِ: ١٢١
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ١٢١
الآيات (١-١٤) ١٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٢٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٢٦
المعنى الإجماليُّ: ١٢٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٢٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٣٧
بلاغةُ الآياتِ: ١٣٩
الآيات (١٥-٢٦) ١٥١
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٥١
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٥٢
المعنى الإجماليُّ: ١٥٣
تَفسيرُ الآياتِ: ١٥٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٦٣
بلاغةُ الآياتِ: ١٦٦
الآيات (٢٧-٣٣) ١٧٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٧٤
المعنى الإجماليُّ: ١٧٥
تَفسيرُ الآياتِ: ١٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٨١
بلاغةُ الآياتِ: ١٨٤
الآيات (٣٤-٤١) ١٩٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٩٢
المعنى الإجماليُّ: ١٩٣
تَفسيرُ الآياتِ: ١٩٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٩٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٩٩
بلاغةُ الآياتِ: ٢٠٠
الآيات (٤٢-٤٦) ٢٠٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٠٧
المعنى الإجماليُّ: ٢٠٧

تَفسيرُ الآياتِ: ٢٠٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢١٢
بلاغةُ الآياتِ: ٢١٤

سُورةُ عَبَسَ

أسماءُ السُّورةِ: ٢٢٣
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٢٢٣
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٢٢٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٢٢٣
الآيات (١-١٦) ٢٢٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٢٥
المعنى الإجماليُّ: ٢٢٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٢٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٣٧
بلاغةُ الآياتِ: ٢٤٠
الآيات (١٧-٣٢) ٢٥١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٥١
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٥٢
المعنى الإجماليُّ: ٢٥٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٥٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٦٤
بلاغةُ الآياتِ: ٢٦٧
الآيات (٣٣-٤٢) ٢٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٧٩
المعنى الإجماليُّ: ٢٨٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٨٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٨٥
بلاغةُ الآياتِ: ٢٨٦

سُورةُ التَّكويرِ

أسماءُ السُّورةِ: ٢٩٥
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ٢٩٥
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٢٩٥
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٢٩٦
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٢٩٦
الآيات (١-١٤) ٢٩٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٩٧
المعنى الإجماليُّ: ٢٩٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٩٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٠٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٠٩
بلاغةُ الآياتِ: ٣١٤
الآيات (١٥-٢٩) ٣٢١

غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٢١
المعنى الإجماليُّ: ٣٢٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٢٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٤٠
بلاغةُ الآياتِ: ٣٥٠

سورةُ الانفِطارِ

أسماءُ السُّورةِ: ٣٦٣
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ٣٦٤
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٣٦٤
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٣٦٤
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٣٦٤
الآيات (١-٥) ٣٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٦٦
المعنى الإجماليُّ: ٣٦٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٧١
بلاغةُ الآياتِ: ٣٧٢
الآيات (٦-١٢) ٣٧٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٧٥
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٧٦
المعنى الإجماليُّ: ٣٧٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٧٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٨٥
بلاغةُ الآياتِ: ٣٨٩
الآيات (١٣-١٩) ٣٩٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٩٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٩٩
المعنى الإجماليُّ: ٣٩٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٤٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٠٥
بلاغةُ الآياتِ: ٤٠٩

سُورةُ المُطَفِّفينَ

أسماءُ السُّورةِ: ٤١٧
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٤١٧
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٤١٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٤١٨
الآيات (١-٦) ٤١٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤١٩
المعنى الإجماليُّ: ٤٢٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٢٠

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٤٢٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٢٨
بلاغةُ الآياتِ: ٤٣٠
الآيات (٧-١٧) ٤٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٣٦
المعنى الإجماليُّ: ٤٣٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٣٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٤٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٤٨
بلاغةُ الآياتِ: ٤٥٢
الآيات (١٨-٢٨) ٤٦٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٦٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٦٢
المعنى الإجماليُّ: ٤٦٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٦٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٤٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٧٤
بلاغةُ الآياتِ: ٤٧٨
الآيات (٢٩-٣٦) ٤٨٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٨٥
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٨٦
المعنى الإجماليُّ: ٤٨٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٨٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٤٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٩٤
بلاغةُ الآياتِ: ٤٩٥

سورةُ الانشِقاقِ

أسماءُ السُّورةِ: ٥٠٥
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ٥٠٦
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٥٠٦
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٥٠٦
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٥٠٧
الآيات (١-٦) ٥٠٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٠٨
المعنى الإجماليُّ: ٥٠٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٠٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٥١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥١٥
بلاغةُ الآياتِ: ٥١٦
الآيات (٧-١٥) ٥٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٢٠
المعنى الإجماليُّ: ٥٢٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥٢٥

بلاغةُ الآياتِ: ٥٢٨
الآيات (١٦-٢٥) ٥٣٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٣٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ٥٣٣
المعنى الإجماليُّ: ٥٣٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥٤٠
بلاغةُ الآياتِ: ٥٤٢
الفهرس ٥٥٣

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

من سورة البروج إلى سورة التين

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثالث والأربعون

الدرر السنية
www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة البروج إلى سورة التين)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٤ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثالث والأربعون - القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ الظهران، ١٤٤٤ هـ

ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٣-١٥-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- التفسير الحديث أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٤/٣٥٣

رقم الإيداع: ١٤٤٤/٣٥٣

ردمك: ٣-١٥-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة البروج إلى سورة التين)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثالث والأربعون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ البُرُوجِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ البُرُوجِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسورةِ (البُروجِ)[١].

وسُمِّيتْ أيضًا بـ (السَّماءِ ذاتِ البُرُوجِ)؛ فعن جابرِ بنِ سَمُرةَ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في الظُّهرِ والعصرِ بـ «السَّماءِ والطَّارقِ»، و«السَّماءِ ذاتِ البُرُوجِ» ونَحْوِهما مِنَ السُّوَرِ))[٢].

فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرأُ بها في الظُّهرِ والعَصرِ:

كما في حديثِ جابرِ بنِ سَمُرةَ رضيَ الله عنه المتقدِّمِ.

بيانُ المكِّيِّ والمدَنيِّ:

سورةُ البُروجِ مكِّيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٣].

---

(١) وجْهُ التَّسميةِ ذِكرُ لَفظِ البُروجِ في أوَّلِها، في قولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥١٠).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٨٠٥)، وأحمدُ (٢١٠١٨) واللَّفظُ لهما، والترمذيُّ (٣٠٧)، والنسائيُّ (٩٧٩) باختلافٍ يسيرٍ.

قال الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٨٠٥): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (١٨٢٧)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٣٩).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٣)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٧٥).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه عمَّا أصابَهم مِن أعدائِهم، وتثبيتُ المؤمنينَ على الحقِّ[1].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- افتِتاحُ السُّورةِ بقَسَمِ الله تعالى ببَعضِ مَخلوقاتِه.

٢- ذِكرُ خبرِ أصحابِ الأُخْدودِ.

٣- وعيدُ الطُّغاةِ الَّذين يَفْتِنونَ المؤمنينَ بعذابِ جهنَّمَ.

٤- البِشارةُ بنَعيمِ الجنَّةِ الَّذي يَنتظِرُ المؤمنينَ.

٥- التَّلويحُ ببَطشِ الله الشَّديدِ، وذِكرُ بعضِ صِفاتِه تعالى.

٦- ضربُ المثَلِ بقَومِ فِرعونَ وبثَمودَ، وكيفَ كانت عاقِبةُ أمرِهم.

٧- التَّنويهُ بشأنِ القرآنِ المَجيدِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٥)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٤١).

الآيات (١-٩)

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡبُرُوجِ﴾: أي: النُّجوم؛ لأنَّها تتبَرَّجُ، أي: تظهَرُ، أو مَنازِلِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وهي اثنا عَشَرَ بُرجًا، وسُمِّيت بالبُروجِ؛ لأنَّها بالنِّسبةِ لهذه الكواكِبِ كالمنازِلِ لساكِنيها، وأصلُ (برج): البُروزُ والظُّهورُ، وأيضًا الملجأُ[١].

﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾: أي: الشَّقِّ العَظيمِ في الأرضِ يُحفَرُ مُستطيلًا، وأصلُ (خدد): يدُلُّ على امتدادٍ إلى السُّفلِ[٢].

﴿ٱلۡوَقُودِ﴾: أي: الحَطَبِ المَجعولِ للاتِّقادِ، وأصلُ (وقد): يدُلُّ على اشتِعالِ النَّارِ[٣].

﴿نَقَمُواْ﴾: أي: كَرِهُوا وأنكَروا وعابُوا، وأصلُ (نقم): يدُلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيْبِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٩)، =

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: أي: الَّذي اتَّصَف بالعِزَّة التَّامَّة: عِزَّةِ القَدْرِ -فهو عظيمُ القَدْرِ، لا يَبلُغُ أحدٌ قَدْرَه، فلا مِثلَ له، ولا نَظيرَ-، وعِزَّةِ القَهْرِ -فهو قاهرٌ غالبٌ لا يَغلِبُه شَيءٌ-، وعِزَّةِ الامتِناعِ، فهو مُمْتَنِعٌ عليه النَّقصُ بأيِّ وجْهٍ مِنَ الوُجوهِ، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ وما ضاهاهما مِن غَلَبةٍ وقَهْرٍ[1].

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٢٣٩)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٦).

قال الخَطَّابيُّ: (والعِزُّ في كلامِ العَرَبِ على ثلاثةِ أوْجُهٍ:

أحَدُها: بمعنَى الغَلَبةِ، ومنه قولُهم: مَنْ عزَّ بزَّ، أي: مَنْ غَلَب سَلَبَ...

والثَّاني: بمعنَى الشِّدَّةِ والقوَّةِ...

والوجهُ الثَّالثُ: أنْ يكونَ بمعنَى نَفاسةِ القَدْرِ... فيتأوَّلُ معنى العزيزِ على هذا؛ أنَّه الَّذي لا يُعادِلُه شَيءٌ، وأنَّه لا مِثلَ له ولا نَظيرَ). ((شأن الدعاء)) (ص: ٤٧، ٤٨).

وقال الزَّجَّاجي: (العزيزُ في كلامِ العربِ على أربعةِ أوجُهٍ:

العزيزُ: الغالبُ القاهرُ، والعِزَّةُ: الغَلَبَةُ، والمُعازَّةُ: المُغالَبَةُ، ومنه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، أي: غلَبَني في مُحاوَرةِ الكلامِ...

والعزيزُ: الجليلُ الشَّريفُ، ومنه قولُهم: إذا عَزَّ أخوكَ فهُنْ، وقولُهم: فُلانٌ يَعتَزُّ بفُلانٍ، أي: يَتجالَلُ به ويَتشرَّفُ ويَتكبَّرُ. وكذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، أي: لَيُخرِجَنَّ الجليلُ الشَّريفُ منها الذَّليلَ...

والوجهُ الثَّالثُ: أن يكونَ العزيزُ بمعنى القويِّ...

والوجهُ الرَّابعُ: أن يكونَ العزيزُ بمعنى الشَّيءِ القليلِ الوُجودِ، المُنقطِعِ النَّظيرِ، يُقالُ: عزَّ الشَّيءُ عِزَّةً فهو عزيزٌ؛ غيرُ موجودٍ.

فهذه أربعةُ أوجُهٍ في العزيزِ، يجوزُ وصْفُ الله عزَّ وجلَّ بها؛ يُقالُ: «اللهُ العزيزُ» بمعنى الغالِبِ =

﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾: أي: المحمودِ على كلِّ حالٍ، وفي جميعِ أفعالِه وأقوالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والمحمودِ على ما لَه مِن الكَمالِ، وعلى نِعَمِه الَّتي أنْعَمها على خَلْقِه، المُستحِقِّ لكلِّ حمْدٍ، والحمدُ إخبارٌ عن مَحاسنِ المحمودِ معَ حُبِّه وإجلالِه وتَعظيمِه، وقيل: هو أيضًا بمعنى حامِدٍ، يَحمَدُ كُلَّ مَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه، وأصلُ (حمد): يدُلُّ على خِلافِ الذَّمِّ[1].

﴿شَهِيدٌ﴾: أي: شاهِدٌ، حاضرٌ، مُطَّلِعٌ، فلا يَغيبُ عنه شَيءٌ، يَسمَعُ جميعَ الأصواتِ خَفِيِّها وجَلِيِّها، ويُبصِرُ جميعَ الموجوداتِ دقيقِها وجَليلِها، صغيرِها وكبيرِها، قد أحاط عِلْمُه بكلِّ شَيءٍ، ويَشهَدُ لعِبادِه وعلى عِبادِه بما عَمِلوه، وأصلُ (شهد): يدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ[2].

= القاهِرِ، و«اللهُ العزيزُ» أي: هو الجليلُ العظيمُ، و«اللهُ العزيزُ» بمعنى القويِّ... و«اللهُ العزيزُ» أي: هو غيرُ مَوجودِ النَّظيرِ والمِثلِ جلَّ وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا). ((اشتقاق أسماء الله)) (ص: ٢٣٧).

وقال ابن القيِّم: (والعِزَّةُ يُرادُ بها ثلاثةُ مَعانٍ: عزَّةُ القوَّةِ، وعزَّةُ الامتِناعِ، وعزَّةُ القهرِ، والرَّبُّ تبارك وتعالى له العزَّةُ التَّامَّةُ بالاعتِباراتِ الثَّلاثِ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨، ٧٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٥٣)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ١٣٢)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٩).

قال ابن الأثير: («فَعِيلٌ» مِن أبنيةِ المُبالَغةِ في «فاعِلٍ»، فإذا اعْتُبِرَ العِلمُ مُطْلَقًا فهو العَليمُ، وإذا أُضيفَ إلى الأُمورِ الباطِنةِ فهو الخَبيرُ، وإذا أُضيفَ إلى الأُمورِ الظَّاهِرةِ فهو الشَّهيدُ، وقد يُعتبَرُ =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۞ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۞ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۞ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۞ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾

قَولُه تعالى: ﴿قُتِلَ﴾: قيل: هو جوابُ القَسَمِ على حَذفِ اللَّامِ منه للطُّولِ، والأصلُ «لَقُتِلَ». وقيل: على حَذفِ اللَّامِ و(قد)، والأصلُ «لَقَدْ قُتِلَ»، وعلى هذا فقَولُه: ﴿قُتِلَ﴾ خبرٌ لا دُعاءٌ عليهم. وقيل: بل هو دُعاءٌ عليهم، فلا يكونُ جوابًا. وعلى هذا فجُملةُ ﴿قُتِلَ﴾ دُعائيَّةٌ دالَّةٌ على الجَوابِ المحذوفِ، كأنَّه قيل: أُقسِمُ بهذه الأشياءِ إنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ لَمَلعونونَ أحِقَّاءُ بأن يُقالَ فيهم: قُتِلوا، كما هو شأنُ أصحابِ الأُخدودِ. وقيل: الجوابُ مَذكورٌ، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ [البروج: ١٠]، أو هو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

- قَولُه تعالى: ﴿ٱلنَّارِ﴾: مجرورٌ، بَدَلُ اشتِمالٍ[1] مِن ﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾؛ لأنَّ الأخدودَ مُشتَمِلٌ عليها، والرَّابِطُ مُقَدَّرٌ، تقديرُه: «النَّارِ فيه»، أو أُقيمَت «أل» في ﴿ٱلنَّارِ﴾ مُقامَ الضَّميرِ، تقديرُه: ناره، ثمَّ حُذِفَ الضَّميرُ، وعُوِّضَ عنه «أل». وقيل: بَدَلُ كُلٍّ مِنْ كُلٍّ، على نِيَّةِ حَذْفِ مُضافٍ، تقديرُه: أُخدودِ النَّارِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالقَسَمِ بالسَّماءِ ذاتِ النُّجومِ العَظيمةِ الَّتي هي بمنزلةِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما، وبيَومِ القيامةِ الموعودِ،

= مع هذا أن يَشهَدَ على الخَلْقِ يَومَ القيامةِ بما عَلِم). ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) (٢/ ٥١٣).

(١) سيأتي تعريفُه (ص: ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٨٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٤٣-٧٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩٧-٢٩٩).

وبكلِّ شاهِدٍ وكلِّ مَشهودٍ؛ ثمَّ قال سبحانَه: أُهْلِكَ ولُعِنَ الكَفَرةُ الَّذين شَقُّوا في الأرضِ خَنْدَقًا كَبيرًا متأجِّجًا بالنَّارِ العَظيمةِ الاشتِعالِ، لُعِنوا حينَ كانوا قاعِدينَ على جوانِبِ الأُخدودِ وهم يُشاهِدونَ المؤمِنينَ يَحتَرِقونَ فيه!

ثمَّ بيَّن سُبحانَه ما حمَلَهم على فِعلِ ما فعَلوا، فقال: وما أنكَرَ الكُفَّارُ وكَرِهوا مِن المؤمِنينَ والمُؤمِناتِ إلَّا إيمانَهم باللهِ الغالِبِ الَّذي لا يُغلَبُ، المحمودِ على جميعِ صِفاتِه وأفعالِه، الَّذي يَملِكُ وَحْدَه السَّمَواتِ والأرضَ وما فيهِنَّ مِنَ الخلائِقِ، واللهُ مُطَّلِعٌ على كُلِّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالسَّماءِ ذاتِ النُّجومِ العَظيمةِ الَّتي هي بمنزلةِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٦٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالبروجِ: منازلُ الشَّمسِ والقَمرِ، وهي البروجُ الاثنا عشرَ: ابنُ جرير، والزَّمخشري، والرَّسْعني، والنَّسفي، وابنُ جُزَي، والخازنُ، وجلال الدِّينِ المحلي، والعُلَيمي، ونسَبه ابنُ عطيَّةَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٠).

وهذه البروج هي: الحَمَلُ والثَّورُ والجَوْزاءُ والسَّرطانُ والأسدُ والسُّنبُلةُ والمِيزانُ والعَقْربُ والقَوسُ والجَدْيُ والدَّلْوُ والحُوتُ، فثلاثةٌ منها للرَّبيعِ، وثلاثةٌ للصَّيفِ، وثلاثةٌ للخريفِ، وثلاثةٌ للشِّتاءِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ١٢٤).

قال ابنُ جرير: (هي اثنا عَشَرَ بُرْجًا، فمَسيرُ القَمَرِ في كُلِّ بُرجٍ منها يَومانِ وثُلُثٌ، فذلك ثمانيةٌ =

كما قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان: ٦١].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الحجر: ١٦].

﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ ﴾.

أي: وأُقسِمُ بيَومِ القيامةِ الَّذي وَعَد اللهُ تعالى عِبادَه بمَجيئِه والقَضاءِ فيه بيْنَهم، فيَبعَثُهم ويُحاسِبُهم ويُجازيهم فيه على أعمالِهم[(١)].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٤].

= وعِشرونَ منزلًا، ثمَّ يَسْتَسِرُّ لَيلتَينِ، ومَسيرُ الشَّمسِ في كُلِّ بُرجٍ منها شَهرٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٦٢).

وقال ابنُ عاشور: (البُرجُ السَّماويُّ يتألَّفُ مِن مجموعةِ نُجوم قَريبٍ بَعضُها مِن بعضٍ، لا تختَلِفُ أبعادُها أبدًا، وإنَّما سُمِّيَ بُرجًا؛ لأنَّ المُصطَلِحينَ تخَيَّلوا أنَّ الشَّمسَ تحُلُّ فيه مدَّةً... ولَمَّا وَجَدوا كلَّ مجموعةٍ منها يُخالُ منها شَكلٌ لو أُحيطَ بإطارٍ لِخَطٍّ مفروضٍ لَأَشْبَهَ مُحيطُها مُحيطَ صُورةٍ تخيُّليَّةٍ لبعضِ الذَّواتِ مِن حَيوانٍ أو نباتٍ أو آلاتٍ؛ مَيَّزوا بعضَ تلك البُروجِ مِن بعضٍ بإضافتِه إلى اسمِ ما تُشبِهُه تلك الصُّورةُ تقريبًا... وهذه البُروجُ هي في التَّحقيقِ: سُمُوتٌ تُقابِلُها الشَّمسُ في فَلَكِها مُدَّةَ شَهرٍ كاملٍ مِن أشهُرِ السَّنةِ الشَّمسيَّةِ، يُوَقِّتونَ بها الأشهُرَ والفُصولَ بمَوقِعِ الشَّمسِ نهارًا في المكانِ الَّذي تطلُعُ فيه نجومُ تلك البُروجِ ليلًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٨).

وقيل: المرادُ بالبروجِ: النُّجومُ، وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسَّمعاني، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٣). وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٥).

حكى الواحديُّ وابنُ عطيَّةَ اتِّفاقَ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ بـ (الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ): يومُ القيامةِ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٠).

﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الجَمْعُ مِن أجْلِ العَرْضِ، وكان العَرْضُ لا بُدَّ فيه مِن شُهودٍ ومَشهودٍ عليهم وجدالٍ على عُهودٍ؛ قال[1]:

﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ ﴾.

أي: وأُقسِمُ بكلِّ شاهِدٍ وكلِّ مَشهودٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٨، ٢٣٩).

اختَلَف المفَسِّرون في معنى الشَّاهِدِ والمشهودِ اختِلافًا كبيرًا، والأكثَرونَ على أنَّ الشَّاهِدَ: هو يومُ الجُمُعةِ، والمشهودَ: هو يومُ عَرَفةَ. وممَّن نسَبَه إلى الجُمهورِ: الواحديُّ، ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٦٢).

قال الرَّسْعَني: (وإلى هذا القَولِ ذَهَب عليٌّ، وابنُ عبَّاسٍ في بعضِ الرِّواياتِ عنه، وهو قَولُ أكثَرِ المفَسِّرينَ. قال بعضُهم: سُمِّيَ يومُ الجُمُعةِ شاهِدًا؛ لأنَّه يَشهَدُ على كُلِّ عامِلٍ بما عَمِلَ فيه، وسُمِّيَ يومُ عرفةَ مَشهودًا؛ لأنَّ النَّاسَ يَشهَدونَ فيه [مَوسِمَ] الحَجِّ، وتَشهَدُه الملائكةُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٦٢).

وقيل: الشَّاهِدُ: هم الخلائِقُ، والمشهودُ: هو ما في يومِ القيامةِ مِنَ العَجائبِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: الزمخشريُّ، والنَّسَفيُّ، وأبو السعودِ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩٩).

وقيل: الشَّاهِدُ: هو اللهُ تعالى، والمشهودُ: هم المَعرُوضونَ للحِسابِ يومَ القيامةِ. وقد جَوَّز هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٩).

قال ابن عثيمين: (ذكَرَ عُلَماءُ التَّفسيرِ في الشَّاهِدِ والمشهودِ عِدَّةَ أقوالٍ يَجمَعُها أنَّ اللهَ أقسَمَ بكلِّ شاهِدٍ وبكُلِّ مَشهودٍ، والشُّهودُ كثيرونَ؛ منهم محمَّدٌ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ شهيدٌ علينا، كما قال الله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، ومنهم =

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾.

أي: أُهْلِكَ ولُعِنَ أولئك الكَفَرةُ الَّذين شَقُّوا في الأرضِ خَنْدَقًا كَبيرًا[1].

= هذه الأمَّةُ شُهَداءُ على النَّاسِ ﴿وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وأعضاءُ الإنسانِ يومَ القيامةِ تَشهَدُ عليه بما عَمِلَ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، ومنهم الملائكةُ يَشهَدونَ يومَ القيامةِ، فكُلُّ مَن شَهِد بحَقٍّ فهو داخِلٌ في قَولِه: ﴿وَشَاهِدٍ﴾. وأمَّا المشهودُ فهو يومُ القيامةِ وما يَعرِضُ فيه مِن الأهوالِ العظيمةِ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، فأقسَمَ اللهُ بكُلِّ شاهدٍ وبكُلِّ مَشهودٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٥).

وقال ابنُ القيِّم: (أقسَمَ سُبحانَه بالشَّاهِدِ والمَشهودِ مُطلَقَينِ غَيرَ مُعيَّنَينِ، وأعَمُّ المعاني فيه أنَّه المُدْرِكُ والمُدْرَكُ، والعالِمُ والمعلومُ، والرَّائي والمَرْئيُّ، وهذا أَلْيَقُ المعاني به، وما عَداه مِن الأقوالِ ذُكِرَت على وَجهِ التَّمثيلِ، لا على وَجْهِ التَّخصيصِ). (التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٨٩).

وقال السعدي: (﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ وشمِل هذا كلَّ مَن اتَّصَف بهذا الوصفِ، أي: مُبصِرٍ ومُبصَرٍ، وحاضرٍ ومَحضورٍ، وراءٍ ومَرئيٍّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٣-٤٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٠، ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٥).

قال ابن كثير: (هذا خَبَرٌ عن قَومٍ مِن الكفَّارِ عَمَدوا إلى مَن عِندَهم مِن المؤمِنينَ بالله عزَّ وجَلَّ، فقَهَروهم وأرَادوهم أنْ يَرْجِعوا عن دِينِهم، فأبَوْا عليهم، فحَفَروا لهم في الأرضِ أُخْدُودًا وأجَّجوا فيه نارًا، وأعَدُّوا لها وَقُودًا يُسَعِّرونَها به، ثُمَّ أرادوهم فلم يَقْبَلوا منهم، فَقَذَفوهم فيها). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦).

ويُنظر للخِلافِ في أهلِ هذه القِصَّةِ، مَن هم، وأين كانوا: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦).

وقد اختَلَف المفسِّرونَ في جوابِ القَسَمِ؛ فقيل هو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]. ومِمَّن ذهب إليه: المُبَرِّدُ، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِين. يُنظر: ((المقتضب)) للمُبَرِّد =

عن صُهَيبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كان مَلِكٌ فيمَنْ كان قَبْلَكم، وكان له ساحِرٌ، فلمَّا كَبِرَ قال للمَلِكِ: إنِّي قد كَبِرْتُ، فابعَثْ إلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْه السِّحرَ، فبَعَث إليه غُلامًا يعَلِّمُه، فكان في طريقِه إذا سلَكَ راهِبٌ، فقَعَد إليه وسَمِعَ كلامَه، فأعجَبَه، فكان إذا أتى السَّاحِرَ مَرَّ بالرَّاهِبِ وقَعَد إليه، فإذا أتَى السَّاحِرَ ضَرَبه، فشكا ذلك إلى الرَّاهِبِ، فقال: إذا خَشِيتَ السَّاحِرَ فقُلْ: حَبَسَني أهلي، وإذا خَشِيتَ أهْلَك فقُلْ: حَبَسَني السَّاحِرُ، فبَيْنَما هو كذلك إذ أتَى على دابَّةٍ عظيمةٍ قد حَبَسَتِ النَّاسَ، فقال: اليَومَ أعلَمُ آلسَّاحِرُ أفضَلُ أمِ

= (٢/ ٣٣٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١١٥).

ونسَبَ السَّمعانيُّ هذا القولَ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٠).

وقيل: هو قولُه تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤]. ومِمَّن ذهب إليه: الأخفَشُ، والخازنُ، وأبو حيَّان، والسَّمينُ الحلبيُّ، والشَّوكانيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٧٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٥).

وذهب ابنُ الأنباريِّ ومكِّيٌّ والزمخشريُّ إلى أنَّ جوابَ القَسَمِ محذوفٌ، وقيل إنَّ تقديرَه: لَتُبْعَثُنَّ، وذهب الزمخشريُّ وتبعه البيضاويُّ والعُلَيميُّ إلى أنَّ تقديرَه: إنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ مَلْعونونَ كما لُعِن أصحابُ الأخدودِ. يُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) لابن الأنباري (٢/ ٩٧٢، ٩٧٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٦).

وقال ابنُ القَيِّم: (الأحسَنُ أن يكونَ هذا القَسَمُ مُستغنيًا عن الجوابِ؛ لأنَّ القِصَّةَ للتَّنبيهِ على المقسَمِ به، وأنَّه مِن آياتِ الرَّبِّ العظيمةِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٩١).

وقال الواحديُّ: (و﴿قُتِلَ﴾ معناه: لُعِنَ. في قَولِ جميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (٢٣/ ٣٨٤).

وقال أيضًا: (قال ابنُ الأنباريِّ: والقَتلُ إذا أُخبِرَ عن اللهِ به كان بمعنى اللَّعنةِ؛ لأنَّ مَن لَعَنَه اللهُ كان بمنزلةِ المقتولِ الهالكِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٧٤).

الرَّاهِبُ أفضَلُ؟ فأخَذ حَجَرًا، فقال: اللَّهُمَّ إن كان أمرُ الرَّاهبِ أحَبَّ إليك مِن أمرِ السَّاحِرِ فاقتُلْ هذه الدَّابَّةَ؛ حتَّى يَمضِيَ النَّاسُ، فرماها فقَتَلها، ومضى النَّاسُ، فأتَى الرَّاهِبَ فأخبَرَه، فقال له الرَّاهِبُ: أيْ بُنَيَّ، أنت اليَومَ أفضَلُ مِنِّي، قد بلَغ مِن أمْرِك ما أرَى! وإنَّك ستُبتلَى، فإنِ ابتُلِيتَ فلا تَدُلَّ علَيَّ، وكان الغُلامُ يُبرِئُ الأكْمَهَ[1] والأبْرَصَ، ويُداوي النَّاسَ مِن سائرِ الأدواءِ، فسَمِعَ جَليسٌ للمَلِكِ كان قد عَمِيَ، فأتاه بهدايا كثيرةٍ، فقال: ما هاهنا لك أجْمَعُ إنْ أنت شفَيْتَني، فقال: إنِّي لا أَشْفي أحدًا، إنَّما يَشفي اللهُ، فإنْ أنت آمَنْتَ باللهِ دَعَوتُ اللهَ فشَفاك، فآمَنَ باللهِ فشَفاه اللهُ، فأتَى المَلِكَ فجَلَس إليه كما كان يجلِسُ، فقال له الملِكُ: مَن رَدَّ عليك بَصَرَك؟! قال: رَبِّي، قال: ولك ربٌّ غيري؟! قال: رَبِّي ورَبُّك اللهُ! فأخَذه فلم يَزَلْ يُعَذِّبُه حتَّى دَلَّ على الغلامِ، فجِيءَ بالغُلامِ، فقال له الملِكُ: أيْ بُنَيَّ، قد بلَغ مِن سِحْرِك ما تُبرِئُ الأَكْمَهَ والأبْرَصَ، وتفعَلُ وتفعَلُ! فقال: إنِّي لا أَشفي أحدًا، إنَّما يَشْفي اللهُ، فأخَذَه فلم يَزَلْ يُعَذِّبُه حتَّى دَلَّ على الرَّاهِبِ، فجيءَ بالرَّاهِبِ، فقيل له: ارجِعْ عن دينِك، فأبَى، فدَعا بالمِئْشارِ[2]، فوضَع المِئْشارَ في مَفرِقِ رأسِه[3]، فشَقَّه حتَّى وقع شِقَّاه! ثمَّ جيءَ بجليسِ المَلِكِ فقيل له: ارجِعْ عن دينِك، فأبى، فوُضِعَ المِئْشارُ في مَفرِقِ رأسِه، فشَقَّه به حتَّى وقع شِقَّاه! ثمَّ جيءَ بالغلامِ، فقيل له: ارجِعْ عن دينِك، فأبى، فدفعَه إلى نَفَرٍ مِن أصحابِه، فقال: اذهَبوا به إلى جبلِ كذا وكذا، فاصعَدوا به الجَبَلَ، فإذا بلَغْتُم ذِرْوتَه[4]، فإنْ رَجَع

(١) الأكْمَهَ: هو الَّذي يُولدُ أعمى. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ٢٠٩).

(٢) المِئْشارُ والمِنشارُ: هو آلةُ النَّشرِ والقطعِ الَّذي يُشَقُّ بها الخشَبُ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٦/ ١٨١)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٧).

(٣) مَفرِق رأسِه: هو المكانُ الَّذي يفترِقُ فيه الشَّعرُ في وسَطِ الرَّأسِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٣٩٨).

(٤) ذِرْوتَه: أي: أعلاه. وذروةُ كلِّ شَيءٍ: أعلاه. يُنظر: ((إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم)) للقاضي =

عن دينِه وإلَّا فاطْرَحوه، فذَهَبوا به، فصَعِدوا به الجَبَلَ، فقال: اللَّهمَّ اكْفِنِيهم بما شِئْتَ، فرَجَف بهم الجبلُ فسَقَطوا، وجاء يمشي إلى الملِكِ! فقال له المَلِكُ: ما فعَلَ أصحابُك؟! قال: كَفانِيهِمُ اللهُ، فدفعه إلى نَفَرٍ مِن أصحابِه، فقال: اذهَبوا به فاحمِلوه في قُرقُورٍ[١]، فتوسَّطوا به البَحْرَ، فإن رجَعَ عن دينِه وإلَّا فاقذِفوه، فذَهَبوا به، فقال: اللَّهمَّ اكفِنِيهم بما شِئتَ، فانكفَأَتْ[٢] بهم السَّفينةُ، فغَرِقوا، وجاء يمشي إلى المَلِكِ! فقال له المِلِكُ: ما فعل أصحابُك؟! قال: كفانيهم اللهُ، فقال للمَلِكِ: إنَّك لستَ بقاتِلي حتَّى تَفعَلَ ما آمُرُك به، قال: وما هو؟ قال: تجمَعُ النَّاسَ في صعيدٍ واحدٍ، وتَصلِبُني على جِذْعٍ، ثمَّ خُذْ سَهمًا من كِنانتي[٣]، ثمَّ ضَعِ السَّهمَ في كَبِدِ القَوسِ[٤]، ثمَّ قُلْ: باسْمِ اللهِ ربِّ الغلامِ، ثمَّ ارمِني؛ فإنَّك إذا فعَلْتَ ذلك قتَلْتَني، فجَمَع النَّاسَ في صعيدٍ واحدٍ، وصَلَبه على جِذعٍ، ثمَّ أخذَ سَهمًا مِن كنانتِه، ثمَّ وَضَع السَّهمَ في كَبِدِ القَوسِ، ثمَّ قال: باسمِ اللهِ رَبِّ الغُلامِ، ثمَّ رماه فوقع السَّهمُ في صُدْغِه[٥]، فوَضَع يَدَه في صُدْغِه في موضِعِ السَّهمِ، فمات، فقال النَّاسُ: آمَنَّا برَبِّ الغُلامِ، آمَنَّا برَبِّ الغلامِ، آمَنَّا برَبِّ الغلامِ، فأُتيَ المَلِكُ فقيل له: أرأَيْتَ ما كنتَ تَحذَرُ؟ قد -واللهِ- نزَل بك حَذَرُك؛ قد آمَنَ النَّاسُ! فأَمَر بالأُخدودِ في أفواهِ السِّكَكِ[٦]، فخُدَّتْ[٧]، .....

= عياض (٨/ ٥٥٦).

(١) قُرْقُورٍ: هو السَّفينةُ العظيمةُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٤٨).

(٢) انكَفَأَت: أي: انْقَلَبَت. يُنظر: ((شرح السيوطي على مسلم)) (٦/ ٣٠٦).

(٣) الكِنانة: الوِعاءُ الَّذي فيه السِّهامُ. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (١/ ٢١).

(٤) كَبِدِ القَوسِ: أي: وسَطِها. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ٢٠٩).

(٥) صُدْغِه: هو ما بيْنَ العَينِ إلى شَحمةِ الأُذُنِ. يُنظر: ((دليل الفالحين)) لابن علان (١/ ١٦٨).

(٦) أفواهِ السِّكَكِ: أي: أبوابِ الطُّرُقِ. يُنظر: ((شرح السيوطي على مسلم)) (٦/ ٣٠٦).

(٧) فخُدَّتْ: أي: شُقَّتِ الأخاديدُ. يُنظر: ((دليل الفالحين)) لابن علان (١/ ١٦٩).

وأَضرَمَ النِّيرانَ، وقال: مَن لم يَرجِعْ عن دينِه فأَحْمُوه[١] فيها، أو قيل له: اقتَحِمْ، ففعَلوا، حتَّى جاءت امرأةٌ ومعها صَبيٌّ لها، فتقاعَسَت[٢] أن تقَعَ فيها، فقال لها الغُلامُ: يا أُمَّهْ، اصْبِري؛ فإنَّكِ على الحَقِّ))[٣].

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَمَّهم سُبحانَه وتعالى، بَيَّن وَجْهَ ذَمِّهم ببَدَلِ اشتِمالٍ[٤] مِن أُخْدودِهم، فقال[٥]:

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥﴾.

أي: وذلك الأُخدودُ متأجِّجٌ بالنَّارِ الَّتي أُضرِمَت بالحَطَبِ أو غَيرِه حتَّى اشتَدَّ توَقُّدُها ولهيبُها، واشتَعَلَت اشتِعالًا عَظيمًا[٦].

﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦﴾.

أي: لُعِنَ أولئك الكُفَّارُ حينَ كانوا قاعِدينَ على جوانِبِ الأُخدودِ وحافَاتِه[٧]!

---

(١) فأَحْمُوه: أي: ارْمُوه. يُنظر: ((شرح السيوطي على مسلم)) (٦/ ٣٠٦).

(٢) فتَقاعَسَتْ: أي: توَقَّفَت، ولَزِمَت مَوضِعَها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣٣).

(٣) رواه مسلم (٣٠٠٥).

(٤) سيأتي تعريفُه (ص: ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٦). =

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾.

أي: وهم يُشاهِدونَ المؤمِنينَ يَحتَرِقونَ فيه[١].

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾.

أي: وما أنكَرَ الكُفَّارُ وكَرِهوا مِن المؤمِنينَ والمُؤمِناتِ شَيئًا سِوى إيمانِهم باللهِ الممتَنِعِ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، الغالِبِ الَّذي لا يُغلَبُ، المحمودِ على جميعِ صِفاتِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

وعن خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كان الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ على رأسِه، فيُشَقُّ باثنتَينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحَديدِ ما دُونَ لَحمِه مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ[٣]، .....

= قال الرَّسْعَني: (قَولُه: ﴿إِذْ﴾ ظَرْفٌ لـ «قُتِلَ»، على معنى: لُعِنوا حينَ قَعَدوا على حافَاتِ الأُخدُودِ يَعرِضونَ المؤمِنينَ على الكُفرِ أو الإحراقِ. قال مجاهِدٌ: كانوا قُعودًا على الكراسيِّ عندَ الأُخدودِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٧٢).

(١) يُنظر: ((تفبسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٧، ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٦، ١٢٧).

(٣) ما دُونَ لَحمِه: أي تحتَه أو عندَه. وفيه مِن المُبالَغةِ أنَّ الأمشاطَ تَنفُذُ مِن اللَّحمِ إلى العَظمِ والعصَبِ؛ لِحِدَّتِها وقوَّتِها. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (١٢/ ٣٧٣٤)، ((إرشاد الساري)) =

وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه!))[١].

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى الأوصافَ الَّتي يَستَحِقُّ بها أن يؤمَنَ به ويُعبَدَ -وهو كَونُه عزيزًا غالِبًا قادِرًا يُخشَى عِقابُه، حميدًا مُنعِمًا يجِبُ الحَمدُ على نِعَمِه، ويُرجى ثوابُه-؛ قَرَّر ذلك بقَولِه تعالى[٢]:

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: الَّذي يَملِكُ وَحْدَه جَميعَ السَّمَواتِ السَّبْعِ والأرضِ، وما فيهِنَّ مِنَ الخلائِقِ[٣].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على كُلِّ شَيءٍ، فلا يَخفى عليه شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ومِن ذلك إحراقُ الكافِرينَ للمُؤمِنينَ في الأُخدُودِ، وسيُجازيهم عليه[٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ في هذه الآيةِ

= للقسطلاني (٦/ ٦٠).

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٩).

مِنَ العِبَرِ: أنَّ هؤلاء الكفَّارَ لم يأخُذوا على المسلمينَ ذَنْبًا إلَّا شيئًا واحدًا، وهو: أنَّهم يُؤمِنونَ باللهِ العزيزِ الحَميدِ! وهذا ليس بذَنْب، بل هذا هو الحقُّ، ومَن أنْكَرَه فهو الَّذي يُنْكَرُ عليه[١]، وهكذا المُشرِكُ؛ إنَّما يَنْقِمُ على الموحِّدِ تجريدَه للتَّوحيدِ، وأنَّه لا يَشُوبُه بالإشراكِ، وهكذا المبتدِعُ؛ إنَّما يَنقِمُ على السُّنِّيِّ تجريدَه مُتابَعةَ الرَّسولِ، وأنَّه لم يَشُبْها بآراءِ الرِّجالِ، ولا بشَيءٍ ممَّا خالَفَها، فصَبرُ الموحِّدِ المتَّبِعِ للرَّسولِ على ما يَنقِمُه عليه أهلُ الشِّركِ والبِدْعةِ خَيرٌ له وأنفَعُ، وأسهَلُ عليه مِن صَبْرِه على ما يَنقِمُه اللهُ ورَسولُه عليه مِن مُوافَقةِ أهلِ الشِّركِ والبِدْعةِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ أنَّه سُبحانَه عالِمٌ بأعمالِ خَلْقِه، لا يخفَى عليه خافيةٌ، وهذا وعدٌ عَظيمٌ للمُطيعينَ، ووعيدٌ للمُجرِمينَ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ إنْ قيلَ: ما وَجهُ الارتباطِ بيْن هذه الأُمورِ الثَّلاثةِ المُقسَمِ بها؟

قيل: هي بحَمْدِ اللهِ في غايةِ الارتباطِ، والإقسامُ بها مُتناوِلٌ لكُلِّ مَوجودٍ في الدُّنيا والآخِرةِ، وكُلٌّ منها آيةٌ مُستقِلَّةٌ دالَّةٌ على رُبوبيَّتِه وإلهيَّتِه؛ فأقسَمَ بالعالَمِ العُلويِّ، وهو السَّماءُ وما فيها مِن البُروجِ الَّتي هي أعظَمُ الأمكِنةِ وأوسَعُها، ثمَّ أقسَمَ بأعظَمِ الأيَّامِ، وأجَلِّها قَدْرًا، الَّذي هو مَظهَرُ مُلْكِه، وأمْرِه ونَهْيِه، وثَوابِه وعِقابِه، ومَجمَعُ أوليائِه وأعدائِه، والحُكْمِ بَيْنَهم بعِلْمِه وعَدْلِه، ثمَّ أقسَمَ بما هو أعَمُّ مِن ذلك كُلِّه، وهو الشَّاهِدُ والمشهودُ، وناسَبَ هذا القسَمَ ذِكرُ أصحابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦٧).

ويُنظر ما يأتي في الفوائدِ العلميَّةِ (ص: ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢٥٣).

الأُخدودِ الَّذين عَذَّبوا أولياءَه وهم شُهودٌ على ما يَفعَلونَ بهم[١].

٢- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ * ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى الأوصافَ الَّتي بها يَستَحِقُّ الإلهُ أن يُؤمَنَ به ويُعبَدَ:

فأوَّلُها: العزيزُ، وهو القادِرُ الَّذي لا يُغلَبُ، والقاهِرُ الَّذي لا يُدفَعُ، وبالجُملةِ فهو إشارةٌ إلى القُدْرةِ التَّامَّةِ.

وثانيها: الحميدُ، وهو الَّذي يَستَحِقُّ الحَمدَ والثَّناءَ على ألْسِنَةِ عِبادِه المؤمنينَ، وإن كان بَعضُ الأشياءِ لا يَحمَدُه بلِسانِه فنَفْسُه شاهدةٌ على أنَّ المحمودَ في الحقيقةِ هو هو، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وذلك إشارةٌ إلى العِلْمِ؛ لأنَّ مَن لا يكونُ عالِمًا بعواقِبِ الأشياءِ لا يُمكِنُه أن يَفعَلَ الأفعالَ الحَميدةَ، فالحَميدُ يدُلُّ على العِلْمِ التَّامِّ مِن هذا الوَجْهِ.

وثالِثُها: الَّذي له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، وهو مالِكُهما والقَيِّمُ بهما، ولو شاء لَأَفْناهما، وهو إشارةٌ إلى المُلْكِ التَّامِّ، وإنَّما أخَّرَ هذه الصِّفةَ عن الأوَّلَينِ؛ لأنَّ المُلْكَ التَّامَّ لا يَحصُلُ إلَّا عندَ حُصولِ الكَمالِ في القُدرةِ والعِلْمِ؛ فثَبَت أنَّ مَن كان مَوصوفًا بهذه الصِّفاتِ كان هو المُستَحِقَّ للإيمانِ به، وغَيرُه لا يستَحِقُّ ذلك البتَّةَ، فكيف حَكَم أولئك الكُفَّارُ الجُهَّالُ بكونِ مِثْلِ هذا الإيمانِ ذَنْبًا[٢]؟!

٣- قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ شأنُ أعداءِ الله دائمًا أنَّهم يَنقِمونَ على أوليائِه ما يَنبغي أن يُحَبُّوا ويُكْرَموا مِن أجْلِه، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٩، ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢).

وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]. كذلك اللُّوطيَّةُ نقَموا مِن عِبادِ الله تَنَزُّهَهُم عن مِثلِ فِعلِهم، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]. وكذلك أهلُ الإشراكِ يَنقِمونَ مِن الموحِّدينَ تجريدَهم التَّوحيدَ وإخلاصَ الدَّعوةِ والعُبوديَّةِ لله وحْدَه. وكذلك أهلُ البِدَعِ يَنقِمونَ مِن أهلِ السُّنَّةِ تجريدَ مُتابَعتِها، وتَرْكَ ما خالَفَها. وكذلك المُعَطِّلةُ يَنقِمونَ مِن أهلِ الإثباتِ إثباتَهم لله صِفاتِ كَمالِه، ونُعوتَ جلالِه، وعُلُوَّه على مَخلوقاتِه، ويُعادُونَهم على ذلك، ويَرمُونَهم مِن أجْلِه بالعَظائمِ. وكذلك الرَّافِضةُ يَنقِمونَ على أهلِ السُّنَّةِ مَحَبَّتَهم للصَّحابةِ جميعِهم، وتَرَضِّيَهم عنهم، وولايَتَهم إيَّاهم، وتقديمَ مَن قدَّمه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم منهم، وتنزيلَهم مَنازِلَهم الَّتي أنزَلَهم اللهُ ورسولُه بها. وكذلك أهلُ الرَّأيِ المُحْدَثِ يَنقِمونَ على أهلِ الحديثِ وحزبِ الرَّسولِ أخْذَهم بحديثِه، وتَرْكَهم ما خالفه. وكلُّ هؤلاء لهم نصيبٌ مِن هذه الآيةِ، وفيهم شَبَهٌ مِن أصحابِ الأُخدودِ، وبيْنَهم وبيْنَهم نسَبٌ قريبٌ أو بعيدٌ[(١)].

٤- إنَّما قال الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ﴾؛ لأنَّ التَّعذيبَ إنَّما كان واقعًا على الإيمانِ في المستقبَلِ، ولو كَفَروا في المستقبَلِ لم يُعذَّبوا على ما مَضَى، فكأنَّه قال: إلَّا أنْ يَدومُوا على إيمانِهم[(٢)].

٥- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لو شاء لَمَنَع أولئك الجبابرةَ مِن تعذيبِ أولئك المؤمِنينَ، ولَأطفَأَ نيرانَهم، ولَأماتَهم، وأشار بقَولِه: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ إلى أنَّ المُعتَبَرَ عندَه سُبحانَه مِن الأفعالِ عَواقِبُها؛ فهو وإن كان قد أمهَلَ لكِنَّه ما أهمَلَ؛ فإنَّه

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩١، ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥).

تعالى يُوصِلُ ثوابَ أولئك المؤمِنينَ إليهم، وعِقابَ أولئك الكَفَرةِ إليهم[١].

وقيل: جاء وَصْفُه بالحميدِ؛ لِيُشعِرَ بأمْرَينِ؛ الأوَّلُ: أنَّ المؤمِنينَ آمَنوا رغبةً ورَهبةً؛ رغبةً في ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾، ورهبةً مِنَ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، وهذا كمالُ الإيمانِ -رغبةٌ ورَهبةٌ- وأحسَنُ حالاتِ المؤمِنِ. والأمرُ الثَّاني: حتَّى لا يَيأَسَ أولئك الكُفَّارُ مِن فَضْلِه ورَحمتِه، كما قال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ [البروج: ١٠]؛ إذ إعطاؤُهم المُهْلَةَ مِن آثارِ صِفتِه الحَميدِ سُبْحانَه[٢].

٦- قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ إذا كان رَبُّ العِزَّةِ سُبحانَه وتعالى، وهو على كُلِّ شيءٍ شَهيدٌ، وبكُلِّ شَيءٍ عليمٌ، ومُوكِّلٌ حَفَظةً يَكتُبونَ أعمالَ العِبادِ، ومع ذلك لم يَقْضِ بيْن الخلائِقِ بما يَعلَمُه منهم، ولا بما سجَّلَتْه ملائكتُه، ويَستَنطِقُ أعضاءَهم، ويَستَشهِدُ الرُّسُلَ على الأُمَمِ، والرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الرُّسُلِ، أي: بأنَّهم بَلَّغوا أُمَمَهم رسالاتِ اللهِ إليهم؛ فلأَلَّا يَقضيَ القاضي بعِلْمِه مِن بابِ أَوْلى[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾

- ابتُدِئتْ أغراضُ هذه السُّورةِ الكريمةِ بضَربِ المَثَلِ للَّذين فَتَنوا المُسلِمينَ بمكَّةَ بأنَّهم مِثلُ قَومٍ فَتَنوا فريقًا ممَّن آمَنَ بالله، فجَعَلوا أُخْدودًا مِن نارٍ لتَعْذيبِهم؛ ليَكونَ المَثَلُ تَثْبيتًا للمُسلِمينَ، وتَصْبيرًا لهم على أذَى المُشرِكين، وتذكيرًا لهم بما جَرى على سَلَفِهم في الإيمانِ مِن شِدَّةِ التَّعذيبِ الَّذي لم يَنَلْهم مِثلُه، ولم يَصُدَّهم ذلك عن دِينِهم. وإشعارِ المُسلِمينَ بأنَّ قوَّةَ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٨٦). ويُنظر ما يأتي (ص: ٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٤٨٠).

عَظيمةٌ، فسَيَلْقى المُشركون جَزاءَ صَنيعِهم، ويَلْقى المُسلمونَ النَّعيمَ الأَبَديَّ والنَّصرَ. والتَّعريضِ للمُسلِمينَ بكَرامتِهم عندَ اللهِ تعالَى. وضربِ المثَلِ بقَومِ فِرعونَ وبثَمودَ، وكيف كانت عاقِبةُ أَمْرِهم لَمَّا كَذَّبوا الرُّسُلَ، فحَصَلَتِ العِبْرةُ للمُشركين في فَتْنِهم المُسلِمينَ، وفي تَكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّنويهُ بشَأنِ القُرآنِ[١].

- وفي افتِتاحِ السُّورةِ بهذا القَسَمِ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ تَشويقٌ إلى ما يَرِدُ بعْدَه، وإشْعارٌ بأهمِّيَّةِ المُقسَمِ عليه، وهو معَ ذلك يَلْفِتُ أَلْبابَ السَّامِعينَ إلى الأُمورِ المُقسَمِ بها؛ لأنَّ بَعضَها مِن دَلائلِ عَظيمِ القُدرةِ الإلَهيَّةِ المُقتَضيةِ تَفرُّدَ اللهِ تعالَى بالإلَهيَّةِ، وإبْطالَ الشَّريكِ، وبَعضَها مُذَكِّرٌ بيَومِ البَعثِ المَوعودِ، ورَمزٌ إلى تَحقيقِ وُقوعِه؛ إذ القَسَمُ لا يَكونُ إلَّا بشَيءٍ ثابتِ الوُقوعِ، وبَعضَها بِما فيه مِن الإبْهامِ يوَجِّهُ أَنفُسَ السَّامِعينَ إلى تَطَلُّبِ بَيانِه[٢].

- وأيضًا مُناسَبةُ القَسَمِ لِما أُقسِمَ عليه أنَّ المُقسَمَ عليه تَضمَّنَ العِبرةَ بقِصَّةِ أصحابِ الأُخْدودِ، ولَمَّا كانت الأخاديدُ خُطوطًا مَجْعولةً في الأرضِ مُستَعِرةً بالنَّارِ، أُقسِمَ على ما تَضمَّنَها بالسَّماءِ، بقَيدِ صِفةٍ مِن صِفاتِها الَّتي يَلوحُ فيها للنَّاظِرينَ في نُجومِها ما سَمَّاه العرَبُ بُروجًا، وهي تُشبِهُ داراتٍ مُتلَألِئةً بأنوارِ النُّجومِ اللَّامِعةِ الشَّبيهةِ بتَلَهُّبِ النَّارِ. والقَسَمُ بـ (السَّماءِ) بوَصفِ (ذاتِ البُروجِ) يَتَضمَّنُ قَسَمًا بالأمْرَينِ معًا؛ لتَلْتَفِتَ أفكارُ المُتَدبِّرينَ إلى ما في هذه المَخلوقاتِ وهذه الأحوالِ مِن دَلالةٍ على عَظيمِ القُدرةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٦، ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٣٧).

وسَعةِ العِلمِ الإلَهيِّ؛ إذ خَلَقَها على تلك المَقاديرِ المَضبوطةِ؛ ليَنتفِعَ بها النَّاسُ في مَواقيتِ الأشهُرِ والفُصولِ. وأمَّا مُناسَبةُ القَسَمِ باليَومِ المَوعودِ فلأنَّه يَومُ القِيامةِ؛ لأنَّ اللهَ وَعَدَ بوُقوعِه؛ قال تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤]، مع ما في القَسَمِ به مِن إدماجِ[١] الإيماءِ إلى وَعيدِ أصْحابِ القِصَّةِ المُقسَمِ على مَضمونِها، ووَعيدِ أمثالِهم المُعرَّضِ بهم. ومُناسَبةُ القسَمِ بـ (شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) قَريبةٌ مِن مُناسَبةِ القسَمِ باليَومِ الموعودِ، ويُقابِلُه في المُقسَمِ عليه قولُه: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾[٢].

- وتَنكيرُ ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ إمَّا للمُبالَغةِ في الكثرةِ، كأنَّه قيلَ: وما أُفرِطَتْ كَثرتُه مِن شاهِدٍ ومَشهودٍ، وإمَّا للإبْهامِ في الوصْفِ، كأنَّه قيلَ: وشاهِدٍ ومَشهودٍ لا يُكتَنَهُ وَصْفُهما[٣].

وقيلَ: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ هذان مُنكَّرانِ، ويَنبَغي حَمْلُهما على العُمومِ؛ كقولِه: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير: ١٤]، وإنْ كان اللَّفظُ لا يَقتَضيه، لكنَّ المَعنى يَقتَضيه؛ إذ لا يُقسَمُ بنَكِرةٍ ولا يُدْرَى مَن هي، فإذا لُوحِظَ فيها مَعنى العُمومِ اندَرَجَ فيها المَعرِفةُ؛ فحَسُنَ القَسَمُ[٤].

وقيلَ: الشَّاهِدُ: يومُ الجُمُعةِ، والمَشهودُ: يومُ عَرَفةَ، ونَكَّرَهما دُون بَقيَّةِ ما أَقسَمَ به؛ لاختِصاصِهما مِن بيْنِ الأيَّامِ بفَضيلةٍ ليست لغَيرِهما، فلمْ يَجْمَعْ بيْنَهما

(١) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٧، ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٢).

وبيْنَ البَقيَّةِ بلامِ الجِنسِ، وإنَّما لم يُعرَّفَا بلامِ العَهدِ؛ لأنَّ التَّنكيرَ أدَلُّ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ(١).

وقيل: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ مُرادٌ بهما النَّوعُ، فالشَّاهِدُ: الرَّائي، أو المَخبِرُ بحَقٍّ لإلْزامِ مُنكِرِه، والمَشهودُ: المَرئيُّ أو المَشهودُ عليه بحَقٍّ، وحُذِفَ مُتَعلَّقُ الوَصفَينِ؛ لدَلالةِ الكَلامِ عليه. وعلى مُختَلِفِ الوُجوهِ، فالمُناسَبةُ ظاهِرةٌ بيْنَ ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، وبيْنَ ما في المُقسَمِ عليْه مِن قولِه: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾

- قولُه: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ جُملةٌ دُعائيَّةٌ -على قولٍ- دالَّةٌ على الجَوابِ، كأنَّه قيلَ: أُقسِمُ بهذه الأشياءِ السَّابقةِ، إنَّهم -أي: كُفَّارَ مَكَّةَ- مَلْعونون، كما لُعِنَ أصحابُ الأُخْدودِ؛ لِمَا أنَّ السُّورةَ ورَدَتْ لتَثبيتِ المُؤمِنينَ على ما هُم عليه مِنَ الإيمانِ، وتَصبيرِهم على أذيَّةِ الكَفَرةِ، وتَذْكيرِهم بما جَرى على مَن تَقدَّمَهم مِنَ التَّعذيبِ على الإيمانِ وصَبرِهم على ذلك؛ حتَّى يأْتَسُوا بهم، ويَصبِروا على ما كانوا يَلْقَون مِن قَومِهم، ويَعلَموا أنَّ هؤلاءِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ بمَنزِلةِ أولئك المُعَذِّبين؛ مَلْعونون مِثلَهم، أَحِقَّاءُ بأنْ يُقالَ فيهم ما قد قيلَ فيهم. فالجَوابُ دَليلٌ على لَعنةِ اللهِ على مَن فعَلَ ذلك، وطَرْدِه مِن رحمةِ اللهِ، وتَنبيهٌ لكُفَّارِ قُرَيشٍ الَّذين يُؤذونَ المُؤمِنينَ ليَفتِنوهم عن دِينِهم، على أنَّهم مَلْعونونَ، بجامِعِ ما اشتَرَكا فيه مِن تَعذيبِ المُؤمِنينَ. وقيل: تَقديرُ الجوابِ: إنَّ الأمرَ لَحقٌّ في الجزاءِ على الأعمالِ، أو: لَتُبعَثُنَّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٩، ٧٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير =

وقيلَ: الجوابُ: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾؛ فيكونُ ﴿قُتِلَ﴾ خبرًا لا دُعاءً ولا شَتْمًا، ولا يَلزَمُ ذِكرُ (قدْ) في الجوابِ مع كَونِ الجوابِ ماضيًا؛ لأنَّ (قد) تُحذَفُ بناءً على أنَّ حَذْفَها ليس مَشروطًا بالضَّرورةِ. ويَتعيَّنُ على هذا أنْ يكونَ الخبَرُ مُستعمَلًا في لازمِ مَعناهُ مِن الإنذارِ للَّذين يَفتِنونَ المؤمنينَ بأنْ يَحُلَّ بهم ما حلَّ بفاتِني أصحابِ الأُخدودِ، وإلَّا فإنَّ الخبَرَ عن أصحابِ الأُخدودِ لا يَحتاجُ إلى التَّوكيدِ بالقسَمِ؛ إذ لا يُنكِرُه أحدٌ، فهو قِصَّةٌ مَعلومةٌ للعرَبِ، وتَقديرُ الكلامِ: لَقَدْ قُتِلَ أصحابُ الأُخدودِ، فيَكونُ المُرادُ مِن أصحابِ الأُخدودِ الَّذين أُلقُوا فيه، وعُذِّبوا به، ويَكونُ لَفظُ (أَصْحَابُ) مُستعمَلًا في مَعنى مُجرَّدِ المُقارَنةِ والمُلازَمةِ[1].

وقيلَ: الجَوابُ ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، أو جُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١]، والكَلامُ الَّذي بيْنَهما اعتِراضٌ قُصِدَ به التَّوطِئةُ للمُقسَمِ عليه، وتَوكيدُ التَّحقيقِ الَّذي أفادَه القَسَمُ بتَحقيقِ ذِكرِ النَّظيرِ[2].

- وقيل: صِيغةُ قولِه: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ تُشعِرُ بأنَّه إنشاءُ شَتْمٍ لهم؛ شَتْمِ خِزيٍ وغضَبٍ، وهؤلاء لم يُقتَلوا، ففِعلُ ﴿قُتِلَ﴾ ليس بخَبَرٍ، بل شَتْمٌ، نَحوَ قولِهم: قاتَلَه اللهُ! وصُدورُه مِن اللهِ يُفيدُ مَعنى اللَّعنِ، ويدُلُّ على الوَعيدِ؛ لأنَّ الغضَبَ واللَّعنَ يَستَلزِمانِ العِقابَ على الفِعلِ المَلْعونِ مِن أجْلِه. وقيلَ: هو دُعاءٌ على أَصحابِ الأُخْدودِ بالقَتلِ، والقَتلُ مُعبَّرٌ به عن أشدِّ العَذابِ، كما يُقالُ: أَهلَكَه اللهُ، أي: أَوقَعَه في أَشدِّ العَناءِ. وأيًّا ما كان فجُملةُ: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ

= أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٣، ٤٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٥، ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٣، ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٩، ٢٤٠).

﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾ على هذا مَعترِضةٌ بيْنَ القَسَمِ وما بعْدَه[١].

- قولُه: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ ﴿ٱلنَّارِ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[٢] مِن الأُخدودِ، و﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ وصْفٌ لها بأنَّها نارٌ عظيمةٌ لها ما يَرتفِعُ به لهبُها مِن الحَطَبِ الكثيرِ وأبدانِ النَّاسِ، وهو وصْفٌ للنَّارِ بغايةِ العِظَمِ[٣].

- قولُه: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ ضَميرُ ﴿هُمْ﴾ عائدٌ إلى أصحابِ الأُخْدودِ؛ فإنَّ المَلِكَ يَحضُرُ تَنفيذَ أَمرِه ومعه مَلَؤُه، أو أُريدَ بهم المأْمورونَ مِن المَلِكِ، والقُعودُ: الجُلوسُ، كُنِّيَ به عن المُلازَمةِ للأُخْدودِ؛ لئلَّا يَتهاوَنَ الَّذين يُوقِدونَ النَّارَ بتَسعيرِها، و(عَلى) للاستِعلاءِ؛ لأنَّهم لا يَقعُدونَ فوقَ النَّارِ، ولكنْ حوْلَها، وإنَّما عَبَّرَ عن القُربِ والمُراقَبةِ بالاستِعلاءِ[٤].

- وضَميرُ ﴿يَفْعَلُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يَعودَ إلى ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾؛ فمَعْنى كَونِهم شُهودًا على ما يَفعَلونه: أنَّ بَعضَهم يَشهَدُ لبَعضٍ عندَ المَلِكِ بأنَّ أَحَدًا لم يُفرِّطْ فيما وُكِّلَ به مِن تَحريقِ المُؤمِنينَ، فضَمائرُ الجَمْعِ وصِيغتُه مُوزَّعةٌ. ويَجوزُ أنْ يَعودَ ضَميرُ ﴿يَفْعَلُونَ﴾ إلى ما تَقتَضيه دَلالةُ الاقتِضاءِ[٥] مِن تَقسيمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٠).

(٢) بَدلُ الاشتمالِ: هو الَّذي يدُلُّ على مَعنًى في مَتْبوعِه أو صِفةٍ فيه، مِثلُ: أعْجَبَني مُحمَّدٌ خُلُقُه؛ فـ(خُلُقُه) بَدَلٌ مِن (مُحمَّدٌ)؛ بَدَلُ اشْتِمالٍ. يُنظر: ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٣/ ٣٦٥)، ((توضيح المقاصد)) للمرادي (٢/ ١٠٣٧)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) لابن مالك (٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٢).

(٥) دلالةُ الاقتضاءِ: هي دلالةُ اللَّفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصِّدقِ أو الصِّحَّةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة =

أصحابِ الأُخْدودِ إلى أُمَراءَ ومَأْمورينَ، شأْن الأعمالِ العَظيمةِ، فلمَّا أخبَرَ عن أصحابِ الأُخْدودِ بأنَّهم قُعودٌ على النَّارِ عُلِمَ أنَّهم المُوَكَّلونَ بمُراقَبةِ العُمَّالِ، فعُلِمَ أنَّ لهم أتْباعًا مِن سَعَّارينَ ووَزَعةٍ[١]، فـ(هُمْ) مُعادُ ضَميرِ (يَفْعَلُونَ)، وعلى هذا الوَجْهِ يَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿شُهُودٌ﴾ جَمْعَ شاهِدٍ، بمَعْنى: مُخبِرٍ بحَقٍّ، وأنْ يَكونَ بمَعْنى حاضِرٍ ومُراقِبٍ؛ لظُهورِ أنَّ أحَدًا لا يَشهَدُ على فِعلِ نفْسِه[٢].

- وجُملةُ ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾، كأنَّه قيلَ: قُعودٌ شاهِدينَ على فِعلِهم بالمُؤمِنينَ، وفائِدةُ هذه الحالِ تَفظيعُ ذلك القُعودِ وتَعظيمُ جُرْمِه؛ إذ كانوا يُشاهِدون تَعذيبَ المُؤمِنينَ، لا يَرْأَفون في ذلك ولا يَشمَئزُّون، وبذلك فارَقَ مَضمونُ هذه الجُملةِ مَضمونَ جُملةِ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾، باعتِبارِ تَعلُّقِ قولِه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾[٣].

- وفي الإتْيان بالمَوصولِ في قولِه: ﴿مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مِن الإبْهامِ ما يُفيدُ أنَّ لِمُوقِدي النَّارِ مِن الوَزَعةِ والعَمَلةِ، ومَن يُباشِرون إلْقاءَ المُؤمِنينَ فيها، غِلْظةً وقَسوةً في تَعذيبِ المُؤمِنينَ وإهانتِهم والتَّمثيلِ بهم، وذلك زائِدٌ على الإحْراقِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ

= في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(١) الوَزَعةُ: جَمعُ وازِعٍ، وهو: الَّذي يتقدَّمُ الصَّفَّ فيُصلِحُه ويُقَدِّمُ ويؤخِّرُ، ويَحبِسُ أوَّلَهم على آخِرِهم. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (٣/ ١٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾

- في قولِه: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بتَوكيدِ المَدحِ بِما يُشبِهُ الذَّمَّ؛ فهو استِئنافٌ مُفصِحٌ عن بَراءتِهم عمَّا يُعابُ ويُنكَرُ بالكُلِّيَّةِ[1].

- وقيل: جُملةُ ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ في مَوضِعِ الحالِ، والواوُ واوُ الحالِ، أو عاطِفةٌ على الحالِ الَّتي قبْلَها، والمَقصودُ التَّعجيبُ مِن ظُلمِ أهلِ الأُخْدودِ أنَّهم يأْتون بمِثلِ هذه الفَظاعةِ، لا لجُرْمٍ مِن شأْنِه أنْ يُنقَمَ مِن فاعِلِه، فإنْ كان الَّذين خَدَّدوا الأُخْدودَ يَهودًا -كما كان غالِبُ أهْلِ اليَمَنِ يَومَئذٍ- فالكَلامُ مِن تأْكيدِ الشَّيءِ بِما يُشبِهُ ضِدَّه، أي: ما نَقَموا منهم شَيئًا يُنقَمُ، بل لأنَّهم آمَنوا باللهِ وحْدَه كما آمَنَ به الَّذين عَذَّبوهم. وإنْ كان الَّذين خَدَّدوا الأُخْدودَ مُشرِكين فليس الاستِثناءُ مِن تأْكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه؛ لأنَّ شأْنَ تأكيدِ الشَّيءِ بِما يُشبِهُ ضِدَّه أنْ يَكونَ ما يُشبِهُ ضِدَّ المَقصودِ هو في الواقِعِ مِن نَوعِ المَقصودِ، فلذلك يُؤكَّدُ به المَقصودُ، وما هُنا ليس كذلك؛ لأنَّ المَلِكَ وجُندَه نَقَموا منهم الإيمانَ باللهِ حَقيقةً إنْ كان المَلِكُ مُشرِكًا[2].

- وإجْراءُ الصِّفاتِ الثَّلاثِ على اسمِ الجَلالةِ -وهي: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ * ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾-؛ لِزيادةِ تَقريرِ أنَّ ما نَقَموه منهم ليس مِن شأْنِه أنْ يُنقَمَ، بل هو حَقيقٌ بأنْ يُمدَحوا به؛ لأنَّهم آمَنوا برَبٍّ حَقيقٍ بأنْ يُؤمَنَ به مِن أجْلِ صِفاتِه الَّتي تَقتَضي عِبادتَه، ونَبْذَ ما عَداه؛ لأنَّه يَنصُرُ مَواليَه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٤).

ويُثيبُهم، ولأنَّه يَملِكُهم، وما عَداه ضَعيفُ العِزَّةِ لا يَضُرُّ ولا يَنفَعُ، ولا يَملِكُ منهم شَيئًا، فيَقْوى التَّعجيبُ منهم بهذا[1].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ تَذييلٌ بوَعيدٍ للَّذين اتَّخَذوا الأُخْدودَ وعَذَّبوا المُؤمِنينَ، وبوَعدِ الَّذين عُذِّبوا في جَنْبِ اللهِ، ووَعيدٌ لأَمثالِ أولئك مِن كُفَّارِ قُريشٍ وغَيرِهم مِن كُلِّ مَن تَصَدَّوْا لأَذى المُؤمِنينَ، ووَعدُ المُسلِمينَ الَّذين عَذَّبَهم المُشرِكون، مِثلَ بِلالٍ وعَمَّارٍ وصُهَيبٍ وسُمَيَّةَ؛ فإنَّ عِلمَه تعالى بجَميعِ الأشياءِ -الَّتي مِن جُملتِها أعمالُ الفَريقَينِ- يَستَدْعي تَوفيرَ جَزاءِ كُلٍّ منهما حَتْمًا[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٤).

الآيتان (١٠-١١)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتَنُواْ﴾: أي: أَحْرَقوا، يُقالُ: فَتنتُ الشَّيءَ: إذا أحرَقْتَه، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ[1].

﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾: أي: النَّارِ، وأصلُ (حرق): يدُلُّ على حرارةٍ والْتِهابٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى متوَعِّدًا: إنَّ الَّذين ابتَلَوُا المؤمِنينَ والمُؤمِناتِ بإحراقِهم في النَّارِ؛ لِصَدِّهم عن الحَقِّ، ثمَّ لم يَتوبوا ممَّا فَعَلوه بهم: فلَهم عَذابُ جَهنَّمَ، ولهم عَذابُ الحَريقِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه ما أعَدَّه للمؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذين آمَنُوا وعَمِلوا بطاعةِ اللهِ تعالى: لهم في الآخِرةِ جَنَّاتٌ تَجري مِن تحتِها الأنهارُ، وذلك هو الفَوزُ الكبيرُ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه قِصَّةَ أصحابِ الأُخدودِ؛ أتْبَعَها بما يتفَرَّعُ عليها مِن أحكامِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٨).

الثَّوابِ والعِقابِ، فقال تعالى[١]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠﴾.

أي: إنَّ الَّذين ابتَلَوُا المؤمِنينَ والمُؤمِناتِ بإحراقِهم في النَّارِ؛ لصَدِّهم عن الحَقِّ، ثمَّ لم يَتوبوا ممَّا فَعَلوه بهم: فلهم عَذابُ جَهنَّمَ، ولهم عذابُ الحَريقِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٥١، ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٥-٢٤٧).

قال ابن عثيمين: (قال العُلماءُ: ﴿فَتَنُواْ﴾ بمعنى: أحرَقوا ... وقيل: فَتَنُوهم أي: صَدُّوهم عن دينِهم. والصَّحيحُ أنَّ الآيةَ شامِلةٌ للمعنيَينِ جميعًا... والقاعدةُ في عِلمِ التَّفسيرِ أنَّه إذا كانت الآيةُ تحتمِلُ معنيَينِ لا مُرَجِّحَ لأحَدِهما عن الآخَرِ، ولا يَتضادَّانِ؛ فإنَّها تُحمَلُ عليهما جميعًا، فنقولُ: هم فتَنوا المؤمنينَ بصَدِّهم عن سبيلِ الله، وفتَنوهم بالإحراقِ أيضًا). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٩).

قال الزمخشري: (يجوزُ أن يُريدَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾: أصحابَ الأخدودِ خاصَّةً، وبـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البروج: ١١]: المَطروحينَ في الأُخْدودِ. ومعنَى فتَنوهم: عذَّبوهم بالنَّارِ وأحرَقوهم... ويجوزُ أن يريدَ: ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: بَلَوْهم بالأذى على العُمومِ، و﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: المَفتُونينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٧٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي =

= (١/ ٣٢٥).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: حرَّقوا، قاله ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وابنُ أَبْزَى). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧١).

وقال الرازي: (يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ منه أصحابَ الأُخدودِ فقط، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ كلَّ مَن فعَلَ ذلك، وهذا أَوْلى؛ لأنَّ اللَّفظَ عامٌّ، والحُكمَ عامٌّ، فالتَّخصيصُ تركٌ للظَّاهرِ مِن غيرِ دليلٍ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢).

وقال الألوسي: (والمرادُ بالَّذين فتَنوا وبالمؤمنينَ والمؤمناتِ المَفتونينَ، إمَّا أصحابُ الأُخدودِ والمُطرَحونَ فيه خاصَّةً، وإمَّا الأعَمُّ ويَدخُلُ المَذكورونَ دُخولًا أوَّليًّا، وهو الأظهَرُ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٠٠).

وقيل: المرادُ: كفَّارُ قُرَيشٍ، والفِتنةُ بمعنى المِحنةِ والتَّعذيبِ. واستظهَره ابنُ جُزَي، واختاره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٥).

قال ابن جزي: (لقولِه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾؛ لأنَّ أصحابَ الأُخدودِ لم يَتوبوا، بل ماتوا على كفرِهم. وأمَّا قُرَيشٌ فمِنهم مَن أسلَمَ وتاب). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٢).

وذهب أكثَرُ المفَسِّرينَ إلى عدَمِ التَّفريقِ بيْن عذابِ جَهنَّمَ وعذابِ الحَريقِ، كما نقله عنهم ابنُ الجَوزيِّ، وجعَلوا كِلا العذابَينِ في جَهنَّمَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٧).

وذهب بَعضُ المفَسِّرين إلى التَّفريقِ بيْن العذابَينِ؛ بأنَّ عذابَ جَهنَّمَ في الآخرةِ، وعذابَ الحَريقِ في الدُّنيا. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥).

قال الواحدي: (قال الرَّبيعُ بنُ أنسٍ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ يعني: في الدُّنيا؛ وذلك أنَّ النَّارَ ارتفعَتْ مِن الأُخدودِ إلى المَلِكِ وأصحابِه فأحرَقَتْهم. وهو قولُ الكلبيِّ، وذكره الفَرَّاءُ). ((البسيط)) (٢٣/ ٣٩١). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٣).

وقيل: عَذابُ جَهنَّمَ في الآخرةِ، وعذابُ الحَريقِ لهم في الدُّنيا والآخرةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٥٩).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّه يجوزُ أن يكونَ المرادُ بعذابِ الحَريقِ تعذيبَهم بنارٍ في القَبْرِ قَبلَ الحِسابِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ في الآخرةِ، فيكونَ تأكيدًا لعذابِ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر عُقوبةَ الظَّالِمينَ؛ ذكَرَ ثوابَ المؤمِنينَ، فقال تعالى[1]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: إنَّ الَّذين آمَنُوا بكُلِّ ما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا بطاعةِ اللهِ تعالى؛ فامتَثَلوا أوامِرَه، واجتَنَبوا نواهِيَه: لهم في الآخِرةِ جَنَّاتٌ تَجري مِن تحتِ أشجارِها وقُصورِها الأنهارُ[2].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

أي: ما يَحصُلُ في الآخِرةِ لِمَن آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مِنَ النَّجاةِ مِنَ النَّارِ ودُخولِ الجنَّةِ: هو الفَوزُ الكبيرُ الَّذي لا يُدانيه فَوزٌ[3].

= جهنَّمَ، أو نَوعًا مِن العذابِ زيادةً إلى عذابِ جهنَّمَ. ويحتمِلُ أن يريدَ في الدُّنيا، وذلك على روايةِ أنَّ الكفَّارَ أصحابَ الأُخدودِ أحرَقَتْهم النَّارُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٣-١٣٦).

قال ابنُ جرير: (هم هؤلاء القَومُ الَّذين حَرَّقَهم أصحابُ الأُخدودِ، وغَيرُهم مِن سائرِ أهلِ التَّوحيدِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١).

وقال ابنُ عثيمين: (قال العُلَماءُ: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي: مِن تحتِ أشجارِها وقُصورِها، وإلَّا فهي على السَّطحِ فَوق، ثمَّ هذه الأنهارُ جاء في الأحاديثِ أنَّها لا تحتاجُ إلى حَفرٍ، ولا تحتاجُ إلى بناءِ أُخدودٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥)، ((نظم الدرر)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ في هذه الآياتِ مِن العِبَرِ: أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قد يُسَلِّطُ أعداءَه على أوليائِه، فلا تَسْتَغْرِبْ إذا سَلَّطَ اللهُ عزَّ وجلَّ الكُفَّارَ على المؤمنينَ، وقَتَلُوهم وحَرَّقُوهم، وانتَهَكوا أعراضَهم! لا تَسْتَغْرِبْ؛ فلِلَّهِ تعالى في هذا حِكمةٌ، المُصابُونَ مِن المؤمنينَ أَجْرُهم عندَ اللهِ عظيمٌ، وهؤلاءِ الكُفَّارُ المعتَدُونَ أَمْلَى لهم اللهُ سُبحانَه وتعالى، ويَسْتَدْرِجُهم مِن حيثُ لا يَعلَمونَ، والمُسلِمونَ الباقُونَ لهم عِبْرَةٌ وعِظَةٌ فيما حصَلَ لإخوانِهم[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أنَّ رحمةَ اللهِ تعالى سَبَقَتْ غَضَبَه؛ ولهذا أولئك الَّذين يُعَذِّبُون أولياءَه ويُحْرِقُونَهم بالنَّارِ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيهم ذلك، وقد عَرَضَ عليهم التَّوبةَ، وكلُّ هذا دليلٌ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُحِبُّ العفوَ أكثرَ مِن العِقابِ[٢]، وفيه

= للبقاعي (٢١/ ٣٦٠، ٣٦١). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٧).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الإشارةَ إلى ما تقدَّم ذِكرُه ممَّا أعَدَّه اللهُ لهم في الآخرةِ مِن اختِصاصِهم بالجنَّاتِ والأنهارِ، وما أُعْطُوا مِنَ النَّعيمِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٧).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يقولُ: مَن زُحْزِحَ عن النَّارِ، وأُدخِلَ الجنَّةَ؛ فقد نَجَا نَجاءً عظيمًا). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٤٩).

وقال الألوسي: (﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى كَونِ ما ذُكِر لهم، وحِيازَتِهم إيَّاه. وقيل: للجنَّاتِ المَوصوفةِ، والتَّذكيرُ لتأويلِها بـ: ما ذُكِر). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٨٦).

دليلٌ على سَعَةِ حِلْمِ اللهِ تعالى، وأنَّ مِن سُنَّتِه سُبحانَه وتعالى أنْ يَعْرِضَ التَّوبةَ على المُذنبينَ[١]. قال الحَسَنُ البصريُّ رحمه الله: (انظُروا إلى هذا الكَرَمِ؛ عَذَّبوا أولياءَه وفَتَنوهم، ثمَّ هو يَدْعوهم إلى التَّوبةِ!)[٢].

٣- قِصَّةُ أصحابِ الأُخدودِ -ولا سيَّما هذه الآيةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾- تدُلُّ على أنَّ المُكْرَهَ على الكُفرِ بالإهلاكِ العَظيمِ الأَوْلى له أن يَصبرَ على ما خُوِّفَ منه، وأنَّ إظهارَ كَلِمةِ الكُفرِ كالرُّخصةِ في ذلك[٣]. ورُبَّما لم يكُنْ في شريعتِهم رُخصةٌ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عَطفُ المُؤمِناتِ للتَّنويهِ بشَأنِهنَّ؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ هذه المزيَّةَ خاصَّةٌ بالرِّجالِ، ولزيادةِ تَفظيعِ فِعْلِ الفاتِنينَ بأنَّهم اعتَدَوا على النِّساءِ؛ والشَّأنُ ألَّا يُتعَرَّضَ لهنَّ بالغِلْظةِ[٤]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ لَمَّا كانت التَّوبةُ مَقبولةً قبْلَ الغَرغَرةِ ولو طال الزَّمانُ، عَبَّرَ بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾[٥].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ لَمَّا كان سُبحانَه لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بسَبَبٍ، سَبَّبَ عن ذَنْبِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٩).

وعدَمِ توبتِهم قولَه تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾[١].

٤- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ أنَّ العقوبةَ بالذُّنوبِ في الآخرةِ في جهنَّمَ تندفعُ بالتَّوبةِ؛ فإنَّ التَّائبَ مِن الذَّنْبِ كمَن لا ذَنْبَ له، والتَّوبةُ مَقبولةٌ مِن جميعِ الذُّنوبِ: الكُفْرِ، والفُسوقِ، والعِصْيانِ[٢].

٥- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ دَلالةٌ على أنَّهم لو تابوا لخَرَجوا عن هذا الوَعيدِ، وذلك يدُلُّ على القَطْعِ بأنَّ اللهَ تعالى يَقبَلُ التَّوبةَ، ويدُلُّ على أنَّ تَوبةَ القاتِلِ عَمْدًا مَقبولةٌ[٣]، وقد أَجْمَعَ المسلِمونَ أنَّها مِن الكافرِ مَقبولةٌ في جملةِ تَوبتِه مِن الكُفرِ؛ لأنَّ الإسلامَ يَجُبُّ ما كان قَبْلَه[٤].

٦- في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ إشارةٌ إلى أنَّ التَّوبةَ تَهْدِمُ ما قَبْلَها[٥].

٧- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ أنَّه لَمَّا كان اللهُ سُبحانَه مِن رحمتِه قد تغَمَّد أولياءَه بعِنايتِه، ولم يَكِلْهم إلى أعمالِهم؛ لم يَجعَلْها سبَبَ سَعادتِهم؛ فلم يَقرِنْ بالفاءِ قَولَه: ﴿لَهُمْ﴾[٦].

٨- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ قيل: إنَّما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ ولم يقُلْ: «تِلْكَ»؛ لدقيقةٍ لطيفةٍ، وهي أنَّ قَولَه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى إخبارِ اللهِ تعالى

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣١).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٠).

بحُصولِ هذه الجنَّاتِ، وقَولَه: (تلك) إشارةٌ إلى الجنَّاتِ، وإخبارُ الله تعالى عن ذلك يدُلُّ على كَونِه راضيًا، والفوزُ الكَبيرُ هو رِضا اللهِ، لا حُصولُ الجنَّةِ[١].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ كلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لذِكرِ وَعيدِ المُجرِمين أوَّلًا، ثمَّ يُردِفُه بذِكرِ ما أَعَدَّ للمُؤمِنينَ[٢].

- قيل: يَجوزُ أنْ يُرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ أصحابُ الأُخْدودِ خاصَّةً، وبـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ المُطرَحونَ؛ فيَكونَ تَتميمًا لمُجرَّدِ مَعنى ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾، مِن بابِ المُظهَرِ الَّذي وُضِعَ وأُقيمَ مَوضِعَ المُضمَرِ. وقيل: يجوزُ أنْ يُرادَ: الَّذين فَتَنوا المؤمنينَ -أي: بَلَوْهُم بالأذَى- على العُموم، فـ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ عامٌّ في كلِّ مَن ابْتَلَى المؤمنينَ والمؤمناتِ بتَعذيبٍ أو أذًى؛ فمَعنى الآيةِ تَذييلٌ للكَلامِ السَّابقِ، وتَوكيدٌ لمَعنى قولِه: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾[٣]. وقيل: الَّذين فَتَنوا المُؤمِنينَ والمُؤمناتِ هُم مُشرِكو قُرَيشٍ، وليس المُرادُ أصحابَ الأُخْدودِ؛ لأنَّه لا يُلاقي قولَه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾؛ فقولُه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ فيه تَعريضٌ للمُشرِكين بالتَّرغيبِ في التَّوبةِ، وبأنَّهم إنْ تابوا وآمَنوا سَلِموا مِن عَذابِ جَهنَّمَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٣).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٩)، وما يأتي في بلاغةِ الآياتِ (ص: ٤٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٥، ٢٤٦).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٦).

- وإنْ كان قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ...﴾ جوابًا للقَسَم، كان ما بيْنَ القَسَمِ وما بيْنَ هذا كَلامًا مُعترِضًا يُقصَدُ منه التَّوطِئةُ لوَعيدِهم بالعَذابِ والهَلاكِ بذِكرِ ما تُوُعِّدَ به نَظيرُهم، وإنْ كان الجَوابُ في قولِه: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ [البروج: ٤]، كان قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بمَنزِلةِ الفَذْلَكةِ[١] لِما أُقسِمَ عليه؛ إذ المَقصودُ بالقَسَمِ وما أُقسِمَ عليه هو تَهديدُ الَّذين فَتَنوا المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ مِن مُشرِكي قُرَيشٍ. وتأْكيدُ الخَبَرِ بـ (إنَّ) للرَّدِّ على المُشرِكين الَّذين يُنكِرون أنْ تَكونَ عليهم تَبِعةٌ مِن فَتْنِ المُؤمِنينَ[٢].

- وجُملةُ ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ مُعتَرِضةٌ، و(ثمَّ) فيها للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ الاستِمرارَ على الكُفرِ أعظَمُ مِن فِتنةِ المُؤمِنينَ[٣].

- ودُخولُ الفاءِ في خبَرِ (إنَّ) مِن قولِه: ﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾؛ لأنَّ اسمَ (إنَّ) وقَعَ مَوصولًا، والموصولُ يُضمَّنُ معْنى الشَّرطِ في الاستعمالِ كثيرًا، فالتَّقديرُ: إنَّ الَّذين فَتَنوا المؤمنينَ ثمَّ إنْ لم يَتوبوا، فلَهُمْ عَذابُ جهنَّمَ؛ لأنَّ عطْفَ قولِه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ مَقصودٌ به معْنى التَّقييدِ، فهو كالشَّرطِ[٤].

- وجُملةُ ﴿وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ عَطفٌ في مَعنى التَّوكيدِ اللَّفظيِّ لجُملةِ (لَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ)، واقترانُها بواوِ العَطفِ للمُبالَغةِ في التَّأكيدِ، بإيهامِ أنَّ مَن يُريدُ زِيادةَ تَهديدِهم بوَعيدٍ آخَرَ، فلا يُوجَدُ أَعظَمُ مِن الوَعيدِ الأوَّلِ، مع ما بيْنَ عَذابِ جَهنَّمَ وعَذابِ الحَريقِ مِن اختِلافٍ في المَدلولِ، وإنْ كان مآلُ

(١) تقدَّم تعريفُها (٤٢/ ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المَدْلولَينِ واحِدًا، وهذا ضَرْبٌ مِن المُغايَرةِ يُحسِّنُ عَطْفَ التَّأكيدِ، على أنَّ الزَّجَّ بهم في عَذابِ جَهنَّمَ قبْلَ أنْ يَذوقوا حَريقَها؛ لِما فيه مِن الخِزْيِ والدَّفْعِ بهم في طَريقِهم؛ قال تعالَى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، فحَصَل بذلك اختِلافُ ما بيْنَ الجُملتَينِ[١]؛ فهُما عذابانِ مُنوَّعانِ على الكُفرِ، وعلى الفِتنةِ. أو هُما واحدٌ وأنَّه مِن عطفِ التَّفسيرِ والتَّوضيحِ. أو مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ للمُبالَغةِ فيه؛ لأنَّ عذابَ جهنَّمَ بالزَّمْهَريرِ والإحراقِ وغيرِهما[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ استِئنافًا بَيانيًّا ناشِئًا عن قولِه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ المُقتَضي أنَّهم إنْ تابوا لم يكُنْ لهم عَذابُ جَهنَّمَ، فيَتَشوَّفُ السَّامِعُ إلى مَعرِفةِ حالِهم؛ أَمَقْصورةٌ على السَّلامةِ مِن عَذابِ جَهنَّمَ، أمْ هي فوقَ ذلك؟ فأُخبِرَ بأنَّ لهم جَنَّاتٍ؛ فإنَّ التَّوبةَ الإيمانُ، فلِذلك جِيءَ بصِلةِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ دُون (تَابُوا)؛ ليَدُلَّ على أنَّ الإيمانَ والعَملَ الصَّالِحَ هو التَّوبةُ مِن الشِّركِ الباعِثِ على فَتْنِ المُؤمِنينَ، وهذا الاستِئنافُ وقَعَ مُعتَرِضًا. ويَجوزُ أنْ يَكونَ اعتِراضًا بيْنَ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠] وجُملةِ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] اعتِراضًا بالبِشارةِ في خِلالِ الإنْذارِ؛ لتَرغيبِ المُنذَرينَ في الإيمانِ، ولتَثْبيتِ المُؤمِنينَ على ما يُلاقونَه مِن أذى المُشرِكينَ، على عادةِ القُرآنِ في إرْدافِ الإرهابِ بالتَّرغيبِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧).

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بالخَبَرِ[١].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ إشارةٌ إمَّا إلى الجَنَّاتِ المَوصوفةِ، والتَّذكيرُ لتَأويلِها بـ: ما ذُكِرَ؛ للإشْعارِ بأنَّ مَدارَ الحُكمِ عُنوانُها الَّذي يَتنافَسُ فيها المُتنافِسون؛ فإنَّ اسمَ الإشارةِ مُتعرِّضٌ لذاتِ المُشارِ إليه مِن حَيثُ اتِّصافُه بأَوصافِه المَذكورةِ، لا لِذَاتِه فقط، كما هو شأْنُ الضَّميرِ، فإذا أُشيرَ إلى الجَنَّاتِ مِن حَيثُ ذِكرُها فقد اعتُبِر منها عُنوانُها المَذكورُ حَتْمًا. وإمَّا إلى ما يُفيدُه قولُه تعالَى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٌ﴾ إلخ، مِن حِيازتِهم لها؛ فإنَّ حُصولَها لهم مُستَلزِمٌ لحِيازتِهم لها قَطْعًا، وأيًّا ما كان فما فيه مِن مَعْنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلُوِّ دَرَجتِه، وبُعدِ مَنزِلتِه في الفَضلِ والشَّرفِ، ومَحلُّه الرَّفعُ على الابتِداءِ، خَبَرُه ما بَعْدَه، أي: ذلك المَذكورُ العَظيمُ الشَّأنِ ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ الَّذي تَصغُرُ عِندَه الدُّنيا وما فيها مِن فُنونِ الرَّغائبِ بحَذافيرِها، فَعلى الأوَّلِ هو مَصدَرٌ أُطلِقَ على المَفعولِ مُبالَغةً، وعلى الثَّاني مَصدَرٌ على حالِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٨).

الآيات (١٢-١٦)

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَطْشَ﴾: البطشُ: الانتقامُ، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وغَلَبةٍ[١].

﴿ٱلْوَدُودُ﴾: أي: المحِبُّ لأوليائِه، والوُدُّ أصفَى الحُبِّ وألطفُه، وأصلُ (ودد): يدُلُّ على محَبَّةٍ[٢].

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: أي صاحبُ العَرشِ، والعرشُ معروفٌ فوقَ السَّمَواتِ، وهو الَّذي استوى اللهُ عليه، وله قَوائِمُ تَحمِلُه المَلائكةُ، وهو كالقُبَّةِ على العالَمِ، وهو سَقْفُ المَخلوقاتِ وأعلاها وأكبَرُها، والعرشُ في اللُّغةِ سَريرُ المَلِكِ، وهو سريرٌ بالنِّسبةِ إلى ما فوقَه، وكالسَّقفِ بالنِّسبةِ إلى ما تحتَه، وقيل: هو في الأصلِ شيءٌ مُسقَّفٌ، وأصلُ (عرش): يدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ مَبْنيٍّ، وسُمِّيَ العرشُ بذلك؛ لارتفاعِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢) و(٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٦)، ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٨).

(٣) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١/ ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٢٠)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٧٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٨٢).
قال ابنُ تيميَّةَ: (فإذا كان القرآنُ قد جعَل لله عرشًا وليس هو بالنِّسبةِ إليه كالسَّقفِ، عُلِم أنَّه =

﴿ٱلْمَجِيدُ﴾: أي: الكامِلُ الشَّرَفِ والرِّفعةِ والكَرَمِ والصِّفاتِ المحمودةِ، والمجْدُ: العُلُوُّ والعَظَمَةُ، وأصلُ (مجد): يدُلُّ على بُلوغِ النِّهايةِ، ولا يكونُ إلَّا في محمودٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: إنَّ أخْذَ رَبِّك -يا محمَّدُ- وانتِقامَه مِنَ الكَفَرةِ والظَّلَمةِ لَقَويٌّ عَظيمٌ؛ إنَّه هو يَبدَأُ ويُوجِدُ ما يَشاءُ مِن خَلْقِه، ثمَّ يُعيدُه بَعْدَ فَنائِه، وهو الغَفورُ لذُنوبِ عِبادِه، المحِبُّ لعبادِه التَّائِبينَ والصَّالِحينَ، صاحِبُ العَرْشِ، الكامِلُ الشَّرَفِ والرِّفعةِ والكَرَمِ والصِّفاتِ المحمودةِ، وهو فَعَّالٌ في مُلْكِه وخَلْقِه ما يُريدُه سُبحانَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى وَعيدَ الَّذين فَتَنوا المؤمِنينَ والمؤمِناتِ أوَّلًا، وذَكَر وَعْدَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ ثانيًا؛ أردَفَ ذلك الوَعدَ والوعيدَ بالتَّأكيدِ؛ فقال لتأكيدِ الوَعيدِ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، ثمَّ قال لتأكيدِ الوَعْدِ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾[٢].

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾.

أي: إنَّ أخْذَ رَبِّك -يا محمَّدُ- وانتِقامَه مِنَ الكَفَرةِ والظَّلَمةِ لَقَويٌّ عَظيمٌ[٣]!

= بالنِّسبةِ إليه كالسَّريرِ بالنِّسبةِ إلى غيرِه). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٣/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٠، ٧٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال سُبحانَه: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه هو مَن يَبدَأُ بإيجادِ ما يَشاءُ مِن خَلْقِه، ثمَّ يُعيدُه بَعْدَ فَنائِه[1].

= قال ابن عاشور: (وبَطْشُ اللهِ يَشملُ تَعذيبَه إيَّاهم في جهنَّمَ، ويَشملُ ما قَبْلَه مِمَّا يَقَعُ في الآخرةِ، وما يقَعُ في الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٨).

قيل: المرادُ: يَبدَأُ إنشاءَ الخَلْقِ مِنَ العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُهم بعدَ مَوتِهم، فيَبعَثُهم أحياءً يومَ القيامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، والقُرطبيُّ ونسَبَه إلى أكثَرِ العُلَماءِ، واختاره: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، وابنُ جُرَيجٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤٧١).

قال الواحدي: (﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ الخَلْقَ؛ يَخلُقُهم أوَّلًا في الدُّنيا، ويُعيدُهم أحياءً بعدَ الموتِ. وهذا قولُ المفسِّرينَ جميعًا). ((البسيط)) (٢٣/ ٣٩٢).

وقيل: المعنى: يَبدأُ العَذابَ للكُفَّارِ في الدُّنيا، ثمَّ يُعيدُ عَذابَهم في الآخِرةِ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤٧١).

وذهب ابنُ عُثيمينَ إلى العُمومِ، فقال: (يعني: أنَّ الأمرَ إليه ابتِداءً وإعادةً؛ فهو الَّذي بدأ =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [العنكبوت: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وهو الغَفورُ لذُنوبِ عِبادِه، فيَمحوها ويُذهِبُ آثارَها، ويَستُرُها، وهو المحِبُّ لعبادِه التَّائِبينَ والصَّالِحينَ[١].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ لِقَومِه: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ قال: مَن عادى لي وليًّا فقد آذَنْتُه[٢] بالحَرْبِ، وما تقرَّبَ إلَيَّ عَبْدي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عبدي يتقرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كُنتُ سَمْعَه الَّذي يَسمَعُ به، وبَصَرَه الَّذي يُبصِرُ به، ويَدَه الَّتي

= الأشياءَ، وإليه تنتهي الأشياءُ، الأشياءُ منه وإليه في كلِّ شَيءٍ؛ الخَلقُ مِنَ اللهِ وإليه، الشَّرائِعُ مِنَ اللهِ وإليه، كُلُّ الأمورِ مِنَ اللهِ وإليه... لم يَذكُرْ ما الَّذي يَبدَؤُه، فمعناه: يَبدأُ كُلَّ شَيءٍ، ويُعيدُ كُلَّ شَيءٍ، فكُلُّ الأمرِ بيَدِه عزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٧، ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٦)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٥٣، ٣٦١-٣٦٣)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٨).

(٢) آذَنْتُه: أي: أعلَمْتُه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٥٤٤).

يَبطِشُ بها، ورِجْلَه الَّتي يَمشي بها[١]))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ تبارَك وتعالى إذا أحَبَّ عَبدًا نادى جِبريلَ: إنَّ اللهَ قد أحَبَّ فُلانًا فأَحِبَّه، فيُحِبُّه جِبْريلُ، ثمَّ يُنادي جِبْريلُ في السَّماءِ: إنَّ اللهَ قد أحَبَّ فُلانًا فأَحِبُّوه، فيُحِبُّه أهلُ السَّماءِ، ويُوضَعُ له القَبولُ في أهلِ الأرضِ))[٣].

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى مِن صِفاتِه ما تعَلُّقُه بمَخلوقاتِه بحَسَبِ ما يَستأهِلونَه مِن جزاءٍ؛ أعقَبَ ذلك بصِفاتِه الذَّاتيَّةِ على وَجهِ الاستِطرادِ والتَّكْملةِ[٤].

---

(١) أي: يَجعَلُ اللهُ حواسَّه وآلاتِه وسائِلَ إلى رِضائه، فلا يَسمَعُ إلَّا ما يُحِبُّه اللهُ ويَرضاه. وقيل: أي: يجعَلُ اللهُ سُلطانَ حُبِّه غالِبًا عليه حتَّى لا يرى إلَّا ما يُحِبُّه اللهُ تعالى، ولا يَسمَعَ إلَّا ما يحِبُّه، ولا يَفعَلُ إلَّا ما يحِبُّه، ويكونُ اللهُ سُبحانَه في ذلك له يدًا وعَونًا ووكيلًا يَحمي سَمْعَه وبَصَرَه ويَدَه ورِجْلَه عمَّا لا يَرضاه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٥٤٤).

وقال ابن رجب: (المرادُ بهذا الكلام: أنَّ مَن اجتهَد بالتَّقرُّبِ إلى الله بالفرائضِ، ثمَّ بالنَّوافلِ؛ قرَّبه إليه، ورقَّاه مِن درجةِ الإيمانِ إلى درجةِ الإحسانِ، فيَصيرُ يَعبُدُ اللهَ على الحُضورِ والمُراقَبةِ كأنَّه يَراه، فيَمتلئُ قلبُه بمعرفةِ الله تعالى، ومحَبَّتِه، وعظَمَتِه، وخَوفِه، ومَهابَتِه، وإجلالِه، والأُنسِ به، والشَّوقِ إليه، حتَّى يَصيرَ هذا الَّذي في قلبِه مِن المعرفةِ مُشاهَدًا له بعَينِ البصيرةِ...

فمتى امتلأ القلبُ بعَظَمةِ الله تعالى، مَحَا ذلك مِن القلبِ كلَّ ما سِواه، ولم يَبْقَ للعبدِ شَيءٌ مِن نفْسِه وهَواه، ولا إرادةٌ إلَّا لِما يُريدُه منه مَولاه، فحينَئذٍ لا يَنطِقُ العبدُ إلَّا بذِكْرِه، ولا يتحرَّكُ إلا بأمْرِه، فإنْ نطَقَ نطَقَ بالله، وإنْ سَمِعَ سمِعَ به، وإنْ نظَرَ نظَرَ به، وإنْ بطَشَ بطَشَ به). ((جامع العلوم والحكم)) (٢/ ٣٤٥-٣٤٧).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٣) رواه البخاري (٧٤٨٥) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٦٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٩).

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿الْمَجِيدِ﴾ بكَسْرِ الدَّالِ، صِفةً للعَرْشِ، أي: العَرْشُ المتَّصِفُ بالمجْدِ[١].

٢- قِراءةُ ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ بضَمِّ الدَّالِ، صِفةً لله سُبحانَه وتعالى، أي: اللهُ المتَّصِفُ بالمجْدِ[٢].

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾.

أي: هو الَّذي له العَرْشُ العظيمُ، وهو الَّذي له صِفاتُ الكَمالِ الكَثيرةُ الواسِعةُ[٣].

﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾.

أي: مهما أراد شيئًا فعَله، ولا يَمنَعُه مانعٌ مِن فِعلِ ما أراد في مُلْكِه وخَلْقِه، ومِن ذلك مَغفِرةُ ذُنوبِ عِبادِه المؤمِنينَ، وشِدَّةُ البَطْشِ بالكافِرينَ والظَّالِمينَ[٤].

---

(١) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٥٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٥-٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤١).

الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- اقترانُ هذينِ الاسمَينِ ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ فيه ما يَهيجُ القلبَ السَّليمَ، ويأخُذُ بمَجامعِه، ويجعَلُه عاكِفًا على ربِّه -الَّذي لا إلهَ إلَّا هو، ولا رَبَّ له سِواه- عُكوفَ المُحِبِّ الصَّادقِ على محبوبِه الَّذي لا غِنَى له عنه، ولا بُدَّ له منه، ولا تَندَفِعُ ضَرورتُه بغَيرِه أبدًا[١].

و(الوَدودُ) أصلُه مِن المَوَدَّةِ، بمعنى: وادٍّ. ويَشهَدُ لذلك أنَّ (فَعولًا) في صِفاتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى (فاعِلٌ)؛ كغَفورٍ بمعنى غافرٍ، وشَكورٍ بمعنى شاكِرٍ، وصَبورٍ بمعنى صابِرٍ، وأيضًا لاقترانِه بالغَفورِ في قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾، وبالرَّحيمِ في قَولِه: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، وفيه سِرٌّ لطيفٌ، وهو أنَّه يحِبُّ التَّوَّابينَ، وأنَّه يحِبُّ عَبْدَه بَعْدَ المغفرةِ، فيَغفِرُ له ويُحِبُّه، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فالتَّائبُ حبيبُ اللهِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ فيه تَنبيهٌ للعِبادِ إلى وُجوبِ عِبادتِه لاستِحقاقِه العِبادةَ لجَلالِه، كما يَعبُدونه لاتِّقاءِ عِقابِه، ورَجاءِ نَوالِه[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] لَطيفةٌ في اقترانِ اسمِ «الوَدودِ» بـ«الرَّحيمِ» وبـ«الغَفورِ»؛ فإنَّ الرَّجُلَ قد يَغْفِرُ لِمَن أساء إليه، ولا يُحِبُّه، وكذلك قد يَرْحَمُ مَن لا يُحِبُّ، والرَّبُّ تعالى يَغْفِرُ لعَبْدِه إذا تاب إليه، ويَرحَمُه ويُحِبُّه

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٩).

مع ذلك؛ فإنَّه يُحِبُّ التَّوَّابينَ، وإذا تاب إليه عَبْدُه أَحَبَّه، ولو كان منه ما كان[١]. فلا يُقالُ: بل تُغفَرُ ذُنوبُهم، ولا يَرجِعُ إليهم الوُدُّ، كما قاله بَعضُ الغالِطينَ[٢]. فاقترانُ الاسمَينِ فيه ردٌّ وإنكارٌ على مَن قال: لا يَعودُ الوُدُّ والمحبَّةُ منه سبحانَه لعَبْدِه أبدًا[٣]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ * ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أنَّ ثُبوتَ الصِّفاتِ لا يَستَلْزِمُ تَعَدُّدَ القُدَماءِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ نفْسَه بأوصافٍ كثيرةٍ، مع أنَّه الواحِدُ الأحَدُ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ إثباتُ صِفةِ المحبَّةِ للهِ تعالى، وهي مِن صِفاتِه الفِعْليَّةِ؛ فإنَّ الوُدَّ: خالِصُ المحبَّةِ، ولا يجوزُ تفسيرُ المحبَّةِ بالثَّوابِ؛ لأنَّه مخالِفٌ لظاهرِ اللَّفظِ، وإجماعِ السَّلَفِ، وليس عليه دَليلٌ[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ إثباتُ إرادةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وهو كذلك؛ فإنَّه تعالى له إرادةٌ كامِلةٌ تامَّةٌ في خَلْقِه، حتَّى فيما يتعَلَّقُ بأفعالِ الخَلْقِ، لا يكونُ فِعْلٌ مِن النَّاسِ إلَّا بإرادةِ اللهِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]؛ فعَلَّقَ مَشيئتَهم بمشيئتِه سُبحانَه وتعالى[٦].

٥- لَفظُ الإرادةِ في كِتابِ اللهِ تعالى نَوعانِ:

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٩).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٧١).

(٦) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٤٢).

إرادةٌ كَونيَّةٌ شامِلةٌ لجَميعِ المخلوقاتِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ [الإسراء: ١٦]، وقَولِه تعالى: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، ونظائرِ ذلك.

وإرادةٌ دِينيَّةٌ أَمْريَّةٌ لا يجبُ وُقوعُ مُرادِها، كقَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[1] [النساء: ٢٧].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ رَدٌّ على المُعتَزِلةِ القائلينَ: إنَّه تعالى لا يُريدُ الشَّرَّ. وقد دَلَّت هذه الآيةُ أنَّ جَميعَ أفعالِ العِبادِ مَخلوقةٌ للهِ تعالى[2].

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ دليلٌ على أُمورٍ:

أحَدُها: أنَّه سُبحانَه يَفعَلُ بإرادتِه ومَشيئتِه.

الثَّاني: أنَّه لم يَزَلْ كذلك؛ لأنَّه ساق ذلك في مَعرِضِ المدحِ والثَّناءِ على نَفْسِه، وأنَّ ذلك مِن كَمالِه سُبحانَه؛ فلا يجوزُ أن يكونَ عادمًا لهذا الكَمالِ في وَقتٍ مِن الأوقاتِ، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وما كان مِن أوصافِ كَمالِه ونُعوتِ جَلالِه لم يكُنْ حادِثًا بَعْدَ أنْ لم يكُنْ.

الثَّالِثُ: أنَّه إذا أراد شيئًا فَعَلَه؛ فإنَّ «ما» مَوصولةٌ عامَّةٌ، أي: يَفعَلُ كلَّ ما يريدُ أن يفعَلَه، وهذا في إرادتِه المتعلِّقةِ بفِعْلِه، وأمَّا إرادتُه المتعلِّقةُ بفِعلِ العَبدِ فتلك لها شأنٌ آخَرُ؛ فإنْ أراد فِعْلَ العَبْدِ ولم يُرِدْ مِن نَفْسِه أن يُعينَه عليه ويجعَلَه فاعِلًا، لم يُوجَدِ الفِعلُ وإن أراده، حتَّى يُريدَه مِن نَفْسِه أن يجعَلَه فاعِلًا.

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥١٥).

الرَّابعُ: أنَّ فِعْلَه سُبحانَه وإرادتَه مُتلازِمانِ؛ فما أراد أن يَفعَلَه فَعَلَه، وما فَعَلَه فقد أرادَه، بخِلافِ المخلوقِ؛ فإنَّه يُريدُ ما لا يَفعَلُ، وقد يَفعَلُ ما لا يُريدُ، فما ثَمَّ فعَّالٌ لِما يُريدُ إلَّا اللهُ وَحْدَه.

الخامِسُ: إثباتُ إراداتٍ متعدِّدةٍ بحَسَبِ الأفعالِ، وأنَّ كلَّ فعلٍ له إرادةٌ تخصُّه، وهذا هو المعقولُ في الفِطَرِ، وهو الَّذي يَعقِلُه النَّاسُ مِن الإرادةِ، فشَأنُه تعالى أنْ يُريدَ على الدَّوامِ، ويَفعَلَ ما يُريدُ.

السَّادِسُ: أنَّ كُلَّ ما صحَّ أن تتعَلَّقَ به إرادتُه جازَ فِعْلُه؛ فإذا أراد أن يَنزِلَ كُلَّ لَيلةٍ إلى سماءِ الدُّنيا، وأن يَجيءَ يومَ القيامةِ لِفَصلِ القَضاءِ، وأن يُرِيَ نفْسَه لِعِبادِه، وأنْ يَتجلَّى لهم كيف شاء، وأن يُخاطِبَهم، ويَضحَكَ إليهم، وغيرَ ذلك ممَّا يريدُ سُبحانَه- لم يمتَنِعْ عليه فِعْلُه؛ فإنَّه فعَّالٌ لِما يُريدُ، وإنَّما يتوقَّفُ صحَّةُ ذلك على إخبارِ الصَّادِقِ به، فإذا أخبَرَ به وجَبَ التَّصديقُ به، وكان رَدُّهُ ردًّا لكمالِه الَّذي أخبَرَ به عن نَفْسِه، وهذا عَينُ الباطِلِ، وكذلك إذا أمكَنَ إرادتُه سُبحانَه مَحْوَ ما شاء، وإثباتَ ما شاء؛ أمكَنَ فِعْلُه، وكانت تلك الإرادةُ والفِعلُ مِن مُقتَضَياتِ كَمالِه المقَدَّسِ[1].

٨- قدِ اشتملتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ -على اختِصارِها- مِن التَّوحيدِ على: وَصْفِه سُبحانَه بالعِزَّةِ المتضَمِّنةِ للقُدرةِ والقوَّةِ وعدمِ النَّظيرِ، والحمدِ المتضمِّنِ لصِفاتِ الكمالِ والتَّنزيهِ عن أضْدادِها، مع محَبَّتِه وإلَهيَّتِه ومُلْكِه السَّمواتِ والأرضَ المتضَمِّنِ لكمالِ غِناه وسَعَةِ مُلْكِه، وشَهادتِه على كلِّ شيءٍ المتضمِّنِ لعُمومِ اطِّلاعِه على ظَواهرِ الأمورِ وبَواطِنِها، وإحاطةِ بصرِه بمَرئيَّاتِها، وسمْعِه بمَسموعاتِها، وعِلْمِه بمعلوماتِها، ووَصْفِه بشِدَّةِ البَطشِ المتضمِّنِ لكمالِ القوَّةِ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٥-٩٧).

والعِزَّةِ والقُدرةِ، وتَفَرُّدِه بالإبداءِ والإعادةِ المتضمِّنِ لتوحيدِ رُبوبيَّتِه، وتصرُّفِه في المخلوقاتِ بالإبداءِ والإعادةِ، وانقيادِها لقُدرتِه، فلا يَستعصي عليه منها شيءٌ، ووَصْفِه بالمغفرةِ المتضمِّنِ لكمالِ جُوْدِه وإحسانِه وغِناه ورحمتِه، ووصْفِه بالوَدودِ المتضمِّنِ لكَونِه حبيبًا إلى عبادِه، مُحِبًّا لهم، ووصْفِه بأنه ذو العرشِ الَّذي لا يَقْدُرُ قَدْرَه سِواه، وأنَّ عَرْشَه المختصَّ به لا يليقُ بغيرِه أنْ يستويَ عليه! ووصْفِه بالمَجْدِ المتضمِّنِ لسَعَةِ العِلمِ والقدرةِ والمُلْكِ والغِنى والجُودِ والإحسانِ والكرمِ، وكَونِه فعَّالًا لِما يُريدُ المتضمِّنِ لحياتِه وعِلْمِه وقدرتِه ومشيئتِه وحِكمتِه وغيرِ ذلك مِن أوصافِ كمالِه. فهذه السُّورةُ كتابٌ مستقِلٌّ في أصولِ الدِّينِ تَكفي مَن فَهِمَها؛ فالحمدُ للهِ الَّذي أَنْزَلَ على عبْدِه الكتابَ، وتبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرقانَ على عبْدِه[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ استِئنافٌ خُوطِبَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إيذانًا بأنَّ لكُفَّارِ قَومِه نَصيبًا مَوفورًا مِن مَضمونِه، كما يُنْبِئُ عنه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، معَ الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فهو كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا يُكابِدُه مِن كُفَّارِ قَومِه. أو هو عِلَّةٌ لمَضمونِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، أي: لأنَّ بَطْشَ اللهِ شَديدٌ على الَّذين فَتَنوا الَّذين آمَنوا به؛ فمَوقِعُ (إنَّ) في التَّعليلِ يُغْني عن فاءِ التَّسبُّبِ[2].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٧، ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٣٥).

- وأُكِّدَ الكَلامُ بـ (إِنَّ) واللَّامِ[١].

- والبَطْشُ: الأَخْذُ بالعُنفِ، ووُصِفَ بالشِّدَّةِ؛ للدَّلالةِ على تَضاعُفِه وتَفاقُمِه. ووُجِّهَ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ بَطْشَ اللهِ بالَّذين فَتَنوا المُؤمِنينَ فيه نَصرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَثبيتٌ له[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ هذه الجُملةُ تَصلُحُ لأنْ تَكونَ استِئنافًا ابتِدائيًّا، انتُقِلَ به مِن وَعيدِهم بعَذابِ الآخِرةِ إلى تَوعُّدِهم بعَذابٍ في الدُّنيا يَكونُ مِن بَطْشِ اللهِ، أُردِفَ به وَعيدُ عَذابِ الآخِرةِ؛ لأنَّه أوقَعُ في قُلوبِ المُشرِكين؛ إذ هُم يَحسَبونَ أنَّهم في أَمْنٍ مِن العِقابِ؛ إذ هُم لا يُصدِّقون بالبَعثِ، فحَسِبوا أنَّهم فازوا بطِيبِ الحياةِ الدُّنيا، والمَعنى: أنَّ اللهَ يَبطِشُ بهم في البَدْءِ والعَوْدِ، أي: في الدُّنيا والآخِرةِ. وتَصلُحُ لأنْ تَكونَ تَعليلًا لجُملةِ ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]؛ لأنَّ الَّذي يُبْدئُ ويُعيدُ قادِرٌ على إيقاعِ البَطْشِ الشَّديدِ في الدُّنيا، وهو: الإبْداءُ، وفي الآخِرةِ، وهو: إعادةُ البَطْشِ. وتَصلُحُ لأنْ تَكونَ إدْماجًا[٣] للاستِدلالِ على إمْكانِ البَعثِ، أي: إنَّ اللهَ يُبْدِئُ الخَلْقَ ثمَّ يُعيدُه. وحُذِفَ مَفعولَا الفِعلَينِ ﴿يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾؛ لإفادةِ أنَّه يُبدِئُ المَخلوقاتِ كلَّها ويُعيدُها بأَسْرِها، ولقَصْدِ عُمومِ تَعلُّقِ الفِعلَينِ بكُلِّ ما يَقَعُ ابتِداءً، ويُعادُ بعدَ ذلك؛ فشَمِلَ بَدْءَ الخَلْقِ وإعادتَه، وهو: البَعثُ، وشَمِلَ البَطْشَ الأوَّلَ في الدُّنيا، والبَطْشَ في الآخِرةِ، وشَمِلَ إيجادَ الأَجيالِ وإخْلافَها بعدَ هَلاكِ أوائِلِها، وفي هذه الاعتِباراتِ مِن التَّهديدِ للمُشرِكين مَحامِلُ كَثيرةٌ؛ فدَلَّ باقتِدارِه على الإبْداءِ والإعادةِ على

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥١٨).

شِدَّةِ بَطْشِه، وأَوعَدَ الكَفَرةَ بأنَّه يُعيدُهم كما أَبدَأَهم ليَبطِشَ بهم؛ إذ لم يَشْكروا نِعمةَ الإبْداءِ، وكَذَّبوا بالإعادةِ[١].

- وضَميرُ (هُوَ) للتَّقَوِّي، أي: لتَحقيقِ الخَبَرِ، ولا مَوقِعَ للقَصرِ هُنا؛ إذْ ليس في المَقامِ ردٌّ على مَن يَدَّعي أنَّ غيرَ اللهِ يُبدِئُ ويُعيدُ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ * ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، ومَضمونُها قَسيمٌ لمَضمونِ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ لأنَّه لَمَّا أُفيدَ تَعْليلُ مَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠] إلى آخِرِه، ناسَبَ أنْ يُقابَلَ بتَعليلِ مَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ [البروج: ١١] إلى آخِرِه، فعُلِّلَ بقَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾، فهو يَغفِرُ للَّذين تابوا وآمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ ما فَرَطَ منهم، وهو يُحِبُّ التَّوَّابين ويَوَدُّهم[٣].

- والوَدودُ مُبالَغةٌ في (الوادِّ)[٤].

- وخَصَّ العَرشَ في قولِه: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ بإضافةِ نفْسِه تَشْريفًا للعَرشِ، وتَنبيهًا على أنَّه أَعظَمُ المَخلوقاتِ[٥]، ولأنَّه أخصُّ المخلوقاتِ بالقُربِ منه تعالى[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

- وقدْ ذُيِّلَ ذلك بصِفةٍ جامعةٍ لعَظَمته الذَّاتيَّةِ وعَظَمةِ نِعَمِه بقَولِه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، أي: إذا تَعلَّقَتْ إرادتُه بفعلٍ فَعَلَه على أكمَلِ ما تعَلَّقَتْ به إرادتُه، لا يَنقُصُه شَيءٌ، ولا يُبْطِئُ به ما أَرادَ تَعجيلَه؛ فصِيغةُ المُبالَغةِ في قولِه: ﴿فَعَّالٌ﴾ للدَّلالةِ على الكَثرةِ في الكَمِّيَّةِ والكَيفيَّةِ[1].

- وقولُه: ﴿فَعَّالٌ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، وإنَّما فَصَلَه -أي: لم يَعطِفْه على ما قبْلَه-؛ لأنَّه كالفَذْلَكةِ[2] للأوصافِ السَّابِقةِ والخاتِمةِ لها. والتَّنكيرُ لضَرْبٍ مِن التَّعظيمِ، يَتَلاشى عندَه الأوْهامُ والعُقولُ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧٦).

الآيات (١٧-٢٢)

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّحِيطُۢ﴾: أي: عالِمٌ بهم، وقادِرٌ عليهم، وهم لا يُعجِزونَه ولا يَفوتونَه، وأصلُ (حوط): يدُلُّ على الشَّيءِ يُطيفُ بالشَّيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما يدُلُّ على شدَّةِ بَطْشِه: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ الجُنودِ الَّذين بَطَش اللهُ بهم فأهلَكَهم؛ فِرْعَونَ وثمودَ؟! ولا يَعتَبِرُ كُفَّارُ قُرَيشٍ بما حَلَّ بفِرعَونَ وثَمودَ، بل هم في تكذيبٍ بالقُرآنِ والبَعْثِ والحسابِ، واللهُ مُطَّلِعٌ على أعمالِهم، وسيُجازيهم عليها. ثمَّ يردُّ الله على المكذِّبينَ بالقرآنِ، فيقولُ: بل هو قُرآنٌ عَظيمٌ، واسِعُ المعاني والعُلومِ والهِداياتِ، كامِلُ الصِّفاتِ، كَثيرُ الخَيراتِ والبَرَكاتِ، في لَوحٍ مَحفوظٍ مَصُونٍ عن التَّغييرِ والتَّبديلِ، وعن وُصولِ الشَّياطينِ إليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا ذكَر الله تعالى قصصَ أصحابِ الأخدودِ وبيَّن حالَهم، ووصَف ما كان مِن إيذائِهم للمؤمنينَ- أردَف ذلك ببيانِ أنَّ حالَ الكفَّارِ في كلِّ عصرٍ كذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٥)، ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ١٠٦).

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧﴾.

أي: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ الجنودِ الَّذين بَطَش اللهُ بهم فأهلَكَهم؛ لكُفْرِهم باللهِ ورُسُلِه[1]؟

﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨﴾.

أي: فِرْعَونَ الَّذي كَذَّبَ هو وقَومُه بموسى عليه السَّلامُ، وقَومِ ثَمودَ الَّذين كَذَّبوا نبيَّهم صالِحًا عليه السَّلامُ[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ * وَفِرۡعَوۡنَ ذِى ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ [الفجر: ٩، ١٠].

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكۡذِيبٍ ١٩﴾.

أي: لا يَعتَبِرُ كُفَّارُ قُرَيشٍ بما حَلَّ بفِرعَونَ وثَمودَ؛ فسَجِيَّتُهم الدَّائِمةُ وعادتُهم المستَمِرَّةُ هي شِدَّةُ التَّكذيبِ بالقُرآنِ والبَعْثِ والجنَّةِ والنَّارِ، فهم مُنغَمِسونَ فيه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٠).

قال ابنُ كثير: (هذا تقريرٌ لِقَولِه: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، أي: إذا أخَذَ الظَّالِمَ أخَذَه أخذًا أليمًا شديدًا، أخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢).

وممَّن قال بأنَّ الخِطابَ هنا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير، والقُرطُبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٠).

وقال ابنُ عثيمين: (الخِطابُ هنا موَجَّهٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو لكُلِّ مَن يَصِحُّ أن يَتوَجَّهَ إليه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥١).

عنادًا منهم، واتِّباعًا لأهوائِهم[١].

كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الروم: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ [ص: ٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢].

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا طَيَّبَ سُبحانَه قَلْبَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بحِكايةِ أحوالِ الأوَّلِينَ في هذا البابِ؛ سَلَّاه بَعْدَ ذلك مِن وَجهٍ آخَرَ[٢]، فقال:

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾.

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على أعمالِهم، وسيُجازيهم عليها؛ فهُم في قَبْضتِه، وهو قادِرٌ على عَذابِهم، فلا يُعجِزونَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤١).
قال البِقاعي: (لَمَّا كان التَّقديرُ: نعَمْ قد أتاني ذلك وعَلِمْتُ مِن خبَرِهما وغيرِه أنَّك قادرٌ على ما تُريدُ، ولكنَّ الكفَّارَ لا يُصَدِّقونَني؛ عطَف عليه قولَه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٢).

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

تعلُّقُ هذا بما قَبْلَه هو أنَّ هذا القُرآنَ مَجيدٌ مَصونٌ عن التَّغَيُّرِ والتَّبَدُّلِ، فلمَّا حَكَم فيه بسَعادةِ قَومٍ وشَقاوةِ قَومٍ، وبتأذِّي قَومٍ مِن قَومٍ؛ امتنَع تغَيُّرُه وتبَدُّلُه؛ فوَجَب الرِّضا به، ولا شَكَّ أنَّ هذا مِن أعظَمِ مُوجِباتِ التَّسليةِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر أنَّهم في تَكذيبٍ، وأنَّ التَّكذيبَ عَمَّهم حتَّى صارَ كالوِعاءِ لهم، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد كَذَّبوه وكَذَّبوا ما جاءَ به -وهو القُرآنُ-؛ أخبَرَ تعالى عن الَّذي جاءَ به فكَذَّبوا، فقال[٢]:

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ الكُفَّارُ في القُرآنِ، وإنَّما هو قُرآنٌ عَظيمٌ، واسِعُ المعاني والعُلومِ والهِداياتِ، كامِلُ الصِّفاتِ، كَثيرُ الخَيراتِ والبَرَكاتِ[٣].

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَفَه في نَفْسِه بما يأبَى له لَحاقَ شَيءٍ مِن شُبهةٍ؛ وَصَف محَلَّه في الملأِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٦، ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٤).

الأعلى إعلامًا بأنَّه لا يَطرَأُ عليه ما يُغَيِّرُه؛ فقال تعالى[١]:

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿مَحْفُوظٌ﴾ بضَمِّ الظَّاءِ، صِفةً للقُرآنِ، أي: القُرآنُ مَحفوظٌ[٢].

٢- قِراءةُ: ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ بكَسْرِ الظَّاءِ، صِفةً للَّوحِ، أي: القُرآنُ في اللَّوحِ المحفوظِ[٣].

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: القَرآنُ مَكتوبٌ في لَوحٍ مَحفوظٍ مَصُونٍ عن التَّغييرِ والتَّبديلِ، والزِّيادةِ والنُّقصانِ، ومحفوظٍ وسالِمٍ مِن وُصولِ الشَّياطينِ إليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٧).

(٢) قرأ بها نافعٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٧)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٦/ ٣٩٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٧)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٦/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٣).
ممَّن قال في الجملةِ: إنَّ المرادَ: مَحفوظٌ مِن الزِّيادةِ والنَّقصِ، والتَّحريفِ والتَّبديلِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٣).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ: محفوظٌ عندَ الله تعالى مِن وُصولِ الشَّياطينِ إليه: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٨).
وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والسعدي. يُنظر: =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩].

= ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: هو قرآنٌ كريمٌ، مُثبَتٌ في لَوحٍ محفوظٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٦).

وقال الواحدي: (﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ عندَ الله، وهو أُمُّ الكتابِ، منه نُسِخ القرآنُ والكُتبُ، وهو الَّذي يُعرَفُ باللَّوحِ المحفوظِ مِن الشَّياطينِ، ومِن الزِّيادةِ فيه والنُّقصانِ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٦٣).

وقال ابنُ عاشور: (اللَّوحُ كائِنٌ قُدسِيٌّ مِن كائناتِ العالَمِ العُلويِّ المغَيَّباتِ... واقتَضَت هذه الآيةُ أنَّ القُرآنَ كُلَّه مُسَجَّلٌ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٣).

وقال ابن عثيمين: (القرآنُ الكريمُ: هل هو مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ بهذه الآياتِ والحروفِ، أو أنَّ المكتوبَ في اللَّوحِ ذِكْرُه، وأنَّه سيَنزِلُ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّه سيَكونُ نورًا وهُدًى للنَّاسِ، وما أشْبَهَ ذلك؟

ففيه احتِمالٌ: إنْ نَظَرْنا إلى ظاهرِ النُّصوصِ، قُلْنا: إنَّ ظاهرَها أنَّ القرآنَ كلَّه مكتوبٌ جُملةً وتفصيلًا، وإنْ نَظَرْنا إلى أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يتكلَّمُ بالقرآنِ حينَ نُزولِه، قُلْنا: إنَّ الَّذي كُتِب في اللَّوحِ المحفوظِ ذِكرُ القرآنِ، ولا يَلزَمُ مِن كَونِ ذِكْرِه في اللَّوحِ المحفوظِ أن يكونَ قد كُتِب فيه؛ كما قال الله تعالى عن القرآنِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]؛ يعني: كُتُبَ الأوَّلينَ، ومعلومٌ أنَّ القرآنَ لم يوجَدْ نصُّه في الكُتبِ السَّابقةِ، وإنَّما وُجِد ذِكرُه، ويمكنُ أن نقولَ مِثلَها في قولِه تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ * فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾، أي: ذِكرُه في هذا اللَّوحِ). ((شرح العقيدة الواسطية)) (٢/ ١٩٧، ١٩٨).

واختار في موضعٍ آخَرَ أنَّ المعنى أنَّه ذُكِر في اللَّوحِ المحفوظِ بالمَجْدِ وبالعَظَمةِ. يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢١٣).

وقال أيضًا: (قولُه تعالى: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ يعني بذلك اللَّوحَ المحفوظَ عندَ الله عزَّ وجلَّ، الَّذي هو أُمُّ الكتابِ، كما قال اللهُ تبارَك وتعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]. وهذا اللَّوحُ كتَبَ اللهُ به مَقاديرَ كلِّ شَيءٍ، ومِن جملةِ ما كتب به أنَّ هذا القرآنَ سيَنزِلُ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فهو في لَوحٍ محفوظٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۞ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ كان مِن نبَأِ فِرعَونَ وثمودَ فائِدتانِ:

الأُولى: تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَقْويتُه، وأنَّ الَّذي نَصَر رُسُلَه مِن قَبْلُ سوف يؤَيِّدُه ويَنصُرُه ويُعَزِّزُه، وهذا لا شَكَّ أنَّه يُقَوِّي العزيمةَ، ويَشحَذُ الهِمَمَ في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وتبليغِ رِسالاتِه.

والفائدةُ الثَّانيةُ: تهديدٌ ووَعيدٌ شديدٌ لقُرَيشٍ الَّذين كَذَّبوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووَقَفوا له بالمِرْصادِ، وأنَّهم ليسوا أشَدَّ قُوَّةً مِن فِرعَونَ وثَمودَ، ومع ذلك أصابَهم الدَّمارُ والهلاكُ، ووقع عليهم كَلِمةُ العَذابِ[(١)].

٢- خَتَمَ الله تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بذِكْرِ فِعْلِه وعُقوبتِه بمَن أَشْرَكَ به وكَذَّبَ رُسُلَه؛ تحذيرًا لعبادِه مِن سُلوكِ سَبيلِهم، وأنَّ مَن فَعَلَ فِعْلَهم فُعِلَ به كما فُعِلَ بهم[(٢)].

٣- أَخْبَرَ الله تعالى عن أعدائِه بأنَّهم مكذِّبون بتَوحيدِه ورِسالاتِه مع كَونِهم في قبضتِه، وهو محيطٌ بهم! ولا أَسْوَأَ حالًا ممَّن عادَى مَن هو في قبضتِه، ومَن هو قادرٌ عليه مِن كلِّ وجْهٍ وبكلِّ اعتبارٍ! فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۞ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾، فهل هناك أعجَبُ ممن كفَرَ بمَن هو محيطٌ به، وآخِذٌ بناصيتِه، قادرٌ عليه[(٣)]؟!

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ وَصْفُ القُرآنِ بأنَّه مَجيدٌ لا يَعني أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المجْدَ وَصْفٌ للقُرآنِ نفْسِه فقط، بل هو وَصفٌ للقُرآنِ، ولِمَن تحَمَّل هذا القُرآنَ فحمَلَه، وقام بواجِبِه مِن تِلاوَتِه حَقَّ تِلاوَتِه؛ فإنَّه سيَكونُ لهم المجدُ والعِزَّةُ والرِّفعةُ[١]. فمَن تمسَّكَ بهذا القرآنِ العظيمِ فلَه المجدُ والعِزَّةُ والكَرامةُ والرِّفْعةُ؛ فيَنبغي على الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ -أفرادِ شُعوبِها، ووُلاةِ أُمورِها- أنْ يتمَسَّكوا بالقُرآنِ العظيمِ، وألَّا يَغُرَّهم البَهْرَجُ المزَخرَفُ الَّذي يَرِدُ مِن الأممِ الكافرةِ، فيَنبِذوا كِتابَ اللهِ تعالى وسُنَّةَ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم وراءَ ظُهورِهم! فإنَّ هذا واللهِ سَبَبُ التَّأخُّرِ، فلمْ تتأخَّرْ أُمَّتُنا الإسلاميَّةُ هذا التَّأخُّرَ إلَّا بسببِ تركِ ما به عِزَّتُها وكرامتُها، وهو التَّمَسُّكُ بهذا القُرآنِ العظيمِ[٢]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ سؤالٌ عن الجَمْعِ بيْن لَفظةِ: «الجُنودِ» مع لَفظةِ «فِرْعونَ»؛ لأنَّ فِرعَونَ ليس جُندًا، وإنَّما هو رجُلٌ بعَينِه!

الجوابُ: أنَّ المرادَ بـ«فِرعونَ» هو وقَومُه، فاكتفى بذِكْرِه؛ لأنَّهم تَبَعٌ له، وتحتَ طاعتِه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ مُشاكَلةٌ ومُشابهةٌ في اختيارِ فِرعَونَ هنا بعْدَ أصحابِ الأُخدودِ؛ إذ فِرعَونُ طغَى وادَّعَى الرُّبوبيَّةَ كمَلِكِ أصحابِ الأُخدودِ الَّذي قال لجليسِه: «ألَك رَبٌّ غيري؟!»[٤]، ولتعذيبِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٢، ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٦).
ويُنظر ما يأتي في بلاغة الآيات (ص: ٧١).

(٤) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٧).

بني إسرائيلَ بتقتيلِ الأولادِ واستحياءِ النِّساءِ: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]، ولتقديمِ الآياتِ والبراهينِ على صِدْقِ الدَّاعيةِ؛ إذ موسى عليه السَّلامُ قَدَّم لفِرعَونَ مِن آياتِ رَبِّه الكُبرى؛ فكَذَّب وعَصى، والغلامُ قَدَّم لهذا المَلِكِ الآياتِ الكُبرى: إبراءَ الأكْمَهِ والأبرَصِ بإذْنِ اللهِ، وعَجْزِ فِرعَونَ عن موسى وإدراكِه، وعَجْزِ الملِكِ عن قَتْلِ الغُلامِ؛ إذ نجَّاه اللهُ مِن الإغراقِ والسُّقوطِ مِن قِمَّةِ الجَبَلِ؛ فكان لهذا أن يَرعويَ عن ذلك ويتفَطَّنَ للحقيقةِ، ولكِنَّ سُلطانَه أعماه كما أعمى فِرعَونَ، وكذلك آمَنَ السَّحَرةُ لَمَّا رأوا آيةَ موسى، وخَرُّوا لله سُجَّدًا، وهكذا هنا آمَنَ النَّاسُ برَبِّ الغُلامِ؛ فوقع الملِكُ فيما وقع فيه فِرعَونُ؛ إذ جمَعَ فِرعَونُ السَّحَرةَ لِيَشهَدَ النَّاسُ عَجْزَ موسى وقُدْرتَه، فانقلب الموقِفُ عليه، وكان أوَّلَ النَّاسِ إيمانًا هم أعوانُ فِرعَونَ على موسى، وهكذا هنا كان أسرَعَ النَّاسِ إيمانًا الَّذين جمَعَهم الملِكُ لِيَشهَدوا قَتْلَه للغُلامِ! فظهر تَناسُبُ ذِكرِ فِرعَونَ دونَ غَيرِه مِنَ الأُمَمِ الطَّاغيةِ السَّابقةِ، وإن كان في الكُلِّ عِظةٌ وعِبرةٌ، ولكِنْ هذا منتهى الإعجازِ في قَصَصِ القُرآنِ وأُسلوبِه[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ﴾ بيانُ أنَّ حالَ المُؤمِنينَ مع الكُفَّارِ في جميعِ الأزمِنةِ مُستَمِرَّةٌ على هذا النَّهْجِ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾ الوَعيدُ الشَّديدُ للكافِرينَ مِن عُقوبةِ مَن هم في قَبضتِه، وتحتَ تَدبيرِه[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ يعني: مِنَ التَّغييرِ والزِّيادةِ والنَّقصِ، ومحفوظٍ مِن الشَّياطينِ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ الَّذي قد أثبتَ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

اللهُ فيه كُلَّ شَيءٍ، وهذا يدُلُّ على جَلالةِ القُرآنِ وجَزالتِه، ورِفعةِ قَدْرِه عِندَ اللهِ تعالى[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الشَّياطينَ لا يُمكِنُهم التَّنَزُّلُ به؛ لأنَّ مَحَلَّه محفوظٌ أنْ يَصِلوا إليه، وهو في نفْسِه محفوظٌ أنْ يَقْدِرَ الشَّيطانُ على الزِّيادةِ فيه والنُّقصانِ؛ فوَصَفَه سُبحانَه بأنَّه مَحفوظٌ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ووَصَفَ مَحَلَّه بالحِفْظِ في هذه السُّورةِ؛ فاللهُ سُبحانَه حَفِظَ مَحَلَّه، وحَفِظَه مِن الزِّيادةِ والنُّقصانِ والتَّبديلِ، وحَفِظَ معانيَه مِن التَّحريفِ كما حَفِظَ ألفاظَه مِن التَّبديلِ، وأقام له مَن يَحْفَظُ حُروفَه مِن الزِّيادةِ والنُّقصانِ، ومَعانيَه مِن التَّحريفِ والتَّغييرِ[٢].

٧- وَصَفَ الله تعالى كلامَه بأنه مجيدٌ -وهو أحقُّ بالمَجدِ مِن كلِّ كلامٍ- كما أنَّ المتكلِّمَ به له المجدُ كلُّه، فهو المجيدُ، وكلامُه مجيدٌ، وعَرشُه مجيدٌ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾

- قولُه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لشِدَّةِ بَطْشِه تعالَى بالظَّلَمةِ العُصاةِ، والكَفَرةِ والعُتاةِ، وكَونُه فَعَّالًا لِما يُريدُ مُتضمِّنٌ لتَسليتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالإشْعارِ بأنَّه سيُصيبُ قَومَه ما أَصابَ الجُنودَ، أي: هل أتاك يا مُحمَّدُ خَبرُ الجُموعِ الكافِرةِ المُكذِّبةِ لأنبيائِهم[٤]؟ فالخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٣٥، ٤٣٦).

وسلَّم؛ للاستِدلالِ على كَونِ بَطْشِه تعالَى شَديدًا ببَطْشَينِ بَطَشَهما بفِرعَونَ وثَمودَ، بعْدَ أنْ عَلَّلَ ذلك بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣]؛ فذلك تَعليلٌ، وهذا تَمثيلٌ ودَليلٌ(١).

- وأيضًا قولُه: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾ تَقريرٌ لحالِ الكَفَرةِ، أي: قد أتاك حَديثُهم، وما جَرَى لهم مع أنبيائِهم، وما حَلَّ بهم مِن العُقوباتِ بسَببِ تَكذيبِهم، فكذلك يَحُلُّ بقُريشٍ مِن العَذابِ مِثلُ ما حَلَّ بهم(٢). فـ ﴿هَلۡ﴾ في قولِه: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾ قيل: إنَّها بمَعنى (قدْ)، وضُمِّنَ معْنى التَّعجُّبِ؛ بدَلالةِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾؛ ليُفيدَ التَّرقِّيَ مِن التَّعجيبِ إلى التَّعجيبِ في الإضْرابِ الأوَّلِ، والتَّرقِّيَ مِن التَّكذيبِ إلى التَّكذيبِ في الإضرابِ الثَّاني؛ فأمْرُهم أعجَبُ مِن أمْرِ فِرعونَ وثَمودَ؛ لأنَّهم سَمِعوا بقَصَصِهم وبِما جَرَى عليْهم، ورَأَوا آثارَ هَلاكِهم؛ ولم يَعتَبِروا، وكَذَّبوا أَشَدَّ مِن تَكذيبِهم(٣). والاستِفهامُ هنا مُستَعمَلٌ في إرادةِ تَهويلِ حَديثِ الجُنودِ بأنَّه يُسأَلُ عن عِلمِه، وفيه تَعريضٌ للمُشرِكين بأنَّهم قد يَحُلُّ بهم ما حَلَّ بأولئك. والخِطابُ لغَيرِ مُعيَّنٍ ممَّن يُرادُ موعِظتُه مِن المُشرِكين -على قولٍ-، كِنايةً عن التَّذكيرِ بخَبَرِهم؛ لأنَّ حالَ المُتَلبِّسينَ بمِثلِ صَنيعِهم، الرَّاكِبين رُؤوسَهم في العِنادِ، كَحالِ مَن لا يَعلَمُ خَبَرَهم، فيُسأَلُ: هل بَلَغَه خَبَرُهم أو لا؟ أو خِطابًا لغَيرِ مُعيَّنٍ، تَعجيبًا مِن حالِ المُشرِكين في إعْراضِهم عن الاتِّعاظِ بذلك؛ فيَكون الاستِفهامُ مُستَعمَلًا في التَّعجيبِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٠).

- وفي قولِه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أُبدِلَ ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ مِن ﴿ٱلْجُنُودِ﴾ بَدَلًا مُطابِقًا؛ لأنَّ المُرادَ بـ﴿فِرْعَوْنَ﴾ هو وقَومُه، ولأنَّه أُريدَ العِبرةُ بهؤلاء، والكَلامُ على حَذْفِ مُضافٍ؛ لأنَّ فِرعَونَ ليس بجُندٍ، ولكنَّه مُضافٌ إليه الجُندُ الَّذين كَذَّبوا مُوسى عليه السَّلامُ وآذَوه؛ فحُذِفَ المُضافُ لنُكْتةِ المُزاوَجةِ بيْنَ اسْمَينِ عَلَمَينِ مُفرَدَينِ في الإبْدالِ مِن الجُنودِ[١].

- واختصَرَ ما جَرى لِفرعونَ وثَمودَ؛ إذْ هُم مَذكورونَ في غيرِ ما سُورةٍ مِن القُرآنِ الكريمِ، وذكَرَ ثَمودَ؛ لشُهرةِ قِصَّتِهم في بِلادِ العرَبِ، وهي مُتقدِّمةٌ، وذكَرَ فِرعونَ؛ لشُهرةِ قِصَّتِه عندَ أهلِ الكِتابِ، وعندَ العرَبِ الجاهليَّةِ أيضًا[٢].

وأيضًا تَخصيصُ ثَمودَ بالذِّكرِ مِن بَقيَّةِ الأُمَمِ الَّتي كَذَّبَتِ الرُّسُلَ مِن العَرَبِ مِثلَ: عادٍ وقَومِ تُبَّعٍ، ومِن غَيرِهم مِثلَ: قَومِ نُوحٍ وقَومِ شُعَيبٍ؛ قيل: لِمَا اقتَضَتْه الفاصِلةُ الجاريةُ على حرْفِ الدَّالِ مِن قولِه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]؛ فإنَّ ذلك لَمَّا استَقامَتْ به الفاصِلةُ ولم يكُنْ في ذِكرِه تَكلُّفٌ، كان مِن مَحاسِنِ نَظْمِ الكَلامِ إيثارُه[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ * وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾

- قولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾ إضْرابٌ عن مُماثَلةِ كُفَّارِ قُريشٍ لقَومِ فِرعونَ وثَمودَ، وبَيانٌ لكَونِهم أَشَدَّ منهم في الكُفرِ والطُّغيانِ، كأنَّه قيلَ: لَيسُوا مِثلَهم في ذلك، بلْ هم أشَدُّ منهم في استِحقاقِ العَذابِ، واستِيجابِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٢).

العِقابِ؛ فإنَّهم مُستَقِرُّونَ في تَكذيبٍ شَديدٍ للقُرآنِ الكَريمِ، أو قيلَ: ليستْ جِنايتُهم مُجرَّدَ عَدَمِ التَّذكُّرِ والاتِّعاظِ بما سَمِعوا مِن حَديثِهم، بلْ هُم مع ذلك في تَكذيبٍ شَديدٍ للقُرآنِ النَّاطقِ بذلك، لكنْ لا أنَّهم يُكذِّبون بوُقوعِ الحادِثةِ، بلْ بكَونِ ما نَطَقَ به قُرآنًا مِن عندِ اللهِ تعالى، مع وُضوحِ أمْرِه، وظُهورِ حالِه بالبيِّناتِ الباهِرةِ[1]! فهو إضْرابٌ انتِقاليٌّ إلى إعْراضِهم عن الاعتِبارِ بحالِ الأُمَمِ الَّذين كَذَّبوا الرُّسُلَ؛ وهو أنَّهم مُستَمِرُّون على التَّكذيبِ، مُنغَمِسون فيه انغماسَ المَظروفِ في الظَّرفِ، فجُعِلَ تَمكُّنُ التَّكذيبِ مِن نُفوسِهم كتَمَكُّنِ الظَّرفِ بالمَظروفِ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ إحاطةَ التَّكذيبِ بهم إحاطةُ الظَّرفِ بالمَظروفِ، لا يَترُكُ لتَذَكُّرِ ما حَلَّ بأمْثالِهم مِن الأُمَمِ مَسلَكًا لعُقولِهم؛ ولهذا لم يَقُلْ هنا: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾، كما قال في سورةِ (الانشقاقِ)[2].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ التَّكذيبِ هنا؛ لظُهورِه مِن المقامِ؛ إذ التَّقديرُ: أنَّهم في تَكذيبٍ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبالوحْيِ المنزَّلِ إليه، وبالبَعثِ[3].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ﴾، أي: هم مُتَمَكِّنون مِن التَّكذيبِ، واللهُ يُسلِّطُ عليْهم عِقابًا لا يُفْلِتون منه[4]. وقوبِلَ جَزاءُ إحاطةِ التَّكذيبِ بالكافِرين بإحاطةِ العَذابِ بهم جَزاءً وِفاقًا؛ فقولُه: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ خَبَرٌ مُستعمَلٌ في الوَعيدِ والتَّهديدِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ إضْرابُ إبْطالٍ؛ ردٌّ لكُفرِهم، وإبْطالٌ لتَكذيبِهم، وتَحقيقٌ للحَقِّ؛ لأنَّ القُرآنَ جاءَهم بدَلائلَ بَيِّنةٍ، فاستِمْرارُهم على التَّكذيبِ ناشئٌ عن سُوءِ اعتِقادِهم في القُرآنِ؛ إذ وَصَفوه بصِفاتِ النَّقْصِ مِن قَولِهم: أَساطيرُ الأوَّلين، إفْكٌ مُفْترًى، قَولُ كاهِنٍ، قَولُ شاعِرٍ...؛ فكان التَّنويهُ به جامِعًا لإبْطالِ جَميعِ تُرَّهاتِهم على طَريقةِ الإيجازِ[١].

- والإخْبارُ عن الوَحيِ المُنَزَّلِ على مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باسْمِ «قُرآنٍ»، إشارةٌ عُرفيَّةٌ إلى أنَّه مُوحًى به، تَعريضٌ بإبْطالِ ما اختَلَقَه المُكذِّبون أنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ، أو قَولُ كاهِنٍ، أو نَحوَ ذلك[٢].

- وعلى قِراءةِ الجُمهورِ ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ بالجَرِّ، على أنَّه صِفةُ ﴿لَوْحٍ﴾، وحِفظُ اللَّوحِ الَّذي فيه القُرآنُ كِنايةٌ عن حِفظِ القُرآنِ، وقرَأَ نافِعٌ وحْدَه برَفعِ ﴿مَحْفُوظٌ﴾، على أنَّه صِفةٌ ثانيةٌ لـ (قُرآنٌ)، ويَتَعلَّقُ قولُه: ﴿فِي لَوْحٍ﴾ بـ﴿مَحْفُوظٌ﴾، وحِفظُ القُرآنِ يَستَلزِمُ أنَّ اللَّوحَ المُودَعَ هو فيه مَحفوظٌ أيضًا؛ فلا جَرَمَ حَصَلَ مِن القِراءتَينِ ثُبوتُ الحِفظِ للقُرآنِ وللَّوحِ؛ فأمَّا حِفظُ القُرآنِ فهو حِفظُه مِن التَّغييرِ ومِن تَلَقُّفِ الشَّياطينِ، قال تعالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وأمَّا حِفظُ اللَّوحِ فهو حِفظُه عن تَناوُلِ غَيرِ المَلائكةِ إيَّاه، أو حِفظُه كِنايةً عن تَقديسِه، كقولِه تعالَى: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[٣] [الواقعة: ٧٨، ٧٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٥٤، ٢٥٥).

ويُنظر ما تقدَّم في القراءاتِ ذاتِ الأثرِ في التَّفسيرِ (ص: ١١٢).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ
سُورَةِ الطَّارِقِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الطَّارِقِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الطَّارِقِ)[١].

وسُمِّيَت أيضًا بـ (السَّماءِ والطَّارِقِ)؛ فعن جابرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في الظُّهرِ والعَصرِ بـ «السَّماءِ والطَّارِقِ»، و«السَّماءِ ذاتِ البُروجِ» ونَحْوِهما مِنَ السُّوَرِ))[٢].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بها في الظُّهرِ والعَصرِ:

كما في حديثِ جابرِ بنِ سَمُرةَ -رَضِيَ اللهُ عنه- المتقَدِّمِ.

بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الطَّارِقِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

إقامةُ الأدِلَّةِ على قدرةِ الله تعالى، وإثباتُ أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِه سُبحانَه،

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ بذلك: ذِكرُ لَفظِ الطَّارِقِ في أوَّلِها؛ في قَولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٨٠٥)، وأحمدُ (٢١٠١٨) واللَّفظُ لهما، والترمذيُّ (٣٠٧)، والنسائيُّ (٩٧٩) باختلافٍ يسيرٍ.
قال الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٨٠٥): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (١٨٢٧)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٣٩)، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٢١٠١٨) وتخريج ((سنن أبي داود)) (٨٠٥).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٧٨).

وأنَّ العاقِبةَ للمُتَّقينَ[١].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- القَسَمُ على أنَّ كُلَّ نفْسٍ عليها حَفَظةٌ مِنَ الملائِكةِ.

٢- إقامةُ الأدِلَّةِ على أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على البَعثِ.

٣- التَّنويهُ بشَأنِ القُرآنِ الكريمِ، وصِدقِ ما ذُكِرَ فيه من البَعثِ، وإثباتُ أنَّه مِن عندِ اللهِ تعالى.

٤- تهديدُ المُشرِكينَ، وتَثبيتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووَعْدُه بأنَّ العاقِبةَ للمُؤمِنينَ.

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٥١).

الآيات (١-١٠)

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلطَّارِقِ﴾: أي: الكوكَبِ أو النَّجمِ الَّذي يَظهَرُ باللَّيلِ ويَختفي بالنَّهارِ، يُقالُ: طَرَقَ يَطرُقُ طُروقًا، أي: جاء لَيلًا، وأصلُ (طرق): يدُلُّ على الإتيانِ مَساءً[1].

﴿ٱلثَّاقِبُ﴾: أي: المُضيءُ المتوَهِّجُ، يُقالُ: ثَقَبَ النَّجمُ: إذا أضاء، وأصلُ (ثقب): يدُلُّ على نَفاذِ الشَّيءِ[2].

﴿مَّآءٖ دَافِقٖ﴾: أي: ذي دَفْقٍ، أو مَدفوقٍ، والدَّفْقُ: صَبٌّ فيه دَفعٌ وسَيَلانٌ بسُرعةٍ، وهو المَنِيُّ، وأصلُ (دفق): يدُلُّ على دَفعِ الشَّيءِ قُدُمًا[3].

﴿ٱلصُّلۡبِ﴾: أي: الظَّهرِ، وقيل: كلُّ شَيءٍ مِن الظَّهرِ فيه فَقارٌ فهو صُلبٌ، وأصلُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٣٠).

قال ابن فارس: (﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ قالُوا: هو نَجْمٌ يَنْفُذُ السَّمواتِ كُلَّها نورُه). ((مقاييس اللغة)) (١/ ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٠٨).

(صلب) هنا: يدُلُّ على الشِّدَّةِ والقوَّةِ، وسُمِّيَ الظَّهرُ صُلْبًا؛ لِقُوَّتِه وصَلابَتِه وشِدَّتِه[١].

﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾: أي: ضُلوعِ الصَّدرِ، ومَوضِعِ القِلادةِ مِنه، واحِدتُها: تَريبةٌ، وأصلُ (ترب) هنا: يدُلُّ على تساوي الشَّيئَينِ[٢].

﴿تُبْلَى﴾: أي: تُختَبَرُ وتَظهَرُ، وأصلُ (بلو): يدُلُّ على الاختبارِ[٣].

﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: أي: سرائِرُ القُلوبِ مِن العقائِدِ والنِّيَّاتِ والأعمالِ، جمعُ سريرةٍ، وأصلُ (سرر): يدُلُّ على إخفاءِ الشَّيءِ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٤).

قال ابن عاشور: (﴿ٱلصُّلْبِ﴾: العُمودِ العَظميِّ الكائنِ في وسَطِ الظَّهرِ، وهو ذو الفقراتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٧).

قال ابن عاشور: («التَّرائِبِ»: جمعُ تَرِيبَةٍ، ويُقالُ: تَرِيبٌ. ومُحَرَّرُ أقوالِ اللُّغَوِيِّينَ فيها أنَّها عِظامُ الصَّدْرِ الَّتي بيْنَ التَّرْقُوَتَينِ والثَّدْيَينِ، ووسَموه بأنَّه مَوضِعُ القِلادةِ مِن المرأةِ. والتَّرائِبُ تُضافُ إلى الرَّجُلِ وإلى المرأةِ، ولكِنَّ أكثرَ وُقوعِها في كلامِهم في أوصافِ النِّساءِ؛ لعدمِ احْتِياجِهم إلى وَصْفِها في الرِّجالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥).

﴿إِن﴾: نافيةٌ، ﴿كُلُّ﴾ مُبتدَأٌ، ﴿لَّمَّا﴾: أداةُ حَصرٍ بمعنَى «إلَّا»، ﴿عَلَيْهَا﴾: جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بمَحذوفٍ خَبَرٌ مُقدَّمٌ. ﴿حَافِظٌ﴾: مُبتدَأٌ مُؤخَّرٌ مرفوعٌ. والجملةُ ﴿عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ في محَلِّ رَفعٍ خَبَرُ «كُلُّ». والجُملةُ كُلُّها جوابُ القَسَمِ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ.

وقُرِئَ ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ بتَخفيفِ «ما» في ﴿لَّمَّا﴾[1]، فـ﴿إِن﴾ هي المخَفَّفةُ مِنَ الثَّقيلةِ، و﴿لَمَا﴾: اللَّامُ فارِقةٌ، و«ما» مزيدةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى: إنَّ الشَّأنَ كُلُّ نَفْسٍ لَعَلَيها حافِظٌ. فـ﴿عَلَيْهَا﴾: جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بمَحذوفٍ خَبَرٌ مُقدَّمٌ. ﴿حَافِظٌ﴾: مُبتدَأٌ مُؤخَّرٌ مرفوعٌ. والجملةُ «لَعَلَيْهَا حافِظٌ» في محَلِّ رَفعٍ خَبَرُ ﴿كُلُّ﴾. والجُملةُ كُلُّها في محَلِّ رَفعٍ خبَرُ «إنْ» المخَفَّفةِ مِن الثَّقيلةِ، والجُملةُ ﴿إِن كُلُّ ...﴾ جوابُ القَسَمِ أيضًا لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالسَّماءِ والطَّارِقِ الَّذي يَظهَرُ لَيلًا، ثمَّ قال تعالى: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بالطَّارِقِ؟! هو النَّجْمُ المتوَقِّدُ النَّافِذُ؛ أُقسِمُ ما مِن إنسانٍ إلَّا وعليه ملائِكةٌ حَفَظةٌ.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى الإنسانَ بالتَّفكُّرِ في نشأتِه الأُولى، فيقولُ: فلْيَنظُرِ الإنسانُ مِن أيِّ شَيءٍ خُلِقَ؟

---

(١) قرَأ عاصِمٌ وحمزةُ وابنُ عامرٍ وأبو جَعفرٍ: ﴿لَّمَّا﴾ بتَشديدِ الميمِ، والباقونَ بتَخفيفِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٥٢)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ١١٨، ١١٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٠٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٢٩٩).

ثمَّ يُجيبُ عن هذا السُّؤالِ، فيقولُ: خُلِقَ مِن مَنِيٍّ مُنصَبٍّ يَخرُجُ ذلك المنيُّ مِن بيْنِ الصُّلبِ وعِظامِ الصَّدْرِ. ومِن ثَمَّ يُبَيِّنُ اللهُ تعالى قُدرتَه على بعثِ الإنسانِ بعدَ مَوتِه، فيقولُ: إنَّ اللهَ قادِرٌ على رَجْعِ الإنسانِ حَيًّا بعْدَ مَوتِه يومَ تَظهَرُ سَرائِرُ النَّاسِ، وما كانوا يُخفونَه مِن خَيرٍ وشَرٍّ، ويُجازَونَ عليه، فما للإنسانِ يومَ القيامةِ مِن قُوَّةٍ يَدفَعُ بها عذابَ اللهِ، ولا ناصِرٍ يَنصُرُه ويُنقِذُه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾.

أي: أُقسِمُ بالسَّماءِ، وأُقسِمُ بالطَّارِقِ الَّذي يَظهَرُ لَيلًا[1].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾.

أي: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بالطَّارِقِ الَّذي عظَّمْتُه بالقَسَمِ به[2]؟

﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾.

أي: هو النَّجْمُ المتوقِّدُ النَّافِذُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠).
ممَّن اختار أنَّ معنى: ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾: المُضيءُ المُنيرُ، الَّذي يتَوقَّدُ ضياؤُه ويَتوهَّجُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١١٧)، =

﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر المُقسَمَ به؛ أتْبَعَه بذِكرِ المُقسَمِ عليه[1].

﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤﴾.

أي: ما مِن إنسانٍ إلَّا وعليه ملائِكةٌ حَفَظةٌ[2].

= ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٩١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

قال الزمخشري: (كأنَّه يَثقُبُ الظَّلامَ بضَوئِه فيَنفُذُ فيه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٤).

قال الفرَّاءُ: (ويُقالُ: إنَّ الثَّاقِبَ هو النَّجمُ الَّذي يُقالُ له: زُحَلُ. والثَّاقِبُ: الَّذي قد ارتفَع على النُّجومِ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٥٤).

وقال القرطبيُّ: (عن ابنِ عبَّاسٍ وعَطاءٍ: ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾: الَّذي تُرْمَى به الشَّياطينُ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١).

وقال الواحدي: (﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ اسمُ الجنسِ، وأُريدَ به العُمومُ في قولِ أهلِ المعاني، وأكثَرِ أهلِ التَّفسيرِ، وهو قولُ الكلبيِّ، ومُقاتِلٍ، وقَتادةَ، والحسَنِ، والفرَّاءِ، والزَّجَّاجِ.

وقال ابنُ زَيدٍ: أراد به الثُّرَيَّا، والعربُ تُسَمِّيه النَّجمَ...

وروى أبو الجَوزاءِ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه زُحَلُ. والقولُ هو الأوَّلُ). ((البسيط)) (٢٣/ ٤٠٤، ٤٠٥).

ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤٦).

وقال السعدي: (الصَّحيحُ أنَّه اسمُ جِنسٍ يَشمَلُ سائرَ النُّجومِ الثَّواقِبِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٧).

قيل: المرادُ: يَحفَظونَ أعمالَه ويُحصُونَها. ومِمَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ أنَّ كُلَّ نفْسٍ عليها حافِظٌ؛ أتْبَعَ ذلك بوَصيَّةِ الإنسانِ بالنَّظَرِ في أوَّلِ أمرِه ونَشأتِه الأُولى؛ حتَّى يَعلَمَ أنَّ مَن أنشأه قادِرٌ على إعادتِه وجزائِه، فيَعمَلَ لذلك، ولا يُملِيَ على حافِظِه إلَّا ما يَسُرُّه في عاقِبتِه[1].

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾.

أي: فلْيَنظُرِ الإنسانُ مُتفَكِّرًا مِن أيِّ شَيءٍ خلَقه ربُّه سُبحانَه[2].

= ومكي، والواحدي، والبغوي، وابن عطية، ونسَبَه ابنُ جُزَي للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧١).

وقيل: المرادُ: كُلُّ نفْسٍ عليها مِنَ اللهِ حافِظٌ مِن الملائكةِ يَحرُسُها مِن الآفاتِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٥).

وقال البِقاعي جامِعًا بيْن هذه المعاني: (المرادُ به الجِنسُ مِنَ الملائِكةِ؛ فبَعضُهم لحِفْظِها مِن الآفاتِ، وبَعضُهم لحِفْظِها مِنَ الوَساوسِ، وبَعضُهم لحِفظِ أعمالِها وإحصائِها بالكِتابةِ، وبَعضُهم لحِفظِ ما كُتِبَ لها مِن رِزقٍ وأجَلٍ، وشَقاوةٍ أو سعادةٍ، ومَشيٍ ونِكاحٍ، وسَفَرٍ وإقامةٍ، فلا يتعَدَّى شيئًا مِن ذلك...، فإنْ قُلتَ: إنَّ الحافِظَ الملائكةُ، صَدَقْتَ، وإنْ قُلْتَ: إنَّه اللهُ، صدَقْتَ؛ لأنَّه الآمِرُ لهم والمقَدِّرُ على الحِفظِ، والحافِظُ لهم مِنَ الوهمِ والزَّيغِ، فهو الحافِظُ الحقيقيُّ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((التبيان في أقسام =

كما قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۞ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٧، ١٨].

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾.

أي: خُلِقَ مِن مَنِيٍّ مُنصَبٍّ يخرُجُ دَفْقًا[١].

= القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧٧، ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٨).

قال ابن القيِّم: (فلْيَنظُرْ نظَرَ الفِكرِ والاسْتِدلالِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٠١).

قيل: المرادُ بالإنسانِ هنا: المكذِّبُ بالبَعثِ، المُنكِرُ له. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابن عطية، والرَّسْعَني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٨٠).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ: ابنُ آدَمَ، وكلُّ إنسانٍ. وممَّن قال به: القرطبيُّ، وابنُ عادل، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٨).

قيل: المرادُ به: ماءُ الرَّجُلِ، وماءُ المرأةِ. ومِمَّن قال به: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧٧، ٣٧٨).

ويقرِّرُ بعضُ المعاصرينَ أنَّ الماءَ الدَّافِقَ الَّذي يُخلَقُ منه الإنسانُ يُقصَدُ به ماءُ كلٍّ مِن الرَّجُلِ والمرأةِ، وسُمِّيَ دافِقًا؛ لأنَّه يَخرُجُ مِن مصدرِه متدَفِّقًا، فماءُ الرَّجُلِ يخرُجُ مِن خُصْيَتَيْه ويحمِلُ الحيواناتِ المَنَويَّةَ، وماءُ المرأةِ هو الماءُ المحيطُ بالبُوَيْضةِ في داخلِ حُوَيْصِلةٍ معروفةٍ باسم (حويصلة جراف) بالمِبْيَضِ، فإذا انفجرَتْ هذه الحُوَيْصِلةُ تدَفَّقَ هذا الماءُ لِيَدفَعَ بالبُوَيْضةِ إلى بُوقِ قناةِ الرَّحِمِ حتَّى تَلتقي بالحيَوانِ المَنَويِّ، ويخرُجُ هذا الماءُ مِن المرأةِ مرَّةً واحدةً في الشَّهرِ. يُنظر: ((مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي)) لزغلول النجار (ص: ٢٢٤)، ((خلق الإنسان =

كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۞ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾.

أي: يَخرُجُ هذا الماءُ -الَّذي خَلَق اللهُ منه الإنسانَ- مِن بيْنِ الصُّلبِ وعِظامِ الصَّدْرِ(١).

= بين الطب والقرآن)) للبار (ص: ١٢٣).

وقال ابنُ عاشور: (معنى: ﴿دَافِقٍ﴾ خارِجٌ بقُوَّةٍ وسُرعةٍ، والأشهَرُ أنَّه يقالُ على نُطفةِ الرَّجُلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٢، ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٨).

ذكر ابنُ القيِّمِ أنَّه لا خِلافَ في أنَّ المرادَ بالصُّلْبِ: صُلبُ الرَّجُلِ. يُنظر: ((إعلام الموقعين)) (١/ ١١٢، ١١٣).

واختُلِفَ في التَّرائِبِ؛ فقيل: المرادُ: تَرائِبُ المرأةِ، وهي عِظامُ الصَّدرِ في مَوضِعِ القِلادةِ وفَوقَ الثَّدْيَينِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، والواحديُّ، والزمخشري، وابن كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٥٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧٨).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ: صُلْبُ الرَّجُلِ وتَرائبُ المرأةِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والكلبيُّ، وسُفْيانُ الثَّوريُّ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥).

وقيل: المرادُ: ترائِبُ الرَّجُلِ، وهي عِظامُ صَدْرِه أيضًا. واستظهَر هذا القولَ: ابنُ القيِّمِ، ومالَ إليه السعديُّ، واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٢، ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٨).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ: صُلبُ الرَّجُلِ وترائبُه: الحسَنُ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥). =

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَدَر الصَّانِعُ على جَمعِ تلك الأجزاءِ المتفرِّقةِ حتَّى خَلَق منها إنسانًا سَوِيًّا، وَجَب أن يُقالَ: إنَّه بَعْدَ مَوتِه وتفرُّقِ أجزائِه لا بُدَّ أن يَقدِرَ الصَّانِعُ على جَمعِ تلك الأجزاءِ، وجَعْلِها خَلْقًا سَوِيًّا كما كان أوَّلًا؛ ولهذا السِّرِّ لَمَّا بَيَّن تعالى دَلالتَه على

= قال ابنُ عُثيمين: (إنْ قُلْنا بالقَولِ الرَّاجِحِ: إنَّ الصُّلبَ والتَّرائِبَ وَصْفانِ للرَّجُلِ؛ لأنَّ الماءَ الدَّافِقَ هو ماءُ الرَّجُلِ، أمَّا المرأةُ فلا يكونُ ماؤها دافِقًا، وعلى هذا فيكونُ الإنسانُ مخلوقًا مِن ماءِ الرَّجُلِ، لكِنْ ماءُ الرَّجْلِ وَحْدَه لا يكفي، لا بُدَّ أن يتَّصِلَ بالبُوَيْضةِ الَّتي يُفرِزُها رَحِمُ المرأةِ، فيَزدَوِجُ هذا بهذا، ويكونُ الإنسانُ مخلوقًا مِن الأمْرَينِ جميعًا، أي: مِن أبيه وأمِّه). ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٢٥).

وقيل: المرادُ: صُلْبُ الرَّجُلِ وترائبُه، وصُلبُ المرأةِ وترائبُها. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، وابن عجيبة، والمراغي، وحسنين مخلوف. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٢٨٢)، ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٠٦) و(٣٠/ ١١٢)، ((صفوة البيان لمعاني القرآن)) لحسنين مخلوف (ص: ٧٩٧). ويُنظر أيضًا: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٥٥).

قال ابن عطية: (قولُه تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، قال قَتادةُ والحسَنُ وغيرُهما: معناه: مِن بيْنِ صُلبِ كلِّ واحدٍ مِن الرَّجُلِ والمرأةِ وترائبِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٥). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧).

قال المراغي: (وهو الموافقُ لِما أثبَتَه العِلمُ حديثًا). ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ١١١).

وقال أيضًا: (مِن بيْنِ الصُّلبِ والتَّرائبِ في كلٍّ مِن الرَّجُلِ والمرأةِ، كما دلَّ على ذلك عِلمُ الأجنَّةِ). ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٠٦).

وقد قرَّر بعضُ المعاصرينَ أنَّ كُلًّا مِن ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ -وقد سبق بيانُهما (ص: ٨٥)- يخرُجُ مِن بيْن الصُّلبِ والتَّرائبِ؛ فالغُدَدُ التَّناسُليَّةُ في الرَّجُلِ والمرأةِ تَنشأُ مِن هذا المكانِ، وتستمِرُّ تغذيتُهما منه، فالخُصْيةُ والمِبْيَضُ يَقَعانِ في بَدءِ تكوينِهما ما بيْن منتصَفِ العمودِ الفِقريِّ تقريبًا ومقابلَ أسفَلِ الضُّلوعِ. يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ١١٢)، ((مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي)) لزغلول النجار (ص: ٢٢٦)، ((خلق الإنسان بين الطب والقرآن)) للبار (ص: ١٢٤).

المبدَأِ؛ فَرَّع عليه أيضًا دَلالتَه على صِحَّةِ المَعادِ؛ فقال تعالى[١]:

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨﴾.

أي: إنَّ اللهَ الخالِقَ قادِرٌ على رَجْعِ الإنسانِ حَيًّا بَعْدَ مَوتِه[٢].

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أقام سُبحانَه الدَّليلَ على صِحَّةِ القَولِ بالبَعْثِ والقيامةِ؛ وَصَف حالَ الإنسانِ في ذلك اليومِ، فقال تعالى[٣]:

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٧، ٣٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٣-١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧٩، ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥).

قال ابنُ الجوزيِّ: (وفي هذه الهاءِ قولانِ:

أحَدُهما: أنَّها تعودُ على الإنسانِ، ثمَّ في المعنى قولانِ؛ أحَدُهما: أنَّه على إعادةِ الإنسانِ حَيًّا بعْدَ مَوتِه قادِرٌ. قاله الحسَنُ، وقَتادةُ. قال الزَّجَّاجُ: ويدُلُّ على هذا القَولِ قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾.

والثَّاني: أنَّه على رَجْعِه مِن حالِ الكِبَرِ إلى الشَّبابِ، ومِنَ الشَّبابِ إلى الصِّبا، ومِنَ الصِّبا إلى النُّطْفةِ: قادِرٌ. قاله الضَّحَّاكُ.

والقَولُ الثَّاني: أنَّها تعودُ على الماءِ، ثمَّ في معنى الكلامِ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: رَدُّ الماءِ في الإحليلِ. قاله مجاهِدٌ. والثَّاني: على رَدِّه في الصُّلْبِ. قاله عِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ. والثَّالثُ: على حَبْسِ الماءِ فلا يَخرُجُ. قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١٢).

وقد ضَعَّف ابنُ القيِّمِ قَولَ مَن قال: المرادُ رَدُّ الماءِ في الإحليلِ، وقَولَ مَن قال: المرادُ رَدُّ الماءِ في الصُّلْبِ. ونَصَر القَولَ بأنَّ المرادَ رَجْعُ الإنسانِ حَيًّا يومَ القيامةِ، مِن عَشَرةِ وُجوهٍ. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢١).

أي: يَومَ تَظهَرُ سَرائِرُ النَّاسِ، فيَتبَيَّنُ ما كانوا يُخفونَه مِن خَيرٍ وشَرٍّ، ويُجازَونَ على ما يَستَحِقُّونَه مِن ثَوابٍ وعِقابٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠].

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الامتِناعُ في الدُّنيا إمَّا بقُوَّةٍ في الإنسانِ، وإمَّا بناصرٍ خارجٍ عن نَفْسِه؛ نفى عنه تعالى ما يمتَنِعُ به[٢].

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ١٠﴾.

أي: فما للإنسانِ يومَ القيامةِ مِن قُوَّةٍ يَدفَعُ بها عذابَ اللهِ، ولا ناصِرٍ له يَنصُرُه ويُنقِذُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٠).

قال ابنُ القيِّم: (أخبَرَ سُبحانَه عن حالِ الإنسانِ في يومِ القيامةِ أنَّه غَيرُ مُمتنِعٍ مِن عَذابِ اللهِ؛ لا بقُوَّةٍ منه، ولا بقُوَّةٍ مِن خارجٍ، وهو النَّاصِرُ؛ فإنَّ العَبدَ إذا وقعَ في شِدَّةٍ فإمَّا أن يَدفَعَها بقُوَّتِه أو قُوَّةِ مَن يَنصُرُه، وكِلاهما معدومٌ في حَقِّه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٠٦).

كما قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٤ - ٢٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ النَّظرُ في الشَّيءِ الَّذي خُلِق منه؛ لقولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾، وظاهِرُ القُرآنِ: أنَّ النَّظَرَ في ذلك واجِبٌ، ولا دليلَ يَصرِفُ عن ذلك[١]، فيَجِبُ على كلِّ إنسانٍ أن يَنظُرَ في مَراحِلِه وتاريخِ مَراحِلِه؛ حتَّى يَفهَمَ الآخِرةَ؛ لأنَّ اللهَ أمَرَه بذلك[٢].

٢- أمْرُ الإنسانِ بأن يَنظُرَ مِمَّ خُلِقَ في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ تنبيهٌ له على حَقارةِ ما خُلِقَ منه؛ لِيَعرِفَ قَدْرَه، ويَترُكَ التَّكبُّرَ والعُتُوَّ، ويدُلُّ لذلك قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] الآيةَ[٣]. فالآيةُ فيها عِظَةٌ للإنسانِ، وتنبيهٌ له على معرفةِ خَلْقِه، وضَعْفِ تركيبِه، وعلى ما يُزيلُ به دواعيَ الكِبْرِ والنَّخوةِ عن نفْسِه، فلا يُنازِعُ فيها خالقَه الَّذي لا يُشارِكُه في الكبرياءِ والعَظَمةِ، ولا يَستطيلُ به على المخلوقينَ؛ إذْ مَن يكونُ هذا بَدْءَ خَلْقِه، ثُمَّ يصيرُ آخِرُه إلى البِلَى والرُّفاتِ إلى أنْ يُجَدِّدَ اللهُ خَلْقَه بالنُّشُورِ يومَ يُحيي العِظامَ النَّخِرةَ والأجسامَ البالِيةَ: جديرٌ بألَّا يُفارِقَه الذُّلُّ والاستِكانةُ في جميعِ الأحوالِ[٤].

٣- أنَّ المهِمَّ العنايةُ بصَلاحِ القَلبِ؛ لأنَّه هو الَّذي عليه مَدارُ الحِسابِ يومَ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٠٩).

القيامةِ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۞ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، أي: تُختَبَرُ السَّرائِرُ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ لطيفةٌ في التَّعبيرِ عن الأعمالِ بالسِّرِّ، وهي أنَّ الأعمالَ نتائجُ السَّرائرِ الباطنةِ، فمَن كانت سَريرتُه صالحةً كان عمَلُه صالحًا؛ فتبدو سريرتُه على وجهِه نورًا وإشراقًا وحياءً، ومَن كانت سَريرتُه فاسدةً كان عمَلُه تابعًا لسَريرتِه، ولا اعتبارَ بصورتِه؛ فتبدو سريرتُه على وجهِه سَوادًا وظُلمةً وشَيْنًا، وإنْ كان الَّذي يبدو عليه في الدُّنيا إنَّما هو عَمَلُه لا سَريرتُه، فيومَ القيامةِ تبدو عليه سريرتُه، ويكونُ الحُكْمُ والظُّهورُ لها[٢]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۞ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا قُوَّةَ للعَبدِ ذلك اليومَ؛ لأنَّ قُوَّةَ الإنسانِ إمَّا أن تكونَ له لِذَاتِه، أو مُستفادةً مِن غيرِه؛ فالأوَّلُ مَنفيٌّ بقَولِه تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ﴾، والثَّاني مَنفيٌّ بقَولِه: ﴿وَلَا نَاصِرٖ﴾، ولا شَكَّ أنَّه زَجرٌ وتَحذيرٌ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَلَّ أن تَجيءَ سُورةٌ في القُرآنِ الكريمِ إلَّا وفيها ذِكرُ السَّماءِ؛ إمَّا إخبارًا عن عِظَمِها وسَعَتِها، وإمَّا إقسامًا بها، وإمَّا دُعاءً إلى النَّظَرِ فيها، وإمَّا إرشادًا للعِبادِ أن يَستَدِلُّوا بها على عَظَمةِ بانيها ورافِعِها، وإمَّا استِدلالًا منه سُبحانَه بخَلْقِها على ما أخبَرَ به مِنَ المَعادِ والقيامةِ، وإمَّا استِدلالًا منه برُبوبيَّتِه لها على وَحدانيَّتِه، وأنَّه اللهُ الَّذي لا إلهَ إلَّا هو، وإمَّا استدلالًا منه بحُسْنِها واستِوائِها والْتِئامِ أجزائِها وعدَمِ الفُطورِ فيها على تَمامِ حِكمتِه وقُدرتِه، وكذلك ما فيها مِن الكَواكِبِ والشَّمسِ والقَمَرِ والعَجائبِ الَّتي تَتقاصَرُ عُقولُ البشَرِ عن قليلِها، فكم مِن قَسَمٍ في القُرآنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٢).

بها؛ كقَولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥] ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ [الطارق: ١١] ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]! فلم يُقسِم اللهُ تعالى في كتابِه بشَيءٍ مِن مخلوقاتِه أكثَرَ مِن السَّماءِ والنُّجومِ والشَّمسِ والقَمَرِ، وهو سُبحانَه يُقسِمُ بما يُقسِمُ به مِن مخلوقاتِه؛ لتضَمُّنِه الآياتِ والعَجائِبَ الدَّالَّةَ عليه، وكلَّما كان أعظَمَ آيةً وأبلَغَ في الدَّلالةِ، كان إقسامُه به أكثَرَ مِن غَيرِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ سؤالٌ: كيف يُقْسِمُ اللهُ سُبحانَه وتعالى بالمخلوقاتِ، مع أنَّ القَسَمَ بالمخلوقاتِ شِرْكٌ؛ لِقَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن حَلَفَ بغيرِ الله فقد كَفَرَ أو أَشْرَكَ))[٢]، وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((مَن كان حالِفًا فلْيَحْلِفْ باللهِ أو لِيَصْمُتْ))[٣]؟ فلا يجوزُ الحَلِفُ بغيرِ اللهِ؛ لا بالأنبياءِ، ولا بالملائكةِ، ولا بالكَعْبةِ، ولا بالوطَنِ، ولا بأيِّ شيءٍ مِن المخلوقاتِ!

الجوابُ: أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى له أنْ يُقْسِمَ بما شاء مِن خَلْقِه، وإقسامُه بما يُقْسِمُ به مِن خَلْقِه يدُلُّ على عَظَمةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ لأنَّ عِظَمَ المخلوقِ يدُلُّ على عِظَمِ الخالقِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٦).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٣٢٥١)، والترمذيُّ (١٥٣٥) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٦٠٧٢) مِن حديثِ عبدِ الله ابنِ عُمرَ رضيَ الله عنهما.
حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّحه ابنُ تيميَّةَ كما في ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (١/ ٢٨)، وابنُ القيِّم في ((الوابل الصيب)) (١٨٩)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٣/ ١٤٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٢٥١).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٦٧٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٦٤٦) من حديثِ عبدِالله بنِ عُمرَ رضيَ الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٦).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ سؤالٌ عن وجهِ الجَمعِ مع قولِه تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] في أنَّ أصلَ بني آدمَ مِن الطِّينِ، والطِّينُ مِن الأرضِ.

الجوابُ: أنَّ الخَلْقَ هو مِن الطِّينِ باعتبارِ الأصلِ، وأنَّ الماءَ الدَّافِقَ هو باعتبارِ الفَرعِ المتولِّدِ مِن الأصلِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أنَّ الجنينَ يُخْلَقُ مِن ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ، خلافًا لِمَن يَزْعُمُ مِن الطَّبائعيِّينَ أنَّه إنَّما يُخْلَقُ مِن ماءِ الرَّجُلِ وَحْدَه[٢]! ففيه مِن عِلمِ التَّشريحِ أنَّ الوَلَدَ مخلوقٌ مِن ماءِ أبَوَيه معًا[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ * إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالقَسَمِ تَحقيقٌ لِما يُقسَمُ عليه، وتَشويقٌ إليه، ووَقَعَ القَسَمُ بمَخلوقَينِ عَظيمَينِ فيهما دَلالةٌ على عَظيمِ قُدرةِ خالِقِهما؛ هما: السَّماءُ، والنُّجومُ، أو نَجمٌ منها عَظيمٌ مَعروفٌ، أو ما يَبدو انقِضاضُه مِن الشُّهُبِ[٤].

- والطَّارِقُ: وَصفٌ مُشتَقٌّ مِن الطُّروقِ، وهو المَجيءُ لَيلًا، وأُبهِمَ المَوصوفُ بالطَّارِقِ ابتِداءً، ثمَّ زِيدَ إبْهامًا مَشوبًا بتَعظيمِ أمْرِه بقَولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾، ثمَّ بُيِّنَ بأنَّه ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾؛ ليَحصُلَ مِن ذلك مَزيدُ تَقرُّرٍ للمُرادِ بالمُقسَمِ به،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٥).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٨).

وهو أنَّه مِن جِنسِ النُّجوم، شَبَّهَ طُلوعَ النَّجمِ لَيلًا بطُروقِ المُسافِرِ الطَّارِقِ بَيتًا، بجامعِ كَونِه ظُهورًا في اللَّيلِ[(١)].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ استِفهامٌ مُستَعمَلٌ في تَعظيمِ أمْرِ الطَّارِقِ[(٢)].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ تَنويهٌ بشَأنِ الطَّارِقِ إثْرَ تَفخيمِه بالإقْسامِ به، وتَنبيهٌ على أنَّ رِفعةَ قَدْرِه بحَيثُ لا يَنالُها إدراكُ الخَلْقِ، فلا بُدَّ مِن تَلَقِّيها مِن الخَلَّاقِ العَليمِ[(٣)].

- وقولُه: ﴿ٱلنَّجۡمُ﴾ خَبَرٌ عن ضَميرٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: هو، أي: الطَّارِقُ النَّجمُ الثَّاقِبُ. والثَّقْبُ: خَرْقُ شَيءٍ مُلتَئِمٍ، وهو هُنا مُعبَّرٌ به عن ظُهورِ النُّورِ في خِلالِ ظُلْمةِ اللَّيلِ؛ شَبَّهَ النَّجمَ بمِسمارٍ أو نَحوِه، وظُهورَ ضَوئِه بظُهورِ ما يَبدو مِن المِسمارِ مِن خِلالِ الجِسمِ الَّذي يَثقُبُه مِثلَ لَوحٍ أو ثَوبٍ، ولعلَّ التَّعبيرَ بالثَّقْبِ عن بُروزِ شُعاعِ النَّجمِ في ظُلْمةِ اللَّيلِ مِن مُبتَكَراتِ القُرآنِ، ولم يَرِدْ في كَلامِ العرَبِ قبْلَ القرآنِ[(٤)].

- والتَّعريفُ في (النَّجمِ) يَجوزُ أنْ يَكونَ تَعريفَ الجِنسِ، فيَستَغرِقَ جَميعَ النُّجومِ استِغراقًا حَقيقيًّا، وكُلُّها ثاقِبٌ، فكأنَّه قيلَ: والنُّجومِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ التَّعريفُ للعَهدِ، إشارةً إلى نَجمٍ مَعروفٍ يُطلَقُ عليْه اسمُ «النَّجمِ» غالبًا، أي: والنَّجمِ الَّذي هو طارِقٌ، وقيلَ: أُريدَ بالطَّارِقِ نَوعُ الشُّهُبِ؛ فالتَّعريفُ في لَفظِ النَّجمِ للاستِغراقِ، وخُصَّ عُمومُه بوُقوعِه خَبَرًا عن ضَميرِ الطَّارِقِ، أي: أنَّ الشِّهابَ عندَ انقِضاضِه يُرى سائِرًا بسُرعةٍ، ثمَّ يَغيبُ عن النَّظرِ، فيَلوحُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٩).

كأنَّه استَقرَّ، فأَشبَهَ إسْراعَ السَّائِرِ لَيلًا ليَبلُغَ إلى الأحْياءِ المَعمورةِ، فإذا بَلَغَها وَقَفَ سَيْرُه[١].

- وقدْ أرادَ اللهُ عزَّ مِن قائلٍ أنْ يُقسِمَ بالنَّجمِ الثَّاقِبِ تَعظيمًا له، لِما عُرِفَ فيه مِن عَجيبِ القُدْرةِ ولَطيفِ الحِكمةِ، وأنْ يُنبِّهَ على ذلك، فجاءَ بما هو صِفةٌ مُشترَكةٌ بيْنَه وبيْنَ غَيرِه، وهو (الطَّارِقُ)، ثمَّ قال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾، ثمَّ فَسَّرَه بقَولِه: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾؛ إزالةً لذلك الإبْهامِ الحاصِلِ بالاستِفهامِ، وكُلُّ هذا إظْهارٌ لفَخامةِ شَأنِه، وإجْلالِ مَحلِّه[٢].

- قولُه: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ جَوابٌ للقَسَمِ، وما بيْنَهما اعتِراضٌ جِيءَ به لِما ذُكِرَ مِن تَأكيدِ فَخامةِ المُقسَمِ به، المُستَتبِعِ لتَأكيدِ مَضمونِ الجُملةِ المُقسَمِ عليها[٣].

- وقدْ جُعِلَ جَوابُ القَسَمِ هذا كِنايةً[٤] عن المَقْصودِ، وهو: إثْباتُ البَعثِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٩، ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٠، ١٤١).

(٤) أطلق عليها ابنُ عاشور كنايةً تلويحيةً رمزيةً، وتَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازِم) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريضٍ، وتلويحٍ، ورمْزٍ، وإيماءٍ؛ فالتَّلويحُ اصطِلاحًا: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تَعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزومِ بواسِطةِ لَوازِمَ؛ نحو قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْعٍ: (زَوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي على كثرةِ الأكَلةِ، وهي على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقَلَ الفِكرُ إلى جملةِ وسائطَ. والرَّمزُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ خفاءٍ في اللُّزومِ بلا تعريضٍ نحو: فلانٌ عريضُ القفا، أو عريضُ الوسادةِ؛ كناية عن بلادتِه وبلاهتِه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥ - ١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، =

فهو كالدَّليلِ على إثْباتِه؛ فإنَّ إقامةَ الحافِظِ تَستَلْزِمُ شَيئًا يَحفَظُه، وهو الأعمالُ خَيرُها وشَرُّها -وذلك على قولٍ-، وذلك يَستَلْزِمُ إرادةَ المُحاسَبةِ عليها، والجَزاءِ بما تَقتَضيه جَزاءً مُؤخَّرًا بعدَ الحياةِ الدُّنيا؛ لئلَّا تَذهَبَ أعمالُ العامِلينَ سُدًى، وذلك يَستَلْزِمُ أنَّ الجَزاءَ مُؤخَّرٌ إلى ما بعْدَ هذه الحياةِ؛ إذ المُشاهَدُ تَخلُّفُ الجَزاءِ في هذه الحياةِ بكَثْرةٍ، فلو أُهمِلَ الجَزاءُ لَكان إهْمالُه مُنافِيًا لحِكْمةِ الإلَهِ الحَكيمِ مُبدِعِ هذا الكَونِ، وهذا الجَزاءُ المُؤخَّرُ يَستَلْزِمُ إعادةَ حياةٍ للذَّواتِ الصَّادِرةِ منها الأعمالُ. وقد حصَلَ مع هذا الاستِدلالِ إفادةُ أنَّ على الأنفُسِ حَفَظَةً؛ فهو إدْماجٌ[1].

- وأيضًا قدْ تَضمَّنَ هذا الجَوابُ -زِيادةً على إفادتِه تَحقيقَ الجَزاءِ- إنْذارًا للمُشرِكين بأنَّ اللهَ يَعلَمُ اعتِقادَهم وأفعالَهم، وأنَّه سيُجازيهم على ذلك[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾

- قولُه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ الفاءُ لتَفريعِ الأمرِ بالنَّظرِ في الخِلْقةِ الأُولى على ما أُريدَ مِن قولِه: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] مِن لَوازِمِ مَعناهُ، وهو إثْباتُ البَعثِ الَّذي أنكَروه على طَريقةِ الكِنايةِ التَّلْويحيَّةِ الرَّمْزيَّةِ؛ فالتَّقديرُ: فإنْ رَأَيْتُم البَعثَ مُحالًا فلْيَنظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ؛ ليَعلَمَ أنَّ الخَلْقَ الثَّانيَ ليس بأَبْعَدَ مِن الخَلْقِ الأوَّلِ، فهذه الفاءُ مُفيدةٌ مُفادَ الفاءِ الفَصيحةِ. والنَّظرُ: نَظَرُ

= ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦ - ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٠).
وتقدَّم تعريفُ الإدماجِ (٤٢/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦١).

العَقلِ، وهو التَّفكُّرُ المُؤدِّي إلى عِلمِ شَيءٍ بالاستِدلالِ؛ فالمَأمورُ به نَظَرُ المُنكرِ للبَعثِ في أدِلَّةِ إثْباتِه، كما يَقتَضيه التَّفريعُ على ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[1] [الطارق: ٤].

- والاستِفهامُ ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ مُستعمَلٌ في الإيقاظِ، والتَّنبيهِ إلى ما يَجِبُ عِلمُه[2].

- وقولُه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ استِئنافٌ وَقَعَ جَوابًا عن استِفهامٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه قيلَ: مِمَّ خُلِقَ؟ فقيلَ: خُلِقَ مِن ماءٍ ذي دَفْقٍ[3].

- وفي قولِه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أُطنِبَ في وَصفِ هذا الماءِ الدَّافِقِ لإدْماجِ التَّعليمِ، والعِبرةِ بدَقائقِ التَّكوينِ؛ ليَستَيقِظَ الجاهِلُ الكافِرُ، ويَزدادَ المُؤمِنُ عِلمًا ويَقينًا[4].

- ووُصِفَ أنَّه ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾؛ لأنَّ النَّاسَ لا يَتفطَّنون لذلك، والخُروجُ مُستعمَلٌ في ابتِداءِ التَّنقُّلِ مِن مَكانٍ إلى مَكانٍ ولو بدُون بُروزٍ؛ فإنَّ بُروزَ هذا الماءِ لا يَكونُ مِن بيْنِ الصُّلبِ والتَّرائِبِ، وهذا مُخاطَبَةٌ للنَّاسِ بما يَعرِفون يَومَئذٍ بكَلامٍ مُجمَلٍ[5].

- قيل: أفرَدَ الأوَّلَ ﴿ٱلصُّلْبِ﴾، وجَمَعَ الآخَرَ (التَّرائِبِ) وأرادَ سُبحانَه: يَخرُجُ مِن بيْنِ الأصلابِ والتَّرائِبِ، فاكتَفى بالواحِدِ عن الجَماعةِ، كما قال تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ولم يَقُلْ: والأَرَضينَ، وعلى القولِ بأنَّ التَّرائبَ للمرأةِ فإنَّ صدرَ المرأةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦٢، ٢٦٣).

هو تَربيتُها، فيُقالُ: للمرأةِ تَرائبُ، يعني بها التَّربيةَ وما حَوالَيْها وأحاط بها، وكذلك العربُ تقولُ: رأيتُ خَلاخيلَ المرأةِ وثُدِيَّها، وإنَّما لها ثَدْيانِ وخَلْخالانِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۞ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۞ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]؛ لأنَّ السَّامِعَ يَتساءَلُ عن المَقصدِ مِن هذا الأمرِ بالنَّظرِ في أصْلِ الخِلْقةِ، وإذْ قد كان ذلك النَّظرُ نَظَرَ استِدلالٍ، فهذا الاستِئنافُ البَيانيُّ له يَتنزَّلُ مَنزِلةَ نَتيجةِ الدَّليلِ؛ فصارَ المَعنى: إنَّ الَّذي خَلَقَ الإنسانَ مِن ماءٍ دافِقٍ قادِرٌ على إعادةِ خَلْقِه بأسبابٍ أُخْرى، وبذلك يَتقَرَّرُ إمْكانُ إعادةِ الخَلْقِ، ويَزولُ ما زَعَمَه المُشرِكون مِن استِحالةِ تلك الإعادةِ[٢].

- والضَّميرُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للخالِقِ؛ لدَلالةِ ﴿خُلِقَ﴾ عليه، ومَعناه: إنَّ ذلك الَّذي خَلَقَ الإنسانَ ابتِداءً مِن نُطْفةٍ ﴿عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ﴾ على إعادتِه خُصوصًا ﴿لَقَادِرٞ﴾ لَبَيِّنُ القُدرةِ، لا يَعسُرُ ويَصعُبُ عليه، ولا يَعجِزُ عنه؛ ففي مَجيءِ الفِعلِ مَجهولًا أوَّلًا، والإضمارِ قبْلَ الذِّكرِ ثانيًا؛ دَلالةٌ على أنَّ الكلامَ مِن بابِ إرخاءِ العِنانِ، أي: ما أقولُ: إنَّني أنا المُبدِئُ والمُعيدُ، بلْ أقولُ: إنَّ ذلك الَّذي تُعُورِفَ عِندَكم واشتَهَرَ وتُقِرُّون أنَّه الخالقُ؛ هو القادرُ على الإعادةِ؛ فجِيءَ بـ (إنَّ) واللَّامِ وتَنكيرِ الخبَرِ؛ ليَدُلَّ على ردٍّ بَليغٍ، وعلى إنكارٍ مُبالَغٍ منهم بأنَّه لا حشْرَ ولا نشْرَ، بلْ إمَّا تَعطيلٌ أو أمْرٌ آخَرُ كما اختَلَفَ فيه المُبْطِلون[٣].

- وضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى اللهِ تعالَى، وإنْ لم يَسبِقْ ذِكرٌ لمَعادٍ، ولكنَّ بِناءَ

(١) يُنظر: ((إعراب ثلاثين سورة)) لابن خالويه (ص: ٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٨٤).

الفِعلِ للمَجهولِ في قولِه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] يُؤذِنُ بأنَّ الخالِقَ مَعروفٌ لا يُحتاجُ إلى ذِكرِ اسْمِه، وأُسنِدَ الرَّجْعُ إلى ضَميرِه دُون سُلوكِ طَريقةِ البِناءِ للمَجهولِ، كَما في قولِه: ﴿خُلِقَ﴾؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ إيضاحٍ وتَصريحٍ بأنَّ اللهَ هو فاعِلُ ذلك[١].

- قولُه: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ السَّرائرُ: ما يُسِرُّه الإنسانُ ويُخفيه مِن نِيَّاتِه وعقائِدِه، وبَلْوُ السَّرائرِ: اختِبارُها وتَمييزُ الصَّالِحِ منها عن الفاسِدِ، وهو كِنايةٌ عن الحِسابِ عليها والجَزاءِ، وبَلْوُ الأعمالِ الظَّاهِرةِ والأقوالِ مُستَفادٌ بدَلالةِ الفَحْوى[٢] مِن بَلْوِ السَّرائرِ[٣].

- ولَمَّا كان بَلْوُ السَّرائرِ مُؤْذِنًا بأنَّ اللهَ تعالى عَليمٌ بما يَستُرُه النَّاسُ مِن الجَرائمِ، وكان قولُه: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ مُشعِرًا بالمُؤاخَذةِ على العَقائدِ الباطِلةِ والأعمالِ الشَّنيعةِ؛ فُرِّعَ عليْه قولُه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾، فالضَّميرُ عائدٌ إلى الإنسانِ، والمَقصودُ المُشرِكون مِن النَّاسِ؛ لأنَّهم المَسوقُ مِن أَجْلِهم هذا التَّهديدُ، أي: فما للإنسانِ المُشرِكِ مِن قُوَّةٍ يَدفَعُ بها عن نفْسِه، وما لَه مِن ناصِرٍ يُدافِعُ عنه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥).

(٢) فَحْوَى الخِطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولَى، كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظَمُ مِن التَّافيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كان دونَ القِنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأُولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١-١٧)

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدًا ١٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلرَّجۡعِ﴾: أي: المطَرِ؛ لأنَّه يَرجِعُ كُلَّ عامٍ ويتكَرَّرُ، وأصلُ (رجع): يدُلُّ على رَدٍّ وتَكرارٍ[(١)].

﴿ٱلصَّدۡعِ﴾: أي: النَّباتِ؛ لأنَّ الأرضَ تتصَدَّعُ -أي: تَنْشَقُّ- عنه، والصَّدعُ في اللُّغةِ: الشَّقُّ، وأصلُ (صدع): يدُلُّ على انفِراجِ شَيءٍ[(٢)].

﴿رُوَيۡدًا﴾: أي: قَليلًا، والرَّودُ: التَّرَدُّدُ في طَلَبِ الشَّيءِ برِفقٍ[(٣)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدًا﴾

جُملةُ: ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدًا﴾ لا محلَّ لها استئنافيَّةٌ مُؤكِّدةٌ للجُملةِ السَّابقةِ، وقيل: بَدَلٌ منها. ﴿رُوَيۡدًا﴾: في نَصْبِه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّه مَفعولٌ مُطلَقٌ نائِبٌ عن المصدَرِ؛

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤١٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٨).

فهو مُرادِفٌ لعامِلِه ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾. و﴿رُوَيْدًا﴾ تصغيرُ «إرْواد»[١] -أي: إمْهال، وزنًا ومعنًى- على التَّرخيم بحذفِ الزَّوائدِ، وأصلُه مِنَ الرَّوْدِ: وهو المَهْلُ وعدَمُ العجَلةِ. الثَّاني: أن يكونَ ﴿رُوَيْدًا﴾ نائبًا عن المصدَرِ؛ نعتًا لمصدَرٍ محذوفٍ، أي: أمهِلْهم إمهالًا رُوَيدًا، أي: قليلًا أو قريبًا. الثَّالثُ: أن يكونَ نائبًا عن ظَرفِ الزَّمانِ؛ نَعتًا لزَمانٍ محذوفٍ، أي: زَمانًا قليلًا. الرَّابعُ: أن يكونَ مَنصوبًا على الحاليَّةِ، أي: أمهِلْهم مُستَأنيًا بهم غَيرَ مُستعجِلٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُقْسِمًا أيضًا على صحَّةِ القرآنِ: أُقسِمُ بالسَّماءِ الَّتي تَرجِعُ بالمطَرِ، وبالأرضِ الَّتي تتصَدَّعُ وتَنْشَقُّ؛ إنَّ القُرآنَ لَقَولٌ فاصِلٌ، يَفصِلُ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وليس هو باللَّعِبِ والباطِلِ، بل كُلُّه حَقٌّ وجِدٌّ.

ثمَّ يختمُ اللهُ سُبحانَه السُّورةَ الكريمةَ ببَيانِ ما يُدَبِّرُ الكافِرون للمؤمنينَ؛ مُسلِّيًا رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، ومُبشِّرًا له بحُسنِ العاقِبةِ، فيقول: إنَّ الكافِرينَ يَكيدُونَ؛ لِيَدفَعوا بكَيْدِهم الحَقَّ، وأنا أَكيدُ بهم كَيدًا عَظيمًا، بإمْهالِهم واسْتِدْراجِهم؛ حتَّى أُهلِكَهم وهم على باطِلِهم، فأَمْهِلْ -يا محمَّدُ- هؤلاء الكافِرينَ زَمَنًا قليلًا، ولا تَستَعجِلْ عِقابَهم!

---

(١) وقيل: هو تصغيرُ رودٍ، أي: مهلٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٢٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣١٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنْ تَبيَّنَ الدَّليلُ على إمْكانِ البَعثِ؛ أُعقِبَ بتَحقيقِ أنَّ القُرآنَ حَقٌّ، وأنَّ ما فيه قولٌ فَصْلٌ؛ إبْطالًا لِما مُوِّهَ عليهم مِن أنَّ أَخبارَه غَيرُ صادِقةٍ؛ إذ قد أَخبَرَهم بإحْياءِ الرِّمَمِ البالِيةِ[١].

وأيضًا لَمَّا اشتَمَلت الجُمَلُ السَّابقةُ -على وَجازتِها- على الذِّرْوةِ العُلْيا مِن البَلاغةِ في إثباتِ البَعثِ والجَزاءِ والوَحدانيَّةِ له سُبحانَه وتعالى، إلى غيرِ ذلك مِن بُحورِ العُلومِ، فثبَتَ أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ سُبحانَه وتعالى، فثَبَت أنَّ كُلَّ ما فيه حَقٌّ، معَ مُنازَعَتِهم في ذلك كُلِّه- اقتضى الحالُ الإقسامَ على حَقِّيَّتِه؛ فقال[٢]:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١﴾.

أي: أُقسِمُ بالسَّماءِ ذاتِ المطَرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١).

قال الماوَرْدي: (﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ فيه أربعةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: ذاتُ المطَرِ؛ لأنَّه يَرجِعُ في كلِّ عامٍ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: ذاتُ السَّحابِ؛ لأنَّه يَرجِعُ بالمطَرِ. الثَّالِثُ: ذاتُ الرُّجوعِ إلى ما كانت. قاله عِكْرِمةُ. الرَّابعُ: ذاتُ النُّجومِ الرَّاجعةِ. قاله ابنُ زَيدٍ. ويحتَمِلُ خامِسًا: ذاتُ الملائِكةِ؛ لرُجوعِهم إليها بأعمالِ العِبادِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤٨).

والقَولُ بأنَّ المرادَ بالرَّجْعِ: المطَرُ، حكى الواحِديُّ فيه اتِّفاقَ المُفَسِّرينَ، ومِمَّن ذهب إليه: القرطبيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير =

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الأمْرَ العُلويَّ بادِئًا به لشَرَفِه؛ أتْبَعَه السُّفليَّ[1].

= القرطبي)) (٢٠/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وأبو مالكٍ، وابنُ أَبْزَى، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤١٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤٧٦).

قال السعدي: (تَرجِعُ السَّماءُ بالمطَرِ كُلَّ عامٍ، وتنصَدِعُ الأرضُ للنَّباتِ، فيَعيشُ بذلك الآدَميُّونَ والبهائِمُ، وتَرجِعُ السَّماءُ أيضًا بالأقدارِ والشُّؤونِ الإلهيَّةِ كُلَّ وَقتٍ، وتنصَدِعُ الأرضُ عن الأمواتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠).

وعَدَّه ابنُ القيِّمِ مِن بابِ التَّفسيرِ بالمثالِ، وأنَّ المرادَ أعَمُّ مِن ذلك، فقال: (التَّحقيقُ أنَّ هذا على وَجهِ التَّمثيلِ. ورَجْعُ السَّماءِ: هو إعطاءُ الخَيرِ الَّذي يكونُ مِن جِهَتِها حالًا بَعْدَ حالٍ على مرورِ الأزمانِ تَرجِعُه رَجْعًا، أي: تُعْطيه مَرَّةً بعْدَ مرَّةٍ، والخَيرُ كُلُّه مِن قِبَلِ السَّماءِ يَجيءُ، ولَمَّا كان أظهَرَ الخَيرِ المشهودِ بالعِيانِ المطَرُ، فُسِّرَ الرَّجْعُ به، وحَسَّنَ تَفسيرَه به مُقابَلَتُه بصَدْعِ الأرضِ عن النَّباتِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٠٦).

وقيل: المرادُ: غِيابُ الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ، وطُلوعُها. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٤).

وذهَبَ البِقاعي إلى هذا المعنى وإلى ما هو أعَمُّ منه، فقال: (﴿ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ الَّتي تَرجِعُ بالدَّورانِ إلى الموضِعِ الَّذي ابتدَأَت الدَّورانَ منه، فتَرجِعُ الأحوالَ الَّتي كانت وتصَرَّمَت؛ مِن اللَّيلِ والنَّهارِ، والشَّمسِ والقَمَرِ والكواكِبِ، والفُصولِ؛ مِنَ الشِّتاءِ وما فيه مِن بَردٍ ومطرٍ، والصَّيفِ وما فيه مِن حرٍّ وصفاءٍ وسكونٍ وغيرِ ذلك؛ والنَّباتَ بعدَ تهشُّمِه وصَيرورتِه تُرابًا مختَلِطًا بتُرابِ الأرضِ، وترجِعُ الماءَ على قَولِ مَن يَقولُ: إنَّ السَّحابَ يأخُذُه مِن البَحرِ ويعلو به فيَعصِرُه في الهواءِ ثمَّ يرُدُّه إلى الأرضِ، وغيرَ ذلك مِن الأمورِ الدَّالِّ كُلٌّ منها قطعًا على أنَّ فاعِلَ ذلك قادِرٌ على إعادةِ كُلِّ ما فَنِيَ كما كان، مِن غَيرِ فَرقٍ أصلًا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٨٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٨٢).

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بالأرضِ ذاتِ النَّباتِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

قال الماوَرْدي: (﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ فيها أربعةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: ذاتُ النَّباتِ؛ لانصداعِ الأرضِ عنه. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: ذاتُ الأوديةِ؛ لأنَّ الأرضَ قد انصدَعَت بها. قاله ابنُ جُرَيجٍ. الثَّالثُ: ذاتُ الطُّرُقِ الَّتي تَصدَعُها المُشاةُ. قاله مجاهِدٌ. الرَّابعُ: ذاتُ الحَرْثِ؛ لأنَّه يَصدَعُها. ويحتَمِلُ خامِسًا: ذاتُ الأمواتِ؛ لانصداعِها عنهم للنُّشورِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤٩).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ: تتشَقَّقُ بالنَّباتِ: ابنُ جرير، وابن القيم، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١).

قال ابن كثير: (﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: هو انصِداعُها عن النَّباتِ. وكذا قال سعيدُ ابنُ جُبَيرٍ، وعِكْرِمةُ، وأبو مالكٍ، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وغيرُ واحدٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦).

وقال الرَّسْعَني: (قال المفسِّرونَ واللُّغَويُّونَ: تتصدَّعُ عن النَّباتِ والأشجارِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٨٤).

وقال ابن عثيمين: (كُلُّه إشارةٌ إلى حياةِ الأرضِ بعْدَ مَوتِها، والقُرآنُ به حياةُ القُلوبِ بعْدَ مَوتِها). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١).

وقال ابنُ القيِّم: (وفُسِّرَ الصَّدعُ بالنَّباتِ؛ لأنَّه يَصدَعُ الأرضَ، أي: يَشُقُّها، فأقسَمَ سُبحانَه بالسَّماءِ ذاتِ المطَرِ، والأرضِ ذاتِ النَّباتِ، وكُلٌّ مِن ذلك آيةٌ مِن آياتِ اللهِ تعالى الدَّالَّةِ على رُبوبيَّتِه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٠٦).

وقيل: تتصَدَّعُ عن النَّباتِ والشَّجَرِ والثِّمارِ والأنهارِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١٦).

وتقدَّم قولُ السعديِّ أنَّ الأرضَ تنصدعُ للنَّباتِ، وتنصدعُ عن الأمواتِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠).

قال البِقاعي: (فجَمَع بالقَسَمِ العالَمَ العُلويَّ الَّذي هو كالرَّجُلِ، والسُّفْليَّ الَّذي هو كالمرأةِ، =

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣﴾.

أي: إنَّ القُرآنَ قَولٌ فاصِلٌ، يَفصِلُ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ(١).

﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

عَطَف ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ بعد الثَّناءِ على القُرآنِ بأنَّه «قَولٌ فَصلٌ» ردًّا على المشركينَ؛

= فكما أنَّ الرَّجُلَ يَسقِيها مِن مائِه فتتصَدَّعُ عن الولَدِ، فكذلك السَّماءُ تَسْقي الأرضَ فتتصَدَّعُ عن النَّباتِ، وكما أنَّها تتصَدَّعُ عن النَّباتِ بعْدَ فَنائِه وصَيرورتِه رُفاتًا، فيَعودُ كما كان؛ فكذلك تتصَدَّعُ عن النَّاسِ بعْدَ فَنائِهم، فيَعودونَ كما كانوا بإذْنِ رَبِّها مِن غيرِ فَرقٍ أصلًا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٨٣).

وقال الشوكاني: (الحاصلُ أنَّ الصَّدْعَ إنْ كان اسْمًا لِلنَّباتِ فكأنَّه قال: والأرضِ ذاتِ النَّباتِ، وإنْ كان المرادُ به الشَّقَّ فكأنَّه قال: والأرضِ ذاتِ الشَّقِّ الَّذي يَخرُجُ منه النَّباتُ ونحوُه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٣٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦، ٢٦٧).

قال ابنُ الجوزي: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ يعني به القُرآنَ، وهذا جوابُ القَسَمِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٠).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ: القرآنُ: الواحديُّ، والقرطبي، وابن تيميَّة، وابن القيِّم. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٣٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٧).

وقال ابنُ عثيمين: (يَفصِلُ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وبيْنَ المتَّقينَ والظَّالِمينَ، بل إنَّه فَصْلٌ، أي: قاطِعٌ لكُلِّ مَن ناوأه وعاداه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى البَعْثِ بعدَ الموتِ، والمعنى: إنَّ ما أخبَرْتُكم به مِن قُدْرتي على إحيائِكم في اليَومِ الَّذي تُبْلَى فيه سرائِرُكم: قَولٌ فَصلٌ وحَقٌّ. ومِمَّن ذهب إليه: القَفَّالُ، ورجَّحَه الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٣).

إذ كانوا يَزعُمونَ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جاء يَهزِلُ؛ إذ يخبرُ بأنَّ الموتى سيَحْيَونَ، يُريدونَ تضليلَ عامَّتِهم حينَ يَسمَعونَ قوارِعَ القُرآنِ وإرشادَه وجَزالةَ مَعانيه، يختَلِقونَ لهم تلك المعاذيرَ؛ لِيَصرِفوهم عن أن يتدَبَّروا القُرآنَ[١].

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ١٤﴾.

أي: وليس القُرآنُ باللَّعِبِ والباطِلِ، بل كُلُّه حَقٌّ وجِدٌّ[٢].

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ١٥﴾.

أي: إنَّ الكافِرينَ المُكَذِّبينَ بالقُرآنِ يَكيدُونَ؛ لِيَدفَعوا بكَيْدِهم الحَقَّ، ويُؤَيِّدوا الباطِلَ[٣].

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦﴾.

أي: وأنا أَكيدُ بهم كَيدًا عَظيمًا -جزاءَ كَيدِهم-، بإمْهالِهم واسْتِدْراجِهم؛ حتَّى أُهلِكَهم وهم على باطِلِهم، وأُظهِرَ الحَقَّ عليه ولو بعْدَ حِينٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٢).
قال البقاعي: (﴿بِٱلْهَزْلِ﴾ أي: بالضَّعيفِ المَرذولِ الَّذي لا طائِلَ تحتَه، فمِن حَقِّه ما هو عليه الآنَ مِن كَونِه مَهيبًا في القُلوبِ، مُعَظَّمًا في الصُّدورِ، يرتَفِعُ به قارِئُه وسامِعُه عن أن يُلِمَّ بهَزلٍ، ويَعْلو به في أعيُنِ العامَّةِ والخاصَّةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٢، ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٨٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، =

كما قال تعالى: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾ [الطور: ٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: فأَمْهِلْ -يا محمَّدُ- هؤلاء الكافِرينَ زَمَنًا قليلًا، ولا تَستَعجِلْ عِقابَهم؛ فإنَّه واقِعٌ بهم -لا محالةَ- في الوَقتِ الَّذي جعَلَه اللهُ مَوعِدًا لهَلاكِهم[1]!

كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أنَّ القرآنَ يَفْصِلُ بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، وهو قاطِعٌ لكلِّ مَن ناوأه وعاداه؛ ولهذا نَجِدُ المسلمينَ لَمَّا كانوا يُجاهِدونَ الكُفَّارَ

= ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٤).

قال ابنُ الجوزي: (قَولُه تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ زعَمَ بَعضُهم أنَّه مَنسوخٌ بآيةِ السَّيفِ، وإذا قُلْنا: إنَّه وَعيدٌ، فلا نَسْخَ). ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٦٢٤). ويُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لهبة الله بن سلامة (ص: ١٩٦)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (٢/ ٨٩٦).

وقال ابنُ عثيمين: (في هذه الآيةِ تهديدٌ لقُرَيشٍ، وتَسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم، ووَعدٌ له بالنَّصرِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٤).

بالقرآنِ نَجدُهم غَلَبوا الكُفَّارَ، وقَطَعوا دابرَهم، وقُضِيَ بيْنَهم، فلمَّا أَعرَضوا عن القرآنِ هُزِموا وأُذِلُّوا بقَدْرِ بُعْدِهم عن القرآنِ، وكلَّما ابتعَدَ الإنسانُ عن كتابِ اللهِ ابتعَدَتْ عنه العِزَّةُ، وابتعدَ عنه النَّصرُ؛ حتَّى يَرجِعَ إلى كتابِ اللهِ عزَّ وجَلَّ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ زجرٌ وتحذيرٌ للقَومِ، وكما أنَّه تحذيرٌ لهم فهو ترغيبٌ في خِلافِ طَريقِهم في الطَّاعاتِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ في هذَينِ الحالَينِ إيماءٌ إلى دَليلٍ آخَرَ مِن دَلائلِ إحياءِ النَّاسِ للبَعثِ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ هذا هو القَسَمُ الثَّاني للسَّماءِ، والقَسَمُ الأوَّلُ ما كان في أوَّلِ السُّورةِ؛ فهناك قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ وبيْنَهما مُناسَبةٌ -واللهُ أعلَمُ- أنَّ الأوَّلَ فيه إشارةٌ إلى الطَّارقِ الَّذي هو النَّجمُ، والنَّجمُ تُرمى به الشَّياطينُ الَّذين يَستَرِقونَ السَّمْعَ، وفي رَمْيِ الشَّياطينِ بذلك حِفْظٌ لكتابِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، أمَّا هنا فأَقْسَمَ بالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ إنَّ هذا القُرآنَ قَولٌ فَصلٌ، فأقْسَمَ على أنَّ القرآنَ قولٌ فَصلٌ؛ فصار القَسَمُ الأوَّلُ مُناسَبتُه أنَّ فيه الإشارةَ إلى ما يُحْفَظُ به هذا القُرآنُ حالَ إنزالِه، وفي القَسَمِ الثَّاني الإشارةُ إلى أنَّ القرآنَ حياةٌ، يعني يُقالُ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ الرَّجْعُ هو المطرُ، يُسَمَّى رَجْعًا؛ لأنَّه يَرْجِعُ ويَتكَرَّرُ، ومعلومٌ أنَّ المطرَ به حياةُ الأرضِ، ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ الصَّدعُ هو الانشِقاقُ، يعني: التَّشَقُّقَ بخروجِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

النَّباتِ منه؛ فأقْسَمَ بالمطرِ الَّذي هو سببُ خروجِ النَّباتِ، وبالتَّشَقُّقِ الَّذي يَخرُجُ منه النَّباتُ، وكلُّه إشارةٌ إلى حياةِ الأرضِ بعْدَ موتِها، والقرآنُ به حياةُ القُلوبِ بعْدَ موتِها، كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فسمَّى اللهُ القرآنَ رُوحًا؛ لأنَّه تحيا به القُلوبُ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ تأمَّلْ قولَه: ﴿يَكِيدُونَ﴾ حيثُ أَتَى بصيغةِ الجَمعِ، ﴿وَأَكِيدُ﴾ حيثُ أَتَى بصيغةِ الإفرادِ؛ فإنَّ كيدَ اللهِ تعالى أعظمُ مِن كيدِ جَميعِ كُيودِهم مهما بلَغَتْ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ ردٌّ على الجَهْميَّةِ في نَفْيِ الصِّفاتِ بالكُلِّيَّةِ، وقد أَخبَرَ اللهُ سُبحانَه عن نفْسِه بأنَّه يَكِيدُ، بلَفظِ «الكَيدِ» الَّذي أَخبَرَ به عنِ الكائدِين، وهم يُنكِرونه، يَرُدُّون نصَّ القُرآنِ(٣)! فالكَيدُ والمكرُ والمُخادَعةُ: إيصالُ الشَّرِّ إلى الغَيرِ بطَريقٍ خَفِيٍّ، ولكِنَّ ذلك نَوعانِ: قَبيحٌ، وهو إيصالُ ذلك لِمَن لا يَستَحِقُّه، وحَسَنٌ، وهو إيصالُه إلى مُستَحِقِّه عُقوبةً له؛ فالأوَّلُ مذَمومٌ، والثَّاني ممدوحٌ، والرَّبُّ تعالى إنَّما يَفعَلُ مِن ذلك ما يُحمَدُ عليه عَدلًا منه وحِكمةً، وهو تعالى يأخُذُ الظَّالِمَ والفاجِرَ مِن حيثُ لا يحتَسِبُ، لا كما يَفعَلُ الظَّلَمةُ بعِبادِه(٤).

فالله سُبحانَه يَنسُبُ إلى نَفْسِه أحسَنَ هذه المعاني، وما هو منها حِكمةٌ وحَقٌّ وصَوابٌ وجزاءٌ للمُسيءِ، وذلك غايةُ العَدْلِ والحَقِّ؛ كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٧١).

كَيْدًا ۞ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقَولِه: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقَولِه: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٥]، وقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقَولِه: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، فهذا منه سُبحانَه في أعلى مَراتِبِ الحُسْنِ، وإن كان مِنَ العَبدِ قَبيحًا سَيِّئًا؛ لأنَّه ظالِمٌ فيه، ومُوقِعُه بمَن لا يَستَحِقُّه، والرَّبُّ تعالى عادِلٌ فيه، مُوقِعُه بأهلِه ومَن يَستَحِقُّه(١).

٥- ينقَسِمُ الكيدُ إلى نَوعَينِ: محمودٍ، ومَذموم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۞ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾، وقال: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [يوسف: ٧٦]، وإذا عُرِفَ ذلك فلا إشكالَ أنَّه يجوزُ للإنسانِ أنْ يُظْهِرَ قولًا أو فِعْلًا مَقصودُه به مَقصودٌ صالحٌ، وإنْ كان ظاهِرُه خِلافَ ما قَصَدَ به، إذا كانت فيه مَصلحةٌ دينيَّةٌ، مِثلُ دَفْعِ الظُّلمِ عن نفْسِه أو غَيرِه، أو إبطالِ حِيلةٍ مُحرَّمةٍ، وإنَّما المُحَرَّمُ: أنْ يَقصِدَ بالعُقودِ الشَّرعيَّةِ غيرَ ما شَرَعَها اللهُ تعالى ورَسولُه له، فيَصيرُ مُخادِعًا للهِ تعالى ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كائدًا لدِينِه، ماكِرًا بشَرْعِه؛ فإنَّ مَقصودَه حُصولُ الشَّيءِ الَّذي حَرَّمَه اللهُ تعالى ورسولُه بتلك الحيلةِ، وإسقاطُ الَّذي أوجبَه بتلك الحيلةِ، وهذا ضِدُّ الَّذي قَبْلَه؛ فإنَّ ذلك مَقصودُه التَّوصُّلُ إلى إظهارِ دِينِ اللهِ تعالى، ودَفْعُ مَعصيتِه، وإبطالُ الظُّلمِ، وإزالةُ المنكَرِ، فهذا لونٌ، وذاك لونٌ آخَرُ(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ أنَّه لَمَّا كان في المكَذِّبينَ -في

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٨٨).

عِلْمِ اللهِ- مَن يُؤمِنُ، فليس مُستَحِقًّا لإيقاعِ مِثلِ هذا التَّهديدِ؛ عَبَّرَ بالوَصفِ المقتَضي للرُّسوخِ، فقال: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: فلا تَدْعُ عليهم، ولا تَستَعجِلْ لهم بالإهلاكِ؛ فإنَّا لا نَعجَلُ؛ لأنَّه لا يَعجَلُ بالعُقوبةِ إلَّا مَن يَخافُ الفَوتَ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ الجُملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ[٢].

- وافتُتِحَ الكَلامُ بالقَسَمِ تَحقيقًا لِصدقِ القُرآنِ في الإخْبارِ بالبَعثِ وفي غَيرِ ذلك ممَّا اشتَمَلَ عليه مِن الهُدى؛ ولذلك أُعيدَ القَسَمُ بالسَّماءِ كما أُقسِمَ بها في أوَّلِ السُّورةِ، وذُكِرَ مِن أحوالِ السَّماءِ ما لَه مُناسَبةٌ بالمُقسَمِ عليه، وهو الغَيثُ الَّذي به صَلاحُ النَّاسِ؛ فإنَّ إصلاحَ القُرآنِ للنَّاسِ كإصْلاحِ المَطَرِ، وفي الحديثِ: ((مَثَلُ ما بعَثَني اللهُ به مِن الهُدى والعِلْمِ كمَثَلِ الغَيْثِ الكَثيرِ أصاب أرضًا))[٣] الحديثَ[٤].

- والرَّجْعُ، أي: المَطَرُ، والصَّدْعُ: هو ما تَتصَدَّعُ عنه الأرضُ مِن النَّباتِ، أو مَصدَرٌ مِن المَبنيِّ للمَفعولِ، وهو تَشقُّقُها بالنَّباتِ لا بالعُيونِ كما قيلَ؛ فإنَّ وصْفَ السَّماءِ والأرضِ عندَ الإقْسامِ بهما على حقِّيَّةِ القُرآنِ النَّاطقِ بالبَعثِ بما ذُكِرَ مِن الوَصفَينِ للإيماءِ إلى أنَّهما في أنفُسِهما مِن شَواهِدِه، وهو السِّرُّ في التَّعبيرِ بالصَّدعِ عنه وعن المَطَرِ بالرَّجْعِ، وذلك في تَشقُّقِ الأرضِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٧٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

بالنَّباتِ المُحاكي للنُّشورِ حَسبَما ذُكِرَ في مَواقِعَ مِن التَّنزيلِ، لا في تَشقُّقِها بالعُيونِ[١].

- وأيضًا في اسمِ (الرَّجْعِ) مُناسَبةٌ لمَعْنى البَعثِ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨]، وفي مُسمَّى (الرَّجْعِ) -وهو المَطَرُ المُعاقِبُ لمَطَرٍ آخَرَ- مُناسَبةٌ لمَعنى الرَّجْعِ البَعثِ؛ فإنَّ البَعثَ حياةٌ مُعاقَبةٌ بحياةٍ سابِقةٍ[٢].

- وعُطِفَتْ الأرضُ في القَسَمِ؛ لأنَّ بذِكرِ الأرضِ إتْمامَ المُناسَبةِ بيْنَ المُقسَمِ والمُقسَمِ عليه[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ فيه الإخْبارُ بالمَصدرِ للمُبالَغةِ، أي: إنَّه لقَولٌ فاصِلٌ بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، مبالِغٌ في ذلك كأنَّه نفْسُ الفَصلِ[٤].

- بعدَ أنْ أثنَى اللهُ سبحانَه وتعالى على القرآنِ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، عطَفَ عليه قولَه: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾، ووجهُ ذلك أنَّ المشركينَ كانوا يَزعُمون أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جاءَ يَهزِلُ؛ إذ يُخبِرُ بأنَّ المَوتى سيَحيَون، فردَّ اللهُ سبحانَه عليهم؛ فالهَزْلُ على هذا الوَجْهِ هو ضِدُّ الجِدِّ، أي: المَزْحُ واللَّعِبُ، ومِثلُ هذه الصِّفةِ إذا وَرَدَتْ في الكَلامِ البَليغِ لا مَحمَلَ لها إلَّا إرادةُ التَّعريضِ، وإلَّا كانتْ تَقصيرًا في المَدْحِ، لا سِيَّما إذا سَبَقَتْها مَحمَدةٌ مِن المَحامِدِ العَظيمةِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٧).

- قولُه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ يُنبِئُ عن سُؤالِ سائِلٍ يَعجَبُ مِن إعْراضِهم عن القُرآنِ معَ أنَّه قولٌ فَصلٌ، ويَعجَبُ مِن مَعاذيرِهم الباطِلةِ، مِثلَ قولِهم: هو هَزْلٌ أو هَذَيانٌ أو سِحرٌ، فبيَّنَ للسَّامِعِ أنَّ عَمَلَهم ذلك كَيدٌ مَقصودٌ؛ فَهُم يَتَظاهَرون بأنَّهم ما يَصرِفُهم عن التَّصديقِ بالقُرآنِ إلَّا ما تَحقَّقوه مِن عدَمِ صِدْقِه، وهُم إنَّما يَصرِفُهم عن الإيمانِ به الحِفاظُ على سِيادتِهم، فيُضلِّلون عامَّتهم بتلك التَّعِلَّاتِ المُلفَّقةِ. والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) لتَحقيقِ هذا الخَبَرِ؛ لغَرابتِه، وعليه فقَولُه: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ تَتْميمٌ[1] وإدْماجٌ[2]، وإنْذارٌ لهم حِينَ يَسمَعونه[3]. أو هو كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للإجابةِ عن سُؤالٍ نَشَأَ مِن فَحوى الكلامِ؛ كأنَّه قيلَ: وماذا تَتَسمَّى مُكابَرتُهم وعِنادُهم؟ فقيلَ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾[4].

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ قولُه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ مُوَجَّهًا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ

---

(١) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةِ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ. ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العزَّةُ المذمومةُ المُؤثِّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((تحرير التَّحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٢٧)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدِّين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التَّفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٣).

عليه وسلَّم؛ تَسلِيةً له على أقوالِهم في القُرآنِ الرَّاجِعةِ إلى تَكذيبِ مَن جاءَ بالقُرآنِ، أي: إنَّما يَدَّعون أنَّه هَزْلٌ لقَصدِ الكَيدِ، وليس لأنَّهم يَحسَبونك كاذِبًا. وجُملةُ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ تَثبيتٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووَعدٌ بالنَّصرِ[١].

- قولُه: ﴿كَيْدًا﴾ في المَوضِعَينِ مَفعولٌ مُطلَقٌ مُؤكِّدٌ لعامِلِه، وقُصِدَ منه مع التَّوكِيدِ تَنوينُ تَنكيرِه الدَّالِّ على التَّعظيمِ[٢].

- قولُه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ الفاءُ لتَفريعِ الأمرِ بالإمْهالِ على مَجموعِ الكَلامِ السَّابقِ مِن قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣] بما فيه مِن تَصريحٍ وتَعريضٍ وتَبيينٍ ووَعْدٍ بالنَّصرِ، أي: فلا تَستعجِلْ لهم بطَلَبِ إنْزالِ العِقابِ؛ فإنَّه واقِعٌ بهم لا مَحالةَ[٣].

- والتَّمهيلُ: مَصدرُ مَهَّلَ، بمَعنى: أمْهَلَ، وهو الإنْظارُ إلى وَقتٍ مُعيَّنٍ أو غَيرِ مُعيَّنٍ؛ فالجَمعُ بيْنَ (مَهِّلَ) و﴿أَمْهِلْهُمْ﴾؛ للتَّأكيدِ؛ لقَصدِ زِيادةِ التَّسكينِ والتَّصبيرِ، وخولِفَ بيْنَ الفِعلَينِ في التَّعديةِ مَرَّةً بالتَّضعيفِ وأُخْرى بالهَمزِ؛ لتَحسينِ التَّكريرِ، وطَلَبًا للخِفَّةِ[٤]. فلَمَّا كرَّرَ الأمرَ تَوكيدًا خالَفَ بيْنَ اللَّفظَينِ -﴿فَمَهِّلِ﴾ و﴿أَمْهِلْهُمْ﴾- على أنَّ الأوَّلَ مُطلَقٌ، وهذا الثَّاني مُقيَّدٌ بقولِه: ﴿رُوَيْدًۢا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٧، ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٨)، = = ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٣).

- والمُرادُ بالكافِرينَ في قولِه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾: ما عادَ عليْه ضَميرُ ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥]؛ فهو إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ؛ للنِّداءِ عليْهم بمَذمَّةِ الكُفرِ، فليس المُرادُ جَميعَ الكافِرين، بل أُريدَ الكافِرون المَعْهودون[١].

- وقولُه: ﴿رُوَيْدًۢا﴾ مَصدَرٌ مُؤكِّدٌ لفِعلِ ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾، فقد أكَّدَ قولَه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مَرَّتَينِ، والمَعنى: انتَظِرْ ما سيَحُلُّ بهم، ولا تَستَعجِلْ لهم؛ انتِظارَ تَربُّصٍ واتِّيادٍ، فيَكونُ ﴿رُوَيْدًۢا﴾ كِنايةً عن تَحقُّقِ ما يَحُلُّ بهم مِن العِقابِ؛ لأنَّ المُطمَئنَّ لحُصولِ شَيءٍ لا يَستعجِلُ به. وتَصغيرُ ﴿رُوَيْدًۢا﴾؛ للدَّلالةِ على التَّقليلِ، أي: مُهلةً غَيرَ طَويلةٍ[٢].

ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿رُوَيْدًۢا﴾ هُنا اسمَ فِعلٍ للأَمرِ، كما في قَولِهم: رُوَيدَك؛ لأنَّ اقتِرانَه بكافِ الخِطابِ إذا أُريدَ به اسمُ الفِعلِ ليس شَرطًا، ويَكونَ الوَقفُ على قولِه: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، و﴿رُوَيْدًۢا﴾ كلامًا مُستقِلًّا؛ فليس وُجودُ فِعلٍ مِن مَعْناه قبْلَه بدَليلٍ على أنَّه مُرادٌ به المَصدَرُ، أي: تَصبَّرْ ولا تَستَعجِلْ نُزولَ العَذابِ بهم، فيَكونَ كِنايةً عن الوَعدِ بأنَّه واقِعٌ لا مَحالةَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ١٤٨).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ الأعلَى

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الأعلَى

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ:

١- سورةَ الأَعْلى[(١)].

٢- سورةَ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾:

فعن جابِرٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((كان مُعاذٌ يُصَلِّي مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ يأتي فيَؤُمُّ قَومَه، فصَلَّى لَيلةً مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم العِشاءَ، ثمَّ أتى قَومَه فأَمَّهم، فافتَتَح بسُورةِ البَقَرةِ...)) وفيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لِمُعاذٍ رضيَ الله عنه: ((اقرَأْ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾))[(٢)].

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِي اللهُ عنهما، قال: ((جاءَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فما رأيتُ أهلَ المدينةِ فَرِحوا بشَيءٍ فَرَحَهم به، حتَّى رأيتُ الولائِدَ[(٣)] والصِّبيانَ يقولونَ: هذا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد جاء، فما جاء رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى قرأتُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سُوَرٍ مِثلِها))[(٤)].

---

(١) قال ابنُ عاشور: (وسمَّاها أكثرُ المُفَسِّرينَ وكُتَّابُ المصاحِفِ «سورةَ الأعلَى»؛ لوُقوعِ صفةِ الأعلَى فيها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٥).

(٣) الولائِد: جمعُ وليدةٍ، وهي الجاريةُ الصَّغيرةُ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٢/ ٢٥٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٨٤٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٤١).

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن صَلاتَيِ الجُمُعةِ والعِيدِ.

فعن النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ في العيدَينِ وفي الجُمُعةِ بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾، قال: وإذا اجتمَع العيدُ والجُمُعةُ في يومٍ واحدٍ يَقرَأُ بهما أيضًا في الصَّلاتَينِ))[(١)].

وعن سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرأُ في صلاةِ الجُمُعةِ بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾))[(٢)].

وعنه أيضًا: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في العيدَينِ بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾))[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٨).

ومِن حِكَمِ قِراءةِ سورةِ الأعلى وسورةِ الغاشيةِ في صلاةِ الجُمُعةِ والعيدينِ أنَّ فيهما مِن التَّذكيرِ بأحوالِ الآخرةِ والوعدِ والوعيدِ ما يُناسِبُ قِراءَتَهما في تلكَ الصَّلواتِ الجامعةِ. يُنظر: ((عون المعبود)) للعظيم آبادي (٣/ ٣٣٣).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١١٢٥) واللَّفظُ له، والنسائيُّ (١٤٢٢)، وأحمدُ (٢٠١٥٠)

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٨٠٨)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (٢/ ٥٣)، وابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٨٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١١٢٥)، وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (١١٢٥).

(٣) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٧٧٤) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٢٠٢١٧).

صحَّحه ابنُ حزم في ((المحلى)) (٥/ ٨٢)، والألبانيُّ في ((إرواء الغليل)) (٦٤٤)، وصَحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٣/ ٣٧٢).

ووَثَّق رجالَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٠٦)، والبوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٢/ ٣٣٠)، وذَكَر ثُبوتَه ابنُ العربيِّ في ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٧٨).

٢- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن الرَّكعتَينِ قبْلَ الوِتْرِ.

فعن عبدِ اللهِ بن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُوتِرُ بثلاثٍ، يقرأُ في الأولى بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الثَّانيةِ بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثَّالثةِ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾))[١].

بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الأعلى مَكِّيَّةٌ[٢]، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

إبرازُ جانبٍ عظيمٍ مِن نِعَمِ الله تعالى الَّتي لا تُحصَى[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- استِفتاحُ السُّورةِ بتَنزيهِ اللهِ تعالى.

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٤٦٢)، والنسائيُّ (١٧٠٢) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (١١٧٢)، وأحمدُ (٢٧٢٠). احتجَّ به ابنُ حزم في ((المحلى)) (٣/ ٥١)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٧٠٢)، وصحَّح إسنادَه النَّوويُّ في ((الخلاصة)) (١/ ٥٥٦)، وابنُ المُلَقِّنِ في ((البدر المنير)) (٤/ ٣٣٨).

(٢) وقيل: إنَّها مَدَنيَّةٌ. قال ابنُ عطيَّة: (وذلك ضَعيفٌ، وإنَّما دعا إليه قَولُ مَن قال: إنَّ ذِكرَ صَلاةِ العيدِ فيها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٩). ويُنظر: ((تفسير جرير)) (٢٤/ ٣٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٧٣٧).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٦٠).

٢- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ سُبحانَه.

٣- امتِنانُ اللهِ تعالى على نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتأييدُه وتَثبيتُه.

٤- ذِكرُ المُنتَفِعينَ بالذِّكرى ومَن يُعرِضُ عنها ومَصيرُه.

٥- ذِكرُ بَعضِ ما في صُحُفِ إبراهيمَ ومُوسى عليهما السَّلامُ.

الآيات (١-٨)

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غُثَآءً﴾: أي: يابِسًا هَشيمًا جافًّا، والغُثاءُ: ما تحطَّمَ مِن يَبْسِ البَقلِ يأتي به السَّيلُ فيَقذِفُه على جانِبِ الوادي، وأصلُ (غثي): يدُلُّ على ارتفاعِ شَيءٍ دَنِيٍّ[1].

﴿أَحْوَىٰ﴾: أي: أَسْوَدَ بَعْدَ الخُضرةِ؛ وذلك أنَّ الرَّطْبَ إذا جَفَّ يَبِسَ واسْوَدَّ، وأصلُ (حوي): يدُلُّ على جَمعٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بخِطابِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: نَزِّهْ ربَّك الأَعْلى -يا محمَّدُ- بقَلْبِك ولسانِك عن كُلِّ سُوءٍ ونَقْصٍ، واذكُرْه بقَولِك: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى.

ثمَّ يقولُ تعالى واصفًا ذاتَه: هو الَّذي خَلَق كُلَّ شَيءٍ مِنَ العَدَمِ، فأتْقَنَه وجعَلَه في أحسَنِ صورةٍ، والَّذي قدَّرَ مَقاديرَ الخلائِقِ، فهدى كُلَّ مَخلوقٍ لتَحصيلِ مَصالِحِه، والَّذي أخرَجَ مِنَ الأرضِ النَّباتَ أخضَرَ، فجَعَلَه يابِسًا أسْوَدَ بعْدَ أن

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٢، ٤١٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٩).

كان مُخضَرًّا.

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه جانبًا مِن مَظاهرِ فضلِه على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: سنُلْهِمُك -يا محمَّدُ- قِراءةَ القُرآنِ، فتحفَظُه في صَدْرِك، ولا تَنْساه، إلَّا ما شاء اللهُ أن يُنسِيَكه مِن القُرآنِ؛ إنَّ اللهَ يَعلَمُ السِّرَّ والعَلانيَةَ، ونشرعُ لك -يا محَمَّدُ- شرعًا سهلًا سَمحًا مُستقيمًا عَدلًا، ونسهِّلُ عليك أفعالَ الخَيرِ وأقوالَه، ونوَفِّقُك للطَّريقةِ اليُسْرى في كلِّ أمرٍ مِن أُمورِ الدِّينِ والدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.

أي: نَزِّهْ ربَّك -يا محمَّدُ- بقَلْبِك ولسانِك عن كُلِّ سُوءٍ ونَقْصٍ، وهو الخالِقُ المالِكُ المدَبِّرُ لكُلِّ شَيءٍ، المتَّصِفُ بالعُلُوِّ المُطلَقِ؛ واذكُرْه بقَولِك: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٦/ ١٩٩)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيِّم (٢/ ١٩٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (١/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبِقاعي (٢١/ ٣٨٨-٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٧، ١٥٨).

قيل: معنى الآيةِ: نَزِّهْ -يا محمَّدُ- اسمَ رَبِّك الأعلى أن تُسَمِّيَ به شَيئًا سِواه، فنَهاه بذلك أن يفعَلَ ما فعله المُشرِكونَ مِن تسميَتِهم آلهتَهم باللَّاتِ أو العُزَّى؛ فاللَّاتُ قيل: مشتقَّةٌ مِن اسمِ اللهِ، أو الإلهِ، والعُزَّى: مِنَ العزيزِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٠).

قال البِقاعي: (أمَرَ أكمَلَ خَلقِه رسولَه المُنزَّلَ عليه هذا القرآنُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتنزيهِ اسمِه؛ لأنَّه وحْدَه العالِمُ بذلك حقَّ عِلمِه، وإذا نزَّه اسمَه عن أن يَدعوَ به وثَنًا أو غيرَه أو يَضَعَه في غيرِ ما يَليقُ به؛ كان لِذَاتِه سُبحانَه أشَدَّ تَنزيهًا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٨٨).

وهذا المعنى الَّذي ذهب إليه ابنُ جرير، جَعَله ابنُ تيميَّةَ معنًى تابعًا للمرادِ مِنَ الآيةِ، وليس هو المعنى المقصودَ بها أصالةً -أي: أنَّ مِن لازِمِ تَنزيهِ المُسمَّى تنزيهَ اسمِه-، وذهب إلى أنَّ =

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما: (أنَّه كان إذا قرأ...: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: سُبْحانَ ربِّيَ الأعلَى)[1].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾.

= قولَه: ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ يعني: مُسَمَّى رَبِّك؛ لأنَّ التَّسبيحَ ليس للاسمِ، بل لله نَفْسِه. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ١٩٩) و (١٦/ ٣٢٣).

وقيل: المعنى: سَبِّحْ رَبَّك ذاكِرًا اسمَه، يعني: لا تُسَبِّحْه بالقَلبِ فقط، بل سَبِّحْه بالقَلبِ واللِّسانِ، وذلك بذِكْرِ اسمِه تعالى. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الواحديُّ، وابنُ القيِّم وحكاه عن شيخِه ابنِ تيميَّةَ، واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٨).

قال الرَّسْعَني: (قال الزَّجَّاجُ وجمهورُ المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ: نَزِّهْ ربَّك عن السُّوءِ، وقُلْ: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٨٧). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٩).

وقال ابنُ القَيِّم: (الذِّكْرُ الحقيقيُّ محلُّه القلبُ؛ لأنَّه ضدُّ النِّسيانِ، والتَّسبيحُ نَوعٌ مِن الذِّكْرِ، فلو أُطلِقَ الذِّكرُ والتَّسبيحُ لَمَا فُهِم منه إلَّا ذلك دونَ اللَّفظِ باللِّسانِ، واللهُ تعالى أراد مِن عِبادِه الأمْرَينِ جميعًا، ولم يَقْبَلِ الإيمانَ وعَقْدَ الإسلامِ إلَّا باقترانِهما واجتماعِهما، فصار معنى الآيتَينِ [أي: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾]: سَبِّحْ رَبَّك بقَلْبِك ولسانِك، واذكُرْ رَبَّك بقَلْبِك ولسانِك، فأقحَمَ الاسمَ تنبيهًا على هذا المعنى؛ حتَّى لا يَخلوَ الذِّكرُ والتَّسبيحُ مِنَ اللَّفظِ باللِّسانِ؛ لأنَّ ذِكرَ القَلْبِ مُتعَلَّقُه المُسمَّى المَدلولُ عليه بالاسمِ دون ما سِواه، والذِّكرَ باللِّسانِ متعَلَّقُه اللَّفظُ مع مَدلولِه؛ لأنَّ اللَّفظَ لا يُرادُ لنَفْسِه، فلا يَتوهَّم أحدٌ أنَّ اللَّفظَ هو المُسَبَّحُ دونَ ما يدُلُّ عليه مِن المعنى، وعَبَّرَ لي شيخُنا أبو العبَّاسِ ابنُ تيميَّةَ -قدَّس اللهُ رُوحَه- عن هذا المعنى بعبارةٍ لطيفةٍ وَجيزةٍ، فقال: المعنى: سَبِّحْ ناطِقًا باسمِ رَبِّك، مُتكَلِّمًا به، وكذا: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠]، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ المعنى: سَبِّحْ رَبَّك ذاكِرًا اسْمَه). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٩).

(١) أخرجه عبد الرَّزَّاق (٤٠٥١) واللَّفظُ له، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٢١٠٠).

صحَّحه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٤٨)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صفة الصلاة)) (ص: ١٠٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ سُبحانَه بالتَّسبيحِ، فكأنَّ سائِلًا قال: الاشْتِغالُ بالتَّسبيحِ إنَّما يَكونُ بَعْدَ المَعرِفةِ؛ فما الدَّليلُ على وُجودِ الرَّبِّ؟ فقال[1]:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾.

أي: الَّذي خَلَق كُلَّ شَيءٍ مِنَ العَدَمِ، فأتْقَنَه وجعَلَه في أحسَنِ هَيئةٍ مُناسِبةٍ له[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧].

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾.

أي: والَّذي قدَّرَ مَقاديرَ الخلائِقِ في ذَواتِها وصِفاتِها وأحوالِها، فهدى كُلَّ مَخلوقٍ لتَحصيلِ مَصالِحِه، وألهَمَه استِعمالَ قوَّتِه وأعضائِه وفِكْرِه في ذلك[3].

كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٠، ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٩، ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٣٩، ١٤٠)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٥، ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٦، ٢٧٧).

ومِمَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: القرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابن القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وقال الفرَّاءُ: (﴿فَقَدَّرَ﴾ خلْقَه ﴿فَهَدَىٰ﴾ الذَّكرَ لِمَأْتى الأنثى مِن البهائمِ. ويُقالُ: قدَّرَ فهدى وأضَلَّ، فاكتفى مِن ذِكرِ الضَّلالِ بذِكرِ الهدى؛ لكثرةِ ما يكونُ معه). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٥٦).

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢].

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت دلائِلُ التَّوحيدِ تارةً بالنَّفْسِ وتارةً بالآفاقِ، ونَبَّه بآياتِ النَّفْسِ، فلم يَبْقَ إلَّا آياتُ الآفاقِ، وكان النَّباتُ مِن آياتِها أدَلَّ المخلوقاتِ على البَعثِ؛ قال[1]:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ٤﴾.

أي: والَّذي أخرَجَ مِنَ الأرضِ النَّباتَ الأخضَرَ[2].

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان إيباسُه وتَسويدُه بَعْدَ اخضِرارِه ونُمُوِّه: في غايةِ الدَّلالةِ على تمامِ القُدرةِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٧، ٢٧٨).

وقد جَعَل بَعضُ المُفَسِّرينَ المرعى خاصًّا بالأنعامِ. ومنهم: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ جُزَي، وأبو السعود، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٧، ٢٧٨).

ومنهم مَن جعله عامًّا للنَّاسِ والحيواناتِ، وهو ظاهرُ اختيارِ الرازيِّ، وابنِ كثير، واختاره السعديُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠).

وكَمالِ الاختيارِ، بمُعاقَبةِ الأضْدادِ على الذَّاتِ الواحِدةِ؛ قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ أي: بَعْدَ أطوارٍ مِن زَمَنِ إخراجِه ﴿غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾[١].

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

أي: فجَعَلَ اللهُ ذلك المَرعى يابِسًا، وجعَلَ لَونَه قَريبًا مِنَ السَّوادِ بَعْدَ أن كان مُخضَرًّا ورَطْبًا[٢].

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَه تعالى بالتَّسبيحِ، وكان التَّسبيحُ لا يَتِمُّ إلَّا بقراءةِ ما أُنزِلَ عليه مِنَ القُرآنِ، وكان يتذكَّرُ في نَفْسِه مَخافةَ أن يَنْسى؛ فأزال عنه ذلك، وبَشَّرَه بأنَّه تعالى يُقرِئُه، وأنَّه لا يَنسى، واستثنى ما شاء أن يُنسِيَه لمصلحةٍ كالنَّسخِ وغيرِه[٣].

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾.

أي: سنُلْهِمُك -يا محمَّدُ- قِراءةَ القُرآنِ رَغْمَ كَونِك أُمِّيًّا لا تَقرَأُ ولا تَكتُبُ، وتحفَظُه في صَدْرِك، فلا تَنْساه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٥، ٣١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

قال الواحدي: (قال المفَسِّرونَ: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا نَزَل عليه القُرآنُ أكثَرَ تحريكَ لِسانِه؛ مَخافةَ أن يَنساه، وكان لا يَفرُغُ جِبريلُ مِن آخِرِ الوَحيِ حتَّى يتكَلَّمَ هو بأوَّلِه؛ مَخافةَ النِّسيانِ، فقال الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وهذا كقَولِه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ [طه: ١١٤] =

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧﴾.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: إلَّا ما شاء اللهُ أن يُنسِيَكه مِن القُرآنِ -يا محمَّدُ- وَفْقَ ما تَقتَضيه حِكْمتُه البالِغةُ(١).

= الآيةَ، وكقَولِه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦] الآيةَ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٧٠).
وقال القرطبي: (هذه بُشْرى مِن الله تعالى؛ بشَّرَه بأنْ أعطاه آيةً بَيِّنةً، وهي أن يَقرأَ عليه جِبريلُ ما يقرأُ عليه مِن الوَحيِ، وهو أُمِّيٌّ لا يَكتُبُ ولا يَقرَأُ، فيَحفَظُه ولا يَنساه). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١٥، ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).
قال ابن الجوزي: (قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:
أحدُها: إلَّا ما شاء اللهُ أن يَنسَخَه فتَنْساه. قاله الحسَنُ، وقَتادةُ.
والثَّاني: إلَّا ما شاء اللهُ أن تَنساه ثمَّ تَذكُرَه بعدُ. حكاه الزَّجَّاجُ.
والثَّالثُ: أنَّه استِثناءٌ لا يقَعُ قال الفرَّاءُ: لم يَشَأْ أن يَنسى شيئًا، فإنَّما هو كقولِه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧، ١٠٨]، ولا يَشاءُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٢). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١٦)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٦).
ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والخازن، وأبو السعود، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤١).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٩).
وممَّن جمَع بيْن القولَينِ الأوَّلِ والثَّاني -أي: أنَّ النِّسيانَ بالنَّسخِ، أو ما يَعرِضُ مِن نِسيانٍ مؤقَّتٍ ثمَّ يتذَكَّرُها: ابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن =

= عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٢).

قال ابنُ عطية: (نِسيانُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممتَنِعٌ فيما أُمِرَ بتبليغِه؛ إذ هو معصومٌ، فإذا بَلَّغَه ووُعِيَ عنه، فالنِّسيانُ جائِزٌ على أن يتذكَّرَ بعدَ ذلك، وعلى أن يَسُنَّ، أو على النَّسْخِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٩). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٦).

قال أبو حيَّان: (مفهومُ الآيةِ في غايةِ الظُّهورِ، وقد تعسَّفوا في فَهمِها. والمعنى أنَّه تعالى أخبَرَ أنَّه سيُقرِئُه، وأنَّه لا يَنسى إلَّا ما شاء اللهُ، فإنَّه يَنْساه؛ إمَّا النَّسخُ، وإما أن يَسُنَّ، وإمَّا على أن يتذَكَّرَ. وهو صلَّى الله عليه وسلَّم معصومٌ مِن النِّسيانِ فيما أُمِر بتبليغِه، فإن وقَع نِسيانٌ فيكونُ على وجْهٍ مِن الوُجوهِ الثَّلاثةِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٦).

مما يدلُّ على النَّسخِ قولُه تبارك وتعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

ومما يدلُّ على الثاني ما ورد عن المُسَوَّرِ بنِ يَزيدَ المالِكيِّ رضيَ الله عنه، قال:((شَهِدْتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ في الصَّلاةِ، فترَكَ شيئًا لم يَقرَأْه، فقال له رجُلٌ: يا رسولَ الله، ترَكْتَ آيةَ كذا وكذا، فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: هَلَّا أَذْكَرْتَنيها)). أخرجه أبو داودَ (٩٠٧)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٢٤١)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٩٠٧)، وحسَّنه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٩٠٧).

ومما يدلُّ على الثالثِ وهو التَّذكُّرُ بعدَ النسيانِ ما ورَد عن عائشةَ رضيَ الله عنها، قالت: ((سَمِعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلًا يَقرأُ في سورةٍ باللَّيلِ، فقال: يَرْحَمُه اللهُ، لقدْ أَذْكَرني كذا وكذا، آيةً كنتُ أُنْسِيتُها مِن سورةِ كذا وكذا)). أخرجه البخاريُّ (٥٠٣٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٧٨٨).

وممَّن ذهب إلى القولِ الثَّالثِ: الفرَّاءُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٦).

وعن مجاهدٍ والكَلْبيِّ: أنَّ اللهَ أنزَل: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، فلمْ يَنْسَ النَّبيُّ بعْدَ ذلك شيئًا. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٢).

قال أبو حيَّانَ: (وقال الفرَّاءُ وجماعةٌ: هذا استثناءٌ صِلةٌ في الكلامِ على سُنَّةِ الله تعالى في الاستثناءِ، وليس ثَمَّ شيءٌ أُبيحَ استثناؤُه. وأخَذ الزمخشريُّ هذا القولَ فقال: وقال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، والغرضُ نفْيُ النِّسيانِ رأسًا، كما يقولُ الرَّجُلُ لصاحِبِه: أنت سَهيمِي فيما أَملِكُ إلَّا ما شاء الله، ولا يَقصِدُ استثناءَ شيءٍ، وهو مِن استعمالِ القِلَّةِ في معنى النَّفيِ. انتهى. وقولُ الفرَّاءِ والزمخشريِّ يجعلُ الاستثناءَ كلا استثناءٍ، وهذا لا يَنبغي أن يكونَ في كلامِ الله تعالى، بل ولا =

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ العَلانيَةَ والسِّرَّ [(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧].

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨﴾.

أي: ونشرحُ لك -يا محمَّدُ- شرعًا سهلًا سَمحًا مستقيمًا عَدلًا، ونُسهِّلُ عليك أفعالَ الخَيرِ وأقوالَه، ونُوَفِّقُك للطَّريقةِ اليُسرى في كلِّ أمرٍ مِن أمورِ الدِّينِ والدُّنيا[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ تنبيهٌ على استِحقاقِ اللهِ تعالى

= في كلامٍ فصيحٍ.

وكذلك القولُ بأنَّ «لا» في ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ للنَّهيِ، والألِفَ ثابتةٌ لأجْلِ الفاصِلةِ، وهذا قولٌ ضعيفٌ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٦). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٢).

قال الشوكاني: (قال مقاتلٌ: أي: نُهَوِّنُ عليك عمَلَ الجنَّةِ. وقيل: نُوَفِّقُك للطَّريقةِ الَّتي هي أيسَرُ وأسهَلُ. وقيل: للشَّريعةِ اليُسرى، وهي الحَنيفيَّةُ السَّهلةُ. وقيل: نُهَوِّنُ عليك الوحيَ حتَّى تَحفظَه وتَعمَلَ له. والأَولى حملُ الآيةِ على العُمومِ، أي: نُوَفِّقُك للطَّريقةِ اليُسرى في الدِّينِ والدُّنيا في كلِّ أمرٍ مِن أُمورِهما الَّتي تتوجَّهُ إليك). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١٥).

وقال البِقاعي: (﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾ أي: نجعَلُك أنت مُهَيَّأً مُسَهَّلًا مُلَيَّنًا مُوفَّقًا ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ أي: في حِفظِ الوَحيِ وتدَبُّرِه، وغيرِ ذلك مِنَ الطَّرائِقِ والحالاتِ كُلِّها الَّتي هي ليِّنةٌ سَهلةٌ خَفيفةٌ، كما أشار إليه قَولُه: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له»؛ ولهذا لم يَقُلْ: ونُيَسِّرُ لك؛ لأنَّه هو مطبوعٌ على حُبِّها). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٩٧).

التَّنزيهَ مِن كلِّ نَقصٍ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ دَلالةٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى[٢]؛ فالأعلى مفهومٌ في اللُّغةِ أنَّه أعلى كُلِّ شَيءٍ، وفَوقَ كُلِّ شَيءٍ، واللهُ قد وَصَفَ نَفْسَه في غيرِ مَوضِعٍ مِن تَنزيلِه ووَحْيِه، وأعلَمَنا أنَّه ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] [الشورى: ٤]، أفليس العَلِيُّ -يا ذَوِي الحِجَا- ما يكونُ عاليًا، لا كما تَزعُمُ المعَطِّلةُ الجَهميَّةُ أنَّه أعلى وأسفَلُ ووسَطٌ، ومع كُلِّ شَيءٍ، وفي كُلِّ مَوضِعٍ مِن أرضٍ وسماءٍ، وفي أجوافِ جميعِ الحيوانِ! ولو تدَبَّروا الآيةَ مِن كتابِ اللهِ ووفَّقَهم اللهُ لفَهْمِها، لعَقَلوا أنَّهم جُهَّالٌ لا يَفهَمونَ ما يقولونَ، وبان لهم جَهلُ أنفُسِهم، وخَطَأُ مَقالتِهم[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ سؤالٌ: ما الفائدةُ في دُخولِ الباءِ في قَولِه: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، ولَمْ تَدْخُلْ في قَولِه هنا: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾؟

الجوابُ: التَّسبيحُ يُرادُ به التَّنزيهُ والذِّكْرُ المُجَرَّدُ دونَ معنًى آخَرَ، ويرادُ به ذلك مع الصَّلاةِ، وهو ذِكْرٌ وتنزيهٌ مع عَمَلٍ؛ ولهذا تُسَمَّى الصَّلاةُ تسبيحًا، فإذا أُريدَ التَّسبيحُ المُجَرَّدُ فلا معنَى للباءِ؛ لأنَّه لا يَتعَدَّى بحَرفِ جَرٍّ؛ فلا تقولُ: سَبَّحْتُ باللهِ، وإذا أرَدْتَ المَقْرونَ بالفِعلِ -وهو الصَّلاةُ- أَدْخَلتَ الباءَ؛ تنبيهًا على ذلك المرادِ؛ كأنَّك قلتَ: سَبِّحْ مُفتَتِحًا باسمِ ربِّك، أو ناطِقًا باسمِ ربِّك، كما تقولُ: صَلِّ مُفتَتِحًا أو ناطِقًا باسمِه؛ ولهذا السِّرِّ -واللهُ أعلَمُ- دخلتِ اللَّامُ في قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، والمرادُ: التَّسبيحُ الَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((التوحيد)) لابن خزيمة (١/ ٢٥٧).

هو السُّجودُ والخُضوعُ والطَّاعةُ، ولَمْ يَقُلْ في موضِعٍ: «سَبَّحَ اللهَ ما في السَّمَواتِ والأرضِ» كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]، وتأمَّلْ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، كيف قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ لَمَّا ذَكَرَ السُّجودَ باسمِه الخاصِّ؛ فصار التَّسبيحُ ذِكْرَهم له، وتنزيهَهم إيَّاه[1].

٤- قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أفادَتْ تَعديةُ فِعلِ الأمْرِ بالتَّسبيحِ هنا إلى اسمٍ أنَّ المأمورَ به قولٌ دالٌّ على تَنزيهِ اللهِ بطَريقةِ إجراءِ الأخبارِ الطَّيِّبةِ، أو التَّوصيفِ بالأوصافِ المقدَّسةِ لإثباتِها إلى ما يدُلُّ على ذاتِه تعالَى مِن الأسماءِ والمَعاني. ولَمَّا كان أقوالًا كانت مُتعلِّقةً باسمِ اللهِ باعتبارِ دَلالتِه على الذَّاتِ، فالمأمورُ به إجراءُ الأخبارِ الشَّريفةِ والصِّفاتِ الرَّفيعةِ على الأسماءِ الدَّالَّةِ على اللهِ تعالَى مِن أعلامٍ وصِفاتٍ ونحْوِها، وذلك آيِلٌ إلى تَنزيهِ المسمَّى بتلك الأسماءِ، فتَسبيحُ اسمِ اللهِ النُّطقُ بتَنزيهِه بذِكْرٍ يَليقُ بجَلالِه مِن العقائدِ والأعمالِ؛ كالسُّجودِ والحمْدِ، ويَشملُ ذلك استِحضارَ النَّاطقِ بألفاظِ التَّسبيحِ مَعانيَ تلك الألفاظِ؛ إذ المقصودُ مِن الكلامِ معْناهُ، وبتَظاهُرِ النُّطقِ مع استحضارِ المعْنى يَتكرَّرُ المعْنى على ذِهنِ المتكلِّمِ، ويَتجدَّدُ ما في نفْسِه مِن تَعظيمٍ للهِ تعالَى، وأمَّا تَفكُّرُ العبدِ في عَظَمةِ اللهِ تعالَى وتَرديدُ تَنزيهِه في ذِهنِه، فهو تَسبيحٌ لِذاتِ اللهِ ومُسمَّى اسمِه، ولا يُسمَّى تَسبيحَ اسمِ اللهِ؛ لأنَّ ذلك لا يَجْري على لَفظٍ مِن أسماءِ اللهِ تعالَى، فهذا تَسبيحُ ذاتِ اللهِ، وليس تَسبيحًا لاسمِه، فهذا مِلاكُ التَّفرقةِ بيْنَ تَعلُّقِ لَفظِ التَّسبيحِ بلَفظِ اسمِ اللهِ نحْو: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، وبيْن تَعلُّقِه بدُونِ اسمٍ نحْو: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ﴾ [الإنسان: ٢٦]، أو قُلْنا: ﴿هُوَ ٱللَّهُ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٠).

ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ [الحشر: ٢٣] إلى آخِرِ السُّورةِ، كان ذلك تَسبيحًا لاسمِه تعالَى، وإذا نَفَيْنا الإلهيَّةَ عن الأصنامِ لأنَّها لا تَخلُقُ، كان ذلك تَسبيحًا لِذاتِ اللهِ لا لاسْمِه؛ لأنَّ اسمَه لم يَجْرِ عليه في هذا الكلامِ إخبارٌ ولا تَوصيفٌ، فهذا مَناطُ الفرْقِ بيْن استعمالِ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ واستعمالِ ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾، ومآلُ الإطلاقَينِ في المعْنى واحدٌ؛ لأنَّ كِلا الإطلاقَينِ مُرادٌ به الإرشادُ إلى مَعرفةِ أنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عن النَّقائصِ[(١)].

٥- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ ضلالُ مَن سَلَبُوا أسماءَ اللهِ تعالى معانيَها مِن أهلِ التَّعطيلِ، وقالوا: إنَّ اللهَ تعالى سميعٌ بلا سَمْعٍ، وبصيرٌ بلا بَصَرٍ، وعزيزٌ بلا عِزَّةٍ، وهكذا! وعَلَّلُوا ذلك بأنَّ ثبوتَ الصِّفاتِ يَستَلْزِمُ تَعَدُّدَ القُدَماءِ؛ ففي هذه الآياتِ الكريمةِ أوصافٌ كثيرةٌ لموصوفٍ واحدٍ؛ ولَمْ يَلْزَمْ مِن ثبوتِها تَعَدُّدُ القُدَماءِ[(٢)]!

٦- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ أنَّ مَعرِفتَه سُبحانَه وعِلْمَه أكبرُ العُلومِ وأعلاها؛ ووجْهُه: أنَّ العِلْمَ مُطابِقٌ للمَعلومِ[(٣)]، والعِلمُ الأعلى هو العِلمُ بالأعلى؛ فهو رَبُّ كلِّ ما سِواه، فهو الأصلُ، فكذلك العِلمُ به سَيِّدُ جميعِ العُلومِ، وهو أصلٌ لها[(٤)].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ اعلَمْ أنَّ الاسْتِدلالَ بالخَلْقِ والهِدايةِ هي الطَّريقةُ المعتَمَدةُ عندَ أكابرِ الأنبياءِ عليهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٣، ٢٧٤).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٩).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٨٨).
(٤) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٨).

السَّلامُ، والدَّليلُ عليه ما حكى اللهُ تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ أنَّه قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وحكى عن فِرعَونَ أنَّه لَمَّا قال لموسى وهارونَ عليهما السَّلامُ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]؟ قال موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وأمَّا محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فإنَّه تعالى أوَّلُ ما أنزَلَ عليه هو قولُه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢]، هذا إشارةٌ إلى الخَلْقِ، ثمَّ قال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٣، ٤]، وهذا إشارةٌ إلى الهدايةِ، ثمَّ إنَّه تعالى أعاد ذِكْرَ تلك الحُجَّةِ في هذه السُّورةِ، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، وإنَّما وَقَع الاستِدلالُ بهذه الطريقةِ كثيرًا؛ لأنَّ العَجائِبَ والغرائِبَ في هذه الطريقةِ أكثَرُ، ومُشاهَدةَ الإنسانِ لها واطِّلاعَه عليها أتَمُّ؛ فلا جَرَمَ كانت أقوى في الدَّلالةِ[1].

٨- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ فذكَرَ سُبحانَه أربعةَ أُمورٍ عامَّةً: الخَلقُ والتَّسويةُ والتَّقديرُ والهدايةُ، وجعَل التَّسويةَ مِن تمامِ الخَلقِ، والهدايةَ مِن تمامِ التَّقديرِ.

والتَّسويةُ شامِلةٌ لجميعِ مخلوقاتِه، وما يُوجَدُ مِن التَّفاوُتِ وعدمِ التَّسويةِ فهو راجعٌ إلى عدَمِ إعطاءِ التَّسويةِ للمَخلوقِ؛ فإنَّ التَّسويةَ أمرٌ وُجوديٌّ يتعلَّقُ بالتَّأثيرِ والإبداعِ، فما عُدِمَ منها فلِعَدَمِ إرادةِ الخالقِ للتَّسويةِ، وذلك أمرٌ عَدَميٌّ يكفي فيه عدمُ الإبداعِ والتَّأثيرِ؛ فتأمَّلْ ذلك فإنَّه يُزيلُ عنك الإشكالَ في قَولِه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، فالتَّفاوُتُ حاصلٌ بسَبَبِ عدمِ مشيئةِ التَّسويةِ، كما أنَّ الجَهلَ والصَّمَمَ والعَمَى والخَرَسَ والبَكَمَ يَكْفي فيها عدمُ مشيئةِ خَلْقِها وإيجادِها، والمقصودُ أنَّ كلَّ مخلوقٍ فقد سوَّاه خالقُه سُبحانَه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٨).

في مَرتَبةِ خَلْقِه، وإنْ فاتَتْه التَّسويةُ مِن وَجهٍ آخَرَ لَمْ يُخْلَقْ له[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أُوثِرَ وَصْفا التَّسويةِ والهِدايةِ مِن بَينِ صِفاتِ الأفعالِ الَّتي هي نِعَمٌ على النَّاسِ، ودالَّةٌ على استحقاقِ اللهِ تعالى للتَّنزيهِ؛ لأنَّ في هذين الوَصفَينِ مُناسَبةً بما اشتمَلَت عليه مِن السُّورةِ؛ فإنَّ الَّذي يُسَوِّي خَلْقَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تسويةً تُلائِمُ ما خَلَقَه مِن أجْلِه مِن تحَمُّلِ أعباءِ الرِّسالةِ: لا يَفوتُه أن يُهَيِّئَه لحِفظِ ما يُوحيه إليه، وتيسيرِه عليه، وإعطائِه شَريعةً مُناسِبةً لذلك التَّيسيرِ؛ قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وقال: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ بيانُ أنَّ اللهَ خَلَقَ الأشياءَ لحِكمةٍ وغايةٍ تَصِلُ إليها؛ فقد ذَكَرَ سُبحانَه خَلْقَه، وذَكَرَ هدايتَه وتعليمَه بعدَ الخَلْقِ؛ لأنَّ جميعَ المخلوقاتِ خُلِقَتْ لغايةٍ مقصودةٍ بها؛ فلا بُدَّ أنْ تُهدَى إلى تلك الغايةِ الَّتي خُلِقَتْ لها، فلا تَتِمُّ مصلحتُها وما أُريدتْ له إلَّا بهدايتِها لغاياتِها[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أنَّ العَطفَ قد يكونُ لتغايرِ الصِّفاتِ مع اتِّحادِ الذَّاتِ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أنَّ كلَّ أعمالِ النَّاسِ تابعةٌ لهَدْيِ اللهِ إيَّاهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧٥٩).

(٥) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ١٠٠).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أنَّه سُبحانَه خَلَقَ الحيوانَ مُهتَدِيًا إلى طَلَبِ ما ينفَعُه، ودَفْعِ ما يَضُرُّه[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ بِشارةٌ كَبيرةٌ مِنَ اللهِ لعَبْدِه ورَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أنَّ اللهَ سيُعَلِّمُه عِلمًا لا يَنساه[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنَّه يجوزُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَنسى ما لا يَتَعَلَّقُ بالإبلاغِ[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ مُعجِزةٌ، وذلك مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّه كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلًا أمِّيًّا؛ فحِفْظُه لهذا الكِتابِ المطَوَّلِ مِن غيرِ دِراسةٍ ولا تَكرارٍ ولا كتابةٍ: خارِقٌ للعادةِ؛ فيكونُ مُعجِزًا.

الثَّاني: أنَّ هذه السُّورةَ مِن أوائِلِ ما نَزَل بمكَّةَ؛ فهذا إخبارٌ عن أمرٍ عَجيبٍ غَريبٍ مخالفٍ للعادةِ سيقَعُ في المُستقبَلِ، وقد وَقَع، فكان هذا إخبارًا عن الغَيبِ؛ فيكونُ مُعجِزًا[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سُؤالٌ: أنَّ في الآياتِ دَلالةً على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَنْسى مِن القُرآنِ ما شاء اللهُ أن يَنْساه، وقد جاءت آياتٌ كَثيرةٌ تدُلُّ على حِفْظِ القُرآنِ مِنَ الضَّياعِ، كقَولِه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦، ١٧]، وقَولِه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]!

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٠).

الجوابُ: أنَّ القُرآنَ وإن كان محفوظًا مِنَ الضَّياعِ فإنَّ بَعْضَه يَنسَخُ بَعضًا، وإنساءُ اللهِ نَبيَّه بَعْضَ القُرآنِ في حُكمِ النَّسخِ، فإذا أنساه آيةً فكأنَّه نسَخَها، ولا بُدَّ أن يأتيَ بخَيرٍ منها أو مِثْلِها، كما صَرَّحَ به تعالى في قَولِه: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل: ١٠١]، وأشار هنا لعِلْمِه بحِكمةِ النَّسخِ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾[(١)].

١٨- قال تعالى ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ مُناسَبةُ الجهْرِ وما يَخْفى أنَّ ما يَقرَؤُه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن القُرآنِ هو مِن قَبيلِ الجهْرِ، فاللهُ يَعلَمُه، وما يَنساهُ فيُسقِطُه مِن القُرآنِ هو مِن قَبيلِ الخَفيِّ، فيَعلَمُ اللهُ أنَّه اخْتَفى في حافظتِه حِينَ القِراءةِ، فلم يَبرُزْ إلى النُّطقِ به[(٢)].

١٩- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾، ومِن ذلك أنَّه يَعلَمُ ما يُصلِحُ عِبادَه، أي: فلذلك يَشرَعُ ما أراد، ويَحكُمُ بما يُريدُ[(٣)].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ بِشارةٌ كَبيرةٌ؛ أنَّ اللهَ يُيَسِّرُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لليُسْرى في جميعِ أمورِه، ويَجعَلُ شَرْعَه ودِينَه يُسْرًا[(٤)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٧).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ الافتِتاحُ بأمْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُسبِّحَ اسمَ ربِّه بالقَولِ، يُؤذِنُ بأنَّه سيُلْقي إليه عَقِبَه بِشارةً وخيرًا له، وذلك قولُه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ...﴾ [الأعلى: ٦] الآياتِ؛ ففيه بَراعةُ استهلالٍ[١].

- وتَعريفُ ﴿ٱسْمَ﴾ بطَريقِ الإضافةِ إلى ﴿رَبِّكَ﴾ دُونَ تَعريفِه بالإضافةِ إلى عَلَمِ الجَلالةِ نحْوَ: سبِّحِ اسمَ اللهِ؛ لِما يُشعِرُ به وصْفُ (ربّ) مِن أنَّه الخالقُ المدَبِّرُ[٢].

- وإضافةُ (ربّ) إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لتَشريفِه بهذه الإضافةِ، وأنْ يكونَ له حظٌّ زائدٌ على التَّكليفِ بالتَّسبيحِ[٣].

- أُجرِيَ على لَفظِ ﴿رَبِّكَ﴾ صِفةُ ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ وما بعْدَها مِن الصِّلاتِ الدَّالَّةِ على تَصرُّفاتِ قُدرتِه؛ فهو مُستحِقٌّ للتَّنزيهِ لصِفاتِ ذاتِه ولصِفاتِ إنعامِه على النَّاسِ بخَلْقِهم في أحسَنِ تَقويمٍ، وهِدايتِهم، ورَزقِهم، ورَزقِ أنعامِهم؛ للإيماءِ إلى مُوجِبِ الأمرِ بتَسبيحِ اسْمِه بأنَّه حَقيقٌ بالتَّنزيهِ استِحقاقًا لِذاتِه، ولِوَصْفِه بصِفةِ أنَّه خالقُ المخلوقاتِ خلْقًا يدُلُّ على العِلمِ والحِكمةِ وإتْقانِ الصُّنعِ، وبأنَّه أنعَمَ بالهُدى والرِّزقِ اللَّذَينِ بهما استِقامةُ حالِ البشَرِ في النَّفْسِ والجسَدِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٢).

براعة الاستهلال: هي كونُ ابتداءِ الكلامِ مُناسِبًا للمقصودِ، وأنْ يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على ما يُناسِبُ حالَ المتكلِّمِ، مُتضمِّنًا لِمَا سِيقَ الكلامُ لأجلِه مِن غيرِ تصريحٍ، بلْ بألْطفِ إشارةٍ يُدرِكُها الذَّوقُ السَّليمُ. ينظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٥)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم (ص: ٥)، ((علوم البلاغة)) لأحمد المراغي (ص: ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأُوثِرَت الصِّفاتُ الثَّلاثُ الأُوَلُ؛ لِما لَها مِن المُناسَبةِ لغرَضِ السُّورةِ[١].

- و﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ اسمُ تفضيلٍ، حُذِفَ المُفَضَّلُ عليه؛ ليَدُلَّ على العُمومِ، يعني: الأعلى على كُلِّ شَيءٍ[٢].

- وإيثارُ وصْفِ ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ في هذه السُّورةِ؛ لأنَّها تَضمَّنَت التَّنويهَ بالقُرآنِ، والتَّثبيتَ على تَلقِّيه وما تَضمَّنه مِن التَّذكيرِ؛ وذلك لعُلوِّ شَأنِه؛ فهو مِن مُتعلَّقاتِ وصْفِ العُلوِّ الإلهيِّ؛ إذ هو كَلامُه[٣].

- ومَفعولُ ﴿خَلَقَ﴾ مَحذوفٌ؛ فيَجوزُ أنْ يُقدَّرَ عامًّا، أي: خلَقَ كلَّ شَيءٍ، ويجوزُ أنْ يُقدَّرَ خاصًّا، أي: خلَقَ الإنسانَ، أو خلَقَ آدَمَ، بقَرينةِ قرْنِ فِعلِ ﴿خَلَقَ﴾ بفِعلِ (سوَّى)؛ قال تعالَى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] الآيةَ[٤].

- وعطْفُ جُملةِ ﴿فَسَوَّىٰ﴾ بالفاءِ دونَ الواوِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَضمونَها هو المقصودُ مِن الصِّلةِ، وأنَّ ما قبْلَه تَوطئةٌ له؛ فالفاءُ مِن قولِه: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ للتَّفريعِ في الذِّكرِ باعتبارِ أنَّ الخلْقَ مُقدَّمٌ في اعتبارِ المُعتبِرِ على التَّسويةِ، وإنْ كان حُصولُ التَّسويةِ مُقارِنًا لحُصولِ الخلْقِ؛ ولكَونِ التَّسويةِ مُقارِنةً للخلْقِ عُطِفَ على فِعلِ ﴿خَلَقَ﴾ فِعلُ ﴿فَسَوَّىٰ﴾ بالفاءِ المُفيدةِ التَّسبُّبَ، أي: تَرتُّبَ التَّسويةِ على الخلْقِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٥، ٢٧٦).

- وإعادةُ اسمِ المَوصولِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ وقولِه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾، مع إغناءِ حرْفِ العطْفِ عن تَكريرِه؛ للاهتِمامِ بكلِّ صِلةٍ مِن هذه الصِّلاتِ وإثباتِها لمَدلولِ الموصولِ، وهذا مِن مُقتضَياتِ الإطنابِ[١].

- وأيضًا عطْفُ قولِه: ﴿فَهَدَىٰ﴾ بالفاءِ مِثلُ عطْفِ ﴿فَسَوَّىٰ﴾، فعُطِفَ بالفاءِ دونَ الواوِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَضمونَه هو المقصودُ مِن الصِّلةِ، وأنَّ ما قبْلَه تَوطئةٌ له، وعَطْفُ ﴿فَهَدَىٰ﴾ على ﴿قَدَّرَ﴾ عَطْفُ المُسبَّبِ على السَّببِ، أي: فهَدَى كلَّ مُقدَّرٍ إلى ما قُدِّرَ له[٢].

- ومَفعولُ (هَدَى) مَحذوفٌ؛ لإفادةِ العُمومِ، وهو عامٌّ مَخصوصٌ بما فيه قابليَّةُ الهدْيِ، فهو مَخصوصٌ بذَواتِ الإدراكِ والإرادةِ، وهي أنواعُ الحيوانِ؛ فإنَّ الأنواعَ الَّتي خلقَها اللهُ وقدَّرَ نِظامَها ولم يُقدِّرْ لها الإدراكَ مِثل تقديرِ الإثمارِ للشَّجرِ، فذلك غيرُ مرادٍ مِن قولِه: ﴿فَهَدَىٰ﴾؛ لأنَّها مخلوقةٌ ومُقدَّرةٌ، ولكنَّها غيرُ مَهديَّةٍ لعدمِ صلاحِها للاهتداءِ. وإنْ جُعِلَ مَفعولُ ﴿خَلَقَ﴾ خاصًّا -وهو الإنسانُ- كان مَفعولُ ﴿قَدَّرَ﴾ على وِزانِه، أي: تَقديرُ كَمالِ قُوى الإنسانِ، وكانتِ الهدايةُ هِدايةً خاصَّةً، وهي دَلالةُ الإدراكِ والعقلِ[٣].

- وقيل: في قولِه: ﴿فَهَدَىٰ﴾ اكتِفاءٌ[٤]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٧٧).

(٤) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ =

والتَّقديرُ: فهَدَى وأضَلَّ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ تَذكيرٌ بخَلْقِ جِنسِ النَّباتِ مِن شَجَرٍ وغيرِه، واقتُصِرَ على بَعضِ أنواعِه -وهو الكلأُ-؛ لأنَّه مَعاشُ السَّوائمِ الَّتي يَنتفِعُ النَّاسُ بها[٢]. وذلك على قولٍ.

- وإيثارُ كَلمةِ ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ دُونَ لَفظِ النَّباتِ؛ لِما يُشعِرُ به مادَّةُ الرَّعْيِ مِن نفْعِ الأنعامِ به، ونفْعِها للنَّاسِ الَّذين يَتَّخِذونها، مع رِعايةِ الفاصِلةِ[٣]. وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ الغُثاءُ: اليابسُ مِن النَّبْتِ، و﴿أَحۡوَىٰ﴾ أي: المَوصوفَ بالحُوَّةِ، وهي مِن الألوانِ: سُمرةٌ تَقرُبُ مِن السَّوادِ، وهو صِفةٌ لـ﴿غُثَآءً﴾؛ لأنَّ الغُثاءَ يابسٌ، فتَصيرُ خُضرتُه حُوَّةً. وهذا الوصْفُ ﴿أَحۡوَىٰ﴾ لاسْتِحْضارِ تَغيُّرِ لَونِه بعْدَ أنْ كان أخضَرَ يانعًا، وذلك دَليلٌ على تَصرُّفِه تعالَى بالإنشاءِ وبالإنهاءِ[٤].

وقيل: ﴿أَحۡوَىٰ﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾، أي: أخْرَجَ المَرعَى أحْوى، أي: للسَّوادِ مِن شِدَّةِ خُضرتِه ونَضارتِه لكَثرةِ رِيِّه، وحَسُنَ تَأخيرُ ﴿أَحۡوَىٰ﴾؛ مِن أجْلِ الفواصِلِ[٥].

- وفي وَصْفِ إخراجِ اللهِ تعالَى المرْعَى وجَعْلِه غُثاءً أحْوى، مع ما سَبَقَه

= تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتِفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ٢٨٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٩).

مِنَ الأوصافِ في سِياقِ المناسَبةِ بيْنَها وبيْن الغرَضِ المَسوقِ له الكَلامُ: إيماءٌ إلى تَمثيلِ حالِ القُرآنِ وهِدايتِه، وما اشتمَلَ عليه مِن الشَّريعةِ الَّتي تَنفَعُ الناسَ، بحالِ الغَيثِ الَّذي يَنبُتُ به المرْعى، فتَنتَفِعُ به الدَّوابُّ والأنعامُ، وإلى أنَّ هذه الشَّريعةَ تَكمُلُ ويَبلُغُ ما أرادَ اللهُ فيها كما يَكمُلُ المرْعى ويَبلُغُ نُضْجَه حينَ يَصيرُ غُثاءً أحْوى، وقد جاء بَيانُ هذا الإيماءِ وتَفصيلُه بقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ به مِن الهُدى والعِلمِ، كمَثَلِ الغَيثِ الكثيرِ أصاب أرضًا، فكان منها نَقيَّةٌ[١] قَبِلَت الماءَ فأنْبَتَت الكَلأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكانت منها أجادِبُ[٢] أمسَكَت الماءَ، فنَفَعَ اللهُ بها النَّاسَ، فشَرِبوا وسَقَوا وزَرَعوا...))[٣] الحديثَ[٤].

ويجوزُ أنْ يكونَ المقصودُ مِن جُملةِ ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ إدماجَ العِبرةِ بتَصاريفِ ما أَودَعَ اللهُ في المخلوقاتِ مِن مُختلِفِ الأطوارِ مِن الشَّيءِ إلى ضِدِّه؛ للتَّذكيرِ بالفَناءِ بعْدَ الحياةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مُدَّةَ نَضارةِ الحَياةِ للأشياءِ تُشبِهُ المدَّةَ القصيرةَ، فجِيءَ بالحرْفِ الموضوعِ لعَطْفِ ما يَحصُلُ فيه حُكْمُ المعطوفِ بعْدَ زمَنٍ قَريبٍ مِن زمَنِ حُصولِ المعطوفِ عليه، وهو الفاءُ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾

(١) نَقيَّةٌ: أي: طَيِّبةٌ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١/ ١٧٩).

(٢) الأجادِبُ: الأرضُ الصُّلبةُ الَّتي تُمسِكُ الماءَ؛ مِنَ الجَدْبِ، وهو القَحْطُ، سَمَّاها أجادِبَ؛ لأنَّها لِصَلابَتِها لا تُنبِتُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٤٢)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٧٩)، ومسلمٌ (٢٢٨٢) مِن حديث أبي موسى الأشعريِّ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٧٩).

- قولُه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ الأمْرُ بالتَّسبيحِ في قولِه: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١] بِشارةٌ إجماليَّةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بخَيرٍ يَحصُلُ له؛ فهذا مَوقعُ البَيانِ الصَّريحِ بوَعْدِه بأنَّه سيَعصِمُه مِن نِسيانِ ما يُقرِئُه، فيُبلِّغُه كما أُوحِيَ إليه، ويَحفَظُه مِن التَّفلُّتِ عليه، ولهذا تكونُ هذه الجُملةُ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ البِشارةَ تُنشِئُ في نفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَرقُّبًا لوعْدٍ بخَيرٍ يأْتيهِ، فبَشَّرَه بأنَّه سيَزيدُه مِن الوحْيِ، مع ما فُرِّعَ على قولِه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ مِن قولِه: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾. وإنَّما ابتُدِئَ بقولِه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾؛ تَمهيدًا للمَقصودِ الذي هو ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وإدماجًا للإعلامِ بأنَّ القرآنَ في تَزايُدٍ مُستمِرٍّ، فإذا كان قد خاف مِن نِسيانِ بعضِ ما أُوحِيَ إليه على حِينِ قِلَّتِه، فإنَّه سيَتتابَعُ ويَتكاثَرُ، فلا يَخشَى نِسيانَه؛ فقد تَكفَّلَ له عدَمَ نِسيانِه مع تَزايُدِه[1].

- والسِّينُ في قولِه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ إمَّا للتَّأكيدِ، وإمَّا لأنَّ المرادَ إقراءُ ما أَوحَى اللهُ إليه حِينَئذٍ وما سيُوحِي إليه بعْدَ ذلك؛ فهو وَعْدٌ باستِمرارِ الوحْيِ في ضِمنِ الوعْدِ بالإقراءِ؛ فالسِّينُ عَلامةٌ على استِقبالِ مَدخولِها، وهي تُفيدُ تَأكيدَ حُصولِ الفِعلِ، وخاصَّةً إذا اقتَرَنَت بفِعلٍ حاصلٍ في وقْتِ التَّكلُّمِ؛ فإنَّها تَقْتضي أنَّه يَستمِرُّ ويَتجدَّدُ، وذلك تَأكيدٌ لحُصولِه، وإذ قد كان قولُه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ إقراءً، فالسِّينُ دالَّةٌ على أنَّ الإقراءَ يَستمِرُّ ويَتجدَّدُ[2].

- والالْتفاتُ بضَميرِ المتكلِّمِ المعظِّمِ نفْسَه ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾؛ لأنَّ التَّكلُّمَ أنسَبُ بالإقبالِ على المبشَّرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٩، ٢٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٠).

- قولُه: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه الالْتفاتُ إلى الاسمِ الجَليلِ؛ لتَربيةِ المهابةِ، والإيذانِ بدَورانِ المشيئةِ على عُنوانِ الأُلوهيَّةِ المسْتتبِعةِ لِسائرِ الصِّفاتِ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ جُملةُ اعتِراضٍ، وهي تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّ مَضمونَ تلك الجُملةِ ضَمانُ اللهِ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حِفظَ القرآنِ مِن النَّقصِ العارضِ[٢].

- قولُه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ عطْفٌ على ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، وهذا العطْفُ مِن عطْفِ الأعمِّ على الأخصِّ في المآلِ، وإنْ كان مَفهومُ الجُملةِ السَّابقةِ مُغايرًا لمَفهومِ التَّيسيرِ؛ لأنَّ مَفهومَها الحِفظُ والصِّيانةُ، ومَفهومَ المعطوفةِ تَيسيرُ الخَيرِ له[٣].

- وتَعليقُ التَّيسيرِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، مع أنَّ الشَّائعَ تَعليقُه بالأُمورِ المُسَخَّرةِ للفاعلِ -كما في قولِه تعالَى: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٦]-؛ للإيذانِ بقوَّةِ تَمكينِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن اليُسْرى والتَّصرُّفِ فيها، بحيثُ صارَ ذلكَ مَلَكةً راسخةً له، كأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جُبِلَ عليها، كما في قولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((اعمَلُوا؛ فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له))[٤]، ومعْنى اللاَّمِ في قولِه: ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ العِلَّةُ، أي: لأجْلِ اليُسرى، أي: لقَبولِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٩٧، ٣٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨١).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٤٩٤٥-٤٩٤٩)، ومسلمٌ (٢٦٤٧) مِن حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٢).

- ويجوزُ أنْ يُجعَلَ الكلامُ في قولِه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ جاريًا على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ بسُلوكِ أُسلوبِ القلْبِ[١]، وأنَّ الأصلَ: ونُيسِّرُ لك اليُسرى، أي: نَجعَلُها سَهلةً لك فلا تَشُقُّ عليك -وذلك على أنَّ الموصوفَ مَحذوفٌ، وتقديرُه: للشَّريعةِ. وفي وَصْفِ الشَّريعةِ -على هذا التَّقديرِ- بـ(اليُسْرى) إيماءٌ إلى استِتبابِ تَيسُّرِه لها بما أنَّها جُعِلَت يُسْرى، فلم يَبْقَ إلَّا حِفظُه مِن الموانعِ الَّتي يشُقُّ معها تَلقِّي اليُسرى، فاشتَمَلَ الكلامُ على تَيسيرَينِ: تَيسيرِ ما كُلِّفَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: جَعْلِه يَسيرًا مع وَفائِه بالمقصودِ منه، وتَيسيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للقيامِ بما كُلِّفَ به، ويُوجَّهُ العُدولُ عن مُقْتضى ظاهرِ النَّظمِ إلى ما جاء النَّظمُ عليه بأنَّ فيه تَنزيلَ الشَّيءِ الميسَّرِ مَنزِلةَ الشَّيءِ الميسَّرِ له، والعكْس؛ للمُبالَغةِ في ثُبوتِ الفعلِ للمفعولِ على طَريقةِ القلْبِ المقبولِ، كقولِ العرَبِ: عرَضْتُ النَّاقةَ على الحَوضِ[٢].

- واليُسرى: مُؤنَّثُ الأيسَرِ، وصِيغةُ (فُعلى) تدُلُّ على قوَّةِ الوصْفِ؛ لأنَّها مُؤنَّثُ (أفْعَلَ)[٣].

---

(١) القلبُ: هو جعلُ أحدِ أجزاءِ الكلامِ مكانَ الآخَرِ لِغَيرِ داعٍ مَعْنويٍّ، دُونَ تَعقيدٍ ولا خطأٍ ولا لَبْسٍ، وهو من تخريجِ الكلامِ على خِلافِ مُقتَضَى الظَّاهِرِ، ويَقصِدُه البُلَغاءُ تزيينًا للكلامِ. ومنه ما ليس بمُطَّرِدٍ؛ نحو: (عرَضْتُ النَّاقةَ على الحَوْضِ)، و: (أدخلتُ الخاتمَ في إصبَعي)، ومنه مُطَّرِدٌ في الكلامِ، كثير عِندَهم، حتَّى صار أكثَرَ مِنَ الأصلِ؛ نحو قولِهم: (ما كادَ يَفعلُ كذا)، يُريدونَ: كاد ما يَفعلُ. وعليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]، وقولُه: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠]. يُنظر: ((شرح الأبيات المشكلة الإعراب)) لأبي علي الفارسي (ص: ١٠٥)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢١١)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٥٨، ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٨٢).

الآيات (٩-١٥)

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَصْلَى﴾: أي: يَرِدُ ويدخلُ، يقالُ: صَلِيَ النَّارَ وصَلِيَ بها صُلِيًّا، وصِلِيًّا، وصلَّى: قاسَى حَرَّها وشِدَّتَها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّار[١].

﴿أَفْلَحَ﴾: أي: فاز بالمطلوبِ، ونجا مِن المرهوبِ، وأصلُ الفلاحِ: البقاءُ والفوزُ والظَّفَرُ، وإدراكُ البُغيةِ، ثمَّ قيل لكلِّ مَن عقَل وحزُمَ وتكاملتْ فيه خِلالُ الخَيرِ، والعربُ تقولُ لكلِّ مَن أصاب خيرًا: مُفلِحٌ، وأصلُ (فلح) هنا: يدُلُّ على فَوزٍ وبَقاء[٢].

﴿تَزَكَّىٰ﴾: أي: تَطَهَّر مِن الكُفرِ ومَعاصي اللهِ، وعَمِل بما أمَره اللهُ به، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على طهارةٍ ونَماءٍ وزِيادةٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٩٢) و(٢٢/ ١٧٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عُبَيدة (١/ ٢٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩)، ((غريب القرآن)) للسِّجِسْتاني (ص: ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهَرَوي (٥/ ١٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمِرًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّذكيرِ: فذَكِّرْ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ إذا رَجَوتَ نَفعًا في التَّذكيرِ، سيَتذَكَّرُ بالقُرآنِ ويَعتَبِرُ بمَوعِظَتِه مَن يَخْشى اللهَ تعالى، ويَبتَعِدُ الكافِرُ عن الذِّكرى، ولا ينتَفِعُ بها؛ الَّذي يَدخُلُ نارَ الآخِرةِ العُظمى، ويُقاسي شِدَّةَ حَرِّها، ثمَّ لا يَموتُ في النَّارِ ولا يَحْيا.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه حُسنَ عاقِبةِ المؤمنينَ، وأسبابَ ذلك، فيقولُ: قد نَجَح وفازَ مَن تطَهَّرَ مِن الكُفرِ والمعاصي، وذَكَر اللهَ سُبحانَه وتعالى؛ فأقبَلَ على الصَّلاةِ للهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تكَفَّل سُبحانَه بتيسيرِ جَميعِ مَصالحِ الدُّنيا والآخرةِ، أمَرَ بدَعوةِ الخَلْقِ إلى الحَقِّ[1].

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ أنَّه يُقرِئُه ويُيسِّرُه، أمَرَه بالتَّذكيرِ؛ إذ ثَمرةُ الإقراءِ هي انتفاعُه في ذاتِه، وانتفاعُ مَن أُرسِلَ إليهم[2].

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾.

أي: فذَكِّرْ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ إذا رَجَوتَ نَفعًا في التَّذكيرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٧-٢٥٩). =

= ومِمَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ تيميَّةَ: (قولُه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أمرٌ بتذكيرِ كُلِّ أحدٍ، فإن انتفَعَ كان تذَكُّرُه تامًّا نافِعًا، وإلَّا حَصَل أصلُ التَّذكيرِ الَّذي قامت به الحُجَّةُ، ودَلَّ ذلك على ذَمِّه واستِحقاقِه التَّوبيخَ، مع أنَّه سُبحانَه إنَّما قال: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، ولم يقُلْ: ذكِّرْ مَن تَنفَعُه الذِّكْرى فقط... ولم يقُلْ: سيَنتَفِعُ مَن يَخشى؛ فإنَّ النَّفعَ الحاصِلَ بالتَّذكيرِ أعَمُّ مِن تذَكُّرِ مَن يَخشى؛ فإنَّه إذا ذَكَّر قامت الحُجَّةُ على الجميعِ، والأشقى الَّذي تجَنَّبَها حصَلَ بتذكيرِه قيامُ الحُجَّةِ عليه، واستِحقاقُه لعذابِ الدُّنيا والآخِرةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١٦٩).

وقال الشنقيطي: (الَّذي يظهَرُ لمقَيِّدِ هذه الحروفِ -عفا الله عنه- هو بقاءُ الآيةِ الكريمةِ على ظاهِرِها، وأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ أن يكَرِّرَ الذِّكرى تكريرًا تقومُ به حُجَّةُ اللهِ على خَلْقِه: مأمورٌ بالتَّذكيرِ عندَ ظَنِّ الفائدةِ... وبيانُ ذلك أنَّه تارةً يَعلمُه بإعلامِ اللهِ به، كما وقَعَ في أبي لهبٍ... وتارةً يَعلَمُ ذلك بقرينةِ الحالِ، بحيث يُبلِّغُ على أكمَلِ وَجهٍ، ويأتي بالمعجزاتِ الواضِحةِ، فيَعلَمُ أنَّ بَعضَ الأشخاصِ عالمٌ بصِحَّةِ نبُوَّتِه، وأنَّه مُصِرٌّ على الكُفرِ؛ عِنادًا ولَجاجًا، فمِثْلُ هذا لا يجِبُ تكريرُ الذِّكرى له دائمًا، بعدَ أن تكَرَّرَ عليه تكريرًا تلزَمُه به الحُجَّةُ). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ٢٥٧-٢٥٩).

ثمَّ قال الشنقيطي: (إنَّما اختَرْنا بقاءَ الآيةِ على ظاهِرِها مع أنَّ أكثرَ المفسِّرينَ على صَرفِها عن ظاهِرِها المُتبادرِ منها، وأنَّ معناها: فذكِّرْ مُطلقًا إن نفعَتِ الذِّكْرى وإن لم تنفَعْ؛ لأنَّنا نرى أنَّه لا يجوزُ صَرفُ كتابِ الله عن ظَواهِرِه المُتبادرةِ منه إلَّا لدليلٍ يجبُ الرُّجوعُ له). ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) (ص: ٢٦٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٤، ٢٨٥).

وقيل: الكلامُ على الاكتفاءِ، والمعنى: إن نفعَتِ الذِّكْرى وإن لم تنفَعْ. وممَّن اختاره: الواحديُّ، ومكِّي، والبغوي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢١١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١٦).

ونسَبَ أبو حيَّانَ وأبو السُّعودِ هذا القولَ إلى: الفرَّاءِ، والنَّحَّاسِ، والجُرْجانيِّ، والزهراويِّ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦). ويُنظر أيضًا: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٢٧).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر ما يأتي في الفوائد (ص: ١٥٧-١٥٩).

كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَه بالتَّذكيرِ لكُلِّ أحدٍ قَسَّم النَّاسَ له إلى قِسمَينِ: قِسمٌ يَقبَلُ العلاجَ، وقِسمٌ لا يَقبَلُه؛ إعلامًا بأنَّه سُبحانَه وتعالى عالِمٌ بكُلٍّ مِنَ القِسمَينِ جملةً وأفرادًا على التَّعيينِ، ولم يَزَلْ عالِمًا بذلك، ولكِنَّه لم يُعَيِّنْ؛ ابتِلاءً منه لعبادِه؛ لتقومَ له الحُجَّةُ عليهم بما يتعارَفونَه بيْنَهم، وله الحُجَّةُ البالغةُ[1].

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

أي: سيَتذَكَّرُ بالقُرآنِ ويَعتَبِرُ بمَوعِظَتِه مَن يَخْشى اللهَ، ويَخْشى عَذابَه[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٨، ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٥).

قال ابنُ عطيَّة: (أخبَرَ تعالى أنَّه سيَذَّكَّرُ مَن يَخشى اللهَ والدَّارَ الآخرةَ، وهم العُلَماءُ والمؤمِنونَ؛ كلٌّ بقَدْرِ ما وُفِّقَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٠).

وقال البِقاعي: (﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ أي: في جِبِلَّتِه نَوعَ خَشيةٍ، وهو السَّعيدُ لِما قُدِّرَ له في نَفْسِه مِن السَّعادةِ العُظمى لقَبولِ الحَنيفيَّةِ السَّمْحةِ، فيَذَّكَّرُ ما يَعلَمُ منها في نَفْسِه فيَتَّعِظُ؛ فإنَّ الخَشيةَ حامِلةٌ على كُلِّ خَيرٍ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٩٩).

وقال اللهُ -عزَّ وجَلَّ- عن فِرعَونَ: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۞ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥، ٢٦].

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى مَن ينتَفِعُ بالذِّكرى؛ بَيَّن مَن لا ينتَفِعُ بها[١].

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾.

أي: ويَبتَعِدُ الكافِرُ عن الذِّكْرى، ولا يَنتَفِعُ بها[٢].

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ وَصْفَه الَّذي أوجَبَ له العَمَلَ السَّيِّئَ؛ ذكَرَ جَزاءَه[٣].

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

أي: الَّذي يَدخُلُ نارَ الآخِرةِ العُظمى، فيُقاسي شِدَّةَ حَرِّها وآلامِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٥).

قيل: المرادُ بالأشقى: الكافرُ المُصِرُّ على إنكارِ المَعادِ ونحوِه، الجازمُ بنَفيِ ذلك، وهو أشقى أنواعِ الكفَرةِ. وقيل: المرادُ به: الكافرُ المُتَوغِّلُ في عداوةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ كالوليدِ ابنِ المُغيرةِ، وعُتبةَ بنِ ربيعةَ. وقيل: المرادُ به: الكافرُ مُطلقًا؛ فإنَّه أشقى مِن الفاسِقِ. وقيل: المُفَضَّلُ عليه كفَرةُ سائرِ الأُمَمِ؛ فإنَّه حيث كان المؤمنُ مِن هذه الأُمَّةِ أسْعَدَ مِن مُؤْمِنيهم، كان الكافرُ منها أشقى مِن كافِريهم. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧١)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۞ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٤، ١٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نارُكم هذه الَّتي يُوقِدُ ابنُ آدَمَ: جُزءٌ مِن سَبعينَ جُزءًا مِن حَرِّ جَهنَّمَ! قالوا: واللهِ إن كانت لَكافيةً يا رسولَ اللهِ! قال: فإنَّها فُضِّلَت عليها بتِسعةٍ وسِتِّينَ جُزءًا، كُلُّها مِثْلُ حَرِّها))[(١)].

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

أي: ثمَّ لا يَموتُ الكافِرُ في النَّارِ الكُبْرى؛ فيَستريحَ مِن عَذابِها، ولا يَحْيا حياةً نافِعةً وخالِصةً مِنَ الآلامِ[(٢)]!

= القرطبي)) (٢٠/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٥).

مِمَّن قال بأنَّ الكُبْرى هي نارُ الآخرةِ؛ لأنَّها أكبَرُ مِن نارِ الدُّنيا: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٣٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٥).

وقيل: المرادُ بالنَّارِ الكُبرى: الطَّبَقةُ السُّفْلى مِن أطباقِ النَّارِ. ومِمَّن ذهب إليه: الفَرَّاءُ، وأبو السعودِ، وهو ظاهرُ اختيارِ الألوسيِّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢١).

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٦٥)، ومسلمٌ (٢٨٤٣) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٦).

ومِمَّن ذهب في الجُملةِ إلى هذا المعنى المذكور: الواحديُّ، والقرطبي، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة. =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾ [فاطر: ٣٦].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أمَّا أهلُ النَّارِ الَّذين هم أهلُها فإنَّهم لا يَموتونَ فيها ولا يَحْيَونَ))(١).

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى وَعيدَ مَن أعرَضَ عن النَّظَرِ في دلائِلِ اللهِ تعالى؛ أتْبَعَه بالوَعدِ لِضِدِّه(٢).

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾.

أي: قد نَجَح وفازَ مَن تطَهَّرَ مِن الكُفرِ والمعاصي وسَيِّئِ الأخلاقِ، فآمَنَ وعَمِلَ الأعمالَ الصَّالحةَ الَّتي منها ذِكرُ اللهِ، والصَّلاةُ، والصَّدَقةُ(٣).

= وقيل: المعنى: أنَّ نَفْسَ أحَدِهم تصيرُ في حَلْقِه، فلا تخرُجُ؛ فيَموتَ، ولا ترجِعُ إلى مَوضِعِها مِن الجِسْمِ؛ فيَحْيا. ومِمَّن ذهب إليه: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٨).

(١) رواه مسلم (١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢١، ٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٣٢) و(١٦/ ١٨٤، ١٩٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ٩].

وعن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((اللَّهُمَّ آتِ نَفْسي تَقْواها، وزَكِّها أنت خَيرُ مَن زكَّاها، أنت وَلِيُّها ومَولاها))[1].

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

أي: وذَكَر اللهَ سُبحانَه وتعالى بقلبِه ولسانِه؛ فأورَثَ له ذلك إقبالًا على الصَّلاةِ للهِ تعالى[2].

= ابن كثير)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٧، ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٦، ١٦٧).

قال محمد رشيد رضا: (الفَلاحُ في ذلك الوَعدِ يَشملُ الفَوزَ بخَيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير المنار)) (٤/ ٤١).

وقال ابن جزي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ يحتمِلُ أنْ يكونَ بمعنى الطَّهارةِ مِن الشِّركِ والمعاصي، أو بمعنى الطَّهارةِ للصلاةِ أو بمعنى أداءِ الزَّكاةِ وعلى هذا قال جماعةٌ: إنَّها في يومِ الفطرِ والمعنى أدَّى زكاةَ الفطرِ وذَكَر اسْمَ رَبِّه في طريقِ المصلَّى إلى أنْ يَخرُجَ الإمامُ، وصلَّى صلاةَ العيدِ، ... وقيل: المرادُ أدَّى زكاةَ مالِه وصلَّى الصلواتِ الخمسَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٥).

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢١، ٣٢٢)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٨).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ أنَّ خشيةَ اللهِ تعالى تَستَلزِمُ طاعتَه؛ فالخائفُ مِن اللهِ ممتثِلٌ لأوامرِه، مُجتنِبٌ لنَواهيه؛ فقد أَخْبَرَ سُبحانَه أنَّ مَن يخشاه يَتَذَكَّرُ، والتَّذكُّرُ هنا مُستَلزِمٌ لعبادتِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾، وقولِه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، وقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾ [يونس: ٩] أنَّ العَبدَ كُلَّما اتَّقى زاد هُداه، وكُلَّما اهتَدى زادتْ تَقواه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ أنَّ مَنْ آمَنَ بالآخرةِ وأَشْفَقَ منها فهو الَّذي يَنْتَفِعُ بالآياتِ والمواعِظِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ أنَّ تَذَكُّرَ الوَعدِ والوعيدِ يُوجِبُ خَشيةَ اللهِ والحَذَرَ منه، ولا تنفَعُ الموعظةُ إلَّا لِمَنْ آمَنَ به، وخافه ورَجاه[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ يعني: تَطَهَّرَ، ويَشملُ ذلك ظاهِرَه وباطِنَه، يَتَزَكَّى **أوَّلًا**: مِن الشِّركِ بالنِّسبةِ لمعامَلةِ اللهِ، فيَعبُدُ اللهَ مُخلِصًا له الدِّينَ، لا يُرائي، ولا يُسَمِّعُ، ولا يَطلُبُ جاهًا، ولا رِئاسةً فيما يَتَعَبَّدُ به للهِ عزَّ وجَلَّ، وإنَّما يريدُ بهذا وَجْهَ اللهِ تعالى، والدَّارَ الآخرةَ.

ثانيًا: تَزَكَّى في اتِّباعِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بحيثُ لا يَبْتَدِعُ في شريعتِه

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٧٢).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٦).

لا بقليلٍ ولا كثيرٍ، لا في الاعتقادِ ولا في الأقوالِ ولا في الأفعالِ، وهذا التَّزكِّي بالنِّسبةِ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -وهو اتِّباعُه مِن غيرِ ابتِداعٍ- لا ينطبقُ تمامًا إلَّا على طريقةِ السَّلَفِ الصَّالحِ؛ طريقةِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ الَّذين يؤمِنونَ بكُلِّ ما وَصَفَ اللهُ به نفْسَه في كتابِه، أو على لسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم؛ على طريقةِ السَّلَفِ الصَّالحِ، الَّذين لا يَبتَدِعونَ في العباداتِ القَوليَّةِ ولا في العباداتِ الفِعْليَّةِ شيئًا في دِينِ اللهِ، تَجِدُهم يَتَّبِعونَ ما جاء به الشَّرعُ، خِلافًا لِمَا يَصْنَعُه بعضُ المبتَدِعةِ في الأذكارِ المبتدَعةِ؛ إمَّا في نَوعِها، وإمَّا في كَيفيَّتِها وصِفَتِها، وإمَّا في أدائِها، كما يفعَلُه بعضُ أصحابِ الطُّرُقِ مِن الصُّوفيَّةِ وغيرِهم.

ثالثًا: تَزَكَّى بالنِّسبةِ لمُعامَلةِ الخَلْقِ، بحيثُ يُطَهِّرُ قلْبَه مِن الغِلِّ والحِقدِ على إخوانِه المسلِمينَ، فتجدُه دائمًا طاهِرَ القَلبِ، يُحِبُّ لإخوانِه ما يُحِبُّ لنَفْسِه، لا يَرضى لأحَدٍ أنْ يَمَسَّه سُوءٌ، بل يَوَدُّ أنَّ جميعَ النَّاسِ سالِمونَ مِن كلِّ شَرٍّ، مُوَفَّقونَ لكُلِّ خَيرٍ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ استُدِلَّ بظاهرِ الآيةِ على أنَّه يُشتَرَطُ في وُجوبِ الأمرِ بالمعروفِ مَظِنَّةُ النَّفعِ به، فإنْ جَزَم بعدَمِ الفائدةِ فيه لم يجِبْ عليه[(٢)].

٢- قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ مفهومُ الآيةِ أنَّه إنْ لم تنفَعِ الذِّكْرى؛ بأنْ كان التَّذكيرُ يَزيدُ في الشَّرِّ، أو يَنقُصُ مِنَ الخَيرِ: لم تكُنِ الذِّكرى مأمورًا بها، بل مَنهِيًّا عنها؛ فالذِّكرى ينقَسِمُ النَّاسُ فيها قِسمَينِ: مُنتَفِعونَ وغيرُ مُنتفِعينَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٦٥).

فأمَّا المُنتفعونَ فقد ذكَرَهم بقَولِه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ اللهَ تعالى؛ فإنَّ خَشيةَ اللهِ تعالى وعِلْمَه بأنْ سيُجازيه على أعمالِه توجِبُ للعَبدِ الانكفافَ عن المعاصِي، والسَّعْيَ في الخَيراتِ. وأمَّا غيرُ المنتَفِعينَ فذَكَرَهم بقَولِه: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى * ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾، وهي النَّارُ الموقَدةُ، الَّتي تطَّلِعُ على الأفئِدةِ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ سؤالٌ: أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان مَبعوثًا إلى الكُلِّ، فيَجِبُ عليه أن يُذَكِّرَهم سواءٌ نفَعَتْهم الذِّكْرى أو لم تنفَعْهم[2]؛ فما المرادُ مِن تعليقِه على الشَّرطِ في قَولِه: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾؟

الجوابُ: أنَّ المعلَّقَ على الشَّيءِ لا يَلزَمُ أن يكونَ عَدَمًا عندَ عَدَمِ ذلك الشَّيءِ، كقَولِه: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [النور: ٣٣]، ومنها قَولُه: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وإذا عرَفْتَ هذا فإنَّهم ذكَروا لذِكْرِ هذا الشَّرطِ فوائِدَ:

إحداها: أنَّ مَن باشَرَ فِعلًا لغَرَضٍ فلا شَكَّ أنَّ الصُّورةَ الَّتي عُلِمَ فيها إفضاءُ تلك الوَسيلةِ إلى ذلك الغَرَضِ كان إلى ذلك الفِعلِ أوجَبَ مِن الصُّورةِ الَّتي عُلِمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٢) وقد جاءت آياتٌ كثيرةٌ تدُلُّ على الأمرِ بالتَّذكيرِ مُطلقًا؛ كقولِه: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ [الغاشية: ٢١]، وقولِه: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٧]. يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٧).

وقال الشنقيطي أيضًا: (تنبيهٌ: هذا الإشكالُ الَّذي في هذه الآيةِ إنَّما هو على قولِ مَن يقولُ باعتبارِ دليلِ الخِطابِ الَّذي هو مفهومُ المُخالَفةِ، وأمَّا على قولِ مَن لا يَعتبِرُ مفهومَ المُخالَفةِ شرطًا كان أو غيرَه -كأبي حنيفةَ- فلا إشكالَ في الآيةِ، وكذلك لا إشكالَ فيها على قولِ مَن لا يَعتبِرُ مفهومَ الشَّرطِ -كالباقِلَّانيِّ-، فتكونُ الآيةُ نصَّتْ على الأمرِ بالتَّذكيرِ عندَ مَظِنَّةِ النَّفعِ، وسكتَتْ عن حُكمِه عندَ عدمِ مَظِنَّةِ النَّفعِ، فيُطلَبُ مِن دليلٍ آخَرَ، فلا تُعارِضُ الآيةُ الآياتِ الدَّالَّةَ على التَّذكيرِ مُطلقًا). ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) (ص: ٢٦٠).

فيها عدمُ ذلك الإفضاءِ؛ فلذلك قال: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾.

ثانيها: أنَّه تعالى ذكَرَ أشرَفَ الحالتَينِ، ونَبَّه على الأُخرى، كقَولِه: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، والتَّقديرُ: «فذَكِّرْ إنْ نفَعَتِ الذِّكْرى أو لم تنفَعْ»(١).

ثالثُها: أنَّ المرادَ منه: البَعثُ على الانتِفاعِ بالذِّكرى، كما يقولُ المرءُ لِغَيرِه إذا بَيَّنَ له الحَقَّ: قد أوضَحْتُ لك إنْ كُنتَ تَعقِلُ، فيكونُ مُرادُه البَعْثَ على القَبولِ والانتِفاعِ به.

رابعُها: أنَّ هذا يَجري مَجْرى تنبيهِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه لا تنفَعُهم الذِّكْرى، كما يُقالُ للرَّجُلِ: ادْعُ فُلانًا إنْ أجابَك، والمعنى: وما أراه يُجيبُك(٢).

خامِسُها: أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ دعاهم إلى اللهِ كثيرًا، وكُلَّما كانت دعوتُه أكثَرَ كان عُتُوُّهم أكثَرَ، وكان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يحترِقُ حَسرةً على ذلك، فقيل له: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]؛ إذِ التَّذكيرُ العامُّ واجِبٌ في أوَّلِ الأمرِ، فأمَّا التَّكريرُ فلعَلَّه إنَّما يجِبُ عندَ رجاءِ حُصولِ المقصودِ؛ فلهذا المعنى قَيَّدَه بهذا الشَّرطِ(٣).

---

(١) قال ابن عثيمين: (إذا قُلْنا بالقَولِ الآخَرِ: أنَّ المعنى: سَواءٌ نَفَعَتْ أمْ لَمْ تَنْفَعْ، مِثلَما يُقالُ للإنسانِ: عَلِّمْ هذا إنْ كان يَنفَعُه العِلمُ، فالمعنى: كَرِّرْ عليه التَّعليمَ، وهذا أسلوبٌ معروفٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ؛ أنَّه يُقْصَدُ بالشَّرطِ الاستِمرارُ). ((لقاء الباب المفتوح)) (اللقاء رقْم: ١٥٦).

(٢) وقال ابن جُزَي: (﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ المرادُ بهذا الشَّرطِ توبيخُ الكفَّارِ الَّذين لا تَنفَعُهم الذِّكْرى، واستِبْعادُ تأثيرِ الذِّكْرى في قُلوبِهم، كقَولِك: قد أوصَيْتُك لو سَمِعتَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٢).

وقيل: معنى قَوْله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ إذْ نَفَعَتِ الذِّكْرى، مثل قَولِه تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] ومَعْناه: إذْ كُنْتُم مُؤمنين.

وقيل: المعنى: ذكِّرْ بِكُلِّ حالٍ؛ فقد نَفَعَتِ الذِّكْرى، فهو تعليقٌ بمُتحقِّقٍ، والمعنى: إن نَفَعَتْ، =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ سُؤالٌ: أنَّ العِلمَ إنَّما يُسَمَّى «تذَكُّرًا» إذا كان قد حَصَل العِلمُ أوَّلًا ثمَّ نَسِيَه، وهذه الحالةُ غيرُ حاصلةٍ للكُفَّارِ، فكيف سَمَّى اللهُ تعالى ذلك بالتَّذَكُّرِ؟!

= وقد نَفَعتْ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٩).

ونحو القولِ السَّابقِ قولُ مَن قال: إنَّ (إنْ) بمعنى «مَا»، أيْ: فذَكِّرْ ما نَفَعَتِ الذِّكْرى؛ لأنَّ الذِّكْرى نافِعةٌ بكُلِّ حالٍ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١٦).

قال ابنُ عثيمين بعدَ أن ذكَرَ الخِلافَ في معنى الآيةِ: (على كلِّ حالٍ نقولُ: لا بُدَّ مِن التَّذكيرِ، حتَّى وإن ظنَنْتَ أنَّها لا تَنفَعُ؛ فإنَّها سوف تَنفَعُك أنت، وسوف يَعلَمُ النَّاسُ أنَّ هذا الشَّيءَ الَّذي ذكَّرْتَ عنه إمَّا واجبٌ وإمَّا حرامٌ، وإذا سكَتَّ والنَّاسُ يَفعَلونَ المُحَرَّمَ، قال النَّاسُ: لو كان هذا مُحَرَّمًا لذَكَّر به العلماءُ، أو لو كان هذا واجبًا لذكَّر به العلماءُ، فلا بُدَّ مِن التَّذكيرِ، ولا بدَّ مِن نشرِ الشَّريعةِ، سواءٌ نفعت أم لم تنفَعْ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٤).

وقال الشنقيطيُّ بعدَ أن اختار بقاءَ الآيةِ الكريمةِ على ظاهِرِها، وأنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَ أن يُكرِّرَ الذِّكْري تكريرًا تقومُ به حُجَّةُ الله على خَلقِه مأمورٌ بالتَّذكيرِ عندَ ظنِّ الفائدةِ، أمَّا إذا عَلِم عدمَ الفائدةِ فلا يُؤْمَرُ بشيءٍ هو عالمٌ أنَّه لا فائدةَ فيه؛ قال: (حاصلُ إيضاحِ هذا الجوابِ أنَّ الذِّكْرى تَشتَمِلُ على ثلاثِ حِكَمٍ:

الأولى: خروجُ فاعِلِها مِن عُهدةِ الأمرِ بها.

الثَّانيةُ: رجاء النَّفعِ لِمَن يُوعَظُ بها.

وبيَّن اللهُ تعالى هاتَينِ الحِكمتَينِ بقولِه تعالى: ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، وبيَّن الأُولى منهما بقولِه تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ [الذاريات: ٥٤]، وقولِه تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ونحوِها مِن الآياتِ. وبيَّن الثَّانيةَ بقولِه: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

الثَّالثةُ: إقامةُ الحُجَّةِ على الخَلقِ، وبيَّنها تعالى بقولِه: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وبقولِه: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ الآيةَ [طه: ١٣٤].

فالنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا كرَّر الذِّكْرى حصلَتِ الحِكمةُ الأُولى والثَّالثةُ، فإنْ كان في الثَّانيةِ طمَعٌ استمَرَّ على التَّذكيرِ، وإلَّا لم يُكلَّفْ بالدَّوامِ، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ٢٦٠).

وجوابُه: أنَّ لقُوَّةِ الدَّلائِلِ وظُهورِها كأنَّ ذلك العِلمَ كان حاصِلًا، ثمَّ إنَّه زال بسَبَبِ التَّقليدِ والعِنادِ؛ فلهذا أسماه اللهُ تعالى بـ «التَّذَكُّرِ»(١). أو لِما تقرَّر في الفِطَرِ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ سُؤالٌ: كيف قال ذلك، مع أنَّ الحيوانَ لا يخلو عن الاتِّصافِ بأحَدِهما؟!

الجوابُ: أنَّ مَعناه: لا يموتُ مَوتًا يَستريحُ به، ولا يَحْيا حياةً ينتَفِعُ بها، كقَولِه تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

وقيل: معناه: تَصعَدُ نَفْسُه إلى الحُلقومِ، ثمَّ لا تُفارِقُه؛ فيَموتَ، ولا ترجِعُ إلى مَوضِعِها مِن الجِسمِ؛ فيَحيا(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فإنَّه لَمَّا كان الأشقَى في الدُّنيا ليس بحَيٍّ الحياةَ النَّافِعةَ، ولا مَيِّتًا عديمَ الإحساسِ؛ كان في الآخِرةِ كذلك(٤).

٧- في سُورةِ (النُّورِ) جاء قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، أي: أنَّ اللهَ يُطهِّرُه مِن أدناسِ الكفْرِ والمعاصي بتَوفيقِه وهِدايتِه إلى الإيمانِ والتَّوبةِ النَّصوحِ والأعمالِ الصَّالحةِ، وهذا الَّذي دلَّت عليه هذه الآيةُ المذكورةُ لا يُعارِضُ قولَه تعالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، ولا قولَه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، على القولِ بأنَّ معْنى ﴿تَزَكَّىٰ﴾: تَطهَّرَ مِن أدناسِ الكفْرِ والمعاصي، ووَجْهُ ذلك في قولِه: ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أنَّه لا يُزكِّيها إلَّا بتَوفيقِ اللهِ وهِدايتِه إيَّاهُ للعمَلِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٤).

(٢) يُنظر ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٧).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٠٦).

الصَّالحِ، وقَبولِه منه، وكذلك الأمرُ في قولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[١].

٨- قد جُمِعَت أنواعُ الخَيرِ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾؛ فإنَّ الفلاحَ نَجاحُ المرْءِ فيما يَطمَحُ إليه، فهو يَجمَعُ مَعنيَي الفوزِ والنَّفْعِ، وذلك هو الظَّفَرُ بالمُبْتغى مِن الخَيرِ[٢].

٩- قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ استُدِلَّ به على مَشروعيَّةِ صلاةِ العيدِ، وزكاةِ الفِطرِ وتقديمِها على الصَّلاةِ، والتَّكبيرِ في العِيدِ[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾

- قولُه: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ بعْدَ أنْ ثَبَّتَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَكفَّلَ له ما أزال فَرَقَه مِن أعباءِ الرِّسالةِ، وما اطمَأَنَّت به نفْسُه مِن دفْعِ ما خافَه مِن ضَعفٍ عن أدائِه الرِّسالةَ على وَجْهِها، وتَكفَّلَ له دفْعَ نِسيانِ ما يُوحَى إليه، إلَّا ما كان إنساؤُه مُرادًا للهِ تعالَى، ووعَدَه بأنَّه وفَّقه وهَيَّأَه لذلك، ويسَّرَه عليه؛ أعقَبَ ذلك بأنْ أمَرَه بالتَّذكيرِ، أي: التَّبليغِ، أي: بالاستِمرارِ عليه؛ إرهافًا لعَزْمِه، وشَحْذًا لنَشاطِه؛ ليكونَ إقبالُه على التَّذكيرِ معَ حرصٍ ومحبَّةٍ؛ فإنَّ امتِثالَ الأمرِ إذا عاضَدَه إقبالُ النَّفْسِ على فِعلِ المأمورِ به، كان فيه مَسرَّةٌ للْمأمورِ، فجمَعَ بيْن أداءِ الواجبِ وإرضاءِ الخاطِرِ؛ فالفاءُ للتَّفريعِ على ما تَقدَّمَ تَفريعَ النَّتيجةِ على المقدِّماتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٣، ٢٨٤).

وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ هي الفصيحةُ؛ أفْصَحَتْ عن شَرطٍ مُقدَّرٍ، أي: إنْ عَلِمْتَ أنَّك مِن أربابِ الفُيوضاتِ الكَماليَّةِ بهِدايتِنا وتَوفيقِنا؛ فذكِّرْ(١).

- ومَفعولُ ﴿فَذَكِّرْ﴾ مَحذوفٌ؛ لقصْدِ التَّعميمِ، أي: فذكِّرِ النَّاسَ، ودلَّ عليه قولُه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ الآيتَين(٢).

- وجُملةُ ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ مُعترِضةٌ بيْن الجُملتَينِ المُعلَّلةِ وعِلَّتِها، وهذا الاعتراضُ مَنظورٌ فيه إلى العُمومِ الَّذي اقتضاهُ حذْفُ مَفعولِ ﴿فَذَكِّرْ﴾، أي: فدُمْ على تَذكيرِ النَّاسِ كلِّهم إنْ نَفَعَت الذِّكرى جَميعَهم، أي: وهي لا تَنفَعُ إلَّا البعضَ، وهو الَّذي يُؤخَذُ مِن قولِه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ الآيةَ(٣).

أوِ الشَّرطُ في قولِه: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ، وليس مُتعلِّقًا بالجُملةِ، ولا تَقييدًا لمَضمونِها؛ إذْ ليس المعْنى: فذَكِّرْ إذا كان للذِّكرى نفْعٌ، حتَّى يُفهَمَ منه بطَريقِ مَفهومِ المخالفةِ ألَّا تُذكِّرَ إذا لم تَنفَعِ الذِّكرى؛ إذْ لا وَجْهَ لتَقييدِ التَّذكيرِ بما إذا كانت الذِّكرى نافعةً؛ إذْ لا سَبيلَ إلى تَعرُّفِ مَواقعِ نفْعِ الذِّكرى؛ ولذلك كان قولُه تعالَى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] مُؤَوَّلًا بأنَّ المعْنى: فذَكِّرْ بالقُرآنِ، فيَتذكَّرُ مَن يَخافُ وَعيدِي، بلِ المرادُ: فذَكِّرِ الناسَ كافَّةً إنْ كانت الذِّكرى تَنفَعُ جَميعَهم، فالشَّرطُ مُستعمَلٌ في التَّشكيكِ؛ لأنَّ أصْلَ الشَّرطِ بـ(إنْ) أنْ يكونَ غيرَ مَقطوعٍ بوُقوعِه، فالدَّعوةُ عامَّةٌ، وما يَعلَمُه اللهُ مِن أحوالِ النَّاسِ في قَبولِ الهُدى وعدَمِه أمرٌ اسْتأثَرَ اللهُ بعِلمِه، فأبو جَهلٍ مَدعوٌّ للإيمانِ، واللهُ يَعلَمُ أنَّه لا يُؤمِنُ، لكنَّ اللهَ لم يَخُصَّ بالدَّعوةِ مَن يُرْجى منهم الإيمانُ دُونَ غيرِهم،

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والواقعُ يَكشِفُ المقدورَ، وهذا تَعريضٌ بأنَّ في القَومِ مَن لا تَنفَعُه الذِّكرى، وذلك يُفهَمُ مِن اجتِلابِ حرْفِ (إنْ) المُقتضِي عدَمَ احتِمالِ وُقوعِ الشَّرطِ أو نُدرةَ وُقوعِه؛ ولذلك جاء بعْدَه بقولِه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾؛ فهو استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَذَكِّرۡ﴾ وما لَحِقَه مِن الاعتراضِ بقولِه: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ المُشعرِ بأنَّ التَّذكيرَ لا يَنتفِعُ به جَميعُ المُذَكَّرينَ[١].

- قولُه: ﴿مَن يَخۡشَىٰ﴾ جِنسٌ لا فرْدٌ مُعيَّنٌ، أي: سيَتذكَّرُ الَّذين يَخشَون، والضَّميرُ المُستترُ في ﴿يَخۡشَىٰ﴾ مُراعًى فيه لَفظُ (مَن)؛ فإنَّه لَفظٌ مُفرَدٌ، وقد نُزِّلَ فِعلُ ﴿يَخۡشَىٰ﴾ مَنزلةَ اللَّازِمِ فلمْ يُقدَّرْ له مَفعولٌ، أي: يَتذكَّرُ مَن الخشيةُ فِكرَتُه وجِبِلَّتُه، أي: مَن يَتوقَّعُ حُصولَ الضُّرِّ والنَّفعِ فيَنظُرُ في مَظانِّ كلٍّ ويَتدبَّرُ في الدَّلائلِ؛ لأنَّه يَخْشى أنْ يَحِقَّ عليه ما أُنذِرَ به[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾ التَّجنُّبُ: التَّباعُدُ، وأصْلُه (تَفعَّلَ) لتَكلُّفِ الكَينونةِ بجانبٍ مِن شَيءٍ، والجانِبُ: المكانُ الَّذي هو طرَفٌ لغَيرِه، وتَكلُّفُ الكَينونةِ به كِنايةٌ عن طلَبِ البُعدِ، أي: بمَكانٍ بَعيدٍ منه، أي: يَتباعَدُ عن الذِّكرى الأشْقى[٣].

- وتَعريفُ ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ تَعريفُ الجِنسِ؛ فيَشملُ جَميعَ المشركينَ، أي: الأشقَونَ، أو اللَّامُ للعهْدِ، والمرادُ شَخصٌ بعَينِه، أو الأشْقَى مِن الكَفَرةِ؛ لتَوغُّلِه في الكُفْرِ وعَداوةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٤، ٢٨٥).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ١٥٧-١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي =

- ووُصِفَ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ بأنَّه ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾؛ لأنَّ إطلاقَ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ في هذه الآيةِ في صَدْرِ مُدَّةِ البَعثةِ المُحمديَّةِ، فكان فيه مِن الإبهامِ ما يَحتاجُ إلى البَيانِ، فأُتبِعَ بوَصْفٍ يُبيِّنُه في الجُملةِ ما نزَلَ مِن القُرآنِ مِن قبْلِ هذه الآيةِ[١].

- ومُقابَلةُ ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ بـ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ تُؤذِنُ بأنَّ الأشْقى مِن شَأنِه ألَّا يَخْشى، فهو سادِرٌ في غُرورِه، مُنغَمِسٌ في لَهْوِه، فلا يَتطلَّبُ لنفْسِه تَخلُّصًا مِن شَقائِه[٢].

- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ احتباكٌ[٣]؛ ذَكَر الثَّمرةَ في الأوَّلِ -وهي الخَشيةُ- دليلًا على حَذْفِ ضِدِّها مِنَ الثَّاني -وهي القَسوةُ النَّاشِئةُ على الحُكمِ بالشَّقاوةِ-، وذَكَر الأصلَ والسَّبَبَ في الثَّاني -وهو الشَّقاوةُ- دليلًا على حَذفِ ضِدِّه في الأوَّلِ -وهو السَّعادةُ-؛ فالإسعادُ سَبَبٌ، والخَشيةُ ثَمرةٌ، والإشقاءُ سَبَبٌ، والقَساوةُ ثَمرةٌ ومُسَبَّبٌ، وسِرُّ ذلك أنَّه ذَكَر مَبدأَ السَّعادةِ أوَّلًا؛ حَثًّا عليه، ومآلَ الشَّقاوةِ ثانيًا تحذيرًا منه[٤].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وَصْفُ النَّارِ بالكُبرى؛ للتَّهويلِ والإنذارِ[٥].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ تدُلُّ على أنَّ مَعطوفَها مُتراخي الرُّتبةِ في الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ، وهو شِدَّةُ العذابِ؛ فإنَّ تَردُّدَ حالِه بيْن الحياةِ والموتِ وهو في عَذابِ الاحتراقِ، عَذابٌ أشدُّ ممَّا أفادَهُ

= حيان)) (١٠/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦).

أنَّه في عَذابِ الاحتراقِ؛ ضَرورةَ أنَّ الاحتراقَ واقعٌ وقد زِيدَ فيه دَرجةٌ: أنَّه لا راحةَ منه بمَوتٍ ولا مَخلَصَ منه بحياةٍ، فمعْنى ﴿لَا يَمُوتُ﴾: لا يَزولُ عنه الإحساسُ؛ فإنَّ الموتَ فِقدانُ الإحساسِ، مع ما في هذه الحالةِ مِن الأُعجوبةِ، وهي ممَّا يُؤكِّدُ اعتبارَ تَراخي الرُّتبةِ في هذا التَّنكيلِ[١].

- وتَعقيبُ قولِه: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ بقولِه: ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ احتراسٌ[٢]؛ لدفْعِ تَوهُّمِ أنْ يُرادَ بنفْيِ المَوتِ عنهم أنَّهم اسْتَراحوا مِن العذابِ، لِما هو مُتعارَفٌ مِن أنَّ الاحتراقَ يُهلِكُ المُحرَقَ، فإذا قيل: ﴿لَا يَمُوتُ﴾ تَوهَّمَ المُنذَرون أنَّ ذلك الاحتراقَ لا يَبلُغُ مَبلَغَ الإهلاكِ، فيَبقى المُحرَقُ حيًّا، فيُظَنُّ أنَّه إحراقٌ هيِّنٌ، فيَكونُ مَسلاةً للمُهدَّدينَ، فلِدَفْعِ ذلك عُطِفَ عليه ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾، أي: حياةً خالصةً مِن الآلامِ، والقَرينةُ على الوَصْفِ المذكورِ مُقابَلةُ ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ بقولِه: ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾، وليس هذا مِن قَبيلِ نفْيِ وصْفَينِ لإثباتِ حالةٍ وسَطٍ بيْن حالَتَيْهما مِثل: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥]؛ لأنَّ ذلك لا طائلَ تَحتَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٢، ٤٥٣).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٥٢).

(٢) الاحتراس: هو التحرُّز مِن الشيءِ، والتحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو: الإتيانُ في كلامٍ يُوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدْفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ التَّكميلَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦، ٢٨٧).

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾

- قولُه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ذِكرَ ﴿مَن يَخۡشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠] وذِكرَ ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ [الأعلى: ١١]، يُثيرُ استِشْرافَ السَّامعِ لمَعرفةِ أثَرِ ذلك، فابتُدِئَ بوَصْفِ أثَرِ الشَّقاوةِ، فوُصِفَ ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ بأنَّه ﴿يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٢]، وأُخِّرَ ذِكرُ ثَوابِ الأتْقى؛ تَقديمًا للأهمِّ في الغرَضِ -وهو بَيانُ جَزاءِ الأشقى الَّذي يَتجنَّبُ الذِّكرى- وبقِيَ السَّامعُ يَنتظِرُ أنْ يَعلَمَ جَزاءَ مَن يَخْشى ويَتذكَّرُ، فلمَّا وُفِّيَ حقُّ المَوعظةِ والتَّرهيبةِ استُؤنِفَ الكلامُ لبَيانِ المَثوبةِ والتَّرغيبِ؛ فالمرادُ بـ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ هنا عَيْنُ المرادِ بمَن يَخْشى ويَذَّكَّرُ؛ فقد عُرِّفَ هنا بأنَّه الَّذي ذَكَرَ اسمَ ربِّه، فلا جَرَمَ أنَّ ذِكرَ اسمِ ربِّه هو التَّذكُّرُ بالذِّكرى، فالتَّذكُّرُ هو غايةُ الذِّكرى المأمورِ بها الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قولِه تعالَى: ﴿فَذَكِّرۡ﴾[1] [الأعلى: ٩].

- وأُتِيَ بكَلمةِ (قَدْ)؛ لِما أنَّ عندَ الإخبارِ بسُوءِ حالِ المُتجنِّبِ عن الذِّكرَى في الآخرةِ، يَتوقَّعُ السَّامعُ الإخبارَ بحُسنِ حالِ المُتذكِّرِ فيها ويَنتظِرُه[2].

- والإتيانُ بفِعلِ المُضِيِّ في قولِه: ﴿أَفۡلَحَ﴾؛ للتَّنبيهِ على المُحقَّقِ وُقوعُه مِن الآخرةِ، واقترانُه بحرْفِ (قدْ) لتَحقيقِه وتَثبيتِه، كما في قولِه تعالَى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، وقولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]؛ لأنَّ الكلامَ مُوجَّهٌ إلى الأشقَيْنَ الَّذين تَجنَّبوا الذِّكرى؛ إثارةً لهِمَّتِهم في الالْتِحاقِ بالَّذين خَشُوا فأفْلَحوا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٧).

- ومعْنى ﴿تَزَكَّىٰ﴾ عالَجَ أنْ يكونَ زكيًّا، أي: بذَلَ استطاعتَه في تَطهيرِ نفْسِه وتَزكيتِها، فمادَّةُ التَّفعُّلِ للتَّكلُّفِ وبَذْلِ الجُهدِ[١].

- وفي قولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ قُدِّم التَّزكِّي على ذِكرِ اللهِ والصَّلاةِ؛ لأنَّه أصلُ العمَلِ بذلك كلِّه؛ فإنَّه إذا تَطهَّرتِ النَّفْسُ أشرَقَتْ فيها أنوارُ الهِدايةِ فعَلِمَت مَنافعَها، وأكثَرَت مِن الإقبالِ عليها، فالتَّزكيةُ: الارتياضُ على قَبولِ الخَيرِ، والمرادُ: تَزكَّى بالإيمانِ[٢].

- في قَولِه: ﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ احتباكٌ[٣]؛ ذكَر أوَّلًا الصَّلَى دليلًا على حذفِ ضدِّه ثانيًا، وثانيًا: التَّزكيةَ دليلًا على حذفِ ضدِّها أوَّلًا[٤].

- وتَفريعُ ﴿فَصَلَّىٰ﴾ على (ذَكَرَ اسْمَ رَبِّه)؛ لأنَّ الذِّكرَ بمَعنيَيْه -اللِّسانيِّ والتَّذكُّرِ- يَبعَثُ الذَّاكرَ على تَعظيمِ اللهِ تعالَى، والتَّقرُّبِ إليه بالصَّلاةِ الَّتي هي خُضوعٌ وثَناءٌ[٥].

- وفيه تَرتيبٌ حسَنٌ، حيثُ رُتِّبَتْ هذه الخِصالُ الثَّلاثُ في الآيةِ على تَرتيبِ تَوَلُّدِها؛ فأصْلُها: إزالةُ الخَباثةِ النَّفسيَّةِ مِن عَقائدَ باطلةٍ وحَديثِ النَّفْسِ بالمُضمَراتِ الفاسِدةِ، وهو المُشارُ إليه بقَولِه: ﴿تَزَكَّىٰ﴾، ثمَّ استِحضارُ مَعرفةِ اللهِ بصِفاتِ كَمالِه وحِكمتِه ليَخافَه ويَرجوَه، وهو المشارُ بقولِه: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾، ثمَّ الإقبالُ على طاعتِه وعِبادتِه، وهو المشارُ إليه بقولِه: ﴿فَصَلَّىٰ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٧، ٢٨٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٨٨).
(٣) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥٢٩).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٨).

والصَّلاةُ تُشيرُ إلى العِبادةِ، وهي في ذاتِها طاعةٌ وامتِثالٌ يَأتي بعْدَه ما يُشرَعُ مِن الأعمالِ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1] [العنكبوت: ٤٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٨).

الآيات (١٦-١٩)

﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُؤۡثِرُونَ﴾: أي: تُقَدِّمونَ وتَختارونَ، وأصلُ (أثر) هنا: يدُلُّ على تقديمِ الشَّيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولَكِنَّكم لا تَقومونَ بالذِّكرِ وأداءِ الصَّلاةِ؛ لأنَّكم تُقدِّمونَ مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا على ثوابِ الآخِرةِ، وثوابُ اللهِ في الآخِرةِ أفضَلُ وأدوَمُ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا ولَذَّاتِها الفانيةِ.

ثمَّ يختمُ اللهُ تعالى السُّورةَ الكريمةَ فيقولُ: إنَّ ما أخبَرَ اللهُ تعالى به في قَولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ * بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا * وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ مَذكورٌ في الصُّحُفِ الماضيةِ؛ صُحُفِ إبراهيمَ ومُوسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦﴾.

أي: ولَكِنَّكم لا تَقومونَ بالذِّكرِ وأداءِ الصَّلاةِ؛ لأنَّكم تُقدِّمونَ مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا على ثوابِ الآخِرةِ، فتَنشغِلونَ بأُمورِ دُنياكم عن أمورِ دِينِكم[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٠). =

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١].

﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾.

أي: وثوابُ اللهِ في الآخِرةِ أفضَلُ وأدوَمُ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا ولَذَّاتِها القليلةِ الفانيةِ؛ فنَعيمُ الجنَّةِ كامِلٌ لا نَقْصَ فيه، وأبَدِيٌّ لا يَنتهي[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

وقال جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

وعن المُسْتَوْرِدِ بنِ شَدَّادٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثلُ ما يجعَلُ أحَدُكم إِصْبَعَه هذه -وأشار بالسَّبَّابةِ- في اليَمِّ، فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟!))[(٢)].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

= قال ابنُ عطيَّة: (أخبَرَ تعالى النَّاسَ أنَّهم يُؤْثِرونَ الحياةَ الدُّنيا؛ فالكافِرُ يُؤثِرُها إيثارَ كُفرٍ، يرى أنْ لا آخِرةَ، والمؤمِنُ يُؤثِرُها إيثارَ مَعصيةٍ وغَلَبَةَ نَفْسٍ إلَّا مَن عَصَمَ اللهُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨).

أي: إنَّ ما أخبرَ اللهُ تعالى به في قَولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۞ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ مذكورٌ في الصُّحُفِ الماضيةِ[1].

﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩١، ٢٩٢).

وممَّن اختار القولَ المذكورَ في المرادِ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والرَّسْعَني، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩١).

قال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذكَرَ اختيارَ ابنِ جريرٍ: (وهذا اختيارٌ حسَنٌ قويٌّ، وقد رُويَ عن قَتادةَ وابنِ زَيدٍ نحوُه، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٣).

وقيل: المرادُ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: أي: الَّذي ذُكِر في هذه السُّورةِ. وممَّن اختار هذا القولَ: السمرقنديُّ، والثعلبي، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١١).

قال الرَّسْعَني: (وقيل: إنَّه إشارةٌ إلى ما في السُّورةِ كلِّها، وهو قولُ جماعةٍ؛ منهم: أبو العاليةِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٩٥).

قال البِقاعي: (﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الوَعظَ العَظيمَ بالتَّسبيحِ الَّذي ذُكِرَ في هذه السُّورةِ وما تأثَّرَ عنه مِن التَّزكيةِ بالذِّكرِ الموجبِ للصَّلاةِ، والإعراضِ عن الدُّنيا والإقبالِ على الآخِرةِ؛ لأنَّه جامِعٌ لكُلِّ خَيرٍ، وهو ثابتٌ في كُلِّ شريعةٍ؛ لأنَّه المقصودُ بالحُكمِ، فهو لا يَقبَلُ النَّسْخَ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٤٠٧).

وقيل: قولُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾. وقيل: إشارةٌ إلى القرآنِ، فالآيةُ كقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ذلك عامًّا خَصَّ مِن بَينِه -تعظيمًا لقَدْرِ هذه الموعِظةِ- أعظَمَ الأنبياءِ الأقدَمِينَ(١).

﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾.

أي: وتلك الصُّحُفُ هي المنزَّلةُ على إبراهيمَ ومُوسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ اعلَمْ أنَّ للمؤمنينَ حظًّا مِن هذه المَوعظةِ على طُولِ الدَّهرِ، وذلك حظٌّ مُناسِبٌ لمِقدارِ ما يُفرِّطُ فيه أحدُهم ممَّا يُنجيه في الآخرةِ إيثارًا لِما يَجْتنيه مِن مَنافعِ الدُّنيا الَّتي تَجُرُّ إليه تَبِعةً في الآخرةِ على حسَبِ ما جاءتْ به الشَّريعةُ، فأمَّا الاستكثارُ مِن مَنافعِ الدُّنيا مع عدَمِ إهمالِ أسبابِ النَّجاةِ في الآخرةِ، فذلك مَيدانٌ للهِمَمِ، وليس ذلك بمَحلِّ ذمٍّ؛ قال تعالَى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾(٣) [القصص: ٧٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ الإشارةُ إلى مَدْحِ الزُّهدِ في الدُّنيا، وذَمِّ الرَّغبةِ فيها(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٠).

قال السعدي: (﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ اللَّذَينِ هما أشرَفُ المرسَلِينَ سِوى النَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٧٧).

٣- أنَّ عَمَلَ الآخرةِ لا يَصِحُّ أنْ يكونَ وَسيلةً لعَمَلِ الدُّنيا؛ فإنَّ عَمَلَ الآخرةِ أشرفُ وأعلى مِن أنْ يكونَ وسيلةً لعَمَلِ الدُّنيا الَّذي هو أدنى؛ قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[1]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ إشارةٌ إلى التَّرغيبِ في الآخِرةِ وفي ثَوابِ اللهِ تعالى[2]، فالآخِرةُ خَيرٌ مِنَ الدُّنيا في كُلِّ وَصفٍ مَطلوبٍ، ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾؛ لكَونِها دارَ خُلدٍ وبَقاءٍ وصَفاءٍ، والدُّنيا دارُ فَناءٍ، فالمؤمِنُ العاقِلُ لا يختارُ الأردَأَ على الأجوَدِ، ولا يبيعُ لذَّةَ ساعةٍ بتَرحةِ الأبدِ؛ فحُبُّ الدُّنيا وإيثارُها على الآخِرةِ رأسُ كُلِّ خَطيئةٍ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ إيثارُ الدُّنيا على الآخِرةِ إمَّا مِن فسادٍ في الإيمانِ، وإمَّا مِن فَسادٍ في العَقلِ، وما أكثَرَ ما يكونُ منهما؛ ولهذا نبَذَها رَسولُ اللهِ وراءَ ظَهْرِه هو وأصحابُه، وصَرَفوا عنها قُلوبَهم، واطَّرَحوها ولم يألَفوها، وهَجَروها ولم يَميلوا إليها، وعَدُّوها سجنًا لا جنَّةً، فزَهِدوا فيها حقيقةَ الزُّهدِ، ولو أرادوها لَنالوا منها كُلَّ محبوبٍ، ولَوَصَلوا منها إلى كلِّ مَرغوبٍ؛ فقد عُرِضَت عليه صلَّى الله عليه وسلَّم مفاتيحُ كُنوزِها فردَّها، وفاضت على أصحابِه فآثَروا بها، ولم يَبيعوا حَظَّهم مِن الآخِرةِ بها، وعَلِموا أنَّها مَعْبَرٌ ومَمَرٌّ، لا دارُ مُقامٍ ومُستَقَرٍّ، وأنَّها دارُ عُبورٍ لا دارُ سُرورٍ، وأنَّها سحابةُ صَيفٍ تَنقشِعُ عن قليلٍ، وخيالُ طَيفٍ ما استتَمَّ الزِّيارةَ حتَّى آذَنَ بالرَّحيلِ، قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((ما لي وللدُّنيا؟! ما أنا والدُّنيا؟ إنَّما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنيا كراكِبٍ ظَلَّ

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٥/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

تحتَ شَجرةٍ، ثمَّ راح وتَرَكها))[١].

٢- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ دُنُوُّ الدُّنيا مرتبةً ودَناءَتُها؛ فهي وإنْ كانت حياةً لكِنَّها دُنيا، ويَستلزِمُ ذلك الثَّناءَ على الآخرةِ؛ لأنَّ وَصْفَ الضَّرَّةِ بالعَيبِ يدُلُّ على وَصْفِ ضَرَّتِها بالكَمالِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ نَصٌّ على أنَّ في القرآنِ مِمَّا في الصُّحُفِ الأُولى، وقد جاء ما يدُلُّ أنَّ معانيَ أُخرى كذلك في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى، كما في سورةِ «النَّجم» في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[٣] [النجم: ٣٦ - ٤٠].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ (بَلْ) هنا عاطفةٌ جُملةً عطْفًا صُوريًّا؛ فيَجوزُ أنْ تكونَ لمُجرَّدِ الانتقالِ مِن ذِكرِ المُنتفِعينَ بالذِّكرى والمُتجنِّبينَ لها، إلى ذِكرِ سَببِ إعراضِ المُتجنِّبينَ -وهم الأشْقَونَ- بأنَّ السَّببَ إيثارُهم الحياةَ الدُّنيا،

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٤، ٩٥).
والحديث أخرجه الترمذيُّ (٢٣٧٧)، وابنُ ماجه (٤١٠٩)، وأحمدُ (٣٧٠٩) واللَّفظُ له مِن حديثِ عبدِالله بنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه.
قال الترمذيُّ: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ القيِّم في ((عدة الصابرين)) (١/ ٢٩٩)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤١٠٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ٢٤٢)، وصحَّح إسنادَه ابنُ تيميَّةَ في ((الجواب الصحيح)) (٥/ ٤٨٠)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٠٧).

وذلك على قِراءةِ ﴿يُؤثِرونَ﴾ ظاهرٌ، وأمَّا على قِراءةِ ﴿تُؤْثِرُونَ﴾[(١)] فهو إضرابٌ عن حِكايةِ أحوالِ الفَريقينِ بالانتقالِ إلى تَوبيخِ أحَدِ الفريقينِ، وهو الفريقُ الأشْقى، فالخِطابُ مُوجَّهٌ إليهم على طَريقةِ الالتِفاتِ؛ لتَجديدِ نَشاطِ السَّامعِ؛ لكيْ لا تَنقضيَ السُّورةُ كلُّها في الإخبارِ عنهم بطَريقِ الغَيبةِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الإضرابُ إبطالًا لِما تَضمَّنَه قولُه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] مِن التَّعريضِ للَّذين شَقُوا بتَحريضِهم على طلَبِ الفلاحِ لأنفُسِهم؛ ليَلتحِقوا بالَّذين يَخشَون ويَتزَكَّون؛ ليَبطُلَ أنْ يَكونوا مَظِنَّةَ تَحصيلِ الفلاحِ، والمعْنى: أنَّهم بُعداءُ عن أنْ يُظَنَّ بهم التَّنافسُ في طلَبِ الفَلاحِ؛ لأنَّهم يُؤثِرون الحياةَ الدُّنيا؛ فالمعْنى: بلْ أنتم تُؤثِرون مَنافِعَ الدُّنيا على حُظوظِ الآخِرةِ، وهذا كما يقولُ النَّاصحُ شَخصًا يظُنُّ أنَّه لا يَنتَصِحُ: لقد نَصَحْتُك، وما أظُنُّك تَفعَلُ[(٢)].

وقيل: قولُه: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيه الْتفاتٌ في قولِه: ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ -إذا كان الخِطابُ مُوجَّهًا إلى الكفَّارِ- لتَشديدِ التَّوبيخِ، وإذا كان مُوجَّهًا لهم وللمُسلمينَ؛ ففي حقِّ الكفَرةِ لتَشديدِ التَّوبيخِ، وفي حَقِّ المسلمينَ لتَشديدِ العِتابِ[(٣)].

- والإيثارُ: اختيارُ شَيءٍ مِن بيْنِ مُتعدِّدٍ، والمعْنى: تُؤثِرون الحياةَ الدُّنيا بعِنايَتِكم واهتِمامِكُم. ولم يُذكَرِ المُؤثَرُ عليه؛ لأنَّ الحياةَ الدُّنيا تدُلُّ عليه، أي: لا تَتأمَّلون فيما عَدا حَياتَكم هذه، ولا تَتأمَّلون في حياةٍ ثانيةٍ؛ فالمشرِكون

---

(١) قرأ أبو عَمرٍو ﴿يُؤْثِرُونَ﴾، وقرأ الباقونَ: ﴿تُؤْثِرُونَ﴾. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٩).

لا يُؤمِنون بالآخِرةِ، وإذا ذُكِّروا بالحياةِ الآخِرةِ وأُخبِروا بها، لم يُعِيروا سَمْعَهم ذلك، وجَعَلوا ذلك مِن الكلامِ الباطلِ، وهذا مَورِدُ التَّوبيخِ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قوله: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ حالٌ مِن فاعِلِ ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ مؤكِّدةٌ للتَّوبيخِ والعِتابِ، أي: تُؤثِرونَها على الآخِرةِ، والحالُ أنَّ الآخِرةَ خَيرٌ في نَفْسِها؛ لِما أنَّ نَعيمَها مع كَونِه في غايةِ ما يكونُ مِنَ اللَّذَّةِ خالِصٌ عن شائِبةِ الغائِلةِ، أبَدِيٌّ لا انْصِرامَ له، وعدَمُ التَّعرُّضِ لبَيانِ تَكدُّرِ نَعيمِ الدُّنيا بالمُنغِّصاتِ وانقِطاعِه عمَّا قَليلٍ؛ لِغايةِ ظُهورِه[٢].

- وفي قَولِه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ احتباكٌ[٣]؛ ذِكرُ الإيثارِ والدُّنُوِّ أوَّلًا يدُلُّ على التَّركِ والعلوِّ ثانيًا، وذِكرُ الخَيرِ والبقاءِ ثانيًا يدُلُّ على ضِدِّهما أوَّلًا[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ تَذييلٌ للكلامِ، وتَنويهٌ به بأنَّه مِن الكلامِ النَّافعِ الثَّابتِ في كُتُبِ إبراهيمَ ومُوسى عليهما السَّلامُ، قُصِدَ به الإبلاغُ للمشرِكينَ الَّذين كانوا يَعرِفون رِسالةَ إبراهيمَ ورِسالةَ مُوسى؛ ولذلك أُكِّدَ هذا الخبَرُ بحرْفِ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ لأنَّه مَسوقٌ إلى المُنكِرين[٥].

- ووَجْهُ جمْعِ الصُّحفِ أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ كانتْ له صُحفٌ، وأنَّ مُوسى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢٣).

(٣) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٠).

عليه السَّلامُ كانت له صُحفٌ كَثيرةٌ، وهي مَجموعُ صُحفِ أسفارِ التَّوراةِ[١].

- جاء نظْمُ الكلامِ في قولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ على أُسلوبِ الإجمالِ والتَّفصيلِ؛ ليَكونَ لهذا الخبَرِ مَزيدُ تَقريرٍ في أذهانِ النَّاسِ؛ فقولُه: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ بدَلٌ مِن ﴿ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾[٢]. وفي إبهامِها ووصْفِها بالقِدَمِ، ثمَّ بَيانِها وتَفسيرِها مِن تَفخيمِ شَأنِها؛ ما لا يَخْفى[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٧).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ الغاشِيةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الغاشِيةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الغاشِيةِ)[١].

وسُمِّيت أيضًا بسُورةِ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾؛ فعن سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في صلاةِ الجُمُعةِ بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾))[٢].

وعنه أيضًا: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في العيدَينِ بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾))[٣].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بها في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن صَلاتَيِ الجُمُعةِ والعِيدِ.

فعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ في العِيدَينِ، وفي الجُمُعةِ بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ

---

(١) سُمِّيَت سورةَ الغاشيةِ لوُقوعِ لفظِ الغاشيةِ في أوَّلِها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١١٢٥) واللَّفظُ له، والنسائيُّ (١٤٢٢)، وأحمدُ (٢٠١٥٠).
صَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٨٠٨)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (٢/ ٥٣)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٨٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١١٢٥)، وصَحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١١٢٥).

(٣) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٧٧٤) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٢٠٢١٧).
صحَّحه ابنُ حزم في ((المحلى)) (٥/ ٨٢)، والألبانيُّ في ((إرواء الغليل)) (٦٤٤)، وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٣/ ٣٧٢).

حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾، قال: وإذا اجتمَع العيدُ والجُمُعةُ في يومٍ واحدٍ يَقرَأُ بهما أيضًا في الصَّلاتَينِ))[١].

وتقدَّمَ حديثَا سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الغاشيةِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

بيانُ أحوالِ الكافِرينَ والمؤمنينَ يومَ القيامةِ[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- ذِكرُ جزاءِ الكافِرينَ والمُؤمنينَ يومَ القيامةِ.

٢- ذِكرُ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ في خَلْقِه.

٣- أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّذكيرِ، وتهديدُ المُشرِكينَ المُعرِضينَ بالعَذابِ.

٤- تقريرُ وُقوعِ البَعْثِ والحِسابِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٨). وتُنظر الحكمةُ مِن قراءتِهما فيما تقدَّم (ص: ١٢٠).

(٢) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٥)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٧١).

الآيات (١-٧)

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾: هي القيامةُ تَغْشى النَّاسَ بالأهوالِ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[١].

﴿نَّاصِبَةٞ﴾: تَعمَلُ ما تتعَبُ به، ومعنى النَّصَبِ: الدُّؤوبُ في العَمَلِ بالتَّعَبِ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ وإهدافٍ في استواءٍ[٢].

﴿تَصۡلَىٰ﴾: أي: تدخُلُ النَّارَ وتذُوقُ حَرَّها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّارِ[٣].

﴿ءَانِيَةٖ﴾: أي: بالِغةِ الحرارةِ قد انتهَى غَلَيانُها، وأصلُ (أني): يدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ[٤].

﴿ضَرِيعٖ﴾: أي: نبتٍ ذي شَوكٍ هو أخبَثُ الطَّعامِ وأبشَعُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٤)، =

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال له: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ القيامةِ الَّتي تَغشى النَّاسَ بأهوالِها وشَدائِدِها؟

ثمَّ فصَّل الله تعالى أحوالَ النَّاسِ في ذلك اليوم، فقال: في ذلك اليوم تكونُ وُجوهٌ ذَليلةً، يَعمَلُ أصحابُها أعمالًا شاقَّةً مُرهِقةً، يَدخُلونَ نارًا شَديدةَ الحرارةِ، ويُسقَونَ مِن شَرابِ عَينٍ في غايةِ الحَرارةِ، ليس لهم طَعامٌ إلَّا شَجَرٌ يابِسٌ ذو شَوكٍ، لا يُسمِنُ هذا الضَّريعُ آكِلِيه، ولا يَدفَعُ عنهم شيئًا مِن ألَمِ الجُوعِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾.

أي: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ القيامةِ الَّتي تَغشى النَّاسَ بأهوالِها وشَدائِدِها[1]؟

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٠).

وذكَرَ ابنُ فارس أنَّ (ضرع) أصلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على لِينٍ في الشَّيءِ، ثمَّ قال: (ومِمَّا شَذَّ عن هذا البابِ: الضَّريعُ، وهو نَبْتٌ. ومُمْكِنٌ أنْ يُحْمَلَ على البابِ فيُقالُ ذلك لِضَعْفِه، إذا كان لا يُسْمِنُ ولا يُغْني مِنْ جُوعٍ). ((مقاييس اللغة)) (٣/ ٣٩٥، ٣٩٦).

وقال الزمخشري: (الضَّريعُ يَبِيسُ الشِّبْرِقِ، وهو جِنسٌ مِن الشَّوكِ تَرعاه الإبلُ ما دام رَطْبًا، فإذا يَبِسَ تحامَتْه الإبلُ، وهو سمٌّ قاتلٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

قال ابنُ عثيمين: (يجوزُ أن يكونَ الخِطابُ مُوَجَّهًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم وَحْدَه، وأمَّتُه تَبَعٌ له، ويجوزُ أن يكونَ عامًّا لكُلِّ مَن يتأتَّى خِطابُه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧١).

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا هَوَّل أمْرَها بانبهامِها وعُمومِها، زاد في التَّهويلِ بما ذَكَر مِن أحوالِها في تفصيلِ النَّاسِ إلى شَقيٍّ وسعيدٍ، وبدأ بالشَّقِيِّ؛ لأنَّ المقامَ لإنذارِ المؤثِرينَ للحياةِ الدُّنيا[1].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾.

أي: تكونُ وُجوهٌ يومَ القيامةِ ذَليلةً[2].

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾.

أي: يَعمَلُ أصحابُها أعمالًا شاقَّةً مُجهِدةً مُرهِقةً[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢).

قال البِقاعي: (أي: ذَليلةٌ مُخبِتةٌ مِنَ الخَجَلِ والفضيحةِ والخَوفِ والحَسْرةِ الَّتي لا تنفَعُ في مِثْلِ هذا الوَقتِ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٤).

ذهب أكثَرُ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ ذلك واقعٌ يومَ القيامةِ، فيُكَلَّفونَ بجَرِّ السَّلاسِلِ والأغلالِ، أو غيرِ ذلك مِن الأعمالِ الشَّاقَّةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ تيميَّةَ، والبِقاعي، والسعديُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٢).

ومِمَّن قال مِن السَّلفِ في الجملةِ إنَّ هذا العملَ والنَّصَبَ في النَّارِ والعذابِ يومَ القيامةِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٥٧).

وقيل: يكونُ ذلك في الدُّنيا. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: مكِّيٌّ، والقرطبي، وابن عادل. =

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ أن وَصَفَهم تعالى بهذه الصِّفاتِ الثَّلاثةِ؛ شَرَح بعدَ ذلك كيفيَّةَ مَكانِهم ومَشرَبِهم ومَطعَمِهم(١).

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾.

= يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢٩٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، وزَيدُ ابنُ أسلَمَ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٥٧).

قال القرطبي: (ثمَّ قال: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ فهذا في الدُّنيا؛ لأنَّ الآخِرةَ ليست دارَ عَمَلٍ. فالمعنى: وُجوهٌ عامِلةٌ ناصِبةٌ في الدُّنيا، خاشِعةٌ في الآخرةِ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦).

وقال البِقاعي: (ويجوزُ أن يُرادَ بها الَّذين تَعِبوا ونَصَبوا في الدُّنيا أجسامَهم وهم على غيرِ دِينِ الإسلامِ، كالرُّهبانِ مِنَ النَّصارى بعدَ النَّسخِ، وزنادقةِ المتصَوِّفةِ مِنَ الفلاسِفةِ وأتْباعِهم). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٣، ٤).

وقال القاسمي: (... وجُوِّزَ أن يكونَ ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ إشارةً إلى عَمَلِهم في الدُّنيا، أي: عَمِلَت ونَصِبَت في أعمالٍ لا تُجْدي عليها في الآخِرةِ، فيكونُ بمنزلةِ: حابطةٌ أعمالُها، أو جُعِلَت أعمالُها هباءً مَنثورًا، كما يدُلُّ عليه آياتٌ أُخَرُ، ويؤيِّدُه مقابلةُ هذه الآيةِ لِقَولِه في أهلِ الجنَّةِ: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٩]، وذلك السَّعيُ هو الَّذي كان في الدُّنيا. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦٠-٤٦١).

وقال السمعاني: (وقَولُه: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي: عَمِلَت في الدُّنيا لغيرِ اللهِ، فنَصِبَت وتَعِبَت في الآخِرةِ بعَذابِ اللهِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: عِكْرِمةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٩).

أي: يَدخُلونَ نارًا مُتوَقِّدةً شَديدةَ الحرارةِ[١].

﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى مكانَهم؛ ذَكَر شَرابَهم[٢].

وأيضًا لَمَّا كان مَن في الحَرِّ أحوَجَ شَيءٍ إلى ما يُبَرِّدُ باطِنَه، قال[٣]:

﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥﴾.

أي: يُسقَونَ مِن شَرابِ عَينٍ في غايةِ الحَرارةِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر شَرابَهم؛ ذَكَر طَعامَهم[٥].

﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٥)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢٩٣).

أي: ليس لهم طَعامٌ إلَّا شَجَرٌ يابِسٌ ذو شَوكٍ[١].

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَصَر أكْلَهم في هذا، وكان الضَّريعُ المعروفُ عِندَ العَرَبِ قد يَتصَوَّرُ متصَوِّرٌ أنَّه لو أُكرِهَ شَيءٌ على أكْلِه أسمنَهَ أو سَدَّ جوعتَه؛ نفى عنه فائدةَ الطَّعامِ[٢].

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾.

أي: لا يَعودُ هذا الضَّريعُ على آكِلِيه بسِمَنٍ يُصلِحُ أجسادَهم، ولا يَدفَعُ عنهم شيئًا مِن أَلَمِ الجُوعِ؛ فليس مِن وَرائِه سِوى الضَّرَرِ المحْضِ[٣]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ إلى قَولِه: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ دَليلٌ على اختصارِ الكلامِ، والإشارةِ إلى المعنى؛ لأنَّ الغاشيةَ -واللهُ أعلمُ- هي القيامةُ، فلَمْ يَذْكُرْ يَومَها واقتصرَ على فِعْلِها، ثُمَّ قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، فذَكَر الوُجوهَ وحْدَها، وهي لا تكونُ مُنفَردةً عن الأجسامِ بهذه الأوصافِ إلَّا بمُشارَكَتِها، ثُمَّ قال: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾، وهي لا تَصْلاه وَحْدَها، ثُمَّ قال: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ وإنَّما تُسْقَى البُطونُ، فأَخْبَرَ بكلِّ ذلك عن الوُجوهِ؛ لأنَّها غُرَّةُ الأبدانِ، وأرفَعُ شيءٍ في الأجسادِ. واللهُ أعلمُ. وكذلك الوُجوهُ الأُخَرُ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٩، ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٧).

الَّتي وَصَفَها بالنَّاعمةِ، وهي تُنَعَّمُ مع أبدانِها ولا تَنْفَرِدُ بنَعيمِها، وتكونُ مع الأبدانِ في الجَنَّةِ العاليةِ، و﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ إلى آذانِها، فنَسَبَ كلَّ ذلك إليها اختصارًا، وفَصاحةً، وإشارةً إلى المعاني المفهومةِ عندَ العربِ الَّذين نَزَلَ القرآنُ بِلُغَتِهم(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أنَّ إسنادَ صِفاتِ الذَّاتِ لبَعضِ أجزائِها هو مِن أساليبِ اللُّغةِ العَربيَّةِ، وكإسنادِ الكَذِبِ والخَطيئةِ إلى النَّاصيةِ في قَولِه تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾(٢) [العلق: ١٦].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ سُؤالٌ: كيف تكونُ هذه العَينُ في نارِ جهنَّمَ، والعادةُ أنَّ الماءَ يُطفئُ النَّارَ؟!

الجوابُ:

أوَّلًا: أنَّ أمورَ الآخرةِ لا تُقاسُ بأمورِ الدُّنيا، لو أنَّها قِيسَتْ بأُمورِ الدُّنيا ما استطَعْنا أنْ نَتَصَوَّرَ كيف يكونُ، أَلَيستِ الشَّمسُ تدنو يومَ القيامةِ مِن رُؤوسِ النَّاسِ على قَدْرِ مِيلٍ؟ -والميلُ إمَّا مِيلُ الْمُكْحُلةِ، وهو نصفُ الإصبَعِ، أو مِيلُ المسافةِ: كيلو وثُلُثٌ أو نحوُ ذلك-، وحتَّى لو كان كذلك فإنَّه لو كانتِ الآخرةُ كالدُّنيا لَشَوَتِ النَّاسَ شيًّا، لكنَّ الآخرةَ لا تُقاسُ بالدُّنيا، أيضًا يُحْشَرُ النَّاسُ يومَ القيامةِ في مكانٍ واحدٍ؛ منهم مَن هو في ظُلمةٍ شديدةٍ، ومنهم مَن هو في نُورٍ ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [التحريم: ٨]، يُحشَرونَ في مكانٍ واحدٍ ويَعرَقونَ؛ فمِنهم مَن يَصِلُ العَرَقُ إلى كَعْبِه، ومنهم مَن يَصِلُ إلى رُكبَتَيه، ومنهم مَن يَصِلُ إلى حِقْوَيه، ومع ذلك هم في مكانٍ واحدٍ. إذَن أحوالُ الآخرةِ لا يجوزُ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠٢).

أنْ تُقاسَ بأحوالِ الدُّنيا.

ثانيًا: أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ها نحن الآن نَجِدُ أنَّ الشَّجَرَ الأخضرَ تُوقدُ منه النَّارُ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، الشَّجرُ الأخضَرُ رَطْبٌ، ومع ذلك إذا ضُرِبَ بعضُه ببعضٍ أو ضُرِبَ بالزَّندِ انقدَحَ وخَرَجَ منه نارٌ حارَّةٌ يابِسةٌ، وهو رَطْبٌ بارِدٌ؛ فاللهُ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ، فهم يُسقَونَ مِن عَينٍ آنيةٍ في النَّارِ، ولا يتنافى ذلك مع قُدرةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ سُؤالٌ: كيف يُوجَدُ النَّبتُ في النَّارِ؟

الجوابُ: لِمَ لا يجوزُ أنْ يُقالَ: إنَّ النَّبتَ يُوجَدُ في النَّارِ؟! فإنَّه لَمَّا لم يُستبعَدْ بَقاءُ بَدَنِ الإنسانِ -مع كَونِه لحمًا ودَمًا- في النَّارِ أبَدَ الآبادِ، فكذا هاهنا، وكذا القَولُ في سلاسِلِ النَّارِ وأغلالِها، وعَقاربِها وحَيَّاتِها[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذا يُعارِضُ قولَه تعالى في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦].

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأول: أنَّ الاختِلافَ بحَسَبِ مَن يَطْعَمُ مِن أهلِ النَّارِ؛ فمَن اتَّصَفَ بالصِّفةِ الأُولى فطَعَامُه مِن غِسْلينٍ، ومَن اتَّصَفَ بالثَّانيةِ فطعامُه مِن ضَريعٍ[(٣)]، فالعذابُ ألوانٌ، والمعَذَّبونَ طَبَقاتٌ؛ فمِنهم مَن لا طعامَ له إلَّا مِن غِسْلينٍ، ومنهم مَن لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٣١).

طعامَ له إلَّا مِن ضَريعٍ، ومنهم مَن لا طعامَ له إلَّا الزَّقُّومُ، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[1] [الحجر: ٤٤].

الثَّاني: أن يكونَ أحَدُهما في حالٍ، والآخَرُ في حالٍ[2].

الثَّالِثُ: أنَّ المعنى أنَّهم لا طعامَ لهم أصلًا؛ لأنَّ الضَّريعَ لا يَصدُقُ عليه اسمُ الطَّعام، ولا تأكُلُه البَهائِمُ، فأحرى الآدَميُّونَ! وكذلك الغِسلِينُ ليس مِنَ الطَّعامِ، فمَن طَعامُه الضَّريعُ لا طَعامَ له، ومَن طَعامُه الغِسلينُ كذلك. ومنه قَولُهم: فلانٌ لا ظِلَّ له إلَّا الشَّمسُ، ولا دابَّةَ إلَّا دابَّةُ ثَوبِه، يَعْنونَ القَمْلَ، ومُرادُهم: لا ظِلَّ له أصلًا، ولا دابَّةَ له أصلًا، وعليه فلا إشكالَ. والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى[3]. وهذا الجوابُ خِلافُ ظاهِرِ القرآنِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ مُناسَبةٌ: في أنَّ عُلومَ أهلِ الباطِلِ وأعمالَهم الَّتي كانت لغيرِ اللهِ تعالى صَيَّرَها اللهُ تعالى حميمًا سَقاهم إيَّاه، كما أنَّ طعامَهم مِن ضَريعٍ لا يُسْمِنُ ولا يُغني مِن جُوعٍ، وهو تلك العُلومُ والأعمالُ الباطِلةُ الَّتي كانت في الدُّنيا كذلك لا تُسْمِنُ ولا تُغْني مِن جُوعٍ، وهؤلاء هم الَّذين قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، وهم الَّذين عَنَى بقَولِه تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهم الَّذين عَنَى بقَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[4] [البقرة: ١٦٧].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٥٦).

٧- وصْفُ ﴿ضَرِيعٍ﴾ بأنَّه ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ لتَشويهِه، وأنَّه تَمحَّضَ للضُّرِّ، فلا يَعودُ على آكلِيه بسِمَنٍ يُصلِحُ بعضَ ما الْتفَحَ مِن أجسادِهِم، ولا يُغْني عنْهم دفْعَ ألَمِ الجوعِ، ولعلَّ الجُوعَ مِن ضُروبِ تَعذيبِهم؛ فيَسألون الطَّعامَ فيُطعَمون الضَّريعَ، فلا يَدفَعُ عنْهم ألَمَ الجوعِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾

- هذا الاستِفهامُ تَوقيفٌ، وفائدتُه تَحريكُ نفْسِ السَّامعِ إلى تَلقِّي الخبَرِ. وقيل: المعْنى: هلْ كان هذا مِن عِلمِك لَولا ما علَّمْناك؟ وفي هذا تَعديدُ النِّعمةِ. وقيل: هلْ بمعنى (قدْ)[٢]؛ فهو استفهامٌ أُريدَ به التَّعجيبُ ممَّا في حيِّزِه، والتَّشويقُ إلى استِماعِه، والإشعارُ بأنَّه مِن الأحاديثِ البَديعةِ الَّتي حقُّها أنْ يَتناقَلَها الرُّواةُ، ويَتنافَسَ في تَلقِّيها الوُعاةُ مِن كلِّ حاضِرٍ وَبادٍ[٣].

- وأيضًا الافتتاحُ بالاستِفهامِ عن بُلوغِ خبَرِ الغاشيةِ مُستعمَلٌ في التَّشويقِ إلى مَعرفةِ هذا الخبَرِ؛ لِما يَترتَّبُ عليه مِن الموعظةِ، وكونُ الاستفهامِ بـ(هَل) المفيدةِ معْنى (قدْ) فيه مَزيدُ تَشويقٍ؛ فهو استفهامٌ صُوريٌّ يُكنَّى به عن أهمِّيَّةِ الخبَرِ، بحيث شأْنُه أنْ يكونَ بلَغَ السَّامعَ[٤]؛ فالاستفهامُ للتَّشويقِ، كقولِه تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]. ويجوزُ أن يكونَ للتَّعظيمِ؛ لِعِظَمِ هذا الحديثِ عن الغاشيةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧١).

- وأيضًا في وُرودِ الكلامِ في مِثلِ هذا بصِيغةِ الاستِفهامِ سِرٌّ لطيفٌ، ومعنًى بديعٌ؛ فإنَّ المتكلِّمَ إذا أراد أن يُخبرَ مُخاطَبَه بأمرٍ عجيبٍ يَنبغي الاعتناءُ به، وإحضارُ الذِّهنِ له، صدَّر له الكلامَ بأداةٍ تُنَبِّهُ سمْعَه وذِهْنَه للمُخبَرِ به؛ فتارةً يُصَدِّرُه بـ «ألَا»، وتارةً يُصدِّرُه بـ «هلْ»، فيقولُ: هل عَلِمتَ ما كان مِن كَيْتَ وكَيْتَ؟ إمَّا مذَكِّرًا به، وإمَّا واعظًا له مُخَوِّفًا، وإمَّا منَبِّهًا على عَظَمةِ ما يُخبِرُ به، وإمَّا مقَرِّرًا له، فقولُه تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥] و﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١] و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] متضَمِّنٌ لتعظيمِ هذه القصصِ، والتَّنبيهِ على تدَبُّرِها، ومعرفةِ ما تضَمَّنَتْه. وفيه أمرٌ آخَرُ، وهو التَّنبيهُ على أنَّ إتيانَ هذا إليك علَمٌ مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّه مِن الغَيبِ الَّذي لا تَعلَمُه أنت ولا قَومُك، فهلْ أتاك مِن غيرِ إعلامِنا وإرسالِنا وتعريفِنا؟ أوْ لم يأتِكَ إلَّا مِن قِبَلِنا؟ فانظُرْ ظُهورَ هذا الكلامِ بصيغةِ الاستفهامِ، وتأمَّلْ عِظَمَ مَوقِعِه مِن جميعِ مَوارِدِه؛ يَشهَدْ أنَّه مِن الفصاحةِ في ذُروتِها العُلْيا[1].

- وتَعريفُ ما أُضِيفَ إليه ﴿حَدِيثُ﴾ بوَصْفِه ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ الَّذي يَقْتضي مَوصوفًا لم يُذكَرْ؛ هو إبهامٌ لزِيادةِ التَّشويقِ إلى بَيانِه الآتي؛ ليَتمكَّنَ الخبَرُ في الذِّهنِ كَمالَ تَمكُّنٍ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾

- قولُه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ إلى قولِه: ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ مِن الاستِفهامِ التَّشويقيِّ؛ كأنَّه قيلَ مِن جِهتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ما

(١) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٧٣، ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٤).

أتانِي حَديثُها؛ فما هو؟ فقيلَ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ...﴾[١].

- و﴿وُجُوهٌ﴾ مُبتدأٌ، و﴿خَٰشِعَةٌ﴾ خبَرٌ، والجُملةُ بَيانٌ لحَديثِ الغاشيةِ، كما يُفيدُه الظَّرفُ مِن قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ فإنَّ (ماصَدَقَه)[٢] هو يومُ الغاشيةِ، ويكونُ تَنكيرُ ﴿وُجُوهٌ﴾ -وهو مُبتدأٌ- قُصِدَ منه النَّوعُ[٣].

- ويَتعلَّقُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بكَلمةِ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾؛ قُدِّمَ على مُتعلَّقِه للاهتِمامِ بذلك اليَومِ[٤].

- و﴿خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أخبارٌ ثلاثةٌ عن ﴿وُجُوهٌ﴾، والمعْنى: أناسٌ خاشِعون... إلخ، فالوُجوهُ كِنايةٌ عن أصحابِها؛ إذ يُكنَّى بالوَجْهِ عن الذَّاتِ، وقَرينةُ ذلك هنا قولُه بعْدَه: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾؛ إذ جُعِلَ ضَميرُ الوُجوهِ جَماعةَ العُقلاءِ؛ فالمرادُ بالوُجوهِ في قولِه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ وقولِه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ جَميعُ الأبدانِ؛ لأنَّ ما ذُكِرَ مِن الأوصافِ لا يَختصُّ بالوُجوهِ. وأُوثِرَت الوُجوهُ بالكِنايةِ عن أصحابِها هنا وفي مِثلِ هذا المَقامِ؛ لأنَّ حالةَ الوُجوهِ تُنبِئُ عن حالةِ أصحابِها؛ إذ الوجْهُ عُنوانٌ عمَّا يَجِدُه صاحِبُه مِن نَعيمٍ أو شِقوةٍ، كما يُقالُ: خرَجَ بوَجْهٍ غيرِ الوجْهِ الَّذي دَخَلَ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٨).

(٢) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو الموصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يُقالَ مثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٥).

- ولَمَّا كانتْ (إذ) مِن الأسماءِ الَّتي تَلزَمُ الإضافةَ إلى جُملةٍ، فالجُملةُ المُضافُ إليها (إذ) في قولِه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ مَحذوفةٌ، عُوِّض عنها التَّنوينُ، ويدُلُّ عليها ما في اسمِ الغاشيةِ مِن لَمْحِ أصْلِ الوصفيَّةِ؛ لأنَّها بمعْنى: الَّتي تَغْشى النَّاسَ، فتَقديرُ الجُملةِ المحذوفةِ: يومَ إذ تَغْشى الغاشيةُ، أو يدُلُّ على الجُملةِ سِياقُ الكلامِ، فتُقدَّرُ الجُملةُ: يومَ إذ تَحدُثُ أو تقَعُ[(١)].

- وأُوثِرَ وصْفُ ﴿خَاشِعَةٌ﴾ و﴿عَامِلَةٌ﴾ و﴿نَّاصِبَةٌ﴾ تَعريضًا بأهلِ الشَّقاءِ؛ بتَذكيرِهم بأنَّهم تَرَكوا الخُشوعَ للهِ، والعمَلَ بما أمَرَ به، والنَّصَبَ في القِيامِ بطاعتِه، فجَزاؤهم خُشوعُ مَذلَّةٍ، وعمَلُ مَشقَّةٍ، ونصَبُ إرهاقٍ[(٢)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۞ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۞ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۞ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾

- جُملةُ ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ خبَرٌ رابعٌ عن ﴿وُجُوهٌ﴾. ويجوزُ أنْ تكونَ حالًا، يُقالُ: صَلِيَ يَصْلى؛ إذا أصابَه حرُّ النَّارِ؛ وعليه فذِكرُ ﴿نَارًا﴾ بعْدَ ﴿تَصْلَىٰ﴾ لزِيادةِ التَّهويلِ والإرهابِ، وليُجْرى على ﴿نَارًا﴾ وصْفُ ﴿حَامِيَةً﴾[(٣)].

- ووَصْفُ النَّارِ بوَصْفِ ﴿حَامِيَةً﴾ لإفادةِ تَجاوُزِ حرِّها المِقدارَ المعروفَ؛ لأنَّ الحَمْيَ مِن لَوازمِ ماهيَّةِ النَّارِ، فلمَّا وُصِفَت بـ ﴿حَامِيَةً﴾ كان دالًّا على شِدَّةِ الحَمْيِ[(٤)].

- وأخبَرَ عن ﴿وُجُوهٌ﴾ خبَرًا خامسًا بجُملةِ ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾، أو هو حالٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٥، ٢٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن ضَميرِ ﴿تَصْلَىٰ﴾؛ لأنَّ ذِكرَ الاحتِراقِ بالنَّارِ يُحضِرُ في الذِّهنِ تَطَلُّبَ إطفاءِ حَرارتِها بالشَّرابِ، فجُعِلَ شَرابُهم مِن عَينٍ آنيةٍ(١).

- قولُه: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للإجابةِ عن سُؤالٍ مُترتِّبٍ على ما سَبَق، كأنَّه قِيل: وما هو طَعامُهم بعْدَما ذُكِرَ شَرابُهم(٢)؟ فذِكرُ السَّقيِ يُحضِرُ في الذِّهنِ تَطلُّبَ مَعرفةِ ما يَطعَمونَه؛ فجِيءَ به خبَرًا سادِسًا، أو حالًا مِن ضَميرِ ﴿تُسْقَىٰ﴾، أي: يُطعَمون طَعامَ إيلامٍ وتَعذيبٍ، لا نفْعَ فيه لهمْ، ولا يَدفَعُ عنهم ألَمًا(٣).

- وضَميرُ ﴿لَهُمْ﴾ عائدٌ إلى ﴿وُجُوهٌ﴾ باعتِبارِ تَأويلِه بأصحابِ الوُجوهِ؛ ولذلك جِيءَ به ضَميرَ جَماعةِ المُذكَّرِ، والتَّذكيرُ تَغليبٌ للذُّكورِ على الإناثِ(٤).

- قولُه: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ تَنكيرُ الجوعِ للتَّحقيرِ، أيْ: لا يُغْني مِن جُوعٍ ما. وتَأخيرُ نَفْيِ الإغناءِ منه؛ لمُراعاةِ الفواصلِ، والتَّوسُّلِ به إلى التَّصريحِ بنفْيِ كِلا الأمْرَينِ؛ إذْ لو قُدِّمَ لَمَا احتِيجَ إلى ذِكرِ نفْيِ الإسمانِ؛ ضَرورةَ استِلْزامِ نفْيِ الإغناءِ عن الجوعِ إيَّاه، بخِلافِ العكسِ؛ ولذلك كُرِّرَ (لا) لتَأكيدِ النَّفيِ(٥).

- وفي قولِه: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّتميمِ(٦)؛ فجُملةُ ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ جُملةٌ لا يُمكِنُ طَرحُها مِن الكلامِ؛ لأنَّه لَمَّا قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٩).

(٦) تقدَّم تعريفُه (ص: ١١٣).

﴿لَّا يُسْمِنُ﴾ ساغَ لمُتوهِّمٍ أنْ يَتوهَّمَ أنَّ هذا الطَّعامَ الَّذي ليس مِن جِنسِ طَعامِ البشَرِ انتَفَت عنه صِفةُ الإسمانِ، ولكنْ بَقِيَت له صِفةُ الإغناءِ، فجاءت جُملةُ ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ تَتْميمًا للمعْنى المرادِ؛ وهو أنَّ هذا الطَّعامَ انتَفَت عنه صِفةُ إفادةِ السِّمَنِ والقوَّةِ كما انتَفَت عنه صِفةُ إماطةِ الجوعِ وإزالتِه. وقيل: هو مِن بابِ نفْيِ الشَّيءِ بإيجابِه، على حدِّ قَولِ امرئِ القَيسِ:

على لاحِبٍ لا يُهْتَدَى بِمَنارِهِ[1]

أي: إنَّه لا مَنارَ له أصلًا، وكما تقولُ: ليس لفُلانٍ ظِلٌّ إلَّا الشَّمسَ، تُريدُ نفْيَ الظِّلِّ على التَّوكيدِ، وليس ببَعيدٍ، والأوَّلُ أرصَنُ وأبعَدُ عن التَّكلُّفِ[2].

- قَولُه: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ فيه احتِباكٌ[3]: نَفْيُ السِّمَنِ أوَّلاً يدُلُّ على إثباتِ الهُزالِ ثانيًا، ونَفيُ الإغناءِ مِنَ الجُوعِ ثانيًا يدُلُّ على نَفيِ الشِّبَعِ أوَّلًا[4].

---

(١) يُنظر: ((ديوان امرئ القيس)) (ص: ٩٦).
واللَّاحبُ: الطَّريقُ الواضحُ، ولم يُرِدْ أنَّ فيه منارًا لا يُهتدَى به، ولكنَّه نفَى أن يكون به منارٌ. والمعنى: لا منارَ فيه فيُهتدَى به. يُنظر: ((خزانة الأدب)) للبغدادي (١٠/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦١).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٢/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٨).

الآيات (٨-١٦)

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِّسَعْيِهَا﴾: أي: لِعَمَلِها الَّذي عَمِلَتْ في الدُّنْيا مِن طاعةِ رَبِّها، والسَّعْيُ: المَشيُ السَّريعُ، وهو دُونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمرِ، خيرًا كان أو شرًّا، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ السَّعْيُ في الأفعالِ المحمودةِ[(١)].

﴿لَاغِيَةً﴾: أي: لَغوًا أو باطِلًا مِنَ القَولِ، واللَّغْوُ مِنَ الكَلامِ: ما لا يُعتَدُّ به، وأصلُ (لغو): يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[(٢)].

﴿وَأَكْوَابٌ﴾: جمعُ كوبٍ، وهو القَدَحُ لا عُرْوةَ له، وقيل: هو إناءٌ مستديرُ الرَّأسِ لا عُرْوةَ له، وقيل: هو الَّذي لا خُرطومَ له، فإذا كان لها خُرطومٌ فهو إبريقٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٧)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٦٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧).

﴿وَنَمَارِقُ﴾: أي: وَسائِدُ ومَرافِقُ، واحدتُها: نُمْرُقةٌ ونِمْرِقةٌ[١].

﴿وَزَرَابِيُّ﴾: أي: بُسُطٌ فاخِرةٌ، واحدتُها: زَرْبِيَّةٌ[٢].

﴿مَبْثُوثَةٌ﴾: أي: مَبسوطةٌ مُتفرِّقةٌ في المجالِسِ، وأصلُ (بثث): تفريقُ الشَّيءِ وإظهارُه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ أهلِ الجنَّةِ مِن المؤمنينَ وما هم فيه مِن النَّعيمِ: وتكونُ وُجوهُ المُؤمِنينَ يَومَ القيامةِ عليها أَثَرُ النِّعمةِ؛ مِنَ البَهجةِ والسُّرورِ والنَّضرةِ، راضِينَ عَمَّا عَمِلوه في الدُّنيا مِن أعمالٍ صالحةٍ، حينَ وَجَدوا ثوابَها العَظيمَ في الآخِرةِ، وهم في جَنَّةٍ مُرتَفِعةٍ، لا يَسمَعونَ فيها ما لا فائِدةَ فيه مِن الكَلامِ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى بعضَ صِفاتِ الجنَّةِ، فيقولُ: في تلك الجَنَّةِ العاليةِ عَينٌ جارِيةٌ مِن غَيرِ أُخدودٍ، وفي تلك الجَنَّةِ أَسِرَّةٌ عالِيةٌ مُرتَفِعةٌ، وأكوابٌ مَوضوعةٌ بيْن أيديهم، ووَسائِدُ مُرَتَّبةٌ ومَصفوفةٌ بَعضُها بجانبِ بَعضٍ، وفُرُشٌ فاخِرةٌ مُنتَشِرةٌ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه وَعيدَ الكُفَّارِ؛ أَتْبَعَه بشَرحِ أحوالِ المُؤمِنينَ[١].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾.

أي: يَظهَرُ على وُجوهِ المُؤمِنينَ يومَ القيامةِ أَثَرُ النِّعمةِ؛ مِنَ البَهجةِ والسُّرورِ والنَّضرةِ، والرَّاحةِ والرَّفاهِيَةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٤].

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾.

أي: أصحابُ تلك الوُجوهِ راضُونَ عَمَّا عَمِلوه في الدُّنيا مِن أعمالٍ صالحةٍ، حينَ وَجَدوا ثوابَها العَظيمَ في الآخِرةِ[٣].

﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر السَّعْيَ؛ أَتْبَعَه ثَوابَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩).

وأيضًا لمَّا ذَكَر وَصفَ أهلِ الثَّوابِ أوَّلًا؛ وَصَف دارَ الثَّوابِ ثانيًا[١].

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ١٠﴾.

أي: في جَنَّةٍ مُرتَفِعةٍ، وفي مَوضِعٍ عالٍ[٢].

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما كان مِن هذا لا يَصفُو وفيه ما يُكرَهُ مِنَ الكَلامِ، قال مُنَزِّهًا لها عن كُلِّ سُوءٍ[٣]:

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ١١﴾.

أي: لا يَسمَعونَ فيها أيَّ كَلِمةٍ لا فائِدةَ مِن وَرائِها[٤].

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٣٥].

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ١٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٥).

أي: في تلك الجَنَّةِ العاليةِ عَينٌ جارِيةٌ بماءٍ أو بغَيرِه مِنَ الأشرِبةِ، مِن غَيرِ أُخدودٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحجر: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ [الواقعة: ٣١].

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا لم يَبْقَ بَعدَ الأكلِ والشُّربِ إلَّا الاتِّكاءُ؛ قال مُفْهِمًا أنَّهم مُلوكٌ[(٢)]:

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

أي: فيها أَسِرَّةٌ عالِيةٌ مُرتَفِعةٌ، يَجلِسونَ عليها أو يَضطَجِعونَ[(٣)].

كما قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧].

﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المُستريحُ يَحتاجُ إلى تَكرارِ الشُّربِ وما يَشرَبُ فيه، قال[(٤)]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩، ١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢).

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾.

أي: فيها أكْوابٌ[(١)]، مَوضوعةٌ بيْنَ أيديهم، كلَّما أرادوها وجَدوها حاضرةً عندَهم، قد أُعِدَّتْ لهم بأشرِبَتِها[(٢)].

---

(١) قال البِقاعي: (فهو [أي: الكُوبُ] صالِحٌ للمُناوَلةِ والشُّربِ مِن كُلِّ جِهةٍ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٦).

قال الرازي: (وفي قَولِه: ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ وُجوهٌ:

أحدُها: أنَّها مُعَدَّةٌ لِأهْلِها، كالرَّجُلِ يَلتَمِسُ مِنَ الرَّجُلِ شَيئًا فيَقولُ: هو هاهنا مَوضوعٌ، بمعنَى: مُعَدٍّ.

وثانيها: مَوضوعةٌ على حافَاتِ العُيونِ الجاريةِ، كُلَّما أرادوا الشُّربَ وَجَدوها مَمْلوءةً مِن الشَّرابِ.

وثالِثُها: مَوضوعةٌ بيْنَ أيديهم؛ لِاسْتِحْسانِهم إيَّاها؛ بسببِ كَونِها مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ أو مِن جَوهَرٍ، وتَلَذُّذِهم بالشَّرابِ منها.

ورابِعُها: أنْ يَكونَ المرادُ: مَوضوعة عن حَدِّ الكِبَرِ، أيْ: هيَ أَوْساطٌ بيْنَ الصِّغَرِ والكِبَرِ، كقَولِه: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٦]). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٣).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي: مُعَدَّةٌ بأشْرِبَتِها، حاضِرةٌ عندَهم لِمَن أرادها: ابنُ عطيَّةَ، والرَّسْعَنيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: مَوضوعةٌ عندَهم بيْنَ أيديهم: البغويُّ، والخازن، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦١).

وقال السعدي جامِعًا بيْن القَولَينِ السَّابقَينِ: (وُضِعَت بيْنَ أيديهم، وأُعِدَّت لهم، وصارت تحتَ طَلَبِهم واختيارِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢).

وقال ابنُ جرير: (مَوضوعةٌ على حافَةِ العَينِ الجاريةِ، كُلَّما أراد الشُّرْبَ وجَدَها مَلْأَى مِن الشَّرابِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٦).

كما قال تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٠، ٧١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨].

﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ١٥﴾.

أي: وفيها وَسائِدُ مُرَتَّبةٌ ومَصفوفةٌ بَعضُها بجانبِ بَعضٍ، يَستَنِدونَ إليها[1].

﴿وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مَن هو بهذه المنزلةِ يَحتاجُ إلى المسانِدِ والفُرُشِ الزَّائِدةِ، قال تعالى[2]:

﴿وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ١٦﴾.

أي: وفيها فُرُشٌ فاخِرةٌ جَميلةٌ كَثيرةٌ مُنتَشِرةٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٦).
قال الواحدي: («نَمَارِقُ» يعني: الوَسائِدَ في قَولِ الجَميعِ، واحِدُها نُمْرُقةٌ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ تنبيهٌ على أنَّ الجنَّةَ دارُ جِدٍّ وحَقيقةٍ، فلا كَلامَ فيها إلَّا لفائِدةٍ؛ لأنَّ النُّفوسَ فيها تخلَّصَت مِن النَّقائصِ كُلِّها، فلا يَلَذُّ لها إلَّا الحقائِقُ والسُّمُوُّ العَقليُّ والخُلُقيُّ، ولا يَنطِقونَ إلَّا ما يَزيدُ النُّفوسَ تَزكيةً[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ هذا وَعدٌ للمُؤمِنينَ بأنَّ لهم في الجنَّةِ ما يَعرِفونَ مِنَ النَّعيمِ في الدُّنيا، وقد عَلِموا أنَّ تَرَفَ الجنَّةِ لا يَبلُغُه الوَصفُ بالكلامِ، وجُمِعَ ذلك بوَجهِ الإجمالِ في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، ولكِنَّ الأرواحَ تَرتاحُ بمألوفاتِها فتُعْطاها، فيكونُ نَعيمُ أرواحِ النَّاسِ في كُلِّ عَصرٍ ومِن كُلِّ مِصرٍ في الدَّرَجةِ القُصْوى ممَّا أَلِفوه، ولا سِيَّما ما هو مألوفٌ لجَميعِ أهلِ الحَضارةِ والتَّرَفِ، وكانوا يتمَنَّونَه في الدُّنيا، ثمَّ يُزادونَ مِنَ النَّعيمِ ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ انظُرْ للتَّقابُلِ: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ عاليةٌ يَجلِسونَ عليها يَتَفَكَّهونَ ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦]، ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ يعني: ليست مرفوعةً عنهم، بل هي موضوعةٌ لهم، متى شاؤوا شَرِبوا فيها مِن أنهارِ الجَنَّةِ الأربعةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ شُروعٌ في روايةِ حَديثِ أهلِ الجنَّةِ. وتَقديمُ حِكايةِ حالِ أهلِ النَّارِ في الآياتِ السَّابقةِ؛ لأنَّه أدخَلُ في تَهويلِ الغاشيةِ وتَفخيمِ حَديثِها، ولأنَّ حِكايةَ حُسنِ حالِ أهلِ الجنَّةِ بعدَ حِكايةِ سُوءِ حالِ أهلِ النارِ ممَّا يَزيدُ المَحكيَّ حُسنًا وبَهجةً. وإنَّما لم تُعطَفْ عليها؛ إيذانًا بكَمالِ تَبايُنِ مَضمونَيهما(١).

- وكذلِك يَتبادَرُ في بادئِ الرَّأيِ أنَّ حقَّ هذه الجُملةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أنْ تُعطَفَ على جُملةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢] بالواوِ؛ لأنَّها مُشاركةٌ لها في حُكْمِ البَيانِ لحَديثِ الغاشيةِ، كما عُطِفَت في سُورةِ (عَبَسَ) جُملةُ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠] على جُملةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨]، فيَتَّجِهُ أنْ يُسأَلَ عن وَجْهِ فصْلِها عن الَّتي قبْلها، ووَجْهُ الفصلِ التَّنبيهُ على أنَّ المقصودَ مِن الاستِفهامِ في ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١] الإعلامُ بحالِ المُعرَّضِ بتَهديدِهم، وهمْ أصحابُ الوُجوهِ الخاشعةِ، فلمَّا حَصَلَ ذلك الإعلامُ بجُملةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢] إلى آخِرِها، تمَّ المقصودُ، فجاءتِ الجُملةُ بعْدَها مَفصولةً؛ لأنَّها جُعِلَت استِئنافًا بَيانيًّا جَوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ تُثيرُه الجُملةُ السَّابقةُ، فيَتساءَلُ السَّامعُ: هلْ مِن حَديثِ الغاشيةِ ما هو مُغايرٌ لهذا الهوْلِ؟ أي: ما هو أُنسٌ ونَعيمٌ لقَومٍ آخَرينَ، ولهذا النَّظمِ صارتْ هذه الجُملةُ بمَنزلةِ الاستِطرادِ والتَّتميمِ؛ لإظهارِ الفرْقِ بيْن حالَي الفَريقَينِ، ولتَعقيبِ النِّذارةِ بالبِشارةِ؛ فمَوقعُ هذه الجُملةِ المُستأنَفةِ مَوقعُ الاعتراضِ، ولا تَنافيَ بيْنَ الاستِئنافِ والاعتراضِ، وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٩، ١٥٠).

مُوجِبٌ لفصْلِها عمَّا قبْلَها، وفيه جَرْيُ القرآنِ على سَنَنِه مِن تَعقيبِ التَّرهيبِ والتَّرغيبِ، فأمَّا الجُملتانِ اللَّتانِ في سُورةِ (عَبَسَ)، فلمْ يَتقدَّمْهما إبهامٌ؛ لأنَّهما مُتَّصلتانِ معًا بالظَّرفِ، وهو ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾[1] [عبس: ٣٣].

- قولُه: ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾ المرادُ بالسَّعيِ: العمَلُ الَّذي يَسعاهُ المَرءُ ليَستفيدَ منه، وعُبِّرَ به هنا مُقابِلَ قولِه في ضِدِّه: ﴿عَامِلَةٞ﴾[2] [الغاشية: ٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۞ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾

- قولُه: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ خبَرٌ ثالثٌ عن ﴿وُجُوهٞ﴾، والجنَّةُ أُريدَ بها مَجموعُ دار الثَّوابِ الصَّادقُ بجنَّاتٍ كَثيرةٍ، أو أُريدَ بها الجِنسُ. ووَصْفُ ﴿جَنَّةٍ﴾ بـ﴿عَالِيَةٖ﴾؛ لزِيادةِ الحُسنِ؛ لأنَّ أحسَنَ الجنَّاتِ ما كان في المُرتفَعاتِ؛ قال تعالَى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، فذلك يَزيدُ حُسنَ باطِنِها بحُسنِ ما يُشاهِدُه الكائنُ فيها مِن مَناظِرَ، وهذا وصْفٌ شاملٌ لحُسنِ مَوقعِ الجنَّةِ[3].

- قولُه: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ اللَّاغيةُ: مَصدرٌ بمعْنى اللَّغوِ، مِثلُ الكاذِبةِ للكذِبِ، والخائنةِ والعافيةِ، أي: لا يُسمَعُ فيها لَغوٌ، أو هو وصْفٌ لمَوصوفٍ مُقدَّرِ التَّأنيثِ، أو هي على معْنى النَّسبِ، أي: كَلمةً ذاتَ لَغوٍ، أو نفْسًا تَلْغو[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٨).

- ونَفْيُ سَماعِ لاغيةٍ مُكنًّى به عن انتفاءِ اللَّغوِ في الجنَّةِ، مِن بابِ:

ولا تَـــرى الـــضَّـــبَّ بـــهـــا يَـــنْـــجَـــحِـــرْ

أي: لا ضبَّ بها؛ إذ الضَّبُّ لا يَخْلو مِن الانجحارِ[١].

- وقدِ ابتُدِئَ في تَعدادِ صِفاتِ الجنَّةِ بصِفتِها الذَّاتيَّةِ، وهو كَونُها عاليةً، وثُنِّيَ بصِفةِ تَنزيهِها عمَّا يُعَدُّ مِن نَقائصِ مَجامعِ النَّاسِ ومَساكِنِ الجَماعاتِ، وهو الغَوغاءُ واللَّغوُ، وقد جُرِّدَت جُملةُ ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ مِن أنْ تُعطَفَ على ﴿عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ١٠]؛ مُراعاةً لعدَمِ التَّناسُبِ بيْنَ المُفرداتِ والجُمَلِ، وذلك حَقيقٌ بعدَمِ العطْفِ؛ لأنَّه أشدُّ مِن كَمالِ الانقطاعِ في عطْفِ الجُمَلِ، وهذا وصْفٌ للجنَّةِ بحُسنِ سُكَّانِها[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۞ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۞ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۞ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۞ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾

- قولُه: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ صِفةٌ ثالثةٌ لـ﴿جَنَّةٍ﴾ [الغاشية: ١٠]. والمرادُ جِنسُ العُيونِ، يُريدُ أنَّ فيها عُيونًا في غايةِ الكَثرةِ، وهذا وصْفٌ للجنَّةِ باستِكمالِها مَحاسنَ الجنَّاتِ، أو المرادُ عَينٌ مَخصوصةٌ، ذُكِرَت تَشريفًا لها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٠).
والبيتُ المذكورُ نسَبه ابنُ الأَنْباري في ((شرح المُفضَّليات)) (ص: ٥٩) لعَمْرِو بنِ أَحْمَرَ الباهِليِّ، وهو شاعرٌ إسلاميٌّ.
والانْجِحارُ -بتَقديمِ الجيمِ على الحاءِ المُهمَلةِ-: الدُّخولُ في الجُحرِ وهو ما حفَرَه الهَوَامُّ والسِّباعُ لأنفُسِها. يُنظر: ((خِزانة الأدب)) للبغدادي (١٠/ ١٩٢، ١٩٣). ويُنظر أيضًا: ((أمالي المرتضى)) (١/ ٢٢٨-٢٣٠)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠١).

- وقولُه: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾، أي: يَجْري ماؤها ولا يَنقطِعُ، والتَّنكيرُ للتَّعظيمِ[١].

- وإنَّما لم تُعطَفْ على الجُملةِ الَّتي قبْلَها؛ لاختِلافِهما؛ بالفِعليَّةِ في الأُولى، والاسميَّةِ في الثَّانيةِ، وذلك الاختلافُ مِن مُحسِّناتِ الفصْلِ؛ ولأنَّ جُملةَ ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ مَقصودٌ منها التَّنزُّهُ عن النَّقائصِ، وجُملةَ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ مَقصودٌ منها إثباتُ بَعضِ مَحاسنِها[٢].

- قولُه: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ صِفةٌ رابعةٌ لـ ﴿جَنَّةٍ﴾، وأُعِيدَ قولُه: ﴿فِيهَا﴾ دونَ أنْ يُعطَفَ ﴿سُرُرٌ﴾ على ﴿عَيْنٌ﴾ عطْفَ المُفرَداتِ؛ لأنَّ عطْفَ السُّررِ على ﴿عَيْنٌ﴾ يَبْدو نابيًا عن الذَّوقِ؛ لعدَمِ الجامعِ بيْن عَينِ الماءِ والسُّررِ في الذِّهنِ لولا أنْ جَمَعَها الكَونُ في الجنَّةِ؛ فلذلك كُرِّرَ ظَرفُ ﴿فِيهَا﴾ تَصريحًا بأنَّ تلك الظَّرفيَّةَ هي الجامعُ، ولأنَّ بيْن ظَرفيَّةِ العَينِ الجاريةِ في الجنَّةِ وبيْن ظَرفيَّةِ السُّررِ وما عُطِفَ عليه مِن مَتاعِ القُصورِ والأثاثِ: تَفاوُتًا؛ ولذلك عُطِفَ ﴿وَأَكْوَابٌ﴾، ﴿وَنَمَارِقُ﴾، ﴿وَزَرَابِيُّ﴾؛ لأنَّها مُتماثِلةٌ في أنَّها مِن مَتاعِ المساكنِ الفائقةِ، وهذا وصْفٌ لمَحاسنِ الجنَّةِ بمَحاسِنِ أثاثِ قُصورِها، فضَميرُ ﴿فِيهَا﴾ عائدٌ للجنَّةِ باعتبارِ أنَّ ما في قُصورِها هو مَظروفٌ فيها بواسطةٍ[٣].

- وقولُه: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ سُررٌ: جمْعُ سَريرٍ، وهو ما يُجلَسُ عليه ويُضطجَعُ عليه، فيَسَعُ الإنسانَ المُضْطَجِعَ، يُتَّخَذُ مِن خشَبٍ أو حَديدٍ له قَوائمُ ليَكونَ مُرتفِعًا عن الأرضِ. ولَمَّا كان الارتفاعُ عن الأرضِ مَأخوذًا مِن مَفهومِ السُّررِ، كان وصْفُها بـ ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ لتَصويرِ حُسنِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٠١، ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢).

- قولُه: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ كُنِّيَ بـ ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ عن عدَمِ انقِطاعِ لَذَّةِ الشَّرابِ طعْمًا ونَشوةً، أي: مَوضوعةٌ بما فيها مِن أَشربةٍ[١].

- قولُه: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ المَبثوثةُ: المُنتشِرةُ على الأرضِ بكَثرةٍ، وذلك يُفيدُ كِنايةً عن الكَثرةِ[٢].

- وقد قُوبِلَت صِفاتُ وُجوهِ أهلِ النَّارِ بصِفاتِ وُجوهِ أهلِ الجنَّةِ؛ فقُوبِلَت صِفاتُ ﴿خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٢، ٣]، بصِفاتِ ﴿نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨، ٩]، وقُوبِلَ قولُه: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٤] بقولِه: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ١٠]، وقُوبِلَ: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥] بقولِه: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: ١٢]، وقُوبِلَ شَقاءُ عَيشِ أهلِ النَّارِ الَّذي أفادَه قولُه: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦، ٧]، بمَقاعِدِ أهلِ الجنَّةِ المُشعِرةِ بتَرَفِ العَيشِ مِن شَرابٍ ومَتاعٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٧-٢٠)

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿نُصِبَتْ﴾: أي: جُعِلَت مَنصوبةً قائمةً ثابتةً، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ وإهدافٍ في استِواءٍ[١].

﴿سُطِحَتْ﴾: أي بُسِطَت ومُدَّت، وأصلُ (سطح): يدُلُّ على بَسطِ الشَّيءِ ومَدِّه[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمِرًا عِبادَه بالنَّظرِ في مخلوقاتِه الدَّالَّةِ على قُدرتِه وعَظَمتِه: أفلَا يَنظُرُ النَّاسُ إلى الإبلِ مُتفَكِّرينَ في كيفيَّةِ خَلْقِها على هذا النَّحوِ العَجيبِ؟ وإلى السَّماءِ كيف رُفِعَت هذا الارتِفاعَ العَظيمَ؟ وإلى الجِبالِ كيف أُقيمَت على هذه الهيئةِ الباهرةِ؟ وإلى الأرضِ كيف بَسَطَها اللهُ؛ لتَستَقِرَّ عليه المخلوقاتُ؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا ذكَر تعالى أمرَ القيامةِ، وانقسامَ أهلِها إلى أشقياءَ وسعداءَ، وعُلِم أنَّه لا سبيلَ إلى إثباتِ ذلك إلَّا بواسطةِ الخالقِ الحكيمِ؛ أتبَع ذلك بذكرِه هذه الدلائلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩).

وذِكرِ ما العربُ مشاهدوه وملابسوه دائمًا[١].

لَمَّا وصَفَ اللهُ تعالَى الجنَّةَ بما وصَفَ، عَجِبَ الكفَّارُ مِن ذلك، فذكَّرَهم غَرائبَ صُنعِه[٢].

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾.

أي: أفلَا يَنظُرُ النَّاسُ إلى الإبِلِ مُتفكِّرينَ في كيفيَّةِ خَلْقِها على هذا النَّحوِ العَجيبِ البَديعِ[٣]؟

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٥ - ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ * وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾.

أي: أفلا يَنظُرونَ إلى السَّماءِ كذلك كيف رُفِعَت هذا الارتِفاعَ العَظيمَ[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٨)، ويُنظر أيضًا ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٣-١٤٥)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيميَّة (١/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٧، ١٧٨).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾.

أي: أفلا يَنظُرونَ إلى الجِبالِ كيف أُقيمَت على هيئةٍ باهرةٍ؛ إذ هي مُنتَصِبةٌ جامِدةٌ ثابتةٌ لا تَبرَحُ مَكانَها ولا تَسقُطُ[(١)]؟

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: أفلا يَنظُرونَ إلى الأرضِ كيف بَسَطَها اللهُ، فجَعَل لها سَطحًا تَستَقِرُّ عليه المخلوقاتُ[(٢)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ توجيهُ الأنظارِ إلى تلك المذكوراتِ الأربَعةِ؛ لِما فيها مِن عَظيمِ الدَّلائِلِ على القُدرةِ وعلى البَعْثِ، ثمَّ الإقرارُ لله تعالى بالوَحدانيَّةِ والأُلوهيَّةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٩).

قال ابنُ تيميَّةَ: (اعلَمْ أنَّ الأرضَ قد اتَّفَقوا على أنَّها كُرَويَّةُ الشَّكلِ). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ١٥٠).

نَتيجةً لإثباتِ رُبوبيَّتِه تعالى لجَميعِ خَلْقِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ حَثٌّ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ إلى النَّظَرِ فيها بعَينِ البَصَرِ وعَينِ البَصيرةِ؛ بعَينِ البَصَرِ الَّذي هو الإدراكُ الحِسِّيُّ، وبعَينِ البصيرةِ الَّتي هي الإدراكُ العَقليُّ؛ حتَّى نَستَدِلَّ بها على ما تدُلُّ عليه مِن آياتِ اللهِ مِن قُدرةٍ وعِلْمٍ، ورحمةٍ وحِكمةٍ وغيرِ ذلك[٢]. فالنَّظَرُ الدَّقيقُ والفِكرُ الدَّارِسُ مِمَّا قد يؤدِّي بصاحِبِه إلى الاستدلالِ على وُجودِ اللهِ تعالى وعلى قُدرتِه، كما نطق قُسُّ بنُ ساعِدةَ في الجاهليَّةِ في خُطبتِه المشهورةِ: «ليلٌ داجٍ[٣]، ونهارٌ ساجٍ[٤]، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، ونجومٌ تُزهِر، وبحارٌ تَزخَرُ، وجِبالٌ مُرْساةٌ، وأرضٌ مُدْحاةٌ، وأنهارٌ مُجْراةٌ»[٥]؛ فقد ذكَرَ السَّماءَ والجِبالَ والأرضَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥١٦).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٥٨٨).

(٣) أي: مُظلِمٌ. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (٦/ ٢٣٣٤).

(٤) أي: ساكِنٌ دائِمٌ. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (٦/ ٢٣٧٢).

(٥) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٣/ ٢٩٩).

(٦) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥١٦، ٥١٨).

قال ابن كثير: (وهكذا أقسَمَ ضِمامٌ في سؤالِه على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧).

وقد روى مسلمٌ في ((صحيحه)) (١٢) عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رضيَ الله عنه، قال:((نُهينا أنْ نَسْأَلَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن شَيءٍ، فكان يُعْجِبُنا أنْ يَجيءَ الرَّجُلُ مِن أهلِ البادِيَةِ العاقِلُ، فيَسْأَلَه، ونحنُ نَسْمَعُ، فجاء رجُلٌ مِن أهلِ البادِيَةِ، فقال: يا محمَّدُ، أتانا رَسولُكَ فزَعَم لنا أنَّك تَزعُمُ أنَّ اللهَ أرْسَلَك، قال: صَدَق، قال: فمَنْ خَلَق السَّماءَ؟ قال: اللهُ، قال: فمَنْ خَلَق الأرضَ؟ قال: اللهُ، قال: فمَنْ نَصَب هذه الجبالَ، وجَعَل فيها ما جَعَل؟ قال: الله، قال: فبالَّذي خَلَق السَّماءَ، وخَلَق الأرْضَ، ونَصَب هذه الجبالَ، آللهُ أَرْسَلَك؟ قال: نعَمْ)).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ سؤالٌ عن المناسَبةِ بيْنَ هذه الأشياءِ.

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ القُرآنَ نَزَل على العَرَبِ، وكانوا يُسافِرونَ كثيرًا، وكانوا يَسيرون على الإبِلِ في المَهامِهِ والقِفارِ مُستَوحِشينَ مُنفَرِدينَ عن النَّاسِ، والإنسانُ إذا انفرد أقبَلَ على التَّفَكُّرِ في الأشياءِ؛ لأنَّه ليس معه مَن يُحادِثُه، وليس هناك مَن يَشغَلُ به سَمْعَه وبَصَرَه، فلا بُدَّ مِن أن يجعَلَ دَأْبَه الفِكرَ، فإذا فكَّرَ في تلك الحالِ فأوَّلُ ما يَقَعُ بَصَرُه على الجَمَلِ الَّذي هو راكِبُه؛ فيرى منظرًا عَجيبًا، وإن نظرَ إلى فَوقٍ لم يَرَ غَيرَ السَّماءِ، وإذا نظَرَ يمينًا وشِمالًا لم يَرَ غَيرَ الجبالِ، وإذا نظَرَ إلى تحتٍ لم يَرَ غيرَ الأرضِ؛ فكأنَّه تعالى أمَرَه بالنَّظَرِ وَقتَ الخَلوةِ والانفرادِ؛ حتَّى لا تحمِلَه داعيةُ الكِبْرِ والحَسَدِ على تَرْكِ النَّظَرِ.

الثَّاني: أنَّ جميعَ المخلوقاتِ دالَّةٌ على الصَّانِعِ سُبحانَه إلَّا أنَّها قِسمانِ: منها ما للشَّهوةِ فيه حَظٌّ، كالوَجهِ الحَسَنِ، والذَّهَبِ والفِضَّةِ، فهذه مع دَلالتِها على الصَّانعِ قد يمنَعُ استِحْسانُها عن إكمالِ النَّظَرِ فيها، ومنها ما لا حَظَّ فيه للشَّهوةِ، كهذه الأشياءِ؛ فأَمَر بالنَّظَرِ فيها؛ إذ لا مانِعَ مِن إكمالِ النَّظَرِ[1].

الثَّالِثُ: أنَّ الإبِلَ كانت أنفَسَ أموالِهم وأكثَرَها، وإنَّما جَمَع بيْنَها وبيْن ما بَعْدَها؛ لأنَّهما جاءَا على وَفْقِ عادةِ العَرَبِ في انتفاعِهم بالإبِلِ أكثَرَ، ولا يَحصُلُ إلَّا بأن ترعى وتَشرَبَ، وذلك بنُزولِ المطَرِ مِنَ السَّماءِ؛ فعَطَفَها في الذِّكرِ على الإبِلِ، ثمَّ لا بُدَّ لهم مِن حِصنٍ يَتحَصَّنونَ به، ولا شَيءَ في ذلك لهم كالجِبالِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٥، ١٤٦)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٣٠٢).

فعَطَفَها على ما قَبْلَها، فإذا فَتَّش البَدَويُّ في نَفْسِه وجَدَ هذه الأشياءَ حاضِرةً عِندَه على التَّرتيبِ المذكورِ، بخلافِ الحَضَريِّ[(١)].

الرَّابعُ: لَعلَّ الحِكمةَ في ذِكرِ هذه الأشياءِ التَّنبيهُ على أنَّ هذا الوجهَ مِن الاستدلالِ غيرُ مُختَصٍّ بنَوعٍ دونَ نَوعٍ، بلْ هو عامٌّ في الكلِّ على ما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ولو ذَكَرَ غيرَها لم يكُنِ الأمرُ كذلك، لا جَرَمَ ذَكَرَ اللهُ تعالَى هذه الأمورِ، تَنبيهًا على أنَّ جَميعَ الأجسامِ العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ، صَغيرِها وكَبيرِها، حَسَنِها وقَبيحِها؛ مُتساويةٌ في الدَّلالةِ على الخالقِ الحَكيمِ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ اعلَمْ أنَّ تَسطيحَها لا يُنافي أنَّها كُرةٌ مُستديرةٌ قد أحاطت الأفلاكُ بها مِن جميعِ جوانِبِها، كما دَلَّ على ذلك النَّقلُ والعَقلُ والحِسُّ والمشاهَدةُ، كما هو مَذكورٌ مَعروفٌ عندَ أكثَرِ النَّاسِ، خُصوصًا في هذه الأزمنةِ الَّتي وقف النَّاسُ على أكثَرِ أرجائِها بما أعطاهم اللهُ مِن الأسبابِ المقَرِّبةِ للبَعيدِ؛ فإنَّ التَّسطيحَ إنَّما يُنافي كُرَويَّةَ الجِسمِ الصَّغيرِ جِدًّا، الَّذي لو سُطِحَ لم يَبْقَ له استِدارةٌ تُذكَرُ، وأمَّا جِسمُ الأرضِ الَّذي هو في غايةِ الكِبَرِ والسَّعةِ فيكونُ كُرَويًّا مُسَطَّحًا، ولا يَتنافى الأمْرانِ، كما يَعرِفُ ذلك أربابُ الخِبرةِ[(٣)]، ولكِنْ مع هذا ذَكَروا أنَّها ليست كُرَويَّةً مُتساويةَ الأطرافِ، بل إنَّها مُنبَعِجةٌ نحوَ الشَّمالِ والجَنوبِ، فهم يقولون: إنَّها بَيضاويَّةٌ، أي: على شَكلِ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٩، ٦١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢).

قال ابنُ القَيِّمِ: (قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، ولا يُنافي ذلك كَونَها كُرويَّةً؛ فهي كُرةٌ في الحقيقةِ، لها سَطحٌ يَستَقِرُّ عليه الحيوانُ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٩٥). ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٢١٢).

البَيضةِ في انبعاجِها شَمالًا وجَنوبًا[١].

٣- قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ عقَّبَ به أمْرَ المعادِ، ورتَّبَ عليه الأمرَ بالتَّذكيرِ فقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ الآياتِ؛ لأنَّ المعنى: أفلا يَنظُرونَ إلى أنواعِ المخلوقاتِ مِن البسائطِ والمَرْكَباتِ ليَتحقَّقوا كَمالَ قُدرةِ الخالقِ سُبحانَه وتعالَى، فلا يُنكِروا اقتِدارَه على البَعثِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ لَمَّا تَقدَّمَ التَّذكيرُ بيَومِ القِيامةِ، ووُصِفَ حالُ أهلِ الشَّقاءِ بما وُصِفوا به، وكان قد تَقرَّرَ فيما نزَلَ مِن القُرآنِ أنَّ أهلَ الشَّقاءِ هم أهلُ الإشراكِ باللهِ؛ فُرِّع على ذلك إنكارٌ عليهم إعراضَهُم عن النَّظرِ في دَلائلِ الوَحدانيَّةِ، فالفاءُ في قولِه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ تَفريعُ التَّعليلِ على المُعلَّلِ؛ لأنَّ فَظاعةَ ذلك الوَعيدِ تَجعَلُ المقامَ مَقامَ استدلالٍ على أنَّهم مَحقوقون بوُجوبِ النَّظرِ في دَلائلِ الوَحدانيَّةِ الَّتي هي أصلُ الاهتداءِ إلى تَصديقِ ما أخْبَرَهم به القرآنُ مِن البَعثِ والجزاءِ، وإلى الاهتداءِ إلى أنَّ مُنشِئَ النَّشأةِ الأُولى عن عدَمٍ بما فيها مِن عَظيمِ الموجوداتِ كالجِبالِ والسَّماءِ؛ لا يُستبعَدُ في جانبِ قُدرتِه إعادةُ إنشاءِ الإنسانِ بعْدَ فَنائِه عن عدَمٍ، وهو دُونَ تلك الموجوداتِ العظيمةِ الأحجامِ؛ فكان إعراضُهم عن النَّظَرِ مَجْلبةً لِما يُجَشِّمُهم مِن الشَّقاوةِ، وما وقَعَ بيْن هذا التَّفريعِ وبيْن المُفرَّعِ عنه مِن جُملةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: ٨]؛ في مَوقعِ الاعتراضِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٦٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن =

- قولُه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ ...﴾ نظمُ الآياتِ مُتوافقٌ مع فاتحةِ السُّورةِ الكريمةِ، فالخِطابُ في قولِه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ للعرَبِ، نبَّهَهم أوَّلًا بقولِه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾، وفخَّم المُستفهَمَ منه وعظَّمَه؛ إذِ المعنى: تَنبَّهوا لهذا الأمرِ الخطيرِ، والخطْبِ الجَسيمِ، وهُبُّوا مِن رَقدةِ الغَفلةِ، فخوَّفَهم بالصَّلَى في النَّارِ، وبإطعامِ الضَّريعِ، ولَمَّا كان الضَّريعُ حَديثًا مُناسِبًا للإبلِ -وهو جِنسٌ مِن الشَّوكِ تَرعاهُ الإبلُ ما دامَ رَطْبًا- وأراد أنْ يُقرِّرَ ذلك، أتَى تَنبيهٌ آخَرُ على سَبيلِ النَّظرِ؛ ليَضُمَّ شاهدَ العقلِ مع شاهدِ النَّصِّ، وأَسَّسَ الدَّلائلَ والشَّواهدَ على حسَبِ ما أَلِفوه في بَواديهم وأوديتِهم، وعدَلَ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ تَوبيخًا لهم، وتَنبيهًا على مَظانِّ الافتكارِ، فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى آخِرِه[1].

- والهَمزةُ في ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ ...﴾ للاستفهامِ التَّوبيخيِّ الإنكاريِّ، إنكارًا عليهم إهمالَ النَّظَرِ في الحالِ إلى دَقائقِ صُنعِ اللهِ في بَعضِ مَخلوقاتِه[2].

- والنَّظَرُ هنا هو نظَرُ العَينِ المُفيدُ الاعتبارَ بدَقائقِ المَنظورِ، وتَعديتُه بحرْفِ (إلى) تَنبيهٌ على إمعانِ النَّظَرِ؛ ليَشعُرَ النَّاظرُ ما في المَنظورِ مِن الدَّقائقِ؛ فإنَّ قَولَهم: نظَرَ إلى كذا، أشدُّ في تَوجيهِ النَّظرِ مِن: نَظَرَ كذا؛ لِما في (إلى) مِن معْنى الانتهاءِ، حتى كأنَّ النظَرَ انْتهى عندَ المجرورِ بـ (إلى) انتهاءَ تَمكُّنٍ واستقرارٍ[3].

= عاشور)) (٣٠/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٤).

- ولزِيادةِ التَّنبيهِ على إنكارِ إهمالِ النَّظَرِ في الحالِ إلى دَقائقِ صُنعِ اللهِ في بَعضِ مَخلوقاتِه؛ قُيِّدَ فِعلُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ بالكَيفيَّاتِ المعدودةِ في قولِه: ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾، ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾، ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، أي: لمْ يَنظُروا إلى دَقائقِ هَيئاتِ خَلْقِها[١].

- ووَجهُ ذِكْرِ الإبِلِ خاصَّةً: أنَّ الإبِلَ أجمَعُ للمَنافِعِ مِن سائِرِ الحَيوانِ؛ لأنَّ ضُروبَه أربَعةٌ: حَلُوبةٌ، ورَكوبةٌ، وأَكولةٌ، وحَمولةٌ، والإبِلُ تجمَعُ هذه الخِلالَ الأربَعَ؛ فكانت النِّعمةُ بها أعَمَّ، وظُهورُ القُدرةِ بها أتَمَّ[٢]. فخُصَّتِ الإبِلُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه اجتَمَعَ فيها ما تَفرَّقَ مِن المنافعِ في غَيرِها؛ مِن أكْلِ لَحمِها، وشُربِ لَبنِها، والحمْلِ عليها، والتَّنقُّلِ عليها إلى البلادِ الشَّاسِعةِ، وعَيشِها بأيِّ نَباتٍ أكَلَتْه، وصَبْرِها على العطَشِ، حتَّى إنَّ فيها ما يَرِدُ الماءَ لعَشْرٍ، وطَواعيتِها لِمَن يَقودُها، ونَهضتِها وهي باركةٌ بالأحمالِ الثِّقالِ، وكَثرةِ حَنينِها، وتأثُّرِها بالصَّوتِ الحسَنِ على غِلَظِ أكْبادِها؛ فهي أشرَفُ المَركَباتِ وأكثَرُها صُنعًا، ولأنَّها أعجَبُ ما عندَ العرَبِ مِن هذا النَّوعِ[٣].

- وإنَّما لم يَذكُرِ الفِيلَ وغيرَه ممَّا هو أعظَمُ مِن الجمَلِ؛ لأنَّ العرَبَ لم يَرَوا شَيئًا مِن ذلك ولا عَرَفوه[٤].

- وبُنِيَت الأفعالُ الأربعةُ ﴿خُلِقَتْ﴾ ﴿رُفِعَتْ﴾ ﴿نُصِبَتْ﴾ ﴿سُطِحَتْ﴾ لِمَا لمْ يُسَمَّ فاعلُه؛ للعِلمِ بفاعِلِ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٨، ٦٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦).

الآيات (٢١-٢٦)

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾: أي: بمُسَلَّطٍ قاهِرٍ، والمُصَيْطِرُ: المُجْبِرُ المُكْرِهُ. وقيل: أي: قائمٍ وحافظٍ، والمُسَيْطِرُ هو المُتَعهِّدُ للشَّيءِ المُتَسلِّطُ عليه، يُقالُ: صَيْطَر وسَيْطَر بالصَّادِ والسِّينِ[(١)].

﴿تَوَلَّىٰ﴾: أي: أعرَضَ، والتَّولِّي إذا وُصِلَ بـ(عن) لفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنَى الإعراضِ، وتَركِ القُربِ[(٢)].

﴿إِيَابَهُمْ﴾: أي: رُجوعَهم بعدَ الموتِ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بدَوامِ التَّذكيرِ، فيقولُ: فذَكِّرِ النَّاسَ

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٢٠).

قال القرطبي: (أصْلُه مِنَ السَّطْرِ؛ لأنَّ مِن معنَى السَّطْرِ ألَّا يُتَجاوَزَ، فالكِتابُ مُسَطَّرٌ، والَّذي يَفْعَلُه مُسَطِّرٌ ومُسَيْطِرٌ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

-يا محمَّدُ- بآياتِ اللهِ تعالى، وعِظْهُم بها؛ فما أرسَلْتُك إليهم إلَّا لتَذكيرِهم، ولَسْتَ مُتسَلِّطًا على النَّاسِ ولا قاهِرًا لهم؛ فتُكرِهَهم على الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، لكِنْ مَن أعرَضَ عن الحَقِّ وكَفَر بعدَ تذكيرِه بآياتِ اللهِ تعالى، فيُعَذِّبُه اللهُ في الآخِرةِ عذابَ النَّارِ الأكبَرَ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ فيقولُ: إنَّ إلينا مَرجِعَهم ومَصيرَهم بعْدَ مَوتِهم، ثمَّ إنَّ علينا حِسابَهم يومَ القيامةِ على أعمالِهم، وسنُجازيهم بها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن الدَّلائِلَ على صِحَّةِ التَّوحيدِ والمَعادِ، قال لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾، وتذكيرُ الرَّسولِ إنَّما يكونُ بذِكرِ هذه الأدِلَّةِ وأمثالِها، والبَعْثِ على النَّظَرِ فيها، والتَّحذيرِ مِن تَرْكِ تلك، وذلك بَعْثٌ منه تعالى للرَّسولِ على التَّذكيرِ والصَّبرِ على كُلِّ عارِضٍ معه؛ وبيانُ أنَّه إنَّما بُعِثَ لذلك دونَ غَيرِه؛ فلهذا قال[1]:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ٢١﴾.

أي: فذَكِّرِ النَّاسَ -يا محَمَّدُ- بآياتِ اللهِ تعالى، وعِظْهُم بها؛ فما أرسَلْتُك إليهم إلَّا لتَذكيرِهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨١). =

كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

الآيةُ مُحكَمةٌ غَيرُ مَنسوخةٍ[١].

وقيل: هي مَنسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ، وهي قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ...﴾[٢] [التوبة: ٥].

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: لم تُبعَثْ -يا محَمَّدُ- مُتسَلِّطًا على النَّاسِ وقاهِرًا لهم؛ فتُكرِهَهم على الإيمانِ باللهِ وطاعتِه[٣].

= قال البِقاعي: (﴿فَذَكِّرْ﴾ كُلَّ مَن يُرجَى تذَكُّرُه وانتِفاعُه بالتَّذكيرِ -يا أشرَفَ خَلْقِنا- بما في غرائِزِهم وفِطَرِهم مِن العِلمِ الأوَّليِّ بما في هذه الأشياءِ وأمثالِها ممَّا يدُلُّ على صِحَّةِ ما نزَّلْنا عليك). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٨).

(١) وهذا ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، وابنِ كثير، ورجَّحه محمد رشيد رضا، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٧).

وقال ابن الجوزي: (وقد قال بعضُ المفسِّرينَ في معناها: لَسْتَ عليهم بمُسَلَّطٍ فتُكرِهَهم على الإيمانِ. فعلى هذا لا نَسْخَ). ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٦٢٥).

(٢) ومِمَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وهبةُ الله بنُ سلامة، وابنُ حزم، والقرطبيُّ، وقد عزا الواحديُّ القولَ بالنَّسخِ إلى جميعِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٧٩)، ((الناسخ والمنسوخ)) لهبة الله بن سلامة (ص: ١٩٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٨)، ((جامع العلوم =

كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥].

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نفى عنهم تسَلُّطَ الدُّنيا، وكان التَّقديرُ: فمَنْ أقْبَلَ وآمَنَ فإنَّ اللهَ يُنَعِّمُه النَّعيمَ الأكبَرَ؛ قال مُستَدرِكًا قَسيمَهم في صورةِ الاستثناءِ[(١)]:

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: إلَّا مَن أعرَضَ عن الحَقِّ وكَفَر بعدَ تذكيرِه بآياتِ اللهِ تعالى[(٢)].

= والحكم)) لابن رجب (١/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

قال ابنُ القَيِّم: (قال المفسِّرون: المعنى: أنَّك لم تُرسَلْ مُسَلَّطًا عليهم قاهِرًا لهم جبَّارًا كالملوكِ، بل أنت عبدي ورسولي المبَلِّغُ رِسالاتي؛ فمَن أطاعك فله الجنَّةُ، ومَن عصاك فله النَّارُ). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٦٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٢، ١٨٣).

قيل: الاستثناءُ هنا متَّصِلٌ. والمعنى: فذكِّرْ قَومَك -يا محمَّدُ- إلَّا مَن تولَّى منهم عنك، =

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: فيُعَذِّبُه اللهُ في الآخِرةِ على كُفْرِه وإعراضِه عذابَ النَّارِ الَّذي لا عذابَ أعظَمُ منه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: إنَّ إلينا مَرجِعَهم ومَصيرَهم بعْدَ مَوتِهم[2].

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

= وأعرَض عن آياتِ اللهِ؛ فكفَر. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٢).

وقيل: المعنى: لَسْتَ بمُسَلَّطٍ إلَّا على مَن تولَّى وكَفَر؛ فأنت مُسَلَّطٌ عليه بالجِهادِ، واللهُ يُعَذِّبُه بعدَ ذلك العذابَ الأكبَرَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧).

قال القرطبي: (فلا نَسْخَ في الآيةِ على هذا التَّقديرِ). ((المصدر السابق)).

وقيل: الاستثناءُ هنا مُنقَطِعٌ بمعنى: «لكِنْ». ومِمَّن ذهب إليه: الواحديُّ، والقرطبي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٢). ويُنظر أيضًا: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٥).

قال القرطبي: (﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استثناءٌ مُنقطِعٌ، أي: لكِنْ مَن تولَّى عن الوَعظِ والتَّذكيرِ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٣).

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾.

أي: ثمَّ إنَّ علينا حِسابَهم يومَ القيامةِ على أعمالِهم، وسنُجازيهم بها[١].

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ أنَّ مِنَ الجَهَلةِ مَن يضَعُ قَولَه تعالى هذا في غيرِ مَوضِعِه، ويَحيدُ به عن مَهْيَعِه، فيُريدُ أن يتَّخِذَه حُجَّةً على حُرِّيَّةِ التَّدَيُّنِ بيْن جماعاتِ المسلمينَ! وشتَّانَ بيْن أحوالِ أهلِ الشِّركِ وأحوالِ جامِعةِ المسلِمينَ؛ فمَن يُلحِدُ في الإسلامِ بعْدَ الدُّخولِ فيه يُستتابُ ثلاثًا، فإنْ لم يَتُبْ قُتِلَ، وإنْ لم يُقْدَرْ عليه فعلى المسلِمينَ أن يَنبذُوه مِن جامِعَتِهم، ويُعامِلوه مُعاملةَ المحارِبِ، وكذلك مَن جاء بقَولٍ أو عمَلٍ يَقتضي نَبْذَ الإسلامِ، أو إنكارَ ما هو مِن أُصولِ الدِّينِ بالضَّرورةِ، بعدَ أن يُوقَفَ على مآلِ قَولِه أو عَمَلِه، فيَلتَزِمُه ولا يتأوَّلُه بتأويلٍ مقبولٍ، ويأبى الانكِفافَ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ أنَّ الدَّاعيَ إلى اللهِ لا يَنبغي أنْ يَحزَنَ إذا لم تُقْبَلْ دعوتُه، فإذا أدَّى ما يجبُ عليه فقد بَرِئَتِ الذِّمَّةُ، والحِسابُ على اللهِ تعالى؛ فقَولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ يعني: لكِنْ مَن تولَّى وكَفَرَ -على قولٍ- ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ * إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٩).

قال ابن عاشور: (أي: لسْتَ مُكَلَّفًا بجَبْرِهم على التَّذَكُّرِ والإيمانِ؛ لأنَّا نُحاسِبُهم حينَ رُجوعِهم إلينا في دارِ البقاءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٧).

فلا تحزَنْ أيُّها الدَّاعي إلى اللهِ إذا رُدَّ قولُك، أو إذا لم يُقْبَلْ لأوَّلِ مرَّةٍ؛ لأنَّك أدَّيتَ ما يجِبُ عليك[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ أنَّ الرُّجوعَ هو إلى اللهِ تعالى، فمهما فرَّ الإنسانُ، وطالتْ به حياةٌ فإنَّه راجعٌ إلى اللهِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]؛ فاستَعِدَّ يا أخي لهذه المُلاقاةِ، وقد قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: ((ما مِنكم مِن أحدٍ إلَّا سيُكَلِّمُه ربُّه ليس بيْنَه وبيْنه تَرْجُمانٌ، فيَنظُرُ أيْمَنَ منه فلا يرى إلَّا ما قَدَّمَ مِن عمَلِه، ويَنظُرُ أشْأَمَ منه -يعني: على اليَسارِ- فلا يرى إلَّا ما قَدَّمَ، وينظُرُ بيْنَ يديه فلا يرَى إلَّا النَّارَ تِلْقاءَ وجْهِه؛ فاتَّقوا النَّارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ))[(٢)]، واللهُ عزَّ وجَلَّ يومَ القيامةِ يُقَرِّرُ العبدَ بذُنوبِه، يقولُ: فعَلْتَ كذا في يومِ كذا، حتَّى يُقِرَّ ويَعترِفَ، فإذا أقَرَّ واعترفَ قال اللهُ تعالى: ((ستَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليَومَ))[(٣)]، وكم مِن ذُنوبٍ سَتَرَها اللهُ عزَّ وجَلَّ! كم مِن ذُنوبٍ اقتَرَفْناها لم يَعلَمْ بها أحدٌ، ولكنَّ اللهَ تعالى عَلِمَ بها! فمَوقِفُنا مِن هذه الذُّنوبِ أنْ نستغفِرَ اللهَ عزَّ وجَلَّ، وأنْ نُكْثِرَ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ المكفِّرةِ للسَّيِّئاتِ؛ حتَّى نلقى اللهَ عزَّ وجَلَّ ونحن على ما يُرْضيه سُبحانَه وتعالى[(٤)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾

(١) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ١٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٢) واللَّفظُ له، ومسلم (١٠١٦) مختصرًا من حديث عَدِيِّ بنِ حاتمٍ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤١) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث عبدالله بن عُمَرَ رضيَ الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٣).

لم يَخْصُصِ اللهُ أحدًا بالتَّذكيرِ، أي: لم يَقُلْ: ذَكِّرْ فُلانًا وفُلانًا، فالتَّذكيرُ عامٌّ؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بُعِثَ إلى النَّاسِ كافَّةً، أي: ذَكِّرْ كلَّ أحدٍ في كلِّ حالٍ، وفي كلِّ مكانٍ؛ فذَكَّرَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذَكَّرَ خُلَفاؤُه مِن بَعْدِه؛ الَّذين خَلَفُوه في أُمَّتِه في العِلمِ والعَمَلِ والدَّعوةِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس إلَّا مُذَكِّرًا مُبَلِّغًا، وأمَّا الهدايةُ فبِيَدِ اللهِ تعالى؛ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٢] [البقرة: ٢٧٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾

- الفاءُ في ﴿فَذَكِّرْ﴾ تفريعٌ على مُحصَّلِ ما سبَقَ مِن أوَّلِ السُّورةِ الَّذي هو التَّذكيرُ بالغاشيةِ وما اتَّصَلَ به مِن ذِكرِ إعراضِهم وإنذارِهم، رُتِّبَ على ذلك أمْرُ اللهِ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالدَّوامِ على تَذكيرِهم، وأنَّه لا يُؤيسُه إصرارُهم على الإعراضِ وعدَمُ ادِّكارِهم بما أُلْقِيَ إليهم مِن المواعظِ، وتَثبيتُه بأنَّه لا تَبِعةَ عليه مِن عدَمِ إصغائِهم؛ إذْ لم يُبعَثْ مُلجِئًا لهم على الإيمانِ، فالأمرُ مُستعمَلٌ في طلَبِ الاستمرارِ والدَّوامِ[٣].

- ومَفعولُ (ذكِّرْ) مَحذوفٌ، هو ضَميرٌ يدُلُّ عليه قولُه بعْدَه: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨١).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦).

- وجُملةُ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ تَعليليَّةٌ للأمْرِ بالدَّوامِ على التَّذكيرِ مع عدَمِ إصغائِهِم[(١)].

- والقصْرُ المُستفادُ بـ ﴿إِنَّمَآ﴾ قصْرٌ إضافيٌّ[(٢)]، أي: أنت مُذكِّرٌ لستَ وَكيلًا على تَحصيلِ تَذَكُّرِهم، فلا تَتحرَّجْ مِن عدَمِ تَذكُّرِهم؛ فأنت غيرُ مُقصِّرٍ في تَذكيرِهم، وهذا تَطمينٌ لنفْسِه الزَّكيَّةِ صلَّى الله عليه وسلَّم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٠).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعِرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦، ٣٠٧).

- قولُه: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ تقريرٌ وتَحقيقٌ لمَعْنى الإنذارِ، أي: لستَ بمُتسَلِّطٍ عليهم تُجبِرُهم على ما تُريدُ[1]؛ فهذه الجُملةُ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[2] مِن جُملةِ القصْرِ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ باعتبارِ جانبِ النَّفْيِ الَّذي يُفيدُه القصرُ، فنفْيُ كَونِه مُصَيطِرًا عليهم خبَرٌ مُستعمَلٌ في غيرِ الإخبارِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعلَمُ أنَّه لم يُكلَّفْ بإكراهِهم على الإيمانِ، فالخبَرُ بهذا النَّفيِ مُستعمَلٌ كِنايةً عن التَّطمينِ برَفْعِ التَّبِعةِ عنه مِن جرَّاءِ استمرارِ أكثَرِهم على الكُفرِ[3].

- وتَقديمُ ﴿عَلَيْهِم﴾ على مُتعلَّقِه -وهو (مُصَيْطِرٍ)-؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ مُعترِضٌ بيْن جُملةِ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ وجُملةِ ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥]، والمقصودُ مِن هذا الاعتراضِ الاحتراسُ مِن تَوهُّمِهم أنَّهم أصْبَحوا آمِنينَ مِن المُؤاخَذةِ على عدَمِ التَّذكُّرِ؛ فحرْفُ (إلَّا) للاستثناءِ المنقطِعِ -على قولٍ-، وهو بمعْنى الاستِدراكِ، والمعْنى: لكنْ مَن تَولَّى عن التَّذكُّرِ ودامَ على كُفْرِه، يُعذِّبُه اللهُ العذابَ الشَّديدَ[5].

- وعلى القولِ بأنَّ الاستثناءَ في قولِه: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استِثناءٌ مُتَّصلٌ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١).

(٢) بَدلُ الاشتمالِ: هو الَّذي يدُلُّ على مَعنًى في مَتْبوعِه أو صِفةٍ فيه، مِثلُ: أعْجَبَني مُحمَّدٌ خُلُقُه؛ فـ (خُلُقُه) بدَلٌ مِن (مُحمَّدٌ)؛ بدَلُ اشْتِمالٍ. يُنظر: ((توضيح المقاصد)) للمرادي (٢/ ١٠٣٧)، ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٣/ ٣٦٥)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) (٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٧، ٣٠٨).

فإنَّ جِهادَ الكفَّارِ وقتْلَهم تَسلُّطٌ، كأنَّه قِيل: لستَ عليهم بمُسيطِرٍ -أي: بمُتسلِطٍ- بالقتْلِ والجِهادِ إلَّا مَن تَولَّى وكَفَرَ، كأنَّه أوعَدَهم بالجهادِ في الدُّنيا، وعَذابِ النَّارِ في الآخرةِ. وقيل: هو استِثناءٌ مِن قولِه: ﴿فَذَكِّرْ﴾، أي: فذَكِّرْ إلَّا مَن انقَطَعَ طَمَعُك مِن إيمانِه وتَولَّى، فاستحَقَّ العَذابَ الأكبَرَ، وما بيْنَهما ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ اعتراضٌ[1].

- في قولِه: ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ لم يَذْكُرِ المفضَّلَ عليه، يعني: لم يَقُلْ: الأكبرَ مِن كذا؛ فهو قد بَلَغ الغايةَ في الكِبَرِ والمشَقَّةِ والإهانةِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ تَعليلٌ للعذابِ الأكبَرِ؛ أي: إنَّ إلينا رجوعَهُم بالموتِ والبَعثِ لا إلى أحدٍ سِوانا؛ لا استقلالًا ولا اشتراكًا[3]. وقيل: هو تَعليلٌ لجُملةِ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، أي: لسْتَ مُكلَّفًا بجَبْرِهم على التَّذكُّرِ والإيمانِ؛ لأنَّا نُحاسِبُهم حِينَ رُجوعِهم إلينا في دارِ البَقاءِ[4].

- والسِّرُّ في تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قولِه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾؛ التَّشديدُ والمُبالَغةُ في الوعيدِ، وأنَّ إيابَهم ليس إلَّا إلى الجَبَّارِ المُقتدِرِ على الانتقامِ، وأنَّ حِسابَهم ليس إلَّا عليه تعالى، وهو الَّذي يُحاسِبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٥، ٤٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٨).

على النَّقيرِ والقِطْميرِ، وبَيانُ ذلك أنَّه تعالَى علَّل قولَه: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ بقولِه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾، والْتَفَتَ فيه مِن الغَيبةِ إلى الحِكايةِ، ومِن الاسمِ الجامعِ إلى صِيغةِ الكِبرياءِ والجَبَروتِ، وقدَّمَ الظَّرفينِ على عامِلَيْهما[١].

وقيل: يَظهَرُ أنَّ تَقديمَ خبَرِ (إنَّ) على اسْمِها لمُجرَّدِ الاهتمامِ تَحقيقًا لهذا الرُّجوعِ؛ لأنَّهم يُنكِرونه، وتَنبيهًا على إمكانِه بأنَّه رُجوعٌ إلى الَّذي أنشَأَهم أوَّلَ مرَّةٍ[٢].

- وجاء الخبَرُ مُؤكَّدًا بـ (إنَّ)، كأنَّهم وقد تَردَّدوا بحاجةٍ إلى تَأكيدِ هذا الأمرِ الَّذي أشاحُوا عنه ولم يَتدبَّروه[٣].

- ونُقِلَ الكلامُ مِن أسلوبِ الغَيبةِ في قولِه: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ﴾ [الغاشية: ٢٤] إلى أُسلوبِ التَّكلُّمِ بقولِه: ﴿إِلَيْنَآ﴾ على طَريقةِ الالْتفاتِ[٤].

- والعطفُ بحرْفِ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ للدَّلالةِ على التَّراخي في الرُّتبةِ لا في الزَّمانِ؛ فإنَّ حِسابَهم هو الغرَضُ مِن إيابِهم، وهو أوقَعُ في تَهديدِهم على التَّولِّي، فالحسابُ قدْ يكونُ مُباشَرةً بعدَ الإيابِ، ولكنَّ التَّفاوُتَ بيْن الموقفَينِ أمرٌ لا تُكْتَنَهُ أهوالُه، ولا يَدْري أحدٌ مَداهُ، ولا يَتصَوَّرُه العقلُ على الإطلاقِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٢).

- ومعْنى (على) مِن قولِه: ﴿عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ أنَّ حِسابَهم -لتَأكُّدِه في حِكمةِ اللهِ- يُشبِهُ الحقَّ الَّذي فَرَضَه اللهُ على نفْسِه[١].

- وأيضًا هذه الجُملةُ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ هي المقصودُ مِن التَّعليلِ، والَّتي قبْلَها بمعْنَى التَّمهيدِ لها والإدماجِ[٢] لإثباتِ البَعثِ، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ تَأخيرَ عِقابِهم إمهالٌ، فلا يَحسَبوه انفلاتًا مِن العِقابِ[٣].

- وفي تَصديرِ الجُملتَينِ بـ(إنَّ) وتَقديمِ خبَرِها، وعطْفِ الثَّانيةِ على الأُولى بكلمةِ (ثُمَّ) المفيدةِ لبُعدِ مَنزلةِ الحِسابِ في الشِّدَّةِ؛ مِن الإنباءِ عن غايةِ السَّخطِ الموجِبِ لتَشديدِ العَذابِ ما لا يَخفَى[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٩).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٢).

تَفْسيرُ

سُورَةِ الفَجْرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الفَجْرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفَجْرِ)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الفَجرِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

١- تَثْبيتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

٢- إثباتُ اليومِ الآخِرِ، والحسابِ بالثَّوابِ والعِقابِ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- افتِتاحُ السُّورةِ بالقَسَمِ بخمسةِ أشياءَ شريفةٍ.

٢- تَذكيرُ المُشرِكينَ بما حَلَّ بالمكَذِّبينَ مِن قَبْلِهم، كقَومِ عادٍ وثَمودَ وفِرعَونَ.

٣- بيانُ أحوالِ الإنسانِ في حالِ غِناه وفي حالِ فَقْرِه، وأنَّ كَثرةَ النِّعَمِ ليست دليلًا على إكرامِ اللهِ للعَبْدِ، ولا التَّضييقُ دليلٌ على إهانتِه.

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ: افتتاحُها بقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١١).

(٢) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٩٠).

٤- وَصفُ يومِ القيامةِ وما فيه مِن أهوالٍ، وتأسُّفُ الإنسانِ يومَئذٍ على تفريطِه.

٥- تبشيرُ أصحابِ النُّفوسِ المؤمِنةِ المطمَئِنَّةِ.

الآيات (١-١٤)

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾: الشَّفعُ: هو الزَّوجُ. والوَتْرُ والوِتْرُ: هو الفَردُ، تَقولُ: كان فَرْدًا فشَفَعْتُه، فالشَّفعُ في اللُّغةِ: اثنانِ، والوتْرُ: واحدٌ، والشَّفْعُ: ضمُّ الشَّيءِ إلى مِثْلِه، وأصلُ (شفع): يدُلُّ على مُقارَنةِ الشَّيئَيْنِ[(١)].

﴿حِجۡرٍ﴾: أي: عَقْلٍ، وأصلُ (حجر): يدُلُّ على المنعِ، وسُمِّيَ العَقلُ حِجرًا؛ لأنَّه يَمنَعُ الإنسانَ مِن تعاطي ما لا يليقُ به مِن الأفعالِ والأقوالِ، كما يُسَمَّى عَقلًا؛ لأنَّه يَعقِلُه عن القبائِحِ[(٢)].

﴿ٱلۡعِمَادِ﴾: أي: أعمدةِ بيوتِهم مِن الشَّعرِ، أو بنيانِهم، أو القُدودِ الطِّوالِ، على تشبيهِ قاماتِهم بالأعمِدةِ، وأصلُ (عمد): يدُلُّ على استقامةٍ في الشَّيءِ[(٣)].

﴿جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ﴾: أي: قَطَعوا صَخرَ الجِبالِ، واتَّخَذوا فيها بُيُوتًا نَحَتوها مِنَ

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٩٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١) و(٦/ ٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٨٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

الصَّخرِ، والجَوْبُ: القَطعُ، تقولُ: جُبتُ البِلادَ أَجوبُها: إذا قطَعْتَها، ومنه الجَوابُ؛ لأنَّه يَقطَعُ السُّؤالَ، وأصلُ (جوب): يدُلُّ على خَرقِ الشَّيءِ[١].

﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾: أي: صاحِبِ البِناءِ المُحكَمِ والمُلكِ الثَّابِتِ، والعَرَبُ تَقولُ: هم في عزٍّ ثابتِ الأوتادِ، ومُلكٍ ثابتِ الأوتادِ، يُريدونَ أنَّه دائِمٌ شَديدٌ. وقيلَ: صاحِبُ القُوَّةِ والبَطشِ والجُنودِ والجُموعِ الكثيرةِ الَّذين يُقَوُّونَ أمْرَه، ويَشُدُّونَ مُلْكَه، كما يُقَوِّي الوَتِدُ الشَّيءَ، والوَتِدُ: عُودٌ غليظٌ شيئًا، أسْفَلُه أدَقُّ مِن أعلاه، يُدَقُّ في الأرضِ لِتُشَدَّ به أطْنابُ الخَيمةِ، وأصلُ (وتد): يدُلُّ على الثَّباتِ والرُّسوخِ[٢].

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾: أي: نَصيبَ عذابٍ أو: شِدَّتَه؛ لأنَّ السَّوطَ كان عندَهم نهايةَ ما يُعَذَّبُ به، والسَّوطُ كَلِمةٌ تقولُها العَرَبُ لكُلِّ نَوعٍ مِن أنواعِ العذابِ، وأصلُ ذلك أنَّ السَّوطَ هو عذابُهم الَّذي يُعَذِّبونَ به، فجرى لكُلِّ عذابٍ؛ إذ كان فيه عندَهم غايةُ العذابِ، وأصلُ (سوط): يدُلُّ على مُخالَطةِ الشَّيءِ الشَّيءَ[٣].

﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾: أي: على طريقِ العِبادِ لا يَفوتُه أحدٌ منهم، يرصُدُ عمَلَ كُلِّ إنسانٍ؛ حتَّى يُجازيَه به، والمَرْصَدُ والمِرْصادُ: الطَّريقُ، أو: المِرْصادُ: الموضِعُ الَّذي يُرصَدُ النَّاسُ فيه، وأصلُ (رصد): يدُلُّ على التَّهَيُّؤِ لِرِقْبةِ شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ * وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾

﴿إِرَمَ﴾: بَدَلٌ مِن «عادٍ» مجرورٌ، وعلامةُ جَرِّه الفتحةُ نيابةً عن الكسرةِ؛ لأنَّه ممنوعٌ مِن الصَّرفِ للعَلَميَّةِ والتَّأنيثِ. «ذَاتِ»: نَعتٌ لـ﴿إِرَمَ﴾ مجرورٌ، وعلامةُ جَرِّه الكَسرةُ.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ مبنيٌّ في محَلِّ جَرٍّ نَعتٌ للجَمعِ المتقَدِّمِ مِن عادٍ وثمودَ وفِرعَونَ، ويجوزُ أن يكونَ نعتًا لفِرعَونَ؛ لأنَّ المرادَ هو وقومُه، واكتفى بذِكْرِه عن ذِكْرِهم، ويجوزُ قَطْعُه عن الوَصفِ للذَّمِّ، فيكونُ مَنصوبَ المحَلِّ على إضمارِ «أَذُمُّ»، أو مَرفوعَه على إضمارِ «هم»[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالفَجْرِ المعروفِ، وبلَيالٍ عَشْرٍ، وهي عَشْرُ ذي الحِجَّةِ، وبالشَّفعِ والوَتْرِ، وباللَّيلِ وَقتَ سَيْرِه وسَرَيانِه، فهل في قَسَمِ اللهِ بتلك الأشياءِ مَقنَعٌ وكِفايةٌ لِذي عَقلٍ ولُبٍّ؛ فيَنزَجِرَ ويَرتَدِعَ؟

ثمَّ يُخبِرُ اللهُ سبحانَه وتعالى عمَّا أنزله بالمكذِّبينَ مِن العذابِ، فيقولُ: أَلَمْ تَعلَمْ -يا محمَّدُ- كيف انتَقَم رَبُّك مِن قَبيلةِ عادٍ؛ إرَمَ ذاتِ الأعمدةِ، الَّتي لم

= ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٧٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٠).

(١) يُنظَر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٨١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٣٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢١).

يُخلَقْ ما يُماثِلُها في سائِرِ البُلدانِ؟ وكيف انتَقَم اللهُ كذلك مِن قَبيلةِ ثمودَ الَّذين شَقُّوا الجِبالَ في وادِيهم، وصَنَعوا فيها بُيوتًا؟ وكيف انتَقَم اللهُ كذلك مِن فِرعَونَ صاحِبِ الأوتادِ؟

هؤلاء الذَّين سَلَف ذِكْرُهم مِن عادٍ وثَمودَ وفِرعونَ قد تجاوَزوا حَدَّهم في الظُّلمِ والطُّغيانِ، فأكثَروا في البِلادِ العمَلَ بالكُفْرِ والعِصيانِ؛ فأنزَلَ رَبُّك عليهم -يا محمَّدُ- عَذابَه الشَّديدَ؛ فهَلَكوا جَميعًا، إنَّ رَبَّك مُراقِبٌ لأعمالِ الطَّاغينَ المُفسِدينَ في الدُّنيا، وسيُهلِكُهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالفَجْرِ، وهو وقتُ ابتداءِ ظُهورِ النُّورِ في الأُفُقِ الشَّرقيِّ قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٠)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٣).

قال ابنُ عثيمين: (الفجر... بيْنَه وبيْنَ طُلوعِ الشَّمسِ ما بيْنَ ساعةٍ واثنتَينِ وثلاثينَ دقيقةً، إلى ساعةٍ وسَبْعَ عَشْرةَ دقيقةً، ويختَلِفُ باختلافِ الفُصولِ؛ فأحيانًا تَطولُ الحِصَّةُ ما بيْن الفَجرِ وطُلوعِ الشَّمسِ، وأحيانًا تَقصُرُ حَسَبَ الفُصولِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٦).

وقال ابن جُزَي: (أقسَمَ اللهُ تعالى بالفَجْرِ، وهو الطَّالِعُ كُلَّ يومٍ، كما أقسَمَ بالصُّبحِ. وقيل: أراد صلاةَ الفَجرِ. وقيل: أراد النَّهارَ كُلَّه. وقيل: فَجْرَ يومِ الجُمُعةِ، وقيل: فَجْرَ يومِ النَّحرِ، وقيل: فَجْرَ ذي الحِجَّةِ، ولا دليلَ على هذه التَّخصيصاتِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٨).

ممَّن اختار القَولَ المذكورَ في الفَجْرِ، وأنَّه الفَجْرُ المعروفُ الطَّالِعُ كُلَّ يومٍ، وهو الصُّبحُ: السَّمَرْقَنديُّ، والواحِديُّ، والزَّمَخْشَريُّ، والرَّسْعَنيُّ، وابنُ جُزَي، وجلالُ الدِّينِ المحَلِّيُّ، والعُلَيميُّ، وأبو السُّعودِ، والشَّوكانيُّ، والألوسيُّ، والقاسميُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ =

= ٧٤٦)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٦).

قال الواحديُّ: (﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ قال ابنُ عَبَّاسٍ: فَجْرُ النَّهارِ. وهو روايةُ أبي نَصرٍ وأبي صالحٍ، وقَولُ عِكْرِمةَ، وزَيدِ بنِ أسلَمَ، ومحمَّدِ بنِ كَعبٍ، والأسْوَدِ بنِ يَزيدَ، قالوا: هو انفِجارُ الصُّبحِ مِن كُلِّ يومٍ). ((البسيط)) (٢٣/ ٤٨٣).

وقال ابنُ كثيرٍ: (أمَّا الفَجْرُ فمَعروفٌ، وهو: الصُّبحُ. قاله عليٌّ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ، والسُّدِّيُّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٠).

وقال الرَّازي: (أقسَمَ اللهُ تعالى به لِما يَحصُلُ به مِن انقِضاءِ اللَّيلِ وظُهورِ الضَّوءِ، وانتِشارِ النَّاسِ وسائِرِ الحيواناتِ مِن الطَّيرِ والوُحوشِ في طَلَبِ الأرزاقِ، وذلك مُشاكِلٌ لنُشورِ الموتى مِن قُبورِهم، وفيه عِبرةٌ لِمَن تأمَّل، وهذا كقَولِه: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤]، وقال في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، وتمدَّحَ في آيةٍ أُخْرى بكَونِه خالِقًا له، فقال: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٨).

وقيل: إنَّه (فَجرُ يَومٍ مُعَيَّنٍ، وعلى هذا القَولِ ذَكَروا وُجوهًا:

الأوَّلُ: أنَّه فَجْرُ يَومِ النَّحرِ؛ وذلك لأنَّ أمْرَ المَناسِكِ مِن خَصائِصِ مِلَّةِ إبراهيمَ، وكانت العَرَبُ لا تَدَعُ الحَجَّ، وهو يومٌ عظيمٌ يأتي الإنسانُ فيه بالقُربانِ، كأنَّ الحاجَّ يريدُ أن يتقرَّبَ بذَبْحِ نَفْسِه، فلمَّا عَجَز عن ذلك فَدى نَفْسَه بذلك القُربانِ، كما قال تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠٧].

الثَّاني: أراد فَجْرَ ذي الحِجَّةِ؛ لأنَّه قَرَن به قَولَه: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾، ولأنَّه أوَّلُ شَهرِ هذه العِبادةِ المُعَظَّمةِ.

الثَّالِثُ: المرادُ: فَجْرُ المحَرَّمِ؛ أقسَمَ به لأنَّه أوَّلُ يَومٍ مِن كُلِّ سَنةٍ، وعِندَ ذلك يحدُثُ أُمورٌ كثيرةٌ ممَّا يتكرَّرُ بالسِّنينَ؛ كالحَجِّ والصَّومِ والزَّكاةِ، واستِئنافِ الحِسابِ بشُهورِ الأهِلَّةِ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٨).

وممَّن خَصَّص الفَجْرَ هنا بفَجرِ يومِ النَّحرِ، وهو العاشِرُ مِن شَهرِ ذي الحِجَّةِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١).

قال ابنُ كثيرٍ: (عن مَسروقٍ، ومجاهِدٍ، ومحمَّدِ بنِ كَعبٍ: المرادُ به فَجْرُ يَومِ النَّحرِ خاصَّةً، =

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بلَيالٍ عَشْرٍ، وهي عَشْرُ ذي الحِجَّةِ(١).

= وهو خاتِمةُ اللَّيالي العَشْرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٠).

وقال الواحديُّ: (قال [أي: ابنُ عَبَّاسٍ] في روايةِ العَوْفيِّ: صلاةُ الفَجْرِ. وقال في روايةِ عُثمانَ بنِ مُحَيْصِنٍ: هو فَجْرُ المحرَّمِ، وهو قَولُ قَتادةَ، قال: أقسَمَ بأوَّلِ يومٍ مِنَ المحرَّمِ تنفَجِرُ منه السَّنَةُ. وقال في روايةِ عَطاءٍ: يريدُ صَبيحةَ يَومِ النَّحْرِ. قال الضَّحَّاكُ: هو فَجْرُ ذي الحِجَّةِ). ((البسيط)) (٢٣/ ٤٨٤، ٤٨٥).

قال ابن رجب: (وعلى جميعِ هذه الأقوالِ فالعَشْرُ يَشتَمِلُ على الفَجْرِ الَّذي أقسَمَ اللهُ به). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٨، ١٨٩).

نقل ابنُ جريرٍ إجماعَ الحُجَّةِ مِن أهلِ التَّأويلِ على أنَّها عَشرُ ذي الحِجَّةِ، ونقله الواحديُّ عن أكثَرِ المُفَسِّرينَ، وذهب إليه: ابنُ كثير، وابنُ رجبٍ ونَقَله عن جمهورِ المُفَسِّرينَ، واختاره البِقاعيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٠)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٣).

قال الواحِديُّ: (﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ وهو عَشْرُ ذي الحِجَّةِ في قَولِ جُمهورِ المفَسِّرينَ: عِكْرِمةَ، ومُقاتِلٍ، والكَلبيِّ، ومَسروقٍ، والضَّحَّاكِ، ومجاهِدٍ، وقَتادةَ، والسُّدِّيِّ، واختيارُ الفَرَّاءِ، والزَّجَّاجِ، قالوا: هي عَشْرُ الأَضحى). ((البسيط)) (٢٣/ ٤٨٥، ٤٨٦). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨٧)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢١).

وقال ابنُ رَجَبٍ: (هذا الصَّحيحُ الَّذي عليه جمهورُ المفَسِّرينَ مِن السَّلَفِ وغَيرِهم، وهو الصَّحيحُ عن ابنِ عَبَّاسٍ، رُوِيَ عنه مِن غَيرِ وَجهٍ. والرِّوايةُ عنه: «أنَّه عَشْرُ رَمَضانَ» إسنادُها ضَعيفٌ). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٦٨).

وقيل: هي العَشْرُ الأواخِرُ مِن رَمَضانَ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ العَرَبيِّ المالِكيُّ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٨، ١٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بالشَّفعِ، وأُقسِمُ بالوَتْرِ[١].

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٧).

قال الزمخشري: (﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾: إمَّا الأشياءُ كُلُّها شَفْعُها ووَتْرُها، وإمَّا شَفعُ هذه اللَّيالي ووَتْرُها، ويجوزُ أن يكونَ شَفعُها يومَ النَّحرِ، ووَتْرُها يومَ عَرَفةَ؛ لأنَّه تاسِعُ أيَّامِها، وذاك عاشِرُها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٦).

وممَّن ذهب إلى القَولِ الأوَّلِ -أي: أنَّ الشَّفعَ والوَتْرَ يَعُمُّ كلَّ الأشياءِ شَفْعَها ووَتْرَها-: ابنُ جريرٍ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٧).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ، وأنَّ المرادَ القَسَمُ بالخَلقِ، فكُلُّ شَيءٍ خَلَق اللهُ شَفْعٌ ووَتْرٌ: مجاهِدٌ، والحَسَنُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٩٣).

قال ابنُ جَريرٍ: (والصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أقسَمَ بالشَّفْعِ والوَتْرِ، ولم يَخْصُصْ نَوعًا مِن الشَّفْعِ ولا مِنَ الوَتْرِ دُونَ نَوعٍ بخَبَرٍ ولا عَقلٍ، فكُلُّ شَفعٍ ووَتْرٍ فهو ممَّا أقسَمَ به، ممَّا قال أهلُ التَّأويلِ إنَّه داخِلٌ في قَسَمِه هذا؛ لعُمومِ قَسَمِه بذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٥، ٣٥٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالشَّفْعِ يَومُ النَّحرِ، وبالوَتْرِ يَومُ عَرَفةَ: الفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، والهَرَويُّ، والواحِديُّ ونَسَبَه لجُمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ١٠١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٩٠).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عَبَّاسٍ في رِوايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٩).

وقيل: الشَّفْعُ هو الخَلْقُ، والوَتْرُ هو اللهُ. وممَّن اختاره: الكرمانيُّ، والعُلَيميُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٣٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦٥).

وقال البِقاعيُّ: (﴿وَٱلشَّفۡعِ﴾ أي: لِمَن تعَجَّل في يومَينِ ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾ أي: لِمن أتَمَّ. قاله ابنُ الزُّبَيرِ). =

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ وَقتَ سَيْرِه وسَرَيانِه[1].

= ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٢).

وقيل غيرُ ذلك في معنى الشَّفعِ والوتْرِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٨).

قال ابنُ رجبٍ: (وقد قيلَ في الشَّفْعِ والوتْرِ أقوالٌ كثيرةٌ، وأكثَرُها لا يَخرُجُ عن أن يكونَ العَشْرُ أو بَعْضُه مُشتَمِلًا على الشَّفْعِ والوَتْرِ أو أحَدِهما). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٦٨).

وقال ابنُ القَيِّمِ: (ذَكَر سُبحانَه مِن جُملةِ هذه الأقسامِ ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾؛ إذ هذه الشَّعائِرُ المعَظَّمةُ منها شَفعٌ ومنها وَتْرٌ في الأمكِنةِ والأزمِنةِ والأعمالِ) وذَكَر الشَّفعَ منها والوتْرَ، ثمَّ قال: (وروى مجاهِدٌ عن ابنِ عَبَّاسٍ: الوترُ: آدَمُ، وشُفِعَ بزَوْجَتِه حَوَّاءَ. وقال في روايةٍ أخرى: الشَّفعُ: آدَمُ وحَوَّاءُ، والوترُ: اللهُ وَحْدَه. وعنه روايةٌ ثالِثةٌ: الشَّفعُ: يَومُ النَّحرِ، والوترُ: اليومُ الثَّالِثُ. وقال عِمْرانُ بنُ حُصَينٍ وقَتادةُ: الشَّفعُ والوترُ: هي الصَّلاةُ... وقال عَطيَّةُ العَوْفيُّ: الشَّفعُ: الخَلْقُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النبأ: ٨]، والوَتْرُ: هو اللهُ. وهذا قَولُ الحَكَمِ، قال: كُلُّ شَيءٍ شَفْعٌ، واللهُ وَتْرٌ. وقال أبو صالحٍ: خلَقَ اللهُ مِن كُلِّ شَيءٍ زَوْجَينِ اثنَينِ، واللهُ وَتْرٌ واحِدٌ. وهذا قَولُ مجاهِدٍ ومَسروقٍ. وقال الحسَنُ: الشَّفعُ والوترُ: العَدَدُ كُلُّه مِن شَفعٍ ووَترٍ. وقال ابنُ زَيدٍ: الشَّفعُ والوترُ: الخَلْقُ كُلُّه مِن شَفعٍ ووَترٍ. وقال مقاتِلٌ: الشَّفْعُ: الأيَّامُ واللَّيالي، والوَترُ: اليَومُ الَّذي لا لَيلةَ بَعْدَه، وهو يومُ القيامةِ).

ثمَّ قال ابنُ القَيِّمِ: (وذُكِرَت أقوالٌ أُخَرُ هذه أصولُها، ومدارُها كلِّها على قولَينِ:

أحَدُهما: أنَّ الشَّفْعَ والوتْرَ نَوعانِ للمخلوقاتِ والمأموراتِ.

والثَّاني: أنَّ الوَتْرَ الخالِقُ، والشَّفْعَ المخلوقُ، وعلى هذا القَولِ فيكونُ قد جَمَع في القَسَمِ بيْنَ الخالِقِ والمخلوقِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٣٠) فما بَعْدَها.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٠، ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٣، ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٠).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ باللَّيلِ: العُمومُ، أي: كُلُّ ليلةٍ، دُونَ تَخصيصٍ بلَيلةٍ مُعَيَّنةٍ: ابنُ جريرٍ، والزَّجَّاجُ، والواحِديُّ ونَسَبه للأكثَرينَ، وابنُ الجوزيِّ، والرَّسْعَنيُّ، والقُرْطبيُّ، وابنُ جُزَي، والخازِنُ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٠)، =

= ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٠).

قال الرَّازيُّ: (أكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّه ليس المرادُ منه ليلةً مخصوصةً، بل العُمومُ، بدليلِ قَولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٠).

وقيل: المرادُ باللَّيلِ هنا لَيلةُ الأضْحى. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨٧).

وقال ابنُ عَطِيَّةَ: (قال مجاهِدٌ وعِكْرِمةُ والكَلبيُّ: أراد بهذا لَيلةَ جَمعٍ [أي: ليلةَ مُزدَلِفةَ]؛ لأنَّه يُسْرى فيها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٧). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٩٥).

وقيل: المرادُ: ليلةُ النَّفرِ إذا خرَج الحاجُّ إلى بلَدِه. وممَّن ذهب إلى هذا: البِقاعيُّ، قال: (﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ أي: مِن لَيلةِ النَّفْرِ ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾ أي: يَنقضي كما ينقضي لَيلُ الدُّنيا وظلامُ ظُلمِها، فيَخلُفُه الفَجْرُ ويسري فيه الَّذين آبُوا إلى اللهِ راجِعينَ إلى ديارِهم بعدَ حَطِّ أوزارِهم، وقد رجع آخِرُ القَسَمِ على أوَّلِه). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٢، ٢٣).

قال ابنُ الجوزيِّ: (وفي قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّ الفِعلَ له، فيه قولانِ: أحَدُهما: إذا يَسري ذاهبًا، قاله الجُمهورُ، وهو اختيارُ الزَّجَّاجِ.

والثَّاني: إذا يَسْري مُقبلًا، قاله قتادةُ.

والقَولُ الثَّاني: أنَّ الفِعلَ لغَيرِه، والمعنى: إذا يُسْرى فيه، كما يقالُ: لَيلٌ نائمٌ، أي: يُنامُ فيه، قاله الأخفَشُ، وابنُ قُتَيبةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٩٥).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ قال العَوْفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ: أي: إذا ذهب. وقال عَبدُ اللهِ ابنُ الزُّبَيرِ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ حتَّى يُذهِبَ بَعْضُه بَعضًا. وقال مجاهِدٌ، وأبو العاليةِ، وقتادةُ، ومالِكٌ عن زَيدِ بنِ أسلَمَ وابنِ زَيدٍ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ إذا سار. وهذا يمكِنُ حَمْلُه على ما قاله ابنُ عَبَّاسٍ، أي: ذهب. ويحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ: إذا سار، أي: أقبَلَ. وقد يُقالُ: إنَّ هذا أنسَبُ؛ لأنَّه في مقابلةِ قَولِه: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾؛ فإنَّ الفَجْرَ هو إقبالُ النَّهارِ وإدبارُ اللَّيلِ، فإذا حُمِلَ قَولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ على إقبالِه، كان قَسَمًا بإقبالِ اللَّيلِ وإدبارِ النَّهارِ، وبالعَكْسِ، كقَولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۞ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا =

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾.

أي: هل في قَسَم اللهِ بتلك الأشياءِ مَقنَعٌ وكِفايةٌ لِذي عَقلٍ ولُبٍّ؛ فيَنزَجِرَ ويَرتَدِعَ؟ فإنَّ مَنْ كان كذلك عَلِمَ أنَّ ما أقسَمَ اللهُ به أمورٌ عَظيمةٌ فيها عجائِبُ ودلائِلُ على الحَقِّ، فيتفَكَّرُ فيها، ويعتَبِرُ بها[1].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾.

أي: ألم تَعلَمْ -يا محمَّدُ- كيف انتَقَم رَبُّك مِن قَبيلةِ عادٍ[2]؟!

= نَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٧، ١٨]، وكذا قال الضَّحَّاكُ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ أي: يجري). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

قال ابنُ القيِّم: (لَمَّا تضَمَّن هذا القَسَمُ ما جاء به إبراهيمُ ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهما وسلَّم، كان في ذلك ما دَلَّ على المقسَمِ عليه؛ ولهذا عقَّب القَسَمَ بقَولِه تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾؛ فإنَّ عَظَمةَ هذا المقسَمِ به يُعرَفُ بالنُّبُوَّةِ، وذلك يحتاجُ إلى حِجْرٍ يَحجُرُ صاحِبَه عن الغَفلةِ واتِّباعِ الهوى، ويحمِلُه على اتِّباعِ الرُّسُلِ؛ لئلَّا يُصيبَه ما أصاب مَن كَذَّبَ الرُّسُلَ؛ كعادٍ وفِرعَونَ وثمودَ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٣٢).

قيل: جوابُ القَسَمِ قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحديُّ، وضعَّفه ابنُ القيِّم. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨).

قال الزمخشري: (المقسَمُ عليه محذوفٌ، وهو: لَيُعَذَّبُنَّ. يدُلُّ عليه قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧).

وقال السعدي: (الظَّاهِرُ أنَّ المُقسَمَ به هو المقسَمُ عليه، وذلك جائِزٌ مُستعمَلٌ إذا كان أمرًا ظاهِرًا مُهِمًّا، وهو كذلك في هذا الموضِعِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٤).

قال ابن عطية: (عادٌ قبيلةٌ، لا خِلافَ في ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨].

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾.

أي: إرمَ ذاتِ الأعمدةِ[1].

= ممَّن اختار القولَ المذكورَ في المخاطَبِ، وأنَّ الخِطابَ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم-: ابنُ جرير، والنسفي، والخلوتي. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٣٨)، ((تفسير الخلوتي)) (١٠/ ٤٢٢).

وقال القرطبي، والخازن، والشربيني: الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، لكنَّ المرادَ به العمومُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٤) ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٣٠).

وقال ابن عثيمين: (الخِطابُ هنا لكُلِّ مَن يُوَجَّهُ إليه هذا الكِتابُ العزيزُ، وهم البَشَرُ كُلُّهم، بل والجِنُّ أيضًا. ألم تَرَ أيُّها المخاطَبُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٠).

وقال الشوكاني: (الخطابُ للنبيِّ، أو لكلِّ مَن يصلحُ له). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٩).

ممَّن اختار القَولَ المذكورَ، وأنَّ الرُّؤيةَ هنا بمعنى العِلْمِ: السَّمرقندي، والنَّسفي، والخازنُ، والكوراني، وأبو السُّعودِ، والقِنَّوْجي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٣٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٣٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير القِنَّوْجي)) (١٥/ ٢٢٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦٦).

وقال الخازن: (قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أي: ألم تعلَمْ، وإنَّما أُطلِق لفظُ الرُّؤيةِ على العِلم؛ لأنَّ أخبارَ عادٍ وثمودَ وفِرعونَ كانت معلومةً عندَهم). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٤).

وجوَّز ابنُ عاشور أنْ تكونَ الرُّؤيةُ بَصَرِيَّةً، والمعنَى: ألم تَرَ آثارَ ما فَعَل رَبُّكَ بعادٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٤-٣٦٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩١).

قيل: ﴿إِرَمَ﴾: هي اسمُ القبيلةِ كُلِّها. وممَّن ذهب إلى هذا: الزمخشريُّ، والعُلَيمي، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧)، ((تفسير =

= العليمي)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩١).

وذكر ابنُ عَطِيَّةَ أنَّ ممَّا يؤيِّدُ أنَّ إِرَمَ القَبيلةُ بعَينِها: قولَ اليهودِ للعَرَبِ: (سيَخرُجُ فينا نَبيٌّ نتَّبِعُه نَقْتُلُكم معه قَتْلَ عادٍ إِرَمَ)، فهذا يقتضي أنَّها قبيلةٌ، وذكَرَ أنَّه يتَّجه على مَن قرأ ﴿بِعَادٍ * إِرَمَ﴾ أن يكون إِرَمَ أبًا لعادٍ أو جَدًّا غلب اسمُه على القبيلةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٨).

وممَّن قال: إنَّ إِرَمَ هو جَدُّ عادٍ: ابنُ إسحاقَ، والزَّمخشريُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((سيرة ابن هشام)) (١/ ٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨).

قال الزَّمخشريُّ: (قيل لعَقِبِ عادِ بنِ عَوْصِ بنِ إِرَمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ: عادٌ، كما يقالُ لبنى هاشِمٍ: هاشِمٌ. ثمَّ قيل للأوَّلينَ منهم عادٌ الأُولى وإِرَمُ؛ تَسميةً لهم باسْمِ جَدِّهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧).

وقال السَّمعانيُّ: (قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ﴾ هو أبو عادٍ؛ لأنَّهم قالوا: هو عادُ ابنُ إِرَمَ بنِ عوصِ بنِ سامِ بنِ نوحٍ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١٩).

وقال الشِّنقيطيُّ: (عادُ بنُ إِرَمَ، وقيل: ابنُ عَوصِ بنِ إِرَمَ. فهو مِن أولادِ إِرَمَ. وإِرَمُ: اسمُ رَجُلٍ تُسَمَّى به القبيلةُ، وعادٌ مِن ذرِّيَّتِه؛ ولذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾، ثمَّ أبدَلَ منها فقال: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾). ((العذب النمير)) (٣/ ٤٧٥).

وقيل: ﴿إِرَمَ﴾: هي اسمُ قبيلةٍ مِن عادٍ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (قال جُمهورُ المفَسِّرينَ: إِرَمُ مدينةٌ لهم عظيمةٌ كانت على وَجْهِ الدَّهْرِ باليَمَنِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٧).

وقيل غَيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٩).

و﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾: قيل: معناها: ذاتُ الأعمِدةِ السَّيَّارةِ الَّتي يَنصِبونَ بها خيامَهم أثناءَ تنقُّلِهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٤).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، والكَلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٥٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥). =

= وقيل: المرادُ: ذاتُ الطُّولِ؛ لأنَّ قَومَ عادٍ كانوا طِوالَ القامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وأبو عُبَيدةَ، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨٧)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٩٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥).

وقيل: المرادُ: ذاتُ القُوَّةِ والشِّدَّةِ. وممَّن ذهب إليه: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٨).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٠).

والأقوالُ الثَّلاثةُ السَّابِقةُ في ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ بناءً على أنَّ إرَمَ قبيلةٌ.

وقال البِقاعيُّ: (﴿ٱلْعِمَادِ﴾ أي: البناءِ العالي الثَّابِتِ بالأعمِدةِ الَّتي لم يكُنْ في هذه الدَّارِ مِثْلُها). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩١).

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٠).

وهذا القَولُ بناءً على أنَّ إرَمَ مدينةٌ.

قال ابنُ جُزَي: (مَن قال: إرَمُ: قَبيلةٌ، قال: العِمادُ أعمِدَةُ بُنيانِهم، أو أعمِدةُ بُيوتِهم مِنَ الشَّعَرِ؛ لأنَّهم كانوا أهلَ عَمودٍ، وقال ابنُ عَبَّاسٍ: ذلك كنايةٌ عن طُولِ أبدانِهم. ومَن قال: إرَمُ: مَدينةٌ، فالعِمادُ الحِجارةُ الَّتي بُنِيَت بها، وقيل: القُصورُ والأبراجُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٩).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٣).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (إنْ قُلْنا: إنَّ إرَمَ تَسميةٌ لعادٍ باسمِ جَدِّهم... وأنَّه عَطْفُ بيانٍ، كان قَولُه: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ وَصْفًا لهم بالطُّولِ المُفرِطِ...، وإنْ قُلْنا: إنَّ إرَمَ اسْمُ بَلْدَتِهم -وهو قَولُ كَثيرٍ مِنَ المفَسِّرينَ- كان قَولُه: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ صِفةً لبَلْدَتِهم، على معنى: ذاتِ الأساطينِ، أو ذاتِ البناءِ الرَّفيعِ، وقد اختلَفوا فيها؛ فقال سَعيدُ بنُ المسَيِّبِ وعِكْرِمةُ وغَيرُهما: هي دِمَشْقُ. وقال محمَّدُ بنُ كَعبٍ: الإسكَنْدريَّةُ. وقيل: هي المدينةُ الَّتي بناها شدَّادُ بنُ عادٍ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦١١). =

كما قال الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩].

﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾.

أي: الَّتي لم يُخلَقْ ما يُماثِلُها في سائِرِ البُلدانِ(١).

= قال ابنُ كثيرٍ: (ومَن زعم أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ مدينةٌ إمَّا دِمَشْقُ...، أو إسكَنْدريَّة... أو غيرُهما، ففيه نظَرٌ؛ فإنَّه كيف يلتَئِمُ الكلامُ على هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ إن جعل ذلك بدلًا أو عَطْفَ بيانٍ؟! فإنَّه لا يتَّسِقُ الكلامُ حينَئذٍ. ثمَّ المرادُ إنَّما هو الإخبارُ عن إهلاكِ القَبيلةِ المُسَمَّاةِ بعادٍ، وما أَحَلَّ اللهُ بهم مِن بأسِه الَّذي لا يُرَدُّ، لا أنَّ المرادَ الإخبارُ عن مدينةٍ أو إقليمٍ!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩١).

قال الماوَرْديُّ: (﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ فيه وجهانِ:

أحَدُهما: لم يُخلَقْ مِثلُ مَدينتِهم ذاتِ العِمادِ في البِلادِ...

الثَّاني: لم يُخلَقْ مِثلُ قَومِ عادٍ في البلادِ؛ لطُولِهم وشِدَّتِهم). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٨).

قال ابنُ كثيرٍ: (وقَولُه: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ أعاد ابنُ زَيدٍ الضَّميرَ على العِمادِ؛ لارتفاعِها، وقال: بَنَوا عُمُدًا بالأحقافِ لم يُخلَقْ مِثْلُها في البِلادِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٧، ٣٦٨).

واختار ابنُ جُزَي أنَّها صِفةٌ للمدينةِ، قال: (وهذا أظهَرُ؛ لِقَولِه: ﴿فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾، ولأنَّها كانت أحسَنَ مَدائِنِ الدُّنيا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٩).

وممَّن ذهب إلى الوَجْهِ الثَّاني -أي: أنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿مِثْلُهَا﴾ يعودُ إلى القبيلةِ-: ابنُ جَريرٍ، والقُرطبيُّ، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٩).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٨).

قال القُرطبيُّ: (الضَّميرُ في ﴿مِثْلُهَا﴾ يرجِعُ إلى القبيلةِ... وعليه الأكثَرُ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٦). =

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بدَأَ بأولئك -لأنَّ أمْرَهم كان أعجَبَ، وقِصَّتَهم أنزَهُ وأغرَبُ-، ثَنَّى بأقرَبِ الأُمَمِ إليهم زمانًا، وأشبَهِهم بهم شأنًا، فقال[1]:

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩﴾.

أي: ألَمْ تَرَ -يا محمَّدُ- كيف انتقَم اللهُ كذلك مِن قَبيلةِ ثَمودَ الَّذين شَقُّوا الجِبالَ في وادِيهم، وصَنَعوا فيها بُيوتًا[2]؟

كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

= قال ابنُ كثيرٍ: (أمَّا قتادةُ وابنُ جَريرٍ فأعادا الضَّميرَ على القَبيلةِ، أي: لم يُخلَقْ مِثلُ تلك القبيلةِ في البلادِ، يعني: في زَمانِهم، وهذا القَولُ هو الصَّوابُ. وقَولُ ابنِ زَيدٍ ومَن ذَهَب مَذْهَبَه ضَعيفٌ؛ لأنَّه لو كان أراد ذلك لَقال: الَّتي لم يُعمَلْ مِثْلُها في البلادِ، وإنَّما قال: ﴿لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥).

وممَّن ذهب إلى كِلا الوجهَين: البِقاعيُّ، فقال: (﴿مِثۡلُهَا﴾ يصِحُّ أن يعودَ الضَّميرُ على «عادٍ» باعتبارِ القبيلةِ، وعلى «إرَمَ» باعتبارِ البَلدةِ، وأوضَحَ هذا بقَولِه مُعَمِّمًا للأرضِ كُلِّها: ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي: في بِنائِها ومَرافِقِها وثِمارِها، وتَقسيمِ مِياهِها وأنهارِها، وطِيبِ أرْضِها وحُسْنِ أطيارِها، وما اجتَمَع بها ممَّا يفوتُ الحَصرَ ويُعجِزُ القُوَى؛ ولا مِثْلُ أهلِها الَّذين بَنَوها؛ في قُوَّةِ أبدانِهم، وعَظيمِ شأنِهم، وغَيرِ ذلك مِن أُمورِهم). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٧، ٢٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٠).

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر القَبيلتَينِ مِنَ العَرَبِ، ذكَرَ بَعضَ مَن جاوَرَهم مِن طُغاةِ العَجَمِ؛ لِما في قِصَّتِهم مِن العُتُوِّ والجَبَروتِ، مع ما حَوَتْه مِن الغرائِبِ وخوارِقِ العَجائِبِ؛ فقال[1]:

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾.

أي: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- كيف انتَقَم اللهُ كذلك مِن فِرعَونَ صاحِبِ الأوتادِ[2]؟

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٠-٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٤).

قيل: المرادُ بالأوتادِ: الجنودُ. وممَّن ذهب إليه: النسفيُّ، والخازن، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٣٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٩).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٩٧).

قال الخازِنُ: (سُمِّيَ بذلك؛ لكَثرةِ جُنودِه، وكَثرةِ مَضارِبِهم وخِيامِهم الَّتي كانوا يَضرِبونَها إذا نَزَلوا). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٥).

وقيل: الأوتادُ هي الأهراماتُ المعروفةُ في مِصرَ. وممَّن ذهب إلى هذا القول: المراغي، وابن عاشور، والشعراوي، وعطية سالم. يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢١)، ((تفسير الشعراوي)) (٧/ ٤٣٢٨)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٢٥).

وقيل: المرادُ: الأوتادُ المعروفةُ سواءٌ مِن خَشَبٍ أو حديدٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣). =

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ [ص: ١٢].

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾﴾.

أي: هؤلاء الَّذين سَلَف ذِكْرُهم -عادٌ وثَمودُ وفِرعونُ- قد تجاوَزوا حَدَّهم في الظُّلمِ والطُّغيانِ[(١)].

﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾.

أي: فأكثَروا في البِلادِ العمَلَ بالكُفْرِ والعِصيانِ، والظُّلمِ والعُدْوانِ[(٢)].

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ذلك مُوجِبًا للعَذابِ؛ سَبَّبَ عنه قَولَه تعالى[(٣)]:

= وممَّن قال في الجُملةِ بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: مجاهِدٌ، وقَتادةُ، وأبو رافِعٍ، وسَعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحَسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٩٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٩).

قال ابنُ جرير: (أَولى هذه الأقوالِ عندي بالصَّوابِ قَولُ مَن قال: عُنِيَ بذلك: الأوتادُ الَّتي تُوتَدُ مِن خَشَبٍ كانت أو حديدٍ؛ لأنَّ ذلك هو المعروفُ مِن معاني الأوتادِ، ووُصِفَ بذلك؛ لأنَّه إمَّا أن يكونَ كان يُعَذِّبُ النَّاسَ بها، كما قال أبو رافعٍ وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وإمَّا أن يكونَ كان يُلعَبُ له بها [كما قال قَتادةُ]). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣).

وقال البِقاعي: (﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي: الَّذي ثبَّتَ مُلْكَه تَثبيتَ مَن يَظُنُّ أنَّه لا يَزولُ بالعساكِرِ والجنودِ وغَيرِهم مِن كُلِّ ما يَظُنُّ أنَّه يَشُدُّ أمْرَه؛ مِنَ الجنَّاتِ والعُيونِ والزُّروعِ والمقاماتِ الكريمةِ؛ فصارت له اليَدُ المبسوطةُ في المُلْكِ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٠).

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: فأنزَلَ رَبُّك عليهم -يا محمَّدُ- عَذابَه الشَّديدَ؛ فهَلَكوا جَميعًا[1].

كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ * وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٥ - ١٠].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: إنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- مُراقِبٌ لأعمالِ الطَّاغينَ المُفسِدينَ في الدُّنيا، ومُطَّلِعٌ على أفعالِهم، وسامِعٌ لأقوالِهم؛ حتَّى يأخُذَهم ويُهلِكَهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٢).
وقال ابنُ عثيمين: (الخِطابُ هنا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم، أو لكُلِّ مَن يتوجَّهُ إليه الخِطابُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٧)، ((حاشية الخفاجي)) (٨/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ فَهِمَ منه بعضُ أهلِ العلمِ التَّحذيرَ مِنَ التَّطاوُلِ في البُنيانِ، والتَّفاخُرِ والتَّعاظُمِ بتَشييدِ الحِجارةِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ تنبيهٌ وتقريعٌ لِمَن بعدَهم ألَّا يَعْمَلوا بمِثْلِ عَمَلِهم، فيَنزِلَ بهم ما أُنزِلَ بأولئك مع بأسِهم وشِدَّتِهم وعَدَدِهم، وأموالِهم الَّتي أنفَقوها في ذاتِ العِمَادِ -على قولٍ-، وما فعلَتْه ثمودُ بجَوبِ الصَّخرِ بالوادِ، وفِرعَونُ ذو الأوتادِ؛ فاعِلُ أفاعيلِه الهائلةِ المنكَرةِ: كيف أفناهم وأبادَهم، ومحا آثارَهم، وجعلَهم عِبرةً للمُعتَبِرينَ، وعِظَةً للمُتَّعِظينَ[٢]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ أنَّه لا مَلجَأَ وَلا مَهرَبَ مِنَ اللهِ إلَّا إليه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تضَمَّنتْ هذه السُّورةُ ذَمَّ مَنِ اغتَرَّ بقُوَّتِه وسُلطانِه ومالِه، وهم هؤلاء الأُمَمُ الثَّلاثةُ: قَومُ عادٍ اغتَرُّوا بقوَّتِهم، وثمودُ اغتَرُّوا بجنَّاتِهم وعُيونِهم وزُروعِهم وبَساتينِهم، وقومُ فِرعونَ اغتَرُّوا بالمالِ والرِّياسةِ؛ فصارتْ عاقِبتُهم إلى ما قَصَّ اللهُ علينا، وهذا شأنُه دائمًا مع كلِّ مَنِ اغتَرَّ بشَيءٍ مِن ذلك؛ لا بُدَّ أنْ يُفسِدَه عليه، ويَسلُبَه إيَّاه[٤].

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٩٣)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ اللَّياليَ سابِقةٌ الأيَّامَ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ هذا الوَصفُ البَليغُ صريحٌ بألفاظِه ومعانيه في أنَّه وَصفٌ لحَضارةٍ عُمرانيَّةٍ لا نظيرَ لها؛ فالعِمادُ لا تكونُ إلَّا في القُصورِ والأبنيةِ الباذِخةِ، والمدُنِ المخَطَّطةِ على نظامٍ مُحكَمٍ[٢]. وذلك على قول في تفسيرِ ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ -مع أنَّ الَّذي صَنَعَها الآدميُّ- دليلٌ على أنَّ الآدميَّ قد يُوصَفُ بالخَلْقِ، فيقالُ: خَلَقَ كذا، ومنه قولُ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في المصَوِّرينَ: ((يُقالُ لهم: أحْيُوا ما خَلَقْتُم))[٣]، لكِنَّ الخَلْقَ الَّذي يُنسَبُ للمَخلوقِ ليس هو الخَلْقَ المنسوبَ إلى اللهِ تعالى؛ الخَلقُ المنسوبُ إلى اللهِ إيجادٌ بَعْدَ عَدَمٍ، وتحويلٌ وتغييرٌ، أمَّا الخَلقُ المنسوبُ لغَيرِ اللهِ فهو مجرَّدُ تحويلٍ وتغييرٍ[٤]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾.

٥- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ الطُّغيانُ: شِدَّةُ العِصيانِ والظُّلمِ، ومعْنى طُغيانِهم في البِلادِ أنَّ كلَّ أُمَّةٍ مِن هؤلاء طَغَوا في بَلَدِهم[٥]، ولَمَّا كان بَلَدُهم مِن جُملةِ البلادِ -أي: أراضي الأقوامِ- كان طُغيانُهم في بَلَدِهم قد أوقَعَ الطُّغيانَ في البلادِ؛ لأنَّ فَسادَ البعضِ آيلٌ إلى فَسادِ الجَميعِ بسَنِّ سَننِ السُّوءِ، ولذلك تَسبَّبَ عليه مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ قولُه: ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٨٧)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٩٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٢١٠٥)، ومسلمٌ (٢١٠٧) من حديث عائشةَ رضيَ الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩١).

(٥) وقال ابن جرير: (وقولُه: ﴿فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ الَّتي كانوا فيها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣).

الطُّغيانَ يُجرِّئُ صاحبَه على دَحْضِ حُقوقِ النَّاسِ، فهو مِن جِهةٍ يكونُ قُدوةَ سُوءٍ لأمثالِه ومَلَئِه، فكلُّ واحدٍ منهم يَطْغى على مَن هو دونَه، وذلك فَسادٌ عَظيمٌ؛ لأنَّ به اختلالَ الشَّرائعِ الإلهيَّةِ والقَوانينِ الوَضعيَّةِ الصَّالحةِ، وهو مِن جِهةٍ أُخرى يُثيرُ الحَفائظَ والضَّغائنَ في المَطغيِّ عليه مِن الرَّعيَّةِ، فيُضمِرون السُّوءَ للطَّاغينَ، وتَنْطوي نُفوسُهم على كَراهيةِ وُلاةِ الأُمورِ وتَربُّصِ الدَّوائرِ بهم، فيَكونون لهم أعداءً غيرَ مُخلِصي الضَّمائرِ، ويكونُ رِجالُ الدَّولةِ مُتوجِّسينَ منهم خِيفةً، فيَظنُّون بهم السُّوءَ في كلِّ حالٍ ويَحذَرونهم، فتَتوزَّعُ قُوَّةُ الأُمَّةِ على أفرادِها عِوَضَ أنْ تتَّحِدَ على أعدائِها، فتُصبِحُ للأُمَّةِ أعداءٌ في الخارجِ وأعداءٌ في الدَّاخلِ، وذلك يُفْضي إلى فَسادٍ عَظيمٍ؛ فلا جَرَمَ كان الطُّغيانُ سَببًا لكَثرةِ الفسادِ[1].

٦- قال تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ وذِكرُ السَّوطِ إشارةٌ إلى أنَّ ما أحلَّه بهم في الدُّنيا مِن العَذابِ العظيمِ بالقِياسِ إلى ما أعَدَّ لهم في الآخرةِ كالسَّوطِ إذا قِيسَ إلى سائرِ ما يُعذَّبُ به؛ لأنَّه يَقْتضي مِن التَّكرارِ والتَّردادِ ما لا يَقْتضيهِ السَّيفُ ولا غيرُه[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾

- القَسَمُ بهذهِ الأزمانِ مِن حيثُ إنَّ بَعضَها دَلائلُ بَديعِ صُنْعِ اللهِ وسَعةِ قُدرتِه فيما أوجَدَ مِن نِظامٍ يُظاهِرُ بَعضُه بَعضًا؛ مِن ذلك وقْتُ الفجرِ الجامعِ بيْن انتهاءِ ظُلمةِ اللَّيلِ وابتداءِ نُورِ النَّهارِ، ووَقتُ اللَّيلِ الَّذي تَمحَّضَت فيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧١).

الظُّلمةُ، وهي مع ذلك أوقاتٌ لأفعالٍ مِن البرِّ وعِبادةِ اللهِ وحْدَه، مِثل اللَّيالي العَشْرِ، واللَّيالي الشَّفعِ، واللَّيالي الوتْرِ، والمَقصودُ مِن هذا القسَمِ تَحقيقُ المُقسَمِ عليه؛ لأنَّ القسَمَ في الكلامِ مِن طُرقِ تَأكيدِ الخبَرِ؛ إذِ القسَمُ إشهادُ المُقسِمِ ربَّه على ما تَضمَّنه كَلامُه، وقسَمُ اللهِ تعالَى مُتمحِّضٌ لقصْدِ التَّأكيدِ، والكلامُ مُوَجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦]، وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]؛ ولذلك فالقَسَمُ تَعريضٌ بتَحقيقِ حُصولِ المُقسَمِ عليه بالنِّسبةِ للمُنكِرين. وأيضًا المَقصدُ مِن تَطويلِ القسَمِ بأشْياءَ: التَّشويقُ إلى المُقسَمِ عليه[1].

- والتَّعريفُ في (الْفَجْرِ) تَعريفُ الجِنسِ، وهو الأظهرُ؛ لمُناسَبةِ عطْفِ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾. ويَجوزُ أنْ يُرادَ فجْرٌ مُعيَّنٌ؛ فقيل: أُريدَ وقْتُ صَلاةِ الصُّبحِ مِن كلِّ يومٍ، وقيل: فجْرُ يومِ النَّحرِ، وهو الفجرُ الَّذي يكونُ فيه الحَجيجُ بالمُزدلفةِ، فيَكونُ تَعريفُ (الْفَجْرِ) تَعريفَ العهْدِ[2].

- قولُه: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ جاءتْ (ليالٍ) مُنكَّرةً مِن بيْن ما أُقسِمَ به؛ لأنَّها لَيالٍ مَخصوصةٌ مِن بيْن جِنسِ اللَّيالي، العَشرُ بَعضٌ منها، فالتَّنكيرُ للتَّقليلِ. أو مَخصوصةٌ بفَضيلةٍ ليست لغَيرِها، فالتَّنكيرُ للتَّفخيمِ والتَّهويلِ. ولم تُعرَّفْ بلامِ العهْدِ، مع أنَّها ليالٍ مَعلومةٌ مَعهودةٌ؛ لأنَّ اللَّياليَ لو عُرِّفَت احتاجَتْ -لِما يُرادُ مِن اختصاصِها بالفضيلةِ- إلى مَزيدِ انضمامِ قَرينةٍ خارجيَّةٍ، بخِلافِ التَّنكيرِ؛ فإنَّ دَلالتَه على الفَضيلةِ بنفْسِه؛ لأنَّه مَوضوعٌ له مُستقلٌّ به، ولأنَّها لو عُرِّفَت لم تَتميَّزْ عن المَذكوراتِ فيما قُصِدَ منها، وانخَرَطَت في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٣).

سِلْكِها، ولو خُصِّصت منها بشَيءٍ مِن غيرِ تَغييرٍ لدَخَلَ في حدِّ اللُّغزِ[١].

- وقيل: عرَّف الفَجرَ باللَّام؛ إذْ كلُّ أحدٍ يَعرِفُه، ونكَّر اللَّياليَ العَشرَ؛ لأنَّها إنَّما تُعرَفُ بالعِلم، وفي تَعريفِ الفَجرِ ما يدُلُّ على شُهرتِه، وأنَّه الفَجرُ الَّذي يَعرِفُه كلُّ أحدٍ ولا يَجهَلُه[٢].

- قولُه: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هي لَيالٍ مَعلومةٌ للسَّامعينَ، مَوصوفةٌ بأنَّها عَشْرٌ، واستُغنِيَ عن تَعريفِها بتَوصيفِها بعشْرٍ، وإذ قد وُصِفَت بهذا العدَدِ تعيَّن أنَّها عشْرٌ مُتتابِعةٌ[٣].

- ومُناسَبةُ عطْفِ (لَيَالٍ عَشْرٍ) على (الْفَجْرِ): أنَّ الفجْرَ وقْتُ انتهاءِ اللَّيلِ، فبيْنَه وبيْنَ اللَّيلِ جامعُ المُضادَّةِ، واللَّيلُ مَظهَرٌ مِن مَظاهرِ القُدرةِ الإلهيَّةِ، فلمَّا أُريدَ عطْفُه على الفجْرِ بقولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾، خُصَّت قبْلَ ذِكرِه بالذِّكرِ ليالٍ مُبارَكةٌ؛ إذ هي مِن أفرادِ اللَّيلِ[٤].

- قولُه: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ الشَّفعُ: ما يكونُ ثانيًا لغَيرِه، والوتْرُ: الشَّيءُ المُفرَدُ، قيل: الوِترُ يومُ عَرَفةَ والشَّفعُ يومُ النَّحرِ، وهما صِفتانِ لمَحذوفٍ -أي: اليوم؛ ذلك لأنَّ يومَ النَّحرِ عاشِرُ ذي الحَجَّةِ. ومُناسَبةُ الابتداءِ بالشَّفعِ أنَّه اليومُ العاشِرُ، فناسَبَ قولَه: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، وعلى هذا التَّفسيرِ فذِكرُ الشَّفعِ والوتْرِ تَخصيصٌ لهذينِ اليومَينِ بالذِّكرِ للاهتِمامِ، بعْدَ شُمولِ اللَّيالي العشْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤١٧، ٤١٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٠).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٣).

لهما[١].

- قولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ عطْفٌ على ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٍ﴾ عطْفَ الأعمِّ على الأخصِّ، أو عطْفٌ على (الفَجْرِ) بجامِعِ التَّضادِّ. وأُقسِمَ به؛ لِما أنَّه مَظهَرٌ مِن مَظاهرِ قُدرةِ اللهِ وبَديعِ حِكمتِه[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾[٣]، أي: إذا يَمْضي، كقولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، والتَّقييدُ بذلك؛ لِما في التَّعاقُبِ مِن وُضوحِ الدَّلالةِ وقوَّتِها على كَمالِ القُدرةِ ووُفورِ النِّعمةِ؛ فالتَّقييدُ تَتميمٌ لمَعنى القُدرةِ أو النِّعمةِ[٤]؛ فمعْنى (يَسْري): يَمْضي سائرًا في الظَّلامِ، أي: إذا انْقَضى منه جُزءٌ كَثيرٌ، شُبِّهَ تقَضِّي اللَّيلِ في ظَلامِه بسَيرِ السَّائرِ في الظَّلامِ، وهو السُّرَى، كما شُبِّهَ في قولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، وقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ٢]، أي: تَمكَّنَ ظَلامُه واشتَدَّ. وتَقييدُ اللَّيلِ بظَرْفِ ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾؛ لأنَّه وقْتُ تَمكُّنِ ظُلمةِ اللَّيلِ، فحِينَئذٍ يكونُ النَّاسُ أخَذوا حَظَّهم مِن النَّومِ فاسْتَطاعوا التَّهجُّدَ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْن القسَمِ وما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣١٥).

(٣) قَولُه ﴿يَسۡرِ﴾ قُرِئَت بإثباتِ الياءِ وحَذْفِها؛ لأنَّها فاصِلةٌ، والفواصِلُ يجوزُ حَذْفُ الياءاتِ منها، وتدُلُّ عليها الكَسَراتُ. والعَرَبُ قد تحذِفُ الياءَ، وتكتفي بكَسْرِ ما قَبْلَها. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٧٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ١٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٥).

بعْدَه مِن جَوابِه، أو دَليلُ جَوابِه[١].

- والاستِفهامُ ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ تَحقيقٌ وتَقريرٌ لفَخامةِ شَأنِ المُقسَمِ بها، وكَونِها أُمورًا جَليلةً حَقيقةً بالإعظامِ والإجلالِ عندَ أربابِ العُقولِ، وتَنبيهٌ على أنَّ الإقسامَ بها أمْرٌ مُعتَدٌّ به، خَليقٌ بأنْ يؤَكَّدَ بهِ الإخبارُ[٢].

- وتَنكيرُ ﴿قَسَمٌ﴾ للتَّعظيمِ، أي: قسَمٌ كافٍ ومُقنِعٌ للمُقسَمِ له إذا كان عاقلًا أنْ يَتدبَّرَ بعَقْلِه؛ فالمعْنى: هلْ في ذلك تَحقيقٌ لِما أُقسِمَ عليه للسَّامعِ المَوصوفِ بأنَّه صاحبُ حِجرٍ[٣]؟

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِّذِي حِجْرٍ﴾ لامُ التَّعليلِ، أي: قسَمٌ لأجْلِ ذي عقْلٍ يَمنَعُه مِن المُكابَرةِ، فيَعلَم أنَّ المقسِمَ بهذا القسَمِ صادقٌ فيما أقسَمَ عليه[٤].

- وما في اسْمِ الإشارةِ (ذلكَ) مِن معْنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتبةِ المُشارِ إليهِ، وبُعْدِ مَنزلتِه في الشَّرفِ والفضْلِ، أيْ: هلْ فيما ذُكِرَ مِن الأشياءِ قسَمٌ -أيْ: مُقسَمٌ بهِ- لِذِي حِجرٍ يَراهُ حقيقًا بأنْ يُقسَمَ بهِ إجلالًا وتَعظيمًا؟ والمرادُ تحقيقُ أنَّ الكلَّ كذلكَ، وإنَّما أُوثِرتْ هذه الطَّريقةُ هَضْمًا للخلْقِ، وإيذانًا بظُهورِ الأمرِ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٤).

ٱلْبِلَٰدِ﴾ وقَفَ المُخاطَبَ على مَصارعِ الأُمَمِ الكافرةِ الماضيةِ مَقصودًا بذلك تَوعُّدُ قُريشٍ، ونصْبُ المَثَلِ لها[١].

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ إمَّا دَليلُ الجَوابِ؛ إذ يدُلُّ على أنَّ المقسَمَ عليه مِن جِنسِ ما فُعِلَ بهذه الأُمَمِ الثَّلاثِ، وهو الاستئصالُ الدَّالُّ عليه قولُه: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، فتَقديرُ الجَوابِ: لَيَصُبَّنَّ ربُّك على مُكذِّبيك سَوطَ عَذابٍ كما صبَّ على عادٍ وثَمودَ وفِرعونَ. وإمَّا تَمهيدٌ للجوابِ ومُقدِّمةٌ له، إنْ جُعِلَ الجوابُ قولَه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾. وما بيْنه وبيْن الآياتِ السَّابقةِ اعتراضٌ جُعِلَ كمُقدِّمةٍ لجَوابِ القسَمِ، والمعْنى: إنَّ ربَّك لَبالمِرصادِ للمُكذِّبين، لا يَخْفى عليه أمْرُهم، فيَكون تَثبيتًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فالاستِفهامُ ﴿أَلَمْ تَرَ ...﴾ تَقريريٌّ، والمُخاطَبُ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَثبيتًا له، ووَعْدًا بالنَّصرِ، وتَعريضًا للمُعانِدين بالإنذارِ بمِثلِه؛ فإنَّ ما فُعِلَ بهذه الأُمَمِ الثَّلاثِ مَوعظةٌ وإنذارٌ للقَومِ الذين فَعَلوا مِثلَ فِعلِهم مِن تَكذيبِ رُسلِ اللهِ، قُصِدَ منه تَقريبُ وُقوعِ ذلك وتَوقُّع حُلولِه؛ لأنَّ التَّذكيرَ بالنَّظائرِ واستحضارَ الأمثالِ يُقرِّبُ إلى الأذهانِ الأمرَ الغريبَ الوُقوعِ، فهذه العِبَرُ جُزئيَّاتٌ مِن مَضمونِ جَوابِ القسَمِ، فإنْ كان مَحذوفًا فذِكرُها دَليلُه، وإنْ كان الجوابُ قولَه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ كان تَقديمُها على الجوابِ زِيادةً في التَّشويقِ إلى تَلَقِّيه، وإيذانًا بجِنسِ الجوابِ مِن قَبْلِ ذِكرِه؛ ليَحصُلَ بعْدَ ذِكرِه مَزيدُ تَقرُّرِه في الأذهانِ[٢].

- والرُّؤيةُ في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ رُؤيةً عِلْميَّةً تَشبيهًا للعِلمِ اليَقينيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٧، ٣١٨).

بالرُّؤيةِ في الوُضوحِ والانكشافِ؛ لأنَّ أخبارَ هذه الأُمَمِ شائعةٌ مَضروبةٌ بها المَثَلُ، فكأنَّها مُشاهَدةٌ، فتَكونَ (كيف) استِفهامًا مُعلِّقًا فِعلَ الرُّؤيةِ عن العمَلِ في مَفعولَين. ويَجوزُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ بَصَريَّةً، والمعْنى: ألَمْ تَرَ آثارَ ما فَعَلَ ربُّك بعادٍ؟ وتكونَ (كيف) اسمًا مُجرَّدًا عن الاستفهامِ في مَحلِّ نصْبٍ على المَفعوليَّةِ لفِعلِ الرُّؤيةِ البَصَريَّةِ[١].

- وعُدِلَ عن اسمِ الجَلالةِ إلى التَّعريفِ بإضافةِ (ربّ) إلى ضَميرِ المخاطَبِ في قولِه: ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾؛ لِما في وصْفِ (ربّ) مِن الإشعارِ بالولايةِ والتَّأييدِ، ولِما تُؤذِنُ به إضافتُه إلى ضَميرِ المُخاطَبِ مِن إعزازِه وتَشريفِه[٢].

- وقد ابتُدِئَت المَوعظةُ بذِكرِ عادٍ وثَمودَ؛ لشُهرتِهما بيْن المُخاطَبينَ، وذُكِرَ بعْدَهما قَومُ فِرعونَ؛ لشُهرةِ رِسالةِ مُوسى عليه السَّلامُ إلى فِرعونَ بيْن أهلِ الكتابِ ببِلادِ العرَبِ وهم يُحدِّثون العرَبَ عنها[٣].

- وقولُه: ﴿إِرَمَ﴾ عطْفُ بَيانٍ لـ (عَادٍ) على تَقديرِ مُضافٍ، أي: سِبْطِ إِرَمَ، أو أهْلِ إِرَمَ؛ للإشارةِ إلى أنَّ المُرادَ بـ(عادٍ) القَبيلةُ الَّتي جَدُّها الأدْنى هو عادُ ابنُ عَوصِ بنِ إرَمَ -وذلك على قولٍ-، وهم عادٌ الموصوفةُ بالأُولى في قولِه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠]؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المُتحدَّثَ عنهم قَبيلةٌ أُخرى تُسمَّى عادًا أيضًا، كانت تَنزِلُ مكَّةَ مع العَماليقِ، يُقال: إنَّهم بَقيَّةٌ مِن عادٍ الأُولى، فعادٌ وإرَمُ اسمانِ لقَبيلةِ عادٍ الأُولى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي =

- والعِمادُ: عُودٌ غَليظٌ طَويلٌ يُقامُ عليه البيتُ يُركَزُ في الأرضِ تُقامُ عليه أثوابُ الخَيمةِ أو القُبَّةِ، ويُسمَّى دِعامةً، وهو هنا مُعبَّرٌ به عن القوَّةِ؛ تَشبيهًا للقَبيلةِ القوِّيةِ بالبيتِ ذي العِمادِ، فوُصِفَت عادٌ بـ ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾؛ لقُوَّتِها وشِدَّتِها، أي: قدْ أهلَكَ اللهُ قومًا هم أشدُّ مِن القومِ الَّذين كذَّبوك[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ولامُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾ قيل: إنَّها للاستغراقِ العُرفيِّ، أي: في بلدانِ العرَبِ وقَبائلِهم[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾

- مُنِعَ (ثَمود) مِن الصَّرفِ؛ لأنَّ المُرادَ به الأُمَّةُ المَعروفةُ، ووُصِفَ باسمِ الموصولِ لجمْعِ المذكَّرِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ دونَ أنْ يقولَ: الَّتي جابَتِ الصَّخرَ، بتَأويلِ القومِ، فلمَّا وَصَفَ عَدَلَ عن تَأنيثِه؛ تَفنُّنًا في الأسلوبِ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾

- قولُه: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ التَّعبيرُ عن إنزالِ العَذابِ بالصَّبِّ؛ للإيذانِ بكَثرتِه واستِمرارِه وتَتابُعِه؛ فإنَّه عبارةٌ عن إراقةِ شَيءٍ مائعٍ أو جارٍ مَجراهُ في السَّيلانِ، كالرَّملِ والحُبوبِ، وإفراغِه بشِدَّةٍ وكَثرةٍ واستمرارٍ[4].

= السعود)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٢).

- وإضافةُ ﴿سَوْطَ﴾ إلى ﴿عَذَابٍ﴾ قيل: هي مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: صَبَّ عليهم عَذابًا سَوطًا، أي: كالسَّوطِ في سُرعةِ الإصابةِ، فهو تَشبيهٌ بَليغٌ(١).

- وقدْ ذَكَرَ تعالى -هاهنا- قِصَّةَ ثلاثِ فِرَقٍ مِن الكُفَّارِ المتقدِّمين -وهي: عادٌ، وثمودُ، وقومُ فِرعونَ- على سَبيلِ الإجمالِ، حيثُ قال: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ ولم يُبيِّنْ كَيفيَّةَ ذلك العذابِ، وذَكَرَ في سُورةِ (الحاقَّةِ) بَيانَ ما أُبهِمَ في هذه السُّورةِ، فقال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ إلى قولِه: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: ١ - ٩] الآيةَ(٢). وكلٌّ مُناسِبٌ في مَوضعِه.

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ تَذييلٌ وتَعليلٌ لإصابتِهم بسَوطِ عَذابٍ إذا قُدِّرَ جَوابُ القسَمِ مَحذوفًا، ويجوزُ أنْ تكونَ جَوابَ القسَمِ، فعلى كونِ الجُملةِ تَذييلًا تكونُ تَعليلًا لجُملةِ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾؛ تَثبيتًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ يَنصُرُ رُسلَه، وتَصريحًا للمُعاندينَ بما عرَّضَ لهم به مِن تَوقُّعِ مُعامَلتِه إيَّاهم بمِثلِ ما عامَلَ به المُكذِّبين الأوَّلينَ، كما يُنْبِئُ عنه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أي: إنَّ اللهَ بالمِرصادِ لكلِّ طاغٍ مُفسِدٍ، وعلى كَونِها جَوابَ القسَمِ تكونُ كِنايةً عن تَسليطِ العَذابِ على المشْركين؛ إذ لا يُرادُ مِن الرَّصدِ إلَّا دفْعُ المُعتدي مِن عدُوٍّ ونحْوِه، وهو المقسَمُ عليه، وما قبْلَه اعتراضًا تَفنُّنًا في نظْمِ الكلامِ؛ إذ قُدِّمَ على المقصودِ بالقسَمِ ما هو استدلالٌ عليه وتَنظيرٌ بما سبَقَ مِن عِقابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٢).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٢).

أمثالِهم مِن الأُمَم مِن قَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ إلخ، وهو أُسلوبٌ مِن أساليبِ الخَطابةِ؛ إذ يُجعَلُ البَيانُ والتَّنظيرُ بمَنزلةِ المُقدِّمةِ، ويُجعَلُ الغرَضُ المَقصودُ بمَنزلةِ النَّتيجةِ والعِلَّةِ إذا كان الكلامُ صالحًا للاعتبارَينِ، مع قصْدِ الاهتمامِ بالمُقدَّمِ والمُبادَرةِ به[١].

- والعُدولُ عن ضَميرِ المُتكلِّمِ أو اسمِ الجَلالةِ إلى (ربك) في قولِه: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، وقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾: إيماءٌ إلى أنَّ فاعلَ ذلك ربُّه الَّذي شأْنُه أنْ يَنتصِرَ له؛ فهو مُؤمِّلٌ بأنْ يُعذِّبَ الَّذين كذَّبوه انتصارًا له انتصارَ المَولى لوَليِّه[٢].

- وتَعريفُ (المِرْصاد) تَعريفُ الجِنسِ، وهو يُفيدُ عُمومَ المُتعلَّقِ، أي: بالمِرصادِ لكلِّ فاعلٍ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ كِنايةٌ عن مُجازاةِ كلِّ عاملٍ بما عَمِلَه وما يَعمَلُه؛ إذ لا يُقصَدُ الرَّصْدُ إلَّا للجَزاءِ على العُدوانِ، وفيما يُفيدُه مِن التَّعليلِ إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ لم يَظلِمْهم فيما أصابَهُم به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٥-٢٠)

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَقَدَرَ﴾: أي: ضيَّق، فلم يُكْثِرْ مالَه، ولم يُوَسِّعْ عليه، يقال: قَدَرْتُ عليه الشَّيءَ: ضيَّقْتُه، كأنَّما جعَلْته بقَدرٍ، وقُدِر عليه الرِّزقُ، أي: أُعْطِيَ ذلك بقَدْرٍ يَسيرٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايَتِه[1].

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾: أي: لا يَحُضُّ بعضُكم بعضًا، وأصْلُه: تَتَحاضُّونَ، فحَذَف إحدَى التَّاءيْنِ، وأصلُ (حضض) هنا: البَعْثُ على الشَّيءِ[2].

﴿ٱلتُّرَاثَ﴾: أي: الميراثَ، وهو: أن يكونَ الشَّيءُ لقَومٍ ثمَّ يَصيرَ إلى آخَرينَ بنَسَبٍ أو سَبَبٍ[3].

﴿لَّمًّا﴾: أي: مجتَمِعًا شَديدًا، وهو أن يأكُلَ نَصيبَه ونَصيبَ غَيرِه، واللَّمُّ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٥٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

الجَمعُ الشَّديدُ، مِن قولِكَ: لَمَمتُ الطَّعامُ لَمًّا: إذا أكَلْتَه جَميعًا. والآكلُ اللَّمُّ: الَّذي يأكُلُ كُلَّ شَيءٍ يَجِدُه، لا يَسألُ عنه: أحلالٌ هو أمْ حرامٌ، ويأكُلُ الَّذي له ولغَيرِه، وأصلُ (لمم): يدُلُّ على اجْتِماعٍ ومُقارَبةٍ ومُضامَّةٍ(١).

﴿جَمًّا﴾: أي: كثيرًا، وأصلُ (جمم): يدُلُّ على كَثرةِ الشَّيءِ واجتِماعِه(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ الإنسانِ عندَ اليُسرِ والعُسرِ، والغِنى والفَقرِ: فأمَّا الإنسانُ إذا اختبَرَه رَبُّه بالغِنى، فأكرَمَه بسَعةِ الرِّزقِ، وجعَلَه مُنعَّمًا مُترَفًا؛ فيقولُ جاهِلًا بأنَّ اللهَ يمتَحِنُه: رَبِّي أكرَمَني بذلك! وأمَّا إذا اختبَرَ اللهُ الإنسانَ بالفَقْرِ، فضَيَّقَ عليه رِزْقَه؛ فيَقولُ مُتضَجِّرًا جاهِلًا بأنَّ اللهَ يمتَحِنُه: رَبِّي أذَلَّني بذلك!

ثمَّ يقولُ سُبحانَه ردًّا على قولِ الإنسانِ في هذينِ الحالَينِ، ومبيِّنًا ما هو أشنَعُ منه: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ الإنسانُ أنَّ إغناءَه إكرامٌ له مِنَ اللهِ، وإفقارَه إهانةٌ من اللهِ، بل لا تُكرِمونَ -أيُّها النَّاسُ- اليتيمَ؛ فتُحسِنوا إليه، ولا يَحُثُّ بَعضُكم بعضًا على إطعامِ المِسكينِ، وتأكُلونَ الميراثَ أكلًا شديدًا، فتأخُذونَ منه نصيبَ غَيرِكم مِنَ النِّساءِ والصِّغارِ، وتُحِبُّونَ المالَ حُبًّا كثيرًا مُفرِطًا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥﴾.

---

(١) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكر سُبحانَه أنَّ عادةَ هؤلاء الفِرَقِ كانت الطُّغيانَ، وذكَرَ أنَّ عادةَ الرَّبِّ سُبحانَه فيمَن تولَّى وكَفَر أنَّه يُعَذِّبُه -كما هدَّد به آخِرَ السُّورةِ السَّابقةِ-، ودَلَّ على ذلك بما شُوهِدَ في الأُمَمِ، وعَلَّل ذلك بأنَّه لا يَغفُلُ؛ ذَكَر عادةَ الإنسانِ مِن حيثُ هو مِن غيرِ تَقييدٍ بهؤلاء الفِرَقِ عِندَ الابتلاءِ في حالَيِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ؛ فقال مُشيرًا إلى جوابِ ما كانت الكُفَّارُ تَقولُه مِن أنَّهم آثَرُ عِندَ اللهِ مِنَ المُسلِمينَ؛ فلا يُساعِدُ عليهم في الدُّنيا، وكذا تَقَلُّلُ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم مِنَ الدُّنْيا[1]:

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥﴾.

أي: فأمَّا الإنسانُ إذا اختبَرَه رَبُّه بالغِنى، فأكرَمَه بسَعةِ الرِّزقِ، وجعَلَه مُنعَّمًا مُترَفًا؛ فيقولُ جاهِلًا بأنَّ اللهَ يمتَحِنُه: رَبِّي أكرَمَني بذلك؛ ظنًّا منه أنَّ إكرامَ اللهِ في الدُّنيا وإنعامَه عليه دليلٌ على كرامتِه عِندَه[2]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٦).

قال ابنُ عطيَّة: (ذَكَر اللهُ تعالى في هذه الآيةِ ما كانت قُرَيشٌ تقولُه تَستَدِلُّ به على إكرامِ اللهِ تعالى وإهانتِه لعَبدِه؛ وذلك أنَّهم كانوا يَرونَ أنَّ مَن عندَه الغِنى والثَّروةُ والأولادُ فهو المُكرَمُ، وبضِدِّه المُهانُ، ومِن حيثُ كان هذا المقطَعُ غالبًا على كثيرينَ مِنَ الكُفَّارِ جاء التَّوبيخُ في هذه الآيةِ لاسمِ الجِنسِ؛ إذ يقَعُ بعضُ المؤمِنينَ في شَيءٍ مِن هذا المَنزَعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٩).

وقال السعدي: (يخبِرُ تعالى عن طبيعةِ الإنسانِ مِن حيثُ هو، وأنَّه جاهِلٌ ظالمٌ، لا عِلْمَ له بالعواقِبِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

وقال ابنُ القَيِّم: (فالإنسانُ مِن حيثُ هو عارٍ عن كُلِّ خَيرٍ مِنَ العِلمِ النَّافِعِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، وإنَّما اللهُ سُبحانَه هو الَّذي يُكمِلُه بذلك ويُعْطيه إيَّاه، وليس له ذلك مِن نَفْسِه، بل ليس له مِن نَفْسِه إلَّا الجَهْلُ المُضادُّ للعِلْمِ، والظُّلْمُ المُضادُّ للعَدْلِ، وكُلُّ عِلمٍ وعَدْلٍ وخَيرٍ فيه فمِن رَبِّه لا مِن نَفْسِه). =

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾.

أي: وأمَّا إذا اختبَرَ اللهُ الإنسانَ بالفَقْرِ، فضَيَّقَ عليه رِزْقَه؛ فيَقولُ مُتضَجِّرًا جاهِلًا بأنَّ اللهَ يمتَحِنُه: رَبِّي أذَلَّني بذلك[1]!

﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى تعالى مِن أقوالِهم تلك الشُّبهةَ، فكأنَّه قال: بل لهم فِعلٌ هو شَرٌّ مِن هذا القَولِ، وهو أنَّ اللهَ تعالى يُكرِمُهم بكثرةِ المالِ، فلا يُؤَدُّونَ ما يَلزَمُهم فيه مِن إكرامِ اليتيمِ[2]!

﴿كَلَّا﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ الإنسانُ أنَّ إغناءَه إكرامٌ له مِنَ اللهِ، وإفقارَه إهانةٌ؛ فاللهُ يُغْني من يَشاءُ ولو كان كافِرًا، ويُفقِرُ مَن يشاءُ ولو كان مُؤمِنًا؛ ابتِلاءً منه لعبادِه بالغِنى والفَقْرِ بمُقتَضى حِكمتِه فيهم، وهو إنَّما يُكرِمُ بطاعتِه، ويُهينُ بمَعصيتِه[3].

= ((عدة الصابرين)) (ص: ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٣، ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣) و(٢٢/ ٤٤٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٠١)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٧).

قال ابن تيميَّةَ: (بل قد يُوسِّعُ عليه رِزْقَه إملاءً واستِدراجًا، وقد يَقْدِرُ عليه رِزْقَه حمايةً وصِيانةً له، وضِيقُ الرِّزقِ على عَبدٍ مِن أهلِ الدِّينِ قد يكونُ لِما له مِن ذُنوبٍ وخطايا). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾.

أي: أنتم -أيُّها النَّاسُ- مَن تَستهينونَ بأمرِ اللهِ فتَعصُونَه، فلا تُكرِمونَ اليتيمَ الَّذي فقَدَ أباه دونَ سِنِّ البُلوغِ؛ فتَسُدُّوا حاجتَه، وتُحسِنوا إليه ولا تَظلِموه شيئًا[1].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢].

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ولا يَحُثُّ بَعضُكم بعضًا على إطعامِ المِسكينِ[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦].

= وقال ابن القيِّم: (أي: ليس الأمرُ كما يقولُ الإنسانُ، بل قد أَبتلي بنعمتي، وأُنعِمُ ببَلائي!). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٦٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٤).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤).

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الماعون: ٣].

﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا دَلَّ على حُبِّ الدُّنيا بأمرٍ خارجيٍّ؛ دَلَّ عليه بأمرٍ في الإنسانِ؛ فقال تعالى[1]:

﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾.

أي: وتأكُلونَ الميراثَ أكلًا شديدًا لا تَترُكونَ منه شَيئًا، فتأخُذونَ منه نصيبَ غَيرِكم مِنَ النِّساءِ والصِّغارِ[2]!

﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾.

أي: وتُحِبُّونَ المالَ حُبًّا كثيرًا مُفرِطًا، فتَحرِصونَ على جَمْعِه واقتنائِه، فلا تُنفِقونَه في الخَيرِ[3].

كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

وقال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٤).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۞ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ٢، ٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أنَّ المتنعِّمَ لا ينبغي أن يَغفُلَ عن العاقبةِ؛ فالأمورُ بخواتيمِها، والفقيرُ والمحتاجُ لا ينبغي أن يَغفُلَ عمَّا لله عليه مِن النِّعَمِ الَّتي لا حَدَّ لها؛ مِن سلامةِ البَدَنِ والعَقلِ والدِّينِ، ودَفعِ الآفاتِ والآلامِ الَّتي لا حَدَّ لها ولا حَصْرَ؛ فلا ينبغي أن يقضيَ على نَفْسِه بالإهانةِ مُطلقًا[(١)]!

٢- قولُه تعالى: ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ ذمٌّ لِمَن يَقولُ: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾؛ لأنَّه يقولُ ذلك مُفتخِرًا به على غيرِه، ومُستدِلًّا به على عُلوِّ مَنزلتِه في الآخرةِ، ومُعتقِدًا استحقاقَ ذلك على ربِّه، وأمَّا إذا قاله على وَجْهِ الشُّكرِ، والتَّحدُّثِ بنِعمةِ اللهِ تعالى، فليس بمَذمومٍ، بلْ مَمدوحٌ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يَتَبَصَّرَ، فيَقولَ مثلًا: لماذا أعطاني اللهُ المالَ؟ ماذا يريدُ منِّي؟ يريدُ منِّي أنْ أشكرَ، لماذا ابتلاني اللهُ بالفقرِ، بالمرضِ وما أَشْبَهَ ذلك؟ يريدُ منِّي أنْ أصبرَ. فلْيَكُنْ مُحاسِبًا لنَفْسِه؛ حتَّى لا يكونَ مِثْلَ حالِ الإنسانِ المبنيَّةِ على الجَهلِ والظُّلمِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ يعني: لم يُعْطِك ما أعطاك إكرامًا لك لأنَّك مُستَحِقٌّ، ولكنَّه تَفَضُّلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١١).

منه، ولم يُهِنْك حينَ قَدَرَ عليك رِزْقَه، بل هذا مُقتَضى حِكمتِه وعَدْلِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ أنَّ لشأنِ اللهِ في مُعامَلتِه النَّاسَ في هذا العالَم أسرارًا وعِلَلًا لا يُحاطُ بها، وأنَّ أهلَ الجَهالةِ بمَعزِلٍ عن إدراكِ سِرِّها بأقيسةٍ وَهميَّةٍ، والاستنادِ لمألوفاتٍ عاديَّةٍ، وأنَّ الأَولى لهم أن يتطَلَّبوا الحقائقَ مِن دلائِلِها العَقليَّةِ، وأن يَعرِفوا مرادَ اللهِ مِن وَحيِه إلى رُسُلِه، وأن يَحذَروا مِن أن يَحيدوا بالأدِلَّةِ عن مَدلولِها، وأن يَستَنتِجوا الفُروعَ مِن غيرِ أُصولِها، وأمَّا أهلُ العِلمِ فهم يَضعونَ الأشياءَ مَواضِعَها، ويتوسَّمونَ التَّوسُّمَ المستَنِدَ إلى الهَدْيِ، ولا يَخلِطونَ ولا يَخبِطونَ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ تعليمٌ ألَّا نَنظُرَ إلى ظواهِرِ الأُمورِ دونَ بَواطِنِها، وإلى الجُسْمانيَّاتِ الحِسِّيَّةِ دونَ ما وراءَها مِن مَعانٍ عَقليَّةٍ، بل نَعبُرُ مِنَ الظَّواهِرِ إلى البواطِنِ، وننظُرُ مِنَ المحسوسِ إلى المعقولِ، ونجعَلُ حواسَّنا خادِمةً لعُقولِنا، ونجعَلُ عُقولَنا هي المتصَرِّفةَ الحاكِمةَ بالنَّظَرِ والتَّفكيرِ، وكما في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، فلا يَنظُرُ إلى بَهرجةِ الكَثرةِ، ولكِنْ إلى حقيقةِ وحالةِ الشَّيءِ الكثيرِ، فيَعتَبِرُ بحَسَبِهما، وأنَّه لا يجوزُ أن نغتَرَّ بالمالِ والقُوَّةِ والجاهِ وأنواعِ النَّعيمِ إذا سِيقَت إلينا، فنَحسَبَ أنَّها هي نَفْسُ الكرامةِ الرَّبَّانيَّةِ الَّتي دُعِينا إلى العَمَلِ لنَيْلِها، بل إنَّما نَعُدُّها كذلك إذا كان معها التَّوفيقُ إلى شُكرِها بالقيامِ بحُقوقِها، وصَرْفِها في وُجوهِها، ولا نغتَرَّ بحالةِ الضِّيقِ والعُسْرِ والضَّعفِ، فنَحسَبَ أنَّها إهانةٌ مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣١).

اللهِ لصاحِبِها، بل علينا أن ننظُرَ إلى ما معها من صَبرٍ ورجاءٍ وبِرٍّ، أو ضَجَرٍ ويأسٍ وفُجورٍ، فنَعلَمَ حينَئذٍ أنَّها مع الأُولى للتَّمحيصِ والتَّثَبُّتِ، ومع الأخيرةِ للزَّجرِ والعِقابِ بعَدْلٍ وحِكمةٍ مِن أحكَمِ الحاكِمينَ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ لم يقُلْ: «فأهانَه» مَوضِعَ «قَدَرَ عليه»؛ تعليمًا للأدَبِ معه سُبحانَه وتعالى، وصَونًا لأهلِ اللهِ عن هذه العِبارةِ؛ لأنَّ أكثَرَهم مُضَيَّقٌ عليه في دُنياه، ولأنَّ تَرْكَ الإكرامِ لا يَنحَصِرُ في كونِه إهانةً(٢)!

٧- وُقوفُ هِمَّةِ العَبدِ عندَ مُرادِ نَفْسِه فقط: مِن ضَعفِ الهِمَّةِ؛ ولهذا لامَهم اللهُ على عدمِ اهتِمامِهم بأحوالِ الخَلْقِ المحتاجينَ، فقال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾(٣).

٨- في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي لنا أنْ نُكْرِمَ الأيتامَ، وأنْ يَحُضَّ بعضُنا بعضًا على إطعامِ المساكينِ؛ لأنَّهم في حاجةٍ، واللهُ تعالى في عَونِ العَبدِ ما كان العَبدُ في عَونِ أخيه(٤).

٩- في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أنَّ الفَقرَ والغِنى ابتِلاءٌ مِنَ اللهِ لعَبْدِه؛ فليس كلُّ مَن أعطاه ووسَّعَ عليه فقد أكرَمَه، ولا كُلُّ مَن ضَيَّق عليه وقَتَّرَ عليه الرِّزقَ فقد أهانه، والإكرامُ أن يُكرَمَ العَبدُ بطاعةِ اللهِ ومحبَّتِه ومَعرفتِه، والإهانةُ أن يَسلُبَه ذلك، ولا يَقَعُ التَّفاضُلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٨).

بالغِنى والفَقْرِ، بل بالتَّقوى[١].

١٠- قال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ فبَيَّن حقيقةَ فِتنةِ المالِ إيجابًا وسَلْبًا، جمعًا وبَذْلًا؛ فبدَأَ بأقبَحِ الوُجوهِ مِنَ الإمساكِ؛ مِن عَدَمِ إكرامِ اليَتيمِ مَهيضِ الجَناحِ، مَكسورِ الخاطِرِ، والتَّقاعُسِ عن إطعامِ المسكينِ خالي اليَدِ، جائعِ البَطنِ، ساكِنِ الحَرَكةِ، وهذان الجانِبانِ أهَمُّ مُهِمَّاتِ بَذْلِ المالِ، وهم يُمسِكونَ عنها! وقد بَيَّن تعالى أنَّ هذا الجانِبَ هو اقتِحامُ العَقَبةِ عند الشِّدَّةِ، في قَولِه تعالى في سُورةِ «البَلَدِ»: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ - ١٦].

ومِن الجانِبِ الآخَرِ: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: الميراثَ، فلا يُعطُونَ النِّسوةَ، وهنَّ ضعيفاتُ الشَّخصيَّةِ، أحوَجُ إلى مالِ مُورِّثِهنَّ، ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ حتَّى استعبَدَكم وألهاكم التكاثُرُ فيه.

وهنا لَفتُ نَظَرٍ للفَريقَينِ؛ فمَن أُعطِيَ منهم لا ينبغي له أن يُغفِلَ طُرُقَ البَذلِ الهامَّةَ، ومَن مُنِعَ لا ينبغي له أن يَستَشرِفَ إلى ما لا ينبغي له[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ ذَمُّ جَمعِ المالِ مِن غَيرِ حِلِّه[٣].

١٢- قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ هذا ذَمٌّ للحِرْصِ على المالِ وشِدَّةِ الرَّغبةِ فيه[٤].

---

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (٤/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٢٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ إلى قَولِه: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ سؤالٌ: كيف ذمَّ سُبحانَه مَن يقولُ: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ مع أنَّه صادِقٌ فيه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾، ومع أنَّه متحَدِّثٌ بالنِّعمةِ، وهو مأمورٌ بالتحَدُّثِ بها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]؟!

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ المذموم هو أن يقولَ ذلك مفتَخِرًا، ومعتَقِدًا استِحقاقَه ذلك، كما في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، أمَّا الممدوحُ فهو أن يقولَه على وَجهِ الشُّكرِ والتَّحَدُّثِ بنعمةِ اللهِ تعالى[١]، فلا تَنافيَ بيْن إثباتِ إكرامِ اللهِ تعالى الإنسانَ بقَولِه: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ وبيْن إبطالِ ذلك بقَولِه: ﴿كَلَّا﴾؛ لأنَّ الإبطالَ واردٌ على ما قَصَده الإنسانُ بقَولِه: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ أنَّ ما ناله مِن النِّعمةِ عَلامةٌ على رِضا اللهِ عنه[٢].

الثَّاني: أن ينساقَ الإنكارُ والذَّمُّ إلى قَولِه: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ يعني: أنَّه إذا تُفُضِّلَ عليه بالخَيرِ وأُكرِمَ به اعتَرَف بتفَضُّلِ اللهِ وإكرامِه، وإذا لم يُتفضَّلْ عليه سَمَّى تَرْكَ التَّفَضُّلِ هوانًا، وليس بهوانٍ[٣].

الثَّالثُ: أن اللَّفظَ الَّذي أَخْبَرَ اللهُ به وإن كان مِثْلَ اللَّفظِ الَّذي أنكَرَه اللهُ مِن كلامِ المبتلَى! لكنَّ المعنى مختلِفٌ؛ فإنَّ المبتلَى اعتقدَ أنَّ هذه كرامةٌ مطلَقةٌ،

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٠).

وهي النِّعمةُ الَّتي يَقْصِدُ بها أنَّ النِّعَمَ إكرامٌ له، والإنعامَ بنعمةٍ لا يكونُ سببًا لعَذابٍ أعظمَ منها، وليس الأمرُ كذلك، بلِ اللهُ تعالى ابتلاه بها ابتلاءً لِيتبيَّنَ أيُطيعُه فيها أم يَعصيه، مع عِلْمِه بما سيكونُ مِن الأمْرَين، لكِنَّ العلمَ بما سيكونُ شيءٌ، وكونُ الشَّيءِ والعِلمُ به شَيءٌ، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ فإنَّه تكريمٌ بما فيه مِن اللَّذَّاتِ؛ ولهذا قَرَنَه بقَولِه: ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾؛ ولهذا كانت خوارقُ العاداتِ الَّتي تُسَمِّيها العامَّةُ كرامةً ليست عندَ أهلِ التَّحقيقِ كرامةً مطلقًا، بل في الحقيقةِ الكرامةُ هي لزومُ الاستقامةِ، وهي طاعةُ اللهِ، وإنَّما تلك الخوارِقُ هي ممَّا يَبتلي اللهُ به عبدَه، فإنْ أطاعَه بها رَفَعَه، وإنْ عصاه بها خَفَضَه، وإنْ كانت مِن آثارِ طاعةٍ أُخرى، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٦، ١٧]، وإذا كان في النِّعمةِ والكرامةِ هذان الوَجهانِ فهي مِن بابِ الأمرِ والشَّرعِ نعمةٌ يجبُ الشُّكرُ عليها، وفي بابِ الحقيقةِ القَدَرِيَّةِ لم تكُنْ للفاجرِ إلَّا فِتنةً ومِحنةً استوجبَ بمَعصيةِ اللهِ فيها العَذابَ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ سُؤالٌ: كيف سَمَّى اللهُ تعالى بَسْطَ الرِّزقِ وتَقديرَه ابتِلاءً؟!

الجوابُ: لأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما اختبارٌ للعَبدِ؛ فإذا بَسَطَ له فقد اختبَرَ حالَه: أيَشكُرُ أم يَكفُرُ؟ وإذا قَدَر عليه فقد اختبَرَ حالَه: أيَصبِرُ أم يَجزَعُ؟ فالحِكمةُ فيهما واحِدةٌ، ونحوُه قَولُه تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[2] [الأنبياء: ٣٥].

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٦).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ قال: «كَلَّا»، وهذا فيه زجرٌ وتنبيهٌ؛ زجرٌ عن مِثْلِ هذا القَولِ، وتنبيهٌ على ما يُخبَرُ به ويُؤمَرُ به بَعْدَه؛ وذلك أنَّه ليس كلُّ مَن حَصَلَ له نِعَمٌ دُنيويةٌ تُعَدُّ كرامةً يكونُ اللهُ عزَّ وجَلَّ مُكرِمًا له بها، ولا كلُّ مَن قُدِرَ عليه ذلك يكونُ مُهينًا له بذلك، بل هو سُبحانَه يَبتلي عبدَه بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ؛ فقد يُعْطي النِّعَمَ الدُّنيويَّةَ لِمَن لا يُحِبُّه ولا هو كَريمٌ عندَه؛ لِيَستدرِجَه بذلك، وقد يَحمي منها مَن يُحِبُّه ويُواليه؛ لئلَّا تَنْقُصَ بذلك مَرتبتُه عندَه، أو يَقَعَ بسَبَبِها فيما يَكرَهُه منه[1].

٤- قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ اعلَمْ أنَّ مِن ضَلالِ أهلِ الشِّركِ ومِن فِتنةِ الشَّيطانِ لبَعضِ جَهَلةِ المؤمِنينَ أن يُخَيِّلَ إليهم ما يحصُلُ لأحدٍ بجَعْلِ اللهِ مِن ارتباطِ المسَبَّباتِ بأسبابِها والمعلولاتِ بعِلَلِها، فيَضَعوا ما يصادِفُ نَفعَ أحَدِهم مِن الحوادِثِ مَوضِعَ كَرامةٍ مِنَ اللهِ للَّذي صادَفَتْه منافِعُ ذلك؛ تحكيمًا للشَّاهِدِ، ومحبَّةً للنَّفسِ، ورَجمًا بالغَيبِ، وافتياتًا على اللهِ، وإذا صادَفَ أحَدَهم مِن الحوادِثِ ما جَلَبَ له ضَرًّا تَخَيَّلَه بأوهامِه انتقامًا مِنَ اللهِ قَصَدَه به؛ تشاؤمًا منهم، فهؤلاء الَّذين زَعَموا ما نالهم مِن نِعمةِ اللهِ إكرامًا مِنَ اللهِ لهم: ليسوا أهلًا لكَرامةِ اللهِ، وهؤلاء الَّذين توَهَّموا ما صادَفهم مِن فُتورِ الرِّزقِ إهانةً مِنَ اللهِ لهم: ليسوا بأحَطَّ عندَ اللهِ مِن الَّذين زعَموا أنَّ اللهَ أكرَمَهم بما هم فيه مِن نِعمةٍ. فذلك الاعتقادُ أوجَبَ تَغلغُلَ أهلِ الشِّركِ في إشراكِهم، وصَرْفَ أنظارِهم عن التَّدَبُّرِ فيما يخالِفُ ذلك، ورُبَّما جَرَّت الوساوِسُ الشَّيطانيَّةُ فِتنةً مِن ذلك لبَعضِ ضُعَفاءِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٣٠١).

الإيمانِ وقِصارِ الأنظارِ، والجُهَّالِ بالعَقيدةِ الحَقِّ[١].

٥- (أمَّا) كَلمةُ تَفصيلٍ، ولا يَجيءُ إلَّا مُتعدِّدًا، ومِن شَرطِ مَدخولِها التَّوازُنُ بيْن الفقرتينِ والتَّقابُلُ بيْنَهما؛ فإنْ كان بعْدَ الأُولى اسمًا، فالواجبُ بعْدَ الثَّانيةِ الاسمُ، نحْوُ قولِك: أمَّا الكافرُ فكَفورٌ، وأمَّا المؤمنُ فشَكورٌ، وإنْ كان شَرطًا فشَرطًا، نحْو قولِك: أمَّا إذا أحسَنتَ إلى زَيدٍ فهو مُحسِنٌ إليك، وأمَّا إذا أسَأْتَ إليه فهو مُسيءٌ إليك، وجاء هنا الاسمُ بعْدَ الأُولى ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، والشَّرطُ بعْدَ الثَّانيةِ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ﴾، فلا تَوازُنَ بيْنَهما.

والجوابُ عن هذا: أنَّ الموازنةَ حاصلةٌ؛ لأنَّ (أمَّا) التَّفصيليَّةَ تَقْتضي أنْ يكونَ مَدخولُها مُبتدأً، وخبرُها مقيَّدًا بالفاءِ، و(إذا) هاهنا لَيست بشَرْطٍ، بلْ هي ظَرفٌ، و﴿فَيَقُولُ﴾ خبَرُ المبتدأِ، ودُخولُ الفاءِ لتَضمُّنِ (أمَّا) معْنى الشَّرطِ، فيُقدَّرُ في قولِه: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ مُبتدأٌ، فتَقديرُ الكلامِ: وأمَّا هو إذا ما ابتَلاهُ ربُّه[٢].

٦- في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أنَّ المسكينَ حَظُّه الإطعامُ ودَفْعُ حاجتِه، أمَّا اليتيمُ فالإكرامُ؛ فإنْ كان غنيًّا فإنَّه يُكرِمُه لِيُتْمِه، ولا يُطْعَمُ لِغَناه، وإنْ كان اليتيمُ فقيرًا فإنَّه يُكرَمُ لِيُتمِه ويُطعَمُ لفَقْرِه[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ في إضافةِ الطَّعامِ إلى المسكينِ إشارةٌ إلى أنَّه شَريكٌ للغَنيِّ في مالِه بقَدْرِ الزَّكاةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٩، ٧٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾

- الفاءُ في ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ رابطةٌ بيْن الكلامَين، ومُؤذِنةٌ بالبَونِ بيْن الأمْرينِ المُتنافيَينِ؛ وذلك أنَّه تعالَى يَطلُبُ مِن العِبادِ الطَّاعةَ والعِبادةَ، وهو بالمِرصادِ كالمُترقِّبِ الَّذي لا يَفوتُه شَيءٌ مِن أعمالِ عِبادِه، فيُحاسِبُهم على النَّقيرِ والقِطميرِ ويُجازيهم عليها، والإنسانُ غافلٌ مُولَعٌ بالتَّلهِّي، ومُنغمِسٌ في أُمورِ العاجلةِ؛ إنْ أصابَه نَصيبٌ مِن الدُّنيا اطمَأنَّ إليه، وإنْ جاوَزَه حظٌّ منها ضَجِرَ وقَنِطَ[1]؛ فدلَّت الفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ على أنَّ الكلامَ الواقعَ بعْدَها مُتَّصلٌ بما قبْلَها ومُتفرِّعٌ عليه لا مَحالةَ؛ وذلك أنَّ الكلامَ السَّابقَ اشتَمَلَ على وصْفِ ما كانت تَتمتَّعُ به الأُمَمُ المُمثَّلُ بها ممَّا أنعَمَ اللهُ عليها به مِن النِّعَمِ، وهُمْ لاهُونَ عن دَعوةِ رُسلِ اللهِ، ومُعرِضون عن طلَبِ مَرضاةِ ربِّهم، مُقتحِمون المَناكرَ الَّتي نُهُوا عنها، بَطِرون بالنِّعمةِ، مُعجَبون بعَظَمتِهم، فعُقِّبَ ذِكرُ ما كانوا عليه وما جازاهُم اللهُ به عليه مِن عَذابٍ في الدُّنيا؛ باستخلاصِ العِبرةِ؛ ففاءُ التَّفريعُ مُرتبطةٌ بجُملةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] بما فيها مِن العُمومِ الَّذي اقتضاهُ كَونُها تَذْييلًا، والمعْنى: هذا شأْنُ ربِّك الجاري على وَفْقِ عِلمِه وحِكمتِه، فأمَّا الإنسانُ الكافرُ فيَتوهَّمُ خِلافَ ذلك؛ إذ يَحسَبُ ما يَنالُه مِن نِعمةٍ وسَعةٍ في الدُّنيا تَكريمًا مِن اللهِ له، وما يَنالُه مِن ضِيقِ عَيشٍ إهانةً أهانَه اللهُ بها، وهذا التَّوهُّمُ يَستلزِمُ ظَنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٤).

أفعالَ اللهِ تعالَى جاريةً على غيرِ حِكمةٍ، فأعْلَمَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ بالحقيقةِ الحقِّ، ونبَّهَهم لتَجنُّبِ تَخليطِ الدَّلائلِ الدَّقيقةِ السَّاميةِ، وتَجنُّبِ تَحكيمِ الواهمةِ والشَّاهيةِ، وذكَّرَهم بأنَّ الأحوالَ الدُّنيويَّةَ أعراضٌ زائلةٌ ومُتفاوِتةُ الطُّولِ والقِصَرِ، وفي ذلك كلِّه إبطالٌ لمُعتقَدِ أهلِ الشِّركِ وضَلالِهم الَّذي كان غالبًا على أهْلِ الجاهليَّةِ(١).

- والمرادُ بالإنسانِ هنا الجِنسُ، وتَعريفُه تَعريفُ الجِنسِ، فيَستغرِقُ أفرادَ الجِنسِ، ولكنَّه استغراقٌ عُرْفيٌّ مُرادٌ به النَّاسُ المشرِكون؛ لأنَّهم الغالبُ على النَّاسِ المُتحدَّثِ عنهم؛ فلَمَّا كان هذا غالبًا على الكفَّارِ، جاء التَّوبيخُ في هذه الآيةِ باسمِ الجِنسِ؛ إذ يقَعُ بعضُ المؤمنينَ في شَيءٍ مِن هذا المَنزعِ! وقيل: أُريدَ إنسانٌ مُعيَّنٌ(٢).

- قولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ خبرٌ للمُبتدأِ الَّذي هُوَ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، وجِيءَ بالفاءِ لِما في (أمَّا) مِن مَعْنى الشَّرطِ، والظَّرفُ المتوسِّطُ ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ على نِيَّةِ التَّأخيرِ، كأنَّه قيلَ: فأمَّا الإنسانُ فيَقولُ: ربِّي أكْرَمَنِ وَقتَ ابتلائِه بالإنعامِ، وإنَّما تَقديمُه للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّ الإكرامَ والتَّنعيمَ بطَريقِ الابتلاءِ؛ ليتَّضِحَ اختلالُ قولِه المَحكيِّ(٣).

- وحرْفُ (أمَّا) يُفيدُ تَفصيلًا في الغالبِ، أي: يدُلُّ على تَقابُلٍ بيْن شَيئينِ مِن ذَواتٍ وأحوالٍ؛ ولذلك قد تكرَّرَ في الكَلامِ -﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٤، ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٦، ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦).

رَبُّهُۥ ...﴾ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ ...﴾-؛ فليس التَّفصيلُ المُستفادُ منها بمعْنى تَبيينِ مُجمَلٍ قبْلَها، بلْ هو تَفصيلٌ وتَقابُلٌ وتَوازُنٌ، وهو ضرْبٌ مِن ضُروبِ التَّفصيلِ الَّذي تَأتي له (أمَّا)، فارتباطُ التَّفصيلِ بالكلامِ السَّابقِ مُستفادٌ مِن الفاءِ الدَّاخلةِ على (أمَّا)، فالمُفصَّلُ هنا أحوالُ الإنسانِ الجاهلِ؛ فُصِّلَت إلى حالِه في الخفْضِ والدَّعةِ، وحالِه في الضَّنكِ والشِّدَّةِ، فالتَّوازُنُ بيْن الحالينِ المُعبَّرِ عنهما بالظَّرفَينِ في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ﴾ إلخ، وقولِه: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾، وهذا التَّفصيلُ ليس مِن قَبيلِ تَبيينِ المُجمَلِ، ولكنَّه تَمييزٌ وفصْلٌ بيْن شَيئينِ، أو أشياءَ تَشتبِهُ أو تَختلِطُ[(١)].

- ومعْنى ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ أعطاهُ بقَدْرٍ مَحدودٍ، ومنه التَّقتيرُ، وكلُّ ذلك كِنايةٌ عن القِلَّةِ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَقَدَرَ﴾ قُرِئَ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ[(٣)]، وهما بمعنًى واحدٍ بمعنى ضَيَّقَ، وفي قراءةِ التَّشديدِ مُبالَغةٌ[(٤)].

- واقتصارُ الآيةِ على تَقتيرِ الرِّزقِ في مُقابَلةِ النِّعمةِ دُونَ غيرِ ذلك مِن العِلَلِ والآفاتِ؛ لأنَّ غالبَ أحوالِ المشركين المُتحدَّثِ عنهم صِحَّةُ المزاجِ وقُوَّةُ الأبدانِ، فلا يَهلِكون إلَّا بقتْلٍ أو هَرَمٍ فيهم وفي ذَويهم، وقد عُرِفَ هذا الاعتقادُ الضَّالُّ مِن كَلامِ أهلِ الجاهليَّةِ، وجَعَلوا هذا الغُرورَ مِقياسًا لمراتبِ النَّاسِ؛ فجَعَلوا أصحابَ الكَمالِ أهلَ المظاهرِ الفاخرةِ، ووَصَموا بالنَّقصِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٨، ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٣٠).

(٣) قرأ أبو جَعفرٍ وابنُ عامرٍ بتَشديدِ الدَّالِ، وقرأ الباقونَ بتَخْفيفِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٤١).

أهلَ الخَصاصةِ وضُعفاءَ النَّاسِ؛ فنَبَّهَ اللهُ على خَطأِ اعتقادِهم بمُناسَبةِ ذِكرِ مُماثِلِه ممَّا اعتَقَدَه الأُمَمُ قبْلَهم الَّذي كان مُوجِبًا صَبَّ العذابِ عليهم، وأعلَمَهم أنَّ أحوالَ الدُّنيا لا تُتَّخَذُ أصلًا في اعتبارِ الجزاءِ على العمَلِ، وأنَّ الجزاءَ المُطَّرِدَ هو جَزاءُ يومِ القيامةِ(١).

- وجُملتَا ﴿فَيَقُولُ﴾ في الموضعينِ جَوابانِ لـ(أمَّا) الأُولى والثَّانيةِ، أي: يطَّرِدُ قولُ الإنسانِ هذه المقالةَ كلَّما حَصَلَت له نِعمةٌ، وكلَّما حَصَلَ له تَقتيرُ رِزقٍ؛ فأُوثِرَ الفِعلُ المضارعُ في الجوابينِ؛ لإفادةِ تَكرُّرِ ذلك القولِ وتَجدُّدِه كلَّما حصَلَ مَضمونُ الشَّرطينِ(٢).

- وتَقديمُ ﴿رَبِّيٓ﴾ على فِعلِ ﴿أَكۡرَمَنِ﴾ وفِعلِ ﴿أَهَٰنَنِ﴾ دُونَ أنْ يقولَ: أكرَمَني ربِّي أو أهانَني ربِّي؛ لقصْدِ تَقَوِّي الحُكمِ، أي: يقولُ ذلك جازمًا به غيرَ مُتردِّدٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٣٠).

قال القِنَّوجيُّ: (قُرِئَ بإثباتِ الياءِ في ﴿أَكۡرَمَنِ﴾ و﴿أَهَٰنَنِ﴾ وصلًا، وحَذْفِها وَقفًا، وقُرِئَ بإثباتِها فيهما، وقُرِئَ بحَذْفِها في الوَصْلِ والوَقْفِ اتِّباعًا لرَسمِ المصحَفِ ومُوافَقةً لرُؤوسِ الآيِ، والأصلُ إثباتُها؛ لأنَّها اسمٌ). ((تفسير القنوجي)) (١٥/ ٢٢٧). ويُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ١٨٢، ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٤).

وقال الزَّجَّاجُ: (وما حُذِفَ مِن هذه الياءاتِ نَحْوُ ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الإسراء: ٦٢]، ونَحوُ ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ فهو على ضَربَينِ مع النُّونِ؛ فإذا كان رأسَ آيةٍ فأهلُ اللُّغةِ يُسَمُّونَ أواخِرَ الآيِ الفواصِلَ، فيُجيزون حَذْفَ الياءاتِ كما يُجيزونَه في قوافي الشِّعرِ... فإذا لم يكُنْ آخِرَ قافيةٍ أو آخِرَ آيةٍ، فالأكثَرُ إثباتُ الياءِ، وحَذْفُها جَيِّدٌ بالِغٌ أيضًا بخاصَّةٍ مع النُّوناتِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (١/ ٣٨٩).

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ * وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا * وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾

- قولُه: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ زجْرٌ للإنسانِ عن قولِه: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ عندَ حُصولِ النِّعمةِ، وقولِه: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ عندَما يَنالُه تَقتيرٌ؛ فهو ردْعٌ عن اعتقادِ ذلك، فمَناطُ الرَّدعِ كِلَا القولَينِ، وهذا ردْعٌ مُجمَلٌ لم يَتعرَّضِ القرآنُ لتَبيينِه؛ اكتفاءً بتَذييلِ أحوالِ الأُمَمِ الثَّلاثِ في نِعمتِهم بقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] بعْدَ قولِه: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾[(١)] [الفجر: ١٣].

- و(بَلْ) إضرابٌ انتقاليٌّ، والمناسَبةُ بيْن الغرَضَينِ المُنتقَلِ منه والمُنتقَلِ إليه مُناسبةُ المُقابَلةِ لمَضمونِ ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ مِن جِهةِ ما تَوهَّموه أنَّ نِعمةَ مالِهم وسَعةَ عَيشِهم تَكريمٌ مِن اللهِ لهم، فنَبَّهَهم اللهُ على أنَّهم إنْ أكرَمَهُم اللهُ، فإنَّهم لمْ يُكرِموا عَبيدَه شُحًّا بالنِّعمةِ؛ إذ حَرَموا أهلَ الحاجةِ مِن فُضولِ أموالِهم، وإذ يَستزيدون مِن المالِ ما لا يَحتاجون إليه، وذلك دحْضٌ لتَفخُّرِهم بالكرَمِ والبذْلِ؛ فجُملةُ ﴿لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ استئنافٌ كما يَقتضيهُ الإضرابُ، فهو إمَّا استئنافُ ابتداءِ كَلامٍ، وإمَّا اعتراضٌ بيْن ﴿كَلَّا﴾ وأختِها[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٠، ٧٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٠، ٧٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠، ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٥).

- وفي قوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ الْتفاتٌ إلى الخِطابِ؛ للإيذانِ باقتضاءِ مُلاحظةِ جِنايتِه السَّابقةِ لمُشافهتِه بالتَّوبيخِ تَشديدًا للتَّقريعِ، وتَأكيدًا للتَّشنيعِ. والجمْعُ باعتبارِ مَعْنى الإنسانِ؛ إذِ المرادُ هو الجنسُ[(١)].

- وتَعريفُ اليَتيمِ هنا للجِنسِ، أي: لا تُكرِمون اليَتامَى، وكذلك تَعريفُ المسكينِ[(٢)].

- ونفْيُ الحَضِّ على طَعامِ المسكينِ نفْيٌ لإطعامِهِ بطَريقِ الأَوْلى، وهي دَلالةُ فَحوى الخِطابِ[(٣)]، أي: لقِلَّةِ الاكتراثِ بالمساكينِ لا يَنفَعونهم ولو نفْعَ وَساطةٍ، بلْهَ أنْ يَنفَعوهم بالبَذْلِ مِن أموالِهم[(٤)].

- وقد حصَلَ في هذِه الآيةِ احتباكٌ[(٥)]؛ لأنَّهم لَمَّا نُفِيَ إكرامُهم اليتيمَ، وقُوبِلَ بنفْيِ أنْ يَحُضُّوا على طَعامِ المسكينِ؛ عُلِمَ أنَّهم لا يَحُضُّون على إكرامِ أيتامِهم، أي: لا يَحُضُّون أولياءَ الأيتامِ على ذلك، وعُلِمَ أنَّهم لا يُطعِمونَ المساكينَ مِن أموالِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ الحَضُّ على الطَّعامِ كِنايةً عن الإطعامِ؛ لأنَّ مَن يحُضُّ على فِعلِ شَيءٍ يكونُ راغبًا في التَّلبُّسِ به، فإذا تَمكَّنَ أنْ يَفعَلَه فَعَلَه[(٦)].

- و(لا تُكرِمون، ولا تَحاضُّون، وتَأكُلون، وتُحبُّون) على الخِطابِ بطَريقةِ الالْتفاتِ مِن الغَيبةِ في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ الآياتِ؛ لقصْدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦، ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٣).

(٣) تقدَّم تعريفُها (ص: ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٣).

(٥) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٣).

مُواجهتِهم بالتَّوبيخِ، وهو بالمُواجَهةِ أوقَعُ منه بالغَيبةِ[١].

- قولُه: ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ أصْلُه: تَتحاضُّون، فحُذِفَت إحْدى التَّاءينِ اختصارًا للتَّخفيفِ[٢].

- والأكلُ: مُعبَّرٌ به عن الانتِفاعِ بالشَّيءِ انتفاعًا لا يُبْقي منه شَيئًا، ولعلَّ هذا التَّعبيرَ مِن مُبتكراتِ القُرآنِ[٣].

- وأشْعَرَ قولُه: ﴿وَتَأۡكُلُونَ﴾ بأنَّ المرادَ التُّراثُ الَّذي لا حقَّ لهم فيه، ومنه يَظهَرُ وجْهُ إيثارِ لَفظِ ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (وتَأكُلون المالَ)؛ لأنَّ التُّراثَ مالٌ مات صاحبُه، وأكْلُه يَقْتضي أنْ يَستحِقَّ ذلك المالَ عاجزٌ عن الذَّبِّ عن مالِه لصِغَرٍ أو أُنوثةٍ[٤].

- وتَعريفُ ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ عِوَضٌ عن المضافِ إليه، أي: تُراثَ اليَتامَى[٥].

- قولُه: ﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ اللَّمُّ: الجمْعُ، ووَصْفُ الأكلُ به وصْفٌ بالمصدرِ للمُبالَغةِ[٦].

- قولُه: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ الجَمُّ: الكثيرُ، أي: حُبًّا كَثيرًا، ووَصْفُ الحُبِّ بالكثرةِ مُرادٌ به الشِّدَّةُ؛ لأنَّ الحُبَّ معنًى مِن المعاني النَّفْسيَّةِ لا يُوصَفُ بالكثرةِ الَّتي هي وَفرةُ عدَدِ أفرادِ الجِنسِ، فالجَمُّ مُعبَّرٌ به عن معْنى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

القَويِّ الشَّديدِ، أي: حُبًّا مُفرِطًا، وذلك مَحلُّ ذمِّ حُبِّ المالِ؛ لأنَّ إفراطَ حُبِّه يُوقِعُ في الحِرصِ على اكتِسابِه بالوَسائلِ غيرِ الحقِّ؛ كالغصْبِ والاختلاسِ، والسَّرقةِ وأكْلِ الأماناتِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٤).

الآيات (٢١-٣٠)

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾: أي: زُلزِلَت الأرضُ، وحُرِّكَت تحريكًا بعدَ تحريكٍ، والدَّكُّ: الكَسرُ والدَّقُّ وحَطُّ المُرتَفِعِ مِنَ الأرضِ بالبَسْطِ، وأصلُ (دكك): يدُلُّ على تَطامُنٍ وانسِطاحٍ[(١)].

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ﴾: الوَثاقُ بفتحِ الواوِ اسْمُ مَصْدَرِ أوْثَق، وهو الرَّبْطُ، يقالُ: أَوْثَقْتُه: أي: شددتُه، والوَثاقُ والوِثاقُ: اسمان لِما يُوثَقُ به الشَّيءُ، وأصل (وثق): يدُلُّ على عَقْدٍ وإحْكامٍ[(٢)].

﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾: أي: السَّاكِنَةُ الموقِنَةُ بالإيمانِ وتوحيدِ اللهِ، فلا يُخالِطُها شَكٌّ، ولا يَعْتَريها رَيْبٌ، الَّتي اطْمأَنَّتْ إلى وَعْدِ اللهِ، وصدَّقَتْ بما قال، والطُّمَأْنينةُ والاطْمِئنانُ: السُّكونُ بعدَ الانزعاجِ، وأصلُ الطُّمأنينةِ: السُّكونُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٥٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٦).

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾

﴿دَكًّا دَكًّا﴾: مَجموعُ المَصدرَينِ في تأويلِ مُفرَدٍ مَنصوبٍ على الحالِ، والمعنى: مُكَرَّرًا عليها الدَّكُّ، كعَلَّمتُه الحِسابَ بابًا بابًا، أي: علَّمتُه الحِسابَ مُفَصَّلًا باعتبارِ أبوابِه. ويجوزُ أن يكونَ ﴿دَكًّا﴾ الأوَّلُ مَصدرًا مؤكِّدًا لفِعْلِه، و﴿دَكًّا﴾ الثَّاني تأكيدًا لفظيًّا للأوَّلِ.

﴿صَفًّا صَفًّا﴾: مَجموعُهما في تأويلِ مُفرَدٍ مَنصوبٍ على الحالِ المفيدةِ للتَّرتيبِ، أي: مُصطَفِّينَ صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾

﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ مَفعولٌ مُطلَقٌ على معنى التَّشبيهِ، نائبٌ عن المصدَرِ، وكذا ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾، والعَذابُ: اسمُ مَصدَرِ عَذَّب، والوَثاقُ: اسمُ مَصدَرِ أوثَقَ، والضَّميرُ فيهما يعودُ على الله تعالى، والمصدَرُ مُضافٌ إلى الفاعِلِ: والمعنى: لا يُعَذِّبُ أحدٌ تعذيبًا مِثلَ تعذيبِ اللهِ هذا الكافِرَ، ولا يُوثِقُ أحدٌ إيثاقًا مِثلَ إيثاقِ اللهِ هذا الكافِرَ؛ في الشِّدَّةِ والمُبالَغةِ، و﴿أَحَدٌ﴾ فيهما فاعِلٌ للفِعلِ قَبْلَه.

وقُرِئَ ﴿يُعَذَّبُ ... يُوثَقُ﴾ بالبناء للمَفعولِ فيهما[2]، فيكونُ ﴿أَحَدٌ﴾ فيهما نائِبَ فاعلٍ، والضَّميرُ في ﴿عَذَابَهُۥٓ... وَثَاقَهُۥٓ﴾ يعودُ على الإنسانِ الكافِرِ، والمصدَرُ مُضافٌ إلى المفعولِ: والمعنى: لا يُعَذَّبُ أحَدٌ مِثلَ تعذيبِ هذا الكافِرِ يومَئذٍ،

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٦)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) لأحمد الخراط (٤/ ١٤٥٢).

(٢) يُنظر: القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفْسيرِ (ص: ٣٤٤).

ولا يُوثَقُ أحَدٌ مِثلَ وَثاقِه، ويجوزُ عَودُ الضَّميرِ كذلك على اللهِ تعالى، والمصدَرُ مُضافٌ إلى الفاعِلِ، كالقراءةِ المتقَدِّمةِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذكِّرًا بأهوالِ الآخرةِ: كَلَّا! فارجِعوا عن انكِبابِكم على الدُّنيا الفانيةِ؛ فإنَّه إذا دُكَّت الأرضُ يومَ القيامةِ، وزُلزِلتْ مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ، يَنهَدِمُ كُلُّ ما عليها، وتُصبِحُ أرضًا مُستويةً، وجاء ربُّك -يا محمَّدُ- إلى المحشَرِ للفَصلِ بيْن عبادِه، وجاءت الملائِكةُ صَفًّا بعدَ صَفٍّ، وجيءَ يومَ القيامةِ بنارِ جَهنَّمَ؛ يَومَ يَتذَكَّرُ الإنسانُ أعمالَه، فلا تَنفَعُه ذِكْراه، ولا يَنفَعُه الإيمانُ والتَّوبةُ لِمَولاه! يَقولُ: يا لَيْتَني قَدَّمْتُ في الدُّنيا أعمالَ الخَيرِ والبرِّ لحياتي في الآخِرةِ، فيَومَ القيامةِ لا يُعَذِّبُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ عَذابِ اللهِ في الآخِرةِ، ولا يُوثِقُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ وَثاقِ اللهِ في الآخِرةِ لأهلِ النَّارِ. ثمَّ يختِمُ اللهُ السُّورةَ بهذه البِشارةِ للمؤمنينَ، فيقولُ: يا أيَّتُها النَّفْسُ المُطمَئِنَّةُ بالإيمانِ، الموقِنةُ باللهِ وبوَعْدِه، ارجِعي إلى رَبِّك راضيةً مَرْضِيَّةً، فادخُلِي في جُملةِ عِبادي الصَّالِحينَ، وادْخُلي جَنَّتي معهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه انتِقالٌ مِن تَهديدِهم بعَذابِ الدُّنيا الَّذي في قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٢٨).

بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦] الآياتِ، إلى الوعيدِ بعَذابِ الآخرةِ، فإنِ استَخفُّوا بما حلَّ بالأُمَمِ قبْلَهم أو أُمهِلوا، فأُخِّرَ عنهم العذابُ في الدُّنيا؛ فإنَّ عَذابًا لا مَحيصَ لهم عنه يَنتظِرُهم يومَ القيامةِ حِينَ يَتذكَّرون قسْرًا، فلا يَنفَعُهم التَّذكُّرُ، ويَندَمون وَلاتَ ساعةَ مَندَمٍ[١].

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١﴾.

أي: ما هكذا ينبغي أن يكونَ الأمرُ؛ فارجِعوا عن انكِبابِكم على الدُّنيا الفانيةِ الَّتي لا يَبقى منها ولا مِن مَتاعِها شَيءٌ؛ فإنَّه إذا وقع دَكُّ الأرضِ يومَ القيامةِ ورَجُّها وزلزلتُها مرَّةً بَعْدَ مرَّةٍ، يَنهَدِمُ كُلُّ ما عليها، وتُصبِحُ أرضًا مُستويةً[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ۝ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥].

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾.

أي: وجاء ربُّك -يا محمَّدُ- إلى المحشَرِ لحِسابِ عبادِه والقَضاءِ بيْنَهم مَجيئًا يَليقُ بجلالِه وعَظَمتِه، وجاءت الملائِكةُ صُفوفًا صَفًّا بعدَ صَفٍّ، خاضِعينَ للهِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ١٦٦)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ١٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٩-٢٠١).

قال ابنُ كثير: (ذلك بَعْدَما يَستشفِعونَ إليه بسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ على الإطلاقِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بعدَما يَسألونَ أُولي العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ واحِدًا بعدَ واحدٍ، فكُلُّهم يقولُ: لستُ بصاحِبِ =

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾.

أي: وجيءَ يومَ القيامةِ بنارِ جَهنَّمَ[1].

كما قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۞ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١١، ١٢].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

= ذاكم، حتَّى تنتهيَ النَّوبةُ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيقولُ: «أنا لها، أنا لها». فيذهَبُ فيَشفَعُ عندَ اللهِ في أن يأتيَ لفَصلِ القَضاءِ، فيُشَفِّعُه اللهُ في ذلك [يُنظر: البخاري «٧٥١٠»، ومسلم «١٩٣»]، وهي أوَّلُ الشَّفاعاتِ، وهي المقامُ المحمودُ... فيجيءُ الرَّبُّ تعالى لفَصلِ القَضاءِ كما يشاءُ، والملائكةُ يَجيئونَ بيْن يدَيه صُفوفًا صُفوفًا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٩).

وقال ابنُ عاشور: (﴿صَفًّا﴾ الأوَّلُ حالٌ مِنَ المَلَكِ، و﴿صَفًّا﴾ الثَّاني لم يختَلِفِ المفَسِّرونَ في أنَّه مِنَ التَّكريرِ المرادِ به التَّرتيبُ والتَّصنيفُ، أي: صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ، أو خَلْفَ صَفٍّ، أو صِنفًا مِنَ الملائكةِ دونَ صِنفٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠١).

وسلَّم: ((يُؤْتَى بجَهنَّمَ يومَئِذٍ لها سَبْعونَ ألْفَ زِمامٍ[١]، مع كُلِّ زِمامٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَها))[٢].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

أي: في ذلك اليَومِ يَتذَكَّرُ الإنسانُ عِصيانَه وطُغيانَه، وما فاته مِنَ العَمَلِ الصَّالحِ؛ فلا تَنفَعُه ذِكْراه، ولا يَنفَعُه الإيمانُ والتَّوبةُ لِمولاه[٣].

---

(١) الزِّمامُ: ما يُزَمُّ به الشَّيءُ، أي: يُشَدُّ ويُربَطُ. يُنظر: ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) للقرطبي (٧/ ١٨٦).

(٢) رواه مسلم (٢٨٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٢).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ: يتذَكَّرُ أعمالَه في الدُّنيا وعِصيانَه وطُغْيانَه، وتفريطَه في طاعةِ اللهِ وما يُقَرِّبُ إليه مِنَ العَمَلِ الصَّالحِ: ابنُ جريرٍ، ومَكِّيٌّ، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثيرٍ، والعُلَيميُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٧٣).

وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يتَّعِظُ ويَتوبُ. وممَّن اختاره: الواحِديُّ، والبَغَويُّ، وابنُ الجَوزيِّ، والخازِنُ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٨).

وممَّن قال مِنَ السَّلَفِ: إنَّ المرادَ التَّوبةُ: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥١٢).

واقتَصَر السَّمَرْقَنديُّ، والسَّمْعانيُّ، والنَّسَفيُّ على تفسيرِ التَّذَكُّرِ بالاتِّعاظِ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤١).

وقال الشوكاني: (يتذكَّرُ الإنسانُ، أي: يتَّعِظُ ويَذكُرُ ما فَرَط منه، ويَندَمُ على ما قَدَّمَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٥). =

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾.

أي: يَقولُ: يا لَيْتَني قَدَّمْتُ في الدُّنيا أعمالَ الخَيرِ والبِرِّ والطَّاعةِ لحياتي الأبَديَّةِ في الآخِرةِ، فألقَى فيها ثَوابَها[1]!

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

= وقال ابنُ عثيمين: (يتذَكَّرُ أنَّه وُعِدَ بهذا اليومِ، وأنَّه أُعلِمَ به مِن قِبَلِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأُنذِروا وخُوِّفوا، ولكِنْ مَن حَقَّت عليه كَلِمةُ العذابِ فإنَّه لا يُؤمِنُ ولو جاءَتْه كُلُّ آيةٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٢).

وقال ابنُ جُزَي: (والإنسانُ هنا جِنسٌ، وقيل: يعني: عُتْبَةَ بنَ رَبيعةَ، وقيل: أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ هذا على حَذْفٍ تقديرُه: أنَّى له الانتِفاعُ بالذِّكْرى، كما تقولُ: نَدِمَ حينَ لم تنفَعْه النَّدامةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨١).

ممَّن نَصَّ على أنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا الكافِرُ: السمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٣).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿لَا يُعَذَّبُ﴾ ﴿وَلَا يُوثَقُ﴾ بفَتحِ الذَّالِ والثَّاءِ، أي: لا يُعَذَّبُ أحَدٌ مِثلَ عَذابِ هذا الصِّنفِ مِنَ النَّاسِ، وكذا لا يُوثَقُ وَثاقَه أحَدٌ(١).

٢- قِراءةُ: ﴿لَّا يُعَذِّبُ﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ بكَسرِ الذَّالِ والثَّاءِ. قيل: المعنى: لا يعذِّبُ أحدٌ في الدُّنيا مِثلَ عَذابِ اللهِ في الآخِرةِ، ولا يُوثِقُ أحدٌ مِثلَ وَثاقِ اللهِ لأهلِ النَّارِ. وقيل: أي: لا يتولَّى يومَ القيامةِ عَذابَ اللهِ أحدٌ غَيْرُه؛ فالمُلْكُ له وَحْدَه، وملائِكةُ العَذابِ يَأْتَمِرونَ بأمْرِه في تعذيبِ الكافِرينَ وأَسْرِهم في القُيودِ(٢).

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فيَومَ القيامةِ لا يُعَذِّبُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ عَذابِ اللهِ في الآخِرةِ؛ فلا أحَدَ أشَدُّ عَذابًا منه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٤].

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) قرأ بها الكِسائيُّ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٤٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٦٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٤٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٦٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩، ٣٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٣).

أي: ولا يُوثِقُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ وَثاقِ اللهِ في الآخِرةِ لأهلِ النَّارِ؛ فلا أحَدَ أشَدُّ وَثاقًا منه[١].

كما قال تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾ [الإنسان: ٤].

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر حالَ مَن كانت هِمَّتُه الدُّنيا فاتَّهم اللهَ في إغنائِه وإفقارِه؛ ذَكَر حالَ مَن اطمأنَّت نَفْسُه إلى اللهِ تعالى، فسَلَّم لأمْرِه، واتَّكَل عليه[٢].

وأيضًا لَمَّا استَوعَبَ ما اقتَضاهُ المقامُ مِن الوعيدِ والتَّهديدِ والإنذارِ؛ ختَمَ الكلامَ بالبِشارةِ للمؤمنينَ الَّذين تَذكَّروا بالقرآنِ واتَّبَعوا هَدْيَه، على عادةِ القرآنِ في تَعقيبِ النِّذارةِ بالبِشارةِ والعكسِ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يَزيدُ رَغبةَ النَّاسِ في فِعلِ الخَيرِ، ورَهبتَهم مِن أفعالِ الشَّرِّ[٣].

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

أي: يُقالُ[٤]: يا أيَّتُها النَّفْسُ المُطمَئِنَّةُ بالإيمانِ، الموقِنةُ باللهِ وبوَعْدِه، الثَّابِتةُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٠).

(٤) قال الزَّمخشري: (أي: يقولُ اللهُ للمُؤمِنِ: يا أيَّتُها النَّفْسُ، إمَّا أن يُكَلِّمَه إكرامًا له... أو على لِسانِ مَلَكٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٢).

الحَقِّ[١].

﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾.

أي: ارجِعي إلى اللهِ الَّذي ربَّاك بنِعَمِه وفَضْلِه، راضيةً باللهِ وثَوابِه، مَرْضِيَّةً عندَ اللهِ تعالى[٢].

كما قال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [البينة: ٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٧)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤).

قال الزمخشري: (فإنْ قُلْتَ: متى يُقالُ لها ذلك؟ قُلتُ: إمَّا عندَ الموتِ، وإمَّا عندَ البَعثِ، وإمَّا عندَ دُخولِ الجنَّةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ ذلك يقالُ عندَ البَعثِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والخازنُ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ ذلك يقالُ عندَ الموتِ: الواحِديُّ، وابنُ جُزَي، والعُلَيميُّ، وابنُ عُثَيمين، ونَسَبه ابنُ الجَوزيِّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٤).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٦٩).

وممَّن قال بكِلا القولَينِ: ابنُ القَيِّم، وابنُ كَثيرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: زَيدُ بنُ أسلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٧).

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبدَ المؤمِنَ إذا كان في انقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا وإقبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهم الشَّمسُ، معهم كَفَنٌ مِن أكفانِ الجَنَّةِ، وحَنُوطٌ[١] مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجلِسوا مِنه مَدَّ البَصَرِ[٢]، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ حتَّى يَجلِسَ عندَ رَأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخرُجي إلى مَغفرةٍ مِنَ اللهِ ورِضوانٍ، فتَخرُجُ تَسيلُ كَما تَسيلُ القَطرةُ مِن فِي السِّقاءِ، فيَأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَأخُذوها فيَجعَلوها في ذَلِك الكَفَنِ وفي ذَلِك الحَنُوطِ، ويَخرُجُ مِنها كأَطيبِ نَفحةٍ[٣] مِسكٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ، فيَصعَدونَ بِها، فَلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنتَهوا بها إلى السَّماء الدُّنيا، فيَستَفتِحونَ له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها، حتَّى يُنتَهَى به إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: اكتُبوا كِتابَ عَبدي في عِلِّيِّينَ، وأعيدُوه إلى الأَرضِ؛ فإنِّي منها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومِنها أُخرِجُهم تارةً أُخرى))[٤].

---

(١) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٦).

(٢) مَدَّ البَصَرِ: أي: قريبًا منه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٦)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٤).

(٣) النَّفحةُ: المرَّةُ مِن نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحَتِه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).

(٤) أخرجه ابنُ أبي شَيْبَةَ في ((المصنَّف)) (١٢٠٥٩)، وأحمدُ (١٨٥٣٤)، والطَّيالِسيُّ (٧٨٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقارِبةٍ.

صحَّحَ إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وصحَّحَ الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨)، وحسَّنه المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠).

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾.

أي: فادخُلِي في جُملةِ عِبادي الصَّالِحينَ الطَّائِعينَ وفي زُمْرتِهم، وادْخُلي جَنَّتي معهم[(١)].

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ دليلٌ على أنَّ الحياةَ الَّتي ينبغي السَّعيُ في أصلِها وكَمالِها، وفي تتميمِ لَذَّاتِها: هي الحياةُ في دارِ القَرارِ؛ فإنَّها دارُ الخُلْدِ والبَقاءِ[(٢)]، فالحياةُ الحقيقيَّةُ هي حياةُ الآخرةِ، ولذلك يقولُ الكافِرُ يومَ القيامةِ: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾؛ فالحياةُ الدُّنيا ليست حياةً، ووجْهُ ذلك:

أوَّلًا: لأنَّها مُنَغَّصةٌ؛ فكُلُّ صَفْوِها كَدَرٌ.

وثانيًا: أنَّها غيرُ باقيةٍ.

وثالثًا: أنَّ الإنسانَ مُهَدَّدٌ فيها، فلا يدري متى يجيئُه أَجَلُه صُبحًا أو مساءً، وكم مِن إنسانٍ خَرَجَ مِن أهلِه ولم ترجِعْ إلَّا جُثَّتُه! وكم مِن إنسانٍ على كُرسِيِّه فَجَأَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١، ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٩)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤).

الموتُ، فلم يُكْمِلِ الكتابةَ الَّتي يَخُطُّها بيَمينِه! ولهذا يقولُ الشَّاعرُ:

«لا طِيبَ للعَيــشِ ما دامتْ مُنغَّصَةً لَذَّاتُــه بــادِّكارِ المَــوتِ والهَــرَمِ»

فمهما طالتْ بك الحياةُ فسوف تَهرَمُ وتَدَعُ هذا العَيشَ الطَّيِّبَ، أو تموتُ فلا تبقى لهذا العَيشِ أصلًا[١]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أنَّه على المسلِمينَ أن يَحذَروا عِقابَ اللهِ، ولا يتعَرَّضوا لسَخَطِ اللهِ الموجِبِ لعِقابِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يُعَذِّبُ عَذابَه أحَدٌ، ولا يُوثِقُ وَثاقَه أحَدٌ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾ أضافها اللهُ سُبحانَه إلى نفْسِه؛ للدَّلالةِ على شَرَفِها وعنايةِ اللهِ بها، وهذا يُوجِبُ للإنسانِ أنْ يَرغَبَ فيها غايةَ الرَّغبةِ، كما أنَّه يَرغَبُ في بُيوتِ اللهِ -الَّتي هي المساجدُ-؛ لأنَّ اللهَ أضافَها إلى نفْسِه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ سؤالٌ: أنَّ هذا يُوهِمُ أنَّه مَلَكٌ واحِدٌ، وقَولُه: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ يقتضي أنَّه غَيرُ مَلَكٍ واحِدٍ، بل صفوفٌ مِن جماعاتِ الملائكةِ؟

الجوابُ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ معناه: والملائِكةُ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾[٤] [الحاقة: ١٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٢، ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٦٢).

نظيرُ قَولِه في سورةِ (البقرةِ): ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وهي حُجَّةٌ خانِقةٌ لهم، شَديدةٌ عليهم[١]. والقاعِدةُ في أسماءِ اللهِ وصِفاتِه: أنَّ كُلَّ ما أسنده اللهُ إلى نَفْسِه فهو له نَفْسِه لا لغَيرِه، فنُجري كلامَ اللهِ تعالى ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ظاهِرِه، ولا نُحَرِّفُ فيه، وعلى هذا فالَّذي يأتي هو اللهُ عزَّ وجَلَّ، وليس كما حَرَّفه أهلُ التَّعطيلِ؛ حيث قالوا: إنَّه جاء أمرُ اللهِ! فإنَّ هذا إخراجٌ للكلامِ عن ظاهِرِه بلا دَليلٍ، فاللهُ تعالى يجيءُ يومَ القيامةِ هو نَفْسُه، ولكِنْ كيف هذا المجيءُ؟ هذا هو الَّذي لا عِلْمَ لنا به، لا ندري كيف يَجيءُ، والسُّؤالُ عن مِثْلِ هذا بِدْعةٌ، كما قال الإمامُ مالِكٌ رحمه الله[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ دَلالةٌ على قِيامِ الأفعالِ الاختياريَّةِ باللهِ تعالى[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ جوازُ إتيانِ الحالِ مِنَ المعطوفِ فقط دونَ المعطوفِ عليه[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ أنَّ النَّفْسَ في القرآنِ قد تُطْلَقُ على الرُّوحِ وَحْدَها[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ أنَّ النَّفْسَ لا تَرْجِعُ إليه سُبحانَه إلَّا إذا كانت مُطمَئِنَّةً، فهناك

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٩).

ويُنظر أيضًا: ((الرد على الجهمية)) للدارمي (ص: ٦٦).

(٣) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٧٠).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢١٧).

ترجِعُ إليه، وتَدخُلُ في عبادِه، وتَدخُلُ جنَّتَه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۞ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۞ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۞ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾

- ﴿كَلَّآ﴾ ردْعٌ لهم عن الأعمالِ المَعدودةِ قبْلَه، وإنكارٌ لفِعلِهم[٢].

- وقولُه: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا...﴾ استئنافٌ جِيءَ به بطَريقِ الوعيدِ تَعليلًا للرَّدعِ[٣].

- وقولُه: ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ أوَّلُهما مَنصوبًا على المفعولِ المطلَقِ المُؤكِّدِ لفِعلِه، ولعلَّ تَأكيدَه هنا؛ لأنَّ هذه الآيةَ أوَّلُ آيةٍ ذُكِرَ فيها دكُّ الجِبالِ، وإذ قد كان أمرًا خارقًا للعادةِ، كان المقامُ مُقتضيًا تَحقيقَ وُقوعِه، فأُكِّدَ مَرَّتينِ هنا، ولم يُؤكَّدْ نَظيرُه في قولِه: ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ في سُورةِ الحاقةِ [١٤]؛ فقولُه: ﴿دَكًّا﴾ الأوَّلُ مَقصودٌ به تَحقيقُ الوُقوعِ. و﴿دَكًّا﴾ الثَّاني مَنصوبٌ على التَّوكيدِ اللَّفظيِّ لـ ﴿دَكًّا﴾ الأوَّلِ؛ لزِيادةِ تَحقيقِ إرادةِ مَدلولِ الدَّكِّ؛ لأنَّ دكَّ الأرضِ العَظيمةِ أمرٌ عَجيبٌ، فلِغرابتِه اقْتَضى إثباتُه زِيادةَ تَحقيقٍ لمعْناهُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٦).

ويَجوزُ أنْ يكونَ مَجموعُ المَصدرينِ ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ في تَأويلِ مُفرَدٍ مَنصوبٍ على المفعولِ المُطلَقِ المُبيِّنِ للنَّوعِ، وتَأويلُه: أنَّه دكٌّ يَعقُبُ بَعضُه بعضًا، كما تَقولُ: قرَأتُ الكتابَ بابًا بابًا، والعرَبُ تقولُ الشَّيءَ مرَّتينِ، فتَستوعِبُ تَفصيلَ جِنسِه باعتبارِ المعْنى الَّذي دلَّ عليه لَفظُ المُكرَّرِ، فإذا قلْتَ: بيَّنْتُ له الكتابَ بابًا بابًا، فمعْناه: بيَّنْتُه له مُفصَّلًا باعتبارِ أبوابِه، فالتَّكرارُ للدَّلالةِ على الاستيعابِ وليس للتَّأكيدِ، وهذا الوجْهُ أوْفَى بحقِّ البلاغةِ؛ فإنَّه معْنًى زائدٌ على التَّوكيدِ، والتَّوكيدُ حاصلٌ بالمَصدرِ الأوَّلِ. أو الدَّكُّ كِنايةٌ عن التَّسويةِ؛ لأنَّ التَّسويةَ مِن لَوازمِ الدَّكِّ، أي: صارتِ الجِبالُ مع الأرضِ مُستوياتٍ لم يَبْقَ فيها نُتوءٌ[1].

- قولُه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ المَلَكُ: اسمُ جِنسٍ، وتَعريفُه تَعريفُ الجِنسِ، فيُرادِفُه الاستغراقُ، أي: والملائكةُ[2].

- قولُه: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ ليس للتَّأكيدِ؛ إذِ المرادُ صفًّا بَعْدَ صفٍّ، أي: صفًّا يتلوه صَفٌّ[3].

- وفي قولِه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ إنَّما اقتُصِرَ على ذِكرِ جهنَّمَ؛ لأنَّ المقصودَ في هذه السُّورةِ وَعيدُ الَّذين لم يَتذكَّروا، وإلَّا فإنَّ الجنَّةَ أيضًا مُحضَرةٌ يَومَئذٍ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١١)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٥).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٣).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٩٠ وص: ٢٩٣).

قال الله تبارك وتعالَى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾[١] [الشعراء: ٩٠، ٩١].

- قولُه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الأوَّلُ مُتعلِّقٌ بفِعلِ (جِيءَ)، والتَّقديرُ: وجِيءَ يومَ تُدَكُّ الأرضُ دكًّا دكًّا... إلى آخِرِه، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الثَّاني بدَلٌ مِن ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾، والمعْنى: يومَ تُدَكُّ الأرضُ دكًّا... إلى آخِرِه، يَتذكَّرُ الإنسانُ، والعاملُ في البدَلِ والمُبدَلِ منه معًا فِعلُ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، وتَقديمُه للاهتِمامِ، مع ما في الإطنابِ مِن التَّشويقِ؛ ليَحصُلَ الإجمالُ ثمَّ التَّفصيلُ، مع حُسنِ إعادةِ ما هو بمعْنى (إذا)؛ لزِيادةِ الرَّبطِ؛ لطُولِ الفصْلِ بالجُمَلِ الَّتي أُضِيفَ إليها (إذا)[٢].

- قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الإنسانُ هنا: قيل: هو الإنسانُ الكافرُ، وهو الَّذي تَقدَّمَ ذِكرُه في قولِه تبارك وتعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [الفجر: ١٥] الآيةَ، فهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لبُعدِ مَعادِ الضَّميرِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وجُملةِ ﴿يَقُولُ ...﴾ إلخ؛ جِيءَ به لتَحقيقِ أنَّه ليس يَتذكَّرُ حَقيقةً؛ لعَرائِه عن الجَدوَى بعدَمِ وُقوعِه في أوانِه[٤].

- ولَفظُ ﴿وَأَنَّىٰ﴾ اسمُ استِفهامٍ بمعْنى: أيْن له الذِّكرى؟ وهو استِفهامٌ مُستعمَلٌ في الإنكارِ والنَّفيِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩).

- قولُه: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ فيه حذْفُ مُضافٍ، أي: ومِن أينَ له مَنفعةُ الذِّكرى[١]؟!

- قولُه: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ الجُملةُ بدَلُ اشتِمالٍ[٢] مِن جُملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾. أو استِئنافٌ وَقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ نَشَأَ منه، كأنَّه قيل: ماذا يقولُ عندَ تَذَكُّرِه[٣]؟ فإنَّ جُمْلةَ ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ قولًا باللِّسانِ تحسُّرًا وتَندُّمًا، فتَكونَ الجُملةُ حالًا مِن ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، أو بدَلَ اشتمالٍ مِن جُملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾؛ فإنَّ تَذكُّرَه مُشتمِلٌ على تَحسُّرٍ ونَدامةٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ قَولُه في نفْسِه، فتَكونَ الجُملةُ بَيانًا لجُملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾[٤].

- ومَفعولُ ﴿قَدَّمۡتُ﴾ مَحذوفٌ للإيجازِ[٥].

- يَحتمِلُ أنْ تكونَ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِحَيَاتِي﴾ للعِلَّةِ، أي: قدَّمْتُ الأعمالَ الصالحةَ مِن أجْلِ أنْ أحْيا في هذه الدَّارِ، والمرادُ: الحياةُ الكاملةُ السَّالِمةُ مِن العَذابِ؛ لأنَّ حَياتَهم في العذابِ حَياةُ غِشاوةٍ وغِيابٍ؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾[٦] [الأعلى: ١٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩).

- وحرْفُ النِّداءِ في قولِه: ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ للتَّنبيهِ؛ اهتِمامًا بهذا التَّمنِّي في يومِ وُقوعِه[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۞ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾

- المقصودُ مِن الكلامِ هو قولُه: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ وقولُه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، وأمَّا ما سبَقَ مِن قولِه: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ إلى قولِه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾؛ فهو تَوطئةٌ وتَشويقٌ لسَماعِ ما يَجيءُ بعْدَه، وتَهويلٌ لشَأنِ ذلك اليومِ، وهو الوقتُ الَّذي عُرِّف بإضافةِ جُملةِ ﴿دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ وما بعْدَها مِن الجُمَلِ، وقد عُرِّفَ بأشراطِ حُلولِه وبما يَقَعُ فيه مِن هَولِ العِقابِ[٢].

- والتَّنوينُ في (يومَئذٍ) عِوَضٌ عن جُملةٍ تُفيدُ ما تَقدَّمَ مِن هَولِ الموقفِ[٣].

- قولُه: ﴿أَحَدٞ﴾ في الموضعينِ فاعلُ ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿يُوثِقُ﴾، و﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ مِن إضافةِ المصدرِ إلى مَفعولِه، والضَّميرُ قيل: هو عائدٌ إلى الإنسانِ في قولِه: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، وهو مَفعولٌ مُطلَقٌ مُبيِّنٌ للنَّوعِ على معْنى التَّشبيهِ البليغِ، أي: عَذابًا مِثلَ عَذابِه، وانتفاءُ المُماثلةِ في الشِّدَّةِ، أي: يُعذِّبُ عَذابًا هو أشدُّ عَذابٍ يُعَذَّبُه العُصاةُ، أي: عَذابًا لا نَظيرَ له في أصْنافِ عَذابِ المُعذَّبين. و(أحدٌ) يُستعمَلُ في النَّفيِ لاستغراقِ جِنسِ الإنسانِ، (فأحدٌ) في سِياقِ النَّفيِ يعُمُّ كلَّ أحدٍ؛ فانحصَرَ الأحدُ المُعذِّبُ -بكسْرِ الذَّالِ- في فرْدٍ، وهو اللهُ تعالَى. وانتصابُ ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ كانتصابِ ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ لمعْنى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٦).

التَّشبيهِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ * فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾

- اتِّصالُ هذه الآيةِ بالآياتِ الَّتي قبْلَها في التِّلاوةِ وكِتابةِ المصحفِ، الأصلُ فيه أنْ تكونَ نَزَلَتْ مع الآياتِ الَّتي قبْلَها في نسَقٍ واحدٍ، وذلك يَقْتضي أنَّ هذا الكلامَ يُقالُ في الآخرةِ؛ فيَجوزُ أنْ يُقالَ يومَ الجَزاءِ، فهو مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ هو جَوابُ (إذا) في ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [الفجر: ٢١] الآيةَ، وما بيْنَهما مُستطرَدٌ واعتراضٌ، فهذا قولٌ يَصدُرُ يومَ القِيامةِ مِن جانبِ القُدسِ مِن كَلامِ اللهِ تعالَى، أو مِن كَلامِ الملائكةِ؛ فإنْ كان مِن كَلامِ اللهِ تعالَى، كان قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ، بقَرينةِ تَفريعِ ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ عليه، ونُكتةُ هذا الإظهارِ ما في وصْفِ (ربّ) مِن الولاءِ والاختصاصِ، وما في إضافتِه إلى ضَميرِ النَّفْسِ المُخاطَبةِ مِن التَّشريفِ لها، وإنْ كان مِن قولِ الملائكةِ فلَفْظُ ﴿رَبِّكِ﴾ جَرى على مُقْتضى الظَّاهرِ، وعطْفُ ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ عطْفُ تَلقينٍ يَصدُرُ مِن كَلامِ اللهِ تعالَى؛ تَحقيقًا لقولِ الملائكةِ: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ الآيةُ استِئنافًا ابتدائيًّا جَرَى على مُناسَبةِ ذِكرِ عَذابِ الإنسانِ المشرِكِ، فتكونَ خِطابًا مِن اللهِ تعالَى لنُفوسِ المؤمنينَ المُطمئنَّةِ[٢].

- والمُطمئنَّةُ: يجوزُ أنْ يكونَ مِن سُكونِ النَّفْسِ بالتَّصديقِ لِما جاء به القرآنُ دونَ تَردُّدٍ ولا اضطرابِ بالٍ، فيكونَ ثَناءً على هذه النَّفْسِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩، ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٠، ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٢).

- ووَصْفُ النَّفسِ بالمُطمئنَّةِ ليس وَصْفًا للتَّعريفِ ولا للتَّخصيصِ، أي: لتَمييزِ المُخاطَبينَ بالوصْفِ الَّذي يُميِّزُهم عمَّن عَداهم، فيَعرِفون أنَّهم المُخاطَبونَ المَأْذونونَ بدُخولِ الجنَّةِ؛ لأنَّهم لا يَعرِفون أنَّهم مُطمئنُّونَ إلَّا بعْدَ الإذنِ لهم بدُخولِ الجنَّةِ، فالوصْفُ مُرادٌ به الثَّناءُ، والإيماءُ إلى وَجْهِ بناءِ الخبَرِ، وتَبشيرُ مَن وُجِّهَ الخِطابُ إليهم بأنَّهم مُطمئنُّونَ آمنونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ للتَّعريفِ، أو التَّخصيصِ بأنْ يَجعَلَ اللهُ إلهامًا في قُلوبِهم يَعرِفون به أنَّهم مُطمئنُّون[(١)].

- والأمرُ في ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ مُرادٌ منه تَقييدُه بالحالَينِ بعْدَه؛ وهما ﴿رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾، وهو مِن استِعمالِ الأمرِ في الوعْدِ. والإضمارُ في قولِه: ﴿فِي عِبَٰدِي﴾ وقولِه: ﴿جَنَّتِي﴾ الْتفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ[(٢)].

- والرَّاضيةُ: الَّتي رَضِيت بما أُعطِيَتْه مِن كَرامةٍ، وهو كِنايةٌ عن إعطائِها كلَّ ما تَطمَحُ إليه[(٣)].

- والمَرضيَّةُ: اسمُ مَفعولٍ، وأصْلُه: مَرضيًّا عنها، فوَقَعَ فيه الحذْفُ والإيصالُ[(٤)]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٣).

(٤) الحذفُ والإيصالُ: هو حذْفُ حرفِ الجرِّ لتضمُّنِ الفعلِ معنى فِعلٍ مُتعَدٍّ، وهو ما يُعرَفُ عندَ النُّحاةِ بنزْعِ الخافِضِ، وهذا مِن أَسَدِّ وأَدمثِ مذاهبِ العربيَّةِ؛ وذلك أنَّه موضعٌ يَملِكُ فيه المعنى عِنانَ الكلامِ فيأخُذُه إليه، ويُصرِّفُه بحسَبِ ما يُؤثِرُه عليه، مِثلُ قولِه تعالَى: ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ [يس: ٦٦]؛ فتعديةُ فِعلِ الاستباقِ إليه على حذْفِ (إلى) بطريقةِ الحذفِ والإيصالِ، أو على تَضمينِ (استَبَقوا) معنى (ابْتَدَروا)، أي: ابتَدَروا الصِّراطَ مُتسابقينَ، أي: مُسرِعينَ لِمَا دهمَهم؛ رجاءَ أن يَصِلوا إلى بُيوتِهم قبْلَ أنْ يَهلِكوا فلمْ يُبصِروا الطَّريقَ، ومِثلُ قولِه عزَّ اسمُه: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي: مِن قومِه. يُنظر: ((المحتسب)) لابن جنِّي (١/ ٥١)، ((الإيضاح)) للقزويني (٢/ ١٧٣)، ((السماع والقياس)) لأحمد تَيْمور باشا (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢) و(٢٧/ ٣٢٠).

فصار نائبَ فاعلٍ بدونِ حرْفِ الجرِّ، والمقصودُ مِن هذا الوصفِ زِيادةُ الثَّناءِ مع الكِنايةِ عن الزِّيادةِ في إفاضةِ الإنعامِ؛ لأنَّ المَرْضيَّ عنه يَزيدُه الرَّاضي عنه مِن الهِباتِ والعَطايا فوقَ ما رَضِيَ به هو[١].

- وفُرِّعَ على هذه البُشرَى الإجماليَّةِ تَفصيلُ ذلك بقولِه: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾، فهو تَفصيلٌ بعْدَ الإجمالِ؛ لتَكريرِ إدْخالِ السُّرورِ على أهْلِها، والمعْنى: ادخُلي في زُمرةِ عِبادي، والمرادُ العِبادُ الصَّالحونَ؛ بقَرينةِ مَقامِ الإضافةِ، مع قَرْنِه بقولِه: ﴿جَنَّتِي﴾[٢].

- وإضافةُ (جنَّة) إلى ضَميرِ الجَلالةِ إضافةُ تَشريفٍ، وهذه الإضافةُ هي ممَّا يَزيدُ الالتفاتَ إلى ضَميرِ التَّكلُّمِ حُسنًا بعْدَ طَريقةِ الغَيبةِ بقولِه: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾[٣].

- وفيه تَكريرُ فِعلِ ﴿وَٱدۡخُلِي﴾، حيثُ لم يقلْ: (فادْخُلي جنَّتي في عِبادي)؛ للاهتِمامِ بالدُّخولِ بخُصوصِه؛ تَحقيقًا للمَسَرَّةِ لهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَفْسيرُ

سُورَةِ البَلَدِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ البَلَدِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (البَلَدِ)[١].

بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ البَلَدِ مَكِّيَّةٌ[٢]، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

ذِكرُ طبيعةِ الدُّنيا وما يُعانيه الإنسانُ فيها مِن مُكابَدةٍ للشَّدائدِ، وما يُوصلُه إلى السَّعادةِ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- التَّنويهُ بشَأنِ مَكَّةَ.

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ: افتِتاحُها بقَولِ اللهِ تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٥).

وتُسمَّى أيضًا سورةَ ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾، وسورةَ ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، وسورةَ (العَقَبةِ). يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ٣٦٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٥).

(٢) وقيل: مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (٧/ ١١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٤).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزيِّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٥)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٠١).

٢- ما ابتُلِيَ به الإنسانُ فى الدُّنيا مِن النَّصَبِ والتَّعَبِ.

٣- ذَمُّ الاغترارِ بالقُوَّةِ، والتَّفاخُرِ.

٤- تَعدادُ نِعَمِ اللهِ تعالى على الإنسانِ.

٥- الحَضُّ على المُداوَمةِ على فِعلِ الخَيرِ، وإصلاحِ النَّفْسِ.

٦- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ المُؤمِنينَ، وسوءِ عاقِبةِ الكُفَّارِ.

الآيات (١-١٠)

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حِلُّۢ﴾: أي: حَلالٌ تَصنَعُ فيه ما تُريدُ مِنَ القَتلِ والأَسْرِ. وقيل: حالٌّ ساكِنٌ به، وأصلُ (حلل): يدُلُّ على فَتحِ الشَّيءِ[١].

﴿كَبَدٍ﴾: أي: مَشقَّةٍ وتَعَبٍ ومُكابَدةٍ لأُمورِ الدُّنيا والآخِرةِ، وأصلُ (كبد): يدُلُّ على شِدَّةٍ في شَيءٍ وقُوَّةٍ[٢].

﴿لُّبَدًا﴾: أي: كثيرًا مجتَمِعًا بَعضُه على بَعضٍ، مِن: تلَبَّدَ الشَّيءُ على الشَّيءِ، أي: تجَمَّعَ، وأصلُ (لبد): يدُلُّ على تكَرُّسِ الشَّيءِ بَعضِه فوقَ بَعضٍ[٣].

﴿ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾: أي: الطَّريقَينِ؛ طَريقَ الخَيرِ، وطريقَ الشَّرِّ، والنَّجْدُ: الطَّريقُ في ارتِفاعٍ. وكلُّ عَالٍ مِنَ الأرضِ: نَجْدٌ، وأصلُ (نجد): يدُلُّ على اعتِلاءٍ وإشرافٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٣)، =

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ قائلًا: أُقسِمُ بالبَلَدِ الحَرامِ العَظيمِ القَدْرِ، وهو مَكَّةُ المكَرَّمةُ، والحالُ أنَّك -يا محمَّدُ- حلالٌ به يحِلُّ لك ما يَحرُمُ على غيرِك مِن القتالِ فيه، وأُقسِمُ بوالِدٍ وبوَلَدِه؛ لقد خلَقْنا الإنسانَ في تَعَبٍ وشِدَّةٍ مِن أوَّلِ حياتِه إلى مَوتِه.

ثمَّ قال تعالى: أيَظُنُّ الإنسانُ أنَّه لن يَقهَرَه ويَغلِبَه أحَدٌ؟ يَقولُ وقد بَذَّر أموالَه في الباطِلِ وفي شَهَواتِه: أنفَقْتُ مالًا كَثيرًا! أيظُنُّ أنَّ اللهَ لم يَرَه حالَ إنفاقِ أموالِه في الباطِلِ؟

ثمَّ ذكَرَ اللهُ تعالى جانبًا مِن مَظاهِرِ نِعَمِه، فقال: ألم نجعَلْ له عينَينِ يُبصِرُ بهما، ولِسانًا وشفَتينِ؟ وبَيَّنَّا له طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بهذا البَلَدِ الحَرامِ العَظيمِ القَدْرِ، وهو مَكَّةُ المكَرَّمةُ[1].

= ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٠).

قال السَّمْعانيُّ: (قَولُه تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ معناه: أُقسِمُ، و«لا» صِلَةٌ. قال الفرَّاءُ: وهو على مَذهَبِ كَلامِ العَرَبِ، يَقولونَ: لا واللهِ لا أفعَلُ كذا، أي: واللهِ. وكذلك: لا واللهِ لَأَفْعَلَنَّ كذا، أي: واللهِ، فيجوزُ أن تكونَ «لا» صِلةً، ويجوزُ أن يكونَ رَدًّا لقَولٍ سابقٍ، وابتِداءُ القَسَمِ مِن قَولِه: واللهِ، فكذلك قَولُه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ يجوزُ أن يكونَ «لا» صِلَةً، ويجوزُ أن يكونَ رَدًّا لزَعْمِهم مِن إنكارِ البَعْثِ أو إنكارِ نُبُوَّةِ الرَّسُولِ، والقَسَمُ مِن قَوْلِه: ﴿أُقۡسِمُ﴾، وقال الفرَّاءُ: هذا الثَّاني أَولى). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٢٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٧)، ويُنظر أيضًا ما =

كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين: ٣].

﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢﴾.

أي: أُقسِمُ بمكَّةَ والحالُ أنَّك -يا محمَّدُ- حلالٌ به في المُستقبَلِ مِن الزَّمانِ؛ يحِلُّ لك ما يَحرُمُ على غيرِك مِن القِتالِ فيها[1].

= يأتي في الفوائد (ص: ٣٢٥ - ٣٢٦).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ أي: أُقسِمُ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والماوَرْديُّ، والسمعاني، والزمخشري، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، وابن عاشور، وابن عثيمين. ومِنهم مَن نَصَّ على أنَّ (لا) صِلَةٌ مُؤكِّدةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٠).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾: ﴿لَآ﴾ للاستِفتاحِ، أي: استفتاحِ الكلامِ وتوكيدِه، وليست نافيةً؛ لأنَّ المرادَ إثباتُ القَسَمِ، يعني: أنا أُقسِمُ بهذا البلَدِ، لكِنْ «لا» هذه تأتي هنا للتَّنبيهِ والتَّأكيدِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٠).

وقال الواحديُّ: (أجمَعَ المفَسِّرونَ على أنَّ هذا قَسَمٌ بالبلَدِ الحَرامِ، وهو مكَّةُ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٨٨).

وممَّن نَقَل اتِّفاقَ المُفَسِّرينَ على ذلك أيضًا: ابنُ عطيَّةَ، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، والخازنُ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٨).

ونسَبَه مكِّيٌّ إلى قولِ أكثَرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٧).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: وأنت -يا محمَّدُ- في المستقبَلِ حلالٌ في مكَّةَ، يحِلُّ لك ما يَحرُمُ على غيرِك مِن القِتالِ فيها، فيكونُ في هذا إشارةٌ إلى فتحِ مكَّةَ، وأنَّ اللهَ سيُحِلُّ لنبيِّه القِتالَ في مكَّةَ ساعةَ الفَتحِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، =

= والقرطبي، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وأبو صالحٍ، وعَطاءٌ، وعطيَّةُ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والحسَنُ البصريُّ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٢).

قال الرَّسْعَني: (قال ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ وجمهورُ المفسِّرينَ: المعنى: وأنت يا محمَّدُ في المُستقبَلِ مِن الزَّمانِ -ونظيرُه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]- حلالٌ بهذا البلدِ، تَصنَعُ فيه ما تَشاءُ، مِن قتْلٍ وأَسْرٍ، فيكونُ خارجًا مخرَجَ البِشارةِ له، بأنَّه سيُفتَحُ عليه، فيكونُ [فيه] حِلًّا، فظهَر أثرُ ذلك يومَ الفتحِ، وأحلَّه له ساعةً مِن النَّهارِ...). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٢٨).

وقيل: المرادُ: وأنت حالٌّ مقيمٌ بمكَّةَ. وقد استظهَر هذا المعنى: أبو حيَّانَ، وممَّن ذهب إليه: القاسميُّ، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١١). ويُنظر أيضًا: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٣٠).

قال ابن عاشور: (وهو تأويلٌ جميلٌ لو ساعَد عليه ثُبوتُ استعمالِ ﴿حِلٌّ﴾ بمعنَى: حالٌّ، أيْ: مُقيمٌ في مكانٍ، فإنَّ هذا لم يَرِدْ في كُتُبِ اللُّغةِ... ولم يُعَرِّجْ عليه صاحِبُ «الكشَّافِ»، ولا أحْسِبُ إعراضَه عنه إلَّا لِعَدَمِ ثِقَتِه بصِحَّةِ استِعْمالِه. وقال الخفاجِيُّ: «والحِلُّ: صِفَةٌ أو مَصدَرٌ بمعنَى الحالِّ هنا على هذا الوجهِ، ولا عِبْرةَ بِمَن أنْكَره لعَدَمِ ثُبوتِه في كُتُبِ اللُّغةِ». اهـ وكيف يُقالُ: لا عِبْرةَ بِعَدَمِ ثُبوتِه في كُتُبِ اللُّغةِ، وهل المَرجِعُ في إثباتِ اللُّغةِ إلَّا كُتبُ أئمَّتِها؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٤)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٣٦٢).

وقيل: المعنى: وأنت حِلٌّ عندَ المشركينَ بهذا البَلَدِ، يَستَحِلُّونَ إخراجَك وقَتْلَك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: شُرَحْبِيلُ بنُ سعدٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٠٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥١٨).

وقيل: هو نَفْيٌ للقسَمِ، والمعنى: لا أُقسِمُ بهذا البلدِ إذا لم تكُنْ فيه بعدَ خُروجِك منه. يُنظر: =

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عنه، قال: ((إِنَّ خُزاعَةَ قَتَلوا رجلًا مِن بني لَيْثٍ عامَ فَتْحِ مَكَّةَ بقَتيلٍ منهم قَتَلوه، فأُخْبِر بذلك رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فرَكِب راحِلَتَه، فخَطَب، فقالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ حَبَس عن مَكَّةَ الفيلَ، وسَلَّطَ عليها رَسولَه والمُؤْمِنينَ، ألَا وإنَّها لم تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلي، ولنْ تَحِلَّ لأحَدٍ بَعْدي، ألَا وإنَّها أُحِلَّتْ لي ساعَةً مِن النَّهارِ، ألا وإنَّها ساعَتي هذه حَرامٌ))[(١)].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عنهما، أنَّ النَّبِيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قالَ: ((إنَّ اللَّهَ حَرَّم مَكَّةَ فلم تَحِلَّ لأحَدٍ قبلي، ولا تَحِلُّ لأحَدٍ بَعْدي وإنَّما أُحِلَّتْ لي ساعَةً مِن نَهارٍ))[(٢)].

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بوالِدٍ، وأقسِمُ بوَلَدِه[(٣)].

= ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٨).

(١) رواه البخاريُّ (٦٨٨٠) ومسلمٌ (١٣٥٥).

(٢) رواه البخاريُّ (١٨٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٥، ٤٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٢).

قيل: المرادُ بالوالِدِ: آدَمُ عليه السَّلامُ، وبالوَلَدِ: ذُرِّيَّتُه. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، ونسَبَه ابنُ القَيِّمِ إلى جمهورِ المُفَسِّرينَ، واستحسَنه وقوَّاه ابنُ كثير، واختاره العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وأبو صالحٍ، والحسَنُ البصريُّ، والسُّدِّيُّ، وسُفْيانُ الثَّوريُّ، وخُصَيفٌ، وشُرَحْبِيلُ =

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾.

أي: لقد خلَقْنا الإنسانَ في تَعَبٍ وشِدَّةٍ مِن أوَّلِ حياتِه إلى مَوتِه، يُكابِدُ أُمورَ حياتِه ومَعيشتِه، وهمومَ دُنياه وآخِرتِه[1].

= ابنُ سعدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٦)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١١).

وقيل: إنَّ اللهَ أقسَمَ بكُلِّ والدٍ ووَلَدِه، فهي عامَّةٌ تَشمَلُ كُلَّ والدٍ وكُلَّ مولودٍ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، وأبو حيَّان، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٦).

قال ابنُ عاشور: (الَّذي يناسِبُ القَسَمَ بهذا البَلَدِ أن يكونَ المرادُ بـ«والدٍ» إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّه الَّذي اتَّخَذ ذلك البلَدَ لإقامةِ وَلَدِه إسماعيلَ وزَوجِه هاجَرَ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ثمَّ قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وإبراهيمُ والِدُ سُكَّانِ ذلك البلَدِ الأصليِّينَ؛ قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، ولأنَّه والِدُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ مَوصولٌ وصِلةٌ، والضَّميرُ المستَتِرُ في ﴿وَلَدَ﴾ عائِدٌ إلى «والِدٍ»، والمقصودُ: وما ولَدَه إبراهيمُ مِنَ الأبناءِ والذُّرِّيَّةِ، وذلك مخصوصٌ بالَّذين اقتَفَوا هَدْيَه، فيَشمَلُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٩).

وقيل: الوالدُ: النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لتقدُّمِ ذِكْرِه، وما ولَدَ: أُمَّتُه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٨، ٤١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٧٦).

قال ابنُ جرير: (هذا هو جوابُ القَسَم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (اختَلَف النَّاسُ في «الكَبَد»؛ فقال جمهورُ النَّاسِ: «الإنسانُ» اسمُ الجنسِ كُلِّه، و«الكَبَدُ» المشقَّةُ والمُكابَدةُ، أي: يُكابِدُ أمرَ الدُّنيا والآخِرةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٣).

وقال السعدي: (قَولُه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ يحتَمِلُ أنَّ المرادَ بذلك: ما يُكابِدُه ويُقاسيه =

= مِن الشَّدائدِ في الدُّنيا، وفي البَرزخِ، ويومَ يقومُ الأشهادُ، وأنَّه يَنبغي له أن يَسعى في عَمَلٍ يُريحُه مِن هذه الشَّدائِدِ، ويوجِبُ له الفَرَحَ والسُّرورَ الدَّائِمَ، وإن لم يَفعَلْ فإنَّه لا يَزالُ يُكابِدُ العَذابَ الشَّديدَ أبَدَ الآبادِ.

ويحتَمِلُ أنَّ المعنى: لقد خلَقْنا الإنسانَ في أحسَنِ تقويمٍ، وأقْوَمِ خِلقةٍ، يَقدِرُ على التَّصَرُّفِ والأعمالِ الشَّديدةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٢، ٦٣).

ممَّن اختار القولَ المذكورَ في قولِه: ﴿كَبَدٍ﴾ في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحدي، والسمعاني، وابن عطية، والرَّسْعَني، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحَلِّي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٠٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٣، ٤٨٤)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ في الجملةِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٠٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١٥).

وممَّن قال: إنَّ المعنى: خلَقْناه مُعتَدِلَ الخَلقِ والقامةِ، مُنتصِبًا قائمًا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٢).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ رُويَ عن ابنِ مسعودٍ، وابنِ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةَ، ومُجاهِدٍ، وإبراهيمَ النَّخَعيِّ، وخَيْثَمةَ، والضَّحَّاكِ، وغيرِهم: يعني: مُنتَصِبًا، زاد ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه: في بَطنِ أمِّه.

والكَبَدُ: الاسْتِواءُ والاستِقامةُ. ومعنى هذا القولِ: لقد خلَقْنا الإنسانَ سَويًّا مستقيمًا، كقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧]، وكقولِه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٣).

وقال ابنُ عُثَيمين: (﴿فِى كَبَدٍ﴾ فيها مَعنيانِ: =

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾.

أي: أيَظُنُّ الإنسانُ أنَّه لن يَقهَرَه ويَغلِبَه أحَدٌ؟ فاللهُ غالِبُه وقاهِرُه، وهو قادِرٌ عليه وعلى بَعْثِه وعُقوبتِه(١).

= المعنى الأوَّلُ: في استِقامةٍ، يعني: أنَّه خُلِقَ على أكمَلِ وَجهٍ في الخِلْقةِ، مُستقيمًا يَمشي على قَدَمَيه، ويرفَعُ رَأْسَه وبَدَنَه مُعتَدِلًا، والبهائِمُ بالعَكْسِ؛ الرَّأسُ على حِذاءِ الدُّبُرِ، أمَّا بنو آدَمَ فالرَّأسُ مُرتَفِعٌ أعلى البَدَنِ، فهو كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وقيل: المرادُ بـ﴿كَبَدٍ﴾ مُكابَدةُ الأشياءِ ومُعاناتُها، وأنَّ الإنسانَ يُعاني المشَقَّةَ في أمورِ الدُّنيا، وفي طَلَبِ الرِّزقِ، وفي إصلاحِ الحَرْثِ وغَيرِ ذلك، ويُعاني أيضًا معاناةً أشَدَّ مع نَفْسِه ومجاهَدتِها على طاعةِ اللهِ، واجتِنابِ مَعاصي اللهِ، وهذا الجِهادُ الَّذي هو أشَقُّ مِن مُعاناةِ طَلَبِ الرِّزقِ، ولا سيَّما إذا ابتُلِيَ الإنسانُ ببيئةٍ مُنحَرِفةٍ، وصار بيْنَهم غَريبًا؛ فإنَّه سيَجِدُ المشَقَّةَ في مُعاناةِ نَفْسِه، وفي مُعاناةِ النَّاسِ أيضًا).

ثمَّ ذكَرَ القاعِدةَ: أنَّه إذا كانت الآيةُ تحتَمِلُ مَعنَيينِ فتُحمَلُ عليهما إذا لم يكُنْ بيْنَهما مُناقَضةٌ، ثمَّ قال: (﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ يَصِحُّ أن تكونَ الآيةُ شامِلةً للمعنَيَينِ، أي: في حُسنِ قامةٍ واستِقامةٍ، و﴿فِى كَبَدٍ﴾ في مُعاناةٍ لِمَشاقِّ الأمورِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٢، ٢١٣).

وقيل: التَّعريفُ في الإنسان تَعريفُ الجِنسِ، والمرادُ به خُصوصُ أهلِ الشِّركِ، والمرادُ بالكَبَدِ: التَّعَبُ الَّذي يُلازِمُ أصحابَ الشِّركِ مِن اعتِقادِهم تعدُّدَ الآلهةِ، واضطرابِ رأيِهم في الجَمعِ بيْنَ ادِّعاءِ الشُّرَكاءِ لله تعالى وبيْنَ توَجُّهِهم إلى اللهِ بطَلَبِ الرِّزقِ وبطَلَبِ النَّجاةِ إذا أصابَهم ضُرٌّ، ومِن إحالَتِهم البَعْثَ بعْدَ المَوتِ، مع اعترافِهم بالخَلْقِ الأوَّلِ. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥١).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني بالأحَدِ: اللهَ عزَّ وجَلَّ، يعني: نَفْسَه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠٢).

وقال البِقاعي: (﴿أَحَدٌ﴾ أي: مِن أهلِ الأرضِ أو السَّماءِ، فيَغلِبَه؛ حتَّى إنَّه يُعانِدُ خالِقَه مع ما يَنظُرُ مِن اقتِدارِه على أمثالِه بنَفْسِه وبمَن شاء مِن جُنودِه، فيُعادي رُسُلَه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، =

كما قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۞ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٣، ٤].

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾.

أي: يَقولُ هذا الإنسانُ المبَذِّرُ أموالَه في الباطِلِ وفي شَهَواتِه ومَلَذَّاتِه: أنفَقْتُ مالًا كَثيرًا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

أي: أيَظُنُّ أنَّ اللهَ لم يَرَه حالَ إنفاقِ أموالِه في الباطِلِ، وأنَّه لن يُحاسِبَه ويُجازيَه

= ويَجحَدُ آياتِه!). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٥٢).

قال القرطبي: (أي: أيَظُنُّ ابنُ آدَمَ أنْ لن يُعاقِبَه اللهُ عزَّ وجَلَّ؟!). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤).

ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٣).

قال ابنُ جرير: (أهلَكْتُ مالًا كثيرًا في عَداوةِ محمَّدٍ، فأنفَقْتُ ذلك فيه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٢، ٤١٣).

وقال ابنُ عاشور: (كان أهلُ الجاهليَّةِ يتبجَّحونَ بإتلافِ المالِ ويَعُدُّونَه مَنقَبةً؛ لإيذانِه بقِلَّةِ اكتِراثِ صاحِبِه به). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٢).

على ذلك[١]؟!

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى سُبحانَه عن ذلك الكافِرِ قَولَه: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، أقام الدَّلالةَ على كَمالِ قُدرتِه؛ فقال تعالى[٢]:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾.

أي: ألَمْ نجعَلْ له عينَينِ يُبصِرُ بهما[٣]؟

﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾.

أي: أوَلم نجعَلْ له لِسانًا وشفَتينِ يَستعينُ بهما على النُّطقِ أو غَيرِه مِنَ المنافِعِ[٤]؟

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

أي: وبَيَّنَّا له طريقَ الخَيرِ وطَريقَ الشَّرِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).
قال القرطبي: (المعنى: نحن فعَلْنا ذلك، ونحن نَقدِرُ على أنْ نبعَثَه ونُحصيَ عليه ما عَمِلَه). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٥٥، ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٥، ٤١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٠)، ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ أنَّه سُبحانَه سَمَّى الإنفاقَ في الشَّهَواتِ والمعاصي إهلاكًا، ووَجْهُه: أنَّه لا ينتَفِعُ المُنفِقُ بما أنفَقَ، ولا يَعودُ عليه مِن إنفاقِه إلَّا النَّدَمُ والخَسارُ والتَّعَبُ والقِلَّةُ، لا كمَن أنفَقَ في مَرضاةِ اللهِ في سَبيلِ الخَيرِ؛ فإنَّ هذا قد تاجَرَ مع الله، ورَبِحَ أضعافَ أضعافِ ما أنفَقَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۞ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۞ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ أعقَبَ سُبحانَه ما به اكتِسابُ العِلمِ، وما به الإبانةُ عن المعلوماتِ بما يُرشِدُ الفِكرَ إلى النَّظَرِ والبَحثِ، وذلك قَولُه: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾، فاستكمَلَ الكلامُ أُصولَ التَّعَلُّمِ والتَّعليمِ؛ فإنَّ الإنسانَ خُلِقَ مُحِبًّا للمَعرفةِ محِبًّا للتَّعريفِ، فبِمَشاعِرِ الإدراكِ يكتَسِبُ المُشاهَداتِ -وهي أصولُ المعلوماتِ اليَقينيَّةِ-، وبالنُّطقِ يُفيدُ ما يَعْلَمُه لغيرِه، وبالهَدْيِ إلى الخَيرِ والشَّرِّ يُمَيِّزُ بيْنَ مَعلوماتِه ويُمَحِّصُها[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ سؤالٌ: أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ يتبادَرُ مِن ظاهِرِها أنَّه تعالى أخبَرَ بأنَّه لا يُقسِمُ بهذا البلَدِ الَّذي هو مكَّةُ المكَرَّمةُ، مع أنَّه تعالى أقسَمَ به في قَولِه تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين: ٣].

= القرطبي)) (٢٠/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (المعنى: ألَمْ نُعَرِّفْه طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ، ونُبَيِّنْه له كتَبيينِ الطَّريقَينِ العالِيَينِ؟). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٥٨٠).

وقال أبو حيَّانَ: (﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ قال ابنُ مَسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ والجُمهورُ: طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ. وقال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا، وعليٌّ، وابنُ المسَيِّبِ، والضَّحَّاكُ: الثَّديَينِ؛ لأنَّهما كالطَّريقَينِ لحياةِ الوَلَدِ ورِزْقِه). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٤).

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ -وعليه الجُمهورُ-: أنَّ «لا» هنا صِلةٌ على عادةِ العرَبِ؛ فإنَّها رُبَّما لَفَظَت «لا» مِن غيرِ قَصدِ معناها الأصليِّ، بل لِمُجَرَّدِ تقويةِ الكلامِ وتوكيدِه، كقَولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [طه: ٩٢، ٩٣] يعني: أن تتَّبِعَني.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ «لا» نَفيٌ لكلامِ المُشرِكينَ المكَذِّبينَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقَولُه: ﴿أُقْسِمُ﴾ إثباتٌ مُستأنَفٌ، وهذا القَولُ وإن قال به كثيرٌ مِن العُلَماءِ فليس بوَجيهٍ؛ لِقَولِه تبارك وتعالى في سورةِ (القيامةِ): ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ يدُلُّ على أنَّه لم يُرِدِ الإثباتَ المؤتَنِفَ بعدَ النَّفيِ بقَولِه: ﴿أُقْسِمُ﴾.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّها حَرفُ نَفيٍ أيضًا، ووَجْهُه أنَّ إنشاءَ القَسَمِ يتضَمَّنُ الإخبارَ عن تعظيمِ المقسَمِ به، فهو نفيٌ لذلك الخبَرِ الضِّمنيِّ على سبيلِ الكِنايةِ، والمرادُ أنَّه لا يَعظُمُ بالقَسَمِ، بل هو نَفْسُه عظيمٌ أُقسِمَ به أوْ لا.

الوَجهُ الرَّابِعُ: أنَّ اللَّامَ لامُ الابتِداءِ أُشبِعَت فتحتُها، وأصلُ الكلامِ: لَأُقْسِمُ، والعرَبُ رُبَّما أشبعَتِ الفَتحةَ بألِفٍ، والكسرةَ بياءٍ، والضَّمَّةَ بواوٍ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ سؤالٌ عن قَسَمِ اللهِ تعالى بهذه المخلوقاتِ، وقد نُهينا عن القَسَمِ بغيرِه.

والجوابُ عنه مِن وَجهينِ:

الأوَّلُ: أنَّ هذا مِن فِعْلِ اللهِ تعالى، واللهُ لا يُسْأَلُ عمَّا يَفعَلُ، وله أنْ يُقسِمَ سُبحانَه بما شاء مِن خَلْقِه، وهو سائلٌ غيرُ مَسؤولٍ، وحاكمٌ غيرُ محكومٍ عليه.

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٦٣-٢٦٦).
وذكَرَ الشنقيطيُّ أنَّ القولَ الثَّالثَ لا يخلو مِن بُعدٍ.

الثَّاني: أنَّ قَسَمَ اللهِ بهذه الآياتِ دليلٌ على عَظَمتِه وكمالِ قُدرتِه وحِكمتِه، فيكونُ القَسَمُ بها الدَّالُّ على تعظيمِها ورَفْعِ شأنِها مُتضمِّنًا للثَّناءِ على اللهِ عزَّ وجلَّ بما تَقتَضيه مِن الدَّلالةِ على عَظَمتِه، وأمَّا نحن فلا نُقسِمُ بغيرِ اللهِ أو صِفاتِه؛ لأنَّنا مَنهيُّونَ عن ذلك[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ تَضَمَّنَ القَسَمُ أصلَ المكانِ وأصلَ السُّكَّانِ؛ فمَرجِعُ البلادِ إلى مكَّةَ، ومَرجِعُ العِبادِ إلى آدمَ[٢]. وذلك على قولٍ.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ استَدَلَّ به مَن مَنَعَ قِتالَ البُغاةِ فيه[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه ليس في الدُّنيا إلَّا الكَدُّ والمِحْنةُ[٤].

٦- قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ هذا الدَّليلُ العقليُّ القاطعُ فيه تنبيهٌ أنَّ الَّذي جَعَلَك تُبْصِرُ وتَتكلَّمُ وتَعلَمُ: أَولى أنْ يكونَ بَصيرًا متكَلِّمًا عالِمًا، فأيُّ دليلٍ عقليٍّ قَطعيٍّ أقوى مِن هذا وأبْيَنُ وأقرَبُ إلى المعقولِ[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٩).

لا خِلافَ بيْن الفُقهاءِ في أنَّ مَن دخَل مِن البُغاةِ الحرَمَ مُقاتِلًا وبدأ القِتالَ فيه أنَّه يُقاتَلُ، لكنِ اختلَفوا في قتالِهم في الحرَمِ إذا لم يَبدَؤوا بالقتالِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٧/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦٦).

(٥) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٩١٥).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ذِكْرُ الشَّفَتينِ مع اللِّسانِ؛ لأنَّ الإبانةَ تَحصُلُ بهما معًا، فلا ينطِقُ اللِّسانُ بدونِ الشَّفَتينِ، ولا تنطِقُ الشَّفتانِ بدونِ اللِّسانِ. ومِن دقائِقِ القرآنِ الكريمِ أنَّه لم يقتَصِرْ على اللِّسانِ ولا على الشَّفَتينِ، خِلافَ عادةِ كلامِ العرَبِ أن يقتَصِروا عليه؛ يقولون: «يَنطِقُ بلِسانٍ فَصيحٍ»، ويقولون: «لم ينطِقْ ببِنتِ شَفَةٍ» أو «لم يَنبِسْ ببِنتِ شَفَةٍ»؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ استِدلالٍ، فجيءَ فيه بما لَه مزيدُ تصويرٍ لخَلْقِ آلةِ النُّطقِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾

- ابتُدِئَت السُّورةُ الكريمةُ بالقسَمِ؛ تَشويقًا لِما يَرِدُ بعْدَه، وأُطِيلَت جُملةُ القسَمِ؛ زِيادةً في التَّشويقِ[٢].

- والإشارةُ بـ(هذا) مع بَيانِه بـ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾ إشارةٌ إلى حاضرٍ في أذهانِ السَّامِعينَ، كأنَّهم يَرَونه؛ لأنَّ رُؤيتَه مُتكرِّرةٌ لهم، وهو بلَدُ مَكَّةَ، وفائدةُ الإتيانِ باسمِ الإشارةِ تَمييزُ المُقسَمِ به أكمَلَ تَمييزٍ؛ لقصْدِ التَّنويهِ به[٣].

- والقسَمُ بالبَلدةِ -مع أنَّها لا تدُلُّ على صِفةٍ مِن صِفاتِ الذَّاتِ الإلهيَّةِ، ولا مِن صِفاتِ أفعالِه-؛ كِنايةٌ عن تَعظيمِ اللهِ تعالَى إيَّاها وتَفضيلِها[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى في سُورةِ (التِّينِ): ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، ولم يَصِفْه -هنا- بالأمْنِ؛ لأنَّه لا يُناسِبُ سِياقَ المشَقَّةِ، بخِلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٧).

ما في (التِّينِ)؛ فإنَّ المرادَ هناك الكَمالاتُ[١].

- وجُملة ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ مُعترِضةٌ لتَسليتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالوعْدِ بفتْحِه، على مَعْنى: وأنتَ حِلٌّ بهِ في المُستقبَلِ، و(أنت) على هذا الوجْهِ مِن بابِ التَّقديمِ للاختِصاصِ، وقيل غيرُ ذلك[٢]. والمقصودُ مِن الاعتراضِ يَختلِفُ باختلافِ مَحمَلِ معْنى ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ﴾[٣].

- وتَكريرُ لَفظِ ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لقصْدِ تَجديدِ التَّعجيبِ، ولقَصْدِ تَأكيدِ فتْحِ ذلك البلدِ العزيزِ عليه، والشَّديدِ على المشرِكين أنْ يَخرُجَ عن حَوزتِهم[٤].

وقيل: إنَّه لمْ يُكرِّرْه؛ إذِ التَّقديرُ: لا أُقسِمُ بهذا البلدِ المحرَّمِ الَّذي جُبِلَت العرَبُ على تَعظيمِه وتَحريمِه، ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، أي: أُحِلَّ لك فيه مِن حُرُماتِه ما لمْ يَحِلَّ لأحدٍ قبْلَك ولا بعْدَك؛ مِن قتْلِ ابنِ خَطَلٍ، وقِتالِ المشركين ساعةً مِن نَهارٍ، فالمرادُ بالبلدِ الأوَّلِ الباقي على تَحريمِه، وبالثَّاني الَّذي أُحِلَّ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إكرامًا له، وتَعظيمًا لمَنزلتِه[٥].

- قولُه: ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ نُكِّرَ الوالدُ والولَدُ للإبهامِ المُستقِلِّ بالمدْحِ والتَّعجُّبِ، وجِيءَ باسمِ الموصولِ (ما) في قولِه: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ دونَ (مَن)، مع أنَّ (مَن)

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٣، ٧٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٤٠، ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٩، ٤٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٩).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٢).

أكثَرُ استعمالًا في إرادةِ العاقلِ، وهو مُرادٌ هنا؛ فعُدِلَ عن (مَن)؛ لأنَّ (ما) أشدُّ إبهامًا، فأُرِيدَ تَفخيمُ أصحابِ هذه الصِّلةِ، فجِيءَ لهم بالمَوصولِ الشَّديدِ الإبهامِ؛ لإرادةِ التَّفخيمِ، ونَظيرُه قولُه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ [آل عمران: ٣٦]، يعْني: مَولودًا عَجيبَ الشَّأنِ، ولأنَّ قُوَّةَ الإبهامِ في (ما) أنسَبُ بإرادةِ الجَماعةِ دونَ واحدٍ مُعيَّنٍ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ الجُملةُ جَوابُ القَسَمِ، وهو الغرَضُ مِن السُّورةِ(٢).

- قولُه: ﴿فِي كَبَدٍ﴾، أي: تعَبٍ ومَشقَّةٍ، وهو تَسليةٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ممَّا كان يُكابِدُه مِن قُرَيشٍ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۞ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۞ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾

- قولُه: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ الهَمزةُ للإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّخطئةِ(٤).

- وفي قولِه: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ أُعقِبَت مَساوي نفْسِه بمَذامِّ أقوالِه، وهو التَّفخُّرُ الكاذبُ، والتَّمدُّحُ بإتلافِ المالِ في غيرِ صَلاحٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٢).

- قولُه: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ الاستِفهامُ للإنكارِ والتَّوبيخِ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ كِنايةٌ عن عِلمِ اللهِ تعالَى بدَخيلتِه، وأنَّ افتِخارَه بالكرَمِ باطلٌ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۞ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ تَعليلٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ في قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥]، أو قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٧]، أي: هو غافلٌ عن قُدرةِ اللهِ تعالَى، وعن عِلمِه المُحيطِ بجَميعِ الكائناتِ الدَّالِّ عليهما أنَّه خلَقَ مَشاعرَ الإدراكِ، الَّتي منها العَينانِ، وخلَقَ آلاتِ الإبانةِ، وهي اللِّسانُ والشَّفتانِ، فكيف يكونُ مُفيضُ العِلمِ على النَّاسِ غيرَ قادرٍ وغيرَ عالِمٍ بأحوالِهم[٣]؟!

- قولُه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل﴾ الهَمزةُ للاستِفهامِ، ويجوزُ أنْ يكونَ هذا الاستِفهامُ تَقْريريًّا، وأنْ يكونَ إنكاريًّا[٤].

- والاقتِصارُ على العَينينِ؛ لأنَّهما أنفَعُ المشاعِرِ، ولأنَّ المُعلَّلَ إنكارُ ظنِّه أنْ لم يَرَه أحدٌ[٥].

- قولُه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ النَّجْدُ: الأرضُ المرتفِعةُ ارتفاعًا دُونَ الجبَلِ، وعُبِّرَ بالنَّجْدَينِ عن الخَيرِ والشَّرِّ، وجُعِلَا نَجْدينِ؛ لصُعوبةِ اتِّباعِ أحدِهما،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٤).

وهو الخيرُ، فغُلِّبَ على الطَّريقَين. أو لأنَّ كلَّ واحدٍ صعْبٌ باعتبارٍ؛ فطَريقُ الخَيرِ صُعوبتُه في سُلوكِه، وطَريقُ الشَّرِّ صُعوبتُه في عَواقبِه؛ ولذلك عُبِّرَ عنه بعْدَ هذا بـ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾[1] [البلد: ١١].

- وأُدمِجَ في هذا الاستِدلالِ امتِنانٌ على الإنسانِ بما وُهِبَه مِن وَسائلِ العَيشِ المُستقيمِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٥).

الآيات (١١-٢٠)

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾: أي: لم يَقتَحِمْها ولا جاوَزَها، والاقتِحامُ: الدُّخولُ في الأمرِ الشَّديدِ، والمُجاوَزةُ له بشِدَّةٍ وصُعوبةٍ، والعَقَبةُ: طَريقٌ في الجَبَلِ وَعْرٌ، والعَقَبةُ مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ لِمُجاهدةِ النَّفْسِ والهوى والشَّيطانِ في أعمالِ البِرِّ، فجعَلَه كالَّذي يتكَلَّفُ صُعودَ العَقَبةِ، يقولُ: لم يَحمِلْ على نَفْسِه المشَقَّةَ بعِتقِ الرَّقبةِ ولا الإطعامِ. وقيل: هي عَقَبةُ جَهنَّمَ، أو: هي عقَبةٌ بيْن الجنَّةِ والنَّارِ. وأصلُ (قحم): يدُلُّ على وُرودِ الشَّيءِ بدونِ رَوِيَّةٍ، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على ارتِفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبةٍ[1].

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾: أي: عِتقُ مَملوكٍ وتخليصُه مِن إسارِ الرِّقِّ، وكلُّ شَيءٍ أطْلَقْتَه فقَدْ فَكَكْتَه، وأصلُ (فكك): يدُلُّ على تفَتُّحٍ وانْفِراجٍ، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انْتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ، ومِن ذلك اشتِقاقُ الرَّقَبةِ؛ لأنَّها مُنتَصِبةٌ، ولأنَّ النَّاظِرَ لا بُدَّ يَنتَصِبُ عندَ نَظَرِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧) و(٥/ ٦١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧) و(٤/ ٤٣٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) =

﴿مَسۡغَبَةٖ﴾: أي: مَجاعةٍ، وأصلُ (سغب): يدُلُّ على جوعٍ[١].

﴿مَتۡرَبَةٍ﴾: أي: فقرٍ، يُقالُ: تَرِبَ الرَّجُلُ إذا افْتَقَر، كأنَّه لَصِقَ بالتُّرابِ، فليس له شيءٌ غير التُّرابِ، وأصلُ (ترب) هنا: التُّرابُ وما يُشتَقُّ منه[٢].

﴿بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾: أي: بالرَّحمةِ والعطفِ والتَّراحُمِ فيما بيْنَهم، وأصلُ (رحم): يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطفِ والرَّأْفةِ[٣].

﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾: أي: اليمينِ، أو مُشتَقَّةٌ مِن اليُمْنِ، وهو ضِدُّ الشُّؤمِ، واليُمْنُ: البَرَكةُ[٤].

= للهروي (٥/ ١٤٦٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ٢٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٣)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ٥٢).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿مَتۡرَبَةٍ﴾ إنَّما هي مَفْعَلةٌ مِن: تَرِبَ الرَّجُلُ، إذا أصابَه التُّرابُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١).

وقال الواحديُّ: (المَتْرَبةُ: مَصدَرُ قولِهم: تَرِبَ يَتْرَبُ تَرَبًا ومَتْرَبةً -مِثل مَسْغَبة- إذا افتقَر حتَّى لَصِقَ بالتُّرابِ ضُرًّا). ((البسيط)) (٢٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٤)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٦).

قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلماءِ: قيل لهم أصحابُ اليمينِ؛ لأنَّهم يُؤْتَونَ كُتُبَهم بأَيْمانِهم. وقيل: لأنَّهم يُذهَبُ بهم ذاتَ اليمينِ إلى الجنَّةِ. وقيل: لأنَّهم عن يمينِ أبيهم آدَمَ، كما رآهم =

﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾: أي: الشِّمالِ، وأصلُ (شأم): يدُلُّ على الجانِبِ اليَسارِ[(١)].

﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: أي: مُطبَقةٌ مُغلَقةٌ، وأصلُ (وصد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾

قَولُه تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ استُشكِلَ عَدَمُ تَكرارِ «لا» هنا، مع أنَّها دخلَت على الماضي هنا غيرَ مُفيدةٍ للدُّعاءِ، وهم قالوا: يلزمُ تَكرارُها حينَئذٍ، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١].

وأُجيبَ: بأنَّ اللَّازِمَ تَكرارُها لَفظًا أو معنًى، وهي هنا مُكَرَّرةٌ معنًى؛ لأنَّ تفسيرَ العَقَبةِ بما فُسِّرَت به مِن الأُمورِ المتعَدِّدةِ يلزَمُ منه تفسيرُ الاقتحامِ، فيكونُ: فلا اقتَحَمَ العَقَبةَ في معنى: فلا فَكَّ رَقَبةً ولا أطعمَ يتيمًا، ويجوزُ أن يكونَ عدَمُ تكريرِ (لا) هنا استِغناءً بقَولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧]، فكأنَّه قيل: فلا اقتحَمَ العقَبةَ ولا آمَنَ.

ونُقِلَ قولٌ بعدَمِ وُجوبِ تَكريرِها، وأنَّها كـ «لَمْ»، وإذا كانت «لَا» بمعنى «لَمْ»

= النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم كذلك ليلةَ الإسراءِ. وقيل: سُمُّوا أصحابَ اليمينِ وأصحابَ المَيْمَنةِ؛ لأنَّهم مَيامينُ، أي: مُبارَكونَ على أنفُسِهم؛ لأنَّهم أطاعوا ربَّهم فدخلوا الجنَّةَ، واليُمْنُ: البَرَكةُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥١٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٢).

لم يَلزَمْ تكريرُها، كما لا يلزمُ التَّكريرُ مع «لَمْ»، فإن تكرَّرَت في موضعٍ، نحوُ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١]، فهو كتكريرِ «لَمْ»، نحوُ: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ [الفرقان: ٦٧]. والمُتيَقَّنُ أكثريَّةُ التَّكرُّرِ، وأمَّا وُجوبُه فليس بمتيقَّنٍ.

﴿فَكُّ﴾ خَبَرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: اقتِحامُ العَقَبةِ فَكُّ رقبةٍ أو إطعامٌ. ﴿يَتِيمًا﴾: مفعولٌ به للمَصدرِ ﴿إِطْعَٰمٌ﴾[1].

المعنى الإجماليُّ:

قال الله تعالى محرِّضًا على فِعلِ الخَيرِ، وإصلاحِ النَّفْسِ: فلَمْ يَقطَعِ الغَنِيُّ العَقَبةَ الشَّديدةَ، ويَتجاوَزْها بمُجاهَدةِ النَّفْسِ ومُخالَفةِ الهوَى والشَّيطانِ، بإنفاقِ مالِه في أوجُهِ البِرِّ والإحسانِ، وما أدراك أيُّ شَيءٍ تلك العَقَبةُ؟

ثمَّ فسَّر الله تعالى ذلك، فقال: اقتِحامُ تلك العَقَبةِ تخليصُ إنسانٍ مِن رِقِّ العُبوديَّةِ، أو إطعامٌ في زَمَنِ مَجاعةٍ شَديدةٍ يتيمًا ذا قَرابةٍ، أو مِسكينًا لا شيءَ له، ثمَّ يكونُ ذلك المنفِقُ معَ ذلك مِن جُملةِ الَّذين آمَنوا، وأوصَى بَعضُهم بَعضًا بالتَّحَلِّي بالصَّبرِ والرَّحمةِ بالمَساكينِ واليَتامى؛ أولئك المتَّصِفونَ بما تقدَّمَ ذِكرُه مِن الصِّفاتِ هم أصحابُ اليَمينِ.

ثمَّ بيَّن الله تعالى سوءَ عاقِبةِ الكافِرين، فقال: والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ هم أصحابُ الشِّمالِ، عليهم نارٌ مُطبَقةٌ مُغلَقةٌ؛ فلا يَخرُجونَ منها أبَدًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٨٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ أن بَيَّنَ اللهُ تعالى ما أنعَمَ به على الإنسانِ مِنَ النِّعَمِ الجليلةِ؛ أَتْبَعَ سُبحانَه ذلك بحَضِّه على المُداوَمةِ على فِعلِ الخَيرِ، وعلى إصلاحِ نَفْسِه، فقال تعالى[١]:

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١﴾.

أي: فلَمْ يَقطَعِ الغَنِيُّ العَقَبةَ الشَّديدةَ، ويتكَلَّفْ صُعودَها ويَتجاوَزْها بمُجاهَدةِ النَّفْسِ ومُخالَفةِ الهوى والشَّيطانِ، بإنفاقِ مالِه في أوجُهِ البِرِّ والخَيرِ والإحسانِ[٢].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ أنَّه لا خَلاصَ مِنَ النَّكَدِ إلَّا بهذا الاقتحامِ؛ شرَعَ في تفسيرِ العَقَبةِ بادِئًا بتهويلِ أمْرِها؛ لعَظيمِ قَدْرِها[٣].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢﴾.

أي: وما أدراك أيُّ شَيءٍ تلك العَقَبةُ العَظيمةُ الَّتي حَثَّ اللهُ على اقتِحامِها[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٥).

والعقبةُ عبارةٌ عن الأعمالِ الصَّالحةِ المذكورةِ بعدُ، وفسَّرها ابنُ عبَّاسٍ بالنَّارِ، وفسَّرها ابنُ عمرَ بعقبةٍ في النَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٤)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٥).

قيل: المخاطَبُ بقَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنِين، والماوَرْديُّ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٧).

=

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: تخليصُ إنسانٍ مِن رِقِّ العُبوديَّةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَنْ أَعتَقَ رَقَبةً مُسلِمةً أعتَقَ اللهُ بكُلِّ عُضوٍ منه عُضوًا مِنَ النَّارِ، حتَّى فَرْجَه بفَرْجِه))[(٢)].

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رَسولَ اللهِ، عَلِّمْني عَمَلًا يُدخِلُني الجنَّةَ. فقال: لئِنْ كُنتَ أقصَرْتَ الخُطْبةَ لَقد أعرَضْتَ المسألةَ، أَعتِقِ النَّسَمةَ، وفُكَّ الرَّقَبةَ. فقال: يا رَسولَ الله، أوَلَيْسَتا بواحِدةٍ؟! قال: لا؛ إنَّ عِتقَ النَّسَمةِ أن تَفرَّدَ بعِتْقِها، وفَكَّ الرَّقَبةِ أن تُعِينَ في عِتْقِها[(٣)]))[(٤)].

= وقال ابنُ عاشور: (الخِطابُ في ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ لغَيرِ مُعَيَّنٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٦).

قال السمينُ الحلبيُّ: (وفي الكلامِ حَذْفُ مُضافٍ دلَّ عليه ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾، تقديرُه: وما أدْراكَ ما اقتِحامُ العَقَبةِ؟ فالتَّقديرُ: اقتِحامُ العَقَبةِ فَكُّ رَقَبَةٍ أو إطعامٌ، وإنَّما احْتِيج إلى تقديرِ هذا المُضافِ لِيَتطابَقَ المفسَّرُ والمفسَّرُ). ((الدر المصون)) (١١/ ٩).

وقال السعدي: (مِن بابِ أَولى فَكاكُ الأسيرِ المسلِمِ عندَ الكُفَّارِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٧١٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٥٠٩).

(٣) فكُّ الرقبةِ: تخليصُ الشَّخصِ مِن الرِّقِّ، وخُصَّ في هذا الحديثِ بمَن أعان في عتقِها حتَّى تعتقَ، وإذا ثبَت الفضلُ في الإعانةِ ثبَت في التفرُّدِ بالعتقِ مِن بابِ أولَى. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ١٤٦).

(٤) أخرجه أحمدُ (١٨٦٤٧) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٣٧٤)، والحاكمُ (٢٨٦١).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وكذا ابنُ حَجَر في ((فتح الباري)) (٥/ ١٧٤)، والألبانيُّ في ((صحيح =

﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤﴾.

أي: أوْ تَقديمُ الطَّعامِ في زَمَنِ مَجاعةٍ شَديدةٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥﴾.

أي: ليتيمٍ مِن أقارِبِه(٢).

﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ ١٦﴾.

أي: أوْ لِمِسكينٍ لا شيءَ له(٣).

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

= الموارد)) (١٠١٧)، وصَحَّح إسنادَه الحاكِمُ، وكذا شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٠/ ٦٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٧).

قال الشوكاني: (﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ﴾ أي: لا شَيءَ له، كأنَّه لَصِقَ بالتُّرابِ؛ لفَقْرِه، وليس له مأوًى إلَّا التُّرابُ، يقالُ: تَرِبَ الرَّجُلُ يَترَبُ تَرَبًا ومَترَبةً: إذا افتَقَر حتَّى لَصِقَ بالتُّرابِ ضُرًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤١).

وقال البِقاعي: (﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا﴾ أي: شَخْصًا لا كِفايةَ له ﴿ذَا مَتۡرَبَةٍ﴾ أي: حاجةٍ مُقعِدةٍ له على التُّرابِ، لا يَقدِرُ على سِواه!). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٦٢، ٦٣).

أي: ثمَّ إنَّ المُنفِقَ مالَه في فَكِّ الرِّقابِ، أو إطعامِ اليتيمِ القَريبِ، أو إطعامِ المِسكينِ المحتاجِ: يَنبغي أن يكونَ مع ذلك مِن جُملةِ الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به؛ فتلك القُرُباتُ إنَّما تَنفَعُ مع الإيمانِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((قُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، ابنُ جُدْعانَ كان في الجاهِليَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطعِمُ المِسكينَ، فهل ذاك نافِعُه؟ قال: لا يَنفَعُه؛ إنَّه لم يَقُلْ يومًا: ربِّ اغفِرْ لي خطيئَتي يومَ الدِّينِ))(٢).

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

أي: ويكونُ ممَّن أوصى بَعضُهم بَعضًا بالتَّحَلِّي بالصَّبرِ(٣).

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾.

أي: ويكونُ ممَّن أوصى بعضُهم بعضًا بالرَّحمةِ بالمساكينِ واليَتامى والضُّعَفاءِ،

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٧).

(٢) رواه مسلم (٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٧).

وسائِرِ الخَلْقِ[١].

عن النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ المؤمِنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم مَثَلُ الجسَدِ: إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعَى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى))[٢].

وعن جَريرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يَرحَمُ اللهُ مَن لا يَرحَمُ النَّاسَ))[٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَوَّهَ بالَّذين آمَنوا؛ أعقَبَ التَّنويهَ بالثَّناءِ عليهم وبِشارتِهم[٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨﴾.

أي: أولئك المتَّصِفونَ بما تقدَّمَ ذِكرُه مِن الصِّفاتِ هم أصحابُ اليَمينِ[٥].

ثمَّ بيَّن الله سُبحانَه سوءَ عاقِبةِ الكافِرين، فقال[٦]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٠١١)، ومسلمٌ (٢٥٨٦) واللَّفظُ له.

(٣) رواه البخاري (٧٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٨).
وقال البِقاعي: (﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ أي: الجانِبِ الَّذي فيه اليُمْنُ والبَرَكةُ والنَّجاةُ مِن كُلِّ هَلَكةٍ بقِسمَيهم مِن السَّابِقينَ المُقرَّبينَ، وأصحابِ اليَمينِ الأبرارِ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٦٧).

(٦) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٠٧).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ هم أصحابُ الشِّمالِ[١].

﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾.

أي: عليهم نارٌ مُطبَقةٌ؛ فلا يَخرُجونَ منها أبَدًا[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ أفاد نفْيُ الاقتحامِ أنَّه عَدَلَ عن الاهتِداءِ إيثارًا للعاجلِ على الآجِلِ، ولو عَزَمَ وصَبَرَ لَاقتَحَمَ العَقَبةَ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ. في تَفسيرِ العَقَبةِ بالمذكوراتِ؛ فَكُّ الرَّقبةِ، وإطعامُ اليتيمِ والمِسكينِ: توجيهٌ إلى ضَرورةِ الإنفاقِ حَقًّا، لا ما يدَّعيه الإنسانُ بدونِ حَقيقةٍ في قَولِه: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾[٤] [البلد: ٦]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

وقال البقاعي: (﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ أي: الخَصْلةِ المُكسِبةِ للشُّؤمِ والحِرْمانِ والهَلَكةِ، فهؤلاء مَشائيمُ على أنفُسِهم). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٩)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

قال البقاعي: (﴿نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ أي: مُطبَقةُ البابِ مع إحاطَتِها بهم مِن جميعِ الجوانِبِ -بما أفهَمَتْه أداةُ الاستِعلاءِ-، ومع الضِّيقِ والوُعورةِ، وهذا لعَمْري أشَدُّ الضِّيقِ والكَبَدِ، والنَّصَبِ والنَّكَدِ!). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٣٢).

٣- إطعامُ الطَّعامِ يُوجِبُ دخولَ الجَنَّةِ، ويُباعِدُ مِن النَّارِ، ويُنجِّي منها، كما قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، وفي الحَديثِ الصَّحيحِ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((اتَّقُوا النَّارَ ولو بشِقِّ تَمرةٍ))[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ فَضلُ الإطعامِ، خُصوصًا عِندَ الحاجةِ إليه في زَمَنِ الجُوعِ[٢].

٥- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ ...﴾ جَعَلَ الأعمالَ الصَّالحةَ عَقَبةً، وعَمَلَها اقتحامًا لها؛ لِما في ذلك مِن مُعاناةِ المَشقَّةِ ومُجاهَدةِ النَّفْسِ[٣].

٦- قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ * أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ فخَصَّ أهلَ المَيْمَنةِ بأنَّهم أهلُ الصَّبرِ والمَرحَمةِ، الَّذين قامتْ بهم هاتان الخَصْلتانِ، ووَصَّوا بهما غَيرَهم، وهذا حَصرٌ لأصحابِ المَيمنةِ فيمَن قام به هذانِ الوَصفانِ. والنَّاسُ بالنِّسبةِ إليهما أربعةُ أقسامٍ: هؤلاء خيرُ الأقسامِ. وشَرُّهم مَن لا صَبْرَ له ولا رحمةَ فيه، ويَليه مَن له صَبرٌ ولا رحمةَ عِندَه، ويليه القِسمُ الرَّابعُ، وهو مَن له رحمةٌ ورِقَّةٌ، ولكِنْ لا صَبْرَ له[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ دليلٌ على أنَّ التَّواصيَ بالخَيرِ

---

(١) يُنظر: ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ٧٦).
والحديث أخرجه البخاريُّ (١٤١٧)، ومسلمٌ (١٠١٦) من حديثِ عَدِيِّ بنِ حاتمٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦١، ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٧٥). ويُنظر أيضًا: ((التحفة العراقية)) لابن تيمية (ص: ٥٨).

هو مِن محمودِ الأخلاقِ، ومَرْضِيِّ الأفعالِ، ومُكتَسبِ الفَوزِ بالجَنَّةِ، والنَّجاةِ مِن النَّارِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أنَّه يجبُ على المرءِ أن يدُلَّ غَيرَه على طريقِ الحَقِّ، ويَمنَعَه مِن سُلوكِ طريقِ الشَّرِّ والباطِلِ ما أمكَنَه[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ الحَثُّ على التَّواصي بالرَّحمةِ مع الصَّبرِ[٣]؛ فإنَّ الصَّبرَ مِلاكُ الأعمالِ الصَّالحةِ كلِّها؛ لأنَّها لا تَخْلو مِن كَبْحِ الشَّهوةِ النَّفسانيَّةِ، وذلك مِن الصَّبرِ، والمَرحمةَ مِلاكُ صَلاحِ الجامعةِ الإسلاميَّةِ، قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، والتَّواصي بالرَّحمةِ فَضيلةٌ عَظيمةٌ[٤].

١٠- قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ لا بدَّ أن يَصبِرَ وأن يَرحَمَ، وهذا هو الشَّجاعةُ والكَرَمُ؛ ولهذا يَقرِنُ اللهُ بيْن الصَّلاةِ والزَّكاةِ تارةً -وهي الإحسانُ إلى الخَلْقِ، وبَيْنَهما وبيْن الصَّبرِ تارةً، ولا بُدَّ مِن الثَّلاثةِ: الصَّلاةُ، والزَّكاةُ، والصَّبرُ، لا تقومُ مَصلَحةُ المؤمِنينَ إلَّا بذلك؛ في صلاحِ نُفوسِهم، وإصلاحِ غَيرِهم، لا سيَّما كُلَّما قَوِيَت الفِتنةُ والمِحْنةُ؛ فالحاجةُ إلى ذلك تكونُ أشَدَّ، فالحاجةُ إلى السَّماحةِ والصَّبرِ عامَّةٌ لجَميعِ بني آدَمَ، لا تقومُ مَصلحةُ دِينِهم ولا دُنياهم إلَّا به؛ ولهذا جميعُهم يتمادَحونَ بالشَّجاعةِ والكَرَمِ، حتَّى إنَّ ذلك عامَّةُ ما يَمدَحُ به الشُّعراءُ في شِعْرِهم، وكذلك يتذامُّون بالبُخلِ والجُبنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦١).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٥٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ ...﴾ كلُّ موضعٍ في القرآنِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد عُقِّب ببَيانِه، وكلُّ موضعٍ ذُكِر بلَفظِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ لم يُعقَّبْ ببيانِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[1] [الشورى: ١٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ تَشَوُّفُ الشَّارعِ إلى العِتْقِ وإيقاعِه[2]، وإشعارٌ بحقيقةِ مَوقِفِ الإسلامِ مِنَ الرِّقِّ، ومدى حِرصِه وتطَلُّعِه إلى تحريرِ الرِّقابِ؛ فها هو هنا يجعَلُ عِتقَ الرَّقبةِ سُلَّمَ اقتِحامِ العَقَبةِ، وجَعَلَه عِتقًا للمُعتِقِ مِن النَّارِ، كُلُّ عُضوٍ بعُضوٍ، ومعلومٌ أنَّ كُلَّ مُسلِمٍ يسعى لذلك، وجعَلَه كَفَّارةً لكُلِّ يمينٍ، وللظِّهارِ بيْنَ الزَّوجَينِ، وكفَّارةَ القَتلِ الخطَأِ، كُلُّ ذلك نوافِذُ عِتقِ الرِّقابِ وإطلاقِها، في الوقتِ الَّذي لم يُفتَحْ للاسترقاقِ إلَّا بابٌ واحِدٌ، هو الأَسْرُ في القِتالِ مع المُشرِكينَ لا غَيرُ، وفي ذلك رَدٌّ على المُستَشرِقينَ ومَن تأثَّرَ بهم في ادِّعائِهم على الإسلامِ أنَّه مُتعَطِّشٌ لاسترقاقِ الأحرارِ[3]!

---

(١) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٩٧).

وقال الفَرَّاءُ: (كلُّ ما كان في القرآنِ مِن قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وما كان مِن قولِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُدْرِه). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٨٠).

وأخرج ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ٢٠٧) بسندِه عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنةَ، قال: (ما في القرآنِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُخبِرْه، وما كان: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبَرَه). وأخرجه أيضًا ابنُ المُنذِرِ وابنُ أبي حاتمٍ، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٦٤).

قال ابنُ عاشور: (مُرادُهم أنَّ مَفعولَ «ما أدراك» مُحقَّقُ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للتَّهويلِ، وأن مَفعولَ «ما يُدْريك» غيرُ مُحقَّقِ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للإنكارِ، وهو في معْنى نفْيِ الدِّرايةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٣٢).

٣- قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ وهو يَشملُ العِتْقَ، ويَشملُ فَكَّ الأسيرِ مِن العدُوِّ؛ فإنَّ هذا مِن فَكِّ الرِّقابِ، ففي الآيةِ دَليلٌ على فَضيلةِ العِتْقِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ﴾ أنَّ العِتقَ أفضَلُ أنواعِ الصَّدَقاتِ؛ وَجْهُه: تَقَدُّمُ العِتقِ على الصَّدَقةِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الصَّدَقةَ على الأقارِبِ أفضَلُ منها على الأجانِبِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۞ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ﴾ فَضلُ إطعامِ اليتيمِ -خصوصًا القَريبَ-، وإطعامِ المِسكينِ[٤].

٧- قال تعالى: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ﴾ استُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّ المِسكينَ قد يكونُ بحيث يَملِكُ شَيئًا؛ لأنَّه لو كان لَفظُ المِسكينِ دَليلًا على أنَّه لا يملِكُ شَيئًا البتَّةَ، لَكان تقييدُه بقَولِه: ﴿ذَا مَتۡرَبَةٍ﴾ تكريرًا، وهو غيرُ جائزٍ[٥]. فالمُرادَ بالمِسْكينِ هاهنا الفقيرُ؛ لأنَّه لم يُطْلِقْ ذِكْرَه، ولكِنْ قَيَّدَه بصِفاتِ الفُقراءِ، بخِلافِ المِسكينِ الَّذي قد أُطْلِقَتْ صِفَتُه[٦].

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٠).

وقال الشنقيطي: (وممَّا استدَلَّ به القائلونَ بأنَّ المسكينَ أحْوَجُ مِن الفقيرِ: أنَّ اللهَ قال في المسكينِ: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ﴾، قالوا: ﴿ذَا مَتۡرَبَةٍ﴾ أي: لا شيءَ عِندَه، حتَّى كأنَّه قد لَصِق بالتُّرابِ مِن الفَقرِ، ليس له مأوًى إلَّا التُّرابُ). ((أضواء البيان)) (٥/ ١٩٥).

(٦) يُنظر: ((الحاوي الكبير)) للماوردي (٨/ ٤٩٠). =

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سُؤالٌ: أنَّه لَمَّا كان الإيمانُ شَرطًا للانتِفاعِ بهذه الطَّاعاتِ وجَبَ كَونُه مُقَدَّمًا عليها، فما السَّبَبُ في أنَّ اللهَ تعالى أخَّرَه عنها بقَولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ التَّرتيبَ بالفاءِ لمجرَّدِ التَّرتيبِ الذِّكْريِّ، فكَونُه مِن الَّذين آمَنوا لا ترَتُّبَ له على ما قبْلَه إلَّا مُطلَقُ التَّرتيبِ الذِّكْريِّ، كما قيل:

«إنَّ مَن سادَ ثمَّ ساد أبوه ... ثمَّ قد ساد قَبْلَ ذلك جَدُّه»

فلم يُرِدْ بقَولِه: «ثمَّ ساد أبوه» التَّأخُّرَ في الوُجودِ، وإنَّما المعنى: ثمَّ اذكُرْ أنَّه ساد أبوه، كذلك في الآيةِ.

ثانيها: أنَّه يجوزُ أن يُحملَ على الظَّاهِرِ، بمعنَى: ثمَّ كان في عاقِبةِ أمْرِه مِنَ الَّذين آمَنوا، وهو أن يَموتَ مؤمنًا، فإنَّ مَن كان موافاتُه على الإيمان نفَعَتْه القُرَبُ، ومَن لا، فلا.

فالتَّراخي رُتبيٌّ، فالإيمانُ فوقَ جميعِ ما قبْلَه؛ لأنَّه يَستقِلُّ بكَونِه سببًا للنَّجاةِ، وهو شَرْطٌ في الاعتِدادِ بالأعمالِ.

ثالثُها: أنَّ مَن أتى بهذه القُرَبِ تقَرُّبًا إلى اللهِ تعالى قبْلَ إيمانِه بمحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ آمَنَ بعْدَ ذلك بمحَمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ أُجِر على ما سلَف له مِن الخَيرِ[1].

= وقال أيضًا: (وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٥١] ولم يَقُلِ: المساكينُ؛ فدَلَّ على أنَّ الفقيرَ أمَسُّ حاجَةً وأسْوَأُ حالًا مِن المسكينِ، وقال تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، فسَمَّاهم مَساكينَ ولهم سَفينةٌ، فدَلَّ على أنَّ المسكينَ أحسَنُ حالًا). ((الحاوي الكبير)) (٨/ ٤٨٩).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٤)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٠)، ((تفسير الألوسي)) =

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ إشارةٌ إلى التَّعظيمِ لأمرِ اللهِ، وفي قَولِه: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ إشارةٌ إلى الشَّفَقةِ على خَلْقِ اللهِ، ومَدارُ أمرِ الطَّاعاتِ ليس إلَّا على هذَينِ الأصلَينِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾

- قولُه: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ تَفريعَ إدماجٍ بمُناسَبةِ قولِه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، أي: هَديناهُ الطَّريقَينِ فلم يَسلُكِ النَّجْدَ المُوصِلَ إلى الخَيرِ. ويجوزُ أنْ يكونَ تَفريعًا على جُملةِ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ [البلد: ٦]، وما بيْنَهما اعتراضًا، وتكونَ (لَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) استِفهامًا حُذِفَ منه أداتُه، وهو استفهامُ إنكارٍ، والمعْنى: أنَّه يَدَّعي إهلاكَ مالٍ كَثيرٍ في الفسادِ مِن مَيْسِرٍ وخَمرٍ ونحْوِ ذلك، أفلا أهْلَكَه في القُرَبِ والفضائلِ، بفَكِّ الرِّقابِ، وإطعامِ المساكينِ في زمَنِ المَجاعةِ؟! فإنَّ الإنفاقَ في ذلك لا يَخْفَى على النَّاسِ، خِلافًا لِما يَدَّعيه مِن إنفاقٍ(٢).

- قولُه: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ الاقتِحامُ افتعالٌ؛ للدَّلالةِ على التَّكلُّفِ مِثلَ (اكتَسَبَ)، فشُبِّهَ تَكلُّفُ الأعمالِ الصَّالحةِ باقتحامِ عَقَبةِ الجبَلِ في شِدَّتِه على النَّفْسِ ومَشقَّتِه(٣).

= (١٥/ ٣٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٥، ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩١).

- والكلامُ مَسوقٌ مَساقَ التَّوبيخِ على عدَمِ اهتداءِ هؤلاء للأعمالِ الصَّالحةِ، مع قِيامِ أسبابِ الاهتداءِ مِن الإدراكِ والنُّطقِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ اعتِراضٌ مُقحَمٌ لبَيانِ العقَبةِ، مُقرِّرٌ لمَعْنى الإبهامِ والتَّفسيرِ؛ فإنَّ ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ مُفسَّرٌ بقولِه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ﴾، والمفسَّرُ مَنفيٌّ، والمفسِّرُ كذلك؛ لاتِّحادِهما في الاعتِبارِ، كأنَّه قِيل: فلا فكَّ رقَبةً، ولا أطعَمَ مِسكينًا، ولزِيادةِ تَقريرِها وكَونِها عندَ اللهِ تعالَى بمَكانةٍ رَفيعةٍ، والمعْنى: أنَّك لم تَدْرِ كُنْهَ صُعوبتِها على النَّفْسِ، وكُنْهَ ثَوابِها عندَ اللهِ تعالَى[٢].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ قيل: هو حالٌ مِن ﴿ٱلۡعَقَبَةُ﴾ في قولِه: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾؛ للتَّنويهِ بها، وأنَّها لأهمِّيَّتِها يُسأَلُ عنها المخاطَبُ هلْ أعلَمَه مُعلِمٌ ما هي؟ أي: لمْ يَقتحِمِ العقَبةَ في حالِ جَدارتِها بأنْ تُقتحَمَ، وهذا التَّنويهُ يُفيدُ التَّشويقَ إلى مَعرفةِ المُرادِ مِن العقَبةِ[٣].

- و(ما) الأُولى والثَّانيةُ أيضًا في قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ استفهامٌ، والتَّقديرُ: أيُّ شَيءٍ أعلَمَك ما هي العقَبةُ؟ أي: أعلَمَك جَوابَ هذا الاستفهامِ، كِنايةً عن كَونِه أمْرًا عَزيزًا يَحتاجُ إلى مَن يُعلِمُك به. والخِطابُ في قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ؛ لأنَّ هذا بمَنزلةِ المَثَلِ[٤]. وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ قُرِئَ برَفْعِ ﴿فَكُّ﴾ وإضافتِه إلى ﴿رَقَبَةٍ﴾، ورفْعِ ﴿إِطۡعَٰمٞ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عطْفًا على ﴿فَكُّ﴾، وجُملةُ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ بَيانٌ للعقَبةِ، والتَّقديرُ: هي فكُّ رَقَبةٍ، فحُذِفَ المُسنَدُ إليه حذْفًا لمُتابعةِ الاستِعمالِ[١]. وقُرِئَ ﴿فَكَّ﴾ بفتْحِ الكافِ على صِيغةِ فِعلِ المُضِيِّ، وبنصْبِ ﴿رَقَبَةً﴾ على المفعولِ لـ ﴿فَكَّ﴾، ﴿أو أطعَمَ﴾ بدونِ ألِفٍ بعْدَ عَينِ (إطعام) على أنَّه فِعلُ مُضيٍّ عطْفًا على ﴿فَكَّ﴾[٢]، فتكون جُملةُ ﴿فَكَّ رَقَبَةً﴾ بَيانًا لجُملةِ ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾، وما بيْنَهما اعتراضًا، أو تكون بدَلًا مِن جُملةِ ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾، أي: فلا اقتحَمَ العَقَبةَ، ولا فكَّ رَقَبةً أو أطعَمَ[٣]. ومَن قرَأَ ﴿فَكُّ﴾ بالرَّفعِ، فهو تَفسيرٌ لاقتحامِ العقَبةِ، والتَّقديرُ: وما أدْراكَ ما اقتِحامُ العقَبةِ، ومَن قرَأَ فِعلًا ماضيًا ﴿فَكَّ﴾، فلا يَحتاجُ إلى تَقديرِ مُضافٍ، بلْ يكونُ التَّعظيمُ للعَقَبةِ نفْسِها، ويَجيءُ ﴿فَكَّ﴾ بدلًا مِن ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾[٤].

- وإيثارُ لَفظِ الرَّقَبةِ هنا؛ مع أنَ المُرادَ ذاتُ الأسيرِ أو العبْدِ؛ لأن أول ما يَخطُرُ بذِهنِ النَّاظرِ لواحدٍ مِن هؤلاء هو رَقَبتُه؛ لأنَّه في الغالِبِ يُوثَقُ مِن رَقَبتِه، وأُطلِقَ الفكُّ على تَخليصِ المأخوذِ في أسْرٍ أو مِلْكٍ؛ لمُشابَهةِ تَخليصِ الأمْرِ العَسيرِ بالنَّزعِ مِن يَدِ القابضِ المُمتنِعِ[٥].

---

(١) وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٢) قرأ بهما ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو والكِسائيُّ، والباقونَ برفعِ ﴿فَكُّ﴾ وخَفضِ ﴿رَقَبَةٍ﴾ وكَسرِ الهمزةِ في ﴿إِطۡعَٰمٞ﴾ والميمِ المرفوعةِ مع التَّنوينِ وألِفٍ قبْلَها. يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٤٧)، ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٨).

- قولُه: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ إضافةُ ﴿ذِي﴾ إلى ﴿مَسۡغَبَةٖ﴾ تُفيدُ اختِصاصَ ذلك اليومِ بالمَسغبةِ، أي: يومِ مَجاعةٍ، وذلك زمَنُ البرْدِ وزمَنُ القحْطِ، ووَجْهُ تَخصيصِ اليومِ ذي المَسغبةِ بالإطعامِ فيه أنَّ الناسَ في زمَنِ المَجاعةِ يَشتَدُّ شُحُّهم بالمالِ خَشيةَ امتِدادِ زمَنِ المَجاعةِ والاحتياجِ إلى الأقواتِ، فالإطعامُ في ذلك الزَّمنِ أفضَلُ، وهو العقَبةُ، ودونَ العقَبةِ مَصاعِدُ مُتفاوِتةٌ[1].

- واليتيمُ: الشَّخصُ الَّذي ليس له أبٌ وهو دونَ البُلوغِ، ووَجْهُ تَخصيصِه بالإطعامِ أنَّه مَظِنَّةُ قِلَّةِ الشِّبَعِ؛ لصِغَرِ سِنِّه، وضَعفِ عمَلِه، وفَقْدِ مَن يَعولُه، ولِحيائِه مِن التَّعرُّضِ لطلَبِ ما يَحتاجُه؛ فلذلك رُغِّبَ في إطعامِه وإنْ لم يَصِلْ حَدَّ المَسكنةِ والفقْرِ، ووُصِفَ بكَونِه ذا مَقرَبةٍ، أي: مَقرَبةٍ مِن المُطعِمِ؛ لأنَّ هذا الوصْفَ يُؤكِّدُ إطعامَه؛ لأنَّ في كَونِه يَتيمًا إغاثةً له بالإطعامِ، وفي كَونِه ذا مَقرَبةٍ صِلةً للرَّحِمِ[2].

- إنْ كان المرادُ بالإنسانِ الجِنسَ المَخصوصَ -أي: المُشركين- كان نفْيُ فكِّ الرِّقابِ والإطعامِ كِنايةً عن انتفاءِ تَحلِّيهم بشَرائعِ الإسلامِ؛ لأنَّ فكَّ الرِّقابِ وإطعامَ الجِياعِ مِن القُرُباتِ الَّتي جاء بها الإسلامُ مِن إطعامِ الجِياعِ والمَحاويجِ، وفيه تَعريضٌ بتَعييرِ المشركينَ بأنَّهم إنَّما يُحِبُّون التَّفاخُرَ والسُّمعةَ وإرضاءَ أنفُسِهم بذلك، أو لمُؤانَسةِ الأخِلَّاءِ، وذلك غالبُ أحوالِهم، أي: لم يُطعِموا يَتيمًا ولا مِسكينًا في يومِ مَسغَبةٍ، أي: هو الطَّعامُ الَّذي يَرْضاهُ اللهُ؛ لأنَّ فيه نفْعَ المُحتاجينَ مِن عِبادِه، وليس مِثلَ إطعامِكم في المآدِبِ والولائمِ والمُنادَمةِ الَّتي لا تَعودُ بالنَّفعِ على المُطعَمينَ؛ لأنَّ تلك المَطاعمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٥٨، ٣٥٩).

كانوا يَدْعون لها أمثالَهم مِن أهْلِ الجِدَةِ والغِنى دونَ حاجةٍ إلى الطَّعامِ، وإنَّما يُريدون المُؤانَسةَ أو المُفاخَرةَ. وإنْ كان المرادُ مِن الإنسانِ واحدًا مُعيَّنًا، جاز أنْ يكونَ المعْنى على نحْوِ ما تَقدَّمَ، وجاز أنْ يكونَ ذمًّا له باللُّؤمِ والتَّفاخُرِ الكاذبِ، وفضْحًا له بأنَّه لم يَسبِقْ منه عمَلٌ نافعٌ لقَومِه قبْلَ الإسلامِ، فلم يغرَمْ غَرامةً في فَكاكِ أَسيرٍ أو مَأخوذٍ بدَمٍ، أو مَنَّ بحُرِّيةٍ على عبْدٍ[١].

- في قَولِه: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ احتِباكٌ[٢]؛ ذِكْرُ القُرْبِ أوَّلًا يدُلُّ على ضِدِّه ثانيًا، وذِكْرُ المَتْرَبةِ ثانيًا يدُلُّ على ضِدِّها أوَّلًا، وسِرُّ ذلك أنَّه ذَكَر في اليتيمِ القُرْبَ المُعَطِّفَ، وفي المِسكينِ الوَصْفَ المرَقِّقَ الملَطِّفَ؛ فهو لا يَقصِدُ بإطعامِه إلَّا سَدَّ فاقتِه، ودخَلَ فيه اليتيمُ البعيدُ والفقيرُ مِن بابِ الأَولى، وإن كان أجنبيًّا[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قيل: (ثُمَّ) لتَراخي الإيمانِ وتَباعُدِه في الرُّتبةِ، فتدُلُّ على أنَّ مَضمونَ الجُملةِ المَعطوفةِ بها أرْقى رُتبةً في الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ مِن مَضمونِ الكلامِ المعطوفةِ عليه، فيَصيرُ تَقديرُ الكلامِ: فلا اقتحَمَ العَقَبةَ بفكِّ رقَبةٍ أو إطعامٍ، بعْدَ كونِه مُؤمنًا؛ لأنَّ الإيمانَ هو السَّابقُ المقدَّمُ على غيرِه، ولا يَثبُتُ عمَلٌ صالحٌ إلَّا به، أو يكونُ التَّراخي في الذِّكرِ، كأنَّه قيل: ثمَّ اذكُرْ أنَّه كان مِن الَّذين آمَنوا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٩، ٣٦٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٥١، ٤٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) =

- وفي فِعلِ ﴿كَانَ﴾ إشعارٌ بأنَّ إيمانَه سابقٌ على اقتِحام العقَبةِ المطلوبةِ فيه بطَريقةِ التَّوبيخِ على انتفائِها عنه، فعطْفُ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الجُمَلِ المَسوقةِ للتَّوبيخِ والذَّمِّ، يُفيدُ أنَّ هذا الصِّنفَ مِن النَّاسِ -أو هذا الإنسان المُعيَّن- لم يكُنْ مِن المؤمنينَ، وأنَّه مَلومٌ على ما فرَّطَ فيه؛ لانتفاءِ إيمانِه، وأنَّه لو فعَلَ شيئًا مِن هذه الأعمالِ الحَسَنةِ، ولم يكُنْ مِن الَّذين آمَنوا؛ ما نَفَعَه عمَلُه شيئًا؛ لأنَّه قد انتَفى عنه الحظُّ الأعظمُ مِن الصَّالحاتِ، كما دلَّت عليه (ثُمَّ) مِن التَّراخي الرُّتبيِّ، فهو مُؤذِنٌ بأنَّه شرْطٌ في الاعتدادِ بالأعمالِ[1].

- وقال هنا: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (ثُمَّ كان مؤمنًا)؛ لأنَّ كَونَه مِن الَّذين آمَنوا أدَلُّ على ثُبوتِ الإيمانِ مِن الوَصفِ بمؤمنٍ؛ لأنَّ صِفةَ الجَماعةِ أقوَى، مِن أجْلِ كَثرةِ الموصوفينَ بها؛ فإنَّ كثرةَ الخَيرِ خَيرٌ. ثم في هذه الآيةِ تقويةٌ أُخرَى للوصفِ، وهو جَعْلُه بالموصولِ المُشعِرِ بأنَّهم عُرِفوا بالإيمانِ بيْنَ الفِرَقِ[2].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ للعِلمِ به، أي: آمَنوا باللهِ وحْدَه، وبرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ودِينِ الإسلامِ؛ فجُعِلَ الفِعلُ كالمُستغني عن المُتعلَّقِ، وأيضًا لِيَتأتَّى مِن ذِكرِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تَخلُّصٌ إلى الثَّناءِ عليهم بقولِه: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾، ولِبشارتِهم بأنَّهم أصحابُ المَيمنةِ[3].

= (٣٠/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٠). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وخُصَّ بالذِّكرِ مِن أوصافِ المؤمنينَ تَواصِيهم بالصَّبرِ وتَواصِيهم بالمَرحمةِ؛ لأنَّ ذلك أشرَفُ صِفاتِهم بعْدَ الإيمانِ، وهو أيضًا كِنايةٌ عن اتِّصافِهم بالمَرحمةِ؛ لأنَّ مَن يُوصي بالمَرحمةِ هو الَّذي عَرَفَ قَدْرَها وفضْلَها، فهو يَفعَلُها قبْلَ أنْ يُوصِيَ بها. وفيه تَعريضٌ بأنَّ أهلَ الشِّركِ لَيسوا مِن أهلِ الصَّبرِ ولا مِن أهْلِ المَرحمةِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۞ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۞ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ افتتح باسمِ الإشارةِ؛ لتَمييزِهم أكمَلَ تَمييزٍ؛ لإحضارِهم بصِفاتِهم في ذِهنِ السَّامعِ، مع ما في اسمِ الإشارةِ مِن إرادةِ التَّنويهِ والتَّعظيمِ[2].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۞ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ خُولِفَ في التَّعبيرِ؛ فقدْ أشارَ إلى المؤمنينَ تَكريمًا لهم، وأنَّهم حاضِرون عندَه تعالَى في مَقامِ كَرامتِه، وبمنزلةِ الجالسينَ أمامَه، لا يَعْدو الأمرُ أكثَرَ مِن الإشارةِ إليهم بالبَنانِ، ثمَّ استُعمِلَ لَفظُ الإشارةِ الدَّالِّ على البُعدِ، فلمْ يُقَلْ: (هؤلاء)؛ إيذانًا ببُعدِ مَنزلتِهم عندَه، ونَيلِهم شَرَفَ الحُظوةِ والقُربِ منه، أمَّا الكافرون فقدْ ذَكَرَهم بضَميرِ الغَيبةِ إشارةً إلى أنَّهم غائبون عن مَقامِ تَجلِّياتِه وسُبحاتِ فُيوضاتِه، وأنَّهم لا يَستَأهِلون أنْ يَمُتُّوا إليه ولو بأوهَنِ الأسبابِ، وهذا مِن العَجَبِ العُجابِ، فتَدبَّرْه[3]!

- وجُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ تَتميمٌ لِما سِيقَ مِن ذَمِّ الإنسانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٢).

المذكورِ آنِفًا؛ إذ لم يُعقَبْ ذمُّه هنالك بوَعيدِه عِنايةً بالأهمِّ، وهو ذِكرُ حالةِ أضْدادِه ووَعْدِهم، فلمَّا قُضِيَ حقُّ ذلك ثُنِيَ العِنانُ إلى ذلك الإنسانِ، فحَصَل مِن هذا النَّظمِ البديعِ مُحسِّنُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ(١)، ومُحسِّنُ الطِّباقِ(٢) بيْن المَيْمَنةِ والمَشْأمةِ(٣).

- وضَميرُ الفصْلِ في قولِه: ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ لتَقويةِ الحُكْمِ، وليس للقصْرِ؛

---

(١) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ: هو جَعْلُ أحدِ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ -المتَّفِقَينِ في اللَّفظِ والمعنَى، أو المُتجانِسَينِ المُتَّفِقَينِ في اللَّفظِ دون المعنى، أو المُلحقَينِ بهما، بأنْ جمَعَهما اشتِقاقٌ أو شبهُه- في أوَّلِ الكلامِ، ثمَّ إعادةُ ذلك في آخِرِ الكلامِ، كقولِه تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقولِه تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، وهو مِن جِهاتِ الحُسنِ في الكَلامِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٣٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٥٨).

(٢) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ معَ مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِن الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَق بيْنَ الضَّحِكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقونَ. ومنه: طباق ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خَفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةٌ، فتبدو المُطابَقةُ خفيَّةً؛ لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ، كقولِه تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القصاصِ: القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أملَحِ الطِّباقِ وأخفاه. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٣).

إذ قدِ استُفِيدَ القَصرُ مِن ذِكرِ الجُملةِ المُضادَّةِ الَّتي قبْلَها، وهي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾[1].

- وجُملةُ ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[2] مِن جُملةِ ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾، أو استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن الإخبارِ عنهم بأنَّهم أصحابُ المَشأمةِ[3].

- و﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾، وقُدِّمَ على عاملِه؛ للاهتمامِ بتَعلُّقِ الغلْقِ عليهم تَعجيلًا للتَّرهيبِ. وقدِ استَتَبَّ بهذا التَّقديمِ رِعايةُ الفواصلِ بالهاءِ ابتداءً مِن قولِه: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾[4] [البلد: ١١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٣).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَفْسيرُ
سُورَةِ الشَّمسِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الشَّمسِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (الشَّمسِ)، وأيضًا: ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾.

وسُمِّيَت أيضًا بسُورةِ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾[١]: فعن جابرٍ، قال: ((كان مُعاذٌ يُصَلِّي معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ يأتي فيَؤُمُّ قومَه، فصَلَّى لَيلةً مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم العِشاءَ، ثمَّ أتى قَومَه فأَمَّهم، فافتَتَح بسُورةِ البَقَرةِ...)). وفيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لِمُعاذٍ: ((يا مُعاذُ، أفتَّانٌ[٢] أنت؟! اقرَأْ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾))[٣].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الشَّمسِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٤].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

١- التَّرغيبُ في الطَّاعاتِ، والتَّحذيرُ مِن المعاصي[٥].

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٥).

(٢) أفَتَّانٌ: أي: مُنَفِّرٌ عن الدِّينِ وصادٌّ عنه، فالفتنةُ على وُجوهٍ، ومعناها هاهنا: صَرفُ النَّاسِ عن الدِّينِ، وحَمْلُهم على الضَّلالِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٤/ ١٨٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٦/ ٢٣٠).

(٣) أخرجه مسلم (٤٦٥).

(٤) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ الجوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٣).

٢- تَهديدُ المُشرِكينَ بأنَّهم يُوشِكُ أنْ يُصِيبَهم عَذابٌ بسببِ كفرِهم، كما أصاب مَن قبْلَهم[1].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- البَدءُ بالقَسَمِ بالمخلوقاتِ العَظيمةِ؛ مِمَّا هو دليلٌ على بَديعِ صُنعِ اللهِ تعالى.

٢- ذِكرُ أحوالِ النُّفوسِ ومَراتِبِها في مَسالِكِ الهُدى والضَّلالِ.

٣- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ مَن يُزَكِّي نَفْسَه، وسوءِ عاقِبةِ مَن يَتبَعُ هَواها.

٤- الخَبَرُ عن إهلاكِ ثَمودَ، وتهديدِ المُشرِكينَ بأنَّهم سيُصيبُهم عذابٌ كما أصاب ثمودَ إذا ما استمَرُّوا في كُفْرِهم.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٥، ٣٦٦).

الآيات (١-١٠)

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَضُحَىٰهَا﴾: الضُّحى: ارتِفاعُ الضَّوءِ وكَمالُه، وقيل: الضُّحى هنا: النَّهارُ كُلُّه، وأصْلُه يدُلُّ على بُروزِ الشَّيءِ[١].

﴿تَلَىٰهَا﴾: أي: تَبِعَها، يقال: تلَوْتُ زَيدًا، أي: تَبِعْتُه، وأصلُ (تلو): الاتِّباعُ[٢].

﴿جَلَّىٰهَا﴾: أي: بَيَّنَها وكشَفَها، والتَّجْلِيةُ: الإظهارُ والكَشْفُ، يقالُ: جَلَّى الأمرَ يُجَلِّيه: إذا أظهَرَه وأبرَزَه وبَيَّنَه، وأصلُ (جلو): انكِشافُ الشَّيءِ وبُروزُه[٣].

﴿يَغۡشَىٰهَا﴾: أي: يُغَطِّيها، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تَغطِيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦).
قال ابن عاشور: (الضُّحَى: وَقْتُ ارْتِفاعِ الشَّمْسِ عن أُفُقِ مَشْرِقِها، وظُهورِ شُعاعِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٨).
وقال الراغب: (أصلُ الجَلْوِ: الكشفُ الظَّاهرُ). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، =

﴿طَحَىٰهَا﴾: أي: بسَطَها ووسَّعَها، وأصلُ (طحو): يدُلُّ على البَسطِ والمَدِّ[١].

﴿سَوَّىٰهَا﴾: أي: عَدَّل خَلْقَها، وسَوَّى أعضاءَها، والتَّسويةُ: جعلُ الشَّيءِ سَواءً، أي: مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا، وأصْلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعْتِدالٍ بيْنَ شيئَيْنِ[٢].

﴿فُجُورَهَا﴾: الفُجُورُ: شَقُّ سِتْرِ الدِّيانةِ، يقال: فَجَرَ فُجُورًا، والفَجْرُ: شَقُّ الشَّيءِ شَقًّا واسِعًا، وأصلُ (فجر): التَّفَتُّحُ في الشَّيءِ، ومنه الفُجورُ، وهو الانْبِعاثُ والتَّفَتُّحُ في المَعاصي[٣].

﴿أَفْلَحَ﴾: أي: فاز بالمطلوبِ ونجا مِن المَرهوبِ، والفَلاحُ: الظَّفَرُ وإدراكُ البُغيةِ، والبَقاءُ، وأصلُ (فلح) هنا: يدُلُّ على فَوزٍ وبَقاءٍ[٤].

﴿زَكَّىٰهَا﴾: أي: طهَّرها مِن الكُفْرِ والمَعاصي، وأصْلَحَها بالصَّالِحاتِ مِن الأعمالِ، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على طَهارةٍ ونَماءٍ وزِيادةٍ[٥].

﴿خَابَ﴾: أي: خَسِرَ وفاتَه الظَّفَرُ. والخَيْبةُ: الحِرمانُ والخُسْرانُ، وأصلُ (خيب):

= ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص:١٦٦، ٢٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٧).

يدُلُّ على عَدَمِ فائدةٍ، وحِرمانٍ[١].

﴿دَسَّىٰهَا﴾: أي: نَقَصَها وأخفاها بالفُجورِ والمعاصي، مِنَ التَّدسيسِ: وهو إخفاءُ الشَّيءِ في الشَّيءِ، وأصلُ (دسس): يدُلُّ على دُخولِ الشَّيءِ تحتَ خَفاءٍ وسِرٍّ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالشَّمسِ وبضَوئِها، وبالقَمَرِ إذا تَبِعَ الشَّمسَ، وبالنَّهارِ إذا أظهَرَ الشَّمسَ وضَوءَها، وباللَّيلِ إذا غَشِيَ الشَّمسَ، فذَهَب بضَوئِها، وبالسَّماءِ وبالَّذي بناها، وبالأرضِ وبالَّذي بسَطَها مِن كُلِّ جانبٍ.

ثمَّ أقسَمَ الله تعالى بكُلِّ نَفْسٍ وبالَّذي خلَقَها، وعدَّل خَلْقَها، فبَيَّنَ اللهُ للنَّفْسِ طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ، والطَّاعةِ والمَعصيةِ.

ثمَّ قال تعالى مُؤكِّدًا على أهميَّةِ تزكيةِ النَّفسِ: قد فاز مَن طهَّر نَفْسَه ونقَّاها مِنَ الشِّركِ والكُفرِ والمعاصي، ونمَّاها بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وقد خَسِرَ وشَقِيَ مَن أخفى نَفْسَه وأرداها بالرَّذائِلِ والعُيوبِ والذُّنوبِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٦١).

أي: أُقسِمُ بالشَّمسِ وبضَوئِها[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٤، ٤٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٠).

ممَّن اختار القَولَ المذكورَ وأنَّ المرادَ بضُحاها ضَوْؤُها: الزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والواحِديُّ، والزَّمَخشريُّ، والرَّسْعَنيُّ، والبيضاويُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ جُزَي، والخازِنُ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والبِقاعيُّ، والعُلَيميُّ، وأبو السُّعودِ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٣١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٠).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٠).

قال الزَّمخشريُّ: (ضُحاها: ضَوْؤُها إذا أشرَقَت وقام سُلطانُها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٨).

وقيل: المرادُ بضُحاها: النَّهارُ. وممنَّ قال بهذا: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جَريرٍ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٥).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٠).

قال ابنُ جريرٍ: (اختَلَف أهلُ التَّأويلِ في معنَى قولِه: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾؛ فقال بعضُهم: معنَى ذلك: والشَّمسِ والنَّهارِ، وكان يَقولُ: الضُّحَى: هو النَّهارُ كُلُّه... وقال آخَرونَ: معنَى ذلك: وضَوْئِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٤).

وقال الواحِديُّ: (القَولُ الثَّالِثُ ما ذكره مقاتِلٌ، قال: أقسَمَ اللهُ بالشَّمْسِ وحَرِّها، وهو قَولُ ابنِ عَبَّاسٍ في روايةِ عَطاءٍ). ((البسيط)) (٢٤/ ٤٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١).

وممَّن قال بالقَولِ الثَّالِثِ مِنَ السَّلَفِ أيضًا: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٠).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١].

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا افتَتَح بذِكرِ آيةِ النَّهارِ؛ أتْبَعَه ذِكرَ آيةِ اللَّيلِ، فقال[١]:

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بالقَمَرِ إذا تَبِعَ الشَّمسَ، فخَرَج مُضيئًا بَعْدَها[٢].

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الآيتَينِ؛ ذَكَر ما هما آيَتاه، وبدأ بهما؛ لأنَّه لا صلاحَ للإنسانِ إلَّا بهما، كما أنَّه لا صلاحَ للبَدَنِ إلَّا بالنَّفْسِ والعَقْلِ[٣].

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بالنَّهارِ إذا أظهَرَ الشَّمسَ وضَوءَها[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٠، ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧١).

قيل: المرادُ بـ﴿جَلَّىٰهَا﴾: جَلَّى الشَّمسَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الثَّعْلبيُّ، ومكِّيٌّ، والنَّسَفيُّ، وأبو حيَّانَ، والبِقاعيُّ، والشَّوكانيُّ، والألوسيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٩٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٨٠). =

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر مَعدِنَ الضِّياءِ؛ ذَكَر محَلَّ الظَّلامِ[1]، فقال:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ إذا غَشِيَ الشَّمسَ، فذَهَب بضَوئِها[2].

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥﴾.

= قال البِقاعيُّ: (﴿إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أي: جَلَّى الشَّمسَ بحِليةٍ عَظيمةٍ بَعضُها أعظَمُ مِن بعضٍ باعتبارِ الطُّولِ والقِصَرِ، والصَّحوِ والغَيمِ والضَّبابِ، والصَّفاءِ والكَدَرِ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٧١).

قال أبو حيَّان: (والَّذي تَقْتَضيه الفصاحةُ أنَّ الضَّمائرَ كُلَّها إلى قولِه: ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾ عائِدةٌ على الشَّمسِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٦).

وقال الألوسيُّ: (والأوَّلُ أَولى [أي: عود الضَّمائرِ على الشَّمسِ] لذِكْرِ المرجِعِ، واتِّساقِ الضَّمائرِ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥٨).

وقيل: المرادُ: جَلَّى الظُّلمةَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ أبي زَمَنِينَ، والواحِديُّ، والبغَويُّ، والخازِنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٢).

قال البغَويُّ: (يعني: إذا جَلَّى الظُّلمةَ، كنايةً عن غيرِ مذكورٍ؛ لكَونِه مَعروفًا). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٨).

وقيل: المرادُ: جَلَّى الأرضَ. وقد مال إليه وقوَّاه: ابنُ كثيرٍ، وذهب إليه: السعديُّ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧١، ٧٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الآيتَينِ ومحَلَّ أثَرِهما؛ ذكَرَ محَلَّ الكُلِّ[١]، فقال:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.

أي: وأُقسِمُ بالسَّماءِ، وبالَّذي بناها[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٢٨، ٥٩٦).

ممَّن اختار القَولَ المذكورَ -أنَّ «ما» مَوصولةٌ بمعنى: الَّذي، وأنَّ الإقسامَ بالسَّماءِ وبانيها، الَّذي هو اللهُ تبارك وتعالى-: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وأبو عُبَيْدَةَ، وابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنِين، والثَّعلبيُّ، والسَّمعانيُّ، والزَّمَخشريُّ، والرَّسْعَنيُّ، والبيضاويُّ، والنَّسَفيُّ، والخازِنُ، والعُلَيميُّ، وأبو السُّعودِ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٧)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥٩).

وممَّن قال به مِنَ السَّلَفِ: مجاهِدٌ، والحسَنُ، وعطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٥٣).

قال ابنُ جُزَي: (فإن قيل: لِمَ عَدَل عن «مَنْ» إلى قَولِه: «ما»، في قَولِ مَن جعلَها مَوصولةً؟ فالجوابُ: أنَّه فعَل ذلك لإرادةِ الوَصْفيَّةِ، كأنَّه قال: والقادِرِ الَّذي بناها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦). ويُنظر ما يأتي (ص: ٣٧٩).

وقيل: «ما» مَصدريَّةٌ، والمعنى: وبِنائِها. وممَّن اختاره: الفَرَّاءُ، والمُبَرِّدُ، والزَّجَّاجُ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦٣)، ((المقتضب)) للمبرد (٢/ ٥٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٤).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨٢). =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧، ٢٨].

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر البِناءَ؛ ذَكَر المِهادَ[١].

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾.

أي: وأُقسِمُ بالأرضِ، وبالَّذي بسَطَها مِن كُلِّ جانبٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر: ١٩].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

أي: وأُقسِمُ بكُلِّ نَفْسٍ، وبالَّذي خلَقَها، وعدَّل خَلْقَها[٣].

= قال ابنُ كثيرٍ: (قَولُه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ «ما» هاهنا مَصدريَّةً، بمعنى: والسَّماءِ وبنائِها، وهو قَولُ قتادةَ، ويحتَمَلُ أن تكونَ بمعنى «مَن» يعني: والسَّماءِ وبانيها، وهو قَولُ مجاهِدٍ، وكِلاهما متلازِمٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٢٨، ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

قال ابنُ كثيرٍ: (قال مجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ، والثَّوريُّ، وأبو صالحٍ، وابنُ زَيدٍ: ﴿طَحَىٰهَا﴾: بسَطَها، وهذا أشهَرُ الأقوالِ، وعليه الأكثَرُ مِنَ المفَسِّرينَ، وهو المعروفُ عِندَ أهلِ اللُّغةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٠)، ((الوسيط)) =

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾.

أي: فبَيَّنَ اللهُ للنَّفْسِ وعَرَّفَها طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ والطَّاعةِ والمَعصيةِ، وجعَلَها مُهَيَّأةً ومُستَعِدَّةً لسُلوكِ الطَّريقَينِ(١).

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾.

أي: قد فاز مَن طهَّر نَفْسَه ونقَّاها مِنَ الشِّركِ والكُفرِ، والمعاصي والخِصالِ الرَّذيلةِ، ونمَّاها بالإيمانِ والعِلمِ النَّافِعِ، والأعمالِ الصَّالحةِ والأخلاقِ الحَسَنةِ

= للواحدي (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٨-٣٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٢).

قيل: المرادُ بالنَّفْسِ هنا: نفْسُ آدَمَ عليه السَّلامُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١).

وقيل: المرادُ: جِنسُ نُفوسِ النَّاسِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٢).

قال الثعلبي: (﴿سَوَّىٰهَا﴾: عدَّل خَلْقَها). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٣).

وقال البغوي: (﴿سَوَّىٰهَا﴾: عدَّل خلقَها، وسوَّى أعضاءَها). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (تَسويتُها: إكمالُ عَقْلِها ونَظَرِها؛ ولذلك ربطَ الكلامَ بقَولِه تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ الآيَةَ، فالفاءُ تُعطي أنَّ التَّسويةَ هي هذا الإلهامُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٨).

وقال ابنُ كثير: (خلَقَها سَوِيَّةً مُستقيمةً، على الفِطرةِ القَويمةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١).

وقال ابنُ عاشور: (التَّسويةُ: تعديلُ الخِلْقةِ، وإيجادُ القُوى الجَسَديَّةِ والعَقليَّةِ، ثمَّ تَزدادُ كيفيَّةُ القُوى، فيَحصُلُ الإلهامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٢).

قال ابنُ جُزَي: (أي: عرَّفها طريقَ الفُجورِ والتَّقوى، وجعل لها قوَّةً يَصِحُّ معها اكتِسابُ أحدِ الأمْرَينِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦).

الحميدةِ[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٣١)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٢، ٢٢٣).

قال ابنُ جُزي: (﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ هذا جوابُ القَسَمِ عندَ الجُمهورِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٧).

وقال الزَّمخشريُّ: (فإنْ قُلتَ: فأين جوابُ القَسَمِ؟ قلتُ: هو محذوفٌ تقديرُه: لَيُدَمْدِمَنَّ اللهُ عليهم، أي: على أهلِ مكَّةَ؛ لتَكذيبِهم رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما دَمْدَمَ على ثَمودَ لأنَّهم كذَّبوا صالحًا. وأمَّا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ فكلامٌ تابعٌ لقَولِه: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ على سبيلِ الاستطرادِ، وليس مِن جوابِ القَسَمِ في شَيءٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٠).

ممَّن اختار القَولَ المذكورَ في ﴿زَكَّىٰهَا﴾ وأيضًا في ﴿دَسَّىٰهَا﴾، وأنَّ المعنى: قد أفلح مَن زكَّى نَفْسَه، وقد خاب مَن دسَّى نَفْسَه: ابنُ قُتَيبةَ، ومَكِّيٌّ، وابنُ جُزَي، والبِقاعيُّ، والعُلَيمي، والشربيني، والشَّوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشورٍ، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تأويل مُشْكِل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٢).

وقيل: المعنى: قد أفلح مَن زكَّى اللهُ نَفْسَه، وقد خاب مَن دسَّى اللهُ نَفْسَه. وبه قال: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والسَّمعانيُّ، والبَغَويُّ، والقُرطبيُّ، والنَّسَفيُّ، والخازِنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٣).

قال ابنُ كثيرٍ: (وقَولُه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: قد أفلح مَن زكَّى نَفْسَه، أي: بطاعةِ اللهِ -كما قال قَتادةُ- وطهَّرها مِن الأخلاقِ الدَّنيئةِ والرَّذائِلِ. =

قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾.

أي: وقد خَسِرَ وشَقِيَ مَن أخفى نَفْسَه وقَمَعَها وحقَّرها وأرداها بالكفرِ والرَّذائِلِ والعُيوبِ، ودنَّسَها بالسَّيِّئاتِ والذُّنوبِ[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أنَّ اللهَ تعالى خلَقَ تلك النَّفْسَ أوَّلًا، ثمَّ سوَّاها على حالةٍ تَقبَلُ تلَقِّيَ الإلهامِ بقِسمَيه: الفُجورِ والتَّقْوى، ثمَّ تَسلُكُ أحدَ الطَّريقَينِ، فكأنَّ مجيءَ القَسَمِ بها بعدَ تلك المُسَمَّياتِ دَلالةٌ على عِظَمِ ذاتِها، وقُوَّةِ دَلالتِها على قُدرةِ خالِقِها، ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ مُستَعِدَّةً قابِلةً لتلَقِّي إلهامِ اللهِ إيَّاها، وفي مجيئِها بعدَ الآياتِ الكَونيَّةِ مِن شَمسٍ وقَمَرٍ، ولَيلٍ ونهارٍ، وسماءٍ وأرضٍ: لَفتٌ إلى وُجوبِ التَّأمُّلِ في تلك المخلوقاتِ، يُستَلْهَمُ منها الدَّلالةُ على قُدرةِ خالِقِها، والاستِدلالُ على تغيُّرِ الأزمانِ، وحركةِ الأفلاكِ، وإحداثِ السَّماءِ بالبناءِ، وأنَّه لا بُدَّ لهذا العالَمِ مِن صانعٍ، ولا بُدَّ للمُحْدَثِ المتجَدِّدِ مِن فَناءٍ وعَدَمٍ، كما عَرَض إبراهيمُ عليه السَّلامُ على النُّمْرُوذِ نَماذِجَ الاستِدلالِ على

= ويُروى نحوُه عن مجاهِدٍ، وعِكْرِمةَ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ. وكقَولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: دسَّسَها، أي: أخمَلَها ووضَعَ منها بخِذْلانِه إيَّاها عن الهُدى، حتَّى رَكِبَ المعاصيَ، وتَرَك طاعةَ اللهِ عزَّ وجَلَّ.

وقد يحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: قد أفلح مَن زكَّى اللهُ نَفْسَه، وقد خاب مَن دسَّى اللهُ نَفْسَه، كما قال العَوفيُّ وعليُّ بنُ أبي طَلْحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٧)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧١).

الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ؛ فأشار إلى الشَّمسِ أوَّلًا، ثمَّ إلى القَمَرِ، ثمَّ انتقَلَ به إلى اللهِ سُبحانَه[١].

٢- تزكيةُ الإنسانِ نَفْسَه ضربانِ؛ أحَدُهما: بالفِعلِ، وهو محمودٌ، وإليه قَصَد بقَولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، والثَّاني: بالقَولِ، كتَزكيةِ العَدْلِ غَيْرَه، وذلك مذمومٌ أن يَفعلَه الإنسانُ بنَفْسِه، وقد نهى اللهُ تعالى عنه بقَولِه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢]، ونَهْيُه عن ذلك تأديبٌ لقُبحِ مَدْحِ الإنسانِ نَفْسَه عَقلًا وشَرْعًا؛ ولهذا قيل لحكيمٍ: ما الَّذي لا يَحسُنُ وإن كان حَقًّا؟ فقال: مَدْحُ الإنسانِ نَفْسَه[٢]. فلا مُعارَضةَ بيْن الآيتَينِ، فالتَّزكيةُ الَّتي يُحمَدُ عليها الإنسانُ أنْ يَعمَلَ عمَلًا صالحًا تَزْكو به نَفْسُه، والتَّزكيةُ الَّتي يُذَمُّ عليها أنْ يُدِلَّ بعَمَلِه على ربِّه ويَمدَحَ، وكأنَّه يَمُنُّ على اللهِ، يقولُ: صلَّيتُ، وتصدَّقتُ، وصُمْتُ، وحَجَجْتُ، وجاهَدْتُ، وبرَرْتُ والدي، وما أشْبَهَ ذلك! فلا يجوزُ للإنسانِ أنْ يُزَكِّيَ نَفْسَه[٣].

٣- المكَلَّفُ المخاطَبُ مِنَ الإنسانِ هو نَفْسُه، وما البَدَنُ إلَّا آلةٌ لها ومَظهَرٌ لتصَرُّفاتِها، وإنَّ صلاحَ الإنسانِ وفَسادَه إنَّما يُقاسانِ بصَلاحِ نَفْسِه وفسادِها، وإنَّما رُقِيُّه وانحطاطُه باعتِبارِ رُقِيِّ نَفْسِه وانحطاطِها، وما فَلاحُه إلَّا بزكائِها، وما خَيبتُه إلَّا بخُبثِها؛ قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أنَّ النَّفْسَ أمانةٌ عندَك، يجبُ أنْ تَرعاها حقَّ رعايتِها، وإذا عَصَيتَ ربَّك فإنَّك ظالمٌ لنَفْسِك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢٤).

٥- المعاصي تُصَغِّرُ النَّفْسَ وتَقْمَعُها، وتُدَسِّيها فتَنخَفِضُ، وتَصيرُ كالَّذي يُدَسُّ في التُّرابِ، وتُحَقِّرُها؛ حتَّى تكونَ أصغرَ كلِّ شيءٍ وأحقَرَه، كما أنَّ الطَّاعةَ تُنمِّيها وتُزَكِّيها وتُكَبِّرُها وتُطَهِّرُها فترتفِعُ، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ...﴾ سؤالٌ عن قَسَمِ اللهِ تعالى بهذه المخلوقاتِ، وقد نُهينا عنِ القَسَمِ بغيرِه.

والجوابُ عنه مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ هذا مِن فِعْلِ اللهِ تعالى، واللهُ لا يُسأَلُ عمَّا يَفعَلُ، وله أنْ يُقْسِمَ سُبحانَه بما شاء مِن خَلْقِه، وهو سائلٌ غيرُ مسؤولٍ، وحاكمٌ غيرُ محكومٍ عليه.

الثاني: أنَّ قَسَمَ اللهِ بهذه الآياتِ دليلٌ على عَظَمتِه وكمالِ قُدرتِه وحِكمتِه، فيكونُ القَسَمُ بها الدَّالُّ على تعظيمِها ورَفْعِ شأنِها مُتضمِّنًا للثَّناءِ على اللهِ عزَّ وجَلَّ بما تَقتضيه مِن الدَّلالةِ على عَظَمتِه، وأمَّا نحن فلا نُقْسِمُ بغيرِ اللهِ تعالى أو صِفاتِه؛ لأنَّنا مَنهيُّونَ عن ذلك[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ لَمْ يَقُلْ سُبحانَه: «ونهارِها» ولا «ضيائِها»؛ لأنَّ الضُّحى يدُلُّ على النُّورِ والحرارةِ جميعًا، وبالأنوارِ والحرارةِ تقومُ مَصالحُ العِبادِ[3].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٨)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٢٩).

٣- قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ في الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ نُورَ القمَرِ مُستفادٌ مِن نورِ الشَّمسِ -أي: مِن توَجُّهِ أشِعَّةِ الشَّمسِ إلى ما يُقابِلُ الأرضَ مِنَ القَمَرِ-، وليس نَيِّرًا بذاتِه، وهذا إعجازٌ عِلميٌّ مِن إعجازِ القُرآنِ الكريمِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ سؤالٌ: لِمَ قال: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ ولم يقُلْ: «ومَن بناها»؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ المرادَ هو الإشارةُ إلى الوَصفيَّةِ، كأنَّه قِيل: والسَّماءِ والقادرِ العَظيمِ الَّذي بَناها، ودلَّ على وُجودِه وكَمالِ قُدرتِه بِناؤُها. ونفْسٍ، والحَكيمِ الباهرِ الحِكمةِ الَّذي سَوَّاها؛ ولذلك أُفرِدَ ذِكرُه، وفي كَلامِهم: سُبحانَ ما سخَّرَكنَّ لنا.

الثَّاني: أنَّ «ما» تُستعمَلُ في موضِعِ «مَن»، كقَولِه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٢]. والاعتمادُ على الأوَّلِ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ سؤالٌ: لِمَ ذَكَر في تعريفِ ذاتِ اللهِ تعالى هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ، وهي: السَّماءُ، والأرضُ، والنَّفْسُ؟

الجوابُ: لأنَّ الاستدلالَ على الغائِبِ لا يمكِنُ إلَّا بالشَّاهِدِ، والشَّاهِدُ ليس إلَّا العالَمُ الجُسْمانيُّ، وهو قِسمانِ: بَسيطٌ، ومُرَكَّبٌ، والبسيطُ قِسمانِ: العُلويَّةُ، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾، والسُّفْليَّةُ، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾، والمركَّبُ هو أقسامٌ، وأشرَفُها ذواتُ الأنفُسِ، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٩)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٦).

سَوَّىٰهَا ﴾[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ أنَّ اللهَ تعالى خلَقَ في المؤمِنِ التَّقْوى، وفي الكافِرِ الفُجورَ[٢]، وفيه الرَّدُّ على القَدَريَّةِ[٣]. فالآية فيها دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يَجعَلُ الفُجورَ والتَّقوى في القلْبِ، وقد جاءت آياتٌ تدُلُّ على أنَّ فُجورَ العبْدِ وتَقواهُ باختيارِه ومَشيئتِه، كقولِه تعالَى: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]، وقولِه تعالى: ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٦]، ونحْوِ ذلك، وقد ضلَّ في هذه المسألةِ القَدَريَّةُ والجَبْريَّةُ؛ أمَّا القَدَريَّةُ فضَلُّوا بالتَّفريطِ، حيث زَعَموا أنَّ العبْدَ يَخلُقُ عمَلَ نفْسِه استقلالًا مِن غيرِ تأثيرٍ لقُدرةِ اللهِ فيه! وأمَّا الجَبْريَّةُ فضَلُّوا بالإفراطِ، حيث زَعَموا أنَّ العبْدَ لا عمَلَ له أصلًا حتَّى يُؤاخَذَ به! وأمَّا أهْلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ فلم يُفرِّطوا ولم يُفرِطوا، فأثْبَتوا للعبْدِ أفعالًا اختياريَّةً -ومِن الضَّروريِّ عندَ جَميعِ العُقلاءِ أنَّ الحَرَكةَ الارتعاشيَّةَ لَيستْ كالحركةِ الاختياريَّةِ- وأثْبَتوا أنَّ اللهَ خالِقُ كلِّ شَيءٍ؛ فهو خالِقُ العبْدِ، وخالِقُ قُدرتِه وإرادتِه، وتأثيرُ قُدرةِ العبْدِ لا يكونُ إلَّا بمَشيئةِ اللهِ تعالَى، فالعبْدُ وجَميعُ أفعالِه بمَشيئةِ اللهِ تعالَى، مع أنَّ العبْدَ يَفعَلُ اختيارًا بالقُدرةِ والإرادةِ اللَّتَينِ خَلَقَهما اللهُ فيه فِعلًا اختياريًّا يُثابُ عليه ويُعاقَبُ[٤].

٧- إذا كان الضَّلالُ في القَدَرِ حَصَلَ تارةً بالتَّكذيبِ بالقَدَرِ والخَلْقِ، وتارةً بالتَّكذيبِ بالشَّرعِ والوعيدِ، وتارةً بتظليمِ الرَّبِّ؛ فإنَّه في هذه السُّورةِ ردٌّ على هذه الطَّوائفِ كلِّها؛ فقولُه تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ إثباتٌ للقَدَرِ بقَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٧٠).

﴿فَأَلْهَمَهَا﴾، وإثباتٌ لفعلِ العبدِ بإضافةِ الفُجورِ والتَّقوى إلى نَفْسِه؛ لِيُعلَمَ أنَّها هي الفاجرةُ والمتَّقيةُ؛ وإثباتٌ للتَّفريقِ بيْن الحَسَنِ والقبيحِ، والأمرِ والنَّهيِ بقَولِه: ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، وقولُه بعدَ ذلك: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ إثباتٌ لفِعلِ العبدِ والوَعدِ والوعيدِ بفلاحِ مَن زَكَّى نفْسَه، وخَيبةِ مَن دَسَّاها، وهذا صريحٌ في الرَّدِّ على القَدَريَّةِ المجوسيَّةِ، وعلى الجَبْريَّةِ، وأمَّا المظلِّمون للخالقِ فإنَّه قد دلَّ على عدْلِه بقَولِه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، والتَّسويةُ: التَّعديلُ؛ فبَيَّنَ أنَّه عادِلٌ في تسويةِ النَّفْسِ الَّتي ألهَمَها فُجورَها وتَقْواها[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ تُسَمَّى زكاةً، فكلُّ ما تَزكو به النُّفوسُ مِن مالٍ أو عَمَلٍ فهو زكاةٌ شَرْعًا، لكنْ تُطلَقُ الزَّكاةُ أيضًا على المعنى الخاصِّ، أي: أنَّه يُرادُ بها بَعضُ معانيها كما في قَولِنا: زكاةُ المالِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾

- الغرَضُ مِن هذه السُّورةِ تَهديدُ المشركين بأنَّهم يُوشِكُ أنْ يُصيبَهم عَذابٌ بإشراكِهم وتَكذيبِهم برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما أصاب ثَمودَ بإشراكِهم وعُتُوِّهم على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذي دَعاهم إلى التَّوحيدِ. وقُدِّمَ لذلك تَأكيدُ الخبَرِ بالقسَمِ بأشياءَ مُعظَّمةٍ، وذُكِرَ مِن أحوالِها ما هو دَليلٌ على بَديعِ صُنْعِ اللهِ تعالَى الَّذي لا يُشارِكُه فيه غيرُه؛ فهو دَليلٌ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٣/ ٨٧).

على أنَّه المنفردُ بالإلهيَّةِ، والَّذي لا يَستحِقُّ غيرُه الإلهيَّةَ، وخاصَّةً أحوالَ النُّفوسِ ومَراتِبَها في مَسالِكِ الهُدى والضَّلالِ، والسَّعادةِ والشَّقاءِ[١].

- والقسَمُ لتَأكيدِ الخبَرِ، والمقصودُ بالتَّأكيدِ هو ما في سَوقِ الخبَرِ مِن التَّعريضِ بالتَّهديدِ والوعيدِ بالاستئصالِ، وكلٌّ مِن الشَّمسِ والقمَرِ، والسَّماءِ والأرضِ، ونفْسِ الإنسانِ؛ مِن أعظَمِ مَخلوقاتِ اللهِ -ذاتًا ومعنًى- الدَّالَّةِ على بَديعِ حِكمتِه، وقَويِّ قُدرتِه، وكذلك كلٌّ مِن الضُّحى، وتُلُوِّ القمَرِ الشَّمسَ، والنَّهارِ، واللَّيلِ؛ مِن أدَقِّ النِّظامِ الَّذي جَعَلَه اللهُ تعالَى، ومُمَهِّدَ لذلك بالتَّنبيهِ على أنَّ تَزكيةَ النَّفْسِ سَببُ الفَلاحِ، وأنَّ التَّقصيرَ في إصلاحِها سَببُ الفُجورِ والخُسرانِ[٢].

- وابتُدِئَ بالشَّمسِ لمُناسَبةِ المَقامِ إيماءً للتَّنويهِ بالإسلامِ؛ لأنَّ هَدْيَه كنُورِ الشَّمسِ لا يَترُكُ للضَّلالِ مَسلَكًا. وفيه إشارةٌ إلى الوعْدِ بانتِشارِه في العالَمِ كانتشارِ نُورِ الشَّمسِ في الأُفقِ. وأُتبِعَ بالقمَرِ؛ لأنَّه يُنيرُ في الظَّلامِ كما أنارَ الإسلامُ في ابتداءِ ظُهورِه في ظُلْمةِ الشِّركِ. ثمَّ ذُكِرَ النَّهارُ واللَّيلُ معه؛ لأنَّهما مَثَلٌ لوُضوحِ الإسلامِ بعْدَ ضَلالةِ الشِّركِ، وذلك عكْسُ ما في سُورةِ اللَّيلِ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ التُّلُوُّ: التَّبَعُ، وأُريدَ به خَلْفُ ضَوئِه في اللَّيلِ ضَوءَ الشَّمسِ، أي: إذا ظَهَرَ بعْدَ مَغيبِها، فكأنَّه يَتبَعُها في مَكانِها. والقمَرُ يَتبَعُ الشَّمسَ في أحوالٍ كَثيرةٍ، وهو أيضًا يُضِيءُ في أكثَرِ لَيالي الشَّهرِ، جَعَلَه اللهُ عِوَضًا عن الشَّمسِ في عِدَّةِ لَيالٍ في الإنارةِ؛ ولذلك قُيِّدَ القسَمُ بحِينِ تُلُوِّه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٦٧).

لأنَّ تُلُوَّه للشَّمسِ حينَئذٍ تَظهَرُ منه مَظاهِرُ التُّلُوِّ للنَّاظِرينَ، فهذا الزَّمانُ مِثلُ زَمانِ الضُّحى في القسَمِ به، فكان بمَنزلةِ قسَمٍ بوَقْتِ تُلوِّه الشَّمسَ، فحَصَلَ القسَمُ بذاتِ القمَرِ وبتُلوِّه الشَّمسَ.

وأيضًا ابتُدِئَ القسَمُ بالشَّمسِ وأضوائِها الثَّلاثةِ الأصليَّةِ والمُنعكِسةِ؛ لأنَّ الشَّمسَ أعظَمُ النَّيِّراتِ الَّتي يَصِلُ نُورٌ شَديدٌ منها للأرضِ، ولِما في حالِها وحالِ أضوائِها مِن الإيماءِ إلى أنَّها مَثَلٌ لظُهورِ الإيمانِ بعْدَ الكُفْرِ، وبَثِّ التَّقْوى بعْدَ الفُجورِ؛ فإنَّ الكُفْرَ والمعاصيَ تُمثَّلُ بالظُّلمةِ، والإيمانَ والطَّاعاتِ تُمثَّلُ بالضِّياءِ؛ قال تعالَى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [المائدة: ١٦]. وأُعقِبَ القسَمُ بالنَّهارِ بالقسَمِ باللَّيلِ؛ لأنَّ اللَّيلَ مُقابلُ وَقْتِ النَّهارِ، فهو وَقْتُ الإظلامِ[١].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ الضَّميرُ المُؤنَّثُ في قولِه: ﴿جَلَّىٰهَا﴾ عائدٌ إلى الشَّمسِ، فمعْنى تَجْليةِ النَّهارِ الشَّمسَ وَقْتُ ظُهورِ الشَّمسِ، والقسَمُ إنَّما هو بالنَّهارِ؛ لأنَّه حالةٌ دالَّةٌ على دَقيقِ نِظامِ العالَمِ الأرضيِّ. وقيل: الضَّميرُ عائدٌ إلى الأرضِ، أي: أضاء الأرضَ فتَجلَّت للنَّاظِرينَ؛ لظُهورِ المقصودِ، كما يُقالُ عندَ نُزولِ المطَرِ: أرسَلَتْ، يَعْنون: أرْسَلَت السَّماءُ ماءَها، وقُيِّدَ القسَمُ بالنَّهارِ بقيْدِ وَقتِ التَّجليةِ؛ إدماجًا للمِنَّةِ في القسَمِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ تَقييدُ القسَمِ بالظُّروفِ الثَّلاثةِ ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ ﴿إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ ﴿إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾، أي: مُقسَمًا بكلِّ واحدٍ مِن هذه الثَّلاثةِ في الحالةِ الدَّالَّةِ على أعظَمِ أحوالِه وأشدِّها دَلالةً على عَظيمِ صُنْعِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٦ - ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٦٧).

تعالَى، وتَقييدُ القسَمِ باللَّيلِ بَوقتِ تَغشِيَتِه تَذكيرٌ بالعِبرةِ بحُدوثِ حالةِ الظُّلمةِ بعْدَ حالةِ النُّورِ[١].

- قيل: لَمَّا كانت الفواصلُ تَرتَّبَت على ألِفٍ وهاءِ المُؤنَّثِ، أتى ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ بالمُضارِعِ؛ لأنَّه الَّذي تَرتَّب فيه، ولو أتَى بالماضي -كالذي قبْلَه وبعْدَه- كان يكونُ التَّركيبُ: (إذا غَشِيَها)، فتَفوتُ الفاصلةُ، وهي مَقصودةٌ[٢].

- ومُناسَبةُ استِحضارِ السَّماءِ عَقِبَ ذِكرِ الشَّمسِ والقمَرِ، واستِحضارِ الأرضِ عَقِبَ ذِكرِ النَّهارِ واللَّيلِ؛ واضحةٌ. ثمَّ ذُكِرَت النَّفْسُ الإنسانيَّةُ؛ لأنَّها مَظهَرُ الهُدى والضَّلالِ، وهو المقصودُ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۞ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۞ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ (ما) مَوصولةٌ، وإنَّما أُوثِرَت على (مَن)؛ لإرادةِ معْنى الوَصفيَّةِ تَفخيمًا[٤]!

- قولُه: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ نُكِّرَت النَّفْسُ لوُجوهٍ؛ أحدُها: أنْ يُريدَ نفْسًا خاصَّةً مِن بيْنِ النُّفوسِ، وهي نفْسُ آدَمَ، كأنَّه قال: وَواحدةٍ مِن النُّفوسِ، والثَّاني: أنْ يُريدَ كلَّ نفْسٍ، ويُنكَّرُ للتَّكثيرِ، والثَّالثُ: نُكِّرَت للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، فنُكِّرَ لَفظُ (نفْس) دونَ بَقيَّةِ ما أُقسِمَ به؛ لأنَّه لا سَبيلَ إلى لامِ الجنسِ الدَّاخلةِ لنفْسٍ غيرِ الإنسانِ، مع أنَّها ليستْ مُرادةً؛ لقولِه تعالَى: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾، ولا إلى لامِ العهْدِ؛ إذ ليس المرادُ نفْسًا واحدةً مَعهودةً، وبتَقديرِ أنَّه أُريدَ بها آدَمُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٣).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٤٢٢).

فالتَّنكيرُ أدَلُّ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ[١].

٢- قولُه تبارك وتعالَى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾

- عُطِفَ قولُه: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ على ﴿سَوَّىٰهَا﴾، فهو مُقسَمٌ به، وفِعلُ (أَلْهَمَها) في تَأويلِ مَصدَرٍ؛ لأنَّه مَعطوفٌ على صِلةِ (ما) المَصدريَّةِ -على قولٍ-، وعُطِفَ بالفاءِ؛ لأنَّ الإلهامَ ناشئٌ عن التَّسويةِ[٢].

- وتَعديةُ الإلهامِ إلى الفُجورِ والتَّقْوى في هذه الآيةِ، مع أنَّ اللهَ أعلَمَ النَّاسَ بما هو فُجورٌ وما هو تَقْوى بواسطةِ الرُّسلِ؛ باعتبارِ أنَّه لولا ما أودَعَ اللهُ في النُّفوسِ مِن إدراكِ المعلوماتِ على اختلافِ مَراتبِها، لَما فَهِموا ما تَدْعوهم إليه الشَّرائعُ الإلهيَّةُ، فلولا العُقولُ لَما تَيسَّرَ إفهامُ الإنسانِ الفُجورَ والتَّقوى، والعِقابَ والثَّوابَ[٣].

- وتَقديمُ الفُجورِ على التَّقوى مُراعًى فيه أحوالُ المُخاطَبينَ بهذه السُّورةِ، وهم المشرِكون، وأكثَرُ أعمالِهم فُجورٌ ولا تَقْوى لهم، والتَّقوى صِفةُ أعمالِ المسلمينَ، وهم قليلٌ يَومَئذٍ[٤].

- قولُه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ الجُملةُ جَوابُ القسَمِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وحُذِفَت اللَّامُ -فلم يقلْ: (لقَدْ)-؛ لطُولِ الكلامِ، كأنَّه لَمَّا أراد به الحثَّ على تَكميلِ النَّفْسِ والمُبالَغة فيه، أقسَمَ عليه بما يَدُلُّهم على العِلمِ بوُجودِ الصانعِ، ووُجوبِ ذاتِه، وكَمالِ صِفاتِه الَّذي هو أقْصى درَجاتِ القوَّةِ النَّظريَّةِ، ويُذكِّرُهم عَظائمَ آلائِه؛ ليَحمِلَهم على الاستِغراقِ في شُكرِ نَعمائِه الَّذي هو مُنْتهى كَمالاتِ القوَّةِ العمَليَّةِ؛ فعلى هذا يكونُ قولُه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١]، كلامًا تابعًا على سَبيلِ الاستطرادِ لقولِه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ فإنَّ الطُّغيانَ أعظَمُ أنواعِ التَّدسيةِ. وقِيل: هو استطرادٌ بذِكرِ بَعضِ أحوالِ النَّفْسِ، وليس مِن جَوابِ القسَمِ في شَيءٍ، والجوابُ مَحذوفٌ تَقديرُه: لَيُدَمْدِمَنَّ اللهُ على كفَّارِ مكَّةَ لتَكذيبِهم رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما دَمْدَمَ على ثَمودَ لتَكذيبِهم صالحًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وعلى هذا التَّأويلِ يكونُ قولُه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ استطرادًا لجوابِ القسَمِ على طَريقِ التَّشبيهِ[1].

- ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةً مُعترِضةً بيْن القسَمِ والجَوابِ لمُناسَبةِ ذِكرِ إلهامِ الفُجورِ والتَّقوى، أي: أفلَحَ مَن زكَّى نفْسَه واتَّبَعَ ما ألْهَمَه اللهُ مِن التَّقوى، وخابَ مَن اختارَ الفُجورَ بعْدَ أنْ أُلهِمَ التَّمييزَ بيْن الأمْرَينِ بالإدراكِ والإرشادِ الإلهيِّ. وهذه الجُملةُ تَوطئةٌ لجُملةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١]؛ فإنَّ ما أصابَ ثَمودَ كان مِن خَيبتِهم؛ لأنَّهم دسُّوا أنفُسَهم بالطَّغوى، وقُدِّمَ الفلاحُ على الخَيبةِ لمُناسَبةِ التَّقوى، وأُردِفَ بخَيبةِ مَن دسَّى نفْسَه؛ لتَهيئةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٥، ٣١٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٦٤، ٤٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٦، ٤٩٧).

الانتقالِ إلى المَوعظةِ بما حَصَلَ لثَمودَ مِن عِقابٍ على ما هو أثَرُ التَّدْسيةِ[١].

- وتَكريرُ (قَدْ) في قولِه تعالَى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بتَحقيقِ مَضمونِه، والإيذانِ بتَعلُّقِ القسَمِ به أيضًا أصالةً[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٤).

الآيات (١١-١٥)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾: أي: بِطُغْيانِها، والطَّغْوى: اسمٌ مِن الطُّغْيانِ، وأصْلُه مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصْيانِ[1].

﴿ٱنۢبَعَثَ﴾: أي: نَهَض، وخَرَج بسُرعةٍ ونَشاطٍ، والانبِعاثُ هو الإسْراعُ فِي الطَّاعةِ للباعِثِ، وأصلُ (بعث): الإثارةُ[2].

﴿فَعَقَرُوهَا﴾: أي: نَحَروها وقَتَلوها، وأصلُ (عقر): يدُلُّ على جَرْحِ شَيْءٍ[3].

﴿فَدَمْدَمَ﴾: أي: دَمَّر عليهم وأهلَكَهم، والدَّمْدَمةُ: إهلاكٌ باستئصالٍ، ودَمدَمَ مُكَرَّرٌ دَمَّمَ؛ للمُبالَغةِ، وأصلُ (دمم): يدُلُّ على غِشْيانِ الشَّيءِ، ومنه الدَّمْدَمةُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

قال ابنُ عاشور: (العَقرُ: أصلُه: ضَربُ البَعيرِ بالسَّيفِ على عراقيبِه؛ لِيَسقُطَ إلى الأرضِ جاثيًا، فيتَمكَّنَ النَّاحِرُ مِن نَحْرِه، وغلَب إطلاقُه على قتلِ البعيرِ ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٢).

بمعنى الإهلاكِ، وذلك لِمَا غَشَّاهم به مِن العذابِ، والإهلاكِ [١].

﴿عُقْبَٰهَا﴾: أي: عاقِبَتَها وتَبِعَتَها، وأصلُ (عقب) هنا: يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بَعْدَ غَيرِه[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾

قَولُه تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾: مَنصوبٌ على التَّحذيرِ بفِعلٍ محذوفٍ، أي: احْذَروا ناقةَ اللهِ، وجملةُ «احذَروا ناقةَ اللهِ» في محَلِّ نَصبِ مَقولُ القَولِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا ما حَلَّ بالمكَذِّبينَ السَّابقينَ: كذَّبتْ ثَمودُ بالحَقِّ الَّذي جاءَهم به رَسولُهم صالحٌ عليه السَّلامُ؛ بسَبَبِ طُغْيانِهم، حينَ نَهَض أشقى قَومِ ثَمودَ لعَقرِ النَّاقةِ، فقال لهم رَسولُهم صالحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: احذَروا ناقةَ اللهِ أن تَمَسُّوها بسُوءٍ، واحذَروا أن تمنَعوها مِن شُربِ الماءِ في يَومِها الَّذي جعَلَه اللهُ نصيبًا لها، فكَذَّبوا نَبيَّهم صالِحًا؛ فذبَحوا النَّاقةَ كُفرًا وعِنادًا، فأطبَقَ اللهُ على ثَمودَ العُقوبةَ بسبَبِ عَقْرِهم النَّاقةَ، فسَوَّى بيْنَهم جميعًا في الهَلاكِ، وعَمَّهم بالعذابِ، ولا يَخافُ اللهُ سُبحانَه ما يكونُ مِن عاقِبةِ وتَبِعةِ إهلاكِه لثَمودَ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٩٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٢٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٤٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى خَيبةَ مَن دَسَّى نَفْسَه؛ ذكَرَ فِرقةً فعَلَت ذلك؛ ليُعتبَرَ بهم[١].

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١﴾.

أي: كذَّبت ثمودُ بالحَقِّ الَّذي جاءَهم به رَسولُهم صالحٌ عليه السَّلامُ؛ بسَبَبِ طُغيانِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢﴾.

أي: حينَ نَهَض أشقى قومِ ثَمودَ لعَقرِ النَّاقةِ الَّتي جعَلَها اللهُ آيةً عَظيمةً لهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةً لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ۞ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٣، ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤٧، ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٤).

قال الشوكاني: (﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ العامِلُ في الظَّرفِ ﴿كَذَّبَتۡ﴾، أو ﴿بِطَغۡوَىٰهَآ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤٧).

بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٧ - ٢٩].

وعن عبدِ اللهِ بنِ زَمْعةَ رضيَ الله عنه، قال: ((خطَبَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذكَرَ النَّاقةَ، وذكَرَ الَّذي عقَرَها، فقال: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾: انبَعَث بها رجُلٌ عزيزٌ عارِمٌ مَنيعٌ في رَهْطِه، مِثلُ أبي زَمْعةَ[(١)])))[(٢)].

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾﴾.

أي: فقال لهم رَسولُ اللهِ صالحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: احذَروا ناقةَ اللهِ أن تَمَسُّوها بسُوءٍ، واحذَروا أن تَمنَعوها مِن شُربِ الماءِ في يَومِها الَّذي جعَلَه اللهُ نَصيبًا لها[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥، ١٥٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨].

---

(١) العَزيزُ: الغالِبُ القَليلُ المِثْلِ. والعارِمُ: الجَبَّارُ الصَّعْبُ على مَن يُريدُه. والمَنيعُ في رَهْطِه: المُمتَنِعُ بسُلطانِه وعَشيرتِه. وأبو زَمْعةَ: هو الأسوَدُ بنُ المُطَّلِبِ بنِ أسَدِ بنِ عَبدِ العُزَّى، وهو جَدُّ عَبدِ اللهِ بنِ زَمْعةَ بنِ الأسودِ؛ راوي الحديثِ المَذْكورِ، وكان الأسْوَدُ أحدَ المُستَهزِئينَ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومات على كُفْرِه بمكَّةَ، وقُتِلَ ابنُه زَمْعةَ يومَ بَدرٍ كافِرًا أيضًا. يُنظر: ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) لأبي العباس القرطبي (٧/ ٤٢٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٩٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩٤٢)، ومسلمٌ (٢٨٥٥) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٤).

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾.

أي: فكَذَّب كُفَّارُ ثمودَ نَبيَّهم صالِحًا؛ فذبَحوا النَّاقةَ كُفرًا وعِنادًا(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾.

أي: فأطبَقَ اللهُ على ثَمودَ العُقوبةَ بسبَبِ عَقْرِهم النَّاقةَ، فسَوَّى بيْنَهم جميعًا في الهَلاكِ، وعَمَّهم بالعذابِ؛ فلم يَنْجُ منهم أحَدٌ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٤).
قال ابنُ جرير: (فكَذَّبوا صالحًا في خبرِه الَّذي أخبَرَهم به مِن أنَّ اللهَ الَّذي جَعَل شِرْبَ النَّاقةِ يومًا، ولهم شِرْبُ يومٍ معلومٍ، وأنَّ اللهَ يُحِلُّ بهم نِقمَتَه إنْ هم عَقَروها... وقد يحتَمِلُ أن يكونَ التَّكذيبُ بالعَقْرِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٩).
وقال الواحِديُّ: (فكَذَّبوه بتَحذيرِه إيَّاهم العَذابَ بعَقْرِها، فعَقَروها). ((الوسيط)) (٤/ ٥٠٠).
وقال ابنُ كثيرٍ: (كَذَّبوه فيما جاءهم به؛ فأعقَبَهم ذلك أنْ عَقَروا النَّاقةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٣٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٤، ٢٢٥).
قال ابنُ جُزَي: (﴿فَدَمْدَمَ﴾ عبارةٌ عن إنزالِ العَذابِ بهم، وفيه تهويلٌ بِذَنْبِهم، أي: بسَبَبِ ذَنْبِهم، وهو التَّكذيبُ أو عَقْرُ النَّاقةِ ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ قال ابنُ عَطيَّةَ: معناه: فسَوَّى القَبيلةَ في الهلاكِ، لم يُفلِتْ أحَدٌ منهم. وقال الزَّمَخْشريُّ: الضَّميرُ للدَّمْدَمةِ، أي: سوَّاها بيْنَهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٩). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧، ٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣].

﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥﴾.

أي: ولا يَخافُ اللهُ ما يكونُ مِن عاقِبةٍ وتَبِعةِ إهلاكِه لثَمودَ(١).

= قال ابنُ عاشور: (المرادُ بهذه الدَّمْدَمةِ صوتُ الصَّاعقةِ والرَّجفةِ الَّتي أُهلِكوا بها... وقال أكثَرُ المفسِّرينَ: دَمْدَمَ عليهم: أطبَقَ عليهم الأرضَ... ومَن فَسَّروا «دَمْدَمَ» بمعنى: أطبَقَ عليهم الأرضَ، قالوا: معنى «سَوَّاها»: جعَلَ الأرضَ مُستويةً عليهم، لا تظهَرُ فيها أجسادُهم ولا بلادُهم، وجعَلوا ضميرَ المؤنَّثِ عائدًا إلى الأرضِ المفهومةِ مِن فِعْلِ «دمدم»). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٨٣).

وقال الماوَرْديُّ: (﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: فسَوَّى بيْنَهم في الهلاكِ، قاله السُّدِّيُّ، ويحيى بنُ سلَّامٍ. الثَّاني: فسوَّى بهم الأرضَ، ذكَرَه ابنُ شَجَرةَ. ويحتَمِلُ ثالثًا: فسوَّى مَن بَعْدَهم مِنَ الأُمَمِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨٥).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: ابنُ جَريرٍ، والسَّمَرْقَنديُّ، والثَّعْلبيُّ، ومَكِّيٌّ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، والزَّمَخْشريُّ، وابنُ الجَوزيِّ، والرَّسْعَنيُّ، والنَّسَفيُّ، والخازِنُ، وابنُ كثيرٍ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّي، والبِقاعيُّ، والعُلَيميُّ، وابنُ عثُيَمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٥١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٥).

وقال مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ: (قَولُه: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَىٰهَا﴾ يعني: فسَوَّى بيوتَهم على قُبورِهم). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٥). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ تخويفٌ مِن عاقِبةِ الذُّنوبِ[(١)]، وإنذارٌ عَظيمٌ بعاقِبةِ الذَّنْبِ، فعلى كلِّ مُذنبٍ أنْ يَعتبِرَ ويَحذَرَ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ والمضافُ إلى الله سبحانَه نوعانِ: صفاتٌ لا تقومُ بأنفسِها، كالعِلمِ والقُدرةِ والكلامِ والسَّمعِ والبصرِ، فهذه إضافةُ صفةٍ إلى الموصوفِ بها، فعلمُه وكلامُه وإرادتُه وقدرتُه وحياتُه صفاتٌ له غيرُ مخلوقةٍ، وكذلك وجهُه ويدُه سبحانَه.

والثاني: إضافةُ أعيانٍ منفصلةٍ عنه، كالنَّاقةِ والبيتِ والعبدِ والرَّسولِ والرُّوحِ، فهذه إضافةُ مخلوقٍ إلى خالقِه، ومصنوعٍ إلى صانعِه، لكنَّها إضافةٌ تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميَّزُ به المضافُ عن غيرِه، كبيتِ الله، وإن كانت البيوتُ كلُّها مِلكًا له، وكذلك ناقةُ الله، والنُّوقُ كلُّها مِلكُه وخلقُه، لكنْ هذه إضافةٌ إلى إلهيتِه تقتضي محبتَه لها وتكريمَه وتشريفَه، بخلافِ الإضافةِ العامَّةِ إلى ربوبيتِه حيثُ تقتضي خلقَه وإيجادَه[(٣)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ أنَّ القومَ

= قال ابنُ كثيرٍ: (قال ابنُ عبَّاسٍ: لا يَخافُ اللهُ مِن أحَدٍ تَبِعةً. وكذا قال مجاهِدٌ، والحَسَنُ، وبَكرُ ابنُ عبدِ اللهِ المُزَنيُّ، وغَيرُهم. وقال الضَّحَّاكُ والسُّدِّيُّ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ أي: لم يخَفِ الَّذي عَقَرها عاقِبةَ ما صنَعَ. والقَولُ الأوَّلُ أَوْلى؛ لدَلالةِ السِّياقِ عليه. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦١).

(٣) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٤).

لَمَّا كانوا راضِينَ، ونادَوا العاقِرَ فعَقَرَها وَحْدَه؛ كان هذا باسمِ الجَميعِ[١]، فكانت العقوبةُ باسمِ الجَميعِ، ويؤخَذُ مِن هذا قَتْلُ الجماعةِ بالواحِدِ، وعقوبةُ الرَّبيئةِ[٢] مع الجاني[٣].

٣- الإنسانُ يُصابُ بالمصائبِ مِن عندِ نفْسِه؛ لهذا قال تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾، أي: بسبَبِ ذَنْبِهم[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾

- إنْ كانت جُملةُ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ...﴾ [الشمس: ٩] إلخ مُعترِضةً، كانتْ جُملةُ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ جَوابًا للقَسَمِ باعتِبارِ ما فُرِّعَ عليها بقولِه: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾، أي: حقًّا لقدْ كان ذلِك لذلِك. ولامُ الجوابِ مَحذوفٌ تَخفيفًا لاستِطالةِ القسَمِ، والمَقصودُ التَّعريضُ بتَهديدِ المُشركين الَّذين كذَّبوا الرَّسولَ طُغيانًا هم يَعلَمونه مِن أنفُسِهم، كما كذَّبَت ثَمودُ

---

(١) يُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٣٩٤).

(٢) الرَّبيئة: هو العَينُ والطَّليعةُ الَّذي يَنظُرُ للقَومِ؛ لئَلَّا يَدهَمَهم عَدُوٌّ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٤٣).

قال الشِّنقيطيُّ: (اللهُ مَرَّةً نَسَب العَقْرَ إلى واحِدٍ، وهو قَولُه: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾، وتارةً نسَبَ العَقْرَ إلى الجَميعِ؛ قالوا: لأنَّهم كُلَّهم متمالِئون، وأنَّه لم يذهَبْ لعَقْرِها حتَّى اتَّفَق جميعُهم، حتَّى إنَّه لَيستأذِنُ المرأةَ في خِدْرِها، فتقولُ: نعم. فوافقوا جميعًا على عَقْرِها، والمتمالِئونَ على شَيءٍ المتَّفِقون عليه، كأنَّهم فَعَلوه كُلُّهم، وإنْ كان المباشِرُ واحِدًا منهم. هكذا قاله بعضُ العُلَماءِ، مع أنَّ عادةَ اللُّغةِ العرَبيَّةِ إسنادُ الفِعْلِ للنَّاسِ وفاعِلُه بَعْضُهم، وهو معروفٌ في كلامِ العَرَبِ، وكثيرٌ في القُرآنِ العظيمِ). ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٣/ ٥١٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٥).

رَسولَهم طُغيانًا، وذلك هو المحتاجُ إلى التَّأكيدِ بالقسَمِ؛ لأنَّ المشركين لم يَهْتَدوا إلى أنَّ ما حلَّ بثَمودَ مِن الاستِئصالِ كان مِن أجْلِ تَكذيبِهم رَسولَ اللهِ إليهم، فنَبَّهَهم اللهُ بهذا ليَتدَبَّروا، أو لتَنزيلِ عِلْمِ مَن عَلِمَ ذلك منهم مَنزِلةَ الإنكارِ؛ لعدمِ جَرْيِ أمْرِهم على مُوجَبِ العِلمِ، فكأنَّه قيل: أُقسِمُ لَيُصيبُكم عَذابٌ كما أصاب ثَمودَ. وإنْ كانت جُملةُ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ جَوابَ القسَمِ، فجُملةُ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ في مَوقعِ الدَّليلِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، أي: خاب كخَيبةِ ثَمودَ[١].

- وقيل: قولُه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَقريرِ ما ذُكِرَ مِن فَلاحِ مَن زكَّى نفْسَه، أو زكَّاها اللهُ، وخَيْبةِ مَن دسَّى نفْسَه أو دسَّاها اللهُ[٢].

- وفي قولِه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ فيه تَعريضٌ بتَنظيرِ مُشركي قُرَيشٍ في تَكذيبِهم بثَمودَ في أنَّ سَببَ تَكذيبِهم هو الطُّغيانُ والتَّكبُّرُ عن اتِّباعِ مَن لا يَرَون له فضْلًا عليهم[٣].

- ومَفعولُ ﴿كَذَّبَتۡ﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ قولِه بعْدَه: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، والتَّقديرُ: كذَّبوا رسولَ اللهِ[٤].

- وكلٌّ مِن الطَّغوى والطُّغيانِ مَصدرٌ، والطُّغيانُ: فَرْطُ الكِبْرِ، لكنِ اختيرَ التَّعبيرُ بالطَّغْوى؛ لأنَّه أشبَهُ برُؤوسِ الآيِ[٥].

- قولُه: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ (إذْ) مُضافٌ إلى جُملةِ ﴿ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾، وقُدِّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧١، ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٧٢، ٣٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٢).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٧).

ذِكرُ هذا الظَّرفِ عن مَوقعِه بعْدَ قولِه: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ انبعاثَ أشْقاها لعقْرِ النَّاقةِ جُزئيٌّ مِن جُزئيَّاتِ طَغْواهم، فهو أشدُّ تَعلُّقًا بالتَّكذيبِ المُسبَّبِ عن الطَّغْوى، ففي تَقديمِه قَضاءٌ لحقِّ هذا الاتِّصالِ، ولإفادةِ أنَّ انْبعاثَ أشْقاهُم لعقْرِ النَّاقةِ كان عن إغراءٍ منهم إيَّاه، ولا يَفوتُ مع ذلك أنَّه وقَعَ بعْدَ أنْ قال لهم رسولُ اللهِ: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾، ويُستفادُ أيضًا مِن قولِه: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾[1].

- والتَّفضيلُ في الشَّقاوةِ ﴿أَشْقَىٰهَا﴾؛ لأنَّ مَن تَولَّى العَقْرَ وباشَرَه كانت شَقاوتُه أظهَرَ وأبلَغَ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾

- الفاءُ في ﴿فَقَالَ﴾ عاطِفةٌ على ﴿كَذَّبَتْ﴾، فتُفيدُ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ، ويكونُ معْنى الكلامِ: كذَّبوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتَحدَّاهم بآيةِ النَّاقةِ، وحذَّرَهم مِن التَّعرُّضِ لها بسُوءٍ، ومِن مَنْعِهم شُرْبَها في نَوبتِها مِن السُّقيا. وعُطِفَ عليه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فيما أنْذَرَهم به، فعَقَروها بالتَّكذيبِ المذكورِ أوَّلَ مرَّةٍ غيرِ التَّكذيبِ المذكورِ ثانيًا، وهذا يَقْتضي أنَّ آيةَ النَّاقةِ أُرسِلَت لهم بعْدَ أنْ كذَّبوا، وهو الشَّأنُ في آياتِ الرُّسلِ، وهو ظاهرُ ما جاء في سُورةِ (هُودٍ)، ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ للتَّرتيبِ الذِّكري المُجرَّدِ، وهي تُفيدُ عطْفَ مُفصَّلٍ على مُجمَلٍ، فيكونَ المعْنى: كذَّبَت ثَمودُ بطَغْواها إذ انبَعَث أشْقاها، ثمَّ فُصِّلَ ذلك بقولِه: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، والعقْرُ عندَ انبعاثِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٣).

وعلى القولِ بأنَّ الفاءَ في قولِه: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ للتَّرتيبِ الذِّكريِّ المجرَّدِ؛ فلا ضرورةَ إلى اعتبارِ الظَّرفِ -وهو ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾- مُقدَّمًا مِن تأخيرٍ كما سيأتي.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٠).

أشْقاها، وعليه فلا ضَرورةَ إلى اعتبارِ الظَّرفِ -وهو ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾- مُقدَّمًا مِن تَأخيرٍ[١].

- وأُعِيدَت عليهم ضَمائرُ الجمْعِ باعتِبارِ أنَّهم جمْعٌ، وإنْ كانت الضَّمائرُ قبْلَه مُراعًى فيها أنَّ ثَمودَ اسمُ قَبيلةٍ[٢].

- وعُبِّرَ عن صالحٍ عليه السَّلامُ بعُنوانِ الرِّسالةِ ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ إيذانًا بوُجوبِ طاعتِه، وبَيانًا لغايةِ عُتُوِّهم وتَماديهم في الطُّغيانِ، وهو السِّرُّ في إضافةِ النَّاقةِ إلى اللهِ تعالَى في قولِه تعالَى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾[٣].

وأيضًا إضافةُ (ناقة) إلى اسمِ الجَلالةِ؛ لأنَّها آيةٌ جَعَلَها اللهُ على صِدقِ رِسالةِ صالحٍ عليه السَّلامُ، ولأنَّ خُروجَها لهم كان خارقًا للعادةِ[٤].

- والسُّقيا: اسمُ مَصدرِ (سَقى)، وهو مَعطوفٌ على التَّحذيرِ، أي: احْذَروا سَقْيَها، أي: احْذَروا غصْبَ سَقْيِها؛ فالكلامُ على حذْفِ مُضافٍ. أو أُطلِقَ السُّقيا على الماءِ الَّذي تُسْقى منه إطلاقًا للمصدرِ على المفعولِ، فيَرجِعُ إلى إضافةِ الحُكمِ إلى الذَّاتِ، والمرادُ: حالةٌ تُعرَفُ مِن المَقامِ؛ فإنَّ مادَّةَ سُقْيا تُؤذِنُ بأنَّ المُرادَ التَّحذيرُ مِن أنْ يَسْقوا إبلَهم مِن الماءِ الَّذي في يومِ نَوبتِها[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾

- قولُه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ التَّكذيبُ المُعقَّبُ به تَحذيرُه إيَّاهم بقولِه:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٣، ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ تكذيبٌ ثانٍ، وهو تكذيبُهم بما اقتضاهُ التَّحذيرُ مِن الوعيدِ والإنذار بالعَذابِ إنْ لم يَحذَروا الاعتداءَ على تلك النَّاقةِ، وهو المُصرَّحُ به في آيةِ سُورةِ (الأعرافِ) في قولِه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وبهذا الاعتبارِ استَقامَ التَّعبيرُ عن مُقابَلةِ التَّحذيرِ بالتَّكذيبِ، مع أنَّ التَّحذيرَ إنشاءٌ، فالتَّكذيبُ إنَّما يَتوجَّهُ إلى ما في التَّحذيرِ مِن الإنذارِ بالعذابِ[١].

- والعقْرُ: جَرْحُ البَعيرِ في يَدَيه ليَبرُكَ على الأرضِ مِن الألَمِ، فيُنحَرَ في لَبَّتِه[٢]؛ فالعقْرُ كِنايةٌ مَشهورةٌ عن النَّحرِ؛ لتَلازُمِهما[٣].

- وأُسنِدَ العقْرُ للجماعةِ؛ لكَونِهم راضينَ به، ومُتمالِئينَ عليه[٤]، فلمَّا رَضُوا بذلك كانوا كالفاعِلينَ له، فنُسِب التَّكذيبُ والعَقرُ إلى جميعِهم[٥].

- و(دمْدَمَ) مُكرَّرُ (دَمَمَ)؛ للمُبالَغةِ، مِثلُ كَبْكَبَ، أي: أطْبَقَ عليهم العذابَ مُكرَّرًا[٦].

- والباءُ ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: بسَببِ ذَنْبِهم، والتَّصريحُ بذلكَ مع دَلالةِ الفاءِ عليهِ؛ للإنذارِ بعاقِبةِ الذَّنْبِ؛ ليَعتبِرَ به كلُّ مُذنِبٍ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٤).

(٢) لَبَّةُ البَعيرِ: مَوضِعُ نَحْرِه، والنَّحْرُ في اللَّبَّةِ كالذَّبحِ في الحَلْقِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٠٦)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٠).

(٥) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٨٣٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٨).

- والعُقْبى: ما يَحصُلُ عَقِبَ فِعلٍ مِن الأفعالِ مِن تَبِعةٍ لفاعِلِه أو مَثُوبةٍ، ولَمَّا كان المذكورُ عِقابًا وغَلَبةً، وكان العُرفُ أنَّ المغلوبَ يُكنِّي في نفْسِه الأخْذَ بالثَّأرِ مِن غالِبِه، فلا يَهدَأُ له بالٌ حتى يَثأَرَ لنفْسِه؛ أخبَرَ اللهُ أنَّه الغالِبُ الَّذي لا يَقدِرُ مَغلوبُه على أخْذِ الثَّأرِ منه، وهذا كِنايةٌ عن تَمكُّنِ اللهِ مِن عِقابِ المشرِكين، وأنَّ تَأخيرَ العذابِ عنهم إمهالٌ لهم وليس عن عجْزٍ، فجُملةُ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ تَذييلٌ للكلامِ، وإيذانٌ بالختامِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ تَمثيلًا لحالِهم في الاستِئصالِ بحالِ مَن لم يَترُكْ مَن يَثأَرُ له، فيكونَ المثَلُ كِنايةً عن هَلاكِهم على بَكرةِ أبيهم لم يَبْقَ منهم أحدٌ[(١)].

- وعلى قِراءةِ ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ -بفاءِ العطْفِ[(٢)] تَفريعًا على ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾- فمعْنى التَّفريعِ بالفاءِ على هذه القِراءةِ تَفريعُ العِلمِ بانتفاءِ خَوفِ اللهِ منهم مع قُوَّتِهم؛ ليَرتَدِعَ بهذا العِلمِ أمثالُهم مِن المشرِكين[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٥).

(٢) قرأ بها نافعٌ، وأبو جعفرٍ، وابنُ عامرٍ. وقرأ الباقونَ بالواوِ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠١). ويُنظر أيضًا: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٥٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٦).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ
سُورَةِ اللَّيلِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ اللَّيلِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (اللَّيلِ)، وأيضًا: ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾.

وسُمِّيَت كذلك بسُورةِ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾[(١)]:

فعن جابِرٍ رضيَ الله عنه، قال: ((كان مُعاذٌ يُصَلِّي مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ يأتي فيَؤُمُّ قَومَه، فصَلَّى لَيلةً مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم العِشاءَ، ثمَّ أتى قَومَه فأَمَّهم، فافتَتَح بسُورةِ البَقَرةِ...)). وفيه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لِمُعاذٍ: ((يا مُعاذُ، أفَتَّانٌ أنت؟! اقرَأْ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾))[(٢)].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ اللَّيلِ مَكِّيَّةٌ[(٣)]، وحُكي الإجماعُ على ذلك[(٤)].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

بَيانُ البَونِ بيْنَ حالِ المؤمِنينَ والكافِرينَ في الدُّنيا والآخِرةِ[(٥)].

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ في قَولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٥).

(٣) وقيل: مَدَنيَّةٌ، وقيل: فيها مَدَنيٌّ. يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (٧/ ١٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦١).

(٤) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٨).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- القَسَمُ على تَفاوُتِ حالِ الخَلْقِ في الإساءةِ والإحسانِ.

٢- بيانُ شَرَفِ المؤمِنينَ وفَضائِلِ أعمالِهم، ومَذَمَّة المُشرِكينَ وسُوءِ أعمالِهم، وجزاءِ كُلٍّ منهم.

٣- أنَّ اللهَ تعالى أرسَلَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للتَّذكيرِ بالحَقِّ، وأنَّ عاقِبةَ المكَذِّبينَ النَّارُ، وأنَّ المتَّقينَ يَنجونَ منها.

الآيات (١-١١)

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَغۡشَىٰ﴾: يُغطِّي ويَستُرُ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[١].

﴿تَجَلَّىٰ﴾: أي: ظهَرَ وأضاءَ، وأصلُ (جلو): يدُلُّ على انكِشافِ الشَّيءِ وبُروزِه[٢].

﴿لَشَتَّىٰ﴾: أي: مختَلِفٌ، جمْعُ شَتيتٍ، مِن الشَّتِّ، وهو التَّفرُّقُ الشَّديدُ، يُقالُ: شَتَّ جَمْعُهم، إذا تَفرَّقوا، وأصلُ (شتت): يدُلُّ على تفرُّقٍ[٣].

﴿بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: أي: بالجنَّةِ والثَّوابِ، وقيلَ غَيرُ ذلك، والحُسْنى: تَأنيثُ الأحسَنِ، والحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ، وهو عِبارةٌ عن كُلِّ مُبهِجٍ مَرغوبٍ فيه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢).

﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾: اليُسْرَى فُعلَى من اليُسْرِ، وهو ضدُّ العسرِ، وأصلُ (يسر) هنا: يدلُّ على انفتاحِ شيءٍ وَخِفَّتِه[١].

﴿لِلۡعُسۡرَىٰ﴾: مِن العُسرِ، وهو نَقيضُ اليُسْرِ، وأصلُ (عسر): يَدُلُّ على صُعوبَةٍ وشِدَّةٍ[٢].

﴿تَرَدَّىٰٓ﴾: أي: ماتَ، أو هلَك وسَقَط في جَهنَّمَ، وهو تَفَعَّل، مِنَ الرَّدى: وهو الهلاكُ، وأصلُ (ردي): يدُلُّ على رَمْيٍ وما أشْبَهَه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا باللَّيلِ إذا غَطَّى بظَلامِه كلَّ شَيءٍ، وبالنَّهارِ إذا أضاء وظَهَر، وباللهِ الَّذي خَلَق الذَّكَرَ والأُنثى بقُدرتِه- على أنَّ أعمالَكم -أيُّها النَّاسُ- لَمُختلِفةٌ ومُتفَرِّقةٌ؛ فمِنكم المؤمِنُ والكافِرُ، والمطيعُ والعاصي.

ثمَّ فصَّل الله سبحانَه ما أجملَه، فقال: فأمَّا مَن أعطى مِن مالِه في سَبيلِ اللهِ، واتَّقى اللهَ، وصدَّق بالجنَّةِ؛ فسَنُسَهِّلُ له عمَلَ الخَيرِ الموصِلَ إلى الجنَّةِ، وأمَّا مَن بَخِلَ بمالِه، واستَغْنى عن رَبِّه سُبحانَه، وكذَّبَ بالجنَّةِ؛ فسنُسَهِّلُ عليه عمَلَ الشَّرِّ الموصِلَ إلى النَّارِ، وما يَنفَعُه مالُه إذا هوى في جَهنَّمَ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨، ١٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾.

أي: أُقسِمُ باللَّيلِ وهو يُغَطِّي بظَلامِه الخلائقَ[1].

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٦).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أي: يُغَطِّي، ولم يَذكُرْ معه مفعولًا؛ للعِلمِ به. وقيل: يَغشى النَّهارَ. وقيل: الأرضَ. وقيل: الخلائِقَ. وقيل: يَغشى كُلَّ شَيءٍ بظُلْمتِه). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٠).

ومِمَّن قال: يغشَى النَّهارَ بظَلامِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، ومكي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٦١).

ومِمَّن قال في الجملة: يُغَطِّي الأرضَ وما فيها بظَلامِه: ابنُ عطيَّة، والعُلَيميُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٨). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٦).

ومِمَّن قال: يَغشى الخلائِقَ: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

قال الشَّوكاني: (وقَولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أي: يُغَطِّي بظُلمتِه ما كان مُضِيئًا. قال الزَّجَّاجُ: يَغشى اللَّيلُ الأُفُقَ وجميعَ ما بيْن السَّماءِ والأرضِ، فيَذهَبُ ضَوءُ النَّهارِ. وقيل: يَغشى النَّهارَ. وقيل: يَغشى الأرضَ. والأوَّلُ أَولى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٠). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٣٥).

عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ: (﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ قال: إذا أقبَلَ فغطَّى كُلَّ شَيءٍ). يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٣٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أقسَم باللَّيلِ إذا يَغْشَى، أقسَمَ بالنَّهارِ إذا تجَلَّى؛ لأنَّ النَّهارَ إذا جاء انكشَفَ بضَوئِه ما كان في الدُّنيا مِن الظُّلْمةِ، وجاء الوَقتُ الَّذي تتحَرَّكُ فيه النَّاسُ لِمَعايشِهم[1].

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بالنَّهارِ إذا أضاء وظَهَر بنُورِه[2].

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾.

أي: وأُقسِمُ باللهِ الَّذي خَلَق الذَّكَرَ والأُنثى بقُدرتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٦).

قال القُرطبيُّ: (وفي المرادِ بالذَّكَرِ والأُنْثى قَولانِ؛ أحَدُهما: آدَمُ وحوَّاءُ، قاله ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، والكَلبيُّ. الثَّاني: يعني جميعَ الذُّكورِ والإناثِ مِن بني آدَمَ والبهائِمِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى خلَقَ جميعَهم مِن ذَكَرٍ وأُنثى مِن نَوعِهم. وقيل: كُلُّ ذكَرٍ وأُنثى مِن الآدَميِّينَ دونَ البهائِمِ؛ لاختِصاصِهم بوَلايةِ اللهِ وطاعتِه). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٢).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنديُّ، والعُلَيميُّ، ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٥٥).

وممَّن قال به مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، والكَلبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٢).

وممَّن اختار القَولَ الثَّانيَ: أبو حيَّانَ، وابنُ القَيِّم، وأبو السُّعودِ، والشَّوكانيُّ، والألوسيُّ، والقاسميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم =

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥].

﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ المُقسَمِ به للمُقسَمِ عليه: أنَّ سَعْيَ النَّاسِ منه خَيرٌ، ومنه شَرٌّ، وهما يُماثِلانِ النُّورَ والظُّلمةَ، وأنَّ سَعْيَ النَّاسِ يَنبثِقُ عن نَتائجَ؛ منها النَّافعُ، ومنها الضَّارُّ، كما يُنتِجُ الذَّكَرُ والأُنثى ذُرِّيَّةً صالحةً وغيرَ صالحةٍ(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر ما هو محسوسُ التَّخالُفِ مِنَ المعاني والأجرامِ، أتْبَعَه ما هو معقولُ التَّبايُنِ مِن الأعراضِ، فقال(٢):

﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾.

أي: إنَّ أعمالَكم الَّتي تجتَهِدونَ فيها -أيُّها النَّاسُ- لَمُختلِفةٌ ومُتفرِّقةٌ؛ فمِنكم المؤمِنُ والكافِرُ، ومنكم المطيعُ والعاصي، ومنكم المُهتَدي والضَّالُّ، ومنكم المخلِصُ والمُرائي، ومنكم المتَّبِعُ والمبتَدِعُ(٣).

= (ص: ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

ومِمَّن اختار القَولَ الثَّالِثَ: الماوَرْديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦-٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٦). =

كما قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وعن أبي مالِكٍ الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كُلُّ النَّاسِ يَغْدو؛ فبائِعٌ نَفْسَه فمُعتِقُها، أو مُوبِقُها[١]))[٢].

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه سُبحانَه بَيَّنَ معنى اختِلافِ الأعمالِ مِن العاقِبةِ المحمودةِ والمذمومةِ، والثَّوابِ والعِقابِ[٣].

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾.

أي: فأمَّا مَن أعطى مِن مالِه فأنفَقَه في سَبيلِ اللهِ، وجَعَل بيْنَه وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه حاجِزًا يَقِيه ذلك[٤].

= قال ابن جرير: (قَولُه: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ جوابُ القَسَمِ، والكلامُ: واللَّيلِ إذا يغشى إنَّ سَعْيَكم لشَتَّى، وكذا قال أهلُ العِلمِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٦٠).

(١) قال النَّوويُّ: (معناه: كُلُّ إنسانٍ يَسْعى بنَفْسِه؛ فمِنهم مَن يَبيعُها لله تعالى بطاعتِه فيُعتِقُها مِن العذابِ، ومنهم مَن يَبيعُها للشَّيطانِ والهوى باتِّباعِهما، فيُوبِقُها، أي: يُهلِكُها). ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٠٢).

(٢) رواه مسلم (٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٦، ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

قال القرطبي: (قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ قال ابنُ مَسْعودٍ: يَعْني: أبا بَكْرٍ رضيَ اللهُ عنه، وقالَه عامَّةُ المُفَسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٢).

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾.

أي: وصدَّق بالجنَّةِ الَّتي وعَدَ اللهُ بها المحسِنينَ المتَّقِينَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٠، ١١].

وقال سُبحانَه حكايةً عن ذي القرنَين: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٨٦).

قال القُرطبيُّ: (﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: بلا إلهَ إلَّا اللهُ، قاله الضَّحَّاكُ، والسُّلَميُّ، وابنُ عبَّاس أيضًا. وقال مجاهدٌ: بالجنَّة، دليلُه قَولُه تَعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] الآيةَ. وقال قَتادةُ: بمَوْعودِ اللهِ الَّذي وَعَدَه أن يُثيبَه. زَيدُ بنُ أَسلَمَ: بالصَّلاةِ والزَّكاةِ والصَّوم. الحسَنُ: بالخَلَفِ مِن عَطائِه، وهو اختيارُ الطَّبَريِّ. وتَقدَّمَ عن ابنِ عبَّاس، وكلُّه مُتقارِبُ المَعْنى؛ إذْ كلُّه يَرجِعُ إلى الثَّوابِ الَّذي هو الجَنَّةُ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٦٥).

وقال ابنُ عَطيَّةَ: (قال كَثيرٌ مِن المُفَسِّرينَ: الحُسْنى: الأجْرُ والثَّوابُ مُجْملًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩١).

وقال الواحديُّ: (﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾: بالجَنَّة، وثَوابِ اللهِ، والخَلَفِ من اللهِ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٠٣).

وقال ابنُ القيِّم: (التَّصْديقُ بالحُسْنى، وفُسِّرَتْ بلا إلهَ إلَّا اللهُ، وفُسِّرَتْ بالجَنَّة، وفُسِّرَتْ بالخَلَف، وهي أقوالُ السَّلَف... والأقوالُ الثَّلاثةُ تَرجِعُ إلى أفضَلِ الأعمالِ وأفضَلِ الجَزاء، فمَن فَسَّرَها بلا إلهَ إلَّا اللهُ فقدْ فَسَّرَها بمُفرَدٍ يَأتي بكلِّ جَمْع؛ فإنَّ التَّصْديقَ الحَقيقيَّ بلا إلهَ إلَّا اللهُ يَسْتلزِمُ التَّصديقَ بشُعَبِها وفُروعِها كلِّها. وجَميعُ أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه مِن شُعَبِ هذه الكَلِمة...، ومَن فَسَّرَ الحُسْنى بالجَنَّة فَسَّرَها بأَعْلى أنْواعِ الجَزاءِ وكَماله، ومَن فَسَّرَها بالخَلَفِ ذَكَرَ نَوْعًا مِن الجَزاء، فهذا جَزاءٌ دُنْيويٌّ، والجَنَّةُ الجَزاءُ في الآخِرة، فرَجَعَ التَّصْديقُ بالحُسْنى إلى التَّصْديقِ بالإيمانِ وجَزائِه. والتَّحْقيقُ أنَّها تَتَناوَلُ الأمْرَين). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٥٨).

وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ [الكهف: ٨٨].

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧﴾.

أي: فسَنُسَهِّلُ له عمَلَ الخَيرِ الموصِلَ إلى الجنَّةِ[١].

عن عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في جَنازةٍ، فقال: ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا وقد كُتِبَ مَقعَدُه مِنَ النَّارِ، ومَقعَدُه مِن الجنَّةِ. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، أفلا نَتَّكِلُ على كِتابِنا، ونَدَعُ العمَلَ؟! قال: اعمَلوا؛ فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له؛ أمَّا مَن كان مِن أهلِ السَّعادةِ فيُيَسَّرُ لعمَلِ أهلِ السَّعادةِ، وأمَّا مَن كان مِن أهلِ الشَّقاءِ فيُيَسَّرُ لعَمَلِ أهلِ الشَّقاوةِ، ثمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [اللَّيل: ٥ - ١٠]))[٢].

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر المُزَكِّي وثَمَرتَه؛ أتْبَعَه المُدَسِّيَ وشِقْوَتَه[٣]:

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨﴾.

أي: وأمَّا مَن بَخِلَ بمالِه فلم يُنفِقْه في سَبيلِ اللهِ، واستغنى عن رَبِّه سُبحانَه فلم

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٣)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

وقال ابنُ عُثَيْمينَ: (﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾... في أُمورِه كلِّها؛ في أُمورِ دينِه ودُنْياه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٧).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩٤٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩١).

يَرغَبْ في طاعتِه ولا في ثوابِه[١].

﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾.

أي: وكذَّبَ بالجنَّةِ[٢].

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾.

أي: فسَنُسَهِّلُ عليه عمَلَ الشَّرِّ الموصِلَ إلى النَّارِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢).

قيل: المرادُ: اسْتَغنى عن رَبِّه فلم يَرغَبْ في طاعتِه، وتَرَكَ عُبودِيَّتَه، ورأى أنَّه في غِنًى عن رَحْمتِه. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جريرٍ، ومَكِّيٌّ، والسعديُّ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٧).

وقيل: المرادُ: استغنى عن ثَوابِ اللهِ فلم يَرغَبْ فيه. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: السَّمَرْقَنديُّ، والواحِديُّ، والسَّمْعانيُّ، والبَغَويُّ، وابنُ الجَوزيِّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٠).

وقال الثعلبي: (﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ عن ربِّه، فلمْ يَرغَبْ في ثَوابِه). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٨).

وذهَبَ البَيْضاويُّ والعُلَيْميُّ إلى أنَّ المَعْنى: اسْتَغنى بشَهَواتِ الدُّنيا ولَذَّاتِها عن نَعيمِ الآخِرةِ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٩).

وقال ابنُ عاشور: (وقد يُرادُ به زيادةُ طَلَبِ الغِنى بالبُخلِ بالمالِ، فتكونُ السِّينُ والتَّاءُ للطَّلَبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦). =

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أهلُ الدُّنيا إذا وَقَعوا في وَرطةٍ تخَلَّصوا منها بأموالِهم، قال[1]:

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

أي: وما يَنفَعُه مالُه الَّذي بَخِلَ به، وأعرَضَ بسَبَبِه عن اللهِ، إذا هوى في جَهنَّمَ[2].

= قال ابنُ القيِّم: (التَّيسيرُ للعُسْرى يكونُ بأمْرَينِ؛ أحَدُهما: أن يَحُولَ بيْنَه وبيْن أسبابِ الخَيرِ، فيَجري الشَّرُّ على قَلْبِه ونيَّتِه، ولِسانِه وجَوارِحِه. والثَّاني: أن يَحُولَ بيْنَه وبيْنَ الجزاءِ الأيسَرِ كما حال بيْنَه وبيْنَ أسبابِه). ((التبيان)) (ص: ٦٢).

وقال ابن عثيمين: (﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾... في أمورِه كلِّها). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤، ٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣٩).

قال القُرطبي: («مَا»: يحتَمِلُ أن تكونَ جَحْدًا، أي: ولا يُغْني عنه مالُه شَيئًا، ويحتَمِلُ أن تكونَ استفهامًا معناه التَّوبيخُ، أيْ: أيُّ شَيءٍ يُغْني عنه إذا هلك ووقَع في جهنَّمَ؟!). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٥، ٨٦). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٧).

ممَّن اختارَ أنَّ (ما) نافِيةٌ: النَّسَفيُّ، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٥١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٨٠).

وممَّن اختارَ أنَّ (ما) استِفْهاميَّةٌ ومعناها: أيُّ شيءٍ: ابنُ جَريرٍ، ومَكِّيٌّ، والنَّيْسابوريُّ، وابنُ عُثَيمينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣١٥)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٩).

وقال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ قال مجاهِدٌ: أي: إذا ماتَ. وقال أبو صالِحٍ، ومالِكٌ عن زَيدِ بنِ أسْلَمَ: إذا تَرَدَّى في النَّارِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢١).

مِمَّن اخْتارَ القَوْلَ الأوَّلَ أنَّ ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: ماتَ وهَلَكَ: مَكِّيٌّ، والواحِديُّ، والقُرْطُبيُّ، والخازِنُ، والنَّيْسابوريُّ، والشَّوْكانيُّ، والسَّعْديُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ فأقسَمَ باللَّيلِ وبالنَّهارِ، وفيه التَّنبيهُ على الاعتبارِ بهما في الاستِدلالِ على حِكْمةِ نِظامِ اللهِ في هذا الكَونِ، وبَديعِ قُدْرتِه[1].

٢- إنَّ ذِكْرَ العَواقبِ الحَسَنةِ مِن أجْلِ الحَثِّ على الطَّاعةِ لا يُنافي الإخلاصَ، وهذا مِن الثَّوابِ العاجِلِ، ومِن عاجِلِ بُشْرى المؤمِنِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[2].

٣- إذا رأيتَ اللهَ قد يسَّر لك عمَلَ أهلِ السَّعادةِ فأبشِرْ أنَّك مِن أهلِ السَّعادةِ، فإذا رأيتَ مِن نفْسِك الانقيادَ للصَّلاةِ والزَّكاةِ ولفِعلِ الخَيرِ، وعندَك تقوَى مِن اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فاعلَمْ أنَّك مِن أهلِ السَّعادةِ واستبشِرْ؛ لأنَّ الله قال: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ

= (٢٠/ ٨٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

ومِمَّن اخْتارَ القَولَ الثَّانيَ -أي: تَردَّى في النَّارِ وسَقَطَ فيها-: ابنُ جَريرٍ، والسَّمْعانيُّ، والعُلَيْميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٨٠).

ومِمَّن جَمَعَ بَيْنَ المَعْنيَينِ السَّابقَينِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والبِقاعيُّ:

قال مُقاتِلٌ: (﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ يَعني: إذا ماتَ، وتَردَّى في النَّارِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٢٢).

وقال السَّمَرْقَنْديُّ: (﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ يَعْني: ما يَنفَعُه مالُه، إذا ماتَ وتَرَكَه في الدُّنْيا، وهو يَرِدُ إلى النَّارِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩).

وقال البِقاعيُّ: (﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾: أي هَلَكَ بالسُّقوطِ في حُفْرةِ القَبْرِ والنَّارِ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٩٢).

وقال الماوَرْديُّ: (ويَحتمِلُ ثالِثًا: إذا تَردَّى في ضَلالِه، وهَوى في مَعاصيه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٧٢).

وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾، وإنْ رأيتَ العَكسَ؛ رأيتَ نفْسَك تَنشَرِحُ بفعلِ السَّيِّئاتِ -والعياذُ باللهِ-، وتَضيقُ ذَرْعًا بفعلِ الطَّاعاتِ؛ فاحذَرْ، وأنقِذْ نفْسَك، وتُبْ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ حتَّى يُيَسِّرَ اللهُ لك[1].

٤- إنَّ العبدَ إذا وُفِّقَ للانقيادِ للهِ سُبحانَه وتعالى سَهُلَ عليه دِينُه، وصار أيسَرَ عليه مِن كلِّ شَيءٍ، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[2].

٥- إنَّ اللهَ تعالى إذا عَلِمَ مِن العَبدِ نيَّةً صالحةً، وإرادةً للخَيرِ؛ يَسَّرَ له ذلك وأعانه عليه؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۞ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۞ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ أقسَمَ سُبحانَه بزَمانِ السَّعْيِ -وهو اللَّيلُ والنَّهارُ- وبالسَّاعي -وهو الذَّكَرُ والأُنثى- على اختلافِ السَّعيِ، كما اختلف اللَّيلُ والنَّهارُ والذَّكَرُ والأُنثى، وسَعْيُه وزَمانُه مختَلِفٌ، وذلك دليلٌ على اختلافِ جَزائِه وثوابِه، وأنَّه سُبحانَه لا يُسَوِّي بيْن مَنِ اختلَف سَعْيُه في الجزاءِ، كما لم يُسَوِّ بيْن اللَّيلِ والنَّهارِ والذَّكَرِ والأُنثى[4].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ظُلمةَ اللَّيلِ كانت غالِبةً لضَوءِ النَّهارِ، وأنَّ النَّهارَ يَعقُبُها، والظُّلمةُ هي أصلُ أحوالِ أهلِ الأرضِ وجَميعِ العوالَمِ المرتَبِطةِ بالنِّظامِ الشَّمسيِّ، وإنَّما أضاءت بَعْدَ أن خَلَق اللهُ

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٥٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١١٣).
(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٥٨٧).
(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٦).

الشَّمسَ؛ ولذلك اعتُبِرَ التَّاريخُ في البَدءِ باللَّيالي، ثمَّ طَرَأ عليه التَّاريخُ بالأيَّامِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ سُؤالٌ عن قَسَمِ اللهِ تعالى بهذه المخلوقاتِ، وقد نُهِينا عنِ القَسَمِ بغيرِه.

الجوابُ عنه مِن وجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ هذا مِن فِعْلِ اللهِ تعالى، واللهُ لا يُسأَلُ عمَّا يَفْعَلُ، وله أنْ يُقْسِمَ سُبحانَه بما شاء مِن خَلْقِه، وهو سائلٌ غيرُ مسؤولٍ، وحاكمٌ غيرُ محكومٍ عليه.

الثَّاني: أنَّ قَسَمَ اللهِ بهذه الآياتِ دليلٌ على عَظَمتِه وكمالِ قُدرتِه وحِكمتِه، فيكونُ القَسَمُ بها الدَّالُّ على تعظيمِها ورَفْعِ شأنِها متضَمِّنًا للثَّناءِ على اللهِ عزَّ وجلَّ بما تقتَضيه مِن الدَّلالةِ على عَظَمتِه، وأمَّا نحن فلا نُقْسِمُ بغيرِ اللهِ أو صِفاتِه؛ لأنَّنا مَنهيُّونَ عن ذلك[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۞ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ قابَلَ سُبحانَه بيْنَ الذَّكَرِ والأُنثى كما قابَلَ بيْن اللَّيلِ والنَّهارِ، وكلُّ ذلك مِن آياتِ رُبوبيَّتِه؛ فإنَّ إخراجَ اللَّيلِ والنَّهارِ بواسِطةِ الأجرامِ العُلويَّةِ كإخراجِ الذَّكَرِ والأنثى بواسطةِ الأجرامِ السُّفْليَّةِ، فأخْرَجَ مِن الأرضِ ذُكورَ الحيوانِ وإناثَه على اختلافِ أنواعِها، كما أخْرَجَ مِن السَّماءِ اللَّيلَ والنَّهارَ بواسطةِ الشَّمسِ فيها[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ أنَّ الخُنْثى أحَدُهما، لا صِنفٌ ثالِثٌ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ أنَّ مِن طَبيعةِ البَشَرِ أنْ يكونَ لهم نَزَعاتٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٧٨).

مُتباينةٌ؛ فمنها نَزَعاتٌ إلى الخَيرِ والحَقِّ، ومنها نَزَعاتٌ إلى الباطِلِ والشَّرِّ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أنَّه لَمَّا كان الدِّينُ يدورُ على ثلاثِ قواعِدَ: فِعْلِ المأمورِ، وترْكِ المحظورِ، وتصديقِ الخبرِ، وإنْ شئتَ قلتَ: الدِّينُ طَلَبٌ وخَبَرٌ، والطَّلَبُ نَوعانِ: طلَبُ فِعلٍ، وطلَبُ تَركٍ- فقد تضَمَّنَتْ هذه الكَلِماتُ الثَّلاثُ مراتبَ الدِّينِ أجمَعَها؛ فالإعطاءُ: فعلُ المأمورِ، والتَّقْوى: ترْكُ المحظورِ، والتَّصديقُ بالحسنى: تصديقُ الخبَرِ، فانتظمَ ذلك الدِّينَ كلَّه، وأكمَلُ النَّاسِ مَن كَمَلَتْ له هذه القُوى الثَّلاثُ[٢].

٨- قَولُه تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ إلى آخِرِه: فيه رَدٌّ على القَدَريَّةِ؛ أخرج الشَّيخانِ وغَيرُهما عن عليٍّ رضيَ الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا وقد كُتِبَ مَقعَدُه مِنَ الجنَّةِ، ومَقعَدُه مِنَ النَّارِ. فقُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، أفلا نتَّكِلُ؟ قال: لا، اعمَلوا؛ فكُلٌّ مُيَسَّرٌ، ثمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ إلى قَولِه: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾))[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ السِّينُ هنا: للتَّحقيقِ، أي: إنَّ مَنْ أَعطى واتَّقى، وصَدَّقَ بالحُسنى؛ فسيُيَسِّرُه اللهُ عزَّ وجلَّ لليُسْرى في أُمورِه كلِّها، في أمورِ دينِه ودُنياه-على قولٍ في التفسيرِ-، وكُلَّما كان الإنسانُ أتقى للهِ كانت أمورُه أيسَرَ له؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[٤] [الطلاق: ٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ دَلالةٌ

---

(١) يُنظر: ((الضياء اللامع من الخطب الجوامع)) لابن عثيمين (٢/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩١).
والحديثُ أخرجه البُخاريُّ (٤٩٤٧)، ومسلمٌ (٢٦٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٧).

على أنَّ التَّوفيقَ والخِذْلانَ مِنَ اللهِ تعالى[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ مع قَولِه: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ سؤالٌ: كيف قابَلَ «اتَّقى» بـ«استَغْنى»؟ وهل يُمكِنُ للعبدِ أنْ يَستغنيَ عن ربِّه طَرْفةَ عَينٍ؟!

الجَوابُ: هذا مِن أحسَنِ المُقابَلةِ؛ فإنَّ المتَّقيَ لَمَّا استشعرَ فَقْرَه وفاقتَه وشِدَّةَ حاجتِه إلى ربِّه اتَّقاه، ولم يَتعرَّضْ لسَخَطِه وغَضَبِه ومَقْتِه بارتكابِ ما نهاه عنه؛ فإنَّ مَن كان شديدَ الحاجةِ والضَّرورةِ إلى شَخصٍ فإنَّه يتَّقي غَضَبَه وسَخَطَه عليه غايةَ الاتِّقاءِ، ويجانِبُ ما يَكرَهُه غايةَ المجانَبةِ، ويَعتمِدُ فِعْلَ ما يُحِبُّه ويُؤْثِرُه؛ فقابَلَ «التَّقْوى» بـ«الاستغناءِ»؛ تبشيعًا لحالِ تاركِ التَّقوى، ومُبالَغةً في ذَمِّه بأنْ فَعَلَ فِعْلَ المُستغني عن ربِّه، لا فِعْلَ الفقيرِ المضطرِّ إليه الَّذي لا مَلجأَ له إلَّا إليه، ولا غِنَى له عن فَضْلِه وَجُودِه وبِرِّه طَرْفةَ عَينٍ[٢]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ وكذا قَولُه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وكذا قَولُه: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] أنَّ عامَّةَ ما يَذْكُرُه اللهُ في خَلْقِ الكُفرِ والمعاصي يَجْعَلُه جزاءً لذلك العَمَلِ، وهؤلاء وأمثالُهم بَذَلوا فيه أعمالًا عاقبَهم بها على فِعْلِ محظورٍ وترْكِ مأمورٍ، وتلك الأمورُ إنَّما كانت منهم وخُلِقَتْ فيهم؛ لكَونِهم لم يَفعَلوا ما خُلِقوا له، ولا بُدَّ لهم مِن حركةٍ وإرادةٍ؛ فلمَّا لم يَتحرَّكوا بالحسَناتِ حُرِّكوا بالسَّيِّئاتِ عَدْلًا مِن اللهِ تعالى؛ حيثُ وَضَعَ ذلك مَوضِعَه في مَحَلِّه القابِلِ له، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦٣).

القلبُ الَّذي لا يكونُ إلَّا عاملًا، فإذا لم يَعْمَلِ الحسَنةَ استُعمِلَ في عمَلِ السَّيِّئةِ، كما قيل: نفْسُك إنْ لم تَشْغَلْها شَغَلَتْك، وهذا الوجهُ إذا حُقِّقَ يَقْطَعُ مادَّةَ كلامِ القَدَرِيَّةِ المُكذِّبَةِ، والمُجْبِرةِ؛ الَّذين يقولون: إنَّ أفعالَ العِبادِ ليست مخلوقةً للهِ، ويَجعلونَ خَلْقَها والتَّعذيبَ عليها ظُلْمًا، والَّذين يقولون: إنَّه خَلَقَ كُفْرَ الكافِرينَ وَمعصيتَهم، وعاقَبَهم على ذلك لا لسببٍ ولا لحِكمةٍ[(١)]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ -على القولِ بأنَّ المرادَ العُسْرى في الأمورِ كلِّها- سؤالٌ: أنَّنا نَجِدُ أنَّ الكُفَّارَ تُيَسَّرُ أمورُهم!

الجوابُ: نعَمْ. قد تُيَسَّرُ أمورُهم، لكِنَّ قلوبَهم تَشْتَعِلُ نارًا وضِيقًا وحَرَجًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ثُمَّ ما يُنَعَّمُون به فهو تنعيمُ جَسَدٍ فقط، لا تنعيمُ رُوحٍ، ثُمَّ هو أيضًا وَبَالٌ عليهم؛ لقولِ اللهِ تعالى فيهم: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ * وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، وقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُمْلِي للظَّالِمِ حتَّى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْه))، ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾[(٢)] [هود: ١٠٢]، وهؤلاء عُجِّلَتْ لهم طيِّبَاتُهم في حياتِهم الدُّنيا، ومع ذلك فإنَّ هذه الدُّنيا جَنَّةٌ لهم بالنِّسبةِ للآخِرةِ[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٦٨٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٥٨٣) مِن حديثِ أبي موسى الأشعَريِّ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٧).

- خُصَّ بالذِّكرِ ما في اللَّيلِ مِن الدَّلالةِ مِن حالةِ غِشْيانِه الجانبَ الَّذي يَغشاهُ مِن الأرضِ، ويَغْشى فيه مِن الموجوداتِ، فتَعُمُّها ظُلمتُه فلا تَبْدو للنَّاظِرينَ؛ لأنَّ ذلك أقْوى أحوالِه، وخُصَّ بالذِّكرِ مِن أحوالِ النَّهارِ حالةُ تَجليتِه عن الموجوداتِ وظُهورِه على الأرضِ كذلك[١].

- واختيرَ القسَمُ باللَّيلِ والنَّهارِ لمُناسَبتِه للمَقامِ؛ لأنَّ غرَضَ السُّورةِ بَيانُ البَونِ بيْن حالِ المؤمنينَ والكافِرينَ في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ ابتُدِئَ في هذه السُّورةِ بذِكرِ اللَّيلِ، ثمَّ ذِكرِ النَّهارِ، عكْسَ ما في سُورةِ (الشَّمسِ)؛ لأنَّ هذه السُّورةَ نَزَلَت قبْلَ سُورةِ (الشَّمسِ) بمُدَّةٍ، وهي سادسةُ السُّوَرِ، وأيَّامَئذٍ كان الكُفْرُ مُخيِّمًا على النَّاسِ إلَّا نفَرًا قَليلًا، وكان الإسلامُ قدْ أخذَ في التَّجلِّي، فناسَبَ تلك الحالةَ بالإشارةِ إلى تَمثيلِها بحالةِ اللَّيلِ حينَ يَعقُبُه ظُهورُ النَّهارِ، ويتَّضِحُ هذا في جَوابِ القسَمِ بقولِه: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾[٣] [اللَّيل: ٤- ١١].

- قولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ حُذِفَ مَفعولُ ﴿يَغۡشَىٰ﴾ لتَنزيلِ الفِعلِ مَنزلةَ اللَّازِمِ؛ لأنَّ العِبرةَ بغِشْيانِه كلَّ ما تَغشاهُ ظُلمتُه[٤].

- وأُسنِدَ إلى النَّهارِ التَّجلِّي؛ مَدْحًا له بالاستنارةِ الَّتي يَراها كلُّ أحدٍ[٥].

- وتَقييدُ اللَّيلِ بالظَّرفِ ﴿إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، وتَقييدُ النَّهارِ بمِثلِه ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾؛ لأنَّ المُرادَ القسَمُ بكلِّ واحدٍ مِنهما في الحالةِ الدَّالَّةِ على أعظَمِ أحوالِه وأشدِّها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

دَلالةً على عَظيمِ صُنْعِ اللهِ تعالَى، وتَقييدُ القسَمِ باللَّيلِ بَوقتِ تَغشِيَتِه تذكيرٌ بالعِبرةِ بحُدوثِ حالةِ الظُّلمةِ بعْدَ حالةِ النُّورِ[١].

- وأَتَى سُبحانَه بصيغةِ المضارعِ في ﴿يَغْشَىٰ﴾؛ لأنَّه يَغْشَى شيئًا بعدَ شيءٍ، وأمَّا النَّهارُ فإنَّه إذا طَلَعَتِ الشَّمسُ ظَهَرَ وتَجَلَّى وَهْلةً واحدةً؛ ولهذا قال سُبحانَه وتعالى في سورةِ (الشَّمسِ وضُحاها): ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾[٢] [الشمس: ٣، ٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾

- في قولِه: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ إجمالٌ يُفيدُ التَّشويقَ إلى تَفصيلِه بقولِه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ الآيةَ؛ ليَتمكَّنَ تَفصيلُه في الذِّهنِ[٣].

- وشتَّى: مُشتَقٌّ مِن الشَّتِّ، وهو التَّفرُّقُ الشَّديدُ، وأُريدَ به هنا التَّنوُّعُ والاختِلافُ في الأحوالِ، وهو كِنايةٌ عن الأعمالِ المُتخالِفةِ؛ لأنَّ التَّفرُّقَ يَلزَمُه الاختِلافُ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾

- قولُه: ﴿فَأَمَّا﴾ تَفريعٌ وتَفصيلٌ للإجمالِ في قولِه: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [اللَّيل: ٤]، والمُحتاجُ للتَّفصيلِ هنا هو السَّعيُ المَذكورُ، ولكنْ جُعِلَ التَّفصيلُ ببَيانِ السَّاعينَ بقولِه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ﴾؛ لأنَّ المُهِمَّ هو اختِلافُ أحوالِ السَّاعينَ ويُلازِمُهم السَّعيُ؛ فإيقاعُهم في التَّفصيلِ بحسَبِ مَساعِيهم يُساوي إيقاعَ المَساعي في التَّفصيلِ، وهذا تَفنُّنٌ مِن أفانينِ الكلامِ الفَصيحِ يَحصُلُ منه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٨، ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٨٠).

مَعنَيانِ، وانحصَرَ تَفصيلُ «شتَّى» في فَريقينِ: فَريقٌ مُيسَّرٌ لليُسْرى، وفَريقٌ مُيسَّرٌ للعُسْرى؛ لأنَّ الحالَينِ هما المُهِمُّ في مَقامِ الحثِّ على الخَيرِ، والتَّحذيرِ مِن الشَّرِّ، ويَندرِجُ فيهما مُختلِفُ الأعمالِ، كقولِه تعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦- ٨]، ويَجوزُ أنْ يُجعَلَ تَفصيلُ (شتَّى) همْ مَن أعْطى واتَّقى وصدَّقَ بالحُسنى، ومَن بَخِلَ واستَغْنى وكذَّبَ بالحُسنَى، وذلك عدَدٌ يصِحُّ أنْ يكونَ بَيانًا لـ (شتَّى)[١].

- وحُذِف مَفعولَا ﴿أَعْطَىٰ﴾؛ إذ المقصودُ الثَّناءُ على المُعطِي دونَ تَعرُّضٍ للمُعطَى والعَطيَّةِ[٢]. أو حُذِفَ مَفعولُ ﴿أَعْطَىٰ﴾؛ لأنَّ فِعلَ الإعطاءِ إذا أُريدَ به إعطاءُ المالِ بدونِ عِوَضٍ، يُنزَّلُ مَنزلةَ اللَّازمِ؛ لاشتِهارِ استِعمالِه في إعطاءِ المالِ، ولذلك يُسمَّى المالُ الموهوبُ عَطاءً، وكذلك حُذِفَ مَفعولُ (اتَّقى)؛ لأنَّه يُعلَمُ أنَّ المُقدَّرَ: اتَّقى اللهَ. وكذلك فِعلُ ﴿بَخِلَ﴾ لم يُذكَرْ مُتعلَّقُه؛ لأنَّه أُريدَ به البُخلُ بالمالِ[٣]. أو حُذِف مفعولُ ﴿أَعْطَىٰ﴾؛ ليَعُمَّ كُلَّ عَطاءٍ مِن مالِه وجاهِه وجُهْدِه، حتَّى الكَلِمةِ الطَّيِّبةِ، بل حتَّى طَلاقةِ الوَجهِ[٤].

- والحُسنى: تَأنيثُ الأحسَنِ، فهي بالأصالةِ صِفةٌ لمَوصوفٍ مُقدَّرٍ، وتَأنيثُها مُشعِرٌ بأنَّ مَوصوفَها المُقدَّرَ يُعتبَرُ مُؤنَّثَ اللَّفظِ، ويَحتمِلُ أُمورًا كَثيرةً؛ فالتَّصديقُ بها الاعترافُ بوُقوعِها، ويُكنَّى به عن الرَّغبةِ في تَحصيلِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢، ٣٨٣).

- والسِّينُ في قولِه: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ وقولِه: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ قيل: هي حرْفُ تنفيسٍ مُرادٌ منه الاستِمرارُ مِن الآنَ إلى آخِرِ الحياةِ[١].

- وفي قولِه ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ عَدَل الكَلامَ إلى مَظهَرِ العظَمةِ؛ إشارةً إلى صعوبةِ الطَّاعةِ على النَّفْسِ، وإن كانت في غايةِ اليُسرِ في نَفْسِها؛ لأنَّها في غايةِ الثِّقَلِ على النَّفْسِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۞ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ جُعِلَ مُقابِلًا لقولِه: ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾؛ فالمرادُ به الاستغناءُ عن امتثالِ أمْرِ اللهِ ودَعوتِه؛ لأنَّ المُصِرَّ على الكُفْرِ المُعرِضَ عن الدَّعوةِ يَعُدُّ نفْسَه غَنيًّا عن اللهِ مُكتفيًا بولايةِ الأصنامِ وقَومِه؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ في الفعلِ، وقد يُرادُ به زيادةُ طَلَبِ الغِنى بالبُخلِ بالمالِ، فتَكونُ السِّينُ والتَّاءُ للطَّلَبِ، وهذه الخِلالُ كِنايةٌ عن كَونِه مِن المشرِكين[٣].

- قولُه: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ و﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ جاء تَرتيبُ النَّظْمِ في هذه الآيةِ على عكْسِ المُتبادرِ؛ إذ جُعِلَ ضَميرُ الغَيبةِ في (سَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) العائدُ إلى ﴿مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ هو المُيسَّرَ، وجُعِلَ ضَميرُ الغَيبةِ في (سَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) العائدُ إلى ﴿مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ هو المُيسَّرَ، أي: الَّذي صار الفِعلُ صَعْبُ الحُصولِ حاصلًا له، وإذ وَقَعَ المَجروران باللَّامِ (اليُسرى) و(العُسرى)، فيَجوزُ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٣).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤١٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤١٥).

يكونَ الكلامُ جاريًا على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ بطَريقِ القلْبِ[١]؛ بأنْ يكونَ أصلُ الكلامِ: فسَنُيَسِّرُ اليُسرى له، وسَنُيَسِّرُ العُسرى له، ومُقْتضى القلبِ إفادةُ المُبالَغةِ في هذا التَّيسيرِ حتى جُعِلَ المُيسَّرُ مُيسَّرًا له والمُيسَّرُ له مُيسَّرًا، على نحْوِ ما وَجَّهوا به قولَ العرَبِ: عرَضْتُ النَّاقةَ على الحَوضِ[٢].

ويَجوزُ أنْ يكونَ معْنى الآيةِ على ظاهِرِه مِن تَيسيرِ الإنسانِ لليُسرى أو العُسرى، ويُجعَلَ اليُسرى وَصْفًا، أي: الحالةِ اليُسرى، والعُسرى، أي: الحالةِ غيرِ اليُسرى، وليس في التَّركيبِ قلْبٌ، والتَّيسيرُ بمعْنى الدَّوامِ على العمَلِ، وإذ كان الوعْدُ بتَيسيرِ اليُسرى لصاحبِ تلك الصِّلاتِ الدَّالَّةِ على أعمالِ الإعطاءِ والتَّقوى والتَّصديقِ بالحُسنى، كان سُلوكُ طَريقِ المَوصوليَّةِ للإيماءِ إلى وَجْهِ بناءِ الخبَرِ، وهو التَّيسيرُ، فتَعيَّنَ أنَّ التَّيسيرَ مُسبَّبٌ عن تلك الصِّلاتِ، أي: جَزاءً عن فِعلِها، فالمُتيسِّرُ: تَيسيرُ الدَّوامِ عليها، وتكون اليُسرى صِفةً للأعمالِ، وذلك مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ، والأَصْلُ: مُستيسرٌ له أعمالُه، وعُدِلَ عن الإضمارِ إلى وَصْفِ اليُسرى؛ للثَّناءِ على تلك الأعمالِ بأنَّها مُيسَّرةٌ مِن اللهِ[٣].

- ولعلَّ تَصديرَ القِسْمينِ بالإعطاءِ والبُخلِ، مع أنَّ كلًّا منهما أدْنى رُتبةً ممَّا بعْدَهما في استتباعِ التَّيسيرِ لليُسرى والتَّيسيرِ للعُسرى؛ للإيذانِ بأنَّ كلًّا منهما أصلٌ فيما ذُكِرَ، وليس تَتمَّةً لِما بعْدَهما مِن التَّصديقِ والتَّقوى والتَّكذيبِ والاستغناءِ[٤].

أو إنَّما خُصَّ الإعطاءُ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ مع شُمولِ (اتَّقى)

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٧).

لمُفادِه، وخُصَّ البُخلُ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ مع شُمولِ (استَغْنى) له؛ لتَحريضِ المسلمينَ على الإعطاءِ، فالإعطاءُ والتَّقوى شِعارُ المسلمينَ مع التَّصديقِ بالحُسنى، وضِدُّ الثَّلاثةِ مِن شِعارِ المشرِكين[1].

- قولُه: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ الواوُ عاطفةٌ على جُملةِ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾، أي: سنُعجِّلُ به إلى جهنَّمَ، فالتَّقديرُ: إذا تَردَّى فيها. و(ما) نافيةٌ، والتَّقديرُ: وسَوفَ لا يُغْني عنه مالُه إذا سَقَطَ في جهنَّمَ، وذلك على قولٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ استِفهاميَّةً للإنكارِ والتَّوبيخِ، ويجوزُ على هذا الوجْهِ أنْ تكونَ الواوُ للاستئنافِ، والمعْنى: وأيُّ شَيءٍ يُغْني عنه مالُه[2]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٠٢).

الآيات (١٢-٢١)

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَلَظَّىٰ﴾: أي: تتوقَّدُ وتَشتَعِلُ، واللَّظى: اللَّهَبُ الخالِصُ، يُقالُ: تلَظَّت النَّارُ تتلَظَّى تَلَظِّيًا: أي: توقَّدَت وتوهَّجَت وتلَهَّبَت[١].

﴿يَصْلَاهَا﴾: أي: يَدخُلُها ويُقاسي حَرَّها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّارِ[٢].

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: أي: أعرَضَ، والتَّولِّي إذا وُصِلَ بـ(عن) لفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنَى الإعراضِ، وتَركِ القُربِ[٣].

﴿يَتَزَكَّىٰ﴾: أي: يَتَطَهَّرُ، ويَتنمَّى، والتَّزَكِّي: تَكَلُّفُ الزَّكاءِ، وهو النَّماءُ مِن الخيرِ، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على طهارة ونَماءٍ وزِيادةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾

قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ﴾: مَنصوبٌ على الاستثناءِ المنقَطِعِ؛ لعَدَمِ اندراجِه تحتَ جِنسِ النِّعمةِ، فالمعنى: لكِنَّه فَعَل ذلك لابتغاءِ وَجْهِ رَبِّه سُبحانَه، وطَلَبِ رِضاه عزَّ وجَلَّ، لا لمكافأةِ نِعمةٍ. ويجوزُ أَنْ يكونَ مَفعولًا لأجْلِه على المعنى؛ لأنَّ المعنى: لا يُؤتِي مالَه مِن أجْلِ شَيءٍ مِن الأشياءِ إلَّا مِن أجْلِ طَلَبِ رِضا رَبِّه عزَّ وجَلَّ، لا لمكافأةِ نِعمةٍ؛ فهو استثناءٌ مُفرَّغٌ مِن أعَمِّ العِلَلِ والأسبابِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: إنَّ علينا تَبيينَ طريقِ الهُدى للنَّاسِ، وإنَّ لنا وَحْدَنا لَلآخِرةَ والدُّنيا، والتَّصَرُّفَ فيهما؛ فحذَّرْتُكم -أيُّها النَّاسُ- نارَ جَهنَّمَ الَّتي تتوقَّدُ وتشتَعِلُ، لا يَدخُلُها ويُقاسي حَرَّها إلَّا الكافِرُ الشَّقيُّ الَّذي كذَّب بالحَقِّ، وأعرَضَ عن اتِّباعِه، وسيُباعَدُ عن النَّارِ المؤمِنُ الَّذي يتَّقي سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، والَّذي يتصَدَّقُ بأمواله في سَبيلِ اللهِ؛ طَلَبًا لتَطهيرِ نَفْسِه، وليس إنفاقُه ليكافِئَ به مَن أنعَمَ عليه بمعروفٍ سابقٍ، ولكِنْ يَبتغي بإنفاقِه وَجْهَ رَبِّه الأعلى، ولَسوف يَرضى بما يُثيبُه اللهُ تعالى به في الآخِرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَرَّفهم سُبحانَه أنَّ سَعْيَهم شَتَّى، وبَيَّن ما للمُحسِنينَ مِنَ اليُسرى، وما

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٩٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٧١).

للمُسيئينَ مِن العُسرى- أخبَرَهم بأنَّ عليه بيانَ الهُدى مِنَ الضَّلالِ[١].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

أي: إنَّ علينا أن نبَيِّنَ طريقَ الهُدى الَّذي يوصِلُ سالِكَه إلى اللهِ تعالى وجنَّتِه[٢].

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٨٣، ٨٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢١٣-٢١٦) و(١٧/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٩، ٢٣٠).

ممَّن اخْتارَ المَعْنى المَذْكورَ في الجُمْلةِ وأنَّ المُرادَ: إنَّ علينا أن نُبَيِّنَ طَريقَ الهُدى مِن طَريقِ الضَّلالِ، والحَقَّ مِن الباطِلِ، وأنَّ الهُدى هنا هو هُدى البَيانِ والإرْشادِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، وابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنْدِيُّ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والثَّعْلَبِيُّ، ومَكِّيٌّ، والواحِدِيُّ، والزَّمَخْشَرِيُّ، والرَّازِيُّ، والنَّسَفِيُّ، والخازِنُ، وأبو حَيَّانَ، والبِقاعِيُّ، والعُلَيْمِيُّ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٣)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٥١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٩).

وقال ابنُ القَيِّمِ: (وقيل: المعنى: مَن سلَك الهُدَى فعلى الله سبيلُه، كقولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]. وهذا قولُ مجاهدٍ، وهو أصحُّ الأقوالِ... وهو معنًى شريفٌ جليلٌ، يدُلُّ على أنَّ سالكَ طريقِ الهُدى يُوصِلُه طريقُه إلى اللهِ ولا بُدَّ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٦٩).

وهذا القولُ هو قولُ الفرَّاءِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٧٣٧).

أي: وإنَّ لنا وَحْدَنا مُلْكَ الآخِرةِ والدُّنيا، والتَّصَرُّفَ فيهما[١].

كما قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤].

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾.

أي: فحذَّرْتُكم -أيُّها النَّاسُ- نارَ جَهنَّمَ الَّتي تتوقَّدُ وتشتَعِلُ[٢].

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾.

أي: لا يَدخُلُها ويُقاسي حَرَّها إلَّا الكافِرُ الشَّقيُّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۞ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۞ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠ - ١٣].

﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).
قال ابنُ جرير: (عنَى بذلك جَلَّ ثناؤُه أنَّه يوفِّقُ لطاعتِه مَن أحَبَّ مِن خَلْقِه، فيُكرِمُه بها في الدُّنيا، ويُهيِّئُ له الكرامةَ والثَّوابَ في الآخرةِ، ويَخذُلُ مَن يَشاءُ خِذْلانَه مِن خَلْقِه عن طاعتِه، فيُهينُه بمعصيتِه في الدُّنيا، ويُخْزيه بعُقوبتِه عليها في الآخِرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٦).
وقال القرطبي: (﴿لَلْآخِرَةَ﴾: الجنَّة. ﴿وَٱلْأُولَىٰ﴾: الدُّنيا. وكذا روى عَطاءٌ عن ابنِ عبَّاس، أي: الدُّنيا والآخرةُ لله تعالى. وروى أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ قال: ثوابُ الدُّنيا والآخرةِ، وهو كقَولِه تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤]، فمَن طلَبَهما مِن غيرِ مالِكِهما فقد أخطأ الطَّريقَ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٤).

أي: الَّذي كذَّب بالحَقِّ، فلم يُؤمِنْ به، وأعرَضَ عن اتِّباعِه والعمَلِ به[١].

كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۞ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢].

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧﴾.

أي: وسيُباعَدُ عن النَّارِ المؤمِنُ الَّذي يتَّقي سَخَطَ اللهِ وعَذابَه[٢].

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر ما يتعَلَّقُ بالقُوَّةِ العِلميَّةِ؛ أَتْبَعَه ما ينظُرُ إلى القوَّةِ العَمَليَّةِ؛ فقال[٣]:

---

(١) يُنظر: ((الإخنائية)) لابن تيميَّة (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣١).

قال ابنُ عطيَّة: (لم يختَلِفْ أهلُ التَّأويلِ أنَّ المرادَ بـ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ: أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ، ثمَّ هي تتناوَلُ كُلَّ مَن دخل في هذه الصِّفاتِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٢). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨٧، ١٨٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٧).

وقال الواحِديُّ: (﴿ٱلْأَتْقَى﴾ يَعْني: أبا بكرٍ في قَولِ الجَميعِ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٠٥). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٥).

ونَسَبَه السَّمْعانيُّ إلى أكثَرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٤٠).

قال ابنُ كَثيرٍ: (وقد ذكَرَ غيرُ واحِدٍ مِن المُفَسِّرينَ أنَّ هذه الآياتِ نزَلَتْ في أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضيَ اللهُ عنه، حتَّى إنَّ بعضَهم حَكى الإجْماعَ مِن المُفَسِّرينَ على ذلك. ولا شكَّ أنَّه داخِلٌ فيها، وأَوْلى الأُمَّةِ بعُمومِها؛ فإنَّ لَفْظَها لَفْظُ العُمومِ، وهو قَولُه تَعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۞ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۞ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾، ولكنَّه مُقدَّمُ الأُمَّةِ وسابِقُهم في جَميعِ هذه الأوْصافِ، وسائِرِ الأوْصافِ الحَميدةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٥).

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾.

أي: الَّذي يتصَدَّقُ بأمواله في سَبيلِ اللهِ؛ طَلَبًا لتَطهيرِ نَفْسِه وتَنميتِها[١].

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإنسانُ قد يُعْطي ليزكِّيَ نَفْسَه بدَفعِ مانِّه، ومكافأةِ نِعَمِه؛ قال[٢]:

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾.

أي: وليس إنفاقُه مِن أجْلِ أن يكافِئَ مَن أنعَمَ عليه بمعروفٍ سابقٍ[٣].

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ولكِنْ يَبتغي بإنفاقِ مالِه وَجْهَ رَبِّه الأعلى، فهو يَطمَعُ في رُؤيتِه في الآخِرةِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((مختصر الصواعق المرسلة)) لابن القيم (ص: ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٣).

أي: وأُقسِمُ إنَّ هذا المنفِقَ سيَرضى بما يُثيبُه اللهُ تعالى به في الآخِرةِ[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ إرشادٌ إلى أنَّ صاحِبَ التَّقْوى لا يَنبغي له أنْ يَتحَمَّلَ مِنَنَ الخَلْقِ ونِعَمَهم، وإنْ حَمَل منهم شيئًا بادرَ إلى جزائِهم عليه؛ لئلَّا يَتبقَّى لأحدٍ مِن الخَلْقِ عليه نِعمةٌ تُجزى، فيكونُ بعدَ ذلك عَمَلُه كلُّه للهِ وحْدَه، ليس جزاءً للمَخلوقِ على نِعمتِه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ تنبيهٌ على أنَّ مَن ليس لمخلوقٍ عليه نِعمةٌ تُجزى لا يَفْعَلُ ما يَفعَلُه إلَّا ابتغاءَ وجْهِ ربِّه الأعلى، بخِلافِ مَن تَطَوَّقَ بنِعَمِ المخلوقينَ ومِنَنِهم؛ فإنَّه مُضطرٌّ إلى أنْ يَفعَلَ مِن أجْلِهم، ويَترُكَ مِن أجْلِهم؛ ولهذا كان مِن كمالِ الإخلاصِ ألَّا يَجعَلَ العبدُ عليه مِنَّةً لأحدٍ مِن النَّاسِ؛ لِتَكونَ مُعامَلتُه كلُّها للهِ ابتِغاءَ وَجهِه وطلب مَرضاتِه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أنَّه على المؤمنِ إذا أغناه اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ يكونَ شاكرًا للهِ، قائمًا بما أوجَبَ اللهُ عليه مِن بَذْلِ المالِ في حقِّه، على الوَجهِ الَّذي يُرضي اللهَ عزَّ وجلَّ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أنَّه ينبغي أنْ نستحضِرَ نيَّةَ التَّقرُّبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٢).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٣٢).

في العبادةِ، والغالبُ أنَّنا نَفْعَلُ العبادةَ على أنَّنا مُلزَمون بها، فنَنْويها لتصحيحِ العمَلِ، وهذا نَقْصٌ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ سؤالٌ: في هذا دَلالةٌ على أنَّ اللهَ التزم على نَفْسِه الهدى للخَلْقِ، مع أنَّه جاءت آياتٌ كثيرةٌ تدُلُّ على عدَمِ هُداه لبعضِ النَّاسِ، كقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨]، وقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقَولِه: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: ٨٦] الآيةَ، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ؟

الجوابُ: أنَّ الهُدى يُستعمَلُ في القُرآنِ خاصًّا وعامًّا؛ فالمُثبَتُ: العامُّ، والمنفيُّ: الخاصُّ، ونَفيُ الأخَصِّ لا يستلزِمُ نَفيَ الأعمِّ، وأمَّا على قولِ مَن قال: «إنَّ معنى الآيةِ: إنَّ الطَّريقَ الَّذي يدُلُّ علينا وعلى طاعتِنا هو الهُدى لا الضَّلالُ»، وقولِ مَن قال: «إنَّ معنى الآيةِ: أنَّ مَن سلَكَ طرَيقَ الهُدى وصَل إلى اللهِ»؛ فلا إشكالَ في الآيةِ أصلًا[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، وكذا قَولُه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وقَولُه: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١] التَّعديةُ بحرفِ الاستعلاءِ دونَ حرفِ الغايةِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ سالكَ طريقِ اللهِ متوكِّلٌ عليه، فلا بُدَّ له مِن عبادتِه، ومِن التَّوكُّلِ عليه، فإذا قيل: «عليه الطَّريقُ المستقيمُ» تضَمَّنَ أنَّ سالكَه عليه يتوكَّلُ، وعليه تدُلُّه الطَّريقُ، وعلى عبادتِه وطاعتِه يقعُ

---

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٧٣).

والهُدَى الخاصُّ: هو التَّفضُّلُ بالتَّوفيقِ إلى دينِ الحقِّ، والهدَى العامُّ: هو إيضاحُ الحقِّ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٠).

ويَسقُطُ[١]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ التِزامٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يُبَيِّنَ للخَلْقِ ما يَهتدونَ به إليه، والمرادُ بالهُدى هنا: هُدى البَيانِ والإرشادِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى التَزمَ على نفْسِه بيانَ ذلك؛ حتَّى لا يكونَ للنَّاسِ على اللهِ حُجَّةٌ، وهذا في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] إلى أنْ قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، فلا يمكِنُ للعَقلِ البشَريِّ أنْ يَسْتَقِلَّ بمعرفةِ الهدى؛ ولذلك التَزمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنْ يُبَيِّنَ الهُدى للإنسانِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ إشارةٌ عظيمةٌ إلى أنَّ أمورَ الجزاءِ في الأُخرى تَجري على ما رَتَّبه اللهُ وأعلَمَ به عِبادَه، وأنَّ نِظامَ أُمورِ الدُّنيا وترَتُّبَ مُسَبَّباتِه على أسبابِه أمرٌ قد وضعه اللهُ تعالى، وأمَرَ بالحِفاظِ عليه، وأرشَدَ وهدى؛ فمَن فَرَّط في شيءٍ مِن ذلك فقد استحَقَّ ما تسَبَّب فيه[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ سؤالٌ عن هذه الآيةِ الَّتي مِن أجْلِها قال أهلُ الإرجاءِ بالإرجاءِ، فزَعَموا أنَّه لا يدخُلُ النَّارَ إلَّا كافِرٌ؛ لِقَولِه: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

الجوابُ: أنَّ الأمرَ ليس كما ظنُّوا؛ فهذه نارٌ موصوفةٌ بعَينِها، لا يَصْلَى هذه النَّارَ إلَّا الأشقى الَّذي كَذَّب وتوَلَّى، ولأهلِ النَّارِ مَنازِلُ؛ فمِنها قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، واللهُ عزَّ وجَلَّ كُلُّ ما وعد

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٩).

عليه بجنسٍ مِنَ العذابِ فجائزٌ أن يعذِّبَ به، وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلو كان كُلُّ مَن لم يُشرِكْ باللهِ لا يُعَذَّبُ، لم يكُنْ في قَولِه سبحانَه وتعالى: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فائدةٌ(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ بأن يكونَ قَصْدُه به تزكيةَ نَفْسِه، وتطهيرَها مِنَ الذُّنوبِ والعُيوبِ، قاصدًا به وَجْهَ اللهِ تعالى؛ فدَلَّ هذا على أنَّه إذا تضَمَّن الإنفاقُ المستحَبُّ تَرْكَ واجبٍ -كدَينٍ، ونَفَقةٍ، ونحوِهما- فإنَّه غيرُ مَشروعٍ، بل تكونُ عَطِيَّتُه مردودةً عندَ كثيرٍ مِنَ العُلَماءِ؛ لأنَّه لا يتزكَّى بفِعلِ مُستحَبٍّ يُفَوِّتُ عليه الواجِبَ(٢).

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ استُدِلَّ به على أنه لا يُجزِئُ دفعُ الزَّكاةِ إلى الأبوَينِ صحيحَينِ كانا أو زَمِنَينِ، ولا إلى أحدٍ يَقْدَمُ منه إلى المُعطي إحسانٌ؛ لأنَّه يَصيرُ مكافأةً ومجازاةً، وإنَّما هي لِمَن لا يُكافي ولا يُجازي، ولا يَدفعُ بها

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٧).

قال ابنُ تَيميَّةَ: (وفيه... ما يُبَيِّنُ أنَّ الفَضْلَ بالصَّدَقةِ لا يكونُ إلَّا بعْدَ أداءِ الواجِبِ مِن المُعاوَضاتِ، كما قال تَعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فمَن عليه دُيونٌ مِن أثْمانٍ وقَرْضٍ وغَيرِ ذلك، فلا يُقَدِّمُ الصَّدَقةَ على قَضاءِ هذه الواجِباتِ، ولو فَعَلَ ذلك؛ فهلْ تُرَدُّ صَدقتُه؟ على قَولَينِ مَعْروفَينِ للفُقَهاءِ، فهذه الآيةُ يَحتَجُّ بها مَن [قالَ:] تُرَدُّ صَدقتُه؛ لأنَّ اللهَ تَعالى إنَّما أثْنى على مَن آتى مالَه يَتَزَكَّى، وما لأحَدٍ عندَه مِن نِعمةٍ تُجزَى، فإذا كان عندَه نِعمةٌ تُجْزى فعليه أن يَجزِيَ بها قبْلَ أن يُؤْتِيَ مالَه يَتزكَّى، فإذا آتى مالَه يَتزكَّى قبْلَ أن يَجزِيَ بها لم يكُنْ مَمْدوحًا، فيكونُ عَمَلُه مَرْدودًا؛ لقَولِه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: «مَن عَمِلَ عَمَلًا ليس عليه أمْرُنا فهو رَدٌّ» [مسلم «١٧١٨»]). ((منهاج السنة النبوية)) (٨/ ٥٠١).

ذَمًّا، بل تكونُ للهِ عزَّ وجلَّ خالصةً لوَجهِه فقط، فإنَّما المكافأةُ تكونُ في إخراجِ الأموالِ في التَّطَوُّعِ لا في الفَرْضِ[١].

٨- قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ نبَّه بقولِه ﴿تُجْزَىٰٓ﴾ على أنَّ نعمةَ الإسلامِ الَّتي لرسولِ اللهِ على هذا الأتقى لا تُجزَى؛ فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ يمكنُ جزاءُ نعمتِه إلَّا نعمةَ الإسلامِ؛ فإنَّها لا يمكِنُ المنعَمَ بها عليه أنْ يَجزيَ بها، وهذا يدُلُّ على أنَّ الصِّدِّيقَ رضيَ اللهُ عنه أوَّلُ وأَولى مَن ذُكِرَ في هذه الآيةِ، وأنَّه أحقُّ الأُمَّةِ بها؛ فإنَّ عليًّا رضيَ اللهُ عنه تَرَبَّى في بيتِ النَّبيِّ، فلِرسولِ اللهِ عندَه نِعْمةٌ غيرُ نِعمةِ الإسلامِ يمكِنُ أنْ تُجزَى[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ هذه الآيةُ مِن جَوامعِ الكَلِمِ؛ لأنَّها يَندرِجُ تَحتَها كلُّ ما يَرغَبُ فيه الرَّاغبونَ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لإخبارِهم بأنَّ عليه سُبحانَه بمُقْتضى حِكمتِه بَيانَ الهُدى مِن الضَّلالِ[٤]. وهو استِئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ الكلامِ السَّابقِ مِن قولِه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ [اللَّيل: ٥-١٠]؛ وذلك لإلقاءِ التَّبِعةِ على مَن صار إلى العُسرى بأنَّ اللهَ أعذَرَ إليه -إذ هَداهُ بدَعوةِ الإسلامِ إلى الخَيرِ- فأعرَضَ عن الاهتداءِ باختيارِه اكتِسابَ السَّيِّئاتِ؛ فإنَّ التَّيسيرَ لليُسرى يَحصُلُ عندَ مَيلِ العبْدِ إلى عمَلِ الحَسَناتِ،

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٠٣).

والتَّيسيرَ للعُسرى يَحصُلُ عندَ مَيلِه إلى عمَلِ السَّيِّئاتِ[١].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ: يُومِئُ إلى أنَّ هذا كالجوابِ عمَّا يَجِيشُ في نُفوسِ أهلِ الضَّلالِ عندَ سَماعِ الإنذارِ السَّابقِ مِن تَكذيبِه بأنَّ اللهَ لو شاءَ منهم ما دَعاهم إليه لَألجَأَهُم إلى الإيمانِ؛ فقد حُكِيَ عنهم في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾[٢] [الزخرف: ٢٠].

- وعطْفُ ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ على جُملةِ ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ تَتْميمٌ[٣] وتَنبيهٌ على أنَّ تَعهُّدَ اللهِ لعِبادِه بالهُدى فضْلٌ منه، وإلَّا فإنَّ الدارَ الآخِرةَ مِلْكُه، والدارَ الأُولى مِلْكُه بما فِيهما[٤].

- قَولُه: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ فيه تقديمُ الآخرةِ على الأُولى، مع أنَّ الأُولى متقَدِّمةٌ على الآخرةِ في الزَّمَنِ، لكِنَّه أَخَّرَها لفائدتَينِ:

الفائدةُ الأُولى: معنويَّةٌ، والفائدةُ الثَّانيةُ: لفظيَّةٌ. أمَّا المعنويَّةُ فلِأنَّ الآخرةَ أهمُّ مِن الدُّنيا، ولأنَّ الآخرةَ يَظهَرُ فيها مُلْكُ اللهِ تعالى تمامًا؛ في الدُّنيا هناك رؤساءُ، وهناك ملوكٌ، وهناك أمراءُ، يَملِكونَ ما أعطاهم اللهُ عزَّ وجلَّ مِن المُلْكِ، لكِنْ في الآخرةِ لا مُلْكَ لأحَدٍ ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]؛ فلهذا قَدَّمَ ذِكْرَ الآخرةِ مِن أجْلِ هذه الفائدةِ المعنويَّةِ. أمَّا الفائِدةُ اللَّفظيَّةُ فهي مُراعاةُ الفواصلِ؛ أواخِرِ الآياتِ، فكلُّها آخرُها ألِفٌ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۞ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۞ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٠).

- قولُه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ لمُجرَّدِ التَّفريعِ الذِّكريِّ إذا كان فِعلُ (أنْذرْتُكم) مُستعمَلًا في ماضيهِ، وكان المرادُ الإنذارَ الَّذي اشتَمَلَ عليه قولُه: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ * وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [اللَّيل: ٨- ١١]، وهذه الفاءُ يُشبهُ معْناها معْنى فاءِ الفَصيحةِ؛ لأنَّها تدُلُّ على مُراعاةِ مَضمونِ الكلامِ الَّذي قبْلَها، وهو تَفريعُ إنذارٍ مُفصَّلٍ على إنذارٍ مُجمَلٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ للتَّفريعِ المعنويِّ، فيَكونَ فِعلُ (أنذَرْتُكم) مُرادًا به الحالُ، وإنَّما صِيغَ في صِيغةِ المُضِيِّ؛ لتَقريبِ زَمانِ الماضي مِن الحالِ، وهو تَفريعٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [اللَّيل: ١٢]، والمعْنى: إنَّ علينا هَدْيَكم، فأنذَرْتُكم إبلاغًا في الهُدى[(١)].

- وتَنكيرُ ﴿نَارًا﴾ للتَّهويلِ[(٢)].

- وأصْلُ ﴿تَلَظَّىٰ﴾: تَتلظَّى بتاءينِ؛ حُذِفَتْ إحداهما للاختِصارِ[(٣)].

- وقد أُتبِعَ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ بصِفةِ ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ لزِيادةِ التَّنصيصِ على أنَّ المشرِكينَ المقصودُ بذلك؛ فإنَّهم يَعلَمون أنَّهم كذَّبوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَوَلَّوا، أي: أعْرَضوا عن القرآنِ، وقد انحصَرَ ذلك الوَصفُ فيهم يَومَئذٍ؛ فقدْ كان الناسُ في زمَنِ ظُهورِ الإسلامِ أحَدَ فَريقينِ: إمَّا كافرٌ، وإمَّا مُؤمنٌ تَقيٌّ، ولم يكُنِ الَّذين أسْلَموا يَغشَون الكَبائرَ؛ لأنَّهم أقْبَلوا على الإسلامِ بشَراشِرِهم[(٤)]؛ ولذلك عُطِفَ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ...﴾ إلخ تَصريحًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) أي: بكُلِّيَّتِهم. وقيل: الشَّراشِرُ: النَّفْسُ والمحبَّةُ جميعًا. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١١/ ١٨٧).

بمَفهومِ القصْرِ، وتَكميلًا للمُقابَلةِ[١].

- ووُصِفَ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ بصِلةِ ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ للصِّلةِ تَسبُّبًا في الحُكْمِ[٢].

- والأشْقى والأتْقى مُرادٌ بهما: الشَّديدُ الشَّقاءِ، والشَّديدُ التَّقْوى[٣].

- وفي قَولِه: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ إلى قَولِه: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ احتِباكٌ[٤]؛ ذَكَرَ التَّكذيبَ أوَّلًا؛ دليلًا على حَذْفِ ضَدِّه ثانيًا، وإيتاءَ المالِ ثانيًا؛ دليلًا على حَذْفِ ضِدِّه أوَّلًا[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ الواوُ عاطفةٌ، والسِّينُ حرْفُ استقبالٍ جِيءَ به للتَّأكيدِ[٦].

- ووُصِفَ ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ بصِلةِ ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ للصِّلةِ تَسبُّبًا في الحُكْمِ[٧].

- وجُملةُ ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ حالٌ في ضَميرِ ﴿يُؤْتِى﴾، وفائدةُ الحالِ التَّنبيهُ على أنَّه يُؤتِي مالَه لقصْدِ النَّفعِ، والزِّيادةِ مِن الثَّوابِ، تَعريضًا بالمشرِكين الَّذي يُؤتُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٢٥).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٥).
(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٠٣).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٠).

المالَ للفخْرِ والرِّياءِ والمفاسِدِ والفُجورِ[١].

- والتَّزكِّي: تَكلُّفُ الزَّكاءِ، وهو النَّماءُ مِن الخَيرِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لكَونِ إيتائِه للتَّزكِّي خالصًا لوَجْهِ اللهِ تعالَى، أي: ليس لأحدٍ عندَه نِعمةٌ مِن شَأنِها أنْ تُجزى وتُكافأَ، فيَقصِدَ بإيتاءِ ما يُؤتي مُجازاتَها[٣].

- قولُه: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰٓ﴾ جَوابُ قَسَمٍ مُضمَرٍ، أيْ: وباللهِ لَسوفَ يَرْضَى، وهو وعْدٌ بالثَّوابِ الجَزيلِ الَّذي يُرْضي صاحبَه، وهذا تَتميمٌ لقولِه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾؛ لأنَّ ذلك ما أفادَ إلَّا أنَّه ناجٍ مِن عَذابِ النَّارِ؛ لاقتضاءِ المقامِ الاقتِصارَ على ذلك؛ لقصْدِ المُقابَلةِ مع قولِه: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾، فتُمِّمَ هنا بذِكرِ ما أُعِدَّ له مِن الخَيراتِ[٤].

- وحرْفُ (سوف) لتَحقيقِ الوعْدِ في المُستقبَلِ، أي: يَتغلغَلُ رِضاهُ في أزمنةِ المُستقبَلِ المديدِ، واللَّامُ لامُ الابتداءِ لتَأكيدِ الخبَرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٢).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ
سُورَةِ الضُّحى

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الضُّحى

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الضُّحى)، وأيضًا ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾[١]:

فعن جابِرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام مُعاذٌ فصَلَّى العِشاءَ فطَوَّلَ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أفَتَّانٌ أنت يا مُعاذُ؟! أين أنتَ عن ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾؟))[٢].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الضُّحى مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

ذِكرُ ما حفَّ الله به نبيَّه مِن ألْطافِه وعِنايَتِه[٤].

---

(١) قال ابن عاشور: (سُمِّيَتْ هذه السُّورَةُ في أكثرِ المصاحِفِ وفي كثيرٍ مِن كُتُبِ التَّفسيرِ، وفي «جامِعِ التِّرْمِذِيِّ»: سُورَةَ الضُّحَى بدونِ وَاوٍ. وسُمِّيَتْ في كثيرٍ مِن التَّفاسيرِ، وفي «صحيحِ البُخاريِّ»: سُورَةَ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ بإثْباتِ الواوِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٣)

(٢) أخرجه النسائيُّ (٩٩٧).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٩٩٧).

والحديث أصلُه في الصَّحيحِ دونَ ذِكْرِ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾؛ أخرجه مسلم (٤٦٥).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطُبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٩١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٤).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- بيانُ ما للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الشَّرَفِ والمَنقَبةِ.

٢- إبطالُ قَولِ المُشرِكينَ؛ إذ زَعَموا انقِطاعَ الوَحيِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

٣- تذكيرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بجانِبٍ مِن نِعَمِ اللهِ سبُحانَه عليه.

٤- إرشادُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى المُداوَمةِ على مَكارِمِ الأخلاقِ؛ شُكرًا على نِعَمِه سُبحانَه، ومِن مَظاهِرِ ذلك: العَطفُ على اليتيمِ، والإحسانُ إلى السَّائِلِ، وعدَمُ كِتمانِ نِعَمِ اللهِ تعالى.

الآيات (١-١١)

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَجَىٰ﴾: أي: سَكَن وغَطَّى بظَلامِه كُلَّ شَيءٍ، يُقالُ: سَجا اللَّيلُ: إذا ادْلَهَمَّ وسَكَن، وأصلُ (سجو): يدُلُّ على سُكونٍ وإطباقٍ[(١)].

﴿مَا وَدَّعَكَ﴾: أي: ما ترَكَك، وأصلُ (ودع): يدُلُّ على التَّركِ والتَّخليةِ[(٢)].

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾: أي: ما أبغَضَك، والقَلْيُ والقِلَى: البُغضُ الشَّديدُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٦).

قال الراغب: (مَن جعَله مِن الواوِ فهو مِنَ القَلْوِ، أي: الرَّمْيِ، ... فكأنَّ المَقلُوَّ هو الَّذي يَقذِفُه القَلبُ مِن بُغضِه فلا يَقبَلُه). ((المفردات)) (ص: ٦٨٣).

وقال ابن فارس: («قلو» القافُ واللَّامُ والحرفُ المُعْتَلُّ أصلٌ صحيحٌ يَدُلُّ على خِفَّةٍ وَسُرْعَةٍ... ومِن البابِ القِلَى، وهو البغضُ. يُقالُ منه: قَلَيْتُه أقْليه قِلًى. وقدْ قالوا: قَلَيْتُه أقْلاه. والقِلَى تجافٍ عن الشَّيءِ وذهابٌ عنه). ((مقاييس اللغة)) (٥/ ١٦).

﴿فَـَٔاوَىٰ﴾: أي: ضَمَّك إلى عَمِّك، وكفاك المَؤُونةَ، وأصلُ (أوي) هنا: التجَمُّعُ[١].

﴿عَآئِلٗا﴾: أي: فَقيرًا، وأصلُ (عيل): يدُلُّ على فاقةٍ وحاجةٍ[٢].

﴿فَلَا تَقۡهَرۡ﴾: أي: لا تَحقِرْه ولا تَقْهَرْه على مالِه؛ فتَذهَبَ بحَقِّه لضَعْفِه، والقَهْرُ: الغَلَبةُ والإذلالُ، وأصلُ (قهر): يدُلُّ على غَلَبةٍ وعُلُوٍّ[٣].

﴿فَلَا تَنۡهَرۡ﴾: أي: لا تَزجُرْه، والنَّهرُ: الزَّجْرُ، ومُغالَظةُ القَولِ، مِثلُ أن يقولَ: إليكَ عَنِّي[٤].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالنَّهارِ إذا انتشَرَ ضِياؤُه، وباللَّيلِ إذا سَكَن واشتدَّتْ ظُلمتُه، على أنَّه ما ترَكَ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما أبغَضَه.

ثمَّ قال اللهُ تعالى له مُبَشِّرًا: ولَثَوابُ الآخرةِ خَيرٌ لك مِن الدُّنيا وما فيها، ولَسوفَ يُعطيك ربُّك مِنَ الخَيرِ حتَّى ترضى.

ثمَّ عَدَّد اللهُ تعالى بَعْضَ نِعَمِه على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ألم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٣).

يَجِدْك رَبُّك -يا محمَّدُ- يتيمًا، فيسَّرَ لك مَن يُؤويك ويَكفُلُك، ووجَدَك ضالًّا عن مَعرفةِ القُرآنِ والإيمانِ، فعَلَّمَك وهداك، ووجَدَك فَقيرًا فأغناك.

ثمَّ أمَرَ اللهُ تعالى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بشُكْرِ هذه النِّعَم، فقال: فأمَّا اليَتيمَ فلا تُهِنْه ولا تَظْلِمْه، وأمَّا السَّائِلُ فلا تَنهَرْه وتَزجُرْه، وحَدِّثِ النَّاسَ بما أنعَمَ اللهُ به عليك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن جُندَبِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((اشتكى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلم يَقُمْ ليلتَينِ أو ثلاثًا، فجاءته امرأةٌ فقالت: يا محمَّدُ، إنِّي لأرجو أن يكونَ شَيطانُك قد ترَكَك، لم أرَهُ قَربَك منذُ ليلتَينِ أو ثلاثٍ! فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ - ٣]))[(١)].

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾.

أي: أُقسِمُ بالنَّهارِ إذا انتشَرَ ضِياؤُه[(٢)].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ إذا سَكَن بأهلِه فأظلَمَ واشتدَّتْ ظُلمتُه[(٣)].

---

(١) رواه البخاريُّ (١١٢٥)، ومسلمٌ (١٧٩٧) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾.

أي: ما ترَكَك رَبُّك -يا محمَّدُ- وما أبغَضَك[1].

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

في اتِّصالِ قولِه تعالَى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ بما تَقدَّمَ وُجوهٌ؛

أحدُها: أنْ يكونَ المعْنى: أنَّ انقطاعَ الوحْيِ لا يَجوزُ أنْ يكونَ؛ لأنَّه عزْلٌ عن النُّبوَّةِ، بلْ أقْصى ما في البابِ أنْ يكونَ ذلك لأنَّه حصَلَ الاستِغناءُ عن الرِّسالةِ، وذلك أمارةُ الموتِ، فكأنَّه يُقالُ: انقِطاعُ الوحْيِ متى حصَلَ دلَّ على الموتِ، لكنَّ الموتَ خيرٌ لك؛ فإنَّ ما لَك عندَ اللهِ في الآخِرةِ خيرٌ وأفضَلُ ممَّا لك في الدُّنيا.

وثانيها: لَمَّا نَزَل: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضحى: ٣] حصَل له بهذا تَشريفٌ عَظيمٌ، فكأنَّه استَعظَمَ هذا التَّشريفَ، فقِيل له: ولَلآخِرةُ خيرٌ لك مِن الأُولى، أي: هذا التَّشريفُ وإنْ كان عظيمًا، فإنَّ ما لَك عندَ اللهِ في الآخِرةِ خيرٌ وأعظَمُ.

وثالثُها: هو أنْ يكونَ المعْنى: ولَلأحوالُ الآتيةُ خيرٌ لك مِن الماضيةِ، كأنَّه تعالَى

= كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

قال ابن كثير: (﴿سَجَىٰ﴾ أي: سَكَن فأظْلَمَ وادْلَهَمَّ. قاله مُجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ، وغيرُهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

قال الواحديُّ: (هذا جوابُ القَسَم. قال المفَسِّرونَ: أبطأَ جِبريلُ على النَّبيِّ عليهما السَّلامُ، فقال المشرِكونَ: قد قلاه اللهُ ووَدَّعه؛ فأنزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٠٨).

وَعَدَه بأنَّه سيَزيدُه كلَّ يومٍ عِزًّا إلى عِزٍّ، ومَنصبًا إلى مَنصبٍ، فيقولُ: لا تَظُنَّ أنِّي قَليتُك، بلْ إنِّي أَزيدُك مَنصبًا وجَلالًا[١].

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾.

أي: ولَثَوابُ الآخرةِ خَيرٌ لك مِن الدُّنيا وما فيها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى أنَّ الآخِرةَ خَيرٌ له مِن الأُولى، ولكِنَّه لم يُبَيِّنْ أنَّ ذلك التَّفاوُتَ إلى أيِّ حَدٍّ يكونُ؛ فبَيَّن بهذه الآيةِ مِقدارَ ذلك التَّفاوُتِ، وهو أنَّه يَنتهي إلى غايةِ ما يتمَنَّاه الرَّسولُ ويَرتَضيه[٣].

وأيضًا فإنَّه تعالى كأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ فقيل: ولِمَ قُلْتَ: إنَّ الأمرَ كذلك؟ فقال: لأنَّه يُعطيه كُلَّ ما يُريدُه، وذلك ممَّا لا تتَّسِعُ الدُّنيا له؛ فثَبَت أنَّ الآخِرةَ خَيرٌ له مِنَ الأُولى[٤].

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾.

أي: ولَسوفَ يُعطيك ربُّك مِنَ الخَيرِ حتَّى ترضَى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) =

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَعَده ذلك الموعودَ الجليلَ؛ ذكَّرَه بنِعَمِه عليه في حالِ نَشأتِه[1].

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾.

أي: ألم يَجِدْك رَبُّك -يا محمَّدُ- يتيمًا، فيسَّرَ لك مَن يُؤويك ويَكفُلُك ويُرَبِّيك[2]؟

= (٥/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٥).

مِنَ المفَسِّرينَ مَن حَمَل هذا الوَعدَ على الآخرةِ، أي: سيُعطيك في الآخِرةِ. ومنهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابنُ كثير، وجلالُ الدِّينِ المحَلِّيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

ونسَبَ هذا القولَ إلى الجمهورِ: ابنُ عطيَّةَ، وأبو حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦).

وقيل: هو موعِدٌ شامِلٌ لِما أعطاه في الدُّنيا، ولِما ادَّخَر له في الآخِرةِ. ومِمَّن قال بهذا القَولِ في الجُملةِ: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّانَ، وابنُ القيِّم، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٨).

قال ابنُ القيِّم: (وعَدَه بما تَقَرُّ به عينُه، وتَفرَحُ به نَفْسُه، ويَنشَرِحُ به صَدرُه، وهو أن يُعطيَه فيَرضى، وهذا يَعُمُّ ما يُعطيه مِنَ القُرآنِ والهُدى، والنَّصرِ وكثرةِ الأتْباعِ، ورَفْعِ ذِكْرِه وإعلاءِ كَلِمتِه، وما يعطيه بعدَ مماتِه، وما يُعطيه في موقِفِ القيامةِ، وما يُعطيه في الجنَّةِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٦). =

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.

أي: ووجَدَك ضالًّا عن معرفةِ القُرآنِ والإيمانِ، فعَلَّمَك القُرآنَ، وهَداك إلى الإيمانِ، وعرَّفك أحكامَ الإسلامِ، وقد كنتَ غافِلًا عن ذلك وجاهِلًا به قبْلَ النُّبُوَّةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾.

أي: ووجَدَك فَقيرًا فأغناك[2].

= قال السعدي: (مات أبوه وأمُّه وهو لا يُدَبِّرُ نفْسَه، فآواه اللهُ، وكفَّله جَدَّه عبدَ المطَّلِب، ثمَّ لَمَّا مات جَدُّه كفَّلَه اللهُ عَمَّه أبا طالبٍ، حتَّى أيَّده بنَصْرِه وبالمؤمِنينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٦).

قال ابنُ عاشور: (ليس المرادُ بالضَّلالِ هنا اتِّباعَ الباطِلِ؛ فإنَّ الأنبياءَ مَعصومون مِن الإشراكِ قبْلَ النُّبُوَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٠).

قال ابنُ تيميَّةَ: (كَثيرٌ مِن أهلِ السُّنَّةِ يقولونَ: إنَّ الأنبياءَ مَعصومون مِنَ الكُفرِ قبْلَ النُّبُوَّةِ، كما قال ذلك: ابنُ الأنباريِّ، والزَّجَّاجُ، وابنُ عَطِيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والبَغَويُّ). ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) (١/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٩٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤١٩، ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٠). =

﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَّرَه بما أنعَمَ عليه به مِن هذه النِّعَمِ الثَّلاثِ؛ طالَبه بشُكرِها، وأداءِ حقِّها، فأوصاه بما يَفعَلُ في ثلاثٍ؛ مُقابَلةً لها، فقال مُسَبِّبًا عنه[1]:

﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩﴾.

أي: فأمَّا اليتيمَ فلا تُهِنْه وتُذِلَّه، ولا تَظْلِمْه بأخذِ حَقِّه وإساءَةِ مُعامَلتِه[2].

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بدأ بما كان بدايةً له؛ ثَنَّى بما هو نهايةٌ له مِن حيثُ كَونُه يصيرُ رأسَ الخَلْقِ، فيَصيرُ محَطَّ الرِّجالِ في كُلِّ سُؤالٍ مِن عِلمٍ ومالٍ؛ فقال مقَدِّمًا له اهتِمامًا به، إشارةً إلى أنَّ جَبرَ الخواطِرِ واستِئلافَ الخَلْقِ هو مِن أعظَمِ المقاصِدِ في تمامِ الدِّينِ[3]:

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠﴾.

أي: وأمَّا الَّذي يَسألُك شَيئًا فلا تَنهَرْه وتَزجُرْه[4].

= قال ابن القيِّم: (أجمَعَ المفَسِّرونَ أنَّ العائِلَ هو الفَقيرُ). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٥٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١١٠)، ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: =

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((بَيْنَما نحن جُلوسٌ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في المسجِدِ، دخَلَ رجُلٌ على جَمَلٍ، فأناخه في المسجِدِ ثمَّ عَقَلَه[1]، ثمَّ قال لهم: أيُّكم محمَّدٌ؟ والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُتَّكِئٌ بيْن ظَهرانَيْهم، فقُلْنا: هذا الرَّجُلُ الأبيضُ المتَّكِئُ. فقال له الرَّجُلُ: يا ابنَ عبدِ المطَّلِب، فقال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قد أجَبْتُك. فقال الرَّجُلُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنِّي سائِلُك فمُشَدِّدٌ عليك في المسألةِ، فلا تَجِدْ علَيَّ في نَفْسِك، فقال: سَلْ عمَّا بدا لك، فقال: أسألُك برَبِّك ورَبِّ مَن قَبْلَك، آللهُ أرسَلَك إلى النَّاسِ كُلِّهم؟

= ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٢، ٤٠٣).

قيل: المرادُ بالسَّائِلِ هنا: سائِلُ الصَّدَقةِ والمعروفِ مِن الفُقراءِ والمساكينِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ جُزَي، ونسَبه ابنُ القيِّم إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٤).

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٤٥).

وقيل: المرادُ: سائِلُ العِلمِ المُسترشِدُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧).

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: الحسَنُ، ويحيى بنُ آدَمَ، وسُفيانُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٤٥).

وقيل: المرادُ كِلا المعنيَينِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا: ابنُ القيِّم، والبِقاعيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٩).

(١) عَقَلَه: أي: شدَّ على ساقِه مع ذراعِه حَبلًا بعدَ أن ثَنَى رُكْبَتَه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١/ ١٦٠).

فقال: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قال: أَنشُدُك[١] باللهِ، آللهُ أمَرَك أن نُصَلِّيَ الصَّلَواتِ الخَمْسَ في اليَومِ واللَّيلةِ؟ قال: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قال: أَنشُدُك باللهِ، آللهُ أمَرَك أن نَصومَ هذا الشَّهرَ مِنَ السَّنةِ؟ قال: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قال: أَنشُدُك باللهِ، آللهُ أمَرَك أن تأخُذَ هذه الصَّدَقةَ مِن أغنيائِنا فتَقسِمَها على فُقَرائِنا؟ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اللَّهُمَّ نَعَمْ. فقال الرَّجُلُ: آمَنْتُ بما جِئتَ به، وأنا رسولُ مَن ورائي مِن قومي، وأنا ضِمَامُ بنُ ثَعْلبةَ أخو بني سَعدِ بنِ بَكرٍ))[٢].

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

أي: وحَدِّثِ النَّاسَ بما أنعَمَ اللهُ به عليك[٣].

---

(١) أَنشُدُك: أي: أسألُك، وأصلُه مِن النَّشيدِ، وهو الصَّوتُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٣).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٠).

قال ابنُ الجوزي: (في النِّعمةِ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: النُّبُوَّةُ. والثَّاني: القرآنُ. رُوِيَا عن مجاهدٍ. والثَّالثُ: أنَّها عامَّةٌ في جميعِ الخَيراتِ. وهذا قَولُ مُقاتلٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٩). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣٣).

ومِمَّن قال بأنَّها النُّبُوَّةُ: الزَّجَّاجُ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٤٦).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ جِنسُ النِّعَمِ؛ فهي تَعُمُّ نِعَمَ الدِّينِ والدُّنيا: الثعلبيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ القيِّم، والشوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٣).

قال الفَرَّاء: (فكان القُرآنُ أعظَمَ نِعمةِ اللهِ عليه، فكان يقرَؤُه ويحَدِّثُ به وبغَيرِه مِن نِعَمِه). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ دَلالةٌ على اللُّطفِ باليَتيمِ، وبِرِّه، والإحسانِ إليه[(١)]. ولا يَدخُلُ في الآيةِ القَهرُ مِن أجْلِ الاستصلاحِ، كضَربِ التَّأديبِ؛ فهو مِن حُقوقِ التَّربيةِ، قال تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾[(٢)] [البقرة: ٢٢٠].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ هذا في مُقابلةِ: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾، فإذا كان اللهُ آواك في يُتْمِك فلا تَقْهَرِ اليتيمَ، إلَّا أنْ يكونَ قهرًا في مصلحةٍ له؛ فهذا ليس قَهرًا في الحقيقةِ وإنْ كان قَهرًا ظاهريًّا، ولكنَّ المصلحةَ عظيمةٌ لهذا اليتيمِ، فلا تَقْهَرِ اليتيمَ، بل أَكرِمِ اليتيمَ، والإحسانُ إلى اليتامى وإكرامُهم مِن أوامرِ الشَّريعةِ، ومِن حَسَناتِ الشَّريعةِ؛ لأنَّ اليتيمَ الَّذي مات أبوه قبْلَ أن يَبلُغَ مُنكَسِرُ الخاطرِ، يحتاجُ إلى جَبْرٍ، يَحتاجُ إلى مَن يُسَلِّيه، وإلى مَن

= ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٧٥).

وممَّن قال: ﴿فَحَدِّثۡ﴾ أي: بالقرآنِ: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٩٢).

وقال ابنُ القيِّم: (قَولُه ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ قال مجاهدٌ: بالقرآنِ. وقال الكلبيُّ: بمعنى: أظهِرْها. والقرآنُ أعظَمُ ما أنعَمَ اللهُ به عليه، فأمَره أنْ يُقرئَه ويُعلِّمَه. وروى أبو بشرٍ عن مجاهدٍ: حدِّثْ بالنُّبوَّةِ الَّتي أعطاك اللهُ. وقال الزَّجَّاجُ: بلِّغْ ما أُرسِلتَ به، وحدِّثْ بالنُّبوَّةِ الَّتي آتاك، وهي أجَلُّ النِّعَمِ. وقال مقاتلٌ: اشكُرْ هذه النِّعمةَ الَّتي ذكرتُ في هذه السُّورةِ. والتَّحقيقُ أنَّ النِّعَمَ تَعُمُّ هذا كُلَّه؛ فأُمِرَ ألَّا يَنهَرَ سائِلَ المعروفِ والعِلمِ، وأن يُحَدِّثَ بنِعَمِ اللهِ عليه في الدِّينِ والدُّنيا). ((التبيان)) (ص: ٧٥).

وقيل: المرادُ: كما كُنتَ عائلًا فقيرًا فأغناك اللهُ، فحَدِّثْ بنِعمةِ اللهِ عليك. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧).

قال القاسميُّ: (سياقُ الآياتِ يدُلُّ على أنَّ هذه الآيةَ مقابلةٌ لقولِه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا﴾، فتكونُ النِّعمةُ بمعنى الغِنَى). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٠)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٢).

يُدخِلُ عليه السُّرورَ، لا سيَّما إذا كان قد بَلَغَ سِنًّا يَعرِفُ به الأُمورَ، كالسَّابعةِ والعاشرةِ وما أشْبَهَ ذلك[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ هذا في مُقابِلِ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، وأوَّلُ ما يَدخُلُ في السَّائلِ السَّائلُ عن الشَّريعةِ وعن العِلمِ، فلا تَنْهَرْه؛ لأنَّه إذا سألك يريدُ أنْ تُبَيِّنَ له الشَّريعةَ وَجَبَ عليك أنْ تُبَيِّنَها له؛ لقولِ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] فلا تَنْهَرْه، إنْ نَهَرْتَه نَفَّرْتَه، ثُمَّ إنَّك إذا نَهَرْتَه وهو يَعتقدُ أنَّك فوقَه -لأنَّه لم يأتِ يسألُ إلَّا أنَّه يَعتقدُ أنَّك فوقَه- أصابه الرُّعبُ، واختلفتْ حَواسُّه، ورُبَّما لا يَفْقَهُ ما يُلقي إليك مِن السُّؤالِ، أو لا يَفْقَهُ ما تُلقيه إليه مِن الجوابِ، وقِسْ نفْسَك أنت، لو كلَّمتَ رجُلًا أكبرَ منك منزلةً ثُمَّ نَهَرك ضاعتْ حواسُّك، ولم تستطعْ أنْ تُرَتِّبَ فِكْرَك وعَقْلَك؛ لهذا لا تَنْهَرِ السَّائلَ، ورُبَّما يَدخُلُ في ذلك أيضًا سائلُ المالِ، يعني إذا جاءك سائِلٌ يسألُك مالًا فلا تَنْهَرْه. لكنَّ هذا العُمومَ يَدخلُه التَّخصيصُ؛ إذا عرَفْتَ أنَّ السَّائلَ في العِلمِ إنَّما يريدُ التَّعَنُّتَ، وأخْذَ رأيك وأَخْذَ رأيِ فُلانٍ وفُلانٍ حتَّى يَضربَ آراءَ العلماءِ بعضَها ببعضٍ، فهنا لك الحقُّ أنْ تَنْهَرَه، وأنْ تقولَ: يا فلانُ، اتَّقِ اللهَ، ألم تَسألْ فلانًا؟ كيف تسألُني بعدَما سألتَه؟! أتلعَبُ بدِينِ اللهِ؟! أتُريدُ إنْ أفتاك النَّاسُ بما تُحِبُّ سَكَتَّ، وإنْ أفتوك بما لا تُحِبُّ ذهبْتَ تسألُ؟! هذا لا بأسَ أنْ تَنْهَرَه؛ لأنَّ هذا النَّهْرَ تأديبٌ له، وكذلك سائلُ المالِ؛ إذا عَلِمْتَ أنَّ الَّذي سألك المالَ غنيٌّ، فلك الحقُّ أنْ تَنْهَرَه، ولك الحقُّ أيضًا أنْ تُوَبِّخَه على سُؤالِه وهو غنيٌّ، إذَنْ هذا العمومُ ﴿ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ مخصوصٌ فيما إذا اقتضَتِ المصلحةُ أنْ يُنْهَرَ، فلا بأسَ[٢]. وكذلك لا يَدخُلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في النَّهْرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ نهيُ السَّائِلِ عن مُخالَفةِ آدابِ السُّؤالِ في الإسلامِ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: لا يَصدُرْ منك إلى السَّائِلِ كلامٌ يَقتضي رَدَّه عن مطلوبِه بنَهْرٍ وشَراسةِ خُلُقٍ، بل أعْطِه ما تيسَّرَ عندَك، أو رُدَّه بمعروفٍ وإحسانٍ، وهذا يدخُلُ فيه السَّائِلُ للمالِ، والسَّائِلُ للعِلمِ؛ ولهذا كان المعلِّمُ مأمورًا بحُسنِ الخُلُقِ مع المتعَلِّمِ، ومُباشرتِه بالإكرامِ والتَّحَنُّنِ عليه؛ فإنَّ في ذلك مَعونةً له على مَقصَدِه، وإكرامًا لِمَن كان يَسعى في نَفعِ العِبادِ والبِلادِ[٢].

٥- يُستفادُ مِنَ النَّهيِ عن القَهْرِ والنَّهْرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ النَّهيُ عمَّا هو أشَدُّ منهما في الأذى؛ كالشَّتمِ، والضَّربِ، والاستيلاءِ على المالِ، وتَرْكِه مُحتاجًا[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ هذا يَشملُ النِّعَمَ الدِّينيَّةَ والدُّنيويَّةَ. ﴿فَحَدِّثْ﴾ أي: أثْنِ على اللهِ بها، وخَصِّصْها بالذِّكرِ إن كان هناك مَصلَحةٌ، وإلَّا فحَدِّثْ بنِعَمِ اللهِ على الإطلاقِ؛ فإنَّ التَّحَدُّثَ بنِعمةِ اللهِ داعٍ لشُكْرِها، ومُوجِبٌ لتحبيبِ القُلوبِ إلى مَن أنعَمَ بها؛ فإنَّ القُلوبَ مجبولةٌ على محبَّةِ المحسِنِ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أنَّ التَّحَدُّثَ بنِعمةِ اللهِ على وَجهِ إظهارِ نِعمةِ اللهِ على العَبدِ، مع التَّواضُعِ؛ أنَّ هذا لا بأسَ به[٥]، خِلافًا للتَّحَدُّثِ بالنِّعمةِ افتِخارًا بها على الخَلْقِ؛ لأنَّك إذا فعلْتَ ذلك افتخارًا على الخَلْقِ كان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

(٥) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٢٧٨).

هذا مذمومًا، أمَّا إذا ذَكَرْتَ نعمةَ اللهِ عليك تَحَدُّثًا بالنِّعَمِ، وشُكرًا للمُنْعِمِ؛ فهذا ممَّا أَمَرَ اللهُ به[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ سُؤالٌ: كيف الجَمعُ بيْن هذه الآيةِ وبيْن قولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]؟

الجوابُ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ معناه: أنْ يَتَحَدَّثَ الإنسانُ بما أَنْعَمَ اللهُ عليه، لا أنْ يُزَكِّيَ نفْسَه على رَبِّه، وبيْنَهما فَرْقٌ: إنسانٌ يقولُ: إنَّه صلَّى، زَكَّى، صام، حَجَّ، يريدُ أنْ يُدِلَّ بعَمَلِه على ربِّه، ويُزكِّي نفْسَه على اللهِ، هذا هو الممنوعُ، لكنْ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فيقولُ: الحَمدُ للهِ، هداني بعدَ أنْ كنتُ كذا وكذا؛ فهذا لا بأسَ به[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ إقسامُه سُبحانَه على إنعامِه على رَسولِه وإكرامِه له وإعطائِه ما يُرضيه، وذلك متضَمِّنٌ لتصديقِه له، فهو قَسَمٌ على صِحَّةِ نُبُوَّتِه وعلى جزائِه في الآخرةِ، فهو قَسَمٌ على النُّبُوَّةِ والمَعادِ، وأقسَمَ بآيتَينِ عَظيمتَينِ مِن آياتِه دالَّتَينِ على رُبوبيَّتِه وحِكمتِه ورحمتِه، وهما اللَّيلُ والنَّهارُ، فتأمَّلْ مُطابَقةَ هذا القَسَمِ -وهو نورُ الضُّحى الَّذي يوافي بعدَ ظلامِ اللَّيلِ- للمُقْسَمِ عليه -وهو نورُ الوَحيِ الَّذي وافاه بعدَ احتباسِه عنه، حتى قال أعداؤه: وَدَّعَ محمَّدًا ربُّه-، فأَقْسَمَ بضَوءِ النَّهارِ بعدَ ظُلمةِ اللَّيلِ على ضَوءِ الوَحيِ ونُورِه بعدَ ظُلمةِ احتباسِه واحتجابِه، وأيضًا فإنَّ فالِقَ ظُلمةِ اللَّيلِ عن ضوءِ النَّهارِ هو الَّذي فَلَقَ ظُلمةَ الجَهلِ والشِّركِ بنُورِ الوَحيِ والنُّبُوَّةِ؛ فهذان للحِسِّ، وهذان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٧٣).

للعَقلِ، وأيضًا فإنَّ الَّذي اقتضَتْ رحمتُه ألَّا يَترُكَ عِبادَه في ظُلمةِ اللَّيلِ سَرْمدًا بل هداهم بضَوءِ النَّهارِ إلى مَصالِحِهم ومَعايشِهم: لا يَليقُ به أنْ يَترُكَهم في ظُلمةِ الجَهلِ والغَيِّ، بل يَهديهم بنورِ الوَحيِ والنُّبُوَّةِ إلى مَصالحِ دُنياهم وآخِرتِهم؛ فتأمَّلْ حُسْنَ ارتباطِ المُقْسَمِ به بالمُقْسَمِ عليه، وتأمَّلْ هذه الجزالةَ والرَّونَقَ الَّذي على هذه الألفاظِ، والجلالةَ الَّتي على معانيها[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ ونُزولِه بسَبَبِ واقِعةِ إبطاءِ جِبريلَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَلالةٌ على أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ؛ إذ لو كان مِن عندِه لَما امتَنَع[٢]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ اللَّامُ في «الآخرةِ» و «الأُولى» لامُ الجنسِ، أي: كلُّ آجِلٍ أمْرُه هو خيرٌ مِن عاجِلِه في هذه الدُّنيا وفي الأُخرى -على قولٍ-، واللَّامُ في قولِه: ﴿لَّكَ﴾ لامُ الاختِصاصِ، أي: خيرٌ مُختصٌّ بك، وهو شامِلٌ لكلِّ ما لَه تَعلُّقٌ بنفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذاتِه، وفي دِينِه، وفي أُمَّتِه، فهذا وَعدٌ مِن اللهِ تعالى بأنْ يَنشُرَ دِينَ الإسلامِ، وأنْ يُمكِّنَ أُمَّتَه مِن الخَيراتِ الَّتي يَأمُلُها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهم[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أنَّ الدُّنيا مهما طالتْ فهي قليلةٌ، ولا تُنْسَبُ للآخِرةِ[٤].

٥- قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ ولَمْ يَقُلْ: خيرٌ على الإطلاقِ! وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩٥).

المعنى: خيرٌ لك ولِمَن آمَنَ بك[١].

٦- قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ وقد اغترَّ بعضُهم بفَهمٍ فاسدٍ فيه، واتَّكلوا عليه، فقالوا: إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَرضى أنْ يكونَ في النَّارِ أحدٌ مِن أُمَّتِه، وهذا مِن أقبَحِ الجَهْلِ، وأبيَنِ الكَذِبِ عليه؛ فإنَّه يَرضى بما يَرضى به ربُّه عَزَّ وجَلَّ، واللهُ تعالى يُرضيه تَعذيبُ الظَّلَمةِ والفَسَقةِ والخَوَنةِ والمصِرِّينَ على الكبائرِ، فحاشا رَسولَه أنْ يَرضى بما لا يَرضى به ربُّه تبارك وتعالى[٢]!

٧- سُورةُ الضُّحى توالى فيها قَسَمانِ، وجَوابانِ مُثبَتانِ، وجوابانِ نافيانِ؛ فالقَسَمانِ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، والجوابانِ النَّافيانِ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، والجوابانِ المثبَتانِ: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾[٣].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ ذَكَر سُبحانَه نِعَمَه على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ مِن إيوائِه بَعْدَ يُتْمِه، وهِدايتِه بعْدَ الضَّلالةِ، وإغنائِه بعدَ الفَقْرِ، فكان مُحتاجًا إلى مَن يُؤْويه ويَهْديه ويُغْنيه، فآواه رَبُّه وهَداه وأغناه؛ فأمَرَه سُبحانَه أن يُقابِلَ هذه النِّعَمَ الثَّلاثَ بما يَليقُ بها مِنَ الشُّكرِ[٤]، فكما عَدَّد اللهُ عليه هذه النِّعَمَ الثَّلاثَ وصَّاه بثلاثِ وصايا، في كُلِّ نِعمةٍ وَصِيَّةٌ مُناسِبةٌ لها؛ فبإزاءِ قَولِه: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ قَولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾، وبإزاءِ قَولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ قَولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾،

(١) يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٦٤) وقد نقَلَه عن ابنِ هُبَيرةَ.

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٣).

(٣) يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٦٣، ١٦٤) نقلًا عن ابن هُبيرةَ.

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٤).

هذا على قولِ مَن قال: إنَّ السَّائِلَ هنا هو السَّائِلُ عن العِلمِ والدِّين، وليس بسائلِ المالِ، وبإزاءِ قَولِه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ قَولُه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، ومَن قال: إنَّ السَّائِلَ هو سائِلُ المالِ المحتاجُ جعَلَها بإزاءِ قَولِه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، وجَعَل قَولَه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ بإزاءِ قَولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ جاء التَّعبيرُ -واللهُ أعلمُ- بـ ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ لسَبَبٍ لفظيٍّ، وسببٍ معنويٍّ؛ أمَّا السَّبَبُ اللَّفظيُّ فمِن أجْلِ أن تتوافقَ رُؤوسُ الآياتِ مِن أوَّلِ السُّورةِ، وأمَّا السَّبَبُ المعنويُّ فإنَّه لو كان التَّعبيرُ «فآواك» اختصَّ الإيواءُ به صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، والأمرُ أوسعُ مِن ذلك؛ فإنَّ اللهَ تعالى آواه وآوى به؛ آوى به المؤمِنينَ، فنَصَرَهم وأيَّدَهم، ودَفَعَ عنهم، بل دافعَ عنهم سُبحانَه وتعالى.

وقال: ﴿فَهَدَىٰ﴾ ولم يأتِ التَّعبيرُ «فهَدَاك»؛ لِيَكونَ هذا أشملَ وأوسعَ؛ فهو قد هَدَاه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهَدَى اللهُ به، فهو هادٍ مَهدِيٌّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وقال: ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي: أغناك وأغنى بك، قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠]. وما أكثَرَ ما غَنِمَ المُسلِمونَ مِنَ الكُفَّارِ تحتَ ظِلالِ السُّيُوفِ، غنائِمَ عظيمةً كثيرةً كُلُّها بسَبَبِ هذا الرَّسولِ الكريمِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ اهتَدَوا بهَدْيِه، واتَّبَعوا سُنَّتَه، فنَصَرَهم اللهُ تعالى به، وغَنِموا مِن مَشارِقِ الأرضِ ومغارِبِها[2]!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ سؤالٌ: كيف

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٤، ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٦).

يَحسُنُ مِنَ الجَوَادِ أن يَمُنَّ بنِعَمِه، فيَقولَ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾؟! والَّذي يؤكِّدُ هذا السُّؤالَ: أنَّ اللهَ تعالى حكى عن فِرعَونَ أنَّه قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨] في مَعرِضِ الذَّمِّ لفِرعَونَ، فما كان مذمومًا مِن فِرعَونَ كيف يحسُنُ مِنَ اللهِ؟!

الجوابُ: أنَّ ذلك يَحسُنُ إذا قَصَد بذلك أن يقوِّيَ قَلْبَه، ويَعِدَه بدَوامِ النِّعمةِ، وبهذا يظهَرُ الفَرقُ بيْن هذا الامتنانِ وبيْن امتنانِ فِرعَونَ؛ لأنَّ امتنانَ فِرعَونَ مُحبِطٌ؛ لأنَّ الغَرَضَ: «فما بالُك لا تَخدُمُني؟!»، وامتنانَ اللهِ بزيادةِ نِعَمِه، كأنَّه يقولُ: «ما لَك تَقطَعُ عنِّي رجاءَك؟! ألَسْتُ شَرَعْتُ في تربيتِك؟ أتَظُنُّني تاركًا لِما صَنعْتُ؟! بل لا بدَّ أن أتمِّمَ عليك وعلى أمَّتِك النِّعمةَ»، كما قال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]، أمَا عَلِمْتَ أنَّ الحامِلَ الَّتي تُسقِطُ الولَدَ قبْلَ التَّمامِ مَعيبةٌ تُرَدُّ؟! ولو أسقَطَت أو الرَّجُلُ أسقَطَ عنها بعِلاجٍ تجِبُ الغُرَّةُ[1] وتَستَحِقُّ الذَّمَّ؟! فكيف يَحسُنُ ذلك مِنَ الحيِّ القَّيومِ؟! فما أعظَمَ الفَرقَ بيْن مانٍّ هو اللهُ، وبيْن مانٍّ هو فِرعَونُ[2]!

وأيضًا فإنَّ المِنَّةَ مِنَ المخلوقِ عَيبٌ ونَقْصٌ وأذًى، وأمَّا مِنَّةُ الخالِقِ فليست كذلك، وقد قال اللهُ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ...﴾ [الحجرات: ١٧].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإيواءَ والهُدى والغِنى مِنَ اللهِ؛ لإسنادِها هنا للهِ تعالى، ولكِنْ في السِّياقِ لطيفةٌ دقيقةٌ، وهي: في مَعرِضِ التَّقريرِ يأتي بكافِ الخِطابِ: «ألَمْ يَجِدْك يتيمًا، ألم يجِدْك ضالًّا، ألم يجْدك عائلًا»؟! لتأكيدِ التَّقريرِ، ولم

(١) الغُرَّةُ: أي: مَمْلوكٌ عَبدٌ أو أَمَةٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩٦).

يُسنِدِ اليُتمَ ولا الإضلالَ ولا الفَقْرَ للهِ، مع أنَّ كُلَّه مِن اللهِ، فهو الَّذي أوقع عليه اليُتمَ، وهو سُبحانَه الَّذي منه كُلُّ ما وَجَده عليه؛ وذلك لِما فيه من إيلامٍ له صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ يُوهِمُ ظاهِرُها أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان ضالًّا قبل الوَحيِ، مع أنَّ قَولَه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] يدُلُّ على أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فُطِرَ على هذا الدِّينِ الحنيفِ، ومعلومٌ أنَّه لم يُهَوِّدْه أبَواه ولم يُنَصِّراه، ولم يُمَجِّساه، بل لم يَزَلْ باقيًا على الفِطرةِ حتَّى بَعَثه اللهُ رَسولًا، ويدُلُّ لذلك ما ثَبَت مِن أنَّ أوَّلَ نُزولِ الوَحيِ كان وهو يتعبَّدُ في غارِ حِراءٍ، فذلك التَّعبُّدُ قبْلَ نُزولِ الوَحيِ دليلٌ على البقاءِ على الفِطرةِ.

الجوابُ: أنَّ معنى قَولِه: ﴿ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: غافِلًا عمَّا تَعلَمُه الآنَ مِنَ الشَّرائِعِ وأسرارِ عُلومِ الدِّينِ الَّتي لا تُعلَمُ بالفِطرةِ ولا بالعَقلِ، وإنَّما تُعلَمُ بالوَحْيِ؛ فهَداك إلى ذلك بما أوحى إليك، فمعنى الضَّلالِ على هذا القَولِ: الذَّهابُ عن العِلمِ، ومنه بهذا المعنى قَولُه تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ لأنَّ المرادَ بالإيمانِ شَرائِعُ دينِ الإسلامِ[٢].

١٣- النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يأكُلُ الصَّدَقةَ؛ لأنَّها أوساخُ النَّاسِ، ولأنَّ أَخْذَ الصَّدَقةِ مَنزِلةُ ضَعَةٍ، والأنبياءُ مُنَزَّهون عن ذلك؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان كما وَصَفَه اللهُ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، والصَّدَقةُ لا تَحِلُّ للأغنياءِ،

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٧٤).

وهذا بخِلافِ الهَديَّةِ؛ فإنَّ العادةَ جاريةٌ بالإثابةِ عليها[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ اختيارُ قَولِه: ﴿فَحَدِّثْ﴾ على قولِه: «فخَبِّرْ»؛ لِيَكونَ ذلك حديثًا عِندَه لا يَنساه، ويُعيدُه مرَّةً بعدَ أُخرى[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في أنْ أخَّرَ اللهُ تعالى حَقَّ نَفْسِه عن حقِّ اليتيمِ والعائِلِ؟

الجوابُ: فيه وُجوهٌ:

أحَدُها: كأنَّه يقولُ: أنا غَنيٌّ، وهما مُحتاجانِ، وتقديمُ حَقِّ المُحتاجِ أَولى.

ثانيها: أنَّه وَضَع في حَظِّهما الفِعلَ، ورَضِيَ لنَفْسِه بالقَولِ.

ثالثُها: أنَّ المقصودَ مِن جميعِ الطَّاعاتِ استِغراقُ القَلْبِ في ذِكرِ اللهِ تعالى؛ فجَعَل خاتِمةَ هذه الطَّاعاتِ تحَدُّثَ القَلْبِ واللِّسانِ بنِعَمِ اللهِ تعالى؛ حتَّى يكونَ خَتْمُ الطَّاعاتِ على ذِكرِ اللهِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾

- القسَمُ ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ لتَأكيدِ الخبَرِ ردًّا على زَعْمِ المشرِكينَ أنَّ الوحْيَ انقطَعَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ رَأَوْه لم يَقُمِ اللَّيلَ بالقُرآنِ بِضعَ لَيالٍ؛ فالتَّأكيدُ مُنصَبٌّ على التَّعريضِ المُعرَّضِ به لإبطالِ دَعْوى المشرِكين، فالتَّأكيدُ تَعريضٌ بالمشرِكينَ، وأمَّا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلا يَتردَّدُ

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في وُقوعِ ما يُخبِرُه اللهُ بوُقوعِه[١].

- وإنَّما خُصَّ وقْتُ الضُّحى هنا بالقَسَمِ؛ لأنَّ النَّهارَ يَقْوَى فيه[٢]؛ فمُناسَبةُ القسَمِ بالضُّحى واللَّيلِ: أنَّ الضُّحى وقْتُ انبثاقِ نُورِ الشَّمسِ، فهو إيماءٌ إلى تَمثيلِ نُزولِ الوحْيِ وحُصولِ الاهتِداءِ به، وأنَّ اللَّيلَ وقْتُ قِيامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقُرآنِ، وهو الوقتُ الَّذي كان يَسمَعُ فيه المشركون قِراءتَه مِن بُيوتِهم القَريبةِ مِن بَيتِه أو مِن المسجِدِ الحرامِ؛ ولذلك قُيِّدَ اللَّيلُ بظَرْفِ ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾، فلعلَّ ذلك وقْتُ قِيامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ قال تعالَى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾[٣] [المزمل: ٢، ٣].

- وتَقديمُ اللَّيْلِ في السُّورةِ المُتقدِّمةِ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [اللَّيل: ١، ٢] باعتبارِ الأصلِ، وتَقديمُ النَّهارِ هاهنا ﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ باعتِبارِ الشَّرفِ[٤].

وقيل: الحِكمةُ في أنَّه تعالَى في السُّورةِ الماضيةِ قدَّمَ ذِكرَ اللَّيلِ، وفي هذه السُّورةِ أخَّرَه: أنَّ باللَّيلِ والنَّهارِ يَنتظِمُ مَصالحُ المكلَّفينَ، واللَّيلُ له فَضيلةُ السَّبقِ؛ لقولِه: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وللنَّهارِ فَضيلةُ النُّورِ -بلِ اللَّيلُ كالدُّنيا، والنَّهارُ كالآخرةِ-، فلمَّا كان لكلِّ واحدٍ فَضيلةٌ لَيستْ للآخَرِ؛ لا جَرَم قُدِّمَ هذا على ذاك تارةً، وذاك على هذا أُخرى، ونَظيرُه أنَّه تعالَى قدَّمَ السُّجودَ على الرُّكوعِ في قولِه: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾ [آل عمران: ٤٣]، ثمَّ قدَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٤، ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩).

الرُّكوعَ على السُّجودِ في قولِه: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧]. وقيل غيرُ ذلك(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾

- قولُه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ نفْيٌ لأنْ يكونَ اللهُ قَطَعَ عنه الوحْيَ، وقد عُطِفَ عليه ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ للإتيانِ على إبطالِ مَقالتَي المشركينَ؛ إذ قال بَعضُهم: ودَّعَه ربُّه، وقال بَعضُهم: قَلَاهُ ربُّه، يُريدون التَّهكُّمَ(٢).

- والتَّوديعُ مُبالَغةٌ في الوَدْعِ؛ لأنَّ مَن وَدَعَك مُفارِقًا فقدْ بالَغَ في تَرْكِك(٣).

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿قَلَىٰ﴾؛ لدَلالةِ ﴿وَدَّعَكَ﴾ عليه، كقولِه تعالَى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وهو إيجازٌ لَفظيٌّ؛ لظُهورِ المحذوفِ، ومِثلُه قولُه: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ ﴿فَهَدَىٰ﴾ ﴿فَأَغۡنَىٰٓ﴾، ومُراعاةً للفواصلِ(٤).

- وقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ [ضحى: ٣] بكافِ الخِطابِ؛ لأنَّ التَّوديعَ يكونُ لِمَنْ تُحِبُّ ولِمَنْ تَكْرَهُ، أمَّا في القِلَى فلمْ يقُلْ: قَلاك؛ لأنَّ القِلَى لا يكونُ إلَّا لِمَنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩٠، ١٩١).

قال ابن جماعة: (قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ قدَّم فيها القسَمَ بالليلِ، وفى «الضُّحَى» قدَّم القسَمَ بالنَّهارِ.

جوابُه: لمَّا كان المقسَمُ عليه هنا: سعيُ الإنسانِ، وغالبُه المعاصى؛ قدَّم اللَّيلَ الذى هو مظِنَّةُ الظلمةِ، ولمَّا كان المقسَمُ عليه فى الضُّحَى لطفُه بنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم قدَّم الضُّحَى لحسنِه). ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) (ص: ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٦، ٣٩٧).

تَكْرَهُ[١].

- وقدْ نزَلَتْ رَدًّا على المشركين قولَهم: إنَّ محمَّدًا وَدَّعَهُ ربُّهُ وقَلَاهُ، وتَبْشيرًا له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالكَرامةِ الحاصِلةِ والمُترَقَّبةِ، كما يُشعِرُ به إيرادُ اسمِ الرَّبِّ المُنبئِ عن التَّربيةِ والتَّبليغِ إلى الكَمالِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١]، فهو كَلامٌ مُبتدَأٌ به، والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُمَلِ الابتدائيَّةِ، وليستْ مَعطوفةً على جُملةِ جَوابِ القسَمِ، بلْ هي ابتدائيَّةٌ، لَمَّا كان في ضِمنِ نفْيِ التَّوديعِ والقِلَى: أنَّ اللهَ مُواصِلُك بالوحْيِ إليك، وأنَّك حَبيبُ اللهِ، ولا تَرى كَرامةً أعظَمَ مِن ذلك، ولا نِعمةً أجَلَّ منه؛ أخْبَرَه أنَّ حالَه في الآخرةِ أعظَمُ مِن ذلك وأجَلُّ، وهو السَّبقُ والتَّقدُّمُ على جَميعِ أنبياءِ اللهِ ورُسلِه، وشَهادةُ أُمَّتِه على سائرِ الأُمَمِ، ورفْعُ دَرَجاتِ المؤمنينَ وإعلاءُ مَراتبِهم بشَفاعتِه، وغيرُ ذلك مِن الكَراماتِ السَّنِيَّةِ[٣].

- وما في تَعريفِ (الآخِرةِ) و(الأُولى) مِن التَّعميمِ يَجعَلُ معْنى هذه الجُملةِ في معْنى التَّذييلِ الشَّاملِ لاستِمرارِ الوحْيِ، وغيرِ ذلك مِن الخيرِ[٤].

- والآخِرةُ: مُؤنَّثُ الآخِرِ، والأُولى: مُؤنَّثُ الأوَّلُ، وغَلَبَ لَفظُ الآخرةِ في اصطلاحِ القُرآنِ الكريمِ على الحياةِ الآخِرةِ وعلى الدَّارِ الآخِرةِ، كما غَلَبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشعراوي)) (١٥/ ٩١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٧).

لَفظُ الأُولى على حَياةِ النَّاسِ الَّتي قبْلَ انخِرامِ هذا العالَمِ؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ هنا مِن كِلا اللَّفظينِ كِلا مَعنيَيه، فيُفيدُ أنَّ الحياةَ الآخرةَ خيرٌ له مِن هذه الحياةِ العاجِلةِ؛ تَبشيرًا له بالخَيراتِ الأبديَّةِ، ويُفيدُ أنَّ حالاتِه تَجْري على الانتقالِ مِن حالةٍ إلى أحسَنَ منها، فيكونَ تَأنيثُ الوَصفَينِ جاريًا على حالَتَي التَّغليبِ وحالَتَي التَّوصيفِ، ويكونَ التَّأنيثُ في هذا المعْنى الثَّاني لمُراعاةِ معْنى الحالةِ، ويُومِئُ ذلك إلى أنَّ عَودةَ نُزولِ الوحْيِ عليه هذه المرَّةَ خيرٌ مِن العَودةِ الَّتي سَبَقَت، أي: تَكفَّلَ اللهُ بألَّا يَنقطِعَ عنه نُزولُ الوحْيِ مِن بعْدُ؛ فاللَّامُ في (الآخرة) و(الأُولى) لامُ الجنسِ، أي: كلُّ آجِلِ أمْرِه هو خيرٌ مِن عاجِلِه في هذه الدُّنيا وفي الأُخرى[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ عطْفٌ على جُملةِ القسَمِ كلِّها، وحرْفُ الاستقبالِ لإفادةِ أنَّ هذا العطاءَ الموعودَ به مُستمِرٌّ لا يَنقطِعُ[2].

- واللَّامُ في ﴿وَلَسَوْفَ﴾ للابتداءِ، دَخَلتِ الخبرَ لتَأكيدِ مَضمونِ الجُملةِ، والمُبتدأُ مَحذوفٌ، تَقديرُه: ولَأنتَ سَوفَ يُعطيكَ... إلخ، لا للقسَمِ؛ لأنَّها لا تَدخُلُ على المضارعِ إلَّا معَ النُّونِ المؤكِّدةِ، وجمْعُها معَ (سوفَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإعطاءَ كائنٌ لا مَحالةَ وإنْ تَراخَى لحِكمةٍ[3].

- وفي قولِه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ حذْفٌ؛ فقدْ حُذِفَ مَفعولُ ﴿يُعْطِيكَ﴾ الثَّاني تَهويلًا لأمْرِه، واستِعظامًا لشَأنِه، وأنَّ هذه المُعطَياتِ أجَلُّ مِن أنْ تُذكَرَ، وأكبَرُ مِن أنْ تُدرَجَ، أي: الشَّيءُ الكثيرُ؛ مِن تَوارُدِ الوحْيِ عليك بما فيه إرشادٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٠).

لك ولقَومِك، ومِن ظُهورِ دِينِك، وعُلوِّ كَلمتِك، وإسعادِ قَومِك بما تَشرَعُ لهم، وإعلائِك وإعلائِهم على الأُمَمِ في الدُّنيا والآخرةِ[١]؛ فقولُه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ وَعدٌ شاملٌ لِما أعطاهُ في الدُّنيا مِن الفَوْزِ والظَّفَرِ بأعدائِه يومَ بدْرٍ ويومَ فتْحِ مكَّةَ وغيرِها، ودُخولِ النَّاسِ في الدِّينِ أفواجًا، وما فَتَحَ على الخُلفاءِ الرَّاشدينَ ومَن بعْدَهم مِن أقْطارِ الأرضِ شَرْقًا وغَرْبًا، ولِما ادَّخَرَ له مِن الثَّوابِ الَّذي لا يَعلَمُ كُنْهَه إلَّا اللهُ[٢]. فحُذِفَ المفعولُ الثَّاني لكَلمةِ ﴿يُعْطِيكَ﴾؛ ليَعُمَّ كلَّ ما يَرْجوه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن خَيرٍ لنفْسِه ولأُمَّتِه، فكان مُفادُ هذه الجُملةِ تَعميمَ العطاءِ، كما أفادَتِ الجُملةُ قبْلَها تَعميمَ الأزمنةِ[٣].

- وجِيءَ بفاءِ التَّعقيبِ في ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾؛ لإفادةِ كَونِ العَطاءِ عاجِلَ النَّفعِ بحيث يَحصُلُ به رِضا المُعطَى عندَ العطاءِ، فلا يَترقَّبُ أنْ يَحصُلَ نفْعُه بعْدَ تَربُّصٍ[٤].

- وتَعريفُ ﴿رَبُّكَ﴾ بالإضافةِ دونَ اسمِ اللهِ العَلَمِ؛ لِما يُؤذِنُ به لَفظُ (ربّ) مِن الرَّأفةِ واللُّطفِ، وللتَّوسُّلِ إلى إضافتِه إلى ضَميرِ المخاطَبِ؛ لِما في ذلك مِن الإشعارِ بعِنايتِه برَسولِه، وتَشريفِه بإضافةِ (ربّ) إلى ضَميرِه[٥].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ مَساقَ الدَّليلِ على تَحقُّقِ الوعْدِ، أي: هو وَعْدٌ جارٍ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦، ٧٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦، ٤٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على سَنَنِ ما سَبَقَ مِن عِنايةِ اللهِ بكَ مِن مَبدأِ نَشأتِك ولُطفِه في الشَّدائدِ باطِّرادٍ، بحيث لا يَحتمِلُ أنْ يكونَ ذلك مِن قَبيلِ الصُّدَفِ؛ لأنَّ شَأنَ الصُّدَفِ ألَّا تَتكرَّرَ؛ فقد عُلِمَ أنَّ اطِّرادَ ذلك مُرادٌ للهِ تعالَى، والمقصودُ مِن هذا إيقاعُ اليَقينِ في قُلوبِ المشرِكين بأنَّ ما وَعَدَه اللهُ به مُحقَّقُ الوُقوعِ، قياسًا على ما ذَكَّرَه به مِن مُلازَمةِ لُطْفِه به فيما مَضى -وهم لا يَجهَلون ذلك- عَسى أنْ يُقلِعوا عن العِنادِ، ويُسرِعوا إلى الإيمانِ، وإلَّا فإنَّ ذلك مَساءةٌ تَبْقى في نُفوسِهم، وأشباحُ رُعبٍ تُخالِجُ خَواطِرَهم، ويَحصُلُ مع هذا المقصودِ امتنانٌ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَقويةٌ لاطمئنانِ نفْسِه بوَعْدِ اللهِ تعالَى إيَّاهُ[1].

- والهَمزةُ لإنكارِ النَّفيِ، وتَقريرِ المَنفيِّ على أبلَغِ وَجْهٍ، كأنَّه قيلَ: قد وَجَدَك... إلخ[2].

- وحُذِفَت مَفاعيلُ ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾، ﴿فَهَدَىٰ﴾، ﴿فَأَغْنَىٰ﴾؛ للعِلمِ بها مِن ضَمائرِ الخِطابِ قبْلَها؛ إذ يُعلَمُ أنَّه ضَميرُ المُخاطَبِ، وهو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحذْفُها إيجازٌ، وفيه رِعايةٌ على الفواصلِ[3].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

- قولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ الفاءُ الأُولى فَصيحةٌ؛ تُفصِحُ عن مُقدَّرٍ، و(أمَّا)

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٠).

تُفيدُ شَرطًا مُقدَّرًا، تَقديرُه: مهْما يكُنْ مِن شَيءٍ، فكان مُفادُها مُشعِرًا بشَرْطٍ آخَرَ مُقدَّرٍ هو الَّذي اجتُلِبَت مِن أجْلِه فاءُ الفَصيحةِ، وتَقديرُ نظْمِ الكلامِ: إذ كنتَ تَعلَمُ ذلك وأقرَرْتَ به، فعليكَ بشُكرِ ربِّك، وبيَّن له الشُّكرَ بقولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ...﴾ إلخ، وقد جُعِلَ الشُّكرُ هنا مُناسِبًا للنِّعمةِ المشكورِ عليها، وإنَّما اعتُبِرَ تَقديرُ: إذا أرَدْتَ الشُّكرَ؛ لأنَّ شُكرَ النِّعمةِ تَنساقُ إليه النُّفوسُ بدافعِ المُروءةِ في عُرفِ النَّاسِ. وصُدِّرَ الكلامُ بـ (أمَّا) التَّفصيليَّةِ؛ لأنَّه تَفصيلٌ لمُجمَلِ الشُّكرِ على النِّعمةِ، ولَمَّا كانت (أمَّا) بمعْنى: (ومهْما يكُنْ شَيءٌ)، قُرِنَ جَوابُها بالفاءِ[1].

- و﴿ٱلْيَتِيمَ﴾ مَفعولٌ لِفعلِ ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾، وقُدِّمَ؛ للاهتِمامِ بشَأنِه، وكذلك تَقديمُ ﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ و﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ على فِعلَيهما[2].

- وقد قُوبِلَت النِّعَمُ الثَّلاثُ المُتفرِّعُ عليها هذا التَّفصيلُ بثَلاثةِ أعمالٍ تُقابِلُها، فيَجوزُ أنْ يكونَ هذا التَّفصيلُ على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المُرتَّبِ[3]؛ فقولُه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠١).

(٣) اللَّف والنَّشْر: هو أن يُذكَرَ شَيئانِ أو أشياءُ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكَرَ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضَ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلِّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، =

﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ مُقابِلٌ لقولِه: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى: ٦]، أي: فكَما آواكَ ربُّك وحَفِظَك مِن عَوارضِ النَّقصِ المُعتادِ لليُتْم، فكنْ أنت مُكرِمًا للأيتامِ رَفيقًا بهم، فجُمِعَ ذلك في النَّهيِ عن قَهْرِه؛ لأنَّ أهلَ الجاهليَّةِ كانوا يَقهَرون الأيتامَ.

وقولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ مُقابلُ قولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]؛ لأنَّ الضَّلالَ يَستدعي السُّؤالَ عن الطَّريقِ، فالضَّالُّ مُعتبَرٌ مِن صِنْفِ السَّائلينَ، والسَّائلُ عن الطَّريقِ قد يَتعرَّضُ لحَماقةِ المسؤولِ، فجَعَلَ اللهُ الشُّكرَ عن هِدايتِه إلى طَريقِ الخيرِ أنْ يُوسِّعَ بالَهُ للسَّائلينَ، فلا يَختَصُّ السَّائلُ بسائلِ العَطاءِ، بلْ يَشملُ كلَّ سائلٍ، وأعظَمُ تَصرُّفاتِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإرشادِ المُسترشِدينَ، والتَّعريفُ في السَّائلِ تَعريفُ الجِنسِ، فيَعُمُّ كلَّ سائلٍ، أي: عمَّا يُسأَلُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن مِثلِه.

وقولُه: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ مُقابلُ قولِه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]؛ فإنَّ الإغناءَ نِعمةٌ، فأمَرَه اللهُ أنْ يُظهِرَ نِعمةَ اللهِ عليه بالحديثِ عنها، وإعلانِ

= كقولِه تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارةِ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفْقَ توزيعٍ مُرتَّبٍ؛ فقولُه: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيلِ، وقولُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهارِ.

وغيرُ المرتَّبِ -وقد يُعبَّرُ عنه بـ «اللَّفِ والنَّشرِ المُشَوَّش»، أو «المعكوس»- هو: أن يأتيَ النَّشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّلٌ، وجاء بعدَها نَشْرٌ غَيرُ مُرَتَّبٍ؛ فجُملةُ ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى، ومتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ، ومُتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ، ومتعلِّقةٌ بها.

يُنظر في تفصيلِ أقسامِه وأمثلةٍ على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

شُكْرِها، وليس المرادُ بـ (نِعْمَةِ رَبِّكَ) نِعمةً خاصَّةً، وإنَّما أُريدَ الجِنسُ، فيُفيدُ عُمومًا في المَقامِ الخَطابيِّ، أي: حدِّث ما أنعَمَ اللهُ به عليك مِن النِّعَمِ، فحَصَلَ في ذلك الأمرِ شُكرُ نِعمةِ الإغناءِ، وحَصَلَ الأمرُ بشُكرِ جَميعِ النِّعَمِ لتكونَ الجُملةُ تَذييلًا جامعًا.

وإمَّا أنْ يكونَ هذا التَّفصيلُ على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ غيرِ المُرتَّبِ: إنْ فُسِّرَ السَّائلُ في قولِه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ بسائلٍ مَعروفٍ، كان مُقابلَ قولِه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]، وقولُه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ مُقابلَ قولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، وكان المرادُ بنِعمةِ ربِّه نِعمةَ الهِدايةِ إلى الدِّينِ الحقِّ[١].

- وفي قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۞ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ كُرِّر (أمَّا) ثلاثَ مَرَّاتٍ؛ لوُقوعِها في مُقابَلةِ ثلاثِ آياتٍ مُناسِباتٍ لها؛ وهي: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ واذكُرْ يُتْمَك، ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ واذكُر فقْرَك ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ الَّتي هي النُّبوَّةُ أو الإسلامُ، ﴿فَحَدِّثْ﴾ واذكُرْ ضَلالَك[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالالتزامِ، أو لُزومُ ما لا يَلزَمُ -ويُقالُ له أيضًا الإعناتُ[٣]- فقدْ لُزِمَت الهاءُ قبْلَ الرَّاءِ، وفي هاتَينِ الفاصلتَينِ مع الالتزامِ تَنكيتٌ عَجيبٌ؛ فإنَّه لا يَجوزُ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠١ - ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٥).

(٣) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥٤٣).

التَّبديلُ في القَرينتَينِ، ولا تَأتي كلُّ واحدةٍ مكانَ الأُخرى؛ لأنَّ النُّكتةَ في تَرجيحِ مَجيئِهما على ما جاءَتَا عليه: أنَّ اليتيمَ مَأمورٌ بأدَبِه، وأقلُّ ما يُؤدَّبُ به الانتهارُ، فلا يَجوزُ أنْ يُنْهى عن انتهارِه، وإنَّما الَّذي يُنْهى عنه قَهْرُه وغَلبتُه؛ لانكسارِه باليُتْمِ وعدَمِ ناصرِه، فمِن هاهنا تَرجَّحَ مَجيءُ كلِّ قَرينةٍ على ما جاءت عليه، ولم يَجُزِ التَّبديلُ[1].

- قيل: لَمَّا تَقدَّمَ ذِكرُ الامتنانِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ الثَّلاثةِ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، أمَرَه بثَلاثةٍ: فذكَرَ اليتيمَ أوَّلًا، وهي البدايةُ، ثمَّ ذَكَرَ السَّائلَ ثانيًا، وهو العائلُ، وكان أشرَفُ ما امتنَّ به عليه هي الهدايةَ، فتَرقَّى مِن هذينِ إلى الأشرفِ، وجَعَلَه مَقطعَ السُّورةِ، وإنَّما وُسِّطَ ذلك عندَ ذِكرِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّه بعْدَ اليُتمِ هو زَمانُ التَّكليفِ، وهو عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَعصومٌ مِن اقترافِ ما لا يُرْضي اللهَ عزَّ وجلَّ في القولِ والفعلِ والعقيدةِ، فكان ذِكرُ الامتنانِ بذلك على حسَبِ الواقعِ بعْدَ اليُتمِ وحالةِ التَّكليفِ، وفي الآخِرِ تَرقَّى إلى الأشرفِ، فهُما مَقصدانِ في الخِطابِ[2].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٨).

تَفْسيرُ
سُورَةِ الشَّرْحِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الشَّرْحِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الشَّرْحِ)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الشَّرْحِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

بَيانُ كَرامةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ ربِّه تعالى[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- تَعدادُ ما أنعَمَ اللهُ به على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ النِّعَمِ؛ ومِن ذلك: شَرْحُ صَدرِه، ورَفْعُ قَدْرِه وذِكْرِه، ووَعْدُ اللهِ له بإزالةِ ما نَزَل به مِنَ الشَّدائِدِ والمِحَنِ.

---

(١) سُمِّيَت السُّورةُ بذلك؛ تسميةً لها بمصدرِ الفعلِ الواقعِ في مُفتتَحِها، وهو قَولُ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٨/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٧).

قال ابنُ عاشور: (سُمِّيَت في مُعظَمِ التَّفاسيرِ، وفي «صحيحِ البُخاريِّ» و«جامِعِ التِّرمذيِّ» سورةَ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، وسُمِّيَت في بعضِ التَّفاسيرِ سُورةَ «الشَّرحِ»، ومِثلُه في بعضِ المصاحِفِ المَشْرِقيَّةِ... وفي بعضِ التَّفاسيرِ تَسميتُها «سورةَ الانشِراحِ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٧).

(٢) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عَطِيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطُبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٣، ٤١٤).

٢- أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالمُداوَمةِ على الأعمالِ الصَّالِحةِ، والرَّغبةِ فيما عندَ الله، والإقبالِ على ذِكْرِه.

الآيات (١-٨)

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿نَشْرَحْ﴾: نُفْسِحْ ونُوَسِّعْ، أو نفتَحْ، وأصلُ (شرح): يدُلُّ على الفَتحِ والبَيانِ[١].

﴿وِزْرَكَ﴾: ذَنْبَك، والوِزْرُ: الإثمُ والثِّقْلُ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقْلِ في الشَّيءِ[٢].

﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾: أي: أثقَلَه حتَّى سُمِعَ نَقِيضُه، أي: صَوتُه، وأصلُ (نقض) هنا: يدُلُّ على جِنسٍ مِنَ الصَّوتِ[٣].

﴿فَٱنصَبْ﴾: فاتعَبْ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ، ومنه النَّصبُ: العناءُ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يزالُ مُنتَصِبًا حتَّى يُعيِيَ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بتذكيرِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بنِعَمِه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

عليه؛ مُقَرِّرًا لها، حتَّى يُداوِمَ على شُكرِه تعالى، فقال: أَلَمْ نُوَسِّعْ لك صَدْرَك -يا محمَّدُ- ونفتَحْه للهُدى والإيمانِ، ومَعرفةِ الحقِّ، والعمَلِ به، ومِن ذلك شقُّ جِبريلَ لصَدرِك ومَلْؤُه حِكمةً وإيمانًا؟ وحطَطْنا عنك إثمَك، وغَفَرْنا لك ذَنْبَك، الَّذي أثقَلَك حَمْلُه، ورفَعْنا لك ذِكْرَك، وأعلَيْنا شَأْنَك.

ثمَّ قال سُبحانَه مُسَلِّيًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأتْباعَه، ومُبَيِّنًا سُنَّةً مِن سُنَنِه: فإنَّ مع الصُّعوبةِ والشِّدَّةِ سُهولةً وسَعةً وفَرَجًا، إنَّ مع الصُّعوبةِ والشِّدَّةِ سُهولةً وسَعةً وفَرَجًا.

ثمَّ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالاجتِهادِ في عبادتِه، فقال: فإذا فرَغْتَ مِن أشغالِك الدُّنيويَّةِ والأُخْرويَّةِ فاجتَهِدْ في العِبادةِ والدُّعاءِ، واجعَلْ رَغبتَك في جميعِ أعمالِك وعباداتِك مِن أجْلِ إرضاءِ رَبِّك وَحْدَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾.

أي: ألم نُوَسِّعْ لك صَدْرَك -يا محمَّدُ- ونفتَحْه للهُدى والإيمانِ، ومَعرفةِ الحقِّ، والعمَلِ به، والقيامِ بالدَّعوةِ، وتحمُّلِ أعباءِ النُّبُوَّةِ، ومِن ذلك شَقُّ جِبريلَ لصَدرِك ومَلْؤُه حِكمةً وإيمانًا[1]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤١، ٢٤٢).

قال ابنُ عطيَّةَ: (ذهب الجُمهورُ إلى أنَّ شَرْحَ الصَّدرِ المذكورَ هو تنويرُه بالحِكمةِ، وتوسيعُه لتلَقِّي ما يُوحَى إليه، وقال ابنُ عبَّاسٍ وجماعةٌ: هذه إشارةٌ إلى شَرْحِه بشَقِّ جِبريلَ عنه في وقتِ صِغَرِه، وفي وقتِ الإسراءِ؛ إذ التَّشريحُ شَقُّ اللَّحمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٦).

وقال الثعلبي: (ألم نَفتَحْ ونُوسِّعْ ونُلَيِّنْ لك قَلْبَك بالإيمانِ والنُّبوَّةِ والعِلمِ والحِكمةِ). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٣٢). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٤). =

كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال سُبحانَه حكايةً عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٥، ٢٦].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أتاه جِبريلُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يَلعَبُ مع الغِلْمانِ، فأخَذَه فصَرَعَه، فشَقَّ عن قَلْبِه، فاستخرَجَ القَلْبَ، فاستخرَجَ منه عَلَقةً، فقال: هذا حَظُّ الشَّيطانِ مِنك، ثمَّ غسَلَه في طَسْتٍ مِن ذَهَبٍ بماءِ زَمْزَمَ، ثمَّ لأَمَه، ثمَّ أعاده في مَكانِه، وجاء

= ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المعنى: شَرَحْناه وفتَحْناه ووسَّعْناه للهُدى وشرائِعِ الدِّينِ، والإيمانِ باللهِ ومَعرفةِ الحَقِّ، حتَّى قام بما قام به مِنَ الدَّعوةِ، وقَدَر على ما قَدَر عليه مِن حَملِ أعباءِ النُّبوَّةِ وحِفظِ الوَحيِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والقرطبي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

وقال ابنُ عاشور: (ويجوزُ أن يُجعَلَ الشَّرحُ شَرحًا بَدَنيًّا، ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه فَسَّر به، وهو ظاهِرُ صَنيعِ التِّرمذيِّ؛ إذ أخرجَ حديثَ شَقِّ الصَّدرِ الشَّريفِ في تفسيرِ هذه السُّورةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٩).

وممَّن جَمَع بيْن المعنَيَينِ السَّابِقَينِ للشَّرحِ: ابنُ العربيِّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٤١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١١٦).

قال ابنُ كثير: (شَرَحْنا لك صَدْرَك، أي: نوَّرْناه وجعَلْناه فَسيحًا رَحيبًا واسِعًا... وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ شَرْحُ صَدْرِه ليلةَ الإسراءِ... وهذا وإن كان واقِعًا، ولكِنْ لا مُنافاةَ؛ فإنَّ مِن جملةِ شَرْحِ صَدْرِه الَّذي فُعِلَ بصَدْرِه ليلةَ الإسراءِ، وما نشَأَ عنه مِن الشَّرحِ المعنويِّ أيضًا. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٩).

الغِلْمانُ يَسْعَونَ إلى أُمِّه -يعني: ظِئْرَه- فقالوا: إنَّ محمَّدًا قد قُتِلَ! فاستَقْبَلوه وهو مُنتَقِعُ اللَّونِ، قال أنَسٌ: وقد كُنتُ أرى أَثَرَ ذلك المِخْيَطِ في صَدْرِه))[١].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان أبو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: فُرِج عن سَقْفِ بيتي وأنا بمكَّةَ، فنَزَل جِبريلُ ففَرَج صَدْري، ثُمَّ غَسَله بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جاءَ بطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمةً وإيمانًا، فأفْرَغه في صَدْري، ثُمَّ أطْبَقَه، ثُمَّ أخَذ بيَدي فعَرَج بي إلى السَّماءِ الدُّنْيا...))[٢].

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ عن مالِكِ بنِ صَعْصَعَةَ، رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بَيْنا أنا عندَ البَيتِ[٣] بيْنَ النَّائِمِ واليَقْظانِ... فأُتيتُ بطَسْتٍ مِن ذَهَبٍ مُلِئَ حِكْمةً وإيمانًا، فشُقَّ مِن النَّحْرِ إلى مَرَاقِّ البَطنِ[٤]، ثُمَّ غُسِل البطنُ بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ مُلِئَ حِكْمةً وإيمانًا، وأُتيتُ بدابَّةٍ....)) الحديثَ[٥].

وفي روايةٍ: ((فأُتيتُ بطَسْتٍ مِن ذهَبٍ فيها مِن ماءِ زَمْزَمَ، فشُرِح صدري إلى كذا وكذا))[٦].

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾.

أي: وحطَطْنا عنك إثمَك، وغَفَرْنا لك ذَنْبَك[٧].

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٦٢).

(٢) رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

(٣) عندَ البَيتِ: أي: الكعبة. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ١٢٥).

(٤) مراقِّ البطنِ: هو ما سفَل مِن البطنِ، ورقَّ مِن جلدِه. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ١٢٦).

(٥) رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٦) رواه مسلم (١٦٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٤).

أي: الَّذي أثقَلَك حَمْلُه[١].

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾.

أي: ورفَعْنا ذِكْرَك رِفعةً عَظيمةً، فأعلَيْنا شَأْنَك، ونوَّهْنا باسمِك، ونشَرْنا لك الثَّناءَ الحسَنَ العاليَ؛ تشريفًا لك وتعظيمًا[٢].

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾.

أي: فإنَّ مع الصُّعوبةِ والشِّدَّةِ والضِّيقِ سُهولةً وسَعةً وفَرَجًا[٣].

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان العُسرُ مَكروهًا إلى النُّفوسِ، وكان لله سُبحانَه وتعالى فيه حِكَمٌ عظيمةٌ، وكانت الحِكَمُ لا تتراءى إلَّا للأفرادِ مِنَ العِبادِ؛ كَرَّره سُبحانَه وتعالى على طريقِ الاستِئنافِ؛ لجوابِ مَن يقولُ: وهل بَعْدَه مِن عُسْرٍ؟ مؤكِّدًا له؛ ترغيبًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٨-٢٥٠).

قال الشوكاني: (في هذا وَعدٌ منه سبحانه بأنَّ كُلَّ عُسرٍ يتيسَّرُ، وكُلَّ شَديدٍ يَهُونُ، وكُلَّ صَعبٍ يَلينُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦٤).

وقال السعدي: (كُلَّما وُجِدَ عُسرٌ وصُعوبةٌ فإنَّ اليُسرَ يُقارِنُه ويُصاحِبُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

في أمرِه، وترَقُّبًا لِما يتسَبَّبُ عنه، مُبَشِّرًا بتكريرِه مع وَحْدةِ العُسْرِ[١].

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٦﴾.

أي: إنَّ الشِّدَّةَ والضِّيقَ يُصاحِبُهما السُّهولةُ والرَّخاءُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((...واعلَمْ أنَّ في الصبرِ على ما تكرهُ خيرًا كثيرًا، وأنَّ النَّصرَ معَ الصَّبرِ، وأنَّ الفَرَجَ معَ الكربِ، وأنَّ معَ العُسرِ يُسرًا))[٣].

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَدَّد اللهُ عليه نِعَمَه السَّالِفةَ، ووعَدَه بالنِّعَمِ الآتيةِ؛ لا جَرَمَ بَعَثَه على الشُّكرِ والاجتِهادِ في العِبادةِ؛ فقال[٤]:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٨-٢٥٠).

(٣) أخرجه مِن طُرقٍ: أحمدُ (٢٨٠٣) واللفظ له، والطَّبَرانيُّ (١١/ ١٢٣) (١١٢٤٣)، والحاكمُ (٦٣٠٤) مطَوَّلًا.

صحَّحه عبدُ الحقِّ الإشبيليُّ في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (٣/ ٣٣٣)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٦٨٠٦)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ١٩)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (١/ ٣٢٧)، والسَّخاويُّ في ((المقاصد الحسنة)) (١٨٨)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيقِ ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٨٧). ويُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٠٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠١).

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾.

أي: فإذا فرَغْتَ مِن كلِّ ما كنتَ به مشتغِلًا، مِن أمرِ دنياك وآخرتِك؛ فاجتَهِدْ في العِبادةِ والدُّعاءِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

قال ابن جُزَي: (والمعنى: إذا فرَغْتَ مِن أمرٍ فاجتَهِدْ في آخَرَ، ثمَّ اختُلِف في تعيينِ الأمْرَينِ؛ فقيل: إذا فرَغْتَ مِن الفرائضِ فانصَبْ في النَّوافلِ، وقيل: إذا فرغتَ مِن الصَّلاةِ فانصَبْ في الدُّعاءِ، وقيل: إذا فرغتَ مِن شُغلِ دُنياك فانصَبْ في عبادةِ ربِّك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٣).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ أن يواصِلَ بيْن بعضِ العباداتِ وبعضٍ، فإذا فرَغ مِن عبادةٍ أتْبَعَها بأخرى -على خِلافٍ بيْنَهم في تعيينِ العِبادةِ المَفروغِ منها والَّتي يَنصَبُ إليها-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والكرماني، والزمخشري، وابن عطية، والرازي، والخازن، والعُلَيمي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٩٤)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٠٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٩٣).

قال الواحِديُّ: (قال قَتادةُ، والضَّحَّاكُ، ومُقاتِلٌ، والكَلْبيُّ: إذا فرَغْتَ مِنَ الصَّلاةِ المكتوبةِ فانصَبْ إلى رَبِّك في الدُّعاءِ، وارغَبْ إليه في المسألةِ يُعْطيك، ونحوَ هذا روى عبدُ الوهَّابِ ابنُ مجاهِدٍ عن أبيه، قال: إذا صَلَّيْتَ فاجتَهِدْ في الدُّعاءِ والمَسْألةِ. وقال الشَّعبيُّ: إذا فرَغْتَ مِن التَّشَهُّدِ فادْعُ لدُنْياك وآخِرَتِك. ونحوَ هذا قال الزُّهْريُّ: إذا قَضَيتَ التَّشَهُّدَ فادْعُ بعْدَ التَّشَهُّدِ بكُلِّ حاجتِك). ((البسيط)) (٢٤/ ١٣٦).

وقال ابنُ كثير: (أي: إذا فرَغْتَ مِن أُمورِ الدُّنيا وأشغالِها وقطَعْتَ علائقَها، فانصَبْ في العبادةِ، وقُمْ إليها نشيطًا فارِغَ البالِ، وأخلِصْ لرَبِّك النِّيَّةَ والرَّغبةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٣).

وقال الواحِديُّ: (وروى منصورٌ عن مجاهِدٍ: إذا فرَغْتَ بَعْدَ أمرِ دُنياك ﴿فَٱنصَبْ﴾ فصَلِّ). ((البسيط)) (٢٤/ ١٣٧).

قال السعديُّ: (أمَر اللهُ رَسولَه أصلًا والمؤمِنينَ تبَعًا، بشُكْرِه والقيامِ بواجِبِ نِعَمِه، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ أي: إذا تفرَّغْتَ مِن أشغالِك، ولم يَبْقَ في قَلْبِك ما يَعوقُه، فاجتَهِدْ في العِبادةِ والدُّعاءِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

وقال ابنُ جريرٍ: (أَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ قَولُ مَن قال: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أمَرَ نبيَّه =

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾.

أي: واجعَلْ رَغبتَك إلى اللهِ، فترجُوه وَحْدَه، وتَسألُه دونَ مَن سِواه، وتتوكَّلُ عليه لا على غَيرِه[1].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ أصحابِ الجنَّةِ الَّتي احترَقت: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ [القلم: ٣٢].

= أن يجعَلَ فَراغَه مِن كُلِّ ما كان به مُشتَغِلًا مِن أمرِ دُنياه وآخِرَته، ممَّا آدَى له الشُّغلُ به [أي: بلَغ منه المجهودُ والمشقَّةُ]، وأمَرَه بالشُّغلِ به: إلى النَّصَبِ في عِبادتِه، والاشتِغالِ فيما قَرَّبه إليه، ومَسألتِه حاجاتِه، ولم يَخصُصْ بذلك حالًا مِن أحوالِ فراغِه دونَ حالٍ، فسَواءٌ كُلُّ أحوالِ فَراغِه؛ مِن صلاةٍ كان فراغُه، أو جِهادٍ، أو أمْرِ دُنيا كان به مُشتَغِلًا؛ لعُمومِ الشَّرطِ في ذلك مِن غَيرِ خُصوصِ حالِ فَراغٍ دونَ حالٍ أُخرى). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٩).

وقال ابنُ عُثَيمين: (إذا فرَغْتَ مِن عَمَلٍ فانصَبْ في عَمَلٍ آخَرَ، إذا فرَغْتَ مِن عَمَلِ الدُّنيا عليك بعَمَلِ الآخِرةِ، [وإذا] فرَغْتَ مِن عمَلِ الآخِرةِ اشتغَلْتَ بأمرِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٠).

وقال القاسميُّ: (والأظهَرُ عِندي اعتِمادًا على ما صَحَّحْناه مِن أنَّ الآيةَ مدَنيَّةٌ وأنَّها مِن أواخِرِ ما نزَلَ- أن يكونَ معنى قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾ أي: فَرَغْتَ مِن مُقارَعةِ المُشرِكينَ، وظَفِرْتَ بأُمنيَّتِك منهم بمَجيءِ نَصرِ اللهِ والفَتحِ؛ فانصَبْ في العِبادةِ والتَّسبيحِ والاستِغفارِ؛ شُكرًا لله على ما أنعَمَ، وارغَبْ إليه خاصَّةً ابتِغاءَ لِمَرْضاتِه. فتكونُ الآيَتانِ بمعنى سورةِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾. ثمَّ رأيتُ ابنَ جريرٍ نَقَل مِثْلَه عن ابنِ زَيدٍ عن أبيه، قال: فإذا فرَغْتَ مِنَ الجِهادِ؛ جِهادِ العَرَبِ، وانقطَعَ جِهادُهم، فانصَبْ لعِبادةِ اللهِ، وإليه فارغَبْ. وهو ظاهِرٌ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٨)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥١).

قال السعدي: (﴿فَٱرۡغَب﴾ أي: أعظِمِ الرَّغبةَ في إجابةِ دُعائِك، وقَبولِ عِباداتِك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم أَتَمَّ الشَّرحِ، ووَضَعَ عنه وِزْرَه كلَّ الوَضعِ، ورَفَعَ ذِكْرَه كلَّ الرَّفْعِ، وجَعَلَ لأَتْبَاعِه حظًّا مِن ذلك؛ إذْ كلُّ مَتبوعٍ فلأَتْباعِه حظٌّ ونصيبٌ مِن حظِّ مَتبوعِهم في الخيرِ والشَّرِّ على حسَبِ اتِّباعِهم له، فأَتْبَعُ النَّاسِ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أشْرَحُهم صدرًا، وأوضعُهم وِزْرًا، وأرفعُهم ذِكْرًا، وكلَّما قَويتْ مُتابَعتُه عِلمًا وعَمَلًا وحالًا وجِهادًا، قَويتْ هذه الثَّلاثةُ، حتَّى يصيرَ صاحبُها أشرحَ النَّاسِ صدرًا، وأرفعَهم في العالَمينَ ذِكْرًا، وأمَّا وَضْعُ وِزْرِه، فكيف لا يُوضَعُ عنه ومَن في السَّمواتِ والأرضِ ودَوابُّ البَرِّ والبحرِ يَستغفِرونَ له؟! وهذه الأمورُ الثَّلاثةُ مُتلازِمةٌ كما أنَّ أضْدادَها متلازِمةٌ؛ فالأوزارُ والخطايا تَقْبِضُ الصَّدرَ وتُضيِّقُه، وتُخْمِلُ الذِّكْرَ وتَضَعُه، وكذلك ضِيقُ الصَّدرِ يَضَعُ الذِّكْرَ، ويَجلِبُ الوِزْرَ، فما وَقَعَ أحدٌ في الذُّنوبِ والأوزارِ إلَّا مِن ضِيقِ صدْرِه وعدمِ انشراحِه، وكلَّما ازداد الصَّدرُ ضيقًا كان أدْعَى إلى الذُّنوبِ والأوزارِ؛ لأنَّ مُرتكِبَها إنَّما يَقصِدُ بها شَرْحَ صدْرِه، ودَفْعَ ما هو فيه مِن الضِّيقِ والحَرَجِ، وإلَّا فلو اتَّسَعَ بالتَّوحيدِ والإيمانِ ومحبَّةِ اللهِ ومعرفتِه، وانشرحَ بذلك؛ لَاستغنى عن شرْحِه بالأوزارِ؛ ولهذا أكثرُ مَن يُواقِعُ المحظورَ إنَّما يَدْفَعُ به عن نفْسِه ما فيها مِن الهَمِّ والغَمِّ والضِّيقِ، وكثيرًا ما تَبْرُدُ شَهوتُه وإرادتُه، ومع هذا يَحرِصُ على المُعاوَدةِ؛ تداويًا منه بزَعمِه[1]!

٢- قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ هذه الآيةُ لم تترُكْ للمُسلِمِ فَراغًا في وقتِه؛ لأنَّه إمَّا في عَمَلٍ للدُّنيا، وإمَّا في عمَلٍ للآخِرةِ، وقد رُوِيَ عن شُريحٍ أنَّه مَرَّ على

(١) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٢٧٧، ٢٧٨).

رجُلَينِ يتصارَعانِ، فقال: (ليس بهذا أُمِرَ الفارغُ، إنَّما قال الله تبارَك وتعالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾)[١]، ورُوِيَ عن ابنِ مسعودٍ[٢] أنَّه قال: (إنِّي لَأمقُتُ الرَّجُلَ أن أراه فارغًا، ليس في شيءٍ مِن عمَلِ الدُّنيا ولا عمَلِ الآخرةِ)[٣].

ولهذا كانت حياةُ الإنسانِ العاقلِ حياةَ جِدٍّ، كلَّما فَرَغَ مِن عمَلٍ شَرَعَ في عَمَلٍ آخَرَ، وهكذا؛ لأنَّ الزَّمنَ يفوتُ على الإنسانِ، ففي حالِ يَقظَتِه ومَنامِه، وشُغْلِه وفراغِه يسيرُ، ولا يمكنُ لأحدٍ أنْ يُمسِكَ الزَّمَنَ[٤]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ خَتْمُ السُّورةِ بهذينِ الأصلَينِ، وهما: تجريدُ التَّوحيدِ، وتجريدُ الطَّاعةِ بمُتابَعةِ الرَّسولِ؛ فالنَّصَبُ: التَّفَرُّغُ للعبادةِ والطَّاعةِ، والرَّغبةُ إلى اللهِ وَحْدَه: تجريدُ توحيدِه. ومتى قام العبدُ بهذينِ الأصلينِ حصَلَ له مِن شَرْحِ الصَّدرِ ووَضْعِ الوِزْرِ ورَفْعِ الذِّكْرِ بحسَبِ ما قام به، وبُدِّلَ عُسْرُه يُسرًا[٥].

٤- قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ يعني: إلى اللهِ لا إلى غيرِه؛ فارغَبْ في جميعِ أمورِك، وثِقْ بأنَّك متى عَلَّقْتَ رغبتَك باللهِ عزَّ وجلَّ فإنَّه سوف يُيَسِّرُ لك الأمورَ، وكثيرٌ مِن النَّاسِ تَنْقُصُهم هذه الحالُ، أي: يَنْقُصُهم أنْ يَكونوا دائمًا راغبينَ إلى اللهِ؛ فتَجِدُهم يَخْتَلُّ كثيرٌ مِن أعمالِهم؛ لأنَّهم لَمْ يكُنْ بيْنَهم وبيْن اللهِ تعالى صِلةٌ في أعمالِهم[٦]!

---

(١) أخرجه الفراء في ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((مصنف ابن أبي شيبة)) (٧/ ١٠٨)، ((الزهد)) لأبي داود (ص: ١٧١)، ((المعجم الكبير)) للطبراني (٩/ ١٠٦) (٨٥٣٩)، ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (١/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٠).

(٥) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٢٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ سؤالٌ: لِمَ ذَكَر سُبحانَه الصَّدْرَ، ولَمْ يَذكُرِ القَلْبَ؟

الجوابُ: لأنَّ محَلَّ الوَسوسةِ هو الصَّدرُ، على ما قال سُبحانَه: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥]؛ فإزالةُ تلك الوَسْوَسةِ وإبدالُها بدَواعي الخَيرِ هي الشَّرحُ، فلا جَرَمَ خُصَّ ذلك الشَّرحُ بالصَّدرِ دونَ القَلْبِ[١]. أو ذلك إشارةٌ إلى شَرْحِه بشَقِّ جِبريلَ له.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ سؤالٌ: لِمَ قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، ولم يقلْ: «ألم نشرَحْ صَدْرَك»؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

أحدُهما: كأنَّه تعالى يقولُ: لامٌ بلامٍ؛ فأنت إنَّما تفعَلُ جميعَ الطَّاعاتِ لأَجْلي، كما قال: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]، فأنا أيضًا جميعُ ما أفعَلُه لأجْلِك.

ثانيها: أنَّ فيها تنبيهًا على أنَّ منافِعَ الرِّسالةِ عائِدةٌ إليه عليه السَّلامُ، كأنَّه تعالى قال: إنَّما شرَحْنا صَدْرَك لأجْلِك لا لأجْلي[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ سؤالٌ: هلِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُذْنِبُ؟

الجوابُ: نعَمْ، ولا يمكِنُ أنْ نَرُدَّ النُّصوصَ لمجرَّدِ أنْ نَستَبعِدَ وُقوعَ الذَّنْبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

منه صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، ونحن لا نقولُ: الشأنُ ألَّا يُذنِبَ الإنسانُ، بلِ الشَّأنُ أنْ يُغْفَرَ للإنسانِ، هذا هو المهِمُّ: أنْ يُغْفَرَ له، فكلُّ بَني آدمَ خَطَّاءٌ، وخيرُ الخَطَّائينَ التَّوَّابونَ، لا بُدَّ مِن خطيئةٍ، لكنَّ هناك أشياءَ لا يمكنُ أنْ تقع مِن الأنبياءِ، مِثلُ الكَذِبِ والخيانةِ، فإنَّ هذا لا يمكنُ أنْ يقعَ منهم إطلاقًا؛ لأنَّ هذا لو فُرِضَ وُقوعُه لَكان طعنًا في رسالتِهم، وهذا شيءٌ مستحيلٌ، وسفاسِفُ الأخلاقِ مِن الزِّنا وشِبْهِه هذا أيضًا ممتنِعٌ؛ لأنَّه يُنافي أصلَ الرِّسالةِ؛ فالرِّسالةُ إنَّما وُجِدَتْ لتَتميمِ مَكارمِ الأخلاقِ، كما قال صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: ((إنَّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صالِحَ الأخلاقِ))[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٥).

والحديث أخرجه أحمدُ (٨٩٥٢) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٤٢٢١)، والبيهقيُّ (٢١٣٠٣) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

صحَّحه الحاكمُ -وقال: (على شرطِ مُسلِمٍ)-، وابنُ عبدِالبَرِّ في ((التمهيد)) (٢٤/ ٣٣٣)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٥٢)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٢٣٤٩)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٤/ ٥١٣)، وقال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٨/ ١٩١): (رواه أحمدُ ورجالُه رجالُ الصَّحيحِ).

والقَولُ بأنَّ الأنبياءَ مَعصومونَ عن الكبائِرِ دونَ الصَّغائِرِ هو قَولُ أكثَرِ عُلَماءِ الإسلامِ وجميعِ الطَّوائِفِ، حتَّى إنَّه قَولُ أكثَرِ أهلِ الكلامِ، وأكثَرِ أهلِ التَّفسيرِ والحَديثِ، والفُقَهاءِ، بل لم يُنقَلْ عن السَّلَفِ والأئمَّةِ والصَّحابةِ والتَّابعينَ وتابعيهم إلَّا ما يُوافِقُ هذا القَولَ، وقد اتَّفَق سلَفُ الأمَّةِ وأئمَّتُها ومَن اتَّبَعَهم على ما أخبَرَ اللهُ به في كتابِه وما ثبَت عن رَسولِه مِن تَوبةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ مِن الذُّنوبِ الَّتي تابوا منها، وهذه التَّوبةُ رَفَع اللهُ بها دَرَجاتِهم؛ فإنَّ اللهَ يحِبُّ التَّوابينَ ويحِبُّ المتطَهِّرينَ، وعِصمَتُهم هي مِن أن يُقَرُّوا على الذُّنوبِ والخَطأِ؛ فإنَّ مَن سِوى الأنبياءِ يجوزُ عليهم الذَّنبُ والخَطأُ مِن غيرِ تَوبةٍ، والأنبياءُ عليهم السَّلامُ يَستدرِكُهم اللهُ فيَتوبُ عليهم ويبَيِّنُ لهم، وقد ذكَرَ الله تعالى مِن تَوبةِ الأنبياءِ واستغفارِهم؛ كقَولِه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقَولِ نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وقَولِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿رَبَّنَا =

٤- في قولِه: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ اتِّصالُ حَرفَي الضَّادِ والظَّاءِ، وهما مُتقارِبَا المخرَجِ، فرُبَّما يَحصُلُ مِن النُّطقِ بهما شَيءٌ مِن الثِّقَلِ على اللِّسانِ، ولكنَّه لا يُنافي الفَصاحةَ؛ إذ لا يَبلُغُ مَبلَغَ ما يُسمَّى بتَنافُرِ الكَلِماتِ، بلْ مِثلُه مُغتفَرٌ في كَلامِ الفُصحاءِ، والعرَبُ فُصحاءُ الألسُنِ، فإذا اقْتَضى نظْمُ الكَلامِ وُرودَ مِثلِ هَذينِ الحَرفينِ المتقارِبَينِ، لم يَعبَأِ البليغُ بما يَعرِضُ عندَ اجتماعِهما مِن بَعضِ الثِّقَلِ، ومِثلُ ذلك قولُه تعالَى: ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ [الإنسان: ٢٦] في اجتماعِ الحاءِ مع الهاءِ، وذلك حيث لا يَصِحُّ الإدغامُ. وقد أَوصى عُلماءُ التَّجويدِ بإظهارِ الضَّادِ مع الظَّاءِ إذا تَلاقَيا كما في هذه الآيةِ، وقولِه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾[1] [الفرقان: ٢٧].

٥- مِنَ الفُقهاءِ مَن استدَلَّ بقولِه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ على وُجوبِ الصَّلاةِ عليه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في الخُطبةِ، وصلاةِ الجِنازةِ، واستِحبابِها عَقِبَ التَّلبيةِ[2].

= ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقَولِه سُبحانَه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] إلى غيرِ ذلك. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣١٩)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٦٩).

وقال الشَّوكانيُّ: (ذهب الأكثَرُ مِن أهلِ العِلمِ إلى عصمةِ الأنبياءِ بعدَ النُّبُوَّةِ مِنَ الكبائِرِ، وقد حكى القاضي أبو بكرٍ إجماعَ المُسلِمينَ على ذلك. وكذا حكاه ابنُ الحاجِبِ وغيرُه مِن متأخِّري الأصوليِّينَ، وكذا حكَوُا الإجماعَ على عِصْمَتِهم بعدَ النُّبُوَّةِ مِمَّا يُزري بمناصِبِهم؛ كرَذائِلِ الأخلاقِ والدَّناءاتِ وسائِرِ ما يُنفِّرُ عنهم، وهي الَّتي يُقالُ لها صغائِرُ الخِسَّةِ؛ كسَرِقةِ لُقمةٍ، والتَّطفيفِ بحَبَّةٍ). ((إرشاد الفحول)) (١/ ٩٨). ويُنظر: ((المحصول)) لابن العربي (ص: ١٠٩)، ((مختصر ابن الحاجب)) (١/ ٣٩٧)، ويُنظر أيضًا: ((الشفا)) للقاضي عياض (٢/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٣٠٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩٣).

قال ابنُ القَيِّمِ في الاستِدلالِ بهذه الآيةِ على وُجوبِ الصَّلاةِ على النَّبيِّ في الخُطبةِ مع أثَرِ ابنِ =

٦- قال أبو بكرِ بنُ عَيَّاشٍ: (أهلُ السُّنَّةِ يَبقَونَ ويَبقى ذِكْرُهم، وأهلُ البدعةِ يموتون ويموتُ ذِكْرُهم)؛ وذلك أنَّ أهلَ البدعةِ شَنِئُوا بعضَ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأبتَرَهم بقَدْرِ ذلك، والَّذين أَعلنوا ما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صار لهم نصيبٌ مِن قولِه تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾؛ فإنَّ ما أَكرمَ اللهُ به نبيَّه مِن سعادةِ الدُّنيا والآخرةِ فللْمُؤمنينَ المُتابعينَ نصيبٌ بقَدْرِ إيمانِهم، فما كان مِن خصائصِ النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ فلَمْ يُشارِكْ فيه أَحَدٌ مِن أُمَّتِه، وما كان مِن ثَوابِ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ فلِكُلِّ مؤمنٍ نصيبٌ بقَدْرِ ذلك[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ سُؤالٌ: أنَّ اليُسرَ لا يكونُ مع العُسْرِ؛ لأنَّهما ضِدَّانِ فلا يجتَمِعانِ.

الجوابُ: لَمَّا كان وُقوعُ اليُسرِ بعْدَ العُسرِ بزَمانٍ قليلٍ، كان مقطوعًا به؛ فجُعِلَ كالمقارِنِ له[2]، وفي ذلك تَبشيرٌ لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحصولِ اليُسرِ عاجلًا، فلَفْظُ (مع) للمُصاحَبةِ، لَمَّا عيَّر المشركون المسلِمينَ بفَقْرِهم، وَعَدَهم اللهُ يُسرًا قَريبًا مِن زَمانِ عُسْرِهم، وقُرِنَ اليُسرُ مع العُسْرِ زِيادةً في التَّسليةِ وتَقويةِ

= عَبَّاس: (رَفَع اللهُ له ذِكْرَه، فلا يُذكَرُ إلَّا ذُكِرَ مَعَه)، قال: (في هذا الدَّليلِ نَظَرٌ؛ لأنَّ ذِكْرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معَ ذِكْرِ رَبِّه هو الشَّهادَةُ له بالرِّسالةِ إذا شهِدَ لِمُرسِلِه بالوَحْدانيَّةِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٣٦٨).

وقد استدَلَّ الرَّافِعيُّ على سُنِّيَّةِ الصَّلاةِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في القُنوتِ بقولِه تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ على ما نقَله عن المفسِّرينَ أنَّ المعنى: لا أُذكَرُ إلَّا وتُذكَرُ معي. يُنظر: ((الشرح الكبير)) (١/ ٥١٦، ٥١٧).

قال ابن حجر: (قُلْتُ: في الاستِدلالِ به نَظَرٌ؛ فإنَّه لا يُسَنُّ في أذكارِ الرُّكوعِ والسُّجودِ، ولا معَ القِراءةِ في القيامِ؛ فدَلَّ على أنَّه عامٌّ مخصوصٌ). ((التلخيص الحبير)) (١/ ٦٠٨).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٠٩).

القلْبِ، فجُعِلَ اليسرُ كالمصاحِبِ للعُسرِ في سُرعةِ مَجيئِه[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ بشارةٌ عَظيمةٌ أنَّه كُلَّما وُجِدَ عُسرٌ وصُعوبةٌ فإنَّ اليُسرَ يُقارِنُه ويُصاحِبُه، حتَّى لو دخل العُسرُ جُحْرَ ضَبٍّ لَدخَلَ عليه اليُسرُ فأخرَجَه، كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، وكما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((وإنَّ الفَرَجَ مع الكَرْبِ، وإنَّ مع العُسرِ يُسْرًا))[٢].

٩- كَلمةُ (مع) هنا في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ مُستعمَلةٌ في قُربِ حُصولِ اليُسرِ عَقِبَ حُلولِ العُسرِ أو ظُهورِ بَوادِره، وبذلك يَندفِعُ التَّعارُضُ بيْن هذه الآيةِ وبيْن قولِه تعالَى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]؛ فهذه الآيةُ في عُسْرٍ خاصٍّ يَعرِضُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وآيةُ سُورةِ (الطَّلاقِ) عامَّةٌ، وللبَعديَّةِ فيها مَراتبُ مُتفاوِتةٌ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ غَنيمةٌ للمؤمِنِ ليطمَئِنَّ إليه، ولا يَضيقَ صدْرُه مِن عُسْرٍ يَلْحَقُه؛ فإنَّ مع كلِّ عُسْرٍ يُسرَينِ[٤]، والعُسْرُ وإنْ تَكَرَّرَ مرَّتينِ فتَكَرَّرَ بلَفظِ المعرفةِ؛ فهو واحدٌ، واليُسْرُ تَكَرَّرَ بلَفظِ النَّكِرةِ فهو يُسرانِ؛ فالعُسْرُ محفوفٌ بيُسْرَينِ: يُسْرٌ قَبْلَه، ويُسْرٌ بعدَه؛ فلن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسرينِ[٥]، ففي تعريفِ العُسرِ بالألِفِ واللَّامِ -الدَّالَّةِ على الاستغراقِ والعُمومِ-

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧١، ٧٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٦، ٦١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

والحديثُ تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٢٥).

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥٥). =

دَلالةٌ على أنَّ كُلَّ عُسرٍ وإنْ بلغ مِن الصُّعوبةِ ما بَلَغ فإنَّ التَّيسيرَ في آخِرِه ملازِمٌ له[١]. ففَرَجُ اللهِ عزَّ وجلَّ يأتي مع شِدَّةِ الكَرْبِ؛ فكُلَّما اشتدَّ الكَرْبُ فاعلَمْ أنَّه دنا الفَرَجُ، وقد جَعَلَ سُبحانَه مقابِلَ العُسْرِ الواحِدِ يُسرَين[٢].

١١- قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، ومِن لطائفِ أسرارِ اقترانِ الفَرَجِ بالكَرْبِ، واليُسْرِ بالعُسْرِ: أنَّ الكَرْبَ إذا اشتدَّ وعَظُمَ وتناهى حَصَلَ للعبدِ الإياسُ مِن كَشْفِه مِن جهةِ المخلوقينَ، وتَعَلَّقَ قلْبُه باللهِ وَحْدَه، وهذا هو حقيقةُ التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى، وهو مِن أعظَمِ الأسبابِ الَّتي تُطْلَبُ بها الحوائجُ؛ فإنَّ اللهَ يَكفي مَن توكَّلَ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣][٣]، وأيضًا فإنَّ المؤمنَ إذا استبطأَ الفَرَجَ، وأَيِسَ منه بعْدَ كثرةِ دُعائِه وتضَرُّعِه، ولم يَظْهَرْ عليه أثَرُ الإجابةِ؛ رَجَعَ إلى نفْسِه باللَّائمةِ، وقال لها: إنَّما أُتِيتُ مِن قِبَلِكِ، ولو كان فيكِ خيرٌ لَأُجِبْتُ، وهذا اللَّومُ أحَبُّ إلى اللهِ مِن كثيرٍ مِن الطَّاعاتِ؛ فإنَّه يُوجِبُ انكسارَ العبدِ لِمَولاه، واعترافَه له بأنَّه أهلٌ لِمَا نَزَلَ مِن البلاءِ، وأنَّه ليس بأهلٍ لإجابةِ الدُّعاءِ؛ فلذلك تُسْرِعُ إليه حينَئذٍ إجابةُ الدُّعاءِ، وتفريجُ الكُرَبِ؛ فإنَّه تعالى عندَ المُنكَسِرةِ قُلوبُهم مِن أجْلِه[٤].

١٢- قيل: إنَّ معنى قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾: إذا فرَغْتَ مِنَ الصَّلاةِ وأكمَلْتَها فانصَبْ في الدُّعاءِ، وإلى رَبِّكَ فارغَبْ في سؤالِ مَطالبِك، واستدَلَّ مَن

= والقاعِدةُ: أنَّ النَّكِرةَ إذا تكَرَّرَت دَلَّت على التَّعَدُّدِ، بخِلافِ المَعرِفةِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧١١).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨١).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٤).

قال بهذا القَولِ على مَشروعيَّةِ الدُّعاءِ والذِّكرِ عَقِبَ الصَّلَواتِ المكتوباتِ[١].

١٣- قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ جَمَعَ نوعَيْ دُعاءِ اللهِ؛ وذلك أنَّ دُعاءَ اللهِ المذكورَ في القُرآنِ نوعانِ: دُعاءُ عبادةٍ، ودُعاءُ مسألةٍ ورَغبةٍ[٢].

١٤- الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱنصَبْ﴾ وقولِه: ﴿فَٱرْغَب﴾ رابطةٌ للفعلِ؛ لأنَّ تَقديمَ المعمولِ يَتضمَّنُ معْنى الاشتِراطِ والتَّقييدِ؛ فإنَّ تَقديمَ المعمولِ لَمَّا أفادَ الاختصاصَ نَشَأَ منه معْنى الاشتراطِ، وهو كَثيرٌ في الكلامِ؛ قال تعالَى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ [الزمر: ٦٦]، وقال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٣- ٥]، وفي تَقديمِ المجرورِ قال تعالَى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، بلْ قد يُعامَلُ مُعامَلةَ الشَّرطِ في الإعرابِ بجَزْمِ الفِعلَينِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فيه إسنادُ الفِعلِ إلى ضَميرِ العظَمةِ ﴿نَشْرَحْ﴾؛ للإيذانِ بعَظَمتِه، وجَلالةِ قَدْرِه[٤].

- وفي قولِه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استُفهِمَ عن انتِفاءِ الشَّرحِ على وَجْهِ الإنكارِ؛ مُبالَغةً في إثباتِه، وللإيذانِ بأنَّ ثُبوتَه مِنَ الظُّهورِ بحيثُ لا يَقدِرُ أحدٌ على أنْ يُجيبَ عنه بغيرِ (بَلَى)؛ فالهمزةُ في ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ للإنكارِ، والإنكارُ نفْيٌ، والنَّفيُ إذا دَخَل على النَّفيِ عاد إثباتًا، فأفاد إثباتَ الشَّرحِ وإيجابَه، فكأنَّه قِيل: شَرَحْنا لك صَدْرَك؛ ولذلك عُطِفَ عليه (وَضَعْنا)

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٨٨).

اعتبارًا للمعْنى[١].

- وقيل: هو استِفهامٌ تَقريريٌّ على النَّفيِ، والمقصودُ التَّقريرُ على إثباتِ المنفيِّ. وهذا التَّقريرُ مَقصودٌ به التَّذكيرُ مِن أجْلِ أنْ يُراعِيَ هذه المِنَّةَ عندَما يُخالِجُه ضِيقُ صَدْرٍ ممَّا يَلقاهُ مِن أذَى قومٍ يُريدُ صَلاحَهم، وإنقاذَهُم مِن النارِ، ورَفْعَ شَأنِهم بيْن الأُمَمِ؛ ليَدومَ على دَعوتِه العَظيمةِ نَشيطًا، غيرَ ذي أسَفٍ ولا كَمَدٍ[٢].

- والصَّدرُ مُرادٌ به الإحساسُ الباطنيُّ الجامعُ لمعْنى العقْلِ والإدراكِ. وشَرْحُ صَدرِه كِنايةٌ عن الإنعامِ عليه بكلِّ ما تَطمَحُ إليه نفْسُه الزَّكيَّةُ مِن الكَمالاتِ، وإعلامِه برِضا اللهِ عنه، وبِشارتِه بما سيَحصُلُ للدِّينِ الَّذي جاء به مِن النَّصرِ[٣].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لَكَ﴾ لامُ التَّعليلِ، وهو يُفيدُ تَكريمًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ فَعَلَ ذلك لأجْلِه[٤].

- وفي ذِكرِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكَ﴾ قبْلَ ذِكرِ المشروحِ سُلوكُ طَريقةِ الإبهامِ للتَّشويقِ؛ فإنَّه لَمَّا ذُكِرَ فِعلُ ﴿نَشْرَحْ﴾ عَلِمَ السَّامعُ أنَّ ثَمَّ مَشروحًا، فلمَّا وَقَعَ قولُه: ﴿لَكَ﴾ قَوِيَ الإبهامُ فازدادَ التَّشويقُ؛ لأنَّ ﴿لَكَ﴾ يُفيدُ معْنى: شَيئًا لأجْلِك، فلمَّا وَقَعَ بعْدَه قولُه: ﴿صَدْرَكَ﴾ تَعيَّنَ المشروحُ المُترقَّبُ، فتَمكَّنَ في الذِّهنِ كَمالَ تَمكُّنٍ، وللإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّ الشَّرحَ مِن مَنافِعِه عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٠٩).

الصَّلاةُ والسَّلامُ ومَصالِحِه، مُسارَعةً إلى إدخالِ المَسَرَّةِ في قلْبِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكذا الكلامُ في ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ﴾ [الشرح: ٢]، ﴿لَكَ ذِكۡرَكَ﴾[(١)] [الشرح: ٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۞ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾

- قولُه: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ ﴿عَنكَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ(وَضَعْنَا)، وتَقديمُه على المفعولِ الصَّريحِ مع أنَّ حقَّه التَّأخُّرُ عنه؛ لأنَّ القصْدَ إلى تَعجيلِ المَسرَّةِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ؛ ليَتمكَّنَ عندَ وَقتِ وُرودِه فضْلَ تَمكُّنٍ، ولِما أنَّ في وَصْفِه نَوعَ طُولٍ، فتَأخيرُ الجارِّ والمجرورِ عنه مُخِلٌّ بتَجاوُبِ أطرافِ النَّظْمِ الكريمِ[(٢)].

- وإنَّما لم يُذكَرْ مع ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ لَفظُ (لك) بأنْ يُقالَ: (ووَضَعْنا لك وِزرَك)؛ للاستِغناءِ بقولِه: ﴿عَنكَ﴾؛ فإنَّه في إفادةِ الإبهامِ ثمَّ التَّفصيلِ مُساوٍ لكَلمةِ (لك)، وهي في إفادةِ العِنايةِ به تُساوي كَلمةَ (لك)؛ لأنَّ فِعلَ الوضْعِ المُعدَّى إلى الوِزرِ يدُلُّ على أنَّ الوضْعَ عنه، فكانتْ زِيادةُ ﴿عَنكَ﴾ إطنابًا يُشيرُ إلى أنَّ ذلك عِنايةٌ به نَظيرَ قولِه: ﴿لَكَ﴾ الَّذي قبْلَه، فحَصَلَ بذِكرِ ﴿عَنكَ﴾ إيفاءٌ إلى تَعديةِ فِعلِ (وَضَعْنَا)، مع الإيفاءِ بحقِّ الإبهامِ ثمَّ البَيانِ[(٣)].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ تَعديةُ فِعلِ ﴿أَنقَضَ﴾ إلى الظَّهرِ تَبَعٌ لتَشبيهِ المَشَقَّةِ بالحِمْلِ؛ فالتَّركيبُ تَمثيلٌ لمُتجَشِّمِ المَشاقِّ الشَّديدةِ بالحَمولةِ المُثقَلةِ بالأحمالِ تَثقيلًا شَديدًا حتَّى يُسمَعَ لعِظامِ ظَهرِها فَرقعةٌ وصَريرٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٠، ٧٧١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٩، ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٨٨).

(٣) ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٢، ٤١٣).

وهو تَمثيلٌ بَديعٌ؛ لأنَّه تَشبيهٌ مُركَّبٌ قابلٌ لتَفريقِ التَّشبيهِ على أجزائِه، ووَصْفُ الوِزرِ بهذا الوصْفِ تَكميلٌ للتَّمثيلِ بأنَّه وِزرٌ عَظيمٌ(١).

- وعطفُ ﴿وَوَضَعْنَا﴾ ﴿وَرَفَعْنَا﴾ بصِيغةِ المُضِيِّ على فِعلِ ﴿نَشْرَحْ﴾ بصِيغةِ المضارِعِ؛ لأنَّ (لَمْ) قَلَبَت زمَنَ الحالِ إلى المُضيِّ، فعُطِفَ عليه الفِعلانِ بصِيغةِ المُضيِّ؛ لأنَّهما داخِلانِ في حيِّزِ التَّقريرِ، فلمَّا لم يَقترِنْ بهما حرْفُ (لَمْ) صُيِّرَ بهما إلى ما تُفيدُه (لَمْ) مِن معْنى المُضيِّ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ في ذِكرِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكَ﴾ قبْلَ ذِكرِ الشَّيءِ المرفوعِ سُلوكُ طَريقةِ الإبهامِ للتَّشويقِ؛ فإنَّه لَمَّا ذُكِرَ فِعلُ (رَفَعَ) عَلِمَ السَّامعُ أنَّ ثَمَّ شيئًا مَرفوعًا، فلمَّا وَقَعَ قولُه: ﴿لَكَ﴾ قَوِيَ الإبهامُ فازدادَ التَّشويقُ؛ لأنَّ ﴿لَكَ﴾ يُفيدُ معْنى شَيئًا لأجْلِك، فلمَّا وقَعَ بعْدَه قولُه: ﴿ذِكْرَكَ﴾ تعيَّنَ الشَّيءُ المرفوعُ المُترقَّبُ، فتَمكَّنَ في الذِّهنِ كَمالَ تَمكُّنٍ، وفي تَقديمِه أيضًا تَعجيلٌ للمَسرَّةِ(٣).

- ورفْعُ الذِّكرِ مُعبَّرٌ به عن إلهامِ النَّاسِ لأنْ يَذكُروه بخَيرٍ، وذلك بإيجادِ أسبابِ تلك السُّمعةِ حتَّى يَتحدَّثَ بها النَّاسُ، فعُبِّرَ بالرَّفعِ عن حُسنِ الذِّكرِ؛ لأنَّ الرَّفعَ جَعْلُ الشَّيءِ عاليًا لا تَنالُه جَميعُ الأيْدي ولا تَدوسُه الأرجُلُ، فقد فَطَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مَكارمَ يَعِزُّ وُجودُ نَوعِها، ولم يَبلُغْ أحدٌ شَأْوَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٦).

ما بَلَغَه منها، حتَّى لُقِّبَ في قَومِه بالأمينِ، ومِن عَظيمِ رفْعِ ذِكْرِه أنَّ اسمَه مُقترِنٌ باسمِ اللهِ تعالَى في كَلمةِ الإسلامِ، وهي كَلمةُ الشَّهادةِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ذَكَّرَ الله نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ما أنْعَمَ به عليه مِن جَلائلِ النِّعَمِ، ثمَّ قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، كأنَّه قال: خَوَّلْناك ما خوَّلْناك، فلا تَيْأَسْ مِن فضْلِ اللهِ؛ فإنَّ مع العُسرِ الَّذي أنتم فيه يُسرًا، فهو تَقريرٌ لِما قبْلَه، ووَعْدٌ كريمٌ بتَيسيرِ كُلِّ عسيرٍ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وللمؤمنينَ(٢).

- والفاءُ في ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فَصيحةٌ؛ تُفصِحُ عن كَلامٍ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه الاستفهامُ التَّقريريُّ هنا، أي: إذا علِمْتَ هذا وتَقرَّرْ، فاعْلَمْ أنَّ اليُسرَ مُصاحبٌ للعُسرِ(٣).

- وحرْفُ (إنَّ) للاهتِمامِ بالخبَرِ، وإنَّما لم يُستَغْنَ بها عن الفاءِ -فـ (إنَّ) تُغْني غَناءَ فاءِ التَّسبُّبِ-؛ لأنَّ الفاءَ هنا أُريدَ بها الفَصيحةُ مع التَّسبُّبِ، فلو اقتُصِرَ على حرْفِ (إنَّ) لَفاتَ معْنى الفَصيحةِ(٤).

- ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ مُعترِضةً بيْن جُملةِ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] وجُملةِ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ [الشرح: ٧]؛ تَنبيهًا على أنَّ اللهَ تعالى لَطيفٌ بعِبادِه، فقدَّرَ ألَّا يَخلُوَ عُسْرٌ مِن مُخالَطةِ يُسْرٍ، وأنَّه لولا ذلك لَهَلَكَ النَّاسُ؛ قال تعالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤١٤).

دَآبَّةٍ﴾[(١)] [النحل: ٦١].

- ولَمَّا كان اليُسرُ نَقيضَ العُسرِ، كانت مُصاحَبةُ اليُسرِ للعُسرِ مُقتضيةً نقْضَ تَأثيرِ العُسرِ ومُبطِلةً لعَمَلِه، فهو كِنايةٌ رَمزيَّةٌ[(٢)] عن إدراكِ العِنايةِ الإلهيَّةِ به فيما سَبَقَ، وتَعريضٌ بالوعْدِ باستِمرارِ ذلك في كلِّ أحوالِه. وسِياقُ الكلامِ وَعْدٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُيسِّرَ اللهُ له المَصاعبَ كلَّما عَرَضَت له، فاليُسرُ لا يَتخلَّفُ عن اللَّحاقِ بتلك المَصاعبِ، وذلك مِن خَصائصِ كَلمةِ (مع) الدَّالَّةِ على المُصاحَبةِ[(٣)].

- قولُه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ليس تَكرارًا؛ فالعسرُ واحدٌ، واليسرُ اثنانِ؛ بدَليلِ تَنكيرِهما. وقيل: كُرِّرَ ذلك للتَّأكيدِ؛ لتَعزيزِ معْناهُ في النُّفوسِ، وتَمكينِه في القلوبِ، وكما يُكرَّرُ المفرَدُ في قَولِك: جاءني زَيدٌ زيدٌ، ولاطِّرادِ هذا الوعْدِ وتَعميمِه؛ لأنَّه خبَرٌ عَجيبٌ، فاليُسرانِ مُتَّحدانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٤).

(٢) تَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازمِ) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء؛ فالتَّعريضُ اصطِلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ ويُشارَ به إلى معًنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ. والتَّلويحُ اصطِلاحًا: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تَعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزومِ بواسِطةِ لَوازِمَ؛ نحو قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْعٍ: (زَوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي على كثرةِ الأكَلةِ، وهي على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقَل الفِكرُ إلى جملةِ وسائطَ. والرَّمزُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ خفاءٍ في اللُّزومِ بلا تعريضٍ نحو: فلانٌ عريضُ القفا، أو عريضُ الوسادةِ؛ كناية عن بلادتِه وبلاهتِه. والإيماءُ أو الإشارةُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ وضوحِ اللُّزومِ، بلا تعريضٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥ - ١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦ - ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤١٣).

كالعُسرين[١]. ومِن المُقرَّرِ أنَّ المقصودَ مِن تَأكيدِ الجُملةِ في مِثلِه، هو تَأكيدُ الحُكْمِ الَّذي تَضمَّنَه الخبَرُ، ولا شكَّ أنَّ الحُكمَ المُستفادَ مِن هذه الجُملةِ هو ثُبوتُ الْتِحاقِ اليُسرِ بالعُسرِ عندَ حُصولِه، فكان التَّأكيدُ مُفيدًا تَرجيحَ أثَرِ اليُسرِ على أثَرِ العُسرِ[٢].

- والتَّنكيرُ في اليُسرِ في الموضعينِ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ، كأنَّه قِيل: إنَّ مع العُسرِ يُسرًا عَظيمًا يَغلِبُ العُسرَ[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْعُسْرِ﴾ قيل: إنَّه تَعريفُ العهْدِ، أي: العُسرِ الَّذي عَهِدْتَه وعَلِمْتَه، وهو مِن قَبيلِ ما يُسمِّيه نُحاةُ الكوفةِ بأنَّ (أَلْ) فيه عِوَضٌ عن المضافِ إليه، أي: فإنَّ مع عُسْرِك يُسرًا، فتكون السُّورةُ كلُّها مَقصورةً على بَيانِ كَرامةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ ربِّه تعالَى، وَعَدَ اللهُ تعالَى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ جَعَلَ الأُمورَ العَسِيرةَ عليه يَسِيرةً له، وهو ما سَبَقَ وَعْدُه له بقولِه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٨]. ويجوزُ أنْ يكونَ هذا وعْدًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولأُمَّتِه؛ لأنَّ ما يَعرِضُ له مِن عُسرٍ إنَّما يَعرِضُ له في شُؤونِ دَعوتِه للدِّينِ ولصالحِ المسلمينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٦٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧١، ٧٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٣، ٤١٤).

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۞ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ تَفريعٌ على ما تقرَّر مِن التَّذكيرِ باللُّطْفِ والعنايةِ ووعْدِه بتيسيرِ ما هو عَسِيرٌ عليه في طاعَتِه الَّتي أعظمُها تبليغُ الرِّسالَةِ دُونَ مَلَلٍ ولا ضَجَرٍ[١].

- والفاءُ في ﴿فَإِذَا﴾ عاطِفةٌ على مُقدَّرٍ يَستحِقُّه المقامُ. ويجوزُ جعْلُها استئنافيَّةً كأنَّها جَوابٌ لسُؤالٍ نَشَأَ، وهو: ماذا بعْدَ الشُّكرِ والعبادةِ والاجتهادِ فيهما[٢]؟

- ولم يُذكَرْ هنا مُتعلَّقُ ﴿فَرَغْتَ﴾، وسِياقُ الكلامِ يَقْتضي أنَّه لازمُ أعمالٍ يَعمَلُها الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما أنَّ مَساقَ السُّورةِ في تَيسيرِ مَصاعبِ الدَّعوةِ وما يحُفُّ بها، فالمعْنى: إذا أتممْتَ عَمَلًا مِن مَهامِّ الأعمالِ، فأقبِلْ على عمَلٍ آخَرَ، بحيث يَعمُرُ أوقاتَه كلَّها بالأعمالِ العَظيمةِ -وذلك على قولٍ-؛ فالمَقصودُ بالأمرِ هو ﴿فَٱنصَبْ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ فتَمهيدٌ وإفادةٌ لإيلاءِ العمَلِ بعمَلٍ آخَرَ في تَقريرِ الدِّينِ ونفْعِ الأُمَّةِ، فحُذِفَ المُتعلَّقُ هنا لقصْدِ العُموم، وهو عُمومٌ عُرفيٌّ لنَوعٍ مِن الأعمالِ الَّتي دلَّ عليها السِّياقُ؛ ليَشملَ كلَّ مُتعلَّقٍ عَمِلَه ممَّا هو مُهِمٌّ[٣].

- وتَقديمُ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ على ﴿فَٱنصَبْ﴾؛ للاهتمامِ بتَعليقِ العمَلِ بوقْتِ الفراغِ مِن غيرِه لتَتعاقَبَ الأعمالُ[٤].

- وهذه الآيةُ مِن جَوامعِ الكلِمِ القرآنيَّةِ؛ لِما احتوَت عليه مِن كَثرةِ المعاني[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٦، ٤١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ عُطِفَ على تَفريعِ الأمرِ بالشُّكرِ على النِّعَمِ، أَمْرٌ بطلَبِ استِمرارِ نِعَمِ اللهِ تعالَى عليه، كما قال تعالَى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾[1] [إبراهيم: ٧].

- وتَقديمُ (إلَى رَبِّكَ) على ﴿فَٱرۡغَب﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: إليه لا إلى غَيرِه تكونُ رَغبتُك، ولا تَسأَلْ إلَّا فضْلَه مُتوكِّلًا عليه؛ فإنَّ صِفةَ الرِّسالةِ أعظَمُ صِفاتِ الخلْقِ، فلا يَليقُ بصاحِبِها أنْ يَرغَبَ إلى غيرِ اللهِ تعالَى[2].

- وحُذِفَ مَفعولُ (ارْغَبْ)؛ ليَعُمَّ كلَّ ما يَرغَبُه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهلْ يَرغَبُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا في الكَمالِ النَّفسانيِّ وانتشارِ الدِّينِ ونصْرِ المسلمينَ[3]؟!

- وتَعديةُ فِعلِ ﴿فَٱرۡغَب﴾ هنا بحرْفِ (إلى)؛ لِتَضمينِه معْنى الإقبالِ والتَّوجُّهِ، تَشبيهًا بسَيرِ السَّائرِ إلى مَن عِندَه حاجتُه، كما قال تعالَى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾[4] [الصافات: ٩٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ
سُورَةِ التِّينِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ التِّينِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (التِّينِ)، وسُمِّيت (والتِّينِ) بإثباتِ الواوِ[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ التِّينِ مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

إثباتُ النُّبُوَّةِ والتَّوحيدِ والمَعادِ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- القَسَمُ على أنَّ اللهَ خَلَق الإنسانَ في أحسَنِ تقويمٍ.

٢- انحِطاطُ الإنسانِ إلى أسفَلِ سافِلينَ بالكُفرِ باللهِ تعالى.

٣- إكرامُ المؤمِنينَ بأعظَمِ المَثوباتِ.

٤- بيانُ أنَّ اللهَ أحكَمُ الحاكِمينَ.

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ بالتِّينِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٩).

(٢) وقيل: مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٣).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: البِقاعيُّ. يُنظر: ((مصاعد النظر)) (٣/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٤).

الآيات (١-٨)

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾: أي: طُورِ سَيناءَ؛ والطُّورُ: اسمُ جبلٍ مخصوصٍ، وسِينِينُ لغةٌ في سيناءَ، وهو اسمٌ للمَكانِ الَّذي به الجَبَلُ الَّذي كلَّم اللهُ عليه موسى عليه السَّلامُ، وسُمِّيَ بذلك؛ لحُسْنِه أو لبَرَكَتِه أو لنَباتِه، وأصلُ (طور): يدُلُّ على امتدادٍ في شَيءٍ[١].

﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾: أي: أعدَلِ قامةٍ وأحسَنِ صُورةٍ، وأصلُ (قوم): يدُلُّ على انتِصابٍ[٢].

﴿مَمۡنُونٖ﴾: أي: مَقطوعٍ مَنقوصٍ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على قَطْعٍ[٣].

﴿بِٱلدِّينِ﴾: أي: بالجزاءِ والحسابِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازَيْتُه، وأصلُ (دين): جِنْسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢، ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٩)، ((تذكرة الاريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٨)، ((المفردات)) =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

قَولُه تعالى: ﴿أَسْفَلَ﴾ مَفعولٌ ثانٍ لِـ «رَدَّ»، فهو بمعنى التَّصييرِ الَّذي ينصِبُ مفعولَين، وجُوِّزَ أن يكونَ المرادُ بالرَّدِّ: تغييرَ الحالِ، فهو متعَدٍّ لمفعولٍ واحِدٍ، و﴿أَسْفَلَ﴾: حالٌ مِن المفعولِ، أي: ردَدْناه حالَ كَونِه أسفَلَ.

وقَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمٌ مَوصولٌ مبنيٌّ في محَلِّ نَصبٍ على الاستثناءِ المتَّصِلِ مِن ضَميرِ ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾ العائِدِ على الإنسانِ؛ فإنَّه في معنى الجَمعِ، أي: ردَدْنا الإنسانَ أسفَلَ سافِلينَ مِنَ النَّارِ إلَّا الَّذين آمَنوا ... فالمؤمِنونَ لا يُرَدُّونَ أسفَلَ سافِلينَ إلى النَّارِ يومَ القيامةِ، ولا تَقبُحُ صُوَرُهم، بل يَزدادونَ بهجةً إلى بهجتِهم، وحُسْنًا إلى حُسْنِهم. وقَولُه تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: استئنافٌ بيانيٌّ مُقَرِّرٌ لِما يُفيدُه الاستثناءُ مِن خُروجِهم عن حُكمِ الرَّدِّ، ومُبَيِّنٌ لكيفيَّةِ حالِهم.

ومَن قال: إنَّ المرادَ: رَدُّه إلى الهَرَمِ والخَرَفِ وضَعفِ القُوى، فالاستثناءُ عليه مُنقَطِعٌ، أي: لكِنِ الَّذين آمَنوا...، ووَجْهُه: أنَّ الهَرَمَ والرَّدَّ إلى أرذَلِ العُمُرِ يُصابُ به المؤمِنُ كما يُصابُ به الكافِرُ، فلا يكونُ لاستثناءِ المؤمنينَ على وَجهِ الاتِّصالِ مَعنًى، وعلى ذلك فقَولُه تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ في محلِّ رَفعٍ خَبَرٌ لـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والفاءُ رابطةٌ في الخَبَرِ؛ لتضَمُّنِ المبتدأِ المَوصولِ معنى الشَّرطِ، والكلامُ على معنى الاستدراكِ، كأنَّه قيل: لكِنِ الَّذين آمَنوا... فلَهم أجرٌ[1].

= للراغب (ص: ٣٢٣).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٦٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري =

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالتِّينِ والزَّيتونِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى الأرضِ المقَدَّسةِ الَّتي يَنبُتُ فيها ذلك، ومنها بُعِثَ عيسى عليه السَّلامُ، ومُقسِمًا بجَبَلِ سَيناءَ الَّذي كَلَّم اللهُ عليه موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وبالبَلَدِ الآمِنِ؛ مكَّةَ المكَرَّمةِ -شَرَّفَها اللهُ تعالى- أقسَمَ أنَّه خلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ صُورةٍ، وأعدَلِ هَيئةٍ، مُنتَصِبَ القامةِ، سليمَ الفِطرةِ، ثمَّ هو يرُدُّه -سُبحانَه- إلى نارِ جهنَّمَ إنْ كفَر، إلَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ؛ فلَهم أجرٌ كامِلٌ غيرُ مَنقوصٍ ولا مَقطوعٍ.

ثمَّ وبَّخ اللهُ تعالى المشرِكينَ على التَّكذيبِ بالحسابِ والجزاءِ بعدَ ظُهورِ الدَّليلِ عليه، فقال: فما الَّذي يَجعلُك تُكذِّبُ -أيُّها الإنسانُ- بحِسابِ النَّاسِ على أعمالِهم بعدَ مَوتِهم؟! أليس اللهُ بأعدَلِ العادِلينَ في حُكْمِه بيْن عِبادِه؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالتِّينِ، وأقسِمُ بالزَّيتونِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى الأرضِ المقَدَّسةِ الَّتي يَنبُتُ فيها ذلك، ومنها بُعِثَ عيسى عليه السَّلامُ[1].

= (٢/ ١٢٩٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٩٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٣).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ: التِّينُ الَّذي يؤكَلُ، والزَّيتونُ الَّذي يُعصَرُ منه الزَّيتُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ونسَبه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وقيل: المرادُ: القَسَمُ بالأرضِ المقَدَّسةِ الَّتي يَنبُتُ فيها ذلك، ومنها بُعِثَ عيسى عليه السَّلامُ، =

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بجَبَلِ سَيناءَ الَّذي كَلَّم اللهُ عليه موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بهذا البَلَدِ الآمِنِ، وهو مكَّةُ الَّتي يأمَنُ فيها مَن يَحُلُّ بها مِن البَشَرِ وغَيرِهم[(٢)].

= وأُنزِلَ عليه فيها الإنجيلُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٣).

قال ابن تيميَّةَ: (التِّينُ والزَّيْتونُ: هي الأرضُ الَّتي بُعِثَ فيها المسيحُ، وكثيرًا ما تُسمَّى الأرضُ بما يَنْبُتُ فيها، فيُقالُ: فلانٌ خَرَجَ إلى الكَرْمِ، وإلى الزَّيتونِ، وإلى الرُّمَّانِ، ونحوِ ذلك، ويُرادُ الأرضُ الَّتي فيها ذلك؛ فإنَّ الأرضَ تتناولُ ذَلك؛ فعَبَّرَ عنها ببَعضِها). ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ٢٣٠).

وقال ابنُ جُزَي: (والأظهَرُ أنَّهما الموضِعانِ مِنَ الشَّامِ، وهما اللَّذانِ كان فيهما مَولِدُ عيسى ومَسكَنُه؛ وذلك أنَّ اللهَ ذَكَر بعْدَ هذا الطُّورَ الَّذي كَلَّم عليه موسى، والبَلَدَ الَّذي بُعِثَ منه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٤).

وذَكَر الشَّوكانيُّ أنَّ هذا القَولَ ونَحوَه فيه عُدولٌ عن المعنى الحقيقيِّ في اللُّغةِ العرَبيَّةِ، وليس فيه نَقلٌ عن الشَّارِعِ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦٦).

وقال السعدي: (التِّينُ: هو التِّينُ المعروفُ، وكذلك الزَّيتونُ، أقسَمَ بهاتَينِ الشَّجَرتينِ؛ لكثرةِ مَنافِعِ شَجَرِهما وثَمَرِهما، ولأنَّ سُلطانَهما في أرضِ الشَّامِ؛ محَلِّ نُبوَّةِ عيسى ابنِ مريمَ عليه السَّلامُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢١).

قال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ: قولُ مَن قال: طُورُ سِينِينَ: جَبَلٌ معروفٌ؛ لأنَّ الطُّورَ هو الجبلُ ذو النَّباتِ، فإضافَتُه إلى سِينينَ تعريفٌ له). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٨).

وقال البِقاعي: (سِينينُ وسَيناءُ: اسمٌ للمَوضِعِ الَّذي هذا الجَبَلُ به). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٣)، ((الجواب =

كما قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤﴾.

أي: لقد خلَقْنا الإنسانَ في أحسَنِ صُورةٍ وأعدَلِ هَيئةٍ، مُنتَصِبَ القامةِ، مُتناسِبَ الأعضاءِ، على الفِطرةِ السَّليمةِ(١).

= الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

قال ابنُ عطيَّة: (البَلَدُ الأمينُ: مكَّةُ، بلا خِلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥١٠-٥١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٣).

ومِمَّن قال في الجُملةِ بهذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال ابنُ جريرٍ: (قولُه: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ وهذا جوابُ القَسَمِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥١٠).

وقال القرطبي: (﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ وهو اعتِدالُه واستِواءُ شَبابِه، كذا قال عامَّةُ المفسِّرينَ، وهو أحسَنُ ما يكونُ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٤).

وقال ابنُ عطيَّةَ بعدَ أن ذكر اختِلافَ النَّاسِ في تقويمِ الإنسانِ ما هو؟ وأنَّ مِنهم مَن قال: هو حُسنُ صُورتِه وحَواسِّه، ونسَبه إلى النَّخَعيِّ ومجاهِدٍ وقَتادةَ، وأنَّ منهم مَن قال: هو انتصابُ قامتِه، ومنهم مَن قال: هو عقلُه وإدراكُه اللَّذانِ زَيَّناه بالتَّمييزِ، قال: (والصَّوابُ أنَّ جميعَ هذا هو حُسنُ التَّقويمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٠).

قال ابن عاشور: (خَلَق الإنسانَ في أحسَنِ تَقويمٍ، أي: خَلَقَه على الفِطْرةِ السَّليمةِ، مُدْرِكًا لأدِلَّةِ وُجودِ الخالِقِ ووَحدانيَّتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٢).

وقال أيضًا: (هذا يَقتضي أنَّه تقويمٌ خاصٌّ بالإنسانِ، لا يُشارِكُه فيه غيرُه مِن المخلوقاتِ، ويتَّضِحُ =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾.

أي: ثمَّ ردَدْناه بعدَ موتِه إلى النَّارِ إنْ لم يُطِعِ اللَّهَ ويَتَّبِعِ الرُّسلَ[1].

= ذلك في تعديلِ القُوى الظَّاهرةِ والباطنةِ، بحيثُ لا تكونُ إحدى قُواه مُوقِعةً له فيما يُفسِدُه، ولا يَعوقُ بعضُ قُواه البعضَ الآخَرَ عن أداءِ وظيفتِه، فإنَّ غيرَه مِن جِنسِه كان دونَه في التَّقويمِ... فأفادتِ الآيةُ أنَّ اللهَ كَوَّن الإنسانَ تكوينًا ذاتيًّا مُتناسِبًا مع ما خُلِق له نَوعُه مِن الإعدادِ لِنظامِه وحضارتِه... فإنَّ العقلَ أشرَفُ ما خُصَّ به نَوعُ الإنسانِ مِن بيْنِ الأنواعِ. فالمَرْضيُّ عندَ الله هو تقويمُ إدراكِ الإنسانِ ونظَرِه العقليِّ الصَّحيحِ؛ لأنَّ ذلك هو الَّذي تَصدُرُ عنه أعمالُ الجسَدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٤).

وقال ابنُ عثيمين: (أقسَمَ اللهُ أنَّه خَلَق الإنسانَ ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ في أحسَنِ هيئةٍ وخِلْقةٍ و﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ فِطرةً وقَصْدًا؛ لأنَّه لا يوجَدُ أحدٌ مِن المخلوقاتِ أحسَنُ مِن بني آدَمَ خِلقةً). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٣).

وقال ابن جُزَي: (﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّ حُسْنَ التَّقويمِ هو حُسنُ الصُّورةِ، وكمالُ العقلِ والشَّبابِ والقوَّةِ، و﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: الضَّعفُ والهَرَمُ والخَرَفُ، فهو كقولِه تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ [يس: ٦٨]، وقولِه: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ﴾ [الروم: ٥٤]. وقولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بعدَ هذا غيرُ مُتَّصِلٍ بما قبْلَه، والاستثناءُ على هذا القولِ مُنقطِعٌ بمعنَى: «لكِنْ»؛ لأنَّه خارجٌ عن معنى الكلامِ الأوَّلِ.

والآخَرُ: أنَّ حُسْنَ التَّقويمِ: الفِطرةُ على الإيمانِ، و﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: الكفرُ أو تشويهُ الصُّورةِ في النَّارِ. والاستثناءُ على هذا متَّصِلٌ؛ لأنَّ الَّذين آمَنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ لم يُرَدُّوا أسفَلَ سافِلينَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٤).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥).

ومِمَّن قال في الجملةِ بهذا المعنى المذكورِ: البيضاويُّ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، والقاسميُّ، =

= والسعديُّ والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٩٩). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٧٩).

قال البيضاوي: (﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ بأنْ جعَلْناه مِن أهلِ النَّارِ، أو إلى أسفَلِ سافِلينَ وهو النَّارُ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٣).

ومِمَّن اختار أنَّ المعنى: ثمَّ ردَدْناه إلى سِنِّ الهَرَمِ وأرذَلِ العُمُرِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيبةَ، وابنُ جرير، والزجاجُ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٥١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥١٣، ٥١٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٩٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٧).

وقال الزَّجَّاج: (﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ إلى أرذَلِ العُمُرِ، وقيل: إلى الضَّلالِ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [العصر: ٢، ٣]، وهو -واللهُ أعلَمُ- أنْ خُلِقَ الخَلقُ على الفِطرةِ، فمَن كفَرَ وضَلَّ فهو المردودُ إلى أسفَلِ السَّافِلينَ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٣٤٣).

وقال ابنُ عثيمين: (كلَّما ازدادت السِّنُّ في الإنسانِ تغيَّرَ إلى أردَأَ في القوَّةِ الجسَديَّةِ، وفي الهيئةِ الجسَديَّةِ، وفي نَضارةِ الوَجهِ وغيرِ ذلك، يُرَدُّ أسفَلَ سافِلينَ. وإذا قُلْنا: إنَّ أحسَنَ تقويم تَشملُ حتَّى الفِطرةَ الَّتي جَبَلَ اللهُ الخَلْقَ عليها، والعبادةَ الَّتي تترتَّبُ أو تَنبني على هذه الفِطرةِ؛ فإنَّ هذا إشارةٌ إلى أنَّ مِنَ النَّاسِ مَن تعودُ به حالُه -والعياذُ باللهِ- إلى أن يكونَ أسفَلَ سافِلينَ بعدَ أن كان في الأعلى والقِمَّةِ مِنَ الإيمانِ والعِلمِ. والآيةُ تَشملُ المعنيَينِ جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٣).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ الإنسانَ أخَذَ يُغَيِّرُ ما فُطِرَ عليه مِن التَّقويمِ، وهو الإيمانُ بإلهٍ واحِدٍ، وما يَقتَضيه ذلك مِن تَقْواه ومُراقَبتِه؛ فصار أسفَلَ سافِلينَ، وهل أسفَلُ مِمَّن يَعتَقِدُ إلهيَّةَ الحِجارةِ والحيوانِ الأبكَمِ؛ مِن بَقَرٍ أو تماسيحَ أو ثعابينَ، أو مِن شَجَرِ السَّمُرِ، أو مَن يَحسَبُ الزَّمانَ إلهًا ويُسَمِّيه الدَّهرَ، أو مَن يَجحَدُ وُجودَ الصَّانِعِ وهو يُشاهِدُ مَصنوعاتِه ويُحِسُّ بوُجودِ نَفْسِه؟! قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]. فإنْ مِلتَ إلى جانِبِ الأخلاقِ رأيتَ الإنسانَ يَبلُغُ به انحِطاطُه إلى حضيضِ التَّسَفُّلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٧، ٤٢٨).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَكَم بذلك الرَّدِّ على جميعِ النَّوعِ إشارةً إلى كثرةِ المتَّصِفِ به منهم، وكان الصَّالحُ قليلًا جِدًّا؛ جعَلَه محَطَّ الاستثناءِ، فقال[1]:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦﴾.

أي: إلَّا الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ، فإنَّهم لا يُرَدُّون إلى النَّارِ؛ ولهم أجرٌ كامِلٌ غيرُ مَنقوصٍ، دائِمٌ غيرُ مَقطوعٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٧٩، ٢٨٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

وهذا القولُ المذكورُ بِناءً على أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: إلى النَّارِ. وتقدَّم ذِكرُ القائلينَ به.

وعلى القولِ الثَّاني في قولِه: ﴿رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ -أي: أنَّ المرادَ به: ردَدْناه إلى سِنِّ الهَرَمِ وأرذَلِ العُمُرِ- فالمعنى: إلَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ وقْتَ صِحَّتِهم وشَبابِهم؛ فلَهم أجرٌ غيرُ مَنقوصٍ بَعْدَ هَرَمِهم؛ حيثُ يُعطَونَ ثوابَ الأعمالِ الَّتي كانوا يَعمَلونَها زمَنَ صِحَّتِهم وشَبابِهم. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٨).

وقال ابنُ القيِّم: (إن قالوا: إنَّ الَّذي يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ هم الكفَّارُ دونَ المؤمنينَ؛ كابَروا الحِسَّ، وإن قالوا: إنَّ مِن النَّوعَينِ مَن يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ؛ احتاجوا إلى التَّكلُّفِ لصَّحةِ الاستِثناءِ، فمِنهم مَن قدَّر ذلك بأنَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ لا تَبطُلُ أعمالُهم إذا رُدُّوا إلى أرذَلِ العُمُرِ، بل تجري عليهم أعمالُهم الَّتي كانوا يَعمَلونها في الصِّحَّةِ، فهذا وإن كان حقًّا فإنَّ الاستثناءَ إنَّما وقَع مِن الرَّدِّ لا مِن الأجرِ والعمَلِ، ولَمَّا عَلِم أربابُ هذا القولِ ما فيه مِن التَّكلُّفِ خَصَّ بَعضُهم الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ بقُرَّاءِ القُرآنِ خاصَّةً، فقالوا: مَن قرأ القرآنَ لا يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ. وهذا ضعيفٌ مِن وجهَينِ؛ أحَدُهما: أنَّ الاستِثناءَ عامٌّ في المؤمِنينَ؛ قارِئهم وأُمِّيِّهم، الثَّاني: أنَّه لا دليلَ على ما ادَّعَوه، وهذا لا يُعلَمُ بالحِسِّ، ولا خَبَرَ يجِبُ التَّسليمُ له يَقتضيه. واللهُ أعلَمُ). ((التبيان =

كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤، ٢٥].

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾.

أي: فما الَّذي يَجعلُكَ تُكذِّبُ -أيُّها الإنسانُ- بأنَّ النَّاسَ يُحاسَبونَ على

= في أقسام القرآن)) (ص: ٤٧، ٤٨).

وقال الشنقيطي: (قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فعلى أحدِ التَّفسيرَينِ في الآيةِ: أنَّ الإنسانَ إذا رُدَّ أسفَلَ سافِلينَ إلى أرذَلِ العُمُرِ، وكان هَرِمًا لا يَعقِلُ، أنَّه يُرَدُّ إلى أسفلِ السَّافِلينَ، إلَّا الَّذين آمَنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ فلَهم مِن الأجرِ ما كان يُكتَبُ لهم، هذا وجْهٌ في الآيةِ، ولكنَّ الوجهَ الصَّحيحَ فيها عندَ المفسِّرينَ: أنَّ معنى: ﴿رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: جعَلْناه إلى دَرَكاتِ النَّارِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ وهو الجنَّةُ). ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٩٩، ٦٠٠).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ الَّذين آمَنوا بعْدَ أن رُدُّوا أسفَلَ سافِلينَ أيَّامَ الإشراكِ، صاروا بالإيمانِ إلى الفِطرةِ الَّتي فَطَر اللهُ الإنسانَ عليها، فراجَعوا أصْلَهم إلى أحسَنِ تقويمٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٩).

وقال القرطبي: (الاستثناءُ -على قَولِ مَن قال: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: النَّار- متَّصِلٌ، ومَن قال: إنَّه الهَرَمُ، فهو منقَطِعٌ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٥).

قال الواحديُّ: (قولُه تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ذكَرَ المفسِّرونَ فيه قَولَينِ؛ أحدُهما: غيرُ مَنقوصٍ ولا مقطوعٍ. والآخَرُ: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: لا يُمَنُّ به عليهم). ((البسيط)) (٢٤/ ١٥٧).

وقال ابن عثيمين: (قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ﴾ أي: ثوابٌ ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غيرُ مَقطوعٍ، ولا مَمنونٍ به أيضًا، فكلمةُ ﴿مَمْنُونٍ﴾ صالحةٌ لمعنَى القَطعِ، وصالحةٌ لمعنى المِنَّةِ، فهُم لهم أجرٌ لا يَنقطِعُ، ولا يُمَنُّ عليهم به، يعني أنَّهم إذا استَوفَوا هذا الأجرَ لا يُمَنُّ عليهم فيُقالُ: أعطَيْناكم وفعَلْنا وفعَلْنا، وإن كانت المِنَّةُ لله عزَّ وجلَّ عليهم بالإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ والثَّوابِ، كلُّها مِنَّةٌ مِن الله، لكنْ لا يمنُّ عليهم به). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٣).

وتقدَّم في (٤٢/ ٥٤٠) الكلامُ عن المعنى الثَّاني لقولِه: ﴿مَمْنُونٍ﴾ وأنَّ مِن العلماءِ مَن أنكرَه. يُنظر: ((الرد على مَن قال بفناء الجنة والنار)) لابن تيميَّة (ص: ٨٤، ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٢).

أعمالِهم، ويُجازَونَ بها بعدَ الحُجَجِ الَّتي بَيَّنَها اللهُ[(١)]؟!

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا صَحَّ أنَّ تارِكَ الظَّالِمِ بغيرِ انتِقامٍ، والمحسِنِ بلا إكرامٍ: ليس على مِنهاجِ

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٤).

قال ابنُ عطية: (اختُلِف في المخاطَبِ بقولِه تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ فقال قتادةُ والفرَّاءُ والأخفشُ: هو محمدٌ عليه السَّلامُ، قال الله له: فماذا الذي يُكذِّبُكَ فيما تخبرُ به مِن الجزاءِ والبعثِ -وهو الدِّينُ- بعدَ هذه العبرِ التي يُوجِبُ النَّظرُ فيها صحةَ ما قلتَ، ويحتمِلُ أنْ يكونَ «الدينُ» على هذا التأويلِ جميعُ دينِه وشرعِه، وقال جمهورٌ مِن المتأولينَ: المخاطَبُ الإنسانُ الكافرُ، أي: ما الذي يجعلُك كذَّابًا بالدِّينِ، تجعلُ له أندادًا، وتزعمُ أن لا بعثَ بعد هذه الدلائلِ، وقال منصورٌ: قلْتُ لمجاهدٍ: قولُه تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ يريدُ به النبيَّ صلى الله عليه وسلم؟ قال معاذَ الله، يعني به الشَّاكَّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧٧).

وقال الواحدي: (وعامةُ المفسِّرينَ على أنَّ هذا خطابٌ للإنسانِ المكذِّبِ بالدِّينِ). ((البسيط)) (٢٤/ ١٥٩).

وقال السمعاني: (قولُه تعالَى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ المعنَى: فما يُكذِّبُكَ أيُّها الشَّاكُّ بيومِ الحسابِ بعدَ ما شاهدْتَ مِن قُدرَةِ الله تعالى ما شاهدْتَ، هذا هو القولُ المعروفُ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٥٤).

وقال ابن جرير: (أولَى الأقوالِ في ذلك عندي بالصَّوابِ قولُ مَنْ قالَ: معنَى «مَا» معنَى «مَنْ». ووجهُ تأويلِ الكلامِ إلى: فمَنْ يُكَذِّبُكَ يا محمَّدُ بعدَ الَّذي جاءَكَ مِنْ هذا البيانِ مِن الله بالدِّينِ؟ يعني: بطاعَةِ اللهِ، ومُجازاتِه العِبادَ على أعمالِهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٤).

وقال البِقاعي: (أيْ: أيُّ شَيءٍ يَنسبُك إلى الكذبِ يا أشرَفَ الخَلقِ وأكمَلَهم نفْسًا وأتْقاهم عِرضًا وأطهَرَهم خَلقًا وخُلقًا، وعبَّر بـ «ما» إشارةً إلى أنَّ الكذبَ بهذا مع هذا الدَّليلِ القَطعيِّ الَّذي تضَمَّنَتْه هذه السُّورةُ في عِدادِ ما لا يُعقلُ، بل دُونَه). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٤٨).

العَدْلِ الَّذي شَرَعه اللهُ تعالى؛ حَسُنَ جِدًّا تكريرُ الإنكارِ بقَولِه سُبحانه وتعالى[١]:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾.

أي: أليس الله هو أعدَلَ العادِلينَ في حُكْمِه بيْن عِبادِه[٢]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فَضيلةٌ لِمَن أَسَنَّ في الإسلامِ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ جلالُه يَكتُبُ أجرَ ما كان

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥).

ومِمَّن قال في الجملة بأنَّ المرادَ: أنَّه أعدَلُ الحاكِمينَ قَضاءً بيْن خَلْقِه، وأقضَى القاضينَ، وأفصلُ الفاصِلينَ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، والرَّسْعَني، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٧٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٩٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٥).

قال السعدي: (﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فهل تَقتضي حِكمتُه أن يَترُكَ الخَلقَ سُدًى، لا يُؤْمَرونَ ولا يُنهَونَ، ولا يُثابونَ ولا يُعاقَبونَ؟! أم الَّذي خلَق الإنسانَ أطوارًا بعدَ أطوارٍ، وأوصَل إليهم مِن النِّعَمِ والخَيرِ والبِرِّ ما لا يُحصونَه، ورَبَّاهم التَّربيةَ الحسَنةَ؛ لا بُدَّ أن يُعيدَهم إلى دارٍ هي مُستقَرُّهم وغايَتُهم، الَّتي إليها يَقصِدونَ، ونحوَها يَؤُمُّونَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ: أنَّه أتقَنُ الحاكِمينَ صُنعًا في خَلْقِه: القُرطبيُّ، وابنُ عادل، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦٨).

قال ابنُ عثيمين: (هذا الاستفهامُ للتَّقريرِ؛ يُقَرِّرُ اللهُ عزَّ وجَلَّ أنَّه أحكَمُ الحاكِمينَ، وأحكَمُ هنا: اسمُ تَفضيلٍ، وهو مأخوذٌ مِنَ الحِكمةِ، ومِنَ الحُكمِ؛ فالحُكمُ الأكبَرُ الأعظَمُ الَّذي لا يُعارِضُه شيءٌ هو حُكمُ اللهِ عزَّ وجَلَّ، والحِكمةُ العُلْيا البالغةُ هي حِكمةُ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ فهو سُبحانَه وتعالى أحكَمُ الحاكِمينَ قَدَرًا وشَرْعًا، وله الحُكمُ، وإليه يُرجَعُ الأمرُ كُلُّه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣١).

يَعمَلُه في شَبيبتِه، ولا يَقْطَعُه عنه[١]. وذلك على أنَّ معنى ﴿رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: ردَدْناه إلى سِنِّ الهَرَمِ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، وقال: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] الآياتِ، وقال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] إلى غيرِ ذلك، ولم يدُلَّ التَّقديمُ في شَيءٍ مِن هذه المواضعِ على فَضْلِ المَبدوءِ به؛ فعُلِم أنَّ التَّقديمَ ليس لازمًا للفَضلِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أنَّ شَكْلَ الآدميِّ هو أحسنُ شَكْلٍ في المخلوقاتِ وأقوَمُه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ سؤالٌ؛ هذه الآيةُ الكريمةُ توهِمُ أنَّ الإنسانَ يُنكِرُ أنَّ ربَّه خلَقَه؛ لِما تقرَّر في فنِّ المعاني مِن أنَّ خاليَ الذِّهنِ مِن التَّردُّدِ والإنكارِ لا يؤكَّدُ له الكلامُ -ويُسمَّى ذلك ابتدائيًّا-، والمُتردِّدَ يَحسُنُ التَّوكيدُ له بمؤكِّدٍ واحدٍ -ويُسمَّى طلَبيًّا-، والمُنكِرَ يجبُ التَّوكيدُ له بحسَبِ إنكارِه -ويُسمَّى إنكاريًّا-، واللهُ تعالى في هذه الآيةِ أكَّد إخبارَه بأنَّه خلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ تقويمٍ بأربعةِ أقسامٍ، وباللَّامِ، وبـ «قد»؛ فهي ستَّةُ تأكيداتٍ، وهذا التَّوكيدُ يوهِمُ أنَّ الإنسانَ مُنكِرٌ لأنَّ ربَّه خلَقَه؛ وقد جاءت آياتٌ أخرى صريحةٌ في أنَّ الكفَّارَ يُقِرُّونَ بأنَّ اللهَ هو خالِقُهم، وهي قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]؟

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٥).

الجوابُ مِن وجهَين:

الأوَّلُ: هو ما حرَّره عُلماءُ البلاغةِ مِن أنَّ المُقِرَّ إذا ظهرَتْ عليه أمَارةُ الإنكارِ جُعِل كالمنكِرِ؛ فأُكِّدَ له الخبَرُ، فالكفَّارُ لَمَّا أنكَروا البعثَ ظهرَتْ عليهم أمارةُ إنكارِ الإيجادِ الأوَّلِ؛ لأنَّ مَن أقَرَّ بالأوَّلِ لَزِمه الإقرارُ بالثَّاني؛ لأنَّ الإعادةَ أيسَرُ مِن البَدءِ؛ فأكَّد لهم الإيجادَ الأوَّلَ، ويوضِّحُ هذا أنَّ اللهَ تعالى بيَّن أنَّه المقصودُ بقولِه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ أي: ما يَحمِلُك أيُّها الإنسانُ على التَّكذيبِ بالبعثِ والجزاءِ بعدَ عِلمِك أنَّ اللهَ أوجَدك أوَّلًا؟! فمَن أوجَدك أوَّلًا قادرٌ على أن يوجِدَك ثانيًا.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ القسَمَ شاملٌ لقولِه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: إلى النَّار، وهم لا يُصَدِّقونَ بالنَّارِ؛ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[1] [الطور: ١٤].

٤- قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يُؤخَذُ مِن هذه الآيةِ أنَّ الإنسانَ مخلوقٌ على حالةِ الفِطرةِ الإنسانيَّةِ الَّتي فطَرَ اللهُ النَّوعَ ليتَّصِفَ بآثارِها، وهي الفِطرةُ الإنسانيَّةُ الكامِلةُ في إدراكِه إدراكًا مُستقيمًا مِمَّا يتأدَّى مِن المحسوساتِ الصَّادِقةِ -أي: الموافِقةِ لحقائِقِ الأشياءِ، الثَّابتةِ في نفْسِ الأمرِ- بسَبَبِ سلامةِ ما تؤدِّيه الحواسُّ السَّليمةُ، وما يَتلقَّاه العَقلُ السَّليمُ مِن ذلك، ويتصَرَّفُ فيه بالتَّحليلِ والتَّركيبِ المنتظِمَين؛ بحيث لو جانبَتْه التَّلقيناتُ الضَّالَّةُ والعوائِدُ الذَّميمةُ والطَّبائِعُ المنحَرِفةُ والتَّفكيرُ الضَّارُّ، أو لو تسلَّطَت عليه تسلُّطًا ما، فاستطاع دفاعَها عنه بدَلائِلِ الحَقِّ والصَّوابِ- لَجرى في جميعِ شُؤونِه على الاستقامةِ، ولَمَا صَدَرَت منه إلَّا الأفعالُ الصَّالحةُ، ولكِنَّه قد يتعثَّرُ في ذُيولِ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٧٦).

اغترارِه، ويُرخي العِنانَ لهَواه وشَهوتِه، فتَرمي به في الضَّلالاتِ، أو يتغَلَّبُ عليه دُعاةُ الضَّلالِ بعامِلِ التَّخويفِ أو الإطماعِ، فيُتابِعُهم طَوعًا أو كَرهًا، ثمَّ لا يلبَثُ أن يَستحكِمَ فيه ما تقلَّدَه فيَعتادُه ويَنسى الصَّوابَ والرُّشدَ! ويُفسِّرُ هذا المعنى قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن مولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرةِ، فأبَواه يُهَوِّدانِه أو يُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسانِه)) الحديثَ[1]؛ ذلك أنَّ أبَوَيه هما أوَّلُ مَن يتولَّى تأديبَه وتثقيفَه، وهما أكثَرُ النَّاسِ مُلازَمةً له في صِباه، فهما اللَّذان يُلْقيانِ في نَفْسِه الأفكارَ الأُولى، فإذا سَلِمَ مِن تضليلِ أبَوَيه فقدْ سار بفِطرتِه شَوطًا، ثمَّ هو بعدَ ذلك عُرضةٌ لعديدٍ مِن المؤَثِّراتِ فيه؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، واقتصَر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الأبَوَين؛ لأنَّهما أقوى أسبابِ الزَّجِّ في ضَلالتِهما، وأشَدُّ إلحاحًا على ولَدِهما[2].

٥- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أنَّ الإنسانَ مَفطورٌ على الخَيرِ، وأنَّ في جِبِلَّتِه جَلبَ النَّفعِ والصَّلاحِ لنَفْسِه، وكَراهةَ ما يَظُنُّه باطِلًا أو هلاكًا، ومحبَّةَ الخَيرِ والحَسَنِ مِنَ الأفعالِ؛ لذلك تَراه يُسَرُّ بالعَدْلِ والإنصافِ، ويَنصَحُ بما يَراه مجلبةً لِخَيرِ غَيرِه، ويُغيثُ المَلْهوفَ، ويُعامِلُ بالحُسنى، ويَغارُ على المُستضعَفينَ، ويَشمَئِزُّ مِن الظُّلمِ -ما دام مجرَّدًا عن رَوْمِ نفعٍ يَجلِبُه لنَفْسِه، أو إرضاءِ شَهوةٍ يُريدُ قَضاءَها، أو إشفاءِ غَضَبٍ يَجيشُ بصَدْرِه؛ تلك العَوارِضُ الَّتي تَحولُ بيْنه وبيْن فِطرتِه زمنًا- ويَهَشُّ إلى كلامِ الوُعَّاظِ والحُكَماءِ والصَّالحينَ، ويُكرِمُهم ويُعَظِّمُهم، ويَوَدُّ طُولَ بَقائِهم[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ إشارةٌ إلى ما خُصَّ به

(١) أخرجه البخاريُّ (١٣٥٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٥٨) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٢٦).

الإنسانُ مِنَ العَقلِ والفَهمِ وانتِصابِ القامةِ؛ الدَّالَّةِ على استيلائِه على كُلِّ ما في هذا العالَمِ[١].

٧- تأمَّلْ حِكمةَ القرآنِ؛ لَمَّا قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] فإنَّه ضَيَّقَ الاستثناءَ وخَصَّصَه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، ولَمَّا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ وَسَّعَ الاستثناءَ وعَمَّمَه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يَقُلْ: «وتَواصَوا»؛ فإنَّ التَّواصيَ هو أمرُ الغيرِ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وهو قَدْرٌ زائدٌ على مجرَّدِ فِعْلِه، فمَن لم يكُنْ كذلك فقد خَسِرَ هذا الرِّبحَ، فصار في خُسْرٍ، ولا يَلزَمُ أنْ يكونَ في أسفَلِ سافِلينَ؛ فإنَّ الإنسانَ قد يقومُ بما يجبُ عليه ولا يأمُرُ غيرَه، فإنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عنِ المنكَرِ مرتبةٌ زائدةٌ، وقد تكونُ فرضًا على الأعيانِ، وقد تكونُ فرضًا على الكفايةِ، وقد تكونُ مُستحَبَّةً[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أنَّه ما مِن شيءٍ يَحكُمُ اللهُ به إلَّا وهو حِكمةٌ عَظيمةٌ[٣].

٩- أحكامُ الله سُبحانَه لا تَجِدُ فيها عَيبًا ولا نَقْصًا[٤]؛ قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، وفيه أنَّ حُكْمَ اللهِ أحسَنُ الأحكام، فإذا كان اللهُ أحسَنَ الحاكِمينَ أحكامًا، وهو أحكمُ الحاكِمينَ؛ فمَن ادَّعى أنَّ حُكْمَ غيرِ اللهِ مِثلُ حُكْمِ اللهِ أو أحسَنُ؛ فهو كافِرٌ؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ للقرآنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ١٨٨).

(٥) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٦٠).

١٠- قَولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ خَتَمَ سُبحانَه السُّورةَ به، وهذا تقريرٌ لمضمونِ السُّورةِ مِن إثباتِ النُّبُوَّةِ والتَّوحيدِ والمَعادِ، وحُكْمُه يَتضَمَّنُ نَصْرَه لرَسولِه على مَن كَذَّبَه وجَحَدَ ما جاء به بالحُجَّةِ والقُدرةِ والظُّهورِ عليه، وحُكْمَه بيْن عبادِه في الدُّنيا بشَرعِه وأَمْرِه، وحُكْمَه بيْنَهم في الآخرةِ بثَوابِه وعِقابِه، وأنَّ أَحْكَمَ الحاكِمينَ لا يَليقُ به تعطيلُ هذه الأحكامِ بعْدَما ظهَرتْ حِكمتُه في خَلْقِ الإنسانِ في أحسَنِ تقويمٍ، ونَقْلِه في أطوارِ التَّخليقِ حالًا بعدَ حالٍ إلى أَكْمَلِ الأحوالِ، فكيف يليقُ بأحْكَمِ الحاكِمينَ ألَّا يُجازيَ المُحسِنَ بإحسانِه، والمُسيءَ بإساءتِه؟! وهل ذلك إلَّا قَدْحٌ في حُكْمِه وحِكمتِه؟! فلِلَّهِ ما أَخْصَرَ لفظَ هذه السُّورةِ، وأعْظَمَ شأنَها، وأَتَمَّ معناها[١]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾

- ابتِداءُ الكلامِ بالقسَمِ المؤكِّدِ يُؤذِنُ بأهمِّيَّةِ الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ، وإطالةُ القسَمِ تَشويقٌ إلى المقسَمِ عليه[٢].

- ومعْنى القسَمِ بهذه الأشياءِ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾: الإبانةُ عن شرَفِ البِقاعِ المُبارَكةِ، وما ظَهَرَ فيها مِن الخَيرِ والبَرَكةِ بسُكْنى الأنبياءِ والصَّالحينَ؛ فمَنبِتُ التِّينِ والزَّيتونِ مُهاجَرُ إبراهيمَ ومَولدُ عِيسى ومَنْشؤه، والطُّورُ: المكانُ الَّذي نُودِيَ منه مُوسى، ومكَّةُ: مكانُ البَيتِ الَّذي هو هُدًى للعالَمينَ، ومَولدُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَبعثُه[٣].

- وكذلك أُقسِمَ بالتِّينِ والزَّيتونِ مِن أجْلِ الدَّلالةِ على صِفاتٍ إلهيَّةٍ كما

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٣).

يُقسَمُ بالاسمِ لدَلالتِه على الذَّاتِ، مع الإيذانِ بالمِنَّةِ على النَّاسِ؛ لِما في هاتَينِ الثَّمرَتينِ مِن المنافعِ للنَّاسِ المُقتضيةِ الامتِنانَ عليهم بأنْ خَلَقَها اللهُ لهم؛ فَفاكهةُ التِّينِ تَنبُتُ في كلِّ البلادِ، وهي سَهلةُ النَّباتِ لا تَحتاجُ إلى كَثرةِ عَمَلٍ وعِلاجٍ. والزَّيتونُ ثَمَرةٌ نافعةٌ صالحةٌ، تَكْفي النَّاسَ حَوائجَ طَعامِهم وإضاءتِهم، فهما عَجيبانِ مِن بيْنِ أصنافِ الأشجارِ المُثمِرةِ[(١)].

- وكذلك في ابتداءِ السُّورةِ بالقسَمِ بما يَشملُ إرادةَ مَهابطِ أشهَرِ الأديانِ الإلهيَّةِ، بَراعةُ استهلالٍ لغرَضِ السُّورةِ[(٢)]؛ وهو أنَّ اللهَ سُبحانَه خلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ تَقويمٍ، أي: خَلَقَه على الفِطرةِ السَّليمةِ مُدركًا لأدِلَّةِ وُجودِ الخالقِ ووَحدانيَّتِه. وفيه إيماءٌ إلى أنَّ ما خالَفَ ذلك مِن النِّحَلِ والمِلَلِ قد حادَ عن أُصولِ شَرائعِ اللهِ كلِّها، بقطْعِ النَّظرِ عن اختلافِها في الفُروعِ، ويَكْفي في تقَوُّمِ معْنى بَراعةِ الاستهلالِ ما يَلوحُ في المعْنى مِن احتمالٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢٤).

(٢) براعةُ الاستهلالِ: هي كَوْنُ ابتداءِ الكلامِ مُناسِبًا للمقصودِ، وأنْ يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على ما يُناسِبُ حالَ المتكلِّمِ، مُتضمِّنًا لِمَا سِيقَ الكلامُ مِن أجْلِه مِن غيرِ تصريحٍ، بلْ بأَلْطَفِ إشارةٍ يُدرِكُها الذَّوقُ السَّليمُ، ومِن أحسَنِ صُوَرِ براعةِ الاستِهلالِ مَوقِعًا، وأبلَغِها معنًى: فواتحُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، ومنها الحُروفُ المقطَّعةُ؛ فإنَّها تُوقِظُ السَّامِعينَ للإصغاءِ إلى ما يَرِدُ بعْدَها؛ لأنَّهم إذا سمِعوها مِن النَّبيِّ الأُمِّيِّ علِموا أنَّها والمَتْلُوَّ بعْدَها مِن جِهةِ الوحيِ، وفيها تنبيهٌ على أنَّ المَتلُوَّ عليهم مِن جِنسِ ما يَنظِمونَ منه كلامَهم، مع عَجْزِهم عن أنْ يأتوا بمِثلِه. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٥)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم (١/ ٥٣)، ((علوم البلاغة)) لأحمد المراغي (ص: ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٢، ٤٢٣).

- البلدُ الأمينُ: هو مكَّةُ، و(أَمينٌ) للمُبالَغةِ في أمْنِه، أي: آمِنٌ مَن فيه ومَن دَخَلَه، وما فيه مِن طَيرٍ وحَيوانٍ[١].

- وقولُه: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ الإشارةُ إلى البلَدِ الأمينِ للتَّعظيمِ؛ ولأنَّ نُزولَ السُّورةِ في ذلك البلَدِ، فهو حاضرٌ بمَرأًى ومَسمَعٍ مِن المُخاطَبينَ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾

- قولُه: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ مع ما عُطِفَ عليه هو جَوابُ القسَمِ، والقسَمُ عليه يدُلُّ على أنَّ التَّقويمَ تَقويمٌ خَفيٌّ، وأنَّ الرَّدَّ ردٌّ خَفيٌّ يَجِبُ التَّدبُّرُ لإدراكِه؛ فلذلك ناسَبَ أنْ يُحقَّقَ بالتَّوكيدِ بالقسَمِ؛ لأنَّ تَصرُّفاتِ مُعظَمِ النَّاسِ في عَقائدِهم جاريةٌ على حالةٍ تُشبِهُ حالةَ مَن يُنكِرونَ أنَّهم خُلِقوا على الفِطرةِ[٣]. وذلك على أنَّ المرادَ بـ﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾: الفِطْرةُ السَّليمةُ.

- وحرْفُ ﴿فِيٓ﴾ يُفيدُ الظَّرفيَّةَ، والمرادُ بها معْنى التَّمكُّنِ والمِلكِ، فهي مُستعمَلةٌ في معْنى باءِ المُلابَسةِ أو لامِ المِلكِ، وإنَّما عُدِلَ عن أحدِ الحرفينِ الحقيقيَّينِ لهذا المعْنى إلى حرْفِ الظَّرفيَّةِ؛ لإفادةِ قوَّةِ المُلابَسةِ، أو قوَّةِ المِلْكِ مع الإيجازِ، ولولا الإيجازُ لَكانت مُساواةُ الكلامِ أنْ يُقالَ: لقد خَلَقْنا الإنسانَ بتَقويمٍ مَكينٍ هو أحسَنُ تَقويمٍ[٤].

- و﴿أَحۡسَنِ﴾ صِفةٌ لمَحذوفٍ، أي: في تَقويمٍ أحسَنِ تقويمٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٣).

- قولُه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ (ثُمَّ) لإفادةِ التَّراخي الرُّتبيِّ كما هو شَأنُها في عطْفِ الجُمَلِ؛ لأنَّ الرَّدَّ أسفَلَ سافِلينَ بعْدَ خلْقِه مَحوطًا بأحسَنِ تَقويمٍ عَجيبٌ؛ لِما فيه مِن انقلابِ ما جُبِلَ عليه، وتَغييرُ الحالةِ الموجودةِ أعجَبُ مِن إيجادِ حالةٍ لم تكُنْ، ولأنَّ هذه الجُملةَ هي المقصودُ مِن الكلامِ؛ لتَحقيقِ أنَّ الَّذين حادُوا عن الفِطرةِ صاروا أسفَلَ سافِلينَ[1]. وذلك على أنَّ المرادَ بـ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾: الفِطْرةُ السَّليمةُ.

- و﴿أَسْفَلَ﴾ قيل: اسمُ تَفضيلٍ، أي: أشدَّ سَفالةٍ، وأُضِيفَ إلى ﴿سَٰفِلِينَ﴾ أي: الموصوفينَ بالسَّفالةِ، فالمرادُ: أسفَلَ سافِلينَ في الاعتِقادِ بخالِقِه، بقَرينةِ قولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [التين: ٦]. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ ظَرْفًا، أي: مكانًا أسفَلَ ما يَسكُنُه السَّافِلونَ، فإضافةُ ﴿أَسْفَلَ﴾ إلى ﴿سَٰفِلِينَ﴾ مِن إضافةِ الظَّرفِ إلى الحالِّ فيه، ويَنتصِبُ ﴿أَسْفَلَ﴾ بـ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾ انتصابَ الظَّرفِ، أو على نزْعِ الخافضِ، أي: إلى أسفَلِ سافِلينَ، وذلك هو دارُ العذابِ، كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2] [النساء: ١٤٥].

- قولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ استثناءٌ مُتَّصلٌ مِن عُمومِ الإنسانِ، فلمَّا أخبَرَ عن الإنسانِ بأنَّه رُدَّ أسفَلَ سافِلينَ، ثمَّ استَثْنى مِن عُمومِه الَّذين آمَنوا؛ بَقِيَ غيرُ المؤمنينَ في أسفَلِ سافِلينَ، والمعْنى: أنَّ الَّذين آمَنوا بعْدَ أنْ رُدُّوا أسفَلَ سافِلينَ أيَّامَ الإشراكِ صاروا بالإيمانِ إلى الفِطرةِ الَّتي فَطَرَ اللهُ الإنسانَ عليها، فراجَعوا أصْلَهم إلى أحسَنِ تَقويمٍ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وعُطِفَ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّ عَمَلَ الصَّالحاتِ مِن أحسَنِ التَّقويمِ بعْدَ مَجيءِ الشَّريعةِ؛ لأنَّها تَزيدُ الفِطرةَ رُسوخًا، ويَنسحِبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٢٧، ٤٢٨).

الإيمانُ على الأخلاقِ، فيَرُدُّها إلى فضْلِها، ثمَّ يَهْديها إلى زِيادةِ الفضائلِ مِن أحاسِنِها؛ فكان عطْفُ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للثَّناءِ على المؤمنينَ بأنَّ إيمانَهم باعثٌ لهم على العمَلِ الصَّالحِ، وذلك حالُ المؤمنينَ حِينَ نُزولِ السُّورةِ، فهذا العطْفُ عطْفُ صِفةٍ كاشفةٍ(١).

- وفُرِّعَ على معْنى الاستِثناءِ -وهو أنَّهم لَيسوا ممَّن يُرَدُّ أسفَلَ سافِلينَ- الإخبارُ بأنَّ لهم أجْرًا عَظيمًا؛ لأنَّ الاستثناءَ أفاد أنَّهم لَيسوا بأسفَلِ سافِلينَ، فأُرِيدَ زِيادةُ البَيانِ لفضْلِهم وما أُعِدَّ لهم(٢).

- في قَولِه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ احتِباكٌ(٣)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٩).

والصِّفةُ الكاشِفةُ: هي الصِّفةُ الَّتي تُميِّزُ المَوصوفَ عن سائرِ الأجناسِ، وتُبيِّنُ حَقيقتَه، فهي صفة تُبيِّنُ الواقعَ، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ؛ وهي عكسُ الصِّفةِ المُقيِّدةِ الَّتي تُخرِجُ ما سِواه، فالصِّفةُ الكاشفةُ هي خَبرٌ عن المَوصوفِ عندَ التَّحقيقِ، تُبيِّنُ ماهيَّةَ الشَّيءِ بأنْ تكونَ وَصْفًا لازمًا مُختَصًّا به؛ مِثالُ ذلك قولُه تعالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صِفةٌ كاشفةٌ، ولا مَفهومَ مُخالَفةٍ له، فلا يَصِحُّ لأحدٍ أنْ يقولَ: أمَّا مَن عبَدَ معه إلهًا آخَرَ له بُرهانٌ به فلا مانعَ مِن ذلك! لاستِحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عِبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وَصْفٌ مُطابِقٌ للواقعِ؛ لأنَّهم يَدْعون معه غيرَه بلا بُرهانٍ، فذِكْرُ الوصفِ لِمُوافَقتِه الواقِعَ، لا لإخراجِ المفهومِ عن حُكمِ المنطوقِ. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٥)، ((تحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والعبادي)) (١/ ٣٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧)، ((دراسات أصولية في القرآن الكريم)) للحفناوي (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٩).

(٣) الاحْتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن ألْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن =

حُذِفَ أوَّلًا -بما أفهَمَتْه الآيةُ- عمَلُ السَّيِّئاتِ، وثانيًا: الإبقاءُ على أصلِ الخَلْقِ في أحسَنِ تقويمٍ على الفِطرةِ الأُولى؛ لِيَكونَ نَظْمُها في الأصلِ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ بعَمَلِ السَّيِّئاتِ؛ فله على ذلك عذابٌ مُهينٌ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ فإنَّا أبقَيْناهم على الفِطرةِ الأُولى في أحسَنِ تقويمٍ[1].

- وتَنوينُ ﴿أَجْرٌ﴾؛ للتَّعظيمِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ * أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ تَفريعٌ على جَميعِ ما ذُكِرَ مِن تَقويمِ خَلْقِ الإنسانِ، ثمَّ رَدِّه أسفَلَ سافِلينَ؛ لأنَّ ما بعْدَ الفاءِ مِن الكلامِ مُسبَّبٌ عن البَيانِ الَّذي قبْلَ الفاءِ، أي: فقَدْ بانَ لك أنَّ غيرَ الَّذين آمَنوا همُ الَّذين رُدُّوا إلى أسفَلِ سافِلينَ، فمَن يُكذِّبُ منهم بالدِّينِ الحقِّ بعْدَ هذا البَيانِ؟! أو: إنْ عَلِمْتَ هذا أيُّها الإنسانُ فما يُكذِّبُك، والفاءُ هي الفصيحةُ[3]؟!

- و(ما) في قولِه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ استِفهاميَّةً، والاستِفهامُ تَوبيخيٌّ، والخِطابُ للإنسانِ المذكورِ في قولِه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]؛ فإنَّه بعْدَ أنِ استُثنِيَ منه الَّذين آمَنوا، بَقِيَ الإنسانُ المكذِّبُ. وضَميرُ الخِطابِ الْتفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، ومُقتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: فما يُكذِّبُه، ونُكتةُ الالْتِفاتِ هنا أنَّه أصرَحُ في مُواجَهةِ الإنسانِ المكذِّبِ بالتَّوبيخِ، ولتَشديدِ الإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّبكيتِ، أيْ: فما يَجعلُكَ كاذبًا بسَببِ الدِّينِ وإنكارِه بعْدَ هذه الدَّلائلِ؟!

= حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢٦).

ويجوزُ أنْ تكونَ (ما) مَوصولةً، و(ماصَدَقَها)[١]: المُكذِّبُ، فهي بمعْنى (مَن)، وهي في مَحلِّ مُبتدَأٍ، والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والضَّميرُ المستترُ في ﴿ يُكَذِّبُكَ ﴾ عائدٌ إلى (ما)، وهو الرَّابطُ للصِّلةِ بالمَوصولِ، والباءُ للسَّببيَّةِ، أي: يَنسُبُك إلى الكذِبِ بسَببِ ما جِئتَ به مِن الإسلامِ، أو مِن إثباتِ البَعثِ والجزاءِ، وحُذِفَ ما أُضِيفَ إليه (بعْدُ) فبُنِيَت (بعْدُ) على الضَّمِّ، والتَّقديرُ: بعْدَ تَبيُّنِ الحقِّ، أو بعْدَ تَبيُّنِ ما ارتضاهُ لنفْسِه مِن أسفَلِ سافِلينَ. وجُملةُ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ خبرًا عن (ما)، والرَّابطُ مَحذوفٌ تَقديرُه: بأحكَمِ الحاكمينَ فيه. ويجوزُ أنْ تكونَ الجملةُ دَليلًا على الخبَرِ المُخبَرِ به عن (ما) المَوصولةِ، وحُذِفَ إيجازًا؛ اكتِفاءً بذِكرِ ما هو كالعِلَّةِ له، فالتَّقديرُ: فالَّذي يُكذِّبُك بالدِّينِ يَتولَّى اللهُ الانتِصافَ منه، أليسَ اللهُ بأحكَمِ الحاكمينَ؟ والاستفهامُ تَقريريٌّ[٢].

- وجُملةُ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ تحقيقٌ لِمَا سبَقَ، والاستِفهامُ تقريريٌّ، والمعنى: أليس الَّذي فعَلَ ذلك مِن الخَلقِ والرَّدِّ بأحْكَمِ الحاكِمِينَ صُنعًا وتدبيرًا؟ ومَن كان كذلك كان قادرًا على الإعادةِ والجزاءِ. وعلى القَولِ بأنَّ الحُكمَ بمعْنَى القَضاءِ؛ فالجملةُ مُستأنَفةٌ للتَّهديدِ والوَعيدِ؛ فهي وعيدٌ

---

(١) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو المَوصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يُقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٠، ٤٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢٦).

للكُفَّارِ، وأنَّه يَحكُم عليهم بما هُم أهلُه، وإخبارٌ بعدلِه سُبحانَه[١].

- ونَوطُ الخبَرِ بذي وَصْفٍ يُؤذِنُ بمُراعاةِ خَصائصِ المعْنى المُشتَقِّ منه الوصفُ، فلمَّا أُخبِرَ عن اللهِ بأنَّه أفضلُ الَّذين يَحكُمون بقولِه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، عُلِمَ أنَّ اللهَ يَفوقُ قَضاؤه كلَّ قَضاءٍ في خَصائصِ القضاءِ وكَمالاتِه، وهي: إصابةُ الحقِّ، وقطْعُ دابرِ الباطلِ، وإلزامُ كلِّ مَن يَقْضي عليه بالامتثالِ لقَضائِه، والدُّخولِ تحْتَ حُكمِه[٢].

- وأيضًا في الكلامِ تَعجُّبٌ وتَعجيبٌ؛ وذلك أنَّه تعالَى لَمَّا قرَّرَ أنَّه خَلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ تَقويمٍ، ثمَّ ردَّه إلى أرذَلِ العُمُرِ -على قولٍ-؛ دلَّ على كَمالِ قُدرتِه على الإنشاءِ والإعادةِ، فسَأَلَ بعْدَ ذلك عن سَببِ تَكذيبِ الإنسانِ بالجزاءِ، كأنَّه قِيل: فما سَببُ تَكذيبَك أيُّها الإنسانُ بالجزاءِ بعْدَ هذا الدَّليلِ القاطعِ؟! وعلى هذا فقولُه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ وَعيدٌ للكفَّارِ، وأنَّه يُحكَمُ عليهم بما هو أهْلُه[٣].

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الثَّالثُ والأربعونَ

ويليه المجلدُ الرَّابعُ والأربعونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ العَلَقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٤، ٧٧٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٠، ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٠٨).

الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهرس

سورةُ البُرُوجِ

أسماءُ السُّورةِ: ٧
فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها: ٧
بيانُ المكِّيِّ والمدَنيِّ: ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٨
الآيات (١-٩) ٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٢
المعنى الإجماليُّ: ١٢
تَفسيرُ الآياتِ: ١٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٣
بلاغةُ الآياتِ: ٢٦
الآيتان (١٠-١١) ٣٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٥
المعنى الإجماليُّ: ٣٥
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٣٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٠

بلاغةُ الآيتَينِ: ٤٢
الآيات (١٢-١٦) ٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٦
المعنى الإجماليُّ: ٤٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٢
بلاغةُ الآياتِ: ٥٦
الآيات (١٧-٢٢) ٦٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٠
المعنى الإجماليُّ: ٦٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٧
بلاغةُ الآياتِ: ٦٩

سورةُ الطَّارِقِ

أسماءُ السُّورةِ: ٧٧
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ٧٧
بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٧٧
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٧٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٧٨

الآيات (١-١٠) ٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٧٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ٨٠
المعنى الإجماليُّ: ٨١
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٩٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٩١
بلاغةُ الآياتِ: ٩٣
الآيات (١١-١٧) ١٠٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٠٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٠٠
المعنى الإجماليُّ: ١٠١
تَفسيرُ الآياتِ: ١٠٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٠٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٠٨
بلاغةُ الآياتِ: ١١١

سورةُ الأعلَى

أسماءُ السُّورةِ: ١١٩
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ١٢٠
بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ١٢١
مَقاصِدُ السُّورةِ: ١٢١

مَوضوعاتُ السُّورةِ: ١٢١
الآيات (١-٨) ١٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٢٣
المعنى الإجماليُّ: ١٢٣
تَفسيرُ الآياتِ: ١٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٣١
بلاغةُ الآياتِ: ١٣٨
الآيات (٩-١٥) ١٤٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٤٧
المعنى الإجماليُّ: ١٤٨
تَفسيرُ الآياتِ: ١٤٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٥٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٥٦
بلاغةُ الآياتِ: ١٦١
الآيات (١٦-١٩) ١٦٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٦٩
المعنى الإجماليُّ: ١٦٩
تَفسيرُ الآياتِ: ١٦٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٧٣
بلاغةُ الآياتِ: ١٧٤

سورةُ الغاشِيةِ

أسماءُ السُّورةِ: ١٨١
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ١٨١
بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ١٨٢
مَقاصِدُ السُّورةِ: ١٨٢
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ١٨٢
الآيات (١-٧) ١٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٨٣
المعنى الإجماليُّ: ١٨٤
تَفسيرُ الآياتِ: ١٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٨٨
بلاغةُ الآياتِ: ١٩٢
الآيات (٨-١٦) ١٩٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٩٨
المعنى الإجماليُّ: ١٩٩
تَفسيرُ الآياتِ: ١٩٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٠٥
بلاغةُ الآياتِ: ٢٠٦
الآيات (١٧-٢٠) ٢١١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢١١
المعنى الإجماليُّ: ٢١١

تَفسيرُ الآياتِ: ٢١١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢١٥
بلاغةُ الآياتِ: ٢١٧
الآيات (٢١-٢٦) ٢٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٢٠
المعنى الإجماليُّ: ٢٢٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٢١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٢٦
بلاغةُ الآياتِ: ٢٢٧

سورةُ الفَجْرِ

أسماءُ السُّورةِ: ٢٣٥
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٢٣٥
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٢٣٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٢٣٥
الآيات (١-١٤) ٢٣٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٣٧
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٣٩
المعنى الإجماليُّ: ٢٣٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٤٠

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢٥٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٥٥
بلاغةُ الآياتِ: ٢٥٧
الآيات (١٥-٢٠) ٢٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٦٧
المعنى الإجماليُّ: ٢٦٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٦٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٧٧
بلاغةُ الآياتِ: ٢٨١
الآيات (٢١-٣٠) ٢٨٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٨٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٩٠
المعنى الإجماليُّ: ٢٩١
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٩١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٠١
بلاغةُ الآياتِ: ٣٠٣

سُورةُ البَلَدِ

أسماءُ السُّورةِ: ٣١٣
بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٣١٣

مَقاصِدُ السُّورةِ: ٣١٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٣١٣
الآيات (١-١٠) ٣١٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣١٥
المعنى الإجماليُّ: ٣١٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٣١٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٢٥
بلاغةُ الآياتِ: ٣٢٨
الآيات (١١-٢٠) ٣٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٣٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٣٥
المعنى الإجماليُّ: ٣٣٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٣٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٤٥
بلاغةُ الآياتِ: ٣٤٨

سُورةُ الشَّمسِ

أسماءُ السُّورةِ: ٣٥٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٣٥٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٣٥٩

مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٣٦٠
الآيات (١-١٠) ٣٦١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٦١
المعنى الإجماليُّ: ٣٦٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٦٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٧٣
بلاغةُ الآياتِ: ٣٧٦
الآيات (١١-١٥) ٣٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٨٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٨٤
المعنى الإجماليُّ: ٣٨٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٨٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٨٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٨٩
بلاغةُ الآياتِ: ٣٩٠

سُورةُ اللَّيلِ

أسماءُ السُّورةِ: ٣٩٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٣٩٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٣٩٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٤٠٠

الآيات (١-١١) ٤٠١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٠١
المعنى الإجماليُّ: ٤٠٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٠٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٤١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤١٢
بلاغةُ الآياتِ: ٤١٦
الآيات (١٢-٢١) ٤٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٢٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٤٢٤
المعنى الإجماليُّ: ٤٢٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٢٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٤٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٣٠
بلاغةُ الآياتِ: ٤٣٣

سُورةُ الضُّحى

أسماءُ السُّورةِ: ٤٤١
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٤٤١
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٤٤١
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٤٤٢
الآيات (١-١١) ٤٤٣

غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٤٣
المعنى الإجماليُّ:..... ٤٤٤
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٤٤٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:..... ٤٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:..... ٤٥٦
بلاغةُ الآياتِ: ٤٦٢

سُورةُ الشَّرْحِ

أسماءُ السُّورةِ: ٤٧٥
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٤٧٥
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٤٧٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ:..... ٤٧٥
الآيات (١-٨) ٤٧٧
غَريبُ الكَلِماتِ:..... ٤٧٧
المعنى الإجماليُّ:..... ٤٧٧
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٤٧٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:..... ٤٨٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:..... ٤٨٧
بلاغةُ الآياتِ:..... ٤٩٣

سُورةُ التِّينِ

أسماءُ السُّورةِ: ٥٠٥
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٥٠٥

مَقاصِدُ السُّورةِ: ٥٠٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٥٠٥
الآيات (١-٨) ٥٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٠٦
مُشكِلُ الإعرابِ: ٥٠٧
المعنى الإجماليُّ: ٥٠٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٠٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٥١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥١٧
بلاغةُ الآياتِ: ٥٢١
الفهرس ٥٢٩

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

التفسير المحرر للقرآن الكريم

من سورة العلق إلى سورة الناس

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الرابع والأربعون

الدرر السنية
www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة العلق إلى سورة الناس)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٤ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الرابع والأربعون - القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ الظهران، ١٤٤٤ هـ

١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٠-١٦-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- التفسير الحديث أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٤/٣٥٥

رقم الإيداع: ١٤٤٤/٣٥٥

ردمك: ٠-١٦-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة العلق إلى سورة الناس)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الرابع والأربعون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ العَلَقِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ العَلَقِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: العَلَقِ[١].

وسمِّيت أيضًا: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾:

فعن جابِرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((صلَّى مُعاذُ بنُ جَبَلٍ الأنصاريُّ بأصحابه العِشاءَ، فطَوَّل عليهم، فقال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أتُريدُ أن تكونَ فتَّانًا يا مُعاذُ؟ إذا أَمَمْتَ النَّاسَ فاقرَأْ بـ «الشَّمسِ وضُحاها» و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ و«اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى»))[٢].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- أنَّ الآياتِ الخَمْسَ مِن أوَّلِها هي أوَّلُ ما نزَل مِن القُرآنِ[٣].

فعن عائشةَ، زَوجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قالَتْ: ((كان أوَّلَ ما بُدِئَ به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الرُّؤْيَا الصَّادِقةُ في النَّومِ، فكان لا يَرى رُؤْيا إلَّا جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ[٤]، ثُمَّ حُبِّب إليه الخلاءُ، فكان يَلْحَقُ بغارِ حِراءٍ فيَتَحَنَّثُ فيه -قال[٥]: والتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ- اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ[٦]، قبْلَ أنْ يَرْجِعَ إلى أهلِه

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لذِكْرِ لَفظِ العَلَقِ في أوَّلِها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٤٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٥).

(٣) وهو قولُ أكثرِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٣).

(٤) فَلَقِ الصُّبْحِ: أي: ضَوئِه وإنارَتِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٧١).

(٥) يَحتمِلُ أنْ يكونَ مِن كلامِ عُروةَ راوي الحديثِ عن عائشةَ، أو مَنْ دونَه مِن رواةِ الحديثِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧١٧).

(٦) اللَّيالِيَ ذواتِ العَدَدِ: اللَّيالِيَ: مَنصوبةٌ على الظَّرفِ يتعَلَّقُ بقَولِه «يتحَنَّثُ»، وإبهامُ العددِ =

ويَتَزَوَّدُ لذلك، ثُمَّ يرجِعُ إلى خَديجةَ فيَتزَوَّدُ بِمِثْلِها، حتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فجاءَه المَلَكُ، فقال: اقْرَأْ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما أنا بقارِئٍ، قال: فأخَذَني فغَطَّني[١] حتَّى بَلَغ مِنِّي الجهْدَ[٢]، ثُمَّ أرْسَلَني، فقال: اقْرَأْ، قُلْتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخَذني فغَطَّني الثَّانيةَ حتَّى بَلَغ مِنِّي الجهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَني فقال: اقْرَأْ، قُلْتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخَذني فغطَّني الثَّالثةَ حتَّى بَلَغ منِّي الجهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلني، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ الآياتِ إلى قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[العلق: ١ - ٥]))[٣].

٢- في سُورةِ العلق سَجدةٌ.

وذلك عندَ قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾[العلق: ١٩][٤]، وممَّا يدُلُّ على ذلك ما جاء عن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْه، قال: ((سَجَدْنا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾[الانشقاق: ١]، و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾[العلق: ١]))[٥].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ العَلَقِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غَيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٦].

= لاختلافِه، وهو بالنِّسبةِ إلى المُدَدِ الَّتي يتخَلَّلُها مَجيئُه إلى أهلِه، وإلَّا فأصلُ الخَلوةِ قد عُرِفَت مُدَّتُها، وهي شَهرٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٣).

(١) فغَطَّني: الغَطُّ: العَصْرُ الشَّديدُ والكَبْسُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٧٣).

(٢) رُوِي بفتحِ الجيمِ والنَّصْبِ أيْ: بَلَغ الغَطُّ منِّي غايةَ وُسْعي، ورُوِي بضَمِّ الجيمِ والرَّفْعِ أيْ: بَلَغ منِّي الجُهْدُ مَبْلَغَه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠).

(٤) وهذا مذهبُ الجمهورِ مِن الحنفيَّة، والشَّافعيَّة، والحنابلة. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٢/ ١٠٤)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٩)، ((كشاف القناع)) للبُهوتي (١/ ٤٤٧).

(٥) أخرجه مسلم (٥٧٨).

(٦) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير =

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

تَثْبيتُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتهديدُ كلِّ مَن يقِفُ في وجهِ دعوةِ الإسلامِ[1].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- التَّنويهُ بشَأنِ القِراءةِ والكِتابةِ، والعِلمِ والتَّعَلُّمِ.

٢- التَّهديدُ لكُلِّ مَن يَقِفُ في وَجهِ دَعوةِ الإسلامِ.

٣- إعلامُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ تعالى مُطَّلِعٌ على ما يُبَيِّتُه له أعداؤُه، وأنَّه سُبحانَه قامِعُهم، وناصِرُه عليهم.

٤- أمْرُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَمضِيَ في طَريقِه، وأن يُصَلِّيَ ويقتَرِبَ مِن رَبِّه.

= ابن عطية)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٥١).

الآيات (١-٥)

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَلَقٍ﴾: أي: دمٍ جامدٍ، جمعُ عَلَقةٍ، والعَلَقُ: التَّشَبُّثُ بالشَّيءِ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: اقرَأْ -يا محمَّدُ- ما أُنزِلَ إليك مِن القُرآنِ مُفتَتِحًا بذِكرِ اسمِ رَبِّك الخالِقِ، خَلَقَ الإنسانَ مِن قِطعةِ دَمٍ غَليظٍ، اقرَأِ القُرآنَ، ورَبُّك الكَثيرُ الخَيراتِ ذو المحاسِنِ والمحامِدِ، الَّذي عَلَّمَ عِبادَه الخَطَّ بالقَلَمِ، علَّمَ الإنسانَ العُلومَ الَّتي لم يكُنْ يَعلَمُها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٢٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٣١٨)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

قال الماوَرْديُّ: (العَلَقُ جَمْعُ عَلَقةٍ، والعَلَقةُ: قِطْعةٌ مِن دَمٍ رَطْبٍ؛ سُمِّيَتْ بذلك لأنَّها تَعلَقُ لرُطوبتِها بما تَمُرُّ عليه، فإذا جَفَّتْ لم تكنْ عَلَقةً). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٠٤).

وقال ابن عاشور: (العَلَقُ: اسمُ جمعِ عَلَقةٍ، وهي قِطعةٌ قَدْرَ الأُنْمُلَةِ مِن الدَّمِ الغليظِ الجامِدِ الباقي رَطْبًا لم يَجفَّ، سُمِّي بذلك تشبيهًا لها بدودَةٍ صغيرةٍ تُسَمَّى عَلَقةً، وهي حمراءُ داكِنةٌ تكونُ في المياهِ الحُلوةِ، تمتصُّ الدَّمَ مِن الحيوانِ إذا عَلِقَ خُرْطومُها بجِلْدِه، وقد تَدخلُ إلى فَمِ الدَّابَّةِ -وخاصَّةً الخيلَ والبِغالَ- فتَعْلَقُ بلَهاتِه ولا يتَفَطَّنُ لها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٨).

أي: اقرَأْ -يا محمَّدُ- ما أُنزِلَ إليك مِن القُرآنِ مُفتَتِحًا بذِكرِ اسمِ رَبِّك الخالِقِ[١].

عن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها أنَّها قالت: ((أوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيا الصَّالِحةُ في النَّومِ، فكان لا يرى رُؤيا إلَّا جاءت مِثْلَ فَلَقِ الصُّبحِ، ثمَّ حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، وكان يخلو بغارِ حِراءٍ، فيَتحَنَّثُ فيه -وهو التَّعَبُّدُ- اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ قبْلَ أن يَنزِعَ[٢] إلى أهْلِه، ويَتزَوَّدُ لذلك، ثمَّ يَرجِعُ إلى خديجةَ فيَتزَوَّدُ لمِثْلِها، حتَّى جاءه الحَقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرَأْ. قال: ما أنا بقارِئٍ. قال: فأخَذَني فغَطَّني حتَّى بَلَغ منِّي الجَهْدَ، ثمَّ أرسَلَني، فقال: اقرَأْ. قُلتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخَذَني فغَطَّني الثَّانيةَ حتَّى بَلَغ منِّي الجَهْدَ ثمَّ أرسَلَني، فقال: اقرَأْ. فقُلتُ: ما أنا بقارِئٍ. فأخَذَني فغَطَّني الثَّالِثةَ ثمَّ أرسَلَني، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: ١ - ٣]))[٣].

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان خلْقُ الإنسانِ أوَّلَ النِّعَمِ الفائضةِ عليه من الله سبحانه وتعالَى، وأقدَمَ الدَّلائلِ الدَّالَّةِ على وُجودِه عزَّ وجلَّ وكَمالِ قُدرتِه وعِلمِه وحِكمتِه؛ وَصَفَ ذاتَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٦، ٤٣٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وإن كان خِطابًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أوَّلًا، فهو خِطابٌ لكُلِّ أحدٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣٢٤، ٣٢٥).

(٢) يَنْزِعَ: أي: يَرْجِعَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٣).

(٣) رواه البخاري (٣) واللَّفظُ له، ومسلم (١٦٠).

تعالَى بذلكَ أوَّلًا ليَستَشهِدَ عليه السَّلامُ بِهِ على تَمكينِه تعالَى لَه مِنَ القِراءةِ[١].

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢﴾.

أي: خَلَق الإنسانَ مِن دَمٍ غَليظٍ جامدٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٨].

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣﴾.

أي: اقرَأْ -يا محمَّدُ- القُرآنَ، ورَبُّك ذو المحاسِنِ والمحامِدِ، الكامِلُ الصِّفاتِ، الكَثيرُ الخَيراتِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧].

﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤﴾.

أي: الَّذي عَلَّم عِبادَه الخَطَّ بالقَلَمِ؛ فانتَفَعوا بالكِتابةِ نَفْعًا عَظيمًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).
قال ابنُ عطيَّة: (﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ على جهةِ التَّأنيسِ، كأنَّه يقولُ: امْضِ لِما أُمِرْتَ به، ورَبُّك ليس كهذه الأربابِ، بل هو الأكرَمُ الَّذي لا يَلحَقُه نَقصٌ، فهو يَنصُرُك ويُظهِرُك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَبَّه على ما في الكتابةِ مِنَ المنافِعِ الَّتي لا يُحيطُ بها غيرُه سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّه انبَنَت عليها استقامةُ أُمورِ الدُّنيا والدِّينِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وهي كافيةٌ في الدَّلالةِ على دَقيقِ حِكمتِه تعالى، ولطيفِ تَدبيرِه- زاد ذلك عَظَمةً على وَجهٍ يَعُمُّ غَيرَه، فقال[١]:

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾.

أي: علَّم الإنسانَ العُلومَ والأشياءَ النَّافِعةَ الَّتي لم يكُنْ يَعلَمُها[٢].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قَولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ أنَّ أوَّلَ السُّورةِ يدُلُّ على مَدحِ العِلمِ، وآخِرَها على مَذَمَّةِ المالِ، وكفى بذلك مُرَغِّبًا في الدِّينِ والعِلْمِ، ومُنَفِّرًا عن الدُّنيا والمالِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۞ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ تنبيهٌ على أنَّ العِلمَ أشرَفُ الصِّفاتِ الإنسانيَّةِ، كأنَّه تعالى يقولُ: الإيجادُ والإحياءُ والإقدارُ والرِّزقُ كَرَمٌ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: عَلَّم الإنسانَ الخَطَّ بالقَلَم ولم يكُنْ يَعلَمُه، مع أشياءَ غَيرِ ذلك ممَّا عَلَّمَه ولم يكُنْ يَعلَمُه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢١).

ورُبوبيَّةٌ، أمَّا الأكرَمُ فهو الَّذي أعطاك العِلمَ؛ لأنَّ العِلمَ هو النِّهايةُ في الشَّرَفِ[١].

٣- قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ فافتتحَ سُبحانَه السُّورةَ -وهي أوَّلُ سورةٍ أنزَلها الله في كتابِه- بالأمْرِ بالقِراءةِ النَّاشئةِ عن العِلمِ، وذكَر فيها ما مَنَّ به على الإنسانِ مِن تعليمِه ما لم يعلَمْ، فذكَر فيها فضلَه بتعليمِه، وتفضيلَه الإنسانَ بما علَّمه إياه، وذلك يدلُّ على شَرَفِ التَّعليمِ والعِلمِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ التَّنبيهُ على فَضيلةِ الكِتابةِ[٣]، وفيه إشارةٌ إلى الاهتمامِ بعِلمِ الكِتابةِ، وبأنَّ اللهَ يُريدُ أن يُكتَبَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يَنزِلُ عليه مِن القُرآنِ؛ فمِن أجْلِ ذلك اتَّخَذَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كُتَّابًا للوَحيِ مِن مَبدأِ بَعثتِه[٤].

٥- إنَّ دواءَ النِّسيانِ هو الكتابةُ؛ ولهذا امْتَنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ على عبادِه بها، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ثُمَّ قال: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ يعني: اقرَأْ مِن حِفْظِك، فإنْ لَمْ يكُنْ فمِنْ قَلَمِك؛ فاللهُ تبارك وتعالى بَيَّنَ لنا كيف نُداوي هذه العِلَّةَ -وهي عِلَّةُ النِّسيانِ-، وذلك بأنْ نُداويَها بالكِتابةِ، والآنَ أصبَحَتِ الكتابةُ أدَقَّ مِن الأوَّلِ؛ لأنَّه وُجِدَ -بحمدِ اللهِ- الآنَ المُسجِّلُ[٥]، وغيرُه مِن الوسائلِ الحديثةِ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- جِيءَ في وَصْفِ الرَّبِّ بطَريقِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾؛ لأنَّ في ذلك استِدلالًا على انفرادِ اللهِ بالإلهيَّةِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ سيُتْلى على المشرِكين؛ لِما تُفيدُه المَوصوليَّةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤١).

(٥) يُنظر: ((شرح المنظومة البيقونية)) لابن عثيمين (ص: ٣٩).

مِن الإيماءِ إلى عِلَّةِ الخبَرِ، وإذا كانت عِلَّةُ الإقبالِ على ذِكرِ اسمِ الرَّبِّ هي أنَّه خالقٌ، دلَّ ذلك على بُطلانِ الإقبالِ على ذِكرِ غيرِه الَّذي ليس بخالقٍ، فالمُشركون كانوا يُقْبِلون على اسمِ اللَّاتِ واسمِ العُزَّى، وكونُ اللهِ هو الخالقَ يَعترِفونَ به؛ قال تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، فلمَّا كان المَقامُ مَقامَ ابتِداءِ كِتابِ الإسلامِ دِينِ التَّوحيدِ، كان مُقتضيًا لذِكرِ أدلِّ الأوصافِ على وَحدانيَّتِه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إلى قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ هذا القَدْرُ مِن هذه السُّورةِ هو الَّذي نَزَلَ أوَّلًا بخِلافِ بقيَّةِ السُّورةِ، فإنَّما نَزَلَ بعدَ ذلك بزَمانٍ، والحكمةُ في هذه الأوَّليَّةِ أنَّ هذه الآياتِ الخَمسَ اشتَمَلتْ على مَقاصِدِ القرآنِ، ففيها بَراعةُ الاستِهلالِ[٢]، وهي جديرةٌ أنْ تُسَمَّى «عُنوانَ القُرآنِ»؛ لأنَّ عُنوانَ الكتابِ يجمَعُ مَقاصِدَه بعبارةٍ وجيزةٍ في أوَّلِه، وبيانُ كَونِها اشتَمَلتْ على مَقاصِدِ القرآنِ أنَّها تنحَصِرُ في علومِ التَّوحيدِ والأحكامِ والأخبارِ، وقد اشتَمَلتْ على الأمرِ بالقراءةِ والبُداءةِ فيها بـ «باسْمِ اللهِ»، وفي هذه الإشارةُ إلى الأحكامِ، وفيها ما يتعلَّقُ بتوحيدِ الرَّبِّ وإثباتِ ذاتِه وصِفاتِه مِن صفةِ ذاتٍ وصِفةِ فِعلٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى أُصولِ الدِّينِ، وفيها ما يتعلَّقُ بالأخبارِ مِن قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ استدَلَّ به مَن قال بوُجوبِ قراءةِ التَّسميةِ في ابتداءِ كُلِّ سُورةٍ، كما أنزَلَ اللهُ تعالى وأمَرَ به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٧).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧١٨، ٧١٩).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١٦٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢١٥). =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ سُؤالٌ عن توجيهِ الأمرِ بالقِراءةِ إلى نبيٍّ أمِّيٍّ!

الجوابُ: لا تَعارُضَ فيه؛ لأنَّ القِراءةَ تكونُ مِن مَكتوبٍ، وتكونُ مِن مَتْلوٍّ، وهنا مِن مَتْلُوٍّ يَتلوه عليه جبريلُ عليه السَّلامُ، وهذا إبرازٌ للمُعجزةِ أكثَرَ؛ لأنَّ الأمِّيَّ بالأمسِ صار مُعَلِّمًا اليومَ، وقد أشار السِّياقُ إلى نوعَيِ القِراءةِ هذَينِ؛ حيثُ جَمَع القراءةَ مع التَّعليمِ بالقَلَمِ[1].

٥- قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قَولِه: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ في الاقتِصارِ على أمرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقِراءةِ، ثمَّ إخبارِه بأنَّ اللهَ عَلَّم الإنسانَ بالقَلَمِ: إيماءٌ إلى استمرارِ صِفةِ الأمِّيَّةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّها وَصفٌ مُكَمِّلٌ لإعجازِ القُرآنِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾[2] [العنكبوت: ٤٨].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قَولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ جَمَعت هذه الآياتُ الخَمسُ مِن أوَّلِ السُّورةِ أُصولَ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ؛ فوَصفُ الرَّبِّ يتضَمَّنُ الوُجودَ والوحدانيَّةَ، ووَصفُ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ ووَصْفُ ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ يَقتَضيانِ صِفاتِ الأفعالِ، معَ ما فيه مِنَ الاستدلالِ القَريبِ على ثُبوتِ ما أُشيرَ إليه مِنَ الصِّفاتِ بما تَقتَضيه المَوصوليَّةُ مِن الإيماءِ إلى وَجهِ بِناءِ الخَبَرِ الَّذي يُذكَرُ معها، ووَصفُ ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ يتضمَّنُ صِفاتِ الكَمالِ، والتَّنزيهَ عن النَّقائِصِ[3].

= ويُنظَرُ لتفصيلِ الكَلامِ في البَسْملةِ وما يَتَعلَّقُ بقِراءتِها، وهل هي آيةٌ مِن الفاتِحةِ ومِن كلِّ سورةٍ أو ليست كذلك: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٨/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٠).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ أنَّه ما مِن شَيءٍ في السَّماءِ ولا في الأرضِ مِن خَفيٍّ وظاهرٍ وصَغيرٍ وكَبيرٍ إلَّا وهو مخلوقٌ للهِ عزَّ وجَلَّ؛ ولهذا قال: ﴿خَلَقَ﴾ وحَذَفَ المفعولَ؛ إشارةً للعُموم؛ لأنَّ حَذْفَ المفعولِ يفيدُ العُمومَ؛ إذْ لو ذَكَرَ المفعولَ لَتَقَيَّدَ الفِعلُ به، لو قال: خَلَقَ كذا، تَقَيَّدَ الخَلْقُ بما ذُكِرَ فقط، لكنْ إذا قال: ﴿خَلَقَ﴾ وأَطْلَقَ، صار عامًّا، فهو خالقُ كلِّ شيءٍ جلَّ وعَلا[١].

٨- قولُه تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ تنبيهٌ على أنَّ الرَّبَّ معروفٌ عندَ المخاطَبينَ، وأنَّ الفِطرةَ مُقِرَّةٌ به[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ القَولَ بأنَّ المعرِفةَ لا تحصُلُ إلَّا بالنَّظَرِ: غَلَطٌ؛ فإنَّ أوَّلَ ما أوجَبَ اللهُ على رَسولِه وعلى المؤمِنينَ هو ما أَمَرَ به في الآيةِ الكريمةِ هنا، والَّذين قالوا: المعرِفةُ لا تحصُلُ إلَّا بالنَّظَرِ قالوا: لو حَصَلتْ بغَيرِه لَسَقَطَ التَّكليفُ بها، فيُقالُ لهم: وليس فيما قَصَّ اللهُ علينا مِن أخبارِ الرُّسُلِ أنَّ منهم أحدًا أَوجَبَها، بل هي حاصِلةٌ عندَ الأُمَمِ جَميعِهم[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ وفي قَولِه: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ دَلالةٌ على ثُبوتِ صِفاتِ الكَمالِ له سُبحانَه، وأنَّه لم يَزَلْ مُتَّصِفًا بها[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ جُعِلَت العَلَقةُ مَبدَأَ الخَلْقِ، ولم تُجعَلِ النُّطْفةُ مَبدأَ الخَلْقِ؛ لأنَّ النُّطفةَ اشتَهَرت في ماءِ الرَّجُلِ، فلو لم تُخالِطْه نُطفةُ المرأةِ لم تَصِرِ العَلَقةُ، فلا يتخَلَّقُ الجنينُ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ خَلْقَ الإنسانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٦٨).

مِن عَلَقٍ ثمَّ مَصيرَه إلى كَمالِ أشُدِّه هو خَلْقٌ يَنطوي على قُوًى كامِنةٍ، وقابِليَّاتٍ عَظيمةٍ، أقصاها قابِليَّةُ العِلمِ والكِتابةِ(١).

وأيضًا وقَعَتِ الإشارةُ إلى «العَلَقةِ» دونَ «النُّطْفةِ»؛ لأنَّه ليس كلُّ نُطْفةٍ تصيرُ ولَدًا، وذلك بعدَ الأربعينَ الأُولى في أوَّلِ الطَّورِ الثَّاني؛ ولهذا -واللهُ أعلمُ- وقعتِ الإشارةُ إليه في أوَّلِ سُورةٍ أنزَلَها على رَسولِه؛ إذْ خَلْقُه مِن عَلَقةٍ هو أوَّلُ مَبدأِ الإنسانيَّةِ، وحينَئذٍ يُكتَبُ رِزْقُه وأَجَلُه وعَمَلُه، وشَقاوتُه أو سَعادتُه(٢).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ سُؤالٌ: أنَّه بَيَّنَ سُبحانَه في آياتٍ أُخرى أنَّه خَلَقَ الإنسانَ مِن تُرابٍ، وفي آياتٍ أخرى: خَلَقَه مِن طينٍ، وفي آياتٍ أخرى: مِن صَلْصالٍ كالفَخَّارِ، وفي آياتٍ أُخرى: مِن ماءٍ دافقٍ، وفي آياتٍ أخرى: مِن ماءٍ مَهينٍ، وفي هذه الآيةِ: مِن عَلَقٍ، فهل في هذا تناقُضٌ؟

الجوابُ: ليس هناك تناقُضٌ، لكِنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَذْكُرُ أحيانًا مَبدأَ الخَلْقِ مِن وجهٍ، ومَبدأَ الخَلْقِ مِن وَجهٍ آخَرَ؛ فخَلْقُه مِن ترابٍ لأنَّ أوَّلَ ما خُلِقَ الإنسانُ مِن التُّرابِ، ثُمَّ صُبَّ عليه الماءُ فكان طينًا، ثُمَّ استمرَّ مُدَّةً فكان حَمَأً مَسْنونًا، ثُمَّ طالتْ مُدَّتُه فكان صَلْصالًا، ثُمَّ خَلَقَه عزَّ وجلَّ لحمًا وعَظْمًا وعَصَبًا... إلى آخِرِه، هذا ابتِداءُ الخَلْقِ المتعلِّقِ بآدمَ. والخَلْقُ الآخرُ مِن بَنِيه أوَّلُ مَنْشَئِهم مِن نُطْفةٍ، وهي الماءُ المَهينُ، وهي الماءُ الدَّافِقُ، هذه النُّطْفةُ تبقى في الرَّحِمِ أربعينَ يومًا، ثُمَّ تتحَوَّلُ شيئًا فشَيئًا، وبتَمامِ الأربعينَ تتقَلَّبُ بالتَّطوُّرِ والتَّدريجِ حتَّى تكونَ دَمًا عَلَقةً(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٨).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ أنَّ مِن إعجازِ القُرآنِ العِلميِّ ذِكْرَ العَلَقةِ؛ لأنَّ الثَّابتَ في العِلمِ الآنَ أنَّ الإنسانَ يَتخلَّقُ مِن بُويضةٍ دَقيقةٍ جِدًّا لا تُرى إلَّا بالمِرآةِ المُكبِّرةِ أضعافًا، ولا تَقبَلُ التَّخلُّقَ حتَّى تُخالِطَها نُطفةُ الرَّجُلِ، فتَمتزِجَ معها، فَتأخُذَ في التَّخلُّقِ إذا لم يَعُقْها عائقٌ، كما قال تعالَى: ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ [الحج: ٥]، فإذا أخَذَت في التَّخلُّقِ والنُّموِّ امتدَّ تَكوُّرُها قَليلًا، فشابَهَت العَلَقةَ الَّتي في الماءِ[١] مُشابَهةً تامَّةً في دِقَّةِ الجِسمِ وتَلوُّنِها بلَونِ الدَّمِ الَّذي هي سابحةٌ فيه، وفي كَونِها سابحةً في سائلٍ كما تَسبَحُ العَلَقةُ[٢].

١٤- قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ فالقادِرُ على إيجادِ إنسانٍ في أحسنِ تقويمٍ مِن هذه العلقةِ، قادرٌ على جعلِك قارئًا وإن لم تكُنْ تعلَمُ القراءةَ مِن قبلِ، كما أوجَد الإنسانَ مِن تلك العلقةِ ولم يكُنْ موجودًا مِن قبلُ، ولأنَّ الذي يتعهَّدُ تلك العلقةَ حتَّى تكتمِلَ إنسانًا يتعهَّدُها بالرِّسالةِ[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾ إشارةٌ إلى ما ينطوي في أصلِ خَلْقِ الإنسانِ مِن بَديعِ الأطوارِ والصِّفاتِ الَّتي جعَلَتْه سُلطانَ هذا العالَمِ الأرضيِّ[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ مجيءُ الوَصفِ هنا بـ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ بدلًا مِن أيِّ صِفةٍ أُخرى؛ لِما في هذه الصِّفةِ مِن تلاؤُمٍ للسِّياقِ ما لا يُناسِبُ مَكانَها غَيرُها؛

---

(١) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٨).
والمَعروفُ أنَّ العَلَقةَ -وهي الطَّورُ الثَّاني الَّذي تَنتَقِلُ إليه النُّطْفةُ- أهَمُّ ما يُميِّزُها في هذه المَرحَلةِ هو التَّعلُّقُ، فوَصْفُ العَلَقةِ العالِقةِ بجِدارِ الرَّحِمِ والمُحاطةِ بالدَّمِ المُتَجمِّدِ هو أدَقُّ وَصْفٍ لهذه المَرْحلةِ؛ ففيها جُمْلةُ تَعلُّقاتٍ. يُنظر: ((خلق الإنسان)) للبار (ص: ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تتمة الأضواء)) لعطية سالم (٩/ ١٥، ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٨).

لعِظَمِ العَطاءِ، وجَزيلِ المِنَّةِ؛ فأوَّلًا: رحمةُ الخليقةِ بهذه القراءةِ الَّتي ربَطَت العِبادَ برَبِّهم، وكفى. وثانيًا: نِعمةُ الخَلْقِ والإيجادِ؛ فهما نِعمتانِ مُتكامِلَتانِ: الإيجادُ مِنَ العَدَمِ بالخَلْقِ، والإيجادُ الثَّاني مِن الجَهلِ إلى العِلمِ، ولا يكونُ هذا كُلُّه إلَّا مِن الرَّبِّ الأكرَمِ سُبحانَه[1].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ سمَّى اللهُ ووَصَفَ نفْسَه بالكَرَمِ، وبأنَّه الأكرَمُ بعدَ إخبارِه أنَّه خَلَقَ؛ لِيُتبيَّنَ أنَّه يُنْعِمُ على المخلوقينَ ويُوصِلُهم إلى الغاياتِ المحمودةِ، كما قال في موضعٍ آخَرَ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣]، وكما قال موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وكما قال الخليلُ عليه السَّلامُ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، فالخَلْقُ يتضمَّنُ الابتداءَ، والكَرَمُ يتضمَّنُ الانتهاءَ، وكما قال في أمِّ القُرآنِ: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ثمَّ قال ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ولَفظُ الكَرَمِ لَفظٌ جامِعٌ للمحاسِنِ والمحامِدِ، لا يُرادُ به مجرَّدُ الإعطاءِ، بل الإعطاءُ مِن تمامِ معناه؛ فإنَّ الإحسانَ إلى الغيرِ تمامُ المحاسِنِ، والكَرَمُ كثرةُ الخَيرِ ويُسْرتُه[2].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ يَقتضي اتِّصافَه بالكَرَمِ في نفْسِه، وأنَّه الأكرَمُ، وأنَّه مُحْسِنٌ إلى عبادِه؛ فهو مُستحِقٌّ للحَمدِ لمحاسِنِه وإحسانِه[3].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ أخبَرَ أنَّه «الأكرَمُ» بصيغةِ التَّفضيلِ والتَّعريفِ لها؛ فدلَّ على أنَّه الأكرَمُ وَحْدَه، بخلافِ ما لو قال: «وربُّك أكرَمُ»؛ فإنَّه لا يدُلُّ على الحَصرِ، وقَولُه: ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ يدُلُّ على الحَصرِ، ولم يَقُلْ: «الأكرَمُ مِن كذا»، بل أطلَقَ الاسمَ؛ لِيُبيِّنَ أنَّه الأكرمُ مطلقًا غيرَ مُقيَّدٍ؛ فدلَّ على أنَّه متَّصِفٌ بغايةِ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣١٧).

الكَرَمِ الَّذي لا شيءَ فوقَه، ولا نَقْصَ فيه[١].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ سؤالٌ: أنَّه إذا كان تعالى تمدَّح بأنَّه عَلَّم بالقَلَمِ، وفي ذلك إشادةٌ بشأنِ القَلَم، فلماذا لم يكُنِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كاتِبًا به، ولا مِن أهْلِه، بل كان أمِّيًّا لا يقرَأُ ولا يكتُبُ؟!

الجوابُ مِن جِهَتينِ:

الأُولى: أنَّه أكمَلُ للمُعجِزةِ؛ حيث أصبحَ النَّبيُّ الأمِّيُّ مُعَلِّمًا، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

الثَّانيةُ: أنَّه لم يكُنْ هذا النَّبيُّ الأمِّيُّ مُغفِلًا شأنَ القَلَم، بل عُنِيَ به كُلَّ العنايةِ، وأوَّلُها وأعظَمُها أنَّه اتَّخذ كُتَّابًا للوَحْيِ يَكتُبونَ ما يُوحى إليه بيْن يَدَيه، مع أنَّه يَحفَظُه ويَضبِطُه، وتعهَّدَ اللهُ له بحِفْظِه وبضَبْطِه[٢].

٢١- قولُه تعالى: ﴿ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ كأنَّه ليس وَراءَ التَّكرُّمِ بإفادةِ الفوائدِ العِلميَّةِ تَكرُّمٌ؛ فدَلَّ على كَمالِ كَرَمِه بأنَّه علَّمَ عِبادَه ما لم يَعلَموا، ونَقَلَهم مِن ظُلمةِ الجهْلِ إلى نُورِ العِلم، ونبَّهَ على فَضلِ عِلمِ الكتابةِ؛ لِما فيه مِن المنافعِ العَظيمةِ الَّتي لا يُحيطُ بها إلَّا هو، وما دُوِّنَت العلومُ، ولا قُيِّدَت الحِكَمُ، ولا ضُبِطَت أخبارُ الأوَّلينَ ولا مَقالاتُهم ولا كُتبُ اللهِ المُنزَّلةِ؛ إلَّا بالكتابةِ، ولولا هي لَما استَقامَتْ أُمورُ الدِّينِ والدُّنيا، ولو لم يكُنْ على دَقيقِ حِكمةِ اللهِ تعالَى ولَطيفِ تَدبيرِه دَليلٌ إلَّا أمْرَ الخطِّ والقلَمِ؛ لَكفى به[٣].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٨، ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٧).

٢٢- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وقد حَصَلَت مِن ذِكرِ التَّعليمِ بالقلَمِ والتَّعليمِ الأعمِّ، إشارةٌ إلى ما يَتلقَّاهُ الإنسانُ مِن التَّعاليمِ، سواءٌ أكان بالدَّرسِ أمْ بمُطالَعةِ الكُتبِ، وأنَّ تَحصيلَ العلومِ يَعتمِدُ أُمورًا ثلاثةً:

أحدُها: الأخْذُ عن الغيرِ بالمراجَعةِ والمُطالَعةِ، وطَريقُهما الكتابةُ وقِراءةُ الكتبِ؛ فإنَّ بالكتابةِ أمكَنَ للأُمَمِ تَدوينُ آراءِ عُلماءِ البشَرِ، ونَقْلُها إلى الأقطارِ النَّائيةِ، وفي الأجيالِ الجائيةِ.

والثَّاني: التَّلقِّي مِن الأفواهِ بالدَّرسِ والإملاءِ.

والثَّالثُ: ما تَنقدِحُ به العقولُ مِن المُستنبَطاتِ والمخترَعاتِ، وهذانِ داخلانِ تحتَ قولِه تعالَى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، وفي ذلك اطمئنانٌ لنفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ عَدَمَ مَعرفتِه الكتابةَ لا يَحولُ دونَ قِراءتِه؛ لأنَّ اللهَ علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلَمْ، فالَّذي علَّمَ القراءةَ لأصحابِ المعرفةِ بالكتابةِ قادرٌ على أنْ يُعلِّمَك القراءةَ دونَ سَبْقِ مَعرفةٍ بالكتابةِ[1].

٢٣- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ ذكَرَ التَّعليمَ بالقلَمِ الَّذي هو مِن أعظَمِ نِعَمِه على عبادِه؛ إذ به تَخلُدُ العُلومُ، وتَثبُتُ الحقوقُ، وتُعلَمُ الوصايا، وتُحفَظُ الشَّهاداتُ، ويُضبَطُ حِسابُ المعاملاتِ الواقعةِ بيْن النَّاسِ، وبه تُقَيَّدُ أخبارُ الماضينَ للباقينَ اللَّاحِقينَ، ولولا الكتابةُ لَانقطَعَت أخبارُ بَعضِ الأزمنةِ عن بعضٍ، ودَرَسَت السُّنَنُ، وتخبَّطَت الأحكامُ، ولم يَعرِفِ الخَلَفُ مَذاهِبَ السَّلَفِ، وكان مُعظَمُ الخَلَلِ الدَّاخِلِ على النَّاسِ في دينِهم ودُنياهم إنَّما يَعتريهم مِن النِّسيانِ الَّذي يمحو صُوَرَ العِلمِ مِن قُلوبِهم، فجَعَل لهم الكتابَ وِعاءً حافِظًا للعِلمِ مِنَ الضَّياعِ، كالأوعيةِ الَّتي تحفَظُ الأمتعةَ مِنَ الذَّهابِ والبُطلانِ؛ فنِعمةُ اللهِ عزَّ وجَلَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤١).

بتعليمِ القَلَمِ بعدَ القرآنِ مِن أجَلِّ النِّعَمِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾

- لم يُذكَرْ لفعلِ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ مَفعولٌ؛ إمَّا لأنَّه نُزِّلَ مَنزلةَ اللَّازمِ وأنَّ المَقصودَ: أَوجِدِ القراءةَ، وإمَّا لظُهورِ المَقروءِ مِن المَقامِ، وتَقديرُه: اقرَأْ ما سنُلْقِيه إليك مِن القرآنِ[٢].

- وقولُه: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ فيه وُجوهٌ؛ أوَّلُها: أنْ يكونَ افتتاحَ كَلامٍ بعْدَ جُملةِ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وهو أوَّلُ المَقروءِ، أي قُلْ: باسمِ اللهِ، فتَكونَ الباءُ للاستعانةِ، فيَجوزُ تَعلُّقُه بمَحذوفٍ تَقديرُه: ابتَدِئْ، ويَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بـ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الثَّاني، فيَكونَ تَقديمُه على مَعمولِه للاهتمامِ بشَأنِ اسمِ اللهِ، ومعْنى الاستعانةِ باسمِ اللهِ ذِكرُ اسمِه عِندَ هذه القِراءةِ، وإقحامُ كَلمةِ (اسم)؛ لأنَّ الاستعانةَ بذِكرِ اسمِه تعالَى لا بذاتِه، وهذا الوجْهُ يَقْتضي أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: (باسمِ اللهِ) حِينَ تَلقَّى هذه الجُملةَ.

الثَّاني: أنْ تكونَ الباءُ للمُصاحَبةِ، ويكونَ المَجرورُ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الثَّاني مُقدَّمًا على عامِلِه للاختصاصِ، أي: اقرَأْ ما سَيُوحى إليك مُصاحِبًا قِراءتَك (اسْم ربِّك)، فالمُصاحَبةُ مُصاحَبةُ الفَهمِ والملاحظةِ لجَلالِه، ويكونَ هذا إثباتًا لوَحدانيَّةِ اللهِ بالإلهيَّةِ، وإبطالًا للنِّداءِ باسمِ الأصنامِ الَّذي كان يَفعَلُه المشركون؛ يَقولون: باسمِ اللَّاتِ، باسمِ العُزَّى، فهذا أوَّلُ ما جاء مِن قَواعدِ الإسلامِ قدِ افتُتِحَ به أوَّلُ الوحْيِ.

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٦).

الثَّالثُ: أنْ تكونَ الباءُ بمعْنى (على)، كقولِه تعالَى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ [آل عمران: ٧٥]، أي: على قِنطارٍ، والمعْنى: اقرَأْ على اسمِ ربِّك، أي: على إذْنِه، أي: إنَّ المَلَكَ جاءك على اسمِ ربِّك، أي: مُرسَلًا مِن ربِّك، فذِكرُ (اسم) على هذا مُتعيِّنٌ(١).

- قولُه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ جاءَ باسمِ ربِّك، ولم يأتِ بلَفظِ الجَلالةِ؛ لِمَا في لفْظِ الرَّبِّ مِن معنى الَّذي ربَّاك ونظَر في مصلحتِك؛ فعُدِلَ عن اسْمِ اللهِ العَلَمِ إلى صِفةِ ﴿رَبِّكَ﴾؛ لِما يُؤذِنُ وَصْفُ الرَّبِّ مِن الرَّأفةِ بالمَربوبِ والعِنايةِ به، مع ما يَتأتَّى بذِكرِه مِن إضافتِه إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إضافةً مُؤذِنةً بتَبْليغِه عليه السَّلامُ إلى الغايةِ القاصيةِ مِنَ الكَمالاتِ البَشريَّةِ بإنْزالِ الوَحيِ المُتواتِرِ، وأنَّه المُنفرِدُ برُبوبيَّتِه عندَه، ردًّا على الَّذين جَعَلوا لأنفُسِهم أربابًا مِن دُونِ اللهِ، فجاء الخِطابُ ﴿رَبِّكَ﴾؛ ليدُلَّ على الاختصاصِ والتَّأنيسِ، أي: ليس لك رَبٌّ غيرُه(٢).

- ووَصْفُ الربِّ بقَولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ لتَذكيرِ أوَّلِ النَّعماءِ الفائضةِ على الإنسانِ من الله تعالَى، والتَّنبيهِ على أنَّ مَنْ قدَرَ عَلى خلْقِ الإنسانِ على ما هو عليه مِن الحياةِ وما يَتْبَعُها مِنَ الكَمالاتِ العِلميَّةِ والعَمَليَّةِ، مِن مادَّةٍ لم تَشَمَّ رائحةَ الحياةِ فضْلًا عن سائرِ الكَمالاتِ؛ قادرٌ على تَعليمِ القراءةِ للحيِّ العالِمِ المُتكلِّمِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٦، ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٧).

- وكذلك في قولِه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ لم يَذكُرْ مَفعولَ ﴿خَلَقَ﴾ الأوَّلِ، ثمَّ قال: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ وذلك إمَّا ألَّا يُقدَّرَ له مَفعولٌ لتَنزيلِ الفِعلِ مَنزلةَ اللَّازمِ، أي: الَّذي هو الخالقُ، وأنْ يُرادَ أنَّه الَّذي حَصَلَ منه الخلْقُ واسْتأثَرَ به، لا خالقَ سِواهُ، وإمَّا أنْ يُقدَّرَ له مَفعولٌ، ويُرادَ: خَلَقَ كلَّ شَيءٍ، فيَتناوَلَ كلَّ مَخلوقٍ؛ لأنَّه مُطلَقٌ، فليس بَعضُ المخلوقاتِ أَولى بتَقديرِه مِن بَعضٍ، ويكونَ قولُه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ تَخصيصًا للإنسانِ بالذِّكرِ مِن بيْنِ ما يَتناوَلُه الخلْقُ؛ لأنَّ التَّنزيلَ إليه، وهو أشرَفُ ما على الأرضِ، وأظهَرُ صُنْعًا وتَدْبيرًا، وأدَلُّ على وُجوبِ العبادةِ المقصودةِ مِن القراءةِ، أو أنْ يكونَ تَقديرُه: الَّذي خَلَقَ الإنسانَ؛ اعتمادًا على ما يَرِدُ بعْدَه مِن قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، فقيل: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ مُبهَمًا، ثمَّ فسَّرَه بقولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ تَفخيمًا لخلْقِ الإنسانِ، ودَلالةً على عَجيبِ فِطرتِه[1].

- وجُملةُ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ بدَلًا مِن جُملةِ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ بدَلَ مُفصَّلٍ مِن مُجمَلٍ، إنْ لم يُقدَّرْ له مَفعولٌ، أو بدَلَ بَعضٍ، إنْ قُدِّرَ له مَفعولٌ عامٌّ، وسُلِكَ طَريقُ الإبدالِ؛ لِما فيه مِن الإجمالِ ابتداءً لإقامةِ الاستِدلالِ على افتقارِ المَخلوقاتِ كلِّها إليه تعالَى؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ الشُّروعِ في تَأسيسِ مِلَّةِ الإسلامِ، ففي الإجمالِ إحضارٌ للدَّليلِ مع الاختصارِ، مع ما فيه مِن إفادةِ التَّعميمِ، ثمَّ يكونُ التَّفصيلُ بعْدَ ذلك لزِيادةِ تَقريرِ الدَّليلِ، ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ بَيانًا مِن ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إذا قُدِّرَ لِفعلِ ﴿خَلَقَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٧).

الأوَّلِ مَفعولٌ دلَّ عليه بَيانُه، فيَكونَ تَقديرُ الكلامِ: اقرَأْ باسمِ ربِّك الَّذي خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَقٍ[١].

- وخُصَّ خلْقُ الإنسانِ بالذِّكرِ مِن بيْنِ بَقيَّةِ المخلوقاتِ؛ لأنَّه المُطَّردُ في مَقامِ الاستدلالِ؛ إذ لا يَغفُلُ أحدٌ مِن النَّاسِ عن نفْسِه، ولا يَخْلو مِن أنْ يَخطُرَ له خاطرُ البحثِ عن الَّذي خَلَقَه وأوجَدَه؛ ولذلك قال تعالَى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وفيه تَعريضٌ بتَحميقِ المشركين الَّذين ضلُّوا عن تَوحيدِ اللهِ تعالَى مع أنَّ دَليلَ الوَحدانيَّةِ قائمٌ في أنفُسِهم[٢]!

- قولُه: ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾، أيْ: دمٍ جامدٍ؛ لبَيانِ كَمالِ قُدرتِه تعالَى بإظهارِ ما بيْن حالتِه الأُولى والآخرةِ مِن التَّبايُنِ البيِّنِ. وإيرادُه بلَفْظِ الجمْعِ؛ لأنَّ الإنسانَ في معنى الجَمعِ، كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ٢]، ولمُراعاةِ الفَواصلِ. ولعلَّه هو السِّرُّ في تَخصيصِه بالذِّكرِ مِن بيْنِ سائرِ أطْوارِ الفِطرةِ الإنسانيَّةِ، مع كَونِ النُّطفةِ والتُّرابِ أدَلَّ منْه على كَمالِ القُدرةِ؛ لكَونِهما أبعَدَ منْهُ بالنِّسبةِ إلى الإنسانيَّةِ[٣].

- وقيل: إنَّما ذُكِرَ مَن خُلِقَ مِن عَلَقٍ؛ لأنَّهم مُقِرُّون به، ولم يُذكَرْ أصْلُهم آدَمُ؛ لأنَّه ليس مُتقرِّرًا عندَ الكفَّارِ، فسِيقَ الفرْعُ، وتُرِكَ أصْلُ الخِلقةِ تَقريبًا لأفهامِهم[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٥، ٧٧٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٧). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٠١- ٤٠٢).

- قولُه: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ جاء الأمرُ بالقِراءةِ ثانيًا تَأنيسًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كأنَّه قِيل: امْضِ لِما أُمِرْتَ به، وربُّك ليس مِثلَ هذه الأربابِ، بلْ هو الأكرَمُ الَّذي لا يَلحَقُه نقْصٌ[1]. وقيل: قولُه: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، أي: افعَلْ ما أُمِرْتَ به؛ تَكرَّرَ للمُبالَغةِ، وتَأكيدًا للإيجابِ، وتَمهيدًا لِما يَعقُبُه مِن قولِه تعالَى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ...﴾ إلخ؛ ففِعلُ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الثَّاني تأكيدٌ لـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الأوَّلِ؛ للاهتمامِ بهذا الأمرِ. وقيل: الأوَّلُ مطلقٌ، والثَّاني للتَّبليغِ أو في الصَّلاةِ[2].

- قولُه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ جُملةٌ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، فلها حُكْمُ الاستئنافِ، و(رَبُّكَ) مُبتدَأٌ، وخَبرُه إمَّا ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾، وإمَّا جُملةُ ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، وهذا الاستِئنافُ بَيانيٌّ، فإذا نَظَرْتَ إلى الآيةِ مُستقِلَّةً عمَّا تَضمَّنَه حَديثُ عائشةَ رضيَ الله عنها في وَصْفِ سَببِ نُزولِها، كان الاستِئنافُ ناشئًا عن سُؤالٍ يَجيشُ في خاطرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَقولَ: كيف أقرَأُ وأنا لا أُحسِنُ القراءةَ والكتابةَ؟ فأُجيبَ بأنَّ الَّذي علَّمَ القراءةَ بواسطةِ القَلَمِ -أي: بواسطةِ الكِتابةِ- يُعلِّمُك ما لم تَعلَمْ، وإذا قرَنْتَ بيْن الآيةِ وبيْن الحديثِ المذكورِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢٩).

وقال ابن عثيمين: (﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ تَكرارٌ للأُولى، لكِنْ هل هي توكيدٌ أو هي تأسيسٌ؟ الصَّحيحُ أنَّها تأسيس، وأنَّ الأُولى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ قُرِنَت بما يتعَلَّقُ بالرُّبوبيَّةِ، و﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ قُرِنَت بما يتعَلَّقُ بالشَّرعِ؛ ... لأنَّ التَّعليمَ بالقَلَمِ أكثَرُ ما يعتَمِدُ الشَّرعُ عليه؛ إذ إنَّ الشَّرعَ يُكتَبُ ويُحفَظُ، والقُرآنَ يُكتَبُ ويُحفَظُ، والسُّنَّةَ تُكتَبُ وتُحفَظُ، وكلامَ العُلَماءِ يُكتَبُ ويُحفَظُ؛ فلهذا أعادها اللهُ مرَّةً ثانيةً). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٩).

كان الاستئنافُ جَوابًا عن قولِه لجِبريلَ: ((ما أنا بقارئٍ))[١]؛ فالمعْنى: لا عَجَبَ في أنْ تَقرَأَ وإنْ لم تكُنْ مِن قبْلُ عالِمًا بالقِراءةِ؛ إذ العِلمُ بالقِراءةِ يَحصُلُ بوَسائلَ أُخرَى، مِثلُ الإمْلاءِ والتَّلقينِ والإلهامِ، وقد علَّمَ اللهُ آدَمَ الأسماءَ ولم يكُنْ آدَمُ قارئًا[٢].

- ووصْفُ ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ قيل: إنَّه مَصوغٌ للدَّلالةِ على قوَّةِ الاتِّصافِ بالكرَمِ، وليس مَصوغًا للمُفاضَلةِ، فهو مَسلوبُ المُفاضَلةِ، وقيل: هو على ظاهرِه، والمفضَّلُ عليه محذوفٌ لقصدِ العمومِ[٣].

- ومَفعولَا ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ مَحذوفانِ دلَّ عليهما قولُه: ﴿بِٱلْقَلَمِ﴾؛ إذ المَقصودُ إسنادُ التَّعليمِ إلى اللهِ تعالَى، وتَقديرُهما: علَّم الكاتِبينَ، أو علَّمَ ناسًا الكتابةَ[٤]. وفي حذْفِ المفعولِ أوَّلًا، وإيرادِه بعُنوانِ عدَمِ المَعلوميَّةِ ثانيًا مِن الدَّلالةِ على كَمالِ قُدرتِه تعالَى، وكَمالِ كَرَمِه، والإشعارِ بأنَّه تعالَى يُعلِّمُه مِن العلومِ ما لا تُحيطُ بِه العقولُ؛ ما لا يَخْفى[٥].

- ومُقْتضَى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (وعلَّمَ بالقلَمِ)، فعُدِلَ عن الإضمارِ؛ لتَأكيدِ ما يُشعِرُ به (ربُّك) مِن العِنايةِ المُستفادةِ مِن قولِه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وأنَّ هذه القِراءةَ شَأنٌ مِن شُؤونِ الرَّبِّ، اختَصَّ بها عَبْدَه؛ إتمامًا لنِعمةِ الرُّبوبيَّةِ عليه، وليَجرِيَ على لَفظِ الرَّبِّ وَصْفُ ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾[٦].

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي))(٨/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٩).

- وقيل: تَخصيصُ هذه الصِّلةِ ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ بالذِّكرِ، وجَعْلُها مُعترِضةً بيْنَ المُبتدأِ ﴿وَرَبُّكَ﴾ والخبَرِ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ للإيماءِ إلى إزالةِ ما خَطَرَ ببالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن تَعذُّرِ القِراءةِ عليه؛ لأنَّه لا يَعلَمُ الكِتابةَ، فكيفَ القِراءةُ؟! إذ قال للمَلَكِ: ((ما أنا بقارئٍ)) ثَلاثَ مرَّاتٍ؛ لأنَّ قولَه: ((ما أنا بقارئٍ)) اعتذارٌ عن تَعذُّرِ امتثالِ أمْرِه بقولِه: ﴿ٱقْرَأْ﴾؛ فالمعْنى: أنَّ الَّذي علَّمَ النَّاسَ الكتابةَ بالقَلَمِ والقراءةَ قادِرٌ على أنْ يُعلِّمَك القراءةَ وأنت لا تَعلَمُ الكِتابةَ[١].

- وقولُه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ بدَلُ اشتمالٍ[٢] مِن ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، أي: علَّمَه بِهِ وبدُونِه مِنَ الأمورِ الكُلِّيَّةِ والجُزئيَّةِ، والجَليَّةِ والخَفيَّةِ ما لم يَخطُرْ ببالِه[٣].

- وتَعريفُ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ تَعريفَ الجِنسِ، فيكونَ ارتقاءً في الإعلامِ بما قدَّرَه اللهُ تعالَى مِن تَعليمِ الإنسانِ بتَعميمِ التَّعليمِ بعْدَ تَخصيصِ التَّعليمِ بالقَلَمِ، فعدَّدَ عليه اكتسابَ العُلومِ بعْدَ الجهْلِ بها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٠).

(٢) بَدلُ الاشتمالِ: هو الَّذي يدُلُّ على مَعنًى في مَتْبوعِه أو صِفةٍ فيه، مِثلُ: أعْجَبَني مُحمَّدٌ خُلُقُه؛ فـ(خُلُقُه) بَدَلٌ مِن (مُحمَّدٌ)؛ بَدَلُ اشْتِمالٍ. يُنظر: ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٣/ ٣٦٥)، ((توضيح المقاصد)) للمرادي (٢/ ١٠٣٧)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) لابن مالك (٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨).

قال أبو العباسِ القرطبي: (﴿مَا﴾ لإبهامِها للعمومِ؛ إذ الله تعالى علَّم كلَّ واحدٍ مِن نوعِ الإنسانِ ما لم يكُنْ يعلَمُ، لكنَّ الامتنانَ إنَّما يحصُلُ بالعلومِ النَّافعةِ لا غيرُ، فهي المقصودةُ بهذا العمومِ، والله أعلمُ). ((المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم)) (٧/ ٤٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤١).

- وفيه ترتيبٌ حسنٌ بديعٌ، حيثُ عدَّدَ سُبحانه وتعالَى مَبدَأَ أمْرِ الإنسانِ ومُنتهاهُ إظهارًا لِما أنْعَمَ عليه؛ مِن أنْ نَقَلَه مِن أخسِّ المَراتبِ إلى أعْلاها؛ تَقريرًا لرُبوبيَّتِه، وتَحقيقًا لِأكْرَميَّتِه، وأشار أوَّلًا إلى ما يدُلُّ على مَعرفتِه عقْلًا، ثمَّ نبَّهَ على ما يدُلُّ عليها سَمْعًا[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥).

الآيات (٦-١٩)

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ١٩ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَيَطۡغَىٰٓ﴾: أي: يَتَجاوَزُ الحَدَّ في الخُروجِ عن الحَقِّ، وأصلُ (طغى): هو مجاوَزةُ الحَدِّ في العِصْيانِ[(١)].

﴿ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾: أي: المَرجِعَ والرُّجوعَ، يُقالُ: رجَعَ إليه يرجِعُ رُجوعًا ومَرجِعًا، ورُجْعَى: مصدَرٌ على فُعْلَى. وأصلُ (رجع): يدُلُّ على رَدٍّ وتَكرارٍ[(٢)].

﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾: أي: لَنَقبِضَنَّ بناصيتِه ونَجُرُّه بها ذليلًا، والسَّفْعُ: الجَذْبُ بشِدَّةٍ، يُقالُ: سَفَعَه: إذا اقتلَعَه مِن مَوضِعِه بجَذْبِ بَعْضِه جَذبًا شَديدًا. وقيل: أي: لَنُحرِقَنَّه ولَنُسَوِّدَنَّ وَجْهَه؛ مأخوذٌ مِن سفَعَتْه النَّارُ: إذا أحرَقَتْه، وغَيَّرَت وَجْهَه إلى حالِ تسويدٍ. والنَّاصيةُ: شَعرُ مُقَدَّمِ الرَّأسِ، وقد يُعَبَّرُ بها عن جملةِ الإنسانِ، وأصلُ (سفع): يدُلُّ على السَّوادِ، وعلى تناوُلِ شَيءٍ باليَدِ[(٣)].

﴿خَاطِئَةٖ﴾: الخاطِئُ: اسمُ فاعِلٍ مِن خَطِئَ: إذا فَعَل الخطيئةَ، وهي الإثمُ والذَّنبُ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٥).

ومَصْدَرُه: الخِطْءُ، وأصلُه: يدُلُّ على تعَدِّي الشَّيءِ، والذَّهابِ عنه[١].

﴿نَادِيَهُۥ﴾: أي: قَومَه وعَشيرتَه وأهلَ مَجلِسِه، يُقالُ: نَدَوْتُ القَومَ أَنْدُوهم نَدْوًا: إذا جمَعْتَهم، ويُقالُ للمَوضِعِ الَّذي يجتَمِعون فيه: النَّادِي، وأصلُ (ندو): يدُلُّ على تجَمُّعٍ[٢].

﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾: أي: ملائِكةَ العَذابِ الغِلاظَ الشِّدادَ؛ مأخوذٌ مِنَ الزَّبْنِ، وهو الدَّفعُ بشِدَّةٍ، وسُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم يَدفَعونَ أهلَ النَّارِ إليها، وأصلُ (زبن): يدُلُّ على الدَّفعِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا الأسبابَ الَّتي تحمِلُ الإنسانَ على الطُّغيانِ: كَلَّا! إنَّ مِن شأنِ الإنسانِ وطَبْعِه أن يطغَى إذا كَثُرَ مالُه، ورأى نَفْسَه غَنِيًّا بما أنعمَ اللهُ عليه، مُستَغنيًا عن غَيْرِه بذلك!

ثُمَّ يَتوعَّدُ اللهُ تَعالى مَن يَطْغى ويَعِظُه، فيقول: إنَّ إلى رَبِّك -يا محمَّدُ- المَرجِعَ والمصيرَ.

ثُمَّ يقولُ تَعالى مُعَجِّبًا نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن حالِ شَقِيٍّ مِن الأشْقِياءِ وأمْثالِه: أرأَيْتَ -يا محمَّدُ- هذا الطَّاغيَ أبا جَهلٍ الَّذي يَنهاك عن الصَّلاةِ؟ فماذا لو كان هذا العَبدُ المَنهيُّ عن الصَّلاةِ على استقامةٍ وسَدادٍ في صلاتِه لرَبِّه، أو كان آمِرًا بتقوى اللهِ؟!

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١١)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٠٢) و(٢٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٢).

أرأَيتَ- يا محمَّدُ- هذا الَّذي كذَّبَ بالحَقِّ، وأعرَضَ عن اتِّباعِه، ألم يعلَمْ بأنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عليه وعلى أفعالِه وأقوالِه؟

ثُمَّ يقولُ تَعالى مُتَوعِّدًا هذا الكافِرَ الشَّقِيَّ: كَلَّا! لَئِنْ لم يتوقَّفْ عن نهيِ محمَّدٍ عن الصَّلاةِ لَنأخُذَنَّ بناصيتِه إذلالًا له؛ تلك النَّاصيةِ الكاذِبةِ في أقوالِها، الخاطِئةِ في أفعالِها.

ثُمَّ يقولُ تَعالى مُتَهكِّمًا مِن هذا الكافِرِ: فلْيَدْعُ أبو جَهلٍ أهلَ مَجلِسِه مِن قَومِه وعَشيرتِه؛ لِيَستنصِرَ بهم، ونحن سنَدعو ملائِكةَ العَذابِ الغِلاظَ الشِّدادَ.

ثُمَّ يَأمُرُ اللهُ تَعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُداوِمَ على عِبادةِ رَبِّه، وألَّا يَنْقادَ لنَهْيِ هذا الكافِرِ، فيقولُ: كلَّا! لا تُطِعْه -يا محمَّدُ- في نَهْيِه لك عن الصَّلاةِ، ولا تُبالِ به، واسجُدْ لرَبِّك في صَلاتِك واقتَرِبْ منه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (قال أبو جَهلٍ: هل يُعفِّرُ محمَّدٌ وَجْهَه[1] بيْن أظهُرِكم[2]؟! فقيل: نعَمْ. فقال: واللَّاتِ والعُزَّى لئِنْ رأيتُه يَفعَلُ ذلك لَأطأَنَّ على رقَبتِه، أو لأُعفِّرَنَّ وَجْهَه في التُّرابِ، فأتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يصَلِّي؛ زعَمَ لِيَطَأَ على رَقَبتِه، قال: فما فَجِئَهم منه إلَّا وهو يَنكِصُ على عَقِبَيه، ويَتَّقي بيَدَيه. فقيل له: ما لَك؟! فقال: إنَّ بيْني وبيْنه لَخَنْدقًا مِن نارٍ وهَولًا

(١) هل يُعَفِّرُ محمَّدٌ وجْهَه: أي: يَسجُدُ ويُلصِقُه بالعَفَرِ، وهو التُّرابُ. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) لعياض (٨/ ٣٢٩).

(٢) بيْن أظْهُرِكم: أي: بيْنَكم. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٦/ ١٧٦).

وأجنحةً! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو دنا منِّي لَاختَطَفَته الملائكةُ عُضوًا عُضوًا، فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ -لا ندري في حديثِ أبي هُرَيرةَ، أو شَيءٌ بلَغَه[1]-: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۞ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۞ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۞ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۞ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۞ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۞ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٦ - ١٣] -يعني: أبا جَهلٍ- ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۞ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ۞ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۞ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۞ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق: ١٤ - ١٩])[2].

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى في مقَدِّمةِ السُّورةِ دلائِلَ ظاهِرةً على التَّوحيدِ والقُدرةِ والحِكمةِ بحيثُ يَبعُدُ مِن العاقِلِ ألَّا يطَّلِعَ عليها، ولا يَقِفَ على حقائِقِها؛ أتْبَعَها بما هو السَّبَبُ الأصليُّ في الغَفلةِ عنها، وهو: حُبُّ الدُّنيا، والاشتِغالُ بالمالِ والجاهِ، والثَّروةِ والقُدرةِ؛ فإنَّه لا سَبَبَ لعَمى القَلبِ في الحقيقةِ إلَّا ذلك[3].

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦﴾.

أي: ما هكذا يَنبغي أن يكونَ الإنسانُ؛ أن يُنعِمَ عليه رَبُّه بخَلْقِه وتعليمِه، ثمَّ يَكفُرَ به، ويَتجاوَزَ حَدَّه، ويَستكبِرَ عليه[4]!

---

(١) هذا مِن قولِ الرَّاوي عن أبي هريرةَ، يقولُ: لا نعلَمُ هل الإخبارُ عن إنزالِ الآيةِ داخلٌ فيما رآه أبو هريرةَ وحضَره، أو شيءٌ بلَغه عن غيرِه ممَّن حضَره ورآه. يُنظر: ((الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم)) للهرري (٢٥/ ٤٠١).

(٢) رواه مسلم (٢٧٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٠). =

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾.

أي: إنَّ مِن شأنِ الإنسانِ وطَبْعِه أن يَطغى إذا كَثُرَ مالُه، ورأى نَفْسَه غَنِيًّا بما أنعمَ اللهُ عليه، مُستَغنيًا عن غَيْرِه بذلك[1].

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾.

أي: إنَّ إلى رَبِّك -يا محمَّدُ- المَرجِعَ والمصيرَ، فيُجازي ذلك الطَّاغيَ على أعمالِه[2].

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠﴾.

أي: أرأَيْتَ -يا محمَّدُ- هذا الطَّاغيَ أبا جَهلٍ الَّذي ينهى عَبدًا للهِ -وهو محمَّدٌ

= قال الألوسي: (﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لمَن كفَر مِن جنسِ الإنسانِ بنعمةِ الله تعالى عليه بطغيانِه، وإن لم يُذكَرْ لدلالةِ الكلامِ عليه، وذلك لأنَّ مفتتحَ السُّورةِ إلى هذا المقطعِ يدلُّ على عظيمِ منَّتِه تعالى على الإنسانِ، فإذا قيل: ﴿كَلَّآ﴾ كان ردعًا للإنسانِ الذي قابَل تلك النِّعمَ الجلائلَ بالكفرانِ وبالطُّغيانِ، وكذلك التعليلُ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ أي: ليتجاوزُ الحدَّ في المعصيةِ واتِّباعِ هوَى النَّفسِ، ويستكبرُ على ربِّه عزَّ وجلَّ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٠٣).

وقال ابنُ القيِّم: (الإنسانُ هو الإنسانُ مِن حيثُ هو، من غيرِ اختصاصٍ بواحدٍ بعَينِه). ((الروح)) (ص: ١٢٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (كَلَّا: هي ردٌّ على أقوالِ أبي جَهلٍ وأفعالِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٦).

قال الألوسي: (الخطابُ قيل: للإنسانِ... وجُوِّز أنْ يكونَ الخطابُ لسيدِ المخاطَبينَ صلَّى الله عليه وسلَّم... ولعلَّه الأظهرُ نظرًا إلى الخطاباتِ قبلَه). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٠٤).

عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- إذا صلَّى لله سُبحانَه عِندَ الكَعْبةِ[١]؟

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

أي: ماذا لو كان هذا العَبدُ المَنهيُّ عن الصَّلاةِ على استقامةٍ وسَدادٍ في صلاتِه لرَبِّه[٢]؟

﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾.

أي: أو كان آمِرًا بتقوى اللهِ والحَذَرِ مِن سَخَطِه وعَذابِه، وأنت تَزجُرُه وتتَوعَّدُه إن صلَّى، فكيف يَجدُرُ ذلك بمَن تلك صِفتُه[٣]؟!

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

أي: أرأَيتَ- يا محمَّدُ- هذا الَّذي كذَّبَ بالحَقِّ، وأعرَضَ عن اتِّباعِه[٤]؟

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾.

أي: ألم يعلَمْ بأنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عليه وعلى أفعالِه وأقوالِه، وسيُجازيه على ذلك[٥]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨).

قال ابنُ عطيَّة: (لم يختَلِفْ أحدٌ مِن المفَسِّرينَ في أنَّ النَّاهيَ: أبو جَهلٍ، وأنَّ العبدَ المصَلِّيَ: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٣).

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يقولُ هذا الرَّجُلُ! وأُقسِمُ لَئِنْ لم يتوقَّفْ عن نهيِ محمَّدٍ عن الصَّلاةِ لَنأخُذَنَّ بمُقَدَّمِ رأسِه؛ إذلالًا له[١].

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

أي: لَنأخُذَنَّ بتلك النَّاصيةِ الكاذِبةِ في أقوالِها، الخاطِئةِ في أفعالِها[٢].

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٤).

ومِمَّن قال في الجُملةِ بأنَّ السَّفعَ: هو الأخذُ بعُنفٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٦٦).

قال ابنُ جرير: (﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ يقولُ: لنأخُذَنَّ بمقَدَّمِ رأسِه، فلَنُضِيمَنَّه ولَنُذِلَّنَّه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٦).

وقال الرازي: (هذا السَّفْعُ يحتملُ أنْ يكونَ المرادُ منه إلى النَّارِ في الآخرةِ، وأنْ يكونَ المرادُ منه في الدُّنيا). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٤).

ممن اختار الأوَّلَ -أي: لَنَأْخُذَنَّ بناصِيَتِه ولَنَجُرَّنَّه إلى النَّار: ابنُ أبي زَمَنين، والسَّمعاني، والبغوي، والرَّسْعني، والعُلَيمي، والشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٨٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٢).

وقال ابنُ جُزَي: (ويظهَرُ لي أنَّ هذا الوعيدَ نفذ عليه يومَ بدرٍ حينَ قُتِل وأُخِذ بناصيتِه فجُرَّ إلى القَليب). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٨).

وقيل: سَفْعُ النَّاصيةِ هو وَسْمُها بالسَّوادِ يومَ القيامةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).

أي: فلْيَدْعُ أبو جَهلٍ أهلَ مَجلِسِه مِن قَومِه وعَشيرتِه؛ لِيَستنصِرَ بهم[١].

عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصلِّي عندَ المقامِ، فمرَّ به أبو جهلِ بنِ هشامٍ، فقال: يا محمَّدُ ألم أنهَكَ عن هذا؟ وتوعَّدَه، فأغلَظ له رسولُ اللهِ وانتهرَه، فقال: يا محمَّدُ بأيِّ شيءٍ تُهدِّدُني؟ أما واللهِ إنِّي لأكثرُ هذا الوادي ناديًا، فأنزَل اللهُ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۞ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾، قال ابنُ عباسٍ: لو دعا ناديَه أخذتْه زبانيةُ العذابِ من ساعتِه))[٢].

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨﴾.

أي: ونحن سنَدعو ملائِكةَ العَذابِ الغِلاظَ الشِّدادَ إنْ دعا أبو جَهلٍ قَومَه[٣].

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٩﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يزعُمُ أبو جَهلٍ! فلا تُطِعْه في نَهْيِه لك عن الصَّلاةِ، ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٤٩)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٦٨٤)، وأحمد (٣٠٤٤) باختلافٍ يسيرٍ، وابن جرير في ((التفسير)) (٢٤/ ٥٢٥) واللفظُ له
قال الترمذي: (حسنٌ غريبٌ صحيحٌ). وقال الحاكم في ((المستدرك)) (٣٨٥٥): (صحيحُ الإسنادِ). وقال الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٢٧٥): (إسنادُه صحيحٌ على شرطِ مسلمٍ). وقال شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ١٦٧): (إسنادُه صحيحٌ).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٥).
وحُذِفَت الواوُ مِن ﴿سَنَدْعُ﴾ لَفظًا لالتِقاءِ السَّاكِنَينِ، وحُذِفَت في خَطِّ المُصحَفِ إتباعًا لِلَّفظِ، اختِصارًا وتخفيفًا. أو مشاكلةً لـ﴿فَلْيَدْعُ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤١٠).

تُبالِ به، ولا تَخْشَهْ، واسجُدْ لرَبِّك في صَلاتِك واقتَرِبْ منه[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أقرَبُ ما يكونُ العَبدُ مِن رَبِّه وهو ساجِدٌ؛ فأكثِروا الدُّعاءَ))[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ وعيدٌ للطَّاغي، وتحقيرٌ لغِنًى ينقَطِعُ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ أنَّ المالَ أحيانًا يُفْسِدُ صاحبَه، ويَحْمِلُه على أنْ يَستَكْبِرَ على الخَلْقِ، ويَرُدَّ الحَقَّ[٤]!

٣- قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ عِلَّةُ هذا الخُلُقِ أنَّ الاستِغناءَ تُحَدِّثُ صاحِبَه نَفْسُه بأنَّه غيرُ مُحتاجٍ إلى غَيرِه، وأنَّ غَيرَه محتاجٌ، فيرى نَفْسَه أعظَمَ مِن أهلِ الحاجةِ، ولا يزالُ ذلك التَّوَهُّمُ يَرْبو في نَفْسِه حتَّى يَصيرَ خُلُقًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٧٢، ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٦).
قال البقاعي: (﴿كَلَّآ﴾ أي: لا يَقدِرُ على دُعاءِ ناديه، ولا يَنتهي عن أذاه للمُطيعِ بالتَّهديدِ؛ فلْيَرتَدِعْ عن كُلِّ مِن ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٧٢).
وقال السعدي: (هذا عامٌّ لكُلِّ ناهٍ عن الخَيرِ، ومَنهيٍّ عنه، وإن كانت نازِلةً في شأنِ أبي جَهلٍ حينَ نهى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الصَّلاةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠، ٩٣١).
وقال ابنُ عثيمين: (المرادُ بالسُّجودِ هنا الصَّلاةُ، لكِنْ عَبَّر بالسُّجودِ عن الصَّلاةِ؛ لأنَّ السُّجودَ ركنٌ في الصَّلاةِ لا تَصِحُّ إلَّا به؛ فلهذا عَبَّرَ به عنها). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٦).
(٢) رواه مسلم (٤٨٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٦٣).
(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٥٤٦).

حيث لا وازِعَ يَزَعُه مِن دينٍ أو تفكيرٍ صَحيحٍ؛ فيَطغى على النَّاسِ لشُعورِه بأنَّه لا يَخافُ بأسَهم؛ لأنَّ له ما يَدفَعُ به الاعتِداءَ مِن لَأْمةِ (أي: دِرعِ) سِلاحٍ، وخَدَمٍ وأعوانٍ، ومُنتَفِعينَ بمالِه مِن شُرَكاءَ وعُمَّالٍ وأُجَراءَ، فهو في عِزَّةٍ عندَ نَفْسِه، فقد بَيَّنَت هذه الآيةُ حَقيقةً نَفسيَّةً عَظيمةً مِن الأخلاقِ وعِلمِ النَّفسِ، ونَبَّهَت على الحَذَرِ مِن تَغَلْغُلِها في النَّفسِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ عِظةٌ للنَّاسِ، وتهديدٌ لِمَن يمنَعُ غَيرَه عن الطَّاعةِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، وقولُه سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقَولُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] هذا شَأْنُ الإنسانِ مِن حيثُ ذاتُه ونفْسُه، وأمَّا خروجُه عن هذه الصِّفاتِ فهو بفَضْلِ ربِّه وتوفيقِه له ومِنَّتِه عليه، لا مِن ذاتِه؛ فليس له مِن ذاتِه إلَّا هذه الصِّفاتُ، وما به مِن نعمةٍ فمِن اللهِ وَحْدَه[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ أنَّ هذا هو الطَّبعُ الغالِبُ في الإنسانِ؛ متى استغنى عن شَيءٍ عَمِيَ عن مَواضِعِ افتِقارِه، فتغَيَّرت أحوالُه معه، وتجاوَزَ فيه ما ينبغي له الوُقوفُ عندَه، ((ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابنِ آدَمَ إلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٦).

التُّرابُ!))[١]، ومَن كان مفتَقِرًا إلى شَيءٍ كان مُنطاعًا له، كما في حديثِ ((آخِرُ أهلِ النَّارِ خُروجًا منها))[٢]، يُقسِمُ لرَبِّه أنَّه لا يَسألُ غَيرَ ما طَلَبه، فإذا أُعطِيَه واستغنى به سأل غَيرَه حتَّى يَدخُلَ دارَ القَرارِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ بيانُ حِكمةِ تَضييقِه تعالى للرِّزقِ على مَن ضَيَّقَه عليه، وأنَّ مِن حِكَمِ ذلك أنَّ بَسْطَ الرِّزقِ للإنسانِ قد يحمِلُه على البَغْيِ والطُّغيانِ، وكقَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾[٤] [الشورى: ٢٧].

٤- قَولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ فيه مِن لُطفِ التَّعبيرِ قَولُه: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ أي: أنَّ الطُّغيانَ الَّذي وقَعَ فيه؛ عن وَهمٍ تراءى له أنَّه استَغنى سواءٌ بمالِه أو بقُوَّتِه؛ لأنَّ حقيقةَ المالِ ولو كان جِبالًا ليس له منه إلَّا ما أكَلَ ولَبِسَ وأنفَقَ، وهل يستطيعُ أن يأكُلَ لُقمةً واحِدةً إلَّا بنِعمةِ العافيةِ؟! فإذا مَرِضَ فماذا ينفَعُه مالُه؟! وإذا أكَلَها فهل يستفيدُ منها إلَّا بنِعمةٍ مِنَ اللهِ عليه؟! ومِن هذه الآيةِ أخَذَ بعضُ النَّاسِ أنَّ الغَنيَّ الشَّاكِرَ أعظَمُ مِن الفقيرِ الصَّابرِ؛ لأنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٩) مطوَّلًا مِن حديثِ عبدِالله بنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٦) مطوَّلًا من حديثِ عبدِالله بنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٦٢).

ثُمَّ قال البِقاعيُّ: (ولعَلَّه نَبَّهَ بهذا على أنَّ هذه الأمَّةَ المُحتاجةَ ستُفتَحُ لها خَزائِنُ الأرضِ، فيُطغيها الغِنى كما أَطْغى مَن قبلَها وإن كانوا هم يُنكِرونَ ذلك كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم...، «واللهِ ما الفَقْرَ أَخْشى عليكم، ولكن أَخْشى أن تُبسَطَ عليكم الدُّنْيا كما بُسِطَتْ على مَن كان قَبْلَكم، فتَنافَسوها كما تَنافَسوها، فتُهلِكَكم كما أَهلَكَتْهم» [البخاري «٣١٥٨»، ومسلم «٢٩٦١»] أو كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٠).

الغِنى مُوجِبٌ للطُّغيانِ، وقد قال بعضُ النَّاسِ: الصَّبرُ على العافيةِ أشَدُّ مِنَ الصَّبرِ على الحاجةِ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ لم يَقُلْ: «إنِ استَغْنى»، بل جَعَلَ الطُّغيانَ ناشئًا عن رُؤيةِ غِنَى نفْسِه، ولم يَذْكُرْ هذه الرُّؤيةَ في سورةِ (اللَّيلِ)، بل قال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [اللَّيل: ٨ - ١٠]، وهذا -واللهُ أعلمُ- لأنَّه ذَكَرَ موجِبَ طُغيانِه، وهو رؤيةُ غِنَى نفْسِه، وذَكَرَ في سورةِ (اللَّيلِ) مُوجِبَ هلاكِه، وعدَمِ تيسيرِه لليُسْرى، وهو استِغناؤه عن ربِّه بتَرْكِ طاعتِه وعُبوديَّتِه؛ فإنَّه لو افتقرَ إليه لَتَقَرَّبَ إليه بما أَمَرَه مِن طاعتِه، فِعْلَ المملوكِ الَّذي لا غِنَى له عن مَولاه طَرْفةَ عَينٍ، ولا يَجِدُ بُدًّا مِن امتثالِ أوامرِه؛ ولذلك ذَكَر معه بُخْلَه، وهو تَرْكُه إعطاءَ ما وَجَبَ عليه مِن الأقوالِ والأعمالِ وأداءِ المالِ، وجَمَعَ إلى ذلك تكذيبَه بالحُسْنى، وهي الَّتي وَعَدَ بها أهلَ الإحسانِ بقولِه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ فالاستغناءُ عنِ اللهِ سببُ هلاكِ العبدِ وتيسيرِه لكُلِّ عُسْرى، ورؤيتُه غِنَى نفْسِه سَبَبُ طُغيانِه، وكِلاهما مُنافٍ للفَقرِ والعُبوديَّةِ(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ رَبطٌ لطيفٌ بأوَّلِ السُّورةِ؛ إذ كان خَلْقُ الإنسانِ مِن عَلَقٍ -وهي أحوَجُ ما يكونُ إلى لُطفِ اللهِ وعِنايتِه ورَحمتِه في رَحِمِ أمِّه-، فإذا بها مُضغةٌ ثمَّ عِظامٌ، ثمَّ تُكسَى لحمًا، ثمَّ تنشَأُ خَلْقًا آخَرَ، ثمَّ يأتي إلى الدُّنيا طِفلًا رَضيعًا لا يملِكُ إلَّا البُكاءَ، فيُجري اللهُ له نهرَينِ مِن لَبَنِ أمِّه، ثمَّ يُنبِتُ له الأسنانَ، ويَفتِقُ له الأمعاءَ، ثمَّ يَشِبُّ ويَصيرُ غُلامًا يافِعًا، فإذا ما ابتلاه رَبُّه بشَيءٍ مِن المالِ أو العافيةِ فإذا هو يَنسى كلَّ ما

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٤).

تقَدَّمَ! ويَنسى حتَّى رَبَّه، ويَطغى ويَتجاوَزُ حَدَّه حتَّى مع اللهِ خالِقِه ورازِقِه! كما رَدَّ عليه تعالى بقَولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1] [يس: ٧٧ - ٧٩].

٧- في قولِه تعالى: ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ إيذانٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ أبا جَهْلٍ سيُكذِّبُه حينَ يَدْعوه إلى الإسلامِ وسيَتولَّى[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ إثباتُ صفةِ الرُّؤيةِ للهِ عزَّ وجلَّ[3].

٩- هناك فرقٌ بين الخاطِئِ والمُخْطِئِ؛ فالخاطِئُ -مثلًا- مَن قَتَلَ متعمِّدًا، أمَّا مَن قَتَلَ غيرَ متعمِّدٍ فهو مُخطِئٌ؛ ولذلك فإنَّ الخاطِئَ مُعَذَّبٌ، كما في قَولِه تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾، والمُخْطِئَ غيرُ مُعَذَّبٍ[4].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ مُعجزةٌ خاصَّةٌ مِن مُعجزاتِ القُرآنِ؛ فإنَّه تحَدَّى أبا جَهلٍ بهذا، وقد سَمِعَ أبو جَهلٍ القُرآنَ، وسَمِعَه أنصارُه، فلم يُقدِمْ أحدٌ منهم على السَّطْوِ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع أنَّ الكلامَ يُلهِبُ حَمِيَّتَه[5]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ أنَّه ((أقرَبُ ما يكونُ العَبدُ مِن رَبِّه وهو ساجِدٌ))[6].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٢).

(٦) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩٥). =

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لظُهورِ أنَّه في غرَضٍ لا اتِّصالَ له بالكلامِ الَّذي قبْلَه، وحرْفُ ﴿كَلَّآ﴾ ردْعٌ وإبطالٌ، وليس في الجُملةِ الَّتي قبْلَه ما يَحتمِلُ الإبطالَ والرَّدعَ؛ فوُجودُ ﴿كَلَّآ﴾ في أوَّلِ الجُملةِ دَليلٌ على أنَّ المقصودَ بالرَّدعِ هو ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾، وحقُّ (كلَّا) أنْ تَقَعَ بعْدَ كَلامٍ لإبطالِه والزَّجرِ عن مَضمونِه، فوُقوعُها هنا في أوَّلِ الكلامِ يَقْتضي أنَّ معْنى الكلامِ الآتي بعْدَها حَقيقٌ بالإبطالِ، وبرَدْعِ قائلِه، فابتُدِئَ الكلامُ بحرْفِ الرَّدعِ للإبطالِ، وللمُبالَغةِ في الزَّجرِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ مَوقعُ هذه الجُملةِ مَوقعُ المُقدِّمةِ لِما يَرِدُ بعْدَه مِن قولِه: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إلى قولِه: ﴿لَا نُطِعۡهُ﴾ [العلق: ٩-١٩]؛ لأنَّ مَضمونَه كَلمةٌ شاملةٌ لمَضمونِ ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إلى قولِه: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ﴾[٢] [العلق: ١٧].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ بَيانٌ للمَردوعِ، والمَردوعِ عنه[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ للجِنسِ، أي: مِن طَبْعِ الإنسانِ أنْ يَطْغى إذا أحسَّ مِن نفْسِه الاستغناءَ، واللَّامُ مُفيدةٌ الاستغراقَ العُرفيَّ، أي: أغلَبُ النَّاسِ في ذلك الزَّمانِ إلَّا مَن عَصَمَه خُلقُه أو دِينُه[٤].

= والحديث أخرجه مسلمٌ (٤٨٢) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤).

- وتَأكيدُ الخبَرِ بحرْفِ التَّأكيدِ ولامِ الابتداءِ؛ لقَصْدِ زِيادةِ تَحقيقِه لغَرابتِه، حتَّى كأنَّه ممَّا يُتوقَّعُ أنْ يَشُكَّ السَّامعُ فيه[١].

- قولُه: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ مَفعولٌ له، أي: يَطْغى لأنْ رَأى نفْسَهُ مُستغنيًا، وتَعليلُ طُغيانِه برُؤيتِه لا بنَفْسِ الاستغناءِ؛ للإيذانِ بأنَّ مَدارَ طُغيانِه زَعْمُه الفاسدُ[٢].

- والاستِغناءُ: شِدَّةُ الغِنى؛ فالسِّينُ والتَّاءُ فيه للمُبالَغةِ في حُصولِ الفِعلِ، مِثْلُ: استجابَ، واستقَرَّ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ مُعترِضةٌ بيْن المُقدِّمةِ والمَقصدِ، والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: مَرجِعُ الطَّاغي إلى الله، وهذا مَوعظةٌ وتَهديدٌ على سَبيلِ التَّعريضِ لِمَن يَسمَعُه مِن الطُّغاةِ، وتَعليمٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَثبيتٌ له، أي: لا يَحزُنْك طُغيانُ الطَّاغي؛ فإنَّ مَرجِعَه إلَيَّ، ومَرجعَ الطَّاغي إلى العَذابِ؛ قال تبارك تعالَى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٢١، ٢٢]، وهي مَوعظةٌ للطَّاغي بأنَّ غِناهُ لا يَدفَعُ عنه الموتَ، والموتُ: رُجوعٌ إلى اللهِ. وتَأكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ) مُراعًى فيه المعْنى التَّعريضيُّ؛ لأنَّ مُعظَمَ الطُّغاةِ يَنسَون هذه الحقيقةَ بحيث يُنَزِّلون مَنزِلةَ مَن يُنكِرُها[٤].

وقيل: هو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لخطابِ الإنسانِ تَهديدًا له، وتَحذيرًا له مِن عاقِبةِ الطُّغيانِ، وتَحقيرًا لِما هو فيه مِن حيث مآلُه إلى البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٦).

على طُغيانِه، والالْتفاتُ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ للتَّشديدِ في التَّهديدِ[١].

- وتَقديمُ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾؛ للاهتمامِ بذلك[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۞ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۞ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾

- جُملةُ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ إلى آخِرِها، هي المَقصودُ مِن الرَّدعِ الَّذي أفادَهُ حرْفُ ﴿كَلَّآ﴾ في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦]؛ فهذه الجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا مُتَّصلًا باستِئنافِ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾[٣].

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ تَقبيحٌ وتَشنيعٌ لحالِه، وتَعجيبٌ منها[٤].

- وكَلمةُ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ تَعجيبٌ مِن حالٍ، تُقالُ لِلَّذي يُعْلَمُ أنَّه رَأى حالًا عَجيبةً، والرُّؤيةُ عِلميَّةٌ، أي: أعلِمْتَ الَّذي يَنْهَى عبْدًا؟ والمُستفهَمُ عنه هو ذلك العِلمُ، والمفعولُ الثَّاني لـ (رأيتَ) مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه في آخِرِ الجُمَلِ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ؛ لأنَّ الحالةَ العَجيبةَ مِن شَأنِها أنْ يُستفهَمَ عن وُقوعِها استِفهامَ تَحقيقٍ وتَثبيتٍ لنَبَئِها؛ إذ لا يَكادُ يُصَدَّقُ به. ويَجوزُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ بَصريَّةً؛ لأنَّها حِكايةُ أمْرٍ وَقَعَ في الخارجِ، والخِطابُ في ﴿أَرَءَيْتَ﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ[٥]. وقيل: قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ هو إيذانٌ بأنَّ حالَه مِنَ الشَّناعةِ والغَرابةِ بحيثُ يجِبُ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٦، ٤٤٧).

يَراها كلُّ مَن يَتأتَّى مِنْه الرُّؤيةُ، ويَقْضي منها العجَبَ[١].

- و﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ هو أبو جَهْلٍ؛ إذ قال قولًا يُريدُ به نهْيَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يُصلِّيَ في المسجدِ الحرامِ، فقال في ناديه: (لئنْ رَأَيتُ محمَّدًا يُصلِّي في الكعبةِ لَأطأَنَّ على عُنقِه)؛ فإنَّه أراد بقولِه ذلك أنْ يَبلُغَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فعُبِّرَ بالفِعلِ ﴿يَنْهَىٰ﴾؛ لأنَّه تَهديدٌ يَتضمَّنُ النَّهيَ عن أنْ يُصلِّيَ في المسجدِ الحرامِ، ولم يُرْوَ أنَّه نَهاهُ مُشافَهةً[٢].

- والمرادُ بالعبْدِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإطلاقُ العبْدِ هنا على معْنى الواحدِ مِن عِبادِ اللهِ، أي: شخْصٌ، وعُدِلَ عن التَّعبيرِ عنه بضَميرِ الخِطابِ؛ لأنَّ التَّعجيبَ مِن نفْسِ النَّهيِ عن الصَّلاةِ، بقَطْعِ النَّظَرِ عن خُصوصيَّةِ المُصلِّي، فشُمولُه لنَهْيِه عن صَلاةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أوقَعُ[٣].

- وأيضًا لَفظُ العَبدِ وتَنكيرُه؛ لتَفخيمِه عليهِ السَّلامُ، والدَّلالةِ على كَمالِ عُبوديَّةِ المنهيِّ، وللمُبالَغةِ في تَقبيحِ النَّهيِ واسْتِعظامِه، وتَأكيدِ التَّعجُّبِ منه[٤].

- وكذلِك صِيغةُ المضارِعِ في قولِه: ﴿يَنْهَىٰ﴾؛ لاستِحضارِ الحالةِ العَجيبةِ، وإلَّا فإنَّ نَهْيَه قدْ مضَى. والمَنهيُّ عنه مَحذوفٌ، يُغْني عنه تَعليقُ الظَّرفِ بفِعلِ ﴿يَنْهَىٰ﴾، أي: يَنْهاه عن صَلاتِه[٥].

- وقولُه: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ تَعجيبٌ آخَرُ مِن حالٍ مَفروضٍ وُقوعُه، أي: أتَظُنُّه يَنْهى أيضًا عبْدًا مُتمكِّنًا مِن الهُدى فتَعجَبَ مِن نَهْيِه، والتَّقديرُ: أرأَيْتَه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٧).

إنْ كان العبدُ على الهُدى، أيَنْهاهُ عن الهُدى؟! أو إنْ كان العبْدُ آمِرًا بالتَّقوى، أيَنْهاهُ عن ذلك؟! والمعْنى: أنَّ ذلك هو الظَّنُّ به، فيُعَجِّبُ المخاطَبَ مِن ذلك؛ لأنَّ مَن يَنْهى عن الصَّلاةِ وهي قُربةٌ إلى اللهِ، فقدْ نَهى عن الهُدى، ويُوشِكُ أنْ يَنْهَى عن أنْ يَأمُرَ أحدٌ بالتَّقوى(١).

- وفُصِلَت جُملةُ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ لوُقوعِها مَوقعَ التَّكريرِ؛ لأنَّ فيها تَكريرَ التَّعجيبِ مِن أحوالٍ عَديدةٍ لشَخصٍ واحدٍ(٢).

- وأُتِيَ بحَرفِ الشَّرطِ (إنْ) الَّذي الغالبُ فيه عدَمُ الجَزمِ بوُقوعِ فِعلِ الشَّرطِ؛ مُجاراةً لحالِ الَّذي يَنْهى عَبدًا(٣).

- ونَظْمُ الأمرِ والتَّكذيبِ والتَّوَلِّي في سِلكِ الشَّرطِ المتردِّدِ بيْنَ الوُقوعِ وعدَمِه ليس باعتِبارِ نفْسِ الأفعالِ المذكورةِ مِن حيثُ صُدورُها عن الفاعلِ؛ فإنَّ ذلك ليس في حيِّزِ التَّردُّدِ أصلًا، بلْ باعتبارِ أوصافِها الَّتي هي كَونُها أمْرًا بالتَّقوى وتَكذيبًا وتَوَلِّيًا(٤).

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الرُّؤيةُ هنا عِلميَّةٌ، وحُذِفَ مَفعولَا فِعلِ الرُّؤيةِ اختصارًا؛ لدَلالةِ ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰٓ﴾ [العلق: ٩] على المَفعولِ الأوَّلِ، ودَلالةِ قولِه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، أو قولِه: ﴿يَنْهَىٰٓ﴾ على المفعولِ الثَّاني في الجُملةِ قبْلَها، والتَّقديرُ: أرأَيْتَه(٥).

- و﴿عَلَى﴾ للاستِعلاءِ المُفيدِ شِدَّةَ التَّمكُّنِ مِن الهُدى بحيثُ يُشبِهُ تَمكُّنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣١).

المُسْتعلي على المكانِ[١].

- وجَوابُ ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: أيَنْهاهُ أيضًا[٢]؟!

وقيل: جَوابُ الشَّرطِ الَّذي في حيِّزِ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثَّانيةِ والثَّالثةِ في قولِه: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ و﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه هنا: إنْ كان على الهُدى أو أمَرَ بالتَّقوى، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، وإنَّما حُذِفَ؛ لدَلالةِ ذِكرِه في جَوابِ الشَّرطِ الثَّاني، وتَقديرُ جَوابِ الشَّرطِ في الثَّالثةِ ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أفلَمْ يَعلَمْ بأنَّ اللهَ يَرى، أي: على تَقديرِ الفاءِ[٣].

- قولُه: ﴿إِن كَانَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا على المصلِّي، وإنَّما ضُمَّ إلى فِعلِ الصَّلاةِ الأمرُ بالتَّقْوى في قولِه: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾؛ لأنَّ أبا جَهلٍ كان يشُقُّ عليه مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمْرانِ: الصَّلاةُ، والدُّعاءُ إلى اللهِ تعالَى، ولأنَّه كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يُوجَدُ إلَّا في أمْرَينِ: إصلاحُ نفْسِه بفِعلِ الصَّلاةِ، وإصلاحُ غيرِه بالأمْرِ بالتَّقوى[٤].

- ولعلَّه ذَكَرَ الأمرَ بالتَّقوى في التَّعجُّبِ والتَّوبيخِ ولم يَتعرَّضْ له في النَّهيِ؛ لأنَّ النَّهيَ كان عن الصَّلاةِ والأمرِ بالتَّقوَى، فاقتَصَرَ على ذِكرِ الصَّلاةِ؛ لأنَّه دَعوةٌ بالفِعلِ، أو لأنَّ نهْيَ العبدِ إذا صلَّى يَحتمِلُ أنْ يكونَ لها ولغَيرِها، وعامَّةُ أحوالِها مَحصورةٌ في تَكميلِ نفْسِه بالعِبادةِ وغيرِه بالدَّعوةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦).

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ للتَّهديدِ والوَعيدِ على التَّكذيبِ والتَّولِّي[١]؟!

- والهمزةُ للاستفهامِ؛ للتَّقريرِ والتَّعجُّبِ[٢].

- والمفعولُ الأوَّلُ لـ (رَأَيْتَ) مَحذوفٌ، وهو ضَميرٌ عائدٌ إلى ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰٓ﴾ [العلق: ٩]، والتَّقديرُ: أرأَيْتَه إنْ كذَّبَ... إلى آخِرِه[٣].

- وجَوابُ ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ مُقدَّرٌ يدُلُّ عليه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، والتَّقديرُ: إنْ كذَّبَ وتَولَّى فاللهُ عالِمٌ به؛ كِنايةً عن تَوعُّدِه، وجُملةُ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ مُستأنَفةٌ لإنكارِ جَهْلِ المُكذِّبِ بأنَّ اللهَ سيُعاقِبُه، والشَّرطُ وجَوابُه سادَّانِ مَسدَّ المَفعولِ الثَّاني[٤].

- وكذلك حُذِفَ مَفعولُ ﴿كَذَّبَ﴾؛ لدَلالةِ ما قبْلَه عليه، والتَّقديرُ: إنْ كذَّبَه، أي: العبدَ الَّذي صلَّى[٥].

- وإنَّما أُفرِدَ التَّكذيبُ والتَّوَلِّي بشَرطيَّةٍ مُستقِلَّةٍ مَقرونةٍ بالجَوابِ مُصدَّرةٍ باستخبارٍ مُستأنَفٍ، ولم يُنظَمَا في سِلكِ الشَّرطِ الأوَّلِ بعَطْفِهما على (كانَ)؛ للإيذانِ باستقلالِهما بالوُقوعِ في نفْسِ الأمرِ، واستتباعِ الوعيدِ الَّذي يَنطِقُ به الجَوابُ، وأما قبلَها فأمرُ الشَّرطِ فيه ليس إلَّا لتوسيعِ الدَّائرةِ، وهو السِّرُّ في تجريدِه عن الجوابِ، والإحالةِ به على جوابِ الشَّرطيةِ بعدَه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: (إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٨، ٤٤٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٠٦).

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، أي: يطَّلِعُ على أحوالِه مِن هُداهُ وضَلالِه، فيُجازِيه على حسَبِ ذلك، -وذلك على أنَّ الضميرَ في قولِه: ﴿إِن كَانَ﴾ يعودُ للنَّاهي-، وكُنِّيَ بأنَّ اللهَ يَرى عن الوَعيدِ بالعِقابِ، ففيه وَعْدٌ بأنَّ الله ينتصِفُ له مِنْه[١].

وقيل: المعْنى: أرأيتَ الَّذي يَنْهى عبْدًا إذا صلَّى، وهو على الهُدى وأمَرَ بالتَّقوى، والنَّاهي مُكذِّبٌ مُتوَلٍّ عن الذِّكرِ، أي: فما أعجَبَ هذا! ألمْ يَعلَمْ أبو جَهلٍ بأنَّ اللهَ تعالَى يَراهُ ويَعلَمُ فِعلَه؟! فهذا تَقريرٌ وتَوبيخٌ[٢]. وذلك على أنَّ الضَّميرَ في ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يعودُ على المُصَلِّي.

- وأيضًا قولُه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ إكمالُ التَّوبيخِ والوعيدِ بحسَبِ التَّوقيفاتِ الثَّلاثةِ -أي: في قولِه: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ [العلق:٩، ١١، ١٣]- يَصلُحُ مع كلِّ واحدٍ منها، فجاء بها في نَسَقٍ، ثمَّ جاء بالوعيدِ الكافي بجَميعِها اختصارًا واقتِضابًا، ومع كلِّ تَقريرٍ تَكملةٌ مُقدَّرةٌ تتَّسِعُ العِباراتُ فيها، و﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ دالٌّ عليها مُغْنٍ[٣].

- والاستِفهامُ إنكاريٌّ، أي: كان حقُّه أنْ يَعلَمَ ذلك، ويَقِيَ نفْسَه العِقابَ[٤].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَرَىٰ﴾؛ ليَعُمَّ كلَّ مَوجودٍ[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ﴿كَلَّا﴾ رَدعٌ لأبي جَهلٍ وخُسوءٌ له عن نَهْيِه عن عِبادةِ اللهِ تعالى، وأمْرِه بعِبادةِ اللَّاتِ[١]. وأُكِّدَ الرَّدعُ الأوَّلُ ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ -على أنَّ المرادَ بالرَّدعِ أبو جهلٍ على قولٍ- بحَرْفِ الرَّدعِ الثَّاني في آخِرِ الجُملةِ، وهو المَوقعُ الحَقيقُ بحرْفِ الرَّدعِ؛ إذ كان تَقديمُ نَظيرِه في أوَّلِ الجُملةِ؛ لِما دَعا إليه المقامُ مِن التَّشويقِ[٢].

- قولُه: ﴿لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ أُعقِبَ الرَّدعُ بالوعيدِ على فِعلِه إذا لم يَرتدِعْ ويَنتَهِ عنه. واللَّامُ مُوطِّئةٌ للقسَمِ، وجُملةُ ﴿لَنَسۡفَعَۢا﴾ جَوابُ القسَمِ، وأمَّا جَوابُ الشَّرطِ فمَحذوفٌ دلَّ عليه جَوابُ القسَمِ[٣].

- قولُه: ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ السَّفْعُ: القبْضُ على الشَّيءِ وجَذْبُه بشِدَّةٍ، والنَّاصيةُ: مُقدَّمُ شَعرِ الرَّأسِ، والأخْذُ مِن النَّاصيةِ أخْذُ مَن لا يُترَكُ له تَمكُّنٌ مِن الانفلاتِ؛ فهو كِنايةٌ عن أخْذِه إلى العَذابِ، وفيه إذلالٌ؛ لأنَّهم كانوا لا يَقبِضون على شَعرِ رَأسِ أحدٍ إلَّا لضَرْبِه أو جَرِّه، وأُكِّدَ ذلك السَّفعُ بالباءِ المَزيدةِ الدَّاخلةِ على المَفعولِ؛ لتَأكيدِ اللُّصوقِ[٤].

- والتَّعريفُ في (النَّاصيةِ) للعهْدِ التَّقديريِّ[٥]، أي: بناصيتِه، أي: ناصيةِ الَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠).

قال القرطبي: (خَصَّ النَّاصيةَ بالذِّكرِ على عادةِ العَرَبِ فيمَن أرادوا إذلالَه وإهانتَه، أخَذوا بناصيتِه). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٥).

(٥) قال الشهاب الخفاجي: (العهدُ الذِّكري قد يكونُ بإعادةِ المتقدِّمِ بعينِه، وقد يكونُ بإعادةِ لازمِه ووصفِه، وإن لم يَجرِ له صريحُ ذِكرٍ، ويُسمَّى العهدَ التقديريَّ، وذلك بأنْ يُسنَدَ إلى الموصوفِ =

يَنْهى عبْدًا إذا صلَّى، وعُبِّرَ بالنَّاصيةِ عن جَميعِ الشَّخصِ، واكتُفِيَ بتَعريفِ العهْدِ عن الإضافةِ؛ إذ عُلِمَ أنَّها ناصيةُ النَّاهي[١].

- قولُه: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدَلٌ مِن (النَّاصيةِ)، وتَنكيرُها لاعتبارِ الجِنسِ، أي: هي مِن جِنسِ ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئةٍ[٢].

- ووُصِفَت النَّاصيةُ بالكذِبِ، والمرادُ: كاذبٌ صاحبُها، خاطئٌ صاحِبُها؛ وذلك للمُبالَغةِ، وفيه مِن الحُسنِ والجَزالةِ ما ليس في قولِك: (ناصيةٍ كاذبٍ خاطئٍ)، والمُبالَغةُ فيه أنَّ الكافرَ بَلَغَ في الكذِبِ والخطَأِ إلى حيثُ إنَّ الكذِبَ والخطَأَ ظاهِرانِ مِن ناصيتِه، على نحْوِ قَولِهم: وَجْهُه نِصفُ الجَمالِ[٣].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۞ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۞ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾

- قولُه: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ تَفريعٌ على الوَعيدِ؛ فالفاءُ الفَصيحةُ، أي: إنِ استَمرَّ في غُلَوائِه وإنْ أصرَّ على المُعانَدةِ والمُكابَرةِ، فلْيَدْعُ[٤].

- ولامُ الأمرِ في ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ للتَّعجيزِ؛ لأنَّ أبا جَهْلٍ هدَّدَ النَّبيَّ صلَّى

= ما يَستَدْعي تلك الصِّفةَ، فتُذكرُ الصِّفةُ معرفةً كأنَّها جرَى ذكرُها، كما إذا قيل لك: شتَمك زيدٌ، فتقولُ: أفعَل السَّفيهُ؟ فإنَّ الشَّتمَ تنبيهٌ على سفاهتِه، حتَّى كأنَّه قيل: اعتَرض لك سفيهٌ، أو أنْ يكونَ الموصوفُ عَلَمًا في تلك الصِّفةِ حقيقةً أو ادِّعاءً، فمتى ذُكِر عُلِمتْ صِفَتُه). ((حاشيته على تفسير البيضاوي)) (١/ ٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٤).

اللهُ عليه وسلَّم بكَثرةِ أنصارِه، وهم أهلُ ناديِه، فرَدَّ اللهُ عليه بأنْ أمَرَه بدَعوةِ ناديِه؛ فإنَّه إنْ دَعاهم لِيَسْطُوا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، دَعا اللهُ مَلائكةً فأهْلَكوه، وقولُه: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ جَوابُ الأمرِ التَّعجيزيِّ، أي: فإنْ دَعا ناديَه، دَعَونا لهمُ الزَّبانيةَ[1].

- وإضافةُ النَّادي إلى ضَميرِ أبي جَهْلٍ؛ لأنَّه رَئيسُهم، ويَجتمِعون إليه[2].

- قولُه: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ (كَلَّا) رَدعٌ بعْدَ رَدعٍ، وزَجرٌ إثرَ زَجرٍ؛ فهو تَأكيدٌ للرَّدعِ والزجْرِ لأبي جهْلٍ؛ فهو رَدعٌ لإبطالِ ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾، أي: وليس بفاعلٍ، وهذا تأكيدٌ للتَّحدِّي والتَّعجيزِ[3].

- قولُه: ﴿لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ هذا فَذْلَكةٌ[4] للكلامِ المُتقدِّمِ مِن قولِه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩، ١٠]، أي: لا تَترُكْ صَلاتَك في المسجدِ الحرامِ، ولا تَخْشَ منه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٤).

(٤) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كُنَّاشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٣).

- وأُكِّدَ قولُه: ﴿لَا تُطِعۡهُ﴾ بجُملةِ ﴿وَٱسۡجُدۡ﴾؛ اهتمامًا بالصَّلاةِ. وعُطِفَ عليه ﴿وَٱقۡتَرِب﴾؛ للتَّنويهِ بما في الصَّلاةِ مِن مَرضاةِ اللهِ تعالَى، بحيث جَعَل المُصلِّيَ مُقْتربًا مِن اللهِ تعالَى[١].

- والاقترابُ: افتِعالٌ مِن القُربِ، عُبِّرَ بصِيغةِ الافتعالِ؛ لِما فيها مِن معْنى التَّكلُّفِ والتَّطلُّبِ، أي: اجتهِدْ في القُربِ إلى اللهِ بالصَّلاةِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ القَدْرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ القَدْرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (القَدْرِ)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ القَدْرِ مُختَلَفٌ فيها[٢]؛ فقيل: إنَّها مَكِّيَّةٌ[٣]، وقيل: مَدَنيَّةٌ[٤].

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ بذلك: تَكرارُ لَفظِ (القَدْرِ) فيها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٥٣).

(٣) ممَّن اختار أنَّها مَكِّيَّةٌ: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والواحديُّ، والبغوي، والزمخشري، والرازي، والنسفي، وابن جُزَي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

ونَسَبَ هذا القَولَ لأكثَرِ المفَسِّرينَ وجُمهورِهم: الماوَرْديُّ، والسيوطيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١١)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٥).

(٤) وممَّن اختار أنَّها مَدَنيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، ومكِّيٌّ، والسمعاني، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٦٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٠٥).

ونَسَبَه لأكثَرِ المفَسِّرينَ: الثعلبيُّ، والخازن، وأبو حيان، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٦٤).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

ذِكرُ فَضائلِ لَيلةِ القَدْرِ، والتَّنْويهُ بشَأنِ القُرْآنِ الَّذي أُنزِلَ فيها[1].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- التَّنويهُ بَشأنِ القُرآنِ، والإعلاءُ مِن قَدْرِه.

٢- بيانُ فَضلِ اللَّيلةِ الَّتي نَزَل فيها، وهي لَيلةُ القَدْرِ، والتَّرْغيبُ في إحْيائِها.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦١).

الآيات (١-٥)

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾.

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخبرًا بأنَّه تعالى أنزَلَ القُرآنَ في لَيلةِ القَدْرِ مِن شَهرِ رَمَضانَ، ثمَّ عظَّم شأنَها قائلًا: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ لَيلةُ القَدْرِ؟!

ثمَّ بيَّن الله سُبحانَه مَظاهِرَ فَضْلِها، فقال: لَيلةُ القَدْرِ في خَيرِها وبَرَكتِها وثَوابِ الأعمالِ فيها: أفضَلُ مِن ألْفِ شَهرٍ.

تَهبطُ الملائكةُ وجِبريلُ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ في لَيلةِ القَدْرِ بإذْنِ رَبِّهم مِن كُلِّ أمرٍ، وهي لَيلةٌ ذاتُ سلامةٍ مِن كُلِّ شَرٍّ وأذًى، وذلك مِن بَعْدِ غُروبِ الشَّمسِ إلى طُلوعِ الفَجْرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾.

أي: إنَّا أنزَلْنا القُرآنَ في لَيلةِ القَدْرِ مِن شَهرِ رَمَضانَ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

قال الرازي: (أجمَعَ المفسِّرونَ على أنَّ المرادَ: إنَّا أنزَلْنا القُرآنَ في لَيلةِ القَدْرِ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٨).

قال ابنُ جُزَي: (وفي كَيْفيَّةِ إنْزالِه في لَيْلةِ القَدْرِ قَوْلانِ:

أحَدُهما: أنَّه ابْتَدَأَ إنْزالُه فيها. =

= والآخَرُ: أنَّه أُنزِلَ القُرآنُ فيها جُمْلةً واحِدةً إلى السَّماءِ، ثُمَّ نَزَلَ به جِبْريلُ إلى الأرضِ بطولِ عِشْرينَ سَنةً). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٩). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١١).

ممَّن اختارَ القَولَ الأوَّلَ -أنَّ المُرادَ: أنَّ ابْتِداءَ نُزولِه على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان في لَيلةِ القَدْرِ-: القاسِميُّ، والسعديُّ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٩).

وممَّن قال بهذا مِن السَّلَفِ: الشَّعْبيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٢).

وممَّن اختار القَولَ الثَّانيَ -أنَّ المرادَ إنزالُه كامِلًا مِن اللَّوحِ المحفوظِ إلى السَّماءِ الدُّنيا-: ابنُ جريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمرقنديُّ، ومكِّيٌّ، والواحِديُّ، والسَّمعانيُّ، والبَغَويُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٣).

وممَّن قالَ بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسَعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، والرَّبيعُ بنُ أنَسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٦٧).

ومِمَّن جمَعَ بيْنَ القَولَينِ: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٦، ٤٥٧).

واخْتُلِفَ في سَبَبِ تَسْميةِ لَيْلةِ القَدْرِ بذلك؛ فقيل: سُمِّيَتْ بذلك لأنَّها اللَّيلةُ الَّتي يُقَدِّرُ اللهُ تَعالى ويَحكُمُ ويَقْضي فيها أمورَ سَنةٍ كامِلةٍ. ومِمَّن ذهَبَ إلى هذا القَولِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جَريرٍ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، وابنُ جُزَي، والعُلَيْمي، والشنقيطي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٣).

قال البَغَويُّ: (سُمِّيَتْ لَيْلةَ القَدْرِ؛ لأنَّها لَيْلةُ تَقديرِ الأمورِ والأحكامِ، يُقدِّرُ اللهُ فيها أمْرَ السَّنةِ في عِبادِه وبِلادِه إلى السَّنةِ المُقْبلةِ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٣).

قال الرَّازيُّ: (وهذا القَولُ اختيارُ عامَّةِ العُلَماءِ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٩).

وقال ابنُ جُزَي: (وسُمِّيَتْ لَيْلةَ القَدْرِ مِن تَقْديرِ الأمورِ فيها، أو مِن القَدْرِ بمَعْنى الشَّرَفِ، ويَترجَّحُ الأوَّلُ بقَوْلِه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٠).

وممَّن اختارَ أنَّها سُمِّيَتْ بذلك مِن الشَّرَفِ والفَضْلِ كما قال تعالى فِي سورةِ الدُّخَانِ: ﴿إِنَّآ =

= أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣] أي: لَيْلةِ القَدْرِ والشَّرَفِ عندَ اللهِ تَعالى: ابنُ عاشورٍ، ونَسَبَه ابنُ عَطيَّةَ وغيرُه للزُّهْريِّ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٥).

وقيل: المرادُ: أنَّ لها قَدْرًا عظيمًا، وشَرَفًا كبيرًا، والأعمالُ فيها ذاتُ قَدْرٍ وشرَفٍ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٧٨).

ومِمَّن جمَعَ بيْنَ المَعْنيَينِ السابقين في الجُملةِ (أي: الشرف والتقدير): السعديُّ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٠).

قال السعديُّ: (سُمِّيَتْ لَيْلةَ القَدْرِ؛ لِعِظَمِ قَدْرِها، وفَضْلِها عندَ اللهِ، ولأنَّه يُقدَّرُ فيها ما يكونُ في العامِ مِنَ الأجَلِ والأرْزاقِ والمَقاديرِ القَدَريَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

وقيلَ غيرُ ذلك في سَبَبِ التَّسْميةِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٨٩).

قال الرَّسْعنيُّ: (اخْتَلَفوا: هلْ هي باقِيةٌ، أو كانت في زَمَنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خاصَّةً؟ على قَولَينِ. والصَّحيحُ: أنَّها باقِيةٌ.

واختَلَفوا: هل هي مَخْصوصةٌ بشَهرِ رَمَضانَ، أو تكونُ في جَميعِ السَّنةِ؟ على قَولَينِ. والصَّحيحُ: اخْتِصاصُها بشَهرِ رمضانَ.

وذهَبَ الأكثَرونَ إلى اخْتِصاصِ الأفْرادِ مِن العَشرِ الأخيرِ منه بها، وعليه تدُلُّ الأحاديثُ الصَّحيحةُ، والآثارُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٩٠).

وقد اختلفوا في تعيينِ ليلةِ القدرِ، وأرجاها عندَ الجمهورِ ليلةُ سبعٍ وعشرينَ، ومِن أهلِ العلمِ مَن رجَّح أنَّها تتنقَّلُ في ليالي العَشْرِ الأواخِرِ مِن رَمَضانَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ٢٧٢).

قال ابنُ حجرٍ: (قال العلماءُ: الحِكمةُ في إخفاءِ ليلةِ القدرِ؛ ليحصلَ الاجتهادُ في التماسِها، بخلافِ ما لو عُيِّنَتْ لها ليلةٌ لاقتُصِر عليها). ((فتح الباري)) (٤/ ٢٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥١).

وقال ابن عثيمين: (إنَّما أبهمها الله عزَّ وجلَّ لفائدتينِ عظيمتينِ:

الفائدة الأولى: بيانُ الصَّادقِ في طلبِها مِن المتكاسلِ...

الفائدة الثانية: كثرةُ ثوابِ المسلمينَ بكثرةِ الأعمالِ؛ لأنَّه كلَّما كثُر العملُ كثُر الثَّوابُ). =

كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((تحَرَّوا لَيلةَ القَدْرِ في العَشْرِ الأواخِرِ مِن رَمَضانَ))(١).

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عُلِمَ مِنَ السِّياقِ تعظيمُ لَيلةِ القَدْرِ بعَظَمةِ ما أُنزِلَ فيها، وبالتَّعبيرِ عنها بهذا، قال مؤكِّدًا لذلك التَّعظيمِ؛ حَثًّا على الاجتهادِ في إحيائِها؛ لأنَّ للإنسانِ مِنَ الكَسَلِ والتَّداعي إلى البَطالةِ ما يُزَهِّدُه في ذلك(٢):

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾.

= ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ٢٧٣).

عن عائِشةَ رَضِي اللهُ عنها، قالت: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أرأيتَ إنْ عَلِمْتُ أيُّ ليلةٍ ليلةُ القَدرِ، ما أقولُ فيها؟ قال: قُولي: اللَّهُمَّ، إنكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفوَ فاعْفُ عَنِّي)). رواه أحمد (٦/ ١٧١) (٢٥٤٢٣)، والترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجة (٣٨٥٠)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٤/ ٤٠٧) (٧٧١٢)، والحاكم (١/ ٧١٢). قال الترمذي: (حسنٌ صحيحٌ)، وقال الحاكم: (صحيحٌ على شرطِ الشيخيْنِ ولم يخرجاه)، وقال النووي في ((الأذكار)) (٢٤٧): (إسنادُه صحيحٌ)، وصححه ابن القيم في ((أعلام الموقعين)) (٤/ ٢٤٩)، والألباني في ((صحيح الترمذي)) (٣٥١٣).

وعن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه قال: ((... أخبَرَنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّها تطلُعُ يومَئذٍ لا شُعاعَ لها)). رواه مسلم (٧٦٢).

وفي لفظٍ آخَرَ لِمُسلمٍ عن أبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((وأمارَتُها أن تطلُعَ الشَّمسُ في صبيحةِ يَومِها بيضاءَ لا شُعاعَ لها)).

(١) رواه البخاري (٢٠٢٠)، ومسلم (١١٦٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٧٨).

أي: قال اللهُ تعالى مُفَخِّمًا شأنَها، ومُعَظِّمًا لها: وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ لَيلةُ القَدْرِ[١]؟!

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾.

أي: إنَّ لَيلةَ القَدْرِ -في خَيرِها وبَرَكتِها وثَوابِ الأعمالِ فيها- أفضَلُ مِن ألْفِ شَهرٍ، ليس فيها ليلةُ القدرِ[٢].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن قام لَيلةَ القَدْرِ إيمانًا واحتِسابًا غُفِرَ له ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِه))[٣].

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾.

أي: تَهبِطُ الملائكةُ وجِبريلُ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ في لَيلةِ القَدْرِ بإذْنِ رَبِّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

قال ابنُ عاشور: (أي: يَعسُرُ على شَيءٍ أن يُعَرِّفَك مِقدارَها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

قال ابن كثير: (عن مجاهدٍ: ليلةُ القدرِ خيرٌ مِن ألفِ شهرٍ، ليس في تلك الشُّهورِ ليلةُ القدرِ. وهكذا قال قتادةُ بنُ دعامةَ، والشافعيُّ، وغيرُ واحدٍ... وهذا القولُ بأنَّها أفضلُ مِن عبادةِ ألفِ شهرٍ، وليس فيها ليلةُ القدرِ هو اختيارُ ابنِ جريرٍ، وهو الصَّوابُ لا ما عداه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٧).

وقال ابنُ كثير أيضًا: (الألْفُ شَهرٍ عِبارةٌ عن ثلاثٍ وثمانينَ سَنةً وأربعةِ أشهُرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤٢).

وقال ابنُ عثيمين: (المرادُ بالخَيريَّةِ هنا ثوابُ العمَلِ فيها، وما يُنزِلُ اللهُ تعالى فيها مِن الخَيرِ والبَرَكةِ على هذه الأُمَّةِ؛ ولذلك كان مَن قامها إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٠، ٢٧١).

(٣) رواه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠).

لهم[(١)] مِن كُلِّ أمرٍ مِمَّا أَمَرَ اللهُ به[(٢)].

(١) قيل: تهبِطُ إلى السَّماءِ الدُّنيا. ومِمَّن قال به: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨١).
وقيل: تهبِطُ إلى الأرضِ. ومِمَّن قال بهذا: الرازيُّ، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧١).
قال الرَّازي: (اختيارُ الأكثَرينَ أنَّهم يَنزِلونَ إلى الأرضِ، وهو الأوجَهُ؛ لأنَّ الغَرَضَ هو التَّرغيبُ في إحياءِ هذه اللَّيلةِ، ولأنَّه دَلَّت الأحاديثُ على أنَّ الملائِكةَ يَنزِلونَ في سائِرِ الأيَّامِ إلى مَجالِسِ الذِّكرِ والدِّينِ، فلَأَنْ يَحصُلَ ذلك في هذه اللَّيلةِ مع عُلُوِّ شَأنِها: أَولى، ولأنَّ النُّزولَ المُطلَقَ لا يُفيدُ إلَّا النُّزولَ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٧، ٥٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٣٣).
قيل: معنى ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾: مِن كُلِّ أمرٍ قَضاه اللهُ في تلك السَّنةِ؛ مِن رِزقٍ، وأجَلٍ، وغيرِ ذلك. ومِمَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكِّيٌّ، والسَّمعانيُّ، والزمخشري، والرَّسْعَني، والقرطبي، والنسفي، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والشربيني، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٧٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٣٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٦٦)، ((تفسير ابن جزي (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٦).
وقيلَ: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾: أي بكلِّ أمْرٍ مِن الخَيرِ والبَرَكةِ، وممَّن اختارَه: البَغَويُّ، والخازِنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٣).
وقيل: إنَّ المَجْرورَ يَتَعلَّقُ بما بَعْدَه، والمَعْنى: أنَّها سَلامٌ مِن كلِّ أمْرٍ، أي: سَلامةٌ مِن الآفاتِ. وممَّن اختار هذا المعنى: السَّمَرْقَنديُّ، قال: (قال عزَّ وجَلَّ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ يَعْني: يَنزِلونَ بأمْرِ رَبِّهم ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ﴾، يَعْني: تلك اللَّيْلةُ مِن كلِّ أمْرٍ سَلامٌ، يَعْني: مِن كلِّ آفةٍ سَلامةٌ، يَعْني: في هذه اللَّيلةِ لأمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٢). =

كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه فضائِلَ لَيلةِ القَدْرِ، كانت النَّتيجةُ أنَّها متَّصِفةٌ بالسَّلامةِ التَّامَّةِ، كاتِّصافِ الجنَّةِ -الَّتي هي سَبَبُها- بها؛ فكان ذلك أدَلَّ على عظَمَتِها[1].

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

أي: لَيلةُ القَدْرِ سالِمةٌ مِن كُلِّ شَرٍّ وأذًى، وذلك مِن بَعْدِ غُروبِ الشَّمسِ إلى زَمَنِ طُلوعِ الفَجْرِ[2].

= قال ابنُ جُزَي: (والأَظهَرُ أنَّ الكَلامَ تَمَّ عِندَ قَولِه: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، ثُمَّ ابتدَأَ قَولَه: ﴿سَلَٰمٌ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٠).

وقال الشَّوْكانيُّ: (قَولُه: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: مِن أجْلِ كلِّ أمْرٍ مِن الأمورِ الَّتي قَضى اللهُ بها في تلك السَّنةِ. وقيلَ: إنَّ ﴿مِّن﴾ بمَعْنى اللَّامِ، أي: لكلِّ أمْرٍ. وقيلَ: هي بمَعْنى الباءِ، أي: بِكلِّ أمْرٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٦).

وقال ابن عاشور: (و﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ بَيانِيَّةً تُبَيِّنُ الإذْنَ مِن قولِه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾، أيْ: بإذنِ رَبِّهم الَّذي هو في كلِّ أمرٍ. ويجوزُ أن تكونَ [مِنْ] بمعنى الباءِ، أي: تتنَزَّلُ بكُلِّ أمرٍ، مِثلُ ما في قَولِه تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، أي: بأمرِ اللهِ، وهذا إذا جعَلْتَ باءَ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ سَببيَّةً، ويجوزُ أن تكونَ للتَّعليلِ، أي: مِن أجْلِ كُلِّ أمرٍ أراد اللهُ قَضاءَه بتَسخيرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٤).

وقال ابنُ عثيمين: (قيلَ: إنَّ ﴿مِّن﴾ بمعنى الباءِ، أي: بكُلِّ أمرٍ مِمَّا يأمُرُهم اللهُ به، وهو مُبهَمٌ لا نعلَمُ ما هو، لكِنَّنا نقولُ: إنَّ تنَزُّلَ الملائكةِ في الأرضِ عُنوانٌ على الخَيرِ والرَّحمةِ والبَرَكةِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧١). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ مَن تأمَّلَ هذه السُّورةَ عَلِمَ منها ما للقُرآنِ مِن العَظَمةِ؛ فأقْبَلَ عليه بكُلِّيَّتِه يَتْلوه حَقَّ تِلاوتِه[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ فيه تحريضُ المُسلِمينَ على

= قال الزمخشري: (﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ ما هي إلَّا سلامةٌ، أي: لا يُقَدِّرُ اللهُ فيها إلَّا السَّلامةَ والخَيرَ، ويُقضَى في غيرِها بلاءٌ وسَلامةٌ. أو: ما هي إلَّا سلامٌ؛ لكَثرةِ ما يُسَلِّمونَ على المؤمنينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨١).

ممَّن اختارَ في الجُمْلةِ أنَّ ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: سَلامةٌ وخَيْرٌ وبَرَكةٌ، فلا شَرَّ فيها: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، وابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والثَّعْلَبيُّ، والخازِنُ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، ومُجاهِدٌ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٩).

وممَّن اخْتارَ أنَّ ﴿سَلَٰمٌ﴾ مِن التَّسْليمِ؛ وذلك لتَسْليمِ المَلائِكةِ على المُؤمِنينَ: جَلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والعُلَيْميُّ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٠٧).

وممَّن قال به مِن السَّلَفِ: الشَّعْبيُّ، والكَلْبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٩).

وقال عَطاءٌ: (يُريدُ: سَلامٌ على أولياءِ اللهِ، وأهْلِ طاعتِه). يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (يُطلَقُ السَّلامُ على التَّحيَّةِ والمِدْحةِ، وفُسِّرَ السَّلامُ بالخَيْرِ، والمَعْنيانِ حاصِلانِ في هذه الآيةِ؛ فالسَّلامةُ تَشملُ كُلَّ خَيرٍ؛ لأنَّ الخَيرَ سَلامةٌ مِنَ الشَّرِّ ومِنَ الأذى، فيَشملُ السَّلامُ: الغُفرانَ، وإجْزالَ الثَّوابِ، واسْتِجابةَ الدُّعاءِ بخَيرِ الدُّنيا والآخِرةِ. والسَّلامُ بمَعْنى: التَّحيَّةِ والقَولِ الحَسَنِ، مُرادٌ به ثَناءُ المَلائِكةِ على أهْلِ لَيلةِ القَدْرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٨٢).

تحيُّنِ لَيلةِ القَدْرِ بالقيامِ[١]. فيَنبغي للإنسانِ أنْ يَجتَهِدَ في كلِّ لَيالي العَشرِ الأواخرِ مِن رمضانَ حتَّى لا يُحرَمَ مِن فَضْلِ لَيلةِ القَدْرِ وأَجْرِها[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ عَرَّف بمُنتهاها؛ ليَحرِصَ النَّاسُ على كثرةِ العَمَلِ فيها قبلَ انتهائِها[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن تَسديدِ تَرتيبِ المُصحفِ أنْ وُضِعَت سُورةُ (القَدْرِ) عَقِبَ سُورةِ (العَلَقِ) مع أنَّها أقَلُّ عدَدَ آياتٍ مِن سُورةِ (البيِّنةِ) وسُوَرٍ بعْدَها، كأنَّه إيماءٌ إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ يَعودُ إلى القرآنِ الَّذي ابتُدِئَ نُزولُه بسُورةِ العلَقِ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ أجمَعَ المفَسِّرونَ على أنَّ المرادَ: إنَّا أنزَلْنا القُرآنَ في لَيلةِ القَدْرِ، ولكِنَّه تعالى تَرَكَ التَّصريحَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ هذا التَّركيبَ يدُلُّ على عِظَمِ القُرآنِ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

أحَدُها: أنَّه أسنَدَ إنزالَه إليه، وجعَلَه مُختَصًّا به دونَ غَيْرِه.

والثَّاني: أنَّه جاء بضَميرِه دونَ اسمِه الظَّاهرِ؛ شهادةً له بالنَّباهةِ والاستغناءِ عن التَّصريحِ.

والثَّالِثُ: تعظيمُ الوَقتِ الَّذي أُنزِلَ فيه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٤/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٤٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٦، ٤٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٨).

ويُنظر ما يأتي في بلاغةِ الآيات (ص: ٧٦).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ فيه سؤالٌ: ما معنى أنَّه أُنزِلَ في لَيلةِ القَدْرِ، مع العِلمِ بأنَّه أُنزِلَ مُفرَّقًا؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: قال الشَّعبيُّ: (ابتدَأَ إنزالُه لَيلةَ القَدْرِ؛ لأنَّ البَعثَ كان في رمَضانَ).

الوَجهُ الثَّاني: قال ابنُ عبَّاسٍ: (أُنزِلَ إلى سماءِ الدُّنيا جملةً لَيلةَ القَدْرِ، ثمَّ إلى الأرضِ نُجومًا). أي: مفرَّقًا.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ التَّقديرَ: أنزَلْنا هذا الذِّكرَ في لَيلةِ القَدْرِ، أي: في فضيلةِ لَيلةِ القَدْرِ، وبَيانِ شَرَفِها[1].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ نُزولُ القرآنِ في زمانٍ بعَيْنِه يَقتضي فَضْلَ ذلك الزَّمانِ[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ صَريحٌ في أنَّ الآياتِ الأُوَلَ مِن القُرآنِ الكريمِ نَزَلت ليلًا[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ ذَكَرَ اللهُ تعالى نفْسَه بالعَظَمةِ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ لأنَّه سُبحانَه وتعالى العَظيمُ الَّذي لا شيءَ أعظمُ منه، واللهُ تعالى يَذْكُرُ نفْسَه أحيانًا بصيغةِ العَظَمةِ، مِثلُ هذه الآيةِ الكريمةِ، ومِثلُ قَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٨، ٢٢٩).

وضعَّف ابنُ جُزَي الوجهَ الثَّالثَ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٧).

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ومِثْلُ قَولِه تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢]، وأحيانًا يَذكُرُ نفْسَه بصيغةِ الواحدِ، مِثْلُ: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: ١٤]؛ وذلك لأنَّه واحِدٌ عظيمٌ، فباعتبارِ الصِّفةِ يأتي ضَميرُ العَظَمةِ، وباعتبارِ الوَحدانيَّةِ يأتي ضميرُ الواحِدِ(١).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ لا تعارُضَ بيْنه وبيْن قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣]؛ لأنَّ اللَّيلةَ المُبارَكةَ هي ليلةُ القَدْرِ، وهي مِن شهرِ رَمَضانَ بنَصِّ قَولِه تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فما يَزعُمُه كثيرٌ مِنَ العُلَماءِ مِن أنَّ اللَّيلةَ المبارَكةَ لَيلةُ النِّصفِ مِن شَعبانَ تَرُدُّه هذه النُّصوصُ القُرآنيَّةُ(٢).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ ليلةَ القَدْرِ ثابتةٌ باقيةٌ، خِلافًا لِمَن زعَمَ أنَّها رُفِعَت(٣).

٩- قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ كلُّ موضعٍ في القرآنِ: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ فقد عُقِّب ببَيانِه، وكلُّ موضعٍ ذُكِر بلَفظِ: ﴿ وَمَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص:٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦٢٣)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٩٥).

قال النووي: (وأجمَعَ مَن يُعتَدُّ به على وُجودِها ودوامِها إلى آخِرِ الدَّهرِ؛ للأحاديثِ الصحيحةِ المشهورةِ) ((شرح النووي على مسلم)) (٨/ ٥٧).

يُدۡرِيكَ﴾ لم يُعقَّبْ ببَيانِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[1] [الشورى: ١٧].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ خَصَّ اللهُ بها نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأُمَّتَه حينَ جَعَلَ أعمارَهم قصيرةً، فأعطاهم فَضْلَ هذه اللَّيلةِ؛ لِيَبْلُغوا بها وحْدَها فوقَ ما بَلَغَتِ الأُمَمُ السَّالِفةُ في طُولِ أعمارِهم؛ جُودًا وكرَمًا وتفضيلًا لهذا النَّبيِّ على مَن تَقَدَّمَه مِن الأنبياءِ، وتفضيلًا لأُمَّتِه على أُمَمِهم؛ لأنَّه خاتَمُ الأنبياءِ إلى أنْ تقومَ السَّاعةُ[2].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ تفاضُلُ الأعمالِ باعتبارِ الزَّمانِ[3].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾، فيه سُؤالٌ: صَحَّ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((إنَّ لَكِ مِن الأجْرِ على قَدْرِ نَصَبِكِ ونَفَقَتِكِ))[4]، ومِن المَعْلومِ أنَّ الطَّاعةَ في ألْفِ شَهْرٍ أَشَقُّ مِن الطَّاعةِ في لَيلةٍ

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٩٧).
وقال الفَرَّاءُ: (كلُّ ما كان في القرآنِ مِن قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وما كان مِن قولِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُدْرِه). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٨٠).
وأخرج ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ٢٠٧) بسندِه عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، قال: (ما في القرآنِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُخبِرْه، وما كان: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبَرَه). وأخرجه أيضًا ابنُ المُنذِرِ وابنُ أبي حاتم، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٦٤).
قال ابنُ عاشور: (مُرادُهم أنَّ مَفعولَ «ما أدراك» مُحقَّقُ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للتَّهويلِ، وأن مَفعولَ «ما يُدْريك» غيرُ مُحقَّقِ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للإنكارِ، وهو في معْنى نفْيِ الدِّرايةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٩).

(٤) أخرجه الحاكِمُ (١٧٣٣) مِن حديثِ عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها. =

واحِدةٍ، فكيف يُعقَلُ اسْتِواؤُهما[١]؟

الجَوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجْهُ الأوَّلُ: أنَّ الفِعلَ الواحِدَ قد يَخْتلِفُ حالُه في الحُسْنِ والقُبْحِ بسَبَبِ اخْتِلافِ الوُجوهِ المُنْضَمَّةِ إليه؛ فالأفْعالُ تَختَلِفُ آثارُها في الثَّوابِ والعِقابِ لاخْتِلافِ وُجوهِها، فلا يَبعُدُ أن تكونَ الطَّاعةُ القَليلةُ في الصُّورةِ مُساوِيةً في الثَّوابِ للطَّاعاتِ الكَثيرةِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ مَقصودَ الحَكيمِ سُبْحانَه أن يَجُرَّ الخَلْقَ إلى الطَّاعاتِ؛ فتارةً يَجعَلُ ثَمَنَ الطَّاعةِ ضِعْفَينِ، ومَرَّةً عَشْرًا، ومرَّةً سَبْعَمِئةٍ، وتارةً بحَسَبِ الأزْمِنةِ، وتارةً بحَسَبِ الأمْكِنةِ، والمَقصودُ الأصْليُّ مِن الكلِّ جَرُّ المُكلَّفِ إلى الطَّاعةِ، وصَرْفُه عن الاشْتِغالِ بالدُّنْيا[٢].

والعَمَلُ القَليلُ قد يَفضُلُ الكَثيرَ باعْتِبارِ الزَّمانِ، وباعْتِبارِ المَكانِ، وباعْتِبارِ كَيْفيَّةِ الأداءِ، كصَلاةٍ واحِدةٍ أُدِّيَتْ بجَماعةٍ؛ فإنَّها تَعدِلُ خَمْسًا وعِشْرينَ مَرَّةً صَلاةً مِثلَها أُدِّيَتْ على الانْفِرادِ، إلى غَيرِ ذلك. نَعمْ، هذه الأفضَليَّةُ قد تُعقَلُ في بعضٍ، وقد لا، كما فيما نحن فيه، ولا حَجْرَ على اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا يَعلَمُ ما عندَه

= صحَّحَه الحاكمُ وقال: (على شَرْطِ الشَّيخَينِ)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٢١٦٠).

(١) قولُ بعضِ النَّاسِ: الثوابُ والأجرُ على قدرِ المشقَّةِ ليس بمستقيمٍ على الإطلاقِ، فليس الأجرُ على قدرِ المشقَّةِ في كلِّ شيءٍ، ولكنَّ الأجرَ على قدرِ منفعةِ العملِ ومصلحتِه وفائدتِه، وعلى قدرِ طاعةِ أمرِ الله ورسولِه. فأيُّ العملينِ كان أحسنَ، وصاحبُه أطوعَ وأتبعَ كان أفضلَ؛ فإنَّ الأعمالَ لا تتفاضلُ بالكثرةِ، وإنَّما تتفاضلُ بما يحصُلُ في القلوبِ حالَ العملِ، نعم كثيرًا ما يكثُرُ الثَّوابُ على قدرِ المشقَّةِ والتَّعبِ، لا لأنَّ المشقَّةَ مقصودةٌ مِن العملِ؛ ولكن لأنَّ العملَ مستلزمٌ للمشقَّةِ والتَّعبِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٢٠، ٦٢٢) و (٢٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٢).

سُبحانَه إلَّا هو جَلَّ شَأنُه[١].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ فيه سؤالٌ: قَولُه: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ [الصافات: ١٦٥] يُنافي قَولِه تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾؟

الجوابُ: نَصرِفُ الحالتَينِ إلى زمانَينِ مختَلفينِ[٢].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ نزولُ الملائكةِ إلى الأرضِ، وهذا عُنوانٌ على الرَّحمةِ والخَيرِ والبَركةِ؛ ولهذا إذا امتنَعَتِ الملائكةُ مِن دُخولِ شَيءٍ كان ذلك دليلًا على أنَّ هذا المكانَ الَّذي امتنَعَتِ الملائكةُ مِن دُخولِه قد يَخْلو مِن الخَيرِ والبَركةِ[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ أنَّ الملائكةَ تَنْتَشِرُ في الأرضِ، فيَبْطُلُ سُلطانُ الشَّياطينِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ اشتَمَلَتْ هذه الآيةُ على تَنويهٍ عَظيمٍ بالقرآنِ، فافتُتِحَت بحرْفِ (إنَّ)، وبالإخبارِ عنها بالجُملةِ الفِعليَّةِ، وكِلاهما مِن طُرقِ التَّأكيدِ والتَّقوِّي، ويُفيدُ هذا التَّقديمُ قَصرًا، وهو قصْرُ قلْبٍ[٥]؛ للرَّدِّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ١٨٢).

(٥) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على =

المشرِكين الَّذي نَفَوا أنْ يكونَ القرآنُ مُنزَّلًا مِن اللهِ تعالَى[١].

- ولَيلةُ القدْرِ: اسمٌ جَعَلَه اللهُ لِلَّيلةِ الَّتي ابتُدِئَ فيها نُزولُ القُرآنِ، ويَظهَرُ أنَّ أوَّلَ تَسميتِها بهذا الاسمِ كان في هذه الآيةِ، ولم تكُنْ مَعروفةً عندَ المسلمينَ، وبذلك يكونُ ذِكْرُها بهذا الاسمِ تَشويقًا لمَعرفتِها؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾[٢] [القدر: ٢].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡقَدۡرِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، ولم يَقُلْ: (في لَيلةِ قدْرٍ) بالتَّنكيرِ؛ لأنَّه قُصِدَ جَعْلُ هذا المُركَّبِ بمَنزلةِ العَلَمِ لتلك اللَّيلةِ كالعَلَمِ بالغَلَبةِ؛ لأنَّ تَعريفَ المُضافِ إليه باللَّامِ مع تَعريفِ المُضافِ بالإضافةِ، أوغَلُ في جَعْلِ

= مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصِرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مَبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زَيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٩٢ - ١٠٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٥٧).

ذلك المركَّبِ لَقَبًا؛ لاجتماعِ تَعريفَينِ فيه[١].

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ عظَّمَ القرآنَ مِن ثَلاثةِ أوجُهٍ؛ **أحدُها**: أنْ أسنَدَ إنْزالَه إليه، وجَعَلَه مُختَصًّا به دونَ غيرِه، وهذا مُنبِئٌ عن كَمالِ العِنايةِ به، وفي إيثارِ صِيغةِ الجمْعِ وضَميرِ العظَمةِ تشريفٌ للقرآنِ، وتَعظيمٌ دونَه كلُّ تَعظيمٍ.

والثَّاني: أنَّه جاء بضَميرِه دونَ اسمِه الظَّاهرِ؛ شَهادةً له بالنَّباهةِ والاستِغناءِ عن التَّنبيهِ عليه، وإيماءً إلى أنَّه حاضرٌ في أذهانِ المسلِمينَ؛ لشِدَّةِ إقبالِهِم عليه، فكونُ الضَّميرِ دونَ سبْقِ مَعادٍ إيماءٌ إلى شُهرتِه بيْنَهم.

والثَّالثُ: الرَّفعُ مِن مِقدارِ الوقتِ الَّذي أُنزِلَ فيه بقولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾؛ لِما فيه مِنَ الدَّلالةِ على أنَّ عُلوَّ قَدرِها خارجٌ عن دائرةِ درايةِ الخَلْقِ، ولا يَدْريها إلَّا علَّامُ الغُيوبِ، كما يُشعِرُ به قولُه تعالَى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾؛ فالمَقصودُ مِن تَشريفِ اللَّيلةِ الَّتي كان ابتداءُ إنزالِ القرآنِ فيها -على قولٍ- تَشريفٌ آخَرُ للقرآنِ بتَشريفِ زَمانِ ظُهورِه؛ تَنبيهًا على أنَّه تعالَى اختارَ لابتداءِ إنزالِه وَقْتًا شَريفًا مُبارَكًا؛ لأنَّ عِظَمَ قدْرِ الفِعلِ يَقْتضي أنْ يُختارَ لإيقاعِه أفضَلُ الأوقاتِ والأمكنةِ، فاختيارُ أفضَلِ الأوقاتِ لابتداءِ إنزالِه يُنبِئُ عن عُلوِّ قَدْرِه عندَ اللهِ تعالَى[٢].

٢- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ تَفخيمٌ لشَأنِها، وتَنويهٌ بطَريقِ الإبهامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٦، ٤٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٧).

المرادِ به أنَّ إدراكَ كُنْهِها ليس بالسَّهلِ؛ لِما ينطوي عليه مِن الفضائلِ الجَمَّةِ[١].

- وأُعِيدَ اسمُ (لَيلة القَدْرِ) مَرتَّينِ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ؛ لأنَّ مُقتضى الظَّاهرِ الإضمارُ، فقُصِدَ الاهتمامُ بتَعيينِها تَعظيمًا لِلَيلتِه، فحَصَلَ تَعظيمُ لَيلةِ القدْرِ صَريحًا، وحَصَلَت كِنايةٌ عن تَعظيمِ ما أُنزِلَ فيها، وأنَّ اللهَ اختار إنْزالَه فيها؛ ليَتطابَقَ الشَّرَفانِ، وقد تَكرَّرَ هذا اللَّفظُ ثلاثَ مرَّاتٍ، والمَرَّاتُ الثَّلاثُ يَنْتهي عندَها التَّكريرُ غالبًا[٢].

٣- قولُه: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ بَيانٌ أوَّلُ لشَيءٍ مِن الإبهامِ الَّذي في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ٢]؛ فلذلك فُصِلَت الجُملةُ -أي: لم تُعطَفْ على الَّتي قبْلَها-؛ لأنَّها استِئنافٌ بَيانيٌّ، كأنَّها جَوابٌ لسُؤالٍ نَشَأَ عن تَفخيمِ لَيلةِ القدْرِ، تَقديرُه: وما فَضائلُها؟ أو لأنَّها كعطْفِ البيانِ، فهي بَيانٌ إجماليٌّ لشَأنِها إثْرَ تَشويقِه عليه السَّلامُ إلى دِرايتِها؛ فإنَّ ذلكَ مُعرِبٌ عن الوعدِ بإدْرائِها[٣].

- وعدَدُ الألْفِ قيل: إنَّه مقصودٌ، وقيل: إنَّه مُستعمَلٌ في وَفرةِ التَّكثيرِ، كقولِه: واحدٌ كألْفٍ، وإنَّما جُعِلَ تَمييزُ عدَدِ الكثرةِ هنا بالشَّهرِ؛ للرَّعْيِ على الفاصلةِ الَّتي هي بحَرْفِ الرَّاءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٨، ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٩)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٦٤).

=

٤- قولُه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾:

- مَوقعُ قولِه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ إلى قولِه: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ مِن جُملةِ ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]؛ مَوقعُ الاستِئنافِ البَيانيِّ، أو مَوقعُ بدَلِ الاشتمالِ[١]، فلِمُراعاةِ هذا الموقعِ فُصِلَتِ الجُملةُ عن الَّتي قبْلَها، ولم تُعطَفْ عليها مع أنَّهما مُشترِكتانِ في كَونِ كلٍّ واحدةٍ منهما تُفيدُ بَيانًا لجُملةِ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ٢]، فأُوثِرَت مُراعاةُ مَوقعِها الاستِئنافيِّ أو البَدَليِّ على مُراعاةِ اشتِراكِهما في كَونِها بَيانًا لجُملةِ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾؛ لأنَّ هذا البَيانَ لا يَفوتُ السَّامعَ عندَ إيرادِها في صُورةِ البَيانِ أو البدَلِ، بخِلافِ ما لو عُطِفَت على الَّتي قبْلَها بالواوِ؛ لفَواتِ الإشارةِ إلى أنَّ تَنزُّلَ الملائكةِ فيها مِن أحوالِ خَيريَّتِها[٢].

- قولُه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ إذا ضُمَّ هذا البيانُ الثَّاني لِما في قولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ٢] مِن الإبهامِ التَّفخيميِّ؛ حَصَلَ منهما ما يدُلُّ دَلالةً بيِّنةً على أنَّ اللهَ جَعَلَ مِثلَ هذه الفَضيلةِ لكلِّ لَيلةٍ مِن لَيالي الأعوامِ تَقَعُ في مِثلِ اللَّيلةِ مِن شَهْرِ نُزولِ

= وقال القاسمي: (لك أن تَقِفَ في التَّفضيلِ عندَ النَّصِّ، وتُفَوِّضَ الأمرَ في تحديدِ ما فُضِّلَت عليه اللَّيلةُ بألْفِ شَهرٍ إلى اللهِ تعالى؛ فهو الَّذي يعلَمُ سَبَبَ ذلك، ولم يبيِّنْه لنا، ولك أن تُجريَ الكلامَ على عادتِهم في التَّخاطُبِ، وذلك في الكتابِ كثيرٌ... فيكونُ التَّحديدُ بالألْفِ لا مفهومَ له، بل الغَرَضُ منه التَّكثيرُ، وأنَّ أقَلَّ عَدَدٍ تَفضُلُه هو ألْفُ شَهرٍ... فهي ليلةٌ خيرٌ مِن الدَّهرِ إنْ شاء اللهُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥١٦، ٥١٧).

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٣).

القُرآنِ كَرامةً للقُرآنِ، ولِمَن أُنزِلَ عليه، وللدِّينِ الَّذي نَزَلَ فيه، وللأُمَّةِ الَّتي تتَّبعُه، ألَا تَرى أنَّ مُعظَمَ السُّورةِ كان لذِكرِ فَضائلِ لَيلةِ القدْرِ؟ فما هو إلَّا للتَّحريضِ على تطَلُّبِ العمَلِ الصَّالحِ فيها؛ فإنَّ كَونَها خَيرًا مِن ألْفِ شَهرٍ أومَأَ إلى ذلك، وبيَّنَتْه الأخبارُ الصَّحيحةُ(١).

- والتَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارعِ في قولِه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّ هذا التَّنزُّلَ مُتكرِّرٌ في المستقبَلِ بعْدَ نُزولِ هذه السُّورةِ(٢).

- قولُه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾، الرُّوحُ: جِبريلُ، وإنَّما أُفرِدَ بالذِّكرِ؛ تَنويهًا بفَضْلِه(٣).

- ولَفظةُ ﴿ كُلِّ ﴾ مُستعمَلةٌ في معْنى الكثرةِ للأهمِّيَّةِ، أي: في أُمورٍ كَثيرةٍ عَظيمةٍ(٤).

- وتَنوينُ ﴿أَمْرٍ﴾ للتَّعظيمِ(٥).

٥- قولُه: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ بَيانٌ لمَضمونِ ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، وهو كالاحتِراسِ(٦)؛ لأنَّ تَنزُّلَ الملائكةِ يكونُ للخَيرِ ويكونُ للشَّرِّ لعِقابِ مُكذِّبي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) الاحتِراسُ: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه بعضُهم: التَّكميلَ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٤٥)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢٠٨)، ((البرهان =

الرُّسلِ، فأُخبِرَ هنا أنَّ تَنزُّلَ الملائكةِ لَيلةَ القدْرِ لتَنفيذِ أمْرِ الخَيرِ للمُسلِمينَ الَّذين صاموا رَمَضانَ، وقاموا لَيلةَ القدْرِ، فهذه بِشارةٌ[١].

- وتَنكيرُ ﴿سَلَٰمٌ﴾ للتَّعظيمِ، وأُخبِرَ عن اللَّيلةِ بأنَّها سَلامٌ للمُبالَغةِ؛ لأنَّه إخبارٌ بالمَصدرِ[٢].

- وتَقديمُ المُسنَدِ -وهو ﴿سَلَٰمٌ﴾- على المُسنَدِ إليهِ -وهو ﴿هِيَ﴾- لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: ما هي إلَّا سَلامٌ، والقصْرُ ادِّعائيٌّ[٣]؛ لعدَمِ الاعتدادِ بما يَحصُلُ فيها لغَيرِ الصَّائمينَ القائمينَ[٤].

ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ مُرادًا به الإخبارُ فقطْ. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالمصدرِ الأمرُ، والتَّقديرُ: سلِّموا سَلامًا؛ فالمصدرُ بَدلٌ مِن الفعلِ، وعُدِلَ عن نَصْبِه إلى الرَّفعِ؛ ليُفيدَ التَّمكُّنَ، والمعْنى: اجْعَلوها سَلامًا بيْنَكم، أي: لا نِزاعَ ولا خِصامَ[٥].

- وقولُه: ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ غايةٌ لِما قبْلَه مِن قولِه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إلى ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾، والمَقصودُ مِن الغايةِ إفادةُ أنَّ جَميعَ أحيانِ تلك اللَّيلةِ مَعمورةٌ بنُزولِ الملائكةِ والسَّلامةِ، فالغايةُ هنا مُؤكِّدةٌ لمَدلولِ (لَيلةٍ)؛ لأنَّ اللَّيلةَ قد تُطلَقُ على بَعضِ أجْزائِها[٦].

= في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٤، ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٦٥).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٦٥، ٤٦٦).

- وقيل: جِيءَ بحرْفِ ﴿حَتَّىٰ﴾ لإدخالِ الغايةِ ﴿مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾؛ لبَيانِ أنَّ لَيلةَ القدْرِ تَمتَدُّ بعْدَ مَطلعِ الفَجرِ، بحيث إنَّ صَلاةَ الفجْرِ تُعتبَرُ واقعةً في تلك اللَّيلةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ نِهايتَها كنِهايةِ الفِطرِ بآخِرِ جُزءٍ مِن اللَّيلِ، وهذا تَوسعةٌ مِن اللهِ في امتدادِ اللَّيلةِ إلى ما بعْدَ طُلوعِ الفَجرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٦).

قال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ والمفسِّرون: إلى مَطلِعِ الفجرِ. والمطلعُ: الطُّلوعُ). ((البسيط)) (٢٤/ ١٩٨).

وقال السعدي: (﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي: مبتداها مِن غُروبِ الشَّمسِ، ومنتهاها طلوعُ الفجرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي: إلى مطلعِ الفجرِ، وإذا طلَع الفجرُ انتهَتْ ليلةُ القَدْرِ). ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ٢٧٢).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ البَيِّنةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ البَيِّنةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ البَيِّنةِ[١].

وسُمِّيت أيضًا: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٢]، فعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لأُبَيِّ بنِ كَعبٍ: إنَّ اللهَ أمَرَني أن أقرَأَ عليكَ: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. قال: وسَمَّاني لك؟! قال: نعم. فبَكَى))[٣].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ البَيِّنةِ مَدَنيَّةٌ[٤].....

---

(١) سمِّيت بذلك لوُرودِ لَفظِ البَيِّنةِ فيها، في قَولِه: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾.

(٢) سمِّيت بذلك لأنَّها أوَّلُ جُملةٍ افتُتِحَت بها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٧).
وتُسمَّى أيضًا سورةَ ﴿لَمۡ يَكُنِ﴾ وسورةَ القَيِّمةِ، وسورةَ المُنفَكِّينَ، وسورةَ البَرِيَّةِ، وسورةَ الإنْفِكاكِ. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٣)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٣٨٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩).

(٤) وممَّن اختار أنَّها مَدَنيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيْمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، وابن أبي زَمَنِين، والثعلبي، والماوَرْدي، والرازي، وابن جُزَي، والسيوطي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٤/ ٧٧٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٥٩)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢٠).
ونَسَب هذا القَولَ إلى الجُمهورِ: الماوَرْديُّ، وابنُ الجوزيِّ، والعزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ، والقُرطبيُّ، والخازنُ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير العز بن عبد السلام)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٣٨)، ((تفسير =

وقيل: مَكِّيَّةٌ[١].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

توبيخُ المشرِكينَ وأهلِ الكِتابِ على تكذيبِهم بالقرآنِ والرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبيانُ مآلِهم ومآلِ المؤمنينَ[٢].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- توبيخُ أهلِ الكِتابِ والمُشرِكينَ على إصرارِهم على ضَلالِهم مِن بَعْدِ أن تبَيَّنَ لهم الحَقُّ.

٢- التَّعجيبُ مِن تناقُضِ أحوالِهم، وبيانُ أنَّ كُفرَهم كان بسَبَبِ جُحودِهم وعِنادِهم وحَسَدِهم للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

٣- التَّسجيلُ عليهم بأنَّهم شَرُّ البَرِيَّةِ، وأنَّ المؤمِنينَ هم خَيرُ البَرِيَّةِ.

٤- الثَّناءُ على الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ، وذِكرُ جزائِهم في الآخِرةِ.

= الخازن)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٨).

(١) وممَّن اختار أنَّها مَكِّيَّةٌ: المهدويُّ، والبغوي، والزمخشري، وابن عطية، والثعالبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (٧/ ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٦١٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١١).

ونَسَب هذا القَولَ إلى الجُمهورِ: ابنُ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٨).

الآيات (١-٥)

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُنفَكِّينَ﴾: أي: زائِلينَ عن كُفْرِهم، والانفِكاكُ: الانفِصالُ والبَينونةُ مِنَ الشَّيءِ بَعْدَ الملابَسةِ والاجتِماعِ، وأصلُ (فكك): يدُلُّ على تفتُّحٍ وانفِراجٍ[(١)].

﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾: أي: محمَّدٌ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. والبَيِّنةُ: الحُجَّةُ الظَّاهِرةُ الَّتي يَتمَيَّزُ بها الحَقُّ مِنَ الباطِلِ، وأصلُ (بين): يدُلُّ على انكِشافِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿قَيِّمَةٌ﴾: أي: مُستَقيمةٌ صادِقةٌ عادِلةٌ، وأصلُ (قوم): يدُلُّ على انتِصابٍ[(٣)].

﴿حُنَفَآءَ﴾: أي: مُسلِمينَ مائِلينَ عن العقائِدِ الزَّائِغةِ، جمعُ حَنيفٍ: وهو المائِلُ عن الدِّينِ الباطِلِ إلى الدِّينِ الحَقِّ، المُقبِلُ على الله، المُعرِضُ عمَّا سِواه، وأصلُ الحنَفِ: المَيلُ عن الشَّيءِ بالإقبالِ على آخَرَ، وأصْلُه مَيلٌ في إبهامَي

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣، ١٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٢).

القَدمَينِ مِن كلِّ واحدةٍ على صاحِبَتِها، وأصلُ (حنف): يدُلُّ على المَيلِ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ سُبحانَه هذه السُّورةَ الكريمةَ قائِلًا: لم يكُنِ الكُفَّارُ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى والمُشرِكينَ عَبَدةِ الأصنامِ بتارِكينَ دينَهم مِن قَبلِ أن تأتيَهم علامةٌ واضِحةٌ مِن رَبِّهم تَدُلُّهم على الحَقِّ، وتلك البَيِّنةُ هي رَسولُ اللهِ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرأُ عليهم القُرآنَ المكتوبَ في صُحُفٍ مُنَزَّهةٍ عن كُلِّ سُوءٍ، في تلك الصُّحُفِ كُتُبٌ مُستقيمةٌ.

ثمَّ بيَّن سبحانَه ما كان عليه أهلُ الكتابِ مِن جَحدٍ للحقِّ معَ علمِهم به، فقال: وما تفَرَّق اليَهودُ والنَّصارى في شأنِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا بعْدَما بعَثَه اللهُ؛ فكَذَّب به بعضُهم، وآمَنَ بَعضُهم!

ثمَّ بيَّن الله تعالى ما كان يجِبُ عليهم أن يَفْعلوه، فقال: وما أُمِروا إلَّا بعِبادةِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (١/ ٢٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩، ٤١٢).

قال ابن فارس: (الحَنَف: اعْوِجاجٌ في الرِّجْلِ إلى داخِلٍ. ورجُلٌ أحنَفُ، أي: مائِلُ الرِّجْلَينِ، وذلك يكونُ بأنْ تَتَدانَى صُدورُ قَدَمَيْه ويَتَباعَدَ عَقِباه. والحَنيفُ: المائِلُ إلى الدِّينِ المستقيمِ). ((مقاييس اللغة)) (٢/ ١١٠).

وقيل: الحَنيفُ: المسلمُ المستقيمُ، وذلك بناءً على قولِ مَن قال: إنَّ الحَنيفَ هو المستقيمُ مِن كلِّ شيءٍ. والحنَفَ: الاستقامةُ، وجعَلوا الرَّجُلَ الَّذي تُقبلُ إحدَى قَدَميه على الأُخرى، إنَّما قِيل له: أحنَفُ، على جهةِ التَّفاؤُلِ، كما قِيل للمَهْلَكةِ مِن البلادِ: المَفازَةُ، بمعنَى الفَوزِ بالنَّجاةِ منها والسَّلامةِ، وكما قِيل لِلَّديغِ: السَّليمُ؛ تَفاؤلًا له بالسَّلامةِ مِن الهلاكِ، وما أشْبَهَ ذلك. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٦).

اللهِ وَحْدَه مُخلِصينَ مُسلِمينَ مائِلينَ عن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، وأُمِروا بإقامةِ الصَّلَواتِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وذلك الَّذي أُمِروا به مِنَ التَّوحيدِ وإقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ: هو دينُ الإسلامِ المُستقيمُ العادِلُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾.

أي: لم يكُنِ الكُفَّارُ مِنَ اليَهودِ، والنَّصارى، والمُشرِكينَ عَبَدةِ الأوثانِ والأصنامِ: بتارِكينَ لدينِهم مِن قَبلِ أن تأتيَهم علامةٌ واضِحةٌ مِن رَبِّهم تَدُلُّهم على الحَقِّ[1].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٨٦، ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧١، ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٦).

و﴿مِنْ﴾ للتَّبيينِ. وممَّن اختاره: الكرمانيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (١/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٣).

وقيل: ﴿مِنْ﴾ للتَّبعيضِ. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٦٩).

قال ابن جُزَي: (ومعنى ﴿مُنفَكِّينَ﴾: مُنفَصِلينَ، ثمَّ اختُلِف في هذا الانفصالِ على أربعةِ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّ المعنى: لم يَكونوا مُنفصِلينَ عن كُفرِهم حتَّى تأتيَهم البَيِّنةُ؛ لِتَقومَ عليهم الحُجَّةُ.

الثَّاني: لم يَكونوا منفصِلينَ عن معرفةِ نُبوَّةِ سيِّدِنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم حتَّى بعثه اللهُ.

الثَّالثُ: اختاره ابنُ عطيَّةَ، وهو: لم يَكونوا منفصلينَ عن نظَرِ الله وقُدرتِه حتَّى يَبعَثَ الله إليهم رسولًا يُقيمُ عليهم الحُجَّةَ.

الرَّابعُ: وهو الأظهَرُ عندي، أنَّ المعنى: لم يَكونوا لِيَنفَصِلوا مِن الدُّنيا حتَّى بعث الله لهم سيِّدُنا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم فقامت عليهم الحُجَّةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠١).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجملةِ -أي: زائلينَ عن كُفرِهم وشِركِهم، ومُفارِقينَ لدينِهم ومُنتَهِينَ عنه ومُنفصِلينَ عن ضَلالِهم-: الزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن أبي =

= زمنين)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٦).

قالوا: و﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ﴾ أي: حتَّى أتَتْهم، مُستقبَلٌ بمعنى الماضي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أي: مُفترِقينَ في أمرِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم-: ابنُ جرير، والنَّحَّاسُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٦٨).

قال النَّحَّاس: (لم يكُنِ الكفَّارُ متفرِّقينَ إلَّا مِن بَعدِ أن جاءهم الرَّسولُ؛ لأنَّهم فارَقوا ما عِندَهم مِن صفةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فكفَروا بعدَ البَيانِ. وهذا القولُ في العربيَّةِ أَوْلى؛ لأنَّ ﴿مُنفَكِّينَ﴾ لو كان بمعنى زائلينَ لَاحتاج إلى خبَرٍ، ولكن يكونُ مِن انفَكَّ الشَّيءُ مِن الشَّيءِ، أي: فارَقه). ((إعراب القرآن)) (٥/ ١٦٨).

ونحو ذلك قولُ أبي السعود: (﴿مُنفَكِّينَ﴾: أي: عمَّا كانوا عليه مِن الوعدِ باتباعِ الحقِّ والإيمانِ بالرسولِ المبعوثِ في آخرِ الزمانِ، والعزمِ على إنجازِه). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٢)

وممَّن اختار القولَ الثَّالثَ: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٩٤).

قال ابن تيميَّةَ عن هذا القولِ: (هو أصَحُّ الأقوالِ لفظًا ومعنًى؛ أمَّا مِن جهةِ اللَّفظِ ودَلالتِه وبيانِه فإنَّ هذا اللَّفظَ هو مُستعمَلٌ فيما يُلزَمُ به الإنسانُ بغيرِ اختياره، ويُقهَرُ عليه إذا تخلَّصَ منه، فقولُه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ أي: لم يَكونوا مَتروكينَ باختيارِ أنفُسِهم يَفعلونَ ما يَهْوونَه لا حَجْرَ عليهم، كما أنَّ المُنفَكَّ لا حَجْرَ عليه. وهو لم يقُلْ: «مَفْكُوكينَ»، بل قال: ﴿مُنفَكِّينَ﴾، وهذا أحسَنُ؛ فإنَّه نفيٌ لِفِعْلِهم، ولو قال «مَفكوكينَ» كان التَّقديرُ: لم يَكونوا مُسَيَّبينَ مُخَلَّيْنَ، فهو نفْيٌ لِفعلِ غيرِهم. والمقصودُ أنَّهم لم يَكونوا مَتروكينَ لا يُؤْمَرونَ ولا يُنْهَوْنَ ولا تُرسَلُ إليهم رُسلٌ، بل يَفعلون ما شاؤوا ممَّا تَهواه الأنفُسُ! والمعنى: أنَّ اللهَ ما يُخلِّيهم ولا يَترُكُهم، فهو لا يَفُكُّهم حتَّى يَبعَثَ إليهم رسولًا، وهذا كقولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ=

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۞ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ [طه: ١٣٣، ١٣٤].

﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه أجمَلَ البيِّنةَ، ثمَّ فصَّلها فيما بَعْدَها، فقال[1]:

﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢﴾.

أي: وتلك البَيِّنةُ هي رَسولٌ مِنَ اللهِ -وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يَقرأُ عليهم القُرآنَ المكتوبَ في صُحُفٍ مُنَزَّهةٍ عن كُلِّ سُوءٍ[2].

= سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] لا يُؤمَرُ ولا يُنهَى، أي: أيَظُنُّ أنَّ هذا يكونُ؟! هذا ما لا يكونُ الْبَتَّةَ، بل لا بُدَّ أن يُؤمَرَ ويُنهَى). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٤٩٤، ٤٩٥).

قال الواحديُّ: (وهذه الآيةُ مِن أصعَبِ ما في القرآنِ نظمًا وتفسيرًا، وقد تخبَّط فيها الكبارُ مِن العُلماءِ، وسلَكوا في تفسيرِها طُرقًا لا تُفضي بهم إلى الصَّوابِ). ((البسيط)) (٢٤/ ٢٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٦، ٢٧٧).

قال ابن كثير: (يعني: محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما يَتلوه مِن القُرآنِ العظيمِ، الَّذي هو مُكتَتَبٌ في الملأِ الأعلى، في صُحُفٍ مُطَهَّرةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٦).

وقال السعدي: (محفوظةٌ عن قِرْبانِ الشَّياطينِ، لا يَمَسُّها إلَّا المطَهَّرونَ؛ لأنَّها في أعلى ما يكونُ مِن الكَلامِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

قال الماوَرْدي: (﴿يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ﴾ يعني: القُرآنَ. ويحتَمِلُ ثانيًا: يتعقَّبُ بنُبوَّتِه نُزولَ الصُّحُفِ المطَهَّرةِ على الأنبياءِ قَبْلَه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٦). =

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾.

أي: في تلك الصُّحُفِ كُتُبٌ مُستقيمةٌ ليس فيها خَطَأٌ؛ لأنَّها مِن عِندِ اللهِ تعالى[1].

= وقيل: (جائزٌ أن يكونَ قَولُه: ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا﴾: القرآنَ وسائرَ الصُّحُفِ؛ لأنَّ سائرَ الصُّحُفِ فيه). يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٥٩٠).

قال السمرقندي: (ويُقالُ: سُمِّيَ القُرآنُ صُحُفًا؛ مِن كثرةِ السُّوَرِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٧).

قال الماوَرْدي: (﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: يعني: كُتُبَ اللهِ المستقيمةَ الَّتي جاء القُرآنُ بذِكْرِها، وثبت فيه صِدْقُها. حكاه ابنُ عيسى. الثَّاني: يعني: فُروضَ اللهِ العادِلةَ. قاله السُّدِّيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٦).

وقال ابنُ أبي زَمَنِين: (﴿قَيِّمَةٌ﴾ أي: مُستَقيمةٌ لا عِوَجَ فيها، يعني: الَّتي جاءَتْ بها الأنبياءُ). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥١).

وقال ابنُ عاشور: (معنى كَونِ الكُتُبِ كائنةً في الصُّحُفِ: أنَّ الصُّحُفَ الَّتي يُكتَبُ فيها القُرآنُ تَشتَمِلُ على القُرآنِ، وهو يَشتَمِلُ على ما تضَمَّنَتْه كُتُبُ الرُّسُلِ السَّابِقينَ مِمَّا هو خالِصٌ مِن التَّحريفِ والباطِلِ، وهذا كما قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، فالقُرآنُ زُبدةُ ما في الكُتُبِ الأُولى ومَجمَعُ ثَمَرتِه؛ فأُطلِقَ على ثَمَرةِ الكُتُبِ اسمُ كُتُبٍ... [أو] المرادُ بالكُتُبِ أجزاءُ القُرآنِ أو سُوَرُه، فهي بمَثابةِ الكُتُبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٧). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٥٩٠).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الأحكامُ المكتوبةُ فيها، ﴿قَيِّمَةٌ﴾ أي: عادلةٌ، مُستقيمةٌ، غيرُ ذاتِ عِوَجٍ، تُبيِّنُ الحقَّ مِن الباطِلِ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧).

قال السمعاني: (والكتابُ يأتي بمعنَى الحُكمِ، والكُتُبُ بمعنى الأحكامِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٣).

وقال ابن عطيَّة: (فيه حذفُ مُضافٍ، تقديرُه: فيها أحكامُ كُتبٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧).=

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾

أي: وما تفرَّق اليَهودُ والنَّصارى في شأنِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فكَذَّبوا به إلَّا بعْدَما بعَثَه اللهُ، فتفرَّقوا فيه؛ فكَذَّب به بعضُهم، وآمَنَ بَعضُهم، وقد كانوا قبْلَ مَبعَثِه مُتَّفِقينَ على نُبوَّتِه وتَصديقِه(١)!

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

أي: وما أَمَر اللهُ اليَهودَ والنَّصارى إلَّا بعِبادتِه مُفْرِدينَ له الطَّاعةَ، لا يُشارِكونَ في عبادَتِه معَه غيرَه(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

= قال السعدي: (﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي: أخبارٌ صادِقةٌ، وأوامِرُ عادِلةٌ تَهدي إلى الحَقِّ وإلى صِراطٍ مُستقيم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

وقال مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ: (إنَّما سُمِّيَت ﴿كُتُبٌ﴾؛ لأنَّ فيها أمورًا شَتَّى كثيرةً مِمَّا ذَكَر اللهُ -عزَّ وجَلَّ- في القرآنِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٠).

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

﴿حُنَفَآءَ﴾.

أي: مائِلينَ ومُعرِضينَ عن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، مُستَقيمينَ على دينِ الإسلامِ[(١)].

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر أصْلَ الدِّينِ أتْبَعَه الفُروعَ؛ فبدأ بأعظَمِها الَّذي هو مَجمَعُ الدِّينِ، ومَوضِعُ التَّجَرُّدِ عن العَوائِقِ، فقال[(٢)]:

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وأُمِروا بإقامةِ الصَّلواتِ بحُدودِها وشُروطِها وأركانِها في أوقاتِها[(٣)].

﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٥).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى صِلةَ الخالِقِ؛ أتْبَعَها صِلةَ الخلائِقِ، بقَولِه تعالى[١]:

﴿وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: وأُمِروا بإيتاءِ الزَّكاةِ إلى أهلِها المُستَحقِّينَ لها[٢].

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

أي: وذلك الَّذي أُمِروا به مِنَ التَّوحيدِ وإقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ: هو دينُ الإسلامِ المُستقيمُ العادِلُ[٣].

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فيه تنبيهٌ على ما يجِبُ مِن تحصيلِ الإخلاصِ مِن ابتداءِ الفِعْلِ إلى انتِهائِه[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ تحريمُ الرِّياءِ[٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((رياض الصالحين)) للنووي (ص: ٤٥٧)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٣٣٨).

وأنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يُخْلِصَ النِّيَّةَ للهِ سُبحانَه وتعالى في جميعِ عباداتِه، وألَّا يَنوِيَ بعباداتِه إلَّا وَجْهَ اللهِ تعالى، والدَّارَ الآخِرةَ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ فيه أنَّ الكَمالَ في كُلِّ شَيءٍ إنَّما يَحصُلُ إذا حَصَلَ الأصلُ والفَرعُ معًا؛ فقَومٌ أطنَبوا في الأعمالِ مِن غَيرِ إحكامِ الأُصولِ، وهم اليَهودُ والنَّصارى والمجوسُ، فإنَّهم رُبَّما أتعَبوا أنفُسَهم في الطَّاعاتِ، ولكِنَّهم ما حَصَّلوا الدِّينَ الحَقَّ، وقَومٌ حَصَّلوا الأصولَ وأهملوا الفُروعَ، وهم المُرجِئةُ الَّذين قالوا: (لا يَضُرُّ الذَّنبُ مع الإيمانِ)! واللهُ تعالى خطَّأَ الفريقَينِ في هذه الآيةِ، وبيَّنَ أنَّه لا بُدَّ مِن العِلمِ والإخلاصِ، في قَولِه تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾، ومِنَ العَمَلِ، في قَولِه تعالى: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ثمَّ قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ المجموعُ كُلُّه هو ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾، أي: البيِّنةِ المُستقيمةِ المعتَدِلةِ، فكما أنَّ مجموعَ الأعضاءِ بَدَنٌ واحِدٌ، كذا هذا المجموعُ دِينٌ واحِدٌ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الشِّركُ المُطلَقُ في القُرآنِ لا يَدخُلُ فيه أهلُ الكِتابِ، وإنَّما يَدخُلونَ في الشِّركِ المُقيَّدِ؛ قال تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ فقد جَعَلَ سُبحانَه هنا المُشرِكينَ قِسمًا غيرَ أهلِ الكتابِ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ [الحج: ١٧] فجَعَلَهم قِسمًا غيرَهم، فأمَّا دُخولُهم في المُقيَّدِ ففي قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٥).

إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، فوَصَفَهم بأنَّهم مُشرِكونَ، وسببُ هذا أنَّ أصلَ دِينِهم الَّذي أَنْزَلَ اللهُ به الكُتُبَ وأَرسَلَ به الرُّسُلَ ليس فيه شِركٌ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]، ولكِنَّهم بَدَّلوا وغَيَّروا، فابتدَعوا مِن الشِّركِ ما لَمْ يُنَزِّلْ به اللهُ سُلطانًا؛ فصار فيهم شِرْكٌ باعتبارِ ما ابتدَعوا، لا باعتبارِ أصلِ الدِّينِ[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾، ولم يقُلْ: (مِنَ اليَهودِ والنَّصارى)؟

الجوابُ: لأنَّ قَولَه: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يدُلُّ على كَونِهم عُلَماءَ، وذلك يَقتضي إمَّا مَزيدَ تَعظيمٍ، فلا جرَمَ ذُكِروا بهذا اللَّقَبِ دونَ اليَهودِ والنَّصارى، أو لأنَّ كَونَه عالِمًا يَقتضي مَزيدَ قُبحٍ في كُفْرِه، فذُكِروا بهذا الوَصفِ؛ تنبيهًا على تلك الزِّيادةِ مِن العِقابِ[(٢)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ فَسَّرَ الله تعالى قولَه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بـ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وبـ(الْمُشْرِكِينَ)، فهذا يَقتضي كوْنَ الكُلِّ واحِدًا في الكُفرِ، فمِن ذلك قال العُلَماءُ: الكُفرُ كُلُّه مِلَّةٌ واحِدةٌ؛ واستُدِلَّ به على توارُثِ أهلِ الكفرِ فيما بيْنَهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٩). ويُنظر أيضًا: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٤١).
وهو مذهبُ الإمامَينِ أبي حنيفةَ والشَّافعيِّ، وروايةٌ عن الإمامِ أحمدَ: أنَّه يَثبُتُ التَّوارُثُ =

٤- قولُه تعالى: ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ ظاهرُه أنَّ الرَّسولَ يَقرَأُ المَكتوبَ مِن الكِتابِ، مع أنَّه مُنتفٍ في حقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لكَونِه أُمِّيًّا، فالمرادُ أنَّه يَتْلو ما في الصُّحفِ عن ظَهرِ قَلبِه[١]، ولا يَقرَؤُه من صُحُفٍ، فمعنى ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا﴾ يَتْلو ما هو مكتوبٌ في صُحُفٍ، والقرينةُ ظاهِرةٌ، وهي اشتِهارُ كَونِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمِّيًّا[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ إقامةُ الحُجَّةِ على أهلِ الشَّرائعِ، وذَمُّ تَفرُّقِهم واختلافِهم، وأنَّ ذلك بعدَ أنْ جاءتهم البَيِّنةُ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ * وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ أنَّ أهلَ التَّوراةِ والإنجيلِ قبْلَ النَّسخِ والتَّبديلِ مُسلِمونَ حُنفاءُ على مِلَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[٤].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ استُدِلَّ به على وُجوبِ النِّيَّةِ في العِباداتِ؛ لأنَّ الإخلاصَ لا يكونُ بدُونِها[٥]. فالأصلُ المُستقِرُّ في جميعِ العباداتِ المقصودةِ: أنَّها لا تَصِحُّ إلَّا بنِيَّةٍ؛ لهذه الآيةِ[٦]. فالله

= بيْنَهم وإنِ اختلفَتْ مِلَلُهم. وذهب الإمامُ مالكٌ إلى أنَّهم ثلاثُ مِلَلٍ: فاليهودُ مِلَّةٌ، والنَّصارى مِلَّةٌ، ومَن عَداهم مِلَّةٌ. وعندَ الإمامِ أحمدَ في روايةٍ عنه: هم مِلَلٌ شَتَّى. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير آيات أَشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٩٥).

(٦) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيمية- كتاب الحج)) (٢/ ٥٨٢).

سُبحانَه لم يأمُرْهم إلَّا بعَمَلٍ هو عبادةٌ قد أخلَصَ عامِلُها النِّيَّةَ فيها لرَبِّه عزَّ وجلَّ، ومَعلومٌ أنَّ النِّيَّةَ جُزءٌ مِن العبادةِ، بل هي رُوحُ العبادةِ؛ فعُلِمَ أنَّ العَمَلَ الَّذي لم يُنْوَ ليس بعِبادةٍ، ولا مأمورٍ به، فلا يكونُ فاعِلُه متقرِّبًا إلى اللهِ تعالى، وهذا ممَّا لا يَقْبَلُ نِزاعًا[١].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ قد استدَلَّ كثيرٌ مِنَ الأئمَّةِ -كالزُّهْريِّ والشَّافِعيِّ وأحمدَ- بهذه الآيةِ الكريمةِ على أنَّ الأعمالَ داخِلةٌ في الإيمانِ[٢]، فقد جَعَلَ سُبحانَه عبادةَ اللهِ تعالى، وإخلاصَ القلبِ، وإقامَ الصَّلاةِ، وإيتاءَ الزَّكاةِ؛ كلَّه: مِن الدِّينِ[٣].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ في هذه الآيةِ رَدٌّ صَريحٌ على أولئك الَّذين يُنادُونَ بدونِ عِلمٍ إلى وَحْدةِ الأديانِ! فهذا النَّصُّ الصَّريحُ بأنَّ ذلك الَّذي جاء به القرآنُ هو دِينُ القَيِّمةِ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وهي أفعَلُ تفضيلٍ، فلا يمكِنُ أن يُعادَلَ ويُساوى مع غيرِه أبدًا! وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، فأخَذَ الله العَهدَ على جميعِ الأنبياءِ لَئِنْ أدركوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَيُؤمِنُنَّ به ولَيَنصُرُنَّه ولَيَتَّبِعُنَّه، وقد أخبَرَ الرُّسُلُ أُمَمَهم بذلك؛ فلم يَبْقَ مجالٌ في هذا الوقتِ ولا غيرِه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((لمعة الاعتقاد)) لابن قدامة (ص: ٢٦).

لدعوةِ الجاهِليَّةِ بعُنوانٍ مُجَوَّفٍ (وَحدةُ الأديانِ!)، بل الدِّينُ الإسلاميُّ وَحْدَه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[١] [آل عمران: ٨٥].

١٠- في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أنَّ النَّاسَ لم يُؤمَروا بشَيءٍ يَتعلَّقُ بأُمورِ الدُّنيا، أو بشَيءٍ يُكلِّفُهم، بل هو شيءٌ سَهلٌ عليهم وهو: عِبادةُ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢]!

١١- التَّعبيرُ بالفِعلِ المُسنَدِ للمَجهولِ ﴿أُمِرُوٓاْ﴾ مُفيدٌ مَعنيَينِ، أي: ما أُمِروا في كِتابِهم إلَّا بما جاء به الإسلامُ، أو المعْنى: وما أُمِروا في الإسلامِ إلَّا بمِثلِ ما أمَرَهُم به كِتابُهم؛ فلا مَعذرةَ لهم في الإعراضِ عن الإسلامِ على كِلا التَّقديرينِ[٣].

١٢- قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ المَقصودُ إقامةُ الحُجَّةِ على أهلِ الكتابِ وعلى المشرِكين تَبَعًا لهم بأنَّهم أعْرَضوا عمَّا هم يَتطلَّبونه؛ فإنَّهم جَميعًا مُقرُّون بأنَّ الحَنيفيَّةَ هي الحقُّ، والمشرِكون يَزعُمون أنَّهم يَطلُبون الحَنيفيَّةَ ويَأخُذون بما أدْرَكوه مِن بَقاياها، ويَزعُمون أنَّ اليهوديَّةَ والنَّصرانيَّةَ تَحريفٌ للحَنيفيَّةِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ هذا الكلامُ مَسوقٌ مَساقَ نقْلِ الأقوالِ المُستغرَبةِ المُضطرِبةِ الدَّالَّةِ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٨٢).

على عدَمِ ثَباتِ آراءِ أصْحابِها؛ فهو مِن الحِكايةِ لِما كانوا يَعِدون به، فهو حِكايةٌ بالمعْنى، كأنَّه قِيل: كُنتُم تَقولون: لا نَترُكُ ما نحنُ عليه حتَّى تَأتِيَنا البيِّنةُ، وهذا تَعريضٌ بالتَّوبيخِ بأُسلوبِ الإخبارِ المُستعمَلِ في إنشاءِ التَّعجيبِ أو الشِّكايةِ مِن صَلَفِ المُخبَرِ عنه، وهو استعمالٌ عَزيزٌ بَديعٌ؛ فالخبَرُ مُوجَّهٌ لكلِّ سامعٍ، ومَضمونُه قَولٌ كان صدَرَ مِن أهلِ الكتابِ واشتَهَرَ عنهم وعُرِفوا به، وتَقرَّرَ تَعلُّلُ المشرِكينَ به لأهلِ الكتابِ حينَ يَدْعُونهم إلى اتِّباعِ اليَهوديَّةِ أو النَّصرانيَّةِ، فيَقولون: لمْ يَأتِنا رسولٌ كما أتاكم؛ قال تعالَى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ * أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]. وتَقرَّر تَعلُّلُ أهلِ الكتابِ به حِينَ يَدْعوهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للإسلامِ؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٍ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران: ١٨٣] الآيةَ، وشُيوعُه عن الفريقينِ قَرينةٌ على أنَّ المرادَ مِن سِياقِه دَمْغُهم بالحُجَّةِ، وبذلك كان التَّعبيرُ بالمُضارعِ المُستقبَلِ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ مُصادفًا المَحَزَّ[1]؛ فإنَّهم كانوا يَقولون ذلك قبْلَ مَجيءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحاصلُ المعْنى: أنَّكم كُنتم تَقولون: لا نَترُكُ ما نحنُ عليه مِن الدِّينِ حتَّى تَأتِيَنا البيِّنةُ، أي: العلامةُ الَّتي وُعِدْنا بها، وقد جُعِلَ ذلك تَمهيدًا وتَوطئةً لقولِه بعْدَه: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ﴾ إلخ[2].

- قولُه: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: اليهودُ والنَّصارَى، وإيرادُ

(١) المَحَزُّ: مَوضِعُ الحَزِّ، أي: القَطعِ. وأصابَ المحَزَّ: عبارةٌ عن فِعلِ الأمرِ على ما يَنبَغي ويَليقُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧١، ٤٧٢).

الصِّلةِ فِعلًا؛ لِما أنَّ كُفْرَهم حادثٌ بعْدَ أنبيائِهم[١].

- ومُتعلَّقُ ﴿مُنفَكِّينَ﴾ مَحذوفٌ، دلَّ عليه وَصْفُ المُتحدَّثِ عنهم بصِلةِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والتَّقديرُ: مُنفكِّين عن كُفْرِهم وتاركينَ له، سواءٌ كان كُفْرُهم إشراكًا باللهِ، مِثل كُفرِ المشركينَ، أو كان كُفْرًا بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

- والبيِّنةُ: الحُجَّةُ الواضحةُ والعلامةُ على الصِّدقِ، ولعلَّ إيثارَ التَّعبيرِ بها هنا؛ لأنَّها أحسَنُ ما تُترجَمُ به العبارةُ الواقعةُ في كُتبِ أهلِ الكتابِ ممَّا يَحومُ حولَ معْنى الشَّهادةِ الواضحةِ لكلِّ مُتبصِّرٍ، كما وَقَعَ في إنْجيلِ مَتَّى لَفظُ: (شَهادة لجَميعِ الأُمَمِ)، ولعلَّ التزامَ هذه الكلمةِ هنا مرَّتينِ كان لهذه الخُصوصيَّةِ[٣].

- والتَّعريفُ في (البيِّنة) تَعريفُ العهْدِ الذِّهنيِّ، وهو أنْ يُرادَ مَعهودٌ بنَوعِه لا بشَخْصِه، كقَولِهم: ادخُلِ السُّوقَ، لا يُريدون سُوقًا مُعيَّنةً، بلْ ما يُوجَدُ فيه ماهيَّةُ سُوقٍ، فالمعرَّفُ بهذه اللَّامِ هو في المعْنى نَكِرةٌ، فكأنَّه قِيل: حتَّى تَأتِيَهم بيِّنةٌ. ويَجوزُ أنْ يكونَ التَّعريفُ لمَعهودٍ عندَ المخبَرِ عنهم، أي: البيِّنةُ الَّتي هي وَصايا أنْبيائِهم، فهي مَعهودةٌ عندَ كلِّ فَريقٍ منهم وإنِ اختَلَفوا في تَخيُّلِها، وابتَعَدوا في تَوهُّمِها بما تُمْليه عليهم تَخيُّلاتُهم واختلاقُهُم[٤].

وقيل: التَّعريفُ في قولِه: ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ للتَّفخيمِ، أي: هو البيِّنةُ الَّتي لا مَزيدَ عليها، أو البيِّنةُ كلُّ البيِّنةِ؛ لأنَّ التَّعريفَ قد يكونُ للتَّفخيمِ، وكذا التَّنكيرُ، وقد جمَعَهما اللهُ هاهنا في حقِّ الرَّسولِ عليه السَّلامُ؛ فبَدَأَ بالتَّعريفِ، وهو لفظ ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾، ثمَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ثنَّى بالتَّنكيرِ فقال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: هو رَسولٌ، وأيُّ رسولٍ[١]!

- قيل: إنَّما قدَّمَ أهلَ الكتابِ على المشركين هنا في قولِه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ ...﴾ مع أنَّ كُفرَ المشركين أشدُّ مِن كُفرِ أهلِ الكتابِ؛ لأنَّ لأهلِ الكتابِ السَّبْقَ في هذا المقامِ؛ فهمُ الَّذين بَثُّوا بيْن المشركين شُبهةَ انطباقِ البيِّنةِ الموصوفةِ بيْنَهم، فأيَّدوا المشركين في إنكارِ نُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما هو أتقَنُ مِن تُرَّهاتِ المشركين؛ إذ كان المشركون أُمِّيِّينَ لا يَعلَمون شيئًا مِن أحوالِ الرُّسلِ والشَّرائعِ، فلمَّا صَدَمَتْهم الدَّعوةُ المُحمَّديةُ، فَزِعوا إلى اليهودِ ليَتلقَّوا منهم ما يرُدُّون به تلك الدَّعوةَ، وخاصةً بعْدَ ما هاجَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى المدينةِ، فالمَقصودُ بالإبطالِ ابتداءً هو دَعْوى أهلِ الكتابِ، وأمَّا المشركون فتَبَعٌ لهم[٢].

وقيل: لأنَّ السُّورةَ مَدَنيَّةٌ، فكأنَّ أهلَ الكِتابِ هم المقصودونَ بالذِّكْرِ.

وقيل: لأنَّهم لكَونِهم عُلَماءَ يَقتَدي غيرُهم بهم، فكان كُفرُهم أصلًا لكُفرِ غَيرِهم؛ فلهذا قُدِّموا في الذِّكرِ.

وقيل: لأنَّهم كانوا عُلَماءَ بالكُتُبِ، فكانت قُدرتُهم على معرفةِ صِدقِ محمَّدٍ أتَمَّ، فكان إصرارُهم على الكُفرِ أقبَحَ[٣]. فالعالِمُ لَمَّا كان أَولى باتِّباعِ الحَقِّ، وأشَدَّ جُرمًا عندَ فِعلِ ما يقتَضي اللَّومَ؛ بدأ بقَولِه: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: مِنَ اليَهودِ والنَّصارى الَّذين كان أصلُ دينِهم حَقًّا[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ يَجوزُ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٨٦).

يكونَ الكلامُ انتَهى عندَ قولِه: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾؛ فيكونَ الوقفُ هناك، ويكونَ قولُه: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخِرِها جُملةً مُستأنَفةً استئنافًا بَيانيًّا، أي: هي رسولٌ مِن اللهِ، يعني: لأنَّ ما في البيِّنةِ مِن الإبهامِ يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن صِفةِ هذه البيِّنةِ، وهي جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ إلى آخِرِها، وبيْن جُملةِ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [البينة: ٤].

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿رَسُولٞ﴾ بدَلًا مِن ﴿ٱلۡبَيِّنَةُ﴾، فيَقْتضي أنْ يكونَ مِن تَمامِ لَفظِ (بيِّنة)؛ فيكونَ مِن حِكايةِ ما زَعَموه، وأُريدَ بذلك إبطالُ مَعاذيرِهم، وإقامةُ الحُجَّةِ عليهم بأنَّ البيِّنةَ الَّتي يَنتظِرونها قد حلَّت، ولكنَّهم لا يَتدبَّرون، أو لا يُنصِفون، أو لا يَفقَهون، قال تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، وتَنكيرُ ﴿رَسُولٞ﴾ للنَّوعيَّةِ المرادِ منها تَيسيرُ ما يُستصعَبُ، وفي هذا التَّبيينِ إبطالٌ لمَعاذيرِهم، كأنَّه قيل: فقدْ جاءتْكم البيِّنةُ، على حدِّ قولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞ﴾ [المائدة: ١٩]، وهو يُفيدُ أنَّ البيِّنةَ هي الرَّسولُ، وذلك مِثلُ قولِه تعالَى: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ۝ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١]، وفي هذا تَذكيرٌ بغَلَطِهم؛ فإنَّ كُتبَهم ما وَعَدَت إلَّا بمَجيءِ رَسولٍ معه شَريعةٌ وكِتابٌ مُصدِّقٌ لِما بيْن يَدَيْه[1].

- قولُه: ﴿رَسُولٞ﴾ بدَلٌ مِن ﴿ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ -على قولٍ- بدَلَ كلٍّ مِن كلٍّ، على سَبيلِ المُبالَغةِ، جُعِلَ الرَّسولُ نفْسَ البيِّنةِ، وعُبِّرَ عنه عليهِ السَّلامُ بالبيِّنةِ؛ للإيذانِ بغايةِ ظُهورِ أمرِه، وكَونِه ذلكَ المَوعودَ في الكتابَين، وللإعلامِ بأنَّ ذاتَه كانت بيِّنةً على نُبوَّتِه؛ لأنَّه كان في نِهايةٍ مِن الجِدِّ في تَقريرِ النُّبوَّةِ، وفي غايةٍ مِن الصِّدقِ، وكَمالٍ مِن العقْلِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٥، ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢، ٢٣٩، ٢٤٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٢٨)، =

- ولعلَّ السِّرَّ في جَعْلِه البيِّنةَ تَوطئةً لذِكرِ الرَّسولِ، التَّعريضُ بهم وبقَولِهم: النَّبيُّ الموعودُ الَّذي هو مَكتوبٌ في التَّوراةِ والإنجيلِ، كما وبَّخَهم بقولِه: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣]، ولهذا السِّرِّ أيضًا أُفرِدَ ذِكرُهم عن المشركين في قولِه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، كأنَّهم عُيِّروا بالتَّفرُّقِ وهم أهلُ الكتابِ؛ لأنَّ جُحودَ العالِمِ أقبَحُ مِن إنكارِ الغافلِ[(١)].

- قولُه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿رَسُولٌ﴾، أو بمُضمَرٍ هو صِفةٌ لـ﴿رَسُولٌ﴾ مُؤكِّد لِما أفادَه التَّنوينُ مِن الفَخامةِ الذَّاتيَّةِ بالفَخامةِ الإضافيَّةِ، أي: رَسولٌ وأيُّ رَسولٍ كائنٌ منْهُ تعالى. ولم يُسلَكْ طَريقُ الإضافةِ؛ ليَتأتَّى تَنوينُ ﴿رَسُولٌ﴾، فيُشعِرَ بتَعظيمِ هذا الرَّسولِ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا ...﴾ إلخ صِفةٌ ثانيةٌ، أو حالٌ، وهي إدماجٌ[(٣)] بالثَّناءِ

= ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٢).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٢٨).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٦).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيقَ لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

على القرآنِ[١].

- والتِّلاوةُ: إعادةُ الكلامِ دونَ زِيادةٍ عليه ولا نقْصٍ منه، سواءٌ كان كلامًا مَكتوبًا أو مَحفوظًا عن ظَهرِ قلْبٍ، ففِعلُ ﴿يَتْلُواْ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّه يَقرَأُ عليهم كَلامًا لا تُبدَّلُ ألْفاظُه، وهو الوحْيُ المُنزَّلُ عليه[٢].

- والصُّحفُ: الأوراقُ والقَراطيسُ الَّتي تُجعَلُ لأنْ يُكتَبَ فيها، وتكونُ مِن رَقٍّ أو جِلدٍ، أو مِن خِرَقٍ، وتَسميةُ ما يَتْلوه الرَّسولُ صُحفًا باعتِبارِ ما سيَؤولُ إليه؛ لأنَّه مَأمورٌ بكِتابتِه، فهو عندَ تِلاوتِه سيَكونُ صُحفًا، وهذا إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بكِتابةِ القرآنِ في الصُّحفِ وما يُشبِهُ الصُّحفَ مِن أكتافِ الشَّاءِ والخِرَقِ والحِجارةِ، وأنَّ الوحْيَ المُنزَّلَ على الرَّسولِ سُمِّيَ كِتابًا في قولِه تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] مِن أجْلِ هذا المعْنى[٣].

- ووُصِفَت الصُّحفُ بـ ﴿مُّطَهَّرَةً﴾، وهو وَصْفٌ مُشتقٌّ مِن الطَّهارةِ، أي: كَونُ مَعانيه لا لَبْسَ فيها، ولا تَشتمِلُ على ما فيه تَضليلٌ، وهذا تَعريضٌ ببَعضِ ما في أيْدي أهلِ الكتابِ مِن التَّحريفِ والأوهامِ[٤].

- والقَيِّمةُ: المُستقيمةُ، أي: شَديدةُ القيامِ الَّذي هو هنا مُعبَّرٌ به عن الكَمالِ والصَّوابِ، وهذا مِن تَشبيهِ المَعقولِ بالمَحسوسِ تَشبيهًا بالقائمِ لاستِعدادِه للعملِ النافعِ، وضِدُّه العِوَجُ؛ قال تعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١، ٢]، أي: لم يَجعَلْ فيه نقْصَ الباطلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والخطَأِ، فالقيِّمةُ مُبالَغةٌ في القائمِ، مِثلُ السيِّدِ للسائدِ، والميِّتِ للمائتِ، وتَأنيثُ الوصْفِ؛ لاعتبارِ كَونِه وَصْفًا لجمْعٍ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ كلامٌ مَسوقٌ لغايةِ تَشنيعِ أهلِ الكِتابِ خاصَّةً، وتَغليظِ جناياتِهم ببَيانِ أنَّ ما نُسِبَ إليهم مِن الانفكاكِ[٢] لم يكُنْ لاشتباهٍ مَا في الأمرِ، بلْ كان بعْدَ وُضوحِ الحقِّ، وتَبيُّنِ الحالِ، وانقطاعِ الأعذارِ بالكُلِّيَّةِ، وهو السِّرُّ في وصْفِهم بإيتاءِ الكتابِ المُنبِئِ عن كَمالِ تَمكُّنِهم مِن مُطالَعتِه والإحاطةِ بما فِي تَضاعيفِه مِن الأحكامِ والأخبارِ، الَّتي مِن جُملتِها نُعوتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعْدَ ذِكْرِهم فيما سبَقَ بما هُو جارٍ مَجْرى اسمِ الجنسِ للطائفتينِ[٣].

- وهو ارتقاءٌ في الإبطالِ، وهو إبطالٌ ثانٍ لدَعْواهم بطَريقِ النَّقضِ الجَدَليِّ المُسمَّى بالمُعارَضةِ، وهو تَسليمُ الدَّليلِ، والاستدلالُ لِما يُنافي ثُبوتَ المَدلولِ[٤]، وهذا إبطالٌ خاصٌّ بأهْلِ الكتابِ اليهودِ والنَّصارى؛ ولذلك أظْهَرَ فاعلَ ﴿تَفَرَّقَ﴾ ولم يَقُلْ: (وما تَفرَّقوا إلَّا مِن بعْدِ ما جاءتْهم البيِّنةُ)؛ إذ لو أُضمِرَ لتُوهِّمَتْ إرادةُ المشركين مِن جُملةِ معادِ الضَّميرِ، فيَجوزُ أنْ تكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٧، ٤٧٨).

(٢) أي: عمَّا كانوا عليه مِن الوعدِ باتباعِ الحقِّ، والإيمانِ بالرسولِ المبعوثِ في آخرِ الزمانِ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٥).

(٤) ذكر أبو الوليدِ الباجي أنَّ معنى المُعارَضةِ: (أن يَستدِلَّ المُستَدِلُّ بدَليلٍ، فيُسَلِّمَ السَّائلُ صِحَّتَه، ويُعارِضَه بدليلٍ مِثْلِه أو أقوى منه)، ثمَّ ذكر أنَّه إذا (عارَضه بمِثلِ دليلِه أو بما هو أقوى منه، فلا حُجَّةَ للمُستدِلِّ؛ لأنَّ للسَّائلِ أن يقولَ له: إذا تساوى الدَّليلانِ فلِمَ تَعلَّقْتَ بالدَّليلِ الَّذي استَدلَلْتَ به دونَ ما يُخالِفُه مِن الدَّليلِ الَّذي عارَضْتُك به، ويلزمُ المُستدِلَّ ترجيحُ دليلِه على دليلِ السَّائلِ، وإلَّا كان مُنقَطِعًا). ((الحدود في الأصول)) (ص: ١٢٦).

الواوُ للعطْفِ عاطفةً إبطالًا على إبطالٍ، ويَجوزُ أنْ تكونَ واوَ الحالِ[١].

- وجُمِعَ بيْن أهلِ الكتابِ والمشركينَ أوَّلًا، ثمَّ أُفرِدَ أهلُ الكِتابِ في قولِه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ للدَّلالةِ على شَناعةِ حالِهم؛ لأنَّهم كانوا على عِلمٍ به؛ لوُجودِه في كُتبِهم، وعِلمِهم بنُبوَّتِه، وأنَّهم لَمَّا تفرَّقوا مع عِلمِهم كان غيرُهم ممَّن لا كِتابَ له أدخَلَ في هذا الوصْفِ وأَولى[٢]. أو لأنَّ المُشرِكينَ لم يُقَرُّوا على دينِهم، فمَنْ آمَنَ فهو المرادُ، ومَن لم يؤمِنْ قُتِلَ، بخِلافِ أهلِ الكِتابِ الَّذين يُقَرُّونَ على كُفْرِهم ببَذْلِ الجِزيةِ[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ مَسوقةٌ لبَيانِ قُبْحِ ما فَعَلوا واسْتِسماجِه، وهو التَّفرُّقُ بعْدَ مَجيءِ البيِّنةِ الَّتي يجِبُ أنْ يَصدَعَ بها كلُّ مَن له مُسْكةٌ -أي: بقيَّةٌ- مِن عقْلٍ[٥].

- وهذا إبطالٌ ثالثٌ لتَنصُّلِهم مِن مُتابَعةِ الإسلامِ بعِلَّةِ أنَّهم لا يَترُكون ما هُمْ عليه حتَّى تَأتِيَهم البيِّنةُ، وزَعْمِهم أنَّ البيِّنةَ لم تَأتِهم، وهو إبطالٌ بطَريقِ القولِ بالمُوجَبِ[٦] في الجدَلِ، أيْ: إذا سَلَّمْنا أنَّكم مُوصونَ بالتَّمَسُّكِ بما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٣).

(٦) القولُ بالموجَبِ في اصطلاحِ الأصوليِّينَ: هو تسليمُ ما جعَله المُستَدِلُّ موجِبًا لعِلَّتِه مع استبقاءِ الخِلافِ، ومعنى ذلك: أن يسلِّمَ الخَصمُ الدَّليلَ الَّذى استدلَّ به المستدِلُّ، إلَّا أنَّه يقولُ: هذا الدَّليلُ ليس فى محلِّ النزاعِ، إنَّما هو في غيرِه؛ فيبقَى الخلافُ بيْنَهما. ومنه قولُه تعالى: ﴿يَقُولُونَ=

أنتم عليه لا تَنْفَكُّونَ عنه حتَّى تأتِيَكم البيِّنَةُ، فليسَ في الإسلامِ ما يُنافي ما جاءَ به كتابُكم لأنَّ كِتابَكم يَأْمُرُ بما أمَر به القرآنُ، وهو عبادةُ اللَّهِ وحدَه دونَ إشراكٍ، وذلك هو الحنيفِيَّةُ وهي دينُ إبراهيمَ الَّذي أخَذ عليهم العهدَ به، فذلك دينُ الإسلامِ وذلك ما أُمِرْتُمْ به في دينِكم[1].

- ومُتعلَّقُ ﴿أُمِرُوٓاْ﴾ مَحذوفٌ للعُمومِ، أي: ما أُمِروا بشَيءٍ إلَّا بأنْ يَعبُدوا اللهَ، أو التَّقديرُ: وما أُمِروا بما أمَرْناهم به مِن شَرائعَ وأحكامٍ[2].

- والغرَضُ مِن السِّياقِ إظهارُ تَوبيخِ أهلِ الكِتابِ، والنَّعْيُ على تَعكيسِ أمْرِهم؛ لأنَّ جُملةَ قولِه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ الآيةَ إمَّا حالٌ مِن فاعلِ ﴿تَفَرَّقَ﴾ مُقرِّرةٌ لجِهةِ الإشكالِ، أو عطْفٌ على جُملةِ قولِه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني: كان مِن مُوجبِ اتِّفاقِ الكتابيينِ -أي: ما معهم، وهذا

= لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ فقد قال رأسُ النِّفاقِ ابنُ سَلولَ: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ مِن غزوةِ بني المُصْطَلِقِ ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ﴾ -يَقصِدُ نفْسَه- ﴿مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾ يعني: محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابَه؛ فأجابه الله تبارك وتعالى بمُوجَبِ قولِه مع عدمِ تسليمِه له، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ فإنه لَمَّا ذكر صِفةً -وهي العزَّةُ- وأثبَت لها حُكمًا -وهو الإخراجُ مِن المدينةِ-، ردَّ عليه ربُّ العِزَّةِ تبارك وتعالى بأنَّ هذه الصِّفةَ ثابتةٌ لكن لا لِمَن أراد ثُبوتَها له؛ فإنَّها ثابتةٌ لغيرِه، باقيةٌ على اقتضائِها للحُكمِ، وهو الإخراجُ؛ فالعزَّةُ موجودةٌ لكن لا له، بل للهِ ولرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم وللمؤمنينَ. يُنظر: ((المنهاج)) للباجي (ص: ١٧٣)، ((الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة)) لابن الجوزي (ص٣٣٥)، ((تشنيف المسامع بجمع الجوامع)) للزركشي (٤ / ٣٦١)، ((البحر المحيط)) للزركشي (٥/ ٢٩٧)، ((شرح المحلِّي على جمع الجوامع)) (٢ / ٣١٦)، ((غاية الوصول شرح لب الأصول)) لزكريا الأنصاري (ص: ١٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٩، ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٣).

القُرآن المجيد- على دِينِ التَّوحيدِ؛ المُوافقةُ مع مَن يُوافِقُهم فيه، ومُعاضدتُه، والتَّفادي عن مُخالَفتِه والتَّفرُّقِ عنه، وهمْ قد عَكَسوا! ونظْمُ الآيةِ أنَّه تعالَى لَمَّا عيَّر أهلَ الكتابِ والمشركين في تَقاعُدِهم عمَّا وَعَدوا مِن أنفُسِهم، وما كانوا يَقولون قبْلَ المَبعثِ: لا نَنفَكُّ عن دِيننا حتَّى يُبعَثَ النَّبيُّ الموعودُ، ثمَّ بيَّن ما لَهم مِن الخِزيِ دُنيا، والنَّكالِ دُنيا وعُقبى، وما لأعدائِهم مِن الَّذين قامُوا على ما وَعَدوا تخجيلًا لأولئك وتَحسيرًا لهم، مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ؛ وَسَّطَ بيْن الكلامينِ النَّعْيَ على أهلِ الكِتابِ خاصَّةً، وأظهَرَ أنَّهم أشدُّ غَيًّا وعِنادًا، حيث خالَفوا مع ما يُوجِبُ المُوافَقةَ[١].

- وحُنفاءُ: جمْعُ حَنيفٍ، وهو لقَبٌ للَّذي يُؤمِنُ باللهِ وحْدَه دونَ شَريكٍ، وهذا الوصْفُ تَأكيدٌ لمعْنى ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، مع التَّذكيرِ بأنَّ ذلك هو دِينُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ الَّذي مُلِئَت التَّوراةُ بتَمجيدِه واتِّباعِ هَدْيِه[٢].

- وفي عطْفِ ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ على ﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ المُقيَّدِ بالإخلاصِ، واختصاصِهما بالذِّكْرِ دونَ سائرِ العِباداتِ: الدَّلالةُ على شَرَفِهما، واستِبدادِهما بشَرْطِ الإخلاصِ[٣]، وكَونِهما العبادتَينِ اللَّتَينِ مَن قام بهما قام بجَميعِ شرائعِ الدِّينِ[٤].

- قولُه: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِن عِبادةِ الله تعالَى، والإخلاصِ، وإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ. وما في الإشارةِ مِن معْنى البُعدِ؛ للإشعارِ بعُلوِّ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٣١ - ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

رُتبةِ هذا الدِّينِ، وبُعدِ مَنزلتِه[١].

- و﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ إضافتُه على بابِها؛ فتكونَ ﴿ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ مُرادًا به غيرُ المرادِ بـ﴿دِينُ﴾ ممَّا هو مُؤنَّثُ اللَّفظِ ممَّا يُضافُ إليه دِينٌ، أي: دِينُ الأُمَّةِ القيِّمةِ أو دِينُ الكُتبِ القيِّمةِ، وهذا إلزامٌ لهم بأحَقِّيَّةِ الإسلامِ، وأنَّه الدِّينُ القيِّمُ. وقيل: أضافَ الدِّينَ إلى القيِّمةِ وهي نَعْتُه؛ لاختلافِ اللَّفظَينِ. أو هو مِن بابِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفْسِه، ودَخَلَت الهاءُ للمَدْحِ والمُبالَغةِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٤).

الآيات (٦-٨)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡبَرِيَّةِ﴾: أي: الخَلْقِ، مأخوذٌ مِن بَرَأَ اللهُ الخَلْقَ، أي: خلَقَهم، وأصلُ (برأ) هنا: يدُلُّ على خَلْقٍ[1].

﴿عَدۡنٖ﴾: أي: إقامةٍ وخُلدٍ، واستقرارٍ وثَباتٍ، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا سوءَ عاقِبةِ هؤلاءِ الجاحِدينَ مِن أهلِ الكتابِ ومِن المشركينَ: إنَّ الكُفَّارَ -مِن اليَهودِ والنَّصارى والمُشرِكينَ- في نارِ جَهنَّمَ ماكِثينَ فيها، أولئك هم شَرُّ الخَليقةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ أولئك هم خَيرُ الخَليقةِ، ثوابُهم عِندَ رَبِّهم جنَّاتُ إقامةٍ دائِمةٍ تجري الأنهارُ مِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

تحتِها، ماكِثينَ في الجنَّةِ أبَدًا، رَضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه، ذلك الثَّوابُ الكريمُ لِمَن خاف اللهَ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر حالَ الكُفَّارِ أوَّلًا في قَولِه: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [البينة: ١]، ثمَّ ذَكَر ثانيًا حالَ المؤمنينَ في قَولِه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [البينة: ٥]؛ أعاد في آخِرِ هذه السُّورةِ ذِكرَ كِلا الفَريقَينِ، فبَدَأ أيضًا بحالِ الكُفَّارِ[١].

وأيضًا بعْدَ أنْ أنْحَى على أهلِ الكتابِ والمشرِكين معًا، ثمَّ خصَّ أهْلَ الكتابِ بالطَّعنِ في تَعلُّلاتِهم، والإبطالِ لشُبهاتِهم الَّتي يُتابِعُهم المشرِكون عليها؛ أعْقَبَه بوَعيدِ الفريقَينِ جَمْعًا بيْنَهما، كما ابتَدَأَ الجمْعَ بيْنَهما في أوَّلِ السُّورةِ؛ لأنَّ ما سَبَقَ مِن المَوعظةِ والدَّلالةِ كافٍ في تَذليلِ أنفُسِهم للمَوعظةِ[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾.

أي: إنَّ الكُفَّارَ مِن اليَهودِ، والنَّصارى، والمُشرِكينَ باللهِ: في نارِ جَهنَّمَ يومَ القيامةِ، ماكِثينَ فيها أبَدًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٢، ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٣).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾.

أي: أولئك الكُفَّارُ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى والمُشرِكينَ هم شَرُّ الخَليقةِ الَّتي خَلقَها اللهُ[١].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر الأعداءَ، وبدأَ بهم؛ أتْبَعه الأولياءَ، فقال[٢]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾.

أي: إنَّ الَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ: أولئك هم خَيرُ الخَليقةِ الَّتي خلَقَها اللهُ تعالى[٣].

﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خَصَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ بالخَيريَّةِ؛ ذكَرَ ثَوابَهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٧).

﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: ثَوابُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ في الآخِرةِ عِندَ رَبِّهم: جنَّاتُ إقامةٍ دائِمةٍ لا تَحوُّلَ عنها، تجري الأنهارُ مِن تحتِ قصورِها وأشجارِها بلا انقِطاعٍ[(١)].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾.

أي: ماكِثينَ في الجنَّةِ أبَدًا، يتنعَّمونَ في كُلِّ وَقتٍ بلا موتٍ ولا خروجٍ[(٢)].

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾.

أي: رَضِيَ اللهُ عنهم؛ بسَبَبِ إيمانِهم وطاعتِهم له، ورَضُوا هم عن اللهِ؛ لِمَا آتاهم مِن النَّعيمِ[(٣)].

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾.

أي: ذلك الثَّوابُ الكريمُ والنَّعيمُ العَظيمُ يكونُ لِمَن خاف اللهَ في الدُّنيا وعَظَّمَه؛ فامتَثَل أوامِرَه، واجتَنَب نواهِيَه[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۞ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ۞ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣١ - ٣٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ هذا تنبيهٌ على أنَّ وَعيدَ عُلَماءِ السُّوءِ أعظَمُ مِن وَعيدِ كُلِّ أحَدٍ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ أنَّه لَمَّا ذَكَرَ اللهُ حُكْمَ الكُفَّارِ مِن اليَهودِ والنَّصارى والمُشرِكينَ، ذَكَرَ حُكْمَ المؤمِنينَ، والقرآنُ الكريمُ مَثَانٍ تُثَنَّى فيه المعاني، فيُؤتى بالمعنى وما يُقابِلُه، ويأتي بأصحابِ النَّارِ وأصحابِ الجَنَّة، ويأتي بآياتِ التَّرهيبِ وآياتِ التَّرغيبِ، وهَلُمَّ جرًّا؛ مِن أجْلِ أنْ يكونَ الإنسانُ سائرًا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ، ولئلَّا يَمَلَّ؛ فإنَّ تنويعَ الأساليبِ وتنويعَ المواضيعِ لا شَكَّ أنَّه يعطي النَّفْسَ قوَّةً واندِفاعًا، بخلافِ ما لو كان الكَلامُ على وتيرةٍ واحدةٍ؛ فإنَّ الإنسانَ قد يَمَلُّ ولا تتحرَّكُ نَفْسُه[٢]!

٣- أنَّ مَن كان مؤمنًا كاملَ الإيمانِ فإنَّه يَرى أنَّه أعَزُّ خَلْقِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ قال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، وكما أنَّ المؤمِنَ أكرمُ الخَلْقِ عندَ اللهِ وأعزُّهم، فالكافِرُ أذَلُّهم عندَ اللهِ وأحَطُّهم؛ قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، فلا يجوزُ للمُسلمِ أنْ يَستَذِلَّ أمامَ الكافِرِ[٣]!

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٣/ ٣٢٠).

فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ هذه الآيةُ إذا ضُمَّ إليها آيةُ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، صار المجموعُ دليلًا على فَضْلِ العِلمِ والعُلَماءِ؛ فهذه الآيةُ المذكورةُ مِن سورةِ (فاطرٍ) دَلَّت على أنَّ العالِمَ يكونُ صاحِبَ الخَشيةِ، وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ يدُلُّ على أنَّ صاحِبَ الخَشيةِ تكونُ له الجنَّةُ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، أي: خاف المُحسِنَ إليه خوفًا يَليقُ به، فلم يَركَنْ إلى التَّسويفِ والتَّكاسُلِ، ولم يُطَبِّعْ نَفْسَه بالشَّرِّ بالجَري مع الهوى في التَّطَعُّمِ بالمحَرَّماتِ، بل كان ممَّن يَطلُبُ معاليَ الأخلاقِ، فيَستفتي قَلْبَه فيما يُرضي رَبَّه، فكان تواتُرُ إحسانِه يَزيدُه خوفًا، فيَزيدُه شُكرًا؛ فإنَّ الخَشيةَ مِلاكُ الأمرِ، والباعِثُ على كُلِّ خَيرٍ[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ اسمُ الإشارةِ مُنصَبٌّ على مجموعِ الجزاءِ المتقَدِّمِ، وهو للَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، وهنا يقولُ: إنَّه لِمَن خَشِيَ رَبَّه؛ مِمَّا يفيدُ أنَّ تلك الأعمالَ تَصدُرُ منهم عن رَغبةٍ ورَهبةٍ؛ رَغبةٍ فيما عندَ اللهِ، ورَهبةٍ مِنَ اللهِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ ذكَرَ: ﴿كَفَرُواْ﴾ بلَفظِ الفِعْلِ، ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ باسمِ الفاعِلِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٨، ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٥٤).

الجوابُ: تنبيهًا على أنَّ أهلَ الكِتابِ ما كانوا كافِرينَ مِن أوَّلِ الأمرِ، بخلافِ المُشرِكينَ؛ فإنَّهم وُلِدوا على عبادةِ الأوثانِ، وإنكارِ الحَشْرِ والقيامةِ(١).

٢- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ المُشرِكينَ كانوا يُنكِرونَ النُّبُوَّةَ، ويُنكِرونَ القيامةَ، أمَّا أهلُ الكتابِ فكانوا مُقِرِّينَ بكُلِّ هذه الأشياءِ، إلَّا أنَّهم كانوا مُنكِرينَ لنبُوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكان كُفرُ أهلِ الكِتابِ أخَفَّ مِن كُفرِ المُشرِكينَ، وإذا كان كذلك، فكيف يجوزُ التَّسويةُ بيْن الفريقَينِ في العَذابِ؟

الجوابُ: أنَّ الفريقَينِ وإن اشتَرَكا في ذلك، لكِنَّه لا يُنافي اشتِراكُهم في هذا القَدْرِ تَفاوُتَهم في مَراتِبِ العَذابِ(٢).

٣- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ فيه سؤالٌ: ما السَّبَبُ في أنَّه لم يقُلْ هاهنا: (خَالِدينَ فيها أبَدًا)، وقال في صِفةِ أهلِ الثَّوابِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ [البينة: ٨]؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: التنبيهُ على أنَّ رَحمتَه تعالى أَزيدُ مِن غَضَبِه.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ العُقوباتِ والحُدودَ والكَفَّاراتِ تتداخَلُ، أمَّا الثَّوابُ فأقسامُه لا تتداخَلُ(٣).

٤- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ فيه سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿هُمۡ شَرُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلْبَرِيَّةِ﴾؟

الجوابُ: أنَّه يُفيدُ النَّفيَ والإثباتَ، أي: هم دونَ غَيرِهم[١].

٥- التَّرَضِّي يكونُ عن الصَّحابةِ، ويكونُ عن التَّابعينَ، ويكونُ عن تابعي التَّابعينَ، ويكونُ عمَّن كان عابدًا للهِ على الوجهِ الَّذي يَرضاه إلى يومِ القيامةِ، ودليل ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۞ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، ذلك لِمَن خَشِيَ ربَّه إلى يومِ القيامةِ، لكنْ جَرَتْ عادةُ المُحَدِّثِينَ رحِمَهم اللهُ أنْ يَخُصُّوا الصَّحابةَ بالتَّرضِّي عنهم؛ ومَن بَعْدَهم بالتَّرحُّمِ عليهم؛ فيَقولوا في الصَّحابيِّ: رضيَ اللهُ عنه، ويقولوا فيمَن بعدَ الصَّحابةِ: رحِمَه اللهُ، ولكنْ لو أنَّك قلتَ للصَّحابيِّ: رحِمه اللهُ، وفي غيرِه: رضيَ اللهُ عنه؛ فلا حَرَجَ عليك، إلَّا إذا خَشِيتَ أنْ يَتوهَّمَ السَّامعُ بأنَّ التَّابعيَّ صحابيٌّ؛ والصَّحابيَّ تابعيٌّ! فهنا لا بُدَّ أنْ تُبَيِّنَ فتقولَ: قال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ -وهو مِن الصَّحابةِ- رحمه اللهُ، أو قال مجاهِدٌ -وهو مِن التَّابعينَ- رضيَ اللهُ عنه؛ حتَّى لا يَتوهَّمَ أحدٌ أنَّ ابنَ مسعودٍ مِن التَّابعينَ، ومُجاهِدًا مِن الصَّحابةِ[٢]!

٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ قد استدَلَّ بهذه الآيةِ أبو هُريرةَ وطائفةٌ مِنَ العُلَماءِ على تفضيلِ المؤمِنينَ مِنَ البَرِيَّةِ على الملائِكةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٨).

المنقولُ عن السَّلَفِ أنَّ صالِحي البَشَرِ أفضَلُ مِن الملائكةِ، ونَقَل ابنُ القَيِّمِ عن ابنِ تيميَّةَ أنَّ صالِحي البشَرِ أفضَلُ باعتبارِ كَمالِ النِّهايةِ، والملائكةَ أفضَلُ باعتبارِ البدايةِ؛ فإنَّ الملائكةَ الآنَ =

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أنَّ الخشيةَ تُوجِبُ الإيمانَ والعمَلَ الصَّالِحَ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ أنَّ الجَنَّةَ لا تَفْنَى[٢]، وفيه بِشارةٌ بأنَّها مَسكَنُهم الخالِدُ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في بَيانِ حالِ الفَريقينِ في الآخرةِ، بعْدَ بَيانِ حالِهم في الدُّنيا[٤]، فالجُملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ[٥].

- وذَكَر المُشرِكينَ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ اختِصاصُ الحُكْمِ بأهلِ الكتابِ حسَبَ اختصاصِ مُشاهَدةِ شَواهدِ النُّبوَّةِ في الكِتابِ بهم[٦].

- وقُدِّمَ أهلُ الكتابِ على المشرِكينَ في الوَعيدِ؛ استِتباعًا لتَقديمِهم عليهم

= في الرَّفيقِ الأعلى مُنَزَّهونَ عمَّا يُلابِسُه بنو آدَمَ، مُستَغرِقونَ في عبادةِ الرَّبِّ تعالى، ولا ريبَ أنَّ هذه الأحوالَ الآنَ أكمَلُ مِن أحوالِ البَشَرِ، وأمَّا يومَ القيامةِ بعدَ دُخولِ الجنَّةِ فيصيرُ حالُ صالِحي البشَرِ أكمَلَ مِن حالِ الملائكةِ. قال ابنُ القَيِّمِ: (وبهذا التَّفصيلِ يَتبيَّنُ سِرُّ التَّفضيلِ، وتتَّفِقُ أدِلَّةُ الفَريقَينِ، ويُصالَحُ كُلٌّ منهم على حَقِّه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ١٦٣). ويُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٤/ ٣٥٢). وهذه المسألةُ مِن فُضولِ المسائلِ، ولا يترتَّبُ عليها عمَلٌ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تعليق مختصر على لمعة الاعتقاد)) لابن عثيمين (ص: ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٢، ٤٨٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٦).

في سَببِه، ولأنَّ مُعظَمَ الرَّدِّ كان مُوجَّهًا إلى أحوالِهم مِن قولِه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إلى قولِه: ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٤، ٥]، ولأنَّه لو آمَنَ أهلُ الكتابِ لَقامت الحُجَّةِ على أهلِ الشِّركِ[١]، ولأنَّ جنايةَ أهلِ الكتابِ في حقِّ الرَّسولِ عليه السَّلامُ كانت أعظَمَ؛ لأنَّ المشركين رأَوْه صغيرًا، ونشأ فيما بيْنَهم، ثمَّ سفَّهَ أحلامَهم، وأبطَلَ أديانَهم، وهذا أمرٌ شاقٌّ، أمَّا أهلُ الكتابِ فقد كانوا يَستَفتِحونَ برسالتِه، ويُقِرُّون بمَبعَثِه، فلمَّا جاءهم أنكَروه مع العِلمِ به؛ فكانت جنايَتُهم أشَدَّ[٢].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ)؛ للرَّدِّ على أهلِ الكتابِ الَّذين يَزعُمون أنَّهم لا تَمَسُّهم النَّارُ إلَّا أيَّامًا مَعدودةً؛ فإنَّ الظَّرفيَّةَ الَّتي اقتَضَتْها ﴿فِي﴾ تُفيدُ أنَّهم غيرُ خارِجينَ منها، وتَأكَّدَ ذلك بقَولِه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، وأمَّا المشرِكون فقدْ أنْكَروا الجَزاءَ رَأسًا[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ إيرادُ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للإيذانِ بتَحقُّقِ مَضمونِها لا مَحالةَ، أو أنَّهم فيها الآنَ؛ على تَنزيلِ مُلابَستِهم لِما يُوجِبُها مَنزِلةَ مُلابستِهم لها[٤].

أو الإخبارُ عنهم بالكَونِ في نارِ جهنَّمَ إخبارٌ بما يَحصُلُ في المُستقبَلِ بقَرينةِ مَقامِ الوعيدِ؛ فإنَّ الوعيدَ كالوعْدِ يَتعلَّقُ بالمُستقبَلِ، وإنْ كان شأنُ الجُملةِ الاسميَّةِ غيرِ المُقيَّدةِ بما يُعيِّنُ زَمانَ وُقوعِها أنْ تُفيدَ حُصولَ مَضمونِها في الحالِ، كما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٦).

تقولُ: زَيدٌ في نِعمةٍ[١].

- وجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ كالنَّتيجةِ لكَونِهم في نارِ جَهنَّمَ خالِدينَ فيها؛ فلذلك فُصِلَت عن الجُملةِ الَّتي قبْلَها، وهو إخبارٌ بسُوءِ عاقبتِهم في الآخرةِ[٢].

- وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إليهم باعتبارِ اتِّصافِهم بما هُم فيه مِن القبائحِ المذكورةِ، وما فيه مِن مَعْنى البُعدِ للإشعارِ بغايةِ بُعدِ مَنزلتِهم في الشَّرِّ، أي: أولئكَ البُعداءُ المذكورونَ ﴿هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ شرُّ الخَليقةِ، أي: أعمالًا، فيكونُ في حيِّزِ التَّعليلِ لخُلودِهم في النَّارِ، أو شرُّهم مقامًا ومَصيرًا، فيكونُ تَأكيدًا لفَظاعةِ حالِهم[٣].

- وأُدخِلَ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بيْن اسمِ (إنَّ) وخبَرِها؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بالحكْمِ الواردِ بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ الأوصافِ الَّتي قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٤].

- وتَوسيطُ ضَميرِ الفصْلِ (هُمْ)؛ لإفادةِ اختِصاصِهم بكَونِهم شرَّ البَريَّةِ، لا يُشارِكُهم في ذلك غيرُهم مِن فِرَقِ أهلِ الكفْرِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ قُوبِلَ حالُ الكَفرةِ مِن أهلِ الكِتابِ وحالُ المشركينَ بحالِ الَّذين آمَنوا بعْدَ أنْ أُشيرَ إليهم بقولِه: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]؛ استيعابًا لأحوالِ الفِرَقِ في الدُّنيا والآخرةِ، وجَرْيًا على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ نِذارةِ المُنذَرينَ ببِشارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المُطمَئنِّينَ، وما تَرتَّبَ على ذلك مِن الثَّناءِ عليهم.

وقُدِّمَ الثَّناءُ عليهم على بِشارتِهم، على عَكسِ نظْمِ الكلامِ المُتقدِّمِ في ضِدِّهم؛ ليكونَ ذِكرُ وَعْدِهم كالشُّكرِ لهم على إيمانِهم وأعمالِهم؛ فإنَّ اللهَ شَكورٌ، والجُملةُ استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن تَكرُّرِ ذِكرِ الَّذين كَفَروا مِن أهلِ الكتابِ والمشْرِكين؛ فإنَّ ذلك يُثيرُ في نُفوسِ الَّذين آمَنوا مِن أهلِ الكتابِ والمشرِكين تَساؤلًا عن حالِهم؛ لعلَّ تَأخُّرَ إيمانِهم إلى ما بعْدَ نُزولِ الآياتِ في التَّنديدِ عليهم يَجعَلُهم في انحطاطِ دَرَجةٍ، فجاءت هذه الآيةُ مُبيِّنةً أنَّ مَنْ آمَنَ منهم هو مَعدودٌ في خَيرِ البَريَّةِ[١].

أو قَدَّمَ اللهُ الثَّناءَ على المؤمنينَ الَّذين عَمِلوا الصَّالحاتِ على ذِكْرِ جزائِهم؛ لأنَّ ثناءَ اللهِ عليهم أعظَمُ مَرتبةً، وأعلى مَنقَبةً؛ فلذلك قَدَّمَه على الجزاءِ الَّذي هو جزاؤُهم في يومِ القيامةِ[٢].

- وأُدخِلَ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بيْنَ اسمِ (إنَّ) وخبَرِها؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بالحكْمِ الواردِ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ الأوصافِ الَّتي قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٣].

- وتَوسيطُ ضَميرِ الفصلِ (هم)؛ لإفادةِ اختِصاصِهم بكَونِهم خيرَ البَريَّةِ، لا يُشارِكُهم في ذلك غيرُهم مِن البشَرِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾

- جُملةُ ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ إلى آخِرِها مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٤، ٤٨٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٨٤، ٤٨٥).

﴿هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، و﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرْفٌ وقَعَ اعتراضًا بيْنَ ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ وبيْنَ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾؛ للتَّنويهِ بعِظَمِ الجزاءِ بأنَّه مُدَّخرٌ لهم عندَ ربِّهم تَكرمةً لهم؛ لِما في ﴿عِندَ﴾ مِن الإيماءِ إلى الحُظوةِ والعِنايةِ، وما في لَفظِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ مِن الإيماءِ إلى إجزالِ الجزاءِ بما يُناسِبُ عِظَمَ المُضافِ إليه (عِند)، وما يُناسِبُ شَأنَ مَن يَرُبُّ أنْ يَبلُغَ بمَربوبِه عَظيمَ الإحسانِ[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ * جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ فيه عِدَّةُ مُبالَغاتٍ؛ وهي: تَقديمُ المدْحِ بالخَيريَّةِ، وذِكرُ الجزاءِ المُؤذِنِ بأنَّ ما مُنِحوا في مُقابَلةِ ما وُصِفوا به، والحُكْمُ عليه بأنَّه مِن ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُنبئةِ عن التَّربيةِ والتَّبليغِ إلى الكَمالِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِهم، وجمْعُ جنَّاتٍ، وتَقييدُها إضافةً ووَصْفًا بما تَزدادُ لها نَعيمًا، وتَأكيدُ الخُلودِ بالتَّأبيدِ، وذلك كلُّه فيه مِن الدَّلالةِ على غايةِ حُسنِ حالِهم ما لا يَخْفى[٢].

- وإضافةُ ﴿جَنَّٰتُ﴾ إلى ﴿عَدْنٍ﴾ لإفادةِ أنَّها مَسكَنُهم؛ لأنَّ العَدْنَ الإقامةُ، أي: ليس جَزاؤهم تَنزُّهًا في الجنَّاتِ، بلْ أقوى مِن ذلك بالإقامةِ فيها[٣].

- وجُعِلَ جَزاءُ الجماعةِ جمْعَ الجنَّاتِ؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ على وَجْهِ التَّوزيعِ، أي: لكلِّ واحدٍ جنَّةٌ، ويَجوزُ أنْ يكونَ لكلِّ أحدٍ جنَّاتٌ مُتعدِّدةٌ، والفضلُ لا يَنحصِرُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٨٦).

- وجَرْيُ النَّهرِ مُعبَّرٌ به عن انتقالِ السَّيلِ تَشبيهًا لسُرعةِ انتقالِ الماءِ بسُرعةِ المشْيِ، وإسنادُ الجرْيِ إلى الأنهارِ تَوسُّعٌ في الكلامِ؛ لأنَّ الذي يَجْري هو ماؤُها، وهو المُعتبَرُ في ماهيَّةِ النَّهرِ[١].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ تَذييلٌ[٢] آتٍ على ما تَقدَّمَ مِن الوعْدِ للَّذين آمَنوا، والوعيدِ للَّذين كَفَروا، بُيِّنَ به سَببُ العَطاءِ وسَببُ الحِرمانِ، وهو خَشيةُ اللهِ تعالَى بمَنطوقِ الصِّلةِ ومَفهومِها، وماصَدَقَ[٣] (مَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) هم المؤمِنون، واللَّامُ للمِلكِ، أي: ذلك الجَزاءُ للمؤمنينَ الَّذين خَشُوا ربَّهم، فإذا كان ذلك مِلكًا لهم لم يكُنْ شَيءٌ منه مِلْكًا لغَيرِهم، فأفاد حِرمانَ الكفَرةِ المُتقدِّمِ ذِكرُهم، وتمَّ التَّذييلُ[٤].

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُعربةِ عن المالكيَّةِ والتَّربيةِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الخَشيةِ، والتَّحذيرِ مِن الاغترارِ بالتَّربيةِ[٥].

- وأيضًا في ذِكرِ الرَّبِّ هنا دونَ أنْ يُقالَ: (ذلك لِمَن خَشِيَ اللهَ) تَعريضٌ بأنَّ الكفَّارَ لم يَرْعَوا حقَّ الرُّبوبيَّةِ؛ إذ لم يَخْشَوا ربَّهم، فهُم عَبيدُ سُوءٍ[٦].

---

(١) يُنظر: (تفسير ابن عاشور) (٣٠/ ٤٨٦).

(٢) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمامِ معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَين: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ السَّائرِ؛ ليشتهرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانِه على الألسنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٦، ٤٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٧).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الزَّلْزَلَةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ الزَّلْزَلةِ[١]. وسُمِّيتْ أيضًا بسورةِ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾[٢].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الزَّلزلةِ مُختَلَفٌ فيها[٣]؛ فقيل: مَكِّيَّةٌ[٤]. وقيل: مَدَنيَّةٌ[٥].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

إثْباتُ البعْثِ وما في يومِ القيامةِ مِن أهوالٍ، والجزاءِ على الأعمالِ مِن خَيرٍ

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ بذلك: ذِكرُ لَفظِ الزَّلْزلةِ فيها، في قَولِه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، وهي تسميةٌ بالمعنى لا بحِكايةِ بَعضِ كَلِماتِها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٩).

(٢) قال ابنُ عاشور: (سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ في كَلامِ الصَّحابةِ سورةَ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾... وكذلك عَنوَنَها البُخاريُّ والتِّرمذيُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٩).

وذكَر أيضًا مِن أسمائِها: سورةَ (الزلزالِ)، وسورةَ (زُلزلت). يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٥٤).

(٤) ممَّن اختار أنَّها مَكِّيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّيٌّ، والبغويُّ، والرازي، والخازن، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٤/ ٧٨٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٩).

(٥) وممَّن اختار أنَّها مَدَنيَّةٌ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والواحديُّ، والزمخشري، وابن جُزَي، والشربيني، وأبو السعود. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٨).

ونسَبَ ابنُ الجَوزيِّ هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٧).

أو شَرٍّ[١].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- ذِكرُ يومِ القيامةِ، وما اشتَمَل عليه مِن أهوالٍ.

٢- التَّأكيدُ على أنَّ كُلَّ إنسانٍ سيُجازى على حَسَبِ عَمَلِه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٠)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٧٥).

الآيات (١-٨)

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زُلْزِلَتِ﴾: أي: حُرِّكَتْ حَرَكةً شَديدةً، ورَجَفَتْ واهْتَزَّتْ، والزِّلْزالُ هو التَّحْريكُ الشَّديدُ(١).

﴿أَثْقَالَهَا﴾: أي: مَوتاها، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ(٢).

﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾: أي: يَرجِعونَ عن مَوقِفِ الحِسابِ فِرَقًا؛ لِيَنزِلوا منازِلَهم مِن الجنَّةِ والنَّارِ، ومفردُ أشتاتٍ: شَتٌّ، وأصلُ (صدر): يدُلُّ على خِلافِ الوِرْدِ، وأصلُ (شتت): يدُلُّ على تَفرُّقٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٨٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣).

قال ابن عاشور: (فِعلُ «زلْزَلَ» مَأخوذٌ مِن الزَّلِلِ، وهو زَلَقُ الرِّجلَينِ، فلمَّا عَنَوا شِدَّةَ الزَّلِلِ ضاعَفوا الفِعلَ؛ للدَّلالةِ بالتَّضعيفِ على شِدَّةِ الفِعلِ، كما قالوا: كَبْكَبَه، أي: كبَّه، ولَمْلَمَ بالمكانِ، مِن اللَّمِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧١).

قال الهَرَويُّ: (﴿أَثْقَالَهَا﴾ يُقالُ: مَوْتاها؛ لأنَّها تَثقُلُ بهم). ((الغريبين في القرآن والحديث)) (١/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٧، =

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: أي: زِنَةَ نَملةٍ صَغيرةٍ. وقِيلَ: الذَّرُّ: ما يُرى في شُعاعِ الشَّمسِ مِنَ الهباءِ، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ، وأصلُ (ذرر): يدُلُّ على لَطافةٍ وانتِشارٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ قائِلًا: إذا حُرِّكَت الأرضُ يومَ القيامةِ واضطَرَبت، وأخرَجَت ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ للحِسابِ والجَزاءِ، وقال الإنسانُ حينَئِذٍ: ما للأرضِ زُلزِلَت وأخرَجَت أثقالَها؟! في ذلك اليَومِ تتكَلَّمُ الأرضُ بما فعَل النَّاسُ على ظَهْرِها مِن خَيرٍ أو شَرٍّ؛ بسَبَبِ وَحْيِ اللهِ إليها، وإذْنِه لها بذلك، وفي ذلك اليَومِ ينصَرِفُ النَّاسُ عن مَوقِفِ الحِسابِ فِرَقًا؛ ليرى كُلُّ واحدٍ منهم جزاءَ عَمَلِه؛ فمَن يَعمَلْ في الدُّنيا وَزنَ ذَرَّةٍ خَيرًا يَرَه ويجِدْ ثوابَه في الآخِرةِ، ومَن يَعمَلْ في الدُّنيا وَزنَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ويجِدْ ثوابَه في الآخِرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾.

أي: إذا حُرِّكَت الأرضُ يومَ القيامةِ تحريكَها الشَّديدَ، واضطَرَبت اضطِرابَها العَظيمَ[٢].

= ٣٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢) و(٢/ ٣٤٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).
قال ابن عاشور: (وجملةُ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ إلخ جَوابُ ﴿إِذَا﴾... والتَّقديرُ يومَ إذْ تُزَلْزَلُ الأرضُ وتُخرِجُ أثقالَها ويَقولُ النَّاسُ: ما لَها؛ تُحَدِّثُ أخبارَها... إلخ). ((تفسير ابن =

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾.

أي: وأخرَجَت الأرضُ ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ، فيَبعَثُهم اللهُ أحياءً للحِسابِ والجَزاءِ[1].

= عاشور)) (٣٠/ ٤٩٢). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٧٣).

وقيل: العاملُ في: ﴿إِذَا﴾ فِعلٌ مُضمَرٌ يَقتضيه المعنى، وتقديرُه: تُحشَرون أو تُجازَون. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٠).

قال ابنُ الجَوْزيِّ: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ فيه قَوْلانِ:

أحَدُهما: ما فيها مِن المَوْتى، قالَه ابنُ عبَّاسٍ.

والثَّاني: كُنوزُها، قالَه عَطِيَّةُ.

وجمَعَ الفَرَّاءُ بيْنَ القَولَينِ، فقال: لفَظَتْ ما فيها مِن ذهَبٍ أو فِضَّةٍ أو مَيِّتٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٧).

مِمَّن اختارَ القولَ الأوَّلَ: ابنُ جَريرٍ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ جُزَي، واقتَصَر عليه ابنُ كَثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٠).

وممَّن قال بذلك مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وابنُ جُبَيْرٍ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٩٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٩٢).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾: يَعني: المَوْتى الَّذين في جَوْفِها، وذلك عندَ النَّفْخةِ الثَّانيةِ في الصُّورِ. وقيلَ: هي الكُنوزُ، وهذا ضَعيفٌ؛ لأنَّ إخْراجَها للكُنوزِ وَقْتَ الدَّجَّالِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣).

وقال ابنُ عَطيَّةَ: (وليسَتِ القِيامةُ مَوْطنًا لإخْراجِ الكُنوزِ، وإنَّما تُخرِجُ كُنوزَها وَقْتَ الدَّجَّالِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠).

وقال الألوسيُّ: (وهذه الكُنوزُ على هذا القَولِ غيرُ الكُنوزِ الَّتي تخرجُ أيَّامَ الدَّجَّالِ على ما وَرَدَتْ به الأخبارُ، وذلك بأن تُخرِجَ بَعضًا في أيَّامِه وبَعضًا عندَ النَّفْخةِ الثَّانيةِ، ولا بُعْدَ في أن تكونَ بَعْدَ الدَّجَّالِ كُنوزٌ أيضًا فتُخرِجَها معَ ما كان قد بَقِيَ يَومَئذٍ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٣٤).

وممَّن جمَعَ بيْن المَعنيَينِ السَّابقَينِ لأثْقالِها: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنديُّ، والثَّعْلَبيُّ، =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۞ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣، ٤].

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾.

أي: ويَقولُ الإنسانُ حينَئذٍ: أيُّ شَيءٍ عرَض للأرضِ، وما الَّذي حدَث، وما شأنُها(١)؟!

= والواحِديُّ، والبَغَويُّ، والنَّسَفيُّ، وجَلالُ الدِّينِ المَحلِّيُّ، والعُلَيْميُّ، والشربينيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٦٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٤).

قال القرطبي: (معنى ﴿مَا لَهَا﴾ أي: ما لَها زُلزِلَت؟! وقيل: ما لَها أخرَجَت أثقالَها؟!). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٨).

وممَّن جمع بيْن المعنيَينِ: القاسِميُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢٦).

قال ابنُ عطيَّة: (قَولُ الإنسانِ: ﴿مَا لَهَا﴾ هو قولٌ على معنى التَّعجُّبِ مِن هَولِ ما يَرى، قال جمهورُ المفَسِّرينَ: الإنسانُ هنا يرادُ به الكافِرُ، وهذا ممكِنٌ؛ لأنَّه يرى ما لم يَظُنَّ به قطُّ ولا صَدَّقَه، وقال بعضُ المتأوِّلينَ: هو عامٌّ في المؤمِنِ والكافِرِ؛ فالكافِرُ على ما قدَّمْناه، والمؤمِنُ وإن كان قد آمَنَ بالبعثِ فإنَّه استَهْوَل المَرأى، وقد قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «ليس الخبَرُ كالمُعايَنةِ» [أخرجه أحمدُ «٢٤٤٧»، وابنُ حِبَّانَ «٦٢١٣»، والحاكمُ «٣٢٥٠»، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) «٥٣٧٤»، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) «٤/ ٢٦١»]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠).

وقال الماوَرْديُّ: (وفي المرادِ بهذا الإنسانِ قولان:

أحدُهما: أنَّ المرادَ جميعُ النَّاسِ مِن مؤمنٍ وكافرٍ، وهذا قولُ مَن جعَله في الدُّنيا مِن أشراطِ =

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾.

أي: في ذلك اليَومِ تتكَلَّمُ الأرضُ بما فعَل النَّاسُ على ظَهْرِها مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، فتَشهَدُ عليهم بأعمالِهم[1].

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾.

أي: تُحدِّثُ الأرضُ أخبارَها؛ بسَبَبِ وَحْيِ اللهِ إليها، وإذْنِه لها بذلك[2].

= السَّاعةِ؛ لأنَّهم لا يَعلمونَ جميعًا أنَّها مِن أشراطِ السَّاعةِ في ابتداءِ أمرِها حتَّى يتحقَّقوا عُمومَها؛ فلذلك سأَل بعضُهم بعضًا عنها.

الثَّاني: أنَّهم الكفَّارُ خاصَّةً، وهذا قولُ مَن جعَلها زلزلةَ القيامةِ؛ لأنَّ المؤمنَ يَعترِفُ بها، فهو لا يَسألُ عنها، والكافرُ جاحدٌ لها؛ فلذلك يَسألُ عنها). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإنسانِ: الكافرُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسَّمرقندي، ومكِّي، والواحدي، والسَّمعاني، والقرطبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٩٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإنسانِ: الجنسُ، وعُمومُ النَّاسِ، وأنَّه يَشملُ كلَّ فردٍ مِن أفرادِ الإنسانِ: ابنُ جرير، والزَّمخشريُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنَّسفي، وأبو حيَّان، والشَّوكاني، وابنُ عاشور، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٣)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٤).

وقال ابنُ عاشور: (قال النَّاسُ: ما لَها، أي: النَّاسُ الَّذين هم أحياءٌ ففَزِعوا وقال بعضُهم لبعضٍ، أو قال كُلُّ أحدٍ في نَفْسِه حتَّى استوى في ذلك الجَبانُ والشُّجاعُ، والطَّائِشُ والحكيمُ؛ لأنَّه زلزالٌ تَجاوَزَ الحَدَّ الَّذي يَصبِرُ على مِثْلِه الصَّبورُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦﴾.

أي: في ذلك اليَومِ يَنصَرِفُ النَّاسُ عن مَوقِفِ الحِسابِ فِرَقًا كثيرةً؛ ليرى كُلُّ واحدٍ منهم عمَلَه الَّذي عَمِل، وجزاءَه عليه مِن الثَّوابِ في الجنَّةِ، أو العِقابِ في النَّارِ(١).

= (٢٠/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٩، ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٦).

قال الماوَرْديُّ: (﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ فيه قَوْلانِ:

أحَدُهما: أنَّه يَومَ القِيامةِ يَصدُرونَ مِن بَيْنِ يَدَيِ اللهِ تعالى فِرَقًا فِرَقًا، مُختَلِفينَ في قَدَرِهم وأعمالِهم؛ فبَعضُهم إلى الجَنَّةِ وهُمْ أصحابُ الحسَناتِ، وبَعضُهم إلى النَّارِ وهم أصحابُ السَّيِّئاتِ. قالَه يَحيى بنُ سَلَّامٍ.

الثَّاني: أنَّهم في الدُّنيا عنْدَ غَلَبَةِ الأهْواءِ يَصدُرونَ فِرَقًا؛ فبَعضُهم مُؤمِنٌ وبَعضُهم كافِرٌ، وبَعضُهم مُحسِنٌ وبَعضُهم مُسِيءٌ، وبَعضُهم مُحِقٌّ وبَعضُهم مُبطِلٌ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٢٠).

ممَّن اختارَ القَولَ الأوَّلَ في الجُملةِ -أي: أنَّ المَعْنى: أنَّهم يَنصَرِفونَ مِن مَوقِفِ الحِسابِ بعْدَ العَرْضِ فِرَقًا مُختَلِفينَ ما بيْنَ سَعيدٍ وشَقِيٍّ، مِنهم مَن يَأخُذُ ذاتَ اليَمينِ إلى الجَنَّةِ، ومِنهم مَن يَأخُذُ ذاتَ الشِّمالِ إلى النَّارِ-: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، وابن جرير، والسَّمَرْقَنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والثَّعْلَبيُّ، ومَكِّيٌّ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، وابنُ الجَوْزيِّ، والرَّسْعنيُّ، وابنُ جُزَي، والخازِنُ، وابنُ كَثيرٍ، وجَلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والعُلَيْميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٠٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢). =

كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۞ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ

= وقيلَ: المَعْنى: يَصدُرُ النَّاسُ مِن قُبورِهم إلى مَوقِفِ الحِسابِ مُتَفَرِّقينَ بحَسَبِ مَراتِبِهم؛ مِن مُؤمِنٍ وكافِرٍ، وآمِنٍ وخائِفٍ، ومُطيعٍ وعاصٍ، وسَعيدٍ وشَقِيٍّ. وممَّن اختارَه في الجُملةِ: البَيْضاويُّ، والبِقاعيُّ، والشَّوْكانيُّ، والقاسِميُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢٦).

قال ابنُ عطيَّةَ: (... قال جُمْهورُ النَّاسِ: الوِرْدُ: هو الكَونُ في الأرْضِ بالمَوْتِ والدَّفْنِ. والصَّدْرُ: هو القِيامُ للبَعْثِ، وأشْتاتًا: مَعْناه: قَوْمٌ مُؤمِنونَ، وقَوْمٌ كافِرونَ، وقَوْمٌ عُصاةٌ مُؤمِنونَ، والكُلُّ سائِرٌ إلى العَرْضِ ليرى عَمَلَه، ويَقِفَ عليه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١١).

وأمَّا قَولُه: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فقيلَ: أي: ثَوابَها وجَزاءَها. وممَّن اختارَه: مَكِّيٌّ، والماوَرْديُّ، والكرمانيُّ، والقُرْطُبيُّ، وجَلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والعُلَيْميُّ، والشَّوْكانيُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٩٢)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٢٠)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٥).

قال الواحديُّ: (قَولُه: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: لِيُرَوا جَزاءَ أعمالِهم. والمَعنى: أنَّهم يَرجِعونَ عن المَوقِفِ فِرَقًا لِيُرَوا مَنازِلَهم في الجَنَّةِ أو النَّارِ). ((البسيط)) (٢٤/ ٢٢٨).

وقيلَ: المَعْنى: أنَّ اللهَ يُريهم أعْمالَهم الَّتي عَمِلوها. وممَّن اختارَه: السَّمْعانيُّ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٦).

قال الخازِنُ: (قيلَ: مَعْناه: لِيُرَوا صَحائِفَ أعْمالِهم الَّتي فيها الخَيْرُ والشَّرُّ). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٩).

وممَّن جَمَع بيْنَ المَعْنَيَينِ السَّابِقَينِ: ابنُ جَريرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

قال ابنُ جرير: (فيَرى المُحسِنُ في الدُّنْيا المُطيعُ للهِ عمَلَه وما أَعَدَّ اللهُ له يَوْمَئِذٍ مِن الكَرامةِ على طاعتِه إيَّاه كانت في الدُّنْيا، ويَرى المُسِيءُ العاصي للهِ عمَلَه وجَزاءَ عَمَلِه وما أَعَدَّ اللهُ له مِن الهَوانِ والخِزْيِ في جَهنَّمَ على مَعْصيتِه إيَّاه كانت في الدُّنْيا، وكُفْرِه به). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢).

ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٤ - ١٦].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾.

أي: فمَن يَعمَلْ في الدُّنيا خَيرًا ولو كان بمِقْدارِ وَزنِ ذَرَّةٍ، فإنَّه سيَراه ويَجِدُ ثَوابَه في الآخِرةِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٧).

قيلَ: المُرادُ بالذَّرَّةِ: النَّمْلةُ الصَّغيرةُ. وممَّن اخْتارَه: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، والزَّمَخْشَريُّ، وابنُ عطيَّةَ، والرَّسْعَنيُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كَثير، وجَلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والعُلَيْميُّ، والشَّوْكانيُّ، والقاسِميُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٠٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٧).

قال مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ: (يَعني: وَزْنَ نَملةٍ؛ أَصغَرِ النَّمْلِ الأَحمَرِ الَّتي لا تَكادُ نَراها مِن صِغَرِها). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٩١).

وقيلَ: الذَّرُّ: ما يُرَى في شُعاعِ الشَّمْسِ مِن الهَباءِ. وممَّن اخْتارَه: السَّمَرْقَنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢١).

قال السعديُّ في هذه الآيةِ والتي تليها: (هذا شامِلٌ عامٌّ للخَيْرِ والشَّرِّ كُلِّه؛ لأنَّه إذا رأى مِثْقالَ الذَّرَّةِ الَّتي هي أَحقَرُ الأشياءِ، وجُوزِيَ عليها، فما فَوْقَ ذلك مِن بابِ أَوْلى وأَحْرى!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٢).

وقال القُرْطُبيُّ: (وهي [أي: الذَّرَّةُ] في الجُملةِ عِبارةٌ عن أَقَلِّ الأشْياءِ وأَصغَرِها). ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٩٥). =

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سُئِلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الحُمُرِ، فقال: ما أُنزِلَ علَيَّ فيها إلَّا هذه الآيةُ الجامِعةُ الفاذَّةُ[١]: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾))[٢].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الخَيرَ؛ أتْبَعَه ضِدَّه، فقال[٣]:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

أي: ومَن يَعمَلْ في الدُّنيا شَرًّا ولو كان بمِقْدارِ وَزنِ ذَرَّةٍ، فإنَّه سيَراه ويَجِدُ جَزاءَه في الآخِرةِ[٤].

قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

= وقال ابنُ العربي: (قَد اتَّفق العُلَماءُ على عُمومِ هذه الآيةِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٤٤٠).

(١) الفَاذَّةُ: أي: المُنْفَرِدةُ في معناها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٢٦٦).

(٢) رواه البخاري (٣٦٤٦)، ومسلم (٩٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٤).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُه تبارك وتعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا...﴾ فيه التَّحذيرُ والتَّخويفُ مِن زلزلةِ الأرضِ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ هذا مُضافٌ، والمضافُ يَقتضي العُمومَ، وظاهرُه أنَّهم يَرَونَ الأعمالَ؛ الصَّغيرَ والكبيرَ -وذلك على قولٍ-، إلَّا ما غَفَرَه اللهُ مِن قَبْلُ بحَسَناتٍ أو دُعاءٍ، أو ما أَشْبهَ ذلك؛ فهذا يُمْحَى، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]؛ ولهذا يجبُ على الإنسانِ ألَّا يُقْدِمَ على شَيءٍ لا يُرضِي اللهَ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه يَعلَمُ أنَّه مكتوبٌ عليه، وأنَّه سوف يُحاسَبُ عليه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ فيه الحثُّ على الأعمالِ الصَّالحةِ[٣]، والتَّرغيبُ في قَليلِ الخَيرِ وكَثيرِه، والتَّحذيرُ مِن قليلِ الشَّرِّ وكَثيرِه[٤]، ومَن فَقِهَ ذلك لم يُحَقِّرْ ذَنبًا وإن دَقَّ؛ لأنَّه يجتَمِعُ إلى أمثالِه فيَصيرُ كَبيرًا[٥]! وفيه أنَّ العَمَلَ لا يَضِيعُ مهما قَلَّ، حتَّى لو كان مِثقالَ ذرَّةٍ أو أقَلَّ؛ فإنَّه لا بُدَّ أنْ يراه الإنسانُ ويَطَّلِعَ عليه يومَ القيامةِ[٦].

٤- عن إبراهيمَ التَّيْميِّ، قال: (سمِعتُ الحارثَ بنَ سُويدٍ يقرأُ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٠).

حتَّى بلَغ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ...﴾، قال: فبكى، ثمَّ قال: إنَّ هذا الإحصاءَ شديدٌ)[١].

٥- (جاء سائلٌ إلى بابِ عائشةَ رضيَ الله عنها، فقالت لجاريتِها: أطعِميه، فذهَبت ثمَّ رجَعت، فقالت لها: ما وجدْتُ شيئًا أُطعِمُه، قالت: ارجِعي فابتَغي له، فرجَعَتْ، فوجَدَتْ تمرةً، فأتَت بها، فقالت عائشةُ: أعطيه إيَّاها؛ فإنَّ فيها مَثاقيلَ ذرَّةٍ إنْ تُقُبِّلتْ)[٢]. (وأتَى سعدَ بنَ مالِكٍ سائِلٌ وبينَ يَدَيْه طَبَقٌ عليه تَمْرٌ، فأَعْطاه تَمْرةً، فقَبَض يَدَه، أو قال: فكَفَّ يَدَه، فقال: إنَّ اللهَ تَعالى يَقبَلُ مِنَّا الذَّرَّةَ والخَرْدَلَةَ، فكائِنٌ في هذه مَثاقيلُ ذَرٍّ)[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ شَهادةُ الأرضِ؛ مِن أجْلِ بيانِ عَدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه سُبحانَه وتعالى لا يُؤاخِذُ النَّاسَ إلَّا بما عَمِلوه، وإلَّا فإنَّ اللهَ تعالى بكلِّ شيءٍ مُحيطٌ، ويكفي أنْ يقولَ لعِبادِه جَلَّ وعلا: عَمِلتُم كذا وعَمِلتُم كذا، لكنْ مِن بابِ إقامةِ العَدلِ، وعدمِ إنكارِ المجرمِ؛ لأنَّ المجرمينَ يُنكِرون أنْ يَكونوا مُشرِكين؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٤] [الأنعام: ٢٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أنَّ الأرضَ يومَ القيامةِ تَشهَدُ على ما عُمِلَ فيها مِن خَيرٍ وشَرٍّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مصنف ابن أبي شيبة)) (٧/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((شُعَب الإيمان)) للبيهقي (٥/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((الأموال)) لابن زنجويه (٢/ ٧٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٥).

(٥) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ١٦٥).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ انتَزَع بَعضُهم مِن هذه الآيةِ أنَّ: «حَدَّثَنا» و«أخبَرَنا» سَواءٌ، وهو قولُ مالكٍ وغَيرِه، خِلافًا لِمَن فَرَّق بيْنَهما وقال: «أخبَرَنا» يجوزُ أن يُقالَ في المسموعِ على العالِمِ مِن غَيرِ لَفظِه، و«حَدَّثَنا» لا يُقالُ إلَّا فيما سُمِعَ مِن لَفظِ العالِمِ، وهو قَولُ ابنِ وَهبٍ[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ لَمْ يقلْ: (أوحى إليها)؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾، أي: أوحى إليها.

الوَجهُ الثَّاني: لَعَلَّه إنَّما قال: ﴿لَهَا﴾، أي: فعَلْنا ذلك لأجْلِها؛ حتَّى تتوسَّلَ الأرضُ بذلك إلى التَّشَفِّي مِنَ العُصاةِ[٢].

الوَجهُ الثَّالِثُ: عَدَل عن قَولِه (إليها) إلى قَولِه تعالى: ﴿لَهَا﴾؛ إيذانًا بالإسراعِ في الإيحاءِ[٣].

٥- قال تبارك وتَعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تَقتضي أنَّ كلَّ إنسانٍ كافِرًا كانَ أو مُسلمًا يُجازى بالقليلِ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ.

وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خِلافِ هذا العُمومِ، أمَّا مَا فعَله الكافِرُ مِن الخَيرِ فالآياتُ تُصرِّحُ بإحباطِه، كقولِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧٤).

وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وكقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ.

وأمَّا ما عمِلَه المُسلمُ مِن الشَّرِّ فقد صرَّحت الآياتُ بعَدمِ لُزومِ مؤاخَذتِه به؛ لاحتِمالِ المَغفرةِ أو لوعدِ اللهِ بها، كقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وقَولِه: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ.

والجوابُ عن هذا مِن ثلاثةِ أوجهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ الآيةَ مِن العامِّ المخصوصِ، والمعنى: فمَن يَعمَلْ مِثقالَ ذرَّةٍ خَيرًا يَرَه إنْ لم يُحبِطْه الكُفرُ؛ بدليلِ آياتِ إحباطِ الكفرِ عمَلَ الكفَّارِ، ومَن يَعمَلْ مثقالَ ذرَّةٍ شَرًّا يَرَه إن لم يَغفِرْه اللهُ له؛ بدليلِ آياتِ احتمالِ الغُفرانِ والوَعْدِ به.

الثَّاني: أنَّ الآيةَ على عُمومِها، وأنَّ الكافِرَ يَرى جزاءَ كلِّ عمَلِه الحسَنِ في الدُّنيا، كما يدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ الآيةَ [هود: ١٥]، وقولُه: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقولُه تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: ٣٩]، والمُؤمنُ يَرى جزاءَ عمَلِه السَّيِّئِ في الدُّنيا بالمَصائِبِ والأمْراضِ والآلامِ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ الآيةَ أيضًا على عُمومِها، وأنَّ معناها أنَّ المُؤمنَ يَرى كلَّ مَا قدَّم مِن خيْرٍ وشَرٍّ، فيَغفِرُ اللهُ له الشَّرَّ ويُثيبُه بالخيْرِ، والكافِرُ يَرى كلَّ ما قدَّم مِن خيْرٍ وشَرٍّ، فيُحبِطُ ما قدَّمَ مِن خيْرٍ، ويجازِيه بما فعَل مِن الشَّرِّ[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ نبَّه به على أنَّ ما فوقَ الذَّرَّةِ يراه، قليلًا كان أو كثيرًا، وهذا يُسَمَّى مَفهومَ الخِطابِ، وهو أن يكونَ المذكورُ والمسكوتُ عنه في حُكمٍ واحدٍ، بل يكونُ المسكوتُ عنه بالأَولى في ذلك الحُكمِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[٢] [الإسراء: ٢٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ قيامُه سُبحانَه بالقِسْطِ، وقيامُه على كلِّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ؛ فهو لا يَظْلِمُ مِثقالَ ذرَّةٍ[٣]، يُحصي أعمالَ العِبادِ، أي: يَضْبِطُها بالعدَدِ، فلا يَنْقُصُ أحدًا شَيئًا[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ أنَّ الثَّوابَ على قَدْرِ العَمَلِ[٥].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ أنَّ العمَلَ يُطْلَقُ على القَولِ والفِعلِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٢٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٥).

(٦) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣١٨).

١٠- قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: (أحكمُ آيةٍ في القرآنِ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾)[١].

١١- قَولُه تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الأعمالَ تُوزنُ[٢]، ووجهُ الدَّلالةِ: أنَّ تقديرَ الآيةِ: فمَن يَعمَلْ عمَلًا مِثقالَ ذرَّةٍ، وفيه سؤالٌ عن وَزْنِ العمَلَ مع أنَّه ليس جِسمًا يمكِنُ أنْ يوضَعَ في الميزانِ، بلِ العمَلُ عمَلٌ انتهى وانقضى؟

الجوابُ:

أوَّلًا: على المرءِ أنْ يُصَدِّقَ بما أخْبَرَ اللهُ تعالى به ورسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أمورِ الغَيبِ، وإنْ كان عقْلُه قد يَحارُ فيه ويَتَعَجَّبُ، ويقولُ: كيف يكونُ هذا؟! فعليه التَّصديقُ؛ لأنَّ قدرةَ اللهِ تعالى فوقَ ما نتصوَّرُ، فالواجِبُ على المسلمِ أنْ يُسَلِّمَ ويَستَسلِمَ ولا يقولَ: كيف؟ لأنَّ أمورَ الغيبِ فوقَ ما يتصوَّرُ.

ثانيًا: أنَّ اللهَ تعالى يَجعَلُ هذه الأعمالَ أجسامًا توضَعُ في الميزانِ وتَثْقُلُ وتَخِفُّ، واللهُ تعالى قادرٌ على أنْ يَجْعَلَ الأمورَ المعنويَّةَ أجسامًا، كما صَحَّ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال ((يُؤتَى بالموتِ كهَيئةِ كَبْشٍ أمْلَحَ، فيُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجَنَّةِ، فيَشْرَئِبُّون[٣] ويَنظُرونَ، فيقولُ: هل تَعرِفونَ هذا؟ فيقولونَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦٦).

(٢) قال ابنُ عُثَيمينَ: (الَّذي يُوزَنُ العَمَلُ، ولكن رُبَّما يكونُ بعضُ النَّاسِ تُوزَنُ صَحائِفُ أعمالِه، وبعضُ النَّاسِ يُوزَنُ هو بنفْسِه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٩).
وقال ابنُ أبي العِزِّ: (ثَبَت وزنُ الأعمالِ والعاملِ وصحائِفِ الأعمالِ، وثَبَت أنَّ الميزانَ له كِفَّتانِ. واللهُ تعالى أعلمُ بما وراءَ ذلك مِن الكيفيَّاتِ). ((شرح الطحاوية)) (٢/ ٦١٣). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧٢-٧٤).

(٣) فيَشْرَئِبُّونَ: أي: يَرفَعونَ رُؤوسَهم إلى المُنادي. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٨٥).

نَعم، هذا الموتُ -وكلُّهم قد رآه- ثمَّ يُنادي: يا أهلَ النَّارِ، فيَشْرَئِبُّون ويَنظُرون، فيقولُ: هل تَعرِفون هذا؟ فيَقولون: نعم، هذا الموتُ، وكلُّهم قد رآه))، مع أنَّه في صورةِ كَبشٍ، والموتُ معنًى ليس جِسمًا، ولكنَّ اللهَ تعالى يَجْعَلُه جسمًا يومَ القيامةِ، ((فيُذْبَحُ، ثمَّ يقولُ: يا أهلَ الجَنَّةِ خُلودٌ فلا مَوْتَ، ويا أهلَ النَّارِ خُلودٌ فلا موتَ))[١]، وبهذا يَزولُ الإشكالُ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۞ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۞ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾

- افتِتاحُ الكلامِ بظَرْفِ الزَّمانِ ﴿إِذَا﴾ مع إطالةِ الجُمَلِ المُضافِ إليها الظَّرفُ، تَشويقٌ إلى مُتعلَّقِ الظَّرفِ؛ إذ المَقصودُ ليس تَوقيتَ صُدورِ النَّاسِ أشتاتًا لِيُرَوا أعمالَهُم، بلِ الإخبارُ عن وُقوعِ ذلك، وهو البعثُ، ثمَّ الجزاءُ، وفي ذلك تَنزيلُ وُقوعِ البَعثِ مَنزلةَ الشَّيءِ المُحقَّقِ المَفروغِ منه، بحيث لا يُهِمُّ النَّاسَ إلَّا مَعرفةُ وَقتِه وأشراطِه، فيكونُ التَّوقيتُ كِنايةً عن تَحقيقِ وُقوعِ المُوقَّتِ[٣].

- وإنَّما بُنِيَ فِعلُ ﴿زُلْزِلَتِ﴾ بصِيغةِ النَّائبِ عن الفاعلِ؛ لأنَّه مَعلومٌ فاعلُه، وهو اللهُ تعالَى[٤].

- وانتَصَبَ ﴿زِلْزَالَهَا﴾ على المفعولِ المُطلَقِ المؤكِّدِ لِفعلِه؛ إشارةً إلى هَولِ

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٧٣٠) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٨٤٩) مِن حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٩١).

ذلك الزِّلزالِ[١].

- وأُضيفَ الزِّلزالُ إلى الأرضِ؛ لإفادةِ تَمكُّنِه منها وتَكرُّرِه، حتَّى كأنَّه عُرِفَ بنِسبتِه إليها؛ لكَثرةِ اتِّصالِه بها، أو ليَدُلَّ على أنَّها زُلزِلَت الزِّلزالَ المخصوصَ بها على مُقْتضى المَشيئةِ المَبْنيَّةِ على الحِكَمِ البالغةِ، وهو الزِّلزالُ الشَّديدُ الَّذي لا غايةَ وَراءَه، أو زِلزالَها العَجيبَ الَّذي لا يُقادَرُ قَدْرُه، أو زِلزالَها الدَّاخلَ في حيِّزِ الإمكانِ[٢].

فقولُه: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ ليس مِن التَّكرارِ؛ فإنَّ إضافةَ الزِّلزالِ يفيدُ معنًى زائدًا، وهو زِلزالُها المختَصُّ بها، المعروفُ منها، المتوقَّعُ منها، كما تقولُ: غَضِبَ زيدٌ غضَبَه، وقاتَلَ قِتالَه، أي: غضَبَه الَّذي يُعْهَدُ منه، وقِتالَه المختَصَّ به الَّذي يُعْرَفُ منه[٣].

- وإعادةُ لَفظِ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ في قولِه: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزِيادةِ التَّقريرِ، وتَفخيمِ هَولِ السَّاعةِ، أوْ للإيماءِ إلى تبَدُّلِ الأرضِ غَيرَ الأرضِ، أو لأنَّ إخراجَ الأثقالِ حالُ بَعضِ أجزائِها[٤].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ قيل: هو تَعريفُ الجِنسِ المُفيدُ للاستغراقِ، أي: وقال النَّاسُ: ما لَها؟ على أنَّ الكافرَ يقولُ هذا بطَريقِ التَّعجُّبِ، والمؤمنَ يَقولُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٩).

بطَريقِ الاستعظامِ؛ فالمؤمنُ -وإنْ كان مُؤمنًا بالبعثِ- فإنَّه استَهوَلَ المَرْأى.

وقيل: ذلك قولُ الكافرِ؛ لأنَّه يَرى ما لم يَقَعْ في ظنِّه قطُّ ولا صَدَّقَه، لأنَّه كان لا يُؤمِنُ بالبعثِ، فأمَّا المؤمنُ فيَقولُ: هذا ما وعَدَ الرَّحمنُ وصَدَقَ المُرسَلون[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ حُذِفَ مَفعولُ ﴿تُحَدِّثُ﴾ الأوَّلُ لظُهورِه، أي: تُحدِّثُ الإنسانَ؛ لأنَّ الغرَضَ مِن الكلامِ هو إخبارُها، لا ذِكرُ الخلْقِ؛ لِما فيه مِن التَّهويلِ، وتَعظيمِ اليومِ[٢].

- قولُه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ يَتعلَّقُ بفِعلِ ﴿تُحَدِّثُ﴾، ومعْناه: تُحدِّثُ أخبارَها بسَببِ إيحاءِ ربِّك لها، وأمْرِه إيَّاها بالتَّحديثِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ بدَلًا مِن ﴿أَخْبَارَهَا﴾، وأُظهِرَت الباءُ في البدَلِ؛ لتَوكيدِ تَعديةِ فِعلِ ﴿تُحَدِّثُ﴾ إليه، كأنَّه قِيل: يَومَئذٍ تُحدِّثُ بأخبارِها بأنَّ ربَّك أَوحى لها؛ لأنَّك تَقولُ: حدَّثْتُه كذا، وحدَّثْتُه بكذا[٣].

- وعُدِّيَ فِعلُ ﴿أَوْحَىٰ﴾ باللَّامِ؛ لتَضمينِ ﴿أَوْحَىٰ﴾ معْنى (قال)، وإلَّا فإنَّ حقَّ ﴿أَوْحَىٰ﴾ أنْ يَتعدَّى بحرْفِ (إلى)[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٣). =

- وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ بدلٌ مِن جُملةِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، والجَوابُ هو فِعلُ ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾، وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يَتعلَّقُ به، وقُدِّمَ على مُتعلَّقِه للاهتمام، وهذا الجوابُ هو المَقصودُ مِن الكَلامِ؛ لأنَّ الكَلامَ مَسوقٌ لإثباتِ الحَشْرِ، والتَّذكيرِ به، والتَّحذيرِ مِن أهوالِه؛ فإنَّه عندَ حُصولِه يَعلَمُ النَّاسُ أنَّ الزِّلزالَ كان إنذارًا بهذا الحشْرِ[١].

- وصُدورُ النَّاسِ: الخُروجُ مِن مَحلِّ اجتماعِهم، يُقالُ: صدَرَ عن المكانِ، إذا تَرَكه وخَرَج منه، ومنه: الصَّدَرُ عن الماءِ بعْدَ الوِرْدِ، فأُطلِقَ هنا فِعلُ ﴿يَصْدُرُ﴾ على خُروجِ النَّاسِ إلى الحشْرِ جَماعاتٍ، أو انصرافِهم مِن المَحشرِ؛ تَشبيهًا بانصرافِ النَّاسِ عن الماءِ بعْدَ الوِردِ[٢].

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿لِّيُرَوْا﴾ إلى النَّائبِ؛ لأنَّ المقصودَ رُؤيتُهم أعمالَهم، لا تَعيينُ مَن يُرِيهم إيَّاها[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦] تَفريعَ الفَذْلَكةِ[٤]، انتقالًا للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ بعْدَ الفَراغِ مِن إثباتِ البَعثِ والجزاءِ، والتَّفريعُ قاضٍ بأنَّ هذا يكونُ عَقِبَ ما يَصدُرُ النَّاسُ أشتاتًا[٥].

- وقولُه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ ...﴾ تَفصيلٌ لِقولِه: ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا

= ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُها (ص: ٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٤).

أَعْمَـٰلَهُمْ﴾، والأعمالُ جمْعٌ مُضافٌ يُفيدُ الشُّمولَ والاستغراقَ، و﴿يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ مُقيَّدٌ بقولِه: ﴿أَشْتَاتًا﴾، فيُفيدُ أنَّهم على طَرائقَ شتَّى للنُّزولِ في مَنازِلِهم مِن الجنَّةِ والنَّارِ، بحسَبِ أعمالِهم المُختلِفةِ، ومِن ثَمَّ كانت الجنَّةُ ذاتَ دَرَجاتٍ، والنَّارُ ذاتَ دَرَكاتٍ. وقد ورَدَت الآيةُ لبَيانِ الاستِقصاءِ في عرْضِ الأعمالِ والجزاءِ عليها؛ لقولِه تعالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وهي مِن الجوامعِ الحاويةِ لفَوائدِ الدِّينِ أصولًا وفُروعًا[١].

- والذَّرَّةُ: النَّملةُ الصَّغيرةُ في ابتداءِ حَياتِها -على قولٍ-، و«مِثقالُ ذَرَّةٍ» مَثَلٌ في أقلِّ القِلَّةِ[٢].

- ولَمَّا كان الكلامُ مَسوقًا للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ معًا، أُوثِرَ جانبُ التَّرغيبِ بالتَّقديمِ في التَّقسيمِ؛ تَنْويهًا بأهلِ الخَيرِ[٣].

- وإنَّما أُعِيدَ قولُه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾ دونَ الاكتفاءِ بحرْفِ العطْفِ؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿خَيْرًا يَرَهُۥ﴾، والثانيَ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿شَرًّا يَرَهُۥ﴾، ولتَكونَ كلُّ جُملةٍ مُستقِلَّةَ الدَّلالةِ على المُرادِ؛ لتَختَصَّ كلُّ جُملةٍ بغَرَضِها مِن التَّرغيبِ أو التَّرهيبِ، فأهمِّيَّةُ ذلك تَقْتضي التَّصريحَ والإطنابَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٩٥).

(٤) يُنظر: ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٢، ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٥).

تَفْسيرُ

سُورَةِ العادِياتِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ العادِياتِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (العادِيات)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ العادِياتِ مكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

بَيانُ ما جُبِلَ عليه الإنسانُ، وحَثُّه على أن يَتزَوَّدَ بالعمَلِ الصَّالحِ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- القَسَمُ بالخَيلِ، والتَّنويهُ بشَأنِ الجِهادِ والمُجاهِدينَ.

٢- ذِكْرُ كُفرانِ الإنسانِ، وبَيانُ ما جُبِلَ عليه مِن شِدَّةِ مَحبَّةِ المالِ، والحِرصِ عليه.

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بقولِه: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (وسُمِّيَت في بَعضِ كُتُبِ التَّفسيرِ سُورةَ «والعادياتِ» بإثباتِ الواوِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٧).

(٢) ونسَب القولَ بأنَّها مكِّيَّةٌ إلى الجمهورِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٧).

وقيل: مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٦)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٧).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: البِقاعيُّ. يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٨١).

٣- وَعظُ النَّاسِ بأنَّ وَراءَهم حِسابًا بعدَ الموتِ؛ تَحريضًا على التَّزوُّدِ بالعملِ الصَّالحِ.

الآيات (١-١١)

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾: أي: الخَيلِ العادِيَةِ في سَبيلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ تَضبَحُ، والعَدْوُ: السَّيرُ بسُرْعةٍ، والضَّبْحُ: صَوتُ أجوافِها إذا عَدَتْ، وهو النَّفَسُ، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تجاوُزٍ في الشَّيءِ، وأصلُ (ضبح): يدُلُّ على صَوتٍ[١].

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾: أي: الخَيلِ تُوري النَّارَ بحوافِرِها إذا وقَعَت على الحِجارةِ، يُقالُ: وَرَى الزَّندُ: إذا خرَجَت نارُه، والإيراءُ: إخراجُ النَّارِ، والقَدْحُ هو الضَّربُ والصَّكُّ[٢].

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾: أي: الخَيلِ الَّتي تُغيرُ على العَدُوِّ عندَ الصَّباحِ، يُقالُ: أغارَ على العَدُوِّ: هَجَم عليهم دِيارَهم، وأوْقَع بهم، وأغارَ الفرَسُ: إذا أسْرَعَ في العَدْوِ، وأصلُ (غور) هنا: يدُلُّ على إقدامٍ على أخذِ مالٍ قَهرًا أو حَربًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٨٥) و(٤/ ٢٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٧) و(٦/ ١٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠١)، =

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾: أي: الخَيلُ تُثيرُ الغُبارَ بحوافِرِها بمكانِ عَدْوِها، يُقالُ: ثارَ الغُبارُ والدُّخَانُ: إذا ارتفَعَ، وأصلُ (ثور): يدُلُّ على انبعاثِ الشَّيءِ، والنَّقْعُ: الغُبارُ السَّاطِعُ المُثارُ(١).

﴿لَكَنُودٌ﴾: أي: لَكَفورٌ جَحودٌ؛ مِن كَنَدِ النِّعمةَ: أي: كَفَرها ولم يَشكُرْها، وأصلُ (كند): يدُلُّ على القَطعِ، وسُمِّي الكَنودُ بذلك لأنَّه يَكْنُدُ الشُّكرَ، أيْ: يَقْطَعُه(٢).

﴿بُعْثِرَ﴾: أي: أُثيرَ وأُخرِجَ، والبعثرةُ: قلبُ الشَّيءِ وإثارتُه، بجَعلِ أعلاهُ أسْفَلَه، وأسْفَلِه أعلاهُ(٣).

﴿وَحُصِّلَ﴾: أي: مُيِّزَ وبُيِّنَ، وأُظهِرَ وجُمِعَ، كإظهارِ اللُّبِّ مِنَ القِشْرِ وجَمْعِه، والتَّحْصيلُ: إخراجُ اللُّبِّ مِنَ القُشورِ، كإخراجِ الذَّهَبِ مِن حَجَرِ المعدِنِ، والبُرِّ مِنَ التِّبنِ، والحاصِلُ مِن كُلِّ شيءٍ ما حَصَل وذَهَب ما سِواه، وأصلُ (حصل): جَمعُ الشَّيءِ(٤).

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٨)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٤٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٨)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٤).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا *... أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾

قَولُه: ﴿ضَبْحًا﴾: مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ بفِعلٍ محذوفٍ جملتُه حالٌ، والتَّقديرُ: تَضبَحُ ضَبحًا. أو مَنصوبٌ على الحالِ؛ لتأويلِه بالمشتَقِّ، أي: ضابحاتٍ. ومَن قال: إنَّ الضَّبحَ نَوعٌ مِنَ السَّيرِ والعَدْوِ[1]، فهو عندَه مَصدَرٌ مؤكِّدٌ لـ «العادياتِ».

﴿قَدْحًا﴾: مَصدَرٌ مُؤَكِّدٌ لـ «الموريات»؛ لأنَّ الإيراءَ مِنَ القَدْحِ، يُقالُ: قَدَحَ فأَوْرى: إذا أخرَجَ النَّارَ. ويجوزُ أن يكون حالًا؛ لتأويلِه بالمشتَقِّ، أي: قادحاتٍ، أو مَفعولًا مُطلَقًا لفِعلٍ محذوفٍ جُملتُه حالٌ، أي: تَقْدَحُ قَدْحًا.

﴿صُبْحًا﴾: منصوبٌ على الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ، أي: الَّتي تُغيرُ وقْتَ الصُّبحِ.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾: مَعطوفٌ على اسمِ الفاعِلِ قبْلَه، وهو العادياتُ، وما بَعْدَه؛ لكَونِه في تأويلِ الفِعلِ؛ لوُقوعِه صِلةً للمَوصولِ؛ فإنَّ الألِفَ واللَّامَ في الأسماءِ المشتَقَّةِ أسماءٌ مَوصولةٌ، فالكلامُ في قُوَّةِ: واللَّاتي عَدَوْنَ فأَوْرَينَ فأغَرْنَ فأثَرْنَ.

﴿بِهِۦ﴾ الباءُ ظرفيَّةٌ، والضَّميرُ للمَكانِ الدَّالِّ عليه السِّياقُ، وإنْ لم يَجْرِ له ذِكرٌ؛ لأنَّ الإثارةَ لا بدَّ لها من مكانٍ.

وقيل: ضَميرُ ﴿بِهِۦ﴾ للصُّبحِ، والباءُ ظَرفيَّةٌ، أي: فهيَّجْنَ في ذلك الوَقتِ نَقْعًا، أي: غُبارًا.

وجُوِّزَ كونُ ضَميرِ ﴿بِهِۦ﴾ للعَدْوِ الدَّالِّ عليه «العاديات»، والباءُ للسَّببيَّةِ أو

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٩).

للمُلابَسةِ. ﴿جَمْعًا﴾: مَفعولٌ به للفِعلِ «وَسَطَ».

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ قَولُه: ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾: في العامِلِ فيها أوجُهٌ؛ أحَدُها: محذوفٌ دَلَّ عليه ﴿لَخَبِيرٌ﴾، ولا يجوزُ أن يَعمَلَ فيه ﴿لَخَبِيرٌ﴾؛ لأنَّ ما في حيِّزِ «إنَّ» لا يتقدَّمُ عليها، أي: إذا بُعثِرَ جُوزوا. الثَّاني: مَفعولُ ﴿يَعْلَمُ﴾ المحذوفُ هو العامِلُ في ﴿إِذَا﴾، أي: أفلَا يَعلَمُ مآلَه إذا بُعثِرَ مَن في القُبورِ. الثَّالِثُ: أنَّ ﴿إِذَا﴾ خارِجةٌ عن الظَّرفيَّةِ مَفعولٌ به لـ﴿يَعْلَمُ﴾، على معنى: أفلا يعلَمُ ذلك الوَقتَ ويَعرِفُ تحَقُّقَه. وقيل: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ في محَلِّ نَصبٍ سَدَّت مَسَدَّ مَفعولَيْ ﴿يَعْلَمُ﴾ المُعلَّقةِ عن العَمَلِ؛ لوُجودِ اللَّامِ في خَبَرِ «إنَّ»، ولذا كُسِرَت هَمزتُها. وهي استئنافٌ تعليليٌّ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالخَيلِ المُسرِعةِ حتَّى يُسمَعَ تَرَدُّدُ أنفاسِها مِن أجوافِها، الَّتي تُوقِدُ شَرَرَ النَّارِ بحوافِرِها حينَ تصطَكُّ بالحِجارةِ أثناءَ عَدْوِها، والَّتي تُغيرُ على العَدُوِّ وَقتَ الصَّباحِ، فتُهَيِّجُ الغُبارَ في مَوضِعِ الإغارةِ، فتَصيرُ في ذلك الموضِعِ وَسْطَ جَمْعِ الأعداءِ؛ أقسَمَ اللهُ بهذا على أنَّ الإنسانَ كَفورٌ لنِعَمِ رَبِّه عليه، وأنَّ الإنسانَ شاهِدٌ على نَفْسِه بذلك، وأنَّه شَديدُ المحبَّةِ للمالِ، حريصٌ عليه.

ثمَّ قال الله تعالى مُزَهِّدًا في الدُّنيا، ومُرَغِّبًا في الآخرةِ، ومُنَبِّهًا على ما يَستَقْبِلُه الإنسانُ مِن الأهوالِ: أفلا يَعلَمُ هذا الإنسانُ مآلَه إذا أخرَجَ اللهُ ما في القُبورِ

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٥٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٣٠٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٨١ - ٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٤٢ - ٤٤٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٩٠).

مِنَ الأمواتِ، وأظهَرَ ما في قُلوبِ العِبادِ؟! إنَّ رَبَّهم خَبيرٌ بهم يومَ القيامةِ، وسيُجازيهم بما يَستَحِقُّونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالخَيلِ المُسرِعةِ الَّتي تَعْدو بقُوَّةٍ حتَّى يُسمَعَ تَرَدُّدُ أنفاسِها مِن أجوافِها[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٧٠، ٥٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٥-٧٨)، ((الفروسية)) لابن القيم (ص: ١٣٠، ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩١، ٢٩٢).

قال ابنُ الجَوزيِّ: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ﴾ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّها الإبلُ في الحجِّ...

والثَّاني: أنَّها الخَيلُ في سبيلِ الله). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٠).

ممَّن اخْتارَ أنَّ المُرادَ بها: الخَيلُ: ابنُ جَرير، والزَّجَّاجُ، والسَّمْعانيُّ، والزَّمَخْشَريُّ، والرَّازيُّ وعَزاه إلى أكثَرَ المُحَقِّقينَ، والقُرْطُبيُّ وعَزاه إلى عامَّةِ المُفَسِّرينَ وأهْلِ اللُّغةِ، والنَّسَفيُّ، والخازِنُ، وابنُ كثير، والعُلَيْميُّ، والشربينيُّ، والشوكانيُّ وعَزاه للجُمهورِ، والسعديُّ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٧٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٧١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩١).

ممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وعَطاءٌ، ومجاهِدٌ، وأبو العاليةِ، وعِكْرِمةُ، والضَّحاكُ، وقَتادةُ، وعطيَّةُ، والرَّبيعُ، والكلبيُّ. يُنظر((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٠).

وممَّن قال: إنَّ المُرادَ بها الإبلُ: عليٌّ، وابنُ مَسْعودٍ، وإبراهيمُ، وعُبَيْدُ بنُ عُمَيْرٍ، ومحمَّدُ بنُ =

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر عَدْوَها، أتْبَعَه ما يَنشَأُ عنه، فقال عاطفًا بأداةِ التَّعقيبِ؛ لأنَّ العَدْوَ بحيثُ يتسبَّبُ عنه، ويتعَقَّبُه الإيراءُ[١]:

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾.

أي: الَّتي تُوقِدُ شَرَرَ النَّارِ بحَوافِرِها حينَ تصطَكُّ بالحِجارةِ أثناءَ عَدْوِها[٢].

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ العَدْوَ وما يتأثَّرُ عنه؛ ذكَرَ نتيجتَه وغايتَه، فقال[٣]:

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾.

أي: الَّتي تُغِيرُ على العَدُوِّ وقْتَ الصَّباحِ[٤].

= كَعْبٍ القُرَظيُّ، والسُّدِّيُّ، وأبو صالِحٍ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((الفروسية)) لابن القيم (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٢).

قال السعدي: (أي: تَقدَحُ النَّارَ مِن صَلابةِ حوافِرِهنَّ وقُوَّتِهنَّ إذا عَدَوْنَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٧٨، ٥٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٢).

قال القُرْطُبيُّ: (كانوا إذا أرادوا الغارةَ سَرَوْا ليلًا، ويَأتونَ العَدُوَّ صُبْحًا؛ لأنَّ ذلك وقْتُ غَفْلةِ النَّاسِ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٨).

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾﴾.

أي: فتُهَيِّجُ الغُبارَ في مَوضِعِ الإغارةِ[١].

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾.

أي: فتَصيرُ في ذلك الموضِعِ وَسْطَ جَمْعِ الأعداءِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٥، ٤٦٦).

قَولُه: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ أي: بمَكانِ عَدْوِها، وهو وإن لم يَتقدَّمْ له ذِكْرٌ لكنْ في الكَلامِ دَليلٌ عليه. وقيلَ: الضَّميرُ يَرجِعُ للوَقْتِ، وهو الصُّبحُ، وهو وَقْتُ الإغارةِ. وقيلَ: للعَدْوِ الَّذي دَلَّ عليه ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾، وتكونُ الباءُ سببيَّةً. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٤٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠١).

وممَّن اختارَ القَولَ الأوَّلَ -أنَّ الضَّميرَ يَعودُ على اسْمِ مَكانِ العَدْوِ-: ابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، ومَكِّيٌّ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، والخازِنُ، والعُلَيْميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٤٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٩).

وممَّن اختارَ القَولَ الثاني -أنَّ المُرادَ بقَوْلِه: ﴿بِهِۦ﴾: وقْتُ الصُّبحِ-: الزَّمَخْشَريُّ، وابنُ عَطِيَّةَ، والبَيْضاويُّ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٧١).

وممَّن قال بالقَولِ الثَّالِثِ في الجُملةِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ -وقال: بجَرْيِهنَّ يَعْني بحَوافِرِهنَّ-، والكِسائيُّ وعَزاه إليه الرَّازيُّ، والسعديُّ، وابنُ عُثَيْمينَ، وزادا معَ العَدْوِ: الإغارةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٠٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠١).

قال البِقاعي: (فدخلَتْ في وسَطِ ذلك الجَمعِ؛ لشَجاعتِها؛ وقوَّتِها، وطَواعيتِها، وشجاعةِ =

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر المُقسَمَ به؛ ذكَرَ المُقسَمَ عليه، وهو أمورٌ ثلاثةٌ[١]، فقال:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ لَكَفورٌ لنِعَمِ رَبِّه عليه، بَخيلٌ بإعطاءِ المالِ الَّذي لدَيه[٢].

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧﴾.

أي: وإنَّ الإنسانَ لَشاهِدٌ على نَفْسِه بحالِه وأعمالِه وأقوالِه بأنَّه كَفورٌ لنِعَمِ رَبِّه عليه[٣].

= فُرْسانِها). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٢، ٥٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٣).

قال القُرْطُبيُّ: (هذا جَوابُ القَسَمِ، أي: طُبِعَ الإنسانُ على كُفْرانِ النِّعْمةِ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

قال ابنُ عطيَّةَ: (قَولُه تَعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾ يَحتَمِلُ الضَّميرُ أن يَعودَ على اللهِ تَعالى، وقالَه قَتادةُ، أي: ورَبُّه شاهِدٌ عليه، ونفسُ هذا الخَبَرِ يَقْتضي الشَّهادةَ بذلك، ويَحتمِلُ أن يَعودَ على الإنسانِ، أي: أفعالُه وأقوالُه وحالُه المعلومةُ مِن هذه الأخلاقِ تشهَدُ عليه، فهو شاهِدٌ على نفسِه بذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٤).

ومِمَّن ذهَبَ إلى أنَّ الضَّميرَ يَعودُ على اللهِ تَعالى: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جَريرٍ، وحَكاه الثَّعْلَبيُّ والبَغَويُّ والقُرْطُبيُّ عن أكثَرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٧)، ((تفسير الثعلبي)) =

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن العجائِبِ أن يَكفُرَ أحَدٌ إحسانَ المنعِمِ، وهو شاهِدٌ على نَفْسِه؛ ذكَرَ الحامِلَ له على ذلك حتَّى هان عليه، فقال[1]:

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾.

أي: وإنَّ الإنسانَ لَشَديدُ المحبَّةِ للمالِ؛ فهو حريصٌ عليه، بَخيلٌ به[2].

= (١٠/ ٢٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في رِوايةٍ عنه، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، وسُفْيانُ الثَّوْريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨١، ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٦٠٤).

وممَّن اخْتارَ عَوْدَ الضَّميرِ على الإنسانِ: ابنُ جُزَي، والبِقاعيُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٢/ ٢٧٥) و (٥/ ٣٢٧).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في رِوايةٍ عنه، ومحمَّدُ بنُ كَعبٍ القُرَظيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٦٠٤).

قال ابنُ عثيمين: (الصَّوابُ أنَّ الآيةَ شامِلةٌ لهذا وهذا؛ فاللهُ شَهيدٌ على ما في قَلبِ ابنِ آدَمَ، وشهيدٌ على عمَلِه، والإنسانُ أيضًا شهيدٌ على نَفْسِه، لكِنْ قد يُقِرُّ بهذه الشَّهادةِ في الدُّنيا، وقد لا يُقِرُّ بها فيَشهَدَ على نَفْسِه يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٣). =

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا عَدَّ على الإنسانِ قبائِحَ أفعالِه؛ خَوَّفَه[١].

وأيضًا لَمَّا كان المالُ فانيًا لا يَنبغي لعاقِلٍ أن يُعَلِّقَ أمَلَه به، فضلًا عن أن يُؤْثِرَه على الباقي؛ نبَّهَه على ذلك بتهديدٍ بليغٍ، فقال[٢]:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩﴾.

أي: أفلا يَعلَمُ هذا الإنسانُ -الجَحودُ لنِعَمِ رَبِّه، المحِبُّ للمالِ- مآلَه إذا أخرَجَ اللهُ ما في القُبورِ مِنَ الأمواتِ[٣]؟

= قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: الإنسانَ، مِن غَيرِ خلافٍ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٢).

وقال ابنُ القيِّم: (الخيرُ هنا المالُ باتِّفاقِ المفَسِّرينَ، والشَّديدُ: البَخيلُ مِن أجْلِ حُبِّ المالِ؛ فحُبُّ المالِ هو الَّذي حمَلَه على البُخلِ. هذا قولُ الأكثَرينَ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٤). =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤].

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾.

أي: ومَيَّز اللهُ وأظهَرَ ما في قُلوبِ العِبادِ مِنَ الإيمانِ والكُفرِ، والخَيرِ والشَّرِّ[1].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

أي: إنَّ رَبَّ النَّاسِ خَبيرٌ بهم يومَ القيامةِ؛ فهو مُطَّلِعٌ على بواطِنِهم، ولا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أمرِهم، وسيُجازيهم بما يَستَحِقُّونَ[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۞ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۞ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۞ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۞ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أقسَمَ تعالى بفَرَسِ الغازي؛ لِما فيه مِن مَنافِعِ الدُّنيا والدِّينِ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الإنسانَ يجِبُ عليه أن يُمسِكَه لا للزِّينةِ والتَّفاخُرِ، بل

= قال ابنُ عطيَّة: (قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ توقيفٌ على المآلِ والمصيرِ، أي: أفلا يعلَمُ مآلَه فيَستَعِدَّ له؟!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٥).

وقال ابنُ عثيمين: (قال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ فيَعمَلَ لذلك، ولا يكونَ هَمُّه المالَ؟!). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٧).

لهذه المنفعةِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ فيه تفضيلُ الجِهادِ والمجاهِدينَ، على أنَّ معنَى العادياتِ خيلُهم[٢].

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ في طبعِ الإنسانِ الكُنودُ لربِّه، أي: كُفرانُ نعمتِه، فالإنسانُ لا يخلو مِن أحوالٍ مآلُها إلى كُفرانِ النِّعمةِ؛ بالقولِ والقصدِ، أو بالفعلِ والغفلةِ؛ فالإشراكُ كُنودٌ، والعصيانُ كُنودٌ، وقلَّةُ مُلاحَظةِ صَرفِ النِّعمةِ فيما أُعطِيتْ مِن أجْلِه كُنودٌ، وهو مُتفاوِتٌ، فهذا خُلقٌ مُتأصِّلٌ في الإنسانِ؛ فلذلك أيقَظَ اللهُ له النَّاسَ لِيَريضوا أنفُسَهم على إماتةِ هذا الخُلقِ مِن نُفوسِهم، كما في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، وقولِه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وقولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[٣] [العلق: ٦-٧].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ فيه مَذَمَّةُ حُبِّ المالِ، وهو جِبِلَّةٌ في الإنسانِ إلَّا مَن هَذَّبه الإسلامُ، إلَّا أنَّ الذَّمَّ ينصَبُّ على شِدَّةِ الحُبِّ الَّتي تحمِلُ صاحِبَها على إضاعةِ الحُقوقِ، أو تعَدِّي الحُدودِ[٤].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، والخَيرُ: المالُ، ففيه الحَثُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٢، ٥٠٣).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٦٧).

على الزُّهدِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أنَّه يجِبُ على العبدِ أنْ يُصَحِّحَ ما في قَلبِه؛ لأنَّ المدارَ عليه[٢].

٧- أنَّ مَن ظَنَّ أنَّ إعدادَ القبرِ وبناءَه وتعظيمَه وتحسينَه ينفعُه، فقد تمنَّى على اللهِ الأمانيَّ الكاذبةَ، وإنَّما يكونُ في قبْرِه بحسَبِ ما في قلْبِه، وكُلَّما كان الإيمانُ في قلْبِه أعظَمَ كان في قبْرِه أَسَرَّ وأَنْعَمَ؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾، فقد جَمَعَ سُبحانَه هنا بيْن ما في القُبورِ وما في الصُّدورِ[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أَقْسَمَ بالخَيلِ في كتابِه، وذلك يدُلُّ على شَرَفِها وفَضْلِها عِندَه[٤]. عن عُروةَ البارقي رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامةِ: الأجرُ والمغنمُ))[٥].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا يدُلُّ على أنَّ الإنسانَ شاهِدٌ على كُنودِ نَفْسِه، أي: مُبالَغتِه في الكُفرِ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وقَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((الفروسية)) لابن القيم (ص: ١٣٠).

(٥) رواه البخاري (٣١١٩)، ومسلم (١٨٧٣) واللفظ له.

[الزخرف: ٣٧]، وقَولِه تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ شَهادةَ الإنسانِ بأنَّه كَنودٌ هي شَهادةُ حالِه بظُهورِ كُنودِه، والحالُ رُبَّما تَكفي عن المقالِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ شَهادتَه على نَفْسِه بذلك يومَ القيامةِ، كما يدُلُّ له قَولُه تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقَولُه تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، وقَولُه تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ راجِعٌ إلى رَبِّ الإنسانِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، وعليه فلا إشكالَ في الآيةِ، ولكِنْ رجوعُه إلى الإنسانِ أظهَرُ؛ بدليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[1] [العاديات: ٨].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، وقولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقَولُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] هذا شَأْنُ الإنسانِ مِن حيثُ ذاتُه ونفْسُه، وأمَّا خروجُه عن هذه الصِّفاتِ فهو بفَضْلِ ربِّه وتوفيقِه له ومِنَّتِه عليه، لا مِن ذاتِه؛ فليس له مِن ذاتِه إلَّا

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

هذه الصِّفاتُ، وما به مِن نعمةٍ فمِن اللهِ وَحْدَه[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾، فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾، ولم يقلْ: (بُعْثِرَ مَن في القُبورِ)؟ ثم إنَّه لَمَّا قال: ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾، فلِمَ قال: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾، ولم يقلْ: (إنَّ رَبَّها بها يَومَئذٍ لَخَبيرٌ)؟

الجوابُ: هو أنَّ ما في الأرضِ مِن غيرِ المُكلَّفينَ أكثرُ، فأُخرِجَ الكلامُ على الأَغلَبِ، أو يُقالُ: إنَّهم حالَ ما يُبعَثُون لا يَكونُون أَحياءً عُقلاءَ، بل بعدَ البَعثِ يَصيرون كذلك، فلا جَرَمَ كان الضميرُ الأوَّلُ ضميرَ غيرِ العُقلاءِ، والضَّميرُ الثَّاني ضميرَ العُقلاءِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ جمَعَ سُبحانَه بيْن القُبورِ والصُّدورِ، كما جمَعَ بيْنَهما النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَولِه: ((مَلأَ اللهُ أجوافَهم وقُبورَهم نارًا))[٣]؛ فإنَّ الإنسانَ يُواري صدْرُه ما فيه مِن الخَيرِ والشَّرِّ، ويواري قَبْرُه جِسْمَه؛ فيُخْرِجُ الرَّبُّ جِسْمَه مِن قبْرِه، وسِرَّه مِن صدْرِه، فيَصيرُ جسْمُه بارزًا على الأرضِ، وسِرُّه باديًا على وجْهِه، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١]، وقال: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦][٤]. فالتَّناسُبُ بيْن الآيتَينِ ظاهِرٌ؛ فبَعْثَرةُ ما في القُبورِ إخراجٌ للأجسادِ مِن بَواطنِ الأرضِ، وتَحصِيلُ ما في الصُّدورِ إخراجٌ لِما في الصُّدورِ، ممَّا تُكِنُّه

---

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (٦٢٨) مِن حديثِ عبدِالله بنِ مَسعودٍ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٣).

الصُّدورُ[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ يدُلُّ على أنَّ النِّيَّاتِ يُحاسَبُ بها، كما يُحاسَبُ على ما يَظهَرُ مِن آثارِها[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ فيه سؤالٌ: الضَّميرُ في قَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾ عائدٌ إلى الإنسانِ، وهو واحِدٌ؟

الجوابُ: الإنسانُ في معنى الجَمعِ، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، ثمَّ قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: ٣]، ولولا أنَّه للجَمعِ وإلَّا لَمَا صَحَّ ذلك[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ قَيَّدَ سُبحانَه كَونَه خبيرًا بهم ذلك اليومَ، وهو خَبيرٌ بهم في كلِّ وقتٍ؛ إيذانًا بالجزاءِ، وأنَّه يُجازيهم في ذلك اليومِ بما يَعلَمُه منهم؛ فذُكِرَ العِلمُ، والمرادُ لازِمُه[٤]. فالمرادُ بذلك الجزاءُ بالأعمالِ الناشئُ عن علمِ الله واطِّلاعِه[٥].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ يدُلُّ على كَونِه تعالى عالِمًا بالجُزئيَّاتِ الزَّمانيَّاتِ؛ لأنَّه تعالى نَصَّ على كَونِه عالِمًا بكيفيَّةِ أحوالِهم في ذلك اليومِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۞ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۞ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۞ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۞ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾

- قولُه: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ القَدْحُ: حَكُّ جِسمٍ على آخَرَ ليَقدَحَ نارًا، وذلك كِنايةٌ عن الإمعانِ في العَدْوِ، وشِدَّةِ السُّرعةِ في السَّيرِ[١].

- وفي قولِه: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ أسْنَدَ الإغارةَ -الَّتي هيَ مُباغَتةُ العدُوِّ للنَّهبِ، أو للقتْلِ، أو للأسْرِ- إليَها، وهيَ حالُ أهْلِها؛ إيذانًا بأنَّها العُمدةُ في إغارتِهم، أو لأنَّ الخيلَ أو إبلَ الغزْوِ أسبابٌ للإغارةِ ووَسائلُ[٢].

- و﴿صُبْحًا﴾ ظَرفُ زَمانٍ، فإذا فُسِّرَ (المُغيرات) بخَيلِ الغُزاةِ، فتَقييدُ ذلك بوَقتِ الصُّبحِ؛ لأنَّهم كانوا إذا غَزَوا لا يُغيرون على القومِ إلَّا بعْدَ الفَجرِ؛ ولذلك كان مُنذِرُ الحيِّ إذا أنْذَرَ قَومَه بمَجيءِ العدُوِّ، نادى: يا صَباحاهُ[٣].

- قولُه: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ تَخصيصُ إثارةِ الغُبارِ بالصُّبحِ -وذلك على قولٍ-؛ لأنَّه لا يَثورُ أو لا يَظهَرُ ثَوَرانُه باللَّيلِ، وبهذا ظَهَرَ أنَّ الإيراءَ الَّذي لا يَظهَرُ في النَّهارِ المَذكورَ في قولِه: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ واقعٌ في اللَّيلِ، ولله درُّ شَأنِ التَّنزيلِ[٤]!

- ومِن بَديعِ النَّظمِ وإعجازِه: إيثارُ كَلِماتِ (العادياتِ وضَبْحًا، والمُورياتِ وقَدْحًا، والمُغيراتِ وصُبْحًا، ووسَطْنَ وجَمْعًا) دونَ غيرِها؛ لأنَّها بِرَشاقَتِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٤٢).

تَتحمَّلُ أنْ يكونَ المُقسَمُ به خَيلَ الغزْوِ ورَواحِلَ الحجِّ[١].

- قولُه: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ عُطِفَت هذه الأوصافُ الثَّلاثةُ الأُولى بالفاءِ؛ لأنَّ أُسلوبَ العرَبِ في عطْفِ الصِّفاتِ وعطْفِ الأمكنةِ أنْ يكونَ بالفاءِ، وهي للتَّعقيبِ، والأكثَرُ أنْ تكونَ لتَعقيبِ الحُصولِ كما في هذه الآيةِ. والفاءُ العاطفةُ لقولِه: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ عاطفةٌ على وَصْفِ المُغيراتِ، والمعطوفُ بها مِن آثارِ وَصْفِ المُغيراتِ، وليستْ عاطفةً على صِفةٍ مُستقِلَّةٍ مِثلَ الصِّفاتِ الثَّلاثِ الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ إثارةَ النَّقْعِ وتَوسُّطَ الجمْعِ مِن آثارِ الإغارةِ صُبْحًا، ولَيْسا مُقسَمًا بهما أصالةً، وإنَّما القسَمُ بالأوصافِ الثَّلاثةِ الأُولى؛ فلذلك غُيِّرَ الأُسلوبُ في قولِه: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾؛ فجِيءَ بهما فِعلَينِ ماضيَينِ، ولم يَأتِيَا على نسَقِ الأوصافِ قبْلَهما بصِيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الكلامَ انتَقَلَ مِن القسَمِ إلى الحِكايةِ عن حُصولِ ما تَرتَّبَ على تلك الأوصافِ الثَّلاثةِ ما قُصِدَ منها مِن الظَّفَرِ بالمَطلوبِ الَّذي مِن أجْلِه كان العدْوُ والإيراءُ والإغارةُ عَقِبَه، وهي الحُلولُ بدارِ القَومِ الَّذين غَزَوْهم إذا كان المُرادُ بالعادياتِ الخيلَ، أو بُلوغُ تَمامِ الحجِّ بالدَّفْعِ عن عَرَفةَ إذا كان المرادُ بالعادياتِ رَواحلَ الحَجيجِ؛ فإنَّ إثارةَ النَّقعِ يَشعُرون بها عندَ الوصولِ حينَ تَقِفُ الخيلُ والإبلُ دَفْعةً، فتُثيرُ أرْجُلُها نقْعًا شَديدًا فيما بيْنَهما، وحينَئذٍ تَتوسَّطْنَ الجمْعَ مِن النَّاسِ[٢].

- وأيضًا الفاءاتُ في قولِه: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ للدَّلالةِ على تَرتُّبِ ما بعْدَ كُلٍّ مِنها على ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٠١، ٥٠٢).

قبْلَها؛ فإنَّ تَوسُّطَ الجمْعِ مُترتِّبٌ على الإثارةِ المُترَتِّبةِ على الإيراءِ المُترتِّبِ على العَدْوِ[١].

- وفي المُخالَفةِ بيْن المَعطوفِ والمعطوفِ عليه في هذه الآياتِ سِرٌّ بَديعٌ، وهو تَصويرُ هذه الأفعالِ في النَّفْسِ، وتَجسيدُها أمامَ العينِ؛ فإنَّ التَّصويرَ يَحصُلُ بإيرادِ الفعلِ بعْدَ الاسمِ؛ لِما بيْنَهما مِن التَّخالُفِ، وهو أبلَغُ مِن التَّصويرِ والتَّجسيدِ بالأسماءِ المُتناسِقةِ، وكذلك التَّصويرُ بالمُضارعِ بعْدَ الماضي، وإنَّما وُصِفَت بالأوصافِ الثَّلاثِ؛ ليُرتَّبَ عليها ما قُصِدَ مِن الظَّفَرِ بالفتْحِ وغَلَبةِ العدُوِّ، فأوقَعَ الفِعلَينِ الماضيَينِ مُسبَّبَينِ عن أسماءِ الفاعِلينَ، فأفاد أنَّ تلك المُداوَمةَ إنَّما حقَّقَت هاتَينِ البُغْيَتَينِ[٢].

- ومُناسَبةُ القَسَمِ بهذه المَوصوفاتِ دونَ غيرِها -إنْ أُريدَ بالعادياتِ وما عُطِفَ عليها خَيلُ الغُزاةِ-، هو التَّهويلُ والتَّرويعُ؛ لإشعارِ المشركين بأنَّ غارةً تَترَقَّبُهم، وهي غَزوةُ بدْرٍ، وإنْ أُريدَ رَواحلُ الحَجيجِ فالقَسَمُ بها مِن أجْلِ أنْ يُصدِّقَ المشركون بوُقوعِ المقسَمِ عليه؛ لأنَّ القَسَمَ بشَعائرِ الحجِّ لا يكونُ إلَّا بارًّا، حيث هم لا يُصدِّقون بأنَّ القرآنَ كَلامُ اللهِ، ويَزعُمونه قولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٠، ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٧٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٢).

قال ابنُ عاشور: (وعلى وجهِ أنَّ المُقسَمَ به رَواحلُ الحجِّ، فالقَسَمُ بها لتَعظيمِها بما تُعينُ به على مَناسكِ الحجِّ، واختيرَ القَسَمُ بها؛ لأنَّ السَّامعينَ يُوقِنونَ أنَّ ما يُقسَمُ عليه بها مُحقَّقٌ؛ فهي مُعظَّمةٌ عندَ الجَميعِ مِن المشركين والمسلِمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٩).

- الألِفُ واللَّامُ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ للجنسِ، وهو يُفيدُ الاستغراقَ غالبًا، أي: إنَّ في طَبْعِ الإنسانِ الكُنودَ لرَبِّه، أي: كُفرانَ نِعمتِه[١].

- وتَقديمُ ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ لإفادةِ الاهتمامِ بمُتعلَّقِ هذا الكُنودِ؛ لتَشنيعِ هذا الكُنودِ بأنَّه كُنودٌ للرَّبِّ الَّذي هو الأحقُّ بالشُّكرِ، وأعظَمُ ذلك شِركُ المشرِكينَ، ولذلك أُكِّدَ الكلامُ بلامِ الابتداءِ الدَّاخلةِ على خبَرِ (إنَّ)؛ للتَّعجيبِ مِن هذا الخبَرِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، شَهيدٌ، أي: مُقِرٌّ، والمعْنى: أنَّ الإنسانَ مُقِرٌّ بكُنودِه لرَبِّه مِن حيث لا يَقصِدُ الإقرارَ، والمَقصودُ مِن هذه الجُملةِ تَفظيعُ كُنودِ الإنسانِ بأنَّه مَعلومٌ لصاحبِه بأدْنى تَأمُّلٍ في أقوالِه وأفعالِه. ويَجوزُ أنْ يكونَ شَهيدٌ بمعْنى عَليم، ومُتعلَّقُ (شَهيدٌ) مَحذوفًا دلَّ عليه المَقامُ، أي: عَليمٌ بأنَّ اللهَ ربُّه، أي: بدَلائلِ الرُّبوبيَّةِ، ويكونَ قولُه: ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ بمعْنى: مع ذلك، أي: مع ذلك الكُنودِ هو عَليمٌ بأنَّه ربُّه مُستحِقٌّ للشُّكرِ والطَّاعةِ لا للكُنودِ، والجارُّ والمَجرورُ في مَوضعِ الحالِ، وذلك زِيادةٌ في التَّعجيبِ مِن كُنودِ الإنسانِ[٣].

- وقيل: ضَميرُ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى (رَبِّه)، أي: وإنَّ اللهَ على ذلك لَشَهيدٌ، والمَقصودُ أنَّ اللهَ يَعلَمُ ذلك في نفْسِ الإنسانِ، وهذا تَعريضٌ بالتَّحذيرِ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٢، ٥٠٣).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٠٤، ٥٠٥).

الحِسابِ عليه[١].

- وتَقديمُ ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ على (شَهِيدٌ)؛ للاهتمامِ والتَّعجيبِ، ومُراعاةِ الفاصلةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ نظْمُ الآيةِ أنْ يُقالَ: وإنَّه لشَديدُ الحُبِّ للخَيرِ، فلمَّا تقدَّمَ الحُبُّ قال: ﴿لَشَدِيدٌ﴾، وحُذِفَ مِن آخِرِه ذِكرُ الحُبِّ؛ لأنَّه قد جَرى ذِكرُه، ولِرؤوسِ الآيِ[٣].

- وتَقديمُ ﴿لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ على مُتعلَّقِه؛ للاهتمامِ بغَرابةِ هذا المُتعلَّقِ، ولمُراعاةِ الفاصلةِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ فُرِّعَ على الإخبارِ بكُنودِ الإنْسانِ وشُحِّه استفهامٌ إنكاريٌّ عن عدَمِ عِلمِ الإنسانِ بوَقتِ بَعثرةِ ما في القبورِ، وتَحصيلِ ما في الصُّدورِ، فإنَّه أمرٌ عَجيبٌ كيف يَغفُلُ عنه الإنسانُ[٥]؟!

- وقولُه: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ...﴾ تَهديدٌ ووَعيدٌ، والهمزةُ في ﴿أَفَلَا﴾ للإنكارِ، والفاءُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقتضيه المقامُ، أي: أيَفعَلُ ما يَفعَلُ مِن المَقابحِ، فلا يَعلَمُ، أو ألَا يُلاحِظُ فلا يَعلَمُ حالَهُ إذا بُعِثَ مَن في القُبورِ مِن المَوتى[٦]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٠٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥٨).

- ومَفْعولا ﴿يَعْلَمُ﴾ مَحذوفانِ اقتِصارًا، ولا دَليلَ في اللَّفظِ على تَعيينِ تَقديرِهما، فيُوكَلُ إلى السَّامعِ تَقديرُ ما يَقْتضيهِ المَقامُ مِن الوعيدِ والتَّهويلِ، ولِيَذهَبَ السَّامعُ في تَقديرِه كلَّ مَذهبٍ مُمكِنٍ قصْدًا للتَّهويلِ(١).

- وخُصَّ أعمالُ الصُّدورِ والقُلوبِ بالذِّكرِ؛ لأنَّها الأصلُ، وتُرِكَ ذِكرُ أعمالِ الجَوارحِ؛ لأنَّها تابعةٌ لأعمالِ القلوبِ؛ فإنَّه لولا تَحقُّقُ البَواعثِ والإراداتِ في القلوبِ لَما حَصَلَت أفعالُ الجَوارحِ؛ ولذلك جَعَلَها تعالَى الأصلَ في الذَّمِّ، فقال: ﴿ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، والأصْلَ في المدْحِ، فقال: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٢) [الأنفال: ٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن الإنكارِ، أي: كان شَأنُهم أنْ يَعلَموا اطِّلاعَ اللهِ عليهم إذا بُعثِرَ ما في القُبورِ، وأنْ يَذكُروه؛ لأنَّ وَراءَهم الحِسابَ المُدقَّقَ، وتُفيدُ هذه الجُملةُ مُفادَ التَّذييلِ(٣).

- وتَقديمُ ﴿بِهِمْ﴾ على عامِلِه -وهو ﴿لَّخَبِيرٌ﴾- للاهتمامِ به؛ ليَعلَموا أنَّهم المقصودُ بذلك(٤).

وأيضًا قولُه: ﴿بِهِمْ﴾ و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مُتعلِّقانِ بـ (خَبيرٌ)؛ قُدِّمَا عليه لمُراعاةِ الفواصلِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥٨، ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥٩).
والتذييلُ تقدَّم تعريفُه (ص: ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٢).

- وكَنَّى عنهم بعْدَ الإحياءِ الثَّاني بضَميرِ العُقلاءِ ﴿بِهِمْ﴾ بعْدَما عبَّرَ عنهم قبْلَ ذلك بـ ﴿مَا﴾؛ بِناءً على تَفاوُتِهم في الحالَينِ؛ إيذانًا بصَلاحيتِهم للخِطابِ بعدَ نفْخِ الرُّوحِ، وبعَدَمِها قبْلَه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩١، ١٩٢).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ القارِعَةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ القارِعَةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (القارِعَة)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ القارِعَةِ مكِّيَّةٌ، ونقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

الحديثُ عن أهْوالِ يومِ القِيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- ذِكرُ أهوالِ يومِ القِيامةِ.

٢- إثباتُ الجَزاءِ على الأعمالِ، وبَيانُ أحوالِ السُّعَداءِ والأشْقياءِ.

---

(١) سُمِّيت السُّورةُ بذلك؛ لمفتتحِها: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٩).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ في ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٣٩)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٨٧).

الآيات (١-١١)

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾: أي: القيامةُ الَّتي تَقرَعُ قُلوبَ العِبادِ بالمَخافةِ، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَقرَعُ النَّاسَ بالأهوالِ الشَّديدةِ، وأصلُ (قرع): يدُلُّ على ضَربِ الشَّيءِ[١].

﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾: أي: المنتَشِرِ المتفرِّقِ، وأصلُ (بثث): يدُلُّ على التَّفريقِ[٢].

﴿كَٱلْعِهْنِ﴾: أي: الصُّوفِ المصبوغِ، وأصلُ (عهن): يدُلُّ على لِينٍ وسُهولةٍ[٣].

﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾: أي: المفرَّقِ بَعضُ أجزائِه عن بَعضٍ. والنَّفْشُ: تَشعيثُ الشَّيءِ بأصابِعِك حتَّى يَنتَشِرَ، وأصلُ (نفش): يدُلُّ على انتِشارٍ[٤].

﴿هَاوِيَةٌ﴾: الهاوِيةُ: المكانُ المنخَفِضُ بيْنَ الجَبَلَينِ الَّذي إذا سَقَط فيه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٦٤)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٢).

إنسانٌ أو دابَّةٌ هلَك، يُقالُ: سَقَط في الهاويةِ، وأُريدَ بها هنا جهنَّمُ، وقيل: هي اسمٌ لجهنَّمَ. وأصلُ (هوي): يدُلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ[١].

﴿حَامِيَةٌ﴾: أي: شديدةُ الحرارةِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُفَخِّمًا شأنَ القيامةِ، قائِلًا سُبحانَه: القيامةُ الَّتي تَقرَعُ النَّاسَ وتُزعِجُهم، أيُّ شَيءٍ تلك القِيامةُ؟! وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- بتلك القارعةِ العَظيمةِ؟! يومَ يَخرُجُ النَّاسُ مِن قُبورِهم كالفَراشِ المنتَشِرِ المتفَرِّقِ، وتكونُ الجِبالُ كالصُّوفِ المندوفِ الَّذي يَتطايرُ في الجَوِّ.

ثمَّ بيَّن سُبحانَه أحوالَ السُّعداءِ والأشقياءِ في هذا اليومِ، فقال: فأمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوازينُ حَسَناتِه فهو في حياةٍ طَيِّبةٍ في الجنَّةِ، وأمَّا مَن خَفَّت موازينُ حَسَناتِه، فمَأْواه ومَسكَنُه جهنَّمُ البَعيدُ قَعْرُها، يَهْوِي فيها على رأسِه، وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ تلك الهاويةُ؟! هي نارٌ شَديدةُ الحَرارةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾.

أي: السَّاعةُ الَّتي تَقرَعُ النَّاسَ وتُزعِجُهم، وذلك عندَ النَّفخِ في الصُّورِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٦).
قال السعدي: (﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ مِن أسماءِ يومِ القيامةِ؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّها تَقرَعُ النَّاسَ وتُزعِجُهم بأهوالِها). ((تفسير السعدي)) (ص:٩٣٣).

﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ ﴾.

أيْ: أيُّ شَيءٍ تلك القارِعةُ المَهُولةُ[١]؟!

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾.

أي: وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- بتلك القارعةِ العَظيمةِ[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٣].

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قولُه: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ مُنبِئًا عن الوعدِ الكَريمِ بإعلامِها؛ أنْجَزَ ذلكَ بقولِه تعالَى[٣]:

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ ﴾.

أي: يومَ يَخرُجُ النَّاسُ مِن قُبورِهم كالفَراشِ المنتَشِرِ المتفرِّقِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٦).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه لنَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وما أشْعَرَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ القارِعةُ؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٣).

وقال ابنُ عاشور: (الخِطابُ في ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ لغيرِ مُعَيَّنٍ، أي: وما أدراك أيُّها السَّامِعُ؟). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٦). =

ولَمَّا كانت الجِبالُ أشَدَّ ما تكونُ؛ عظَّم الرَّهبةَ بالإخبارِ بما يُفعَلُ بها، فقال تعالى[١]:

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾.

أي: وتكونُ الجِبالُ يومَ القيامةِ كالصُّوفِ المندوفِ الَّذي تتفرَّقُ أجزاؤُه، وتتطايرُ في الجَوِّ[٢].

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف يومَ القيامةِ؛ قسَّمَ النَّاسَ فيه إلى قِسمَينِ[٣]، فقال تعالى:

= قال الشوكاني: (وانتصابُ الظَّرفِ بفعلٍ مَحْذوفٍ تَدُلُّ عليه القارعةُ، أي: تَقرَعُهم يومَ يكونُ النَّاسُ... إلخ. ويجوزُ أنْ يكونَ منصوبًا بتقديرِ: اذكُرْ. وقال ابنُ عطيَّةَ ومَكِّيٌّ وأبو البقاءِ: هو منصوبٌ بنفْسِ القارعةِ. وقيل: هو خبرُ مُبتدَأٍ محذوفٍ، وإنَّما نُصِب لإضافتِه إلى الفعلِ، فالفتحةُ فتحةُ بناءٍ لا فتحةُ إعرابٍ، أي: هي يومَ يكونُ... إلخ. وقيل: التَّقديرُ: سَتَأْتيكم القارعةُ يومَ يكونُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٤٠٩)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٨٣٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) لأبي البقاء العكبري (٢/ ١٣٠١).

وقال الواحديُّ: (الفَراشُ: ما تراه يتهافَتُ في النَّارِ، شبَّه النَّاسَ في وقتِ البَعثِ بالفَراشِ؛ لأنَّهم إذا بُعِثوا ماجَ بعضُهم في بعضٍ، والفَراشُ إذا ثار لم يتَّجِهْ لجهةٍ واحدةٍ؛ فدلَّ على أنَّهم إذا بُعِثوا فَزِعوا، فاختلَفوا في المقاصِدِ على جهاتٍ مُختلِفةٍ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٤٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

قال البِقاعي: (﴿كَٱلْعِهْنِ﴾ أي: الصُّوفِ المصبوغِ؛ لأنَّها مُلوَّنةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ [فاطر: ٢٧]). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٧).

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ ﴾.

أي: فأمَّا مَن ثَقُلَت موازينُ حَسَناتِه فرجَحَت على سيِّئاتِه[١].

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾.

أي: فهو في حياةٍ طَيِّبةٍ في الجنَّةِ يَرضى عنها[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن يَدخُلُ الجنَّةَ يَنعَمُ لا يَبأَسُ، لا تَبلى ثِيابُه، ولا يَفنى شَبابُه!))[٣].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُنادي مُنادٍ: إنَّ لكم أنْ تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَحْيَوْا فلا تَموتوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تَبْأَسوا أبدًا))[٤].

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ ﴾.

أي: وأمَّا مَن خَفَّت مَوازينُ حَسَناتِه فرجَحَت سَيِّئاتُه على حَسَناتِه إن كانت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٨).

(٣) رواه مسلم (٢٨٣٦).

(٤) رواه مسلم (٢٨٣٧).

له حَسَناتٌ[(١)].

﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾.

أي: فمَأْواه ومَسكَنُه في مَوضِعٍ بَعيدٍ قَعْرُه، يَهْوِي فيه على رأسِه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٣).

قال ابنُ عثيمين: (إمَّا أنَّه الكافِرُ الَّذي ليس له أيُّ حَسَنةٍ؛ لأنَّ حَسَناتِ الكافِرِ يُجازى بها في الدُّنيا، ولا تنفَعُه في الآخرةِ، أو أنَّه مُسلِمٌ، ولكِنَّه مُسرِفٌ على نَفْسِه، وسيِّئاتُه أكثَرُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٨).

ويُنظر ما يأتي في الفوائدِ (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٤، ٥١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٨).

قال ابنُ جُزَي: (﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحَدُهما: أنَّ الهاويةَ جهنَّمُ؛ سُمِّيت بذلك لأنَّ النَّاسَ يَهْوُون فيها، أي: يَسْقُطون، و«أُمُّه» معناه: مَأْواه، كقَولِك: المدينةُ أمُّ فُلانٍ، أي: مَسْكَنُه، على التَّشْبيهِ بالأمِّ الوالِدةِ؛ لأنَّها مأوى الوَلَدِ ومَرجِعُه.

الثَّاني: أنَّ الأمَّ هي الوالِدةُ، و«هاويةٌ»: ساقِطةٌ، وذلك عبارةٌ عن هلاكِه، كقَولِك: أُمُّه ثَكْلى: إذا هلَك.

الثَّالِثُ: أنَّ المعنى: أمُّ رأسِه هاويةٌ في جهنَّمَ، أي: ساقِطةٌ فيها؛ لأنَّه يُطرَحُ فيها منكوسًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٧).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ -أنَّ أُمَّه بمعنى: مَأْواه ومَسْكَنُه-: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، والرَّسْعَنيُّ، والنَّسَفيُّ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧١٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

وممَّن قال به مِنَ السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٤).

وممَّن اختار في الجُملةِ القَولَ الثَّانيَ -أي: أنَّ ذلك عبارةٌ عن هلاكِه-: الأخفَشُ، والمبَرِّدُ، =

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَةٞ ١٠ ﴾.

أي: قال اللهُ مُفَخِّمًا شَأنَها، ومُعَظِّمًا أمْرَها: وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيَّ شَيءٍ تلك الهاويةُ[1]؟!

﴿ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١ ﴾.

أي: هي نارٌ قد بلغت الغايةَ في شِدَّةِ الحَرارةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العَبدَ لَيتكَلَّمُ بالكَلِمةِ ما يَتبيَّنُ ما فيها، يَهوي بها في النَّارِ أبْعَدَ ما بيْنَ المَشرِقِ

= وأبو عليٍّ الجُرْجانيُّ ونَسَبه إليهم الواحِديُّ، واختاره الزَّمخشريُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٦٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٠).

وقال ابنُ عُثَيمين: (﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ﴾... يعني: أنَّه مآلُه إلى نارِ جَهنَّمَ -والعياذُ باللهِ-. وقيل: إنَّ المرادَ بالأُمِّ هنا: أمُّ الدِّماغِ، والمعنى: أنَّه يُلْقى في النَّارِ على أمِّ رأسِه -نسألُ اللهَ السَّلامةَ-. وإذا كانت الآيةُ تحتَمِلُ مَعنَيَينِ لا يترجَّحُ أحَدُهما على الآخَرِ ولا يَتنافيانِ، فإنَّه يُؤخَذُ بالمعنيَينِ جميعًا، فيُقالُ: يُرمَى في النَّارِ على أمِّ رأسِه، وأيضًا ليس له مأوًى ولا مَقصدٌ إلَّا النَّارُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٨).

وقال ابنُ جريرٍ: (فمَأْواه ومَسْكَنُه الهاويةُ، الَّتي يَهوِي فيها على رأسِه في جهنَّمَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٥).

والمَغرِبِ!))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نارُكم هذه الَّتي يُوقِدُ ابنُ آدَمَ: جُزءٌ مِن سَبعينَ جُزءًا مِن حَرِّ جَهنَّمَ. قالوا: واللهِ إنْ كانت لَكافيةً يا رَسولَ اللهِ! قال: فإنَّها فُضِّلَت عليها بتِسْعةٍ وسِتِّينَ جُزءًا، كُلُّها مِثلُ حَرِّها))[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۞وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾، قُرِنَ بيْنَ النَّاسِ والجِبالِ؛ تَنبيهًا على تَأثيرِ تلك القارِعةِ في الجِبالِ حتَّى صارتْ كالعِهنِ المَنفوشِ! فكيف يكونُ حالُ الإنسانِ عندَ سَماعِها؟! فالوَيلُ ثمَّ الوَيلُ لابنِ آدَمَ إنْ لم تتدارَكْه رحمةُ رَبِّه[٣]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ فيه سُؤالٌ: إذا أخبَرْتَ عن شَيءٍ بشَيءٍ فلا بُدَّ أن تَستفيدَ منه عِلمًا زائدًا، وقَولُه: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ يفيدُ كَونَه جاهِلًا به، فكيف يُعقَلُ أن يكونَ هذا خَبَرًا؟

الجوابُ: قد حصَلَ لنا بهذا الخبَرِ عِلمٌ زائدٌ؛ لأنَّا كُنَّا نظُنُّ أنَّها قارعةٌ كسائرِ القوارِعِ، فبهذا التَّجهيلِ عَلِمْنا أنَّها قارِعةٌ فاقت القوارِعَ في الهَولِ والشِّدَّةِ[٤].

٢- كلُّ موضعٍ في القُرآنِ: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ فقد عُقِّب ببيانِه؛ نحوُ قولِه تعالى:

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) واللَّفظُ له.

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٦).

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ * يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ * نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾، وكلُّ موضع ذُكِر بلَفظِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ لم يُعقَّبْ ببَيانِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾[1] [الشورى: ١٧].

٣- في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ دليلٌ على أنَّ يومَ القيامةِ فيه موازينُ[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾، فيه سؤال: كيف قال فيمَن خفَّتْ موازينُه: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾، أي: فمَسْكنُه النَّارُ، مع أنَّ كثيرًا مِن المؤمنينَ سيِّئاتُهم راجحةٌ على حَسَناتِهم؟

---

(١) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٩٧).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٧١-٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٩).

قال الشنقيطي: (وظاهِرُ القُرآنِ تعَدُّدُ هذه الموازينِ؛ لأنَّه قال في سورةِ «الأنبياءِ»: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ...﴾ [الأنبياء: ٤٧]...، وقال في «القارعة»:... ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ * وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾، وقال في سورة «المؤمنون»: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ * فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ * وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ...﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣]؛ فهذه الآياتُ تعبِّرُ بالجَمعِ في الميزانِ، وظاهِرُها التَّعَدُّدُ. وذهبت جماعةٌ مِن العُلَماءِ إلى أنَّ الميزانَ واحِدٌ). ((العذب النمير)) (٣/ ٧٦).

وقال ابن عثيمين: (اختلَف العُلَماءُ في الميزانِ: هل هو واحِدٌ أو متعَدِّدٌ؛ على قولَين؛ وذلك لأنَّ النُّصوصَ جاءت بالنِّسبةِ للمِيزانِ مَرَّةً بالإفرادِ، ومرَّةً بالجَمعِ... والَّذي يظهَرُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّ الميزانَ واحدٌ، لكِنَّه مُتعَدِّدٌ باعتبارِ المَوزونِ). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٤٣).

وقال ابنُ حجر: (والَّذي يترجَّحُ: أنَّه ميزانٌ واحدٌ، ولا يُشكِلُ بكَثرةِ مَن يُوزَنُ عمَلُه؛ لأنَّ أحوالَ القيامةِ لا تُكَيَّفُ بأحوالِ الدُّنيا). ((فتح الباري)) (١٣/ ٥٣٨).

الجوابُ مِن وجهَين:

الوجهُ الأوَّلُ: قولُه ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ لا يدُلُّ على خُلودِه فيها، فيَسكُنُ المؤمنُ فيها بقدْرِ ما تَقتضيهِ ذُنوبُه، ثمَّ يَخرُجُ منها إلى الجنَّةِ.

الوجهُ الثَّاني: المُرادُ بخِفَّةِ الموازينِ خُلوُّها مِن الحَسَناتِ بالكُلِّيَّةِ، وتلك مَوازينُ الكفَّارِ[1].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾، فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ الهاويةَ وَصْفٌ لا علَمٌ للنَّارِ؛ إذ تَنوينُها يُنافي كونَها اسمًا مِن أسماءِ النَّارِ؛ لأنَّها على تَقديرِ كَونِها مِن أسماءِ النَّارِ يَلزَمُ فيها المَنعُ مِن الصَّرفِ للعَلَميَّةِ والتَّأنيثِ. وقولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾، يدُلُّ على أنَّ الهاويةَ مِن أسماءِ النَّارِ؟

الجوابُ: أنَّ في معنى قولِه تعالى: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ ثلاثةَ أَوْجُهٍ للعُلماءِ، اثنانِ منها لا إشكالَ في الآيةِ عليهما، والثَّالثُ: هو الَّذي فيه الإشكالُ المَذكورُ. أمَّا اللَّذانِ لا إشكالَ في الآيةِ عليهما:

فالأوَّلُ: أنَّ المعنى: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾، أي: أُمُّ رَأسِه هاويةٌ في قَعرِ جهنَّمَ؛ لأنَّه يُطرَحُ فيها مَنكوسًا؛ رأسُه أسفَل ورِجلاهُ أعلى، ورُوِيَ هذا القولُ عن قَتادةَ وأبي صالحٍ وعِكْرِمةَ والكَلْبيِّ وغيرِهم، وعلى هذا القَولِ فالضَّميرُ في قولِه: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾، عائدٌ إلى مَحذوفٍ، دَلَّ عليه المَقامُ، أي: أُمُّ رأسِه هاويةٌ في نارٍ، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾.

الوجهُ الثَّاني: أنَّه مِن قَولِ العَربِ إذا دَعَوْا على الرَّجُلِ بالهَلَكةِ، قالوا: (هَوَتْ أُمُّه)؛ لأنَّه إذا هوَى -أي: سقطَ وهلَكَ- فقد هَوَتْ أُمُّه ثكلًا وحُزنًا، وعلى هذا

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٤).

القَولِ فالضَّميرُ في قولِه: ﴿هِيَهْ﴾، للدَّاهِيةِ الَّتي دَلَّ عليها الكلامُ.

الوجهُ الثَّالِثُ: الَّذي فيه الإشكالُ: أنَّ المعنى: فأُمُّه هاوِيةٌ، أي مَأْواهُ الَّذي يُحيطُ به ويَضُمُّهُ هاوِيةٌ، وهي النَّارُ؛ لأنَّ الأُمَّ تُؤوِي وَلَدَها وتَضُمُّه، والنَّارُ تَضُمُّ هذا العاصِيَ، وتكونُ مَأواهُ. والجوابُ على هذا القَولِ: أنَّه نكَّرَ الهاوِيةَ في مَحلِّ التَّعريفِ مِن أجْلِ الإشعارِ بخُروجِهم عن المَعهودِ للتَّفخيمِ والتَّهويلِ، ثمَّ بعْدَ إبهامِها لهذهِ النُّكتةِ، قَرَّرها بوَصفِها الهائلِ بقَولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾. وهذا الجوابُ الَّذي يَدخُلُ في حَدِّ نَوعٍ مِن أنواعِ البَديعِ المعنويِّ، يُسمِّيهِ عُلماءُ البَلاغةِ: (التَّجريدَ)[1]، فالنَّارُ سُمِّيَت الهاوِيةَ لغايةِ عُمْقِها، وبُعْدِ مَهْواها، وخَصَّها البعضُ بالبابِ الأسفلِ مِن النَّارِ، فانتَزَعَ منها هاوِيةً أُخرى مِثلَها في شِدَّةِ العُمقِ وبُعْدِ المَهوَى مُبالغةً في عُمْقِها، وبُعْدِ مَهْواها[2].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ هاءُ السَّكْتِ إشارةٌ إلى أنَّ ذِكْرَها ممَّا يَكرُبُ القَلبَ حتَّى لا يَقدِرَ على الاسترسالِ في الكلامِ، أو إلى أنَّها مما يَنبغي للسَّامِعِ أن يَقرَعَ بهذا الاستِفهامِ عنها سَمْعَه فيَسكُتَ لسَماعِ الجَوابِ وفَهْمِه غايةَ السُّكوتِ، ويُصغِيَ غايةَ الإصغاءِ[3].

---

(١) التَّجريد: هو اعتقادُ أنَّ في الشَّيءِ مِن نفْسِه معنًى آخَرَ كأنَّه مباينٌ له، فيخرجُ ذلك إلى ألفاظِه بما اعتقَد ذلك؛ كقولِهم: لئن لَقيتَ زَيدًا لَتلقيَنَّ معه الأسدَ؛ فظاهرُ هذا أنَّ فيه مِن نفْسِه أسدًا، وهو عَيْنُه هو الأسدُ، لا أنَّ هناك شيئًا منفصلًا. ويُطلقُ عندَ البعضِ على عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ كأنَّ الخاصَّ جُرِّد مِن العامِّ، وأُفرِد بالذِّكرِ؛ تفضيلًا. وله إطلاقاتٌ أخرى في البديعِ والمعاني. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٦٥، ١٦٦)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص:٢٨٤-٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾

- الافتِتاحُ بلَفظِ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ افتِتاحٌ مُهوِّلٌ، وفيه تَشويقٌ إلى مَعرفةِ ما سيُخبَرُ به[١].

- قولُه: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ مَرفوعٌ إمَّا على الابتداءِ، و﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ خبَرُه، ويكونُ هناك مُنتهى الآيةِ؛ فالمعْنى: القارعةُ شَيءٌ عَظيمٌ هي، وهذا يَجْري على أنَّ الآيةَ الأُولى تَنْتهي بقولِه: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾، وإمَّا أنْ تكونَ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ الأوَّلُ مُستقِلًّا بنفْسِه، وعُدَّ آيةً عندَ أهلِ الكوفةِ، فيُقدَّرَ خبَرٌ عنه مَحذوفٌ، نحْوُ: القارعةُ قريبةٌ، أو يُقدَّرَ فِعلٌ مَحذوفٌ، نحْوُ: أتَتِ القارعةُ، ويكونَ قولُه: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ استئنافًا للتَّهويلِ[٢].

- قولُه: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ (ما) الاستفهاميَّةُ خبَرٌ، و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ مُبتدَأٌ، لا بالعكسِ؛ لأنَّ مَحطَّ الفائدةِ هو الخبَرُ لا المُبتدأُ، ولا رَيبَ في أنَّ مَدارَ إفادةِ الهَولِ والفَخامةِ هاهنا هو كَلمةُ ﴿مَا﴾ لا ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، أيْ: أيُّ شَيءٍ عَجيبٍ هيَ في الفَخامةِ والفَظاعةِ[٣]؟!

- وإعادةُ لَفظِ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ عُدِلَ عن أنْ يُقالَ: القارعةُ ما هِيَهْ؛ لِما في لَفظِ القارعةِ مِن التَّهويلِ والتَّرويعِ[٤].

- وقولُه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ تَأكيدٌ لهَولِها وفَظاعتِها ببَيانِ خُروجِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٠٩، ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٠).

عن دائرةِ عُلومِ الخلْقِ، على معْنى: أنَّ عِظَمَ شَأنِها بحيث لا تَكادُ تَنالُه دِرايةُ أحدٍ حتَّى يُدْرِيَك بها[١].

- وفي قولِه: ﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّكريرِ، والمرادُ به: تَهويلٌ لشَأنِها، وتَفخيمٌ لفَظاعتِها[٢].

٢- قولُه تبارك وتعالَى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ﴾ مَفعولٌ فيه مَنصوبٌ بفِعلٍ مُضمَرٍ دلَّ عليه وَصْفُ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾؛ لأنَّه في تَقديرِ: تَقرَعُ، أو دلَّ عليه الكلامُ كلُّه، فيُقدَّرُ: تكونُ، أو تَحصُلُ يومَ يكونُ النَّاسُ كالفَراشِ، وجُملةُ ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾ مع مُتعلَّقِها المَحذوفِ بَيانٌ للإبهامَينِ اللَّذَينِ في قولِه: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ٢] وقولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ٣]، أو مَنصوبٌ بإضمارِ (اذكُرْ)، كأنَّه قِيل بعْدَ تَفخيمِ أمرِ القارعةِ وتَشويقِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى مَعرفتِها: اذكُرْ يومَ يكونُ النَّاسُ... إلخ؛ فإنَّه يُدْريكَ ما هيَ[٣].

- والمَقصودُ بهذا التَّوقيتِ زيادةُ التَّهويلِ بما أُضيفَ إليه (يومَ) مِن الجُملتينِ المُفيدتَينِ أحوالًا هائلةً، إلَّا أنَّ شَأنَ التَّوقيتِ أنْ يكونَ بزَمانٍ مَعلومٍ، وإذ قدْ كان هذا الحالُ المُوقَّتُ بزَمانِه غيرَ مَعلومٍ مَداهُ، كان التَّوقيتُ له إطماعًا في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١١).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٨٥).

تَعيينِ وَقتِ حُصولِه؛ إذ كانوا يَسأَلون: متَى هذا الوعدُ؟ ثمَّ تَوقيتُه بما هو مَجهولٌ لهم إبهامًا آخَرَ للتَّهويلِ، والتَّحذيرِ مِن مُفاجأتِه، وأُبرِزَ في صُورةِ التَّوقيتِ؛ للتَّشويقِ إلى البَحثِ عن تَقديرِه، فإذا باءَ الباحثُ بالعجْزِ أخَذَ بحِيطةِ الاستعدادِ لحُلولِه بما يُنجيه مِن مَصائبِه الَّتي قُرِعَت به الأسماعُ في آيٍ كَثيرةٍ، فحصَلَ في هذه الآيةِ تَهويلٌ شَديدٌ بثَمانيةِ طُرقٍ؛ وهي: الابتداءُ باسمِ القارعةِ المُؤذِنِ بأمرٍ عَظيمٍ، والاستفهامُ المُستعمَلُ في التَّهويلِ، والإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ أوَّلَ مرَّةٍ، والاستفهامُ عمَّا يُنبِئُ بكُنْهِ القارعةِ، وتَوجيهُ الخِطابِ إلى غيرِ مُعيَّنٍ -وذلك على قولٍ-، والإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ ثانيَ مرَّةٍ، والتَّوقيتُ بزَمانٍ مَجهولٍ حُصولُه، وتَعريفُ ذلك الوقتِ بأحوالٍ مَهولةٍ[(١)].

- وجُملةُ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ وجُملةِ ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [القارعة: ٦] إلخ، وهو إدماجٌ لزِيادةِ التَّهويلِ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ تَشبيهانِ رائعانِ، وهو تَشبيهٌ مُرسَلٌ مُجمَلٌ[(٣)]؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١١، ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥١٢).

وتقدَّم تعريفُ الإدماج (ص: ١٦١).

(٣) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذي وصفٍ في وصْفِه. وقيل: أن تُثبِتَ للمُشَبَّهِ حُكمًا مِن أحكامِ المُشَبَّهِ به. وقد اتَّفَق الأدباءُ على شرَفِه في أنواعِ البلاغةِ، وأنَّه إذا جاء في أعقابِ المعاني أفادها كمالًا، وكساها حلَّةً وجمالًا، وهو جارٍ في كلامِ العربِ، بل هو أكثرُ كلامِهم. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ عدَّةَ تقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّةٍ؛ فمنه: التَّشبيهُ المُفرَدُ. ومنه: التَّشبيهُ المُركَّبُ: وهو الَّذي يكونُ وجْهُ الشَّبَهِ فيه مُنتزَعًا مِن مُتعدِّدٍ، أو مِن أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ =

وَجْهَ الشَّبهِ حُذِفَ، ففي الأوَّلِ وُجوهُ الشَّبَهِ كَثيرةٌ؛ منها:

- الطَّيشُ الَّذي لَحِقَهم.

- وانتشارُهم في الأرضِ.

- ورُكوبُ بَعضِهم بَعضًا.

- والكثرةُ الَّتي لا غَناءَ فيها.

- والضَّعفُ والتَّذلُّلُ وإجابةُ الدَّاعي مِن كلِّ جِهةٍ.

- والتَّطايُرُ إلى النَّارِ للاحتراقِ مِن حيث لا تُريدُ الاحتراقَ، وفي أمثالِهم: أضعَفُ مِن فَراشةٍ وأذلُّ وأجهَلُ.

وأوجُهُ الشَّبَهِ في تَشبيهِ الجِبالِ بالعِهنِ المَنفوشِ كَثيرةٌ أيضًا؛ منها:

- تَفتُّتُها وانهيارُها.

- وصَيْرُورتُها كالعِهنِ لتَفرُّقِ أجزائِها.

- ثمَّ صَيرورتُها كالهَباءِ.

- وكثرةُ الألوانِ؛ لأنَّ الجِبالَ مُختلِفةُ الألوانِ بحِجارتِها ونَبْتِها[1].

= ﴿ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتَّشبيهُ مُركَّبٌ مِن أحوالِ الحِمارِ. وخصَّ البَيانيُّون لفظَ «التَّمثيلِ» بالتَّشبيهِ المُركَّبِ. ويَنقسِمُ باعتبارٍ آخَرَ إلى: مؤكَّدٍ: وهو الَّذي حُذِفت فيه أداةُ التَّشبيهِ، نحو: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مِثلَ مَرِّ السَّحابِ. ومُرْسَلٍ: وهو الَّذي لم تُحذَفْ فيه الأداةُ. ومُفَصَّلٍ: وهو الَّذي ذُكِرَ فيه وجْهُ الشَّبَهِ. ومُجمَلٍ: وهو الَّذي لم يُذْكَرْ فيه وَجْهُ الشَّبَهِ. وبَليغٍ: وهو الَّذي لم تُذْكَرْ فيه أداةُ التَّشبيهِ ولا وَجْهُ الشَّبَهِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٩، ٧٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير =

- وإعادةُ كَلمةِ ﴿وَتَكُونُ﴾ مع حرْفِ العطْفِ في قولِه: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾؛ للإشارةِ إلى اختِلافِ الكَونَين؛ فإنَّ أوَّلَهما كَونُ إيجادٍ، والثَّانيَ كَونُ اضمحلالٍ، وكِلاهما عَلامةٌ على زَوالِ عالَمٍ وظُهورِ عالَمٍ آخَرَ[١]، ولأنَّ التَّكريرَ في مِثلِ هذا المقامِ أبلَغُ في التَّحذيرِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ تَفصيلٌ لِما في قولِه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] مِن إجمالِ حالِ النَّاسِ حِينَئذٍ، فذلك هو المَقصودُ بذِكرِ اسمِ النَّاسِ الشَّاملِ لأهلِ السَّعادةِ وأهلِ الشَّقاءِ؛ فلذلك كان تفَصيلُه بحالَين: حالٍ حسَنٍ، وحالٍ فَظيعٍ؛ فهو بَيانٌ إجماليٌّ لتَحزُّبِ النَّاسِ إلى حِزبينِ، وتَنبيهٌ على كَيفيَّةِ الأحوالِ الخاصَّةِ بكلٍّ منهما إثْرَ بَيانِ الأحوالِ الشَّاملةِ للكُلِّ[٣].

- قولُه: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمَع فيهما المِيزانَ مع أنَّه واحدٌ -على أحدِ القولَين-، باعتِبارِ تَعدُّدِ المَوزوناتِ والمَوزونِ لهم. وقيل: هي جمْعُ مَوزونٍ[٤]. وقيل: إنَّ العَربَ قد تُوقِعُ لفظَ الجَمعِ على الواحِدِ تفخيمًا له. وقيل: إنَّه يُنصَبُ لكُلِّ عبدٍ مِيزانٌ[٥].

= أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٢، ٥١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٣).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧٦)، ((مجموع =

- قولُه: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ قيل: أي: مَرْضِيَّةٍ لا مكروهةٍ، فهي ممَّا جاء فيه فاعِلٌ بمعنَى مَفْعولٍ؛ لأنَّ ذلك مَدْحٌ للعِيشةِ، والعَرَبُ تَفعَلُ ذلك في المدْحِ والذَّمِّ، فتقولُ: هذا لَيلٌ نائِمٌ، وسِرٌّ كاتِمٌ، وماءٌ دافِقٌ، فيُوَجِّهون الفِعلَ إليه، وهو في الأصلِ مَفعولٌ لِما يُرادُ مِنَ المدْحِ أو الذَّمِّ. وقيل: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ أي: ذاتِ رِضًا، على النِّسبةِ بالصِّيغةِ[1]. وقيل: وُصِفَت العِيشةُ بـ﴿رَّاضِيَةٍ﴾؛ لأنَّها سَبَبُ الرِّضا، أو زَمانُ الرِّضا[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾

- جُملةُ ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ إخبارٌ عنه بالشَّقاءِ وسُوءِ الحالِ، والكلامُ قيل: إنَّه تَمثيلٌ لحالِ مَن خفَّت مَوازينُه يَومَئذٍ بحالِ الهالكِ في الدُّنيا؛ لأنَّ العرَبَ يُكَنُّون عن حالِ المَرْءِ بحالِ أُمِّه في الخَيرِ والشَّرِّ؛ لشِدَّةِ مَحبَّتِها ابْنَها، فهي أشدُّ سُرورًا بسُرورِه، وأشدُّ حُزنًا بما يَحزُنُه، فكأنَّه قيل: وأمَّا مَن خفَّت مَوازينُه فقدْ هَلَكَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ (أُمُّه) مُعبَّرًا به عن مَقرِّه ومآلِه؛ لأنَّه يَأوي إليه كما يَأْوي الطِّفلُ إلى أُمِّه، فقدْ قِيل للمَأوى: أُمٌّ، على التَّشبيهِ؛ لأنَّ الأُمَّ مَأوى الولَدِ ومَفزَعُه. ويَجوزُ أنْ يكونَ (أُمُّه) على حذْفِ مُضافٍ، أي: أمُّ رَأسِه، وهي أعْلى الدِّماغِ، وهاويةٌ: ساقطةٌ، مِن قَولِهم: سَقَطَ على أمِّ رَأسِه، أي: هَلَكَ[3].

= فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٤٩٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٤، ٥١٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٦٤).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ * نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ تَقريرٌ للهاويةِ بعْدَ إبْهامِها، وإشعارٌ بخُروجِها عنِ الحُدودِ المَعهودةِ؛ للتَّفخيمِ والتَّهويلِ[١].

- وجُملةُ ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾، والمعنى: هي نارٌ حاميةٌ، وهذا مِن حذْفِ المُسنَدِ إليه[٢] الَّذي اتُّبِعَ في حذْفِه استِعمالُ أهلِ اللُّغةِ[٣].

- ووَصْفُ ﴿نَارٌ﴾ بـ ﴿حَامِيَةُۢ﴾ مِن قَبيلِ التَّوكيدِ اللَّفظيِّ؛ لأنَّ النَّارَ لا تَخْلو عن الحَمْيِ، فوَصْفُها به وَصْفٌ بما هو مِن معْنى لَفظِ ﴿نَارٌ﴾، فكان كذِكرِ المُرادِفِ، كقولِه تعالَى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾[٤] [الهمزة: ٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٤).

(٢) وهو ما يُسمَّى بمُتابَعةِ الاستعمالِ؛ وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ
سُورَةِ التَّكاثُرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ التَّكاثُرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ التَّكاثُر[١].

وسُمِّيت أيضًا بسُورةِ ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٢]، فعن عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أَتَيْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يَقرأُ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ...))[٣].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ التَّكاثُرِ مكِّيَّةٌ، نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ[٤].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

النَّهيُ عمَّا يَجُرُّ إلى العذابِ، والتَّذكيرُ بالسُّؤالِ يومَ القِيامةِ[٥].

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لذِكْرِ لَفْظِ التَّكاثُرِ فيها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٠).
قال ابنُ عاشورٍ: (سُمِّيَت في مُعْظَمِ المصاحِفِ ومُعْظمِ التَّفاسيرِ «سُورةَ التَّكاثُرِ»، وكذلك عَنْوَنَها التِّرْمذيُّ في «جامِعِه»... وسُمِّيَت في بَعضِ المصاحِفِ «سُورةَ أَلْهاكم»، وكذلك تَرْجَمَها البُخاريُّ في كتابِ التَّفْسيرِ من «صَحيحِه»). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٧).
وسُمِّيَت أيضًا بسُورةِ المَقْبَرةِ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ٤٥٦)، ((سنن الترمذي)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٣٤٣).

(٣) رواه مسلمٌ (٢٩٥٨).

(٤) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرْطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٤١).
ونسَبَ ابنُ عاشورٍ القولَ بأنَّها مكِّيَّةٌ للجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٧). ويُنظر أيضًا: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٥٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٢، ٢٣٣).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- النَّهيُّ عن التَّفاخُرِ والتَّكاثُرِ.

٢- الحَضُّ على التَّزَوُّدِ مِن العمَلِ الصَّالحِ، وعلى ما يُنجِّي مِن العَذابِ.

٣- التَّأكيدُ على أنَّ يومَ القِيامةِ حَقٌّ، وعلى أنَّ الحِسابَ حَقٌّ، وعلى أنَّ الجَزاءَ حَقٌّ.

الآيات (١-٨)

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾: أي: شَغَلكم، وأصلُ (لهو) هنا: يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بشَيءٍ[١].

﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾: أي: التَّباهي والتَّفاخرُ بكَثرةِ المالِ والعَدَدِ وغيرِ ذلك، والتَّكاثرُ أن يَطلُبَ الرَّجُلُ أن يكونَ أكثَرَ مِن غيرِه، وأصلُ (كثر): يدُلُّ على خِلافِ القِلَّةِ[٢].

﴿ٱلْجَحِيمَ﴾: أي: النَّارَ، والجُحْمَةُ: شدَّةُ تأجُّجِ النَّارِ، ومنه: الجحيمُ، وأصْلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾

قَولُه تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ العِلمُ هنا بمعنى المعرفةِ المتعدِّيةِ لمفعولٍ واحدٍ، وهو محذوفٌ، تقديرُه: تعلمونَ سوءَ عاقِبةِ التَّفاخُرِ. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٦)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣٠، ٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

توكيدٌ لَفظيٌّ للجُملةِ الأُولى والعَطفُ هنا بـ «ثُمَّ» صُوريٌّ؛ لأنَّ بيْن الجملتَينِ تمامَ الاتِّصالِ، فلا تُعطَفُ الثَّانيةُ على الأُولى عَطفًا حقيقيًّا، فالتَّكريرُ للتَّأكيدِ، و«ثُمَّ» للدَّلالةِ على الأبلَغيَّةِ؛ أنَّ الثَّانيَ أبلَغُ مِن الأوَّلِ. والمؤكَّدُ والمؤكِّدُ إنْ كانا جملتَينِ وأُمِنَ توهُّمُ كَونِ الثَّانيةِ غيرَ مُؤَكِّدةٍ، فالأجودُ الفَصلُ بيْنَهما بعاطِفٍ كما هنا.

وقَولُه تعالى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ جوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَه عليه، وهو ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾، أي: لو تَعلَمونَ عِلمَ اليقينِ لَشغَلَكم ما تَعلَمونَ عن التَّكاثُرِ وغَيرِه، أو نحوُ ذلك. ﴿عِلْمَ﴾: مَفعولٌ مُطلَقٌ، وإضافتُه لليقينِ مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفتِه، أي: العِلمَ اليَقينَ.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ ﴿لَتَرَوُنَّ﴾: اللَّامُ واقِعةٌ في جوابِ قَسَمٍ محذوفٍ، أي: واللهِ لَتَرَوُنَّ. تَرَوُنَّ: فِعلٌ مُضارِعٌ مرفوعٌ، وعلامةُ رَفعِه النُّونُ المحذوفةُ لتوالي الأمثالِ، والواوُ: في محلِّ رَفعٍ فاعِلٌ. والنُّونُ للتَّوكيدِ حَرفٌ لا محَلَّ له مِنَ الإعرابِ، والجُملةُ لا محَلَّ لها مِن الإعرابِ جَوابُ القَسَمِ المقدَّرِ، وجُملةُ القَسَمِ المقَدَّرِ وجَوابِه استئنافيَّةٌ لا محَلَّ لها مِن الإعرابِ؛ فالوَقفُ على ﴿الْيَقِينِ﴾ واجِبٌ.

وقَولُه تعالى: ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾: مَفعولٌ مُطلَقٌ نائِبٌ عن المصدَرِ؛ لأنَّه صِفةُ مَصدَرٍ مُقدَّرٍ، أي: لَتَرَوُنَّها الرُّؤيةَ الَّتي هي نفْسُ اليقينِ وخالِصَتُه، أو لأنَّه مُلاقيه في المعنى؛ فالرُّؤيةُ والمُعايَنةُ شَيءٌ واحِدٌ، كأنَّه قيل: لَتُعايِنُنَّها عِيانًا[1].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٧٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٣٠٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٩٨، ٩٩)، ((تمهيد القواعد)) لناظر الجيش (٧/ ٣٣٠٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٥٣)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٩٨).

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ موبِّخًا مَن انشَغل عن طاعتِه قائلًا: شَغَلكم عن طاعةِ اللهِ -أيُّها النَّاسُ- التَّكاثُرُ بالأموالِ والأولادِ حتَّى مُتُّمْ ودُفِنتُم في المقابِرِ.

ثمَّ قال الله تعالى متوَعِّدًا مَن يفعلُ ذلك: فانزَجِروا عن الالتِهاءِ بالتَّكاثُرِ، فسوف تَعلَمونَ بعْدَ مَوتِكم خطأَ ذلك وسُوءَ عاقبتِه.

ثمَّ قال سُبحانَه مؤكِّدًا: ثُمَّ سوف تَعلَمونَ بعْدَ مَوتِكم خطأَ ذلك وسُوءَ عاقبتِه، كلَّا لو تَعلَمونَ عِلمًا يقينيًّا أنَّ اللهَ سيَبعَثُكم يومَ القيامةِ، ويُحاسِبُكم على أعمالِكم، لَمَا ألهاكم التَّكاثُرُ عن طاعةِ اللهِ.

ثمَّ قال تعالى: أُقسِمُ إنَّكم سترَونَ الجَحيمَ في الآخِرةِ، ثُمَّ أُقسِمُ إنَّكم سترَونَ الجحيمَ في الآخِرةِ رُؤيةً حقيقيَّةً مُؤكَّدةً، ثُمَّ أُقسِمُ إنَّكم ستُسأَلونَ يومَ القيامةِ عمَّا تنعَّمتُم به في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١﴾.

أي: شَغَلكم عن طاعةِ اللهِ -أيُّها النَّاسُ- التَّكاثُرُ بالأموالِ والأولادِ، وغيرِ ذلك مِن مَتاعِ الدُّنيا[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٢).

قال ابنُ القيِّم: (كُلُّ ما يُكاثِرُ به العَبدُ غَيْرَه سوى طاعةِ اللهِ ورَسولِه، وما يَعودُ عليه بنَفعِ مَعادِه؛ فهو داخِلٌ في هذا التَّكاثُرِ، فالتَّكاثُرُ في كُلِّ شَيءٍ؛ مِن مالٍ، أو جاهٍ، أو رياسةٍ، أو نِسوةٍ، أو حديثٍ، أو عِلمٍ، ولا سِيَّما إذا لم يحتَجْ إليه، والتَّكاثُرُ في الكُتُبِ والتَّصانيفِ، وكثرةِ المسائلِ وتفريعِها وتوليدِها، والتَّكاثُرُ أن يَطلُبَ الرَّجُلُ أن يكونَ أكثَرَ مِن غيرِه، وهذا مذمومٌ إلَّا فيما يقرِّبُ إلى اللهِ؛ فالتَّكاثُرُ فيه مُنافَسةٌ في الخَيراتِ، ومُسابَقةٌ إليها). ((الفوائد)) (ص: ٣٠، ٣١).=

كما قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢﴾.

أي: دُمتُم على تلك الحالِ إلى أن مُتُّمْ ودُفِنتُم في المقابِرِ[(١)]!

عن عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أَتَيْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يَقرأُ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: يقولُ ابنُ آدَمَ: مالي، مالي، وهل لك -يا ابنَ آدَمَ- مِن مالِك إلَّا ما أكَلْتَ فأفنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فأبلَيتَ، أو تصدَّقْتَ فأمضَيتَ؟!))[(٢)].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يقولُ العَبدُ: مالي، مالي، إنَّما له مِن مالِه ثلاثٌ: ما أكَلَ فأفْنَى، أو لَبِسَ فأبْلَى، أو أعطَى فاقتَنى[(٣)]، .....

= ويُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

وقال ابن القيِّم أيضًا: (ليس في اللَّفظِ ولا في السُّنَّةِ الصَّحيحةِ ولا في أدِلَّةِ العَقلِ ما يَقتضي اختِصاصَ الخِطابِ بالكُفَّارِ، بل ظاهِرُ اللَّفظِ وصَريحُ السُّنَّةِ والاعتبارُ يدُلُّ على عُمومِ الخِطابِ لكُلِّ مَن اتَّصَف بإلْهاءِ التَّكاثُرِ له؛ فلا وَجْهَ لتَخصيصِ الخِطابِ ببَعضِ المتَّصِفينَ بذلك). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٩٠، ١٩١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠١).

واستظَهر ابنُ عاشورٍ أنَّ المُخاطَبَ بها فريقٌ مِن المُشركينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٨)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٣).

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٨).

(٣) اقتنى: أي: ادَّخَره لنَفْسِه في الآخرةِ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٥٨٥).

وما سِوى ذلك فهو ذاهِبٌ وتارِكُه للنَّاسِ))[١].

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾.

أي: ما هكذا ينبغي أن تفعَلوا؛ فانزَجِروا عن الالتِهاءِ بالتَّكاثُرِ، فسوف تَعلَمونَ بعْدَ مَوتِكم خطأَ ذلك، وسُوءَ عاقِبَتِه[٢].

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى مؤكِّدًا هذا التَّهديدَ والوَعيدَ: ثمَّ انزَجِروا عن الانشِغالِ بالتَّكاثُرِ عن طاعةِ اللهِ؛ فسوف تَعلَمونَ إذا نزَل بكم الموتُ خطَأَ ذلك، وسُوءَ عاقبتِه[٣].

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أُعيدَ الزَّجرُ ثالِثَ مرَّةٍ؛ زيادةً في إبطالِ ما هم عليه مِن اللَّهوِ عن التَّدَبُّرِ في أقوالِ القُرآنِ، لعَلَّهم يُقلِعونَ عن انكبابِهم على التَّكاثُرِ ممَّا هم يَتكاثَرونَ فيه[٤].

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ ﴾.

أي: انزَجِروا عن الانشِغالِ بالتَّكاثُرِ؛ فلو تَعلَمونَ الآنَ قبْلَ مَوتِكم عِلمًا يقينيًّا

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١).

أنَّ اللهَ سيَبعَثُكم يومَ القيامةِ ويُحاسِبُكم ويُجازيكم على أعمالِكم، لَمَا ألْهاكم التَّكاثُرُ عن طاعةِ اللهِ، ولحَرَصتُم عليها(١).

عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خَطَب رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خُطبةً ما سَمِعتُ مِثْلَها قَطُّ، قال: لو تَعلَمونَ ما أعلَمُ لَضَحِكتُم قليلًا، ولَبَكَيتُم كثيرًا!))(٢).

﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ﴾.

أي: أُقسِمُ إنَّكم ستَرَونَ الجَحيمَ في الآخِرةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠١)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٧٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥١٧)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١، ٥٢٢).

قال الشوكاني: (وجَوابُ «لو» محذوفٌ، أيْ: لَشغَلَكم ذلك عن التَّكاثُرِ والتَّفاخُرِ، أوْ لَفعَلْتُم ما يَنفعُكم مِن الخَيرِ، وترَكْتُم ما لا يَنفَعُكم مِمَّا أنتم فيه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩٧).

(٢) رواه البخاري (٤٦٢١) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٥).

قال القُرطبي: (الخِطابُ للكُفَّارِ الَّذين وجَبَت لهم النَّارُ. وقيل: هو عامٌّ كما قال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١]، فهي للكُفَّارِ دارٌ، وللمُؤمِنينَ ممَرٌّ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٧٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الخِطابَ للمُشرِكينَ: ابنُ جرير، وابنُ عادل. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٤٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٢).

وممَّن قال بأنَّ الخِطابَ عامٌّ لجَميعِ النَّاسِ: ابنُ جُزَي، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٧).

قال ابنُ كثير: (هذا تفسيرُ الوعيدِ المتقَدِّمِ، وهو قَولُه: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، توعَّدَهم بهذا الحالِ، وهي رؤيةُ النَّارِ الَّتي إذا زفَرَت زَفرةً خَرَّ كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ونبيٍّ مُرسَلٍ على =

كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦].

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾.

أي: ثُمَّ أُقسِمُ إنَّكم ستَرَونَ الجحيمَ في الآخِرةِ رُؤيةً حقيقيَّةً مُؤكَّدةً بأبصارِكم، لا تَشُكُّونَ في مُشاهَدتِها[1].

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

أي: ثُمَّ أُقسِمُ إنَّكم ستُسأَلونَ يومَ القيامةِ عن جميعِ ما تنعَّمتُم به في الدُّنيا[2].

= رُكبتَيه؛ مِن المَهابةِ والعَظَمةِ ومُعايَنةِ الأهوالِ، على ما جاء به الأثَرُ المرويُّ في ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥١٨، ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

قال ابن عثيمين: (﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ تَأكيدٌ لرُؤْيَتِها، فهي تُرَى يومَ القِيامةِ، يُؤتَى بها تُجَرُّ بسَبعينَ ألْفَ زِمامٍ، كلُّ زِمامٍ يَجُرُّه سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ، والملائكةُ عِظامٌ شِدادٌ، فما ظَنُّكَ بهذه النَّارِ -والعِياذُ باللهِ- إنَّها نارٌ كبيرةٌ عَظيمةٌ، أعاذَنا الله منها). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٥) بتصرفٍ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠٢، ٦١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٤) و (١٧/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

قال ابنُ الجوزيِّ: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ اختَلَفوا: هل هذا السُّؤالُ عامٌّ أم لا؟ على قَولَينِ؛ أحَدُهما: أنَّه خاصٌّ للكُفَّارِ، قاله الحَسَنُ. والثَّاني: عامٌّ، قاله قَتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٦).

ممَّن اختار أنَّه عامٌّ: ابنُ عَطيَّةَ، والرَّسْعَنيُّ، والخازِنُ، وأبو حيَّانَ، وابنُ القَيِّمِ، والعُلَيميُّ، والشَّوكانيُّ، وابنُ عُثَيمينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٢١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٧)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ أوَّلَ ما يُسأَلُ عنه يومَ القيامةِ -يعني: العَبدَ مِن النَّعيمِ- أن يُقالَ له: أَلَمْ نُصِحَّ لك جِسْمَك، ونُرْوِيَك[1] مِن الماءِ البارِدِ؟))[2].

وعن أبي هُرَيرةَ رضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حديثِ الرُّؤيةِ

= عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به الكُفَّارُ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧٤).

وقال ابنُ عثيمين: (الصَّوابُ: أنَّ المرادَ المؤمِنُ والكافِرُ، كُلٌّ يُسأَلُ عن النَّعيم، لكِنَّ الكافِرَ يُسأَلُ سُؤالَ توبيخٍ وتقريعٍ، والمؤمِنَ يُسأَلُ سُؤالَ تذكيرٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٥).

وقال النَّحَّاس: (ظاهِرُ الكلامِ يدُلُّ على أنَّه عامٌّ، وأنَّ الإنسانَ مَسؤولٌ عن كلِّ نعيمٍ تنعَّمَ به في الدُّنيا، مِن أين اكتَسَبه؟ وما قَصَد به؟ وهل فَعَل ما غَيرُه أَولى منه؟). ((إعراب القرآن)) (٥/ ١٧٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: عن شُكرِه؛ فإنَّه لا يُبيحُ شَيئًا ويُعاقِبُ مَن فَعَله، ولكِنْ يَسألُه عن الواجِبِ الَّذي أوجبه معه، وعمَّا حَرَّمه عليه: هل فرَّط بتركِ مأمورٍ، أو فِعلِ محظورٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ١٨٠).

وقال السعدي: (﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الَّذي تنعَّمتُم به في دارِ الدُّنيا: هل قُمتُم بشُكرِه، وأدَّيتُم حَقَّ اللهِ فيه، ولم تَستعينوا به على معاصيه، فيُنعِّمَكم نعيمًا أعلى منه وأفضلَ، أم اغترَرْتُم به ولم تَقوموا بشُكْرِه، بل رُبَّما استعنْتُم به على معاصي اللهِ، فيُعاقِبَكم على ذلك؟). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

(١) هو بإثباتِ الياءِ، فيحتمِلُ أنَّه معطوفٌ على المجزوم، وفيه إثباتُ حرفِ العلَّةِ معَ الجازم، وهو لغةٌ، ويحتمِلُ أنَّه منصوبٌ بعدَ واوِ المعيةِ. يُنظر: ((السراج المنير شرح الجامع الصغير)) للعزيزي (٢/ ٨٩).

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٥٨) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٧٣٦٤)، والحاكمُ (٧٢٠٣).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وكذا ابنُ العرَبيِّ في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٤٠٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٥٨)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٧٣٦٤)، وصَحَّح إسنادَه الحاكِمُ.

الطَّويلِ، وفيه قال: ((... فيَلْقى العَبدَ فيَقولُ: أيْ فُلُ[١]، أَلَمْ أُكرِمْكَ، وأُسَوِّدْكَ[٢]، وأُزَوِّجْكَ، وأُسَخِّرْ لك الخَيْلَ والإبِلَ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ[٣]؟))[٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خرَج رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذاتَ يَومٍ -أو لَيلةٍ- فإذا هو بأبي بَكرٍ وعُمَرَ، فقال: ما أخرَجَكما مِن بُيوتِكما هذه السَّاعةَ؟ قالا: الجُوعُ، يا رَسولَ اللهِ... فلمَّا أنْ شَبِعوا ورَوُوا قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي بكرٍ وعُمَرَ: والَّذي نَفْسي بيَدِه، لَتُسأَلُنَّ عن هذا النَّعيمِ يومَ القيامةِ؛ أخرَجَكم مِن بُيوتِكم الجُوعُ، ثمَّ لم تَرجِعوا حتَّى أصابكم هذا النَّعيمُ!))[٥].

وعن الزُّبَيرِ بنِ العَوَّامِ رَضِيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا نزَلَت: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال الزُّبَيرُ: يا رَسولَ اللهِ، فأيُّ النَّعيمِ نُسأَلُ عنه، وإنَّما هما الأسْوَدانِ: التَّمرُ والماءُ؟! قال: أمَا إنَّه سيَكونُ!))[٦].

---

(١) أيْ فُلُ: معناه: يا فُلانُ. وقيل: إنَّها ترخيمُها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٩٢٣)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٣).

(٢) أُسَوِّدْك: أي: أجعَلْك سَيِّدًا. والسَّيِّدُ: الَّذي يَفوقُ قومَه فيَنقادونَ له. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٣/ ٥٦٢).

(٣) ترأَسُ: أي: تكونُ رئيسًا على قَومِك. وتَربَعُ أي: تأخُذُ المِرباعَ، وهو رُبُعُ الغَنيمةِ، وقيل: معناه ترَكْتُك مُستريحًا، لا تحتاجُ إلى مَشقَّةٍ وتَعَبٍ؛ من قَولِهم: ارْبَعْ على نَفْسِك؛ أي: ارْفُقْ بها. والمعنى: أَلَمْ أجعَلْك رئيسًا مُطاعًا؛ لأنَّ المَلِكَ كان يأخُذُ الرُّبُعَ مِنَ الغَنيمةِ في الجاهِليَّةِ دونَ أصحابِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٨٦)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٤).

(٤) رواه مسلم (٢٩٦٨).

(٥) رواه مسلم (٢٠٣٨).

(٦) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٥٦) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (٤١٥٨)، وأحمدُ (١٤٠٥).
حسَّنه الترمذيُّ، وكذا الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤١٥٨)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٣/ ٣)، وحَسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣/ ٢٥).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قَولُه تعالى: ﴿كَلَّا﴾ رَدعٌ وتنبيهٌ على أنَّه لا يَنبغي للنَّاظِرِ لنَفْسِه أن تكونَ الدُّنيا جميعَ هَمِّه، ولا يَهتَمَّ بدِينِه، وقَولُه تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إنذارٌ لِيَخافوا فيَنتَبِهوا عن غَفلتِهم، وقَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ، و﴿ثُمَّ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ الثَّانيَ أبلَغُ مِن الأوَّلِ وأشدُّ، كما يُقالُ للمَنصوحِ: أقولُ لك، ثمَّ أقولُ لك: لا تفعَلْ، والمعنى: سوف تَعلَمونَ الخطَأَ فيما أنتم عليه إذا عايَنْتُم ما قُدَّامَكم مِن هَولِ لقاءِ اللهِ تعالى، وأنَّ هذا التَّنبيهَ نصيحةٌ لكم، ورحمةٌ عليكم[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في الآيةِ تهديدٌ عظيمٌ للعُلَماءِ؛ فإنَّها دَلَّت على أنَّه لو حصل اليقينُ بما في التكاثُرِ والتفاخُرِ مِنَ الآفةِ، لتركوا التكاثُرَ والتفاخُرَ، وهذا يقتضي أنَّ من لم يترُكِ التكاثُرَ والتفاخُرَ لا يكونُ اليقينُ حاصِلًا له، فالوَيلُ للعالِمِ الذي لا يكونُ عامِلًا، ثمَّ الويلُ له[٢]!

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ لم يأتِ في التَّنزيلِ ذِكرُ المقابِرِ إلَّا في هذه السُّورةِ، والدخولُ إليها ومشاهدتُها مِن أعظَمِ الدَّواءِ للقَلْبِ القاسي؛ لأنَّها تُذكِّرُ الموتَ والآخِرةَ، وذلك يحمِلُ على قِصَرِ الأمَلِ، والزُّهدِ في الدُّنيا، وتَركِ الرَّغبةِ فيها[٣]. قال العُلَماءُ: ينبغي لمن أراد عِلاجَ قَلْبِه، وانقِيادَه بسلاسِلِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٧٠).

القَهْرِ إلى طاعةِ رَبِّه أن يُكثِرَ مِن ذِكرِ هاذِمِ[١] اللَّذَّاتِ، ومُفَرِّقِ الجماعاتِ، ومُوتِمِ البَنينَ والبناتِ، ويواظِبَ على مُشاهَدةِ المحتَضَرينَ، وزيارةِ قُبورِ أمواتِ المُسلِمينَ؛ فهذه ثلاثةُ أمورٍ يَنبغي لِمَن قسا قلبُه ولَزِمَه ذَنْبُه أن يستعينَ بها على دواءِ دائِه، ويَستصرِخَ بها على فِتَنِ الشَّيطانِ وأعوانِه، فإنِ انتفَعَ بالإكثارِ مِن ذِكرِ الموتِ، وانجَلَت به قساوةُ قَلْبِه، فذاك، وإنْ عَظُمَ عليه رانُ قَلْبِه، واستحكَمَت فيه دواعي الذَّنبِ، فإنَّ مُشاهَدةَ المحتَضَرينَ وزيارةَ قُبورِ أمواتِ المُسلِمينَ تَبلُغُ في دَفعِ ذلك ما لا يَبلُغُه الأوَّلُ؛ لأنَّ ذِكرَ الموتِ إخبارٌ للقَلبِ بما إليه المصيرُ، وقائِمٌ له مقامَ التَّخويفِ والتَّحذيرِ[٢].

٤- مَن أكلَ مِن الطَّيِّباتِ ولم يَشْكُرْ فهو مذمومٌ؛ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾، أي: عن الشُّكرِ عليه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ التَّكاثُرُ مُطلقًا ليس بمذموم؛ لأنَّ التَّكاثُرَ في العِلمِ والطَّاعةِ والأخلاقِ الحميدةِ ليس بمذموم إذا كان المرادُ أن يَقتديَ به غيرُه. وإنَّما المذمومُ ما يكونُ الباعِثُ عليه الاستكبارَ وحُبَّ الجاهِ والغَلَبةِ، والفَخرَ بما لا سعادةَ حقيقيَّةً فيه، وليست السعادةُ الحقيقيَّةُ إلَّا فيما يرجِعُ إلى العِلمِ والعَمَلِ، أو إلى ما يُعِينُ عليهما مِن الأمورِ الخارجيَّةِ[٤]. فالألِفُ واللَّامُ في ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ليسا للاستغراقِ، بل للمَعهودِ السَّابِقِ، وهو التَّكاثُرُ في الدُّنيا ولَذَّاتها

(١) هاذِم: بذالٍ مُعجَمةٍ، أي: قاطِع، أمَّا بمُهمَلةٍ فمعناه: مُزيلُ الشَّيءِ مِن أصلِه. يُنظر: ((فيض القدير)) للمُناوي (٢/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٥٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥٥٥).

وعلائِقِها؛ فإنَّه هو الَّذي يمنَعُ عن طاعةِ اللهِ تعالى وعُبوديَّتِه[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أبلَغُ في الذَّمِّ مِن «شَغَلَكم»؛ فإنَّ العامِلَ قد يَستعمِلُ جوارحَه بما يَعمَلُ وقلْبُه غيرُ لاهٍ به؛ فاللَّهوُ هو ذُهولٌ وإعراضٌ[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في هذا دَليلٌ على صِحَّةِ القَولِ بعذابِ القَبرِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أخبَرَ عن هؤلاء القَومِ الَّذين ألْهاهم التَّكاثُرُ أنَّهم سيَعلَمونَ ما يَلقَونَ إذا هم زاروا القُبورَ؛ وَعيدًا منه لهم وتهَدُّدًا[٣].

٤- قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فجعَلَ الغايةَ زيارةَ المقابِرِ دونَ الموتِ؛ إيذانًا بأنَّهم غيرُ مُستَوطِنينَ ولا مُستقِرِّينَ في القُبورِ، وأنَّهم فيها بمنزلةِ الزَّائرينَ يَحضُرونَها مدَّةً ثمَّ يَظْعَنونُ عنها، كما كانوا في الدُّنيا زائرينَ لها، غيرَ مُستقِرِّينَ فيها، ودارُ القَرارِ هي الجنَّةُ أو النَّارُ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ تنبيهٌ على أنَّ الزائرَ لا بُدَّ أنْ يَنتَقِلَ عن مَزارِه؛ فهو تنبيهٌ على البَعثِ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ استدَلَّ به عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠٠).

وذكَر ابنُ القيِّمِ أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضِي الله عنه وغيرَه مِن السَّلفِ فهِموا مِن الآيةِ عذابَ القبرِ. يُنظر: ((عدة الصابرين)) (ص: ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥١٧).

-رحمه اللهُ- على أنَّ الزَّائِرَ لا بُدَّ أن يرجِعَ إلى وطَنِه، وأنَّ القُبورَ ليست بدارِ إقامةٍ، وكذلك يُذكَرُ عن بعضِ الأعرابِ أنَّه سَمِعَ قارئًا يقرأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، فقال: (واللهِ ما الزَّائِرُ بمقيمٍ، واللهِ لَنُبعَثَنَّ)؛ لأنَّ الزَّائِرَ -كما هو معروفٌ- يَزورُ ويَرجِعُ، فقال: (واللهِ لَنُبعَثَنَّ)، وهذا هو الحَقُّ، وبهذا نَعرِفُ أنَّ ما يَذْكُرُه بعضُ النَّاسِ الآنَ في الجرائدِ وغيرِها؛ يقولُ عن الرَّجُلِ إذا مات: إنَّه انتقلَ إلى مَثْواه الأخيرِ؛ أنَّ هذا كلامٌ باطلٌ وكَذِبٌ؛ لأنَّ القُبورَ ليست هي المثوى الأخيرَ، بل لو أنَّ الإنسانَ اعتقدَ مدلولَ هذا اللَّفظِ لَصار كافرًا بالبَعثِ، والكفرُ بالبعثِ رِدَّةٌ عن الإسلامِ، لكنَّ كثيرًا مِن النَّاسِ يَأخُذونَ الكَلِماتِ ولا يَدرُونَ ما معناها، ولعَلَّ هذه موروثةٌ عن المُلْحِدين الَّذين لا يُقِرُّون بالبَعثِ بعدَ الموتِ؛ لهذا يجِبُ تجنُّبُ هذه العبارةِ، فلا يُقالُ عن القَبرِ: إنَّه المثوى الأخيرُ؛ لأنَّ المثوى الأخيرَ إمَّا الجنَّةُ وإمَّا النَّارُ في يومِ القيامةِ[(١)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فيه سُؤالٌ: شأنُ الزَّائِرِ أن ينصَرِفَ قريبًا، والأمواتُ مُلازِمونَ القُبورَ، فكيف يُقالُ: إنَّه زار القَبرَ؟

الجوابُ: أنَّ سُكَّانَ القُبورِ لا بُدَّ أن يَنصَرِفوا منها[(٢)].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ يدُلُّ على أنَّ البَرزخَ دارٌ مَقصودٌ منها النُّفوذُ إلى الدَّارِ الباقيةِ؛ لأنَّ اللهَ سَمَّاهم زائرينَ، ولم يُسَمِّهم مُقيمينَ؛ فدَلَّ ذلك على البَعثِ والجزاءِ بالأعمالِ في دارٍ باقيةٍ غيرِ فانيةٍ[(٣)].

٩- قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ ذكرَ اللهُ سُبحانَه في كِتابِه مَراتِبَ اليَقينِ، وهي ثلاثةٌ: حَقُّ اليَقينِ، وعِلمُ اليَقينِ، وعَيْنُ اليَقينِ:

أوَّلُها: عِلمُه، وهو التَّصديقُ التَّامُّ به؛ بحيثُ لا يَعرِضُ له شَكٌّ ولا شُبهةٌ تَقدَحُ في تَصديقِه، كعِلمِ اليَقينِ بالجنَّةِ مثلًا، وتَيَقُّنِهم أنَّها دارُ المُتَّقينَ ومَقَرُّ المُؤمنينَ، فهذه مَرتَبةُ العِلمِ؛ لِتَيَقُّنِهم أنَّ الرُّسلَ أَخبَروا بها عن اللهِ، وتَيَقُّنِهم صِدْقَ المُخبِرِ.

المَرتَبةُ الثَّانيةُ: عَيْنُ اليَقينِ؛ وهي مَرتَبةُ الرُّؤيةِ والمُشاهَدةِ، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾، وبيْنَ هذه المَرتَبةِ والَّتي قبلَها فَرْقُ ما بيْنَ العِلمِ والمُشاهَدةِ؛ فاليَقينُ للسَّمعِ، وعَيْنُ اليَقينِ للبَصرِ.

المَرتَبةُ الثَّالثةُ: مَرتَبةُ حَقِّ اليَقينِ؛ وهي مُباشَرةُ الشَّيءِ بالإحساسِ به، كما إذا أُدخِلُوا الجنَّةَ وتَمتَّعُوا بما فيها، فهُم في الدُّنيا في مَرتَبةِ عِلمِ اليَقينِ، وفي المَوقِفِ حينَ تُزْلَفُ وتُقرَّبُ منهم حتَّى يُعاينُوها في مَرتَبةِ عَيْنِ اليَقينِ، وإذا دَخلُوها وباشَرُوا نَعيمَها في مَرتَبةِ حَقِّ اليَقينِ[1].

فعِلْمُ اليَقينِ: ما عَلِمَه بالسَّماعِ والخبرِ والقياسِ والنَّظَرِ، وعَينُ اليقينِ: ما شاهَده وعايَنَه بالبصَرِ، وحَقُّ اليقينِ: ما باشَرَه ووَجَدَه وذاقَه وعَرَفَه بالاعتبارِ؛ فالأوَّلُ: مِثلُ مَن أُخْبِرَ أنَّ هناك عَسَلًا، وصَدَّقَ المُخْبِرَ، أو رأى آثارَ العسَلِ فاستدلَّ على وُجودِه. والثَّاني: مِثلُ مَن رأى العَسَلَ وشاهَدَه وعايَنَه، وهذا أعلى، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ليس الخبرُ كالمُعايَنةِ))[2]. والثَّالثُ: مِثلُ

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩١، ١٩٢).

(٢) أخرجه أحمدُ (١٨٤٢)، وابنُ حِبَّانَ (٦٢١٣)، والطَّبَرانيُّ في ((المعجم الأوسط)) (٢٥) مِن حديث ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، والحاكمُ في ((المستدرك)) (٣٢٥٠)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٥٣٧٤)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣/ ٣٤١)، وحسَّنه ابنُ حجر في =

مَن ذاق العَسَلَ ووَجَدَ طَعْمَه وحَلاوتَه، ومَعلومٌ أنَّ هذا أعلى مِمَّا قبْلَه[١].

١٠- قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾ هذه الجُملةُ مُستقِلَّةٌ مُستأنَفةٌ لا صِلةَ لها بما قَبْلَها، وهي جُملةٌ قَسَميَّةٌ، فيها قَسَمٌ مُقَدَّرٌ، والتَّقديرُ: واللهِ لتَرَوُنَّ الجحيمَ، وليست جوابَ «لو»؛ ولهذا يجبُ على القارئِ أن يقِفَ عندَ قَولِه تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾. ونحن نَسمَعُ كثيرًا مِن الأئمَّةِ يُصَلُّونَ فيقولونَ: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾، وهذا الوَصلُ إمَّا غَفلةٌ منهم ونِسيانٌ، وإمَّا أنَّهم لم يتأمَّلوا الآيةَ حَقَّ التَّأمُّلِ، وإلَّا لو تأمَّلوها حَقَّ التَّأمُّلِ لَوجدوا أنَّ الوَصلَ يُفسِدُ المعنى؛ لأنَّه إذا قال: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ صارت رؤيةُ الجَحيمِ مَشروطةً بعِلْمِهم، وهذا ليس بصَحيحٍ؛ لذلك يجِبُ التَّنبُّهُ والتَّنبيهُ لهذا. وأيضًا فالمشروعُ أن يقفَ الإنسانُ عندَ رأسِ كلِّ آيةٍ[٢].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ الْتَحم آخِرُها بأوَّلِها على وَجهٍ هو مِن ألطَفِ الخِطابِ، وأدَقِّ المسالِكِ في النَّهي عمَّا يجُرُّ إلى العذابِ؛ لأنَّ العاقِلَ إذا عَلِمَ أنَّ بيْنَ يَدَيه سُؤالًا عن كُلِّ ما يَتلَذَّذُ به، عَلِمَ أنَّه يَعوقُه ذلك في زمَنِ السُّؤالِ عن لَذاذاتِ الجنَّةِ العَوالِ الغَوالِ؛ فكان خَوفُه مِن مُطلَقِ السُّؤالِ مانِعًا له عن التَّنَعُّمِ بالمُباحِ، فكيف بالمكروهِ، فكيف ثَمَّ كيف بالمحَرَّمِ؟! فكيف إذا كان السُّؤالُ مِن مَلِكٍ تَذوبُ لهيبتِه الجِبالُ؟ فكيف إذا كان السُّؤالُ على وَجهِ العِتابِ؟ فكيف إذا جَرَّ إلى العَذابِ[٣]؟!

= ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (٢/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٢، ٢٣٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾

- في قَولِه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أعرَضَ عن ذِكْرِ المتكاثَرِ به؛ إرادةً لإطلاقِه وعُمومِه، وأنَّ كلَّ ما يُكاثِرُ به العبدُ غيرَه سِوى طاعةِ اللهِ ورَسولِه، وما يَعودُ عليه بنفعِ معادِه: فهو داخِلٌ في هذا التَّكاثرِ[١]. وأيضًا لم يُعيِّن -سُبحانه- المتكاثَرَ به، بل ترَكَ ذِكْرَه؛ لأنَّ المَذمُومَ هو نفْسُ التَّكاثُرِ بالشَّيءِ، لا المتكاثَرِ به، كما يقال: (شَغَلكَ اللَّعِبُ واللَّهوُ)، ولم يذكرْ ما يَلعبُ ويَلهُو به[٢].

- وحُذِفَ المُلْهى عنه، فلم يقلْ: ألهاكم عن كذا؛ للتَّعظيمِ المأخوذِ مِن الإبهامِ بالحذفِ، والمُبالَغةِ في الذمِّ حيثُ أشار إلى أنَّ ما يُلهي مذمومٌ، فضلًا عن الملهي عن أمرِ الدِّينِ[٣].

وعلى القولِ بأنَّ الخِطابَ للمُشركينَ: فلم يَذكُرِ المُلْهَى عنه لظُهورِ أنَّه القرآنُ والتَّدَبُّرُ فيه، والإنصافُ بتصديقِه، وهذا الإلهاءُ حَصَل منهم وتَحَقَّق كما دَلَّ عليه حِكايَتُه بالفعلِ الماضي[٤].

- والتَّعبيرُ بالفعلِ الماضي في ﴿زُرْتُمُ﴾ لتَنزيلِ المُستقبَلِ مَنزِلةَ الماضي؛ لأنَّه مُحقَّقٌ وُقوعُه[٥]. وقيل غيرُ ذلك[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أُتبِعَ الخبَرُ

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٣). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٤٧٧).

المُستعمَلُ في التَّوبيخِ بالوعيدِ والإنذارِ على ذلك بعْدَ الموتِ، وبحرْفِ الزَّجرِ والإبطالِ بقولِه: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فأفاد ﴿كَلَّا﴾ زَجْرًا وإبطالًا لإلْهاءِ التَّكاثُرِ، وتَنبيهًا على أنَّ العاقلَ يَنْبغي له ألَّا يكونَ جَميعُ هَمِّه ومُعظَمُ سَعيِه للدُّنيا؛ فإنَّ عاقبةَ ذلك وَبالٌ وحَسرةٌ[١].

- وقولُه: ﴿سَوْفَ﴾ لتَحقيقِ حُصولِ العِلمِ، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿تَعْلَمُونَ﴾؛ لظُهورِ أنَّ المرادَ: تَعلَمون سُوءَ مَغبَّةِ ما أنتُم عليه إذا عاينتُم عاقبَتَه[٢].

- وأُكِّدَ الزَّجرُ والوَعيدُ بقولِه: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فعُطِفَ عطْفًا لَفظيًّا بحَرْفِ التَّراخي أيضًا؛ للإشارةِ إلى تَراخي رُتبةِ هذا الزَّجرِ والوَعيدِ عن رُتبةِ الزَّجرِ والوَعيدِ الَّذي قبْلَه، فهذا زَجرٌ ووَعيدٌ مُماثلٌ للأوَّلِ، لكنَّ عَطْفَه بحَرْفِ (ثمَّ) اقْتَضى كَونَه أقْوى مِن الأوَّلِ؛ لأنَّه أفادَ تَحقيقَ الأوَّلِ وتَهويلَه، فجُملةُ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تَوكيدٌ لَفظيٌّ لجُملةِ ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وقيل: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يَنزِلُ بكم مِن عَذابٍ في القبرِ، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عندَ البَعثِ أنَّ ما وُعِدتُم به صِدقٌ، أي: تُجعَلُ كلُّ جُملةٍ مُرادًا بها تَهديدٌ بشَيءٍ خاصٍّ، وهذا مِن مُسْتَتْبَعاتِ التَّراكيبِ والتَّعويلِ على مَعونةِ القرائنِ بتَقديرِ مَفعولٍ خاصٍّ لكلٍّ مِن فِعلَيْ ﴿تَعْلَمُونَ﴾، وليس تَكريرُ الجُملةِ بمُقتضٍ ذلك في أصلِ الكلامِ، ومُفادُ التَّكريرِ حاصلٌ على كلِّ حالٍ[٣]. وقيل: كرَّر اللفظَينِ؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٦٩، ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، =

أحدَهما توعُّدٌ غيرُ ما تُوعِّدَ به الآخَرُ؛ فالأوَّلُ توعُّدٌ بما يَنالُهم في الدُّنيا، والثَّاني توعُّدٌ بما أُعِدَّ لهم في الأُخرى. وقيل: الأوَّلُ ما يَلقَوْنه عندَ الفِراقِ إذا بُشِّروا بالمصيرِ إلى النَّارِ، والثاني ما يَرَوْنه مِن عذابِ القبرِ؛ فكِلاهُما عذابٌ في الدُّنيا، إلَّا أنَّ أحدَهما غيرُ الآخَرِ، وهو مِثلُه في الشِّدَّةِ؛ فلذلك أُعيدَ بتلك اللَّفظةِ. وإذا حُمِل على عذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ، لم يكُنْ تَكرارًا[1].

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّه تهديدٌ ووعيدٌ، فناسَبَه التَّكريرُ تَحقيقًا وتثبيتًا؛ كقولِه: ﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١، ٢]، و﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١، ٢]، وما أتى مِن مِثلِ هذا[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾

- جُملةُ ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ تَهويلٌ وإزعاجٌ؛ لأنَّ حذْفَ جَوابِ ﴿لَوْ﴾ يَجعَلُ النُّفوسَ تَذهَبُ في تَقديرِه كلَّ مَذهبٍ مُمكِنٍ؛ لِما في حَذْفِه مِن مُبالَغةِ التَّهويلِ، يعني: لو تَعلَمون عِلمَ اليقينِ لَتبيَّنَ لكم حالٌ مُفظِعٌ عَظيمٌ، أو لَفَعلْتُم ما لا يُوصَفُ ولا يُكتَنهُ، وهي بَيانٌ لِما في ﴿كَلَّا﴾ مِن الزَّجْرِ[3].

- قَولُه: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: لو تَعْلَمونَ ما بَيْنَ أيديكم عِلْمَ الأمرِ

= ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٦٩، ٥٧٠).

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٦٨)، ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١، ٥٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٠).

المتيَقَّنِ، أي: كعِلْمِكم ما تَسْتَيقِنونَه مِنَ الأُمورِ، فالعِلْمُ مُضافٌ للمَفعولِ، واليَقينُ بمعنى المتيَقَّنِ، صِفةٌ لمُقَدَّرٍ، وجُوِّز كونُ الإضافةِ مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفَتِه، أي: العِلمَ اليَقينَ، وفائِدةُ الوَصْفِ ظاهِرةٌ بِناءً على أنَّ العِلْمَ يُطلَقُ على غَيرِ اليَقينِ[1].

- قولُه: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ما سَبَقَه مِن الزَّجرِ والرَّدعِ المُكرَّرِ، ومِن الوعيدِ المُؤكَّدِ على إجمالِه؛ يُثيرُ في نفْسِ السَّامعِ سُؤالًا عمَّا يُترقَّبُ مِن هذا الزَّجرِ والوَعيدِ، فكان قولُه: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ جَوابًا عمَّا يَجيشُ في نفْسِ السَّامعِ، وهو جَوابُ قسَمٍ مَحذوفٍ أُكِّدَ به الوعيدُ، وأُوضِحَ به ما أنْذَرَهم منه بعْدَ إبهامِه تَفخيمًا[2].

- وعلى القولِ بأنَّ الخِطابَ للمُشركينَ فالإخبارُ عن رُؤيتِهم الجَحيمَ كِنايةٌ عن الوُقوعِ فيها؛ فإنَّ الوُقوعَ في الشَّيءِ يَستلزِمُ رُؤيتَه، فيُكنَّى بالرُّؤيةِ عن الحُضورِ، وأُكِّدَ ذلك بقولِه: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾؛ قصْدًا لتَحقيقِ الوعيدِ بمَعناهُ الكِنائيِّ[3].

- وكُرِّرَ القسَمُ مَعطوفًا بحرْفِ ﴿ ثُمَّ ﴾ في قولِه: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾؛ تَغليظًا في التَّهديدِ، وزِيادةً في الوَعيدِ والتَّهويلِ، وتَأكيدًا له. وقيل: الأُولى إذا رَأَتْهم مِن مَكانٍ بعيدٍ، والثَّانيةُ إذا وَرَدوها. أو الأوَّلُ قبْلَ دُخولِهم الجَحيمَ، والثَّاني بعْدَه؛ ولهذا قال عَقِبَه: ﴿ عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾. أو المرادُ بالأُولى المَعرفةُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٢، ٥٢٣).

وبالثَّانيةِ الإبصارُ[١].

- وعَينُ اليَقينِ: اليقينُ الَّذي لا يَشوبُه تَردُّدٌ، فلَفظُ (عَينِ) مُعبَّرٌ به عن حَقيقةِ الشَّيءِ الخالصةِ، غيرِ النَّاقصةِ ولا المُشابِهةِ، وإضافةُ ﴿عَيْنَ﴾ إلى ﴿ٱلْيَقِينِ﴾ بَيانيَّةٌ[٢].

- وفي قولِه: ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ تَأكيدٌ للرُّؤيةِ بأنَّها يَقينٌ، وأنَّ اليقينَ حَقيقةٌ[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ على القولِ بأنَّ الخِطابَ للمشركينَ: فقد أُعقِبَ التَّوبيخُ والوعيدُ على لَهْوِهم بالتَّكاثُرِ عن النَّظرِ في دَعوةِ الإسلامِ، مِن حيثُ إنَّ التَّكاثُرَ صَدَّهم عن قَبولِ ما يُنجِّيهم؛ بتَهديدٍ وتَخويفٍ مِن مُؤاخَذتِهم على ما في التَّكاثُرِ مِن نَعيمٍ تَمتَّعوا به في الدُّنيا ولم يَشكُروا اللهَ عليه بقولِه: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: عن النَّعيمِ الَّذي خُوِّلْتُموه في الدُّنيا، فلمْ تَشكُروا اللهَ عليه وكان به بَطَرُكم[٤].

- وعُطِفَ هذا الكلامُ بحرْفِ ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالِّ على التَّراخي الرُّتبيِّ في عطْفِه الجُمَلَ مِن أجْلِ أنَّ الحِسابَ على النَّعيمِ الَّذي هو نِعمةٌ مِن اللهِ أشدُّ عليهم؛ لأنَّهم ما كانوا يَترقَّبونه؛ لأنَّ تَلبُّسَهم بالإشراكِ وهُمْ في نَعيمٍ أشدُّ كُفرانًا للَّذي أنْعَمَ عليهم[٥]. وذلك على القولِ بأنَّ الخِطابَ للمشرِكين.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والجُملةُ المضافُ إليها (إذْ) مِن قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مَحذوفةٌ دلَّ عليها قولُه: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦]، أي: يومَ إذ تَرَونَّ الجَحيمَ فيُغلَّظُ عليكم العَذابُ[١]. وذلك على القولِ بأنَّ الخِطابَ للمشرِكين.

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ السُّؤالُ عن النَّعيمِ المُوجَّهُ إلى المشرِكين هو غيرُ السُّؤالِ الَّذي يُسأَلُه كلُّ مُنعَمٍ عليه فيما صَرَفَ فيه النِّعمةَ؛ فإنَّ النِّعمةَ لَمَّا لم تكُنْ خاصَّةً بالمُشرِكين -خِلافًا للتَّكاثُرِ- كان السُّؤالُ عنها حَقيقًا بكلِّ مُنعَمٍ عليه وإنِ اختَلَفَت أحوالُ الجَزاءِ المُترتِّبِ على هذا السُّؤالِ. فالكلُّ سيُسْأَلُ، ولكنْ سُؤالُ الكافرِ سُؤالُ تَوبيخٍ؛ لأنَّه قد تَرَكَ الشُّكرَ، وسُؤالُ المؤمنينَ سُؤالٌ لتَرتيبِ الثَّوابِ على الشُّكرِ، أو مِن أجْلِ المُؤاخَذةِ بالنَّعيمِ الحرامِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٤، ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢١٢).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ العَصْرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ العَصْرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (العَصْرِ)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ العَصْرِ مكِّيَّةٌ، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

بَيانُ مَن هُم أهْلُ الخُسرانِ، ومَن هُم أهلُ السَّعادةِ[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- القَسَمُ بالعَصرِ على ثُبوتِ الخُسرانِ للإنسانِ.

---

(١) سمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ في قولِه: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٢).

قال ابن عاشور: (وسُمِّيتْ في بعضِ كتبِ التَّفسيرِ وفي «صحيحِ البخاريِّ» سورةَ «والعصرِ» بإثباتِ الواوِ على حكايةِ أوَّلِ كلمةٍ فيها، أيْ: سورةُ هذه الكلمةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٧).

(٢) نقَل الإجماعَ على ذلك: البِقاعيُّ. يُنظر: ((مصاعد النظر)) (٣/ ٢٤٥).

ونسَب ابنُ الجَوزيِّ، وأبو حيَّانَ، والشَّوكانيُّ القولَ بأنَّها مكِّيَّةٌ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٠).

وقيل: السُّورةُ مدَنيَّةٌ. يُنظر: المصادر السَّابقة.

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٩٩). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٢).

٢- إثباتُ نَجاةِ وفَوْزِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ، والمُوصِي بَعضُهم بَعضًا بالحَقِّ والصَّبرِ.

الآيات (١-٢)

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾.

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالعَصرِ على أنَّ كُلَّ إنسانٍ في خَسارةٍ وهَلاكٍ، إلَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ، وأوصى بعضُهم بَعضًا باتِّباعِ دِينِ الإسلامِ، وبالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ، وعن معصيةِ اللهِ، وعلى أقدارِ اللهِ المؤلِمةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالعَصرِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٧).

قال ابنُ الجوزي: (﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّه الدَّهرُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وزَيدُ بنُ أسلَمَ، والفرَّاءُ، وابنُ قُتَيبةَ. وإنَّما أقسَمَ بالدَّهرِ؛ لأنَّ فيه عِبرةً للنَّاظرِ مِن مُرورِ اللَّيلِ والنَّهارِ على تقديرٍ لا يَنخَرِمُ.

والثَّاني: أنَّه العَشيُّ، وهو ما بيْن زَوالِ الشَّمسِ وغُروبِها. قاله الحسَنُ، وقَتادةُ.

والثَّالثُ: صلاةُ العَصرِ. قاله مقاتلٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٧).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ بالعَصرِ: الدَّهرُ وعُمومُ الزَّمَنِ: الفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جرير، وابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٧). =

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾

أي: إنَّ كُلَّ إنسانٍ لَفي خَسارةٍ وهَلاكٍ[1].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: إلَّا الَّذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي حَديثِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه في قِصَّةِ سُؤالِ جِبريلَ عليه السَّلامُ، قال للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أخبِرْني عن الإيمانِ، فقال: ((أن تؤمِنَ باللهِ

= قال السعدي: (أقسَمَ تعالى بالعَصرِ الَّذي هو اللَّيلُ والنَّهارُ؛ محَلُّ أفعالِ العِبادِ وأعمالِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: صلاةُ العَصرِ: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦١٥).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (أقسَمَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بعَصرِ النَّهارِ، وهو آخِرُ ساعةٍ مِنَ النَّهارِ، وأيضًا «العَصرُ» سُمِّيَت العَصرَ حينَ تصَوَّبَت الشَّمسُ للغُروبِ، وهو عَصرُ النَّهارِ؛ فأقسَمَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بصلاةِ العَصرِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٧، ٣٠٨).

قال الواحدي: (قال أهلُ المعاني: الخُسْرُ: هلاكُ رأسِ المالِ، والإنسانُ في هلاكِ نَفْسِه وعُمُرِه -وهما أكثَرُ رأسِ مالِه- إلَّا المؤمِنَ العامِلَ بطاعةِ اللهِ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٥١).

وقال السعدي: (الخاسِرُ ضِدُّ الرَّابِحِ، والخَسارُ مَراتِبُ متعَدِّدةٌ مُتفاوِتةٌ؛ قد يكونُ خَسارًا مُطلَقًا، كحالِ مَن خَسِرَ الدُّنيا والآخِرةَ، وفاتَه النَّعيمُ، واستحَقَّ الجحيمَ، وقد يكونُ خَسارًا مِن بَعضِ الوُجوهِ دونَ بَعضٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٨).

وملائِكَتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ؛ خَيرِه وشَرِّه))[١].

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ الظَّاهِرةَ والباطِنةَ بإخلاصٍ للهِ، ومُتابَعةٍ لِرَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: وأوصى بعضُهم بَعضًا بلُزومِ القُرآنِ، واتِّباعِ دِينِ الإسلامِ[٣].

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

أي: وأوصى بَعضُهم بَعضًا بالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ، وعن معصيةِ اللهِ، وعلى أقدارِ اللهِ المؤلِمةِ[٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- عن بعضِ السَّلفِ قال: (تعلَّمْتُ معنَى سورةِ العَصرِ مِن بائعِ الثَّلجِ، كان يَصيحُ ويقولُ: «ارحَموا مَن يَذوبُ رأسُ مالِه، ارحَموا مَن يَذوبُ رأسُ مالِه»،

---

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٣)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١١).
قال السعدي: (التَّواصي بالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ، وعن معصيةِ اللهِ، وعلى أقدارِ اللهِ المؤلِمةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

فقلتُ: هذا معنى ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، يمُرُّ به العصرُ فيَمضي عُمُرُه ولا يَكتسِبُ، فإذا هو خاسِرٌ)[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ في هذا الاستثناءِ تنبيهٌ على أنَّ كُلَّ ما دعاك إلى طاعةِ اللهِ فهو الصَّلاحُ، وكُلَّ ما شغَلَك عن اللهِ بغَيرِه فهو الفَسادُ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ فيه وعيدٌ شديدٌ؛ وذلك لأنَّه تعالى حكَمَ بالخَسارِ على جميعِ النَّاسِ، إلَّا مَن كان آتيًا بهذه الأشياءِ الأربعةِ؛ وهي: الإيمانُ، والعمَلُ الصَّالحُ، والتَّواصي بالحَقِّ، والتَّواصي بالصَّبرِ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ النَّجاةَ مُعَلَّقةٌ بمَجموعِ هذه الأمورِ، وأنَّه كما يَلزَمُ المكَلَّفَ تحصيلُ ما يخُصُّ نفْسَه، فكذلك يَلزَمُه في غيرِه أُمورٌ؛ منها: الدُّعاءُ إلى الدِّينِ، والنَّصيحةُ، والأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المنكَرِ، وأن يُحِبَّ له ما يحِبُّ لنَفْسِه[٣].

٤- قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دلَّ استِثناءُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مِن أنْ يَكونوا في خُسرٍ على أنَّ سَببَ كَونِ بَقيَّةِ الإنسانِ في خُسرٍ هو عدَمُ الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ؛ بدَلالةِ مَفهومِ الصِّفةِ[٤]، وعُلِمَ مِن المَوصولِ أنَّ الإيمانَ والعمَلَ الصَّالحَ هما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧٨). ويُنظر أيضًا: ((المدهش)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٢/ ٢٨٢).

(٤) مَفهومُ الصِّفةِ: هو تَعليقُ الحُكمِ على الذَّاتِ بأحدِ الأوصافِ، نحو: في الغنمِ السَّائمةِ زكاةٌ، فتخصيصُ الغنمِ بالسَّومِ لو لم يكُنْ للفرقِ بينَ السَّائمةِ وغيرِها في الحكمِ لكان تطويلًا بلا فائدةٍ. يُنظر: ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) للإسنوي (ص: ١٥٠)، ((البحر المحيط =

سَببُ انتفاءِ إحاطةِ الخُسرِ بالإنسانِ[١].

ولم يَكْتَفِ منهم بمعرفةِ الحقِّ والصَّبرِ عليه، حتَّى يُوصِيَ بعضُهم بعضًا به، ويُرْشِدَه إليه، ويَحُضَّه عليه[٢].

٥- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ يدُلُّ على أنَّ الحَقَّ ثقيلٌ، وأنَّ المِحَنَ تُلازِمُه؛ فلذلك قُرِنَ به التَّواصي[٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ يدُلُّ على إقامةِ المصالحِ الدِّينيَّةِ كُلِّها؛ فالعقائدُ الإسلاميَّةُ والأخلاقُ الدِّينيَّةُ مُندَرِجةٌ في الحَقِّ، والأعمالُ الصَّالحةُ وتجنُّبُ السَّيِّئاتِ مُندَرِجةٌ في الصَّبرِ، والتَّخلُّقُ بالصَّبرِ مِلاكُ فَضائلِ الأخلاقِ كلِّها؛ فإنَّ الارتياضَ بالأخلاقِ الحَميدةِ لا يَخْلو مِن حمْلِ المرْءِ نفْسَه على مُخالَفةِ شَهواتٍ كَثيرةٍ، ففي مُخالَفتِها تَعَبٌ يَقْتضي الصَّبرَ عليه حتَّى تَصيرَ مَكارمُ الأخلاقِ مَلَكةً لِمَن راضَ نفْسَه عليها، كما قال عَمْرُو بنُ العاصِ:

إذا المَرْءُ لم يَتْرُكْ طَعامًا يُحِبُّهُ ... ولم يَنْهَ قلْبًا غاويًا حيثُ يَمَّمَا
فيُوشِكُ أنْ تَلْفَى له الدَّهرَ سُبَّةً ... إذا ذُكِرَتْ أمْثالُها تَملأُ الفَمَا

وكذلك الأعمالُ الصَّالحةُ كلُّها لا تَخْلو مِن إكراهِ النَّفْسِ على تَرْكِ ما تَميلُ إليه، وفي الحديثِ: ((حُفَّتِ الجنَّةُ بالمَكارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ))[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ جمَعَ سُبحانَه بيْن «تواصَوا

= في أصول الفقه)) للزركشي (٥/ ١٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٣).

والحديث أخرجه مسلم (٢٨٢٢) من حديث أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

بالحَقِّ» الَّذي يَدفَعُ الشُّبُهاتِ، وبيْن الصَّبرِ الَّذي يَكُفُّ عن الشَّهَواتِ، وقد جَعَل سُبحانَه إمامةَ الدِّينِ مَنوطةً بهذَين الأمْرَينِ، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1] [السجدة: ٢٤].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ لا بُدَّ مِن التَّواصي بالحَقِّ والصَّبرِ؛ إذ إنَّ أهلَ الفَسادِ والباطِلِ لا يقومُ باطِلُهم إلَّا بصبرٍ عليه أيضًا، لكِنِ المؤمنونَ يَتواصَونَ بالحَقِّ والصَّبرِ، وأولئك يتواصَونَ بالصَّبرِ على باطِلِهم، كما قال قائِلُهم: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، فالتَّواصي بالحَقِّ بدونِ الصَّبرِ -كما يفعَلُه الَّذين يقولونَ: آمَنَّا باللهِ، فإذا أُوذِيَ أحَدُهم في اللهِ جَعَل فِتنةَ النَّاسِ كعذابِ اللهِ، والَّذين يَعبُدونَ اللهَ على حَرْفٍ، فإنْ أصاب أحَدَهم خيرٌ اطمأنَّ به، وإنْ أصابَتْه فتنةٌ انقَلَب على وجْهِه خَسِرَ الدُّنيا والآخرةَ- والتَّواصي بالصَّبرِ بدونِ الحَقِّ: كِلاهما مُوجِبٌ للخُسرانِ، وإنَّما نجا مِن الخُسرانِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ، وتواصَوا بالحَقِّ وتواصَوا بالصَّبرِ، وهذا موجودٌ في كلِّ مَن خرَج عن هؤلاء مِن أهلِ الشَّهَواتِ الفاسِدةِ، وأهلِ الشُّبُهاتِ الفاسِدةِ؛ أهلِ الفُجورِ، وأهلِ البِدَعِ[2].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ فيه فضيلةُ الصَّبرِ على تزكيةِ النَّفْسِ، ودَعوةِ الحَقِّ[3].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أفادتْ صِيغةُ التَّواصي بالحقِّ وبالصَّبرِ أنْ يكونَ شَأنُ حَياةِ المؤمنينَ قائمًا على شُيوعِ التَّواصي بهما دَيدنًا لهم، وذلك يَقْتضي اتِّصافَ المؤمنينَ بإقامةِ الحقِّ، وصَبْرِهم على المَكارِهِ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٨).

في مَصالحِ الإسلامِ وأُمَّتِه؛ لِما يَقتضيهِ عُرفُ النَّاسِ مِن أنَّ أحدًا لا يُوصي غيرَه بمُلازَمةِ أمرٍ إلَّا وهو يَرى ذلك الأمرَ خَليقًا بالمُلازَمةِ؛ إذ قَلَّ أنْ يُقدِمَ أحدٌ على أمرٍ بحَقٍّ هو لا يَفعَلُه، أو أمرٍ بصَبرٍ وهو ذو جَزَعٍ، وقد قال اللهُ تعالَى تَوبيخًا لبني إسرائيلَ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] [البقرة: ٤٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ أَقْسَمَ سُبحانَه وتعالى بالدَّهرِ -الَّذي هو زمنُ الأعمالِ الرَّابحةِ والخاسرةِ- على أنَّ كلَّ واحدٍ في خُسْرٍ إلَّا مَن كَمَّلَ قوَّتَه العِلميَّةَ، وقوَّتَه العَمَليَّةَ[2]، والمراتِبُ أربعةٌ، وباستِكمالِها يحصُلُ للشَّخصِ غايةُ كمالِه: إحداها: مَعرِفةُ الحَقِّ. الثَّانيةُ: عَمَلُه به. الثَّالثةُ: تعليمُه مَن لا يحسِنُه. الرَّابعةُ: صَبرُه على تعَلُّمِه والعَمَلِ به وتعليمِه؛ فذكَرَ تعالى المراتِبَ الأربعةَ في هذه السُّورةِ، وأقسَمَ سُبحانَه في هذه السُّورةِ بالعَصْرِ إنَّ كُلَّ أحدٍ في خُسْرٍ إلَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، وهم الَّذين عَرَفوا الحَقَّ وصَدَّقوا به. فهذه مرتبةٌ. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهم الَّذين عَمِلوا بما عَلِموه مِن الحَقِّ، فهذه مرتبةٌ أُخرى. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ وصَّى به بعضُهم بعضًا؛ تعليمًا وإرشادًا، فهذه مرتبةٌ ثالثةٌ. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ صَبَروا على الحَقِّ، ووصَّى بعضُهم بعضًا بالصَّبرِ عليه والثَّباتِ، فهذه مرتبةٌ رابعةٌ. وهذا نهايةُ الكمالِ؛ فإنَّ الكمالَ أن يكونَ الشَّخصُ كامِلًا في نَفْسِه، مُكَمِّلًا لغيرِه، وكَمالُه بإصلاحِ قوَّتَيه العِلميَّةِ والعَمَليَّةِ؛ فصلاحُ القُوَّةِ العِلميَّةِ بالإيمانِ، وصلاحُ القُوَّةِ العَمليَّةِ بعمَلِ الصَّالحاتِ، وتكميلِه غَيرَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٥).

بتعليمِه إيَّاه، وصَبرِه عليه، وتوصيتِه بالصَّبرِ على العِلمِ والعَملِ؛ فهذه السُّورةُ على اختِصارِها هي مِن أجمَعِ سُوَرِ القُرآنِ الكريمِ للخَيرِ بحذافيرِه، والحَمدُ للهِ الَّذي جَعَل كِتابَه كافيًا عن كُلِّ ما سِواه، شافيًا مِن كُلِّ داءٍ، هاديًا إلى كُلِّ خَيرٍ؛ لذا قال الشَّافعيُّ رَضِيَ اللهُ عنه: (لو فكَّر النَّاسُ كُلُّهم في هذه السُّورةِ لَكَفَتْهم)[١]، فهذه السُّورةُ ميزانٌ للأعمالِ يَزِنُ المؤمنُ بها نفْسَه، فيَبينُ له بها رِبحُه مِن خُسرانِه[٢]. لذا كان حقيقًا بالإنسانِ أن يُنفِقَ ساعاتِ عُمرِه -بل أنفاسَه- فيما يَنالُ به المطالبَ العاليةَ، ويخلصُ به مِن الخُسرانِ المُبينِ، وليس ذلك إلَّا بالإقبالِ على القرآنِ وتفَهُّمِه وتدَبُّرِه، واستِخراجِ كُنوزِه، وإثارةِ دفائنِه، وصَرفِ العنايةِ إليه، والعُكوفِ بالهمَّةِ عليه؛ فإنَّه الكفيلُ بمصالحِ العبادِ في المَعاشِ والمَعادِ، والموصلِ لهم إلى سبيلِ الرَّشادِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ أنَّ الَّذين اتَّصفوا بهذه الصِّفاتِ الأربَعِ هم الرَّابِحونَ، ومَن سِواهم فهو خاسِرٌ عصْرَه، وهذه الحِكمةُ مِن أنَّ اللهَ أَقْسَمَ بالعَصرِ دونَ غيرِه؛ لأنَّ العصرَ هو خزائنُ الأعمالِ، فإذا لم يَقُمِ الإنسانُ بهذه الصِّفاتِ الأربَعِ خَسِرَ عصْرَه، وكان عُمُرُه خَسارةً[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ فيه سُؤالٌ: الآيةُ يدُلُّ ظاهِرُها على أنَّ هذا المخبَرَ عنه أنَّه في خُسرٍ إنسانٌ واحِدٌ، بدليلِ إفرادِ لَفظةِ الإنسانِ، واستثناؤُه مِن ذلك الإنسانِ الواحِدِ لَفظًا قَولَه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٦، ٥٧).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨١).

يَقتضي أنَّه ليس إنسانًا واحِدًا؟

الجوابُ: أنَّ لَفظَ (الإنسانِ) وإنْ كان واحِدًا فالألِفُ واللَّامُ للاستغراقِ، يَصيرُ المفرَدُ بسَبَبِهما صيغةَ عُموم، وعليه فمعنى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: إنَّ كُلَّ إنسانٍ؛ لدَلالةِ (أل) الاستغراقيَّةِ على ذلك[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، فيه سُؤالٌ: قال تعالى في سُورةِ التِّينِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤، ٥]، فهناك يدُلُّ على أنَّ الابتِداءَ مِن الكَمالِ، والانتِهاءَ إلى النُّقصانِ، وهاهنا يدُلُّ على أنَّ الابتِداءَ مِن النُّقصانِ، والانتِهاءَ إلى الكَمالِ، فكيفَ وَجهُ الجَمْعِ؟

الجوابُ: أنَّ المَذكُورَ في سُورةِ التِّينِ أَحوالُ البَدَنِ -وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ-، وهاهنا أَحوالُ النَّفْسِ، فلا تَناقُضَ بيْن القَولَينِ[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ لم يبيِّنْ نوعَ الخُسرانِ في أيِّ شَيءٍ، بل أطلَقَ؛ ليَعُمَّ[٣].

٦- تأمَّلْ حِكمةَ القرآنِ؛ لَمَّا قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ فإنَّه ضَيَّقَ الاستثناءَ وخَصَّصَه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، ولَمَّا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] وَسَّعَ الاستثناءَ وعَمَّمَه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦] ولم يَقُلْ: «وتَواصَوا»؛ فإنَّ التَّواصيَ هو أمْرُ الغَيرِ بالإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ -وهو قَدْرٌ زائدٌ على مجرَّدِ فِعْلِه- فمَن لم يكُنْ كذلك فقد خَسِرَ هذا الرِّبحَ، فصار في خُسْرٍ، ولا يَلْزَمُ أنْ يكونَ في أسفَلِ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٨٩).

سافِلينَ؛ فإنَّ الإنسانَ قد يقومُ بما يجبُ عليه ولا يأمُرُ غيرَه؛ فإنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكَرِ مرتبةٌ زائدةٌ، وقد تكونُ فرضًا على الأعيانِ، وقد تكون فرضًا على الكفايةِ، وقد تكون مُستحَبَّةً.

والتَّواصِي بالحَقِّ يَدخُلُ فيه الحَقُّ الَّذي يجِبُ، والحَقُّ الَّذي يُستحَبُّ، والصَّبرُ يَدخُلُ فيه الصَّبرُ الَّذي يجِبُ، والصَّبرُ الَّذي يُستحَبُّ، فهؤلاء إذا تَواصَوا بالحَقِّ وتَواصَوا بالصَّبرِ حصلَ لهم مِن الرِّبحِ ما خَسِرَه أولئك الَّذين قامُوا بما يجِبُ عليهم في أَنفُسِهم ولم يَأمُروا غيرَهم به، وإنْ كان أولئك لم يَكونوا مِن الَّذين خَسِروا أنفُسَهم وأَهْلِيهم؛ فمُطلَقُ الخَسارِ شَيءٌ، والخَسارُ المُطلقُ شَيءٌ، وهو سُبحانَه إنَّما قال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، ومَن رَبِحَ في سِلعةٍ وخَسِرَ في غيرِها قد يُطلقُ عليه أنَّه في خُسرٍ وأنَّه ذو خُسرٍ؛ كما قال عبدُ الله بنُ عُمرَ رَضِيَ الله عنهما: (لقد فَرَّطْنا في قَراريطَ كثيرةٍ)[1]، فهذا نَوعُ تَفريطٍ، وهو نَوعُ خُسرٍ بالنِّسبةِ إلى مَن حَصَّلَ رِبْحَ ذلك.

ولَمَّا قال في سُورةِ (والتِّينِ): ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فقَسَّمَ النَّاسَ إلى هَذينِ القِسمَينِ فقط، ولَمَّا كان الإنسانُ له قُوَّتانِ: قُوَّةُ العِلمِ وقُوَّةُ العَمَلِ، وله حالَتانِ: حالةُ يَأتَمِرُ فيها بأَمْرِ غيرِه، وحالةٌ يأمُرُ فيها غيرَه؛ استَثنَى سُبحانَه مَن كمَّلَ قُوَّتَه العِلميَّةَ بالإيمانِ، وقُوَّتَه العَمَليَّةَ بالعمَلِ الصَّالِحِ، وانقادَ لأمْرِ غيرِه له بذلك، وأمَرَ غيرَه به- مِن الإنسانِ الَّذي هو في خُسرٍ، فإنَّ العبدَ له حالتانِ: حالةُ كَمالٍ في نَفْسِه، وحالةُ تَكمِيلٍ لغيرِه؛ وكَمالُه وتَكمِيلُه مَوقوفٌ على أمْرَينِ: عِلمٌ بالحَقِّ وصَبرٌ عليه، فتَضمَّنَت الآيةُ جَميعَ مَراتِبِ الكَمالِ الإنسانيِّ؛ مِن العِلمِ النَّافِعِ، والعَملِ الصَّالِحِ، والإحسانِ إلى

(١) أخرجه البخاري (١٣٢٤)، ومسلم (٩٤٥).

نَفْسِه بذلك وإلى أَخيهِ به، وانقِيادِه وقَبولِه لِمَن يَأمُرُه بذلك[١].

٧- قولُه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، وقولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقولُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] هذا شَأْنُ الإنسانِ مِن حيثُ ذاتُه ونفْسُه، وأمَّا خروجُه عن هذه الصِّفاتِ فهو بفَضلِ ربِّه وتوفيقِه له ومِنَّتِه عليه، لا مِن ذاتِه؛ فليس له مِن ذاتِه إلَّا هذه الصِّفاتُ، وما به مِن نِعمةٍ فمِن اللهِ وَحْدَه[٢].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾، ولم يقلْ: (ويَتواصَونَ)؛ لأنَّ الغَرضَ مَدحُهم بما صدَر عنهم في الماضي، وذلك يُفيدُ رَغبتَهم في الثَّباتِ عليه في المُستقبَلِ[٣].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ اختيرَ التَّعبيرُ بالوصيَّةِ؛ إشارةً إلى الرِّفقِ في الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ، واستعمالِ اللِّينِ بغايةِ الجُهدِ[٤].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ فيه إثباتُ نجاةِ وفَوزِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، والدَّاعينَ منهم إلى الحَقِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٨).

بلاغةُ الآياتِ:

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾

- أقسَمَ اللهُ تعالَى بالعَصْرِ قَسَمًا يُرادُ به تَأكيدُ الخبَرِ، كما هو شَأنُ أقسامِ القرآنِ الكريمِ، والمُقسَمُ به مِن مَظاهرِ بَديعِ التَّكوينِ الرَّبَّانيِّ الدَّالِّ على عَظيمِ قُدرتِه وسَعةِ عِلمِه، وأيًّا ما كان المرادُ منه هنا؛ فإنَّ القسَمَ به باعتبارِ أنَّه زمَنٌ يُذكِّرُ بعَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالَى في خلْقِ العالَمِ وأحوالِه، وبأُمورٍ عَظيمةٍ مُبارَكةٍ، مِثلِ الصَّلاةِ المَخصوصةِ، أو عصْرٍ مُعيَّنٍ مُبارَكٍ؛ فقيل: أقسَمَ بصَلاةِ العصْرِ؛ لفَضْلِها، ولأنَّ التَّكليفَ في أدائِها أشقُّ؛ لتَهافُتِ النَّاسِ في تِجاراتِهم ومَكاسِبِهم آخِرَ النَّهارِ، واشتِغالِهم بمَعايِشِهم. أو أقسَمَ بالعَشيِّ كما أقسَمَ بالضُّحى؛ لِما فيهما جَميعًا مِن دَلائلِ القُدرةِ. أو أقسَمَ بالزَّمانِ؛ لِيُذَكِّرَ بما فيه مِن النِّعَمِ وأضْدادِها لتَنبيهِ الإنسانِ على أنَّه مُستعِدٌّ للخُسرانِ والسَّعادةِ، والتَّعريضِ بنَفْيِ ما يُضافُ إلى الزَّمانِ مِن الخُسرانِ؛ لأنَّ النَّاسَ تُضيفُ كلَّ شَيءٍ له، ووجهُ نفيِه عنه أنَّ اللهَ لَمَّا أقسَمَ به وعظَّمَه، عُلِم أنَّه لا خُسرانَ له، ولا دخْلَ له فيه، وإضافتُه للإنسانِ تُشعِرُ بأنَّه صِفةٌ له لا للزَّمانِ[(١)].

- التَّعريفُ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ للجِنسِ؛ ولذلك استثنى منه الَّذين آمَنوا، فهو استثناءٌ متَّصِلٌ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٣، ٧٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٧)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٣٩٤، ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٨، ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٧)، ((تفسير ابن =

- والظَّرفيَّةُ في قولِه: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ أفادتْ تَشبيهَ مُلازَمةِ الخُسرِ بإحاطةِ الظَّرفِ بالمَظروفِ، فكانت أبلَغَ مِن أنْ يُقالَ: إنَّ الإنسانَ لَخاسرٌ[١].

- وتَنكيرُ ﴿خُسْرٍ﴾ قيل: للتَّعظيم، أي: في خُسرٍ عظيمٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ للتَّنويعِ، أيْ: نوعٍ مِن الخُسرِ غيرِ ما يَعرِفُه الإنسانُ[٢].

- ومَجيءُ هذا الخبَرِ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ﴾ على العُموم، مع تَأكيدِه بالقسَمِ، وحرْفِ التَّوكيدِ في جَوابِه؛ يُفيدُ التَّهويلَ والإنذارَ بالحالةِ المُحيطةِ بمُعظَمِ النَّاسِ[٣].

فقَرَن الله تعالى بهذه الآيةِ قرائِنَ تدُلُّ على مُبالَغتِه تعالى في بيانِ كَونِ الإنسانِ في خُسرٍ:

أحَدُها: قَولُه: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ يفيدُ أنَّه كالمغمورِ في الخُسرانِ، وأنَّه أحاط به مِن كُلِّ جانبٍ.

وثانيها: كَلِمةُ (إنَّ)؛ فإنَّها للتَّأكيدِ.

وثالثُها: حرفُ اللَّامِ في ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾[٤].

- وأعقَبَ بالاستثناءِ بقولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآيةَ، فيَتقرَّرُ الحُكْمُ تامًّا في نفْسِ السَّامعِ مُبيِّنًا أنَّ النَّاسَ فَريقانِ: فريقٌ يَلحَقُه الخُسرانُ، وفَريقٌ

= عاشور)) (٣٠/ ٥٣٠، ٥٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٠).

لا يَلحَقُه شَيءٌ منه[١].

- وقدْ أفاد استثناءُ المُتَّصِفينَ بمَضمونِ الصِّلةِ ومَعطوفِها إيماءً إلى عِلَّةِ حُكمِ الاستثناءِ، وهو نَقيضُ الحُكمِ الثَّابتِ للمُسْتثنى منه؛ فإنَّهم لَيسوا في خُسرٍ مِن أجْلِ أنَّهم آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ[٢].

- والتَّعريفُ في قولِه: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تَعريفُ الجنسِ مُرادٌ به الاستِغراقُ، أي: عَمِلوا جَميعَ الأعمالِ الصَّالحةِ الَّتي أُمِروا بعَمَلِها بأمْرِ الدِّينِ، وعَمَلُ الصَّالحاتِ يَشملُ تَرْكَ السَّيِّئاتِ[٣].

- وعُطِفَ على عمَلِ الصَّالحاتِ التَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصَّبرِ وإنْ كان ذلك مِن عمَلِ الصَّالحاتِ، عَطْفَ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتِمامِ به؛ لأنَّه قد يُغفَلُ عنه، يُظَنُّ أنَّ العمَلَ الصَّالحَ هو ما أثَرُه عمَلُ المَرءِ في خاصَّتِه، فوَقَعَ التَّنبيهُ على أنَّ مِن العمَلِ المأمورِ به إرشادَ المسلمِ غَيرَه ودَعوتَه إلى الحقِّ، فالتَّواصي بالحقِّ يَشملُ تَعليمَ حَقائقِ الهدْيِ وعَقائدِ الصَّوابِ، وإراضةَ النَّفْسِ على فَهْمِها بفِعلِ المعروفِ وتَرْكِ المُنكَرِ، والتَّواصي بالصَّبرِ عطْفٌ على التَّواصي بالحقِّ عطْفَ الخاصِّ على العامِّ أيضًا، وإنْ كان خُصوصُه خُصوصًا مِن وَجْهٍ؛ لأنَّ الصَّبرَ تَحمُّلُ مَشقَّةِ إقامةِ الحقِّ، وما يَعترِضُ المُسلمَ مِن أذًى في نفْسِه في إقامةِ بَعضِ الحقِّ[٤].

فتَخصيصُ هَذا التَّواصِي بالذِّكرِ مع انْدراجِه تحتَ التَّواصِي بالحقِّ؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بهِ، وللمُبالَغةِ؛ لأنَّه يدُلُّ على أنَّ الخاصَّ -لكَمالِه- بَلَغَ إلى مَرتبةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٣٢، ٥٣٣).

خَرَجَ بها عن الاندراجِ تحتَ العامِّ على ما عُرِفَ في أمثالِه. أو لأنَّ الأوَّلَ عبارةٌ عن رُتبةِ العِبادةِ الَّتي هيَ فِعلُ ما يَرضَى به اللهُ تعالَى، والثَّانيَ عبارةٌ عن رُتبةِ العُبوديَّةِ الَّتي هي الرِّضا بما فَعَلَ اللهُ تعالَى؛ فإنَّ المُرادَ بالصَّبرِ ليسَ مُجرَّدَ حَبْسِ النَّفْسِ عمَّا تَتشوَّقُ إليهِ مِن فِعلٍ وتَرْكٍ، بلْ هو تَلقِّي ما ورَدَ منه تعالَى بالجَميلِ والرِّضا به ظاهرًا وباطنًا[١].

- وفي قولِه: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ كُرِّرَ فِعلُ التَّواصِي؛ لاختِلافِ المفعولَينِ، وهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ و﴿بِٱلصَّبْرِ﴾[٢].

- ولعلَّه سُبحانه وتعالَى إنَّما ذَكَرَ سَببَ الرِّبحِ دونَ الخُسرانِ؛ اكتِفاءً ببَيانِ المَقصودِ، وإشعارًا بأنَّ ما عدَا ما عُدَّ يُؤدِّي إلى خُسرٍ ونقْصِ حظٍّ، أو تَكرُّمًا؛ فإنَّ الإبهامَ في جانبِ الخُسرِ كَرَمٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٧)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٤، ٢٥٥)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٦).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ الهُمَزَةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الهُمَزَةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ الهُمَزَةِ[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الهُمَزَةِ مكِّيَّةٌ، نقلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

ذِكرُ أَوصافِ الهالِكين[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

التَّهديدُ الشَّديدُ لِمَن يَعِيبُ النَّاسَ، ويَتهَكَّمُ بهم، ويَتطاوَلُ عليهم، بسَببِ كَثرةِ مالِه، وجُحودِه للحَقِّ، وبَيانُ عُقوبتِه.

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لافتتاحِها بقَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾.
وسُمِّيَت أيضًا سُورةَ ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ﴾، وسورةَ (الحُطَمةِ)؛ لوُقوعِ هذه الكَلِمةِ فيها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٥).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٣).

الآيات (١-٩)

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَيْلٌ﴾: أي: عَذابٌ وهَلاكٌ. وقيلَ: وَيلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ[١].

﴿هُمَزَةٍ﴾: أي: عيَّابٍ مُغتابٍ للنَّاسِ، وهَمْزُ الإنسانِ: اغتيابُه والطَّعنُ في عِرْضِه، وأصلُ (همز): يدُلُّ على ضَغطٍ وعَصرٍ[٢].

﴿لُّمَزَةٍ﴾: أي: عَيَّابٍ، واللَّمْزُ: الاغتيابُ وتَتَبُّعُ المَعايبِ، وأصلُه الإشارةُ بالعَينِ ونَحوِها. وقيل: الهُمَزةُ: الَّذي يَعِيبُك في الغَيْبِ، واللُّمَزةُ: الَّذي يَعيبُك في الوَجْهِ. وقيل العَكسُ. وأصلُه اللَّمزُ، وهو العَيبُ[٣].

﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾: أي: لَيُطرَحَنَّ ويُقذَفَنَّ، وأصلُ (نبذ): يدُلُّ على طَرحٍ وإلقاءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨).

قال الرَّاغبُ: (ومَن قال: ﴿وَيْلٌ﴾: وادٍ في جهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ «ويلًا» في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد: مَن قال اللهُ تعالى ذلك فيه فقد استحقَّ مقرًّا مِن النَّارِ، وثبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٨)، ((الكليات)) =

﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾: أي: النَّارِ؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّها تَحطِمُ كُلَّ شَيءٍ وتَكسِرُه، وأصلُ (حطم): يدُلُّ على كَسرِ الشَّيءِ[١].

﴿ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾: جمْعُ فؤادٍ، وهو القلبُ؛ سمِّيَ بذلك لحرارَتِه، أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[٢].

﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: أي: مُطبَقةٌ مُغلَقةٌ، وأصلُ (وصد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٣].

﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾: أي: مَمدودةٍ مُطَوَّلةٍ، وأصلُ (مدد): يدُلُّ على اتِّصالِ شَيءٍ بشَيءٍ في استِطالةٍ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بوعيدِ طائفةٍ مِنَ النَّاسِ، فقال تعالى: عَذابٌ وهلاكٌ يومَ القيامةِ لكُلِّ طعَّانٍ عيَّابٍ للنَّاسِ، الَّذي جمَعَ مالًا كثيرًا وأحصى عدَدَه، يَظُنُّ أنَّ ذلك سيُخَلِّدُه في الدُّنيا!

ثمَّ زجر اللهُ سُبحانَه هذا المَغرورَ، وبَيَّن سُوءَ عاقِبَتِه، فقال: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ هذا الإنسانُ! أُقسِمُ لَيُطرَحَنَّ يومَ القيامةِ في النَّارِ الَّتي تَحطِمُ وتَكسِرُ ما يُلقَى فيها!

= للكفوي (ص: ٩٩١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

ثمَّ قال تعالى مُهَوِّلًا أمْرَها، ومُبَيِّنًا بعضَ صِفاتِها: وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ تلك الحُطَمةُ؟! هي نارُ اللهِ الشَّديدةُ التَّوَقُّدِ بالنَّاسِ والحِجارةِ، الَّتي تَبلُغُ مِن شِدَّتِها قلوبَ الكافِرينَ، وتَنفُذُ إليها، إنَّ تلك النَّارَ مُطبَقةٌ عليهم ومَسدودةٌ بأعمِدةٍ ممدودةٍ في النَّارِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١﴾.

أي: عَذابٌ شديدٌ وهلاكٌ يومَ القيامةِ لكُلِّ طعَّانٍ عيَّابٍ للنَّاسِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٦، ٦٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢١)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٢١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٥٩).

قال ابنُ جُزَي: (﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ هو -على الجُملةِ- الَّذي يَعيبُ النَّاسَ ويأكُلُ أعراضَهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٢). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٤).

واختلَف المفسِّرون في الفَرْقِ بيْن الهُمَزةِ واللُّمَزةِ على أقوالٍ:

فقيل: الهُمَزَةُ: الَّذي يَعيبُ النَّاسَ مِن خَلْفِهم، واللُّمَزةُ: مَن يَعيبُهم مُواجَهةً. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والكرْمانيُّ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٣٧)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٨٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٧٨).

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٨٥).

وقيل بعَكسِ ذلك؛ فالهُمَزةُ: الَّذي يَطعُنُ في وَجهِ الرَّجُلِ، واللُّمَزةُ: الَّذي يَغتابُه مِن خَلْفِه إذا غاب. يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨١، ١٨٢).

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: أبو العاليةِ، والحَسَنُ، وعطاءُ بنُ أبي رَباحٍ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٧)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٨).

وقيل: الهَمَّازُ: بالقَولِ، واللَّمَّازُ: بالفِعلِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨١). =

= وقيل بعَكسِ ذلك؛ فالهَمَّازُ: الَّذي يَعيبُ النَّاسِ ويَطعُنُ عليهم بالإشارةِ والفعلِ. واللَّمَّازُ: الَّذي يَعيبُهم بقَولِه. وممَّن قال بهذا: أبو القاسِمِ النَّيْسابوريُّ، والسعديُّ، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((إيجاز البيان)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٨٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٥).

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: مجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٠٣).

قال ابنُ عاشور: (هُمَزةٌ: وَصفٌ مُشتَقٌّ مِنَ الهَمزِ، وهو: أن يَعيبَ أحدٌ أحدًا بالإشارةِ بالعَينِ أو بالشِّدقِ أو بالرَّأسِ، بحَضْرتِه أو عندَ تولِّيه... ولُمَزةٌ: وَصفٌ مُشتَقٌّ مِنَ اللَّمزِ، وهو المواجَهةُ بالعَيبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٧).

وذكر الزَّمَخْشريُّ أنَّ المرادَ: الكَسْرُ مِن أعراضِ النَّاسِ، والغَضُّ منهم، واغتيابُهم، والطَّعنُ فيهم، وتَبِعَه: البَيضاويُّ، وأبو السُّعودِ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٦٠).

وقال الفَرَّاءُ وأبو عُبَيدةَ والزَّجَّاجُ والشَّوكانيُّ: الهُمَزَةُ اللُّمَزَةُ: الَّذي يغتابُ النَّاسَ ويَغُضُّهم، والظَّاهِرُ عَدَمُ تَفريقِهم بيْنَهما. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٩)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣١١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٢).

ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٢).

وقيل: الهُمَزةُ اللُّمَزةُ: العيَّابُ الطعَّانُ، وكِلاهما بمعنًى واحِدٍ. وممَّن اختاره: ابنُ السِّكِّيت، والبِقاعيُّ، والعُليميُّ. يُنظر: ((إصلاح المنطق)) لابن السِّكِّيت (ص: ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٣٠).

وقال ابنُ أبي زَمَنِينَ: (هو الَّذي يَطعُنُ على النَّاسِ). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٦٢).

وقال النَّحَّاسُ: (يُقالُ: لَمَزه يَلمِزُه: إذا عابه، ومنه: فُلانٌ هُمَزةٌ لُمَزةٌ، أي: عَيَّابٌ للنَّاسِ، ويقالُ: اللُّمَزةُ هو الَّذي يَعيبُ في سِرٍّ، وإنَّ الهُمَزةَ هو الَّذي يُشيرُ بعَيْنَيه، وهذا كُلُّه يَرجِعُ إلى أنَّه يَعيبُ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٢٠).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٨).

قال الرَّازيُّ بعْدَ أن ذكَرَ الخِلافَ: (واعلَمْ أنَّ جميعَ هذه الوُجوهِ مُتَقارِبةٌ راجِعةٌ إلى أصلٍ واحدٍ، وهو الطَّعْنُ وإظهارُ العَيبِ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٤). ويُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٦٨).

قيل: نزَلَت هذه السُّورةُ في الأخنَسِ بنِ شَرِيقٍ؛ لأنَّه كان كثيرَ الوَقيعةِ في النَّاسِ، وقيل: في =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ [القلم: ١١].

﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢﴾.

أي: الَّذي جمَعَ مالًا كثيرًا وأحصى عدَدَه، فهو حريصٌ على حِفْظِه وعَدَمِ نَقْصِه، وألَّا يُنفِقَ منه في سَبيلِ اللهِ[1].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ۞ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النساء: ٣٦، ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨].

﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ٣﴾.

أي: يَظُنُّ هذا الحَريصُ على مالِه البَخيلُ به أنَّ ذلك سيُخَلِّدُه في الدُّنيا[2]!

= أُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ، وقيل: في الوَليدِ بنِ المُغيرةِ. قال ابنُ جُزَي: (ولَفْظُها مع ذلك على العُمومِ في كُلِّ مَنِ اتَّصَفَ بهذه الصِّفاتِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٢).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (ولا مُنافاةَ بيْنَ الأقوالِ، وأن يكونَ نَزَلت بسَبَبِ المذكورينَ، ولَفْظُها عامٌّ يَشملُ مَن نزَلَت فيه وغَيرَه). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

قال الزَّمخشريُّ: (أي: طوَّلَ المالُ أمَلَه، ومَنَّاه الأمانيَّ البعيدةَ، حتَّى أصبح لفَرطِ غَفلتِه وطُولِ أمَلِه يحسَبُ أنَّ المالَ تَرَكه خالِدًا في الدُّنيا لا يموتُ! أو يَعمَلُ مِن تَشييدِ البُنيانِ المُوثَقِ =

﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ هذا الإنسانُ؛ فلْيَرتَدِعْ عن ذلك! وأُقسِمُ لَيُطرَحَنَّ يومَ القيامةِ في النَّارِ الَّتي تَحطِمُ وتَكسِرُ ما يُلقَى فيها[1]!

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥﴾.

أي: وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ تلك الحُطَمةُ العظيمةُ الشَّأنِ[2]؟!

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦﴾.

أي: هي نارُ اللهِ المُسَعَّرةُ الَّتي تتوقَّدُ بالنَّاسِ والحِجارةِ[3].

= بالصَّخرِ والآجُرِّ وغَرْسِ الأشجارِ وعِمارةِ الأرضِ عَمَلَ مَن يَظُنُّ أنَّ مالَه أبقاه حيًّا، أو هو تعريضٌ بالعمَلِ الصَّالحِ، وأنَّه هو الَّذي أخلَدَ صاحِبَه في النَّعيمِ، فأمَّا المالُ فما أخلَدَ أحدًا فيه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٥).

وقال البِقاعيُّ: (يجوزُ أن يكونَ ذلك كنايةً عن أنَّه عَمِلَ بانهماكِه في المعاصي، والإعراضِ عن اللهِ عزَّ وجَلَّ، والإقبالِ على التَّوسُّعِ في الشَّهواتِ والأعراضِ الزَّائلاتِ؛ عَمَلَ مَن يظُنُّ أنَّه لا يموتُ!). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٤٥).

وقال السعدي: (﴿يَحۡسَبُ﴾ بجَهْلِه ﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ في الدُّنيا؛ فلذلك كان كَدُّه وسَعْيُه كُلُّه في تنميةِ مالِه الَّذي يظُنُّ أنَّه ينَمِّي عُمُرَه، ولم يَدْرِ أنَّ البُخلَ يَقصِفُ الأعمارَ، ويُخرِبُ الدِّيارَ، وأنَّ البِرَّ يَزيدُ في العُمُرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

وقال ابنُ عُثَيمين: (يعني: يظُنُّ هذا الرَّجُلُ أنَّ مالَه سيُخَلِّدُه ويُبْقيه؛ إمَّا بجِسْمِه، وإمَّا بذِكْرِه... أي: أخلَدَ ذِكْرَه، أو أطالَ عُمُرَه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٩، ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٧).

كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧﴾.

أي: الَّتي تبلُغُ مِن شِدَّتِها قُلوبَ الكافِرينَ وتَنفُذُ إليها[١]!

﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الاطِّلاعُ على الفُؤادِ مَظِنَّةَ الموتِ، وفي الموتِ راحةٌ مِنَ العذابِ؛ أشار إلى خُلودِهم فيها، وأنَّهم لا يموتونَ ولا ينقَطِعُ عنهم العذابُ؛ فقال[٢]:

﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨﴾.

أي: إنَّ تلك النَّارَ مُطبَقةٌ على أولئك الَّذين تقدَّمَ ذِكرُ صِفاتِهم، ومُغلَقةٌ أبوابُها عليهم[٣].

﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ٩﴾.

أي: مُطبَقةٌ ومَسدودةٌ بأعمِدةٍ ممدودةٍ في النَّارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٢)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٧).
قال ابنُ عطيَّة: (يحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: أنَّها لا يَتجاوَزُها أحدٌ حتَّى تأخُذَه بواجِبِ عقيدةِ قَلْبِه ونيَّتِه، فكأنَّها مُطَّلِعةٌ على القُلوبِ بإطْلاعِ اللهِ تعالى إيَّاها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٢)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٦)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٣)، ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ: حكى اللهُ سُبحانَه وتعالى ذلك علينا، وبيَّنَه لنا في هذه السُّورةِ لا لمجرَّدِ أنْ نتلوَه بألسِنَتِنا، أو نَعرِفَ معناه بأفهامِنا، لكنَّ المرادَ أنْ نَحذَرَ مِن هذه الأوصافِ الذَّميمةِ: عَيبِ النَّاسِ بالقَولِ، وعَيبِ النَّاسِ بالفِعلِ، والحِرْصِ على المالِ، حتَّى كأنَّ الإنسانَ إنَّما

= السعدي)) (ص: ٩٣٤).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ معنى ذلك: أنَّ الأبوابَ مُوصَدةٌ بعَمَدٍ: الزمخشريُّ، وابنُ القيِّمِ، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال الزمخشري: (والمعنى: أنَّه يُؤكِّدُ يَأسَهُم مِن الخُروجِ وتَيَقُّنَهم بحَبسِ الأبَدِ، فتُؤصَدُ عليهم الأبوابُ، وتُمدَّدُ على الأبوابِ العُمُدُ؛ استِيثاقًا في استِيثاقٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٦). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٣٧).

وقال السمعاني: (أَولى الأقاويلِ هو أنَّها مُطبَقةٌ بعَمَدٍ، يعني: مسدودةً). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٨١).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ أي: ممدودةٍ على جميعِ النَّواحي والزَّوايا؛ حتَّى لا يتمكَّنَ أحدٌ مِن فَتْحِها أو الخروجِ منها). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٨).

وقال الواحديُّ في المُرادِ بالعَمَدِ: (الَّذي عليه الأكثرُ: أنَّها أوتادُ الأَطباقِ الَّتي تُطبَقُ على أهلِ النَّارِ). ((البسيط)) (٢٤/ ٣١٥).

وقال ابنُ عاشور: (قوله: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ حالٌ: إمَّا مِن ضَميرِ «عليهم» أي: في حالِ كَونِهم في عَمَدٍ، أي: مَوثُوقِينَ في عَمَدٍ... وإمَّا حالٌ مِن ضَميرِ «إنَّها»، أي: أنَّ النَّارَ المُوقَدةَ في عَمَدٍ، أي: مُتوسِّطةٌ عَمدًا كما تكونُ نارُ الشِّواءِ إذ تُوضَعُ عَمَدٌ وتُجعَلُ النَّارُ تَحتَها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤١، ٥٤٢).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ أنَّهم مُوثَقونَ في عَمَدٍ: البيضاويُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٨).

وقيل: المعنى: أنَّهم يُعذَّبونَ بعَمَدٍ في النَّارِ، واللهُ أعلَمُ بصفةِ تعذيبِهم بها. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٦).

خُلِقَ للمالِ لِيَخلُدَ له، أو يَخلُدَ المالُ له[١]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ هذانِ الوَصفانِ مِن مُعاملةِ أهلِ الشِّركِ للمُؤمِنينَ يومَئذٍ، ومَن عامَلَ مِنَ المسلمينَ أحدًا مِن أهلِ دينِه بمِثلِ ذلك، كان له نصيبٌ مِن هذا الوَعيدِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ﴾ ذكَرَه بلَفْظِ (النَّبذِ) الدَّالِّ على الإهانةِ؛ لأنَّ الكافِرَ كان يَعتقِدُ أنَّه مِن أهلِ الكَرامةِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ﴾ الفائِدةُ في ذِكْرِ جَهنَّمَ بهذا الاسمِ هاهنا مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: الاتِّحادُ في الصُّورةِ، كأنَّه تعالى يقولُ: إنْ كُنتَ هُمَزةً لُمَزةً، فوراءَكَ الحُطَمةُ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ الهامِزَ بكَسْرِ عَينٍ لِيَضعَ قَدْرَه فيُلقيَه في الحضيضِ، فيقولُ تعالى: وراءَكَ الحُطَمةُ، وفي الحَطْمِ كَسرٌ، فالحُطَمةُ تَكسِرُك وتُلْقيك في حَضيضِ جَهنَّمَ، لكِنَّ الهُمَزةَ ليس إلَّا الكَسرَ بالحاجِبِ، أمَّا الحُطَمةُ فإنَّها تكسِرُ كَسرًا لا تُبْقي ولا تَذَرُ!

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ الهمَّازَ اللَّمَّازَ يأكُلُ لحمَ النَّاسِ، والحُطَمةَ أيضًا اسمٌ للنَّارِ؛ مِن حيثُ إنَّها تأكُلُ الجِلدَ واللَّحمَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- تأمَّلْ قولَه تعالى: ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ مع فِعْلِ هذا الفاعلِ ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، فـ «حُطَمَةٌ» «هُمَزَةٌ لُمَزَةٌ» على وزنٍ واحدٍ؛ لِيكونَ الجزاءُ مُطابقًا للعَمَلِ حتَّى في اللَّفظِ[١]!

٤- قال تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾، ووَصْفُ نارٍ بـ(مُوقَدة) يُفيدُ أنَّها لا تَزالُ تَلتهِبُ ولا يَزولُ لَهيبُها؛ فليس الوصْفُ بالمُوقَدةِ هنا تَأكيدًا[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ يُفيدُ المبالغةَ في العَذابِ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ قَولَه: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ يَقتضي أنَّه موضِعٌ له قَعرٌ عَميقٌ جِدًّا كالبئرِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه لو شاء يجعَلُ ذلك الموضِعَ بحيثُ لا يكونُ له بابٌ، لكِنَّه بالبابِ يُذَكِّرُهم الخروجَ؛ فيَزيدُ في حَسْرتِهم.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّه قال: ﴿عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾، ولم يقُلْ: (مُؤصَدةٌ عليهم)؛ لأنَّ قَولَه: ﴿عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ يُفيدُ أنَّ المقصودَ أوَّلًا كونُهم بهذه الحالةِ، وقَولَه: (مُؤصَدةٌ عليهم) لا يفيدُ هذا المعنى بالقَصْدِ الأوَّلِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾

- يَجوزُ أنْ يكونَ السَّببُ في نُزولِها خاصًّا والوعيدُ عامًّا؛ ليَتناوَلَ كلَّ مَن باشَرَ ذلك القَبيحَ، وليَكونَ جاريًا مَجرى التَّعريضِ بالواردِ فيه؛ فإنَّ ذلك أزجَرُ له وأنْكى فيه، فإذا كان الواردُ فيه الأخنَسَ أو أُميَّةَ أو الوليدَ، ويُجاءُ باللَّفظِ على العُمومِ تَعريضًا، كان أزجَرَ له وأنْكى فيه؛ إذ لم يُصرَّحْ باسْمِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٦).

حتَّى يَلبَسَ لِمَن كافَحَه به جِلدَ النَّمرِ، بلْ يَبعَثُه على الفِكرِ في أحوالِ نفْسِه، وأنَّه هلْ دَخَلَ في هذا العامِّ أوَّلَ النَّاسِ بما اغتابَ به خَيرَ البَريَّةِ ونقَصَ مِن حقِّه[١]؟

- كَلمةُ (وَيْلٌ له) دُعاءٌ على المَجرورِ اسمُه باللَّامِ بأنْ يَنالَه الوَيلُ، وهو سُوءُ الحالِ، والدُّعاءُ هنا مُستعمَلٌ في الوعيدِ بالعِقابِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ ...﴾، وقال في سُورةِ (الأنبياءِ): ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾ [الأنبياء: ١٨]؛ لأنَّ ثَمَّةَ قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤]، فقال: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾، وهاهنا نكَّرَ؛ لأنَّه لا يَعلَمُ كُنْهَه إلَّا اللهُ[٣].

- وكَلمةُ (كلّ) تُشعِرُ بأنَّ المُهدَّدينَ بهذا الوعيدِ جَماعةٌ، وهم الَّذين اتَّخَذوا هَمْزَ المسلِمينَ ولَمْزَهم دَيدنًا لهم، فعَمَّ حُكمُها الَّذين نَزَلَتْ فيهم السُّورةُ ومَن كان على شاكِلتِهم مِن المشركينَ ولم تُذكَرْ أسْماؤهمْ[٤].

- قولُه: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ بناءُ (فُعَلَة) مِن أبْنيةِ المُبالَغةِ، يدُلُّ على كَثرةِ صُدورِ الفِعلِ المُصاغِ منه، وعلى تَمكُّنِ الوصْفِ مِن الموصوفِ، وأنَّ ذلك صار عادةً لِصاحِبِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٥)، ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٥، ٥٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٦، ٥٣٧).

- وقَعَ قولُه: ﴿هُمَزَةٍ﴾ وَصْفًا لمَحذوفٍ تَقديرُه: وَيلٌ لكلِّ شَخصٍ هُمَزةٍ، فلمَّا حُذِفَ مَوصوفُه صار الوصْفُ قائمًا مَقامَه، فأُضيفَ إليه (كلّ)[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ أُتبِعَ قولُه: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾؛ لزِيادةِ تَشنيعِ صِفتَيْه الذَّميمتَينِ بصِفةِ الحِرصِ على المالِ، وإنَّما يَنشَأُ ذلك عن بُخلِ النَّفْسِ، والتَّخوُّفِ مِن الفقْرِ، والمَقصودُ مِن ذلك دُخولُ أولئك الَّذين عُرِفوا بهَمْزِ المسلمينَ ولَمْزِهم الَّذين قِيل: إنَّهم سَببُ نُزولِ السُّورةِ؛ لتَعيينِهم في هذا الوعيدِ[٢].

- وتَنكيرُ ﴿مَالًا﴾؛ للتَّفخيمِ والتَّكثيرِ المُوافقِ لقَولِه تعالَى: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾[٣].

- قولُه: ﴿جَمَعَ مَالًا﴾ قُرِئَ ﴿جَمَّعَ﴾ بالتَّشديدِ[٤]؛ مُزاوِجًا لقولِه: (عَدَّدَهُ)، وهو مُبالَغةٌ في (جَمَعَ)، وعلى قِراءةِ التَّخفيفِ دلَّ تَضعيفُ (عَدَّدَهُ) على معْنى تَكلُّفِ جَمْعِه بطَريقِ الكِنايةِ؛ لأنَّه لا يُكرِّرُ عدَّه إلَّا ليَزيدَ جَمْعَه[٥].

- ومعْنى (عَدَّدَهُ): أكثَرَ مِن عَدِّه، أي: حِسابِه؛ لشِدَّةِ وَلَعِه بجَمْعِه؛ فالتَّضعيفُ للمُبالَغةِ في (عدَّ) ومُعاوَدتِه[٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ هذِه الجُملةُ حالًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨).

(٤) قرأ أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ وحَمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ ورَوحٌ بتَشديدِ الميمِ، وقرأ الباقونَ بتَخفيفِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٨).

مِن ﴿هُمَزَةٍ﴾؛ فيكونَ مُستعمَلًا في التَّهكُّمِ عليه في حِرصِه على جمْعِ المالِ وتَعديدِه؛ لأنَّه لا يُوجَدُ مَن يَحسَبُ أنَّ مالَه يُخلِدُه، فيكونَ الكلامُ مِن قَبيلِ التَّمثيلِ، أو تكونَ الحالُ مُرادًا بها التَّشبيهُ، وهو تَشبيهٌ بَليغٌ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُستأنَفةً، والخبَرُ مُستعمَلًا في الإنكارِ، أو على تَقديرِ هَمزةِ استفهامٍ مَحذوفةٍ مُستعمَلًا في التَّهكُّمِ أو التَّعجيبِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُستأنَفةً استئنافًا بَيانيًّا واقعًا في سُؤالٍ، كأنَّه قِيلَ: ما بالُه يَجمَعُ المالَ ويَهتَمُّ به[1]؟

- وإظهارُ قولِه: ﴿مَالَهُۥٓ﴾ في مَوقعِ الإضمارِ؛ لزِيادةِ التَّقريرِ[2].

- وجِيءَ بصِيغةِ المُضيِّ في ﴿أَخۡلَدَهُۥ﴾ لتَنزيلِ المُستقبَلِ مَنزلةَ الماضي؛ لتَحقُّقِه عندَه، وذلك زِيادةٌ في التَّهكُّمِ به بأنَّه مُوقِنٌ بأنَّ مالَه يُخلِدُه حتَّى كأنَّه حَصَل إخلادُه وثَبَت[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾

- ﴿كَلَّا﴾ إبطالٌ لأنَ يكونَ المالُ مُخْلِدًا لهم، وزجْرٌ عن التَّلبُّسِ بالحالةِ الشَّنيعةِ الَّتي جَعَلَتْهم في حالِ مَن يَحسَبُ أنَّ المالَ يُخلِدُ صاحِبَه، أو إبطالٌ للحِرصِ في جمْعِ المالِ جمْعًا يَمنَعُ به حُقوقَ اللهِ في المالِ مِن نَفَقاتٍ وزَكاةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٩).

- قولُه تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عمَّا تَضمَّنَتْه جُملةُ ﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ مِن التَّهكُّم والإنكارِ، وما أفادَه حرْفُ الزَّجرِ مِن معْنى التَّوعُّدِ، واللَّامُ جَوابُ قسَمٍ مَحذوفٍ. وهذا الاستئنافُ مُبيِّنٌ لعِلَّةِ الرَّدعِ، أيْ: واللهِ لَيُطرَحَنَّ -بسَببِ تَعاطيه للأفعالِ المَذكورةِ- في الحُطَمةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ بعْدَ ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ مُقابَلةٌ لَفظيَّةٌ رائعةُ البلاغةِ؛ فإنَّه لَمَّا وَسَمَه بهذه السِّمةِ بصِيغةٍ دلَّت على أنَّها راسخةٌ فيه ومُتمكِّنةٌ منه، أتْبَعَ المُبالَغةَ المُتكرِّرةَ في الهُمَزةِ واللُّمَزةِ بوَعيدِه بالنَّارِ الَّتي سمَّاها الحُطَمةَ؛ لِما يُكابِدُ فيها مِن هَولٍ، ويَلقى فيها مِن عَذابٍ، واختارَ في تَعيينِها صِيغةَ مُبالَغةٍ على وَزْنِ الصِّيغةِ الَّتي ضمَّنَها الذَّنْبَ المُقترَفَ حتَّى يَحصُلَ التَّعادُلُ بيْن الذَّنْبِ والجزاءِ، فهذا الَّذي ضَرِيَ بالذَّنْبِ[٢] جَزاؤه هذه الحُطَمةُ الَّتي هي ضاريةٌ أيضًا تَحطِمُ كلَّ ما يُلْقى فيها[٣].

- والظَّاهرُ أنَّ اللَّامَ في ﴿ٱلۡحُطَمَةِ﴾ لتَعريفِ العهْدِ؛ لأنَّه اعتُبِرَ الوصْفُ عَلَمًا بالغَلَبةِ على شَيءٍ يَحطِمُ، وأُرِيدَ بذلك جَهنَّمُ، وأنَّ إطلاقَ هذا الوصْفِ على جهنَّمَ مِن مُصطَلحاتِ القرآنِ، وليس في كَلامِ العرَبِ إطلاقُ هذا الوصْفِ على النَّارِ[٤].

- وجُملةُ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ في موضعِ الحالِ مِن قولِه: ﴿ٱلۡحُطَمَةُ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٩).

(٢) ضَرِيَ بالشَّيءِ: أي: اعتادَه ولَهِجَ به. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٨٦)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٧٩٥)، ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٦٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٨٠، ٥٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٠).

والرَّابطُ إعادةُ لَفظِ الحُطَمةِ، وذلك إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ للتَّهويلِ. وأيضًا ما فيها مِن الاستفهام، وفِعلِ الدِّرايةِ يُفيدُ تَهويلَ الحُطَمةِ، ببَيانِ أنَّها ليستْ مِنَ الأُمورِ الَّتي تَنالُها عُقولُ الخلْقِ[١].

- وجُملةُ ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ جَوابٌ عن جُملةِ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾، مُفيدٌ مَجموعُهما بَيانَ الحُطَمةِ ما هيَ، ومَوقعُ الجُملةِ مَوقعُ الاستئنافِ البَيانيِّ، والتَّقديرُ هي -أي: الحُطَمةُ- نارُ اللهِ، فحُذِفَ المُبتدَأُ مِن الجُملةِ جَرْيًا على طَريقةِ استعمالِ أمثالِه مِن كلِّ إخبارٍ عن شَيءٍ بعْدَ تَقدُّمِ حَديثٍ عنه وأوصافٍ له[٢].

- وإضافةُ ﴿نَارُ﴾ إلى اسمِ الجَلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ للتَّرويعِ بها بأنَّها نارٌ خَلَقَها القادرُ على خلْقِ الأُمورِ العَظيمةِ؛ ففي إضافتِها إليهِ سُبحانَه، ووَصْفِها بالإيقادِ مِن تَهويلِ أمْرِها ما لا مَزيدَ عليهِ[٣].

- وكذلِك وُصِفَت ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ وَصْفًا ثانيًا بـ ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾، والاطِّلاعُ يَجوزُ أنْ يكونَ بمعْنى الإتيانِ مُبالَغةً في (طَلَعَ)، أي: الإتيانُ السَّريعُ بقوَّةٍ واستيلاءٍ؛ فالمعْنى: الَّتي تَنفُذُ إلى الأفئدةِ فتُحرِقُها في وَقتِ حَرْقِ ظاهرِ الجسَدِ[٤].

- وتَخصيصُ الأفئدةِ بالذِّكرِ؛ لأنَّ الفُؤادَ ألْطَفُ ما في البدَنِ وأشدُّه تَألُّمًا بأدْنى أذًى يَمَسُّه، فكيف إذا اطَّلَعَت عليه نارُ جَهنَّمَ واستَولَتْ عليه؟! أو لأنَّها مَواطنُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

وتقدَّم تعريفُ متابعةِ الاستعمالِ (ص: ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤١).

الكفْرِ، والعَقائدِ الفاسِدةِ، والنِّيَّاتِ الخبيثةِ، ومَنشأُ الأعمالِ القَبيحةِ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ هذه الجُملةُ يَجوزُ أنْ تكونَ صِفةً ثالثةً لـ ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ [الهمزة: ٦] بدونِ عاطفٍ. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُستأنَفةً استئنافًا ابتدائيًّا، وتَأكيدُها بـ(إنَّ)؛ لتَهويلِ الوعيدِ[٢] والتَّأكيدُ أيضًا لأنَّهم يُكذِّبونَ بها[٣].

- قولُه: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ المُمدَّدةُ: المَجعولةُ طَويلةً جدًّا، وهو اسمُ مَفعولٍ مِن (مدَّدَه)، إذا بالَغَ في مَدِّه، أي: الزِّيادةِ فيه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤١، ٥٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٢).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ الفِيلِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الفِيلِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفِيل)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الفِيل مكِّيَّةٌ، نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

١- بَيانُ ما فُعِلَ بأصحابِ الفيلِ[٣].

٢- تَثبيتُ المؤمنينَ على الحَقِّ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

بَيانُ جَزاءِ أصحابِ الفِيلِ، ومَكْرِهم، ورَدِّ كَيدِهم في نَحرِهم، وما نَزلَ بهم مِن العُقوبةِ، وما آلَ إليه أمْرُهم مِن سُوءِ العاقِبةِ.

---

(١) سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بذلك؛ لذِكرِ حادِثةِ الفيلِ فيها في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٤).

وسُمِّيتْ أيضًا: سورةَ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٣).

(٢) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٥٠٩).

الآيات (١-٥)

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَيْدَهُمْ﴾: أي: مَكْرَهم، وسَعْيَهم في تخريبِ الكعبةِ، واستِباحةِ أهلِها، وأصلُ (كيد): يدُلُّ على مُعالَجةٍ لشَيءٍ بشِدَّةٍ، وكلُّ شُيءٍ تُعالِجُه فأنتَ تَكيدُه[١].

﴿تَضْلِيلٍ﴾: أي: تَضييعٍ وبُطلانٍ وذَهابٍ، وأصلُ (ضلل): يدُلُّ على ضَياعِ الشَّيءِ وذَهابِه في غيرِ حقِّه[٢].

﴿أَبَابِيلَ﴾: أي: كثيرةً مُتفرِّقةً يَتبَعُ بَعضُها بَعضًا، كقَطيعِ الإبِلِ، قيل: واحِدُها إبَّالةٌ وإبُّولٌ وإبِّيلٌ. وقيل: هو جَمْعٌ لا واحِدَ له[٣].

﴿سِجِّيلٍ﴾: أي: طينٍ مُتحَجِّرٍ، وقيل: أصلُها فارسيٌّ (سَنك وكِل) أي: الحَجَر والطِّين[٤].

﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾: أي: كزَرعٍ وتِبْنٍ أكلَتْه الدَّوابُّ فراثَتْه، فيَبِسَ وتفرَّقَت أجزاؤُه، أو كوَرَقِ زَرْعٍ قد أكَلَتْ منه الدَّوابُّ وبَقِيَ منه بَقايا، أو أكَلَتْ حَبَّه فبَقِيَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٥٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٢/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٥٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧).

بِدونِ حَبِّه، وقيل: المرادُ بالعَصفِ قِشرُ البُرِّ، يعني: الغِلافَ الَّذي تكونُ فيه حَبَّةُ القَمحِ. وأصلُ (عصف): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائِلًا له: ألَمْ تَرَ -يا محمَّدُ- كيف فَعَل رَبُّك بجَيشِ أَبرَهةَ الَّذين صَحِبوا الفِيلَ لهَدْمِ الكَعبةِ؟ ألم يَجعَلِ اللهُ سَعْيَهم في هَدْمِ الكَعبةِ في ضلالٍ وضَياعٍ؟ وأرسَلَ عليهم جَماعاتٍ كثيرةً مِنَ الطَّيرِ يَتبَعُ بَعضُها بعضًا، ترميهم بحِجارةٍ مِن طينٍ صُلبٍ يابِسٍ؛ فجعَلَهم اللهُ مِثلَ زَرعٍ أكلَتْه الدَّوابُّ فراثَتْه، فيَبِسَ وتفرَّقَت أجزاؤُه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾.

أي: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- كيف فَعَل رَبُّك بجَيشِ أَبرَهةَ الحَبَشيِّ مَلِكِ اليَمَنِ، الَّذين صَحِبوا الفِيلَ، واتَّجَهوا إلى مكَّةَ لهَدْمِ الكَعبةِ[٢]؟

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

قال البيضاوي: (الخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو وإنْ لم يَشهَدْ تلك الوقعةَ لكنْ شاهَدَ آثارَها، وسَمِعَ بالتَّواتُرِ أخبارَها، فكأنَّه رَآها). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٩). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٥).

وقال أبو السعود: (والرُّؤيةُ عِلميَّةٌ. أي: ألم تَعلَمْ عِلمًا رَصينًا متاخمًا للمُشاهَدةِ والعَيانِ، باستِماعِ الأخبارِ المُتواتِرةِ، ومُعايَنةِ الآثارِ الظَّاهِرةِ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٠).

وقال ابن جرير: (ألم تَنظُرْ يا محمَّدُ بعَيْنِ قلبِك، فترى بها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٧).=

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا فَتَح اللهُ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَكَّةَ، قام في النَّاسِ فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثمَّ قال: إنَّ اللهَ حَبَس عن مَكَّةَ الفِيلَ، وسَلَّط عليها رَسولَه والمؤمِنينَ، فإنَّها لا تَحِلُّ لأحدٍ كان قَبْلي، وإنَّها أُحِلَّت لي ساعةً مِن نهارٍ، وإنَّها لا تَحِلُّ لأحدٍ بَعْدي))(١).

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾.

أي: ألم يَجعَلِ اللهُ سَعْيَهم في هَدْمِ الكَعبةِ، وصَرْفِ النَّاسِ عنها: في ضلالٍ وضَياعٍ؛ فلم يَتِمَّ لهم مَكْرُهم الَّذي اجتَهَدوا في حُصولِه(٢)؟

= وقال ابن عاشور: (ويجوزُ أن تكونَ الرُّؤيةُ بَصريَّةً بالنِّسبةِ لِمَن تَجاوَزَ سِنُّه نَيِّفًا وخمسينَ سَنةً عندَ نُزولِ الآيةِ، ممَّن شَهِدَ حادِثَ الفيلِ غُلامًا أو فَتًى). يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٥).

وقال القرطبي: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولكِنَّه عامٌّ، أي: ألَمْ تَرَوا ما فعَلْتُ بأصحابِ الفِيلِ؟ أي: قد رأيتُم ذلك، وعرَفْتُم مَوضِعَ مِنَّتي عليكم، فما لَكم لا تؤمِنونَ؟!). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قد تواتَرَت قِصَّةُ أصحابِ الفيلِ، وأنَّ أهلَ الحَبَشةِ النَّصارى سارُوا بجَيشٍ عظيمٍ، معهم فيلٌ؛ لِيَهدِموا الكَعبةَ لَمَّا أهانَ بعضُ العَرَبِ كنيستَهم الَّتي باليَمَنِ، فقَصَدوا إهانةَ الكعبةِ، وتعظيمَ كنايسِهم؛ فأرسلَ اللهُ عليهم طيرًا أهلَكَهم، وكان ذلك عامَ مَولِدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((الجواب الصحيح)) (٦/ ٥٥). ويُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٩٤).

وقال الرسعني: (كان مِن حديثِ أصحابِ الفيلِ فيما ذكَر بعضُ أهلِ العلمِ عن سعيدِ بنِ جبيرٍ وعكرمةَ عن ابنِ عباسٍ وعمَّن لقي مِن علماءِ أهلِ اليمنِ وغيرِهم: أنَّ أبرهةَ بنَ الصباحِ الأشرمَ -مَلِكَ اليمنِ- بنَى كنيسةً بصنعاءَ، وسمَّاها «القُلَّيس»، وأراد أنْ يصرِفَ إليها حجَّ العربِ، فخرَجَ رجلٌ مِن كنانةَ فقَعَد فيها [أي: أحدَث] ليلًا، فبلَغ أبرهةَ ذلك، فقال: مَن اجترأ على ذلك؟ فقيل: رجلٌ مِن العربِ مِن أهلِ ذلك البيتِ، سمِع بالذي قلتَ، فصنَع هذا، فحلَف ليسيرَنَّ إلى الكعبةِ حتَّى يهدمَها). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٣٢).

وقال ابن عطيَّة: (الجُمهورُ على أنَّه فيلٌ واحِدٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٣).

(١) رواه البخاريُّ (٢٤٣٤)، ومسلمٌ (١٣٥٥) مطوَّلًا.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ ﴾.

أي: وأرسَلَ اللهُ عليهم جماعاتٍ كثيرةً مُتفرِّقةً مِنَ الطُّيورِ يَتبَعُ بَعضُها بعضًا، فَوجًا بعْدَ فَوجٍ[١].

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: تَرمي تلك الطُّيورُ أصحابَ الفِيلِ بحِجارةٍ مِن طينٍ صُلبٍ يابِسٍ[٢].

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾.

أي: فجعَلَهم اللهُ مِثلَ زَرعٍ أكلَتْه الدَّوابُّ فراثَتْه، فيَبِسَ وتفرَّقَت أجزاؤُه[٣]!

= (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٢٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٣٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٤).

وممَّن ذهب إلى المعنى المذكور: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ عطيَّةَ، والرَّسْعَنيُّ، والخازنُ، والعُلَيميُّ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٣٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٦).

وقيل: جعَلَهم كوَرَقِ الزَّرْعِ الَّذي جَفَّ وأُكِلَ: أي: وقَعَ فيه الأُكَالُ، وهو أن يأكلَه الدُّودُ ويجوفَه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٥٨).

وقيل: المعنى: كزَرعٍ أكلَتْه الدَّوابُّ وداسَتْه بأقدامِها حتى تفتَّتَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥١)، ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في مُجْمَلِ هذه السُّورةِ العظيمةِ بيانُ ما فُعِلَ بأصحابِ الفيلِ، وأنَّ كيدَهم صار في نُحورِهم، وهكذا كلُّ مَن أراد الحقَّ بسوءٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَجعَلُ كَيدَه في نَحْرِه[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ فيه تذكيرٌ بأنَّ اللهَ تعالى غالِبٌ على أمْرِه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ تضَمَّن التَّذكيرَ بأنَّ الكعبةَ حَرَمُ اللهِ، وأنَّ اللهَ حماه ممَّن أرادوا به سُوءًا[٣].

٢- في تسليطِه سُبحانَه لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على هذا البلدِ، وتمليكِه إيَّاه ولأُمَّتِه مِن بعْدِه: ما دلَّ على صِحَّةِ نُبُوَّتِه؛ فإنَّ اللهَ حَبَسَ عنه مَن يريدُه بالأذى، وأهلَكَه؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ

= ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٠).

وقيل: المأكولُ يعني البالي. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٥٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٢٢).

قال ابنُ جُزَي: (وفي تَشْبيههم به ثلاثةُ أوجُه:

الأوَّلُ: أنَّه شَبَّههم بالتِّبنِ إذا أكلَتْه الدَّوابُّ ثمَّ راثَتْه، فجَمَع التَّلَفَ والخِسَّةَ، ولكِنَّ اللهَ كنَّى عن هذا على حَسَبِ أدَبِ القُرآنِ.

الثَّاني: أنَّه أراد وَرَقَ الزَّرعِ إذا أكلَتْه الدُّودُ.

الثَّالِثُ: أنَّه أراد كعَصْفٍ مأكولٍ زَرْعُه وبَقِيَ هو لا شَيءَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٤٣، ٥٤٤).

* وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾، ثُمَّ سَلَّطَ عليه رَسولَه وأُمَّتَه، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ حَبَسَ عن مكَّةَ الفيلَ، وسَلَّطَ عليها رسولَه والمؤمِنينَ))[١]؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأُمَّتَه إنَّما كان قَصْدُهم تعظيمَ البَيتِ وتكريمَه واحترامَه؛ ولهذا أنكَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ الفتحِ على مَن قال: اليومَ تُستَحَلُّ الكعبةُ! وقال: ((هذا يومٌ يُعَظِّمُ الله فيه الكعبةَ))[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، مع أنَّ هذه الواقِعةَ وقَعَت قبْلَ المبعَثِ بزمانٍ طويلٍ؟!

الجوابُ: المرادُ مِن الرُّؤيةِ العِلمُ والتَّذكيرُ، وهو إشارةٌ إلى أنَّ الخبَرَ به متواتِرٌ، فكان العِلمُ الحاصِلُ به ضروريًّا مُساويًا في القوَّةِ والجَلاءِ للرُّؤيةِ؛ ولهذا السَّبَبِ قال لغَيرِه على سَبيلِ الذَّمِّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [يس: ٣١]، لا يُقالُ: فلِمَ قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]؛ لأنَّ الفَرقَ أنَّ ما لا يُتصَوَّرُ إدراكُه لا يُستَعمَلُ فيه إلَّا العِلمُ؛ ككَونِه قادرًا، وأمَّا الَّذي يُتصَوَّرُ إدراكُه كفِرارِ الفِيلِ فإنَّه يجوزُ أن يُستعمَلَ فيه الرُّؤيةُ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ لم يتكَرَّرْ في القُرآنِ ذِكرُ إهلاكِ أصحابِ الفيلِ خِلافًا لقَصَصِ غَيرِهم مِن الأُمَمِ؛ لوَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ إهلاكَ أصحابِ الفيلِ لم يكُنْ مِن أجْلِ تكذيبِ رَسولٍ مِنَ اللهِ.

الوَجهُ الثَّاني: ألَّا يتَّخِذَ منه المشرِكونَ غُرورًا بمكانةٍ لهم عندَ اللهِ، كغُرورِهم

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٩٤).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٤٢٨٠) مِن حديثِ عُروةَ بنِ الزُّبَيرِ.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٩).

بقَولِهم المحكيِّ في قَولِه تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩] الآيةَ، وقَولِه: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] [الأنفال: ٣٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾، فيه سؤالٌ: أنَّ أصحابَ هذا الجَيشِ نَصارى، وهُم أهْلُ دِينٍ وكِتابٍ، وأهلُ مكَّةَ وَثَنِيُّونَ لا دِينَ لهم، والكَعبةُ مُمتَلِئةٌ بالأصنامِ، فكيف أهلَكَ اللهُ النَّصارَى أصحابَ الدِّينِ، ولم يُسَلِّطْهم على الوَثَنِيِّينَ؟

الجَوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ الجَيشَ ظالِمٌ باغٍ، والبَغيُ مَرتَعُه وَخِيمٌ، ولو كان المَظلومُ أقلَّ مِن الظَّالِمِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الوَثَنِيَّةَ اعتِداءٌ على حَقِّ اللهِ في العِبادةِ، وغَزوَ هذا الجَيشِ اعتِداءٌ على حُقوقِ العِبادِ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّه إرهاصٌ لمَولدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إذ وُلِدَ في هذا العامِ نَفْسِه.

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّ الأصلَ في نَشأةِ البَيتِ وإقامتِه، إنَّما هو اللهُ الَّذي أمَر برفعِ قَواعِدِه، وإقامةِ... في رِحابِه، وكان طاهِرًا مُطَهَّرًا للعاكِفينَ فيه والرُّكَّعِ السُّجودِ، وإنَّما الوَثَنِيَّةُ طارِئةٌ عليه، وإلى أَمدٍ قَصيرٍ مَداهُ، ودَنا مُنتهاهُ لدِينٍ جَديدٍ. والمَسيحِيَّةُ بنَفْسِها تَعلمُ ذلك، وتَنُصُّ عليه، وتُبَشِّرُ به، فكانت مُعتَدِيةً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٤).

على الحَقَّيْنِ معًا: حَقِّ الله في بَيتِه، والَّذي تَعلَمُ حُرْمتَه وما لَه، وحَقِّ العِبادِ الَّذين حَولَه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ الهَمْزةُ للاستفهامِ التَّقريريِّ، وهو يُفيدُ نفْيَ المُقرَّرِ بإثباتِه؛ للثِّقةِ بأنَّ المُقرَّرَ لا يَسَعُه إلَّا إثباتُ المَنفيِّ، والتَّقريرُ مُستعمَلٌ في التَّكريمِ؛ إشارةً إلى أنَّ ذلك كان إرهاصًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفيه مع ذلك تَعريضٌ بكُفرانِ قُرَيشٍ نِعمةً عَظيمةً مِن نِعَمِ اللهِ عليهم؛ إذْ لم يَزالوا يَعبُدون غيرَه[٢]!

- وتَعليقُ الرُّؤيةِ بكَيفيَّةِ فِعلِه عزَّ وجَلَّ لا بنفْسِه، وإيثارُ ﴿كَيْفَ﴾ دونَ غيرِه مِن أسماءِ الاستِفهامِ، أو المَوصولِ، فلم يقلْ: (ألم تَرَ ما فعَل ربُّك)، أو (الَّذي فعَلَ ربُّكَ)؛ للدَّلالةِ على حالةٍ عَجيبةٍ يَستحضِرُها مَن يَعلمُ تَفصيلَ القِصَّةِ، ولتَهويلِ الحادثةِ، والإيذانِ بوُقوعِها على كَيفيَّةٍ هائلةٍ، وهَيئةٍ عَجيبةٍ دالَّةٍ على عِظَمِ قُدرةِ اللهِ تعالَى، وكَمالِ عِلمِه وحِكمتِه، وعِزَّةِ بَيتِه، وشَرَفِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ ذلك مِن الإرهاصاتِ؛ إذ رُوِيَ أنَّها وَقَعَت في السَّنةِ الَّتي وُلِدَ فيها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

- وأيضًا أُوثِرَ لَفظُ ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ دونَ غيرِه؛ لأنَّ مَدلولَ هذا الفِعلِ يعُمُّ أعمالًا كَثيرةً لا يدُلُّ عليها غيرُه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٠٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٤، ٥٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٥).

- وجِيءَ في تَعريفِ اللهِ سُبحانَه بوَصْفِ (ربّ) مُضافًا إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إيماءً إلى أنَّ المَقصودَ مِن التَّذكيرِ بهذه القصَّةِ تَكريمُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَشريفُه وإشادةٌ مِن ذِكْرِه، إرْهاصًا لنُبوَّتِه؛ إذ كان ذلك عامَ مَولِدِه، كأنَّه قال: ربُّك مَعبودُك هو الَّذي فعَلَ ذلك، لا أصنامُ قُرَيشٍ؛ إسافٌ، ونائلةُ، وغيرُهما[١].

٢- قولُه: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ بَيانٌ إجْماليٌّ لِمَا فعَلَه الله تعالَى بهمْ، والهمْزةُ للتَّقريرِ؛ ولذلكَ عُطِفَ على الجملةِ الاستفهاميَّةِ ما بَعْدَها[٢].

- وسمَّى حَرْبَهم كَيدًا؛ لأنَّه عمَلٌ ظاهرُه الغضَبُ مِن فِعلِ الكِنانيِّ الَّذي قَعَدَ في القُلَّيسِ[٣]، وإنَّما هو تَعِلَّةٌ تَعلَّلوا بها لإيجادِ سَببٍ لحرْبِ أهلِ مكَّةَ وهدْمِ الكَعبةِ؛ ليَنصرِفَ العرَبُ إلى حَجِّ القُلَّيسِ في صَنعاءَ فيَتنصَّروا. أو أُريدَ بكَيدِهم بناؤُهم القُلَّيسَ مُظهِرينَ أنَّهم بَنَوْا كَنيسةً وهم يريدون أنْ يُبطِلوا الحجَّ إلى الكَعبةِ، ويَصرِفوا العربَ إلى صَنعاءَ[٤].

- والتَّضليلُ: جَعْلُ الغيرِ ضالًّا، أي: لا يَهتدي لمُرادِه، وهو هنا تَعبيرٌ عن الإبطالِ، وعدَمِ نَوالِ المَقصودِ؛ لأنَّ ضَلالَ الطَّريقِ عدَمُ وُصولِ السَّائرِ[٥].

- وعُبِّرَ بحَرْفِ الظَّرفيَّةِ عن معْنى المُصاحَبةِ الشَّديدةِ، أي: أبطَلَ كَيدَهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٥، ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٨٦).

(٣) القُلَّيس: بِيعةٌ كانت بصنعاءَ اليَمينِ للحبشةِ، بناها أبرهةُ وهدمَتْها حِمْيَرُ. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (٣/ ٩٦٦)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٦/ ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٨).

بتَضليلٍ، أي: مُصاحِبًا للتَّضليلِ لا يُفارِقُه[١].

٣- قولُه: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ يَجوزُ أنْ يُجعَلَ مَعطوفًا على جُملةِ ﴿فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، أي: وكيف أرسَلَ عليهم طَيرًا مِن صِفتِها كَيْتَ وكَيتَ؛ فبَعْدَ أنْ وَقَعَ التَّقريرُ على ما فَعَلَ اللهُ بهم مِن تَضليلِ كَيدِهم، عُطِفَ عليه تَقريرٌ بعِلمِ ما سُلِّطَ عليهم مِن العِقابِ على كَيدِهم؛ تَذكيرًا بما حلَّ بهم مِن نِقمةِ اللهِ تعالَى لقَصْدِهم تَخريبَ الكَعبةِ، فذلك مِن عِنايةِ اللهِ ببَيتِه؛ لإظْهارِ تَوطئتِه لبَعثةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بدِينِه في ذلك البلَدِ، إجابةً لدَعوةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فكما كان إرسالُ الطَّيرِ عليهم مِن أسبابِ تَضليلِ كَيدِهم، كان فيه جَزاءٌ لهم؛ ليَعلَموا أنَّ اللهَ مانعٌ بَيتَه، وتكونَ جُملةُ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ مُعترِضةً بيْنَ الجُملتَينِ المُتعاطِفتَينِ. ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ عطْفًا على جُملةِ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾، فيكونَ داخلًا في حيِّزِ التَّقريرِ الثَّاني بأنَّ اللهَ جَعَل كَيدَهم في تَضليلٍ، وخُصَّ ذلك بالذِّكرِ؛ لجمْعِه بيْنَ كونِه مُبطِلًا لكَيدِهم، وكَونِه عُقوبةً لهم. ومِجيءُ ﴿وَأَرْسَلَ﴾ بلَفظِ الماضي باعتِبارِ أنَّ المضارِعَ في قولِه: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ قُلِبَ زَمانُه إلى المُضِيِّ؛ لدُخولِ حرْفِ (لمْ)، فكأنَّه قيل: أليسَ جَعَل كَيدَهم في تَضليلٍ[٢]؟

- وقال: ﴿طَيْرًا﴾ على التَّنكيرِ: إمَّا للتَّحقيرِ؛ فإنَّه مهما كان أحقَرَ كان صُنعُ اللهِ أعجَبَ وأكبَرَ، أو للتَّفخيمِ، كأنَّه يقولُ: طَيرًا وأيُّ طيرٍ؟ تَرمي بحجارةٍ صغيرةٍ فلا تُخطِئُ المَقتَلَ[٣]!

- و﴿أَبَابِيلَ﴾، أيْ: طوائفَ وجَماعاتٍ، جمْعُ إبَّالةٍ -على قولٍ-، وهيَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٨، ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩١).

الحُزمةُ الكبيرةُ مِن الحطَبِ، شُبِّهَتْ بها الجَماعةُ مِن الطَّيرِ في تَضامِّها، فوَصْفُ الطَّيرِ بـ﴿أَبَابِيلَ﴾ على وَجْهِ التَّشبيهِ البَليغِ[١].

٤- قولُه: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ حالٌ مِن ﴿طَيْرًا﴾، وجِيءَ بصِيغةِ المُضارعِ؛ لاستحضارِ الحالةِ، بحيث تُخيَّلُ للسَّامعِ كالحادثةِ في زمَنِ الحالِ[٢].

٥- قولُه: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ العصْفُ: وَرَقُ الزَّرعِ، وهو جمْعُ عَصْفةٍ. والعصْفُ إذا دَخَلَتْه البهائمُ فأكَلَتْه داسَتْه بأرجُلِها وأكَلَت أطرافَه، وطَرَحَتْه على الأرضِ بعدَ أنْ كان أخضَرَ يانعًا، أو شُبِّهوا بتِبْنٍ أكَلَتْه الدَّوابُّ وَراثَتْه، ولكنَّه جاء على ما عليه آدابُ القرآنِ، كقولِه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، أو شُبِّهوا بورَقِ الزَّرعِ إذا أُكِل، أي: وقَعَ فيه الأُكالُ، وهو أنْ يَأكُلَه الدُّودُ، أو أُريدَ: الَّذي أُكِلَ حَبُّه، فبَقِيَ فارغًا. وهذا تَمثيلٌ لحالِ أصحابِ الفيلِ بعْدَ تلك النَّضْرةِ والقُوَّةِ، كيف صاروا مُتساقِطينَ على الأرضِ هالِكينَ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٩، ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥١).

تَفْسيرُ

سُورَةِ قُرَيْش

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ قُرَيْش

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (قُرَيْش) و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ قُرَيشٍ مكِّيَّةٌ، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

تَذكيرُ أهْلِ مكَّةَ بجانبٍ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى عليهم[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- ذِكرُ المِنَّةِ على قُرَيشٍ، بأنَّ اللهَ مكَّنَ لهم السَّيْرَ في الأرضِ للتِّجارةِ برِحْلَتَيِ الشِّتاءِ والصَّيفِ.

---

(١) سُمِّيَتِ السُّورةُ بالجملةِ الأولى منها، ولذِكرِ لَفظِ قُرَيشٍ في مَطلَعِها -ولم يَقَعْ في غيرِها- في قولِه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٣).

(٢) ممَّن نقلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٥)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٥٠).

ونسَب القولَ بأنَّها مكِّيَّةٌ إلى الأكثَرينَ: الماوَرْديُّ، ونسَبه إلى الجمهورِ: ابنُ الجَوزيِّ، والقُرطُبيُّ، وأبو حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٧).

ونُسِب القولُ بأنَّها مَدَنيَّةٌ إلى الضَّحَّاكِ، والكَلْبيِّ. يُنظر المصادر السَّابقة.

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٥١٣).

٢- تَحضِيضُهم على العِبادةِ، وشُكرِ الإحسانِ.

٣- ذِكرُ المِنَّةِ عليهم بإطعامِهم مِن جُوعٍ، وتَأمِينِهم مِن المَخاوِفِ.

الآيات (١-٤)

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِإِيلَٰفِ﴾: أي: لأُلْفَتِهم واعتيادِهم، والإيلافُ: مَصدَرُ آلَفْتُ الشَّيءَ: إذا لَزِمْتَه وتعوَّدْتَ عليه، وأصلُ (ألف): يدُلُّ على انضمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ * إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ اللَّامُ في «إيلافِ» مُتعَلِّقةٌ بقَولِه: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ﴾، ودخَلَت الفاءُ لِما في الكلامِ مِن معنى الشَّرطِ، أي: فإنْ لم يَعبُدوه لسائِرِ نِعَمِه فلْيَعبُدوه لإيلافِهم. أو هي مُتعَلِّقةٌ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ، تقديرُه: اعجَبوا لإيلافِ قُرَيشٍ. أو مُتعَلِّقةٌ بقَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾ [الفيل: ٥].

﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ﴾: مجرورٌ على البَدلِ مِن «إيلافِ» الأُولى، أو توكيدٌ لَفظيٌّ له، وهو مَصدَرٌ مضافٌ لفاعِلِه. رِحْلَةَ: مَفعولٌ به للمَصدَرِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بذِكْرِ مِنَّةٍ أخرى على قُرَيشٍ إثْرَ ذِكْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ١١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٧٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٤٠٩).

نِعمَتِه عليهم بإهلاكِ عَدُوِّهم، وهي مِنَّةُ اجتِماعِهم واعتيادِهم كُلَّ عامٍ القيامَ برِحلةٍ في الشِّتاءِ إلى اليَمَنِ، ورِحلةٍ في الصَّيفِ إلى الشَّامِ للتِّجارةِ.

ثمَّ أرشَدَهم إلى شُكرِ هذه النِّعمةِ العظيمةِ، فقال: فلْيَعبُدوا رَبَّ البَيتِ الحرامِ، الَّذي أطعَمَهم مِنَ الجُوعِ، وآمَنَهم مِنَ الخَوفِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢﴾.

أي: لاجتِماعِ قَبيلةِ قُرَيشٍ[1] واعتيادِهم كُلَّ عامٍ القيامَ برِحلةٍ في الشِّتاءِ إلى

---

(١) قال الزَّجَّاجُ: (هذه اللَّامُ قال النَّحْويُّون فيها ثلاثة أوجُه:
قيل: هي مَوصولةٌ بما قَبْلَها، المعنى: فجعَلَهم كعَصفٍ مأكولٍ لإيلافِ قُرَيشٍ، أي: أهلَكَ اللهُ أصحابَ الفيلِ؛ لِتَبْقى قُرَيشٌ وما قد أَلِفُوا مِن رحلةِ الشِّتاءِ والصَّيفِ.
وقال قومٌ: هذه لامُ التَّعَجُّبِ، فكان المعنى: اعجَبوا لإيلافِ قُرَيشٍ.
وقال النَّحْويُّونَ الَّذين تُرتضى عربيَّتُهم: هذه اللَّامُ معناها متَّصِلٌ بما بَعْدُ: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ﴾، والمعنى: فلْيَعبُدْ هؤلاء ربَّ هذا البيتِ لإيلافِهم رِحلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٣٦٥).
وممَّن ذهب إلى المعنى الأول: السمرقنديُّ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٥).
قال السعدي: (قال كثيرٌ مِن المفسِّرينَ: إنَّ الجارَّ والمجرورَ مُتعَلِّقٌ بالسُّورةِ الَّتي قَبْلَها، أي: فعَلْنا ما فعَلْنا بأصحابِ الفيلِ؛ لأجْلِ قُرَيشٍ وأمْنِهم، واستِقامةِ مَصالِحِهم، وانتِظامِ رِحلتِهم في الشِّتاءِ لليَمَنِ، والصَّيفِ للشَّامِ؛ لأجْلِ التِّجارةِ والمكاسِبِ؛ فأهلك اللهُ مَن أرادهم بسُوءٍ، وعَظَّم أمْرَ الحَرَمِ وأهلِه في قُلوبِ العَرَبِ، حتَّى احترَموهم، ولم يَعترِضوا لهم في أيِّ سَفرٍ أرادوا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥). ويُنظر: ((تأويل مُشْكِل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٥).
وقال ابنُ كثير: (هذه السُّورةُ مفصولةٌ عن الَّتي قَبْلَها في المصحَفِ الإمامِ، كَتَبوا بيْنَهما سَطرَ بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، وإن كانت متعَلِّقةً بما قبْلَها، كما صَرَّح بذلك محمَّدُ بنُ إسحاقَ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ؛ لأنَّ المعنى عِندَهما: حَبَسْنا عن مكَّةَ الفيلَ، وأهلَكْنا أهْلَه لِإيلافِ قُرَيشٍ، أي: لائتِلافِهم واجتماعِهم في بَلَدِهم آمِنينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩١).
وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: ابنُ جرير، فقال: (معنى الكلامِ: اعجَبُوا لإيلافِ قُرَيشٍ =

اليَمَنِ، ورِحلةٍ في الصَّيفِ إلى الشَّامِ للتِّجارةِ الَّتي كان بها قِوامُ عَيشِهم[١].

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقرَّر أنَّ الإنعامَ لا بُدَّ أن يُقابَلَ بالشُّكرِ والعُبوديَّةِ؛ لا جَرَمَ أُتبِعَ ذِكرُ النِّعمةِ

= رِحلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ، وتَرْكِهم عبادةَ ربِّ هذا البَيتِ، الَّذي أطعَمَهم مِن جوعٍ وآمَنَهم مِن خَوفٍ؛ فلْيَعبُدوا ربَّ هذا البَيتِ، الَّذي أطعَمَهم مِن جوعٍ وآمنَهم مِن خَوفٍ، والعَرَبُ إذا جاءت بهذه اللَّامِ فأدخَلوها في الكلامِ للتَّعَجُّبِ اكتَفَوا بها دليلًا على التَّعجُّبِ مِن إظهارِ الفِعلِ الَّذي يَجلِبُها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤٩).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّالثِ: الزمخشريُّ، وأبو السعود، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٤).

قال الزمخشري: (﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ متعلِّقٌ بقَولِه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾، أمَرَهم أن يَعبُدوه لأجْلِ إيلافِهم الرِّحلَتينِ... على معنى: أنَّ نِعَمَ اللهِ عليهم لا تُحصى، فإنْ لم يَعبُدوه لسائرِ نِعَمِه فلْيَعبُدوه لهذه الواحِدةِ الَّتي هي نِعمةٌ ظاهِرةٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٠، ٨٠١).

وقال الشوكاني: (قُرَيْشٌ هم: بنو النَّضرِ بنِ كِنانةَ بنِ خُزَيمةَ بنِ مُدرِكةَ بنِ إلياسَ بنِ مُضَرَ، فكُلُّ مَن كان مِن ولَدِ النَّضرِ فهو قُرَشيٌّ، ومَن لم يَلِدْه النَّضرُ فليس بقُرَشيٍّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٩). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤٩، ٦٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

قال القرطبي: (كانت إحدى الرِّحلتَينِ إلى اليَمَنِ في الشِّتاءِ؛ لأنَّها بلادٌ حاميةٌ، والرِّحلةُ الأخرى في الصَّيفِ إلى الشَّامِ؛ لأنَّها بلادٌ باردةٌ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٠٦).

وقال ابن عاشور: (صارتْ مكَّةُ وسطًا تُجلبُ إليها السِّلعُ مِن جميعِ البلادِ العربيَّةِ، فتوزَّعُ إلى طالبيها في بقيةِ البلادِ، فاستغنى أهلُ مكَّةَ بالتِّجارةِ؛ إذ لم يَكونوا أهلَ زَرعٍ ولا ضَرعٍ؛ إذ كانوا بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ، وكانوا يَجلبونَ أقواتَهم...، زيادةً على ما جُعِل لهم معَ مُعظَمِ العربِ مِن الأشهُرِ الحُرُمِ، وما أُقيمَ لهم مِن مَواسِمِ الحجِّ وأسواقِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٠).

بطَلَبِ العُبوديَّةِ[١].

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾.

أي: فلْيَعبُدوا اللهَ رَبَّ البَيتِ الحرامِ الَّذي جَعَل لهم بسَبَبِه خيرًا كثيرًا، فيَشكُروه بإخلاصِ العبادةِ له دونَ ما سِواه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾.

أي: الَّذي أطعَمَ قُرَيشًا مِنَ الجُوعِ، فكفاهم ذلك[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

أي: وآمَنَهم مِنَ الخَوفِ، فلا يَعتَدي عليهم أحدٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٤-٦٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦١).

قال الواحدي: (كانوا يُسافِرونَ آمِنينَ، لا يتعَرَّضُ لهم أحدٌ، وكان غيرُهم لا يأمَنُ في سَفَرِه ولا في حَضَرِه). ((الوسيط)) (٤/ ٥٥٧).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ في هذا إشارةٌ إلى تمامِ قُدرتِه سُبحانَه وتعالى، وأنَّه إذا أراد شيئًا يسَّر سببَه؛ لأنَّ التَّدبيرَ كُلَّه له، يَخفِضُ مَن يَشاءُ وإن عَزَّ، ويَرفَعُ مَن يَشاءُ وإن ذَلَّ؛ ليُثمِرَ اعتِقادُ ذلك حُبَّه، والانقِطاعَ لعبادتِه، والاعتمادَ عليه في كُلِّ نَفعٍ ودَفعٍ[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ رَغَدُ الرِّزقِ والأمْنُ مِنَ المخاوِفِ مِن أكبَرِ النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ الموجِبةِ لشُكرِ اللهِ تعالى[(٢)].

فالآيةُ فيها أنَّ على المسلمينَ أفرادًا وجماعاتٍ أن يُقابِلوا نِعَمَ اللهِ بالشُّكرِ، وأن يَشكُروها بالطَّاعةِ والعبادةِ للهِ، وأن يَحذَروا كُفْرانَ النِّعَمِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١١٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ إنَّ اللهَ سُبحانَه تارةً يُضيفُ نَفْسَه إلى البيتِ، ويخَصِّصُه بالرُّبوبيَّةِ كما في قولِه هنا: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾، وتارةً يُضيفُ البَيتَ إلى نفْسِه، كما في قولِه: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾[1] [البقرة: ١٢٥]، وذلك على سَبيلِ التَّشريفِ والتَّعظيمِ، وقال سُبحانَه في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١]، ثمَّ قال بَعْدَها: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾؛ احترازًا مِن أنْ يَتَوَهَّمَ واهِمٌ بأنَّه ربُّ البلدةِ وحْدَها، فقال: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾، لبيانِ عُمومِ مُلْكِه؛ لئلَّا يَدَّعِيَ المشركونَ أنَّه ربٌّ للبلدةِ فقط، أمَّا هنا فالمقامُ مقامُ تعظيمِ للبَيتِ؛ فناسَبَ ذِكْرُه وَحْدَه[2].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ قَولُه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ مَن استجابَ لهذا الأمرِ جَمَعَ اللهُ له بيْنَ أمْنِ الدُّنيا وأمْنِ الآخِرةِ، ومَن عصاه سَلَبَهما منه، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[3] [النحل: ١١٢، ١١٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ فيه سؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه: ﴿مِّن جُوعٍ﴾؟

الجوابُ: فيه فوائِدُ:

الفائدةُ الأُولى: التَّنبيهُ على أنَّ أمرَ الجُوعِ شَديدٌ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٢).

يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾ [الشورى: ٢٨].

الفائدةُ الثَّانيةُ: تذكيرُهم الحالةَ الأُولى الرَّديئةَ المؤلِمةَ، وهي الجوعُ؛ حتى يَعرِفوا قَدْرَ النِّعمةِ الحاضِرةِ.

الفائدةُ الثَّالثةُ: التَّنبيهُ على أنَّ خيرَ الطَّعامِ ما سَدَّ الجَوعةَ؛ لأنَّه لم يَقُلْ: (وأشبَعَهم)؛ لأنَّ الطَّعامَ يُزيلُ الجُوعَ، أمَّا الإشباعُ فإنَّه يُورِثُ البِطْنةَ[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾، فيه دليلٌ على أنَّ دَعوةَ الأنبياءِ مُستجابةٌ؛ لأنَّ الخليلَ -عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ- دعا لأهلِ الحَرَمِ بقَولِه: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقال: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾ [البقرة: ١٢٩]؛ فأطعَمَهم اللهُ مِن جُوعٍ، وآمَنَهم مِن خَوفٍ، وبَعَث فيهم رسولًا منهم يَتلو عليهم آياتِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾ افتِتاحٌ مُبدِعٌ؛ إذ كان بمَجرورِ بلامِ التَّعليلِ، وليس بإثْرِه بالقُربِ ما يَصلُحُ للتَّعليقِ به؛ ففيه تَشويقٌ إلى مُتعلَّقِ هذا المجرورِ، وزادَه الطُّولُ تَشويقًا؛ إذ فُصِلَ بيْنَه وبيْنَ مُتعلَّقِه بخمْسِ كَلماتٍ، فيَتعلَّقُ ﴿لِإِيلَٰفِ ﴾ بقولِه: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ ﴾، وذلك على قولٍ. وتَقديمُ هذا المَجرورِ للاهتمامِ به؛ إذ هو مِن أسبابِ أمْرِهم بعِبادةِ اللهِ الَّتي أعْرَضوا عنها بعِبادةِ الأصنامِ، وأصْلُ نظْمِ الكلامِ: لِتَعبُدْ قُريشٌ رَبَّ هذا البَيتِ الَّذي أطْعَمَهم مِن جُوعٍ، وآمَنَهم مِن خَوفٍ؛ لإيلافِهم رِحلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١١٢، ١١٣).

فلمَّا اقْتَضى قصْدُ الاهتمامِ بالمَعمولِ تَقديمَه على عامِلِه، تَولَّدَ مِن تَقديمِه معْنى جَعْلِه شَرطًا لعامِلِه، فاقترَنَ عامِلُه بالفاءِ الَّتي هي مِن شَأنِ جَوابِ الشَّرطِ، فالفاءُ الدَّاخلةُ في قَولِه: (لِيَعْبُدُوا) مُؤْذِنةٌ بأنَّ ما قبْلَها في قوَّةِ الشَّرطِ، أي: مُؤذِنةٌ بأنَّ تَقديمَ المَعمولِ مَقصودٌ به اهتمامٌ خاصٌّ وعِنايةٌ قَويَّةٌ هي عِنايةُ المُشترِطِ بشَرْطِه، وتَعليقُ بَقيَّةِ كَلامِه عليه لِما يَنتظِرُه مِن جَوابِه، وهذا أُسلوبٌ مِن الإيجازِ بَديعٌ.

ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ اللَّامُ مُتعلَّقةً بفِعلِ (اعْجَبوا) مَحذوفًا يُنبِئُ عنه اللَّامُ؛ لكَثرةِ وُقوعِ مَجرورٍ بها بعْدَ مادَّةِ التَّعجُّبِ، أي: اعْجَبوا لإيلافِ قُريشٍ رِحلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ، وتَرْكِهم عِبادةَ ربِّ هذا البيتِ! وعلى ذلك تكونُ الفاءُ في قَولِه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ تفريعًا على التَّعجيبِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ مُتعلِّقًا بما في سُورةِ (الفيلِ) مِن قولِه: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥]، وهذا بمَنزلةِ التَّضمينِ في الشِّعرِ، وهو أنْ يَتعلَّقَ معْنى البيتِ بالَّذي قبْلَه تَعلُّقًا لا يصِحُّ إلَّا به، فالمَعْنى: أنَّه أهلَكَ مَنْ قَصَدَهم مِنَ الحبَشةِ؛ لِيَتسامَعَ النَّاسُ فيَتهيَّبُوا لهمْ زِيادةَ تَهيُّبٍ، ويُحترَمُوا فضْلَ احترامٍ؛ حتَّى يَنتظِمَ لهُم الأمنُ في رِحلتَيْهِم، فَلا يَجترِئَ عليهم أحدٌ. وقيلَ: يَتعلَّقُ بمُضمَرٍ تَقديرُه: فَعَلْنا مَا فَعَلْنا مِنْ إهلاكِ أصحابِ الفيلِ لإيلافِ، فذُكِرَ ذلك للامتنانِ عليهم؛ إذ لو سُلِّطَ عليهم أصحابُ الفيلِ لَتَشتَّتوا في البلادِ والأقاليمِ، ولم تَجتمِعْ لهم كَلمةٌ[(١)].

- والإيلافُ: صِيغةُ الإفعالِ فيه للمُبالَغةِ؛ لأنَّ أصْلَها أنْ تدُلَّ على حُصولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٠، ٨٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٤، ٥٥٥).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٨٦).

الفعلِ مِن الجانبَينِ، فصارت تُستعمَلُ في إفادةِ قوَّةِ الفِعلِ[١].

- وإضافةُ (إيلاف) إلى (قُريش) على معْنى إضافةِ المصدَرِ إلى فاعِلِه، وحُذِفَ مَفعولُه؛ لأنَّه هنا أُطلِقَ بالمعْنى الاسميِّ لتلك العادةِ، فهي إضافةٌ مَعنويَّةٌ بتَقديرِ اللَّامِ[٢].

- وأُطلِقَ الإيلافُ في قَولِه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾، ثمَّ أُبدِلَ عنه المُقيَّدُ بالرِّحلتينِ ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾؛ تَفخيمًا لأمْرِ الإيلافِ، وتَذكيرًا بعَظيمِ النِّعمةِ فيه[٣].

وأيضًا أفاد هذا التَّكرارُ بيانَ المفعولِ، وهو ﴿رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾. وقيل: إيلافُهم الثَّاني تأكيدٌ للأوَّلِ[٤].

وقيل: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾ عطْفُ بَيانٍ مِن (إِيلَافِ قُرَيْشٍ)، وهو مِن أُسلوبِ الإجمالِ فالتَّفصيلِ للعِنايةِ بالخبَرِ؛ ليَتمكَّنَ في ذِهنِ السَّامعِ[٥].

- وإضافةُ ﴿رِحۡلَةَ﴾ إلى ﴿ٱلشِّتَآءِ﴾ مِن إضافةِ الفِعلِ إلى زَمانِه الَّذي يقَعُ فيه؛ فقدْ يكونُ الفِعلُ مُستغرِقًا لزَمانِه، مِثلُ قولِك: سَهَرُ اللَّيلِ وقدْ يكونُ وَقتًا لابتدائِه، مِثلُ صَلاةِ الظُّهرِ[٦]. وظاهرُ الإضافةِ أنَّ رِحلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ مَعروفةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩١).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٦، ٥٥٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٥٧).

مَعهودةٌ، وهما رِحلتانِ، فعطْفُ ﴿وَٱلصَّيۡفِ﴾ على تَقديرِ مُضافٍ، أي: ورِحلةَ الصَّيفِ؛ لظُهورِ أنَّه لا تكونُ رِحلةٌ واحدةٌ تبتدَأُ في زَمانَينِ، فتَعيَّن أنَّهما رِحلتانِ في زَمنَينِ[١].

- وإفرادُ ﴿رِحۡلَةَ﴾، معَ أنَّ المُرادَ رِحْلَتا الشِّتاءِ والصَّيفِ؛ لِأمْنِ الإلْباسِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ * ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ وَجْهُ تَعليلِ الأمْرِ بتَوحيدِهم اللهَ بخُصوصِ نِعمةِ هذا الإيلافِ مع أنَّ للهِ عليهم نِعَمًا كَثيرةً؛ لأنَّ هذا الإيلافَ كان سَببًا جامعًا لأهمِّ النِّعَمِ الَّتي بها قِوامُ بَقائِهم[٣].

- وتَعريفُ (ربّ) بالإضافةِ إلى ﴿هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: فلْيَعبُدوا اللهَ؛ لِما يُومِئُ إليه لَفظُه مِن استحقاقِه الإفرادَ بالعِبادةِ دونَ شَريكٍ، وأُوثِرَ إضافةُ (ربّ) إلى ﴿هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (ربَّهم)؛ للإيماءِ إلى أنَّ البيتَ هو أصلُ نِعمةِ الإيلافِ بأنْ أمَرَ إبراهيمَ ببِناءِ البيتِ الحرامِ، فكان سَببًا لرِفعةِ شَأنِهم بيْن العرَبِ، وذلك إدماجٌ[٤] للتَّنويهِ بشَأنِ البيتِ الحرامِ وفضْلِه[٥].

- والبَيتُ مَعهودٌ عندَ المُخاطَبينَ، والإشارةُ إليه (هذا)؛ لأنَّه بذلك العهْدِ كان كالحاضرِ في مَقامِ الكلامِ، على أنَّ (البَيت) بهذا التَّعريفِ باللَّامِ صار عَلَمًا بالغَلَبةِ على الكَعبةِ، و(ربِّ البيتِ) هو اللهُ، والعرَبُ يَعترِفون بذلك[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٠).

(٤) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٦٠، ٥٦١).

- وتَمكَّنَ هنا هذا اللَّفظُ (البَيت)؛ لتَقدُّمِ حِمايتِه في السُّورةِ الَّتي قبْلَها[١].

- وأُجرِيَ وَصْفُ الرَّبِّ بطَريقةِ المَوصولِ ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾؛ لِما يُؤذِنُ به مِن التَّعليلِ للأمرِ بعِبادةِ ربِّ البيتِ الحرامِ بعِلَّةٍ أُخرى زِيادةً على نِعمةِ تَيسيرِ التِّجارةِ لهم، وذلك ممَّا جَعَلَهم أهلَ ثَراءٍ، وهما نِعمةُ إطعامِهم وأمْنِهم[٢].

- والتَّنكيرُ في ﴿جُوعٖ﴾ و﴿خَوۡفِۭ﴾ للتَّعظيمِ، يعني: أطْعَمَهم بالرِّحلتَينِ مِن جُوعٍ شَديدٍ كانوا فيه قبْلَهما، وآمَنَهم مِن خَوفٍ عَظيمٍ، وهو خَوفُ أصحابِ الفِيلِ، أو خَوفُ التَّخطُّفِ في بَلدِهم ومَسايِرِهم[٣]. أو التَّنكيرُ في ﴿جُوعٖ﴾ و﴿خَوۡفِۭ﴾ للنَّوعيَّةِ لا للتَّعظيمِ؛ إذ لم يَحُلَّ بهم جُوعٌ وخَوفٌ مِن قبْلُ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦١).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ الماعُونِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الماعُونِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الماعُون)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الماعُونِ مكِّيَّةٌ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

التَعجِيبُ مِن حالِ المُكذِّبينَ بالبَعثِ، وتَفظِيعُ أعمالِهم[٣].

---

(١) سمِّيَت بذلك؛ لذِكرِ لَفظِ الماعُونِ فيها دُونَ غيرِها، في قولِه: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٣).

وتُسَمَّى أيضًا سورةَ (الدِّينِ)، و(أرَأَيْتَ)، و(التَّكذيبِ)، و(اليتيمِ). يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٧٧)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٨)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٣).

(٢) ونَسَبَه للجُمهورِ: ابنُ الجَوزيِّ، وأبو حيَّانَ. وقِيلَ: مَدَنيَّةٌ، ونُسِبَ إلى ابنِ عبَّاسٍ وقَتادةَ، واختاره القاسِميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٥٢).

وقيل: مكِّيَّةٌ، ثلاثُ آياتٍ الأُوَلُ، مدَنيَّةُ البَقيَّةِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، والفيروزابادي، والسيوطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ١٠٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٤).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- التَّعجِيبُ مِن حالِ مَن كذَّبُوا بالبَعثِ.

٢- الشِّكايةُ مِن الجافِينَ على الأيتامِ والمَساكِينِ.

٣- ذَمُّ السَّاهِينَ عن الصَّلاةِ والمُرائينَ فيها، والمانِعينَ النَّفْعَ والمَعُونةَ عن النَّاسِ.

الآيات (١-٧)

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلدِّينِ﴾: أي: بالجزاءِ والحسابِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازَيْتُه، وأصلُ (دين): جِنْسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[١].

﴿يَدُعُّ﴾: أي: يَدفَعُ بشِدَّةٍ، والدَّعُّ في اللُّغةِ: الدَّفعُ في قَسوةٍ وعُنفٍ، وأصلُ (دعع): يدُلُّ على دَفعٍ[٢].

﴿يَحُضُّ﴾: أي: يَحُثُّ ويأمُرُ، والحَضُّ: الحَثُّ، وهو أن تَطلُبَ مِن غَيرِك فِعلًا بتأكيدٍ، وتُلِحُّ في ذلك الطَّلبِ، وأصلُ (حضض): يدُلُّ على البَعْثِ على الشَّيءِ[٣].

﴿فَوَيْلٌ﴾: أي: عَذابٌ وهَلاكٌ. وقيلَ: وَيلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٩) و(٣٠/ ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨). ويُنظر ما تقدَّم في سورةِ الهُمَزةِ (ص: ٣٠٦).

﴿سَاهُونَ﴾: أي: لاهُون مُتشاغِلونَ، وأصلُ (سهو): يدُلُّ على الغَفْلةِ والسُّكونِ[١].

﴿يُرَآءُونَ﴾: أي: لا يُريدونَ اللهَ بأعمالِهم، يُقالُ: راءى فُلانٌ يُرائي، وفَعَل ذلك رِئاءَ النَّاسِ: وهو أن يَفعَلَ شَيئًا لِيَراه النَّاسُ[٢].

﴿ٱلْمَاعُونَ﴾: أي: كُلَّ ما يُستعانُ به ويُنتَفَعُ به، كالفأسِ والدَّلْوِ ونَحوِهما مِن مَتاعِ البَيتِ اليَسيرِ، والماعونُ: فاعُولٌ مِنَ المَعْنِ: وهو الشَّيءُ القَليلُ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مخاطِبًا نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بقَولِه سُبحانَه: أرأَيْتَ -يا محمَّدُ- الَّذي يُكذِّبُ بوُقوعِ الجَزاءِ يومَ القيامةِ؟ فذلك مِن صِفَتِه أنَّه يَدفَعُ اليتيمَ بشِدَّةٍ وعُنفٍ، ولا يُكرِمُه، ولا يَحُثُّ الآخَرينَ على إطعامِ المِسكينِ!

ثمَّ قال الله تعالَى متوَعِّدًا: فعَذابٌ وهَلاكٌ للمُصَلِّينَ الَّذين هم عن صَلاتِهم لاهُون مُتشاغِلونَ، فيُؤخِّرونَها حتَّى يَخرُجَ وقتُها، ويُخِلُّونَ بشُروطِها وأرَكانِها وواجِباتِها، الَّذين هم يُراؤُونَ النَّاسَ بصَلاتِهم؛ طَلَبًا لثَناءٍ، أو رجاءً لنَفعٍ، ويَمنَعونَ النَّاسَ مِنَ الانتفاعِ بما لديهم، ممَّا لا يَتضَرَّرونَ ببَذْلِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٨).

أي: أرأيتَ -يا محمَّدُ- الَّذي يُكذِّبُ بوُقوعِ الجَزاءِ ثوابًا وعِقابًا يومَ القيامةِ، فهو لا يُطيعُ اللهَ بفِعلِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه[1]؟

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾.

أي: فذلك مِن صِفَتِه أنَّه يدفَعُ اليتيمَ بشِدَّةٍ وعُنفٍ، ولا يُكرِمُه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

ممَّن ذهَبَ في الجُملةِ إلى المعنى المَذكورِ للدِّينِ: ابنُ جَريرٍ، والواحِديُّ، وابنُ كَثيرٍ، والسعديُّ، ونسَبَه الرَّازيُّ إلى أكثَرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: المصادِرُ السَّابِقةُ.

وممَّن قال مِن السَّلفِ بأنَّ المُرادَ بالدِّينِ هنا: الحِسابُ والجَزاءُ: ابنُ عبَّاسٍ في رِوايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، ومُجاهِدٌ، وابنُ جُرَيْجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٥).

وقد جَوَّزَ البَيْضاويُّ والقاسِميُّ أن يكونَ المُرادُ بالدِّينِ: الإسْلامَ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٥٢).

قال الشوكاني: (قِيل: الرُّؤْيةُ: هي البصَرِيَّةُ، فيَتَعَدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وهو الموصولُ، أي: أأبصرْتَ المُكَذِّبَ. وقيلَ: إنَّها بمعنَى أخبِرْني فيتَعَدَّى إلى اثنيْنِ. الثَّاني محذوفٌ، أيْ: مَنْ هو). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١١).

وقال أيضًا: (الخِطابُ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو لكُلِّ مَن يَصلُحُ له). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

قال ابنُ عطيَّةَ: (أي: ارقُبْ فيه هذه الخِلالَ السَّيِّئةَ تَجِدْها، ودَعُّ اليَتيمِ: دَفْعُه بعُنفٍ، وذلك إمَّا أن يكونَ المعنى: عن إطعامِه والإحسانِ إليه، وإمَّا أن يكونَ: عن حَقِّه ومالِه، فهذا أشَدُّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٧).

وممَّن ذهَبَ إلى المعنى الأوَّلِ: السعديُّ، وابنُ عاشورٍ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٦).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٨). =

كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧].

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾.

أي: ولا يَحُثُّ الآخَرينَ على إطعامِ المِسكينِ المحتاجِ للطَّعامِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٨].

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ أوَّلًا عَمودَ الكفْرِ -وهو التَّكذيبُ بالدِّينِ-؛ ذَكَرَ ما يَترتَّبُ عليه ممَّا يَتعلَّقُ بالخالِقِ، وهو عِبادتُه بالصَّلاةِ[٢].

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾.

أي: فعَذابٌ وهَلاكٌ للمُصَلِّينَ الَّذين هم عن صَلاتِهم لاهُون مُتشاغِلونَ؛ فلا يُحافِظونَ على أدائِها في أوقاتِها، إنَّما يُؤخِّرونَها حتَّى يَخرُجَ الوقتُ، ويُخِلُّونَ

= وممَّن ذهَبَ إلى المعنى الثَّاني: ابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والواحِديُّ، وابنُ كَثيرٍ، والشَّوْكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١١).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٧).

قال الشوكاني: (﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: لا يَحُضُّ نَفْسَه ولا أهْلَه ولا غيرَهم على ذلك؛ بُخلًا بالمالِ، أو تكذيبًا بالجَزاءِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٢).

بشُروطِها وأركانِها وواجباتِها[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٩، ٦٦٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٤٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨١).

قال الواحِديُّ: (قال أكثَرُ المُفَسِّرينَ: معنى «عنها ساهونَ»، أي: يَغفُلوا عنها حتَّى يَذهَبَ وَقْتُها. وهو قَولُ سَعدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ، ومُقاتِلٍ، والحسَنِ؛ قالوا: السَّهْوُ عنها تَضْييعُ وَقْتِها حتَّى يَفوتَ). ((البسيط)) (٢٤/ ٣٥٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٧١).

وقال ابنُ القَيِّمِ: (قد فَسَّرَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ السَّهْوَ عنها بأنَّه: تَأخيرُها عن وَقْتِها، كما ثبَتَ ذلك عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ). ((الصلاة وأحكام تاركها)) (ص: ٧٢).

وذكَرَ في مَوضِعٍ آخَرَ أنَّ السَّهوَ إمَّا عن الوَقتِ، وإمَّا عن الحُضورِ الواجِبِ والخُشوعِ، وصَوَّبَ أنَّه يَعُمُّ النَّوعَينِ. يُنظر: ((مدارج السالكين)) (١/ ٥٢٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، فأثبَتَ لهم صَلاةً، وجعَلَهم ساهينَ عنها، فعُلِمَ أنَّهم كانوا يُصَلُّونَ مع السَّهوِ عنها، وقد قال طائِفةٌ مِن السَّلفِ: بل هو السَّهوُ عمَّا يجِبُ فيها، مِثلُ تَركِ الطُمَأْنينةِ، وكِلا المَعْنيَينِ حَقٌّ، والآيةُ تَتناوَلُ هذا وهذا). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٣٤). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ٢٤).

وقال ابنُ جَرير: (أَوْلى الأقوالِ في ذلك عِندي بالصَّوابِ بقَولِه: ﴿سَاهُونَ﴾: لاهُونَ، يَتغافَلونَ عنها؛ وفي اللَّهوِ عنها والتَّشاغُلِ بغَيْرِها، تَضْييعُها أحيانًا، وتَضْييعُ وَقْتِها أخرى. وإذا كان ذلك كذلك صَحَّ بذلك قَولُ مَن قال: عُنِيَ بذلك تَرْكُ وَقْتِها، وقَولُ مَن قال: عُنِيَ به تَرْكُها؛ لِما ذَكَرْتُ قبلُ مِن أنَّ في السَّهوِ عنها المَعانيَ الَّتي ذَكَرْتُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٦٣).

وقال ابنُ كَثير: (﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه: يَعني: المُنافِقينَ، الَّذين يُصَلُّونَ في العَلانيَةِ ولا يُصَلُّونَ في السِّرِّ؛ ولهذا قال: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الَّذين هُم مِن أهْلِ الصَّلاةِ وقد الْتَزَموا بها، ثمَّ هم عنها ساهونَ؛ إمَّا عن فِعْلِها بالكُلِّيَّةِ، كما قالَه ابنُ عبَّاسٍ، وإمَّا عن فِعْلِها في الوقتِ المُقَدَّرِ لها شَرْعًا، فيُخرِجُها عن وَقْتِها بالكُلِّيَّةِ، كما قالَه مَسْروقٌ، وأبو الضُّحى...، وإمَّا عن وَقْتِها الأوَّلِ فيُؤَخِّرُونَها إلى آخِرِه دائمًا أو غالِبًا. وإمَّا عن أدائِها بأرْكانِها وشُروطِها على الوَجْهِ المَأْمورِ به. وإمَّا عن الخُشوعِ فيها، والتَّدَبُّرِ لِمَعانيها؛ فاللَّفظُ يَشمَلُ هذا كلَّه، ولكلِّ مَن اتَّصَفَ بشَيءٍ مِن ذلك قِسْطٌ مِن هذه الآيةِ. ومَن اتَّصَفَ بجَميعِ ذلك فقدْ تَمَّ نَصيبُه مِنها، وكَمَلَ له النِّفاقُ العَمَليُّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٣).

قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦﴾.

أي: الَّذين هم يُراؤُونَ النَّاسَ بصَلاتِهم إذا صَلَّوا أمامَهم، فلا يُصَلُّونَ إخلاصًا للهِ تعالى، ورغبةً في ثَوابِه، ورهبةً مِن عِقابِه، وإنَّما يُصَلُّونَها لِيَراهم المؤمِنونَ؛ طَلَبًا لثَناءٍ، أو رجاءً لنَفعٍ[(١)].

﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا شَرَح أمْرَ الصَّلاةِ؛ أعقَبَه بذِكرِ الصِّلاتِ[(٢)]. فلمَّا بيَّن حالَهم معَ الخالقِ؛ بيَّن حالَهم معَ المخلوقينَ، وأنَّهم لا أحْسَنوا عِبادةَ رَبِّهم، ولا أحْسَنوا إلى خَلْقِه.

وأيضًا فإنَّه بيَّن أنَّ مَن هو بتلك الصِّفةِ يَغلِبُ عليه الشُّحُّ[(٣)].

﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾.

أي: ويَمنَعونَ النَّاسَ مِنَ الانْتِفاعِ بما لَدَيهم، ممَّا لا يَتَضَرَّرونَ ببَذْلِه، فلا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٩٥).

يُعينونَهم بإعارتِه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ يجبُ على المرءِ أنْ يَنظُرَ في نفْسِه: هل هو ممنِ اتَّصَفَ بهذه الصِّفاتِ أو لا؟ إنْ كان ممَّن اتَّصَفَ بهذه الصِّفاتِ -قد أضاع الصَّلاةَ، وسَهَا عنها، ومَنَعَ الخيرَ عن الغيرِ- فلْيَتُبْ ولْيَرجِعْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٦٥، ٦٧٨)، ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٦٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٨)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٦٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٩).

قال الواحِديُّ: (أكثَرُ المُفَسِّرينَ على أنَّ الماعونَ: اسْمٌ لِما يَتَعاوَرُه النَّاسُ بَيْنَهم مِن الدَّلْوِ، والفَأسِ، والقِدْرِ، وما لا يُمنَعُ، كالماءِ والمِلْحِ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٥٨).

وقال ابنُ القَيِّم: (الماعونُ: اسْمٌ جامِعٌ لجَميعِ ما يُنتفَعُ به، فذكَرَ بعضُ السَّلفِ هذا للسَّائلِ تَمثيلًا وتَنبيهًا بالأَدْنى على الأعلى، فإذا كان الوَيْلُ لِمَن منَعَ هذا، فكيف بمَن منَعَ ما الحاجةُ إليه أَعظَمُ؟! وإذا كان العبدُ يُسألُ عن شُكرِ الماءِ البارِدِ، فكيف بما هو أعظَمُ نَعيمًا منه؟!). ((الصواعق المرسلة)) (٢/ ٦٩٩).

وقال السعديُّ: (﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ أي: يَمنَعونَ إعْطاءَ الشَّيءِ الَّذي لا يَضُرُّ إعْطاؤُه على وَجْهِ العارِيَّةِ، أو الهِبةِ، كالإناءِ، والدَّلْوِ، والفَأسِ، ونَحوِ ذلك ممَّا جَرَتِ العادةُ ببَذْلِه والسَّماحةِ به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

وعن عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه قال: (﴿ٱلْمَاعُونَ﴾: مَنْعُ الزَّكاةِ والفَأسِ والدَّلْوِ والقِدْرِ). أخرَجه ابنُ جَريرٍ في ((تفسيره)) (٢٤/ ٦٧٧).

وقال ابنُ كَثيرٍ بعْدَ أن ذكَرَ أقوالَ السَّلفِ في الماعونِ: (وقال عِكْرِمةُ: رأسُ الماعونِ زكاةُ المالِ، وأدْناه: المُنْخُلُ والدَّلْوُ والإبْرةُ. رواه ابنُ أبي حاتِمٍ. وهذا الَّذي قالَه عِكْرِمةُ حسَنٌ؛ فإنَّه يَشملُ الأقوالَ كلَّها، وتَرجِعُ كلُّها إلى شيءٍ واحِدٍ، وهو تَرْكُ المُعاوَنةِ بمالٍ أو مَنْفَعةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٧).

إلى اللهِ، وإلَّا فلْيَبشُرْ بالوَيلِ -والعياذُ باللهِ-، وإنْ كان قد تَنَزَّهَ عن ذلك فلْيَبشُرْ بالخيرِ، والقرآنُ الكريمُ ليس المقصودُ منه أنْ يَتلوَه الإنسانُ لِيَتعَبَّدَ للهِ تعالى بتلاوتِه فقط، المقصودُ أنْ يَتَأَدَّبَ به؛ ولهذا قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها: ((فإنَّ خُلُقَ نَبيِّ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان القرآنَ))[١]، خُلُقُه يعني أخلاقَه الَّتي يَتخَلَّقُ بها يأخُذُها مِن القُرآنِ الكريمِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فيه الحَثُّ على إكرامِ اليتيمِ والمساكينِ، والتَّحضيضِ على ذلك[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ فيه مُراعاةُ الصَّلاةِ، والمحافظةُ عليها وعلى الإخلاصِ فيها وفي جميعِ الأعمالِ[٤].

٤- إخْلاصُ الدِّينِ هو أصْلُ دينِ الإسْلامِ؛ ولِذلك ذَمَّ اللهُ الرِّياءَ في مِثلِ قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ [النساء: ١٤٢] إلى غيرِ ذلك[٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ فيه الحَثُّ على فِعلِ المعروفِ، وبَذْلِ الأموالِ الخفيفةِ، كعاريَّةِ الإناءِ والدَّلوِ والكتابِ، ونحوِ ذلك؛ لأنَّ اللهَ ذَمَّ

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٥٧). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٩٩).

مَن لم يفعَلْ ذلك[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ الحَثُّ على العاريَّةِ[٢]، فإذا احتاج قَومٌ مِن إنسانٍ إلى أنْ يُعيرَهم دَلوًا يَستقُونَ به، أو قِدْرًا يَطبُخون فيها، أو فأسًا يَحفِرون به؛ فإنَّه يجبُ بدَلالةِ الآيةِ بَذْلُه مجَّانًا، إذا كان صاحبُها مُستغنيًا عن تلك المنفعةِ وعِوَضِها[٣].

٧- المُؤمنُ له الإخلاصُ والإحسانُ، والفاجرُ له الكُفرُ والبُخلُ، وقد ذَمَّ اللهُ سُبحانَه هَذينِ الخُلُقينِ المُهلِكَينِ في غيرِ مَوضعٍ مِن كِتابِه، كقولِه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ * وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾، والرِّياءُ ضِدُّ الإخلاصِ، ومَنْعُ الماعونِ ضِدُّ الإحسانِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ خَصَّ المكَذِّبينَ بيَومِ الدِّينِ بمَنْ يَرتكِبُ هذين الأمْرَين: دَعَّ اليَتيمِ، وعدَمَ الحَضِّ على إطعامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٩٨).

قال ابن عثيمين: (ومَنْعُ الماعونِ يَنقسِمُ إلى قِسمَينِ:

القِسمُ الأوَّلُ: قِسمٌ يأثَمُ به الإنسانُ.

القِسمُ الثَّاني: قِسمٌ لا يأثمُ به، لكن يَفوتُه الخيرُ.

فما وجَب بَذْلُه فإنَّ الإنسانَ يأثمُ بمَنعِه، وما لم يجِبْ بَذْلُه فإنَّ الإنسانَ لا يأثمُ بمَنعِه، لكن يَفوتُه الخيرُ. مِثالُ ذلك: إنسانٌ جاءه رجلٌ مضطرٌّ يقولُ: أعطني ماءً أشربُه، فإن لم أشرَبْ متُّ، فبَذْلُ الإناءِ له واجبٌ، يأثمُ بتَركِه الإنسانُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٢).

المِسكينِ؟

الجوابُ: أنَّهما نَموذَجانِ ومِثالانَ فقط[١]، واقتَصَر عليهما [لا] على معنى: أنَّ الصَّادِرَ عَمَّن يُكَذِّبُ بالدِّينِ ليس إلَّا ذلك؛ لأنَّا نَعلَمُ أنَّ المكَذِّبَ بالدِّينِ لا يقتَصِرُ على هذينِ، بل على سَبيلِ التَّمثيلِ، كأنَّه تعالى ذكَرَ في كُلِّ واحدٍ مِن القِسمَينِ مِثالًا واحِدًا؛ تنبيهًا بذِكْرِه على سائِرِ القبائِحِ، أو مِن أجْلِ أنَّ هاتَينِ الخَصلتينِ كما أنَّهما قبيحانِ مُنكَرانِ بحَسَبِ الشَّرعِ، فهما أيضًا مُستنكَرانِ بحسَبِ المروءةِ والإنسانيَّةِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ذَكَر اللهُ تعالى في تعريفِ مَن يُكَذِّبُ بالدِّينِ وَصفَينِ: أحَدُهما مِن بابِ الأفعالِ، وهو قَولُه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾، والثَّاني مِن بابِ التُّروكِ، وهو قَولُه: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، والفاءُ في قَولِه ﴿فَذَٰلِكَ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: لَمَّا كان كافِرًا مُكَذِّبًا كان كُفرُه سَبَبًا لدَعِّ اليتيمِ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فيه سُؤالٌ: أليس قد لا يحُضُّ المرءُ في كثيرٍ مِن الأحوالِ، ولا يكونُ آثِمًا؟

الجوابُ: لأنَّ غَيرَه يَنوبُ مَنابَه، أو لأنَّه لا يُقبَلُ قَولُه، أو لمفَسدةٍ أُخرى يتوقَّعُها، أمَّا هاهنا فذَكَر أنَّه لا يَفعَلُ ذلك إلَّا لأنَّه مُكَذِّبٌ بالدِّينِ[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يقلْ:

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٢/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٢/ ٣٠٣).

(ولا يُطعِمُ المِسكينَ)؟

الجوابُ: إذا مَنَع اليَتيمَ حَقَّه، فكيف يُطعِمُ المِسكينَ مِن مالِ نَفْسِه؟! بل هو بخيلٌ مِن مالِ غَيرِه، وهذا هو النِّهايةُ في الخِسَّةِ، فلأنْ يكونَ بخيلًا بمالِ نَفْسِه أَولى، وضِدُّه في مَدحِ المؤمنينَ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[١] [العصر: ٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ في إضافةِ (طعام) إلى (المسكينِ) دليلٌ على أنَّه يَستَحِقُّه[٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، وقَولُه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] هذه الآياتُ تَقتضي ذَمَّ مَن تَرَكَ شيئًا مِن واجباتِ الصَّلاةِ وإنْ كان في الظَّاهرِ مُصَلِّيًا، مِثلُ أنْ يَترُكَ الوقتَ الواجبَ، أو يَترُكَ تكميلَ الشَّرائطِ والأركانِ مِن الأعمالِ الظَّاهرةِ والباطنةِ[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف توعَّدَ اللهُ السَّاهيَ عن الصَّلاةِ، مع أنَّه غيرُ مُؤاخَذٍ بالسَّهوِ؟

الجوابُ: المرادُ بالسَّهوِ هنا: التَّغافُلُ والتَّكاسُلُ عن أدائِها، وقِلَّةُ الالتِفاتِ إليها، وذلك فِعلُ المنافِقينَ أو الفَسَقةِ مِنَ المُسلِمينَ، لا ما يتَّفِقُ فيها مِن السَّهْوِ بالوَسوَسةِ أو حديثِ النَّفْسِ ممَّا لا صُنعَ للعَبدِ فيه[٤]. وقد فَرَّق العُلَماءُ بيْن السَّهْوِ في الشَّيءِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٩).

والسَّهْوِ عن الشَّيءِ؛ فالسَّهْو في الشَّيءِ ليس بمذمومٍ، بخلافِ السَّهْوِ عن الشَّيءِ؛ فإنَّه مذمومٌ؛ ولذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ ذامًّا السَّاهينَ عن الصَّلاةِ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ السَّهْوَ في الشَّيءِ تَرْكٌ له مِن غيرِ قصْدٍ، والسَّهْوُ عن الشَّيءِ تَرْكٌ له مع القَصدِ[1]. وقد ورد عن عَطاءِ بنِ دينارٍ، أنَّه قالَ: (الحمدُ للَّهِ الَّذي قالَ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، ولم يقُلْ: في صَلاتِهم)[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أنَّه ليس السَّهْوُ عنها تَرْكَها، وإلَّا لم يَكونوا مُصَلِّينَ، وإنَّما هو السَّهْوُ عن واجبِها؛ إمَّا عن الوَقتِ، وإمَّا عن الحُضورِ والخُشوعِ، والصَّوابُ أنَّه يَعُمُّ النَّوعَينِ؛ فإنَّه سُبحانَه أثبَتَ لهم صلاةً، ووَصَفَهم بالسَّهْوِ عنها؛ فهو السَّهْوُ عن وقْتِها الواجِبِ، أو عن إخلاصِها وحُضورِها الواجِبِ؛ ولذلك وَصَفَهم بالرِّياءِ، ولو كان السَّهْوُ سَهْوَ تَرْكٍ لَمَا كان هناك رِياءٌ[3]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تبارك وتعالَى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في تَشويقِ السَّامعِ إلى مَعرفةِ مَن سِيقَ لهُ الكلامُ، والتَّعجيبِ مِن حالِ المُكذِّبين بالجَزاءِ، وما أورَثَهم التَّكذيبُ مِن سُوءِ الصَّنيعِ؛ فالتَّعجيبُ مِن تَكذيبِهم بالدِّينِ وما تَفرَّعَ عليه مِن دَعِّ اليَتيمِ، وعدَمِ الحَضِّ على طَعامِ المسكينِ، وقد صِيغَ هذا التَّعجيبُ في نظْمٍ مُشوِّقٍ؛

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٤/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٦٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٢٤).

لأنَّ الاستِفهامَ عن رُؤيةِ مَن ثَبَتَت له صِلةُ المَوصولِ يذهبُ بذِهنِ السَّامعِ مَذاهبَ شتَّى مِن تَعرُّفِ المَقصدِ بهذا الاستِفهامِ؛ فإنَّ التَّكذيبَ بالدِّينِ شائعٌ فيهم؛ فلا يكونُ مَثارًا للتَّعجُّبِ، فيَترقَّبُ السَّامعُ ماذا يَرِدُ بعْدَه؟ وهو قولُه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾[1].

- يجوزُ أنْ تكونَ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ هي الَّتي بمعْنى أخْبِرْني، فتَتعدَّى لاثنَينِ؛ أحدُهما ﴿ٱلَّذِى﴾، والآخَرُ مَحذوفٌ، تَقديرُه: أليس مُستحِقًّا عَذابَ اللهِ؟ أو: مَن هو؟ ويَجوزُ أنْ تكونَ مِن رُؤيةِ البصَرِ، فلا يكونُ في الكلامِ حذْفٌ؛ فالرُّؤيةُ البَصريَّةُ يَتعدَّى فِعلُها إلى مَفعولٍ واحدٍ؛ فإنَّ المُكذِّبينَ بالدِّينِ مَعروفونَ، وأعمالُهم مَشهورةٌ، فنُزِّلَت شُهرتُهم بذلك مَنزلةَ الأمْرِ المُبصَرِ المُشاهَدِ. وهَمزةُ الاستفهامِ تدُلُّ على التَّقريرِ والتَّفهيمِ؛ ليَتذكَّرَ السَّامعُ مَن يَعرِفُه بهذه الصِّفةِ[2].

- قولُه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ الفاءُ لعطْفِ الصِّفةِ الثَّانيةِ على الأُولى ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾؛ لإفادةِ تَسبُّبِ مَجموعِ الصِّفتينِ في الحُكْمِ المَقصودِ مِن الكلامِ، وذلك شَأنُها في عطْفِ الصِّفاتِ إذا كان مَوصوفُها واحدًا؛ فمَعْنى الآيةِ: عطْفُ صِفتَيْ دَعِّ اليَتيمِ وعَدَمِ إطعامِ المِسكينِ على جُرْمِ التَّكذيبِ بالدِّينِ، وهذا يُفيدُ تَشويهَ إنكارِ البَعثِ بما يَنشَأُ عن إنكارِه مِن المَذامِّ ومِن مُخالَفةٍ للحقِّ، ومُنافاةٍ لِما تَقتضيهِ الحِكمةُ مِن التَّكليفِ، وفي ذلك كِنايةٌ عن تَحذيرِ المسلمينَ مِن الاقترابِ مِن إحْدى هاتَينِ الصِّفتينِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٥).

بأنَّهما مِن صِفاتِ الَّذين لا يُؤمِنون بالجَزاءِ[١].

وقيل: الفاءُ هي الفَصيحةُ؛ لأنَّها جَوابُ شرْطٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: هَلْ عرَفْتَ الَّذي يُكذِّبُ بالجزاءِ أو بالإسلام؟ فإنْ لم تَعرِفْه، أو إنْ أردتَ أنْ تَعرِفَه؛ فهو الَّذي يَدفَعُ اليَتيمَ دفْعًا عَنيفًا، ويَزجُرُه زَجْرًا قَبيحًا، ولا يَحُضُّ على طَعامِ المِسكينِ؛ لعدَمِ اعتقادِه بالجزاءِ؛ ولذلك رتَّبَ الجُملةَ على ﴿يُكَذِّبُ﴾ بالفاءِ[٢].

- وفي إقحامِ اسمِ الإشارةِ واسمِ المَوصولِ بعْدَ الفاءِ -في قَولِه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى﴾-: زِيادةُ تَشويقٍ؛ حتَّى تَقرَعَ الصِّلةُ سَمْعَ السَّامعِ، فتَتمكَّنَ منه كَمالَ تَمكُّنٍ[٣].

أو وُضِع اسمُ الإشارةِ المُتعرِّضُ لوَصْفِ المُشارِ إليهِ مَوضعَ الضَّميرِ؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ، والتَّنبيهِ بما فيه مِن معْنى البُعدِ على بُعدِ مَنزلتِه في الشَّرِّ والفسادِ[٤].

- وأيضًا الإشارةُ إلى الَّذي يُكذِّبُ بالدِّينِ باسمِ الإشارةِ (ذلك)؛ لتَمييزِه أكمَلَ تَمييزٍ حتَّى يَتبصَّرَ السَّامعُ فيه وفي صِفَتِه، أو لتَنزيلِه مَنزِلةَ الظَّاهرِ الواضحِ بحيث يُشارُ إليه[٥].

- وجِيءَ في ﴿يُكَذِّبُ﴾، و﴿يَدُعُّ﴾، و﴿يَحُضُّ﴾ بصِيغةِ المُضارعِ؛ لإفادةِ تَكرُّرِ ذلك منه ودَوامِه، وهذا إيذانٌ بأنَّ الإيمانَ بالبَعثِ والجزاءِ هو الوازِعُ الحقُّ الَّذي يَغرِسُ في النَّفْسِ جُذورَ الإقبالِ على الأعمالِ الصَّالحةِ حتَّى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٤، ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٤).

يَصيرَ ذلك لها خُلقًا إذا شَبَّتْ عليه، فزَكَتْ وانساقَتْ إلى الخيرِ بدُونِ كُلفةٍ، ولا احتياجٍ إلى آمِرٍ، ولا إلى مَخافةٍ ممَّن يُقيمُ عليه العُقوباتِ، حتَّى إذا اخْتَلى بنَفْسِه وأَمِنَ الرُّقباءَ جاء بالفَحشاءِ والأعمالِ النَّكراءِ[١].

- وكُنِّيَ بنَفْيِ الحضِّ عن نفْيِ الإطعامِ؛ لأنَّ الَّذي يَشُحُّ بالحضِّ على الإطعامِ هو بالإطعامِ أشَحُّ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۞ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾ الفاءُ إمَّا لرَبْطِ ما بعْدَها بشَرْطٍ مَحذوفٍ، كأنَّه قيلَ: إذا كان ما ذُكِرَ مِن عدَمِ المبالاةِ باليتيمِ والمسكينِ مِن دَلائلِ التَّكذيبِ بالدِّينِ، ومُوجِباتِ الذَّمِّ والتَّوبيخِ؛ ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾. وإمَّا لتَرتيبِ الدُّعاءِ عليهم بالوَيلِ على ما ذُكِرَ مِن قَبائحِهم؛ فمَوقعُ الفاءِ صَريحٌ في اتِّصالِ ما بعْدَها بما قبْلَها مِن الكلامِ على معْنى التَّفريعِ والتَّرتُّبِ والتَّسبُّبِ[٣].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ صِفةٌ للمُصَلِّينَ مُقيِّدةٌ لحُكمِ المَوصوفِ؛ فإنَّ الويلَ للمُصلِّي السَّاهي عن صَلاتِه لا للمُصلِّي على الإطلاقِ، فيكونُ قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ تَرشيحًا للتَّهكُّمِ الواقعِ في إطلاقِ وَصْفِ المُصلِّينَ عليهم[٤]. وذلك على أنَّ وَصْفَهم بـ (الْمُصَلِّينَ) المرادُ عَدَمُه، أي: الَّذِينَ لا يُصَلُّونَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٤، ٨٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٦، ٥٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٧).

- وعُدِّيَ ﴿سَاهُونَ﴾ بحرْفِ ﴿عَن﴾؛ لإفادةِ أنَّهم تَجاوَزوا إقامةَ صَلاتِهم وتَرَكوها[١]. فمعنى (عن): أنَّهم ساهونَ عنها سَهْوَ تَركٍ لها، وقِلَّةِ التِفاتٍ إليها، وذلك فِعلُ المنافِقينَ أو الفَسَقةِ مِن المسلِمينَ[٢]. وذلك على قولٍ.

- ومَفعولُ (يَمنَعون) الأوَّلُ مَحذوفٌ، أي: النَّاسَ أو الطَّالبينَ، و﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ مَفعولُه الثَّاني[٣].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿هُمْ يُرَآءُونَ﴾ لتَقويةِ الحكْمِ، أي: تَأكيدِه[٤].

- قولُه: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ هذا ذمٌّ لهم بمُنْتهى البُخلِ[٥].

- وفي قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ كُرِّرَ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ ولم يُقتصَرْ على مرَّةٍ واحدةٍ؛ لامتناعِ عطْفِ الفِعلِ على الاسمِ، ولم يُقَلْ: (الَّذين همْ يَمنَعون)؛ لأنَّه فِعلٌ، فحَسُنَ عطْفُ الفِعلِ على الفعلِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٩٤).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٨).

(٦) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٦).

تَفْسيرُ

سُورَةِ الكَوْثَرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الكَوْثَرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الكَوْثَرِ)[(١)].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الكَوْثَرِ مَدنيَّةٌ، وقِيلَ: مكِّيَّةٌ[(٢)].

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بذِكْرِ الكَوثرِ في قولِه: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٧).

وسُمِّيَتْ أيضًا: سورةَ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، وسورةَ (النَّحْرِ). يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧١).

(٢) ممَّن اختار القولَ بأنَّها مَدَنيَّةٌ: ابنُ كثير، وابنُ حَجَر، والسيوطيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٤١)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٢).

والقولُ بأنَّها مكِّيَّةٌ نَسبَهُ للجُمهورِ: ابنُ الجَوزيِّ، وأبو حيَّانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧١).

قال ابنُ عاشور: (وهل هي مكِّيَّةٌ أو مَدَنيَّةٌ؟ تَعارضَت الأقوالُ والآثارُ في أنَّها مكِّيَّةٌ أو مدَنيَّةٌ تَعارُضًا شَديدًا، فهي مكِّيَّةٌ عندَ الجُمهورِ، واقتَصرَ عليه أكثرُ المُفسِّرينَ، ... وعن الحسَنِ وقَتادةَ ومُجاهِدٍ وعِكْرِمةَ: هي مدَنيَّةٌ، ويَشهَدُ لهم ما في «صحيح مسلم» عن أنسِ بنِ مالكٍ: «بَيْنا رَسولُ اللهِ ذاتَ يَومٍ بيْن أَظهُرِنا إذ أَغفَى إغفاءَةً ثمَّ رَفعَ رأسَه وقال: أُنزِلَت علَيَّ آنِفًا سُورةٌ، فقرأ: بسم اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر: ١- ٣] ...» الحديثَ. وأَنَسٌ أسْلَمَ في صَدرِ الهِجرةِ، فإذا كان لفظُ «آنِفًا» في كلامِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُستعمَلًا في ظاهرِ مَعناهُ -وهو الزَّمنُ القريبُ- فالسُّورةُ نزلَت منذ وَقتٍ قَريبٍ مِن حُصولِ تلك الرُّؤيا. ومُقتضَى ما يُروَى في تَفسيرِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ أن تكونَ السُّورةُ مكِّيَّةً، ومُقتضَى ظاهرِ تَفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾ مِن أنَّ النَّحرَ في الحجِّ أو يومَ الأضحَى تكونُ السُّورةُ مدَنيَّةً، ويَبعَثُ على أنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ ليس ردًّا على كلامِ العاصي بنِ وائلٍ ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧١، ٥٧٢).=

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

بِشارَةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالخَيرِ الجَزيلِ مِن الله[1].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- بَيانُ المِنَّةِ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّه أُعطِيَ الخيرَ الكثيرَ.

٢- أَمْرُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ يَشكُرَ اللهَ على ذلك بالإقبالِ على العِبادَةِ.

٣- إخبارُه صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ مُبْغِضَه مُنقَطِعٌ عن كلِّ خَيرٍ.

= وقال البِقاعي: (حديثُ... أنسٍ رضيَ الله عنه يدُلُّ على أنَّها مدَنيَّةٌ؛ لقولِه: «بيْنَ أَظهُرِنا في المَسجِدِ» [مسلم (٤٠٠)]). ((مصاعد النظر)) (٣/ ٢٥٥).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٥٢١). ويُنظر أيضًا: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٥٥).

الآيات (١-٢)

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾: أي: الخَيرَ الكَثيرَ، والنَّهرَ الَّذي تَرِدُه أُمَّتُه صلَّى الله عليه وسلَّم في القيامةِ، والكَوثَرُ: فَوعَلٌ، مِنَ الكَثرةِ، وأصلُ (كثر): يدُلُّ على خِلافِ القِلَّةِ[١].

﴿وَٱنۡحَرۡ﴾: أي: اذبَحْ، والنَّحرُ: مَوضِعُ القِلادةِ مِن الصَّدرِ، ونَحَرْتُه: أصَبْتُ نَحْرَه، ومنه: نحرُ البعيرِ، ويُقالُ لذَبْحِ البَعيرِ: النَّحْرُ؛ لأنَّ مَنحَرَه في صَدْرِه[٢].

﴿شَانِئَكَ﴾: أي: مُبغِضَك وعَدُوَّك، وأصلُ (شنأ): يدُلُّ على البُغضِ والتَّجَنُّبِ للشَّيءِ[٣].

﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾: المُنقَطِعُ عن الخَيرِ، وأصلُ (بتر): يدُلُّ على القَطْعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٤)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٩).

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مخاطِبًا نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، ومُبشِّرًا له بقَولِه: إنَّا أعطَيْناك -يا محمَّدُ- نَهرًا في الجنَّةِ اسمُه الكوثَرُ.

ثُمَّ أمَرَه اللهُ تَعالى بالشُّكْرِ على هذه المِنَّةِ، فقال: فاشكُرِ اللهَ تعالى بأن تُصَلِّيَ مُخلِصًا له، وأن تَنحَرَ له وَحْدَه.

ثُمَّ بَشَّرَ اللهُ سُبْحانَه نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ببِشارةٍ أُخْرى، فقال: إنَّ مُبغِضَك -يا محمَّدُ- هو المنقَطِعُ عن كلِّ خَيرٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾.

أي: إنَّا أعطيناك -يا محمَّدُ- نَهرًا في الجنَّةِ اسمُه الكَوثَرُ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٢٩-٥٣١).

قال ابنُ الجَوْزيِّ: (وفي الكَوثَرِ سِتَّةُ أقْوالٍ؛ أحَدُها: أنَّه نَهْرٌ في الجَنَّةِ...، والثَّاني: أنَّ الكَوثَرَ: الخَيْرُ الكَثيرُ الَّذي أُعطِيَ نَبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم، قالَه ابنُ عبَّاسٍ. والثَّالِثُ: العِلمُ والقُرآنُ، قالَه الحَسَنُ. والرَّابِعُ: النُّبوَّةُ، قالَه عِكْرِمةُ. والخامِسُ: أنَّه حَوْضُ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم الَّذي يَكثُرُ النَّاسُ عليه، قالَه عَطاءٌ. والسَّادِسُ: أنَّه كَثْرةُ أَتْباعِه وأمَّتِه، قالَه أبو بَكْرِ بنُ عيَّاشٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٧).

ممَّن اخْتارَ القَولَ المَذْكورَ؛ أنَّ المُرادَ بالكَوثَرِ نَهْرٌ في الجَنَّةِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، وابنُ جَريرٍ، والبَغَويُّ، وابنُ الجَوْزيِّ، والرَّسْعَنيُّ، والخازِنُ، وأبو حَيَّانَ، وابنُ حَجَرٍ، والعُلَيْميُّ، والشِّرْبينيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٩٥). =

عن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا عُرِجَ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى السَّماءِ قال: أُتِيتُ على نهرٍ حافَتاه قِبابُ اللُّؤلؤِ مُجَوَّفًا، فقُلتُ: ما هذا يا جِبريلُ؟!

= قال ابنُ كَثيرٍ: (وقد صَحَّ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه فَسَّرَه بالنَّهْرِ...، وهكذا رُوِيَ عن أَنَسٍ، وأبي العالِيةِ، ومُجاهِدٍ، وغَيرِ واحِدٍ مِن السَّلفِ: أنَّ الكَوثَرَ: نَهْرٌ في الجَنَّةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٢).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (قال أَنَسٌ، وابنُ عُمَرَ، وابنُ عبَّاسٍ، وجَماعةٌ مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ: الكَوثَرُ: نَهْرٌ في الجَنَّةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٩).

قال الرَّازيُّ: (المَشْهورُ والمُسْتَفيضُ عندَ السَّلَفِ والخَلَفِ أنَّه نَهْرٌ في الجَنَّةِ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣١٣).

وقال الواحِديُّ: (أكثَرُ المُفَسِّرينَ على أنَّ الكَوثَرَ نَهْرٌ في الجَنَّةِ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٦٠).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (الَّذي عليه جُمهورُ المفَسِّرينَ وتدُلُّ عليه الأخبارُ والآثارُ: أنَّه نهرٌ في الجنَّةِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٤٨).

وقال ابنُ حَجَرٍ: (والكَوثرُ فَوعَلٌ مِن الكَثرةِ، سُمِّيَ بها النَّهرُ؛ لكثرةِ مائِه وآنِيَتِه، وعِظَمِ قَدْرِه وخَيرِه). ((فتح الباري)) (٨/ ٧٣١).

وقال ابنُ جَريرٍ: (وصَفَه اللهُ بالكَثرةِ؛ لعِظَمِ قَدْرِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨٥).

وممَّن اخْتارَ القَولَ الثَّانيَ، وأنَّ المُرادَ العُمومُ، أي: أنَّ الكَوثَرَ هو الخَيرُ الكَثيرُ، ومنه النَّهرُ الَّذي يُقالُ له: الكَوثَرُ، والحَوْضُ: السَّمَرْقَنديُّ، والقُشَيْريُّ، والبَيْضاويُّ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ تيميَّةَ، واختارَه البِقاعيُّ، والسعديُّ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٢٧)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٧٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣١، ٥٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٢).

وأخرج البخاريُّ في ((صحيحه)) (٦٥٧٨) بسندِه عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (الكَوثرُ: الخَيرُ الكثيرُ الَّذي أعطاهُ اللهُ إيَّاه. قال أبو بِشْرٍ: قلتُ لسعيدٍ: إنَّ أُناسًا يَزْعُمونَ أنَّه نَهرٌ في الجنَّةِ؟ فقال سعيدٌ: النَّهَرُ الَّذي في الجَنَّةِ مِن الخَيرِ الَّذي أعطاهُ اللهُ إيَّاه).

قال ابن حجر: (حاصلُ ما قاله سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: أنَّ قولَ ابنِ عبَّاسٍ: إنَّه الخيرُ الكثيرُ، لا يُخالِفُ قولَ غيرِه: أنَّ المرادَ به نهرٌ في الجنةِ؛ لأنَّ النَّهرَ فردٌ مِن أفرادِ الخَيرِ الكثيرِ، ولعلَّ سعيدًا أَوْمأَ إلى أنَّ تأويلَ ابنِ عبَّاسٍ أَولى؛ لِعُمومِه، لكنْ ثبَت تخصيصُه بالنَّهرِ مِن لَفظِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فلا مَعْدِلَ عنه). ((فتح الباري)) (٨/ ٧٣٢).

قال: هذا الكَوثَرُ))[١].

وعن أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((بَيْنا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ذاتَ يومٍ بيْنَ أظهُرِنا إذ أغفى إغفاءةً[٢]، ثمَّ رَفَع رأسَه مُتبَسِّمًا! فقُلْنا: ما أضحَكَك يا رَسولَ اللهِ؟! قال: أُنزِلَت علَيَّ آنفًا سُورةٌ، فقرأ: بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۞ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾، ثمَّ قال: أتَدْرُونَ ما الكَوثَرُ؟ فقُلْنا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ. قال: فإنَّه نَهرٌ وعَدَنِيه ربِّي عزَّ وجَلَّ، عليه خَيرٌ كثيرٌ، هو حَوضٌ تَرِدُ عليه أُمَّتي يومَ القيامةِ[٣]، آنيَتُه عدَدُ النُّجومِ، فيُختَلَجُ[٤] العَبدُ منهم، فأقولُ: ربِّ إنَّه مِن أُمَّتي! فيَقولُ: ما تدري ما أحدَثَت بَعْدَك!))[٥].

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر مِنَّتَه عليه؛ أمَرَه بشُكْرِها[٦].

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾.

أي: فاشكُرِ اللهَ تعالى -يا محمَّدُ- على الكَوثَرِ الَّذي أعطاك، بأن تُصَلِّيَ مُخلِصًا

---

(١) رواه البخاري (٤٩٦٤).

(٢) أَغْفى إغْفاءةً: نامَ نَوْمًا خَفيفًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٦٣).

(٣) قال ابن كثير: (ومعنَى ذلك: أنَّه يَشْخبُ [أي يسيلُ ويجري] مِن الكوثَرِ -وهو في الجنَّةِ- ميزابانِ إلى الحوضِ، والحوضُ في موقفِ القيامةِ قبلَ الصِّراطِ؛ لأنَّه يُخْتَلَجُ عنه، ويُمْنَعُ منه أقوامٌ قد ارْتَدُّوا على أعقابِهم...، وجاء مُصَرَّحًا به أنَّه في العَرَصاتِ...، وأمَّا الكوثَرُ فإنَّه نهرٌ في الجنَّةِ). ((البداية والنهاية)) (١٩/ ٤٢٦).

(٤) يُختلَجُ: أي: يُنتزَعُ ويُقتطَعُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٤/ ١١٣).

(٥) رواه مسلم (٤٠٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

له، وأن تَنحَرَ له وَحْدَه دونَ ما سِواه[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٩٦، ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٢-٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٣).

قال ابنُ الجَوْزيِّ: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ وفي هذه الصَّلاةِ ثلاثةُ أقْوالٍ؛ أحدُها: أنَّها صَلاةُ العيدِ. وقال قَتادةُ: صلاةُ الأَضْحى. والثَّاني: أنَّها صلاةُ الصُّبْحِ بالمُزْدَلِفةِ، قالَه مُجاهِدٌ. والثَّالِثُ: الصَّلَواتُ الخَمْسُ، قاله مُقاتِلٌ.

وفي قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ خمسةُ أقوالٍ؛ أحدُها: اذبَحْ يَومَ النَّحْرِ، رواه عليُّ بنُ أبي طَلْحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال عَطاءٌ ومُجاهِدٌ والجُمهورُ. والثَّاني: وَضْعُ اليُمْنى على اليُسْرى عندَ النَّحْرِ في الصَّلاةِ، رواه أبو الجَوْزاءِ عن ابنِ عبَّاسٍ، وهو قَولُ عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، قال ابنُ جَريرٍ: فيَكونُ المعنى: ضَعِ اليُمْنى على اليُسْرى عندَ النَّحْرِ في الصَّلاةِ. والثَّالثُ: أنَّه رَفْعُ اليَدَينِ بالتَّكْبيرِ إلى النَّحْرِ، قالَه أبو جَعفرٍ محمَّدُ بنُ عليٍّ. والرَّابعُ أنَّ المعنى: صَلِّ للهِ، وانْحَرْ للهِ؛ فإنَّ ناسًا يُصَلُّونَ لغَيْرِه، ويَنحَرونَ لغَيْرِه، قاله القُرَظيُّ. والخامِسُ: أنَّه اسْتِقبالُ القِبْلةِ بالنَّحْرِ، حَكاه الفَرَّاءُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٨٠)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٩٦).

قال ابنُ عثيمين: (﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ المرادُ بالصَّلاةِ هنا: جميعُ الصَّلواتِ، وأوَّلُ ما يَدخُلُ فيها الصَّلاةُ المقرونةُ بالنَّحْرِ، وهي صلاةُ عيدِ الأضحى، لكِنَّ الآيةَ شامِلةٌ عامَّةٌ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ الصَّلَواتِ المفروضةَ والنَّوافِلَ، صَلواتِ العيدِ والجُمُعةِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٩).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (أمَّا قَولُه: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ فقال عامَّةُ المُفَسِّرينَ: اذبَحْ يَومَ النَّحرِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٥٠).

وقال ابنُ كَثيرٍ بعْدَ أن ذكَرَ ما قيلَ في معنى النَّحرِ: (كلُّ هذه الأقوالِ غَريبةٌ جدًّا، والصَّحيحُ القَولُ الأوَّلُ؛ أنَّ المُرادَ بالنَّحرِ ذَبْحُ المَناسِكِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٣).

وقال ابنُ جَريرٍ: (أَوْلى هذه الأقوالِ عندي بالصَّوابِ: قَولُ مَن قال: معنى ذلك: فاجْعَلْ صَلاتَك كلَّها لرَبِّك خالِصًا دونَ ما سِواه مِن الأنْدادِ والآلِهةِ، وكذلك نَحْرُك اجْعَلْه له دونَ الأوْثانِ؛ شُكرًا له على ما أعْطاك مِن الكَرامةِ والخَيرِ الَّذي لا كُفْءَ له، وخَصَّك به، مِن إعْطائه إيَّاك الكَوثَرَ. وإنَّما قُلْتُ: ذلك أَوْلى الأقوالِ بالصَّوابِ في ذلك؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ ثَناؤُه أَخبَرَ نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله -تعالى- لَمَّا بَشَّرَه بالنِّعَمِ العظيمةِ، وعَلِمَ -تعالى- أنَّ النِّعمةَ لا تَهنَأُ إلَّا إذا صارَ العدوُّ مَقهورًا؛ لا جَرَمَ وَعَدَه بقَهرِ العَدوِّ(١).

وأيضًا لَمَّا أمَرَه باستِغراقِ الزَّمانِ في عِبادَةِ الخالقِ، والإحسانِ إلى الخَلائقِ بأعلَى الخَلائقِ؛ عَلَّلَه بما حاصِلُه أنَّه لا شاغِلَ له ولا حاجةَ أصلًا تُلِمُّ به، فقال(٢):

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

أي: إنَّ مُبغِضَك -يا محمَّدُ- هو المنقَطِعُ عن كلِّ خَيرٍ، ومِن ذلك حُسنُ الذِّكْرِ(٣).

= بما أَكرَمَه به مِن عَطِيَّتِه وكَرامتِه، وإنْعامِه عليه بالكَوثَرِ، ثُمَّ أَتْبَعَ ذلك قَولَه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، فكان مَعْلومًا بذلك أنَّه خَصَّه بالصَّلاةِ له والنَّحرِ على الشُّكْرِ له على ما أعْلَمَه مِن النِّعْمةِ الَّتي أنْعَمَها عليه، بإعْطائِه إيَّاه الكَوثَرَ، فلم يكنْ لِخُصوصِ بعضِ الصَّلاةِ بذلك دونَ بعضٍ، وبعضِ النَّحرِ دونَ بعضٍ وَجْهٌ؛ إذ كان حَثًّا على الشُّكْرِ على النِّعَمِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٩٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وقد امتَثَلَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمْرَ رَبِّه، فكان كَثيرَ الصَّلاةِ لرَبِّه، كَثيرَ النَّحْرِ، حتَّى نَحَرَ بيَدِه في حَجَّةِ الوَداعِ ثَلاثًا وسِتِّينَ بَدَنةً، وكان يَنحَرُ في الأعْيادِ وغَيْرِها). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٣، ٣٣٤). =

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ لم يَقُلْ: (أعطَينا الرَّسولَ) أو (النَّبيَّ) أو (العالِمَ) أو (المُطيعَ)؛ لأنَّه لو قال ذلك لَأشعَرَ أنَّ تلك العَطيَّةَ وقَعَت مُعَلَّلةً بذلك الوَصفِ، فلمَّا قال: ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ عُلِمَ أنَّ تلك العَطيَّةَ غيرُ مُعَلَّلةٍ بعِلَّةٍ أصلًا، بل هي مَحْضُ الاختيارِ والمشيئةِ، كما قال: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا﴾ [الزخرف: ٣٢]، ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] [الحج: ٧٥].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ في إسنادِ الإعطاءِ إليه دونَ الإيتاءِ إشارةٌ إلى أنَّ ذلك إيتاءٌ على جهةِ التَّمليكِ؛ فإنَّ الإعطاءَ دونَه كثيرًا ما يُستعمَلُ في ذلك، ومنه قولُه تعالى لِسُليمانَ عليه السَّلامُ: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ [ص: ٣٩] بعْدَ قولِه: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ [ص: ٣٥]. وقيلَ: فيه إشارةٌ إلى أنَّ المُعطَى وإن كان كثيرًا في نَفْسِه قَليلٌ بالنِّسبةِ إلى شأْنِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بناءً على أن الإيتاءَ لا يُستعمَلُ إلَّا في الشَّيءِ العظيم، كقولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗا﴾ [سبأ: ١٠] و﴿ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، والإعطاءُ يُستعمَلُ في القليلِ والكثيرِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٤]، ففيه مِن تَعظيمِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما فيه. وقيلَ: التَّعبيرُ بذلك؛ لأنَّه بالتَّفضُّلِ أَشْبَهُ، بخلافِ الإيتاءِ، فإنَّه قد يكونُ واجِبًا، ففيهِ إشارةٌ إلى الدَّوامِ والتَّزايُدِ أبدًا؛ لأنَّ التَّفضُّلَ

= قال الرَّاغب: (زَعَموا أنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم يَنقَطِعُ ذِكْرُه إذا انقطَعَ عُمُرُه؛ لفقْدانِ نَسْلِه، فنبَّه تعالى أنَّ الَّذي ينقَطِعُ ذِكرُه هو الَّذي يَشْنَؤُه، فأمَّا هو فكما وصَفَه اللهُ تعالى بقَولِه: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ٤]؛ وذلك لجَعْلِه أبًا للمُؤمِنينَ، وتقييضِ مَن يُراعيه ويُراعي دِينَه الحَقَّ). ((المفردات)) (ص: ١٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣١١، ٣١٢).

نَتيجةُ كَرمِ اللهِ تعالى، غيرِ المُتناهِي[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ أبلَغُ مِن: (فَصَلِّ لله)؛ لأنَّ لَفظَ الرَّبِّ يُفيدُ التَّربيةَ المتقَدِّمةَ المشارَ إليها بقَولِه: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾، ويُفيدُ الوَعدَ الجَميلَ في المستقبَلِ أنَّه يُرَبِّيه ولا يَترُكُه[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴾، فيه سُؤالٌ: المَذكورُ عَقِبَ الصَّلاةِ هو الزَّكاةُ، فلِمَ كان المَذكورُ هاهنا هو النَّحرَ؟

الجوابُ: أمَّا على قَولِ مَن قال: المُرادُ مِن الصَّلاةِ: صلاةُ العيدِ، فالأمرُ ظاهرٌ فيه. وأمَّا على قَولِ مَن حَمَلَه على مُطلقِ الصَّلاةِ؛ فلِوُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المُشرِكينَ كانت صَلَواتُهم وقَرابينُهم للأَوثانِ، فقِيلَ له: اجعَلْهما للهِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ مِن النَّاسِ مَن قال: إنَّه -عليه السَّلامُ- ما كان يَدخُلُ في مِلكِه شَيءٌ مِن الدُّنيا، بل كان يَملِكُ بقَدرِ الحاجةِ، فلا جَرَمَ لم تجِبِ الزَّكاةُ عليه، أمَّا النَّحرُ فقد كان واجِبًا عليه.

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّ أعزَّ الأموالِ عندَ العَربِ هو الإبِلُ، فأمَرَه بنَحْرِها، وصَرفِها إلى طاعةِ الله تعالى؛ تَنبيهًا على قَطعِ العَلائقِ النَّفْسانيَّةِ عن لَذَّاتِ الدُّنيا وطَيِّباتِها[٣].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴾ الذَّبحُ في مَوضِعِه أفضَلُ مِن الصَّدَقةِ بثَمَنِه ولو زاد، كالهدايا والأضاحيِّ؛ فإنَّ نَفْسَ الذَّبحِ وإراقةِ الدَّمِ مقصودٌ؛ فإنَّه عِبادةٌ مَقرونةٌ بالصَّلاةِ، كما قال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴾، وقال: ﴿ قُلۡ

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٢/ ٣١٩).

إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، ففي كلِّ مِلَّةٍ صلاةٌ ونَسيكةٌ لا يقومُ غيرُهما مقامَهما؛ ولهذا لو تَصَدَّقَ عن دمِ المُتعةِ والقِرانِ بأضعافِ أضعافِ القيمةِ لَمْ يَقُمْ مَقامَه، وكذلك الأضحيَّةُ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ أَمَرَه اللهُ أنْ يَجْمَعَ بيْن هاتَينِ العِبادتَينِ العَظيمتَينِ، وهُما الصَّلاةُ والنُّسُكُ الدَّالَّتانِ على القُربِ، والتَّواضُعِ والافتقارِ، وحُسْنِ الظَّنِّ، وقوَّةِ اليقينِ، وطُمَأنينةِ القَلبِ إلى اللهِ وإلى عِدَتِه وأَمْرِه، وفَضْلِه وخَلَفِه، عَكْسُ حالِ أهلِ الكِبْرِ والنَّفرةِ، وأهلِ الغِنى عن اللهِ، الَّذين لا حاجةَ في صَلاتِهم إلى رَبِّهم يَسألونَه إيَّاها، والَّذين لا يَنحَرونَ له؛ خَوفًا مِن الفَقرِ، وترْكًا لإعانةِ الفُقَراءِ وإعطائِهم، وسوءَ ظَنٍّ منهم بربِّهم؛ ولهذا جَمَعَ اللهُ بيْنَهما في قَولِه تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، والنُّسُكُ هي الذَّبيحةُ ابتغاءَ وَجْهِه(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ أنَّ الصَّلاةَ والنُّسُكَ هما أَجَلُّ ما يُتَقَرَّبُ به إلى اللهِ؛ فإنَّه أتى فيهما بالفاءِ الدَّالَّةِ على السَّبَبِ؛ لأنَّ فِعْلَ ذلك -وهو الصَّلاةُ والنَّحرُ- سَبَبٌ للقيامِ بشُكرِ ما أعطاه اللهُ إيَّاه مِن الكَوثرِ والخَيرِ الكثيرِ، فشُكْرُ المنعِمِ عليه وعِبادتُه أَعْظَمُها هاتان العبادتانِ، بلِ الصَّلاةُ نهايةُ العباداتِ وغايةُ الغاياتِ، كأنَّه يقولُ: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ الخيرَ الكثيرَ -على قولٍ-، وأنعَمْنا عليك بذلك؛ مِن أَجْلِ قيامِك لنا بهاتَينِ العِبادتينِ شُكرًا لإنعامِنا عليك، وهما السَّبَبُ لإنعامِنا عليك بذلك، فقُمْ لنا بهما؛ فإنَّ الصَّلاةَ والنَّحرَ محفوفانِ بإنعامٍ قَبْلَهما وإنعامٍ بَعْدَهما، وأَجَلُّ العباداتِ الماليَّةِ النَّحرُ، وأَجَلُّ العباداتِ البَدَنيَّةِ الصَّلاةُ، وما يَجتَمِعُ للعبدِ في الصَّلاةِ لا يَجتمِعُ له في غيرِها مِن سائرِ

(١) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣١).

العباداتِ، كما عَرَفَه أربابُ القُلوبِ الحَيَّةِ وأصحابُ الهِمَمِ العاليةِ، وما يَجتمعُ له في نَحْرِه مِن إيثارِ اللهِ، وحُسْنِ الظَّنِّ به، وقُوَّةِ اليقينِ، والوُثوقِ بما في يَدِ اللهِ: أمرٌ عَجيبٌ إذا قارَنَ ذلك الإيمانُ والإخلاصُ[١].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ عن عَطاءٍ قال: (فَصَلِّ صلاةَ العِيدِ)؛ ففي الآيةِ مَشروعيَّةُ صلاةِ العيدِ، والأضحيَّةِ، وتأخيرِها عن الصَّلاةِ[٢]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ. والأُضحيَّةُ مِن أعظمِ شعائرِ الإسلامِ، وهي النُّسُكُ العامُّ في جميعِ الأمصارِ، والنُّسُكُ مَقْرونٌ بالصَّلاةِ في قَولِه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وقد قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، فأَمَرَ بالنَّحْرِ كما أَمَرَ بالصَّلاةِ[٣].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ استدَلَّ به مَن قال بأنَّ الأُضحيَّةَ كانت واجبةً على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٤].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ استدَلَّ به مَن قال بأنَّ وَقتَ الأضحيَّةِ بَعْدَ مُضِيِّ قَدْرِ الصَّلاةِ خاصَّةً، ولم يعتَبِرِ الخُطبتَينِ[٥].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ في ظاهِرِ الآيةِ أنَّ الإبلَ أفضَلُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مذهَبُ الحَنَفيَّةِ، والحَنابلةِ أنَّ وقتَ الأضحيَّةِ يَبدأُ بعْدَ صلاةِ العيدِ، واختارَه الطَّحاويُّ، والشَّوكانيُّ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي و((حاشية الشِّلْبي)) (٦/ ٤)، ((الفروع)) لابن مفلح (٦/ ٩٢)، ((شرح معاني الآثار)) للطحاوي (٤/ ١٧٤)، ((الدراري المضية)) للشوكاني (٢/ ٣٤٣)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٧/ ٤٥٩).

مِن البَقَرِ والغَنَمِ في الضَّحايا، لأنَّه تعالى أمَرَ بالنَّحرِ، والنَّحرُ إنَّما يكونُ فيها. وقال مالِكٌ رحمه اللهُ تعالى: الغَنَمُ أفضَلُ، وقد ضَحَّى رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بكَبشَينِ(١)، ويُحمَلُ الأمرُ بالنَّحرِ في الآيةِ إنْ جعَلْناها في الضَّحِيَّةِ خارجًا على ما كان الأكثَرُ عِندَهم في ذلك الوَقتِ، وهو الإبِلُ؛ فلذلك خَصَّ النَّحْرَ، وبيَّن النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقَولِه وفِعْلِه أنَّ الغَنَمَ أفضَلُ، وأيضًا فإنَّما فُدِيَ ابنُ إبراهيمَ عليهما السَّلامُ مِن الذَّبحِ بكَبْشٍ(٢).

١٢- الذَّبحُ لغَيرِ اللهِ شِركٌ أكبَرُ؛ لأنَّ الذَّبحَ عبادةٌ، كما أمر به في قَولِه تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٣) [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

١٣- قَولُه تَعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّك لا تَتأسَّفُ على شيءٍ مِن الدُّنْيا، كما ذَكَرَ ذلك في آخِرِ (طه) و(الحِجْرِ) وغَيْرِهما، وفيها الإشارةُ إلى تَرْكِ الالْتِفاتِ إلى النَّاسِ وما يَنالُك مِنهم، بلْ صَلِّ لرَبِّك وانْحَرْ(٤).

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يقلْ: (ضَحِّ)؛ حتَّى يَشملَ جميعَ أنواعِ الضَّحايا؟

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٥٥٨)، ومسلمٌ (١٩٦٦) مِن حديثِ أنَسٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦٢٩).

مَذهَبُ الجُمهورِ مِن الحَنَفيَّةِ والشَّافِعيَّةِ والحَنابِلةِ: أنَّ أَفضَلَ الأضاحي البَدَنةُ، ثُمَّ البَقَرةُ، ثمَّ الشَّاةُ. يُنظر: ((شرح مختصر الطحاوي)) للجَصَّاص (٧/ ٣٢٦)، ((المجموع)) للنَّووي (٨/ ٣٩٦)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٢/ ٥٣٠).

ومَذهَبُ المالِكيَّةِ أن أَفضَلَها الغَنَمُ، ثمَّ البَقَرُ، ثمَّ الإبِلُ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (١/ ٤٣٠)، ((الذخيرة)) للقرافي (٤/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((فتاوى أركان الإسلام)) لابن عثيمين (ص: ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣٢، ٥٣٣).

الجوابُ: أنَّ الصَّلاةَ أعظَمُ العباداتِ البَدَنيَّةِ؛ فقُرِنَ بها أعظَمُ أنواعِ الضَّحايا، وأيضًا فيه إشارةٌ إلى أنَّك بعْدَ فَقْرِك تصيرُ بحيثُ تَنحَرُ المِئةَ مِنَ الإبلِ(١)!

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أنَّ مَن شَنَأَ شيئًا ممَّا جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم فله مِن ذلك نَصيبٌ، قال أبو بكرِ بنُ عَيَّاش: «إنَّ أهلَ السُّنَّةِ يَبقَونَ ويَبقى ذِكْرُهم، وأهلَ البدعةِ يموتون ويموتُ ذِكْرُهم»؛ وذلك أنَّ أهلَ البدعةِ شَنَؤُوا بعضَ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، فأَبْتَرَهم بقَدْرِ ذلك، والَّذين أَعلنوا ما جاء به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم صار لهم نصيبٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]؛ فإنَّ ما أَكرمَ اللهُ به نبيَّه مِن سعادةِ الدُّنيا والآخِرةِ فللمؤمِنينَ المتابِعينَ نَصيبٌ بقَدْرِ إيمانِهم، فما كان مِن خصائصِ النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ فلَمْ يُشارِكْ فيه أحدٌ مِن أُمَّتِه، وما كان مِن ثوابِ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ فلكلِّ مُؤمنٍ نَصيبٌ بقَدْرِ ذلك(٢).

١٦- قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ فكلُّ مَن شنَأه أو أبغَضه وعاداه فإنَّ اللهَ يَقطعُ دابِرَه، ويَمحَقُ عَيْنَه وأثَرَه(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾

- افتِتاحُ الكلامِ بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بالخبَرِ، والإشعارِ بأنَّه شَيءٌ عَظيمٌ يَستتبِعُ الإشعارَ بتَنويهِ شَأنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والكلامُ مَسوقٌ مَساقَ البِشارةِ، وإنشاءِ العَطاءِ، لا مَساقَ الإخبارِ بعَطاءٍ سابقٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) لابن تيمية (ص: ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٢).

- وأُرِيدَ مِن هذا الخبَرِ بِشارةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإزالةُ ما عسى أنْ يكونَ في خاطِرِه مِن قولِ مَن قال فيه: هو أبتَرُ، فقُوبِلَ معْنى ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ بمعْنى الكَوثرِ؛ إبطالًا لِقولِهم[١].

- وضَميرُ العَظَمةِ (نا) مُشعِرٌ بالامتنانِ بعَطاءٍ عَظيمٍ[٢].

- والكَوثرُ: اسمٌ في اللُّغةِ للخَيرِ الكثيرِ، صِيغَ على زِنةِ فَوعَلٍ، ولَمَّا وَقَعَ هنا فيها مادَّةُ الكُثْرِ، كانتْ صِيغتُه مُفيدةً شِدَّةَ ما اشتُقَّت منه، بِناءً على أنَّ زِيادةَ المَبْنى تُؤذِنُ بزِيادةِ المعْنى، أي: المُفرِطُ في الكثرةِ[٣].

- وقولُه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ اعتِراضٌ، والفاءُ للتَّفريعِ على البِشارةِ بإعطاءِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الكَوثرَ بأنْ يَشكُرَ ربَّه عليها؛ فإنَّ الصَّلاةَ أفعالٌ وأقوالٌ دالَّةٌ على تَعظيمِ اللهِ، والثَّناءِ عليه، وذلك شُكرٌ لنِعمتِه. وناسَبَ أنْ يكونَ الشُّكرُ بالازديادِ ممَّا عاداهُ عليه المشرِكون وغيرُهم ممَّن قالوا مَقالتَهم الشَّنعاءَ: إنَّه أبتَرُ؛ فإنَّ الصَّلاةَ للهِ شُكرٌ له، وإغاظةٌ للَّذين يَنْهَونه عن الصَّلاةِ؛ كما قال تعالَى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩، ١٠]؛ لأنَّهم إنَّما نَهَوه عن الصَّلاةِ الَّتي هي لِوجْهِ اللهِ دونَ العِبادةِ لأصنامِهم، وكذلك النَّحرُ للهِ[٤].

- وكان المُقتضى أنْ يقولَ: (فصَلِّ لنا)، ولكنَّه انتَقَلَ مِن المُضمَرِ إلى المُظهَرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٦، ٨٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٢، ٥٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٣).

على سَبيلِ الالْتفاتِ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ؛ اهتمامًا بذِكرِ (رَبِّكَ)، وتَعظيمًا له، ولِما في لَفظِ الرَّبِّ مِن الإيماءِ إلى استِحقاقِه العِبادةَ مِن أجْلِ رُبوبيَّتِه؛ لأنَّ مَن يُرَبِّيك يَستحِقُّ العِبادةَ، فضْلًا عن فَرْطِ إنعامِه[1]. فمِن فَوائِدِ الآيةِ اللَّطيفةِ الالْتِفاتُ في قَوْلِه: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾، الدَّالَّةِ على أنَّ رَبَّك مُسْتحِقٌّ لِذلك، وأنت جَديرٌ بأن تَعبُدَه وتَنحَرَ له[2].

- وإضافةُ (ربّ) إلى ضَميرِ المُخاطَبِ؛ لقَصْدِ تَشريفِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وتَقريبِه، وفيه تَعريضٌ بأنَّه يَرُبُّه ويَرأَفُ به[3].

- قولُه: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ في تَفريعِ الأمرِ بالنَّحرِ مع الأمْرِ بالصَّلاةِ على أنْ أعطاهُ الكوثرَ: خُصوصيةٌ تُناسِبُ الغرَضَ الَّذي نزَلَت السُّورةُ له؛ ألَا تَرى أنَّه لم يَذكُرِ الأمرَ بالنَّحرِ مع الصَّلاةِ في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨]؟ ويَظهَرُ أنَّ هذه تَسليةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عن صَدِّ المشركينَ إيَّاهُ عن البيتِ في الحُدَيْبيَةِ، فأعْلَمَه اللهُ تعالَى بأنَّه أعطاهُ خيرًا كثيرًا، أي: قدَّرَه له في المستقبَلِ، وعبَّرَ عنه بالماضي؛ لتَحقيقِ وُقوعِه[4].

- وأفادتِ اللَّامُ مِن قولِه: ﴿لِرَبِّكَ ﴾ أنَّه يَخُصُّ اللهَ بصَلاتِه، فلا يُصلِّي لغيرِه، ففيه تَعريضٌ بالمشرِكينَ بأنَّهم يُصَلُّون للأصنامِ بالسُّجودِ لها والطَّوافِ حَوْلَها، وفيه تَنذيرٌ بالكفَّارِ حيث كانت صَلاتُهم مُكاءً وتَصديةً، ونحْرُهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩٧ - ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٦/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للأصنامِ[١]. وقيلَ: فيها التَّعْريضُ بحالِ الأَبتَرِ الشَّانِئِ، الَّذي صَلاتُه ونُسُكُه لغَيْرِ اللهِ[٢].

- وعطْفُ ﴿وَٱنْحَرْ﴾ على ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ يَقْتضي تَقديرَ مُتعلَّقِه مُماثِلًا لمُتعلَّقِ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾؛ لدَلالةِ ما قبْلَه عليه، فالتَّقديرُ: وانحَرْ له، وهو إيماءٌ إلى إبطالِ نحْرِ المُشرِكين قُربانًا للأصنامِ[٣].

- والأمْرُ بالنَّحرِ دونَ الذَّبحِ تَغليبٌ للَفظِ النَّحرِ، وهو الَّذي رُوعِيَ في تَسميةِ يومِ الأضحى يومَ النَّحرِ، ولِيَشملَ الضَّحايا في البُدنِ والهَدايا في الحجِّ، أو ليَشملَ الهَدايا الَّتي عُطِّلَ إرسالُها في يومِ الحُدَيبيَةِ، ويُرشِّحُ إيثارَ النَّحرِ رَعْيُ فاصلةِ الرَّاءِ في السُّورةِ[٤].

- وخَصَّ هاتَين العِبادتينِ بالذِّكرِ؛ لأنَّهما مِن أفضَلِ العِباداتِ، وأجَلِّ القُرُباتِ، ولأنَّ الصَّلاةَ تتضَمَّنُ الخُضوعَ في القَلْبِ والجوارحِ للهِ، وتنقُّلَها في أنواعِ العُبوديَّةِ، وفي النَّحرِ تقَرُّبٌ إلى اللهِ بأفضَلِ ما عندَ العَبدِ مِنَ النَّحائِرِ، وإخراجُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٤). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٤، ٥٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٧٥).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿وَٱنْحَرْ﴾ أي: تقَرَّبْ إليه بالنَّحرِ، والنَّحْرُ يختَصُّ بالإبلِ، والذَّبحُ للبَقَرِ والغَنَمِ، لكِنَّه ذكَرَ النَّحرَ؛ لأنَّ الإبلَ أنفَعُ مِن غيرِها بالنِّسبةِ للمَساكينِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٣).

وسبَقَ وجْهٌ آخَرُ، وهو أنَّه ذكَرَ النَّحرَ؛ حمْلًا على ما كان الأكثَرَ عِندَهم في ذلك الوَقتِ، وهو الإبلُ. ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٣٠-٣٣١).

للمالِ الَّذي جُبِلَت النُّفوسُ على محبَّتِه والشُّحِّ به[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ استِئنافٌ يَجوزُ أنْ يكونَ استِئنافًا ابتدائيًّا، ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ تَعليلًا[٢].

- وفي قَوْلِه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أنْواعٌ مِن التَّأكيدِ؛ أحَدُها: تَصْديرُ الجُمْلةِ بإنَّ. الثَّاني: الإتْيانُ بضَميرِ الفَصْلِ الدَّالِ على قُوَّةِ الإسْنادِ والاخْتِصاصِ. الثَّالثُ: مَجيءُ الخَبَرِ على أَفعَلِ التَّفْضيلِ دونَ اسْمِ المَفْعولِ. الرَّابعُ: تَعْريفُه بـ «اللَّامِ» الدَّالَّةِ على حُصولِ هذا المَوْصوفِ له بتَمامِه، وأنَّه أَحَقُّ به مِن غَيْرِه، ونَظيرُ هذا في التَّأكيدِ قَولُه تَعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٣] [طه: ٦٨].

- واشتمالُ الكلامِ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ على صِيغةِ قصْرٍ، وعلى ضَميرِ غائبٍ، وعلى لَفظِ ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾: مُؤذِنٌ بأنَّ المقصودَ به ردُّ كَلامٍ صادرٍ مِن مُعيَّنٍ، وحِكايةُ لَفظٍ مُرَادٍ بالرَّدِّ، وكانوا يَصِفون مَن ليس له ابنٌ بـ (أبتَرَ)، فأنْزَلَ اللهُ هذه السُّورةَ، فحصَلَ القصْرُ في قَولِه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ لأنَّ ضَميرَ الفصلِ يُفيدُ قصْرَ صِفةِ الأبتَرِ على الموصوفِ -وهو شانئُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم- قصْرَ المُسنَدِ على المسنَدِ إليه، وهو قَصْرُ قلْبٍ[٤]، أي: إنَّ مَن أبْغَضَك مِن قَومِك لمُخالَفتِك لهم هُو الأبتَرُ لا أنت[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٦/ ٥٣٣).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٧، ٨٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٥، ٥٧٦).

- ولَمَّا كان وَصْفُ الأبتَرِ في الآيةِ جِيءَ به لمُحاكاةِ قولِ القائلِ: (محمَّدٌ أبتَرُ) إبطالًا لقولِه ذلك، وكان عُرْفُهم في وَصْفِ الأبتَرِ أنَّه الَّذي لا عَقِبَ له؛ تعيَّنَ أنْ يكونَ هذا الإبطالُ ضَرْبًا مِن الأُسلوبِ الحَكيمِ، وهو تَلقِّي السَّامعِ بغَيرِ ما يَترقَّبُ، بحَمْلِ كَلامِه على خِلافِ مُرادِه؛ تَنبيهًا على أنَّ الأحقَّ غيرُ ما عَناهُ مِن كَلامِه، وذلك بصَرْفِ مُرادِ القائلِ عن الأبتَرِ الَّذي هو عَديمُ الابنِ الذَّكَرِ إلى ما هو أجدَرُ بالاعتبارِ، وهو النَّاقصُ حظِّ الخَيرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٧).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ الكافِرُونَ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الكافِرُونَ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ الكافِرونَ[١].

وسُمِّيَت أيضًا بسُورةِ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٢]؛ فعن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُوتِرُ بثَلاثٍ، يَقرأُ في الأولى بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الثَّانيةِ بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثَّالثةِ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾))[٣].

فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

١- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ بها في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن الرَّكعتَينِ قبْلَ الوِترِ:

كما في حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، المتقدِّم.

٢- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ بها وبـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في رَكعتَيِ الفَجرِ:

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لوُقوعِ لَفظِ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ في فاتِحَتِها في قَولِه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٩).

(٢) وسُمِّيت أيضًا: سورةَ الكافِرين -على أنَّ المرادَ: سورةُ ذِكْرِ الكافِرين، أو نداءِ الكافِرين-، وسورةَ الإخلاصِ، وسورةَ العبادةِ، وسورةَ الدِّينِ؛ لقولِه: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾. يُنظر: ((جمال القراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٩).

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٤٦٢)، والنَّسائيُّ (١٧٠٢) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (١١٧٢)، وأحمدُ (٢٧٢٠). صحَّح إسنادَه النَّوويُّ في ((الخلاصة)) (١/ ٥٥٦)، وابنُ الملقِّنِ في ((البدر المنير)) (٤/ ٣٣٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٧٠٢).

عن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قَرأَ في رَكعتَيِ الفَجرِ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾))[١].

وعن عائشةَ رضيَ الله عنها، قالت: كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يُصلِّي... ركعتَينِ قبْلَ الفَجرِ، وكان يقولُ: ((نِعْمَ السُّورَتانِ هُما، تَقرَؤُونَهما في الرَّكعَتَينِ قبْلَ الفَجرِ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾))[٢].

٣- سَمِعَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم رجُلًا يَقرأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن رَكعتَيِ الفَجرِ فامْتَدَحَهُ:

عن جابرٍ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رجُلًا قامَ فركَعَ رَكعتَيِ الفَجرِ فَقرأَ في الرَّكعةِ الأُولى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ حتَّى انْقَضَت السُّورةُ، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: هذا عَبدٌ عَرَفَ رَبَّه. وقرأَ في الآخرةِ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتَّى انقَضَت السُّورةُ، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: هذا عَبدٌ آمَنَ برَبِّه))[٣].

٤- يُستَحَبُّ قِراءتُها عندَ النَّومِ، وهي بَراءَةٌ مِن الشِّرْكِ:

عن نَوْفَلٍ الأَشْجَعيِّ رضيَ الله عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال له: اقرَأْ عندَ مَنامِك ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، قال: ثُمَّ نَمْ على خاتِمَتِها؛ فإنَّها

---

(١) أخرجه مسلم (٧٢٦).

(٢) أخرجه ابنُ ماجه (١١٥٠)، وأحمدُ (٢٦٠٢٢) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٤٦١).
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، والألبانيُّ في ((صحيح ابن ماجه)) (٩٥٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٣/ ١٤٩).

(٣) أخرجه الطَّحاويُّ في ((شرح معاني الآثار)) (١٧٧٤)، وابنُ حِبَّانَ (٢٤٦٠)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٢٥٢٤).
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وحسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٨٩)، وجوَّد إسنادَه الألبانيُّ في ((أصل صفة الصلاة)) (٢/ ٤٥٦)، وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٢٤٦٠).

بَراءَةٌ مِن الشِّرْكِ))[١].

بَيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الكافِرونَ مكِّيَّةٌ، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

البَراءةُ المُطلَقةُ بيْنَ الموحِّدِينَ والمُشرِكين[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

أمْرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُعلِنَ بَراءَتَه مِن الكافِرين، وأن يَنفِيَ عِبادتَه لمَعبُوداتِهم الباطِلةِ، ويَنفِيَ أن يَكونوا عابِدينَ للإلهِ الحقِّ الَّذي يَعبُدُه، وأن يُعلِنَ بَراءتَه مِن دِينِهم، فلَهُم دِينُهم وله دِينُه.

---

(١) أخرجه أبو داودَ (٥٠٥٥)، والترمذيُّ (٣٤٠٣)، والنَّسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠٦٣٧)، وأحمدُ (٢٣٨٠٧) واللَّفظُ له.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٥٥٢٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٠٥٥)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٦١)، وقال شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريجِ ((سنن أبي داود)) (٥٠٥٥): (حسنٌ على اضطرابٍ في إسنادِه).وقال شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريجِ ((سنن أبي داود)) (٥٠٥٥): (حسنٌ على اضطرابٍ في إسنادِه). وصحَّحَ إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢٠٧٧).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٧).

ونسَب القولَ بأنَّها مكِّيَّةٌ إلى الجمهورِ: ابنُ الجَوزيِّ، وأبو حَيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٨).

ورُوِيَ عن قَتادةَ أنَّها مَدَنيَّةٌ. يُنظر: المصدران السَّابقان.

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٨).

الآيات (١-٦)

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾.

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، بقَولِه تعالى:

قُلْ -يا محمَّدُ- لجَميعِ الكافِرينَ مُعْلِنًا البَراءةَ مِن دينِهم وعِبادتِهم: يا أيُّها الكافِرونَ بالله، لا أعبُدُ ما تَعبُدونَه الآنَ، ولا أنتم -أيُّها الكافِرونَ ما دُمْتُم مُستَمِرِّينَ على ضَلالِكم- عابِدونَ اللهَ الَّذي أعبُدُه، ولا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُموه -أيُّها الكافِرونَ- مِن مَعبوداتٍ باطِلةٍ، ولا أنتم -أيُّها الكافِرونَ ما دُمتُم مُستَمِرِّينَ على كُفْرِكم- عابِدونَ اللهَ الَّذي أعبُدُه، لكم دِينُكم الَّذي تبَرَّأتُ منه، ولِيَ دِينُ الإسلامِ والتَّوحيدِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لجَميعِ الكافِرينَ بالله، ما داموا متَّصِفينَ بالكُفرِ وثابِتينَ عليه: يا أيُّها الكافِرونَ باللهِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٤٠، ٥٤٥، ٥٦١، ٥٦٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٥).

قال ابن كثير: (قيل: إنَّهم مِن جَهْلِهم دعَوْا رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى عبادةِ أوثانِهم سَنةً، ويَعبُدونَ مَعبودَه سَنةً! فأنزَل اللهُ هذه السُّورةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣١). =

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢﴾.

أي: لا أعبُدُ ما تَعبُدونَه الآنَ مِن مَعبوداتٍ باطِلةٍ، صِفاتُها ناقِصةٌ؛ فليست أهلًا لعبادتِها[1].

= وقال ابنُ تيميَّةَ: (الخِطابُ للمُشرِكينَ كُلِّهم؛ مَن مضى، ومَن يأتي إلى يومِ القيامةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٤٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (هذه السُّورةُ سُورةُ البَراءةِ مِنَ العمَلِ الَّذي يَعمَلُه المُشرِكونَ، وهي آمِرةٌ بالإخلاصِ فيه؛ فقَولُه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ شَمِلَ كُلَّ كافرٍ على وجهِ الأرضِ، ولكِنَّ المواجَهينَ بهذا الخِطابِ هم كُفَّارُ قُرَيشٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥١، ٥٥٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى هذه الآيةِ والَّتي تَليها: لا أعبُدُ ما تَعبُدونَ في الحالِ، ولا أنتم عابِدونَ ما أعبُدُ في الحالِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والنسفي، ونسَبه القرطبيُّ للأخفَشِ والمُبَرِّدِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٤٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٢٨).

وقيل: المعنى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ في المُستقبَلِ مِن الزَّمانِ ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ اليومَ، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ﴾ في المُستقبَلِ ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والغَرْناطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٨، ٨٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٥٤)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٥١١).

واختار ابنُ تيميَّةَ أنَّ قولَه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ يَتناوَلُ نفْيَ عبادتِه لِمَعبودِهم في الزَّمانِ الحاضرِ والزَّمانِ المُستقبَلِ، وقولَه: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ يَتناوَلُ ما يَعبُدونَه في الحاضرِ والمُستقبَلِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بدأَ بما هو الأحَقُّ بالبُداءَةِ، وهو البَراءةُ مِن الشِّركِ؛ لأنَّه مِن دَرءِ المَفاسِدِ، فأبلَغَ في ذلك بما هو الحَقيقُ بحالِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وكانوا هُم يَعبُدون اللهَ على وَجهِ الإشراكِ، وكانت العِبادةُ مع الشِّركِ غيرَ مُعتَدٍّ بها بوَجهٍ- نفَى عِبادَتَهم له في الجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ، فقال[1]:

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾.

أي: ولا أنتم -أيُّها الكافِرونَ ما دُمْتُم مُستَمِرِّينَ على ضَلالِكم- عابِدونَ اللهَ الَّذي أعبُدُه، المتَّصِفَ بصِفاتِ الكَمالِ سُبحانَه وتعالى[2].

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤﴾.

أي: ولا أنا عابِدٌ ما عَبَدتُموه -أيُّها الكافِرونَ- مِن مَعبوداتٍ باطلةٍ؛ فأنا مُتبَرِّئٌ مِن آلهتِكم وعبادتِكم الباطِلةِ، ولا أقْبَلُها أبدًا[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٠-٥٥٣، ٥٥٥-٥٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٣، ٥٥٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧، ٥٠٨).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ هذه الآيةَ والَّتي تَليها لا تَكرارَ فيهما -وأنَّ المعنى: ولا أنا عابدٌ ما عبَدْتُم في الاستقبالِ، ولا أنتم عابِدونَ ما أعبُدُ في الاستقبالِ، وهذا في قَومٍ أعْلَمَه اللهُ أنَّهم لا يؤمِنونَ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والنحاس، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، =

= والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، والنسفي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٧١)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٩٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٤٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٨٧).

وقيل: المعنى -بناءً على أنَّه لا تَكرارَ أيضًا-: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ﴾ أي: ولا كنتُ قَطُّ عابدًا فيما سلَف ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ﴾: أي: ما فعَلْتُ ذلك في الجاهليَّةِ، فكيف تَتَوقَّعونَه مِنِّي في الإسلام؟! ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ﴾ أي: ما عبَدْتُم في زمانٍ مِن الأزمانِ ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرَّسْعَنيُّ، والغَرْناطيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٨، ٨٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٥٤)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٥١١).

وقيل: (ما) في قولِه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ مَصدريَّةٌ، وهي مع الفعلِ في تأويلِ المَصدرِ، أي: ولا أعبُدُ عِبادتَكم، ولا تَعبُدونَ عبادتي. وأمَّا (ما) في الآيتَينِ الأُولَيَينِ فمَوصولةٌ بمعنى (الَّذي). وممَّن اختاره في الجملةِ: ابنُ كثير، والعُلَيميُّ، ونسَبه الرَّازيُّ إلى أبي مسلمٍ الخُراسانيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٣٠).

وقال ابن تيميَّةَ في قولِه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وقولِه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾: (فالأوَّلُ نفْيُ الفعلِ في الماضي والمُستقبَلِ، والثَّاني نفْيُ قَبولِه في الماضي مع الحاضرِ والمُستقبَلِ، فقولُه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ أي: نَفْسي لا تَقْبَلُ ولا يَصلُحُ لها أن تَعبُدَ ما عَبَدْتُموه قَطُّ، ولو كنتم عَبَدْتُموه في الماضي فقط، فأيُّ معبودٍ عبَدْتُموه في وقتٍ فأنا لا أقْبَلُ أن أعبُدَه في وقتٍ مِن الأوقاتِ. ففي هذا مِن عُمومِ عبادتِهم في الماضي والمُستقبَلِ، ومِن قوَّةِ بَراءَتِه وامتِناعِه وعدَمِ قَبولِه لهذه العبادةِ في جميعِ الأزمانِ: ما ليس في الجملةِ الأُولى. تلك تضمَّنَتْ نفْيَ الفعلِ في الزَّمانِ غيرِ الماضي، وهذه تضمَّنَتْ نفْيَ إمكانِه وقَبولِه لِما كان معبودًا لهم ولو في بعضِ الزَّمانِ الماضي فقط، والتَّقديرُ: ما عبَدْتُموه ولو في بعضِ الأزمانِ الماضيةِ فأنا لا يُمكِنُني ولا يَسوغُ لي أن أعبُدَه أبدًا). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٥٤). واستحسَنه ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٧).

وقيل: الآياتُ فيها تَكرارٌ، وهو للتَّأكيدِ. وممَّن اختاره: الفرَّاءُ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تأويل مشكل القرآن)) =

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾.

أي: ولا أنتم -أيُّها الكافِرونَ ما دُمْتُم مُستَمِرِّينَ على كُفْرِكم- عابِدونَ اللهَ الَّذي أعبُدُه دائِمًا[1].

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾.

أي: لكم -أيُّها الكافِرونَ- دِينُكم الَّذي تبَرَّأتُ منه، وهو الكُفرُ باللهِ، ولِيَ دِينُ الإسلامِ والتَّوحيدِ الَّذي أؤمِنُ به[2].

قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

= لابن قتيبة (ص: ١٥١).

قال القرطبيُّ: (أمَّا وجْهُ التَّكرارِ فقد قيل: إنَّه للتَّأكيدِ في قَطعِ أطماعِهم، كما تقولُ: واللهِ لا أفعَلُ كذا، ثمَّ واللهِ لا أفعَلُه. قال أكثَرُ أهلِ المعاني: نزَل القرآنُ بلِسانِ العرَبِ، ومِن مَذاهِبِهم التَّكرارُ إرادةَ التَّأكيدِ والإفهامِ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٢٦). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٠-٥٥٣، ٥٥٥-٥٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧، ٥٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قولُه: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ يدُلُّ على أنَّكم مختصُّونَ بدينِكم لا أشرَكُكم فيه، وأنا مختَصٌّ بدِيني لا تَشْرَكوني فيه... وليس في هذه الآيةِ أنَّه رَضِيَ بدينِ المُشرِكينَ ولا أهلِ الكتابِ، كما يَظُنُّه بعضُ المُلْحِدينَ، ولا أنَّه نهى عن جهادِهم كما ظَنَّه بعضُ الغالِطينَ، وجعَلَوها منسوخةً! بل فيها بَراءتُه مِن دينِهم، وبَراءتُهم مِن دينِه، وأنَّه لا تضُرُّه أعمالُهم، ولا يُجزَونَ بعَمَلِه، ولا يَنفَعُهم، وهذا أمْرٌ مُحكَمٌ لا يَقبَلُ النَّسْخَ، ولم يَرْضَ الرَّسولُ بدينِ المُشرِكينَ ولا أهلِ الكِتابِ طَرْفةَ عَينٍ قَطُّ). ((الجواب الصحيح)) (٣/ ٥٨، ٥٩). ويُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٤٠، ١٤١).

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ في هذه السُّورةِ مَنهَجٌ إصلاحيٌّ، وهو عدَمُ قَبولِ أنصافِ الحُلولِ؛ لأنَّ ما عرَضَه المُشرِكونَ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِنَ المشارَكةِ في العبادةِ -على ما قيل في سبب نُزولِها- يُعتبَرُ في مقياسِ المَنطِقِ حَلًّا وسَطًا؛ لاحتمالِ إصابةِ الحَقِّ في أحدِ الجانِبَينِ، فجاء الرَّدُّ حاسِمًا وزاجِرًا وبشِدَّةٍ؛ لأنَّ فيما عَرَضوه مُساواةً للباطِلِ بالحَقِّ، وفيه تعليقُ المُشكلةِ، وفيه تقريرُ الباطِلِ إنْ هو وافَقَهم ولو لحظةً[1].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هذا يَشمَلُ كُلَّ كافرٍ، سواءٌ كان مِن المُشرِكينَ، أو مِنَ اليَهودِ، أو مِنَ النَّصارى، أو مِن الشُّيوعيِّينَ، أو مِن غَيرِهم، كُلُّ كافرٍ يجبُ أنْ تُناديَه بقَلْبِك أو بلِسانِك -إنْ كان حاضِرًا-؛ لِتَتبَرَّأَ منه ومِن عِبادتِه[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- السُّوَرُ المُفتتَحةُ بالأمرِ بالقَولِ خَمسُ سُوَرٍ: ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾ [الجن: ١]،

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٥).

وسورةُ الكافِرونَ، وسورةُ الإخلاصِ، والمُعَوِّذتانِ؛ فالثَّلاثُ الأُوَلُ لقَولٍ يُبَلِّغُه، والمُعَوِّذتانِ لقَولٍ يَقولُه لِتَعويذِ نَفْسِه(١).

٢- إنَّ سورتَيْ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ هُما سُورَتَا الإخلاصِ؛ فـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فيها إخلاصُ القَصْدِ، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها إخلاصُ العقيدةِ، فالتَّوحيدُ في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ توحيدٌ عِلْميٌّ عَقَدِيٌّ، وفي ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عَمَليٌّ إراديٌّ(٢).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ليس في الدُّنيا لفظٌ أشنَعُ ولا أبشَعُ مِن لَفظِ الكافِرِ؛ وذلك لأنَّه صِفةُ ذَمٍّ عندَ جميعِ الخَلْقِ، سواءٌ كان مُطلَقًا أو مُقَيَّدًا(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لَمْ يَقُلْ سُبحانَه: «يا أيُّها المُشرِكونَ»، فتناولَتِ السُّورةُ كلَّ كافرٍ، سواءٌ كان ممَّن يُظهِرُ الشِّركَ، أو كان فيه تعطيلٌ لِمَا يَستَحِقُّه اللهُ، واستِكبارٌ عن عِبادتِه، والتَّعطيلُ شَرٌّ مِن الشِّركِ، وكلُّ مُعَطِّلٍ فلا بُدَّ أنْ يكونَ مُشرِكًا، والنَّصارى مع شِرْكِهم لهم عباداتٌ كثيرةٌ، واليهودُ مِن أقلِّ الأممِ عِبادةً وأبْعَدِهم عن العبادةِ للهِ وحْدَه، لكنْ قد يَعْرِفونَ ما لا تَعْرِفُه النَّصارى، لكنْ بلا عبادةٍ وعَمَلٍ بالعِلمِ؛ فهم مَغضوبٌ عليهم، وأولئك ضالُّون، وكِلاهما قد بَرَّأَ اللهُ منهم رسولَه والمؤمِنينَ(٤).

٥- قال تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ نَفْيُ العِبادَةِ مُطلقًا ليس نفيًا لِمَا قد يُسمَّى عِبادةً مع التَّقييدِ. والمُشرِكُ إذا كان يَعبُدُ اللهَ ويَعبُدُ غيرَه فيُقالُ: إنَّه يَعبُدُ اللهَ وغيرَه، أو يَعبُدُه مُشرِكًا به، لا يُقالُ: إنَّه يَعبُدُ مُطلقًا. والمُعَطِّلُ الَّذي لا يَعبُدُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٧/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٦٦).

شيئًا شَرٌّ منه، والعِبادةُ المُطلقَةُ المُعتدِلةُ هي المَقبولةُ، وعِبادةُ المُشركِ ليست مَقبولةً[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ إلى آخرِ السُّورةِ: اشتِمالُ هذه السُّورةِ على النَّفيِ المَحْضِ، فهذا هو خاصَّةُ هذه السُّورةِ العظيمةِ؛ فإنَّها سورةُ براءةٍ مِن الشِّركِ، كما جاء في وَصْفِها أنَّها (بَراءةٌ مِن الشِّركِ)[٢]، فمَقصودُها الأعظمُ هو البراءةُ المُطلَقةُ بيْنَ الموحِّدينَ والمُشركين؛ ولهذا أَتَى بالنَّفيِ في الجانبَينِ تحقيقًا للبَراءةِ المطلوبةِ، هذا معَ أنَّها متضَمِّنةٌ للإثباتِ صريحًا، فقولُه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ براءةٌ مَحْضَةٌ، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ إثباتُ أنَّ له مَعبودًا يَعبُدُه، وأنتم بَريئونَ مِن عبادتِه، فتضمَّنتِ النَّفيَ والإثباتَ، وطابقَتْ قولَ إمامِ الحُنَفاءِ: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وطابقَتْ قولَ الفِتْيةِ الموحِّدينَ: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦]؛ فانتظَمَتْ حقيقةَ «لا إلهَ إلَّا اللهُ»؛ ولهذا كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقْرِنُها بسُورةِ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في سُنَّةِ الفَجرِ، ويقرأُ بهما في الوترِ[٣]؛ فإنَّ هاتَينِ السُّورتَينِ سُورتَا الإخلاصِ، وقد اشتمَلَتا على نَوعَيِ التَّوحيدِ الَّذي لا نجاةَ للعَبدِ ولا فلاحَ إلَّا بهما، وهما: **توحيدُ العِلمِ والاعتقادِ**

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٧٤).

(٢) يُنظر ما أخرجه أبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي (٣٤٠٣)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٦٣٧)، وأحمد (٢٣٨٠٧) من حديث نوفل الأشجعي رضي الله عنه.
صحَّحه ابنُ حبانَ في ((صحيحه)) (٥٥٢٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٠٥٥)، وحسَّنه ابنُ حجرٍ في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٦١)، وصحَّحَ إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢٠٧٧)، وقال شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريجِ ((سنن أبي داود)) (٥٠٥٥): (حسنٌ على اضطرابٍ في إسنادِه).

(٣) يُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٤١).

المتضمِّنُ تنزيهَ اللهِ عمَّا لا يَليقُ به مِن الشِّركِ والكُفرِ والوَلَدِ والوالِدِ، وأنَّه إلهٌ أَحَدٌ صَمَدٌ، لم يَلِدْ؛ فيكونَ له فَرعٌ، ولم يولَدْ؛ فيكونَ له أصلٌ، ولم يكُنْ له كُفُوًا أحدٌ؛ فيكونَ له نظيرٌ، ومع هذا فهو الصَّمَدُ الَّذي اجتمَعَت له صِفاتُ الكَمالِ كُلُّها؛ فتضَمَّنت السُّورةُ إثباتَ ما يَليقُ بجلالِه مِن صِفاتِ الكَمالِ، ونَفْيَ ما لا يليقُ به مِنَ الشَّريكِ أصلًا وفَرْعًا ونظيرًا، فهذا توحيدُ العِلْمِ والاعتقادِ.

والثَّاني: توحيدُ القَصدِ والإرادةِ، وهو ألَّا يُعبَدَ إلَّا إيَّاه، فلا يُشْرَكَ به في عبادتِه سِواه، بل يكونُ وَحْدَه هو المعبودَ، وسورةُ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مُشتَمِلةٌ على هذا التَّوحيدِ؛ فانتظَمَت السُّورتانِ نَوعَيِ التَّوحيدِ، وأخلصَتا له، فكان صلَّى الله عليه وسلَّم يَفتَتِحُ بهما النَّهارَ في سُنَّةِ الفَجْرِ، وكان يُوتِرُ بهما[1]، فسُنَّةُ الفجرِ تجري مَجرَى بدايةِ العملِ، والوترُ خاتمتُه[2].

٧- تَخصِيصُ البَراءةِ مِن الشِّرْكِ بشِرْكِ مُشرِكي العَربِ غلَطٌ عَظيمٌ، وإنَّما هي بَراءةٌ مِن كلِّ شِركٍ، فقولُه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ خِطابٌ للكُفَّارِ مُطلقًا، فإذا قال اليَهودُ: نحن نَقصِدُ عِبادةَ الله، كانوا كاذِبينَ، سَواءٌ عرَفوا أنَّهم كاذِبونَ أو لم يَعرِفوا، كما يقولُ النَّصارَى: إنَّا نَعبُدُ اللهَ وَحْدَه وما نحن بمُشرِكين، وهم كاذِبون؛ لأنَّهم لو أرادوا عِبادَته لَعَبدوهُ بما أمَرَ به، وهو الشَّرعُ، لا بالمَنسُوخِ المُبَدَّلِ. وأيضًا فالرَّبُّ الَّذي يَزعُمون أنَّهم يَقصِدون عِبادتَه هو عِندَهم رَبٌّ لم يُنزِلِ الإنجيلَ ولا القُرآنَ، ولا أَرسلَ المَسيحَ ولا محمَّدًا، بل هو عندَ بَعضِهم فَقيرٌ، وعندَ بعضِهم بَخيلٌ، وعندَ بعضِهم عاجِزٌ، وعندَ بعضِهم لا يَقدِرُ أن يُغيِّرَ ما شَرَعَه، وعندَ جَميعِهم أنَّه أيَّد الكاذِبينَ المُفتَرِينَ عليه الَّذين يَزعُمون أنَّهم رُسُلُه،

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٨).

وليسوا رُسُلَه، بل هُم كاذِبون سَحَرةٌ، قد أيَّدَهُم ونَصَرَهم، ونَصَر أتْباعَهم على أوليائِه المُؤمِنينَ؛ لأنَّهم عندَ أنفُسِهم أَولياؤُه دُون النَّاسِ، فالرَّبُّ الَّذي يَعبُدونَه هو دائمًا يَنصُرُ أعداءَه! فهُم يَعبُدونَ هذا الرَّبَّ، والرَّسولُ والمُؤمِنونَ لا يَعبُدونَ هذا المَعبُودَ الَّذي تَعبُدُه اليَهودُ؛ فهو مُنَزَّهٌ عمَّا وَصَفَت به اليَهودُ مَعبُودَها مِن جِهَةِ كَوْنِه مَعبودًا لهم، مُنَزَّهٌ عن هذه الإضافةِ، فليس هو مَعبودًا لليَهودِ، وإنَّما في جِبِلَّاتِهم صِفاتٌ ليست هي صِفاتِه، زَيَّنَها لهم الشَّيطانُ، فهم يَقصِدون عِبادةَ المُتَّصِفِ بتلك الصِّفاتِ، وإنَّما هو الشَّيطانُ! فالرَّسولُ والمُؤمنونَ لا يَعبُدونَ شيئًا تَعبُدُه اليَهودُ، وإن كانوا يَعبُدونَ مَن يَعبُدونَه[1].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ تدُلُّ بظاهِرِها على أنَّ الكُفَّارَ المُخاطَبينَ بها لا يَعبُدونَ اللهَ أبدًا، مع أنَّه دَلَّت آياتٌ أُخَرُ على أنَّ منهم مَن يؤمِنُ باللهِ تعالى، كقَولِه: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ الآيةَ [العنكبوت: ٤٧]؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّه خِطابٌ لجِنسِ الكُفَّارِ وإن أسلَموا فيما بَعْدُ، فهو خِطابٌ لهم ما داموا كُفَّارًا، فإذا أسلَموا لم يَتناوَلْهم ذلك؛ لأنَّهم حينَئذٍ مؤمِنونَ لا كافِرونَ، وإن كانوا منافِقينَ فهم كافِرونَ في الباطِنِ، فيَتناوَلُهم الخِطابُ.

الوَجهُ الثَّاني: هو أنَّ الآيةَ مِنَ العامِّ المخصوصِ، وعليه فهي في خُصوصِ الأشقياءِ المُشارِ إليهم بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ الآيةَ[2] [يونس: ٩٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٦٣، ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٨٩).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ تكريرُ الفِعل بلَفظِ المُستقبَلِ حينَ أَخْبَرَ عن نفْسِه -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وبلَفظِ الماضي حينَ أَخْبَرَ عنهم؛ ففي ذلك سِرٌّ، وهو الإشارةُ والإيماءُ إلى عِصمةِ اللهِ تعالى له عن الزَّيغِ والانحرافِ عن عبادةِ مَعبودِه، والاستبدالِ به غيرَه، وأنَّ معبودَه واحدٌ في الحالِ والمآلِ على الدَّوامِ، لا يَرضى به بدَلًا، ولا يَبغي عنه حِوَلًا، بخِلافِ الكافِرين؛ فإنَّهم يَعبُدونَ أهواءَهم، ويَتَّبِعون شَهَواتِهم في الدِّينِ وأغراضَهم، فهُم بصَدَدِ أنْ يَعبُدوا اليومَ معبودًا وغَدًا غيرَه؛ فقال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ يعني: الآنَ، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ أنا الآنَ أيضًا، ثُمَّ قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ يعني: ولا أنا فيما يُستَقبَلُ يَصدُرُ منِّي عبادةٌ لِمَا عبدتُم أيُّها الكافِرونَ، وأشبَهَتْ «ما» هنا رائحةَ الشَّرطِ؛ فلذلك وَقَعَ بعْدَها الفِعلُ بلَفظِ الماضي وهو مُستقبَلٌ في المعنى، كما يَجيءُ ذلك بعْدَ حرفِ الشَّرطِ، كأنَّه يقولُ: مهما عبَدْتُم مِن شَيءٍ فلا أعبُدُه أنا[1].

١٠- إنْ قيلَ: ما الفائدةُ في قَولِه: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾؟ وهل أفادَ هذا معنًى زائدًا على ما تَقدَّمَ؟

فالجوابُ: الحِكمةُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّ النَّفيَ الأوَّلَ أفاد البَراءةَ، وأنَّه لا يُتصوَّرُ منه ولا يَنْبغي له أنْ يَعبُدَ مَعبودِيهم، وهمْ أيضًا لا يَكونونَ عابِدينَ لِمَعبودِه، وأفادَ آخِرُ السُّورةِ إثباتَ ما تَضمَّنَه النَّفيُ مِن جِهتِهم مِن الشِّركِ والكفْرِ الَّذي هو حظُّهم وقِسْمُهم ونَصيبُهم، فجَرى ذلك مَجرى مَن اقتسَمَ هو وغيرُه أرضًا، فقال له: لا تَدخُلُ في حدِّي، ولا أدخُلُ في حَدِّك؛ لك أرْضُك، ولي أرْضي، فتَضمَّنَت الآيةُ أنَّ هذه البَراءةَ اقتَضَت أنَّا اقتَسَمْنا خُطَّتَنا بيْنَنا، فأصابَنا التَّوحيدُ والإيمانُ؛ فهو نَصيبُنا وقِسْمُنا الَّذي نَختَصُّ به لا تَشْرَكونا فيه، وأصابَكم الشِّركُ باللهِ والكفْرُ

(١) يُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ١٤٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٥).

به؛ فهو نَصيبُكم وقِسْمُكم الَّذي تَختصُّون به لا نَشْرَكُكم به[١].

١١- قَولُه تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ هذه كَلِمةٌ تَقتضي براءتَه مِن دِينِهم، ولا تَقتضي رِضاه بذلك، كما قال تعالى في الآيةِ الأخرى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، ومَن ظَنَّ مِن الملاحدةِ أنَّ هذا رِضًا منه بدِينِ الكُفَّارِ فهو مِن أكذَبِ النَّاسِ وأكفَرِهم[٢].

١٢- هذه السُّورةُ مِن السُّوَرِ الَّتي يَستحيلُ دُخولُ النَّسخِ في مَضمونِها؛ فإنَّ أحكامَ التَّوحيدِ الَّتي اتَّفقتْ عليه دعوةُ الرُّسُلِ يَستحيلُ دخولُ النَّسخِ فيها، وهذه السُّورةُ أخلَصَتِ التَّوحيدَ؛ ولهذا تُسمَّى سورةَ الإخلاصِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بـ ﴿قُلْ﴾؛ للاهتِمامِ بما بعْدَ القولِ بأنَّه كَلامٌ يُرادُ إبلاغُه إلى النَّاسِ بوَجهٍ خاصٍّ، مَنصوصٌ فيه على أنَّه مُرسَلٌ بقَولٍ يُبلِّغُه، وإلَّا فإنَّ القرآنَ كلَّه مَأمورٌ بإبلاغِه[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ دونَ (يا أيُّها الَّذين كَفَروا)، وسِرُّه: إرادةُ الدَّلالةِ على أنَّ مَن كان الكُفْرُ وَصْفًا ثابتًا له لازِمًا لا يُفارِقُه؛ فهو حَقيقٌ أنْ يَتبرَّأَ اللهُ منه، ويكون هو أيضًا بَريئًا مِن اللهِ، فحَقيقٌ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٩).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٨).
(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٠).

بالموحِّدِ البَراءةُ منه، فكان ذِكرُه في مَعرِضِ البَراءةِ الَّتي هي غايةُ البُعدِ والمجانَبةِ بحَقيقةِ حالِه الَّتي هي غايةُ الكفْرِ -وهو الكفْرُ الثَّابتُ اللَّازِمُ- في غايةِ المُناسَبةِ، فكأنَّه يقولُ: كما أنَّ الكفْرَ لازمٌ لكمْ ثابتٌ لا تَنتَقِلون عنه، فمُجانَبتُكم والبَراءةُ منكم ثابتةٌ دائمًا أبدًا؛ ولهذا أتى فيها بالنَّفيِ الدَّالِّ على الاستمرارِ لمُقابَلةِ الكفْرِ الثَّابتِ المستمرِّ[1].

- وقولُه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ إخبارٌ عن نفْسِه بما يَحصُلُ منها، والمعْنى: لا تَحصُلُ مِنِّي عِبادتي ما تَعبُدون في أزمنةٍ في المُستقبَلِ تَحقيقًا -وذلك على قولٍ-، ونَفْيُ عِبادتِه آلهتَهم في المُستقبَلِ يُفيدُ نَفْيَ أنْ يَعبُدَها في الحالِ بدَلالةِ فَحْوى الخِطابِ[2]، ولأنَّهم ما عَرَضوا عليه إلَّا أنْ يَعبُدَ آلهتَهم بعْدَ سَنةٍ مُستقبَلةٍ -على ما قيل في سببِ نُزولِ السُّورةِ-؛ ولذلك جاء في جانبِ نَفْيِ عِبادتِهم للهِ بنَفْيِ اسمِ الفاعِلِ الَّذي هو حَقيقةٌ في الحالِ بقولِه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ﴾، أي: ما أنتُم بمُغيِّرينَ إشراكَكُم الآنَ؛ لأنَّهم عَرَضوا عليه أنْ يَبتدِئوا هم فيَعبُدوا الرَّبَّ الَّذي يَعبُدُه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم سَنةً، فيما يُروَى، وبهذا تَعلَمُ وَجْهَ المُخالَفةِ بيْن نظْمِ الجُملتينِ في أُسلوبِ الاستعمالِ البليغِ[3].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٣٩).

(٢) فَحْوَى الخِطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولى، كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظمُ مِن التَّأْفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كانَ دونَ القِنْطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨١، ٥٨٢).

- وقولُه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ عطْفٌ على ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ٣] عطْفَ الجُملةِ على الجُملةِ؛ لمُناسَبةِ نفْيِ أنْ يَعبُدوا اللهَ، فأُردِفَ بنَفْيِ أنْ يَعبُدَ هو آلهتَهم، وعَطْفُه بالواوِ صارِفٌ عن أنْ يكونَ المَقصودُ به تَأكيدَ ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، فجاء به على طَريقةِ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ، وبكَونِ الخبَرِ اسمَ فاعلٍ دالًّا على زَمانِ الحالِ، فلمَّا نَفَى عن نفْسِه أنْ يَعبُدَ في المُستقبَلِ ما يَعبُدونه بقَولِه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ -على قولٍ-، صرَّحَ هنا بما تَقتضيهِ دَلالةُ الفَحْوى على نَفْيِ أنْ يَعبُدَ آلهتَهم في الحالِ بما هو صَريحُ الدَّلالةِ على ذلك؛ لأنَّ المَقامَ يَقْتضي مَزيدَ البَيانِ، فاقْتَضى الاعتمادَ على دَلالةِ المَنطوقِ إطنابًا في الكلامِ؛ لتَأييسِهم ممَّا راوَدُوه عليه، ولمُقابَلةِ كَلامِهم المَردودِ بمِثلِه في إفادةِ الثَّباتِ، وحصَلَ مِن ذلك تَقريرُ المعْنى السَّابقِ وتَأكيدُه، تَبَعًا لمَدلولِ الجُملةِ لا لمَوقعِها؛ لأنَّ مَوقِعَها أنَّها عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، وليستْ تَوكيدًا لجُملةِ ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ بمُرادِفِها؛ لأنَّ التَّوكيدَ لِلَّفظِ بالمُرادِفِ لا يُعرَفُ إلَّا في المُفرَداتِ، ولأنَّ وُجودَ الواوِ يُعيِّنُ أنَّها مَعطوفةٌ؛ إذ ليس في جُملةِ ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ واوٌ حتَّى يكونَ الواوُ في هذه الجُملةِ مُؤكِّدًا لها[(١)].

- وجِيءَ بالفِعلِ الماضي في قَولِه: ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على رُسوخِهم في عِبادةِ الأصنامِ مِن أزمانٍ مَضَت، وفيه رَمْزٌ إلى تَنزُّهِه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن عِبادةِ الأصنامِ مِن سالِفِ الزَّمانِ، وإلَّا لَقال: ولا أنا عابدٌ ما كنَّا نَعبُدُ[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٢، ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٨٣).

- قولُه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ [الكافرون: ٤]؛ لبَيانِ تَمامِ الاختِلافِ بيْن حالِه وحالِهم، وإخبارٌ بأنَّهم لا يَعبُدونَ اللهَ إخبارًا ثانيًا؛ تَنْبيهًا على أنَّ اللهَ أعلَمَه بأنَّهم لا يَعبُدون اللهَ، وتَقويةً لدَلالةِ هذَينِ الإخبارينِ على نُبوَّتِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فقدْ أخْبَرَ عنهم بذلك، فمات أولئك كلُّهم على الكُفْرِ، وكانتْ هذه السُّورةُ مِن دَلائلِ النُّبوَّةِ، وقد حصَلَ مِن ذِكرِ هذه الجُملةِ بمِثلِ نَظيرتِها السَّابقةِ تَوكيدٌ للجُملةِ السَّابقةِ تَوكيدًا للمعْنى الأصليِّ منها، وليس مَوقِعُها مَوقعَ التَّوكيدِ؛ لوُجودِ واوِ العطْفِ في قَولِه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾؛ ولذلك فالواوُ في قَولِه هنا: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ عاطفةٌ جُملةً على جُملةٍ مِن أجْلِ ما اقتَضَتْه جُملةُ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ مِن المُناسَبةِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ تَأكيدًا لَفظيًّا لنَظيرتِها السَّابقةِ بتَمامِها بما فيها مِن واوِ العطْفِ في نَظيرتِها السَّابقةِ، وتَكونَ جُملةُ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ مُعترِضةً بيْن التَّأكيدِ والمُؤكَّدِ، والمَقصودُ مِن التَّأكيدِ تَحقيقُ تَكذيبِهم في عَرْضِهم أنَّهم يَعبُدون ربَّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[1].

- و(ماصَدَقَ)[2] ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ هو اللهُ تعالَى، وعُبِّرَ بـ(ما) المَوصولةِ؛ لأنَّها مَوضوعةٌ للعاقلِ وغيرِه، وإنَّما تَختَصُّ (مَن) بالعاقلِ؛ فلا مانعَ مِن إطلاقِ (ما) على العاقلِ إذا كان اللَّبْسُ مَأمونًا[3].

أو إيثارُ (مَا) في ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ على (مَنْ)؛ لأنَّ المرادَ هو الوَصفُ، كأنَّه قيلَ: ما أعبُدُ مِنَ المعبودِ العَظيمِ الشَّأنِ الَّذي لا يُقادَرُ قدْرُ عَظَمتِه، فـ(ما) يُؤتَى بها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٣، ٥٨٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٢).

لقصْدِ الإبهامِ؛ لتُفيدَ المُبالَغةَ في التَّفخيمِ[١].

أو لم يَقُلْ: (مَن) مع أنَّه القِياسُ؛ رِعايةً لمُقابِلِه (ما) في قَولِه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، أو لأنَّ المُرادَ الصِّفةُ، كأنَّه قال: لا أعبُدُ الباطلَ، ولا تَعبُدون الحقَّ. وقيل: إنَّ (ما) مَصدريَّةٌ، أي: لا أعبُدُ عِبادتَكم، ولا تَعبُدون عِبادتي[٢].

- وأيضًا (ما) في قَولِه: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ فيها عُمومٌ وإجمالٌ يَصلُحُ لِما لا يَعلَمُ، ولِصِفاتِ مَن يَعلَمُ[٣].

- وقيل: لم يَحتَجْ أنْ يقولَ فيهم: (ولا أنتمْ عابِدون ما عبَدْتُ) كما قال في نفْسِه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾؛ لأنَّ كلَّ مُؤمنٍ فهو مَأمورٌ بقِراءةِ هذه السُّورةِ، ومنهم مَن كان مَعبودُه غيرَ اللهِ، فلو قال: (ولا أنتمْ عابِدون ما عبَدْتُ) لَقالوا: بل نحنُ نَعبُدُ ما كنتَ تَعبُدُ لَمَّا كنتَ مُشرِكًا، بخِلافِ ما إذا قال: (ولا أنتمْ عابِدون ما أعبُدُه في هذا الوقتِ)، ولم يَقُلْ: (ما أنا عابدٌ له)؛ إذ نفْسُه قد

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٢٨).

قال ابن القيِّم: (المقصود هنا ذِكرُ المعبودِ المَوصوفِ بكَونِه أهلًا للعِبادةِ مُستحِقًّا لها، فأتى بـ «ما» الدَّالَّةِ على هذا المعنى، كأنَّه قيل: ولا أنتم عابِدونَ مَعبوديَ المَوصوفَ بأنَّه المعبودُ الحقُّ، ولو أتى بلَفظةِ «مَن» لَكانت إنَّما تدُلُّ على الذَّاتِ فقط، ويكونُ ذِكرُ الصِّلةِ تعريفًا لا أنَّه هو جهةُ العبادةِ، ففَرْقٌ بيْنَ أنَّ كَوْنَه تعالى أهلًا لأنْ يُعبَدَ تعريفٌ مَحْضٌ، أو وصْفٌ مُقتَضٍ لعبادتِه، فتأمَّلْه؛ فإنَّه بديعٌ جدًّا، وهذا معنى قولِ مُحقِّقي النُّحاةِ: إنَّ «ما» تأتي لِصفاتِ مَن يعلمُ، ونظيرُه: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، لَمَّا كان المرادُ الوصفَ وأنَّه هو السَّببُ الدَّاعي إلى الأمرِ بالنِّكاحِ وقصده، وهو الطِّيبُ، فتُنكَحُ المرأةُ المَوصوفةُ به؛ أتى بـ «ما» دونَ «مَنْ». وهذا بابٌ لا يَنخرِمُ، وهو مِن ألْطَفِ مَسالِكِ العربيَّةِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٣٤).

لا تكونُ عابدةً له مُطلَقًا، وقد يجوزُ أنْ يَعبُدَ الواحدُ مِن النَّاسِ غيرَ اللهِ في المستقبَلِ، فلا يكونُ مَن لم يَعبُدْ ما يَعبُدُه في المستقبَلِ مَذمومًا، بخلافِ المؤمنِ الَّذي يُخاطِبُ بهذه السُّورةِ غيرَه؛ فإنَّه حِينَ يَقولُها ما يَعبُدُ إلَّا اللهَ، فهو يقولُ للكفَّارِ: ولا أنتمْ عابِدون ما أعبُدُه الآنَ(١).

- وذَكَر النَّفيَ عن الكُفَّارِ في الجُملتَينِ لِتُقارِبَ كلُّ جُملةٍ جُملةً؛ فلمَّا قال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ فنَفى الفعلَ قال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، ثمَّ لَمَّا زاد النَّفيَ بنَفْيِ جَوازِ ذلك وبَراءةِ النَّفْسِ منه؛ ذَكَرَ ما يدُلُّ على كَراهتِه له وقُبحِه، ونَفَى أنْ يَعبُدَ شيئًا ممَّا عَبَدوه ولو في بعضِ الزَّمانِ، قال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، بلْ أنتم بَريئونَ مِن عِبادةِ ما أعبُدُه، فليس لِبَراءتي، وكَمالِ بَراءتي، وبُعدي مِن مَعبودِكم، وكَمالِ قُرْبي إلى اللهِ في عِبادتي له وحْدَه لا شَريكَ له؛ يكونُ لكم نَصيبٌ مِن هذه العِبادةِ، بلْ أنتُم أيضًا في هذه الحالِ لا تَعبُدون ما أعبُدُ؛ لا في الحالِ الأُولى ولا في الثَّانيةِ، ولو اقتصَرَ في تَبرِّيهم مِن عِبادةِ اللهِ على الجُملةِ الأُولى لم يكُنْ فيها تَبرئةٌ لهم في هذه الحالِ الثَّانيةِ، فبَرَّأَهم مِن مَعبودِه حينَ البَراءةِ الأُولى الخاصَّةِ، وحِينَ البَراءةِ الثَّانيةِ العامَّةِ القاطعةِ، وهمْ لم يَختلِفْ حالُهم في الحالينِ، بلْ هم فيهما لا يَعبُدون ما يَعبُدُ، فلم يكُنْ في تَغييرِ العبارةِ فائدةٌ، وإنَّما غُيِّرَت العِبارةُ في حقِّه وحقِّ المؤمنينَ لتَغييرِ المعنيَينِ(٢).

- وقولُه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وإنْ كان لَفظُها خبَرًا ففيها معنى الإنشاءِ كسائرِ أَلْفاظِ الإنشاءاتِ، كقولِه: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وقولِه ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقولِه: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٥٥٧، ٥٥٨).

تُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام: ٧٨]، فكلُّ هذه الأقوالِ فيها معْنى الإنشاءِ لها يُنشِئُه المؤمنُ في نفْسِه مِن زيادةِ البَراءةِ مِن الشِّركِ؛ فإنَّ الشِّركَ والكفرَ أعظَمُ أمراضِ القُلوبِ، فأُمِرَ المؤمنُ بقولٍ يُوجِبُ في قلْبِه مِن البَراءةِ مِن الشِّركِ ما لم يكُنْ في قلْبِه قبْلَ ذلك[1].

- ولم يَأتِ النَّفيُ في حقِّهم إلَّا باسمِ الفاعلِ ﴿عَٰبِدُونَ﴾، وفي جِهتِه جاء بالفعلِ المستقبَلِ تارةً ﴿أَعْبُدُ﴾، وباسمِ الفاعِلِ ﴿عَابِدٌ﴾ أُخرى؛ فذلك -والله أعلَمُ- لحكمةٍ بَديعةٍ؛ وهي أنَّ المقصودَ الأعظَمَ بَراءتُه مِن مَعبودِيهم بكلِّ وجْهٍ، وفي كلِّ وقْتٍ، فأتى أوَّلًا بصِيغةِ الفعلِ الدَّالَّةِ على الحدوثِ والتَّجدُّدِ، ثمَّ أتى في هذا النَّفيِ بعَينِه بصِيغةِ اسمِ الفاعلِ الدَّالَّةِ على الوصْفِ والثُّبوتِ، فأفاد في النَّفيِ الأوَّلِ أنَّ هذا لا يقَعُ مِنِّي، وأفادَ في الثَّاني أنَّ هذا ليس وَصْفي ولا شَأْني، فكأنَّه قال: عِبادةُ غيرِ اللهِ لا تكونُ فِعلًا لي ولا وَصْفًا، فأتى بنَفيَينِ لِمَنْفيَّينِ مَقصودينِ بالنَّفيِ، وأمَّا في حقِّهم فإنَّما أتَى بالاسمِ الدَّالِّ على الوصْفِ والثُّبوتِ دونَ الفِعلِ، أي: أنَّ الوصفَ الثَّابتَ اللَّازمَ العائدَ للهِ مُنتَفٍ عنكم، فليس هذا الوصْفُ ثابتًا لكم، وإنَّما ثَبَتَ لِمَن خصَّ اللهَ وحْدَه بالعِبادةِ لم يُشرِكْ معه فيها أحدًا، وأنتمْ لَمَّا عَبَدْتُم غيرَه، فلَسْتُم مِن عابِديه وإنْ عَبَدوه في بعضِ الأحيانِ؛ فإنَّ المشرِكَ يَعبُدُ اللهَ ويَعبُدُ معه غيرَه؛ فتَأمَّلْ هذه النُّكتةَ البَديعةَ كيف تَجِدُ في طَيِّها أنَّه لا يُوصَفُ بأنَّه عابدُ اللهِ وعَبْدُه المستقيمُ على عِبادتِه إلَّا مَن انقطَعَ إليه بكُلِّيَّتِه، وتَبتَّلَ إليه تَبتيلًا، لم يَلتفِتْ إلى غيرِه، لم يُشرِكْ به أحدًا في عِبادتِه، وأنَّه وإنْ عَبَدَه وأشْرَكَ به غيرَه فليس عابدًا للهِ ولا عَبْدًا له، وهذا مِن أسرارِ هذه السُّورةِ العظيمةِ الجليلةِ[2].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٩، ٥٦٠).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٧).

- وأيضًا أتَى النَّفيُ في هذه السُّورةِ بأداةِ (لا) دونَ (لن)؛ وذلك لأنَّ النَّفيَ بـ(لا) أبلَغُ منه بـ(لنْ)، وأنَّ (لا) أدلُّ على دَوامِ النَّفيِ وطُولِه مِن (لنْ)، وأنَّها للطُّولِ والمَدِّ الَّذي في نَفْيِها طالَ النَّفيُ بها واشتَدَّ، وأنَّ هذا ضِدُّ ما فَهِمَتْه الجَهميَّةُ والمعتزلةُ مِن أنَّ (لن) إنَّما تَنفي المستقبَلَ، و(لا) تَنْفي الحالَ المستمِرَّ النَّفيِ في الاستقبالِ، فالإتيانُ بـ(لا) مُتعيِّنٌ هنا، واللهُ أعلَمُ[1].

وقيل: النَّفيُ بـ(لن) أبلَغُ، لكنَّه لم يأتِ بها لأنَّ المُبالَغةَ إنَّما يُحتاجُ إليها في موضِعِ التُّهمةِ، وقد عَلِمَ كُلُّ أحدٍ مِن محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه ما كان يَعبُدُ الصَّنَمَ قبْلَ الشَّرعِ، فكيف يَعبُدُه بعْدَ ظُهورِ الشَّرعِ؟! بخِلافِ أصحابِ الكَهْفِ؛ فإنَّهم لَمَّا بالَغوا قالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ [الكهف: ١٤]؛ فإنَّه وُجِدَ منهم ذلك فيما قَبلُ[2].

- وفي تَكرارِ الأفعالِ في هذِه الآياتِ قَولانِ[3]:

القولُ الأوَّلُ: أنَّه لا تَكرارَ فيها، وفيه وُجوهٌ:

أحدُها: أنَّه نَفى أوَّلًا عِبادتَه في المستقبَلِ؛ لأنَّ (لا) الغالبُ أنَّها تَنْفي المُستقبَلَ، ثمَّ عَطَفَ عليه ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ نفْيًا للمُستقبَلِ على سَبيلِ المُقابَلةِ، ثمَّ قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ نفْيًا للحالِ؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ العامِلَ الحقيقةُ فيه دَلالتُه على الحالِ، ثمَّ عُطِفَ عليه ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ نفْيًا للحالِ على سَبيلِ المُقابَلةِ، فانتَظَمَ المعْنى: أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَعبُدُ ما يَعبُدونَ، لا حالًا ولا مُستقبَلًا، وهمْ كذلك؛ إذ قدْ حتَّمَ اللهُ مُوافاتَهم على الكفْرِ.

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٧، ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٤٦-٣٤٨).

وثانيها: أنْ يُقلَبَ، فيُجعَلَ الأوَّلُ للحالِ، والثَّاني للاستقبالِ.

وثالثُها: المَقصودُ مِن الأُولَيَينِ المَعبودُ، و(ما) بمعْنى (الَّذي)، أي: لا أعبُدُ الأصنامَ ولا تَعبُدونَ اللهَ، وفي الأُخريَيْنِ (ما) مَصدريَّةٌ، أي: ولا أنا عابدٌ مِثلَ عِبادتِكم المَبنيَّةِ على الشَّكِّ، ولا أنتمْ عابِدون مِثلَ عِبادتي المَبنيَّةِ على اليقينِ.

ورابعُها: أنْ تُحمَلَ الأُولى على نفْيِ الاعتبارِ الَّذي ذَكَروه، والثَّانيةُ على العامِّ بجَميعِ الجِهاتِ، أي: لا أعبُدُ ما تَعبُدون رَجاءَ أنْ تَعبُدوا اللهَ، ولا أنتمْ عابِدون رَجاءَ أنْ أعبُدَ صَنَمَكم، ثمَّ قال: ولا أنا عابدٌ صَنَمَكم لغرَضٍ مِن الأغراضِ، بوَجْهٍ مِن الوُجوهِ، وكذا أنتم لا تَعبُدون اللهَ لغَرَضٍ مِن الأغراضِ، مِثالُه: مَن يَدْعو غَيرَه إلى الظُّلمِ لغرَضِ التَّنعُّمِ، فيقولُ: لا أظلِمُ لغَرَضِ التَّنعُّمِ، بلْ لا أظلِمُ أصلًا، سواءٌ كان للتَّنعُّمِ أو غيرِه.

وخامسُها: لَمَّا كان قولُه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ مُحتمِلًا أنْ يُرادَ به الآنَ، ويَبْقى المُستقبَلُ مُنتظرًا ما يكونُ فيه؛ جاء البَيانُ بقولِه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾، أي: أبدًا وما حَيِيتُ، ثمَّ جاء قولُه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ الثَّاني حَتْمًا عليهم أنَّهم لا يُؤمِنون أبدًا، فهذا معْنى التَّرديدِ في هذه السُّورةِ، وهو بارعُ الفَصاحةِ، وليس بتَكرارٍ فقطْ.

وسادسُها: أُريدَ به العبادةُ فيما يُستقبَلُ، والمعنى: لا أفعَلُ في المستقبَلِ ما تَطلُبونه مِنِّي مِن عِبادةِ آلهتِكم، ولا أنتم فاعِلون فيه ما أطلُبُه منكم مِن عِبادةِ إلهي، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾، أي: وما كنتُ قَطُّ عابدًا فيما سَلَفَ ما عَبَدْتُم فيه، يعني: ما عُهِدَ مِنِّي قَطُّ عِبادةُ صَنَمٍ في الجاهليَّةِ، فكيف يُرْجى منِّي في الإسلامِ؟! ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي: وما عبَدْتُم في وقْتٍ ما أنا على عِبادتِه الآنَ.

والقولُ الثَّاني: هو أنْ يُسلَّمَ حُصولُ التَّكرارِ، وهو لوَجهينِ:

أحدُهما: أنَّ التَّكرارَ يُفيدُ التَّوكيدَ، وكلَّما كانتِ الحاجةُ إلى التَّوكيدِ أشدَّ كان التَّكريرُ أحسَنَ، ومِن مذاهبِ العربِ واستعمالاتِهم أنَّهم إذا أرادوا التَّأكيدَ كرَّروا، والقُرآنُ قدْ نزَلَ بلِسانِ العَربِ، ولا مَوضعَ أحوجُ إلى التَّأكيدِ مِن هذا المقامِ؛ لأنَّهم رَجَعوا إليه في هذا المعنى مِرارًا، وطَمِعوا فيه لِما رَأَوا فيه مِن الحرْصِ على إيمانِهم؛ فقولُه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ تأكيدٌ لقولِه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، وقولُه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ٥] تأكيدٌ لقولِه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ٣]، وفائدةُ هذا التَّأكيدِ هنا قطْعُ أطماعِ الكُفَّارِ عن أنْ يُجيبَهم رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى ما سألوه مِن عِبادتِه آلهتَهم، وتَحقيقُ الإخبارِ بمُوافاتِهم على الكُفْرِ، وأنَّهم لا يُسلِمونَ أبدًا.

وثانيهما: أنَّهم ذَكَروا تلك الكلمةَ مرَّتينِ، يعني: تَعبُدُ آلهتَنا شَهرًا، ونَعبُدُ إلهَك شَهرًا، وتَعبُدُ آلهتَنا سَنةً، ونَعبُدُ إلهَك سَنةً، فأتَى الجوابُ على التَّكرارِ على وَفْقِ قَولِهم، وفيه ضَربٌ مِن التَّهكُّمِ؛ فإنَّ مَن كرَّرَ الكلمةَ الواحدةَ لغرَضٍ فاسدٍ، فإنَّه يُجازى لدَفْعِ تلك الكلمةِ على سَبيلِ التَّكرارِ استخفافًا[(١)].

- وعُبِّر بـ (ما) الَّتي لغيرِ العُقلاءِ في المواضعِ الأربعةِ؛ لأنَّه يجوزُ ذلك، والنُّكتةُ في ذلك أنْ يَجريَ الكلامُ على نمطٍ واحدٍ ولا يَختلِفَ[(٢)].

- قَولُه: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ تَذييلٌ وفَذْلَكةٌ[(٣)] للكلامِ السَّابقِ بما فيه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٨، ٨٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٦١٠، ٦١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٩، ٥٦٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٠٢ - ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٠، ٦٢١)، ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٥٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٤).

التَّأكيداتِ، وقد أُرسِلَ هذا الكلامُ إرسالَ المَثَلِ[١].

- قَولُه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، أي: لكمْ شِركُكم ولي تَوحيدِي، وهذا غايةٌ في التَّبرُّؤِ، ولَمَّا كان الأهمُّ انتِفاءَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن دِينِهم؛ بَدَأَ بالنَّفيِ في الجُمَلِ السَّابقةِ بالمَنسوبِ إليه[٢].

- قَولُه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ تَقريرٌ لقولِه تعالَى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، وقولِه تعالَى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، كما أنَّ قولَه تعالَى: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ تَقريرٌ لقولِه تعالَى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، والمَعْنى: أنَّ دِينَكم -الَّذي هو الإشراكُ- مَقصورٌ على الحُصولِ لكم، لا يَتجاوَزُه إلى الحُصولِ لي أيضًا كما تَطمَعونَ فيه، فلا تُعلِّقُوا بهِ أمانيَّكُم الفارغةَ؛ فإنَّ ذلكَ مِن المُحالاتِ، وأنَّ دِيني -الَّذي هو التَّوحيدُ- مَقصورٌ على الحُصولِ لي لا يَتجاوَزُه إلى الحُصولِ لكُم أيضًا؛ لأنَّكم علَّقْتُموه بالمُحالِ الَّذي هو عِبادتي لآلهتِكم، أو استِلامي إيَّاها، ولأنَّ ما وعَدْتُمُوه عَينُ الإشراكِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ هذا تَقريرًا لقولِه تعالَى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، أيْ: ولِي دِيني لا دِينُكم[٣].

- وفي كِلْتا الجُملتينِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ قُدِّمَ المُسنَدُ على المسنَدِ إليه؛ ليُفيدَ قصْرَ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ، أي: دِينُكم مَقصورٌ على الكَونِ بأنَّه لكم لا يَتجاوَزُكم إلى الكونِ لي، ودِيني مَقصورٌ على الكَونِ بأنَّه لا يَتجاوَزُني إلى كَونِه لكمْ، أي: لأنَّهم مُحقَّقٌ عَدَمُ إسلامِهم، فالقصْرُ قصْرُ إفرادٍ[٤]، واللَّامُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٧).

(٤) القَصرُ أو الحَصرُ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحَصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، =

في الموضعَينِ لشِبهِ المِلكِ، وهو الاختصاصُ أو الاستحقاقُ[١].

- وأيضًا قدَّمَ قِسْمَهم ونَصيبَهم على قِسْمِه ونَصيبِه هنا، وفي أوَّلِ السُّورةِ قدَّمَ ما يَختَصُّ بهم؛ وذلك لوَجْهينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ السُّورةَ لَمَّا اقتَضَت البَراءةَ، واقتسامَ دِينَي التَّوحيدِ والشِّركِ بيْنَه وبيْنَهم، ورَضِيَ كلٌّ بقِسْمِه، وكان المُحِقُّ هو صاحبَ القِسمةِ، وقد بَرَّزَ النَّصيبينِ، ومَيَّزَ القِسْمينِ، وعُلِمَ أنَّهم راضونَ بقِسْمِهم الدُّونِ الَّذي لا أردَأَ منه، وأنَّه هو قدِ استَولى على القِسمِ الأشرَفِ والحظِّ الأعظَمِ بمَنزلةِ مَن اقتسَمَ هو وغيرُه سمًّا وشِفاءً، فرَضِيَ مُقاسِمُه بالسُّمِّ؛ فإنَّه يقولُ له: لا تُشارِكُني في قِسْمِي، ولا أشارِكُك في قِسْمِك؛ لك قِسْمُك، ولي قِسْمي، فتَقديمُ ذِكرِ قِسْمِه هاهنا أحسَنُ وأبلَغُ، كأنَّه يقولُ: هذا هو قِسْمُك الَّذي آثَرْتَه بالتَّقديمِ وزَعَمْتَ أنَّه أشرَفُ القِسمينِ وأحقُّهما بالتَّقديمِ، فكان في تَقديمِ ذِكرِ قِسْمِه مِن التَّهكُّمِ به

= والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ. ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقِدُ الشَّرِكةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقِدُ اشتِراكَ اللهِ والأصنامِ في الأُلوهيَّةِ. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقِدُ إثباتَ الحُكمِ لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نُمْرودُ، الَّذي اعتَقد أنَّه هو المحيي المميتُ دون اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْرانِ، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٤).

والنِّداءِ على سُوءِ اختيارِه وقُبْحِ ما رَضِيَه لنفْسِه؛ مِن الحُسنِ والبيانِ ما لا يُوجَدُ في ذِكرِ تَقديمِ قِسْمِ نفْسِه.

والوجهُ الثَّاني: أنَّ مَقصودَ السُّورةِ بَراءتُه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن دِينِهم ومَعبودِهم، هذا هو لُبُّها ومَغْزاها، وجاء ذِكرُ بَراءتِهم مِن دِينِه ومَعبودِه بالقصْدِ الثَّاني مُكمِّلًا لبَراءتِه ومُحقِّقًا لها، فلمَّا كان المقصودُ بَراءتَه مِن دِينِهم بدَأَ به في أوَّلِ السُّورةِ، ثمَّ جاء قولُه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ مُطابِقًا لهذا المعنى، أي: لا أُشارِكُكم في دِينِكم ولا أُوافِقُكم عليه، بلْ هو دِينٌ تَختصُّون أنتم به لا أشْرَكُكم فيه أبدًا، فطابَقَ آخِرُ السُّورةِ أوَّلَها[1].

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (١/ ١٣٩، ١٤٠).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ النَّصْرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ النَّصْرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (النَّصْر)[١].

فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

أنَّها آخِرُ سُورةٍ نَزلَت كامِلةً:

عن عُبَيْدِ الله بنِ عبدِ الله بنِ عُتْبةَ، قال: (قال لي ابنُ عبَّاسٍ: تَعلَمُ آخِرَ سُورةٍ نَزلَت مِن القُرآنِ نَزلَت جَميعًا؟ قلتُ: نعمْ، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، قال: صَدقْتَ)[٢].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ النَّصرِ مَدَنيَّةٌ، نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

---

(١) سُمِّيتْ بذلك؛ لذِكرِ النَّصرِ في مُفتَتَحِها في قَولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٧).
وتُسمَّى أيضًا سورةَ ﴿إِذَا جَآءَ﴾، وسورةَ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، وسورةَ التَّوديعِ؛ لِما فيها مِن الإيماءِ إلى وفاةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وتَوديعِه الدُّنيا وما فيها. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٧٨)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٩١).

(٢) رواه مسلم (٣٠٢٤).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطُبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٢٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٦٨).

الإعلامُ بتَمامِ الدِّينِ[١].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- وَعدُ اللهِ تعالى لنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالنَّصرِ والفَتحِ.

٢- البِشارَةُ بدُخولِ خَلائقَ كَثيرةٍ في الإسلامِ.

٣- أمْرُ الله سُبحانَه نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالمُواظَبةِ على التَّسبيحِ بحَمدِه واستِغفارِه.

(١) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٦٨).

الآيات (١-٢)

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَفۡوَاجٗا﴾: أي: جماعاتٍ كثيرةً، فَوجًا بعْدَ فَوجٍ، وأصلُ (فوج): يدُلُّ على تجَمُّعٍ[1].

﴿تَوَّابَۢا﴾: التَّوَّابُ فعَّالٌ مِن تابَ يَتوبُ: أي: يُوفِّقُ العبدَ للتَّوبةِ، ويَقْبَلُها منه، وحقيقةُ التَّوبةِ الرُّجوعُ إلى اللهِ بالْتِزامِ فِعلِ ما يُحِبُّ، وتَرْكِ ما يَكْرَهُ، وأصلُ (توب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مخاطِبًا نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، بقَولِه تعالى:

إذا نصَرَكَ اللهُ -يا محمَّدُ- على أعدائِك، وتحقَّق لك فَتحُ مكَّةَ، ورأَيتَ العَرَبَ يَدخُلونَ في الإسلامِ جماعاتٍ كثيرةً؛ فنَزِّهْ رَبَّك عن النَّقائِصِ والعُيوبِ تَنزيهًا مُقترِنًا بحَمْدِه، واطلُبْ منه محوَ ذُنوبِك؛ إنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالتَّوبةِ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ٦٢)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٣)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للسعدي (ص: ١٧٦).

وقال ابن جرير: (﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ يقولُ: إنَّه كان ذا رُجوعٍ لعَبْدِه المُطيعِ إلى ما يُحِبُّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١٣).

عِبادِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾.

أي: إذا نصَرَكَ اللهُ -يا محمَّدُ- على أعدائِك، وتحقَّق لك فَتحُ مكَّةَ[1].

﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢﴾.

أي: ورأَيتَ العَرَبَ -يا محمَّدُ- يَدخُلونَ في الإسلامِ الَّذي أرسلَك اللهُ به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٧-٥٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٩).

قال ابنُ عاشور: (النَّصرُ: الإعانةُ على العَدُوِّ، ونَصرُ اللهِ يَعقُبُه التَّغَلُّبُ على العَدُوِّ. والفَتحُ: امتِلاكُ بلَدِ العَدُوِّ وأرضِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٠).

وفي المرادِ بالنَّصرِ قَولانِ؛ أحدُهما: نصرُ الرَّسولِ على قُرَيشٍ.

والثَّاني: نَصْرُه على كلِّ مَن قاتَله مِن أعدائِه، فإنَّ عاقبةَ النَّصرِ كانت له. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٠).

قال ابنُ عطيَّةَ: (النَّصرُ الَّذي رآه رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم هو غلَبَتُه لقُرَيشٍ ولِهَوازِنَ وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٢).

وقال الماوَرْدي: (وفي هذا الفتحِ قَولانِ؛ أحدُهما: فتحُ مكَّةَ، قاله الحسَنُ، ومُجاهِدٌ. الثَّاني: فتحُ المدائنِ والقُصورِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ جُبَيرٍ. وقيل: ما فتحه عليه مِن العُلومِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٦٠).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (الفَتحُ: هو فَتحُ مكَّةَ والطَّائِفِ ومُدُنِ الحجازِ وكثيرٍ مِنَ اليمَنِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٢).

وقال ابنُ كثير: (المرادُ بالفَتحِ هاهنا فَتحُ مكَّةَ قَولًا واحِدًا؛ فإنَّ أحياءَ العرَبِ كانت تَتلَوَّمُ [أي: تنتظر] بإسلامِها فَتحَ مكَّةَ، يقولونَ: إنْ ظَهَر على قَومِه فهو نبيٌّ، فلمَّا فتح اللهُ عليه مكَّةَ دخَلوا في دينِ اللهِ أفواجًا، فلم تَمْضِ سنَتانِ حتَّى استَوْسَقَت جزيرةُ العَربِ إيمانًا، ولم يَبْقَ في سائِرِ قبائِلِ العَرَبِ إلَّا مُظهِرٌ للإسلامِ، وللهِ الحَمدُ والمِنَّةُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٣). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٤٣٠٢).

جماعاتٍ كثيرةً، فَوجًا بعْدَ فَوجٍ[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نزَلَت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: أتاكم أهلُ اليَمَنِ، هم أرَقُّ قُلوبًا، الإيمانُ يَمانٍ، الفِقهُ يَمانٍ، الحِكمةُ يَمانيَةٌ))[٢].

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾.

أي: فنَزِّهْ -يا محمَّدُ- رَبَّك عن النَّقائِصِ والعُيوبِ تنزيهًا مُقترِنًا بحَمْدِه، وهو وَصْفُه بصِفاتِ الكَمالِ محبَّةً له وتعظيمًا، واطلُبْ منه محوَ ذُنوبِك[٣].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُكثِرُ مِن قَولِ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه، أستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه. فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أَراكَ تُكثِرُ مِن قَولِ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه، أستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه. فقال: خَبَّرَني ربِّي أنِّي سأرى علامةً في أمَّتي، فإذا رأيتُها أكثَرْتُ مِن قَولِ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٤).

قال ابنُ عطيَّةَ: (دُخولُ النَّاسِ في الإسلامِ أفواجًا كان بيْن فَتحِ مكَّةَ إلى موتِه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٢). ويُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٧٨).

(٢) أخرجه أحمدُ (٧٧٢٢)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في ((التفسير)) (٣٧٢٦).

صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٤/ ١٤٩)، والألبانيُّ على شَرطِ الشَّيخَينِ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٣٦٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط على شَرطِ الشَّيخَينِ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٣/ ١٥٦).

وقال ابنُ حَجَرٍ في ((الكافي الشاف)) (٣٢٧): (أصلُه في مسلمٍ دونَ ما في أوَّلِه، وله شاهِدٌ).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٧، ٧١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤١).

أستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه، فقد رأيتُها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فَتحُ مكَّةَ، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا * فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾))[١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُكثِرُ أن يقولَ في رُكوعِه وسُجودِه: سُبحانَك اللَّهمَّ رَبَّنا وبحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي؛ يَتأوَّلُ القُرآنَ[٢]))[٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (كان عُمَرُ يُدخِلُني مع أشْياخِ بَدْرٍ، فقال بعضُهم: لِمَ تُدخِلُ هذا الفتى معنا ولنا أبناءٌ مِثْلُه؟! فقال: إنَّه مِمَّن قد عَلِمتُم، فدعاهم ذاتَ يومٍ ودعاني معهم، وما رُئِيتُه[٤] دعاني يومَئذٍ إلَّا لِيُريَهم مِنِّي[٥]، فقال: ما تَقولون في: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ * وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ حتَّى ختَمَ السُّورةَ؟ فقال بعضُهم: أُمِرْنا أن نحمَدَ اللهَ ونَستَغفِرَه إذا نصَرَنا وفَتَح علينا، وقال بعضُهم: لا ندري، أو لم يَقُلْ بعضُهم شيئًا، فقال لي: يا ابنَ عبَّاسٍ، أكذاك تقولُ؟ قُلتُ: لا، قال: فما تقولُ؟ قلتُ: هو أجَلُ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أعْلَمَه اللهُ له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فَتحُ مكَّةَ، فذاك علامةُ أجَلِك، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، قال عُمَرُ: ما أعلَمُ منها إلَّا ما تَعلَمُ)[٦].

---

(١) رواه مسلم (٤٨٤).

(٢) يَتأوَّل القرآنَ: أي يَفعلُ ما أُمِر به. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٢٩٩).

(٣) رواه البخاري (٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤).

(٤) رُئِيتُه: أي: ظَنَنْتُه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٦/ ٣٩٥).

(٥) لِيُريَهم مِنِّي: أي: بعضَ فضيلتي. يُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (١٦/ ١٣٩).

(٦) رواه البخاري (٤٢٩٤).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالتَّوبةِ على عِبادِه، فيُوَفِّقُهم إليها، ويَقْبَلُها منهم[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ الأمورُ الفاضِلةُ تُختَمُ بالاستغفارِ، كالصَّلاةِ والحَجِّ، وغيرِ ذلك، فأمْرُ اللهِ لرَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم بالحَمدِ والاستغفارِ في هذه الحالِ إشارةٌ إلى أنَّ أجَلَه قد اقترب؛ فلْيَستعِدَّ ويتهيَّأْ للقاءِ رَبِّه، ويختِمْ عُمُرَه بأفضَلِ ما يجِدُه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه[٢]. فالواجبُ على الإنسانِ أن يَحرِصَ في آخِرِ عُمُرِه على الإكثارِ مِن طاعةِ الله، ولا سيَّما ما أوجَبَ اللهُ عليه، وأن يُكثِرَ مِن الاستِغفارِ والحَمدِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّه سُبحانَه يَقْبَلُ تَوبةَ المستغفِرينَ المُنيبينَ إليه؛ فهو تَرغيبٌ في الاستغفارِ، وحَثٌّ على التَّوبةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٣)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للسعدي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٢).
قال القرطبي: (﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾: أي: على المُسَبِّحينَ والمُستَغفِرينَ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥١٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ * وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا * فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ الإخبارُ بذلك كُلِّه قبْلَ وُقوعِه إخبارٌ بغَيبٍ؛ فهو مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إعلامٌ منه سُبحانَه لنَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بدُنُوِّ أجَلِه، وهذا مِن أدَقِّ الفَهمِ وألطَفِه، ولا يُدْرِكُه كلُّ أحدٍ؛ فإنَّه سُبحانَه لم يُعَلِّقِ الاستغفارَ بعَمَلِه، بل عَلَّقَه بما يُحدِثُه هو سُبحانَه مِن نِعمةِ فَتْحِه على رَسولِه ودُخولِ النَّاسِ في دِينِه، وهذا ليس بسَبَبٍ للاستغفارِ؛ فعُلِمَ أنَّ سببَ الاستغفارِ غيرُه، وهو حُضورُ الأجَلِ الَّذي مِن تمامِ نعمةِ اللهِ على عَبْدِه توفيقُه للتَّوبةِ النَّصوحِ والاستغفارِ بيْن يَدَيه؛ لِيَلْقَى ربَّه طاهِرًا مُطهَّرًا مِن كلِّ ذنْبٍ، فيَقْدَمَ عليه مسرورًا راضيًا مَرْضيًّا عنه، ويدُلُّ عليه أيضًا قولُه: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾، وهو صلَّى الله عليه وسلَّم كان يُسَبِّحُ بحَمدِه دائمًا، فعُلِمَ أنَّ المأمورَ به مِن ذلك التَّسبيحِ بعْدَ الفتحِ ودُخولِ النَّاسِ في هذا الدِّينِ أمرٌ أكبَرُ مِن ذلك المتقدِّمِ، وذلك مُقَدِّمةٌ بيْن يَدَي انتقالِه إلى الرَّفيقِ الأعلى، وأنَّه قد بَقِيت عليه مِن عُبوديَّةِ التَّسبيحِ والاستِغفارِ الَّتي تُرَقِّيه إلى ذلك المقامِ بقيَّةٌ، فأَمَرَه بتوفيتِها، ويدُلُّ عليه أيضًا أنَّه سُبحانَه شَرَعَ التَّوبةَ والاستغفارَ في خواتيمِ الأعمالِ؛ فشَرَعَها في خاتمةِ الحجِّ وقيامِ اللَّيلِ، وكان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا سَلَّمَ مِن الصَّلاةِ استغفرَ ثلاثًا[2]، فعُلِمَ أنَّ التَّوبةَ مَشروعةٌ عَقِيبَ الأعمالِ الصَّالحةِ، فأَمَرَ رسولَه بالاستِغفارِ عَقِيبَ توفيتِه ما عليه مِن تبليغِ الرِّسالةِ والجِهادِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر ما أخرجه مسلم (٥٩١) من حديث ثَوْبانَ رضيَ الله عنه.

في سبيلِه حينَ دَخَلَ النَّاسُ في دِينِه أفواجًا، فكأنَّ التَّبليغَ عبادةٌ قد أكمَلَها وأدَّاها؛ فشُرِعَ له الاستِغفارُ عَقِيبَها[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ لم يقلْ: (في دينِ الرَّبِّ)، ولا سائرِ الأسماءِ؛ لأنَّ هذا الاسمَ أعظَمُ الأسماءِ -على قولٍ-؛ لدَلالتِه على الذَّاتِ والصِّفاتِ، فكأنَّه يقولُ: هذا الدِّينُ إن لم يكُنْ له خَصلةٌ سِوى أنَّه دينُ اللهِ، فإنَّه يكونُ واجِبَ القَبولِ. وقيل غير ذلك[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ يدُلُّ على فَضلِ التَّسبيحِ والتَّحميدِ؛ حيثُ يُجعَلُ كافيًا في أداءِ ما وَجَب عليه مِن شُكرِ نِعمةِ النَّصرِ والفَتحِ[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ فيه استِحبابُ التَّسبيحِ في الرُّكوعِ والسُّجودِ[٤]، عن عائشةَ رضيَ الله عنها قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُكثِرُ أن يقولَ في رُكوعِه وسُجودِه: سُبحانَك اللَّهُمَّ رَبَّنا وبحَمْدِك، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي؛ يَتأوَّلُ القُرآنَ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٢/ ٣٤٣).

(٤) وهذا مذهبُ الجمهورِ؛ مِن الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشافعيَّةِ، وهو روايةٌ عن أحمدَ، وقولُ أكثرِ الفُقهاءِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزيلعي (١/ ١٠٧)، ((التاج والإكليل)) للموَّاق (١/ ٥٣٨)، ((نهاية المحتاج)) للرملي (١/ ٤٩٩)، ((المغني)) لابن قدامة (١/ ٣٦٢).
وذهَب الحنابلةُ، والظَّاهريَّةُ إلى أنَّ التَّسبيحَ في الرُّكوعِ والسُّجودِ واجبٌ، واختارَه ابنُ تيميَّةَ، وابنُ بازٍ، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((كشاف القناع)) للبهوتي (١/ ٣٤٧)، (شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٢/ ٤١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٥٠)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣٠/ ١٤)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٣/ ٣٢٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٣٠١). =

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ اقترانُ التَّسبيحِ بالحَمدِ، فالباءُ هنا للمُصاحَبةِ؛ وذلك لأنَّه إذا كان التَّسبيحُ مصحوبًا بالحَمدِ فإنَّه به يَتحقَّقُ الكَمالُ؛ لأنَّ الكَمالَ لا يَتحقَّقُ إلَّا بانتفاءِ العيوبِ، وثُبوتِ صِفاتِ الكَمالِ؛ فانتفاءُ العُيوبِ مأخوذٌ مِن قَولِه: ﴿ فَسَبِّحْ ﴾؛ لأنَّ التَّسبيحَ معناه التَّنزيهُ عن كلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، وثبوتُ الكمالاتِ مأخوذٌ مِن قولِه: ﴿بِحَمْدِ ﴾؛ لأنَّ الحمدَ هو وَصفُ المحمودِ بالصِّفاتِ الكامِلةِ[(١)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ إشارةٌ إلى قُربِ وفاةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويحتَمِلُ أن يكونَ فيه إشارةٌ إلى أنَّ قِلَّةَ الفُتوحِ في زمانِه صلَّى الله عليه وسلَّم لا صُنْعَ له فيه؛ لأنَّ سببَه قِصَرُ مُدَّتِه، فمعنى المغفرةِ له: رَفْعُ الملامةِ عنه صلَّى الله عليه وسلَّم[(٢)].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ أمَرَ بالتَّسبيحِ والحَمدِ؛ لِيَكونَ شُكرًا على النَّصرِ والفَتحِ وظُهورِ الإسلامِ، وأمَرَه بذلك وبالاستغفارِ عندَ اقترابِ أجَلِه؛ ليَكونَ ذلك زادًا للآخِرةِ وعُدَّةً للِقاءِ اللهِ[(٣)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ أمْرُه سُبحانَه للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّسبيحِ بحَمْدِه، والاستغفارِ في هذه الحالِ، وهذا لا يَقتضي أنَّه لا يُشرَعُ في غَيرِها، أو لا يُؤمَرُ به غَيرُه، بل يَقتضي أنَّ هذا سَبَبٌ لِمَا أُمِرَ به -وإنْ كان مأمورًا به في مواضعَ أُخَرَ- كما يُؤْمَرُ الإنسانُ بالحَمدِ والشُّكرِ على نِعمةٍ وإنْ كان مأمورًا بالشُّكرِ على غيرِها، وكما يُؤمَرُ بالتَّوبةِ مِن

= والحديث أخرجه البخاريُّ (٤٩٦٨)، ومسلمٌ (٤٨٤) من حديث عائشةَ رضيَ الله عنها.

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٠).

ذَنْبٍ وإنْ كان مأمورًا بالتَّوبةِ مِن غيرِه، لكنْ هو أُمِرَ أنْ يَختِمَ عمَلَه بهذا، فغيرُه أحوَجُ إلى هذا منه، وقد يَحتاجُ العَبدُ إلى هذا في غيرِ هذه الحالِ، كما يَحتاجُ إلى التَّوبةِ؛ فهو محتاجٌ إلى التَّوبةِ والاستِغفارِ مُطلقًا[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾ سؤالٌ: أنَّ اللهَ تبارك وتعالى أنزَلَ على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا * لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ [الفتح: ١، ٢]، والفَتحُ قد حَصَل، فيكونُ المعلولُ حاصلًا، وهو المغفرةُ، فكيف يدعو بالمغفِرةِ؟

الجوابُ: أنَّ هذا مِن بابِ كَمالِ التَّذَلُّلِ مِن رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم للهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّ هذا مِن بابِ التَّأكيدِ لِمَا ثَبَتَ، والتَّوكيدُ لِمَا ثَبَتَ أمرٌ معلومٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾

- قولُه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ عُطِفَ الفتْحُ على النَّصرِ؛ لأنَّهما مُتغايِرانِ؛ فالنَّصرُ الإغاثةُ والإظهارُ على العدُوِّ، ومنه: نصَرَ اللهُ الأرضَ؛ غاثَها، والفتحُ: فتْحُ البلادِ[٣].

- والمُرادُ بالفتْحِ: فتْحُ مكَّةَ، كما يُشعِرُ به التَّعريفُ بلامِ العهْدِ، وهو المعهودُ في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا * لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٢/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٢).

٣]؛ فإضافةُ ﴿نَصْرُ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ تُشعِرُ بتَعظيم هذا النَّصرِ، وأنَّه نصْرٌ عَزيزٌ، خارقٌ للعادةِ، اعْتَنى اللهُ بإيجادِ أسبابِه، ولم تَجْرِ على مُتعارَفِ تَولُّدِ الحَوادثِ عن أمثالِها[١]، فمعناه: نَصرٌ لا يَليقُ إلَّا باللهِ، ولا يَليقُ أن يَفعَلَه إلَّا اللهُ، أو لا يليقُ إلَّا بحِكمتِه، ويُقالُ: (هذا صَنعةُ زَيدٍ)، إذا كان زيدٌ مَشهورًا بإحكامِ الصَّنعةِ، والمرادُ منه تعظيمُ حالِ تلك الصَّنعةِ، فكذا هاهنا. أو: لأنَّه إجابةٌ لدُعائِهم: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فيقولُ: هذا الَّذي سألْتُموه[٢].

وقيل: مُتعلَّقُ النَّصرِ والفتْحِ مَحذوفٌ؛ وهو نصْرُ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمنينَ على أعْدائِهم، وفتْحُ مكَّةَ وغيرِها عليهم؛ كالطَّائفِ ومُدنِ الحِجازِ وكثيرٍ مِن اليمَنِ. وقيل: نصْرُه صلَّى الله عليه وسلَّم على قُرَيشٍ، وفتْحُ مكَّةَ[٣].

وقيلَ: المرادُ: جِنسُ نصْرِ الله تعالَى ومُطلَقُ الفتْحِ؛ فإنَّ فتْحَ مكَّةَ لَمَّا كانَ مِفْتاحَ الفُتوحِ ومَناطَها -كما أنَّ نفْسَها أمُّ القُرَى وإمامُها- جُعِلَ مَجيئُه بمَنزلةِ مَجيءِ سائرِ الفُتوحِ، وعُلِّقَ بِه أمْرُه عليه السَّلامُ بالتَّسبيحِ والحمْدِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ النَّاسُ: اسمُ جمْعٍ يدُلُّ على جَماعةٍ مِن الآدَميِّينَ، والتَّعريفُ في هذه الآيةِ قيل: هو للاستِغراقِ العُرفيِّ، أي: جَميعَ النَّاسِ الَّذين يَخطُرون بالبالِ؛ لعَدَمِ إرادةِ مَعهودينَ مُعيَّنينَ، ولاستحالةِ دُخولِ كلِّ إنسانٍ في دِينِ اللهِ بدَليلِ المُشاهَدةِ، فالمعْنى: ورَأيتَ العرَبَ، أو: ورَأيتَ ناسًا كَثيرينَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٢، ٥٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٢، ٥٩٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ قُرِنَ التَّسبيحُ بالحمْدِ بباءِ المُصاحَبةِ -على قولٍ- المُقتضيةِ أنَّ التَّسبيحَ لاحقٌ للحمْدِ؛ لأنَّ باءَ المُصاحَبةِ بمعْنى (مع)، فهي مِثلُ (مع) في أنَّها تَدخُلُ على المَتبوعِ، فكان حمْدُ اللهِ على حُصولِ النَّصرِ والفتْحِ ودُخولِ النَّاسِ في الإسلامِ شيئًا مَفْروغًا منه لا يحتاجُ إلى الأمرِ بإيقاعِه؛ لأنَّ شَأنَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قدْ فَعَلَه، وإنَّما يحتاجُ إلى تَذكيرِه بتَسبيحٍ خاصٍّ لم يَحصُلْ مِن قبْلُ في تَسبيحاتِه، وباستغفارٍ خاصٍّ لم يَحصُلْ مِن قبْلُ في استِغفارِه[1]. والحمْدُ مُضافٌ للمَفعولِ، أي: فسَبِّحْه حامدًا له، أي: نزِّهْه عمَّا لا يَليقُ به، وأثبِتْ له ما يَليقُ به، فهي داخلةٌ في حيِّزِ الأمرِ. وقيل: الباءُ للاستعانةِ، والحمدُ مُضافٌ إلى الفاعلِ، أي: سبِّحْه بما حَمِدَ به نفْسَه، كقولِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ إذ ليس كلُّ تسبيحٍ بمحمودٍ[2].

- والأمرُ بالاستغفارِ مع التَّسبيحِ في قَولِه: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ تَكميلٌ للأمرِ بما هو قِوامُ أمْرِ الدِّينِ؛ مِن الجمْعِ بيْنَ الطَّاعةِ، والاحتراسِ مِن المَعصيةِ، ولأنَّ الاستغفارَ مِن التَّواضُعِ للهِ وهضْمِ النَّفْسِ، فهو عِبادةٌ في نفْسِه[3].

- وتَقديمُ التَّسبيحِ والحمْدِ على الاستِغفارِ؛ لأنَّ التَّسبيحَ راجعٌ إلى وَصْفِ اللهِ تعالَى بالتَّنزُّهِ عن النَّقصِ، وهو يَجمَعُ صِفاتِ السَّلبِ، فالتَّسبيحُ مُتمحِّضٌ لجانبِ اللهِ تعالَى، ولأنَّ الحمْدَ ثَناءٌ على اللهِ لإنعامِه، وهو أداءُ العبْدِ ما يَجبُ عليه لشُكرِ المُنعِمِ، فهو مُستلزِمٌ إثباتَ صِفاتِ الكَمالِ لله الَّتي هي مَنشَأُ إنعامِه على عَبْدِه، فهو جامعٌ بيْنَ جانبِ اللهِ وحظِّ العبْدِ، وأمَّا الاستغفارُ فهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١١، ٨١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٩). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٨٠).

حظٌّ للعبْدِ وَحْدَه؛ لأنَّه طلَبُه مِن اللهِ أنْ يَعفُوَ عمَّا يُؤاخِذُه عليه[١].

- وأيضًا في تَقديمِ الأمرِ بالتَّسبيحِ والحمْدِ على الأمرِ بالاستِغفارِ تَمهيدٌ لإجابةِ استغفارِه، على عادةِ العرَبِ في تَقديمِ الثَّناءِ قبْلَ سُؤالِ الحاجةِ؛ فإنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يكُنْ يَخْلو عن تَسبيحِ اللهِ، فأُريدَ تَسبيحٌ يُقارِنُ الحمْدَ على ما أُعطِيَه مِن النَّصرِ والفتْحِ ودُخولِ الأُمَّةِ في الإسلامِ[٢].

- وعطْفُ الأمرِ باستِغفارِ اللهِ تعالَى على الأمرِ بالتَّسبيحِ مع الحمْدِ يَقْتضي أنَّه مِن حيِّزِ جَوابِ ﴿إِذَا﴾، وأنَّه استغفارٌ يَحصُلُ مع الحمْدِ، فيدُلُّ على أنَّه استغفارٌ خاصٌّ؛ لأنَّ الاستغفارَ الَّذي يعُمُّ طلَبَ غُفرانِ التَّقصيرِ ونحوه مَأمورٌ به مِن قبْلُ، وهو مِن شَأنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فقدْ قال: ((إنَّه لَيُغَانُ[٣] على قَلْبي، وإنِّي لَأَستَغفِرُ اللهَ في اليَومِ مِئةَ مَرَّةٍ))[٤]، فكان تَعليقُ الأمرِ بالتَّسبيحِ وبالاستغفارِ على حُصولِ النَّصرِ والفتْحِ إيماءً إلى تَسبيحٍ واستغفارٍ يَحصُلُ بهما تَقرُّبٌ لم يُنْوَ مِن قبْلُ، وهو التَّهيُّؤُ لِلِقاءِ اللهِ، وأنَّ حَياتَه الدُّنيويَّةَ أوشَكَت على الانتهاءِ، وانتهاءِ أعمالِ الطَّاعاتِ والقُرُباتِ الَّتي تَزيدُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم في رفْعِ دَرَجاتِه عندَ ربِّه، فكان هذا إيذانًا باقترابِ وَفاةِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بانتقالِه مِن حَياةِ تَحمُّلِ أعباءِ الرِّسالةِ إلى حَياةٍ أبَديَّةٍ في العُلويَّاتِ المَلَكيَّةِ، والكلامُ مِن قَبيلِ الكِنايةِ الرَّمزيةِ[٥]، وهي لا تُنافي إرادةَ المعْنى الصَّريحِ بأنْ يُحمَلَ الأمرُ بالتَّسبيحِ والاستغفارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٩٤).

(٣) أي: يُطبَقُ ويُستَرُ ويُغَطَّى. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦١٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغَرِّ المُزَنيِّ رضيَ الله عنه.

(٥) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٤٩٨).

على معْنى الإكثارِ مِن قَولِ ذلك[١].

- وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يقولَ: (فسَبِّحْ بحَمْدِه)؛ لتَقدُّمِ اسمِ الجَلالةِ في قَولِه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، فعُدِلَ عن الضَّميرِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ -وهو ﴿رَبِّكَ﴾- لِما في صِفةِ (ربّ) وإضافتِها إلى ضَميرِ المُخاطَبِ مِن الإيماءِ إلى أنَّ مِن حِكمةِ ذلك النَّصرِ والفتْحِ ودُخولِ النَّاسِ في الإسلامِ نِعمةً أنعَمَ اللهُ بها عليه إذ حَصَلَ هذا الخيرُ الجليلُ بواسطتِه، فذلك تَكريمٌ له وعِنايةٌ به، وهو شَأنُ تَلطُّفِ الرَّبِّ بالمَربوبِ؛ لأنَّ مَعناهُ السِّيادةُ المَرفوقةُ بالرِّفقِ والإبلاغِ إلى الكَمالِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ تَذييلٌ للكلامِ السَّابقِ كلِّه، وتَعليلٌ لِما يَقْتضي التَّعليلَ فيه مِن الأمرِ باستغفارِ ربِّه باعتبارِ الصَّريحِ مِن الكلامِ السَّابقِ[٣].

- وتَوَّابٌ: مِثالُ مُبالَغةٍ مِن: تابَ عليه، أيْ: مُبالِغًا في قَبولِ تَوبتِهم[٤].

- وقد اشتَمَلَت جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ على أربعةِ مُؤكِّداتٍ؛ هي: (إنَّ)، و(كان)، وصِيغةُ المُبالَغةِ في التَّوَّابِ، وتَنوينُ التَّعظيمِ فيه، وحيثُ كان التَّوكيدُ بـ(إنَّ) هنا غيرَ مَقصودٍ به ردُّ إنكارٍ ولا إزالةُ تَردُّدٍ -إذ لا يُفرَضانِ في جانبِ المُخاطَبِ صلَّى الله عليه وسلَّم- فقدْ تَمحَّضَ (إنَّ) لإفادةِ الاهتمامِ بالخبَرِ بتَأكيدِه، وقدْ تَقرَّرَ أنَّ مِن شَأنِ (إنَّ) إذا جاءت على هذا الوجْهِ أنْ تُغنِيَ غَناءَ فاءِ التَّرتيبِ والتَّسبُّبِ، وتُفيدَ التَّعليلَ ورَبْطَ الكلامِ بما قبْلَه كما تُفيدُه الفاءُ. وإذ قدْ كان الكلامُ تَذييلًا وتَعليلًا للكلامِ السَّابقِ؛ تعيَّنَ أنَّ حذْفَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٦).

مُتعلَّقِ ﴿تَوَّابًا﴾ يُقدَّرُ بنَحْوِ: على التَّائبينَ، وهذا المُقدَّرُ مُرادٌ به العُمومُ، وهو عُمومٌ مَخصوصٌ بالمَشيئةِ تُخصِّصُه أدِلَّةُ وَصْفِ الرُّبوبيَّةِ. ولَمَّا ذُكِرَ دَليلُ العُمومِ عَقِبَ أمْرِه بالاستغفارِ أفاد أنَّه إذا استَغفَرَه غَفَرَ له، دَلالةً تَقْتضيها مُستتبَعاتُ التَّراكيبِ، فأفادتْ هذه الجُملةُ تَعليلَ الأمرِ بالاستِغفارِ؛ لأنَّ الاستغفارَ طَلَبُ الغَفْرِ، فالطَّالبُ يَترقَّبُ إجابةَ طَلَبِه، وأمَّا ما في الجُملةِ مِن الأمرِ بالتَّسبيحِ والحمْدِ فلا يَحتاجُ إلى تَعليلٍ؛ لأنَّهما إنشاءُ تَنزيهٍ وثَناءٍ على اللهِ تعالى. ومِن وَراءِ ذلك أفادَتِ الجُملةُ إشارةً إلى وَعْدٍ بحُسنِ القَبولِ عندَ اللهِ تعالَى حِينَما يَقدَمُ على العالَمِ القُدسيِّ، وهذا معنًى كِنائيٌّ؛ لأنَّ مَن عُرِفَ بكَثرةِ قَبولِ تَوبةِ التَّائبينَ شَأنُه أنْ يُكرِمَ وِفادةَ الوافِدينَ الَّذين سَعَوا جُهودَهم في مَرْضاتِه بمُنْتهى الاستطاعةِ؛ فهذه الجُملةُ بمَدلولِها الصَّريحِ ومَدلولِها الكِنائيِّ ومُستتبَعاتِها؛ تَعليلٌ لِما تَضمَّنَتْه الجُملةُ الَّتي قبْلَها مِن معنًى صَريحٍ أو كِنائيٍّ يُناسِبُه التَّعليلُ بالتَّسبيحِ والحمْدِ باعتبارِهما تَمهيدًا للأمرِ بالاستغفارِ لا يَحتاجانِ إلى التَّعليلِ، أو يُغْني تَعليلُ المُمهَّدِ له بهما عن تَعليلِهما، ولكنَّهما باعتبارِ كَونِهما رمْزًا إلى مُداناةِ وَفاةِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يكونُ ما في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ مِن الوعْدِ بحُسنِ القَبولِ تَعليلًا لمَدلولِهما الكِنائيِّ، وأمَّا الأمرُ بالاستغفارِ فمُناسَبةُ التَّعليلِ له بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ ناهِضةٌ باعتبارِ كِلْتا دَلالتَيْه الصَّريحةِ والكِنائيَّةِ، أي: إنَّه مُتقبِّلٌ استِغفارَك ومُتقبِّلُك بأحسَنِ قَبولٍ، شَأنَ مَن عُهِدَ منه الصَّفْحُ والتَّكرُّمُ[1].

- ومُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (إنَّه كان غفَّارًا)، فيَجْري الوصْفُ على ما يُناسِبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٦، ٥٩٧).

قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ [نوح: ١٠]؛ فقيل: المرادُ مِن الاستغفارِ ليس قولَه: أستغفِرُ اللهَ، ولكنْ أن يَتوبَ إليه، ويَطلُبَ منه المغفرةَ بالتَّوبةِ. ويجوزُ أن يكونَ فيه إضمارٌ، كأنَّه قال: واستغفِرْه، وتُبْ إليه؛ إنَّه كان تَوَّابًا. ويجوزُ أن يكونَ احتباكًا[١]، والأصلُ: واستغفِرْه إنَّه كان غَفَّارًا، وتُبْ إليه إنَّه كان تَوَّابًا، فاستُغنيَ بذِكْرِ الاستغفارِ في السُّؤالِ عن ذِكرِه في الجوابِ، وأحرى أن يُستغنى بذِكرِ التَّوبةِ في الجَوابِ عن ذِكرِها في السُّؤالِ. وقيل: اختيارُ ﴿تَوَّابٗا﴾ على (غَفَّارًا) مع أنَّه الَّذي يَستدعيه ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ ظاهِرًا؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الاستغفارَ إنَّما يَنفعُ إذا كان مع التَّوبةِ[٢].

ولأنَّ وصْفَ (توَّاب) أشَدُّ مُلاءَمةً لإقامةِ الفاصلةِ مع فاصلةِ ﴿أَفۡوَاجٗا﴾؛ لأنَّ حرْفَ الجيمِ وحرْفَ الباءِ كِلَيْهما حرْفٌ مِن الحُروفِ المَوصوفةِ بالشِّدَّةِ، بخِلافِ حرْفِ الرَّاءِ؛ فهو مِن الحُروفِ الَّتي صِفتُها بيْن الشِّدَّةِ والرِّخوةِ[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٦٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٧، ٥٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٧، ٥٩٨).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ المَسَدِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ المَسَدِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المَسَدِ)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ المَسَدِ مكِّيَّةٌ، نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

الإخبارُ عن شَقاءِ أبي لَهبٍ وامرأتِه[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- الإخبارُ عن أبي لَهبٍ بالهَلاكِ والخُسرانِ.

٢- عدَمُ إغناءِ مالِه عنهُ ولا كَسْبِه.

٣- تَوَعُّدُه وامرأتِه بدُخولِ النَّارِ.

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لذِكرِ لَفظِ (المَسَدِ) فيها في قولِه: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٢).

وسُمِّيَت أيضًا بسورةِ ﴿تَبَّتْ﴾ و﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، وسورةِ (أبي لهبٍ) على تقديرِ: سورةِ ذِكْرِ أبي لهبٍ. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٧٩)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٩).

(٢) ممَّن نقلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطُبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٥٣٧).

الآيات (١-٥)

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبَّتْ﴾: أي: خَسِرَتْ وهلَكَتْ، وأصلُ (تبب): يدُلُّ على خُسرانٍ[١].

﴿جِيدِهَا﴾: أي: عُنُقِها[٢].

﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾: المسَدُ: ما فُتِلَ مِن أيِّ شَيءٍ كان، قيل: إنَّه سِلْسلةٌ فُتِلَتْ مِن الحديدِ فَتْلًا مُحكَمًا، ولُوِيَت ليًّا شَديدًا، وقيل: المسَدُ: اللِّيفُ، وأصلُ (مسد): يدُلُّ على فَتْلِ شَيءٍ وطَيِّه[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾

قَولُه تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ مَعطوفٌ على الضَّميرِ في ﴿سَيَصْلَىٰ﴾، وسوَّغ هذا العَطفَ دونَ توكيدٍ الفَصْلُ بالمفعولِ، أي: سيَصْلَى هو وامرأتُه نارًا. ﴿حَمَّالَةَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩، ٥٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٩٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٨)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٤١٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

ٱلۡحَطَبِ﴾: مَنصوبٌ على الذَّمِّ، مَفعولٌ به لفِعلٍ محذوفٍ، أي: أَذُمُّ حمَّالةَ. وجملةُ (أَذُمُّ) مُعترِضةٌ بيْنَ الحالِ؛ جملةِ ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ﴾، وصاحِبِها «امرَأتُه»، على تقديرِ: وتَصْلَى هي النَّارَ مُسَلْسلةً. وقيل: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾: نَصبٌ على الحالِ مِن «امرأتُه» و﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ -على هذا- نَكِرةٌ؛ لإفادتِه الاستقبالِ، فإضافتُه لَفظيَّةٌ.

ويجوزُ رَفعُ «امرَأتُه» على الابتداءِ، و﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ﴾ جملةٌ في محَلِّ رَفعٍ خَبَرُ المُبتدَأِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه تعالى: خَسِرَت وهلَكَت يدا أبي لَهَبٍ، وقد تحَقَّقَت خَسارتُه هو وهَلاكُه، لم يَنفَعْه مالُه وما كَسَبَه مِن الأولادِ أو غَيرِهم، سيَدخُلُ نارًا ذاتَ إحراقٍ شَديدٍ هو وزَوجتُه الحمَّالةُ للحَطَبِ، في عُنُقِ امرأتِه حَبلٌ مَفتولٌ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم خَرَج إلى البَطحاءِ[2]، فصَعِدَ إلى الجَبَلِ فنادى: يا صَباحاه! فاجتمَعَت إليه قُرَيشٌ، فقال:

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٤١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ١٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٨)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) لأحمد الخراط (٤/ ١٤٩٠).

(٢) البَطْحاءُ والأَبْطَحُ: مَسِيلٌ واسعٌ فيه دِقاقُ الحصى، والمرادُ هنا: مَسِيلُ وادي مكَّةَ. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (١/ ٣٥٦)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٧/ ٤٣٨).

أرأَيْتُم إنْ حدَّثْتُكم أنَّ العَدُوَّ مُصَبِّحُكم أو مُمَسِّيكم، أكنتُم تُصَدِّقوني؟! قالوا: نعم، قال: فإنِّي نَذيرٌ لكم بيْنَ يدَيْ عذابٍ شديدٍ. فقال أبو لهَبٍ: ألِهذا جمَعْتَنا؟! تبًّا لك! فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخِرِها))[١].

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾.

أي: خَسِرَتْ وهلَكَتْ يدا أبي لَهَبٍ، وقد تحَقَّقَت خَسارتُه هو وهَلاكُه[٢]!

عن طارقٍ المُحارِبيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((رأيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بسوقِ ذي المَجازِ، وأنا في بِياعةٍ[٣] أَبيعُها، فمَرَّ وعليه جُبَّةٌ له حَمراءُ، وهو يُنادي بأعلى صَوتِه: أيُّها النَّاسُ، قولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ تُفلِحوا، ورجُلٌ يَتْبَعُه بالحِجارةِ قد أدمى كعبَيْه وعُرقُوبَيه[٤]! وهو يقولُ: يا أيُّها النَّاسُ، لا تُطيعوه؛ فإنَّه كَذَّابٌ! قُلتُ: مَن هذا؟ قالوا: هذا غُلامُ بني عبدِ المطَّلِبِ. قلتُ: فمَن هذا الَّذي يَتْبَعُه يَرميه بالحِجارةِ؟ قالوا: عَمُّه عبدُ العُزَّى، وهو أبو لَهَبٍ!))[٥].

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾.

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٩٧٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٢٩-٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

قال الواحدي: (أبو لهَبٍ هو ابنُ عبدِ المطَّلِبِ، عَمُّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، واسمُه عبدُ العُزَّى). ((البسيط)) (٢٤/ ٤٠٩).

(٣) البِياعةُ: السِّلعةُ. يُنظر: ((نخب الأفكار)) للعيني (١١/ ٤٨٦)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٠/ ٣٦٧).

(٤) العُرْقوبُ: هو العَصَبةُ الَّتي فوقَ العَقِبِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٣١).

(٥) أخرجه ابنُ أبي شَيْبَةَ (٣٧٧٢٠) واللَّفظُ له، وابنُ خُزَيْمةَ (١٥٩)، وابنُ حِبَّانَ (٦٥٦٢).

صحَّحه ابنُ خُزَيْمةَ، وابنُ حِبَّانَ، وابنُ حزم في ((المحلى)) (٩/ ١١٢)، وابنُ المُلَقِّنِ في ((البدر المنير)) (١/ ٦٨٠).

أي: لم يَنفَعْه مالُه وما كَسَبَه مِن الأولادِ أو غَيرِهم؛ فيَدفَعَ عنه شيئًا مِن عذابِ اللهِ[١].

قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل: ١١].

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ تعالى عن حالِ أبي لهَبٍ في الماضي بالتَّبابِ، وبأنَّه ما أغنى عنه مالُه وكَسْبُه؛ أخبَرَ عن حالِه في المستقبَلِ بأنَّه سيَصلَى نارًا[٢].

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾.

أي: سيَدخُلُ أبو لهبٍ نارًا ذاتَ شَرَرٍ ولَهيبٍ وإحراقٍ شَديدٍ، لا تَسكُنُ ولا تَخمُدُ أبدًا[٣].

قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٤، ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٣، ٦٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٦، ٣٤٧).

قال ابنُ عاشور: (ما: نافيةٌ، ويجوزُ أن تكونَ استفهاميَّةً للتَوبيخِ والإنكارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٤).

وقال الشوكاني: (﴿مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أيْ: ... ما جَمَع مِن المالِ ولا ما كَسَب مِن الأرباحِ والجاهِ، أو المرادُ بقولِه: ﴿مَالُهُۥ﴾: ما وَرِثه مِن أبيه، وبقولِه: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ الَّذي كسَبه بنفسِه. قال مجاهدٌ: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مِن وَلَدٍ، ووَلَدُ الرَّجُلِ مِن كَسْبِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٣٨).

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أن أعقَبَ ذمَّ أبي لهَبٍ ووَعيدَه بمِثْلِ ذلك لامرأتِه؛ لأنَّها كانت تُشارِكُه في أذى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتُعينُه عليه(١).

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤﴾.

أي: وسيَدخُلُ معه النَّارَ زَوجتُه الحامِلةُ للحَطَبِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٧).

قال البِقاعي: (﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ أي: أمُّ جميلٍ -أختُ أبي سُفْيانَ بنِ حَربِ بنِ أُمَيَّةَ بنِ عبدِ شَمسِ ابنِ عبدِ مَنافِ بنِ قُصَيٍّ- مِثْلُ زَوجِها في التَّبابِ والصِّلِيِّ مِن غيرِ أن يُغْنيَ عنها شيءٌ مِن مالٍ ولا حَسَبٍ ولا نَسَبٍ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٣٤١).

قيل: المرادُ: أنَّها كانت تحمِلُ حَطَبًا ذا شَوكٍ فتَضَعُه في طريقِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزمخشريُّ، والنسفيُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعطيَّةُ الجَدَليِّ، والرَّبيعُ بنُ أنَسٍ، ومُرَّةُ الهَمْدانيُّ والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥).

قال ابنُ عاشور: (فيَحتَمِلُ أنَّها صِفتُها في جهنَّمَ، ويحتَمِلُ أنَّها صِفتُها الَّتي كانت تعمَلُ في الدُّنيا بجَلْبِ حَطَبِ العِضاهِ [الأشجار التي لها شوك]؛ لتَضَعَه في طريقِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، على طريقةِ التَّوجيهِ والإيماءِ إلى تعليلِ تعذيبِها بذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٦).

وقيل: المعنى: أنَّها كانت تمشي بالنَّميمةِ؛ إيقادًا للعداوةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٩٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢).

=

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

أي: في عُنُقِ امرأةِ أبي لهَبٍ حَبلٌ مَفتولٌ(١).

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والثَّوْريُّ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥).

قال النَّيْسابوريُّ: (والأكثَرونَ على أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ أنَّها كانت تَمشي بالنَّميمةِ). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥٩١).

وممَّن ذهب إلى الجَمعِ بيْن معنى حَمْلِها الشَّوكَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ونَثْرِه في طريقِه إيذاءً له، ومَشْيِها بالنَّميمةِ لحَمْلِ النَّاسِ على مُعاداتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وحَمْلِها الحَطَبَ في الآخرةِ تعذيبًا لها: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٤١، ٣٤٢).

قال ابنُ كثير: (﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ وكانت زَوجتُه مِن ساداتِ نِساءِ قُرَيش، وهي: أُمُّ جَميلٍ، واسمُها أَروَى بنتُ حَربِ بنِ أُمَيَّةَ، وهي أُختُ أبي سُفْيانَ. وكانت عَونًا لزَوجِها على كُفرِه وجُحودِه وعِنادِه؛ فلهذا تكونُ يومَ القِيامَة عَونًا عليه في عَذابِه في نارِ جَهنَّمَ؛ ولهذا قال: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ يعني: تَحمِلُ الحَطبَ فتُلقِي على زَوجِها، ليَزدادَ على ما هو فيه، وهي مُهيَّأةٌ لذلك، مُستَعِدَّةٌ له). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢٢، ٧٢٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٧).

قال ابنُ جُزَي: (في المرادِ به ثلاثةُ أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّه إخبارٌ عن حَمْلِها الحَطَبَ في الدُّنيا...

والآخَرُ: أنَّه حالُها في جهنَّمَ يكونُ كذلك، أي: يكونُ في عُنُقِها حَبلٌ.

الثَّالِثُ: أنَّها كانت لها قِلادةٌ فاخِرةٌ، فقالت: لَأُنفِقَنَّها على عداوةِ محمَّدٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٢). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٦٧، ٣٦٨).

وقال السَّمَرْقَنْديُّ: (قال أكثَرُ أهلِ التَّفسيرِ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ يعني: في الآخِرةِ في عُنُقِها سِلسلةٌ مِن حديدٍ، وتحتَها نارٌ، وفوقَها نارٌ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٣٣).

وقيل: إنَّ المسَدَ هو اللِّيفُ، وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- إنَّ سورةَ ﴿تَبَّتۡ﴾ نزَلَتْ في أبي لهبٍ وامرأتِه، وهما مِن أشرَفِ بطنَينِ في قُرَيشٍ، وهو عَمُّ عَلِيٍّ، وهي عمَّةُ مُعاويةَ، واللَّذان تَداوَلا الخِلافةَ في الأُمَّةِ هذانِ البَطنانِ: بنو أميَّةَ، وبنو هاشمٍ، وأمَّا أبو بكرٍ وعُمَرُ فمِن قبيلتَينِ أبْعَدَ عنه صلَّى الله عليه وسلَّم، واتَّفَقَ في عَهدِهما ما لم يَتَّفِقْ بَعْدَهما، وليس في القرآنِ ذَمُّ مَن كَفَرَ به صلَّى الله عليه وسلَّم باسمِه إلَّا هذا وامرأتُه؛ ففيه أنَّ الأنسابَ لا عِبرةَ بها، بل صاحِبُ الشَّرَفِ يكونُ ذَمُّه على تَخَلُّفِه عن الواجبِ أعظَمَ، كما قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] الآيةَ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ * وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ وَصْفُ بَعْلِها وهو يَصْلَى، وهي تَحْمِلُ الحَطَبَ عليه -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، كما أعانَتْه على الكُفرِ؛ فيكونُ مِن حَشْرِ الأزواجِ، وفيه عِبرةٌ لكلِّ مُتعاوِنَينِ على الإثمِ، أو على إثمٍ ما، أو عُدوانٍ ما[(٢)].

= ٨٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٧).

قال ابنُ عثيمين: (يعني: أنَّها متقَلِّدةٌ حَبلًا مِنَ اللِّيفِ، تخرُجُ به إلى الصَّحراءِ لتَربِطَ به الحَطَبَ الَّذي تأتي به لتضَعَه في طريقِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٧).

وقال ابنُ قُتَيْبَةَ: (أمَّا المسَدُ، فهو عندَ كثيرٍ مِن النَّاسِ: اللِّيفُ دونَ غيرِه. وليس كذلك، إنَّما المسَدُ: كلُّ ما ضُفِر وفُتِل مِن اللِّيفِ وغيرِه). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٠٣).

وقال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصَّوابِ، قولُ مَن قال: هو حبلٌ جُمِع مِن أنواعٍ مُختَلِفةٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢٥).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٦٠٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ ورَدَ عن ابنِ عبَّاسٍ والضَّحَّاكِ وغَيرِهما: أنَّها كانت تأتي بالشَّوكِ تَطرَحُه باللَّيلِ في الطَّريقِ، فيُفهَمُ منه أنَّ مِن شُعَبِ الإيمانِ: إماطةَ الأذى عن الطَّريقِ؛ لأنَّه تعالى عَدَّ ضِدَّه مِن خِصالِ الكُفَّارِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾، فيه سُؤالٌ: ما السَّببُ في أنه لم يقلْ: (قُلْ: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)، وقال في سُورةِ الكافِرون: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؟

الجوابُ: قيل: لأنَّ قَرابةَ العُمومةِ تَقتضي رِعايةَ الحُرمةِ، فلهذا السَّببِ لم يقلْ له: (قُلْ تَبَّتْ...)؛ لِئَلَّا يكونَ مُشافِهًا لعَمِّه بالشَّتْمِ، بخِلافِ السُّورةِ الأُخرَى؛ فإنَّ أولئك الكُفَّارَ ما كانوا أعمامًا له.

وقيل أيضًا: لَمَّا شَتَمُوك، فاسكُت حتَّى تَندَرِجَ تحتَ هذه الآيةِ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وإذا سَكَتَّ أنتَ، أَكونُ أنا المُجيبَ عنكَ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ ليس مِن التَّكرارِ؛ لاختلافِ مَقصودِ الفِعلَينِ؛ فإنَّ الأولَ منهما دُعاءٌ يُرادُ به الإنشاءُ، والثَّاني خَبَرٌ، أي: «تَبَّتْ يدا أبي لهَبٍ، وقد تَبَّ»[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ استُدِلَّ به على جوازِ تَكنيةِ الكافِرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٥١)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥٨٩).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٥٧)، ويُنظر ما يأتي (ص: ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠١).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ فيه سُؤالٌ: لِماذا كنَّاه، والتَّكنيةُ مِن بابِ التَّعظيمِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّه لَمَّا كانت التَّكنيةُ قد تكونُ اسمًا، خَرَج عن إفادةِ التَّعظيمِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه كان اسمُه عبدَ العُزَّى، فعَدَل عنه إلى كُنيتِه؛ لأنَّ في اسمِه عِبادةَ العُزَّى، وذلك لا يُقِرُّه القرآنُ العزيزُ، ولأنَّ ذِكرَه باسْمِه خِلافُ الواقعِ حَقيقةً؛ لأنَّه عبدُ اللهِ لا عبْدُ العُزَّى.

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّه لَمَّا كان مِن أهلِ النَّارِ، ومآلُه إلى نارٍ ذاتِ لهَبٍ، وافَقَت حالُه كُنيتَه؛ فكان جديرًا بأن يُذكَرَ بها، ويُقالَ: (أبو لهَبٍ)، كما يُقالُ: (أبو الشَّرِّ) للشِّرِّيرِ، و(أبو الخيرِ) للخَيِّرِ، والأبُ: يُطلَقُ على مُلازِمٍ ما أُضِيفَ إليه، كقولِهم: «أبُوها وكَيَّالُها»، وكما كُنِّيَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ أبا الضِّيفانِ، فكانتْ كُنيةُ أبي لَهَبٍ صالحةً مُوافِقةً لحالِه مِن استِحقاقِه لَهَبَ جَهنَّمَ، فصار هذا التَّوجيهُ كِنايةً عن كَونِه جَهنَّميًّا؛ ليُنتقَلَ مِن جَعْلِ أبي لَهَبٍ بمعْنى مُلازِمِ اللَّهَبِ إلى لازمِ تلك المُلازَمةِ في العُرفِ، وهو أنَّه مِن أهْلِ جَهنَّمَ.

الوَجهُ الرَّابعُ: كُنِّيَ بذلك لتلَهُّبِ وَجنَتَيه وإشراقِهما، فيَجوزُ أن يُذكَرَ بذلك تهكُّمًا به وبافتخارِه بذلك، واحتِقارًا له. وقد قيل: إنَّه كان يُكنَّى بذلك في الجاهليَّةِ لُحسْنِه وإشراقِ وَجْهِه، وإنَّه اشتَهَرَ بتلك الكُنيةِ.

الوَجهُ الخامِسُ: أنَّه كان بكُنيتِه أشهَرَ منه باسمِه العَلَمِ، فلمَّا أُريدَ تَشهيرُه بدَعوةِ السَّوءِ وأنْ تَبْقى سِمةً له، ذُكِرَ الأشهَرُ مِن عَلَمَيْه[1]. .....

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٤)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣١، ٦٣٢)، =

وقيلَ غيرُ ذلك[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ فيه آيةٌ باهِرةٌ مِن آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ أنزَلَ هذه السُّورةَ، وأبو لهَبٍ وامرأتُه لم يَهلِكا، وأخبَرَ أنَّهما سيُعَذَّبانِ في النَّارِ ولا بُدَّ، ومِن لازِمِ ذلك أنَّهما لا يُسلِمانِ؛ فوقَعَ كما أخبَرَ عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ[٢]، ففي هذه السُّورةِ معجزةٌ ظاهرةٌ، ودليلٌ واضحٌ على النُّبوَّةِ[٣].

٦- قال الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾، ولو كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُداهِنُ أحدًا في الدِّينِ ويُسامِحُه فيه، لَكانت تلك المُداهَنةُ والمُسامَحةُ مع عَمِّه الَّذي هو قائمٌ مَقامَ أَبيهِ، فلمَّا لم تَحصُلْ هذه المُداهَنةُ معه، انقَطعَتِ الأَطماعُ، وعَلِمَ كلُّ أحدٍ أنَّه لا يُسامِحُ أحدًا في شَيءٍ يَتعلَّقُ بالدِّينِ أَصلًا[٤].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ استدَلَّ به الشَّافعيُّ رحمه الله على صِحَّةِ أنكِحةِ الكُفَّارِ[٥]؛ فقد سَمَّاها اللهُ تعالى امرأتَه بعَقدِ النِّكاحِ الواقِعِ في الشِّرْكِ. وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾

= ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠١، ٦٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٥٠، ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠١).

مذهبُ جمهورِ الفُقهاءِ مِن الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ -على الصَّحيحِ-، والحنابلةِ، وهو قولٌ عندَ المالكيَّةِ: أنَّ نكاحَ الكفَّارِ -غيرِ المرتدِّينَ- بعضِهم لبعضٍ صحيحٌ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٤١/ ٣١٩).

[التحريم: ١١]، فسَمَّاها «امرأتَه». والصَّحابةُ رضيَ الله عنهم غالبُهم إنَّما وُلِدُوا مِن نِكاحٍ كان قبْلَ الإسلامِ في حالِ الشِّرْكِ، وهُم يُنسَبونَ إلى آبائِهم انتِسابًا لا رَيبَ فيه عندَ أحدٍ مِن أهلِ الإسلامِ، وقد أَسلَمَ الجَمُّ الغَفيرُ في عَهدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فلم يأمُرْ أحدًا منهم أن يُجدِّدَ عَقْدَه على امرأتِه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالتَّبابِ مُشعِرٌ بأنَّها نَزَلَت لتَوبيخٍ ووَعيدٍ، فذلك بَراعةُ استهلالٍ[٢] مِثلَ ما تُفتتَحُ أشعارُ الهِجاءِ بما يُؤذِنُ بالذَّمِّ والشَّتمِ[٣].

- والتَّبُّ: الخُسرانُ والهلاكُ، والكلامُ دُعاءٌ وتَقريعٌ لأبي لَهَبٍ دافَعَ اللهُ به عن نَبيِّه بمِثلِ اللَّفظِ الَّذي شَتَمَ به أبو لَهَبٍ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم جَزاءً وِفاقًا[٤].

- وإسنادُ التَّبِّ إلى اليَدَينِ؛ لأنَّ العمَلَ أكثَرُ ما يكونُ بهما، وهو في الحقيقةِ للنَّفْسِ، فالمرادُ: هَلاكُ جُملتِه. وقيل: إنَّما خُصَّت اليَدانِ بالذِّكرِ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمَّا جَمَعَ أقاربَه فأنْذَرَهم، قال أبو لَهَبٍ: تَبًّا لك، ألِهذا دَعَوْتَنا؟! وأخَذَ حَجَرًا ليَرمِيَه به، فنَزَلَت[٥]. وفي حديث طارقٍ المُحارِبيِّ رضيَ الله عنه أنَّ أبا لهبٍ كان يَتْبَعُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالحِجارةِ قد

(١) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٦١٤). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٧٥).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٠١).

(٥) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٥٠).

أدمى كعبَيْه وعُرقُوبَيه[١]؛ فوَقَعَ الدُّعاءُ على يَدَيْه؛ لأنَّهما سَببُ أذى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

- وجُملةُ ﴿وَتَبَّ﴾ إمَّا مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ عطْفَ الدُّعاءِ على الدُّعاءِ إذا كان إسنادُ التَّبابِ إلى اليَدَينِ لأنَّهما آلةُ الأذى بالرَّمي بالحِجارةِ، فأُعِيدَ الدُّعاءُ على جَميعِه؛ إغلاظًا له في الشَّتْمِ والتَّقريعِ، وتُفيدُ بذلك تَأكيدًا لجُملةِ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾؛ لأنَّها بمَعناها، وإنَّما اختَلَفَتا بالكُلِّيَّةِ والجُزئيَّةِ، وذلك الاختلافُ هو مُقْتضى عَطْفِها، وإلَّا لَكان التَّوكيدُ غيرَ مَعطوفٍ؛ لأنَّ التَّوكيدَ اللَّفظيَّ لا يُعطَفُ بالواوِ، وإمَّا أنْ تكونَ في مَوضعِ الحالِ، والواوُ واوَ الحالِ، ولا تَكون دُعاءً، وإنَّما إخبارٌ بعْدَ دُعاءٍ، والتَّعبيرُ بالماضي لتَحقُّقِ وُقوعِه، وكأنَّ ذلك قدْ حصَلَ؛ فيكونَ الكلامُ قبْلَه مُستعمَلًا في الذَّمِّ والشَّماتةِ به، أو لطَلَبِ الازديادِ، فيَتمحَّضُ الكلامُ قبْلَه لمَعْنى الذَّمِّ والتَّحقيرِ دونَ معْنى طَلَبِ حُصولِ التَّبابِ له. وقيلَ: الأوَّلُ إخبارٌ عن هَلاكِ عَمَلِه؛ لأنَّ الأعمالَ تُزاوَلُ غالبًا بالأيدي، والثَّاني إخبارٌ عن هَلاكِ نفْسِه[٣].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾

- قَولُه: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ للانتقالِ مِن إنشاءِ الشَّتمِ والتَّوبيخِ إلى الإعلامِ بأنَّه آيِسٌ مِن النَّجاةِ مِن هذا التَّبابِ، ولا

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٥، ٥٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٣).

يُغْنيه مالُه، ولا كسْبُه، أي: لا يُغْني عنه ذلك في دفْعِ شَيءٍ عنه في الآخرةِ[١].

- والتَّعبيرُ بالماضي في قَولِه: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾؛ لتَحقيقِ وُقوعِ عدَمِ الإغناءِ[٢].

- قَولُه: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مَوصولٌ وصِلتُه، والعائدُ مَحذوفٌ جوازًا؛ لأنَّه ضَميرُ نصْبٍ، والتَّقديرُ: وما كَسَبَه، أي: ما جَمَعَه، والمرادُ به: ما يَملِكُه مِن غيرِ النَّعَمِ؛ مِن نُقودٍ وسِلاحٍ، ورَبْعٍ وعُروضٍ، وطَعامٍ. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بمالِه: جَميعُ مالِه، ويكونَ عطْفُ ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مِن ذِكرِ الخاصِّ بعْدَ العامِّ؛ للاهتِمامِ به، أي: ما أغْنى عنه مالُه التَّالِدُ، وهو ما وَرِثَه عن أبيهِ عبدِ المُطَّلبِ، وما كَسَبَه هو بنفْسِه، وهو طَريفُه[٣]. وقيلَ غيرُ ذلك.

ويَجوزُ أنْ تكونَ (ما) في قَولِه: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ استفهامًا في معْنى الإنكارِ، أيْ: أيَّ شَيءٍ يُغْني عنه مالُه؟! وأيَّ شَيءٍ كَسَبَ؟ على وَجْهِ التَّقريرِ والإنكارِ[٤].

- قَولُه: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أي: لا يُغْني عنه شَيءٌ مِن عَذابِ جَهنَّمَ[٥].

- قَولُه: ﴿سَيَصۡلَىٰ﴾ السِّينُ للاستِقبالِ وإنْ تَراخى الزَّمانُ، وهو وَعيدٌ كائنٌ إنجازُه لا مَحالةَ وإنْ تَراخى وَقْتُه، فالسِّينُ لتَأكيدِ الوَعيدِ وتَشديدِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٤، ٨١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٦، ٥٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٤).

- ووَصْفُ النَّارِ بـ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ لزيادةِ تَقريرِ المُناسَبةِ بيْن اسمِه وبيْن كُفْرِه؛ إذ هو أبو لَهَبٍ، والنَّارُ ذاتُ لَهَبٍ، وهو ما تَقدَّمَ الإيماءُ إليه بذِكرِ كُنيتِه، وفي وَصْفِ النَّارِ بذلك زِيادةُ كَشْفٍ لحقيقةِ النارِ، وهو مِثلُ التَّأكيدِ[١].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدٖ﴾

- قَولُه: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ ﴿حَمَّالَةَ﴾ على وَزْنِ (فعَّالة)؛ للمُبالَغةِ[٢].

- وقُدِّمَ الخبَرُ مِن قولِه: ﴿فِي جِيدِهَا﴾؛ للاهتِمامِ بوَصْفِ تلك الحالةِ الفَظيعةِ الَّتي عُوِّضَت فيها بحَبْلٍ في جِيدِها عن العِقدِ الَّذي كانت تُحلِّي به جِيدَها في الدُّنيا، فتُربَطُ به؛ إذ قد كانت هي وزَوجُها مِن أهلِ الثَّراءِ، وسادةِ أهلِ البَطْحاءِ[٣].

- والجِيدُ: العُنقُ، وغَلَبَ في الاستِعمالِ على عُنقِ المرأةِ وعلى مَحلِّ القِلادةِ منه، فقَلَّ أنْ يُذكَرَ العُنقُ في وَصْفِ النِّساءِ في الشِّعرِ العربيِّ إلَّا إذا كان عُنقًا مَوصوفًا بالحُسنِ، والمعروفُ أنْ يُذكَرَ العُنقُ إذا ذُكِرَ الحَلْيُ أو الحُسنُ؛ فإنَّما حَسُنَ هنا ذِكرُ الجيدِ في حُكْمِ البلاغةِ؛ لأنَّها امرأةٌ، والنِّساءُ تُحلِّي أجْيادَهنَّ، وأمُّ جَميلٍ لا حَلْيَ لها في الآخِرةِ إلَّا الحبْلُ المَجعولُ في عُنقِها، فلمَّا أُقِيمَ لها ذلك مُقامَ الحَلْيِ ذُكِرَ الجِيدُ معه[٤].

- وفي قَولِه: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدٖ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّهكُّمِ؛ فقدْ صوَّرَها تَصويرًا فيه مُنتهَى الخِسَّةِ والقَماءةِ، والمعْنى ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٦).

مَّسَدٍ﴾: مِن الحِبالِ، وأنَّها تَحمِلُ تلك الحُزمةَ وتَربِطُها في جِيدِها؛ تَخسيسًا لحالِها، وتَصويرًا لها بصُورةِ بَعضِ الحطَّاباتِ مِن المَواهِنِ -جمْعُ ماهِنٍ، وهي الخادِمُ- لتَمتعِضَ مِن ذلك، ويَمتعِضَ زَوجُها، وهما في بَيتِ العِزِّ والشَّرفِ، وفي مَنصبِ الثَّروةِ والجِدَةِ[1].

وقيل: إنَّما عُبِّرَ عن قِلادتِها بـ﴿حَبۡلٞ مِّن مَّسَدٖ﴾ على جِهةِ التَّفاؤُلِ لها، وذِكرِ تَبرُّجِها في هذا السَّعيِ الخَبيثِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٨).

تَفْسيرُ

سُورَةِ الإِخْلاصِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سُورةُ الإخْلاصِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ الإخْلاصِ[١].

وسُمِّيت أيضًا بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ فعن أبي الدَّرْداءِ رضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ((أَيَعْجِزُ أحَدُكم أن يَقرأَ في لَيلةٍ ثُلُثَ القُرآنِ؟ قالوا: وكيف يَقرأُ ثُلُثَ القُرآنِ؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ))[٢].

ويُطلَقُ عليها مع سورتَي (الفَلَقِ) و(النَّاسِ): (المُعَوِّذاتُ):

عن عُقْبَةَ بنِ عامِرٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((أمَرَني رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن أَقرأَ بالمُعَوِّذاتِ[٣] .....

---

(١) قال الفيروزابادي: (سُمِّيت سورةَ الإخلاصِ؛ لأَنَّها خالصُ التَّوحيدِ؛ وسببُ خلاصِ أهْلِه). ((بصائر ذوي التمييز)) (٢/ ١٧٣).

وقال ابن عاشور: (واشْتُهِرَ هذا الاسمُ؛ لاختِصارِه، وجَمْعِه مَعانيَ هذه السُّورةِ؛ لأنَّ فيها تعليمَ النَّاسِ إخلاصَ العبادَةِ لله تعالَى، أي: سلامةَ الاعتقادِ مِن الإشراكِ باللهِ غيرَه في الإلَهيَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٩).

وقال ابنُ عثيمين: (سُمِّيت به؛ لأنَّ اللهَ تعالى أخلَصَها لنَفْسِه، فلَمْ يَذكُرْ فيها إلَّا ما يَتعَلَّقُ بأسمائِه وصِفاتِه، ولأنَّها تُخَلِّصُ قارِئَها مِن الشِّركِ والتَّعطيلِ). ((مذكرة على العقيدة الواسطية)) (ص: ١٣).

وسُمِّيت أيضًا: الأساسَ، والمقشقِشةَ [أي: المبرئة، وهو مِن قَشْقَشَ المريضُ: إذا صحَّ وبَرِئَ]، والتَّوحيدَ، والتَّجريدَ... إلى غيرِ ذلك، وقد ذكروا لها أكثرَ من عِشرينَ اسْمًا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٥٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (٨١١).

وأخرجه البخاري (٥٠١٥) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) قال ابنُ حجر: (المُعَوِّذاتِ أي: السُّوَرِ الثَّلاثِ، وذكَر سورةَ الإخلاصِ معهما تغليبًا؛ لِما اشتمَلَت عليه مِن صفةِ الرَّبِّ، وإن لم يصرَّحْ فيها بلَفظِ التَّعويذِ). ((فتح الباري)) (٩/ ٦٢).

في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ))[١].

فضائلُ السُّورة وخصائصُها:

١- أنَّها تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ:

عن أبي الدَّرْداءِ رضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ((أَيَعْجِزُ أحَدُكم أن يَقرأَ في لَيلةٍ ثُلُثَ القُرآنِ؟ قالوا: وكيف يَقرأُ ثُلُثَ القُرآنِ؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ))[٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضيَ الله عنه: ((أنَّ رجلًا سمِع رجلًا يقرأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يردِّدُها، فلمَّا أصبَح جاء إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فذكَر ذلك له، وكأنَّ الرَّجلَ يتقالُّها، فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: والذي نَفْسي بيدِه إنَّها لتعدلُ ثلثَ القرآنِ))[٣].

---

(١) أخرجه أبو داودَ (١٥٢٣)، والنَّسائيُّ (١٣٣٦)، وأحمدُ (١٧٤١٧) واللَّفظُ لهم، والترمذيُّ (٢٩٠٣) باختلافٍ يسيرٍ.
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٠٠٤)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٢٩٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٥٢٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨/ ٦٣٤). وذكر ابنُ باز في ((الفوئد العلمية)) (٦/ ٣٣٥) أنَّ له طرقًا جيِّدةً.

(٢) تقدَّم تخريجُه قريبًا.
قال ابن تيميَّةَ: (القُرآنُ باعتبارِ معانيه ثلاثةُ أثلاثٍ: ثُلُثٌ توحيدٌ، وثُلُثٌ قَصَصٌ، وثُلُثٌ أمْرٌ ونَهْيٌ؛ لأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، والكلامُ: إمَّا إنشاءٌ، وإمَّا إخبارٌ، والإخبارُ: إمَّا عن الخالقِ، وإمَّا عن المخلوقِ، والإنشاءُ: أمرٌ ونهيٌ وإباحةٌ؛ فـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها ثُلُثُ التَّوحيدِ، الَّذي هو خَبَرٌ عن الخالقِ). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٩٣).
وقال ابن عثيمين: («تعدلُ ثلثَ القرآنِ» يعني أجرها كأجرِ ثلثِ القرآنِ، لكنَّها لا تجزئُ عن القرآنِ، ولهذا لو قرَأها الإنسانُ مثلًا ثلاثَ مرَّاتٍ بدلَ قراءةِ الفاتحةِ في الصلاةِ لا تجزئُ). ((شرح رياض الصالحين)) (٤/ ٦٧٦). ويُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠١٣).

٢- أَمَر الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم بقِراءةِ المُعَوِّذاتِ (ومنها سورةُ الإخلاصِ) في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ:

كما في حديثِ عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضِيَ الله عنه، وقد تقدَّم.

٣- ما أُنزِلَ مِثلُ المُعَوِّذاتِ (ومنها سورةُ الإخلاصِ) في التَّوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الفُرقانِ:

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((... لَقِيتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال لي: يا عُقْبَةُ بنَ عامِرٍ، ألَا أُعَلِّمُك سوَرًا ما أُنزِلَتْ في التَّوراةِ، ولا في الزَّبورِ، ولا في الإنجيلِ، ولا في الفُرقانِ مِثلُهُنَّ؟ لا يأتِيَنَّ عليك لَيلةٌ إلَّا قَرَأْتَهُنَّ فيها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. قال عُقْبَةُ: فما أَتَتْ عليَّ لَيلةٌ إلَّا قَرأْتُهُنَّ فيها، وحُقَّ لي ألَّا أَدَعَهُنَّ وقد أَمَرَني بهِنَّ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم[1]).

٤- مَن قَرأَ المعوِّذاتِ (ومنها سورةُ الإخلاصِ) صباحًا ومَساءً ثلاثًا تَكْفِيه مِن كلِّ شَيءٍ:

عن عبدِ الله بنِ خُبَيبٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((خرَجْنا في لَيلةٍ مَطِيرةٍ وظُلْمةٍ شديدةٍ نَطلُبُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُصَلِّي لنا، فأدرَكْتُه فقال: قُلْ. فلمْ أَقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. فلمْ أقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. قلتُ: ما أقولُ؟ قال: قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمُعَوِّذَتَينِ حينَ تُمْسي وحينَ تُصبِحُ ثلاثَ مرَّاتٍ تَكفيكَ مِن

---

(١) أخرجه أحمدُ (١٧٤٥٢) واللَّفظُ له، وهَنَّادٌ في ((الزهد)) (٢/ ٤٩٣)، وابنُ أبي الدنيا في ((مكارم الأخلاق)) (٢٠) كلاهما مختصرًا.

صحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦/ ٨٥٩)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨/ ٦٥٥)، ووثَّق رجالَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٥١)، والشَّوكانيُّ في ((تحفة الذاكرين)) (ص: ٤٤٤).

كلِّ شَيءٍ[١]))[٢].

٥- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا اشتكى رقَى نفْسَه بالمعوِّذاتِ (ومنها سورةُ الإخلاصِ):

عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا اشْتكى يَقرأُ على نفْسِه بالمُعَوِّذاتِ ويَنْفُثُ[٣]، فلمَّا اشْتَدَّ وَجَعُه كنتُ أقرَأُ عليه وأمْسَحُ بيَدِه؛ رجاءَ بَرَكَتِها))[٤].

٦- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُعَوِّذُ نفْسَه بالمعوِّذاتِ (ومنها سورةُ الإخلاصِ) إذا أَوَى إلى فِراشِه:

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا أوَى إلى فِراشِه كُلَّ لَيلةٍ جَمَع كَفَّيْه، ثُمَّ نَفَث فيهما فقَرَأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمسَحُ بهما ما اسْتَطاع

---

(١) قيل: المعنى: تَكفيك مِن كلِّ شَيءٍ تَخْشى منه كائنًا ما كان، وتَدفَعُ عنك كلَّ سوءٍ. ويحتملُ أن يكونَ معناه: تُغْنيك عمَّا سِواها. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٥/ ١٦٧١)، ((مرقاة المفاتيح)) لعليٍّ القاري (٤/ ١٤٨٥)، ((تحفة الذاكرين)) للشوكاني (ص: ٩٧).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٥٠٨٢)، والترمذيُّ (٣٥٧٥) واللَّفظُ له، والنَّسائيُّ (٥٤٢٨)، وعبدُ الله بنُ أحمدَ في ((زوائد المسند)) (٢٢٦٦٤).

صحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (ص: ١٢٨)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٣٤٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٠٨٢)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (ص: ١٠٧)، وحسَّنه ابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (٢٦/ ٢٦).

(٣) النَّفثُ: هو نفخٌ لطيفٌ مِن الفَمِ معه ريقٌ خفيفٌ أو بلا ريقٍ. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٥/ ١٦٥١)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢٠٩)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٨/ ٣٩٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢).

مِن جَسَدِه، يَبْدَأُ بهما على رَأْسِه ووَجْهِه وما أَقْبَلَ مِن جَسَدِه، يَفعَلُ ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ))[١].

٧- مَن دَعا بما تَضَمَّنَتْه مِن أسماءٍ فقد دَعا الله باسمِه الأعظَمِ:

عن بُرَيْدةَ رضيَ الله عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم سَمِعَ رجُلًا يقولُ: اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ بأنَّكَ أنتَ اللهُ الأحَدُ الصَّمَدُ، الَّذي لم يَلِدْ ولم يولَدْ، ولم يَكُنْ له كُفُوًا أحَدٌ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: لَقد سألَ اللهَ باسْمِه الأعظَمِ، الَّذي إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دُعِيَ به أجابَ))[٢].

٨- مَن أحَبَّها دخَل الجنَّةَ:

عن أَنَسٍ رضيَ الله عنه، قال: ((كان رجُلٌ مِن الأنصارِ يَؤُمُّهم في مَسجدِ قُباءٍ، وكان كُلَّما افتتَح سورةً يَقرأُ بها لهم في الصَّلاةِ ممَّا يُقرأُ به افتتَح بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتَّى يَفرُغَ منها ثمَّ يَقرأُ سورةً أخرى معها، وكان يَصنعُ ذلك في كلِّ ركعةٍ، فكلَّمهُ أصحابُه فقالوا: إنَّك تَفتَتِحُ بهذه السُّورةِ ثمَّ لا ترى أنَّها تُجزئُكَ حتَّى تَقرأَ بأخرى، فإمَّا أنْ تَقرأَ بها وإمَّا أنْ تَدَعَها وتَقرأَ بأخرى. فقال: ما أنا بتارِكِها، إنْ أحبَبْتُم أنْ أَؤُمَّكم بذلك فعَلْتُ، وإنْ كَرِهْتُم تَرَكْتُكم، وكانوا يَرَوْنَ أنَّه مِن أفضَلِهم، وكَرِهوا أنْ يَؤُمَّهم غيرُه، فلمَّا أتاهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٧).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١٤٩٣)، والترمذيُّ (٣٤٧٥)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٧٦٦٦)، وابنُ ماجه (٣٨٥٧)، وأحمدُ (٢٣٠٤١) واللَّفظُ له.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٨٩١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٤٩٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٤٩٣)، وصحَّح إسنادَه ابنُ باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (٢/ ١٣٢).

أخبَروه الخبَرَ، فقال: يا فُلانُ، ما يَمْنَعُك أنْ تَفعلَ ما يأمُرُك به أصحابُك؟ وما يَحمِلُك على لُزومِ هذه السُّورةِ في كلِّ ركعةٍ؟ فقال: إنِّي أُحِبُّها. فقال: حُبُّكَ إيَّاها أدخَلكَ الجنَّةَ))[١].

٩- مَن أَحَبَّ القِراءةَ بها أَحَبَّه اللهُ، وهي صِفَةُ الرَّحمنِ:

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بَعَثَ رجُلًا على سَرِيَّةٍ[٢]، وكان يَقرأُ لأصْحابِه في صَلاتِهم فيَختِمُ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلَمَّا رَجَعوا ذَكَروا ذلك للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: سَلُوهُ لأيِّ شَيءٍ يَصنَعُ ذلك، فسَأَلوه، فقال: لأنَّها صِفةُ الرَّحمنِ، وأنا أُحِبُّ أنْ أقرَأَ بها، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: أَخْبِرُوهُ أنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّه))[٣].

١٠- سَمِعَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم رجُلًا يقرأُ بها فقال: ((وَجَبَتْ له الجنَّةُ)):

عن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم سمِعَ رجُلًا يقرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتَّى ختَمها، فقال: وَجَبَتْ، قيل: يا رسولَ اللهِ، ما وجبَتْ؟ قال: الجنَّةُ، قال أبو هُرَيرةَ: فأرَدْتُ أنْ آتيَه فأُبَشِّرَه، فآثَرْتُ الغَداءَ معَ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وفَرِقْتُ أن يَفوتَني الغداءُ معَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ثمَّ رجَعْتُ إلى الرَّجُلِ، فوجَدْتُه قد ذهَبَ))[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٧٤م).

(٢) السَّرِيَّة: هي طائفةٌ مِن الجَيشِ يَبلُغُ أَقْصاها أربَعَمِئةٍ تُبعَثُ إلى العَدوِّ، وجَمْعُها: السَّرايا، سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم يَكونُون خُلاصةَ العَسْكرِ وخيارَهم، مِنَ الشَّيءِ السَّرِيِّ النَّفيسِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

(٤) أخرجه الترمذيُّ (٢٨٩٧)، والنَّسائيُّ (٩٩٤)، وأحمدُ (١٠٩١٩) واللَّفظُ له.
صحَّحه ابنُ عبدِ البَرِّ في ((التمهيد)) (٧/ ٢٥٤)، وابنُ العربيِّ في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٤٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٨٩٧).

١١- سَمِعَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم رجُلًا يَقرأُ بها في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن رَكعَتَيِ الفَجرِ فقال: ((هذا عَبْدٌ آمَنَ برَبِّه)):

عن جابرٍ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رجُلًا قام فرَكَعَ رَكْعَتَيِ الفَجرِ... وقرأَ في الآخِرةِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتَّى انقَضَت السُّورةُ، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: هذا عَبدٌ آمَنَ برَبِّه))[(١)].

١٢- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ بها في رَكعةِ الوِتْرِ:

عن عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُوتِرُ بثلاثٍ، يقرأُ في الأُولى بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الثَّانيةِ بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثَّالثةِ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾))[(٢)].

١٣- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ بها في سنَّةِ الفجرِ:

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ((كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يُصلِّي... ركعتينِ قبلَ الفجرِ، وكان يقولُ: نِعْمَ السُّورَتانِ هُما، تَقرَؤُونَهما في الرَّكعَتَينِ قَبلَ الفَجرِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾))[(٣)].

---

(١) أخرجه الطَّحاويُّ في ((شرح معاني الآثار)) (١٧٧٤)، وابنُ حِبَّانَ (٢٤٦٠)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٢٥٢٤).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وحسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٨٩)، وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٢٤٦٠)، وجوَّد إسنادَه الألبانيُّ في ((أصل صفة الصلاة)) (٢/ ٤٥٦).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٣٩٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١١٥٠)، وأحمد (٢٦٠٢٢) واللفظ له، وابن حبان في ((صحيحه)) (٢٤٦١).

صحَّحه ابن حبان، والألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (٩٥٠) وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((المسند)) (٤٣/ ١٤٩).

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الإخلاصِ مكِّيَّةٌ، وقيلَ: مَدَنيَّةٌ[١].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

بيانُ ما يَجِبُ لله تعالَى مِن صِفاتِ الكمالِ، وبيانُ ما يَجِبُ تَنْزيهُه عنه مِن النَّقائصِ والأمثالِ[٢].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- إثباتُ وَحدانيَّةِ الله تعالى.

٢- أنَّ لله تعالى صِفاتِ الكمالِ، ولا يُقصدُ في الحوائجِ غيرُه.

٣- إبطالُ أن يكونَ اللهُ والدًا، أو أن يكونَ مولودًا.

٤- تنزيهُ الله عن النَّظيرِ والمثيلِ.

---

(١) ونسَب القولَ بأنَّها مكيةٌ للجمهورِ: النَّسَفيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١١).

وقيل: مَدَنيَّةٌ. وممَّن اختاره: السمعانيُّ، والسيوطيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٥٥).

قال القُرطُبيُّ: (سورةُ الإخلاصِ مكِّيَّةٌ في قولِ ابنِ مسعودٍ، والحسَنِ، وعَطاءٍ، وعِكْرِمةَ، وجابرٍ. ومَدَنيَّةٌ في أحَدِ قَولَيِ ابنِ عبَّاسٍ، وقَتادةَ، والضَّحَّاكِ، والسُّدِّيِّ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٤٤). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٩٤). ويُنظر أيضًا: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٨٠).

الآيات (١-٤)

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَحَدٌ﴾: الأحدُ هو الَّذي لا ثانيَ له، ولم يَسبِقْه في أوَّليَّتِه شيءٌ، الَّذي توحَّدَ بجميعِ الكَمالاتِ، وتفرَّدَ بالجَلالِ والعَظَمةِ، فلا شَريكَ له ولا مِثلَ ولا نَظيرَ(١).

﴿ٱلصَّمَدُ﴾: أي: الَّذي لا جَوْفَ له، والسَّيِّدُ الَّذي يُصمَدُ إليه -أي: يُقصَدُ- في الأُمورِ، وأصلُ (صمد): يدُلُّ على القَصْدِ(٢).

﴿كُفُوًا﴾: أي: مَثيلًا أو نظيرًا، وأصلُ (كفأ): يدُلُّ على التَّساوي في الشَّيئَينِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ٩٠)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للسعدي (ص: ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٩).

قال الخَطَّابيُّ: (قال النَّحْويُّونَ: أصْلُه في الكلامِ: الوَحَدُ، ويُقالُ: وَحُدَ الشَّيءُ يَوْحَدُ فهو وَحَدٌ. كما يُقالُ: حَسُنَ الشَّيءُ يَحْسُنُ فهو حَسَنٌ. ثمَّ أبْدَلُوا عن الواوِ الهَمْزةَ). ((شأن الدعاء)) (ص: ٨٢).

الفرق بيْن الواحِدِ والأحَدِ مِن وُجوهٍ:

منها: أنَّ الواحِدَ يُفيدُ وَحدةَ الذَّاتِ فقط، والأحَدَ يُفيدُه بالذَّاتِ والمعاني.

ومنها: أنَّ الواحِدَ في جِنسِ المَعدودِ، وقد يُفتتَحُ به العددُ، والأحَدَ يَنقطِعُ معه العددُ.

ومنها: أنَّ الأحدَ يَصلُحُ في الكلامِ في مَوضِعِ الجُحودِ، والواحدَ في موضعِ الإثباتِ، تقولُ: لَمْ يَأْتِني مِن القَومِ أحَدٌ، وجاءَني منهم واحدٌ، ولا يُقالُ: جاءني منهم أحدٌ. يُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٥٨)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨٢).

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: قُلْ -يا محمَّدُ- مُعَرِّفًا باللهِ تعالى: هو المتفَرِّدُ بالوَحدانيَّةِ في ذاتِه وصِفاتِه، اللهُ الكاملُ في صِفاتِه الَّذي افتقَرَتْ إليه جميعُ مَخلوقاتِه، لم يَلِدْ أحَدًا ولم يَلِدْه أحَدٌ، وليس له مُساوٍ ولا نَظيرٌ سُبحانَه وتعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- مُعَرِّفًا باللهِ تعالى: هو المتفَرِّدُ بالوَحدانيَّةِ في ذاتِه وصِفاتِه، فلا نَظيرَ له ولا شَريكَ[(١)].

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾.

أي: اللهُ الكاملُ في صِفاتِه، الَّذي افتقَرَتْ إليه جميعُ مَخلوقاتِه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢٩)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢١٤، ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٩).
قال مقاتلٌ: (﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ يعني: الَّذي لا جَوفَ له كجَوفِ المخلوقينَ. ويُقالُ: الصَّمَدُ: السَّيِّدُ الَّذي تَصمُدُ إليه الخلائِقُ بحوائِجِهم، وبالإقرارِ والخُضوعِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٢٦).
وقال ابنُ تيميَّةَ: (وتفسيرُ «الصَّمَدِ» بأنَّه الَّذي لا جَوفَ له: مَعروفٌ عن ابنِ مَسعودٍ مَوقوفًا ومرفوعًا، وعن ابنِ عبَّاسٍ، والحسَنِ البَصريِّ، ومجاهدٍ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وعِكْرِمةَ، والضَّحَّاكِ، والسُّدِّيِّ، وقَتادةَ، وبمعنى ذلك قال سعيدُ بنُ المسَيِّبِ؛ قال: هو الَّذي لا حَشْوَ له. وكذلك قال ابنُ مسعودٍ: هو الَّذي ليست له أحشاءٌ. وكذلك قال الشَّعْبيُّ: هو الَّذي لا يأكُلُ ولا يَشرَبُ. وعن محمَّدِ بنِ كَعبٍ القُرَظيِّ وعِكْرِمةَ: هو الَّذي لا يخرُجُ منه شيءٌ. وعن مَيسَرةَ قال: هو =

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾.

أي: لم يَلِدْ أحَدًا مِنَ الإنسِ والجِنِّ والملائِكةِ أو غَيرِهم، ولم يَلِدْه أحَدٌ؛ فهو الأوَّلُ الَّذي ليس قَبْلَه شَيءٌ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ

= المُصمَتُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٢١٥).

وقيل: الَّذي يُقصَدُ في طَلَبِ الحوائجِ، فجَميعُ الخلائِقِ مُفتَقِرونَ إليه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ قُتَيْبةَ، والزَّجَّاجُ، والسعديُّ، وابنُ عاشور، وذكَرَ ابنُ تيميَّةَ أنَّه قولُ طائفةٍ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ، وجُمهورِ اللُّغَويِّينَ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢١٤، ٢١٥).

وذهب ابنُ تيميَّةَ إلى أنَّ كِلا القولَينِ حَقٌّ وصوابٌ، فقال: (الاسمُ «الصَّمَدُ» فيه للسَّلَفِ أقوالٌ متعَدِّدةٌ، قد يُظَنُّ أنَّها مختَلِفةٌ، وليس كذلك، بل كُلُّها صوابٌ، والمشهورُ منها قَولانِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٢١٤، ٢١٥).

وقال ابنُ كثير: (قال الحافِظُ أبو القاسِمِ الطَّبَرانيُّ في كتابِ السُّنَّةِ له بعْدَ إيرادِه كثيرًا مِن هذه الأقوالِ في تفسيرِ «الصَّمَدِ»: وكُلُّ هذه صحيحةٌ، وهي صفاتُ رَبِّنا عزَّ وجَلَّ، وهو الَّذي يُصمَدُ إليه في الحوائِجِ، وهو الَّذي قد انتهى سُؤدُدُه، وهو الصَّمَدُ الَّذي لا جَوفَ له، ولا يأكُلُ ولا يَشرَبُ، وهو الباقي بعْدَ خَلْقِه. وقال البَيْهَقيُّ نحوَ ذلك أيضًا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢٩).

قال ابن عثيمين: (رُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّ الصَّمدَ هو الكاملُ في عِلمِه، الكاملُ في حلمِه، الكاملُ في عِزَّتِه، الكاملُ في قُدرتِه، إلى آخِرِ ما ذُكِر في الأثرِ. وهذا يعني أنَّه مُستَغْنٍ عن جميعِ المخلوقاتِ؛ لأنَّه كاملٌ، وورد أيضًا في تفسيرِها أنَّ الصَّمدَ هو الَّذي تَصمُدُ إليه الخلائقُ في حوائجِها، وهذا يعني أنَّ جميعَ المخلوقاتِ مُفتَقِرةٌ إليه، وعلى هذا فيكونُ المعنى الجامعُ للصَّمدِ هو: الكاملَ في صِفاتِه، الَّذي افتقرَتْ إليه جميعُ مَخلوقاتِه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٠).

شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠، ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٢، ٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ: كَذَّبَني ابنُ آدَمَ ولم يكُنْ له ذلك، وشتَمَني ولم يكُنْ له ذلك؛ فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فقَولُه: لن يُعيدَني كما بدأني! وليس أوَّلُ الخَلْقِ بأهْوَنَ عليَّ مِن إعادتِه، وأمَّا شَتمُه إيَّايَ فقَولُه: اتَّخَذ اللهُ ولَدًا! وأنا الأحَدُ الصَّمَدُ، لم أَلِدْ ولم أُولَدْ، ولم يكُنْ لي كُفْئًا أحَدٌ))[(١)].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((اللَّهمَّ أنت الأوَّلُ فليس قَبْلَك شَيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بَعْدَك شَيءٌ))[(٢)].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾.

أي: وليس للهِ مُساوٍ ولا نَظيرٌ، أو مَثيلٌ وشَبيهٌ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤).

(٢) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٣٨، ٧٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٥)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ نفَى عن نَفْسِه الأُصولَ والفُروعَ والنُّظَراءَ، وهي جِماعُ ما يُنسَبُ إليه المخلوقُ مِن الآدَميِّينَ والبهائِمِ، والملائكةِ والجِنِّ، بل والنَّباتِ، ونحوِ ذلك؛ فإنَّه ما مِن شيءٍ مِن المخلوقاتِ إلَّا ولا بُدَّ أن يكونَ له شَيءٌ يُناسِبُه: إمَّا أصلٌ، وإمَّا فَرعٌ، وإمَّا نظيرٌ، أو اثنانِ مِن ذلك، أو ثلاثةٌ، وهذا في الآدَميِّينَ والجِنِّ والبهائِمِ ظاهِرٌ، وأمَّا الملائِكةُ فإنَّهم وإن لم يتَوالَدوا بالتَّناسُلِ فلَهم الأمثالُ والأشْباهُ[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فيه الرَّدُّ على اليَهودِ والنَّصارى، والمَجوسِ والمُشرِكين، والحُلوليَّةِ والاتِّحاديَّةِ، وجميعِ الأديانِ الباطِلةِ[(٢)].

٣- قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وإنَّما نُفِيَ أنْ يكونَ اللهُ والدًا وأنْ يكونَ مَولودًا في الزَّمنِ الماضي؛ لأنَّ عَقيدةَ التَّولُّدِ ادَّعَت وُقوعَ ذلك في زمَنٍ مَضَى، ولم يَدَّعِ أحدٌ أنَّ اللهَ سيَتَّخِذُ ولَدًا في المُستقبَلِ[(٣)].

٤- إنَّ سورتَيْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هما سُورتا الإخلاصِ، وقد اشتمَلَتا على نوعَيِ التَّوحيدِ الَّذي لا نجاةَ للعَبدِ ولا فلاحَ إلَّا بهما، وهما: **توحيدُ العِلمِ والاعتقادِ** المتضمِّنُ تنزيهَ اللهِ عمَّا لا يَليقُ به مِن الشِّركِ والكُفرِ والوَلَدِ والوالِدِ، وأنَّه إلهٌ أَحَدٌ صَمَدٌ، لم يَلِدْ؛ فيكونَ له فَرعٌ، ولم يولَدْ؛

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٩).

فيكونَ له أصلٌ، ولم يكُنْ له كُفُوًا أحدٌ؛ فيكونَ له نظيرٌ، ومع هذا فهو الصَّمَدُ الَّذي اجتمَعَت له صِفاتُ الكَمالِ كُلُّها؛ فتضَمَّنت السُّورةُ إثباتَ ما يليقُ بجلالِه مِن صِفاتِ الكَمالِ، ونَفْيَ ما لا يليقُ به مِنَ الشَّريكِ أصلًا وفَرْعًا ونظيرًا، فهذا توحيدُ العِلْمِ والاعتقادِ.

والثَّاني: توحيدُ القَصدِ والإرادةِ، وهو ألَّا يُعبَدَ إلَّا إيَّاه، فلا يُشْرَكَ به في عبادتِه سِواه، بل يكونُ وَحْدَه هو المعبودَ، وسورةُ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مُشتَمِلةٌ على هذا التَّوحيدِ؛ فانتظَمَت السُّورتانِ نَوعَيِ التَّوحيدِ، وأُخلِصَتا له، فكان صلَّى الله عليه وسلَّم يَفتَتِحُ بهما النَّهارَ في سُنَّةِ الفَجْرِ[1]، وأيضًا فإنَّه كان يُوتِرُ بهما[2]، فيَكونانِ خاتِمةَ عَمَلِ اللَّيلِ[3]. فسُنةُ الفجر تَجري مجرى بدايةِ العملِ، والوترُ خاتمتُه؛ ولذلك كان مِن السُّنَّةِ صلاةُ سنةِ الفجرِ والوترِ بهاتينِ السورتينِ؛ سورتي الإخلاصِ: [﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾]، فهما الجامعتانِ لتوحيدِ العلمِ والعملِ، وتوحيدِ المعرفةِ والإرادةِ، وتوحيدِ الاعتقادِ والقصدِ[4].

٥- تضَمَّنتْ هذه السُّورةُ العظيمةُ نفْيَ نوعينِ عن اللهِ تعالى؛ أحدُهما: المُماثَلةُ، ودلَّ على نَفْيِها قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ مع دَلالةِ قَولِه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ على ذلك؛ لأنَّ أحَديَّتَه تَقتضي أنَّه مُتفرِّدٌ بذاتِه وصِفاتِه، فلا يُشارِكُه في ذلك أحدٌ، والثَّاني: نفْيُ النَّقائصِ والعُيوبِ، وقد نفى منها التَّوَلُّدَ مِن الطَّرفَينِ، وتضَمَّنتْ إثباتَ جميعِ صِفاتِ الكَمالِ بإثباتِ الأحَديَّةِ؛ فالصَّمَديَّةُ

(١) يُنظر ما أخرجه مسلم (٧٢٦).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٠٦).

تُثبِتُ الكمالَ المنافيَ للنَّقائصِ، والأَحَديَّةُ تُثبِتُ الانفرادَ بذلك؛ فإنَّ الأَحَديَّةَ تَقتضي انفرادَه بصِفاتِه، وامتيازَه عن خَلْقِه بذاتِه وصفاتِه، والصَّمَديَّةُ تَقتضي إثباتَ جميعِ صِفاتِ الكَمالِ ودوامِها وقِدَمِها؛ فإنَّ السَّيِّدَ الَّذي يُصمَدُ إليه لا يكونُ إلَّا مُتَّصِفًا بجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ الَّتي استحَقَّ مِن أجْلِها أنْ يكونَ صَمَدًا، وأنَّه لم يَزَلْ كذلك ولا يَزالُ؛ فإنَّ صَمَديَّتَه مِن لَوازِمِ ذاتِه لا تَنفَكُّ عنه بحالٍ، ومِن هنا فُسِّرَ الصَّمَدُ بالسَّيِّدِ الَّذي قد انتهى سُؤدُدُه، وفُسِّرَ بالَّذي ليس فوقَه أحَدٌ[١].

٦- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ومعناه: أنَّ اللهَ مُنفرِدٌ بالإلَهيَّةِ لا يُشارِكُه فيها شَيءٌ مِن الموجوداتِ، وهذا إبطالٌ للشِّركِ الَّذي يَدينُ به أهلُ الشِّركِ، وللتَّثليثِ الَّذي أحْدَثَه النَّصارى المَلكانيَّةُ[٢]، وللثَّنَويَّةِ عندَ المَجوسِ[٣]، وللعَدَدِ الَّذي لا يُحْصى عندَ البَراهمةِ[٤]، فقولُه: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ نَظيرُ قولِه في الآيةِ الأُخرى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١]، وهذا هو المعْنى الَّذي يُدرِكُه المُخاطَبونَ بهذه الآيةِ السَّائلونَ عن نِسبةِ اللهِ، أي: حَقيقتِه، فابتُدِئَ لهم بأنَّه واحدٌ؛ ليَعلَموا أنَّ الأصنامَ لَيست مِن الإلَهيَّةِ في شَيءٍ. ثمَّ إنَّ الأَحَديَّةَ تَقْتضي الوُجودَ لا مَحالةَ؛ فبَطَلَ قَولُ المُعطِّلةِ والدَّهريِّينَ[٥].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ لا يُطلَقُ هذا اللَّفظُ على أحَدٍ في

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((المِلَل والنِّحَل)) للشَّهْرَسْتاني (٢/ ٢٧).

(٣) الثَّنَويَّةُ: فِرقةٌ تَزعُمُ أنَّ النُّورَ والظُّلْمةَ صانِعانِ أزَليَّانِ قديمانِ، والنُّورَ منهما فاعلُ الخَيراتِ والمنافِعِ، والظَّلامَ فاعلُ الشُّرورِ والمَضارِّ، وأنَّ الأجسامَ ممتزجةٌ مِن النُّورِ والظُّلمةِ! يُنظر: ((الفَرْق بين الفِرَق)) للبغدادي (ص: ٢٦٩)، ((المِلَل والنِّحَل)) للشهرستاني (٢/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((الملل والنحل)) للشهرستاني (٣/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٥، ٦١٦).

الإثباتِ إلَّا على اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ لأنَّه الكامِلُ في جميعِ صِفاتِه وأفعالِه[١]، وليس في المَوجُوداتِ ما يُسمَّى أَحَدًا في الإثباتِ مُفردًا غيرَ مُضافٍ إلَّا اللهُ تعالى؛ بخِلافِ النَّفْيِ وما في مَعناهُ: كالشَّرطِ والاستِفهامِ، وإنَّما استُعمِلَ في العددِ المُطلقِ، يُقالُ: أَحَدٌ، اثْنانِ. ويُقالُ: أَحَدَ عَشَرَ. وفي أوَّلِ الأيَّامِ يُقالُ: يَومُ الأَحَدِ[٢].

٨- مَذهَبُ السَّلَفِ والأئمَّةِ إثباتُ الصِّفاتِ، ونَفْيُ مُماثَلتِها لصِفاتِ المخلوقاتِ؛ فاللهُ تعالى مَوصوفٌ بصِفاتِ الكَمالِ الَّذي لا نَقْصَ فيه، مُنَزَّهٌ عن صِفاتِ النَّقصِ مُطلَقًا، ومُنَزَّهٌ عن أن يُماثِلَه غَيرُه في صِفاتِ كَمالِه؛ فهذان المَعْنَيانِ جمَعَا التَّنزيهَ، وقد دلَّ عليهما قَولُه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾؛ فالاسمُ «الصَّمَدُ» يتضَمَّنُ صِفاتِ الكَمالِ، والاسمُ «الأحَدُ» يتضَمَّنُ نَفيَ المِثْلِ[٣].

٩- هذه السُّورةُ فيها الاسمانِ: «الأحَدُ» و«الصَّمَدُ»، وكلٌّ منهما يدُلُّ على الكَمالِ؛ فقولُه: «أَحَدٌ» يدُلُّ على نَفيِ النَّظيرِ، وقولُه: «الصَّمَدُ» -بالتَّعريفِ- يدُلُّ على اختصاصِه بالصَّمَديَّةِ؛ ولهذا جاء التَّعريفُ في اسمِه «الصَّمدِ» دونَ «الأحَدِ»؛ لأنَّ أحدًا لا يُوصَفُ به في الإثباتِ غيرُه، بخِلافِ «الصَّمَدِ»؛ فإنَّ العربَ تُسَمِّي السَّيِّدَ صَمَدًا[٤]، فالصَّمَدُ يُسمَّى به غيرُ اللهِ، فأتى فيه بالألِفِ واللَّامِ؛ ليدُلَّ على أنَّه سُبحانَه هو المُستحِقُّ لكمالِ الصَّمَديَّةِ؛ فإنَّ الألِفَ واللَّامَ تأتي لاستغراقِ الجِنسِ تارةً، ولاستغراقِ خصائصَ أُخرى، كقَولِك: زَيدٌ هو الرَّجُلُ، أي: الكامِلُ في صِفاتِ الرُّجولةِ؛ فكذلك قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: الكامِلُ في صفاتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢٧، ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٤٢).

الصَّمَديَّةِ، وأمَّا الأحَدُ فلم يَتَسَمَّ به غيرُ اللهِ؛ فلم يُحتَجْ فيه إلى الألِفِ واللَّامِ[١].

١٠- قَولُ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، لم يقُلْ: اللهُ صَمَدٌ، بل قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، فبَيَّن أنَّه المستَحِقُّ لأن يكونَ هو الصَّمَدَ دونَ ما سِواه؛ فإنَّه المستوجِبُ لغايَتِه على الكَمالِ، والمخلوقُ وإن كان صَمَدًا مِن بَعضِ الوُجوهِ فإنَّ حقيقةَ الصَّمَديَّةِ مُنتَفيةٌ عنه؛ فإنَّه يَقبَلُ التَّفَرُّقَ والتَّجزئةَ، وهو أيضًا مُحتاجٌ إلى غيرِه؛ فإنَّ كُلَّ ما سِوى اللهِ مُحتاجٌ إليه مِن كُلِّ وَجهٍ، فليس أحَدٌ يَصمُدُ إليه كُلُّ شَيءٍ ولا يَصمُدُ هو إلى شَيءٍ إلَّا اللهُ تبارك وتعالى، وليس في المخلوقاتِ إلَّا ما يَقبَلُ أن يتجَزَّأَ ويتفرَّقَ وينقَسِمَ وينفَصِلَ بَعضُه مِن بعضٍ، واللهُ سُبحانَه هو الصَّمَدُ الَّذي لا يجوزُ عليه شَيءٌ مِن ذلك، بل حقيقةُ الصَّمَديَّةِ وكَمالُها له وَحْدَه واجِبةٌ لازِمةٌ، لا يُمكِنُ عدَمُ صَمَديَّتِه بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ، كما لا يمكِنُ تثنيةُ أحَديَّتِه بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ؛ فهو أحَدٌ لا يُماثِلُه شَيءٌ مِن الأشياءِ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ردٌّ على ثلاثِ طوائفَ مُنحرفةٍ مِن بني آدَمَ، وهم: المُشرِكون، واليهودُ، والنَّصارى؛ لأنَّ المُشرِكينَ جَعَلوا الملائكةَ الَّذين هم عِبَادُ الرَّحمنِ إناثًا، وقالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، واليهودَ قالوا: عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ، والنَّصارى قالوا: المَسيحُ ابنُ اللهِ، فكَذَّبَهم اللهُ بقَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ هو الأوَّلُ الَّذي ليس قَبْلَه شيءٌ، فكيف يكونُ مولودًا[٣]؟!

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ إذا كان اللهُ سُبحانَه مُنَزَّهًا عن

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٠). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٠).

أنْ يَخرُجَ منه مادَّةُ الولَدِ الَّتي هي أشرَفُ الموادِّ، فلأنْ يُنَزَّهَ عن خروجِ مادَّةِ غيرِ الولَدِ أَولى، وكذلك تنزيهُه نفْسَه عن أنْ يُولَدَ، فلا يكونُ مِن مِثْلِه: تنزيهٌ له عن أنْ يكونَ مِن سائرِ الموادِّ بطَريقِ الأَولى؛ فمَن أثْبَتَ للهِ ولَدًا فقد شَتَمَه[١]!

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيه سُؤالٌ: إذا كان ادِّعاءُ الوَلَدِ قد وَقَع، وجاء الرَّدُّ عليه، فإنَّ ادِّعاءَ الوِلادةِ لم يقَعْ، فلماذا ذَكَر نَفْيَه مع عَدَمِ ادِّعائِه؟

الجوابُ: أنَّ مَن جَوَّز الوِلادةَ له وأن يكونَ له وَلَدٌ، فقد يجَوِّزُ الوِلادةَ عليه وأن يكونَ مولودًا؛ فجاء نَفْيُها تتمَّةً للنَّفيِ والتَّنزيهِ، كما في حديثِ البَحرِ؛ كان السُّؤالُ عن الوُضوءِ مِن مائِه فقط، فجاء الجوابُ عن مائِه ومَيْتَتِه[٢]؛ لأنَّ ما احتَمَل السُّؤالَ في مائِه يحتَمِلُ الاشتباهَ في مَيتتِه[٣]. وأيضًا فقد نفَى الله عن نفْسِه سُبحانَه خصائصَ آلهةِ المشرِكينَ؛ فإنَّ منهم مَن عَبَدَ المسيحَ، ومنهم مَن عَبَدَ العُزَيْرَ، وهما مَولودانِ، ونفْيُ الولادةِ يدُلُّ على نفْيِ المتولِّدِ بطَريقِ الأَولى[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ إثباتُ الصِّفاتِ الَّتي تُسَمَّى «الصِّفاتِ السَّلبيَّةَ» أي: المنفيَّةَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٥).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٨٣)، والترمذيُّ (٦٩)، والنسائيُّ (٥٩)، وابنُ ماجه (٣٨٦)، وأحمدُ (٨٧٣٥) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه البخاريُّ كما في ((الاستذكار)) لابن عبدِالبَرِّ (١/ ١٩٧)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (١٢٤٣)، والنوويُّ في ((المجموع)) (١/ ٨٢)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٧).
ويُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٦/ ٥٠٠).

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ فيه سُؤالٌ: لماذا اقتَصَر على ذِكرِ الماضي، ولم يقُلْ: (لن يَلِدَ)؟

الجوابُ: إنَّما اقتَصَر على ذلك؛ لأنَّه وَرَد جوابًا عن قَولِهم: وَلَدَ اللهُ، والدَّليلُ عليه قَولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢]، فلمَّا كان المقصودُ مِن هذه الآيةِ تكذيبَ قَولِهم، وهم إنَّما قالوا ذلك في الماضي؛ لا جَرَمَ ورَدَت الآيةُ على وَفْقِ قَولِهم[١].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ دَلَّ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أحَدٌ، أي: في ذاتِه وصِفاتِه، لا شَبيهَ ولا شَريكَ ولا نظيرَ ولا نِدَّ له، سُبحانَه وتعالى[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ نفْيٌ للشُّرَكاءِ والأنْدادِ يَدخُلُ فيه كلُّ مَن جَعَلَ شيئًا كُفُوًا للهِ في شَيءٍ مِن خَواصِّ الرُّبوبيَّةِ، مِثلُ خَلْقِ الخَلْقِ، والإلَهيَّةِ، كالعِبادةِ له ودُعائِه ونحوِ ذلك، وفي هذا وغيرِه بَيانُ اشتِمالِ كِتابِ اللهِ على إبطالِ قَولِ مَن يَعتقِدُ في أحدٍ مِن البشَرِ الإلَهيَّةَ باتِّحادٍ، أو حُلولٍ، أو غيرِ ذلك[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾

- افتِتاحُ هذه السُّورةِ بالأمرِ بالقَولِ؛ لإظهارِ العِنايةِ بما بعْدَ فِعلِ القولِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٦٣، ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٢).

- ولَفظُ ﴿هُوَ﴾ ضَميرُ الشَّأنِ، ومَدارُ وَضْعِه مَوضِعَه معَ عدَمِ سَبْقِ ذِكرِه الإيذانُ بأنَّه مِن الشُّهرةِ والنَّباهةِ بحيثُ يَستَحضِرُه كلُّ أحدٍ، وإليه يُشيرُ كلُّ مُشيرٍ، وإليه يَعودُ كلُّ ضَميرٍ، والسِّرُّ في تَصديرِ الجُملةِ بضَميرِ الشَّأنِ ﴿هُوَ﴾: التَّنبيهُ مِن أوَّلِ الأمرِ على فَخامةِ مَضمونِها، وجَلالةِ حيِّزِها، مع ما فيه مِن زِيادةِ تَحقيقٍ وتَقريرٍ؛ فإنَّ الضَّميرَ لا يُفهَمُ منه مِن أوَّلِ الأمرِ إلَّا شَأنٌ مُبهَمٌ لهُ خطَرٌ جَليلٌ، فيَبْقى الذِّهنُ مُترقِّبًا لِما أمامَه ممَّا يُفسِّرُه ويُزيلُ إبهامَه، فيَتمكَّنُ عندَ وُرودِه له فضْلَ تَمكُّنٍ[1].

- قولُه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ إشارةٌ إلى مَن هو خالِقُ الأشياءِ وفاطِرُها، وفي طَيِّ ذلك وَصْفُه بأنَّه قادرٌ عالِمٌ؛ لأنَّ الخلْقَ يَسْتدعي القُدرةَ والعِلمَ؛ لكَونِه واقعًا على غايةِ إحكامٍ واتِّساقٍ وانتظامٍ، وفي ذلك وَصْفُه بأنَّه حيٌّ سَميعٌ بَصيرٌ، ولَمَّا اقْتَضى الفَرْدانيَّةُ قَطْعَ السَّبيلِ مِن الغيرِ، أثبَتَ له صِفةَ الصَّمَدانيَّةِ؛ ليكونَ الالتجاءُ إليه، ولَمَّا عُلِمَ مِن ذلك ثُبوتُ الذَّاتِ المُستلزِمةِ للصِّفاتِ مِن الخالِقيَّةِ والعالِميَّةِ، والقادِريَّةِ، والحَييَّةِ، والإلَهيَّةِ؛ أُريدَ بَيانُ كَمالِها، وأنَّها مُباينةٌ لصِفاتِ المَخلوقاتِ فيما مَضى ويُستقبَلُ[2].

- وابتُدِئَ باسمِه تعالَى العَلَم (الله) قبْلَ إجراءِ الأخبارِ عليه؛ ليَكونَ ذلك طَريقَ استحضارِ صِفاتِه كلِّها عندَ التَّخاطُبِ بيْن المسلمينَ، وعندَ المُحاجَّةِ بيْنَهم وبيْن المشرِكينَ؛ فإنَّ هذا الاسمَ مَعروفٌ عندَ جَميعِ العرَبِ، فمُسمَّاهُ لا نِزاعَ في وُجودِه، ولكنَّهم كانوا يَصِفونه بصِفاتٍ تَنزَّهَ عنها[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ جُملةٌ ثانيةٌ مَحكيَّةٌ بالقَولِ المحكيِّ به جُملةُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٦٣٦، ٦٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٣).

﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ فهي خبَرٌ ثانٍ عن الضَّميرِ (هو)، والخبَرُ المُتعدِّدُ يَجوزُ عطْفُه وفصْلُه، وإنَّما فُصِلَت عن الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ هذه الجُملةَ مَسوقةٌ لتَلقينِ السَّامعينَ، فكانت جَديرةً بأنْ تكونَ كلُّ جُملةٍ مُستقِلَّةً بذاتِها غيرَ مُلحَقةٍ بالَّتي قبْلَها بالعطْفِ، على طَريقةِ إلْقاءِ المسائلِ على المُتعلِّم، نحوُ قولِك: عَنترةُ مِن فُحولِ الشُّعراءِ، عَنترةُ مِن أبطالِ الفُرسانِ؛ ولهذا الاعتبارِ وَقَعَ إظهارُ اسمِ الجَلالةِ في قَولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: هو الصَّمَدُ[١].

وقيل: إخلاءُ هذه الجُملةِ عن العاطفِ؛ لأنَّها كالنَّتيجةِ للأُولى أو الدَّليلِ عليها[٢].

- وتَكريرُ الاسمِ الجَليلِ (الله) في قَولِه: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ مَن لَم يَتَّصِفْ به لم يَستحِقَّ الأُلوهيَّةَ، ولتَكونَ كلُّ جُملةٍ منْهما مُستقِلَّةً بذاتِها، غيرَ مُحتاجةٍ إلى ما قبْلَها[٣].

- وصِيغةُ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ صِيغةُ قصْرٍ بسَببِ تَعريفِ المُسنَدِ؛ فتُفيدُ قصْرَ صِفةِ الصَّمَديَّةِ على اللهِ تعالَى، وهو قصْرُ قَلبٍ[٤] لإبطالِ ما تَعوَّدَه أهلُ الشِّركِ في الجاهليَّةِ مِن دُعائِهم أصنامَهم في حَوائجِهم، والفزَعِ إليها في نَوائبِهم حتَّى نَسُوا اللهَ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٢، ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٢).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٨).

- قولُه: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ إمَّا كِنايةٌ عن كَونِه تعالَى مُتعاليًا عن الجِنسيَّةِ؛ لأنَّ مَن جانَسَ شيئًا اتَّخَذَ مِن جِنسِه صاحبةً، ومَن اتَّخَذَ صاحبةً حصَلَ التَّوالدُ. أو بالعكْسِ؛ بأنْ يُقالَ: كيف يَكونُ له وَلَدٌ وأنَّه ما اتَّخَذَ صاحبةً؟ لأنَّ الولادةَ لا تكونُ إلَّا بيْن زَوجينِ مِن جِنسٍ واحدٍ، وهو مُتعالٍ عن مُجانِسٍ، فلم يَصِحَّ أنْ تَكونَ له صاحبةٌ، فلم تَصحَّ الوِلادةُ[1].

- وأيضًا جُملةُ ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، أي: ولم يَلِدْه غيرُه، وهي بمَنزلةِ الاحتِراسِ[2]؛ سَدًّا لتَجويزِ أنْ يكونَ له والدٌ، فأُردِفَ نفْيُ الولدِ بنَفْيِ الوالدِ، وإنَّما قُدِّمَ نفْيُ الولَدِ -معَ أنَّ التَّولُّدَ أسبقُ وُقوعًا عن الولادةِ في حقِّ مَن هو متوَلِّدٌ-؛ وذلك لأنَّه أهمُّ؛ إذ قد نَسَبَ أهلُ الضَّلالةِ الولَدَ إلى اللهِ تعالَى ولم يَنسُبوا إلى اللهِ والدًا، فالولادةُ لم يَدَّعِها أحدٌ في حقِّه سُبحانَه، وإنما ادَّعَوا أنَّه وَلَدَ؛ فإنَّ مُشرِكي العَربِ قالوا: الملائكةُ بَناتُ الله، وقالت اليَهودُ: عُزَيْرٌ ابنُ الله، وقالت النَّصارَى: المَسيحُ ابنُ الله، ولم يَدَّعِ أحَدٌ أنَّ له والِدًا، فلهذا السببِ بَدأَ بالأَهمِّ، فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، ثُم أشارَ إلى الحُجَّةِ، فقال: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾، كأنَّه قِيلَ: الدَّليلُ على امتِناعِ الوَلَدِيَّةِ، اتِّفاقُنا على أنَّه ما كان وَلدًا لغيرِه[3].

وفيه الإيماءُ إلى أنَّ مَن يكونُ مَولودًا مِثلَ عِيسى لا يكونُ إلهًا؛ لأنَّه لو كان الإلهُ مَولودًا لَكان وُجودُه مَسبوقًا بعَدَمٍ لا مَحالةَ، وذلك مُحالٌ؛ لأنَّه لو كان مَسبوقًا بعَدَمٍ لَكان مُفتقِرًا إلى مَن يُخصِّصُه بالوُجودِ بعْدَ العدَمِ، فحَصَلَ مِن مَجموعِ جُملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٦٣٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٨، ٦١٩).

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ إبطالُ أنْ يكونَ اللهُ والدًا لمَولودٍ، أو مَولودًا مِن والدٍ بالصَّراحةِ، وبَطَلَت إلَهيَّةُ كلِّ مَولودٍ بطَريقِ الكِنايةِ، فبَطَلَت العقائدُ المَبنيَّةُ على تَولُّدِ الإلهِ، فلمَّا أبْطَلَت الجُملةُ الأُولى إلَهيَّةَ إلهٍ غيرِ اللهِ بالأصالةِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وأبطَلَت الجُملةُ الثَّانيةُ إلَهيَّةَ غيرِ اللهِ بالاستحقاقِ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾؛ أبْطَلَت هذه الجُملةُ إلَهيَّةَ غيرِ اللهِ بالفَرعيَّةِ والتَّولُّدِ بطَريقِ الكِنايةِ[١].

- وكذلِك قولُه: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ تَنصيصٌ على إبطالِ زعْمِ المُفترينَ في حقِّ المَلائكةِ والمَسيحِ؛ ولذلكَ ورَدَ النَّفيُ على صِيغةِ الماضِي، أو ليُطابِقَ قولَه: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾[٢].

- والتَّصريحُ بقولِه: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ مع كَونِهم مُعترِفين بمَضمونِه؛ لتَقريرِ ما قبْلَه وتَحقيقِه بالإشارةِ إلى أنَّهما مُتلازمانِ؛ إذِ المَعهودُ أنَّ ما يَلِدُ يُولَدُ، وما لا فَلا، ومِن قَضيَّةِ الاعترافِ بأنَّه لم يُولَدِ الاعترافُ بأنَّه لا يَلِدُ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ في معْنى التَّذييلِ للجُمَلِ الَّتي قبْلَها؛ لأنَّها أعمُّ مِن مَضمونِها؛ لأنَّ تلك الصِّفاتِ المُتقدِّمةَ -صَريحَها، وكِنايتَها، وضِمْنيَّها- لا يُشبِهُه فيها غيرُه، مع إفادةِ هذه انتفاءَ شَبيهٍ له فيما عَداها، مِثلَ صِفاتِ الأفعالِ، والواوُ في قَولِه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ اعتراضيَّةٌ، وهي واوُ الحالِ. ويَجوزُ كَونُ الواوِ عاطفةً إنْ جُعِلَت الواوُ الأُولى عاطفةً، فيكونُ المَقصودُ مِن الجُملةِ إثباتَ وصْفِ مُخالَفتِه تعالَى للحوادثِ، وتكونُ استفادةُ معْنى التَّذييلِ تَبَعًا للمعْنى، والنُّكَتُ لا تَتزاحَمُ[٤]. فيصحُّ أن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٩، ٦٢٠).

يَشتمِلَ الكلامُ على أكثَرَ مِن نُكتةٍ دونَ أن تتعارَضَ.

- وتَقديمُ خبَرِ (كان) ﴿كُفُوًا﴾ على اسْمِها ﴿أَحَدٌ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ، وللاهتِمامِ بذِكرِ الكُفوِ عَقِبَ الفِعلِ المنفيِّ؛ ليَكونَ أسْبَقَ إلى السَّمعِ. وتَقديمُ المجرورِ ﴿لَهُۥ﴾ على مُتعلَّقِه -وهو ﴿كُفُوًا﴾-؛ للاهتمامِ باستحقاقِ اللهِ نفْيَ كَفاءةِ أحدٍ له، فكان هذا الاهتمامُ مُرجِّحًا تَقديمَ المجرورِ على مُتعلَّقِه وإنْ كان الأصلُ تَأخيرَ المتعلَّقِ إذا كان ظَرْفًا لَغْوًا[1].

- وارتَبَطَت هذه الجُمَلُ الثَّلاثُ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ بالواوِ دونَ الثَّلاثِ الأُولى؛ لأنَّ قولَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ مُحقِّقٌ ومُقرِّرٌ لِما قبْلَه، وكذلك تَرْكُ العطْفِ في قَولِه: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ لأنَّه مُؤكِّدٌ للصَّمَديَّةِ؛ لأنَّ الغنيَّ عن كلِّ شَيءٍ المُحتاجَ إليه كلُّ ما سِواهُ، لا يكونُ والدًا ولا مَولودًا، ووَصَلَ بيْن الثَّلاثِ المتأخِّرةِ؛ لأنَّها سِيقَت لغَرَضٍ ومعْنًى واحدٍ، وهو نفْيُ المُماثَلةِ والمُناسَبةِ عنه تعالَى بوَجْهٍ مِن الوُجوهِ[2].

- وتَتميَّزُ سُورةُ الإخلاصِ بالإيجازِ، ويُبيِّنُ ذلك أنَّها:

أ- اشتَمَلَت على اسمينِ مِن أسماءِ اللهِ تعالَى يَتضَمَّنانِ جَميعَ أوصافِ الكَمالِ، وهما الأحَدُ والصَّمَدُ؛ لأنَّهما يدُلَّانِ على أَحَديَّةِ الذَّاتِ المُقدَّسةِ المَوصوفةِ بجَميعِ أوصافِ الكَمالِ، وبَيانُ ذلك أنَّ الأحَدَ يُشعِرُ بوُجودِه الخاصِّ الَّذي لا يُشارِكُه فيه غيرُه، والصَّمَدَ يُشعِرُ بجَميعِ أوصافِ الكَمالِ؛ لأنَّه الَّذي انْتَهى إليه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٨، ٨١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٢، ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦١٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦١٦، ٦١٧).

سُؤْدُدُه، فكان مَرجِعُ الطَّلبِ منه وإليه، ولا يَتِمُّ ذلك على وَجْهِ التَّحقيقِ إلَّا لِمَن حاز جَميعَ صِفاتِ الكَمالِ، وذلك لا يَصلُحُ إلَّا للهِ تعالَى.

ب- تَضمَّنَت تَوجيهَ الاعتقادِ وصِدقَ المَعرفةِ، وما يَجِبُ إثباتُه للهِ مِن الأَحَديَّةِ المُنافيةِ لمُطلَقِ الشَّرِكةِ، والصَّمَديَّةِ المُثبِتةِ له جَميعَ صِفاتِ الكَمالِ الَّذي لا يَلحَقُه نقْصٌ.

ج- وتَضمَّنَت نفْيَ الولدِ والوالدِ المُقرِّرَ لكَمالِ الغنَى.

د- وتَضمَّنَت نَفْيَ الكُفْءِ المُتضمِّنَ لنفْيِ الشَّبيهِ والنَّظيرِ[1].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦١٩).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

تَفْسيرُ

سُورَةِ الفَلَقِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ الفَلَقِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسورةِ (الفَلَقِ)[١].

وسمِّيت أيضًا ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾؛ فعن عُقْبَةَ بنِ عامِرٍ رضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ألم تَرَ آياتٍ أُنزِلَتِ اللَّيلةَ لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، و ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾))[٢].

ويُطلَقُ عليها معَ سورةِ (النَّاسِ): (المُعَوِّذَتانِ)، ومعَ (النَّاسِ والإخلاصِ): (المُعَوِّذاتُ):

فعن عُقْبَةَ بنِ عامِرٍ رضِيَ الله عنه، قال: قال لي رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أُنْزِل، أو أُنْزِلَتْ علَيَّ آياتٌ لم يُرَ مِثْلُهنَّ قَطُّ، المُعَوِّذتَينِ[٣]))[٤].

وعنه أيضًا رضيَ الله عنه، قال: ((أمَرَني رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن أَقرأَ بالمُعَوِّذاتِ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ))[٥].

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لذِكْرِ لَفظِ الفَلَقِ في أوَّلِها في قولِه: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٦).

وسُمِّيت أيضًا مع سورةِ النَّاسِ بالمقشقشتين، أي: تبرِّئان مِن النِّفاقِ. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨١٤).

(٣) منصوبٌ بفعلٍ مَحذوفٍ، أي: أعني: المُعَوِّذَتَينِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٦٩).

(٤) أخرجه مسلم (٨١٤).

(٥) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٦).

فضلُها وخصائصُها:

١- تستحبُّ قراءتُها في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ:

عن عُقْبَةَ بنِ عامِرٍ رضيَ الله عنه، قال: ((أمَرَني رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ أقرَأَ بالمُعَوِّذاتِ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ))(١).

٢- ما أُنزِلَ مِثلُ المُعَوِّذاتِ في التَّوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الفُرقانِ:

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: ((... لَقِيتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال لي: يا عُقْبَةُ بنَ عامِرٍ، ألَا أُعَلِّمُك سوَرًا ما أُنزِلَتْ في التَّوراةِ، ولا في الزَّبورِ، ولا في الإنجيلِ، ولا في الفُرقانِ مِثلُهُنَّ؟ لا يأتِيَنَّ عليك لَيلةٌ إلَّا قَرأْتَهُنَّ فيها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. قال عُقْبَةُ: فما أَتَتْ علَيَّ لَيلةٌ إلَّا قَرأْتُهُنَّ فيها، وحُقَّ لي ألَّا أَدَعَهُنَّ وقد أَمَرَني بهِنَّ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم))(٢).

٣- مَن قَرأَ المُعَوِّذاتِ حينَ يُمسِي وحينَ يُصبِحُ ثلاثًا تَكفِيه مِن كلِّ شَيءٍ:

عن عبدِ الله بنِ خُبَيْبٍ رضيَ الله عنه، قال: ((خرَجْنا في لَيلةٍ مَطِيرةٍ وظُلْمةٍ شديدةٍ نَطلُبُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُصَلِّي لنا، فأدرَكْتُه فقال: قُلْ. فلمْ أَقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. فلمْ أقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. قلتُ: ما أقولُ؟ قال: قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمُعَوِّذَتَينِ حينَ تُمْسي وحينَ تُصبِحُ ثلاثَ مرَّاتٍ تَكفيكَ مِن كلِّ شَيءٍ))(٣).

---

(١) تقدَّم تخريجُه قريبًا.

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٧).

(٣) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٧).

٤- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا اشتَكَى رقَى نفْسَه بالمُعَوِّذاتِ:

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا اشْتَكى يَقرأُ على نفْسِه بالمُعَوِّذاتِ ويَنْفُثُ، فلمَّا اشْتَدَّ وَجَعُه كنتُ أقرَأُ عليه وأمْسَحُ بيَدِه؛ رجاءَ بَرَكَتِها))[(١)].

٥- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُعوِّذُ نفْسَه بالمُعَوِّذاتِ إذا أوَى إلى فِراشِه:

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا أوَى إلى فِراشِه كُلَّ لَيلةٍ جَمَع كَفَّيْه، ثُمَّ نَفَث فيهما فقَرَأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمسَحُ بهما ما اسْتَطاع مِن جَسَدِه، يَبْدَأُ بهما على رَأْسِه ووَجْهِه وما أقْبَلَ مِن جَسَدِه، يَفعَلُ ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ))[(٢)].

٦- آياتُ سورتَيِ الفَلَقِ والنَّاسِ لم يُرَ مِثلُهنَّ فيما أُنزِل على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم:

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ألم تَرَ آياتٍ أُنزِلَتِ اللَّيلةَ لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ[(٣)]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾))[(٤)].

٧- أُمِر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقراءتِها معَ سورةِ النَّاسِ لَمَّا سُحِر:

عن زَيْدِ بنِ أرْقَمَ رضيَ الله عنه، قال: ((سَحَرَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم رجُلٌ

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٨).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٩).

(٣) ((لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ)): أي: في بابِهما وهو التَّعَوُّذُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٤٦٧).

(٤) أخرجه مسلم (٨١٤).

مِن اليَهودِ، فاشْتَكى، فأَتاهُ جِبريلُ -عليه السَّلامُ- بالمُعوِّذَتيْنِ، وقال: إنَّ رجُلًا مِن اليَهودِ سحَرَكَ، والسِّحرُ في بِئرِ فُلانٍ، فأرسَلَ عليًّا، فجاءَ به، فأمَرَه أنْ يَحُلَّ العُقَدَ، ويَقرَأَ آيةً، فجعَلَ يقرَأُ ويَحُلُّ، حتَّى قام النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم كأنَّما أُنشِطَ مِن عِقالٍ[1]، فما ذكَرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لذلك اليَهوديِّ شيئًا ممَّا صنَعَ، ولا أراهُ في وَجْهِه))[2].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الفَلَقِ، مُختلَفٌ فيها؛ فقيل: مكِّيَّةٌ، وقيل: مَدَنيَّةٌ[3].

---

(١) أُنشِط مِن عِقالٍ: أي: حُلَّ مِن وَثاقٍ. يُنظر: ((معالم السنن)) للخَطَّابي (٣/ ١٠٢).

(٢) أخرجه عبدُ بنُ حُمَيد (٢٧١)، والطَّحاويُّ في ((شرح مشكل الآثار)) (٥٩٣٥).

قال شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((شرح مشكل الآثار)) (٥٩٣٥): (إسنادُه على شرطِ مسلمٍ).

والحديث أخرجه دونَ ذِكْرِ المعوِّذتَينِ: النَّسائيُّ (٤٠٨٠)، وأحمدُ (١٩٢٨٦).

صحَّحه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٢٧٦١)، والوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (٣٥١).

(٣) ممَّن اختار أنَّها مكِّيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، والزمخشري، وابن جُزَي، وأبو السعود، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٤).

وممَّن اختار أنَّها مَدَنيَّةٌ: الثعلبيُّ، ومكِّي، والبغوي، وابن الجوزي، والرازي، والخازن، وابن كثير، والفيروزابادي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٥٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) =

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

الاسْتِعاذةُ مِن جميعِ أنواعِ الشُّرورِ عُمومًا وخُصوصًا[1].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

الاستعاذةُ باللهِ مِن الشُّرورِ، والأوقاتِ الَّتي يَكثُرُ فيها حُدوثُ الشَّرِّ، ومِن شرِّ السَّحَرةِ والحاسِدينَ.

= (٨/ ٥٣٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

الآيات (١-٥)

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡفَلَقِ﴾: أي: الصُّبحِ المتصَدِّعِ عن الظُّلمةِ، وأصلُ (فلق): يدُلُّ على فُرجةٍ في الشَّيءِ[1].

﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾: أي: اللَّيلِ المُظلِمِ إذا دَخَل واشتدَّ ظَلامُه، وأصلُ (غسق): يدُلُّ على ظُلمةٍ، وأصلُ (وقب): يدُلُّ على غَيبةِ شَيءٍ[2].

﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾: أي: السَّواحِرِ اللَّاتي يَنفُثْنَ في عُقَدِ الخَيطِ حينَ يَرقِينَ عليها. والنَّفْثُ: النَّفخُ؛ قيل: مع ريقٍ، وقيل: بدونِ ريقٍ، وأصلُ (نفث): يدُلُّ على خُروجِ شَيءٍ مِن فَمٍ، وأصلُ (عقد): يدُلُّ على شَدٍّ[3].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: قُلْ -يا محمَّدُ- متعَوِّذًا باللهِ وَحْدَه: ألتجِئُ وأستجيرُ بخالِقِ الصَّباحِ المتصَدِّعِ عن الظُّلمةِ، مِن شَرِّ كُلِّ مخلوقٍ، ومِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥) و(٦/ ١٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٨٦) و(٥/ ٤٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٥٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٤٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٢١).

شَرِّ اللَّيلِ إذا دَخَل واشتدَّ ظَلامُه، ومِن آيتِه: القمرِ، ومِن شَرِّ السَّاحِراتِ اللَّاتي يَنفُثْنَ في عُقَدِ الخُيوطِ وَقتَ السِّحرِ، ومِن شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَد.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سَحَرَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم رجُلٌ مِن اليَهودِ، فاشتكى، فأتاه جِبريلُ، فنَزَل عليه بالمعَوِّذتَينِ وقال: إنَّ رجُلًا مِنَ اليَهودِ سحَرَك، والسِّحرُ في بئرِ فُلانٍ، فأرسَلَ عليًّا فجاء به، فأمَرَه أن يَحُلَّ العُقَدَ، ويَقرَأَ آيةً، فجَعَل يَقرَأُ ويَحُلُّ، حتَّى قام النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم كأنَّما أُنشِطَ مِن عِقالٍ، فما ذكَرَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لذلك اليَهوديِّ شَيئًا مِمَّا صَنَع به، ولا أراه في وَجْهِه!))[1].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((سَحَرَ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَهوديٌّ مِن يَهودِ بني زُرَيْقٍ، يُقالُ له: لَبِيدُ بنُ الأعصَمِ، حتَّى كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُخَيَّلُ إليه أنَّه يَفعَلُ الشَّيءَ وما يَفعَلُه، حتَّى إذا كان ذاتَ يومٍ أو ذاتَ لَيلةٍ دعا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ثمَّ دعا، ثمَّ دعا، ثمَّ قال: يا عائِشةُ، أشَعَرْتِ أنَّ اللهَ أفتاني فيما استفتَيتُه فيه؟ جاءني رجُلانِ فقَعَد أحدُهما عندَ رأسي، والآخَرُ عندَ رِجْلَيَّ، فقال الَّذي عندَ رأسي للَّذي عندَ رِجْليَّ، أو الَّذي عند رِجْليَّ للَّذي عندَ رأسي: ما وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قال: مَطبوبٌ[2]، قال: مَن طَبَّه؟ قال: لَبِيدُ بنُ

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٩٦).

(٢) مَطْبوبٌ: أي: مسحورٌ، يُقالُ: طُبَّ الرَّجلُ بالضمِّ: إذا سُحِر، يُقالُ: كَنَوْا عن السِّحرِ بالطِّبِّ تفاؤلًا، كما قالوا لِلَّدِيغِ سَليمٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢٢٨). ويُنظر أيضًا: =

الأعصَمِ، قال: في أيِّ شَيءٍ؟ قال: في مُشْطٍ[١] ومُشاطةٍ[٢]، قال: وَجُفٍّ[٣] طَلْعةِ ذَكَرٍ، قال: فأين هو؟ قال: في بئرِ ذي أروانَ[٤]، فأتاها رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في أُناسٍ مِن أصحابِه، ثمَّ قال: يا عائشةُ، واللهِ لَكأنَّ ماءَها نُقاعةُ الحِنَّاءِ، ولَكَأنَّ نَخْلَها رُؤوسُ الشَّياطينِ. فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أفلا أحرَقْتَه؟ قال: لا، أمَّا أنا فقد عافاني اللهُ، وكَرِهْتُ أن أُثيرَ على النَّاسِ شَرًّا؛ فأَمَرْتُ بها فدُفِنَت))[٥].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- متعَوِّذًا باللهِ وَحْدَه: ألتجِئُ وأستجيرُ بخالِقِ الصَّباحِ المتصَدِّعِ عن الظُّلمةِ[٦].

= ((الأضداد)) لابن الأنباري (ص: ٢٣١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١١٥٥).

(١) المُشْط: هو الآلةُ المعروفةُ الَّتي يُسرَّحُ بها شَعرُ الرَّأسِ واللِّحيةِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢٢٩).

(٢) المُشاطة: الشَّعرُ الَّذي يَسقُطُ مِن الرَّأسِ واللِّحيةِ عندَ التَّسريحِ بالمُشطِ. يُنظر: ((المُعْلِم بفوائد مسلم)) للمازَري (٣/ ١٦٢).

(٣) الجُفُّ: وِعاءُ الطَّلعِ، وهو الغِشاءُ الَّذي عليه. يُنظر: ((المُعْلِم بفوائد مسلم)) للمازَري (٣/ ١٦٢).

(٤) هي بئرٌ بالمدينةِ في بُستانِ بني زُرَيْقٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ١٧٧).

(٥) رواه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩) واللَّفظُ له.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤١، ٧٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

قال ابن عطيَّة: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ هو وآحادُ أمَّتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٥).

قال الرَّسْعَنيُّ: (﴿ٱلْفَلَقِ﴾: الصُّبحِ، في قولِ الحسَنِ، ومجاهِدٍ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وقَتادةَ، وعامَّةِ المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ والعُرفِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٧٥).

قال ابن كثير: (قال ابن جرير: والصَّوابُ... أنَّه فَلَقُ الصُّبحِ. وهذا هو الصَّحيحُ، وهو اختيارُ البُخاريِّ رحمه الله في «صحيحه»). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٥). ويُنظر: ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وعن زِرِّ بنِ حُبَيشٍ، قال: ((سألْتُ أُبَيَّ بنَ كَعبٍ عن المعَوِّذتَينِ؟ فقال: سألتُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: قيل لي، فقُلتُ. فنحن نقولُ كما قال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم))[(١)].

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾.

أي: ألتجِئُ وأستجيرُ باللهِ مِن شَرِّ كُلِّ مخلوقٍ فيه شَرٌّ؛ مِنَ الإنسِ والجِنِّ، والحيواناتِ والرِّياحِ، وغيرِ ذلك[(٢)].

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يتعوَّذُ مِن الجانِّ وعَينِ الإنسانِ، حتَّى نزَلَت المعَوِّذتانِ، فلَمَّا نزَلَتا أخَذَ بهما، وتَرَك ما سِواهما))[(٣)].

وعن خَوْلَةَ بنتِ حَكيمٍ السُّلَميَّةِ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ

= جرير)) (٢٤/ ٧٤٥)، ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٨١).

قال ابن عثيمين: (الفَلَقُ: الإصباحُ. ويجوزُ أن يكونَ أعمَّ مِن ذلك: أنَّ الفَلَقَ كلُّ ما يَفلِقُه اللهُ تعالى مِن الإصباحِ، والنَّوى، والحَبِّ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٢).

وقال الزَّجَّاجُ: (الفَلَقُ: جميعُ المخلوقاتِ، وفَلَقُ الصُّبحِ مِن ذلك). ((معاني القرآن)) (٥/ ٣٧٩).

ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٤، ٥٠٥).

(١) رواه البخاري (٤٩٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٥)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٦٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٢).

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٢٠٥٨) واللَّفظُ له، والنَّسائيُّ (٥٤٩٤)، وابنُ ماجه (٣٥١١).

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ). وصَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٠٥٨)، وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٤/ ٤٦٨).

صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((مَن نَزَل مَنزِلًا ثمَّ قال: أعوذُ بكَلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَق، لم يَضُرَّه شَيءٌ حتَّى يَرتحِلَ مِن مَنزِلِه ذلك))(١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: يا رَسولَ اللهِ، ما لَقِيتُ مِن عَقربٍ لَدَغَتْني البارِحةَ! قال: أمَا لو قُلْتَ حينَ أمسَيتَ: أعوذُ بكَلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَق، لم تَضُرَّك))(٢).

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾.

أي: وأعوذُ باللهِ مِن شَرِّ اللَّيلِ إذا دَخَل واشتدَّ ظَلامُه، وأعوذُ بالله مِن آيتِه وهو القمرُ(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٨).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤٥، ٧٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٥، ٥٣٣، ٥٣٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٧، ٦٢٨).

وقال ابنُ القيِّم: (قال أكثَرُ المفسِّرينَ: إنَّه اللَّيلُ. ونسَبَه لابنِ عبَّاسٍ والحسَنِ ومجاهِدٍ، ثمَّ ذكَرَ أنَّ الغَسَقَ الظُّلْمةُ، ثمَّ ذكر أنَّ في تسميةِ اللَّيلِ غاسقًا قولًا آخَرَ: أنَّه مِن البَرْدِ، واللَّيلُ أبرَدُ مِن النَّهارِ، والغَسَقُ البَرْدُ. قال: (ولا تَنافيَ بيْنَ القَولَينِ؛ فإنَّ اللَّيلَ باردٌ مُظلِمٌ، فمَن ذكَرَ بَرْدَه فقط أو ظُلْمَتَه فقط اقتصَر على أحَدِ وصْفَيه، والظُّلْمةُ في الآيةِ أنسَبُ لمكانِ الاستِعاذةِ؛ فإنَّ الشَّرَّ الَّذي يُناسِبُ الظُّلْمةَ أَولى بالاستعاذةِ مِن البَرْدِ الَّذي في اللَّيلِ؛ ولهذا استعاذ برَبِّ الفَلَقِ الَّذي هو الصُّبحُ والنُّورُ مِن شرِّ الغاسِقِ الَّذي هو الظُّلْمةُ، فناسَبَ الوصفُ المُستعاذُ به للمعنى المطلوبِ بالاستِعاذةِ)، وأجاب عن حديثِ عائشةَ أنَّ الغاسِقَ إذا وقَبَ هو القمَرُ، فقال: (هذا التَّفسيرُ حَقٌّ، ولا يُناقِضُ التَّفسيرَ الأوَّلَ، بل يوافِقُه ويَشهَدُ بصِحَّتِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]، فالقَمَرُ هو آيةُ اللَّيلِ وسُلطانُه، فهو أيضًا غاسِقٌ إذا وَقَب، والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أخبَرَ عن القَمَرِ بأنَّه غاسِقٌ إذا وَقَب، وهذا خبَرٌ صِدقٌ، وهو أصْدَقُ الخبَرِ، ولم يَنْفِ عن اللَّيلِ اسمَ الغاسِقِ إذا وَقَب، وتخصيصُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم له بالذِّكرِ لا يَنفي شُمولَ الاسمِ لِغَيرِه، والسَّبَبُ الَّذي لأجْلِه =

كما قال تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم نَظَر إلى القَمَرِ فقال: يا عائِشةُ، استَعيذي باللهِ مِن شَرِّ هذا؛ فإنَّ هذا هو الغاسِقُ إذا وَقَب))[1].

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

عُطِفَ ﴿ شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴾ على شَرِّ اللَّيلِ؛ لأنَّ اللَّيلَ وقْتٌ يَتحيَّنُ فيه السَّحَرةُ إجراءَ شَعوذتِهم؛ لئلَّا يَطَّلِعَ عليهم أحَدٌ[2].

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ ﴾.

= أمَرَ اللهُ بالاستعاذةِ مِن شَرِّ اللَّيلِ وشَرِّ القَمَرِ إذا وَقَب هو أنَّ اللَّيلَ إذا أقبَلَ فهو محلُّ سُلطانِ الأرواحِ الشِّرِّيرةِ الخبيثةِ، وفيه تنتشِرُ الشَّياطينُ، وفي الصَّحيحِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أخبَرَ أنَّ الشَّمسَ إذا غرَبَت انتشَرَت الشَّياطينُ [البخاري (٣٢٨٠) ومسلم (٢٠١٢)]. ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢١٧، ٢١٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (ولا مُنافاةَ بيْنَ تَفسيرِه باللَّيلِ وبالقَمَرِ؛ فإنَّ القَمَرَ آيةُ اللَّيلِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٥٣٤).

وذكر ابنُ تيميَّةَ أيضًا أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمَر عائشةَ بالاستعاذةِ منه مع ظُهورِه، فالقمرُ آيةُ اللَّيلِ، فأمْرُه بالاستِعاذةِ مِن ذلك أمرٌ بالاستعاذةِ مِن آيةِ اللَّيلِ ودليلِه وعلامتِه، والدَّليلُ مُستلزِمٌ للمَدلولِ، فإذا كان شرُّ القمَرِ موجودًا فشَرُّ اللَّيلِ موجودٌ، وللقمرِ مِن التَّأثيرِ ما ليس لغيرِه، فتكونُ الاستِعاذةُ مِن الشَّرِّ الحاصِلِ عنه أقوى. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٦).

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٦٦)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠١٣٧)، وأحمدُ (٢٥٨٠٢).
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وكذا قال الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٦٦). وصَحَّحه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٤٠٩)، وقال ابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٤/ ٣٣٤)-: (حسَنٌ غريبٌ)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٠/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٨).

أي: وأعوذُ باللهِ مِن شَرِّ السَّاحِراتِ اللَّاتي يَنفُثْنَ في عُقَدِ الخُيوطِ وما أشبَهَها؛ حتَّى ينعَقِدَ ما أرَدْنَه مِنَ السِّحرِ(١).

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

عُطِفَ شَرُّ الحاسدِ على شَرِّ السَّاحرِ المَعطوفِ على شَرِّ اللَّيلِ؛ لمُناسَبةٍ بيْنَه وبيْن المعطوفِ عليه مُباشَرةً، وبيْنه وبيْن المَعطوفِ عليه بواسطةٍ؛ فإنَّ ممَّا يَدْعو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

قال الرازي: (السَّاحِرُ إذا أخذَ في قراءةِ الرُّقْيةِ أخَذَ خَيطًا، ولا يزالُ يَعقِدُ عليه عَقْدًا بعدَ عَقْدٍ، ويَنفُثُ في تلك العُقَدِ، وإنَّما أنَّث ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾؛ لوُجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ هذه الصِّناعةَ إنَّما تُعرَفُ بالنِّساءِ؛ لأنَّهنَّ يَعقِدنَ ويَنفُثْنَ؛ وذلك لأنَّ الأصلَ الأعظَمَ فيه رَبطُ القَلبِ بذلك الأمرِ، وإحكامُ الهِمَّةِ والوَهمِ فيه، وذلك إنَّما يتأتَّى مِنَ النِّساءِ...

وثانيها: أنَّ المرادَ مِن ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾: النُّفوسُ.

وثالثُها: المرادُ منها الجماعاتُ؛ وذلك لأنَّه كُلَّما كان اجتماعُ السَّحَرةِ على العمَلِ الواحِدِ أكثَرَ كان التَّأثيرُ أشَدَّ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٧٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢١).

وممَّن فَسَّر النَّفَّاثاتِ بالنِّساءِ السَّاحراتِ: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٣).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى أنَّ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ هنَّ الأرواحُ والأنفُسُ النَّفَّاثاتُ، لا النِّساءُ النَّفَّاثاتُ؛ لأنَّ تأثيرَ السِّحرِ إنَّما هو مِن جهةِ الأنفُسِ الخبيثةِ، والأرواحِ الشِّرِّيرةِ، وسُلطانُه إنَّما يظهَرُ منها: ابنُ القيِّم، والألوسيُّ. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٢٠).

الحاسدَ إلى أذى المَحسودِ أنْ يَتطلَّبَ حُصولَ أذاهُ؛ لتَوهُّم أنَّ السِّحرَ يُزيلُ النِّعمةَ الَّتي حَسَدَه عليها، ولأنَّ ثَوَرانَ وجْدانِ الحسَدِ يَكثُرُ في وَقتِ اللَّيلِ؛ لأنَّ اللَّيلَ وقْتُ الخَلْوةِ، وخُطورِ الخواطِرِ النَّفسيَّةِ، والتَّفكُّرِ في الأحوالِ الحافَّةِ بالحاسدِ وبالمحسودِ[١].

وأيضًا لَمَّا كان أعظَمُ حاملٍ على السِّحرِ وغَيرِه مِن أذى النَّاسِ: الحسَدَ[٢]، مع اشتِراكِهما في التَّأثيرِ الخَفيِّ للحالِ -بإذْنِ الله تعالى-؛ قال عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

أي: وأعوذُ باللهِ مِن شَرِّ كُلِّ حاسِدٍ مِن الإنسِ والجِنِّ يتمَنَّى زَوالَ نِعمةِ اللهِ عن غَيرِه، إذا حَسَده وأراده بسُوءٍ بعَينِه الخبيثةِ، أو بقَولِه أو بفِعْلِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٥١، ٧٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٨-٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٣).

قال الألوسي: (ذكروا أنَّ العائنَ والحاسدَ يَشتَرِكانِ في أنَّ كلًّا منهما تَتكيَّفُ نفْسُه وتَتوَجَّهُ نحوَ مَن تُريدُ أذاه، إلَّا أنَّ العائنَ تتكيَّفُ نفْسُه عندَ مُقابَلةِ العَينِ والمُعايَنةِ، والحاسدَ يَحصُلُ حسَدُه في الغَيبةِ والحُضورِ. وأيضًا العائنُ قد يَعينُ مَن لا يَحسُدُه مِن حَيوانٍ وزَرعٍ، وإن كان لا يَنفَكُّ مِن حسدِ صاحِبِه). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٢٢). ويُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣١).

وقال ابن القيِّم بعْدَ أنْ ذكر أنَّ الحاسِدَ أعَمُّ مِنَ العائِنِ؛ فكُلُّ عائِنٍ حاسِدٌ، وليس كلُّ حاسِدٍ عائنًا: (وأصْلُه مِن إعجابِ العائنِ بالشَّيءِ، ثمَّ تَتْبَعُه كيفيَّةُ نفْسِه الخبيثةِ، ثمَّ تستعينُ على تنفيذِ سمِّها بنَظرةٍ إلى المَعينِ، وقد يَعينُ الرَّجُلُ نفْسَه، وقد يَعينُ بغيرِ إرادَتِه، بل بطَبْعِه، وهذا أردَأُ ما يكونُ مِن النَّوعِ الإنسانيِّ). ((زاد المعاد)) (٤/ ١٥٤).

وقال السعدي: (ويَدخُلُ في الحاسِدِ العائِنُ؛ لأنَّه لا تَصدُرُ العَينُ إلَّا مِن حاسِدٍ شِرِّيرِ الطَّبعِ، خَبيثِ النَّفْسِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان إذا اشتكى رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم رقاه جبريلُ، قال: باسْمِ اللهِ يُبْرِيك، ومِن كُلِّ داءٍ يَشْفيك، ومِن شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَد، وشَرِّ كُلِّ ذي عَينٍ))[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فيه استِحبابُ التَّعَوُّذِ مِمَّا ذُكِرَ فيه[٢].

٢- في المعَوِّذتَينِ الاستِعاذةُ مِن كُلِّ مكروهٍ جملةً وتفصيلًا؛ فإنَّ الاستعاذةَ مِن شَرِّ ما خَلَق تَعُمُّ كُلَّ شَرٍّ يُستعاذُ منه، سواءٌ كان في الأجسامِ أو الأرواحِ، والاستعاذةَ مِن شَرِّ الغاسِقِ -وهو اللَّيلُ- وآيتِه -وهو القَمَرُ- تتضَمَّنُ الاستعاذةَ مِن شَرِّ ما ينتَشِرُ فيه مِن الأرواحِ الخبيثةِ الَّتي كان نورُ النَّهارِ يَحولُ بيْنَها وبيْن الانتشارِ، فلمَّا أظلَمَ اللَّيلُ عليها انتشَرَت وعاثَتْ، والاستعاذةَ مِن شَرِّ النَّفَّاثاتِ في العُقَدِ تتضَمَّنُ الاستعاذةَ مِن شَرِّ السَّواحِرِ وسِحْرِهنَّ، والاستعاذةَ مِن شَرِّ الحاسِدِ تتضَمَّنُ الاستعاذةَ مِن النُّفوسِ الخبيثةِ المُؤذِيةِ بحَسَدِها ونَظَرِها.

والسُّورةُ الثَّانيةُ تتضَمَّنُ الاستعاذةَ مِن شَرِّ شياطينِ الإنسِ والجِنِّ؛ فقد جمعت السُّورتانِ الاستعاذةَ مِن كُلِّ شَرٍّ، ولهما شأنٌ عظيمٌ في الاحتراسِ والتَّحَصُّنِ مِن الشُّرورِ قبْلَ وُقوعِها؛ ولهذا أوصى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عُقْبَةَ بنَ عامرٍ رضيَ الله عنه بقِراءتِهما عَقِبَ كُلِّ صلاةٍ[٣]، وفي هذا سِرٌّ عظيمٌ في استدفاعِ الشُّرورِ

(١) رواه مسلم (٢١٨٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٢).

(٣) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٦).

مِن الصَّلاةِ إلى الصَّلاةِ، وقال: ((ما تعوَّذ مُتَعَوِّذٌ بمِثْلِهما))[١]، وقد ذُكِرَ أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم سُحِرَ، وأنَّ جبريلَ نَزَل عليه بهما، فجَعَل كُلَّما قرَأَ آيةً منهما انحَلَّت عُقدةٌ، حتَّى انحَلَّت العُقَدُ كُلُّها، وكأنَّما أُنشِطَ مِن عِقالٍ[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ذَكَر اللهُ عزَّ وجَلَّ الغاسِقَ إذا وَقَب، والنَّفَّاثاتِ في العُقَدِ، والحاسِدَ إذا حسَدَ؛ لأنَّ البلاءَ كُلَّه في هذه الأحوالِ الثَّلاثةِ يكونُ خَفيًّا، اللَّيلُ سَترٌ وغِشاءٌ. ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] يَكمُنُ به الشَّرُّ ولا يُعلَمُ به. ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ أيضًا السِّحرُ خَفيٌّ لا يُعلَمُ. ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ العائِنُ أيضًا خَفيٌّ تأتي العينُ مِن شَخصٍ تَظُنُّ أنَّه مِن أحَبِّ النَّاسِ إليك وأنت مِن أحَبِّ النَّاسِ إليه، ومع ذلك يُصيبُك بالعَينِ؛ لهذا السَّبَبِ خَصَّ اللهُ هذه الأمورَ الثَّلاثةَ؛ الغاسِقَ إذا وَقَب، والنَّفَّاثاتِ في العُقَدِ، والحاسِدَ إذا حَسَد، وإلَّا فهي داخِلةٌ في قَولِه تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[٣]. وقيل: معنى الاستعاذةِ مِن الغاسِقِ والنَّفَّاثاتِ والحاسِدِ بعْدَ قولِه: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ -مع أنَّه عامٌّ في كُلِّ ما يُستعاذُ منه-: التَّنبيهُ على أنَّ هذه الشُّرورَ أعظَمُ أنواعِ الشَّرِّ[٤].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ

---

(١) أخرجه مطوَّلًا أبو داودَ (١٤٦٣) واللَّفظُ له، والطَّحاويُّ في ((شرح مشكل الآثار)) (١٢٧)، والطَّبَرانيُّ (١٧/ ٣٤٥) (٩٥٠) مِن حديثِ عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه.
صحَّحه ابنُ القيِّم في ((المنار المُنِيف)) (٩١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٤٦٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ١٦٦، ١٦٧).
وحديثُ السِّحرِ المذكورُ تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٧٥).

إِذَا وَقَبَ ۞ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۞ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ حاصِلُ هذه السُّورةِ العُظمى في معناها الأبدَعِ الأَسْمى الاستعاذةُ باللهِ -بذِكْرِ اسمِه «الرَّبِّ» المقتضي للإحسانِ والتَّربيةِ بجَلْبِ النِّعَمِ ودَفعِ النِّقَمِ- مِن شَرِّ ما خلَقَ، ومِنَ السِّحرِ والحَسَدِ(١).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۞ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۞ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۞ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۞ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ وَقَعَ ترتيبُ المُستعاذِ منه في هذه السُّورةِ على كَمالِ التَّرتيبِ، انتِقالًا مِن الأعمِّ الأعلى الأبعَدِ إلى الأخصِّ الأقرَبِ الأسفَلِ، فجُعِلَتْ أربعةَ أقسامٍ:

الأوَّلُ: مِن شَرِّ المخلوقاتِ عُمومًا.

والثَّاني: شَرُّ الغاسقِ إذا وَقَبَ؛ فدَخَلَ فيه ما يُؤَثِّرُ مِن العُلْويَّاتِ في السُّفْليَّاتِ مِن اللَّيلِ، وما فيه مِن الكواكِبِ كالثُّرَيَّا وسُلْطانِه الَّذي هو القَمَرُ، ودَخَلَ في ذلك سِحْرُ التَّمزيجاتِ(٢) الَّذي هو أعلى السِّحرِ وأرفَعُه.

الثَّالِثُ: شَرُّ النَّفَّاثاتِ في العُقَدِ، وهُنَّ السَّواحِرُ.

والرَّابعُ: الحاسِدُ، وهي النُّفوسُ المُضِرَّةُ سَفَهًا؛ فانتظَمَ بذلك جميعُ أسبابِ الشُّرورِ(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ سِرٌّ في الاستعاذةِ بربِّ الفَلَقِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤١٩).

(٢) سحرُ التَّمزيجاتِ -وهو أقوى ما يكونُ مِن السِّحرِ- أن يمزجَ بيْن القُوى النَّفْسانيَّةِ الخبيثةِ الفعَّالةِ، والقُوى الطَّبيعيَّةِ المُنفَعِلةِ. يُنظر: ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٣/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٣٥).

في هذا الموضِعِ؛ فإنَّ الفَلَقَ الصُّبحُ الَّذي هو مَبدأُ ظُهورِ النُّورِ، وهو الَّذي يَطْرُدُ جيشَ الظَّلامِ، وعَسْكَرَ المفسِدينَ في اللَّيلِ، فيأوي كلُّ خبيثٍ وكلُّ مُفْسِدٍ وكلُّ لِصٍّ وكلُّ قاطعِ طريقٍ إلى سَرَبٍ[١] أو كِنٍّ[٢] أو غارٍ، وتأوي الهَوامُّ إلى أحجِرَتِها، والشَّياطينُ الَّتي انتشرتْ باللَّيلِ إلى أمكنَتِها ومحالِّها؛ فأمَرَ اللهُ تعالى عبادَه أنْ يَستعيذوا بربِّ النُّورِ الَّذي يَقْهَرُ الظُّلْمةَ ويُزيلُها، ويَقهَرُ عَسْكَرَها وجَيْشَها؛ ولهذا ذَكَرَ سُبحانَه أنَّه يُخرِجُ عبادَه مِن الظُّلماتِ إلى النُّورِ، ويَدَعُ الكُفَّارَ في ظُلُماتِ كُفْرِهم؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[٣] [البقرة: ٢٥٧].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وقَولِه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] سؤالٌ: كيف جاء امتثالُ هذا الأمرِ بلَفظِ الأمرِ والمأمورِ به، ومعلومٌ أنَّه إذا قيل: قُلِ: «الحَمدُ للهِ»، وقُلْ: «سُبحانَ اللهِ»؛ فإنَّ امتثالَه أنْ يقولَ: «الحَمدُ للهِ»، و«سُبحانَ اللهِ»، ولا يقولَ: «قُلْ سُبحانَ اللهِ».

الجوابُ: هذا هو السُّؤالُ الَّذي أوردَه أُبَيُّ بنُ كَعبٍ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعَينِه، وأجابَه عنه رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيثُ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((قيل لي، فقُلْتُ))[٤]. وتحتَ هذا السِّرِّ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ليس له في القُرآنِ إلَّا بلاغُه، لا أنَّه هو أنْشَأَه مِن قِبَلِ نفْسِه، بل هو المُبَلِّغُ له عن اللهِ، وقد قال اللهُ له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فكان يَقتضي البلاغُ التَّامُّ أنْ

---

(١) السَّرَب: الحَفيرُ تحتَ الأرضِ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٩٦).

(٢) الكِنُّ: وِقاءُ كلِّ شيءٍ وسِتْرُه، والغارُ ونحوُه يُسكَنُ فيه، والجمعُ: أكْنانٌ وأكِنَّةٌ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٩/ ٣٣٥)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ١٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٩).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٧٧).

يقولَ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ كما قال اللهُ، وهذا هو المعنى الَّذي أشار إليه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقَولِه: ((قيل لي، فقُلْتُ))، أي: أنِّي لَسْتُ مُبتَدِئًا، بل أنا مُبَلِّغٌ، أقولُ كما يُقالُ لي، وأُبَلِّغُ كلامَ رَبِّي كما أنزَلَه إلَيَّ، وفي هذا ردٌّ على المُعتَزِلةِ والجَهميَّةِ وإخوانِهم مِمَّن يقولُ: هذا القُرآنُ العربيُّ وهذا النَّظْمُ كلامُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ابتَدأَ هو به! ففي هذا الحديثِ أبْيَنُ الرَّدِّ لهذا القَولِ، وأنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بَلَّغَ القولَ الَّذي أُمِرَ بتبليغِه على وَجْهِه ولفْظِه، حتَّى إنَّه لَمَّا قيلَ له: «قُلْ»، قال هو: «قُلْ»؛ لأنَّه مُبَلِّغٌ مَحْضٌ، وما على الرَّسولِ إلَّا البَلاغُ[1].

٨- في سُورةِ الفَلَقِ الاستِعاذةُ مِن شَرِّ المخلوقاتِ عمومًا وخصوصًا؛ ولهذا قيل فيها: ﴿بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾؛ فإنَّ فالِقَ الإصباحِ بالنُّورِ يُزيلُ بما في نُورِه مِن الخيرِ ما في الظُّلمةِ مِن الشَّرِّ، وفالِقَ الحَبِّ والنَّوى بعْدَ انعقادِهما يُزيلُ ما في عُقَدِ النَّفَّاثاتِ؛ فإنَّ فَلْقَ الحَبِّ والنَّوى أعظمُ مِن حَلِّ عُقَدِ النَّفَّاثاتِ، وكذلك الحسَدُ هو مِن ضِيقِ الإنسانِ وشُحِّهِ لا يَنشَرِحُ صَدْرُه لإنعامِ اللهِ؛ فرَبُّ الفَلَقِ يُزيلُ ما يَحصلُ بضيقِ الحاسِدِ وشُحِّه، وهو سُبحانَه لا يَفْلِقُ شيئًا إلَّا بخيرٍ، فهو فالِقُ الإصباحِ بالنُّورِ الهادي والسِّراجِ الوَهَّاجِ الَّذي به صلاحُ العِبادِ، وهو فالِقُ الحَبِّ والنَّوى بأنواعِ الفواكهِ والأقواتِ الَّتي هي رِزْقُ النَّاسِ ودَوابِّهم، والإنسانُ محتاجٌ إلى جَلْبِ المنفعةِ مِن الهُدى والرِّزقِ، وهذا حاصِلٌ بالفَلْقِ، والرَّبُّ الَّذي فَلَقَ للنَّاسِ ما تحصُلُ به منافعُهم يُستعاذُ به ممَّا يَضُرُّ النَّاسَ، فيُطْلَبُ منه تمامُ نعمتِه بصَرفِ المؤذِياتِ عن عبْدِه الَّذي ابتدأَ بإنعامِه عليه، وفَلْقُ الشَّيءِ عن الشَّيءِ هو دليلٌ على تمامِ القُدرةِ، وإخراجُ الشَّيءِ مِن ضِدِّهِ كما يُخرِجُ الحَيَّ مِن

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٠٢).

الميِّتِ والميِّتَ مِن الحَيِّ، هذا مِن نَوعِ الفَلْقِ؛ فهو سُبحانَه قادِرٌ على دَفْعِ الضِّدِّ المؤذِي بالضِّدِّ النَّافعِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ ردٌّ على مَن قال: إنَّ اللهَ لم يَخلُقِ الشَّرَّ[٢]!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ سؤالٌ عن الجَمعِ مع قَولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((والشَّرُّ ليس إليك))[٣]؟

الجوابُ: أنَّ الفَرقَ بيْنَهما ظاهرٌ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أضاف الشَّرَّ إلى المخلوقِ، أمَّا إلى اللهِ فلا يُضافُ الشَّرُّ، فلا شكَّ أنَّ اللهَ هو الَّذي قَدَّرَ الشَّرَّ، لكنْ قَدَّرَ الشَّرَّ في مَفعولاتِه، أمَّا تقديرُه لهذا الشَّرِّ فهو لحِكمةٍ عظيمةٍ يترتَّبُ عليها مِن المصالحِ ما يَجعَلُها غيرَ مكروهةٍ، لكنْ فَرْقٌ بيْن المفعولِ وبيْن الفِعلِ والفاعِلِ؛ فالفاعِلُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ، وهو المُقَدِّرُ، وهذا لا شَكَّ نُحِبُّه على كلِّ حالٍ، وفِعْلُه أيضًا خيرٌ على كلِّ حالٍ، أمَّا مَفعولُه ففيه خيرٌ وفيه شَرٌّ[٤]، فالشَّرُّ لا يُضافُ إلى الرَّبِّ تعالى لا وصفًا ولا فِعلًا، ولا يتسمَّى باسمِه بوجهٍ مِن الوُجوهِ، وإنَّما يَدخُلُ في مفعولاتِه بطريقِ العُمومِ[٥]. والشَّرُّ مُسنَدٌ في الآيةِ إلى المخلوقِ المفعولِ، لا إلى خَلقِ الرَّبِّ تعالى الَّذي هو فِعلُه وتكوينُه؛ فإنَّه لا شرَّ فيه بوجهٍ ما؛ فإنَّ الشَّرَّ لا يَدخُلُ في شيءٍ مِن صِفاتِه ولا في أفعالِه، كما لا يَلحَقُ ذاتَه تبارَك وتعالى؛ فإنَّ ذاتَه لها الكمالُ المُطلَقُ الَّذي لا نقْصَ فيه بوَجهٍ مِن

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٣٠٢).

(٣) رواه مسلم (٧٧١) من حديث عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٣٧٣).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)) لابن القيم (ص: ٢٧٠).

الوُجوهِ، وأوصافُه كذلك لها الكمالُ المُطلَقُ والجلالُ التَّامُّ، ولا عيبَ فيها ولا نقصَ بوَجهٍ ما، وكذلك أفعالُه كلُّها خَيراتٌ مَحْضةٌ، لا شرَّ فيها أصلًا[(١)].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أي: مِن شَرِّ جميعِ المخلوقاتِ، ومنه النَّفْسُ؛ لأنَّ النَّفْسَ أمَّارةٌ بالسُّوءِ، فإذا قُلْتَ: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ فأوَّلُ ما يدخُلُ فيه نَفْسُك[(٢)].

١٢- أمَرَ اللهُ تعالى بالاستِعاذةِ مِن ﴿شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾، وهو اللَّيلُ إذا أَظلَمَ؛ فإنَّه يَنتشِرُ فيه شَياطينُ الجِنِّ والإنسِ، والاستِعاذةُ مِن القَمرِ لأنَّه آيةُ اللَّيلِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ شَرَّ اللَّيلِ المَخوف لا يَندفِعُ بإشراقِ القَمرِ فيه، ولا يَصيرُ بذلك كالنَّهارِ، بل يُستَعاذُ منه وإنْ كان مُقْمِرًا[(٣)].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ﴾ دَلالةٌ على تأثيرِ السِّحْرِ، وأنَّ له حقيقةً، وقد أنكَرَ ذلك طائفةٌ مِن أهلِ الكلامِ مِن المعتزلةِ وغيرِهم، وقالوا: إنَّه لا تأثيرَ للسِّحْرِ البَتَّةَ؛ لا في مرَضٍ ولا قَتْلٍ، ولا حَلٍّ ولا عَقْدٍ! قالوا: وإنَّما ذلك تخيُّلٌ لأعيُنِ النَّاظِرينَ، لا حقيقةَ له سِوى ذلك! وهذا خلافُ ما تواترتْ به الآثارُ عن الصَّحابةِ والسَّلَفِ، واتَّفَقَ عليه الفُقَهاءُ، وأهلُ التَّفسيرِ والحديثِ، وأربابُ القلوبِ مِن أهلِ التَّصَوُّفِ، وما يَعْرِفُه عامَّةُ العقلاءِ، والسِّحْرُ الَّذي يُؤَثِّرُ مَرَضًا وثِقلًا، وحَلًّا وعقدًا، وحُبًّا وبُغضًا، وتَزيينًا وغيرَ ذلك مِن الآثارِ: موجودٌ تَعرِفُه عامَّةُ النَّاسِ، وكثيرٌ منهم قد عَلِمَه ذَوقًا بما أُصيبَ به منه، وقَولُه تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ﴾ دليلٌ على أنَّ هذا النَّفْثَ يَضُرُّ المسحورَ في حالِ غَيبتِه عنه، ولو كان الضَّرَرُ لا يَحصُلُ إلَّا بمُباشَرةِ البَدَنِ ظاهِرًا -كما

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٠، ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٧٣).

يقولُه هؤلاء- لم يكُنْ للنَّفْثِ ولا للنَّفَّاثاتِ شَرٌّ يُستعاذُ منه، وأيضًا فإذا جاز على السَّاحرِ أنْ يَسْحَرَ جميعَ أعيُنِ النَّاظِرينَ مع كثرتِهم حتَّى يَرَوُا الشَّيءَ بخِلافِ ما هو به، مع أنَّ هذا تَغَيُّرٌ في إحساسِهم، فما الَّذي يُحِيلُ تأثيرَه في تغييرِ بعضِ أعراضِهم وقُواهم وطِباعِهم؟ وما الفَرقُ بيْن التَّغييرِ الواقِعِ في الرُّؤيةِ، والتَّغييرِ في صفةٍ أُخرى مِن صفاتِ النَّفْسِ والبَدَنِ؟ فإذا غَيَّرَ إحساسَه حتَّى صار يرى السَّاكِنَ متحَرِّكًا، والمتَّصِلَ مُنفَصِلًا، والميِّتَ حَيًّا، فما المُحيلُ لأن يغَيِّرَ صِفاتِ نَفْسِه حتَّى يجعلَ المحبوبَ إليه بغيضًا، والبغيضَ محبوبًا، وغيرِ ذلك مِن التَّأثيراتِ[١]؟! فالسِّحرُ له حقيقةٌ يُخشى مِن ضَرَرِه، ويُستعاذُ باللهِ منه ومِن أهْلِه[٢].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ سؤالٌ: أنَّ السِّحْرَ يكونُ مِن الذُّكورِ والإناثِ، فلِمَ خَصَّ الاستعاذةَ مِن الإناثِ دونَ الذُّكورِ؟

الجوابُ: أنَّ النَّفَّاثاتِ هنا هُنَّ الأرواحُ والأنفُسُ النَّفَّاثاتُ، لا النِّساءُ النَّفَّاثاتُ -على قولٍ في التَّفسير-؛ لأنَّ تأثيرَ السِّحْرِ إنَّما هو مِن جهةِ الأنْفُسِ الخَبيثةِ، والأرواحِ الشِّرِّيرةِ، وسُلطانُه إنَّما يَظْهَرُ منها؛ فلهذا ذُكِرَتِ النَّفَّاثاتُ هنا بلَفظِ التَّأنيثِ دونَ التَّذكيرِ[٣]. أو: أنَّه جيءَ بصِفةِ المؤَنَّثِ؛ لأنَّ الغالِبَ عندَ العَرَبِ أن يتعاطى السِّحرَ النِّساءُ؛ لأنَّ نِساءَهم لا شُغلَ لهُنَّ بعدَ تهيئةِ لَوازمِ الطَّعامِ والماءِ والنَّظافةِ؛ فلذلك يَكثُرُ انكِبابُهنَّ على مِثْلِ هاته السَّفاسِفِ مِن السِّحرِ والتَّكَهُّنِ ونحوِ ذلك، فالأوهامُ الباطِلةُ تتفَشَّى بيْنَهنَّ[٤].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ وعَطاءٌ:

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٨). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٤٨).

(مِن نَفْسِ ابنِ آدَمَ وعَينِه)؛ ففيه أنَّ العَينَ حَقٌّ[١].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الحاسِدُ هو الَّذي يحِبُّ زوالَ النِّعمةِ عن المحسودِ، فيَسعى في زَوالِها بما يَقدِرُ عليه مِنَ الأسبابِ؛ فاحتِيجَ إلى الاستِعاذةِ باللهِ مِن شَرِّه، وإبطالِ كَيْدِه، فهذه السُّورةُ تضَمَّنَت الاستعاذةَ من جميعِ أنواعِ الشُّرورِ عُمومًا وخُصوصًا[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ جاء في السُّورةِ ذِكْرُ الحاسدِ دونَ العائنِ؛ لأنَّه أعمُّ، فكلُّ عائنٍ حاسِدٌ ولا بُدَّ، وليس كلُّ حاسدٍ عائنًا، فإذا استعاذ مِن شَرِّ الحَسَدِ دَخَلَ فيه العَينُ، وهذا مِن شُمولِ القُرآنِ الكريمِ وإعجازِه وبلاغتِه[٣].

١٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قال بَعضُ الحُكَماءِ: بارَزَ الحاسِدُ رَبَّه مِن خمسةِ أوجُهٍ:

أحَدُها: أنَّه أبغَضَ كُلَّ نِعمةٍ ظهَرَت على غَيرِه.

وثانيها: أنَّه ساخِطٌ لِقسمةِ رَبِّه، كأنَّه يقولُ: لِمَ قَسَمْتَ هذه القِسمةَ؟

وثالثُها: أنَّه ضادَّ فِعلَ اللهِ، أي: أنَّ فَضلَ اللهِ يُؤتيه مَن يشاءُ، وهو يَبخَلُ بفَضلِ اللهِ.

ورابِعُها: أنَّه خَذَل أولياءَ اللهِ، أو يُريدُ خِذْلانَهم وزَوالَ النِّعمةِ عنهم.

وخامِسُها: أنَّه أعان عَدُوَّه إبليسَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦٠).

وقد قيل: ليس شيءٌ مِن الشرِّ أضرُّ مِن الحسدِ؛ لأنَّه يصِلُ إلى الحاسدِ خمسُ عقوباتٍ، قبلَ أنْ يصِلَ إلى المحسودِ مكروهٌ:

أولُها: غمٌّ لا ينقطِعُ. **والثاني**: مصيبةٌ لا يؤجرُ عليها. **والثالثُ**: مذمَّةٌ لا يُحمدُ بها. **والرابعُ**: يُسخِطُ عليه الربَّ. **والخامسُ**: تُغلَقُ عليه أبوابُ التَّوفيقِ[١].

١٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ شَرُّ الحاسِدِ ومَضَرَّتُه إنَّما تَقَعُ إذا أمضى حَسَدَه، فحينَئذٍ يَضُرُّ بقَولِه أو بفِعْلِه أو بإصابتِه بالعَينِ؛ فإنَّ عينَ الحَسُودِ قاتِلةٌ، وأمَّا إذا لم يُمْضِ حَسَدَه ولم يتصَرَّفْ بمُقْتضاه فشَرُّه ضَعيفٌ[٢]. فالحاسِدُ لا يَضُرُّ إلَّا إذا ظَهَر حَسَدُه بفِعلٍ أو قَولٍ، وذلك بأن يحمِلَه الحَسَدُ على إيقاعِ الشَّرِّ بالمحسودِ، فيَتبعَ مَساوِيَه، ويَطلُبَ عَثَراتِه، والحسَدُ أوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ به في السَّماءِ، وأوَّلُ ذَنبٍ عُصِيَ به في الأرضِ؛ فحَسَد إبليسُ آدَمَ، وحَسَد قابيلُ هابيلَ[٣].

٢٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أصلُ الحَسَدِ هو بُغضُ نِعمةِ اللهِ على المحسودِ، وتمَنِّي زوالِها؛ فالحاسِدُ عَدُوُّ النِّعَمِ، وهذا الشَّرُّ هو مِن نفْسِ الحاسِدِ وطَبْعِها، ليس هو شيئًا اكتسَبَه مِن غَيرِها، بل هو مِن خُبثِها وشَرِّها، بخِلافِ السِّحرِ؛ فإنَّه إنَّما يكونُ باكتسابِ أمورٍ أُخرى، واستِعانةٍ بالأرواحِ الشَّيطانيَّةِ؛ فلهذا -واللهُ أعلَمُ- قَرَن في السُّورةِ بيْن شَرِّ الحاسِدِ وشَرِّ السَّاحِرِ؛ لأنَّ الاستعاذةَ مِن شَرِّ هذينِ تَعُمُّ كُلَّ شَرٍّ يأتي مِن شياطينِ الإنسِ والجِنِّ؛ فالحسَدُ مِن شياطينِ الإنسِ والجِنِّ، والسِّحرُ مِنَ النَّوعَينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تنبيه الغافلين)) للسمرقندي (ص: ١٧٧، ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٣).

٢١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ يَعُمُّ الحاسِدَ مِن الجِنِّ والإنسِ؛ فإنَّ الشَّيطانَ وحِزبَه يَحسُدونَ المؤمِنينَ على ما آتاهم اللهُ تعالى مِن فَضْلِه، كما حَسَد إبليسُ أبانا آدَمَ، وهو عَدُوٌّ لذُرِّيَّتِه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، ولكِنَّ الوَسواسَ أخَصُّ بشياطينِ الجِنِّ، والحَسَدَ أخَصُّ بشياطينِ الإنسِ، والوَسواسُ يَعُمُّهما، والحَسَدُ يَعُمُّهما أيضًا، فكِلا الشَّيطانينِ حاسِدٌ مُوسوِسٌ؛ فالاستعاذةُ مِن شَرِّ الحاسِدِ تتناوَلُهما جميعًا؛ فقد اشتمَلَت السُّورةُ على الاستعاذةِ مِن كُلِّ شَرٍّ في العالَمِ(١).

٢٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الحامِلُ على الحسَدِ أصْلُه أمْرانِ:

الأوَّلُ: ازدراءُ المحسودِ.

والثَّاني: إعجابُ الحاسِدِ بنَفْسِه(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾

- الخِطابُ بلَفظِ ﴿قُلۡ﴾ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإذ قد كان قُرآنًا كان خِطابُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم به يَشمَلُ الأُمَّةَ حيث لا دَليلَ على تَخصيصِه به؛ فلذلك أمَرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بَعضَ أصحابِه بالتَّعوُّذِ بهذه السُّورةِ، فتكونُ صِيغةُ الأمرِ المُوجَّهةُ إلى المُخاطَبِ مُستعمَلةً في مَعنيَيِ الخِطابِ مِن تَوجُّهِه إلى مُعيَّنٍ -وهو الأصلُ-، ومِن إرادةِ كلِّ مَن يَصِحُّ خِطابُه، وهو طَريقٌ مِن طُرقِ الخِطابِ تدُلُّ على قَصْدِه القرائنُ، فيكونُ مِن

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٦٥).

استعمالِ المُشتركِ في مَعْنَيَيه، واستعمالُ صِيغةِ التَّكلُّمِ في فِعلِ ﴿أَعُوذُ﴾ يَتبَعُ ما يُرادُ بصِيغةِ الخِطابِ في فِعلِ ﴿قُلْ﴾؛ فهو مَأمورٌ به لكلِّ مَن يُريدُ التَّعوُّذَ بها[١].

- ولَفظُ الرَّبِّ هنا أوقَعُ مِن سائرِ أسمائِه تعالَى؛ لأنَّ الإعاذةَ مِن المَضارِّ تَربيةٌ[٢].

- وفِي تَعليقِ العِياذِ باسمِ الرَّبِّ المُضافِ إلى الفَلَقِ المُنبئِ عن النُّورِ عَقِيبَ الظُّلمةِ، والسَّعةِ بعْدَ الضِّيقِ، والفَتْقِ بعْدَ الرَّتْقِ؛ عِدَةٌ كَريمةٌ بإعاذةِ العائذِ مِمَّا يَعوذُ منْه، وإنجائِه منْه، وتَقويةٌ لرَجائِه بتَذكيرِ بَعضِ نَظائرِه، ومَزيدُ تَرغيبٍ له في الجِدِّ والاعتناءِ بقَرْعِ بابِ الالتِجاءِ إليه تعالَى[٣].

- ورَبُّ الفَلَقِ: هو اللهُ سُبحانَه؛ لأنَّه الَّذي خَلَقَ أسبابَ ظُهورِ الصُّبحِ، وتَخصيصُ وَصْفِ اللهِ بأنَّه ربُّ الفَلَقِ دونَ وصْفٍ آخَرَ؛ لأنَّ شرًّا كثيرًا يَحدُثُ في اللَّيلِ مِن لُصوصٍ، وسِباعٍ، وذَواتِ سُمومٍ، وتَعذُّرِ السَّيرِ، وعُسرِ النَّجدةِ، وبُعدِ الاستِغاثةِ، واشتِدادِ آلامِ المَرْضى، حتَّى ظنَّ بَعضُ أهلِ الضَّلالةِ اللَّيلَ إلهَ الشَّرِّ، والمعْنى: أعوذُ بفالِقِ الصُّبحِ مَنجاةً مِن شُرورِ اللَّيلِ؛ فإنَّه قادرٌ على أنْ يُنجِيَني في اللَّيلِ مِن الشَّرِّ كما أنْجى أهلَ الأرضِ كلَّهم بأنْ خَلَقَ لهم الصُّبحَ، فوُصِفَ اللهُ بالصِّفةِ الَّتي فيها تَمهيدٌ للإجابةِ[٤].

- وكُرِّرَ ﴿مِن شَرِّ﴾ أربعَ مرَّاتٍ؛ لأنَّ شرَّ كلٍّ منهما غيرُ شرِّ البَقيَّةِ عنها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٥، ٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٦).

(٥) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) =

أو ذُكِرَت كَلمةُ ﴿ مِن شَرِّ ﴾ أربعَ مرَّاتٍ مع أنَّ حرْفَ العطفِ مُغْنٍ عن إعادةِ العامِلِ؛ قصْدًا لتَأكيدِ الدُّعاءِ؛ تَعرُّضًا للإجابةِ، وهذا مِن الابتهالِ، فيُناسِبُه الإطنابُ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ فيه تَخصيصٌ لبَعضِ الشُّرورِ بالذِّكرِ مع اندراجِه فيما قبْلَه؛ للحاجةِ الماسَّةِ إلى الاستعاذةِ منه؛ لكَثرةِ وُقوعِه، ولأنَّها الأسبابُ القَريبةُ للمَضرَّةِ، ولأنَّ تَعيينَ المُستعاذِ منه أدَلُّ على الاعتناءِ بالاستعاذةِ، وأدْعَى إلى الإعاذةِ[٢]. أو فائدةُ التَّخصيصِ تَعظيمُ شرِّها، ودفْعُ تَوهُّمِ أنَّه لا شرَّ لها؛ لخَفائِه فيها، وأنَّه يَلحَقُ الإنسانَ مِن حيث لا يَعلَمُ، كأنَّما يُغتالُ به[٣].

- والغاسِقُ: وَصْفُ اللَّيلِ إذا اشتَدَّت ظُلمتُه، يُقالُ: غَسَقَ اللَّيلُ يَغسِقُ؛ إذا أظْلَمَ؛ فالغاسقُ صِفةٌ لمَوصوفٍ مَحذوفٍ؛ لظُهورِه مِن معْنى وَصْفِه[٤].

- وإضافةُ الشَّرِّ إلى اللَّيلِ؛ لمُلابَستِه له بحُدوثِه فيه. وتَنكيرُ ﴿غَاسِقٍ﴾؛ لعَدَمِ شُمولِ الشَّرِّ لجَميعِ أفرادِه، ولا لكُلِّ أجزائِه. أو تَنكيرُ ﴿غَاسِقٍ﴾ للجِنسِ؛ لأنَّ المرادَ جِنسُ اللَّيلِ، وتَنكيرُ ﴿غَاسِقٍ﴾ في مَقامِ الدُّعاءِ يُرادُ به العُمومُ؛ لأنَّ مَقامَ الدُّعاءِ يُناسِبُ التَّعميمَ[٥].

= للفيروزابادي (١/ ٥٥٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٣).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن =

- وتَقييدُ ذلك بظَرْفِ ﴿إِذَا وَقَبَ﴾، أي: إذا اشتَدَّت ظُلمتُه؛ لأنَّ ذلك وقْتٌ يَتحيَّنُه الشُّطَّارُ[١] وأصحابُ الدَّعارةِ والعَيثِ؛ لتَحقُّقِ غَلَبةِ الغفْلةِ والنَّومِ على النَّاسِ فيه، فحُدوثُ الشَّرِّ فيه أكثرُ، والتَّحرُّزُ منه أصعَبُ وأعسَرُ؛ فخُصَّ بالتَّعوُّذِ أشدُّ أوقاتِ اللَّيلِ توقُّعًا لحُصولِ المَكروهِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾

- إنَّما جُعِلَت الاستِعاذةُ مِن النَّفَّاثاتِ لا مِن النَّفْثِ، فلم يُقَلْ: إذا نَفَثْنَ في العُقَدِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ نَفْثَهنَّ في العُقَدِ ليس بشَيءٍ يَجلِبُ ضرًّا بذاتِه، وإنَّما يَجلِبُ الضُّرَّ النَّافثاتُ، وهنَّ مُتعاطياتُ السِّحرِ؛ لأنَّ السَّاحرَ يَحرِصُ على ألَّا يَترُكَ شَيئًا ممَّا يُحقِّقُ له ما يَعمَلُه مِن أجْلِه إلَّا احتالَ على إيصالِه إليه[٣].

- وعرَّفَ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ ونكَّر ما قبْلَها وما بعْدَها؛ لأنَّ كلَّ نفَّاثةٍ لها شرٌّ، وليس كلُّ غاسقٍ وحاسدٍ له شرٌّ[٤]، أو تَعريفُ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وهو في معْنى النَّكرةِ؛ فلا تَفاوُتَ في المعْنى بيْنَه وبيْن قولِه: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ [الفلق: ٣] وقولِه: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾ [الفلق: ٥]، وإنَّما أُوثِرَ لَفظُ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ بالتَّعريفِ؛ لأنَّ التَّعريفَ في مِثلِه للإشارةِ إلى أنَّه حَقيقةٌ مَعلومةٌ للسَّامعِ، وتَعريفُ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ باللَّامِ إشارةٌ إلى أنَّهنَّ مَعهوداتٌ

= عاشور)) (٣٠/ ٦٢٧).

(١) الشُّطَّارُ: جمعُ الشَّاطِرِ، وهو مَن أعيا أهْلَه ومؤدِّبَه خُبثًا ومَكرًا. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٢/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٧، ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٣، ٦٣٤).

بيْن العرَبِ[١].

أو التَّعريفُ إمَّا للعهدِ، أوْ للإيذانِ بشُمولِ الشَّرِّ لجَميعِ أفرادِهِنَّ، وتَمَحُّضِهنَّ فيه[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

- تَخصيصُ ذِكرِ الحسَدِ؛ لأنَّه العُمدةُ في إضرارِ الإنسانِ، بلِ الحيوانِ وغَيرِه[٣].

- وتَقييدُ الاستِعاذةِ مِن شرِّ الحاسدِ بوَقتِ ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأنَّه حِينَئذٍ يَندفِعُ إلى عمَلِ الشَّرِّ بالمَحسودِ حِينَ يَجيشُ الحسَدُ في نفْسِه، فتَتحرَّكُ له الحِيَلُ والنِّيَّاتُ لإلحاقِ الضُّرِّ به، فلا يَعودُ ضَررٌ منه قبْلَ ذلك إلى المحسودِ، بل يُخَصُّ به؛ لاغتِمامِه بسُرورِه[٤]. وقيل: المرادُ مِن الحسَدِ في قَولِه: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ حسَدٌ خاصٌّ، وهو البالِغُ أشَدَّ حَقيقتِه؛ فلا إشكالَ في تَقييدِ الحسَدِ بـ﴿حَسَدَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٠).

قال ابن القيِّم: (وتأمَّلْ تقييدَه سُبحانَه شرَّ الحاسِدِ بقولِه: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأنَّ الرَّجُلَ قد يكونُ عندَه حسَدٌ ولكنْ يُخْفيه، ولا يُرَتِّبُ عليه أذًى بوَجْهٍ ما؛ لا بقلبِه ولا بلِسانِه ولا بيَدِه، بل يَجِدُ في قلبِه شيئًا مِن ذلك ولا يُعامِلُ أخاه إلَّا بما يُحِبُّ اللهُ، فهذا لا يكادُ يَخلو منه أحدٌ إلَّا مَن عصَمَه اللهُ. وقيل للحسَنِ البصريِّ: أيَحْسُدُ المؤمنُ؟ قال: ما أنساك إخوةَ يوسُفَ! لكنَّ الفرقَ بيْن القوَّةِ الَّتي في قلبِه مِن ذلك وهو لا يُطيعُها، ولا يأْتَمِرُ بها، بل يَعصيها طاعةً لله، وخَوفًا وحَياءً منه، وإجلالًا له أن يَكرَهَ نِعَمَه على عِبادِه، فيَرى ذلك مُخالَفةً لله، وبُغضًا لِما يُحِبُّ اللهُ، ومحَبَّةً لِما يُبغِضُه، فهو يجاهِدُ نفْسَه على دفْعِ ذلك، ويُلزِمُها بالدُّعاءِ للمحسودِ، وتمَنِّي زيادةِ الخَيرِ =

- وفي قَولِه: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق: ٣-٥] مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قُيِّدَ بالظَّرفِ في قَولِه تعالَى: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾، وفي قَولِه: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾، فلم تَقَعِ الاستِعاذةُ مِن شرِّ هَذينِ إلَّا بتَقييدِ الوُقوبِ في الغاسقِ، ووُقوعِ الحسَدِ مِن الحاسدِ، وأُطلِقَ حكْمُ الاستعاذةِ مِن شرِّ النَّفَّاثاتِ -وهُنَّ السَّاحراتُ- ولم يُقَلْ: (إذا نَفثْنَ) أو (سَحَرْنَ)، فيُقيَّدَ كما قُيِّدَ ما قبْلُ وما بعْدُ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ قولَه سُبحانه في سُورةِ (طه): ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٩] إطلاقٌ حاكمٌ بتَماديه وتَمادي حُكمِه على تلك الصِّفةِ المذمومةِ، فلم يكُنِ التَّقييدُ في آيةِ الفَلَقِ لو قِيل: (إذا كذا) ليُطابِقَ ما وَرَدَ في سُورةِ (طه) مِن الإطلاقِ، والسِّحرُ شَرٌّ مُطلَقٌ؛ فوَرَدَ التَّعوُّذُ منه مُطلَقًا. أمَّا الغاسقُ فإنَّه اللَّيلُ إذا أظلَمَ، وليس الشَّرُّ منه بما هو لَيلٌ مُظلِمٌ، إنَّما هو سِتْرٌ لِذَوي الشَّرِّ؛ لاحتِجابِهم بظُلمتِه عن أعيُنِ النَّاسِ، فيُوقِعون فيه شَرَّهم، فالشَّرُّ فيه لا منه، ألَا تَرى أنَّه لأهلِ الخيرِ رَحمةٌ ونِعمةٌ، وكذلك لكلِّ مَن لا يَترصَّدُه لشَرٍّ، وتَردَّدَ ذِكرُ اللَّيلِ في غيرِ ما آيةٍ في كِتابِ اللهِ مَعدودًا في نِعَمِ اللهِ تعالَى على عِبادِه، وهو شَقيقُ النَّهارِ في تلك. ثمَّ إنَّه مِن حيثُ هو لِباسٌ وسِترٌ عن الأعيُنِ، فيُمكِنُ فيه لأهلِ الشَّرِّ ما لا يُمكِنُهم في نَهارِهم، فيَسْتَحكِمُ فيه شَرُّهم عندَ امتدادِ ظُلْمتِه؛ لأمْنِهم مِن النَّاسِ في ذلك، فتَبيَّنَ أنَّه ليس شَرًّا بما هو لَيلٌ، إنَّما الشَّرُّ فيه وعندَه، لا به بما هو لَيلٌ ولا منه، ولا يَتمكَّنُ مَطلوبُ ذوي الشَّرِّ إلَّا في ظُلمتِه، فنِسبةُ الشَّرِّ إليه بهذا الوجْهِ، والإضافةُ في لِسانِ العرَبِ تكونُ بأدْنى مُلابَسةٍ.

= له، بخِلافِ ما إذا حقَّق ذلك وحسَدَ، ورتَّب على حسَدِه مُقتضاه مِن الأذى بالقلبِ واللِّسانِ والجَوارحِ؛ فهذا الحسدُ المذمومُ هو كلُّه حسَدُ تمنِّي الزَّوالِ). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٣٦).

وأمَّا الحاسدُ فإنَّ القائمَ بنفْسِه مِن هذه الصِّفةِ قبْلَ أنْ يُمضِيَ يُمكِنُ أنْ يُنفِذَها حَسَدًا، ويُمكِنُ أنْ يُنفِذَها غِبطةً، فإذنْ لا يَتبيَّنُ كَونُه حسَدًا إلَّا بعْدَ أنْ يُمضِيَ ويُوقِعَ، ألَا تَرى اتِّحادَ ما يَقومُ بالنَّفْسِ أوَّلًا مِن هذه الصِّفةِ. بَيانُ ذلك أنَّ كلَّ عاقلٍ -بما هو عاقلٌ- إذا رأى نِعمةً على غيرِه مِن دِينٍ أو دُنيا، أعجَبَتْه وتَمنَّاها لنفْسِه، فإنْ أراد زَوالَها عمَّن ظَهَرَت عليه، وانفرادَه هو بها؛ فهذا هو الحسَدُ المذمومُ، وإنْ تَمنَّى مِثلَها أو أكثَرَ، وبَقاءَ تلك على صاحبِها؛ فهذه هي الغِبطةُ، وهي مِن صِفاتِ المؤمنينَ. فقد وضَحَ أنَّه إنَّما يكونُ حَسَدًا ويُوصَفُ بتلك الصِّفةِ عندَ ظُهورِه ووُقوعِه على الصِّفةِ المذمومةِ، وأمَّا قبْلَ ذلك فلا شَرَّ فيه ولا هو شرٌّ، فلمَّا كان حالُ الحسَدِ على ما ذُكِرَ، وحالُ الغاسقِ على ما تَقدَّم؛ لذلك وَقَعَ التَّقييدُ في الاستعاذةِ مِن شَرِّهما بالظَّرفِ فقِيل: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ و﴿إِذَا حَسَدَ﴾، ولم يقَعْ تَقييدٌ في الاستعاذةِ مِن شرِّ السَّحَرةِ، وجاء كلٌّ مِن ذلك على ما يُناسِبُ[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥١٧، ٥١٨).

تَفْسيرُ

سُورَةِ النَّاسِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

سورةُ النَّاسِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (النَّاسِ)[١].

وسُمِّيت أيضًا بسورةِ ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾؛ فعن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألم تَرَ آياتٍ أُنزِلَتِ اللَّيلةَ لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، و ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾))[٢].

وتُسمَّى بالمُعَوِّذَتينِ هي وسُورةُ (الفَلَقِ)، وبالمُعَوِّذاتِ هي وسُورةُ (الفَلَقِ) و(الإخلاصِ)؛ فعن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: قال لي رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أُنْزِل، أو أُنزِلَتْ علَيَّ آياتٌ لم يُرَ مِثْلُهنَّ قَطُّ، المُعَوِّذَتَينِ[٣]))[٤].

وعنه أيضًا قال: ((أمَرَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ أقرَأَ بالمُعوِّذاتِ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ))[٥].

فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

١- تستحبُّ قِراءَتُها في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ:

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: ((أمَرَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ أقرَأَ بالمُعوِّذاتِ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ))[٦].

---

(١) سُمِّيت هذه السورةُ بذلك؛ لتَكرارِ لَفظِ النَّاسِ فيها خَمْسَ مرَّاتٍ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٧). وتقدَّم (ص: ٤٣٧) أنَّها تسمَّى هي وسورةُ الفلقِ بالمقشقشتينِ.

(٢) أخرجه مسلم (٨١٤/ ٢٦٤).

(٣) هو منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ: أي: أعني المعوِّذَتينِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٩٦).

(٤) أخرجه مسلم (٨١٤/ ٢٦٥).

(٥) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٠٩-٤١٠).

(٦) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٠٩-٤١٠).

٢- ما أُنزِلَ مِثلُ المُعَوِّذاتِ في التَّوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الفُرقانِ:

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: ((... لَقِيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال لي: يا عُقْبَةُ بنَ عامرٍ، ألَا أُعَلِّمُك سوَرًا ما أُنزِلَتْ في التَّوراةِ، ولا في الزَّبورِ، ولا في الإنجيلِ، ولا في الفُرقانِ مِثلُهُنَّ؟ لا يأتِيَنَّ عليك لَيلةٌ إلَّا قَرأْتَهُنَّ فيها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. قال عُقْبَةُ: فما أَتَتْ علَيَّ لَيلةٌ إلَّا قَرأْتُهُنَّ فيها، وحُقَّ لي ألَّا أَدَعَهُنَّ وقد أَمَرَني بهِنَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[(١)].

٣- مَن قَرأَ المُعَوِّذاتِ حينَ يُمسِي وحينَ يُصبِحُ ثلاثًا تَكفِيه مِن كلِّ شَيءٍ:

عن عبدِ الله بنِ خُبَيْبٍ رضيَ الله عنه، قال: ((خرَجْنا في لَيلةٍ مَطِيرةٍ وظُلْمةٍ شديدةٍ نَطلُبُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُصَلِّي لنا، فأدرَكْتُه فقال: قُلْ. فلمْ أَقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. فلمْ أقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. قلتُ: ما أقولُ؟ قال: قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمُعَوِّذَتَينِ حينَ تُمْسي وحينَ تُصبِحُ ثلاثَ مرَّاتٍ تَكفيكَ مِن كلِّ شَيءٍ))[(٢)].

٤- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا اشتَكَى رقَى نفْسَه بالمُعَوِّذاتِ:

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا اشْتَكى يَقرأُ على نفْسِه بالمُعَوِّذاتِ ويَنْفُثُ، فلمَّا اشْتَدَّ وَجَعُه كنتُ أقرَأُ عليه وأمْسَحُ بيَدِه؛ رجاءَ بَرَكَتِها))[(٣)].

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٧).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢).

٥- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعَوِّذُ نفْسَه بالمُعَوِّذاتِ إذا أوَى إلى فِراشِه:

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا أوَى إلى فِراشِه كُلَّ لَيلةٍ جَمَع كَفَّيْه، ثُمَّ نَفَث فيهما فقَرَأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمسَحُ بهما ما اسْتَطاع مِن جَسَدِه، يَبْدَأُ بهما على رَأْسِه ووَجْهِه وما أقْبَلَ مِن جَسَدِه، يَفعَلُ ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ))[(١)].

٦- لم يُرَ مِثلُ آياتِ سورتَيِ الفَلَقِ والنَّاسِ فيما أُنزِل على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألم تَرَ آياتٍ أُنزِلتِ اللَّيلةَ لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾))[(٢)].

٧- أُمِر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقراءتِها معَ سورةِ الفَلَقِ لَمَّا سُحِر:

عن زَيدِ بنِ أرْقَمَ رضيَ الله عنه، قال: ((سَحَرَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلٌ مِن اليَهودِ، فاشْتَكى، فأَتاهُ جِبريلُ -عليه السَّلامُ- بالمُعوِّذَتيْنِ، وقال: إنَّ رجُلًا مِن اليَهودِ سَحَرَك، والسِّحرُ في بِئرِ فُلانٍ، فأرسَلَ عليًّا، فجاءَ به، فأمَرَه أنْ يَحُلَّ العُقَدَ، ويَقرَأَ آيةً، فجعَلَ يَقرأُ ويَحُلُّ حتَّى قام النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كأنَّما أُنشِطَ مِن عِقالٍ، فما ذكَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لذلك اليَهوديِّ شيئًا ممَّا صنَعَ، ولا أراهُ في وَجْهِه))[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٧).

(٢) أخرجه مسلم (٨١٤).

(٣) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٩٦).

بَيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ النَّاسِ مُختلَفٌ فيها؛ فقيلَ: مكِّيَّةٌ، وقيلَ: مَدَنيَّةٌ(١).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

الاستِعاذَةُ مِن شَرِّ ما يُوَسْوِسُ في الصُّدورِ(٢).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

الاستِعاذَةُ باللهِ رَبِّ النَّاسِ ومَلِكِهم وإلَهِهم مِن شَرِّ الشَّيطانِ، والَّذي مِن صِفاتِه أنَّه وَسْواسٌ خَنَّاسٌ، يُوَسْوِسُ في صُدورِ النَّاسِ، وأنَّه قد يكونُ مِن الجِنِّ ويكونُ مِن الإنسِ.

---

(١) ممَّن اختار أنَّها مكِّيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، والزمخشري، وابنُ جُزَي، وابن عادل، والشربيني، وأبو السعود، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٩٤١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٨١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٥٧٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٦١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣١).
وممَّن اختار أنَّها مَدَنيَّةٌ: الماتُريديُّ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والسمعاني، والبغوي، والرازي، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي، والفيروزابادي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٦٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٤١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٥١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٦٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥١٤).

الآيات (١-٦)

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡخَنَّاسِ﴾: أي: الشَّيطانِ الَّذي يَخنِسُ -أي: يَرجِعُ ويَتأخَّرُ ويَستَتِرُ- إذا ذُكِرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ، وأصلُ (خنس): يدُلُّ على استِخفاءٍ وتَستُّرٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: قُلْ -يا محمَّدُ- متعَوِّذًا باللهِ وَحْدَه: ألتَجِئُ وأستجيرُ برَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، مَعبودِ النَّاسِ الحَقِّ؛ مِن شَرِّ الشَّيطانِ الَّذي يُوسوِسُ بالشَّرِّ ويَرجِعُ عن العَبدِ إذا ذكَرَ رَبَّه، الَّذي يُلقي وَساوِسَه في صُدورِ النَّاسِ، مِن شَياطينِ الجِنِّ وشياطينِ الإنسِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- متعَوِّذًا باللهِ وَحْدَه: ألتَجِئُ وأستجيرُ برَبِّ النَّاسِ الَّذي يُدَبِّرُ أمورَهم، ويُصلِحُ أحوالَهم[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨٣).

وذكر ابنُ القيِّمِ أنَّ الخَنَّاسَ فَعَّالٌ مِن خَنَسَ يَخنِسُ، وأنَّه مأخوذٌ مِن معنيَينِ؛ الأوَّلُ: مِن التَّواري والاختِفاءِ بعْدَ ظُهورٍ، والثَّاني: التَّأخُّرُ والرُّجوعُ إلى وراء. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥١٧)، ((تفسير =

﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ ﴾.

أي: مَلِكِ جَميعِ النَّاسِ، فهُم تحتَ سُلطانِه وتدبيرِه، وقُدرتِه وقَهْرِه، ويَنفُذُ فيهم أمْرُه وقضاؤُه دونَ غَيرِه[١].

﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ ﴾.

أي: مَعبودِ النَّاسِ الحَقِّ، المُستَحِقِّ للعبادةِ وَحْدَه، وكُلُّ مَعبودٍ سِواه باطِلٌ[٢].

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أكمَلَ الاستِعاذةَ مِن جميعِ وُجوهِها الَّتي مَدارُها الإحسانُ أو العَظَمةُ، أو القَهرُ أو الإذعانُ والتَّذَلُّلُ؛ ذكَرَ المُستعاذَ منه، فقال[٣]:

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ﴾.

أي: ألتَجِئُ وأستجيرُ برَبِّ النَّاسِ مِن شَرِّ الشَّيطانِ الَّذي يُوسوِسُ بالشَّرِّ، والَّذي يَذهَبُ عن العبدِ ويتأخَّرُ ويختَفي إذا ذكَرَ رَبَّه[٤].

= الشوكاني)) (٥/ ٦٤٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٤٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٥٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥١٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٥٣-٧٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٥).

قال القرطبي: (ووُصِف بالخنَّاسِ؛ لأنَّه كثيرُ الاختفاءِ؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ =

كما قال تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ - ٢٠٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا وقد وُكِّلَ به قَرينُه مِنَ الجِنِّ. قالوا: وإيَّاك يا رسولَ اللهِ؟ قال:

= [التكوير: ١٥] يعني: النُّجومَ؛ لاختِفائِها بعْدَ ظُهورِها. وقيل: لأنَّه يَخنِسُ إذا ذكَر العبدُ الله؛ أي: يتأخَّرُ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦٢). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٧٨).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ معنى الخَنَّاسِ: الَّذي يَتأخَّرُ أو يُدبِرُ إذا ذكَرَ العَبدُ رَبَّه: السَّمْعانيُّ، والزمخشري، والنسفي، والخازن، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٧٠٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٥).

قال ابنُ القيِّم: (الخنَّاسُ مأخوذٌ مِن ... الاختفاءِ، والرُّجوعِ والتَّأخُّرِ؛ فإنَّ العبدَ إذا غَفَل عن ذِكرِ اللهِ جَثَم على قَلْبِه الشَّيطانُ، وانبسَطَ عليه وبَذَر فيه أنواعَ الوَساوِسِ الَّتي هي أصلُ الذُّنوبِ كُلِّها، فإذا ذكَرَ العَبدُ رَبَّه واستعاذ به انخنَسَ وانقَبَض كما يَنخَنِسُ الشَّيءُ لِيَتوارى، وذلك الانخناسُ والانقباضُ هو أيضًا تجَمُّعٌ ورُجوعٌ وتأخُّرٌ عن القَلبِ إلى خارجٍ، فهو تأخُّرٌ ورُجوعٌ معه اختِفاءٌ، وخَنَس وانخنَسَ يدُلُّ على الأمْرَينِ معًا). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٥٥، ٢٥٦).

وقال ابن عاشور: (والخنسُ والخنوسُ: الاختفاءُ. والشَّيطانُ يُلقَّبُ بـ «الخنَّاسِ»؛ لأنَّه يَتَّصِلُ بعقلِ الإنسانِ وعَزمِه مِن غيرِ شُعورٍ منه، فكأنَّه خنَس فيه، وأهلُ المكرِ والكَيدِ والتَّختُّلِ خنَّاسونَ؛ لأنَّهم يَتحَيَّنونَ غَفَلاتِ النَّاسِ، ويَتسترونَ بأنواعِ الحِيَلِ؛ لكيلا يَشعُرَ النَّاسُ بهم...، ولأنَّ خواطرَ الشَّرِّ يهمُّ بها صاحبُها فيُطرِقُ ويَترَدَّدُ ويَخافُ تَبِعاتِها، وتَزجُرُه النَّفْسُ اللَّوَّامةُ، أو يَزَعُه وازِعُ الدِّينِ أو الحياءِ أو خَوفِ العِقابِ عندَ الله أو عندَ النَّاسِ، ثمَّ تُعاوِدُه حتَّى يَطمئنَّ لها ويَرتاضَ بها، فيُصمِّمَ على فعلِها فيَقترِفَها، فكأنَّ الشَّيطانَ يَبدو له ثمَّ يَختفي، ثمَّ يَبدو ثمَّ يَختفي حتَّى يَتمَكَّنَ مِن تَدْلِيَتِه بغُرورٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٤).

وإيَّاي، إلَّا أنَّ اللهَ أعانَني عليه فأسْلَمَ[١]؛ فلا يأمُرُني إلَّا بخَيرٍ))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَعقِدُ الشَّيطانُ على قافيةِ رأسِ أحَدِكم إذا هو نامَ ثلاثَ عُقَدٍ، يَضرِبُ كُلَّ عُقدةٍ: عليكَ لَيلٌ طويلٌ؛ فارقُدْ! فإنِ استيقَظَ فذَكَرَ اللهَ انحَلَّت عُقْدةٌ، فإنْ توَضَّأَ انحَلَّت عُقْدةٌ، فإن صلَّى انحَلَّت عُقْدةٌ؛ فأصبَحَ نَشيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وإلَّا أصبَحَ خَبيثَ النَّفسِ كَسْلانَ))[٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا نُودِيَ للصَّلاةِ أدبَرَ الشَّيطانُ وله ضُراطٌ؛ حتَّى لا يَسمَعَ التَّأذينَ، فإذا قُضِيَ النِّداءُ أقْبَلَ، حتَّى إذا ثُوِّبَ[٤] بالصَّلاةِ أدبَرَ، حتَّى إذا قُضِيَ التَّثويبُ أقبَلَ؛ حتَّى يَخطِرَ بيْنَ المرءِ ونَفْسِه، يقولُ: اذكُرْ كذا، اذكُرْ كذا، لِما لم يكُنْ يَذكُرُ، حتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لا يَدري كَمْ صَلَّى!))[٥].

﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر صِفةَ المُستعاذِ منه، ذكَرَ إبرازَه لصِفتِه بالفِعلِ، فقال[٦]:

---

(١) فأَسْلَم: برفعِ الميمِ وفَتحِها، وهُما روايتانِ مشهورتانِ، فمَن رفَع قال: معناه: أسْلَمُ أنا مِن شَرِّه وفِتْنَتِه، ومَن فتَح قال: إنَّ القَرينَ أسْلَمَ -مِن الإسلامِ- وصار مؤمنًا لايأمُرُني إلَّا بخَيرٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٥٧).

(٢) رواه مسلم (٢٨١٤).

(٣) رواه البخاريُّ (١١٤٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٧٧٦).

(٤) التَّثويبُ: المرادُ به: الإقامةُ؛ فإنَّه رُجوعٌ إلى النِّداءِ، يُقالُ: ثابَ الرَّجُلُ، إذا رجَع. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ٤٢٥).

(٥) رواه البخاريُّ (٦٠٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٣٨٩).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٣٣).

﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾.

أي: الَّذي يُلقي في صُدورِ النَّاسِ على وَجهِ الخَفاءِ والتَّكريرِ بالمعاني الباطِلةِ، فيُزَيِّنُ لهم الضَّلالَ، ويَحُثُّهم على الشَّرِّ، ويُثَبِّطُهم عن الخَيرِ[(١)].

﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الَّذي يُعَلِّمُ الإنسانَ الشَّرَّ تارةً مِنَ الجِنِّ، وأُخرَى مِنَ الإنسِ؛ قال مُبَيِّنًا للوَسواسِ؛ تحذيرًا مِن شياطينِ الإنسِ كالتَّحذيرِ مِن شياطينِ الجِنِّ، مُقَدِّمًا الأهَمَّ الأضَرَّ[(٢)]:

﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

أي: أعوذُ باللهِ مِن شَياطينِ الجِنِّ وشياطينِ الإنسِ الَّذين يُوَسوِسونَ بالشَّرِّ في صُدورِ النَّاسِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٠-٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٤٠)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٦).

ممَّن اختار في الجملةِ القولَ المذكورَ -وهو أنَّ قولَه: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيانٌ للَّذي يُوَسوِسُ، وأنَّهما نَوعانِ: إنْسٌ وجِنٌّ؛ فالجِنِّيُّ يوسوِسُ في صدورِ الإنسِ، والإنسيُّ أيضًا يوسوِسُ إلى الإنسيِّ-: السمعانيُّ، وابن عطية، والنسفي، وابن تيميَّةَ، وابن جُزَي، وابن القيِّم، والكوراني، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٧٠٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن =

= تيمية (١٧/ ٥٠٩)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٦)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٤٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٦).

وقال ابن تيميَّةَ: (القولُ الصَّحيحُ الَّذي عليه أكثرُ السَّلفِ أنَّ المعنى: مِن شرِّ المُوَسْوِسِ مِن الجِنَّةِ ومِن النَّاسِ، مِن شياطينِ الإنسِ والجنِّ). ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٥٠٦).

قال ابن القيِّم: (فالمُوَسْوِسُ نَوعانِ: إنسٌ وجِنٌّ؛ فإنَّ الوَسْوَسةَ هي الإلقاءُ الخَفيُّ في القلبِ، وهذا مشتركٌ بيْن الجِنِّ والإنسِ، وإن كان إلقاءُ الإنسيِّ ووَسوستُه إنَّما هي بواسِطةِ الأُذُنِ، والجِنِّيُّ لا يحتاجُ إلى تلك الواسِطةِ؛ لأنَّه يَدخُلُ في ابنِ آدَمَ ويَجري منه مَجرى الدَّمِ، على أنَّ الجِنِّيَّ قد يَتمَثَّلُ له ويُوَسْوِسُ إليه في أُذُنِه كالإنسيِّ). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٦٦).

وقيل: قولُه: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ هو بيانٌ للنَّاسِ المُوَسْوَسِ في صُدورِهم، والمعنى: يُوَسْوِسُ في صُدورِ النَّاسِ الَّذين هُم مِن الجِنِّ والإنسِ، أي: المُوَسْوَسُ في صُدورِهم قِسمانِ: إنسٌ وجِنٌّ، فالوَسْواسُ يُوَسْوِسُ للجِنِّيِّ كما يُوَسْوِسُ للإنسيِّ. وممَّن اختار هذا القولَ: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٥٦).

وقد ردَّ هذا القولَ وضعَّفه غيرُ واحدٍ؛ منهم: الزمخشريُّ، والبيضاوي، وابنُ تيميَّةَ، وابن القيم، وأبو السعود، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥).

وقيل: المعنى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ الَّذي هو الجِنَّةُ، ومِن شَرِّ النَّاسِ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والنَّحَّاسُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٨١)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٢٠٠).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ لبَيانِ الوَسْواسِ، أي: الَّذي يُوسوِسُ مِنَ الجِنَّةِ ومِن النَّاسِ في صُدورِ النَّاسِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى قد أخبَرَ أنَّه جَعَل لكُلِّ نَبيٍّ عدوًّا شَياطينَ الإنسِ والجِنِّ، يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القَولِ غُرورًا، وإيحاؤُهم هو وسوستُهم... فالَّذي يوسوِسُ في صدورِ النَّاسِ: نُفوسُهم، وشياطينُ الجِنِّ، وشياطينُ الإنسِ. والوَسْواسُ الخنَّاسُ يتناوَلُ وَسوسةَ الجِنَّةِ، ووَسوسةَ الإنسِ... وأمَّا قَولُ الفَرَّاءِ: إنَّ المرادَ: مِن شَرِّ الوَسْواسِ الَّذي يُوسوِسُ في صُدورِ النَّاسِ؛ الطَّائفتَينِ مِنَ الجِنِّ والإنسِ، وإنَّه سَمَّى الجِنَّ ناسًا كما سَمَّاهم =

كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وعن صَفِيَّةَ بنتِ حُيَيٍّ رَضِيَ اللهُ عنها، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الشَّيطانَ يَجري مِن ابنِ آدَمَ مَجرى الدَّمِ))(١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يأتي الشَّيطانُ أحَدَكم، فيقولُ: مَن خَلَق كذا؟ مَن خَلَق كذا؟ حتَّى يقولَ: مَن خَلَق رَبَّك؟! فإذا بلَغَه فلْيَستَعِذْ باللهِ ولْيَنْتَهِ(٢))(٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ

= رِجالًا، وسَمَّاهم نفَرًا- فهذا ضعيفٌ؛ فإنَّ لفظَ النَّاسِ أشهَرُ وأظهَرُ وأعرَفُ مِن أن يحتاجَ إلى تنويعِه إلى الجِنِّ والإنسِ... وكذلك قَولُ الزَّجَّاجِ: إنَّ المعنى ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ﴾ الَّذي هو الجِنَّةُ، ومِن شَرِّ النَّاسِ- فيه ضَعفٌ وإن كان أرجَحَ مِنَ الأوَّلِ؛ لأنَّ شَرَّ الجِنِّ أعظَمُ مِن شَرِّ الإنسِ، فكيف يُطلِقُ الاستعاذةَ مِن جميعِ النَّاسِ، ولا يَستعيذُ إلَّا مِن بَعضِ الجِنِّ؟!). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٥٠٩-٥١٢). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٨١).

(١) رواه البخاري (٧١٧١).

(٢) ولْيَنْتَهِ: أي: عن الاسْتِرسالِ معه في ذلك، بل يَلجأُ إلى الله في دفْعِه، ويَعلَمُ أنَّه يريدُ إفسادَ دينِه وعقلِه بهذه الوَسوَسةِ، فيَنبغي أن يَجتَهِدَ في دفْعِها، بالاشتِغالِ بغيرِها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٤٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٢٧٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٣٤).

وَٱلنَّاسِ ﴾ فيه تعليمُ المُسلِمينَ التَّعَوُّذَ بذلك، فيكونُ لهم مِن هذا التَّعَوُّذِ ما هو حَظُّهم مِن قابليَّةِ التَّعَرُّضِ إلى الوَسْواسِ، ومع السَّلامةِ منه بمِقْدارِ مَراتِبِهم في الزُّلْفى[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ فيه ذَمُّ الوَسْواسِ، ونَدْبُ الاستعاذةِ منهم[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ فيه سُؤالٌ: لا يَخفى ما بيْن هذَينِ الوَصفَينِ اللَّذَينِ وُصِفَ بهما هذا اللَّعينُ الخبيثُ مِنَ التَّنافي؛ لأنَّ الوَسْواسَ كثيرُ الوَسْوَسةِ لِيُضِلَّ بها النَّاسَ، والخَنَّاسَ كَثيرُ التَّأخُّرِ والرُّجوعِ عن إضلالِ النَّاسِ؟

الجوابُ: أنَّ لكُلِّ مَقامٍ مَقالًا، فهو وَسْواسٌ عندَ غَفلةِ العَبدِ عن ذِكْرِ رَبِّه، خَنَّاسٌ عندَ ذِكرِ العَبدِ رَبَّه تعالى، كما دَلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقَولُه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ الآيةَ[(٣)] [النحل: ٩٩].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ تأمَّلْ حِكمةَ القُرآنِ الكريم وجلالتَه كيف أوقَعَ الاستِعاذةَ مِن شَرِّ الشَّيطانِ الموصوفِ بأنَّه الوَسْواسُ الخَنَّاسُ الَّذي يُوَسوِسُ في صُدورِ النَّاسِ، ولم يَقُلْ: «مِن شَرِّ وَسْوَستِه»؛ لِتَعُمَّ الاستِعاذةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٩٠).

شَرَّه جميعَه؛ فإنَّ قولَه: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ يَعُمُّ كلَّ شَرِّه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ تأمَّلْ كيف جاء بناءُ ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ مُكَرَّرًا؛ لتكريرِه الوَسْوَسةَ الواحِدةَ مِرارًا حتَّى يَعْزِمَ عليها العبدُ، وجاء بناءُ ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ على وزنِ «الفَعَّالِ» الَّذي يتكَرَّرُ منه نوعُ الفِعلِ؛ لأنَّه كُلَّما ذُكِرَ اللهُ انْخَنَسَ، ثُمَّ إذا غَفَلَ العبدُ عاوَدَه بالوَسْوَسةِ؛ فجاء بناءُ اللَّفظَينِ مُطابقًا لمعنَيَيهما[٢].

٤- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾، وجيءَ مِن هذا الفِعلِ بوَزنِ فَعَّالٍ الَّذي للمُبالَغةِ دونَ الخانِسِ والمُنخَنِسِ؛ إيذانًا بشِدَّةِ هُروبِه ورُجوعِه وعِظَمِ نُفورِه عند ذِكرِ اللهِ، وأنَّ ذلك دأبُه ودَيدَنُه، لا أنَّه يَعرِضُ له ذلك عندَ ذِكرِ اللهِ أحيانًا، بل إذا ذُكِرَ اللهُ هَرَب وانخنَسَ وتأخَّرَ؛ فإنَّ ذِكرَ اللهِ هو مِقْمَعَتُه الَّتي يُقمَعُ بها كما يُقمَعُ المفسِدُ والشِّرِّيرُ بالمَقامِعِ الَّتي تَردَعُه؛ مِن سِياطٍ وحديدٍ وعِصِيٍّ ونحوِها؛ فذِكرُ اللهِ يَقمَعُ الشَّيطانَ ويُؤلِمُه ويُؤذيه كالسِّياطِ والمَقامِعِ الَّتي تُؤذي مَن يُضرَبُ بها؛ ولهذا يكونُ شيطانُ المؤمِنِ هزيلًا ضئيلًا مُضنًى؛ ممَّا يُعَذِّبُه ويَقمَعُه به مِن ذِكرِ اللهِ وطاعتِه[٣].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ وَصَفَه بأعظَمِ صِفاتِه، وأشَدِّها شَرًّا، وأقواها تأثيرًا، وأعَمِّها فسادًا، وهي الوَسْوَسةُ الَّتي هي مَبادئُ الإرادةِ؛ فإنَّ القَلْبَ يكونُ فارِغًا مِنَ الشَّرِّ والمعصيةِ، فيُوسوِسُ إليه ويُخطِرُ الذَّنْبَ ببالِه، فيُصَوِّرُه لنَفْسِه ويُمَنِّيه ويُشَهِّيه؛ فيَصيرُ شَهوةً، ويُزَيِّنُها له ويُحَسِّنُها ويُخَيِّلُها له في خيالٍ تَميلُ نَفْسُه إليه؛ فيصيرُ إرادةً، ثمَّ لا يزالُ يُمَثِّلُ ويُخَيِّلُ، ويُمَنِّي ويُشَهِّي، ويُنَسِّي عِلْمَه بضَرَرِها، ويَطوي عنه سوءَ عاقِبَتِها؛ فيَحُولُ بيْنَه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٥).

وبينَ مطالعتِه، فلا يرى إلَّا صورةَ المعصيةِ والْتِذاذَه بها فقط، ويَنسى ما وراءَ ذلك؛ فتَصيرُ الإرادةُ عزيمةً جازِمةً، فيَشتَدُّ الحِرصُ عليها مِن القَلْبِ، فيَبعَثُ الجُنودَ في الطَّلَبِ، فيَبعَثُ الشَّيطانُ معهم مَدَدًا لهم وعَونًا[1]!

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ وَسْوَسةُ الشَّيطانِ في صَدْرِ الإنسانِ بأنواعٍ كثيرةٍ؛ منها: إفسادُ الإيمانِ والتَّشكيكُ في العقائِدِ، فإن لم يَقدِرْ على ذلك أمَرَه بالمعاصي، فإنْ لم يَقدِرْ على ذلك ثَبَّطه عن الطَّاعاتِ، فإن لم يقدِرْ على ذلك أدخَلَ عليه الرِّياءَ في الطَّاعاتِ لِيُحبِطَها، فإنْ سَلِمَ مِن ذلك أدخَلَ عليه العُجْبَ بنَفْسِه، واستكثارَ عَمَلِه، ومِن ذلك أنَّه يُوقِدُ في القَلبِ نارَ الحسَدِ والحِقدِ والغَضَبِ؛ حتَّى يَقودَ الإنسانَ إلى شَرِّ الأعمالِ وأقبَحِ الأحوالِ. وعِلاجُ وَسوَستِه بثلاثةِ أشياءَ؛ واحِدُها: الإكثارُ مِن ذِكرِ اللهِ. وثانيها: الإكثارُ مِن الاستعاذةِ باللهِ منه، ومِن أنفَعِ شَيءٍ في ذلك قراءةُ هذه السُّورةِ. وثالِثُها: مُخالَفتُه والعَزمُ على عِصيانِه[2].

٧- تأمَّلِ السِّرَّ في قَولِه تعالى: ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، ولم يَقُلْ: «في قُلوبِهم»، والصَّدرُ هو ساحةُ القَلبِ وبَيتُه؛ فمِنْه تَدخُلُ الوارداتُ إليه فتَجتَمِعُ في الصَّدرِ، ثُمَّ تَلِجُ في القَلبِ، فهو بمنزلةِ الدِّهليزِ له، ومِن القَلبِ تَخرُجُ الأوامرُ والإراداتُ إلى الصَّدرِ، ثُمَّ تتفرَّقُ على الجنودِ، ومَن فَهِمَ هذا فَهِمَ قولَه تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ فالشَّيطانُ يَدخُلُ إلى ساحةِ القَلبِ وبَيتِه، فيُلقي ما يريدُ إلقاءَه في القَلبِ، فهو مُوَسوِسٌ في الصَّدرِ، ووَسْوَستُه واصِلةٌ إلى القلبِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه: ١٢٠] ولم يَقُلْ: «فيه»؛ لأنَّ المعنى: أنَّه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٥٧، ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣٠).

أَلْقَى إليه ذلك وأوصَلَه فيه؛ فدَخَلَ في قَلْبِه[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ أنَّ للإنسِ شياطينَ يُستعاذُ مِن شَرِّهم، كما أنَّ للجِنِّ شياطينَ يُستعاذُ منهم[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ سُؤالٌ: أنَّه إنْ كان أصلُ الشَّرِّ كلِّه مِن الوَسْواسِ الخَنَّاسِ، فلا حاجةَ إلى ذِكْرِ الاستعاذةِ مِن وَسْواسِ النَّاسِ؛ فإنَّه تابعٌ لوَسْواسِ الجِنِّ!

الجوابُ: بلِ الوَسْوسةُ نَوعان: نوعٌ مِن الجِنِّ، ونوعٌ مِن نُفوسِ الإنسِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، فالشَّرُّ مِن الجِهَتينِ جميعًا، والإنسُ لهم شياطينُ كما للجِنِّ شياطينُ، والوَسْوسةُ مِن جنسِ «الوشوشةِ» -بالشِّينِ المعجمةِ-؛ يُقالُ: فلانٌ يُوشوِشُ فُلانًا، وقد وَشْوَشَه: إذا حَدَّثَه سِرًّا في أُذُنِه، وكذلك الوَسْوسةُ، ومنه وَسْوسةُ الحُلِيِّ، لكنْ هو بالسِّينِ المُهمَلةِ أخَصُّ[٣].

١٠- إنْ قيلَ: لِمَ خُتِمَ القُرآنُ بالمُعَوِّذَتينِ، وما الحِكمةُ في ذلك؟

فالجوابُ مِن ثلاثةِ أَوجُهٍ:

الأوَّل: لَمَّا كان القُرآنُ مِن أعظَمِ النِّعَمِ على العِبادِ، والنِّعَمُ مَظِنَّةُ الحَسدِ؛ فختمَ بما يُطفِئُ الحَسدَ مِن الاستِعاذَةِ باللهِ.

الثَّاني: أنَّه يَظهرُ أنَّ المُعَوِّذَتينِ خُتِمَ بهما لأنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥١٦).

قال فيهما: ((أُنزِلَت عليَّ آياتٌ لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ))[١]، كما قال في فاتحة الكتاب: ((ما أُنزِلَتْ في التَّوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الزَّبُورِ ولا في الفُرقانِ مِثْلُها))[٢]، فافتُتِحَ القُرآنُ بسُورةٍ لم يَنزِلْ مِثلُها، واختُتِمَ بسُورتَينِ لم يُرَ مِثلُهما؛ ليجمعَ حُسنَ الافتِتاحِ والاختِتامِ، ألا ترَى أنَّ الخُطَبَ والرَّسائلَ والقَصائدَ وغيرَ ذلك مِن أَنواعِ الكلامِ إنَّما يُنظَرُ فيها إلى حُسنِ افتِتاحِها واختِتامِها.

الوجهُ الثَّالثُ: أنه يَظهرُ أيضًا أنَّه لَمَّا أُمِرَ القارئُ أن يَفتَتِحَ قِراءتَه بالتَّعَوُّذِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، خُتِمَ القُرآنُ الكريمُ بالمُعَوِّذَتينِ لِيُحصِّلَ الاستِعاذةَ باللهِ عندَ أوَّلِ القِراءَةِ وعندَ آخِرِ ما يَقرأُ مِن القِراءةِ، فتكونُ الاستِعاذةُ قد اشتَملت على طَرَفَي الابتِداءِ والانتِهاءِ، ولِيَكونَ القارئُ مَحفوظًا بحِفظِ اللهِ الَّذي استَعاذَ به مِن أوَّلِ أَمْرِه إلى آخِرِه، وباللهِ التَّوفيقُ، لا رَبَّ غيرُه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۞ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۞ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾

- شابَهَت فاتحةُ هذه السُّورةِ فاتحةَ سُورةِ (الفَلَقِ)، إلَّا أنَّ سُورةَ (الفَلَقِ) تَعَوُّذٌ مِن شُرورِ المَخلوقاتِ مِن حَيوانٍ وناسٍ، وسُورةَ (الناسِ) تَعوُّذٌ مِن شُرورِ مَخلوقاتٍ خَفيَّةٍ، وهي الشَّياطينُ، والأمرُ بالقولِ يَقْتضي المُحافَظةَ على هذه الألفاظِ؛ لأنَّها الَّتي عيَّنَها اللهُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليَتعوَّذَ بها، فإجابتُها مَرجوَّةٌ؛ إذ ليس هذا المَقولُ مُشتمِلًا على شَيءٍ يُكلَّفُ به أو يُعمَلُ حتَّى يَكونَ

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٩٣).

(٢) أخرجه مطوَّلًا الترمذيُّ (٢٨٧٥) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٩٣٤٥) مِن حديثِ أبي هريرةَ.
صحَّحه الترمذيُّ، وابنُ جرير في ((التفسير)) (٨/ ٧٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٨٧٥)، وشعيبٌ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٥/ ٢٠١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣٠).

المرادُ: قُلْ لهم كذا، كما في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وإنَّما هو إنشاءُ معنًى في النَّفْسِ تدُلُّ عليه هذه الأقوالُ الخاصَّةُ[١].

- والخِطابُ بلَفظِ ﴿قُلْ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإذ قد كان قُرآنًا كان خِطابُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم به يَشملُ الأُمَّةَ حيث لا دَليلَ على تَخصيصِه به؛ فلذلك أمَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعضَ أصحابِه بالتَّعوُّذِ بهذه السُّورةِ، فتكونُ صِيغةُ الأمرِ المُوجَّهةُ إلى المُخاطَبِ مُستعمَلةً في مَعنيَي الخِطابِ مِن تَوجُّهِه إلى مُعيَّنٍ، وهو الأصلُ، ومِن إرادةِ كلِّ مَن يَصِحُّ خِطابُه، وهو طَريقٌ مِن طُرقِ الخِطابِ تدُلُّ على قَصْدِه القرائنُ، فيكونُ مِن استعمالِ المُشتركِ في مَعْنيَيه، واستعمالُ صِيغةِ التَّكلُّمِ في فِعلِ ﴿أَعُوذُ﴾ يَتبَعُ ما يُرادُ بصِيغةِ الخِطابِ في فِعلِ ﴿قُلْ﴾؛ فهو مَأمورٌ به لكلِّ مَن يُريدُ التَّعوُّذَ بها[٢].

- ولَمَّا كانت مَضرَّةُ الدِّينِ -وهي آفةُ الوَسوسةِ- أعظَمَ مِن مَضرَّةِ الدُّنيا وإنْ عَظُمَت، جاء البِناءُ في الاستِعاذةِ منها بصِفاتٍ ثَلاثٍ (الرَّبُّ، والمَلِكُ، والإلهُ) في قَولِه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾، وإنِ اتَّحَدَ المطلوبُ، وفي الاستعاذةِ مِن ثَلاثٍ (الغاسقُ، والنَّفَّاثاتُ، والحاسدُ) بصِفةٍ واحدةٍ، وهي الرَّبُّ، وإنْ تَكثَّرَ الَّذي يُستعاذُ منه[٣].

- وأيضًا لَمَّا كانتِ الاستعاذةُ في السُّورةِ المُتقدِّمةِ مِن المَضارِّ البَدنيَّةِ، وهي تعُمُّ الإنسانَ وغيرَه، والاستِعاذةُ في هذه السُّورةِ مِن الأضرارِ الَّتي تَعرِضُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٥، ٣٠/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٢٥، ٦٢٦) و(٣٠/ ٦٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٩).

للنُّفوسِ البَشريَّةِ وتخُصُّها[١]؛ عمَّمَ الإضافةَ ثَمَّ، وخصَّصَها بالنَّاسِ هاهنا، فكأنَّه قِيل: أعوذُ مِن شرِّ المُوَسوسِ إلى النَّاسِ برَبِّهم، الَّذي يَملِكُ أُمورَهم، ويَستحِقُّ عِبادتَهم[٢].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ إن قيل: لِمَ قَدَّم وَصْفَه تعالى ﴿بِرَبِّ﴾ ثمَّ بـ ﴿مَلِكِ﴾ ثمَّ بـ ﴿إِلَٰهِ﴾؟

فالجوابُ: أنَّ هذا على التَّرتيبِ في الارتقاءِ إلى الأعلى؛ وذلك أنَّ الرَّبَّ قد يُطلَقُ على كثيرٍ مِن النَّاسِ، فيُقالُ: فُلانٌ رَبُّ الدَّارِ، وشِبهُ ذلك، فبدأ به لاشتراكِ معناه، وأمَّا المَلِكُ فلا يُوصَفُ به إلَّا آحادٌ مِنَ النَّاسِ، وهم الملوكُ، ولا شَكَّ أنَّهم أعلى مِن سائِرِ النَّاسِ؛ فلذلك جاء به بعْدَ الرَّبِّ، وأمَّا الإلهُ فهو أعلى مِن المَلِكِ؛ ولذلك لا يدَّعي الملوكُ أنَّهم آلهةٌ، فإنَّما الإلهُ واحِدٌ لا شَريكَ له ولا نَظيرَ؛ فلذلك خُتِمَ به[٣].

وقيل: رُتِّبَت أوصافُ اللهِ بالنِّسبةِ إلى النَّاسِ تَرتيبًا مُدرَّجًا؛ فإنَّ اللهَ خالِقُهم، ثمَّ هم غيرُ خارِجينَ عن حُكْمِه إذا شاء أنْ يَتصرَّفَ في شُؤونِهم، ثمَّ زِيدَ بَيانًا بوَصْفِ إلَهيَّتِه لهم؛ ليَتبيَّنَ أنَّ رُبوبيَّتَه لهم وحاكميَّتَه فيهم لَيستْ كرُبوبيَّةِ بَعضِهم بعضًا وحاكميَّةِ بَعضِهم في بَعضٍ[٤].

- وعُرِّفَ (رب) بإضافتِه إلى النَّاسِ دونَ غَيرِهم مِن المَربوبينَ؛ لأنَّ الاستعاذةَ مِن شرٍّ يُلْقِيه الشَّيطانُ في قُلوبِ النَّاسِ، فيَضِلُّون ويُضِلُّون، فالشَّرُّ المُستعاذُ

---

(١) قال أبو السعود: (مَن جعَل مدارَ تخصيصِ الإضافةِ مجرَّدَ كَونِ الاستعاذةِ مِن المَضارِّ المختصَّةِ بالنُّفوسِ البشَريَّةِ فقد قصَّر في تَوفيةِ المقامِ حقَّه). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٢، ٦٣٣).

منه مَصبُّه إلى النَّاسِ، فناسَبَ أنْ يُستحضَرَ المُستعاذُ إليه بعُنوانِ أنَّه ربُّ مَن يُلْقون الشَّرَّ، ومَن يُلْقى إليهم؛ ليَصرِفَ هؤلاء، ويَدفَعَ عن الآخَرينَ، كما يُقالُ لِمَولى العبْدِ: يا مَولى فُلانٍ، كُفَّ عنِّي عَبْدَك[١].

وقيلَ: ذكَر أنَّه رَبُّ النَّاسِ على التَّخصيصِ؛ وذلك لأنَّ أَشرفَ المَخلوقاتِ في العالَمِ هُم النَّاسُ. أو لأنَّ المَأمورَ بالاستِعاذةِ هو الإنسانُ، فإذا قرأَ الإنسانُ هذه، صارَ كأنَّه يقولُ: يا رَبِّ، يا مَلِكي، يا إلَهِي[٢].

- قولُه: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ عطْفُ بَيانٍ؛ جِيءَ به لبَيانِ أنَّ تَربيتَه تعالَى إيَّاهم لَيستْ بطَريقِ تَربيةِ سائرِ المُلَّاكِ لِما تحْتَ أيْديهم مِن مَماليكِهم، بلْ بطَريقِ المُلكِ الكاملِ والتَّصرُّفِ الكُلِّيِّ والسُّلطانِ القاهرِ، وكذا قولُه تعالَى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾؛ فإنَّه لبَيانِ أنَّ مُلْكَه تعالَى ليس بمُجرَّدِ الاستيلاءِ عليهم، والقِيامِ بتَدْبيرِ أُمورِهم، وسِياستِهم، والتَّولِّي لتَرتيبِ مَبادئِ حِفظِهم وحِمايتِهم كما هو قُصارَى أمْرِ المُلوكِ، بلْ هو بطَريقِ المعبوديَّةِ المُؤسَّسةِ على الأُلوهيَّةِ المُقتضيةِ للقُدْرةِ التَّامَّةِ على التَّصرُّفِ الكُلِّيِّ فيهم؛ إحياءً وإماتةً، وإيجادًا وإعدامًا، فقولُه: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ خاصٌّ لا شَرِكةَ فيه، فجُعِلَ غايةً للبَيانِ، ولم يُكتَفَ بإظهارِ المُضافِ إليه -الَّذي هو ﴿ٱلنَّاسِ﴾- مرَّةً واحدةً؛ لأنَّ عطْفَ البيانِ بمَنزلةِ عَلَمٍ للاسمِ المُبيَّنِ، ففيه مَزيدٌ مِن البَيانِ والكشْفِ والتَّقريرِ، فكان مَظِنَّةً للإظهارِ دونَ الإضمارِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٣)، ((إعراب =

وقيل: قَولُه: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ المَلِكُ هو المتَّصِفُ بالأمرِ والنَّهي، وذلك يَختصُّ بالنَّاطِقينَ؛ ولهذا قال: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ ولم يَقُلْ: مَلِكِ الأشياء، وأمَّا قولُه: ﴿ مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ -على قراءةٍ- [الفاتحة: ٤] فتقديرُه: «الْمَلِكُ في يومِ الدِّين»؛ لقولِه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]. ويحتَمِلُ أنْ يكونَ خَصَّ النَّاسَ بالذِّكرِ في قَولِه تعالى: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾؛ لأنَّ المخلوقاتِ جمادٌ ونامٍ، والنَّامي صامتٌ وناطقٌ، والنَّاطقُ متكلِّمٌ وغيرُ متكلِّمٍ، فأشرفُ الجميعِ المتكلِّمُ، وهم ثلاثةٌ: الإنسُ، والجِنُّ، والملائكةُ، وكلُّ مَن عَدَاهم جائزٌ دُخولُه تحتَ قبضتِهم وتصَرُّفِهم، وإذا كان المرادُ بالنَّاسِ في الآيةِ المتكلِّمَ، فمَن مَلَكوه في مُلْكِ مَن مَلَكَهم؛ فكان في حُكْمِ ما لو قال: «مَلِكِ كلِّ شيءٍ»، مع التَّنويهِ بذِكْرِ الأشرَفِ، وهو المتكلِّمُ(١).

- وتَخصيصُ الإضافةِ بالنَّاسِ مع انتظامِ جَميعِ العالَمينَ في سِلكِ رُبوبيَّتِه تعالَى ومَلَكوتيَّتِه وأُلوهيَّتِه؛ للإرشادِ إلى مَنهجِ الاستِعاذةِ المَرْضيَّةِ عندَه تعالَى الحقيقةِ بالإعاذةِ؛ فإنَّ تَوسُّلَ العائذِ بربِّه وانتِسابَه إليه تعالَى بالمَربوبيَّةِ والمَمْلوكيَّةِ والعُبوديَّةِ في ضِمنِ جنسٍ هو فرْدٌ مِن أفرادِه؛ مِن دَواعي مَزيدِ الرَّحمةِ والرَّأفةِ، وأمْرُه تعالَى بذلك مِن دَلائلِ الوعْدِ الكريمِ بالإعاذةِ لا مَحالةَ، ولأنَّ المُستعاذَ منه شرُّ الشَّيطانِ المَعروفِ بعَداوتِهم، ففي التَّنصيصِ على انتظامِهم في سِلكِ عُبوديَّتِه تعالَى ومَلكوتِه رمْزٌ إلى إنْجائِهم مِن ملْكةِ الشَّيطانِ وتَسلُّطِه عليهم، حسبَما يَنطِقُ به قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ

= القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٢٥).

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٦٧). ويُنظر أيضًا: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٧٤).

عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾[1] [الحجر: ٤٢].

- وقيل: خُصَّ النَّاسُ بالذِّكرِ في الثَّلاثةِ الأُولى مع أنَّه تعالَى ربُّ كلِّ شَيءٍ، ومَليكُه، وإلَهُه؛ تَشريفًا لهم، وتَفضيلًا على غَيرِهم[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ﴾ الوَسواسُ اسمٌ بمعْنى الوَسوسةِ، والمرادُ به الشَّيطانُ المُوسوِسُ، سُمِّيَ بالمَصدَرِ مُبالَغةً، كأنَّه وَسوسةٌ في نفْسِه؛ لأنَّها صَنْعَتُه وشُغلُه الَّذي هو عاكفٌ عليه، أو أُرِيدَ ذو الوَسواسِ[3].

وقيل: الوَسواسُ: المُتكلِّمُ بالوَسوسةِ، وهي الكَلامُ الخَفيُّ، فالوَسواسُ اسمُ فاعلٍ، والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡوَسۡوَاسِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ[4].

٣- قولُه تبارك وتعالَى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بَيانٌ للشَّيطانِ المُوَسوِسِ على أنَّ الشيطانَ ضَربانِ: جِنِّيٌّ وإنسيٌّ؛ كما قال تعالَى: ﴿عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام: ١١٢]؛ فـ (مِن) في قَولِه: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بَيانيَّةٌ بيَّنَت الَّذي يُوسوِسُ في صُدورِ النَّاسِ بأنَّه جِنسٌ يَنحَلُّ إلى صِنفَينِ: صِنفٌ مِن الجِنَّةِ، وهو أصْلُه، وصِنفٌ مِن النَّاسِ، وما هو إلَّا تَبَعٌ ووَلِيٌّ للصِّنفِ الأوَّلِ، ووَجْهُ الحاجةِ إلى هذا البَيانِ خَفاءُ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٤، ٦٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٣).

يَنجَرُّ مِن وَسوسةِ نَوعِ الإنسانِ؛ لأنَّ الأُمَمَ اعْتادوا أنْ يُحذِّرَهم المُصلِحون مِن وَسوسةِ الشَّيطانِ، ورُبَّما لا يَخطُرُ بالبالِ أنَّ مِن الوَسواسِ ما هو شَرٌّ مِن وَسواسِ الشَّياطينِ، وهو وَسوسةُ أهلِ نَوعِهم، وهو أشدُّ خطَرًا، وهم بالتَّعوُّذِ منهم أجدَرُ؛ لأنَّهم منهم أقرَبُ، وهُمْ عليهم أخطَرُ، وأنَّهم في وَسائلِ الضُّرِّ أدخَلُ وأقدَرُ. ويَجوزُ أنْ تكونَ ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ للتَّبعيضِ، أي: كائنًا مِن الجِنَّةِ والنَّاسِ، فهي في مَوضعِ الحالِ، أي: ذلك المُوسوسُ هو بَعضُ الجِنَّةِ وبعضُ النَّاسِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿مِنَ﴾ مُتعلِّقًا بلَفظِ ﴿يُوَسْوِسُ﴾، ومعْناهُ: ابتِداءُ الغايةِ، أي: يُوسوِسُ في صُدورِهم مِن جِهةِ الجِنِّ ومِن جِهةِ النَّاسِ(١).

- وفي قَولِه: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قُدِّمَ ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ على ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هنا؛ لأنَّهم أصلُ الوَسواسِ، بخِلافِ تَقديمِ الإنسِ على الجنِّ في قَولِه تعالَى تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]؛ لأنَّ خُبثاءَ النَّاسِ أشدُّ مُخالَطةً للأنبياءِ مِن الشَّياطينِ؛ لأنَّ اللهَ عَصَمَ أنْبياءَه مِن تَسلُّطِ الشَّياطينِ على نُفوسِهم؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]؛ فإنَّ اللهَ أرادَ إبلاغَ وَحْيِه لأنبيائِه، فزَكَّى نُفوسَهم مِن خُبثِ وَسوسةِ الشَّياطينِ، ولم يَعصِمْهم مِن لَحاقِ ضُرِّ النَّاسِ بهم، والكَيدِ لهم؛ لضَعْفِ خَطَرِه؛ قال تعالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ولكنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٢٥).

ضَمِنَ لرُسلِه النَّجاةَ مِن كلِّ ما يَقطَعُ إبلاغَ الرِّسالةِ إلى أنْ يَتِمَّ مُرادُ اللهِ[١].

- وتَكريرُ كَلمةِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في هذه الآياتِ المَرَّتينِ الأُولَيَينِ باعتِبارِ معنًى واحدٍ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لقَصْدِ تَأكيدِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالَى ومُلْكِه وإلَهيَّتِه للنَّاسِ كلِّهم. وأمَّا تَكريرُه المرَّةَ الثَّالثةَ بقولِه: ﴿فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾؛ فهو إظهارٌ مِن أجْلِ بُعدِ المعادِ. وأمَّا تَكريرُه المرَّةَ الرَّابعةَ بقولِه: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾؛ فلأنَّه بَيانٌ لأحَدِ صِنفَيِ الَّذي يُوسوِسُ في صُدورِ النَّاسِ، وذلك غيرُ (ماصَدَقَ)[٢] كَلمةِ النَّاسِ في المرَّاتِ السَّابقةِ، واللهُ يَكْفِينا شَرَّ الفَريقينِ، ويَنفَعُنا بصالِحِ الثَّقلَينِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥، ٦٣٦).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٧٢-١٣٧٥)، ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٧، ٢٥٨)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥١٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٤).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الحمد للّه على التمام

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

تمَّ بفَضلِ اللهِ العظيمِ، ذي الإحسانِ العَميمِ، الفَراغُ من تفسيرِ القرآنِ الكريمِ (التَّفسِيرِ المُحَرَّر) بعد عمل عشرِ سنواتٍ متواصِلة، على نحوٍ جامعٍ شاملٍ، يُعينُ على تدَبُّرِ كتابِ اللهِ ومعْرِفةِ معانيهِ والعَمَلِ بما فيه؛ فالحَمدُ لله الذي هدى ووفَّقَ لهذا، والحَمدُ للهِ الذي بنِعمتِه تتِمُّ الصَّالحاتُ، واللهُ المرجوُّ أن يتقبَّلَ هذا السِّفرَ المبارَكَ بقَبولٍ حَسَنٍ، وأن يضَعَ له القَبولَ بَينَ عِبادِه، فيَظَلَّ نِبراسًا مُضيئًا للدُّروبِ، وهاديًا للقُلوبِ.

ونسألُ الله تبارَك وتعالى أنْ يَجزيَ خيرًا كلَّ مَن شارَك في هذا العملِ مِن الناحيةِ العلميَّةِ أو الفنيَّةِ، أو ساهم في إنجازِه ودعَمه، وأنْ يُثقِّلَ مَوازينَهم.

هذا وما كان في هذا الكتابِ مِن صوابٍ فمِن الله وحدَه، فهو المحمودُ والمستعانُ، وما كان فيه مِن خطأٍ فمنَّا ومِن الشَّيطانِ، ويَأْبى الله إلَّا أنْ يَتَفَرَّدَ بالكمالِ.

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

الفهارس

- فهرس الموضوعات
- فهرس مراجع التفسير المحرر

فهرس الموضوعات

سُورةُ العَلَقِ

أسماءُ السُّورةِ: ٧
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ... ٧
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٨
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٩
الآيات (١-٥) ١٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٠
المعنى الإجماليُّ: ١٠
تَفسيرُ الآياتِ: ١٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٤
بلاغةُ الآياتِ: ٢٣
الآيات (٦-١٩) ٣١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣١
المعنى الإجماليُّ: ٣٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٠
بلاغةُ الآياتِ: ٤٤

سُورةُ القَدْرِ

أسماءُ السُّورةِ: ٥٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٥٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٦٠
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٦٠
الآيات (١-٥) ٦١
المعنى الإجماليُّ: ٦١
تَفسيرُ الآياتِ: ٦١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٩
بلاغةُ الآياتِ: ٧٤

سُورةُ البَيِّنةِ

أسماءُ السُّورةِ: ٨٥
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٨٥
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٨٦
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٨٦
الآيات (١-٥) ٨٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٨٧
المعنى الإجماليُّ: ٨٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٩

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٩٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٩٦
بلاغةُ الآياتِ: ١٠٠
الآيات (٦-٨) ١١٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ١١٢
المعنى الإجماليُّ: ١١٢
تَفسيرُ الآياتِ: ١١٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١١٧
بلاغةُ الآياتِ: ١٢٠

سُورةُ الزَّلْزَلةِ

أسماءُ السُّورةِ: ١٢٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ١٢٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ١٢٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ١٣٠
الآيات (١-٨) ١٣١
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٣١
المعنى الإجماليُّ: ١٣٢
تَفسيرُ الآياتِ: ١٣٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٤٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٤١
بلاغةُ الآياتِ: ١٤٦

سُورةُ العادِياتِ

أسماءُ السُّورةِ: ١٥٣
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ١٥٣
مَقاصِدُ السُّورةِ: ١٥٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ١٥٣
الآيات (١-١١) ١٥٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٥٥
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٥٧
المعنى الإجماليُّ: ١٥٨
تَفسيرُ الآياتِ: ١٥٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٦٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٦٧
بلاغةُ الآياتِ: ١٧١

سُورةُ القارِعَةِ

أسماءُ السُّورةِ: ١٨١
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ١٨١
مَقاصِدُ السُّورةِ: ١٨١
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ١٨١
الآيات (١-١١) ١٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٨٢
المعنى الإجماليُّ: ١٨٣
تَفسيرُ الآياتِ: ١٨٣

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ١٨٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٨٩
بلاغةُ الآياتِ: ١٩٣

سُورةُ التَّكاثُرِ

أسماءُ السُّورةِ: ٢٠٣
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٢٠٣
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٢٠٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٢٠٤
الآيات (١-٨) ٢٠٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٠٥
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٠٥
المعنى الإجماليُّ: ٢٠٧
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٠٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢١٥
بلاغةُ الآياتِ: ٢٢٠

سُورةُ العَصْرِ

أسماءُ السُّورةِ: ٢٢٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٢٢٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٢٢٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٢٢٩
الآيات (١-٣) ٢٣١
المعنى الإجماليُّ: ٢٣١
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٣١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢٣٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٣٧
بلاغةُ الآياتِ: ٢٤٢

سُورةُ الهُمَزَةِ

أسماءُ السُّورةِ: ٢٤٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٢٤٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٢٤٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٢٤٩
الآيات (١-٩) ٢٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٥٠
المعنى الإجماليُّ: ٢٥١
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٥٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٥٨
بلاغةُ الآياتِ: ٢٥٩

سُورةُ الفِيلِ

أسماءُ السُّورةِ: ٢٦٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٢٦٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٢٦٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٢٦٩

الآيات (١-٥) ٢٧٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٧٠
المعنى الإجماليُّ: ٢٧١
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٧١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢٧٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٧٤
بلاغةُ الآياتِ: ٢٧٧

سُورةُ قُرَيْش

أسماءُ السُّورةِ: ٢٨٣
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٢٨٣
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٢٨٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٢٨٣
الآيات (١-٤) ٢٨٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٨٥
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٨٥
المعنى الإجماليُّ: ٢٨٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٨٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٢٨٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٩٠
بلاغةُ الآياتِ: ٢٩١

سُورةُ الماعُونِ

أسماءُ السُّورةِ: ٢٩٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٢٩٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٢٩٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٣٠٠
الآيات (١-٧) ٣٠١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٠١
المعنى الإجماليُّ: ٣٠٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٠٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٠٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٠٩
بلاغةُ الآياتِ: ٣١٢

سُورةُ الكَوْثَرِ

أسماءُ السُّورةِ: ٣١٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٣١٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٣٢٠
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٣٢٠
الآيات (١-٣) ٣٢١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٢١
المعنى الإجماليُّ: ٣٢٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: . ٣٢٧
بلاغةُ الآياتِ: ٣٣٢

سُورةُ الكافِرُونَ

أسماءُ السُّورةِ: ٣٤١
فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها: ٣٤١
بَيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:..... ٣٤٣
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٣٤٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ:..... ٣٤٣
الآيات (١-٦) ٣٤٤
المعنى الإجماليُّ:..... ٣٤٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٤٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:.. ٣٤٩
بلاغةُ الآياتِ: ٣٥٥

سُورةُ النَّصْرِ

أسماءُ السُّورةِ: ٣٧١
فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها: ٣٧١
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:..... ٣٧١
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٣٧١
مَوضوعاتُ السُّورةِ:..... ٣٧٢
الآيات (١-٣) ٣٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٧٣
المعنى الإجماليُّ:..... ٣٧٣
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٣٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:.. ٣٧٨
بلاغةُ الآياتِ: ٣٨١

سُورةُ المَسَدِ

أسماءُ السُّورةِ: ٣٩١
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:..... ٣٩١
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٣٩١
مَوضوعاتُ السُّورةِ:..... ٣٩١
الآيات (١-٥) ٣٩٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٩٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٩٢
المعنى الإجماليُّ:..... ٣٩٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٩٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٣٩٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:.. ٣٩٩
بلاغةُ الآياتِ: ٤٠٢

سُورةُ الإِخْلاصِ

أسماءُ السُّورةِ: ٤٠٩
فضائلُ السُّورة وخصائصُها: ٤١٠
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:..... ٤١٦
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٤١٦
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٤١٦

الآيات (١-٤) ٤١٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤١٧
المعنى الإجماليُّ: ٤١٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٤١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٢١
بلاغةُ الآياتِ: ٤٢٧
سورةُ الفَلَقِ
أسماءُ السُّورةِ: ٤٣٧
فضلُها وخصائصُها: ٤٣٨
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٤٤٠
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٤٤١
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٤٤١
الآيات (١-٥) ٤٤٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٤٢
المعنى الإجماليُّ: ٤٤٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٤٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٥٠
بلاغةُ الآياتِ: ٤٦٠
سورةُ النَّاسِ
أسماءُ السُّورةِ: ٤٦٩
فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها: ٤٦٩
بَيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ: ٤٧٢
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٤٧٢
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ٤٧٢
الآيات (١-٦) ٤٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٧٣
المعنى الإجماليُّ: ٤٧٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٧٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ٤٧٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٨٠
بلاغةُ الآياتِ: ٤٨٤
الفهارس ٤٩٥

فهرس مراجع التفسير المحرر

١- آداب البحث والمناظرة: لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، تحقيق: سعود ابن عبد العزيز العريفي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد - مجمع الفقه الإسلامي بجدة.

٢- الآداب الشرعية والمنح المرعية: لمحمد بن مفلح بن محمد، أبي عبد الله، شمس الدين، الناشر: عالم الكتب.

٣- الإبانة الكبرى: لعبيد الله بن محمد، ابن بَطَّة العكبري، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.

٤- الإبانة عن أصول الديانة: لعلي بن إسماعيل، أبي الحسن الأشعري، تحقيق: فوقية حسين محمود، الناشر: دار الأنصار، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٧هـ.

٥- الإبانة عن معاني القراءات: لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، الناشر: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

٦- إتحاف الخيرة المهرة: لأحمد بن أبي بكر البوصيري، تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمي، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى،١٤٢٠ هـ.

٧- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: لمحمد مرتضى الزبيدي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٨- إتحاف المهرة: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: زهير بن ناصر الناصر، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٩- إتحاف ذوي الألباب في قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: لمرعي بن يوسف الكرمى، ضبط نصه وعلق عليه: حازم خنفر، الناشر: منشورات منتديات كل السلفيين، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م.

١٠- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: لأحمد بن محمد بن أحمد الدمياطي، تحقيق: أنس مهرة، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١١- الإتقان في علوم القرآن: لعبد الرحمن بن أبي بكر، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ.

١٢- آثار ابن باديس: لعبد الحميد محمد بن باديس، تحقيق: عمار طالبي، الناشر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الطبعة: الأولى، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

١٣- اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية: لمحمد بن أبي بكر ابن أيوب، ابن قيم الجوزية، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ.

١٤- الآحاد والمثاني: لابن أبي عاصم، تحقيق: باسم فيصل أحمد الجوابرة، الناشر: دار الراية، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

١٥- الأحاديث المختارة: لمحمد بن عبد الواحد المقدسي، ضياء الدين، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ.

١٦- أحاديث معلة: لمقبل بن هادي الوادعي، الناشر: دار الآثار، اليمن، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ.

١٧- أحكام الأضحية والذكاة (مطبوع ضمن كتاب الصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين): لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثقة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

١٨- الأحكام السلطانية: لعلي بن محمد الماوردي، الناشر: دار الحديث، القاهرة.

١٩- أحكام القرآن الكريم: لأحمد بن محمد بن سلامة، الطحاوي، تحقيق: سعد الدين أونال، الناشر: مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركي، إستانبول، الطبعة: الأولى، المجلد (١): ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، المجلد (٢): ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٢٠- أحكام القرآن للشافعي: لأحمد بن الحسين الخراساني، كتب هوامشه: عبد الغني عبد الخالق، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢١- أحكام القرآن: لأحمد بن علي، أبي بكر الجصاص، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٢- أحكام القرآن: لعبد المنعم بن عبد الرحيم، ابن الفرس، تحقيق: طه بن علي بوسريح، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٢٣- أحكام القرآن: لعلي بن محمد بن علي، الكيا الهراسي، تحقيق: موسى محمد علي وعزت عيد عطية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ.

٢٤- أحكام القرآن: لمحمد بن عبد الله، ابن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا،

الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ.

٢٥- إحكام النظر في أحكام النظر بحاسة البصر: لعلي بن محمد، أبي الحسن ابن القطان، تحقيق: إدريس الصمدي، راجعه وضبطه: فاروق حمادة، الناشر: دار القلم، دمشق، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

٢٦- أحكام أهل الذمة: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: يوسف ابن أحمد البكري، وشاكر بن توفيق العاروري، الناشر: رمادى للنشر، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٧- الإحكام في أصول الأحكام: لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٢٨- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: لمحمد بن عبد الله، أبي الوليد الأزرقي، دراسة وتحقيق: علي عمر، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة: الأولى.

٢٩- اختلاف الأئمة العلماء: ليحيى بن هُبَيْرَة بن محمد، تحقيق: السيد يوسف أحمد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٣٠- الاختيارات الفقهية (لابن تيمية): لعلي بن محمد بن عباس ابن اللحام، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٧هـ.

٣١- الإخنائية (أو الرد على الإخنائي): لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: أحمد ابن مونس العنزي، الناشر: دار الخراز، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٢- أدب الدنيا والدين: لعلي بن محمد، الماوردي، الناشر: دار مكتبة الحياة، تاريخ النشر: ١٩٨٦م.

٣٣- أدب الكاتب: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: محمد الدالي، الناشر: مؤسسة الرسالة.

٣٤- الأدب المفرد: لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ.

٣٥- الأذكار: ليحيى بن شرف النووي، الناشر: مكتبة المؤيد، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٣٦- الأذكار: ليحيى بن شرف النووي، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٣٧- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود): لمحمد ابن محمد بن مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٨- إرشاد الفحول: لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، الناشر:

دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٣٩- إرواء الغليل: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩هـ.

٤٠- إزالة الإشكال عن آية ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: لمنصور العيدي، الطبعة: الأولى، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م.

٤١- الأزمنة والأمكنة: لأحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٤٢- أساب نزول القرآن: لعلي بن أحمد الواحدي، تحقيق: ماهر ياسين الفحل، الناشر: دار الميمان، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

٤٣- الاستذكار: ليوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.

٤٤- الاستغاثة في الرد على البكري: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، دراسة وتحقيق: عبد الله بن دجين السهلي، الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

٤٥- الاستقامة: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ.

٤٦- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ليوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٤٧- أسد الغابة في معرفة الصحابة: لعلي بن أبي الكرم محمد، ابن الأثير، الناشر: دار الفكر، بيروت عام النشر: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٤٨- أسرار التكرار في القرآن (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان): لمحمود بن حمزة بن نصر، الكرماني، (تاج القراء)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض، الناشر: دار الفضيلة.

٤٩- أسرار ترتيب القرآن (تناسق الدُّرر في تناسب السُّور): لعبد الرحمن ابن أبي بكر السُّيوطي، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، الناشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢م.

٥٠- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: لمحمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، الناشر: مكتبة السنة، الطبعة: الرابعة.

٥١- اشتقاق أسماء الله: لعبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق: عبد رب الحسين المبارك، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٥٢- الإصابة في تمييز الصحابة: لأحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

٥٣- إصلاح المنطق: ليعقوب بن إسحاق، ابن السكيت، تحقيق: محمد مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٥٤- الأصنام: لهشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق: أحمد زكي باشا، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة: الرابعة، ٢٠٠٠م.

٥٥- أصول السرخسي: لمحمد بن أحمد بن أبي سهل، السرخسي، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٥٦- أصول الفقه (إجابة السائل شرح بغية الآمل): لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، تحقيق: القاضي حسين بن أحمد السياغي وحسن محمد مقبولي الأهدل، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٦م.

٥٧- أصول الفقه: لمحمد بن مفلح، شمس الدين، حققه وعلق عليه وقدم له: فهد بن محمد السَّدَحَان، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

٥٨- الأضداد: لمحمد بن القاسم، أبي بكر الأنباري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

٥٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، الناشر: دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.

٦٠- الاعتصام: لإبراهيم بن موسى، الشاطبي، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الناشر: دار ابن عفان، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٦١- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث: لأحمد ابن الحسين، أبي بكر البيهقي، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠١هـ.

٦٢- الإعجاز والإيجاز: لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبي منصور الثعالبي، الناشر: مكتبة القرآن، القاهرة.

٦٣- إعراب القرآن الكريم: لقاسم حميدان دعاس، الناشر: دار المنير، دار الفارابى،

دمشق، ١٤٢٥هـ.

٦٤- إعراب القرآن وبيانه: لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، الناشر: دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص، دار اليمامة، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤١٥ هـ.

٦٥- إعراب القرآن: لأحمد بن محمد، أبي جعفر النَّحَّاس، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ.

٦٦- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم: للحسين بن أحمد بن خالويه، أبي عبد الله، الناشر: مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٦٠هـ-١٩٤١م).

٦٧- إعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث النبوي: لعبد الله بن الحسين، أبي البقاء العكبري، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي، الناشر: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٦٨- أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري): لحمد بن محمد الخطابي، تحقيق: محمد ابن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، الناشر: جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

٦٩- أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة (٢٠٠ سؤال وجواب في العقيدة الاسلامية): لحافظ بن أحمد بن علي الحكمي، تحقيق: حازم القاضي، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٢هـ.

٧٠- أعلام الموقعين عن رب العالمين: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٧١- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض.

٧٢- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض.

٧٣- الإقناع في القراءات السبع: لأحمد بن علي بن أحمد، ابن الباذش، الناشر: دار الصحابة للتراث.

٧٤- الإقناع في مسائل الإجماع: لعلي بن محمد الفاسي، أبي الحسن ابن القطان، تحقيق: حسن فوزي الصعيدي، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى،

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

٧٥- آكام المرجان في أحكام الجان: لمحمد بن عبد الله الشبلي، تحقيق: إبراهيم محمد الجمل، الناشر: مكتبة القرآن، مصر، القاهرة.

٧٦- الإكليل في استنباط التنزيل: لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٧٧- الإكليل في المتشابه والتأويل: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، خرج أحاديثه وعلق عليه: محمد الشيمي شحاته، الناشر: دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر.

٧٨- إكمال المعلم بفوائد مسلم: لعياض بن موسى بن عياض، تحقيق: يحيى إسماعيل، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٧٩- أمالي ابن الحاجب: لعثمان بن عمر، ابن الحاجب، دراسة وتحقيق: فخر صالح سليمان قدارة، الناشر: دار عمار، الأردن، دار الجيل، بيروت عام النشر: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٨٠- أمراض القلب وشفاؤها: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، الناشر: المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩هـ.

٨١- الأموال: لحميد بن مخلد، ابن زنجويه، تحقيق: شاكر ذيب فياض، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٨٢- الأموال: للقاسم بن سلام، أبي عبيد، تحقيق: خليل محمد هراس، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٨٣- الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار: ليحيى بن أبي الخير العمراني، تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف، الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٨٤- الانتصار للقرآن: لمحمد بن الطيب، أبي بكر الباقلاني، تحقيق: محمد عصام القضاة، الناشر: دار الفتح، عَمَّان، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.

٨٥- الأنساب: لعبد الكريم بن محمد السمعاني، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢هـ.

٨٦- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين، البصريين والكوفيين: لعبد الرحمن بن محمد، الأنباري، الناشر: المكتبة العصرية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٨٧- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف: لعلي بن سليمان المرداوي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية.

٨٨- أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل: لمحمد بن أبي بكر، زين الدين الرازي، تحقيق: عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى، الناشر: دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ، ١٩٩١ م.

٨٩- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: لعبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٩٠- أهوال القبور: لعبد الرحمن بن أحمد بن رجب، تحقيق: عاطف صابر شاهين، الناشر: دار الغد الجديد، المنصورة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٩١- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: لعبد الله بن يوسف، ابن هشام، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٩٢- إيضاح الوقف والابتداء: لمحمد بن القاسم، أبي بكر الأنباري، تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، الناشر: مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق عام النشر: ١٣٩٠هـ -١٩٧١م.

٩٣- الإيمان ومعالمه، وسننه، واستكماله، ودرجاته: للقاسم بن سلام، أبي عبيد، تحقيق: محمد نصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م.

٩٤- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث: لإسماعيل ابن كثير، تحقيق: أحمد محمد شاكر عناية: مكتب الأجهوري للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥ هـ.

٩٥- باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن: لمحمود بن أبي الحسن (علي) بن الحسين الغزنوي، الشهير بـ (بيان الحق)، تحقيق: سعاد بنت صالح (رسالة علمية)، الناشر: جامعة أم القرى، مكة المكرمة، عام النشر: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٩٦- البحر المحيط في أصول الفقه: لمحمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، الناشر: دار الكتبي، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٩٧- البحر المحيط في التفسير: لمحمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٩٨- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: لأحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة،

تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: حسن عباس زكي، القاهرة، الطبعة: ١٤١٩هـ.

٩٩- بداية المجتهد ونهاية المقتصد: لمحمد بن أحمد، أبي الوليد ابن رشد الحفيد، الناشر: دار الحديث، القاهرة، تاريخ النشر: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٠٠- البداية والنهاية: لإسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٠١- البداية والنهاية: لإسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٠٢- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: لعلاء الدين الكاساني الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، سنة النشر: ١٩٨٢م.

١٠٣- بدائع الفوائد: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت.

١٠٤- البرهان فى تناسب سور القرآن: لأحمد بن إبراهيم بن الزبير، أبي جعفر الغرناطي، تحقيق: محمد شعباني، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب، ١٤١٠هـ.

١٠٥- البرهان في علوم القرآن: لمحمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

١٠٦- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: لمحمد بن يعقوب الفيروزابادى، تحقيق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ.

١٠٧- البصائر والذخائر: لعلي بن محمد بن العباس، أبي حيان التوحيدي، تحقيق: وداد القاضي، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١٠٨- بغية الطلب في تاريخ حلب: لعمر بن أحمد بن هبة الله، ابن العديم، تحقيق: سهيل زكار، الناشر: دار الفكر.

١٠٩- بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: موسى الدويش، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥هـ.

١١٠- البلاغة العربية: لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني، الناشر: دار القلم، دمشق،

الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.

١١١- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: لفاضل صالح السامرائي، الناشر: شركة العاتك لصناعة الكتاب للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١١٢- بيان المعاني: لعبد القادر بن ملا حويش السيد محمود آل غازي العاني، الناشر: مطبعة الترقي، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٥م.

١١٣- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

١١٤- البيان في مذهب الإمام الشافعي: ليحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني، تحقيق: قاسم محمد النوري، الناشر: دار المنهاج، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ- ٢٠٠٠ م.

١١٥- البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة: لمحمد بن أحمد بن رشد، أبي الوليد، تحقيق: محمد حجي وآخرون، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

١١٦- تاج العروس من جواهر القاموس: لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

١١٧- تاريخ أصبهان (أخبار أصبهان): لأحمد بن عبد الله، أبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: سيد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠م.

١١٨- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك): لمحمد بن جرير، أبي جعفر الطبري، ومعه (صلة تاريخ الطبري): لعريب بن سعد القرطبي، الناشر: دار التراث، بيروت، الطبعة: الثانية - ١٣٨٧ هـ.

١١٩- تاريخ الطبري: لمحمد بن جرير، أبي جعفر الطبري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

١٢٠- تاريخ المدينة: لعمر بن شبة البصري، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، عام النشر: ١٣٩٩ هـ.

١٢١- تاريخ بغداد: لأحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

١٢٢- تاريخ دمشق: لعلي بن الحسن بن هبة الله، ابن عساكر، تحقيق: عمرو ابن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

١٢٣- تأويل مشكل القرآن: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٤- التبصرة في القراءات السبع: لمكي بن أبي طالب، تحقيق: محمد غوث الندوي، الناشر: الدار السلفية، الهند، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٢٥- التبصرة: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

١٢٦- التبصرة: لعلي بن محمد الربعي، اللخمي، دراسة وتحقيق: أحمد عبد الكريم نجيب، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.

١٢٧- التبيان في إعراب القرآن: لعبد الله بن الحسين العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٢٨- التبيان في أقسام القرآن: لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

١٢٩- التبيان في تفسير غريب القرآن: لأحمد بن محمد، ابن الهائم، الناشر: دار الصحابة للتراث بطنطا، مصر، الطبعة: الأولى، ١٩٩٢م.

١٣٠- التبيان في تفسير غريب القرآن: لأحمد بن محمد، ابن الهائم، تحقيق: ضاحي عبد الباقي محمد، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

١٣١- التجريد: لأحمد بن محمد القدوري، تحقيق: مركز الدراسات الفقهية والاقتصادية (محمد أحمد سراج - علي جمعة محمد)، الناشر: دار السلام، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٣٢- تحبير التيسير في القراءات العشر: لمحمد بن محمد بن يوسف، ابن الجزري، تحقيق: أحمد محمد مفلح القضاة، الناشر: دار الفرقان، الأردن، عمان، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٣٣- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: لعبد العظيم بن عبد الواحد، ابن أبي الإصبع، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي.

١٣٤- تحرير ألفاظ التنبيه: ليحيى بن شرف النووي، تحقيق: عبد الغني الدقر، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٣٥- التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد): لمحمد الطاهر بن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٣٦- التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل: لأحمد بن عمار المهدوي، تحقيق: مجموعة من الباحثين، إصدارات وزراة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

١٣٧- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣٨- تحفة المودود بأحكام المولود: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٣٩١هـ.

١٣٩- تحقيق منيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة: لخليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي، تحقيق: عبد الرحيم محمد أحمد القشقري، الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.

١٤٠- تخريج الكشاف: لعبد الله بن يوسف الزيلعي، تحقيق: سلطان فهد الطبيشي، الناشر: دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

١٤١- التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار: لعبد الرحمن بن أحمد ابن رجب، تحقيق: بشير محمد عيون، دار النشر: مكتبة المؤيد، الطائف، الطبعة: الثانية، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

١٤٢- تذكرة الأريب في تفسير الغريب: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: طارق فتحي السيد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ.

١٤٣- ترتيب الأمالي الخميسية: ليحيى بن الحسين الشجري، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ.

١٤٤- الترغيب والترهيب: لإسماعيل بن محمد بن الفضل الملقب بقوام السنة، تحقيق: أيمن بن صالح بن شعبان، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

١٤٥- التسعينية: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، دراسة وتحقيق: محمد بن إبراهيم العجلان، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٤٦- التسهيل لعلوم التنزيل: لمحمد بن أحمد، ابن جزي، تحقيق: عبد الله الخالدي،

الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ.

١٤٧- تشنيف المسامع بجمع الجوامع: لمحمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، دراسة وتحقيق: سيد عبد العزيز - عبد الله ربيع، الناشر: مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.

١٤٨- تعظيم قدر الصلاة: لمحمد بن نصر المَروزي، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، الناشر: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٤٩- تعليق مختصر على كتاب لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد: لمحمد بن صالح العثيمين، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: مكتبة أضواء السلف، الطبعة: الثالثة ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

١٥٠- تفسير ابن أبى حاتم: لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا.

١٥١- تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)): لعبد الحميد محمد الصنهاج، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه: أحمد شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١٥٢- تفسير ابن عرفة: لمحمد بن محمد ابن عرفة، تحقيق: جلال الأسيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨م.

١٥٣- التفسير البسيط: لعلي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، تحقيق: مجموعة محققين (أصل تحقيقه في ١٥رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد ابن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه)، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ.

١٥٤- التفسير البياني للقرآن الكريم: لعائشة محمد علي عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، الناشر: دار المعارف، القاهرة، الطبعة: السابعة.

١٥٥- تفسير الثوري: لسفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٥٦- تفسير الجلالين: لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى.

١٥٧- تفسير الراغب الأصفهاني: للحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق الجزء

الأول: محمد عبد العزيز بسيوني، الناشر: كلية الآداب - جامعة طنطا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ. تحقيق الجزء الثاني والثالث: عادل بن علي الشِّدِي، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ. تحقيق الجزء الرابع والخامس: هند بنت محمد بن زاهد سردار، الناشر: كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٥٨- تفسير الشعراوي: لمحمد متولي الشعراوي، الناشر: مطابع أخبار اليوم سنة ١٩٩١م.

١٥٩- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): لمحمد رشيد بن علي رضا، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١٦٠- تفسير القرآن العزيز: لمحمد بن عبد الله بن عيسى، ابن أبي زمنين، تحقيق: حسين ابن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكنز، الناشر: الفاروق الحديثة، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٦١- تفسير القرآن العظيم: لابن المنذر، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩ هـ.

١٦٢- تفسير القرآن العظيم: لإسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ.

١٦٣- تفسير القرآن الكريم - الفاتحة والبقرة: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٦٤- تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

١٦٥- تفسير القرآن الكريم - سورة النور: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ.

١٦٦- تفسير القرآن الكريم- جزء عم: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٦٧- تفسير القرآن الكريم- سورة الأحزاب: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ.

١٦٨- تفسير القرآن الكريم- سورة الحديد: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ.

١٦٩- تفسير القرآن الكريم- سورة الروم: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧٠- تفسير القرآن الكريم- سورة الزمر: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧١- تفسير القرآن الكريم- سورة السجدة: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧٢- تفسير القرآن الكريم- سورة الشعراء: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ.

١٧٣- تفسير القرآن الكريم- سورة الشورى: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ هـ.

١٧٤- تفسير القرآن الكريم- سورة العنكبوت: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧٥- تفسير القرآن الكريم- سورة الفرقان: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ.

١٧٦- تفسير القرآن الكريم- سورة القصص: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧٧- تفسير القرآن الكريم- سورة النساء: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ.

١٧٨- تفسير القرآن الكريم- سورة النمل: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧٩- تفسير القرآن الكريم- سورة سبأ: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٨٠- تفسير القرآن الكريم- سورة غافر: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ هـ.

١٨١- تفسير القرآن الكريم- سورة فاطر: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة

الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٨٢- تفسير القرآن الكريم- سورة فصلت: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ هـ.

١٨٣- تفسير القرآن الكريم- سورة لقمان: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٨٤- تفسير القرآن الكريم- سورة يس: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ.

١٨٥- تفسير القرآن: لمنصور بن محمد السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

١٨٦- التفسير القرآني للقرآن: لعبد الكريم يونس الخطيب، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة.

١٨٧- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة): لمحمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، تحقيق: مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

١٨٨- تفسير المراغي: لأحمد بن مصطفى المراغي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

١٨٩- التفسير المظهري: للمظهري، محمد ثناء الله، تحقيق: غلام نبي التونسي، الناشر: مكتبة الرشدية، الباكستان، الطبعة: ١٤١٢ هـ.

١٩٠- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: لوهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤١٨ هـ.

١٩١- تفسير الموطأ: لعبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الأنصاري، أبو المطرف القَنَازِعي، حققه وقدم له وخرج نصوصه: عامر حسن صبري، الناشر: دار النوادر - بتمويل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

١٩٢- التفسير الوسيط للقرآن الكريم: لمحمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧م- ١٩٩٨م.

١٩٣- تفسير آيات أَشكلت على كثير من العلماء: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق:

عبد العزيز بن محمد الخليفة، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

١٩٤- تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس): لمحمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجد، تحقيق: محمد بلتاجي، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١٩٥- تفسير سورة النور: لمحمد الأمين الشنقيطي، الناشر: دار المجتمع، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.

١٩٦- تفسير عبد الرزاق: لعبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني، تحقيق: محمود محمد عبده، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

١٩٧- تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم: لمحمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي، تحقيق: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، الناشر: مكتبة السنة، القاهرة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٩٨- تفسير مقاتل بن سليمان: لمقاتل بن سليمان، أبي الحسن البلخى، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

١٩٩- تفسير يحيى بن سلام: ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، تقديم وتحقيق: هند شلبي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

٢٠٠- تقريب التدمرية: لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٢٠١- تقريب الوصول إلى علم الأصول (مطبوع مع: الإشارة في أصول الفقه): لمحمد ابن جزي الكلبي، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢٠٢- التقييد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد: لأحمد بن محمد البسيلي التونسي، الناشر: كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

٢٠٣- تلخيص العلل المتناهية: لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: ياسر إبراهيم محمد، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ه

٢٠٤- تلخيص كتاب الاستغاثة (الرد على البكري): لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد علي عجال، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٢٠٥- تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد (شرح التسهيل): لمحمد بن يوسف، ناظر الجيش، دراسة وتحقيق: علي محمد فاخر وآخرين، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ.

٢٠٦- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: ليوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، الطبعة: الأولى، ١٣٨٧هـ.

٢٠٧- التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه: لعبد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق: دار الكتب والوثائق القومية - مركز تحقيق التراث، الناشر: مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة: الثانية ٢٠٠٠ م.

٢٠٨- تهذيب الآثار (الجزء المفقود): لمحمد بن جرير، أبي جعفر الطبري، تحقيق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٢٠٩- تهذيب الأسماء واللغات: ليحيى بن شرف النووي، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١٠- تهذيب اللغة: لمحمد بن أحمد بن الأزهري، أبي منصور، تحقيق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

٢١١- توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم: لأحمد بن إبراهيم بن حمد، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٦هـ.

٢١٢- التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولي الألباب في طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، الناشر: دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.

٢١٣- التوضيح لشرح الجامع الصحيح: لعمر بن علي ابن الملقن، تحقيق: خالد الرباط وجمعة فتحي، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ١٤٢٩هـ.

٢١٤- توضيح مقاصد العقيدة الواسطية: لعبد الرحمن بن ناصر البراك، الناشر: دار التدمرية، الطبعة: الثالثة، ١٤٣٢ هـ.

٢١٥- التوقيف على مهمات التعاريف: لمحمد المدعو بعبد الرؤوف ابن تاج العارفين المناوي، الناشر: عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٢١٦- التيجان في ملوك حمير: لعبد الملك بن هشام الحميري المعافري، تحقيق: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، الناشر: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، الجمهورية العربية اليمنية، الطبعة: الأولى، ١٣٤٧ هـ.

٢١٧- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢١٨- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢١٩- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري): لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي - بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٢٠- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري): لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، محمود محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢٢١- جامع الرسائل: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: دار العطاء، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٢٢- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم: لعبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: السابعة: ١٤٢٢هـ.

٢٢٣- جامع المسائل: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد عزير شمس، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٢٤- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري): لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٢٥- جامع بيان العلم وفضله: ليوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

٢٢٦- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): لمحمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ.

٢٢٧- جزء في تفسير الباقيات الصالحات: لخليل بن كيكلدي العلائي، تحقيق: بدر الزمان محمد شفيع النيالي، الناشر: مكتبة الإيمان، المدينة المنورة.

٢٢٨- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار العروبة، الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ.

٢٢٩- جلباب المرأة المسلمة: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار السلام للنشر والتوزيع، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢ م.

٢٣٠- جمال القراء وكمال الإقراء: لعلي بن محمد بن الشافعي، دراسة وتحقيق: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي (أصل الكتاب رسالة دكتوراة)، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢٣١- الجمل في النحو: للخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي، تحقيق: فخر الدين قباوة، الطبعة: الخامسة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٢٣٢- جمهرة الأمثال: للحسن بن عبد الله العسكري، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٢٣٣- جمهرة اللغة: لمحمد بن الحسن بن دُرَيد الأزدي، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.

٢٣٤- جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر: جمعها وقرأها وقدم لها: عادل سليمان جمال، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م.

٢٣٥- الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: مجموعة محققين، الناشر: دار العاصمة، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ.

٢٣٦- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية،

الناشر: دار المعرفة، ١٤١٨هـ.

٢٣٧- الجواهر الحسان في تفسير القرآن: لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، تحقيق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ.

٢٣٨- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: مطبعة المدني، القاهرة.

٢٣٩- حاشية السِّندي على سنن النسائي: لمحمد بن عبد الهادي، نور الدين السندي، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٢٤٠- حاشية السندي على مسند الإمام أحمد بن حنبل: لمحمد بن عبد الهادي السندي، تحقيق: طارق عوض الله، الناشر: دار المأثور للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٣١ه - ٢٠١٠ م.

٢٤١- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوي): لأحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، الناشر: دار صادر، بيروت.

٢٤٢- حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي: لمحمد ابن مصلح الدين بن مصطفى، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢٤٣- حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي: لإسماعيل بن محمد ومصلح الدين بن إبراهيم الرومي المحقق: عبد الله محمود مُحَمَّد عمر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٢٤٤- الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي: لعلي بن محمد بن محمد، الماوردي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٩ م.

٢٤٥- حجة القراءات: لعبد الرحمن بن محمد ابن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، الناشر: دار الرسالة.

٢٤٦- الحجة في القراءات السبع: للحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، الناشر: دار الشروق، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠١هـ.

٢٤٧- الحجة في بيان المحجة: لقَوَّام السنة أبي القاسم الأصبهاني، تحقيق: محمد بن ربيع المدخلي، ومحمد أبو رحيم، الناشر: دار الراية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٢٤٨- الحجة للقراء السبعة: للحسن بن أحمد بن عبد الغفار، تحقيق: بدر الدين قهوجي وبشير جويجابي، راجعه ودققه: عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق ، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.

٢٤٩- حراسة الفضيلة: لبكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الحادية عشر، ١٤٢٦هـ.

٢٥٠- حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر: لشيث بن إبراهيم بن محمد بن حيدرة، أبي الحسن القفطي، المعروف بابن الحاج القناوي، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

٢٥١- حسن التنبه لما ورد في التشبه: لمحمد بن محمد الغزي، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.

٢٥٢- الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت بالسيف بين يدي الساعة: لعبد الرحمن بن أحمد بن رجب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار المأمون، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٩٩٠م.

٢٥٣- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأحمد بن عبد الله، أبي نعيم الأصبهاني، الناشر: السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٢٥٤- حلية الأولياء: لأحمد بن عبد الله، أبي نعيم الأصبهاني، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠٥هـ.

٢٥٥- حماسة الخالديين (الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين): لمحمد بن هاشم الخالدي، وسعيد بن هاشم الخالدي، تحقيق: محمد علي دقة، الناشر: وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، عام النشر: ١٩٩٥م.

٢٥٦- حياة الحيوان الكبرى: لمحمد بن موسى بن عيسى، أبي البقاء الدميري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ.

٢٥٧- الحيوان: لعمرو بن بحر الجاحظ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ.

٢٥٨- خلق أفعال العباد: لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، الناشر: دار المعارف السعودية، الرياض.

٢٥٩- خلق الإنسان بين الطب والقرآن: لمحمد علي البار، الناشر: الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٦٠- الدُّر المصون في علوم الكتاب المكنون: لأحمد بن يوسف، السمين الحلبي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.

٢٦١- الدُّر المنثور: لعبد الرحمن بن أبي بكر السُّيوطي، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٢٦٢- درء تعارض العقل والنقل (أو: موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول): لأحمد ابن عبد الحليم، ابن تيمية، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧ هـ.

٢٦٣- الدراري المضية: لمحمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

٢٦٤- دراسات لأسلوب القرآن الكريم: لمحمد عبد الخالق عضيمة، تصدير: محمود محمد شاكر، الناشر: دار الحديث، القاهرة، .

٢٦٥- الدراية في تخريج أحاديث الهداية: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الناشر: مكتبة الفيصلية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ.

٢٦٦- الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية: لعبد الرحمن ابن ناصر سعدي، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود، الناشر: أضواء السلف، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٢٦٧- درة التنزيل وغرة التأويل: لمحمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي، دراسة وتحقيق وتعليق: محمد مصطفى آيدين، الناشر: جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها، معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٢٦٨- درج الدرر في تفسير الآي والسور: لعبد القاهر بن عبد الرحمن، الجرجاني، دراسة وتحقيق: (الفاتحة والبقرة) وليد بن أحمد بن صالح الحسين، (وشاركه في بقية الأجزاء): إياد عبد اللطيف القيسي، الناشر: مجلة الحكمة، بريطانيا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٢٦٩- الدرر السنية في الأجوبة النجدية: جمعه عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة: السادسة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٢٧٠- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: لمحمد الأمين بن محمد المختار

الشنقيطي، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، توزيع: مكتبة الخراز، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

٢٧١- دلائل النبوة: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، دار الريان للتراث القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢٧٢- دليل البلاغة القرآنية - سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران: لمحمد بن سعد الدبل، الناشر: بدون، الطبعة: الثانية، ١٤٣١هـ.

٢٧٣- ديوان الإمام الشافعي: تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة: الثانية - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢٧٤- ديوان العرجي: جمعه وحققه وشرحه: سجيع جميل الجبيلي الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٨م.

٢٧٥- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: لعبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

٢٧٦- ديوان المتنبي: لأحمد بن حسين، أبي الطيب المتنبي، الناشر: دار بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٧٧- ديوان النمر بن تولب العكلي: جمع وشرح وتحقيق: محمد نبيل طريفي، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م.

٢٧٨- ديوان امرئ القيس: لامرئ القيس بن حجر الكندي، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٢٧٩- ديوان زهير بن أبي سلمى: شرحه وقدم له: الأستاذ علي حسن فاعور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٨٠- الذخيرة: لأحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، القرافي، تحقيق: جزء (١، ٨، ١٣): محمد حجي جزء (٢، ٦): سعيد أعراب جزء (٣ - ٥، ٧، ٩ - ١٢): محمد بو خبزة، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤م.

٢٨١- الذريعة إلى مكارم الشريعة: للحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: أبو اليزيد أبو زيد العجمي، الناشر: دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

٢٨٢- ذم الهوى: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد مراجعة: محمد الغزالي .

٢٨٣- ذيل طبقات الحنابلة: لعبد الرحمن بن أحمد بن رجب، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

٢٨٤- الرحلة في طلب الحديث: لأحمد بن علي بن ثابت، أبي بكر الخطيب البغدادي، تحقيق: نور الدين عتر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٥هـ.

٢٨٥- الرد على الجهمية والزنادقة: لأحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: صبري بن سلامة شاهين، الناشر: دار الثبات للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى.

٢٨٦- الرد على الجهمية: لعثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، الناشر: دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٢٨٧- الرد على الشاذلي في حزبيه، وما صنفه في آداب الطريق: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: علي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ.

٢٨٨- الرد على المنطقيين: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٢٨٩- الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب: لمحمد بن محمود بن أحمد البابرتى، تحقيق: (جـ ١) ضيف الله بن صالح بن عون العمرى - (جـ ٢) ترحيب بن ربيعان الدوسري، الناشر: مكتبة الرشد ناشرون، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٩٠- رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الله بن محمد المديفر، الناشر: مطابع الشرق الأوسط، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢٩١- الرسالة الأكملية في ما يجب لله من صفات الكمال: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، الناشر: مطبعة المدني، المؤسسة السعودية، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٩٢- الرسالة التبوكية (زاد المهاجر إلى ربه): لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد جميل غازي، الناشر: مكتبة المدني، جدة.

٢٩٣- الرسالة القشيرية: لعبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق: عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، الناشر: دار المعارف، القاهرة.

٢٩٤- رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب: لعلي بن إسماعيل، أبي الحسن الأشعري، تحقيق: عبد الله شاكر محمد الجنيدي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٤١٣هـ.

٢٩٥- الرقة والبكاء: لعبد الله بن محمد، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، الناشر: دار ابن حزم، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٢٩٦- رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز: لعبد الرازق بن رزق الله الرسعني، دراسة وتحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

٢٩٧- روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي): لعبد الرحمن ابن أحمد ابن رجب، جمع وترتيب: طارق بن عوض الله بن محمد، الناشر: دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٩٨- روح البيان: لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٢٩٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لمحمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٣٠٠- الرُّوح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدَّلائل من الكتاب والسُّنة: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٠١- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام: لعبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٣٠٢- الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم صلَّى اللَّه عليه وسلَّم (وعليه حواشٍ لجماعةٍ من العلماء منهم الأمير الصنعاني): لمحمد بن إبراهيم، ابن الوزير، اعتنى به: علي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

٣٠٣- الروض المعطار في خبر الأقطار: لمحمد بن عبد الله الحِميرى، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٨٠م.

٣٠٤- روضة الطالبين وعمدة المفتين: ليحيى بن شرف النووي، تحقيق: زهير الشاويش،

الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان، الطبعة: الثالثة، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٣٠٥- روضة المحبين ونزهة المشتاقين: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٠٦- رياض الصالحين: ليحيى بن شرف النووي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٣٠٧- رياض الصالحين: ليحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٤هـ.

٣٠٨- زاد المسير في علم التفسير: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٠٩- زاد المعاد في هدي خير العباد: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون: ١٤١٥هـ.

٣١٠- الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي: لمحمد بن أحمد بن الأزهري، تحقيق: مسعد عبد الحميد السعدني، الناشر: دار الطلائع.

٣١١- الزاهر في معاني كلمات الناس: لمحمد بن القاسم، أبي بكر الأنباري، تحقيق: حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.

٣١٢- الزهد والورع والعبادة: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق: حماد سلامة ومحمد عويضة، الناشر: مكتبة المنار، الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

٣١٣- الزهد: لأحمد بن محمد بن حنبل، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٣١٤- الزهر النضر في حال الخضر: لأحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: صلاح مقبول أحمد، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية - جوغابائي نيودلهي، الهند، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٣١٥- زهرة التفاسير: لمحمد بن أحمد بن مصطفى أبو زهرة، الناشر: دار الفكر العربي.

٣١٦- سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد: لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق وتعليق: عادل أحمد

عبد الموجود، وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

٣١٧- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: لمحمد ابن أحمد الخطيب الشربيني، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة، ١٢٨٥هـ.

٣١٨- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى.

٣١٩- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى.

٣٢٠- السنة: لأبي بكر ابن أبي عاصم، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ.

٣٢١- سنن ابن ماجه: لمحمد بن يزيد، ابن ماجه القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٣٢٢- سنن أبي داود: لسليمان بن الأشعث، أبي داود السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الفكر.

٣٢٣- سنن الترمذي: لمحمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد بن محمد شاكر، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: بدون، بدون

٣٢٤- سنن الترمذي: لمحمد بن عيسى، أبي عيسى الترمذي ، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٢٥- سنن الدارقطني: لعلي بن عمر الدارقطني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ.

٣٢٦- سنن الدارقطني: لعلي بن عمر الدارقطني، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبدالموجود، الناشر: دار المعرفة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٢٧- سنن الدارقطني: لعلي بن عمر، أبي الحسن الدارقطني، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: بدون، ١٣٨٦هـ.

٣٢٨- سنن الدارمي: لعبد الله بن عبدالرحمن، أبي محمد الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

٣٢٩- السنن الصغير: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.

٣٣٠- السنن الكبرى: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة: الأولى، ١٣٤٤هـ.

٣٣١- السنن الكبرى: لأحمد بن شعيب، أبي عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٣٣٢- سنن النسائي: لأحمد بن شعيب، أبي عبدالرحمن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٣٣٣- سنن سعيد بن منصور: لسعيد بن منصور، أبي عثمان، تحقيق: سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، الناشر: دار العصيمي، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

٣٣٤- سير أعلام النبلاء: لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م.

٣٣٥- سيرة ابن إسحاق: لمحمد بن إسحاق بن يسار، تحقيق: محمد حميد الله، الناشر: معهد الدراسات والأبحاث للتعريف.

٣٣٦- السيرة النبوية: لعبد الملك بن هشام المعافري، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥م.

٣٣٧- السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار: لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

٣٣٨- شجرة المعارف والأحوال وصالح الأعمال: لعز الدين بن عبد السلام السلمي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ.

٣٣٩- شرح (مسائل الجاهلية لمحمد بن عبد الوهاب): لصالح بن فوزان ابن عبد الله الفوزان، الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٥م.

٣٤٠- شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك: لمحمد ابن الإمام جمال الدين محمد

ابن مالك، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م.

٣٤١- شرح أسماء الله الحسنى: لعبد السلام بن عبد الرحمن الإشبيلي، دار الكتب العلمية.

٣٤٢- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: لهبة الله بن الحسن اللالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، الناشر: دار طيبة، السعودية، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٣٤٣- شرح الأربعين النووية: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا للنشر.

٣٤٤- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك: لعلي بن محمد بن عيسى، نور الدين الأُشْمُوني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨مـ.

٣٤٥- شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو: لخالد بن عبد الله الجرجاوي الأزهري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٣٤٦- شرح السنة: للحسين بن مسعود بن محمد البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٤٧- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن): للحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٣٤٨- شرح العقيدة الأصفهانية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: حسين محمد مخلوف، الناشر: دار الكتب الإسلامية.

٣٤٩- شرح العقيدة الأصفهانية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد بن رياض الأحمد، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة: الأولى، - ١٤٢٥هـ.

٣٥٠- شرح العقيدة السفارينية (الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية): لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ.

٣٥١- شرح العقيدة الطحاوية: لمحمد بن علاء الدين علي، ابن أبي العز، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد الله بن المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: العاشرة،

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣٥٢- شرح العقيدة الواسطية: لمحمد بن صالح العثيمين، تحقيق: سعد فواز الصميل، الناشر: دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة: الخامسة: ١٤١٩هـ.

٣٥٣- شرح العقيدة الواسطية: لمحمد خليل هراس، تعليق: محمد بن صالح بن عثيمين، تحقيق: علوي بن عبد القادر السقاف، الناشر: الدرر السنية، الظهران، الطبعة: الثامنة، ١٤٣٦هـ.

٣٥٤- شرح العمدة في بيان مناسك الحج والعمرة: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، تحقيق: صالح بن محمد الحسن، الناشر: مكتبة الحرمين، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

٣٥٥- شرح الكوكب المنير: لمحمد بن أحمد الفتوحي، ابن النجار، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة: الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ م.

٣٥٦- شرح الواحدي لديوان المتنبي: تحقيق: ياسين الأيوبي وقصي الحسين، الناشر: دار الرائد العربي، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٣٥٧- شرح تسهيل الفوائد: لمحمد بن عبد الله، ابن مالك، تحقيق: عبد الرحمن السيد، محمد بدوي المختون، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٣٥٨- شرح ثلاثة الأصول: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا للنشر، الطبعة: الرابعة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٣٥٩- شرح ديوان الحماسة: لأحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، تحقيق: غريد الشيخ وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

٣٦٠- شرح ديوان المتنبي: لعبد الرحمن البرقوقي، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة: الأولى، ١٩٨٦م.

٣٦١- شرح رياض الصالحين: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: ١٤٢٦ هـ.

٣٦٢- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: لعبد الله بن يوسف بن أحمد، جمال الدين، ابن هشام، تحقيق: عبد الغني الدقر، الناشر: الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا.

٣٦٣- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: لمحمد بن عبد المنعم الجوجري، تحقيق: نواف بن جزاء الحارثي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٤م.

٣٦٤- شرح صحيح البخارى: لعلي بن خلف بن عبد الملك، ابن بطال، تحقيق: ياسر ابن إبراهيم، الناشر: مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٣٦٥- شرح عمدة الفقه (من أول كتاب الصلاة إلى آخر باب آداب المشي إلى الصلاة): لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: خالد بن علي بن محمد المشيقح، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٣٦٦- شرح عمدة الفقه (من كتاب الطهارة والحج): لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: سعود صالح العطيشان، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ.

٣٦٧- شرح قواعد الإعراب: لمحمد بن مصطفى القُوجَوي، شيخ زاده، دراسة وتحقيق: إسماعيل إسماعيل مروة، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

٣٦٨- شرح كتاب سيبويه: للحسن بن عبد الله السيرافي، تحقيق: أحمد حسن مهدلي، وعلي سيد علي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨ م.

٣٦٩- شرح كفاية المتحفظ (تحرير الرواية في تقرير الكفاية): لمحمد بن الطيب الفاسي، تحقيق: علي حسين البواب، الناشر: دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٧٠- شرح مختصر التحرير: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ محمد ابن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٣٧١- شرح مختصر الروضة: لسليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٧٢- شرح مختصر الطحاوي: لأحمد بن علي، أبي بكر الرازي، تحقيق: عصمت الله عنايت الله محمد، ومحمد عبيد الله خان، وزينب محمد حسن فلاتة، أعد الكتاب للطباعة وراجعه وصححه: سائد بكداش، الناشر: دار البشائر الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

٣٧٣- شرح مراقي السعود المسمى (نثر الورود): لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، تحقيق: علي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع .

٣٧٤- شرح مشكل الآثار: لأحمد بن محمد بن سلامة، أبي جعفر الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٤٩٤ م.

٣٧٥- شرح مشكل الوسيط: لعثمان بن عبد الرحمن، ابن الصلاح، تحقيق: عبد المنعم خليفة أحمد بلال، الناشر: دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.

٣٧٦- شرح مصابيح السنة: لمحمد بن عز الدين عبد اللطيف، ابن الملك، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، الناشر: إدارة الثقافة الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

٣٧٧- شرح معاني الآثار: لأحمد بن محمد بن سلامة، أبي جعفر الطحاوي، تحقيق: محمد زهري النجار ومحمد سيد جاد الحق، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

٣٧٨- شرح مقدمة التفسير: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

٣٧٩- شرح نظم الورقات: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ.

٣٨٠- شعب الإيمان: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.

٣٨١- شعب الإيمان: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: عبد العلي عبد الحميد حامد، وأشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٣٨٢- الشعر والشعراء: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الناشر: دار الحديث، القاهرة عام النشر: ١٤٢٣ هـ.

٣٨٣- الشفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي عياض بن موسى (مذيلًا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء) لأحمد بن محمد الشمنى، الناشر: دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع: ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

٣٨٤- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، الناشر: دار المعرفة، بيروت : ١٣٩٨هـ.

٣٨٥- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: لنشوان بن سعيد الحميرى، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري ومطهر بن علي الإرياني ويوسف محمد عبد الله، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

٣٨٦- الصارم المسلول على شاتم الرسول: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: الحرس الوطني السعودي، المملكة العربية السعودية.

٣٨٧- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

٣٨٨- صحيح ابن حبان: لمحمد بن حبان بن أحمد، أبي حاتم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ.

٣٨٩- صحيح ابن خزيمة: لمحمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: بدون، ١٣٩٠هـ.

٣٩٠- صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصديق، الطبعة: الأولى ١٤١٤هـ.

٣٩١- صحيح البخاري: لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، الناشر: المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ.

٣٩٢- صحيح الترغيب والترهيب: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ.

٣٩٣- صحيح الجامع الصغير: لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ.

٣٩٤- الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين: لمقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة دار القدس، صنعاء، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٣٩٥- الصحيح المسند من أسباب النزول: لمقبل بن هادي الوادعي، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ.

٣٩٦- الصحيح المسند من أسباب النزول: لمقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة: الرابعة ١٤٠٨هـ.

٣٩٧- الصحيح المسند من دلائل النبوة: لمقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة صنعاء الأثرية، الطبعة: الثانية ١٤٢٤هـ.

٣٩٨- صحيح سنن ابن ماجه: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

٣٩٩- صحيح سنن أبي داود: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٤٠٠- صحيح سنن الترمذي: لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤٠١- صحيح سنن النسائي: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٤٠٢- صحيح مسلم: لمسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٤هـ.

٤٠٣- صحيح موارد الظمآن: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصميعي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤٠٤- صفات الله عزَّ وجلَّ الواردة في الكتاب والسُّنة: لعَلَوي بن عبد القادر السَّقَّاف، الناشر: الدرر السنية، الظهران، الطبعة: الرابعة، ١٤٣٢هـ.

٤٠٥- صفة جزيرة العرب: للحسن بن أحمد، ابن الحائك الهمداني، الناشر: مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٤ م.

٤٠٦- الصَّفدية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: مكتية ابن تيمية، مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٤٠٧- صفوة البيان لمعاني القرآن: لحسنين محمد مخلوف، الناشر: لجنة الاحتفالات بمقدم القرن الخامس عشر الهجري، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢ ه- ١٩٨٢م.

٤٠٨- الصلاة وأحكام تاركها: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: مكتبة الثقافة،

المدينة المنورة.

٤٠٩- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطِّلة: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤١٠- صيد الخاطر: لعبد الرحمن بن علي بن محمد، أبي الفرج ابن الجوزي، بعناية: حسن المساحي سويدان، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٤١١- ضعيف الأدب المفرد: لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: بدون، الناشر: دار الصديق، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

٤١٢- ضعيف الترغيب والترهيب: لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: بدون، الناشر: مكتبة المعارف، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.

٤١٣- ضعيف الجامع الصغير: لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ.

٤١٤- ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة: لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الرابعة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٤١٥- الضياء اللامع من الخطب الجوامع: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٤١٦- طبقات الشافعية الكبرى: لعبد الوهاب بن علي، تاج الدين السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ.

٤١٧- الطبقات الكبرى: لمحمد بن سعد بن منيع، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.

٤١٨- الطبقات الكبرى: لمحمد بن سعد، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٦٨م.

٤١٩- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ليحيى بن حمزة، المؤيد بالله، الناشر: المكتبة العنصرية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

٤٢٠- طرح التثريب في شرح التقريب: لعبد الرحيم بن الحسين العراقي - أكمله ابنه: أحمد بن عبد الرحيم، أبو زرعة ولي الدين، الطبعة المصرية القديمة، وصورتها دور عدة منها (دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ودار الفكر العربي).

٤٢١- طريق الهجرتين وباب السعادتين: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار السلفية، القاهرة، الطبعة: الثانية ١٣٩٤هـ.

٤٢٢- عارضة الأحوذي: لمحمد بن عبدالله، ابن العربي، تحقيق: صدقي جميل العطار، الناشر: دار الفكر، تاريخ النشر: ١٤١٥هـ

٤٢٣- عالم الملائكة الأبرار: لعمر بن سليمان الأشقر، الناشر: مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

٤٢٤- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٤٢٥- العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦هـ.

٤٢٦- العرش: لمحمد بن أحمد بن عثمان، الذهبي، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٤٢٧- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: لأحمد بن علي، بهاء الدين السبكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٤٢٨- العظمة: لعبد الله بن محمد، أبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق: رضاء الله ابن محمد إدريس المباركفوري، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤٢٩- العقود: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، وناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة السنة المحمدية، الطبعة: الأولى، ١٣٨٦هـ.

٤٣٠- العلل المتناهية: لعبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: إرشاد الحق الأثري، الناشر: إدارة ترجمان السنة.

٤٣١- عمدة التفسير: لأحمد بن محمد شاكر، الناشر: دار الوفاء، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦هـ.

٤٣٢- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: لأحمد بن يوسف بن عبد الدائم، السمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٤٣٣- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: لمحمود بن أحمد العيني، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٣٤- العنوان في القراءات السبع: لإسماعيل بن خلف بن سعيد المقرئ السرقسطي، تحقيق: زهير زاهد وخليل العطية، الناشر: عالم الكتب، بيروت عام النشر: ١٤٠٥هـ.

٤٣٥- العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم: لمحمد بن إبراهيم، ابن الوزير، حققه وضبط نصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٤٣٦- العيال: لعبد الله بن محمد، ابن أبي الدنيا، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، الناشر: دار ابن القيم، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٤٣٧- عيون الأخبار: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٨هـ.

٤٣٨- غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني: لأحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني، دراسة وتحقيق: محمد مصطفي كوكصو، الناشر: جامعة صاقريا كلية العلوم الاجتماعية، تركيا: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٤٣٩- غرائب التفسير وعجائب التأويل: لمحمود بن حمزة بن نصر الكرماني، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة.

٤٤٠- غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب: لمحمد بن عُزير السجستاني، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، الناشر: دار قتيبة، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.

٤٤١- غريب القرآن: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: أحمد صقر، الناشر: دار الكتب العلمية، : ١٣٩٨ هـ.

٤٤٢- الغريبين في القرآن والحديث: لأحمد بن محمد الهروي، تحقيق ودراسة: أحمد فريد المزيدي، قدم له وراجعه: فتحي حجازي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٤٤٣- غوامض الأسماء المبهمة والأحاديث المسندة في القرآن: لعبد الرحمن ابن

عبد الله السهيلي، تحقيق: هيثم عياش، الناشر: دار الفكر العربي، دار الوسام، ١٩٨٨م.

٤٤٤- الفتاوى الكبرى: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، ومصطفى عبدالقادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤٤٥- فتاوى اللجنة الدائمة - المجموعة الأولى: جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، الناشر: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء - الإدارة العامة للطبع، الرياض.

٤٤٦- فتاوى نور على الدرب: لعبدالعزيز بن عبد الله بن باز، الناشر: الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء- الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ.

٤٤٧- فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٤٤٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، الناشر: المكتبة السلفية، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٤٤٩- فتح الباري: لعبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: طارق بن عوض الله، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤٢٢هـ.

٤٥٠- فتح البيان في مقاصد القرآن: لمحمد صديق خان، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، ١٤١٢هـ.

٤٥١- الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني: لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمد صبحي حلاق، الناشر: مكتبة الجيل الجديد، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

٤٥٢- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: لزكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي، تحقيق: محمد علي الصابوني، الناشر: دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٤٥٣- فتح الرحمن في تفسير القرآن: لمجير الدين بن محمد العليمي، اعتنى به تحقيقًا وضبطًا وتخريجًا: نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر (إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - إدارة الشؤون الإسلامية)، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٤٥٤- فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧هـ ـ ١٢٧٦هـ) اعتنى به: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، الناشر: دار الفضيلة، الجزائر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٤٥٥- الفتح القدسي في آية الكرسي: لإبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: سعود بن عبد الله الفنيسان، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٤٥٦- فتح القدير (مطبوع مع الهداية للمرغيناني ونتائج الأفكار لقاضي زاده): لكمال الدين محمد بن عبد الواحد، ابن الهمام، الناشر: دار الفكر.

٤٥٧- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: لمحمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

٤٥٨- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار زمزم، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ.

٤٥٩- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: لعبد الرحمن بن حسن بن محمد ابن عبد الوهاب، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، الطبعة: السابعة: ١٣٧٧هـ.

٤٦٠- فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام: لمحمد بن صالح العثيمين، تحقيق وتعليق: صبحي بن محمد رمضان، أم إسراء بنت عرفة بيومي، الناشر: المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م.

٤٦١- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف): لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج، القسم الدراسي: جميل بني عطا، المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.

٤٦٢- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية (حاشية الجمل على الجلالين): لسليمان بن عمر، المعروف بالجمل، الناشر: المطبعة الشرفية العامرة، مصر، الطبعة: الأولى، سنة ١٣٠٣هـ.

٤٦٣- الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية: لمحمد بن علان الصديقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٦٤- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية: لعبد القاهر بن طاهر البغدادي، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٧٧م.

٤٦٥- الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق): لأحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، القرافي، الناشر: عالم الكتب.

٤٦٦- الفروق اللغوية: للحسن بن عبد الله ، أبي هلال العسكري، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

٤٦٧- الفصل في الملل والأهواء والنحل: لأبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة.

٤٦٨- الفصول المفيدة في الواو المزيدة: لخليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي، تحقيق: حسن موسى الشاعر، الناشر: دار البشير، عمان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٤٦٩- فضائل القرآن: لإسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: أبي إسحاق الحويني، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.

٤٧٠- فضائل القرآن: للقاسم بن سلام، أبي عبيد، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، الناشر: دار ابن كثير (دمشق، بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ-١٩٩٥م.

٤٧١- فضل قيام الليل والتهجد: لمحمد بن الحسين الآجري، تحقيق: عبد اللطيف بن محمد الجيلاني الآسفي، الناشر: دار الخضيري، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٤٧٢- فقه أشراط الساعة: لمحمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، الناشر: الدار العالمية للنشر والتوزيع، الطبعة: السادسة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٤٧٣- فقه اللباس والزينة: إعداد القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية. إشراف علوي بن عبد القادر السقاف، الطبعة: الأولى. ١٤٣٨ هـ.

٤٧٤- فقه اللغة وسر العربية: لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبي منصور الثعالبي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٤٧٥- الفقيه والمتفقه: لأحمد بن علي، أبي بكر الخطيب البغدادي، المحقق: عادل بن يوسف الغرازي، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ.

٤٧٦- فهم القرآن ومعانيه: للحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق: حسين القوتلي، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٨هـ.

٤٧٧- الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية: لنعمة الله بن محمود النخجواني، الشيخ علوان، الناشر: دار ركابي للنشر، الغورية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٤٧٨- فوائد مستنبطة من سورة يوسف عليه السلام: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى به وعلق عليه: أشرف بن عبد المقصود، الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٤٧٩- الفوائد: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣هـ.

٤٨٠- فيض القدير شرح الجامع الصغير: لعبد الرؤوف المناوي، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦هـ.

٤٨١- القاموس المحيط: لمحمد بن يعقوب الفيروزابادى، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثامنة: ١٤٢٦هـ.

٤٨٢- القدر: لجعفر بن محمد الفريابي، تحقيق: عبد الله بن حمد المنصور، الناشر: أضواء السلف، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م.

٤٨٣- القرآن ونقض مطاعن الرهبان: لصلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

٤٨٤- قضاء الأرب في أسئلة حلب: لعلي بن عبد الكافي، تقي الدين السبكي، تحقيق محمد عالم عبد المجيد الأفغاني المكتبة التجارية، مكة المكرمة مصطفى أحمد الباز.

٤٨٥- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان: لأحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: إبراهيم الإبياري، الناشر: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م.

٤٨٦- قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن: لمرعي بن يوسف الكرمى، تحقيق: سامي عطا حسن، الناشر: دار القرآن الكريم، الكويت.

٤٨٧- قواعد الأحكام في مصالح الأنام: لعبد العزيز بن عبد السلام، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

٤٨٨- القواعد الحسان لتفسير القرآن: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٤٨٩- قواعد العقائد: لمحمد بن محمد الغزالي، تحقيق: موسى محمد علي، الناشر: عالم الكتب، لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤٩٠- القواعد النورانية الفقهية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٧٠هـ.

٤٩١- القواعد والأصول وتطبيقات التدبر: لخالد بن عثمان السبت، الناشر: دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦م.

٤٩٢- القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع: لمحمد بن عبدالرحمن السخاوي، تحقيق: بشير محمد عيون، الناشر: مكتبة المؤيد.

٤٩٣- القول السديد شرح كتاب التوحيد: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: المرتضى الزين أحمد، الناشر: مجموعة التحف النفائس الدولية، الطبعة: الثالثة.

٤٩٤- القول المحمود في تنزيه داود (عليه السلام): لتقي الدين السبكي الشافعي، قدم لها وعلق عليها: حسام الحفناوي.

٤٩٥- القول المفيد على كتاب التوحيد: لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ.

٤٩٦- الكامل في التاريخ: لعلي بن أبي الكرم محمد، ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٤٩٧- الكامل في الضعفاء: لعبد الله بن عدي بن عبدالله، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ.

٤٩٨- الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها: ليوسف بن علي، أبي القاسم اليشكري ، تحقيق: جمال بن السيد بن رفاعي الشايب، الناشر: مؤسسة سما للتوزيع والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

٤٩٩- الكامل في اللغة والأدب: لمحمد بن يزيد، أبي العباس المبرد ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٥٠٠- كتاب التوحيد: لمحمد بن عبد الوهاب النجدي، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: أبو مالك الرياشي أحمد بن علي بن كثنى القفيلي، الناشر: مكتبة عبد الرحمن، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٥٠١- كتاب الصيام من شرح العمدة: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، الناشر: دار الأنصاري، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٥٠٢- كتاب العين: للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٥٠٣- الكتاب: لعمرو بن عثمان، سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

٥٠٤- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (تفسير الزمخشري): لمحمود ابن عمرو الزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٥٠٥- كشف الأسرار شرح أصول البزدوي: لعبد العزيز بن أحمد، علاء الدين البخاري، الناشر: دار الكتاب الإسلامي.

٥٠٦- كشف المشكل من حديث الصحيحين: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، الناشر: دار الوطن، الرياض.

٥٠٧- كشف المعانى فى المتشابه من المثانى: لمحمد بن إبراهيم، بدر الدين ابن جماعة، تحقيق: عبد الجواد خلف، الناشر: دار الوفاء، المنصورة، مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٥٠٨- الكشف والبيان عن تفسير القرآن: لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٥٠٩- الكفاية في علم الرواية: لأحمد بن علي بن ثابت، أبي بكر الخطيب البغدادي، تحقيق: أبي عبد الله السورقي، وإبراهيم حمدي المدني، الناشر: المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

٥١٠- الكليات: لأيوب بن موسى، أبي البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥١١- كناشة النوادر: لعبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

٥١٢- الكنز الثمين في سؤالات ابن سنيد: لابن عثيمين إعداد: فهد بن عبد الله بن إبراهيم السنيد، الناشر: الدار العالمية للنشر والتوزيع.

٥١٣- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: لمحمد بن يوسف، شمس الدين الكرماني، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان الطبعة الأولى: ١٣٥٦هـ -

١٩٣٧م، الطبعة الثانية: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٥١٤- اللامات: لعبد الرحمن بن إسحاق، أبي القاسم الزجاجي، تحقيق: مازن المبارك، الناشر: دار الفكر، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٥١٥- لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن): لعلي بن محمد ابن إبراهيم الخازن، تحقيق: محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٥١٦- اللباب في علوم الكتاب: لعمر بن علي بن عادل، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ.

٥١٧- لسان العرب: لمحمد بن مكرم ابن منظور، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٤هـ.

٥١٨- لطائف الإشارات: لعبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة: الثالثة.

٥١٩- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف: لعبد الرحمن بن رجب الحنبلي، الناشر: دار ابن حزم للطبع والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ.

٥٢٠- لقط المرجان في أحكام الجان: لجلال الدين السيوطي، دراسة وتحقيق: مصطفى عاشور الناشر: مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

٥٢١- لمعة الاعتقاد: لعبد الله بن أحمد، ابن قدامة، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٥٢٢- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية: لمحمد بن أحمد السفاريني، الناشر: مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م.

٥٢٣- مباحث التفسير: لأحمد بن محمد، بدر الدين الرازي، دراسة وتحقيق: حاتم بن عابد بن عبد الله القرشي، الناشر: كنوز إشبيليا، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٥٢٤- مباحث في إعجاز القرآن: لمصطفى مسلم، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٥٢٥- المبسوط في القراءات العشر: لأحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابورى، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، الناشر: مجمع اللغة العربية، دمشق: ١٩٨١ م.

٥٢٦- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لنصر الله بن محمد، ابن الأثير الكاتب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠ هـ.

٥٢٧- مجاز القرآن: معمر بن المثنى، أبي عبيدة البصري، تحقيق: محمد فواد سزگين، الناشر: مكتبة الخانجى، القاهرة، الطبعة: ١٣٨١ هـ.

٥٢٨- مجالس ثعلب: لأحمد بن يحيى ثعلب، شرح وتعليق: عبد السلام محمد هارون. النشرة الثانية، دار المعارف مصر.

٥٢٩- المجروحين: لمحمد بن حبان البستي، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، الناشر: دار الصميعي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٥٣٠- مجلة المنار: مجموعة من المؤلفين، محمد رشيد بن علي رضا وغيره.

٥٣١- مجمع الأمثال: لأحمد بن محمد النيسابوري، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٥٣٢- مجمع الزوائد: لعلي بن أبي بكر الهيثمي، الناشر: مؤسسة المعارف، ١٤٠٦هـ.

٥٣٣- مجموع الفتاوى: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، اعتنى بها: أنور الباز، وعامر الجزار، الناشر: دار الوفاء، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦هـ.

٥٣٤- مجموع الفتاوى: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم، الطبعة: الأولى ١٣٩٨هـ.

٥٣٥- مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي: لعبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: طلعت بن فؤاد الحلواني، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ.

٥٣٦- مجموع فتاوى ومقالات متنوعة: لعبد العزيز بن باز، جمع وإشراف: محمد بن سعد الشويعر، الناشر: دار القاسم للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى: ١٤٢٠ هـ.

٥٣٧- المجموع: ليحيى بن شرف النووي، الناشر: دار الفكر.

٥٣٨- مجموعة الرسائل والمسائل: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، علق عليه: السيد

محمد رشيد رضا، الناشر: لجنة التراث العربي.

٥٣٩- مجموعة رسائل في التوحيد والإيمان (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الأول): لمحمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجد، تحقيق: إسماعيل بن محمد الأنصاري، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٥٤٠- محاسن التأويل: لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٥٤١- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: لعثمان بن جني، أبي الفتح الموصلي، الناشر: وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الطبعة: ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٥٤٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية): لعبد الحق ابن غالب ابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥٤٣- المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة: لخالد بن سليمان المزيني، الناشر: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ.

٥٤٤- المحكم والمحيط الأعظم: لعلي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.

٥٤٥- المحلى بالآثار: لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٥٤٦- المحلى: لابن حزم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الجيل.

٥٤٧- مختار الصحاح: لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر، زين الدين الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٥٤٨- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم: لمحمد ابن محمد ابن عبد الكريم ابن الموصلي، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥٤٩- مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية: لمحمد بن علي البعلي، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار ابن القيم، الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٥٥٠- مختصر فقه الصلاة: إعداد القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، الناشر: مؤسسة الدرر السنية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ.

٥٥١- مختصر فقه الطهارة: إعداد القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، الناشر: الدرر السنية، الظهران، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥هـ.

٥٥٢- المختصر في تفسير القرآن الكريم: تصنيف: جماعة من علماء التفسير، إشراف: مركز تفسير للدراسات القرآنية، الطبعة: الثالثة، ١٤٣٦هـ.

٥٥٣- مختصر منهاج القاصدين: لأحمد بن عبد الرحمن، أبي العباس ابن قدامة، قدم له: الأستاذ محمد أحمد دهمان، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق عام النشر: ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م.

٥٥٤- المخصص: لعلي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: خليل إبراهم جفال، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٥٥٥- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ.

٥٥٦- مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي): لعبد الله بن أحمد ابن محمود حافظ الدين النسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي - راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٥٥٧- مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة: لزغلول النجار، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٥٥٨- المذكر والمؤنث: لمحمد بن القاسم، أبي الحسن الأنباري، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة مراجعة: رمضان عبد التواب، الناشر: جمهورية مصر العربية - وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

٥٥٩- مذكرة في أصول الفقه: لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الخامسة، ٢٠٠١م.

٥٦٠- مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات: لعلي بن أحمد بن سعيد ابن حزم الظاهري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٦١- مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: لمحمد بن عمر نووي الجاوي، تحقيق: محمد أمين الصناوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٥٦٢- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: لعبد المؤمن بن عبد الحق، القطيعي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٥٦٣- مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع: لجلال الدين السيوطي، قرأه وتممه: عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ.

٥٦٤- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: لعلي بن سلطان محمد الملا الهروي القاري، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥٦٥- المسائل البصريات: لأبي علي الفارسي، تحقيق: محمد الشاطر أحمد محمد أحمد، الناشر: مطبعة المدني، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٥٦٦- المستدرك: لمحمد بن عبد الله، أبي عبد الله الحاكم، تحقيق: عبد السلام بن محمد ابن عمر علوش، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧هـ.

٥٦٧- المستدرك: لمحمد بن عبدالله، الحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٥٦٨- مسند ابن عباس: لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني، القاهرة.

٥٦٩- مسند أبي عوانة: ليعقوب بن إسحاق، أبي عوانة، تحقيق: بدون، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٥٧٠- مسند أبي يعلى: لأحمد بن علي بن المثنى، أبي يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة: بدون، ١٤٠٤هـ.

٥٧١- مسند أحمد: لأحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.

٥٧٢- مسند البزار: لأحمد بن عمرو بن عبد الخالق، أبي بكر البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، الناشر: مؤسسة علوم القرآن، بيروت ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، الطبعة: بدون، ١٤٠٩هـ.

٥٧٣- مسند الحارث: للحارث ابن أبي أسامة، تحقيق: حسين أحمد صالح الباكري، الناشر: مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ.

٥٧٤- مسند الحميدي: لعبد الله بن الزبير، أبي بكر الحميدي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة.

٥٧٥- مسند الطيالسي: لسليمان بن داود، أبي داود الطيالسي، تحقيق: محمد عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٥٧٦- مسند عبد بن حميد: لعبد الحميد بن حميد، تحقيق: مصطفى العدوي، الناشر: دار بلنسية للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ.

٥٧٧- مشارق الأنوار على صحاح الآثار: للقاضي عياض بن موسى، الناشر: المكتبة العتيقة ودار التراث.

٥٧٨- مشكل إعراب القرآن: لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ.

٥٧٩- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (المقصد الأسمى في مطابقة اسم كل سورة للمسمى): لإبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٥٨٠- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: لأحمد بن محمد بن علي الفيومي، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت.

٥٨١- مصنف ابن أبي شيبة: لعبدالله بن محمد، أبي بكر بن أبي شيبة، تحقيق: محمد عوامة، الناشر: طبعة الدار السلفية الهندية القديمة.

٥٨٢- مصنف عبدالرزاق: لعبدالرزاق بن همام، أبي بكر الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.

٥٨٣- المطالب العالية: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: غنيم بن عباس بن غنيم وآخر، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٥٨٤- مطالع الأنوار على صحاح الآثار: لإبراهيم بن يوسف، ابن قرقول، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

٥٨٥- المطلع على ألفاظ المقنع: لمحمد بن أبي الفتح البعلي، تحقيق: محمود الأرناؤوط وياسين محمود الخطيب، الناشر: مكتبة السوادي للتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣ م.

٥٨٦- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول: لحافظ بن أحمد ابن علي الحكمي، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، الناشر: دار ابن القيم، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.

٥٨٧- معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي): للحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٥٨٨- معالم السنن (شرح سنن أبي داود): لحمد بن محمد الخطابي، الناشر: المطبعة العلمية، حلب، الطبعة: الأولى، ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢م.

٥٨٩- معاني القرآن: لأبي الحسن الأخفش، تحقيق: هدى محمود قراعة، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٥٩٠- معاني القراءات: لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، الناشر: مركز البحوث في كلية الآداب- جامعة الملك سعود، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٥٩١- معاني القرآن وإعرابه: لإبراهيم بن السري بن سهل، أبي إسحاق الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٥٩٢- معاني القرآن: لأحمد بن محمد، أبي جعفر النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، الناشر: جامعة أم القرى، مكة المرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٥٩٣- معاني القرآن: ليحيى بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الطبعة: الأولى.

٥٩٤- معجم (مقاييس اللغة): لأحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

٥٩٥- معجم ابن الأعرابي: لأبي سعيد ابن الأعرابي، تحقيق: عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ.

٥٩٦- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): لياقوت بن عبد الله الحموي،

تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

٥٩٧- المعجم الأوسط: لسليمان بن أحمد، أبي القاسم الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

٥٩٨- معجم البلدان: لياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م.

٥٩٩- معجم الصحابة: لعبد الله بن محمد، أبي القاسم البغوي، تحقيق: محمد الأمين بن محمد الجكني، الناشر: مكتبة دار البيان، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .

٦٠٠- المعجم الصغير: لسليمان بن أحمد، أبي القاسم الطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، دار عمار، عمان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

٦٠١- معجم الفروق اللغوية: للحسن بن عبد الله، أبي هلال العسكري، تحقيق: بيت الله بيات، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٦٠٢- المعجم الكبير: لسليمان بن أحمد، أبي القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية، ١٩٨٣م.

٦٠٣- المعجم الوسيط: قام بإخراجه (إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار) إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر: دار الدعوة.

٦٠٤- معجم متن اللغة: لأحمد رضا، الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت: ١٣٧٧ - ١٣٨٠هـ.

٦٠٥- المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم: لموهوب بن أحمد، أبي منصور الجواليقي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، الناشر: مطبعة دار الكتب، الطبعة: الثانية، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

٦٠٦- معرفة السنن والآثار: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي بباكستان، دار الوعي حلب، دار قتيبة دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٦٠٧- معرفة الصحابة: لأحمد بن عبد الله، أبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: عادل بن يوسف

العزازي، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٦٠٨- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: لعبد الله بن يوسف، ابن هشام، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر، دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م.

٦٠٩- المغني: لعبد الله بن أحمد بن محمد، أبي محمد موفق الدين ابن قدامة، الناشر: مكتبة القاهرة: ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

٦١٠- مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني: لمحمد بن محمود، أبي العلاء الكرماني، دراسة وتحقيق: عبد الكريم مصطفى مدلج، تقديم: محسن عبد الحميد، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٦١١- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): لمحمد بن عمر، فخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٦١٢- مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار: لعبد العزيز بن محمد السلمان.

٦١٣- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٦١٤- المفردات في غريب القرآن: للحسين بن محمد، الراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٦١٥- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: لجواد علي، الناشر: دار الساقي، الطبعة: الرابعة ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٦١٦- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: لأحمد بن عمر، أبي العباس القرطبي، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو وأحمد محمد السيد ويوسف علي بديوي ومحمود إبراهيم بزال، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

٦١٧- المقاصد الحسنة: لمحمد بن عبدالرحمن السخاوي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، الناشر: دار الكتب العربي، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ.

٦١٨- المقتضب: لمحمد بن يزيد بن عبد الأكبر، أبي العباس المبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، الناشر: عالم الكتب، بيروت.

٦١٩- المقدمات الممهدات: محمد بن أحمد، أبي الوليد ابن رشد، تحقيق: محمد

حجي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٦٢٠- المكتفى في الوقف والابتدا: لعثمان بن سعيد الداني، تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، الناشر: دار عمار، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٦٢١- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: لأحمد بن إبراهيم بن الزبير، أبي جعفر الغرناطي ، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٢٢- ملخص فقه العبادات: إعداد القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، إشراف علوي ابن عبد القادر السقاف، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ هـ.

٦٢٣- الملل والنحل: لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الناشر: مؤسسة الحلبي.

٦٢٤- المنار المنيف في الصحيح والضعيف: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة: الأولى، ١٣٩٠هـ -١٩٧٠م.

٦٢٥- منار الهدى في بيان الوقف والابتدا: لأحمد بن عبد الكريم الأشموني ومعه المقصد لتلخيص ما في المرشد لزكريا بن محمد الأنصاري، تحقيق: شريف أبو العلا العدوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

٦٢٦- مناقب الإمام أحمد: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٩ هـ.

٦٢٧- مناهج الجدل في القرآن الكريم: لزاهر عواض الألمعي، الطبعة: الثانية، ١٤٠٠هـ.

٦٢٨- المنتخب من غريب كلام العرب: لعلي بن الحسن الهنائي الأزدي، تحقيق: محمد ابن أحمد العمري، الناشر: جامعة أم القرى (معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٦٢٩- المنتقى: لعبدالله بن علي بن الجارود، تحقيق: عبدالله عمر البارودي، الناشر: مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٦٣٠- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ.

٦٣١- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: ليحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢ هـ.

٦٣٢- المهذب في فقة الإمام الشافعي: لإبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، الناشر: دار الكتب العلمية.

٦٣٣- المهذب: لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: ياسر إبرهيم محمد، الناشر: دار الوطن للنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٦٣٤- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري: للحسن بن بشر الآمدي: تحقيق: المجلد الأول والثاني السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعارف، المجلد الثالث: عبد الله المحارب، الناشر: مكتبة الخانجي، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ م.

٦٣٥- الموافقات: لإبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٦٣٦- المواهب الربانية من الآيات القرآنية: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، المحقق: عمر بن عبد الله المقبل، الناشر: دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ ه- ٢٠١١ م.

٦٣٧- موجز البلاغة: لمحمد الطاهر ابن عاشور، الناشر: المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧، تونس، الطبعة: الأولى.

٦٣٨- الموسوعة القرآنية: لإبراهيم بن إسماعيل الأبياري، الناشر: مؤسسة سجل العرب، الطبعة: ١٤٠٥ هـ.

٦٣٩- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: إشراف وتخطيط ومراجعة: مانع بن حماد الجهني، الناشر: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠ هـ.

٦٤٠- الموضوعات: لعبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: نور الدين شكري بوياحيلار، الناشر: أضواء السلف، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٦٤١- الموطأ: لمالك بن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة: بدون، ١٤٠٦ هـ.

٦٤٢- الموطأ: لمالك بن أنس، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ

- ٢٠٠٤ م.

٦٤٣- ميزان الاعتدال: لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٦٤٤- ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه: لهبة الله بن عبد الرحيم، شرف الدين ابن البارزي الحموي، تحقيق: حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

٦٤٥- الناسخ والمنسوخ رواية أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي: لمحمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، تحقيق: حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٦٤٦- الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن: للقاسم بن سلام، أبي عبيد، دراسة وتحقيق: محمد بن صالح المديفر (أصل التحقيق رسالة جامعية)، الناشر: مكتبه الرشد، شركة الرياض، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٦٤٧- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٦٤٨- الناسخ والمنسوخ: لأحمد بن محمد بن إسماعيل، أبي جعفر النَّحَّاس، تحقيق: محمد عبد السلام محمد، الناشر: مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٦٤٩- الناسخ والمنسوخ: لقتادة بن دعامة بن قتادة، تحقيق: حاتم صالح الضامن، كلية الآداب، جامعة بغداد، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٦٥٠- الناسخ والمنسوخ: لهبة الله بن سلامة بن نصر المقري، تحقيق: زهير الشاويش ، ومحمد كنعان، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ.

٦٥١- النُّبوَّات: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٦٥٢- نتائج الفكر في النَّحو: لعبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السُّهيلي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ.

٦٥٣- النحو الوافي: لعباس حسن، الناشر: دار المعارف، الطبعة: الخامسة عشرة.

٦٥٤- نسب قريش: لمصعب بن عبد الله، أبي عبد الله الزبيري، تحقيق: ليفي بروفنسال، الناشر: دار المعارف، القاهرة، الطبعة: الثالثة.

٦٥٥- النشر في القراءات العشر: لمحمد بن محمد بن يوسف، ابن الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، الناشر: المطبعة التجارية الكبرى .

٦٥٦- نصب الراية لأحاديث الهداية: لعبد الله بن يوسف الزيلعي، تحقيق: إدارة البحث العلمي، الناشر: دار الحديث.

٦٥٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لإبراهيم بن عمر البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٦٥٨- نقد الشعر: لقدامة بن جعفر، الناشر: مطبعة الجوائب، قسطنطينية، الطبعة: الأولى، ١٣٠٢هـ.

٦٥٩- النكت الشنيعة في بيان الخلاف بين الله تعالى والشيعة: لإبراهيم بن صبغة الله الحيدري، تحقيق وتعليق: عبد العزيز بن صالح المحمود الشافعي، الناشر: مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٦٦٠- النُّكت والعيون (تفسير الماوردي): لعلي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٦١- النهاية في غريب الحديث والأثر: للمبارك بن محمد الجزري، ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت، : ١٣٩٩هـ.

٦٦٢- نواسخ القرآن (ناسخ القرآن ومنسوخه): لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: محمد أشرف علي المليباري، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ.

٦٦٣- نيل الأوطار: لمحمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.

٦٦٤- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه: لمكي بن أبي طالب، الناشر: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ.

٦٦٥- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: لجلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة التوفيقية، مصر.

٦٦٦- هواتف الجنان: لعبد الله بن محمد، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد الزغلي، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٦٦٧- الوابل الصيب من الكلم الطيب: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٩م.

٦٦٨- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لعلي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داودي، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٦٦٩- الوسيط في تفسير القرآن المجيد: لعلي بن أحمد الواحدي، تحقيق: مجموعة محققين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٦٧٠- الوهم والإيهام: لعلي بن محمد بن القطان، تحقيق: الحسين آيت سعيد، الناشر: دار طيبة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٦٧١- ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن: لمحمد بن عبد الواحد، المعروف بغلام ثعلب، حققه وقدم له محمد بن يعقوب التركستاني، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

تم الصف والإخراج في مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠